الى صاحبة الفضل والعطاء
في نشر الكثير من دواوين الإسلام التراثية
الفاضلة أمل الناصر وفقها الله

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الأول

تفسير الاستعاذة والبسملة وسورة الفاتحة

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٣١٩ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

نبذة عن المؤلف

- ولد المؤلف- حفظه الله- في محافظة الشماسية بالقصيم، ونشأ يتيمًا؛ حيث توفي والده إبراهيم بن عبد الله اللاحم ﷺ وهو صغير، فتولت تربيته والدته هيلة بنت عبد الرحمن اليحيى ﷺ.
- درس في المدرسة السعودية في الشماسية، وتخرج فيها سنة ١٣٨٤-١٣٨٥هـ.
- والتحق بالمعهد العلمي ببريدة، وتخرج فيه سنة ١٣٨٩-١٣٩٠هـ.
- ثم التحق بكلية الشريعة بالرياض وتخرج فيها سنة ١٣٩٣-١٣٩٤هـ.
- وحصل من كلية أصول الدين بالرياض على درجة الماجستير في القرآن وعلومه سنة ١٤٠١هـ، وعلى درجة الدكتوراه سنة ١٤٠٧هـ.
- وكان من الأوائل في سني دراسته كلها.
- بعد تخرجه في الجامعة عمل مدرسًا في التعليم العام في محافظة الشماسية، ثم بعد أن حصل على الماجستير انتقل إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وعمل فيها محاضرًا في قسم القرآن الكريم وعلومه في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم.
- ثم بعد أن حصل على الدكتوراه عين أستاذًا مساعدًا، ثم رقي أستاذًا مشاركًا، ثم أستاذًا.

تولى وكالة قسم القرآن الكريم وعلومه بالكلية عدة سنوات، ثم عين رئيسًا للقسم ثماني سنوات، ويعمل الآن أستاذًا متعاقدًا في القسم.

- كان له عدة دروس ومحاضرات في عدد من المساجد في محافظة الشماسية وفي بعض المراكز القريبة منها، وفي بريدة، وفي المنطقة وخارجها.
- أشرف على كثيرمن رسائل الماجستيروالدكتوراه، وناقش الكثير منها.
- حقق كتاب «الناسخ والمنسوخ» للنحاس.
- وله: «منهج ابن كثير في التفسير»، و«الأئمة والمؤذنون والعاملون في بيوت الله، بين التكليف والتشريف»، وهو كتاب صغير. وكلها منشورة.
- كما نشر له عدة كتب ورسائل في تفسير آيات الأحكام، وفي مفصل القرآن، وقد جمعها كلها في هذا التفسير.

نسأل الله تعالى أن يجزيه عن هذه الخدمة لكتاب الله تعالى خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١/ ٥/ ١٤٤١هـ

المُقَدِّمَة

المقدمـــة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنزل عليه الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا، فقام ﷺ به حتى تفطرت قدماه[١]، وأقرأه أمته وبلّغهم إياه، وعلّمهم ما فيه من المعاني والهداية والأحكام، وأوصاهم قبل وفاته ﷺ بقوله: «**إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به... ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي...**» الحديث[٢].

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي نبيًا عن أمته، فقد بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين، فعليه من الله أزكى الصلاة، وأتم التسليم.

ورضي الله عن صحابته الكرام، الذين كانوا إذا تعلموا عشر آيات من القرآن لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فتعلّموا القرآن والعلم والعمل جميعًا[٣]، تعلّموه، وعملوا بما فيه، وعلّموه من بعدهم، ونقلوه بحروفه ومعانيه وأحكامه إلى أقطار الدنيا كلها، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

ورحم الله من جاء بعدهم، من سلف هذه الأمة من التابعين وتابعيهم، ومن

---

(١) أخرج مسلم في «صفات المنافقين وأحكامهم» (٢٨٢٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه. قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا عائشة: أفلا أكون عبدًا شكورًا**».
وأخرج البخاري معلقًا- في «التهجد» قول عائشة فقط بلفظ: «كان يقوم حتى تفطر قدماه».
وأخرجا نحوه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عند البخاري حديث (١١٣٠)، وعند مسلم حديث (٢٨١٩).

(٢) أخرجه مسلم في «فضائل الصحابة»- فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٨).

(٣) أخرج هذا الطبري في «جامع البيان» (١/ ٨٠) من حديث ابن مسعود، وأبي عبدالرحمن السلمي بإسنادين صحيحين، الأثرين (٨١، ٨٢/ تحقيق شاكر).

تبعهم، الذين قاموا بخدمة هذا الكتاب، بما دونوا من مؤلفات فيها بيان معانيه وأحكامه، وحلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وأسباب نزوله، ومكيِّهِ ومدنيِّهِ، وسائر علومه فرحمهم الله، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

وعمّ بالرحمة كل من رفع بهذا الكتاب رأسًا، أو قدم له خدمة، مبتغيًا بذلك وجه الله والدار الآخرة، ونضمنا- بفضله- في سلكهم إنه جواد كريم- أما بعد:

فقد لمست من خلال تدريسي للطلاب في الجامعة مدى الحاجة الملحة إلى أن يقدم لهم، بل للأمة كلها تفسير كتاب الله- عز وجل- بغاية من التحقيق والتهذيب، والاختيار للصحيح، أو الراجح والأظهر من الأقوال، وما تحتمله الآيات، مع استخراج ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام، والحكم والمواعظ، والدروس التربوية؛ لكي يؤدي تفسير كتاب الله وتدريسه وتعليمه ثماره المرجوّة؛ صلاحًا في أعمال الأمة، وسموًا في آدابها وأخلاقها وسلوكها، أسوة بخير البشرية ﷺ الذي كان خلقه القرآن؛ لتنشأ أجيال الأمة الإسلامية تحمل القرآن الكريم لفظًا ومعنى، وأحكامًا وآدابًا، تطبيقًا وسلوكًا وأخلاقًا، وهذا ما قصدت التنبيه عليه، والتوجيه إليه في هذا التفسير، قدر جهدي وطاقتي، متمثلًا قول شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨].

وقد سلكت في هذا التفسير مسلك البسط والإيضاح، وتسهيل العبارة؛ لأن هذا المسلك هو الأمثل لتربية المسلمين بالقرآن الكريم وأحكامه وآدابه وأخلاقه، والذي هو الغاية من إنزال القرآن الكريم، وهو حقيقة تدبره وثمرته.

وحرصت كل الحرص على أن أختار من الأقوال أصحها وأرجحها وأعمها، وما تحتمله دلالة الآية وسياقها، معتمدًا في ذلك على مصادر التفسير المعتمدة، من تفسير القرآن بالقرآن والسنة، وأسباب النزول وأقوال السلف من الصحابة والتابعين، ولغة العرب، وعلى كلام محققي أهل العلم، من المفسرين وغيرهم.

وإذا كانت الآية تحتمل معنيين أو أكثر ذكرت تلك المعاني، مع حمل الآية على المعنى الأعم الأوسع؛ لأن من قواعد التفسير أن تحمل الآيات على أوسع معانيها.

قال ابن القيم[١]: «والمعهود من ألفاظ القرآن كلها أن تكون دالة على جملة معانٍ».

وقال الشنقيطي[٢]: «تقرر عند العلماء أن الآية إن كانت تحتمل معاني كلها صحيحة تعيّن حملها على الجميع».

كما حرصت أيضًا على اطّراح الأقوال الشاذة والضعيفة التي لا يؤيدها دليل، لا من السياق، ولا من غيره، بل إن جل هذه الأقوال لا يحتملها معنى الآية ولا سياقها، وما أكثر هذه الأقوال في كتب التفسير، والتي يجب إبعادها عن تفسير كلام الله عز وجل؛ لأنها لم تُبْنَ على دليل، بل هي قول على الله بغير علم، تشغل عن فهم معاني كلام الله- عز وجل- والمراد به، وتشتت القارئ، وتحول بينه وبين الوصول إلى المعنى الصحيح للآيات.

قال ابن جرير الطبري[٣]: «وغير جائز حمل كتاب الله ووحيه- جل ذكره- على الشواذ من الكلام، وله في المفهوم الجاري بين الناس وجه صحيح موجود».

وقال ابن العربي[٤]: «وأكثر أقوال المفسرين أضغاث، وآثار ضعاف».

وقال ابن القيم[٥]: «إن للقرآن عرفًا عامًا، ومعاني معهودة، لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه المعهود من معانيه، فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه».

وقال أيضًا[٦]: «وكذلك كثير من المفسرين يأتون بالعجائب التي تنفر عنها النفوس، ويأباها القرآن أشد الإباء..».

وصدق والله، وهذا مما يُعظم المسؤولية على من يتولى تفسير كلام الله- عز وجل- سواء في تفسير يؤلفه، أو مشافهة للناس في المساجد، أو المدارس والجامعات

---

(١) في «جلاء الأفهام» ص(٣٠٨)

(٢) في «أضواء البيان» (٣/ ١٢٤).

(٣) في «جامع البيان» (٤/ ١٥٣/ تحقيق شاكر).

(٤) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٢٩).

(٥) في «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٧-٢٨).

(٦) في «الصواعق المرسلة» (٢/ ٦٩٤).

والمنتديات وغير ذلك.

وقد أسميت هذا التفسير: «**عون الرحمن في تفسير القرآن، وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام**»، فلولا عونه- عز وجل- وتوفيقه ما كتب لهذا العمل التمام.

وقد اعتمدت- بعد الله تعالى- في هذا التفسير، على أمهات كتب التفسير وعلوم القرآن، وكتب السنة وعلومها، والفقه وأصوله، وكتب اللغة، والتاريخ والسير، وغير ذلك.

وقد حرصت في بداية العمل على الإحالة في كل ما أكتب، ثم آثرت بعد ذلك الاكتفاء من ذلك بما لا بد منه، كتخريج الأحاديث، والآثار والأشعار، وتوثيق النصوص والأقوال المنسوبة، ونحو ذلك، تخفيفًا على الحواشي.

وقد اعتمدت فيما لم أُحِل إلى مصدره من القراءات، على كتاب «النشر في القراءات العشر»، كما اعتمدت في الإحالة على «تفسير الطبري» على تحقيق شاكر، وعلى تحقيق التركي.

هذا.. وقد بدأت هذه الرحلة مع كتاب الله- عز وجل- وتفسيره قبل ثلاثة عقود، وكانت باكورةَ هذا العمل ونواتَه دروسٌ في التفسير، كنت ألقيها في المساجد في محافظة الشماسية، ثم في بريدة.

فقد ضمنت هذا التفسير كل ما ألفته ونشرته من الكتب والرسائل في التفسير؛ وهي:

١. «اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب».
٢. «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء».
٣. «تفسير آيات الأحكام في سورة المائدة».
٤. «انشراح الصدور في تدبر سورة النور».
٥. «منحة الكريم الوهاب في تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب».
٦. «تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن».
٧. «تنوير العقول والأفهام في تفسير آيات الأحكام»، والذي نشر بعد ذلك باسم «التحقيق والبيان في أحكام القرآن».
٨. «حقوق اليتامى كما جاءت في سورة النساء».

٩. «أحكام المواريث كما جاءت في سورة النساء».
١٠. «وجوب أداء حقوق النساء ومعاشرتهن بالمعروف».
١١. «التوبة وشروطها».
١٢. «المحرمات من النساء».
١٣. «آية الحقوق العشرة».
١٤. «وجوب أداء الأمانات إلى أهلها».
١٥. «التحية في الإسلام».
١٦. «أنواع القتل وجزاؤها في الإسلام».
١٧. «وجوب الهجرة في سبيل الله».
١٨. «قصر الصلاة في السفر والخوف».
١٩. «ربح أيام العمر في تدبر سورة العصر».
٢٠. «تدارك بقية العمر في تدبر سورة النصر».
٢١. «الحرز الأمين في تدبر سورة الإخلاص والمعوذتين».

وأسأل الله بمنه وكرمه أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن يعم بنفعه، وأن يضاعف أجره ليَ ولوالديَّ ووالديهم، ولكل مَن استفدت منهم من علماء المسلمين في التفسير وغيره، وأن يبارك في ثوابه لأهلي وأولادي، ومشايخي، ومن أحبني في الله، ومن أحببته في الله، ولكل من قرأ فيه، واستفاد منه، فإن فضله عز وجل عظيم، وكرمه واسع، وجوده عميم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

الخميس ٣/ ٣/ ١٤٤١هـ

* * *

تَفْسِيرُ ٱلاسْتِعَاذَةِ

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨].

«أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ»

تفسير الاستعاذة، وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول: صيغ الاستعاذة الصحيحة.

المبحث الثاني: أركان الاستعاذة.

المبحث الثالث: الاستعاذة ليست بآية من القرآن.

المبحث الرابع: إعراب الاستعاذة ومعناها.

أ- إعرابها.

ب- معناها.

المبحث الخامس: أحكام الاستعاذة.

أ- مكان الاستعاذة من القراءة.

ب- حكمها عند قراءة القرآن في الصلاة أو خارجها.

ج- هل يتعوَّذ في الصلاة في كل ركعة، أو في الركعة الأولى فقط.

د- حكم الجهر بها أو الإسرار.

المبحث السادس: المواضع التي تُشرع فيها الاستعاذة.

المبحث السابع: بيان أن شيطان الجن أعظم ضررًا من شيطان الإنس، ومن النفس «المذمومة».

المبحث الثامن: السبيل للخلاص من شر الشيطان ومكايده.

المبحث الأول
صيغ الاستعاذة الصحيحة

أ- الصيغة الأولى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعلى هذا اللفظ دلَّ الكِتَاب والسُّنَّة.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨][(١)].

وعن سليمان بن صرد- رضي الله عنه- قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه، مغضبًا، قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ، فقال: إني لست بمجنون[(٢)].

وهذه الصيغة هي المختارة عند أكثر القرَّاء[(٣)]، منهم: أبوعمرو البصري، وعاصم بن أبي النجود الكوفي، وعبدالله بن كثير المكي[(٤)]. وبها كان يتعوَّذ جمهور السلف من الصحابة والتابعين، منهم: عمر بن الخطاب وابنه عبدالله بن عمر[(٥)] رضي الله عنهما.

---

(١) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ٨-٩).

(٢) أخرجه البخاري- في الأدب- باب الحذر من الغضب (٦١١٥)، ومسلم- في البر- باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦١٠).

(٣) انظر: «النشر» (١/ ٢٤٣).

(٤) انظر: «المبسوط» (١/ ١٣)، «غرائب القرآن» للنيسابوري (١/ ١٥)، «مجمع البيان» (١/ ١٨).

(٥) أخرجها عن عمر: ابن أبي شيبة- في الصلاة- في التعوُّذ كيف هو قبل القراءة أو بعدها (١/ ٢٣٧)، والبيهقي في الصلاة، باب التعوُّذ بعد الافتتاح (٢/ ٣٦)، وأخرجها عن عبدالله بن عمر ابن أبي شيبة في الموضع نفسه.

وهي اختيار: أبي حنيفة[١]، والشافعي[٢]، وأحمد بن حنبل[٣]- رحمهم الله.

قال مكي بن أبي طالب القيسي في كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع[٤]»: «الذي عليه العمل وهو الاختيار أن يقول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. للآية».

وقال ابن عطية في «تفسيره»[٥]: «وأما لفظ الاستعاذة، فالذي عليه جمهور الناس هو لفظ كتاب الله تعالى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)».

ب- الصيغة الثانية: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

يدل على هذا اللفظ ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- في دعاء الرسول ﷺ إذا قام إلى الصلاة في الليل، وفيه: ثم يقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**- الحديث وسيأتي بتمامه».

كما استدلَّ له بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وبقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت:٣٦].

وهي اختيار طائفة من القرَّاء[٦] منهم حمزة[٧]، وسهل بن أبي حاتم[٨]، وهي مروية عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه[٩]- وبها يقول الحسن

---

(١) انظر: «فتح القدير» لابن الهمام (١/ ٢٩١).

(٢) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٦٢)، «المهذب» للشيرازي (١/ ٧٩)، «التبيان» للنووي ص(٦٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢).

(٣) انظر: «المغني» (٢/ ١٤٦)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٣).

(٤) (١/ ٨).

(٥) (١/ ٤٨).

(٦) انظر: «التبيان» للنووي، ص(٦٤).

(٧) انظر: «الإقناع في القراءات» (١/ ١٥٠-١٥١)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٣).

(٨) انظر: «غرائب القرآن» (١/ ١٥)، «النشر» (١/ ٢٤٩).

(٩) أخرجها عن عمر ابن أبي شيبة- في الصلاة- التعوُّذ كيف هو (١/ ٢٣٧).

البصري[١] ومحمد بن سيرين[٢]، والحسن بن صالح[٣]، والشافعي[٤]، وأحمد بن حنبل في رواية النيسابوري[٥].

قال أبوعمرو الداني في جامعه: «إن على استعماله عامة أهل الأداء من أهل الحرمين، والعراقين، والشام»[٦].

ج- الصيغة الثالثة: أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه.

يدل على هذا اللفظ ما رواه أبو سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كَبَّر، ثم يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»، ثم يقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه**»[٧].

وقد خصَّها بعض أهل العلم بقيام الليل لحديث أبي سعيد.

د- الصيغة الرابعة: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه.

يدل على هذا ما رواه عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجها عن الحسن عبدالرزاق- في الصلاة- متى يستعيذ (٢٥٩١)، وابن حزم في «المحلى» (٣/ ٢٤٩).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٣).

(٣) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٥).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٦٢)، «المجموع» (٣/ ٣٢٣).

(٥) انظر: «مسائل الإمام أحمد» للنيسابوري، ص(٥٠) فقرة (٢٣٨)، «المغني» (٢/ ١٤٦)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٣).

(٦) انظر: «النشر» (١/ ٢٤٩).

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠)، وأبوداود- في الصلاة- باب مَن رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٥)، والترمذي في- أبواب الصلاة- باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٢) قال الترمذي: «وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب» والنسائي في الصلاة- باب نوع آخر من الذكر بعد افتتاح الصلاة (٢/ ١٣٢)، وابن ماجه في الإقامة (٨٠٤). وصححه أحمد شاكر في تحقيق سنن الترمذي (٢/ ١١)، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٧٠١)، وحسَّنه الأرناؤوط في تحقيقه لزاد المعاد (١/ ٢٠٥)، وقد أخرج هذا الحديث من حديث عائشة أبوداود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه في الإقامة (٨٠٦)، والدارقطني (١/ ١١٢)، والحاكم (١/ ٢٣٥)، ورجاله ثقات فالحديث صحيح.

«اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه»[١].

وهي مروية عن بعض أهل العلم، منهم الحسن البصري[٢]، وإسحاق بن راهويه[٣].

هـ- الصيغة الخامسة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[٤].

جمعا بين أدلة الصيغة الأولى، وأدلة الصيغة الثانية والثالثة.

وبها قرأ نافع وابن عامر والكسائي[٥]، وهي مروية عن حمزة وعن أبي عمرو وقد رُويت عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ومحمد بن سيرين[٦].

وهي اختيار سفيان الثوري[٧] والأوزاعي[٨]، ومسلم بن يسار[٩]، وأحمد في رواية، اختارها القاضي أبويعلى، وابن عقيل[١٠].

و- الصيغة السادسة: أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم.

لما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه كان إذا

---

(١) أخرجه ابن ماجه- في إقامة الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٨)، وابن خزيمة- في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة قبل القراءة (٤٧٢). وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٥٨).
وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف- في الصلاة- التعوُّذ كيف هو (١/ ٢٣٨).

(٢) أخرجها عن الحسن عبدالرزاق في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة (٢٥٨٠).

(٣) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٤).
وقد أخرج عبدالرزاق في الموضع السابق (٢٥٥٧)، وابن حزم في «المحلى» (٣/ ٢٤٩) عن ابن عمر أنه كان يقول: «اللهم أعوذ بك من الشيطان الرجيم».

(٤) انظر: «غرائب القرآن» (١/ ١٥)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٤).

(٥) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٠)، «المبسوط» (١/ ١٣)، «مجمع البيان» (١/ ١٨)، «النشر» (١/ ١٠).

(٦) انظر: «النشر» (١/ ١٠).

(٧) انظر: «التفسير الكبير» (١/ ٦١)، «المجموع» (٣/ ٣٢٥)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢)، «النشر» (١/ ٢٥٠).

(٨) انظر: «التفسير الكبير» (١/ ٦١)، «لباب التأويل» (١/ ١٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢).

(٩) أخرجها عنه ابن أبي شيبة في المصنف في الصلاة- في التعوذ كيف هو (١/ ٢٣٧).

(١٠) انظر: «المغني» (٢/ ١٤٦)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٢، ١٥٤).

دخل المسجد قال: «**أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**»[١].

وهناك صيغ أخرى رُويت عن بعض القرَّاء، وبعض أهل العلم.

منهـا: أعوذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم[٢].

ومنها: أعوذ بالله العظيم، السميع العليم، من الشيطان الرجيم[٣].

ومنها: أعوذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[٤].

ومنها: أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[٥].

ومنها: أستعيذ بالله، أو نستعيذ بالله، من الشيطان الرجيم[٦].

ومنها: أعوذ بالله القوي، من الشيطان الغوي[٧].

ومنها: أعوذ بالله المجيد، من الشيطان المريد[٨].

ومنها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأستفتح الله وهو خير الفاتحين[٩].

ومنها: أعوذ بالله السميع الرحمن الرحيم، من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك رب أن يحضرون، أو يدخلوا بيتي الذي يؤويني[١٠].

ومنها: رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، أعوذ

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٤٤١) وصححه الألباني.

(٢) ذكرها ابن الباذش في «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٤٩)، وقال: «هي رواية أهل مصر عن ورش فيما ذكر الأهوازي». وانظر: «النشر» (١/ ٢٤٩).

(٣) رواها هبيرة عن حفص فيما ذكر ابن الباذش في «الإقناع» (١/ ١٥٠)، وانظر: «المبسوط» (١/ ١٣).

(٤) انظر: «النشر» (١/ ٢٥٠).

(٥) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٥).

(٦) نسبت لحمزة الزيات ومحمد بن سيرين. انظر: «المبسوط» (١/ ١٣)، «مجمع البيان» (١/ ١٨)، «غرائب القرآن» للنيسابوري (١/ ١٥)، وقد نفى ابن الجزري صحتها عن حمزة. انظر: «النشر» (١/ ٢٤٦).

(٧) قال ا بن الباذش في «الإقناع» (١/ ١٥١): «اختارها بعضهم لجميع القراء».

(٨) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٩).

(٩) انظر: «النشر» (١/ ٢٥١).

(١٠) أخرجها عبدالرزاق عن عطاء- في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة (٢٥٧٤).

بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[١].

ومنها: أعوذ بالله السميع العليم من همزات الشياطين، وأعوذ بالله أن يحضرون[٢].

وهذه الصيغ وإن رُويت عن بعض السلف، فإن ما صح عن المصطفى ﷺ هو الأولى بالاتباع.

* * *

(١) أخرجها عبدالرزاق- في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة (٢٥٧٨) عن طاوس.

(٢) أخرجها ابن أبي شيبة في الصلاة- في التعوذ كيف هو (١/ ٢٣٨) عن محمد بن سيرين.

المبحث الثاني
أركـــان الاســـتعاذة

تتكون الاستعاذة- كما يقول بعض أهل العلم[١]- من خمسة أركان هي:

أ- صيغة الاستعاذة ولفظها، وقد تقدم.

ب- المستعيذ، وهو المؤمن الذي رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، ونطق بالاستعاذة، وواطأ عنده القلب اللسان، فأيقن أن هذه الاستعاذة تحميه، بإذن الله من الشيطان الرجيم.

ج- المستعاذ به وهو الله- جل وعلا- الذي مَن استعاذ به أعاذه، وأجاره وعصمه، وحفظه وحماه، كما أعاذ مريم ابنة عمران وذريتها وعصمها بسبب دعاء والدتها امرأة عمران وإعاذتها إياها بالله من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٦، ٣٧].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا إلا ابن مريم وأمه**»[٢].

فالاستعاذة إنما تكون بالله- جل وعلا- وأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وكلماته التامة، التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر.

وأكثر ما ورد في القرآن الاستعاذة باسمه تعالى «الله».

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت:٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١/ ٧١)، «غرائب القرآن» (١/ ١٦).

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل- باب فضائل عيسى- عليه السلام (٢٣٦٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٣).

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ [غافر:٥٦].

وقال موسى عليه السلام فيما ذكر الله عنه: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة:٦٧]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣، ٧٩]. أي: عياذًا بالله.

كما وردت الاستعاذة كثيرًا باسمه تعالى: «الرب».

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧]، وقال عليه السلام: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾ [الدخان:٢٠].

أو بمضمر يعود على الرب، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

وقال نوح- عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود:٤٧].

وقالت امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾ [آل عمران:٣٦].

ووردت الاستعاذة باسمه «الرحمن» مرة واحدة. قال الله تعالى عن مريم- عليها السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم:١٨].

وفي الحديث: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»(١).

«**أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق وذرأ وبرأ**» الحديث(٢).

ولا تصح الاستعاذة بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله لا تدفع شرًّا، ولا تجلب خيرًا، بل مما يزيد المستعيذ خوفًا ورهقًا، كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦](٣).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤١٩)، من حديث عبد الرحمن بن حبش رضي الله عنه.

(٣) انظر: «التفسير القيم» ص(٥٤٢).

د- **الركن الرابع من أركان الاستعاذة:** المستعاذ منه، وهو الشيطان الرجيم، أعاذنا الله منه.

هـ- **الركن الخامس من أركانها:** المطلب الذي من أجله يستعيذ المسلم، وهو السلامة في دينه ودنياه، من الشيطان ووسوسته ومكايده وجميع شروره.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس:١-٤].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

وقال ﷺ: «**اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم**»(١).

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان»(٢) بعد أن ذكر هذا الحديث: «فتضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه، وغايته، فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس، أو من الشيطان، وغايته: إما أن يعود على العامل أو على أخيه المسلم...».

وقال الطبري(٣) في كلامه على معنى الاستعاذة: «أستجير بالله- دون غيره من سائر خلقه- من الشيطان، أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق يلزمني لربي».

وقال ابن كثير(٤): «أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم، أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه».

* * *

---

(١) سيأتي تخريجه بتمامه.

(٢) (١/ ١٤٦).

(٣) في «جامع البيان» (١/ ١١١) تحقيق شاكر.

(٤) في «تفسيره» (١/ ٣٣).

المبحث الثالث
الاستعاذة ليست بآية من القرآن الكريم

أمر الله بالاستعاذة عند القراءة بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

فهذه الآية هي الأصل في مشروعية الاستعاذة عند القراءة، وهي مشتملة على جل ألفاظ صيغة الاستعاذة «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» التي هي أصح الصيغ.

وقد أجمع العلماء على أن الاستعاذة بهذا اللفظ ليست آية حكى ذلك ابن عطية[١] وغيره[٢].

وقال ابن تيمية[٣]: «لكن الاستعاذة ليست بقرآن، ولم تكتب في المصاحف، وإنما فيه الأمر بالاستعاذة، وهذا قرآن».

* * *

(١) في «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٦)، «البحر المحيط» (١/ ١٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٥١).

المبحث الرابع
إعراب الاستعاذة، ومعناها

أ- إعرابهـا:

لعل من المناسب إعراب الآية التي هي الأصل في مشروعية الاستعاذة عند القراءة. وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨]؛ لأنها مشتملة- كما أشرت سابقًا- على جل ألفاظ صيغة الاستعاذة المختارة وهي: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ﴿ فَإِذَا﴾ الفاء للاستئناف، و«إذا»: ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط، في محل نصب متعلق بمضمون الجواب.

﴿قَرَأْتَ﴾ قرأ فعل ماضٍ مبني على السكون لاتصاله بالضمير، والتاء ضمير للمخاطب مبني على الفتح في محل رفع فاعل. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: مفعول به منصوب.

﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط. استعذ: فعل أمر مبني على السكون الظاهر والفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره: أنت.

﴿بِٱللَّهِ﴾ الباء حرف جر، ولفظ الجلالة اسم مجرور بالباء وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، والجار والمجرور متعلقان بـ(استعذ).

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ﴿مِنَ﴾: حرف جر، و﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ اسم مجرور بمن، وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، والجار والمجرور متعلقان بـ(استعذ).

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ صفة للشيطان مجرورة مثله، وعلامة جرها الكسرة الظاهرة على آخرها.

ب- معناهـا:

«أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ».

«أَعُوذُ» فعل مضارع، يقال: عذت أعوذ، كما يقال: عاذ يعوذ عوذًا وعياذًا، ومعاذًا.

قال يوسف- عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣، ٧٩] أي: عياذًا بالله.

«أَعُوذُ بِٱللَّهِ» بمعنى أعتصم بالله[١]، كما جاء في حديث أبي هريرة في الدعاء عند دخول المسجد: «**اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم**»[٢].

قال الحصين بن الحمام يخاطب قبيلته[٣]:

وعوذي بأفناء العشيرة إنما ... يعوذ الذليل بالعزيز ليعصما

وقال الراجز[٤]:

قالت وفيها حيدة وذعر ... عوذي بربي منكم وحجر

أي: اعتصامي بربي.

وبمعنى: ألتجئ إلى الله. قال ابن فارس[٥]: «العين والواو والذال أصل صحيح، يدل على معنى واحد، وهو الالتجاء إلى الشيء».

وبمعنى: أستجير بالله[٦]، وأتحرَّز به[٧]، واستعين به[٨].

وأمتنع به من المكروه[٩]، وأتعلق به[١٠]، وأتحيز إليه[١١]، وألوذ به[١٢].

ويقال: إن العياذة لدفع الشر، واللياذة لطلب الخير.

---

(١) انظر: مادة «عوذ» في «النهاية»، «لسان العرب»، وانظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٧).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) انظر: «المفضليات» ص(٦٨)، المفضلية(١٢).

(٤) انظر: «إصلاح المنطق» ص(٨١)، «مجالس ثعلب» ص(١٨١)، «المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة» ص(٨٢)، «اللسان» مادة «عوذ».

(٥) في «مقاييس اللغة»: مادة «عوذ».

(٦) انظر: «جامع البيان» (١/ ١١١).

(٧) انظر: «التفسير القيم» ص(٥٣٨).

(٨) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨).

(٩) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ٧).

(١٠) انظر: «المفردات في غريب القرآن»، مادة «عوذ».

(١١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨).

(١٢) انظر: مادة «عوذ» في «النهاية»، «لسان العرب».

قال ابن كثير[١]: «والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب الخير كما قال المتنبي[٢]:

يـا مـن ألـوذ بـه فـيما أؤملـه ... ومـن أعـوذ بـه ممّـا أحـاذره
لا يجـبر النـاس عظـمًا أنـت كـاسره ... ولا يهيضـون عظـمًا أنـت جـابره

لكن بعض أهل اللغة- كما تقدم- على أنهما بمعنى واحد. قال ابن منظور[٣]: «الملاذ مثل المعاذ».

«بِٱللَّهِ» الباء للاستعانة[٤]، وقيل: للإلصاق[٥].

الله: علم على ذات الرب- جل وعلا- وأصل أسمائه سبحانه وتعالى، ومعناه: المألوه المعبود محبة وتعظيمًا. وسيأتي تفصيل الكلام فيه في البسملة- إن شاء الله.

وجملة أعوذ بالله خبرية تتضمن طلب الإعاذة[٦].

«مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ» من لابتداء الغاية.

«ٱلشَّيْطَٰنِ»: مأخوذ عند جمهور أهل اللغة ومحققيهم من شطن بمعنى: بَعُد، يقال: بئر شطون، أي: بعيدة القعر والمدى[٧].

قال النابغة الذبياني[٨]:

نـأت بسـعاد عنـك نـوى شـطون ... فبانـت والفـؤاد بهـا رهـين

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٣٣).

(٢) انظر: «ديوانه» (١/ ١٦٠-١٦١).

(٣) في «اللسان» مادة «عوذ».

(٤) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨).

(٥) قال ابن كثير (١/ ٣٣): «الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر». وانظر: «غرائب القرآن» للنيسابوري (١/ ١٧).

(٦) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨)، «التفسير الكبير» (١/ ٩٦).

(٧) انظر: «الكتاب» لسيبويه ص(٢٦٠، ٢٨٦، ٣٢١)، «تفسير الطبري» (١/ ١١٢). وانظر مادة «شطن» في «تهذيب اللغة».

(٨) انظر: «ديوانه» ص(٣٦٢).

والشَطَن الحبل، أو الحبل الطويل[١]. قال عنترة[٢]:

يـــدعون عنـــتر والرمـــاح كأنهـــا أشـــطانُ بئـــرٍ في لَبَـــان الأدهـــم

فأشطان جمع «شَطَن» وهو الحبل الطويل.

فالنون فيه أصلية. قال ابن فارس[٣]: «الشين والطاء والنون أصل مطرد ويدل على البعد».

والشيطان على وزن «فيعال»، للدلالة على أنه بلغ الغاية في البعد[٤].

وقيل: إنه مأخوذ من «شاط يشيط»، إذا هاج واشتد غضبًا، وهلك واحترق وبطل، وعلى هذا فالنون فيه زائدة[٥].

والصحيح القول الأول.

قال سيبويه[٦]: «العرب تقول تشيطن».

وقال الطبري[٧] بعدما ذكر القول بأنه مشتق من «شطن»: «ومما يدل على أن ذلك كذلك قول أمية بن أبي الصلت[٨]:

أيـــما شـــاطنٍ عَصـــاه عَكـــاه ثـــم يلقـــى في الســـجن والأكبـــال

قال الطبري: ولو كان فعلان من شاط يشيط لقال: أيما شائطٍ، ولكنه قال: أيما شاطن؛ لأنه من شَطَن يَشْطُن فهو شاطن».

و«ال» في «الشيطان» للجنس[٩]، فهو كل متمرد، عات، خارج عن طاعة الله تعالى، من الجن، والإنس، والدواب، وكل شيء؛ قال تعالى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾

---

(١) انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «شطن».

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٢١٦)، «شرح القصائد» لابن الأنباري ص(٣٥٩)- معلقة عنترة البيت الثامن والستون.

(٣) في «مقاييس اللغة» مادة «شطن».

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ١١٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٤٩).

(٥) انظر: «مقاييس اللغة»، «المفردات في غريب القرآن» مادة «شطن».

(٦) في «الكتاب» (٤/ ٢٨٦، ٣٢١).

(٧) في «جامع البيان» (١/ ١١٢).

(٨) انظر: «ديوانه» ص(٤٤٥). ومعنى عكاه: شده، وأوثقه، والأكبال: القيود.

(٩) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ٧)، «التفسير الكبير» (١/ ٩٥، ٢٠/ ١١٥).

[الصافات:٧].

ولهذا جمع في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون:٩٧].

وهو يكون من الإنس والجن، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن:٦]، أي: شياطين إنس يعوذون بشياطين جن.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس:١-٦] أي شياطين جن وإنس يوسوسون في صدور الناس.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٤] أي شياطين إنس بإنس.

قال جرير(١):

أيامَ يَدْعُونني الشيطانَ من غَزَلٍ ... وهن يَهْوَيْنَني إذْ كنتُ شَيْطانَا

ويكون من الحيوانات كما جاء في حديث أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قام أحدكم يصلي، فإنه يستره إذا كان بين يديه مثل آخرة الرحل، فإذا لم يكن بين يديه مثل آخرة الرحل، فإنه يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود. قلت: ما بال الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر؟! قال: يا ابن أخي، سألت رسول الله ﷺ كما سألتني، فقال: الكلب الأسود شيطان**»(٢).

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- «ركب برذونا

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(١٦٥) «لسان العرب» مادة «شطن».

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة- باب قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبوداود في الصلاة- باب ما يقطع الصلاة (٧٠٢).

وأخرجه أيضًا مسلم في الموضع السابق (٥١١) من حديث أبي هريرة بلفظ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب، ويقي ذلك مثل مؤخرة الرحل**».

ومعنى الكلب الأسود شيطان: أي أنه خبيث يتلون.

فجعل يتبختر به، فجعل يضربه، فلا يزداد إلا تبخترًا، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي»(١).

وإنما سمي المتمرد من كل شيء شيطانًا لمفارقته لبني جنسه في أخلاقه، وأفعاله، وصفاته، وطباعه، ومباعدته لهم، وبسبب فسقه، وبعده عن الحق والهدى والخير، وعن رحمة الله تعالى(٢).

«ٱلرَّجِيمِ» «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: مرجوم(٣) كسعير بمعنى: مسعور، مأخوذ من الرجم: وهو الرمي بفعل أو قول.

فمن الرجم بالفعل: الرجم والرمي بالحجارة. قال ابن فارس(٤): «الراء والجيم والميم، أصل واحد، يرجع إلى وجه واحد، وهو الرمي بالحجارة».

ومن الرجم بالقول: قوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢]، أي: قولاً بالظن. وقوله تعالى عن آزر أنه قال لإبراهيم- عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦] أي: لأرمينك بسيئ القول.

قال المرقش الأصغر(٥):

وإني وإن كلّت قَلوصي لراجمٌ ... بها وبنفسي يا فُطيْمُ المراجما

ومنه القذف بالزنى، فإنه رجم ورمي بالقول.

والشيطان مرجوم بالفعل والقول: أي فعلاً وقولاً، حسًّا ومعنى.

فهو مرجوم فعلاً وحسًّا بإخراجه من الجنة وطرده عنها، وعن الملأ الأعلى وبإهباطه من السموا ت إلى الأرض(٦).

قال الله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) أخرجه الطبري الأثر (٣٦)، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٤)، وقال: «إسناده صحيح».

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١١١)، «المحرر الوجيز» (١/ ٤٩)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٣).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة»، «لسان العرب» مادة «رجم».

(٤) في «مقاييس اللغة» مادة «رجم».

(٥) انظر: «المفضليات» ص(٢٤٦)، المفضلية (٥٦).

(٦) انظر: «جامع البيان» (١/ ١١٢)، ومادة «رجم» في «المفردات في غريب القرآن»، «لسان العرب».

[الأعراف:١٣]، وقال تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الأعراف:١٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر:٣٤، ٣٥] ، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [ص:٧٧، ٧٨].

وهو مرجوم فعلاً وحسًّا بالشهب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾ [الملك:٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾ [الصافات:٦-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ [الحجر:١٦-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾ [الجن:٨، ٩].

وهو مرجوم قولاً ومعنى؛ لأن الله بعد أن أبعده ورجمه بالفعل بإخراجه من الجنة، ومن بين الملأ الأعلى، وطرده من جواره، وسلط عليه الرمي بالشهب حكم عليه أيضًا باللعنة فهو ملعون بلعنة الله إلى يوم القيامة مقضي عليه بالخيبة والخسران، ومطرود عن رحمة الله، وعن كل خير(١).

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [ص:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ﴾ [النساء:١١٧، ١١٨].

وقيل: «ٱلرَّجِيمِ» «فعيل» بمعنى «فاعل»؛ لأنه يوسوس للناس، ويُزين لهم المعاصي، وطرق الشر، ويحثهم عليها، ويُبعدهم عن الخير، ويكيد لهم في ذلك كله أنواع

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١١٢)، «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ١٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٤).

المكايد[١].

قال ابن كثير[٢]: «والأول أشهر وأصح».

هذا هو معنى أصح صيغ الاستعاذة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وقد جاء في الصيغ الأخرى بعض الزيادات.

ففي الصيغة الثانية زيادة: «السميع العليم».

وهما اسمان من أسماء الله تعالى فـ«السميع» مشتق من صفة السمع وهو على وزن «فعيل» صفة مشبهة وصيغة مبالغة، يدل على أنه- جل وعلا- ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١].

قالت عائشة- رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت، تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول. فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾»[٣].

و«العليم»: اسم من أسماء الله مشتق من العلم. والعلم: إدراك المعلوم على ما هو عليه[٤] إدراكًا جازمًا. و«العليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة وصيغة مبالغة يدل على أنه تعالى ذو العلم الواسع التام المحيط بالأشياء كلها جملةً وتفصيلاً، في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعده، وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- حينما سئل عن القرون الأولى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢]. فلا يعتري علمه- جل وعلا- جهل سابق، ولا نسيان لاحق، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

وجاء في الصيغة الثالثة والرابعة زيادة: «من همزه ونفخه ونفثه».

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨)، «لباب التأويل في معاني التنزيل» (١/ ١٠).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٣٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٨٨). وصححه الألباني حديث (١٥٥). وأخرجه أحمد (٦/ ٤٦).

(٤) انظر: «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٢١٣).

فهمز الشيطان: المُوتة- بضم الميم، وهي الخنق: نوع من الجنون والصرع(١).

وقد أنكر كثير من العقلانيين صرع الجن للإنس، وملابسة الجني للإنسي، ودخوله في بدنه، وقد دلَّ الكتاب والسُّنَّة على ذلك. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**» متفق عليه.

وقد ثبت عن الإمام أحمد- رحمه الله- أنه كان يقرأ على المصروع، فيتكلم الجني، ويعاهد، ويخرج، فيقوم المصروع ما به أذى. وقد حصل ذلك أيضًا لغيره من العلماء، كشيخ الإسلام ابن تيمية، ووقائع ذلك وشواهده أكثر من أن تحصر(٢).

ولقد وصل الأمر ببعض المسلمين من الكُتَّاب وغيرهم، إلى إنكار وجودهم- شأن بعض أهل الكتاب، مع أن الله ذكرهم في كتابه في مواضع كثيرة، وأفرد لهم سورة كاملة تسمى سورة «الجن» وجاء ذكرهم في السُّنَّة في أحاديث كثيرة، منها ما جاء في الاستعاذة وغير ذلك، كحديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن بالمدينة نفرًا من الجن قد أسلموا، فمن رأى شيئًا من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثًا، فإن بدا له بعد فليقتله، فإنه شيطان**»(٣).

فالواجب الإيمان بوجودهم، وبكل ما ذكر الله عنهم في كتابه وفي سُنَّة رسوله ﷺ، مثل كونهم يتناسلون، قال الله تعالى عن الشيطان: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف:٥٠]. ومثل كونهم يَرون الإنس، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]. وأن الرسل من الإنس أرسلوا إليهم وإلى الإنس، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ الآية [الأنعام:١٣٠].

وأن محمدًا ﷺ رسول لهم وللإنس، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨)، «النهاية» مادة: «همز»، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩-٦٥)، «زاد المعاد» (٤/ ٦٦)، «رسالة إيضاح الحق في دخول الجني في الإنسي» لابن باز، «الصحيح البرهان فيما يطرد الشيطان» ص(٥١).

(٣) أخرجه مسلم في السلام (٢٢٣٦)- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن:١-٢].

(ونفخه) الكبر[١].

(ونفثه): الشعر؛ لأنه ينفث من الفم[٢]. وقيل: السحر[٣] ولا مانع من حمله عليهما معًا فالشعر والسحر كلاهما من نفث الشيطان لكن المراد بالشعر هنا الشعر المذموم في الأغراض السيئة كنصرة الباطل وأهله، والهجاء المقذع، والغزل الماجن، والمدح المفرط، ونحو ذلك.

أما الشعر المحمود، في الأغراض الشريفة السامية، كالانتصار للحق، والحث على الفضائل، ومكارم الأخلاق، والتحذير من الرذائل ومساوئ الأخلاق فهذا ليس من نفث الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧] أي انتصروا للحق وأهله.

ولقد كان الشعر في صدر الإسلام من أقوى أسلحة الدعوة وأعظمها.

فعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**اهجوا قريشًا، فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل**»، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: «اهجهم»، فهجاهم، فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبه، ثم أَدلعَ لسانهَ، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق، لأفرينهم بلساني، فري الأديم. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا، حتى يلخص لك نسبي**» فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأَسُلنَّك منهم، كما تسل الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨)، «النهاية» مادة «نفخ».

(٢) انظر: «النهاية» مادة «نفث».

(٣) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨).

ﷺ يقول لحسان: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله**» وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هجاهم حسان فشفى واشتفى**».

قال حسان:

هجــوت محمــدًا فأجبــت عنــه ... وعنـــــد الله في ذاك الجـــــزاء

هجــوت محمــدًا بــرًّا تقيًّــا... إلخ»(١).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «**اهجهم، أو هاجهم، وجبريل معك**» (٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- «أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنتُ أنشد وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك الله! أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أجب عني، اللهم أيده بروح القدس**» قال: اللهم نعم»(٣).

وقد كان ﷺ يردد مع أصحابه- رضوان الله عليهم- يوم الخندق:

والله لــولا أنــت مــا اهتــدينا ... ولا تصدقنـــا ولا صـــلينا

فـــأنزلن ســـكينة علينـــا ... وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا

إن الألى قـــد بغـــوا علينـــا ... وإن أرادوا فتنـــة أبينـــا(٤)

وكان يقول- أيضًا- يوم الخندق:

«**اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة**».

---

(١) أخرجه مسلم- في فضائل الصحابة- فضائل حسان بن ثابت- رضي الله عنه (٢٤٩٠)، والبخاري في المغازي مختصرًا جدًا وليس فيه ذكر الشعر (٤١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- باب ذكر الملائكة (٣٢١٣)، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل حسان بن ثابت (٢٤٨٦).

(٣) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- باب ذكر الملائكة (٣٢١٢)، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل حسان بن ثابت (٢٤٨٥).

(٤) أخرجه من حديث البراء- البخاري في الجهاد- باب حفر الخندق (٢٨٣٧)، ومسلم- في الجهاد والسير- باب غزوة الأحزاب (١٨٠٣)، وهذه الأبيات لعامر ابن الأكوع. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٢٨)، «شرح أبيات مغني اللبيب» (٦/ ٣٧-٣٩).

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا[١]

وكان عليه الصلاة والسلام يقول يوم حنين:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبدالمطلب[٢]

ومما يدل على أهمية الشعر في صدر الإسلام، وأنه كان من أقوى أسلحة الدعوة، ما جاء في قصة الأعشى، عندما جاء ليسلم، حاملاً قصيدته المأثورة المشهورة:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا

والتي جاء فيها:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي وتلقي من فواضله ندا
نبيًا يرى ما لا يرون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبي الإله حيث أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا

... إلخ.

فقد قابله المشركون، فعرضوا عليه أن يرجع تلك السنة وأعطوه مائة ناقة، وذلك اتقاء لسانه، وخوفًا أن يكون في جانب الدعوة إلى الله، فقبل ذلك، على أن يعود من العام القابل فيسلم، وفي رجوعه، سقط من دابته على رقبته، فمات[٣].

* * *

(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- البخاري- في الجهاد- باب الصبر عند القتال (٢٨٣٤)، ومسلم- في الجهاد والسير (١٨٠٥).

(٢) أخرجه من حديث البراء- البخاري- باب من قاد دابة غيره في الحرب (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير- باب غزوة حنين (١٧٧٦).

(٣) انظر: «ديوان الأعشى» ص(١٨٥-١٨٧)، «السيرة النبوية» (٢/ ٢٦-٢٨)، «الشعر والشعراء» ص(٢٧٥).

المبحث الخامس
أحكــام الاســتعاذة

أ- مكان الاستعاذة من القراءة:

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

ظاهر الآية أن الاستعاذة محلها بعد القراءة.

وقد تمسك بهذا الظاهر بعض القراء، فنقل ذلك عن حمزة(١)، وأبي حاتم السجستاني(٢)، ورُويَ ذلك- أيضًا- عن أبي هريرة(٣)- رضي الله عنه، ومحمد بن سيرين(٤)، وإبراهيم النخعي(٥)، وداود الظاهري(٦)، وحكاه القرطبي(٧) وغيره عن مالك واستغرب ذلك ابن العربي(٨).

واحتج بعضهم لهذا القول بأن الاستعاذة بعد القراءة تدفع الإعجاب بعد فراغ القراءة(٩)، وتكون سببًا للاستفادة من التلاوة، وحفظها وثباتها(١٠).

وجمهور أهل العلم والتحقيق على أن الاستعاذة مشروعة قبل القراءة، وأن معنى

---

(١) انظر: «غرائب القرآن» للنيسابوري (١/ ١٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٩).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (٢٠/ ١١٤)، «المجموع» (٣/ ٣٢٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٨).

(٤) أخرج عبدالرزاق- في الصلاة- باب متى يستعيذ (٢٥٩٠)، وابن أبي شيبة- في الصلوات- في التعوذ كيف هو (١/ ٢٣٨) عن ابن سيرين أنه كان يتعوذ قبل أن يقرأ أم القرآن وبعد قراءتها.

(٥) أخرجه عن النخعي عبدالرزاق- في الصلاة- متى يستعيذ (٢٥٩٣).

(٦) انظر: «التفسير الكبير» (١/ ٥٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٨).

(٧) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٨).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٧٥-١١٧٦).

(٩) انظر: «التفسير الكبير» (١/ ٥٩)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٩).

(١٠) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٨).

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾، أي: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [الأنعام:٦]. أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ﴾ [الأنعام:١٥٢] أي: إذا أردتم القول، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب:٥٣] أي: إذا أردتم سؤالهن، فاسألوهن من وراء حجاب، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة:١٢] أي إذا أردتم مناجاة الرسول ﷺ(١).

قال القرطبي(٢): «فأوقع الماضي، مكان المستقبل، كقول الشاعر:

وإنـي لآتيكـم لذكـر الـذي مضـى ... من الود واسـتئناف مـا كـان في غـد(٣)

أي ما يكون في غد».

وعلى هذا المعنى دلت السنة، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبَّر، ثم يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، ثم يقول: الله أكبر كبيرًا، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه**»(٤).

وهذا القول هو الصحيح.

قال الجصاص(٥): «وقول من قال: إن الاستعاذة بعد الفراغ من القراءة شاذ، وإنما الاستعاذة قبل القراءة، لنفي وساوس الشيطان عند القراءة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى

---

(١) انظر: «المصنف» لعبدالرزاق- الصلاة- باب متى يستعيذ- الآثار (٢٥٨٨-٢٥٩٣)، «جامع البيان» (١٤/ ١٧٣)، «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ١٩١).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٦).

(٣) البيت للطرماح. انظر: «ذيل ديوانه» ص(٥٧٢).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٩١).

ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج:٥٢]، فإنما أمر الله بتقديم الاستعاذة قبل القراءة لهذه العلة».

بل حُكي الإجماع عليه.

قال مكي في كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع»[١]: «فإن قيل: فإن ظاهر النص أن يتعوذ القارئ بعد القراءة؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ﴾ والفاء بعدما قبلها تتبعه هو أصلها، فالجواب: أن المعنى على خلاف الظاهر، معناه: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، ودل على ذلك الإجماع أن الاستعاذة قبل القراءة، ودليل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ [الأعراف:٤]، فوقع في ظاهر التلاوة أن مجيء البأس بعد الهلاك، وليس المعنى على ذلك، إنما معناه: وكم من قرية أردنا إهلاكها، فجاءها بأسنا، فمجيء البأس بعد إرادة الهلاك وقبل الهلاك، وكذلك التعوذ المأمور به يكون بعد إرادة القراءة وقبل القراءة، على أصل الفاء».

وقد ضعف ابن الجزري[٢] صحة المروي في هذا، عن حمزة وأبي حاتم، وأبي هريرة وابن سيرين والنخعي، في أنها بعد القراءة، وقال: «محلها قبل القراءة إجماعًا، ولا يصح قول بخلافه، عن أحد ممن يعتبر قوله».

واتفق القراء على مشروعية التعوذ قبل البسملة في ابتداء السور، واختلفوا فيما إذا ابتدأ القارئ بوسط السورة، هل يتعوذ، أو يبسمل، أو يجمع بينهما.

والصحيح أنه يتعوذ فقط، ويقف بعد الاستعاذة ثم يقرأ، ويجوز أن يصل الاستعاذة بالقراءة[٣].

واستثنى بعض أهل العلم مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [الروم:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ [فصلت:٤٧]، ونحوها من

---

(١) (١/ ٩).

(٢) في «النشر» (١/ ٢٥٤).

(٣) انظر: «التبصرة» ص(٢٤٦-٢٥٠)، «الإقناع» (١/ ١٥٤)، «البرهان» (١/ ٤٦٠)، «النشر» (١/ ١٥٧/ ٢٦٥).

الآيات، نظرًا لما في الاستعاذة قبلها من قبح اللفظ، قالوا: ففي مثل هذه المواضع يستعيذ ثم يبسمل(١).

وهذا الاستثناء لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه؛ لأن الأمر بالاستعاذة عام لكل قراءة للقرآن، من أي موضع منه كانت القراءة، والبسملة- على الصحيح- لا تشرع إلا في أول السورة.

والتعليل بقبح اللفظ لا يكفي مسوغًا للبسملة وسط السورة بلا دليل، لكن كما يشرع الوقف على كثير من آي القرآن لمراعاة اللفظ والمعنى، فكذلك ينبغي أن يقف القارئ بعد الاستعاذة، ويسكت قليلاً في مثل هذه المواضع المذكورة، وبهذا يزول القبح.

ب- حكمها عند قراءة القرآن، في الصلاة أو خارجها:

اختلف أهل العلم في حكم الاستعاذة عند القراءة.

فذهب بعض أهل العلم إلى أنها واجبة في الصلاة وخارجها(٢)، منهم عطاء(٣)، واختاره ابن حزم في المحلى(٤)، وانتصر له.

وقد استدل من ذهب إلى هذا القول بظاهر الآية: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

قالوا: فالأمر يقتضي الوجوب، كما استدلوا بمواظبة الرسول ﷺ على التعوذ وتعليمه ذلك لأصحابه، وبأن شر الشيطان يجب دفعه بكل وسيلة، وأعظم وسيلة لدفعه هي اللجوء إلى الله، والاستعاذة به من شر الشيطان، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فعلى هذا إذا نسي القارئ أن يستعيذ قطع القراءة فتعوذ، وابتدأ من حيث وقف، وقيل من أول الحزب.

---

(١) انظر: «البرهان» (١/ ٤٦٠)، «النشر» (١/ ٢٦٦).

(٢) انظر: «المبسوط» (١/ ١٣)، «التفسير الكبير» (١/ ٦٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٧-٨٨)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢)، «النشر» (١/ ٢٥٨).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة (٢٥٧٤).

(٤) (٣/ ٢٤٧-٢٥٠).

وجمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن الاستعاذة مستحبة قبل كل قراءة للقرآن، سواء كان ذلك في الصلاة، أو خارجها.

وهذا مروي عن ابن عمر، وأبي هريرة(١)، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، والأوزاعي، والثوري(٢).

وهو قول أبي حنيفة، وأصحابه(٣)، وأحمد بن حنبل، وأصحابه(٤)، وإسحاق(٥)، وهو الذي اختاره أكثر الشافعية، وصححوه عن الشافعي(٦).

وحملوا الأمر في الآية: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ على الندب والاستحباب، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ [النور:٣٢](٧).

وقد استدلوا لهذا القول بأن الرسول ﷺ يذكر كثيرًا من الآيات ضمن الأحاديث التي صحت عنه، وما نقل عنه ﷺ أنه كان يستعيذ، فدل هذا على أن الأمر هنا ليس للوجوب.

وقال الطبري(٨): «يستدل له بإجماع الجميع على عدم وجوبها».

وقال السرخسي في «المبسوط»(٩) بعد أن ذكر قول عطاء بوجوبها: «وهو مخالف لإجماع السلف فقد كانوا مجمعين على أنها سنة».

وقال ابن عطية(١٠): «أجمعوا على استحسان ذلك والتزامه في كل قراءة في غير الصلاة».

---

(١) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٥).

(٢) انظر: «المغني» (٢/ ١٤٥)، «المجموع» (٣/ ٣٢٥).

(٣) انظر: «المبسوط» (١/ ١٣)، «فتح القدير» لابن الهمام (١/ ٢٩١).

(٤) انظر: «التحقيق» (١/ ٢٩٠)، «المغني» (٢/ ١٤٥)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٢).

(٥) انظر: «المغني» (٢/ ١٤٥)، «المجموع» (٣/ ٣٢٥).

(٦) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ١٩١)، «الكشف عن وجوه القراءات السبع» لمكي (١/ ٩).

(٨) انظر: «جامع البيان» (١٤/ ١٧٣) طبعة عيسى الحلبي.

(٩) (١/ ١٣).

(١٠) في «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨).

وقال ابن هبيرة في «الإفصاح»[١]: «واتفقوا على أن التعوذ في الصلاة على الإطلاق قبل القراءة سنة إلا مالكًا، فإنه قال: لا يتعوذ في المكتوبة».

وقال النووي في «التبيان»[٢]: «ثم إن التعوذ مستحب وليس بواجب، وهو مستحب لكل قارئ، سواء كان في الصلاة أو في غيرها».

وقال ابن كثير[٣]: «وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة، ليست بمتحتمة يأثم تاركها».

ومعلوم أن التعوذ إنما شرع للتلاوة المجردة، وشرع في الصلاة؛ لأجل التلاوة[٤]، لا لأنه من واجبات الصلاة أو سننها، بل لأنه مستحب قبل قراءة القرآن مطلقًا؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ فذلك شامل للقراءة في الصلاة وفي غيرها.

وإذا قطع القراءة في غير الصلاة لعذر كعطاس أو كلام يتعلق بمصلحة القراءة فإنه لا يعيد الاستعاذة، وأما لو قطعها إعراضًا عن القراءة، أو لكلام لا يتعلق بالقراءة، فإنه يستأنف الاستعاذة استحبابًا[٥].

جـ- هل يتعوذ في الصلاة في كل ركعة، أو في الركعة الأولى فقط:

أكثر أهل العلم، على أن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة، يكفي فيها الاستعاذة مرة واحدة في الركعة الأولى؛ منهم عطاء[٦] والحسن البصري[٧] والنخعي[٨]

---

(١) (١/ ١٢٥).

(٢) ص(٦٤-٦٥).

(٣) في «تفسيره» (١/ ٣٢).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢).

(٥) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٥)، «البرهان» (١/ ٤٦٠)، «النشر» (١/ ٢٥٩).

(٦) أخرجه عن عطاء عبدالرزاق- في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة (٢٥٧٦، ٢٥٨٤، ٢٥٨٥).

(٧) أخرجه عن الحسن عبدالرزاق- في الموضع السابق (٢٥٨٧)، وانظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٣٦).

(٨) أخرجه عن النخعي- عبدالرزاق- في الموضع السابق (٢٥٨٦)، وانظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٣٦).

والثوري[١] وابن سيرين[٢] وطاوس[٣]، وأبو حنيفة[٤]، والشافعي[٥]، وأحمد في رواية عنه[٦].

وإذا نسي أن يتعوذ في الركعة الأولى، تعوذ في الركعة الثانية عند الشافعي[٧]. وقال الإمام أحمد: «إن نسي التعوذ حتى شرع في القراءة لم يعد إليه لذلك»[٨].

واستدلوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

وبحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا نهض من الركعة الثانية استفتح القراءة، ولم يسكت**»[٩].

قال ابن القيم في «زاد المعاد»[١٠] بعدما ذكر الرواية عن أحمد: «الاكتفاء باستعاذة واحدة أظهر- ثم استدل بحديث أبي هريرة ثم قال: «وإنما يكفي استعاذة واحدة؛ لأنه لم يتخلل القراءتين سكوت، بل تخللهما ذكر، فهي كالقراءة الواحدة، إذا تخللها حمد الله، أو تسبيح، أو تهليل، أو صلاة على النبي ﷺ ونحو ذلك».

وعلى هذا فيكتفي المصلي بالاستعاذة في الركعة الأولى، ثم يبسمل، ويقرأ الفاتحة، فإن قرأ بعدها من أول سورة بسمل فقط، وإن قرأ من وسط السورة تركهما معًا، أما في بقية الركعات فيبسمل مع الفاتحة، وفي أول السورة فقط، ولا يستعيذ لا مع الفاتحة ولا مع ما يقرأ بعدها.

وذهب بعض العلماء إلى أن المصلي يتعوذ في كل ركعة؛ لأن كل ركعة لها قراءة

---

(١) ذكره عن سفيان الثوري- النووي في «المجموع» (٣/ ٣٢٦).
(٢) ذكره عن ابن سيرين الجصاص (٣/ ١٩١).
(٣) ذكره عن طاوس ابن حزم في «المحلى» (٣/ ٢٤٩).
(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ١٩١)، «فتح القدير» لابن همام (١/ ٢٩٠).
(٥) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «المجموع» (٣/ ٣٢٢).
(٦) انظر: «المسائل الفقهية» (٣/ ١١٥-١١٦)، «زاد المعاد» (١/ ٢٤١-٢٤٢).
(٧) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٤).
(٨) انظر: «المغني» (٢/ ١٤٥).
(٩) أخرجه مسلم- في المساجد ومواضع الصلاة- باب ما يقال عند تكبيرة الإحرام والقراءة (٥٩٩).
(١٠) (١/ ٢٤٢).

مستقلة، وهو مروي عن النخعي[١] وابن سيرين[٢] وهو أحد الوجهين عند الشافعية[٣]، بل صححه بعضهم.

قال النووي في «التبيان»[٤]: «ويستحب التعوذ في الصلاة كل ركعة على الصحيح من الوجهين عند أصحابنا». وهو رواية عن الإمام أحمد[٥]. واختاره ابن حزم في «المحلى»[٦].

وذهب الإمام مالك إلى أنه لا يتعوذ الرجل في المكتوبة، ولكن يتعوذ في قيام رمضان، وفي رواية في النافلة[٧].

د- حكم الجهر بها، أو الإسرار في غير الصلاة:

ذهب جمهور القراء إلى أن القارئ يجهر بالاستعاذة في غير الصلاة.

قال مكي في «التبصرة»[٨]: «المختار لجميع القراء المعول عليهم أن يبدأ بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم» يعني جهرًا.

وذهب بعض القراء إلى أن القارئ يُسر بالاستعاذة.

وهو مروي عن حمزة[٩]، ونافع[١٠]، وقيل: إن نافعًا لا يتعوذ[١١].

قال مكي في «الكشف عن وجوه القراءات السبع»[١٢] بعدما ذكر القول

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٦).

(٢) أخرجه عن ابن سيرين عبدالرزاق في الصلاة- باب متى يستعيذ (٢٥٩١).

(٣) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «المجموع» (٣/ ٣٢٢-٣٢٦).

(٤) ص(٦٥).

(٥) انظر: «المسائل الفقهية» ص(٣/ ١١٥-١١٦)، «زاد المعاد» (١/ ٢٤١-٢٤٢).

(٦) (٣/ ٢٤٧).

(٧) انظر: «المدونة» (١/ ٦٤)، «المحرر الوجيز» (١/ ٤٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٧٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٨٦).

(٨) ص(٢٤٦).

(٩) انظر: «التبصرة» ص(٢٤٥)، «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٢)، «النشر» (١/ ٢٥٢).

(١٠) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٢).

(١١) انظر: «التبصرة» ص(٢٤٥)، «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ١٢)، «النشر» (١/ ٢٥٢-٢٥٣).

(١٢) (١/ ١١).

«لئلا يظن ظان أو يتوهم متوهم أنه من القرآن، أو أنه فرض لازم».

أما الذين اختاروا الجهر بها فقالوا: قد عُلِمَ يقينًا أنها ليست من القرآن، فلا محذور في الجهر بها، وهو أولى لإغاظة الشيطان، ودفع وساوسه، وتعليم الجاهل، وتذكير المستمع إلى غير ذلك من فوائد الجهر بها.

هـ- حكم الجهر بها أو الإسرار في الصلاة:

ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من القراء والفقهاء إلى مشروعية الإسرار بالاستعاذة في الصلاة: منهم الخلفاء الأربعة[١]، وعبدالله بن عمر[٢]، وعبدالله بن مسعود[٣]، وإبراهيم النخعي[٤].

وبه قال أبوحنيفة[٥]، وأحمد بن حنبل[٦]، وهو قول للشافعي[٧]، وقول مالك في قيام الليل[٨].

وذهب بعض أهل العلم إلى الجهر بالاستعاذة في الصلاة وهو مروي عن أبي هريرة[٩].

وهو اختيار الشافعي في «الإملاء»[١٠] قال: «يجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر».

وقال بعضهم بالتخيير بين الجهر والإسرار. وهو قول للشافعي[١١].

---

(١) انظر: «المحلى» (٣/ ٢٤٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه عن ابن عمر الشافعي في «الأم» (١/ ١٠٧)، والبيهقي في الصلاة- باب الجهر بالتعوذ والإسرار به. من طريق الشافعي (٢/ ٣٦).

(٣) انظر: «المحلى» (٣/ ٢٤٩).

(٤) أخرجه عن النخعي عبدالرزاق- في الصلاة- باب ما يخفي الإمام (٢٥٩٦-٢٥٩٧).

(٥) انظر: «المبسوط» (١/ ١٣)، «فتح القدير» لابن الهمام (١/ ٢٩١).

(٦) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٧٦)، «المغني» (٣/ ١٤٦).

(٧) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «المجموع» (٣/ ٣٢٤).

(٨) انظر: «النشر» (١/ ٢٥٤).

(٩) أخرجه عن أبي هريرة- الشافعي- في «الأم» (١/ ١٠٧)، والبيهقي في الصلاة- الجهر بالتعوذ والإسرار به من طريق الشافعي (٢/ ٣٦).

(١٠) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢).

(١١) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «المجموع للنووي» (٣/ ٣٢٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢).

قال ابن أبي ليلى: «الإسرار والجهر سواء، هما حسنان»[١].

والصحيح من أقوال أهل العلم الإسرار بها، وعدم الجهر، إلا لحاجة كتعليم ونحوه.

قال السرخسي[٢]: «لأن الجهر بالتعوذ لم ينقل عن رسول الله ﷺ، ولو كان يجهر به به لنقل نقلاً مستفيضًا...».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «الجهر بالتعوذ أحيانًا للتعليم ونحوه لا بأس به، به، كما كان عمر بن الخطاب يجهر بدعاء الاستفتاح مدة[٤]... وأما المداومة على الجهر بذلك فبدعة مخالفة لسنة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، فإنهم لم يكونوا يجهرون بذلك دائمًا، بل لم ينقل أحد عن النبي ﷺ أنه جهر بالاستعاذة والله أعلم».

وقال ابن الجزري[٥]: «المختار في الصلاة الإخفاء».

ولكن إذا جهر الإمام ولم يسكت فهل يستعيذ المأموم أو لا، فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد[٦]؛ القول الأول يستعيذ، والثاني لا يستعيذ. قال ابن تيمية[٧]: «وهو أصح، وهو قول أكثر العلماء كمالك والشافعي، وكذا أبوحنيفة فيما فيما أظن».

قلت: وقد اختار القول الأول بأنه يستعيذ كما يبسمل- وإن لم يسكت الإمام- تبعًا لقراءة الفاتحة بعض أهل العلم[٨].

* * *

---

(١) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٢٦).

(٢) في «المبسوط» (١/ ١٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٥).

(٤) أخرج مسلم- في الصلاة (٢٩٩)- عن عبدة أن عمر بن الخطاب كان يجهر بهؤلاء الكلمات، يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». كما جهر ابن عباس في قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة، وقال: «لتعلموا أنها سنة» أخرجه البخاري- في الجنائز (٦٢٣٥).

(٥) في «النشر» (١/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٦) انظر: «المسائل الفقهية» (١/ ١١٦).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤١/٢٢)، وانظر: (٢٣/ ٢٨٠-٢٨٢).

(٨) انظر ما يأتي في حكم قراءة البسملة في الصلاة، وحكم قراءة الفاتحة في حق المأموم.

المبحث السادس
المواضع التي تشرع فيها الاستعاذة

تشرع الاستعاذة في مواضع كثيرة منها ما يلي:

١- **عند قراءة القرآن**، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج: ٥٢].

٢- **عند حصول نزغ من الشيطان، ووسوسة للإنسان**، قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت:٣٦]. وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١].

٣- **عندما يوسوس الشيطان للمسلم في معتقده بربه**. فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»(١).

٤- **عندما يُلبس الشيطان على الإنسان في صلاته**. فعن عثمان بن أبي العاص- رضي الله عنه- أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها عليَّ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك شيطان، يقال له خِنْزَب، فإذا أحسسته،**

---

(١) أخرجه البخاري في- بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٧٦)، ومسلم في الإيمان- باب بيان الوسوسة في الإيمان (١٣٤).

فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثًا، قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضُرَاطٌ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضيَ النداء أقبل، حتى إذا ثُوِّبَ بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضي التثويب أقبل، حتى يَخْطِرَ بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لِمَا لم يكن يَذْكُر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى**»(٢).

٥- **عند الغضب**، فقد أخرج البخاري ومسلم عن سليمان بن صُرَد- رضي الله عنه- قال: «استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**». **فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ فقال: إني لست بمجنون**»(٣).

٦- **عندما يرى الإنسان رؤيا يكرهها**، فعن أبي قتادة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه، فلينفث عن يساره ثلاثًا، ويتعوذ بالله من شرها، فإنها لن تضره**».

وفي رواية: «**وليتعوذ بالله من شر الشيطان وشرها...، فإنها لن تضره**»(٤).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره، وليتعوذ بالله من الشيطان، ويتحول عن جنبه الذي كان عليه**»(٥).

٧- **عند دخول المسجد**. فعن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه**

---

(١) أخرجه مسلم في السلام- باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٢٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري- في الأذان- باب فضل التأذين (٦٠٨)، ومسلم في الصلاة- فضل الأذان (٣٨٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٩٢)، ومسلم- في أول كتاب الرؤيا (٢٢٦١).

(٥) أخرجه مسلم في الرؤيا (٢٢٦٢)، وكذا رواه أبوداود- في الأدب- باب ما جاء في الرؤيا (٥٠٢٢)، وابن ماجه- في تعبير الرؤيا- من رأى رؤيا يكرهها (٣٩٠٨).

القديم من الشيطان الرجيم»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبي ﷺ، ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي، وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم**»(٢).

٨- **عند سماع نهيق الحمار، ونُباح الكلاب.** فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله، فإنها رأت ملكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطانًا**»(٣).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم نُباح الكلاب ونهيق الحمر بالليل فتعوذوا بالله، فإنهن يرين ما لا ترون**»(٤).

٩- **عند نزول منزل.** فعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»(٥).

١٠- **عند دخول الخلاء.** فعن أنس- رضي الله عنه- قال: كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**»(٦).

١١- **عندما يجد الإنسان وجعًا في جسده.** فعن عثمان بن أبي العاص أنه شكا إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**ضع يدك على الذي يألم من جسدك، وقل: بسم الله ثلاثًا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأُحاذر**»(٧).

---

(١) أخرجه أبوداود- في الصلاة- باب فيما يقوله الرجل عند دخول المسجد (٤٦٦)، وصححه الألباني (٤٤١).

(٢) أخرجه ابن ماجه- في الصلاة- باب الدعاء عند دخول المسجد (٧٧٣)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (٣٣٠٣)، ومسلم- في الذكر- باب استحباب الدعاء عند صياح الديكة (٢٧٢٩).

(٤) أخرجه أبوداود- باب نهيق الحمير ونُباح الكلاب (٥١٠٣)، وصححه الألباني (٤٢٥٦).

(٥) أخرجه مسلم- في الذكر والدعاء- باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء (٢٧٠٨).

(٦) أخرجه البخاري- في الوضوء- باب ما يقول عند الخلاء (١٤٢)، ومسلم- في الحيض- باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء (٣٧٥).

(٧) أخرجه مسلم- في السلام- باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء (٢٢٠٢).

١٢- عند الصباح والمساء وعند النوم. عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: يا رسول الله، مُرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت، وإذا أمسيت، قال: «**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه. قال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**»(١).

١٣- عند الفزع من النوم. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا فزع أحدكم من النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون**»(٢).

١٤- كما يشرع للمسلم أن يعوّذ أولاده. فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة**»(٣).

إلى غير ذلك من المواضع والأوقات التي تتأكد فيها مشروعية الاستعاذة. قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

قال ابن زيد: «في كل شيء من أمري»(٤).

* * *

(١) أخرجه أبوداود- في الأدب- باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٧)، والترمذي- في الدعوات (٣٣٩٢)، وأحمد (٢/ ٢٩٧)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبوداود- في الطب (٣٨٩٣)، والترمذي- في الدعوات (٣٥٢٨)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري- في الأنبياء- باب (١٠) (٣٣٧١)، وأخرجه أبوداود- في السنة- باب في القرآن (٤٧٣٧)، والترمذي- في الطب (٢٠٦٠)، وابن ماجه- في الطب (٣٥٢٥)، وأحمد (١/ ٢٣٦، ٢٧٠).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٨/ ٥١)- الطبعة الثانية.

المبحث السابع

بيان أن شيطان الجن أعظم ضررًا من شيطان الإنس ومن النفس «المذمومة»

أ- شيطان الجن أعظم ضررًا من شيطان الإنس:

قال ابن كثير[١] في كلامه على الاستعاذة: «وهي استعانة بالله، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٥].

وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري، فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيدًا، ومن قتله العدو الباطني كان طريدًا، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورًا، ومن قهره العدو الباطني كان مفتونًا، أو موزورًا، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان».

وقال ابن كثير- أيضًا[٢]: «فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن، لا أعلم لهن رابعة: قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩] فهذا مما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠]، وقال تعالى في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨].

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٣٢).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٣٣)، وانظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت:٣٤-٣٦]».

قال ابن الجزري(١):

شيطاننا المغوي عدو فاعتصم ... بالله منه والتجئ وتعوذِ
وعدوك الإنسان دارِ وِدَاده ... تملكه وادفع بالتي فإذا الذي

فشيطان الإنس قد ينفع فيه العفو، أو الأمر بالمعروف، أو الإعراض، أو الإحسان. أما شيطان الجن فلا يعصم منه إلا الاستعاذة بالله منه؛ لأن شيطان الجن متسلط، لا يريد إلا إغواء الإنسان، وإهلاكه، وهو خفي لا يُرى كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]. ولأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما قال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٢).

فأمره خطير، وكيده عجيب(٣)، فهو يتدرج بالإنسان- إن وجد سبيلاً إليه- حتى يوقعه بالكفر ويكبه في النار. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر:١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

وإن لم يستطع إيصاله إلى الكفر بل إلى أعظم دركاته فإنه لا يكف حتى يوصله إلى أقصى حد يمكنه إيصاله إليه، ولو كان دون الكفر، فيوقعه في البدعة، فإن لم يستطع أوقعه في الكبائر، فإن لم يستطع أوقعه في الصغائر، فإن لم يستطع ثبطه عن الطاعات وشغله بالمباحات، فإن لم يستطع شغله بالمفضول عن الفاضل، فإن لم يستطع ذلك أتاه من باب الإعجاب والكبر والرياء، وهذا- في الغالب- مدخله على كثير من العباد

---

(١) في «النشر» (١/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري- في الاعتكاف، وفي- بدء الخلق (٢٠٣٥، ٢٠٣٨، ٢٠٣٩، ٣٢٨١)، ومسلم- في السلام (٢١٧٥)، من حديث صفية- رضي الله عنها- في قصة مجيئها إلى النبي ﷺ وهو معتكف وخروجه معها ليوصلها إلى البيت، وأخرجه- أيضًا- مسلم- من حديث أنس- رضي الله عنه (٢١٧٤).

(٣) من أجود ما ألف في مكايد الشيطان ما كتبه ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» (١/ ١٦٣) وما بعدها. وانظر: «التفسير القيم» ص(٦٠٩-٦١٤). وانظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي.

والعلماء وذوي الجاه والسلطان والكرم والشجاعة ونحوهم، فليحذر العاقل اللبيب من ذلك، فإن الشيطان عندما يعجز عن حمله على ترك واجب أو انتهاك محرم ظاهر فإنه يأتيه من هذا المدخل الخفي، فيحبط عمله وهو لا يدري. فإن لم يدرك منه شيئًا من هذه المراتب وأعيته فيه الحيل سلط عليه حزبه من شياطين الإنس والجن يُبَدِّعونه ويُفَسِّقونه ليشوش عليه قلبه ويمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى في مدافعة وتسلط هؤلاء الشياطين لا يفتر حتى يأتيه من ربه اليقين(١).

ب- الشيطان أعظم ضررًا على الإنسان من النفس المذمومة(٢):

بل إن النفس المذمومة كل ما يحصل منها من شر وفساد إنما هو بسبب تزيين الشيطان، ووسوسته؛ لأنها مركب الشيطان، والأداة لتنفيذ شره؛ ولهذا أكثر الله في القرآن الكريم من ذكر الشيطان، وذمه، والتحذير منه، في مواضع كثيرة جدًا. وأمر بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن. بينما ذكر النفس المذمومة في ثلاثة مواضع فقط، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وقوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:٢]، وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات:٤٠].

ولم يأمر بالاستعاذة منها في موضع واحد من القرآن، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها بالسُّنَّة، كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في تعليم النبي ﷺ لأبي بكر كلمات يقولهن إذا أصبح، وإذا أمسى، وإذا أخذ مضجعه، وفيهن أمره ﷺ له أن يقول: «**أعوذ بالله من شر نفسي**»(٣).

وفي خطبة الحاجة كما في حديث ابن مسعود قال: عَلَّمَنَا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة: «**إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا**... الحديث»(٤).

* * *

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٦٠-٢٦٢).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أبوداود في النكاح- خطبة النكاح (٢١١٨)، وصححه الألباني (١٨٦٠).

المبحث الثامن
السبيل للخلاص من شر الشيطان ومكايده

ابتلى الله آدم وذريته بعداوة إبليس لهم عداوة متأصلة قديمة منذ أن تكبَّر عن السجود لآدم وحسده، وتسبب في إخراجه من الجنة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠].

وقد أقسم- لعنه الله- على أنه سيعمل جاهدًا على إغواء بني آدم، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص:٨٢-٨٣]، وقال أيضًا: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحجر:٣٩]، وقال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦].

وقد جعل الله له سلطانًا على الذين يتولونه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ ﴾ [الإسراء:٦٤].

وقد طَلب أن يُنظر إلى يوم القيامة، فأعطاه الله ذلك ابتلاءً واختبارًا للعباد، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحجر:٣٨، ص:٨١].

وهو ساعٍ بكل الوسائل والحِيَل إلى إغواء بني آدم وإهلاكهم، فعلى المسلم أن يحذر من هذا العدو، وأن يعلم أن أسباب الخلاص منه وأسباب حفظ الله للعبد من شر الشيطان ومكايده تتلخص فيما يلي:

أولاً: بالإيمان والعمل الصالح، ولزوم الكتاب والسُّنَّة، وطاعة الله تعالى والتوكل عليه،

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل:٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٦٥].

وعن جندب بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله...**» الحديث(١).

ومفهوم هذا الحديث وأمثاله أن مَن لم يصلِّ الصبح فليس في ذمة الله، بل هو عرضة لتخبط الشيطان.

وهكذا- بلا شك- كل تقصير في أداء ما أوجب الله- تعالى، فهو سبب لفقدان الأمان الذي وعد الله به أهل الإيمان(٢)، ومقرب من المخاوف ومصائد الشيطان.

ثانيًا: البُعد عن معاصي الله؛ لأن ما يصيب الإنسان من مصائب ومنها تسلط الشيطان فهو بسبب الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

فينبغي تطهير القلب والنفس والجوارح عن كل ما نهى الله عنه من الاعتقادات والأعمال التي تكون مجلبة للشيطان وسببًا لبعد الملائكة عن الإنسان.

كالتعلق بالغناء والمزامير، قال تعالى- مخاطبًا الشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء:٦٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**الجرس مزامير الشيطان**»(٣).

وكاقتناء الصور والتماثيل والكلاب. فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن جبريل

---

(١) أخرجه مسلم- في المساجد ومواضع الصلاة- باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (٦٥٧).

(٢) كما في الحديث السابق، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

(٣) أخرجه مسلم- في اللباس- باب كراهة الكلب والجرس في السفر (٢١١٣، ٢١١٤). وأخرج أبوداود- في الخاتم- باب في الجلاجل (٤٢٣١) عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه جرس**» وحسَّنه الألباني.

قال للنبي ﷺ: «**إنَّا لا ندخل بيتًا فيه صور ولا كلب**»(١).

وعن أبي طلحة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة تماثيل**»(٢).

وكاقتناء الصليب، فعن عائشة- رضي الله عنها- «**أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليب إلا نقضه**»(٣).

إلى غير ذلك من المعاصي الظاهرة والباطنة التي ينبغي البُعد عنها والحذر منها.

ثالثًا: الاستعاذة بالله من الشيطان وهمزاته ووساوسه، وجميع شروره، والحذر منه، والاعتصام بالله تعالى والالتجاء إليه، بالألفاظ التي صحَّت في الاستعاذة، وبالمعوذتين، فإنه ما تعوَّذ متعوِّذ بمثلهما. وملازمة ذلك في جميع المواضع والأوقات التي شرع فيها التعوذ- مع الاعتقاد الجازم بأن النفع والضر بيد الله، وأنه- جل وعلا- هو القادر على دفع شر الشيطان، مع قوة الاعتماد على الله والثقة به، وتيقن أن كيد الشيطان ضعيف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦]، فغاية ما عنده الوسوسة كما قال ﷺ: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»(٤).

ومع أن له تسلطًا على بني آدم، فهو لا يعلم الغيب، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ:١٤]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء:٢١٢].

---

(١) أخرجه البخاري- في بدء الخلق (٣٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري- في بدء الخلق (٣٢٢٥)، ومسلم- في اللباس (٢١٠٦).

(٣) أخرجه البخاري- في اللباس- باب نقض الصورة (٥٩٥٢).

(٤) أخرجه أبوداود- في الأدب- باب في رد الوسوسة (٥١١٢)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه، يعرض بالشيء، لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**». وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، (٤٢٦٤)، وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٤٠).

وأيضًا- وكما تقدم- فليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل:٩٩-١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٥].

وتسلطه على كثير من المسلمين، وتزيينه لهم المعاصي، إنما هو بسبب ضعف إيمانهم ووقوعهم في المعصية، المؤدية بهم إلى ما هو أعظم منها، كما قال تعالى- عن الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف:٥]. وقال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(١) أي: أن إيمانه يضعف فيتسلط عليه الشيطان فيوقعه في الزنا والمعاصي المذكورة في الحديث، وغيرها.

رابعًا: ملازمة قراءة القرآن فذلك مما يحصن المسلم ويحفظه بإذن الله- تعالى من الشياطين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»(٢).

وإذا نفر الشيطان حفت الملائكة بالإنسان، كما في حديث أبي سعيد الخدري في قصة أسيد بن حضير حين قام يقرأ القرآن، فجالت فرسه، وفيه ذكر شهود الملائكة لقراءته(٣).

خامسًا: ملازمة الأذكار والأدعية والأوراد والمواظبة اليومية عليها كأدعية الصباح والمساء والنوم وغيرها، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف:٢٠٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجه- في الفتن- باب حرمة دم المؤمن وماله (٣٩٣٦)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم- في صلاة المسافرين (٧٨٠).

(٣) أخرجه البخاري- في فضائل القرآن (٥٠١٨)، ومسلم- في صلاة المسافرين (٧٩٦).

فإن ملازمة هذه الأذكار مما يحفظ الله به المسلم من الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١].

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في قصة مجيء الشيطان إليه عندما كان يحرس الطعام، وفيه: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح**»(١).

وفي حديث أبي مسعود الأنصاري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ الآيتين من سورة البقرة كفتاه**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك، حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك**»(٣).

وكما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- من أن الشيطان إذا سمع الأذان أدبر وله ضراط(٤).

سادسًا: أن يجعل المسلم شيئًا من صلاة النوافل في بيته، بل الأولى أن تكون النوافل كلها في البيت؛ لقوله ﷺ: «**أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»(٥).

وذلك أن صلاة النوافل في البيت مما يطرد الشيطان، ولهذا قال ﷺ: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا**»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري- في المغازي (٤٠٠٨)، ومسلم- في صلاة المسافرين (٨٠٨).

(٣) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٩٣)، ومسلم- باب الذكر- باب فضل التهليل (٢٦٩١).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري- في الأذان- باب صلاة الليل (٧٣١)، ومسلم في صلاة المسافرين- باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٨١)- من حديث زيد بن ثابت- رضي الله عنه.

(٦) أخرجه من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- البخاري في التهجد- باب التطوع في البيت (١١٨٧)، =

وذلك لأن المقابر والأماكن الخربة والمستقذرة مساكن الشياطين، حيث تخلو هذه الأماكن من ذكر الله.

سابعًا: الإمساك عن فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الأنام فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب(١).

فهذه مجمل الأسباب التي بها يخلِّص الله الإنسان، ويحفظه من شر الشيطان ومكائده، والتي تُبيِّن بها ضعف كيد الشيطان أمام قوة الإيمان والاعتصام بالملك الديان.

وبهذا يرد على الذين يُهوِّلون من أمر الشيطان، سواءٌ كان ذلك منهم عن جهل مع حسن النية والمعتقد، أو كانوا ممن ابتلوا بخدمة هؤلاء الشياطين لأغراض مادية ونحو ذلك، ولو كان ذلك على حساب دينهم، حتى صار فئام من الناس يتخوفون من الشياطين ويصدقونهم ويعتقدون فيهم ما لا يجوز اعتقاده من أنهم يعلمون الغيب، ويستطيعون أن يفعلوا، وأن يفعلوا، وهذا باطل، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء:٦٥].

* * *

=

ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٧).

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٧).

تَفْسِيرُ ٱلْبَسْمَلَةِ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

تفسير البسملة

وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول : لفظ البسملة، وإعرابها:

أ- لفظها.

ب- إعرابها.

المبحث الثاني : معنى البسملة.

المبحث الثالث : هل البسملة آية مستقلة من القرآن الكريم، أو من سورة الفاتحة، أو من كل سورة سوى «براءة»، أو ليست بآية؟

المبحث الرابع : السبب في عدم كتابة البسملة في مطلع سورة براءة.

المبحث الخامس : حكم قراءة البسملة في غير الصلاة.

المبحث السادس : حكم قراءة البسملة في الصلاة.

المبحث السابع : حكم البسملة من حيث الجهر بها والإسرار في الصلاة، أو خارجها.

المبحث الثامن : المواضع التي تشرع فيها البسملة.

المبحث التاسع : فوائد البسملة، والأحكام التي تضمنتها.

المبحث الأول
لفظ البســملة، وإعرابهــا

أ- لفظهــا:

لفظ البسملة المشروع هو: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عند جميع القراء[١]، وباتفاق أهل العلم. فلا يصح أن يقال عند القراءة: باسمك اللهم اقرأ، ولا عند الذبح: باسمك اللهم أذبح...، ولا يصح استبدال لفظ الجلالة «الله» ولا اسمي «الرحمن»، «الرحيم» بغيرها من أسمائه- جل وعلا.

ولا يقال: «بسمل» إلا لمن قال: بسم الله الرحمن الرحيم. قال عمرو بن أبي ربيعة[٢]:

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

ب- إعراب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: الباء حرف جر.

(اسم): مجرور بالباء، وعلامة جره الكسرة، وحذفت منه الألف لفظًا وخطًا؛ تخفيفًا لكثرة الاستعمال[٣]، ولا تحذف إلا مع لفظ الجلالة، ولهذا أثبتت في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾[٤].

وهو نائب عن المصدر «تسمية»، كقول القطامي[٥]:

---

(١) انظر: «الإقناع» (١/ ١٦٣).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٤٩٨).

(٣) قالوا: وطولت الباء في البسملة في القرآن الكريم تعظيمًا لكتاب الله عز وجل، وقيل لما أسقطوا الألف ردوا طولها على الباء، ليدل على السقوط، وقيل طولت تقليدًا لكتاب نبي الله سليمان عليه السلام إلى بلقيس. والله أعلم.

(٤) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للفراء (١/ ١-٢)، «مشكل إعراب القرآن» لمكي (١/ ٦٥-٦٦).

(٥) انظر: «ديوانه» (٤١).

أكفـــرا بعـــد رد المـــوت عنـــي وبعـــد عطائـــك المائـــة الرتاعـــا

أي بعد إعطائك، فأناب «عطاء» عن المصدر «إعطاء»[١] وهذا كثير في اللغة.

والجار والمجرور ﴿بِسْمِ﴾ في محل نصب متعلقان بفعل محذوف[٢]. قدّره الكوفيون متقدمًا، نحو: أَبتَدِئُ باسم الله، أو أبْتَدِئْ باسم الله، على الأمر، كقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

وقدّره بعضهم متأخرًا نحو: باسم الله أَبْتَدِئُ، باسم الله أقرأ.

أو متعلق باسم محذوف وقع خبرًا، قدّره البصريون وأكثر النحويين متقدمًا نحو ابتدائي كائن، أو مستقر باسم الله، أو ابتدائي باسم الله.

وقدّره بعضهم اسمًا متأخرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾ [هود:٤١] فـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿مَجْرٖىٰهَا﴾. وكل هذه التقادير صحيحة.

لكن الأولى أن يكون المقدر فعلاً متأخرًا خاصًّا: أي مناسبًا لما يسمى عليه.

فكونه فعلاً لأن الأصل في العمل هي الأفعال، فهي تعمل بدون شروط، أما الأسماء فما يعمل منها كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، إنما يعمل بشروط.

وكونه متأخرًا تيمنًا وتبركًا بالبداءة باسم الله، ولإفادة الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، أي أَبتدئ بسم الله وحده دون سواه؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. فالمعنى: لا أقرأ إلا باسم الله، ولا أتوضأ إلا باسم الله، ولا أذبح إلا باسم الله، وهكذا.

وكونه خاصًّا مناسبًا لما يسمى عليه ليكون أدل على المقصود، وأبين للمراد.

فعند القراءة يكون التقدير: باسم الله أقرأ، وعند الوضوء: باسم الله أتوضأ، وعند الذبح: باسم الله أذبح، وهكذا.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١١٦).

(٢) ذكر ابن القيم في «بدائع الفوائد» (١/ ٢٥) عدة فوائد لحذف العامل في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

ويدل على التخصيص قوله تعالى في الآيتين السابقتين: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١]، وقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١].

وقوله ﷺ: «**ومن لم يذبح فليذبح باسم الله**»(١).

فقدّر في الآية الأولى اسمًا خاصًّا وهو ﴿مَجْرِىٰهَا﴾، وفي الآية الثانية فعلاً خاصًّا وهو ﴿ٱقْرَأْ﴾، وفي الحديث فعلاً خاصًّا وهو «**يذبح**».

﴿ٱللَّهِ﴾: لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: صفتان للفظ الجلالة، كل منهما مجرورة، وعلامة جرها الكسرة الظاهرة على آخرها.

* * *

(١) أخرجه من حديث جندب بن عبدالله- رضي الله عنه- البخاري في العيدين (٩٨٥)، ومسلم في الأضاحي- باب وقتها (١٩٦٠).

المبحث الثاني
معنـــى البســـملة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الباء للاستعانة: أي باسم الله أقرأ، أو أتوضأ، مستعينًا به، ومتيمنًا، ومتبركًا(١).

و«الاسم» مأخوذ من «الوَسم»، وهو العلامة؛ لأن الاسم علامة على من وضع له، وهذا اختيار الكوفيين وطائفة من النحويين.

وذهب البصريون وأكثر النحويين إلى أنه مأخوذ من «السمو»، وهو العلو والارتفاع؛ لأن «الاسم» يسمو بالمسمى، فيرفعه عن غيره، وقيل: لأن الاسم علا بقوته على الفعل والحرف؛ لأنه الأصل.

وقول الكوفيين أظهر من حيث المعنى، وهو أن الاسم علامة على من وضع له، لكن تصريف «اسم» وجمعه يقوي قول البصريين: إنه من السمو، وهو العلو والارتفاع فهو يجمع على «أسماء» و«أسامي»، ويصغر على «سُمَيّ»، ولو كان من السمة، لكان أصله «وسم»، وجمع على «أوسام»، وصغر على «وسُيَمْ»؛ لأن الجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها(٢).

ولا مانع أن يكون الاسم مأخوذًا من المعنيين معًا؛ لأن الاسم يظهر المسمى، فيكون فيه معنى العلو والارتفاع، ويميزه عن غيره فيكون فيه معنى العلامة.

و«اسم» اسم مفرد أضيف إلى لفظ الجلالة- كما تقدم- وهو معرفة، فاستفاد

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ١٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩)، «أنوار التنزيل» (١/ ٦)، «شرح البسملة» لأبي زكريا الأنصاري (١/ أ)، «شرح البسملة والحمدلة» لأحمد بن عبدالحق (٦/ أ)، «رسالة إسماعيل بن غنيم الجوهري في البسملة» (٦/ أ)، «رسالة الصبان الكبرى في البسملة» (٨/ ب).

(٢) انظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي (١/ ٦٦)، «الكشاف» (١/ ٥)، «المحرر الوجيز» (١/ ٥٥)، «التفسير الكبير» (١/ ١٠٨)، «الدر المصون» (١/ ١٩-٢١)، «أنوار التنزيل» (١/ ٦).

العموم، فيعم جميع أسماء الله الحسنى، فالمعنى بكل اسم من أسماء الله(١).

و«الله» علم على «الرب» تبارك وتعالى خاص به سبحانه، ولا يجوز أن يسمى به غيره. قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥].

قال سيبويه: «وهو أعرف المعارف».

وهو أصل أسمائه الحسنى، ودال عليها جميعًا، وعلى صفاته العليا(٢).

وقال: بعض أهل العلم: إنه الاسم الأعظم(٣).

وتأتي أسماء الله تعالى تابعة لهذا الاسم، وأوصافًا له، ومضافة إليه(٤)، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء:١١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه:٨].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»(٥).

ولهذا يقال: «الرحمن» و«الرحيم» و«الحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن»، أو من أسماء «الرحيم» أو من أسماء «الحكيم».

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٦).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١/ ١١٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٠٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠). وانظر الأحاديث الواردة في الاسم الأعظم ضمن الفائدة الخامسة والثلاثين من سورة الفاتحة.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٦).

(٥) أخرجه البخاري- في الدعوات- باب لله مائة اسم غير واحد (٦٤١٠)، ومسلم- في الذكر- باب في أسماء الله- تعالى، وفضل من أحصاها (٢٦٧٧).

وقد يأتي لفظ الجلالة «الله» تابعًا لغيره من الأسماء، كما في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم:١-٢]. فلفظ الجلالة «الله» على قراءة الجر عطف بيان، تابع للاسم الذي قبله.

واختلف هل لفظ الجلالة «الله» مرتجل أو مشتق؟ فقيل إنه مرتجل غير مشتق، والألف واللام لازمة له، لا لتعريف، ولا لغيره، بدليل دخول حرف النداء عليه، وبدليل أنه لا يثنى، ولا يجمع. وهو اختيار الخليل وسيبويه والزجاج وأكثر الأصوليين والفقهاء.

والصحيح أنه مشتق من «أله» إذا عبد، فهو مصدر في موضع المفعول، من أَلَه الرجل يَأْلَه إلٰهة إذا تعبد وتأله وتنسك[١]. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام:٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف:٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل:٦٠-٦٤].

قال رؤبة بن العجاج[٢]:

لله در الغانيات المُدّهِ ... سَبَّحن واسترجَعْن من تألّهي

أي من تعبدي وطلبي لله بعملي[٣].

وأصله «إله» حذفت منه الهمزة، وعوض منها حرف التعريف[٤].

ونظيره «الناس»، أصله «أناس». قال الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا[٥]

---

(١) انظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج ص(٢٥).

(٢) «جامع البيان» (١/ ١٢٣)، «معالم التنزيل» (١/ ٣٨)، «المحرر الوجيز» (١/ ٥٧)، «لسان العرب» مادة «أله»، «لباب التأويل» (١/ ١٣)، «بدائع الفوائد» (١/ ٢٢-٢٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠).

(٣) انظر: «ديوانه» ص(١٦٥).

(٤) انظر: «اشتقاق أسماء الله الحسنى» للزجاجي ص(٢٦-٤٢)، «الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس (٢/ ٤٣٣)، «الكشاف» (١/ ٦)، «الدر المصون» (١/ ٢٣-٢٩).

(٥) البيت لذي جرن الحميري، انظر: «اشتقاق أسماء الله الحسنى»ص (٣٢)، وانظر: «الكشاف» (١/ ٦).

واختار سيبويه أن أصله «لاه»، فدخلت الألف واللام للتعظيم[١].

وأنشدوا قول ذي الإصبع العدواني[٢]:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب ... عني ولا أنت دياني فتخزوني

قال الزمخشري[٣]: «الإله من أسماء الأجناس، اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، أما «الله» بحذف الهمزة فيختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره».

ومعنى «الله»: المألوه المعبود محبة وتعظيماً؛ أي المألوه المعبود بحق الذي تعبده الخلائق، وتتأله له محبة وتعظيمًا وخضوعًا له، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب[٤]، لما له من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال[٥]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٦]: «فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد».

وقال أيضًا[٧]: «الله هو الإله المعبود، فهذا الاسم أحق بالعبادة يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه، وما خلق له، وما فيه صلاحه وكماله، وهو عبادة الله، ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله».

والمراد: المألوه المعبود بحق؛ لأن غيره من المعبودات إلاهيتها ليست حقًّا، بل هي باطلة؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى مشتقان من الرحمة.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٢/ ١٩٥، ٣/ ٤٩٨).

(٢) انظر: «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص(٣٤)، «المفضليات» (١٦٠)، «مجالس العلماء» (٧١).

(٣) في «الكشاف» (١/ ٦).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٦).

(٥) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٣).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٨٨).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٢).

عن عبدالرحمن بن عوف، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله: أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسمًا من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته**»(١). فـ«الرحمن» و«الرحيم» مشتقان من الرحمة، و«الرحم» مشتقة من اسمه تعالى «الرحمن».

و«الرحمن» على وزن «فعلان»، و«الرحيم» على وزن «فعيل» كل منهما صفة مشبهة، ومن صيغ المبالغة. لكن «فعلان» أبلغ من «فعيل»؛ لأن صيغة «فعلان» تدل على الامتلاء، يقال: رجل غضبان أي ممتلئ غضبًا، ولهذا قُدِّم «الرحمن» على «الرحيم».

وكل منهما دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة العظيمة لله- تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ(٢) كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عند ولدها، خشية أن تصيبه**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق،**

---

(١) أخرجه أبوداود- في الزكاة- باب صلة الرحم (١٦٩٤)، والترمذي في البر والصلة- ما جاء في قطيعة الرحم (١٩٠٧)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (١/ ١٩١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، وأخرجه أحمد (٢/ ٤٩٨) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) قد يكون المراد بالرحمة في الآية الرحمة التي هي صفة ذاتية من صفات الله تعالى غير مخلوقة، وقد يراد بها الرحمة التي هي المطر فهذه رحمة مخلوقة هي من آثار رحمة الله التي هي من صفاته كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ : «**تحاجت الجنة والنار...**» وفيه قوله تعالى للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**... الحديث». أخرجه البخاري- في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم- في الجنة ونعيمها وأهلها (٢٨٤٦)، فالجنة من الرحمة المخلوقة.

(٣) أخرجه البخاري- في الأدب- باب جعل الله الرحمة في مائة جزء (٦٠٠٠)، ومسلم- في التوبة- باب سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٢). وأخرجه أيضًا من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه (٢٧٥٣).

كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»(٢).

وإذا اجتمع «الرحمن» مع «الرحيم» في مثل البسملة، والفاتحة، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢].

دلَّ «الرحمن» على إثبات صفة الرحمة الذاتية القائمة به سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧].

ودلَّ «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الفعلية لله- عز وجل- المتعلقة بالمرحوم- فهو تعالى فاعل الرحمة وموصلها إلى من شاء من خلقه؛ رحمة عامة بجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإسراء:٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

قال ابن القيم(٣) بعدما ذكر قول السهيلي: «وفائدة الجمع بين الصفتين «الرحمن» و«الرحيم» الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة... قال: وهو أن «الرحمن» دال على الصفة القائمة به سبحانه، و«الرحيم» دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ ﴿إِنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] (٣١٩٤)، ومسلم- في التوبة- سعة رحمة الله- تعالى، وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم في الباب السابق (٢٧٥٥).

(٣) في «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ ولم يجئ قط «رحمن بهم» فعلم أن «الرحمن» هو الموصوف بالرحمة، و«رحيم» هو الراحم برحمته...» اهـ.

أما إذا جاء كل منهما منفردًا عن الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، فإن كلاً منهما- بمفرده- يدل على إثبات صفة الرحمة لله تعالى، باعتبارها صفة ذاتية لله، وباعتبارها صفة فعلية له- عز وجل.

وكما أن الرحمة صفة ثابتة لله- عز وجل- ذاتية وفعلية فهي أيضًا تطلق على آثار هذه الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى:٢٨] وقال تعالى في الحديث القدسي للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك مَن أشاء**»(١).

والفرق بين «الرحمن» و«الرحيم» من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن بينهما عمومًا وخصوصًا، من حيث اللفظ، فـ«الرحمن» اسم خاص بالله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره بالإجماع(٢)، كاسم «الله»، و«الرزاق».

قال ابن القيم(٣): «ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك» يعني في نحو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن:١، ٢]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك:٢٠] وغير ذلك.

بل يعد «الرحمن» ثاني اسم من أسماء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ [الإسراء:١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف:٤٥].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٨٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٣٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٣٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٠٥-١٠٦).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٣-٢٤).

ولهذا لَمَّا تسمى مسيلمة بذلك تعنتًا وكفرًا أذله الله- تعالى.

قال ابن كثير[١]: «ولما تَجَهْرَمَ مسيلمة الكذاب، وتسمى برحمن اليمامة، كساه الله جلباب الكذب، وشَهَّرَ به، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب، بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب».

و«الرحيم» اسم عام يجوز أن يوصف به غير الله، كاسم «الرؤوف»، و«السميع»، و«البصير»، قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان:٢].

الوجه الثاني: أن بينهما عمومًا وخصوصًا من حيث المعنى[٢]، فـ«الرحمن» رحمة عامة لجميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، في الدنيا والآخرة.

فرحمته للمؤمنين في الدنيا هدايتهم للحق وإلى الطريق المستقيم، إلى غير ذلك من نعم الله عليهم، مما هو دون ذلك، ورحمته لهم في الآخرة إدخالهم جنات النعيم، ووقايتهم عذاب الجحيم.

ورحمته للكافرين، والبهائم في الدنيا، ما يتمتعون به من نعم الله، من الصحة والمآكل والمشارب ونحوها. ورحمته لهم في الآخرة العدل في حسابهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤، الإسراء:١٥، فاطر:١٨، الزمر:٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور:٢١] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[٣].

قال ابن كثير[٤]- بعد أن ذكر القول بأن «الرحمن» لجميع الخلق و«الرحيم»

---

(١) في «تفسيره»: (١/ ٤٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٢٧-١٢٩)، «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج ص(٢٨)، «مقاييس اللغة» مادة «رحم».

(٣) أخرج مسلم- في البر والصلة والأدب- باب تحريم الظلم (٢٥٨٢).

(٤) في «تفسيره» (١/ ٤٣).

بالمؤمنين- قال: «ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩]، وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]. قال ابن كثير: «فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته».

وقال الشنقيطي(١)- بعد أن ذكر كلام ابن كثير السابق قال: «ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ [الملك:١٩]. قال: أي: ومن رحمانيته لطفه بالطير، وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء، ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١-١٣]».

و«الرحيم» رحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب:٤٣](٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة:١١٧].

وهذا إنما يصح في حال اجتماع «الرحمن» و«الرحيم» فيؤخذ من «الرحمن» الرحمة العامة ومن «الرحيم» الرحمة الخاصة، أما في حال انفراد أحدهما عن الآخر، فيؤخذ من كل منهما إثبات الرحمة العامة والخاصة. ودليل العموم من «الرحيم» قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥](٣).

الوجه الثالث: أن «الرحمن» أبلغ من «الرحيم»(٤)؛ ولهذا، ولكونه أي: «الرحمن» أخص من «الرحيم» قُدِّم عليه «في البسملة والفاتحة، وقُدِّم عليهما لفظ الجلالة لأنه أخص منهما وأعرف، وهما وغيرهما من أسمائه تعالى تبع للفظ الجلالة «الله».

قال ابن كثير(٥): «بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛

---

(١) في «أضواء البيان» (١/ ٤٠).

(٢) انظر: «زاد المسير» (١/ ٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٠٥)، «أنوار التنزيل» (١/ ٧)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٣).

(٣) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٣١).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٣٣)، «الكشاف» (١/ ٦).

(٥) في «تفسيره» (١/ ٤٣).

لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص».

وقد كان اسم «الرحمن» معروفًا- والله أعلم- عند العرب قبل الإسلام، وقد ورد ذلك في أشعارهم.

كقول سلامة الجعدي(١):

عَجِلْــتُم علينــا عَجْلَتَيْنــا علــيكمُ ... ومــا يشــأ الــرحمنُ يَعْقِــدْ ويُطْلِــقِ

وقول الآخر:

ألا ضربــت تلــك الفتــاة هجينهــا ... ألا قضــب الــرحمن ربي يمينهــا(٢)

أما قوله تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان:٦٠].

وكذا قولهم في صلح الحديبية لما قال الرسول ﷺ لعلي: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» قالوا: «ما ندري ما الرحمن اكتب باسمك اللهم»(٣).

فذلك منهم محمول- والله أعلم- على الجحود والعناد، والتعنت في الكفر، كما قال كثير من المفسرين(٤).

* * *

(١) انظر: «ديوانه» ص(١٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٣١)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤).

(٣) أخرجه من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم- مطولاً- البخاري في الشروط- باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٢).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٣١)، «الكشاف» (١/ ٦)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤).

المبحث الثالث
هل البسملة آية مستقلة من القرآن الكريم أو من سورة الفاتحة، أو من كل سورة سوى براءة، أو ليست بآية؟

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على أقوال عدة، بعد إجماعهم على أنها بعض آية من سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ [النمل:٣٠] (١).

وفيما يلي ذكر خلاصة لأقوالهم، وأدلتهم في هذه المسألة(٢).

القول الأول:

أن البسملة ليست آية من القرآن الكريم مطلقًا(٣)، إلا في سورة النمل فهي بعض آية منها. وإنما كتبت البسملة في أوائل السور للاستفتاح بها، والابتداء والتبرك بها، والتيمن، والفصل بين السور.

وهذا القول يُروى عن قراء المدينة والبصرة والشام(٤)، وهو قول الإمام مالك(٥) وعبدالله بن معبد(٦)، ونُسب لأبي حنيفة، وبعض أصحابه(٧)، والأوزاعي(٨)، وحُكي رواية

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٨، ١٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٢)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٨)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٤)، «النشر» (١/ ٢٧١).

(٢) هناك أقوال تركتها لضعفها، أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة أقوال.

(٣) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» لابن الباذش (١/ ١٦٣).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٨)، «الكشاف» (١/ ٤)، «تفسير النسفي» (١/ ١).

(٥) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٢)، «المحرر الوجيز» (١/ ٥٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٣).

(٦) انظر: «المغني» (٢/ ١٥٢).

(٧) انظر: «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٤-٢٠٥)، «نصب الراية» (١/ ٣٢٧).

(٨) انظر: «المغني» (٢/ ١٥٢).

عن الإمام أحمد[١]، لكن قال ابن تيمية[٢]: «لا يصح هذا عنه، وإن كان قولاً في مذهبه».

واختاره الباقلاني[٣].

ولم أقف على دليل صحيح صريح لهذا القول، ولا على تعليل مقبول إلا التمسك بأدلة وأحاديث لا تدل عليه، كحديث أنس بن مالك وعائشة- رضي الله عنهما[٤]- وما في معناهما من الأدلة، التي فيها: أن الرسول ﷺ وخلفاءه كانوا يستفتحون القراءة، أو الصلاة بالحمد لله رب العالمين... وسيأتي ذكر هذه الأحاديث- إن شاء الله- في القول الرابع من هذه الأقوال، وبيان أن غاية ما تدل عليه هذه الأحاديث أنهم كانوا لا يجهرون بالبسملة، لا أنهم يتركونها، وليس عدم الجهر بها مما يخرجها من القرآن، كما زعم بعض من ذهب إلى هذا القول[٥].

وقد احتج ابن العربي[٦] لهذا القول بأن مسجد الرسول ﷺ بالمدينة من لدن رسول الله ﷺ إلى زمان الإمام مالك لم يقرأ فيه أحد قط (بسم الله الرحمن الرحيم) اتباعًا للسُّنَّة. وهذا إن أراد به أنهم لا يجهرون بها فصحيح، وأما إن أراد أنهم لا يقرؤونها أبدًا لا سرًّا ولا جهرًا فالجواب عنه هو الجواب عن احتجاجهم بحديث عائشة وأنس المشار إليهما وأن ذلك محمول على أنهم يسرون بها لا أنهم يتركونها.

كما احتج الباقلاني[٧] والقرطبي[٨] لهذا القول بأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، ولا تواتر هنا فيجب القطع بنفي كونها من القرآن.

وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية[٩] عن هذا بقوله: «والتحقيق أن هذه الحجة

---

(١) انظر: «المغني» (٢/ ١٥١-١٥٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٤-٤٣٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٢).

(٤) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٤-١٧٥، ١٨٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٥).

(٥) انظر: «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٦) في: «أحكام القرآن» (١/ ٣).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٢).

(٨) في: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٣).

(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٢-٤٣٣).

مقابلة بمثلها، فيقال لهم: بل يقطع بكونها من القرآن حيث كتبت كما قطعتم بنفي كونها ليست منه- ومثل هذا النقل المتواتر عن الصحابة بأن ما بين اللوحين قرآن، فإن التفريق بين آية وآية يرفع الثقة بكون القرآن المكتوب بين لوحي المصحف كلام الله، ونحن نعلم بالاضطرار أن الصحابة الذين كتبوا المصاحف نقلوا إلينا أن ما كتبوه بين لوحي المصحف كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ لم يكتبوا فيه ما ليس من كلام الله...».

ويكفي في ضعف هذا القول: أن فيه القول على الصحابة- رضي الله عنهم- أنهم أودعوا المصحف ما ليس من كلام الله، على سبيل التبرك[١].

قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «سنن الترمذي»[٢]، بعد أن ذكر الخلاف في هذه المسألة: «القول الذي زعموا نسبته إلى مالك، ومن معه في أنها ليست آية أصلاً قول لا يوافق قاعدة أصولية ثابتة، ولا قراءة صحيحة».

القول الثاني:

أنها آية من سورة الفاتحة فقط.

وهذا القول مروي عن طائفة من السلف، منهم سعيد بن جبير[٣]، وأكثر القراء والفقهاء من أهل مكة[٤]والكوفة[٥]، وهو قول للشافعي[٦]، ورواية عن الإمام أحمد[٧]، ورُوي عن إسحاق[٨]، وأبي عبيد[٩]، وأبي ثور[١٠]، ومحمد بن كعب القرظي،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٦).

(٢) (٢/ ٢٢).

(٣) أخرجه عنه عبدالرزاق- في الصلاة- باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم (٢٦٠٩).

(٤) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٤١)، «النشر» (١/ ٢٧٠).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٩)، «النشر» (١/ ٢٧٠).

(٦) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «المجموع» (٣/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٧) انظر: «التحقيق» لابن الجوزي (١/ ٢٩٢)، «المغني» (٢/ ١٥١)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٥، ٤٤٢).

(٨) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٦)، «المغني» (٢/ ١٥١).

(٩) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٦)، «المغني» (٢/ ١٥١).

(١٠) أخرجه عن أبي ثور ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٧٦).

والزهري[١] وعطاء[٢]، وغيرهم[٣].

واستدلوا لهذا القول بأدلة منها:

١- إثباتها في المصاحف في الفاتحة، وعدها من آياتها.

٢- ما جاء عن أم سلمة- رضي الله عنها- أنها سُئلت عن قراءة النبي ﷺ فقالت: «**كان يقطع قراءته آية آية، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم**»[٤].

ووجه استدلالهم من هذا الحديث: أن الرسول ﷺ قرأ البسملة مع الفاتحة، قالوا: فدل هذا على أنها آية منها.

والجواب عن هذا: أنه لا يلزم من قراءتها مع الفاتحة أن تكون منها، إذ لو لزم هذا للزم أن تكون آية من كل سورة؛ لأنها تقرأ مع كل سورة، كما هو مثبت معلوم.

٣- وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: «**كانت مدًّا، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم**»[٥].

قالوا: فقراءة النبي ﷺ للبسملة بالمدّ تدل على أنها آية من القرآن إذ لو لم تكن آية من القرآن لما قرأها الرسول ﷺ بالمد كما يقرأ القرآن.

وهذا الاستدلال صحيح في الرد على الذين ينفون أن تكون البسملة آية من القرآن مطلقًا- لكن لا يلزم من قراءة الرسول ﷺ لها بالمد، كما يقرأ القرآن أن تكون آية من سورة الفاتحة[٦]، ولا من غيرها، فالحديث يدل على أنها آية تقرأ- وهذا صحيح- لا أنها آية من سورة الفاتحة، أو من غيرها من السور.

---

(١) أخرجه عنهما- أبوعبيد في «فضائل القرآن» ص(١١٤-١١٥).

(٢) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٥١).

(٤) أخرجه أبوداود- في الحروف- الباب الأول (٤٠٠١)، وأحمد (٦/ ٣٠٢)، والدارقطني في الصلاة- وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، والجهر بها حديث (٣٧) وقال: «إسناده صحيح وكلهم ثقات»، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٩٢٧).

(٥) أخرجه البخاري في «فضائل القرآن»- باب مد القراءة (٥٠٤٦)، وقد أخرجه مختصرًا دون ذكر «ثم قرأ إلى آخره» أبوداود (١٤٦٥)، والنسائي (٩٧٠)، وابن ماجه (١٣٥٣)، وأحمد (٣/ ١١٩، ١٩٢).

(٦) انظر: «فتح الباري» (٩/ ٩١).

٤- حديث نعيم بن المجمر قال: «**صليت وراء أبي هريرة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ (ولا الضالين) فقال: «آمين»، فقال الناس: «آمين»، ويقول كلما سجد: الله أكبر، وإذا قام من الجلوس في الاثنتين قال: الله أكبر، وإذا سلم قال: والذي نفسي بيده، إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ**».

ووجه استدلالهم من هذا الحديث أن أبا هريرة قرأ البسملة مع أم القرآن، ورفع ذلك إلى النبي ﷺ حيث قال في آخر الحديث: «والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ». وهذا الحديث ضعفه جمع من أهل العلم(١).

وأيضًا لو صح هذا الحديث فليس فيه ما ينص صراحة على أن البسملة من الفاتحة، وغاية ما فيه أن يكون أبوهريرة قرأ البسملة مع الفاتحة سواء كان ذلك جهرًا أم سرًّا، ولا يلزم من قراءتها مع الفاتحة على أي حال أن تكون منها- كما تقدم في الجواب عن استدلالهم بحديث أم سلمة.

٥- ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأتم الحمد، فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها**»(٢).

والصواب أن هذا الحديث موقوف من كلام أبي هريرة، كما ذكر أهل العلم(٣) قال الزيلعي(٤) بعدما صوَّب وقف الحديث على أبي هريرة: «فإن قيل: إن هذا موقوف في حكم المرفوع إذ لا يقول الصحابي إن البسملة إحدى آيات الفاتحة إلا عن توقيف أو دليل قوي ظهر له... قلت: لعل أبا هريرة سمع النبي ﷺ يقرأها فظنها من الفاتحة... وأبوهريرة لم يخبر عن النبي ﷺ أنه قال: هي إحدى آياتها

---

(١) سيأتي تخريج هذا الحديث، وذكر كلام أهل العلم في تضعيفه في حكم البسملة من حيث الجهر بها والإسرار.

(٢) أخرجه الدارقطني- في الصلاة- باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم- حديث (٣٦)، والبيهقي- في الصلاة- (٢/ ٤٥)- كلاهما من طريق أبي بكر الحنفي، عن عبدالحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال أبوبكر الحنفي: «ثم لقيت نوحًا، فحدثني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة ولم يرفعه» وقد ذكر الزيلعي كلام الأئمة عليه وصوب وقفه. «نصب الراية» (١/ ٣٤٣).

(٣) انظر: «التحقيق» لابن الجوزي (١/ ٢٩٣-٢٩٨).

(٤) «في نصب الراية» (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

وقراءتها قبل الفاتحة لا يدل على ذلك».

وقال أيضًا: «فالمحفوظ الثابت عن سعيد المقبري عن أبي هريرة في هذا الحديث عدم ذكر البسملة كما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله هي أم القرآن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم**»[١]» .

القول الثالث:

أنها آية أو بعض آية من كل سورة سوى سورة براءة، وقد نُسب هذا القول لقراء مكة والكوفة وفقهائهما[٢].

وحُكي هذا القول عن ابن عباس وابن عمر، وابن الزبير، وأبي هريرة، من الصحابة، ومن التابعين: عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري[٣].

وهو المشهور من مذهب الشافعي[٤]، ورواية عن الإمام أحمد[٥]، ونُسب لأبي حنيفة[٦]، وسفيان الثوري[٧]، وعبدالله بن المبارك[٨]، وإسحاق بن راهويه[٩]، وأبي عبيد[١٠]، والأوزاعي[١١].

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها ما يلي:

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥).

(٤) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٣٢-٣٣٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥)، «كتاب البسملة الصغير» لأبي شامة (٢/ أ)، «رسالة الصبان الكبرى في البسملة» (٢٧/ أ).

(٥) انظر: «المسائل الفقهية» (١/ ١١٨).

(٦) انظر: «النشر» (١/ ٢٧٠).

(٧) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٩).

(٨) انظر: «المبسوط» (١/ ١٥)، «معالم التنزيل» (١/ ٣٩)، «المغني» (٢/ ١٥١).

(٩) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥)، «كتاب البسملة الصغير» لأبي شامة (٢/ أ).

(١٠) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥).

(١١) انظر: «كتاب البسملة الصغير» لأبي شامة (٢/ ب).

١- ثبوت البسملة في المصاحف، بخط المصحف، مع كل سورة، سوى براءة، مما يدل على أنها آية، أو بعض آية من كل سورة[١].

والجواب: أنه لا يلزم من ثبوتها في المصاحف مع كل سورة، بل لا يلزم من قراءتها مع كل سورة أن تكون آية منها، فهناك سور ثبت بالسنة وباتفاق العادين عدد آياتها، من غير احتساب البسملة منها كما سيأتي في ذكر أدلة القول الرابع.

٢- ما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «أغفى النبي ﷺ- أغفاءة- ثم تبسم ضاحكًا، فقال: «**أنزل علي آنفًا سورة ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ إلى آخر السورة»[٢].

ووجه استدلالهم من هذا الحديث: أن البسملة آية أنزلت مع سورة الكوثر، فهي كذلك آية، أو بعض آية من كل سورة تنزل معها وتعد منها.

والجواب عن هذا أن يقال: صحيح أن البسملة تنزل مع كل سورة، لكن لا يلزم من نزولها مع السورة أن تكون آية منها، ولهذا اتفق العادون على أن سورة الكوثر ثلاث آيات، بدون البسملة. فالذين قالوا: البسملة آية مستقلة أسعد بهذا الدليل، من أصحاب هذا القول، كما سيأتي بيان ذلك.

٣- كما استدلوا- أيضًا- بحديث أم سلمة السابق[٣]، الذي فيه أن النبي ﷺ كان يقطع قراءته آية آية: «**بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم**».

ووجه استدلالهم به أن النبي ﷺ قرأ البسملة مع الفاتحة، مما يدل على أنها آية منها، وكذلك ينبغي أن تكون آية من سائر السور سوى براءة؛ لأنها مثبتة مع سائر السور، كما أثبتت في الفاتحة فهي آية من كل سورة، ينبغي أن تقرأ معها سواء الفاتحة وغيرها.

والجواب: أن هذا الحديث إنما يدل على أنه ﷺ يقرأ البسملة مع الفاتحة، ولا يدل على أنها آية منها- كما تقدم بيانه- فكيف تكون آية من غيرها!

٤- كما استدلوا- أيضًا- بحديث أنس- السابق- أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ

---

(١) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٩)، «لباب التأويل» (١/ ١٥)، «كتاب البسملة الصغير» لأبي شامة (٣/ ب).

(٢) سيأتي هذا الحديث بتمامه وتخريجه وانظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٩).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١)، «المبسوط» للسرخسي (١/ ١٦)، «المغني» (٢/ ١٥٣).

فقال: «**كانت مدا، يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم**».

ووجه استدلالهم بهذا الحديث أن النبي ﷺ قرأ البسملة مدًا، كما تمد آيات القرآن، مما يدل على أنها آية، أو بعض آية من كل سورة سوى براءة.

والجواب أن يقال: صحيح أن البسملة آية، وأن الرسول ﷺ قرأها بالمد- كما تقرأ آيات القرآن، لهذا الحديث ولغيره، لكن لا يلزم من ذلك أن تكون آية أو بعض آية من كل سورة. وقد يحتمل أن أنسًا- رضي الله عنه- ذكر هذا من باب التمثيل للسائل لكيفية قراءة النبي ﷺ[١].

٥- كما استدلوا بحديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم**»[٢].

وكأنهم أخذوا من نزول البسملة مع السورة أن تكون آية منها، وهذا ليس بلازم، كما سيأتي بيان هذا في القول الرابع.

القول الرابع:

أن البسملة آية مستقلة من القرآن، وليست من السور، وإنما هي آية تنزل مع كل سورة، للفصل بينها وبين التي قبلها، سوى براءة.

وهذا قول طائفة من أهل العلم، منهم الإمام أحمد، في المنصوص الصريح عنه[٣]، وعبدالله بن المبارك[٤]، ومحمد بن الحسن الشيباني[٥]، وأبوالحسن الكرخي[٦]، وأبوبكر الرازي[٧]، .....

---

(١) انظر: «فتح الباري» (٩/ ٩١).

(٢) سيأتي تخريجه، وانظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٩).

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية النيسابوري (١/ ٥٢)، «المسائل الفقهية» (١/ ١١٨)، «المغني» (٢/ ١٥٢، ١٥٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٥٣، ٤٠٦، ٤٣٤، ٤٣٨-٤٣٩)، وانظر: (١٣/ ٤١٨).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى».

(٥) انظر: «المبسوط» (١/ ١٦).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٩٠٨)، «نصب الراية» (١/ ٣٢٧).

(٧) انظر: «المبسوط» (١/ ١٥-١٦)، «الاستذكار» (٢/ ١٧٦).

وداود الظاهري[١]، وغيرهم. واختاره الطبري فيما يظهر من كلامه[٢] واختاره ابن خزيمة[٣]، والجصاص[٤]، وابن قدامة[٥]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[٦]، والزيلعي[٧].

وهذا القول هو أصح الأقوال، وهو الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة الصريحة ومنها ما يلي:

١- إجماع الصحابة- رضوان الله عليهم- على إثباتها في المصحف، وكتابتهم لها بخطه، وقلمه، فنقلت نقله، كما نقلت في سورة النمل، فلا يجوز الخروج عن إجماعهم، وذلك لأنهم جردوا المصحف عن غير الآيات القرآنية، كالتفسير ونحوه[٨].

٢- ما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أنزلت عليَّ آنفًا سورة. فقرأ:** بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾»[٩].

ووجه الدلالة في هذا الحديث على أن البسملة آية مستقلة من القرآن، أن الرسول ﷺ قرأ بها وأخبر أنها أنزلت مع هذه السورة. ولم تعد آية منها، فقد أجمع الناس على أن سورة الكوثر ثلاث آيات، بدون (بسم الله الرحمن الرحيم)[١٠]، كما أجمعوا على أن

---

(١) انظر: «المحلى» (١٣/ ٢٥١).

(٢) في «جامع البيان» (١/ ١٠٩، ١٤٦-١٤٧).

(٣) في «صحيحه» (١/ ٢٤٩، ٢٥١).

(٤) في «أحكام القرآن» (١/ ٨-١٢).

(٥) في «المغني» (٢/ ١٥٣).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٦، ٣٥٠، ٤٠٦).

(٧) في: «نصب الراية» (١/ ٣٤٣).

(٨) انظر: «الكشاف» (١/ ٢١)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٣).

(٩) أخرجه مسلم- في الصلاة- باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠)، وأبوداود- في الصلاة- من لم ير الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم (٧٨٤)، والنسائي- في الافتتاح- باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم (٨٦٩).

(١٠) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١)، «المبسوط» (١/ ١٦)، «المغني» (٢/ ١٥٣).

الإخلاص أربع آيات بدون البسملة(١).

٣- ما رواه عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة، حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم**»(٢).

فكونها تنزل يدل على أنها آية من القرآن، وكونها للفصل بين السور يدل على أنها ليست من السور، وإنما هي آية مستقلة(٣).

٤- ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك**»(٤).

قال: فهذا الحديث يدل على أن البسملة ليست آية من السور من وجهين:

الوجه الأول: أنه ﷺ ابتدأ سورة الملك، بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك:١] دون البسملة، مما يدل على أن البسملة ليست من السورة.

الوجه الثاني: أن أهل العلم، والعادين لآيات القرآن اتفقوا على أن سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثلاثون آية بدون البسملة(٥).

٥- ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**من صلَّى صلاة لم يقرأ فيها بأُم القرآن فهي خداج- ثلاثًا، غير تمام**» فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال: مجدني عبدي،**

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١).

(٢) أخرجه أبوداود- في الصلاة- من جهر بالبسملة (٧٨٨)، قال ابن كثير (١/ ٣٤)، «إسناده صحيح».

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٦، ٣٥٠، ٣٥١، ٤٠٦، ٤٣٩).

(٤) أخرجه الترمذي- في فضائل القرآن- ما جاء في فضل سورة الملك (٢٨٩١)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه- في الأدب- باب ثواب القرآن (٣٧٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٩٩، ٣٢١)، وصححه الألباني.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٧، ٤٣٩)، وانظر: «التحقيق» لابن الجوزي (١/ ٢٩٣).

وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»(١).

قالوا: فهذا الحديث كسابقه، يدل على أن البسملة ليست آية من الفاتحة من وجهين:

الوجه الأول: أن الله تعالى بدأ الفاتحة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولو كانت البسملة آية من الفاتحة لابتدأ بها، وعدّها آية منها(٢).

الوجه الثاني: أن الله جعل الفاتحة بينه وبين عبده نصفين، وهي سبع آيات، باتفاق أهل العلم المعتد بقولهم، كما جعل تعالى الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ بينه وبين العبد، وهي منتصف السورة، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وما قبله ثلاثة آيات ونصف، حمد وثناء وتمجيد وعبادة للرب، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وما بعده ثلاث آيات ونصف للعبد دعاء ومسألة ويكون قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ هو الآية الخامسة، وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو الآية السادسة، وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ هو الآية السابعة، وبهذا يتحقق التنصيف للفاتحة بين الرب، وبين العبد، ولو كانت البسملة آية من الفاتحة لم يتحقق التنصيف، ولكان قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وما قبله أربع آيات ونصف آية. وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وما بعده اثنتين ونصفًا، فلا يتحقق التنصيف بل يكون ما للرب في هذه القسمة أكثر مما للعبد،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٥)، وأبوداود- في الصلاة- باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٨٢١)، والنسائي- في الافتتاح- باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب (٨٧٢)، والترمذي- في التفسير- باب ومن سورة فاتحة الكتاب (٢٩٥٣)، وابن ماجه- في إقامة الصلاة- باب القراءة خلف الإمام- مختصرًا دون قوله: «سمعت رسول الله ﷺ... إلى آخره» (٨٣٨)، وأخرجه البيهقي برواياته في «جزء القراءة خلف الإمام» حديث (٤٩-٨٦).

(٢) انظر: «المبسوط» (١/ ١٦)، «الاستذكار» (٢/ ١٧٢)، «التحقيق» (١/ ٢٩٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٤٠).

وهذا خلاف نص قوله تعالى في الحديث: «**قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين**»(١).

قال ابن عبدالبر في «الاستذكار»(٢): «وأما قوله في هذا الحديث: «**قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل**» قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا، يقول العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فبدأ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فهذا أوضح شيء وأبينه أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليست آية من الفاتحة؛ لأن رسول الله ﷺ بدأ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فجعلها آية، ثم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. فهذه ثلاث آيات لم يختلف فيها المسلمون.

وجاء في هذا الحديث أنها له تبارك اسمه، ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده، ثم ثلاث آيات لعبده تتمة سبع آيات. فهذا يدل على أن ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية ثم الآية السابعة إلى آخر السورة. وهكذا تكون نصفين بين العبد، وبين ربه؛ لأنه قال في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ إلى آخر السورة: فهؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل، وهؤلاء إشارة إلى جماعة من يعقل، وما لا يعقل، وأقل الجماعة ثلاثة، فعلمنا بقوله (هؤلاء) أنه أراد هؤلاء الآيات، والآيات أقلها ثلاث؛ لأنه لو أراد اثنتين لقال: هاتان، ولو أراد واحدة لقال: هذه بيني وبين عبدي، وإذا كان من قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ إلى آخر السورة ثلاث آيات كانت السبع آيات، من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ وصحت قسمة السبع على السواء، ثلاث وثلاث، وآية بينهما...

وأجمع القرّاء والفقهاء على أنها سبع آيات إلا أنهم اختلفوا فمن جعل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية من فاتحة الكتاب لم يعد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، ومن لم يجعل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية عد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وهو عدد أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة، وأما أهل مكة وأهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهم عدوا فيها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية، ولم يعدوا ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا الحديث أبين ما يُروى عن

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٤).

(٢) (٢/ ١٧٢-١٧٤)، وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٩-١٠)، «المبسوط» (١/ ١٦)، «المغني» (٢/ ١٥٢).

النبي ﷺ في سقوط ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من آي فاتحة الكتاب، وهو قاطع لموضع الخلاف...».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «فهذا الحديث صحيح صريح في أنها ليست من الفاتحة، ولم يعارضه حديث صحيح صريح».

قلت: وإذا كانت البسملة ليست من الفاتحة، فليست من غيرها من السور من باب أولى.

٦- حديث- عائشة رضي الله عنها- الطويل في قصة بدء الوحي، وفيه أن أول ما جاءه الملك قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق:١-٣](٢).

قال ابن تيمية(٣)- بعدما أشار إلى هذا الحديث: «فهذا أول ما نزل ولم ينزل قبل ذلك ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾».

وقال في موضع آخر(٤): «فالذين قالوا ليست من السورة قالوا: إن جبريل لما أتى النبي ﷺ لم يأمره بقراءتها، بل أمره أن يقرأ: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ ولو كانت هي أول السورة لأمره بها».

٧- حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «**صليت خلف النبي ﷺ، وخلف أبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم، لا في أول قراءة ولا في آخرها**»(٥).

٨- حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين**»(٦).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٧-٢٧٨)، وانظر: (٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري- في بدء الوحي (٣)، ومسلم- في الإيمان (١٦٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٧).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٤٩).

(٥) سيأتي تخريجه.

(٦) أخرجه مسلم- في الصلاة- باب ما يجمع صفة الصلاة (٤٩٨)، وأبوداود- في الصلاة- باب من لم يجهر =

٩- حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا نهض من الركعة الثانية استفتح القراءة بالحمد لله رب العالمين، ولم يسكت**»(١).

وهذه الأحاديث الثلاثة، حديث أنس برواياته، وحديث عائشة، وحديث أبي هريرة كلها تدل- كما سيأتي بيان ذلك- على أن الرسول ﷺ وخلفاءه، كانوا لا يجهرون بالبسملة، لا أنهم يتركونها- كما زعم بعضهم.

أما ما وجه الدلالة فيها على أن البسملة آية مستقلة؟ فهو كونهم لم يجهروا بها، كبقية آيات الفاتحة إذ لو كانت آية منها لما فرقوا بينها وبين بقية آيات هذه السورة(٢)، وإذا لم تكن آية من الفاتحة فالأولى أن لا تكون آية من غيرها من السور.

١٠- قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة، إذ لو كانت منها لكان فيها تكرار قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والأصل عدم التكرار(٣)، غالبًا(٤).

١١- أن جعل قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ آية واحدة بهذا الطول لا يناسب بقية الآيات، إذ إن غالب السور تكون آياتها متناسبة من حيث الطول والقصر، مما يقوي القول بأن هذه الآية آيتان، وأن البسملة ليست من آيات الفاتحة خلافًا للعدد الموجود في المصاحف.

وإذا لم تكن آية من الفاتحة فالأولى أن لا تكون آية من غيرها من السور.

١٢- كما يُقال أيضًا لمن يقول: إنها آية من الفاتحة فقط.

إن الفاتحة سورة من سور القرآن، والبسملة مكتوبة في أولها كلها، فلا فرق بينها وبين غيرها من السور في مثل ذلك. قال ابن تيمية(٥): «وهذا أظهر وجوه الاعتبار».

=

ببسم الله الرحمن الرحيم (٧٨٣).

(١) أخرجه مسلم- في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٩، ٤٤١).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٤٦-١٤٧).

(٤) لأن بعض السور جاء فيها تكرار بعض الآيات لحِكَم منها ما هو معلوم، ومنها ما لا يعلمه إلا الله، من ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فقد جاءت في واحد وثلاثين موضعًا في هذه السورة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فقد جاءت في عشرة مواضع من سورة المرسلات.

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٤١).

قال القاضي أبويعلى[١]: «إن أكثر أهل العلم وجمهورهم على أن قراءتها مستحبة فقط، وهذا يدل على أنها ليست من الفاتحة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «وهو قول سائر من حقق القول في هذه المسألة، وتوسط فيها، وجمع بين مقتضى الأدلة وكتابتها سطرًا مفصولاً عن هذه السورة».

وقال أيضًا: «وهذا أعدل الأقوال»[٣].

* * *

(١) في «المسائل الفقهية» (١/ ١١٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٩)، وانظر أيضًا: (٢٧٦، ٢٧٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٤٠٦، ٤٢١، ٤٣٨-٤٣٩).

المبحث الرابع
السبب في عدم كتابة البسملة في مطلع سورة براءة

أجمع المسلمون على ترك الفصل بالبسملة بين سورة الأنفال وسورة براءة لإجماع المصاحف على ترك التسمية بينهما[١].

وإذا ابتدأ القارئ بسورة براءة، فإنه يتعوّذ فقط، كما لو قرأ من وسطها[٢].

وقد اختلف في السبب الذي من أجله تركت البسملة في مطلع سورة براءة.

فذهب قوم إلى أن السبب هو كما جاء في حديث ابن عباس[٣] عن عثمان- رضي الله عنهم- من أن النبي ﷺ لم يبين لهم في شأنها شيئًا، وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال، فقرنوا بينهما، ولم يكتبوا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقد اختار هذا الطحاوي[٤]، وصححه ابن العربي[٥].

وقيل: إن ذلك من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضه كتبوا لهم كتابًا، فلم يكتبوا فيه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فلما نزلت براءة بنقض

---

(١) انظر: «التبصرة» لمكي ص(٢٤٨)، «العنوان في القراءات السبع» ص(٧٥)، «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٧)، «النشر» (١/ ٢٦٤).

(٢) في حال الوصل: الأولى الوقف بين الأنفال وبراءة، لأن أواخر السور من أتم التمام، ويجوز الوصل بينهما، ويجوز السكت. وكذا لو وصل براءة بالفاتحة، أو بالأعراف أو بغيرهما من السور، انظر: «النشر» (١/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٣) حديث ابن عباس أخرجه- أبوداود- في الصلاة- باب من جهر بالبسملة (٧٨٦-٧٨٧)، والترمذي- في تفسير سورة التوبة (٣٠٨٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (١/ ٥٧)، والحاكم (٢/ ٣٣٠-٣٣١)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقد ضعف أحمد شاكر هذا الحديث في شرحه للمسند (٣٩٩)، كما ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٦٨، ١٦٩)، وفي «ضعيف سنن الترمذي» (٥٩٩).

(٤) في «مشكل الآثار» (٢/ ١٥٥).

(٥) في «أحكام القرآن» (٢/ ٨٩١-٨٩٢).

العهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين- بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- فقرأها عليهم في الموسم، ولم يبسمل على ما جرت به عادتهم.

وقيل: لأن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان، روي هذا عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه(١).

وقيل: لأن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رحمة، وبراءة سخط.

وقيل: تركت التسمية، إعظامًا لبسم الله الرحمن الرحيم، من خطاب المشركين.

وهذا فيه نظر لأنه ورد في القرآن سور فيها خطاب المشركين ومع هذا بدئت بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ منها سورة النبأ وسورة الكافرون، وسورة المسد وغير ذلك.

وقيل: لأنهم اختلفوا هل هما سورتان، أو سورة واحدة، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: إنهما سورتان، وتركت ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لقول من قال: إنهما سورة واحدة، فرضي الفريقان، وثبتت حجتاهما في المصحف(٢).

قال القرطبي(٣): «والصحيح أن التسمية لم تكتب لأن جبريل- عليه السلام- لم ينزل بها في هذه السورة، قاله القشيري».

قلت: وما ذكره القرطبي عن القشيري، هو الذي تطمئن إليه النفس، بل يجب الجزم به، وهو أن جبريل لم ينزل بالبسملة مع هذه السورة، ولو نزلت مع هذه السورة لحفظت مع ما حفظ، ونقلت إلينا، تحقيقًا لوعد الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩].

ولما لم تنقل علمنا يقينًا لا يخالجه شك أنها لم تنزل مع هذه السورة؛ لأن الله تكفل بحفظ القرآن، وقد وصل إلينا بحمد الله كاملاً محفوظًا بحفظ الله، وهذا الذي يجب أن يعتقده كل مسلم.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٧٢)، «مشكل الآثار» (٢/ ١٥٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٨٩١-٨٩٢)، «زاد المسير» (١/ ٣٨٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٦١-٦٣)، «البرهان» للزركشي (١/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٦٣).

أما ما رُويَ عن ابن عباس عن عثمان- رضي الله عنهم- أن النبي ﷺ لم يبين لهم في شأن البسملة مع سورة براءة شيئًا، وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال، فقرنوا بينهما، ولم يكتبوا ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾- فالحديث في هذا ضعيف- كما تقدم بيان ذلك.

أما القول بأن الصحابة اختلفوا، هل الأنفال وبراءة سورة واحدة، أو سورتان... إلخ فإن الصحابة- رضوان الله عليهم- إنما أشكل عليهم- فيما رُويَ عنهم، هل براءة سورة مستقلة أو هي من سورة الأنفال، ولهذا فصلوا بينهما. أما أن هناك شكًّا في نزول البسملة مع هذه السورة أم لا فلا شك بل يجب القطع بأن ما وصل إلينا بين دفتي المصحف هو القرآن بكامله، من غير زيادة أو نقصان.

أما بقية الأقوال التي قيلت في عدم ذكر البسملة والتي سبق ذكر جملة منها، فكلها يمكن حملها على البحث عن العلة، والسبب في عدم نزول البسملة مع هذه السورة، فهي مجرد تعليلات، تقبل حينًا وترد أحيانًا، وهي مجرد التماس للحكمة وللعلة في عدم نزولها مع هذه السورة، والتعليل قد يكون عليلاً، فالأولى- والله أعلم- التوقف في هذا.

* * *

المبحث الخامس
حكم قراءة البسملة في غير الصلاة

أجمع أهل العلم على مشروعية التسمية، واستحبابها بعد الاستعاذة، تقديمًا للتخلية على التحلية عند قراءة أول السورة في غير الصلاة، سواء في ذلك سورة الفاتحة، أو غيرها من السور سوى سورة براءة[١]؛ لأنها آية من القرآن الكريم، نزلت مع كل سورة سوى براءة.

لكن اختلف القراء في قراءتها في حال الوصل بين السور، فقرأ ابن كثير، وقالون، وعاصم، والكسائي بالفصل بالتسمية بين السور، سوى الأنفال وبراءة[٢].

ورُويَ عن بعض القراء تركها في الوصل منهم حمزة، وروي عن ورش الفصل وعدمه، واختلف عن الباقين، وهم: خلف وأبوعمرو وابن عامر ويعقوب ونافع، بين الفصل بالبسملة والوصل بين السورتين، أو السكت بينهما[٣].

والأولى الفصل بالتسمية بين جميع السور سوى سورة براءة، فلا يفصل بالتسمية بينها وبين ما يقرأ قبلها من السور سواء سورة الأنفال أو غيرها- لأن الله أنزل التسمية مع كل سورة سوى سورة براءة، وكذا لو كرر السورة فوصل بين آخرها وأولها فالأولى الفصل بالبسملة[٤]- وإن كانت ليست آية من كل سورة- كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «**كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة، حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن**

---

(١) انظر: «التبصرة» لمكي ص(٢٤٩-٢٥٠)، «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٥)، «النشر» (١/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) انظر: «التبصرة» لمكي ص(٢٤٦)، «العنوان في القراءات السبع» ص(٦٥)، «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٨)، «النشر» (١/ ٢٥٩).

(٣) انظر: «التبصرة» لمكي ص(٢٤٧-٢٤٨)، «العنوان في القراءات السبع» ص(٦٥)، «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٨-١٦٢)، «النشر» (١/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٤) انظر: «النشر» (١/ ٢٧٠).

الرحيم»[١]، ولأن ذلك هو الموافق لرسم المصحف، ومن شرط صحة القراءة موافقتها لرسم المصحف[٢]، باتفاق أهل العلم، ولهذا فأكثر القراء على الفصل بها بين السور، وكل من رُويَ عنه الوصل فقد رُويَ عنه خلافه.

والأولى: في حال الابتداء بأول السورة أن يَستعيذ ثم يقف، ثم يُسمي ويقف، ثم يشرع في أول السورة؛ لأن الوقف على الاستعاذة تام، وكذا الوقف على البسملة، ولأن الثابت أن الرسول ﷺ كما في حديث أم سلمة- رضي الله عنها- أنه كان يقطع قراءته آية آية[٣].

ويجوز أن يصل الاستعاذة بالبسملة، ثم يقف، ثم يشرع بأول السورة، ويجوز أن يستعيذ ثم يقف، ثم يسمي ويصل البسملة بالسورة، ويجوز وصل الجميع، وصل الاستعاذة بالبسملة، ووصل البسملة بالسورة[٤].

وفي حال الوصل بين سورة وأخرى الأولى الوقف على نهاية السورة الأولى؛ لأن أواخر السور من أتم التمام، ثم يسمى ويقف، ثم يبتدئ بأول السورة الأخرى، سواء كانت السورتان متواليتين في ترتيب المصحف أم غير متواليتين.

ويجوز أن يقف على آخر السورة، ثم يبسمل، ويصل البسملة بأول السورة الأخرى، ويجوز وصل آخر السورة بالبسملة ووصل البسملة بأول السورة الأخرى، وهو دون الثاني.

ويمتنع وصل البسملة بآخر السورة، ثم الوقف عليها؛ لأن البسملة إنما شرعت في الابتداء، لا في الانتهاء[٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٥٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٤)، «النشر» (١/ ٢٦٥-٢٦٨).

(٥) انظر: «التبصرة» لمكي ص(٢٤٨-٢٤٩)، «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٥٨)، «النشر» (١/ ٢٦٧-٢٧٠).

أما في أوساط السور فيتعوذ فقط، ولا يبسمل عند أكثر أهل العلم، وهو الصحيح، وقيل يستعيذ ويبسمل، وقيل يبسمل فقط[١].

وقد تقدم هذا في الكلام على الاستعاذة.

* * *

(١) انظر: «التبصرة» ص(٢٤٩)، «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٦٢-١٦٣)، «النشر» (١/ ٢٦٥).

المبحث السادس
حكم قراءة البسملة في الصلاة

اختلف العلماء في حكم قراءة البسملة في الصلاة على أقوال:

القول الأول:

أنها تجب قراءتها في الصلاة وجوب الفاتحة؛ لأنها آية منها.

وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر، والزهري، ومجاهد، ويحيى بن جعدة[١] وإسحاق[٢]، وأبي ثور، وأبي عبيد[٣]، وهو المشهور من مذهب الشافعي[٤]، ورواية عن الإمام أحمد[٥]. وهذا على أن البسملة آية من الفاتحة، فتجب قراءتها عندهم كما تجب قراءة بقية آيات الفاتحة، كما يشرع الجهر بها عندهم، كما يجهر ببقية آيات الفاتحة. وسيأتي ذكر أدلتهم ومناقشتها عند ذكر قول من قال بالجهر بالبسملة في المبحث السابع إن شاء الله تعالى.

القول الثاني:

أن قراءتها في الصلاة مستحبة مع الفاتحة، ومع كل سورة سوى سورة براءة، كما في المصحف، وهو قول جمهور أهل العلم[٦]، منهم: أبوحنيفة[٧]، وأحمد في المشهور عنه[٨]، وأكثر أهل الحديث[٩]؛ لأنها آية مستقلة من القرآن، وليست آية من السورة، لا

---

(١) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٨١).

(٢) أخرجه عن إسحاق ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٧٦).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٦).

(٤) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧، ١٠٨)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «المجموع» (٣/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٥٣، ٤٣٥، ٤٣٩).

(٦) انظر: «المغني» (٢/ ١٤٧)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٦، ٤٣٦).

(٧) انظر: «المبسوط» (١/ ١٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٣-١٤)، «فتح القدير» لابن الهمام (١/ ٢٩١، ٢٩٣).

(٨) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية النيسابوري (١/ ٥٢-٥٣)، «المسائل الفقهية» (١/ ١١٨)، «الإفصاح» (١/ ١٢٥-١٢٦)، «المغني» (٢/ ١٤٧، ١٥١).

(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٦).

من سورة الفاتحة، ولا من غيرها من السور، فلا تجب قراءتها، لا مع الفاتحة، ولا مع غيرها، لكن تستحب قراءتها معها، ومع كل سورة سوى براءة، لإثباتها في المصحف معها، ومع بقية السور سوى براءة.

وأيضًا فقد ثبت في حديث أنس وعائشة وأبي هريرة- رضي الله عنهم- أن الرسول ﷺ وخلفاءه لا يجهرون بها[١]، فلو كانت قراءتها واجبة وجوب الفاتحة لجهروا بها كما يجهرون ببقية آيات الفاتحة.

القول الثالث:

أنه لا تشرع قراءتها في المكتوبة، لا سرًّا ولا جهرًا.

وهذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، إلا أنه قال بقراءة البسملة في النفل وقيام الليل، ولمن يعرض القرآن عرضًا[٢].

ونُقل القول بعدم مشروعية قراءتها أيضًا عن الأوزاعي[٣].

وهذا القول مبني على أن البسملة ليست آية من القرآن، لا في أول الفاتحة ولا في أوائل السور، وليست آية مستقلة من القرآن- وقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

وقد استدل من ذهب إلى هذا القول بأحاديث أنس وعائشة، وعبدالله بن مغفل- رضي الله عنهم- والتي فيها أن الرسول ﷺ وخلفاءه كانوا يستفتحون القراءة والصلاة بالحمد لله رب العالمين[٤].

وحديث أبي هريرة الذي فيه قوله تعالى: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين...**»[٥].

---

(١) سبق تخريجها.

(٢) انظر: «المدونة» (١/ ٦٤)، «الكافي» لابن عبدالبر (١/ ١٧٠)، «الاستذكار» (٢/ ١٥٤، ١٧٥، ١٨٢)، «بداية المجتهد» (١/ ٨٩).

(٣) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٧)، «الاعتبار» للحازمي ص(٨١).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣)، «المغني» (٢/ ١٤٧)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤١٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦).

(٥) انظر: «الاستذكار» لابن عبدالبر (٢/ ١٥٤).

لكن هذه الأحاديث ليس فيها نفي قراءتها مطلقًا، وإنما فيها نفي قراءتها جهرًا- كما جاء في بعض روايات حديث أنس قوله: «**فكانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم**». وفي بعض الروايات «**فكانوا يسرون ببسم الله الرحمن الرحيم**».

وسيأتي ذكر رواياته وتخريجها، هو وحديث عائشة، وعبدالله بن مغفل، في الكلام على حكم الجهر بالبسملة والإسرار بها.

قال أبوبكر بن خزيمة- بعد أن أخرج روايات حديث أنس، والتي في بعضها التصريح بأن الرسول ﷺ وأبابكر وعمر وعثمان كانوا يسرون ببسم الله الرحمن الرحيم، ولا يجهرون بها.

قال ابن خزيمة[1]: «هذا الخبر يصرح بخلاف ما توهم من لم يتبحر العلم، وادعى أن أنس بن مالك أراد بقوله: «كان النبي ﷺ وأبوبكر وعمر يستفتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين، وبقوله: «لم أسمع أحدًا منهم يقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أنهم لم يكونوا يقرؤون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ جهرًا، ولا خفيًا. وهذا الخبر يصرح أنه أراد أنهم كانوا يسرون به ولا يجهرون به عند أنس».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]، بعد أن نفى دلالة حديث أنس على ترك قراءة البسملة، وبين أنه إنما يدل على ترك الجهر بها قال: «وأما كون الإمام لم يقرأها، فهذا لا يمكن إدراكه، إلا إذا لم يكن له بين التكبير والقراءة سكتة، يمكن فيها القراءة سرًّا، ولهذا استدل بحديث أنس على عدم القراءة من لم ير هناك سكوتًا كمالك وغيره، لكن ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله «**أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال: أقول: كذا وكذا... إلى آخره**».

وفي السنن وغيرهما من حديث عمران وأُبي وغيرهما أنه كان يسكت قبل القراءة، وفيها أنه كان يستعيذ، وإذا كان له سكوت لم يمكن أنسًا أن ينفي قراءتها في ذلك السكوت، فيكون نفيه للذكر، وإخباره بافتتاح القراءة بها إنما هو في الجهر، وكما أن

---

(١) في «صحيحه» (١/ ٢٥٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤١٣-٤١٥).

الإمساك عن الجهر مع الذكر سرًا يسمى سكوتًا، كما في حديث أبي هريرة فيصلح أن يقال: لم يقرأها، ولم يذكرها، أي جهرًا، فإن لفظ السكوت ولفظ نفي الذكر والقراءة مدلولهما هنا واحد».

وقد اختلف العلماء فيما إذا جهر الإمام ولم يسكت هل يبسمل المأموم أو لا: على قولين: منهم من قال: لا يبسمل ولا يقرأ بل يجب عليه الإنصات، وقال بعض أهل العلم: بأنه يستعيذ ثم يبسمل ويقرأ الفاتحة وذلك لأن قراءة الفاتحة في الصلاة واجبة والاستعاذة والبسملة تشرع قراءتها تبعًا لها.

وهذه المسألة مبنية على اختلافهم في حكم قراءة الفاتحة في حق المأموم.

* * *

المبحث السابع
حكم البسملة من حيث الجهر بها والإسرار، في الصلاة، أو خارجها

أ- حكم الجهر بها في غير الصلاة:

أكثر القراء على الجهر بها خارج الصلاة[١]، ورُوي عن بعضهم إخفاؤها، منهم حمزة، ونافع[٢]، ورُويَ عنهما الجهر بها[٣].

وأخذ بعض أهل الأداء بالتسمية جهرًا لجميع القراء وأخذ بعض أهل الأداء لهم إخفاءها[٤].

ب- حكم الجهر بها في الصلاة:

اختلف أهل العلم في حكم الجهر بالبسملة في الصلاة على أقوال:

القول الأول:

أنه يسن الجهر بها في الصلاة الجهرية، والإسرار بها في الصلاة السرية.

وهو مروي عن عمر، وعلي وعبدالله بن الزبير[٥] وابن عباس وابن عمر، وأبي هريرة، ومعاوية بن أبي سفيان[٦]، وشداد بن أوس[٧]؛ رضي الله عنهم.

---

(١) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ١١-١٢)، «النشر» (١/ ٢٦٥).

(٢) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ١١-١٢).

(٣) انظر: «التبصرة» لمكي ص(٢٤٥)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ١١-١٢)، «النشر» (١/ ٢٧١).

(٤) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (١/ ١٦٢).

(٥) أخرجه عن عمر، وابن الزبير- ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ٤١٢)، وأخرجه عنهما وعن علي- البيهقي- في الصلاة- باب قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» (٢/ ٤٨-٤٩).

(٦) أخرجه عن ابن عمر وأبي هريرة- ابن أبي شيبة (١/ ٤١٢)، وأخرجه عن ابن عمر وابن عباس- النحاس في «القطع والائتناف» (١/ ١٠٤-١٠٥)، وأخرجه عنهم وعن معاوية- البيهقي (٢/ ٤٦-٥٠).

(٧) أخرجه عن شداد النحاس في «القطع والائتناف» (١/ ١٤).

ومن التابعين: سعيد بن جبير[١]، ومحمد بن شهاب الزهري[٢]، ومجاهد وعطاء وطاوس[٣].

وحكاه ابن كثير- أيضًا [٤]- عن عكرمة، وأبي قلابة، وعلي بن الحسين وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر ونافع مولى ابن عمر، وعمر بن عبدالعزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، وعبدالله بن معقل بن مقرن، وعبدالله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية وعمرو بن دينار.

وهو المشهور من مذهب الشافعي[٥]. ونسب لأحمد في رواية له[٦]. ولكن قال ابن قدامة[٧]: «ولا تختلف الرواية عن أحمد أن الجهر بها غير مسنون».

وقال ابن تيمية[٨]: «وقد حكى القول بالجهر عن أحمد وغيره، بناء على إحدى الروايتين عنه، من أنها من الفاتحة فيجهر بها كما يجهر بسائر الفاتحة، وليس هذا مذهبه، بل يخافت بها عنده».

وروي عن الليث بن سعد[٩]، وأبي عبيد[١٠]، وداود الظاهري[١١].

وقد سبقت الإشارة- في المبحث السادس- إلى أن أدلة القائلين بوجوب قراءة

---

(١) أخرجه عن سعيد بن جبير- عبدالرزاق- في الصلاة- باب قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» (٢٦١٤)، وابن أبي شيبة (١/ ٤١٢)، والنحاس في «القطع والائتناف» (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه عن الزهري- البيهقي (٢/ ٥٠).

(٣) أخرجه عن مجاهد وعطاء وطاوس ابن أبي شيبة (١/ ٤١٢)، وأخرجه النحاس عن مجاهد وعطاء في «القطع والائتناف» (١/ ١٠٦).

(٤) في «تفسيره» (١/ ٣٥-٣٦).

(٥) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «الاعتبار» للحازمي ص(٨٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥).

(٦) انظر: «الاعتبار» ص(٨٢).

(٧) في «المغني» (٢/ ١٤٩).

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٤٢).

(٩) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٦).

(١٠) انظر: «الاعتبار» ص(٨١).

(١١) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٧).

البسملة في الصلاة هي نفسها أدلة القائلين بالجهر بها ومنها ما يلي:

١- أن الصحابة كتبوها في المصحف، مع أنهم جردوه عما ليس من القرآن[١]، مما يدل على وجوب قراءتها والجهر بها.

والجواب عن هذا: أنه إنما تجب قراءتها والجهر بها لو كانت من السورة، وبخاصة مع الفاتحة، والصحيح أنها آية مستقلة من القرآن- كما تقدم بيان ذلك في المبحث الثالث.

٢- ما رواه نعيم بن المجمر قال: «**صليت وراء أبي هريرة، فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم قرأ بأم القرآن، حتى بلغ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقال: آمين. فقال الناس: آمين. ويقول كلما سجد: الله أكبر، وإذا قام من الجلوس في الاثنتين، قال: الله أكبر، وإذا سلم قال: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ**»[٢].

قالوا: فهذا الحديث يدل على مشروعية الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم؛لأن قوله: «فقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يؤخذ منه أنه قرأها جهرًا، وإلا فكيف يعلم أن أبا هريرة قرأها، وحيث قال أبوهريرة في نهاية الحديث: «**والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ**». فهذا يدل على أنه ﷺ يجهر بها.

وقد أجاب أهل العلم من القائلين بعدم الجهر عن هذا الحديث بجوابين:

الأول: من حيث صحة سنده، فقد ضعَّفه جمع من أهل العلم.

وقد أطال الزيلعي في «نصب الراية»[٣] في ذكر كلام الأئمة في تضعيفه، وأجاب

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه النسائي- في الصلاة- في الافتتاح- قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» (٩٠٥)، وقال الألباني: «ضعيف الإسناد».

وأخرجه ابن خزيمة- في الصلاة- باب ذكر الدليل على أن الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم والمخافتة به جميعًا مباح (٤٩٩)، والدارقطني- في الصلاة- باب وجوب قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» حديث (١٤). وقال: «صحيح، رواته كلهم ثقات»، والحاكم- في الصلاة- (١/ ٢٣٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» والبيهقي (٢/ ٤٦)، وقال: «إسناده صحيح وله شواهد».

(٣) (١/ ٣٣٥-٣٤١).

عنه، وأعله من وجوه عدة، وكذا أعله وأجاب عنه من وجوه عدة الزبيدي[١]، كما ضعف إسناده الألباني[٢].

الجواب الثاني: أن دلالته على الجهر ليست صريحة- على فرض صحته، فيحتمل أن أبا هريرة أسر بها، ويحتمل أنه قصد تعليمهم، أو غير ذلك.

قال الجصاص[٣]: «حديث نعيم بن المجمر لا دلالة فيه على الجهر بها؛ لأنه إنما ذكر أنه قرأها، ولم ينقل عنه أنه جهر بها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «فإن العارفين بالحديث يقولون: إنه عمدتهم في هذه المسألة، ولا حجة فيه... فقد يكون أبوهريرة قصد تعريفهم أنها تقرأ في الجملة، وإن لم يجهر بها، وحينئذٍ فلا يكون هذا مخالفًا لحديث أنس الذي في الصحيح وحديث عائشة الذي في الصحيح، هذا إذا كان الحديث دالاً على أنه جهر بها، فإن لفظه ليس صريحًا بذلك من وجهين، **أحدهما**: أنه قال: قرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيحتمل أنه قرأها سرًّا... **الثاني**: أنه لم يخبر أن النبي ﷺ قرأها، وإنما قال في آخر الصلاة: «إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ».

وفي الحديث: أنه أمّن، وكبر في الخفض والرفع، وهذا ونحوه مما كان يتركه الأئمة، فيكون أشبههم برسول الله ﷺ من هذه الوجوه التي فيها ما فعله الرسول ﷺ وتركوه هم، ولعل قراءتها مع الجهر أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من تركها».

٣- ما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه-: «أن معاوية لما قدم المدينة- صلى بهم، فلم يجهر بالبسملة، فأنكر عليه المهاجرون والأنصار، فأعاد بهم الصلاة وجهر بها»[٥].

---

(١) في «الرد على من أبى الحق، وادعى أن الجهر بالبسملة من سنة سيد الخلق» (١/ ١٩ وما بعدها).

(٢) راجع تخريج الحديث.

(٣) في «أحكام القرآن» (١/ ١٦).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٢٢، ٤٢٥).

(٥) أخرجه- الدارقطني- في الصلاة- باب وجوب قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» والجهر بها (٣٣)، وقال عن رجاله: «كلهم ثقات»، والشافعي، في «الأم» (١/ ٩٣-٩٤).

والحاكم (١/ ٢٣٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم». قال الخطيب فيما نقله الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٣٥٣): «هو أجود ما يعتمد عليه في هذا الباب». وانظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٤٩)، =

قالوا: فإنكار المهاجرين والأنصار على معاوية ترك الجهر بالبسملة، وإعادته الصلاة بهم، والجهر بها، يدل على أن السنة الجهر.

وهذا الحديث ضعفه من حيث سنده ومتنه عدد من المحققين، منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية[١]، فقد ضعفه من وجوه ستة، ثم قال بعدها: «فهذه الوجوه وأمثالها، إذا تدبرها العالم، قطع بأن حديث معاوية إما باطل لا حقيقة له، وإما مغيّر عن وجهه، وأن الذي حدث به بلغه من وجه ليس بصحيح، فحصلت الآفة من انقطاع إسناده. وقيل: هذا الحديث لو كان تقوم به حجة، لكان شاذًّا؛ لأنه خلاف ما رواه الناس الثقات الأثبات عن أنس وعن أهل المدينة وأهل الشام، ومن شرط الحديث الثابت ألا يكون شاذًّا، ولا معللاً، وهذا شاذ معلل، وإن لم يكن من سوء حفظ بعض رواته...».

كما ضعفه الزيلعي[٢] والزبيدي[٣] من حيث سنده ومتنه من وجوه عدة، وذكرا كلام الأئمة في تضعيفه.

٤- ما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنه سُئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: «**كانت مدًّا يمد (بسم الله)، ويمد بـ(الرحمن)، ويمد بـ(الرحيم)**»[٤].

٥- ما روته أم سلمة- رضي الله عنه- قالت: «**كان النبي ﷺ يقطع قراءته تقطيعًا:** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾... الحديث»[٥].

قالوا: فهذان الحديثان يدلان على أنه ﷺ كان يجهر بالبسملة.

والصحيح أنه لا حجة في هذين الحديثين؛ لأنه ليس فيهما ما يدل صراحة على أنه

=

«الاستذكار» (٢/ ١٨٠).

وقد ضعف هذا الحديث جمع من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، والزيلعي، والزبيدي، وغيرهم- كما هو مذكور بعاليه.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٣٠-٤٣٢).

(٢) في «نصب الراية» (١/ ٣٥٣-٣٥٥).

(٣) في «الرد على من أبى الحق» ص(٤٣).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

ﷺ كان يفعل ذلك في الصلاة[١].

٦- ما رواه المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس- رضي الله عنه- قال: «**كان رسول الله ﷺ يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم**»[٢].

وهذا الحديث- وإن صححه الحاكم- ففيه نظر؛ لأنه يعارض ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أنس وغيره، من عدم جهر الرسول ﷺ وخلفائه بها- كما سيأتي في أدلة القول الثاني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «يعلم أولاً أن تصحيح الحاكم وحده وتوثيقه وحده لا يوثق به فيما دون هذا، فكيف في مثل هذا الموضع الذي يعارض فيه بتوثيق الحاكم، وقد اتفق أهل العلم بالصحيح على خلافه، ومن له أدنى خبرة في الحديث وأهله، لا يعارض بتوثيق الحاكم ما قد ثبت في الصحيح خلافه...».

إلى غير ذلك من الأحاديث التي استدلوا بها[٤] وهي بين ضعيف، أو موضوع، أو مما لا حجة لهم فيه، كما بيَّن ذلك جمع من المحققين.

قال الدارقطني[٥]: «كل ما رُويَ عن النبي ﷺ في الجهر فليس بصحيح، وأما عن الصحابة فمنه صحيح ومنه ضعيف».

وقال ابن الجوزي في «التحقيق»[٦] بعد أن ذكر الأحاديث التي استدل بها الشافعية على الجهر وبيَّن ضعفها: «وهذه الأحاديث في الجملة لا يحسن بمن له علم بالنقل أن يعارض بها الأحاديث الصحاح... ويكفي في هجرانها إعراض المصنفين للمسانيد والسنن عن جمهورها».

وذكر قول الدارقطني السابق ثم قال: «ثم إنا بعد ذلك نحمل أحاديثهم على أحد

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٦).

(٢) أخرجه الدارقطني في الصلاة- وجوب قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» (٢٦)، والحاكم (١/ ٢٣٤)، وقال: «رواة هذا الحديث كلهم عن آخرهم ثقات» ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٢٦-٤٣٠)، وانظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية أيضًا (١/ ٩٧-١٠٠).

(٤) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٧).

(٥) انظر: «التحقيق» لابن الجوزي (١/ ٣١٣).

(٦) (١/ ٣١٢)، وانظر: (٣٠١-٣١٤).

أمرين: إما أن يكون جهر بها للتعليم، كما رُويَ أنه كان يصلي بهم الظهر فيسمعهم الآية والآيتين، بعد الفاتحة أحيانًا...».

وقال ابن قدامة[١]: «وسائر أخبار الجهر ضعيفة فإن رواتها هم رواة الإخفاء، وإسناد الإخفاء صحيح ثابت بغير خلاف فيه، فدل على ضعف رواية الجهر».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه ليس في الجهر بها حديث صريح، ولم يرو أهل السنن المشهورة؛ كأبي داود والترمذي والنسائي شيئًا من ذلك، وإنما يوجد الجهر بها صريحًا في أحاديث موضوعة يرويها الثعلبي والماوردي وأمثالهما في التفسير، أو في بعض كتب الفقهاء، الذين لا يميزون بين الموضوع وغيره، بل يحتجون بمثل حديث الحميراء».

وقال- أيضًا[٣]- بعدما ذكر مذهب القائلين بالجهر بالبسملة: «واعتمدوا على آثار منقولة بعضها عن الصحابة، وبعضها عن النبي ﷺ، فأما المأثور عن الصحابة كابن الزبير ونحوه، ففيه صحيح، وفيه ضعيف، وأما المأثور عن النبي ﷺ فهو ضعيف، أو موضوع، كما ذكر ذلك حفاظ الحديث، كالدارقطني وغيره...».

وقال- أيضًا[٤] ـ: «وإنما كثر الكذب في أحاديث الجهر؛ لأن الشيعة ترى الجهر، وهم أكذب الطوائف فوضعوا في ذلك أحاديث لبسوا بها على الناس دينهم؛ ولهذا يوجد في كلام أئمة السنة من الكوفيين كسفيان الثوري أنهم يذكرون من السنة المسح على الخفين، وترك الجهر بالبسملة، كما يذكرون تقديم أبي بكر وعمر، ونحو ذلك؛ لأن هذا كان من شعار الرافضة، ولهذا ذهب أبوعلي بن أبي هريرة أحد الأئمة من أصحاب الشافعي إلى ترك الجهر بها، قال: لأن الجهر بها صار من شعار المخالفين».

وقال ابن القيم[٥] مشيرًا إلى أحاديث الجهر: «فصحيح تلك الأحاديث غير صريح

---

(١) في «المغني» (٢/ ١٥١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤١٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٤١).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٢٣).

(٥) في «زاد المعاد» (١/ ٢٠٦).

وصريحها غير صحيح».

وقد أطال الزيلعي في «نصب الراية»[١] في ذكر كلام أهل العلم في تضعيف الأحاديث والآثار الواردة في الجهر بالبسملة، ثم قال[٢]:

«وبالجملة هذه الأحاديث كلها ليس فيها صريح، ولا صحيح، بل فيها عدمهما، أو عدم أحدهما، وكيف تكون صحيحة وليست مخرجة في شيء من الصحيح، ولا المسانيد، ولا السنن المشهورة، وفي روايتها الكذابون والضعفاء والمجاهيل...».

كما ضعف أحاديث الجهر الزبيدي[٣].

القول الثاني:

أنه يسن الإسرار بالبسملة في الصلاة مطلقًا، وهو قول جمهور أهل العلم من المحدثين والفقهاء وغيرهم[٤].

وهو الثابت عن الخلفاء: أبي بكر وعمر وعثمان[٥]، وعلي[٦]- رضي الله عنهم- وعن أنس[٧]، وعائشة- رضي الله عنهما[٨]، ورُويَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما[٩]، وبه قال ابن مسعود، وعبدالله بن الزبير، وعمّار بن ياسر- رضي الله عنهم- وعروة بن الزبير، وأبووائل، ومحمد بن سيرين، والحكم بن عتيبة، وإبراهيم النخعي[١٠]،

---

(١) (١/ ٣٢٥-٣٦٣).

(٢) (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٣) في «الرد على من أبى الحق» ص(١٨-٥٢).

(٤) انظر: «سنن الترمذي» (٢/ ١٤)، «الاعتبار» للحازمي ص(٨١)، «المغني» (٢/ ١٤٩).

(٥) بدليل حديث أنس الآتي قريبًا. وانظر: «سنن الترمذي» (٢/ ١٤)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٧)، «الاستذكار» (٢/ ١٧٧).

(٦) أخرجه عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- عبدالرزاق- في الصلاة (٢٦٠١)، وابن أبي شيبة (١/ ٤١١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٤)، وابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٧٨).

(٧) أخرجه عن أنس- ابن أبي شيبة (١/ ٤٠١)، وسيأتي ذكر روايته ذلك عن الرسول ﷺ وخلفائه.

(٨) سيأتي ذكر حديثها.

(٩) أخرجه عن ابن عباس- عبدالرزاق (٢٦٠٥)، وابن أبي شيبة (١/ ٤١١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٤).

(١٠) أخرجه عنهم جميعًا ابن أبي شيبة (١/ ٤١٠-٤١١)، وانظر: «الاستذكار» (٢/ ١٧٩).

والحسن وقتادة وعمر بن عبدالعزيز[١]، وعكرمة[٢]، والأوزاعي، وسفيان الثوري[٣]، وسعيد بن جبير والأعمش والشعبي[٤]، وأبوحنيفة وأصحابه[٥]، وأحمد بن حنبل[٦]، وعبدالله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه[٧]، وأبوعبيد[٨]، وجماعة من أصحاب الشافعي[٩]، وغيرهم كثير[١٠].

واستدل أصحاب هذا القول بأحاديث صحيحة صريحة منها:

١- ما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ وعن الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم- أنهم كانوا لا يجهرون بـ«بسم الله الرحمن الرحيم».

وقد أخرجه الأئمة عن أنس- رضي الله عنه- بروايات وألفاظ متعددة، منها: «**أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر- رضي الله عنهما- كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين**»[١١].

وفي لفظ عن أنس- رضي الله عنه- قال: «**صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها**».

---

(١) أخرجه عن الحسن وقتادة وعمر بن عبدالعزيز- عبدالرزاق (٢٦٠٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٥).

(٣) انظر: «الاستذكار» (١/ ١٥٤، ١٧٦-١٧٧)، «المغني» (٢/ ١٤٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٦).

(٤) انظر: «زاد المسير» (١/ ٨).

(٥) انظر: «المبسوط» (١/ ١٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٨، ٩، ١٥)، «فتح القدير» لابن الهمام (١/ ٢٩١)، «نصب الراية» (١/ ٣٢٨).

(٦) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية النيسابوري (١/ ٥٢، ٥٣، ٥٥)، «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٧٦)، «المغني» (٢/ ١٤٩).

(٧) انظر: «سنن الترمذي» (١/ ١٤)، «المغني» (٢/ ١٤٩).

(٨) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٦).

(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٤٢).

(١٠) انظر: «الاستذكار» (١/ ١٥٤)، «الرد على من أبى الحق» ص(٦٤-٦٦).

(١١) أخرجه البخاري (٧٨٢)، والنسائي (٨٦٧)، والترمذي (٢٤٦)، وابن ماجه (٤٩١).

وفي لفظ: «**صليت مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، وعثمان، فلم أسمع أحدًا منهم يقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**»(١).

وفي لفظ قال: «**صلى بنا رسول الله ﷺ فلم يسمعنا قراءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وصلى بنا أبوبكر وعمر، فلم نسمعها منهما**»(٢).

وفي لفظ قال: «**صليت خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان- رضي الله عنهم- فلم أسمع أحدًا منهم يجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**»(٣).

وفي لفظ: «صليت مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر وعمر فلم يجهروا بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»(٤)، وفي لفظ بزيادة «وعثمان»(٥).

وفي لفظ: «أن النبي ﷺ لم يجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولا أبوبكر، ولا عمر، ولا عثمان»(٦).

وفي لفظ: «**أن رسول الله ﷺ كان يسر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الصلاة وأبوبكر وعمر**»(٧).

وفي لفظ: «**لم يكن رسول الله ﷺ ولا أبوبكر، ولا عمر- رضي الله عنهما- يجهرون بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**»(٨).

فحديث أنس هذا برواياته كلها، يدل على أن الثابت من فعل الرسول ﷺ

---

(١) أخرجها مسلم في الصلاة- حجة من قال: لا يجهر بالبسملة (٣٩٩).

(٢) أخرجه النسائي (٨٧٠).

(٣) أخرجه النسائي (٨٧١)، والدارقطني في «سننه» كتاب الصلاة- اختلاف الروايات في الجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حديث (١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٤) إلا أنه قال: «فلم أسمع أحدًا منهم يقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾».

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٦٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٧).

(٥) أخرجه الدارقطني في الباب السابق (٣، ٤، ٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٥).

(٦) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٦).

(٧) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٨).

(٨) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٣).

وخلفائه الإسرار بالبسملة، وعدم الجهر بها[١].

قال الدارمي في «سننه»[٢] مُبَوِّبًا: «باب كراهية الجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم أخرج حديث أنس بلفظ: «**أن النبي ﷺ وأبابكر وعمر وعثمان كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين**». قال الدارمي: وبهذا نقول ولا أرى الجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقال ابن خزيمة في «صحيحه»[٣] مبوبًا: باب ذكر الدليل على أن أنسًا إنما أراد بقوله: «لم أسمع أحدًا منهم يقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: أي لم أسمع أحدًا منهم يقرأ جهرًا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأنهم كانوا يسرون بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الصلاة».

وقال الطحاوي في «شرح معاني الآثار»[٤] بعد أن ذكر روايات حديث أنس: «ففي ذلك دليل على أنهم يقولونها من غير طريق الجهر، ولولا ذلك لما كان لذكرهم نفي الجهر معنى، فثبت بتصحيح هذه الآثار ترك الجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: «أما حديث أنس في نفي الجهر، فهو حديث صريح.. فإنه قد رواه مسلم في صحيحه، فقال فيه: «**صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها**» وهذا النفي لا يجوز إلا مع العلم بذلك، لا يجوز بمجرد كونه لم يسمع مع إمكان الجهر بلا سماع.

واللفظ الآخر في صحيح مسلم: «صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدًا منهم يجهر، أو قال يصلي بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهذا نفى

---

(١) انظر: «التحقيق» (١/ ٢٩٨)، «المغني» (٢/ ١٥٠).

(٢) (١/ ٢٨٣).

(٣) (١/ ٢٤٩).

(٤) (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤١٠-٤١٣).

فيه السماع، ولو لم يرو إلا هذا اللفظ لم يجز تأويله بأن النبي ﷺ كان يقرأ جهرًا، ولا يسمع أنس، لوجوه...- وبعد أن ذكر ابن تيمية هذه الوجوه- قال: فتبين أن هذا تحريف لا تأويل.

وقال أيضًا[١]: «وأما اللفظ الآخر «لا يذكرون» فهو إنما ينفي ما يمكن العلم بانتفائه، وذلك موجود في الجهر، فإنه إذا لم يسمع مع القرب علم أنهم لم يجهروا».

وقال ابن حجر في «بلوغ المرام»[٢] بعد أن ذكر حديث أنس، من رواية البخاري ومسلم، وبعد أن أشار إلى أن في رواية أحمد والنسائي وابن خزيمة «لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم»، وإلى الرواية الأخرى لابن خزيمة: «كانوا يسرون» قال: «وعلى هذا يحمل النفي في رواية مسلم». يعني قوله: «لا يذكرون اسم الله في أول قراءة، ولا في آخرها».

٢- حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين..»[٣].

٣- حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى الركعة الثانية استفتح القراءة ولم يسكت**»[٤].

ووجه الدلالة من هذين الحديثين- كما تقدم في حديث أنس- هو أنهم يسرون بقراءتها، ولا يجهرون بها، لا أنهم يتركونها.

٤- حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قال الله: حمدني عبدي**... الحديث»[٥].

قال ابن قدامة[٦]: «وهذا يدل على أنه لم يذكر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ولم يجهر بها».

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤١٤، ٤١٥)، وانظر: «الفتاوى الكبرى» (١/ ٨٨).

(٢) ص(٥٦)، (٢٩٧-٣٠٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٩).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في «المغني» (٢/ ١٥٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]- بعد أن أشار إلى حديث أبي هريرة هذا: «فيه دليل على أنها ليست من القراءة الواجبة، ولا من القراءة المقسومة».

فهذا يدل على أن البسملة ليست من السورة، فلا يجهر بها.

إلى غير ذلك من الأدلة الصحيحة الصريحة على أن السنة الإسرار بالبسملة وقد اختار هذا أكثر المحققين:

قال الجصاص[٢]: «والإخفاء أولى من وجهين: **أحدهما**: ظهور عمل السلف بالإخفاء دون الجهر، وقول إبراهيم الجهر بها بدعة. **والوجه الآخر**: أن الجهر بها لو كان ثابتًا لورد النقل به مستفيضًا متواترًا، كوروده في سائر القراءة، فلما لم يرد النقل به من جهة التواتر علمنا أنه غير ثابت، إذ الحاجة إلى معرفة مسنون الجهر بها كهي إلى معرفة الجهر في سائر فاتحة الكتاب».

وقال القرطبي[٣]: «وهذا قول حسن، وعليه تتفق الآثار عن أنس، ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف في قراءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «لم يثبت عن النبي ﷺ أنه كان يجهر بها، وليس في الصحاح، ولا السنن حديث صحيح صريح بالجهر، والأحاديث الصريحة با لجهر كلها ضعيفة، بل موضوعة، ولهذا لما صنف الدارقطني في ذلك مصنفًا قيل له: هل في ذلك شيء صحيح؟ فقال: أما عن النبي ﷺ فلا، وأما عن الصحابة فمنه صحيح، ومنه ضعيف. ولو كان النبي ﷺ يجهر بها دائمًا لكان الصحابة ينقلون ذلك، ولكان الخلفاء يعلمون ذلك، ولما كان الناس يحتاجون أن يسألوا أنس بن مالك بعد انقضاء عصر الخلفاء، ولما كان الخلفاء الراشدون، ثم خلفاء بني أمية، وبني العباس كلهم متفقين على ترك الجهر، ولما كان أهل المدينة- وهم أعلم أهل المدائن بسنته- ينكرون قراءتها بالكلية سرًّا وجهرًا».

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) في «أحكام القرآن» (١/ ١٧).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٦).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٥-٢٧٦).

وقال- أيضًا[١]: «فمن المعلوم أن الجهر بها مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، فلو كان النبي ﷺ يجهر بها كالجهر بسائر الفاتحة لم يكن في العادة ولا في الشرع ترك نقل ذلك، بل لو انفرد بنقل مثل هذا الواحد والاثنان لقطع بكذبهما، إذ التواطؤ فيما تمنع العادة والشرع كتمانه كالتواطؤ على الكذب فيه».

القول الثالث:

التخيير بين الجهر والإسرار، وهذا القول يُروى عن الحكم بن عتيبة، وإسحاق بن راهويه[٢]، وابن أبي ليلى[٣]، وهو اختيار ابن حزم[٤].

والذين رُويَ عنهم هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين أدلة الجهر، وأدلة الإسرار علمًا أن أدلة الجهر لا تكافئ أدلة الإسرار، بل وليس فيها دليل واحد صحيح النقل صريح الدلالة على الجهر- كما تقدم ذكر كلام الأئمة في ذلك.

فالقول بالتخيير للمصلي بين الجهر والإسرار بالبسملة ليس بصحيح، وفرق بين هذا وبين أن يقال: يجوز الجهر بها لحاجة كتعليم ونحوه، فهذا لا بأس به، أو أن يقال: تصح صلاة من أسر بها ومن جهر، فهذا- أيضًا- صحيح. قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: «فإن الجهر بها والمخافتة سنة، فلو جهر بها المخافت صحت صلاته بلا ريب».

وقال الحافظ ابن كثير[٦]: «أجمعوا على صحة صلاة مَن جهر بالبسملة، ومن أسرَّ بها، ولله الحمد والمنة».

أمّا أن يكون المصلي مخيرًا بين هذا وهذا على حد سواء فليس بصحيح، فالجهر إنما يجوز أحيانًا لعارض، كتعليم المأمومين ونحو ذلك.

كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية[٧] أنه يستحب الجهر بها لمصلحة راجحة، وذكر

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤١٥)، وانظر: (٤٠٨، ٤١٧-٤٢٠).

(٢) انظر: «القطع والائتناف» (١/ ١٠٦).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٥)، «الاستذكار» (١/ ١٥٤).

(٤) انظر: «المحلى» (١/ ٢٥١).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٤٢).

(٦) في «تفسيره» (١/ ٣٦).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٧، ٤٢٤).

عن أحمد أنه يستحب الجهر بها في المدينة؛ لأنهم ينكرون على من لم يجهر بها. ثم ذكر ابن تيمية- أيضًا- أنه يجوز الجهر بها لبيان أن قراءتها سُنة، ثم قال: «ولهذا نقل عن أكثر مَن روي عنه الجهر بها المخافتة...».

وقال- أيضًا[١]: «وكون الجهر بها لا يشرع بحال- مع أنه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة- نسبة للصحابة إلى فعل المكروه، وإقراره مع أن الجهر في صلاة المخافتة يشرع لعارض».

وقال- أيضًا[٢]: «ومع هذا فالصواب أن ما لا يجهر به، قد يشرع الجهر به لمصلحة أحيانًا، لمثل تعليم المأمومين، ويسوغ للمصلين أن يجهروا بالكلمات اليسيرة أحيانًا[٣]، ويسوغ- أيضًا- أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب، واجتماع الكلمة خوفًا من التنفير عما يصلح، كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم، لكون قريش كانوا حديثي عهد بالجاهلية، وخشي تنفيرهم بذلك[٤]، ورأى أن مصلحة الاجتماع والائتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم».

وقال ابن القيم في «زاد المعاد»[٥]: «وكان- يعني النبي ﷺ- يجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها، ولا ريب أنه لم يكن يجهر بها دائمًا في كل يوم وليلة خمس مرات أبدًا حضرًا وسفرًا ويخفى ذلك على خلفائه الراشدين، وعلى

---

(١) انظر: «المصدر السابق» (٢٢/ ٤٠٨).

(٢) انظر: «المصدر السابق» (٢٢/ ٤٣٦).

(٣) رَوى النيسابوري في «مسائل الإمام أحمد» (١/ ٥٣): «وسئل عن الرجل يصلي بالقوم، فيجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، أيصلي خلفه؟ قال: أرجو أن لا يكون به بأس، إذا لم يكن يجهر به شديدًا، قد فعله الصالحون، لا يجهر به شديدًا».

(٤) أخرجه البخاري- في كتاب الأنبياء (٣٣٦٨)، وفي التفسير- باب ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ (٤٤٨٤)، ومسلم في الحج- باب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣)- عن عائشة- رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ- أن النبي ﷺ قال: «ألم تَرَيْ أن قومك لما بنوا الكعبة، اقتصروا على قواعد إبراهيم، فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال: لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت».

(٥) (١/ ٢٠٦).

جمهور أصحابه، وأهل بلده، في الأعصار الفاضلة، هذا من أمحل المحال، حتى يحتاج إلى التثبت فيه بألفاظ مجملة وأحاديث واهية فصحيح تلك الأحاديث غير صريح، وصريحها غير صحيح».

* * *

المبحث الثامن
المواضع التي تشرع فيها البسملة

أ- تشرع البسملة وهي قول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في مواضع منها ما يلي:

١- **عند قراءة القرآن**، وبخاصة عند الابتداء بأوائل السور سوى سورة براءة؛ لأنها آية كانت تنزل مع كل سورة سوى براءة، ولهذا أثبتت في المصاحف مع كل سورة نزلت معها، وإن كانت ليست آية من السورة مطلقًا.

٢- **في بداية الكتب والرسائل والخطب والمسائل العلمية**، تأسيًا بكتاب الله تعالى، وبسنة رسول الله ﷺ فقد كان يبتدئ بها في كتبه ﷺ للملوك كما في كتابه إلى هرقل فقد ابتدأه ﷺ بقوله: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم...**»(١).

وكذا كان الأنبياء قبله كما جاء في كتاب سليمان لبلقيس: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٢٩، ٣٠].

وقد درج على هذا سلف الأمة وخلفها في كتبهم ورسائلهم وخطبهم ومقالاتهم.

وقد اختلفوا في حكم كتابتها مع الشعر، فذهب بعضهم إلى كراهة ذلك والمنع منه، وأجازه آخرون(٢)، والذي يظهر- والله أعلم- أن الشعر لا يختلف عن النثر من حيث جواز كتابتها مع المحمود منهما، وعدم جواز ذلك مع المذموم منهما؛ لأن في ذلك استخفافًا بالله، وأسمائه وصفاته.

ب- وتشرع التسمية وهي قول: «بسم الله» في مواضع كثيرة منها ما يلي:

١- **عند الوضوء**، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا**

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد- باب كتب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٩٧).

صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»(١).

٢- عند الدخول في المسجد والخروج منه، فعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد يقول: «**بسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج قال: بسم الله والسلام على**

---

(١) أخرجه أبوداود- في الطهارة- باب في التسمية في الوضوء (١٠١)، وابن ماجه- في الطهارة- ما جاء في التسمية في الوضوء (٣٩٩)، وأحمد (٢/ ٤١٨).

وطرق هذا الحديث كلها ضعيفة. لكن له شواهد من حديث أبي سعيد الخدري، وسعيد بن زيد، وأنس بن مالك وغيرهم. فقد أخرج: ابن ماجه (٣٩٧)، وأحمد (٣/ ٤١)، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**».

وأخرج الترمذي- في الطهارة (٢٥، ٢٦)، وابن ماجه في الطهارة أيضًا (٣٩٨)، وأحمد (٤/ ٧٠، ٥/ ٣٨٢، ٦/ ٣٨٢)، والدارقطني- في الطهارة- حديث (٥-١٠) عن سعيد بن زيد نحوه.

وأخرج النسائي- في الطهارة (٧٦)، والدارقطني- في الطهارة (١) عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «طلب بعض أصحاب النبي ﷺ وضوءًا، فقال رسول الله ﷺ: هل مع أحد منكم ماء؟ فوضع يده في الماء، ويقول: بسم الله...» الحديث.

وقد ضعَّف جمع من أهل العلم هذه الأحاديث كلها. قال الإمام أحمد: «ليس فيه شيء يثبت، وقال: لا أعلم في التسمية حديثًا صحيحًا».

وقال البزار: «كل ما رُويَ في هذا الباب فليس بقوي».

وقد قوَّاه بعض أهل العلم، فقال أبوبكر بن أبي شيبة: «ثبت لنا أن النبي ﷺ قاله». وقال ابن حجر: «والظاهر أن مجموع الأحاديث يحدث منها قوة تدل على أن له أصلاً».

وأكثر أهل العلم على أن هذا الحديث، بمجموع طرقه وشواهده، إما حسن، وإما صحيح: منهم ابن الصلاح، والعراقي، وابن القيم، وابن كثير والسيوطي والصنعاني والشوكاني، والألباني من المعاصرين. انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٨)، «سبل السلام» (١/ ٧٠-٧١)، «نيل الأوطار» (١/ ١٥٩-١٦١)، «إرواء الغليل» (٨١)، «صحيح سنن أبي داود» (٩٠، ٩١).

وقد استدل بهذه الأحاديث على وجوب التسمية في الوضوء بعض أهل العلم منهم الإمام أحمد في رواية له اختارها أبويعلى وجمع من الحنابلة وإسحاق والحسن وداود وحملوا قوله في الحديث: «لا وضوء» على نفي الحقيقة الشرعية والصحة والإجزاء.

وجمهور العلماء على أن التسمية في الوضوء سنة منهم أبوحنيفة ومالك والشافعي ورواية لأحمد اختارها بعض أصحابه كالخرقي وابن قدامة وابن تيمية وحملوا الأحاديث المذكورة على القول بصحتها- على نفي الكمال أو على الاستحباب.

رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك»(١).

٣- **عند الركوب**، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود:٤١].

وجاء في حديث جابر الطويل في قصة بعيره: أن رسول الله ﷺ قال له: «**اركب باسم الله**»(٢).

وفي حديث علي- رضي الله عنه-: «وأُتِيَ بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب، قال: «**بسم الله..**» الحديث، ثم قال في آخره: «**رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت**»(٣).

٤- **عند الذبح، وعند الصيد**(٤)؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام:١١٨]، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤].

وعن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك**» الحديث(٥).

وعن أبي ثعلبة نحوه، وفيه زيادة «**وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله فكل**»(٦).

٥- **عند الأكل**؛ لحديث عمرو بن سلمة- رضي الله عنه- قال: كنت غلامًا في

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة- الدعاء عند دخول المسجد (٧٧١) بهذا اللفظ، وصححه الألباني. والحديث ضعيف عند أكثر أهل العلم.

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة- باب بيع البعير- واستثناء ركوبه (٧١٥).

(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد- ما يقول الرجل إذا ركب (٢٦٠٢)، وصححه الألباني.

(٤) واختلف العلماء في حكم التسمية عند الذبح وعند الصيد- مع إجماعهم على أنها مشروعة فيهما. وسيأتي تفصيله إن شاء الله في تفسير سورة المائدة.

(٥) أخرجه البخاري- في الذبائح- باب التسمية على الصيد، والأبواب بعده (٥٤٧٥، ٥٤٧٧)، ومسلم- في الصيد والذبائح- باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٤٧٨، ٥٤٨٨)، ومسلم (١٩٣٠).

حجر النبي ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال: «**يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**»(١).

وعن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه**»(٢).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء**»(٣).

٦- **عند الجماع**؛ لما رواه ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**أمَا إن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولدًا لم يضره الشيطان**»(٤).

٧- **عند الخروج من البيت**، لما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**إذا خرج الرجل من بيته، فقال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله قال: يقال حينئذٍ: هُديت وكُفيت وَوُقيت، فتتنحى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي وَوُقي**»(٥).

٨- **في المساء والصباح**، فعن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- قال: سمعت

---

(١) أخرجه البخاري- في الأطعمة- باب الأكل مما يليه (٥٣٧٧-٥٣٧٨)، ومسلم- في الأشربة- آداب الطعام والشراب (٢٠٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠١٨)، وفي حديث عائشة- رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل بسم الله، فإن نسي في أوله فليقل: بسم الله في أوله وآخره**» أخرجه أبوداود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري- في الوضوء- باب التسمية على كل حال، وعند الوقاع (١٤١)، ومسلم- في النكاح- باب ما يستحب أن يقول عند الجماع (١٤٣٤).

(٥) أخرجه أبوداود- في الأدب- باب ما يقول إذا خرج من بيته (٥٠٩٥)، والترمذي- في الدعوات- باب ما يقول إذا خرج من بيته (٣٤٢٦)، وصححه الألباني. وعند أحمد (١/ ٦٦)- من حديث عثمان بن عفان- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «**بسم الله آمنت بالله، اعتصمت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله**».

رسول الله ﷺ يقول: «**من قال: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي**»(١).

٩- **عند النوم**، فعن أبي الأزهر الأنماري- رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه من الليل، قال: «**باسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسئ شيطاني، وفك رهاني، واجعلني في الندي الأعلى**»(٢).

١٠- **عند دخول الخلاء**، فعن علي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول: باسم الله**»(٣).

١١- **إذا عثر المرء أو عثرت دابته**، لما رواه أبوتميمة الهجيمي عن أبي المليح بن أسامة بن عمير عن أبيه، قال: كنت رديف النبي ﷺ فَعُثر بالنبي ﷺ فقلت: تعس

---

(١) أخرجه أبوداود- في الأدب- باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٨)، والترمذي- في الدعوات- باب الدعاء إذا أصبح (٣٣٨٥)، وقال: «حسن صحيح غريب»، وابن ماجه- في الدعاء- باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح، وإذا أمسى (٣٨٦٩). وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبوداود- في الأدب- ما يقول عند النوم (٥٠٥٤)، وصححه الألباني. وفي حديث حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «**اللهم باسمك أموت وأحيا**» أخرجه البخاري في الدعوات (٦٢١٣)، وأخرج مسلم نحوه من حديث البراء. وأخرج البخاري (٦٢٣٠)، ومسلم (٢٧١٤)- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه**».

(٣) أخرجه ابن ماجه- في الطهارة وسننها- باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء (٢٩٧).

وقد رُويَ هذا الحديث من حديث أنس وأبي سعيد وابن مسعود ومعاوية بن حيدة. وقد ضعفه جمع من أهل العلم، وصححه آخرون بمجموع طرقه وشواهده منهم الألباني. انظر: «إرواء الغليل» (٥٠)، «صحيح الجامع الصغير» (٣٦٠٤-٣٦٠٥).

وقد قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٢٤٤)- في كلامه على حديث أنس- رضي الله عنه-: «كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**» قال ابن حجر: «وقد روى العمري هذا الحديث، من طريق عبدالعزيز بن المختار عن عبدالعزيز بن صهيب بلفظ الأمر قال: «**إذا دخلتم الخلاء فقولوا: بسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث**» وإسناده على شرط مسلم، وفيه زيادة التسمية، ولم أرها في غير هذه الرواية».

الشيطان فقال النبي ﷺ: «**لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب**»(١).

١٢- عندما يجد المسلم وجعًا في جسده، يشرع له أن يضع يده على موضع الألم، ويُسمي، ويذكر بقية الدعاء؛ لما رواه عثمان بن أبي العاص- رضي الله عنه- أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا في جسده، منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «**ضع يدك على الذي يألم من جسدك، وقل: باسم الله ثلاثًا**... الحديث»(٢).

١٣- عند وضع الميت في قبره، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ كان إذا وضع الميت في القبر قال: «**باسم الله، وعلى سنة رسول الله**»(٣).

١٤- عند إغلاق الباب، وإطفاء المصباح، وعند إيكاء السقاء، وتخمير الإناء، لما رواه جابر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إذا استجنح الليل، أو كان جنح الليل فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله عليه، وخمر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئًا**»(٤).

إلى غير ذلك من المواضع، بل إن الذي يُفهم من حديث جابر هذا أنه ينبغي أن يذكر المسلم اسم الله على جميع أحواله، تبركًا وتيمنًا واستعانة.

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٨٢) ورجاله ثقات، وأخرجه أحمد (٥/ ٧١).
قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٨): «ورجاله رجال الصحيح».
وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٢) وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الكلم الطيب» حديث (١٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في السلام- باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء (٢٠٢٢).

(٣) أخرجه أبوداود- في الجنائز- الدعاء للميت إذا وضع في قبره (٣٢١٣)، والترمذي في الجنائز (١٥٥٠)، وابن ماجه- في الجنائز (١٤٠٦) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري- في بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٨٠) ومسلم- في الأشربة- الأمر بتغطية الإناء (٢٠١٢).

أما حديث أبي هريرة الذي رواه أحمد[١]، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل كلام، أو أمر ذي بال، لا يفتح بذكر الله- عز وجل- فهو أبتر، أو قال: أقطع**» فهو حديث ضعيف[٢].

* * *

(١) «المسند» (١/ ٣٥٩).

(٢) انظر: «إرواء الغليل» حديث (١)، «ضعيف الجامع الصغير» حديث (٤٢٢٢).

المبحث التاسع
فوائد البسملة، والأحكام التي تضمنتها

فوائد البسملة والأحكام التي تضمنتها كثيرة منها ما يلي:

١- مشروعية البداءة باسم الله على كل أمر ديني، أو دنيوي، استعانة وتبركًا وتيمنًا.

٢- إثبات اسمه تعالى «الله» الدال على أن له كمال الألوهية والعبودية سبحانه وتعالى.

٣- إثبات اسمي الله: «الرحمن»، «الرحيم»، وما تضمناه من الصفة والأثر.

قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي(١):

«الرحمن، الرحيم» اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم، فله نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه «رحمن رحيم» ذو الرحمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في العليم: إنه عليم، ذو علم يعلم به كل شيء، قدير، ذو قدرة يقدر على كل شيء».

٤- أن اسمه تعالى «الله» هو أصل أسمائه تعالى تأتي بقية أسمائه تابعة له؛ لهذا جاء اسماه «الرحمن» و«الرحيم» تابعين لهذا الاسم.

٥- أن اسم «الله» أعظم من اسمه «الرحمن» ولهذا قدم عليه، وأن اسمه «الرحمن» أبلغ من «الرحيم» وأخص منه من حيث اللفظ، ولهذا قُدم عليه، تقديمًا للأعظم والأهم.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٣-٣٤)، وانظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤)، «مدارج السالكين» (١/ ٥٧)، «القواعد المثلى» ص(١٠-١١).

٦- الاعتراف بنعمة الله تعالى وفضله وإحسانه؛ لأن هذا كله من آثار رحمته المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٧- الجمع بين الترهيب والترغيب؛ لأن في قوله (الله) دلالة على عظمة الله وقهره، وفي قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دلالة على فضل الله، وإحسانه وإنعامه ورحمته.

٨- الدلالة على أن الاستعانة إنما تستمد من الله- تعالى، ويجب صرفها له، فهو القادر على إعانة من استعان به، وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعباده، أرحم من الوالدة بولدها، كما جاء في الحديث: «**الله أرحم بعباده، من هذه بولدها**»[1] فهو نعم النصير والمعين، ومفزع الخائفين وأرحم الراحمين.

٩- إظهار مخالفة المشركين، الذين يفتتحون أمورهم باسم اللات والعزى ومناة، وغيرها من الأصنام والأنداد، من المخلوقين وغيرهم، ومن المؤسف أن نرى كثيرًا من الكتاب من المسلمين أو من المنتسبين إلى الإسلام يصدرون كتبهم وصحفهم باسم الشعب وباسم الحرية، وتقرأ الكتاب من أوله إلى آخره لا تجد فيه ذكر اسم الله.

١٠- فيها الرد على القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه، إذ لو كان ذلك كذلك لما احتاج العبد إلى طلب العون من الله- تعالى.

١١- أن ذكر اسم الله عون للعبد على جميع أحواله، وسبب لحصول الخير، والبركة، والحصول على مطلوبه، والنجاة من مرهوبه بإذن الله- تعالى، والسلامة من الشيطان وهمزاته وشروره، وإغاظته ودحره وطرده من أن يحول بين العبد وبين قراءته، ويوسوس له فيها، أو في وضوئه، أو أن يشاركه في أكله وشربه ودخوله وخروجه، وسائر أحواله[2].

* * *

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- البخاري- في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم- في التوبة (٢٧٥٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٧-١٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْفَاتِحَةِ

وفيه فصلان:

الفصل الأول: تفسير سورة الفاتحة، وبيان ما فيها من المعاني والهدايات والفوائد والأحكام.

الفصل الثاني: الأحكام التي تتعلق بسورة الفاتحة.

الفصل الأول:
تفسير سورة الفاتحة،
وبيان ما فيها من المعاني والفوائد والأحكام

وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول : مكان نزول الفاتحة.

المبحث الثاني : أسماء الفاتحة.

المبحث الثالث : عدد آيات الفاتحة، وهل البسملة آية منها؟

المبحث الرابع : فضل سورة الفاتحة.

المبحث الخامس : المعاني التي اشتملت عليها سورة الفاتحة.

المبحث السادس : بيان معنى السورة والآية.

المبحث السابع : تفسير مفردات الفاتحة، وبيان معاني آياتها.

المبحث الثامن : ما يؤخذ من سورة الفاتحة من فوائد وأحكام.

المبحث الأول
مكان نزول الفاتحة

نزلت سورة الفاتحة بمكة، بدليل أنها ذُكرت في سورة الحجر، وهي مكية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٧٨] وسورة الحجر مكية بالإجماع(١).

وقد فسر الرسول ﷺ السبع المثاني في هذه الآية بالفاتحة.

فعن أبي سعيد بن المعلى- رضي الله عنه، قال: «**كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الآية. ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»(٢).

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٦١)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٥)، «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (٤٦٤٧). وفي باب ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (٤٧٠٣)، وفي فضائل القرآن- فضل فاتحة الكتاب (٥٠٠٦)، وأخرجه أبوداود- في الصلاة باب فاتحة الكتاب (١٤٥٨)، والنسائي- في الافتتاح- باب تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (٨٧٦)، وابن ماجه- في الأدب- باب ثواب القرآن (٣٧٨٥)، وأحمد (٤/ ٢١١).

وقد أخرجه أيضًا أحمد (٢/ ٤١٣، ٥/ ١١٤)، وابن ماجه- في الفضائل (٢٨٧٥) من حديث أبي بن كعب بنحوه، وقد أخرجه عنه- مختصرًا- النسائي- في الموضع السابق (٨٧٧)، والترمذي- في تفسير سورة الحجر (٣١٢٥)، وصححه الألباني. وأخرجه مطولاً ومختصرًا ابن خزيمة- في الصلاة- باب قراءة الفاتحة (٥٠١)، والبيهقي- في (٢/ ٣٧٦)، وفي «جزء القراءة خلف الإمام» ص(١٠٣-١٠٥).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «**أم القرآن، هي السبع المثاني والقرآن العظيم**»(١).

وفي لفظ: «**هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني**»(٢).

وفي لفظ: «**الحمد لله رب العالمين: أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني**»(٣) وفي لفظ بزيادة: «**والقرآن العظيم**»(٤).

وأيضًا فقراءتها ركن من أركان الصلاة- على الصحيح، لا تصح الصلاة بدونها، وقد فرضت الصلاة بمكة عندما أسري بالرسول ﷺ، وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير الفاتحة(٥).

بل رُويَ أنها من أول ما نزل، وأنها أول سورة نزلت كاملة(٦).

* * *

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٠٤)، وأخرجه أحمد بنحوه (٢/ ٤٤٨).

(٢)أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣٤).

(٣) أخرجه أبوداود في الصلاة- باب فاتحة الكتاب (١٤٥٧).

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحجر (٣١٢٤)، وقال: «حديث صحيح».

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٦١)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٥)، «البحر المحيط» (١/ ١٦).

(٦) انظر: «تفهيم القرآن» لأبي الأعلى المودودي ص(٣٣).

وقد قيل: إنها نزلت بالمدينة، وقيل: نزلت مرتين: مرة بمكة ومرة بالمدينة، وقيل: نزل نصفها بمكة ونصفها بالمدينة. وكل هذه الأقوال ضعيفة لا دليل عليها. انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٥-١١٦)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٢).

المبحث الثاني
أسماء الفاتحة

تعددت أسماء الفاتحة، وقد أوصلها بعضهم إلى نحو من عشرين اسمًا[١]، منها ما يلي:

١ - السبع المثاني والقرآن العظيم:

لقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧].

وقد فسَّر الرسول ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم بالفاتحة، كما في حديث أبي سعيد بن المعلى، وأبي بن كعب، وأبي هريرة- رضي الله عنهم[٢].

وسميت المثاني- والله أعلم- لأنها حمد لله وثناء عليه وتمجيد له، ولأنها تثنى في كل صلاة، بل في كل ركعة، ولأنها اشتملت على جميع المعاني التي اشتمل عليها القرآن الكريم- كما سيأتي بيانه- وهو مثاني تثنى فيه المواعظ والقصص والأخبار والحِكَم والأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣].

وقيل: لأن الله استثناها لهذه الأمة فخصَّها بها من بين الأمم[٣]، كما في حديث أبي بن كعب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده ما نزل في التوراة، ولا في الزبور، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن مثلها**»[٤].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٢٣-٢٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٣٧)، «الكشاف» (١/ ٤)، «زاد المسير» (١/ ١٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١١)، «البحر المحيط» (١/ ٣٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١)، «صحيح البخاري مع الفتح» (٨/ ١٥٦)، «الإتقان» (١/ ١٨٧-١٩١).

(٢) سبق ذكر هذه الأحاديث وتخريجها.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٧)، «المحرر الوجيز» (١/ ٦٢)، «فتح الباري» (٨/ ١٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي في «فضائل القرآن» (٢٨٧٥)- وقال: «حديث حسن صحيح».

٢- فاتحة الكتاب:

عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»(١).

وعن أبي قتادة- رضي الله عنه- قال: «**كان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر بفاتحة الكتاب وسورتين وفي رواية: ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي «**أنه لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب، فما زاد**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «**أُمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر**»(٤).

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما: «**أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة**»(٥).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «**كنا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب**»(٦).

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: «**هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب**»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها (٧٥٦)، ومسلم في الصلاة- باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- باب القراءة في الظهر (٨٥٩)، ومسلم في الصلاة- باب القراءة في الظهر والعصر (٤٥١).

(٣) أخرجه أبوداود في الاستفتاح- من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٨٢٠)، والترمذي في الصلاة (٣١٢)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبوداود (٨١٨)، وأحمد (٣/ ٢)، والبخاري في جزء القراءة (١٢)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» (٣٣، ٣٤). وصححه الحافظ ابن حجر كما في «نيل الأوطار» (٢/ ٢٣٩) كما صححه الألباني.

(٥) سيأتي تخريجه بتمامه قريبًا.

(٦) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة- القراءة خلف الإمام (٨٤٣). وصححه الألباني.

(٧) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣٤).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج**»(١).

وسميت بهذا الاسم لأنها تفتتح بها المصاحف خطًّا وتلاوة، وتفتتح فيها القراءة في الصلاة(٢).

٣- الرقيــة:

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «كنا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية، فقالت: إن سيد الحي سَلِيمٌ، وإن نفرنا غُيَّب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه(٣) برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر لنا بثلاثين شاة، وسقانا لبنا، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقي؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب. فقلنا: لا تحدثوا شيئًا، حتى نأتي، أو نسأل النبي ﷺ، فلما قدمنا المدينة، ذكرنا للنبي ﷺ فقال: «**وما يُدريه أنها رقية؟ اقسموا، واضربوا لي بسهم**»(٤).

وعن خارجة بن الصلت عن عمه أنه مرَّ بقوم فأتوه، فقالوا: إنك جئت من عند هذا الرجل بخير، فَارْقِ لنا هذا الرجل، فأتوه برجل معتوه في القيود، فرقاه بأم القرآن، ثلاثة أيام غدوة وعشية، كلما ختمها جمع بزاقه، ثم تفل، فكأنما أُنْشِطَ مِن عِقَالٍ، فأعطوه شيئًا، فأتى النبي ﷺ فذكر له، فقال النبي ﷺ: «**كُل فلعمري لمن أكل بِرُقْيَةٍ باطل لقد**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٤١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٠)، «جامع البيان» (١/ ١٠٧).

(٣) نأبنه: أي نعلم أنه يرقي فنعيبه بذلك «النهاية« مادة: «أبن».

(٤) أخرجها البخاري- في الإجارة- ما يعطى في الرقية (٢٢٧٦)، ومسلم- في السلام- جواز أخذ الأجرة على الرقية في القرآن والأذكار (٢٢٠١)، وأبوداود- في البيوع- في كسب الأطباء (٣٤١٨، ٣٤١٩)، والترمذي- في الطب- ما جاء في أخذ الأجر في التعويذ (٢٠٦٣، ٢٠٦٤)، وابن ماجه في الإجارات- أجر الراقي (٢١٥٦)، وقد أخرجه البخاري- أيضًا- من حديث ابن عباس- في الطب- الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب (٥٧٣٧). وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن القصة واحدة، وقعت لهم مع الذي لدغ «فتح الباري» (٤/ ٤٥٥، ١٠/ ١٩٩).

أكلت بِرُقْيَةٍ حَقٍّ(١)»(٢).

٤- أم القرآن:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: «**مَن صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج- ثلاثًا، غير تمام...**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**في كل صلاة يقرأ، فما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم، وما أخفى عنا أخفينا عنكم، وإن لم تزد على أم القرآن أجزأت، وإن زدت فهو خير**»(٤).

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأُم القرآن**»(٥).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن**»(٦).

---

(١) هكذا ذكر كثير من المفسرين أن الرقية من أسماء الفاتحة، ويحتمل- والله أعلم- أن المراد برقية حق هي فعل الرقية سواء بالفاتحة أو غيرها من القرآن، وكذا المراد بقوله في حديث سعيد: «**وما يدريه أنها رقية**» أي هذه الفعلة. قال ابن الأثير في النهاية: «مادة «رقى»: «الرقية العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات».

(٢) أخرجه أبوداود- في الإجارات- باب في كسب الأطباء (٣٤٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٩١٨)، وفي «الأحاديث الصحيحة» (٢٠٢٧).

(٣) أخرجه مسلم- في الصلاة- باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٥)، وأبوداود في الصلاة- باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٨٢١)، والنسائي في الافتتاح- باب ترك قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» في فاتحة الكتاب (٧٨٢)، والترمذي- في التفسير (٢٩٥٤).

(٤) أخرجه البخاري- في الأذان- القراءة في الفجر (٧٧٢)، ومسلم- في الصلاة- باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٦)، وأبوداود- في الصلاة- باب ما جاء في القراءة في الظهر (٧٩٧)، وأحمد (٢/ ٢٥٨، ٢٧٣، ٢٨٥).

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة- وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤)، وأحمد (٥/ ٣٢٢)، والدارقطني (١/ ٣٢٢).

(٦) أخرجه ابن خزيمة في الصلاة (٤٩٠)، وابن حبان في «زوائده» (٤٥٨) من «موارد الظمآن». وقال مقبل الوادعي في تعليقه على «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٨): «هذا على شرط مسلم».

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- السابق في المبحث الأول- عن رسول الله ﷺ قال: «**أم القرآن هي السبع المثاني، والقرآن العظيم**»(١).

وفي رواية: «**هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني**»(٢).

وفي رواية: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني**»(٣).

وسميت أم القرآن؛ لأنه ابتدئ بها، فهي أصله وابتداؤه، ولأنها أيضًا اشتملت على معاني القرآن كلها(٤)، كما سميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها، وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها(٥).

قال الطبري(٦): «سميت أم القرآن لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، وتأخر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيه بمعنى فاتحة الكتاب، وإنما قيل لها بكونها كذلك أم القرآن لتسمية العرب كل جامع أمرًا، أو مقدم لأمر- إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع- «أمًّا». فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: «أمّ الرأس». وتسمي لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش «أمّا». ومن ذلك قول ذي الرمة(٧) يصف راية معقودة على قناة، يجتمع تحتها هو وصحبه:

على رأسه أم لنا نقتدي بها ... جماع أمور لا نعاصي لها أمرًا»

٥- الصلاة:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قال الله: حمدني عبدي...** » الحديث(٨).

---

(١) لفظ البخاري (٤٧٠٤)، وأحمد (٢/ ٤٤٨).

(٢) لفظ الطبري (١٣٤).

(٣) لفظ أبي داود (١٤٥٧)، والترمذي (٣١٢٤).

(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ٤).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٢).

(٦) في «جامع البيان» (١/ ١٠٧-١٠٨).

(٧) انظر: «ديوانه» ص(١١٦٤).

(٨) أخرجه مسلم في الصلاة- وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٥). وأخرج الطبري نحوه مختصرًا من حديث =

فالمراد بالصلاة في الحديث الفاتحة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠]: أي لا تجهر بقراءتك، ولا تخافت بها.

قال ابن كثير(١): «فدل على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها..، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]. والمراد صلاة الفجر...».

٦- أم الكتـاب:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم**»(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب، فهي خداج**»(٣).

وفي حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- في قصة اللديغ(٤) أن الرجل رقاه بأم الكتاب.

قال البخاري(٥): «سميت أم الكتاب؛ لأنه يبتدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة».

وقد أخرج ابن الضرّيس في «فضائل القرآن» عن محمد بن سيرين أنه كان يكره أن يقول: أم الكتاب. يقول: قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٩]، ولكن يقول: «فاتحة الكتاب» وروي نحوه عن أنس بن مالك- رضي الله عنه(٦).

=

جابر بن عبدالله (٢٢٤). قال أحمد شاكر: «إسناده جيد صحيح»، وقد سبق ذكره بتمامه وتخريجه في الكلام على البسملة.

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه- في إقامة الصلاة- باب القراءة خلف الإمام (٨٤٠)، وأحمد (٦/ ١٤٢)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» (٩٠-٩١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في صحيحه. انظر: «فتح الباري» (٨/ ١٥٥).

(٦) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١١)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).

ورُويَ عن الحسن قال: «أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]»(١).

وإنما كرهه هؤلاء لأن الله سمى اللوح المحفوظ أم الكتاب، في قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٩]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف:٤].

كما سمى الآيات المحكمات المشتملة على الحلال والحرام وغيره «أم الكتاب» في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧].

وهذه العلة لا تكفي حجة إذ لا يلزم من تسمية الفاتحة «أم الكتاب» أن لا يسمى غيرها بذلك.

قال القرطبي(٢) بعدما ذكر ما رُويَ عن أنس والحسن وابن سيرين من كراهتهم تسميتها أم الكتاب، وما رُويَ عن أنس وابن سيرين- أيضًا- من كراهيتهما تسميتها أم القرآن قال: «والأحاديث الثابتة ترد هذين القولين».

٧- القرآن العظيم:

لقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧].

ولما جاء في حديث أبي سعيد بن المعلى، وأبي بن كعب وأبي هريرة- رضي الله عنهم- من قوله ﷺ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ **هي السبع المثاني والقرآن العظيم**»(٣). على اعتبار أن الواو في الحديث لعطف الصفات، والتي بمعنى التفصيل، كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن:٦٨]. وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٦٦)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٢).

(٣) سبق تخريج هذه الأحاديث.

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة:٩٨]. وذلك لأن سورة الفاتحة تضمنت معاني القرآن كلها كما سبقت الإشارة إلى ذلك(١).

ويحتمل أن تكون الواو لعطف التغاير، كما هو الأصل في العطف، فيكون المراد بالقرآن العظيم: أي الذي أوتيته زيادة على الفاتحة(٢).

٨- الحمد لله رب العالمين:

لما جاء في حديث أبي سعيد بن المعلّى- رضي الله عنه(٣). قال ﷺ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ **هي السبع المثاني...**» الحديث.

هذه الأسماء الثمانية هي التي دل عليها الدليل من الكتاب والسنة.

وهناك أسماء عدة ذكرها بعض أهل العلم، منها ما يلي:

١- الأساس، قيل: لأنها أساس القرآن. رُويَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما: «إذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالأساس»(٤).

٢- الشافية(٥)، أو الشفاء(٦).

٣- الواقية: بالقاف المثناة(٧).

٤- الوافية: بالفاء الموحدة، قالوا: لأنها لا تُنَصَّف، ولا تحتمل التنصيف ولا يجوز تنصيفها(٨).

٥- الكافية: قالوا لأنها تكفي عن غيرها، ولا يكفي غيرها عنها(٩).

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٢).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٨/ ١٥٩).

(٣) سبق ذكره وتخريجه وانظر: «فتح الباري» (٨/ ١٥٩).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).

(٥) انظر: «الكشاف» (١/ ٤)، «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٥).

(٦) انظر: «الكشاف» (١/ ٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).

(٧) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).

(٨) انظر: «الكشاف» (١/ ٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٣)، «لباب التأويل في معاني التنزيل» (١/ ١١).

(٩) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٣)، «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٥)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).
واستُدل له بحديث أخرجه الدارقطني (١/ ٣٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٣٨)، عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضًا**» قال
=

٦- الكنز: رُويَ أنها نزلت من كنز تحت العرش[١].

٧- سورة السؤال[٢].

٨- الواجبة؛ لأنها تجب قراءتها في الصلوات، ولا تصح الصلاة إلا بها[٣].

٩- سورة النور.

١٠- سورة التفويض[٤].

١١- سورة الحمد[٥].

١٢- سورة المناجاة[٦].

١٣- سورة تعليم المسألة[٧].

إلى غير ذلك[٨].

* * *

=

الدارقطني: «تفرد به محمد بن خلاد عن أشهب عن ابن عيينة».

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١)، «فتح الباري» (٨/ ١٥٦).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٥).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢).

(٥) انظر: «الكشاف» (١/ ٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١١)، «البحر المحيط» (١/ ٣٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١).

(٦) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢).

(٧) انظر: «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (١/ ٨١)، «أنوار التنزيل» (١/ ٥)، «البحر المحيط» (١/ ٣٢).

(٨) أوصلها السيوطي في «الإتقان» (١/ ٥٢-٥٣) إلى خمسة وعشرين اسمًا.

المبحث الثالث
عدد آيات الفاتحة، وهل البسملة آية منها؟

عدد آيات الفاتحة سبع آيات بإجماع المسلمين(١)، لقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧].

وقد فسر الرسول ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم بالفاتحة- كما سبق ذكره- في حديث أبي سعيد بن المعلى وأبي بن كعب وأبي هريرة- رضي الله عنه.

وهي سبع آيات بدون البسملة الآية الأولى منها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، والثانية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾، والثالثة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، والرابعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، والخامسة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾، والسادسة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والسابعة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾(٢).

والبسملة ليست آية منها- على الصحيح- الذي تؤيده الأدلة الصحيحة الصريحة.

أما الترقيم الموجود في المصاحف فهو وفق قول قراء الكوفة وبعض أهل العلم، لكن الصحيح خلافه. وقد تقدم بيان ذلك وبسط الأدلة فيه في الكلام على البسملة(٣).

* * *

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٩)، «المحرر الوجيز» (١/ ٨٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٤)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٥١)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٢)، «فتح الباري» (٨/ ١٥٩). وما قيل من أنها ست أو ثمان آيات فذلك شاذ لا يعتد به

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٨٩).

(٣) راجع المبحث الثالث في الكلام على البسملة.

المبحث الرابع
فضل سورة الفاتحة

سورة الفاتحة من أعظم سور القرآن، وأفضلها، بل هي أفضل سورة في القرآن(١)، ومما يدل على فضلها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧].

٢- ما رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال: «**لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم، الذي أوتيته**».

وقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما عن أبي بن كعب نحوه.

وفي بعض روايات حديث أُبيّ- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته**»(٢).

٣- ما رواه مسلم وغيره(٣) عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم**

---

(١) ولفضل هذه السورة وما حوته من المعاني والفوائد والأحكام أفردها بعض أهل العلم بالتأليف كابن القيم في «مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» وناهيك به من كتاب. كما خصها جمع من المفسرين بجزء كبير من تفسيره كالرزاي مثلاً فقد تكلم عليها في مجلد كبير من تفسيره، كما أطال الكلام في تفسيرها إمام المفسرين الطبري، والحافظ ابن كثير، والشيخ عبدالرحمن الدوسري- رحمهم الله تعالى وغيرهم.

(٢) سبق تخريجهما.

(٣) أخرجه مسلم- في صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٨٠٦)، والنسائي- في الافتتاح- باب فضل فاتحة الكتاب (٨٧٥).

ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»(١).

٤- ما رواه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**».

وغيره من الأحاديث الدالة على وجوب قراءة الفاتحة(٢)، وأنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها، مما يدل على فضلها.

٥- ما رواه مسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج، ثلاثًا- غير تمام..**»(٢).

وكذا ما جاء من الأحاديث في معناه الدالة على أن من صلى صلاة لا يقرأ فيها بالفاتحة فصلاته ناقصة غير تامة، أو أنها غير مُجْزِئة، فهذا أيضًا يدل على فضلها.

٦- ما رواه مسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل...**» الحديث(٢).

فقد سمى الله تعالى الفاتحة الصلاة وقسمها بينه وبين عبده، فأولها حمد وثناء وتمجيد للرب، وآخرها للعبد دعاء ومسألة. وكل هذا يدل على عظمها وفضلها(٣).

٧- ما رواه البخاري ومسلم- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-: «**أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم- كانوا يفتتحون الصلاة، وفي بعض الروايات يفتتحون القراءة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**»(٤).

---

(١) أخذ بعض أهل العلم من هذا الحديث أن جبريل- عليه السلام- لم ينزل بسورة الفاتحة، ولا خواتيم سورة البقرة، وإنما نزل بذلك ملك غيره والحق أنه ليس في هذا الحديث ما يدل على أن الملك الذي نزل- وجبريل عند النبي ﷺ هو الذي نزل بسورة الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، وإنما الذي فيه بيان فضل هذه السورة وتلك الآيات: أي التبشير بفضلهما وعظيم ثوابهما. والثابت أن ملك الوحي هو جبريل عليه السلام. قال الله تعالى عن القرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤]. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ١٧٢-١٧٣).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان- ما يقول بعد التكبير (٧٤٣)، ومسلم في الصلاة (٣٩٩).

٨- ما رواه مسلم عن عائشة- رضي الله عنها: «**أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين**»(١).

٩- ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- في قصة اللديغ وأن رجلاً منهم رقاه بأم الكتاب، وفي بعض الروايات: «**فقام الرجل كأنما أنشط من عقال**».

وقوله ﷺ: «**وما يدريه أنها رقية، اقسموا واضربوا لي بسهم**».

وفي حديث خارجة عن عمه(٢): «**أنه مر بقوم فأتوه برجل معتوه في القيود فرقاه بأم القرآن**» وذكر نحوه.

فأثرها في إبراء المريض يدل على عظمها وفضلها؛ ولهذا سماها الرسول ﷺ بالرقية.

١٠- وعن عبدالله بن جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبرك بخير سورة في القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: اقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى تختمها**»(٣).

١١- ومما يدل على عظم سورة الفاتحة، وفضلها اشتمالها على معاني القرآن كله، من حمد الله والثناء عليه وتمجيده، وأنواع توحيده، وإثبات الرسالات والبعث والجزاء، وذكر العامل وعمله وأقسام الناس وغير ذلك- كما سيأتي بسط ذلك قريبًا- إن شاء الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤)- في الكلام على الفاتحة: «والصلاة أفضل الأعمال، وهي مؤلفة من كلم طيب وعمل صالح، أفضل كلمها الطيب، وأوجبه أم القرآن، وأفضل عملها الصالح وأوجبه السجود».

وقال أيضًا: «وأم الكتاب كما أنها القراءة الواجبة، فهي أفضل سورة في القرآن..».

---

(١) أخرجه مسلم- في الصلاة- ما يجمع صفة الصلاة (٨٩٤)، وأبوداود- في الصلاة (٧٨٣).

(٢) سبق تخريجهما.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٧). قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٥): «هذا إسناد جيد، وابن عقيل هذا يحتج به الأئمة الكبار، وعبدالله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدي، والله أعلم. ويقال: إنه عبدالله بن جابر الأنصاري البياضي فيما ذكره الحافظ ابن عساكر».وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١): «حديث حسن».

(٤) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ١٧١-١٧٢)، «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٥-٧، ١٧/ ١٤-١٨).

وفضائلها كثيرة جدًا. وقد جاء مأثورًا عن الحسن البصري، رواه ابن ماجه وغيره: «أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جمع علمها في الأربعة، وجمع علم الأربعة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في أم القرآن، وجمع علم أم القرآن في هاتين الكلمتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾».

فائـــدة:

حيث ثبت بالأحاديث الصريحة الصحيحة عن النبي ﷺ أن الفاتحة أعظم سورة في القرآن فتجوز المفاضلة بين السور، خلافًا لمن منع ذلك(١).

وقد أخرج مسلم وغيره عن أبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ قال: فضرب في صدري، وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر»**(٢).

لكن التفضيل بين السور والآيات مقيد بأن يكون ثبت بالنص الصحيح الصريح عن النبي ﷺ أما المفاضلة بين السور والآيات بلا دليل صحيح فإنها لا تجوز.

* * *

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٠٩)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨١٠)، وأبوداود في الصلاة- ما جاء في آية الكرسي (١٤٦٠).

المبحث الخامس
المعاني التي اشتملت عليها سورة الفاتحة

اشتملت سورة الفاتحة على جميع المعاني التي اشتمل عليها القرآن الكريم.

ففيها حمد الله والثناء عليه وتمجيده، وفيها توحيده بأقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وفيها الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وإثبات البعث والجزاء والعمل: أي العملِ وجزائه، والعامل وعمله.

وفيها: إرشاد الخلق إلى حمد الله والثناء عليه وتمجيده وعبادته والاستعانة به في جميع أمورهم الدينية والدنيوية، وإخلاص العمل لله، وإعلان البراءة من حولهم وقوتهم، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم المؤدي بسالكه إلى سعادة الدارين.

وفيها ذكر أقسام الناس الثلاثة: المنعم عليهم، وهم الذين هداهم الله ووفقهم إلى العلم، ومعرفة الحق، والعمل به.

والمغضوب عليهم: وهم الذين علموا الحق وعرفوه، ولم يعملوا به، والضالين: وهم الذين جهلوا الحق، فعملوا بالباطل.

وفيها إثبات الرسل والرسالات والوحي، إذ كيف يحمده العباد، وكيف يعبدونه وفق ما شرع، وكيف لهم بمعرفة طريق المنعم عليهم واقتفائه، والحذر من طريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين، والبعد عنهما، إلا من طريق الوحي والرسل والرسالات، وكيف يجازون على ذلك حسب أعمالهم إلا بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥].

عن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن

الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[١]. وكما قيل:

عرفت الشر لا للشرْ ... رِ لكن لتوقيه
ومن لم يعرف الشرَّ ... من الناس يقعْ فيه

كما تضمنت السورة الرد على جميع المبطلين، وأهل البدع والضلال والإلحاد.

قال ابن القيم في «مدارج السالكين»[٢]: «اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها وهي: «الله»، و«الرب»، و«الرحمن». وبُنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلٰهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذْ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة...».

وقال- أيضًا- في كتابه «الفوائد»[٣]: «فائدة: للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس أعرفهم بها، وأفقههم فيها، واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها، إخلاصًا وصدقًا، ونصحًا وإحسانًا، ومتابعة، وشهودًا لمنَّته عليه وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحيٍ من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون ما يستحقه

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة- باب لزوم جماعة المسلمين (١٨٤٧).
(٢) (١/ ٣٠).
(٣) ص(٣٩-٤٠).

عليه، ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم، الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية، فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية، فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة، وانتظمتها أكمل انتظام فإن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهو اسم «الله» و«الرحمن». فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية، واسم «الرب» متضمن لصفات الربوبية، واسم «الرحمن» متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ يتضمن طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال، الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل. فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة. وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته فلا يكون إلا رحيمًا منعمًا، وذلك من موجبات إلٰهيته، فهو الإله الحق، وإن جحده الجاحدون، وعدل به المشركون، فمتى تحقق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة، الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان».

وقال ابن كثير- رحمه الله[1]: «اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده، والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد، وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله، والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك، أو نظير، أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضي لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون..».

* * *

(١) في «تفسيره» (١/ ٦٠).

المبحث السادس
بيان معنى «السورة» و«الآية»

أ- بيان معنى «السورة»:

السورة: فيها لغتان: «سورة» بدون همز. و«سؤرة» بالهمز.

أما «سورة» بدون همز فهي لغة قريش وأكثر قبائل العرب، تجمع على «سور»(١).

قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود:١٣].

وقال الراعي(٢):

هن الحرائر لا ربات أخمرة ... سود المحاجر لا يَقرَأنَ بالسور

ويجوز أن تجمع على سُوْرات، وسُوَرَات(٣).

وهي مأخوذة من معنى الإبانة والارتفاع ومن معنى الإحاطة ومعنى التمام.

أما كونها مأخوذة من معنى الإبانة والارتفاع فإن السورة بائنة عن السورة الأخرى منفصلة عنها، ولأن منزلتها رفيعة وعظيمة وشريفة يشرف بها القارئ ويرتفع بها من منزلة إلى منزلة(٤)، كما قال النابغة الذبياني(٥).

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملْك دونها يتذبذب

أي: أعطاك منزلة رفيعة قصرت عنها منازل الملوك.

وأما كونها بمعنى الإحاطة فلأنها محيطة بما احتوت عليه من الآيات، ومن قرأها بكاملها أشرف واطلع على ما فيها من الآيات، كسور البلد يكون عاليًا مرتفعًا ويحيط

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٦)، «لسان العرب» مادة: «سور».

(٢) انظر: «ديوانه» ص(١٢٢).

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة: «سور».

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٠)، «جامع البيان» (١/ ١٠٤-١٠٥)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٦٨).

(٥) انظر: «ديوانه» ص(٥٦).

بما في داخله من العمران من المنازل والدور والبيوت وغيرها[١]، ومن صعد عليه شاهد ما بداخله من ذلك العمران.

وأما كونها بمعنى التمام فلأنها تامة منفصلة عن السورة الأخرى، تامة بموضوعاتها وآياتها، كما تسمي العرب الناقة التامة الكريمة سورة[٢].

وأما اللغة الثانية: «سؤرة» بالهمز فإنها لغة تميم وتجمع على «سُؤَر» بهمز.

والسؤرة في الأصل معناها القطعة من الشيء، والبقية منه، ومنه «سؤر الشراب»: أي بقيته.

قال الأعشى[٣]:

فبانت وقد أسأرت في الفؤا ... د صدعًا على نأيها مستطيرا

أي: أبقت في الفؤاد.

ومعنى السؤرة من القرآن هي القطعة منه.

والقرآن من سؤرة بعد سؤرة: أي قطعة بعد قطعة، حتى كمل منها القرآن[٤].

والسورة من القرآن في الاصطلاح: القطعة من كلام الله تعالى في كتابه، ذات بداية ونهاية معروفة، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر.

وسور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، أطولها سورة البقرة، وأقصرها سورة الكوثر، وترتيبها توقيفي عن النبي ﷺ.

ب- بيان معنى «الآية»:

الآية لغة: العلامة[٥]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «سور».

(٣) انظر: «ديوانه» ص(١٤٣)، شرح د/ محمد محمد حسين- بيروت ١٩٨٣م. بانت: بعدت. صدع مستطير: تصدع من أوله إلى آخره. ومستطير: متفرق، منتشر. النأي: البعد. والشاعر يصف امرأة فارقته فأبقت في قلبه من محبتها ووجدها بقية.

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢)، «جامع البيان» (١/ ١٠٥)، «لسان العرب» مادة: «سور».

(٥) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٦)، «النهاية» مادة: «آية»، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨).

سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨].

وقال تعالى عن الحواريين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ﴾ [المائدة:١١٤].

وقال الأسير الموصي لقومه(١): «بآية ما أكلت معكم حيسا».

وقال النابغة الذبياني(٢):

توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

وتطلق الآية بمعنى الجماعة، يقال: خرج القوم بآيتهم: أي بجماعتهم(٣).

قال برج بن مسهر الطائي(٤):

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا ... بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

والآية القرآنية مأخوذة من معنى العلامة؛ لأن الآية القرآنية علامة على وجود الله وكماله في ذاته وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده، وعلى صدق من جاء بها، وأنها من عند الله- تعالى، كما أنها علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها(٥).

ويحتمل أنها من المعنيين جميعًا من معنى العلامة، ومعنى الجماعة لأنها مع كونها من معنى العلامة فهي أيضًا فيها معنى الجمع؛ لأنها تجمع حروفًا وكلمات من القرآن»(٦).

وتجمع الآية على آيات، وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية.

فالآيات الشرعية هي ما يتعلق بالوحي من كلام الله تعالى، وسميت بذلك لمباينتها كلام البشر، وعجزهم عن الإتيان بمثلها، ولأن في إصلاح هذا الوحي لمن أنزل عليه

---

(١) انظر: قصته في كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي (١/ ٦-٧).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(١٦٢).

(٣) انظر: «النهاية» مادة: «آية».

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٧)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨). ومعنى نزجي: نسوق، واللقاح: ذوات الألبان، والمطافلا: النوق معها أولادها.

(٥) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٦)، «المحرر الوجيز» (١/ ٤٧)، «تفسر ابن كثير» (١/ ١٨).

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٤٧)، «النهاية» مادة: «آية».

حسب ما شرع الله علامة ودلالة واضحة على أنه من عند الله ذي الكمال في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]. كما أن فيه دلالة على صدق من جاء به من عند الله تعالى وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

والآية الشرعية في الاصطلاح: هي القطعة من كلام الله تعالى ذات بداية ونهاية، منفصلة عما قبلها وعما بعدها، مندرجة تحت سورة من سور القرآن[١] الكريم. وأطول آية في القرآن آية الدين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ الآية [البقرة:٢٨٢]، وأقصر آية: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ [المدثر:٢١].

باستثناء الحروف المقطعة أوائل السور.

ترتيب الآيات توقيفي بالإجماع؛ قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله[٢]: «فترتيب القرآن من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى، وهو الموافق لإصلاح القلوب؛ ولهذا نرى من الخطأ الفادح أن يؤلف أحد القرآن مرتبًا على الأبواب والمسائل، كما صنعه بعض الناس؛ فإن هذا مخالف لنظم القرآن والبلاغة وعمل السلف، فالقرآن ليس كتاب فقه، ولكنه كتاب تربية وتهذيب للأخلاق، فلا ترتيب أحسن من ترتيب الله؛ ولهذا كان ترتيب الآيات توقيفيًّا لا مجال للاجتهاد فيه، وكان النبي ﷺ إذا نزلت الآية قال: «**ضعوا هذه الآية في مكان كذا وكذا**»[٣]».

والآيات الكونية: ما يتعلق بالخلق والتقدير، وهي تشمل كل ما خلق الله في هذا الكون من أرض وسماء، وليل ونهار، وشمس وقمر، وحجر وشجر، وجن وإنس، وحيوان ونبات، وسائر المخلوقات؛ لأن في إيجاد هذه المخلوقات وانتظامها علامة ودلالة واضحة على وجود خالقها وباريها، وعلى قدرته وحكمته ووحدانيته ورحمته، وكماله في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٦)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨).

(٢) في «تفسير سورة البقرة» (٢/ ٤٤٩-٤٥٠).

(٣) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٤٠٣).

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [الروم:٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يس:٣٤، ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس:٣٧-٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يس:٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١].

* * *

المبحث السابع

تفسير مفردات الفاتحة، وبيان معاني آياتها

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره. وهو مصدر سماعي للفعل «حمد» دخلت عليه «ال».

و«ال»: إذا دخلت على الأوصاف، وأسماء الأجناس دلت على الاستغراق والشمول والاستقصاء[1]، وعلامتها صحة وضع كل الشمولية مكانها: أي كل الحمد بجميع صنوفه وأجناسه لله تعالى.

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم. فإن لم يكن مع المحبة والتعظيم كان نفاقًا ورياءً، وكذبًا وتزلفًا ومدحًا مذمومًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: «الحمد الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة لها. فلو أخبر مخبر بمحاسن غيره من غير محبة لها لم يكن حامدًا، ولو أحبها ولم يخبر بها لم يكن حامدًا».

قال ابن القيم[3]: «فالحمد لله: الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى، مع محبته والرضا به، فلا يكون المحب الساكت حامدًا، ولا المثني بلا محبة حامدًا؛ حتى تجتمع له المحبة والثناء».

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٣٨)، «المحرر الوجيز» (١/ ٦٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٣)، «مجموع الفتاوى» (١/ ٨٩)، «البحر المحيط» (١/ ١٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٧٨).

(٣) في «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص٨٨).

وإذا كرر الحمد مرة ثانية سمي ثناءً، وإذا كرر ثالثة سمي «تمجيدًا» بدليل ما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ **قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال العبد:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ **قال الله: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ **قال الله: مجدني عبدي..**» الحديث رواه مسلم(١).

فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد مطلق، و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ اسم جنس والجنس له كمية وكيفية. فالثناء كمية الحمد وتكثيره والتمجيد كيفيته وتعظيمه.

وهذا أولى مما درج عليه كثير من المفسرين وأهل اللغة من تفسير الحمد مطلقًا بالثناء(٢).

الفرق بين الحمد والشكر:

فسَّر بعض أهل العلم الحمد بمعنى الشكر، منهم المبرد(٣) والطبري(٤). قال الطبري: «العرب تقول الحمد لله شكرًا».

والصحيح أن الحمد غير الشكر فالحمد كالمدح نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفران(٥) وبين الحمد والشكر عموم وخصوص(٦).

فالحمد أعم من حيث ما يقع عليه، فهو يقع على الصفات اللازمة والمتعدية، أي: يكون لكمال المحمود، ولإنعام المحمود، تقول: حمدته لفروسيته وشجاعته، وحمدته

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٦٦)، وانظر: «جامع البيان» (١/ ١٣٩)، «الكشاف» (١/ ٧)، «المحرر الوجيز» (١/ ٦٣)، «زاد المسير» (١/ ١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٣، ١٣٤)، «أنوار التنزيل» (١/ ٧)، «لسان العرب» مادة (حمد)، «البحر المحيط» (١/ ١٨)، «أضواء البيان» (١/ ٣٩).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٣).

(٤) في «جامع البيان» (١/ ١٣٥-١٣٨).

(٥) انظر: «الكشاف» (١/ ٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٣).

(٦) انظر: «المفردات» مادة «شكر»، «معالم التنزيل» (١/ ٣٩)، «الكشاف» (١/ ٧، ٨) «المحرر الوجيز» (١/ ٦٣)، «تفسير النسفي» (١/ ٣)، «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣-١٣٤-١٣٥، ١٤٦)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٥).

لكرمه.

وهو أخص من حيث الأداة التي يقع بها، فهو يقع باللسان فقط، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء:١١١].

قال الزمخشري[١]: «وهو إحدى شعب الشكر».

قلت: وليس معنى كونه يقع باللسان فقط أن يكون ذلك بدون مواطأة القلب وموافقته؛ لأن الحمد كما تقدم وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم في القلب، ومعلوم أن مدار الأعمال كلها صلاحًا أو فسادًا على القلب، قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»[٢] وقال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٣].

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «والحمد إنما يكون بالقلب واللسان...».

والشكر أخص من حيث ما يقع عليه فهو لا يقع إلا على الصفات المتعدية، أي: ما يكون إلا في مقابلة نعمة، تقول: شكرته لكرمه، ولا تقول: شكرته لفروسيته وشجاعته، فهو لا يكون إلا جزاء على نعمة بينما الحمد يكون جزاء كالشكر، ويكون ابتداءً.

وهو: أي الشكر أعم من حيث الأداة التي يقع بها، فهو يقع بالقلب واللسان والجوارح كما قال الشاعر:

وما كان شكري وافيًا بِنَوَالِكُم ... ولكنني حاولت في الجهد مذهبًا
أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا[٥]

ومن هذا قول ابن القيم في شيخه ابن تيمية رحمهما الله[٦]:

ولقد أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني
حبرًا أتى من أرض حران فيا ... أهلاً بمن قد جاء من حران

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٧).

(٢) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (٧٠٩١).

(٣) أخرجه من حديث النعمان بن بشير- البخاري- في الإيمان (٥٢)، ومسلم- في المساقاة (١٥٩٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٤).

(٥) انظر: «الكشاف» (١/ ٧)، «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣-١٣٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٥).

(٦) في «النونية» (ص١٤٣).

فـالله يجزيـه الـذي هـو أهلـه ... مـن جنـة المـأوى مـع الرضـوان
أخـذت يـداه يـدي وسـار فلـم يـرم ... حتـى أراني مطلـع الإيـمان

فالشكر بالقلب بالاعتراف بالنعمة باطنًا ونسبتها إلى المنعم بها ومسديها.

والشكر باللسان بالاعتراف بالنعمة ظاهرًا والتحدث بها باللسان. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١١].

وهذا على القول بأنه يدخل تحت معنى الآية التحدث بنعم الله عامة والآية تحتمله بلا شك؛ لأنه لا ينافي القول بأن المراد بالنعمة هنا نعمة النبوة.

والشكر بالجوارح بالاستعانة بالنعمة على طاعة المنعم قولاً وعملاً كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

وقام ﷺ حتى تورمت قدماه، وقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

ويكون بظهور أثر النعمة على المنعم عليه، كما في الحديث: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

وفي حديث أبي مالك الجشمي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته**»(٣).

والمدح أعم منهما جميعًا: من حيث ما يقع عليه(٤)، فإنه يُقال مما يقع من الإنسان بالتسخير، ومما يقع منه باختياره متعديًا أو لازمًا، فقد يُمدح الإنسان بطول قامته، كما يُمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، كما يُمدح بفروسيته وشجاعته. وهو يقع على الحي والميت، وعلى الحيوان والنبات والجماد والزمان والمكان وغير ذلك، وهو كالحمد من

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٦) عن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».
وأخرجه أيضًا بنحوه من حديث عائشة- رضي الله عنها (٤٨٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٩) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وقال: «حديث حسن». وأخرجه أحمد (٢/ ٣١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(٤/ ٤٣٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبوداود- في اللباس (٤٠٦٣٤)، والنسائي في الزينة (٤٨١٩)- وصححه الألباني.

(٤) انظر: «الصحاح» و«المفردات» مادة: «مدح»، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٦).

حيث إنه يقع بالقول باللسان لا غير.

قال الراغب[١]: «فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكرًا، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمدًا».

﴿لِلَّهِ﴾ اللام حرف جر، وهي تفيد معنى الاختصاص والاستحقاق، ولفظ الجلالة مجرور بها والجار والمجرور متعلقان بمحذوف هو خبر ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ تقديره: مستحق، أو واجب أو ثابت لله. وقد تقدم في بحث البسملة الكلام مستوفى على معنى لفظ الجلالة ﴿الله﴾ واشتقاقه.

ومعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أن الحمد المطلق لله وحده، فهو المستحق له المختص به دون سواه.

وحمده- تعالى هو وصفه- عز وجل- بصفات الكمال اللازمة والمتعدية؛ كمال العظمة وكمال الإحسان والنعمة، مع المحبة والتعظيم له والرضا عنه والخضوع له؛ لأنه المنعم بأكبر النعم وأعظمها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «والحمد نوعان: حمد على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر، وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله، وهذا الحمد لا يكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال، وهي أمور وجودية، فإن الأمور العدمية المحضة لا حمد فيها، ولا خير ولا كمال.

ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ماله من صفات الكمال، فكل ما يُحْمَد به الخلق فهو من الخالق، والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد، فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة، وهو أحق من كل محمود بالحمد، والكمال من كل كامل، وهو المطلوب».

وقال ابن القيم[٣]: «الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا

---

(١) في «المفردات» مادة «حمد».

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٨٤).

(٣) في «مدارج السالكين» (١/ ٤٨).

من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمد لله، حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه[١]، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه..».

والذين قالوا: معنى الحمد الثناء، معناه عندهم: الثناء عليه- تبارك وتعالى- بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

قال القرطبي[٢]- رحمه الله تعالى: «الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل... فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العليا».

وقال- أيضًا: «الحمد ثناء على الممدوح بصفاته... وذكر عن جعفر الصادق في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد...»

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملة خبرية فيها معنى الأمر، فهو- جل وعلا- يخبر عن اتصافه بالحمد، ويأمر عباده أن يحمدوه. كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل:٥٩].

وإنما جاءت جملة اسمية للدلالة على الاستمرار والدوام، فله سبحانه وتعالى الحمد في جميع الأوقات والأزمان، والأماكن في الدنيا والآخرة، وفي السموات والأرض، وهو المحمود بكل حال، على ما له- سبحانه- من المحاسن والإحسان، وعلى ما له من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى[٣].

افتتح كتابه بالحمد فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وله الحمد على إنزاله، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١﴾ [الكهف:١].

وله الحمد على خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

---

(١) كما قال ﷺ في الدعاء: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**». أخرجه مسلم في الصلاة- باب ما يُقال في الركوع والسجود (٤٨٦)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣).

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ﴾ [فاطر:١].

وله الحمد على ملك ما في السموات والأرض قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:١].

وله الحمد في السموات والأرض، وفي جميع الأوقات، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٨].

وله الحمد في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [القصص:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ:١].

وحمده تعالى آخر دعوى أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس:١٠].

وشق لنبيه ﷺ اسمًا من الحمد، فسماه: محمدًا.

قال حسان بن ثابت- رضي الله عنه[1]:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه[2] ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

فهو تعالى المحمود على الدوام في جميع الأحوال، ولهذا أمر عباده أن يحمدوه في آيات كثيرة. وكان نبينا محمد ﷺ إذا رأى ما يحب قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال**»[3].

كما رغب ﷺ بحمد الله تعالى في أحاديث كثيرة منها:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٣٣٨).

(٢) لم يرد في الكتاب والسنة أن من أسمائه تعالى «المحمود». فمعنى «المحمود» في البيت الموصوف بالحمد.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب- باب فضل الحامدين (٣٨٠٣). وقال في «الزوائد»: «إسناده صحيح ورجاله ثقات». وصححه الألباني.

ما رواه أبومالك الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**»(٢).

وبما أن كل نعمة على العباد فهي من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، وبما أن نعم الله على العباد كثيرة لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨]، فإن العبد ليس بمقدوره أن يشكر الله حق شكره على هذه النعم التي منها النعم الدينية من الإيمان والعلم والتقوى، والنعم الدنيوية كالصحة والمال والنعم الأخروية وهي الجزاء الكثير على العمل القليل في العمر القصير، ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

إذا كيف يمكن العبد أن يشكر الله حق شكره والشكر نفسه نعمة من الله على العبد تستوجب الشكر. فما على العبد إلا أن يقوم بما يستطيع من الشكر ويقول: «**سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(٣).

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر(٤)

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل الوضوء (٢٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر- استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل (٢٧٣٤).

(٣) أخرجه مسلم- في الصلاة- باب ما يُقال في الركوع والسجود (٤٨٦) عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدمه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»، وأبوداود في الصلاة- باب الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٩).

(٤) البيتان للشاعر محمود الوراق، انظر: «المستطرف» (١/ ٥٣)، «تاريخ دمشق» (٥/ ١٩٠).

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: رب صفة أولى للفظ الجلالة «الله»، أو بدل منه. و﴿رَبِّ﴾ مضاف و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه، مجرور وعلامة جره الياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

و﴿رَبِّ﴾ في الأصل مأخوذ من التربية للشيء وتنميته، وتبليغه إلى كماله، كما قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣] أي اللاتي تربونهن في حجوركم.

وهو بمعنى المالك والسيد، كما قال تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف:٤١] أي مالكه وسيده. وفي الحديث: «**أن تلد الأمة ربتها**»(١) أي مالكتها وسيدتها.

وبمعنى: المعبود حتى لو كان بغير حق، كما قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف:٣٩].

وقال أحد المشركين وقد وجد الثعلب قد بال على صنمه:

أرب يبول الثعلبان برأسه ... لقد هان من بالت عليه الثعالب(٢)

وبمعنى القائم على الشيء ومدبره ومصلحه ومتوليه، ومنه اسم الله عز وجل: «القيوم».

ومنه قوله ﷺ في الحديث: «**هل لك عليه من نعمة تربها**»(٣)؛ أي تقوم بها وتصلحها.

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: «لأن يَرُبَّني بنو عمي أحب إليَّ من أن يَرُبَّني غيرهم»(٤)؛ أي يكون على ربا، أي أميرًا يقوم بأمره ويملك تدبيره ويدخل تحت طاعته.

---

(١) أخرجه من حديث طويل من رواية أبي هريرة- البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، وأخرجه أيضًا مسلم مطولاً من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه (٨).

(٢) ذكر صاحب «شرح مغني اللبيب» للبغدادي (٢/ ٣٠٤-٣٠٩): أنه يُروى لراشد بن عبدربه، ولغاوي بن ظالم السلمي، ولأبي ذر الغفاري، وللعباس بن مرداس.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٢٦٢، ٤٠٨)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٦٦).

ومنه قولهم: «أديم مربوب»[١] وقول النابغة الذبياني[٢]:

تخب إلى النعمان حتى تناله فدى لك من رب طريفي وتالدي

وبمعنى صاحب الشيء، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات:١٨٠] أي صاحب العزة.

وكل هذه المعاني حق بالنسبة له تعالى فهو تعالى مربي الخلق؛ خالقهم ومالكهم، ومدبرهم، وسيدهم، وهو معبودهم بحق، وهو القيوم على كل شيء ومدبره ومصلحه. وهو صاحب العزة سبحانه وتعالى. قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «الرب: هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي».

واسمه تعالى: «الرب» يفيد أن الربوبية صفة ذاتية له- تبارك وتعالى وصفة فعلية[٤].

وربوبية الله لخلقه نوعان: ربوبية خاصة مقتضاها النصر والتأييد واللطف والعناية ونحو ذلك. وربوبية عامة مقتضاها مطلق التصرف.

فالربوبية العامة: هي خلقه للمخلوقين وملكه لهم، وتدبيره الكوني لهم، ورزقه لهم، وهدايتهم لمصالح دنياهم ونحو ذلك.

وهذه شاملة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، حيهم وجمادهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١].

والربوبية الخاصة: هي ربوبية الله تعالى لأوليائه بهدايتهم إلى الصراط المستقيم بالإيمان والعلم النافع، والعمل الصالح، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، وذلك ملاك الأمر مع توفيقهم وحفظهم.

كما قال إبراهيم- عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦].

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٦٥).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٩٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٣).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٧).

وقال موسى- عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة:٢٥].

وكما في قول المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥] وغير ذلك.

ولما كان من أخص معاني الرب المالك والمدبر والقائم بما يصلح الخلق كان أكثر دعاء الأنبياء والمؤمنين باسمه تعالى «الرب» لأنه أحق باسم الاستعانة والمسألة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب».

و«الرب» **بالتعريف لا يطلق إلا على الله- تعالى**، ورب كذا بالإضافة يطلق عليه وعلى غيره، فلزم إذا أريد به غير الله أن يقيد بالإضافة، فيقال: رب الدار، ورب الإبل[٢]، كما قال يوسف- عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ﴾ [يوسف:٤١]، وقال أيضًا: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]، وقال أيضًا: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٥٠].

وفي الحديث: «**أن تلد الأمة ربتها**»[٣].

ويظهر جليًا من تعريف اسمه- تعالى «الله»، و«رب العالمين» دخول اسم «الرب» في اسمه- تعالى «الله»، وأن بينهما تداخل وتلازم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] عن هذين الاسمين: «فالاسم الأول- يعني- «الله» يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه، وما خلق له، وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله. والاسم الثاني- يعني- «رب العالمين» يتضمن خلق العبد ومبتداه، وهو أنه يَرُبُّه ويتولاه، مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية، والربوبية تستلزم الألوهية أيضًا».

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٣)، «دقائق التفسير» (١/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) انظر: «الصحاح» مادة: «رب»، «معالم التنزيل» (١/ ٤٠)، «الكشاف» (١/ ٨)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨).

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٣)، «دقائق التفسير» (١/ ١٧٧).

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالَم بفتح اللام، اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرهط وقوم.

والعالمين: كل موجود سوى الله تعالى وقد جمع ليشمل كل جنس ممن سُمّى به، فيعم جميع المخلوقات في السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والإنس والجن والشياطين، والحيوانات والجمادات وغير ذلك من سائر المخلوقات، كما دخلت عليه «ال» الدالة على الاستغراق؛ ليشمل كل فرد من أفراد تلك الأجناس(١).

وهو مشتق من العلامة؛ لأن كل ما في الوجود من المخلوقات علامة على وجود الله، وكماله بذاته وصفاته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم:٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

قال الشاعر(٢):

فواعجبًا كيف يعصى الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ويقال إنه مشتق من «العِلم» بكسر العين(٣).

والقول بأنه مشتق من «العلم» إن أريد به أنه تعالى خلق «العالمين» عن علم منه- جل وعلا- بهم، كما خلقهم- أيضًا- عن قدرة تامة فصحيح، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

وإن أريد به أن هذه المخلوقات سميت عوالم؛ لأن عندها شيئًا من العلم المحدود الناقص القليل، أو عندها ما يخصها من العلم كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤] فهذا محتمل. والقول بأنه مشتق

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٣).

(٢) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

(٣) انظر: «الكشاف» (١/ ٨-٩).

من العلامة هو الأظهر، ويحتمل أنه مشتق منها ومن العلم[١]. والله أعلم.

وجمع «العالمين» جمع من يعقل علمًا أنه يتناول العقلاء وغيرهم من باب تغليب العقلاء على من سواهم؛ لأن العقلاء هم المعنيون بالخطاب والتكليف؛ لما ميّزهم الله به عن الحيوان والجماد من العقل والإدراك، الذي هو مناط التكليف.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة:٣١]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ [النور:٤٥].

فقد غلب العقلاء على غيرهم في الآية الأولى بقوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾، وفي الآية الثانية بقوله: ﴿فَمِنْهُم﴾.

أما قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان:١] ونحوه، فالمراد به الإنس والجن فقط فاستخدم لفظ: «العالمين» لبعض مدلوله.

وإنما حمل على أنه خاص بهم؛ لأنهم هم المعنيون بالنذارة دون غيرهم من سائر المخلوقات.

وهكذا فإن السياق نفسه يحدد المراد بلفظة: «العالمين» أهو العموم لجميع المخلوقات كما في أكثر المواضع الواردة في القرآن أم الخصوص لبعضها كما في آية الفرقان.

وكما في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٥]. فالمراد بهذا الذكران من عالمي زمانهم من الإنس، وهكذا.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ صفة ثانية للفظ الجلالة «الله» و﴿ٱلرَّحِيمِ ﴾ صفة ثالثة له، وكل منهما مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره أو هما بدلان من لفظ الجلالة.

وهذا بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ثناء على الله تبارك وتعالى؛ لقوله عز وجل في

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٠).

حديث أبي هريرة: «**فإذا قال العبد ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي**»(١).

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله تعالى يدل كل منهما على إثبات صفة الرحمة وأثرها، وقد تقدم الكلام عليهما مستوفى في الكلام على البسملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) بعدما بيَّن أن اسم «الله» أحق بالعبادة، وأن اسم «الرب» أحق بالاستعانة- قال: «والاسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يتضمن كمال التعلقين، ووصف الحالين، فيه تتم سعادته- يعني العبد- في دنياه وأخراه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾. فذكر ههنا الأسماء الثلاثة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، و﴿رَبِّي﴾، و﴿الإله﴾، وقال: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد:٣٠] كما ذكر الأسماء الثلاثة في أم القرآن..».

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾.

قوله: ﴿مَٰلِكِ﴾ صفة رابعة للفظ الجلالة «الله» أو بدل منه مجرور مثله وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، وهو مضاف و﴿يَوۡمِ﴾ مضاف إليه مجرور، و﴿يَوۡمِ﴾ مضاف و﴿ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه مجرور وعلامة جرِّ كل منهما الكسرة الظاهرة على آخره.

وهذا بعد قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ تمجيد لله تعالى. لقوله تعالى في حديث أبي هريرة: «**فإذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله: «مجدني عبدي»**».

قرأ عاصم والكسائي: (مالك) بالألف اسم فاعل من «المِلك» بكسر الميم وسكون اللام كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران:٢٦].

ومعنى «المالك»: المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء.

وقرأ باقي السبعة (مَلِك) والمَلِك هو الحي الذي يتصرف فيأمر وينهى ويطاع،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٣)، «دقائق التفسير» (١/ ١٧٧).

مأخوذ من «المُلْك» بضم الميم كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧، المائدة:٤٠]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة:١٨]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [فاطر:١٣، الزمر:٦]، وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣، الجمعة:١]، وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ [الناس:١-٢].

و«مَلِك» على وزن «فَعِل» صفة مشبهة تدل على ثبوت ملكه ودوامه، وأن له التصرف التام في الأمر والنهي.

وقراءة «مَلِك» أعم وأشمل من قراءة «مالك» إذ إن كل مَلِك مالك، وليس كل مالك ملكًا.

وقال بعضهم: بل قراءة (مالك) أعم وأشمل. قال في «لسان العرب»(١): «روى المنذر عن أبي العباس أنه اختار «مالك يوم الدين» وقال: كل من يملك فهو مالك؛ لأنه بتأويل الفعل مالك يوم الدين أي يملك إقامته، ومنه قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦]».

وكل من القراءتين سبعية وصحيحة ثابتة، نزل بها جبريل من عند الله على النبي ﷺ وإذا صح في الآية أكثر من قراءة فكل قراءة بمثابة آية. ولا تجوز المقارنة بين ألفاظ تلك القراءات من حيث الجودة والحسن إذ ليس في كلام الله جيد وأجود، وحسن وأحسن، بل كل كلامه تعالى في غاية الجودة والحسن، وفي أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ «اليوم» في الأصل هو القطعة من الزمن قليلة كانت أو كثيرة: أي مطلق الوقت.

فمن إطلاقه على الزمن وإن كان قليلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران:١٥٥]: أي ساعة التقى الجمعان.

---

(١) مادة: «ملك».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٥]، ويُقال: «شاهدتك يومًا، أو سمعتك يوم كذا»: أي لحظة من يوم(١).

كما يطلق على الزمن الطويل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:٤٧].

وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج:٤]، وهو اليوم الآخر، ويوم القيامة، كما ذكره الله تعالى في آيات عديدة من كتابه العزيز.

واليوم في الشرع: ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة:٢٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة:٨٩].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس:٣].

لأن الصحيح من أقوال أهل العلم أن هذه الأيام الستة كأيام الدنيا؛ لأن الله خاطب العرب بما يعرفون.

وأيام الله تعالى هي نعمه- تعالى، وثوابه للمطيعين، ووقائعه في العاصين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم:٥].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية:١٤].

و﴿ٱلدِّينِ﴾ هو الحساب والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٢١).

يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٥] أي جزاء أعمالهم، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة:٨٦، ٨٧]: أي غير مجزيين بأعمالكم ومحاسبين عليها.

وذكر الله عن الكفار قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات:٥٣]: أي لمجزيون، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ [الذاريات:٦]: أي إن الجزاء على الأعمال لواقع حقيقة.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ [الانفطار:٩]: أي تكذبون بالحساب والجزاء على الأعمال، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ [الانفطار:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ [الانفطار:١٧-١٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾ [التين:٧]: أي فما يكذبك بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

وتفسير الدين بالمحاسبة والمجازاة معروف مشهور في كلام العرب.

قال شهل بن شيبان من قصيدة له في حرب البسوس(١):

ولم يبق سوى العدوا ... ن دناهم كما دانوا

وقال آخر:

واعلم يقينًا أن ملكك زائل ... واعلم بأن كما تدين تدان(٢)

وقال آخر:

حصادك يومًا ما زرعت وإنما ... يدان الفتى يومًا كما هو دائن(٣)

وفي المثل أو الأثر: «كما تدين تدان»(٤).

---

(١) انظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١/ ٣٥)، «الكشاف» (١/ ٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٥٥). وقد نسب البيت ليزيد الكلابي في «الكامل» (١/ ١٩١)، «جمهرة الأمثال» للعسكري (١٦٩)، «المخصص» (١٧/ ١٥٥)، ونسب في «اللسان» مادة: «دان» لخويلد بن نوفل الكلابي يخاطب الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان اغتصبه ابنته. ونسب في «مجاز القرآن» (١/ ٢٣) - إلى ابن نفيل يزيد بن الصعق واسم الصعق: عمرو بن خويلد بن نفيل.

(٣) نسبه القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٣-١٤٤) - للبيد، وليس في ديوانه.

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٣)، «لسان العرب»: مادة «دين»، «فتح الباري» (٨/ ٤٥٨).

والمراد بـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم القيامة، يوم قيام الناس من قبورهم، وقيام الأشهاد من الرسل والأنبياء والصالحين والملائكة، ويوم قيام الحساب، وقيام العدل الحقيقي، يوم إدانة الخلائق ومحاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية:٢٨].

قال عمر- رضي الله عنه-: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة:١٨]»(١).

ويطلق الدين على الملة والشريعة، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢]. وقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦، يوسف:٤٠، الروم:٣٠]، وقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩].

ويطلق على الحكم والقضاء الشرعي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]: أي في حكمه وقضائه الشرعي.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦]: أي في قضاء الملك.

ويطلق على العادة والشأن والحال والخلق(٢).

قال امرؤ القيس(٣):

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٥١).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٧٢)، «البحر المحيط» (١/ ٢١).

(٣) «ديوانه» ص(٩).

كـدينك مـن أم الحـويرث قبلهـا وجارتهـا أم الربـاب بمأسَـلِ

وقال المُثقَّب العَبْدي(١):

تقـول إذا دَرأتُ لهـا وَضِـيني أهـذا دِينُـه أبـدا ودِينـي

ويطلق على الطاعة(٢). قال زهير(٣):

لـئن حللـت بجـو في بنـي أسـد في ديـن عمـرو وحالـت بيننـا فـدك

أي: في طاعة عمرو.

وفي السير أنه ﷺ قال لقريش: «**كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم**»(٤): أي تطيعكم وتخضع لكم.

ويطلق على القهر ومنه: المدين للعبد، والمدينة للأمة(٥)، ومنه قول عمرو بن كلثوم(٦):

وأيـام لنـا غـرٌّ طـوال عصـينا المَلْـكَ فيهـا أن نـدينا

أي: أن نقهر.

وقال ذو الأصبع العدواني(٧):

لاهِ ابـنُ عمـك لا أفضـلت في حسـب عنـي ولا أنـت ديـاني فتخـزوني

والدَّين: **بالفتح** ما تعلق بذمة العبد من حقوق الله، كصيام نذر، أو من حقوق العباد كثمن مبيع، أو رد قرض ونحو ذلك.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٧٣)، وانظر: «اللسان» مادة: «وضن». والوضين: بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٥).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٧٣).

(٤) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٩)، «اللسان» مادة: «دين».

(٥) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٢١)، وانظر: «اللسان» مادة: «دين».

(٦) انظر: «شرح القصائد السبع الطوال» لأبي بكر بن الأنباري ص(٣٨٨).

(٧) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٢١) وهو في «اللسان» مادة «دين» بلفظ:

لاه ابنُ عمِّك لا أفضلت في حسب فينـا، ولا أنـت ديانـي فتخزونـي

قال ابن منظور: «أي لست بقاهر لي فتسوس أمري».

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١١].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها؟ فقال: «**لو كان على أمك دين، أكنت قاضيه عنها؟**». قال: نعم. قال: «**فدين الله أحق أن يقضى**»(١).

وقال الشاعر:

تُعَيِّرني بالدَّين قومي، وإنما ... تَدَيَّنْت في أشياءَ تُكْسِبُهم حَمْدا(٢)

ومعنى ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾:

أنه- عز وجل- مالك ذلك اليوم، ومليكه، لا مَلِك في ذلك اليوم، ولا مالك سواه- تبارك وتعالى- فهو تعالى المالك لجميع الأعيان، المتصرف فيها، لا ينازعه أحد في مملوكاته.

وهو المَلِك الذي أمره ونهيه نافذ في جميع مملكته جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج:٥٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ:٣٨].

وإنما أضاف «الملك» ليوم الدين، وخصه به، دون ملك أيام الدنيا، مع أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة، ومليكهما، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل:١٣]، وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه:١١٤، المؤمنون:١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم- باب من مات وعليه صوم (١٩٥٣)، ومسلم في الصيام- باب قضاء الصيام عن الميت (١١٤٨).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «دين».

شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١، الفرقان:٢]. لعظمة ذلك اليوم، وتفرده تعالى بنفوذ الأمر فيه حيث يظهر للخلائق تمام الظهور تفرده بالملك حقيقة، وتمام ملكه وعدله تعالى وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق الدنيوية.

تلك الأملاك التي خولها الله تعالى من شاء كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠].

وهذه الأملاك الدنيوية، ملوكها وما ملكوا ملك له جل وعلا.

ولهذا حَرم أن يتسمى بملك الأملاك؛ لأن الله- عز وجل- هو مالك الأملاك كلها؛ ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: «**أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بملك الأملاك**»(١).

وكثير من هؤلاء الملوك خارجون عن طاعته- جل وعلا- مبارزون له في المعصية كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف:٧٩] أي ملك عاص لله ظالم للعباد. بل كثير منهم يحكمون ممالكهم بغير حكم الله، ويظلمون عباد الله، ويتخوضون في مال الله بغير ما يرضي الله.

وقد حكم الله تبارك وتعالى وقضى بزوال هذه الأملاك، ورجوع الملك له وحده في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر:٢٣]، وذلك هو الملك الحقيقي، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج:٥٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦] ، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب- باب أبغض الأسماء إلى الله (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم في الآداب- تحريم التسمي بملك الأملاك (٢١٤٣).

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦] ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار:١٩].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض**»(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله- عز وجل- السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(٢).

بل إن ذلك اليوم هو اليوم الحقيقي، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ [النبأ:٣٩].

فمجيئه حق، وفيه يظهر الحق تمام الظهور، وهو اليوم الذي يستحق أن يعمل له، وأن يحسب له كل حساب، لا أيام الدنيا، بل ولا الدنيا كلها.

ولهذا نجد القرآن الكريم كثيرًا ما يقرن بين الإيمان بالله تعالى، والإيمان بهذا اليوم «اليوم الآخر» لأنه أكبر حافز على الاستعداد بالأعمال الصالحة(٣).

وقد رُويَ عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»: أي إن ذلك اليوم أعظم مانع للناس من التهالك في الشر والمعاصي.

وتلك الدار هي الدار الحقة، وتلك الحياة هي الحياة الحقيقية، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧] (٤٨١٢)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم- كتاب صفة الجنة (٢٧٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق (٢٧٨٨)، وابن ماجه- في المقدمة (١٩٨)، وأخرجه البخاري مختصرًا- في التوحيد (٧٤١٣).

(٣) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٤٤).

لهذا كله أضاف الله- تبارك وتعالى- الملك إلى يوم الدين، إضافة إلى أن في قوله قبل هذا: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ما يدل على أنه مالك الدنيا.

قال ابن كثير[١]: «وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة...».

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

هذه الآية هي الآية الرابعة من الفاتحة، نصفها للرب- جل وعلا- ونصفها للعبد كما قال الله- عز وجل- في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: «**فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال الله: هذا بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل...**» فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ للرب- تبارك وتعالى- مع ثلاث آيات قبلها، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ للعبد، مع ثلاث آيات بعدها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: فهذا تفصيل لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته من المحبة والخوف والرجاء والأمر والنهي. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية، من التوكل والتفويض والتسليم».

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

﴿إِيَّاكَ﴾ في الموضعين ضمير بارز منفصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به مقدم للفعل بعده، أو «إيا» ضمير مبني في محل نصب مفعول به والكاف حرف خطاب، لا محل له من الإعراب.

وهذا مذهب الأخفش، واختاره الزمخشري[٣]، وقال: «وعليه المحققون».

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٥١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٨٩).

(٣) في «الكشاف» (١/ ٩)، وانظر: «البحر المحيط» (١/ ٢٣)، «أنوار التنزيل» (١/ ٩)، «الجدول في إعراب =

وقُدِّم المفعول «إياك» على الفعل في الموضعين للاهتمام، ولئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود[١]، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [النعام:١٦٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر:٦٤].

ولئلا يتقدم ذكر الاستعانة والمستعين على المستعان به- جل وعلا- كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة:٥١].

وقُدِّم أيضًا لإفادة الحصر والاختصاص؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص؛ لأن في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ تحقيق لمعنى «لا إله إلا الله»، ففي تقديم المعمول «إياك» في الموضعين نفي للعبادة عن غير الله، ونفي للاستعانة بغيره.

وفي قوله: «نعبد» و«نستعين» إثبات العبادة والاستعانة له سبحانه.

قال ابن القيم في «مدارج السالكين»[٢]: «فهو في قوة لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك.. مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي «إياك قصدت وأحببت» من الدلالة على معنى حقيقتك وذاتك قصدي ما ليس في قولك: «قصدتك وأحببتك..».

وكرر الضمير «إياك» مرة أخرى للاهتمام، ولأن ذلك أفصح[٣].

قال ابن القيم[٤]: «وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه فإذا قلت لملك مثلاً: «إياك أحب، وإياك أخاف» كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته والاهتمام بذكره ما ليس في قوله: «إياك أحب وأخاف».

=
القرآن» (١/ ١٩).

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٥)، «مدارج السالكين» (١/ ١٠٢).

(٢) (١/ ١٠٢).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٦٤).

(٤) في «مدارج السالكين» (١/ ١٠٣).

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ بعد الآيات الثلاث الأولى التفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان:٢١-٢٢](١).

وعكسه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢].

والغرض العام من الالتفات في جميع المواضع التي ورد فيها هو تنبيه القارئ والمستمع؛ لأن انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب أو التكلم أو العكس ونحو ذلك مما ينبه القارئ والمستمع، وأدعى للإصغاء، وأبعث على النشاط(٢)، بخلاف ما إذا جاء الكلام على وتيرة واحدة، فإن القارئ أو المستمع قد يغفل أو يمل.

وهناك غرض خاص في كل التفات بكل موضع بحسبه، وقد يكون هذا الغرض ظاهرًا كما في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس:١-٢]. ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣﴾ [عبس:٣]. فقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ التفات للخطاب بعد الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾.

والغرض من مجيء الكلام أولاً بضمير الغيبة كراهية مواجهة الرسول ﷺ بذلك فلم يقل: «عبست وتوليت أن جاءك الأعمى». بينما خاطبه مواجهة بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣﴾ إذ لا غضاضة، ولا محذور في مواجهة الرسول ﷺ بهذا الخطاب؛ لأنه ﷺ لا يعلم الغيب قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

واختلف في الغرض الخاص من الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ بعد الآيات الثلاث قبلها.

فقد قيل: إنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾(٣).

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٥)، «البحر المحيط» (١/ ٢٤).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ١٠).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٢).

وقيل: لما ذكر الحقيقَ بالحمد والثناء وصفاته العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء والعبادة والاستعانة، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي: ﴿إِيَّاكَ﴾ يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة(١). والله أعلم.

﴿نَعْبُدُ﴾: العبادة في الأصل: التذلل والخضوع، ومنه سمي العبد عبدًا لذلته وخضوعه وسكينته وخشوعه وانقياده لمولاه.

ومنه قولهم: بعير معبّد أي مذلّل بالركوب في الحوائج. قال طَرَفة بن العبد(٢):

إلى أن تحامتني العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبّد

أي: المذلّل.

ومنه قولهم: طريق معبّد: أي مذلل بكثرة وطئه بالأقدام.

قال طرفة بن العبد(٣):

تُباري عِتاقًا ناجيات وأتبعت ... وظيفًا وظيفًا فوق مَوْر مُعَبَّد

فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخصك دون غيرك بأقصى غاية التذلل والخضوع لك محبة وتعظيمًا وخوفًا.

والعبادة تطلق ويراد بها فعل العبادة: أي التعبد وهو التذلل والخضوع لله محبة وتعظيمًا، وتطلق ويراد بها نفس العبادات، وهي بهذا الإطلاق: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(٤).

قال ابن القيم(٥): «وبني ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ١٠).

(٢) انظر: «شرح القصائد السبع الطوال» لأبي بكر بن الأنباري ص(١٩١).

(٣) ديوانه ص(١١).

ومعنى تباري: تجاري وتسابق، والعِتاق: جمع عتيق، وهو كريم الأصل، وناجيات: مسرعات. والوظيف: من رسغ البعير إلى ركبتيه في يديه، وأما في رجليه فمن رسغيه إلى عرقوبيه. والمراد بالوظيف هنا: الخف. والمور: الطريق.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

(٥) في «مدارج السالكين» (١/ ١٢٦).

ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذب عنه وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة، أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها».

وعلى هذا فكل ما أمر الله به، بل كل ما تعبد له به- سبحانه وتعالى- فهو عبادة سواء كان ذلك مما يجب فعله كالصلاة والزكاة والحج والصيام ونحو ذلك، أو مما يجب تركه من المحرمات كالربا والزنا والسرقة ونحو ذلك أو مما يستحب فعله كالصدقة والإحسان وإماطة الأذى عن الطريق، أو مما يستحب تركه كتدخل الإنسان فيما لا يعنيه.

كما يدخل في ذلك الأمور المباحة كالأكل والشرب والنوم ونحو ذلك، فهذه المباحات مما يفعله الإنسان جبلة، وهي مصلحة صرفة للنفس إلا أن فعلها تقربًا إلى الله- تعالى، وامتثالاً لأمره، وصيانة للنفس، وبهدف التقوي على طاعة الله- تعالى، وإظهارًا لنعمته تعالى على العبد، كل ذلك عبادة لله- تعالى.

عن عوف بن مالك بن نضلة الجشمي- رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ في

ثوب دون، فقال: «**ألك مال؟ قال: نعم. قال: من أي المال؟ قال: آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته**»(١).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

وبهذه النية والقصد الحسن تكون جميع أعمال العبد المباحة من عادات ونحوها عبادات بينما قد تصبح عبادات كثيرين أشبه شيء بالعادات، بسبب الغفلة، وعدم استحضار النية والقصد الحسن. ولهذا قال بعض أهل العلم: «المُوَّفقون عاداتهم عبادات والمخذولون عباداتهم عادات».

ولابد لصحة العبادة من توفر شرطين:

الأول: الإخلاص لله تعالى كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي نخصك بالعبادة ونخلصها لك، ونتبرأ من الشرك وأهله ووسائله.

وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله- تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٣).

وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»(٤).

والشرط الثاني: متابعة شرع الله. قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه**

---

(١) أخرجه أبوداود في اللباس- باب في غسل الثوب وفي الخلقان (٤٠٦٣) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب- ما جاء أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٢٨١٩)، وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق- باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٤) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧).

فهو رد»(١).

وقال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢).

وذلك بأن تكون العبادة وفق ما شرع الله من حيث الجنس والقدر والصفة والزمان والمكان والسبب. فمثلاً زكاة الفطر عبادة ولابد أن يكون المخرج فيها من جنس ما أمر الشرع بإخراجه وهو الطعام لا من الخضار، ولابد من أن يكون المخرج عن الشخص الواحد بمقدار صاع على الصحيح. وأما موافقة الشرع في الصفة فبأن تكون العبادة على الصفة التي شرع الله كالصلاة مثلاً ركوعها قبل سجودها ولو عكس لما صحت صلاته. وأما الزمان فبكون العبادة في وقتها كالصلاة مثلاً. وأما المكان فتكون العبادة في مكانها كذبح الهدي. وأما السبب فبأن يكون سبب العبادة قد وجد كصلاة الكسوف لا تصلى إلا عندما يحصل الكسوف أو الخسوف.

وينتظم الشرطين معًا في الدلالة قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة:١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان:٢٢].

فالمراد بإسلام الوجه لله الإخلاص له في العبادة.

والمراد بقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي متبع لما جاء عن الله، لا مبتدع، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧، الملك:٢].

قال الفضيل بن عياض: «أي: أخلصه وأصوبه»(٣).

---

(١) أخرجه من حديث عائشة- رضي الله عنها- البخاري في الصلح- باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية- باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في البيوع- باب النجش قبل الحديث (٢١٤٢)، وأخرجه مسلم عن عائشة موصولاً في الأقضية (١٧١٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٧٣). وقد ذكر ابن القيم أن الناس ينقسمون بالنسبة لهذين الأصلين، =

وقد جعل الله تعالى العبودية وصفًا لأكمل خلقه وأحبهم إليه، وهم رسله وأنبياؤه- عليهم السلام، كما جعلها وصفًا لمن اصطفاه من المؤمنين.

فوصف بها نبيه محمدًا ﷺ أفضل خلقه وخاتم رسله، في أشرف مقاماته، وهو مقام إنزال الكتاب عليه، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١].

ووصفه بها في مقام دعائه ﷺ ربه، وعبادته له، ودعوته إليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات الشدة والضيق، وأمره بالاستمرار عليها حتى الموت فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٧-٩٩].

وقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله**»(١).

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: «**قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر**»(٢).

كما وصف الله بها سائر أنبيائه ورسله فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

=

وهما الإخلاص والمتابعة إلى أربعة أقسام أحدها أهل الإخلاص والمتابعة وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة والضرب الثاني من لا إخلاص له ولا متابعة، والضرب الثالث من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر، والضرب الرابع من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٠٧-١٠٩).

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣، ٢٤، ٤٧)- من حديث عمر- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة الفتح (٤٨٣٨).

وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص:١٧]، وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١]، وقال تعالى عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩]، وقال عنه وعن الملائكة: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، وقال أيضًا عن الملائكة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وقال عنهم: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وقال عنهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء:٢٦].

كما وصف الله بها الصالحين من المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦].

وجعل لهم البشارة المطلقة فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧، ١٨].

كما جعل لهم الأمن المطلق فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف:٦٨، ٦٩].

وعزل عنهم سلطان الشيطان فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٤٢].

وجعل ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين فقال في حديث جبريل وقد سأله عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معطوف على ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهو وما بعده من الآيات للعبد كما سبق بيانه.

---

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب- البخاري في الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ (٥٠)، ومسلم في الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١)، وأخرجه مسلم- أيضًا- من حديث أبي هريرة- الحديث (٩).

ومعنى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أي نخصك بطلب العون منك في جميع أمورنا. الدينية والدنيوية في جميع الأوقات والأحوال، ونعتمد عليك في جلب المنافع ودفع المضار، مع تمام الثقة بك يا ربنا في تحصيل ذلك(١)، ونعلن لك عجزنا وضعفنا وبراءتنا من حولنا وقوتنا وحول كل مخلوق وقوته، فلا حول ولا قوة إلا بالله. ولهذا شرع للمسلم أن يقول عند قول المؤذن: حي على الصلاة حي على الفلاح: «لا حول ولا قوة إلا بالله»(٢).

وفي الدعاء: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(٣).

قال ابن القيم(٤): «فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟ قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مليّ به، ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه. فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه، فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَليَّان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبسه همه على إنزال ما ينوبه بهما فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولابد، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. أي كافيه، والحسب: الكافي، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة».

وذكرت الاستعانة بعد العبادة مع أن الاستعانة من العبادة من باب ذكر الخاص بعد العام، وتقديم حقه تعالى على حق عباده وحاجتهم، ومن باب تقديم الغاية المقصودة على الوسيلة، وتقديم الأهم على المهم.

والعبادة والاستعانة متلازمتان: فلا تتحقق أحدهما دون الأخرى فالعبادة لا تتحقق بدون الاستعانة بالله، وعونه للعبد، ولا يحصل العون من الله بدون عبادته، وطلب العون

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٣) من حديث معاوية ، ومسلم (٣٨٥) في الصلاة من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) في «مدارج السالكين» (١/ ١٠٦-١٠٧).

منه[١].

وبهما معًا يتحقق الإيمان، فبالعبادة الخالصة لله براءة من الشرك، وبالاستعانة بالله دون سواه براءة من الحول والقوة، وتمام التفويض إلى الله- عز وجل- وهما كمال الطاعة، وبهما تحصل السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور.

قال ابن القيم[٢]: «وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله»، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب». فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كما تقدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة[٣]، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو الثناء على الله تعالى لكونه أولى به و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة؛ لأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله تعالى عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته. ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر. والإعانة فعله بك، وتوفيقه لك.

فإذا التزمت بعبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول

---

(١) ولهذا قال الطبري في «جامع البيان» (١/ ١٦٣): «إنه يستوي تقديم أحدهما على الآخر».

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠-١٠٢)، وانظر: «التفسير القيم» ص(٦٦-٦٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١)، «البحر المحيط» (١/ ٢٥)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٣)، «دقائق التفسير» (١/ ١٧٧).

تحت رقها سببًا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها، والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا حتى يقضي العبد نحبه.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له مقدّم على ما به؛ لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار والطاعات والمعاصي. والمتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته. فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾».

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الاستعانة به، والتوكل عليه، وأكد ذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨].

وقال شعيب- عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود:٨٨].

وقال المؤمنون فيما ذكره الله عنهم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة:٤].

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٩]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠].

قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾.

قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾: فعل أمر معناه الدعاء؛ لأن الأمر إذا صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر، وأما إذا جاء من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء، وإن كان من المتساويين فهو التماس.

والفاعل: ضمير مستتر وجوبًا تقديره: «أنت» و«نا» ضمير متصل في محل نصب مفعول أول للفعل «اهد». والمفعول الثاني: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾. والأصل في الفعل «هدى» أنه يتعدى إلى مفعولين الأول بنفسه، ويتعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ [الفتح:٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد:١٠].

وتارة يتعدى إلى المفعول الثاني بحرف الجر، إما باللام كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وكقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣].

وإما بإلى كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢١٣﴾ [البقرة:٢١٣، النور:٤٦]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج:٥٤]، وقوله: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ [الأنعام:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:١٦١]، وقوله تعالى: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل:١٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

قال الطبري(١): «والعرب تقول: هديت فلانًا الطريق، وهديته للطريق، وهديته إلى الطريق».

والهداية تنقسم إلى قسمين:

هداية البيان والدلالة والإرشاد، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ [طه:١٢٨] أي: أفلم يتبين لهم. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام:٩٧] أي: لتستدلوا بها وتسترشدوا.

---

(١) في «جامع البيان» (١/ ١٦٩).

وهذه الهداية عامة. فالله تعالى هاد، بمعنى مبين ومرشد للعباد كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل:١٢].

والرسل هداة إلى الله- تعالى، كما قال تعالى عن أفضلهم نبينا محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى عن إبراهيم- عليه السلام- أنه قال لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]، وقال موسى- عليه السلام- مخاطبًا فرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٩].

والدعاة إلى الله من المؤمنين هداة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر:٣٨].

والقسم الثاني هداية التوفيق والإلهام. وهذه خاصة بالله- تبارك وتعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]. فنفى عن رسوله ﷺ هذه الهداية التي بمعنى التوفيق، وأثبتها تعالى- لنفسه، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل:٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٥٠] أي: هدى كل شيء لما خُلق له وألهمه كقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى:٣] أي: هدى كل مخلوق لما قدّر له.

قال الشاعر:

ولا تعجلنّي هداك المليك ... فإن لكل مقام مقالا(١)

أي: وفقك المليك، تبارك وتعالى.

---

(١) ذكره الطبري في «جامع البيان» (١/ ١٦٧) بدون نسبة. ونسبه المفضل في «الفاخر» ص(٢٥٣) لطرفة بن العبد، وليس في ديوانه. ونسبه الشنقيطي في «الدرر اللوامع» (١/ ١٦٢) إلى الحطيئة، وليس في ديوانه. وهو بغير نسبة في «المقتضب للمبرد» (٣/ ٢٢٤)، «العقد الفريد» (٥/ ٤٩٣).

وهذه الهداية الحقة التي مَن وُفِّق لها ظفر بخيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ ﴾ [الأعراف:١٧٨]، ويجمع الهدايتين قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى:٧] أي وجدك ضالاً لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق(١).

وكذا قوله تعالى هنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يشمل الهدايتين وينتظم القسمين؛ لأن فعل الهداية إذا عدِّي بحرف تعيَّن معناه وتخصص بحسب معنى الحرف فإذا عدي بإلى تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، وإذا عدي باللام تضمن الاختصاص والتعيين، فإذا عدي بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ تضمن ما يجمع ذلك كله أي بَيِّنْ لنا ودُلنا وأَرْشدنا إلى الصراط المستقيم، وأَلهمْنا ووفقْنا فيه وثبِّتْنا عليه(٢).

وقد ذكر ابن القيم(٣) أن للهداية عشر مراتب؛ الأولى: هداية العلم والبيان للحق، والثانية: أن يقدره الله عليه، والثالثة: أن يجعله مريدًا له، والرابعة: أن يجعله فاعلاً له، والخامسة: أن يثبته على ذلك، والسادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض، والسابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة أخص من الأولى فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً، والثامنة: أن يشهده المقصود في الطريق فلا يحجب عنه بالوسيلة، والتاسعة أن يشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة، والعاشرة أن يشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها وهما طريق أهل الغضب وطريق أهل الضلال.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الصراط مفعول ثانٍ لـ﴿ٱهْدِنَا﴾ كما تقدم و«ال» في الصراط للعهد العلمي الذهني أي الصراط المعلوم المعهود؛ لأن اللام إذا دخلت على موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره.

وإنما جاء الصراط معرفًا؛ لأن المقام مقام دعاء وطلب.

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ٦٤٢-٦٤٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٦٦-١٦٩)، «المحرر الوجيز» (١/ ٧٧)، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٤)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٦).

(٣) في «مدارج السالكين» (٣/ ٥٥٣).

ويأتي الصراط منكرًا إذا كان المقام مقام إخبار كقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح:٢]، وكقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ [الأنعام:٨٧]، وكقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١﴾ [الأنعام:١٦١][(١)].

قرأ ابن كثير: (السراط) بالسين في جميع القرآن، وقرأ حمزة بإشمام السين بين الزاي والصاد، وقرأ بقية القراء (الصراط) بالصاد[(٢)].

ومعنى الصراط: الطريق المسلوك، والسبيل الواضح؛ مأخوذ من الاستراط وهو الابتلاع؛ لأنه يبتلع السائر فيه، والماشي عليه: أي يضمه بين جانبيه[(٣)].

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: صفة للصراط منصوبة مثله.

والمستقيم: هو أقرب خط يصل بين نقطتين[(٤)]. وهو المعتدل المستوي، الذي لا اعوجاج فيه، ولا التواء.

قال جرير[(٥)] يمدح هشام بن عبدالملك.

أمير المؤمنين على صراطٍ ... إذا اعوج الموارِدُ مستقيمِ

وقال الآخر:

.... فصد عن نهج الصراط القاصد[(٦)]

فالصراط المستقيم: هو الطريق المعتدل الواضح الذي لا اعوجاج فيه، ولا التواء، وهو صراط الله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى:٥٣].

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ١٢-١٣).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤١)، «الكشاف» (١/ ١١)، «المحرر الوجيز» (١/ ٧٩)، «أنوار التنزيل» (١/ ١١).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٤)، «المفردات في غريب القرآن» مادة: «سرط»، «الكشاف» (١/ ١١)، «لسان العرب» مادة: «سرط»، «بدائع الفوائد» (٢/ ١٦).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٣)، «التفسير القيم» ص(٦٠).

(٥) انظر: «ديوانه»ص (٢١٨)، والموارد: طرق الماء.

(٦) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٧١) تحقيق شاكر.

وهو الصراط الذي عليه ربنا- تبارك وتعالى- كما قال هود- عليه السلام: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٦].

وهو الصراط المؤدي إلى الله- تعالى، قال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحجر:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]. أي أن السبيل القاصد، وهو المستقيم المعتدل، يرجع إلى الله تعالى ويوصل إليه كما قال طفيل الغنوي:

مضوا سلفًا قصد السبيل عليهم ... وصرف المنايا بالرجال تقلب

أي: ممرنا عليهم، ووصولنا إليهم.

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو عليّ طريقها(١)

قال ابن القيم(٢): «ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة:

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا».

والمراد بالصراط المستقيم: طريق الحق والإيمان، والدين القيم، ومعرفة ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه في الكتاب والسنة، والعمل به وفق ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ إخلاصًا لله، ومتابعة لرسوله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠].

وهو الطريق الموصل إلى ساحل النجاة، وإلى الغاية المنشودة والهدف المقصود،

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٩)، «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٤).

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

وهي السعادة في الدنيا والآخرة، والحصول على مرضاة الله وجنته، بأقل وقت وأخصر طريق.

قال ابن القيم[١] بعد أن ذكر قسمي الهداية، وهما هداية البيان والدلالة، وهداية التوفيق والإلهام- قال: «وللهداية مرتبة أخرى- وهي آخر مراتبها- وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصول إليها، فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته، ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط».

كما ذكر في كتابه «بدائع الفوائد»[٢] أن الهداية أربعة أنواع: الهداية العامة المشتركة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠] أي هداه لما خلق له من الأعمال وهذه تشمل الحيوان والجماد. ثم ذكر هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر، وهداية التوفيق والإلهام، ثم قال:

«والرابع غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سبق أهلهما إليهما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس:٩] وقال أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا﴾ [الأعراف:٤٣] وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات:٢٢، ٢٣]»[٣].

فالمعنى العام لقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي بين لنا وأرشدنا ووفقنا

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٢) (٢/ ٣٥-٣٧).

(٣) كما ذكر ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٦٢-٧٨): أن للهداية الخاصة والعامة عشر مراتب: مرتبة التكليم من الله لعبده، ومرتبة الوحي المختص بالأنبياء، ومرتبة إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري، ومرتبة التحديث، ومرتبة الإفهام، ومرتبة البيان العام، ومرتبة البيان الخاص والتوفيق، ومرتبة إسماع القلوب، ومرتبة الإلهام، ومرتبة الرؤيا الصادقة.

إلى سلوك الطريق المستقيم بالعلم النافع والعمل الصالح بمعرفة الحق والعمل به، ووفقنا فيه وثبتنا عليه، وزدنا هداية وإيمانًا وعلمًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف:١٣] وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤].

فالعبد في كل لحظة، وفي كل حال، وعند كل مسألة محتاج أعظم الحاجة إلى الهداية إلى الصراط المستقيم.

وذلك بأن يهتدي لمعرفة الحق والحكم في كل مسألة، ويوفق للعمل بما طلب منه سواء كان ذلك فعلاً أو تركًا.

قال الطبري(١) في كلامه على قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: «ومعناه نظير معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾» في أنه مسألة من العبد ربه بالتوفيق للثبات على العمل بطاعته، وإصابة الحق والصواب فيما أمره به ونهاه عنه فيما يستقبل من عمره».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وأما سؤال من يقول: فقد هداهم الله فلا حاجة بهم إلى السؤال، وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لا يعرف حقيقة الأسباب وما أمر الله به، فإن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت، وما نهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم. نعم حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق، والرسول حق، ودين الإسلام حق، وذلك حق، ولكن هذا المجمل لا يغنيه إن لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات

---

(١) في «جامع البيان» (١/ ١٦٦) تحقيق شاكر.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٧-٣٨).

التي يحار فيها أكثر عقول الخلق، ويغلب الهوى والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم».

وقال ابن القيم[١] بعد أن ذكر قسمي الهداية: «وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة. قال: ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه، أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام».

وقال ابن كثير[٢]: «فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]».

وقال السعدي[٣]: «اهدنا إلى الصراط المستقيم، واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملاً».

قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ صراط بدل كل من الصراط في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أو عطف بيان. و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضاف إليه، وما بعده صلة الموصول.

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٣١-٣٢).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٥٦-٥٧).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٦).

وفائدة هذا التوكيد والإيضاح والبيان، فهو تفسير للصراط المستقيم، وبيان أنه صراط المنعم عليهم(١)، وفي ذلك شهادة له بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده(٢).

وإنما عرّف الصراط في الموضع الأول «بأل»، وهنا بالإضافة؛ لأن طريق الحق واحد أما طُرق الشر فهي كثيرة، متعددة متشعبة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وعن النواس بن سمعان- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا، وداعٍ يدعو فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم**»(٣).

وهكذا غالبًا ما يُذكر طريق الحق بالإفراد بينما يذكر طريق الباطل متعددًا، وقد يذكر أحيانًا طريق الخير بالتعدد، ويراد به فروع الشريعة.

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ **الإنعام**: إيصال النعمة. والنعمة في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان من لين العيش، والخفض والدعة والمال ونحوها(٤).

والنعمة: اسم جنس يقع على القليل والكثير، وإذا أضيفت إلى معرفة دلت على الإنعام المطلق التام أي على عموم النعم الدينية والدنيوية والأخروية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٧٧)، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٨-٢٩).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ١١).

(٣) أخرجه الترمذي في الأمثال باب (١) الحديث (٢٨٥٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢). قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٦): «إسناده حسن وصححه الحاكم».

(٤) انظر: «لسان العرب» مادة: «نعم»، «البحر المحيط» (١/ ٢٦).

عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:١١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

والإنعام خاص بإيصال النعمة والإحسان والخير إلى الغير من بني آدم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧].

ولا يسمى الإحسان إلى غير الناطقين إنعامًا فلا تقول: أنعمت على الفرس.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ قرأ حمزة بضم الهاء ﴿عليهُم﴾، وقرا الباقون بكسرها ﴿عليهِم﴾(١).

والمُنعَم عليهم: هم الذين وفقهم الله لسلوك الطريق المستقيم، للهدى ودين الحق، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [الفتح:٢٨] أي: إلى العلم النافع والعمل الصالح، إلى معرفة الحق والعمل به، إلى الإيمان بالله- تعالى، إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ. وتلك أجل نعمة وأعظمها، فهي سبب للسعادة في الدارين، والفوز بأعلى الدرجات في جنات النعيم.

وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٦-٧٠].

وهم المذكورون في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨].

أي: الذين أنعم الله عليهم بأجلّ نعمة وأعظمها، وهي نعمة الإيمان، كما قال تعالى ردًّا على الأعراب: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧].

و﴿النَّبِيِّينَ﴾ جمع نبي، ويدخل فيهم الرسل من باب أولى؛ لأن كل رسول نبي ولا

---

(١) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (٢/ ٥٩٥)، «المهذب في القراءات السبع» ص(٤٦).

عكس، ويأتي في مقدمتهم أولو العزم، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب:٧].

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: جمع صدّيق، يدخل فيهم من ثبت بالكتاب أو السنة وصفه أو تسميته بذلك منهم مريم ابنة عمران التي قال الله عنها: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٥٧].

ومنهم أبوبكر الصديق- رضي الله عنه- لأن الرسول ﷺ سماه «الصديق» وسيأتي الحديث في ذلك.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ جمع شهيد، وهو مَن قُتِل في سبيل الله، ويأتي في مقدمة الشهداء عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان- رضي الله عنهما- حيث شهد لهما الرسول ﷺ بذلك كما روى أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ صعد أُحُدًا وأبوبكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم- فرجف بهم. فقال النبي ﷺ: «**اسكن أُحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»(١).

ومنهم أيضًا: علي بن أبي طالب- رضي الله عنه، وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؛ رضي الله عنهم.

كما روى أبوهريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء هو وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، فتحركت الصخرة، وفي رواية «فتحرك» فقال رسول الله ﷺ: «**اسكن حراء**» وفي رواية: «**اهدأ فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد**»(٢).

ومنهم أيضًا: حمزة عم النبي ﷺ، وأنس بن النضر، ومصعب بن عمير- رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في «فضائل الصحابة»- فضل أبي بكر- رضي الله عنه، والأبواب بعده (٣٦٧٥، ٣٦٨٦، ٣٦٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في «فضائل الصحابة» فضائل طلحة والزبير (٢٤١٧).

عنهم- وغيرهم ممن قُتِل أو يُقْتَل في سبيل الله، وكذا كل من قُتِل دون ماله كما في حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما، قال: «**مَن قُتِل دون ماله فهو شهيد**»(١).

لكن ينبغي أن يعلم أنه لا تجوز الشهادة لشخص بعينه أنه شهيد، وإن قُتِل في المعركة؛ لأن النيات مغيبة عنا، لكن يرجى له ذلك، إلا من ثبت له الشهادة بذلك من النبي ﷺ فقد عقد البخاري: باب لا يُقال: فلان شهيد، وأخرج فيه عن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلا لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه. فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه من أهل النار**» الحديث، وفيه: أنه استعجل الموت لما جُرِح فقتل نفسه(٢).

وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «لما كان يوم خيبر قُتل نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى مروا على رجل، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة**»(٣).

وروى أبوالعجفاء أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- خطب، فقال: «تقولون في مغازيكم: فلان شهيد، ومات فلان شهيد، ولعله يكون قد أوقر راحلته، ألا لا تقولوا ذلكم، ولكن قولوا كما قال رسول الله ﷺ: «**من مات في سبيل الله أو قُتِل فهو في الجنة**»(٤).

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

﴿غَيْرِ﴾ صفة للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبيِّنة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٨٠)، ومسلم في الإيمان (١٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان- باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١٢). وأخرج مسلم أيضًا نحوه من حديث أبي هريرة (١١١).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان- باب غلظ تحريم الغلول، وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٤).

(٤) أخرجه النسائي في النكاح (٣١٤١)، وأحمد (١/ ٤١، ٤٨)، وقال الحافظ ابن حجر: «وهو حديث حسن». وصححه الألباني.

النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال، وقيل هي بدل من الاسم الموصول على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال والتقدير: غير صراط المغضوب عليهم(١).

والصحيح أنها صفة، وإنما صح مجيء ﴿غَيْرِ﴾ صفة لمعرفة وهو الاسم الموصول مع أن «غيرًا» لا تتعرف لشدة إبهامها- لما فيها من الإبهام ورائحة النكرة؛ لأنها أضيفت إلى ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ وهي معرفة، ووقعت بين ضدين منعم عليهم ومغضوب عليهم فضعف إبهامها كما قال ابن هشام(٢). أو زال إبهامها وتعرفت كما قال ابن السراج، واختاره ابن القيم(٣) .

و﴿غَيْرِ﴾ ملازمة للإفراد والتذكير، وللإضافة لفظًا أو تقديرًا، وهي لا تعرّف وإن أضيفت إلى معرفة عند أكثر أهل اللغة، ولا تدخل عليها الألف واللام(٤).

وقد روي عن ابن كثير أنه قرأها بالنصب «غيرَ» على الحال، وثبت عنه وعن بقية القراء السبعة قراءتها بالكسر «غيرِ»(٥).

و﴿غَيْرِ﴾ مضاف و﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ مضاف إليه مجرور. و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾، قرأها حمزة بالضم «عليهُم» وقرأها بقية السبعة بالكسر «عليهِم» كقراءة «عليهُم» في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

وإنما وصف الله- تبارك وتعالى- صراط المنعم عليهم بقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ لتأكيد كمال صراط المنعم عليهم؛ لأن الصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ صفة سلبية جيء بها لإثبات كمال ضدها، وهي الحياة.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٧)، «معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٦٤-١٦٥)، «جامع البيان» (١/ ١٨٠-١٨١، ١٨٤)، «الكشاف» (١/ ١١).

(٢) انظر: «مغني اللبيب» (١/ ١٥٨).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣-٢٨).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٢٨).

(٥) انظر: «الكشاف» (١/ ١١).

وكقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]. فهو لإثبات كمال قيّوميته، تبارك وتعالى.

والغضب: ضد الرضا.

وفي الحديث: «**ألا وإن الغضب جمرة توقد في ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه**»(١).

والغضب صفة من صفات الله تعالى يجب إثباتها لله، كما يليق بجلاله وعظمته، ولا ولا تمثل بصفات المخلوقين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه:٨١].

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في الشفاعة: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله**». متفق عليه(٢).

والمراد بـ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ مَن استوجبوا غضب الله، ووصفوا به، ممن فسدت إرادتهم فعدلوا عن الحق بعد أن عرفوه وعلموه.

وفي مقدمتهم اليهود، قال عدي بن حاتم- رضي الله عنه-: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «**هم اليهود**»، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «**هم النصارى**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١). وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (٣/ ١٩، ٦١) من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مطولاً في الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤).

(٣) إسناده صحيح. والحديث أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وأحمد (٤/ ٣٧٨-٣٧٩)، والطبري في «جامع البيان» الأحاديث (١٩٣-١٩٥، ٢٠٧-٢٠٩)، والطيالسي (١٠٤٠)، والطبراني في الكبير (٧/ ٩٨-١٠٠).

وقد أخرج الطبري- الأحاديث (١٩٦-١٩٩، ٢١٠-٢١٣) عن عبدالله بن شقيق أنه أخبره من سمع النبي ﷺ يقول نحو حديث عدي قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ١٥٩): «ورواه أحمد» وأخرجه ابن مردويه فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٩) من رواية عبدالله بن شقيق عن أبي ذر- موصولاً- وقد =

وقد وصف الله تعالى اليهود بالغضب وحكم عليهم به في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة:٩٠]، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة:٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الأعراف:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة:١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:١٣].

وإنما وصفوا بالغضب ووصموا به، واستوجبوه؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه كفرًا وحسدًا، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجمعة:٥].

وعن زيد بن عمرو بن نفيل: «أنه خرج إلى الشام، يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إني لَعَلِّي أن أدين دينكم فأخبرني. فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله،

=

أشار إلى رواية أبي ذر الحافظ ابن حجر في الموضع السابق وقال: «إسناده حسن».

ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا، وأنَّىٰ أستطيعه، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا يعبد إلا الله، فخرج فلقي عالمًا من النصارى، فذكر مثله. فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلا من لعنة الله...» الحديث[١].

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: أي ولا صراط الضالين.

فـ الواو: عاطفة و«لا» زائدة إعرابًا عند البصريين مؤكدة لمعنى النفي المفهوم من «غير»[٢]؛ لئلا يتوهم عطف الضالين على ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[٣]، وليَدلَ على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما: طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين[٤]، ولرفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم، وأن ذلك من عطف الصفات بعضها على بعض[٥].

وقال الكوفيون: هي بمعنى «غير» مؤكدة أيضًا[٦]. ويؤيده قراءة عمر: «غير المغضوب عليهم وغير الضالين»[٧].

قال الحافظ ابن كثير[٨]: «والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء، لقرب مخرجيهما.. لمن لا يميز ذلك».

والضالين: جمع ضال. والضلال: التيه والجهل والبُعد عن الحق والعدول عن الطريق المستقيم، والانحراف عن المنهج القويم.

يقال: ضل الطريق: أي تاه وانحرف، كما يقال ضال، بدون إضافة قرينة، وإذا

---

(١) أخرجه البخاري في «مناقب الأنصار»- باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل (٣٨٢٧).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٨٩)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٧٢)، «الكشاف» (١/ ١٢).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٨٧)، «البحر المحيط» (١/ ٢٩).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٧، ٥٨).

(٥) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٤-٣٥).

(٦) انظر: «فتح الباري» (٨/ ١٥٩).

(٧) أخرجها أبوعبيد في «فضائل القرآن»، وسعيد بن منصور في «سننه» فيما نقل ابن كثير (١/ ٥٨). قال ابن كثير: «هذا إسناد صحيح» قال: «وكذلك حكي عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك، وهو محمول على أنه صدر منهما على وجه التفسير».

(٨) في «تفسيره» (١/ ٥٩).

أطلق فالمراد به العدول عن الطريق المستقيم، طريق الحق.

ويطلق الضلال على النسيان، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢] أي: أن تنسى إحداهما.

ويطلق على الاختفاء وغياب الشيء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة:١٠]، أي: غُيِّبنا فيها، وصرنا ترابًا.

ومنه قول الشاعر:

ألـم تسـأل فتخبـرك الديـارُ عن الركب المُضلل أين ساروا(١)

والمراد بالضالين: مَن فقدوا العلم، فتركوا الحق عن جهل، وعبدوا الله على غير هدى، وعلى غير بصيرة. قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

ويأتي في مقدمة الضالين النصارى(٢) كما في حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- المتقدم قريبًا أن رسول الله ﷺ قال في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم «**النصارى**».

وهكذا وصف الله النصارى بالضلال في غير هذا الموضع، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

قال ابن كثير(٣) بعد أن ذكر تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى: «وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم بين المفسرين في تأويل ذلك اختلافًا».

وإذا كان سبب ضلال النصارى في الأصل هو الجهل، فلا يمنع أن يكون طرأ عليهم في هذا الزمن مع الجهل العناد والإصرار، واتباع الهوى، كما هو واقع الآن.

وكلٌّ من اليهود والنصارى مغضوب عليهم وضالون، وكذا كل من حاد عن منهج الله عن علم، أو عن جهل إلا أن أخص أوصاف اليهود الغضب، ومثلهم من ترك الحق

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٥٠).

(٢) درج كثير من الكُتَّاب المسلمين متأثرين بغيرهم من كُتَّاب غير المسلمين على تسمية النصارى بالمسيحيين، وهذا خطأ لأن القرآن سمّاهم النصارى ولم يسمهم المسيحيين، لأن المسيح منهم بريء.

(٣) في «تفسيره» (١/ ٥٩).

بعد معرفته، وأخص أوصاف النصارى الضلال ومثلهم مَن عَبَدَ الله على جهل.

ولا يلزم من هذا أن لا يوجد من بين اليهود من هو جاهل ضال، ومن بين النصارى من هو عالم، ولا يمنع من هذا أن يكون نصراني وهو يعرف الإسلام كما يعرف ابنه وزوجته.

ولما كان اليهود تركوا الحق بعد معرفته، وكانوا أجرأ على محارم الله- تعالى، وأقسى قلوبًا كانوا أحق بوصف الغضب، وأولى بأن يقدم وصفهم على النصارى الضالين مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة:٨٢].

قال ابن القيم(١): «والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك الحق بعد معرفته أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا كان اليهود أحق، به، وهو متغلظ في حقهم.. والجاهل بالحق أحق باسم الضلال، ومن هنا وصف النصارى به...».

وقد ذكر ابن القيم(٢) من الوجوه في تقديم المغضوب عليهم على الضالين أن اليهود متقدمون على النصارى من حيث الزمان، وأنهم كانوا هم الذين يلون النبي ﷺ من أهل الكتابين لأنهم كانوا في المدينة، أما النصارى فكانت ديارهم نائية، ولأنه تقدم ذكر المنعم عليهم والغضب ضد الإنعام والسورة هي السبع المثاني يذكر فيها الشيء وضده.

وكل من كان عنده علم فلم يعمل به، بل اتبع هواه، وجانب شرع الله عن علم وبصيرة ومعرفة ففيه شبه من اليهود، ومتوعد بالغضب بقدر معصيته، وله منه نصيب بقدر شبهه فيهم.

وكل من عَبَدَ الله على جهل وضلال ففيه شبه من النصارى، وموصوف بالضلال على

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٣-٣٤).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٣).

قدر معصيته، وله نصيب منه بقدر شبهه فيهم. ولهذا قال سفيان بن عيينة- رحمه الله: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»(١).

وما أكثر مَن تَشَبَّه باليهود والنصارى من هذه الأمة. وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن**»(٢).

وقال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قلنا من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**»(٣).

ومما يدل على شمول الغضب لليهود وغيرهم، وشمول الضلال للنصارى وغيرهم أن الله توعد بالغضب في القرآن الكريم مرتكبي بعض الكبائر والكفرة والمنافقين والمشركين من هذه الأمة، ووصف كثيرًا منهم بالضلال، كما وصفهم بذلك رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [النور:٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨).

(٢) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري: البخاري في الأنبياء- باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

(٣) أخرجه أبوداود في السنة- باب شرح السنة (٣٨٤٢، ٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان- ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠) وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه في الفتن وافتراق الأمم (٣٢٢٥، ٣٩٩١)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الألباني: «حسن صحيح».

ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٦].

وقال ﷺ: «**من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئٍ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»(١).

وقال ﷺ: «**إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها بات الذي في السماء ساخطًا عليها**»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ [النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥].

وقال ﷺ في حديث أبي بكرة- رضي الله عنه-: «**ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٣).

قال ابن القيم(٤): «والغضب نتيجة فساد القصد، والضلال نتيجة فساد العلم، فاعتلال القلوب ومرضها نتيجة لأحد هذين الفسادين، وبالهداية للصراط المستقيم الشفاء من مرض الضلال، وبالتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً الشفاء من مرض فساد القصد».

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٦، ٢٦٦٧)، ومسلم في الإيمان (١٣٨)- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح- تحريم امتناعها من فراش زوجها (١٤٣٦).

(٣) أخرجه البخاري في حديث طويل في خطبته ﷺ في حجة الوداع- في الأضاحي (٥٥٥٠)، ومسلم في القسامة- باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩).

(٤) في «مدارج السالكين» (١/ ٧٩-٨٠).

المبحث الثامن
ما يؤخذ من سورة الفاتحة من فوائد وأحكام

١- مشروعية الابتداء بالبسملة في الكتب والرسائل والخطب والمواعظ ونحوها تأسيًا بكتاب الله- تعالى، حيث ابتدأ عز وجل كتابه بها، ومشروعية الاستفتاح بها عند قراءة أي سورة من سور القرآن؛ لأن الله افتتح بها سورة الفاتحة وغيرها من السور عدا سورة براءة فلا تشرع البسملة معها.

٢- مشروعية حمد الله- تبارك وتعالى- في افتتاح الكتب والرسائل والخطب والمواعظ ونحوها تأسيًا بكتاب الله- حيث افتتحه جل وعلا بالحمد.

٣- حمد الله تعالى لنفسه، وثناؤه عليها، وتمجيده لها، لما له من صفات الكمال، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وقد جاء هذا كثيرًا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٨].

ولم يأذن في ذلك لأحد من خلقه، بل نهاهم في محكم كتابه فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢]. وقال ﷺ: «**احثوا في وجوه المداحين التراب**»(١) وقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله**»(٢).

٤- أمر الله تعالى عباده أن يحمدوه ويثنوا عليه ويُمجِّدوه- لما له من صفات الكمال، وتعليمهم كيفية ذلك؛ لأن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإن كانت هذه جملة خبرية، فهي متضمنة لمعنى الطلب.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٣٣٠٢) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وهكذا جل الآيات التي حمد الله تعالى بها نفسه هي متضمنة تعليم عباده وأمرهم أن يحمدوه.

ولهذا رغب المصطفى ﷺ بالحمد لله. فعن أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»(٢).

٥- أن الوصف بصفات الكمال مستحق لله على الدوام، وفي جميع الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهي جملة اسمية تفيد الاستمرار والدوام والكمال فهو المحمود على الدوام وبكل حال كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص:٧٠].

٦- في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رد على الجبرية، الذين يقولون: إن الله جبر العبد على أفعاله، ومن ثم عاقبه عليها- تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، ووجه الرد عليهم: أن في إثبات حمده ووصفه بصفات الكمال ما يقتضي أنه لا يعاقب عباده على ما لا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم(٣).

٧- أن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن هو أهل له، ولمقتضٍ لذلك، وإلا فهو زور وباطل؛ لأن الله لما حمد نفسه ذكر ما يقتضي ذلك، وأنه تعالى أهل لذلك لكونه تعالى: الله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة- باب فضل الوضوء (٢٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر- باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩١-٩٣).

(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ٩)، «أنوار التنزيل» (١/ ٩).

قال ابن القيم[١]: «في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومعناها ما يدل على أنه محمود في إلٰهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إلٰه محمود ورب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال، كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر..».

٨- يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الإقرار والاعتراف من العبد لله جل وعلا بالكمال من جميع الوجوه وبالفضل والإنعام والإحسان، والإقرار من العبد على نفسه بضعفه وفقره وحاجته إلى ربه في أمور ينه ودنياه. وهذا من أجل أنواع العبادة لله وأفضلها، بأن يعترف العبد لله بالكمال المطلق من جميع الوجوه، ويدخل على ربه من باب الذل والانكسار، ولا يعجب بعمله. وهذا هو أصل معنى العبادة لله تعالى- كما تقدم. وقد كان هذا دأب الأنبياء والمرسلين والصالحين من أممهم يدعون ربهم متذللين خاضعين سائلين ربهم المغفرة. قال ﷺ: «**أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي. واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[٢].

٩- إثبات توحيد الأسماء والصفات «توحيد العلم»؛ لأن الله افتتح السورة بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومعناه- كما تقدم- وصفه- تعالى بصفات الكمال، كما ذكر تعالى فيها خمسة من أسمائه، وهي «الله»، و«الرب» و«الرحمن» و«الرحيم» و«الملك» وهذه الأسماء دالة على بقية أسمائه تعالى، وكل منها يؤخذ منه إثبات صفة من صفاته- تعالى، فاسمه- تعالى «الله» يدل على إثبات صفة الألوهية له- تبارك وتعالى، واسمه «الرب» يدل على إثبات صفة الربوبية العامة له تعالى صفة ذاتية له تعالى وصفة فعلية، واسماه «الرحمن» «الرحيم» يدل الأول على إثبات صفة الرحمة الذاتية له- تعالى ويدل الثاني على إثبات صفة الرحمة الفعلية له عز وجل كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على القراءتين يدل على أنه مالك يوم الدين

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٥٩-٦١).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

ومليكه.

وأن من صفاته تعالى الذاتية والفعلية أنه مالك وملك يوم الدين.

كما يدل قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على إثبات صفة الغضب له- تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته.

وفي إثبات أسمائه تعالى وصفاته رد على نفاتها من المعطلة وغيرهم.

وقد ذكر ابن القيم(١) اشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة ثم ذكر أنه دلّ من هذه السورة على توحيد الأسماء والصفات شيئان مجمل ومفصل، قال: «أما المجمل فإثبات الحمد له سبحانه، وأما المفصل فذكر صفة الإلٰهية والربوبية والرحمة والملك، وعلى هذا مدار الأسماء والصفات. فأما تضمن الحمد لذلك، فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله، مع محبته، والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله حمدًا لا يحصيه سواه لكمال صفاته وكثرتها.. ثم ذكر دلالة هذه الأسماء الخمسة وغيرها من أسمائه تعالى على إثبات الذات والصفات له جل وعلا، ثم بين دلالة اسمه تعالى «الله» على جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا، ولهذا تضاف إليه جميع أسمائه كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، ثم ذكر ما هو أخص من الصفات بكل اسم من هذه الأسماء.

١٠- إثبات توحيد الألوهية، «توحيد العبادة» يؤخذ ذلك من اسمه- تعالى «الله»؛ لأن معناه كما تقدم: المألوه المعبود محبة وتعظيمًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «والله هو الإلٰه المعبود، فهذا الاسم أحق بالعبادة، ولهذا يقال: الله أكبر، والحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله».

كما يؤخذ توحيد العبادة من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما سيأتي إن شاء الله.

١١- إثبات توحيد الربوبية بقسميه العام لجميع الخلق، والخاص بأولياء الله تعالى؛

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٨-٥٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٢).

لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهو تعالى رب جميع الخلق خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم ومربيهم بجميع النعم، وفي هذا رد على الملحدين الذين ينكرون وجود الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا؛ إذ إن كل ما في الكون من المخلوقات دليل على وجوده وكماله في ذاته وصفاته، كما قيل:

فواعجبًا كيف يعصى الإلٰه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

بل إنه تعالى دليل على كل شيء، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء»، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وهو تعالى مرب لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين تربية خاصة بتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، ودفع الصوارف عنهم مما يبعث في قلوبهم الطمأنينة إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة وحفظه الذي لا يغيب.

وإذا ثبتت الربوبية صفة عامة له تبارك وتعالى، صفة ذاتية، وصفة فعلية، وجب توجه جميع الخلق إليه في جميع حوائجهم، وفي جميع عباداتهم؛ لأن من لازم ربوبيته لجميع خلقه، أن يكون هو الإلٰه المعبود؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، ولهذا لما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أتبع ذلك بوصفه- تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى أن المستحق للعبادة هو المتفرد بالربوبية والملك والخلق والتدبير، وعلى هذا فما دل من السورة على إثبات توحيد الألوهية ففيه دلالة بالتضمن على توحيد الربوبية، وما دل منها على توحيد الربوبية ففيه دلالة بالالتزام على توحيد الألوهية.

كما أن في إثبات ربوبيته ردًّا على المشركين معه في إلٰهيته الذين يعبدون غيره مع

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٨٧).

إقرارهم بربوبيته.

كما أن في إثبات ربوبيته للعالمين دليلاً على مباينته لخلقه بذاته، وبربوبيته وصفاته وأفعاله، وفي هذا رد على من نفى مباينته لخلقه.

كما أن في إثبات ربوبيته أيضًا ردًّا على أهل الإشراك في ربوبيته من المجوس والقدرية وغيرهم الذين يثبتون مع الله خالقًا آخر. فالقدرية المجوسية يقولون: العبد يخلق فعل نفسه، فلا تدخل أفعالهم تحت ربوبيته- تعالى الله عن ذلك(١).

١٢- إثبات علم الله تعالى الواسع، وقدرته التامة من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ إن مقتضى ربوبيته للعالمين وخلقه لهم أن يكون عالمًا بهم وبأحوالهم، وأن يكون ذا قدرة تامة نافذة فيهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

١٣- إثبات أنه تعالى الأول بلا بداية؛ لأن قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناه أنه خالقهم وموجدهم من العدم بعد أن لم يكونوا شيئًا كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١]. أي: قد أتى على الإنسان. وهذا يدل على أنه تعالى هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣].

١٤- أن الأحق بالاستعانة والمسألة هو اسم «الرب»؛ لأن من معانيه المربي الخالق المالك الرازق المدبر الناصر الهادي.

ولهذا كان جل دعاء الأنبياء والصالحين وسؤالهم بهذا الاسم.

كما قال- الأبوان عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

وقال نوح- عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٨، ٨٦-٩٠).

وقال الخليل- عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤، ٤١].

وقال موسى- عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦].

وقال عيسى- عليه السلام: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة:١١٤].

وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء:٨٠].

وقال نبينا محمد ﷺ: «**اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(١).

وذكر الله عن المؤمنين قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران:١٤٧]. ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٣-١٩٤].

١٥- في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى تساوي الخلق في الربوبية العامة التي بمعنى الخلق والملك والتدبير. وهذا يدل على أن البشر تجمعهم الربوبية فربهم واحد كما أن أباهم واحد، لا فخر لجنس على جنس إلا بالتقوى.

وفي هذا رد على من يفتخر بحسبه ونسبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل- قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ**(١) **الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان، التي تدفع بأنفها النتن**»(٢).

١٦- في إثبات حمده وربوبيته للعالمين وتوحيده رد على من قال بقدم العالم فإن في إثبات حمده ما يقتضي ثبوت أفعاله الاختيارية، والفعل متأخر عن فاعله وفي إثبات ربوبيته للعالمين ما يقتضي أن كل ما سواه مربوب مخلوق بالضرورة، وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن، وفي إثبات توحيده ما يقتضي عدم مشاركة شيء من العالم له في خصائص الربوبية، والقدرة من خصائص الربوبية، فالتوحيد ينفي ثبوته لغيره ضرورة، كما ينفي ثبوت الربوبية والإلٰهية لغيره(٣).

١٧- في إثبات رحمته تعالى ورحمانيته رد على الجبرية في أن الله يعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه، ولا هو من فعله، بل يكلفه ما لا يطيق ثم يعاقبه عليه. وهذا باطل فإن في ثبوت رحمته ورحمانيته ما يقتضي أنه تعالى لا يكلف العبد ما لا قدرة له عليه، ولا يعاقبه بما ليس من فعله، وما لا قدرة له عليه(٤)، بل إنه تعالى برحمته يعفو حتى عن بعض أو كل ما فعله العبد، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

كما أن في إثبات صفة الرحمة لله تعالى صفة ذاتية وصفة فعلية عامة وخاصة الرد على نفاة صفة الرحمة من الأشاعرة وغيرهم الذين يفسرون «الرحيم» بالمنعم أو مريد

---

(١) عبية الجاهلية: أي تكبرها.

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب- باب التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب- باب فضل الشام واليمن (٣٩٥٥)، وأحمد (٢/ ٣٦١، ٥٢٤)، وقال الترمذي: «حسن غريب»، ونُقل عن المنذري تصحيحه، و«حسنه الألباني».

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩٦-٩٧).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩٢).

الإنعام ويفسرون الرحمة بالإنعام والإحسان، ويقولون: إن الرحمة رقة ولين لا تليق بالخالق القوي.

١٨- إثبات يوم القيامة، والرد على من أنكر البعث والمعاد الجسماني والتأكيد على أنه محقق الوقوع؛ ولهذا جعله- عز وجل- كالموجود القائم في الحال فقال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وخصّه بالذكر مع أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة معًا؛ لانقطاع أملاك الخلائق كلها في ذلك اليوم، ولعظم ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ [البروج:٢].

١٩- يؤخذ من قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الدلالة على أن الملك الحقيقي لله جل وعلا يظهر في ذلك اليوم إذ تنقطع جميع الأملاك سوى ملكه جل وعلا، وأن كل ملك دون ذلك الملك فهو حقير زائل، وأن الدنيا بما فيها من أملاك لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، وأنها بما فيها من أيام لا تعد شيئًا بالنسبة ليوم الدين يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الفرقان:٢٦]. وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر:١٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [النبأ:٣٩].

٢٠- إثبات محاسبة الله للعباد ومجازاته لهم على أعمالهم بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ والدين معناه الجزاء بالعدل: أي كما تدين تدان، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

٢١- إثبات كتابة الأعمال وتدوينها وإحصائها؛ لأن المجازاة عليها تقتضي ذلك، إذ كيف يدان عليها ويجازى إلا بعد إحصائها، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق:١٨]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:٩-١٢].

٢٢- الحث على الاستعداد ليوم الدين بالإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الكفر والمعاصي.

٢٣- في تقديم قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إشارة

إلى أن رحمته تعالى سبقت غضبه، كما جاء في الحديث: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(١) يؤيد ذلك تكرار ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة والفاتحة. وهذا مما يبعث في قلب المؤمن الطمأنينة، فيلهج بالحمد والثناء لربه الرحمن الرحيم.

وعلى هذا فينبغي للعلماء وطلبة العلم والدعاة إلى الله أن يقدموا للناس الترغيب برحمة الله والتبشير بها قبل الترهيب من عقوبته، بل ينبغي أن يعطى الكلام عن رحمة الله عناية أكثر لأن رحمته تعالى سبقت غضبه، لكن لا ينسى الترهيب من عقوبته، ولكل مقام مقال.

٢٤- الجمع بين الترغيب والترهيب يؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهذا ترغيب، ثم قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وهذا ترهيب كما قال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر:٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»(٢).

والغرض من الترغيب والترهيب في القرآن والسنة أن يسير المسلم إلى ربه بين الرغبة والرهبة، وبين الخوف والرجاء، فلا يغلب جانب أحدهما على الآخر فيهلك، فيكون الخوف والرجاء له كجناحي الطائر، وإن غلب الخوف في حال الصحة، أو عند مقارفة المعصية فحسن، وكذا إن غلب جانب الرجاء في حال المرض، وعند فعل الطاعة فهذا حسن أيضاً.

٢٥- في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ﴾ رد على الملاحدة والدهرية المنكرين لوجود الله؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٤) من حديث أبي هريرة، وكذا مسلم في التوبة- باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة- باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥).

هذا خطاب لموجود، بل لموجود حاضر[١] بعلمه وإحاطته مع كل المخلوقات كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة:٧]، وهو مع عباده المتقين بعونه ونصره وتأييده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨].

٢٦- في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بعد الآيات قبله انتقال من الغيبة إلى الخطاب لأجل تنبيه القارئ والمستمع وهذا يدل على أنه يحسن الانتقال في الكلام أحيانًا والالتفات فيه لأجل تنبيه القارئ والمستمع كما أنه أبعث على النشاط، وأدعى للإصغاء.

٢٧- دل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على إثبات نوع من أنواع العبودية وهي العبودية الخاصة وهي عبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر[٢]، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف:٦٨-٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ﴾ [الزمر:١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وقال تعالى- عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

فهؤلاء أهل طاعته تعالى وولايته، وهم عبيد إلٰهيته الذين خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا لأمره ونهيه، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه تعالى مطلقًا إلا لهؤلاء.

وهم ومن عداهم من الخلق يجتمعون في العبودية العامة: عبودية الربوبية: الخلق والملك والتدبير والقهر والخضوع له قهرًا ورغمًا فهذه تشمل المؤمن والكافر. قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٢٥).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٣١-١٣٣).

ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ [الفرقان:١٧]. فسماهم عباده مع ضلالهم تسمية مقيدة بالإشارة. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر:٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٣١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر:٣١].

وقد ذكر ابن القيم[1] مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علمًا وعملاً فقال: «فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان: إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. والثانية دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره. وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح مساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله».

كما ذكر ابن القيم[2] أن لأهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾- وهم أهل هذه العبودية الخاصة- في أفضل العبادة وأنفعها طرقًا أربعة، فهم في ذلك أربعة أصناف: صنف عندهم أنفع

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٤-١٣٥).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١١٠-١١٥).

العبادات وأفضلها أعظمها مشقة على النفوس، قالوا: والأجر على قدر المشقة.

والصنف الثاني قالوا: أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

والصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما فيه نفع متعد كخدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس.

والصنف الرابع: قالوا أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام الصلاة الفرض كما في حالة الأمن والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

ثم ذكر رحمه الله[1] اختلاف الناس في حكمة العبادة وفائدتها وأنهم في ذلك أربعة أصناف أيضًا: الصنف الأول: نفاة الحِكَم والتعليل الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة وصرف الإرادة.

والصنف الثاني القدرية النفاة الذين يثبتون نوعًا من الحكمة والتعليل لكنه لا يقوم بالرب ولا يرجع إليه بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته، فعندهم أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العبد من الثواب العظيم كأجرة الأجير.

والصنف الثالث زعموا أن حكمة العبادة ومصلحتها رياضة النفوس كبعض الصوفية والفلاسفة.

والصنف الرابع الطائفة الإبراهيمية المحمدية العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه وأهل البصائر في عبادته ومراده بها.

٢٨- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى بجميع أنواعها اعتقادًا وقولاً وعملاً، والبراءة من الشرك ووسائله، ومن الحول والقوة؛ لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ففي تقديم المفعول في الموضعين وفي تكراره، مع ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ما يؤكد تخصيصه جل وعلا

---

(١) انظر: «المصدر السابق» (١/ ١١٥-١٢٢).

بالعبادة والاستعانة، والدعوة إلى عبادة الله وتخصيصه بجميع أنواع العبادة من الاستعانة وغيرها، وهي أساس دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم. قال نوح- عليه السلام: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩، المؤمنون:٢٣]. وكذلك قال هود[١] وصالح[٢] وشعيب[٣] وإبراهيم[٤] عليهم السلام.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون:٥١-٥٢].

وقد قرن الله بين ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأن في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تحقيق الألوهية وإبطالاً للشرك فيها، وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تحقيق الربوبية، وإبطالاً للشرك فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: «وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء، وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه، وندعوه بهاتين الكلمتين في كل صلاة، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه، إذ إيجاب القول الذي هو إقرار واعتراف ودعاء وسؤال هو إيجاب لمعناه..».

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية[٦] أن الإنسان بين هذين الواجبين لا يخلو من أحوال أربعة هي القسمة: إما أن يأتي بهما جميعًا، وإما أن يأتي بالعبادة فقط، وإما أن يأتي

---

(١) الأعراف:٦٥، هود:٥٠.

(٢) الأعراف:٧٣، هود:٦١.

(٣) الأعراف:٨٥، هود:٨٤.

(٤) كما قال تعالى- في سورة العنكبوت: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ [الآية:١٦].

وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٢٧)، «طريق الهجرتين» ص(٦٧)

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٨).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٨، ١٠، ٣٦)، وانظر: (١/ ٣٦).

بالاستعانة فقط، وإما أن يتركهما جميعًا.

٢٩- دل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أن العبد لا ينفك عن العبودية حتى الموت كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٩] أي حتى يأتيك الموت؛ ولهذا قال الله عن أهل النار أنهم يقولون: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر:٤٦-٤٧] أي الموت. وهذا بإجماع المفسرين المعتبرين.

وفي الحديث الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**»(١): أي الموت وما فيه.

وفي هذا رد على الخرافيين من الصوفية الذين يزعمون أن الواحد منهم قد يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد والتكليف. ويفسرون اليقين في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٩] بأنه وصول المرء إلى أعلى المقامات، وهو سقوط التكليف، وكونه لا يسأل عما يفعل.

قال ابن القيم(٢): «فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لَـمَّـا يسأله الملكان: «من كان يعبد؟ وما يقوله في رسول الله ﷺ» ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون، لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه.

بل وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليه منها أكبر وأكبر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ، بل على

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣)، وفي «مناقب الأنصار» (٣٩٢٩) من حديث أم العلاء رضي الله عنها.

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ١٣٠-١٣١).

جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته».

٣٠- حاجة جميع الخلق إلى عون الله- تعالى، وإمداده، وافتقار جميع الخلق إليه في جميع أمورهم الدينية والدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وكما جاء في الدعاء: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١).

فالعبد دائمًا وأبدًا في حاجة إلى عون الله- تعالى وإمداده، وكما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

٣١- تقديم حقه تعالى على حق العبد، وتقديم العام على الخاص، والغاية على الوسيلة، والأهم على المهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٣٢- لما كانت عبادة الله تعالى هي أشرف مقام يصل إليه العبد أتبع قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لئلا يتعاظم المرء في نفسه ويداخله العجب بعبادته؛ وليعلم أن ما حصل له من التذلل لربه والخضوع له إنما هو بعون الله وتوفيقه.

٣٣- دل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على إثبات القدر، وأن الله فاعل حقيقة، وإبطال قول القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه. فإن استعانتهم به إنما تكون على شيء هو بيده، وتحت قدرته ومشيئته، فلو كان بيدهم الفعل فكيف يستعينون على إيجاده بمن ليس ذلك الفعل بيده(٢).

٣٤- في نسبة العبادة والاستعانة إلى العباد في قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ دليل على أن ذلك من فعلهم، وأن لهم على ذلك قدرة واختيارًا ومشيئة، وأن العبد حقيقة هو العابد والمستعين، والله هو المعبود والمستعان به، وفي ذلك إبطال لقول الجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور على أفعاله(٣). قال بعض السلف: من أقرّ بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٦٢-١٦٣، ١٦٨)، «مدارج السالكين» (١/ ٩٢).

نَسْتَعِينُ﴾ فقد برئ من الجبر والقدر(١).

٣٥- في تقديم قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ على قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ دلالة على أن من آداب الدعاء والسؤال أن يقدم السائل بين يدي سؤاله ما يكون سببًا للإجابة من حمد الله والثناء عليه وتمجيده، وإعلان إخلاص العبادة له، والاستعانة به، والبراءة من الشرك ومن الحول والقوة، ثم يسأل حاجته الدينية أو الدنيوية(٢).

ومثل ذلك أن يقدم بين يدي سؤاله الاعتراف بالخطأ والذنب كما قال الأبوان: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف:٢٣]، وقال موسى- عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]، وقال ذو النون- عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧].

ومثل ذلك إعلان السائل شدة حاجته، كما قال موسى- عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القصص:٢٤].

ويتفرع عن هذه الفائدة أنه ينبغي عندما يتقدم الإنسان إلى شخص يسأله حاجة مما هو عليه قادر أن يقدم بين يدي سؤاله ما يكون سببًا للإجابة كالثناء عليه والدعاء له وذكر السائل شدة حاجته. قال الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء(٣)

قال ابن القيم(٤): «ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب: علّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذِكْر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم:

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٤٥).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٢٣).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٤).
(٤) في «مدارج السالكين» (١/ ٤٦-٤٧).

تَوسّلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته.

وهاتان الوسيلتان، لا يكاد يرد معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم...

أحدها: حديث بريدة- رضي الله عنه- قال: «**سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللهم أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى**»(١).

والثاني: حديث أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم**»(٢).

ففي هذين الحديثين توسل إلى الله بتوحيده وأسمائه وصفاته.

قال ابن القيم: «وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب- وهو الهداية- بعد الوسيلتين. فالداعي به حقيق بالإجابة».

٣٦- وجوب دعاء الله والتضرع إليه، وسؤاله الهداية، التي هي أجل المطالب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: اهدنا إليه وفيه، وذلك بالتوفيق إلى سلوك طريق الإيمان، دون سواه، وإلى فعل التفاصيل الدينية بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فالعبد في كل لحظة وعند أي عمل في حاجة أن يوفقه الله ويهديه إلى الصراط المستقيم ويهديه فيه، ولولا هداية الله وعونه وتوفيقه للعبد لانقطعت به الأسباب،

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- باب الدعاء (١٤٩٣)، والنسائي في الصلاة، باب الدعاء (١٣٢٤)، والترمذي في الدعوات باب جامع الدعوات (٣٤٧٥)، وابن ماجه في الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٣٨٥٧)، وأحمد (٥/ ٣٤٩)، وابن حبان (٨٨٨، ٨٨٩)، والحاكم (١/ ٥٠٤) وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني.

(٢) أخرجه أبوداود في الباب السابق (١٤٩٥)، والنسائي في الباب السابق (١٣٢٦)، وابن ماجه في الباب السابق (٣٨٥٨)، وأحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥، ٢٦٥)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٥٠٣-٥٠٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه الألباني.

وضل عن جادة الصواب، فحاجة العبد إلى سؤال الله هذه الهداية ضرورية لسعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة أشد من حاجته إلى الرزق والطعام والشراب وغير ذلك(١).

٣٧- في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ رد على القدرية المجوسية القائلين بأن العبد يخلق فعل نفسه، ولو كان يخلق فعل نفسه ما كان في حاجة إلى أن يسأله الهداية.

٣٨- أن الهدى الحقيقي الصحيح هو ما جاء عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فمن التمس الهدى من غير الله، فهو على ضلال كمن يحتكم إلى القوانين الوضعية التي وضعها البشر، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة:٥٠].

٣٩- مشروعية دعاء المسلم لإخوانه المسلمين حين يدعو لنفسه يؤخذ هذا من التعبير بضمير الجمع في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾. وفي هذا، وفي قوله قبله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ إشارة إلى فضل الجماعة. كما أن في الآيتين بضمير الجمع فيهما تعظيمًا لله تعالى وثناء عليه بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه(٢).

٤٠- ربط الأعمال ونجاحها بأسبابها، وربط الأسباب بمسبباتها يؤخذ هذا من قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾. فبهداية الله للعبد وتوفيقه له يسلك الطريق المستقيم فيعرف الحق ويعمل به.

٤١- أن صراط الله والطريق الموصل إليه عدل مستقيم لا اعوجاج فيه وهو الإيمان بالله تعالى- ومعرفة الحق والعمل به والعلم النافع والعمل الصالح، وهو المؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، بخلاف طرق الباطل فهي ملتوية معوجة، وتؤول بصاحبها إلى الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

٤٢- يؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ بعد قوله في أول السورة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ أن من كانت هذه صفته لم يكن أحد أحق منه بالعبادة والاستعانة وطلب الهداية.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٩، ١٧/ ١٣١-١٣٢، ٨/ ٢١٥-٢١٦)، «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٩).

٤٣- أن الصراط المستقيم الذي يسأل العبد ربه الهداية إليه هو صراط الذين أنعم الله عليهم بطاعته تعالى، وطاعة رسوله ﷺ فانْعِم به من طريق، وأكرم بها من نعمة. قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٩-٧٠]. وقد أضاف سبحانه وتعالى الصراط إلى الاسم الموصول في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ ليعم السؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم بجميع تفاصيله.

٤٤- أن الهداية للطريق المستقيم بالإيمان بالله والعمل الصالح هي أعظم نعمة على العبد ولا تنال إلا بإنعام الله وتوفيقه للعبد، قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧].

فمن وفق ورزق هذه النعمة، وهي نعمة الإيمان بالله فهو المُوفَّق، وإن فاته ما دونها من النعم، ومن حرمها ولم يُوفَّق لها فهذا هو الخاسر المغبون وإن حصل له شيء مما دونها من النعم، بل إن التوفيق لهذه النعمة سبب للتوفيق لما دونها من النعم، وإن حرمانها سبب لحرمان ما دونها من النعم.

وهذه هي النعمة المطلقة التي بها سعادة المرء في الدنيا والآخرة، وهي التي خص الله بها أولياءه، أما مطلق النعمة فهو عام لهم ولغيرهم.

قال ابن القيم[1]: «وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمه، فهذا فصل النزاع في مسألة هل لله على الكافر نعمة أم لا؟. فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤]. والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٥).

والكافر، وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون».

٤٥- في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مبنيًا للفاعل الاستعطاف بنسبة النعم إلى الله والاعتراف بنعمه السابقة على العباد، فكأنه يقول أسألك يا رب الهداية يا سابق الإنعام والفضل والإحسان، كما في الدعاء: «**اللهم اهدني فيمن هديت**»(١).

٤٦- التنويه بعلو شأن المنعم عليهم وفضلهم ورفعة قدرهم، وعلو درجاتهم يؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٤٧- الترغيب بسلوك الطريق المستقيم ببيان الرفقة فيه وسالكيه وأَنْعِم بهم من رفقة.

قال ابن القيم(٢): «ولما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه مريدًا لسلوكِ طريقٍ مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء:٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية، وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين» وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك، وقد ضربت لذلك مثلين، فليكونا منك على بال:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه، فوقف ورد عليه، وتماسكا، فربما

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة، القنوت في الوتر (١٤٢٥)، والنسائي في قيام الليل (١٦٤٧)، وابن ماجه- ما جاء في الوتر (١١٧٨)، وأحمد (١/ ١٩٩) من حديث الحسن بن علي- رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ٤٤-٤٥).

كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أَطْمَعَه في نفسه، وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز[١]، بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه، واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب، فيأخذه.

والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: «**اللهم اهدني فيمن هديت**»[٢]: أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم..».

٤٨- أن طريق الحق واحد، ولهذا ذُكر بالإفراد وعُرِّف في الموضعين الأول بأل، والثاني بالإضافة. قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: أي الطريق المعهود المعروف.

بخلاف طرق الباطل، فهي كثيرة متشعبة؛ ولهذا ذكرها بالجمع بينما أفرد طريق الحق في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قال ابن القيم[٣]: «وذكر الصراط المستقيم مفردًا معرفًا تعريفين، تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تَعَيّنه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣][٤]».

---

(١) الجمز: سرعة السير والعدو- انظر: «اللسان» مادة: «جمز».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٧-٣٨).

(٤) رواه أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، وابن حبان (٦، ٧)، والحاكم (٢/ ٢٣٩، ٣١٨)، وصححه ووافقه الذهبي. وفيه عاصم بن بهدلة متكلم في حفظه. وللحديث شاهد من حديث جابر عند أحمد =

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «**خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وقال: هذه سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]».

٤٩- أن الصراط تارة يضاف إلى سالكيه، كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وتارة يضاف إلى الله تعالى الذي نصبه وشرعه ووضعه لعباده كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

٥٠- وجوب الاعتراف بالنعمة لموليها ومسديها؛ لقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فالمنعم الحق بجميع النعم هو الله- جل وعلا- كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، والنحل:١٨].

٥١- في إثبات حمده بصفات الكمال، وإثبات ربوبيته وملكه، وكونه مستعانًا به، مسؤولاً أن يهديَ عباده الصراط المستقيم، وكونه منعمًا- في ذلك كله دلالة على أنه تعالى فاعل مختار بقدرته، ومشيئته، ورد على القائلين بالموجب بالذات دون الاختيار والمشيئة- تعالى الله عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا(١).

٥٢- استدل الشنقيطي(٢) بقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ على صحة إمامة أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: «لأنه داخل في الذين أمرنا الله في هذه السورة بأن نسأل أن يهدينا صراطهم. قال: فدل على أن صراطهم هو الصراط المستقيم، وقد بيَّن الرسول

=

(٣/ ٣٩٧)، وابن ماجه- في المقدمة (١١) وصححه الألباني.

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩٢).

(٢) في «أضواء البيان» (١/ ٤٢-٤٣).

ﷺ أن أبا بكر- رضي الله عنه- من الصديقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩]. قال: فهو- رضي الله عنه- على الصراط المستقيم، وإمامته حق».

٥٣- إثبات كمال الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر هذا الصراط: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي غير صراط المغضوب عليهم، ولا صراط الضالين.

لأن الصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] لإثبات كمال قيوميته وكقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ [الفرقان:٥٨] ونحو ذلك.

٥٤- ينبغي للعبد بعد أن يسأل الله تعالى أن يهديه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم فحققوا التوحيد أن يسأله أيضًا أن يجنبه صراط المغضوب عليهم ممن عرفوا الحق ولم يعملوا به، من اليهود وغيرهم، وصراط الضالين الذين عبدوا الله على جهل وضلال من النصارى وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذا هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه وأوجبه وأنفعه(١).

٥٥- إثبات صفة الغضب لله- كما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة لكن لا يشتق منها اسم على الإطلاق فلا يقال: الغضبان- أو الغاضب. قال تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾ [الفتح:٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء:٩٣].

٥٦- ينبغي للعبد أن يسلك من الطرق أحسنها وأصلحها وأقومها، وأن يختار لنفسه القدوة الحسنة، والأسوة الصالحة، بسلوك طريق النبيين والصديقين والشهداء

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٣٢).

والصالحين، وأن يحذر من طرق الكفر والبغي والضلال، التي هي مسالك اليهود والنصارى وغيرهم.

٥٧- أن من أخص صفات اليهود الغضب؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:٦٠].

وأن من أخص أوصاف النصارى الضلال؛ لأنهم عبدوا الله على جهل وضلال كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

ولهذا وصف الله في سورة الفاتحة كلاً من اليهود والنصارى بأخص أوصافهم فقال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اليهود ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني النصارى. وإلا فكل من الطائفتين مغضوب عليه وضال.

٥٨- أن كل من سلك مسلك أحد الطائفتين شمله وصف تلك الطائفة كما قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»، وفي الحديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»(١).

فيجب الحذر من التشبه بهم، إذ ليس بين الله وبين أحد من الخلق نسب، بل إن الآية توجب سؤال الله السلامة من جميع مسالك الكفر والضلال والحذر من ذلك.

٥٩- دل قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وما بعده على أن الناس ينقسمون بحسب معرفة الحق والعمل به إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم بمعرفة الحق والعمل به، وقسمان مخذولان، أحدهما: من عرفوا الحق وتركوه كفرًا وعنادًا، وهم اليهود، ومن سلك مسلكهم، ولهذا استحقوا غضب الله- تعالى. والقسم الثاني: من ضلوا عن الحق وجهلوه من النصارى، ومن سلك مسلكهم، ولهذا وصفهم الله بالضلال.

٦٠- في إسناد النعمة إلى الله- تعالى، وإضافتها إليه في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) أخرجه أبوداود في اللباس- باب في لبس الشهرة (٤٠٣١) من حديث ابن عمر، وكذا أحمد (٢/ ٥)، وصححه الألباني.

إشارة إلى تفرده بالإنعام، وتكريم المُنْعَم عليه. وفي حذف فاعل الغضب في قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أن الغضب عليهم لا يختص به تعالى بل ملائكته وأنبياؤه ورسله يغضبون لغضبه، كما أن في ذلك إشعارًا بإهانة المغضوب عليهم وتحقيرهم.

كما أن في إسناد النعمة إلى الله- تعالى، وحذف فاعل الغضب وإسناد الضلال إلى من قام به في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعليم لحسن الأدب مع الله بإسناد الخير والنعم إليه، وحذف الفاعل فيما يقابل ذلك أو إسناده إلى من قام به كما قال ﷺ: «**والخير كله بيديك والشر ليس إليك**»(١).

أي أن الشر في مفعولات الله، لا في فعله، فإن فعله كله خير وحكمة، وكما قال إبراهيم الخليل- عليه السلام، فيما حكى الله عنه: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء:٧٩، ٨٠](٢).

٦١- بلوغ القرآن غاية الإيجاز مع الفصاحة والبيان. فإن الله وصف كلا من الطوائف الثلاث بوصف يستلزم الجزاء وسببه بأوجز لفظ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قال ابن القيم(٣): «وتأمل سرًّا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاث بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء فهذا تمام النعمة، ولفظ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يتضمن الأمرين.

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم، وعقابه لهم، فإن من ضل استحق

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠، ٧٦١)، والنسائي في الافتتاح (٨٦٢)، والترمذي في الصلاة (٢٦٦)- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٩٥، ١٩٧)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤-٣٦).

(٣) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٦-٣٧).

العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه».

٦٢- الترغيب في سلوك سبيل المنعم عليهم والمؤمنين والترهيب من سلوك طريق المغضوب عليهم والضالين يؤخذ هذا من المقابلة بين الهداية والنعمة والغضب والضلال.

٦٣- دلت السورة على إثبات النبوات ووجوب الإيمان بالكتب والرسل، والرد على منكري النبوات. وذلك في مواضع كثيرة منها ما يلي:

أولاً: من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إذ لا سبيل إلى معرفة حمده، ووصفه بصفاته إلا عن طريق كتبه ورسله، كما أن في إثبات حمده التام ووصفه بصفات الكمال ما يقتضي كمال حكمته، وأن لا يخلق الخلق عبثًا، ولا يتركهم سدىً، لا يؤمرون ولا ينهون، ولهذا نزّه تعالى نفسه عن هذا في مواضع من كتابه، وبيّن أن من أنكر الرسالة والنبوة فإنه ما قدره حق قدره، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩][(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: «فمن أعطى الحمد حقه علمًا ومعرفة وبصيرة استنبط منه: أشهد أن محمدًا رسول الله، كما يستنبط منه أشهد أن لا إله إلا الله، وعلم قطعًا أن تعطيل النبوات في منافاته للحمد كتعطيل الصفات، وكإثبات الشركاء والأنداد».

ثانيًا: من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ ومعناه: المألوه المعبود، ولا سبيل إلى معرفة كيفية عبادته، وما يعبد به إلا من طريق الرسل والنبوات.

ثالثًا: من قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ الرب يتعهد مربوبه بالتربية والإصلاح، ومقتضى ذلك إرسال الرسل، وإنزال الكتب، لدعوة الناس إلى الخير، وتحذيرهم من الشر في دينهم ودنياهم.

قال ابن القيم[(٣)]: «فلا يليق به أن يترك عباده سدىً هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى- إلى ما

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٠-٣٤، ٩٤-٩٦).

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ٩٤).

(٣) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٠).

لا يليق به، وما قدره حق قدره من نسبه إليه».

رابعًا: من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإن مقتضى رحمته ألا يترك العباد بلا رسل تبلغهم وحي الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

قال ابن القيم(١): «فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم (الرحمن) حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب أعظم من تضمنه علم إنزال الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك».

خامسًا: من قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فإن من تمام ملكه أن يكون له رسل وكتب يبثها في أقطار مملكته لتبليغ أوامره ونواهيه.

سادسًا: من قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إذ كيف يحاسب ويجازي الخلق إلا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥].

قال ابن القيم(٢): «فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم».

سابعًا: من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ لأن الله لم يتعبد خلقه بالجهل، ولا طريق لمعرفة كيفية عبادته وبماذا يعبد إلا بواسطة الرسل والكتب.

ثامنًا: من قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ فإن من أقسام الهداية هداية البيان والدلالة والإرشاد، ولا يكون ذلك إلا من طريق الرسل والكتب المنزلة عليهم

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٣١).

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ٣١).

من عند الله- تعالى، ولا يمكن معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى الله، والمؤدي إلى السعادة في الدارين إلا من طريق الرسل والكتب.

تاسعًا: من قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم النبيون ومن ذكر الله معهم في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩]، فإن معرفة المنعم عليهم ومعرفة طريقهم، ومعرفة النعمة التي من أجلها استحقوا أن يذكروا بها على سبيل التشريف والتعظيم، كل ذلك لا يمكن معرفته إلا من طريق الرسل والكتب.

عاشرًا: من قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ إذ لا يمكن معرفة طريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين ليجتنبها العبد إلا من طريق الرسل والكتب.

الحادي عشر: من قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ لأن انقسام الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة إنما حصل بسبب إرسال الرسل، فمن عرف الحق الذي جاؤوا به واتبعه فهو من أهل النعمة، ومن عرفه وعانده فهو من أهل الغضب، ومن جهل الحق فهو من أهل الضلال.

ويتفرع عن هذا أنه إذا كانت السورة متضمنة إثبات الرسالات والنبوات اقتضى ذلك إثبات صفة التكلم والتكليم له جل وعلا. قال ابن القيم(١): «فإن حقيقة الرسالة تبليغ كلام المرسِل، فإن لم يكن ثم كلام فماذا يبلغ الرسل؟ بل كيف يعقل كونه رسولاً. ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا أو أن يكون القرآن كلامه، فقد أنكر رسالة محمد ﷺ، بل ورسالة جميع الرسل التي حقيقتها تبليغ كلام الله تبارك وتعالى».

٦٤- تضمنت السورة الدلالة على سعة علم الله- عز وجل- وخبرته وتعلق علمه بالجزئيات، والرد على من أنكر ذلك من وجوه؛ لأن كونه محمودًا موصوفًا بصفات الكمال يقتضي أن يعلم أحوال العالم وتفاصيل جزئياته، وكونه إلـٰهًا معبودًا يقتضي أن

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٩٦).

يعلم من يعبده ممن يعبد سواه، وكونه ربًّا للعالمين يقتضي أن يكون عالمًا بتفاصيل مخلوقاته مدبرًا لها، وكونه رحمانًا رحيمًا يقتضي أن يعلم أحوال المرحومين، وكونه مالكًا ليوم الدين يقتضي أن يعرف أحوال مملكته ورعيته ليجازي كلاً بعمله، كما أن كونه مستعانًا به ومسؤولاً الهداية وهاديًا ومنعمًا على من أطاعه ويغضب على من عصاه، كل ذلك يدل على تعلق علمه بالجزئيات وشموله لها[١].

٦٥- اشتمل قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وما بعده إلى آخر السورة على الرد على جميع طوائف الكفر والضلال. وذلك على سبيل الإجمال؛ لأن الحق في معرفة ما جاء به المصطفى ﷺ والسير على نهجه، وما عداه من المسالك والسبل الملتوية والمعوجة مردودة باطلة.

وقد عقد ابن القيم[٢]، فصلاً في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة. قال: وهذا يعلم بطريقين مجمل ومفصلٌ.

وبعد أن ذكر رحمه الله ما فيها من رد على جميع المبطلين بطريق الإجمال بيَّن اشتمالها على الرد على جميع المبطلين بطريق التفصيل، فذكر الرد منها على الملاحدة، وإبطال قولهم وبيان ضلالهم، والرد على المجوس والقدرية، وعلى الجهمية، وأهل الإشراك في ربوبيته وإلٰهيته، وعلى الجهمية معطلة الصفات، وعلى الجبرية، وعلى القائلين بالموجب بالذات دون الاختيار والمشيئة، وإثبات أن الله فاعل مختار، والرد على منكري تعلق علمه بالجزئيات، ومنكري النبوات، وإثبات صفة التكلم لله عز وجل، والرد على من قال بقدم العالم، وكل هذا سبقت الإشارة إليه.

وختم ابن القيم هذا الفصل في بيان تضمنها للرد على الرافضة فقال: «وذلك من قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إلى آخرها. قال: ووجه تضمنه إبطال قولهم: أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام: «منعم عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم، الذين

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩٣-٩٤).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٨٥-٩٨)، وانظر: «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (٤/ ١٢٢٢-١٢٢٥).

عرفوا الحق واتبعوه. و«مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه، و«ضالون» وهم الذين جهلوه فأخطأوه. فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم، ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم هم أولى بهذه الصفة من الروافض فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ- ورضي الله عنهم- جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما. فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر وقلبوها بلاد إسلام، وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى، فآثارهم تدل على أنهم أهل الصراط المستقيم ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان، فإنه قط ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام، وكم جرّوا على الإسلام وأهله من بلية... ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله بأبي بكر وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وهو كما فسروه، فإنه صراطهم الذي كانوا عليه، وهو عين صراط نبيهم... وأشد الأمة مخالفة له الرافضة... فقد تبين أن الصراط المستقيم صراط أصحابه وأتباعه، وطريق أهل الغضب والضلال طريق الرافضة. وبهذه الطريقة- بعينها- يرد على الخوارج فإن معاداتهم الصحابة معروفة».

٦٦- تضمنت السورة شفاء القلوب، كما تضمنت شفاء الأبدان، قال ابن القيم[1]: «فأما اشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد. ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها.

فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة؛ لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه. والتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد... إلى أن قال: ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٧٩-٨٢).

العبد تراميا به إلى التلف ولابد، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥﴾ وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥﴾ تدفع الكبرياء». فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومرض الكبر والعجب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ۝٦﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، غير المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى».

ثم ذكر الدليل من السنة على شفائها للأبدان، وهو حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- في قصة اللديغ. وقد سبق ذكره في أسماء الفاتحة، كما استشهد بقواعد الطب وما دلت عليه التجربة(١).

* * *

(١) أكثرت من النقل عن كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم، وأطلت في ذلك؛ لأني لم أجد من تكلم عن هذه السورة بمثل كلامه رحمه الله، وأشفقت أن أختصر كلامه، فتجيء عبارتي قاصرة عن الوفاء بمضمون كلامه الذي هو في غاية الدقة والتحقيق، وحسبي أني أحلت إليه.

الفصل الثاني
الأحكام التي تتعلق بسورة الفاتحة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حكم قراءة الفاتحة في الصلاة.

المبحث الثاني: وفيه مسائل:

أ- من لم يستطع قراءة الفاتحة في الصلاة.

ب- قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة.

ج- قول: «آمين» بعد قراءة الفاتحة.

د- قراءة ما زاد على الفاتحة في الصلاة.

المبحث الأول
حكم قراءة الفاتحة في الصلاة

أولاً: حكم قراءة الفاتحة في حق الإمام والمنفرد:

جمهور أهل العلم على وجوب قراءة الفاتحة في حق الإمام والمنفرد، وأنه لا تصح صلاتهما بدونها(١).

منهم مالك(٢)، والشافعي(٣)، وأحمد في المشهور، بل الصحيح عنه(٤)، وإسحاق(٥)، وعبدالله بن المبارك(٦)، والأوزاعي(٧)، وأبوثور(٨)، وداود(٩)، وغيرهم مستدلين بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [المزمل:٢٠]، وبحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في الصحيحين في قصة المسيء في صلاته وفيه: «**ثم اقرأ ما تيسر معك**

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٧-٢٨)، «نيل الأوطار» (٢/ ٢٣٤-٢٣٨).

(٢) انظر: «المدونة» (١/ ٦٥-٦٧)، «الكافي في فقه أهل المدينة» (١/ ١٠٧)، «الاستذكار» (٢/ ١٦٨)، «التمهيد» (١١/ ٣١)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٩).

(٣) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «أحكام القرآن» للشافعي ص(٧٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٧-٢٨).

(٤) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٧١)، «الفقرات» (٢٥٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩)، «مسائل الإمام أحمد» رواية النيسابوري (١/ ٥١)، «مسائل الإمام أحمد» لأبي داود ص(٣٢)، «المسائل الفقهية» (١/ ١١٧)، «المغني» (٢/ ١٥٦)، «تنقيح التحقيق» (٢/ ٨٥٩)، «آداب المشي إلى الصلاة» ص(٨٨).

(٥) انظر: «الأوسط» (٣/ ١٠١)، «الاستذكار» (٢/ ١٦٨).

(٦) انظر: «سنن الترمذي» (٢/ ٢٦).

(٧) انظر: «المغني» (٢/ ١٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٩).

(٨) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٦٨).

(٩) انظر: «المحلى» (٣/ ٢٣٦).

من القرآن»، وقوله بعد ذلك: «**ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»[١] وهذا صريح في القراءة في كل ركعة، والفاتحة أيسر القرآن.

كما استدلوا بحديث عبادة- رضي الله عنه- في الصحيحين: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» وحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عند مسلم: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج**»، وغيرها من الأحاديث[٢].

كما استدلوا- أيضًا- بمداومة الرسول ﷺ وخلفائه على قراءتها، كما في حديث أنس وعائشة- رضي الله عنهما[٣]- وبما ثبت من النقل عن عامة السلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المداومة على قراءتها، بل ومن القول بوجوبها، وأنه لا تصح الصلاة بدونها[٤].

واختلفوا هل تجب قراءتها في كل ركعة؟ وهذا قول أكثرهم، وقيل: يكفي قراءتها في أكثر الركعات، وبهذا قال مالك، وقيل: يكفي قراءتها في ركعتين، وقيل: تكفي قراءتها في ركعة واحدة من الصلاة. والصحيح الأول.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا تتعين قراءة الفاتحة، وأن الغرض أو الواجب: هو قراءة أقل ما تيسر من القرآن. ورُوي هذا عن الحسن[٥] والأوزاعي والثوري[٦]، وقال به أبوحنيفة، وأصحابه.

قال أبوحنيفة: أقل ما تيسر مقدار آية. وقال صاحباه أبويوسف ومحمد: أقله ثلاث

---

(١) سيأتي تخريج هذا الحديث.

(٢) سيأتي ذكر هذه الأحاديث وتخريجها.

(٣) سبق تخريجهما.

(٤) انظر: «المصنف» لعبدالرزاق (١/ ٩٣-٩٥، ١٢٠)، «المصنف» لابن أبي شيبة (١/ ٣٦٠-٣٦١، ٣٧٣-٣٧٥)، «خير الكلام في القراءة خلف الإمام» للبخاري، «الأوسط» (٣/ ٩٨) وما بعدها، «المحلى» (٣/ ٢٣٦) وما بعدها، «القراءة خلف الإمام» للبيهقي، «الاستذكار» (٢/ ١٦٦) وما بعدها، «نيل الأوطار» (٢/ ٢٣٤) وما بعدها.

(٥) أخرجه عبدالرزاق، الأثر (٢٦٣٠).

(٦) ذكره عنهما ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ١٨)، والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٨)، وابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٨).

آيات، أو آية طويلة[١]، ورُوي عن الإمام أحمد مثل قول أبي حنيفة[٢].

واستدل من ذهب إلى هذا القول بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [المزمل:٢٠]. وقوله ﷺ للمسيء في صلاته: «**ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن**» متفق عليه[٣].

وحملوا حديث عبادة- رضي الله عنه-: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**» وما في معناه على أن المعنى لا صلاة كاملة: أي على نفي الكمال لا على نفي الجواز[٤].

والصحيح ما ذهب إليه جمهور أهل العلم، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، بأنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، وأن الصلاة لا تصح بدونها. للأدلة الصريحة الصحيحة الدالة على ذلك. والتي فيها تفسير لقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ ولقوله ﷺ: «**ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن**» إذ لا أيسر من قراءة الفاتحة[٥] ولهذا حمله مسلم وغيره على وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وبوَّب له بها. كما تقدم في تخريجه.

وأيضًا- قد يحمل ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ في الآية والحديث على ما زاد على الفاتحة[٦]، كما قال أبوسعيد الخدري- رضي الله عنه-: «**أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر**»[٧].

ولم أر ما يدعو لذكر الأدلة كلها على وجوب قراءة الفاتحة، وأنها ركن لا تصح الصلاة بدونها وتفصيل القول فيها، خاصة في حق الإمام والمنفرد، نظرًا لضعف الخلاف في هذه المسألة، فليس مع المخالف من الأدلة ما يستلزم بسط القول في ذكر أدلة

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٨-٢٣)، «المبسوط» (١/ ١٨-١٩)، «فتح القدير» لابن همام (١/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) انظر: «المسائل الفقهية» (١/ ١١٧)، «التحقيق» ص(٣١٦)، «زاد المسير» (١/ ١٨).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة البخاري في الصلاة- باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم الركوع بالإعادة (٧٩٣)، ومسلم في الصلاة- باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧)، وأبوداود (٨٥٦)، والنسائي (٨٥١).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٢١-٢٣).

(٥) انظر: «المحلى» (٣/ ٢٣٩).

(٦) انظر: «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(١٦)، «التحقيق» (١/ ٣١٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٢٣).

(٧) سبق تخريجه.

الوجوب التي لا تحصى كثرة من السنة الصريحة الصحيحة، والآثار الثابتة الصحيحة عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

ونظرًا لأن هذه الأدلة سيأتي ذكرها ضمن أدلة القول الأول والثاني في المسألة التالية وهي حكم قراءة الفاتحة في حق المأموم؛ لأن دلالة هذه الأدلة على وجوب قراءة الفاتحة في حق الإمام والمنفرد أولى من دلالتها على وجوب قراءة الفاتحة في حق المأموم.

ثانيًا: حكم قراءة الفاتحة في حق المأموم:

اختلف أهل العلم- رحمهم الله- قديمًا وحديثًا في هذه المسألة لسببين هما:

أ- **السبب الأول**: ظاهر النصوص الواردة في هذه المسألة، فبعضها يوجب قراءة الفاتحة في الصلاة، وبعضها يوجب الإنصات لقراءة القرآن. الأمر الذي جعل أهل العلم تختلف أقوالهم في توجيه هذه الأدلة، والتوفيق بينها.

ب- **السبب الثاني**: كثرة المروي عن الصحابة والتابعين في هذه المسألة، واختلاف النقل عنهم فيها: فمنهم من رُويَ عنه جواز القراءة خلف الإمام مطلقًا، ومنهم من رُويَ عنه جواز القراءة خلف الإمام في السرية دون الجهرية، ومنهم من رُوي عنه المنع من القراءة خلف الإمام مطلقًا. بل منهم من رُويَ عنه أكثر من قول في هذه المسألة.

وبناءً على هذا كثر الاختلاف في هذه المسألة إلى يومنا هذا. وقد ألف فيها كثير من أهل العلم، وبسطوا القول فيها، منهم من أفردها بالتأليف، كالإمام البخاري في كتابه «خير الكلام في القراءة خلف الإمام»، والبيهقي في كتابه «القراءة خلف الإمام»، واللكنوي من علماء الحنفية في العصر الحاضر في كتابه «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام».

وقد ذكر شارح سنن الترمذي المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (١/ ٢٥٦): «أنه ألف فيها كتابًا مبسوطًا سماه «تحفة الكلام في وجوب القراءة خلف الإمام».

ومنهم من بسط القول فيها ضمن مؤلَّف، ولم يفردها بالتأليف، كابن المنذر في «الأوسط»، والطحاوي في «شرح معاني الآثار»، وابن عبدالبر في «التمهيد» و«الاستذكار» والحازمي في «الاعتبار»، ومن أحسن ما كتب فيها ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «مجموع الفتاوى». وقد أفرد بعضهم جواب شيخ الإسلام عن هذه

المسألة فطبعه برسالة مستقلة، وهي نفس ما في الفتاوى.

وممن بحث في هذه المسألة من المعاصرين الشيخ عبدالمحسن بن محمد المنيف في كتابه «أحكام الإمامة والائتمام في الصلاة».

ويمكن إجمال الخلاف في هذه المسألة وأدلتها في أقوال ثلاثة هي:

١- **القول الأول**: أن المأموم يقرأ الفاتحة خلف الإمام مطلقًا في الصلاة السرية والجهرية.

وهذا القول مروي عن جمع من الصحابة والتابعين، مع اختلاف في النقل عن أكثرهم. وكذا احتمال النقل عن بعضهم أن يكون مرادًا به هذا القول وهو القراءة خلف الإمام مطلقًا، أو القول الذي بعده وهو القراءة في السرية فقط. فممن رُويَ عنه هذا القول: عمر بن الخطاب- رضي الله عنه[1]، وعبادة بن

---

(١) أخرجه عن عمر- عبدالرزاق في المصنف- في الصلاة- القراءة خلف الإمام- الأثر (٢٧٧٦)- عن الثوري عن سليمان الشيباني عن جوّاب عن يزيد بن شريك أنه قال لعمر: «أقرأ خلف الإمام؟» قال: نعم. قلت: وإن قرأت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم وإن قرأت».

وقد أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»- في الصلاة- من رخص في القراءة خلف الإمام (١/ ٣٧٣)، والدارقطني (١/ ٣١٧)، وابن المنذر في «الأوسط»- الآثر (١٣٢٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٨-٢١٩)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» الآثار (١٨٦-١٨٩)، كلهم من طريق سليمان الشيباني بإسناده.

وفي لفظ الدارقطني قال: وإن جهرت؟ قال: وإن جهرت، قال الدارقطني: «إسناده صحيح، رواته كلهم ثقات».

قلت: وجوّاب: بالجيم المعجمة فواو مشدّدة ثم ألف وباء معجمة تحتية هو ابن عبيدالله: صدوق رمي بالإرجاء. انظر: «التقريب» (١/ ١٣٥).

وأخرج عبدالرزاق في الأثر (٢٧٧٧)، والبيهقي في الأثر (١٩٠) عن ابن التيمي عن ليث عن أشعث عن أبي يزيد عن الحارث بن سويد وزيد التيمي قالا: «أمرنا عمر بن الخطاب أن نقرأ خلف الإمام» وقال البيهقي: «ورواة حديث الشيباني أوثق من بعض هذا».

وأخرج ابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣٢٣)- عن عباية بن رداد قال: كنا في مسير مع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «لا تجوز صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها قال: فقال رجل: يا أمير المؤمنين: أرأيت إن كنت خلف إمام؟ قال: اقرأ في نفسك».

=

الصامت[١]، .....

=

هذه الآثار من أصح ما روي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- في هذه المسألة وأنه يرى القراءة خلف الإمام في الصلاة السرية والجهرية.

وهل يرى القراءة في الجهرية مطلقًا سكت الإمام أو لم يسكت هذا هو الظاهر ويحتمل أنه يرى ذلك في سكتات الإمام. فالله أعلم.

وقد روي عن عمر- رضي الله عنه- بأسانيد لا تثبت خلاف هذا فقد أخرج عبدالرزاق الأثر (٢٨٠٤)- من طريق أبي إسحاق الشيباني- عن رجل قال: «عهد عمر بن الخطاب أن لا تقرؤا مع الإمام» وفيه رجل لم يسم.

وأخرج أيضًا- الأثر (٢٨٠٦)- من طريق داود بن قيس عن محمد بن عجلان قال: قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: «وددت أن الذي يقرأ خلف الإمام في فيه حجر» وفيه داود بن قيس: مقبول. انظر: «التقريب» (١/ ٢٣٤) ومحمد بن عجلان: صدوق، انظر: «التقريب» (٢/ ١٩٠).

وأخرج ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦)- عن نافع وأنس بن سيرين قالا: قال عمر بن الخطاب: «تكفيك قراءة الإمام» وهذا منقطع لأن نافعًا- وهو مولى ابن عمر- وأنس بن سيرين لم يدركا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

وقد حمل ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٣٥) ما رواه يزيد بن شريك عن عمر على القراءة حال السر، وحمل ما رواه عبدالرزاق عن عمر من النهي عن القراءة أن المراد بذاك حال الجهر. ثم قال: «وليس في هذا الباب شيء يثبت من جهة الإسناد عن عمر، وعنه فيه اضطراب».

قلت: وحمل ما رواه يزيد على القراءة حال السر فيه نظر لأن قوله فيه: «قال: وإن قرأت، قال: وإن قرأت» وفي لفظ: «قال: وإن جهرت قال: وإن جهرت» صريح في أنه في الصلاة الجهرية، وإن لم يكن صريحًا في القراءة وإن لم يسكت الإمام.

وما رواه عبدالرزاق من طريق أبي إسحاق الشيباني في النهي عن القراءة خلف الإمام، فيه رجل لم يسم فهو ضعيف فلا يحتج به على النهي عن القراءة خلف الإمام حال الجهر.

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف- في الصلاة- الأثر (٢٧٧١)، عن جعفر بن سليمان عن ابن عون قال: حدثنا رجاء بن حيوة قال: صليت إلى جانب عبادة بن الصامت فسمعته يقرأ مع الإمام، فلما قضينا صلاتنا قلنا: يا أبا الوليد أتقرأ مع الإمام؟ قال: ويحك إنه لا صلاة إلا بها».

وفي إسناده جعفر بن سليمان الضبعي صدوق زاهد لكنه كان يتشيع. انظر: «التقريب» (١/ ١٣١). وبقية رجاله ثقات فيهم ابن عون هو عبدالله بن عون.

وأخرجه أيضًا بهذا اللفظ ابن ابي شيبة (١/ ٣٧٥) بإسناد صحيح من طريق شيخه وكيع عن ابن عون وكذا أخرجه ابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣٢٧)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» الأثران (٢٠١-

=

وأبوهريرة[١]، وعبدالله بن عباس[٢]، .....

=

٢٠٢)- من طريق ابن عون، لكن في إسناده: محمد بن الربيع بين رجاء بن حيوة وعبادة بن الصامت.

وأخرج البخاري في جزء القراءة خلف الإمام- الأثر (٦٥) من طريق صدقة بن خالد حدثنا زيد بن واقد عن حزام بن حكيم ومكحول عن ربيعة الأنصاري عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- وكان على إيلياء فأبطأ عبادة عن صلاة الصبح فأقام أبونعيم وكان أول مَن أذَّن ببيت المقدس فجئت مع عبادة حتى صف الناس وأبونعيم يجهر بالقراءة فقرأ عبادة بأم القرآن حتى فهمتها منه فلما انصرف قلت: سمعتك تقرأ بأم القرآن، فقال: نعم صلى بنا النبي ﷺ بعض الصلوات التي يجهر فيها بالقرآن فقال: «**لا يقرأن أحدكم إذا جهر بالقراءة إلا بأم القرآن**» وقد اختلف أهل العلم في صحة رفع هذا الحديث كما سيأتي بيانه في ذكر أدلة أصحاب هذا القول.

وأخرجه الدارقطني (١/ ٣١٩-٣٢٠)- من طريق زيد بن واقد بإسناده، وقال: «كلهم ثقات، هذا إسناد حسن».

وأخرج ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٠) عن الأوزاعي قال: «أخذت القراءة مع الإمام عن عبادة بن الصامت ومكحول».

وأما ما أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٧٧)- عن بشر بن رافع قال: أخبرني درع بن عبدالله عن أبي أمية الأزدي قال: قال لي عبادة بن الصامت: اقرأ بأم القرآن في كل صلاة أو قال: في كل ركعة. قال: قلت: أتقرأ بها يا أبا الوليد مع الإمام. قال: لا أدعها إمامًا ولا مأمومًا.

فإن في إسناده بشر بن رافع- شيخ عبدالرزاق- وهو ضعيف الحديث انظر: «التقريب» (١/ ٩٩).

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- باب وجوب قراءة فاتحة الكتاب (٣٩٥)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٥)، والبخاري في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٧٢، ١٣١، ٥٧٢)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» الحديث (٢١٩)- عن أبي هريرة في حديثه عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن صلى صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج... ثم سأل الراوي أبا هريرة عما إذا كان وراء الإمام فقال أبوهريرة: اقرأ بها في نفسك..**» الحديث. وسيأتي قريبًا.

وقد أخرج ابن المنذر في «الأوسط» الأثر (١٣١٣)- عن أبي هريرة قال: «اقرأ خلف الإمام فيما يخافت به».

ومفهوم هذا إن صح عن أبي هريرة يقوي قول من قال: إن قوله اقرأ بها في نفسك محمول على ما إذا أسرّ الإمام. وكذا ذكر ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٨٩)- أنه اختلف فيه عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة- في الصلاة- من رخص في القراءة خلف الإمام (١/ ٣٧٥) عن وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن العيزار بن حريث العبدي عن ابن عباس قال: «اقرأ خلف الإمام بفاتحة الكتاب» وإسناده صحيح. وأخرجه ابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣٢٤) من طريق إسماعيل بإسناده.

=

وعبدالله بن عمرو[١]، ومعاذ بن جبل[٢]، .....

=

وهو محتمل لقراءة الفاتحة «خلف الإمام في السرية والجهرية، أو في السرية فقط كما في رواية الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٦)- من طريق إسماعيل بن أبي خالد بإسناده عن ابن عباس قال: «اقرأ خلف الإمام بفاتحة الكتاب في الظهر والعصر» ويؤيد هذا ما أخرجه الطحاوي أيضًا (١/ ٢٢٠)- من طريق حماد بن سلمة عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: «أقرأ والإمام بين يدي فقال: لا».

وأما ما أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٧٧٣) عن التيمي، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٣)، وابن المنذر في «الأوسط» الأثر (١٣٢٥). من طريق ليث عن عطاء عن ابن عباس قال: «لابد أن يقرأ فاتحة الكتاب خلف الإمام جهر أو لم يجهر».

ففي إسناده: ليث وهو ابن أبي سليم قال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٠) «ضعيف ليس بحجة».

وقال ا بن حجر: «صدوق» اختلط أخيرًا فلم يتميز حديثه فترك» «التقريب» (٢/ ١٣٨).

وبقية رجاله ثقات فيهم التيمي هو معتمر بن سليمان، وعطاء هو ابن أبي رباح.

(١) أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثران (٢٣٦، ٣٠١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو بن العاص «أنه كان يقرأ خلف رسول الله ﷺ إذا أنصت، فإن قرأ لم يقرأ، فإذا أنصت قرأ».

وأخرج عبدالرزاق في المصنف- الأثران (٢٧٧٤-٢٧٧٥) من طريق الثوري عن الأعمش، ومن طريق ابن عيينة عن حصين بن عبدالرحمن- كلاهما عن مجاهد قال: «سمعت عبدالله بن عمرو قرأ خلف الإمام في الظهر والعصر».

وقد أخرجه عن مجاهد البخاري في جزء القراءة خلف الإمام- الأثر (٦٠)، والدارقطني، وابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٩)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٢١٥-٢١٨).

وهذان الأثران يدلان على أن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- كان يقرأ خلف الإمام في الصلاة السرية وفي الجهرية إذا سكت الإمام. وانظر: «الاستذكار» (٢/ ١٨٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٠٠)- من طريق شعبة عن أبي الفيض قال: سمعت أبا شيبة المهدي يقول: سأل رجل معاذ بن جبل- رضي الله عنه- عن القراءة خلف الإمام فقال: «إذا قرأ فاقرأ بفاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وإذا لم تسمع فاقرأ في نفسك ولا تؤذ مَن عن يمينك ولا مَن عن شمالك».

أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤)- من طريق غندر عن شعبة عن أبي الفيض قال: سمعت أبا شيبة المهدي يحدث عن معاذ أنه قال في الرجل يصلي خلف الإمام إذا كان يسمع قراءته قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال شعبة: أو نحوها وإذا كان لا

=

وأبي بن كعب[١]، وحذيفة بن اليمان[٢]، وعبدالله بن الزبير[٣]، وأنس بن مالك[٤]، وهشام بن عامر[٥]؛ رضي الله عنهم أجمعين.

=

يسمع القراءة فليقرأ ولا يؤذي مَن عن يمينه ومَن عن شماله، وهذا لو صح عن معاذ فهو خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة من وجوب الإنصات لقراءة الإمام مطلقًا إلا في حال قراءة المأموم للفاتحة إذا لم يكن للإمام سكتات عند بعض أهل العلم. ولم يقل أحد منهم بجواز قراءة غير الفاتحة إذا كان الإمام يقرأ.

(١) أخرجه البخاري في جزء القراءة- الأثر (٥٣)، والدارقطني (١/ ٣١٧-٣١٨)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ١٣٢٦)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٩٩)- من طريق أبي سنان عبدالله ابن أبي الهذيل قال: قلت لأبي بن كعب: «أقرأ خلف الإمام؟ قال: نعم» وهذا يحتمل القراءة خلف الإمام مطلقًا أو في السرية.

أما ما أخرجه عبدالرزاق في «المصنف»- الأثر (٢٧٧٢)، والبيهقي من طريقه في القراءة خلف الإمام- الأثر (١٩٨) عن أبي بن كعب «أنه كان يقرأ خلف الإمام في الظهر والعصر» ففي إسناده شيخ عبدالرزاق يحيى بن العلاء رمي بالوضع. كما في «التقريب» (٢/ ٣٥٥).

وكذا ما أخرجه البخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٥٢)- من طريق زياد البكائي عن أبي فروة عن أبي المغيرة عن أبي بن كعب- رضي الله عنه- أنه كان يقرأ خلف الإمام فهذا ضعيف لأن زيادًا البكائي في حديثه لين عن غير ابن إسحاق كما في «التقريب» (١/ ٢٦٨)، وأبا فروة هو يزيد بن سنان الرهاوي ضعيف كما في «التقريب» (٢/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٥٦)- عن حذيفة أنه كان يقرأ خلف الإمام. وانظر فقرة (٢٥). وهذا محتمل للقراءة مطلقًا في الصلاة السرية والجهرية سكت الإمام أو لم يسكت ومحتمل أنه في السرية فقط.

(٣) ذكره عنه البخاري في «جزء القراءة»، فقرة (٣٢) حيث قال: قال مجاهد: «إذا لم يقرأ خلف الإمام أعاد الصلاة» ثم قال: وكذلك قال عبدالله بن الزبير وهذا إن ثبت عن عبدالله بن الزبير فهو محتمل للقراءة خلف الإمام مطلقًا في السرية والجهرية، ومحتمل أنه في السرية فقط كما ذكره البخاري عنه في الفقرة (٤٧)- أنه قال: «اقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام».

(٤) أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٢٣)- عن أنس: «أنه كان يأمر بالقراءة خلف الإمام» وهذا أيضًا محتمل.

(٥) أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام» الأثران (٢٣١، ٢٣٢)- عن هشام بن عامر قال: «إنا لنقرأ خلف الإمام». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١١١): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون». وهذا أيضًا محتمل للقراءة في السرية فقط أو في الحالين.

كما رُويَ عن جمع من التابعين منهم: مجاهد بن جبر[١]، وسعيد بن جبير[٢]، والحسن البصري[٣]، ومكحول[٤]، وأبوالمليح[٥]، وأبوسلمة بن عبدالرحمن[٦]،

---

(١) ذكره عن مجاهد- البخاري في «جزء القراءة»، فقرة (٣٢، ٥٨)- بلفظ: «إذا لم يقرأ خلف الإمام أعاد الصلاة». وفي لفظ: «إذا نسي فاتحة الكتاب لا تعد تلك الركعة» وهذا أيضًا محتمل.

(٢) أخرجه عبدالرزاق- الأثران (٢٧٨٩، ٢٧٩٤) عن سعيد بن جبير أنه قال: «لابد أن تقرأ بأم القرآن مع الإمام، ولكن من مضى كانوا إذا كبر الإمام سكت ساعة، لا يقرأ قدر ما يقرؤون أم القرآن» وفي إسناده: عبدالله بن عثمان بن خيثم «صدوق» كما في «التقريب» (١/ ٤٣٢) وبقية رجاله ثقات.

وقد أخرجه أيضًا البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٣٧)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٠) وذكره البخاري في «جزء القراءة» فقرة (٣٤، ٢٧٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٤٢)- عن الحسن أنه كان يقول: «اقرأ خلف الإمام في كل ركعة بفاتحة الكتاب بنفسك» وإسناده عند ابن أبي شيبة صحيح.

وأخرج عبدالرزاق في المصنف- الأثرين (٢٧٩٠، ٢٧٩٢)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤١)- من طريق معمر عمن سمع الحسن يقول: «اقرأ بأم القرآن جهر الإمام أو لم يجهر فإذا جهر ففرغ من أم القرآن فاقرأ بها أنت».

(٤) أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٧٦٩)- عن مكحول أنه كان يقرأ بفاتحة الكتاب فيما جهر الإمام وفيما لا يجهر، وأخرجه أبوداود في الصلاة (٨٢٥)، والبيهقي في القراءة خلف الإمام- الأثر (٢٤٠) عن مكحول: «اقرأ يعني الفاتحة فيما جهر به الإمام إذا قرأ بفاتحة الكتاب وسكت سرًّا وإن لم يسكت اقرأ بها قبله ومعه وبعده لا تتركنها على حال».

وفي رواية في الأثر (٢٤٦)- عن موسى بن يسار قال: «سمعت مكحولاً يقرأ بأم الكتاب خلف الإمام وإنه ليقرأ» وأخرج ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٠)- عن الأوزاعي قال: «أخذت القراءة مع الإمام عن عبادة بن الصامت ومكحول».

(٥) أبو المليح هو: أبوالمليح بن أسامة الهذلي.

وقد أخرج هذا القول عنه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٥)- من طريق إسماعيل بن عُلَيَّة عن يحيى بن أبي إسحاق قال: «صليت المغرب والحكم بن أيوب إمامنا، وأبومليح إلى جنب ابن أسامة فسمعته يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي إسناده: يحيى بن أبي إسحاق: «صدوق ربما أخطأ» كما في «التقريب» (٢/ ٢٤٣).

(٦) أخرجه عن أبي سلمة بن عبدالرحمن البخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٢٧٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٣٩) قال: «للإمام سكتتان فاغتنموا القراءة فيهما بفاتحة الكتاب» وهذا ظاهر أن المأموم يقرأ الفاتحة في الصلاة الجهرية لكن في سكتات الإمام.

وميمون بن مهران[١]، ومالك بن عون[٢]، والشعبي[٣]، وأبو مجلز[٤]، وسعيد بن أبي عروبة، والحكم بن عتيبة[٥]، وعروة بن الزبير[٦]، وعطاء[٧]. وقال بهذا القول الإمام

---

(١) ذكره عن ميمون البخاري في «جزء القراءة»، فقرة (٣٠)- أنه يرى القراءة خلف الإمام وإن جهر.

(٢) ذكره عن مالك بن عون: البخاري في «جزء القراءة»، فقرة (٤٦)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١٠٨، ١١٠).

(٣) أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٤٤)- عن الشعبي قال: «اقرأ في خمسهن وراء الإمام».

وقد أخرج ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٤٣)- عن الشعبي أنه كان يقول: «اقرأ خلف الإمام في الظهر والعصر بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب».

وفي رواية لهما: «أنه كان يُحسّن القراءة خلف الإمام» وفي رواية لابن أبي شيبة فقط أنه يقول: «أنت بالخيار».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٥)- عن أبي مجلز، قال: «إن قرأت فحسن، وإن لم تقرأ أجزأتك قراءة الإمام».

إن صح هذا عن أبي مجلز فهو يحتمل أنه أراد القراءة في الصلاة السرية أو فيها وفي الجهرية في حال سكوت الإمام. ويبعد أن يحمل ذلك منه على القراءة في الجهرية في حال قراءة الإمام وعدم سكوته لأنه يرى فيما يظهر من كلامه أن القراءة سنة.

(٥) ذكره البخاري في «جزء القراءة» عن سعيد في الفقرة (٤٦)، وعن الحكم في الفقرة (٢٧٣).

(٦) أخرجه- عبدالرزاق- الأثر (٢٧٩١)- عن طريق شريك بن أبي نمر عن عروة بن الزبير قال: «إذا قال الإمام ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قرأت بأم القرآن، أو بعدما يفرغ من السورة التي بعدها».

وقد أخرج البخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٢٧٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثرين (٢٣٨، ٣٠٣)- كلهم من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال: «اسكتوا فيما يجهر واقرؤوا فيما لا يجهر».

وأخرج البيهقي- أيضًا- الأثر (٣٣١)- من طريق هشام عن أبيه، أنه كان يقرأ خلف الإمام فيما لم يجهر فيه الإمام بالقراءة.

(٧) أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٧٨٨)، والبخاري في «جزء القراءة»- الأثر (١٠٧)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٣٠٤)- عن عطاء قال: «إذا كان الإمام يجهر فليبادر بقراءة أم القرآن، أو ليقرأ بعدما يسكت، فإذا قرأ فلينصت، كما قال الله- عز وجل».

وفي رواية لعبدالرزاق: «إذا لم تفهم قراءة الإمام فاقرأ إن شئت أو سبح» وفي رواية له: «أما أنا فأقرأ مع =

الشافعي في الجديد، وأكثر أصحابة[١]. والأوزاعي[٢]، والليث بن سعد[٣]، وأبوثور[٤]، وهو رواية عن مالك[٥]، وأحمد[٦].

واختار هذا القول بعض المحققين من أهل العلم، منهم البخاري[٧]، وأبوبكر بن المنذر[٨]، وأبوبكر بن خزيمة[٩]، والخطابي[١٠]، والبيهقي[١١]، وابن حزم[١٢]، والحازمي[١٣].

=

الإمام في الظهر والعصر بأم القرآن وسورة قصيرة»- الأثران (٢٧٧٩، ٢٧٨٦).

وقد أخرج عبدالرزاق- أيضًا- عنه قال: «تجزئ قراءة الإمام عمن وراءه.. وأحب أن تقرؤوا معه».

وفي رواية أنه سئل أيجزئ عمن وراء الإمام قراءته فيما يرفع به الصوت، وفيما يخافت؟ قال: نعم»- الأثران (٢٨١٦، ٢٨١٨).

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي ص(٧٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «المجموع» (٣/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه عن الأوزاعي- البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٤٧)، وابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٠)، وفي «التمهيد» (١١/ ٣٩، ٤١)، وذكره عنه ابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١٠٨، ١١٠)، وابن تيمية انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩٨، ٣١٠، ٣٣٠).

(٣) ذكره عن الليث ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٨٩)، وفي «التمهيد» (١١/ ٣٩، ١٤)، وابن تيمية انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٠١).

(٤) ذكره عن أبي ثور ابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١٠٨)، وابن عبدالبر في كتابيه السابقين.

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٩).

(٦) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية النيسابوري ص(٥١)، «مسائل الإمام أحمد» لأبي داود ص(٣١-٣٢).

(٧) في كتابه «خير الكلام في القراءة خلف الإمام». انظر: ص(١٣)، فقرة (١٨) وما بعدها، وفي صحيحه انظر: «صحيحه مع فتح الباري» (٢/ ٢٣٦).

(٨) أبوبكر بن المنذر هو: أبوبكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨هـ. قال في كتابه «الأوسط» (٣/ ١١٠-١١١): «يقرأ في السرية، وإذا لم يسمع، فإن سمع لا يقرأ إلا في سكتات الإمام وعند وقفاته، وإذا ركع إذا لم يمكن».

(٩) هو أبوبكر محمد بن إسحاق النيسابوري، صاحب الصحيح المعروف بـ«صحيح ابن خزيمة»، وانظر: «صحيحه» (٣/ ٣٦).

(١٠) في «معالم السنن» (١/ ١٧٧).

(١١) في كتابه «القراءة خلف الإمام» ص(١١٣) وما بعدها.

(١٢) في «المحلى» (٣/ ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٣).

(١٣) في «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار» ص(٩٩-١٠٠).

وأبوالبركات جد شيخ الإسلام ابن تيمية[١]، والقرطبي[٢]، وأبوالطيب محمد شمس الحق آبادي[٣]، والشوكاني[٤]، وأحمد محمد شاكر[٥].

واتفقوا على وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في الصلاة السرية.

واختلفوا في حكم قراءتها في حال جهر الإمام بالقراءة، فقال بعضهم بوجوب ذلك منهم الشافعي والبخاري وابن حزم والشوكاني وغيرهم، وقال بعضهم باستحبابه فقط منهم الأوزاعي والليث بن سعد وأبوالبركات. والأولى عندهم جميعًا أن تكون في سكتات الإمام.

الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا القول:

أ- من الكتاب: قول الله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠].

ب- ومن السنة أحاديث كثيرة جدًّا منها ما يأتي:

١- ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- في قصة المسيء صلاته، وأن النبي ﷺ قال له: «**اقرأ ما تيسر معك من القرآن**»[٦].

قالوا: ووجه الدلالة من الآية، والحديث: أن الأمر للوجوب في الآية والحديث بقراءة ما تيسر، والفاتحة هي أيسر ما تيسر من القرآن. والآية والحديث كل منهما مبيَّن مفسَّر بالأحاديث التالية، التي فيها وجوب قراءة الفاتحة.

٢- ما رواه عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن**»[٧].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٦٧، ٢٩٨، ٣٣٠، ٣٤٢).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٩، ١٢٤).

(٣) هو صاحب كتاب: «التعليق المغني على الدارقطني». انظر: (١/ ٣١٨) من هذا الكتاب، حاشية سنن الدارقطني.

(٤) في «نيل الأوطار» (٢/ ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢).

(٥) انظر: «تعليقه على سنن الترمذي» (٢/ ١٢٦).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) سبق تخريجه.

وفي رواية للدارقطني[١] والبيهقي[٢]: «**لا تجزئ صلاة لا يقرأ الرجل فيها بفاتحة الكتاب**»[٣].

قالوا: فقوله: «**لا صلاة**» صلاة نكرة في سياق النفي، فهو يعم[٤].

وهو نفي للصلاة الشرعية المجزئة بدليل رواية الدارقطني والبيهقي: «**لا تجزئ صلاة لا يقرأ الرجل فيها بفاتحة الكتاب**» قالوا: وهذا العموم لم يخص منه المأموم[٥].

٣- ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج- ثلاثًا، غير تمام، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**» الحدث رواه مسلم[٦].

٤- وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب، فهي خداج**» رواه ابن ماجه وغيره[٧].

٥- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهي خداج فهي خداج**» رواه ابن ماجه وغيره[٧].

قالوا: ووجه الدلالة من حديث أبي هريرة، وما في معناه من الأحاديث أن الخداج هو الفساد والنقصان الذي لا تجزئ معه الصلاة من قولهم: أخدجت الناقة إذا ولدت نتاجًا فاسدًا قبل وقتها، وقبل تمام الخلق[٨].

---

(١) في «السنن» (١/ ٣٢٢) قال الدارقطني: «هذا إسناد صحيح».

(٢) في «القراءة خلف الإمام»، الحديث (٢٠).

(٣) صحح هذه الرواية يحيى بن سعيد القطان. انظر: «نصب الراية» (٣/ ٣٦٥-٣٦٦)، وانظر: «تنقيح التحقيق» (٢/ ٨٣٧)، «التعليق المغني» (١/ ٣٢٣).

(٤) انظر: «تنقيح التحقيق» (٢/ ٨٣٨).

(٥) انظر: «الأوسط» (٣/ ١٠٧)، «الاستذكار» (٢/ ١٨٩).

(٦) في «الصلاة»- باب وجوب قراءة الفاتحة (٣٩٥).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (١/ ٦٥)، «معالم السنن» (١/ ٢٠٣)، «الاستذكار» (٢/ ١٦٧)، «النهاية» مادة: «خدج».

وقالوا: ومما يدل على أن المراد بالخداج النقصان، الذي لا تصح الصلاة معه ولا تجزئ، وأن ذلك يشمل المنفرد والإمام والمأموم قول أبي هريرة: «اقرأ بها في نفسك»(١).

٦- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**في كل صلاة يقرأ، فما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم، وما أخفى عنا أخفينا عنكم، وإن لم تزد على أم القرآن أجزأت، وإن زدت فهو خير**» متفق عليه(٢).

قالوا: فقوله: «**وإن لم تزد على أم القرآن أجزأت**» يدل على أنه لا تجزئ الصلاة بدون أم القرآن، وأن قراءتها في الصلاة أقل المجزئ. وأن الزيادة عليها خير: أي مستحبة وليست واجبة.

٧- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي أنه لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب، فما زاد**» رواه أبوداود(٢).

٨- وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «**أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر**»(٢).

٩- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن**» رواه ابن خزيمة وابن حبان(٣).

قالوا: فهذه الأحاديث الثلاثة كحديث أبي هريرة الذي قبلها تدل على وجوب قراءة الفاتحة، وأنه لا تصح الصلاة، بل ولا تجزئ بدونها، سواء كان المصلي إمامًا أو منفردًا أو مأمومًا.

كما استدلوا بالأحاديث التي فيها النهي عن القراءة خلف الإمام- إذا جهر- فيما عدا الفاتحة.

١٠- فعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «**كنا خلف رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، فقرأ رسول الله ﷺ فثقلت عليه القراءة، فلما فرغ قال: لعلكم تقرؤون**

---

(١) انظر: «صحيح ابن خزيمة» (١/ ٢٤٧-٢٤٨)، «القراءة خلف الإمام» ص(٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه. وقال مقبل الوادعي في تعليقه على الحديث في تفسير ابن كثير (١/ ٢٧): «وهو على شرط مسلم».

خلف إمامكم؟ قلنا: نعم يا رسول الله. قال: لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»(١).

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٨٢٣-٨٢٤).
والنسائي في الافتتاح- باب قراءة أم القرآن خلف الإمام فيما جهر به الإمام (٢/ ١٤١)، والترمذي في الصلاة- باب ما جاء في القراءة خلف الإمام (٣١١)، وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٥/ ٣١٣، ٣١٦، ٣٢٢).
وابن أبي شيبة شيبة (١/ ٣٧٣)، والبخاري في جزء القراءة خلف الإمام- الأحاديث (٦٤-٦٧)، (٢٥٧-٢٥٨)، وابن خزيمة في «صحيحه» في الإمامة- باب القراءة خلف الإمام وإن جهر الإمام (١/ ٣٦-٣٧)، وابن المنذر في «الأوسط» (١٣٢١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٥)، والدارقطني في- الصلاة- باب وجوب قراءة أم الكتاب في الصلاة وخلف الإمام (١/ ٣١٨-٣٢٠) وقال: «حديث حسن، ورجاله كلهم ثقات». وابن حبان في «صحيحه» (١٧٧٦، ١٧٨٣)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٢٣٠-٢٣١)، والحاكم في «كتاب الصلاة» (١/ ٢٣٨)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» الأحاديث (١٠٨-١١٣)، بطرقه وصحح بعضها، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٤)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ٤٣٢-٤٣٤) وقال: «هذا حديث حسن».
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١١٠)، وقال: «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثوقون».
وهذا الحديث صححه جمع من أهل العلم، وضعفه آخرون.
فقد حسنه الترمذي، وابن خزيمة، والدارقطني، والبيهقي، والهيثمي، وابن حجر، وقال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (١/ ٢٣١): «حديث عبادة رواه أحمد والبخاري في جزء القراءة وصححه أبوداود والترمذي والدارقطني، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي من طريق ابن إسحاق حدثني مكحول عن محمود بن ربيع عن عبادة، وتابعه زيد بن واقد وغيره عن مكحول، وذكر شاهدا له».
وقال ابن المنير في «خلاصة البدر المنير» (١/ ١١٩): «وقال الخطابي في «معالم السنن» (١/ ١٧٧): «إسناده جيد، لا مطعن فيه».
وقال الحاكم: «إسناده مستقيم».
وانظر: «تنقيح التحقيق» (٢/ ٨٥١-٨٥٥).
وممن احتج بهذا الحديث سماحة الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله.
وقد ضعفه بعض أهل العلم.
قال الإمام أحمد: «لم يروه غير ابن إسحاق» وتعقبه ابن قدامة في «المغني» (٢/ ٢٦٣-٢٦٤) بأنه «رواه أبوداود عن مكحول عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري هو أدنى حالاً من ابن إسحاق فإنه غير معروف من أهل الحديث».
قال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٦)- بعدما أشار إلى اضطراب إسناده: «ومثل هذا الاضطراب لا =

١١- وعن أنس- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ صلى بأصحابه، فلما قضى صلاته أقبل عليهم بوجهه، فقال: «**أتقرؤون في صلاتكم والإمام يقرأ؟ فسكتوا، فقالها ثلاث مرات، فقال قائل أو قائلون: إنا لنفعل. قال: فلا تفعلوا، ويقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب في نفسه**»(١).

١٢- وعن محمد بن أبي عائشة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لعلكم تقرؤون والإمام يقرأ. قالوا: إنا لنفعل قال: لا، إلا بأن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب**»(٢).

١٣- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتقرؤون**

=

يثبت فيه عند أهل العلم بالحديث شيء، وليس في هذا الحديث ما لا مطعن فيه من جهة الإسناد غير حديث الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة». يعني حديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» المتفق على صحته.

لكن ابن عبدالبر قال في «الاستذكار» (٢/ ١٩٠) عن حديث عبادة الذي فيه: «**لا تفعلوا إلا بأم القرآن**»: «متصل مسند من رواية الثقات».

وقال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٨٦-٢٨٧): «هذا الحديث معلل عند أئمة الحديث بأمور كثيرة، ضعفه أحمد وغيره من الأئمة... والصحيح قول النبي ﷺ: «**لا صلاة إلا بأم القرآن**» فهذا هو الذي أخرجاه في الصحيحين، ورواه الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة.

وأما هذا الحديث فغلط فيه بعض الشاميين وأصله أن عبادة كان يؤم ببيت المقدس، فقال هذا فاشتبه عليهم المرفوع بالموقوف على عبادة».

وقال- أيضًا- (٢٢/ ٣٤٠): «الحديث لم يخرج في الصحيح، وضَعْفُه ثابت من وجوه وإنما هو قول عبادة بن الصامت».

كما ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٧٦)، «ضعيف سنن الترمذي» (٤٩)، و«ضعيف سنن النسائي» (٣٩).

(١) أخرجه البخاري في «جزء القراءة» (٢٥٥)، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٣٥)، وأبويعلى في «مسنده» (١/ ١٤١)، والبيهقي في «سننه» (٢/ ١٦٦)، وفي «القراءة خلف الإمام» (١٣٩-٥١، ٣٨٦، ٣٨٧).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١١٠): «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه عبدالرزاق- في الصلاة- باب القراءة خلف الإمام (٢٧٦٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤)، وأحمد (٤/ ٢٣٦)، وقال الهيثمي (٢/ ١١١): «ورجاله رجال الصحيح»، والبخاري في «جزء القراءة خلف الإمام» (٦٧)، والدارقطني (١/ ٣٤٠)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» (١٥٤-١٦٠).
قال ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ٩٠): «منقطع، مرسل». وقال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (١/ ٢٣١): «إسناده حسن».

خلفي؟ قالوا: نعم يا رسو ل الله، إنا لنهذّه هذًّا قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن»(١).

قالوا: فحديث عبادة: «**لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب...**» وما في معناه من الأحاديث التي تشهد له، كلها نص في وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في نفسه واستثنائها من النهي عن القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة، ووجوب قراءتها إذا أسر الإمام في القراءة من باب أولى.

كما استدلوا بالأحاديث والآثار التي تدل على وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام في الصلاة السرية.

١٤- وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «**كنا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب**» رواه ابن ماجه(٢).

قالوا: فهذا الحديث وما في معناه من الأحاديث والآثار(٣) تدل على ملازمة الصحابة- رضي الله عنهم- على قراءة الفاتحة في الصلاة السرية خلف الإمام. وقول الصحابي: «كنا نفعل كذا في عهد الرسول ﷺ» من قبيل المرفوع.

١٥- وعن عبدالله بن أبي أوفى- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «**إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا فعلمني ما يجزئني منه، قال: قل سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...**»(٤).

قالوا: ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن الرسول ﷺ علّم من لا يحسن القرآن ما يقوم مقامه، ولم يأمره بالائتمام حتى تسقط عنه القراءة(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في «جزء القراءة» (٦٣)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» (١٦٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) تجد بعضًا منها في مسألة «حكم قراءة ما زاد على الفاتحة في الصلاة».

(٤) أخرجه أبوداود- في الصلاة- ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة (٨٣٢)، والنسائي في افتتاح الصلاة- باب ما يجزئ من القراءة عمن لا يحسن القرآن (٨٨٥)، وعبدالرزاق (٢٧٤٧)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» (١٨٤)- وحسّنه الألباني.

(٥) انظر: «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(٨٨).

إلى غير ذلك من الأحاديث[١].

١٦- كما استدلوا بالآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، في القراءة خلف الإمام مطلقًا في السرية والجهرية[٢].

١٧- وقالوا: إن الإمام لا يتحمل عن المأموم شيئًا من الركوع والسجود، بل لا يتحمل عنه شيئًا من السنن والمستحبات، فكيف يتحمل قراءة الفاتحة التي هي من الواجبات[٣].

١٨- وقالوا أيضًا: إن قراءة الفاتحة خلف الإمام لا تبطل الصلاة بالإجماع، حتى ولا في الصلاة الجهرية، وإنما يفوته الاستماع فقط، وإنما تبطل الصلاة بترك قراءتها عند كثير من أهل العلم، وخاصة في الصلاة السرية[٤].

قالوا: فهذه الأدلة تدل على وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة مطلقًا سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية وسواء كان المصلي إمامًا أو مأمومًا أو منفردًا فهي مخصّصة لعموم قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤]. والسنة تخصّص القرآن بلا خلاف[٥].

ومخصّصه لعموم قوله ﷺ في حديث أبي موسى وحديث أبي هريرة- رضي الله عنهما: «**وإذا قرأ فأنصتوا**»[٦].

بل ومخصّصه لعموم حديث جابر- رضي الله عنه- «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**»[٧] على فرض صحته: أي فقراءته له قراءة فيما عدا الفاتحة التي خصها الدليل

---

(١) انظر: «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(٨٥).

(٢) تقدم ذكر المروي عن الصحابة والتابعين في ذكر القائلين بهذا القول.

(٣) انظر: «خير الكلام في القراءة خلف الإمام» ص(٢٧)، «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(٢١٩-٢٢٣).

(٤) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣١٠).

(٥) وقد حمل البيهقي في «القراءة خلف الإمام» ص(١٣) وما بعدها الآية على النهي عن كلام الناس في الصلاة، لا عن الذكر والقرآن والتسبيح مستدلاً بالأحاديث الصحيحة في النهي عن الكلام كحديث زيد بن أرقم وابن مسعود في الصحيحين وغيرهما.

(٦) سيأتي ذكرهما وتخريجهما.

(٧) سيأتي ذكره وتخريجه.

بوجوب قراءتها على كل مصل إمامًا كان أو مأمومًا أو منفردًا. ويدل على التخصيص حديث عبادة- رضي الله عنه-: «**فلا تفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها**»(١).

قالوا: والأولى أن يقرأ المأموم الفاتحة في سكتات الإمام إذا كان له سكتات، فإن لم يكن له سكتات قرأ معه(٢).

والأولى إذا لم يكن للإمام سكتات أن يقرأ معه حال قراءة الإمام للسورة. أما حال قراءة الإمام الفاتحة فإن الأولى بالمأموم أن يستمع؛ لأن قراءة الفاتحة واجبة بخلاف قراءة ما بعدها، والاستماع لقراءة الواجب أولى من الاستماع لغير الواجب(٣).

وإذا نسي المأموم قراءة الفاتحة، أو سها عن ذلك، أو جهل وجوبها، سقط عنه وكفته قراءة الإمام على الصحيح. وكذا إذا أدرك الإمام راكعًا لفوات محلها، لحديث أبي بكرة- رضي الله عنه-: «**أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو راكع فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: زادك الله حرصًا، ولا تعد**»(٤).

وقد أجمع العلماء على هذا.

قال القرطبي(٥): «وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعًا فالإمام يحمل عنه القراءة، ولإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعًا أنه يكبر ويركع، ولا يقرأ شيئًا».

القول الثاني:

أن المأموم يقرأ خلف الإمام في الصلاة السرية، ولا يقرأ في الصلاة الجهرية، بل ينصت لقراءة الإمام.

وهذا هو الثابت- والله أعلم- عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٦).

---

(١) سبق ذكره بتمامه وتخريجه.

(٢) انظر: «الأوسط» (٣/ ١٠٧)، «المحلى» (٣/ ٢٣٦-٢٤٣)، «الاستذكار» (٢/ ١٩١).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣١٣).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان- باب إذا ركع دون الصف (٧٨٣)، وأبوداود في الصلاة- باب الرجل يركع دون الصف (٦٨٣، ٦٨٤)، والنسائي في الإمامة، باب الركوع دون الصف (٨٣٩)، وأحمد (٥/ ٣٩، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٥٠).

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٦) أخرجه عن علي- البخاري في جزء القراءة- الأثران (١، ٥٤)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧١، ٣٧٣)، وابن =

=

المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٠٦، ٢٠٩)، والدارقطني (١/ ٣٢٢)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثران (١٩٨، ٤٢٥) من طريق الزهري عن عبيدالله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-: «إذا لم يجهر الإمام في الصلوات فاقرأ بأم الكتاب وسورة أخرى في الأوليين من الظهر والعصر، وبفاتحة الكتاب في الأخريين من الظهر والعصر، وفي الآخرة من المغرب وفي الأخريين من العشاء».

وقال الدارقطني: «إسناده صحيح» وقال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٣٥): «أصح شيء عن علي ما رواه الزهري».

وهذا والله أعلم يفسر ما رواه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٣) من طريق الحكم وحماد: «أن عليًا كان يأمر بالقراءة خلف الإمام»- إن صح هذا- على أن المراد به الأمر بالقراءة خلف الإمام فيما أسر فيه بالقراءة.

كما يفسر ما رواه عبدالرزاق- الأثر (٢٨٠٥)- عن علي «أنه كان ينهى عن القراءة خلف الإمام- إن صح هذا أيضًا- على أن المراد به القراءة حال جهر الإمام بالقراءة».

وأما ما أخرجه عبدالرزاق- الآثار (٢٨٠١، ٢٨٠٤-٢٨٠٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٩)، والدارقطني (١/ ٣٣١-٣٣٢) عن علي أنه قال: «من قرأ مع الإمام، أو خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة».

فقد ضعفه أكثر أهل العلم فقال البخاري في «جزء القراءة» فقرة (٣٨): «لا يصح»، وقال الدارقطني في «سننه» (١/ ٣٣٢): «لا يصح إسناده»، وقال ابن حبان في كتاب «الضعفاء»: «باطل ويكفي في ضعفه إجماع المسلمين على خلافه».

وقال ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٢): «هذا لو صح يحتمل أن يكون في صلاة الجهر، لأنه حينئذٍ يكون مخالفًا للكتاب والسنة، فكيف وهو غير ثابت عن علي».

وقال في «التمهيد» (١١/ ٤٩-٥٠): «هذا الخبر لو صح كان معناه من قرأ مع الإمام فيما جهر فيه بالقراءة فقد أخطأ الفطرة، لأنه حينئذٍ خالف الكتاب والسنة فكيف وهو خبر غير صحيح، وقد عارض هذا الخبر عن علي ما هو أثبت منه، وهو خبر الزهري عن عبدالله بن أبي رافع عن علي».

وقال أيضًا (١١/ ٥١)- بعدما ذكر ضعف ما روي عن سعد بن أبي وقاص في هذا قال: «وكذلك كل ما روي عن علي في هذا الباب فمنقطع لا يثبت، ولا يتصل، وليس عنه فيه حديث متصل غير حديث عبدالله بن أبي ليلى، وهو مجهول، وزعم بعضهم أنه أخو عبدالرحمن بن أبي ليلى ولا يصح حديثه، ولا أعلم في هذا الباب صاحبًا صح عنه بلا اختلاف أنه قال مثل ما قال الكوفيون إلا جابر بن عبدالله وحده».

وذكر البيهقي في «القراءة خلف الإمام» ص(١٨٩) أنه موقوف على علي بإسناد رواه ضعيف يكفي ذكره واختلاف الرواة فيه عن بيان ضعفه.

ثم ذكر رواياته واختلافها، وعدم صحتها- الآثار (٤١٤-٤٢٣).

وهو مروي أيضًا عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه[١]- وعن ابنه عبدالله بن عمر بن الخطاب[٢]، وعبدالله بن مغفل[٣]، .....

---

(١) سبق تخريجه عن عمر ص(٣٥٦، ٣٥٧) وأسانيده- والله أعلم- لا تثبت كما سبق بيان ذلك.

(٢) أخرجه عن ابن عمر- عبدالرزاق- الأثر (٢٨١١)، وابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١٥)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٣٣٠)- من طريق ابن شهاب عن سالم أن ابن عمر كان يقول: «ينصت للإمام فيما يجهر به في الصلاة، ولا يقرأ معه».

وذكر ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٣٦): «أن هذا أصح ما رُويَ عن ابن عمر».

وأخرج مالك في «الموطأ»- الأثر (١٨٩)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٢٠)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٣٩٨)- من طريق نافع عن ابن عمر قال: «إذا صلى أحدكم خلف الإمام فحسبه قراءة الإمام، وإذا صلى وحده فليقرأ. وكان عبدالله بن عمر لا يقرأ خلف الإمام».

قال ابن عمر في «الاستذكار» (٢/ ١٨٤): «وهذا الحديث عن ابن عمر يدل ظاهره على أنه كان لا يقرأ خلف الإمام، ولا يرى القراءة خلفه جملة، في السر، ولا في الجهر، ولكن مالكًا- رحمه الله، أدى ما سمع من نافع كما سمعه، وبلغه عن ابن عمر: أن مذهبه كان أنه لا يقرأ خلف الإمام فيما يجهر فيه، دون ما أسر، فأدخل حديثه في هذا الباب، كأنه قيده بترجمة الباب، وبما علم من المعنى فيه ثم استدل ابن عبدالبر على هذا بما أخرجه عبدالرزاق من طريق ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر- ثم قال: «وكل من روى عن نافع عن ابن عمر من رواية مالك وغيره من الألفاظ المجملة في هذا الحديث فإنه يفسره ويقضي عليه حديث ابن شهاب عن سالم هذا والله أعلم». وذكر نحوًا من هذا في «التمهيد» (١١/ ٣٦-٣٧)، وقال البيهقي في «القراءة خلف الإمام» ص(١٨٣): «ورواية سالم عن ابن عمر تدل على صحة ما حمل مالك بن أنس- رحمه الله- عليه رواية نافع».

قلت: كما قد يفسر حديث ابن شهاب عن سالم ما أخرجه عبدالرزاق الأثران (٢٨١٤-٢٨١٥) من طريق زيد بن أسلم، وابن ذكوان عن ابن عمر أنه كان ينهى عن القراءة خلف الإمام، أو لا يقرأ خلف الإمام- إن صح هذا- على أنه المراد به النهي عن القراءة، أو تركها إذا جهر الإمام بالقراءة.

لكن أخرج الطحاوي (١/ ٢١٩)- عن ابن عمر وزيد بن ثابت وجابر أنهم قالوا: لا تقرؤوا في شيء من الصلوات. وهذا- إن صح عن ابن عمر- لا يمكن حمله على ما سبق، فالله أعلم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧١)، والبخاري في «جزء القراءة خلف الإمام»- الأثر (٦١)، وابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١٦)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٣٥)- عن عبدالله بن مغفل أنه كان يأمر بالصلاة التي لا يجهر فيها الإمام- أن يقرأ في الصلاة في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب».

وعبدالله بن مسعود [١]، وعائشة[٢]، وأبي سعيد الخدري- رضي الله عنهم- مع اختلاف عنه في ذلك[٣]، .....

---

(١) أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٨٠٣)، وابن ابي شيبة (١/ ٣٧٦)، وابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١٠)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٩)، والبيهقي «القراءة خلف الإمام» الأثران (٢٥٧، ٣٧٤)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٣٠)- عن ابن مسعود بلفظ: «أنصت للقرآن فإن في الصلاة شغلاً، وسيكفيك ذلك الإمام». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١١١): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثوقون».

قال عبدالله بن المبارك فيما ذكره البخاري في «جزء القراءة»، فقرة (٢٨، ٢٩): «دل أن هذا في الجهر، وإنما يقرأ خلفه فيما سكت الإمام». وكذا قال ابن عبدالبر: «قوله: أنصت» يدل على أن ذلك في الجهر دون السر».

قلت: ويدل على هذا ما أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٣)، وابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١١)، عن عبدالله بن مسعود: «أنه قرأ في العصر خلف الإمام في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة».

وهذا كله يُفسّر ما أخرجه البخاري في جزء القراءة- الأثر (٥٥)- عن ابن أبي مريم سمعت ابن مسعود- رضي الله عنه- يقرأ خلف الإمام- إن صح هذا- على أن المراد به القراءة في الصلاة السرية.

كما يُفسّر ما رُويَ عنه- عند عبدالرزاق- الأثر (٢٨٠٦)، والطحاوي (١/ ٢١٩)- أنه قال: «من قرأ مع الإمام، أو ليت الذي يقرأ مع الإمام ملئ فوه ترابًا»- إن صح هذا عنه- على أن المراد به القراءة مع الإمام حال جهر الإمام بالقراءة. علمًا أن في إسناد عبدالرزاق شيخه داود بن قيس الصنعاني وهو مقبول كما في «التقريب» (١/ ٢٣٤)، وفي إسناد الطحاوي: خديج بن معاوية وهو صدوق يخطئ كما في «التقريب» (١/ ١٥٦).

(٢) أخرجه ابن المنذر في «الأوسط» الأثر (١٣١٣)- عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «اقرأ خلف الإمام فيما يخافت به».

وأخرج البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثران (٢٢١-٢٢٢)- عن عائشة أنها تأمر بالقراءة خلف الإمام في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وشيء من القرآن، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب».

أما ما ذكره البخاري عنها في «جزء القراءة» فقرة (١٣٤) بعدما أخرج عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- «لا يركع أحدكم حتى يقرأ بأم القرآن». قال البخاري: «وكانت عائشة تقول ذلك».

فإن هذا- إن صح- ليس صريحًا في أن عائشة، ولا أبا سعيد يريان القراءة خلف الإمام مطلقًا في الصلاة السرية والجهرية، إذ قد يصح حمله على القراءة في الصلاة السرية، بل لو قيل بحمله على من يصلي منفردًا لما امتنع قبول ذلك.

(٣) فقد أخرج البخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٥٧)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» عن أبي نضرة قال: سألت أبا سعيد عن القراءة خلف الإمام، فقال: «فاتحة الكتاب» وفي إسنادهما العوام بن حمزة =

وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة[١] والزهري[٢]، وقتادة[٣]، وسعيد بن المسيب[٤]، والحكم ابن عتبة[٥]، والقاسم ابن محمد[٦]، وعروة بن الزبير[٧]، ونافع بن جبير بن مطعم[٨]،

=

المازني: صدوق ربما وهم كما في «التقريب» (٢/ ٨٩). وأخرج البخاري- الأثر (١٣٣)- عن عبدالرحمن بن هرمز قال: قال أبوسعيد: «لا يركع أحدكم حتى يقرأ بأم القرآن».

فهذان الأثران- إن صحا- عن أبي سعيد- قد يؤخذ منهما أنه يرى القراءة خلف الإمام مطلقًا حتى في الصلاة الجهرية. لكن أخرج ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٧)- عن أبي هارون قال: سألت أبا سعيد عن القراءة خلف الإمام، فقال: «يكفيك ذاك الإمام» فهذا- إن صح عن أبي سعيد- يدل على أن المراد بالأثرين السابقين القراءة في السرية والأمر محتمل فالله أعلم.

(١) أخرج عبدالرزاق- الأثر (٢٧٧٥)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٣)- بإسناد صحيح- والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٤٥)- كلهم من طريق حصين بن عبدالرحمن قال: «سمعت عبيدالله بن عبدالله بن عتبة يقرأ في الظهر والعصر مع الإمام..» وليس في رواية ابن أبي شيبة والبيهقي «في الظهر والعصر». وقد ذكر هذا القول عن عبيدالله، وأنه يقرأ خلف الإمام. ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٨)، و«الاستذكار» (٢/ ١٨٦).

(٢) أخرجه عن الزهري- عبدالرزاق- الأثر (٢٧٨٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثران (٢٧٣، ٣٣٢)- «أنه ينهى عن القراءة فيما جهر الإمام، ويقرأ فيما لم يجهر الإمام» وذكره ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٨٦).

(٣) أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٧٨٥) عن قتادة أنه قال: «إذا جهر الإمام فلا تقرأ شيئًا» وذكره ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤، ٣٧٧) عن سعيد قال: «يقرأ الإمام ومن خلفه في الظهر والعصر بفاتحة الكتاب»، وفي رواية قال: «أنصت للإمام»، وذكره ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٨)، و«الاستذكار» (٢/ ١٨٦).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤) عن الحكم قال: «اقرأ خلف الإمام فيما لم يجهر في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب».

(٦) أخرجه عن القاسم بن محمد- مالك في «الموطأ»- الأثر (١٨٧)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٥)، وذكره ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٥٤).

(٧) أخرجه عن عروة مالك في «الموطأ»- الأثر (١٨٦)، وعبدالرزاق- الأثر (٢٧٩١)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٤)، والبخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٢٧٦).

(٨) أخرجه مالك في «الموطأ»- الأثر (١٨٨)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٣٣٢)- عن نافع بن جبير بن مطعم أنه كان يقرأ خلف الإمام فيما لا يجهر فيه بالقراءة.

وسالم بن عبدالله بن عمر[١].

وبه قال الإمام مالك وأصحابه[٢]، وأحمد بن حنبل، إلا أنه قال: إن سمع في صلاة الجهر لم يقرأ، وإن لم يسمع قرأ[٣]، وذكر ابن تيمية[٤] أنه لم يصح عنه غيرها.

وقال به أيضًا عبدالله بن المبارك[٥]، وإسحاق بن راهويه[٦] وهو قول الشافعي في القديم[٧]، وبه قال الأوزاعي وأبوثور[٨] وداود[٩].

وهو اختيار جمع من المحققين أيضًا منهم:

الطبري[١٠]، وأبوبكر بن العربي[١١]، وشيخ الإسلام ابن تيمية، قال: «وهو قول جمهور أهل العلم، وأعدل الأقوال»[١٢].

---

(١) ذكره عن سالم ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٨٦)، وفي «التمهيد» (١١/ ٢٨، ٣٧).

(٢) انظر: «المدونة» (١/ ٦٧)، «الموطأ» ص(٦٧-٦٨)، «الاستذكار» (٢/ ١٨٦-١٨٨)، «التمهيد» (١١/ ٢٨، ٣٤، ٣٧-٣٨)، «الكافي في فقه أهل المدينة» (١/ ١٧٠)، «بداية المجتهد» (١/ ١٥٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٧).

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٧١، ٧٩)، الفقرات (٢٥٤-٢٥٧، ٢٨٠)، و«رواية النيسابوري» (١/ ٥١)، و«رواية أبي داود» ص(٣٢)، «المغني» (١/ ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٧-٢٦٨)، «تنقيح التحقيق» (٢/ ٨٥٧)، «الشرح الكبير» (١/ ٣٩٠-٣٩١)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٩٥)، وانظر: (٢٣/ ٣٨١).

(٥) انظر: «الأوسط» (٣/ ١٠٦)، «سنن الترمذي» (٢/ ١٢١)، «الاستذكار» (٢/ ١٨٦)، «التمهيد» (١١/ ٢٨).

(٦) انظر: «الأوسط» (٣/ ١٠٦)، «الاستذكار» (٢/ ١٨٦).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي ص(٧٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(١٠٧، ١٢٨)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٨).

(٨) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩٣).

(٩) انظر: «التمهيد» (١١/ ٢٨).

(١٠) في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥٢).

(١١) في «أحكام القرآن» (١/ ٥)، قال: «والصحيح عندي وجوب قراءتها فيما يسر، وتحريمها فيما جهر إذا سمع قراءة الإمام لما عليه من فرض الإنصات والاستماع لقراءته، فإن كان عنه في مقام بعيد فهو بمنزلة صلاة السر».

(١٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٢٧، ٣٣٠)، وانظر: (٢٩٤-٢٩٧).

واختاره- أيضًا- الحافظ ابن كثير[١]، وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب[٢]، واللكنوي من محققي الأحناف في هذا العصر[٣].

واختاره من علمائنا المعاصرين فضيلة الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني[٤]، وفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

واختلفوا في حكم القراءة في الصلاة السرية خلف الإمام، أهي واجبة أم سنة.

فذهب مالك[٥]، وأحمد في رواية[٦] له عدها بعض أصحابه هي المشهورة عنه[٧]، واختارها بعض أصحابه كشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب[٨] إلى أن قراءة الفاتحة في الصلاة السرية خلف الإمام سنة.

وذهب الأوزاعي[٩] والشافعي[١٠] وأبوثور وإسحاق، وداود[١١]، وأحمد في رواية عنه[١٢] إلى أن القراءة في الصلاة السرية خلف الإمام واجبة ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب. واختار هذا ابن العربي[١٣].

واتفقوا على أنه لا يُشرع قراءة الفاتحة، ولا غيرها حال سماع المأموم لقراءة إمامه.

واختلفوا في حكم من قرأ وهو يسمع قراءة الإمام: فذهب بعضهم إلى كراهية

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٨، ٦٣).

(٢) في «آداب المشي إلى الصلاة» ص(٩٨) باب صلاة الجماعة.

(٣) كانت وفاته سنة ١٣٠٤هـ. وانظر: كتابه «إمام الكلام في القراءة خلف الإمام» ص(٢٢٥-٢٢٨)- وهذا الكتاب من خير ما ألف في هذه المسألة، كما سبقت الإشارة إليه.

(٤) في «صفة صلاة النبي ﷺ» له ص(٥٥-٥٧).

(٥) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٨٩-١٩٣)، «التمهيد» (١١/ ٥٣)، وانظر: المراجع السابقة في ذكر قول مالك.

(٦) انظر: «مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبدالله» ص(٧٢، ٧٨)، فقرة (٢٥٧، ٢٧٨)، «التحقيق» (١/ ٣٩١).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٦٦).

(٨) انظر: «آداب المشي إلى الصلاة» ص(٩٨).

(٩) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩٤)، «التمهيد» (١١/ ٥٤).

(١٠) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٧٧)، «المهذب» (١/ ٧٩).

(١١) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩٤)، «التمهيد» (١١/ ٥٤).

(١٢) انظر: «مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبدالله» ص(٧١) فقرة (٢٥٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٦٦).

(١٣) في «أحكام القرآن» (١/ ٥).

ذلك[١]، وذهب بعضهم إلى تحريمه[٢]، بل شذ بعضهم فقال ببطلان صلاته[٣].

أما إذا لم يسمع المأموم قراءة الإمام، أو كان للإمام سكتات.

فقال بعضهم الأفضل للمأموم أن يقرأ الفاتحة في هذه الأحوال[٤]- وهو الأولى- لكن لو لم يفعل فصلاته صحيحة عندهم[٥].

الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا القول:

أ- استدلوا على وجوب القراءة في الصلاة السرية، أو استحبابها بالأدلة التي استدل بها أصحاب القول الأول على وجوبها أو استحبابها في الحالين وعلى أنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها كحديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه-: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[٦].

وحديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج- ثلاثًا، غير تمام**».

وغير ذلك من الأحاديث بهذا المعنى وقالوا: المراد بها الإمام والمنفرد، وكذا المأموم في الصلاة السرية، وكذا في الجهرية إذا لم يسمع قراءة الإمام.

ب- أما أدلتهم على أن المأموم لا يقرأ في الصلاة الجهرية، بل ينصت لقراءة الإمام فمنها ما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤]. قالوا: فهذه الآية نزلت في الأمر بالإنصات عند القراءة في الصلاة فعن أبي هريرة- رضي الله عنه-: «أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟

---

(١) انظر: «كشاف القناع» (١/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٤٢).

(٣) انظر: «المبسوط» (١/ ١٩٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٣٩)، «إمام الكلام في القراءة خلف الإمام» ص(٧١، ٨٢، ٩٠).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٦٦، ٣٠٩، ٣٢٩).

(٥) انظر: «المغني» (٢/ ٢٦٨).

(٦) انظر: «عارضة الأحوذي» (٢/ ١٠٨-١١١).

لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ [الأعراف:٢٠٤]»(١). وقد رُوِيَ نحوه عن ابن مسعود(٢)، وابن عباس(٣)، وقتادة(٤)، والزهري(٥)، ومعاوية بن قرة(٦).

والقول بأنها في الصلاة دون ذكر سبب نزولها مروي أيضًا عن أبي هريرة(٧) وابن عباس(٨)، وابن مسعود(٩)، وعبدالله بن مغفل(١٠)، والزهري، ومجاهد، وسعيد بن المسيب، والشعبي، وإبراهيم النخعي، والحسن(١١)، وعبيد بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، والسدي، وعبدالرحمن بن زيد(١٢)، ومحمد بن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» الآثار (١٥٥٨٢، ١٥٥٨٦، ١٥٦٠١)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٧١)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٢٧٤-٢٧٩)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٩).

(٢) أخرجه عن ابن مسعود- الطبري في «جامع البيان»- الأثر (١٥٥٨١)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٩-٣٠).

(٣) أخرجه عن ابن عباس- البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٨٠).

(٤) أخرجه عن قتادة- الطبري في «جامع البيان»- الآثار (١٥٥٩٨-١٥٥٩٩)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٨٢).

(٥) أخرجه عن الزهري- الطبري في «جامع البيان»- الأثر (١٥٦٠٠)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٨١).

(٦) أخرجه عن معاوية بن قرة- البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٨٣).

(٧) أخرجه عن أبي هريرة ابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١٨).

(٨) أخرجه عن ابن عباس- الطبري في «جامع البيان»- الأثر (١٥٦٠٤)، وابن المنذر في «الأوسط»- الأثر (١٣١٧)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٥٨).

(٩) أخرجه عن ابن مسعود- الطبري في «تفسيره»- الأثر (١٥٥٨٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٢٥٣-٢٥٦).

(١٠) أخرجه عن عبدالله بن مغفل- البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٢٥٠-٢٥٢).

(١١) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان»- الآثار (١٥٥٨٣-١٥٥٩٥، ١٥٥٩٧، ١٥٦٠٢، ١٥٦٠٥، ١٥٦٠٧، ١٥٦١١، ١٥٦١٣-١٥٦١٥، ١٥٦١٧)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٢٦٠-٢٧٣).

(١٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان»- الآثار (١٥٥٨٥، ١٥٥٩٦، ١٥٦٠٣، ١٥٦٠٦، ١٥٦١٢، ١٥٦١٨).

كعب القرظي[١]، واختاره الطبري[٢].

بل ذكر الإمام أحمد الإجماع على أنها نزلت في الصلاة[٣].

٢- وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: إن رسول الله ﷺ خطبنا فبيّن لنا سُنَّتنا، وعلّمنا صلاتنا، فقال: «**أقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا**»[٤].

٣- وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا**»[٥].

---

(١) أخرجه عنه البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٥٩).

(٢) في «جامع البيان» (١٣/ ٣٥٢).

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية أبي داود ص(٣١)، «المغني» (٢/ ٢٦١)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٦٩، ٣١٢).

(٤) أخرجه مسلم- في الصلاة- باب التشهد في الصلاة (٤٠٤)، وأبوداود في الصلاة- باب التشهد (٩٧٢، ٩٧٣)، وقال: «قوله: فأنصتوا» ليس بمحفوظ فلم يجئ به إلا سليمان التيمي في هذا الحديث».

وأخرجه النسائي في الإمامة- باب مبادرة الإمام (٨٠٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة- باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٧)، وابن المنذر في «الأوسط» (١٣٢٠)، والدارقطني (١/ ٣٣)، وذكر تفرد سليمان التيمي بقوله: «وإذا قرأ فأنصتوا» عن أصحاب قتادة الحفاظ.

وأخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأحاديث (٣٠٥-٣١٠) بطرقه ورواياته.

كما ذكر البخاري في «جزء القراءة» فقرة (٢٦٤) نحوًا من قول الدارقطني.

وقد صحح هذا الحديث الإمام مسلم- كما سبق، وقال لمن تكلم في هذا الحديث: «يريد أحفظ من سليمان»، كما صححه الإمام أحمد فيما ذكر ابن عبدالبر في «الاستذكار» (١/ ١٨٨)، وفي «التمهيد» (١١/ ٣٤)، وابن تيمية انظر «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٤٠)، كما صححه إسحاق بن راهويه، فيما ذكر ابن تيمية في الموضع السابق.

وقال ابن تيمية في هذا الموضع: «وعلله البخاري بأنه اختلف فيه، وليس ذلك بقادح في صحته». وانظر: «إمام الكلام في القراءة خلف الإمام» ص(١٧٠-١٧٣).

(٥) أخرجه أبوداود في الصلاة- باب الإمام يصلي من قعود- الحديثان (٦٠٣، ٦٠٤)، وقال: «هذه الزيادة: «إذا قرأ فأنصتوا» ليست بمحفوظة، الوهم عندنا من أبي خالد»، وأخرجه النسائي من طريق أبي خالد، ومن طريق محمد بن سعد الأنصاري، في الافتتاح- باب تأويل قوله- عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الحديثان (٨٨٢، ٨٨٣)، وابن ماجه في الموضع السابق- =

قالوا: فهذه الأدلة الثلاثة- الآية، وحديث أبي موسى، وحديث أبي هريرة فيها وجوب الإنصات والاستماع لقراءة الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة، ولم يخص هذا الأمر بقراءة الفاتحة ولا غيرها[1]، بل إن هذه الأدلة هي المخصصة للأحاديث التي فيها

=

الحديث (٨٤٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٦)، وابن المنذر في «الأوسط» الحديث (١٣١٩)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٧)، والدارقطني (١/ ٣٢٧-٣٢٨)، كلهم من طريق أبي خالد، وقال الدارقطني: «تابعه محمد بن سعد.

وأخرجه البيهقي في «السنن» (٢/ ١٥٦-١٥٧)، وروى فيها عن يحيى بن معين وأبي حاتم أن هذه الزيادة ليست بمحفوظة. كما أخرجه في «القراءة خلف الإمام» (٣١١)- بطرقه وذكر كلام أهل العلم في إسناده ومتنه ص(١٣٢-١٣٥). وأخرجه ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٣٢-٣٣).

وقد تكلم فيه البخاري في «جزء القراءة» الفقرات (٢٦٥-٢٦٧) بحجة أن أكثر الرواة لم يذكروا هذه الزيادة.

وذكر النووي في «شرح مسلم» (٤/ ١٢٢-١٢٣) ما روى أبوداود وابن معين وأبوحاتم والدارقطني من زيادة هذه اللفظة. وذكر ذلك- أيضًا- عن أبي علي النيسابوري شيخ الحاكم أبي عبدالله، ثم قال النووي: «واجتماع هؤلاء الحفاظ على تضعيفها مقدّم على تصحيح مسلم، لاسيما ولم يروها مسندة في صحيحه».

وقد صححه جمع من أهل العلم، منهم الإمام مسلم صاحب الصحيح، فقد سأله أبوبكر ابن أخت النضر عن حديث أبي هريرة هذا. «وإذا قرأ فأنصتوا» فقال: «هو عندي صحيح فقال له: لِمَ لم تضعه ههنا؟ يعني في صحيحه. فقال: ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ههنا، إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه» «صحيح مسلم» (١/ ٣٠٤).

كما صححه الإمام أحمد فيما ذكره ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٨٨) وفي «التمهيد» (١١/ ٣٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١/ ١٢١).

وصححه ابن حزم في «المحلى» (٣/ ٣٠٨)، والمنذري في «مختصر سنن أبي داود» (١/ ٣١٣) قال المنذري ردًا على قول أبي داود السابق: «وفيما قاله نظر، فإن أبا خالد هذا هو سليمان بن حيان الأحمر، وهو من الثقات الذين احتج البخاري ومسلم بحديثهم في صحيحيهما...

ثم أشار إلى متابعة محمد بن سعد له التي أشار إليها الدارقطني والتي أخرجها النسائي في الموضع السابق، كما اشار إلى إخراج مسلم لهذه الزيادة من حديث أبي موسى الأشعري من طريق سليمان التيمي عن قتادة... قال المنذري: ولم يؤثر عند مسلم تفرد سليمان بذلك لثقته وحفظه، وصحح هذه الزيادة من حديث أبي هريرة وأبي موسى».

وقال الألباني: «حسن صحيح»، وانظر: «إرواء الغليل» (٢/ ١٢٠-١٢١).

(١) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٨٦)، «التمهيد» (١١/ ٢٨-٣٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥)،

=

إيجاب قراءة الفاتحة في الصلاة مطلقًا، كحديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- في الصحيحين: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» وغيره[١].

واستدل شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] على تخصيص عموم أحاديث وجوب قراءة الفاتحة بالآية والحديثين المذكورين بأنه قد خُصّ من عموم تلك الأحاديث أمور، منها: أن من أدرك الإمام راكعًا فكبّر ودخل معه قبل رفعه من الركوع فقد أدرك الركعة بإجماع أهل العلم، كما جاء في حديث أبي بكرة[٣].

وخُصّ منه الصلاة بإمامين، فإن الإمام الثاني يقرأ من حيث انتهى الإمام الأول، ولا يستانف قراءة الفاتحة، كما في فعله ﷺ لما صلى بالناس وقد سبقه أبوبكر ببعض الصلاة قرأ من حيث انتهى أبوبكر، ولم يستأنف قراءة الفاتحة؛ لأنه بنى على صلاة أبي بكر، فإذا سقطت عنه الفاتحة في هذا الموضع فعن المأموم أولى.

وخُصّ منه أيضًا حال العذر كالجهل والسهو، فإذا ترك المأموم قراءة الفاتحة خلف إمامه في السرية جهلاً أو سهوًا سقطت عنه، وتحملها الإمام.

فإذا خُصّ من ذلك حال المسبوق، والصلاة بإمامين، وحال العذر بالجهل، أو السهو فكذلك خُصّ منه حال استماع المأموم لقراءة إمامه؛ لأن هذا عذر فلا يقرأ في حال جهر إمامه بل يستمع، أما أمر المأموم بالإنصات فلم يخص منه شيء، لا بنص خاص ولا إجماع، وإذا تعارض عمومان أحدهما محفوظ والآخر مخصوص وجب تقديم المحفوظ.

قال ابن تيمية[٤]: «ولو كانت قراءة الفاتحة فرضًا على المأموم مطلقًا لم تسقط بسبق ولا جهل، كما أن الأعرابي المسيئ في صلاته قال له النبي ﷺ: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**» وأمر الذي صلى خلف الصف وحده أن يعيد الصلاة».

=

«مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩٠-٣١٢).

(١) انظر: «التمهيد» (١١/ ٣١، ٣٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩٠-٢٩١، ٣٢٠).

(٣) سبق ذكره وتخريجه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٢٠).

كما استدلوا أيضًا:

٤- بما رواه ابن شهاب الزهري عن ابن أُكيمة الليثي عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «**هل قرأ معي أحد منكم آنفًا؟ فقال رجل: نعم يا رسول الله. قال: إني أقول ما لي أُنازع القرآن**». فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه النبي ﷺ بالقراءة من الصلوات حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ»(١).

قالوا: فقوله ﷺ: «**مالي أنازع القرآن**» إنكار على من يقرأ حال جهر الإمام، سواء بأم القرآن أو غيرها(٢).

وقالوا- أيضًا- قوله في الحديث: «فانتهى الناس عن القراءة مع النبي ﷺ فيما جهر فيه... إلى آخره. هذا من كلام الزهري كما ذكر أهل العلم. والزهري من أعلم أهل زمانه

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- باب من كره القراءة بفاتحة الكتاب إذا جهر الإمام- الحديثان (٨٢٦، ٨٢٧)، وقال: «سمعت محمد بن يحيى بن فارس قال: «قوله: فانتهى الناس...» من كلام الزهري».
وأخرجه النسائي في الافتتاح- باب ترك القراءة خلف الإمام فيما جهر به (٨٨١)، والترمذي في الصلاة- باب ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة (٣١٢) وقال: «ورَوى بعض أصحاب الزهري هذا الحديث، وذكروا هذا الحرف قال: قال الزهري: «فانتهى الناس عن القراءة»، وأخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة- باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا- الحديثان (٨٤٨، ٨٤٩)، ومالك في «الموطأ» الحديث (١٩٠)، وعبدالرزاق- الحديثان (٢٧٩٥، ٢٧٩٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٥)، والبخاري في جزء القراءة- الأحاديث (٩٥-٩٨)، (٣٦٢)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» الأحاديث (٣١٧-٣٢١)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٤-٢٧)، والحازمي في «الاعتبار» ص(١٠٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٠٠): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».
وقد ذكر البيهقي في «القراءة خلف الإمام» ص(١٤٠-١٤٢)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٢٥-٢٦) قول بعض أهل العلم إن قوله: «فانتهى الناس...» وما بعده من كلام الزهري.
قلت: والحديث تكلم فيه بعض أهل العلم كالحميدي وابن خزيمة فيما ذكر البيهقي في «القراءة خلف الإمام» ص(١٣٩-١٤٤) لأجل ابن أُكيمة، وأنه مجهول. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٥، ٣١٧-٣١٩) رد أهل العلم على من ضعفه بجهالة ابن أكيمة الليثي. كما صححه الألباني، وقال في «صفة صلاة النبي ﷺ» ص(٥٦): «صححه أبوحاتم الرازي وابن حبان وابن القيم».
(٢) انظر: «التمهيد» (١١/ ٢٧، ٥٣)، «المغني» (٢/ ٢٥٩، ٢٦٢).

وقد قطع بأن الصحابة لم يكونوا يقرؤون خلف النبي ﷺ في حال الجهر. وهذا من الأحكام العامة، التي لا تخفى ويعرفها عامة الصحابة والتابعين لهم بإحسان»[١].

٥- وعن عبدالله بن شداد- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**» ورُويَ مسندًا عن جابر بن عبدالله[٢] رضي الله عنه.

---

(١) انظر: «التمهيد» (١١/ ٢٣)، «الاستذكار» (٢/ ١٨٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٤، ٣١٧).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في الصلاة- القراءة خلف الإمام- مرسلاً عن عبدالله بن شداد (٢٧٩٧)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦-٣٧٧) مرسلاً ومسندًا عن جابر، وكذا الدارقطني (١/ ٣٢٣-٣٣١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٧)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» الأحاديث (٣٣٤-٣٥٢)، وأخرجه مسندًا فقط ابن ماجه في إقامة الصلاة- باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٥٠). وقال في «الزوائد» في إسناده جابر الجعفي كذاب، والحديث مخالف لما رواه الستة من حديث عبادة». وأخرجه أيضًا مسندًا الإمام أحمد (٣/ ٣٣٩).

وقد ضعّف أهل العلم هذا الحديث مسندًا من رواية جابر بن عبدالله، وصوب أكثرهم وقفه على عبدالله ابن شداد.

قال البخاري في «جزء القراءة خلف الإمام» الفقرة (٢٢): «هذا خبر لم يثبت عند أهل العلم من أهل الحجاز، وأهل العراق وغيرهم، لإرساله، وانقطاعه، رواه ابن شداد عن النبي ﷺ». وقال ا بن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١٠٢): «لا يثبت».

وقد استوعب الدارقطني طرقه مسندًا ومرسلاً، ثم قال عن المرسل: «وهو الصواب». وقال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٨): «وهذا حديث رواه جابر الجعفي عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ وجابر الجعفي ضعيف الحديث مذموم المذهب لا يحتج بمثله»، وبعد أن ذكر روايات الحفاظ له مرسلاً عن عبدالله بن شداد قال: «وهو الصحيح فيه الإرسال، وليس مما يحتج به».

وقال المجد بن تيمية في «المنتقى» (٩٠١): «وقد رُويَ مسندًا من طرق كلها ضعاف، والصحيح أنه مرسل».

وقال القرطبي في «تفسيره» (١/ ١٢٢): «حديث ضعيف» وصوب وقفه على جابر.

وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٨): «في إسناده ضعف، ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه، وقد رُويَ هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ».

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٢/ ٢٤٢): «ضعيف عند الحفاظ»، وقال في «تلخيص الحبير» (١/ ٢٣٢): «إنه مشهور من حديث جابر، وله طرق عن جماعة من الصحابة كلها معلولة».

وقال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٢/ ٢٤١): «ضعيف لا يحتج به». وقال أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي (٢/ ١٢٦): «ليس إسناده مما يحتج به أهل العلم بالحديث».

=

قالوا: فهذا الحديث يدل على أن المأموم لا يقرأ خلف إمامه، لا الفاتحة ولا غيرها، إذا جهر إمامه في القراءة؛ لأن قراءة الإمام في هذه الحال قراءة لمن خلفه. ولهذا أمر المأموم بالإنصات لقراءة الإمام(١)- كما في الآية والأحاديث السابقة.

٦- وعن عمران بن حصين- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ صلى الظهر، فجعل رجل يقرأ خلفه بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فلما انصرف قال: «**أيكم قرأ، أو أيكم القارئ؟ فقال رجل: أنا، فقال: قد ظننت أن بعضكم خالجنيها**»(٢).

=

وممن قوى هذا المرسل ابن تيمية حيث قال في «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧١-٢٧٢): «وهذا المرسل قد عضده ظاهر القرآن والسنة...، ومرسِله من أكبر التابعين، ومثل هذا المرسل يحتج به باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم». وقال (٢٣/ ٣٢٥): «فأما الموقوف على جابر فثابت بلا نزاع، وكذلك المرسل ثابت بلا نزاع من رواية الأئمة عن عبدالله بن شداد».

كما قواه الزيلعي في «نصب الراية» (٢/ ٧): «فقال بعدما ذكر تضعيف جابر الجعفي: «ولكن له طرق أخرى، وهي وإن كانت مدخولة، ولكن يشد بعضها بعضًا».

وبنحو من هذا قال الألباني في «الإرواء» (١/ ٢٦٨)- بعد أن ذكر طرق هذا الحديث وكلام أهل العلم عليه قال: «ويتلخص مما سبق أنه لا يصح شيء من هذه الطرق إلا طريق عبدالله بن شداد، ثم ذكر أن له شواهد من حديث عبدالله بن عمر، وعبدالله بن مسعود وأبي هريرة وابن عباس، وأنه جاء مرسلاً عن أبي الدرداء وعلي والشعبي»، وقد اعتبره الألباني بمجموع هذه الطرق كلها- وإن كانت لا تخلو من ضعف بأنه «حديث حسن» قال: «لأن هذه الطرق بمجموعها تشهد أن للحديث أصلاً قال: لأن مرسل ابن شداد صحيح الإسناد بلا خلاف، والمرسل إذا رُويَ موصولاً من طريق أخرى اشتد عضده، وصلح للاحتجاج به، كما هو مقرر في مصطلح الحديث، فكيف وهذا المرسل قد رُويَ من طرق كثيرة كما رأيت».

وقال اللكنوي في «إمام الكلام» ص(٢١٧): «والحاصل أن طرق الحديث الذي نحن فيه بعضها صحيح، أو حسن، وبعضها ضعيف ينجبر ضعفه بغيرها من الطرق الكثيرة. فالقول بأنه حديث غير ثابت أو غير محتج به، ونحو ذلك غير معتد به».

وانظر في ذكر طرق هذا الحديث وشواهده وكلام أهل العلم في تضعيفها: «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(١٧٨) وما بعدها، «نصب الراية» (٢/ ٦-١٤)، «تنقيح التحقيق» (٣/ ٨٤٢) وما بعدها، «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» (١/ ١٦٢-١٦٤)، «إمام الكلام في القراءة خلف الإمام» ص(١٩٩-٢١٧).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧١)، «صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني ص(٥٦).

(٢) خالجنيها: أي نازعنيها. وهذا الحديث أخرجه مسلم- في الصلاة- باب نهي المأموم عن جهره بالقراءة خلف إمامه (٣٩٨)، وأبوداود في الصلاة- باب من رأى القراءة إذا لم يجهر الإمام بقراءته- الحديثان

=

قال أبوداود: قال الوليد في حديثه: «قال شعبة: قلت لقتادة: كأنه كرهه فقال: لو كرهه لنهى عنه».

قالوا: فهذا الرجل قرأ خلف النبي ﷺ، ولم ينهه ولا غيره فدل على أن المأموم يقرأ خلف الإمام في الصلاة السرية(١). وإن احتمل الحديث معنى النهي فإنما هو نهي للمأموم عن الجهر بالقراءة خلف إمامه كما بوّب له مسلم- رحمه الله.

٧- وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «**كانوا يقرؤون خلف النبي ﷺ فقال: خلطتم عليَّ القرآن**»(٢).

قالوا: فهذا يدل على أنهم كانوا يقرؤون خلف النبي ﷺ جهرًا فيخلطون عليه القرآن، إذ لو قرؤوا سرًّا ما خلطوا عليه قراءته، وما كره ذلك منهم»(٣).

وقال ابن عبدالبر في «التمهيد»(٤) بعد إخراجه للحديث: «أي في حال الجهر»: أي أنهم يقرؤون حال جهر الإمام فيخلطون عليه قراءته.

٨- ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ أمره أن ينادي: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب فما زاد**»(٥).

٩- ما رواه أبوسعيد- رضي الله عنه- قال: «**أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر**»(٣).

قالوا: فقوله في الحديث: «**فما زاد**»، «**وما تيسر**» يدل على عدم وجوب قراءة الفاتحة حال جهر الإمام لأن العلماء أجمعوا على أنه لا يجوز أن يقرأ بغيرها حال جهر الإمام بل

=
(٨٧٩-٨٨٠)، والدارقطني (١/ ٣٢٦، ٤٠٥)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأحاديث (٣٦٠-٣٦٤).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٥١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١١): «ورجاله رجال الصحيح» وأخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦)، والبخاري في «جزء القراءة» (٢٥٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأحاديث (٣٦٥، ٣٦٧-٣٧٠)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٣٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٨٤، ٣٢٢)، «صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني، ص(٥٦-٥٧).

(٤) (١١/ ٣٢).

(٥) سبق تخريجها.

ينصت»[١].

١٠- كما استدلوا بالآثار الكثيرة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم في النهي عن القراءة خلف الإمام في الصلاة الجهرية والأمر بالقراءة خلفه في الصلاة السرية[٢].

١١- وقالوا: أجمع أهل العلم على أنه لم يقل أحد: إن المأموم إذا لم يقرأ خلف إمامه فصلاته باطلة، وبخاصة إذا جهر الإمام بالقراءة[٣].

١٢- وقالوا: إن الاستماع لقراءة الإمام من المتابعة للإمام المأمور بها، ومن لم ينصت لقراءة الإمام لم يكن قد ائتم به[٤] والمستمع لقراءة الإمام كالقارئ[٥].

١٣- وقالوا- أيضًا: إذا لم ينصت المأموم لقراءة إمامه فما الفائدة من جهر الإمام بالقراءة إذا كان المأموم مشغولاً بالقراءة لنفسه[٦].

قال ابن تيمية[٧]: «لو كانت القراءة في الجهر واجبة على المأموم للزم أحد أمرين إما أن يقرأ مع الإمام، وإما أن يجب على الإمام أن يسكت له حتى يقرأ، ولم نعلم نزاعًا بين العلماء أنه لا يجب على الإمام أن يسكت لقراءة المأموم الفاتحة ولا غيرها، وقراءته معه منهي عنها بالكتاب والسنة فثبت أنه لا تجب عليه القراءة معه في حال الجهر...».

ثم ذكر أنها لو كانت قراءة المأموم حال جهر الإمام مستحبة لاستحب للإمام أن يسكت لقراءة المأموم، وجماهير العلماء على أنه لا يستحب للإمام أن يسكت ليقرأ المأموم.

وقال أيضًا[٨]: «وقد ثبت بالكتاب والسنة وبالإجماع أن إنصات المأموم لقراءة إمامه يتضمن معنى القراءة معه وزيادة.

ولأنه قد ثبت الأمر بالإنصات لقراءة القرآن، ولا يمكن الجمع بين الإنصات

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٨٨-٢٨٩، ٢٩٤، ٣١٢، ٣١٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٣/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٣) انظر: «المغني» (٢/ ٢٦٢).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧١-٢٧٣، ٢٧٩، ٢٩١، ٢٩٥).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣١٢).

(٦) انظر: «التمهيد» (١١/ ٣٨).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٦-٢٧٧)، وانظر: (٢٩٥-٣١٦).

(٨) انظر:«مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩٠).

والقراءة، ولولا أن الإنصات يحصل به مقصود القراءة وزيادة لم يأمر الله بترك الأفضل لأجل المفضول».

القول الثالث: أن المأموم لا يقرأ الفاتحة ولا غيرها.

لا في الصلاة السرية، ولا في الصلاة الجهرية.

وممن قال بهذا القول زيد بن ثابت(١)، وجابر بن عبدالله(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٧)، وعبدالرزاق (٢٨١٥)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٩)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» (١٤٧-١٤٨)- عن زيد بن ثابت قال: «لا قراءة مع الإمام في شيء». هذا لفظ مسلم والبيهقي.

ولفظ الطحاوي: «لا قراءة مع الإمام في شيء من الصلوات».

وصحح هذا القول عن زيد- البيهقي، وابن حجر في «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» (١/ ١٦٤)، وقد حمل ابن تيمية هذا على القراءة معه حال الجهر. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٢٣). لكن أخرجه ابن أبي شيبة عن زيد بلفظ: «لا يُقْرأ خلف الإمام إن جهر ولا إن خافت».

وأما ما رُويَ عن زيد أنه قال: «من قرأ مع الإمام فلا صلاة له» كما أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٨٠٢)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦) وبعضهم يرفعه فهذا ضعيف من وجهين:

الوجه الأول: أن العلماء اتفقوا على صحة صلاة من قرأ مع الإمام، وشذ من قال ببطلانها بذلك. قال ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٣): «أجمع العلماء على أن من قرأ خلف الإمام فصلاته تامة، ولا إعادة عليه».

وهو وإن ارتكب أمرًا منهيًا محرمًا أو مكروهًا عند بعضهم إلا أن صلاته صحيحة غير باطلة.

الوجه الثاني: ضَعْف هذا المَروي عن زيد فقد قال البخاري في «جزء القراءة» ص(٣٢)، فقرة(٤٥): «لا يعرف لهذا الإسناد سماع بعضهم من بعض، ولا يصح مثله» وقال ابن حبان في «الضعفاء والمتروكين» (١/ ١٦٣): «لا أصل له» وقال ابن عبدالبر في الموضع السابق: «منكر لا يصح». وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١٣٣، ٤٣٣). وقال ابن حجر في «الدراية» (١/ ١٦٥): «اتهم به أحمد بن علي بن سليمان». وضعفه الألباني في «الأحاديث الضعيفة» (٢/ ٤٢٠).

(٢) أخرجه عن جابر- الترمذي في الصلاة- ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة- الأثر (٣١٣)، ومالك في «الموطأ»- الأثر (١٨٤)، وعبدالرزاق- الأثر (٢٧٤٥)، والبخاري في جزء القراءة- الأثر (٢٨٥)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٣٥٣-٢٥٨) ، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٩) عن جابر «من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام»، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وقال البيهقي: «صحيح» وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وأخرج عبدالرزاق- الأثر (٢٨١٩)- عن عبيد الله بن مقسم قال: سألت جابر بن عبدالله: أتقرأ في الظهر والعصر =

ويُروى عن عمران بن حصين[١]، والأسود بن يزيد[٢]، وسعد بن أبي وقاص[٣]، ورُويَ عن أبي الدرداء على اختلاف عنه[٤]، .....

=

شيئًا؟ فقال: «لا» وفي إسناده: شيخ عبدالرزاق: داود بن قيس «مقبول» كما في «التقريب» (١/ ٢٣٤).

وأخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦)- عن جابر قال: «لا يقرأ خلف الإمام» وفي إسناده الضحاك بن عثمان ابن عبدالله «صدوق يهم» كما في «التقريب» (١/ ٣٧٣).

وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٩) بلفظ: «لا يقرأ خلف الإمام في شيء من الصلوات».

وقد رُويَ مرفوعًا قال الدارقطني: (١/ ٣٢٧): «والصواب موقوف». وقال ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٢): «هو حديث لا يصح إلا موقوفًا على جابر كما في الموطأ».

وقد صححه موقوفًا على جابر- ابن حجر في «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» (١/ ١٦٤).

وقد أخرج البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الآثار (٢٢٥-٢٢٨، ٣٥٩)- عن جابر قال: «يقرأ الإمام ومن خلفه في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب» وفي رواية: «كنا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام... إلى آخره».

(١) أخرجه البخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٥٩)- عن عمران قال: «لا تزكو صلاة مسلم إلا بطهور وركوع وسجود وراء الإمام، وإن كان وحده بفاتحة الكتاب وآيتين وثلاث».

وقد أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٣٣)- بلفظ: «لا تزكو صلاة مسلم إلا بطهور وركوع وسجود وفاتحة الكتاب وراء الإمام، وغير الإمام». وفي إسناد كل منهما زياد الجصاص، وهو ضعيف كما في «التقريب» (١/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٨٠٧)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦-٣٧٧) عن الأسود بن يزيد قال: «وددت أن الذي يقرأ خلف الإمام ملئ فوه ترابًا» وإسناد كل منهما صحيح. وقد صحح هذا عن الأسود ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٥١) وقال: يحتمل أن يكون أراد الجهر دون السر».

قلت: ويدل على هذا ما أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن الأسود قال: «لأن أعض على جمرة أحبّ إليّ من أن أقرأ خلف الإمام أعلم أنه يقرأ».

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» رواية محمد بن الحسن ص(٦٢)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٦)- عن سعد قال: «وددت أن الذي يقرأ خلف الإمام في فيه جمرة».

قال البخاري في «جزء القرآن» فقرة(٣٩): «مرسل».

وقال ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٣): «حديث منقطع لا يصح، ولا نقله ثقة... وما أعلم في هذا الباب من الصحابة من صح عنه ما ذهب إليه الكوفيون فيه من غير اختلاف عنه إلا جابر بن عبدالله».

(٤) أخرجه النسائي في «الافتتاح»- باب اكتفاء المأموم بقراءة الإمام (٩٢٣)، والدارقطني (١/ ٣٣٣)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأحاديث (٣٧٩-٣٨٢) عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال:

=

وعلقمة بن قيس[١]، وابن أبي ليلى[٢]، وإبراهيم النخعي[٣]، وسويد بن غفلة، وعمرو بن ميمون، والضحاك وأبي وائل[٤]، وسفيان الثوري وسفيان بن عيينه[٥]، والحسن بن حي[٦]، وابن شبرمة[٧].

وبه قال أبو حنيفة وأصحابه[٨] وبعض المالكية[٩].

=

«أرى الإمام إذا أم القوم كفاهم». وقد رُويَ مرفوعًا إلى النبي ﷺ وصوب الدارقطني وقفه على أبي الدرداء، وصححه الألباني موقوفًا على أبي الدرداء.

قلت: ويحتمل أنه أراد الجهر دون السر. بل إنه رُويَ عنه القراءة في الحالين. فقد أخرج البيهقي- الأثر (٢٢٩، ٢٣٠) عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: «لا تترك قراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام جهر أو لم يجهر» وفي لفظ: «لو أدركت الإمام وهو راكع لأحببت أن أقرأ بفاتحة الكتاب».

(١) أخرجه عبدالرزاق- الأثر (٢٨٠٨)- عن علقمة بن قيس قال: «وددت أن الذي يقرأ خلف الإمام ملئ فوه، قال: أحسبه قال: ترابًا أو رضفًا».

وصححه ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٥١) وقال بعدما صحح قول الأسود السابق، وقول علقمة هذا: «يحتمل أن يكونا أرادا في الجهر دون السر، فإن صح عنهما أنهما أرادا السر والجهر فقد خالفهما في ذلك من هو فوقهما ومثلهما، وعند الاختلاف يجب الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله».

(٢) ذكره البخاري عن ابن أبي ليلى في «جزء القراءة» فقرة (٣٨)، وابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩١) وفي «التمهيد» (١١/ ٤٧) وقال البخاري: «لا يصح».

(٣) أخرجه عن إبراهيم- عبدالرزاق- الأثر (٢٧٧٥)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه عن سويد، وعمرو، والضحاك وأبي وائل- ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٧).

(٥) أخرجه عن سفيان بن عيينة أبوداود- في الصلاة (٨٢٢)، وذكره عن السفيانين- ابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١٠٣)، وابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩١)، والحازمي في «الاعتبار» ص(١٠٠).

(٦) ذكره عن الحسن بن حي- ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٧)، وفي «الاستذكار» (٢/ ١٩١).

(٧) ذكره عن ابن شبرمة- ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٧).

(٨) انظر: «الآثار» لمحمد بن الحسن ص(١٦-١٧)، «موطأ الإمام مالك» رواية محمد بن الحسن ص(٦٠-٦١)، «شرح معاني الآثار» (١/ ٢١٨)، «تبين الحقائق» (١/ ١٣١)، «فتح القدير» (١/ ٣٣٨-٣١٤)، «إمام الكلام في القراءة خلف الإمام» للكنوي ص(٧٥-٩٣).

(٩) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥)، «عارضة الأحوذي» (٢/ ١٠٨-١١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١١٩).

الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا القول:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وحديث أبي موسى وأبي هريرة- رضي الله عنهما: «**وإذا قرأ فأنصتوا**»(١).

قالوا: فالأمر للمأموم بالإنصات يدل على أنه لا قراءة على المأموم، وأن قراءة الإمام له قراءة.

٢- حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- الذي فيه قوله ﷺ: «**مالي أنازع القرآن**»(١).

قالوا: ففي هذا الحديث إنكار على من يقرأ خلف الإمام.

٣- ما رُويَ عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**»(١).

قالوا: فهذا الحديث يدل على أن الإمام يتحمل القراءة عن المأموم مطلقًا سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية. وما رُويَ من الأحاديث في قراءة الفاتحة في الصلاة كحديث عبادة- رضي الله عنه-: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» ونحوه فمحمول على المنفرد والإمام، أما المأموم فإن قراءة الإمام له قراءة(٢).

٤- حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «كنا نقرأ خلف النبي ﷺ فقال: «**خلطتم عليَّ القرآن**»(٣).

٥- حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ «**صلى صلاة الظهر، فلما قضى صلاته، قال: أيكم قرا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾؟ فقال بعضهم: أنا. فقال: قد عرفت أن بعضكم خالجنيها**»(٣).

قالوا: فيفهم من هذين الحديثين ضرورة النهي عن القراءة خلف الإمام مطلقًا(٤).

٦- واحتجوا بما رُوي عن زيد بن ثابت وجابر بن عبدالله وأبي الدرداء وعبدالله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الأوسط» (٣/ ١٠٣)، «التمهيد» (١١/ ٤٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٢١٦-٢١٨).

ابن عمر رضي الله عنهم، وغيرهم من الآثار التي فيها أنهم لا يقرؤون خلف الإمام أو ينهون عن ذلك. كما سبق[١].

كما استدلوا بأحاديث وآثار واهية ضعيفة لم أر ما يدعو إلى ذكرها، كحديث أنس- رضي الله عنه. قال: قال النبي ﷺ: «**من قرأ خلف الإمام ملئ فوه نارًا**»، وكحديث زيد ابن ثابت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ خلف الإمام فلا صلاة له**»[٢].

كما استدلوا بتعليلات عقلية كلها ضعيفة مردودة[٣].

* * *

(١) سبق تخريج أكثر المروي عن السلف في هذا.

(٢) انظر في ذكر بعض هذه الأحاديث والآثار الكلام عليها وبيان ضعفها «القراءة خلف الإمام» للبيهقي، «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» (١/ ١٦٥)، «اللآلئ المصنوعة» للسيوطي (١/ ٣٩).

(٣) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩٢)، «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام» ص(٢٤٢-٢٤٥).

قلت: العجيب أن بعض الأحناف حكى الإجماع على قولهم هذا كما في «الهداية مع فتح القدير» (١/ ٣٣٨-٣٣٩). قال اللكنوي من علمائهم ردًّا على هذا «وبالجملة فالمسألة ليست بمحل إجماع، لا الإجماع السكوتي، ولا الإجماع الصريحي، ولا الإجماع الأكثري»، «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام» ص(٢٣٩-٢٤١)، وانظر ص(٢٤٥).

ذكر الاعتراضات الواردة على أدلة كل قول، وإجابة أصحابه عنها

أ- الاعتراضات الواردة على أدلة القول الأول بأن المأموم يقرأ الفاتحة في الصلاة السرية والجهرية. والإجابة عنها:

أولاً: اعترض على استدلالهم بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠].

وبقوله ﷺ للمسيء في صلاته: «**ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن**» بأن «ما» في الآية والحديث تفيد العموم فما الدليل على تخصيص الفاتحة في القراءة دون غيرها.

وهذا الاعتراض له وجه. لكن أصحاب هذا القول أجابوا عنه بأن الأحاديث الموجبة لقراءة الفاتحة، ومداومة الرسول ﷺ وخلفائه على قراءتها كل ذلك مبين ومفسر لقوله: «ما تيسر» في الآية والحديث.

ثانيًا: اعترض على استدلالهم بحديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» وما في معناه من الأحاديث.

قالوا[1]: هذا الحديث مطلق عام، قيد، وخص منه حال جهر الإمام بالقراءة، فيجب الإنصات في هذه الحال لأمره تعالى بالإنصات بالآية، ولأمر رسوله ﷺ بذلك، كما في حديث أبي موسى وأبي هريرة- رضي الله عنهما. فهذا الأمر بالإنصات هو المخصص للأحاديث التي فيها وجوب قراءة الفاتحة كحديث عبادة هذا، وحديث أبي هريرة: «**من صلى صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج**» عند مسلم وغيره، وغيرها من الأحاديث وردوا القول بأن هذه الأدلة التي فيها الأمر بالإنصات مخصوصة في غير حالة قراءة الفاتحة، لما ذكره الإمام أحمد من الإجماع على أن الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ نزلت في الصلاة.

وقد أجاب عن هذا الاعتراض أصحاب القول الأول بأننا نسلم بأن الآية المذكورة نزلت في الصلاة، لكنها هي وحديث أبي موسى وأبي هريرة مخصَّصة

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣١٢-٣١٣)، وانظر: «المغني» (٢/ ٢٦٣).

والمخصِّص لها أحاديث الأمر بقراءة الفاتحة، كما سبق ذكرها والدليل لناعلى هذا التخصيص حديث عبادة- رضي الله عنه-: «**لا تفعلوا إلا بأم القرآن**».

ثالثًا: اعترض على استدلالهم بحديث أبي هريرة عند مسلم وغيره، والذي فيه: «**اقرأ بها في نفسك**» بأن هذا لفظ مجمل، قد يحمل على ما ذهبوا إليه من الاستدلال به على القراءة مطلقًا، حتى في حال الجهر بالقراءة. وقد يحمل على القراءة حال المخافتة، أو سكوت الإمام كما روى ابن المنذر[١] عن أبي هريرة- رضي الله عنه-: «**اقرأ خلف الإمام فيما يخافت به**».

قال ابن تيمية[٢]: «ويؤيد هذا أن أبا هريرة ممن روى قوله: «**وإذا قرأ فأنصتوا**» وروى قوله: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب فما زاد**»، وقال «**تجزئ فاتحة الكتاب، وإذا زاد فهو خير**». ومعلوم أن هذا لم يتناول المأموم المستمع لقراءة الإمام، فإن هذا لا تكون الزيادة على الفاتحة خيرًا له. فلا يجزم حينئذٍ بأنه أمره أن يقرأ حال استماعه لقراءة الإمام بلفظ مجمل».

وقد أجاب أصحاب القول الأول عن هذا الاعتراض بقولهم: يتبادر من قول السائل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام أنه يسأل عن قراءة الفاتحة حال جهر الإمام لأن قراءة المأموم في هذه الحال قد تستشكل، وقد أجابه أبوهريرة بقوله: «اقرأ بها في نفسك» وهذا مشتهر عن أبي هريرة أنه يرى القراءة خلف الإمام في الحالين، وأيضًا على احتمال أن أباهريرة أراد قراءة الفاتحة في صلاة السر فقط فالحديث دليل لنا على القراءة في هذه الحال، خلافًا لمن زعم أنه لا قراءة خلف الإمام مطلقًا.

رابعًا: اعترض على استدلالهم بحديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه، الذي فيه: «**أتقرؤون خلف إمامكم؟ قالوا: نعم. قال: لا تفعلوا إلا بأم الكتاب، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها**» وما في معناه من الأحاديث من وجهين[٣]:

الوجه الأول: أن بعض أهل العلم قد طعن في إسناد هذا الحديث منهم الإمام

---

(١) في «الأوسط»- الأثر (١٣١٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٠٠-٣٠١).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣١٣-٣١٦).

أحمد وغيره.

الوجه الثاني: على القول بصحة هذا الحديث قالوا: إنه محمول على الإمام الذي له سكتات، كما كان ﷺ له سكتتان. قالوا: فليس في الحديث دليل على أنه يقرأ الفاتحة خلف إمامه حال الجهر، وإنما فيه أن له أن يقرأها حال سكتات إمامه؛ لأنه نهاهم عن القراءة خلفه إذا جهر، واستثنى من النهي قراءة فاتحة الكتاب إذ يمكن أن يقرأها في سكتات الإمام.

قالوا: وقوله: «**أتقرؤون خلف إمامكم؟**» بصيغة الاستفهام يدل على أنه ﷺ لم يكن يعلم أنهم يقرؤون، ولو كانت القراءة واجبة حال الجهر لكان أمرهم بذلك، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ولو بيَّن ذلك لهم وأمرهم به لعلمه عامتهم وفعلوه.

وقد أجاب أصحاب القول الأول عن الوجه الأول وهو طعن بعض أهل العلم في إسناد حديث عبادة المذكور بأن الحديث صحيح وقد صححه أكثر أهل العلم، كما سبق بيانه.

وأجابوا عن الوجه الثاني بأنه لا دليل على أن الحديث محمول على الإمام الذي له سكتات، فيقرأ المأموم في سكتاته بل الحديث عام. وقوله لهم: «**أتقرؤون خلف إمامكم؟ أو لعلكم تقرؤون خلف إمامكم**» يمكن حمله على أنه ﷺ أراد به تنبيههم، أو أن المراد به السؤال عن قراءة ما زاد على الفاتحة.

خامسًا: اعترض على استدلالهم بما نقل من الآثار عن الصحابة من القراءة خلف الإمام بأن ذلك في الصلاة السرية، أو حال سكتات الإمام، أو إذا لم يسمع المأموم قراءة إمامه لبعده أو صممه، ونحو ذلك[1].

وقد أجاب أصحاب القول الأول عن هذا الاعتراض بأن ما نُقل عن الصحابة منه ما يمكن حمله على الصلاة السرية؛ لأنه محتمل، لكن منه آثار صريحة في القراءة في الصلاة الجهرية، وهذه الآثار لم تقيد قراءة الفاتحة فيها في سكتات الإمام أو إذا لم يسمع المأموم. ونحن نقول: الأولى أن يقرأ في سكتات الإمام إذا كان له سكتات، وإن لم يكن

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٠٦-٣٠٧).

له سكتات قرأ حال قراءته.

ب- الاعتراضات الواردة على أدلة القول الثاني أن المأموم يقرأ في الصلاة السرية دون الجهرية:

أولاً: اعترض على استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وبحديث أبي موسى وأبي هريرة- رضي الله عنهما- اللذين فيهما: «**وإذا قرأ فأنصتوا**» بأن هذه الأدلة الثلاثة ليست مخصّصة لعموم الأحاديث في وجوب قراءة الفاتحة كحديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه-: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» وغيره. كما تقولون، وإنما الحق أن نصوص الأمر بالإنصات هذه عامة، خُص منها قراءة الفاتحة بالنسبة للمأموم، فيقرأها ولو كان إمامه يقرأ، إذا لم يكن له سكتات والمخصّص لذلك هو حديث عبادة المذكور، وحديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج**» ونحوهما من الأحاديث.

والدليل على هذا التخصيص حديث عبادة- رضي الله عنه- الآخر الذي فيه قوله ﷺ: «**لعلكم تقرؤون خلف إمامكم؟ قالوا: نعم. قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن**».

وأجاب أصحاب القول الثاني بقولهم: إن الآية وحديث أبي موسى وأبي هريرة- رضي الله عنهما- هي المخصّصة لعموم أحاديث الأمر بقراءة الفاتحة، وليس العكس كما تقولون: وحديث: «**لا تفعلوا إلا بأم القرآن**» طعن فيه بعض أهل العلم، وعلى القول بصحته يمكن حمله على الإمام الذي له سكتات.

ثانيًا: اعترض على استدلالهم بحديث أبي هريرة- رضي الله عنه ، الذي فيه قوله ﷺ: «**ما لي أنازع القرآن**» من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن هذا الحديث خارج من محل النزاع؛ لأن الكلام في قراءة المؤتم خلف إمامه سرًّا والمنازعة إنما تكون مع جهر المؤتم، لا مع إسراره.

الوجه الثاني: لو سلم أن المراد بالمنازعة القراءة خلف الإمام سرًّا لكان الإنكار الذي في الحديث عامًّا في جميع القرآن أو مطلقًا في جميعه خُصِّص في حديث عبادة

ونحوه، أو قيد به[١].

الوجه الثالث: ما ذكر الترمذي[٢] بعد أن أخرج حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-: «**ما لي أنازع القرآن**» قال: «وليس في هذا الحديث ما يدخل على من رأى القراءة خلف الإمام؛ لأن أبا هريرة- رضي الله عنه- هو الذي روى عن النبي ﷺ هذا الحديث. ورَوى أبوهريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، فهي خداج، غير تمام**» فقال له حامل الحديث إني أكون وراء الإمام. قال: اقرأ بها في نفسك. وروى أبوعثمان النهدي عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي أن لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب**».

وقد أجاب أصحاب القول الثاني عن الوجه الأول بأنه لا يلزم أن تكون المنازعة مع جهر المؤتم حال قراءة الإمام، بل حتى مع إسرار المؤتم بالقراءة لكن جهره أشد منازعة حتى في حال إسرار الإمام.

وأجابوا عن الوجه الثاني بأننا لا نسلم بدعوى التخصيص بحديث عبادة، فقد طعن فيه بعض أهل العلم، وذكرنا توجيهه فيما سبق على القول بصحته[٣].

وأجابوا عن الوجه الثالث بأن قول أبي هريرة- رضي الله عنه-: «اقرأ بها في نفسك» محمول على القراءة خلف الإمام في الصلاة السرية. وقد سبق ذكر جواب أصحاب القول الأول عن هذين الوجهين[٤].

ثالثًا: اعترض على استدلالهم بحديث: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**» من وجوه عدة:

الوجه الأول: أن هذا الحديث ضعيف لا يحتج به، فالأصح أنه مرسل من حديث عبدالله بن شداد، والعمل بالمرسل مختلف فيه بين أهل العلم، وكثير منهم لا يرى العمل به.

---

(١) انظر: «نيل الأوطار» (٢/ ٢٤٣).

(٢) في «سننه» (٢/ ١٢١-١٢٢).

(٣) راجع الاعتراض الرابع على أدلة اصحاب القول الأول.

(٤) راجع الإجابة على الاعتراضين الثالث والرابع على أدلة أصحاب القول الأول.

وقد أجاب أصحاب القول الثاني بأن الحديث مسند ضعيف لكنه ثبت وصح مرسلاً من حديث عبدالله بن شداد وهو من أكبر التابعين، ومثل هذا المرسل يحتج به الأئمة الأربعة وغيرهم(١).

الوجه الثاني: أن أبا هريرة وابن عمر- رضي الله عنهما- ممن رُويَ عنهما حديث: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**» وقد ثبت عن أبي هريرة- رضي الله عنه- جواز القراءة خلف الإمام مطلقًا، أو في السرية فقط، كما ثبت عن ابن عمر- رضي الله عنهما- القراءة خلف الإمام في الصلاة السرية.

وهذا يدل على ضعف هذا الحديث: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**» لأن ظاهره لو صح يدل على أن قراءة الإمام له قراءة في حال السر والجهر.

وقد أجاب أصحاب القول الثاني بأن الحديث معناه: فقراءة الإمام له قراءة: أي في الجهرية، وهذا يوافق ما ثبت عن أبي هريرة وابن عمر- رضي الله عنهما- من القراءة في الصلاة السرية ولا يخالفه.

الوجه الثالث: على القول بالعمل بمثل هذا المرسل، أو أن هذا الحديث قد يرتفع برواياته وطرقه وشواهده إلى درجة الحسن فإنه مخالف للأدلة الصريحة الصحيحة الموجبة لقراءة الفاتحة مطلقًا كقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل:٢٠]. وحديث عبادة- رضي الله عنه- في الصحيحين: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»، ونحوه كحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عند مسلم: «**كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج**». وكذا حديث عبادة- رضي الله عنه، الذي فيه: «**هل تقرؤون خلف إمامكم؟ قالوا: نعم. قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن**».

وقد أجاب أصحاب القول الثاني عن هذا الوجه بأن الأدلة التي ذكرتموها خاصة بالمنفرد والإمام، وكذلك تشمل المأموم أيضًا في حال عدم جهر الإمام. أما حديث عبادة- رضي الله عنه-: «**لا تفعلوا إلا بأم القرآن**» فقد ذكرنا أنه طعن فيه، وذكرنا توجيهه- على القول بصحته- فيما سبق(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧١-٢٧٢).

(٢) راجع الاعتراض الرابع على أدلة أصحاب القول الأول.

الوجه الرابع: على القول بصحة الاحتجاج بهذا الحديث فإنه دليل لمن منع من القراءة خلف الإمام مطلقًا في السرية والجهرية فما المخصص له في أنه في المنع من القراءة في الجهرية فقط.

أجاب أصحاب القول الثاني عن هذا الوجه بأن معنى الحديث: «**فقراءة الإمام له قراءة**»: أي القراءة التي يسمعها تكفيه عن القراءة، يؤيد هذا أنه مأمور بالإنصات حال قراءة الإمام. أما القراءة التي لا يسمعها فكيف تكون له قراءة وهو لا يسمعها.

الوجه الخامس: على القول بصحة الاحتجاج بهذا الحديث- أيضًا- فإنه عام خص بحديث عبادة- رضي الله عنه-: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» وما في معناه، كما خص بهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وحديث أبي موسى وأبي هريرة- رضي الله عنهما: «**وإذا قرأ فأنصتوا**».

يدل على هذا التخصيص حديث عبادة- رضي الله عنه-: «**لا تفعلوا إلا بأم القرآن**».

فيكون معنى الحديث: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة فيما عدا الفاتحة**».

وأجاب أصحاب القول الثاني بأن حديث: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**» ليس مخصَّصًا بحديث عبادة- رضي الله عنه- وما في معناه كما ذكرتم، بل هو من ضمن المخصصات لحديث عبادة- رضي الله عنه- وعليه يكون المعنى: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب إلا إن كان مأمومًا فتكفيه قراءة الإمام وخاصة في الصلاة الجهرية. وأما حديث: «**لا تفعلوا إلا بأم القرآن**» فقد ذكرنا الطعن فيه، وتوجيهه على القول بصحته.

ج- الاعتراضات الواردة على أدلة أصحاب القول الثالث: أن المأموم لا يقرأ لا في السرية، ولا في الجهرية:

أولاً: اعترض على استدلالهم بالأدلة التي فيها الأمر بالإنصات لقراءة الإمام كآية الأعراف، وحديث أبي موسى وأبي هريرة من وجهين:

الوجه الأول: أن هذه الأدلة إن دلت على عدم القراءة حال جهر الإمام فليس فيها دلالة على عدم القراءة في حال إسرار الإمام، أو سكوته؛ لأن السكوت حال عدم جهر الإمام لا يسمى إنصاتًا، ولم يؤمر بترك قراءة الفاتحة ولا غيرها في هذه الحال(١).

---

(١) انظر: «جزء القراءة» للبخاري، فقرة (٣٢).

الوجه الثاني: أن هذه الأدلة التي فيها الأمر بالإنصات مخصَّصة بالأحاديث التي فيها الأمر بقراءة الفاتحة في الصلاة. كما سبق.

وقد أجاب أصحاب القول الثالث عن الوجه الثاني بأن أدلة الأمر بالإنصات ليست مخصَّصة بأحاديث الأمر بقراءة الفاتحة في الصلاة؛ لأن هذه الأحاديث خاصة بالمنفرد والإمام دون المأموم.

ثانيًا: اعترض على استدلالهم بحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- الذي فيه قوله ﷺ: «**مالي أنازع القرآن**». بأن هذا محمول على الجهر خلف الإمام، وهذا لا يجوز بالاتفاق أو على القراءة سرًّا حال جهر الإمام، وهذا لا يجوز عند كثير من أهل العلم. ولا يدل الحديث على النهي عن القراءة خلف الإمام مطلقًا، حتى ولو كانت سرًّا في حال إسرار الإمام، كما تقولون.

ثالثًا: اعترض على استدلالهم بالحديث: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**» من وجوه عدة:

منها: الوجه الأول والثالث والخامس من الوجوه المذكورة في الاعتراض على استدلال أصحاب القول الثاني بهذا الحديث.

ومنها: أن المراد بقوله: «**فقراءة الإمام له قراءة**» أي في الصلاة الجهرية. إذا لم يسكت الإمام، كما يقول أصحاب القول الثاني- فيما تقدم[1]- وله وجه.

ومنها: أنهم يستدلون بالحديث على عدم جواز القراءة خلف الإمام مطلقًا والحديث ظاهره أن قراءة الإمام تجزئ عن المأموم، لا أن القراءة لا تجوز من المأموم أو لا تستحب منه. قال ابن تيمية[2]: «ليس في حديث «**فقراءة الإمام له قراءة**» دليل للكوفيين على أنه لا تستحب للمأموم القراءة، وإنما فيه الدلالة على أن له أن يجتزئ بذلك، وأن الواجب يسقط عنه بذلك، لا أنه ليس له أن يقرأ».

ومنها: أن جميع الأذكار التي يشرع للإمام أن يقولها مستحبة كانت أو واجبة يشرع للمأموم أن يقولها فكيف يتحمل الإمام عن المأموم القراءة، ولا يتحمل ما دونها من

---

(١) راجع الدليل الخامس من أدلتهم ووجه استدلالهم به.

(٢) في «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٢٥).

المستحبات.

رابعًا: اعترض على استدلالهم بحديث عمران بن حصين- رضي الله عنه، الذي فيه: «**ظننت أن بعضكم خالجنيها**» وحديث ابن مسعود- رضي الله عنه، الذي فيه «**خلطتم عليَّ القرآن**».

بأن هذين الحديثين محمولان على الجهر بالقراءة خلف الإمام. والجهر بالقراءة خلف الإمام سواء أسر الإمام أو جهر أمر لا يجوز بالاتفاق. وليس فيهما الإنكار على من قرأ سرًّا خلف الإمام.

ويمكن حمل ما جاء في حديث عمران- رضي الله عنه-: «**ظننت أن بعضكم خالجنيها**» على أنه ليس فيه نهي لهم أو إنكار عليهم؛ لأن القارئ خلفه قرأ سرًّا في صلاة سرية ويؤيد هذا قول شعبة لقتادة- وهما من رواة الحديث: «كأنه كرهه فقال: لو كرهه لنهى عنه»(١).

خامسًا: اعترض على استدلالهم ببعض الآثار عن الصحابة في ترك القراءة خلف الإمام أو النهي عنها بأن أكثر المنقول عنهم في هذا مطلقًا يحتمل ترك القراءة خلف الإمام أو النهي عنها في الصلاة الجهرية فقط، ويحتمل تركها والنهي عنها في الحالين، ومع وجود الاحتمال لا يصح الجزم، وأيضًا جمهور الصحابة وعامتهم يرون القراءة خلف الإمام، لكن منهم من يرى القراءة في الصلاة السرية والجهرية معًا، ومنهم من يرى القراءة في حال الإسرار فقط. وقليل منهم من يرى ترك القراءة مطلقًا، وأيضًا الذين رُوي عنهم هذا القول من الصحابة رُوي عن أكثرهم خلافه، حتى قال ابن عبدالبر في «الاستذكار»(٢): «ولا أعلم في هذا الباب صاحبًا صح عنه بلا اختلاف أنه قال مثل قول الكوفيين إلا جابر بن عبدالله».

* * *

---

(١) انظر: «التمهيد» (١١/ ٥٢)، «الاستذكار» (٢/ ١٩٢)، «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(١٦٤-١٦٨)، «شرح النووي على مسلم» (٤/ ١٠٩).

(٢) (٢/ ١٩٣).

الترجيح بين الأقوال

بعد النظر في أدلة كل فريق من أصحاب الأقوال الثلاثة، وبعد النظر في الاعتراضات الواردة على تلك الأدلة، وفي إجابات كل فريق على ما ورد على أدلتهم من اعتراضات يظهر جليًا أن أصحاب القول الثالث القائلين بعدم القراءة خلف الإمام مطلقًا، لا في السرية، ولا في الجهرية لم يسلم لهم دليل واحد كما رأيت، لا من أدلة الكتاب ولا من السنة، ولا من الأثر.

قال اللكنوي وهو من محققي الأحناف في كتابه «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام»(١): «والذي يظهر بالنظر الدقيق، ويقبله أصحاب التحقيق هو أن الأحاديث التي استدل بها أصحابنا ليس فيها حديث يدل على النهي عن قراءة الفاتحة خلف الإمام، فيدفع ذلك بالجمع، أو الترجيح، أو التساقط، أو النسخ، بل هي متنوعة إلى أنواع ثلاثة:

فمنها: ما يدل على وجوب الإنصات عند القراءة كالحديث الأول- يعني حديث أبي موسى وأبي هريرة- رضي الله عنهما: «**وإذا قرأ فأنصتوا**»- قال: وهو وإن كان ظاهر لفظه وعمومه يدل على الإنصات مطلقًا لكن النظر الدقيق يحكم بأنه يمنع من القراءة مع قراءة الإمام في الجهرية بحيث يخل بالاستماع والتدبر، ولا يدل على وجوبه في الجهر أثناء السكتات ولا على وجوبه في السر، وكذا الآية القرآنية، يعني: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

قال: وكذا الحديث الثالث والرابع- يعني حديث عمران- رضي الله عنه، الذي فيه: «**قد عرفت أن بعضكم خالجنيها**» وحديث ابن مسعود- رضي الله عنه، الذي فيه قوله ﷺ: «**خلطتم عليَّ القرآن**» قال: وإثبات وجوب السكوت مطلقًا من هذه الأحاديث، وكذا من الآية، وإن قال به جمع من أصحابنا عند التنازع لكنه لا يخلو عن تكلف وتعسف.

---

(١) ص(٢٢٥-٢٢٦).

ومنها: ما يدل بظاهره على النهي عن مطلق القراءة... لكنها مما خدش في ثبوتها، بل ببطلان بعضها فلا يصح الاحتجاج بها، مع إمكان حملها على ما عدا الفاتحة...

ومنها: ما يدل على كفاية قراءة الإمام للمقتدي، وأنه لو لم يقرأ المقتدي صحت صلاته بقراءة إمامه... فيمكن أن يعارض ما صح منه بإطلاقه الأحاديث الواردة في إيجاب قراءة الفاتحة خلف الإمام بعمومها أو خصوصها، ويختار طريق الجمع بينهما، ولا دلالة لها على وجوب السكوت مطلقًا، بل ولا مقيدًا، ولا على كراهة القراءة، أو الحرمة، وإن قال به جمع من الحنفية».

وحيث تبين ضعف هذا القول وهو أن المأموم لا يقرأ خلف الإمام مطلقًا، وأن قراءة الإمام له قراءة في الصلاة السرية والجهرية فأي القولين الباقيين أولى بالترجيح.

أهو قول من قال بوجوب قراءة الفاتحة مطلقًا في السرية والجهرية، أم قول من قال بقراءتها في السرية دون الجهرية إذا كان يسمع الإمام، ولم يكن للإمام سكتات.

فأصحاب القول الأول كما تقدم استدلوا بالأحاديث الموجبة لقراءة الفاتحة في الصلاة، وجعلوها مخصِّصة لعموم أدلة الأمر بالإنصات في الآية والأحاديث.

وأصحاب القول الثاني استدلوا بالأدلة معًا لكنهم جعلوا أدلة الأمر بالإنصات هي المخصِّصة لأدلة الأمر بقراءة الفاتحة، فتقرأ الفاتحة حيث لا يجب الإنصات: أي حيث لا جهر في القراءة من قبل الإمام.

وأصحاب القول الأول احترزوا من الوقوع في ترك قراءة الفاتحة، وهي في حق المأموم واجب؛ تركه يخل بالصلاة، أو ركن تركه يبطل الصلاة ولم يروا وجوب الإنصات على المأموم حال قراءته للفاتحة وإن كان يسمع قراءة الإمام إذا لم يكن للإمام سكتات.

وأصحاب القول الثاني احترزوا من الوقوع في المنهي، وهو القراءة حال قراءة الإمام، وترك الإنصات، والاستماع المأمور بهما، ولم يروا أن قراءة الفاتحة واجبة بل ولا مستحبة، بل ولا جائزة حال قراءة الإمام.

وبالمقارنة بين المحترزين فإن ترك قراءة الفاتحة حال الجهر يعد إخلالاً بالصلاة عند بعض أهل العلم، بل يعد مبطلاً لصحتها عند بعضهم.

أما القراءة حال جهر الإمام فهو- عند بعض أهل العلم- ارتكاب لمحذور، وهو ترك

الإنصات المأمور به عند القراءة، لكن ذلك بكل حال لا يبطل الصلاة باتفاق أهل العلم.

وعلى هذا فإن من ترك قراءة الفاتحة حال جهر الإمام متعرض للقول بعدم صحة الصلاة. أما القارئ حال قراءة الإمام فهو متعرض فقط للقول بأنه قد ارتكب محظورًا.

وبناءً على هذا فإن أظهر الأقوال، وأقربها لصحة الصلاة وسلامتها من الخلل والنقص، ولبراءة الذمة، والذي تطمئن إليه النفس- بعد المقارنة بين هذه الأقوال وأدلتها هو القول بوجوب قراءة الفاتحة على المأموم مطلقًا في الصلاة السرية والجهرية للأدلة الصحيحة الصريحة في وجوب قراءة الفاتحة على كل مصل، إمامًا كان أو مأمومًا أو منفردًا وعدم المخصِّص لها على الصحيح، ولحديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لعلكم تقرؤون خلف إمامكم قالوا: نعم. قال: لا تفعلوا إلا بأم الكتاب، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها**» فهذا نص صريح صحيح في وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في الصلاة الجهرية التي هي موضع الخلاف.

والأولى أن يقرأ المأموم الفاتحة في سكتات الإمام إن أمكن ذلك، فإن لم يتمكن من قراءتها في السكتات قرأها حال قراءة الإمام لكن حال قراءة الإمام ما بعد الفاتحة، فينصت لقراءة الفاتحة ثم يقرؤها أثناء قراءة الإمام السورة.

وقد اختار هذا القول أكثر محققي علمائنا في العصر الحاضر منهم: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، وفضيلة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد، وفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين- غفر الله لهم ورحمهم، وفضيلة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان- حفظه الله ووفقه.

وقد صدرت بترجيح هذا القول وهو وجوب قراءة الفاتحة مطلقًا الفتوى رقم (١٧٥٢) بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ١٣٩٧هـ من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء والتي يرأسها سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز. وهذا نصها:

«تجب قراءة الفاتحة على المصلي، سواء كان إمامًا أو منفردًا أو مأمومًا، وسواء كانت الصلاة سرية أم جهرية، سمع المأموم فيها قراءة إمامه أم لم يسمعها في أرجح الأقوال للعلماء، لعموم حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن**» فنفى الصلاة الشرعية لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب عمومًا ولم يخص منها حالاً من أحوال المصلي دون حال. والنفي إذا ورد في نصوص التشريع اتجه إلى

الحقيقة الشرعية لا إلى كمالها إلا بدليل ولا دليل يصرف عنها على الصحيح من أقوال العلماء. وما استدل به الحنفية على أن المأموم لا يقرأ بفاتحة الكتاب من حديث جابر- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**من صلى خلف الإمام فقراءة الإمام له قراءة**» فضعيف.

قال ابن حجر في التلخيص: إنه مشهور في حديث جابر- رضي الله عنه، وله طرق عن جماعة من الصحابة كلها معلولة، ولو صح لكان مخصَّصًا لما رواه أبوداود عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أنه صلى خلف أبي نعيم، وأبونعيم يجهر بالقراءة، فجعل عبادة يقرأ بأم القرآن، فلما انصرفوا من الصلاة قال لعبادة بعض من سمعه يقرأ: سمعتك تقرأ بأم القرآن، وأبونعيم يجهر، قال: أجل، «**صلى بنا رسول الله ﷺ بعض الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة، قال: فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ أقبل علينا بوجهه فقال: هل تقرؤون إذا جهرت بالقراءة؟ فقال بعضنا: نعم إنا نصنع ذلك. قال: فلا، وأنا أقول ما لي أنازع القرآن، فلا تقرؤوا بشيء إذا جهرت إلا بأم القرآن**».

فهذا عبادة راوي الحديث قرأ بها جهرًا خلف الإمام؛ لأنه فهم من كلامه ﷺ أنه يقرأ بها خلف الإمام جهرًا والإمام يجهر بالقراءة.

وكذلك العموم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤]. وما ثبت من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**وإذا قرأ فأنصتوا**» يخصص بما رواه أبوداود عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- المتقدم فإنه نص في قراءة المأموم للفاتحة في الصلاة الجهرية. والقاعدة أن الخاص إذا عارضه العام حُمل العام على الخاص وخُصّص به جمعًا بين الدليلين وإعمالاً لهما بدلاً من إلغاء أحدهما.

وروى مسلم وأبوداود- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**من صلى صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج فهي خِداج، غير تمام**».

قال له السائب مولى هشام بن زهرة: يا أبا هريرة إني أكون أحيانًا وراء الإمام فغمز ذراعه وقال: اقرأ بها يا فارسي في نفسك. فدل جواب أبي هريرة للسائب راوي الحديث عنه على أنه فهم من الحديث قراءة المأموم لها في الصلاة لكنه رأى أن

يكون ذلك سرًّا»[١].

فائدة: في بيان المشروع من السكتات في الصلاة، وما يشرع قوله فيها:

وحيث شرع للمأموم قراءة الفاتحة في سكتات الإمام، فإن من المناسب ذكر المشروع من السكتات، وما يشرع قوله في هذه السكتات.

أولاً: بيان المشروع من السكتات في الصلاة:

اختلف أهل العلم في المشروع من السكتات في الصلاة على أقوال عدة:

أ- جمهور أهل العلم على أن المشروع من السكتات في الصلاة سكتتان، منهم الشافعي[٢]، وأحمد[٣]، وإسحاق[٤]، والحسن وقتادة[٥] والأوزاعي[٦]، وأبوثور[٧].

واستدلوا على هاتين السكتتين بما يلي:

١- ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كبَّر في الصلاة سكت هنيّة قبل أن يقرأ، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: أقول:«**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد**»[٨].

---

(١) نهاية فتوى اللجنة الدائمة للإفتاء.

(٢) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٩٥)، «التبيان» ص(١٠٤).

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٧٥) فقرة (٢٧٠، ٢٧١)، «المغني» (٢/ ١٦٣-١٦٤)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٨).

(٤) انظر: «سنن الترمذي» (٢/ ٣١).

(٥) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩١).

(٦) أخرجه عن الأوزاعي البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٤٧) قال: «يحق على الإمام أن يسكت سكتة بعد التكبيرة الأولى واستفتاح الصلاة، وسكتة بعد قراءة فاتحة الكتاب ليقرأ مَن خلفه بفاتحة الكتاب»، وانظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩١)، «التمهيد» (١١/ ٤٢).

(٧) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩١)، «التمهيد» (١١/ ٤٢).

(٨) أخرجه البخاري في الأذان- ما يقول بعد التكبير (٧٤٤)، ومسلم في المساجد- ما يقال بين تكبيرة =

٢- ما رواه سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب- رضي الله عنه- قال: «**سكتتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ فأنكر ذلك عمران بن حصين، وقال: حفظنا سكتة. فكتبنا إلى أبي بن كعب بالمدينة فكتب أبي أن حفظ سمرة**».

قال سعيد: فقلنا لقتادة: «ما هاتان السكتتان؟ قال: إذا دخل في صلاته، وإذا فرغ من القراءة، ثم قال بعد ذلك: وإذا قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: وكان يعجبه إذا فرغ من القراءة أن يسكت حتى يتراد إليه نفسه[1]».

وفي رواية[2] عن الحسن عن سمرة بن جندب «أنه تذاكر وعمران بن حصين، فحدث سمرة بن جندب أنه حفظ عن رسول الله ﷺ سكتتين، سكتة إذا كبر، وسكتة إذا فرغ من قراءة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فحفظ ذلك سمرة، وأنكر عليه عمران بن حصين، فكتبنا في ذلك إلى أبي بن كعب، فكان في كتابه إليهما أو في رده عليهما أنَّ سمرة قد حفظ».

وفي رواية[3] عن الحسن عن سمرة بن جندب- رضي الله عنه-: «**أن رسول الله ﷺ كانت له سكتتان، سكتة حين يفتتح الصلاة، وسكتة إذا فرغ من السورة الثانية قبل أن يركع...**».

واتفقوا على أن السكتة الأولى بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة للتنصيص على

=

الإحرام والقراءة (٥٩٨)، وأبوداود في الصلاة (٧٨١)، والنسائي في الافتتاح (٨٦٠).

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- باب السكتة عند الافتتاح (٧٧٩)، والترمذي في الصلاة- ما جاء في السكتتين في الصلاة (٢٥١)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه في الصلاة- باب في سكتتي الإمام (٨٤٤). وليس عند أبي داود قوله: «وكان يعجبه إذا فرغ من القراءة أن يسكت حتى يتراد إليه نفسه».

(٢) أخرجها أبوداود (٧٧٩)، والدارقطني (١/ ٣٣٦).

(٣) أخرجها الإمام أحمد (٥/ ١٥)، والبخاري في «جزء القراءة» (٢٧٨، ٢٧٩)، وابن المنذر في «الأوسط» (١٣٤٠)، والدارقطني (١/ ٣٠٩).

قال ابن المنذر: «في إسناده مقال، يقال: إن الحسن لم يسمعه من سمرة» وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٢٠٨): «وقد صحح حديث السكتتين من رواية سمرة وأبي بن كعب وعمران بن حصين أبوحاتم في صحيحه».

مكانها في الحديثين.

واختلفوا في محل السكتة الثانية بناءً على اختلاف روايات حديث سمرة، فقال بعضهم: هي بعد انتهاء القراءة وقبل التكبير للركوع، ورجح هذا الإمام أحمد(١) وشيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

وقيل: إنها بعد قراءة الفاتحة.

وإلى هذا القول يميل ابن القيم فيما يظهر من كلامه في «زاد المعاد»(٣) حيث قال بعد أن ذكر تصحيح أبي حاتم لحديث السكتتين من رواية سمرة، وأبي بن كعب، وعمران بن حصين قال: «وقد تبين بذلك أن أحد من روى حديث السكتتين سمرة بن جندب، وقال: حفظت من رسول الله ﷺ سكتتين، سكتة إذا كبَّر، وسكتة إذا فرغ من قراءة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. وفي بعض طرق الحديث فإذا فرغ من القراءة سكت، وهذا كالمجمل واللفظ الأول مفسر مبين، ولهذا قال أبوسلمة بن عبدالرحمن: للإمام سكتتان فاغتنموا فيهما القراءة بفاتحة الكتاب، إذا افتتح الصلاة، وإذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ على أن تعيين محل السكتتين إنما هو من تفسير قتادة».

وهل هذه السكتات واجبة على الإمام، أو مستحبة؟ ذهب بعض أهل العلم إلى أنها واجبة على الإمام، منهم الأوزاعي وأبوثور وذهب أكثر أهل العلم إلى أن ذلك مستحب فقط.

ب- وذهب بعض العلماء إلى أن المشروع للإمام سكتة واحدة للاستفتاح منهم: عمران بن حصين(٤)، وبه قال الإمام أبوحنيفة(٥)، مستدلين بحديث أبي هريرة المتقدم «كان النبي ﷺ «**إذا كبَّر سكت هنيّة**» أما حديث السكتتين فلم يصح عندهم.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٨، ٢٢/ ٣٣٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٣٨).

(٣) (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٤) كما في حديث سمرة السابق.

(٥) انظر: «فتح القدير» (١/ ٢٨٨-٢٨٩)، «إعلاء السنن» للتهانوي (٢/ ٢١٤)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٨).

ج- وذهب بعض أهل العلم إلى أن المشروع للإمام ثلاث سكتات منهم طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد قالوا: يستحب للإمام ثلاث سكتات، والثانية: منها بعد قراءة الإمام الفاتحة ليقرأ المأموم الفاتحة، والثالثة: بعد الانتهاء من القراءة وقبل الركوع(١).

مستدلين بحديث أبي هريرة وحديث سمرة برواياته.

د- وذهب الإمام مالك إلى أنه لا سكوت في الصلاة بحال من الأحوال(٢).

والذي عليه جمهور أهل العلم، وصححه بعض المحققين من أهل العلم أن السكتات الثابتة اثنتان فقط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «والصحيح أنه لا يستحب إلا سكتتان فليس في الحديث إلا ذلك، وإحدى الروايتين غلط، وإلا كانت ثلاثًا وهذا هو المنصوص عن أحمد، وأنه لا يستحب إلا سكتتان، والثانية عند الفراغ من القراءة، للاستراحة والفصل بينها وبين الركوع، وأما السكوت عقيب الفاتحة فلا يستحبه أحمد»(٤).

وقال أيضًا(٥): «ولم يقل أحد إنه كان له ثلاث سكتات، ولا أربع سكتات فمن نقل عن النبي ﷺ ثلاث سكتات أو أربع سكتات فقد قال قولاً لم ينقله عن أحد من المسلمين».

وقال ابن القيم(٦): «وكان له سكتتان، سكتة بين التكبير والقراءة، وعنها سأله أبوهريرة. واختلف في الثانية، فرُويَ أنها بعد الفاتحة، وقيل: إنها بعد القراءة وقبل الركوع، وقيل: هي سكتتان غير الأولى فتكون ثلاثًا، والظاهر أنها هي اثنتان فقط».

لكن ابن القيم يقول توفيقًا بين روايتي حديث سمرة:

---

(١) انظر: «المجموع» (٣/ ٣٩٥)، «الكافي» لابن قدامة (١/ ١٣٤).

(٢) انظر: «المدونة» (١/ ٦٢)، «الاستذكار» (٢/ ١٩١٢)، «التمهيد» (١١/ ٤٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٧٦).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٧).

(٦) في «زاد المعاد» (١/ ٢٠٧)، وانظر: (٢١٦).

«وأما الثالثة فللراحة والنفس فقط، وهي سكتة لطيفة، فمن لم يذكرها فلقصرها، ومن اعتبرها جعلها سكتة ثالثة، فلا اختلاف بين الروايتين، وهذا أظهر ما يُقال في هذا الحديث..».

قلت: وهذا مسلك جيد في التوفيق بين الروايتين إن صحت كل منهما..

ثانيًا: ما الذي يشرع قوله في سكتات الإمام، وهل يشرع أن يسكت لأجل قراءة المأموم:

جمهور أهل العلم على أنه يستحب للمأموم، بل وللإمام في السكتة الأولى التي بعد التكبير، وقبل الشروع بقراءة الفاتحة قراءة دعاء الاستفتاح لما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه سأل رسول الله ﷺ عما يقول في هذه السكتة، فقال ﷺ: أقول: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب...** الحديث»(١).

ولما ثبت في الصحيح عن عمر رضي الله عنه أنه كان يكبر ويجهر بدعاء الاستفتاح يعلمه الناس(٢).

وأما السكتة التي بعد نهاية القراءة، وقبل التكبير للركوع، فإنها على ما ذكر أهل العلم ليست محلاً للقراءة، وإنما هي سكتة لطيفة جدًا، لأجل ترادِّ النفس والفصل بين القراءة والتكبير للركوع، كما قال قتادة: «وكان يعجبه إذا فرغ من القراءة أن يسكت حتى يَتَرَادَّ إليه نفسه»(٣). وقال ابن القيم(٤): «وأما الثالثة فللراحة والنفس فقط وهي

---

(١) سبق تخريجه بتمامه.

(٢) أخرجه مسلم- في الصلاة (٣٩٩). وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية «أن بعض أصحاب الإمام أحمد يستحبون في حال سكوت الإمام أن يقرأ، ولا يستفتح، وهو اختيار أبي بكر الدينوري، وأبي الفرج بن الجوزي». انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩٨).

(٣) سبق هذا في بعض روايات حديث سمرة في السكتتين.

وانظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩٠)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٨)، «زاد المعاد» (١/ ٢٠٨)

(٤) في «زاد المعاد» (١/ ٢٠٨).

سكتة لطيفة...».

وأما السكتة بعد قراءة الفاتحة، فكما اختلف في ثبوتها، فقد اختلف المثبتون لها فيما يقال فيها.

فبعض أهل العلم يرى أنها سكتة يسيرة كالسكتة بين السور، وعند رؤوس الآيات لا تتسع لقراءة الفاتحة(١).

وقيل: إنها لأجل قراءة الفاتحة.

وهذا يُروى عن سعيد بن جبير(٢) وعمر بن عبدالعزيز(٣) والأوزاعي(٤) والشافعي(٥) وأبي ثور(٦)، وإسحاق بن راهويه(٧)، واختاره ابن المنذر(٨)، وبعض أصحاب الشافعي وأحمد(٩).

بل يرى بعضهم أن هذه السكتة مما يجب على الإمام، منهم الأوزاعي وأبوثور.

وأكثر أهل العلم على أنه لا يشرع أن يسكت لأجل أن يقرأ المأموم الفاتحة، منهم أبوحنيفة ومالك وأحمد وغيرهم(١٠).

لكن كثيرًا من أهل العلم يستحبون للمأموم أن يقرأ الفاتحة في سكتات الإمام، في السكتة الأولى إن اتسعت بعد الاستفتاح لشيء من القراءة وفي غيرها من السكتات-

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٧، ٢٧٩).

(٢) أخرجه عن سعيد- عبدالرزاق- الأثران (٢٧٨٩، ٢٧٩٤)، والبخاري في «جزء القراءة»- الأثران (٣٤، ٢٧٣).

(٣) ذكره عن عمر بن عبدالعزيز ابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١١٧).

(٤) ذكره ابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١١٧)، وابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩١).

(٥) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩١)، «التمهيد» (١١/ ٤٢)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٨).

(٦) ذكره عن أبي ثور- ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩١).

(٧) انظر: «المغني» (٢/ ١٦٣).

(٨) انظر: «الأوسط» (٣/ ١١٧، ١١٨).

(٩) انظر: «المغني» (٢/ ١٦٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٨، ٢٩٨، ٢٢/ ٣٣٨)، «زاد المعاد» (١/ ٢٠٨).

(١٠) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٦-٢٧٧، ٢٩٨، ٢٢/ ٣٣٩، ٣٤٢).

كما تقدم- وهو الأولى[١].

وهو مروي عن عبدالرحمن بن أبي سلمة[٢]، والحسن[٣]، وقتادة[٤]، وعروة بن الزبير[٥]، وأحمد بن حنبل وعامة أصحابه[٦]، وإسحاق بن راهويه[٧] بل من أهل العلم من يوجب ذلك كالأوزاعي[٨] والشافعي[٩] وأبي ثور[١٠]، كما سبقت الإشارة إلى هذا[١١].

* * *

(١) انظر: «المغني» (٢/ ٢٦٥، ٢٦٨)، «نيل الأوطار» (٢/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في «جزء القراءة»- الأثر (٢٧٤)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٣٩)، وكره ابن المنذر في «الأوسط» (٣/ ١١٨) عن عبدالرحمن بن أبي سلمة، قال: «للإمام سكتتان فاغتنموا القراءة فيهما بفاتحة الكتاب».

وفي رواية ذكرها ابن قدامة في «المغني» (٢/ ١٦٤) بزيادة: «إذا دخل في الصلاة، وإذا قال ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾»

(٣) أخرجه- عبدالرزاق- الأثر (٢٧٩٢) عن الحسن قال: «إذا فرغ الإمام من قراءة أم القرآن فاقرأ بها أنت» وذكره ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩١).

(٤) ذكره عن قتادة ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩١).

(٥) أخرجه عن عروة- عبدالرزاق- الأثر (٢٧٩١)، والبخاري في «جزء القراءة»- الآثر (٢٧٦)، وذكره ابن عبدالبر في «التمهيد» (١١/ ٤٠).

(٦) انظر: «المغني» (٢/ ١٦٣-١٦٤).

(٧) انظر: «المغني» (٢/ ١٦٣).

(٨) أخرجه عن الأوزاعي- البيهقي في «القراءة خلف الإمام»- الأثر (٢٤٧)، وذكره ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/ ١٩٠)، و«التمهيد» (١١/ ٤١).

(٩) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩١)، «التمهيد» (١١/ ٤٢)، ، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٨).

(١٠) انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩١)، «التمهيد» (١١/ ٤١).

(١١) في ذكر المشروع من السكتات. والعجيب أن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يرى أن القراءة في سكتات الإمام بدعة حيث لم تنقل عن الصحابة. «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٧٩).

المبحث الثانـــي

وفيــه مسائل:

أ- من لم يستطع قراءة الفاتحة في الصلاة.

ب- قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة.

ج- قراءة الفاتحة على المريض.

د- قول: «آمين» بعد قراءة الفاتحة.

هـ- قراءة ما زاد على الفاتحة في الصلاة.

المبحث الثاني
وفيـــه مســـائـــل

أ- حكم من لم يستطع قراءة الفاتحة في الصلاة:

يجب على المسلم أن يتعلم ما يقيم به الواجب من أمر دينه، من أذكار الصلاة وغيرها.

وبما أن قراءة الفاتحة في الصلاة واجبة، بل ركن من أركانها على الصحيح من أقوال أهل العلم، فيجب على المسلم بذل طاقته في تعلمها، فإن لم يستطع تعلمها ولا تعلم شيء من القرآن أجزأ عنه أن يسبح الله، ويحمده، ويهلله، ويكبره. لما رواه عبدالله بن أبي أوفى قال: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا فعلمني ما يجزيني منه. قال: «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال: يا رسول الله هذه لله عز وجل، فما لي؟ قال: قل اللهم ارحمني، وارزقني، واهدني، فلما قام قال: هكذا بيده. فقال رسول الله ﷺ أما هذا فقد ملأ يده من الخير**» رواه أبوداود والنسائي[١].

قال القرطبي[٢]: «فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله، وعليه أبدًا أن يجهد نفسه في تعليم فاتحة الكتاب فما زاد إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله».

ومن لم يتمكن من قراءتها بالعربية ترجم له الدعاء بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته، ولا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية، أو غيرها وهو يجيد العربية على الصحيح من أقوال أهل العلم[٣].

---

(١) سبق تخريجه. وانظر: «المحلى» (٣/ ٢٥٠-٢٥١)، «المهذب» (١/ ٨٠)، «الإفصاح» (١/ ١٢٨) «المغني» (٢/ ١٥٩-١٦٠).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٢٦).

(٣) انظر: «الأم» (١/ ١٠٢)، «الأوسط» (٣/ ١١٦-١١٧)، «المحلى» (٣/ ٢٥٤)، «المهذب» (١/ ٨٠)، «المغني» (٢/ ١٥٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٢٦).

ب- حكم قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة:

ثبت في أكثر من حديث مشروعية قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة.

فعن طلحة بن عبدالله الأنصاري- رضي الله عنه- قال: «**صليت خلف ابن عباس- رضي الله عنهما- على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب، وقال: لتعلموا أنها سنة**»(١).

وعن أبي أمامة صُدي بن عجلان الباهلي- رضي الله عنه- أنه قال: «**السنة في الصلاة على الجنازة أن يقرأ في التكبيرة الأولى بأم القرآن مخافتة، ثم يكبِّر ثلاثًا، والتسليم عند الآخرة**»(٢).

ولهذا ذهب جمهور أهل العلم إلى مشروعية قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة، وهذا هو الصحيح للأدلة السابقة لكنهم اختلفوا في حكم قراءتها فمنهم من استدل بهذا الحديث على الوجوب وهو قول كثير من أهل العلم، منهم الشافعي(٣) وأحمد(٤) وإسحاق(٥) ذهبوا إلى أن قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة واجبة، بل قال بعضهم: بأنها ركن.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها مستحبة فقط وقالوا: الأدلة السابقة تدل على الاستحباب فقط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٦): «وهذا الصواب».

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن قراءة الفاتحة لا تشرع في صلاة الجنازة منهم أبوحنيفة(٧) ومالك(٨) .....

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة (١٣٣٥)، وأبوداود في الجنائز- باب ما يقرأ على الجنازة (٣١٩٨).

(٢) أخرجه النسائي- في الجنائز- باب الدعاء (١٨٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: «الأم» (١/ ٢٧٠)، «المهذب» (١/ ١٤٠).

(٤) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله، ص(١٣٨) فقرة (٥١٣)، «المغني» (٣/ ٤١٠-٤١١)، «الكافي» (١/ ٢٦٠).

(٥) انظر: «المغني» (٣/ ٤١١).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧٤).

(٧) انظر: «شرح معاني الآثار» (١/ ٥٠١)، «فتح القدير» لابن الهمام (٢/ ١١٢-١١٣).

(٨) انظر: «المدونة» (١/ ١٧٤).

والثوري والأوزاعي[١]. وقد روي هذا عن ابن عمر وأبي هريرة[٢].

ج- حكم قراءة الفاتحة على المريض:

القرآن الكريم كله شفاء لأمراض القلوب والأديان، كما أنه شفاء لعلل الأجسام والأبدان. قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢] وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

فقراءة القرآن، كما أنها شفاء لأمراض القلوب المعنوية، فهي شفاء أيضًا لأمراض الأجسام الحسية والنفسية.

وكما يشرع أن يُقرأ لعلاج أمراض القلوب المعنوية من أمراض الشبهات والشكوك والشهوات. فكذلك يُشرع أن يَقرأ المسلم القرآن على نفسه وعلى غيره، لعلاج الأمراض البدنية والجسمانية حسية كانت أو نفسية؛ لأن القرآن كما ذكر الله في أكثر من آية شفاء لذلك كله بإذنه تعالى.

وقد ثبت في حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أثر قراءة الفاتحة على اللديغ.

كما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «**كنا في مسير لنا فنزلنا، فجاءت جارية، فقالت: إن سيد القوم سليم، وإن نَفَرنا غُيَّب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه[٣] برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر لنا بثلاثين شاة، وسقانا لبنًا فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقي؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب فقلنا: لا تحدثوا شيئًا حتى نأتي، أو نسأل النبي ﷺ فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما يدريه أنها رقية، اقسموا واضربوا لي بسهم**» متفق عليه[٤].

---

(١) انظر: «المغني» (٣/ ٤١١).

(٢) أخرجه عنهما مالك في «الموطأ» (٥٣٥-٥٣٧).

(٣) نأبنه: أي ما كنا نعلم أنه يرقي فنعيبه بذلك. انظر: «النهاية» مادة: «أبن».

(٤) سبق تخريجه في أسماء الفاتحة.

فائدة:

ومما ينبغي أن يعلم: أن القرآن كله شفاء، وأن القراءة على المريض سنة، إلا أنه ليس من السنة ولا مما شُرع: أن يفتح الناس أبوابهم للزوار للقراءة عليهم؛ فلم يفعله الرسول ﷺ ولا أحد من صحابته رضي الله عنهم، سواء كان ذلك لجمع الأموال- كما هو حال كثير من القراء اليوم- أو لغير ذلك.

د- حكم قول «آمين» بعد قراءة الفاتحة:

يستحب أن يسكت القارئ سكتة لطيفة بعد قراءة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ثم يقول: «آمين»، سواء كان في الصلاة أو خارجها، إمامًا كان أو مأمومًا أو منفردًا في صلاة جهرية أو سرية، عند جمهور أهل العلم(١).

لما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإنه من وافق قوله قول الملائكة(٢) غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٣).

وفي رواية(٤): «**إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الإمام غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ خطبنا، فقال: «**إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين يجبكم الله، فإذا كبَّر وركع فكبِّروا**

---

(١) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٧٢)، «الاستذكار» (٢/ ١٩٧)، «المهذب» (١/ ٧٩)، «المبسوط» (١/ ٣٢)، «الإفصاح» (١/ ١٢٨)، «المغني» (١/ ١٦٠-١٦١)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٠-٦١).

(٢) قيل: موافقة تأمين الملائكة في الإجابة، وقيل في الزمن، وقيل في الصفة من إخلاص الدعاء. انظر: «الاستذكار» (٢/ ١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري- في الأذان- باب جهر المأموم بالتأمين (٧٨٢)، وفي التفسير (٤٤٧٥)، ومسلم في الصلاة- باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠)، والترمذي في الصلاة- ما جاء في فضل التأمين (٢٥٠)، وابن ماجه- في إقامة الصلاة- باب الجهر بالتأمين (٨٥١-٨٥٢)، وأحمد (٢/ ٣١٢، ٤٥٩)، ومالك في الموطأ (١٩١).

(٤) أخرجها البخاري في الأذان (٧٨٠).

واركعوا فإن الإمام يركع قبلكم، ويرفع قبلكم...»(١).

وعن وائل بن حجر- رضي الله عنه- قال: «**صليت خلف رسول الله فلما كبَّر رفع يديه أسفل أذنيه، فلما قرأ:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قال: آمين، فسمعته وأنا خلفه**»، وفي رواية: «**ومد بها صوته**»(٢).

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «**سمعت رسول الله ﷺ إذا قال:** ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قال: آمين**»(٣).

وعن عائشة- رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين**»(٤).

و«**آمين**» **ليست من الفاتحة إجماعًا**، ولهذا لم تُثبت في المصاحف؛ ولهذا شرع أن يسكت قليلاً بعد الفاتحة، ثم يقول: «آمين».

وهي اسم فعل بمعنى: اللهم استجب.

وفيها لغتان:

«آمين» بمد الألف على وزن «فاعيل»، و«أَمين» بالقصر على وزن «فعيل». والقصر هو الأصل(٥). وأنشدوا:

تباعد مني فُطحُل إذ دعوته ... أمينَ فزاد الله ما بيننا بعدا(٦)

---

(١) أخرجه مسلم- في الصلاة- باب التشهد في الصلاة (٤٠٤)، والنسائي في الإمامة (٨٠٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٤٧).

(٢) أخرجه النسائي- في الافتتاح- باب قول المأموم إذا عطس خلف الإمام (٨٩٣)، والترمذي- في الصلاة- باب ما جاء في التأمين (٢٤٨)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه- في إقامة الصلاة- باب الجهر بآمين (٦٩٦)، وأحمد (٤/ ٣١٥، ٣١٦).

والحديث صحيح، صححه الألباني وغيره.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الموضع السابق (٦٩٥)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الموضع السابق (٦٩٧)، وصححه الألباني. وأخرجه الإمام أحمد مطولاً (٦/ ١٣٥).

(٥) انظر: «المدخل لعلم تفسير كتاب الله» ص(١٠٠-١٠٤)، «الاستذكار» (٢/ ١٩٥)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٢)، «الكشاف» (١/ ١٢)، «المغني» (٢/ ١٦٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٦١).

(٦) البيت نسبه في «المشوف المعلم» (١/ ٧٩) لجبير بن الأضبط، وقد سأل فطحلا فأعرض عنه فدعا عليه.

=

وقال الآخر(١):

يـــا رب لا تســـلبنّي حبهـــا أبـــدًا ويـــرحم الله عبـــدًا قـــال: آمينـــا

وقال أبووجزة مولى من موالي أهل المدينة يخاطب عبدالله بن الزبير(٢):

ولا نقـــول إذا يومًـــا نُعيـــتَ لنـــا إلا بـــآمين ربَّ النـــاس آمينـــا

هـ- حكم قراءة ما زاد على الفاتحة في الصلاة:

يستحب عند جمهور أهل العلم أن يقرأ الإمام والمنفرد، وكذا المأموم في الصلاة السرية مع الفاتحة سورة، أو بعض الآيات في الركعتين الأوليين، ويكتفي بقراءة سورة الفاتحة في الركعتين الأخيرتين(٣). وهو قول أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود، وابن عمر، وأبي الدرداء وعبدالله بن مغفل وعائشة ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك ومغيرة بن عبدالرحمن وعطاء والشعبي والحسن وابن سيرين(٤) وغيرهم.

لما رواه أبوقتادة- رضي الله عنه- قال: «**كان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر بفاتحة الكتاب وسورتين يطول في الأولى، ويقصر في الثانية، ويسمع الآية أحيانًا، وكان يقرأ في العصر بفاتحة الكتاب وسورتين، وكان يطول في الركعة الأولى في صلاة الصبح، ويقصر في الثانية**». وفي رواية: «**ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب**»(٥).

=

وهو بغير نسبة في «زاد المسير» (١/ ١٧)، وفي مادة «أمن» من «الصحاح» و«اللسان» وفي «شرح المفصل» (٤/ ٣٤)، «الدر المصون» (١/ ٧٧).

(١) البيت لمجنون ليلى. انظر «ديوانه» ص(٢٣٨).

(٢) انظر: «الزاهر» (١/ ١٦١)، «العقد الفريد» (٧/ ١٦٧).

(٣) انظر: «حلية العلماء» (٢/ ١١١)، «الإفصاح» (١٢٨-١٢٩)، «المغني» (٢/ ٢٨١-٢٨٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٢٤-١٢٥)، «زاد المعاد» (١/ ٢٤٦-٢٤٧)، «نيل الأوطار» (٢/ ٢٣٩). وانظر: «صحيح ابن خزيمة» (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٤) أخرجه عنهم ابن أبي شيبة في الصلاة (١/ ٣٧٠-٣٧٢).

(٥) أخرجه البخاري في الأذان- القراءة في الظهر (٧٥٩)، ومسلم في الصلاة- القراءة في الظهر والعصر (٤٥١)، وأبوداود (٧٩٨-٨٠٠)، والنسائي (٩٣٠-٩٣٥)، وابن ماجه (٨٢٩)، وأحمد (٥/ ٢٩٥-٢٩٧).

وما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- قال: «**في كل صلاة يقرأ، فما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم، وما أخفى عنا أخفينا عنكم، وإن لم تزد على أم القرآن أجزأت، وإن زدت فهو خير**»(١).

وإن قرأ مع الفاتحة في الركعتين الأخيرتين من الرباعية، أو الركعة الثالثة من المغرب أحيانًا جاز(٢)، بل استحب بعض أهل العلم هذا كالشافعي(٣). لحديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-: «**أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الظهر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قدر ثلاثين آية، وفي الأخريين قدر خمس عشرة آية، أو قال: نصف ذلك، وفي العصر مثل ذلك**»(٤).

وذهب بعض العلماء إلى وجوب قراءة سورة مع الفاتحة، أو شيء من القرآن، وهو مروي عن عمران بن حصين وعبدالله بن عمر وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وابن عباس وأبي وائل(٥)- رضي الله عنهم- وغيرهم(٦). قال أبوحنيفة: تجب القراءة بعد الفاتحة في الركعتين الأوليين من الرباعية والثلاثية وفي جميع الثنائية(٧).

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «المحلى» (٤/ ١٠١)، «المذهب» (١/ ٨٠-٨١)، «الإفصاح» (١/ ١٢٩)، «صحيح ابن خزيمة» (١/ ٢٥٦).

(٣) انظر: «الأم» (١/ ١٠٧)، «مختصر المزني مع الأم» (٧/ ٢٠٧).

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة باب القراءة في الظهر والعصر (١٥٧).

(٥) أخرجه عنهم ابن أبي شيبة (١/ ٣٦٠-٣٦١).

(٦) انظر: «القراءة خلف الإمام» للبيهقي ص(٩٢) وما بعدها، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٢٥)، «نيل الأوطار» (٢/ ٢٣٩).

(٧) انظر: «تحفة الفقهاء» (٢/ ٩٦)، «بدائع الصنائع» (١/ ١٦٠)، «البحر الرائق» (١/ ٣١٣).

فهرس الموضوعات

المقدمة ٧

تفسير الاستعاذة

المبحث الأول: صيغ الاستعاذة ١٥
المبحث الثاني: أركان الاستعاذة ٢١
المبحث الثالث: الاستعاذة ليست بآية من القرآن الكريم ٢٤
المبحث الرابع: إعراب الاستعاذة ومعناها ٢٥
المبحث الخامس: أحكام الاستعاذة ٣٧
أ- مكان الاستعاذة من القراءة ٣٧
ب- حكمها عند قراءة القرآن في الصلاة أو خارجها ٤٠
جـ- هل يتعوذ في الصلاة في كل ركعة أو في الركعة الأولى فقط ٤٢
د- حكم الجهر بها أو الإسرار في غير الصلاة ٤٤
هـ- حكم الجهر بها أو الإسرار في الصلاة ٤٥
المبحث السادس: المواضع التي تشرع فيها الاستعاذة ٤٧
المبحث السابع: بيان أن شيطان الجن أعظم ضررًا من شيطان الإنس ومن النفس «المذمومة» ٥١
المبحث الثامن: السبيل للخلاص من شر الشيطان ومكايده ٥٤

تفسير البسملة

المبحث الأول: لفظها وإعرابها ٦٣
المبحث الثاني: معنى البسملة ٦٦
المبحث الثالث: هل البسملة آية من القرآن الكريم أو من سورة الفاتحة، أو من كل سورة سوى براءة، أو ليست بآية؟ ٧٦
المبحث الرابع: السبب في عدم كتابتها في مطلع سورة براءة ٩١
المبحث الخامس: حكم قراءة البسملة في غير الصلاة ٩٤

المبحث السادس: حكم قراءة البسملة في الصلاة ٩٧
المبحث السابع: حكم البسملة من حيث الجهر بها والإسرار في الصلاة أو خارجها ١٠١
المبحث الثامن: المواضع التي تشرع فيها البسملة ١١٧
المبحث التاسع: فوائد البسملة والأحكام التي تضمنتها ١٢٤

تفسير سورة الفاتحة

الفصل الأول: تفسير سورة الفاتحة، وبيان ما فيها من المعاني والفوائد والأحكام: ... ١٢٩
المبحث الأول: مكان نزول الفاتحة ١٣١
المبحث الثاني: أسماء الفاتحة ١٣٣
المبحث الثالث: عدد آيات الفاتحة، وهل البسملة آية منها ١٤٢
المبحث الرابع: فضل سورة الفاتحة ١٤٣
فائدة في حكم المفاضلة بين سور القرآن وآياته ١٤٦
المبحث الخامس: المعاني التي اشتملت عليها سورة الفاتحة ١٤٧
المبحث السادس: بيان معنى السورة والآية ١٥١
المبحث السابع: تفسير مفردات الفاتحة وبيان معاني آياتها ١٥٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ١٥٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ١٦٤
الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ١٦٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ١٦٩
الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٧٨
الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٩٠
الكلام على قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ١٩٧
الكلام على قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ٢٠١
المبحث الثامن: ما يؤخذ من سورة الفاتحة من الفوائد والأحكام ٢١٠
الفصل الثاني: الأحكام التي تتعلق بسورة الفاتحة ٢٤٣
المبحث الأول: حكم قراءة الفاتحة في الصلاة ٢٤٥
المبحث الثاني: وفيه مسائل ٣٠٧
أ- حكم من لم يستطع قراءة الفاتحة في الصلاة ٣٠٩

ب- حكم قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة..... ٣١٠
جـ- حكم قراءة الفاتحة على المريض..... ٣١١
د- حكم قول «آمين» بعد قراءة الفاتحة..... ٣١٢
هـ- حكم قراءة ما زاد على الفاتحة في الصلاة..... ٣١٤
فهرس الموضوعات..... ٣١٧

* * *

دار ابن الجوزي 8428146

9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثاني

تفسير سورة البقرة (الآيات: ١ - ١٦٧)

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٢

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٢١ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْبَقَرَةِ

(ٱلآيَات: ١ - ١٦٧)

المقدمة

أ -اسم السورة:

سميت «سورة البقرة» بهذا الاسم؛ لأنها انفردت بذكر قصة البقرة التي أمر الله قوم موسى- عليه السلام- بذبحها بعد أن قتل فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [الآية: ٦٧]، والآيات بعدها.

وتسمى سورة الزهراء، كما في الحديث: «**اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران**»(١).

ب -مكان نزولها:

سورة البقرة مدنية بالإجماع. نزل معظمها في السنوات الأولى من الهجرة، واستمر نزولها إلى قبيل وفاة النبي ﷺ، وكان آخر آية نزلت منها ومن القرآن كله هي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٢٨١].

جـ -مناسبتها لسورة الفاتحة:

سورة الفاتحة اشتملت على مجمل معاني القرآن ومقاصده من أنواع التوحيد، وحمد الله وتمجيده والثناء عليه، وإفراده بالعبادة والاستعانة وطلب الهداية، وتقسيم الناس إلى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. وقد جاءت سورة البقرة بل والقرآن كله بتفصيل هذه المعاني والمقاصد.

د -فضلها:

وردت عدة أحاديث وآثار في فضل سورة البقرة منها ما يلي:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة**»(٢). وفي رواية: «**فإنَّ البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان**»(٣).

---

(١) سيأتي تخريجه كاملًا.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٨٠).

(٣) أخرجها الترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «بعث ﷺ بعثًا، وهم ذوو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنًا فقال: ما معك يا فلان، فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم. قال: اذهب فأنت أميرهم»(١).

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**»(٢).

وعن النواس بن سمعان- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد. قال: «**كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حِزْقَان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما**»(٣).

وعن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ- رضي الله عنه- أنه سمع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور، فإن فيهن الفرائض»(٤).

قال القرطبي(٥): «وهذه السورة فضلها عظيم، وثوابها جسيم، ويقال لها: فسطاط القرآن، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها».

وقد وردت أحاديث صحيحة في فضل آيات منها بخصوصها؛ منها: آية الكرسي، وأنها أعظم آية في كتاب الله، ومنها الآيتان الأخيرتان منها، وسيأتي ذكر هذه الأحاديث

---

(١) أخرجه الترمذي في «فضائل القرآن» (٢٨٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٥) والترمذي في «فضائل القرآن» (٢٨٨٣).

(٤) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير (٢/ ٣٩٥)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٥٢).

في الكلام عليها في آخر السورة.

هـ -موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالتنويه بشأن القرآن الكريم وتعظيمه، وبيان صحته، وصدقه وسلامته من الريب، وما اشتمل عليه من الهدى، والتحدي به، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الآية، ١، ٢].

٢- ذكر انقسام الناس تجاه هداية القرآن الكريم إلى أقسام ثلاثة:

(أ) المتقون المهتدون بالقرآن الذين يؤمنون بالغيب وأصول الإيمان ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله، ويؤمنون بما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله الذين هم على هدى من ربهم وهم المفلحون.

(ب) الذين كفروا باطنًا وظاهرًا، وختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ولهم عذاب عظيم.

(جـ) المنافقون الذين يظهرون الإيمان مخادعة وهم في الباطن غير مؤمنين، بل جمعوا بين الكفر والمخادعة ومرض القلوب والإفساد في الأرض وغير ذلك من الصفات الذميمة، وهم أسوأ حالًا ومآلًا من الكفار صراحة؛ ولهذا توعدهم الله بالعذاب الأليم، وضرب لهم أسوأ الأمثلة في حالهم ومآلهم.

٣- دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، وإقامة الأدلة والبراهين على وجوب عبادته- عز وجل- وحده دون سواه، والنهي عن الشرك والتحذير من النار.

٤- بشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنات، وما فيها من الرزق وأصناف الثمار، والأزواج، والخلود في النعيم.

٥- بيان أنه- عز وجل- لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها، وذلك لما في ضرب الأمثال من البيان يهتدي بها المؤمنون، ويعقلها العالمون، ويضل بها الكافرون، ويتنكر لها الجاهلون.

٦- توبيخ الذين كفروا بالله وتقريعهم على كفرهم، مع قيام الأدلة ووضوحها، في أنفسهم، وفي الآفاق- على وجوب الإيمان به تعالى ووحدانيته.

٧- ذكر قصة استخلاف آدم في الأرض وما حصل من الملائكة من استفسار بشأن ذلك، وسجود الملائكة لآدم، وإسكانه وزوجه الجنة، ومن ثم إخراجهما منها بسبب معصيتهما بالأكل من الشجرة وتوبة الله تعالى عليهما وإهباطهما من الجنة، ومن السماء إلى الأرض، وابتلاؤهما وذريتهما بالتكاليف، ووعد من اتبع هدى الله منهم، ووعيد من كفر به وخالفه.

٨- ثم انتقلت السورة إلى الكلام عن بني إسرائيل، وقد أطالت النفس في ذلك في أكثر من مائة آية، من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الآية: ٤٠]، إلى قريب من منتصف السورة. فصَّلت الكلام عنهم تفصيلًا تامًّا، لتجلية طبيعة أولئك القوم وأحوالهم، وما هم عليه من الكفر والعتو والعناد وقبيح الصفات والجرأة على الله تعالى والتحايل والتحريف وتبديل القول والحسد للمسلمين، وغير ذلك؛ ليحذر المسلمون منهم ومن مسالكهم السيئة.

٩- وقد بدأت هذه الآيات بتذكير بني إسرائيل نعمة الله تعالى عليهم، وحثهم على الوفاء بعهد الله، ورهبته وتقواه، والإيمان بالقرآن المصدق لما معهم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ونهيهم أن يكونوا أول كافر به، وأن يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، وعن لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق، وتقريعهم على أمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم.

١٠- تأكيد تذكيرهم بنعمة الله عليهم، وتفضيله إياهم على عالمي زمانهم، وتخليصهم من آل فرعون وعذابهم، وفرق البحر لهم، وإنجائهم من الغرق وإغراق آل فرعون، وعفو الله عنهم، وتوبته عليهم بعد عبادتهم، العجل، وإيتاء موسى الكتاب والفرقان لأجل أن يهتدوا به.

١١- جرأتهم على الله- بعد أن وبخهم موسى على عبادة العجل وتاب الله عليهم بقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [الآية: ٥٥]، وأخذ الصاعقة لهم، ثم بعثهم من بعد موتهم ليشكروا، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى.

١٢- أمرهم بدخول القرية سجدًا وقول «حِطَّة» لمغفرة خطاياهم، وتبديلهم قولًا غير الذي قيل لهم، وظلمهم لأنفسهم، وإنزال الرجز عليهم.

١٣- استسقاء موسى- عليه السلام- لهم، وأمره- عز وجل- له أن يضرب بعصاه الحجر، وانفجار العيون لهم، وإدرار الرزق عليهم، ومن ثم كفرهم وبطرهم نعم الله تعالى عليهم بقولهم: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [الآية: ٦١]، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير، وعقوبتهم بضرب الذلة، والمسكنة عليهم، وغضب الله عليهم؛ لكفرهم وقتلهم النبيين.

١٤- بيان أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من أي طائفة كانت فلهم أجرهم عند ربهم وثوابهم.

١٥- أخذ الميثاق على بني إسرائيل ورفع الطور فوقهم لأخذ ما أوتوه بقوة وذكر ما فيه، وتوليهم بعد ذلك.

١٦- تذكيرهم باعتدائهم في السبت، وفضل الله عليهم، وحمايته لهم من الخسران، ومسخهم قردة خاسئين، وجعل عقوبتهم نكالًا لهم ولغيرهم.

١٧- تشديدهم على أنفسهم في أمر البقرة، وقسوة قلوبهم، وبعدهم عن الإيمان، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ونفاقهم وجهلهم، وبيان إحاطة علم الله تعالى بما يسرون وما يعلنون.

١٨- توعدهم بالويل لكذبهم وافترائهم على الله بكتابتهم الكتاب بأيديهم، ثم قولهم: ﴿هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وتأكيد وعيدهم ثانية وثالثة بسبب ما كتبت أيديهم وكسبهم الباطل.

١٩- غرورهم وتزكيتهم لأنفسهم، وزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، والرد عليهم، وإبطال زعمهم، وقولهم على الله بلا علم، وبيان أن من عمل عملًا جوزي به أيًّا كان.

٢٠- أخذ الميثاق عليهم ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾، وأن يقولوا للناس حسنًا، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وتوليهم إلا قليلًا منهم وهم معرضون.

٢١- أخذ الميثاق عليهم بعدم سفك دمائهم، وإخراج أنفسهم من ديارهم، وإقرارهم

وشهادتهم على ذلك، ثم نقضهم ميثاقهم وقتل بعضهم لبعض، وإخراج فريق منهم من ديارهم بالإثم والعدوان، وشراؤهم الحياة الدنيا بالآخرة، وتوعدهم بردهم إلى أشد العذاب، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

٢٢- بيان قيام الحجة عليهم بإيتاء موسى الكتاب، وتتابع الرسل بعده منهم، وإيتاء عيسى ابن مريم البينات، وتأييده بروح القدس. وكل ذلك لم ينجع فيهم، فاستكبروا عما جاءتهم به الرسل، ففريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون. وزعموا أن قلوبهم غلف. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ٨٨].

٢٣- كفرهم بالقرآن المصدق لما معهم بعد معرفتهم له أنه من عند الله وحق وصدق- بغيًا وحسدًا- وغضب الله عليهم وتوعدهم بالعذاب الأليم.

٢٤- زعمهم الكاذب أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم ويكفرون بما وراءه، فكيف يكفرون بالقرآن وهو الحق مصدقًا لما معهم، ولم يقتلون أنبياء الله لو كانوا حقًّا مؤمنين؟!.

٢٥- ذمهم باتخاذهم العجل مع ما جاءهم به موسى- عليه السلام- من البينات على وحدانية الله تعالى ووجوب إخلاص العبادة له وحده.

٢٦- تذكيرهم بأخذ الميثاق عليهم وتهديدهم برفع الطور فوقهم، ليأخذوا ما آتاهم الله بقوة ويسمعوا، وعتوهم وتجبرهم وعنادهم، وقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وتعلق قلوبهم بحب العجل والشرك بالله، فأين هم من الإيمان؟!.

٢٧- زعمهم الباطل أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، والرد عليهم، وتحديهم بتمني الموت إن كانوا صادقين بهذا الزعم، وبيان أنهم لن يتمنوه أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والظلم، وموجبات سخط الله وعذابه، وبيان أنهم أشد الناس حرصًا على الحياة.

٢٨- عداوة اليهود لجبريل- عليه السلام، وأن الله عدو لهم ولعموم الكافرين، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٩٨].

٢٩- تكذيبهم الرسول ﷺ المصدق لما معهم ونبذهم كتاب الله تعالى القرآن الكريم

وراء ظهورهم، وهم يعلمون صدقه وصدق ما جاء به.

٣٠- اتباعهم ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وتعلمهم ما يضرهم ولا ينفعهم مع علمهم بأنه كفر لا خلاق في الآخرة لمن اشتراه واعتاض به عن الإيمان.

٣١- خبث اليهود وتوريتهم بقولهم للرسول ﷺ: ﴿رَٰعِنَا﴾ بوصفه بالرعونة، ونهي المؤمنين عن هذه المقالة، وأمرهم أن يقولوا: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ بعدًا عن اللبس ومشابهة اليهود.

٣٢- حسدهم للمؤمنين ومودتهم هم والمشركون أن لا ينزل على المؤمنين أي خير من ربهم ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الآية: ١٠٥].

٣٣- إثبات النسخ في القرآن الكريم، وفي الشرائع السماوية كلها، وإبطال إنكار اليهود له تشكيكًا بدعوته ﷺ وما جاء به من الوحي الناسخ لجميع الأديان. وبيان أقسام النسخ، والحكمة منه، وتقرير قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، وسعة ملكه- عز وجل- وسلطانه، لا ولي غيره، ولا ناصر سواه.

٣٤- تحذير هذه الأمة من أن يسألوا رسولهم كما سأل اليهود موسى- عليهم السلام- مما فيه جرأة على الله تعالى، كما في قولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ونحو ذلك مما فيه تبدل الكفر بالإيمان، والبعد عن سواء السبيل.

٣٥- مودة أهل الكتاب أن يردوا المؤمنين من بعد إيمانهم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق. وأمر المؤمنين بالعفو والصفح عنهم حتى يأذن الله بالأمر بقتال الكفار.

٣٦- أمر المؤمنين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وترغيبهم في تقديم الخير لأنفسهم؛ ليجدوا ثوابه عند الله- تعالى.

٣٧- زعم أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وبيان أن هذا مجرد أماني منهم، وإبطال زعمهم؛ ولهذا قال تعالى لهم: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الآيتان: ١١١، ١١٢].

٣٨- عداوة كل من اليهود والنصارى فيما بينهم، وتشكيك كل طائفة منهم بما عليه الأخرى مع أنهم يتلون الكتاب ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ [الآية: ١١٣].

٣٩- بيان أنه لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، والوعيد لمن فعل ذلك، وبيان أن لله- عز وجل- المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله.

٤٠- جرأة اليهود والنصارى في نسبتهم الولد إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وتنزيه الله تعالى نفسه عن قولهم، وبيان أن له ما في السموات والأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فلا حاجة لله إلى الولد.

٤١- شدة جهلهم وعتوهم وعنادهم في اقتراحهم أن يكلمهم الله، أو تأتيهم آية، وهذا يدل على عدم معرفتهم بالله تعالى وما يجب له من التعظيم، وعلى عدم اعتدادهم بمعجزة القرآن الكريم والتي هي أكبر معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٤٢- تنبيهه ﷺ على عدم رضى اليهود والنصارى عنه حتى يتبع ملتهم، ويترك هدى الله، وتحذيره من اتباع أهوائهم، والثناء على المؤمنين الذين يتلون الكتاب ويتبعونه ويؤمنون به، وبيان خسران من كفر به.

٤٣- ثم تعود الآيات لتأكيد تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم وتفضيلهم على عالمي زمانهم وترهيبهم من يوم القيامة وأهواله.

٤٤- تلا ذلك ذكر ابتلائه- عز وجل- لنبيه إبراهيم- عليه السلام- بكلمات وإتمامه- عليه السلام- لهن، وجعله للناس إمامًا، وقصة بناء البيت، وجعله مثابة للناس وأمنًا وتطهيره، ودعاء إبراهيم- عليه السلام- للبلد الحرام بالأمن ورزق أهله الثمرات من آمن منهم، ورفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ودعائهما الله أن يتقبل منهما، وأن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يريهم مناسكهم، ويتوب عليهم، وأن يبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

٤٥- تسفيه مَن رغب عن ملة إبراهيم، وبيان اصطفائه- عز وجل- له، وثنائه عليه في

سرعة استجابته لربه، وإسلامه له، ووصية إبراهيم- عليه السلام- بهذه الملة بنيه، وكذا أوصى بها يعقوب بنيه من بعده، ثم ختمت الآيات في هذا بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٣٤] في إشارة واضحة إلى أنه لا ينفع مجرد الانتساب إلى إبراهيم أو إلى يعقوب دون اتباع ما كانا عليه من الحنيفية السمحة.

٤٦- حصر أهل الكتاب الهداية فيمن كان هودًا أو نصارى، وإبطال قولهم هذا، وبيان أن الهداية في اتباع ملة إبرهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

٤٧- وجوب الإيمان بالله، وبما أنزل على رسولنا ﷺ وما أنزل على إبراهيم وعلى جميع الرسل والأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وعدم التفريق بينهم، وبيان أن أهل الكتاب إن آمنوا بمثل ما آمن به المؤمنون من هذه الأمة فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، ووعده- عز وجل- نبيه ﷺ بكفايته إياهم. ثم ختم هذا بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [الآية: ١٣٨].

٤٨- توبيخ أهل الكتاب في محاجتهم للرسول ﷺ والمؤمنين في الله، وفي قولهم: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى؛ والرد عليهم، وبيان أنه لا أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وتهديدهم باطلاع الله عليهم، ثم ختم هذا بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٤١] وفي هذا تأكيد لما سبق من الإشارة إلى أنه لا ينفعهم كونهم من نسل الأنبياء والصالحين ما لم يعملوا بعلمهم.

٤٩- ثم انتقلت السورة لذكر حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام وهي أكبر حادثة تشريعية في الإسلام بعد بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه، وهي أعظم أمر أقضَّ مضاجع بني إسرائيل بعد مبعثه ﷺ، ولهذا وطَّأ القرآن لذلك بذكر ما سيقول السفهاء من الناس- يعني اليهود- معترضين على حكم الله، وذلك تقوية لقلب النبي ﷺ، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [الآية: ١٤٢]، فرد عز وجل عليهم وبيَّن له ﷺ كيف يرد عليهم، كما بيَّن

نعمته على هذه الأمة بجعلهم أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدًا، وبيَّن الحكمة من تحويل القبلة، وهي معرفة مَن يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وطمأنهم بعدم تضييع صلاة من صلوا إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، ثم أمره ﷺ بالتوجه شطر المسجد الحرام، وأمر أمته بذلك، وبيَّن أن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم، وأنه لو جاءهم كل آية ما تبعوا قبلته وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وحذره من اتباع أهوائهم، وبيّن أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم يكتمون الحق وهم يعلمون، وبيَّن عز وجل أنه الحق الذي لا مرية فيه، ثم أكَّد عز وجل الأمر له ﷺ ولأمته بالتوجه شطر المسجد الحرام؛ لئلا يكون للناس عليهم حجة إلا الذين ظلموا منهم، ولإتمام نعمته عليهم وهدايتهم، كما هي نعمته الكبرى عليهم قبل ذلك بإرسال الرسول ﷺ فيهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم ختم الآيات في هذا بقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [الآية: ١٥٢]، إشعارًا بعظم هذه النعمة على الأمة وهي تحويل القبلة إلى البيت الحرام قبلة إبراهيم- عليه السلام، ووجوب ذكر الله وشكره عليها.

٥٠- أمر المؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة، وبخاصة عند المصائب، واحتساب من يقتل في سبيل الله أحياء عند الله تعالى، واحتساب ما يحصل من الابتلاء بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات عند الله- عزوجل، وختم هذا بالبشارة للصابرين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [الآية: ١٥٦]، وأثنى عليهم ووعدهم بالرحمة وحصر الاهتداء فيهم.

٥١- بيان أن الصفا والمروة من شعائر الله ومشروعية الطواف بهما.

٥٢- ذم الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ولعنهم إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا، والوعيد لمن كفروا وماتوا وهم كفار باللعنة والعذاب.

٥٣- إثبات ألوهية الله عز وجل ووحدانيته ورحمته، والتنبيه على آياته في خلق السموات والأرض، وفي الكون كله، الدالة على تمام قدرته وكمال عظمته لذوي العقول.

٥٤- ذم الذين يتخذون أندادًا من دون الله، ويشركونهم مع الله، وتصوير سوء حال المتبوعين وأتباعهم يوم القيامة، وبراءة بعضهم من بعض، وعداوة بعضهم لبعض، ورؤيتهم أعمالهم حسرات عليهم، وخلودهم في النار.

٥٥- أمر الناس بالأكل مما في الأرض حلالًا طيبًا، وتحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان وأوامره السيئة، والقول على الله بلا علم.

٥٦- ذم المشركين والكفار في تقليدهم آباءهم من غير تعقّل وعلى غير هدى، وتمثيل حالتهم بحال الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

٥٧- أمر المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله، وشكره وعبادته، وبيان المحرم عليهم، وإباحة الأكل منه عند الضرورة.

٥٨- ذم الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمنًا قليلًا، ويشترون الضلالة بالهدى، وحرمانهم تكليم الله وتزكيته لهم، وتوعدهم بالعذاب الأليم، وبيان أن الله أنزل الكتاب بالحق، وأن الذين اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد.

٥٩- ثم انتقلت السورة للتفصيل في كثير من الأحكام العقدية والعملية ابتدأتها بذكر آية جامعة لخصال البر وأعظم أصول الإسلام، وبيان أنه ليس البر مجرد التوجه جهة المشرق أو المغرب، وإنما البر بالإيمان بالله وبجميع أصول الإيمان، والعمل بجميع شرائع الإسلام، من إيتاء المال على حبّه للمحتاجين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء، وحين البأس، ثم ختم الآية بامتداح أهل هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الآية: ١٧٧].

٦٠- ثم ذكر وجوب القصاص في القتلى وحكمته، ووجوب العدل فيه، ورغب في العفو عنه تخفيفًا منه تعالى ورحمة، وتوعد من اعتدى بعد ذلك بالعذاب الأليم، ثم ذكر حكم الوصية، وحذر من تبديلها، ورغب في الإصلاح فيها.

٦١- ثم ذكر فرض صيام رمضان وحكمته وأحكامه، ونزول القرآن في هذا الشهر وأكد وجوب صيامه، وأباح الفطر للمريض والمسافر والقضاء تيسيرًا على الأمة،

وليكملوا العدة، ويكبروا الله على ما هداهم ويشكروه، وبيَّن عز وجل قربه من عباده وإجابته دعوة من دعاه، ورغبهم في الاستجابة له والإيمان به، ليرشدوا، كما بيَّن حل الجماع ليال الصوم، وإباحة الأكل والشرب والجماع من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ونهى عن مباشرة النساء حال الاعتكاف في المساجد.

٦٢- ثم نهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل وإلإدلاء بها إلى الحكام ليأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون. وأتبع ذلك بذكر سؤالهم عن الأهلة، وبيَّن لهم الحكمة فيها وفائدتها.

٦٣- ثم أمر المؤمنين بالقتال في سبيل الله للذين يقاتلونهم، ونهاهم عن الاعتداء، وحرضهم على القتال، فقال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [الآية: ١٩١]. وبيَّن أن الفتنة في الدين وصد الناس عنه أشد من قتلهم، ونهاهم عن قتالهم في المسجد الحرام حتى يقاتلوهم فيه، ثم أكد قتالهم مرة ثالثة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا كف عنهم فلا عدوان إلا على الظالمين.

ثم بيَّن أن الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى علينا نعتدي عليه بمثل ما اعتدى علينا في أي زمان ومكان، وحث على تقوى الله والإنفاق في سبيله، وحذر من الإلقاء بالأنفس إلى التهلكة بترك الجهاد، ورغب بالإحسان.

٦٤- ثم انتقلت السورة إلى الكلام عن الحج وأحكامه وآدابه بالأمر بإتمام الحج والعمرة لله، وبيان حكم الإحصار والواجب فيه، وفدية ارتكاب المحظور، وفدية التمتع، وبديلها، وبيان أن التمتع لغير أهل الحرم، وأن الحج أشهر معلومات، وبيان ما يجب على الحاج تركه، والترغيب في التزود، والحث على التقوى وأنها خير الزاد، وإباحة طلب الرزق في الحج والأمر بذكر الله بعد الإفاضة من عرفات عند المشعر الحرام، والإفاضة من حيث أفاض الناس، والاستغفار، والإكثار من الذكر بعد قضاء النسك وفي الأيام المعدودات، وبيان جواز التعجل من منى أو التأخر.

٦٥- ثم بيَّن أن من الناس ﴿مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [الآية: ٢٠٤]، ساعٍ في الأرض في الإفساد وإهلاك الحرث

والنسل متمادٍ في طغيانه وإفساده، فإذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد، ومنهم من يبيع نفسه طلبًا لمرضاة الله تعالى وشتان ما بين الفريقين: ساعٍ في هلاك نفسه، وساعٍ في فكاكها.

ثم أمر عز وجل الناس بالدخول في السلم كافة، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وحذرهم عقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، وضرب لهم مثلًا ببني إسرائيل الذين لم تنجع فيهم الآيات، وحذرهم من تبديل نعمة الله، والتعرض الشديد لعقابه.

وبيَّن أنه زُين للذين كفروا الحياة الدنيا، ولهذا ركنوا إليها، وأعجبوا بها وصاروا يسخرون من الذين آمنوا، والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة.

٦٦- ثم ذكر سبب إرسال الرسل، وهو اختلاف الناس بعد أن كانوا أمة واحدة على التوحيد والدين الحق، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فهدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

٦٧- تلا ذلك تقرير أن دخول الجنة يقتضي الابتلاء والتمحيص قبل ذلك، كما هي سنة الله تعالى فيمن خلوا مستهم البأساء والضراء وزلزلوا.

٦٨- ثم الإجابة عن سؤال بعض الصحابة ماذا ينفقون مبينًا ذلك، وما هو أهم وهو مصرف الإنفاق.

٦٩- ثم عادت السورة للكلام عن القتال ووجوبه، وبيان أنه أمر شاق مكروه للنفوس، وكم خير في كثير من المكاره، والإجابة عن سؤالهم عن حكم القتال في الشهر الحرام، وأنه أمر كبير، وأن الصد عن سبيل الله والكفر به والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أشد من القتل، وبعد التحريض على القتال ختم بوعد الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله برحمته فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الآية: ٢١٨].

٧٠- تلا ذلك الإجابة عن سؤال الصحابة- رضي الله عنهم- عن الخمر والميسر،

وبيان أن فيهما إثمًا كبيرًا ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، ثم الإجابة عن سؤالهم عن اليتامى بالترغيب بالإصلاح لهم وأنه خير، وبيان جواز مخالطتهم.

٧١- ثم انتقلت السورة إلى الكلام عن أحكام النكاح، وبدأت بالنهي عن مناكحة المشركين. تلا ذلك الإجابة عن سؤالهم عن المحيض، وبيان أنه أذى، والنهى عن جماع الحائض حتى تطهر وتغتسل، وبيان جواز إتيان المرأة على أي حال إذا كان ذلك في موضع الحرث، وختم ذلك بنهيهم أن يجعلوا الله عرضة لأيمانهم، وحائلًا بينهم وبين البر والتقوى، وبيان عدم مؤاخذتهم بلغو اليمين، وإنما يؤاخذون باليمين المنعقدة المكتسبة بالقلوب، ثم أعقب ذلك الكلام عن أحكام الإيلاء والطلاق والرضاع والعدة والخطبة والصداق ومتعة المطلقات.

٧٢- تلا ذلك الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، والقيام لله تعالى والقنوت له، والصلاة حال الخوف رجالًا وركبانًا، وختمت الآيات في هذه الأحكام بالامتنان عليهم ببيانه- عز وجل- لهم الآيات لعلهم يعقلون.

٧٣- ثم ذكر قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقال الله لهم موتوا ثم أحياهم. وأمرهم بالقتال في سبيل الله، والترغيب في الإنفاق والصدقة والقرض الحسن.

٧٤- ثم ذكر قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله وإظهار رغبتهم في القتال. فبعث الله لهم طالوت ملكًا. فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [الآية: ٢٤٧]. وابتلاءهم بالنهر وشربهم منه إلا قليلا منهم، وقتل داود جالوت وإيتاء الله داود الملك والحكمة وتعليمه مما يشاء، ثم ختم هذا بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٢٥٢].

٧٥- تلا ذلك التنويه بشأن الرسل السابقين وأخبارهم وتفضيل بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وإيتاء عيسى ابن مريم البينات، واقتتال الذين من بعدهم واختلافهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية.

٧٦- ثم أمر المؤمنين بالإنفاق مما رزقهم الله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [الآية: ٢٥٤].

٧٧- تلا ذلك ذكر أعظم آية في القرآن الكريم آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [الآية: ٢٥٥] التي اشتملت على أعظم صفات الله تعالى، من تفرده بالإلهية وكمالها، وكمال حياته، وكمال قيّوميته، وانتفاء النقص عنه وسعة ملكه، واختصاصه بكمال الملك، والتدبير، وسعة علمه، وعدم قدرة الخلق على الإحاطة بشيء من علمه، وسعة كرسيه للسموات والأرض، وكمال قدرته وحفظه، وكمال علوه وعظمته. ثم بيان عدم الإكراه في الدين؛ لتبين الرشد من الغي، وأن من كفر بالطاغوت، وآمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وبيان ولايته- عز وجل- للذين آمنوا، وإخراجه لهم من الظلمات إلى النور، وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الآية: ٢٥٧].

٧٨- ثم ذكر قصة الذي حاج إبراهيم في ربه، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: أنى يحيي الله هذه بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وجعله آية للناس.

٧٩- تلا ذلك ذكر قول إبراهيم- عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية: ٢٦٠] وذلك منه عليه السلام ليجمع بين علم اليقين وعين اليقين، ولهذا بين الله له ذلك.

٨٠- ثم عادت السورة إلى الترغيب في الإنفاق ببيان مضاعفة النفقات وأجور المنفقين، وحذرت من المن والأذى، وإبطال الصدقات بذلك، وبالرياء، ومثلت سوء حال المنفق ماله رئاء الناس، وحسن حال المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، وبيان ما له من المضاعفة. والأمر بالإنفاق من طيب الكسب، والنهي عن الإنفاق من الخبيث، والتحذير من الشيطان وتخويفه لهم بالفقر، وأمره لهم بالفحشاء، والثقة بوعد الله لهم

بالمغفرة والفضل.

ثم بيان أنه عز وجل يؤتي الحكمة من يشاء، والتنويه بمن أوتيها؛ لقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآية: ٢٦٩].

وبيان علمه عز وجل بكل ما ينفق، وما ينذر، ومجازاة صاحبه، وبيان جواز إبداء الصدقة وخاصة إذا كان في ذلك مصلحة، ورغب في إخفائها، وأنه خير، وأنها ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٧٣].

ثم ختم الآيات في الإنفاق بالوعد بالأجر العظيم للمنفقين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الآية: ٢٧٤].

٨١- ثم انتقلت السورة للكلام عن المعاملات، بالتحذير من الربا والتنفير عنه، وبيان قبح حال وصورة أهله في الدنيا والآخرة، ومحقه، وأمر المؤمنين بتقوى الله تعالى، وترك ما بقي من الربا إن كانوا مؤمنين حقًا، ثم بيان شدة خطره، وأنه محاربة لله تعالى، والترغيب في تركه، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٢٧٩].

ورغب- عز وجل- بإنظار المعسر إلى الميسرة، أو التصدق بالعفو عنه، فذلك خير، وأمر بتقوى يوم القيامة والاستعداد له.

٨٢- تلا ذلك ذكر أحكام الدين في أطول آية في القرآن الكريم، أمر الله فيه المؤمنين بكتابة الدين والإشهاد عليه وضبطه وتوثيقه، ونهى عن المضارة من الكاتب أو الشهيد، وبيّن مشروعية الرهان، وأمر بأداء الأمانة، ونهى عن كتمان الشهادة، وأكد سعة ملكه- عز وجل- ومحاسبته الخلائق على أعمالهم وقدرته التامة على ذلك.

٨٣- ثم ختمت السورة بالآيتين العظيمتين اللتين قال فيهما الرسول ﷺ: «من قرأ

الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»(١).

وقد تضمنت الآية الأولى منهما: الشهادة للرسول ﷺ والمؤمنين بإيمانهم بجميع أصول الإيمان، من الإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ من ربه، وبملائكته- عز وجل- وكتبه ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله، وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الآية: ٢٨٥].

وتضمنت الآية الثانية: بيان وتقرير أن الله- عز وجل- لا يكلف نفسًا إلى وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ثم ختمت الآية بمسك ختام هذه السورة العظيمة، وهو دعاء المؤمنين الجامع بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [الآية: ٢٨٦]، وفي الحديث قال الله: «**قد فعلت**»(١).

والخلاصة: أن هذه السورة فيما تناولته من الأحكام والآداب والأخلاق والحكم والقصص والأخبار، مما لا يمكن حصره تعد منهجًا متكاملًا في تربية الأمة في جل جوانب الحياة ومسائل الدين. وقد تركز الكلام فيها- غالبًا- على أمرين هامين اقتضتهما حالة الأمة في الحقبة الأولى من دولة الإسلام في المدينة:

الأول: الكلام عن بني إسرائيل وكفرهم نعم الله تعالى، وتكذيبهم لرسله ولنبينا محمد ﷺ، وما هم عليه من ذميم الصفات. وقدّم هذا في النصف الأول من السورة تحذيرًا للمؤمنين من مسالكهم، وتسلية للرسول ﷺ.

والأمر الثاني: التشريع للدولة الإسلامية الفتية، وهو ما تناولته السورة من قبل منتصفها إلى آخرها.

***

---

(١) سيأتي تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

سبق الكلام في تفسير الاستعاذة والبسملة.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

افتتح الله ﷻ تسعًا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓرٰ﴾، ﴿الٓمٓرٰ﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿طه﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿يسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾.

فافتتح ﷻ ست سور بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ هي سورة البقرة، وآل عمران والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

وافتتح سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾.

وافتتح خمس سور بقوله تعالى: ﴿الٓرٰ﴾ هي سورة يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

وافتتح سورة الرعد بقوله تعالى: ﴿الٓمٓرٰ﴾.

وافتتح سورة مريم بقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

وافتتح سورة طه بقوله تعالى: ﴿طه﴾.

وافتتح سورتين بقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ هما سورة الشعراء، والقصص.

وافتتح سورة النمل بقوله تعالى: ﴿طسٓ﴾.

وافتتح سورة يس بقوله تعالى: ﴿يسٓ﴾.

وافتتح سورة ص بقوله تعالى: ﴿صٓ﴾.

وافتتح ست سور بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ هي سورة غافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

وافتتح سورة الشورى بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾.

وافتتح سورة ق بقوله تعالى: ﴿قٓ﴾.

وافتتح سورة القلم بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾.

واختلفوا هل تعد هذه الحروف آيات أو لا؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-(١): «وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء، وإنما يعدها آيات الكوفيون».

قلت: وعلى قول الكوفيين جاء ترقيم وعد آيات المصحف حيث عدت هذه الحروف آية من السورة التي جاءت فيها عدا قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ فعدوها آيتين من السورة، وعدا قوله تعالى: ﴿الٓرٰ﴾، ﴿الٓمٓرٰ﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾ فعدوها بعض آية من السورة.

كما اختلفوا في إعرابها: فذهب الخليل وسيبويه وأكثر المعربين إلى أنها حروف هجاء محكية، لا محل لها من الإعراب.

وذهب بعضهم إلى أنها معربة ومحلها الرفع على الابتداء لخبر مقدر، أو على الخبر لمبتدأ مقدر، وقيل: محلها النصب على المفعول به بتقدير: اقرأ ﴿الٓمٓ﴾ ونحو ذلك.

وقيل: محلها الجر بالقسم.

والراجح القول الأول: أنها لا محل لها من الإعراب.

كما اختلف المفسرون سلفًا وخلفًا في المراد بهذه الحروف.

فذهب جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، واختار هذا بعض المفسرين، منهم جلال الدين السيوطي(٢) والشوكاني(٣)، والسعدي. قال السعدي(٤): «وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٢٠).

(٢) انظر: «الإتقان» (٤/ ٣، ١١٨).

(٣) انظر: «فتح القدير» (١/ ٣٢).

(٤) انظر: «تيسير الكريم الرحمٰن» (١/ ٣٩).

الجزم بأن الله لم ينزلها عبثًا، بل لحكمة لا نعلمها».

وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الحروف ليست من المتشابه لكنهم اختلفوا في المراد بها اختلافًا كثيرًا، وحكى في ذلك نحو من ثلاثين قولًا.

فقيل: هي حروف يتكون منها اسم الله الأعظم.

وقيل: هي أسماء للسور المفتتحة بها، كتسميه «الم السجدة» و«طه»، و«يس»، و«ص»، و«ق».

وقيل: هي من أسماء القرآن، وقيل: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها.

وقيل: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيتها.

وقيل: هي فواتح يفتتح الله بها القرآن، وقيل للدلالة على انتهاء السورة التي قبلها، وافتتاح ما بعدها.

وقيل: هي حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة، وقيل: هي أسماء للرسول ﷺ.

وقيل: لصرف أسماع المشركين إلى القرآن الكريم لما تواصوا بعدم سماع القرآن.

وقيل: هي حروف من حساب الجمل. وقيل: هي تنبيه كـ«يا» النداء.

وأقرب الأقوال في المراد بها: أنها حروف من حروف الهجاء، كما قال مجاهد[1] فهي حروف هجائية لا معنى لها بحد ذاتها لكن لذكرها مغزى وحكمة، وهي بيان إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به، وبيان أن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من هذه الحروف الهجائية التي يتخاطبون بها، ويؤيد صحة هذا القول أمران:

الأول: أن القول بأن لها مغزى وحكمة فيه بيان أن لها فائدة عظيمة- وإن كانت في حد ذاتها حروفًا من حروف الهجاء المعروفة ليس لها معنى؛ بخلاف القول بأنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ لأن الله- عز وجل- خاطب العرب بما يعرفون، وبذلك قامت عليهم الحجة، كما قال ﷻ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

كما أن بقية الأقوال التي قيلت في المراد بها لا دليل عليها، ولا حكمة تظهر منها ولا فائدة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٢٠٩) – تحقيق التركي.

الثاني: أن جميع السور المفتتحة بالحروف المقطعة يذكر فيها بعد هذه الحروف- غالبًا- الثناء على القرآن الكريم وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه، كقوله تعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

ولهذا، فإن كل السور المبدوءة بهذه الحروف مكية؛ لإفحام المشركين، إلا البقرة وآل عمران.

وبهذا القول- وهو: أن هذه الحروف ذكرت لبيان إعجاز القرآن- قال جمع من أهل اللغة؛ منهم: المبرد[١]، وقطرب والفراء، واستظهر هذا الراغبُ الأصفهاني[٢]، واختاره الزمخشري[٣]، والرازي[٤]، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمزي، وابن القيم[٥]، وابن كثير[٦]، ومحمد رشيد رضا[٧] والشنقيطي[٨]، والعثيمين[٩]، وغيرهم.

قال ابن كثير[١٠]- رحمه الله- بعدما ذكر عددًا من الأقوال في المراد بهذه الحروف، قال: «وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. قال: وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في «كشافه» ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٥٥- ٥٦).

(٢) انظر: مقدمة «جامع التفسير» لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق أحمد حسن فرحات (ص١٤٢).

(٣) في «الكشاف» (١/ ١٣- ١٨).

(٤) في «التفسير الكبير» (١/ ٣- ١٢).

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩، «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٢٣).

(٦) في «تفسيره» (٧/ ٥٩) طبعة دار الشعب.

(٧) في «تفسير المنار» (٨/ ٢٩٦).

(٨) في «أضواء البيان» (٣/ ٥).

(٩) في «تفسيره» (١/ ٢٢- ٢٣).

(١٠) في «تفسيره» (١/ ٣٨)- الطبعة الحلبية.

ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية».

وقال ابن القيم- رحمه الله[١]: «والصحيح: أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسما به، وإما مخبرا عنه ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها.. وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته».

قال رحمه الله في «النونية»[٢]:

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحـ ـرفها تـرى سرًّا عظـيم الشـانِ
لم يـأت قـطّ بسـورة إلا أتـى في إثرهـا خـبر عـن القـرآنِ
إذ كـان إخبـارًا بـه عنهـا وفي هـذا الشـفاء لطالـب الإيـمانِ
ويـدلّ أن كلامـه هـو نفسـها لا غيرهـا والحـق ذو تبيـانِ
فـانظر إلى مبـدا الكتـاب وبعـدها الأ عـراف ثـم كـذا إلى لقـمانِ
مـع تلوهـا أيضًـا ومـعْ حـم مـعْ يـس وافهـم مقتضـى القـرآنِ

وذكر شيخنا محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله- أمثلة لما افتتح بهذه الحروف من السور القليلة التي ليس فيها ذكر للقرآن، ولكن فيها ذكر شيء من خصائص القرآن كقوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] فهذه السورة جاء فيها ذكر خاصية من خصائص القرآن وهي ذكر قصص من كان قبلنا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢٠]. والآيات بعدها، وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١، ٢] فهذه السورة

(١) انظر «بدائع التفسير» (٤/ ٤٩٩).
(٢) ص٤٦، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

ليس فيها ذكر للقرآن، ولكن فيها ذكر شي من خصائصه، وهو الإخبار عن المستقبل: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢- ٤]، وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢] فهذه السورة ليس فيها ذكر القرآن ولكن فيها ذكر شيء من خصائصه وهو القصص: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣][(١)].

وأيضًا، فإن المتأمل في السور التي لم يرد فيها الثناء على القرآن وذكر إعجازه، مما افتتح بهذه الحروف؛ وهي: مريم، والعنكبوت، والروم، والقلم- يجد أنها اشتملت على معانٍ تدل على إثبات النبوة وصدق القرآن.

فالخلاصة أن هذه الحروف- والله أعلم- ذكرت في مطلع بعض السور لحكمة عظيمة وهي بيان إعجاز القرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه[(٢)]، وتحدي الخلق وبخاصة العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان والذين نزل القرآن بلغتهم، وأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور مثله، بل بسورة من مثله، مع أنه بهذه الحروف التي ينطقون بها، كما قال ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[(٣)].

ومما يؤسف له أن هذه اللغة العظيمة التي وسعت كتاب الله ﷻ وهي وعاؤه، والتي هي أعظم اللغات وأفضلها وأوسعها وأحسنها تكاد تحتضر وتوأد عقوقًا على يد أبنائها باستبدالهم اللغات واللهجات العامية مكانها، ومزاحمتها باللغات الأجنبية، مما يمثل خطرًا عظيمًا على الأمة في أغلى شيء لديها وهو دينها وموروثها، في فهم كتاب ربها

---

(١) انظر «تفسير القرآن الكريم- الفاتحة، البقرة» لفضيلة الشيخ محمد العثيمين (١: ٢٣).

(٢) وليس في عدد حروفه وحسابها، كما زعم أدعياء الإعجاز العددي أن هذه الحروف تدل على إعجاز من نوع العدد والحساب؛ لأن القرآن نزل لإصلاح الخلق، لا لامتحان عقولهم بالعدد.

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٦٠)- من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ، وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

وسنة نبيها ﷺ.

ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم حيث قال من قصيدة على لسان اللغة العربية[١]:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالا وأكفاءً وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم في الجرائد مزلقا ... من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجة ... فاعلم أن الصائحين نعاتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمري لم يقس بممات

---

(١) انظر: «ديوان حافظ إبراهيم» ص٢٥٣.

ولهذا فإن مما يتوجب على الأمة العربية والإسلامية ممثلة بحكوماتها وشعوبها، بجامعاتها ومؤسساتها التعليمية ومراكز البحوث ووسائل الإعلام المشهودة والمسموعة والمرئية العناية التامة باللغة العربية لغة القرآن الكريم من خلال تعليم اللغة العربية الفصحى في جميع مراحل التعليم مقرونا بالتطبيق والمحاكات والتمرين والتدريب على النطق الصحيح السليم، بدلًا من الطريقة التقليدية العقيمة المتبعة في تعليم اللغة العربية في كثير من البلاد العربية والإسلامية وغيرها.

ومن خلال اعتماد اللغة العربية الفصحى في كل ما يكتب وينشر من الكتب والبحوث والمقالات وفي وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وفي الإعلانات، وفي إلقاء المحاضرات والدروس ما أمكن.

ومن خلال تأسيس جمعيات للغة العربية في جميع البلاد العربية والإسلامية، ومواقع على شبكة الإنترنت تكون مهمتها الحفاظ على اللغة الفصحى لغة القرآن الكريم بالتواصل مع جميع المؤسسات الحكومية والأهلية العامة والخاصة في البلاد العربية والإسلامية وتشجيعها على التزام اللغة العربية وبيان أن ذلك مما يثاب عليه لما فيه من الحفاظ على لغة القرآن الكريم، والتوعية بأهمية ذلك والتنبيه على الأخطاء الشائعة، وبخاصة ما ينشر على اللوحات الإعلانية في الأماكن العامة، وفي الصحف والمجلات، وعلى شاشات الفضائيات، وفي الكتابة والتخاطب عبر وسائل الاتصال الحديثة. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ «ذا»: اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف للخطاب، وهو عام لكل من يصح خطابه.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن الكريم، وهو على وزن «فعال» بمعنى «مفعول» أي: مكتوب لأنه مكتوب عند الله ﷻ في اللوح المحفوظ، وهو أيضًا مكتوب بالصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣- ١٦].

وهو مكتوب بالمصاحف التي بأيدي المؤمنين.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» لعظيم شرفه وعلو منزلته، فهو أعظم وأشرف الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله ﷻ؛ لما اشتمل عليه من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الريب الشك، أي: لا شك فيه أبدًا، لا قليل ولا كثير، بأي وجه من الوجوه، فالجملة خبرية والنفي فيها على بابه، وعلى عمومه وإطلاقه، فالقرآن بذاته حق لا شك فيه ينزل من عند الله يقينًا وحقا، وكل ما جاء فيه حق وصدق، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار وعدلا في الأحكام.

ولا يقدح في عموم نفي الشك في القرآن وإطلاقه شك من شك فيه من أهل الكفر والزيغ والضلال فقد ينكر الأعمى ضوء الشمس، والمريض طعم الماء، كما قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم[١]

وقال المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا[٢]

وأيضًا فالجملة وإن كانت خبرية تدل على نفي الريب والشك مطلقًا في القرآن، فهي متضمنة لمعنى النهي عن الشك فيه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ «هدى» خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هو هدى للمتقين، أي: نور وبيان لهم يدلهم إلى الطريق المستقيم، وسبب لتوفيق الله لهم في الدنيا والآخرة.

و﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جمع متقي، أي: الذين اتقوا الله، وخافوا عذابه.

والتقوى هي أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، و«التقوى» أصلها «وقوى» قلبت الواو تاءً لعلة تصريفية. فقيل: «تقوى»، وهي مأخوذة من الوقاية من الضرر والشيء المخوف كالوقاية من البرد والحر والشوك، ونحو ذلك.

وأعظم ذلك الوقاية من عذاب الله تعالى بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، وهي تجمع بين العلم والعمل والاحتساب، كما قال طلق بن حبيب في بيان معنى التقوى: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»[٣].

قال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا[٤]

وخصت الهداية للمتقين؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن، الموفقون للاهتداء والعمل به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» ص٢٤٧ .

(٢) انظر: «ديوان المتنبي» ص١٤١ .

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص (٤٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٤) وابن أبي شيبة في «كتاب الإيمان» ص (٩٩).

(٤) البيت لأفيون التغلبي. انظر: «لسان العرب» مادة «وقى»، «الصناعتين» ص٢١٧.

وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

قال ابن القيم: «فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، تفوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوت حظًّا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه»(١).

وإلا فإن القرآن هدى هداية عامة للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة أن القرآن هدى للمتقين، لأنهم هم الذين يهتدون وينتفعون به، ثم أتبع ذلك بذكر صفاتهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهذه هي الصفة الأولى.

والإيمان في اللغة التصديق، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١]، وقال إخوة يوسف فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] أي: وما أنت بمصدق لنا. والإيمان في الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الغيب: ما غاب عن العباد فلم يدركوه بحواسهم، كما قال تعالى عن

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٦١).

نفسه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والمعنى: الذي يصدقون ويقرون بما أخبر الله به ﷻ في كتابه، وعلى لسان رسول الله ﷺ من أمور الغيب كأركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

وكذلك الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله من أمور الغيب السابقة واللاحقة، كأخبار الأمم السابقة، وعلامات الساعة والجنة والنار وغير ذلك.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وتحميدًا، وكذلك تسبيحا... الحديث**»(٢).

وإنما بدأ بذكر الإيمان بالغيب لأنه ركن الدين الركين وأسه المتين، فالله غيب وملائكته غيب وكتبه ورسله غيب واليوم الآخر غيب والجنة والنار غيب، فمن لم يؤمن بالغيب، مما أخبرت به الرسل، وجاءت به الكتب من عند الله فليس بمؤمن، كأهل الإلحاد والكفر، وأهل البدع من المعتزلة والجهمية وأتباعهم من العقلانيين وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩، ٢٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم أيضًا من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٠)، وأحمد (٢/ ٢٥١).

وما ضل أكثر الخلق إلا بسبب عدم الإيمان بالغيب وتحكيم الحواس والإدراك، مما يدل على مدى ضعف الإنسان وقلة علمه، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] ولهذا لمَّا قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: هل رأيت ربك قال: «**نور أنى أراه**»(١).

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه الصفة الثانية من صفات المتقين، فبعد أن ذكر إيمانهم وتصديقهم بالغيب أتبع ذلك ببيان اتباعهم ذلك بالعمل؛ لأن الإيمان قول واعتقاد وعمل، فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: ويقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، ويأتي التعبير- غالبًا في القرآن الكريم والسنة النبوية بإقامة الصلاة- دون أن يقال: «**يصلون**» لأن المهم في الصلاة إقامتها إقامة تامة كما شرعها الله ﷻ.

والمراد بالصلاة ما يعم الفرائض والنوافل.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادع لهم، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»(٢).

وفي الحديث: «هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال ﷺ: «**الصلاة عليهما، والاستغفار لهما**»(٣).

وقال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرَّبْتُ مرتحلًا ... يا رب جنب أبي الأوصابَ والوجعا
عليكِ مثل الذي صليتِ فاغتمضي ... نومًا فإن لجنب المرء مضطجعًا(٤)

والصلاة في الشرع: التعبد لله ﷻ بأقوال وأفعال مخصوصة معلومة مفتتحة،

---

(١) أخرجه النسائي في السهو (١٣٠٥)- من حديث عمَّار بن ياسر- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٧٨)، وأبو داود في الزكاة (١٥٩٠)، والنسائي في الزكاة (٢٤٥٩)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤)، من حديث مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

(٤) البيتان للأعشى انظر «ديوانه» ص (١٥١).

بالتكبير مختتمة بالتسليم، وبدأ بذكر الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وفيها كمال التعظيم لله ﷻ، والتذلل والخضوع له، وهي عمود الإسلام، وقاعدته التي يدور عليها رحاه، فمن أقامها وحفظها حفظه الله ووفقه في دينه ودنياه وأخراه، فلا تسأل عن سعادته، ومن ضيعها خسر دينه ودنياه وأخراه- فلا تسأل عن شقائه(١).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المتقين، وهي الإنفاق مما رزقهم الله، فوصفهم بإقام الصلاة التي هي حق الله تعالى، وفيها يتجلى كمال الخضوع له، والإحسان في عبادته، ثم وصفهم بالإنفاق مما رزقهم، وفيه يتجلى كمال الإحسان إلى الخلق.

و«ما» في قوله ﴿وَمِمَّا﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: ومن الذي أعطيناهم، أو ومن عطائنا ينفقون، والرزق هو العطاء، أي: ومن الذي أعطيناهم من الرزق والخير ينفقون.

والإنفاق: إخراج المال وبذله، والمراد به هنا بذل المال في وجوهه المشروعة، ومن أعظم ذلك وأهمه الزكاة الواجبة، فهي أعظم العبادات بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية مطلقًا، وهما من أعظم أركان الإسلام ومبانيه العظام قال ﷺ: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»(٢).

وفي قوله ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تذكير بأن ما لديهم من رزق وعطاء هو من الله ﷻ وأن المال مال الله ﷻ لا يجوز البخل به، ومنع حقوق الله فيه، بل يجب إخراج النفقات الواجبة فيه كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ونحو ذلك كما ينبغي التصدق منه في الوجوه المستحبة. قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: أنفق أنفق عليك**»(٣)،

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣).

وقال ﷺ لأسماء رضي الله عنها: «**أنفقي، ولا تحصي فيحصى الله عليك، ولا توعي فيوعى الله عليك**»(١).

وقد أحسن القائل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائع(٢)

وقال الآخر:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض بالمال(٣)

وقال الآخر:

المال كالماء إن تحبس سواقيه ... يأسن وإن يجر يعذب منه سلسال

الله أعطاك فابذل من عطيته ... فالمال عارية والعمر رحّال

أحتال للمال إن أودى فأجمعه ... ولست للعرض إن أودى بمحتال

البخل يودي بأقوام ذوي حسب ... ويقتدي بلئام الأصل أنذال

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من صفات المتقين أي: والذين من صفتهم أنهم يُصدقون بالذي أنزل إليك وهو القرآن الكريم، ويعملون بما فيه، وبدأ بالقرآن- وهو خاتم كتبه ﷻ وآخرها- لأنه أفضل كتب الله ﷻ مهيمن عليها وناسخ لها.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: ويصدقون بالذي أنزل من قبلك من الكتب السماوية السابقة، كالتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وغيرها، وأن الله ﷻ أنزلها على رسله- عليهم الصلاة والسلام- كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩١)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٩)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٠)، من حديث أسماء رضي الله عنها.

(٢) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ص١٧٠ .

(٣) البيت لحسان رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص ١٩٢.

أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ [النساء: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال ﷺ: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله ورسله، فإن كان باطلًا لم تصدقوه، وإن كان حقًّا لم تكذبوه**»(١).

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ هذه هي الصفة الخامسة من صفات المتقين، وهي إيقانهم بالآخرة، ونص عليه وخصه بالذكر مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بالآخرة من أعظم ما يحمل على امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن فيه المجازاة على الأعمال، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى**» أي: لتهالك الناس على الشهوات والمناهي وتنكَّر بعضهم لبعض.

والآخرة: الدار الآخرة التي بعد الدنيا والبعث، سميت بذلك لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد الدنيا، وهي الدار الحقة، التي ينبغي أن يعمل ويستعد لها، ويحسب لها كل حساب؛ لأنها هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

واليقين: الإيمان والعلم الجازم الذي لا يتطرق إليه شك، أي: يؤمنون إيمانًا جازمًا بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء على الأعمال، بالثواب والعقاب والجنة والنار، ويستعدون لذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

الإشارة إلى المتقين المتصفين بالصفات المذكورة، وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في الموضعين، تعظيمًا لشأنهم، وبيانا لرفعة مرتبتهم وعلو منزلتهم.

﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، أي: على هداية من ربهم؛ هداية علم وبيان بكتابه الذي هو هدى للمتقين، وهداية توفيق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٤٤)، وأحمد (٤/ ١٣٦)- من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه.

مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] أي: دالهم ومرشدهم ومنور قلوبهم بالإيمان والعلم النافع، وموفقهم للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٥].

وجاء في التعبير بـ«على» الدالة على الاستعلاء؛ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى مرتفع به، ونكر «هدى» للتعظيم، أي هدى عظيم، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تعظيم أيضًا للهدى الذي منحهم الله إياه، وامتنان عليهم به لأنه من ربهم، خالقهم ومالكهم ومربيهم بربوبيته الخاصة بأوليائه، فأعظم به من هدى، وأكرم بها من منة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

أي: أولئك هم الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة؛ الفائزون بالجنة، الناجون من النار، وقد أكد هذا الوعد لهم، وحصره فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم وعظمته والتحدي بفصاحته وبلاغته وإعجازه؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

٢- أن القرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ، وبالصحف التي بأيدي الملائكة، وبالمصاحف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾.

٣- أن القرآن العظيم أعظم الكتب، وأعظم كتب الله تعالى وإذا أطلق بالتعريف ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ فالمراد بذلك القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ ولا يقدح في هذا إطلاق ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ على التوراة؛ لأنها كانت أعظم كتب الله تعالى المنزلة قبل القرآن الكريم، فلما نزل القرآن الكريم صار هو المهيمن على جميع الكتب السماوية والحاكم عليها وأعظمها وأفضلها، كما قال تعالى في سورة المائدة بعدما امتدح التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [الآية: ٤٨].

٤- أن القرآن الكريم حق وصدق لا شك فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

وبهذا يُرد على القول بتعدد نزول بعض السور وتكرره، بناءً على آثار رويت في ذلك صحت أو لم تصح.

كما يرد بهذا على قول من قال: إن ترتيب السور كان اجتهاداً من الصحابه رضي الله عنهم.

كما يرد بهذا قول من قال: إن البسملة لم تكتب في مطلع سورة براءة؛ لاختلاف الصحابة: هل هي والأنفال سورة واحدة أو سورتان؟

وهذا باطل؛ فالصحيح أنها لم تكتب في مطلع براءة؛ لأنها لم تنزل مع هذه السورة، ولو نزلت لحفظت، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾، [الحجر:٩].

كما يرد بهذا قول من قال: إن للقرآن الكريم تَنزُّلَين: الأول: من السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ومن ثم نزل مفرقاً بعد ذلك.

والصحيح: أن القرآن نزل مرة واحدة؛ نزل من السماء السابعة من عند الله تعالى بواسطة جبريل مباشرة إلى النبي ﷺ، وكان أول نزوله في رمضان، ثم تتابع نزوله بعد ذلك مفرقاً.

٥- أن القرآن هدى وبيان وإرشاد للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٦- فضل التقوى والترغيب فيها وعظم مكانة المتقين؛ لأن الله خصهم بهداية القرآن الكريم الخاصة، وإلا فهو من حيث العموم هدى لجميع الناس.

٧- الثناء على المتقين بذكر صفاتهم والتنويه والترغيب فيها، من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله، والإيمان بالقرآن والكتب المنزلة قبله والإيقان بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٨- عظم مكانة الإيمان بالغيب من الإيمان فهو أصل الإيمان ومن أعظم واجباته وأركانه، فالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر كل ذلك من الإيمان بالغيب؛ لهذا جعل من أخص وأول صفات المتقين الإيمان بالغيب، وفي هذا ردٌّ على المعتزلة ومن سار على منهجهم من العقلانيين الذي لا يوقنون إلا بالمشاهد المحسوس.

٩- عظم مكانة الصلاة في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولا غرو في هذا، فهي

عمود الإسلام، والركن الثاني من أركانه بعد الشهادتين، وأعظم العبادات، والصلة بين العبد وبين ربه؛ لأن الله جعلها أول صفات المتقين بعد الإيمان بالغيب.

١٠- فضل الإنفاق من رزق الله في الواجب والمستحب؛ لأن الله ثنى بالإنفاق بعد إقام الصلاة؛ ولهذا فالزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي: أعظم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة.

١١- لابد من الإيمان بجميع ما أنزل على الرسل، فبهذا يصح الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

١٢- إثبات أن الله ﷻ عال على خلقه بائن منهم له علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١٣- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله ﷻ غير مخلوق، وكذا غيره من كتب الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

١٤- وجوب الإيقان بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

١٥- جمع التشريع الإسلامي بين طهارة الباطن والظاهر، وأعمال القلوب الباطنة، وأعمال الجوارح الظاهرة، بين الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله.

١٦- حصر هداية الله تعالى في المتقين المتصفين بالصفات المذكورة، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٨- حصر الفلاح والفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة وتأكيده للمتقين الموصوفين بما ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾.

عظم الله ﷻ كتابه العزيز في مطلع السورة، وبين أنه هدى للمتقين المتصفين بالصفات المذكورة، وأكد وحصر الهداية والفلاح فيهم، ثم ذكر ﷻ الذين لم يهتدوا بالقرآن، ففاتهم هدى ربهم وتوفيقه.

وهم قسمان: قوم أظهروا الكفر، ذكرهم ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ الآيتين [٦، ٧]، وقوم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكذب وهم المنافقون، ذكرهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [٨- ٢٠]، وهكذا جاء تقسيم الناس في سورة النور إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين، وكفار، ومنافقين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الكفر معناه في اللغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: أعجب الزراع، ومنه سميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل «الكُفُّرى»؛ لأنه يستر ما بداخله من الطلع.

وهو في الشرع نوعان: كفر أكبر مضاد للإيمان، ومخرج من الملة وموجب للخلود في النار.

وقد قسمه ابن القيم إلى خمسة أقسام(١):

١- كفر تكذيب وجحود، وهو اعتقاد كذب الرسل فيما جاؤوا به من عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

٢- كفر استكبار وإباء- مع التصديق- ككفر إبليس- لعنه الله- كما قال تعالى:

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٥- ٣٧٩).

وانظر «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٣٥) «الدرر السنية» (٢/ ٧٠- ٧١، «عقيدة التوحيد ص (١- ١٠١)، وانظر لسان العرب مادة «كفر».

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ومنه كفر اليهود كما قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

٣- كفر إعراض بأن يعرض الإنسان عن الرسول ﷺ بسمعه وقلبه، ولا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء إليه البتة.

٤- كفر الشك، بأن لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا بكذبه، بل يشك في أمره. قال ابن القيم: «وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة».

٥- كفر النفاق وهو أن يظهر الإيمان بلسانه، وينطوي بقلبه على التكذيب، وهذا هو المنافق.

والنوع الثاني من الكفر: الكفر الأصغر، الذي لا يضاد الإيمان بالكلية، ولا يخرج من الملة، ولا يخلد صاحبه في النار، وإنما يوجب استحقاق الوعيد، كما في قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(١) وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٢)، وقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**»(٣).

ومن الكفر الأصغر: الرياء قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء**»(٤).

ومنه كفر النعمة وعدم شكرها، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: مستوٍ عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨) ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٢)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام والتسوية، والخطاب للنبي ﷺ.

والإنذار: الإعلام مع التخويف، كما قال لقيط الإيادي مخبرا ومحذرا قومه غزو كسرى(١):

أبلغ إيادًا، وخلّل في سراتهم ... إني أرى الرأي إن لم يعصَ قد نصعا
يا قومُ لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُرًا ... على نسائكم كسرى وما جمعا
هذا كتابي إليكم والنذير معًا ... لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل ... فاستيقظوا إن خيرَ العلم ما نفعا

وهو ﷺ منذر ومحذر للكافرين ومبشر للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨].

﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ «أم»: حرف عطف، أي: أم لم تُعلمهم وتُخوفهم.

والمعنى: مستوٍ على هؤلاء الكفار المعاندين، أأنذرتهم وخوفتهم عقاب الله تعالى وعذابه أم لم تخوفهم، أي يستوي ويعتدل عندهم إنذارك لهم وعدم إنذارك، أي يستوي عندهم الأمران. كما قال الأعشى(٢):

وليل يقول المرء من ظلماته: ... سواء بصيرات العيون وعورها

وكما في قول بثينة:

سواء علينا يا جميل بن معمر ... إذا مت بأساء الحياة ولينها(٣)

قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بما جئت به، ولا ينقادون له، كما قال تعالى عن المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] وفي هذا تسلية له ﷺ، لأنه ﷺ حريص على أن يؤمن جميع الناس.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) من قصيدة له بعنوان «صرخة غيور». انظر: «ديوانه» ص٤، «الذخائر والعبقريات» ٢/ ٢٢٢.

(٢) انظر «ديوانه» ص (٣٧٣).

(٣) انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ١/ ٤٣٣ .

عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ هذا تعليل لما قبله، وهو عدم إيمانهم، أي: لأن الله ختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

والختم: الطبع والتغطية والإغلاق، أي: طبع الله على قلوبها وغطى عليها وأغلقها، فلا تفقه ولا تعي الآيات والإنذار، ولا يصل إليها أي خير، ولا يصدر منها كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: وختم على سمعهم، فلا يسمعون الإنذار والآيات، ولا ينتفعون بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥، الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ الواو استئنافية، والغشاوة: الغطاء، أي: وعلى أبصارهم غطاء يحول بينها وبين النظر، فلا يشاهدون الآيات الشرعية والكونية ولا ينتفعون بها.

فانسدت أمامهم طرق الهداية والإيمان كلها بالختم على قلوبهم فلا تفقه ولا تعي، وعلى أسماعهم فلا تسمع ولا تنتفع، وعلى أبصارهم غشاوة فلا تبصر.

وبدأ بالقلوب؛ لأن القلب محل الصلاح أو الفساد، وهو سيد الجوارح وأميرها، وأتبع ذلك بذكر السمع والأبصار؛ لأن السمع والبصر طريقا وصول العلم والهدى إلى القلب، وهذه الأعضاء هي وسائل المعرفة عند الإنسان.

ولهذا ذم الله ﷻ الكفار لعدم استفادتهم منها فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾

[الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهو ما أقروا به بقولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وذلك بسبب منهم، لا بظلم الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ولهؤلاء الكفار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ من حيث نوعه وكمه وكيفه. وإذا كان الله ﷻ وصفه بالعظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا هو ﷻ.

وهو عذاب حسي للأبدان، وعذاب معنوي للقلوب، عذاب في الدنيا للأبدان بالقتل والجراح ونحو ذلك، على أيدي المؤمنين، وبما يصيبهم من العقوبات والمصائب بسبب كفرهم، وعذاب معنوي للقلوب لما هم عليه من الشقاء الدنيوي والاضطراب النفسي والحيرة والتبلبل بسبب ما هم عليه من الكفر.

وعذاب في الآخرة حسي للأبدان ومعنوي للقلوب في النار وما فيها من الجحيم والزمهرير والحميم والزقوم، وما فيها من التوبيخ والتقريع، كقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨- ١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن

نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي لما فيه من تحطيم القلوب والمعنويات، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٤- ٧]، أي: التي تحطم كل ما يلقى فيها وتشرف على القلوب فتحطمها تحطيما معنويًا.

قال ابن القيم: «ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار؛ فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك»(١).

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس تجاه هداية الكتاب والإنذار والإيمان إلى قسمين: متقين مؤمنين- ذكر الله صفاتهم في الآيات السابقة، وكفار، منهم كفار خلص كفرهم صريح ذكرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وكفار منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾- إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الآيات: ٨-٢٠].

٢- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

٣- تسلية الرسول ﷺ أمام تجبر قومه وعنادهم وكفرهم لئلا تذهب نفسه عليهم حسرات.

٤- أن على الرسول ﷺ الإنذار والتخويف والتحذير، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

٥- استواء الإنذار وعدمه عند من عميت بصيرته، نسأل الله الهداية.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٦٥).

٦- عقوبة الله تعالى للكفار بالختم على قلوبهم وعلى سمعهم وبالغشاوة على أبصارهم، فلا ينفذ الإنذار إلى قلوبهم، ولا إلى أسماعهم، ولا ترى طريق الحق والآيات أبصارهم، فانغلقت لديهم أبواب الاهتداء وطرقه بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾.

٧- الوعيد للذين كفروا بالعذاب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

ذكر الله ﷻ المؤمنين وصفاتهم وما هم عليه من الهداية والفلاح في خمس آيات في مطلع هذه السورة ثم ذكر الذين كفروا وما هم عليه من الإصرار على الكفر وعدم الإيمان وتوعدهم بالعذاب العظيم في آيتين. ثم أتبع ذلك بذكر الفريق المذبذب بين المؤمنين والكافرين وهم المنافقون، وبيان ما هم عليه من دعوى الإيمان والكذب والمخادعة ومرض القلوب، والإفساد في الأرض والمكابرة والسفه والضلال، وما هم فيه من الظلمات والحيرة وشدة الخوف مبينا إحاطته ﷻ بهم متوعدًا لهم بالعذاب الأليم في ثلاث عشرة آية من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٨- ٢٠].

فبدأ ﷻ بذكر الطيب ثم الخبيث ثم الأخبث منه، نزولا من الأعلى إلى الأسفل؛ فبدأ ﷻ بذكر المتقين وصفاتهم تعظيمًا لشأنهم وتشريفا وتكريما لهم، ثم ثنى بذكر الكافرين، وقدمهم على المنافقين؛ لأن كفرهم دون كفر المنافقين، ثم ختم بذكر المنافقين، وما هم عليه من الكفر والنفاق، وأخَّرهم، وأطال في ذكر أعمالهم السيئة؛ تحقيرا لهم، وتحذيرا منهم، وبيانا لما هم عليه من الصفات الذميمة، إذ جمعوا بين الكفر والنفاق والكذب وسيء الأخلاق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

الواو: عاطفة، أو استئنافية، و«من» للتبعيض، أي: وبعض الناس ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهم المنافقون، ولم يصفهم بإيمان ولا كفر؛ لأنهم مذبذبون بين ذلك، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال

تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

و «الناس» أصلها الأناس فخففت بحذف الهمزة لكثرة الاستعمال، قال الشاعر:

إن المنايـــــا يطلعـــــــــن عـــلى الأنـــاس الآمنينـــا(١)

وهو مأخوذ من «النوس» وهي الحركة، أو من «الإيناس» وهو المشاهدة، أو من «الأنس» لأنهم يأنس بعضهم ببعض، وكل هذه المعاني فيهم، فهم ينوسون ويتحركون لقضاء حوائجهم، وهم يشاهدون أي غير مستترين كالجن، وهم أيضًا يأنس بعضهم ببعض؛ لأن الإنسان- كما قال ابن خلدون: «مدني بالطبع».

أما القول بأنه مشتق من النسيان كما قيل:

ومـا سـمي الإنسـان إلا لنسـيه ولا القلـــب إلا أنـــه يتقلـــب

فهذا ليس بصحيح، قال ابن القيم: «لأنه لو كان الإنسان مشتقًا من النسيان لقيل: «نسيان» لا «إنسان»(٢).

و«من» في قوله ﴿مَن يَقُولُ﴾ موصولة، أي: الذين يقولون بألسنتهم صدقنا بالله وباليوم الآخر، ولفظ الجلالة «الله» علم على الرب ﷻ ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيما، والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أعيد حرف الجر للتوكيد. واليوم الآخر: يوم القيامة وما فيه من بعث الأجساد والحساب والجزاء على الأعمال، ويدخل فيه كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه وغير ذلك. وسمي اليوم الآخر لأنه يأتي بعد نهاية الدنيا.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الواو حالية، و«ما» نافية، والباء لتأكيد النفي، أي: وما هم بمؤمنين بقلوبهم بل هم كفرة مكذبون، كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص (٣٢)، «لسان العرب» مادة «نوس».

(٢) انظر «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٤).

وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ [النساء: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٤٨]، فنفى عنهم الإيمان؛ لأنهم ادعوا الإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، ولم تنقاد جوارحهم. والإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

فهؤلاء الصنف ليسوا من المؤمنين الخلص، ولا من الكفار الخلص، بل هم بين هؤلاء وهؤلاء، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وسموا بالمنافقين أخذًا من نافقاء اليربوع، وهو دويبة صغيرة، يحفر جحرًا في الأرض، ويجعل في نهايته مخرجًا للطوارئ، عليه قشرة رقيقة من التراب، فإذا داهمه عدو من باب جحره المسمى بالقاصعاء ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج.

وهكذا المنافقون يأتون المؤمنين بوجه، ويقولون: نحن منكم، ويأتون الكفار بوجه آخر ويقولون: نحن معكم- كما ذكر الله عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وهذا هو النفاق الاعتقادي الذي يخلد أصحابه في النار، وهم أشد كفرًا من أهل الكفر الظاهر؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والتكذيب، ودعوى الإيمان، وهم أشد الناس عذابًا، فهم في الدرك الأسفل من النار، وهم أشد خطرًا على الأمة؛ لوجودهم بين ظهراني المسلمين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون: ٤] فحصر العداوة فيهم.

ولم يوجد النفاق أول الأمر في مكة بل الذي وجد خلافه وهو إخفاء الإيمان خوفًا من بطش المشركين وتعذيبهم، ولما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه، وأعز الله الإسلام بعد وقعة بدر أظهر أناس من أهل المدينة ومن أهل الكتاب، ومن الأعراب الإيمان نفاقًا، وأبطنوا الكفر حفاظا على أنفسهم وأموالهم، وكيدًا للإسلام، كعبد الله بن أبي بن

سلول، ففضحهم الله وأظهر عوارهم في هذه الآيات، وفي غيرها من الآيات في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾.

قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: المخادعة: المفاعلة من الخدع، أو الخداع، وهو التغرير.

أي: يعتقدون أنهم يخدعون الله بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر، وأن ذلك نافعهم عنده، وأن ذلك يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على لفظ الجلالة «الله» أي: ويخادعون الذين آمنوا بما يظهرون من الإيمان مع كفرهم في الباطن، مداهنة ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ويعيشوا عيش البهائم.

﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «يُخادعون» بضم الياء وألف بعد الخاء وكسر الدال، وقرأ الباقون «يخدعون» بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الدال من غير ألف.

الواو: حالية، و«ما» نافية في الموضعين، و«إلا» أداة حصر أي: وما يخدعون في الحقيقة ويضرون بهذا النفاق إلا أنفسهم، فضرر خداعهم محصور فيهم، وعلى أنفسهم، ولا يضرون الله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢].

لأن الله ﷻ يعلم سرهم وعلانيتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، كما أنهم إن خدعوا المؤمنين في الظاهر فعاقبة خداعهم ونهايته عليهم وهم المتضررون به لا غيرهم.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ الواو: حالية، أو عاطفة، أي: وما يحسون، وما يدركون؛ لضعف أحاسيسهم وموت شعورهم، وجهلهم أنهم في مخادعتهم الله والمؤمنين إنما يخدعون أنفسهم، حيث منوها الأماني الكاذبة، وأوردوها موارد الشقاء والهلاك والردى.

وهذا لعمر الله من أدهى المصائب وأعظم البليات أن يخدع الإنسان نفسه وهو لا

يشعر.

قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ مرض القلب خروجه عن صحته وسلامته واعتداله وهو نوعان:

أ- مرض حسي، كمرض سائر أعضاء البدن؛ كارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، وارتخاء عضلات القلب، وانسداد صماماته ونحو ذلك.

ب- ومرض معنوي، وهو ينقسم إلى قسمين:

١- مرض شهوة، وهو أقسام ثلاثة: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة اتباع الهوى.

٢- ومرض شبهة وشك وكفر ونفاق، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾.

قال ابن القيم: «ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفا بالحق محبا له، مؤثرا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمى الله كلا منهما مرضا»(١).

وفي مجيء جملة ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ اسمية دلالة على ثبوت هذا المرض وتمكنه من قلوبهم.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ الفاء عاطفة، وفيها معنى السببية، أي: فتسبب- ذلك أن زادهم الله مرضا غطى على قلوبهم وران عليها، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وفي هذا دلالة على أن سبب إضلال الله لهم هو من تلقاء أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنفال: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٦٦).

أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

كما أن فيه دلالة على زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأنه إذا كان مرض القلوب يزيد وينقص فكذلك الإيمان يزيد وينقص.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العذاب: العقاب ﴿أَلِيمٌ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسيا للأبدان ومعنويا للقلوب من التقريع والتوبيخ والإهانة لهم مما قد لا يقل عن الألم الحسي، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٧].

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ الباء للسببية، وما مصدرية.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بفتح الياء وإسكان الكاف وكسر الذال.

وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال «يُكَذِّبون».

أي: بسبب كذبهم بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وبسبب تكذيبهم الله ورسوله، فاجتمع في المنافقين أقبح الصفات، وأسوأ الخصال؛ الكفر والتكذيب، وهذه شر الأحوال؛ ولهذا توعدهم الله بسبب ذلك بالعذاب الأليم، بل بأشد العذاب، وهو الدرك الأسفل من النار؛ لأن الجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

أبهم القائل هنا وفي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾ ليعم أي قائل كان، أي: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: لا تفسدوا في الأرض. والإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي، والذي يكون سببًا لهلاك الحرث والنسل، وكثرة المصائب والكوارث من الزلازل والأعاصير، والأوبئة والأمراض الفتاكة، والجدب والقحط، والحروب المدمرة،.. وفقدان الأمن وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ

عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ «إنما»: كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما نحن إلا مصلحون، أي نعمل للإصلاح، أو للإصلاح بين المؤمنين والكافرين، ومدارة هؤلاء وهؤلاء، وهذا منهم قلب للحقائق، وجمع بين فعل الإفساد واعتقاده إصلاحا؛ لأن نظرتهم للحياة نظرة مادية بهيمية فقط.

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

«ألا» للتنبيه والتوكيد، و«إن» للتوكيد، وضمير الفصل هم أيضًا للتوكيد والحصر.

﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ أي: المفسدون حقًا غاية الإفساد وأشده، وليس غيرهم؛ ولهذا قال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

فكذبهم ﷻ بدعواهم الإصلاح، وحصر الإفساد فيهم، وأكده بأربع مؤكدات وهي «ألا» التي تفيد التنبيه والتوكيد، و«إن» وضمير الفصل «هم»، وتعريف الخبر «المفسدون».

فهم أشد الناس فسادًا في الأرض بكفرهم بربهم ومعصيتهم له وشكهم في دينه، وزعمهم كذبًا أنهم مؤمنون، وهم أعظم خطرًا على الإسلام والمسلمين من جميع طوائف الكفر والضلال، من أهل الشرك والإلحاد ومن اليهود والنصارى وغيرهم؛ لأنهم بهذا المسلك وهو إظهار الإسلام مع إبطان الكفر يكيدون للإسلام أشد من

أعدائه الظاهرين، فهم بين أظهر المسلمين يطلعون على أسرارهم ويفشونها إلى أعدائهم يزعمون أنهم مع المؤمنين، ويوالون أهل الكفر من اليهود والمشركين وغيرهم، بل يتمالؤون معهم ضد المؤمنين، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وقال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ولكن لا يحسون ولا يدركون أنهم هم المفسدون حقًا، بل يرون الإفساد إصلاحا، والإساءة إحسانا، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقد أحسن القائل:

يقضي على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الكاف: للتشبيه، وهي صفة لمصدر محذوف، أي: آمنوا إيمانًا كإيمان الناس، أي: إيمانًا يتوافق فيه الفعل مع القول، والباطن مع الظاهر؛ قولًا باللسان، واعتقادا بالقلب، وعملا بالجوارح، إيمانًا بالله وملائكته

وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبكل ما يجب الإيمان به من المغيبات السابقة واللاحقة، مما أخبر الله به ورسوله ﷺ واستسلموا لذلك وانقادوا له بفعل الأوامر وترك النواهي.

والمراد بالناس الصحابة- رضي الله عنهم- وغيرهم من المؤمنين.

وإنما قيل لهم هذا القول؛ لأن إيمانهم مجرد دعوى، وقول بلا عمل، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم؛ ولهذا لم ينكروا ذلك، بل قالوا إقرارًا منهم، وأنفة أن يكونوا مع المؤمنين بمنزلة واحدة، وعلى طريقة واحدة:

﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي والتحقير، أي: أنؤمن إيمانًا كإيمان السفهاء، ويعنون بذلك- أخزاهم الله- صحابة رسول الله ﷺ وغيرهم من المؤمنين.

والسفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف، والسفه ضد الرشد والعقل، والسفه يكون في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقالت الجن فيما حكى الله عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

كما يكون السفه في المال؛ فالسفيه في المال من لا يحسن التصرف فيه ولا يعرف وجوه المصالح فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

ويكون السفه في الولاية، فالسفيه في الولاية من لا يحسن التصرف فيها، سواء كانت من الولايات العامة، أو الولايات الخاصة.

ومراد المنافقين في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ رمي الصحابة وغيرهم من المؤمنين بالسفه في الدين والذي هو أعظم أنواع السفه؛ ولهذا رد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا دأب المكذبين ودعاة الباطل يصفون أهل الحق ومن يدعوهم إلى الله من الرسل وغيرهم، ويرمونهم بأبشع الصفات، لينفروا الناس منهم ومن اتباعهم، فيرمونهم بالسفه والجنون والسحر والكهانة والشعر وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]،

وقالوا أيضًا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وكم لاقى علماء ودعاة الإسلام عبر تاريخ الأمة الطويل من الأذى والاتهام من دعاة الباطل، من المنافقين والكفار وأهل البدع والمعاصي.

وفي هذا دروس للدعاة إلى الله ﷻ؛ ليعلموا أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وليس مفروشا بالورود والرياحين، وكما قيل:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود(١)

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أكد ﷻ في هذه الآية السفه وحصره فيهم، كما أكد وحصر الإفساد فيهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

فهم السفهاء حقًا؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا بما جاءهم من الحق مما يدل على جهلهم بمصالح أنفسهم وسعيهم فيما يضرها وهذا هو عين السفه، وفي هذا رد عليهم ودفاع عن المؤمنين وقد أحسن القائل:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل(٢)

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون العلم الذي ينتفعون به، ولا يعلمون أنهم هم السفهاء، لعمى قلوبهم وانطماس بصائرهم، وجهلهم المطبق.

وقال هنا ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فنفى عنهم العلم لأن السفه والجهل أمر معنوي، بينما قال في الآية السابقة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لأن الإفساد في الأرض أمر حسي يدرك بالحواس.

فسبب ضعف إدراكهم وموت حواسهم وجهلهم المطبق، وعدم علمهم وانطماس بصائرهم يدَّعون الإيمان وهم كاذبون، ويخدعون أنفسهم وما يشعرون، ويفسدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون، وهم في الحقيقة هم المفسدون ولكن لا يشعرون،

---

(١) البيت للشاعر وليد الأعظمي من قصيدة له في كتابه «الزوابع» بعنوان «شباب الجيل». انظر: «الأعمال الشعرية الكاملة» ص٨٥.

(٢) البيت للمتنبي، انظر: «ديوانه» ص١٨٠.

ويرمون المؤمنين بأنهم السفهاء وهم في الحقيقة هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: إذا قابلوا الذين آمنوا أو كانوا معهم ﴿قَالُوٓا۟ ﴾ أي: قالوا للمؤمنين ﴿ءَامَنَّا ﴾ بألسنتهم، وأظهروا ذلك لهم نفاقًا ومصانعة دون اعتقاد ذلك بقلوبهم.

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾ ضُمن الفعل ﴿خَلَوْا۟ ﴾ معنى (رجعوا) أو (انصرفوا) ولهذا عدي بـ«إلى» ولو لم يضمن لقيل: مع شياطينهم، والمعنى: وإذا رجعوا أو انصرفوا إلى شياطينهم خالين بهم، ليس معهم أحد من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

والشياطين: جمع شيطان، مشتق من شطن بمعنى بعد عن رحمة الله تعالى، وعن كل خير، وهو: كل متمرد عاتٍ خارج عن طاعة الله تعالى، من الإنس والجن والحيوان قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

والمراد شياطينهم كبراؤهم ورؤساؤهم في الكفر من المنافقين واليهود والمشركين.

﴿قَالُوٓا۟ ﴾ أي: قالوا لشياطينهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي: إنا على دينكم، ثابتون على ما أنتم عليه من الاعتقاد، أعوان لكم على من خالفكم.

وقد خاطبوا المؤمنين بقولهم ﴿ءَامَنَّا ﴾ بالجملة الفعلية بلا تأكيد، إما؛ لعلمهم أن ذلك لا يروج على المؤمنين، وإما؛ لعدم اهتمامهم بهم، وخاطبوا قومهم بقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ بالجملة الاسمية المؤكدة بأن الدالة على الثبوت؛ تأكيدًا لقومهم، وكان الأولى العكس، أي التأكيد للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين يشكّون في إيمانهم، أما قومهم فلا داعي لتأكيد الكلام لهم لعلمهم بهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٠٢)، والنسائي في القبلة (٧٥٠)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٥٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تقرير وتأكيد لقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر «مستهزون» بالتخفيف بلا همز، وقرأ الباقون بالهمز ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

و«إنما»: أداة حصر، أي ما نحن إلا مستهزئون.

والاستهزاء: السخرية، يقال: هزأ، واستهزأ، فالسين والتاء للتأكيد، أي: إنما نحن ساخرون بالمؤمنين، مخادعون لهم، بقولنا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فهم يَلْقُون المؤمنين بوجه ويلقون الكافرين بوجه آخر؛ ذلًا منهم وخوفًا وجبنًا؛ ليسلموا من ملامة هؤلاء وهؤلاء، ولو عاشوا أذل العيش، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: من الذي يعاقبهم وينتصر للمؤمنين فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ ولهذا قدم اسم الله ﷻ تقوية للحكم، وتنويهًا بشأن دفاعه عز وجل عنهم، ونصره لهم.

والمعنى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: الله يستهزئ ويسخر بهم مجازاة لهم على استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وإلا فإنه ﷻ لا يوصف بالاستهزاء والسخرية والمخادعة والمكر والكيد مطلقًا، وإنما يستهزئ ﷻ بالمستهزئين به وبدينه وبرسله وأوليائه، ويخادع المخادعين في ذلك، ويمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين. ووصفه بأنه يستهزئ بالمستهزئين، ويخادع المخادعين ويمكر بالماكرين ويكيد للكائدين من كماله ﷻ وتمام قدرته وقوته؛ ولهذا قال هنا ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠، الأنبياء: ٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «وأما الاستهزاء والمكر بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر، فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم، وأما إذا كان جزاءً على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلًا حسنًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، وكذلك جزاء المعتدي بمثل فعله، فإن الجزاء من جنس العمل، وهذا من العدل الحسن، وهو مكر وكيد إذا كان يظهر له خلاف ما يبطن».

ومن استهزائه ﷻ بهؤلاء المنافقين المستهزئين أن زين لهم ما هم عليه من الأعمال والأحوال الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، وعصم دماءهم وأموالهم، مع ما أعد لهم من العذاب الأليم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار.

قال ﷻ مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

ومن ذلك ما يقال لهم في عرصات القيامة: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وهو من استهزاء الله بهم ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾، أي: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم.

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان مجاوزة الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، أي: يتجاوز حدَّه.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٧١).

ومنه سمي الطاغوت؛ لتجاوزه الحد في الكفر.

ومعنى ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي: فيما هم فيه من مجاوزة الحد في الكفر والنفاق والخداع والإفساد والاستهزاء، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»(١).

﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم يعمهون، والعمه: الضلال والحيرة وانطماس البصيرة، كالعمى بالنسبة للبصر، أي: يتخبطون في الضلال والحيرة لا يعرفون الحق ولا يهتدون إليه، كما قال تعالى في إخوانهم الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

هذا مقابل قوله تعالى في المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وقوله تعالى في الكفار: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الإشارة للمنافقين الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما بعده، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك»؛ تحقيرًا لهم، وإشارة لسفول منزلتهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب- تحريم الظلم (٢٥٨٣)، والترمذي في التفسير (٣١١٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)- من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ أي: اختاروا ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: العماية، وهي ما هم عليه من النفاق والكفر والخداع والسفه، والاستهزاء بالمهتدين.

﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بالإيمان، فبذلوا الهدى والإيمان ثمنًا للضلالة والنفاق.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ الفاء عاطفة.

و«ما» نافية، والربح في الأصل: الزيادة على رأس المال.

والتجارة: في الأصل اسم يقع على عقود المعاوضات التي تطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك.

أي: فما ربحت تجارتهم حين اشتروا الضلالة بالهدى، بل خسروا أعظم الخسران، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، أي: وما كانوا على هدى في منهجهم ومسلكهم حيث اختاروا الضلالة واعتاضوا بها عن الهدى فخسروا الصفقتين فلا ربح ولا هدى.

الفوائد والأحكام:

١- دعوى فريق من الناس الإيمان بالله واليوم الآخر قولًا بألسنتهم فقط وهم المنافقون، ونفي الله ﷻ وإبطاله لقولهم، وتأكيد عدم إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢- لابد في الإيمان من تطابق القلب وتواطؤه مع اللسان، فالإيمان بمجرد اللسان ليس بشيء.

٣- بلاغة القرآن الكريم وحسن نظمه وترتيبه، فابتدأ في هذه السورة بذكر المؤمنين الخُلَّص عناية بهم وتعظيمًا لشأنهم، ثم ثنى بذكر من عداهم وهم الكفار، وقسمهم إلى قسمين: كفار خلَّص كفرهم صريح، ومنافقون جمعوا بين الكفر والكذب وأخَّر ذكر هذا القسم وهم المنافقون؛ لأنهم أشد كفرًا، وأعظم عذابًا، فانتقل من الحسن إلى السيئ، ثم إلى الأسوأ.

٤- في إظهار بعض الناس الإيمان مع كفرهم في الباطن دلالة على ظهور الإسلام وقوة

شوكته وقت نزول الآيات؛ لأنهم إنما سلكوا هذا المسلك لتسلم لهم دماؤهم وأموالهم؛ ولهذا لم يظهر النفاق إلا في المدينة بعد أن قويت شوكة الإسلام.

٥- أن الإيمان بالله؛ بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته هو أصل الإيمان وأعظم أركانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

٦- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان لقرنه بالإيمان بالله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وهذا يرد كثيرًا في القرآن الكريم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحفز ويحمل على العمل.

٧- أن يوم القيامة هو آخر الأيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ ولهذا يقال: إن آخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

٨- مخادعة المنافقين الله والذين آمنوا، وهم في الحقيقة إنما يخدعون أنفسهم؛ لأن الله ﷻ لا يخدع، ولا يخفى عليه شيء ولأن خداعهم للمؤمنين لا يضرهم، وإنما يعود ضرره على المنافقين أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٩- أن سبب ضلال المنافقين مرض قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

١٠- إثبات زيادة الأعمال صالحة أو غير صالحة، وزيادة الإيمان والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

١١- الوعيد الشديد للمنافقين بالعذاب الأليم بسبب كذبهم ونفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وفي هذا ذم الكذب والنفاق.

١٢- ربط المسببات من العقوبات وغيرها بأسبابها وأن الله ﷻ لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾.

١٣- زعم المنافقين الإصلاح، والرد عليهم، وبيان أنهم هم المفسدون في الأرض حقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

١٤- تحريم الإفساد في الأرض، وأن النفاق من أعظم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٥- ينبغي الحذر من المنافقين، وصفاتهم الذميمة، فهم يدعون الإيمان وهم كاذبون، ويزعمون الإصلاح وهم المفسدون.

١٦- موت شعور المنافقين، وضعف أحاسيسهم، وانطماس بصائرهم، وعمى قلوبهم، وهذا من أعظم البلوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

١٧- وجوب الإيمان بكل ما أوجب الله الإيمان به؛ لقوله تعالى: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

١٨- شدة طغيان المنافقين وإعجابهم بأنفسهم؛ لإنكارهم على من يدعوهم إلى الإيمان، ورميهم المؤمنين بالسفه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

١٩- جرأة المنافقين ونحوهم من أعداء الله ورسله على وصف الرسل وأتباعهم بأبشع الأوصاف؛ تنفيرا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

٢٠- دفاع الله ﷻ عن المؤمنين ورده رمي المنافقين لهم بالسفه، وبيان وتأكيد أن المنافقين هم السفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾.

٢١- جهل المنافقين وعدم علمهم بما ينفعهم حقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فجمع الله لهم بين السفه وعدم الفهم؛ لأن نظرتهم للحياة نظرة مادية بهيمية يريد الواحد منهم العيش ولو عاش عيشة الذل والخسف، عيشة الحمار.

٢٢- أن كل من لم يؤمن فهو سفيه جاهل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٢٣- ذل المنافقين وخوفهم من الناس وتذبذبهم بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

٢٤- ذم المنافقين لأن الله سمى كبراءهم ورؤساءهم شياطين فقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ

شَيَٰطِينِهِمۡ ﴾.

٢٥- استهزاء المنافقين بالمؤمنين بقولهم إذا لقوهم: «آمنا»؛ ومن ثم قولهم إذا خلوا إلى شياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

٢٦- أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به أو برسله وأوليائه أو بشرعه على سبيل المجازاة لهم، وهذا حق؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ فزين لهم ما هم عليه من النفاق بعصمة دمائهم وأموالهم حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم.

٢٧- أن الجزاء من جنس العمل، فالله ﷻ إنما يستهزئ بالمستهزئين، وهذا عدل وحق.

٢٨- إمداد المنافقين والإملاء لهم وتركهم على ما هم عليه من العتو والعناد؛ ليزدادوا طغيانا وإثما؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾.

٢٩- أن الطغيان ومجاوزة الحد سبب للضلال والحيرة، وعمى البصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾.

٣٠- أن الله ﷻ يملي للظالم حتى يستمر ويزداد في طغيانه حتى إذا أخذه لم يفلته.

٣١- تحقير المنافقين وبيان سفههم وفساد رأيهم، حيث اشتروا الضلالة بالهدى، واختاروا الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾.

٣٢- خسران المنافقين الصفقتين، فلا تجارتهم ربحت- فيما يطمعون فيه بالربح- ولا اهتدوا لطريق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾.

وبهذا خسروا الخسران المبين، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

٣٣- أن الربح كل الربح في اتباع هدى الله والإيمان به، وأن الخسران كل الخسران في الضلال والكفر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ دعوى المنافقين الإيمان كذبًا ومخادعتهم وإفسادهم في الأرض وزعمهم الإصلاح ورميهم المؤمنين بالسفه واستهزائهم بهم ورد عليهم في ذلك كله وبيَّن أنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى فخسروا الصفقتين فلم تربح تجارتهم ولم يهتدوا للحق.

ثم ضرب لهم ولما هم عليه من النفاق والحال السيئة مثلين في هذه الآيات: أحدهما ناري فيه بيان عظم ما هم فيه من الظلمات والضلال والحيرة، والثاني مائي فيه بيان عظم ما هم من الخوف.

وضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المعاني فَيُشبّه أمر معنوي بأمر حسي، وقد يشبه أمر حسي بأمر حسي أوضح منه، وقد يشبه أمر معنوي بأمر معنوي أظهر منه، وكل ذلك بقصد الإيضاح والبيان.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

هذا هو المثل الناري فشبه الله المنافقين بمن استوقد نارًا... إلخ.

قوله: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: مثل المنافقين، أو فريق منهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الكاف للتشبيه، والمثل: الشبه، أي: كشبه الذي استوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة، أي: طلب من غيره أن يوقد له نارًا، أو أن يعطيه جذوة من نار، أو أوقد نارًا بنفسه، وعلى هذا تكون السين والتاء فيه للمبالغة، وضرب هنا مثل الجماعة بالواحد، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ «ما» موصولة أي: فلما أنارت الذي حول هذا المستوقد فانتفع بها وأبصر ما عن يمينه وشماله، وما أمامه وما خلفه.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ جواب الشرط «لما» أي: ذهب الله بما ينفعهم وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان؛ ولهذا لم يقل: ذهب الله بنارهم.

وفي التعبير بقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون أن يقول «أذهب الله نورهم» تأكيد لعدم عود النور إليهم؛ لأنه لو قال: أذهب الله نورهم، لاحتمل رجوع النور إليهم، فلما قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دل ذلك على تأكيد عدم عودة النور إليهم.

وجمع الضمير هنا وفيما بعده؛ لأن الاسم الموصول «الذي» يفيد العموم، أي: ذهب الله بنور هذا المستوقِد ومن معه، وترتيب ذهاب نورهم بعد الإضاءة ترتيب الجواب على الشرط يدل على أنه بمجرد الإضاءة ذهب النور.

وقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم- مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ لأن الضوء هو زيادة النور فإذا ذهب النور فذهاب زيادته وهو الضوء من باب أولى.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ظلمات: جمع ظلمة، وهي ظلمة الليل؛ لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل، والنار إنما تضيء في الليل لا في النهار.

وأيضًا ظلمة أخرى، وهي التي تحصل بعد ذهاب النور وانطفائه مباشرة، وهي أضعاف الظلمة الموجودة قبل إيقاد النار.

﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد من حيث المعنى لقوله: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ دال على شدة الظلمة، أي: لا يبصرون، أي شيء مهما كان كبيرًا أو صغيرًا قريبًا أو بعيدًا، أو غير ذلك.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم صم بكم عمي.

و «صم» جمع أصم، وهو الذي لا يسمع، أي: صم لا يسمعون أي صوت مهما كان عاليًا أو منخفضًا.

﴿بُكْمٌ﴾ جمع «أبكم» وهو الذي لا ينطق، أي: بكم لا ينطقون بأي كلمة.

﴿عُمْىٌ﴾ جمع «أعمى» وهو الذي لا يُبصر، أي: عمي لا يبصرون أي شيء مهما كان.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ الفاء: عاطفة، وفيها معنى السببية، أي: فهم بسبب ذلك لا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبل استيقاد النار وبعده، وعماهم عليه من الصم والبكم والعمى فبقوا في الظلمات ضالين متحيرين.

فشبه الله ﷻ حال المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى، وما هم فيه من الظلمات والضلال والحيرة بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، فكما أن هذا المستوقد قد صار هو ومن معه في أشد الظلمات الحسية بعد ذهاب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم الآذان فلا يسمعون، وبكم الألسنة فلا ينطقون، وعمي الأبصار فلا يبصرون، فهم لا يتمكنون من الرجوع إلى حالهم قبل هذه الظلمات فكذلك حال المنافقين يعطون في الدنيا نورًا معنويًا ظاهرًا حسب إيمانهم الظاهر يعيشون به بين المؤمنين عيشة مادية بهيمية يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، مع ما في قلوبهم وباطنهم من الظلمات المعنوية الشديدة والمتراكمة؛ ظلمات الجهل والكفر والشك والنفاق والتذبذب والحيرة، لا يبصرون ولا يهتدون إلى طريق الحق، صم القلوب لا يستمعون إلى داعي الحق، ولا ينتفعون بما يسمعون فكأنهم لا يسمعون، كما قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

قال الشاعر:

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا[1]

بكم الألسنة لا ينطقون بالحق ولا يسألون عنه فكأنهم لا ينطقون.

﴿عُمْيٌ﴾ القلوب لا ينظرون في آيات الله الكونية والشرعية، ولا يتأملون فيها، ولا يهتدون بها في معرفة الحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا

(١) البيت لقعنب بن أم صاحب. انظر: «أمالي المرتضى» ١/ ٣٢.

لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

كما يُعطى المنافقون يوم القيامة بصيصًا من النور الظاهر يذهب وينطفئ على جسر جهنم أحوج ما كانوا إليه فيضلون في أحلك الظلمات ويكردسون في النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وقال ﷺ: «**إن الله يعطي كل مؤمن ومنافق نورًا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله تعالى ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون**»(١).

قال ابن القيم:

«وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا، وفسرت بأنها في البرزخ، وفسرت بيوم القيامة، والصواب أن ذلك شأنهم في الدور الثلاث، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ، وفي القيامة بمثل حالهم، جزاءً وفاقًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فإن المعاد يعود إلى العبد فيه ما كان حاصلًا منه في الدنيا؛ ولهذا يسمى يوم الجزاء ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ومن كان مستوحشا مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار فوحشته معه في البرزخ ويوم المعاد أعظم وأشد، ومن قرت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرت به عينه يوم القيامة وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه»(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إشارة إلى أن المنافقين لما آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم كان ما معهم من النور كالمستعار، وذلك إنما حصل لهم بسبب وجودهم بين ظهراني المؤمنين.

وفي قوله: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ إشارة إلى أن النور لم ينفذ إلى قلوب هؤلاء المنافقين،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- آخر أهل النار خروجًا منها (١٩١)، وأحمد (٣/ ٣٨٣)- من حديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنهما.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٨١).

وإنما كان خارجًا عنها، لذا لم يستفيدوا منه إلا استفادة ظاهرة مادية مؤقتة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ تشبيه للمنافقين بمن حصلت له إضاءة ثم أعقبها ذهاب النور وتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ لأن المنافقين آمنوا ثم كفروا، أو لأنهم آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ تأكيد لذهاب النور كلية عن هذا المستوقد ومن معه وذهاب الإضاءة من باب أولى لأنها ثمرة النور، ففيها تأكيد بانعدام النور كلية من قلوب هؤلاء المنافقين في الدنيا فهم في حيرة واضطراب وشك وجهل وكفر، وهكذا حالهم في البرزخ وفي عرصات القيامة.

وفيه دلالة على أن النور من الله ﷻ يعطيه من يشاء بفضله ويمنعه عن من يشاء بعدله، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وهنا إشارة إلى أن نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم وإلا انطفأت جذوته، كما أن النار بحاجة إلى مادة وقود وإلا انطفأت.

وفي تشبيههم بأشد الظلمتين وهي الظلمة الحادثة بعد ذهاب النور بيان ما هم فيه من الحيرة والشكوك والكفر مما ليس عند الكافر صراحة؛ لأنه لم يخرج من الظلمة قط وقد خرجوا منها ثم ارتكسوا، أو لأنهم آمنوا في الظاهر وكفروا في الباطن.

قال ابن القيم: (فهذه حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾»[1].

وأفرد النور وجمع الظلمات، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، وذلك لأن طريق الحق واحد وهو

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٧٢).

صراط الله المستقيم، وطرق الباطل متعددة متشعبة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ تشبيه المنافقين بمن فقدوا حواس السمع والنطق والبصر؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، فهم صم عن سماع الحق والانتفاع به، بكم عن قول الحق والنطق به، عمي عن النظر والتأمل في آيات الله بأبصارهم وبصائرهم.

قال ابن القيم: «فإن الهدى يدخل على العبد من ثلاثة أبواب؛ مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئًا ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها»(١).

وقال أيضًا: «فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم»(٢).

ولهذا قال ﷻ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يرجعون ولا يخرجون عما هم فيه من ظلمات الجهل والشك والكفر والنفاق؛ لحرمانهم من نور الله ﷻ وانسداد أبواب الهداية لديهم بالصمم والبكم والعمى- نسأل الله تعالى الهداية والعافية، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للمنافقين وأعمالهم وأحوالهم، وهو المثل المائي فيه بيان ما هم فيه من شدة الخوف.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «أو»: عاطفة، وهي للتنويع والتقسيم، والكاف للتشبيه بمعنى «مثل» أي: أو مَثلهم مثل أصحاب صيب.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٧٣).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٨٥).

و «الصيب» المطر الذي يصوب، أي: ينزل وينحدر من السماء بسرعة وبكثرة، كما قال الشاعر:

كأنهمُ صابت عليهم سحابة ... صواعقها لطَيْرِهنَّ دبيبُ
فلا تعدلي بَيني وبين مُغَمَّر ... سُقِيتِ روايا المزن حين تصوب(١)

والمراد بالسماء العلو.

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ وهي: ظلمة الليل، بدليل قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ وهذا لا يكون إلا في الليل، وظلمة السحاب المتراكم بعضه فوق بعض، وظلمة المطر الكثيف، فهي ظلمات ثلاث، ونكرت للتعظيم.

﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ أي: وفيه رعد وبرق، و«الرعد» هو الصوت الذي يسمع من السحاب، وقد يكون ذلك بسبب احتكاك السحاب، أو زجر الملك أو غير ذلك و«البرق» هو النور الذي يلمع في السحاب، وقد يكون ذلك بسبب اجتماع سالب وموجب أو غير ذلك، وكل ذلك بقدرة وتدبير العليم القدير.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضمير في «يجعلون» يرجع إلى أصحاب الصيب أي: يجعل أصحاب الصيب ﴿أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾.

و «الأصابع» جمع «أصبع».

والمعنى يجعلون بعض أصابعهم في آذانهم، أي: يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه، أي: بعض أصبعه، وهي الأنملة التي يمكن دخولها في الأذن.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ «من، سببية، أي: بسبب الصواعق، و«الصواعق»: جمع صاعقة مأخوذة من «الصعق» وهو الإهلاك؛ لأنها تهلك وتحرق ما أصابته من إنسان أو حيوان أو نبات أو غير ذلك.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خوف الموت، والموت: ضد الحياة، وهو عبارة عن خروج الروح عن البدن ومفارقتها له، وهو أمر كتبه الله ﷻ على جميع الخلق كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١١٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

(١) البيتان لعلقمة بن عَبَدة انظر «ديوانه» ص(٣٤، ٤٦).

فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾. وقال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال جبريل للنبي ﷺ: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه**»(١).

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فَلّ من جمع وأفنى من دول(٢)

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب(٣)

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيد وتهديد للكافرين من المنافقين وغيرهم، أي: محيط بالكافرين علمًا وقدرة فلا يفوتونه ولا يعجزونه، ولا يغني عنهم سد الآذان بالأصابع؛ لأنه لا ينجي حذر من قدر، وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «محيط بهم» بل قال: ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لإثبات كفر هؤلاء المنافقين، وأنه سبب وعيدهم، وليعم ذلك جميع الكافرين، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [الانشقاق: ١٩، ٢٠].

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ «كاد» كغيرها من الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات، أي: يقارب البرق من شدة إضاءته ولمعانه ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يذهب بأبصارهم ويزيلها بسرعة، كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: كلما أضاء لهم البرق مشوا فيه منتهزين فرصة لمعان البرق وإضاءته الخاطفة اليسيرة لا يفوتونها.

---

(١) أخرجه من حديث سهل بن سعد ﷺ «الحاكم في المستدرك» (٤/ ٣٦٠) حديث (٧٩٢١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٩ حديث (١٠٥٤)، وأخرجه البيهقي أيضًا في «الشعب» من حديث جابر ﷺ وأخرجه أبو نعيم أيضًا في «الحلية» (٣/ ٢٠٢) من حديث علي ﷺ. وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٩).

(٢) البيت لابن الوردي. انظر: «ديوانه» ص٧١.

(٣) البيت للشاعر ابن عثيمين من قصيده له في رثاء صديقه عبد الله العجيري، مطبوعة بملحق في آخر «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧.

﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: وإذا أظلم عليهم البرق بانقطاعه، وحصول الظلمة الشديدة بسبب ذلك ﴿قَامُواْ﴾ أي: وقفوا متحيرين لا يستطيعون المشي من شدة الظلمة الحاصلة من انقطاع ضوء البرق- مع الظلمات السابقة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ الواو: عاطفة، و«لو» شرطية غير عاملة وهي حرف امتناع لامتناع.

أي: ولو شاء الله لأزال سمعهم وأبصارهم بهذه الصواعق والبرق، أو بزيادتها، أو بدون ذلك ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ الجملة فيها تعليل وتقرير لما قبلها، وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المتعلَّق به وهو قوله: ﴿قَدِيرٞ﴾؛ لبيان عموم قدرته ﷻ على كل شيء، أيًا كان، ومهما كان هذا الشيء، فلا يعجزه شيء ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

فكما شبه الله ﷻ في المثل الأول الناري المنافقين أو فريقًا منهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا بمن استوقد نارًا، شبههم في هذه الآيات أو فريقًا منهم، وهم الذين لم يؤمنوا قط في هذا المثل الثاني المائي بأصحاب صيب ومطر نازل من السماء بسرعة وكثرة، فيه ظلمات متراكمة؛ ظلمة الليل وظلمة السحاب، وظلمة المطر الكثيف، وفيه رعد شديد، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، وذلك لا ينفعهم إن أراد الله إهلاكهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وفيه برق يكاد يزيل أبصارهم من شدة لمعانه كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم وقفوا متحيرين من شدة الظلمة المضاعفة التي تعقب ذهاب ضوء البرق- مع الظلمات السابقة، فاجتمع عليهم في هذا الصيب ظلمات شديدة متراكمة، ورعد قاصف، وصواعق تصم الآذان، وبرق خاطف يكاد يزيل الأبصار، فصاروا بسبب ذلك كله بأشد الإزعاج والفزع والقلق والخوف من الموت، كما قال تعالى: ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أو من ذهاب سمعهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ بهذه الصواعق والبرق، أو بزيادة صوت الرعد والصواعق وزيادة لمعان البرق، أو

بدون ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فكان نصيب هؤلاء القوم من الصيِّب الخوف والفزع والقلق بسبب ما فيه من ظلمات، ورعد وبرق وصواعق، ولم يفطنوا إلى ما وراء ذلك من كون هذا الصيب به الخصب وحياة الأرض والنبات والحيوان.

وهكذا حال المنافقين فيما هم فيه من ظلمات الجهل والشك والكفر والنفاق، وما هم فيه من شدة الخوف والحيرة والقلق والفزع وانزعاج القلوب أمام زواجر القرآن ووعيده ونذره، والتي تقرع قلوبهم المريضة وتفزعها أشبه بالرعد القاصف والصواعق الشديدة لا يملكون أمامها إلا أن يضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما فيه من الزجر والوعيد والإنذار والتهديد، فَرَقًا منهم وخوفًا، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧]، وكما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

كما لا يستطيعون الثبات بما لديهم من وميض إيمان ظاهر لم يداخل قلوبهم أمام نور القرآن وبراهينه الساطعة التي تكاد تعمي أبصارهم فلا يجدي عنهم شيئًا وضع أصابعهم في آذانهم، ولا ما معهم من وميض إيمان ظاهر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال تعالى عن إخوانهم الكفار: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾.

فكما كان نصيب أصحاب الصيب منه رعوده وبروقه وما فيه من مخاوف دون أن يفطنوا لما وراء ذلك من منافعه كذلك كان نصيب هؤلاء المنافقين من القرآن الكريم الذي به حياة القلوب والوجود كله إنما هو مجرد الشك والتكذيب لما جاء فيه من الحق والفزع والانزعاج والقلق أمام نذره وزواجره ووعيده، وفاتهم ما فيه من الهدى، فخسروا الصفقتين فلا أمن ولا هدى.

الفوائد والأحكام:

١ - ضرب الأمثال في القرآن لتقريب المعاني بتشبيه بعض الأمور المعقولة المعنوية بأشياء حسية لزيادة الإيضاح والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآيتين، وقوله:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآيتين- وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

٢- في ضرب الأمثال في القرآن الكريم دليل على صحة وثبوت الاستدلال بالقياس.

٣- تشبيه حال المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى وما هم فيه من الظلمات والضلال والحيرة، بحال من استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في أشد الظلمات الحسية؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

٤- في تشبيه حال المنافقين وما هم فيه من الضلال بأشد الظلمتين، وهي الظلمة الحادثة بعد ذهاب النور دلالة على شدة ما هم فيه الضلال والحيرة والكفر مما ليس عند أهل الكفر الصريح.

٥- أن ما مع المنافقين من نور هو نور ظاهر فقط بحسب إيمانهم الظاهر، ولم ينفذ إلى قلوبهم، وهو مستعار كنار المستوقد بسبب وجودهم بين ظهراني المؤمنين؛ ولهذا سرعان ما يذهب وينطفئ، هذه حالهم في الدنيا وفي عرصات القيامة؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي: بمجرد ومضة الإضاءة ذهب الله بنورهم، وإذا ذهب النور فالإضاءة من باب أولى.

٦- عقوبة المنافقين بذهاب الله بنورهم وتخليه عنهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾.

٧- سلب المنافقين كل طرق وسائل الاهتداء، فهم صم الآذان، بكم القلوب والألسن، عمي الأبصار؛ لقوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾.

٨- بقاء هؤلاء المنافقين في حيرتهم وعدم رجوعهم عن غيهم؛ وعن ما هم فيه من ظلمات الجهل والشك والكفر والنفاق؛ لحرمانهم من نور الله وانسداد أبواب الهداية لديهم بسبب نفاقهم واستحسانهم ما هم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾، وقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي: بلا عودة.

٩- أن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

١٠- في إفراد النور وجمع الظلمات دلالة على أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة متشعبة.

١١- تشبيه حال المنافقين وما هم فيه من شدة الخوف والقلق والحيرة والفزع وانزعاج القلوب بسبب نفاقهم أمام زواجر القرآن ووعيده ونذره مع عدم انتفاعهم بذلك بحال أصحاب صيِّب، مطر نازل من السماء فيه ظلمات شديدة ورعد قاصف وصواعق تكاد تصم الآذان وبرق يكاد يخطف الأبصار فكان نصيبهم من هذا الصيِّب الخوف والفزع والقلق بسبب ما فيه من ظلمات ورعد وصواعق وبرق، ولم يفطنوا إلى ما وراء ذلك من كون هذا الصيِّب به الخصب وحياة الأرض والنبات والحيوان؛ لقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ الآيتين.

١٢- ضعف الإنسان أمام ظواهر الكون التي تجري بقدرة الله تعالى من المطر وظلمات السحاب والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك مما يوجب عليه الالتجاء إلى الله تعالى، فلا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه.

١٣- تهديد الكافرين من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

١٤- إثبات المشيئة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

١٥- عموم قدرة الله تعالى على كل شيء وكمالها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أثنى الله ﷻ في مطلع هذه السورة على كتابه وعظَّمه، وذكر أقسام الناس تجاهه، فمنهم من كان لهم هدى وهم المتقون، وذكر صفاتهم وأثنى عليهم وبيَّن فلاحهم، ومنهم من لم يكن لهم هدى، بل كان عليهم عمى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهم فريقان: قوم كفروا وكذبوا به ظاهرًا وباطنًا وهم الكفار الخلص، وقوم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وهم المنافقون.

وبعد أن ذكر صفات الفريقين وتوعدهم بالعذاب العظيم والأليم أتبع ذلك بأمر الناس كلهم بعبادة الله ﷻ وحده؛ لأنه ربهم الذي خلقهم وجعل لهم الأرض فراشًا والسماء بناءً، وأنزل المطر من السماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لهم فهو المستحق للعبادة دون سواه، وفي أمر الناس بعبادة الله بعد ما جاء في مطلع السورة إشارة إلى ثلاثة أمور:

أولًا: أن كتاب الله ﷻ كما أنه هدى للمتقين هداية خاصة فهو هدى للناس جميعًا هداية عامة.

ثانيًا: الترغيب للمتقين بالازدياد من التقوى والإيمان، وحث غير المؤمنين على الإيمان وإخلاص العبادة لله ونبذ الشرك والنفاق.

ثالثًا: الإشارة إلى أنه لا يهتدي بهذا الكتاب ولا ينتفع به إلا من أراد الله هدايته؛ ولهذا قدم ذكر أقسام الناس تجاه هذا الكتاب- وفي هذا تسلية للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل

نصب و«ها» للتنبيه و﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفة لـ«أي» أو بدل.

وتصدير الكلام بالنداء مع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب يفيد التنبيه والعناية والاهتمام، وتوجيه النداء للناس يدل على عموم رسالته ﷺ لجميع الناس.

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الأمر للوجوب، فعبادة الرب ﷻ واجبة على جميع الناس، وهي الهدف الذي خلقوا من أجله، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، يقال: طريق معبد، أي: مذلل، أي: ذللته الأقدام بالسير عليه، وعبادة الله تتضمن غاية الذل مع غاية المحبة مع غاية التعظيم لله ﷻ، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(١).

وتطلق على فعل التعبد، وعلى العبادة نفسها، كالصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام وغير ذلك.

وتشمل العبادة فعل الواجب والمستحب، وترك المحرم والمكروه، بل وتشمل المباح مع النية فعلًا أو تركا من جميع أعمال القلوب والجوارح فكلها مع النية عبادات؛ ولهذا قال ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-(٣): «فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على جميع أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته».

ولهذا قال بعض أهل العلم: «الموفقون عاداتهم عبادات والمخذولون عباداتهم عادات».

والعبادة تقوم على أصلين: الإخلاص لله ﷻ، والمتابعة للرسول ﷺ، وهما شرطا صلاح العمل.

قوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾ الرب: هو الخالق المالك المتصرف في خلقه، وفي إضافة اسم الرب

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٥/ ١٦٧)- من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) في «السياسة الشرعية» ص (١٤٨).

إلى ضمير المخاطبين وهم الناس تذكير لهم بربوبيته ﷻ لهم، ربوبية عامة ليعبدوه وحده؛ لأن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما أن فيه تكريمًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة لـ «رب» وهي صفة كاشفة، أي: كاشفة لمعنى من معاني الربوبية؛ لأنه ليس هناك رب خلق، ورب لم يخلق فذكرهم أولًا بربوبيته العامة لهم ثم ذكرهم بأنواع نعمه عليهم وبدأها بذكر نعمة خلقه لهم؛ لأنها أول نعمه عليهم ومن أعظمها.

ومعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم وأنشأكم من العدم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] أي: قد أتى، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

وأصل الخلق التقدير، أي: تقدير الشيء في العلم قبل تكوينه، ومنه «خلق الأديم» أي: تقديره بحسب ما يراد من قِطَعه قبل قطع القطعة، قال زهير[١]:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد تقدير الأديم قبل قطعه، والقطع هو الفري.

قال ابن تيمية[٢]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها» ويستعمل الخلق في الإنشاء والإبداع على غير مثال ولا احتذاء.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وخلق الذين من قبلكم من الأمم الماضية، فهو خالق الأولين والآخرين، و«من» للتأكيد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتقوا الله وتنجوا من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولتكونوا من المتقين.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة من نعم ربوبيته ﷻ للناس نعمة خلقه لهم؛ ثم أتبع ذلك

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٨٦.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٦٠).

بذكر جعل الأرض لهم فراشًا والسماء بناءً وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به رزقًا لهم مذكرًا لهم بوجوب عبادته وناهيا لهم عن اتخاذ الأنداد معه؛ لأنه الرب الخالق الرازق- سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ «الذي» صفة ثانية لـ«رب»، و«جعل» بمعنى خلق أو صير وهو من الجعل الكوني، فمن نعم ربوبيته ﷻ لكم أيها الناس أن خلق لكم الأرض وصيرها لكم فراشًا.

﴿فِرَٰشًا﴾ أي: موطأة ممهدة مذللة قرارًا للجلوس والنوم والاستقرار عليها، والبناء والسكن والسير فيها وهذا من أعظم نعم الله ﷻ؛ ولهذا امتن الله ﷻ على العباد بذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا كالقبة على الأرض، وأودع فيها الشمس والقمر والنجوم لينتفعوا بها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المراد بالسماء العلو، أي: وأنزل من السحاب الذي في السماء، أي: في العلو بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿مَآءً﴾ وهو المطر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣] أي: المطر.

وفي كونه ينزل من السماء فائدة ومنفعة ليعم السهل والجبل وما ارتفع من الأرض أو انخفض، كما أن في كونه ينزل على هيئة قطرات دفع للضرر عما ينزل عليه.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ الباء للسببية، أي: فأخرج بسببه، وفي هذا دلالة على أن الأمور

مربوطة بأسبابها، وأنها لا تكون مؤثرة إلا بإرادة الله ﷻ.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الثمرات: جمع ثمرة، أي: وأخرج بسببه الكثير من الثمرات المتنوعة والمختلفة الأشكال والألوان والطعوم والفوائد والمنافع كالحبوب والزروع والتمور والفواكه.

﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ الرزق: العطاء، أي: عطاءً لكم أيها الناس، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ أي: فلا تصيروا ﴿لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ الأنداد: جمع ند، وهو العدل والنظير والشبيه والمثيل، أي: فلا تصيروا لله نظراء وأشباه وشركاء في العبادة، والنهي للتحريم، بل يفيد أشد التحريم وأعظمه؛ لأن الشرك أعظم الذنوب وأظلم الظلم، قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ، أي: الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وقد خلقك**»(١).

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ توبيخ لهم، والجملة حالية، أي: والحال أنكم تعلمون أن الله ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم وجعل الأرض لكم فراشًا والسماء بناءً وأنزل المطر من السماء، وأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فربوبيته لكم وإنعامه عليكم بما ذكر وغيره يستوجب أن تعبدوه وحده كما قال تعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الروم: ٤٠].

وذلك لأن المشركين يقرون بربوبية الله ﷻ، وأنه الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، لكنهم ينكرون توحيد الألوهية والعبادة.

وإذا كانوا يقرون بربوبية الله ﷻ فمن لازم ذلك أن يقروا بألوهيته فيعبدوه وحده لا شريك له وهو أوضح دليل عقلي على وحدانية الله ﷻ وتفرده بالألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

نفى الله ﷻ في مطلع هذه السورة الريب عن كتابه العزيز، ثم تحدى في هاتين الآيتين من ارتابوا به أو زعموا أنه من كلام البشر، وأن الرسول ﷺ افتراه واختلقه من عند نفسه تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأنى لهم ذلك، وفي ذلك تقرير لنبوته ﷺ بعد تقرير وجوب عبادة الله ﷻ وحده في الآيتين قبلهما.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الواو استئنافية، والخطاب لمن جعلوا الله أندادًا وارتابوا في البعث، وأنكروا رسالة النبي ﷺ، وزعموا أنه افترى القرآن واختلقه من عند نفسه.

﴿فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك، وصاحب الريب والشك إما أن يكون صادقًا في البحث عن الحق فهذا حري بالتوفيق له، وإما أن يكون معرضًا غير صادق فهذا في الغالب لا يوفق للحق كالمعاند.

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: من الذي نزلنا، أي: من القرآن الكريم الذي نزلناه على عبدنا محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ تعظيم لهذا المنزل وهو القرآن الكريم من وجهين الأول: الإبهام في «ما» في قوله: ﴿مِّمَّا﴾. الثاني: قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾ فكونه منزلًا من عند الله ﷻ يدل على عظمته.

كما أن فيه إثبات العلو لله ﷻ؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله ﷻ علو الذات فهو عال بذاته فوق جميع خلقه، وله علو الصفات وعلو القدر وعلو القهر.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أي: على عبدنا محمد ﷺ، ولم يقل على رسولنا؛ لأن العبودية لله ﷻ أفضل ما يوصف به البشر وعلى رأسهم الرسل- عليهم الصلاة والسلام- قال ﷺ: «**فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله**»(١) وذلك لأن العبودية لله ﷻ هي غاية الحرية، وهي الغاية من خلق الثقلين، ومن لم يعبد الله ربه عبد الشيطان، كما قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

كما قال ربعي بن عامر ﷺ في معركة القادسية لرستم ملك الفرس: «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

وقد وصف الله ﷻ رسوله ﷺ بالعبودية في أعلى وأعظم المقامات مقام قربه ﷺ من ربه ليلة الإسراء، كما قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ووصفه في مقام العبادة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩].

كما وصفه بها هنا في مقام تكريمه بإنزال القرآن عليه والتحدي به والدفاع عنه، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ الآية.

كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ جواب الشرط «إن»، وربط بالفاء؛ لأنه جملة طلبية. والسورة في اللغة مأخوذة من معنى الرفعة والشرف، قال النابغة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر(٢).

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي أعطاك منزلة رفيعة قصرت عنها منازل الملوك، وهي مأخوذة أيضًا من معنى الإبانة والتمام والإحاطة؛ لأنها بائنة عن السورة الأخرى منفصلة عنها تامة بموضوعاتها محيطة بآياتها، إحاطة السور بالبلد.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ (٣٤٤٥).

(٢) انظر «ديوان النابغة الذبياني» ص(٥٦) جمع وتحقيق أحمد عاشور.

والسورة من القرآن في الاصطلاح: القطعة من كلام الله تعالى في كتابه ذات بداية ونهاية معروفة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر.

والأمر في قوله: ﴿فَأْتُوا﴾ يقصد به التحدي، أي: إن كنتم في شك من هذا القرآن، وفي كونه من عند الله، وتزعمون أنه من قول البشر، وأن الرسول ﷺ افتراه واختلقه من عند نفسه، فإنا نتحداكم بأن يأتوا بسورة واحدة ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾، «من» بيانية والضمير يعود إلى المنزل، وهو القرآن، أي من مثل القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨].

وهذا يتناول أقصر سورة في القرآن بعدد ثلاث آيات كسورة الكوثر، كما تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فقال تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الآية: ١٣].

وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ أي: من مثل الرسول ﷺ فيما جاء به من القرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

فتحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، من حيث إعجازه في ألفاظه وفصاحته وبلاغته وجزالة معانيه وصدق أخباره وعدل أحكامه وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معطوف على ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مما سوى الله.

والمعنى: واطلبوا من استطعتم من المخلوقين من أعوانكم وشركائكم وغيرهم ليعينوكم ويشاهدونكم ويشهدون لكم، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم أن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو قول البشر، افتراه محمد واختلقه- كما تزعمون.

والجواب على هذا أنه لا يمكنهم أن يأتوا بسورة من مثله مع ما هم عليه من المناوأة للرسول ﷺ وشدة العداوة له، وما هم عليه من الفصاحة والبلاغة؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، وهذا على سبيل التنزل مع الخصم، وإلا فإن عدم فعلهم معلوم؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فقطع أطماعهم، أي: ولا يمكنكم أن تفعلوا، و«لن» هنا للتأبيد؛ لأن المقام مقام تعجيز وتحدي.

قال ابن كثير- رحمه الله-(١): «ولن لنفي التأبيد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدًا، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين».

والمعنى: فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله لأنه لا يمكنكم ذلك، فهذا دليل واضح على صدق الرسول ﷺ، وصدق ما جاء به؛ ولهذا قال بعده:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ وهذا هو جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أي: فإن لم تستطيعوا الإتيان بمثله فواجب عليكم اتقاء النار بتصديقه والإيمان به واتباعه، إذ لا وقاية لكم من النار إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٨٩).

وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ صفة «النار» و﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو ما توقد به كالحطب ونحوه، أي: أنها توقد بدل الحطب بـ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ والمراد بالناس الكفار منهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

والمراد بالحجارة حجارة الكبريت العظيمة السوداء المنتنة، شديدة الاشتعال شديدة الحرارة، ومنها الحجارة التي يعبدونها من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وذلك لتحقير هذه المعبودات وتحقيق شدة حسرة من عبدوها من دون الله، حيث كانت سببًا لعذابهم وكانوا يرجون النجاة بسببها كان مصيرها مصيرهم، فلم تدفع عن نفسها فضلًا أن تدفع عنهم.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: أرصدت هذه النار والحجارة وهيئت وجهزت للكافرين، وبني الفعل «أعدت» لما لم يسم فاعله؛ لأن المعِد والموجِد لها ولكل شيء معلوم وهو الله ﷻ.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «أعدت لكم» للتسجيل عليهم بالكفر، وأنه سبب دخولهم النار، وأنها لهم ولكل من كفر بالله وبما أنزل على رسوله ﷺ فهي دارهم وبها خلودهم.

ويفهم من الآية أن العصاة إن لم يعف الله عنهم ودخلوها فليست لهم بدار، ولا يخلدون فيها، وفي هذا رد على الخوارج ونحوهم.

فالنار معدة موجودة الآن، كما دل على ذلك القرآن في مواضع أخرى كثيرة، ودلت عليه السنة المتواترة، كما في حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي الجنة والنار آنفًا فلم أر كاليوم في الخير والشر**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٤٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٩).

ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر ﷻ وعيد الكافرين المكذبين للقرآن والرسول ﷺ، ثم أتبع ذلك بالبشارة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات ببيان ما لهم من الجنات، وما لهم فيها من ألوان النعيم والعيش المقيم، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع الإنسان في طريقه إلى الله بين الرغبة والرهبة والخوف والرجاء.

قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: وبشر أيها الرسول، ومن قام مقامك.

والتبشير والبشارة: الإخبار بما يسر، مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أُخبر بما يسره استنار وجهه واتسعت بشرته، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر[1]، كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل.

والتبشير سمة ظاهرة من سمات الدين الإسلامي الحنيف فقد قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى- رضي الله عنهما- لما بعثهما إلى اليمن: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**».

وينبغي أن يستلهم هذا المعنى الدعاة والمصلحون والمربون، وأن يكونوا مبشرين لا منفرين، فإن رحمة الله سبقت غضبه، وقد قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بكل ما يجب الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، أي: وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة؛ لأن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان بلا عمل.

وفي حذف الموصوف وهي «الأعمال» والاكتفاء بالصفة، وهي «الصالحات» تنبيه إلى أن المهم في الأعمال كونها صالحة.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

والعمل إنما يكون صالحًا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله ﷻ، ومتابعة الرسول ﷺ، قال ﷺ: «قال الله ﷻ: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

والشرط الثاني: متابعة الرسول ﷺ، قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢).

وفي لفظ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٣).

ويجمع الشرطين قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: ومن أحسن دينًا ممن أخلص العمل لله، وهو متبع لرسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وسميت الأعمال الصالحة بهذا الاسم؛ لأن بها صلاح أمر الإنسان في دينه ودنياه وأخراه، وبها يكون صالحًا لجوار الرحمن في جنات النعيم(٤).

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بأن لهم جنات وهذا وما بعده هو المبشر به.

أي: فإن لهم عند الله جنات، و«جنات» جمع «جنة» وهي في اللغة البستان كثير الأشجار والثمار، سمي بذلك لأنه يجن ويستر من بداخله بأشجاره الكثيرة الملتف بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ والمراد بالجنات المساكن والمنازل التي أعدها لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد- تحريم الرياء (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية- نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح- إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية، نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٤) انظر «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٦٢).

ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١).

قال ابن القيم من قصيدة له طويلة في وصف الجنة ومدح نعيمها(٢):

فلله ما في حشوها من مسرة ... وأصناف لذات بها يتنعم
ولله برد العيش بين خيامها ... وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله واديها الذي هو موعد الـ ... مزيد لوفد الحب لو كنت منهم
بذيالك الوادي يهيم صبابة ... محب يرى أن الصبابة مغنم
ولله أفراح المحبين عندما ... يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
ولله كم من خيرة إن تبسمت ... أضاء لها نور من الفجر أعظم
فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
وحي على السوق الذي فيه يلتقي الـ ... محبون ذاك السوق للقوم معلم
وحي على يوم المزيد الذي به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحي على واد هنالك أفيح ... وتربته من أذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العقيان لا يتقصم
وكثبان مسك قد جعلن مقاعدًا ... لمن دون أصحاب المنابر تعلم

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» أي: تجري وتسيح من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» ص (٢٩- ٣٢) «إغاثة اللهفان (١/ ٧١) «طريق الهجرتين» ص (١٠١).

وهذه الأنهار تجري بغير أخدود يصرفونها كيف شاؤوا، قال ابن القيم(١):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

من تحتهم تجري كما شاؤوا مفجـ ... ـرة وما للنهر من نقصان

يشربون منها ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها، وهي كما قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥].

قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾.

بعدما ذكر طيب المسكن وهي الجنات التي تجري من تحتها الأنهار أتبع ذلك بذكر ما لهم فيها من النعيم، وبدأ بذكر ما لهم فيها من أنواع الثمرات والمأكل فقال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا﴾ «كلما» ظرف زمان، وفيه إشارة إلى أن رزقهم في هذه الجنات على الدوام، وهذه مقالتهم على الدوام، والمعنى: كلما أعطوا من الجنات ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ أي: من أيِّ ثمرة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: هذا الذي أعطينا من قبل، أي: شبيهه ونظيره لا عينه؛ لأنه يشبه ما سبقه في الشكل والحجم واللون ونحو ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ وهذا كالتعليل والسبب لقولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾.

و«متشابها» حال، أي: أعطوه وجيء إليهم به حال كونه متشابها: أي: أي يشبه بعضه بعضًا في الحُسن واللذة والفكاهة وكونه خيارًا كله، أو في المظهر والشكل والحجم واللون ونحو ذلك- مع الاختلاف العظيم والفرق الشاسع والبون الواسع في المخبر والطعم واللذة، والنكهة ونحو ذلك.

قال ابن القيم(٢): «ومعناه يشبه بعضه بعضًا، ليس أوله خيرًا من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها من نقصان حملها، وصغر ثمارها، وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله، وهو خيار كله يشبه بعضه بعضًا».

---

(١) في «نونيته» ص (٢٢٩).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٩٥).

وقيل: معنى قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا.

والأول أصح وأظهر وأقوى في المعنى؛ لأن التشابه بين ثمار الجنة أعظم من التشابه بينها وبين ثمار الدنيا؛ ولهذا قالوا من شدة التشابه هذا القول.

وأيضًا ليس كل ما في الجنة، بل ولا أكثر ما فيها من الثمار مما رزقه أو مثيله أهل الدنيا.

وأيضًا فإن ما في الجنة من الثمار لا تقاس به ثمار الدنيا فما في الجنة أعظم وأعظم، بل نعم الدنيا كلها لا تساوي شيئًا بالنسبة لنعيم الجنة فيبعد أن يكون المعنى أن أهل الجنة كلما رزقوا من ثمارها قالوا هذا الذي رزقنا في الدنيا، وقد أحسن القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا(١)

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء**»، وفي رواية: «**ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء**»(٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

ذكر ما لأهل الجنة من التنعم في المأكل بأنواع الثمار المتشابهة في الظاهر المختلفة في الباطن في الطعوم واللذة ونحو ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر ما لهم فيها من التنعم بالأزواج والفرش.

أي: ولهم في الجنات أزواج مطهرة، و«أزواج» جمع زوج، والزوج في اللغة الشفع ضد الوتر، ويطلق الزوج في الفصحى على الذكر والأنثى، يقال: زوج هند، ويقال: زوج محمد، وهي لغة قريش، وبها نزل القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال تعالى في حق زكريا: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٢].

ويقال للمرأة زوجة في لغة تميم، انتحلها الفرضيون، فيقولون: هلك هالك عن زوجة، إذا كان المتوفى الرجل، ويقولون: هلك هالك عن زوج، إذا كان المتوفى المرأة.

---

(١) البيت للكميت. انظر: «مجاني الأدب» ٣/ ٦٥ .

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١/ ٤١٦) تحقيق التركي، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦).

وقد جاءت في السنة وفي كلام العرب، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال في ذكر نعيم أهل الجنة: «ولكل واحد منهم زوجتان»(١).

وقال الفرزدق(٢):

وإن الذي يسعى يحرش زوجتي ... كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقال الآخر:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي ... والظاعنون إليَّ ثم تصدعوا(٣)

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ طهارة مطلقة خِلْقية وخُلُقية، من جميع النجاسات الحسية، كالغائط والبول والحيض والنفاس والمخاط والبصاق وغير ذلك من الأذى والأقذار، ومن جميع الأنجاس المعنوية كالغل والحقد والحسد والغيرة والكراهية والبغضاء، وغيرها من أمراض القلوب، ومن الإثم والفواحش وسوء العشرة والأخلاق السيئة والصفات الذميمة، ونحو ذلك، وإذا كن مطهرات طهارة مطلقة فهنَّ كاملات الخَلْق والخُلُق.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لما ذكر ما لهم من النعيم في الجنات مسكنا ومأكلا وأزواجًا طمأنهم على دوام ذلك، وعدم انقطاعه عنهم؛ لأن من أعظم ما ينغص النعم في الدنيا توقع انقطاعها، كما قال المتنبي(٤):

أشد الغم عندي في سروري ... تحقق عنه صاحبه انتقالا

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: وهم في هذه الجنات مقيمون إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ فلا هي تزول، ولا هم يزولون عنها؛ ولهذا أكد خلودهم فيها بكون الجملة اسمية.

ولا خلاف بين أهل العلم في أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا يفنى أهلها ولا نعيمها، وعليه توافرت الأدلة من الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٤) والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر «ديوانه» ص (٦٠٥)، «لسان العرب» مادة «زوج».

(٣) البيت لعبدة الطيب انظر «ديوانه» ص (٥٠)، «لسان العرب» مادة «زوج».

(٤) انظر: «ديوانه» ص١٤٠ .

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أنه يؤتى بالموت فيضجع فيذبح ذبحا على السور الذي بين الجنة والنار، ثم يقال: «**يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت**»(١).

قال ابن القيم(٢): «وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين، بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٣- وجوب عبادة الله تعالى وحده، فهي حق الله على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله العامة بجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾.

٥- أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم وموجب لتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٦- إثبات أن الله ﷻ هو الخالق وحده، خلق الأولين والآخرين، وخلق كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهذا من معاني ربوبيته ﷻ.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قطع لحبل التقليد للآباء واتباعهم فيما كانوا عليه من الشرك والعادات السيئة؛ لأن رب الجميع وخالقهم هو الله وحده لا معبود بحق سواه.

٨- أن الله ﷻ خلق الخلق؛ لأجل أن يتقوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٩- أن من أعظم نعم ربوبية الله ﷻ على الناس: أن خلقهم، وجعل الأرض لهم فراشًا ممهدة

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٩٦).

لعيشهم عليها، وجعل السماء بناء، وسقفًا للمخلوقات، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

١٠- فضل الله ﷻ العظيم وقدرته التامة في خلق الخلق، وفي خلق الأرض وجعلها فراشا، وفي خلق السماء وجعلها بناء، وفي إنزال المطر من السماء وإخراج النبات والثمرات رزقًا للعباد.

١١- حكمة الله ﷻ في جعل المطر ينزل من السماء ليعم جميع الأرض، ما علا منها وارتفع، وما سفل منها وانخفض.

١٢- إثبات الأسباب، وأنها لا تكون مؤثرة إلا بأمر الله وإرادته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

١٣- أن الرزق من الله ﷻ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

١٤- في إحياء الأرض بالنبات وإخراج الثمرات منها دليل على قدرته ﷻ على البعث.

١٥- تحريم اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٦- توبيخ المشركين الذين أشركوا مع الله غيره، وهم يعلمون أنه ربهم الذي خلقهم وخلق الأرض والسماء وأنزل المطر من السماء وأخرج به الثمرات رزقا لهم مما يوجب إفراده وحده بالعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما سبق بيانه.

١٧-أن التحريم والتوبيخ بالنسبة للعالم أشد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بل إن الجاهل قد يعذر في بعض الأحوال.

١٨- تحدي المشركين المكذبين للقرآن الشاكين في كونه من عند الله بالإتيان بسورة واحدة من مثله، ودعاء شهدائهم من دون الله للاستعانة بهم وإشهادهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ

وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

١٩- دفاع الله ﷻ عن رسوله ﷺ وإثبات صدقه فيما جاء به.

٢٠- إثبات إعجاز القرآن الكريم، وأنه معجز بأقصر سورة منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ معجز بألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه وغير ذلك.

٢١- إثبات علو الله ﷻ على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ والتنزيل يكون من أعلى إلى أسفل.

٢٢- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات أنه كلام الله تعالى منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾.

٢٣- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بوصفه بالعبودية؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ لأن العبودية لله تعالى أفضل ما يوصف به البشر.

٢٤- إثبات عدم قدرة المشركين ولا غيرهم على الإتيان بسورة من مثل القرآن، ونفي إمكانية أن يفعلوا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد بالنار لمن كذب الرسول ﷺ وما جاء به من القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾.

٢٦- أن وقود النار- نسأل الله العافية- الناس والحجارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، مما يوجب الحذر منها والبعد عن أسباب دخولها.

٢٧- في جعل الحجارة والأصنام التي عبدت من دون الله وقودا للنار إذلال لها وإهانة لمن عبدوها، وزيادة في ندمهم، حيث عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، بل ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه- وهذا على أحد القولين في المراد بالحجارة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

٢٨- أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾.

٢٩- أن النار أعدت للكافرين، دارًا ومقرا لهم ومأوى ومصيرا؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣٠- أن غير الكافرين من العصاة ونحوهم ليست النار لهم بدار؛ لأنهم لا يخلدون

فيها، بل ربما يعفو الله عنهم ولا يدخلونها إلا تحلة القسم، وفي هذا رد على من يقول بتخليد أصحاب الكبائر في النار كالخوارج ونحوهم.

٣١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد؛ ليجمع الإنسان في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء؛ لقوله تعالى بعد وعيد الكافرين بالنار: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٣٢- البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بما أعد الله لهم من الجنات وألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٣٣- عناية الإسلام بالبشارة والتبشير؛ ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**بشرا ولا تنفرا**»(١).

٣٤- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفي هذا الرد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٣٥- أن المهم في الأعمال أن تكون صالحة، لهذا حذف الموصوف في قوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ واكتفى بالصفة وهي «الصالحات».

٣٦- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات المتعددة وما فيها من الأنهار والرزق، والثمرات المتشابهة، والأزواج المطهرة؛ ومن أعظم ذلك الأمن من انقطاع هذا النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٧- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وأبو داود في الأشربة (٣٦٨٤)، والنسائي في الأشربة (٥٥٩٥)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٩١)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الآية.

ضرب الله ﷻ في الآيات السابقة مثلين للمنافقين فيما هم عليه من قبيح الصفات وسوء الأحوال، ثم بين أنه ﷻ لا يمنعه الحياء من ضرب الأمثال مهما كان الشيء المضروب به المثل حقيرًا أو صغيرًا؛ لما في ضرب الأمثال من تقريب المعاني والأمور المعقولة، وبيان وإيضاح الحق، والموعظة، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ جملة ﴿أَن يَضْرِبَ﴾ في محل جر بحرف محذوف، و«ما» صفة لما قبلها.

أي: أن الله لا يمنعه الحياء أن يضرب مثلًا، أيَّ مثل كان صغيرًا أو حقيرًا، أو غير ذلك؛ لأن الله ﷻ لا يستحيي من الحق(١).

والمثل: الشَّبه يقال هذا مِثْلُ الشيء ومَثَلُه، كما يقال شبهه وشَبَهُه، ومنه قول كعب ابن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مَثَلًا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل(٢)

أي: كانت مواعيد عرقوب لها شَبَهًا.

---

(١) كما جاء في حديث أم سلمة- رضي الله عنها- قالت جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت، قال النبي ﷺ: «إذا رأت الماء».

أخرجه البخاري في العلم (١٣٠) ومسلم في الحيض (٣١٣)، والنسائي (١٩٧)، والترمذي في الطهارة (١٢٢).

(٢) انظر «ديوانه» ص (٨)، «جامع البيان» (١/ ٤٢٨).

ومعنى ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: أن يشبه شيئًا بشيء لبيان الحق وإيضاحه وللتذكير.

فضرب المثل تشبيه أمر معنوي معقول بشيء محسوس؛ لتقريبه وبيانه.

وذلك لما في الأمثال من الحكمة والموعظة وتحقيق الحق وبيانه، وإبطال الباطل وإزهاقه، وكأن في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، كالذباب والعنكبوت وغير ذلك، واعترض على الله في ذلك.

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ «بعوضة» عطف بيان لـ«ما» أو بدل.

و «البعوضة» حشرة صغيرة مهينة يضرب بها المثل في الحقارة والصغر.

والمعنى: لو كان المثل حقيرًا كالبعوضة.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: الفاء عاطفة، و«ما» موصولة بمعنى «الذي» أي: فالذي فوق البعوضة، أي: أكبر منها كالذباب والعنكبوت، وكمستوقد النار، والصيب من السماء، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآيتين.

وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ويحتمل أن معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما دونها وأقل منها في الحقارة، أو الصغر كالنملة.

وضرب الأمثال بتشبيه الأمور المعنوية المعقولة بالأشياء المحسوسة منهج قرآني لتقريب المعاني المعقولة وبيانها وإقامة الحجة على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ

كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الفاء استئنافية، و«أما» في الموضعين حرف شرط وتفصيل.

أي: فيعلمون أن المثل الذي ضربه الله هو الحق الثابت من ربهم الموافق للواقع، فيتفكرون فيه، ويعرفون موافقة المثل لما ضرب له، ويؤمنون بأنه حق- حتى لو خفي عليهم وجه الحكمة فيه؛ ليقينهم بأن الله لم يضر به عبثًا، ويزدادون إيمانًا وهداية، بسبب إيمانهم وتوفيق ربهم؛ وربوبيته الخاصة لهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ الواو: عاطفة.

و«ماذا» «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر المبتدأ.

قال ابن مالك:

ومثل «ما» ذا بعد ما استفهام ... أو من إذا لم تلغ في الكلام(١)

﴿بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أشاروا إليه بإشارة القريب «هذا» للتحقير، و«مثلًا» تمييز.

والمعنى: وأما الذين كفروا فيقولون- إنكارًا واعتراضًا منهم على الله وعنادًا، وحيرة منهم بسبب كفرهم: ما الذي أراد الله بهذا المثل مثلًا، فيزدادون كفرًا إلى كفرهم.

---

(١) انظر: «الألفية» ص١٥.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ هذا استئناف فيه بيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير.

والباء في قوله ﴿بِهِۦ﴾ في الموضعين للسببية، والضمير في الموضوعين يعود إلى «المثل» أي: يضل بسبب هذا المثل كثيرًا من الناس- بعدله- وهم الكفار لتكذيبهم به واعتراضهم عليه، فيزدادون ضلالًا إلى ضلالهم.

ويهدي الله بسبب هذا المثل كثيرًا من الناس- بفضله- وهم لمؤمنون بعلمهم أنه الحق من ربهم وإيمانهم به فيزدادون به هدى وإيمانًا.

كما قال تعالى في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٣١].

فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

لما ذكر ﷻ أنه يضل بالمثل كثيرًا أتبع ذلك بما يدل على عدله في ذلك، وأنه لا يضل به إلا الفاسقين- بعدله- بسبب فسقهم، كما هدى إليه المؤمنون بفضله بسبب إيمانهم.

قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ﴾ «ما» نافية، والباء للسببية، والضمير يعود إلى المثل.

﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: وما يضل بسبب هذا المثل إلا الفاسقين.

و«الفاسقين» جمع «فاسق» و«الفاسق» في الأصل الخارج عن الطاعة والصلاح إلى الفساد؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة؛ لخروجها عن جحرها للفساد، ومنه سميت الفواسق، قال ﷺ: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٢٨)، ومسلم في الحج (١١٩٩)، وأبو داود في المناسك (١٨٤٦)، والنسائي في =

والمراد بـ«الفاسقين»: الخارجين عن طاعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠].

ويطلق الفسق على المخرج من الدين- كما في هذه الآية- ويطلق على ما دونه من المعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(١).

والمعنى: وما يضل بهذا المثل إلا الخارجين عن طاعة الله تعالى من الكفار، بسبب فسقهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾.

هذه الآية تفسير وبيان لصفات الفاسقين في قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، أي: وما يضل به إلا الفاسقين الذين من صفتهم كذا وكذا، وهذه صفات أهل الكفر من اليهود والمنافقين والمشركين، وأهل العمى عن الحق، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الآيات: ١٩- ٢٥].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة لـ«الفاسقين».

﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ النقض: حل الشيء ونكثه بعد إبرامه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النحل: ٩٢]، أي: حلت غزلها ونكثته بعد إبرامه.

﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ ما بينهم وبين الله ﷻ مما أوجبه الله عليهم من الإيمان به وبرسله وكتبه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك، ومما أوجبه الله عليهم فيما بينهم وبين الخلق.

=

مناسك الحج (٢٨٢٨)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٨٨)- من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما.

(١) سبق تخريجه.

ومعنى ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ينكثون ولا يوفون بما عاهدوا الله عليه من الإيمان به وبرسله وكتبه، والقيام بما أوجبه عليهم من واجبات فيما بينه وبينهم، وفيما بينهم وبين الخلق.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: من بعد أن أخذ الله الميثاق عليهم، كما قال تعالى فيما أخذه من ميثاق على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٢، ١٣].

وقال تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم ونقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم...**»(١).

ومبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله- كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف محذوف، أي: ويقطعون الذي أمر الله به بأن يوصل، أي: الذي أمر الله بوصله.

أي: ويقطعون كل الذي أمر الله به بأن يوصل من أداء حقوق الله ﷻ بفعل أوامره

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٦).

وترك نواهيه، وأداء حق الرسول ﷺ بمحبته وطاعته واتباعه، وحق ولي الأمر بطاعته في طاعة الله تعالى، وحق الأقارب بصلتهم والإحسان إليهم كالوالدين والأولاد والأزواج، وغيرهم من الأقارب، وحق المحتاجين من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وغيرهم، وحق الجار، وحق عامة المسلمين، وحق ملك اليمين والمعاهدين، وحق غير المسلمين، وحق البهائم، وغير ذلك.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الإفساد ضد الإصلاح، أي: ويفسدون في الأرض إفسادا معنويًا بالكفر والمعاصي، والسعي بإظهار الباطل وإبطال الحق وإطفاء نور الإيمان، والذي يكون سببًا في الفساد الحسي، وهلاك البلاد والعباد، والحرث والنسل، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الإشارة: للفاسقين الذين وصفوا بنقض عهد الله وقطع ما أمر بوصله، والإفساد في الأرض، وأكد الخسران وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ جمع «خاسر» و«الخاسر» الذي فاته الربح، وربما فاته الربح ورأس المال، وهذا حال هؤلاء الفاسقين، فإنهم خسروا رحمة الله.

فخسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الشورى: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة عدم استفادة الكفار من النذر وضرب الأمثال في القرآن الكريم، ثم أنكر عليهم كفرهم بالله ووبخهم على ذلك في هذه الآية فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب، وفي

الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب.

أي: كيف تكفرون بالله وتنكرون تفرده بالألوهية، وكماله في صفاته وأفعاله وقدرته التامة على البعث وتستكبرون عن عبادته.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم كنتم أمواتًا، أي: عدمًا لا وجود لكم، وأجساما لا أرواح ولا حياة فيكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي: فخلقكم ونفخ فيكم الأرواح وأوجد فيكم الحياة بقدرته التامة، كما قال تعالى في خطابه لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، وقال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧- ٩].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، قال: «**إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح**»(١).

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ثانية بعد خروجكم إلى الدنيا بمفارقة الأرواح أجسادكم عند انقضاء آجالكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة التي لا موت بعدها.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

وكقوله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ يعقوب «تَرجِعون» بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم ﴿تُرْجَعُونَ﴾، أي: ثم بعد إحيائكم الحياة الثانية، وبعثكم من قبوركم إلى الله تردون، فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وإنما استدل عليهم بإحيائهم مرة ثانية ورجوعهم إليه مع أن هذا لم يحصل بعد لما نصب لهم من الآيات والأدلة الكونية والشرعية على أحقية البعث بعد الموت، وردهم إليه للحساب والجزاء، ومن أعظم الأدلة على ذلك ما ذكره في هذه الآية من إحيائهم بعد أن كانوا أمواتًا، فإن إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أنكر ﷻ على الكافرين كفرهم بالله مع أنه ﷻ أحياهم وأوجدهم من العدم ثم يميتهم ثم يحييهم ثم يردون إليه ليجازيهم على أعمالهم، وفي هذا بيان قدرته التامة على الإحياء والإماتة، وبيان منته ﷻ على الخلق بإيجادهم من العدم، ثم أتبع ذلك بذكر خلقه لهم ما في الأرض جميعًا، ثم خلق السموات السبع؛ تأكيدًا لبيان كمال قدرته، وتمام منته على العباد؛ ليشكروه ولا يكفروه، كما قال تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الآية: ٤٠].

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ اللام في قوله ﴿لَكُم﴾ للتعليل والإباحة، و«ما» اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم، و«جميعًا» توكيد.

أي: هو الذي أوجد لأجلكم الذي في الأرض كله، وأباحه لكم من الأنهار والأشجار والزروع والثمار والحيوان والمعادن وغير ذلك.

فامتن عليهم أولًا بخلقه لهم، ثم امتن عليهم ثانيًا بأن خلق لهم ما في الأرض جميعًا وأحله لهم؛ ليشكروه ولا يكفروه، ويعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وفي الآية دليل على إثبات الحكمة في أفعال الله ﷻ، وعلى أن الأصل في كل ما في الأرض الإباحة والطهارة، إلا ما دل الدليل على تحريمه ونجاسته؛ لأن الآية سيقت في معرض الامتنان.

قال السعدي(١): «وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة؛ لأنها سيقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن تحريمها أيضًا يؤخذ من فحوى الآية، وبيان المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهًا لنا».

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ثم بعد أن خلق لنا ما في الأرض جميعًا ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إلى السماء، و«استوى» تأتي في القرآن الكريم على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف فيكون معناها «كمل» و«تم»، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، وتارة تعدى بـ«على» فتكون بمعنى «علا» و«ارتفع» كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وتارة تعدى بـ«إلى» فتكون بمعنى «قصد» كما في هذه الآية، قال ابن كثير(٢): «أي قصد إلى السماء، والاستواء ههنا تضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بـ«إلى».

﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ السماء مشتقة من السمو وهو العلو، واسم السماء يطلق على الواحد وعلى الجنس، والمراد به الجنس بقرينة قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

والمعنى: ثم قصد إلى خلق السماء، وكانت دخانا، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الضمير في قوله ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ عائد إلى السماء باعتبار الجنس.

أي: فخلقهن سبع سماوات مستوية مستقيمة الخلقة منتظمة، لا تفاوت فيها ولا خلل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

وخلقُ الأرض قبل خلق السماء، ودحو الأرض بعد خلق السماء، كما قال تعالى في

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٦٩).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٩٧).

سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩- ١٢].

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٣].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بسكون الهاء «وَهْوَ» وقرأ الباقون بضم الهاء: ﴿وَهُوَ﴾.

وقدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به، وهو الخبر «عليم»؛ لتأكيد شمول علمه ﷻ لكل شيء، ومن ذلك إحياء الخلق وإماتتهم ثم إحياؤهم وردهم إليه ومحاسبتهم ومجازاتهم.

وخَلْق ما في الأرض لهم جميعًا، وتسوية السموات السبع وغير ذلك مما يوجب خشيته وتقواه؛ لعلمه بكل شيء.

وكثيرًا ما يقرن ﷻ بين خلقه وإثباته علمه، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الحياء لله ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ فنفي الحياء في هذه الحال يدل على إثباته فيما يقابلها، وعلى هذا دلت السنة فعن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الوتر- باب الدعاء (١٤٨٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥١)، وابن ماجه في الدعاء- رفع =

٢- ضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المعاني المعقولة بتشبيهها بالأمور المحسوسة، وفي هذا دلالة على إثبات القياس وحجيته.

٣- أن الله ﷻ لا يمنعه الحياء من ضرب الأمثال ولو بأحقر المخلوقات «البعوضة وما فوقها»؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

٤- علم المؤمنين بفضل ما منحهم الله تعالى من الإيمان والبصيرة بأن ما يضربه الله ﷻ من الأمثال هو الحق من ربهم وإيمانهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ وتشريفهم بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم.

٦- اعتراض الذين كفروا بسبب كفرهم على ما يضربه الله ﷻ من الأمثال وإنكارهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

٧- أن الله ﷻ يضل- بعدله- بما يضربه من الأمثال كثيرًا من الناس، وهم الكفار؛ لاعتراضهم عليه وإنكارهم له، فيزدادون ضلالا إلى ضلالهم، ويهدي به- بفضله- كثيرًا من الناس، وهم المؤمنون لعلمهم أنه الحق من ربهم فيزدادون هدى وإيمانًا؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾.

٨- أن الله لا يضل بالمثل إلا الفاسقين بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، كما أنه ﷻ يهدي به المؤمنين- بفضله- بسبب إيمانهم.

٩- أن أهل الضلال كثير، وأن أهل الإيمان كثير، لكن أهل الضلال أكثر، ولعل هذا هو سبب تقديم قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ على قوله: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾.

١٠- إثبات القدر، وأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، الرد على القدرية الذين يزعمون أن العباد يخلقون أفعالهم، وأنها ليست داخلة تحت مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

١١- أن من صفات الفاسقين الخارجين على طاعة الله تعالى وحدوده: نقض عهد الله

=

اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الألباني.

من بعد توثيقه، وقطع ما أمر الله بصلته، والإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٢- وجوب الوفاء بعهد الله، وصلة ما أمر الله بصلته، والحذر من نقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ومن الإفساد في الأرض؛ لأن هذه الأعمال من الفسق، ومن صفات الفاسقين.

١٣- أن الفسق ونقض عهد الله وقطع ما أمر به أن يوصل وسائر المعاصي من الفساد المعنوي في الأرض، الذي هو سبب للفساد الحسي، بهلاك الحرث والنسل، وخراب البلاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٤- إثبات خسارة الفاسقين المتصفين بالصفات المذكورة، وتأكيد وحصر الخسران فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

١٥- الإنكار الشديد، والتوبيخ والتعجب ممن يكفرون بالله وقد كانوا أمواتًا فأحياهم الله وأوجدهم، ثم يميتهم ثم يحييهم ويبعثهم ثم إليه يرجعون للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٦- نعمة الله ﷻ على الناس بإيجادهم من العدم، مما يوجب عليهم الإيمان به ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾.

١٧- إطلاق الموت على ما قبل الخلق وقبل نفخ الروح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾.

١٨- أن الموت مكتوب على جميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧].

١٩- إثبات البعث والمعاد والرجوع إلى الله تعالى للحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على إحياء الخلق وإيجادهم من العدم، ثم إماتتهم، ثم

إحيائهم وبعثهم للحساب والجزاء، والاستدلال على الخلق الثاني بالخلق الأول.

٢١- وجوب الاستعداد للقاء الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح.

٢٢- فضل الله ﷻ ومنته على العباد بأن خلق لهم ما في الأرض جميعًا وأباحه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا مما يوجب الإيمان به وذكره وشكره.

٢٣- أن الأصل في كل ما خلقه الله في الأرض الإباحة والطهارة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

٢٤- إثبات الأفعال لله ﷻ وأنه يفعل ما شاء متى شاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إليها، وكما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وفي الحديث: «**قدر الله وما شاء فعل**»(١).

٢٥- كمال خلق السموات وأنهن سبع سموات؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

٢٦- إثبات وتأكيد عموم علم الله بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٢٧- وجوب مراقبة الله تعالى في جميع الأحوال والأفعال والأقوال؛ لأنه ﷻ بكل شيء عليم.

* * *

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الواو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» والخطاب للنبي ﷺ، أي: واذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة مخبرا لهم، وذكِّر به قومك.

و «الملائكة» جمع «مَلك» وهم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(١).

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة- كما قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(٢).

فيجب الإيمان بهم على وجه الإجمال، كما يجب الإيمان بما ذكر في الكتاب والسنة من أسمائهم وأوصافهم وأعمالهم وبما منحهم الله من قوة وقدرة على القيام بما كلفوا به من أعمال على جهة التفصيل، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، وقال تعالى في وصف خزنة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى في وصف طاعتهم وعملهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

فمنهم الموكل بالوحي كجبريل عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

وهو الروح الأمين كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

ومنهم الموكل بالقطر والنبات كميكائيل عليه السلام.

ومنهم الموكّل بقبض أرواح بني آدم وهو ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال ﷺ: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه.. وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه..**»(١).

ومنهم الموكل بالنفخ بالصور وهو إسرافيل عليه السلام.

ومنهم حملة العرش، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

ومنهم الموكلون على العباد بحفظهم وحفظ أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

ومنهم الموكلون بالرحم والنطف كما في الحديث: «**فيرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح**»(٢).

ومنهم الموكلون بالسؤال في القبر، كما حديث البراء «**ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟**»(٣).

ومنهم الموكلون بالشمس والقمر والأفلاك، ومنهم الموكلون بالجنة والنار.

ومنهم الموكلون بعمارة السموات بالعبادة والصلاة والتسبيح والتقديس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦)- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٧٥٣).

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: إني مصير ومستخلف في الأرض خليفة.

وفي هذا إثبات الأفعال لله ﷻ وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

والخليفة: من يخلف غيره وينوب عنه.

أي: إني جاعل في الأرض خليفة يقيم شرع الله في أرض الله، ويخلفه من بعده قرنًا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقيل: خليفة لمن سبقه لأن الأرض كانت معمورة بطائفة من المخلوقات الجن أو غيرهم أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء؛ ولهذا قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

وفي الآية امتنان على آدم وذريته بالتنويه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل خلقهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ والاستفهام هنا ليس اعتراضًا على الله، ولا حسدا لبني آدم، وإنما هو استعلام واستجلاء لوجه الحكمة في جعل هذا الخليفة، مشوبا بالتعجب، وذلك لعلمهم أنه ﷻ لا يفعل إلا لحكمة، وأن المقصود من جعل الخليفة في الأرض هو إصلاحها وعمارتها.

و«من» موصولة، أي: أتجعل في الأرض الذي يفسد فيها بالكفر والمعاصي

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: أن من هذا الجنس من يفعل ذلك.

ومعنى ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، أي: ويريق الدماء، وهذا من أعظم الفساد في الأرض، فعطفه على ما قبله أشبه بعطف الخاص على العام.

وهذه المقالة من الملائكة بحسب ظنهم أن هذا الخليفة في الأرض سيحدث منه ذلك ولهذا قالوا بعده:

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أننا نسبح بحمدك، أي: نجمع بين تسبيحك وحمدك، ونقرن بينهما.

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأن كل كمال فهو أولى به، كما قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ويطلق التسبيح على ما هو أعم من ذلك من أنواع العبادة كلها، كالذكر والصلاة وقول: «**سبحانك ربنا وبحمدك**»، و«**سبحان الله وبحمده**»، «**سبحان الله العظيم**» ونحو ذلك.

والباء في قولهم: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ للمصاحبة، أي: نسبحك تسبيحا مصحوبًا ومقرونا بحمدك.

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فحمد الله وصفه بصفات الكمال مع محبته وتعظيمه.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ التقديس: التعظيم والتطهير ومنه سميت الأرض المقدسة أي: المطهرة، واللام في «لك» للاختصاص والإخلاص، أي: نعظمك ونمجدك ونكبرك ونصلي لك خاصة.

ويحتمل أن المعنى: ونحن نسبح بحمدك، أي: ننزهك ونثني عليك ونعظمك بالأقوال والأفعال ونقدسك، أي: نعظمك ونطهرك بالاعتقاد في القلوب.

فجمعوا بين تنزيه الله ﷻ عن النقائص والعيوب وعبادته بالتسبيح، وإثبات

الكمال له بالحمد، وتعظيمه وتطهيره بالتقديس، وعبروا بالجملة الاسمية في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ للدلالة على ثبوتهم واستمرارهم على ذلك، كما قال تعالى عنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

بينما عبروا بالجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: من يحصل منهم هذا الفعل تارة بعد أخرى.

وقول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ليس من باب التزكية لأنفسهم لأن الله قد نهى عنها كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، وإنما قولهم هذا من قبيل الإخبار بأنهم يقومون بعبادته ﷻ ويسبحون بحمده ويعظمونه، وامتداح تنزيه الله وحمده وتقديسه.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا جواب لقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية، أي: قال الله مجيبًا للملائكة على قولهم هذا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ من أمر هذا الخليفة، وما في خلقه من الحكم العظيمة من عمارة هذا الكون، وما في ذلك من المصالح الدينية والدنيوية الأخروية.

قال ابن كثير(١): «إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم...».

وقال ابن القيم(٢): «رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمون، وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم من هو خير من الملائكة، وظهر إبليس من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لهم علم لا بهذا ولا بهذا، ولا ما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة».

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٠٠).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٢٩٩، ٣٠٢)،

وقال أيضًا: «فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أمرهم بالسجود، ظهر ما في قلوب الملائكة من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

ففي الآية إثبات الحكمة في أفعال الله ﷻ سواء ظهرت للخلق أو لم تظهر لهم، والرد على من نفى الحكمة عن الله ﷻ في أفعاله، وقال إنه يفعل لمجرد المشيئة بلا حكمة- كما تقول الأشاعرة.

وفيها الرد وعلى المعتزلة القائلين بأنهم يحيطون بوجوه الحكمة في أفعال الله ﷻ فينفون أمورًا كثيرة عن الله في عقولهم ويدعون أن إثباتها ينافي حكمة الله، مثل نفيهم خلقه لأفعال العباد بدعوى أنه لو خلقها كانوا مجبورين عليها فكيف يعذبهم بما ليس فعلًا لهم هذا لا يليق بالحكمة(١).

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

لما كان قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، فيه إشارة منهم إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض أراد الله أن يبين لهم فضل آدم عليهم بالعلم، وكمال حكمة الله ﷻ وعلمه، فقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ الآيات.

وقد جاء في بعض الآثار أنهم قالوا: «لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا، أو إلا كنا أعلم منه»(٢).

قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

هذا بعد قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يدل على أن هذا الخليفة هو آدم عليه السلام وهو أبو البشر خلقه الله ﷻ بيده من أديم الأرض وطينها ولهذا سمي آدم وقيل: سمي

---

(١) انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ٩١) «إيثار الحق على الخلق» ص (٢٠١) وما بعدها.

(٢) انظر «جامع البيان» (١/ ٥٢٣، ٥٣٢- ٥٣٣).

آدم لأدمته؛ فليس بالأبيض الباهق ولا الأسود الحالك لكنه بين ذلك.

و«ال» في «الأسماء» للاستغراق و«كلها» للتوكيد.

أي: وعلم الله ﷻ آدم عليه السلام الأسماء كلها، أي: أسماء كل شيء، ومنها أسماء الملائكة، وأسماء ذريته من الأنبياء وغيرهم.

كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم، فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك الملائكة، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا**»(١).

أي: علمه الأسماء كلها ومسمياتها بدليل قوله تعالى بعده: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بضمير وإشارة العقلاء.

واختلف هل المراد بذلك الأسماء والمسميات الحاضرة والمعروفة وهي ما يحتاجه آدم وبنوه في ذلك الوقت، واستدل له بظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

وقال بعضهم المراد بذلك الأسماء والمسميات كلها مطلقًا لظاهر الآية ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: ثم عرض ﷻ هذه المسميات على الملائكة امتحانا لهم هل يعرفونها أم لا.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ النبأ: الخبر العظيم ذو الأهمية، والفائدة الكبيرة، فهو أخص من الخبر، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧].

أي: أخبروني بأسماء هؤلاء المسميات.

وعبر بضمير العقلاء في- قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ وأشار بإشارة العقلاء ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تغليبا لجانب العقلاء من المسميات.

وفي الآية تقرير وتوكيد لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وتحدٍ وتعجيز لهم وبيان لقلة علمهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٦/ ٧٥) ومسلم في الإيمان (١٩٣)، وابن ماجه في الزهد (٢/ ٤٣).

أي: إن كنتم صادقين في قولكم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية في ظنكم أن هؤلاء الذين سأستخلفهم في الأرض سيعصونني، ويفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وأني لم أخلق خلقا إلا كنتم أفضل وأعلم منهم.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بهذا أجاب الملائكة عن قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فنزهوا الله ﷻ وأقروا واعترفوا بالعجز والجهل، وأنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله العليم الحكيم، وأن آدم أعلم منهم.

وقولهم ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: ننزهك عما لا يليق بك، وأن نقول ما لا نعلم.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ «لا»: نافية للجنس، و﴿عِلْمَ﴾ اسم «لا» مبني على الفتح في محل نصب، وهي نكرة في سياق النفي فتعم أيَّ علم، مهما قل من علم أسماء ما ذكر أو من علم أمر الخليفة، أو غير ذلك.

«إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة أي: الذي علمتنا.

أي: لا علم لنا بأي شيء إلا الذي علمتنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تفويض من الملائكة أنه ﷻ وحده العليم الحكيم، وتأكيد وتعليل لقولهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

﴿أَنتَ﴾ ضمير منفصل يفيد التوكيد والحصر، أي: إنك أنت وحدك العليم الحكيم.

و ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من العلم يدل على إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ المحيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

فهو- عز وجل- ذو العلم الواسع، الذي أحاط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، قال موسى عليه السلام لما سئل: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾؟ قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

والعلم في الأصل إدراك الأشياء على ما هي عليه حقيقة إدراكًا جازمًا، فمن قال عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، فهو عالم، يدري ويدري أنه يدري.

ومن قال: لا أدري، فهو جاهل جهلا بسيطا، لا يدري ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: بل هي مائة وعشرون سورة فهذا جاهل جهلا مركبا، لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من الحكم والحكمة يدل على أنه ﷻ ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة، الحكم الكوني، كما قال تعالى فيما حكاه عن أحد إخوة يوسف أنه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

والحكم الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

والحكم الجزائي للناس على قدر أعمالهم خيرها وشرها، كما قال تعالى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] أي: بحكمه الجزئي.

فهو ﷻ الحكم وإليه الحكم كما قال ﷺ: «**إن الله هو الحَكَم وإليه الحكم**»(١).

وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، فيما خلق وقدر وشرع وجازى به عباده.

فكل حكم من أفراد الأحكام الكونية أو الشرعية أو الجزئية له حكمتان؛ حكمة غائية وهي الغاية منه، وحكمة صورية، وهي الحكمة من مجيئه على صورة معينة.

فهو ﷻ الحكيم، الحاكم المحكم في خلقه وقدره وشرعه، وفي تعليم من شاء دون من شاء.

وباجتماع العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه ﷻ يزداد كماله إلى كمال.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٥٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٧)- من حديث شريح بن هانئ عن أبيه- رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

لما أقر الملائكة واعترفوا بالجهل، وأنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله، أمر الله ﷻ آدم أن ينبئ الملائكة بأسماء المسميات التي عرضها عليهم ليظهر لهم فضل آدم، عليهم بما ميزه الله وخصه به من العلم.

قوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ أي: أخبر الملائكة بأسماء المسميات التي علمتك إياها؛ ليظهر لهم ما فضلك الله وميزك به عليهم من العلم، وفي هذا مع ندائه ﷻ لآدم تشريف وتكريم له.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ أي: فلما أخبر آدم الملائكة بأسماء تلك المسميات- طاعة الله ومسارعة في تنفيذ أمره- وتبين للملائكة كمال حكمة الله ﷻ وعلمه في استخلافه، وفضْلُه عليهم بما ميزه الله به عليهم من العلم.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ أي: قال الله ﷻ مخاطبًا الملائكة ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ الآية، والاستفهام للتقرير لمجيء النفي بعده، أي: قد قلت لكم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الانشراح: ١] أي: قد شرحنا لك صدرك.

أي: قد قلت لكم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ كما قال تعالى في الآيات السابقة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤]، ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

و﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ما غاب فيهما عن الناس فلا يشاهدونه ولا يدركونه بحواسهم ولا يعلمون عنه شيئًا فكل ذلك معلوم لله ﷻ لا تخفى عليه منه خافية، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩]،

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

وإذا كان ﷻ يعلم غيب السموات والأرض فعلمه بما يشاهد ويظهر من ذلك من باب أولى؛ ولهذا قال:

﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ معطوف على ما قبله أشبه بعطف الخاص على العام، و«ما» موصولة في الموضعين، أي: وأعلم الذي تبدون والذي تكتمون، وصيغة المضارع في قوله: «تبدون» و«تكتمون» للدلالة على استمرار علمه ﷻ بما يحصل منهم في المستقبل كما علم ما حصل منهم في الماضي.

أي: وأعلم الذي تظهرون من الأقوال والأعمال وغير ذلك، والذي كنتم تخفون في قلوبكم من المعتقدات والأسرار والمكنونات والمضمرات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٩٩، النور: ٢٩].

ومما أبدوه قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ومما أخفوه أنه لن يخلق الله خلقا إلا كانوا أعلم منهم وأكرم على الله منهم، ومن ذلك ما انطوى عليه إبليس من الكبر والمخالفة والكفر.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القول والكلام لله ﷻ، وأنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت مسموع، متى شاء وكيف شاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ والآيات بعدها.

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ ﴾ وتشريفه بخطاب الله ﷻ، إضافة اسم الرب إلى ضميره.

٣- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم، وأنهم ذوو عقول ويسمعون ويتكلمون، وذو شرف، عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ الآية ووجه الدلالة أن الله ﷻ

خاطبهم وأجابوه.

٤- إثبات الأفعال لله ﷻ، وأنه يفعل ما شاء متى شاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

٥- التنويه بذكر آدم عليه السلام وذريته في الملأ الأعلى قبل خلقهم.

٦- الحاجة إلى خليفة يقيم شرع الله في أرض الله، ويخلفه من بعده؛ لإصلاح الأرض وعمارتها.

٧- جواز الاستعلام لاستجلاء وجه الحكمة؛ لأن الله ﷻ لم ينكر على الملائكة قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بل أجابهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٨- ذم الفساد، وكراهة الملائكة للإفساد في الأرض وسفك الدماء، لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

٩- تسبيح الملائكة بحمد الله ﷻ وتعظيمهم له، وقيامهم بعبادته؛ لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾ وفي هذا امتداح تسبيح الله وحمده وتقديسه وعبادته.

١٠- في قول الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ دلالة على جواز الإخبار عما يفعله الإنسان من العبادة والخير إذا كان ذلك على سبيل الإخبار فقط، لا لقصد الفخر وتزكية النفس، فإن ذلك لا يجوز قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

١١- علم الله ﷻ التام بما في جعل هذا الخليفة من الحكمة والمصالح الدينية والدنيوية مما لا علم بالملائكة به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ دلالة على أن هذا الخليفة هو آدم عليه السلام.

١٣- فضل الله ﷻ ومنته على آدم عليه السلام بتعليمه الأسماء كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

وقد استدل بهذا بعض أهل العلم على أن اللغات توقيفية علمها الله ﷻ آدم وذريته، وقيل أنها تجريبية كوَّنها الناس من هذه الحروف والأصوات بالتجارب.

والأظهر أن مبدأ اللغات توقيفي، وكثير منها كسبي تجريبي.

١٤- عرض الله ﷻ هذه الأسماء التي عَلَّمها آدم ومسمياتها على الملائكة، في تحدٍّ وتعجيز لهم لإنبائه بأسمائهم؛ ليظهر لهم قلة علمهم، وعدم صدق ظنهم في أن هذا الخليفة سيعصي الله، ويفسد في الأرض، ويسفك الدماء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وفي هذا تقرير وتوكيد لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٥- تنزيه الملائكة لله ﷻ، واعترافهم أنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله، وأن آدم أعلم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

١٦- يجب على الإنسان معرفة قدر نفسه، فلا يدعي علم ما لم يعلم، وينبغي أن يفطن لهذا كثير ممن يتصدرون للفتوى بلا علم.

١٧- أن العلم إنما يكون بتعليم الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

١٨- إثبات اسم الله «العليم»، وما يدل عليه من إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٩- إثبات اسم الله «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام لله ﷻ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله ﷻ بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٠- تشريف الله ﷻ لآدم بندائه له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾.

٢١- أمر الله ﷻ آدم بإنباء الملائكة بأسماء المسميات التي علمها ﷻ له؛ ليُظهر لهم فضل آدم عليهم بما ميَّزه الله وخصه به من العلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾.

٢٢- مسارعة آدم عليه السلام إلى إنباء الملائكة بهذه الأسماء طاعة وامتثالا لأمر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾؛ ولهذا طوى ذكر قوله: ﴿أَنۢبَأَهُم﴾ إشارة إلى مبادرته بذلك.

٢٣- تقرير وإثبات علم الله ﷻ غيب السموات والأرض، وما يبدي الملائكة وغيرهم من الخلق وما يكتمون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وفي هذا تأكيد وتقرير لقوله قبل هذا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٤- إذا كان ﷻ يعلم غيب السموات والأرض فعلمه بالمشاهد فيهما من باب أولى.

٢٥- وجوب مراقبة الله تعالى لأنه لا يخفى عليه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٦- في الآيات توجيه إلى أن العبد إذا خفيت عليه الحكمة في بعض ما خلقه الله وقدره وشرعه فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله والإقرار بالحكمة لله ﷻ في ذلك كله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

بين ﷻ للملائكة فضل آدم عليهم بالعلم، ثم أمرهم بالسجود له إكراما له واحتراما وعبودية لله ﷻ.

قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ أي: واذكر يا محمد حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، اذكر ذلك بنفسك واذكره وذكر به قومك، وهو ﷺ إنما يذكر ذلك بتذكير الله ﷻ له بوحيه إليه.

وتكلم ﷻ عن نفسه بضمير العظمة «نا» في هذه الآية وما بعدها لأنه العظيم ﷻ.

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ أمر منه ﷻ للملائكة بالسجود لآدم، أي: اسجدوا لآدم إكراما واحتراما له، وإظهارًا لفضله، وعبودية وطاعة لله ﷻ.

وذلك بعد أن خلقه الله تعالى وصوره ونفخ فيه من روحه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٢٨- ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: ٧١- ٧٣].

وهذه منة عظيمة من الله ﷻ على آدم وذريته؛ ولهذا ذكَّر الله ﷻ بها محمدًا وأمته، كما في حديث أنس ﷺ: «**أنت آدم الذي خلقك بالله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد**

لك ملائكته»(١).

والسجود في اللغة: الذل والخضوع لله ﷻ.

وفي الشرع: السجود على الأعضاء السبعة تذللا وخضوعًا وتعظيمًا لله ﷻ وهي الجبهة والأنف واليدين والركبتين وأطراف القدمين.

وقد يطلق السجود على الصلاة كلها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: إذا صلوا فليكونوا من ورائكم، بل قد يطلق السجود على ما هو أعم من ذلك وهو الطاعة والانقياد لله ﷻ.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب، أي: فبادروا كلهم بالسجود امتثالًا لأمر الله ﷻ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الآية: ١١]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الآية: ٣١]، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الآية ٦١]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٥٠]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [الآية: ١١٦]، وقال تعالى في سورة ص: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٧٤].

وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن» أي: لكن إبليس أبى واستكبر، وعلى هذا فالاستثناء منقطع، ويجوز كون الاستثناء متصلًا.

وإبليس هو الشيطان وهو أبو الجن، سمي بهذا الاسم؛ لأنه أبلس من رحمة الله، أي: أيس منها يأسًا لا رجاء بعده.

وبناءً على الاختلاف في كون الاستثناء متصلًا أو منقطعًا، اختلف أهل العلم هل إبليس من الملائكة أم لا؟ على قولين:

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه من الملائكة؛ لأن الله استثناه منهم في هذه الآيات.

---

(١) سبق تخريجه.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه من الجن وليس من الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، ولقوله ﷺ: «**خلق إبليس من نار وخلق الملائكة من نور، وخلق آدم مما ذكر لكم**»(١).

واعتبروا الاستثناء منقطعًا، قال الحسن: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس»(٢).

قال ابن القيم: «والصواب التفصيل في هذه المسألة، وأن القولين في الحقيقة قول واحد، فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته، وليس منهم بمادته وأصله، كان أصله من نار، وأصل الملائكة من نور، فالنافي كونه من الملائكة والمثبت لم يتواردا على محل واحد»(٣).

وقال ابن كثير(٤): «والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه- وإن لم يكن من عنصرهم- إلا أنه كان قد تشبه بهم، وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر».

وعلى هذا فيجوز كون الاستثناء متصلًا أو منقطعًا.

﴿أَبَىٰ﴾ أي: امتنع من السجود ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ «استكبر» أبلغ من تكبر؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا، فالاستكبار: شدة الكبر وغايته، أي استكبر عن الانقياد لأمر الله، وتكبر على آدم، فاستنكف عن اتباع الحق، وتعاظم على الخلق كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الآيتان: ١٢، ١٣]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الآيات: ٣٢- ٣٥].

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٥٣٩- ٥٤٠).

(٣) انظر «محاسن التأويل» (١/ ٢٩١).

(٤) في «تفسيره» (١/ ١١٠).

كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الآيتان: ٦١، ٦٢].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الآيات: ٧٥- ٧٨].

وقد قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١).

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ «كان» مسلوبة الزمان، تفيد تحقيق اتصاف إبليس بالكفر فجمع إبليس لعنه الله بين عدم الانقياد لفعل ما أمر الله به من السجود لآدم، والاستكبار عن قبول الحق واتباعه، والتعاظم على آدم وعلى الخلق، والكفر.

قال السعدي(٢): «وهذا الإباء والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره».

قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

هذا مما أخبر الله به مما أكرم الله به آدم عليه السلام وهو إسكانه وزوجه الجنة، بعد إكرامه بأمر الملائكة بالسجود له، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الآية: ١٩]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [الآيات: ١١٧- ١١٩].

قوله: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ «يا» حرف نداء، وآدم منادى، وفي نداء الله ﷻ لآدم تكريم وتشريف له.

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ «أنت» ضمير منفصل مؤكد لفاعل «اسكن» وهو الضمير المستتر فيه، ﴿وَزَوْجُكَ﴾ معطوف على فاعل «اسكن»، وزوج آدم هي حواء- عليها السلام.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩) والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٧٣).

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ «ال» للعهد، أي الجنة المعهودة، جنة الخلد، التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين.

وقيل: إن هذه الجنة التي أسكنها آدم وزوجه في الأرض، والصحيح أنها جنة الخلد كما وصفها الله ﷻ في قوله في سورة طه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [الآيتان: ١١٨، ١١٩].

وقد استدل ابن القيم(١) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، ثم قال: «وهذا لا يكون في الدنيا أصلًا، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لابد أن يعرض له شيء من ذلك، وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ، والعري والضحى، فإن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر، فنفى عن سكانها ذل الظاهر والباطن، وحر الظاهر والباطن، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعري والضحى، وهذا شأن ساكن جنة الخلد. قالوا: وأيضًا فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية، وأن ملكها يبلى».

ففي هذه الجنة نزل الأبوان آدم وحواء- عليهما السلام- ومنها أخرجا بسبب المعصية، وإليها مأواهما ومن آمن من ذريتها، وفيها خلودهم.

قال ابن القيم(٢):

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

﴿وَكُلَا﴾ أمر إباحة ﴿مِنْهَا﴾ أي من الجنة.

﴿رَغَدًا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: أكلًا رغدًا، أي: أكلًا هنيئًا واسعًا طيبًا، مريئًا لا عناء فيه، ولا تنغيص ولا كدر.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: في أي مكان شئتما من هذه الجنة، ومن أي مأكول شئتما، ومتى

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٠٩).

(٢) انظر «حادي الأرواح» ص (٣١).

شئتما، وفي هذا إكرام من الله ﷻ لآدم وزوجه، وامتنان عليهما، بإسكانهما الجنة، وإباحته لهما ما فيها من النعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في هذا امتحان من الله ﷻ لآدم وزوجه، وحكمة الله أعلم بها، أي: ولا تأكلا من هذه الشجرة، والنهي عن قربها أبلغ من النهي عن الأكل منها؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، كما جاء في الحديث(١)، فالنهي عن قربها نهي عن الأكل منها من باب أولى.

و«أل» في الشجرة للعهد الحضوري؛ لأن الله أشار إليها بإشارة القريب «هذه» من أشجار الجنة، والله أعلم أي شجرة هي.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي، والفاء للسببية، أي: فيتسبب عن قربكما لها كونكما من الظالمين المعتدين؛ لفعلكما ما نهاكما الله عنه وحرمه.

والظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

أي: فإن قربتما هذه الشجرة التي نهيتكما عنها كنتما من الظالمين لأنفسهم المعتدين على حرمات الله- تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ قرأ حمزة «فأزالهما» بمعنى: فنحاهما الشيطان، ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنة.

وقرأ الباقون: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: أوقعهما في الزلل وهو الخطأ، والضمير في «عنها» يعود إلى الشجرة أي: فأوقعهما الشيطان في الزلل والخطأ والمعصية بسبب الأكل من الشجرة، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير ﷺ البخاري في الإيمان (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩٩) وأبو داود في البيوع (٣٣٢٩) والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤).

مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الآيات: ٢٠- ٢٢]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [الآيتان: ١٢٠، ١٢١].

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ الفاء للسببية، و«ما» موصولة، أي: فتسبب في إخراجهما من الذي كانا فيه من رغد العيش وطيب المسكن وسعة الرزق والراحة والأمن وقرة العين، إلى دار التعب والنصب والمكابدة والمجاهدة.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الآية: ٢٤].

والهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل، أي: انزلوا من الجنة إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾ [البقرة: ٣٨].

والخطاب في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وزوجه وإبليس- وقد تقدم ذكرهم- ولهذا قال: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ بواو الجمع، ويؤكد هذا قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ أي: إبليس وذريته أعداء لآدم وحواء وذريتهما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

وقيل الخطاب لآدم وحواء وذريتهما بدليل قوله تعالى بعد هذا: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، وقوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا

يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الآيتان: ١٢٣، ١٢٤].

وقيل الخطاب في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وحواء، وخوطبا بالجمع لأن أقل الجمع اثنان، كما قال تعالى بعد أن ذكر حكم داود وسليمان- عليهما السلام- قال: ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ [الأنبياء: ٧٨] بضمير الجميع، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة طه: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [الآية: ١٢٣] بالتثنية.

والأظهر أن الخطاب في قوله ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وحواء وإبليس، والخطاب في قوله: ﴿ٱهْبِطَا﴾ بالتثنية لآدم وإبليس- وحواء تبع لآدم فيما خوطب به، كما أن ذرية آدم تابعة له فيما خوطب به من التكليف والاتباع.

ويقوي كون خطاب الجمع ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لآدم وحواء وإبليس، وخطاب التثنية لآدم وإبليس قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ لأن المراد بالعداوة عداوة إبليس لآدم وزوجه وذريتهما، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وهي العداوة التي أكدها القرآن الكريم في مواضع عدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

قال ابن القيم(١) في معرض ترجيح أن المراد بقوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ آدم وزوجه وإبليس، قال: «وأما قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]، فهذا خطاب لآدم وحواء، وقد جعل بعضهم لبعض عدوًا، فالضمير في قوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ إما أن يرجع لآدم وزوجته، وإما أن يرجع إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له، وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط وهما آدم وإبليس فالأمر ظاهر.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١١- ٣١٢).

وأما على الأول وهو رجوعه إلى آدم وزوجه- فتكون قد اشتملت على أمرين: أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط، والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه وبين إبليس؛ ولهذا أتى بضمير الجمع، في الثاني دون الأول ولابد أن يكون إبليس داخلًا في حكم هذه العداوة قطعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقال لذريته: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع، دون التثنية. وأما الإهباط فتارة يذكر بلفظ الجمع، وتارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الإفراد، كقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الآية: ١٣]، وكذلك في سورة ص[1]، وهذا لإبليس وحده. وحيث ورد بصيغة الجمع فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم، وحيث ورد بلفظ التثنية فإما أن يكون لآدم وزوجه، إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة، وأقدما على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس، إذ هما أبوا الثقلين، وأصلا الذرية، فذكر حالهما ومآل أمرهما؛ ليكون عظة وعبرة لأولادهما. والذي يوضح أن الضمير في قوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ لآدم وإبليس أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم، دون زوجه، فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [طه: ١٢١- ١٢٣] وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم وإبليس الذي زين له المعصية، ودخلت الزوجة تبعًا، فإن المقصود إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذِكْرُ أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنسان فقط، وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة، فعلم أن حكم الزوجة كذلك، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم، وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوي الثقلين أولى من تجريدها إلى ذكر حال أبي الإنس وأمهم فتأمله، وبالجملة فقوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله: ﴿ٱهْبِطَا﴾ من غير موجب».

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: ولكم في الأرض مسكن وموضع استقرار، وهذا

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧].

بعد قوله ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ يدل على أنهم قبل ذلك لم يكونوا في الأرض، وأن منتهى إهباطهم إليها كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ [غافر: ٦٤]، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي: ولكم في الأرض متاع تتمتعون به، والمتاع: ما يتمتع به من رزق، من مأكل ومشرب وملبس ومركب وفرش وغير ذلك.

﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى وقت معيَّن وأجل محدَّد، وهو انقضاء آجالكم وقيام الساعة، وانتقالكم إلى الدار الآخرة التي هي دار الحياة حقًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [الكهف: ٦٤].

وهو متاع قليل، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال ﷺ: «**مالي وللدنيا إنما كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(٢).

وفي الآية ما يوجب الحذر من الشيطان فإنه كما أخرج الأبوين من الجنة فإنه ساع سعيًا حثيثًا بخيله ورجله إلى حرمان ذريتهما من دخولها، وإلى زجهم معه في نار جهنم؛ وذلك بتزيين الكفر والبدع والمعاصي لهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾.

قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ قرأ ابن كثير بنصب «آدمَ» ورفع «كلماتٌ»، وقرأ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٣١٠٩)- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

الباقون برفع ﴿ءَادَمُ﴾ ونصب ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ بكسر التاء.

أي: فتلقن آدم وأُلهم من ربه كلمات ألقاهن الله إليه ووفقه لقولهن، بفضل ربوبيته ﷻ الخاصة له وامتنانه عليه، قالها آدم وزوجه وتوسلا إلى الله بها، وهذه الكلمات ما جاء في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الآية: ٢٣].

وفي هذه الكلمات توسل آدم وحواء- عليهما السلام- بربوبية الله ﷻ، واعترافهما بأنهما ظلما أنفسهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وتضرعهما إلى الله ﷻ بأن يغفر لهما ويرحمهما، وإعلانهما تحقق وتأكد كونهما من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما ويرحمهما.

وهذه الكلمات من جوامع الدعاء، ومن أعظم أسباب قبول التوبة، لما فيها من التوسل بربوبيته ﷻ، والاعتراف بالذنب وظلم النفس، والتضرع إلى الله بطلب المغفرة والرحمة، وإيقان الخسران والهلكة إن لم يعفو الله ﷻ عن العبد ويغفر له ويرحمه.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: فتاب ربه عليه، بأن وفقه للتوبة بهذه الكلمات، ثم قبل توبته فعفا وتجاوز عنه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

كما تاب على زوجه حواء، ولم تذكر هنا- والله أعلم- لظهور أنها تبع له في سائر أحواله بدليل قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

وصار حال آدم وحواء بعد توبة الله ﷻ عليهما أفضل من حالهما قبل المعصية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

فجمع الله ﷻ لمن تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا بين ما له من حسنات هذه الأعمال وغيرها وبين الحسنات التي أعطيت له بدل السيئات وبهذا صار حاله بعد التوبة الصادقة النصوح أفضل من حاله قبل المعصية.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذه الجملة تعليل لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، أي: فتاب ﷻ على آدم؛ لأنه سبحانه هو التواب الرحيم.

وضمير الفصل «هو» للتوكيد والحصر، أي: هو التواب الرحيم وحده لا غيره.

و«التواب» اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من التوبة، يدل على أنه ﷻ ذو التوبة الواسعة.

و«التواب» على وزن «فعَّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على كثرة توبته ﷻ على العبد، وكثرة من يتوب عليهم من عباده.

وتوبة الله على العبد الرجوع به من المعصية والمخالفة إلى الطاعة والموافقة، وهي تنقسم إلى قسمين: توفيقه العبد للتوبة، كما قال تعالى في قصة الثلاثة الذين خلفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبول توبة عبده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

و «الرحيم» اسم من أسماء الله ﷻ مشتق من الرحمة على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله ﷻ: رحمة هي صفة ذاتية ثابتة لله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ناطقهم وبهيمهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فرحمته ﷻ للكافرين وغيرهم من البهائم في الدنيا ما يتمتعون به من نعم الله ﷻ التي لا تحصى، ورحمته لهم في الآخرة، العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء- كما جاء في الحديث(١).

ورحمته ﷻ للمؤمنين في الدنيا هدايتهم وتوفيقهم للطريق المستقيم- إضافة إلى ما يتمتعون به من النعم مما هو دون ذلك، ورحمته لهم في الآخرة هدايتهم إلى طريق الجنة

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وإدخالهم جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [الآية: ١٢٣].

قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ توكيدًا، وليرتب عليه ما بعده وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنة.

وقال ابن القيم[1]: «﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ والظاهر أن هذا الإهباط الثاني غير الأول، وهو إهباط من السماء إلى الأرض، الأول: إهباط من الجنة، وحينئذ فتكون الجنة التي أهبط منها أولًا فوق السماء وجنة الخلد».

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: حال كونكم جميعًا، والمراد بذلك آدم وحواء وإبليس.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ الفاء استئنافية، و«إما» مكونة من «إن» الشرطية، و«ما» الزائدة من حيث الإعراب، المؤكدة من حيث المعنى، أي: فأيَّ وقت وزمان جاءكم مني هدى.

و﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾: فعل الشرط بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والتي فيها توكيد إتيان الهدى.

﴿مِّنِّى هُدًى﴾ الهدى: البيان والإرشاد والعلم، أي: فإما يأتينكم مني هدى مما أوحيه إلى رسلي وأنبيائي وأنزله في كتبي من العلم والبيان، كما قال تعالى في وصف القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى في وصف التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٤]، وقال تعالى وصف الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٠).

وليس في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ ما يدل على احتمال عدم إتيان الهدى، بل إن في تأكيد الفعل ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ دلالة، بل تأكيد على مجيء الهدى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، وقال تعالى بعد أن ذكر خلق الإنسان وإيجاده بعد أن كان عدمًا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وهذا مقتضى حكمة الله ﷻ في خلق الثقلين لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وفي قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ دليل على عدم المؤاخذة إلا بعد إقامة الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب والهدى والبيان، كما قال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

كما أن فيه دلالة على أن الهدى حقًا هو ما كان من الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنِّي هُدًى﴾، ولأن الله ﷻ أضافه إليه فقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

ولهذا لا يجوز أن يتعبد لله إلا بهداه الذي شرعه في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه ورسله ومن تعبد لله بغير ذلك فهو على ضلال.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ جواب الشرط «إن»، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، و«من» شرطية، و«تبع» فعل للشرط.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ ولم يقل: «فمن تبعه»، ولم يقل: «الهدى» بالتعريف بـ «ال» بل أضافه إليه فقال: ﴿هُدَاىَ﴾ تعظيمًا لهداه ﷻ، وترغيبا في إتباعه، وبهذا الإظهار والإضافة صارت هذه الجملة مستقلة بنفسها.

وأضاف ﷻ الهدى إليه؛ لأنه هو الذي شرعه، ويوصل إليه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والمعنى: فمن اتبع هداي الذي أرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، بأن آمن

بذلك فصدق بما أخبرت به، وامتثل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي سورة طه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قرأ يعقوب ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حيث وقعت بفتح الفاء: «فلا خوفَ»، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾.

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ جواب الشرط «مَنْ»، و«لا»: نافية، والخوف: الهم مما يستقبل، أي: فلا خوف عليهم فيما يستقبلون في حياتهم؛ لإيمانهم واعتمادهم على ربهم ورضاهم بقدره وثقتهم بكونه معهم يسددهم ويعينهم ويحفظهم ويدافع عنهم، ولا خوف عليهم فيما يستقبلون بعد مماتهم من عذاب القبر وأهوال القيامة وعذاب النار، بل هم آمنون، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فلهم الأمن التام يوم القيامة في جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، ولهم أيضًا: الأمن والاطمئنان النفسي والاجتماعي في الدنيا بحسب إيمانهم؛ لأنهم محفوظون بحفظ الله تعالى، كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(٢).

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، والحزن هو الغم والتحسر على ما مضى وفات.

وقد يطلق الحزن على الخوف مما يستقبل كما في قوله ﷺ لأبي بكر: «**لا تحزن إن الله معنا**» أي: لا تخف.

والمعنى: ولا هم يحزنون على ما مضى وفاتهم من أمورالدنيا، ولا على ما خلفوا

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١: ٢٩٣، ٣٠٣) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

فيها بعد موتهم من أهل ومال وولد؛ لإيمانهم بانتقالهم إلى ما هو خير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وهذا بخلاف حال المكذبين كما قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٤- ٥٦].

والحزن على ما مضى مما أقضَّ مضاجع كثير من المحتضرين. فقد رُوي أن تميم بن جميل[(١)] لما جيء به ليُقتَل وقال له الخليفة: إن كان لك من حجة فأدل بها أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ... يلاحظني من حيثما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ عما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسل عليَّ السيف فيه وأسكت

إلى أن قال:

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية إن تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الأذى عنهم وإن مت موتوا

فرق له الخليفة وخلى سبيله، وقال: اذهب فقد تركتك للصبية، وعفوت عنك من أجل الصبية.

وكما قال مصطفى السباعي من قصيدة له بعنوان «وداع راحل»[(٢)]:

---

(١) انظر «ديوان تميم بن جميل» ص (٣٥)، «الفرج بعد الشدة» (٤/ ٨٩- ٩٠)، «المستجاد من فعلات الأجواد» ص (١١٧- ١١٩)، وكان من قصة تميم أنه أحدث حدثاً، وفر هارباً، فأرسل الخليفة بطلبه فجيء به، وأدخل على الخليفة، وإذا السيف معلق، والنّطع الذي يقتل عليه الرجال أمامه، وقال له الخليفة: أدل بحجتك.

(٢) انظر: «شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث» (٢/ ٤٦).

وإنـــما حـــزني في صـــبية درجـــوا غفـــل عـــن الشـــر لم توقـــد لهـــم نـــار
قـــد كنـــت أرجـــو زمانًـــا أن أقـــودهم للمكرمـــات فـــلا ظلـــم ولا عـــار
واليـــوم قـــد ســـارعت دربي إلى كفـــن يومًـــا سيلبســـه بـــر وفجـــار
بـــالله يـــا صـــبيتي لا تهلكـــوا جزعًـــا عـــلى أبـــيكم طريـــق المـــوت أقـــدار
تـــركتم في حمـــى الـــرحمن يكلـــؤكم مـــن يحمـــه الله لا تدركـــه أوزار
وأنـــتم يـــا أهيـــل الحـــي صـــبيتكم أمانـــة عنـــدكم هـــل يهمـــل الجـــار

ومن سلم من الخوف في المستقبل، ومن الحزن على ما فات ومضى فإنه يكون في غاية السعادة والطمأنينة والأمن، وقد صور هذا المعنى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- عندما دخل عليه أناس وهو في مرض موته، فقالوا له: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء، لا شيء لهم، فقال: أدخلوهم عليَّ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكرًا ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: يا بني ما منعتكم حقًا هو لكم ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ثم قال: قوموا عني، أو قوموا مغفورًا لكم(١).

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ذكر ﷻ جزاء من اتبع هداه، وهو عدم الخوف وعدم الحزن، ثم أتبع ذلك بذكر جزاء الكافرين المكذبين بآيات الله وهو ملازمة النار والخلود فيها، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، ليجمع العبد في طريقه إلى

---

(١) انظر: «العقد الفريد» (٥/ ١٧٤- ١٧٥)، «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٤٠- ١٤١).

الله بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الآيات: ١٢٤- ١٤٧].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: والذين كفروا بالله، واستكبروا عن طاعته، وأبوا الانقياد لشرعه وامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: كذبوا بآيات الله الشرعية المنزلة على رسله وأعظمها القرآن الكريم، فلم يصدقوا ما دلت عليه من أخبار، وجحدوا ما دلت عليه من أحكام، ولم يستدلوا بآياته الكونية على وجوب توحيده وإخلاص العبادة له.

و«آيات» جمع «آية»، وهي لغةً: العلامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالى في معجزات موسى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢].

قال النابغة الذبياني(١):

توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

أي: توهمت علامات لها.

وأطلقت على القطعة من كلام الله ذات بداية ونهاية معلومة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي الحديث قوله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**ألا تكفيك آية الصف التي في آخر سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ﴾** [النساء: ١٧٦]»(٢).

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣١.

(٢) أخرجه مسلم في الفرائض (١٦١٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٢٧٢٦)، وأحمد (١/ ٢٦، ٣٨)- من حديث عمر- رضي الله عنه.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهي ما أنزل الله من الوحي على أنبيائه ورسله، وأعظم ذلك القرآن الكريم.

وسمي القرآن آيات؛ لما فيه من الهدى والإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وكونه صالحًا لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، دال على أنه من عند الله ﷻ الذي له الكمال في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، المستحق للعبادة وحده دون من سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولما فيه أيضًا من الدلالة على صدق من جاء به من عند الله وهو محمد ﷺ فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

والقسم الثاني: آيات كونية، وهي كل ما بثه الله وخلقه في هذا الكون علويه وسفليه من المخلوقات، من السموات والأرض والملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات وسائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

فكل ما في هذا الكون من المخلوقات هو من آيات الله الدالة على وجوده وعظمته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته، واستحقاقه العبادة وحده دون من سواه.

وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢).

(٢) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الإشارة للذين كفروا وكذبوا بآيات الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ساكنوها وملازموها أشد من ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه.

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم خالدين فيها خلودًا أبديًّا، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ [الآيتان: ١٦٧، ١٦٨]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥]، وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القول لله ﷻ، وإثبات عظمته، وإثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ وفي الآيات بعدها.

٢- فضل آدم- عليه الصلاة والسلام- على الملائكة؛ لأن الله أمرهم بالسجود له، إكرامًا واحترامًا؛ وإظهارا لفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾.

٣- أن سجود الملائكة لآدم بأمر الله تعالى إنما هو عبادة لله تعالى؛ لأن الله هو الذي أمر بذلك- لإظهار فضل آدم- ولهذا لما امتنع إبليس عن السجود وكان من الكافرين، وليس سجودهم عبادة لآدم؛ لأن السجود لغير الله لا يجوز.

٤- مبادرة الملائكة بالسجود لآدم طاعة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾.

٥- امتناع إبليس عن السجود لآدم إباءً ومعصية لأمر الله، واستكبارًا عن الحق، وعلى الخلق، وكفرًا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

٦- تشريف الله تعالى لآدم عليه السلام بندائه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾.

٧- فضل الله ﷻ ومنته على آدم وزوجه «حواء» في إسكانهما الجنة وإباحته لهما الأكل

منها رغدًا حيث شاءا، ومتى شاءا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾.

٨- أن النكاح سنة من سنن الأنبياء والمرسلين منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَوۡجُكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلًا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

٩- ظاهر الآية ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أن حواء خلقت قبل دخول الجنة، وقيل: خلقت بعد دخول الجنة

١٠- نهي الله ﷻ آدم وزوجه عن الأكل من شجرة معينة في الجنة امتحانا لهما، ولحكمة يعلمها عز وجل، وتحذيرهما من الظلم بالأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١١- أن ارتكاب ما نهى الله عنه ظلم من وجهين: الأول أنه مخالفة لنهي الله ﷻ والثاني: أنه ظلم للنفس لتعريضها لعقاب الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٢- سعة فضل الله تعالى ورحمته ورفعه الحرج عن العباد، فقد أباح لآدم الأكل من الجنة مما شاء أو حيث شاء أو متى شاء، ولم يحظر عليهما إلا الأكل من شجرة واحدة، فإذا منع من شيء أباح أشياء، وإذا سد بابًا فتح عدة أبواب.

١٣- إيقاع الشيطان آدم وزوجه في معصية الله، والأكل من الشجرة بوسوسته وتزيينه لهما ذلك، وإخراجهما مما كانا فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

١٤- إخراج آدم وزوجه من الجنة وإهباطهما وإبليس إلى الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

١٥- وجوب الحذر من الشيطان ووسوسته وفتنته وتزيينه المعاصي، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

١٦- الإشارة لعلو وعظم ما كان فيه آدم وزوجه في الجنة من المسكن الطيب والعيش

الرغيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

١٧- أن الجنة في مكان مرتفع عالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ في الموضعين من الآيات.

١٨- أن الشيطان عدو لآدم وزوجه وذريتهما؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

١٩- أن مستقر بني آدم ومتاعهم هو هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٠- نعمة الله على بني آدم في جعل الأرض وتهيئتها لاستقرارهم وتمتعهم فيها وعيشهم عليها.

٢١- منة الله تعالى على آدم عليه السلام حيث وفقه للتوبة، ولقنه كلمات كانت بها توبته؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾.

٢٢- تشريف آدم وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره، وربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾.

٢٣- نعمة الله تعالى على آدم في قبول توبته- بعد أن وفقه إليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

٢٤- فضل الدعاء بهذه الكلمات التي دعا بها أبونا آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وأن الدعاء بها سبب لقبول التوبة والمغفرة والرحمة.

٢٥- إثبات اسم الله عز وجل «التواب»، وصفة التوبة على عباده بتوفيقه العبد للتوبة، وقبولها منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله عز وجل «الرحيم»، وصفة الرحمة له عز وجل: رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه: رحمة خاصة وعامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٧- إهباط آدم وزوجه للابتلاء والتكليف لهما ولذريتهما؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ الآية.

٢٨- أن الهدى هدى الله ومن الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ فمن تعبد لله بغير هداه وشرعه فليس بمهتد بل هو ضال.

٢٩- الترغيب في اتباع هدى الله والوعد لمن اتبع هدى الله بكمال الأمن والسرور، وانتفاء الخوف والحزن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٣٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فبعد أن ذكر جزاء من اتبع هدى الله وثوابه ذكر عقاب من كفر وكذب بآيات الله.

٣١- التحذير من الكفر بالله والاستكبار عن طاعته، والتكذيب بآياته، والوعيد الشديد المؤكد للكفار والمكذبين بملازمة النار والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٢- تحقير وانحطاط رتبة من اتصفوا بالكفر بالله والتكذيب بآياته؛ لأن الله أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أمر الله ﷻ الناس بعبادته وحده، ونهاهم عن الشرك به، مذكرًا لهم بدلائل صنعه في الكون، وفي خلقه لأبيهم، وصدق رسالة النبي ﷺ ثم أقبل بالخطاب على بني إسرائيل الموجودين وقت نزول القرآن الكريم مذكرًا لهم في هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، بما أنعم الله به على آبائهم وأسلافهم، وما أخذ عليهم من العهود والمواثيق، ومقابلتهم ذلك بالعتو والعناد، وكفر نعم الله، ونقض العهود والمواثيق، وتكذيب الرسل أو قتلهم، وما حل بهم بسبب ذلك من العقوبات، إلى غير ذلك. وفي خطابه ﷻ لبني إسرائيل في عهده ﷺ وتذكيرهم بذلك كله دلالة واضحة على أن العهد أخذ على السابق منهم واللاحق، وأن النعمة نعمة عليهم جميعًا، كما أن النقمة عليهم جميعًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢].

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ «يا» حرف نداء، و«بني»: منادى، وهو مضاف و«إسرائيل» مضاف إليه، و«إسرائيل» لقب «يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم السلام».

ومعنى «إسرائيل» عبد الله.

فبنو إسرائيل هم ذرية يعقوب وأولاده ذكورهم وإناثهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ لأن «بني» وإن كان في الأصل للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة أو لأمة شملت الذكور والإناث، كما يقال: بنو أمية،

وبنو العباس، وبنو تميم، ونحو ذلك.

وبنو إسرائيل هم والعرب أبناء العم؛ لأن بني إسرائيل ذرية يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام، والعرب ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وبنو إسرائيل هم اليهود والنصارى، ورسلهم.

والخطاب في الآية وغيرها من هذه الآيات لبني إسرائيل الموجودين في عهد النبي ﷺ، وبخاصة اليهود الذين كانوا في المدينة وما حولها، وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة، ومن يأتي بعدهم، تذكيرًا لهم بما سلف منه ﷻ إلى آبائهم وأسلافهم.

قال ابن القيم[1]: «فإنما يُذكِّرهم بنعمته على آبائهم؛ ولهذا يعددها عليهم واحدة، بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده، ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن يذكروها؛ ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله، ولم ينقد لدينه وطاعته، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له، ومعاداتكم إياه».

وفي ندائهم باسم أبيهم «إسرائيل» وهو يعقوب عليه السلام النبي الكريم، والعبد الصالح تهييج وحث وإغراء لهم على الطاعة والامتثال.

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾: أي: اذكروا نعمتي واشكروها بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم؛ لأن ذكر النعمة يكون بالاعتراف بها باطنًا بالقلب، وبالإقرار بها ظاهرًا بالقول باللسان، والثناء على الله ﷻ والتحدث بها، وبالجوارح باستعمالها في طاعة الله تعالى وحفظها عن معصيته ﷻ.

ونعمة في قوله ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ مفرد مضاف فيعم جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم الدينية والدنيوية، والتي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٢).

[إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، ومن أعظم نعم الله على بني إسرائيل أن جعل فيهم الأنبياء والملوك والحكم، وآتاهم الكتاب والآيات العظيمة الشرعية والكونية، وفضلهم على عالمي زمانهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفجر لهم من الحجر العيون، وأنجاهم من آل فرعون، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [إبراهيم: ٦].

﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الجملة بعد قوله ﴿نِعْمَتِىَ﴾ للتأكيد على أن هذه النعم فضل محض من الله ﷻ وحده، لا من كسبهم، ولا من كسب آبائهم، أو كسب غيرهم من الخلق.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾.

ذكرهم ﷻ أولًا بنعمه إجمالا؛ لأن ذلك أدعى لقبول الحق، وأقوم للحجة عليهم، ولصرفهم عن الحسد لهذه الأمة على ما آتاهم الله من فضله، ثم أتبع ذلك بذكر الأوامر والنواهي؛ لأن من طبع النفوس الكريمة محبة المنعم، وامتثال أمره.

كما قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع(١)

قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ الوفاء بالعهد إتمامه والإتيان به وافيًا، أي: ائتوا بعهدي وافيا، وعهد الله الذي أخذه على بني إسرائيل هو الإيمان به وبرسله وعبادته وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإقامة شرعه.

---

(١) البيتان، لمحمود الورّاق. انظر: «الكامل في اللغة» (٢/ ٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ومن ذلك بيان أمر النبي محمد ﷺ أنه رسول الله، وأنهم يجدونه مكتوبا عندهم أنه نبي الله، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ «أوف» مجزوم بحذف حرف العلة الياء؛ لأنه جواب الطلب في قوله ﴿وَأَوْفُوا۟﴾، أي: أعطيكم ما عهدت به إليكم من الجزاء على أعمالكم وافيًا بتكفير السيئات وإدخالكم الجنات، كما قال تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الآيتان ١٥٦، ١٥٧ الأعراف].

والوفاء بعهد الله شامل لما عهد الله به إلى الخلق وألزمهم به،ولما ألزموا به أنفسهم من نذور وعهود فيما بينهم وبين الله وفيما بينهم مع بعضهم بعضا، مما ليس فيه معصية لله- تعالى.

فمن وفى لله بما عاهد الله عليه وفى الله له بعهده ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

وهو ﷻ أكرم من خلقه فيعطي العطاء الجزيل على العمل القليل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ معطوف على ما قبله، وبهذا جمعت الآية بين الترغيب والترهيب.

و﴿وَإِيَّٰىَ﴾: ضمير منفصل في محل نصب مفعول ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾، وقدم عليه لإفادة التخصيص والحصر، أي: فارهبوني وحدي، دون غيري، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، أي: لا نبعد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك.

والرهبة: شدة الخوف والخشية التي تقتضي التعظيم والانقياد والطاعة، وذكر نعم الله وشكرها؛ ولهذا عطف الأمر بها على ما قبله لأنها مع الرجاء هما السببان اللذان يحملان على الطاعة والامتثال، وهي من أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله ﷻ، كالرجاء والتوكل ونحو ذلك، أي: وإياي فاخشوني وخافوني وحدي، دون سواي.

وليس من ذلك الخوف الطبيعي، كالخوف من العدو والسبع ونحو ذلك مما يخشى منه الضرر فإن هذا أمر جبلي لا يمكن دفعه.

قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام والإيمان بالقرآن، بعد أن مهد لذلك بما يهيئ نفوسهم لقبوله من تذكيرهم نعمته، وأمرهم بالوفاء بعهده، ورهبته وحده.

قوله: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ معطوف على قوله ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ فهو من مقتضى ذكر نعمة الله عليهم وشكرها والوفاء بعهده ورهبته.

أي وصدقوا بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ، وانقادوا له ظاهرًا وباطنًا.

وبدأ بالأمر بالإيمان بالقرآن في تفصيله لعهده؛ لأنه لا يتم إيمانهم ولا يصح إلا بالإيمان بالقرآن، وبمن أنزله الله عليه وهو محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ «مصدقًا» حال من المنزَّل، و«ما» موصولة، أي: حال كونه مصدقًا للذي معكم من التوراة والإنجيل، و«المصدق» المخبر بصدق غيره، أي: مخبرا وشاهدا بصدق التوراة، وأنها من عند الله حقًا وصدقا.

وهو أيضًا مصداق ما أخبرت وبشرت به التوراة والإنجيل من أوصاف النبي ﷺ ومن أوصاف القرآن الكريم، وهذا مما يوجب عليكم الإيمان به؛ لأنه من الإيمان بما معكم مما جاء به موسى وعيسى وغيرهما من أنبياء الله- تعالى.

كما أن الكفر به وتكذيبه كفر وتكذيب بما معكم، لأن من كذب بكتاب من كتب الله، أو رسول من رسله، فقد كذب بجميع الكتب والرسل.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي: ولا تكونوا يا بني إسرائيل أول فريق كافر بالقرآن، وبمن أنزل عليه القرآن وهو محمد ﷺ؛ لأن الكفر بالقرآن يستلزم الكفر بمن أنزل عليه، والكفر ضد الإيمان.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أبلغ من «ولا تكفروا به» لتضمنه نهيهم عن المبادرة إلى الكفر به، وتوبيخهم على التأخر عن الإيمان به، وكونهم قدوة لغيرهم بالكفر به عكس ما كان ينبغي منهم؛ ولهذا كان كفرهم به- مع تصديقه لما معهم- أشبه بكونهم أول من كفر به، وإن سبقهم مشركوا مكة؛ لقيام الحجة عليهم أكثر من مشركي مكة، إضافة إلى ما فيه من إيحاء إلى أنهم سيكونون أول من يكفر به- حسدا وبغيا كما ذكر الله، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٠]؛ ولهذا عاتبهم الله تعالى في سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الآية: ٧٠]، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٩٨].

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، معطوف ما قبله، فيه بيان أن سبب كفرهم، وعدم إيمانهم شراؤهم بآيات الله ثمنًا قليلًا، واختيارهم العرض الدنيوي الأدنى.

أي: ولا تبتاعوا بآياتي الشرعية وتعتاضوا عنها، وعن الإيمان بها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من المناصب والرياسات والجاه ومتاع الدنيا الزائل الحقير الفاني، وقد جمع ﷻ «آيات» وأضافها إليه تعظيمًا لها، بينما حقَّر المشترى بها بتنكيره ووصفه بالقلة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

وذلك- والله قليل- ولو كان الدنيا بحذافيرها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

والنهي لبني إسرائيل نهي لعلماء هذه الأمة من باب أولى بالبعد عن هذا المسلك المشين؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم، كما قال ﷺ[١] ولهذا قال سفيان بن عيينة: «من حسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»[٢].

ومما يؤسف له أن جُعل كثير من العلوم- وبخاصة العلوم الشرعية- مطية للمكاسب الدنيوية، وجمع المال والشهرة ونحو ذلك، مصداق قوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى، قال: فمن ؟!**»[٣].

وليس من هذا أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله ﷻ؛ لقوله ﷺ: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**»[٤].

وجمهور أهل العلم على جوازه، لهذا الحديث وغيره.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ كقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، والمعنى: اتقوني وحدي دون غيري،

---

(١) أخرجه أو داود في اللباس (٤٠٣١)- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**».

(٢) انظر «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٦٦٩)- من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٣٧)- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بفعل ما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه، والرهبة مما يحمل على التقوى؛ ولهذا قدم الأمر بها على الأمر بالتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: ولا تخلطوا الحق بالباطل، بإظهار الباطل وتمويهه وترويجه في صورة الحق فيلتبس أحدهما بالآخر، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

و«الحق» الأمر الثابت، من حقَّ إذا ثبت ووجب، أي: ولا تلبسوا الدين الحق، والقول الحق، وهو ما أنزله الله على رسوله ﷺ، وما عندكم من العلم بذلك.

﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الباطل ضد الحق، وهو الأمر الزائل، الضائع، الزاهق المضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

قال لبيد:

ألا كل ما شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ ... وكل نعيمٍ لا محالةَ زائلُ(١)

والمراد بـ «الباطل» هنا تكذيبهم ما جاء به محمد ﷺ، وإنكارهم شهادة كتبهم بصدقه، وزعمهم أنه خاص بالعرب ونحو ذلك، وما هم عليه من الدين المحرف.

وأكثر ضلال من ضل من الخلق بسبب تلبيس شياطين الجن والإنس عليهم الحق بالباطل، فالذين أعرضوا عن دعوة الرسل بسبب التلبيس عليهم بأنهم سحرة أو مجانين أو نحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

والذين عبدوا الأصنام من قوم نوح بسبب تزيين الشيطان لمن قبلهم نصب تصاوير أولئك الصالحين بحجة التقوِّي على العبادة، ثم ما لبث الناس أن عبدوهم.

والذين ارتدوا بعد وفاته ﷺ ومنعوا الزكاة احتجوا بأنهم كانوا يدفعونها لرسول الله ﷺ طاعة له قالوا: ليس علينا طاعة لأحد بعده.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٦.

والذين خرجوا على علي ﷺ واستباحوا دمه ودماء المسلمين قالوا: لا حكم إلا لله؛ ولهذا رد عليهم علي ﷺ بقوله: «**كلمة حق أريد بها باطل**»(١).

ومن أعظم تلبيس الحق بالباطل ما يكتبه أولئك الذين يخوضون في كثير من القضايا والمسائل الشرعية في كتاباتهم في الصحف والمجلات والمواقع على الانترنت، أو في مقالاتهم المسموعة عبر الإذاعات وعلى الشاشات، ويجادلون ويناقشون، مع قلة بضاعتهم، بل وعدم تخصصهم لا لشيء إلا لإثارة البلبلة، وتشكيك الناس حتى في ثوابت دينهم، فتجدهم يطنطنون حول حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحجابها، وعملها، وقيادتها للسيارة، وتعدد الزوجات، والطلاق، والميراث، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

وصدق الله العظيم: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وكأنهم يريدون أن يشرعوا مع الله، وكان الواجب على أمثال هؤلاء أن يعرفوا قدرهم، وأن يعطوا القوس باريها، فإن الكلام في مسائل الدين توقيع عن رب العالمين، كما أن مسائل الطب وقضاياه لا يتكلم فيها إلا المتخصصون في طب الأبدان، فمن باب أولى يجب ألا يتكلم في مسائل الشرع وقضاياه إلا المتخصصون في علم الأديان، ولكن كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]،

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقد أحسن القائل:

يُقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن(٢)

وصدق المصطفى ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٣).

وقال ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٦٦)، من حديث أبي رافع ﷺ مولى النبي ﷺ.

(٢) البيت منسوب ليحيى بن علي باشا الأحسائي. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه النسائي في الأشربة (١/ ٥٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٨)- من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، الواو: عاطفة، فالجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، فالفعل «تكتموا» مجزوم بما جزم به «تلبسوا» أي: ولا تكتموا الحق، فنهاهم عن كتمان الحق، كما نهاهم عن لبس الحق بالباطل.

ويحتمل أن تكون الواو «واو» المعية، فيكون الفعل «تكتموا» منصوب بأن مضمرة؛ لأن لبس الحق بالباطل يستلزم كتمان الحق، كما في قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم(١)

أي: وأنت تأتي مثله.

قال ابن القيم(٢): «وقد اختلف في قوله ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ هل هو منصوب أو مجزوم على قولين مبنيين على «الواو»، هل هي «واو» عطف أو «واو» صرف، فمن جعلها «واو» عطف قال: النهي تعلق بكل واحد من الأمرين على انفراده، ولو كانت «واو» صرف لكان المنهي عنه جمعهما لا أفرادهما، ومن جعلها «واو» صرف قال: لبس الحق بالباطل مستلزم لكتمانه، كما يكتم الحق من لبسه بما يستره ويغشيه، فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالنهي عن أحدهما نهي عن الآخر بطريق اللزوم، ففي كون الواو «واو» جمع إفادة هذا المعنى، وإن كتمان الحق ملازم للبسه بالباطل لا ينفك عنه، ولا يمكن إيقاع أحدهما إلا بالآخر، وهذا شأن كل متلازمين، وهذا القول أميز من الأول وأعرب».

ومعنى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾: أي: وتخفون الحق، وهو ما عندكم من المعرفة والعلم بصدق محمد ﷺ، وما جاء به، وما في كتبكم من الشهادة بصدقه.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنكم تعلمون أن ذلك حق، وتعلمون حقيقة صنيعكم، وأنه لبس للحق بالباطل؛ ولهذا وبخهم الله تعالى، وأنكر عليهم هذا في سورة آل عمران، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الآية: ٧١].

وصدور المعصية والمخالفة من العالم أشد وأعظم، وآكد في النهي والتحريم؛ لأن

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» ص ٤٠٤.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٣).

الله أخذ الميثاق على أهل العلم من أهل الكتاب وغيرهم، وأوجب عليهم بيان الحق وإظهاره، وحرم عليهم لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق وإظهار الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

أمر في الآيات السابقة بالإيمان باطنا بما أنزل الله والتصديق به، ثم أمر في هذه الآية بالعمل ظاهرا بمقتضى الإيمان بإقامة شعائر الإسلام الظاهرة والتي أعظمها وأهمها الصلاة والزكاة.

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: ائتوا بالصلاة وأدوها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

والمراد بالصلاة هنا ما يشمل الفرائض والنوافل، والأمر للوجوب بالنسبة للفرائض؛ لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، فهي الركن الثاني بعدهما، وهي عمود الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(١).

وقال ﷺ: «**إن بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة**»(٢).

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(٣).

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: وأعطوا الزكاة أهلها، وهم الأصناف الثمانية، طيبة بها

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٩) من حديث بريدة ﷺ، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأبو داود في السنة (٤٦٧٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٨) من حديث جابر ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥)، ومسلم في الإيمان (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

نفوسكم، بلا من ولا أذى.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أي: وصلوا مع المصلين المسلمين، وعبر عن الصلاة بالركوع؛ لأنه من أعظم أركان الصلاة، وموضع تعظيم الرب، قال ﷺ: «**فأما الركوع فعظموا فيه الرب**»(١).

وهو تأكيد للأمر بالصلاة، وبيان لمعناها؛ لأن لليهود صلاة لا ركوع فيها، قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقد استدل بعض أهل العلم بالآية على وجوب صلاة الجماعة في المساجد.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

٢- تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم؛ لأن تذكر النعم أدعى لقبول الحق؛ ولهذا فالتذكير بالنعمة من وسائل الدعوة إلى الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٣- فضل الله ومنته على بني إسرائيل في إنعامه عليهم بالنعم التي لا تحصى؛ لقوله تعالى: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ونعمة مفرد مضاف إلى معرفة يفيد عموم نعم الله، وأن النعمة على الآباء والسلف نعمة على الأبناء والخلف.

٤- إثبات وتأكيد أن المنعم الحقيقي بجميع النعم هو الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٥- وجوب الوفاء بعهد الله، وأن من وفى بعهد الله وفى الله بعهده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، فمن وفى بعد الله بالإيمان بالله وطاعته، وفى الله بعهده بالثواب والجزاء العظيم ومفهوم هذا أن من لم يف بعهد الله فإنه لا يستحق ما وعد الله به بل يعاقب.

٦- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٧- وجوب الرهبة والخوف من الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

٨- إيجاب الإيمان بالقرآن على بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

٩- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡتُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١٠- إثبات أن القرآن منزل من عند الله غير مخلوق، والرد على القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡتُ﴾.

١١- تصديق القرآن للتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية السابقة، فهو مبين أنها حق وصدق وهو مصداق ما أخبرت به؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

١٢- في بيان أن القرآن مصدق لما معهم إغراء وترغيب لبني إسرائيل بالإيمان به وتصديقه.

١٣- نهي بني إسرائيل أن يكونوا أول كافر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾، وفي هذا نهي لهم عن المبادرة إلى الكفر به في الحال التي كان ينبغي أن يكونوا أول من يؤمن به، كما أن فيه إشارة إلى أنهم سيكونون من أول من يكفر وهكذا فعلوا.

١٤- نهي بني إسرائيل عن الاشتراء بآيات الله والإيمان بها وتصديقها ثمنًا قليلًا في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، وهذا نهي لهم ولغيرهم.

١٥- أن كل ما استبدل واستعيض به عن الإيمان بآيات الله فهو قليل، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾.

١٦- وجوب تقوى الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

١٧- تحريم لبس الحق بالباطل، ووجوب تمييز الحق عن الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

١٨- تحريم كتمان الحق ووجوب بيانه وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾.

١٩- أن كتمان الحق مع العلم به أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأن الجاهل قد يعذر.

٢٠- وجوب إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأنهما من أعظم العبادات، فالصلاة أعظم العبادات البدنية فيها الإحسان في عبادة الله تعالى، والزكاة أعظم العبادات المالية، فيها الإحسان إلى عباد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢١- وجوب الجمع بين الإيمان والإسلام، بين الأعمال الباطنة والظاهرة، بين أعمال القلوب والجوارح.

٢٢- تأكيد وجوب الصلاة ووجوبها جماعة مع المصلين في المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

٢٣- عظم مكانة الركوع من الصلاة، لهذا عبر عنها بالركوع في قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أي: صلوا مع المصلين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، والخطاب لأهل الكتاب وبخاصة أحبارهم وعلماؤهم، والمراد بـ «الناس» من عدا الآمر سواء كان من اليهود أو من غيرهم من المشركين ونحوهم.

و«البر»: اسم جامع لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الآية ١٧٧ من سورة البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال ﷺ: «**البر حسن الخلق**»، «**البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب**»(١).

أي: أتأمرون الناس بالإيمان والخير ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: وتتركون أنفسكم فلا تأمرونها بذلك، وفي هذا تنديد بحال أحبارهم وتعريض بأنهم يعلمون أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق.

أي: كيف يليق بكم يا معشر يهود- وأنتم تأمرون الناس بالبر- أن تنسوا أنفسكم فلا تأمرونها بما تأمرون به الناس.

وقد كان بعض رؤساء وأحبار اليهود يأمر الناس من أقاربه وغيرهم باتباع الرسول ﷺ، ويقول: إنَّ ما جاء به حق، لكنه بنفسه لا يتبع هذا الحق- حفاظا على رئاسته وجاهه.

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**» فنظر إلى أبيه، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من**

---

(١) سيأتي تخريجهما.

النار»(١).

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم تتلون الكتاب.

أي تقرؤون وتدرسون «الكتاب»، يعني «التوراة» والذي فيه أمركم بفعل البر بأنفسكم، وأمر الناس بذلك، وقيام الحجة عليكم بالعلم في ذلك، وفي هذا دلالة على عظم مسؤولية العلماء.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا تفقهون وتفهمون، وترشدكم عقولكم إلى خطئكم وضلالكم وقبح ما تفعلون، إذ لا يليق بالعاقل أن يأمر الناس بالبر والخير، ويترك نفسه فلا يأمرها بذلك.

فهم ذوو عقول يدركون بها، وهي مناط تكليفهم، ولولاها ما كلفوا، كما في حديث علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يبلغ**»(٢).

ولكنهم لما لم يسترشدوا بعقولهم إلى فعل ما ينفعهم وترك ما يضرهم صاروا كالذين لا يعقلون، كما قال تعالى عن أضرابهم من الكفار: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

وإنما أنكر الله ﷻ على بني إسرائيل هذا الصنيع ووبخهم عليه من جهة أنهم نسوا أنفسهم وتركوها فلم يأمروها بالبر، لا من جهة أنهم أمروا الناس بذلك؛ لأن كلا من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر.

لكن الأولى بالآمر أن يمتثل ما يأمر به، ويجتنب ما ينهى عنه، ولا يخالف فعله قوله، كما قال شعيب ﵇ لقولهم: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٦)، وأبو داود في الجنائز- عيادة الذمي (٣٠٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣].

وعلى هذا ينزل ما جاء في الوعيد على ذلك، كما في حديث أسامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: ما لك يا فلان؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

وعلى هذا فليس في الآية دلالة على أن العاصي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وإنما فيها ذم وتوبيخ وتفظيع لحال من يأمر الناس بالبر ويترك نفسه؛ ولهذا ختمت بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أن هذا العمل لا يليق بالعاقل.

قال ابن كثير(٢): «والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر- وإن ارتكبه، ولكنه- والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم».

ولا شك أن الأولى بالآمر والناهي أن يبدأ بنفسه، وذلك أحرى لقبول أمره ونهيه؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما للرجل الذي قال إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر: «قال له: «أوبلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: «إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله ﷻ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ [هود: ٨٨]، أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق- من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩).

(٢) في «تفسيره» (١/ ١٢٢).

بنفسك»[١].

فهذا محمول على أنه الأولى بالآمر الناهي أن لا يخالف فعله قوله، كما قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[٢]

وعلى هذا فلا يعد ذريعة لترك الأمر والنهي كون الشخص يخالف ما يأمر به، أو يرتكب ما ينهى عنه، لانفكاك الجهة؛ لأن المطلوب فعل المعروف، والأمر به، فإذا لم يفعل الشخص المعروف لم يبرر له ذلك ترك الأمر به.

كما أن المطلوب ترك المنكر، والنهي عنه، فإذا ارتكب الشخص المنكر لم يبرر له ذلك ترك النهي عنه.

ولو قيل: لا يأمر المعروف إلا من فعله، ولا ينهى عن المنكر إلا من تركه، فمن يأمر بالمعروف، ومن ينهى عن المنكر، ومن الذي يسلم من ترك المأمور وارتكاب المحظور؟!

وقد أحسن القائل:

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

وقال الآخر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلا أن تعد معايبه[٣]

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الاستعانة: طلب العون، أي: اطلبوا العون من

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٢٣).

(٢) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» ص٤٠٤.

(٣) البيت ينسب لبشار بن برد، ولعلي بن الجهم وليزيد بن محمد المهلبي. انظر: «جمهرة الأمثال المولدة» ص٣٨٩.

الله ﷻ على الوفاء بعهده ورهبته، وعلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وعلى جميع أمور دينكم ودنياكم ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

والصبر في اللغة: الحبس والمنع.

وعرفه بعضهم بأنه: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو واجب، وأجره عظيم، وثوابه جسيم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال ﷺ: «**ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأفضل من الصبر**»(١)، وعن علي ﷺ قال: «**عليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بار الجسد، ألا لا إيمان لمن لا صبر له**»(٢).

وهو أنواع ثلاثة:

الأول: الصبر على طاعة الله: وهو أعظم أنواع الصبر؛ لتضمنه حمل النفس على فعل الطاعات، كالصلاة والزكاة والصيام، والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، ونحو ذلك، ومنعها من التهاون بها، ومراغمة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

الثاني: الصبر عن معصية الله، وهو كف النفس عن المعاصي، كالربا والزنا والسرقة، ونحو ذلك، وفضله عظيم؛ ولهذا قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم رجلًا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»(٣)، فصبر عن الوقوع في الفاحشة مع قوة الداعي؛ خوفًا من الله ﷻ، فأثابه الله على هذا بأن جعله من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)- من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) انظر «دقائق التفسير» (١/ ٢١١).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاء (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، قال أحدهم: «**اللهم إنه كانت لي ابنة عم، وكانت من أحب الناس إلي، فراودتها عن نفسها فامتنعت، فألمت بها سنة فجاءت إلي لأعطيها شيئًا من المال، وتخلي بيني وبين نفسها، فلما جلست بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت لها ما أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه**» الحديث(١).

وإنما كان الصبر عن معصية الله في المرتبة الثانية، لأنه لا عمل فيه بل هو كف فقط، لكن بالنسبة للصابرين قد يكون بعضهم الصبر على الطاعة أهون عليه من الصبر عن المعصية والفاحشة، ومن أعظم الصابرين عن المعصية والفاحشة يوسف عليه السلام فقد ابتلي بذلك فصبر، فصرف الله عنه السوء والفحشاء.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه لما أرسلت إليه ﷺ إحدى بناته تخبره أن صبيا لها في الموت، قال: «**مرها فلتصبر وتحتسب**»(٢).

ويأتي في المرتبة الثالثة بين أنواع الصبر وفضله عظيم.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

وقال ﷺ: قال الله عز وجل: «**ما لعبدي المؤمن إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**»(٣).

وفي حديث المرأة التي تصرع وتتكشف لما قالت يا رسول الله ادع الله لي قال ﷺ: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله لك، فقالت: بل أصبر، ولكن ادع الله لي ألا أتكشف، فدعا الله لها أن لا تتكشف**»(٤).

وإنما كان الصبر على أقدار الله في المرتبة الثالثة لأنه لا اختيار للإنسان في دفع

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٤)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٦)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

القدر، وهو نافذ، صبر الإنسان أو لم يصبر، والجزع لا يرفع المقدور إذا وقع.

أتصبر للبلوى رجاء وحسبة فتؤجر أم تسلو سلو البهائم(١)

ومنه صبر نبينا محمد على ما ناله من قومه من الأذى وكذا غيره من الأنبياء عليهم السلام، ومنه صبر يوسف عليه السلام على ما فعل إخوته به، وصبر أيوب عليه السلام على المرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

والصبر من أوجب وأجل العبادات ومن أعظم ما يستعان به على أمور الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»(٢)، وقال ﷺ: «**وأن النصر مع الصبر**»(٣).

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: واستعينوا بالصلاة فرضها ونفلها، فهي أعظم العبادات وعمود الإسلام وقاعدته التي تدور عليها رحاه، وأعظم أسباب العون على أمور الدين والدنيا، والتوفيق لأداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، والبعد عن المنهيات، وحصول الرزق، والنصر والثبات في الأمر، وقبول الأعمال وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

---

(١) البيت ينسب لأبي تمام. انظر: «الصناعتين» ص٢١٢.

(٢) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وكان ﷺ يوم بدر يصلي في العريش، ويناشد ربه النصر[١]، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى**»[٢].

وكان ﷺ يقول: «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**»[٣].

ولسان حال كثير من المسلمين اليوم يقول: أرحنا من الصلاة- نسأل الله الهداية والتوفيق.

ولما أخبر ابن عباس رضي الله عنهما وهو في سفر بموت أخيه «قثم» استرجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين، أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[٤].

قال ابن تيمية: في «السياسة الشرعية»[٥]: «وأعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة ثلاثة أمور: أحدها الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن، والثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة، والثالث: الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب».

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال إنها لكبيرة.

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعود إلى الصلاة لأنها أقرب مذكور، أي: إن الصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين.

ويجوز عوده إلى المصدر المفهوم من قوله ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ وهي الاستعانة، أي: وإن الاستعانة بالصبر والصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين. وقيل: يرجع إلى المأمورات من قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: لثقيلة صعبة شاقة، كما قال تعالى في تحويل القبلة: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩١٥)، ومسلم في الجهاد- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣١٩).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٨٥)- من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٦٢٠).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٨١).

إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥]، أي: شق عليك، وقال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر.

﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ «جمع خاشع»، والخشوع الذل والخضوع لله ﷻ.

أي: وإن الصلاة أو الاستعانة بالصبر والصلاة لصعبة ثقيلة شاقة، لا تخف ولا تسهل إلا على الخاشعين الذليلين الخاضعين لله ﷻ خوفًا من عقابه ورجاء في ثوابه.

أي: أن الصلاة وأداءها والقيام بها كما شرعها الله أمر ثقيل وصعب شاق إلا على من وفقه الله لتعظيم الخالق والذل والخضوع له.

وأيضًا: الاستعانة بالصبر والصلاة أمر ثقيل وصعب وشاق إلا على من وفقه الله لتعظيم الخالق والذل والخضوع له، وهذا كما قال ﷺ لما قال له معاذ رضي الله عنه: أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة...**» الحديث[1].

قال ابن القيم[2]: «فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له وقلة رغبتهم فيه، فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها وتكميله لها واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾، الجملة في محل جر صفة لـ ﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

ومعنى: ﴿يَظُنُّونَ﴾ أي: يتيقنون ويعلمون، والظن يأتي كثيرًا في القرآن بمعنى اليقين والعلم، كما قال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: تيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه.

وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، أي: تيقنوا أنهم مواقعوها.

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٤).

وقال تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، أي: تيقنت وعلمت.

وعن أبي هريرة ﷺ أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «**ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني**»(١).

وإطلاق الظن على اليقين في كلام العرب كثير جدًا.

قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفي مدجَّجٍ ... سَراتُهُمُ في الفارسيِّ المُسَرَّد(٢)

يعني: تيقنوا ألفي مدجج يأتونكم.

وقال الآخر:

بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم ... وأجعل مني الظن غيبًا مرجما(٣)

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أنهم سيلقون ربهم ويقابلونه، ويحشرون إليه ويعرضون عليه، وفي هذا إثبات المعاد وملاقاة الله ﷻ؛ لأن الله امتدحهم بتيقنهم ملاقاته ﷻ،وفيه دليل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم ﷻ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: وأنهم إليه وحده راجعون وصائرون في جميع أمورهم في حياتهم وبعد مماتهم، وبعد بعثهم وقيامهم لله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

أي: أن مرجعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم إليه ﷻ وإليه إيابهم وعليه حسابهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

ولهذا حملهم يقينهم بملاقاة ربهم ورجوعهم إليه على خوف الله ﷻ وخشيته

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

(٢) انظر «جامع البيان» (١/ ٦٢٤)، «الأضداد» لابن الأنباري (١٢)، لسان العرب- مادة «ظن».

(٣) البيت لعميرة بن طارق، انظر «جامع البيان» (١/ ٦٢٤)، «الأضداد» ص (١٤)، النقائض (١/ ٥٣).

ومراقبته، والذل والخضوع له، والانطراح بين يديه؛ رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه، وخفف عليهم ذلك فعل الطاعات، ومنعهم من اقتراف السيئات، ومنحهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وفي هذا تعريض بالثناء على المؤمنين، وحث لبني إسرائيل على الاقتداء بهم.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على بني إسرائيل وتقريعهم وتوبيخهم على أمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم، مع علمهم بوجوب امتثال ما يأمرون به، وقيام الحجة عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- الإنكار على من يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، وأن من فعل ذلك مع العلم ففيه شبه من اليهود، وأن المسؤولية على العلماء أعظم من غيرهم.

٣- جهل بني إسرائيل وحمقهم وسفههم حيث يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهكذا يكون حكم من سلك طريقهم.

٤- الإرشاد إلى الاستعانة على أمور الدين والدنيا بالصبر والصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥- فضل الصبر والحث على الاستعانة به على أمور الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

٦- عظم أثر الصلاة في حياة المسلم، وأنها من أعظم ما يعين على أمر الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٧- إن الصلاة لكبيرة شاقة، وكذا الاستعانة بالصبر والصلاة، إلا على الخاشعين الذين يوقنون بملاقاة ربهم ورجوعهم إليه، فهي سهلة يسيرة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وكل من الصبر والصلاة واجب؛ ولهذا قرن الله بين الصبر والصلاة في أكثر من خمسين موضعا في القرآن الكريم.

٨- الترغيب في الخشوع والذل والخضوع لله تعالى بالقلب والجوارح، وأن من كان لله أخشع كان له أطوع.

٩- أن من صفات المؤمنين المستعينين بالصبر والصلاة يقينهم بملاقاة ربهم ورجوعهم إليه مما يحملهم على الخوف من الله ومراقبته والحياء منه، ويسهل عليهم القيام بالأعمال الصالحة؛ رجاءً في ثوابه، وخوفاً من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٠- إثبات ملاقاة المؤمنين لله تعالى ورؤيتهم له يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

١١- امتداح الله ﷻ للخاشعين والثناء عليهم، وتشريفهم بإضافة اسمه إلى ضميرهم في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهم.

١٢- إثبات القيامة ولقاء الله والرجوع إليه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ سبق الكلام عليه.

وأعيد خطابهم كما سبق بطريق النداء للعناية والاهتمام، وفيه تأكيد لوجوب ذكر نعمه ﷻ وشكره.

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

معطوف على «نعمتي» أي: واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين، وهو من عطف الخاص على العام؛ لأن التفضيل من أعظم نعم الله عليهم.

والمعنى: جعلتكم أفضل العالمين في زمانكم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جمع «عالَم» بفتح اللام، وهم في الأصل كل ما سوى الله ﷻ أي: كل المخلوقات، عالم الملائكة، وعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجماد وغير ذلك من المخلوقات، وهو مشتق من العلامة؛ لأن كل ما في الكون من المخلوقات علامة على وجود الخالق العظيم، وهو الله ﷻ، وعلى كماله في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

والمراد بـ «العالمين» في الآية كما سبقت الإشارة عالمو زمانهم، وذلك؛ لأن بني إسرائيل في ذلك الوقت هم أهل الإيمان والصلاح والاستخلاف في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

لكنهم صاروا بعد ذلك أحقر الخلق وأشرهم بعد أن لعنهم الله وغضب عليهم بسبب كتمانهم الحق، ونبذ كتاب الله وراء ظهورهم، وتحريفهم كلام الله، ونقضهم الميثاق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، واشترائهم بآيات الله ثمنًا قليلًا، وعصيانهم واعتدائهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

وأفضل الأمم على الإطلاق أمة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا**»(١) وعن معاوية بن حيدة القشيري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

ذكرهم ﷻ بنعمه وفضله عليهم؛ ليشكروه، ثم حذرهم نقمه وعذابه يوم القيامة.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ معطوف على ما قبله، من عطف التحذير على التذكير بالنعمة، وخاصة نعمة تفضيلهم على العالمين؛ لئلا يغتروا بأنه تفضيل ذاتي لا يضر معه التقصير في العمل الصالح، فحذرهم من ذلك.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ تقوى الشيء في اللغة: أخذ الوقاية منه، و«يومًا» منصوب مفعول لـ «اتقوا» ونكر للتعظيم، أي: اتقوا يومًا عظيمًا ثقيلًا عسيرا قمطريرا وهو يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

والمعنى: اتخذوا وقاية من يوم القيامة وأهواله وعذابه بفعل ما أمركم الله به وترك

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة آل عمران (٣٠٠)، وابن ماجه في الزهد صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

ما نهاكم عنه، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تغني ولا تقضي نفس عن نفس شيئًا، فلا تجلب نفس لنفس نفعًا في ذلك اليوم، ولا تدفع عنها ضرًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

و «نفس»: نكرة في سياق النفي فيفيد العموم، أي: لا تجزي نفس أيًّا كانت ولو كانت من أنفس الأنبياء والمرسلين والصالحين ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ أيًّا كانت؛ ولهذا نادى ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «**يا عباس عم رسول الله ﷺ اشتر نفسك لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا**»(١).

وحتى لو كان أقرب الأقربين، كما قال تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله ﴿شَيْئًا﴾ أيضًا نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء كان مهما قل أو كثر.

وهذا بخلاف ما عليه الحال في الدنيا فإن الناس يتناصرون ويتعاونون، وربما تناصروا على الباطل، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٦)، والنسائي في الوصايا (٣٦٤٦) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخـــاك أخـــاك إن مـــن لا أخـــا لـــه ... كســـاعٍ إلى اليهجـــا بـــدون ســـلاح[١]

وقال الآخر:

ومـــا ضرنـــا أنـــا قليـــل وجارنـــا ... عزيـــز وجـــار الأكثـــرين ذليـــل[٢]

وقال الآخر:

لـــو كنـــت مـــن مـــازن لم تســـتبح إبـــلي ... بنـــوا الشـــقيقة مـــن ذهـــل بـــن شـــيبان[٣]

ولكن في ذلك اليوم هيهات، هيهات أن يجزي أحد عن أحد شيئًا.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالتاء «ولا تقبل» وقرأ الباقون بالياء ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ أي: لا تقبل من نفس عن نفس شفاعة، فلا أحد يشفع لأحد في ذلك اليوم، إلا بإذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

والشفاعة: التوسط والسعي للغير بجلب النفع له، أو دفع الضر عنه، مأخوذة من الشفع، ضد الوتر؛ لأن المشفوع له صار بانضمام الشافع إليه شفعًا بعد أن كان وترًا.

فشفاعته ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة من جلب النفع، وشفاعته ﷺ فيمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها من دفع الضر.

ففي يوم القيامة لا يقبل من نفس عن نفس شفاعة، ولا تنفعها شفاعة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال أهل النار فيما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فالشفاعة لا تقبل ممن هو ليس أهلًا للشفاعة، كما أنها لا تنفع من ليس هو أهلًا لها- هذه هي الشفاعة المنفية في الآيتين.

أما إذا كان الشافع أهلًا للشفاعة وكان المشفوع له أهلًا لذلك فهذا مخصوص من

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

(٢) البيت للسموأل. انظر: «ديوانه» ص٩٠.

(٣) البيت ينسب للعنبري، كما في «لسان العرب» مادة (لقط)، وينسب لقريط بن أنيف، كما في «خزانة الأدب» ٧/ ٤٤١، و«شرح شواهد المغني» ١/ ٦٨.

الآية بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

فيشفع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويشفع المؤمنون بعضهم لبعض.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»(١) وقال ﷺ: «**وأعطيت الشفاعة**»(٢).

وفي حديث الشفاعة يوم القيامة: أن الناس يأتون إليه ﷺ «**فيقول: أنا لها فيسجد تحت العرش فيقال له: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع**»(٣).

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: ولا يؤخذ من أي نفس ﴿عَدْلٌ﴾ أي: فداء وعوض يعدل به عن العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحديد: ١٥].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قدم المسند إليه؛ تأكيدًا وتحقيقا لانتفاء نصرهم، إضافة لنفي الفعل وإسناده للمجهول، أي: ولا أحد ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله، ويدفعه عنهم، لا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٩)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٧)، وأخرجه البخاري مختصرا في الدعوات (٦٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)،والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) من حديث جابر ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦].

وجاء الكلام في قوله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بصيغة الجمع مع أن مرجعه في السياق مفرد باعتبار المعنى، فمعنى ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ أي: لا تجزي نفس أيًا كانت عن نفس أيًا كانت، إضافة إلى ما في ذلك من مراعاة فواصل الآيات.

فلا نجاة من أهوال ذلك اليوم وعذابه إلا بتقوى الله، بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، ولا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه.

فلا نفس تغني عن نفس شيئًا، ولا تشفع لها، ولا عدل يؤخذ منها وفدية، مقابل الخلاص، ولا أحد ينصرهم. مما يوجب التعلق بالله وحده والفرار إليه دون سواه

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾.

هذا من نعمة الله تعالى على بني إسرائيل يذكرهم عز وجل بها؛ ليشكروه عليها، وهي إنجاؤهم من آل فرعون؛ لأن النعمة على أسلافهم وآبائهم نعمة عليهم، والنعم منها ما هو جلب نعم محض، ومنها ما هو دفع نقم، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٤١].

قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: واذكروا إذا أنجيناكم، أي: حين أنقذناكم وخلصناكم بصحبة موسى عليه السلام من آل فرعون، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ٦].

وقوله ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي : من فرعون وملائه وجنوده، و«فرعون» ملك مصر الذي ادعى الربوبية والألوهية في عهد موسى عليه السلام.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ حال، أي: حال كونهم يسومونكم سوء العذاب، أو مستأنفة. أي: وكانوا يسومونكم سوء العذاب، أي: يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب

ويذلونكم، يقال: سامه خسفًا إذا أذله واحتقره.

و﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أشده وأفظعه وأقبحه، وما يسوؤهم من العذاب.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾ بيان وتفسير لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [الآية: ٦] بعطف و﴿يُذَبِّحُونَ﴾ عطفًا للخاص على العام.

قوله ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بالتشديد، المبالغة في الذبح لكثرة من يذبحون من بني إسرائيل، وتشديدهم في ذبحهم، وفي الآية الأخرى: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ [القصص: ٤]، وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [الآية: ١٤١]، والتقتيل المبالغة في القتل لكثرة من يقتلون، وتشديدهم في قتلهم، والقتل هو الذبح. أو أنهم يذبحون بعضهم، ويقتلون بعضًا بغير الذبح.

والمراد بأبنائهم أطفال بني إسرائيل، فيقتلون الأبناء الذكور استئصالًا لنسل بني إسرائيل، وخوفًا من نموهم، وقيل: المراد بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الرجال، لمقابلته بقوله:

﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾ أي: ويستبقون نساءكم أحياء يستعبدونهن لضعفهن، فهم بين مذبوح مقتول، وبين مستبقى ذليل متسلط عليه، مرهق بالأعمال الشاقة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١].

وهذا مما يدل على شدة عداوة فرعون وقومه لبني إسرائيل، وخاصة بعد مبعث موسى عليه السلام، كما قال فرعون لما جاءه موسى بالبينات: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ [غافر: ٢٥].

وقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ولهذا قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقيل: إن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى أو قبل ولادته؛ لأن فرعون رأى رؤيا

مفادها أن زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل، وقيل: إن الكهنة قالوا له ذلك، وقيل: غير ذلك(١).

واستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء: الاختبار، ويكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال زهير(٢):

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ ترجع إلى الإنجاء، أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء وإنعام وإحسان من ربكم يوجب عليكم شكره والقيام بأمره.

وقد تعود الإشارة إلى سوم آل فرعون لهم سوء العذاب، بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم: أي وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ليعلم مقدار صبركم.

أو يعود إلى الأمرين جميعًا؛ ليعلم من يشكر ومن يصبر ممن هو بخلاف ذلك.

قال تعالى مبينًا ما أحله من العقوبة بفرعون وقومه، ومذكرًا لبني إسرائيل بما أنعم الله به عليهم: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٦٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ

---

(١) انظر «جامع البيان» (١/ ٦٤٦- ٦٥٠).

(٢) انظر: «ديوانه» ص١٠٩.

مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٣- ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦- ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآية نعمتان يُذكِّر الله بهما بني إسرائيل؛ ليشكروه وهما: فرق البحر لهم، وإنجاؤهم من الهلاك، وتخليصهم من آل فرعون بإغراقهم، وهم ينظرون إليهم.

قوله: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ معطوف على قوله ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ أي: واذكروا حين فرقنا بكم البحر، أي فلقناه، وفصلنا بعضه عن بعض، وجعلنا بينهما طريقًا عبرتموه إلى شاطئ البر.

والباء في قوله: ﴿بِكُمُ﴾ للملابسة، أي: جعلنا فرقه ملابسًا لدخولكم، ويجوز كونها للسببية، أي: لأجلكم.

والمراد بـ «البحر» بحر القلزم، المسمى اليوم بـ «البحر الأحمر».

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ أي: أنقذناكم وخلصناكم من الغرق ومن فرعون وقومه.

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي وأغرقنا فرعون وجنده وأنصاره.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي حال كونكم تنظرون إليهم وهم يغرقون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم، وتنظرون إلى عظيم قدرة الله في فرق البحر لكم وبإغراق عدوكم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٦].

وذلك أنه لما خرج بنو إسرائيل من مصر صحبة موسى عليه السلام بأمر الله له فراراً من فرعون وتعذيبه، واتجهوا نحو البحر تبعهم فرعون بجنوده، فأوحي الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾، فضربه، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: فكان كل فرق من البحر كالجبل العظيم، وصار ما بينها طريقًا، يبسا فسلكه موسى ومن معه، ولما تكاملوا خارجين من البحر دخل فرعون وقومه، فلما تكاملوا داخلين أمر الله عز وجل البحر فانطبق عليهم فغرقوا جميعًا.

وفي هذا آية ودلالة عظيمة على عظيم قدرة الله تعالى، ومعجزة لموسى عليه السلام، وكرامة له ولبني إسرائيل، وكان ذلك يوم عاشوراء، كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأي اليهود يصومون يوم عاشوراء. فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه موسى وقومه فصامه موسى عليه السلام فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ «**نحن أحق بموسى منكم**» فصامه ﷺ وأمر الناس بصيامه»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

في هاتين الآيتين تذكير لبني إسرائيل بوعده عز وجل لموسى عليه السلام أربعين ليلة لينزل عليه التوراة المتضمنة للنعمة العظيمة عليهم، والهدى والنور لهم.

وكان هذا بعد تخليصهم من فرعون وإنجائهم من الغرق، ومن ثم مخالفتهم أمر موسى عليه السلام وعبادتهم العجل بعد ذهابه لميقات ربه ثم عفوه عز وجل عنهم لأجل أن يشكروا الله.

والمنة على الآباء والعفو عنهم نعمة عليهم وعلى الأبناء يجب على الجميع شكرها.

قوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو: «وعدنا» بدون ألف بعد الواو، وقرأ الباقون ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بألف بعد الواو، والمعنى واحد.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام (١١٣٠)، وأبو داود في الصوم (٢٤٤٤) وابن ماجه في الصيام (١٧٣٤).

أي: واذكروا حين واعدنا موسى بن عمران عليه السلام أربعين ليلة، أي: حين واعد الله موسى أربعين ليلة؛ لمناجاة ربه، وإنزال التوراة عليه، واعده أولًا ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وذلك لحكمة يعلمها الله ﷻ، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الآية: ١٤٢].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ «العجل» مفعول أول لـ«اتخذ»، والمفعول الثاني محذوف؛ لظهوره وعلمهم به، واستهجان وشناعة ذكره، تقديره: إلهًا أو معبودا.

وفي هذا إنكار عليهم، وتوبيخ لهم، أي: ثم جعلتم وصيرتم العجل إلهًا لكم من بعد ذهاب موسى لميقات ربه، أي: بعد أن غاب عنكم.

و«العجل» في الأصل: ولد البقرة. والمراد به في الآية: تمثال من ذهب على هيئة العجل، نحته وصنعه السامري في غيبة موسى عليه السلام، وقال لبني إسرائيل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] أي: أن موسى ضل أن يهتدي إلى إلهكم وإلهه، وهو هذا العجل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وفي قوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، تشنيع عليهم، إذ كان الواجب عليهم انتظار ما يأتيهم به موسى من الشرع من عند ربه.

وفيه دلالة على سرعة نكوصهم عما عهد به إليهم، وتبديلهم ما تركهم عليه، وانتهازهم لأول وهلة فرصة غيابه عنهم- وما بالعهد من قدم- دون مبرر يدعو لذلك، كبعدٍ وتناءٍ، أو طول غيبة وانتظار، أو غير ذلك، كما قيل:

وما أدري أغَيَّرَهم تناءٍ وطولُ العهد أم مالٌ أصابوا(١)

وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم ظالمون بعبادتكم العجل

---

(١) البيت للحارث بن كلدة. انظر: «الكتاب» لسيبويه ١/ ٨٨.

والإشراك بالله؛ لأن الشرك بالله أعظم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

أي: وأنتم ظالمون لأنفسكم؛ لتعريضها لعذاب الله ﷻ، والخلود في النار، غير معذورين؛ لأن موسى عليه السلام قد حذركم من مخالفه أمره، ونهاكم عن الشرك، وذكركم نعم الله عليكم؛ لتشكروه، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨- ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي: ثم تجاوزنا عنكم فلم نعاقبكم.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ فيه إشارة إلى أن العفو إنما حصل حينما تابوا وقتلوا أنفسهم، ولما حصل منهم من اتخاذ العجل، وفيه إشارة إلى عظم ذلك أي: من بعد ذلك الذنب العظيم.

كما أن فيه دلالة على سعة حلم الله ﷻ وعفوه وعظيم نعمته عليهم، حيث عفا عنهم، وتجاوز عن عقوبتهم، وأنه لا يتعاظمه ﷻ ذنب أن يغفره ويعفو عنه، حتى الشرك بالله.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لأجل أن تشكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم على ما أولاكم من النعم وما دفع عنكم من النقم.

والشكر بالقلب يكون بالإقرار والاعتراف باطنًا أن ذلك من الله وحده، والشكر باللسان يكون بالتحدث بالنعمة والثناء عليه ﷻ وحمده، والشكر بالجوارح يكون باستعمالها في طاعة الله تعالى وحفظها عن معصيته.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد وجوب ذكر نعمة الله ﷻ وشكره على بني إسرائيل، ومن ذلك تفضيلهم على عالمي زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٢- تحذير الله ﷻ لبني إسرائيل يوم القيامة العظيم وعذابه وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾.

٣- لا نجاة من أهوال يوم القيامة إلا بتقوى الله تعالى فلا نفس تغني عن نفس شيئًا أو تشفع لها، ولا فدية تؤخذ منها مقابل الخلاص ولا أحد ينصرها، مما يوجب التعلق بالله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٤- عظم يوم القيامة وشدة أهواله ووجوب الاستعداد له بتقوى الله بالعمل الصالح.

٥- لا تعارض بين إثبات الشفاعة وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ لأن المراد بالشفاعة المنفية في الآية شفاعة الكافرين التي لا يتوفر فيها إذن الله للشافع ولا رضاه عن المشفوع له.

٦- تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى العظيمة عليهم بإنجائهم من فرعون وتعذيبه لهم، وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

٧- عظم ما لاقاه بنو إسرائيل من العذاب من فرعون وقومه، وشدة ظلمهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

٨- تذكير بني إسرائيل بفرق البحر بهم وإنجائهم من الغرق، وإغراق آل فرعون وهم ينظرون إليهم ليشفي صدورهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وهذا من أعظم نعم الله تعالى عليهم.

٩- قدرة الله تعالى التامة وآيته العظيمة في فلق البحر وإنجاء موسى وقومه وإغراق فرعون وقومه بجنس الماء الذي كان يفتخر به.

١٠- تذكير بني إسرائيل بوعد الله تعالى لموسى أربعين ليلة لميقات ربه؛ لمناجاته وإنزال التوراة عليه، وانتهازهم فرصة غيابه ونقض عهده وتغيير ما تركهم عليه بعبادتهم

العجل؛ ظلمًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

١١- جهل بني إسرائيل المطلق وحمقهم المتناهي، حيث صنعوا من الذهب تمثالًا على صورة العجل ثم عبدوه.

١٢- أن أظلم الظلم عبادة غير الله والإشراك به؛ لأنه صرف للعبادة عن مستحقها وهو الله وحده إلى غير مستحقها أيًّا كان، وهو ظلم للنفس أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

١٣- سعة حلم الله ﷻ وعفوه، بعفوه عن بني إسرائيل، بعد أن عبدوا العجل؛ ليشكروه وتذكيرهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

في هذه الآية تذكير لبني إسرائيل بأعظم نعمة أنعم الله بها عليهم وهي إتيان موسى الكتاب والفرقان والشريعة التي بها صلاح أمور دينهم ودنياهم، بعد إهلاك فرعون وقومه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: واذكروا حين ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أعطينا موسى الكتاب.

و«ال» في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود عند بني إسرائيل وهو التوراة، أعظم كتب بني إسرائيل وأعظم كتب الله بعد القرآن الكريم، كتبها الله ﷻ بيده، وأنزلها بألواح، جملة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث: «**أنت موسى الذي كلمه الله وكتب له الألواح بيده**»(١).

﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ «الفرقان» صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة، فعطفه عليه من عطف الصفة على الموصوف. أي: الذي فيه الفرقان أي: ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٢)، وأبوداود في السنة (٤٧٠١)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

كما سمى القرآن بـ «الفرقان» قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لأجل أن تهتدوا بهذا الكتاب والفرقان إلى الحق، وهذا هو محل المنة والنعمة عليهم أن الله ﷻ أنزل الكتاب لأجل هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وهذه نعمة أخرى يذكر الله بها بني إسرائيل، وهي توبته عليهم بعد أن ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل، بعد أن ذكرهم قبل ذلك بعفوه وتجاوزه عنهم.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: واذكروا حين قال موسى لقومه منبها وناصحا لهم.

وذلك أنه وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩] فقال لهم موسى ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ الآية.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: ناداهم بهذا اللفظ- كما هي عادة الأنبياء عليهم السلام- توددًا وتحببًا إليهم، وإظهارًا لنصحه لهم، وشفقته عليهم.

وقوم الإنسان هم أصحابه وجماعته، يدخل فيهم الذكور والإناث.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب اتخاذكم العجل إلهًا ومعبودًا من دون الله، وأكدت الجملة: بـ«إنَّ»؛ لأن الشرك أعظم الظلم، كما قال لقمان لابنه فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣٠].

فهو ظلم عظيم من حيث وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها إلى غير مستحقها، وهو ظلم للنفس من حيث بخسها ونقصها حقها وتعريضها لعذاب الله والخلود في النار، وهي وديعة عند الإنسان ينبغي أن يحملها على ما فيه سلامتها ونجاتها.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب، والأمر للوجوب، فالتوبة واجبة على الفور، أي: فارجعوا إلى بارئكم الذي برأكم وخلقكم، أي: ارجعوا من معصيته والشرك به إلى طاعته وتوحيده، كما قال تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥، ١٢٦].

و«البارئ» أخص من «الخالق»؛ ولهذا أتبع به الخالق في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، ومنه سميت الخليقة «البرية».

وفي قوله ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ تذكير لهم بعظمته ﷻ، وبنعمة برئه وخلقه لهم وربوبيته، فكيف يعبدون غيره؟!

﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾الفاء تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان للتوبة المطلوبة منهم، أي: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾بأن تقتلوا أنفسكم، أي بأن يقتل بعضكم بعضًا، وقيل: بأن يقتل من لم يعبد العجل من عبده.

وليس المراد بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾أن يقتل الشخص نفسه فهذا لم يأمر الله به في ملة من الملل، بل حرم قتل الإنسان لنفسه، وجعل ذلك من كبائر الذنوب وتوعد عليه بالعذاب الأليم.

لكن يؤخذ من الآية ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أن الأمة كنفس واحدة، كما قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»(١).

وفي جعل توبتهم من عبادة العجل بأن يقتلوا أنفسهم بيان لما وضعه الله على بني إسرائيل من الآصار والأغلال، بسبب تعنتهم وعنادهم، مما لم يجعله على غيرهم من الأمم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ الإشارة إلى التوبة إلى بارئهم بقتل أنفسهم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: خير لكم من عدم التوبة بقتل أنفسكم، وخير لكم خيريه مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم. وهذا لا يدل على عدم وجوب التوبة بل التوبة واجبة على جميع الناس.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فوفقكم للتوبة بقتل أنفسكم كما أمركم، وقبل توبتكم، فعفا عنهم لما اتخذوا العجل، ودعاهم إلى التوبة وقبل منهم؛ لأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولو كان ذلك الشرك الذي هو أعظم الذنوب.

قيل: لما تابوا وأخذ بعضهم يقتل بعضًا خاف موسى أن ينتهوا فابتهل إلى الله فتاب عليهم ورفع ذلك عنهم.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها، أي: فقبل توبتكم؛ لأنه ﴿هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا خبر وثناء على الله وصفاته.

و﴿التَّوَّابُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ اسمان من أسماء الله ﷻ، ﴿التَّوَّابُ﴾ الذي من شأنه توفيق عباده للتوبة وقبولها منهم، وهو على وزن «فَعَّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على كثره توبته على العبد، وكثرة من يتوب عليهم من عباده.

﴿الرَّحِيمُ﴾ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، رحمة ذاتية ثابتة له ﷻ ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال ﷻ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

وباقتران التوبة والرحمة في حقه ﷻ يزداد كماله إلى كمال، وباجتماع التوبة والرحمة لعباده زوال المرهوب، وحصول المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

في هاتين الآيتين يُذكِّر الله بني إسرائيل بشدة تعنتهم، وجرأتهم على الله ﷻ، وعلى رسوله موسى عليه السلام بقولهم: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، وعقوبتهم بأخذ الصاعقة لهم وهم ينظرون، ثم بعث الله لهم بعد موتهم؛ لعلهم يشكرون نعمة الله عليهم.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: واذكروا حين قلتم يا موسى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾أي: لن نصدقك، ولن ننقاد لما جئت به، والخطاب لبني إسرائيل في عهده ﷺ ،والمراد أسلافهم.

﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾حتى للغاية، أي: إلى غاية أن نرى الله جهرة.

و﴿جَهْرَةً﴾ مفعول مطلق أي: إلى غاية أن نبصر الله جهرة، أي: جهارًا وعلانية، وعيانًا بأعيننا.

وهذا منهم غاية الجرأة على الله تعالى، وعلى رسوله موسى عليه السلام، يدل على شدة عنادهم وشكهم وارتيابهم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وفرق بين هذا وبين قول موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإنه إنما قاله عليه السلام شوقًا إلى الله ﷻ، وليتلذذ بالنظر إلى ربه، كما جاء في الحديث: «**وأسألك النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**»(١).

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: بالموت الذي صعقتم به، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] أي: فمات من في السموات ومن في الأرض.

أو بأخذكم وإماتتكم بالصاعقة، وهي النار التي تنزل من السحاب أو الصوت الشديد الذي صعقوا به، أو الرجفة أو غير ذلك.

وقد أهلكت عاد بالريح، وثمود بالصيحة. وسمى القرآن الكريم ذلك صاعقة كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم بسبب تعنتهم، وجرأتهم وسؤالهم ما لا يمكن؛ لأن رؤية الله- في الدنيا- ليست ممكنة؛ ولهذا لما قالت عائشة- رضي الله عنها- للنبي

---

(١) أخرجه النسائي في السهو (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال «**نور أنى أراه**»، وفي رواية: «**رأيت نورًا**»(١).

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونكم تنظرون إليها، وإلى العذاب، وينظر بعضكم إلى بعض وأنتم تتساقطون وتُصعقون، وذلك؛ ليكون ألم العقوبة ووقعها عليهم أشد وأنكى، وفي ذلك إشارة إلى معاجلتهم بالعقوبة في حين إساءتهم وجرأتهم على الله تعالى بهذا القول.

وذلك أنه لما رجع موسى من ميقات ربه، بعد ما أنزل الله عليه التوراة، وجاءهم بها قالوا: ليست من الله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، فأخذتهم الصاعقة.

وقيل: إن موسى لما اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه، وذهب بهم وجعل يكلم الله ويكلمه الله قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، فأخذتهم الصاعقة، قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، أي: ثم أحييناكم من بعد موتكم- وفي هذا دلالة على عظم قدرة الله ﷻ في إحياء الموتى، ومعجزة لموسى عليه السلام، ونعمة كبيرة من الله ﷻ على بني إسرائيل فيها إعطاؤهم فرصة؛ ليرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم ويشكروا؛ ولهذا قال:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: لأجل أن تشكروا الله على نعمه عليكم، فتؤمنوا بالله وبما جاءتكم به الرسل بقلوبكم وألسنتكم، وتنقادوا لذلك بجوارحكم.

وفي الآية إثبات الحكمة لله ﷻ، فيما خلق وقدر وشرع، والتأكيد على وجوب شكر نعم الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٨٢)- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الآية: ١٦٠].

وفي هذا تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم، حينما تاهوا في البرية والتيه في تظليله عليهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، وأمره لهم بالأكل من طيبات ما رزقهم امتنانًا عليهم، بعد أن ذكّرهم بما وقع عليهم من النقم، وظلمهم لأنفسهم وكفرهم وعدم شكرهم.

قوله: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾.

و﴿عَلَيْكُمُ﴾ بالخطاب في الموضعين، وفي آية الأعراف «عليهم» بضمير الغيبة.

و﴿ٱلْغَمَامَ﴾جمع غمامة، وهو: السحاب الأبيض البارد، سمي بذلك لأنه يغم السماء، أي يواريها ويسترها، أي: جعلنا الغمام ظلا عليكم يقيكم حر الشمس، ويلطف الجو بالبرودة، وذلك حين تاهوا، وبقوا في التيه بين الشام ومصر أربعين سنة، ولا ماء عندهم ولا ظل ولا مأوى، فرحمهم الله فظلل عليهم ﴿ٱلْغَمَامَ﴾.

و«الظل» نعمة من نعم الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ [النحل: ٨١].

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾، ﴿ٱلْمَنَّ﴾شيء يشبه العسل ينزل عليهم بين طلوع الفجر وطلوع الشمس يأكلون منه يومهم.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا**»(١).

وسمي﴿ٱلْمَنَّ﴾؛ لأن الله مَنَّ به عليهم، حيث يأتيهم بدون تعب ولا مشقة؛ ولهذا قيل: إنه كل ما منَّ الله به عليهم من الطعام والشراب بلا عمل منهم ولا كد.

وعن سعيد بن زيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ : «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء**

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١١٤)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٧٠٢)- من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

للعين»[١].

﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طائر ناعم صغير يسمى «السُّمَّانَى». من أحسن ما يكون من الطيور وألذه لحمًا.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم كلوا، والأمر للإباحة والامتنان و«من» لبيان الجنس، و«ما» موصولة أي: كلوا مما يستلذ ويستطاب من الذي أعطيناكم ومن ذلك «المن» و«السلوى» وغيرهما.

وفي هذا بيان أن الرازق هو الله وحده، وفيه امتنان من الله ﷻ بتظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى.

والأمر لهم بالأكل من طيبات ما رزقهم؛ ليشكروه، كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥].

وفيه دلالة على جواز التمتع بما أباح الله من الظلال الوارفة والطيبات من الرزق؛ إظهارًا لنعمة الله تعالى، وشكرًا له عليها.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ وأي: وما نقصونا شيئا- بمخالفتهم وعنادهم وكفرهم نعمة الله وعدم شكرها، وفيما اختاروا لأنفسهم من الكفر وعبادة العجل؛ لأن الله ﷻ لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين، كما قال ﷻ في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**.... الحديث»[٢].

وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ وما بعده انتقال من الخطاب إلى الغيبة؛ لقصد الاتعاظ بحالهم، وفيه إشارة إلى تماديهم في غيهم وكفرهم وضلالهم، وعدم إقرارهم بظلمهم لأنفسهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن كانوا يظلمون أنفسهم، وقُدِّم المفعول

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٨)، ومسلم في الأشربة (٢٠٤٩) والترمذي في الطب (٢٠٦٧) وابن ماجه في الطب (٣٤٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على الفعل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لإفادة الحصر، أي: لا يظلمون بكفرهم وعدم شكرهم إلا أنفسهم؛ لأن ضرر ذلك عائد عليها، حيث عرضوها للعقوبات الدنيوية ولعذاب النار وحرموها رحمة الله وثوابه، كما قال تعالى عن سبأ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩].

فحالهم فيما اختاروا لأنفسهم. كما قال الشاعر:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه[١]

وكما قيل: «يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعل العدو بعدوه»[٢]، «وعلى نفسها جنت براقش»[٣].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير بني إسرائيل بأعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي إعطاء موسى الكتاب والفرقان؛ لأجل أن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٢- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه.

٣- عظم مكان التوراة؛ لإطلاق اسم «الكتاب» عليها، أي: الكتاب المعهود والمعروف عند بني إسرائيل، ولأن الله وصفها بالفرقان.

٤- ربط المسببات بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٥- تذكير بني إسرائيل بنصح موسى عليه السلام لهم بظلمهم لأنفسهم، باتخاذهم العجل معبودًا من دون الله، وأمره لهم بالتوبة إلى بارئهم بقتل بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

---

(١) البيت ينسب لصالح بن عبد القدوس. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ٢٧٢.

(٢) انظر: «المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي» ٥/ ٤٧٩.

(٣) انظر: «الأمثال» للهاشمي ١/ ١٧٠، «محاضرات الأدباء» ٢/ ٧٠٣.

٦- تودد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل في خطابه لهم، عسى أن ينجع ذلك فيهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

وهكذا ينبغي للداعي إلى الله أن يسلك طريق التودد والتحبب إلى من يدعوهم؛ تأليفًا لقلوبهم.

٧- أن أعظم ظلم للنفس حملها على الشرك بالله؛ لما في ذلك من تعريضها للخلود في النار.

٨- وجوب التوبة إلى الله تعالى على الفور؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

٩- تذكر بني إسرائيل بأن الذي يستحق العبادة هو الله الخالق البارئ وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾.

١٠- شدة ما وضعه الله على بني إسرائيل من الآصار والأغلال، حيث جعل توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

١١- أن الأمة كنفس واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لأن المعنى ليقتل بعضكم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

١٢- أن الخير كل الخير في التوبة والرجوع إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾

١٣- امتنان الله عز وجل على بني إسرائيل بتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم، وتذكيرهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

١٤- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «التواب و«الرحيم» وصفتي التوبة والرحمة الواسعتين له- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٥- في توبته عز وجل على العبد ورحمة له جمع بين التخلية والتحلية، وبين زوال المرهوب وحصول المطلوب.

١٦- سعة فضل الله عز وجل وعفوه ورحمته وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره مما يوجب التعلق بالله عز وجل والتعرض لنفحات توبته ورحمته.

١٧- شدة عناد بني إسرائيل، وجرأتهم على الله تعالى، وعلى رسوله موسى عليه السلام في سؤالهم رؤية الله، ومعاجلتهم بالعقوبة بأخذ الصاعقة لهم وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وفي هذا تذكير لسلفهم وتحذير لهم ولغيرهم من هذا المسلك.

١٨- أن ألم العقوبة إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

١٩- نعمة الله تعالى على بني إسرائيل في بعثهم من بعد موتهم، وفي ذلك إتاحة الفرصة لهم لعلهم يشكرون، وتذكير الخلف منهم بذلك؛ لأن النعمة على السلف نعمة على الخلف؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى حيث أحياهم بعد موتهم.

٢١- إثبات الحكمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٢- تذكير بني إسرائيل في عهده ﷺ بنعمة الله تعالى على آبائهم وأسلافهم في التيه بالتظليل عليهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، والامتنان عليهم بالأمر بالأكل من طيبات ما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

٢٣- أن نعمة الظل من أعظم نعم الله على العباد؛ لهذا امتن الله بها على بني إسرائيل فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾.

٢٤-أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ ولهذا امتن الله به على بني إسرائيل، وهو طعام أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]

٢٥-في امتنان الله ﷻ بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾دلالة على أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه أن يتمتع بما أباح الله له؛ شكرًا لله تعالى، وأن يظهر أثر نعمة الله عليه، كما قال تعالى في الآية: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [الآية:٥٨].

كما أن فيه دلالة على أن المباح هو الطيب، دون الخبيث ذاتًا أو كسبًا، وأن الرزاق

هو الله وحده دون سواه.

٢٦- ظلم بني إسرائيل بكفرهم نعمة الله عليهم من الظل والمن والسلوى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي: لما كفروا نعمة الله عليهم.

٢٧- أن من كفر بالله ونعمه لا يضر الله، بل لا يضر ولا يظلم إلا نفسه؛ لأن الله ﷻ لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي.

٢٨- أن كفر نعم الله تعالى ظلم للنفس بتعريضها لعقاب الله وعذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الآيتان: ١٦١- ١٦٢].

يذكر الله ﷻ بني إسرائيل بمنته ونعمته بأمر أسلافهم بدخول بيت المقدس والأكل منها حيث شاؤوا رغدًا ودخول الباب سجدًا وقول حطة، ووعده لهم بمغفرة خطاياهم وزيادة المحسنين منهم.

وبما حصل من تبديل الذين ظلموا منهم قولًا غير الذي قيل لهم، وعقوبة الله لهم بإنزاله على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون، وبما كانوا يظلمون.

وفي هذا موعظة للخلف منهم أن يقعوا فيما وقع فيه سلفهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: واذكروا حين قلنا لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: ادخلوها للسكن والعيش فيها، بدليل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وهذا من نعمته ﷻ

عليهم، والأمر في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ للوجوب، وهو أمر شرعي؛ لقوله ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾الآية، وكوني؛ لأن الله فتحها لهم ودخلوها.

والمراد بالقرية بيت المقدس لقول موسى فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١].

والقرية مأخوذة من القرى وهو الجمع، لاجتماع الناس وسكنهم فيها، ومنه سمي «القرو» مجمع الماء، فالقرية: البلد الذي يجتمع ويسكن فيه الناس صغيرًا كان أو كبيرًا، وقد سمى الله ﷻ مكة قرية وهي من أكبر البلدان آنذاك، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣].

كما سمى ما حولها من البلدان الصغيرة بالقرى، فقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾، وفي الأعراف: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ والأمر في قوله: ﴿فَكُلُواْ﴾ للإباحة والامتنان ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾أي: في أي مكان من هذه القرية، في وسطها أوفي أطرافها أو في أي جهة منها. ﴿رَغَدٗا﴾ أي: أكلًا رغدًا هنيئًا واسعًا، من غير مكدر ولا معارض ولا ممانع.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ وفي آية الأعراف: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾أي: باب القرية، أي: باب بيت المقدس، أو أحد أبوابه؛ لأن القرى يوضع لها أبواب تفتح في النهار وحال الأمن، وتغلق في الليل وحال الخوف، ﴿سُجَّدٗا﴾أي: حال كونكم سجدًا، أي: ساجدين، أي: إذا دخلتم فاسجدوا شكرًا لله على ما أنعم به عليكم من الفتح والنصر.

قال الطبري[1]: «وأصل السجود: الانحناء لمن سُجِدَ له معظِّمًا بذلك، فكل منحن لشيء تعظيمًا له وخشوعًا فهو له ساجد.

---

(١) في «جامع البيان» (١/ ٧٥).

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: قولوا هذه الكلمة ﴿حِطَّةٌ﴾.

و ﴿حِطَّةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: سؤالنا حطة، أو دعاؤنا حطة، أو حاجتنا حطة.

والمعنى: ربنا احطط عنا ذنوبنا وخطايانا واغفر لنا، فأمروا إذا دخلوا القرية وفتحها الله لهم أن يسجدوا لله شكرًا على ذلك، وأن يسألوه مغفرة ذنوبهم، أي: أن يدخلوها خاضعين لله ﷻ بالفعل والقول.

ولهذا لما فتح الله ﷻ على نبينا محمد ﷺ مكة دخلها خاضعًا لله ﷻ وصلى ثماني ركعات في جوف الكعبة، وكذا صلى سعد بن أبي وقاص ﷺ ثماني ركعات لما دخل إيوان كسرى.

ولما أتم الله ﷻ على نبينا محمد ﷺ النصر والفتح لدينه أمره بالتسبيح بحمده واستغفاره، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر بالتأنيث، «تُغْفَر» بتاء مضمومة وفاء مفتوحة، وقرأ نافع وأبوجعفر بالتذكير «يُغْفَر» بياء مضمومة وفاء مفتوحة، وقرأ الباقون: ﴿نَّغْفِرْ﴾ بنون مفتوحة وفاء مكسورة.

وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: نمحو ونتجاوز عن خطاياكم ونسترها.

والخطايا: جمع خطيئة، تجمع على خطايا وعلى خطيئات كما في سورة الأعراف ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ والخطايا والخطيئات هي: الذنوب والآثام.

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الواو: استئنافية، وفي آية الأعراف: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية:١٦١] بلا واو، أي: سنعطي المحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله، بإخلاص العمل لله، واتباع شرعه، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة وكف الأذى عنهم، أي: سنزيدهم على مغفرة الخطايا والذنوب بمضاعفة الأجور لهم، وفي هذا ترغيب في الإحسان بنوعيه، كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾، وفي آية الأعراف : ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الآية:١٦٢] أي: فبدل الذين ظلموا بمخالفتهم ومعصيتهم، والتبديل: جعل شيء مكان شيء، أي: فجعلوا مكان القول الذي أمروا أن يقولوه بقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾جعلوا مكانه قولًا غيره، فقالوا: «حبة» أو «حبة في شعرة» مخالفة واستهانة بأمر الله، ودخلوا يزحفون على أستاههم، أي: على أدبارهم؛ استكبارًا منهم واستهزاء.

فبدلوا القول والفعل؛ ولهذا استحقوا الحكم عليهم بالظلم ووصفهم به.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على استاههم، وقالوا: حبة في شعرة**»(١).

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾، وفي الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الآية: ١٦٢].

قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ الفاء للسببية، أي فبسبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: عليهم.

وأظهر في الآية هنا في مقام الإضمار، فلم يقل: «فأنزلنا عليهم»، كما قال في آية الأعراف ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾.

والغرض من هذا الإظهار تأكيد الحكم عليهم بالظلم، وأنه سبب عقوبتهم، وليشمل هذا الحكم كل من بدل،فهو ظالم مستحق للعقوبة.

وفيه تحذير من الظلم؛ لأن العقوبة نهاية كل ظالم، وفيه إظهار عدل الله ﷻ بتخصيصه العقوبة بالظالمين بسبب ظلمهم.

وقوله: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الرجز: العذاب، أي: عذابًا من السماء، كقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وفي الحديث قوله ﷺ عن الطاعون: «**إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به**

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٣)، ومسلم في التفسير (٣٠١٥).

بعض الأمم قبلكم»(١).

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المراد بالسماء العلو، أي: من فوقهم، كالصاعقة والبرد والريح والحجارة، وغير ذلك، وقيل: الطاعون، وكل ذلك نازل من السماء إما واقعًا وتقديرًا، وإما تقديرًا، كما قال ﷻ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢٠].

﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب فسقهم، والفسق: الخروج عن طاعة الله تعالى، أي: بسبب خروجهم عن طاعة الله تعالى وظلمهم عوقبوا بما ذكر، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الآية: ١٦٢] فوصفهم الله ﷻ بالفسق والظلم، وحكم عليهم بذلك بسبب تبديلهم قول الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [الآية: ١٦٠].

وهذه نعمة من الله عظيمة، يُذكِّر الله بها بني إسرائيل، وهي استسقاء موسى لهم لريهم من العطش واستجابته ﷻ له، وأمره له بأن يضرب بعصاه الحجر وانفجار اثنتي عشرة عينًا على عدد أسباط بني إسرائيل.

قوله ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ أي: واذكروا حين استسقى موسى لقومه بني إسرائيل، أي: طلب من ربه أن يسقيهم ماءً يشربون منه، مما ينزل من السماء أو مما يخرج من الأرض، وذلك حينما كانوا في التيه، كما استسقى نبينا محمد ﷺ يوم الجمعة على المنبر، لما قال له رجل: يا رسول الله هلك الكراع، وهلك الشاء، فادع الله أن

---

(١) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٧٤)، ومسلم في السلام (٢٢١٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

يسقينا»(١).

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أي: فقلنا إجابة لموسى ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ والمراد بـ «العصا» عصا موسى المعروفة التي قال الله عنها: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧ - ٢١].

و «ال» في «الحجر» للجنس، أي: اضرب أيَّ حجر شئت.

وقيل: «ال» للعهد، والمراد بذلك حجر معين، والصحيح الأول وهو أبلغ وأدل على عظيم قدرة الله- تعالى.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وفي آية الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ [الآية:١٦٠] الفاء للسببية، أي: فضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، والانفجار: الانفتاح والانشقاق، والانبجاس: أول الانفجار.

أي: انفتحت وانشقت من هذا الحجر اثنتا عشرة عينًا عدد أسباط وقبائل بني إسرائيل، فكان لكل سبط وقبيلة منهم عينًا من هذه العيون؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

وقد جعل الله ﷻ في هذه العصا أربع آيات عظيمة ومعجزات خارقة تأييدًا لنبيه موسى عليه السلام:

الأولى: ضرب البحر بها وانفلاقه فرقين، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأعراف: ٦٣].

الثانية: ضرب الحجر بها ونبع الماء منه، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وقوله في سورة الأعراف: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الآية: ١٦٠]

الثالثة: يلقيها فتكون حية تسعى، ويأخذها فتعود عصا، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣٢)، ومسلم في الاستسقاء (٨٩٥)، وأبو داود في الصلاة (١١٧٤)، والنسائي في الاستسقاء (١٥٠٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧-، الشعراء ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧- ٢١].

الرابعة: تلقفها إفك السحرة وكذبهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] وقال تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي : قد علم كل أناس منهم، أي: قد علم كل سبط من أسباط بني إسرائيل مشربهم، أي: مكانه، وزمانه وقدره حتى لا يزاحم بعضهم بعضًا، وربما تعادوا، وتقاتلوا من أجل ذلك.

وفي هذا دلالة على عظيم قدرة الله تعالى وكرمه، وآية من الآيات التي أيد بها نبيه موسى عليه الصلاة السلام، ونعمة عظيمة على بني إسرائيل، وتكرمه لهم في سقيهم وريهم من العطش.

وفي طي هذه النعمة نعم أخرى، منها كون السقى في مظنة عدم تحصيله، ومنها كونه بلا كد منهم ولا تعب ولا مشقة، ومنها كون العيون اثنتي عشرة عينًا، لكل سبط منهم مشرب فلا يتضايقون ولا يتزاحمون.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: وقيل لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ والأمر للإباحة والامتنان، وقد جمع بين الأمر بالأكل والشرب؛ لأنه سبق ذكر الامتنان عليهم بإنزال المن والسلوى.

﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عطاء الله الذي أنزله وأخرجه لكم من مأكل ومشرب، بلا كد ولا تعب.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا تطغوا وتسعوا في الأرض حال كونكم مفسدين فيها بالمعاصي، فتسلبوا هذه النعمة؛ لأن المعاصي سبب

لفساد البلاد والبر والبحر، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

و«العثا» و«العثو»: أشد الفساد، والإفساد.

فامتن عليهم أولًا بالأمر بالأكل والشرب من رزق الله، ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض؛ لئلا يسلب منهم، وذلك أن النعمة قد تطغي الإنسان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٦١﴾.

يذكر الله ﷻ بني إسرائيل، بتعنت أسلافهم، وعدم صبرهم، واستبدالهم الذي هو أدني بالذي هو خير، وما عوقبوا به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، ورجوعهم بغضب من الله؛ بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين، وعصيانهم، واعتدائهم.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: واذكروا حين قلتم يا موسى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي. لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد- يعنون بذلك ما مَنَّ الله به عليهم من المن و«السلوى»، وهما نوعان عن ألذ وأطيب الطعام.

وإنما قالوا «واحد» لأنه يتكرر كل يوم، فبدل أن يشكروا الله على ما مَنَّ به عليهم من هذا الطعام الذي هو من أفضل الأطعمة وألذِّها وأنفعها ضجروا وملّوا، وقالوا على وجه الاحتقار لذلك: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وهذا بلا شك من كفران النعم، وقد قال الله ﷻ لهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وهذا لهم ولغيرهم.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ أي: يخرج لنا أطعمة أخرى مما هو معروف.

وفي قولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بصيغة الأمر لموسى دلالة على عظم ما في قلوبهم من

التعاظم والاستكبار، كما أن في مقالتهم هذه دون أن يقولوا: «فادع لنا ربنا»، أو «فادع الله لنا» جفاءً منهم وسوءَ أدب في الخطاب، وكأنهم يسخرون بموسى وبربه، أو كأن رب موسى ليس ربًّا لهم- عياذًا بالله- وهذا كقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، «من»: تبعيضية، و«ما»: موصولة، أي: من بعض الذي تنبته الأرض.

﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ ﴿مِنۢ﴾: بيانية، و﴿بَقْلِهَا﴾ النبات الذي ليس له ساق كالكراث، ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ صغار البطيخ «الخيار» ﴿وَفُومِهَا﴾: ثومها، وهو الثوم المعروف، فيقال: ثوم بالثاء، ويقال «فوم»: بالفاء. وقال طائفة من المفسرين: «الفوم»: الحنطة.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ هما العدس والبصل المعروفان، وهذه الأطعمة مما عرفوه في مصر قبل ذلك، وكلها دون ما أنزل الله عليهم من «المن والسلوى».

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ الهمزة للاستفهام، وهو للإنكار والتوبيخ والتقريع والتعجب، أي: قال لهم موسى عليه السلام موبخًا لهم ومنكرا عليهم ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾، والاستبدال أخذ شيء وجعل شيء مكانه.

أي: أتختارون الذي هو أقل قيمة وأوضع قدرًا وهو ما طلبوا إخراجه لهم من الأطعمة.

﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: بالذي هو خير مما ذكر تم من حيث طعمه ولذته ونفعه وغير ذلك، وهو «المن» «السلوى» الذي أنزله الله عليهم، فجمعوا بين كفر نعمة الله وما من به عليهم مما هو أفضل الطعام، وبين سؤالهم ما هو أدنى منه قيمة وأقل قدرًا، مما يدل على تعنتهم وسفههم، ودنو هِمَمِهِم، وقد قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن(١)

---

(١) البيت ينسب ليحيى بن علي باشا الأحسائي. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/ ٤٧٥-
=

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ أي: انزلوا مصرًا، والأمر للإباحة، وفيه ما يشعر بالتوبيخ لهم، أي: إن كان هذا همكم واختياركم ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ بقرينة قوله: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾ أي: انزلوا أيَّ مصر من الأمصار، أي: أيَّ بلد من البلدان، وليس المراد مصر البلد المعروف؛ ولهذا صرف، و«مصر» البلد المعروف ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾ [يونس: ٨٧].

وقيل: المراد بمصر البلد المعروف، أي: انزلوا مصر التي خرجتم منها، وهذا ليس بإمكانهم، وإنما هو من باب التوبيخ أو التهديد لهم على اختيارهم ما كانوا عليه من العيش الحقير الذليل في مصر على الذي هو خير، والمعنى على هذا: إن لم تقدروا نعمة الله قدرها فـ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾.

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾ الفاء: للتعقيب؛ و«ما»: موصولة، أي: فإن لكم الذي سألتموه من هذه الأطعمة لأنها موجودة في كل مصر.

والمعنى: انزلوا أيّ مصرٍ من الأمصار تجدوا الذي سألتموه فليس ذلك مما يحتاج إلى دعاء، ولا مما يستحق الدعاء؛ لكثرته في الأمصار ودناءته.

قال ابن كثير[1]: «ولهذا لما كان سؤالهم من باب الأشر والبطر لم يجابوا عليه».

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أي: وضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وبني الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأن الذي ضرب عليهم الذلة والمسكنة معلوم، وهو الله ﷻ، تعليماً للأدب مع الله؛ كما في قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠].

أي: وفرضت عليهم الذلة وألزموها، وهي الذل والهوان والصغار قدرًا وشرعًا، ونزعت من قلوبهم العزة والأنفة والشجاعة، فلا يواجهون عدوًا، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ

=
٤٧٦).

(١) في «تفسيره» (١/ ١٤٦).

ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

هذه هي حالهم وحقيقة أمرهم، وهم اليوم أذل وأجبن منهم بالأمس، ولكن كما قيل:

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقري ما شئت أن تنقري(١)

و﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضربت عليهم المسكنة، كما قال تعالى: في آل عمران: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [الآية: ١١٢]، أي: وضربت عليهم المسكنة، وهي الفقر، بل وأشد ذلك وهو فقر القلوب؛ ولهذا صار البخل والشح والحرص والطمع سجية لهم حتى ولو كانوا أكثر الناس مالًا، وها هم اليوم يكادون يديرون دفة جميع الأموال في العالم مع ملازمة هذه الصفات الذميمة لهم، فهم أفقر الناس قلوبًا، وأقلهم بذلًا وعطاء، وأعظمهم شحًّا وبخلًا، وأمنعهم ذات يد، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن كثير(٢): «يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضعت عليهم وألزموا بها شرعًا وقدرا، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون».

﴿وَبَآءُو﴾ أي: رجعوا وانصرفوا، وأكثر ما يستعمل «باء» بالرجوع غير الحميد وبالخيبة والخسران ونحو ذلك.

﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الباء للمصاحبة، أي: رجعوا مصاحبين غضب الله، أي: مستحقين ومستوجبين غضب الله، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا

---

(١) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» ص٤٦.

(٢) في «تفسيره» (١/ ١٤٦).

وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

والغضب من الله يستوجب نقمته وعقوبته، كما قال ﷻ: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [الآية: ١١٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لأقرب مذكور، وهو قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الذي جازيناهم به من ضرب الذلة عليهم والمسكنة ورجوعهم بغضب من الله.

﴿بِأَنَّهُمْ ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم.

﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: كانوا يجحدون آيات الله الكونية والشرعية، ويكذبون بها، فلا يستدلون بآياته الكونية على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ووجوب عبادته وحده دون سواه، ولا يؤمنون بآياته الشرعية ويعملون بما جاء فيها.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ما قبلها، قرأ بعضهم: «النبئين» مأخوذ من النبأ وهو الخبر، وقرأ آخرون: «النبيين» مأخوذ من النبأ، أو من النبوة وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء عليهم السلام مخبَرون من الله، ومخبِرون لأقوامهم، كما أنهم ذوو مكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: قتلا بغير سبب يوجب قتلهم، بل بالباطل، والظلم المحض.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لأقرب مذكور وهو قوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. أي: إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير حق.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب عصيانهم بترك ما أوجبه الله عليهم، وارتكاب ما نهاهم الله عنه، وبسبب اعتدائهم ومجاوزتهم الحد في حق الله

بتجاوز ما أمر به، وفي حقوق عباده بالتعدي عليهم وأذيتهم ومنع حقوقهم صاروا إلى ما صاروا إليه من الكفر بآيات الله، وقتل النبيين بغير حق، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١]، فكفرهم بآيات الله سببه العصيان، وقتلهم النبيين بغير حق سببه الاعتداء.

ويحتمل أن تكون الإشارة في قوله: «ذلك» تعود إلى مرجع الإشارة الأولى، وهو ما جوزوا به من ضرب الذلة عليهم والمسكنة، ورجوعهم بغضب من الله، فيكون عصيانهم واعتداؤهم علة أخرى لمجازاتهم بما ذكر، وتأكيد لعظم جرمهم، ولاستحقاقهم ذلك العقاب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القول والكلام لله ﷻ بحرف وصوت، كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ الآية.

٢- تذكير بني إسرائيل بأمر الله لهم بدخول بيت المقدس وإباحة الأكل منها من حيث شاؤوا، وأمرهم بدخول الباب سجدًا، وطلب حط ذنوبهم، ووعده تعالى لهم بمغفرة خطاياهم، وزيادة المحسنين منهم من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٣- أن من شكر نعمة الله تعالى لمن نصره الله وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع والتذلل والتواضع لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾.

٤- الحث على الدعاء بطلب حط الذنوب ومغفرتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

٥- وعد الله ﷻ الذي لا يتخلف بمغفرة الخطايا والذنوب لمن جاهد في سبيله وخضع له، ودعاه؛ لقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾.

٦- كرم الله ﷻ وجوده بوعده بزيادة المحسنين من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٧- شدة عناد بني إسرائيل ولؤمهم حيث بدلوا ما أمرهم الله بقوله وفعله، فبدل أن يدخلوا الباب سجدًا، ويقولوا: حطة، دخلوا يزحفون على أدبارهم استهزاء، ويقولون: حبة من شعرة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾.

٨- تحريم تبديل قول الله ﷻ، وأن ذلك من أشد الظلم والفسق؛ لقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

٩- إثبات علو الله على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١٠- في الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ تأكيد الحكم بالظلم على هؤلاء المبدلين، وأنه سبب عقوبتهم، وليشمل هذا الحكم كل من يبدل فهو ظالم مستحق للعقوبة.

١١- أن من بدل قول الله تعالى فهو ظالم فاسق؛ لأن الله وصفهم بالظلم والفسق، وحكم عليهم بذلك.

١٢- إظهار عدل الله بربط العقوبة بسببها، والتحذير من الظلم والفسق، وأنهما سبب لعقاب الله وعذابه.

١٣- أن الاستسقاء عند الحاجة للمطر سنة من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ وهكذا فعل النبي ﷺ.

١٤- حاجة الخلق وافتقارهم إلى الله ﷻ بما في ذلك الرسل وغيرهم، وأنه لا ملجأ لهم في الشدائد إلا إلى الله.

١٥- شفقة موسى عليه السلام ورأفته بقومه، حيث طلب لهم السقيا خوفًا عليهم من الهلاك.

١٦- إثبات السمع والكلام لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ﴾ والفاء للسببية، فسمع ﷻ استسقاء موسى ودعاءه، وقال له: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾.

١٧- كرم الله ﷻ وجوده العظيم وعنايته بنبيه موسى عليه السلام حيث أجاب دعاءه؛ لقوله

تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وفي هذا دلالة على فضل موسى عليه السلام ومنزلته عند ربه.

١٨- قدرة الله تعالى التامة حيث فجر هذه العيون من الحجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

١٩- الآية العظيمة في عصا موسى عليه السلام حيث ضرب بها بأمر الله الحجر فانفجرت منه العيون، وضرب بها البحر فانفلق، ويلقيها فتلقف إفك السحرة، ويلقيها فتكون حية، ثم يأخذها فتعود سيرتها الأولى.

٢٠- إثبات الأسباب وربط المسببات بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ فالله قادر على تفجير هذه العيون دون ضرب موسى الحجر بعصاه.

٢١- أن السقيا قد تكون بالمطر النازل من السماء، وقد تكون بالماء النابع من الأرض كهذه العيون، ونبع زمزم وغير ذلك.

٢٢- حكمة الله تعالى وتمام نعمته على بني إسرائيل في جعل هذه العيون اثنتي عشرة عينًا؛ ليعرف كل سبط منهم مشربه ولا يتزاحمون ويؤذي بعضهم بعضًا، وربما عادى بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

٢٣- امتنان الله عز وجل على بني إسرائيل وتذكيرهم بما أنعم الله به عليهم، من مأكل ومشرب؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾، والأمر للإباحة.

٢٤- تحريم الإفساد في الأرض؛ لأن الله تعالى نهى عنه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٢٥- أن المطلوب والمشروع الإصلاح في الأرض.

٢٦- كفران بني إسرائيل لما مَنَّ الله عليهم به من المأكل والمشرب والرزق ومللهم من ذلك؛ لقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ الآية.

٢٧- سوء أدب بني إسرائيل وجفائهم؛ لقولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فكأنهم يسخرون بموسى وربه، وكأن رب موسى ليس ربًّا لهم- والعياذ بالله.

٢٨- أن من كفر نعم الله تعالى ففيه شبه من اليهود.

٢٩- إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لموسى عليه السلام وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

٣٠- أن المُخرج للنبات والجالب للأرزاق هو الله جل وعلا؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية.

٣١- اختيار بني إسرائيل الأدنى من الطعام على الأعلى، وإنكار موسى ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾.

٣٢- لا بأس في اختيار الأطيب والأفضل من المأكل والمشرب والمسكن والمركب ونحو ذلك، ما لم يصل الأمر إلى حد الإسراف؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾.

٣٣- حل البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

٣٤- جواز إسناد الشيء إلى مكانه أو سببه؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، والمنبت حقًا هو الله ﷻ.

٣٥- التقليل من شأن مطلب بني إسرائيل في قولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ الآية، وتوبيخهم؛ لأن ما سألوه لا يحتاج إلى دعاء لكثرته في الأمصار ودناءته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

٣٦- ضرب الذلة والهوان والصغار على بني إسرائيل، ولزوم ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، أي: بحبل من الله وهو الإسلام الذي به العزة لمن اعتنقه، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعهد أو أمان من المسلمين لهم، أو مناصرة ومظاهرة غيرهم من أهل الكفر لهم، كما هو الحال في مناصرة نصارى العالم لهم اليوم.

وهم مع ذلك ومع ما يملكون من أنواع الأسلحة النووية وغيرها- أذلاء جبناء ويعيشون حياة الذل والخوف والقلق، مصداق قوله ﷻ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، هذه حالهم وصفتهم اللازمة لهم.

ولا تسأل لماذا لم ينتصر المسلمون عليهم، فالجواب يعرفه كل مسلم، وهو ضعف المسلمين وبعدهم عن دينهم، واختلافهم وتناحرهم فيما بينهم وتفرق كلمتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وكما قال الموصي لأبنائه عند وفاته:

كونوا جميعًا يا بنيّ إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افترقن تكسرت آحادا(١)

٣٧- ضرب المسكنة والفقر على بني إسرائيل بل أشد ذلك وأعظمه هو فقر القلوب، حتى صاروا أفقر الخلق قلوبًا، وأشدهم بخلا وشحا، وحرصا وطمعًا، حتى ولو ملكوا الأموال الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

٣٨- غضب الله تعالى على بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا إثبات صفة الغضب لله ﷻ، كما يليق بجلاله، وإثبات ضده وهو الرضا عمن هم أهل لذلك وهم المؤمنون.

٣٩- أن ما حصل لبني إسرائيل من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ورجوعهم بغضب الله إنما هو بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين وعصيانهم واعتدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

٤٠- إثبات الحكمة لله تعالى، وربط العقوبات بموجباتها، وبيان عدل الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾.

٤١- التحذير من الكفر بآيات الله، ومن العصيان والاعتداء.

---

(١) انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» ١/ ١٦٢، والبيتان ينسبان لمعن بن زائدة، وقيل: للمهلب بن أبي صفرة.

٤٢- أن قتل النبيين لا يكون إلا بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، فقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لبيان الواقع.

٤٣- أن المعاصي يجر بعضها بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الآية: ٦٩].

عن سلمان ﷺ قال: «سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى آخر الآية»(١).

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة ما عاقب به بني إسرائيل بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير حق- من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وغضب الله عليهم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده للذين آمنوا من هذه الأمة، ومن الذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من الأجر عنده، والسلامة من الخوف والحزن، وأنه لا يضيع أجر من آمن وعمل صالحًا أيًا كان.

وفيه احتراز وتنبيه إلى أن من بني إسرائيل من آمن وعمل صالحًا، فليسوا كلهم ممن كفر وقتل النبيين وغضب الله عليهم، كما أن فيها إشارة إلى أن باب التوبة مفتوح لمن تاب وآمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من أي طائفة كان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «إنَّ» للتوكيد وتحقيق الخبر والمراد بـ «الذين آمنوا» أمة محمد ﷺ، وإنما خصهم الله بهذا الوصف؛ لأنهم هم الذين يستحقون اسم ووصف

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٢٦).

الإيمان المطلق، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وكل ما أوجب الله الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وابتدأ بذكر الذين آمنوا من هذه الأمة اهتمامًا بشأنهم؛ لفضلهم وكونهم القدوة لغيرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، أي: اليهود، وهم المنتسبون إلى شريعة موسى عليه السلام «شريعة التوراة»، ومعنى «هادوا»: تابوا، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: تبنا إليك.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: الذين ينتسبون إلى النصرانية دين عيسى عليه السلام، سموا نصارى لتناصرهم فيما بينهم، ويقال لهم أنصار، كما قال عليه السلام: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾، قرأ نافع بياء ساكنة بعد الباء «والصابين» على أنه جمع «صابٍ» منقوصًا، وقرأ الباقون بهمزة بعد الباء ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ جمع «صابئ» بهمزة في آخره، وهم من لا دين لهم، وقيل: هم من جملة فرق النصارى، وقيل: هم الذين لم تبلغهم دعوة نبي، وقيل غير ذلك.

قال ابن كثير(١) بعد ما ذكر عددًا من الأقوال في المراد بالصابئين: «وأظهر الأقوال والله أعلم قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى، ولا المجوس والمشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين لهم مقرر يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من آمن بالصابئ، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض».

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب بدل من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ أي: من آمن من الطوائف المذكورة ولم يقل:

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٤٩).

«من آمن منهم»؛ ليشمل الوعد كل من آمن بالله واليوم الآخر، منهم ومن غيرهم.

أي: من آمن من أمة محمد ﷺ، ومن اليهود والنصارى والصابئين بالله، أي: بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: وآمن باليوم الآخر، يوم القيامة وما فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

وكثيرًا ما يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله- دون بقية أركان الإيمان؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان، وهو الذي يحمل الناس على العمل لما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي: وعمل عملًا صالحًا، وحذف الموصوف وهو «عملًا» لأن المهم كون العمل صالحًا، والعمل إنما يكون صالحًا بالإخلاص لله ﷻ، وموافقة شرعه كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو محسن متبع للشرع.

﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الجملة خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقرن بالفاء لمشابهة الموصول وهو المبتدأ للشرط.

وقدم المبتدأ وهو قوله: «لهم» على الخبر وهو «أجرهم»، وسمى ثوابهم أجرًا؛ لتأكيد تحقيق ذلك لهم، أي: فلهم ثواب إيمانهم وعملهم الصالح مؤكدًا محققًا.

وإنما سمى الله ﷻ ثوابهم أجرًا؛ لأنه ﷻ أوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه **«أتدري ما حق الله على العباد وماحق العباد على الله؟ قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه =

وهو- سبحانه وتعالى- إنما أوجب ذلك وأحقه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا، لأنه سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء لخلقه، بل هو صاحب الفضل والإنعام عليهم، قال ابن القيم(١):

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والفضل للمنان

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند خالقهم ومالكهم ومربيهم بنعمه العظيمة، فهو عنده ومنه سبحانه وتعالى، وفي هذا تعظيم لأجرهم، وبيان ضمانه ﷻ وتكفله لهم بذلك.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا خوف عليهم فيما يستقبلون و«خوف» نكرة في سياق النفي فيعم نفي أيّ خوف.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي:ولا هم يحزنون على ما فاتهم، ولا على ما يخلفون بعد مماتهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وعد الله ﷻ في الآية السابقة كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من سائر الأمم بالأجر العظيم- مع انتفاء الخوف والحزن عنهم، ثم عاد الكلام في الآيات إلى تذكير بني إسرائيل بأخذ ميثاقهم ورفع الطور فوقهم؛ تخويفًا لهم؛ ليؤمنوا، وتوليهم بعد ذلك، وتفضل الله عليهم ورحمته لهم بتوبته عليهم بعد ذلك.

=
في الزهد (٤٢٩٦).

(١) في «النونية» (ص١٤٩، ١٥٠).

ووجه الخطاب لبني إسرائيل الموجودين وقت نزول القرآن؛ لأن الميثاق الذي أخذ على أسلافهم هو ميثاق عليهم.

وهذا الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«إذ» ظرف بمعنى حين. والميثاق العهد المؤكد الغليظ الثقيل، أي: واذكروا حين أخذنا عهدكم الموثق المؤكد المغلظ بواسطة موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٣- ٨٥].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: ورفعنا فوق رؤوسكم الطور، كما قال تعالى في سورة النساء ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [الآية: ١٥٤].

والطور الجبل المعروف الذي نادى الله موسى من جانبه، كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

عن ابن جريج قال: قال لي ابن عباس: «الطور: الجبل الذي أنزلت عليه- يعني: على موسى- التوراة، وكانت بنو إسرائيل أسفل منه»(١).

رفعه الله ﷻ فوق بني إسرائيل؛ تهديدًا وتخويفًا لهم، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَٰقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الآية: ١٧١].

وهذا من أعظم آيات الله الكونية الدالة على تمام قدرته عز وجل.

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: قائلين لهم ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، «ما» موصولة تفيد العموم، أي: خذوا واقبلوا جميع الذي أعطيناكم من الكتاب والتوراة أي: آمنوا به واعملوا بمقتضاه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٠/ ٥).

﴿بِقُوَّةٍ﴾ الباء للمصاحبة، أي: مصحوبًا بقوة، أي: بحزم وعزم ونشاط وجد واجتهاد في الامتثال والعمل، دون ضعف أو تهاون أو توانٍ، كما قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ «ما»: اسم موصول يفيد العموم، أي: واذكروا الذي فيه من الأحكام والأوامر والنواهي، والأخبار والوعد والوعيد والمواعظ وغير ذلك، واتلوه وتعلموه واعملوا به.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن تتقوا الله، أو لتكونوا من أهل التقوى

فأخذ الله ﷻ ميثاقهم، ورفع فوقهم الطور؛ تخويفًا لهم، وأمرهم بأخذ الكتاب بقوة، وذكر ما فيه، لأجل أن يتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وهذا يدل على شدة عتوهم وعنادهم وتكبرهم وتجبرهم حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور، كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم، فحينها آمنوا، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

فهم دعوا إلى السجود ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه، ويقال: إن هذا ما زال هو سجودهم إلى اليوم، فإيمانهم وسجودهم أشبه بإيمان وسجود المكره؛ ولهذا سرعان ما تولوا، كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم﴾، أي: ثم توليتم بأبدانكم، وأعرضتم بقلوبكم عن طاعة الله تعالى وتقواه.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾أي: من بعد أخذ ميثاقكم ورفع الطور فوقكم وإنابتكم وقت ذلك، فنقضتم العهد والميثاق.

﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ «لولا»: حرف امتناع لوجود، واللام واقعة في جواب «لولا» أي: فلولا فضل الله عليكم موجود لكنتم من الخاسرين، أي: فلولا تفضل الله عليكم ورحمته لكم بعفوه عنكم وتوبته عليكم بعد توليكم، ونقضكم الميثاق لكنتم من الخاسرين الخسارة العظمى.

خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة النفس والأهل والولد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٦٦﴾.

هذا مما يُذَكِّر الله به بني إسرائيل، مما يعلمونه ومما تقرر عندهم من أمر الذين اعتدوا منهم في السبت، ومسخهم الله قردة خاسئين؛ ليأخذوا من ذلك العظة والعبرة ويحذروا من المخالفة والعصيان.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، القسم، ولام القسم، و«قد». والخطاب لبني إسرائيل الموجودين وقت نزول القرآن.

أي: والله لقد علمتم يا بني إسرائيل الذين تجاوزوا منكم حد الله، وارتكبوا ما نهاهم عنه يوم السبت، وما حل بهم، وفي هذا توبيخ لهم على عدم الإيمان مع علمهم بما حل بأسلافهم، وتحذير لهم من عقاب الله ﷻ.

و«السبت» في الأصل: القطع والراحة، والمراد بـ«السبت» أحد أيام الأسبوع، وسمي بالسبت قيل: لأنهم كانوا ينقطعون فيه عن العمل.

ومعنى ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: في حكم السبت، أي: فيما حكم الله به عليهم يوم السبت من تحريم العمل والصيد فيه ليتفرغوا للعبادة، وقد ابتلاهم الله بإتيان الحيتان شُرَّعًا، أي: بكثرة في هذا اليوم دون غيره من أيام الأسبوع، كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الآية: ١٦٣].

فاحتالوا بوضع الشباك لها يوم الجمعة وأخذها يوم الأحد- فجمعوا بين التحايل على فعل المحرم، وبين ارتكاب المحرم، وهذا أشد اعتداء وأعظم جرمًا من فعل المحرم

على وجه صريح، لما فيه المخادعة وإظهار المحرم بصورة المباح؛ ولهذا المسلك- وهو الخداع والتحايل- كان المنافقون أشد الناس جرمًا، وأشدهم عذابًا، لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: صيروا قردة خاسئين. و«القردة» هي الحيوانات المعروفة التي هي من أخس الحيوانات؛ ولهذا قال: «خاسئين» أي: أذلة صاغرين، فمسخوا قردة خاسئين مسخًا حقيقيًا لصورهم، ومعنويًا لقلوبهم بأمر الله تعالى؛ عقوبة لهم؛ بسبب استخفافهم بحكم الله تعالى وتحايلهم عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

فعوقبوا بجنس عملهم؛ لأن الذي ارتكبوه بهذه الحيلة قد يبدو بأن صورته صورة المباح، وهو في الحقيقة محرم غير مباح، وكذلك عوقبوا بمسخهم على صورة القردة التي هي أشبه شيء بصورة الآدمي، وليست بآدمي. والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قال ابن كثير[1] : «فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القرود، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم».

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الضمير في «فجعلناها» مفعول أول لـ «جعل» يعود للعقوبة المذكورة، و«نكالًا» مفعول ثانٍ، أي: فصيرنا عقوبتهم بمسخهم قردة خاسئين نكالًا.

ويحتمل عود الضمير في «جعلناها» إلى القرية بدليل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الآية:١٦٣].

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٥٠).

والنكال: العقوبة التي يعاقب بها مرتكب المعصية، فتكون نكالًا له من العود إلى المعصية مرة أخرى، ونكالًا لغيره من فعلها، أي: ما يرتدع به وينزجر ويمتنع عن مثل ذلك الفعل هو وغيره، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] والنكل والنكال: القيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢] أي: لدينا قيودًا.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾«ما»: موصولة، أي: للذي بين يدي القرية، أي: للذي أمامها وحولها وقريبًا منها من القرى وأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾أي: والذي خلفها، أي: بعيدًا منها من القرى وأهلها.

ويحتمل أن المعنى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾من القرى الحاضرة آنذاك وأهلها، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾من يأتي بعدهم، ويكون ﴿خَلْفَهَا﴾ هنا بمعنى: أمامها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي: أمامهم.

وعلى احتمال أن الضمير يعود إلى العقوبة يكون معنى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾أي: ما كان حاضرًا وقت العقوبة، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: من يأتي بعد ذلك،

وقيل: المعنى: وجعلنا هذه العقوبة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: لما قارنها من معاصيهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: وما سبقها.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾أي: عظة وعبرة كونية قدرية، وتذكرة للذين يتقون الله. وإنما خصهم بالموعظة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات دون من عداهم، فهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].

والسعيد من وعظ بغيره، فالحِيَل لا تجعل من الحرام حلالًا، بل تضاعف الجرم والإثم والعقوبة، وإذا كان الله ﷻ عاقب بني إسرائيل بهذه العقوبة المشينة بسبب احتيالهم في السبت، فليحذر الذين يتحايلون من المسلمين اليوم بأنواع الحِيَل على فعل الحرام وأخذه من الربا وغيره من التعاملات المحرمة والمشبوهة، مما قد يفوق ما فعله بنو إسرائيل من الاعتداء في السبت، وفي الحديث: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود**

فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[١].

الفوائد الأحكام:

١- كمال عدل الله ﷻ وأنه لا يظلم أحدًا، بل يجازى كلًا بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٢- الاحتراز في القرآن الكريم؛ لأن الله ﷻ بعد أن ذكر ما عاقب به بني إسرائيل من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وغضبه عليهم بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين وعصيانهم واعتدائهم، أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية؛ لبيان أن من آمن منهم ومن غيرهم من الأمم بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأن باب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم.

٣- فضل هذه الأمة على سائر الأمم؛ لأن الله قدمهم في الذكر في الآية، وخصهم باسم «الذين آمنوا».

٤- إن الإيمان بالله هو أصل الإيمان وأعظم أركانه؛ لأن الله قدمه على الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

٥- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان؛ لأن الله ﷻ قرنه بالإيمان به سبحانه وتعالى، وخصهما بالذكر من بين أركان الإيمان به، وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل على العمل.

٦- لابد من الجمع بين الإيمان بالقلب وعمل الجوارح، بين إيمان الباطن والظاهر؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾، وفي هذا الرد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٧- أن من شرط قبول العمل كونه صالحا؛ خالصًا لله تعالى وفق شرعه.

---

(١) ذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ٥١٣). وذكر إسناده، وقال: «هذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي» وانظر «عون المعبود» مع شرح ابن القيم (٩/ ٣٤٠)، وكذا جوّد إسناده ابن كثير، انظر «تفسير ابن كثير» (١/ ١٥٤).

٨- عظم ما أعده من الأجر والثواب لمن آمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومما يزيد في عظمة هذا الأجر كونه عند ربهم سبحانه، وفي هذا كله ترغيب بالإيمان بالله واليوم الآخر.

٩- إثبات ربوبية الله الخاصة لمن آمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٠- أن جزاء المؤمنين منه ما هو جلب محبوب، ومنه ما هو دفع مكروه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وإذا جُلِبَ المحبوب وهو: الأجر وأنواع النعيم، ودُفِعَ المكروه وهو: الخوف والحزن، كملت السعادة.

١١- تذكير الله لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من الميثاق، ورفع الطور فوقهم؛ تخويفًا لهم، وأمرهم بالأخذ والعمل بالتوراة بقوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾.

١٢- شدة عتو بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور، كأنه ظلة، أشبه بإيمان المكره.

١٣- في رفع الطور فوقهم آية عظيمة من آيات الله ﷻ، وتدل على كمال قوته وتمام قدرته سبحانه.

١٤- أن الهدف من أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وأمرهم بالأخذ بالتوراة أن يتقوا الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

١٥- تولي بني إسرائيل عن الإيمان بعد أخذ الميثاق عليهم، وزوال تخويفهم برفع الجبل فوقهم، مما يدل على عنادهم، وعدم استقرار الإيمان في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

١٦- فضل الله ﷻ ورحمته لبني إسرائيل بما آتاهم من الآيات، وبعفوه عنهم وتوبته عليهم بعد نقضهم الميثاق، وتوليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

١٧- إثبات الفضل والرحمة لله ﷻ وأن التوفيق بيده، وإثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

١٨- توبيخ بني إسرائيل في عهده ﷺ، على عدم الإيمان به، وتحذيرهم من الاعتداء والمخالفة والعصيان، بتذكيرهم بما يعلمون من حال أسلافهم الذين اعتدوا في السبت بالتحايل على أخذ الصيد فيه، وعقوبة الله تعالى لهم بمسخهم قردة وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾.

١٩- السعيد من وعظ بغيره.

٢٠- تحايل اليهود على محارم الله ﷻ، فقد حرم الله عليهم صيد السمك في السبت فوضعوا لها الشباك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد.

٢١- شدة تحريم التحيُّل لتحليل الحرام؛ لأن الله سمى فعل بني إسرائيل اعتداءً ومسخهم بسببه قردة خاسئين؛ لأن فيه جمعًا بين فعل المحرم والخداع.

٢٢- أن التحيُّل لا يجعل من الحرام حلالًا.

٢٣- أن الجزاء من جنس العمل فحيث ارتكب اليهود المحرم، وصوروه بالحيلة بصورة الحلال عاقبهم الله بمسخهم قردة تشبه الآدمي وليست بآدمي.

٢٤- تمام قدرة الله تعالى، وأنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾.

٢٥- إثبات القول والكلام لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾الآية.

٢٦- حقارة القردة، وأنها أخس الحيوانات.

٢٧- جعل الله ﷻ هذه العقوبة التي عاقب بها بني إسرائيل، وهي مسخهم قردة خاسئين نكالًا لغيرهم من ارتكاب مثل ما ارتكبوه؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾.

٢٨- أن العقوبات والتعزيرات والحدود الشرعية نكال وزجر للفاعل، ونكال وزجر لغيره من ارتكاب فعله.

٢٩- أن فيما عاقب الله به بني إسرائيل عظة وعبرة لمن اتقى الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٠- فضل التقوى لأن أهلها هم الذين يتعظون ويعتبرون وينتفعون بالمواعظ، ولهذا خصهم بها.

٣١- أن العبر والعظات والآيات منها ما هو شرعي كآيات القرآن الكريم، ومنها ما هو كوني كمسخ الذين اعتدوا في السبت قردة، وكالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وغير ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه القصة يُذَكِّر الله بني إسرائيل بما حصل منهم من المكابرة والعناد والتعنت، والتشديد على أنفسهم مما كان سببًا لتشديد الله عليهم.

قال ابن القيم[1] في ذكر العبر من هذه القصة: «إن بني إسرائيل فُتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل. والظاهر أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل، ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله تعالى، وإنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

وذلك أن بني إسرائيل قتل منهم قتيل، قيل: كان ذا مال كثير، فقتله ابن أخيه؛ ليرثه، واختلفوا في قاتله وتخاصموا في ذلك، واتهمت كل قبيلة منهم الأخرى، وكادت

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٩- ٣٢٠).

تثور بينهم فتنة وقتال بسبب ذلك، فرأوا أن يأتوا إلى نبي الله موسى عليه السلام؛ ليخبرهم من القاتل- كما يدل على هذا قوله تعالى في أثناء القصة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وقد أكد لهم ذلك بـ«إِنَّ» وعظَّمهُ ببيان أن الآمر بذلك هو الله عز وجل، ولم يقل: آمركم أو اذبحوا.

وجملة ﴿أَن تَذْبَحُوا﴾ في محل جر، أي: بأن تذبحوا بقرة، أي: بذبح بقرة، أيّ بقرة كانت، ولو فعلوا لأجزأهم ذلك، وحصل المقصود، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم»(١).

أي: لكنهم اعترضوا وأنكروا على موسى ما قاله، فقالوا:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، قرأ حفص بإبدال الهمزة واوًا «هزوًا»، وقرأ حمزة وخلف: «هُزْءًا» بإسكان الزاي، وقرأ الباقون بالهمز «هُزُؤًا». والاستفهام للإنكار.

أي: أتجعلنا هزوًا، أي: مهزوءًا بنا، أي: محل استهزاء، والهزء: السخرية، وإنما قالوا هذا- والله أعلم- لاستبعادهم أن يكون ذبح البقرة سببًا لمعرفة القاتل وزوال ما بينهم من المدارأة، وعدم معرفتهم وجه الحكمة في أمرهم بذلك، وكان الواجب عليهم التسليم لأمر الله وأمر رسوله.

قال ابن القيم(٢) في ذكر العبر من هذه القصة: «ومنها أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قابلوا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك».

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أعتصم بالله أن أكون من أولي الجهل والسَّفَه وعدم العلم الذين يستهزئون بعباد الله، فالجهل السَّفه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٩٨، ١٠٠).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٨).

ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء: ١٧]، أي: بسفه، والجهل: ضد الحلم، قال عمرو بن كلثوم(١):

ألا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والجهل ضد العلم، كما قال النابغة؛ وليس جاهل شيء مثل من علما.

وقال السموأل(٢):

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواءً عالم وجهولُ

ولما علموا صدق موسى فيما قال لهم من أمر الله لهم بذبح بقرة سألوه عن سنها تشددًا وتعنتًا منهم، قال تعالى:

﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌۖ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴾.

قوله: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ بهذا اللفظ خاطبوا موسى عليه السلام ثلاث مرات في هذه القصة، وفي هذا من الاستكبار والجفاء والسخرية وسوء الأدب ما لا يخفى كما سبق بيان ذلك في الكلام على قولهم: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ «ما»: استفهامية في محل رفع مبتدأ، و«هي»: ضمير في محل رفع خبر، والتقدير: أيُّ شيء هي من حيث السن، بدليل قوله في جوابه لهم: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ ﴾.

وهذا سؤال لا وجه له؛ لأنهم إنما أمروا بذبح بقرة، فلو ذبحوا أي بقرة لأجزأهم ذلك، وحصل المقصود، لكنهم تعنتوا وتشددوا فشدد الله عليهم بقوله:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ ﴾ أي: قال لهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ ﴾ أي: إن ربي يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾، أي: لا مسنة كبيرة هرمة، بدليل مقابلتها بقوله: ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾.

وسميت «فارض»؛ لأنها فرضت سنها، أي: قطعته، والفرض: القطع.

﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾، أي: ولا صغيرة، لم يقرعها الفحل ولم تلد، وهي الفتية مشتقة من

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٧٨).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٩٢).

البُكرة، وهي أول النهار؛ لأن البكر في أول السنوات من عمرها.

﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط، ونَصَف بين الفارض والبكر، أي: متوسطة السن، وهي أنفس وأحسن ما يكون، وأقوى وأشد ما يكون من البقر والدواب.

﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ هذا من قول موسى لهم حثًا على الامتثال، أي: فافعلوا الذي تؤمرون، أي: امتثلوا الذي أمركم الله به، من ذبح بقرة تكون وسطا بين الفارض والبكر، فحصروا في سن معيَّن؛ تشديدًا عليهم؛ لتشددهم في السؤال عن سنها، ولو ذبحوا بقرة بهذا السن، لأجزأهم ذلك وحصل المقصود، ولكنهم تعنتوا وتشددوا مرة ثانية بالسؤال عن لونها، فشدد الله عليهم.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ قوله: ﴿مَا لَوْنُهَا﴾، كقوله: ﴿مَا هِيَ﴾، والتقدير: أي شيء لونها؛ أهي بيضاء، أو سوداء، أو صفراء، أو غير ذلك؟

وهذا سؤال أقل وجاهة من سابقه، إذ ما الفائدة في معرفة اللون، وما أثر ذلك إلا العناد والتعنت والتشديد على أنفسهم.

﴿قَالَ﴾: أي: قال لهم موسى:﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾: أي: إن ربي يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾: أي: لونها أصفر.

﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: أي: صافٍ لونها، شديد الصفرة، ليس فيه ما يشوبه ويخرجه عن الصفرة.

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: أي: تسر الناظرين إليها، أي: تعجبهم من حسن لونها ومنظرها، أي: تدخل السرور عليهم، وليست صفرتها صفرة مستكرهة تسوء الناظرين وتجلب الغم.

فكان في تعنتهم وتشديدهم مرة أخرى بالسؤال عن لونها أن شدد الله وضيق عليهم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن تكون صفراء اللون فلا يجزئ ما عدا الأصفر من الألوان، وهذا تضييق في الألوان.

الثاني: أن يكون لونها فاقعًا، أي: صاف الصفرة شديدها، ليس فيه ما يشوبه ويخرجه عن الصفرة، وهذا تشديد وتضييق عليهم في صفة وماهية صفرتها.

الثالث: أن تكون صفرتها صفرة تسر الناظرين، من حسن لونها ومنظرها، وهذا تشديد وتضييق عليهم في حسن اللون والمنظر.

ولو ذبحوا بقرة بالسن المذكور واللون المذكور أجزأهم ذلك، وحصل المقصود ولكنهم تعنتوا، وتشددوا مرة ثالثة بالسؤال عن عملها فشدد الله عليهم في ذلك.

﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أي: أي شيء هي من حيث العمل، أي: ميزها وصفها لنا من حيث العمل بدليل قوله تعالى في جوابه لهم: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ أي: إن البقر تشابه والتبس علينا لكثرته، فلا ندري ما شبه البقرة المطلوب ذبحها، أو أي بقرة تذبح، وكأن هذا اعتذار منهم عن سبب تكرير وإعادة السؤال.

وهذا إنما هو تعنت منهم وتشديد ثالث على أنفسهم، وإلا فأين التشابه، وقد بين لهم أنها بقرة وبين لهم سنها وأنها ﴿لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾، وبين لهم لونها وأنها ﴿صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ أكدوا مقالتهم هذه بثلاثة مؤكدات: «إنَّ» ولام التوكيد في قوله: ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾، وكون الجملة اسمية.

وقولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن هذا منهم من تفويض الأمر إلى الله ﷻ؛ ولهذا قال بعض السلف: «لو لم يقولوا: «إن شاء الله» لم يهتدوا إليها أبدا»(١).

وفي هذا ما يشعر بالوعد منهم والطمأنة لموسى عليه السلام.

ويحتمل أن قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: إن الله لم يشأ أن نهتدي، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا

---

(١) روي هذا عن جمع من السلف انظر «جامع البيان» (٢/ ٩٨- ١٠٠)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٤١)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٥٩).

عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: قال لهم موسى عليه السلام مجيبًا لهم ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: إن ربي يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

وفي هذا ما فيه من التشديد والتضييق عليهم.

ومعنى قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: لا هي مذللة بالعمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ تحرثها وتقلبها للنبات ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: ولا هي بسانية يستخرج عليها الماء لسقي الحرث.

والمعنى: لا هي مذللة بالعمل بإثارة الأرض وحرثها، ولا باستخراج الماء وسقي الحرث عليها، بل هي مكرمة مدللة لا مذللة.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: صحيحة لا نقص فيها ولا عيب.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون يخالف لونها، فهي صفراء خالصة الصفرة، لا يخالط صفرتها لون آخر من سواد أو بياض أو غير ذلك.

وفي هذا تشديد وتضييق عليهم أيضًا من أربعة أوجه:

الأول: أن لا تكون مذللة بإثارة الأرض وحرثها.

الثاني: أن لا تكون مذللة بسقي الحرث واستخراج الماء.

الثالث: أن تكون صحيحة لا نقص فيها ولا عيب.

الرابع: أن تكون خالصة الصفرة لا يخالط صفرتها لون آخر.

فشددوا فشدد الله عليهم وقد قال ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه**»(١).

﴿قَالُوا۟﴾: أي: قالوا بعد هذا التعنت والتشديد على أنفسهم، وبعد أن شدد الله عليهم.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ «الآن»: اسم زمان، يشار به للوقت الحاضر، أي: هذا الوقت وهذه الساعة ﴿جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أتيت بالقول الحق، أي الآن يا موسى أتيت بالقول

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- الدين يسر (٣٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والأمر الثابت، ومفهوم كلامهم هذا أنك لم تأت بالحق قبل ذلك، بل جئت بالباطل، يدل على هذا قولهم في أول الأمر: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ قال ابن القيم: «فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر».

وقيل معنى قولهم: ﴿ءَالْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾أي: الآن بينت لنا البيان التام في أمر البقرة وأوصافها فعرفناها، وهذا من جهلهم؛ لأنه قد جاءهم بالحق أول مرة.

قال ابن القيم[1]: «فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله بالحق أول مرة».

وقال أيضًا في ذكر العبر المأخوذة من القصة: «ومنها أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله بالتعنت وكثرة الأسئلة، بل كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أيِّ بقرة اتفقت، فإن الأمر لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هي بمنزلة قوله: «أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، فإن الآية غنية عن البيان المفصل، مبينة بنفسها، ولكن تعنتوا وشددوا فشُدِّد عليهم».

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: فذبحوا البقرة بعد العثور عليها بأوصافها السابقة بعد الجهد الجهيد المضني في طلبها، والمشقة الشديدة في البحث عنها، وذلك ثمرة تشديدهم على أنفسهم، ولهذا نهى النبي ﷺ عن كثرة السؤال، وقال: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»[2].

وكما في حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الله كره لكم ثلاثًا، قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»[3].

﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم ما كادوا يفعلون، و«ما»: نافية، أي: وما قاربوا أن يفعلوا لشدة تعنتهم وعنادهم وتشديدهم على أنفسهم، بالسؤال عن سنها، ثم عن لونها، ثم عن عملها، وتباطؤهم وتأخرهم عن الفعل لكنهم في النهاية

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٧- ٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٧)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣).

فعلوا؛ لقوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾أي: فذبحوها مكرهين، أو كالمكرهين؛ لما أظهروا من المماطلة.

و«كاد» كغيرها من الأفعال، نفيها نفي، وإثباتها إثبات، يقال: كاد المطر أن ينزل، أي: قارب وأوشك أن ينزل، ويقال: ما كاد المطر أن ينزل، أي: ما قارب وما أوشك أن ينزل.

وقوله في الآية: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ لا شك أنه نفي، أي: وما قاربوا أن يفعلوا، وإنما استفدنا أنهم فعلوا من قوله قبل ذلك ﴿فَذَبَحُوهَا﴾.

فيكون المعنى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي: وما قاربوا أن يفعلوا لشدة تعنتهم وعنادهم، لكنهم في النهاية فعلوا بدليل ﴿فَذَبَحُوهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في هاتين الآيتين السبب في أمر الله لهم بذبح البقرة، وجاء ذكره- والله أعلم- في نهاية القصة للمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها.

قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: واذكروا حين قتلتم نفسًا ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ أي: فتدافعتم فيها واختلفتم، كل قبيلة تتهم الأخرى بقتلها، وتنفي التهمة عن نفسها، وكاد يكون بينهم قتال وفتنة بسبب ذلك، فأتوا موسى لعله يخبرهم، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾.

وقد ذكر في القصة أن نفرًا من اليهود قتلوا ابن عمهم الوحيد؛ ليرثوا عمهم، وطرحوه في محلة قوم، وجاؤوا إلى موسى يطالبون بدم ابن عمهم بهتانا، وأنكر المتهمون، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، الواو: اعتراضية، و«ما»: موصولة، أي: والله مظهر للناس الذي كنتم تخفونه في أنفسكم من معرفة القاتل.

وهذه الجملة اعتراض بين قوله: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ لتقرير وبيان أنهم مهما حاولوا كتمان الحقيقة، وإخفاء القاتل، فإن الله مظهره للناس؛ لأن الله ﷻ لا تخفى عليه خافية، والسر والعلانية عنده سواء، قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم

مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، أي: يظهره.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**»(١).

وفي الأثر: «وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»، وكما قيل:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٢)

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ القائل هو الله ﷻ، أي: فقلنا لهم بما أوحيناه إلى نبينا موسى: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

والضمير في قوله: ﴿ٱضْرِبُوهُ﴾ يعود إلى القتيل المذكور في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، والضمير في قوله: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ يعود إلى ما عاد إليه الضمير في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ وهي البقرة المأمور بذبحها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

أي: اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة، أي: بجزء منها، أو بعضو منها، فضربوه ببعضها فأحياه الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة إلى محذوف للإيجاز، أي: فضربوه ببعضها فأحياه الله، أي: مثل إحياء الله تعالى هذا القتيل يحيي الله ﷻ الموتى، كما قال ﷻ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي: وكذلك يظهر الله لكم آياته الكونية والشرعية، الدالة

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢)، وقال: «حديث غريب».

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

على عظمته ﷻ، فإحياء القتيل بضربه بجزء من البقرة آية من آيات الله الكونية.

وأمر الله ﷻ لموسى بأمرهم بذبح بقرة، وضرب القتيل ببعضها، وحياته بذلك وإخباره بقاتله إظهار وبيان لصدق ما جاءهم به موسى من هذه الآيات ومعجزة وكرامة له.

وقد ذكر الله ﷻ ما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع من هذه السورة:

في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [الآية: ٥٦]، وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ [الآية: ٢٤٣]، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الآية:٢٥٩]، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية: ٢٦٠].

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لأجل أن تعقلوا عن الله ﷻ آياته وتتفهموها وتتأملوا فيها وتتدبروها، وتنتفعوا بما منحكم الله من عقول.

وفي الإخبار بهذه القصة علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، ودلالة على نبوة موسى عليه الصلاة والسلام، وعلى قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وإثبات المعاد، وتحذير من التشدد في الدين وعواقبه الوخيمة، ومقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرًا، فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله وهتكه وحرمه ميراث المقتول(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه الآية توبيخ وتقريع لبني إسرائيل في قسوة قلوبهم بعدما مَنَّ الله عليهم به من النعم الجليلة، وما رأوا من الآيات العظيمة، من إحياء الموتى، وبيان القاتل وغير ذلك.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣١٩).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم صلبت وتحجرت قلوبكم، فلم تؤثر فيها الموعظة، والخطاب لبني إسرائيل.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما تقدم من مشاهدتهم آيات الله تعالى في إحياء الموتى، والإنعام عليهم ببيان القاتل، وكف ما بينهم من المدارأة في ذلك، مما يستوجب الشكر ورقة القلوب لا قسوتها.

رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن القوم بعد أن أحيى الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد إذ رأوه، فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الآية»[1].

والآية أعم من هذا.

﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى «مثل» أي: فقلوبكم في قسوتها مثل الحجارة، وهي الصخور الصلبة التي هي أقسى شيء، وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، وتشبيه أمر معنوي وهو عدم قبول قلوبهم للحق وإعراضها عنه كلية بأمر حسي وهي الحجارة الصلدة الصلبة التي لا تلين أبدا.

﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ «أو» يحتمل أن تكون لتحقيق ما سبق، أي: أنها كالحجارة في القسوة إن لم تكن أشد قسوة منها، أي: أن قسوتها لا تنقص عن قسوة الحجارة، فإن لم تزد عليها لم تكن دونها، قال ابن القيم[2]: «وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق».

وقريب من هذا قول من قال: «أو» بمعنى الواو، أي: فهي كالحجارة وأشد قسوة.

ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى «بل» فتكون للإضراب، أي: بل هي أشد قسوة من الحجارة.

وهذا أظهر؛ لأنه أبلغ في وصف قساوة قلوبهم، ولأن الحجارة منها ما يهبط من خشية الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، ومنها ما يخشع ويتصدع من ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ١٢٩)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٢).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٢٠).

ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقيل: إن «أو» بمعنى الواو، أي: فهي كالحجارة وأشد قسوة. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: وكفورًا، ومن هذا قول جرير(١):

نال الخلافة أو كانت له قدرًا ... كما أتى ربَّه موسى على قدر

أي: وكانت له قدرًا.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

لما ذكر ﷻ قسوة قلوب بني إسرائيل، وأنها كالحجارة أو أشد قسوة، وفي هذا دلالة على أنه لا أمل فيها ولا خير فيها البتة أتبع ذلك ببيان أن من الحجارة ما هو خير من قلوبهم القاسية من وجوه عدة، فمنها ما يتفجر منه الماء، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذه الجملة وما عطف عليها في محل نصب على الحال، أي: والحال إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار... إلى آخره.

أو هي اعتراض بين قوله: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أو استئنافية.

﴿لَمَا﴾ اللام للتوكيد، و«ما»: اسم موصول في محل نصب اسم «إن» والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى الاسم الموصول، أي: وإن من الحجارة للذي يتفجر منه الأنهار ﴿يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: يتفتح وتخرج وتجرى منه الأنهار، أي: أنهار المياه، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، وفي الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الآية: ١٦٠] والتَفَجُّر أبلغ وأقوى من التشقق؛ ولهذا قدم عليه.

---

(١) انظر «ديوانه» (ص ١٦).

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أي: وإن من الحجارة للذي يشقق فيخرج منه الماء، كما في أحجار الآبار تتشقق ويخرج وينبع منها الماء وإن لم يكن جاريًا.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: وإن من الحجارة للذي يهبط من خشية الله، أي: يخضع ويخشع ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: بسبب خشية الله وخوفه وتعظيمه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وخلف بالياء: «يعملون» على الغيبة، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ حالية، و«ما»: نافية، والباء في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للنفي، و«ما» في قوله: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: والحال أن الله ليس بغافل عن الذي تعملون، أو عن عملكم.

والغفلة في الأصل سهو يعتري الإنسان لضعفه، بسبب قله التحفظ والتيقظ، أما الله عز وجل فلا يعتريه سهو ولا غفلة، لكمال علمه وإحاطته، ودوام رقابته وقيوميته.

ففي نفيه عز وجل عن نفسه الغفلة عن عملهم إثبات كمال علمه وإحاطته بعملهم وحفظه وإحصائه له، وأنه سيجازيهم عليه.

والصفات المنفية يؤتى بها لنفي تلك الصفات وإثبات كمال ضدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ففي قوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ إثبات كمال حياته.

والخطاب في الآية لليهود قُساة القلوب، وفيه تهديد ووعيد لهم، كما قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

كما أن فيه تهديدًا ووعيدًا لغيرهم من قساة القلوب؛ ولهذا نهى الله ﷻ المؤمنين أن يكونوا مثل أهل الكتاب فتقسوا قلوبهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير بني إسرائيل بما حصل من أسلافهم من المكابرة والعناد والتعنت والتشديد على أنفسهم في أمر البقرة مما كان سببًا للتشديد عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآيات.

٢- تعظيم موسى لربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ بصيغة الغائب، ولفظ الجلالة «الله» الدال على التعظيم.

٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام وأنه مرسل من عند الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾.

٤- شدة جهل بني إسرائيل، حيث أنكروا على موسى ما قاله لهم مع أنه أخبرهم أن الذي أمرهم بذبح البقرة هو الله ﷻ، وكان الواجب عليهم التسليم لأمر الله وإن خفي عليهم وجه الحكمة في ذلك؛ لقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

٥- أن الاستهزاء بالناس من الجهل والسفه؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٦- لا منجا ولا ملجأ لجميع الخلق من الرسل وغيرهم للحفظ من الشرور إلا إلى الله ﷻ؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٧- استكبار بني إسرائيل وجدالهم وسوء أدبهم وسخريتهم في قولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فلم يقولوا: «ادع لنا ربنا» أو «ادع الله لنا» ونحو ذلك. وكأنَّ رب موسى ليس ربًّا لهم- عياذًا بالله.

٨- تعنُّت بني إسرائيل وتشديدهم على أنفسهم بالسؤال عن سن البقرة بقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، ولو ذبحوا أي بقرة أجزأهم ذلك وحصل المقصود، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ﴾.

٩- تأكيد الأمر لبني إسرائيل بفعل ما أمرهم الله به، لقول موسى عليه السلام: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾.

١٠- تعنُّت بني إسرائيل وتشديدهم على أنفسهم ثانيًا بالسؤال عن لون البقرة، مما لا مبرر له ولا فائدة إلا المكابرة والعناد؛ لقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ فشدد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفۡرَآءُ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

١١- تعنُّت بني إسرائيل وتشديدهم على أنفسهم ثالثًا بسؤالهم عن البقرة أهي عاملة أو غير عاملة؟ بقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ فشدد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

١٢- تعليق الأمر بمشيئة الله- تعالى؛ لقولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾، فلا شيء يقع إلا بمشيئة الله ﷻ، ولعل هذا هو السبب في اهتدائهم إليها في النهاية وذبحها، كما قال بعض السلف، لكن لا يجوز الاحتجاج على الفعل أو الترك بالمشيئة، كما قال المشركون: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

١٣- التحذير من التشدد في الدين، فإن من شدد، شدد الله عليه، فبنو إسرائيل كان المطلوب منهم ذبح أيّ بقرة، لكنهم تشددوا فسألوا عن سنها، فَقُيِّدوا بسن معين محدد، بأنها: ﴿لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط بين ذلك، وليتهم فعلوا، لكنهم تشددوا مرة ثانية، فسألوا عن لونها، فقيدوا بلون محدد، وهو أنها: ﴿بَقَرَةٌ صَفۡرَآءُ فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، وليتهم فعلوا، لكنهم تشددوا مرة ثالثة، فسألوا عن عملها، فقيدوا بأنها: ﴿بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾.

١٤- شدة عناد بني إسرائيل وتباطؤهم وتلكؤهم عن تنفيذ أمر الله- تعالى.

١٥- جُرأة بني إسرائيل على إنكار ما جاءهم به موسى من عند الله والطعن فيه؛

لقولهم: ﴿ءَالْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، فكأنهم يرون أن ما قبله ليس بحق، ويدل على هذا قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

وعلى احتمال أنهم أرادوا بقولهم: ﴿ءَالْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالبيان التام في أمر البقرة، فإن في هذا دليلًا على شدة جهلهم؛ لأنه قد جاءهم بالحق والبيان من أول مرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، فلو ذبحوا أي بقرة أجزأهم ذلك، وحصل المقصود.

١٦- ذبح بني إسرائيل للبقرة بعد العناد والتشدد والجهد الجهيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، أي: فذبحوها على مضض وكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؛ لشدة تعنتهم وعنادهم.

١٧- وجوب المبادرة إلى امتثال أمر الله وترك العناد والمكابرة، فإن المخالفة لأمر الله أو التباطؤ في تنفيذه قد تكون سببًا للتشديد في الأمر، أو الوقوع في مخالفة أعظم.

١٨- أن سبب أمر بني إسرائيل بذبح بقرة هو قتلهم نفسًا وتدارؤهم فيمن قتلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

١٩- إقدام نفر من اليهود على قتل رجل منهم واتهام كل قبيلة منهم الأخرى بقتله، وفي هذا ارتكاب ذنبين كبيرين؛ الأول: قتل النفس بغير حق، والثاني إنكار القتلة أنهم قتلوا واتهامهم للآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾.

٢٠- أن من أقدم على ارتكاب القتل أو اتهام الآخرين فيه شبه من اليهود.

٢١- عدم قدرة الخلق على علم الغيب لعدم معرفة أهل القتيل من قتله.

٢٢- حرمة القتل العمد في جميع الديانات السماوية؛ لما يترتب عليه من إزهاق النفوس بغير حق.

٢٣- علم الله ﷻ الغيب وجميع ما يكتم الخلق، وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٤- التحذير من كتمان الحق وإخفائه؛ لأن الله لا تخفي عليه خافية، والسر عنده علانية.

٢٥- لا ينبغي التكلف في تحديد البعض من البقرة الذي ضرب به القتيل؛ لأن الله أمرهم بضربه ببعضها، أي: بأي بعض منها، ولم يحدد هذا البعض توسعة وتيسيرًا

عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ وهذا أوسع لهم وأيسر في التنفيذ من لو حدد هذا البعض.

٢٦- في إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة دلالة على قدرة الله ﷻ التامة على إحياء الموتى، وآية عظيمة من آياته الكونية يريها ﷻ بني إسرائيل؛ لأجل أن يعقلوا عن الله ﷻ آياته، ويتفهموها وينتفعوا بما منحهم الله ﷻ من عقول؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٢٧- ربط المسببات بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، والله قادر على إحيائه بدون ذلك.

٢٨- نعمة الله ﷻ على بني إسرائيل في بيان القاتل، وإظهار الحق في هذه القضية، وفي بيان آياته لهم؛ لأجل أن يعقلوها ويهتدوا إلى الحق.

٢٩- توبيخ بني إسرائيل على قسوة قلوبهم من بعد ما مَنَّ الله به عليهم من النعم الجليلة، وما رأوا من الآيات العظيمة من إحياء الموتى، وبيان القاتل وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٣٠- شدة قسوة قلوب بني إسرائيل فهي كالحجارة في القسوة أو أشد قسوة من الحجارة؛ لقوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

٣١- تشبيه المعقول بمحسوس؛ لزيادة الإيضاح والبيان، وأن الحجارة أشد شيء في القسوة.

٣٢- أن قسوة القلوب من صفات اليهود، مما يوجب الحذر من ذلك؛ ولهذا نهى الله ﷻ المؤمنين أن يكونوا كأهل الكتاب، فتقسوا قلوبهم.

٣٣- أن من الحجارة ما هو خير وألْيَن من قلوب بني إسرائيل القاسية، بتفجر الأنهار منها أو بتشققها وخروج الماء منها، أو هبوطها من خشية الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

٣٤- قدره الله ﷻ التامة في تفجير الماء من الحجارة، وشقها وإخراج الماء منها.

٣٥- أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا دلالة على طاعة الجمادات وانقيادها لله ﷻ وعبادتها له، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

٣٦- إثبات عظمة الله ﷻ ووجوب خشيته وتعظيمه؛ لأنه إذا كانت الحجارة والجمادات تخشاه وتعظمه فالعقلاء أولى بخشيته وتعظيمه، وذلك عليهم أوجب.

٣٧- إحاطة الله ﷻ التامة وعلمه بأعمال العباد وعدم غفلته عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ففي هذا إثبات كمال إحاطته وعلمه.

٣٨- التهديد والوعيد لقساة القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أنه سيحصيه ويحاسبكم ويجازيكم عليه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

بين ﷻ في الآيات السابقة قسوة قلوب اليهود وأهل الكتاب وأنها كالحجارة أو أشد قسوة، ثم أتبع ذلك بقطع طمع المؤمنين في إيمانهم.

قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به الاستبعاد والتيئيس والإنكار والتعجب. والخطاب للمؤمنين، والطمع: هو الرجاء مع الرغبة الأكيدة الشديدة في حصول الشيء.

والمعنى: أفترجون أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: أن يؤمن لكم اليهود، أي: أن يقروا لكم ويصدقوكم وينقادوا لكم بالطاعة، وقد شاهد آباؤهم آيات الله العظيمة وتمتعوا بنعمه الجسيمة، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك، هذا أمر في غاية البعد، وكيف يكون هذا؟!

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ الواو: حالية، و«قد»: للتحقيق، أي: والحال أنه كان فريق منهم، أي: طائفة منهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يسمعون كلام الله المنزل عليهم في التوراة، وكلامه الذي أسمعهم لما كلم موسى عليه السلام حين اختار منهم سبعين رجلًا لميقات ربه، وكذا كلامه ﷻ

في القرآن الكريم. وفي الآية إثبات صفة الكلام لله ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته صفة ذاتيه ثابتة له ﷻ وصفة فعلية مرتبطة بمشيئته. فهو يتكلم متى شاء بحروف وكلمات وألفاظ، بصوت مسموع، ومعنى مفهوم: لأنه لا معنى للكلام المسموع إلا هذا.

وفي هذا رد على من ينفي صفة الكلام عن الله ﷻ أو يؤولها بالمعنى القائم بالنفس من أهل البدع.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ التحريف: مصدر حرَّف الشيء إذا مال به إلى الحرف وعن جادة الطريق، أي: ثم يحرفون كلام الله، أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلون معناه ويغيرونه ويميلون به عن وجهه ومعناه إلى غيره، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ «ما» مصدرية، أي: من بعد عقلهم ووعيهم له، وفهمهم له على الجلية.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون أنهم يحرفون كلام الله، وأن ذلك محرم، فارتكبوا الإثم والمخالفة على بصيرة، فحرفوا كلام الله بعد ما عقلوه وفهموه، وتركوا الحق بعد ما عرفوه، فاستحقوا بذلك لعنة الله وغضبه، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] وقال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وإذا لقي هؤلاء اليهود وقابلوا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاء به ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: قالوا بألسنتهم نفاقًا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: دخلنا في الإيمان، أي: آمنا مثلكم بمحمد وبما جاء به، فأظهروا الإيمان بألسنتهم مع ما تنطوي عليه بواطنهم من الكفر؛ ولهذا قال:

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: وإذا انفرد بعضهم ببعض، وكانوا في خلاء من الناس، ولم يكن عندهم أحد من غيرهم.

﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به الإنكار والتوبيخ والتعجب، والضمير الهاء يعود إلى المؤمنين أصحاب رسول الله ﷺ، أي: كيف تحدثون المؤمنين بما فتح الله عليكم، أي: لا تحدثونهم بذلك.

﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: كيف تخبرون المؤمنين بالذي فتح الله عليكم مما في كتابكم من نعت محمد ﷺ مما يدل على صحة رسالته، وأخذ الميثاق عليكم بإتباعه، وغير ذلك، أي: لا تحدثوهم، ولا تخبروهم بذلك، وهذا نفاق منهم، وكتمان للحق.

﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ اللام للعاقبة، أي: لتكون العاقبة والنهاية أنهم يحاجوكم ويخاصموكم، بما حدثتموه به عند ربكم.

أي: فيكون ذلك حجة لهم عليكم يوم القيامة عند ربكم، لماذا لم تؤمنوا بمحمد ﷺ، ولماذا رددتم ما جاء به من الحق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

وقال السعدي(١): «أتظهرون لهم الإيمان، وتخبرونهم أنكم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم، يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم به عند ربكم».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه: التوبيخ، أي: أليس لكم عقول تعرفون بها أنكم إذا حدثتموهم بما عندكم من العلم بصدق رسالة محمد ﷺ كان ذلك حجة لهم عليكم عند ربكم، فأين عقولكم؟ وما علموا أن العقل كل العقل في اتباع الرسول ﷺ وما جاء به، والشهادة بصدقة كما جاء في كتبهم، وأن عدم العقل هو عدم الإيمان به، وكتمان ما في كتبهم من تصديقه.

وهذا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) في «تفسير الكريم الرحمن» (١/ ١٠٠).

ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ والتبكيت والوعيد لليهود؛ لتحريفهم كلام الله، وكتمانهم ما عندهم من الشهادة بصدق ما جاء به محمد ﷺ، وتمالؤهم على ذلك، أي: أو ليسوا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.

و«ما» مصدرية أو موصولة في الموضعين، أي: أن الله يعلم إسرارهم أو الذي يسرون، ويعلم إعلانهم أو الذي يعلنون.

والمعنى: أن الله يعلم الذي يخفون في أنفسهم، وفيما بينهم من كتمان ما في كتبهم من الشهادة بصدقه ﷺ، ومن التكذيب له والكفر بما جاء به، وما يظهرون لعامة الناس من الإيمان به كذبًا وغير ذلك، أي: يعلم سرهم وعلانيتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة حال فريق من أهل الكتاب، وهم الذين يسمعون كلام ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وفهموه وهم يعلمون، وفي هذه الآية ذكر الفريق الثاني المقابل لذلك وهم الأميون الجهلة الذين لا يعلمون الكتاب، ويتكلمون بالظن وبلا علم، ففريق عرفوا الحق وحرفوه وتركوه، وفرق جهلة لم يعرفوا الحق، فكيف يطمع في إيمانهم؟!

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ عطف الحال على الحال. أي: ومن أهل الكتاب، أي بعضهم وفريق منهم.

﴿أُمِّيُّونَ﴾: جمع أمّي، وهو من لا يكتب ولا يقرأ، كما قال ﷺ: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (١٠٨٠)، والنسائي في الصوم (٢١٤٠)، وأبوداود في الصوم (٢٣١٩) - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى في وصف العرب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وسمي من لا يكتب ولا يقرأ بالأمي نسبة إلى أمه، أي: إلى الحالة التي فارق عليها أمه حين خرج من بطنها، وهي الجهالة، أو نسبة إلى الأمة وهي عامة الناس، فهو يرادف «العامي».

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ أي: لا يعرفون الكتاب ولا يفقهونه، ولا يدرون ما فيه، والمراد بالكتاب «التوراة» و«ال» فيه للعهد.

و«الكتاب» بمعنى المكتوب؛ لأن التوراة مكتوبة في ألواح، كتبها الله ﷻ بيده، كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وفي الحديث: «**وكتب لك التوراة بيده**»(١).

﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ قرأ أبوجعفر: «أماني» بتخفيف الياء، وقرأ الباقون بتشديدها: «أمانيّ».

والاستثناء منقطع، أي: إلا علم أماني. و«الأماني» جمع «أمنية» وهي التلاوة والقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه(٢) في رثائه لعثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام المقادر

والمعنى: ومن أهل الكتاب أميون لا يعلمون التوراة إلا قراءة دون فهم وفقه للمعنى، فهم بحكم من لا يقرأ ولا يكتب، وبحكم العوام، وليسوا من أهل العلم، وإن تمنوا ذلك وزعموه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

وفي هذا ذم لليهود في كونهم يقرؤون الكتاب مجرد قراءة بلا فهم للمعنى، كما أن

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٠١) وابن ماجه في المقدمة (٨٠)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «البحر المحيط» ٧/ ٥٢٧.

فيه ذمًا لمن سلك مسلكهم من هذه الأمة في قراءة القرآن بلا فهم ولا تدبر، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

ولهذا لما ذكر عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه يختم القرآن في كل ليلة، قال له النبي ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر، فلما قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال له: اقرأه في كل سبع ليال»(١)، وفي رواية: فقال: «اقرأ القرآن في كل شهر، قال: إني أطيق أكثر، فما زال حتى قال: في ثلاث»(٢).

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، الواو: عاطفة، و«إن» نافية بمعنى: «ما»، «إلا»: أداة حصر، أي: ما هم إلا يظنون، وذلك لعدم فهمهم المعنى، فليس عندهم إلا الظن: وهو الوهم والشك والقول بلا علم، والمعنى: ما هم إلا يتخرصون ويقولون بلا علم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

والقول بالظن والحكم به محرم لا يجوز، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، وفي الحديث «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»(٣).

وما وقع كثير من الخوارج فيما وقعوا فيه من التكفير والخروج على أئمة الإسلام واستباحة دماء المسلمين، منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يومنا هذا، ممن قال عنهم الرسول ﷺ: «**يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»(٤) إلا بسبب الظن والجهل، وعدم العلم والفهم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢)- من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٢) أخرجها البخاري في الصوم (١٩٧٨).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٨)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨) عن حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة فريقين من أهل الكتاب، وهم الذين يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، والأميين الذي لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ثم أتبع ذلك بذكر الذين ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهؤلاء يحتمل أنهم ضمن الفريق الأول الذين ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾، فالأولون يحرفون كلام الله من حيث المعنى، وهؤلاء يحرفونه من حيث اللفظ وهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويزعمون كذبًا أنه من عند الله لإضلال الناس وأكل أموالهم بالباطل.

قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، «ويل»، أي: وعيد وتهديد وحسرة وعذاب شديد، لأحبار اليهود وعلمائهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يزعمون كذباً أنه من عند الله.

و«الكتاب» بمعنى المكتوب، أي: يكتبون كتبًا ويضعونها من عند أنفسهم، ويبدلون فيما أنزله الله، ويزيدون وينقصون.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لقوله ﴿يَكْتُبُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وكقول القائل: «سمعت بأذني، وأبصرت بعيني» ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثم يقولون كذبا وزورا ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الكتاب نزل من عند الله، أي: هذه التوراة التي أنزلها الله افتراء على الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لأجل أن يأخذوا به ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضًا قليلًا زهيدًا من المال والرئاسة والجاه ونحو ذلك من حظوظ الدنيا الزائلة الحقيرة.

وكل ما أخذ مقابل ترك أمر الله، ومقابل ثواب ذلك في الدنيا والآخرة فهو قليل، ولو كان ذلك العوض الدنيا كلها بما فيها فهو قليل حقير زهيد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقال ﷺ: «**وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١) وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»(٢).

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فويل لهم من كتبهم، أو من الذي كتبت أيديهم من الكتاب والتحريف والباطل، ونسبوه إلى الله كذبًا وزورًا، وأضلوا به عباد الله.

﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: وويل لهم من الذي يكسبون أو من كسبهم السحت الذي يأخذونه من الناس مقابل ذلك.

فتوعدهم أولًا بوعيد عام، ثم أكّده وفصَّله إلى وعيدين: وعيد على الوسيلة، وهي كتابتهم الكتاب بأيديهم، وقولهم: هذا من عند الله، ووعيد على الغاية وهي ما يكسبون من السحت الذي يأخذونه من أموال الناس مقابل ذلك؛ لأنهم جمعوا بين الافتراء والكذب على الله، وبين الكذب والتدليس على الناس، وتضليلهم عن الحق، وأكل أموالهم بالباطل.

وإذا كان الله ﷻ توعد اليهود في كتابتهم التوراة وتحريفها بهذا الوعيد الشديد المؤكد، فإن الوعيد أشد وأعظم وآكد لمن يجترئون على أعظم كتب الله القرآن الكريم ويطعنون فيه بالزيادة أو النقصان ويزعمون أن فيه تحريفًا وتبديلًا وتغييرًا- من أهل البدع وغيرهم، وقد أجمعت الأمة في القرون المفضلة وبعدها إلى يومنا هذا- ولله الحمد- على أن ما بين دفتي المصحف هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ بلا زيادة ولا نقصان، وكيف لا يكون

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٠)- من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد ﷺ. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

هذا وقد تكفل الله ﷻ بحفظه، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

كما أن الوعيد يشمل الذين يلوون نصوص الكتاب والسنة؛ لتوافق أهواءهم وآراءهم الفاسدة، وما في قلوبهم من أمراض الشبهات والشهوات، ويؤلفون في ذلك الكتب، وينشرون المقالات، ويزعمون أنهم يستندون فيما يكتبون إلى أدلة الكتاب والسنة، تمويهًا على الناس- مع ما تنطوي عليه كتاباتهم من الرغبة في إثارة البلبلة وتشكيك الأمة في ثوابتها وأغلى موروث لديها، والرغبة في التصدر وتوجيه أنظار الناس إليهم، ونحو ذلك ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآيات السابقة تحريف فريق من أهل الكتاب كلام الله، وجهل فريق منهم بالكتاب، وقولهم بالظن بلا علم، وتوعد ﷻ الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، ثم ذكر أنهم مع ما هم عليه من الباطل يزعمون أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة تزكية منهم لأنفسهمن فجمعوا بين الإساءة والأمن، ثم ردَّ ﷻ عليهم، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الآيتين: ٢٤، ٢٥].

قول: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ أي: وقال اليهود زعمًا منهم كاذبًا وادعاءً باطلًا:

﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ أي: لن تصيبنا النار، أي: نار الآخرة التي أعدت لتعذيب الكافرين ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أيامًا قليلة تعد بالأصابع، وكل معدود فهو قليل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٤].

قيل: إنهم يقولون: إنما هي سبعة أيام، وقيل: أربعون يومًا، وهي الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم نخرج منها، ويخلفنا فيها محمد وأمته.

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال النبي

ﷺ: «اجمعوا إليَّ من كان هاهنا من يهود، فجمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان، قالوا: صدقت، قال: فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: مَن أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا...»(١).

فهم يقرون بدخولهم النار، وهذا حق دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة بالنسبة لجميع الكفار.

أما قولهم: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ فهذا مجرد دعوى لا دليل عليها، وإنما حملهم عليها الكبر والحسد، والغرور حيث يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ويقولون: لنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، ويقولون فيما حكي عنهم: نحن شعب الله المختار، ويزعمون أن بقية الناس خلقوا لخدمتهم كالحمير. وقد قيل:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء(٢)

ولهذا قال الله ﷻ تحديًا لهم وردًا عليهم:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾، الاستفهام للإنكار عليهم والتوبيخ والتبكيت لهم، و«العهد»: الوعد والميثاق المؤكد، أي: أخذتم عند الله وعدًا وميثاقًا أن لا تمسكم النار إلا أيامًا معدودة.

قال السعدي(٣): «﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل».

﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ أي: إن كنتم اتخذتم عند الله عهدًا بما تقولون فلن يخلف الله عهده، لكمال صدقه وتمام قدرته على الوفاء بعهده ووعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٦٩).

(٢) البيت ينسب لشرف الدين البوصيري. انظر: «موسوعة الشعر العربي» (ص١٤).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٠٢).

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١].

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، «أم»: يحتمل أن تكون هي المتصلة التي بمعنى «أو» ويكون ما بعدها معادلًا لما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] أي: يستوي عليهم إنذارك أو عدمه.

فيكون معنى الآية هنا: قل هل اتخذتم عند الله عهدًا بذلك، أو تقولون على الله ما لا تعلمون، فحصرهم في أحد هذين الأمرين، وحيث انتفى الأول، فلم يبق إلا الثاني وهو القول على الله بغير علم.

ويحتمل أن تكون «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، وما بعدها منقطع عما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] أي: بل هم قوم طاغون.

فيكون معنى الآية على هذا: قل اتخذتم عند الله عهدًا، بل أتقولون على الله ما لا تعلمون، فأبطل الأول، وحصرهم في الثاني وهو القول على الله بغير علم.

وسواء كانت «أم» متصلة أو منقطعة، فالحقيقة أنهم لم يكن لهم عهد عند الله أن لا تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وإنما هم يقولون على الله ما لا يعلمون.

قال ابن القيم: «فإن قولهم: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولًا على الله بلا علم فيكون كاذبًا، وإما أن يكون مستندًا إلى وحي من الله، وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتفٍ قطعًا، فتعين أن يكون خبرًا كاذبًا قائله كاذب على الله- تعالى»(١).

وهذا دأب اليهود القول على الله بلا علم، وهو قرين الشرك، بل وأعظم منه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ويؤخذ من الآية تحريم الفتوى بلا علم.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٢١).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وبيَّن بطلان قولهم وأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ثم أتبع ذلك بذكر حكم عام لكل أحد من بني إسرائيل وغيرهم، وهو أنه كل يجازى بعمله فمن أساء وأحاطت به خطاياه فهو من أصحاب النار هم فيها خالدون، ومن آمن وعمل صالحًا فهو من أصحاب الجنة هم فيها خالدون وليس بالأماني، كما قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ «بلى» حرف جواب مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال ما نفوه بقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون بل ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، «من» شرطية، و«كسب» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويجوز أن تكون «من» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل رفع مبتدأ، وخبره جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وقرن بالفاء لشبه الموصول بالشرط في العموم.

﴿كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، أي: عمل سيئة، والكسب: العمل وثمرته المترتبة.

و«سيئة»: نكرة في سياق الشرط، فيعم كل سيئة وكل ذنب من الشرك فما دونه.

والسيئة تطلق على الصغيرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] يعني الصغائر، وتطلق على الكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

وسميت السيئة سيئة؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره في

الحال إذا كانت متعدية، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر بالجمع (خطيئاته)، وقرأ الباقون ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ بالإفراد، وهي بمعنى الجمع؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم، أي: وأحاطت به خطيئته، فلم يكن له حسنة، واكتنفته خطاياه وذنوبه المتنوعة الكثيرة ومات على الشرك والكفر من غير توبة، بدليل قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

ومعنى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها ملازمة دائمة أشد من ملازمة الغريم لغريمه؛ لهذا قال بعده: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم فيها ماكثون مقيمون إقامة أبدية، كما دلّ على ذلك القرآن في عدة مواضع، وهو الصحيح من أقوال أهل العلم أن النار لا تفنى ولا يفنى أهلها.

وإنما قدم ذكر أهل النار؛ لأن السياق في الآية في الرد على زعم اليهود أنهم لن تمسهم النار؛ لبيان أنهم من أهلها؛ ولهذا فإن في الآية تعريضًا بحالهم السيئة، في مصيرهم الذي هو بئس المصير.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عنه سعيد بن جبير أو عكرمة: «﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: من عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾»(١).

وفي الآية قصر مفاده أن المتصفين بما ذكرهم أصحاب النار الخالدون فيها، ومفهوم ذلك أن من كسب سيئة ولم تحط به خطيئته، فإنه ليس من أصحاب النار

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٧٨) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ١٥٧- ١٥٩).

الخالدين فيها، لكنه يعذب بقدر ما عليه من السيئات، إن لم يعف الله عنها، وقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على المرء حتى يهلكنه**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾.

بعد ما ذكر ﷻ من تمسهم النار ويخلدون فيها ذكر الفريق المقابل وهم أهل الجنة المخلدون فيها على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والبشارة والنذارة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بكل ما أوجب الله الإيمان به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغير ذلك.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، فلابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بحذف الموصوف وهي الأعمال، والاكتفاء بالصفة، وهي ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن المهم في العمل أن يكون صالحًا، والعمل لايكون صالحًا إلا بالإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء:١٢٥]؛ أي: أخلص العمل لله، وهو متبع للرسول ﷺ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: أولئك أهل الجنة وملازموها، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لهم.

والجنة هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، دار السلام، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٧] دار الفوز العظيم وألوان النعيم، كما

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦١)، وأخرجه أحمد أيضًا (٥/ ٣٣١) والطبراني في الكبير من حديث سهل بن سعد ﷺ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٩٠) «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبدالوهاب بن الحكم وهو ثقة». وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٣٧): «إسناده حسن» وأخرجه أحمد أيضًا (٦/ ٧٠، ١٥١) من حديث عائشة ﷺ، وكذ ابن ماجه في «الزهد» (ص ٤٢٤٣).

قال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ ﷺ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»(١).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: مقيمون فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول بإجماع المسلمين لتوافر أدلة الكتاب والسنة في الدلالة على ذلك، وفي الآية قصر مفاده أن المتصفين بما ذكرهم أصحاب الجنة الخالدون فيها دون من عداهم.

الفوائد والأحكام:

١- قطع طمع ورجاء الرسول ﷺ والمؤمنين في إيمان اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ الآية، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين، وبيان لعتو اليهود، وأنه لا مطمع في إيمانهم.

٢- حرص الرسول ﷺ والمؤمنين على إيمان أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ فهم يرجون ويحبون أن يؤمن هؤلاء، وهكذا ينبغي لكل مؤمن أن يحرص على إيمان الخلق، ويعمل لتحقيق ذلك ويحبه، فالدين النصيحة لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم(٢).

٣- إثبات الكلام لله ﷻ بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فالكلام صفة ذاتية ثابتة له ﷻ وصفة فعلية تتعلق بمشيئته، فهو يتكلم متى شاء.

٤- تحريف فريق من اليهود لكلام الله ﷻ بعد سماعهم له، وعقلهم وفهمهم له وعلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٥- بُعد هؤلاء اليهود عن الإيمان بسبب تحريفهم كلام الله بعد أن سمعوه وعقلوه وهم يعلمون ذلك عقوبة لهم؛ لأن المعصية تجر إلى ما هو أعظم منها.

٦- تحريم تحريف كلام الله ﷻ؛ لأن الله رتب عليه عدم الإيمان وهو من صفات اليهود.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث تميم الداري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أخرجه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧).

٧- أن الوقوع في المخالفة والذنب بعد عقل الأمر وفهمه والعلم به أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

٨- نفاق هؤلاء اليهود حيث إنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

٩- لوم بعض اليهود بعضًا على إظهار الحق مما في كتبهم من نعت محمد ﷺ وإيجاب اتباعه ونحو ذلك، وتواطؤهم على كتمان الحق وجحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

١٠- أن العلم والإيمان من الفتح الذي يفتح الله به على من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

١١- المحاجة بين المؤمنين والكافرين عند الله يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة، وإقرار اليهود بذلك، لقولهم: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ﴾.

١٣- تسفيه اليهود لمن يقول الحق منهم ووصفه بعدم العقل؛ لقولهم: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

١٤- الوعيد لليهود وتوبيخهم والإنكار عليهم في تحريفهم كلام الله تعالى: وكتمانهم الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

١٥- إثبات وتقرير علم الله التام بما يسر الخلق وما يعلنون؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ مما يوجب مراقبته ﷻ.

١٦- ذم بعض من اليهود في كونهم أشبه بالأميين لا يعلمون التوراة إلا مجرد قراءة فقط دون فهم للمعنى، وإن تمنوا ذلك وزعموه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، وفي هذا ذم لمن يقرؤون القرآن بلا تدبر ولا فهم من هذه الأمة

١٧- إطلاق وصف الأمية على من يقرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: إلا قراءة بلا فهم.

١٨- اعتماد هؤلاء اليهود على الظن والشك والقول بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وهكذا حال من لا علم عنده.

١٩- ذم الحكم بالظن؛ لأنه قول بلا علم، ومن صفات اليهود.

٢٠- الوعيد للذين يكتبون الكتاب بأيديهم من اليهود وغيرهم ثم يقولون: هذا من عند الله، كذبًا وافتراءً على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ كما فعل اليهود وحرفوا التوراة وكتبوا بدلها كتابا بأيديهم، ونسبوه لله.

وهكذا يفعل اليوم الرافضة- أخزاهم الله- الذين يزعمون تحريف القرآن ويزيدون وينقصون فيه، بل ويزعمون أن هناك قرآنًا غيره عندهم في السرداب.

٢١- أن غاية ما يريده الذين يتجرؤون على الكذب على الله مما يكتبون بأيديهم ويقولون: هذا من عند الله أن يعتاضوا بذلك ثمنًا قليلًا من الرئاسة والمال والجاه ونحو ذلك من حظوظ الدنيا الفانية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢٢- ذم الدنيا بما فيها وحقارتها؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢٣- تأكيد الوعيد وتشديده لمن فعل ذلك لكذبهم على الله ﷻ وتضليلهم الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

٢٤- أن الجزاء بحسب العمل وبسببه؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

٢٥- أن ما أخذ على الفعل المحرم من كسب فهو محرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ لأنه مقابل فعل محرم.

٢٦- إقرار اليهود بالآخرة والجنة والنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

٢٧- تزكية اليهود لأنفسهم؛ لزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، أو أن النار لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ مع ما هم عليه من تحريف كلام الله، والكذب على الله ﷻ، فجمعوا بين الإساءة والأمن، بل

والتزكية لأنفسهم.

٢٨- تكذيب اليهود والإنكار عليهم في زعمهم هذا إذ لا عهد من الله لهم بذلك، وإنما يقولون على الله ما لا يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٩- أن الله لن يخلف وعده؛ لكمال صدقه وتمام قدرته على الوفاء بعهده ووعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥ﴾.

٣٠- بلاغة القرآن وقوة أسلوبه في إفحام الخصم، وإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣١- جرأة اليهود على القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٢- تحريم القول على الله بلا علم وأن ذلك من صفات اليهود، مما يوجب الحذر من الفتوى بلا علم.

٣٣- الرد على اليهود في زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، ببيان أن الثواب والعقاب إنما هو بحسب العمل، فكل يجازى بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وليس ذلك بحسب النسب أو الدعاوى ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٤- أن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فخفت موازين حسناته ومات على الكفر أو الشرك فهو من أصحاب النار الخالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٥- أن من كسب سيئة ولم تحط به خطيئته فإنه ليس من أصحاب النار، وهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه بسيئاته، وإن شاء عفا عنه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ الآية، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨-١١٦].

٣٦- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٧- أن من آمن وعمل صالحًا فهو من أصحاب الجنة الخالدين فيها، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. نسأل الله من فضله.

٣٨- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي مجرد الإيمان.

٣٩- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا، لهذا حذف الموصوف فلم يقل: «وعمل عملًا صالحًا» واكتفى بالصفة وهي قوله: «صالحًا» بل ذلك شرط لقبول العمل، وهو أن يكون صالحا: خالصا لله ﷻ، تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

٤٠- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وهذا بإجماع المسلمين.

٤١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب بذكر أصحاب النار ثم ذكر أصحاب الجنة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: واذكروا حين أخذنا في التوراة ميثاق بني إسرائيل آبائكم وسلفكم أي: حين أخذنا عهدهم المؤكد.

وتكلم ﷻ عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري**»(١).

وفي الإظهار في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بدل الإضمار حيث لم يقل: «وإذا أخذنا ميثاقكم» إشارة إلى الرابط بين السابق منهم واللاحق نسبًا ودينًا، وأن العهد على السابقين منهم عهد على اللاحقين.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

هذا بيان وتفصيل للميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل وتحته ثمان وصايا، وهي: إخلاص العبادة لله، والإحسان إلى الوالدين، والإحسان إلى ذي القربى،

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والإحسان إلى اليتامى، والإحسان إلى المساكين، وأن يقولوا للناس حسنًا، وأن يقيموا الصلاة، وأن يؤتوا الزكاة، وبهذا أمر الله ﷻ وأوصى جميع خلقه.

قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء «لا يعبدون»، وقرأ الباقون بالتاء: «لا تعبدون» أي: لا تعبدون سوى الله، أي: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا.

وبهذا أرسل الله جميع الرسل، وبه أمر جميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهذا هو أول الحقوق وأعلاها، وأعظمها وأبينها حق الله ﷻ، وهو توحيده وعبادته وحده لا شريك له، والذي لا تقبل الأعمال بدونه، وضده الشرك الذي هو أعظم الذنوب وأظلم الظلم.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ بعد أن ذكر حقه ﷻ الذي هو أعظم الحقوق- ذكر حقوق خلقه، وبدأها بحق الوالدين الذي هو من أعظم وآكد الحقوق، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا، والإحسان نهاية البر، وذلك بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة: قولًا وفعلًا وبذلًا، وغير ذلك، وهذا يتضمن النهي عن الإساءة إليهما من باب أولى.

و«الوالدين» هما الأب والأم، أما الأم فهي الوالدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وأما الأب فسمي والدًا من باب التغليب؛ لأن الولد منه ومن الوالدة(١).

ويدخل في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الأجداد والجدات، لكن كلما كان الوالد أقرب كان حقه أعظم وأوجب.

وقد قرن الله ﷻ حق الوالدين بحقه في هذه الآية، وفي مواضع كثيرة في القرآن الكريم؛ لعظيم حقهما، وسيأتي بسط الكلام في ذلك في سورة النساء في الكلام على قوله

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٧٤).

تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [الآية: ٣٦]. وفي سورة الإسراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الآية: ٢٣].

﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ أي: وأحسنوا بذي القربى واليتامى والمساكين، إحسانًا بالقول والفعل والبذل، وكف الأذى.

﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: صاحب القرابة، وعطفه على «الوالدين» من عطف العام على الخاص؛ لأن الوالدين أقرب القرابة، وأعظمهم حقًا، وكلما كان الشخص أقرب، فحقهُ أعظم وأوجب.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم أو يتيمة، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ ذكرًا كان أو أنثى، فإذا بلغ زال عنه اليتم، لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(١)، مأخوذ من «اليتم» وهو الانفراد، ومنه سميت «الدرة اليتيمة». أي: وأحسنوا باليتامى، بالعطف عليهم وتوجيههم ومساعدتهم وحفظ أموالهم، والدفاع عنهم وأداء حقوقهم.

وقد أوصى الله ﷻ باليتامى، وأكد على وجوب رعايتهم والعناية بهم لشدة حاجتهم إلى من يعولهم وينفق عليهم ويربيهم، ويدافع عنهم ويحفظ أموالهم وحقوقهم، ولاسيما عندما تطغى الأنانية وحب الذات، ويشتد الجشع والطمع وتضيع حتى حقوق كثير من الأقوياء فكيف باليتيم الذي لا حول له ولا طول إلا برحمة أرحم الراحمين.

و﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين وهو الفقير، المعدم، أو الذي لا يجد كفايته، سموا مساكين أخذًا من السكون وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنهم وأذلهم؛ أي: وأحسنوا بالمساكين بمساعدتهم والعطف عليهم ونحو ذلك. وسيأتي بسط الكلام بأوسع من هذا على حقوق اليتامى والمساكين في مطلع سورة النساء.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ قرأ حمزة الكسائي ويعقوب وخلف بفتح الحاء والسين «حَسَنًا»، وقرأ الباقون بضم الحاء وإسكان السين ﴿حُسۡنٗا﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٣) من حديث علي رضي الله عنه.

بعد أن أمر بالإحسان المطلق إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وذلك يشمل نوعي الإحسان القولي والفعلي، أمر بالإحسان القولي لجميع الناس حيث أنه مستطاع لكل أحد، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يسع الناس بماله فلا يعدم الإحسان بقوله الطيب الحسن وخلقه الحسن، وفي الحديث: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحُسن الخُلق**»(١).

قال المتنبي(٢):

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليُسعد النَّطق إن لم يُسعد الحال

أي: وقولوا للناس قولًا حسنًا طيبًا لينًا، ويدخل في ذلك دعوتهم إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويدخل فيه أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وكل كلام طيب، والبعد عن الكلام القبيح والفاحش والبذي مع الناس، حتى مع الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وفي الحديث: «**الكلمة الطيبة صدقة**»(٣)، وقال ﷺ: «**إن الله لا يحب الفاحش أو يبغض الفاحش والمتفحش**»(٤).

وفي الحديث: «**لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»(٥).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: وأقيموا الصلاة إقامة تامة فرضها ونفلها بشروطها

---

(١) أخرجه البزار من حديث أبي هريرة ﷺ فيما ذكره ابن حجر في شرحه لحديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا» في كتاب الأدب (٦٠٣٥)، وقال ابن حجر عن حديث أبي هريرة: «بسند حسن».

(٢) انظر: «ديوانه» بشرح العكبري ٣/ ٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في الجهد والسير (٢٨٩١)،ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) ومن حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧٥)- من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٨) وقال «حديث حسن غريب».

وأركانها وواجباتها وسننها.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأعطوا الزكاة لمستحقيها.

وفيه دلالة على فرض الصلاة والزكاة على بني إسرائيل ممن كان قبلنا، وخص الصلاة والزكاة لمكانتهما من العبادة والإحسان، وكونهما من أعظم ما يعين على ذلك، ففي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ الخطاب لبني إسرائيل جميعًا بتغليب أخلافهم على أسلافهم، أو للمعاصرين منهم، فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف، كما أنه تعميم للتولي بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف للتشديد في التوبيخ(١).

و«التولي» يكون بالبدن.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ بقوا على العهد والميثاق.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم معرضون، والإعراض يكون بالقلب، فجمعوا بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب، والمعرض بقلبه- في الغالب- لا أمل في رجوعه؛ قد سد أذنيه خوفًا من سماع الحق، فلا فائدة فيه.

والمعنى: ثم توليتم بأبدانكم حال كونكم معرضين بقلوبكم عن العمل بما أمرتم به في هذا الميثاق الذي أخذ عليكم، من إخلاص العبادة لله تعالى، والإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وقول الحسنى للناس، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا ميثاقكم، أي: عهدكم المؤكد.

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ بيان وتفصيل للميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا، وهو أنه أخذ عليهم الميثاق في التوراة بأمرين: أن لا يسفكوا

---

(١) انظر «روح المعاني» (١/ ٣٠٩).

دماءهم، وأن لا يخرجوا أنفسهم من ديارهم.

قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا تريقون دماءكم،وسفك الدم سفحه وصبه وإراقته بالقتل.

والمعنى: لا يرق بعضكم دماء بعض، بقتل بعضكم بعضًا؛ لأن قتل الواحد لأخيه بمثابة قتله لنفسه من أهل الملة الواحدة.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ أي: ولا يخرج بعضكم بعضًا من دياركم؛ لأن إخراج الواحد من أهل الملة الواحدة لأخيه بمثابة إخراجه لنفسه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

وقال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»(١).

والإخراج من الوطن الذي ولد فيه الإنسان ونشأ وترعرع على ترابه وأرضه ليس بالأمر الهين على النفس، بل قد يكون أشد عليها وأشق من القتل؛ ولهذا وقف صلوات الله وسلامه عليهم على «الحَزْوَرَة(٢)» مخاطبًا بلده مكة قائلًا: «**والله إنك لخير أرض، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»(٣).

وقال الشاعر:

ولي وطن آليت ألا أبيعه ... ولا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب مُنَعَّما ... بصُحبة قوم أصبحوا في ظلالك
وحب أوطان الرجال إليهمُ ... مآرب قضّاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ ... عهود الصبا فيها فحنّوا لذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) «الحَزْوَرَة»- على وزن «قَسْوَرَة»-: موضع في مكة. انظر: «النهاية» مادة «حزر».

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب- فضل مكة (٣٩٢٥)- من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودرها لكا[١]

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي: ثم أقررتم بهذا الميثاق، واعترفتم به، وبقيتم عليه، والتزمتم به ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ الجملة حالية، أي:والحال أنكم تشهدون عليه، أي: تشهدون على صحة هذا الميثاق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، و﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منادى؛ أي: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: خبر المبتدأ، والخطاب لليهود الموجودين وقت نزول القرآن؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك ورضوا به، أي: ثم أنتم يا هؤلاء تنقضون العهد.

و﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضًا.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: وتضطرون وتلجئون طائفة منكم إلى الخروج والجلاء من ديارهم، وفي هذا توبيخ لهم على نقض العهد.

قال ابن كثير[٢]: «وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاثة قبائل: بنو قينقاع، وبنوا النضير، حلفاء الخزرج. وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليه في دينه ونص كتابه ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» ٥/ ١٨٢٦.

(٢) في «تفسيره» (١/ ١٧٣).

وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء «تظاهرون»، وقرأ الباقون بتشديد الظاء «تظَّاهرون»، وأصلها تتظاهرون، أبدلت التاء الثانية ظاءً ثم أدغمت بالظاء الأصلية.

وعبر بالمضارع في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ و﴿تَظَٰهَرُونَ﴾للدلالة على الاستمرار، وأن ذلك من شأنكم.

ومعنى ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ التظاهر معناه التعالي، أي: تتعالون عليهم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٨] أي: علا أمر الله، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف ٩] أي: ليعليه.

ويأتي التظاهر بمعنى التعاون، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وعلى هذا فيكون معنى ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ أي: تتعاونون عليهم. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فهم يتعالون على من يقتلون ويخرجون من ديارهم ويتعاونون عليهم ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ «الإثم»: الذنب والمعصية، وما يؤثم، و«العدوان»: الاعتداء على الغير بغير حق.

والعدوان أخص من «الإثم»، فكل عدوان إثم، وليس كل إثم عدوانًا، اللهم إلا في حق النفس، فإن الآثام كلها عدوان على النفس وظلم لها؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه نجاتها وسلامتها في الدين والدنيا والآخرة، ويحرم عليها أن يعرضها للعطب والهلاك والعذاب.

واليهود في قتل وإخراج بعضهم لبعض قد جمعوا بين الأمرين: الإثم والعدوان؛ لأن القتل والإخراج للغير إثم واعتداء.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ الواو: يجوز أن تكون عاطفة، ويكون هذا من جملة ما وبخوا عليه من نقض العهد، ويجوز أن تكون واو الحال، والجملة حال من قوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا﴾ أي: والحال أنهم إن ﴿يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ قرأ حمزة:

«أَسْرَى تَفْدُوهم»، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وخلف: «أَسَارَى تَفْدُوهم»، وقرأ الباقون: ﴿أُسَرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾.

أي: وإن يجيئوا إليكم ﴿أُسَرَىٰ﴾ ، أي: حال كونهم أسارى، والأسارى جمع «أسير» يقال في جمعه: «أسرى» وجمع الجمع منه «أسارى»، والأسير الذي أخذه عدوه واستولى عليه، وهو «فعيل» بمعنى «مفعول»؛ أي: مأسور؛ لأنه في الغالب يؤسر ويربط ويوثق مخافة أن يهرب، والإسار هو السَّير من الجلد الذي يوثق به المسجون والموثوق.

﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وعاصم والكسائي ويعقوب: ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ بضم التاء وألف بعد الفاء. وقرأ الباقون بفتح التاء وسكون الفاء من غير ألف: «تَفْدوهم»، ومعنى ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ أي: تفكوهم وتخلصوهم من الأسر بفدية تدفعونها لمن أسرهم مقابل فكه وتخليصه لهم.

والمعنى: ثم أنتم هؤلاء تقتلون بعضكم وتخرجون طائفة منكم من ديارهم، تتعالون وتتعاونون عليهم بالإثم والعدوان، والحال أنهم إن يأتوكم حال كونهم أسارى تفادوهم، أي: تخلصوهم من الأسر.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنه محرم عليكم إخراجهم في كتابكم، ولم يقل: «وهو محرم عليكم قتلهم وإخراجهم» مع أن كلاًّ من القتل والإخراج محرم عليهم، وذلك- والله أعلم- لأن الإخراج هو سبب الأسر، وعليه يكون المعنى: كيف تخرجونهم وتتسببون في أسرهم ثم تفادونهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ والتهديد.

أي: أفتصدقون ببعض الكتاب- يعني التوراة- وتعملون به، كما في فداء الأسارى، وتكفرون ببعضه كما في كفركم في نهيكم فيه عن سفك دمائكم وإخراج فريق منكم من ديارهم؟ فهذا تناقض منكم؛ لأن الأخذ والإيمان ببعض الكتاب يوجب الأخذ والإيمان بجميعه، كما أن الكفر ببعض الكتاب كفر بجميعه، بل إن الإيمان يوجب الإيمان بجميع الشرائع والكتب والرسل، والكفر ببعضها كفر

بجميعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وكما قال تعالى في وصف الرسول ﷺ والمؤمنين: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: نافية، و«الجزاء» يطلق على العقاب، ويطلق على الثواب، والمراد به هنا العقاب، و«من»: موصولة، أي: فما عقاب أو عقوبة الذي يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، وفي التعبير بالمضارع «يفعل» دلالة على استمرارهم على هذا الفعل.

والإشارة تعود إلى ما أنكر عليهم قبل هذا من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، أو إليه وإلى ما قبله من قتل وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم والتظاهر عليهم بالإثم والعدوان.

﴿مِنكُمْ﴾: الخطاب لبني إسرائيل.

﴿إِلَّا خِزْىٌ﴾ «إلا»: أداة حصر، والخزي: الفضيحة والذل والهوان والصغار، أي: فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا الفضيحة والذل والهوان والصغار ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس لهم جزاء إلا ذلك، وقد حصل لهم ذلك فأخزاهم الله وسلط رسوله ﷺ عليهم فأجلى بني النضير عن ديارهم، وقتل بني قريظة، وسبى من سبى منهم وكتب الله عليهم الذل بين الأمم أين ما كانوا بسبب كفرهم وعتوهم.

والحياة الدنيا هي هذه الحياة التي نحن فيها، سميت دنيا من الدنو والقرب؛ لأنها قبل الآخرة زمنًا، ومن الدناءة والحقارة؛ لأنها لا قيمة لها، ولا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»(١).

ونام ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(٢).

و«يوم القيامة»: يوم البعث والمعاد والحساب الجزاء على الأعمال.

وسمي هذا اليوم يوم القيامة، لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [يس: ٥١].

ولقيامهم بين يدي الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠] أي: خاف القيام بين يدي الله ﷻ.

ولقيام الحساب والعدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ولقيام الأشهاد فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الملائكة والروح فيه صفًا لا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿يُرَدُّونَ﴾ أي: يرجعون من خزي الدنيا وهوانها وذلها.

﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: إلى أعظم العذاب، من حيث كمه وكيفه ومدته، وغير ذلك؛ لنقضهم الميثاق، وكفرهم بالله، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٢٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، ابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوبكر ويعقوب وخلف «يعملون» بياء الغيبة، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾.

وقد سبق الكلام على هذه الآية، وفيها تأكيد للوعيد السابق وتخويف وتهديد.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة لليهود الذين نقضوا الميثاق، وقتل وأخرج بعضهم بعضًا من ديارهم وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي: اختاروا الحياة الدنيا على الآخرة، فبذلوا الآخرة ثمنًا للحياة الدنيا، رغبة في الدنيا وزهدًا في الآخرة، ومن ذلك عونهم حلفاءهم من المشركين على قتل وإخراج بعضهم.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: فلا يُهوَّن عنهم العذاب، لا من حيث وقته، بأن يرفع عنهم بعض الوقت، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

ولا يخفف عنهم العذاب من حيث عظمته وشدته بأن يُهوَّن عليهم من شدته، بل هو عذاب أليم عظيم شديد دائم مستمر مقيم، كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد ينصرهم فيمنع عنهم العذاب وينقذهم منه ويدفعه عنهم؛ لا بقوته، ولا بشفاعته ولا غير ذلك، فهم آيسون من تخفيف العذاب، ومن نصرتهم وإنقاذهم منه.

وما توعد الله به بني إسرائيل من الخزي والعذاب على ما ارتكبوه من القتل وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم والتظاهر عليهم بالإثم والعدوان، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، واختيار الحياة الدنيا على الآخرة فيه تحذير لهذه الأمة من

ارتكاب ما ارتكبه بنو إسرائيل، وسلوك طريقهم؛ لأن من فعل ذلك فمصيره مصيرهم.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بما أخذه الله ﷻ من ميثاق على بني إسرائيل في التوراة بألا يعبدوا غير الله، وأن يحسنوا إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، ويقولوا للناس حسنًا، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية.

٢- أن أول وأعظم واجب على الخلق هو عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وبالأمر بهذا جاءت جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٣- شدة خطر الشرك والتحذير منه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٤- وجوب الإحسان إلى الوالدين بأداء حقوقهما الواجبة والمستحبة قولًا وفعلًا وبذلًا، وكف الأذى والإساءة عنهما لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٥- وجوب الإحسان إلى القرابة بأنواع الإحسان من الصلة والزيارة لهم والمساعدة والنصح لهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

٦- عظم حق الوالدين وفضلهما على سائر القرابة؛ لأن الله قدمهم وخصهم بالذكر من بين القرابة.

٧- وجوب الإحسان إلى اليتامى بالعطف عليهم، وتوجيههم، وحفظ أموالهم، ومساعدتهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

٨- وجوب الإحسان إلى المساكين بمساعدتهم والعطف عليهم ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

٩- وجوب القول الحسن للناس، وذلك يشمل دعوتهم إلى الإيمان، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، بالتي هي أحسن، وغير ذلك من الكلام الطيب لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ومفهوم هذا النهي عن القول السيئ للناس.

١٠- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١١- اتفاق الشرائع السماوية على أصول الأديان من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والأمر بالإحسان إلى الخلق، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

١٢- أن الصلاة والزكاة مما شرع على من كان قبلنا لكن لا يلزم موافقة صفة ذلك لما جاء عندنا.

١٣- تولي بني إسرائيل وإعراضهم عن العمل بما أخذه الله عليهم في التوراة من ميثاق إلا قليلًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٤- أن من جمع بين التولي والإعراض فلا أمل في رجوعه، بخلاف من تولى ببدنه ولم يعرض بقلبه فإنه قد يرجع.

١٥- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس، فالأكثرون ليسوا على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾.

١٦- تذكير بني إسرائيل بما أخذ الله عليهم من ميثاق، بأن لا يسفك بعضهم دماء بعض، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ ؟؟.

١٧- إقرار بني إسرائيل بهذا الميثاق وشهادتهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

١٨- نقض بني إسرائيل العهد، وقتل بعضهم بعضًا، وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم، وتظاهرهم على بعض بالإثم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

١٩- أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فمن يقتل غيره أو يخرجه فكأنه فعل ذلك في نفسه، وفي هذا تنفير من ارتكاب ذلك.

٢٠- حرمة القتل وإخراج الناس من ديارهم بغير حق، والتعالي عليهم، وأن ذلك من

الإثم والعدوان.

٢١- مفاداة بني إسرائيل لمن جاءهم أسيرًا أخذًا بما جاءهم في التوراة في حين أنهم يقتل ويخرج بعضهم بعضًا مخالفين لما أخذ عليهم فيها من الميثاق، فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

٢٢- الوعيد لمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب الشديد يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٢٣- وجوب الإيمان بجميع الكتاب، فإن من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه فليس بمؤمن.

٢٤- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

٢٥- كمال علم الله ﷻ، وإطلاعه على أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٢٦- التهديد لمن نقضوا الميثاق وخالفوا أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٢٧- تحقير الذين اشتروا الحياة الدنيا واعتاضوا بها عن الآخرة؛ من اليهود وغيرهم، وذمهم؛لقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

٢٨- حقارة الحياة الدنيا وأنها ليست بشيء بالنسبة للآخرة؛ لهذا سميت «دنيا».

٢٩- شدة عذاب المذكورين وخلودهم فيه، بلا ناصر ينصرهم ويدفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٣٠- لا ناصر لمن حاد الله وخالف أمره يدفع عنه عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

في هذه الآية امتنان من الله ﷻ على بني إسرائيل في إيتاء موسى التوراة وإتباعه بالرسل الذين يحكمون بها إلى أن ختموا بعيسى ابن مريم عليه السلام، وفيها بيان أن بني إسرائيل كما قابلوا موسى عليه السلام بالعصيان والتعنت والاستكبار والتكذيب كذلك كانت حالهم مع بقية رسلهم إلى آخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام، فدأبوا على مخالفة الحق ورده، والإعراض عنه، هذا ديدنهم مع جميع الرسل.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الواو: استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: للتحقيق، أي: والله لقد آتينا موسى الكتاب، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، و«قد»، وذلك لأهمية الخبر.

وموسى هو نبي الله: موسى بن عمران عليه السلام، أي: أنزلنا على موسى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، أنزله الله عليه جملة واحدة بألواح، وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي: أتبعنا من بعده بالرسل من بني إسرائيل الذين يحكمون بشريعته، أي: جعلناهم يقفونه، أي: يأتون بعده، أي: بعد موته، كما قال

تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فموسى عليه الصلاة والسلام أول أنبياء بني إسرائيل، وأفضلهم، وكل من جاء بعده من الرسل هم من بني إسرائيل، ويحكمون بشريعته؛ وآخرهم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ [البقرة: ٢٥٣]. أي: وأعطينا عيسى ابن مريم البينات، أي: الآيات والمعجزات البينات، وفي هذا إثبات رسالة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

وحذف الموصوف «الآيات» واكتفى بالصفة وهي «البينات»؛ لأن المهم في الآيات أن تكون بينات، أي: واضحات ظاهرات الدلالة على صدق من جاء بها وصحة ما جاء به.

والمعنى: وآتينا عيسى ابن مريم الآيات البينات الواضحات الدالة على صدقه وصحة رسالته: الآيات الشرعية، وهي الإنجيل، كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

والآيات الكونية: من كونه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم بإذن الله، ويخبر بني إسرائيل مما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ

بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: ١١٠].

وفي خلق عيسى عليه السلام آية؛ لأن الله خلقه من أنثى بلا ذكر، وهي مريم ابنة عمران من سبط يهوذا، وذلك آية من آيات الله القدرية الكونية؛

ولهذا يذكر عيسى عليه السلام غالبا في القرآن الكريم منسوبًا إلى أمه؛ للتذكير بعظيم قدرة الله تعالى حيث خلقه من أنثى بلا ذكر، بينما لا يذكر نسب غيره من الأنبياء حتى ولا لآبائهم.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [الآية ١١٠ المائدة] ومعنى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي: وقويناه وشددنا عضده ونصرناه، كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] وقال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ روح القدس: جبريل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله**»(١).

وفي رواية: «**اللهم أيده بروح القدس**»(٢).

كما يسمى جبريل عليه السلام بـ«الروح» قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

وعلى هذا فـ«روح القدس» من إضافة الموصوف إلى صفته، فالروح هو جبريل، و«القدس»: الطهر، أي: وأيدنا عيسى- عليه الصلاة والسلام- بروح القدس والطهر جبريل- عليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقيل المراد بـ«روح القدس» الإيمان

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٥)، والنسائي في المساجد (٧١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي يؤيد الله به عباده.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ والتقريع والتعجب، والفاء عاطفة، و«كلما»: ظرفية حينية متضمنة معنى الشرط، تفيد التكرار، أي: هذا ديدنكم وعادتكم. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل الشرط، أي: أفلكما جاءكم رسول من الله.

﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي لا تحبه ولا تميل إليه أنفسكم، أي: بما يخالف هوى أنفسكم؛ ولهذا اشتد تكذيب بني إسرائيل لعيسى ابن مريم عليه السلام، وعنادهم له لمخالفته التوراة في بعض الأحكام، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

فهم لا يقبلون من الشرع إلا ما وافق أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: جواب الشرط، ويدل ترتيب الجواب على الشرط هنا على مبادرتهم بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، دون تروٍ أو تأنٍ، أو تأملٍ فيما جاؤوا به.

و﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أبلغ من «تكبرتم»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً.

والمعنى: استكبرتم عن الإيمان، وعن قبول الحق والطاعة والانقياد للرسل واتباعهم؛ تكبرًا وترفعًا منكم، وإعجابًا بأنفسكم، كما قال تعالى عن إبليس: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقال ﷺ: «**الكبر بَطَر الحق، وغمط الناس**»(١) أي: رد الحق واحتقار الناس وتنقصهم، فكل من استكبر عن اتباع الحق بعد معرفته ففيه شبه من إبليس ومن اليهود.

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة للسببية أو للتفصيل، و«فريقًا»: مفعول مقدم «لكذبتم» أي: ففريقًا من الرسل كذبتم، أي: كذبتموهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ الواو: عاطفة، «فريقًا»: مفعول مقدم لـ«تقتلون» أي: فريقًا من الرسل تقتلون، أي: تقتلونهم، وقدم المفعول في الموضعين للحصر، ومراعاة الفواصل.

والفريق: الطائفة والجماعة، وعبر بالمضارع في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لاستحضار الصورة وبشاعتها؛ والإشارة إلى استمرارهم على قتل الرسل، حتى أنهم هموا بقتل آخر رسلهم عيسى عليه الصلاة والسلام، فرفعه الله إليه، وأشاعوا بأنهم قتلوه، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، كما هموا بقتل محمد ﷺ وسَمُّوه(١).

إضافة إلى ما في التعبير في المضارع من مراعاة فواصل الآي فحصر موقفهم من رسل الله بأحد أمرين: إما التكذيب، وإما القتل الذي سببه غالبًا التكذيب، وبهذا انتفى عنهم الأمر الثالث، وهو: الإيمان والطاعة، فكان ديدنهم وعادتهم المبادرة إلى الاستكبار، فلا يقبلون من الشرع إلا ما وافق أهواء أنفسهم، مع التكذيب للرسل وقتلهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ هذا كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية: ١٥٥].

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: وقال بنو إسرائيل اعتذارًا وتعليلًا لردهم ما جاء به الرسول ﷺ وتهكمًا به، وقطعًا لطمعه في إسلامهم.

﴿قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ قرأ أبو عمرو: «غلُف» بضم اللام، وقرأ الباقون: ﴿غُلْفُۢ﴾ بإسكانها، و«غلف»: جمع «أغلف» وهو الذي عليه غلاف، أي: غطاء شديد يمنع من وصول الشيء إليه، أي: قلوبنا مغلَّفة، أي: عليها أغلفة وأغطية، فلا تعي ولا تفقه، ولا تعلم ما تقول يا محمد، وهذا كقولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٞ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، وقد أبطل الله حجتهم هذه فقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل أبعدهم الله وطردهم عن رحمته وعن الخير وحرمهم التوفيق والتبصر في آيات الله، ودلائل صدق الرسول ﷺ.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم» وقد سبق تخريجه.

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم، وعدم إيمانهم، وأطلق «كفرهم»؛ لأنهم كفروا بكل ما أوجب الله الإيمان به، حتى ولو ادعوا الإيمان ببعض ذلك، فإن ذلك لا ينفعهم، وفي الآية الأخرى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]

أي: ليست قلوبهم غلف كما يزعمون، لا تفقه ولا تعي؛ لأن القلوب بفطرتها تقبل الحق، وليست غلفًا، بل لعنهم وأبعدهم عن الخير وعن توفيقه بسبب كفرهم.

قال ابن القيم(١): «والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفًا، لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهون، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها».

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: فقليلًا إيمانهم.

والمراد بالقلة- والله أعلم- العدم؛ لقوله قبل هذا: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كما يقال: «قلما رأيت مثل هذا قط»، تريد: ما رأيت مثل هذا قط.

فحصرهم بأحد هذين الأمرين: التكذيب، أو القتل للأنبياء، دون الإيمان.

وقد تحمل القلة هنا على ظاهرها بأن منهم من يؤمن ولكنهم قلة، وإيمانهم قليل. أي: فقليلًا المؤمن منهم، أو فقليلًا إيمانهم، بالنسبة لما كفروا به مما جاء به محمد ﷺ، ومما جاءت به رسلهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآيتين السابقتين استكبار بني إسرائيل عن اتباع ما جاءهم من الحق

---

(١) انظر: «بدائع التفسير (١/ ٣٢٥).

على لسان موسى عليه السلام والأنبياء بعده إلى عيسى عليه السلام وتكذيبهم وقتلهم لهم، ثم أتبع ذلك بذكر كفرهم بالقرآن الكريم؛ مكابرة منهم وبغيًا وحسدًا، وتكذيبهم لمحمد ﷺ- كما هو ديدنهم مع أنبيائهم.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله، وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلاَّم بن مِشْكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: ولما جاء اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم، الذي نزل على محمد ﷺ. ونكر «كتاب» للتعظيم، أي: ولما جاءهم كتاب من الله، أي: جاءهم كتابه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٢٩].

فهو من عند الله، وهو من الله، وهو كتاب الله، وفي ذلك كله تعظيم له، وتأكيد أنه كلامه عز وجل.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: مصدق للذي معهم من التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل المنزلة عليهم أي: مبيِّن لصدقها، وأنها حق من عند الله، وهذا يدل على فضل القرآن الكريم على جميع الكتب السماوية؛ لأنه المصدق لها والحاكم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٧٨).

وأيضًا: هو مصداق الذي أخبرت وبشرت به التوراة والإنجيل، إذ جاء مطابقًا لما أخبرت وبشرت به؛ لأن التوراة والإنجيل أخبرتا بنعته ﷺ ونزول القرآن عليه كما قال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦].

﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ﴾ الجملة حالية، فائدتها استحضار حالتهم العجيبة وتناقضهم أي: والحال أنهم، أي: اليهود من قبل مجيء القرآن الكريم وبعثته ﷺ ﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الاستفتاح ظاهره طلب الفتح، أي: النصر، قال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومعنى قوله: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أن اليهود من قبل بعثته ﷺ في قتالهم مشركي العرب من الأوس والخزرج وغيرهم يستنصرون عليهم بسؤالهم الله أن يبعث الرسول الموعود به في التوراة، ويقولون: سيبعث نبي وينزل عليه كتاب، وسنتبعه وسيكون لنا الفتح والنصر عليكم؛ لأنهم يعرفون أن هذا النبي ستكون له الغلبة.

قال ابن كثير(١): «وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم».

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: شرطية، و«ما»: موصولة، أي: فلما جاء هم الذي عرفوا، وهو القرآن المصدق لما معهم، والرسول الذي كانوا يستفتحون به، ورأوا أنه من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: كذبوا به وجحدوه، وأنكروا رسالته ﷺ، وكذبوا ما جاء به

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٧٨).

من الوحي من عند الله؛ بغيًا منهم وحسدًا للعرب، وقد نهاهم الله ﷻ عن ذلك بقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

قال ابن القيم(١): «فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به، وجحدوا نبوته، فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالًا، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقًّا كان استفتاحهم به باطلًا، فإن كان استفتاحهم به حقًا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلًا فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة».

فكان قيام الحجة عليهم أشد من وجهين: الأول: كون القرآن مصدقًا لما معهم من كتب الله، والثاني: كونهم من قبل يستفتحون على الذين كفروا ببعثته ﷺ ومعرفتهم له.

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فحقت لعنة الله ووجبت على الكافرين، وهي طردهم وإبعادهم عن رحمته.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: «عليهم» تأكيدًا لوصفهم بالكفر، وبيان أنه سبب لعنة الله لهم، وبيان استحقاق جميع الكافرين للعنة الله ووجوبها عليهم مع مراعاة الفواصل.

وعلى هذا فيجوز لعن الكافرين ونحوهم على وجه العموم كما لعنهم الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة كفر اليهود بالقرآن الكريم ومن جاء به، واستحقاقهم لعنة الله، ثم أتبع ذلك بذم مسلكهم وتقبيحه، وما اختاروه لأنفسهم من الكفر بما أنزل الله بغيًا منهم وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وما باءوا به من

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٢٥).

الغضب والعذاب المهين.

قوله: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ «بئس»: فعل ماض جامد يفيد الذم، و«ما»: نكرة موصوفة في محل نصب تمييز للضمير المستتر في «بئس»، أي: بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم، أو موصولة : أي: بئس الذي اشتروا به أنفسهم.

والاشتراء يحتمل أن يكون على بابه، أي: بئس ما اشتروا وابتاعوا به أنفسهم، ويحتمل أن يكون ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ بمعنى «باعوا» أي: بئس ما باعوا به أنفسهم.

والمعنى: قبح وساء الشيء الذي اشتروا به أنفسهم، واختاروه، وهو الكفر بدل الإيمان.

﴿أَن يَكْفُرُوا۟﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر تقديره: كفرهم، وهو المخصوص بالذم، وهو في محل رفع مبتدأ مؤخر، وخبره جملة: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي أنزله الله- أي: بالقرآن الكريم، فهو منزل من عند الله ﷻ وهو كلامه وصفة من صفاته- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ «بغيا»: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي، والبغي في الأصل: العدوان والظلم، والمراد به هنا- والله أعلم- العدوان المشرب بالحسد، أي: بغيًا وعدوانًا بسبب الحسد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال الشاعر:

وأظلم خلق الله من بات حاسدًا ... لمن بات في نعمائه يتقلب(١)

---

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص١٨٥.

و«أن» في قوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ سببية. والفضل: زيادة العطاء والخير، والمراد بقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إنزال الوحي والقرآن الكريم الذي به حياة القلوب والأبدان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والمشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: على الذي يشاء من عباده من الرسل وأممهم بحكمته وفضله، والمراد هنا محمد ﷺ وأمته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢- ٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: أن جعله الله من غيرهم»(١).

فحملهم البغي والحسد على رد الحق وهم يعرفونه، لا لشيء إلا أن الذي بعث به هو محمد ﷺ النبي العربي الهاشمي، وكانوا يظنون أنه سيبعث النبي من بني إسرائيل، وهذا من أعظم الكبر أن يرد الحق؛ لأنه جاء به فلان من الناس بغيًا وحسدًا، قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٢) أي: رد الحق وانتقاص الناس.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي: فرجعوا وعادوا، يقال: باء بكذا، أي: رجع بأمر غير حميد، كما يقال: باء بالفشل.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٧٩).

(٢) سبق تخريجه.

والباء في قوله ﴿بِغَضَبٍ﴾ للمصاحبة، أي: مصطحبين غضبًا على غضب، أي: بغضب من الله عليهم فوق غضب، غضب متراكم مضاعف عظيم؛ ولهذا نكَّره في الموضعين، غضب لا حق على غضب سابق بسبب تراكم موجباته من الذنوب، من كفرهم بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه مصدقًا لما معهم؛ بغيًا منهم وحسدًا، وكفرهم بما أنزل عليهم، وتكذيبهم لأنبيائهم وقتلهم لهم، واستكبارهم عن اتباع الحق، وتحريفهم كلام الله، وعبادتهم العجل، وغير ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما ضيعوا من التوراة وهي معهم؛ وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم**»(١) ولهذا استحقوا وصفهم بالمغضوب عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وغير ذلك.

وفي الآية إثبات صفة الغضب لله ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة، وهو سبب العقوبة والانتقام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: وللكافرين المكذبين لله ورسله وكتبه الجاحدين لشرعه عذاب يهينهم ويذلهم ويخزيهم، بسبب بغيهم وحسدهم، وبسبب استكبارهم، والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

عذاب مهين في الدنيا معنوي ينصب على القلوب من الحيرة والقلق وفقدان الطمأنينة والسعادة، وعذاب حسي بما يصيبهم من المصائب الدنيوية ومن القتل والجراح ونحو ذلك على أيدي المؤمنين.

وعذاب مهين في الآخرة، عذاب معنوي ينصب على القلوب من التبكيت والتقريع والتيئيس من الخروج من النار ونحو ذلك، وعذاب حسي من اصطلاء النار

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، كما ذكر ذلك ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٧٩).

ومعاناة حرها وحميمها وزمهريرها وغير ذلك.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: «ولهم»؛ لبيان كفرهم، وسبب تعذيبهم، وأنه الكفر، وتأكيد ذلك، وأن ذلك عام لهم ولغيرهم من الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وإذا قيل لليهود، وأبهم القائل لبيان أن هذا موقفهم من كل من قال لهم هذا القول سواء كان الرسول ﷺ أو غيره.

﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: صدقوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ بقلوبكم وانقادوا له واتبعوه بجوارحكم.

﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: قال اليهود إجابة على أمرهم بالإيمان بالقرآن.

﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ «ما»: موصولة في الموضعين، أي: نؤمن ونصدق بالذي أنزل علينا، وهو التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

وفي التعبير بالمضارع في قوله: ﴿نُؤْمِنُ﴾ دلالة على الاستمرار، أي: ندوم على الإيمان بما أنزل علينا ويكفينا ذلك.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ تصريح بما عرضوا به من قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: ولا نؤمن بغيره، أي: ويكفرون بالذي وراءه، أي: بالذي سوى التوراة من الكتب وخصوصًا القرآن، وجاء التعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك.

وهم متناقضون في هذا؛ لأن إيمانهم بما أنزل عليهم- إن كانوا صادقين- يوجب عليهم الإيمان بكل ما أنزله الله، وهو الإيمان النافع المقبول أما الإيمان ببعض الكتب والرسل دون بعض فليس بإيمان، بل هو عين الكفر، كما أن الكفر ببعض الكتب والرسل كفر بجميع ذلك، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواو: حالية، والضمير «هو» يعود إلى، «ما» في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: والحال أن القرآن هو الحق الثابت، وكان الواجب عليهم الإيمان به واتباعه؛ لأن الحق أحق أن يتبع، فإذا كانوا يؤمنون بما أنزل عليهم لأنه حق، وجب أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ لأنه حق.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: حال كونه مصدقًا لما معهم من التوراة، أي: مخبرًا بصدقها، ومصداق ما أخبرت به، وهم يعلمون أنه الحق من ربهم مصدق لما معهم، وبذلك قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

فوجب عليهم الإيمان به من وجهين، الأول: كونه الحق الثابت، والثاني: كونه مصدقا لما معهم، فالكفر به وتكذيبه كفر وتكذيب بما معهم.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا تكذيب لقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ والخطاب في: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

﴿فَلِمَ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط، واللام حرف جر، و«ما»: اسم استفهام حذفت ألفها تخفيفًا بسبب الجر، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والتعبير بالمضارع «تقتلون» لاستحضار الحالة الفظيعة.

أي: قل لهم: فلم تقتلون أنبياء الله الذين بعثوا فيكم من قبل بعثة محمد ﷺ، والذين جاؤوكم بتصديق التوراة، والحكم بها إن كنتم مؤمنين بما أنزل إليكم، صادقين في قولكم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أي: لو كنتم صادقين في ذلك ما قتلتم أنبياء الله المبعوثين فيكم، فقتلكم لأنبياء الله من قبل دليل على عدم إيمانكم بما أنزل عليكم، كما أن كفركم بما أنزل الله على محمد ﷺ وهو القرآن دليل آخر على عدم إيمانكم بما أنزل عليكم؛ لأنكم لو آمنتم بما أنزل عليكم حقًّا ما قتلتم الأنبياء، ولآمنتم بما أنزل على محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الآية: ١٥٧ الأعراف]. ومحصلة هذا أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم ولا بما أنزل على محمد ﷺ.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى- عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- تعظيم التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتاب العظيم؛ لأن التوراة أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

٣- أن من جاء بعد موسى عليه السلام من الرسل تبع له، يحكمون بشريعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾.

٤- إثبات رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه آخر رسل بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فأعطاه الله ﷻ الآيات البينات الشرعية، في الإنجيل، والآيات البينات الكونية، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك.

٥- إثبات تمام قدرة الله ﷻ في خلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، فنسب عليه السلام إلى أمه للتنبيه على قدرة الله ﷻ في خلقه من أنثى بلا ذكر.

٦- أن من لا أب له ينسب شرعًا إلى أمه؛ لأن الله ﷻ نسب عيسى عليه السلام إلى أمه.

٧- تأييد الله ﷻ لنبيه عيسى عليه السلام بروح القدس جبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

٨- شدة عتو وعناد بني إسرائيل واستعصائهم على من جاءهم من الرسل بما لا تهوى أنفسهم، ومبادرتهم إلى الاستكبار عن الحق، والتكذيب به، أو القتل للرسل، فهذا ديدنهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

٩- التحذير من اتباع الهوى والاستكبار؛ لأن ذلك سبب الحقد.

١٠- تعليل بني إسرائيل واعتذارهم كذبًا في ردهم الحق بأن قلوبهم مغلَّفة، لا تعي ولا

تفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾.

١١- تكذيب الله لهم في دعواهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: ليست قلوبهم غلفًا كما يقولون، بل منع وصول الحق إليها لعن الله لهم بسبب كفرهم.

١٢- أن القلوب بفطرتها ليست غلفا، بل هي مهيأة لقبول الحق، وفي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه**»(١).

١٣- أن الكفر والمعاصي قد تعمي عن الحق، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

١٤- أن الإيمان في اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- تعظيم القرآن الكريم وإثبات أنه من عند الله ﷻ وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فنكر «كتاب» تعظيمًا له وبين أنه من عند الله تعالى وكلامه.

١٦- تصديق القرآن للتوراة والإنجيل، والكتب السماوية السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

١٧- أن لدى اليهود علما من كتابهم بأن النبي ﷺ سيبعث وتكون له الغلبة؛ ولهذا كانوا يستفتحون ويستنصرون بذلك على الذين كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

١٨- تكذيب اليهود بالنبي ﷺ وجحودهم لما جاءهم به من الحق، وهم يعرفونه بغيًا منهم وحسدًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

١٩- استحقاق أهل الكتاب للعنة الله ووجوبها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

٢٠- جواز لعن الكافرين من حيث العموم، ولعن الكافر غير المعين.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

٢١- ذم مسلك اليهود فيما اختاروا لأنفسهم من الكفر بما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٢٢- إثبات علو الله على خلقه، بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٢٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله وكلامه، وغير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾.

٢٤- أن الذي حمل اليهود على تكذيب النبي ﷺ والكفر بما جاء به هو البغي، والحسد بسبب كونه ﷺ من العرب؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٥- وجوب قبول الحق ممن جاء به، وتحريم رده؛ لأن فلانًا قاله، كما فعل اليهود؛ ردوا الحق؛ لأن محمدًا جاء به، كما قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾.

٢٦- فضل الله ﷻ على محمد ﷺ وعلى أمته في إنزال القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٧- إثبات المشيئة لله ﷻ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

٢٨- إثبات العبودية الخاصة، وهي عبودية الرسل وأتباعهم لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٩- رجوع اليهود بسبب كفرهم بالقرآن بغضب من الله على غضب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾.

٣٠- إثبات صفة الغضب لله ﷻ كما يليق بجلاله.

٣١- الوعيد للكافرين بالعذاب المهين الذي يهينهم ويذلهم ويذهب عزهم جزاء استكبارهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٣٢-وجوب الإيمان بما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٣٣- كذب اليهود في قولهم : ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، فلو آمنوا بما أنزل عليهم لآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ؛ لأن كتبهم فيها الأمر بالإيمان به ﷺ وبما أنزل عليه.

٣٤- عتو اليهود وعنادهم وتكذيبهم للنبي ﷺ وكفرهم بما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾.

٣٥-إفحام اليهود وإبطال زعمهم الإيمان بما أنزل عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لو كنتم صادقين في دعواكم الإيمان ما قتلتم أنبياء الله؛ لأن قتلهم ينافي الإيمان.

٣٦- أن الراضي بالمعصية والمتولي لفاعلها مشارك لفاعلها؛ لأن الله خاطب اليهود المعاصرين للنبي ﷺ بالقتل وهو من فعل أسلافهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

أورد عز وجل على بني إسرائيل في الآية السابقة ما ينقض دعواهم الإيمان، وهو قتلهم الأنبياء، ثم أورد عليهم في هذه الآية ناقض آخر، وهو عبادتهم العجل وكفرهم بموسى وبما جاء به.

قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، و«قد»، أي: والله لقد جاءكم موسى بالبينات. والخطاب لبني إسرائيل في عهده ﷺ، والمراد أسلافهم الذين بعث فيهم موسى؛ لأنهم في الحكم سواء.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات البينات الدالة على صدق رسالته، وأنه لا إله إلا الله، كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم واليد والعصا وفلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن السلوى، والحجر، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ «ثم» عاطفة، تفيد الترتيب مع التراخي، أي: ثم جعلتم العجل إلهًا معبودًا لكم، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه، منتهزين فرصة غيابه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾.

و «العجل» في الأصل ولد البقرة، والمراد به هنا مُجَسَّم صنعه السامري من الحلي على هيئة العجل، وجعل فيه ثقبًا تدخله الريح فيكون له صوت كخوار الثور وأمرهم بعبادته، وقال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ الواو: حالية، والحال أنكم ظالمون، ظالمون في صرف العبادة لغير الله، غير معذورين في ذلك.

والظلم النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، ولا أظلم ممن عبد غير الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾.

قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ سبق الكلام عليه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وفي تكراره تأكيد لما سبق، وتنبيه على أن طريقتهم مع محمد ﷺ هي طريقة أسلافهم مع موسى إضافة إلى ما فيه من زيادة على ما سبق، وبيان له.

قوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: واسمعوا سماع قبول واستجابة وطاعة وامتثال.

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: قالوا إجابة على ما أمروا به من أخذ الكتاب بقوة وأن يسمعوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: سمعنا سمع إدراك فقط بآذاننا ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ بقلوبنا وجوارحنا وأفعالنا. والمعصية: ترك المأمور وفعل المحظور.

وظاهر الآية أنهم قالوا: ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ بألسنتهم، وقد تجرؤوا على ما هو أعظم من ذلك كما في قولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥].

وقيل: إنهم قالوا: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ بلسان حالهم وأفعالهم، لا بلسان المقال، والأول أولى، وفي هذا دليل على شدة عتوهم وعنادهم، إذ لم يلتمسوا لعصيانهم عذرًا كالجهل وعدم العلم ونحو ذلك، بل كابروا وقالوا بتحدٍ سافر: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، وعبادته، أي: بلغ حبه وتأليهه منهم مبلغًا عظيمًا، وأولعوا وشغفوا به حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وأشربته وصبغها.

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب كفرهم بالله ﷻ فتنوا بحب العجل وعبادته، كما قال هارون عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠- ٩١].

﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بئس: فعل ماضٍ يفيد الذم، «ما»: نكرة موصوفة، أي: بئس شيئًا يأمركم به إيمانكم، أو موصولة، أي: بئس الذي يأمركم به إيمانكم من قتل الأنبياء وعبادة العجل.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط وجوابه يدل عليه ما سبق، والمراد بالجملة التحدي، أي: إن كنتم مؤمنين حقيقة فكيف يأمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح، أو لو كنتم مؤمنين حقًا ما أمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح من قتل الأنبياء وعبادة العجل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

يزعم بنو إسرائيل أن لهم الآخرة عند الله، وأن الجنة لهم، وأن النار لغيرهم حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١- ١١٢].

كما قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ورد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠- ٨١].

وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

وفي الآية هنا تحداهم بتمني الموت إن كانوا صادقين في دعواهم أن الدار الآخرة لهم خالصة من دون الناس.

وهذا وما قبله من قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ كله في معرض الرد على قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ أو له ولغيره ممن يصح خطابه ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: وما فيها من الجنة ونعيمها، وقدم الخبر «لكم» للحصر، والخطاب لليهود الموجودين في حال نزول القرآن الكريم.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: مدخرة لكم عند الله، ﴿خَالِصَةً﴾: حال من الدار، أي: حال كونها خالصة، ويجوز كونها خبر «كان».

﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا يشرككم فيها غيركم، وخاصة بكم دون جميع الناس كما تزعمون؛ لأنهم يقولون كما سبق: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، ويقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] يعني: ثم يخرجون إلى الجنة.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ﴾ أي: اطلبوا حصول الموت، أو ادعوا على أنفسكم بالموت لتخلصوا وتصلوا إلى الدار الآخرة ونعيمها؛ لأنه لا يخلص ولا يوصل إليها إلا بعد الموت.

وقد قال بعض المفسرين: إن هذا من جنس آية المباهلة، وأن معنى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: سلوه وادعوا به على الكاذب المفتري من الطائفتين، وقد اختار هذا ابن القيم وابن كثير- رحمهما الله[1].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٠- ٣٣٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٢).

والأول أقرب ودلالة السياق عليه أظهر، وقد كان هذا شأن بعض صحابة رسول الله ﷺ سؤال الشهادة والجنة ولقاء الله، فقد ارتجز جعفر بن أبي طالب ﷺ يوم غزوة مؤتة، حين اقتحم على المشركين بقوله:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها(١)

وقال عبد الله بن رواحة ﷺ عند خروجه إلى غزوة مؤتة، ودعا المسلمون له ولمن معه أن يردهم الله سالمين:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة من يدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي: ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا(٢)

وقال عمير بن الحمام:

جريًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد(٣)

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس.

وفي هذا أعظم التحدي لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الآية: ٧].

فنفي ﷻ بـ «لن» و«لا» نفيًا مؤبدًا أن يتمنوا الموت، وفي هذا تكذيب لزعمهم أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة، فهم يكرهون الموت أشد من غيرهم؛ لأنهم يكرهون لقاء الله، وقد قال ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»(٤).

---

(١) انظر: «السنن الكبرى» للبيهقي ٩/ ٢٦٠.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» ١/ ١٩١.

(٣) انظر: «الاستذكار» ٥/ ١٣٢.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٣٦)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٦)، من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية أي: بسبب الذي قدمت أيديهم، أو بسبب تقديم أيديهم، والمعنى: أنهم لن يتمنوا الموت ولا يتمنونه أبدًا، ولا نطقا بألسنتهم دون مواطأة قلوبهم.

وهذا من دلائل نبوته ﷺ وذلك بسبب الذي عملوه من الأعمال السيئة من الكفر وتكذيب الرسل، والقول على الله بغير علم، والكذب والدعوى الباطلة بأن لهم الدار الآخرة خالصة، ونحو ذلك، ولما يعلمون ما لهم بسبب ذلك من المآل السيئ والعقبى الخاسرة عند الله.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن الله عليم بالظالمين من اليهود وغيرهم.

أي: أنه ﷻ محيط علمًا بهم وبأعمالهم وأحوالهم، وغير ذلك، وإنما خص علمه بالظالمين تهديدًا لهم، وإلا فعلمه محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «والله عليم بكم» للتسجيل عليهم بوصف الظلم، وليشمل الوعيد أيضًا غيرهم من الظالمين، إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

نفى ﷻ في الآية السابقة نفيًا مؤبدًا تمني اليهود الموت، ثم أتبع ذلك وأكده ببيان أنهم أحرص الناس على حياة، فكيف يتمنون الموت؟!

قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، أي: والله لتجدنهم أحرص الناس على حياة، فأكد حرصهم على الحياة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد.

والضمير في: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ يعود إلى اليهود، وهو في محل نصب مفعول أول لـ«تجدن»، و«أحرص»: مفعول ثانٍ، وهو اسم تفضيل، أي: أشد الناس حرصًا على الحياة والبقاء وطول العمر. والمراد بـ «الناس» جميع البشر؛ لأن الحرص على الحياة غريزة في الناس جميعًا لكنهم متفاوتون فيه، واليهود أشدهم حرصًا على الحياة.

قال أبو الطيب[١]:

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه ... حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع الموت أورده الحربا

والحرص: شدة الطمع في الشيء، وبذل الجهد في حصوله، والخوف من فواته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[٢].

ونكَّر «حياة»؛ ليدل على حرصهم على أيِّ حياة كانت، ومهما كانت حالتهم فيها ولو كانت حياة بهيمية، كما يقول بعضهم: «الحياة وكفى».

وقد أحسن الحريري[٣] في قوله:

والموت خير للفتى ... من عيشه عيش البهيمهْ

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الجملة معطوفة على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ أي: ولتجدن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من الذين أشركوا، أي: وأحرص على الحياة من المشركين، الذين لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة والنار فلا يرجون بعثًا ولا نشورًا، ويرون أن الحياة الدنيا هي فرصتهم الأولى والأخيرة؛ لهذا كانوا من أحرص الناس على الحياة.

ومع هذا كله فاليهود مع أنهم أهل كتاب يؤمنون بالبعث والجزاء، هم أشد حرصًا على الحياة من المشركين؛ ليتمتعوا بأكبر قدر منها، وقد قال ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[٤].

---

(١) انظر «ديوانه» ص٦٥ .

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «مقامات الحريري» ص٦٦.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد (٢٩٥٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويحتمل أن تكون الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ للاستئناف، وتكون الجملة مستأنفة، والتقدير: ومِن الذين أشركوا مَن يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيان لشدة حرصهم على الحياة، ومدى مبلغ طمعهم في طول البقاء، أي: يحب ويتمني أحدهم، والضمير يعود إلى المشركين على احتمال كون جملة: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ مستأنفة، والمعنى يود أحد المشركين ويتمنى لو يعمر ألف سنة.

وعلى القول بأن هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ يحتمل عود الضمير في «أحدهم» إلى المشركين؛ لأنه أقرب مذكور، والمعنى عليه أبلغ وأقوى؛ لأنه إذا كان الواحد من المشركين يود أن يعمر ألف سنة، فاليهودي يتمنى أن يعمر أكثر من ذلك؛ لأنه أحرص من المشرك على الحياة.

ويحتمل أن يعود الضمير في «أحدهم» إلى اليهود، ويكون الكلام قد انقطع عند قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ «لو»: مصدرية بمعنى «أن» تؤول مع الفعل بعدها بمصدر، والتقدير: يود أحدهم تعميره ألف سنة، أي: أن يزاد في حياته وعمره حتى يكون ألف سنة؛ أي: ألف عام.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية أي: وما هو بدافعه ومانعه ومبعده من العذاب ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾.

«وأن» والفعل «يعمر» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لاسم الفاعل، «مزحزح» أي: وما هو بمزحزحه من العذاب تعميره.

والمعنى: أنه لو عمر ألف سنة أو أكثر وهو مقيم على الكفر والمعصية فإن ذلك لن يدفعه ويمنعه ويبعده من العذاب، وذلك من وجهين:

أولًا: أن زيادة العمر مع الاستمرار على الكفر والمعصية زيادة في العذاب.

ثانيًا: أن عمر الدنيا كلها ليس بشيء بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ يعقوب «تعملون» بالخطاب، وقرأ الباقون:

﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالغيبة، أي: والله عليم بالذي يعملون، أو بعملهم مطلع عليه خبير به، لا تخفى عليه منه خافية، وفي هذا تهديد ووعيد لهم؛ لأن مقتضى بصره وعلمه بعملهم أن يحاسبهم ويجازيهم عليه، قال زهير(١):

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ... ليخفى فمهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على بني إسرائيل بما جاءهم به موسى عليه السلام من الآيات البينات ومع ذلك لم ينجع فيهم ذلك، بل اتخذوا العجل معبودًا من دون الله.

٢- سفه اليهود وضعف عقولهم حيث اتخذوا العجل معبودًا لهم مع أنهم هم الذين صنعوه.

٣- أن بني إسرائيل لم يتخذوا العجل إلا بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وفي هذا دلالة على هيبته عليه السلام في نفوسهم، وعلى أنهم يتحينون الفرص لمخالفته وترك ما عهد إليهم به.

٤- ظلم بني إسرائيل في عبادتهم العجل؛ لأنهم يعلمون أنه لا إله إلا الله، فظلموا بصرف العبادة لغيره عن علم منهم، وظلموا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

٥- أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتخويفهم برفع الطور فوقهم؛ ليؤمنوا ويأخذوا ما أتاهم الله من شريعة التوراة بقوة، ويسمعوا سماع طاعة وامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾.

٦- شدة عتو بني إسرائيل، فما آمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور، أشبه بإيمان المكره.

٧- قدرة الله تعالى العظيمة وانقياد كل شيء له من الجبال وغير ذلك، مما يوجب تعظيمه والخوف منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾.

٨- وجوب أخذ الشريعة كلها بقوة وعزم؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾.

---

(١) انظر «ديوانه» ص١٨.

٩- شدة عناد بني إسرائيل ومكابرتهم؛ لقولهم ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

١٠- أن السمع نوعان: سمع إدراك هو مناط التكليف كما في قولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾، وسمع قبول؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾، وهو مناط المدح لمن قبل وأجاب، ومناط الذم لمن عصى.

١١- افتتان بني إسرائيل وولعهم بحب العجل وتأليهه بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

١٢- أن الإيمان الصحيح لا يأمر صاحبه بارتكاب ما ينافي الإيمان من قتل الأنبياء وعبادة العجل ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بئس هذه الأفعال، ولو كنتم مؤمنين حقا ما فعلتم ذلك.

١٣- تكذيب اليهود في زعمهم أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، وتحديهم بتمني الموت وطلبه أو الدعاء على أنفسهم بالموت، إن كانوا صادقين في دعواهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٤- شدة كراهة اليهود للموت، وأنهم لن يتمنوه ولا يمكن أن يتمنوه أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر وتكذيب الرسل وقتلهم وغير ذلك ولما يعلمون مالهم من سوء المصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

١٥- علم الله الغيب وما يستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ فنفى أن يقع منهم ذلك، كما قال في آية الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ [الآية: ٧].

وهذا إنما هو في الدنيا، أما في الآخرة فإن أهل النار يتمنون الموت، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧].

١٦- علم الله ﷻ بالظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو ﷻ عليم بكل شيء، وإنما خصَّ علمه بالظالمين تهديدًا لهم؛ لأن علمه بهم يقتضي محاسبتهم ومجازاتهم على ظلمهم.

١٧- أن اليهود أحرص الناس على حياة، فهم أحرص من الذين أشركوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حتى يود الواحد منهم أن يعمر ألف سنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

١٨- حرص المشركين على الحياة لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

١٩- لا فائدة في طول العمر إذا قضي في معصية الله تعالى لأنه لا يبعد من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾.

٢٠- لا قيمة لطول العمر ما لم يكن في طاعة الله تعالى.

٢١- إحاطة الله ﷻ وعلمه وبصره بما يعمل الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذه الآيات وما بعدها كالآيات قبلها في إبطال قول اليهود: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله وهو في أرض يخترف فأتى النبي ﷺ فقال: إني سألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلي أمه؟ قال رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفًا، قال: جبريل؟. قال: نعم قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن اليهود قالوا: جبريل عدونا من الملائكة الذي ينزل بالحرب والقتال والعدوان، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قرأ ابن كثير في الموضعين «جَبِريل» بفتح الجيم وكسر الراء من غير همزة، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة بعدها ياء، «جَبْرَئِيل»، وقرأ الباقون بكسر الجيم والراء من غير همزة ﴿جِبْرِيل﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ «من»: شرطية، وكان: فعل الشرط، وجوابه جملة:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٣)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٢٨٥) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٧٩-١٨٠).

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، و«جبريل» هو الملك الموكل بالوحي.

أي: من كان معاديًا لجبريل عليه السلام، مبغضًا له، كما هو حال اليهود الذين يعادون جبريل عليه السلام ويبغضونه، ويقولون: إنه ينزل بالعذاب والشدة والحرب والقتال ونحو ذلك.

والعجيب أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله، ويبغضونه مما يدل على اضطرابهم في معتقدهم.

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يعود إلى جبريل عليه السلام، والضمير المنصوب في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ يعود إلى القرآن، وقد تقدم ذكره في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ والسياق يدل عليه.

ومعنى ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: نزل القرآن الكريم من عند الله ﷻ على قلبك يا محمد، فوعاه قلبك وحفظه كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧].

والمعنى: من كان عدوًا لجبريل، فلا موجب لعداوته له إلا أنه نزَّل القرآن على قلبك بإذن الله، وكونه نزل القرآن مما يوجب موالاته لا معاداته؛ لأن موالاته على هذا موالاة لله، كما أن معاداته معاداة لله، كما دل عليه قوله بعد هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ الآية، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا﴾ الآية أشبه بتأكيد المدح بما يشبه الذم كقول الشاعر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم ... بهن فلولٌ من قراعِ الكتائبِ(١)

ولهذا يقولون: إن الذي منعهم من الإيمان بالقرآن نزول جبريل به.

وقيل: جواب الشرط محذوف، والتقدير: من كان عدوًا لجبريل فليمت غيظًا، فإنه نزل بالقرآن، ويكفيه شرفًا أَحَبُّوه أم عادَوْه.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذن الله الكوني القدري.

---

(١) البيت للنابغة. انظر: «ديوانه» ص٤٤.

وإذن الله ﷻ ينقسم إلى قسمين: إذن كوني قدري كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

والإذن الكوني كالمشيئة والإرادة الكونية لابد من وقوعه ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله، والإذن الشرعي كالإرادة الشرعية لا يلزم وقوعه، ولابد أن يكون محبوبًا لله ﷻ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حال كونه مصدقًا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين، أي: مصدقًا لما سبقه من كتب الله ﷻ كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها.

فهو مصدق لها ببيان أنها صدق وحق، وهو مصداق ما أخبرت به- كما سبق تفصيل هذا، وهذا مما يوجب موالاة من نزل به أيضًا، لا معاداته.

﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة وبيانًا وإرشادًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] فالقرآن هدى، أي: هداية عامة للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهو هدى هداية خاصة، للمؤمنين والمتقين المتبعين له المنتفعين به، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَبُشْرَىٰ﴾ البشرى والبشارة: الإخبار بما يسر.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: للمصدقين المنقادين للحق، ظاهرًا وباطنًا، وإنما كان القرآن بشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين آمنوا به وعملوا بمقتضاه، ففيه البشارة لهم بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة والجنة، به تطمئن قلوبهم وتنشرح له صدورهم ويثقون بما وعدهم الله فيه من النعيم والفوز العظيم.

فوصف القرآن وأثنى عليه بخمسة أوصاف وهي: أنه نزل من عند الله بإذنه، وأنه

منزل على قلب الرسول ﷺ، وأنه مصدق لما سبقه من الكتب، وأنه هاد أبلغ هدى، وأنه بشرى للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

لما ذكر في الآية السابقة ما يدل على أن عداوة جبريل عليه السلام الذي نزل بالقرآن هي عداوة لله الذي أنزل القرآن أتبع ذلك بتأكيد أن عداوة ملائكته ورسله وجبريل هي كفر وعداوة لله تعالى، وأن الله عدو للكافرين.

قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ أي: من كان معاديًا لله مخالفا لأمره مرتكبا لنهيه مستكبرًا عن عبادته، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾، أي: وعدوًا لملائكته.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: وعدوًّا لرسله بمخالفتهم وتكذيبهم، و«رسله» يشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معطوف على ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ من عطف الخاص على العام تنويهًا بشرف هذين الملكين كما في الحديث: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

و«جبريل» الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص: ﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ بغير همزة ولا ياء بعدها، وقرأ نافع وأبو جعفر: «وميكائل» بهمزة من غير ياء بعدها، وقرأ الباقون: «وميكائيل» بهمزة وياء بعدها.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٧)، والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٥٧)- من حديث عائشة رضي الله عنها.

و «ميكال» الموكل بالقطر والنبات الذي به حياة الأرض والأبدان.

قال ابن القيم(١): «وأعاد الله ذكر جبريل وميكال مع أنهما من الملائكة بلا خلاف لخصوصية فيهما، إما لأمر اختص بعلمه بهما اقتضى تخصيصهما، أو لأن جبريل روح الله وأمينه على وحيه، وميكال أمينه على خزائن فتحه ورحمته».

وقال ابن كثير(٢): «خصَّا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله أن من عادى واحدًا، فقد عادى الآخر وعاد الله أيضًا».

وأيضًا فمن عادى جبريل وميكائيل فكأنما عادى جميع الملائكة، كما أن من عادى محمدًا ﷺ أو أحد الرسل فكأنما عادى جميع الرسل.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، وفي هذا إثبات عداوة الله تعالى للكافرين.

والعداوة من الصفات الفعلية المرتبطة بالمشيئة فهو ﷻ يعادي الكافرين ويوالي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧].

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: «فإني عدو له» لتسجيل الحكم بالكفر على من كان عدوًا لله، أوعدوًا لملائكته أو رسله أو جبريل أو ميكال، ولبيان عموم عداوة الله لجميع الكافرين، وأن علة عداوته لهم هي كفرهم إضافة إلى مراعاة الفواصل- كما هو معلوم.

فمن كان عدوًا لله فهو كافر، ومن كان عدوًا لملائكته، أو لرسله أو لجبريل، أو لميكال فهو عدو لله وكافر.

وإذا كانت عداوة ملائكة الله ورسله عداوة لله تعالى، فإن عداوة أولياء الله من المؤمنين بسبب إيمانهم بالله ورسله وشرعه هي عداوة لله تعالى؛ ولهذا قال ﷻ في

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٢).

(٢) في «تفسيره» (١/ ١٩٠).

الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الواو: استئنافية، واللام للقسم، أي: والله لقد أنزلنا إليك آيات بينات، و«قد»: للتحقيق، والجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد»، والخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف له ﷺ وامتنان عليه، وتسليته ﷺ.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمع آية، وهي الدلالة والعلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: إن علامة ملكه.

وقال ﷺ للرجل الذي أرسله إلى وكيله في خيبر: «**إذا أتيت وكيلي بخيبر فضع يدك على ترقوته**»(٢)، أي: علامة على أنك مبعوث مني.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين، آيات شرعية، وآيات كونية، والمراد بالآيات هنا الآيات الشرعية، آيات القرآن الكريم، وفي تنكير «آيات» تعظيم للقرآن الكريم.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٍ﴾ أي: آيات واضحات مفصلات في ألفاظها ومعانيها ودلالتها وأحكامها، دالة على صدقك وصدق ما جئت به.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ﴾ أي: وما يكفر بهذه الآيات البينات، أي: وما يجحدها ويكذب بها ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي إلا الخارجون عن طاعة الله تعالى الذين بلغوا من الفسق غايته، فخرجوا من الإيمان إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وفي ذكر هذه الآية في سياق الكلام عن بني إسرائيل وعتوهم وعنادهم إشارة واضحة إلى قيام الحجة عليهم، بما أنزله الله تعالى على محمد ﷺ من آيات بينات، لا يجحدها ولا يكذب بها إلا من بلغ الغاية في الفسق مثلهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه هنا التوبيخ، والواو: عاطفة.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في الأقضية- الوكالة (٣٦٣٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

و«كلما»: أداة شرط تفيد التكرار، أي: كثرة وقوع شرطها وجوابها، وشرطها هنا ﴿عَٰهَدُواْ﴾ وجوابها ﴿نَبَذَهُۥ﴾ أي: أو كلما حصل منهم عهد حصل من فريق منهم نبذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

«والعهد» الميثاق المؤكد، ﴿نَبَذَهُۥ﴾ أي: طرحه ونقضه ولم يفِ به.

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: فريق من اليهود، والفريق: الجماعة، أي: جماعة منهم، وهو الأكثر بدليل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي تنكير «عهدًا» إشارة وتنبيه إلى أن هذا ديدن اليهود ومسلكهم في أي عهد يعاهدونه سواء كان العهد مع الله ﷻ، أو مع عباد الله، وسواء كان ذلك فيما بينهم، أو مع المسلمين أو مع غير المسلمين.

وقد أخذ الله عليهم كثيرًا من المواثيق والعهود في التوراة، منها الإيمان بالرسول ﷺ وما أنزل عليه- كما ذكر الله ذلك في كتابه- فنقضوها، كما عاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة فنقضوا العهد قبيلة تلو الأخرى كما هو معلوم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: إنما حملهم على نبذ العهد ونقضه كون أكثرهم لا يؤمنون؛ إذ لو كانوا مؤمنين ما نقضوا العهد؛ لأن الإيمان يوجب عليهم الوفاء بالعهد ويحرم عليهم نقضه.

الفوائد والأحكام:

١- عداوة اليهود لجبريل عليه الصلاة السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ وعلى هذا دلت السنة.

٢- فضل جبريل عليه السلام؛ لأن الله دافع عنه،وبين أنه نزل القرآن على قلب النبي ﷺ بإذن الله ﷻ، فهو رسول من عندا لله بالوحي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

٣- أن دور جبريل عليه السلام إنما هو واسطة ورسول فقط بين الله ورسله وأنبيائه، مؤتمن على الوحي لا يأتي بشيء من عنده.

٤- إثبات علو الله تعلى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٥- أن القرآن كلام الله منزل من عنده وبإذنه الكوني لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٦- وعي النبي ﷺ بقلبه لجميع القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: على سمعك، وقد قال تعالى في سورة القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، أي: جمعه في قلبك وقراءته عليك.

٧- لا شيء يجري في الكون إلا بإذن الله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٨- تصديق القرآن لما سبقه من الكتب السماوية؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فهو مصدق لها بالإخبار والشهادة بأنها صدق، وهو مصداق ما أخبرت به.

٩- أن القرآن الكريم هدى ودلالة وبشارة للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠- من كان عدوًا لله تعالى فهو كافر، والله عدو للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١١- من كان عدوًا للملائكة والرسل وجبريل وميكال فهو كافر، والله عدو للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٢- أن الله عدو لجميع الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ففي هذا إظهار في مقام الإضمار يؤكد عموم عداوته ﷻ لجميع الكافرين.

١٣- إثبات صفة العداوة لله تعالى وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة كالرضا والغضب ونحو ذلك، وهي صفة كمال؛ لأنه ﷻ يعادي أعداءه الكافرين.

١٤- أن عداوة الله ﷻ للكافرين سببها كفرهم.

١٥- تعظيم الله ﷻ لنفسه لأنه العظيم سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾.

١٦- تعظيم الله ﷻ للقرآن الكريم وأنه آيات ودلالات بينات واضحات؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

١٧- إقامة الحجة على الخلق بإنزال القرآن وما اشتمل عليه من الآيات البينات.

١٨- أن من كفر بالقرآن الكريم فهو من الفاسقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: إلا الخارجون عن طاعة الله تعالى وعن دينه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و(لما) ظرف بمعنى «حين» متضمن معنى الشرط، ﴿جَآءَهُمْ﴾: فعل الشرط، والضمير يعود إلى أهل الكتاب، وبخاصة اليهود الذين فيهم سياق الآيات، أي: ولما أتاهم رسول، مرسل من عند الله، وهو محمد ﷺ.

ونكَّر ﴿رَسُولٌ﴾ للتعظيم، فهو ﷺ أفضل الرُّسل، وسيد ولد آدم، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفّع**»(١).

وفي حديث أبي سعيد- رضي الله عنه: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر**»(٢).

وفي قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه، ﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ أي: مصدق بما جاء به من عند الله عز وجل.

﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ «ما» موصولة، أي: للذي معهم من التوراة والإنجيل، وغيرهما من كتبه- عز وجل- فهو مصدق وشاهد أنها من عند الله- عز وجل- قبل تحريفها، وهو

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٢٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٦١٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

مصدق لما جاء فيها من البشارة به ﷺ، ومصدق لما جاء فيها من الأخبار بمطابقة أخباره لأخبارها، كل هذه براهين دالة على صدقه، وصدق ما جاء به، مع ما اقترن به من الأدلة والبراهين غير ذلك، الدالة على صدقه، والتي هي أقوى مما اقترن بجميع الكتب قبله.

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ النبذ: الطرح والإلقاء للشيء بشدة، وعدم الاكتراث والاهتمام به، ومنه سمي اللقيط منبوذاً.

قال الشاعر:

نظـــرتَ إلى عنوانـــه فنبذتَـــه كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا(١)

﴿فَرِيقٌ﴾ الفريق الجماعة والطائفة، ومفهوم هذا: أن فريقاً منهم آمن، كالنجاشي من النصارىٰ، وعبدالله بن سلام من اليهود، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: من الذين أعطوا الكتاب، أي: أنزل عليهم الكتاب، و«ال» في «الكتاب» للعهد الذهني، فاليهود أعطوا التوراة، والنصارى أعطوا الإنجيل، وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم يقل: (فريق منهم) زيادة في التشنيع عليهم، وتنبيهاً على قيام الحجة عليهم، حيث أوتوا الكتاب وعرفوه، ومع ذلك ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والمراد بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ القرآن الكريم، وأضافه الله- عز وجل- إليه؛ لأنه كلامه بلفظه ومعناه، وفي إضافته إليه- عز وجل- تعظيم له وتهويل لأمر نبذه والكفر به.

وسُمي القرآن كتاباً؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، ولأنه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦]،

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي. انظر «ديوانه» ص(٢١).

كما أنه مكتوب في المصاحف التي بأيدي المؤمنين.

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: خلف ظهورهم، وهذا كناية عن شدة نبذهم ورفضهم واطراحهم لكتاب الله تعالى وعدم مبالاتهم بما جاء فيه، وشدة إعراضهم وتوليهم، وانصرافهم عنه بلا رجعة.

وقيل: المراد بـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ التوراة.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «كأن» للتشبيه، أي: أن حالهم في ذلك تشبه حال من لا علم عنده، أي: كأنهم لا يعلمون صدقه ﷺ، وأن ما جاء به من القرآن حق وصدق، يجب عليهم اتباعه، وهم في الحقيقة يعلمون ذلك؛ لما في كتبهم من البشارة به، والأمر بتصديقه، واتباعه.

وهذا من أخص صفات اليهود، ترك الحق، وكتمانه، وتكذيبه وجحده بعد معرفته كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ولهذا وصفهم الله- عز وجل- بالمغضوب عليهم؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، ومثلهم مَن سلك طريقهم في ترك الحق بعد معرفته، كما قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى»(١).

ولمّا لم ينتفعوا بعلمهم صاروا كمن لا يعلم، بل أقل وأسوأ حالاً منه، كما قال تعالى فيهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال تعالى عنهم وعن أشباههم من أهل الكفر: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٨٠).

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ الواو: عاطفة، وضمير الواو في (اتبعوا) يعود إلى الفريق من أهل الكتاب الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وهم اليهود.

﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: الذي تتبعه شياطين الجن والإنس، وتأخذ به، وترويه، وتحدث به الناس، من الكفر والسحر، فابتلي هؤلاء اليهود عقوبة لهم على نبذ كتاب الله، باتباع ما تتلو الشياطين، وهكذا من ترك الحق مع علمه به، ابتلي وعوقب باتباع الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

والشياطين: جمع شيطان، وهو كل متمردٍ عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى من الإنس والجن والحيوان، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ عُدِّيَ الفعل «تتلو» بـ«على»؛ لأنه ضمن معنى «تكذب».

ويحتمل أن تكون «على» بمعنى «في» أي: في ملك سليمان، أي: في عهده.

وهو سليمان بن داود- عليهما الصلاة والسلام، وإنما قال عز وجل: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ لأن الله قد جمع له بين النبوة والملك العظيم، خلاف ما يزعمه اليهود أنه ملك فقط، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ [النمل: ١٥] أي: علم النبوة، وقال

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبوداود في الصلاة- ما يقطع الصلاة (٧٠٢)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٥٢)- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

والسحر موجود قبل زمان سليمان- عليه السلام- فهو موجود في زمن موسى- عليه السلام- كما ذكر الله- عز وجل- عن سحرة فرعون؛ ولهذا جعل الله- عز وجل- من الآيات التي أيَّد بها نبيّه موسى- عليه السلام- انقلاب العصا حية، وإدخال يده في جيبه ثم خروجها بيضاء من غير سوء؛ وذلك لإبطال سحرهم.

وموسى- عليه السلام- قبل سليمان- عليه السلام- بمدد طويلة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١]. وداود المذكور، هو والد سليمان عليهما السلام.

بل إن السحر كان موجوداً ومعروفاً زمن نبي الله صالح- عليه السلام- وهو قبل إبراهيم الخليل- عليه السلام- أبي الأنبياء، من بني إسرائيل، ومن العرب؛ فقد قال قوم صالح له: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: من المسحورين، بل قد يكون السحر موجوداً قبل ذلك في سائر الأمم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

فالشياطين كانت تأتي السحر، وتعمله قبل سليمان- عليه السلام- وتعلِّمه الناس، وإنما أخبر عز وجل عن اليهود أنهم اتبعوا ما تتلوه الشياطين على عهد سليمان- عليه السلام- لأن الشياطين وأتباعهم من اليهود نسبوا ذلك إلى سليمان- عليه السلام- كذباً منهم وزوراً.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ الجملة مستأنفة، أو حالية في محل نصب، و«ما» نافية، أي: وما كفر سليمان بتعلم السحر، وتعليمه- كما يزعمه الشياطين وأتباعهم من اليهود؛ لأنه رسول من عند الله- عز وجل- معصوم من الكفر وأسبابه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«لكن» حرف استدراك.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «لكنِ» بتخفيف النون وكسرها، لالتقاء

الساكنين، و«الشياطينُ» بالرفع مبتدأ، وخبره جملة «كفروا».

وقرأ الباقون بتشديد نون «لكنَّ»، و«الشياطينَ» بالنصب اسمها، وخبرها ما بعده.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾، وهي في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم يعلمون الناس السحر.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ جملة استئنافية لبيان نوع كفرهم.

والسحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ولهذا قال ﷺ: «**إن من البيان لسحرا**»(١)؛ لأن البيان- وهو الفصاحة والبلاغة في الكلام- يؤثر في النفوس ويجذبها.

وهو في الشرع: عزائم ورقى وعقد ينفث فيها، فتؤثر في العقول والأبدان، بإذن الله عز وجل الكوني، ولا يحصل إلا بالشعوذة، ودعاء الشياطين، والاستعانة بهم، والكفر بالله.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يُقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله»(٢).

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» موصولة، بمعنى «الذي»(٣) معطوف على «السحر»، أي: يعلمون الناس السحر، والذي أنزل على الملكين من أنواعه، وهو ما يفرقون به بين المرء وزوجه.

والإنزال هنا بمعنى «الخلق»، كما قال ﷺ: «**ما أنزل الله من داء، إلا أنزل له دواء، علمه مَن علمه، وجهله من جهله**»(٤).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ استيقظ ليلة، فقال: «**سبحان الله، ماذا أُنْزِلَ الليلة من الفتنة، ماذا أُنْزِلَ من الخَزَائن، مَن يوقظ صواحب الحجرات، يا رُبَّ**

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٦)، وأبوداود في الأدب (٥٠٠٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٨) من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٦٦)، ومسلم في السلام (٢١٨٩)، وابن ماجه في الطب (٣٥٤٥)، وأحمد (٦/ ٥٠، ٦٣)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٥١).

(٣) وقيل: إن «ما» نافية، وتفسير الآية على هذا المعنى لا يخلو من تكلف.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤١٣، ٤٤٦)، وابن ماجه في الطب (٣٤٣٨)- من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه.

كاسيةٍ في الدنيا، عاريةٍ في الآخرة»(١).

والمراد بـ«الملكين» ملكان أنزلا إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر، وأنه جائز في حقهما، ابتلاءً وامتحاناً للناس، بعدما بيَّن لهم على ألسنة الرُّسل- عليهم الصلاة والسلام- أن ذلك لا يجوز.

قال الطبري(٢): «فبيِّنٌ أن معنى «ما» التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بمعنى «الذي»، وأن هاروت وماروت مترجم بهما عن «الملكين».. فإن التبس على ذي غباء ما قلنا، فقال: وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلِّم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله إنزال ذلك على الملائكة؟ قيل له: إن الله جلَّ ثناؤه عرَّف عباده جميعَ ما أمرَهم به، وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم، بعد العلم منهم بما يؤمَرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، فالسحر مما قد نهىٰ عبادَه من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون جلَّ ثناؤه علَّمه الملكين اللذين سمَّاهما في تنزيله، وجعلهما فتنة لعباده، من بني آدم، كما أخبر عنهما أنهما يقولان لَمن يتعلَّم ذلك منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ ليختبر بهما عباده، الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر، فيمحِّص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويخزي الكافر بتعليمه السحر والكفر منهما، ويكون في تعليمهما مَن علَّما ذلك، لله مطيعين، إذ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماه يعلمان، وقد عُبد من دون الله جماعة من أولياء الله فلم يكن ذلك لهم ضائراً، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عبد بعضهم والمعبود عنه ناه، فكذلك الملكان غير ضائرهما سحر من سحر، ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه وعِظتهما له، بقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ إذ كانا قد أديَّا ما أُمِرَا به بقيلهما ذلك».

﴿بِبَابِلَ﴾ «بابل» اسم بلد في العراق قريب من «الحلة» الآن، على بُعد أميال من ملتقىٰ الفرات ودجلة، من أعظم عواصم الكلدانيين، وأقدم مدن العالم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٢٦)، والترمذي في الفتن (٢١٩٦).

(٢) في «جامع البيان» (٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

روي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه مرَّ بـ«بابل» وهو يسير، فجاء المؤذِّن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أُصلي بأرض المقبرة، ونهاني أن أُصلي بـ«بابل» فإنها ملعونة»(١).

قال ابن كثير(٢): «وهذا الحديث حسن، عند الإمام أبي داود؛ لأنه رواه وسكت عنه، وفيه من الفقه: كراهية الصلاة بأرض «بابل»، كما تكره بديار ثمود، الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين»(٣).

﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ بدل من الملكين، أو عطف بيان، لبيان اسميهما، فأحدهما «هاروت» والآخر «ماروت»، وهما اسمان أعجميان ممنوعان من الصرف للعلمية والعجمة.

فأكثر المفسرين على أن «هاروت» و«ماروت» ملكان أُنزلا إلى الأرض يعلِّمان السحر ابتلاءً واختباراً للناس.

وقد روي في سبب إنزال «هاروت» و«ماروت» إلى الأرض وما كان من أمرهما آثار غريبة جدًّا عن جمع من السلف من الصحابة والتابعين(٤).

بل روي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ من طريق موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر- رضي الله عنهما- وفيه: أن الملائكة زعمت أنها أطوع لله من بني آدم، فابتلاهم الله- عز وجل- بإنزال هاروت وماروت، ومثلت لهما الزهرة بأحسن امرأة من البشر، وكان من أمرهما ما كان، من الشرك والسكر والزنا والقتل(٥).

وظاهر ذلك كله أنه من أخبار بني إسرائيل، التي لم يدل عليها كتاب ولا سُنَّة

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٤٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٩) مختصراً.

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٣)، ومسلم في الرقائق (٢٩٨٠)- عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم».

(٤) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٤٠-٣٤٩)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٨٩-١٩٢)- الآثار (١٠٠٥-١٠٠٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٤)، وفيه ابن جبير الأنصاري السلمي مولاهم الحذاء- مستور الحال- وأخرجه ابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٩٩) من طريق موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر، وأخرجه الطبري- مختصراً- من طريق معاوية بن صالح عن نافع عن ابن عمر- رضي الله عنهما. انظر «جامع البيان» (٢/ ٣٤٧).

صحيحة، خاصة وأنها تتعلق بأمر يمس عصمة الملائكة الذين قال الله- عز وجل- عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

قال ابن كثير- رحمه الله[١]- بعدما ذكر ما روي عن ابن عمر: «وأقرب ما في هذا أنه من رواية عبدالله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبي ﷺ»، ثم أشار إلى رواية عبدالرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم[٢]، من طريق موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر- رضي الله عنهما- موقوفاً عليه. قال ابن كثير: «فهذا أصح، وأثبت إلى عبدالله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه، من مولاه نافع، فدار الحديث، ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل».

وقال أيضاً[٣] بعد أن ذكر الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين: «وقصَّها خلق كثير من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح، متصل الإسناد، إلى الصادق المصدوق، المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط، ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن، على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال».

قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ الجملة حالية، و«ما» نافية، أي: والحال أنهما ما يعلمان- يعني الملكين هاروت وماروت، و«من» في قوله ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: وما يعلمان أيَّ أحد من الناس.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ «حتى» للغاية، أي: حتى يقولا له، أي: إلا بعد أن يقولا له ناصحين ومحذرين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وفي الإخبار بالمصدر «فتنة» مبالغة، وأكدت بالحصر، أي: لسنا إلا فتنة محضة.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ١٩٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٢٤٣، ٣٤٤)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٩٠)- الأثر (١٠٠٦).

(٣) في «تفسيره» (١/ ٢٠٣).

والفتنة: الابتلاء والامتحان، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: ابتلاؤك وامتحانك، وتكون في الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: إنما نحن في تعليمنا السحر ابتلاء وامتحان للناس؛ ليظهر مدى تمسكهم في دينهم.

﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: فلا تكفر بتعلُّم السحر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وذلك أنهما عُلِّما الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر»(١).

وعن الحسن البصري، قال: «نعم أُنزل الملكان بالسحر، ليعلما الناس البلاء، الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهما الميثاق، أن لا يعلما أحداً حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾»(٢).

ولهذا مَن تعلَّم السحر منهما وقع في الكفر؛ لأنه علم أن السحر كفر، وأقدم على تعلمه، على بصيرة منه، بعد أن قامت عليه الحجة.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه**»(٣).

ورُوي عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أتىٰ كاهناً أو عرَّافاً أو ساحراً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»(٤).

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ الفاء للتفريع، أي: فيتعلم الذين يجترئون على تعلم السحر بعد تحذيرهم منه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٢)- الأثر (١٠١٠).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٩٢)- الأثر (١٠١١).

(٣) أخرجه النسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩).

(٤) أخرجه الجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٥٠) من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه-. وأخرجه أبوداود في الطب (٣٩٠٤)، والترمذي في الطهارة (١٣٥٠)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٣٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- دون قوله: «أو ساحراً».

﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من الملكين: هاروت وماروت.

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» أي: السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، و﴿ٱلْمَرْءِ﴾ الرجل، ويقال للأنثى: «امرأة».

﴿وَزَوْجِهِۦ﴾ يقال لامرأة الرجل: «زوج» في الفصحى، وهي لغة أهل الحجاز، ويقال لها: «زوجة» في لغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد.

والمعنى: فيتعلمون من الملكين، السحر الذي يفرقون به بين الرجل وامرأته، مع قوة الصلة والمودة بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وهذا من أشد أنواع السحر، وأخبثها، وأعظمها ضرراً، يخيل فيه لكل واحد من الزوجين المسحورين صاحبه بأقبح صورة، حتى يكرهه، وينصرف عنه، ويفارقه، وهذا ما يسمى بالصرف.

وضده سحر العطف «التِّوَلة» وهو أشد وأخبث منه، يؤدي بالمسحورين إلى هيمان كل منهما وولعه بالآخر، زوجين كانا، أو غير ذلك، حتى لا يستطيع أحدهما فراق صاحبه، ولو لحظة، وخروج ذلك إلى حد الخبل، وكلا النوعين من عمل الشيطان وتزيينه.

عن جابر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين أهله. قال: فيقربه، ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نِعْمَ أنت**»(١).

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الجملة معترضة بين قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وبين قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾. وقد تكون حالية.

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٣).

قوله: ﴿وَمَا هُم﴾ «ما» نافية تعمل عمل «ليس»، والضمير «هم» في محل رفع اسم «ما»، يرجع إلى الذين يتعلمون السحر. ﴿بِضَآرِّينَ﴾ الباء حرف جر زائد، من حيث الإعراب، مؤكد للنفي، من حيث المعنى و«ضارين» اسم مجرور لفظاً، منصوب محلاً، خبر «ما»، وعلامة جره الياء.

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالسحر، الذي يفرقون به بين المرء وزوجه.

﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحداً، و«من» صلة لتأكيد النفي، أي: وما هم بضارين بالسحر أحداً، أي: أيَّ أحد من الناس.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الباء للسببية، أي: وما هم بضارين بالسحر من أحد بسبب من الأسباب إلا بإذن الله، أي: إلا بإذن الله، وقضائه الكوني القدري، فلا تأثير للسحر بذاته، فمن قضىٰ الله كوناً وقدراً أن يضره السحر ضره ذلك، ومن قضى أن لا يضره السحر، فلا يمكن أن يضره أبداً.

وإذن الله- عز وجل- ينقسم إلى قسمين: كوني، شرعي.

والفرق بينهما: أن الإذن الكوني لابد أن يقع، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله- عز وجل- كالإرادة الكونية.

والإذن الشرعي لا يلزم وقوعه، ولابد أن يكون محبوباً لله- عز وجل- كالإرادة الشرعية.

فإذن الله الكوني شامل لكل ما يقع في الكون من حركة أو سكون، فلا يمكن أن يقع في الكون شيء إلا بإرادة الله- عز وجل- وتقديره ومشيئته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩]. وله عز وجل الخلق، والملك، والأمر كله، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

قال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال: «نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضرّ أحد إلا بإذن

الله، كما قال الله تبارك وتعالى».

وفي رواية عنه قال: «**لا يضر هذا السحر إلا مَن دخل فيه**»(١).

فلله الحمد والمنة، أن جعل كيد الساحر في نحره، وتسلطه على بني جنسه ممن صدقه واطمأن إليه، وحفظ منه ومن شره من اعتصم بالله والتجأ إليه، وعبده- سبحانه، وتوكل عليه، كما قال عز وجل: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال عز وجل مخاطباً الشيطان معلم السحرة ووليهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فعلى العبد إخلاص العبادة لله- عز وجل- والتحصن بالقرآن والأذكار والأوراد الشرعية مع صدق التوكل على الله، وتمام الثقة به، فهو- عز وجل- الحافظ والكافي، والواقي من جميع الشرور، قبل وقوعها، والرافع لها بعد وقوعها، فمن توكل عليه حفظه ووقاه وكفاه ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

كما أن على المؤمن، أن يعلم حقارة الساحر، ومهانته وضعفه، وأنه لن يعدو قدره، فلا يباله، ولا يصدقه؛ لتسلم له عقيدته، ويسعد في دينه ودنياه وأخراه، وأن لا يلتفت لما يقوله الدجالون من السحرة والمشعوذين والكهنة وغيرهم من ضعاف الإيمان واليقين، من الوساوس والتوهيمات وإدخال المخاوف على الناس، فكل ذلك محض كذب وافتراء من الشيطان، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وهكذا كل صاحب باطل من أولياء الشيطان، لا يمكن أن يثبت أمام من كان على الحق؛ لأن وليّه الرحمن.

قال السعدي(٢): «وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر، ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق

---

(١) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٣)- الأثر (١٠١٨).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١١٩).

الأمة غير القدرية، في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة، غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع الصحابة والتابعين».

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وأعاد الفعل (يتعلمون) مع حرف العطف، لوقوع الجملة المعترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: الذي يضرهم في دينهم ودنياهم وأخراهم ضرراً محضاً؛ ولهذا قال: ﴿ولا ينفعهم﴾ فأثبت ضرره ونفى نفعه.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لإثبات كمال ضرره، فأفادت الآية إثبات الضرر ونفي النفع الذي هو ضده مفاد الحصر، كما في قول السموأل[1]:

تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل

فهم يتعلمون ما يضرهم ضرراً محضاً، لا فائدة فيه بوجه من الوجوه، وذلك بسبب ما يلي:

أولاً: أن تعلم السحر كفر، والكفر ضد الإيمان، وإذا فقد الإنسان الإيمان، فقد خسر الخسران المبين، مهما ملك من الدنيا.

ثانياً: أن ما يأخذه الساحر من أموال الناس بالباطل، مقابل عمله الباطل، يذهب سحتاً لا بركة فيه، ولا ينتفع به الساحر في حياته، بل تجده أفقر الناس وأتعسهم حياة، وهذا أمر مشاهد معلوم، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، كما قال تعالى في الربا: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقيل: إن المعنى: فيتعلمون ما يضر الناس ضرراً آخر، غير التفرقة بين المرء وزوجه، ولا ينفعهم البتة، في الدنيا- لأن أنواع السحر كلها لا يأتي منها إلا الضرر- وعلى هذا يكون

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٩١.

ضمير «هم» في قوله: ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ عائداً على غير ضمير (يتعلمون).

والصحيح المعنى الأول، وهو يتضمن المعنى الثاني؛ لأن تعلمهم السحر يضرهم ولا ينفعهم، كما يضر من أتاهم من الناس وصدقهم ولا ينفعه.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ الواو: عاطفة، أو للحال، واللام للقسم، أي: والله لقد علموا- يعني من تعلَّموا السحر من اليهود وغيرهم.

﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ اللام للتوكيد، فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، و«قد»، واللام، و«مَنْ» موصولة، أي: للذي اشترى السحر واعتاض به عن الإيمان.

﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ «ما» نافية ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وسميت الآخرة؛ لأنها متأخرة زمناً بعد الدنيا، وإلا فهي الدار الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿مِنْ خَلَاقٍ﴾ «من» صلة لتأكيد النفي، والخلاق: النصيب من الخير خاصة، أي: والله لقد علم الذين تعلَّموا السحر، من اليهود وغيرهم، أن من تعلمه، واعتاض به عن الإيمان، ما له في الآخرة أيّ نصيب من الخير، مهما قل. علموا ذلك من الشرع، وقول الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

والجزاء من جنس العمل؛ لأن الساحر كافر لا نصيب له في الدين فلا نصيب له في الآخرة. ومن لم يكن له نصيب في الآخرة، فليس له فيها إلا الخسران والبوار، والخلود في جهنم، وبئس القرار.

قال ابن القيم[1]: «أي: علموا من أخذ السحر، وقبله لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة، فهم يشترون به ويقبلونه ويتعلمونه».

وهذا ديدن اليهود، ترك الحق بعد معرفته، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الواو: عاطفة، واللام:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٣).

للقسم، و«ما» اسم موصول، أي: والله لبئس الذي شروا به أنفسهم. و«بئس» فعل ماضٍ جامد يفيد الذم.

«شروا» بمعنى: باعوا، كما قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] أي: باعوه، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] أي: يبيع نفسه طلباً لرضا الله.

فالشراء: بيع، والشاري هو البائع الذي يدفع السلعة، ويأخذ ثمنها، والمشتري هو المبتاع الذي يدفع الثمن ويأخذ السلعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي: لمن اشترى السحر وأخذه واعتاض به عن الإيمان.

والضمير «به» في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ يعود إلى السحر.

فباعوا أنفسهم بثمن حقير قبيح زهيد وهو السحر، فخسروا أنفسهم، وخسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وتحقق فيهم قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وإذا كان الله- عز وجل- ذمَّ ما باعوا به أنفسهم، وقبَّحه، وأقسم على ذلك، فلا يقدر قدر قبحه- إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ «لو» شرطية، غير عاملة، وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: لو كانوا يعلمون، ما باعوا أنفسهم بتعلُّم السحر، وفي هذا توبيخ لهم، ونداء عليهم بالجهل، ووصف لهم به، أي: إنهم لو كانوا يعلمون علماً ينتفعون به، ما باعوا أنفسهم بتعلُّم السحر، الذي يضرهم، ولا ينفعهم، وهو سبب شقائهم، وخسرانهم وهلاكهم، في الدنيا والآخرة.

وهذا لا ينافي ما وصفهم به في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ لأنهم لما لم ينتفعوا بعلمهم، بل تركوا الحق بعد ما علموه، وأقدموا على السحر، وقد علموا أن مَن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، صاروا كمن لا يعلم، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الذم والخسران المبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ الواو: استئنافية، و«لو» كسابقتها، والضمير في «أنهم» يعود إلى الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وتعلموا السحر، واعتاضوا به عن الإيمان، من اليهود وغيرهم.

﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: واتقوا الله؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

والتقوى: أصلها «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية، فقيل: «تقوى».

وهي مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الشيء المخوف وقاية، فتتقي الشوك بلبس النعلين ونحوهما، وتتقي البرد بلبس الملابس الثقيلة ونحو ذلك، وتتقي الحر، بالبعد عن الشمس، واستعمال وسائل التبريد ونحو ذلك.

وأعظم ذلك تقوى الله- عز وجل- وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه. قال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا[1]

وقال الآخر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى
كن مثل ماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى[2]

والمعنى: ولو أنهم آمنوا، فصدقوا بقلوبهم وألسنتهم، وانقادوا بجوارحهم، لفعل ما أمرهم الله به، وترك ما نهاهم عنه، من السحر وغيره- فيما مضى وفيما يستقبل- وهذا يدل على أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، كما يدل على كفر مَن تعلَّموا السحر، وعدم إيمانهم.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المثوبة: الأجر والجزاء، وسُمي أجرهم وجزاؤهم بالمثوبة، أخذاً من ثاب يثوب، إذا رجع؛ لأن ثمرة عملهم رجعت إليهم، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) البيت لأفيون التغلبي. انظر «لسان العرب» مادة: «وقى».

(٢) الأبيات لابن المعتز. انظر: «ديوانه» (٢/ ٣٧٦)- تحقيق محمد بديع شريف- دار المعارف بمصر.

والمعنى: لكان لهم ثواب جزيل، وأجر عظيم، عند الله- عز وجل- في الدنيا والآخرة.

وفي وصف المثوبة بأنها من عند الله- عز وجل- تعظيم وتفخيم لها؛ لأنها من عند الله الجواد الكريم، فلا يدرك قدر عظمتها، إلا العظيم سبحانه.

وفي ذلك تأكيد ضمانها لهم؛ لأنها من عند الله- عز وجل- وهو الذي لا يخلف الميعاد.

وحقيقة هذه المثوبة التوفيق للسعادة في الدنيا تحت ظل الإيمان والتقوى، وفي الآخرة السعادة بدخول جنات النعيم، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: أن مثوبة الله خير من كل شيء، خيرية مطلقة، خير مما باعوا به أنفسهم من تعلُّم السحر وتعليمه، ومما يحصلون عليه من متاع الدنيا، والثمن القليل، وغير ذلك.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا من ذوي العلم النافع الذين ينتفعون بعلمهم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**لَرَوْحَةٌ في سبيل الله، أو غَدْوَةٌ، خير من الدنيا وما فيها، وَلَقَابُ قوس أحدكم من الجنة، أو موضع سوط أحدكم خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطَّلَعَت إلى أهل الأرض، لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحاً، وَلَنَصِيفُهَا على رأسها خير من الدنيا وما فيها**»(١).

فمِن سعة حلمه- عز وجل- ورحمته- عرض على هؤلاء، وحضهم على الإيمان والتقوى، ووعدهم بالمثوبة العظمى، مع ما حصل منهم من اتباع الشياطين، وتعلُّم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٨٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥١)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٧).

السحر والكفر، كما قال تعالى مخاطباً موسى وهارون- عليهما السلام- في دعوتهما فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وكما عرض عز وجل التوبة على الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٣، ٧٤]، وعرض عز وجل التوبة على أصحاب الأخدود، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قوله: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لو» كسابقتيها، وجوابها دل عليه السياق، أي: لو كانوا يعلمون لآمنوا واتقوا.

وفي قوله هنا: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، تأكيد لشدة جهلهم، وعدم علمهم، وأن العلم الحقيقي الممدوح إنما هو ما انتفع به صاحبه، وأن من أعظم الجهل ترك الحق بعد معرفته والعلم به، وهذا من أخص أوصاف اليهود، ولهذا استحقوا غضب الله ومقته.

الفوائد والأحكام:

١- توبيخ أهل الكتاب والإنكار عليهم في تكذيبهم الرسول ﷺ وردهم ما جاء به من الحق.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وأنه مرسل من عند الله- عز وجل- للناس جميعاً، من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا رد على مَن يزعم من أهل الكتاب أن رسالته ﷺ خاصّة بالعرب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلت به؛ إلا كان من أصحاب النار**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٣)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

٣- إخبار الكتب السماوية السابقة وبشارتها ببعثته ﷺ، وتصديقه ﷺ لما جاء فيها، فهو ﷺ مصدِّق لها، ومصداق ما أخبرت وبشَّرت به.

٤- شدة تكذيب أهل الكتاب للرسول ﷺ، ونبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، واستهانتهم واستخفافهم به، وإعراضهم عنه، وقبح مسلكهم وسوء صنيعهم.

٥- أن القرآن كلام الله- عز وجل-؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

٦- لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في تكذيب فريق منهم رسول الله ﷺ، ونبذ القرآن وراء ظهورهم، لبشارة كتبهم به، وعلمهم التام بذلك، ومعرفتهم له كما يعرفون أبناءهم.

٧- أن قيام الحجة على العالِم أعظم من قيامها على الجاهل، فمن رد الحق مع علمه به ومعرفته له، فهو أعظم ذنباً وأشد عقوبة ممن رده عن جهل؛ لأن الجاهل قد يعذر؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- أن مَن ترك الحق وأعرض عنه عناداً واستكباراً؛ ابتلي وعوقب باتباع الباطل، فهؤلاء اليهود الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ابتلوا باتباع ما تتلوه الشياطين من السحر والكفر، عقوبة لهم على نبذ ما جاءت به الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.

٩- ذم اليهود باتباعهم ما تتلوه الشياطين، وتمليه على ملك سليمان، من الأخبار الباطلة الكاذبة، ومن تعليم السحر.

١٠- إثبات نبوة سليمان- عليه السلام- وملكه العظيم.

١١- أن السحر من تعليم الشياطين، وأعمالهم السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

١٢- تبرئة الله عز وجل سليمان- عليه السلام- مما عليه الشياطين، من الكفر، وتعليم السحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٣- ابتلاء الناس وامتحانهم بإنزال السحر على الملكين، هاروت وماروت، ببابل، لتعليمه للناس، بعد بيانهما لمن يعلِّمانه أنهما فتنة، وتحذيرهما له من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾.

١٤- يجب على العاقل أن لا يغريه تيسر أسباب المعاصي للوقوع فيها، وأن يتأمل في عواقبها الوخيمة ويحذر منها، وأن يعلم أن ذلك من الابتلاء والامتحان له.

١٥- في تحذير الملكين لمن يعلِّمانه السحر من الكفر: إرشاد له لما خلق من أجله، وهو الإيمان بالله- عز وجل- وعبادته، مع اقتران ذلك بالابتلاء بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

١٦- يجب على المسلم النصح للآخرين، وإن أدَّى ذلك إلى إعراضهم عنه، ففي باب التعامل، يبيِّن صفة سلعته، وعيبها إن وجد، وفي باب قول الحق يقول الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

١٧- ليس فيما فعله الملكان من تعلُّم السحر وتعليمه منافاة لعصمة الملائكة؛ لأن الله- عز وجل- أباح لهما ذلك، وإن كان ذلك في حق غيرهما كفراً ومعصية، وذلك ابتلاء وامتحان للناس.

١٨- أن تعلم السحر وتعليمه كفر أكبر مخرج من الملة، وقد دلّت الآية على ذلك في عدة مواضع، منها ما يلي:

أ- قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ فهو كفر ومن عمل وتعليم الشياطين.

ب- قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: فلا تكفر بتعلم السحر، والعمل به.

جـ- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ والذي لا خلاق له ولا نصيب في الآخرة هو الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا

يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

د - قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ فأقسم- عز وجل- بأنهم باعوا أنفسهم بأسوأ وأقبح شيء، وليس هناك أسوأ ولا أقبح من الكفر.

هـ- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنهم لا علم عندهم، بل ليس عندهم إلا الجهل المطبق، وليس هناك أجهل ممن كفر بربه.

و - قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ وهذا يدل على أنهم بتعلُّم السحر والعمل به جانبوا الإيمان والتقوى، أي: كفروا.

ز- تأكيد عدم علمهم وشدة جهلهم بما ينفعهم؛ لقوله تعالى في الآية الثانية: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقد قال ﷺ: «**من أتى عرَّافاً أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمد**»(١)، وإذا كان من أتاهما يكفر، فكفرهما من باب أولى. والعراف والكاهن والساحر كلهم يستخدمون الشياطين، ويدّعون علم الغيب، وكل ذلك كفر بالله عز وجل.

١٩- إثبات حقيقة السحر وتأثيره، وعظم شره وخطره، وذمه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾، كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ولهذا يجب قتل الساحر، فعن بَجَالَةَ بْنِ عَبْدَةَ قال: «كتب عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر»(٢).

وصح عن حفصة أم المؤمنين- رضي الله عنها- «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها. فقُتِلَت»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩٠، ٩١).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ»، وعبدالرزاق. وانظر: «أحكام القرآن للجصاص» (١/ ٥٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٧)، «تيسير العزيز الحميد» ص(٢٩٣).

وعن الحسن عن جندب الأزدي- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»(١).

وقد رُوي من طرق متعددة: «أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل، ثم يصيح به، فيرد إليه رأسه. فقال الناس: سبحان الله، يحيي الموتى، ورآه جندب بن كعب الأزدي، فلما كان من الغد جاء مشتملاً على سيفه. وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط جندب سيفه، فضرب عنق الساحر. وقال: إن كان صادقاً فليحي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فحبسه، ثم أطلقه»(٢).

وعن حارثة قال: «كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله، فقال: أراه كان ساحراً»(٣).

قال الإمام أحمد: «صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ- يعني: عمر، وحفصة، وجندباً- رضي الله عنهم(٤).

فيُقتل الساحر- على الصحيح، رجلاً كان أو امرأة، مسلماً كان أو غير مسلم.

واختلفوا في قبول توبة الساحر، والصحيح أنها تقبل، كما تقبل توبة المشرك.

٢٠- أن من أخبث أنواع السحر وأشده ضرراً، ما يفرق بين الأزواج، وهو المسمى بالصرف، ويقابله العطف، وهو أخبث منه وأشد.

٢١- حرص الشياطين وأتباعهم من السحرة على إفساد ما بين الأزواج.

٢٢- أن نفوذ السحر وأثره وضرره لا يحصل إلا بإذن الله- عز وجل- الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٦٠). وقال: «والصحيح عن جندب موقوف».

قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٧): «قلت: رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً».

(٢) ذكر هذا ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) أخرجه أبوبكر الخلال- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٨).

(٤) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٣٩٤).

وهكذا جميع الأسباب مهما عظمت وكثرت، لا تأثير لها إلا بإذن الله- عز وجل- وتقديره.

وفي هذا رد على القدرية في زعمهم أن أفعال العباد خارجة عن قدرة الله، وأنها مستقلة غير تابعة لمشيئته عز وجل.

٢٣- أن تعلم السحر ضرر محض، لا نفع فيه بوجه من الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فهو كفر، وسبب للشقاء في الدنيا والآخرة، وما يأخذه الساحر من أموال الناس بالباطل يذهب سحتاً، لا ينفعه لا في دينه ولا في دنياه.

٢٤- علم اليهود بأن من اشترى السحر لا نصيب له في الآخرة، وإقدامهم مع ذلك على تعلمه وتعليمه والعمل به، جرأة منهم على الله- عز وجل-؛ ولهذا وصفوا في القرآن الكريم بالمغضوب عليهم؛ لتركهم الحق بعد معرفته، وارتكابهم الباطل مع العلم به.

٢٥- توكيد ذم السحر وقبحه، وسوء عاقبة أهله الذين باعوا به أنفسهم، من اليهود وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢٦- شدة جهل من تعلموا السحر من اليهود وغيرهم، وعدم علمهم علماً ينفعهم ويقودهم إلى الخير ويبعدهم من الشر، إذ لو كان عندهم أدنى علم بما ينفعهم ما تعلَّموا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٢٧- سعة حلم الله- عز وجل- ورحمته- حيث عرض على هؤلاء الذين اتبعوا الشياطين، وتعلموا السحر والكفر أن يؤمنوا، ويتقوا، ورغَّبهم في ذلك، ووعدهم عليه بالمثوبة العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٢٨- أن الإيمان تصديق بالقلب واللسان، وعمل بالجوارح، بفعل الأوامر وترك النواهي، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان والتصديق

بدون عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾.

٢٩- أن ما عند الله من المثوبة والأجر العظيم لمن آمن به واتقاه خير من مكاسب الدنيا كلها، بل ومن الدنيا وما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٣٠- تأكيد شدة جهل من آثروا اتباع الشياطين، والكفر وتعلم السحر، على الإيمان والتقوى من اليهود وغيرهم، وعدم علمهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٣١- أن التفضيل قد يقع بين شيئين لا فضل في أحدهما البتة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، ومعلوم أنه لا خير البتة في السحر والكفر، بل كل ذلك شر محض. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، إذ لا خير البتة ولا حسن في مصير أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

٣٢- أن من أعظم الجهل، وآكده وأشده ضرراً، ترك الحق والعمل به، بعد معرفته والعلم به، ولهذا أكد عز وجل عدم علم المذكورين مرتين بقوله: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾.

ذم الله- عز وجل- في الآيات السابقة اليهود لنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، واتباعهم الشياطين، وتعلمهم السحر، وفي هذا ما فيه، من التحذير من مسلكهم الشائن، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين أن يقولوا: «راعنا» لاتخاذ اليهود هذه المقالة ذريعة لسب النبي ﷺ.

رُوي أن اليهود كانوا إذا أرادوا أن يقولوا: «اسمع لنا» يقولون: «راعنا»، يورون بالرعونة، فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن قولها(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى، نكرة مقصودة، مبني على الضم ، في محل نصب، مفعول به، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول، مبني على الفتح، صفة لـ«أي»، أو بدل.

وتصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام. ونداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريم وتشريف لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الطلب؛ بفعله إن كان أمراً، وتركه إن كان نهياً يعد من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك يعد نقصاً في الإيمان.

﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان لغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق. وقال تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١٣).

وقال ابن تيمية: معناه الإقرار، لا مجرد التصديق[١].

وعلى هذا فأبوطالب عم النبي ﷺ مصدق له، كما قال:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل[٢]

وقال أيضاً:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا[٣]

لكن تصديقه لم يدخله في الإيمان؛ لأنه لم يقر ولم يذعن ولم يَنقَدْ.

والإيمان شرعاً: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح.

وهو يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[٤].

﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ «لا» ناهية، (راعنا) من المراعاة، أي: راع أحوالنا وارفق بنا، فكانوا يطلبون من النبي ﷺ مراعاتهم، والتأني بهم في تعليمه لهم، ليفهموا عنه ما يقول، وهي بهذا المعنى وهذا القصد لا بأس بها.

ولكن اليهود- لعنهم الله- كانوا يقولونها للنبي ﷺ ويورون بالرعونة، أي: يقصدون وصفه ﷺ بـ«الرعونة» وهي الحمق والجهل، تنقصاً منهم له ﷺ ومسبة له، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٢٩٠-٢٩٣، ٥٢٩-٥٤٣، ٦٣٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٩)، و«الحماسة المغربية» (١/ ١٠٤).

(٣) انظر: «ديوان أبي طالب» ص١٠٨، «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٦١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٦)- الأثر (١٠٣٧).

وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦].

وكما كانوا يُحيِّون النبي ﷺ بقولهم: السام عليك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ ﴾ [المجادلة: ٨]. ويقصدون بالسام الموت؛ ولهذا أمر ﷺ بالرد عليهم بـ«وعليكم». وقال ﷺ: «**إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا**»(١).

فنهىٰ الله- عز وجل- المؤمنين عن هذه المقالة «راعنا»، سدًّا لذريعة مشابهة اليهود في قيلهم، ومقصدهم السيئ، ولقطع الطريق أمامهم، وأمام مَن سلك مسلكهم من المنافقين؛ حتى لا يستمروا في استعمال هذه المقالة، مع ما يضمرونه من المقصد السيئ، بحجة أن المسلمين يقولونها.

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن تشبَّه بقوم فهو منهم**»(٢).

ويؤخذ من الآية وجوب البُعد عن التعابير التي قد يفهم منها معانٍ سيئة، وسد الذرائع والوسائل التي يتوصل بها إلى أمر محظور.

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ أي: إذا أردتم من الرسول ﷺ أن يراعيكم ويرفق بكم فلا تقولوا ﴿رَٰعِنَا ﴾ ولكن قولوا ﴿ٱنظُرۡنَا ﴾ أي: ارفق بنا، وارقبنا وانتظرنا، نتبين ما تقول لنا، وتُعلمنا.

﴿وَٱسۡمَعُواْ ﴾ لم يذكر المسموع؛ ليعم كل ما أمر الشرع باستماعه من سماع كلام الله- عز وجل- وكلام رسوله ﷺ، سماع تدبر، وطاعة وانقياد، واستجابة وانتفاع، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١].

وسماع وعي تام ومزيد من التلقي، لا يحتاجون معه إلى طلب المراعاة والانتظار.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ عامة، وبخاصة اليهود ﴿عَذَابٌ ﴾ أي: عقاب، ﴿أَلِيمٞ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٥)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٩٨)، وأحمد (٦/ ٣٧، ٢٢٩) من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس (٤٠٣١)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٧)، وأحمد (٢/ ٥٠).

«فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومؤلم معنويًّا للقلوب.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين في الآية السابقة أن يقولوا: «راعنا» وفي ذلك تعريض بذم اليهود، وذكر أذيتهم للنبي- ﷺ، وفي هذه الآية بيان السبب في ذلك وهو حسدهم للمؤمنين.

قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «ما» نافية، أي: ما يحب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾.

والكفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافراً؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وسمي الكافور، أو الكَفَر، وهو وعاء طلع النخل؛ لأنه يستر ما بداخله من الثمر- وهكذا.

والكفر: ضد الإيمان، وهو: إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته، أو شيء من ذلك، وعدم الانقياد لشرع الله؛ استكباراً، أو جحوداً، أو إعراضاً، أو شكًّا، أو نفاقاً.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ «من» لبيان الجنس؛ لأن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى كلهم بعد بعثة محمد ﷺ كفار إلا مَن آمن به ﷺ، كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي، من حيث المعنى و﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ما يود الذين كفروا من هؤلاء وهؤلاء، والمراد بالمشركين: عبدة الأوثان والأصنام، من كفار قريش.

﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب: «يُنْزَل» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: ﴿يُنَزِّلَ﴾، والفرق بينهما: أن الإنزال أن ينزل الشيء جملة واحدة، والتنزيل أن ينزل شيئاً فشيئاً.

«وأن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل نصب مفعول «يود».

﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ما يود هؤلاء حسداً منهم وبغياً تنزيل أيّ خير عليكم من ربكم، مهما قل، لا في الدين، ولا في الدنيا، ولا في الآخرة.

والخير: النعمة والفضل، وأعظم ذلك الوحي والشرع الذي أنزله الله- عز وجل- على نبيه محمد ﷺ، والذي هو الخير، وأصل كل خير، به أخرج الله الناس من الظلمات إلى النور، وأنقذهم من النار، وأدخلهم الجنة.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، «من» لابتداء الغاية، أي: من خالقكم ومالككم ومدبركم، والمراد هنا: ربوبية الله الخاصة لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين.

ومعنى الآية: ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى وعَبَدَة الأوثان والأصنام؛ لشدة عداوتهم لكم، أن ينزل عليكم أيّ خير من ربكم من الوحي وغيره.

أما عبدة الأوثان والأصنام فلجهلهم وتمسكهم بما عليه آباؤهم من الشرك، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وأما أهل الكتاب- وبخاصة اليهود- فلحسدهم للمسلمين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

ولهذا يجب على المسلمين الحذر والاحتراز من عموم الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم، وعدم الاطمئنان إليهم، وعدم توليتهم شيئاً من أعمال الأمة القيادية؛ لأنهم مهما

تظاهروا بالنصح والود، فهم أعداء لا يودون الخير للمسلمين. وهذا ما حدا بعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لما أُخبر أن أبا موسى- رضي الله عنه- استخدم كاتباً نصرانيًّا أن يأمره بعزله، فراجعه أبوموسى في ذلك، وأثنى عليه في كتابته وعمله، وأنه لا يوجد مَن يقوم بعمله مثله. فكتب إليه عمر بعزله، وقال: اعتبر أنه مات، أتتعطل أمور الأمة؟

وقد أحسن القائل:

لا تـــأمنن عـــدوًّا لان جانبـــه ... خشونة الصل عقبى ذلك اللين(١)

وقال الآخر:

إن الأفـاعي وإن لانـت ملامسـها ... عنـد التقلـب في أنيابهـا العطـب(٢)

﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ معطوف على قوله ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ أي: والله يخص برحمته الذي يشاء من عباده، كما قال تعالىٰ: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ [يوسف: ٥٦]. و﴿يَخۡتَصُّ﴾ على هذا متعدٍ، ومفعوله «من» الموصولة في محل نصب، ويجوز أن يكون لازماً، وتكون «من» في محل رفع فاعل، والمعنى: والله يختص، أي: ينفرد برحمته من يشاؤه.

والمعنيان متلازمان، فالله يخص برحمته مَن يشاء مِن عباده، فيختص وينفرد بها.

والمراد بـ«الرحمة» هنا ما يعم رحمة الدين والدنيا، ومن أعظم ذلك ما خص به نبينا محمداً ﷺ وأمته من بعثته فيهم، وإنزال القرآن عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: من يريد، والمشيئة بمعنى الإرادة الكونية، أي: والله يخص برحمته الذي يريد كوناً رحمته.

---

(١) البيت للشريف الرضي.

(٢) البيت لعنترة بن شداد.

ففضل الله- عز وجل- لا يجلبه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، كما جاء في الأثر: «إن رزق الله لا يجلبه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره».

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم**»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»(٢).

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ «ذو» بمعنى صاحب، والفضل: العطاء الزائد، أي: والله- عز وجل- صاحب العطاء الزائد كمية وكيفية، الواسع الكثير الكبير، الذي لا أعظم منه، ولا يقدر قدر عظمته إلا هو سبحانه وتعالى. يعطي عباده ما سألوه، وفوق ما سألوه، وما لم يسألوه. وكل ما هم فيه من نعم ومنن دينية ودنيوية هي من فضله وجوده وكرمه. ومن فضله العظيم وجوده العميم ما أنعم به على هذه الأمة من بعثة محمد ﷺ منهم، وإنزال القرآن بلغتهم، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢-٤].

وقد قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وفي هذا إرغام لأنوف أهل البغي والحسد لهذه الأمة، على ما آتاها الله من فضله، من اليهود والمشركين وغيرهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات (٢١٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (٤/ ٢٨٦، ٢٨٨)- من طريق حنش الصنعاني، قال ابن منده: «هذا إسناد مشهور، ورواته ثقات».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أمر أو نهي من مقتضيات الإيمان، وأن عدمه يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٣- نهي الله- عز وجل- المؤمنين عن مشابهة أهل الكتاب في أقوالهم وأفعالهم، وبخاصة ما يورون به لمعانٍ سيئة كقولهم: «راعنا» ويورون بذلك عن معنى «الرعونة» أي: الحمق والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾.

٤- تجنِّي اليهود في تحريف الكلم عن مواضعه، وجرأتهم على وصف الرسول ﷺ والمؤمنين بالمعاني السيئة القبيحة.

٥- وجوب الاحتراز من التعابير التي قد توهم معاني سيئة، والحرص على الأدب في الألفاظ فذلك أكمل وأسلم.

٦- سد الذرائع الموصلة إلى أمر محظور شرعاً.

٧- النهي عن التشبه بالكفار في أقوالهم، وأفعالهم، ولباسهم، وأعيادهم، وعباداتهم، وعاداتهم، وغير ذلك.

٨- سعة التشريع الإسلامي ويسره، فلما نهى الله- عز وجل- المؤمنين أن يقولوا: «راعنا» أبدلهم عن ذلك فقال: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾.

٩- وجوب السمع لأمر الله ورسوله، سماع تدبر وانتفاع، واستجابة وطاعة وانقياد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ ﴾.

١٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، للكافرين المخالفين لأمر الله، المرتكبين لنهيه، بالعذاب المؤلم حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

١١- شدة عداوة الكفرة من أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين، وكراهيتهم أن ينزل الله على المؤمنين أيّ خير من ربهم، فالمشركون بسبب جهلهم وتقليد آبائهم، وأهل الكتاب بسبب الحسد الذي ملأ قلوبهم، وأعمى بصائرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٢- أن الكفر ملة واحدة، ضد الإيمان وأهله، فالكفرة سواء كانوا من اليهود، أو النصارى أو المشركين، أو الملحدين، أو غيرهم كلهم مجمعون على عداوة الإيمان وأهله.

١٣- وجوب الحذر من الكفار؛ من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم، وعدم تمكينهم من مسؤوليات الأمة وأسرارها، وعدم الاطمئنان إليهم وإلى مشوراتهم؛ لأنهم مهما أظهروا النصح والود فهم أعداء، لا يودون الخير للمسلمين، كما ذكر الله عنهم.

١٤- أنَّ مَن يتربص بالأمة الشر ولا يود لها الخير، من المنافقين وغيرهم من ضعاف الإيمان فيهم شبه من اليهود والمشركين.

١٥- أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والقرآن أول خير، وأعظم خير أنزل على هذه الأمة، وأول وأعظم ما حسدها عليه الحاسدون، من اليهود وغيرهم.

١٦- إثبات صفة العلو لله- عز وجل، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ علو الذاتِ، وعلو الصفات؛ لأن التنزيل يكون من أعلى إلى أسفل.

١٧- إثبات الربوبية الخاصة لله- عز وجل- ربوبيته لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٨- اختصاص الله- عز وجل- محمداً ﷺ بهذه الرسالة العظيمة، وبهذا القرآن العظيم، واختصاص هذه الأمة، بجعله منهم، برحمته- عز وجل- وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

١٩- إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل- رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يختص بها مَن يشاء.

٢٠- إثبات المشيئة والإرادة الكونية لله- عز وجل- وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٢١- أن الخلق والملك والتدبير كله لله عز وجل، يختص مَن يشاء بما يشاء، ويمنع ما

يشاء عمَّن يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، وخيره لا يجلبه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

٢٢- أن الله- عز وجل- صاحب الفضل العظيم على جميع خلقه، فكل ما هم فيه من نعم خاصة أو عامة دينية أو دنيوية أو أخروية فهي منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ﴾ [النحل: ٥٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

نبذ أهل الكتاب كتاب الله القرآن الكريم وراء ظهورهم، وكذبوا نبيه محمداً ﷺ زاعمين بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ومنكرين نسخ شريعتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، تبين جواز النسخ بين الشرائع، وفي الشريعة الواحدة، كما بيّن عز وجل- قبل هذا- تكذيبهم للأنبياء، وقتلهم لهم، خلاف ما يزعمون من تمسكهم بدينهم، وأن غاية ما حملهم على نبذ كتاب الله- عز وجل- وتكذيب رسوله هو البغي والحسد.

قوله: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ قرأ ابن عامر: «ما نُنْسِخ» بضم النون وكسر السين، وقرأ الباقون: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ بفتح النون والسين.

و«ما» في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ اسم شرط جازم، و«ننسخ» فعل الشرط، وجوابه «نأت».

وقد تكلم عز وجل عن نفسه في قوله «ننسخ» و«ننسها» و«نأت» بضمير الجمع تعظيماً لنفسه؛ لأنه العظيم سبحانه.

والنسخ لغة: الرفع والإزالة[1]، يُقال: نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر، أي: أزالته، ومنه النسخ في القرآن الكريم، كما في هذه الآية ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي: ما نرفع ونزل من لفظ آية أو حكمها، أو لفظها وحكمها جميعاً.

وهو شرعاً: رفع حكم دليل شرعي أو لفظه بدليل شرعي.

﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ «من» لبيان الجنس، والآية لغة: العلامة، وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

---

(١) ويأتي النسخ لغة بمعنى النقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

آيات شرعية، كما في هذه، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١]، وآيات كونية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما نبدل من آية»(١).

وعن مجاهد عن أصحاب عبدالله بن مسعود أنهم قالوا: «﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: نثبت خطها ونبدل حكمها»(٢).

فهذه الآية أظهر الأدلة وأقواها على وجود النسخ في القرآن الكريم، بمعناه الشرعي، مع وقائع النسخ الصريحة في القرآن الكريم.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو: (أو نَنْسَأْها) بفتح النون الأولى وإسكان الثانية، وهمزة ساكنة بعد السين، أي: نؤخرها ونؤجلها، ونتركها فلا ننسخها(٣)، ومن ذلك «بيع النسيئة» أي: التأجيل والتأخير، ومنه قول الشاعر:

لعمرك إن الموت ما أنسأ الفتى ... لكالطَّوَل المُرْخَى وثِنْياه باليَدِ(٤)

وقرأ الباقون: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بضم النون الأولى، وإسكان الثانية، وكسر السين، وهي تدل على معنى القراءة الأولى، أي: نؤخرها ونؤجلها، ونتركها فلا ننسخها(٥).

كما تحتمل معنى آخر، وهو النسيان، أي: ذهول القلب عن الشيء، والمعنى: أو ننسها رسول الله ﷺ؛ حتى لا يذكرها أبداً، كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠١)- الأثر (١٠٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٩٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٣-٣٩٥)، «الحجة في القراءات» ص(١٠٩).

(٤) البيت لطرفة بن العبد. انظر «ديوانه» ص(٣٧)، «جامع البيان» (٢/ ٣٩٤). والبيت في الديوان: لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى...

(٥) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٣-٣٩٥)، «الحجة في القراءات» ص(١٠٩).

ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] أي: إلا ما شاء الله أن تنساه، فتذكره، أو تُذَكَّر به، أو إلا ما شاء الله أن تنساه فلا تذكره أبداً(١).

قال قتادة في قوله: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ قال: «وكان الله تعالى ينسي نبيّه ما يشاء وينسخ ما يشاء»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال عمر: «أقرؤنا أبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي، وذلك أن أبيًّا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾»(٣).

والفرق بين ما نسخه الله- عز وجل- وما أنسأه نبيه ﷺ: أن المنسوخ قد يبقى ويذكر لفظه أو حكمه، وأما المنسأ فلا يبقى ولا يذكر لا لفظه، ولا حكمه، بل يذهل عنه القلب كلية.

﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾ جواب الشرط «ما» أي: بخير منها مطلقاً، في الدين والدنيا والآخرة، من حيث العمل ومن حيث الثواب والأجر وغير ذلك.

فإن كان النسخ إلى أثقل، كما في نسخ التخيير بين الصيام والإطعام بإيجاب الصيام فالخيرية فيه بمضاعفة الأجر والثواب؛ لأن الأجر على قدر المشقة، مع مراعاة التدرج في التشريع.

وإن كان النسخ إلى أخف، كما في نسخ مصابرة الواحد للعشرة في القتال، بمصابرته لاثنين فقط، وكما في نسخ وجوب قيام الليل إلى الندب، فالخيرية في هذا بالتخفيف على الأمة مع تمام الأجر.

وإن كان النسخ إلى مساوٍ ومماثل كما في نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة فالخيرية في هذا بالاستسلام لأمر الله- عز وجل- وتمام الانقياد له.

﴿أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ في الخيرية، من حيث العمل والأجر وغير ذلك، أو مثلها في العمل،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٣٩٠-٣٩٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٩١).

(٣) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٤٨١).

وإن كان خيراً منها في العاقبة والأجر.

وفي الآية إشارة إلى أن المنسوخ لابدَّ له من بدل مقارن له، مرتبط به ارتباط الشرط بجوابه.

فما ينسخه الله- عز وجل- من الآيات، أو ينسئه نبيه ﷺ، أو يؤخره فلا ينسخه، أو يؤخر نزوله فلا ينزله يأت بخير منه أو مثله عملاً وثواباً وغير ذلك، ديناً ودنيا وأخرى.

والبدل الذي هو خير من المنسوخ أو مثله قد يكون هو الناسخ نفسه، وقد يكون هو وغيره مما يأتي به الله عز وجل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري في هذا الموضع والذي بعده، و«أنَّ» للتوكيد في هذا الموضع والذي يليه، أي: قد علمت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وهمزة الاستفهام إذا جاء بعدها «لم» فمعناها التقرير.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: أنك قد علمت وعلم كل مخاطب: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقدم المتعلِّق في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لتأكيد شمول قدرته- عز وجل- لكل شيء، مهما كان، وأيًّا كان، صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، ومن ذلك: قدرته- عز وجل- على نسخ ما شاء من الآيات، أو إنسائها، والإتيان بخير منها، أو مثلها، وغير ذلك.

و﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن «فعيل» يدل على كمال قدرته- عز وجل- أي: أنه عز وجل ذو القدرة التامة العظيمة و«القدير» اسم من أسمائه- عز وجل-، ومعناه: الذي يفعل ما أراد بلا عجز، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتقرير- كما سبق بيانه، أي: قد علمت أن الله له وحده ملك السموات والأرض.

وقدم الخبر في قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادة الحصر والاختصاص، أي: أن لله- عز وجل- وحده خاصة ملك السموات والأرض، خلقاً وملكاً وتدبيراً، لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]. فله- عز وجل- وحده ملك السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما.

ومن قدرته عز وجل على كل شيء وملكه للسموات والأرض أنه ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما قال عز وجل: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ الواو: استئنافية و«ما» نافية، والخطاب للمؤمنين، أي: وما لكم سوى الله ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما لكم سوى الله أيُّ ولي يتولاكم، فيجلب لكم النفع والخير.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ما قبله و«لا» مؤكدة للنفي، أي: وما لكم من دون الله أيُّ نصير ينصركم، ويدفع عنكم الضر والشر.

قال الشاعر:

يا نفس مالك دون الله من واق ... وما على حدثان الدهر من باقي(١)

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بعد تقرير ثبوت النسخ في القرآن الكريم، بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ الآية: إفحام لمنكري النسخ من اليهود وغيرهم، وذلك بتقرير قدرته- عز وجل- التامة على كل شيء، وتقرير أن له ملك السموات والأرض، فهو- عز وجل- ذو القدرة التامة على كل شيء، والمشيئة النافذة، في

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر «ديوانه» ص(٢١).

خلقه وملكه، وحكمه وشرعه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، وهم يُسألون، له الأمر والتدبير الكوني، وله الأمر والحكم الشرعي، يحل ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، ويوجِب ما يشاء، وينسخ ما يشاء، ويُثبت ما يشاء.

قال الطبري(١): «وهذا الخبر- وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته- فإنه منه- جلَّ ثناؤه- تكذيب لليهود، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد- صلى الله عليهما- لمجيئهما بما جاءا به من عند الله، بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة».

وقال ابن القيم(٢): «فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه، وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء، ويثبت، فهكذا أحكامه الدينية الأمرية، ينسخ منها ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء، فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم: أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى، وتدفع نبوته، وتجحد رسالته، بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرماً على من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحاً لهم، وبالله التوفيق، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء».

وقال ابن كثير(٣): «وفي هذا المقام رد عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود، وتزييف شبهتهم- لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً- كما زعمه بعضهم- جهلاً وكفراً، وإما نقلاً- كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وكذباً».

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ الآية.

رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قال رافع بن حريملة، ووهب بن يزيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجِّر لنا أنهاراً، نتَّبعك

---

(١) في «جامع البيان» (١/ ٤٠٧).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٧٠).

(٣) في «تفسيره» (١/ ٢١٧).

ونصدقك؛ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾»(١).

وعن مجاهد قال: «سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً قال: «**نعم، وهو لكم كالمائدة إن كفرتم**» فأبوا ورجعوا، فأنزل الله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أن يريهم الله جهرة»(٢).

قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، وجملة ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ ﴾ في محل نصب مفعول ﴿تُرِيدُونَ ﴾ والخطاب لهذه الأمة.

أي: بل أتريدون سؤال رسولكم محمد ﷺ سؤال تعنت وعناد، وأضافه- عز وجل- إليهم مع أنه رسوله؛ لأنه مرسل إليهم.

﴿ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ ﴾، الكاف للتشبيه، في محل نصب نعت لمصدر محذوف، أي: كما سأل بنو إسرائيل موسى- عليه الصلاة والسلام- تعنتاً وعناداً، وفي هذا تعريض بذمهم، حيث شددوا، فشدد الله عليهم، كما قال تعالى عنهم مخاطباً نبينا محمداً ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٣]، وكقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

والمعنى: لا تكثروا سؤال رسولكم محمد ﷺ كما أكثر اليهود سؤال موسى- عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا تحذير لهذه الأمة، أن تحذو مع نبيها محمد ﷺ حذو اليهود مع موسى- عليه السلام- في كثرة سؤالهم، مما كان سبباً لهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٢)- الأثر (١٠٧٤). وانظر: «السيرة النبوية» (١/ ١٩٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٣).

تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

وقال ﷺ: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»(١).

وقال ﷺ: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان، فلا تسألوا عنها**»(٢).

وقال ﷺ: «**إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرماً رجل سأل عن مسألة لم تحرم، فحرمت من أجل مسألته**»(٣).

وكان ﷺ: «**ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(٤).

وقال ﷺ: «**مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٥).

وقد ضرب صحابة رسول الله ﷺ- رضي الله عنهم- في الأدب معه ﷺ وقلة أسئلتهم له أروع الأمثلة، فعن أنس- رضي الله عنه- قال: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن الشيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع»(٦).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «إن كان ليأتي عليَّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فأتهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب»(٧).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، وأبونعيم في «الحلية» (٩/ ١٧)، والبيهقي (١٠/ ١٢، ١٣)، من حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه- وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٥٢)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٤) موقوفاً على أبي ثعلبة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨)، وأبوداود في السنة (٤٦١٠)، وأحمد (١/ ١٧٦)- من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣)، والنسائي في السهو (١٣٤١)- من حديث المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢)، والنسائي في الصيام (٢٠٩١).

(٧) أخرجه الحافظ أبويعلى الموصلي في «مسنده»- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٩).

ﷺ، ما سألوه إلا عن ثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. يعني هذا وأشباهه»(١).

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ لا يدل على وقوع السؤال منهم، بل هو دال على عدم وقوعه لكن ربما جاش في نفوس بعضهم، أو أثارته شبه اليهود ومغالطاتهم؛ لهذا جاء التحذير من ذلك على سبيل الإنكار والذم.

قال ابن كثير(٢): «والمراد أن الله ذم مَن سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى- عليه السلام- تعنتاً وتكذيباً وعناداً».

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الواو: استئنافية، و«من» شرطية، و«يتبدل» فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

والتبدل: أخذ شيء مكان شيء. و«يتبدل» أبلغ من «يبدل» لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً.

والمعنى: ومن يأخذِ الكفر ويخترْهُ ويَعْتَضْ به عن الإيمان.

وفي هذا إثبات الاختيار والإرادة للإنسان في فعله، والرد على الجبرية.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لاقترانه بـ«قد»، و«ضل» بمعنى: تاه، وبعد، وأخطأ.

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وسط الطريق، وسواء الشيء وسطه، كما قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]. أي: في وسط الجحيم.

والمعنى: فقد تاه وأخطأ وسط الطريق، والمنهج السوي، والطريق المستقيم، وخرج إلى حافات الطريق، وتشعبت به السبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٩).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢١٩).

وفي هذا إشارة إلى أن كثرة سؤال الأنبياء والتعنت عليهم، ومخالفتهم، وتكذيبهم من تبدل الكفر بالإيمان، والضلال، والخروج عن وسط الطريق، والمنهج السوي، والطريق المستقيم.

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات النسخ في القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١].

وعليه دلَّت وقائع النسخ الثابتة في القرآن الكريم، كتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، والتخيير بين صيام رمضان والإطعام بإيجاب الصيام، ونسخ مفهوم إباحة شرب الخمر في غير وقت الصلاة بتحريمه مطلقاً، ونسخ وجوب مصابرة الواحد من المسلمين للعشرة من الكفار في القتال بوجوب مصابرته لاثنين فقط، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ بالعفو عنها بلا بدل، ونسخ وجوب قيام الليل باستحبابه.

وهي لا تتجاوز عشرة أحكام، كما ذكر ذلك ابن القيم في «إعلام الموقعين»(١).

كما أن النسخ ثابت في السُّنَّة وفي الشرائع السابقة. فهو ثابت شرعاً وجائز عقلاً.

وهو قسمان: نسخ إلى بدل، ونسخ إلى غير بدل.

والنسخ إلى بدل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: نسخ إلى بدل أخف، وإلى بدل مساوٍ، وإلى بدل أثقل.

وينقسم باعتبار المنسوخ إلى ثلاثة أنواع: نسخ اللفظ وبقاء الحكم، كما في نسخ لفظ آية الرجم وبقاء حكمها، ونسخ الحكم مع بقاء اللفظ، كما في آية المصابرة، وآية تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، ونسخ اللفظ والحكم معاً، كما في حديث عائشة- رضي الله عنها: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، ثم نسخن بخمسٍ معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من

---

(١) (٤/ ١٨٠).

القرآن[١]»[٢].

فعشر رضعات يحرمن؛ نسخ لفظها وحكمها، وخمس رضعات يحرمن؛ نسخ لفظها وبقي حكمها.

ويمثل بعضهم لهذا النوع من النسخ وهو نسخ اللفظ والحكم معاً بما نسخ من سورة الأحزاب غير آية الرجم، حيث كانت- فيما روي- تعدل سورة البقرة، ثم نسخ منها ما نسخ[٣].

وقد ذهب أبومسلم الأصفهاني من المعتزلة إلى إنكار وجود النسخ في القرآن الكريم، وشايعه على هذا الرأي عدد من المتأخرين في العصر الحاضر.

وفي الآيات القرآنية الدالة على ثبوت النسخ في القرآن الكريم، وإجماع المسلمين على ذلك، وفي وقائع النسخ الصحيحة التي لا يمكن دفعها، ما يكفي لدحض وتفنيد هذا القول[٤].

٢- أن الله- عز وجل- قد يُنسى نبيه ﷺ ما شاء مما أوحاه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

٣- تقرير عظمة الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ بضمير العظمة؛ لأنه- عز وجل- هو العظيم سبحانه ذو العظمة والكبرياء.

---

(١) أي: أن نسخها كان متأخراً حتى إن بعض الناس كانوا يقرؤونها بعد وفاته ﷺ، لعدم علمهم بنسخها.

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٢)، وأبوداود في النكاح (٢٠٦٢)، والنسائي في النكاح (٣٣٠٧)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٢).

(٣) كما في حديث زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: «كأي تقرأ سورة الأحزاب، أو كأي تعدها؟ قال: قلت له: ثلاثاً وسبعين آية. قال: قط، لقد رأيتها، وإنها لتعادل سورة البقرة» الحديث، أخرجه أحمد (٥/ ١٣٢)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٧٦): «ورواه النسائي من وجه آخر عن عاصم- وهو إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً».

(٤) انظر في تحقيق القول بثبوت النسخ في القرآن والرد على أبي مسلم ومن شايعه «الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس- بتحقيقنا (١/ ٤٠٠-٤٠٤).

٤- أن الحكم قد يكون خيراً للعباد في وقت ويكون غيره خيراً منه في وقت آخر؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ فالمنسوخ قبل نسخه خير للعباد، وبعد نسخه ناسخه خير منه.

٥- أن ما ينسخه الله- عز وجل- من الآيات، أو ينسيه نبيه ﷺ يأتي سبحانه بخير منه للعباد في دينهم ودنياهم وأخراهم، أو يأتي بمثله؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.

٦- أن النسخ لحكم عظيمة من أهمها مراعاة مصالح العباد، في الدين والدنيا والآخرة، سواء كان النسخ إلى بدل أو لغير بدل، إلى بدل أخف، أو إلى بدل مساو أو إلى بدل أثقل، نسخاً للفظ دون الحكم، أو للحكم دون اللفظ، أو لهما جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.

فإن كان النسخ إلى غير بدل- كما في نسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، أو إلى بدل أخف كما في نسخ وجوب مصابرة الواحد للعشرة بمصابرته للاثنين، ونسخ وجوب قيام الليل إلى الندب، ففي هذا التخفيف على العباد مع تمام الأجر.

وإن كان النسخ إلى بدل مساوٍ- كما في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ففيه الابتلاء والامتحان لهم، ومضاعفة الأجر لهم على التسليم والانقياد، والطاعة والامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإن كان النسخ إلى بدل أثقل- كما في نسخ التخيير بين صيام رمضان والإطعام بإيجاب صيامه، ففيه مضاعفة الأجر والثواب لهم؛ لأن الأجر على قدر المشقة، مع مراعاتهم في التدرج في التشريع.

وإن كان النسخ للفظ مع بقاء الحكم- كما في نسخ آية الرجم، وبقاء حكمها، ففيه بيان فضل هذه الأمة بالعمل بما أنزل الله- عز وجل- وإن لم يجدوا نصه في القرآن الكريم، والرد على اليهود الذين أنكروا الرجم وكتموه- مع أنه منصوص عليه في التوراة.

وإن كان النسخ للحكم مع بقاء اللفظ- كما في نسخ التخيير بين الصيام والإطعام،

ونسخ مصابرة الواحد للعشرة، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ، ونسخ وجوب قيام الليل ففيه التعبد بتلاوته، وتذكير الأمة بنعمة الله عليهم بالتخفيف في نسخ هذا الحكم.

وإن كان النسخ للفظ والحكم معاً كما ورد أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة، فقد يكون فيه مراعاة التخفيف والمصلحة، أو غير ذلك.

٧- أن القرآن ينسخ السنة، ولا خلاف في هذا، وأن السنة لا تنسخ القرآن على الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، ولم يثبت شيء من هذا[1].

٨- إثبات قدرة الله- عز وجل- التامة على كل شيء، ومن ذلك نسخ ما شاء، وغير ذلك، وتقرير علمه ﷺ وعلم العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩- إثبات ملك الله- عز وجل- للسموات والأرض، ملكاً تامًّا لأعيانهما، ملكاً وخلقاً وتدبيراً لهما، واختصاصه- عز وجل- بذلك، وتقرير علم العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٠- لا ولي ولا نصير للمؤمنين في الحقيقة- غير الله- عز وجل فيجب اللجوء إليه والتوكل عليه في جلب النفع ودفع الضر- مع الأخذ بالأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١١- إثبات رسالته ﷺ، وأنها عامة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾.

١٢- تحذير هذه الأمة من كثرة سؤال الرسول ﷺ، والتشبه باليهود في كثرة سؤالهم لموسى- عليه الصلاة والسلام- تعنتاً منهم، وعناداً وتشدداً، وذم اليهود في مسلكهم هذا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

١٣- إثبات رسالة موسى- عليه الصلاة والسلام- وما حصل له من الأذى من قومه، وفي ذلك تسلية لنبينا محمد ﷺ.

١٤- الإشارة إلى أن هذه الأمة ستتبع سنن من كان قبلها من الأمم كما قال ﷺ:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٩٨).

«لتتبعن سَنَنَ مَن كان قبلكم حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فَمَنْ؟»(١).

١٥- ذم كثرة الأسئلة، وأن السؤال ينبغي أن يكون عند الحاجة، كما قال عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

١٦- التحذير من تبدل الكفر بالإيمان، وأن من فعل ذلك فقد ضل عن المنهج السوي، والطريق المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٧- إثبات الإرادة والاختيار، للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٨- الإشارة إلى أن كثرة سؤال الأنبياء فيما لا تدعو الحاجة إليه تعنتاً وعناداً من تبدل الكفر بالإيمان، والخروج عن سواء السبيل.

١٩- أن الهدى وسلوك الطريق المستقيم، والمنهج القويم بالإيمان، واتباع الرسل- عليهم الصلاة والسلام.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)- من حديث أبي سعيد- رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

هذا تأكيد لحسد أهل الكتاب للمؤمنين وتصريح بمفهوم قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فكان حُيَيُّ بن أخطب وأبوياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام، بما استطاعا، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾»(١).

وعن كعب بن مالك- رضي الله عنه: «أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ، وفيه أنزل الله ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: أحب وتمنى كثير من اليهود والنصارى، وسموا أهل الكتاب؛ لأن الله أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود التوراة، على لسان موسى عليه السلام، وأنزل على النصارى الإنجيل، على لسان عيسى بن مريم عليه السلام.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٤)- الأثر (١٠٨١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٤-٢٠٥)- الأثر (١٠٨٣).

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ «لو» بمعنى «أن» المصدرية، أي: ودوا ردّكم.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾ الخطاب للمؤمنين من هذه الأمة، أي: ودوا وتمنوا وأحبوا لو يرجعونكم من بعد إيمانكم بالله ورسوله، وبما أنزل على رسوله ﷺ من الوحي والشرع المطهر.

﴿كُفَّارًا﴾ مرتدين عن دينكم، متبعين لهم في دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿حَسَدًا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل الحسد، لهذه الأمة، لما منَّ الله عليهم به من نعمة الإسلام والإيمان، وبعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن، وذلك أعظم نعمة، وقد قيل: «كل صاحب نعمة محسود».

والحسد: تمني زوال نعمة الله عن الغير، سواء تمنى كونها له أو لغيره، أو مجرد زوالها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «الحسد: كراهة نعمة الله، على الغير».

والحسد داء وبيل ومرض خطير من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر.

﴿مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: نابعاً من قبل أنفسهم الشريرة، لخبث نواياهم، وسوء طواياهم، وحقدهم الدفين على المؤمنين، لا لسبب غير ذلك، قال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: من بعد ما اتضح وظهر لهم أن ما أنتم عليه هو الحق الثابت، والصدق والعدل، وصدق محمد ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله- عز وجل-، كما جاءت البشارة به في كتبهم التوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١١).

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكانوا قبل مبعثه ﷺ يستفتحون على الذين كفروا، ويقولون: سيبعث نبي وسوف نتبعه وننتصر به عليكم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً من عند أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقد حذرهم الله- عز وجل- من هذا المسلك بعدما امتنَّ عليهم بنعمه فقال: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤١-٤٣].

ولكن هذا ديدنهم، فهم أعداء الرسل- عليهم الصلاة والسلام- فمنهم من كذبوهم، ومنهم من قتلوهم، كما قال عز وجل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

قوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ الأمر للمؤمنين، والعفو: التجاوز، وترك المؤاخذة على الذنب.

والصفح: الإعراض عما حصل كلية، وترك اللوم والتثريب، وإزالة أثره في النفس، وهو أعلى درجات العفو، والكمال باجتماعهما.

أي: فاعفوا واصفحوا عما حصل لكم من أذى من أهل الكتاب وغيرهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: حتى يأتي الله بأمره بقتالهم.

وفي هذا دلالة على مراعاة التشريع الإسلامي للظروف والأحوال، والتدرج في التشريع؛ ولهذا لم يأمر الله- عز وجل- بالقتال حتى تمت تعبئة الأمة معنويًّا بالإيمان، وماديًّا بالقوة والعدد والعدة.

عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- أخبره، قال: «كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية [آل عمران: ١٨٦]. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ إلى آخر الآية. وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول، ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فأسلموا»[1].

وقد ذهب كثير من السلف، منهم ابن عباس- رضي الله عنهما[2]- وجمع من التابعين إلى نسخ الآية ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بآيات القتال كقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]. واختار هذا جمع من المفسرين منهم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٦).

(٢) أخرجه عن ابن عباس- رضي الله عنهما- الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٦)- الأثر (١٠٨٩).

الطبري وابن كثير[١].

والذي يظهر- والله أعلم- أن هذا ليس من قبيل النسخ لما يلي:

أولاً: أن الآية: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ مغياة بغاية ينتهي حكمها عند حلول تلك الغاية ولا يعد نسخاً.

ثانياً: أنه لا تعارض في الحقيقة بين قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ وكذا آيات الأمر بالعفو والصفح والإعراض عن المشركين، وأهل الكتاب، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ونحو ذلك، وبين آيات القتال عامة؛ لأن كلاً منهما موقوتة بمناسبتها، وعلى الأمة أن تطبق ما قدرت عليه منهما، حسب مراحل قوتها وضعفها فتطبق الأمر بالقتال حال قوتها، وتطبق الأمر بالعفو حال ضعفها[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«شيء» نكرة تعم أي شيء مهما كان ذلك الشيء، ومهما قَلّ أو كثر، صغر أو كبر.

﴿قَدِيرٌ﴾ أي: ذو قدرة تامة، وقدم المتعلق، وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لتأكيد كمال قدرته- عز وجل- وعمومها لكل شيء، وأنه- عز وجل- لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرٗا﴾ [الكهف: ٤٥].

فهو- عز وجل- ذو قدرة تامة على كل شيء، يبدل الأحوال، ويأتي بأمره، ويعفو مع القدرة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرٗا﴾ [النبأ: ١٤٩].

وقال ﷺ: «**لا أحد أصبر من الله على أذى يسمعه، إنهم يجعلون لله نداً، ويجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم**»[٣].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢/ ٤٢٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٢١).

(٢) انظر: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي، ص(١٣٧)، «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ٤٢-٤٣)، «أضواء البيان» (١/ ٨٤)، «مناهل العرفان» (٢/ ١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٤)- من حديث عبدالله بن قيس- رضي الله عنه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

ذكر عز وجل مودة أهل الكتاب رد المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً حسداً لهم، وأمر المؤمنين بالعفو والصفح حتى يأتي الله بأمره، بفرض القتال والفتح على المؤمنين، ونصرهم على من عاداهم، ثم أمر بعد ذلك بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لما فيها من العون على الصبر، وتحمل العفو والصفح، وعلى القتال عند فرضه والأمر به.

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **الصلاة لغة**: الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الحديث: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما...**»(١)، أي: الدعاء لهما.

قال الأعشى(٢):

تقول بنتي وقد قَرَّبتُ مرتَحِلاً ... يا رب جنِّب أبي الأوصابَ والوجعا
عليكِ مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً

والصلاة شرعاً: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوا الصلاة فرضها ونفلها تامة كاملة قائمة، بشروطها وأركانها، وواجباتها، وسننها، هذا هو معنى إقامتها؛ ولهذا يأتي الأمر في القرآن الكريم والسنة النبوية- غالباً- بإقامة الصلاة، دون أن يُقال: «صلوا»؛ لأن المهم في الصلاة أن تؤدى كما شرعها الله قائمة تامة الشروط والأركان، والواجبات والسنن، فإن لم تكن كذلك، فهي صلاة ناقصة، غير قائمة، وربما كانت صلاة صورية فقط، لا تنفع صاحبها- كما هو حال كثير من المصلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، وعن عمّار بن

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤)- من حديث مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه.

(٢) انظر «ديوانه» ص(١٥١).

ياسر- رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»(١).

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة المفروضة طيبة بها نفوسكم لمستحقيها، وهم الأصناف الثمانية، كما في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والزكاة لغة: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع، إذا نما وزاد.

وشرعاً: التعبد لله- عز وجل- بدفع حق مالي مخصوص، من مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص.

وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال، وتنميه، ولا تنقصه؛ ولهذا قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(٢).

وتزكي المُخرج لها، في عقيدته وأخلاقه، وتطهره من رذيلة البخل والشح، وتكفر ذنوبه، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وتزكي وتنمي الثواب والأجر له، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّق بِعَدْلِ تمرةٍ مِن كسبٍ طيبٍ ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يُرَبِّيها لصاحبه كما يربي أحدكم فُلُوَّهُ حتى تكون مثلَ الجبل**»(٣).

كما أنها تزكي نفس آخذها، من الحقد والضغينة على إخوانه الأغنياء، وتعفه عن

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣٢١).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٣٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٥)، والترمذي في الزكاة (٦٦١)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٢)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المكاسب المحرمة.

وخص الصلاة والزكاة؛ لأن الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الإسلام، وأعظم العبادات- بعد الشهادتين، وأهم العبادات البدنية.

ولأن الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وأهم العبادات المالية، وهما القرينتان في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعاً.

وخصهما بالذكر أيضاً؛ لأنهما من أعظم أسباب العون والتمكين، والنصر المبين، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: اسم شرط جازم، و«تقدموا»: فعل الشرط مجزوم بحذف النون.

﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ «من» بيانية، و«خير» نكرة في سياق الشرط تفيد العموم، أي: أيَّ خير، مهما كان قليلاً أو كثيراً، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»(١).

والمعنى: وما تقدموا لأنفسكم في حياتكم من خير أيًّا كان ومهما كان، من صلاة وزكاة، وغير ذلك من أعمال البر والخير.

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾: جواب الشرط، أي: تلقوه عند الله يوم القيامة، مدخراً لكم ثوابه، مضاعفاً لكم أجره، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وفي قوله: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ استجاشة للضمائر، وتحريك للهمم، بأن الإنسان إذا عمل،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة- اتقوا النار ولو بشق تمرة (١٤١٧)، ومسلم في الزكاة- الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (٢٣٤٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٢)- من حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه.

إنما يعمل لنفسه، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها**»(١).

ولهذا قال ﷺ يوماً لأصحابه: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله**»؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»(٢).

وقد قيل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
فلم يتأخر من أراد تقدما ... ولم يتقدم من أراد تأخرا(٣)

وفي قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى تكفله- عز وجل- التام بالإثابة على أعمال الخير. وقد أحسن القائل:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس(٤)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «إن» حرف توكيد، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: إن الله بعملكم، أو بالذي تعملون بصير.

وهي تفيد العموم، أي: إن الله عالم بجميع أعمالكم، من أعمال الجوارح الظاهرة، وأعمال القلوب الباطنة، من الأقوال والأفعال، لا يخفى عليه منها شيء، وفي هذا ترغيب في العمل الصالح، وترهيب من ضده، ووعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

وفي تقديم المتعلِّق وهو قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على المتعلق به «بصير» توكيد لعلمه- عز وجل- بأعمال العباد، وتوكيد للترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عداوة كثير من أهل الكتاب وحسدهم لهذه الأمة- وبخاصة اليهود،

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات (٢٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة (٢٨٠)- من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢)، والنسائي في الوصايا (٣٦١٢)- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البيتان لابن هاني. انظر: «ديوانه» ص(١٤٠).

(٤) البيت للحطيئة. انظر: «ديوانه» ص(٥١).

ومودتهم إرجاعهم بعد إيمانهم كفاراً، حسداً منهم وبغياً، مما يوجب الحذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾.

٢- أن المرتد من كفر بعد إيمانه؛ لقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾.

٣- الإشارة لعظم نعمة الله على هذه الأمة بالإسلام والإيمان، وبعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا ﴾ أي: حسداً لكم على ما أعطاكم الله من الخير العظيم، والفضل العميم.

٤- أن حسد اليهود لهذه الأمة نابع من تلقاء أنفسهم الشريرة لما تنطوي عليه من خبث النوايا، وسوء الطوايا، والحقد الدفين، لا لسبب غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾. فالحسد من أخص صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

٥- وجوب الحذر من الحسد فإنه داء وبيل، ومرض خطير، من أعظم أسباب الاعتداء على الغير، ورد الحق ومخالفته، محبط للأعمال، ومن أخص صفات إبليس، وأعداء الرسل، من اليهود وغيرهم.

٦- أن من أهل الكتاب من سلم من هذا الوصف الذميم، فآمن بالنبي ﷺ، وهم قلة كعبدالله بن سلام رضي الله عنه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

٧- نسخ الإسلام لجميع الأديان السابقة، وأن من دان بغيره فهو كافر، لا يقبل منه لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٨- تعنت اليهود وعنادهم، ومخالفتهم الحق، وصدهم عنه، بعدما تبين لهم وعرفوه، كما يعرفون أبناءهم، ولهذا استحقوا وصف الغضب في القرآن الكريم.

٩- أن من خالف الأمر أو ارتكب النهي عن جهل قد يعذر لجهله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾.

١٠- التدرج في التشريع ومراعاة أحوال الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ فلحال ضعف الأمة ما يناسبه، ولحال قوتها ما يناسبه.

١١- جواز مهادنة الكفار في حال ضعف المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، وليس من الحكمة التحرش بالكفار، وإعلان القتال لهم قبل تعبئة الأمة معنويًّا بالإيمان وماديًّا بالسلاح والتدريب والعتاد، والجمع بين التوكل على الله، وفعل الأسباب.

١٢- إذا نجع العفو والصفح فلا ينتقل للعقاب والقتال؛ لحصول المقصود بالعفو والصفح، مع أن ذلك أيسر وأسهل، وفيه دعوة للمعتدي، وتحبيب له بترك الأذى والاعتداء.

١٣- أن من تمام العفو، وكمال أجره أن يقترن بالصفح، وهو ترك اللوم والتثريب.

١٤- أنه عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾.

١٥- قدرة الله- عز وجل- التامة الشاملة لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

١٦- وعد الله- عز وجل- وبشارته للمؤمنين بفرض الجهاد وإمدادهم بالقوة والتمكين، وقد تحقق لهم ذلك بفضل الله عز وجل.

١٧- وجوب إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾.

١٨- عظم شأن الصلاة في الإسلام؛ لهذا خصّها عز وجل بالذكر من بين العبادات البدنية، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عموده، وأهم العبادات- بعد الشهادتين، وهي الصلة بين العبد وربه.

١٩- أن المهم في الصلاة إقامتها إقامة تامة؛ بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛

لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٠- أن الصلاة أهم وأعظم وآكد من الزكاة لتقديمها عليها في الذكر- غالباً- في القرآن والسنة.

٢١- أهمية الزكاة، فهي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي أعظم العبادات المالية، وأهم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعاً، فهما القرينتان، ففي الصلاة: الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة: الإحسان إلى عباد الله.

٢٢- أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم أسباب العون على أمور الدنيا والدين، والتمكين والنصر المبين، والثواب العظيم.

٢٣- أن ما يقدمه الإنسان في هذه الحياة من خير فلنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾.

٢٤- أن ما يقدمه المرء في هذه الحياة من خير أيًّا كان، ومهما كان، قليلاً كان أو كثيراً يجد ثوابه مضاعفاً عند الله- عز وجل- أحوج ما يكون إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

٢٥- تكفل الله- عز وجل- بالمجازاة على أعمال الخير كلها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٢٦- الترغيب في الخير قولاً وعملاً؛ وإنفاقاً وبذلاً، والاستزادة من ذلك.

٢٧- علم الله- عز وجل- واطلاعه التام على أعمال العباد كلها، فيجازي كلاً بما عمل، وفي هذا ترغيب في العمل الصالح وترهيب من ضده، ووعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، فقال اليهود: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ كما قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

قال ابن القيم: «هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانياً، فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس ووضوح المعنى»(١).

و«إلا»: أداة حصر، فحصرت كل طائفة منهم دخول الجنة فيهم، وقصرته عليهم فحجَّروا واسعاً، وحصروا فضل الله تعالى.

فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، جملة ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ معترضة، و«تلك»: اسم إشارة، والإشارة لمقالتهم.

﴿أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ «أماني» جمع أمنية، أي: تلك أماني يتمنونها على الله بغير حق، والتمني هو: الطمع في طلب ما يعلم عدم حصوله؛ لتعذره واستحالته كما في قول الشاعر:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٣).

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب(١)

وفي المثل: «التمني رأس مال المفاليس».

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد أعطونا دليلكم وحجتكم على أنه لن يدخل الجنة غيركم.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم.

وفي هذا تحد وتعجيز لهم، لإظهار كذبهم؛ إذ لا برهان عندهم ولا حجة ولا دليل، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ «بلى»: حرف جواب لإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

والمعنى: «بلى» يدخل الجنة كل من أسلم وجهه لله وهو محسن وإن لم يكن هوداً أو نصارى، و«من»: شرطية، و«أسلم»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ومعنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: توجه إلى الله بقلبه وقالبه وأخلص لله عمله، وهذا هو الشرط الأول لصحة العمل وقبوله وهو الإخلاص لله تعالى كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه محسن، أي: متعبد لله بما شرع وما جاء به رسوله محمد ﷺ، وهذا هو الشرط الثاني لصحة العمل وقبوله، وهو أن يكون وفق ما جاء في الشرع، كما قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٣) وقال

---

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٩٨٥م)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨) من حديث عائشة- رضي الله عنها.

ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

فتضمنت هذه الآية شرطي صحة وقبول العمل، وهما: الإخلاص والمتابعة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

فمن لم يخلص العمل لله تعالى فعمله باطل مردود كالمنافقين ونحوهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٤- ٧].

ومن تعبد الله بغير ما شرع فعمله باطل مردود، كالرهبان وأهل البدع ونحوهم.

قوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ ﴾ أي: فله ثواب عمله، وهي الجنة وما فيها من ألوان النعيم، وقدّم الخبر وهو قوله: «له» وسمَّىٰ ثوابه «أجراً» تأكيداً لضمانه ﷻ له وتكفله به، تفضلا منه وكرماً، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه «**أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً**»(٢).

﴿عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: عند ربه، خالقه ومالكه والمتصرف فيه، وفي هذا إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لأوليائه، وتعظيم هذا الأجر؛ لأنه عند الله ﷻ وضامن له، وأنه لن يضيع

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد (٧٣٧٣)، ومسلم في الإيمان، الدليل على أن مات على الإيمان دخل الجنة قطعًا (٣٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عنده ﷻ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون وفيما أمامهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولهم نصيب من ذلك في دنياهم بسبب إيمانهم بالأمن النفسي والطمأنينة وانشراح الصدور، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(١).

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا هم يحزنون على ما خلفوا في الدنيا بعد موتهم من أولاد وأهل ومال وغير ذلك؛ لثقتهم أن الله يتولى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وأيضاً لا يحزنون على ما مضى وفاتهم في حياتهم؛ لإيمانهم بقدر الله تعالى وأن الخيرة فيما يختاره الله لهم، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وإذا اجتمع للإنسان الأجر والثواب والسلامة من الخوف والحزن كملت له النعمة واندفعت عنه النقمة، وحصل على المرغوب، ونجا من المرهوب- نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

روى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما قدم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٣٤- ٤٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٨)، وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٤٩).

أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾»(١).

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: ليست النصارى على شيء يعتد به من أمر الدين، أي: أنهم كفار، وليسوا على صواب ولا على حق.

وإنما كفَّر اليهود النصارى لإيمانهم بعيسى عليه السلام وبالإنجيل، وهم أي: اليهود يكفرون بعيسى وبالإنجيل، وقولهم هذا باطل؛ لأن النصارى لما كانوا متبعين لعيسى عليه السلام عاملين بالإنجيل كانوا على حق ودينهم صحيح فلما حرفوا وبدلوا صاروا ليسوا على شيء.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: ليست اليهود على شيء يعتد به من أمر الدين، أي أنهم كفار.

واليهود لما كانوا متبعين لموسى عليه السلام عاملين بالتوراة كانوا على حق، فلما حرفوا وبدلوا أو كفروا بعيسى عليه السلام وبالإنجيل صاروا ليسوا على شيء.

أما بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ونسخه جميع الشرائع السابقة فمن دان بغيره فليس على شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يتلون الكتاب، أي: يقرؤون الكتاب، و«ال» في الكتاب للجنس، أي: وهم يقرؤون التوراة والإنجيل، ويعلمون تصديق كل منهما للآخر.

و«الكتاب» بمعنى المكتوب المقروء، وكل منهما مكتوب مقروء، فالتوراة كتبها الله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٣٤- ٤٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٨)، وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٤٩).

تعالى بيده، وهي أيضاً والإنجيل كل منهما مكتوب مقروء بين الناس، وفي الحديث: قال آدم لموسى- عليهما الصلاة والسلام: «**أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده**»(١).

واليهود والنصارى وإن كان بعضهم أعداءً لبعض، ويكفر بعضهم بعضاً، إلا أنهم يتفقون هم وغيرهم من الكفار على عداوة الإسلام ويوالي بعضهم بعضاً ضد المسلمين؛ كما هو مشاهد وواقع.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾، الكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، «ذلك»: اسم إشارة إلى مصدر الفعل «قال»، أي: مثل ذلك القول.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: الذين لا علم عندهم، وهم مشركو العرب؛ لأنهم ليسوا أهل كتاب، فهم أميون لا علم عندهم، كما وصفهم الله بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] ولهذا قال بعده: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ [البقرة: ١١٨]، يعني: اليهود والنصارى.

والمعنى هنا: أن المشركين كذبوا الأديان كلها اليهودية والنصرانية والإسلام، كما قال الله عنهم: ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩١].

ولهذا قالوا: محمد صابئ، أي: خارج عن الدين أو لا دين له.

وقيل: المراد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: الذين لا يعلمون من اليهود والنصارى أنفسهم، ممن لم يتلو الكتاب، فاستوى على هذا قول عالمهم وجاهلهم.

وقيل: الذين لا يعلمون من الأمم السابقة.

وفي هذا ذم وتجهيل لعلماء اليهود والنصارى حيث شبه قولهم بقول أهل الجهل الذين لا علم عندهم، وتوبيخ لهم، حيث نضموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم.

﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ تأكيد لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للدلالة على تمام المشابهة بين قول اليهود والنصارى وقول الذين لا يعلمون، ومصداق لقوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (٢٦٥٤)، والترمذي في القدر (٢١٣٥)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٦٨، ٣٩٢)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

قبلكم» الحديث(١).

وها هم الرافضة- أخزاهم الله- يكفرون من عداهم من المسلمين، فصاروا في طليعة الجهلة الذين لا يعلمون وأشباه أهل الكتاب، من اليهود والنصارى.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فالله يقضي ويفصل بينهم يوم القيامة.

﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: في الذي كانوا فيه يختلفون، أي في الخلاف الواقع بينهم، أي: بين اليهود والنصارى، وبين اليهود أنفسهم، وبين النصارى أنفسهم، وبين المسلمين وغيرهم من الكفار وسائر الخلق.

فيبين ﷻ من كان على الحق ومن كان على الباطل، ويجازي كلا بعمله، ويعطي كل ذي حق حقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

قال السعدي(٢): «ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك».

الفوائد والأحكام:

١- زعم اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة سواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فاليهود يقولون: لن يدخل الجنة غيرهم، والنصارى يقولون: لن يدخل الجنة غيرهم.

٢- تزكية اليهود والنصارى لأنفسهم وإعجابهم واعتدادهم بها، وتعصبهم لها وتحجيرهم فضل الله ﷻ الواسع العظيم.

٣- تكذيب الله ﷻ لهم في زعمهم هذا، وأن ذلك منهم مجرد أماني لا دليل عليها؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٠) ومسلم في العلم (٢٦٦٩)- من حديث أبي سعيد- رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٢٦).

تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٤- لا ينبغي الاغترار بالأماني بدون عمل صالح فهي مجرد سراب.

٥- أن البينة على المدعي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

٦- إفحام الخصم؛ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٧- سعة فضل الله ﷻ، وأن من أخلص لله تعالى واتبع شرعه دخل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٨- أن شرطي صحة العمل وقبوله: الإخلاص لله تعالى ومتابعة شرعه.

٩- ثبوت الأجر العظيم لمن أخلص لله تعالى واتبع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِ﴾.

١١- أن الجزاء على وفق العمل ومن جنسه، فمن أخلص لله وأحسن في اتباع شرعه فله الإحسان والأجر العظيم عند ربه.

١٢- انتفاء الخوف والحزن عمن أخلص لله تعالى واتبع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٣- الجمع لأهل الجنة بين حصول المطلوب وهو الأجر العظيم عند ربهم، وانتفاء المرهوب وهو الخوف والحزن.

١٤- الترغيب في الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه بذكر ما رتب على ذلك من الأجر العظيم، وانتفاء الخوف والحزن.

١٥- عداوة اليهود والنصارى فيما بينهم وتكفير بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فكفَّر اليهود النصارى؛ لأنهم آمنوا بعيسى وبالإنجيل الذي أنزله الله عليه، وكفَّر النصارى اليهود؛ لإنكارهم رسالة عيسى عليه السلام، وما جاء فيها من النسخ لبعض أحكام التوراة.

١٦- تسمية أتباع موسى عليه السلام بـ«اليهود» وأتباع شريعة عيسى عليه السلام بـ«النصارى»، ولا ينبغي أن يسمى أتباع عيسى بالمسيحيين؛ لأن المسيح منهم براء.

١٧- قيام الحجة على أهل الكتاب وتوبيخهم على مخالفتهم ما في كتبهم مع العلم بذلك مما لا عذر لهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بخلاف الجاهل فقد يعذر.

١٨- شدة عداوة اليهود لغيرهم من أهل الملل من النصارى وغيرهم؛ لأن الله قدمهم فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، والبادئ أشد وأظلم.

١٩- ذم وتجهيل اليهود والنصارى؛ لتشبيه قولهم بقول أهل الجهل الذين لا علم عندهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

٢٠- حكم الله ﷻ بين اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل يوم القيامة فيما بينهم من خلاف؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. فيبين من كان على الحق ومن كان على الباطل، ويجازي كلاً بعمله، ويعطي كل ذي حق حقه.

٢١- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء والفصل بين الناس.

٢٢- الخلاف بين أهل الملل، بل وبين أهل الملة الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وفي الحديث قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

* * *

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن- افتراق الأمة (٣٩٩١- ٣٩٩٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد أيضاً (٣/ ١٢٠، ١٤٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: اسم استفهام، ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم، ومجيء النفي بصيغة الاستفهام أبلغ في النفي؛ لما فيه من معنى التحدي، كأنه يقول: أيُّ أحد يكون أظلم من هذا؛ أي: لا يمكن أن يكون أحد أظلم منه.

و﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل، أي: أشد ظلماً، والمعنى: لا أحد أشد ظلماً وجرماً. والظلم في اللغة: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً، فالظلم: النقص والتفريط في طاعة الله تعالى بترك ما أمر الله به، أو ارتكاب ما نهى الله عنه، وهو أيضاً وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: من الذي منع مساجد الله، ومساجد الله: الأماكن التي أقيمت للسجود لله ﷻ وعبادته، وسميت مساجد أخذاً من السجود الذي هو من أعظم أركان الصلاة، وفيه القرب من الله تعالى كما قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء**»(١).

وفي إضافة «مساجد» إلى الله تشريف لها، وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «إن المساجد أحب البقاع إلى الله»(٢).

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ الجملة بدل من «مساجد»، فهي في محل نصب؛ لأن

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧).

«مساجد» منصوب على أنه مفعول «منع».

أي: أن يذكر فيها اسمه ﷻ بالصلاة وقراءة القرآن وأنواع الذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

والمعنى: لا أحد أشد ظلماً وجرماً من الذي منع مساجد الله أن يذكر اسم الله فيها، وتقام فيها الصلاة وأنواع الطاعات.

﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ معطوف على «منع» أي: وعمل واجتهد في خرابها، أي: في فسادها.

وخراب المساجد وفسادها نوعان: خراب وفساد حسي بهدمها وتدميرها وتقذيرها ونحو ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

وخراب وفساد معنوي بمنع الذكر والصلاة والعبادة فيها، والتضييق على المصلين وأذيتهم.

قال السعدي(١): «وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش حين صدوا رسول الله ﷺ عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة، الساعين في خرابها، محادة لله ومشاقة».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة ترجع إلى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا في خرابها، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ «ما»: نافية، واللام في «لهم» للاستحقاق، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، أي: ما كان يحق لهم دخولها.

والضمير «الهاء» يعود إلى المساجد، و«إلا»: أداة حصر، «خائفين»: حال، أي: إلا حال كونهم خائفين.

والمعنى: وما كان لهم دخولها شرعاً وقدراً إلا خائفين عقوبة لهم، وفي هذا وعيد لهم،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٢٧).

ووعد وبشارة للمؤمنين بأن الله سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم.

وقد أنجز الله هذا الوعد، ففتح مكة، ومكن لرسوله ﷺ المؤمنين من البيت، ومنع المشركين من دخوله، ونهى المؤمنين أن يمكنوهم من دخول المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، ونادى علي وأبو هريرة- رضي الله عنهما- سنة تسع بأمر رسول الله ﷺ لهما: «**ألا لا يحج بعد العام مشرك**»(١).

كما أهلك الله ﷻ أبرهة وأصحاب الفيل عن آخرهم حفاظاً على بيته العتيق، وسلط المؤمنين على النصارى فأخرجوهم من بيت المقدس حفاظاً على مسرى رسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة، أي: لهم في الدنيا ذل وفضيحة وعار وهوان، والجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين ومنعوهم عن المسجد الحرام، حرم الله عليهم دخوله ومنعهم منه.

ومن الخزي ما أصابهم يوم بدر من القتل الشنيع والأسر، وما نالهم يوم فتح مكة من خزي الانهزام وغير ذلك.

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وقدم الخبر «لهم» في الجملتين لتأكيد ما أعده لهم من الخزي في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

وقد قال ﷺ في حديث بُسْر بن أرطأة رضي الله عنه: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ الواو: استئنافية، «لله»: جار ومجرور في محل رفع خبر

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨١) قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٢٦) «وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة، وليس لصحابيِّه وهو بُسْر بن أرطأة، ويقال: ابن أبي أرطأة حديث سواه، وسوى حديث: «لا تقطع الأيدي في الغزو».

مقدم، واللام للملك، وقدم الخبر؛ لإفادة الاختصاص، أي: ولله سبحانه وتعالى خاصة ملك المشرق والمغرب.

﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: مكان شروق الشمس والقمر والنجوم.

﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾: مكان غروب الشمس والقمر والنجوم.

والمعنى أن له ﷻ كل شيء؛ لأن ذكر المشرق والمغرب يعني الإحاطة وشمول ملكه لجميع الآفاق- إضافة إلى الإشارة إلى ما في المشرق والمغرب من الآيات العظيمة في كونهما محل طلوع الأنوار ومغاربها.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ الفاء عاطفة، و«أين»: شرطية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿تُوَلُّواْ﴾: فعل الشرط، أي: فأينما تتوجهوا في صلاتكم ودعائكم.

﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

﴿فَثَمَّ﴾ أي: فهناك، والإشارة إلى الجهة التي تولوا إليها.

أي: فتوجهكم إلى الله تعالى سواء كنتم في المشرق أو المغرب، أو غير ذلك من الجهات.

وقد قال ﷺ: «**إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصقن قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»(١).

والمعنى: فأين ومهما توجهتم إليه من الجهات فتوجهكم إلى الله إذا كان ذلك بأمره ﷻ لكم، كما في استقبالكم الكعبة، أو استقبالها تحرياً واجتهاداً عند خفاء القبلة، أو الصلاة إلى غير الكعبة في حال تعذر استقبالها كما في حال اشتداد القتال والمسايفة، وحال المرض ونحو ذلك، أو في صلاة التطوع في السفر على الراحلة حيثما توجهت، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة- حك البزاق باليد في المسجد (٤٠٦)، ومسلم في المساجد، مواضع الصلاة- النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٤٧)، وأبو داود في الصلاة (٤٧٩)، والنسائي في المساجد (٧٢٤)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٦٣).

حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾»(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الملك والتيسير، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

واسع العلم، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

واسع المغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

واسع الرحمة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

واسع الفضل والغنى والجود والعطاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

واسع السمع، كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**»(٢)، وفي رواية أنها قالت: «**تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء**»(٣).

واسع الإحاطة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

واسع العفو، واسع الحلم، واسع الحكمة، واسع القدرة، واسع الصفات كلها،

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها- جواز صلاة النافلة على الدابة (٧٠٠)، والنسائي في الصلاة (٤٩١).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد- باب (وكان الله سميعاً بصيراً) «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢)، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٢٢/ ٤٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٤٢)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (٢٧٣).

والواسع من أسماء الله ﷻ.

﴿عَلِيمٌ﴾: ذو علم، محيط بكل شيء كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ قرأ ابن عامر: ﴿قَالُواْ﴾ بغير واو، وقرأ الباقون ﴿وَقَالُواْ﴾ بالواو.

أي: قال اليهود والنصارى والمشركون ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: جعل الله له ولداً، فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله.

كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى عن المشركين: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي: فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما أحد أصبر من الله على أذى يسمعه، إنهم يجعلون لله نداً، ويجعلون لله ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم**»(٢).

«سبحانه» تنزيهاً لنفسه ﷻ عن الولد وعن السبب المقتضي للولد، لأنه ﷻ الغني بذاته، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس:٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤)، وأحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥).

[المؤمنون:٩١]، وقال تعالى حكاية لقول الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٌ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الصمد: ١- ٤].

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

نزه ﷻ نفسه عن الولد ثم أبطل دعوى من ادعى ذلك ببيان عظمته وغناه عن خلقه وعدم حاجته إلى ولد، فله ما في السموات والأرض، كل له قانتون، وخلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سابق، وله القضاء التام والأمر النافذ.

قوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ «بل»: للإضراب وإبطال قولهم، وإثبات غناه ﷻ عن الولد وعن الخلق كلهم، «له»: اللام للملك، وقدم الخبر «له» للاختصاص، و«ما»: اسم موصول يفيد العموم، أي: بل له وحده جميع الذي في السموات والأرض من المخلوقات والعوالم ملكاً وخلقاً وتدبيراً.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: كل من هذه المخلوقات ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قدم الخبر لإفادة الحصر والاختصاص، أي: له وحده.

﴿قَٰنِتُونَ﴾ أي: مطيعون خاشعون ذليلون منقادون كوناً لأمره.

وفي قوله: ﴿قَٰنِتُونَ﴾ تغليب لجانب العقلاء تشريفاً لهم؛ لأن منهم الملائكة والرسل والأنبياء والصالحون.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ «بديع» على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مبدع، أي: مبدع السموات والأرض وخالقهما وما فيهما على غير مثال سابق.

وهذا من الأدلة على استحالة أن يكون له ولد، كما قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الآية: ١٠١].

فرتب ﷻ نفي الولد والصاحبة على قوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، و«قضى»: فعل الشرط؛ أي: وإذا أراد أمراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

«والأمر» واحد الأمور، وهو الشأن والشيء، كما قال تعالى في الآية الثانية: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: جملة جواب الشرط «إذا» وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، قرأ ابن عامر بنصب ﴿فَيَكُونَ﴾ جواباً للأمر «كن» فتكون الفاء للسببية، أي: فبسبب ذلك يكون، وقرأ الباقون برفع ﴿فَيَكُونُ﴾ وتكون الفاء للاستئناف، أي: فهو يكون.

و«إنما»: أداة حصر، أي: لا يقول له إلا «كن» مرة واحدة فيكون.

و«كان» هنا تامة، أي: فيحدث ويوجد ذلك الأمر ويقع، أي: أن أمره ﷻ تام نافذ واقع بلا تأخير، فلا يعجزه أو يستعصي عليه شيء.

فالذي أبدع السموات والأرض على غير مثال سابق، والذي إذا أراد أمراً إنما يقول له كن فيكون قادر على خلق ولد بلا أب، وفي هذا رد على النصارى في زعمهم أن المسيح ابن الله؛ لأنه خلق بلا أب، كما قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فليس خلق عيسى من أم بلا أب بموجب كونه ابناً لله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أحد أشد ظلماً وتعدياً ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها حسيًّا ومعنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾.

وفي المقابل: إن من أعدل الناس وأعظمهم إيماناً من سعى في عمارة المساجد حسيًّا ومعنويًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

[التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

٢- أن الذنوب والمعاصي تتفاوت فبعضها أعظم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٣- أن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه تخريب وإفساد لها.

٤- عدم جواز التحجر وحجز الأماكن في المساجد، لما في ذلك من منع الناس من الصلاة في هذه الأماكن، ومن الجلوس للذكر والقراءة فيها، ولأنها أيضاً مساجد الله والناس فيها سواء.

٥- تشريف الله ﷻ للمساجد؛ لأن الله ﷻ أضافها إليه فقال: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾.

٦- وجوب تعظيم بيوت الله «المساجد» واحترامها وإعلاء شأنها حسيًّا ومعنويًّا.

٧- وجوب تطهير المساجد مما يخل بإخلاص العبادة لله فيها كالقبور والصور ونحو ذلك؛ لأنها مساجد الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

٨- البشارة للمؤمنين ووعدهم بأن العاقبة لهم، والوعيد للذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، أن الله سيذلهم ويخزيهم، ويمنعون هم من دخولها؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾.

وقد حقق الله ذلك، فحرم الله ﷻ دخول المشركين والكفار المساجد، وأوجب على المؤمنين منعهم من ذلك.

٩- الوعيد الشديد للذين يمنعون ذكر الله في المساجد ويسعون في خرابها بالخزي والذل والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة؛ لشدة ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فجمع لهم بين العذاب العاجل والعذاب الآجل.

١٠- أن العز كل العز في طاعة الله- تعالى- وأن الذل كل الذل في معصية الله- تعالى.

١١- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٢- أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٣- أن لله ﷻ وحده المشرق والمغرب والملك كله؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

١٤- أن لله ﷻ أن يوجه عباده في العبادة إلى ما شاء من مشرق أو مغرب أو غير ذلك؛ لأن له المشرق والمغرب والملك كله، والتدبير والتصرف في ذلك.

١٥- أن المصلي إلى القبلة أينما توجه في صلاته، فهو متوجه إلى الله سواء توجه إلى المشرق أو إلى المغرب أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

١٦- إثبات الوجه لله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

١٧- إثبات صفة الواسع لله ﷻ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾، فهو واسع في مغفرته ورحمته وجوده وكرمه وعفوه وحلمه، وفي جميع صفاته، سبحانه وتعالى.

١٨- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١٩- جرأة أهل الكفر والشرك من اليهود والنصارى ومشركي العرب على الله بنسبتهم الولد إليه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.

٢٠- تنزيه الله ﷻ نفسه عما وصفه به الظالمون من اتخاذ الولد؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، ووجوب تنزيهه عن ذلك، وعن كل نقص.

٢١- إثبات استغناء الله ﷻ بذاته استغناءً تاماً عن الولد وعن الخلق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٢٢- تفرد الله ﷻ وحده بملك ما في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٣- سعة وعموم ملك الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٤- انقياد كل ما في السموات والأرض كوناً لله ﷻ وخضوعهم له؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

٢٥- قدرة الله ﷻ التامة العظيمة في خلق السموات والأرض، وهذه المخلوقات العظيمة العجيبة على غير مثال سابق؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٦- نفوذ أمر الله وقضائه الكوني، وانقياد كل شيء له بلا تأخير، فلا يعجزه شيء أو يمتنع عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٢٧- إثبات القول والكلام لله ﷻ بحرف وصوت، وفهم كل شيء لأمره وقوله حتى الجمادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٢٨- إثبات أن الله ﷻ يخلق الخلق بكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قال ابن خزيمة[1]: «وعلمنا أن الله جلَّ وعلا في محكم تنزيله أنه يخلق الخلق بكلامه وقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. فأعلمنا جل وعلا أنه يكون كل مكون من خلقه بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وقوله: ﴿كُن﴾ هو كلامه الذي به يكون الخلق، وكلامه ﷻ الذي به يكون الخلق غير الخلق الذي يكون مكوناً بكلامه، فافهم ولا تغلط ولا تغالط».

وقال ابن تيمية[2]: «وقد نطقت الكتب بأن الله يخلق الأشياء بكلامه، فيقول لها: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ هكذا في القرآن والتوراة وغيرهما، لكن الخالق هو الله تعالى يخلق بكلامه ليس كلامه خالقا، ولا يقول أحد قط: إن كلام الله خلق السموات والأرض».

* * *

(١) في «كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل» (١٥/ ٣٩١).

(٢) في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٤/ ٢٧٢).

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين ليسوا من ذوي العلم بالله وشرعه وما ينبغي له ﷻ.

واختلف في المراد بهم: فذهب طائفة من المفسرين إلى أن المراد بهم مشركو العرب، وقال بعض المفسرين: المراد بهم النصارى؛ لأن السياق معهم، وقال بعضهم: المراد بهم اليهود.

فعن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾(١).

وقال بعضهم المراد بهم: اليهود والنصارى؛ لأن السياق مع أهل الكتاب كلهم، وقال بعضهم: المراد بهم أهل الكتاب ومشركو العرب وغيرهم؛ لأن كل من تفوه بمثل هذه المقالة فهو ممن لا يعلم.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ «لولا»: حرف تحضيض قصد منه التعجيز والتعنت والعناد والمكابرة، أي: هلَّا يكلمنا الله، كما يكلم ملائكته ورسله.

﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ «أو»: عاطفة، أي: أو هلَّا تأتينا آية، وقولهم «آية» بالتنكير يدل على شدة مكابرتهم وجحودهم لما جاءهم من الآيات فكأنهم لم تأتهم أية آية، ولقد جاءهم على

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٥).

أيدي الرسل وألسنتهم من الآيات العظيمة ما تقوم به الحجة عليهم، وأعظم ذلك القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

قال أبو الطيب(١):

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وكما قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(٢)

وهم يعنون بقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ الآيات التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، ويطلبونها تعنتاً لا استرشاداً؛ جرأة على الله- عز وجل- ومحادة لرسله، كقول اليهود: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

وقول النصارى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢].

وقول مشركي العرب: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى «مثل» أي: مثل قولهم هذا قال الذين من قبلهم من الأمم السابقة قبلهم، كما قال تعالى مخاطباً نبينا محمداً ﷺ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٢٠.

(٢) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» ص٢٤٧.

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: تشابهت قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون وقلوب الذين من قبلهم، أي: تشابهت قلوب الآخرين والأولين في الكفر والعتو والعناد ورد الحق وتكذيب الرسل؛ ولهذا تشابهت أقوالهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

لأن القلوب عليها مدار صلاح الأعمال والأقوال أو فسادها، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وتثبيت لقلبه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ هذا فيه رد على مقالة أهل الجهل والكفر والتعنت والعناد ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ بأنه ﷻ قد بين الآيات بما تقوم به الحجة على الخلق، ويهتدي به أهل اليقين، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿قَدۡ﴾ للتحقيق، ﴿بَيَّنَّا﴾ أظهرنا وفصلنا، ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ جمع آية، وهي العلامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: علامة ملكه.

والآيات قسمان:

القسم الأول: آيات كونية أيد الله ﷻ بها رسله ومنها آيات ظاهرة في الكون.

والقسم الثاني: آيات شرعية؛ أنزلها الله تعالى في كتبه على رسله عليهم الصلاة والسلام، أعظمها وأفضلها القرآن الكريم المعجز بأقصر سورة منه.

وكل هذه الآيات دالة على عظمة الخالق واستحقاقه للعبادة دون سواه، وعلى صدق رسله عليهم الصلاة والسلام، وصدق ما جاؤوا به من الوحي وأن فيه هداية البشر وصلاحهم وسعادتهم في أمر دينهم ودنياهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- فصل من استبرأ لدينه (٥٢) ومسلم في المساقاة- أخذ الحلال وترك الحرام (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قال ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(١).

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ «الإيقان» و«اليقين» هو العلم والإيمان والتصديق الجازم بالله ﷻ وكل ما يجب الإيمان به، الموجب للعمل، الذي لا يخالجه شك، وفي التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾ دلالة على التجدد والاستمرار، وأن ذلك كان خُلُقاً لهم.

والمعنى: أن بيان الآيات وإظهارها إنما يستفيد منه أهل اليقين والعلم والإيمان الجازم، أما من عداهم، فكما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة قول الذين لا يعلمون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كما قال الذين من قبلهم وتشابه قلوبهم في الكفر والحسد والمكابرة والعناد، ورد عليهم بقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وفي هذا تأكيد لبيان الآيات، أي: إنا أرسلناك بالحق بالآيات البينات بشيراً ونذيراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ تكلم ﷻ عن نفسه بضمير العظمة «إنا». و«نا» لأنه العظيم سبحانه وتعالى، والخطاب للنبي وفيه إثبات رسالته ﷺ، أي: إنا أرسلناك يا محمد أي: بعثناك، ولم يذكر المرسل إليه لإفادة العموم؛ لأنه مرسل إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] وقال ﷻ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، والمصاحبة، أي: إنا أرسلناك متلبسا بالحق، ومصحوباً

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)- من حديث أبي هريرة ﷺ.

بالحق، أي: أن رسالتك حق، وما جئت به وهو القرآن حق، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

والحق: الثابت المستقر، ضد الباطل الزاهق الزائل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وهو أيضاً الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان، أي: حال كونك بشيراً ونذيراً، أي: بشيراً للمؤمنين بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة ،والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

والبشير المخبر بما يسر، مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت بشرته واستنار وجهه، كما قال كعب بن مالك ﷺ: «**وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، قال: وكنا نعرف ذلك منه**»(١).

﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار والشقاء والعذاب، والنذير: هو المحذر المخوف من الشر.

والرسول ﷺ محذر ومخوف من عذاب الله تعالى وعقابه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة، فصبَّحهم الجيش فاجتاحهم**»(٢).

وفي حديث سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل الساعة**

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- الانتهاء من المعاصي (٦٤٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

كفرسي رهان، ومثلي مثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أُتيتم، أُتيتم، ثم يقول رسول الله ﷺ: أنا ذلك»(١).

وكما قال «لَقيطِ الأيادي» منذراً ومحذراً قومه من عواقب غزو كسرى من قصيدة كتبها لهم بعنوان: «صرخة غيور»:

أبلـــغ إيـــاداً وخلّـــل في سراتهـــم ... أني أرى الـرأيَ إن لم يُعـصَ قـد نصـعا
يـا قـوم لا تـأمنوا إن كنـتمُ غُـيَّرًا ... عـلى نسـائكم كسـرى ومـا جمعـا
هـذا كتـابي إلـيكم والنـذير معـاً ... لمـن رأى رأيَـه مـنكم ومـن سـمعا
وقـد بـذلت لكـم نصـحي بـلا دخـلٍ ... فاسـتيقظوا إن خـير العلـم مـا نفعـا(٢)

فمهمته ﷺ بيان الحق، والشهادة على الخلق، والبشارة للمؤمنين، والإنذار للكافرين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

كما أنه ﷺ مكلف بالعمل كغيره من الرسل والأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ قرأ نافع ويعقوب بفتح التاء وجزم اللام «ولا تَسألْ» على اعتبار أن «لا» ناهية والفعل مبني للفاعل أي: ولا تسأل يا محمد عن أصحاب الجحيم، فبئس الحال حالهم، حال لا يتصورها الإنسان، ولا يحيط بها الوصف من شدة وفظاعة ما هم فيه من العذاب.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ﴾ برفع الفعل على اعتبار «لا» نافية، والفعل مبني لما لم يسم فاعله، أي: ولا تُسأل يا محمد عن أصحاب الجحيم، وهم الذين كفروا بك، وقد بلغت رسالة ربك؛ لأن مهمتك تبليغ الرسالة والبشارة للمؤمنين والإنذار للكافرين

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٤).

(٢) انظر: «ديوان لقيط الإيادي» (ص٤)، «الحماسة البصرية» (١/ ٨٩)، «الذخائر والعبقريات» (٢/ ٢٢٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (١/ ٥٢٢).

وليس عليك هداية الخلق، ولا حسابهم، فذلك إلى الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥].

وأصحاب الجحيم، أي: ملازموها وأهلها، وسموا أصحاب الجحيم لملازمتهم إياها كما يلازم الصاحب صاحبه، و«الجحيم»: اسم من أسماء النار، أي النار المتأججة العظيمة الشديدة الحرارة التي يعلو بعضها بعضاً.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وبيان حدود مهمته، ووعيد وتهديد للكافرين المخالفين المعاندين.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

قوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ الواو: عاطفة، و«لن»: حرف نفي ونصب، والرضا: ضد الغضب، والخطاب للنبي ﷺ، و«لا» في قوله: ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ للتنصيص على أن كل طائفة منهم لن ترضى عنه بانفرادها، وليس المراد أنهم لن يرضوا عنه حال كونهم مجتمعين فقط.

أي: لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى مهما تألفتهم وحاولت رضاهم؛ لشدة تعنتهم وعنادهم وبغيهم وحسدهم وكفرهم، وكان ﷺ أول أمره يحب أن يتألف اليهود، كما يحب موافقتهم فيما لم ينه عنه، ثم بعد ذلك أُمر بمخالفتهم.

﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ «حتى» للغاية، والفعل «تتبع» منصوب بها، أو بأن المقدرة بعدها، أي: حتى أن تتبع ملتهم، أي: دينهم الذي كانوا عليه، فاليهود لن يرضوا عنك حتى تكون يهودياً، والنصارى لن يرضوا عنك حتى تكون نصرانياً؛ لأن كل فريق منهم يرى أنه هو الذي على الحق.

وفيه تيئيس من إسلامهم، وتنبيه إلى أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه عليه السلام.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أكد الجملة بثلاثة مؤكدات: إنَّ، والقصر، وضمير الفصل «هو» أي: قل لهم يا محمد: ليس الهدى ما أنتم عليه من التحريف والتبديل، بل إن هدى الله وحده هو الهدى، مما جاءكم من الحق في كتبكم، ومن ذلك البشارة بمحمد ﷺ وإيجاب تصديقه واتباعه، وما جاء به محمد ﷺ من الهدى في الكتاب والسنة، وما سوى ذلك فهو ضلال، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وأمر ﷻ نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

فمن اهتدى بهدى الله فهو المهتدي، ومن اهتدى بغير هدى الله فهو ضال.

قال ابن كثير(١): «أي: قل يا محمد: إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل».

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن اتبعت أهواءهم، والخطاب للنبي ﷺ والضمير الهاء في ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ يعود إلى اليهود والنصارى، أي: والله لئن اتبعت أهواء اليهود والنصارى.

والهوى هو الرأي الناشئ عن شهوة لا عن دليل، وفي هذا دليل على أنهم ليسوا على هدى، بل اتباع هوى وعلى ضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: بعد الذي جاءك من العلم بالكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ جواب القسم، و«ما»: نافية، «لك»: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بالخبر المحذوف.

﴿مِن﴾ زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى للنفي.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٣٥).

﴿وَلِيٍّ﴾ مجرور لفظاً مرفوع محلاً مبتدأ مؤخر، والولي: هو الذي يتولى غيره بجلب النفع والخير له.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ما قبله، و«لا»: زائدة إعراباً مؤكدة للنفي من حيث المعنى، و«النصير» هو الذي ينصر غيره بدفع الضر والشر عنه.

والمعنى: ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من الوحي ما لك من الله أيُّ ولي يتولاك، فيجلب لك النفع والخير، وما لك من الله أيُّ نصير ينصرك فيدفع عنك الضر والشر، فلا أحد يتولاك، ولا أحد ينصرك إذا الله تخلى عنك، أي: فلا أحد يجلب لك رحمته، ولا أحد يدفع عنك عذابه.

وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه أن يتبع أهواءهم بعد الذي جاءه من العلم، وتحذيره من ذلك لا يدل على وقوعه منه، بل ولا على جواز وقوعه منه؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ فيما يتعلق بتبليغ رسالة ربه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وفي الآية تحذير وتهديد لأمته أن يتبعوا أهواء أهل الكتاب بعد ما علموا من الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ «الذين»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: خبر المبتدأ.

والمراد بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الآية المؤمنون من هذه الأمة من الصحابة- رضوان الله عليهم- ومن بعدهم، والكتاب هو القرآن، فلما ذكر الله ﷻ عدم رضا اليهود والنصارى عنه ﷺ حتى يتبع ملتهم، أتبع ذلك بما يؤنسه ويسليه ويقوي قلبه

وهو أنه إن أبى اليهود والنصارى الإيمان به واتباع القرآن الكريم فإن أصحابه وأمته الذين أعطاهم الله هذا القرآن يتلونه حق تلاوته ويقومون بحقه ويتبعونه ويؤمنون به.

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يتلونه حق تلاوته.

وقوله: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ من إضافة الوصف إلى موصوفه، وهو مفعول مطلق، أي: يتلونه تلاوة حقاً، أي: التلاوة الحق.

والتلاوة تطلق على قراءته وتلاوة لفظه، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وعلى تلاوة معناه وتفسيره، وعلى تلاوة أحكامه باتباعها والعمل بها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢]، أي: تبعها.

فمعنى ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يقرؤونه حق قراءته بتدبر ألفاظه وقراءته قراءة صحيحة وترتيله، كما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [الإنسان: ١٦- ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

ويتلونه حق تلاوته بتدبر معانيه وتفسيره حق التدبر.

ويتلونه حق تلاوته بتدبر أحكامه وأخباره ووعده ووعيده، حق التدبر، فيتبعون أحكامه ويعملون بها، امتثالاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، ويصدقون أخباره ووعده ووعيده، فيرجون ما فيه من وعد ويخافون ما فيه من وعيد.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤] أي: بتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وهذا هو المراد من إنزال القرآن الكريم وغيره من كتب الله تعالى.

فمن لم يتلُ كتاب الله حق تلاوته بتدبره لفظاً ومعنى، واتباع أحكامه، وتصديق أخباره لم ينتفع بتلاوته، بل ربما كان أبعد الناس عن ذلك، ولهذا لم ينتفع الخوارج بقراءتهم القرآن، بل كان سبباً لمروقهم من الدين وخروجهم على أئمة المسلمين، كما قال ﷺ: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ خبر المبتدأ «الذين»، أي: أولئك الذين يتلون القرآن حق تلاوته هم الذين يؤمنون ويصدقون به، وأشار إليهم بإشارة البعيد إشارة لعلو مرتبتهم ورفعة منزلتهم.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: ومن يكفر بالقرآن ويكذبه ويجحده.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ جواب الشرط «من»، وقرن بالفاء لأنه جملة اسمية، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم، والخسران النقص وعدم الربح.

وأكد الخسران وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم» أي: فأولئك هم الخاسرون لا غيرهم، والذين بلغوا الغاية في الخسران، الذين خسروا الخسارة العظمى، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

فالخسارة الكبرى والمصيبة العظمى هي الخسارة والمصيبة في الدين، التي ذهب فيها رأس المال مع الربح وكل شيء، فخسر الإنسان دينه ودنياه وأخراه، خسر نفسه وأهله وولده وماله، وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أهل الكتاب اليهود والنصارى فيكون المراد بالكتاب التوراة والإنجيل.

فيكون المعنى: الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى يتبعونه حق اتباعه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يؤمنون بكتابهم الذي أنزل عليهم، وبالنبي ﷺ وبالقرآن لدلالة كتبهم على ذلك، ويرضون عن رسول الله ﷺ وعما جاء به لموافقته لكتبهم وتصديق كتبهم له، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٤].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: ومن يكفر من أهل الكتاب بما أنزل عليهم ويكفر بالرسول ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن المراد بالكتاب في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من كتب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

هذا تذكير لبني إسرائيل بما سلف من نعمه؛ استعطافاً لقلوبهم علّها أن تلين وتقبل الحق، وبهذا خُتم الحجاج مع أهل الكتاب في هذه السورة وهو تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقد سبق الكلام على هاتين الآيتين ويحسن الوقوف عند قوله هنا: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ مقارناً بقوله في الآية السابقة: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وفي الآية السابقة: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: ولا يقبل من أي نفس فداء ولا يؤخذ منها مقابل تخليصها من عذاب الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: ولا تنفع نفساً شفاعة من شفع لها لتنجو من العذاب أو تحصل على الثواب؛ لأن من شرط الشفاعة رضى الله عن المشفوع له؛ لقوله تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٣)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الآية السابقة: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: ولا يقبل من نفسٍ عن نفس شفاعة؛ لأنه لا أحد يشفع لأحد إلا بإذن الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

فالشفاعة في ذلك اليوم لا تقبل ولا تنفع إلا ما خص من ذلك مما توفر فيه إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له- كما دل الكتاب والسنة على ذلك(١).

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو وعناد واستكبار أهل الكفر والشرك والجهل وجرأتهم على الله ومجادلتهم بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾.

٢- أن كل من لم يعرف لله ﷻ وما ينبغي له فهو جاهل غير عالم وإن كان محسوباً من ذوي العلم؛ لأن حقيقة العلم ولبه وأصله العلم بالله ﷻ وتعظيمه والقيام بما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٣- تكذيب أهل الكفر والجهل لما جاءهم من الآيات الكونية والشرعية؛ لقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾، ولقد جاءهم من الآيات ما يليِّن الصم الصلاب لو أنزل عليها، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

٤- في قول المكذبين من المشركين وغيرهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ دلالة على أنهم يقرون بأن الله يتكلم بحرف وصوت، فهم في هذا خير ممن ينفون الكلام عن الله ويقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم في النفس، كما قيل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا(٢)

٥- مجادلة المكذبين من الأمم السابقة رسلهم بالباطل، وتكذيبهم ما جاؤوهم به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾.

٦- تشابه قلوب المكذبين من الأولين والآخرين، واجتماعهم على رد الحق وتكذيب

---

(١) راجع ما تقدم في الكلام على الآية (٤٨) من هذه السورة.

(٢) البيت ينسب للأخطل. انظر: «شذور الذهب» ص٣٥.

الآيات والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

٧- أن الأقوال تابعة لما في القلوب وتنبئ عما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ فتشابهت أقوالهم لتشابه قلوبهم.

٨- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه، ببيان أن ما قاله المكذبون من قومه قال مثله المكذبون للرسل قبله، فليست المصيبة مصيبته وحده، بل هي كذلك مصيبة الرسل قبله، والمصائب كالتكاليف إذا عمت خفت، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

٩- إبطال دعوى المكذبين في قولهم: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾؛ لأن مفهوم هذا أنه لم تأتهم آيات؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

١٠- أن الله ﷻ أقام الحجة على الخلق ببيان الآيات.

١١- تعظيم الله ﷻ لنفسه؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

١٢- أنه لا ينتفع ببيان الآيات ويتبينها إلا أهل اليقين والتصديق الجازم؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، فيزداد بالآيات إيمانهم ويقينهم وعلمهم.

١٣- أن أهل الشك والريب لا تتبين لهم الآيات ولا ينتفعون بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

١٤- تأكيد بيانه ﷻ للآيات والرد على القائلين: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ أي: إنا أرسلناك بالحق بالآيات البينات بشيراً ونذيراً.

١٥- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله ﷻ له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

١٦- أن مهمة الرسول ﷺ بيان الحق وتبليغ رسالة ربه، والبشارة لمن آمن وأطاع الله، والإنذار لمن كفر وعصى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾،

١٧- أن ما جاء به الرسول عليه السلام هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وما سواه فهو باطل وضلال.

١٨- أن الأولى تقديم التبشير على التخويف والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فقدم البشارة على الإنذار وقد قال ﷺ في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت أو تسبق غضبي**»(١).

١٩- أن اعتدال النفس البشرية وصلاحها واستقامتها في الجمع لها بين البشارة والإنذار؛ لتجمع بين الخوف والرجاء؛ لأن من غلب جانب الخوف قد يقنط وييئس من رحمة الله تعالى، ومن غلب جانب الرجاء قد يأمن من مكر الله.

٢٠- أن هداية الخلق بيد الله، وليس ذلك إليه ﷺ، ولا يُسأل عنها، ولا عن ضلال من ضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٢١- شدة عذاب أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾، والقراءة بالبناء للفاعل أدل على هذا المعنى: ﴿وَلَا تَسْـَٔلْ﴾ أي: ولا تسألْ عن أصحاب الجحيم، أي: عن حالهم وشدة عذابهم.

٢٢- خلود أهل النار فيها وملازمتهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٢٣- أن الجزاء من جنس العمل، فلشدة عتو هؤلاء المكذبين وعنادهم وجرأتهم على الله ومجادلتهم بالباطل بقولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ جوزوا بأشد عذاب الجحيم.

٢٤- عنصرية اليهود والنصارى فهم لا يرضون إلا عن من اتبع دينهم، وإن كان الحق خلاف ما هم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: لن يرضى عنك اليهود حتى تكون يهودياً، ولن يرضى عنك النصارى حتى تكون نصرانياً.

٢٥- حرص أهل الكتاب على إدخال الناس في دينهم، والواقع يشهد لهذا فإرساليات التبشير بالنصرانية تجوب كثيراً من بلاد العالم وخاصة في البلاد الفقيرة مثل أفريقيا وغيرها لشراء الذمم، وإدخال الناس في النصرانية الباطلة المحرفة، ويبذلون في

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٢٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سبيل ذلك جهوداً مضنية وتضحيات جسيمة مادية ومعنوية تقصر عنها بكثير، بل لا تكاد تقارن بها جهود المسلمين في الدعوة إلى الإسلام الذي هو الدين الحق، مصداق قول عمر رضي الله عنه: «**اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة**»(١).

٢٦- في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ إشارة إلى أن الكفر ملة واحدة ضد الإسلام.

٢٧- أن هدى الله هو الهدى، فمن اهتدى به فهو المهتدي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٨- أن ما عدا هدى الله فهو ضلال؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٩- الإشارة لنسخ الإسلام للأديان السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٣٠- التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣١- أن اليهود والنصارى ليسوا على هدى بل أتباع هوى؛ لقوله تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾، ولو لم يكونوا أتباع هوى لآمنوا بما أنزل عليهم وبما أنزل على محمد ﷺ.

٣٢- أن اتباع الهوى بعد العلم أشد وأعظم ضلالاً وظلماً؛ لقيام الحجة، وانتفاء العذر؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾، وفي الآية الثانية: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣٣- أن ما جاء إلى الرسول ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة من العلم، بل هو أصل العلوم؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾.

٣٤- أن من اتبع أهواء أهل الكتاب بعد ما جاءه من العلم فلا أحد يتولاه من دون الله، ولا أحد ينصره فيدفع عنه عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

---

(١) ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٨، ٢٥٤).

٣٥- أن من لم يتوله الله ولم ينصره فليس له من دونه ولي ولا ناصر .

٣٦- أن الله ﷻ أنزل الكتب لتتلى وتتبع ويعمل بما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾.

٣٧- أن المؤمن بالقرآن حقاً من يتلوه ويتبعه ويعمل بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فمن لم يتله ويعمل به فليس بمؤمن.

٣٨- أن الإيمان بالقرآن يزيد ويكتمل بتمام تلاوته والعمل به، وينقص بنقصان ذلك.

٣٩- امتنان الله ﷻ على من آتاهم الكتاب وتلوه حق تلاوته وقاموا بحقه، وثناؤه عليهم، وبيان علو مرتبتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٤٠- أن من كفر بالقرآن أو بغيره من كتب الله أو بمحمد ﷺ أو بغيره من رسل الله ﷻ فهو الخاسر الخسارة العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

٤١- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى الخسارة في الدين.

٤٢- تأكيد وجوب ذكر نعمة الله ﷻ على بني إسرائيل ومن ذلك تفضيلهم على عالمي زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤٣- إثبات يوم القيامة وشدته، ووجوب اتقائه، والاستعداد له بتقوى الله والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾.

٤٤- تحذير بني إسرائيل يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾.

٤٥- لا نجاة لأحد من أهوال يوم القيامة وعذابه إلا بتقوى الله ﷻ فلا نفس تغني عن نفس شيئاً ولا تقبل منها فدية ولا تنفعها شفاعة، ولا ناصر لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٤٦- إثبات أصل الشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، فالشفاعة ثابتة ممن أذن الله له بالشفاعة، كشفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف، وشفاعة المؤمنين بعضهم لبعض، وغير ذلك، لكنها لا تنفع إلا لمن رضي الله عنه.

ففي هذه الآية نفى نفع الشفاعة إلا لمن رضي الله عنه، وفي قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ نفى قبول الشفاعة إلا لمن أذن الله له بها.

٤٧- اختلاف أحوال القيامة عن أحوال الدنيا، فالناس في الدنيا يتعاونون، ويقدم الإنسان فدية ويتخلص في بعض المواقف، ويشفع بعض الناس لبعض، وينصر بعضهم بعضاً كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجاء بدون سلاح(١)

أي: انصر أخاك، أما في القيامة فهيهات ذلك كله.

* * *

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

بعد اختتام الآيات في تذكير بني إسرائيل، أتبع ﷻ ذلك بالتذكير بنعمة الله ﷻ على إبراهيم وعلى ذريته، بجعله إماماً للناس، وجعل البيت مثابة للناس وأمنا وموئلاً للأرزاق، ومجبى للثمرات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرفية شرطية بمعنى «حين» أي: واذكر يا محمد للمشركين ولأهل الكتاب وللناس جميعاً حين ابتلى إبراهيم، ربه و«إبراهيم»: مفعول مقدم، و«ربه»: فاعل مؤخر.

وإبراهيم هو نبي الله ورسوله وخليله- عليه الصلاة والسلام- وهو إبراهيم ابن آزر كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وهو الأب الثالث للأنبياء، فالأب الأول: آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، والثاني: نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، والأب الثالث: إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

ويقال له: «أبو الأنبياء»؛ لأن كل من جاء بعده من الأنبياء هم من ذريته من كان منهم من العرب أو من بني إسرائيل.

وإبراهيم عليه السلام أحد أولي العزم، بل وأفضلهم بعد محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

والابتلاء: الامتحان، أي: امتحنه بكلمات.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضمير إبراهيم عليه السلام تكريم وتشريف له؛ لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة بل خاصة الخاصة.

وقوله: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ «كلمات» جمع كلمة، وهي كلمات شرعية وكونية.

فالكلمات الشرعية: ما أوحاه الله إليه وشرعه له من توحيد الله واجتناب الشرك وأداء المناسك، والقيام بأوامر الله واجتناب نواهيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والآيات بعدها، ومن ذلك الكوكب والقمر والشمس، كما جاء في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ [الآيات: ٧٥-٧٦].

والكلمات الكونية ما امتحنه به وقدَّره عليه، من ذلك الهجرة من بلده إلى الشام، وإلقائه في النار، وأمره بالختان، وأمره بذبح ابنه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [الصافات: ١٠٨]، وهو في ذلك كله صابر محتسب.

قال ابن كثير(١): «وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق وإما طلب عدل، إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾».

﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ الفاء تدل على الفورية والمبادرة من إبراهيم عليه السلام في إتمامهن.

أي: فأكملهن بالقيام بما أوجب الله عليه فيهن شرعاً، فعلاً لما أمره الله به، واجتناباً لما نهاه عنه، وصبراً واحتساباً على ما قدره الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: تمم ما أمر به.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام مجازاة له على إتمامه الكلمات، و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين الأول هنا الكاف، والثاني «إماماً».

أي: إني مصيرك كوناً وشرعاً للناس كلهم إماماً.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٣٧).

أي: قدوة في التَّوحيد والإخلاص لله تعالى والبراءة من الشرك، والقيام بأمر الله وفي الخير كله؛ ولهذا لم يأت بعده نبي إلا كان مأموراً باتباع ملته الحنيفية.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل من ذريتي أئمة في الدين.

و«من» يحتمل أن تكون لبيان الجنس، أي: اجعل ذريتي كلهم أئمة، كما في قول عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، أي: اجعلهم كلهم قرة أعين.

ويحتمل أن تكون «من» للتبعيض، أي: اجعل بعض ذريتي أئمة؛ لأن البعض قد لا يكون أهلاً لذلك، كما جرت بذلك سنن الله الكونية، ولهذا قال الله له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وإنما سأل إبراهيم عليه السلام لذريته الإمامة في الدين نصحاً لهم وشفقة عليهم ومحبة للخير لهم؛ لأن الإمامة في الدين أفضل درجة يتنافس فيها المتنافسون، كما قال عباد الرحمن في دعائهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

والذرية تطلق إطلاقاً عاماً فيدخل فيها أولاد الرجل وأولاد أولاده من ذكور وإناث وإن نزلوا، وتطلق الذرية عند الفقهاء إطلاقاً خاصاً على أولاد الرجل وأولاد بنيه بمحض الذكور دون أولاد البنات، فلو قال رجل: «أوقفت هذا المال على ذريتي» لم يدخل فيهم أولاد البنات.

وإنما دخل عيسى بن مريم- عليه الصلاة والسلام- مع ذرية إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ الآية، مع أنه ابن بنت؛ لأنه لا أب له، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ

وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٥].

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله ﷻ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قرأ حمزة وحفص ﴿عَهۡدِي﴾ بإسكان الياء، وقرأ الباقون بفتحها ﴿عَهۡدِيَ﴾، و«لا»: نافية، و«ينال»: فعل مضارع مرفوع بالضمة، أي: لا يصيب.

﴿عَهۡدِي﴾: فاعل، أي: تعهدي إليك بهذا، والعهد: الوعد المؤكد، وسمى ﷻ وعده عهداً؛ لأنه لا يخلف وعده.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به، أي: الظالمين بالشرك والكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

أي: لا تصيب ولا يشمل تعهدي لك بالإمامة الظالمين من ذريتك بالشرك والكفر، فلا يكون أحد منهم إماماً، ومفهوم هذا أن غير الظالم سينال الإمامة، لكن مع إتيانه بأسبابها.

والمعنى: سأجعل من ذريتك أئمة، لكن لا يصيب ولا يشمل عهدي الظالمين منهم بالكفر والشرك، فلا يكون منهم إماماً يقتدى به.

فينال عهده ﷻ الرسل وأتباعهم المؤمنين، ولا ينال الظالمين من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

قال ابن كثير(١): «لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من أمته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبه قول الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله الله، وكل

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٤٠).

كتاب أنزل الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

سبب النزول:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «وافقت ربي في ثلاثة: فقلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية»(١).

قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: واذكر يا محمد إذ جعلنا البيت، أي: حين صيرنا البيت الحرام شرعاً وقدراً ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

و«ال» في «البيت» للعهد الذهني، أي: البيت المعهود المعروف العظيم، وهو الكعبة المشرفة، والبيت الحرام، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ المثابة: بمعنى المرجع، أي: مكانًا يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا للحج والعمرة والاعتكاف والعبادة والحصول على منافع دينية ودنيوية وأخروية، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧].

تشتاق إليه الأرواح، وتحن إليه القلوب، ولا تقضي منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

يستقبله المسلمون بوجوههم وقلوبهم في صلواتهم في كل يوم وليلة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٩)، والترمذي في تفسير (٢٩٥٩) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٩).

﴿وَأَمْنًا﴾ أي: وجعلنا البيت أمناً للناس، أي: مكان وموضع أمن يأمن الناس فيه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فلا يحمل فيه السلاح، حتى الصيد يأمن فيه، وكذا الشجر والحشيش يأمن فيه من القطع، وحتى إن الرجل يلقى قاتل أبيه في الحرم فلا يعرض له.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ هذا كالتفسير لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ لأنه بعض من إمامته، عن أنس ﷺ قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب، وقال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن، قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ الآية»(١).

قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ أي: واتخذ الناس وصيَّروا وجعلوا، وقرأ الباقون بكسرها على الأمر ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾، أي: واتخذوا أنتم وصيِّروا واجعلوا.

﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ «من مقام» جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول أول لـ«اتخذوا»، و«من»: لبيان الجنس، و«مقام إبراهيم»: مكان قيامه.

أي: واجعلوا وصيِّروا من مكان قيام إبراهيم في مقام قام فيه مصلى، ومن ذلك مقامه الخاص لبناء الكعبة على الحجر ليرفع قواعد البيت، كما سيأتي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [الآية: ١٢٧].

قال أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل(٢)

ومقامه العام في كل مناسك ومشاعر الحج في عرفة والمزدلفة، ومنى، والجمرات،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة (٤٤٨٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٣)، و«خزانة الأدب» (٢/ ٦٢).

والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، وغير ذلك، والأمر للوجوب فيما هو واجب وللندب فيما هو مندوب.

﴿مُصَلًّى﴾: مفعول أول لـ«اتخذوا»، أي: مكان صلاة ودعاء وعبادة، ومن ذلك صلاة ركعتين خلف المقام بعد الطواف لفعله ﷺ، فإنه لما فرغ من الطواف تقدم إلى مقام إبراهيم وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وصلى خلفه ركعتين؛ كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: «استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «قدم رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين»(٢).

وكان المقام ملتصقاً بالكعبة في عهده ﷺ وفي خلافة أبي بكر رضي الله عنه فأخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، وقد قال ﷺ: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا به وعضوا عليها بالنواجذ**»(٣)، وقال ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»(٤).

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾.

العهد: الأمر المؤكد، والوصية بأمر هام، أي: أوصينا إليهما وأمرناهما أمراً مؤكداً.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: وعهدنا إلى إسماعيل، وهو إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهو «بِكْر» إبراهيم ووحيده من جاريته هاجر القبطية، وهو أبو العرب.

وهو الذبيح على القول الصحيح، الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وأسلما أمرهما لله في ذلك. ففداه الله بذبح عظيم، كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وابن ماجه في المناسك (١٩٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٩٦)، ومسلم في الحج (١٢٣٤)، والنسائي في مناسك الحج (٢٩٣٠).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧)- من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٦٦٢)، وابن ماجه في المقدمة (٩٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن».

ٱلزُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآيات: ١٠١- ١٠٥].

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ «أن»: تفسيرية، فيها تفسير للعهد في قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ﴾أي: عهدنا إليهما وقلنا لهما: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أي: الكعبة والمسجد الحرام، وأضافه ﷻ إلى نفسه تشريفاً وتعظيماً، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾.

أي: طهرا بيتي الحرام من الأقذار والنجاسات الحسية، من الأرجاس والنجاسات المعنوية من الشرك والأصنام وعبادة الأوثان وبناء القبور ودخول المشركين ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل الطائفين، الذين يطوفون بالبيت، والطواف: الدوران على الكعبة تعبداً لله ﷻ.

﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ معطوف على الطائفين، أي: ولأجل العاكفين والركع السجود، و﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾: المقيمين فيه للعبادة، جمع عاكف، والاعتكاف: لزوم مسجدٍ لطاعة الله- تعالى.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ «الركع»: جمع راكع، و«السجود»: جمع ساجد، وهم المصلون، وخص الركوع والسجود؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة بل هما أعظم أركان الصلاة من حيث الهيئة، كما أن القيام أفضل أركان الصلاة من حيث الذكر وهو القرآن.

وأيضاً فإنه لا يكون ركوع ولا سجود بلا قيام.

والصلاة أعظم من الطواف ومن الاعتكاف، وإنما بدأ في الآية بذكر الأخص فالأخص، فبدأ بذكر الطائفين؛ لأن الطواف خاص بالمسجد الحرام ثم ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾؛ لأن الاعتكاف خاص بالمساجد، ثم «الركع السجود»؛ لأن الصلاة تصح في كل مكان.

وفي سورة الحج ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الآية: ٢٦].

فالموصوفون بهذه الصفات هم أهل البيت، وهم المقتدون بإبراهيم عليه السلام، دون من عداهم، ممن يزعمون الاقتداء به من أهل الكتاب والمشركين وهم على خلاف ملته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر حين قال إبراهيم داعياً ربه عز وجل ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، أي: يا رب، فـ«رب»: منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وحرف النداء محذوف للعلم به وللبداءة مباشرة باسم «الرب» والتيمن والتبرك به.

فدعا عليه السلام باسم الرب الذي له الخلق والملك والتدبير.

﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ «هذا»: مفعول أول لـ«جعل»، و﴿بَلَدًا﴾ مفعوله الثاني، أي: صيِّر هذا الوادي وهذا المكان، وهو المكان الذي أسكن فيه هاجر وابنها إسماعيل، كما في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ فدعا أن يكون الوادي والمكان بلداً، وأن يكون آمنا.

وقال هنا: «بلداً» بالتنكير لأن هذا الدعاء كان قبل بناء البيت وقبل أن يكون الوادي بلداً مسكوناً، وقال في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [الآية: ٣٥] بالتعريف؛ لأن هذا الدعاء كان- والله أعلم- بعد بناء البيت وبعد أن كان الوادي بلداً مسكوناً، كما قال تعالى في سورة التين: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [الآية: ٣]، وقال في سورة البلد: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [الآية: ١، ٢].

و«البلد» اسم للمكان المسكون كالمدينة والقرية.

﴿ءَامِنًا﴾: صفة لـ «بلداً»، أي: مكان وموضع أمن من الخوف فلا يرعب أهله.

وقد أجاب الله دعوة إبراهيم عليه السلام، فجعل مكة بلداً آمنا شرعاً وقدراً، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ومن أراده بسوء قصمه الله كما فعل بأبرهة وأصحاب الفيل.

وعن جابر بن عبدالله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح**»(١).

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة، ما بين لابتيها لا يقطع عضاها، ولا يصاد صيدها**»(٢).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها**»(٣).

وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ لما أشرف على المدينة قال: «**اللهم إني أحرم ما بين لابتيها مثل ما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم...**» الحديث(٤).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت لها في صاعها ومدها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة**»(٥).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرماً، وإني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا تخبط فيها شجرة إلا لعلف**»(٦).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى**

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٦٢) وأبو داود في المناسك (٢٠٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٧)، ومسلم في الحج (١٣٤٥)، والترمذي في المناقب (٣٩٢٢).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٣)، ومسلم في الحج (١٣٦٥).

(٥) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٢٩)، ومسلم في الحج (١٣٦٠).

(٦) أخرجه مسلم في الحج (١٣٧٤).

خلاها. فقال العباس إلا الإذخر؛ فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال: إلا الإذخر»(١).

وفي حديث أبي شريح العدوي: «**إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ... الحديث**»(٢).

ولا منافاة بين هذين الحديثين وما في معناهما من الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم حرمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها؛ ولهذا قال نبينا ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١].

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام ربه بجعل مكة بلداً آمنا أتبع ذلك بدعوة أخرى وهي أن يرزق أهله من الثمرات؛ لأن النعمة لا تتم إلا بتوفر الأمن والرزق؛ ولهذا امتن الله ﷻ على قريش بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

ومعنى ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: وأعط أهله من الثمرات، والرزق: العطاء.

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ بدل من قوله: (أهله) بدل بعض من كل، فخصص دعوته بالرزق بمن آمن من أهل الحرم بالله واليوم الآخر.

و«من»: موصولة، و«آمن»: صلة الموصول، أي: الذي آمن منهم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: وآمن باليوم الآخر؛ يوم القيامة، وما فيه من البعث والحساب والأهوال، والجزاء على الأعمال، بالجنة أو النار.

وسمي بـ «اليوم الآخر» لأنه لا يوم بعده والإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان بشرعه، ومن ذلك بقية أركان الإيمان وهي: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، وبالقدر خيره

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج- تحريم مكة وصيدها (١٣٥٣)، وأبو داود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٩٢)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٤)، والنسائي في فضائل الحج (٢٨٧٦)، والترمذي في الحج (٨٠٩).

وشره، وغير ذلك مما أوجب الله الإيمان به.

كما يتضمن ذلك أركان الإسلام الخمسة وكل ما أوجب الله القيام به؛ لأن الإيمان والإسلام إذا أفرد أحدهما تضمن الآخر.

وهذا الدعاء من جوامع كلم النبوة فإنه لا قوام للحياة ولا لأمور الدنيا والدين إلا بالأمن والرزق.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ القائل هو الله ﷻ، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ أي: قال الله: وأرزق من كفر، أو: ومن كفر أرزقه أيضاً، فعم بالرزق من آمن ومن كفر، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

فخص إبراهيم بالدعوة بالرزق من آمن فقط، وأجيب بتكفله ﷻ برزق الجميع من آمن ومن كفر، وهذا بخلاف دعوة إبراهيم السابقة لما قال الله له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فعمم إبراهيم بهذه الدعوة، وأجيب بتخصيصها بغير الظالمين بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ قرأ ابن عامر بإسكان الميم وتخفيف التاء: ﴿فَأُمْتِعُهُۥ﴾، وقرأ الباقون بفتح الميم وتشديد التاء: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾، أي: فأعطيه ما يتمتع به من مسكن ومأكل ومشرب وملبس وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل.

﴿قَلِيلًا﴾: صفة لظرف محذوف، أي: فأمتعه زماناً قليلاً، أي: زماناً قصيراً ؛ لأن عمر الإنسان مهما طال فهو قصير، ولأن الدنيا كلها بالنسبة للآخرة قليل.

وأيضاً فأمتعه متاعاً أو تمتعاً قليلاً، فيكون «قليلاً» صفة لمصدر محذوف، أي: متاعاً قليلاً من حيث عين المتاع.

فمهما أوتي الإنسان من الدنيا وملذاتها فذلك قليل بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۢ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢- ١٠٤].

وقال ﷺ: «**وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١).

ومع قصر عمر الإنسان في هذه الدنيا، وقلة ما يحصل له من متاعها، فذلك مشوب بالكبد والكدر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] .

وكما قيل:

لا طيب للعيش ما دامت منغّصة ... لذّاتُهُ بادِّكارِ الموتِ والهَرَمِ(٢)

إضافة إلى نزع البركة من العمر ومما يحصل عليه الإنسان من الدنيا بالنسبة لأهل الكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ ذكر الله الوعيد بالعذاب بعد ذكر الوعد بالمتاع احتراساً من أن يغتر الكافر فيظن أن تخويله بالنعم في الدنيا دليل على رضى الله تعالى عنه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] .

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٢٣٧٧) – من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «أوضح المسالك» (١/ ٢٤٢).

أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

ومعنى ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: ثم ألجئه وأكرهه وأدفعه وأسوقه إلى عذاب النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]؛ أي: يدفعون بشدة وقوة، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الواو: استئنافية: و«بئس»: فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي، أي: وبئس المصير هي، أي: النار، و«المصير» المرجع والمآل والمآب.

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء الله ﷻ لإبراهيم وامتحانه له بكلمات فيها تكاليف شرعية وأحكام كونية، وتذكير محمد ﷺ وأمته بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

٢- أن الابتلاء قد يكون في الخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فكل ما ابتلى الله به إبراهيم وأمره به شرعاً فهو خير، أما ما ابتلاه به كوناً فمنه ما هو خير محض، ومنه ما عاقبته إلى خير وإن كان ظاهره الشر كإلقائه في النار وأمره بذبح ابنه ونحو ذلك.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لإبراهيم عليه السلام وتشريفه بذلك لإضافة اسم الرب ﷻ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾.

٤- إتمام إبراهيم عليه السلام ووفاؤه بما أمر به؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

٥- فضل إبراهيم عليه السلام لإتمامه ما امتحنه الله به ووفائه به، ولهذا جعله الله للناس إماماً في التوحيد والإخلاص لله تعالى واجتناب الشرك، وقدوة في القيام بأمر الله وفي كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٢٣٧٧)- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

٦- إثبات القول لله ﷻ بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ الآية.

٧- إثبات السمع لله ﷻ؛ لأنه يسمع دعاء إبراهيم ويجيبه في هذه الآيات.

٨- فضل الإمامة في الدين، وأنها درجة عظيمة ومنزلة رفيعة، لا ينالها إلا من قام بأمر الله وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

٩- نصح إبراهيم عليه السلام لذريته وحبه الخير لهم؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

١٠- أن من أولى الناس بالدعاء وحب الخير لهم والصلاح ذرية الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وقال في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [الآية:٤٠]، وكما قال عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

١١- أن من كان من الظالمين بالكفر والشرك والمعاصي، لا يكون إماماً، ولا ينبغي أن يقتدى به؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

١٢- ينبغي الحذر من الظلم؛ لأن صاحبه لا ينال ما وعد الله به من الرفعة والإمامة في الدين والخير، بل إنه يهبط بصاحبه إلى أسفل سافلين، بل قد يكون صاحبه إماماً في الشر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [النحل: ٤١].

١٣- الإخبار بأنه سيكون من ذرية إبراهيم عليه السلام الظالمون.

١٤- إثبات العدل لله ﷻ؛ فمن أتم ما أمره الله به جعله الله إماماً وقدوة في الخير، ومن ظلم وخالف أمر الله حُرِمَ ذلك، بل وعوقب وعذب أيًّا كان.

١٥- التذكير بنعمة الله تعالى بجعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، يثوبون ويرجعون إليه لأداء مناسك الحج والعمرة والعبادة فيه من جميع أقطار الدنيا ويستقبلونه ويتوجهون إليه بقلوبهم أينما كانوا.

١٦- تعظيم البيت الحرام وفضيلته؛ لقوله تعالى: ﴿الْبَيْتَ﴾ أي: البيت المعهود والعظيم

المعروف، ولأن الله جعله مثابة للناس وأمناً، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له وتعظيماً، وأمر بتطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية.

١٧- وجوب تأمين من دخل البيت الحرام ما لم يكن محدثاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ ولهذا لا يجوز القتال فيه ابتداءً.

١٨- الأمر بالاتخاذ من مقام إبراهيم مصلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وهو للوجوب فيما هو واجب كمناسك الحج الواجبة كالوقوف بعرفة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، المبيت بمزدلفة، ومنى، ورمي الجمار.

وهو للندب فيما هو مندوب كصلاة ركعتي الطواف خلف المقام.

١٩- عهد الله ﷻ ووصيته إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت الحرام من الشرك والأصنام وعبادة الأوثان والأرجاس الحسية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾.

٢٠- وجوب تطهير البيت الحرام من النجاسات الحسية والمعنوية؛ لأن الله أمر إبراهيم وإسماعيل بذلك وهو أمر لهما ولجميع المسلمين، وهكذا يجب تطهير سائر المساجد.

٢١- اشتراط طهارة مكان الطواف والصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٢٢- أن الأمر بتطهير البيت الحرام؛ لأجل الطائفين والعاكفين والمصلين، أي لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٢٣- التنويه بالطائفين والعاكفين والمصلين بالبيت الحرام؛ لأن الله أمر بتطهير البيت لأجلهم، وفي هذا ترغيب وحث على الطواف والاعتكاف والصلاة والتعبد في البيت الحرام.

٢٤- اختصاص البيت الحرام بالطواف؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ الآية.

٢٥- مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام، وجواز النوم فيه، وسائر المساجد من باب أولى، وقد ثبت أن ابن عمر- رضي الله عنهما- كان ينام في مسجد الرسول ﷺ

وهو عزب(١).

٢٦- أن من أفضل أركان الصلاة الركوع والسجود؛ ولهذا خصهما بالذكر، وأطلقهما على الصلاة كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٢٧- توجه إبراهيم عليه السلام إلى ربه ودعائه بجعل الحرم بلداً آمناً ورزق أهله من الثمرات واستجابته ﷻ لدعائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

٢٨- تذكير هذه الأمة بهذه النعمة من الله ﷻ عليهم وعلى أبيهم إبراهيم عليه السلام حيث وفقه للدعاء واستجاب دعاءه، فجعل هذا البلد آمناً تأتيه الأرزاق من كل حدب وصوب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

٢٩- حاجة الخلق كلهم- بما فيهم الرسل والأنبياء وغيرهم- إلى سؤال الله ودعائه وحده لحصول المطلوب وزوال المرهوب، وأن أفضل دعاء الله ﷻ أن يدعى ويسأل باسم «الرب» كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ الآية، وكما قال عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، إلى غير ذلك، وهكذا كان دعاء غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن معنى الرب: الخالق المالك المدبر للكون المتصرف فيه، فمن شاء أمَّنه، ومن شاء أخافه، ومن شاء رزقه، ومن شاء منعه.

٣٠- شفقة إبراهيم عليه السلام ورأفته بمن آمن من أهل البلد الحرام، ومن يؤمه من المسلمين للحج والعمرة والعبادة لدعائه لهم بالأمن والرزق.

٣١- أن من أعظم النعم نعمة الأمن والرزق، إذ لا قيام للدين ولا للحياة إلا بهما؛ لهذا دعا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٧٣٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٩)، والنسائي في المساجد (٧٢٢)، والترمذي في الصلاة (٣٢١)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥١)، من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

إبراهيم عليه السلام بتوفرهما في البلد الحرام، ولهذا قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [الآية: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

٣٢- أن الدعاء إنما يشرع للمؤمنين، وهو من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض لقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، فخص بالدعاء من آمن من أهل الحرم وقاصديه.

٣٣- وجوب الإيمان بالله وأنه أعظم أركان الإيمان، لهذا قدمه وخصه بالذكر مع الإيمان باليوم الآخر.

٣٤- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان؛ لأن الله قرنه بالإيمان به.

٣٥- تكفل الله عز وجل برزق جميع الخلق المؤمن والكافر، والبر والفاجر، الناطق والبهيم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي: ومن كفر سأرزقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

٣٦- أن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، لكنه لا يعطي الدين إلا من يحب، ولهذا لا ينبغي أن يغتر الإنسان بما أعطيه من الدنيا فقد يكون ذلك استدراجاً له.

٣٧- أن متاع الدنيا مهما طال أو كثر فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾.

٣٨- أن مصير كل كافر إلى النار لا محيد ولا مفر لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

٣٩- إثبات النار وعذابها، وأنها بئس المصير والمرجع والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في حديثه الطويل في قصة مجيء إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إسماعيل، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد- وفي آخره أن إبراهيم عليه السلام قال: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك عز وجل. قال: أوتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً- وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»(١).

قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، أي: واذكر يا محمد حين يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، والتعبير بالمضارع ﴿يَرْفَعُ﴾ لاستحضار الصورة والحالة كأنها تشاهد.

و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة، وقواعد البيت أسسه التي يقوم عليها، ورفعها إبرازها من الأرض لتقوم عليها الجدران.

﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ «من»: بيانية، أي: من البيت الحرام «الكعبة».

وفي اختياره مادة الرفع بدل الإطالة، مع تعريف «القواعد» و«البيت» تنويه بهذا العمل العظيم، وتشريف وتعظيم للبيت الحرام والكعبة المشرفة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٤).

قال ابن القيم(١): «ولم يقل قواعد البيت لما في إبهام القواعد، ولما في تبيينها بعد ذلك من الإيضاح، وتفخيم حال المبهم بما ليس في الإضافة».

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾: معطوف على إبراهيم، وأخَّر ذكر إسماعيل- والله أعلم- للإشارة إلى التفاوت في عمل كل منهما؛ فإبراهيم هو الأصل فهو الذي يبني، وإسماعيل يعينه ويناوله الحجارة.

عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**ألم تَرَيْ أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم**» فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: «**لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت**»(٢).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ الجملة في محل نصب مقول القول، أي: وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: حال كونهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، أي: يا ربنا، وحذفت منه ياء النداء لكثرة الاستعمال، وللتبرك بالبداءة باسم الرب ﷻ.

﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: يقول كل منهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، وتقبل الله تعالى للعمل أن يتلقاه بالرضا، ويرضا عن فاعله، فيثيبه على عمله بالأجر العظيم.

ولم يذكر مفعول «تقبل» ليعم رفع بناء البيت وغيره من القرب والطاعات.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الجملة تعليلية، مؤكدة بـ«إنَّ» والضمير المنفصل «أنت» أي: ندعوك، ونسألك أن تتقبل منا؛ لأنك أنت السميع العليم، تسمع دعاءنا، وتعلم حالنا وسرنا وعلانيتنا، لا يسمع دعاءنا، ولا يعلم حالنا سواك.

فجمعا- عليهما الصلاة والسلام- بين رفع قواعد البيت والإخلاص لله تعالى في العمل، وبين دعاء الله وخوفه ورجائه، والإشفاق من عدم القبول كما حكى الله تعالى عن المؤمنين المخلصين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: خائفة ألا يتقبل منهم، كما في حديث عائشة- رضي الله عنها، حين سألت رسول الله ﷺ عن المذكورين في هذه الآية: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا، يا ابنة**

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (١/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٣٣)، والنسائي في مناسك الحج (٢٩٠٠).

الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»(١).

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل» يدل على أنه ذو السمع الواسع الذي يسع جميع الأصوات، والذي هو صفة ذاتية ثابتة لله ﷻ، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ إلى آخر الآية»(٢).

قال ابن القيم(٣):

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

كما يدل «السميع» على أنه سبحانه السميع بمعنى المستجيب للدعاء، كما قال إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] أي: مستجيب الدعاء. ومن ذلك قول المصلي: «**سمع الله لمن حمده**»(٤)؛ يعني: استجاب لمن حمده، والسمع بمعنى الاستجابة من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة، فمن شاء استجاب له، ومن

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في التوحيد- باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢)، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة- فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

(٣) في «النونية» ص (١٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٦٨٩)، ومسلم في الصلاة (٤) وأبو داود في الصلاة (٦٠١)، والنسائي في الإمامة (٧٩٤)، والترمذي في الصلاة (٣٦١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٧٦)- من حديث أنس رضي الله عنه.

شاء لم يستجب له.

و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل» يدل على أنه ذو العلم الواسع العظيم الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

قال ابن القيم(١):

وهو العليم أحاط علماً بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما ... قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كا ... ن كيف يكون ذا إمكان

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، وفي تكرار النداء إظهار الضراعة إلى الله- تعالى.

﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، و«جعل» بمعنى: صيِّر تنصب مفعولين الأول هنا: الضمير «نا»، والثاني: «مسلمين».

والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، أي: واجعلنا مستسلمين لك بالتوحيد منقادين لك بالطاعة مخلصين لك من الشرك، وهو دعاء منهما بزيادة الاستسلام والإخلاص والطاعة والثبات على ذلك.

وقد قال الله ﷻ لسيد الرسل وخاتمهم نبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

كما أن فيه توطئة وتمهيداً لقوله بعده:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾أي: واجعل من ذريتنا أي: صيِّر من ذريتنا أمة مسلمة لك.

و«من»: للتبعيض، أو لبيان الجنس، كما في قوله عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، والذرية: من تفرعوا من الإنسان من أولاده وأولاد أولاده وإن نزلوا.

---

(١) في «النونية» ص (١٤٦- ١٤٧).

والأمة: الجماعة العظيمة التي يجمعها أمر ذي بال، كالدين ونحو ذلك.

﴿مُسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي: مستسلمة لك بالتوحيد، منقادة لك بالطاعة، مخلصة لك من الشرك.

وذرية إبراهيم: هم العرب وبنو إسرائيل، أما ذرية إسماعيل فهم العرب خاصة؛ ولهذا فإنهم أول من يدخل في هذه الدعوة؛ لكونهم من ذرية إبراهيم وإسماعيل، ولا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل سواهم، وأيضاً فإن السياق معهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

والمراد بذلك محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢].

ومع هذا فرسالته ﷺ عامة للعرب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما يدخل في هذه الدعوة بنو إسرائيل؛ لأنهم من ذرية إبراهيم؛ فأبوهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

ومما يؤيد أن هذه الدعوة عامة للعرب وغيرهم قول إبراهيم عليه السلام في الآيات السابقة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد استجاب الله ﷻ هذه الدعوة فأسلم جل قبائل العرب، كما أسلم بعض بني إسرائيل.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب: ﴿وَأَرْنَا﴾ بإسكان الراء، وقرأه أبو عمرو باختلاس كسرة الراء تخفيفاً، وقرأ الباقون بكسر الراء: ﴿وَأَرِنَا﴾.

و«نا»: مفعول أول لـ«أَرِ»، و«مناسكنا»: مفعول ثانٍ؛ أي: بيِّن لنا مناسكنا حتى نراها وعلمنا إياها، والمناسك جمع منسك، وهو يعم العبادة ومكانها وزمانها، ومن ذلك مناسك الحج ومشاعره على الخصوص وغيرها.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾، أي: وفقنا للتوبة لنتوب، واقبلها منا، فتوبة الله على العبد: توفيقه للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وقبولها منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

والتوبة من العبد: الرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة.

وشروطها خمسة: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم الرجوع إليها، وأن تكون في وقتها المناسب؛ قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل الغرغرة، وأن تكون خالصة لله.

والعبد مهما كان لابد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى التوبة، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، أي: وتب علينا؛ لأنك أنت التواب الرحيم، والجملة مؤكدة بـ«إنَّ» وضمير الفصل «أنت»، وهذا توسل بأسماء الله ﷻ المناسبة للمطلوب، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعّال»، ويدل على كثرة من يتوب عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل»، يدل على إثبات صفة الرحمة لله ﷻ وسعتها، رحمة ذاتية ثابتة له ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ فهو من

دعاء إبراهيم وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام.

أي: يا ربنا وأرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا رسولاً منهم، حتى يقبلوا منه، ويفقهوا ويفهموا عنه، ويبين لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال: ﴿فِيهِمْ﴾ ولم يقل: «لهم» لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة، فلا يكون ذلك الرسول إليهم فقط؛ ولذلك حذف متعلق «رسولاً»؛ ليعم.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ أي: يقرأ عليهم آياتك «القرآن الكريم» لفظاً وتحفيظاً، كما قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢١].

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ويعلمهم الكتاب، أي: القرآن، وسمي القرآن بالكتاب لأنه مكتوب باللوح المحفوظ، وبالصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين.

أي: ويعلمهم معاني بالقرآن وما فيه من الحكم والأحكام والأخبار والمواعظ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٤٤].

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم الحكمة، وهي السُّنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

ومن الحكمة أيضاً معرفة أسرار التنزيل والعلة من مشروعية الأحكام والفقه والفهم في الدين، مما يزيد الإيمان ويرغب في الدخول في الإسلام.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهرهم من الرذائل والأخلاق السيئة، وأعظمها الشرك بالله، وينمي في نفوسهم الإيمان والأخلاق الكريمة الفاضلة، وهذا- بعد توفيق الله تعالى ثمرة تلاوته ﷺ آيات الله عليهم، وتعليمهم معاني الكتاب والحكمة والأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ؛ وقال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، والحاكم (٢/ ٦١٣)- وصححه، ووافقه الذهبي- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عن أبي ذر ﷺ، عن أخيه حين بعثه إلى النبي ﷺ، فقال له: فرأيته يأمر بمكارم الأخلاق(١).

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين**»(٢).

أي: دعوة أبي إبراهيم في قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

«**وبشارة عيسى بي**» كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فهو ﷺ مظهر هذه الدعوة وثمرتها، فإنه الرسول الذي هو من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، وأما غيره من رسل غير العرب فليسوا من ذرية إسماعيل، فشعيب من ذرية إبراهيم، وكذا كل أنبياء بني إسرائيل هم من ذرية إبراهيم، وأما هود وصالح فهما من العرب العاربة وليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليل لما قبلها، أي: لأنك أنت العزيز الحكيم، وقد أكدت الجملة بـ «إنَّ»، وضمير الفصل «أنت».

و«العزيز»: اسم من أسماء الله ﷻ على وزن «فعيل» يدل على أن له ﷻ كمال العزة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع فلا ينال جنابه سوء أو مكروه من الخلق ولو اجتمعوا على ذلك، وهو ممتنع عن كل عيب ونقص.

وعزة القهر والغلبة، فهو ذو القهر والغلبة، الذي خضع له كل شيء، الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٦١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، والطبري في «جامع البيان» (٢٢/ ٦١٣).

يدافع ولا يمانع، ولا يغالب كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وعزة القوة؛ فهو ذو القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قال ابن القيم(١):

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاّب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: اسم من أسمائه ﷻ على «وزن فعيل» مشتق من الحكم والحكمة، يدل على أنه ﷻ الحاكم ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

كما يدل على أنه ﷻ ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية بأن يكون ما حكم الله به كوناً أو شرعاً أو جزاءً لغاية وحكمة، والحكمة الصورية وهي الحكمة من مجيء الحكم، كونيًّا أو شرعيًّا أو جزائيًّا على صورة معينة.

قال ابن القيم(٢):

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضاً ما هما عدمان
حكم وإحكام فكل منهما ... نوعان أيضاً ثابتا البرهان

---

(١) في «النونية» ص (١٤٧).

(٢) في «النونية» ص (١٤٧- ١٤٨).

والحكـــم شرعـــي وكـــوني ولا ... يتلازمـــان ومـــا همـــا ســـيان
والحكمـــة العليـــا عـــلى نـــوعين أيـــ ... ضـــا حصـــلا بقواطـــع البرهـــان
إحـــداهما في خلقـــه ســـبحانه ... نوعـــان أيضـــاً لـــيس يفترقـــان
إحكـــام هـــذا الخلـــق إذ إيجـــاده ... في غايـــة الإحكـــام والإتقـــان
وصـــدوره مـــن أجـــل غايـــات لـــه ... ولـــه عليهـــا حمـــد كـــل لســـان
والحكمـــة الأخـــرى فحكمـــة شرعـــه ... أيضـــاً وفيهـــا ذانـــك الوصـــفان
وغاياتهـــا الـــلاتي حمـــدن وكونهـــا ... في غايـــة الإتقـــان والإحســـان

فمن عزته ﷻ وحكمه وحكمته ونعمته بعثته لمحمد ﷺ؛ استجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بالحدث التاريخي العظيم وهو رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت الحرام؛ ليكون مناراً وهداية وقبلة للمسلمين، والتنويه بعظمة الكعبة وشرفها، وفضل بنائها، وما في طي ذلك من النعمة العظيمة على هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾.

٢- التنويه بفضل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام؛ لقيامهما ببناء البيت والدعاء بهذه الدعوات المباركة.

٣- لابد لإحكام البناء أن يؤسس على قواعد صلبة لئلا ينهار.

٤- مشروعية التعاون في أعمال الخير وعلى البر والتقوى، والتعاون في ذلك بين الآباء والأبناء.

٥- أن مدار ثمرة الأعمال على القبول؛ ولهذا لم يكتف إبراهيم وإسماعيل برفع القواعد من البيت، وإنما سألا الله القبول، لقولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾.

٦- لابد من الجمع بين العمل والإخلاص فيه، وسؤال الله القبول.

٧- ربوبية الله ﷻ الخاصة لإبراهيم وإسماعيل، لقولهما: ﴿رَبَّنَا﴾.

٨- إظهار إبراهيم وإسماعيل شدة ضراعتهما وفقرهما إلى الله تعالى بندائه ﷻ باسم

الربوبية، وتكرار ذلك مع كل دعوة، وهكذا كان جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام باسم الربوبية؛ لأن معنى «الرب» الخالق، الذي بيده الملك والتدبير.

٩- إثبات اسم الله «السميع»، وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله ﷻ، وأنه سبحانه سميع مجيب الدعاء، كما قال زكريا عليه السلام: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، أي: سميع الدعاء ومجيبه، كما أنه عز وجل سميع لجميع الأقوال والأصوات، والتي هي صفة من صفاته الذاتية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله «العليم» وما يدل عليه من صفة العلم الواسع لله ﷻ المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وفي هذا رد على القدرية الذين ينكرون علم الله تعالى بأفعال العباد قبل فعلهم لها.

١١- في اجتماع كمال السمع والعلم في حقه ﷻ زيادة كماله إلى كمال، وكمال إحاطته، وتمام الثقة بوعده، والخوف من وعيده.

١٢- أن التوسل إلى الله ﷻ بندائه باسم الربوبية، وإظهار الضراعة وشدة الفقر إليه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته من أسباب القبول والإجابة؛ لقول إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَآ﴾، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهكذا ينبغي الثناء على المسؤول بما هو أهله قبل السؤال فإن ذلك أحرى للإجابة.

١٣- حاجة المسلم دائماً إلى سؤال الله الإخلاص والثبات على الإسلام؛ لقول إبراهيم وإسماعيل وهما مسلمان، بل نبيان: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

١٤- ينبغي في الدعاء أن يبدأ الإنسان بالدعاء لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

١٥- أن من أولى ما ينبغي أن يدعو الإنسان لهم ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

١٦- أن التعبد لله لا يصح إلا بما شرع الله ﷻ؛ لقول إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة

والسلام: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

١٧- يجب أن يحرص المسلم في تعبده لله ﷻ على المتابعة للشرع، ويحذر من الابتداع في الدين.

١٨- حاجة كل مسلم وافتقاره إلى توبة الله عليه، بما في ذلك الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾.

١٩- إثبات اسم الله ﷻ «التواب» وما تضمنه من صفة التوبة الواسعة لله ﷻ، فيوفق من شاء للتوبة ويقبلها منهم، ويتوب على الكثيرين من عباده، ويتوب على العبد مرات ومرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٠- إثبات اسم الله ﷻ «الرحيم» وما تضمنه من إثبات صفة الرحمة الواسعة لله ﷻ: رحمة ذاتية ثابتة لله ﷻ، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه: رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

٢١- ضرورة الناس إلى بعث الرسل لبيان الحق وهداية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

٢٢- أن كون الرسول من قومه وبلسانهم أقرب إلى قبول دعوته وفهمهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

٢٣- أن مهمة الرسول ﷺ تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٢٤- أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة فيه تزكية النفوس وتطهيرها من الرذائل والأخلاق السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٢٥- إثبات اسم الله «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة له ﷻ؛ عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم والحكمة لله تعالى الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية؛

لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٧- في اجتماع كمال العزة وكمال الحكم والحكمة في حقه ﷻ زيادة كماله إلى كمال، ومن كمال عزته، وكمال حكمه وحكمته، أن بعث محمداً ﷺ في هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١- ٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أثنى الله ﷻ على إبراهيم في الآيات السابقة، وذكر فضله، ثم أخبر أنه لا يعدل عن ملة إبراهيم وعن الاقتداء به بعد ما عرف فضله إلا من سفه نفسه، وفي ذلك تعريض بأهل الكتاب والمشركين، ورد عليهم وتحذير من مسلكهم.

قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ الواو: مستأنفة، و«من»: اسم استفهام معناه الإنكار والنفي والاستبعاد، أي: لا أحد ﴿يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ كاليهود والمشركين كما قال تعالى في اليهود: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى في المشركين: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

يقال: رغب في كذا، أي: طلبه وأحبه، ويقال: رغب عن كذا، أي: تركه وزهد فيه وأعرض عنه.

فمعنى: ﴿يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: يتركها ويزهد فيها رغبة عنها.

و«الملة» هي الدين، أي: ومن يرغب عن دين إبراهيم وطريقته ومنهجه، وهي الحنيفية، دين الإسلام، كما قال تعالى في الآيات السابقة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦١] وهي ما جاء به محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال ﷺ: «**إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**»(١).

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾: «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي سفه نفسه أي: أوقعها في السفه، والسفه: ضد الرشد، أي: أوقعها في السفه في الدين الذي هو أعظم أنواع السفه، وجهل نفسه، وما يجب لها فضيعها ووضعها موضع الذل والهوان، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(٢).

وقد أحسن القائل:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يُتَبِّرُ ما يبني وآخر رافع(٣)

وقال الآخر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالباً في الناس أعلى المراتب(٤)

وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا(٥)

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة ﷺ، وأخرجه مختصراً (٦/ ١١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)- من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٣) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ص٥٦.

(٤) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب ﷺ. انظر: «ديوانه» ص١٥.

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٢٠)، «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧).

وفي الآية إنكار وتوبيخ ونعي على من رغب عن ملة إبراهيم ودين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٢٢]. وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٢٧].

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ الواو: استئنافية، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد اصطفيناه في الدنيا، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ الاصطفاء: الافتعال من الصفوة: أي: اخترناه واجتبيناه وجعلناه من المصطفين الأخيار بالرسالة والنبوة والإمامة والخلة، وجعل النبوة والكتاب في ذريته. فكان عليه السلام إمام الحنفاء، جرد التوحيد لله، وتبرأ من كل معبود سواه، وتبرأ مما عليه أبوه وقومه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧]، وقال تعالى عنه أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨- ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام في قوله: ﴿لَمِنَ﴾ تفيد التوكيد، أي: وأنه في الآخرة لمن الصالحين، الذين جمعوا بين الإخلاص لله والمتابعة لشرعه، ولهم أعلى الدرجات.

والصلاح من أفضل ما وصف الله به رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين؛ ولهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرحبون بالنبي ﷺ ليلة المعراج بقولهم: «**مرحباً بالأخ**

الصالح والنبي الصالح»(١).

قال الطبري(٢): «والصالح من بني آدم هو المؤدي حقوق الله عليه، فأخبر تعالى ذكره عن إبراهيم خليله أنه في الدنيا له صفيٌّ، وفي الآخرة وليٌّ وأنه وارد موارد أوليائه الموفين بعهده».

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي: ولقد اصطفيناه في الدنيا حين ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ﴾.

وقد تكون «إذ» متعلقة بمحذوف، أي: واذكر يا محمد حين قال الله لإبراهيم عليه السلام: أسلم، فيكون أمراً للرسول ﷺ أن يذكر ذلك بنفسه ويذكره لأمته.

وفي الآية تنويه بفضل إبراهيم عليه السلام وإثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة له، بل خاصة الخاصة، وهي ربوبيته عز وجل لرسوله وأنبيائه.

﴿أَسْلِمْ﴾ أي: أسلم نفسك لي؛ بدليل قول إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: استسلم بالتوحيد والطاعة والإخلاص.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أي: استسلمت لرب العالمين ظاهراً وباطناً، بالتوحيد والطاعة والمحبة والإخلاص من الشرك، فبادر عليه السلام وسارع على الفور بالاستسلام والانقياد لربه والخضوع له، والإقرار بأنه مربوب لرب العالمين، فأتى بالإسلام ودليله.

واللام في قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للقصر، أي: لرب العالمين وحده.

و«رب العالمين»: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم ومربيهم بنعمه التي لا تحصى، و«العالمين»: جمع «عالَم» بفتح اللام، اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وقوم.

و«العالمين» كل موجود سوى الله تعالى، وقد جمع ليشمل كل جنس مما سمي به، فيعم جميع المخلوقات في السموات والأرض وما بينهما؛ عالم الملائكة، وعالم الإنس، وعالم الجن والشياطين، وعالم الحيوانات، وعالم الجمادات وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩)، ومسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٣)- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) في «جامع البيان» (٢/ ٥٨٠).

وهو مشتق من العلامة؛ لأن كل ما في الوجود من المخلوقات علامة على وجود الله ووحدانيته، وعلى ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وجمع «العالمين» جمع من يعقل علماً أنه يتناول العقلاء وغيرهم من باب تغليب العقلاء؛ لأنهم هم المعنيون بالخطاب والتكليف؛ لما ميزهم الله به من العقل على غيرهم من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

أثنى الله ﷻ على إبراهيم عليه السلام في مبادرته للإسلام لرب العالمين، ثم أتبع ذلك بذكر وصية إبراهيم عليه السلام بنيه بالإسلام وكذا يعقوب عليه السلام، فحافظا عليهما السلام على ملة الإسلام في حياتهما وأوصيا بها بنيهما بعد وفاتهما؛ حرصاً عليها ومحبة لها، وشفقة منهما على بنيهما ورحمة لهم.

قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ قرأ نافع وابن عامر: ﴿وَأَوْصَىٰ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَوَصَّىٰ﴾.

والوصية العهد والأمر المؤكد في أمر هام، في فواته ضرر، كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، قال: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا**»(١).

﴿بِهَآ﴾ أي: بهذه الكلمة العظيمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أو بـ«ملة إبراهيم» كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

والمعنى واحد، أي: عهد إليهم وأمرهم أمراً مؤكداً بالتمسك بملة الإسلام، ملة إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

﴿بَنِيهِ﴾ مفعول «وصَّى»، وبنو إبراهيم عليه السلام ثمانية أكبرهم إسماعيل أبو العرب، وأمه الأمة «هاجر» القبطية، ويليه إسحاق، وهو أبو بني إسرائيل، وأمه «سارة».

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة- لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم- ما جاء في الأخذ بالسنة (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة- اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٢)- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَيَعْقُوبُ﴾ معطوف على «إبراهيم» أي: ووصى بها يعقوبُ بعد إبراهيم؛ أي: بهذه الكلمة وهذه الملة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ الآية. و«يعقوب» هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ولقب يعقوب «إسرائيل»، وبنوه اثنا عشر، هم: يوسف وإخوته، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل.

﴿يَٰبَنِىَّ﴾ أي: يا أبنائي، وناداهم بوصف البنوة تلطفاً معهم وترفقاً بهم، وتحبباً إليهم، ليكون أوعى لقبولهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اختار ورضي لكم الدين، الذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الفاء للتفريع، و«لا»: ناهية، ﴿تَمُوتُنَّ﴾: مجزوم بحذف النون، والنون المذكورة نون التوكيد. والأصل «تموتونن» فحذفت النون للجزم فصارت «تموتونّ»، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، والواو للحال، أي: إلا حال كونكم مسلمين.

والمعنى: استمروا على الإسلام واثبتوا عليه، ولازموه حتى يرزقكم الله الوفاة عليه؛ لأن الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت.

والمرء غالباً يموت على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، ومن قصد الخير وفق إليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:- ١٠].

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ببنيهما بملة

الإسلام والاستمرار عليها إلى الممات، ثم أتبع ذلك بتفصيل وصية يعقوب وتذكيره عند الموت لبنيه بهذه الوصية؛ تأكيداً لها وحرصاً وشفقة عليهم؛ أن يضلوا عن عبادة الله والاستسلام له وحده.

وفي هذا احتجاج على أهل الكتاب والمشركين في رغبتهم عن ملة إبراهيم وما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب، ورد على اليهود في زعمهم أن إبراهيم وبنيه ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، وهمزة الاستفهام، أي: «بل» أكنتم شهداء؟ والاستفهام للإنكار والنفي، والخطاب لليهود الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ومن بعده يعقوب، وأنهما كانا على اليهودية.

﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع شهيد، أو شاهد، بمعنى: حاضر، أي: أم كنتم حضورا.

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: حين حضر يعقوب الموت، و«يعقوب»: مفعول به مقدّم، و«الموت»: فاعل مؤخر.

ومعنى حضور الموت: حضور أسبابه ومقدماته وعلاماته، والموت: هو خروج الروح من البدن ومفارقتها له.

والمعنى: لم تكونوا شهداء إذ حضر يعقوب الموت، فكيف تزعمون أنه كان على اليهودية، وقد أخبر الله ﷻ عنه أنه أوصى بنيه بالحنيفية ملة إبراهيم، لا باليهودية.

وقد يكون الخطاب لهم ولغيرهم، فيكون فيه رد عليهم وتنويه بوصية يعقوب حين حضره الموت لبنيه بالثبات على عبادة الله تعالى وحده.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ «إذ»: ظرف، بدل من «إذ» في قوله: ﴿إِذْ حَضَرَ﴾ أي: حين قال لبنيه، وهم الأسباط الاثنا عشر، وهم يوسف وإخوته؛ اختباراً لهم؛ لتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم، وليطمئن على ثباتهم على ذلك بعد وفاته.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ «ما»: استفهامية، أي: أيّ شيء تعبدون من بعدي، أي: من بعد موتي. ومراده تقريرهم على التوحيد والإسلام، والثبات عليهما؛ حفاظاً على عقيدة التوحيد، وحرصاً عليها، وشفقة على بنيه أن يضلوا من بعده.

ووجه الكلام إليهم بصيغة الاستفهام؛ للفت انتباههم وعنايتهم لهذا الأمر.

وهذا لعمر الله عين النصح والشفقة أن يوصي الإنسان أولاده وأهله ومن خلفه بتوحيد الله وتقواه عندما يودع هذه الحياة، لا أن يجعل همه تكديس الأموال لهم، وتحريصهم عليها، ووصيتهم بها كما هو حال كثير من الناس.

وجاءت وصيته عليه السلام لبنيه بصيغة الاستفهام؛ ليعرف مقدار ثباتهم.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أي: نبعد معبودك ومعبود آبائك، والألوهية والعبادة معناهما واحد، فالعبادة باعتبار العابد، الإلوهية باعتبار المعبود، ولهذا يسمى التوحيد توحيد العبادة.

وآباء: جمع أب، وهو يطلق على الأب، وعلى الجد من أي جهة كان وإن علا، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وبدؤوا بقولهم: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ﴾؛ لأنهم يخاطبونه.

﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ بدل من (آباء) أي: آباءك الذين هم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، فإبراهيم جد يعقوب، وإسحاق أبوه، أما «إسماعيل» فهو عم يعقوب، وعدّوه من آباء يعقوب، وهو عمه؛ لأن العم صنو الأب وبمنزلته، كما قال ﷺ لعمر رضي الله عنه «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»(١).

ومعنى «صنو أبيه»: لا تفاوت ولا اختلاف بينهما كما لا تتفاوت صنوا النخلة وقال ﷺ: «**الخالة بمنزلة الأم**»(٢)

وقيل: إنما عد إسماعيل من آباء يعقوب من باب التغليب، فإبراهيم أبو يعقوب الأعلى، وإسحاق أبوه الأدنى، وإسماعيل عمه، فغلبت الأبوة على العمومة، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- تقديم الزكاة ومنعها (٩٨٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٢٣)، والترمذي في المناقب (٣٧٦١)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح- كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان: (٢٧٠٠)، الترمذي في البر والصلة (١٩٠٤)- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١]، فغلب في الآيتين الأب على الأم، وكما يقال: «القمران» للشمس والقمر، ويقال «العُمَران» لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ حال، أي: حال كونه معبوداً واحداً، أي: نعبد معبوداً واحداً.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ الواو: حالية، و«له» متعلق بـ «مسلمون» وقدم عليه لإفادة الحصر- مع مراعاة الفواصل، أي: ونحن له وحده مسلمون، أي: مستسلمون منقادون له ظاهراً وباطناً دون سواه، فجمعوا بين التوحيد والعمل.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

تضمنت الآيات السابقة الثناء على إبراهيم ويعقوب وبنيهما والتنويه بشأنهم والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ الآية لإفادة أن الجزاء بالأعمال لا بالاتكال، فلا ينفع فقط مجرد الانتساب إلى هؤلاء دون عمل.

قوله:﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ الإشارة إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب وبنيهم، والأمة: الجماعة والطائفة من الناس.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: قد مضت، وخلى منها المكان.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ «ما»: في الموضعين موصولة، أو مصدرية، أي: لها الذي كسبت، أولها كسبها، والكسب: العمل، أي: لها ما عملت وثوابه، وهذا أشبه بالتمهيد لقوله: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: ولكم الذي كسبتم، أو ولكم كسبكم، أي: ولكم ما عملتم وجزاؤه.

وقدم الخبر في الجملتين وهو قوله: ﴿لَهَا﴾، ﴿وَلَكُم﴾ للقصر، أي: لها ما كسبت لا يتجاوزها إلى غيرها، ولكم ما كسبتم لا يتجاوزكم إلى غيركم، كما قيل: «كل شاة تناط برجليها».

والخطاب: للمخاطبين بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: لكل من يصلح له، أو لليهود الذين يجادلون النبي ﷺ ويزعمون أنهم على الحق، وعلى ما أوصاهم به أبوهم يعقوب، أي: فلا ينفعكم صلاح من خلا ومضى من آبائكم وغيرهم، وانتسابكم إليهم، كما لا ينفعهم كسبكم.

وقد أحسن القائل:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي(١)

﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة أو مصدرية، أي: ولا تسألون عن الذي كانوا يعلمون أو عن عملهم، أي: لا تسألون عما كان يعمل من مضى من الآباء والأجداد وغيرهم، وإنما تسألون عن أعمالكم؛ لأن لكل منكم كسبه وجزاء عمله، أي: لا تحاسبون بأعمال سلفكم وإنما تحاسبون بأعمالكم.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار الشديد والنعي على اليهود والمشركين حيث رغبوا عن ملة إبراهيم عليه السلام ووصفهم بالسفه والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

٢- أن الرشد كل الرشد في إتباع ملة إبراهيم، وأن السفه كل السفه في الرغبة عنها، فمن لم يتبعها فهو سفيه جاهل مهما ادعى العقل والحكمة والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

ولهذا وصف الله المنافقين واليهود بالسفهاء، فقال تعالى عن المنافقين: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال عن اليهود: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

٣- أن من يرغب عن ملة إبراهيم فقد أوقع نفسه بالسفه والجهل، وضيعها ووضعها موضع الذل والهوان والخسران والبوار.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ٣١٢).

٤- التنويه بفضل إبراهيم عليه السلام ومكانته في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٥- إثبات الآخرة وتفاوت الناس فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٦- أن من أفضل ما يوصف به العبد الصلاح؛ لأن الله عز وجل وصف به أنبياءه ورسله، كما وصف به عباده المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٧- تشريف إبراهيم عليه السلام في خطاب الله عز وجل له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾.

٨- مبادرة إبراهيم عليه السلام إلى الإسلام والانقياد لربه وإعلان الخضوع له؛ لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٩- أن الإسلام اسم لدين إبراهيم، ولجميع الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْلِمْ﴾، وقول إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهذا متضمن لتوحيد الربوبية بقسميه العام لجميع الخلق، والخاص بأولياء الله تعالى.

١١- أن وجود هذا الخلق دليل على وجود الخالق- سبحانه وتعالى؛ لأن الله سماهم ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٢- أن الذي يجب الاستسلام له والانقياد والخضوع له هو الرب وحده- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٣- وصية إبراهيم ويعقوب لبنيهما بملة الإسلام «ملة إبراهيم» عناية منهما بهذه الملة ومحبة وشفقة وعطفاً منهما على ذريتهما ونصحاً لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٤- ينبغي حسن التلطف والترفق في خطاب المدعو، فإن ذلك أدعى لقبوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ﴾.

١٥- عناية الله عز وجل بإبراهيم ويعقوب وذريتهما حيث اصطفى واختار لهم الدين الإسلامي ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٦- أهمية هذه الوصية ووجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٧- ينبغي للإنسان المبادرة إلى الإسلام، والاستمرار عليه حتى يلقى الله ﷻ؛ ليحيى على الإسلام، ويموت عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٨- ينبغي سؤال الله تعالى حسن الخاتمة؛ لأن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٩- أن الموت حق على جميع الخلق حتى الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾.

٢٠- التنويه بما قاله يعقوب عليه السلام حين حضره الموت لبنيه، من سؤاله إياهم ما يعبدون من بعده شفقة منه عليهم أن يشركوا فيضلوا بعده، وحضًّا لهم على التمسك بعبادة الله وتوحيده، وملة الإسلام ملة إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.

٢١- أن أهم وأعظم ما ينبغي أن يوصي به المسلم أولاده وأهله ومن خلفه توحيد الله تعالى وتقواه.

٢٢- أن توحيد الله ﷻ وعبادته وحده هو دين الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام؛ ووصيتهم لأقوامهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾.

٢٣- جواز الوصية عند حضور الأجل إذا كان الإنسان يعي ما يقول؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.

٢٤-أن الجد يسمى أبا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾.

٢٥- جواز إطلاق اسم الأب على العم تغليباً؛ لأنه صنو الأب، وفي منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾، وإسماعيل ليس من آباء يعقوب وإنما هو عمه.

٢٦- تمسك أبناء يعقوب وثباتهم على توحيد الله والاستسلام له، لقولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

٢٧- أن اتباع الآباء فيما هم عليه من الحق حق، بل منقبة ومفخرة؛ لقوله: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ الآية. لكن اتباع الآباء على الباطل باطل وجهل وضلال.

٢٨- إثبات الوحدانية لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

٢٩- إعلان أبناء يعقوب إخلاص الإسلام لله وحده، لقولهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

٣٠- ينبغي التأسي بإبراهيم ويعقوب عليهما السلام وبنيهما بعبادة الله تعالى وحده وإخلاص الإسلام له دون من سواه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

٣١- أن لكل أمة كسبها وجزاء عملها لا يناله من جاء بعدها، فكسب الآباء والأجداد لا يناله الأولاد والأحفاد؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، فلن تجدي عن اليهود أعمال أسلافهم وآبائهم من الأنبياء وغيرهم، ولن تجدي عن أي إنسان أعمال من سلف من آبائه وأجداده وغيرهم.

٣٢- أن لكل إنسان كسبه وجزاء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

٣٣- إثبات كمال عدل الله ﷻ حيث يجازي كل إنسان بعمله؛ دون ما لم يعمله، ولا يسأل عن عمل غيره؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٤- أن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أما الأول فقد يسأل إذا كان هو سبب ضلال الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وفي الحديث: «**ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئاً**»(١).

وقال ﷺ: «**ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)،وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)- من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأبو داود في السنة- لزوم السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) وأحمد (٢/ ٣٨٠، ٣٩٧)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٥- ينبغي عدم الخوض في الكلام فيمن قدموا على الله ﷻ، وأفضوا إلى ما قدَّموا من عمل؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»(١).

ولهذا يجب عدم الخوض فيما جرى بين الصحابة رضوان الله عليهم من نزاع كالذي جرى بين معاوية وعلي بن أبي طالب وعائشة رضي الله عنهم؛ لأن الله ﷻ زكا أصحاب رسول الله ﷺ كلهم جميعاً وامتدحهم وأثنى عليهم ورضي عنهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

كما زكاهم رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(٢).

ولهذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «هذه دماء طهر الله سيوفنا منها، فنحن نطهر ألسنتنا منها» وكما قال القحطاني(٣):

دع ما جرى بين الصحابة في الوغى ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان

٣٦- إثبات سؤال الإنسان عن عمله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٩٣)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٦)- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة- قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا» (٣٦٧٣) ومسلم في فضائل الصحابة- تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤١)، وأبو داود في السنة النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (٤٦٥٨)، والترمذي في المناقب من سب أصحاب النبي ﷺ (٣٨٦١)، وأحمد (٣/ ١١، ٥٤)- من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «نونيته» ص٢٨.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ذم ﷻ أهل الكتاب في الآيات السابقة لرغبتهم عن ملة إبراهيم، وأنكر عليهم ادعاءهم أنهم على الحق، وعلى ما أوصاهم به يعقوب عليه السلام، مع مخالفتهم ما جاء به النبي ﷺ ثم أتبع ذلك بذكر دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية، وحصرهم الهدى فيما كانوا عليه، وأبطل ذلك وبين أن الاهتداء إنما هو باتباع ملة إبراهيم عليه السلام.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ الواو: استئنافية، أي: وقال اليهود والنصارى؛ لأن السياق معهم في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وفي قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

و«أو»: للتقسيم والتنويع، لا للتخيير؛ لأن كل واحد من الفريقين يكفر بالآخر، أي: وقال اليهود للنبي ﷺ والمؤمنين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا﴾ أي: كونوا يهوداً على ملتنا تهتدوا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى على ملتنا تهتدوا.

و﴿تَهْتَدُوا۟﴾ جواب الأمر مجزوم بحذف النون، وفيه إيذان بمعنى الشرط، أي: إن كنتم كذلك تهتدوا، أي: وإن لم تكونوا يهوداً أو نصارى فلستم بمهتدين.

ومعنى ﴿تَهْتَدُوا۟﴾: ترشدوا وتصيبوا الحق، فحصر اليهود الهداية فيما هم عليه، وحصر النصارى الهداية فيما هم عليه، غروراً من كل منهما واستكباراً.

عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾»(١).

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ جواب عن قول اليهود والنصارى: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، والخطاب فيه للنبي ﷺ، و«بل»: للإضراب الإبطالي، تبطل ما سبق.

﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: منصوب بفعل محذوف تقديره: «نتبع» أو نحو ذلك، أي: لا نكون هوداً أو نصارى، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، أي: نتبع دين إبراهيم عليه السلام، ولا اهتداء إلا باتباع ملة إبراهيم عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال ﷺ: «**إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**»(٢).

﴿حَنِيفًا﴾: حال، أي: حال كونه حنيفاً، والحنيف: «فعيل» بمعنى «فاعل» مشتق من «الحنف».

و«الحنف»: الميل، ومنه سُمي الأحنف بن قيس؛ لميل إحدى قدميه بالأصابع إلى الأخرى، قالت أمه:

والله لـــو لا حنـــف برجلـــه ... مـــا كـــان في فتيـــانكم مـــن مثلـــه(٣)

ومعنى ﴿حَنِيفًا﴾: مائلا عن الشرك إلى التوحيد، وعن الباطل إلى الحق، مسلماً مخلصاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا توكيد من حيث المعنى؛ لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾؛ لأن الجمل المنفية تفيد كمال ضدها، فنفيه ﷻ أن يكون إبراهيم من المشركين توكيد لكمال

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٥٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «حنف».

توحيده وإخلاصه لله تعالى وأنه عليه السلام ما كان في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال من المشركين عبدة الأصنام.

و«كان» هنا مسلوبة الزمان تفيد اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات.

وفي الآية تعريض بما عليه أهل الكتاب والعرب من الشرك بالله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

ذكر الله ﷻ مقالة اليهود والنصارى للمسلمين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، وأجاب عنها بقوله لنبيه ﷺ: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ الآية، أي: قل بل نتبع ملة إبراهيم، ثم أمر النبي ﷺ والمؤمنين جميعاً بالإيمان به ﷻ وبما أنزل إليهم وبجميع ما أنزل على رسله وأنبيائه دون تفريق بينهم، والإسلام له وحده.

وفي هذا تفصيل لملة إبراهيم بعد الإجمال، وإظهار لتصديق الإسلام لجميع الأديان السماوية، وكشف عوار التعصب اليهودي والنصراني، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [الآية:٨٤].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية التي في البقرة، وفي الآخرة منهما: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾»(١).

قوله: ﴿ قُولُوٓا۟ ﴾: الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين.

أي: قولوا أيها المؤمنون ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ نطقاً بألسنتكم، واعتقاداً بقلوبكم، وانقياداً

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٢٧)، والنسائي في الافتتاح (٩٤٤).

بجوارحكم معلنين أمام الملأ هذا المعتقد، مجمعين عليه داعين إليه.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان والتصديق بوجوده، وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما دل على ذلك الكتاب والسُّنة والعقل والفطرة، وذلك يقتضي طاعته والانقياد له وامتثال شرعه، وقدم الإيمان بالله؛ لأنه أصل وأساس الإيمان، وأعظم أركانه، وأول الواجبات.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الواو: عاطفة، «ما»: اسم موصول مبني على السكون في محل جر عطفاً على لفظ الجلالة «الله».

أي: وآمنا بالذي أنزل إلينا، أي: بالذي أنزل على نبينا محمد ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] والحكمة هي السنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية**»(١).

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا على الإيمان بما أنزل على إبراهيم ومن ذكر من الأنبياء مع أن هذا أقدم زمناً تقديماً للأهم وتشريفاً له ولأننا متعبدون بالإيمان بما أنزل إلينا قولاً واعتقاداً وعملاً بخلاف ما أنزل على من قبلنا فلسنا متعبدين بالعمل به.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وآمنا بالذي أنزل ﴿إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ الآية، وكرر الموصول في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ لاختلاف المنزل إلينا والمنزل إليه، فلو لم يكرر لأوهم أن المنزل إلينا هو المنزل إليه وإلى من ذكر بعده، والذي أنزل إلى إبراهيم هي الصحف التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وبقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧].

وإبراهيم هو إبراهيم الخليل أبو الأنبياء عليه وعليهم السلام.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٨٥).

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي: وآمنا بالذي أنزل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، فكلهم من أنبياء الله ﷻ أوحى الله ﷻ إليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣].

و«إسماعيل» هو الابن الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح، وأبو العرب، وقدَّمه لسبقه زمناً ولفضله، لأنه جد نبينا محمد ﷺ.

و«إسحاق» هو الابن الثاني لإبراهيم، وهو أبو يعقوب الملقب بـ «إسرائيل» أبو بني إسرائيل.

و«الأسباط»: جمع «سِبْط» بكسر السين وسكون الباء، وأصل السبط في اللغة: ابن البنت، ومنه قيل للحسن والحسين- رضي الله عنهما: «سبطا رسول الله ﷺ»؛ لأنهما أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها.

والمراد بالأسباط أبناء يعقوب بن إبراهيم الاثنا عشر وهم يوسف وإخوته وقد تفرع من كل سبط من هذه الأسباط أمة، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ معطوف أيضاً على ما قبله، أي: وآمنا بالذي أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، ولم يُعد الموصول مع قوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾؛ لأن شريعة عيسى متممة لشريعة موسى عليهما السلام.

أي: وآمنا بالذي أعطي موسى من الآيات الشرعية في التوراة، وبالذي أعطي من الآيات الكونية من الآيات التسع كاليد والعصا وغير ذلك.

وآمنا بالذي أعطي عيسى عليه السلام من الآيات الشرعية في الإنجيل، ومن الآيات الكونية كإخراج الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وغير ذلك.

﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فصرح بموسى وعيسى- وقدمهما؛ لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل، ومن أولي العزم من الرسل، ثم عطف عليهما بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: وآمنا بالذي أوتي النبيون كلهم من ربهم من الآيات الكونية والآيات الشرعية.

وعبر في الموضعين الأولين بـ﴿أُنزِلَ﴾، وفي الموضعين الأخيرين بـ﴿أُوتِيَ﴾ وفي ذلك من الحكم اللفظية- والله أعلم- التنويع والتفنن في الألفاظ، وتجنب إعادة اللفظ الواحد مراراً، والمحافظة على جمال التعبير وحسن الأسلوب، يظهر ذلك من المقابلة بين قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

كما أن في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ الإشارة إلى عظم ما أعطيه موسى وعيسى عليهما السلام من الآيات الكونية- كما هو معلوم- مع ما أنزل عليهما من الوحي العظيم في التوراة والإنجيل.

﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ «من»: لابتداء الغاية، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميرهم تشريف وتكريم لهم وإثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة بهم.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، وهي داخلة ضمن جملة مقول القول في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ أي: ولا نفرق بين أحد منهم.

أي: لا نفرق بين أحد من الأنبياء في الإيمان بهم وبما أنزل إليهم، بل نؤمن بهم جميعاً وبما أنزل إليهم، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض كما فعلت اليهود، كفروا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وكما فعل النصارى، كفروا بمحمد ﷺ فنقض تكذيبهم تصديقهم فكانوا هم الكافرون حقا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥١].

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ الواو: عاطفة، أي: ونحن لله تعالى ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، أي: منقادون مستسلمون ظاهراً وباطناً.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة دعوة اليهود والنصارى للمسلمين باتباعهم، وأمر المسلمين باتباع ملة إبراهيم والإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل إلى إبراهيم وغيره من النبيين، ثم بيَّن في هذه الآية أن اليهود والنصارى إن آمنوا بهذا فقد اهتدوا، وفي هذا تعريض بأنهم ليسوا على هدى، وأن الهداية ليست فيما يدعون إليه كما يزعمون، ولهذا قال بعده: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ الفاء: للتفريع، أي: فإن صدق وأقر اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، وجاء الشرط بـ «إن» المفيدة للشك إيذاناً بأن إيمانهم غير مرجو.

﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بمثل الذي آمنتم به أيها المؤمنون، من الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ قولاً واعتقاداً وعملاً، والإيمان بما أنزل على الأنبياء والرسل جميعاً، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ جواب الشرط وقرن بالفاء لاتصاله بـ «قد»، أي: فقد وفقوا أو سلكوا طريق الهداية والرشد وأصابوا الحق.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾أي: وإن أعرضوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به، أي: تولوا عن الحق إلى الباطل، والتولي إذا أطلق شمل التولي بالبدن والإعراض بالقلب.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط لأنه جملة اسمية، وجاء الجواب جملة اسمية للدلالة على استمرارهم وثبوتهم على هذه الحال، وهي حال الشقاق.

وبين قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ مقابلة ومشاكلة، و«إنما»: أداة حصر، أي: ما حالهم إلا الشقاق.

﴿فِي شِقَاقٍ﴾ ﴿فِي﴾للظرفية تفيد تمكن الشقاق منهم، وإحاطته بهم من كل جانب وانغماسهم فيه، والشقاق: شدة المخالفة والعداوة، مأخوذ من الشق، وهو الجانب، فالمخالف يأخذ شقاً وجانباً غير شق صاحبه وجانبه.

والمعنى: فإنما هم في مخالفة ومحادة وعداوة لله ورسوله والمؤمنين، وليسوا من طلب الهداية والحق في شيء، وقد تولى القوم وأعرضوا، ولهذا قال الله ﷻ مخاطباً الرسول

ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفاء: للتفريع والسين للتنفيس تفيد تحقق الوقوع وقربه. فهي هنا تفيد تحقق وعد الله لرسوله ﷺ بكفايته إياهم وقرب ذلك.

و«يكفى»: فعل مضارع ينصب مفعولين، الأول هنا: كاف الخطاب، والثاني: ضمير الغائب الهاء، ولفظ الجلالة فاعل، أي: فسيكفيك الله إياهم، أي: يكفيك شقاقهم ويحفظك من شرهم.

وفي هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بكفايته إياهم، وتسلية له وتطمين لقلبه، وإرشاد له إلى التوكل على الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

كما أن فيه وعيداً شديداً وتهديداً أكيداً لهؤلاء المتولين المعرضين.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ السميع: اسم من أسماء الله ﷻ، يدل على إثبات صفة السمع الواسع لله ﷻ الذي يسمع الدعاء، ويجيبه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ يدل على إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ الذي وسع كل شيء.

أي: وهو السميع- سبحانه وتعالى- لجميع أقوال العباد، ولما يدبره هؤلاء المعرضون عن الإيمان من الأذى بأقوالهم؛ «العليم» بضمائرهم وأفعالهم، وفي هذا تأكيد لوعده بكفايته إياهم، وتأكيد لوعيدهم وتهديدهم.

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

أبطل الله ﷻ دعوى اليهود والنصارى أن الهداية فيما هم عليه، وأمر باتباع ملة إبراهيم وهي الإيمان بما أنزل إلينا، وما أنزل على جميع الرسل والأنبياء، ثم أكد ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ ﴿صِبْغَةَ﴾: مصدر، أي: صبغنا الله صبغة، أو صُبغنا صبغة الله، وهذا أقوى تناسباً مع قوله بعده: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

وقيل: ﴿صِبْغَةَ﴾ منصوب على الإغراء، أي: الزموا صبغة الله، ولا يبعدنكم هؤلاء عن دينكم، و«صبغة» مضاف، ولفظ الجلالة «الله» مضاف إليه.

والصبغة في الأصل: اللون، والمراد بـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: دين الله.

وسمي الدين صبغة لظهور أثره على المؤمن في سلوكه وأخلاقه؛ إخلاصاً لله ﷻ، ومتابعة لرسوله ﷺ، بل ولظهور أثره على أسارير وصفحات وجه المؤمن، فهو بمنزلة الصبغ للثوب.

وأيضاً سُمي الدين صبغة للزومه كلزوم الصبغ للثوب، فمن دخل فيه لا يكاد ينفك عنه أو يفارقه بتوفيق الله، كما قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما. «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه منه كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ الاستفهام للنفي والإنكار، ومجيء النفي بصيغة الاستفهام أبلغ من النفي المجرد لتضمنه التحدي، أي: لا أحد أحسن من الله صبغة، أي: لا دين أحسن من دين الله تعالى.

وهذا ابتهاج من المؤمنين بهذه الصبغة، وبهذا الدين الذي فاق جميع الأديان كمالاً كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وشمولاً كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وخلوداً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وصدقاً وعدلاً، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وعدم اختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفرق شاسع وبون واسع بين من آمن بالله ﷻ فهو يسير في هذه الحياة على نور من الله في جميع أعماله وأقواله وأخلاقه، وبين من كفر بالله فصار يسير على غير هدى، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)- من حديث أنس رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ الواو: عاطفة، والضمير «نحن» يعود على النبي ﷺ والمؤمنين و﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر، مع مراعاة الفواصل، أي: ونحن له وحده عابدون.

وفي قول المؤمنين: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ ما يوحي بفخرهم واعتزازهم وتشرفهم بعبادة الله ﷻ وحده شكراً له؛ لأن عبادته أشرف ما يمكن أن يتصف به العبد.

فكأنهم يقولون: ونحن له وحده عابدون ونفتخر ونعتز بذلك ونتشرف به، فالشرف كل الشرف والفخر كل الفخر والعز كل العز بعبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أما على القول بأن قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على الإغراء تكون جملة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ جارية مجرى التعليل له.

الفوائد والأحكام:

١- دعوة اليهود والنصارى إلى ما هم عليه من الباطل والضلال، وزعمهم أنه الحق والهدى، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

٢- أن من يدعو إلى الباطل والضلال ويزعم أنه الحق والهدى من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود والنصارى، كما يفعل أهل العقائد الباطلة كالرافضة وغيرهم، وكما يفعل أهل التحلل والسفور وأهل التغريب وذلك مصداق قوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة شبرا بشبرا وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٣- أن الملة التي يجب اتباعها، وهي خير الملل وأفضلها، وفيها كمال الاهتداء هي ملة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾.

٤- فضل إبراهيم عليه السلام وإمامته؛ لأن الله أضاف ملة الإسلام إليه، وأمر باتباعه، ووصفه بتجريد التوحيد وعدم الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقدمه على من ذكر في الآيات من الرسل، فقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ الآية.

٥- في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وما هم عليه من الشرك بالله، مما يبطل دعواهم اتباع إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

٦- وجوب الإيمان بالله؛ بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وأن الإيمان بالله تعالى أصل الإيمان وأساسه؛ ولهذا قدم في الآية.

٧- وجوب الإيمان بما أنزل إلينا على نبينا محمد ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة قولاً واعتقاداً وعملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

وقدم هذا في الذكر على الإيمان بما أنزل على إبراهيم وغيره ممن ذكروا في الآية تقديماً للأهم والأفضل والأعظم وهو القرآن الكريم، ولأن من مقتضى الإيمان به: العمل به بخلاف الإيمان بغيره مما أنزل على الرسل فلا يقتضي العمل بذلك.

٨- وجوب الإيمان بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وثبوت نبوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣].

٩- إثبات العلو لله عز وجل؛ لأن المنزل على الرسل من عنده- سبحانه وتعالى.

١٠- أن ما أوحاه ﷻ إلى رسله وأنبيائه منزل من عنده غير مخلوق.

١١- وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى والنبيون كلهم من الآيات الشرعية والكونية، وأنهم مبلغون عن الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

١٢- فضل موسى وعيسى عليهما السلام؛ لأن الله نص عليهما فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فهما من أولي العزم من الرسل وأفضل أنبياء بني إسرائيل.

١٣- أن الإيمان بالرسل والكتب منه ما هو على طريق التفصيل، وهذا فيما فصل لنا وقص علينا من الرسل والكتب، ومنه ما هو على طريق الإجمال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لأنبيائه، وأنهم مبلغون عن الله تعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

١٥- لا يجوز التفريق في الإيمان بين أحد من الرسل، بل يجب الإيمان بهم جميعاً، فمن آمن ببعضهم وكفر ببعض فليس بمؤمن، وكذا يجب الإيمان بكل ما أنزل إليهم، فمن آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: في الإيمان بهم وبما أنزل عليهم.

١٦- وجوب الاستسلام لله ﷻ والإخلاص له وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

١٧- لا بد من الجمع بين الاستسلام والانقياد لله تعالى باطناً وظاهراً، بين الإيمان والإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

١٨- لا هداية لليهود والنصارى ولا لغيرهم إلا بالإيمان بما آمن به محمد ﷺ وأمته؛ وهو ما أنزل عليه ﷺ من القرآن والسنة، وما أنزل على الأنبياء والرسل قبله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾.

١٩- أن من لم يؤمن بما أنزل على نبينا ﷺ وما أنزل على من قبله من الأنبياء والرسل فهو ضال؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ فمفهوم

هذا أنهم إن لم يؤمنوا بذلك فهم على ضلال.

٢٠- لا حجة لمن تولى عن الإيمان من اليهود والنصارى وغيرهم إلا الشقاق والمخالفة لأمر الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

٢١- مشاقة اليهود والنصارى ومخالفتهم للرسول ﷺ ولما جاء به ولأهل الإيمان منذ بعثته ﷺ.

٢٢- الوعيد الشديد لمن تولى عن الإيمان من اليهود والنصارى وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.

٢٣- وعد الله ﷻ لرسوله ﷺ بأنه سيكفيه شر من تولى عن الإيمان من أهل الكتاب، وهكذا حصل، فظهر ﷺ عليهم وفتح حصونهم، فأجلى بعضهم، وقتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأذل بعضهم بأخذ الجزية منهم.

٢٤- الإرشاد إلى التوكل على الله ﷻ وحده؛ لأنه سبحانه هو الكافي، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: ﴿السَّمِيعُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله ﷻ الذي يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويجيب الدعوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْعَلِيمُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَلِيمُ﴾.

٢٧- وجوب مراقبة الله ﷻ في الأقوال والأفعال في جميع الأحوال؛ لأنه سبحانه واسع السمع، واسع العلم لا يخفى عليه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٢٨- في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تأكيد لوعده ﷻ لنبيه ﷺ بكفايته، وتأكيد لوعيده ﷻ لمن تولوا عن الإيمان.

٢٩- في اجتماع سعة السمع مع سعة العلم في حقه ﷻ زيادة كماله إلى كمال.

٣٠- وجوب التزام دين الله والتمسك به؛ لقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: الزموا صبغة الله، أي: دينه وتمسكوا به.

٣١- عظمة الدين الإسلامي وشرفه وأحقيته؛ لأن الله ﷻ أضافه إلى نفسه فقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه سبحانه هو الذي أحقه وشرعه.

٣٢- لا دين أحسن من دين الله ﷻ؛ كمالاً وشمولاً وخلوداً وصدقاً وعدلاً، وصلاحاً للبشرية في دينها ودنياها وأخراها، وعدم اختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٣٣- وجوب إخلاص العبادة لله ﷻ، والذل والخضوع له وحده، وأن في ذلك الشرف والفخر والعز والسؤدد؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ الأمر في قوله: ﴿ قُلْ ﴾ للنبي ﷺ.

والخطاب في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا ﴾ لليهود والنصارى، وبخاصة المحاجين منهم والاستفهام للإنكار. والمحاجة: المجادلة والمخاصمة بين اثنين فأكثر، وإدلاء كل منهم بحجته لينقض حجة الآخر.

أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين يحاجونكم ويجادلونكم حسداً منهم على تفضيل الله لكم ولدينكم: أتحاجوننا وتجادلوننا في توحيد الله والإخلاص له وطاعته، وتزعمون أنكم أولى بالله وتختصون بفضله وكرامته دوننا؟

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنه ربنا وربكم جميعاً، يجب علينا وعليكم توحيده والإخلاص له وطاعته، والأفضل عنده منا ومنكم من قام بحقوق ربوبيته، ووحده وأخلص له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولكل منا ومنكم أعمالهم خاصة وجزاؤها، فلا تُسألون عن أعمالنا، ولا نُسأل عن أعمالكم، وكل منا بريء من عمل الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ الواو: عاطفة، أي: ونحن لله وحده مخلصون العبادة على الدوام بلا رياء ولا شرك، وأنتم به مشركون.

قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجلهم شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»(١).

فإذا كان الله ﷻ رب الجميع، ولكل منهم عملهم وجزاؤهم، فالأولى به عز وجل والأفضل عنده من قام بحقوق ربوبيته وأخلص له؛ وهم المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآيات السابقة زعم اليهود والنصارى أن الهداية فيما هم عليه ودعوتهم لذلك، وبين أن الهداية في ملة إبراهيم وأمر المؤمنين باتباعها، ثم ذكر في هذه الآية قولهم: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، وأنهم أولى بهم من المسلمين، ورد عليهم وأبطل قولهم.

قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتاء الخطاب: ﴿تَقُولُونَ﴾ فتكون داخلة في حيز الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ و﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام، أي: بل أتقولون.

وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَقُولُونَ﴾، فيكون الكلام مستأنفاً غير داخل تحت الأمر، أي: بل أيقولون.

وقيل: ﴿أَمْ﴾: متصلة، والاستفهام للتوبيخ، والإنكار على التقديرين.

فأنكر عليهم أولا محاجتهم في الله، ثم أنكر عليهم قولهم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ أي: أنهم كانوا على اليهودية والنصرانية.

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الأمر للنبي ﷺ والخطاب في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ لليهود والنصارى، والاستفهام للإنكار ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ «أم» هي المتصلة، أي: بل الله أعلم.

وقد قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

(١) انظر: «روح المعاني» (١/ ٣٩٧).

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وإذا كان الله ﷻ العليم الخبير، أصدق القائلين نفى أن يكون إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً، وقرر إسلامه ومن تبعه من الأنبياء. وأنتم تقولون كان إبراهيم يهودياً أو نصرانيّاً، فأي القولين أحق؟ وأي الخبرين أصدق؟ لا شك أن قول الله أحق، وخبره أصدق، وحيث كان الجواب من الوضوح والبيان لم يحتج أن يقول: بل الله أعلم، وكما قال المتنبي(١):

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وكيف يكون إبراهيم يهوديّاً أو نصرانيّاً والتوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعده، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وهكذا وصل الحال بأهل الكتاب لما بعدوا عن وحي الله ﷻ وحرفوا وبدلوا، فصاروا يحاجون في الله وفي رسله وأنبيائه وفيما أنزل عليهم جدالاً بالباطل، فكذبوا الأخبار الصادقة، وشككوا في العقائد الثابتة فخرجوا عن منهج الحق، بل صار الحق عندهم باطلاً والباطل حقاً.

وهكذا وصل الحال بالرافضة اليوم بل وأشد من ذلك، مصداقاً لقوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال «فمن»**»(٢).

فطعنوا في الرب ﷻ، وفي الكتاب والسنة، وفي جبريل عليه السلام، وفي الرسول ﷺ، وأزواجه أمهات المؤمنين، وفي صحابته الميامين- رضي الله عنهم أجمعين- ولم يبقوا على شيء من ثوابت الدين إلا طعنوا فيه، وصدق الله العظيم: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: للاستفهام،

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٢٠.

(٢) سبق تخريجه.

ومعناه النفي والإنكار، أي: لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، فلا أظلم ممن كتم هذه الشهادة عنده من الله فلم يبينها، كما فعل أهل الكتاب كتموا ما في كتبهم من الشهادة بصدق محمد ﷺ ورسالته، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط لم يكونوا هوداً أو نصارى بل كانوا مسلمين، فجمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد.

و«ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة أو مصدرية، أي: وما الله بغافل عن الذي تعملون أو عن عملكم أيها اليهود والنصارى، بل هو محيط بكم وبأعمالكم وبجميع الخلق وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسيجزي كلا بعمله.

وهذه من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها، وهو كمال علمه ورقابته على العباد وأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

رد الله ﷻ في الآيات السابقة زعم اليهود والنصارى أنهم على دين يعقوب عليه السلام كذباً منهم وافتراءً، مبيناً أن يعقوب عليه السلام كان على ملة إبراهيم عليه السلام، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

ثم ذكر في هذه الآيات قولهم: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى وأبطل ذلك، ثم أتبعه بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

والإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ﴾ في هذه الآية إلى إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء عليهم السلام، وفي الآيتين بيان وتأكيد أن لكل عمله لا يسأل أحد عن عمل من سبقه

ولا ينبغي أن يتكل أحد على عمل غيره.

قال السعدي[1]: «وكررها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب إلى الرجال».

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار الشديد على اليهود والنصارى الذين يحاجون في الله وتوحيده والإخلاص له مع إقرارهم بأنه ربهم ورب غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله ﷻ العامة لجميع الخلق.

٣- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية والعبادة.

٤- وجوب البراءة من أعمال الكفار وما هم عليه من الكفر والشرك، وعدم التشبه بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

٥- ينبغي للمسلم أن يتميز عن غيره بما هو عليه من الدين الحق والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

٦- وجوب الإخلاص لله ﷻ والاعتزاز بذلك، وإعلانه لمن حآج في وحدانية الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

٧- الإرشاد لطريق المحاجة لبيان الحق ودحض الباطل، وأنها مبنية على الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

أي: فإذا كان ربنا واحداً نحن وإياكم، ولكل منا ومنكم عمله، فلا فرق بيننا وبينكم في ذلك، ولا تفضيل لأحد إلا بالإخلاص لله تعالى، فمن كان لله أخلص فهو منه أقرب وعلى دينه وتوحيده أصوب، وهذه صفة المؤمنين دون غيرهم.

٨- الإنكار على اليهود والنصارى وإبطال دعواهم أن إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، وأنهم أولى بهم من المسلمين؛ لقوله

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٥٤).

تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: قل بل الله أعلم، وقد بين ﷻ أن إبراهيم وهؤلاء الأنبياء مسلمون، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

٩- إثبات العلم التام الواسع المطلق المحيط بكل شيء لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: بل الله أعلم.

١٠- جهل أهل الكتاب بتاريخ وأصول شرائعهم، حيث زعموا أن إبراهيم وأولاده وأحفاده كانوا على اليهودية والنصرانية.

١١- إبطال كل ما خالف شرع الله من أقوال وقوانين البشر، ووجوب رد العلم في ذلك إلى الله العليم الخبير؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

١٢- لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كتم العلم الذي عنده من الله، فلم يبينه.

كما فعل أهل الكتاب عندهم الشهادة في التوراة والإنجيل بصدق محمد ﷺ، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط لم يكونوا هوداً أو نصارى، بل كانوا مسلمين فكتموا ذلك، بل ادعوا أن إبراهيم وهؤلاء الأنبياء كانوا هوداً أو نصارى، فكتموا الحق وأظهروا الباطل، ودعوا إليه وهذا أعظم الظلم، فمرتكبه متوعد بأشد العذاب.

١٣- عظم مسؤولية العلماء أمام الله ﷻ في بيان ما عندهم من العلم، وإرشاد الناس وتعليمهم شرع الله.

١٤- كمال علم الله ﷻ ومراقبته لأعمال عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها، وهو كمال علمه ﷻ ورقابته على العباد وأعمالهم، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها. وفي هذا وعد ووعيد وترغيب وترهيب.

١٥- في تكرار هذه الآية: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [١٣٤، ١٤١]، تأكيد وتقرير أن لكل عمله وجزاءه، لا يسأل عن عمل غيره، ولا يؤخذ بجريرة من سواه.

كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣]، وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وفي هذا كله تأكيد على إطراح ما كان متأصلاً في نفوس الكفار من الافتخار بالآباء، والتقليد الأعمى لهم، كما قال تعالى:﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

كان النبي ﷺ بمكة إذا صلى صلى إلى بيت المقدس، وجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر إلى المدينة صلى ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، وكان ﷺ يحب أن يصلي إلى البيت الحرام قبلة إبراهيم- عليه السلام- والأنبياء بعده، وكان يقلب وجهه في السماء داعياً الله- عز وجل- أن يأمره بالتولي نحو هذا البيت، وقد استجاب الله- عز وجل- له فأمره ﷺ والمؤمنين بالتولي شطر المسجد الحرام. ولما كان هذا الحدث من أعظم الوقائع في الإسلام بعد مبعثه ﷺ، قدَّم له- عز وجل- توطئة وتمهيداً، وتقريراً له- بعدة مقدمات من أهمها ما يلي:

أولاً: ذكر طبيعة وحال بني إسرائيل، وما هم عليه من الكفر والتكذيب، واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلاً، ولبس الحق بالباطل، وكتمان الحق، والشرك والظلم، والتمرد والعناد، والتعنت في سؤال أنبيائهم، وتبديل قول الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتوليهم وإعراضهم بعد أخذ الميثاق عليهم، واعتدائهم، وتحريفهم وافترائهم الكذب على الله، وزعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، وقتل بعضهم لبعض، وإخراجهم فريقاً منهم من ديارهم إثماً وعدواناً، وشرائهم الحياة الدنيا بالآخرة، واستكبارهم، وتكذيبهم الرسل والأنبياء وقتل فريق منهم، وكفرهم بما أنزل الله مصدقاً لما معهم، وقولهم: سمعنا وعصينا، وحبهم عبادة العجل، وحرصهم على الحياة، ونقضهم العهود، ونبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، واتباعهم ما تتلوا الشياطين والسحرة على ملك سليمان، وكراهيتهم أن يُنزَّل على المؤمنين خير من ربهم، ومودتهم رد المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، وزعمهم الباطل أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو

نصارىٰ، وتكذيب بعضهم لبعض، ومنعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها، ونسبتهم الولد إلى الله- تعالى الله عن ذلك- وعدم رضاهم إلا باتباع ملّتهم، وقولهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾، وشقاقهم وظلمهم، وكتمانهم ما عندهم من الشهادة في كتبهم من الله- على صدق ما جاء به محمد ﷺ، وغير ذلك.

ثانياً: تحذير المؤمنين من مسلك أهل الكتاب، في كفرهم، وتكذيبهم، وتعنتهم في سؤال أنبيائهم، والتحذير من طاعتهم، لكراهتهم الخير للمؤمنين، ومودتهم إرجاعهم بعد إيمانهم كفاراً وحسدهم لهم.

ثالثاً: تقرير النسخ، وأنه- عز وجل- ما ينسخ من آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها.

رابعاً: تقرير أن لله عز وجل المشرق والمغرب، وأن العباد أينما تولوا فثم وجه الله.

خامساً: الثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتعظيم ملّته، وإعلان إمامته للناس، وإتمامه ما ابتلاه الله به من الكلمات، ووفاؤه، وإيجاب اتباع ملته، وتسفيه من يرغب عنها.

سادساً: الامتنان على هذه الأمة بجعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، ورفع إبراهيم وإسماعيل- عليهما السلام- لقواعده، وتطهيره للطائفين، والعاكفين والركع السجود، وتأكيد عظمته وحرمته، وشرفه وفضله.

إلى غير ذلك.

ثم بعد هذه المقدمات أعلمهم- عز وجل- بما سيقول السفهاء من الناس من أهل الكتاب وغيرهم، لئلا يفاجؤوا في ذلك فيعظم عليهم ذلك، مؤكداً أن لله- عز وجل- المشرق والمغرب... إلخ.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ أتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس في جماعة ذكرهم، فقالوا له: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها

نتبعك ونصدقك. وإنما يريدون فتنته عن دينه، فأنزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾»(١).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل المسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ- قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت، وكان الذي مات على القبلة قَبْل أن تحول قِبَلَ البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»(٢).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، أي: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾؟ فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾».

وفي رواية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فكان أول ما نسخ الله- عز وجل- من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله- جل وعز- أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود بذلك، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، فكان يدعو الله-

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٦١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٧، ٢٤٨)- الأثر (١٣٢٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٠)، وفي الصلاة (٣٩٩)، وفي التفسير (٤٤٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٨٣).

جل وعز- وينظر إلى السماء، فأنزل الله جل وعز: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، يعني: نحوه، فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]. فأنزل الله- جل وعز: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال جل وعز: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. قال ابن عباس: ليتميز أهل اليقين من أهل الشك والريبة»(١).

قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ السين للاستقبال، وتحقيق صدور هذه المقالة من هؤلاء السفهاء، واستمرارهم عليها، وفيه معجزة له ﷺ، وتقوية لقلبه ﷺ والمؤمنين، للاستعداد لتحمل ذلك، ومدافعته، والصبر عليه، كما قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**»(٢)؛ ليستعد لمجادلتهم ومحاجتهم.

والسفهاء: جمع سفيه، والسفه: خفة وطيش، ينشأ عنه سوء تصرف في الأقوال والأعمال والأموال. والسفيه: من لا يحسن التصرف، ولا يهتدي إلى طرق الخير، لقصور في عقله كالمجنون، والصغير، وغير الرشيد.

والسفه يكون في الدين، ويكون في الولاية، ويكون في المال.

فالسفه في الدين: بالكفر وارتكاب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقال تعالى حكاية عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٥٠، ٦٢٣، ٦٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٨، ٢٥٣)- الأثران (١٣٢٩، ١٣٥٥)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٤٥٥-٤٥٦)- الأثر (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

والسفه في الولاية: أن يكون الشخص لا يحسن التصرف في الولاية، فتنقل إلى غيره، كما إذا كان لا يعرف الكفء في ولاية النكاح، فتنقل الولاية إلى غيره، ونحو ذلك.

والسفه في المال: أن يكون الشخص لا يحسن التصرف في المال، ولا يعرف وجوه المصالح والمفاسد فيه، فهذا يحجر عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥].

والمراد بالسفه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ السفه في الدين وهو أشد أنواع السفه.

والمراد بـ«السفهاء من الناس» اليهود، فهم أسفه الناس، قد بلغوا من السفه غايته، ولهذا قال «السفهاء» بالتعريف، وذلك؛ لأنهم كذبوا برسالة النبي ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله- عز وجل- وخالفوه، واعترضوا على حكمه، وتركوا الحق بعدما عرفوه، حسداً منهم وبغياً، فجمعوا بين تكذيبه ﷺ وما جاء به من الحق، وتكذيب ما جاء في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم من البشارة به ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦، ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

و«من» في قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ بيانية، والمعنى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم اليهود، ومن مالأهم من المنافقين والمشركين- تكذيباً للحق وتشكيكاً للناس فيه.

والناس: أصله «أناس» كما قال الشاعر:

إن المنايـــــا يطلعـــــــن عـلى الأنـاس الآمنينـا[1]

وهو مشتق من النوس، وهو الحركة، أو من الأنس؛ لأنهم يأنس بعضهم ببعض، أو من الإيناس، وهو الرؤية والمشاهدة؛ لأنهم يُرون ويُشاهدون، بخلاف الجن فهم مستترون.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ الجملة في محل نصب مقول القول.

﴿مَا﴾ اسم استفهام، أي: أيُّ شيء صرفهم، ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ بيت المقدس، ﴿ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: التي كانوا يستقبلونها- يعني- قبل الأمر بالتحول إلى الكعبة.

وقبلة كل شيء ما قابل وجهه. والقبلة في الشرع: ما يستقبله الناس في صلاتهم، كما قال تعالى لموسى وهارون- عليهما السلام: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧].

والمعنى: أن هؤلاء السفهاء سيقولون اعتراضاً على حكم الله وشرعه وتكذيباً له وإنكاراً: ما الذي جعلهم يتولون وينصرفون ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس إلى المسجد الحرام، ولم يقولوا: «عن قبلتنا التي كنا عليها»، بل قالوا: ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لقصد الإثارة والإلزام للمسلمين، أي: أنه إن كانت القبلة الأولى حقًّا فقد تركوا الحق، وإن كانت باطلاً، فقد كانوا على باطل، حيث صلوا إليها.

وقالوا أيضاً: اشتاق محمد إلى بلده ومولده.

كما قال المنافقون: ما بال محمد مرة يحولنا إلى هٰهنا، ومرة يحولنا إلى هٰهنا.

وقال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم.

وفي وصف هؤلاء القائلين بالسفهاء تخفيف لوقع هذه المقالة على الرسول ﷺ والمؤمنين، حيث صدرت ممن لا يحسن النظر لنفسه، فلا يلقى لها بال، ولا قيمة لها.

وفي قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ما يفيد أن كل من صدرت منه هذه المقالة من اليهود أو

---

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر: «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص٣٢، «لسان العرب»، مادة «نوس».

المنافقين أو غيرهم فهو سفيه، وكذا كل من اعترض على حكم الله فهو سفيه.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تولى عز وجل تعليم نبيه ﷺ هذا الرد المفحم لهم، أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود السفهاء ردًّا عليهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وإنما أجيبوا بهذا الجواب المسكت المبكت؛ لأن إنكارهم للقبلة اعتراض على حكم الله وعناد وتكذيب، وحسد، كما قال ﷺ: «**إنهم- يعني اليهود- لا يحسدوننا على شيء، كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين**»(١).

ولم يكن قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لطلب الحق والحكمة في ذلك، ولو كان هدفهم ذلك لبيّن لهم السبب، بأن الله أمر بذلك، وأن الكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام والأنبياء بعده، وأول بيوت الله في الأرض، وأعظمها وأفضلها.

وقد سمع النبي ﷺ- كما في حديث قتيلة- مقالة ذلك اليهودي: إنكم تشركون، تقولون: «ما شاء الله، وشئت»، وتقولون: «والكعبة» فأمر ﷺ أصحابه إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة» وأن يقولوا: «ما شاء الله ثم شئت»(٢)؛ وذلك لأن هذه المقالة حق، وإن كان اليهودي إنما أراد بهذه المقالة عيب الإسلام، وتنقص المسلمين.

وقُدِّم الخبر في قوله: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ لإفادة الحصر، أي: لله وحده المشرق والمغرب، أي: جنس المشرق والمغرب للشمس والقمر وسائر الكواكب.

والمراد أن له- عز وجل- جميع الجهات والأرض كلها؛ لأن الناس يقسِّمون الأرض إلى نصفين شرقية وغربية بحسب مطلع الشمس ومغربها.

وإذا كان عز وجل له جميع الجهات، وله الأرض كلها، فله- عز وجل- أن يوجِّه عباده للصلاة لأي جهة أراد، فالخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، ولهذا قال بعد

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤، ١٣٥) من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢). وأخرجه ابن سعد والطبراني وابن منده. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٥٩٨).

ذلك: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وهداية الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين:

هداية الدلالة والإرشاد والبيان، وهذه عامة، فالله- عز وجل- هاد، والرسل والدعاة إلى الله هُداة بهذا المعنى، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهي أيضاً عامة من وجه آخر، وهو شمولها لكل من بلغته الرسالة؛ لأن الله- عز وجل- أنزل لأجلها الكتب وأرسل الرسل، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله- عز وجل- كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

والمراد بالهداية في الآية هنا ما يشمل الهدايتين: هداية الدلالة والإرشاد والبيان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣] أي: دللناه وأرشدناه للسبيل وبيناه له، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: بيّنا له طريق الخير وطريق الشر.

وهداية التوفيق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وحيثما جاءت الهداية مسندة إلى الله فإنها تشمل القسمين: هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق.

وحيثما أسندت إلى غير الله، فالمراد بها هداية الدلالة والإرشاد فقط.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ «من» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل نصب مفعول «يهدي»، أي: يدل ويوفق الذي يشاء، والمشيئة هي الإرادة الكونية، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الصراط: الطريق المسلوك والسبيل الواضح.

و«المستقيم» في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين، أي: العدل الذي لا اعوجاج

فيه، أي: إلى طريق مسلوك وسبيل واضح، عدل، لا اعوجاج فيه، وهو صراط الله عز وجل، ونكَّره للتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣، النور: ٤٦] ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

ومعنى الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يدل، ويوفق الذي يريد من عباده إلى طريق مسلوك، وسبيل واضح، عدل، لا اعوجاج فيه، بهدايته لهم، لأعظم قبلة، وتوفيقهم لمعرفة الحق، والعمل به، للعلم النافع، والعمل الصالح، وفي هذا تنويه بقبلتهم، وإشارة إلى أن الشأن كل الشأن في الإيمان بالله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ الجملة معترضة بين قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية، وبين قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ الآية.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة في هدايته لهم إلى صراط مستقيم، ثم أتبعه بذكر فضله- عز وجل- عليهم بجعلهم أمة وسطاً.

والكاف في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه بمعنى: «مثل»، والإشارة إلى ما سبق، وهو فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة بهدايتهم إلى صراط مستقيم، أي: مثل ما هديناكم إلى صراط مستقيم، كذلك ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

و«جعل» بمعنى صيَّر تنصب مفعولين، الأول ضمير المخاطبين، والثاني «أمة وسطا».

والجعل نوعان: كوني، وشرعي، والمراد به هنا ما يشمل النوعين، أي: جعلناكم كوناً وقدراً، وشرعاً، بما شرعناه لكم من هذا الشرع المطهر ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.

و﴿أُمَّةً﴾ أي: جماعة وطائفة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

أي: وما من جماعة وطائفة ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وتطلق الأمة على الزمن والمدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]. أي: وادَّكر بعد مدة.

وتطلق على الملة، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣] أي: على ملة وطريقة.

وتطلق على الإمام والقدوة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠].

والمراد بالأمة في الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: أمة الإجابة.

﴿وَسَطًا﴾: عدلاً خياراً، قال ﷺ: «**والوَسَط: العدل**»(١)، ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨] أي: أعدلهم رأياً. قال زهير بن أبي سلمى:

هُمُ وَسَط يرضى الأنام بحكمهم ... إذا نزلت إحدى الليالي بمعضل(٢)

أي: جعلناكم عدولاً خياراً بين الأمم، دينكم الإسلام، أكمل الأديان، وكتابكم القرآن الكريم، أعظم الكتب، ورسولكم محمد ﷺ أفضل الرسل، وشريعتكم أيسر الشرائع، الحنيفية السمحة، ملة أبيكم إبراهيم، وقبلتكم الكعبة المشرفة، قبلة أبيكم إبراهيم- عليه السلام- أشرف قبلة، وأعظم بقعة، وأول البيوت، وأعظمها حرمة،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤)- من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٣٢٥).

بناها خليل الرحمن إبراهيم- عليه السلام- على اسم الله- عز وجل- وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فامتنَّ الله- عز وجل- على هذه الأمة المحمدية بأن جعلهم أمة وسطاً، أي: عدولاً خياراً بين الأمم في كل شيء، فلا هم أهل غلو وإفراط كالنصارى، ولا أهل جفاء وتفريط كاليهود، الذين حرَّفوا كتاب الله وكذَّبوا رسله وقتلوهم، بل هم خير الأمم وأفضلها وأعدلها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ودينهم أكمل الأديان لا يقبل بعده من أحد سواه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكتابهم القرآن الكريم المهيمن على جميع الكتب السماوية، وأكملها وأعظمها وأخلدها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ورسولهم محمد ﷺ خاتم الرسل وأفضلهم وسيدهم، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١).

وشريعتهم أيسر الشرائع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقبلتهم أعظم قبلة، البيت الحرام، قبلة أبيهم إبراهيم- عليه السلام.

---

(١) سبق تخريجه.

قال ابن القيم(١): «وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة».

وقال السعدي(٢): «وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور».

﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اللام للتعليل، أي: جعلناكم أمة عدولاً خياراً؛ لأجل أن تكونوا ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

و«شهداء» جمع «شهيد» أي: تشهدون على الناس بأن الرسل بلغتهم رسالات الله، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وذلك بما عندكم من العلم اليقيني بذلك بما جاءكم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بما يقوم مقام المعاينة والمشاهدة.

ولهذا لما قصّ رسول الله ﷺ على الناس حديث الإسراء وكذّبه مَن كذّبه شهد أبوبكر- رضي الله عنه- بصدقه، وقال: «صدقناه في خبر السماء، أفلا نصدقه في خبر الأرض»(٣).

ونحو من هذا، قال خزيمة بن ثابت رضي الله عنه: «لما شهد للنبي ﷺ أنه اشترى الفرس من الأعرابي، فجعل ﷺ شهادته تعدل شهادة رجلين»(٤).

وأيضاً: ليشهد بعضكم على أعمال بعض، فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه-

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٦٢).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٥٩).

(٣) ذكره السيوطي في «الخصائص الكبرى» (١/ ٣٨٣-٣٨٧) من حديث أنس رضي الله عنه، والبيهقي في الدلائل من حديث عائشة رضي الله عنها. وانظر «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣، ٣٨).

(٤) أخرجه النسائي في البيوع (٤٦٤٧) من حديث عمارة بن خزيمة عن عمه- رضي الله عنه.

قال: مَروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**»، ثم مَروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال: «**وجبت**» فقال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»(١).

وقد استدلَّ ابن القيم بهذه الآية على وجوب اتباع الصحابة، قال(٢): «ووجه الاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذه حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها، في أقوالهم وأعمالهم وإراداتهم ونيَّاتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوّه بهم ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم، والشاهد المقبول عند الله الذي يشهد بعلم وصدق، فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]».

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ معطوف على ما سبق و«ال» في الرسول في هذا الموضع والذي بعده للعهد الذهني، أي: ويكون الرسول المعهود محمد ﷺ.

وفي هذا إشارة إلى أنه لا رسول بعده، أي: رسولكم الذي لا رسول بعده.

﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ بأنه بلغكم رسالة ربه البلاغ المبين، وشهيداً عليكم بأعمالكم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقال ﷺ في حجة الوداع: «**ألا هل بلّغت؟** قالوا: نعم. قال: **اللهم اشهد، ألا هل بلّغت؟** قالوا: نعم. قال: **اللهم اشهد، ألا هل بلّغت؟** قالوا: نعم. قال: **اللهم اشهد**»(٣).

فأشهد ﷺ ربه- عز وجل- على إقرار أمته له بالبلاغ.

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ**

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٧)، ومسلم في الجنائز (٩٤٩)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٢)، والترمذي في الجنائز (١٠٥٨)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٩١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٤١)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة- رضي الله عنه.

القرآن» قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيت على قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال: «**حسبك**» فنظرت إليه، فإذا عيناه تذرفان»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيُقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلّغ ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فذلك قوله- جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ والوسط: العدل**»(٢).

وفي رواية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، فيقال: هل بلّغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك: أن الرسل قد بلّغوا، فصدقناه، قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾**»(٣).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلّغ رسالة ربه- عز وجل**»(٤).

كما تشهد الأمة بعضها على بعض، فعن أبي الأسود- رضي الله عنه قال: «قدمت

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠)، وأبوداود في العلم (٣٦٦٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٤).

(٢) أخرجها البخاري في التفسير (٤٤٨٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٩-٢٥٠)- الأثران (١٣٣٢، ١٣٣٦)

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٧٦).

المدينة، وقد وقع بها مرض، فجلست إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه، فمرت بهم جنازة، فأثني على صاحبها خيراً، فقال عمر- رضي الله عنه: وجبت. ثم مر بأخرى، فأثني على صاحبها خيراً، فقال عمر- رضي الله عنه: وجبت، ثم مر بالثالثة، فأُثني على صاحبها شرًّا، فقال: وجبت. فقال أبوالأسود: فقلت: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي ﷺ: **أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة، فقلنا: وثلاثة. قال: وثلاثة. فقلنا: واثنان. قال: واثنان.** ثم لم نسأله عن الواحد»(١).

وعن أبي بكر بن زهير الثقفي عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار**» قالوا: بِم ذاك يا رسول الله؟ قال: «**بالثناء الحسن، والثناء السيئ، أنتم شهداء الله بعضكم على بعض**»(٢).

وعن مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظي عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: والله يا رسول الله، لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً، وكان...، وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «**أنت بما تقول؟**» فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك، فقال رسول الله ﷺ: «**وجبت**». ثم شهد جنازة في بني حارثة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: يا رسول الله، بئس المرء كان، إن كان لَفَظًّا غليظاً، فأثنوا عليه شرًّا. فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «**أنت بالذي تقول؟**» فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك، فقال رسول الله ﷺ: «**وجبت**». قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدق رسول الله ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٦)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٤)، والترمذي في الجنائز (١٠٥٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد- باب الثناء الحسن (٤٢٢١).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٨)- وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وأخرجه ابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٧٦).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «أتي النبي ﷺ بجنازة يصلي عليها، فقال الناس: نعم الرجل. فقال النبي ﷺ: «**وجبت**». وأتي بجنازة أخرى، فقال الناس: بئس الرجل. فقال النبي ﷺ: «**وجبت**». قال أبي بن كعب: ما قولك وجبت؟ فقال: «**قال الله عز وجل**: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾»(١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ الواو عاطفة، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ وما بينهما اعتراض.

و«ما» نافية، ﴿جَعَلْنَا﴾ من الجعل الشرعي، أي: وما شرعنا لك التوجه إلى القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس أول أمرك، ثم صرفناك عنها إلى المسجد الحرام.

وفي هذا دلالة على أن استقباله ﷺ بيت المقدس في الصلاة كان بأمر من الله- عز وجل- لتأليف اليهود للإسلام، لكن لم ينجع ذلك فيهم.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها لأي حال من الأحوال، ولأي سبب من الأسباب ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾.

واللام في قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ للتعليل، أي: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ إلا لأجل أن نعلم مَن يتبع الرسول أي: لهذا السبب وحده، أي: إلا لأجل أن نعلم علم ظهور يترتب عليه الجزاء والثواب والعقاب.

وقيل: إن الفعل «نعلم» ضمن معنى «نميّز» كما في قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ «من» موصولة، أي: إلا لنعلم الذي ﴿يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: «من يتبعك»؛ تعظيماً له ﷺ، وتأكيداً لوجوب اتباعه، أي: إلا لأجل أن نعلم من يتأسى بالرسول ﷺ، ويتوجه في الصلاة حيث توجه ﷺ.

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ «ممن» مركبة من حرف الجر «مِنْ» و«مَنْ» الموصولة،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٩)- الأثر (١٣٣٤).

أي: من الذي يرجع على عقبيه، أي: يرجع عن دينه، شاكًّا مرتاباً، مكذباً للرسول ﷺ، ولما أنزل الله عليه من الوحي، في تحويل القبلة، وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ما فيه من المبالغة في التحذير والتنفير من مخالفة الرسول ﷺ، وهو أشد وأبلغ مما لو قال: (ممن لم يتبع الرسول)؛ لأن المنقلب على عقبيه مع عدم اتباعه، لم يثبت مكانه، بل نكص على عقبيه، ورجع القهقرى، وسار على غير هدى، ومشى على غير بصيرة. وهذا كما قال تعالى في تبكيت وتوبيخ المكذبين المترفين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦].

والمعنى: وما وجهناك أولاً لبيت المقدس، ثم صرفناك إلى الكعبة، لأي سبب من الأسباب، إلا لأجل أن يظهر ويتبين ويتميز الذي يتبع الرسول ويتأسى به، ويتوجه حيث توجه إلى أي قبلة، من الذي يشك ويرتاب، ويرجع على عقبيه كافراً مرتدًّا بأدنى شبهة، فهي امتحان من الله عز وجل للعباد.

والله- عز وجل- يعلم من سيتبع الرسول ﷺ منذ قدّر مقادير الخلق في الأزل، قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة[1]، لكن المراد بالعلم في الآية العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، فهذا بعد أن يظهر ذلك منهم.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ الواو: حالية، و«إن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي: وإنها كانت لكبيرة، والضمير يعود إلى واقعة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

واللام في قوله: ﴿لَكَبِيرَةً﴾ للتوكيد، أي: لعظيمة شديدة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥]، أي: عظم.

أي: وإن هذه الواقعة عظيمة شاق أمرها على النفوس، وخاصة لأول وهلة، وذلك؛ لاعتيادها التوجه إلى بيت المقدس، ومن طبيعة النفوس إلف ما اعتادت عليه، واستنكار ما يجد ويحدث حتى تألفه وتعتاده.

---

(١) كما في حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- أخرجه مسلم في القدر- حجاج آدم وموسى- عليهما السلام (٢٦٥٣)، والترمذي في القدر (٢١٥٦).

هذا بالنسبة لعامة النفوس، فكيف بأنفس سفهاء اليهود الذين أعماهم البغي والحسد عن قبول الحق، واتخذوا من واقعة تحويل القبلة فرصة لإثارة البلبلة وتشكيك الناس في دينهم، ونجم نفاق المنافقين وقالوا: ما بال محمد يحولنا مرة إلى ههنا، ومرة إلى ههنا، وعظمت المحنة، حتى ارتد بعض الناس عن دينهم- حصل هذا كله وأعظم منه- علماً بأنه تقدمت التوطئة والتمهيد لهذا الأمر، وذكر ما سيقول هؤلاء السفهاء.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ «إلا» أداة حصر.

أي: إلا على الذين هداهم الله، أي: وفقهم للانقياد لأمره- عز وجل- وتصديق رسوله ﷺ، فأمر هذه الواقعة يسير عليهم؛ لقوة يقينهم وإيمانهم بالله ورسوله وتسليمهم لأمر الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

قال ابن كثير(١): «أي: وإن كانت هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما يشاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًّا، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٧٧).

الله، من غير شك ولا ريب، من سادات الصحابة. وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين».

ولهذا فإن من كمال طاعة أصحاب رسول الله ﷺ وتسليمهم وسرعة انقيادهم، أنه لما جاء أهل مسجد قباء الخبر بتحويل القبلة إلى الكعبة استداروا نحوها وهم في الصلاة.

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل، فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة»(١).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما وُجِّه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك، وهم يُصلون نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾»(٢).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقالوا: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ قال: صلاتكم إلى بيت المقدس»(٣).

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» نافية، واللام في قوله: ﴿لِيُضِيعَ﴾ لام الجحود التي تكون بعد كون منفي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٩٤)، ومسلم في المساجد (٥٢٦)، والنسائي في الصلاة (٤٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٧)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٤)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٦٥١). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٠)، وفي التفسير (٤٤٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٨٣)، والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٦٥١).

والمعنى: أنه لا يمكن أن يضيع الله إيمانكم، فذلك مستحيل ممتنع أشد الامتناع، كقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١]، وتضييع الشيء إهماله، وتركه يذهب سدى.

والمراد بقوله: ﴿إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: إيمانكم بالقبلة الأولى بيت المقدس، وصلاتكم نحوها، وأطلق الإيمان على الصلاة؛ لأنها عمود الإسلام، وأعظم أركانه، وأهم العبادات بعد الشهادتين.

والمعنى: أن إيمانكم بالقبلة الأولى بيت المقدس وصلاتكم نحوها لن يضيع أجره سدى، بل هو محتسب لكم وتؤجرون عليه؛ لأن الصلاة إلى بيت المقدس صحيحة قبل تحويل القبلة إلى الكعبة.

وفي هذا احتراز عن الفهم الخطأ، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥، الحديد: ١٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى، أي: ليعطينكم أجرهما جميعاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»(١).

وفي الآية دليل على دخول الأعمال؛ قولية أو فعلية أو قلبية، في مسمى الإيمان- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فالإيمان عندهم قول باللسان واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح.

كما أن فيها احترازاً من أن يقال، أو يتوهم أن تقدير هذه المحنة بصرف القبلة؛ لأجل إضاعة إيمانهم.

وفيها وعد لهم بحفظ إيمانهم عن الضياع، بل وزيادته وتنميته، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٥٢)- الأثر (١٣٤٨).

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الآية: ٦٥].

قوله: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ متعلق بما بعده، وقدم عليه للتنبيه إلى عنايته- عز وجل- بالناس؛ ليشكروه، مع مراعاة الفواصل، والمراد بالناس عموم بني آدم.

﴿لَرَءُوفٌ ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم وخلف: ﴿لَرَؤُفٌ﴾ بحذف الواو بعد الهمزة، وقرأ الباقون بواو بعد الهمزة: ﴿لَرَءُوفٌ ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَرَءُوفٌ ﴾ للتوكيد، فأكدت هذه الجملة بمؤكدين «إن» واللام.

و«رؤوف» على وزن «فعول» أي: ذُو الرأفة التامة العظيمة، والرأفة أخص وأشد من الرحمة، وقُدّم «رؤوف» على «رحيم»؛ لأن «رؤوف» أبلغ، ولمراعاة الفواصل.

﴿رَّحِيمٌ ﴾ على وزن «فعيل» يدل على أنه- عز وجل- ذو الرحمة الواسعة، رحمة ذاتية، ثابتة له- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فرحمته- عز وجل- لجميع الخلق بما فيهم الكفار والبهائم في الدنيا ما يتمتعون به من نعم الله، من المآكل والمشارب وغير ذلك، فهذا من آثار رحمته عز وجل.

ورحمته لهم في الآخرة العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة

القرناء، كما جاء في الحديث[١].

ورحمته الخاصة بالمؤمنين هدايتهم للصراط المستقيم في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة، فهو- عز وجل- رؤوف رحيم بجميع خلقه- سبحانه وتعالى.

عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي، قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبيًّا من السبي، أخذته فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار، وهي تقدر على ألا تطرحه؟**» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «**فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[٢].

الفوائد والأحكام:

١- علم الله- عز وجل- بما لم يكن وما سيكون؛ لقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخبر- عز وجل- بهذا قبل وقوعه، وتحقق ذلك، ووقع كما أخبر عز وجل وفي هذا معجزة للرسول ﷺ ودلالة على صدقه.

٢- تسفيه اليهود وذمهم، حيث عرفوا الحق وتركوه، واعترضوا على حكم الله- عز وجل- بالأمر بالتوجه إلى الكعبة، والانصراف عن بيت المقدس؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وفي هذا دفاع عن الحق، وتسلية له ﷺ ولأصحابه، وتقليل من شأن اليهود، ومقالتهم الباطلة.

٣- أن من أشد أنواع السفه: السفه في الدين، برد الحق والاعتراض على حكم الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: الذين بلغوا من السفه غايته.

٤- استغلال اليهود وأهل الريب والنفاق حادثة تحويل القبلة للتشكيك في رسالة النبي ﷺ، والكيد له ولدعوته.

وهكذا دَأْبُ أهل الزيغ والنفاق، في كل زمان ومكان، ينتهزون الفرص للكيد

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤).

وقال تعالى عن الكفار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ أي: من الأتباع والضعفاء، أي: إذ تبرأ المتبوعون من أهل الضلال من أتباعهم وتخلوا عنهم وأنكروهم، وتنصلوا من وعدهم لهم بالشفاعة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ معطوفة على: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، أو حالية، أي: في حال رؤيتهم العذاب، وضمير الواو في «رأوا» عائد على الفريقين، المتبوعين والأتباع.

أي: وشاهدوا العذاب، وأبصروه بأعينهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٣، ٦٤].

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ معطوفة على ما قبلها، أو حال، والضمير المجرور في ﴿بِهِمُ﴾ عائد إلى الفريقين، والباء للملابسة، أو للسببية أو بمعنى «عن».

والأسباب: جمع سبب، وهو ما يتوصل به إلى غيره، أي: وتقطعت بهم العلائق والصلات والمودات التي كانت بينهم في الدنيا لغير الله، والحيل وأسباب الخلاص

التي يؤملونها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [فاطر: ٤٠- ٤٢].

قال ابن القيم(١): «وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غايتها، وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: قال الأتباع المضلَّلون.

﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ «لو» هنا للتمني، أي: ليت لنا كرة.

والكرة: الرجعة، أي: ليت لنا رجعة وعودة إلى الدنيا نحن وإياهم.

﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ الفاء: للسببية، «ونتبرأ»: مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد الفاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء:١٠٢]، والمعنى: فنتخلى عنهم، وعن عبادتهم إذا رجعنا إلى الدنيا، ونعبد الله وحده، وهم في هذا كاذبون.

﴿كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ الكاف للتشبيه، بمعنى «مثل» صفة لمصدر محذوف، أي: تبرؤ مثل تبرئهم منا، أي: مثل ما تبرءوا منا وتخلوا عنا في الآخرة فنجازيهم بمثل صنيعهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٧٤).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٩١).

وهيهات وأنى لهم الرجوع إلى الدنيا!

وأيضاً فإنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ الكاف كسابقتها للتشبيه بمعنى «مثل». والإشارة بـ «ذلك» إلى إراءتهم العذاب وتلك الأهوال، والتقدير: مثل إراءتهم الأهوال يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم.

﴿يُرِيهِمُ﴾ من «أرى يُري»؛ لهذا نصبت ثلاثة مفاعيل، الأول: الضمير «هم»، والثاني: «أعمالهم»، والثالث: «حسرات»، وهذا على اعتبار الرؤية علمية، وعلى اعتبار الرؤية بصرية وهو أقرب يكون ﴿حَسَرَاتٍ﴾ منصوباً على الحال من أعمالهم.

و﴿حَسَرَاتٍ﴾ جمع حسرة، وهي شدة الندم والأسى والحزن، لما مُنوا به من حبوط أعمالهم والخيبة والخسران، فلا تكاد تتصور مدى ما يعتلج في صدور هؤلاء الأتباع من الحسرات والندم والحزن والأسى والآهات على أعمال اجتهدوا فيها تحبط وتبطل وتذهب سدى، ويعترفون بما كانوا عليه من الضلال بعد فوات الأوان، ويقولون كما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

ويحتمل عود الضمير في قولهم: ﴿يُرِيهِمُ﴾ إلى الفريقين المتبوعين والأتباع لاجتماعهم في الكفر والضلال كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا

وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

وهذا بخلاف من كانوا أتباعاً على الحق ومحبتهم في الله ولله فإنها تبقى ولا تزول، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال الشاعر:

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر

وقال الآخر:

وإذا تقطع حبل الوصل بينهم ... فللمحبين حبل غير منقطع

وإن تصدع شمل القوم بينهم ... فللمحبين شمل غير منصدع(١)

وقال الآخر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه دوماً لأول منزل

﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أنهم خالدون فيها؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا يموت أهلها، وفي هذا تيئيس لهم من الرجعة إلى الدنيا كما يتمنون.

الفوائد والأحكام:

١- عظم خلق السموات والأرض وما في ذلك من الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه ووحدانيته، وكمال قدرته وحكمته ورحمته.

وأن السموات والأرض مخلوقة بعد العدم، وليست بأزلية- كما يزعم الفلاسفة القائلون بقدم الأفلاك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

---

(١) انظر: «روضة المحبين» ص٢٨٠ .

٢- أن في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، واختلاف أحوالهما ظلمةً وضياءً وطولاً وقصراً، وسكناً ومعاشاً، وغير ذلك، واختلاف الأحوال فيهما من حر إلى برد، ومن عز إلى ذل، ومن شدة إلى رخاء ونحو ذلك وعكسه وغير ذلك، في ذلك كله آيات دالة على عظمة الله ووحدانيته وقدرته وحكمته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

٣- أن في الفلك والسفن التي تجري في البحر بتسخير الله بما ينفع الناس، من حملهم وحمل أمتعتهم وأقواتهم آيات عظيمة دالة على عظمة الله ووحدانيته وحكمته ورحمته وكمال قدرته.

إذ كيف تجري هذه السفن العظيمة على الماء، وكيف لا تغرق في لجج البحار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

٤- أن في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها، وما بث فيها من كل أنواع الدواب آيات عظيمة تدل على عظمة الخالق ووحدانيته وحكمته وسعة رحمته، وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

٥- أن في تصريف الرياح وتغيير توجهها من جهة إلى أخرى وما يترتب على ذلك من منافع أو مضار، وفي تكوين السحاب وتسخيره بين السماء والأرض آيات عظيمة تدل على قدرة الله تعالى التامة، ووحدانيته وحكمته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٦- إنما يتأمل في مخلوقات الله ﷻ الكونية من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وغير ذلك من الآيات المذكورة وغيرها ويتفكر فيها، ويستدل بها على عظمة الخالق ووحدانيته، وتمام قدرته وقوته، وكمال حكمته، وسعة رحمته ذوو العقول؛ لقوله تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: الذين تهديهم عقولهم إلى التأمل في آيات الله والتفكر فيها.

٧- الحث والترغيب في التدبر والتفكر في آيات الله ﷻ ومخلوقاته في هذا الكون العظيم؛ لأن الله ذكر أن هذا من صفات ذوي العقول.

٨- يؤخذ من مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، التعريض بالذين لا يعقلون ولا يتفكرون في آيات الله ولا ينتفعون بها، والرد على المشركين والدهريين.

٩- ذم المشركين باتخاذهم- جهلاً وسفهاً- من دون الله أنداداً يحبونهم كحبهم لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

١٠- أن محبة الله تعالى من العبادة، بل محبة الله تعالى وتعظيمه هي أساس العبادة، فبالمحبة يفعل المأمور، وبالتعظيم يجتنب المحظور؛ ولهذا جعل الله ﷻ من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى كمن اتخذ من دون الله أنداداً وشركاء.

١١- محبة المؤمنين لله تعالى أشد من محبة المشركين للأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

١٢-أن في ازدياد إيمان العبد زيادة محبته لله تعالى، كما أن في شدة محبته لله تعالى دلالة على قوة إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

١٣- وجوب تقديم محبة الله ﷻ على جميع المحبوبات؛ لأن الله ذم من أحبوا الأنداد كحب الله ووصفهم بالشرك والظلم.

١٤- أن من جعل لله نداً في المحبة فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ وأظلم الظلم الشرك بالله- تعالى.

١٥- إثبات البعث والجزاء، ورؤية الظالمين للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

١٦- أن القوة جميعاً لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ والمخلوق وإن كان له قوة فليست بشيء بالنسبة لقوة الله ﷻ،وأيضاً فإن قوة المخلوق إنما هي من الله ﷻ.

١٧- شدة عذاب الله تعالى للمشركين الظالمين ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٨- التحذير من بطش الله وعذابه، لأنه ﷻ ذو القوة التامة، شديد العذاب.

١٩- براءة المتبوعين بالباطل من أتباعهم وتخليهم عنهم في أشد المواقف يوم القيامة؛

لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، وفي هذا من الألم المعنوي لقلوب هؤلاء الأتباع والأسى والحسرة وخيبة الأمل ما لا يتصور.

٢٠- أن كل سبب ترجى به النجاة فهو منقطع يوم القيامة إلا ما شرعه الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

٢١- بلاغة القرآن الكريم في الإشارة إلى ما عليه هؤلاء الأتباع في ذلك اليوم بعد أن تقطعت بهم أسباب النجاة التي يؤملونها من شدة الحيرة وتيقن الهلاك وسوء المصير.

٢٢- تمني الأتباع على الباطل الرجوع إلى الدنيا؛ ليتبرؤوا من متبوعيهم، كما تبرؤوا منهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك؛ لأن الرجوع إلى الدنيا غير ممكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾.

٢٣- عقوبة الله تعالى لهؤلاء المذكورين بجعل أعمالهم حسرات عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٤- خلود المشركين في النار من الأتباع والمتبوعين خلوداً أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٥- إثبات النار، وأنها مآل الكفار، لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وكما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الآية: ١٦٩]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الآية: ٦٤، ٦٥]، وقال تعالى في سورة الجن: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣].

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة البقرة ، الآيات [١-١٦٧] ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- مناسبتها لسورة الفاتحة: ٧
د- فضلها: ٧
هـ- موضوعاتها: ٩
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ...﴾ الآيات [١-٥] ٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ...﴾ الآيتان [٦، ٧] ... ٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ...﴾ الآيات [٨-١٦] ٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا ...﴾ الآيات [١٧-٢٠] ٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ...﴾ الآيات [٢١-٢٥] ٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ...﴾ الآيات [٢٦-٢٩] .. ١٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ...﴾ الآيات [٣٠-٣٣] ١١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ...﴾ الآيات [٣٤-٣٩] ١٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ...﴾ الآيات [٤٠-٤٣] ١٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾ الآيات [٤٤-٤٦] . ١٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ...﴾ الآيات [٤٧-٥٢] ١٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝٥٣ ...﴾ الآيات [٥٣-٥٧] ١٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا ...﴾ الآيات [٥٨-٦١] ٢٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ...﴾ الآيات [٦٢-٦٦] ٢٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ...﴾ الآيات [٦٧-٧٤] ٢٣٥

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ...﴾ الآيات [٧٥-٨٢]..... ٢٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ...﴾ الآيات [٨٣-٨٦]..... ٢٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ...﴾ الآيات [٨٧-٩١]..... ٢٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ...﴾ الآيات [٩٢-٩٦]..... ٣٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ...﴾ الآيات [٩٧-١٠٠]..... ٣١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ...﴾ الآيات [١٠١-١٠٣]..... ٣٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ...﴾ الآيتين [١٠٤، ١٠٥]..... ٣٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ...﴾ الآيات [١٠٦-١٠٨]..... ٣٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ...﴾ الآيتين [١٠٩-١١٠]..... ٣٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ...﴾ الآيات [١١١-١١٣]..... ٣٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ...﴾ الآيات [١١٤-١١٧]..... ٣٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ...﴾ الآيات [١١٨-١٢٣]..... ٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ...﴾ الآيات [١٢٤-١٢٦]..... ٤٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ...﴾ الآيات [١٢٧-١٢٩]..... ٤٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ...﴾ الآيات [١٣٠-١٣٤]..... ٤٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ...﴾ الآيات [١٣٥-١٣٨]..... ٤٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ...﴾ الآيات [١٣٩-١٤١]..... ٤٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ...﴾ الآيات [١٤٢-١٤٣]..... ٤٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ...﴾ الآيات [١٤٤-١٥٠]..... ٥١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ...﴾ الآيات [١٥١-١٥٧]..... ٥٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ...﴾ الآية [١٥٨]..... ٥٧٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ ...﴾ الآيات [١٥٩-١٦٣]. ٥٨٢

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ...﴾ الآيات [١٦٤-١٦٧]. ٥٩٨

فهرس الموضوعات..... ٦٢٠

* * *

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثالث

تفسير سورة البقرة (الآيات: ١٦٨ - ٢٨٦)

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٣

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٢٨ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْبَقَرَةِ

(ٱلْآيَاتُ: ١٦٨ـ ٢٨٦)

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ «يا»: حرف نداء، وتصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام «أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به، و«ها» للتنبيه، و﴿ٱلنَّاسُ﴾: صفة لـ«أي».

و﴿ٱلنَّاسُ﴾ هم البشر «بنو آدم»، فالخطاب لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم.

و﴿ٱلنَّاسُ﴾ أصلها: الأناس، فحذفت الهمزة منها تخفيفًا؛ كما قال الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا

وقد تقدم الكلام على اشتقاقه في أول السورة(١).

﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأمر للإباحة، ﴿مِمَّا﴾ مكونة من «مِن» التي لبيان الجنس و«ما» الموصولة التي تفيد العموم، أي: كلوا من كل الذي في الأرض، من زروع وثمار وبقول، وحيوان، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩].

ويحتمل أن تكون «من» تبعيضية، أي: كلوا من بعض ما في الأرض، والأمر للوجوب فيما يحفظ النفس، وللندب، والإباحة فيما عدا ذلك.

﴿حَلَٰلٗا﴾ حال من «ما» أي: حال كونه حلالاً، أي: حلالاً في كسبه، كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

---

(١) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [الآية: ٨].

﴿طَيِّبًا﴾ حال ثانية، أي: حال كونه طيباً في ذاته وعينه، وفي هذا بيان علة تحليله، وهي كونه طيباً في ذاته، تستطيبه النفوس، وليس بخبيث، كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، والخبائث كلها، مما يضر بالأبدان والعقول، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال تعالى في الخمر: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي قوله: ﴿حَلَٰلًا﴾ امتنان عليهم، كما أن فيه تعريضاً باعتداء المشركين وافترائهم في تحريم ما أحل الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام كما قال تعالى في معرض رده عليهم: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أمر الله ﷻ الناس بالأكل مما في الأرض حلالاً طيباً، ثم عطف على ذلك بنهيهم عن اتباع خطوات الشيطان في تحريم ما أحل الله لهم، وفي تزيين الكفر والشرك والمعاصي.

قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر عن عاصم بإسكان الطاء: «خُطْوات»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿خُطُوَٰتِ﴾، و«خطوات»: جمع: «خطوة»، وهي في الأصل ما بين قدمي الماشي.

أي: ولا تتبعون خطى الشيطان وطرقه ومسالكه ووساوسه وعمله وتزيينه فيما أضل به أتباعه من تحريم ما أحل الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، وفيما يأمر به من الكفر والفسوق والظلم والعصيان كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن

لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: «كل مال نحلته عبدي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...**»(١).

و«ال» في ﴿الشَّيْطَانَ﴾ للعهد، فيكون المراد إبليس لعنه الله، وهو أصل الشياطين ورأسهم، وقد تكون «ال» للجنس.

و﴿الشَّيْطَانَ﴾ مشتق من شطن بمعنى بعد عن رحمة الله وعن كل الخير؛ ولهذا سمي إبليس؛ لأنه أبلس من رحمة الله -تعالى، وجنته.

وله أتباع من شياطين الإنس والجن، بل ومن الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(٢).

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، أي: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ لأنه ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، و«إنَّ» للتوكيد، فيها توكيد شدة عداوة الشيطان للناس، و«العدو»: ضد «الولي»، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

والعدو من يحب لك الشر ويكره لك الخير، ومن يسر ويفرح بمساءتك وحزنك، ويغتم ويحزن بفرحك وسرورك.

﴿مُبِينٌ﴾: بيِّن العداوة ظاهرها، من «أبان» اللازم بمعنى «بان» أي: ظهر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥).

(٢) سبق تخريجه.

يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

وعداوته لبني آدم متأصلة وقديمة فهو عدو أبويهما الذي أخرجهما من الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ولهذا فهو ساعٍ ما استطاع لإغواء بني آدم وإهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٨- ١٢٠].

وهو في المقابل ولي الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

استئناف بيان وتعليل لما قبله؛ أي: بيان وتفصيل لخطوات الشيطان، وبيان سبب اعتباره عدواً لنا.

قوله: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء، أي: ما يأمركم الشيطان أيها الناس إلا بالسوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]

و«السوء»: الشر، ويدخل في ذلك جميع المعاصي، وسمي ذلك بالسوء؛ لأنه يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره، إما مباشرة إذا كان متعدياً، وإما مساءة غير مباشرة؛ لأن للذنوب والمعاصي آثارها السيئة العامة على البلاد والعباد.

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

و«الفحشاء» معطوف على السوء من عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من السوء، وهي ما تناهى قبحه كالزنا والقذف والقتل وشرب الخمر والبخل ونحو ذلك، مما يستفحش في الشرع وعرف المسلمين، ولدى ذوي العقول السليمة والفطر المستقيمة.

ويحتمل أن يكون المراد بالسوء كل ما يسوء من المعاصي والذنوب الصغيرة «السيئات».

و«الفحشاء» المعاصي الكبيرة وما يستفحش في الشرع، وعرف المسلمين كالزنا ونحوه، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وقدم السوء وهو المعاصي الصغيرة لكثرة وقوع الإنسان فيها؛ ولأنها إذا اجتمعت وتراكمت تعظم وتكبر، وقد تؤدي إلى ارتكاب الكبائر؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار**»(١).

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، معطوف على قوله: ﴿بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأنه داخل في السوء والفحشاء.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: والقول على الله ما لا تعلمون، و«ما»: موصولة، أو نكرة موصوفة.

والتقدير: ويأمركم بالقول على الله الذي لا تعلمون، أو شيئاً لا تعلمونه، بأن تنسبوا لله تعالى ما لا تعلمون أنه من عنده، وأن الله قاله أو أمر به، وذلك يعم القول على الله بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه الكونية والشرعية من التحليل والتحريم والإيجاب وعدمه وغير ذلك.

وهو من أعظم المحرمات بل جعله الله في المرتبة العليا منها فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٤٥)- الأثر (٩٢٠٧) تحقيق شاكر.

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

قال السعدي(١): «ومن أعظم القول على الله بلا علم أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معانٍ اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها».

ومما ينبغي أن يعلم أن الشيطان قد يأمر بما ظاهره الخير أحياناً؛ لتفويت خير أعظم من ذلك، أو للوصول إلى شر أعظم من ذلك.

قال ابن القيم(٢): «إن الشيطان قد يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل».

وقد قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصداً ... وصولاً إلى باب من الشر أعظم(٣)

فكثير مما أحدث في الدين من الابتداع مما لم ينزل الله به من سلطان هو من قبيل تزيين الشيطان، فيجب الحذر من هذا، فإن الخير كل الخير في الاتباع، والشر كل الشر في الابتداع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

أمر الله ﷻ الناس في الآيتين السابقتين بالأكل مما في الأرض حلالاً طيباً ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وبيَّن لهم عداوته الظاهرة، وأنه لا يأمر إلا بالسوء

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٥/ ٤٥٨)، «التفسير القيّم» ص(٦١٣).

(٣) هذا البيت من قصيدة قلتها في إحدى المناسبات.

والفاحشة والقول على الله بلا علم، ثم ذم ﷻ المشركين والكفار بمتابعتهم له بتقليد آبائهم من غير حجة.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: وإذا قيل لهؤلاء المشركين والكفار المتبعين لخطوات الشيطان ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: اتبعوا جميع الذي أنزل الله على رسوله ﷺ اعتقاداً وقولاً وعملاً.

والذي أنزل الله يشمل الكتاب والسنة؛ لأن كلا منهما وحي من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ «بل» للإضراب الإبطالي فأضربوا عن قول الرسول ﷺ لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وأعرضوا عنه وأبطلوه بلا حجة إلا أنه مخالف لما عليه آباؤهم، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ تعصباً لآبائهم، وتقليداً لهم.

و«ما» في قوله: ﴿مَآ أَلْفَيْنَا﴾: موصولة، و﴿أَلْفَيْنَا﴾: وجدنا، أي: بل نتبع الذي وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من الشرك وعبادة الأصنام والأنداد، والاعتقاد والقول والعمل حقاً كان أو باطلاً، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١﴾ [لقمان: ٢١]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

وهذه شبهة واهية لرد الحق، ولهذا قال تعالى ردًّا عليهم:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [الآية: ١٠٤].

قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام والإنكار عليهم والتعجب من فعلهم، والواو للحال، أي: أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم والحال أن آباءهم ﴿لَا

﴿يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يفهمون شيئاً.

و﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم أي شيء، أي: لا يعقلون ولا يفهمون ولا يعلمون أي شيء من أمر الدين، من معرفة الله ﷻ، ومعرفة ما ينفعهم في دينهم وآخرتهم.

فالعقل الذي لا شيء عندهم منه عقل الرشد الذي هو مناط المدح، أما عقل الإدراك الذي يعرفون به النافع والضار في أمر دنياهم فهو موجود لديهم، ولولاه سقط عنهم التكليف.

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ولا يهتدون إلى شيء من العمل بما ينفعهم في أمر دينهم.

فانتفى عنهم الرشد في العلم بنفي العقل عنهم، وانتفى عنهم الرشد في العمل بنفي الهداية عنهم، فصار المعنى: أيتبعون آباؤهم ولو كان آباؤهم أجهل الخلق وأشدهم ضلالاً، لا يعقلون ولا يعلمون شيئاً من الدين، ولا يهتدون للعمل به لا بأنفسهم، ولا باتباع من يهديهم إلى الحق والصواب فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة رد المشركين قول من يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله واستبدال ذلك بالتقليد الأعمى لآبائهم، ثم ذكر مثلهم في هذا فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: شبههم وصفتهم حين يُنادون ويُدعون إلى الإيمان، فيعرضون، ويتبعون ما عليه آباؤهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ أي: كشبه وصفة الذي ﴿يَنْعِقُ﴾ والنعيق: دعاء الراعي الغنم، أي: كمثل الراعي الذي يدعو وينادي.

﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، أي: بالغنم التي لا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفقه من ذلك إلا مجرد سماع الصوت أو مجرد الدعاء والنداء لها من غير فهم لما يراد بها، فقد ينادي بها ويدعوها لنحرها وذبحها.

والفرق بين الدعاء والنداء؛ أن الدعاء يكون لشيء معين باسمه كأن يسمي بعض

البهائم ويدعوها بأسمائها، فتقبل، والنداء يكون للجميع.

والمعنى: ومثل الذين كفروا في عدم فهمهم من داعي الحق والإيمان إلا مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة ولا ينتفعون بذلك كحال البهائم مع الناعق لها وبئس المثل، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن كثير(١): «﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي: دعاها على ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط».

وقيل المعنى: ومثل هؤلاء الكفار في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من البهائم إلا أصواتاً مجردة، كما قال الخليل عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

﴿صُمٌّ﴾: خبر المبتدأ محذوف، أي: هم صم، و﴿صُمٌّ﴾ جمع أصم، وهو الذي لا يسمع، أي: صم عن سماع الحق، فلا يسمعونه سماع فهم وانتفاع، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: لا يسمعون بها سماع فهم وانتفاع.

﴿بُكْمٌ﴾: خبر ثان، وهو جمع «أبكم» وهو الذي لا ينطق، أي: بكم وخرس عن النطق بالحق والإقرار به.

﴿عُمْيٌ﴾: خبر ثالث، وهو جمع، «أعمى» وهو الذي لا يبصر، أي: عُمي عن رؤية الحق والهدى فلا يبصرونه ولا يعقلونه.

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بعقولهم، فكأنهم لا عقول لهم؛ لأن العقل عقلان؛ عقل هو مناط التكليف، وهذا موجود عندهم، ولولاه ما كلفوا، وعقل هو مناط المدح، وهو الذي ينتفع به صاحبه، فيحمله على فعل الخير ويحجزه عن الشر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥] أي: لذي عقل يحجر صاحبه عما لا ينبغي.

وهذا هو العقل الذي نفاه الله عنهم، كما نفى عنهم قبل ذلك السمع والبصر، وهما

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٩٣).

وسيلتا وصول العلم إلى العقل، ونفى عنهم النطق، وهو وسيلة الإقرار بالحق وإعلانه.

فشبههم في تقليدهم الأعمى لآبائهم بالبهائم التي تتبع صوت دعاء ونداء الراعي، بلا فهم ولا عقل، فتسير وراءه، حتى لو كان يقودها لحتفها، كما قال الشاعر:

والنـــاس في غفلـــة عـــما يـــراد بهـــم ... كـــأنهم غـــنم في بيـــت جـــزار[1]

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وفي هذا رد على من ادعى من أهل الكتاب خصوص رسالته ﷺ بالعرب.

٣- أن الأصل فيما في الأرض، وفي الأشياء الحل والطيب حتى يرد دليل التحريم، أو الاستخباث؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾.

قال السعدي[2]: «ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة؛ أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال».

٤- فضل الله ﷻ على الناس ومنته عليهم حيث أباح لهم جميع ما في الأرض حلالاً طيباً؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩].

٥- إباحة الأكل من الحلال الطيب والحث عليه، بل ذلك واجب بقدر ما يقيم البنية يأثم تاركه، والتحذير من أكل الحرام والخبيث.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: «**يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأيما عبد**

---

(١) انظر: «الأمثال الواردة» ص (٤٣٦).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١٩٩).

نبت لحمه من سحت فالنار أولى به»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأني يستجاب لذلك**»(٢).

٦- أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾، وهذا يشمل جميع الناس بما فيهم الكفار، وفيه- مع الدلالة على إباحة ذلك وحله وطيبه- التوبيخ للمشركين في تحريم ذلك وترك أكله.

وهذا هو القول الصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ ولهذا يعاقبون على تركها كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٣٩- ٤٧].

٧-النهي عن اتباع خطوات الشيطان وطرقه وعمله ووساوسه وتزيينه، وتحريم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

٨- تأكيد عداوة الشيطان البينة لبني آدم، والتحذير الشديد منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾.

٩- تعليل أحكام الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾، فنهانا ﷻ عن اتباع خطوات الشيطان لأنه لنا عدو بيِّن العداوة.

١٠-أن الشيطان لا يأمر بالخير أبداً، وإنما يأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: لا يأمركم إلا بالسوء والفحشاء، والقول على الله ما لا تعلمون.

---

(١) أخرجه ابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٩).

ولو أمر الشيطان بما ظاهره الخير فذلك لتفويت خير أعظم من ذلك، أو الوصول إلى شر أعظم من ذلك.

١١- إن مما ابتلي به بنو آدم أن جعل الله للشيطان أمراً وسلطاناً على الذين يتولونه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ الآية، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

١٢- عظم القول على الله بلا علم وخطورته؛ لأن الله عطفه على «السوء والفحشاء» وهو داخل فيهما من عطف الخاص على العام، وأعظم من ذلك أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه فيجعل الحق باطلاً والباطل حقًّا عن علم منه.

١٣- تحريم الفتوى بلا علم؛ لأنها من القول على الله بلا علم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

١٤- تدرج الشيطان ببني آدم من الأمر بالسوء إلى الأمر بالفحشاء إلى القول على الله بلا علم، فيبدأ في إيقاعهم في الصغائر، ثم الكبائر، ثم الكفر بالقول على الله بلا علم، ولا يقتنع منهم بما دون الكفر.

١٥- ذم المشركين على تعصبهم لآبائهم وتقليدهم لهم على ما هم عليه من الضلال وعدم الرشد وبيان جهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

١٦- ذم التعصب الأعمى بلا حجة ولا برهان والتحذير منه؛ لأنه يمنع صاحبه من قبول الحق واتباعه، وكم هلك أقوام وضلوا بسبب ذلك.

١٧- وجوب اتباع ما أنزل الله؛ لأنه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

١٨- يجب قبول قول الآمر بالحق أيًّا كان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، وهذا يعم أي قائل.

١٩- إثبات صفة العلو لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٢٠-إثبات أن القرآن منزل من عند الله غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وفي هذا رد على المعتزلة في زعمهم أن القرآن مخلوق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

٢١- أن العقل كل العقل، والهدى كل الهدى في اتباع ما أنزل الله تعالى، وأن من لم يهتد بهدى الله وما أنزله من الحق فهو ضال وليس بعاقل، وليس على هدى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢٢- أن مثل المتبعين لآبائهم فيما هم عليه من الكفر والمقلدين لهم تقليداً أعمى مثل البهائم التي تتبع صوت دعاء ونداء الراعي، بلا وعي ولا عقل منها؛ حتى ولو كان يقودها، لحتفها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وفي هذا من التحقير والتجهيل لهم والتحذير من مسلكهم ما لا يخفى.

٢٣- تعطل وسائل وصول الحق إلى قلوب هؤلاء الكفار فهم صم عن سماع الحق، بكم عن النطق به، عمي عن رؤيته وإبصاره، فهم لا يعقلون؛ لقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٢٤- بلوغ القرآن الغاية في البلاغة في تمثيله الذين كفروا في اتباعهم آبائهم بلا برهان بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

أمر الله ﷻ في الآيات السابقة الناس عموماً بالأكل مما في الأرض حلالاً طيباً، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، ثم امتن على المؤمنين خاصة بأمرهم بالأكل من طيبات ما رزقهم الله مبيناً لهم ما حرم عليهم؛ لأنهم هم الذين يمتثلون أمر الله ويجتنبون نهيه شكراً له، ولهذا قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ الأمر للامتنان والإباحة، وقد يستحب في بعض الأحوال، وقد يجب حفاظاً على بقاء النفس.

«من»: لبيان الجنس، وقيل: للتبعيض.

والمراد بالطيبات: الحلال في ذاته وعينه، بحيث لا يكون نجساً ولا مستخبثاً ضاراً بالبدن أو العقل، والحلال في كسبه بحيث لا يكون مسروقاً أو مغصوباً أو من كسب حرام، كالربا والقمار والغش، ونحو ذلك.

والطيبات أيضاً ما يستطاب ويستلذ وينفع، كما قال تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ «ما»: موصولة، أي: من طيبات الذي رزقناكم، أي الذي أعطيناكم وأمددناكم.

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ معطوف على ﴿كُلُواْ﴾، وفيه التفات في التكلم إلى الغيبة، فلم يقل: «واشكرونا».

كما أن فيه إظهاراً مقام الإضمار، للإشعار بعظمة الله ﷻ، وأنه الإله المستحق للشكر وحده دون سواه.

والأمر هنا للوجوب؛ لأن شكر الله ﷻ واجب، بل هو أعظم الواجبات وأهمها وأوجبها.

والشكر الاعتراف بنعمة المنعم، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على رضاه، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا(١)

وشكر الله تعالى يكون بالقلب، بالاعتراف بنعم الله باطناً، ويكون باللسان بالاعتراف بها ظاهراً والثناء عليه بها ونسبتها إليه، والتحدث بها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١١].

ويكون بالجوارح بالاستعانة بها على طاعة الله تعالى والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ: ١٣].

وقام ﷺ حتى تورمت قدماه، وقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(٢).

وقال ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله ﷻ أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾»(٣).

وأمر ﷻ بالشكر بعد الأمر بالأكل من الطيبات؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة،

---

(١) البيت لبشر. انظر: «المفضليات» ص (٣٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٣٠)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٩)، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار (١٦٤٤)، والترمذي في الصلاة (٤١٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وأخرجه البخاري أيضاً من حديث عائشة ﷺ، في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ويجلب النعم المفقودة، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم(١)

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

قدم المفعول «إياه» للحصر والاختصاص، أي: إن كنتم إياه تعبدون، وتعتقدون حقاً تفرده بالعبادة وحده، فاشكروا له وحده؛ لأن عبادتكم له ﷻ تستلزم شكره، بل هي الشكر نفسه.

قال ابن القيم(٢): «الذي حسن مجيء «إن» ههنا الاحتجاج والإلزام، فإن المعنى: إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هي الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جملتها، فكلوا من رزقه واشكروه على نعمه».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة إباحة الطيبات، ثم ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ الآية.

كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ١١٥].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [الآية: ٣].

---

(١) انظر: «الدر الفريد وبيت القصيد» (٢/ ٣٩٥).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٨٠).

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١٤٥].

قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ قرأ أبو جعفر «حُرِّم» بالبناء للمفعول، وقرأ الباقون ﴿حَرَّمَ﴾ بالبناء للفاعل، أي: إنما حرم الله عليكم الميتة، و«إنما»: أداة حصر.

والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، أي: ما حرم الله عليكم إلا هذه الأشياء المذكورة.

وذكرها بطريق الحصر وعدَّها ليدل على قلة المحرمات، وليدلل بمفهوم ذلك على كثرة الطيبات.

كما أن في ذلك تعريضاً بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيراً من الطيبات، وأحلوا الميتة والدم، وما ذبح لغير الله.

ومعنى: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾: أي منع، وحظر عليكم، والتحريم: الحظر والمنع.

﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ قرأ أبوجعفر «الميّتة» بتشديد الياء، وقرأ الباقون بتخفيفها، وهما لغتان كما قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميْت ميِّت الأحياء(١)

و«الميتة» مفعول «حَرَّم»، والمعنى: إنما حرم عليكم أكل الميتة، يدل على هذا قوله في الآية قبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الآية: ١١٢]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ الآية، فهذا أشبه بالاستثناء من قوله: ﴿كُلُواْ﴾، أي: إلا هذه الأشياء فلا تأكلوها، وفي الحديث: «**إنما حرم من الميتة أكلها**»(٢).

و«ال» في «الميتة» تفيد العموم، فكل ميتة حرام، يحرم أكل أي جزء منها.

والميتة في اللغة: ما مات حتف أنفه.

وفي الشرع: ما مات بغير ذكاة شرعية ولا اصطياد، سواء مات حتف أنفه، أو ذبح

---

(١) البيت لعدي ابن الرعلاء الغساني، وهو في «الأصمعيات» ص (١٥٢)، «معجم الشعراء» ص(٨٦).

(٢) سيأتي تخريجه.

على غير اسم الله، أو ذبح ولم يذكر اسم الله عليه، أو ذكاه من لا تحل ذبيحته كالمجوسي والمشرك والمرتد، ونحو ذلك.

﴿وَٱلدَّمَ﴾: معطوف هو وما بعده على الميتة، أي: وحرم عليكم الدم، أي: أكل الدم، والمراد به الدم المسفوح، وهو الذي يُسفح عند التذكية دون ما يتبقى في اللحم والعروق، ودون دم الكبد والطحال والقلب، فليس محرم.

وإنما نص ﷻ على تحريم الدم؛ لأن بعض العرب كانوا يجعلون الدم في الأمعاء، ثم يشوونها بالنار ويأكلونها، ويسمون ذلك الفصد.

وحكمة تحريم أكل الدم أو شربه أنه يورث ضراوة في الإنسان فتغلظ طباعه فيصير كالحيوان المفترس.

قال ابن تيمية(١): «وحرم الدم المسفوح؛ لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية وزيادته توجب طغيان هذه القوى، وهو مجرى الشيطان من البدن، كما قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٢)».

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾، أي: وحرم عليكم أكل لحم الخنزير، سواء ذكي أو مات حتف أنفه، وهذا يشمل لحمه وشحمه وجميع أجزائه، إما تغليباً أو إن اللحم يشمل ذلك كله.

وحكمة تحريمه- والله أعلم- تناوله القاذورات بإفراط وقذارته، وما فيه من الأوصاف الذميمة التي تضر بالنفس والبدن، قال الأطباء: إنه يورث الدودة الوحيدة التي تؤدي إلى أعراض وأمراض كثيرة.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ما قبله، و«ما»: موصولة، أي: وحرم عليكم الذي ﴿أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو ما ذكر عليه عند تذكيته اسم غير الله، من الأنصاب والأصنام والأوثان، أو قصد به التقرب لغير الله، حتى ولو ذكر اسم الله عليه.

و﴿أُهِلَّ﴾: مبني للمفعول، أي: وما أَهل عليه المهلُ لغير الله، وضمن «أُهل» معنى: «تُقرب»، فتعدى إلى المتعلق بالباء وباللام مثل: «تُقرب».

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧٩- ١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٨)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبو داود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩)، من حديث علي بن الحسين رضي الله عنه.

وفائدة هذا التضمين تحريم ما تقرب به لغير الله سواء ذكر اسم المتقرب إليه أم لا.

والإهلال في الأصل: رفع الصوت، قيل: مأخوذ من رفع الصوت عند رؤية الهلال، وقيل غير ذلك، ومنه الحديث: «**إذا استهل المولود ورث**»(١).

ومنه الإهلال بالتلبية، أي: رفع الصوت بها.

قيل: كان العرب في الجاهلية إذا ذبحوا أو نحروا للصنم صاحوا باسمه عند ذلك، فقالوا باسم اللات أو باسم العزى، ونحو ذلك.

قال السعدي(٢): «وهذا المذكور غير خاص للمحرمات، وجيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَٰتِ﴾، فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ كما تقدم».

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ قرأ عاصم وحمزة بكسر النون لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقون بضمها، وقرأ أبو جعفر «اضطِرَّ» بكسر الطاء، وقرأ الباقون بضمها.

و«من»: شرطية، و«اضطر» فعل الشرط، أي: فمن ألجأته الضرورة إلى الأكل من هذه المحرمات، كأن خاف على نفسه التلف بسبب جوع، أو أكره.

﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ أي: حال كونه غير باغ ولا عاد، أي: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾، أي غير طالب لأكل المحرم، بلا ضرورة، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ أي: ولا متجاوز حد الضرورة في الأكل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧، المعارج: ٣١].

﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ جواب الشرط «مَنْ»، قرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، و«الإثم»: الذنب، أي: فلا ذنب عليه ولا عقوبة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للحكم قبله، فنفى ﷻ الإثم عمن ألجأته الضرورة إلى الأكل من هذه المحرمات من غير بغي ولا عدوان؛ لأنه ﷻ غفور رحيم.

و﴿غَفُورٞ﴾ على وزن «فعول» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة مغفرته

---

(١) أخرجه أبو داود في الفرائض (٢٩٢٠)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٢٠٥).

ﷻ وكثرتها، فهو ﷻ يغفر لكثير من عباده، ويغفر الذنوب الكثيرة، بل يغفر الذنوب جميعاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

و«المغفرة»: ستر الذنب في الدنيا عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه في الآخرة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدني الله العبد المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه وستره، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي رب، فيقول الله تعالى: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

ومنه سمي «المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس؛ لأنه يستر الرأس ويقيه السهام.

﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

والمعنى: إن الله غفور لمن أكل من هذه المحرمات حال الضرورة ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث رخص له الأكل في هذه الحال إبقاءً على نفسه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ «إنَّ»: حرف توكيد ونصب، «يكتمون»: يخفون، و«ما»: موصولة.

و«ال» في «الكتاب» يحتمل أن تكون للجنس، فيشمل جميع ما أنزله الله من الكتب؛ التوراة والإنجيل وغيرهما، ويشمل ذلك اليهود والنصارى وغيرهم، فيكون المعنى: إن الذين يخفون الذي أنزل الله على رسله من الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويحتمل أن تكون «ال» للعهد، فيكون المراد بـ«الكتاب»: التوراة؛ لأنه أعظم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الكتب قبل نزول القرآن، فيكون المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾، أهل الكتاب، وبخاصة اليهود، والأول أعم، لكن أهل الكتاب لا شك هم أول من يدخل في هذا لكتمانهم صفة محمد ﷺ وما في كتبهم من الشهادة بصدق رسالته، وما جاء به من الحق.

﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾: معطوف على ﴿يَكۡتُمُونَ﴾، أي: ويأخذون ويعتاضون ﴿بِهِۦ﴾، أي: بما أنزل الله من الكتاب وبكتمانهم له.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾، أي: عوضاً زهيداً حقيراً من المال والرشوة والرياسة والجاه، ونحو ذلك، فكل ذلك قليل وحقير زهيد بالنسبة لما في الآخرة، ولو كان ذلك الدنيا كلها بحذافيرها.

وفي قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ إشعار بدناءة نفوسهم حيث رضيت بالقليل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ الإشارة للذين ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾، وأشار إليهم بإشارة البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ إشارة لانحطاط منزلتهم وتحقيراً لهم، وتشهيراً بهم.

و«ما»: نافية، وتخصيص الأكل من بين سائر الانتفاعات؛ لأنه المقصود الأهم من جمع المال.

وقوله: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾ للتأكيد والمبالغة؛ لأن الأكل لا يكون إلا في البطون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم﴾ [النور: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وكقول القائل: «سمعت بأذني، وأبصرت بعيني».

وفي قوله: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾ تنبيه على شرهم وتقبيح لصنعهم، حيث كتموا ما أنزل الله واعتاضوا عنه بالثمن القليل من أجل بطونهم.

﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ «إلا»: أداة حصر.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ النفي هنا ليس نفياً لمطلق الكلام، بل نفي للكلام المطلق، أي: لا يكلمهم تكليم تكريم، ورضا ورحمة؛ لغضبه وسخطه عليهم، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي بالنار.

ولا ينافي هذا تكليمه لهم تكليم مساءلة. وتوبيخ وتقريع وغضب، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، أي: ولا يطهرهم، ولا يثني عليهم، وهذا فيه كناية عن ذمهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: عقاب ونكال.

﴿أَلِيمٌ﴾ على وزن فعيل، بمعنى «(مفْعِل)»، أي: مؤلم موجع، حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب.

فقابل اشتراءهم بما أنزل الله الثمن القليل وطمَعهم بالوعيد والإخبار أنهم ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

وقابل كتمانهم الحق وعدم نطقهم وتكلمهم به بالوعيد والإخبار بنفي تكليمه لهم يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

وقابل ذلك كله بعدم تزكيتهم، وبالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً من الدنيا، وذكر ما أعد لهم من النار والعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك بيان أنهم بهذا العمل اختاروا الضلالة بدل الهدى، والعذاب بدل المغفرة، فما أصبرهم على النار.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الإشارة للذين ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وأشار إليهم بإشارة البعيد- كما سبق- تحقيراً لهم.

﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، أي الذين اختاروا الضلالة لأنفسهم ولغيرهم، واعتاضوا بها وأخذوها بدل الهدى في الدنيا، بسبب كتمانهم الحق، للمطامع الدنية والأغراض الدنيوية، فضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾، أي: واختاروا العذاب واعتاضوا به، وأخذوه بدل المغفرة والستر والتجاوز عنهم في الآخرة، بما تعاطوه من أسباب العذاب، فخسروا بسبب ذلك الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال:

﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، الفاء: استئنافية، و«ما»: نكرة تامة، ومعناها التعجب، والتقدير، أي شيء عظيم أصبرهم، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

وقال بعضهم: «ما» استفهامية فيها معنى التعجب، والتقدير: فما الذي أصبرهم على النار؟! قال أبوبكر بن عياش: «هذا استفهام ولو كانت من الصبر قال: (فما أصبرُهم) رفعاً قال: يقال للرجل: ما أصبرك؟ ما الذي فعل بك هذا؟»(١).

والآية إرشاد منه ﷻ للمخاطبين أن يتعجبوا من صبر هؤلاء على النار، وهي تعجب من ارتكابهم ما يوجب لهم النار من كتمان ما أنزل الله، فكأنهم صبروا عليها أويدَّعون الصبر عليها.

قال قتادة: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، يقول: فما أجرأهم على العمل الذي يقربهم إلى النار»، وقال: «والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النار»(٢).

ويحتمل أن يكون العجب من الله ﷻ يعجب من ارتكابهم ما يوجب لهم النار، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

على قراءة حمزة والكسائي وخلف بضم التاء.

وفي حديث أبي رزين: «**عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره**»(٣).

والعجب من الله هو بالنظر إلى حال المتعجب منه في خروجه عن نظائره، وعما ينبغي أن يكون عليه، وليس لخفاء أسباب الشيء المتعجب منه عليه جل وعلا، فهذا مستحيل في حقه سبحانه لأنه ﷻ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٦٨).

(٣) ذكره ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»، وابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٦٧) من حديث أبي رزين، وقال ابن تيمية: «إسناده حسن»، انظر: «العقيدة الواسطية» مع شرح العثيمين (٢/ ٢٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» حديث (٢٨١٠).

وعلى كل فليس في الآية ما يقتضي أنهم يصبرون على النار، وقد ذكر الله ﷻ عن أصحاب النار قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، وقولهم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقولهم: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

توعد الله ﷻ في الآيات السابقة الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً بالنار وحرمانهم من تكليم الله وتزكيته لهم، وبالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك ببيان سبب ذلك وهو كتمانهم الحق الذي أنزله الله ﷻ واختلافهم فيه ومشاقتهم لله تعالى.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ المشار إليه- كما تقدم- هو ما توعد الله به المذكورين من النار والعذاب، وحرمانهم من تكليم الله لهم وتزكيته لهم.

وجيء بالإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ لربط الكلام اللاحق بالكلام السابق.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق الذي يجب اتباعه، وبيانه، وعدم كتمانه، فلما كتموه واشتروا به ثمناً قليلاً استحقوا هذا الوعيد، وهذا مقتضى ما أنزل الله به الكتاب من الحق والعدل.

و(ال) في «الكتاب» للجنس، فيشمل جميع كتب الله ﷻ التوراة والإنجيل والقرآن وغير ذلك.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، أي: متلبساً بالحق، والحق: الأمر الثابت البين، فهو حق، وطريق وصوله حق، وهو مشتمل على الحق، أخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: الذين اختلفوا في الكتاب الذي أنزله الله بالحق فلم يتبعوا ما أنزله الله في كتبه، بل آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعض، والواجب الإيمان بجميع كتب الله تعالى إجمالاً، والإيمان بالقرآن واتباعه تفصيلاً.

﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، الشقاق: الخلاف والمنازعة، مأخوذ من الشق، وهو الجانب؛ لأن

كل واحد من المتنازعين يكون في شق وجانب غير شق وجانب صاحبه، والمعنى: وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي جانب بعيد عن الحق والصواب وعن الوفاق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والانتباه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- في نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٣- الأمر بالأكل من طيبات ما رزقنا الله، وهو للامتنان والإباحة من حيث العموم، وللوجوب فيما إذا خيف الضرر أو الهلاك بتركه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

٤- أن كل ما يتمتع به الخلق من رزق وعطاء هو من الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

٥- أن من امتنع من الأكل من الطيبات فقد عصى أمر الله، ومن حرمها فقد كفر؛ لأن الله تعالى أمر بالأكل من الطيبات.

٦- عدم جواز الأكل من الخبائث لمفهوم قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ لأنها محرمة، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [البقرة: ٥٧].

٧- وجوب الشكر لله تعالى بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾.

٨- أن القيام بشكر الله ﷻ شرط في تحقيق العبودية له- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٩- أن الشكر سبب لدوام النعم وزيادتها؛ لأن الله تعالى أعقب الأمر بالأكل من طيبات رزقه ونعمه بالأمر بشكره، وفي الحديث: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل**

الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»(١).

١٠- وجوب إخلاص العبادة لله ﷻ وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وتقديم المعمول يفيد الحصر والاختصاص.

١١- أن التحليل والتحريم إلى الله ﷻ وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾، أي: إنما حرم الله عليكم، وسواء جاء ذلك في الكتاب أو السنة؛ لأن ذلك كله وحي من عند الله ﷻ.

١٢- تحريم أكل الميتة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾، ولقوله ﷺ: «**إنما حرم من الميتة أكلها**»(٢).

وتشمل الميتة ما ماتت حتف أنفها، وما لم يذكر اسم الله عليه.

ويستثنى من الميتة ميتة البحر والجراد؛ لقوله ﷺ في البحر: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»(٣).

وعن ابن عمر ﷺ: «**أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال**»(٤).

وفي حديث جابر ﷺ في قصة العنبر الذي قذفه البحر فأكلوا منه نصف شهر(٥).

وعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ: «**غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد**»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في «الذكر والدعاء» (٢٧٣٤)، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٣٦٣)، وأبوداود في الصيد (٢٨٥٨)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٣٥)، من حديث ابن عباس ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة (٨٣)، والنسائي في المياه (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الطهارة (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٢٦٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه الشافعي في «الأم» (٦/ ٢٥٨)، وأحمد (٢/ ٩٧) من حديث ابن عمر ﷺ موقوفاً وله حكم المرفوع.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٦)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٥).

(٦) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٤٩)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٢)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٦)، والترمذي في الأطعمة (١٨٢١).

وأما ما يعيش في البر والبحر فيعطى حكم ميتة البر، تغليباً لجانب الحظر(١).

١٣- تحريم أكل الدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّمَ﴾، والمراد بذلك الدم المسفوح، لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الآية: ١٤٥].

١٤- تحريم أكل لحم الخنزير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾، وهذا يشمل لحمه وشحمه وجميع أجزائه.

١٥- تحريم ما أهل به لغير الله، أي: ما ذكر اسم غير الله عليه عند تذكيته، حتى ولو ذكر معه اسم الله، كأن يقول المذكي: بسم الله واللات، أو بسم الله والولي فلان، ونحو ذلك؛ لأن هذا شرك، وقد قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «**من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

١٦- تحريم ما ذبح لغير الله، كالذي يذبح تعظيماً لصنم وتقرباً إليه، حتى ولو ذكر اسم الله عليه عند الذبح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

١٧- حكمة الله ﷻ في تحريم هذه المذكورات لما فيها من الضرر على الأبدان والعقول وخبثها حسياً ومعنوياً.

١٨- عناية الله ﷻ بالمؤمنين ورحمته بهم في منعهم عما يضرهم وحظره عليهم.

١٩- إباحة الأكل من الميتة وغيرها من المحرمات عند الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾، وهذا يتضمن شروطاً أربعة.

أولاً: أن يضطر إلى الأكل منها ضرورة محققة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾.

ثانياً: أن تندفع الضرورة وتزول بذلك، فإن كانت لا تندفع بذلك أو ربما أدى تناول المحرم إلى الهلاك كأن يتناول المضطر سماً فهذا لا يجوز.

---

(١) سيأتي ذكر الخلاف في حكم الانتفاع بأجزاء الميتة في غير الأكل عند تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣].

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثالثاً: أن يكون ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالب للأكل من هذه المحرمات بلا ضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾.

رابعاً: أن يكون غير عاد، أي: غير متجاوز في الأكل حد الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَادٍ﴾، وقد اختلف في هذا، فذهب بعض أهل العلم إلى أنه يأكل ما يدفع الضرورة ويسد رمقه، وقيل: له أن يشبع، وظاهر الآية يدل على الأول- لكن إن غلب على ظنه أنه لا يجد غيرها فقال بعضهم: له أن يشبع أو يحمل معه شيئاً منها إن اضطر إليه أكله وإلا تركه.

واختلف في حكم الأكل من ميتة الآدمي عند الاضطرار على قولين، الأظهر منهما جواز ذلك إبقاء على النفس وحفاظاً عليها.

٢٠- أن الضرورات تبيح المحظورات، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده وتيسيره عليهم، ولا يقف الأمر عند إباحة المحرم حال الضرورة، بل يكون أكله واجباً في هذه الحال حفاظاً على النفس، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات ويكون قاتلاً لنفسه.

٢١- أن من أكل من هذه المحرمات من غير ضرورة فهو آثم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

٢٢- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾.

٢٣- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله ﷻ رحمة ذاتية ثابتة لله ﷻ، ورحمة فعلية يوصلها من يشاء من خلقه، رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾.

٢٤- أن من مغفرة الله ﷻ ورحمته بعباده أن وسع عليهم في الأكل من المحرمات عند الاضطرار.

٢٥- الوعيد الشديد للذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً من المال والرياسة والجاه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ الآية.

٢٦- تحريم كتمان العلم ووجوب نشره وبذله لمن يحتاجه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ

ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

٢٧- إثبات نزول الكتب من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: من الكتب، ولقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٨- إثبات علو الله ﷻ بذاته وصفاته على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، والإنزال يكون من الأعلى.

٢٩- حقارة الدنيا بما فيها من المال والرياسة والجاه وغير ذلك بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٣٠- أكل المعذبين النار في بطونهم بسبب كتمانهم ما أنزل الله في كتابه واشترائهم به ثمناً قليلاً من الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

كما قال تعالى في أكلة أموال اليتامى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وفي الحديث: «**الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»(١).

٣١- أن الجزاء من جنس العمل، فالذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً يأكلونه ويتمتعون به في هذه الدنيا يعذبون بأكل النار في بطونهم يوم القيامة.

٣٢- حرمان الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً من تكليم الله ﷻ لهم يوم القيامة كلام رضا، ومن تزكيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾.

٣٣- إثبات الكلام لله ﷻ وأنه ﷻ يكلم المؤمنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، فمفهوم هذا أنه ﷻ يكلم يوم القيامة الذين لا

---

(١) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤)، ومسلم في اللباس في الزينة (٢٠٦٥)، وابن ماجه في الأشربة (٣٤١٣)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

يكتمون ما أنزله تعالى بل يؤمنون به ويظهرونه، ولا يعتاضون به ثمناً قليلاً من الدنيا، ويزكيهم.

٣٤- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٣٥- شدة عذاب الذين يكتمون ما أنزل الله ويعتاضون به ثمناً قليلاً من الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسياً للأبدان ومعنوياً للقلوب.

٣٦- في عطف قوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على قوله: ﴿يَكْتُمُونَ﴾، إشارة إلى أن من أعظم أسباب كتمان العلم طلب المال والرياسة والجاه، وهذا واقع مشاهد.

٣٧- تحقير هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى ويعتاضون به ثمناً قليلاً، وبيان سوء مسلكهم وما اختاروه لأنفسهم، حيث اختاروا الضلالة بدل الهدى، والعذاب بدل المغفرة، وتأكد وتحقق ضلالهم وعذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

٣٨- في تحقير المذكورين وبيان سوء ما اختاروه لأنفسهم تحذير من مسلكهم في كتمانهم ما أنزل الله والاشتراء به ثمناً قليلاً من الدنيا، وأنه سبب ضلالهم وعذابهم.

٣٩- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبوراً على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾، فهم الذين اختاروا هذا المسلك، وفي هذا رد على الجبرية.

٤٠- أن الهدى والمغفرة في بيان ما أنزل الله من العلم والحق وإظهاره والأخذ به وعدم استبداله بغيره؛ لمفهوم قوله تعالى في الذين يكتمون ما أنزل الله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

٤١- إرشاد المخاطبين إلى التعجب من صبر هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً على النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

٤٢- إثبات العجب لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهذا على الاحتمال الثاني في معنى الآية كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢١] على القراءة بضم التاء، وهي قراءة سبعية، وفي حديث أبي رزين أن رسول الله ﷺ قال:

«عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيره»(١).

٤٣- الإشارة إلى شدة وعظم عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

٤٤- أن الله ﷻ إنما عذب هؤلاء بسبب كتمانهم الكتاب الذي نزله تعالى بالحق؛ لقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

٤٥- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بسبب أن الله ﷻ نزل الكتاب بالحق، وفي هذا رد على الجبرية الذين ينفون الحكمة عن الله ﷻ ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة.

٤٦- تعظيم الله ﷻ لكتبه وثناؤه عليها؛ لأنها جاءت بالحق ومن طريق الحق ومشتملة على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

٤٧- شدة مشاقة المختلفين بالكتاب لله ﷻ، وشدة وبعد ما بينهم من الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

٤٨- أن الاختلاف في كتاب الله وعدم الاهتداء بهديه سبب للشقاق البعيد.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: «فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ﷻ، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع لهم، فهذا هو البر والتقوى، والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، وكما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وكقوله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[2].

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

قرأ حمزة وحفص عن عاصم بنصب ﴿ٱلْبِرَّ﴾ على أنه خبر «ليس» مقدم، والمصدر المؤوّل ﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾ في محل رفع اسمها مؤخر، أي: ليس البرَّ توليتُكم، كما في قول الشاعر:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواءً عالمٌ وجهولُ[3]

وقرأ الباقون برفع «البرُّ» على أنه اسم «ليس»، و﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾: خبرها، أي: ليس البرُّ توليتكم.

و﴿ٱلْبِرَّ﴾ كلمة جامعة لكل خصال الخير، الظاهرة والباطنة، وهو الذي تسكن

---

(١) في تفسيره (١/ ٢٩٦- ٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت للسموأل، انظر: «ديوانه» ص (٩٢).

إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، كما قال ﷺ: «**البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب**»(١)، وهو حسن الخلق، كما قال ﷺ: «**البر حسن الخلق**»(٢).

وهو ضد الإثم، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، وهو ضد الفجور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

أي: ليس البر وكثرة الخير ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: أن توجهوا وجوهكم ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، أي: جهة المشرق والمغرب، أي: أن توجهوا في صلاتكم إلى جهة المشرق أو المغرب، والخطاب للمؤمنين ولغيرهم من أهل الكتاب ونحوهم.

واقتصر على ذكر المشرق والمغرب؛ لأنهما أشهر الجهات، أو للإشارة إلى قبلة اليهود وقبلة النصارى، ولإبطال تهويل الفريقين على المسلمين حين استقبلوا الكعبة، ففيه تعريض بأهل الكتاب في لمزهم المسلمين وتلقين المسلمين الحجة عليهم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «البرُّ» بالرفع وتخفيف «لكِن»، وقرأ الباقون: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾، أي: ولكن البر حقاً، أو حقيقة البر.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: خبر لمبتدأ ﴿ٱلْبِرَّ﴾، ولكن على تقدير مضاف، أي: ولكن البر بر من آمن بالله.

والإيمان في اللغة: التصديق، وإذا عُدي بالباء تضمن مع التصديق الطُمأنينة والثبات والاستقرار.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالله هو أصل أركان الإيمان الستة وأولها وأعظمها، كما قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(٣).

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ هذا وما بعده مجرور عطفاً على لفظ الجلالة (الله) أي: وآمن باليوم

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٦٩٤)، والدارمي في الأضاحي (٢٥٣٣)، من حديث أبي ثعلبة الخُشني- رضي الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلاة (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢) من حديث النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه.

(٣) سبق تخريجه.

الآخر، وهو يوم القيامة وما فيه من البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، وما فيه من المواقف والأهوال والجنة والنار، كما جاء في الكتاب والسنة، وهو أحد أركان الإيمان.

وسمي يوم القيامة بـ«اليوم الآخر»؛ لأنه ليس بعده يوم، فأخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

وكثيراً ما يُقرن بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر في القرآن والسنة؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان، لأنه هو الذي يحمل على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

وقد رُويَ أن عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- قال: «**لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى**».

أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض، واقتحموا الموبقات.

ويدخل في اليوم الآخر كل ما يكون بعد الموت؛ لأن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: وآمن وصدق بـ«الملائكة»، والملائكة: جمع «مَلك» وهم عالم غيبي خلقهم الله ﷻ من نور، كما قال ﷺ: «**خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما ذكر لكم**»(١).

والإيمان بالملائكة على وجه الإجمال واجب، بل ركن من أركان الإيمان، كما يجب الإيمان بما ذكر في الكتاب والسنة من أسمائهم وأوصافهم وأعمالهم، وغير ذلك على وجه التفصيل(٢).

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ «ال» في «الكتاب» للجنس، فـ«الكتاب» اسم جنس يشمل جميع كتب الله ﷻ، أي: وآمن وصدق بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء على وجه الإجمال والتفصيل، من أولها إلى خاتمها وأشرفها القرآن الكريم المهيمن عليها كلها.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، النبيين جمع «نبي»، ويدخل فيهم الرسول؛ لأن كل رسول نبي، ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى في آخر السورة: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الآية: ٢٨٥]، والكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية: ٩٧].

عكس، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

أي: وآمن بجميع النبيين والرسل من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، كما جاء ذكرهم في الكتاب والسنة على وجه الإجمال والتفصيل.

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾.

و«آتى» بمعنى «أعطى» تنصب مفعولين، الأول هنا: «المال»، والثاني: «ذوي القربى»، ويحتمل كون المفعول الثاني «المال»، والمفعول الأول «ذوي القربى».

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي: وأعطى المال حال كونه محباً له، راغباً فيه؛ لحاجته إليه، أو تعلق نفسه به، لجودته أو نفاسته، أو حسنه وجماله، ونحو ذلك، وهذا أفضل الإنفاق، وأدل على الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ **أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر**»(٢).

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أصحاب القرابة، وقدمهم؛ لأن حقهم آكد، فهم أولى من غيرهم بالصدقة والهدية إحساناً إليهم، وتأليفاً بينهم، قال ﷺ: «**إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**»(٣).

وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنها وامرأة أخرى سألتا رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة – أي الصدقة أفضل (١٤١٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٢)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٥)، والنسائي في الزكاة (٢٥٤٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٦٦)، وفي مصنفه – الأثر (١٦٣٢٤)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٧١-٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٨٨)، وقد روي مرفوعاً، والصحيح وقفه.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة- الصدقة على الأقارب (٢٥٨٣)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٤)، من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه.

أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما، وعلى أيتام في حجورهما؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لهما أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة**»(١).

ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قال أبو طلحة رضي الله عنه: يا رسول الله إن الله أنزل هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب مالي إليَّ (بيرحاء) وإني أضعها صدقة لله ورسوله. فقال ﷺ: «**بخٍ بخٍ ذاك مال رابح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**» ففعل ذلك أبو طلحة(٢).

والأولى من القرابة بالإحسان والنفقة والصدقة الأقرب فالأقرب، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك**»(٤).

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول**»(٥).

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، أي: وآتى المال اليتامى. و«اليتامى»: جمع يتيم، ويتيمة؛ مأخوذ من اليتم وهو الانفراد، وهو من مات أبوه قبل بلوغه ذكراً كان أو أنثى، فإذا بلغ زال عنه اليتم؛ لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(٦).

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾ جمع «مسكين» وهو الفقير الذي لا يجد شيئاً أو لا يجد كفايته في قوته

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة – الزكاة على الأقارب (١٤٦٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٣)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلاة (٢٥٤٨)، وابن ماجه في الوصايا (٣٦٥٨).

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٩٥).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٤، والنسائي في الزكاة (٢٥٣١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣).

(٦) أخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٣) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وله شاهد من حديث جابر وأنس رضي الله عنهما.

ومسكنه وملبسه ونحو ذلك، سمي بذلك أخذاً من السكون واللصوق في الأرض وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦].

قال ﷺ: «**ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»(١).

وقال ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر**»(٢).

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ «السبيل»: الطريق، و﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر، وسمي المسافر بابن السبيل لملازمته الطريق، كما يقال لطير الماء: «ابن الماء» لملازمته إياه.

فابن السبيل وهو المسافر المجتاز من بلد إلى بلد المنقطع في سفره، الذي نفذت نفقته، يُعطى ما يحتاجه من المال في سفره، وما يوصله إلى بلده، ولو كان غنياً في بلده.

إن الغريب له حق لغربته ... على المقيمين في الأوطان والسكن
لا تنهرن غريباً حال غربته ... الدهر ينهره بالذل والمحن(٣)

وهؤلاء الأصناف الأربعة من أهم ما ينبغي الإحسان إليهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: جمع سائل، وهو المستجدي الذي يتعرض لسؤال الناس من المال

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (٤٥٣٩)، ومسلم في الزكاة – المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه (١٠٣٩)، وأبو داود في الزكاة (١٦٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧١)، وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٣٩٣)، وانظر في تفصيل الكلام في معنى الفقير والمسكين في حال انفرادهما أو اجتماعهما عند الكلام على قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ [الآية: ٨]، وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، [الآية: ٦٠].

(٢) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٧)، والترمذي في البر والصلاة (١٩٦٩)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيتان من قصيدة تنسب لزين العابدين، وقيل لغيره. وقد ذكر بعضها بلا نسبة في «المنازل والديار» (ص٥٠)، «تاج العروس» (١٤/ ٣١٦).

بلسان المقال، وقد يكون بلسان الحال والتعريض دون التصريح، كأن يظهر ذلك على هيئته وملبسه ونحو ذلك، كما قيل:

حـــال المقـــل نـــاطق عـــما خفـــى مـــن عيبـــه
فـــإن رأيـــت عاريـــاً فـــلا تســـأل عـــن ثوبـــه(١)

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، أي: وفي إعتاق الرقاب من الرق، والإعانة على ذلك وعون المكاتبين لوفاء ما كوتبوا عليه، وفداء الرقاب من الأسر والقتل.

ورتب من يعطون المال على هذا النحو، فبدأ بذي القربى؛ لأنهم أولى بالمعروف، ثم اليتامى لشدة حاجتهم، ثم المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً، ثم ابن السبيل الذي قد يكون له مال غائب، ثم السائلين الذين منهم صادق وكاذب، ثم في الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم، فكل صنف أشد مما بعده.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾، أي: ومن ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فرضها ونفلها إقامة تامة، بشروطها وأركانها، وواجباتها وسننها.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: وأعطى الزكاة المفروضة لمستحقيها(٢).

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ معطوف على «من» الموصولة في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾.

و«إذا»: ظرف للزمن المستقبل مجرد من الشرط، وفي قوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ دلالة على استمرارهم على الوفاء بعدهم، أي: الموفون بعهدهم وقت العهد، أي: في الحال التي يعاهدون فيها، فإذا عاهدوا وفوا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

و«العهد» يشمل العهد فيما بينهم وبين الله ﷻ، والعهد بينهم وبين الخلق من

---

(١) البيتان لبدر الدين الشافعي. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٨٧).

(٢) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

المسلمين وغيرهم.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ «الصابرين»: منصوب على المدح بفعل مقدر، أي: وأخص الصابرين.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معطوف من حيث المعنى على قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، ولكن لما تكررت الصفات خولف بين وجوه الإعراب، وهو أبلغ؛ لأن الكلام يصير على جمل متعددة، بخلاف اتفاق الإعراب فإنه يكون جملة واحدة.

وتغير أسلوب الكلام وسياقه أدعى للانتباه، بخلاف ما إذا كان الكلام على نسق واحد ووتيرة واحدة.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الآية: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الآية: ١٦٢]، فقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوب على الاختصاص، أي: وأخص «المقيمين الصلاة».

ومثل هذا قول الشاعرة:

لا يبعدن قومي الذين همو ... سُم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر(١)

بنصب «النازلين» على الاختصاص.

﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾، أي: في حال البأساء، وهي البؤس وشدة الفقر، فلا يحملهم ذلك على التسخط والجزع، أو البحث عن المال بطريق الحرام من السرقة والغصب ونحو ذلك.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾، أي: والصابرين في حال الضراء، وفي حال المرض والسقم والضر، كما قال أيوب عليه السلام: ﴿رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فلا يحملهم الضر والمرض على الجزع والتسخط من قضاء الله وقدره.

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾، أي: والصابرين حين البأس، أي: وقت القتال لأعداء الله على ما سيصبيهم من القتل والجراح، ومن هذا الصبر على الأذى في سبيل الله مما لا يستطيع

---

(١) البيتان للخرنق بنت بدر. انظر: «ديوانها» ص (١٢).

الإنسان دفعه، كما في الحديث: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»(١).

وترقى في ذكر هذه الأحوال من الشديد إلى الأشد، فالصبر على المرض فوق الصبر على الفقر، والصبر على القتال فوق الصبر على المرض.

وعدي الصبر على البأساء والضراء بـ«في» لكثرة وطول الابتلاء بهذين الأمرين، وأتى بـ﴿وَحِينَ﴾ مع «البأس»؛ لأن البأس وهو القتال حالة لا تكاد تطول غالباً.

وخص بالثناء في الآية الصابرين في هذه الأحوال الثلاث؛ لشدة حاجتهم إلى الصبر فيها؛ لعظم ما فيها من الآلام القلبية والمعنوية، والآلام البدنية والحسية، ولأن الصبر في هذه الأحوال ينتظم أنواع الصبر كلها، الصبر على أقدار الله، وعلى طاعة الله، وعن معصية الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، الإشارة في الموضعين تعود إلى المتصفين بالبر والأعمال والصفات المذكورة في الآية، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك»، وأكد الجملة بكونها اسمية معرفة الطرفين تنبيهاً على عظم شأنهم ورفعة منزلتهم، وعلو مرتبتهم.

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات المذكورة الذين صدقوا في اتصافهم بالبر والإيمان باطناً بالإخلاص بقلوبهم، وظاهراً بالمتابعة بأقوالهم وأفعالهم، وصدقوا بالوفاء بالعهد مع الله ﷻ، ومع الخلق، مصداق هذا قوله ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»(٢).

وهذه شهادة من الله ﷻ- خير الشاهدين- بصدقهم، فأنعم وأكرم بها من شهادة، فهي أعلى وأعظم شهادة؛ لأنها شهادة العلي العظيم- سبحانه وتعالى.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، الإشارة مرة ثانية تأكيداً لمدحهم والثناء عليهم، وأكد وصفهم بالتقوى بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي:

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٣٢) (٥٦٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ١٧٢) (١٥١٥) عن ابن إسحاق.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلاة (٢٦٠٧)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٩)، والترمذي في البر (١٩٧١)، وابن ماجه في المقدمة (٤٦٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وأولئك الذين اتقوا الله تعالى حقاً باجتناب ما ينافي البر.

فجمعوا بين كونهم أهل الصدق، بفعل المأمورات، وأهل التقوى بترك المحظورات المنافية للبر، وبهذا جمعوا بين البر والتقوى، كما قال ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وفي وصفهم بالمتقين دلالة على أن القيام بالبر من التقوى، وأن التقوى من البر، وأن بينهما تداخلاً، وإذا انفرد أحدهما دل على معنى الآخر، وإذا اجتمعا فُسر «البر» بمعنى فعل المأمورات، وفسرت «التقوى» بترك المحظورات.

الفوائد والأحكام:

١- أن البر ليس في تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

٢- أن البر حقاً هو الإيمان بأصول الإيمان، من الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، مع القيام بالشرائع الظاهرة، من إعطاء المال وبذله للمحتاجين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر.

وذلك ينتظم أعمال القلوب والجوارح، والباطن والظاهر، والإحسان في عبادة الله تعالى والإحسان إلى عباد الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية.

٣- أهمية صلاح القلب والأعمال الباطنة؛ لأن الله تعالى قدم ذكر الإيمان بأصول الإيمان، والإيمان بأركانه على الأعمال الظاهرة.

٤- أن الإيمان بالله هو أصل الإيمان وأساسه، وأعظم أركان الإيمان وأولها؛ لأن الله تعالى بدأ به.

٥- عظم وأهمية الإيمان باليوم الآخر، يوم القيامة وما فيه من الأهوال، والمواقف والحساب، والجزاء والجنة والنار لقرنه في الآية، بل في كثير من آيات القرآن الكريم بالإيمان بالله ﷻ؛ لأنه من أعظم ما يحمل على العمل.

٦- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٧- إثبات نزول الكتب السماوية من عند الله ﷻ، ووجوب الإيمان بها؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

٨- إثبات النبوات ووجوب الإيمان بالنبيين على وجه الإجمال مطلقاً، وعلى وجه التفصيل والتحديد بمن ذكر منهم في القرآن الكريم.

٩- الترغيب في الصدقات وإعطاء المال للمحتاجين، من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين، وأن ذلك من أعظم البر؛ لأن الله ﷻ ذكر ذلك بعد أركان الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده.

١٠- فضل بذل المال والتصدق به مع محبته لحاجة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

١١- الإشارة لحب النفوس للمال؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ كما قال في سورة الفجر: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

١٢- أن ذوي القربى أولى بالصدقة من غيرهم؛ لأن الله تعالى بدأ بهم، والأولى منهم الأقرب فالأقرب.

١٣- عناية الشرع الحنيف باليتامى والإنفاق عليهم لفقدهم من يعولهم وينفق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

١٤- مراعاة الإسلام حقوق ذوي الحاجات من المساكين وابن السبيل والسائلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾.

١٥- أن ابن السبيل يعطى من المال والصدقة حتى ولو كان غنياً في بلده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٦- أن السائل يعطى من الصدقة حتى ولو كان غنياً؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾، وهذا مطلق عام في كل سائل، «**وكان ﷺ لا يرد سائلاً**»(١)، «**ولا يسأل على**

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٩٣)، وابن ماجه في اللباس (٣٥٥٥)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

الإسلام شيئاً إلا أعطاه»(١)، وفي الحديث: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»(٢)، وفيه: «**ردوا السائل ولو بظلف محرق**»(٣).

١٧- حرص الإسلام على عتق الرقاب وتحريرها من الرق، وفدائها من القتل والأسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

١٨- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام، وأن من أعظم البر إقام الصلاة كما شرعها الله تعالى بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وإعطاء الزكاة لمستحقيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٩- الثناء على الموفين بالعهد فيما بينهم وبين الله تعالى، وفي عهودهم مع الخلق، وأن ذلك من البر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾.

٢٠- عناية الإسلام بالوفاء بالعهد، وأن ذلك من البر وتأكيد وجوب ذلك بقرنه بأركان الإيمان وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

٢١- الترغيب في الصبر على أقدار الله تعالى وعلى طاعته ﷻ والصبر عن معصية الله تعالى، وامتداح أهله الصابرين في حال البؤس والفقر وحال المرض والضر، وحين القتال لأعداء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾.

٢٢- شدة حاجة من أصابته البأساء والفقر، ومن أصابته الضراء والمرض، والمقاتل في سبيل الله إلى الصبر على ما يلاقيه، كل منهم من الآلام القلبية والمعنوية، من الآلام البدنية والحسية، ولهذا خص الله تعالى بالذكر الصابرين في هذه الأحوال.

٢٣- في ختم أعمال البر التي ذكرت في الآية من الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبذل المال للمحتاجين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد بالثناء على الصابرين وامتداحهم إشارة؛ لعظم مكانة الصبر، فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد؛ لأنه لا يمكن القيام بما ذكر من أعمال البر

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣١٢) من حديث موسى بن أنس عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة - حق السائل - (١٦٦٥)، من حديث حسين بن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٦٥)، وأخرجه بمعناه أبو داود في الزكاة (١٦٦٧)، والترمذي في الزكاة (٦٦٥) من حديث ابن بجيد الأنصاري عن جدته رضي الله عنها.

وغيرها إلا بالصبر.

٢٤- ثناء الله ﷻ على المتصفين بالبر القائمين بأعماله ظاهراً وباطناً، الموفين بالعهد، بوصفه لهم بالصدق والتقوى وتأكيد ذلك، والإشارة إلى علو مرتبتهم ورفعة منزلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

٢٥- أن خصال البر وأعماله هي خصال التقوى بعينها؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر خصال البر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

٢٦- فضل الصدق في الأقوال والأفعال مع الخالق ﷻ، ومع الخلق، وفضل التقوى بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن الله تعالى مدح بهذين الوصفين أهل البر، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ «يعني إذا كان عمداً، الحر بالحر. وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات، حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا، حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، فنزلت فيهم»(١).

ورُويَ نحوه عن قتادة(٢). وروي أنها نزلت في بني قريظة والنضير(٣).

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى نكرة مقصودة، مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به، كقولك: أدعوك. و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة لـ«أي» أو بدل منها.

و«آمنوا» صلة الموصول، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم، وانقادوا بجوارحهم.

والإيمان لغة: التصديق، وشرعاً: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ أي: فرض عليكم القصاص. وبني الفعل «فرض» لما لم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٩٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٩٩).

يسم فاعله؛ لأن الذي كتب القصاص معلوم، وهو الله- عز وجل- الذي فرض الفرائض، وشرع الشرائع كلها.

و«القصاص» قتل القاتل بمن قتله، بمثل ما قتله به، وعلى الصفة التي قتله عليها. مأخوذ من قصّ الأثر، وهو اتباعه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: يقصان أثرهما ويتبعانه، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره.

وسمي جزاء الجاني قصاصاً؛ لأن المجني عليه يتبع أثر الجاني، فيفعل به، كما فعل.

﴿فِي ٱلْقَتْلَىٰ﴾ أي: في شأن القتلى. و«القتلى» جمع قتيل، كجرحى، جمع جريح.

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ هذا وما بعده تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىٰ﴾.

ومعنى قوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ أي: الحر يقتل بدل الحر، فيُقتل الحر إذا قتل حراً، ومفهوم هذا أن الحر لا يقتل بالعبد، والراجح أنه يقتل به، كما سيأتي في الأحكام.

﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ أي: والعبد يقتل بدل العبد. والعبد: هو الرقيق المملوك، ومن باب أولى أن يقتل العبد بالحر.

﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: والأنثى تقتل بدل الأنثى، ومن باب أولى أن تقتل الأنثى بالذكر، ومفهوم الآية أنه لا يقتل الذكر بالأنثى، والصحيح أنه يقتل بها، كما سيأتي بيانه.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الفاء: عاطفة، تفيد التفريع، و«من» شرطية، و«عفي» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما عطف عليها، وقرن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

والعفو: التجاوز، والمراد به هنا التجاوز بإسقاط القصاص عن القاتل، والضمير في قوله «له» يعود إلى القاتل الذي عُفي عنه.

والضمير في قوله «من أخيه» يعود إلى المقتول الذي عفا وارثه عن القصاص من قاتله، أي: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ أي: من دم أخيه المقتول.

وقوله: ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم أي شيء، قليلاً كان أو كثيراً.

فإذا عفا واحد من ورثة المقتول، مهما قلّ نصيبه سقط القصاص.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: فالواجب على وارث وولي المقتول، الذي عفا عن القصاص إلى الدية اتباع القاتل بالمعروف، من غير أن يشق عليه، ويحمله ما لا يطيق من الدية، أو يمن عليه بعفوه عنه عن القصاص، أو يؤذيه.

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: وعلى القاتل إيصال ما اتفق عليه من الدية إلى وارث المقتول.

﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ الباء للمصاحبة، أي حال كون هذا الأداء مصحوباً بالإحسان الفعلي، بأداء ما اتفق عليه من الدية وافياً، من غير مماطلة، أو مضارة، ومصحوباً بالإحسان القولي بشكره والدعاء له، مقابل عفوه عن القصاص منه، واتباعه له بالمعروف.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الإشارة إلى المعنى المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾، وهو مشروعية العفو عن القصاص إلى الدية؛ أي: شرعنا لكم العفو عن القصاص إلى الدية؛ تخفيفاً من ربكم عليكم، وقد كان الحال عند اليهود تحتم القصاص، وعند النصارى تحتم العفو، وليس لهم أخذ الدية، فخير الله- عز وجل- هذه الأمة بين الأمور الثلاثة.

عن ابن عباس ﷺ قال: «كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد، وذلك تخفيف مما كتب على من كان قبلكم ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾»(١).

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: من خالقكم ومالككم ومدبركم، والخطاب لجميع المؤمنين، وأضاف اسمه- عز وجل- «الرب» إلى ضميرهم تذكيراً لهم بنعمة ربوبيته

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٩٨)، والنسائي في القسامة (٤٧٨١)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٠٤، ١١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩٤)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٤٧٩).

لهم؛ ليشكروه.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ورحمة من ربكم أيها المؤمنون، فمشروعية القصاص رحمة من الله- عز وجل- بجميع المؤمنين، وإسقاط القتل عن القاتل بالعفو رحمة له، وإباحة الدية لورثة المقتول رحمة لهم.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، أي: فمن اعتدى من أولياء المقتول، فقتل القاتل بعد العفو عن القصاص، وقبول الدية، أو بعد العفو مطلقاً.

ويحتمل أن المراد: فمن اعتدى من أولياء المقتول، أو القاتل الذي عفي عن القصاص منه فعاد إلى القتل مرة أخرى.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ جملة جواب الشرط، أي: ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، مع ما يترتب عليه في الدنيا من العقوبة بالقصاص أو غيره.

و﴿أَلِيمٌ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم حسيًّا للبدن، ومعنويًّا للقلب.

عن أبي شريح الخزاعي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من أُصيب بقتل أو خَبْلٍ، فإن أراد يختار إحدى ثلاث، إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها**»(١).

وعن الحسن عن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أُعفي رجلاً قتل بعد أخذ الدية- يعني لا أقبل منه الدية، بل أقتله**»(٢).

وإنما شدد القرآن في أمر من يعفو عن القصاص، ثم يعتدي بعد ذلك على القاتل فيقتله؛ لما فيه من الخيانة، وعدم الوفاء بالعهد، ولما فيه من الشبه بمن يعود في هبته.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، أي: ولكم في شرع القصاص، وهو قتل القاتل بمن قتله، على الصفة التي قتله عليها.

---

(١) أخرجه أبو داود في الديات (٤٤٩٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢٣)، والدارمي في الديات (٢٣٥١).

(٢) أخرجه أبو داود في الديات (٤٥٠٧)، وأحمد (٣/ ٣٦٣).

وفي قوله: «لكم» إشارة إلى أن القصاص إنما شرع رحمة لكم، وإحساناً إليكم، وهكذا كل ما شرعه الله، إنما شرعه رحمة بالعباد، وإحساناً إليهم، ولذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿حَيَوٰةٞ﴾ نكرت للتعظيم والتكثير، أي: حياة عظيمة كثيرة للنفوس ببقائها وسلامتها من القتل، وصونها، وحقن الدماء؛ لأن القاتل إذا علم أنه سيقتل قصاصاً، أو توقع ذلك كفّ عن القتل، وارتدع خوفاً على نفسه، فكان في ذلك حياة له، ولمن أراد قتله، وللعنصر الإنساني.

قال ابن القيم(١): «قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وهذا أحسن من قولهم: «القتل أنفى للقتل» لوجوه سبعة:

الأول: أن قولهم: «القتل أنفى للقتل» في ظاهره متناقض؛ لأنه جعل حقيقة الشيء منافية لنفسه، وإن قيل: إن المراد منه أن كل واحد من أفراد هذا النوع ينفي غيره فهو أيضاً ليس أنفى للقتل قصاصاً، بل أدعى له، وإنما يصلح إذا خصص، فقيل: القتل قصاصاً أنفى للقتل، فيصير كلاماً طويلاً، مع أن التقييدات بأسرها حاصلة في الآية.

الثاني: أن القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً من حيث إنه قتل، بل من حيث إنه قصاص، وهذه الجملة غير معتبرة في كلامهم.

الثالث: أن حصول الحياة هو المقصود الأصلي، ونفي القتل إنما يراد لحصول الحياة، والتنصيص على الغرض الأصلي أولى من التنصيص على غيره.

الرابع: أن التكرار عيب، وهو موجود في كلامهم دون الآية.

الخامس: أن حروف «في القصاص حياة» اثنا عشر، وحروف «القتل أنفى للقتل» أربعة عشر.

السادس: أنه ليس في كلامهم كلمة يجمع فيها حرفان متلاصقان متحركان إلا في موضع واحد، بل ليس فيها الأسباب حقيقة متوالية، وقد عرف أن ذلك مما ينقص من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٨٢).

سلاسة الكلام بخلاف الآية.

السابع: أن الدافع لصدور القتل عن الإنسان كراهته لذلك، وصارفه القوي عنه، حتى إنه ربما يعلم أنه لو قتل قتل، ثم لا يرتدع، وإنما رادعه القوي هو إما الطمع في الثواب أو الذكر الجميل، وإذا كان كذلك فليس أنفى الأسباب للقتل هو القتل، بل الأنفى لذلك هو الصارف القوي».

فيا لها من حكمة عظيمة في مشروعية القصاص، فيها صون النفوس المعصومة وبقاؤها، وأمن الناس على دمائهم.

وما تسلط المجرمون وعصابات السطو والقتل والإجرام إلا بعد أن عطل حكم القصاص في كثير من بقاع الأرض، بما في ذلك كثير من البلاد الإسلامية، بذريعة الرحمة، والإنسانية- المزعومة- وأن القتل همجية، حتى غصت السجون بالمجرمين، فيا سبحان الله، كيف يرحم المجرم، ولا يرحم المجتمع كله من شره، إنه انتكاس القلوب والفطر، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله: ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يا أصحاب العقول النيرة التي تتعقل وتتدبر أحكام الله- عز وجل- وما فيها من الحكم والمصالح، وتهدي أصحابها إلى ما ينفعهم وتحجزهم عما يضرهم- ولهذا خصهم الله- عز وجل- دون غيرهم ممن لا يعقل.

وفي هذا ثناء منه- عز وجل- عليهم، وامتداح لهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الجملة تعليلية، أي: لأجل أن تتقوا الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، والتي من أعظمها قتل النفوس المعصومة بغير حق.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء، للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان، تكريماً وتشريفاً لهم.

٣- في نداء المؤمنين بوصف الإيمان حث على الاتصاف بهذا الوصف، وعلى امتثال ما

بعده من أوامر ونواه، وأن امتثال ذلك من مقتضيات الإيمان، وعدمه يعد نقصاً في الإيمان.

٤- وجوب القصاص، بقتل القاتل عمداً بمن قتله، وأن يُفعل به كما فعل بالمقتول، من حيث صفة القتل وآلته، حتى لو اشترك جماعة في قتل واحد، وجب قتلهم به؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ والخطاب للمؤمنين، والمراد بذلك حكامهم.

٥- أن الحر يقاد ويقتل قصاصاً بالحر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ ومفهوم هذا أن الحر لا يقتل بالعبد. وإلى هذا ذهب كثير من أهل العلم، مستدلين بمفهوم هذه الآية، وبأن العبد يباع ويشترى كالسلعة فكيف يساوى بالحر، وغير ذلك من الأدلة التي لا يسلم منها دليل واحد، أو يصح على ما ادعوه.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحر يقتل بالعبد مستدلين بأدلة كثيرة منها:

أ- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ قالوا: فيجب القصاص من القاتل أيًّا كان. قالوا: وأما قوله في الآية بعد ذلك: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ فهذا للرد على أهل الجاهلية، حيث كانوا يقتلون بالحر أحراراً، وبالعبد حرًّا، وبالأنثى ذكراً.

ب- قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩] وهذا عام.

جـ- قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]. وهذا عام في كل نفس.

د- قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. وهذا عام في كل مقتول وفي كل قاتل.

هـ- قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وهذا عام أيضاً.

و- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

ز- قوله ﷺ في الحديث: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب**

الزاني، والنفس بالنفس، ...»[١] وهذا عام في كل نفس.

ح- قوله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[٢]. وهذا القول هو الراجح لقوة أدلته.

٦- أن العبد يقتل بالعبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ وإذا كان العبد يقتل بالعبد، فقتله بالحر من باب أولى.

٧- أن الأنثى تقتل بالأنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وإذا كانت الأنثى تقتل بالأنثى، فقتلها بالذكر من باب أولى.

وإنما جاءت الآية على هذا النسق ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ لما جاء في سبب النزول، أنهم كانوا يعتدون في القصاص، فيقتلون بالعبد حرًّا، وبالأنثى ذكراً، ولو كان غير القاتل.

واختلف في قتل الذكر بالأنثى، والصحيح أن الذكر يقتل بالأنثى، للأدلة السابقة في قتل الحر بالعبد، ولما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: «**أن يهوديًّا رضّ رأس جارية بين حجرين، فاعترف، فأمر النبي ﷺ، فرض رأسه بين حجرين**»[٣]. وقد حكى القرطبي الإجماع على قتل الذكر بالأنثى[٤].

٨- جواز العفو عن القصاص إلى الدية، تخفيفاً من الله- عز وجل- على هذه الأمة، ورحمة لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ كما يجوز العفو عن القصاص

---

(١) أخرجه البخاري في الديات- قوله تعالى ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة- ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١١١)، ومسلم في الحج (١٣٧٠)، وأبوداود في المناسك (٢٠٣٤)، والنسائي في القسامة (٤٧٣٥)، والترمذي في الديات (١٤١٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٥٨)، (٢٦٨٣)، وأحمد (١/ ١١٩)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٢)، وأبوداود في الديات (٤٥٢٧)، والنسائي في القسامة (٤٧٤٠)، والترمذي في الديات (١٣٩٤)، وابن ماجه في الديات (٢٦٦٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤٨).

بلا دية، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

٩- إذا عفا ورثة المقتول أو بعضهم، ولو واحداً سقط القصاص؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ وشيء نكرة في سياق الشرط تعم أي شيء، قليلاً كان أو كثيراً.

١٠- أن القاتل عمداً لا يخرج بالقتل عن الإيمان، ولا تزول الأخوة الإيمانية بينه وبين المقتول؛ لقوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ علماً أن القتل العمد من أكبر الكبائر، بل يعد أكبرها عند أكثر أهل العلم.

وفي هذا رد على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة خارج من الإيمان، مخلد في النار. وإذا كان القاتل عمداً لا يخرج بالقتل من الإيمان، فما دونه من باب أولى.

١١- أن دية القتل العمد على القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾ يعني القاتل.

١٢- أن دية القتل العمد حسب ما اتفق عليه بين ورثة المقتول والقاتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ ولو اختار القاتل القصاص على الدية فله ذلك.

١٣- يجب على ولي المقتول إذا عفا عن القصاص إلى الدية أن يتّبع القاتل ويطالبه بالدية بالمعروف، من غير أن يشق عليه، أو يكلفه ما لا يطيق، أو يمن عليه بعفوه عنه، عن القصاص إلى الدية، أو يؤذيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٤- يجب على القاتل أداء الدية إلى أولياء المقتول بإحسان فعلي، بعدم المماطلة والمضارة لهم، وإحسان قولي، بشكرهم والدعاء لهم، مقابل عفوهم عن القصاص منه، واتباعهم له بالمعروف؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

١٥- فضل الله- عز وجل- ونعمته على هذه الأمة بشرع العفو عن القصاص، وأخذ الدية، تخفيفاً على هذه الأمة ورحمة بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة بالمؤمنين، ورحمته الخاصة بهم؛ لقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾.

١٧- يُسر هذه الشريعة المحمدية بين الشرائع السابقة وتخفيف أحكامها.

١٨- الترغيب في العفو عن القصاص إلى الدية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ﴾ ففي هذا ترقيق وحث على العفو إلى الدية، ولقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ فهو رخصة من الله، وتخفيف ورحمة للأمة، يندب الأخذ به، وأفضل من ذلك العفو بلا مقابل.

١٩- الوعيد الشديد لمن اعتدى على القاتل، فقتله بعد عفوه عنه إلى الدية بالعذاب المؤلم الموجع، حسيًّا للبدن، ومعنويًّا للقلب في الآخرة- مع ما يترتب عليه من العقوبة الدنيوية، من القصاص أو غيره؛ لما في هذا من الخيانة، ونقض العهد، والعود في الهبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

وهذا الوعيد يشمل أيضاً القاتل، الذي يعود إلى الاعتداء والقتل، بعد العفو عنه.

٢٠- حكمة الله- عز وجل- البالغة العظيمة، في مشروعية القصاص، لما فيه من صون الأنفس المعصومة، وسلامتها من القتل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ وهذا أبلغ من قولهم: «القتل أنفى للقتل».

٢١- حفظ الدين الإسلامي للأنفس والأرواح؛ لأنها إحدى الضرورات الخمس التي جاء الإسلام بالحفاظ عليها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال.

٢٢- سمو مبادئ الإسلام وأحكامه وتشريعاته، مما تتهاوى أمامه وتضعف جميع النظم والقوانين الأرضية، الوضعية الوضيعة، التي تتعاطف مع القاتل المجرم، وتمنع قتله، بل وتعده من الهمجية، فترحم القاتل، ولا ترحم المجتمع، أمام شرور أهل السطو والقتل والإجرام، وترى في عقوبة السجن كفاية، مما جعل السجون تغص بالمجرمين والقتلة، واللصوص، ويستشري شرهم وبلاؤهم في المجتمعات التي لا تدين بالإسلام، أو لا تطبق شرع الله.

٢٣- أن الذين يفقهون ويعقلون عن الله- عز وجل- شرعه وأحكامه، ويعلمون أن لله- عز وجل- الحكمة البالغة العظيمة في مشروعية القصاص، هم أصحاب العقول

والنهى، ولهذا خصهم دون غيرهم، وفي هذا ثناء من الله- عز وجل- عليهم، وامتداح لهم، وكفاهم بذلك شرفاً وفخراً؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

٢٤- أن الله- عز وجل- شرع القصاص، وأوجبه على العباد؛ ليتقوه، فلا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يرتكبوا ما نهاهم عنه، وليمتثلوا أوامره؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ فرض عليكم، أي: فرض الله وأوجب عليكم أيها المؤمنون.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا حضر أحدكم الموت، بحضور علاماته وأسبابه؛ كالمرض المخوف ونحو ذلك.

لكن قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل الغرغرة، فإنه في هذه الحال لا تعتبر الوصية، وكذا جميع إقرارات الإنسان، بل لا تقبل منه التوبة في هذه الحال؛ لأنها حال اضطرار لا اختيار، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

والموت: عبارة عن خروج الروح من البدن، ومفارقتها له، ولابد لكل إنسان من هذا الحضور، وهذه اللحظة الحاسمة، وهذا الموقف الرهيب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقال جبريل للنبي ﷺ: «**يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه**»(١).

---

(١) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٦٠)- حديث (٧٩٢١)، وأبونعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٩)- حديث (١٠٥٤). وأخرجه البيهقي أيضاً في «الشعب»- من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه أبونعيم أيضاً في «الحلية» (٣/ ٢٠٢)، من حديث علي رضي الله عنه وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٩).

قال جرير[١] في مهاجاة الفرزدق:

أنا الموت الذي حدثت عنه ... فليس لها رب مني نجاء

وقال كعب بن زهير[٢]:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

وإذا كان الأمر هكذا، فعلى الإنسان أن يتذكر هذه الساعة، ويستعد لها، ولما بعدها، ولا يغفل.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**- يعني الموت»[٣].

وعن ابن عمر ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلَّم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «**أحسنهم خلقاً**» قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «**أكثرهم للموت ذِكْراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس**»[٤].

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ جملة معترضة، والخير في الأصل كل ما ينفع في الدنيا والآخرة، والمراد به في الآية: المال الكثير- عرفاً- فقوله: ﴿خَيْرًا﴾ أي: مالاً كثيراً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] أي: لحب المال.

ويفهم من قوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ أن من لم يترك مالاً فلا تجب عليه الوصية.

و﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ نائب فاعل للفعل ﴿كُتِبَ﴾ أي: فُرض وأوجب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك مالاً أن يوصي لمن ذكروا، فالوصية لهم واجبة.

والوصِية في الأصل: هي العهد والأمر بأمر هام، وتكون في الحياة وبعد الممات،

---

(١) انظر: «ديوانه» (٢/ ١٢٠).

(٢) انظر: «ديوانه» ص (١٩).

(٣) أخرجه النسائي في الجنائز (١٨٢٤)، والترمذي في الزهد (٢٣٠٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٩).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢].

أي: أمرهم بكلمة التوحيد، وعهد إليهم بها في حياته وبعد مماته.

والوصية بعد الموت تنقسم إلى قسمين: عهد وإذن بالتصرف بعد الموت، وتبرع بالمال بعد الموت، وهو المراد بالوصية هنا، كما في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١].

﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: للأم والأب، وسمي الأب والداً من باب التغليب، وقَدَّم الوالدين، لعظم حقهما على سائر الأقربين.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمع أقرب على وزن «أفعل» التفضيل، فالأولى بالوصية من أقارب الميت الأقرب منهم فالأقرب إليه.

والمعنى: فُرض وأوجب عليكم إذا حضر أحدكم الموت- إن ترك مالاً كثيراً- الوصية لوالديه، والأقربين إليه بشيء من المال، الأقرب منهم فالأقرب.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف في الشرع، من غير سرف ولا مضارة؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢].

وذلك بأن تكون الوصية في الثلث فأقل، لما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ لما زاره الرسول ﷺ في مرضه، أنه قال: «يا رسول الله، إن لي مالاً، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: لا. قال: فالشطر؟ قال: لا. قال: فالثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»(١).

كما أن من المعروف في الشرع: أن تكون الوصية لغير وارث؛ لقوله ﷺ: «**إن الله**

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦).

أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»(١).

ومن ذلك أيضاً: أن تكون الوصية بنية طيبة، وقصد حسن ابتغاء وجه الله تعالى، لا مقابل منافع دنيوية، ونحو ذلك، ولا لأجل المضارة للورثة، ونحو ذلك.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: واجباً ثابتاً على المتقين الوصية لمن ذكروا، وهذا تأكيد لوجوب الوصية لهم؛ لأنه من مقتضى تقوى الله- عز وجل- وتقوى الله واجبة، وفي هذا إغراء بتقوى الله، وتشريف وتكريم للمتقين.

و«المتقين» جمع «متقي» وهم المؤمنون الذين اتقوا الله بفعل أوامره، وترك نواهيه.

ويؤيد وجوب الوصية ما رواه ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماحق امرئٍ مسلم، له شيء يوصي به، يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده**»(٢).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾.

قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، والضمير في «بدله» و«سمعه» يعود إلى المفهوم من الوصية، وهو: الإيصاء، أي: نص الوصية.

أي: فمن بدل نص الموصي، وحرف الوصية وغيّرها، فزاد فيها، أو نقص، أو كتمها، أو شيئاً منها.

﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ أي: بعد سماعه قول الموصي، أو بعد سماعه لشهادة الشهود عليها، أو بعد سماعه لقراءة الوصية مكتوبة، أو قراءته لها بنفسه، ونحو ذلك.

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ﴾ جملة جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، والضمير يعود إلى مصدر الفعل «بدله»، أي: فإنما إثم تبديل الوصية على الذين يبدلونه. أي: فإنه آثم، وإثم تبديله عليه هو؛ لما في ذلك من الضرر على الورثة، إن زاد في الوصية، ولما في ذلك من الضرر على الموصى له، إن نقص منها، أو كتمها، أو شيئاً منها، أو غيّر مجراها. ولما في ذلك كله من الاعتداء على حق الموصي.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨)، ومسلم في الوصية (١٦٢٧)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٢)، والنسائي في الوصايا (٣٦١٥)، والترمذي في الجنائز (٩٧٤)، وابن ماجه في الوصايا (٢٦٩٩).

وفي هذا وعيد شديد، يتناول كل من بدل الوصية، بعد علمه بها عن عمد منه، سواء كان الكاتب لها، أو الشهود عليها، أو النَقَلَة بعد ذلك، أو شهود النقل، أو الموصى له، أو غيرهم.

أما من بدلها عن جهل، أو تصرف فيها خطأ، بلا قصد فلا إثم عليه.

وأما الميت الموصي فقد وقع أجره على الله، ولا إثم عليه، فكما أن في الآية وعيداً شديداً لمن يتجرأ على تبديل الوصية وتغييرها، ففيها طمأنة للموصي بثبوت أجره.

وتبديل الوصية، وتغييرها، أو كتمانها، أو كتمان شيء منها، قد يقع من الورثة وغيرهم، وبخاصة ضعاف النفوس، وأهل الطمع والجشع؛ ولهذا قدم الله- عز وجل- في آيات المواريث ذكر الوصية على الدين- مع أن الدين مقدم عليها بالإخراج بالإجماع- تأكيداً على وجوب العناية بها، والاهتمام بتنفيذها، حسب نص الموصي، وتحذيراً من التهاون بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الجملة تعليلية فيها التحذير من تبديل الوصية، أي: إن الله ذو سمع واسع يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويجيب الدعوات، كما قالت عائشة ﵂: «والذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية [المجادلة: ١]»(١)، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقال زكريا عليه السلام: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، أي: سميع الدعاء ومجيبه.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع يسع كل شيء ويحيط به، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

فهو- عز وجل- يسمع ويعلم ما قاله الموصي في وصيته، ويسمع ويعلم ما قاله وما فعله المبدل للوصية، ويسمع ويعلم كل ما يحصل في الكون من قول أو فعل، أو

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨).

حركة أو سكون، وفي هذا وعد لمن امتثل أمر الله، ووعيد لمن خالفه؛ لأن مقتضى سمعه وعلمه أن يحاسب الناس، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبوبكر عن عاصم: ﴿من مُوَصٍّ﴾ بتحريك الواو، وتشديد الصاد، وقرأ الباقون بتسكين الواو، وتخفيف الصاد: ﴿مِن مُّوصٍ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ عاطفة، و«من» شرطية. والجنف: الميل عن الحق من غير قصد، والإثم: الميل عن الحق عن قصد.

والمعنى: فمن خاف من موص حضرته الوفاة، وتوقع منه ﴿جَنَفًا﴾ أي: ميلاً في وصيته عن الحق، بلا قصد منه، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي: تعمداً منه للميل عن الحق في وصيته، يستوجب بسببه الإثم، أو اطلع من موص على ميل في الوصية عن قصد، أو عن غير قصد، كأن يوصي لوارث، أو لغيره بأكثر من الثلث- من غير إجازة الورثة ذلك، أو يوصي بشيء محرم، أو على شيء محرم، ونحو ذلك.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أصلح بين الموصي والموصىٰ إليهم، أو أصلح بين الورثة والموصىٰ إليهم، بإصلاح ما في الوصية من خطأ، أو ظلم، ورد ذلك إلى الصواب والعدل.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ لأن إصلاحه بينهم لا يعد تبديلاً في الوصية، وإنما هو تعديل لها، وإبعاد للموصي عن الوقوع في الجنف والإثم، وهو مثاب مأجور. قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ولهذا ينبغي لمن حضر الموصي حال وصيته، أن يحثه على العدل في الوصية، وينهاه عن الجور فيها، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ «في قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ يعني: إثماً، يقول: إذا أخطأ الميت في وصيته، أو حاف فيها، فليس على الأولياء

حرج أن يردوا خطأه إلى الصواب»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملة تعليلية، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده- كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة- كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن يوم القيامة، فيضع عليه كَنَفَهُ**(٢) **ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رَبِّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك. قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعُطىٰ كتاب حسناته**»(٣).

ومنه سمي: «المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة واسعة- كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة وخاصة.

فهو- عز وجل- غفور لذنوب عباده، مما يتعلق بأمر الوصية، وغير ذلك، رحيم بهم.

وقدَّم عز وجل المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

الفوائد والأحكام:

١- دلت الآية على وجوب الوصية على مَن ترك مالاً كثيراً للوالدين والأقربين؛ لقوله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٠١، ٣٠٣).

(٢) أي: عفوه ورحمته.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد أجمع أهل العلم على أن هذا الحكم ليس باقياً على إطلاقه.

فذهب الجمهور منهم إلى أن هذه الآية منسوخة بآيات المواريث، كما قال ﷺ: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث**»(١).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية محكمة، خصصتها آيات المواريث في الوالدين غير الوارثين، لرق أو اختلاف دين، وبمن لا يرث من الأقربين، فيوصى لهم. وهذا هو الراجح.

وبناء على هذا اختلفوا في حكم الوصية، فذهب جمهور أهل العلم إلى أن الوصية مستحبة لغير الوارثين، من الوالدين والأقربين وغيرهم.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الوصية واجبة للوالدين والأقربين غير الوارثين، أو لغيرهم، مستدلين بالآية.

والراجح أن الوصية غير واجبة إلا على من كان عليه حقوق، أو عنده أمانات يجب عليه الخروج منها وبيانها؛ لقوله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**ما حق امرئٍ مسلم له شيء يوصي به يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**»(٢).

وقد حُكي الإجماع على هذا القول(٣).

٢- جواز الوصية ممن حضره الموت، لقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

---

(١) أخرجه أبوداود في الوصايا- ما جاء في الوصية للوارث (٢٨٧٠)، والترمذي في الوصايا- ما جاء لا وصية لوارث (٢١٢٠)، وابن ماجه في الوصايا- لا وصية لوارث (٢٧١٣)، وأحمد (٥/ ٢٦٧) ـ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأخرجه من حديث عمرو بن خارجة رضي الله عنه النسائي في الوصايا- إبطال الوصية للوارث (٣٦٤١)، والترمذي في الباب السابق (٢١٢١)، وابن ماجه في الباب السابق (٢٧١٢)، وأحمد (٤/ ١٨٦، ١٨٧). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ابن ماجه في الباب السابق (٢٧١٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «الإفصاح» (٢/ ٧٠)، «المغني» (٦/ ١- ٢).

والمراد- والله أعلم- حضور علاماته، من مرض لا يرجى برؤه، ونحو ذلك، وليس المراد بحضور الموت حالة الغرغرة، وبلوغ الروح الحلقوم، وغلبة المرء على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

٣- أن الموت حق، وهو مصير كل مخلوق.

٤- أن الوصية إنما تجب على من ترك مالاً كثيراً؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾.
أما من ترك مالاً قليلاً فلا تجب عليه الوصية، بل ولا تستحب منه، بل الأفضل في حقه تركها؛ لقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة، يتكففون الناس**»(١).

٥- ظاهر الآية جواز الوصية بما شاء من المال، وقد قيدت السنة ذلك بالثلث فأقل؛ لقوله ﷺ لسعد رضي الله عنه: «**الثلث والثلث كثير**»(١).

٦- فضل الوالدين وشرفهم على غيرهم، وعظيم حقهم، من بين سائر القرابة؛ لأن الله قدمهم في الذكر في الآية على الأقربين.

٧- عظم حق القرابة؛ لهذا أمر عز وجل بالوصية للوالدين والأقربين.

٨- أن الأولىٰ بالوصية الأقرب فالأقرب من الميت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

٩- يجب أن تكون الوصية بالمعروف شرعاً، فلا يوصي لوارث، ولا لغيره بأكثر من الثلث، ولا يكون القصد من الوصية مضارة الورثة، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٠- تأكيد وجوب الوصية؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن من تقوى الله- عز وجل- الوصية لمن ذكروا، وأن المتقين هم الذين يمتثلون أوامر الله- عز وجل- دون من سواهم، وفي هذا إغراء بتقوى الله، وتشريف وتكريم لهم.

١١- وجوب تنفيذ الوصية، وفق نص الموصي، وتحريم تبديلها وتغييرها، والتحذير

---

(١) سبق تخريجه.

من ذلك، والوعيد لمن بدلها، بعد سماعه لها وعلمه بها، وبيان أنه ارتكب إثماً عظيماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾.

وذلك لتعديه على حق الموصي، ولما في ذلك من الإضرار، إما بالورثة، كما في حال الزيادة في الوصية، وإما بالموصىٰ له كما في حال النقصان منها، أو تغيير مجراها. لكن لو بدلها جهلاً، أو أخطأ في التصرف فيها، عن غير علم، وعن غير قصد، فلا إثم عليه، ولا ضمان، لكن يجب عليه إرجاع الوصية إلى ما كانت عليه، والتصرف فيها وفق نص الموصي.

١٢- لا إثم على الموصي إذا عدل في وصيته، وبدلت بعد وفاته، بل للموصي أجره وعلى المبدل وزره. وهكذا كل من أسس خيراً فله أجره، وإن بُدِّل بعده.

١٣- إثبات أفعال العباد الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٤- إثبات أنه- عز وجل- ذو السمع الواسع للدعاء ولجميع الأقوال والأصوات ومجيب الدعوات، وذو العلم الواسع المحيط بكل شي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٥- في ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تأكيد للوعيد السابق لمن بدل، وغيَّر في الوصية، كما أن فيه وعداً لمن عدل فيها وأنصف، ونفَّذها وفق نص الموصي.

١٦- إذا حصل من الموصي ميل عن الحق في الوصية عن قصد أو عن غير قصد وجب أن يُصْلَح ما فيها من فساد، وميل عن الصواب، ويُصْلَح ما حصل من شقاق بسبب ذلك، بين الموصي- إن كان ذلك في حال حياته، وبين الورثة، والموصىٰ له، ولا يعد هذا من التبديل المتوعد عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بل إن المصلح لذلك مثاب مأجور، مغفور له، مرحوم بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٧- أنه قد ينفىٰ الإثم عن الشيء دفعاً لتوهمه، فلا ينافي ذلك كونه واجباً، أو مندوباً؛

لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

١٨- إثبات صفة المغفرة التامة، والرحمة الواسعة لله- عز وجل- رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

فهو غفور لذنوب عباده مما يتعلق بالوصية وغير ذلك، ورحيم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٩- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدَّم المغفرة على الرحمة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: فرض عليكم الصيام، أي: فرض الله عليكم الصيام وأوجبه.

والصيام لغة: الإمساك، قال تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٦] أي: إمساكاً عن الكلام. وقال النابغة الذبياني(١):

خيل صيام وخيل غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

فقوله: «خيل صيام» أي: ممسكة عن السير.

والصيام شرعاً: التعبد لله بترك الأكل والشرب، وجميع المفطرات الحسية والمعنوية، من طلوع الفجر، إلى غروب الشمس.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الكاف صفة لموصوف محذوف وقع مفعولاً مطلقاً لـ«لكتب»، و«ما» مصدرية، أو موصولة، والتقدير: كتب عليكم الصيام، كتباً

---

(١) انظر «ديوانه» ص(١١٣).

مثل كتبه، أو مثل الذي كتب، على الذين من قبلكم، من الأمم السابقة، من أهل الكتاب وغيرهم.

والتشبيه هنا بالفرض دون المفروض، فلا يلزم عليه أن يكون صيامنا كصيام من قبلنا؛ في وقته، ومقداره، وصفته، وغير ذلك.

واختلف في الذي كتب على الذين من قبلنا، فقيل: كتب عليهم صيام شهر رمضان، وقيل: كتب عليهم صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وقيل: صيام عاشوراء.

ولا دليل على شيء من هذه الأقوال، والأظهر أن صيام رمضان مما اختص الله به هذه الأمة.

والحكمة في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

أولاً: الترغيب في المنافسة لهم بالأعمال الصالحة، والإشارة إلى استكمال هذه الأمة فضائل الأمم السابقة؛ لأن الصيام من أفضل الأعمال.

ثانياً: تخفيف فرض الصيام على النفوس ببيان أن الصيام كما كتب على هذه الأمة، فقد كتب على من قبلهم من الأمم، وقد قيل: إن التكاليف إذا عمت خفت، كما أن المصائب إذا عمت خفت، كما قالت الخنساء[1]:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

وذكر أنه لما حضرت الإسكندر المقدوني الوفاة أمر أمه أن تكتب على باب القصر: «لا يأتيني للتعزية أحد أصابته مصيبة». فكتبت ذلك، فلم يأتها أحد، فسألت عن ذلك، فقيل لها: إنك كتبت على باب القصر: «لا يأتيني للتعزية أحد أصابته مصيبة»، وما من أحد إلا وقد أصابته مصيبة، ففهمت السر في أمر ابنها لها بذلك، فقالت: «لقد عزيتني عن نفسك بنفسك».

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن تتقوا الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

---

(١) انظر «ديوانها» ص(٨٤).

فالصيام من تقوى الله- عز وجل- ويحمل على تقوى الله؛ لما فيه من تربية النفس وتزكيتها، وتجديد الإيمان وزيادته، فهو مدرسة يتربى فيها المسلم على سلوك الطريق المستقيم، والمنهج القويم، لما فيه من تقوية القلب، وتعويده الصبر، والتحمل ومراقبة الله- عز وجل- من جهة.

ولما فيه من تليين القلب وترقيقه من جهة أخرى، مما يكون سبباً للألفة والمحبة والتواصل، والعطف على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام، ولما فيه من تضييق مجاري الشيطان، وإضعاف نوازع النفس، ودواعي الشهوة.

ولهذا قال ﷺ: «**يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**»(١).

قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ «أياماً» منصوب بفعل مقدر، أي: أن تصوموا ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ و«أياماً» نكرة تفيد القلة لوصفها بـ«معدودات».

والمعنى: أياماً محصيات محدودات قليلات، ثلاثين يوماً، أو تسعة وعشرين يوماً، في السنة، من بين اثني عشر شهراً، فليس فيه عنت، ولا مشقة، بل هو في غاية اليسر والسهولة.

وقد عوض الله- عز وجل- هذه الأمة- لما كانت أعمارهم قليلة بالنسبة لمن سبقهم من الأمم بصيام هذا الشهر؛ ليدركوا من سبقهم، بل وليسبقوهم بالفضيلة كما قال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم – لبصوم لمن خاف على نفسه العزوبة (١٩٠٥)، ومسلم في النكاح (١٤٠٠)، وأبوداود في النكاح (٢٠٤٦)، والنسائي في الصيام (٢٢٣٩)، والترمذي في النكاح (١٠٨١)، وابن ماجه في النكاح (١٨٤٥)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وما أسرع ما تمضي هذه الأيام المباركة، من هذا الشهر المبارك- وخاصة عند من قَدَّرها قدرها.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هذا تيسير بعد تيسير. والفاء في قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ عاطفة، و«من» شرطية، و«كان» فعل الشرط، وجوابه ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وهذا كالاستثناء من عموم قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

والمريض: هو معتل الصحة، وقد قالوا في تعريف المرض: هو عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ.

والصحيح أن المريض: من به علة.

والمراد بالمريض الذي يشق عليه الصوم، أو يضره، كأن يخشى على نفسه الهلاك، أو زيادة العلة، أو تأخر البرء، أو يحتاج إلى استعمال الدواء المفطِّر أثناء النهار، ونحو ذلك.

أما المريض الذي لا يشق عليه الصوم، فليس له أن يفطر.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ «أو» عاطفة، أي: أو كان مسافراً.

والسفر: هو الضرب في الأرض والسير فيها، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: يسافرون في الأرض. وسمي سفراً؛ لأنه خروج من البلد إلى حيث السفر والنور.

وقيل: سمي السفر سفراً؛ لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال، ويُعرفون به، فرجل يقوم بخدمة رفاقه في تهيئة منزلهم، وطعامهم وشرابهم وقهوتهم، وغير ذلك.

ورجل يستند إلى متكأ، ويُصدر الأوامر، افعلوا كذا، وكذا، وأعطوني كذا. وشتان بين الرجلين.

ولا شك أن السفر محك عظيم، عن خرشة بن الحر، قال: «شهد رجل عند عمر بن الخطاب بشهادة، فقال له: لست أعرفك، ولا يضرك أن لا أعرفك، ائت بمن يعرفك، فقال رجل من القوم: أنا أعرفه قال: بأي شيء تعرفه؟ قال: بالعدالة والفضل. فقال: فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره، ومدخله، ومخرجه؟ قال: لا. قال: فعاملته بالدينار، والدرهم اللذين بهما يستدل على الورع؟ قال: لا. قال: فرفيقك في

السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: لست تعرفه. ثم قال للرجل: ائت بمن يعرفك»(١).

وفي قوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إشارة إلى أن المسافر يترخص بأحكام السفر، ولو أقام في بعض البلدان، حتى ينوي الإقامة.

وفي إطلاق السفر دلالة على أن للمسافر الفطر مطلقاً سواء كان السفر طويلاً أو قصيراً، ومهما كان القصد من السفر.

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، والتقدير: ومن كان منكم مريضاً، أو على سفر، فأفطر، فعليه صيام عدة من أيام أخر، إذا زال عذر المرض والسفر، بقدر الأيام التي أفطرها.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مع حذف المقدر في الكلام وهو (فأفطر) إشارة- والله أعلم- إلى اختلاف حكم الفطر في حق المريض والمسافر، فقد يكون جائزاً، وقد يكون مستحباً؛ وقد يكون واجباً- كما سيأتي تفصيله في الأحكام.

كما أن في قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ بتنكير «أيام» دلالة على أن الوقت موسع في قضاء رمضان، فلا يلزمه أن يصوم حال زوال عذره، من مرض، أو سفر، ونحو ذلك، وإن كان الأولى المبادرة بصيامها.

وفيه دلالة على أنه لا يلزم التتابع في صيام القضاء.

كما أن فيه أن على من أفطر لعذر المرض، أو السفر أن يقضي أياماً بعدد الأيام التي أفطرها، ولو كان الشهر كله، كاملاً كان أو ناقصاً، ولو كانت أياماً قصيرة باردة عن أيام طويلة حارة، أو العكس.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: وعلى الذين يستطيعونه- يعني الصيام- ولم يصوموا.

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر، وابن ذكوان عن ابن عامر: «فديةُ طعامِ» بإضافة فدية إلى طعام، وقرأ الباقون: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ﴾ بتنوين «فديةٌ»، ورفع «طعامُ»

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الصغير» (٤/ ١٣٤)، وأخرجه في «سبعة مجالس من أمالي أبي طاهر المخلص» ص(٦٥).

أي: فديةٌ هي طعام.

﴿مِسْكِينٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «مساكين» على الجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿مِسْكِينٍ﴾.

والفدية: ما يفتدى به من مال، أو عرض، «طعام» مطلق في أي طعام.

و«المسكين» من لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله.

أي: وعلى الذين يستطيعون الصيام ولم يصوموا فدية عن الصوم، وهي طعام مسكين نصف صاع من الطعام عن كل يوم.

أي: إن الإنسان مخير بين الصيام والإطعام، وهذا في أول فرض الصيام، ثم نسخ هذا التخيير بتعين الصيام، بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: «لما نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها»(١).

وعن عبدالله بن عمر ﷺ قال: «نسخت هذه الآيةَ- يعني: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ التي بعدها ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾»(٢).

وعن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من شاء صام، ومن شاء أفطر، فنسختها: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(٣).

وقد ثبت عن ابن عباس القول بأنها غير منسوخة، كما روى البخاري، عن عطاء،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة (٤٥٠٧)، ومسلم في الصيام (١١٤٥)، وأبوداود في الصوم (٢٣١٥)، والنسائي في الصيام (٢٣١٥)، والترمذي في الصوم (٧٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (١٩٤٩)، وفي التفسير (٤٥٠٦).

(٣) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» الأثر (٥٩)- من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه أبوداود في «الصوم» (٢٣١٥)- من طريق عكرمة عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٠٧)- كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ.

أنه سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين﴾ قال ابن عباس: «ليست منسوخة، هي للشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً»(١).

والصحيح أنها منسوخة.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، و«تطوع» فعل الشرط، و«خيراً» منصوب صفة لمصدر محذوف، أي: فمن تطوع تطوعاً خيراً.

ويحتمل أن تكون «خيراً» مفعولاً لأجله، أي: تطوع يريد الخير.

والتطوع: فعل الطاعة، واجبة كانت، أو مستحبة، ولا يكون الفعل طاعة، إلا بالإخلاص لله- عز وجل- ومتابعة الرسول ﷺ.

أي: فمن تطوع بالفدية بأن زاد على الواجب فأطعم أكثر من مسكين، أو زاد في إطعام المسكين.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فهو خير له، يدخره عند الله، ويثاب عليه، أو فهو أفضل له من ترك التطوع.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل رفع مبتدأ، أي: وصيامكم خير لكم، وأفضل من الفدية بالطعام.

وهذا حال التخيير بين الصيام والإطعام، في أول فرض الصيام.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم تنتفعون بعلمكم، أي: فاعلموا أن صيامكم خير لكم.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (٤٥٠٥).

قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي، أي: الأيام المعدودات- شهر رمضان.

و«الشهر» مدة ما بين الهلالين، سمي بذلك لاشتهاره.

و«شهر» مضاف و«رمضان» مضاف إليه، وهو ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون- مشتق من الرمضاء، وهي الحرارة.

قيل: سمي بذلك؛ لأنه لما سميت الشهور بأسمائها وافق وقت الحر والرمضاء.

وقيل: لأنه أول أشهر الحرارة، بناء على ما كان من النسيء في السنة عند العرب.

وفي قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ خبر يتضمن تحديد وقت ومقدار الصيام الذي فرضه الله- عز وجل- على المؤمنين، ووصفه بأنه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

وفيه تعظيم هذا الشهر وامتداحه من بين شهور السنة؛ لأن الله- عز وجل- أنزل فيه القرآن، وخصه بفريضة الصيام.

﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وصف لـ«شهر رمضان» والمعنى: الذي ابتدئ فيه إنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

فابتدأ إنزاله في شهر رمضان في ليلة مباركة منه هي ليلة القدر، ثم تتابع نزول القرآن مفرقاً خلال ثلاث وعشرين سنة، حسب الوقائع والأحداث. قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقد نزلت صحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل كل منها جملة واحدة.

وعلى هذا فتكون «ال» في قوله: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ للجنس، ويكون المراد بالقرآن بعضه، وهو أوله نزولاً، ويشهد لهذا القول الواقع، فإن القرآن نزل في جميع شهور السنة، فمنه ما نزل في شوال، ومنه ما نزل في ذي القعدة، ومنه ما نزل في ذي الحجة، ومنه ما نزل في غير ذلك.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ «قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: أنه أنزل في رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام»(١).

وعلى هذا تكون «ال» في القرآن للعموم، أي: أنزل فيه القرآن كله من السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

والصحيح القول الأول؛ لأن المعنى عليه أقوى، وهو أن المراد بإنزال القرآن في شهر رمضان: بدء إنزاله فيه على النبي ﷺ رحمة للعالمين، وحجة على الناس أجمعين.

وقوله ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن المنزل معلوم وهو الله جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

و«القرآن» مأخوذ من «قرأ»، إذا تلا، ومن «قرى» بمعنى «جمع» لأنه مجموع آيات وسور، وهو كلام الله- عز وجل- المنزل على الرسول- محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ حال من القرآن، أي: حال كونه هادياً للناس، أو مفعول لأجله، أي: لأجل هداية الناس، والمراد هنا: الهداية العامة، هداية الدلالة والعلم والبيان والإرشاد، أي: دالاً للناس على الطريق المستقيم، والمنهج القويم، كما قال- عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

و«الناس» أصلها «الأناس» قال الشاعر(٢):

إن المنايا يطّلعْـ ـنَ على الأناس الآمنينا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٨٨- ١٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣١٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣، ٥٣٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣١).

(٢) البيت لذي جرن الحميري. انظر «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص(٣٢)، «الكشاف» (١/ ٦)، و«المعمرون والوصايا» للسجستاني ص (١٤).

وقال لبيد(١):

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

وخففت لكثرة الاستعمال، فقيل: «الناس». والمراد بهم البشر، الموجود منهم حال نزول القرآن، ومن سيوجد إلى قيام الساعة؛ لأن رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي عام لجميع الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

بل رسالته ﷺ وما جاء به عام للثقلين الإنس والجن، والقرآن هدى لهم جميعاً هداية عامة، وهو هدى هداية خاصة للمتقين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿وَبَيِّنَٰتٍ ﴾ معطوف على «هدى» أي: حال كونه هدى للناس، ومشتملاً على آيات بينات، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الحج: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الحديد: ٩].

﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ صفة لـ«بينات»، أي: مشتملاً على آيات واضحات ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: من الدلالة والإرشاد إلى الحق وبيانه.

﴿وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ أي: ومن الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، والرشد والغي،

---

(١) انظر: «ديوانه» ص (١٣٢).

والهدى والضلال، والخير والشر، والحلال والحرام، وأهل السعادة وأهل الشقاوة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

و«الهدى» و«الفرقان» من أسماء القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، و«شهد» فعل الشرط، ومعناه: حضر، وكان مقيماً حال دخول الشهر ﴿مِنكُمُ﴾ أيها المؤمنون، ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ شهر رمضان، و«ال» فيه للعهد الذكري، أي: الشهر المذكور قبل في قوله ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾.

﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية، واللام للأمر، والأصل في الأمر الوجوب، أي: فمن حضر منكم الشهر، بأن كان شاهداً مقيماً، حال دخول شهر رمضان ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: فليصم نهاره وجوباً، وإن شهد بعض الشهر وجب عليه صيام ذلك البعض.

وهذا ناسخ للتخيير بين الصيام والإطعام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والحكمة- والله أعلم- في التخيير بين الصيام والإطعام أولاً، ثم نسخ التخيير، وإيجاب الصيام هي التدرج في الحكم، ونقل الناس من الأخف إلى الأثقل شيئاً فشيئاً، فلو أُمروا أول ما أُمروا بوجوب الصوم لربما استثقلوه وشق عليهم- وكما هو الحال في الخمر، حيث جاء التدرج في تحريمه على عدة مراحل.

ونسخ التخيير بين الصيام والإطعام إلى تحتم الصيام من نسخ الحكم وبقاء التلاوة. والحكمة فيه- والله أعلم- تذكير الخلق بهذا التدرج، امتناناً عليهم.

وهذه الواقعة من أصح وقائع النسخ في هذه السورة، بل من أصح وقائع النسخ

في القرآن الكريم.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر بالفطر مع القضاء من أيام أخر- والله أعلم- لئلا يعتقد أن الرخصة منسوخة، كما نسخ التخيير بين الصيام والإطعام بوجوب الصيام.

وأيضاً تأكيداً وتذكيراً بنعمة الله- عز وجل- وفضله عليهم في التخفيف عن المريض والمسافر.

ولمناسبة ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ فهذا تعليل لقوله: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ المراد بالإرادة هنا الإرادة الشرعية، التي بمعنى المحبة، أي: يحب الله لكم اليسر، أي: التيسير والتخفيف عليكم فيما شرع لكم، ولذلك رخص في الفطر للمريض والمسافر.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ هذه الجملة لتأكيد إرادته- عز وجل- اليسر، أي: ولا يحب لكم العسر والمشقة.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: يريد الله ويحب لكم اليسر كل اليسر، يسراً لا عسر معه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى في صفة النبي ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما، حين بعثهما إلى اليمن: «**يسرا، ولا تعسرا، وبشرا، ولا تنفرا**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا، ولا**

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

تنفروا»[١]، وفي رواية: «وسكِّنوا ولا تنفروا»[٢].

﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ قرأ يعقوب وأبوبكر عن عاصم «ولتكمِّلوا» بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف. والواو في قوله: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ عاطفة، واللام للتعليل، والفعل منصوب بـ«أن» مضمرة بعد اللام. والجملة معطوفة على «اليسر» في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ أي: يحب الله لكم اليسر، وأن تكملوا العدة.

أي: ولتكملوا عدة شهر رمضان، بصيامه وقضاء ما أفطرتم منه لعذر المرض والسفر ونحو ذلك، سواء كان الشهر ثلاثين يوماً، أو تسعة وعشرين يوماً.

قال ابن كثير[٣]: «أي: إنما رخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم».

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ معطوفة على ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ﴾ داخلة ضمن ما يريده الله ويحبه، أي: يحب الله لكم اليسر، وأن تكملوا العدة، وأن تكبروا الله على ما هداكم.

ومعنى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ولتعظموا الله بألسنتكم وقلوبكم بتكبير الله- عز وجل- لأنه أكبر من كل شيء، وله الكبرياء والعظمة- كما قال عز وجل: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»[٤].

﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ «ما» مصدرية، أي: على هدايته لكم، هداية بيان وعلم ودلالة وإرشاد، وهداية توفيق للعمل.

والمعنى: ولتكبروا الله وتعظموه على الدوام، وفي ختام هذا الشهر، وليلة العيد ويومه إلى الفراغ من خطبة العيد- على هدايته لكم للصراط المستقيم، ولصيام شهر رمضان وإكماله؛ مرددين: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤).

(٢) أخرجها مسلم.

(٣) في «تفسيره» (١/ ٣١٢).

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠)، وأبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٤٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه أحمد (٦/ ١٩)، من حديث فضالة بن عبيد ﷺ.

الحمد»[١]، «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد»[٢]، «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً»[٣].

إلى غير ذلك من ألفاظ التكبير.

وكذا تعظيم الله- عز وجل- بأنواع الذكر كلها، التي تشرع على الدوام، وبخاصة عند إكمال العبادات وقضائها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير**»[٤].

وقال ﷺ- لمعاذ رضي الله عنه: «**لا تدعن أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[٥].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«لعل» للتعليل، أي: ولأجل أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم، من الشرع المطهر، وفرض الصيام، والتيسير فيه على المريض والمسافر، وتوفيقكم لإكمال عدة الشهر، وختامه بتكبير الله، وذلك بالاستمرار على طاعته، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال تعالى في أول الآيات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ١٦٨)، وأبويوسف في «الآثار» (٢٩٧)- عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «المغني» (٣/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٠١)، والنسائي في الافتتاح (٨٨٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٩٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٢)، ومسلم في المساجد (٥٨٣)، والنسائي في السهو (١٣٣٥).

(٥) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٥٢٢)، والنسائي في السهو (١٣٠٣)، من حديث معاذ رضي الله عنه.

ذكر الله- عز وجل- مشروعية الصيام وأحكامه في الآيات قبل هذه الآية وبعدها، وجعل هذه الآية بين تلك الآيات ترغيباً- والله أعلم- للصائم في دعاء الله عز وجل، وإشارة إلى أن دعوة الصائم مستجابة لا ترد، كما قال ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»(١).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد**»(٢).

عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه ﷺ: «أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾»(٣).

قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية، غير عاملة، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿عِبَادِي﴾ أي: عبادي المؤمنون، وأضافهم عز وجل إليه تشريفاً وتكريماً لهم؛ لأن المراد بالعبودية هنا العبودية الخاصة، عبودية أوليائه عز وجل.

﴿عَنِّي﴾ أي: عن قربي، وإجابتي، بدليل الجواب: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ جواب «إذا»، أي: فقل لهم: إني قريب، أسمع دعاءهم، فليناجوني بالدعاء، دون النداء برفع الصوت.

وقربه- عز وجل- من عباده المؤمنين قرب خاص، وكلما كان العبد لله أعبد

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٩٨)، وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الصيام (١٧٥٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣١٤)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣١٣) ونسبه لابن مردويه وأبي الشيخ الأصبهاني.

وأتقى، كان الله منه أقرب.

قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(١).

وفي الحديث القدسي قوله- عز وجل: «**ومن تقرب إليَّ شبراً تقربت منه باعاً**»(٢).

فهو- عز وجل- قريب، ومع عباده المؤمنين معية خاصة، يسمع كلامهم، ويستجيب دعاءهم، ويحفظهم ويسددهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقال ﷺ لأبي بكر- فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال ﷺ: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»(٣).

كما أنه- سبحانه- مع جميع خلقه بعلمه وإحاطته، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ هذه الجملة خبر ثان لـ«إن» وخبرها الأول «قريب»، و«الداع» أصلها «الداعي» فحذفت الياء تخفيفاً.

و«الدعاء» الطلب، وهو نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والآية تشمل النوعين، وهما متلازمان. والمعنى: فإني قريب، أسمع دعوة الداعي إذا دعاني وناجاني، وأجيبه، أعطيه إذا سألني، وأثيبه إذا عبدني.

وفي هذا توجيه وإرشاد إلى أدب السؤال والدعاء، وأن يكون بالمناجاة بين العبد وربه دون النداء برفع الصوت.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٣)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٦)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «**أيها الناس، اربعوا**[١] **على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبدالله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله**»[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**» الحديث[٣].

﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾ «دعان» أصلها «دعاني» فحذفت الياء تخفيفاً. والمعنى: إذا صدق في دعائه إياي، وأخلص في ذلك، وذلك بصدق اللجوء إلى الله- عز وجل- والانكسار بين يديه، والثقة بوعده، وتمام قدرته، وكمال جوده.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، واللام للأمر، أي: فليجيبوا لي، وعدي باللام- مع أنه يتعدى بنفسه، فيقال: (فليجيبوني)- وذلك لأنه ضمن معنى الانقياد: أي: فلينقادوا لي ويجيبوني ويطيعوني، ويدعوني.

و«يستجيبوا» أبلغ من «يجيبوا»؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالباً- على زيادة المعنى. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، أي: أجاب، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الرعد: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الشورى: ٣٨]، أي: أجابوا، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٦]، أي: ويجيب الذين آمنوا.

﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ معطوف على ما قبله، أي: فليصدقوا بي، وبقربي، وأني أجيب دعوة الداعي إذا دعاني.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يرشدوا.

---

(١) أي: ارفقوا على أنفسكم.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٤)، وأبوداود في الصلاة (١٥٢٦)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٤)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٤).

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٨).

والرشد: حسن التصرف والاهتداء إلى طرق الخير عامة، في الدين، وفي الولاية، وفي التصرف في المال، وغير ذلك، أي: لأجل أن يهتدوا للإيمان والعمل الصالح فيرشدوا في دينهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لإيمانهم بالله وانقيادهم له واستجابتهم لأمره.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وفي قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ ترغيب في دعائه- عز وجل- وأنه- عز وجل- لا يخيِّب دعاء من دعاه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ [الشورى: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى يستحيي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً، فيردهما صفرا**»(١).

وفي رواية: «**فيردهما خائبتين**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو الله- عز وجل- بدعوة، ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**». قالوا: إذاً نكثر. قال: «**الله أكثر**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل،**

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٤٨٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجها أحمد (٥/ ٤٣٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٨)، وأخرج الترمذي في الدعوات (٣٥٧٣)- وأحمد- نحوه مختصراً (٥/ ٣٢٩)- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

يقول: دعوت فلم يستجب لي»[١].

وفي رواية[٢]: «لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل. قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء».

وعن عبدالله بن عمرو ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»[٣].

وعن أنس ﵁ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك وواحدة لي، وواحدة فيما بيني وبينك، فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك: فما عملت من شيء وَفَّيْتُكَه، وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة»[٤].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده يعد من مقتضيات الإيمان، وعدمه يعد نقصاً في الإيمان.

٣- وجوب صيام شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾.

٤- أن الصيام كتب على من كان قبلنا من الأمم من أهل الكتاب وغيرهم، والله أعلم بصفة ذلك وعدده؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

٥- استكمال هذه الأمة فضائل الأمم السابقة، وترغيبها في منافستهم بالأعمال؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥)، وأبوداود في الصلاة (١٤٨٤)، والترمذي في الدعوات (٣٣٨٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٣).

(٢) لمسلم.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧).

(٤) أخرجه البزار- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣١٦).

تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٦- أن التكاليف إذا عمت خفت؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. ومثل ذلك المصائب.

٧- أن الحكمة من مشروعية الصيام تقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأن الصيام مدرسة يتربى فيها المسلمون على سلوك الطريق المستقيم، والمنهج القويم، فهو من تقوى الله- عز وجل- ويربي على تقوى الله.

٨- وجوب تقوى الله عز وجل؛ لأن الله أوجب من أجلها الصيام.

٩- أن الصيام الذي فرضه الله- عز وجل- أيام قليلة معدودة محدودة؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

١٠- تيسير الله- عز وجل- لأحكام الشريعة الإسلامية رحمة بهذه الأمة، فالصيام أيام معدودة، والصلوات خمس صلوات في العمل وخمسون في الميزان.

١١- مراعاة الجانب النفسي في خطاب المكلفين- تخفيفاً وتسهيلاً للأمر عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

١٢- مراعاة الشرع لأحوال المكلفين، وأن المشقة تجلب التيسير؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

١٣- جواز الفطر في نهار رمضان للمريض والمسافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تيسيراً من الله- عز وجل- على العباد.

فالمريض إن كان يشق عليه الصوم استحب له أن يفطر أخذاً برخصة الله- عز وجل- لأن الله- عز وجل- يحب أن تؤتى رخصه[1].

فإن كان الصوم يضره وجب عليه الفطر، وحرم عليه الصوم؛ لقول الله عز وجل:

---

(١) كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨).

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فإن كان الصوم لا يضره، ولا يشق عليه، فهو كالصحيح يجب عليه أن يصوم.

وأما المسافر فله الفطر مطلقاً، لكن إن كان الصوم يشق عليه مشقة شديدة فالفطر في حقه واجب؛ لما رواه جابر بن عبدالله ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس، فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدح من ماء بعد العصر، فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب، فقيل له: إن بعض الناس قد صام، فقال: «**أولئك العصاة، أولئك العصاة**»(١).

والعاصي: من ترك واجباً، أو ارتكب محرماً.

وإن كان الصوم يشق عليه مشقة غير شديدة، فالمستحب في حقه الفطر، أخذاً برخصة الله- عز وجل- ويكره له الصوم- لما رواه جابر بن عبدالله ﷺ أن النبي ﷺ كان في سفر، فرأى زحاماً، ورجلاً قد ظلل عليه، فسأل عنه، فقالوا: صائم، فقال ﷺ: «**ليس من البر الصيام في السفر**»(٢).

فنفى ﷺ أن يكون من البر الصيام في السفر، ولم يعتبره معصية، كما في الحالة الأولى. وقد يستدل بهذا الحديث أيضاً للحالة الأولى.

وإن كان الصوم في السفر ليس فيه مشقة، تزيد على الصوم في الحضر فالفطر جائز لعموم الآية؛ ولأن السفر مظنة المشقة، لكن المستحب في حقه الصوم، لما في ذلك من إدراك فضيلة الشهر، وكون الصيام في وقته، ولأنه أسرع لإبراء الذمة، ولأن ذلك أنشط له وأسهل لصيامه مع الناس، وأيسر عليه من القضاء.

وقد استدل لهذا بحديث أبي الدرداء ﷺ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، في يوم حار، حتى إن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية (١١١٤)، والنسائي في الصيام (٢٢٦٣)، والترمذي في الصوم (٧١٠).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٤٦)، ومسلم في الصيام (١١١٥)، والترمذي في الصوم (٧١٠).

صائم إلا ما كان من رسول الله ﷺ، وابن رواحة»[١].

قالوا: فالصوم له في هذه الحالة أفضل؛ لأنه فعل الرسول ﷺ.

١٤- أن كل ما يسمى سفراً يجوز فيه الفطر من غير تحديد أو تقييد بزمن أو مسافة، وذلك لإطلاق السفر في الآية. وعلى هذا فما اعتبره عرف الناس سفراً فهو سفر طال أو قصر بدون تحديد.

وقد ذهب جمهور أهل العلم، ومنهم الأئمة الأربعة أبوحنيفة ومالك والشافعي وأحمد- رحمهم الله- إلى أن للسفر الذي يجوز الترخص فيه بالفطر وغيره حدًّا- بينته السنة، وأنه لا يجوز الترخص في السفر القصير.

وحدد الجمهور السفر الذي يجوز الترخص فيه بالفطر والقصر والجمع ونحو ذلك بمسيرة يومين فأكثر، أي: نحو ستة فراسخ، أي: ثمانية وأربعين ميلاً، أي: ثمانين كيلو متر[٢].

١٥- أن للمسافر الفطر في البلد الذي سافر إليه، ما لم يعزم على الإقامة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، وكذا لو عزم على الإقامة فيه أربعة أيام فأقل، فإن عزم على الإقامة أكثر من ذلك فليس له الفطر عند الجمهور؛ لأنه بحكم المقيم.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن له الفطر، لأنه بحكم المسافر حتى يرجع.

١٦- جواز الفطر والترخص بأي سفر، مهما كانت غايته سواء كان لطاعة، أو تجارة، أو سياحة، أو سفر معصية؛ لإطلاق السفر في الآية، وقيل: لا يترخص في سفر المعصية. والصحيح الجواز[٢].

١٧- وجوب القضاء من أيام أخر، على من أفطر في نهار رمضان بعذر المرض، أو السفر، بعدد الأيام التي أفطرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

وفيه دلالة على أن الوقت فيها موسع، لكن الأفضل المبادرة بقضائها بعد

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٤٥)، ومسلم في الصيام- التخيير في الصوم والفطر في السفر (١٧٢٢)، وأبوداود في الصوم (٢٤٠٩)، وابن ماجه في الصيام (١٦٦٣).

(٢) انظر: تفصيل الكلام في أحكام السفر ما يأتي في الكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية:١٠١].

رمضان، إذا زال العذر، إبراءً للذمة، فإن أخر قضاءها جاز ذلك؛ لقول عائشة ﵂: «كان يكون عليَّ الصوم من رمضان، فلا أقضي إلا في شعبان، وذلك لمكان رسول الله ﷺ»(١).

فإن أخر القضاء حتى أدركه رمضان آخر فعليه مع القضاء إطعام مسكين نصف صاع من الطعام عن كل يوم، أو إطعام عدد من المساكين بعدد الأيام التي أفطر غداء أو عشاء. وقال بعض أهل العلم: لا يلزمه الإطعام.

كما أن في قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ دلالة على أنه لا يلزم في القضاء التتابع، وقيل: يجب التتابع؛ لأن القضاء يحكي الأداء. والصحيح عدم وجوب التتابع في القضاء، لكنه أفضل.

١٨- أن الصيام كان أول ما شرع على التخيير، من شاء صام، ومن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكيناً؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وفي هذا تظهر حكمة التدرج في التشريع، مراعاة للمكلفين.

١٩- عناية الإسلام بالمساكين والمحتاجين؛ لقوله تعالى: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.

٢٠- أن المجزئ في الإطعام ما يطلق عليه طعام مسكين، لإطلاق الآية في ذلك، فلو غدّى المساكين أو عشّاهم أجزأه ذلك. فقد أطعم أنس بن مالك ﵁ لما كبر عاماً أو عامين كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً وأفطر(٢).

وفي رواية «أنه صنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم»(٣).

ولو أعطى كل مسكين نصف صاع من الطعام أجزأه ذلك، كما في حديث كعب بن عجرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال له- لما تأذى من هوام رأسه وهو محرم: «**احلق رأسك، وأطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٠)، ومسلم في الصيام (١١٤٦)، وأبوداود في الصوم (٢٣٩٩)، والنسائي في الصيام (٢٣١٩)، والترمذي في الصوم (٧٨٣)، وابن ماجه (١٦٦٩).

(٢) ذكره البخاري- معلقاً بصيغة الجزم في تفسير- قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾. انظر: «فتح الباري» (٨/ ١٧٩).

(٣) أخرجه أبويعلى الموصلي في مسنده من حديث أيوب بن أبي تميمة- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٠٩).

(٤) أخرجه البخاري في الحج- الإطعام في الفدية نصف صاع (١٨١٤)، ومسلم في الحج- جواز حلق الرأس للمحرم =

٢١- أن من عجز عن الصوم لكبر، أو مرض لا يرجى برؤه فعليه الإطعام عن كل يوم مسكيناً؛ لأن الله- عز وجل- جعل الإطعام في الآية عديلاً للصيام حال التخيير بينهما؛ ولهذا قال ابن عباس ﷺ: «إن هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يطيقان الصيام، فيطعمان عن كل يوم مسكيناً»(١).

وهكذا فعل أنس بن مالك ﷺ لما كبر أطعم عن كل يوم مسكيناً- كما تقدم.

٢٢- الترغيب في الاستزادة من الطاعة والخير؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.

٢٣- أن الصيام أفضل من الإطعام، حين التخيير بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهذا يدل على تفاضل الأعمال والعمال.

٢٤- فضل العلم الذي ينتفع به صاحبه، ويدله إلى الخير في دينه ودنياه، والحث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٢٥- أن ابتداء نزول القرآن الكريم كان في شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

٢٦- تعظيم شهر رمضان وامتداحه وفضله من بين الشهور، لخصوصية نزول القرآن فيه، وإيجاب صيامه.

٢٧- إثبات العلو المطلق لله- عز وجل- علو الذات، وعلو الصفات؛ لأنه هو الذي أنزل القرآن، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٢٨- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

وقد ذهب المعتزلة إلى القول بخلق القرآن، وحصل بسبب ذلك فتنة القول بخلق

=

إذا كان به أذى (١٢٠١)، وأبوداود في المناسك (١٨٥٦)، والنسائي في المناسك (٢٨٥١)، والترمذي في الحج (٩٥٣)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٩).

(١) سبق تخريجه.

القرآن، أيام خلافة المأمون، وأوذي بسبب ذلك وعذب كثير من العلماء، منهم الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- فصبر وثبت على منهج السلف، ومذهب أهل السنة، بأن القرآن منزل غير مخلوق، ولهذا صار إمام أهل السنة رحمه الله.

قال علي بن المديني: «أعز الله هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبوبكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة»(١).

٢٩- اشتمال القرآن الكريم على هداية جميع الناس، وإرشادهم بالآيات الواضحات، التي فيها الدلالة إلى الحق وبيانه، والتفريق بين الحق والباطل؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

٣٠- تعين وجوب الصيام، وأن عدته شهر، هو شهر رمضان، فمن شهد هذا الشهر وجب عليه صيامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وهذا ناسخ للتخيير بين الصيام والإطعام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما جاء في حديث سلمة بن الأكوع وابن عمر رضي الله عنهما(٢)، وغيرهما وهو من نسخ الحكم مع بقاء التلاوة(٣).

٣١- أن صيام شهر رمضان إنما يجب عند ثبوت دخول الشهر برؤية الهلال، أو بإكمال شعبان ثلاثين يوماً، وذلك إنما يجب على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

٣٢- التدرج في التشريع تخفيفاً على المكلفين، وذلك بتخييرهم بين الصيام والإطعام، في أول مشروعية الصيام، ثم نقلهم إلى وجوب وتحتم الصيام.

٣٣- تأكيد الرخصة للمريض والمسافر بالفطر في نهار رمضان، والقضاء، والتذكير بنعمة الله- عز وجل- وفضله في ذلك، وإزالة اللبس من أن يظن أن ذلك مما نسخ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

---

(١) أخرجه في «تاريخ بغد» (٦/ ٩٠)، وفي «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٢٧)، و«تاريخ دمشق» (٥/ ٢٨).

(٢) سبق تخريجهما.

(٣) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس بتحقيقنا (١/ ٥٠٢)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥٣-٥٥٥).

٣٤- إثبات الإرادة الشرعية لله- عز وجل- التي معناها المحبة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾.

٣٥- أن الله- عز وجل- يريد فيما شرع من الأحكام والصيام التيسير، والتخفيف على المؤمنين، ورفع العسر والمشقة عنهم؛ ولهذا رخص للمريض والمسافر بالفطر مع القضاء؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

٣٦- أن الله- عز وجل- أوجب صيام رمضان، وقضاء ما أفطره الصائم منه لعذر المرض والسفر من أيام أخر؛ لأجل إكمال عدة الشهر- فهذا مما أراده الله وأحبه وأمر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

٣٧- مشروعية تكبير الله- عز وجل- يوم العيد وليلته، وتعظيمه- عز وجل- على هدايته وما شرعه لهذه الأمة من هذا الشرع المطهر الميسر، وتوفيقه لصيام رمضان، وإكماله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

٣٨- أن الله- عز وجل- شرع للمؤمنين هذا الشرع المطهر، وفرض صيام شهر رمضان على المقيم، ورخص بالفطر للمريض والمسافر- مع القضاء، وأمر عز وجل بإكمال العدة وتكبيره، كل ذلك لأجل شكره بطاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٣٩- في ذكر قوله- عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ الآية. بين آيات الصيام، إشارة إلى الترغيب في الدعاء حال الصيام، وبخاصة عند الإفطار، وأن ذلك مظنة لإجابة الدعاء.

٤٠- تشريف الله- عز وجل- للمؤمنين وتكريمه لهم، وعنايته بهم بإضافتهم إليه- عز وجل- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾؛ لأن المراد بهذا العبودية الخاصة، عبودية أوليائه عز وجل.

٤١- إثبات قرب الله- عز وجل- من عباده المؤمنين؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

٤٢- إثبات السمع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي: أسمع

وأجيب دعوة الداعي إذا دعاني، فالإجابة مستلزمة لسماع الدعاء.

٤٣- في وعده- عز وجل- بإجابة دعوة الداعي، وتكفله بذلك دلالة تامة على تمام قدرته، وكمال تصرفه، وعظيم جوده وكرمه.

٤٤- يشترط لقبول الدعاء وإجابته الاستجابة لله تعالى والإيمان به وصدق اللجوء إليه، والإخلاص له، والثقة بوعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

٤٥- وجوب الانقياد لله- عز وجل- والاستجابة له، والإيمان به، وأن ذلك سبب للرشد في أمور الدين والدنيا، والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

سبب النزول:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها، وأن قيس بن صِرْمَةَ الأنصاري كان صائماً، وكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال: هل عندكم طعام؟ قالت: لا، ولكن أَنْطَلِقُ فأَطْلُبُ لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رأته نائماً قالت: خَيْبَةً لك أنمت؟ فلما انتصف النهار غُشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ- فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً»(١).

وفي رواية عن البراء: «لما نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾»(٢).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام، في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم- قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ (١٩١٥)، وأبوداود في الصوم- مبدأ فرض الصيام (٢٣١٤)، والنسائي في الصيام- تأويل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (٢١٦٨)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٨)، وأحمد (٤/ ٢٩٥).

(٢) أخرجها البخاري في التفسير، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ (٤٥٠٨).

الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾»[١].

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أي: أبيح لكم، والتحليل: ضد التحريم، وجاء «أحل» بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن المُحل والمبيح معلوم، وهو الله عز وجل.

﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ ليلة: ظرف زمان، والمعنى: أحل لكم جميع ليالي الصيام، أي: جميع ليالي شهر رمضان، والليل يشمل ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الرفث: الجماع، ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: إلى زوجاتكم، أي: أحل لكم ليالي الصيام جماع زوجاتكم، سواء كان ذلك بعد صلاة العشاء أو قبلها، بعد النوم أو قبله.

وكان الأمر في ابتداء الإسلام، وفي أول مشروعية الصيام أنه إذا صلى أحدهم العشاء أو نام حرم عليه الأكل والشرب والجماع إلى الليلة القابلة- كما جاء في روايات سبب النزول- فشق عليهم ذلك، فرخص الله لهم بالأكل والشرب والجماع الليل كله مطلقاً.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ هذه الجملة تعليل لإحلال الجماع ليالي الصيام، أي: أحللنا لكم جماع زوجاتكم ليالي الصيام؛ لأنهن ﴿لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، واللباس في الأصل ما يلبس ويستتر به، أي: لأنهن ستر لكم كاللباس، لا تستغنون عنهن، وأنتم ستر لهن كاللباس، لا يستغنين عنكم، قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تثنت عليه فكانت لباسا[٢]

فكل من الزوجين ستر للآخر، ظاهراً وباطناً، وسبب لتحصينه وإعفافه، أشبه باللباس الذي تستر به العورات، وينكشف عوار كل منهما بدون الآخر، ولهذا قال ﷺ: «**معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج**»[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣١٧).

(٢) البيت للنابغة الجعدي: انظر «شعره» ص(٨١)، «جامع البيان» (٣/ ٢٣١)، «الشعر والشعراء» (١/ ٢٩٦).

(٣) سبق تخريجه.

وكل منهما سكن للآخر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ولهذا جعل الله- عز وجل- الزواج سُنَّة من السُّنن الكونية، ورغَّب فيه بالكتاب والسنة، وجعل الرغبة عنه من الرغبة عن السنة؛ ولهذا قال ﷺ لعثمان بن مظعون لما أراد التبتل، وتحريم النساء: «**يا عثمان، أرغبت عن سنتي؟**» قال: لا والله، يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «**فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وأفطر، وصل، ونم**»(١).

وما حال الإنسان بلا زوج، رجلاً كان أو امرأة، إذا دخل منزله، كما يقال: «طارت العصافير في وجهه».

وهذا كناية عن الوحشة، وفقدان الأنس والسكن. وفي الحديث: «مسكين مسكين رجل ليست له امرأة، وإن كان غنياً من المال، ومسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج وإن كانت غنية من المال»(٢).

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: تخونون أنفسكم، بارتكابكم ما لا يجوز من الجماع، والأكل والشرب بعد النوم، أو بعد صلاة العشاء- كما حصل من بعض الصحابة رضي الله عنهم.

وفي التعبير بقوله: ﴿تَخْتَانُونَ﴾ ما قد يشير إلى أن البعض قد يتساهلون في هذا الأمر، ويخادعون أنفسهم في هذا، أو يبررون لها.

والوقوع في المخالفة والمعصية خيانة للنفس؛ لأن نفس الإنسان وديعة عنده يجب أن يحملها على ما فيه صلاحها وسعادتها، في دينها ودنياها وأخراها، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٣٦٩)، وأحمد (٦/ ٢٦٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٦٣ رقم٤٤٨) مرسلاً من حديث ابن أبي نجيح قال: قال رسول الله ﷺ، وكذا أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣٤٨ رقم٦٥٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٣٣٧ رقم٥٠٩٧).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ توبة الله- عز وجل- على العباد توفيقه لهم للتوبة، وقبولها منهم، أي: فتاب الله عليكم مما وقع منكم من الخيانة لأنفسكم.

وتاب عليكم أيضاً بالتوسعة لكم، والتخفيف عنكم بنسخ المنع من الجماع، والأكل والشرب بعد النوم، أو بعد صلاة العشاء، ليالي الصيام، بإباحة ذلك.

والنسخ إلى أخف توبة من الله- عز وجل- على عباده، كما قال تعالى في نسخ وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣].

وكما قال تعالى في نسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَعَفَا عَنكُمْ ۖ﴾ أي: تجاوز عن عقوبتكم.

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ الفاء: استئنافية، أي: فالآن بعد هذه الرخصة جامعوا نساءكم ليالي الصيام، وتمتعوا بما أباح الله لكم منهن، ويفهم من هذا أنه قبل ذلك لم يكن مباحاً، وهو ما دلت عليه الأحاديث في سبب النزول.

والقرآن الكريم يكني عن الجماع بالمباشرة، كما يكني عن ذلك بالملامسة والمس والإفضاء.

والأمر في الآية للإباحة؛ لأنه أمر بعد حظر، وفيه إشارة إلى أن الإنسان يؤجر في إتيان أهله.

﴿وَابْتَغُوا﴾ أي: اطلبوا ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾ «ما» موصولة، و«كتب» بمعنى: قدر، وبمعنى «شرع»، أي: اطلبوا في جماعكم لنسائكم ما قدر الله لكم من الولد، وما شرع لكم من قضاء الوطر وإعفاف أنفسكم ونسائكم، والتقرب إلى الله- عز وجل- بذلك، كما قال ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أيكون عليه فيها وزر؟ فكذلك**

إذا وضعها في الحلال كان له أجر»(١).

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فولد بينهما ولد، لم يضره الشيطان**»(٢).

والمصيبة أن كثيراً من الناس في هذا الأمر بهيمي ينزو على زوجته، كما تنزو ذكور الحيوانات على إناثها من غير استشعار لهذه المعاني.

وأيضاً: ابتغوا ما شرع الله لكم من قيام ليالي هذا الشهر، وتحري ليلة القدر، التي خصكم الله بها، والتي هي خير من ألف شهر.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ والأمر فيه للإباحة- كما سبق؛ لأنه أمر بعد حظر.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ «حتى» لانتهاء الغاية. أي: إلى غاية أن يظهر ويتميز لكم ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ﴾ أي: بياض النهار، ﴿مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ أي: من سواد الليل.

﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾.

سبب النزول:

عن سهل بن سعد ﷺ قال: «أنزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾، ولم ينزل: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فعلموا أنما يعني: الليل والنهار»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١)، ومسلم في النكاح (١٤٣٤)، وأبوداود في النكاح (٢١٦١)، والترمذي في النكاح (١٠٩٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩١٩).

(٣) أخرجه البخاري في الصوم- قول الله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ (١٩١٧)، ومسلم في الصيام- بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (١٠٩١).

فقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ بيان للمراد بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وأن المراد به تبيُّن بياض النهار وضيائه من سواد الليل وظلمته.

كما في حديث عدي بن حاتم ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين، أحدهما أسود، والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما، فلا يتبين لي الأسود من الأبيض، ولا الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت. فقال: «**إن وسادك إذًا لعريض، إنما ذلك بياض النهار، من سواد الليل**»(١).

ومعنى قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: حتى طلوع الفجر- كما في حديث عائشة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يمنعنكم أذان بلال عن سحوركم، فإنه يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر**»(٢).

والفجر فجران: الأول الفجر الممتد في الأفق طولاً من الشرق إلى الغرب، يسطع في الأفق كأنه ذنب السرحان(٣)، وبينه وبين الأفق ظلمة، ثم يزول نوره ويظلم وهو الفجر الكاذب.

والفجر الثاني: المعترض الأحمر المستطير، الممتد في الأفق من الجنوب إلى الشمال، الذي يظهر نوره ويزداد، وهو الفجر الصادق، وهو الذي يدخل بطلوعه وقت الصلاة، ويجب الإمساك. عن قيس بن طلق عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الفجر المستطيل في الأفق، ولكنه المعترض الأحمر**»(٤).

وعن سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يغرنكم من سحوركم**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٠٩)، ومسلم في الصيام- في الباب السابق (١٠٩٠)، وأبوداود في الصوم (٢٣٤٩)، والنسائي في الصيام (٢١٦٩)، والترمذي في «تفسير القرآن» (٢٩٧١).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٩)، ومسلم في الصيام (١٠٩٢)، والنسائي في الأذان (٦٣٧)، والترمذي في الصلاة (٢٠٣).

(٣) السرحان: الذئب.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢) وأخرجه بمعناه أبوداود في الصوم (٢٣٤٨)، والترمذي في الصوم (٧٠٥).

أذان بلال، ولا بياض الأفق المستطيل هكذا، حتى يستطير هكذا»(١).

فأباح عز وجل الجماع ليالي الصوم والأكل والشرب حتى طلوع الفجر، وفي ذلك إشارة إلى استحباب السحور، وتأخيره، وهو ما صرحت به السنة.

فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحروا، فإن في السحور بركة»(٢).

وعن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**»(٣).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار، وأخروا السحور**»(٤).

ومقتضى إباحة الجماع والأكل والشرب إلى طلوع الفجر صحة صوم من أدركه الفجر وهو جنب، كما صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة.

فعن أبي بكر بن عبدالرحمن، قال: كنت أنا وأبي، فذهبت معه، حتى دخلنا على عائشة ﷺ قالت: «أشهد على رسول الله ﷺ إن كان ليصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يصومه. ثم دخلنا على أم سلمة، فقالت مثل ذلك»(٥).

وعن عائشة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم. فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم**» فقال: لست مثلنا يا رسول الله- قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»(٦).

ومثل الجنب الحائض، إذا طهرت قبل الفجر فصيامها صحيح وإن لم تغتسل إلا

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٠٩٤)، وأبوداود في الصوم (٢٣٤٦)، والنسائي في الصيام (٢١٧١)، وأحمد (٥/ ٧، ١٨).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (٢٩٢٣)، ومسلم في الصيام (١٠٩٥)، والنسائي في الصيام (٢١٤٦)، والترمذي في الصوم (٧٠٨)، وابن ماجه في الصيام (١٦٩٢).

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١٠٩٦)، وأبوداود في الصوم (٢٣٤٣)، والنسائي في الصيام (٢١٦٦)، والترمذي في الصوم (٧٠٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٧).

(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٢)، ومسلم في الصيام (١١٠٩)، وأبوداود في الصوم (٢٣٨٨).

(٦) أخرجه مسلم في الصيام (١١١٠).

بعد الفجر.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: ثم أكملوا الصيام إلى دخول الليل، وذلك بغروب الشمس، فالصيام الواجب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، أي: مغيب قرصها. فإذا غاب قرصها، حل الفطر، وأفطر الصائم حكماً.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم**»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ إشارة إلى تعجيل الفطور، كما رغبت بذلك السنة، فعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**قال الله- عز وجل: أحب عبادي إليَّ أعجلهم فطراً**»(٣).

كما أن في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ ما يدل على عدم مشروعية الوصال، كما صرحت بذلك السنة، فعن بشير بن الخصاصية ﷺ: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الوصال، وقال: **يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله، وأتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا**»(٤).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**لا تواصلوا، قالوا: إنك تواصل. قال: إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني. فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل النبي ﷺ بهم يومين، أو ليلتين، ثم رأوا الهلال. فقال النبي ﷺ: لو تأخر الهلال لزدتكم،**

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم- متى يحل فطر الصائم (١٩٥٤)، ومسلم في الصيام- وقت انقضاء الصيام، وخروج النهار (١١٠٠)، وأبوداود في الصوم (٢٣٥١)، والترمذي في الصوم (٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧)، ومسلم في الصيام (١٠٩٨)، والترمذي في الصوم (٦٩٩)، وابن ماجه في الصيام (١٦٩٧).

(٣) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٠٠)- وقال: «حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٥).

كالمنكِّل لهم»(١).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل، فليواصل إلى السحر...**» الحديث(٢).

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ الآية.

ذكر الله- عز وجل- حل مباشرة النساء ليالي الصيام، ثم أتبع ذلك بالنهي عنها حال الاعتكاف في المساجد، احترازاً من أن يظن جوازها مطلقاً حتى للمعتكف، فهذا أشبه بالاستثناء من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، والضمير «هن» يعود إلى النساء، أي: الزوجات، أي: ولا تجامعوهن.

﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونكم عاكفين في المساجد.

وقوله: ﴿فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ لبيان الواقع، فالاعتكاف الشرعي لا يكون إلا في المساجد. فلا يجوز للمعتكف في المسجد في رمضان ولا في غيره جماع زوجته، ولا فعل مقدمات الجماع، لا ليلاً ولا نهاراً، ولو خرج لحاجة فليس له فعل شيء من ذلك.

أما المباشرة بمعنى لمس البشرة البشرة لمعاطاة شيء ونحو ذلك فلا حرج فيها؛ لما روته عائشة ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ يدني إليَّ رأسه، وهو معتكف، فأرجله وأنا حائض»(٣).

والاعتكاف والعكوف: ملازمة الشيء، والمداومة عليه، كما قال تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] أي: ملازمون لعبادتها، مديمون على ذلك.

والاعتكاف شرعاً: لزوم مسجد لطاعة الله عز وجل والتعبد له والانقطاع إليه.

ولا يصح إلا في مسجد تقام فيه صلاة الجماعة، والأفضل أن يكون مما تقام فيه

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٩٩)، ومسلم في الصيام (١١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٣)، وأبوداود في الصوم (٢٣٦١).

(٣) أخرجه البخاري في الحيض (٢٩٥)، ومسلم في الحيض (٢٩٧)، وأبوداود في الصوم (٢٤٦٧)، والنسائي في الحيض (٣٨٧)، والترمذي في الصوم (٨٠٤)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٣٣).

الجمعة والجماعة؛ حتى لا يحتاج للخروج لصلاة الجمعة.

وفي النهي عن مباشرة النساء حال الاعتكاف في المساجد في نهاية أحكام الصيام إشارة إلى فضل الاعتكاف في رمضان، وبخاصة في العشر الأواخر منه، اقتداءً بفعله ﷺ.

فعن عائشة ﵂ قالت: «كان رسول الله ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله- عز وجل- ثم اعتكف أزواجه من بعده»(١).

كما أن في ذلك إشارة أيضاً إلى أن مما يستحب للمعتكف في غير رمضان الصيام.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما سبق في الآية من إحلال الجماع والأكل والشرب ليالي الصيام، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، بطلوع الفجر الثاني، ومن ثم إتمام الصيام إلى الليل، بغروب الشمس، والنهي عن المباشرة حال الاعتكاف في المساجد.

وأشار إلى هذه الأحكام بإشارة البعيد تعظيماً لها.

و«حدود» جمع «حد» والحد لغة: الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض، وهي مراسيمها التي تحددها وتفصل بينها.

وحدود الله تنقسم إلى قسمين: حدود أوامر وواجبات يجب فعلها، وعدم تركها، وتعديها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والقسم الثاني: حدود نواه ومحرمات وممنوعات يجب تركها والبعد عنها، وعدم قربها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ الفاء: للتفريع، و«لا» ناهية، أي: فلا تقربوا حدود الله، ومحرماته، بل ابتعدوا عنها واجتنبوها، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وذلك لأن الوسائل لها أحكام الغايات والمقاصد، فالوسيلة المؤدية إلى المحرم محرمة، فالزنا محرم، وكذا ما يؤدي إليه من الخلوة بالأجنبية، والسفور، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٢٦)، ومسلم في الاعتكاف (١١٧٢)، وأبوداود في الصوم (٢٤٦٢)، والترمذي في الصوم (٥٩٠).

فجماع المعتكف لزوجته محرم، وكذا ما يؤدي إليه من تقبيل المعتكف لزوجته، وضمه لها، ومعانقتها ونحو ذلك.

وذلك لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، كما قال ﷺ في حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه: «**إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه**»(١).

ولهذا فإن من غير الجائز شرعاً أن يخلو الرجل بامرأة أجنبية، وقد رُوي أنه ﷺ قال: «**ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**»(٢).

وإن من المؤسف حقًّا أن يستبيح الكثيرون الخلوة بالخادمات في بيوتهم هم وأولادهم، والخلوة بالمرأة في أماكن العمل متجاهلين حرمة هذا الأمر، وما يترتب عليه من أمور لا تحمد عقباها، وما حال هؤلاء إلا كما قيل:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء(٣)

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ الكاف: اسم يفيد التشبيه بمعنى «مثل» في محل نصب صفة لموصوف محذوف وقع مفعولاً مطلقاً للفعل ﴿يُبَيِّنُ﴾.

أي: مثل ذلك البيان للآيات، في الصيام وأحكامه، وحكم الجماع والأكل والشرب ليالي الصيام، وحكم المباشرة للمعتكف وغير ذلك يبين الله- عز وجل- آياته الشرعية في سائر الأحكام للناس.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتقوا الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، عن علم ومعرفة وبصيرة، بأحكام الله- عز وجل- وحدوده.

أي: إن الله- عز وجل- أقام الحجة على الخلق، وأوضح المحجة بما أنزل من

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤).

(٢) ذكره الترمذي في الرضاع (١١٧١).

(٣) البيت للحلاج. انظر: «نفح الطيب» (٥/ ٢٩٢).

الآيات البينات في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ ليتقوه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الجماع والأكل والشرب ليالي الصيام حتى طلوع الفجر، وقد كانوا قبل ذلك إذا نام الإنسان، أو صلى العشاء حرم عليه الجماع والأكل والشرب، إلى غروب الشمس، من اليوم التالي، فنسخ الله- عز وجل- ذلك رحمة بعباده، وتخفيفاً عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

ومفهوم هذا أن ذلك كان قبل نزول الآية حراماً عليهم، وعلى هذا دلت الأحاديث في سبب نزول الآية، وهذا من نسخ القرآن للسنة.

٢- أن كلاً من الزوجين لباس وستر للآخر يحصنه ويعفه؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

وهذا يدل على فضل الزواج ونعمة الله- عز وجل- على العباد بمشروعيته.

٣- إثبات العلة والحكمة في أحكام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، فأحل الله- عز وجل- جماع الزوجات ليالي الصيام لهذه العلة.

٤- علم الله- عز وجل- بأحوال وأعمال العباد، وما يحصل منهم من خيانة للأنفس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٥- أن المخالفة والمعصية خيانة للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٦- إثبات صفتي التوبة والعفو لله- عز وجل- وتوبته- عز وجل- وعفوه عما حصل من المؤمنين من خيانة لأنفسهم بالجماع، أو الأكل والشرب بعد صلاة العشاء، أو

بعد النوم قبلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

٧- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين بالتخفيف عنهم، بإباحة الجماع والأكل والشرب ليالي الصيام إلى طلوع الفجر، وتأكيد نسخ المنع من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

٨- إثبات النسخ إلى الأخف، وأنه من توبة الله- عز وجل- على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾، كما قال تعالى في نسخ وجوب الصدقة بين يدي المناجاة: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣]، وقال تعالى في نسخ قيام الليل: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠].

٩- أن للزوج مباشرة زوجته والتمتع بما شاء منها على أي حال؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ عدا الوطء في الدبر، وفي كل حال عدا حال الحيض والنفاس والصيام والاعتكاف والإحرام.

١٠- ينبغي للزوجين عند الجماع استحضار وطلب المقاصد الشريفة للنكاح من تكثير النسل، وتحصين النفس والعفة، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾.

١١- أن الإنسان يؤجر على جماع أهله، لما في ذلك من تحصين نفسه وتحصين أهله، والتمتع بما أباح الله، مما يقي بتوفيق الله من الوقوع في المحرم.

١٢- في إباحة الجماع إلى طلوع الفجر دليل على صحة صوم من أصبح جنباً، وعلى هذا دلت السنة.

كما في حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما قالتا: «كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع، من غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم» وفي حديث أم سلمة: «ثم يفطر ولا

يقضي»[١].

وأما ما روي من الآثار من أن الصيام لا يصح ممن أصبح جنباً، فهي آثار ضعيفة.

ومثل الجنب الحائض أو النفساء إذا طهرت قبل الفجر صح صومها، وإن لم تغتسل إلا بعد الفجر.

١٣- في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ دليل على أن من أكل أو شرب أو جامع شاكًّا في طلوع الفجر فلا شيء عليه؛ لأنه لم يتبين طلوع الفجر، والأصل بقاء الليل، حتى ولو تبين له بعد ذلك أن ذلك وقع منه بعد طلوع الفجر.

١٤- وجوب إتمام الصيام إلى الليل، وأن الصيام هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع، ونحو ذلك من طلوع الفجر إلى إقبال الليل وغروب الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾.

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ إشارة إلى استحباب تأخير السحور، وتعجيل الفطر، كما دلت على ذلك السنة.

١٦- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ دليل على أن من أكل أو شرب أو جامع شاكًّا في غروب الشمس ودخول الليل، فعليه القضاء؛ لأن الأصل بقاء النهار.

١٧- كراهة الوصال، أو تحريمه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾.

١٨- مشروعية الاعتكاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ﴾.

١٩- أن الاعتكاف لا يكون إلا في المساجد، وأنه يصح في كل مسجد تقام فيه صلاة الجماعة من المساجد الثلاثة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ﴾

---

(١) سبق تخريجها.

والأفضل أن يكون في مسجد تقام فيه الجمعة حتى لا يحتاج للخروج إليها.

٢٠- النهي عن الجماع ومقدماته حال الاعتكاف، وأنه مبطل للاعتكاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

٢١- الإشارة إلى فضل الاعتكاف في رمضان، وبخاصة في العشر الأواخر منه، كما كان ﷺ يفعل، وأن مما يستحب للمعتكف في غير رمضان الصيام لذكر الله- عز وجل- الاعتكاف في نهاية أحكام الصوم.

٢٢- تعظيم الله- عز وجل- لحدوده، وأوامره ونواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ بالإشارة إليها بإشارة البعيد.

٢٣- أن ما شرعه الله- عز وجل- من أحكام الصيام والاعتكاف في هذه الآيات هو من حدود الله- عز وجل- أي: من أوامره التي لا يجوز تجاوزها ولا تعديها، ونواهيه التي لا يجوز الاقتراب منها؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

٢٤- إقامة الحجة على الناس، وإيضاح المحجة لهم، ببيان الله- عز وجل- آياته الشرعية في سائر أحكام الملة، كما بين لهم في هذه الآيات أحكام الصيام والاعتكاف؛ لأجل أن يتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٢٥- أن الغاية من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبيان الآيات الشرعية والكونية هي تقوى الله عز وجل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

في التأمل في سياق هذه الآية ولحاقها يتبين أن الكلام في المناسبات بين الآيات، إنما هو أمر ظني تقريبي، يظهر ويتضح في بعض المواضع، ويخفى وينغلق في بعضها؛ لهذا لا ينبغي التكلف والتمحل في البحث عن المناسبات بين الآيات؛ إذا لم تكن واضحة، كما في هذا الموضع، عن أنس بن مالك ﷺ قال: «قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]، فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، قال:عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إن هذا لهو التكلف»(١).

أما إذا كانت المناسبة بين الآيات ظاهرة جلية، فيستحسن التنبيه عليها ولا ينبغي إغفالها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الواو: استئنافية، و«لا» ناهية، والمراد النهي عن الأكل وسائر الانتفاعات، وإنما خص الأكل؛ لأنه الأهم من جمع المال، وأقوى وجوه الانتفاع، وهو كما يقال: كسوة الباطن، والنهي عنه نهي عن سائر الانتفاعات بالمال إذا كانت بالباطل؛ لأنه إذا حرم أكل الأموال بيننا بالباطل مع أن الأكل حاجة وضرورة، فسائر الانتفاعات بها تحرم من باب أولى.

والأموال: كل ما يملك ويتمول من نقد، أو عين، من الدراهم والعقار والحيوان والأثاث وغير ذلك. ﴿بَيْنَكُم﴾ أي: بالتعامل بينكم.

﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الباء للتعدية، أي: تتوصلون إلى أكلها بالباطل و«الباطل» الذاهب الزائل، وما ليس بحق، قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٢٤].

قال لبيد(٢):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٤/ ٢٠). وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٣٤٨): «إسناده صحيح».

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٢٥٦).

والباطل هنا يشمل كل ما أخذ من الأموال بغير حق، سواء من طريق البيوع والمعاملات المحرمة كالربا والقمار والغش، أو من طريق الغصب والسرقة، وجحد الحقوق وغير ذلك.

أي: لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل، فأضاف الأموال إلى الآكلين، وهي أموال غيرهم للتنبيه على أمرين:

الأول: أن أكل الإنسان لمال أخيه بالباطل بمثابة أكله لماله هو بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضاً؛ لأن قتل الإنسان لأخيه بمثابة قتله لنفسه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا يلمز بعضكم بعضاً؛ لأن لمز الإنسان لأخيه بمثابة لمزه لنفسه.

وقد قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء، بالحمى والسهر**»(١).

الأمر الثاني: ليعتبر من يأكل مال أخيه بالباطل ذلك بماله هو، فكما لا يرضى أن يؤكل ماله بالباطل فكيف يأكل مال أخيه بالباطل ويرضى له بذلك.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ الضمير في «بها» يعود على الأموال، أي: وتتوصلوا وتتقدموا بها إلى الحكام والقضاة، احتيالاً منكم؛ لتجعلوهم وسيلة لأكلها، وذلك بالتلبيس عليهم، والأيمان الفاجرة، ونحو ذلك.

وقد قال ﷺ: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له بقطعة من النار، فليأخذها أو ليدعها**»(٢). أو برشوة الحكام منها ليحكموا بها لكم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٨٣)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠١)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

بالباطل، وقد قال ﷺ: «**لعن الله الراشي والمرتشي**»(١).

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ اللام للعاقبة، أي: لتكون العاقبة والنهاية أن تأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم.

ويحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: لأجل أن تأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم.

والمعنى: لتأكلوا طائفة وقسماً ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ وهي أموال المدلى بأموالهم إلى الحكام أو بعضها.

والمراد بالناس المدلى بأموالهم إلى الحكام، أو عامة الناس.

﴿بِالْإِثْمِ﴾ الباء للمصاحبة، أي: أكلاً مصحوباً بالإثم، وهو الذنب؛ لأنه أكل بغير حق.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم تعلمون أن أكلكم لها باطل وإثم، وأنها حرام عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «فهذا الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال، فيخاصمهم فيه إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل حراماً»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- تحريم أكل الأموال بالباطل، من أي طريق كان، سواء كان من طريق البيوع والمعاملات المحرمة، كالربا، أو من طريق الغصب والسرقة، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾.

٢- وجوب حفظ المال؛ لأن به قوام الحياة والمعاش، وهو أحد الضروريات التي جاء

---

(١) أخرجه أبوداود في الأقضية (٣٥٨٠)، والترمذي في الأحكام (١٣٣٦)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٣)، وأحمد (٢/ ١٦٤، ١٩٠) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٢٧٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢١).

الدين بحفظها، وذلك بكسبه من حلال، وصرفه في وجوهه المشروعة باعتدال.

٣- التنديد بمن يحتالون لأكل أموال الناس بالباطل، بالإدلاء والرفع بها إلى الحكام؛ ليجعلوهم وسيلة لأكلها، بالأيمان الفاجرة، والتلبيس عليهم، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾.

٤- تحريم الرشوة؛ لما فيها من إبطال الحق، وإظهار الباطل، والتوصل إلى أكل الأموال بغير حق.

٥- أن حكم الحاكم والقاضي لا يغير الشيء في الواقع ونفس الأمر، فلا يُحل حراماً ولا يُحرم حلالاً.

٦- الوعيد والتهديد لمن يُقدمون على أكل أموال الناس بالباطل، بأي وسيلة، وهم يعلمون حرمتها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٧- أن من أخذ شيئاً أو حُكم له به، وهو يعتقد أنه له، فلا إثم عليه، لكن لو علم بعد ذلك أنه ليس له؛ حرم عليه أخذه ووجب عليه رده؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٨- تحريم الوكالة والمحاماة عن شخص مبطل في دعواه؛ لأن هذا من التعاون على الإثم وأكل الأموال بالباطل- مع العلم بذلك، وهذا يحصل كثيراً اليوم مِن بعض مَن جعلوا المحاماة وسيلة للرزق، وصار هَمّ الواحد منهم أن يكسب القضية؛ ليأخذ ما جعل له من جعل، غير مبالٍ بما ارتكبه من الحيَل والأسباب غير المشروعة للحصول على ذلك.

٩- وجوب الحذر من فتنة الدنيا والمال، ومن الوقوع في الإثم والمحرم بسبب ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

رُويَ عن جمع من السلف: أن الناس سألوا رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والسائلون هم الصحابة رضي الله عنهم.

والأهلة: جمع هلال، وهو القمر عندما يظهر ويبدو أول الشهر، أي: يسألونك عن الأهلة، ما الحكمة فيها؟ بدليل الجواب، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾.

أو عن سبب كون الهلال يبدو ضعيفاً ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم، ثم يأخذ في النقص، فأجيبوا عن الحكمة في ذلك، لأنها الأهم، وهي التي يحتاجون لبيانها، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ﴾ فأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وقوله: «هي» يعني الأهلة.

﴿مَوَٰقِيتُ﴾ جمع ميقات، من الوقت، أي: يعرف بها الناس مواقيت عباداتهم من الصيام والحج، وأوقات الزكاة، والكفارات، وعدة النساء، وغير ذلك، مما يحتاج إلى توقيت من أمور دينهم ودنياهم كوقت حلول الديون والإجارات وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: ١٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأهلة مواقيت للناس، فصوموا**

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٢٨٠- ٢٨٢).

لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا ثلاثين يوماً»(١).

﴿وَٱلْحَجِّ﴾ أي: ومواقيت للحج، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

وهي أيضاً مواقيت للصيام، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وخص الحج بالذكر- والله أعلم- لكثرة أشهره؛ ولأن هذه الآيات توطئة وتمهيد لذكر أشهر الحج وأحكامه.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

سبب النزول:

عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء يقول: «نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا، فجاؤوا، لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قبل بابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ «البر» اسم «ليس» مرفوع، والباء في قوله: «بأن» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للنفي، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل نصب خبر «ليس» أي: وليس البر إتيانكم البيوت من ظهورها.

و«البر» في الأصل: اسم جامع لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة، وهو ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف، والحاكم في المستدرك، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وأخرجه أحمد (٤/ ٢٣)، من حديث قيس بن طلق عن أبيه ﷺ، وروي من حديث أبي هريرة ﷺ. ورُوِيَ من كلام علي ﷺ. انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢٦)

(٢) أخرجه البخاري في الحج، قول الله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ (١٨٠٣)، ومسلم في «التفسير» (٣٠٢٦).

قرأ أبوجعفر وأبوعمرو ويعقوب، وورش عن نافع، وحفص عن عاصم: ﴿ٱلْبُيُوتَ﴾ بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها ﴿البِيُوتَ﴾ في جميع القرآن.

قوله: ﴿مِن ظُهُورِهَا﴾ «من» بيانية، و«ظهورها»: خلفها، أي: وليس البر، ولا من أعمال الخير، التي يتعبد لله- عز وجل- بها إتيان البيوت من خلفها، تسلقاً وتسوراً للجدران، كما كان يفعله كثير من أهل الجاهلية، إذا أحرموا بحج أو عمرة زعماً منهم أنه لا يجوز للمحرم أن يدخل تحت سقف، وهذا باطل.

والمُحْرِم إنما يُمنع من تغطية رأسه بشيء مباشر، ولا يمنع من الدخول تحت سقف ونحوه، وإنما هذا من الابتداع في الدين، كما هو شعار الرافضة أخزاهم الله.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ قرأ نافع وابن عامر بتخفيف النون في «لكن»؛ ورفع «البرُّ» على أنها مبتدأ، وقرأ الباقون بتشديد النون ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، ونصب ﴿ٱلْبِرَّ﴾ على أنها اسم «لكن».

والمعنى: ولكن البار من اتقى، أو ولكن البر بر من اتقى الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

و«البر» يفسر بالتقوى، كما تفسر التقوى بالبر في حال انفراد كل منهما عن الآخر، لكن في حال اجتماعهما يفسر كل منهما بمعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٢]، فالبر هنا يراد به فعل المأمورات، والتقوى ترك المنهيات.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ لمّا بين- عز وجل- أنه ليس من البر إتيان البيوت من ظهورها أتبع ذلك بالأمر بإتيان البيوت من أبوابها كما هو المعتاد؛ لأنه الأيسر، إذ لا فائدة في إتيانها من ظهورها، وليس فيه سوى المشقة.

وكما ينبغي إتيان البيوت من أبوابها ومداخلها المعروفة؛ لأنه الأيسر والأصلح،

وهو المعتاد، فكذلك ينبغي إتيان كل أمر من الأمور من بابه المناسب الموصل إليه، بأقرب وأيسر طريق.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، إذ إن هذا هو حقيقة البر.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا، وتفوزوا وتحصلوا على المطلوب، وهي الجنة غاية المطالب، وتنجوا من المرهوب، وهي النار، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الفوائد والأحكام:

١- حرص الصحابة ﷺ على العلم، ومعرفة أمور دينهم ودنياهم، لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾.

مع أدبهم ﷺ؛ ولهذا لم يسألوا إلا عما يعنيهم في ذلك في بضع عشرة مسألة.

قال ابن عباس ﷺ: «ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن»(١).

٢- علم الله- عز وجل- المحيط بكل شيء، وسمعه الواسع لجميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٣- تشريف الله- عز وجل- لنبيه ﷺ وتكريمه بخطابه- عز وجل- له.

٤- ينبغي التوجه بالسؤال في الأمور الشرعية للرسل عليهم الصلاة والسلام في حياتهم، ولورثتهم بعد وفاتهم وهم العلماء الربانيون، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

٥- أن معرفة الحكمة من جعل الأهلة أهم من معرفة ماهيتها، ولهذا سأل الصحابة ﷺ عنها فأجيبوا عن ذلك، أو أنهم سألوا عن ماهيتها فأجيبوا عن الحكمة فيها؛ لأنها أهم.

٦- تولي الله عز وجل الإجابة عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ

---

(١) أخرجه البزار- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٩).

وَٱلْحَجِّ ﴾.

وهذا دليل على عنايته- عز وجل- به ﷺ ورحمته به وبأمَّته، كما أن فيه ردًّا على مَن يزعمون تقوّله للقرآن من عند نفسه.

٧- أن الحكمة من الأهلة أنها مواقيت للناس، يعرفون بها شهر صومهم وأشهر حجهم، وعدة نسائهم، وحلول ديونهم، وغير ذلك مما يحتاج إلى توقيت من أمور دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾.

٨- أن الأصل التوقيت بالأهلة «أي: بالأشهر القمرية»؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ وهو التوقيت الشرعي الذي ينبغي أن يتميز به المسلمون ويعملوا به.

٩- أن الحج مُوَقت بالأهلة والأشهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَجِّ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

١٠- أنه ليس من أعمال البر التي يُتعبد لله- عز وجل- بها إتيان البيوت من ظهورها، تسوراً وتسلقاً، كما كان يعتقد ذلك أهل الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾.

١١- ليس من محظورات الإحرام التي تحرم على المحرم الدخول مع الأبواب، أو تحت سقف، وإنما المحظور عليه تغطية الرأس مباشرة.

١٢- أن حقيقة البر: تقوى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾.

١٣- كما ينبغي إتيان البيوت السكنية من أبوابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ كذلك ينبغي إتيان الأمور المعنوية من أبوابها المناسبة.

١٤- وجوب تقوى الله- عز وجل- وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

١٥- أن تقوى الله- عز وجل- سبب للفلاح والسعادة في الدنيا، والفوز بالجنة، والنجاة من النار في الأخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۚ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾.

قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ الواو: استئنافية، والمقاتلة: المفاعلة من القتل، وهي ما يكون بين فريقين أو شخصين، والأمر للوجوب، وقد يكون القتال واجباً عينيًّا، وقد يكون واجباً على الكفاية، حسب الحال والحاجة.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في دين الله، وفق شرعه، ولإعلاء كلمته- عز وجل- كما قال ﷺ لما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

فالقتال المشروع ما كان في سبيل الله، وفق شرعه، ولإعلاء كلمته عز وجل.

﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي: الذين يقاتلونكم من الكفار والمشركين، ممن يباشرون قتالكم حقيقة، أو حكماً، ممن يساعدون على ذلك بالمال والرأي، ونحو ذلك.

وفي هذا بيان أن القتال إنما يكون لمن يُقاتِلون، دون من لا يقاتل كالنساء والصبيان ونحوهم.

وفيه إغراء وتهييج وتحريض للمؤمنين على القتال، كما قال تعالى بعد هذه الآية:

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [الآية: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ الاعتداء: تجاوز الحد المباح إلى المحرم. أي: ولا تعتدوا فتقتلوا من لم يقاتل من النساء والصبيان والرهبان وأصحاب الصوامع، ومن يبذلون الجزية ونحوهم، أو تغلوُّا، أو تغدروا، أو تمثلوا، أو تقتلوا الحيوانات، ونحو ذلك.

كما كان ﷺ ينهى جيوشه عن ذلك، ففي حديث بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «**اخرجوا باسم الله، قاتلوا في سبيل الله، من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تَغُلُّوا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع**»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان»(٣).

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يقول: لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير، ولا من ألقى إليكم السلم، وكفّ يده، فإن فعلتم، فقد اعتديتم»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٣)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٦٨)، والترمذي في السير (١٥٦٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤١).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٢٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٢٥).

ومن الاعتداء أيضاً: ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وفي الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ تعليل للنهي عن الاعتداء، أي: لأن الله- عز وجل- لا يحب المعتدين، بل يبغضهم، ويبغض ويكره الاعتداء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢].

وبالمقابل فهو- عز وجل- يحب أهل العدل، الذين لا يعتدون، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ الضمير «هم» يعود إلى الذين يقاتلوننا من الكفار.

﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ «حيث» ظرف مكان، أي: في أي مكان ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم وظفرتم بهم. وهذا يستلزم العموم في الزمان والمكان، أي: واقتلوهم في أي مكان وزمان وجدتموهم، وظفرتم بهم، قتال دفاع، وقتال ابتداء، ولا يستثنى من ذلك إلا ما كان في الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٩١]، أو في الأشهر الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ﴾ أي: وأخرجوهم من مكة حيث أخرجوكم منها، واضطروكم إلى الهجرة عنها، وأخرجوهم أيضاً من كل بلد أخرجوكم منه مجازاة لهم،

على سبيل المقايضة والمجازاة، والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ الفتنة في الأصل: الابتلاء والاختبار، والمراد هنا الفتنة في الدين بالكفر والشرك، وصد الناس عن دين الله، وإخراجهم منه، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، أي: فتنوهم بصدهم عن دينهم، وتحريقهم بالنار.

﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ أي: أعظم جرماً من القتل الذي وقع منكم في الشهر الحرام، ومن قَتْلكم لمن يقاتلكم، كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٧].

كما أن فتنة المؤمن في دينه أشد من قتله؛ لأن القتل غايته الموت، لكن الفتنة بصد الناس عن دينهم غايتها إيقاعهم بالكفر، الذي عاقبته النار وبئس القرار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ومن هنا يؤخذ أن غزو المسلمين فكريًّا، وإفساد عقائدهم وأخلاقهم، والتأثير على عقولهم أعظم جرماً، وأشد ضرراً من الغزو العسكري.

والمصيبة أن هذا الغزو المُركَّز والمُسلَّط على المسلمين لطمس هويتهم الإسلامية يقع على أيدي كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام، ممن تربعوا على عروش كثير من وسائل الإعلام المشاهدة والمسموعة والمقروءة، ممن هم من جنسنا ويتكلمون بلغتنا، مصداق قوله ﷺ لما سأله حذيفة رضي الله عنه وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال ﷺ: «**نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**». قال حذيفة: قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: «**هم من**

جنسنا ويتكلمون بلغتنا»(١).

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم» بدون ألف بعد القاف في المواضع الثلاثة، وقرأ الباقون بألف بعد القاف فيها: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، أي: ولا تقاتلوهم ابتداءً ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: في مكة، داخل حدود الحرم، كما قال ﷺ: **«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتي هذه، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»**(٢).

﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ «حتى» للغاية، والضمير في قوله: «فيه» يعود إلى المسجد الحرام، أي: حتى يقاتلوكم في الحرم، بأن يبدؤوا القتال بأنفسهم.

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ أي: فإن قاتلوكم في الحرم- ولم يرعوا حرمة الحرم، فاقتلوهم فيه معاملة لهم بالمثل، ودفاعاً عن دينكم ودمائكم وأعراضكم وأوطانكم وأموالكم وحرمات المسلمين.

فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن ابتداء القتال في الحرم، وحرم ذلك عليهم حرمة للحرم وتعظيماً له، وأمرهم بقتل من قاتلهم فيه؛ دفعاً للصائل ودفاعاً عن حرمات المسلمين، ومعاملة له بالمثل.

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الإشارة للمصدر المفهوم من قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ أي: مثل

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

هذا القتل، وهو قتل من قاتل عند المسجد الحرام ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عقوبة الكافرين بالله، المكذبين لرسله وشرعه، وهي قتلهم في الدنيا- مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: كَفوا عن قتالكم، أو عمّا هم عليه من قتالكم ومن الكفر والشرك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن الله ذو مغفرة واسعة، يستر الذنب، ويتجاوز عن عقوبته، وذو رحمة واسعة: رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه: عامة، وخاصة.

وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها، أي: فإن انتهى الكفار عن قتالكم، فكفوا عن قتالهم، وتجاوزوا عنهم.

أو فإن انتهوا وتابوا عمّا هم عليه من قتالكم ومن الكفر والشرك فإن الله- عز وجل- يغفر لهم ما سلف منهم، ويستر عليهم، ويتجاوز عنهم، ويرحمهم، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا عمرو، أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله**»(١).

فبمغفرته- عز وجل- ورحمته الواسعتين يستر ذنوب من كفوا عن قتال المؤمنين، وعن الكفر والصد عن دين الله، ودخلوا في الإسلام، ويرغب عباده بالتجاوز عنهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١).

بل ويبدِّل سيئاتهم حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

والرحمة سبب للمغفرة، والمغفرة من آثار رحمته- عز وجل- وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾ تأكيد للأمر بقتالهم، وبيان المقصود من القتال في سبيل الله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، وإنما المقصود به ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾.

قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ أي: وقاتلوا الكفار الذين يقاتلونكم.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ «حتى» للغاية، و«كان» تامة، أي: حتى لا توجد فتنة، أي: حتى لا يوجد صد للناس عن دين الله إلى الكفر والشرك.

قال الإمام أحمد- رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣]: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله، أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»(١).

فالمعنى: وقاتلوهم، حتى لا يُفتن الناس في دينهم ويُصَدون عنه.

عن نافع: أن ابن عمر رضي الله عنهما أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير، فقالا: إن الناس قد ضُيِّعوا، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: «يمنعني أن الله حرم دم أخي. فقالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله».

وفي رواية: «أن رجلاً أتى ابن عمر، فقال: يا أباعبدالرحمن، ما حملك على أن تحج

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (٤٥١٥).

عاماً وتعتمر عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله- عز وجل- وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلاً فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه، وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة»(١).

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾ أي: ويكون الدين الظاهر والعبادة والطاعة لله وحده، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [الآية: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

فالحكمة من إيجاب القتال في سبيل الله؛ حتى لا يفتن الناس ويُصدوا عن دينهم بالكفر والشرك، وليكون الدين كله لله وحده.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(٢).

وقال ﷺ: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٣).

وفي قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾ دلالة على أنه لا يقبل من أحد أن يدين لغير الله، أي: لا يقبل من أحد أن يدين بغير الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (٤٥١٥).
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥)، ومسلم في الإيمان (٢٢).
(٣) سبق تخريجه.

يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ أي: فإن انتهوا عن كفرهم، وقتالكم، وما هم عليه من الظلم، والصد عن دين الله، ودخلوا في دين الله، أو بذلوا الجزية.

﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فكفوا عنهم ولا تقاتلوهم؛ لأن العدوان لا يجوز إلا على الظالمين، الكفار المقاتلين.

والمراد بالعدوان على الظالمين: المقاتلة لهم، أي: لا مقاتلة إلا للظالمين، وإنما سمي قتال الظالمين «عدواناً» من باب المشاكلة، ومقابلة الشيء بمثله لفظاً؛ لأنه سببه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠].

وليس معناه أن مقاتلة الظالمين من العدوان، بل هي من الحق الواجب، لكن فيه إشارة واضحة إلى أن قتالهم بعد انتهائهم عما هم عليه من الظلم، هو من العدوان عليهم والظلم لهم.

وقيل: معنى ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ أي: فلا سبيل، كما في قوله تعالى في قصة موسى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ﴾ [القصص: ٢٨]، أي: فلا سبيل عليَّ.

والظلم في الأصل: النقص، كما قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

وهو أيضاً: وضع الشيء في غير موضعه، على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

منع المشركون رسول الله وأصحابه عام الحديبية، سنة ست من الهجرة، في ذي القعدة، من دخول مكة، وصدوه عن البيت، فقاضاه الله، وأقصه منهم سنة سبع من

الهجرة، في شهر ذي القعدة، فدخل مكة، وقضى عمرته، فأنزل الله- عز وجل- قوله: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾(١).

قوله: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ «ال» في «الشهر» للجنس؛ لأن الشهر الحرام ليس شهراً واحداً وإنما هي أربعة أشهر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، كما في حديث أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الزمان قد استدار، كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم؛ ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**»(٢).

وسميت هذه الأشهر بالأشهر الحرم؛ لأن الله حرم فيها القتال، والاعتداء والظلم، كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الباء: للتعويض، كما يقال: صاعاً بصاع، أي: أنه لما منعكم المشركون من دخول مكة في الشهر الحرام «ذي القعدة» سنة ست من الهجرة، قاضاكم الله بالدخول من قابل، سنة سبع من الهجرة في «ذي القعدة» أي: هذا بهذا.

وفي هذا تطييب لقلوب الصحابة ﷺ بتمام نسكهم.

ويحتمل أن المعنى: إذا قاتلكم الكفار في الشهر الحرام، فقاتلوهم فيه، أو إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فلا حرج عليكم في قتالهم فيه.

عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٣٠٤- ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٧)، وفي التفسير (٤٦٦٢)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، وأبوداود في المناسك (١٩٤٧)، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٣)، وأحمد (٥/ ٣٧).

يغزى، أو يغزو فإذا حضر أقام حتى ينسلخ»[١].

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص.

والحرمات: جمع حرمة، وهي كل ما يجب احترامه، من زمان أو مكان أو أشخاص أو منافع أو أعيان، ومنها حرمة الشهر الحرام، والبلد الحرام، وحرمة الإحرام، وحرمة المسلم والذمي، والمعاهد والمستأمن.

والمعنى: أن هذه الحرمات إذا انتهك شيء منها أو اعتدي عليه يقتص من المعتدي بمثله، فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل في الشهر الحرام، ومن اعتدى في الحرم اقتص منه في الحرم، ومن اعتدى على مسلم أو ذمي ونحوه في بدنه أو عرضه أو ماله اقتص منه، وهكذا.

ولهذا لما بلغ النبي ﷺ عام الحديبية أن عثمان رضي الله عنه قد قتل- وكان بعثه برسالة إلى قريش ليبلغهم أنه ﷺ ما جاء لقتال- بايع أصحابه تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة على قتال المشركين، وعدم الفرار، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك، وتم الصلح بينه وبينهم.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء عاطفة، تفيد التفريع، و«من» شرطية، والفاء في قوله: ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ رابطة لجواب الشرط، لأنه جملة طلبية، وهذه الآية توكيد وتقوية لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ والاعتداء مجاوزة الحد، أي: فمن اعتدى عليكم من الكفار بقتال، أو قتل، أو انتهاك عرض، أو سلب مال، أو غير ذلك.

﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الباء للمقابلة، والبدل، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: فخذوا حقكم منه بمثل اعتدائه عليكم، أو بمثل الذي اعتدى عليكم به، في هيئته وفي كيفيته، وفي زمانه، وفي مكانه، وغير ذلك، سواء بقتال أو قتل، أو غير

---

(١) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» رقم (٣٨٨)، وأحمد (٢/ ٣٣٤)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٥٣٥- الأثر ٩٣) وإسناده صحيح.

ذلك، في الشهر الحرام، أو البلد الحرام، أو حال الإحرام، أو غير ذلك.

وسمى أخذهم بحقهم اعتداء؛ لأن سببه الاعتداء عليهم، وأيضاً من باب المجانسة والمشاكلة اللفظية، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

والأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ للإباحة، بدليل قوله تعالى في آخر آية سورة النحل المذكورة: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، وقوله تعالى في آخر آية سورة الشورى المذكورة: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، إلى غير ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك عدم القتال في الشهر الحرام، والبلد الحرام، ما لم يعتد عليكم فيهما، وعدم تجاوز الحد في القصاص ممن اعتدى، وعدم الاعتداء على من لم يعتد.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الأمر للوجوب، أي: يجب أن تعلموا علم يقين أن الله عز وجل مع المتقين خاصة بنصره وعونه، وتأييده وتوفيقه؛ ليحملكم ذلك على تقوى الله عز وجل كما أنه عز وجل مع المتقين، ومع جميع خلقه بإحاطته بهم، علماً وسمعاً وبصراً وقدرة، وغير ذلك من معاني ربوبيته- عز وجل- العامة لجميع خلقه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

سبب النزول:

عن أسلم أبي عمران قال: «حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبوأيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكه، فقال أبوأيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما أنزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجياً، فقلنا: قد

أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام، وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين، والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا، فنقيم فيهما، فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة: الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد»(١).

قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الإنفاق: إخراج المال وبذله، والأمر للوجوب.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد لإعلاء كلمة الله- عز وجل- وذلك بتجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، وهذا من الجهاد بالمال الذي قد يكون أهم وأوجب من الجهاد بالنفس؛ ولهذا يقدم في الذكر في القرآن- غالباً- على الجهاد بالنفس، وجعله الله أحد مصارف الزكاة الثمانية.

وفي الحديث: «**من جهز غازياً فقد غزا**»(٢). ولما جهز عثمان ﷺ جيش العسرة ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها قال ﷺ: «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، يرددها مراراً**»(٣).

كما يشمل الأمر بالإنفاق في سبيل الله جميع وجوه البر الواجبة من إخراج الزكاة والنفقات الواجبة والكفارات والصدقات والنفقات المستحبة في وجوه الخير كلها، فكل ذلك في سبيل الله عز وجل.

﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية. أي: ولا تلقوا بأنفسكم وتفضوا بها إلى الهلكة، أو إلى الهلاك، والإلقاء بالأيدي إلى التهلكة معناه: الإلقاء بالنفس،

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥١٢)، والترمذي في تفسير سورة البقرة (٢٩٧٢)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣٢٢- ٣٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٠)، والحاكم (٢/ ٨٤، ٢٧٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب»، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٩٥)، وأبوداود في الجهاد (٢٥٠٩)، والنسائي في الجهاد (٣١٨٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٩)، من حديث زيد بن خالد ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣)، والترمذي في المناقب (٣٧٠١)، من حديث عبدالرحمن بن سمرة ﷺ، وقال: «حديث حسن غريب».

وإنما يعبر بالأيدي وباليدين وباليد ونحو ذلك عن النفس، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

كما يعبر بالوجه عن الذات كلها، كما قال عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧].

ولا يقال في مثل هذه الإطلاقات: إنها من المجاز، بل هي من الحقيقة، والسياق يدل على هذا.

والتعبير بالإلقاء فيه إشارة إلى إذلال من سلك هذا المسلك لنفسه، وهوانها عليه، فألقاها من غير اعتبار لها ولا مبالاة بها، وإذا هانت على المرء نفسه فمن ذا الذي يكرمها ويعزها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها**»(١).

وقد أحسن القائل:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا(٢)

وقال الآخر:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام(٣)

والتهلكة والهلكة والهلاك نوعان: هلاك حسي بالموت، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

وهلاك معنوي: بالكفر والمعاصي، وترك الجهاد والإنفاق في سبيل الله والعمل للآخرة، والتعرض لعذاب الله، والحرمان من ثوابه. وهذا أشد وأعظم.

وهذا هو المراد بالتهلكة في الآية، كما قال أبو أيوب الأنصاري ﷺ في سبب نزول الآية: «فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد».

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٢) البيت مجهول النسبة. انظر: «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧).

(٣) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٤/ ٩٤).

وكما قال البراء بن عازب ﷺ: «ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب، فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب»(١).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ: «التهلكة عذاب الله»(٢).

قال ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»(٣).

وهذا هو الهلاك الحقيقي؛ لما في ذلك من التعرض لعذاب الله- عز وجل- ودخول النار، والحرمان من ثوابه وجنته، وذلك حسب كبر الذنب وصغره، وكون صاحبه يخلد في النار أو لا يخلد.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

وهذا الهلاك هو الذي عناه الصحابي الجليل سلمة بن صخر ﷺ لما وقع على امرأته في نهار رمضان، وجاء إلى النبي ﷺ فزعاً مرعوباً يقول: «يا رسول الله، هلكت وأهلكت». قال ﷺ: «**وما أهلكك؟**» قال: «يا رسول الله، وقعت على امرأتي، وأنا صائم»(٤).

ولا يمتنع أن يشمل النهي في الآية أيضاً: المعنى الأول وهو التسبب لإهلاك النفس بالموت، بقتل الإنسان نفسه، بأي سبب من الأسباب؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان، يجب عليه المحافظة عليها، وحملها على ما فيه سلامتها في دينها ودنياها، والنَّأيُ بها عن مواقع الزلل والخطر.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سُمًّا، فقتل نفسه، فسمه في يده**

---

(١) سيأتي تخريجه بتمامه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣٢٥).

(٣) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٤٦٢)، من حديث عبدالله بن عمر ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٦)، ومسلم في الصيام (١١١١)، وأبوداود في الصوم (٢٣٩٠)، والترمذي في الصوم (٧٢٤)، وابن ماجه في الصيام (١٦٧١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»(١).

ومن أسباب قتل النفس المحقق: استعمال المخدرات والدخان، كما ثبت ذلك من خلال الطب والإحصائيات المتزايدة للوفيات بسبب ذلك.

ولا يدخل في قتل النفس المبارزة في جهاد الكفار، ولا ما فيه إظهار شجاعة المسلمين وقوتهم، كأن ينغمر المجاهد في صفوف الكفار، ويحمل عليهم؛ ليريهم قوة المسلمين وشجاعتهم، وليرهبهم ويرعبهم، كما حصل هذا من أحد الصحابة المهاجرين في القسطنطينية- كما جاء في سبب النزول.

وعن أبي إسحاق السبيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب: «إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا. قال الله لرسوله: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: ٨٤]. إنما هذا في النفقة».

وفي رواية: «**ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب، فيلقي بيده إلى التهلكة، ولا يتوب**». وفي رواية عنه: «**التهلكة: أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر الله لي**»(٢).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﵄ في قوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾: «ليس في القتال، ولكن حبسك النفقة في سبيل الله؛ لأنه عرضة تهلكة»(٣).

وإذا كان دخول المجاهد بين صفوف الكفار، وحمله عليهم جائزاً؛ لإظهار قوة المسلمين وشجاعتهم وإرهاب الكفار وإرعابهم، فليس من الجائز أن يفجر الإنسان نفسه ليقتل غيره، وربما من غير المقاتلين ومن النساء والصبيان، كما هو واقع من يفعلون هذا، فهذا من الانتحار وقتل النفس بغير حق.

وفرقٌ بين من يدخل في صفوف الكفار، فيَقْتُلُ من استطاع منهم- مع احتمال أن

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٠٩)، وأبوداود في الطب (٣٨٧٢)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٥)، والترمذي في الطب (٢٠٤٣)، وابن ماجه في الطب (٣٤٦٠).

(٢) أخرج هذا الأثر برواياته الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣١٩- ٣٢٠). وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣١٨).

ينجو بنفسه، وبين من يقتل نفسه لعل أحداً منهم أن يموت معه، فهذا ليس من الجهاد في شيء، بل من قتل النفس والانتحار، وقد قال الله- عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩].

وهذا تشويه لمفهوم الجهاد في الإسلام، بل تشويه للإسلام وأحكامه، وخروج عما كلف الله به، وعلى تحريم هذا عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وليس مع من يرى جواز ذلك دليل ولا تعليل صحيح؛ ولهذا لا يجوز أن يُفتى الناس بذلك ويُغرر بهم.

قوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن الأمر بالإحسان أعم من الأمر بالإنفاق؛ لأن الإحسان يشمل الإنفاق وغيره، كما يشمل الإحسان بفعل الواجب والمستحب.

وقد يحمل الأمر بالإنفاق على الواجب، ويحمل الأمر بالإحسان على المستحب، والأول أعم وأولى.

أي: وأحسنوا في عبادة الله- عز وجل- إخلاصاً لله- عز وجل- ومتابعة لرسوله ﷺ، كما قال- عز وجل: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ١١٢]، أي: أخلص العمل لله- عز وجل- وهو محسن باتباع الرسول ﷺ.

وقال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

فالذي عبَد الله كأنه يراه قد غلّب جانب الرجاء والرغبة فيما عند الله.

والذي عبَد الله لأن الله يراه، قد غلّب جانب الخوف من الله.

والمرتبة الأولى أكمل من المرتبة الثانية.

وأَحْسِنوا أيضاً: إلى خلق الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وبذل المعروف، وكف الأذى، ومعاملتكم للناس بما تحبون أن تعاملوا به.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يطلب من العبد غير هذين الأمرين: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. ولهذا قال- عز وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا تعليل للأمر بالإحسان، أي: إن الله يحب المحسنين بنوعي الإحسان: الإحسان في عبادته- عز وجل- والإحسان إلى عباده.

وفي هذا إثبات صفة المحبة لله- عز وجل- والحض على الإحسان بنوعيه، والترغيب فيه، ويفهم من هذا أنه- عز وجل- لا يحب الذين لا يحسنون بل يبغضهم.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب قتال الكفار الذين يقاتلون المؤمنين؛ صيانة للدين، وحماية لحرمات المسلمين، ودفاعاً عنها، وقد يكون ذلك وجوباً عينيًّا أو على الكفاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾.

٢- يجب أن يكون القتال لإعلاء كلمة الله- عز وجل- ووفق شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣- تهييج المسلمين وتحريضهم على قتال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾.

٤- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

٥- النهي عن الاعتداء بقتل من لم يقاتل، أو بقتل النساء والصبيان ونحوهم، أو أخذ أموالهم أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾.

٦- عدل الدين الإسلامي حتى مع غير المسلمين في حال السلم والحرب.

٧- نفي محبة الله- عز وجل- للمعتدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ويفهم من هذا إثبات محبة الله- عز وجل- لغير المعتدين على ما يليق بجلاله وعظمته.

٨- وجوب قتل الكفار الذين يقاتلوننا في أي مكان وزمان وجدناهم وظفرنا بهم باستثناء المسجد الحرام، فلا يجوز قتالهم فيه، واستثناء الأشهر الحرم ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، ورجب، فلا يجوز قتلهم ولا قتالهم فيها إلا إن قاتلوا؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ الآية.

٩- تحريض المسلمين على إخراج الكفار كما أخرجوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن الأحق في الخلافة في الأرض هم المسلمون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

١٠- أن الفتنة في الدين بالكفر والشرك، والصد عن سبيل الله أشد وأعظم من القتل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

وهذا يؤكد وجوب قتال الكفار وقتلهم حتى لا تكون فتنة، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله- عز وجل**»(١).

١١- تحريم ابتداء القتال عند المسجد الحرام، وداخل الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وذلك تعظيم لحرمة الحرم، قال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة...**» الحديث(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه بتمامه.

١٢- جواز قتل الكفار وقتالهم في الحرم إذا ابتدؤوا هم بالقتال، دفعاً لشرهم، وحفاظاً على الدين وحرمات المسلمين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، ولمنطوق قوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾.

١٣- أن جزاء الكافرين المقاتلين للمسلمين في الحرم وغيره قتلهم في الدنيا مع ما لهم في الآخرة من العذاب الأليم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٤- وجوب الكف عن قتال الكفار إذا انتهوا عما هم عليه من الكفر وقتال المؤمنين والصد عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا يدل على كمال عدل الإسلام.

١٥- مغفرة الله- عز وجل- ورحمته لمن تابوا من الكفر والصد عن دينه وقتال أوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذا يدل على عظيم فضل الله- عز وجل- وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره.

١٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- وصفة الرحمة الواسعة له سبحانه وتعالى.

١٧- أن التخلية قبل التحلية، فبالتخلية زوال المرهوب، وبالتحلية حصول المطلوب، لهذا قدم المغفرة على الرحمة.

١٨- وجوب مقاتلة الكفار حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والقتال في الأصل فرض كفاية، ويتعين في حالات، منها ما يلي:

الحالة الأولى: إذا حضر صف القتال، فإنه يكون في حقه فرض عين، ولا يجوز له أن ينصرف؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٥].

الحالة الثانية: إذا استنفر الإمام المسلمين، فإنه يجب ويتعين الخروج على كل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

الحالة الثالثة: إذا حاصر العدو البلد، فإنه يتعين القتال على جميع أهل البلد، لفك الحصار عنه، والحفاظ على حرمات المسلمين، والدفاع عنها.

١٩- أن الهدف والغاية من قتال الكفار حتى لا توجد فتنة بالكفر والشرك والصد عن دين الله، وأن يكون دين الله غالباً ظاهراً على جميع الأديان بدخول الناس فيه، وأداء الجزية ممن امتنع عن الدخول في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾.

٢٠- يجب أن يكون الدين كله لله- عز وجل- وحده- عبادة وطاعة وانقياداً له، وتحكيماً لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾.

٢١- إذا انتهى الكفار عما هم عليه من الكفر والصد عن دين الله وقتال المسلمين والظلم وجب الكف عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقتالهم في هذه الحال من العدوان عليهم، والظلم لهم.

٢٢- أن المقاتلة لا تجوز إلا للمعتدين الظالمين مجازاة لهم على ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٣- وجوب احترام الأشهر الحرم وتعظيمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

٢٤- جواز القتال في الأشهر الحرم إذا ابتدأ المشركون القتال للمسلمين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

وقيل: بجواز القتال في الأشهر الحرم مطلقاً، وأن المنع من ذلك منسوخ بآيات

القتال. وسيأتي تفصيل القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢٥- تطييب قلوب الصحابة ﷺ لما صدهم المشركون عام الحديبية، سنة ست من الهجرة في ذي القعدة بتمكينهم من دخول مكة، وأداء العمرة سنة سبع في شهر ذي القعدة مقاضاة لهم، ولهذا سميت عمرة القضاء.

٢٦- أن الحرمات قصاص فمن انتهك حرمة من الحرمات، في الوقت أو المكان، أو في الأنفس والأعراض والأموال، أو غير ذلك، انتهكت حرمته واقتص منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾.

٢٧- يجب أن يكون القصاص من المعتدي بمثل اعتدائه، من غير زيادة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾.

٢٨- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك العدل مع المسلمين وغيرهم في السلم والحرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٩- إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة للمتقين بتوفيقهم ونصرهم وحفظهم وتأييدهم وغير ذلك، ووجوب العلم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٠- شرف التقوى وفضلها، وأن فيها، وفي العلم أنه- عز وجل- مع المتقين- أعظم معين على كمال التوكل عليه- عز وجل- والثقة بوعده ونصره.

٣١- وجوب الإنفاق في سبيل الله، في الجهاد، وغير ذلك من وجوه الإنفاق الواجبة، من الزكاة وغيرها من النفقات، والترغيب في الصدقات والنفقات المستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣٢- وجوب الإخلاص في الإنفاق، وفي غير ذلك من الأعمال لله تعالى، وأن تكون وفق شرعه- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣٣- تحريم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة في أمر دينها ودنياها؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه صلاحها في دينها ودنياها، فلا يعرضها

لعذاب الله تعالى، وعقوبته، ولا لما فيه ضرر عليها في دنياها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

٣٤- أن الانشغال بالأموال والأولاد والحروث والزروع وترك الجهاد في سبيل الله هو عين التهلكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

٣٥- أن الهلاك الحقيقي هو الهلاك في الدين، بالوقوع بالشرك والمعاصي.

٣٦- وجوب الإحسان في عبادة الله عز وجل؛ إخلاصاً لله- عز وجل- ومتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة واستحباب الإحسان بفعل النوافل والصدقات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾.

٣٧- محبة الله- عز وجل- للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي هذا إثبات صفة المحبة لله- عز وجل- والترغيب في الإحسان.

٣٨- عدم محبة الله- عز وجل- للمسيئين وغير المحسنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٣٩- الترغيب في الجمع بين أداء الواجبات، من العبادات والنفقات وغير ذلك، وبين فعل المستحبات من ذلك وغيره؛ لأن الله- عز وجل- أمر بالإنفاق، وأتبعه بالأمر بالإحسان.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- الجهاد، ثم أتبع ذلك بأحكام الحج والعمرة؛ لأن الحج كما جاء في الحديث «**جهاد لا قتال فيه**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: وأكملوا الحج والعمرة لله بأركانهما وواجباتهما وسننهما- بعد الإحرام بهما، على الصفة التي شرع الله- عز وجل- كما قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»(٢).

فمن أحرم بنسك حج أو عمرة وجب عليه إتمام ذلك النسك، حتى ولو كان نفلاً، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ فأوجب الهدي عند الإحصار- مطلقاً.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يقول: «من أحرم بالحج أو بالعمرة، فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة، وزار البيت، فقد حل من إحرامه كله، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت والصفا والمروة، فقد حل»(٣).

﴿لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين لله- عز وجل- فيهما، فاشتملت هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ على شرطي صلاح العمل، وهما: الإخلاص لله- عز وجل- ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله- عز وجل- وهو متبع ما جاء عن رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٢٩٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، على النساء جهاد؟ قال: «**نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج، والعمرة**».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٤، ٣٣٥).

وليس من تمام العمرة أن لا تكون في أشهر الحج، كما قيل. فقد اعتمر ﷺ أربع عمر كلهن في أشهر الحج، بل في ذي القعدة خاصة، آخرهن مع حجته ﷺ، حيث قرن بين الحج والعمرة، وأمر أصحابه ﷺ بالتمتع، وقال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة**»(١).

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ الفاء: عاطفة، و«إن» شرطية. «أحصرتم» فعل الشرط ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ جواب الشرط.

والحصر لغة: المنع، أي: وإن منعتم من إتمام الحج والعمرة، أو أحدهما، بأي مانع كان، من عدو، أو مرض أو ضياع نفقة، أو ضللتم الطريق، أو غير ذلك.

عن عكرمة بن الحجاج بن عمرو الأنصاري ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من عرج أو كسر أو مرض فقد حل وعليه حجة أخرى**» قال عكرمة: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا: «صدق»(٢).

وقد ذهب ابن عباس ﷺ إلى أن الإحصار لا يكون إلا من عدو.

فقد روى عمرو بن دينار وطاوس وابن أبي نجيح عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «**لا حصر إلا حصر العدو، فأما من أصابه مرض، أو وجع، أو ضلال، فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ فليس الأمن حصراً**»(٣).

والصحيح العموم؛ لإطلاق الآية.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية و«ما» موصولة، و«استيسر» أبلغ من «تيسر»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً، أي: فاذبحوا الذي تيسر من الهدي، أو فعليكم للخروج من النسك والتحلل من

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٧٨٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٧١٢)، من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٨٦٢)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٦٠)، والترمذي في الحج (٩٤٠)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٧)، وأحمد (٣/ ٤٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٥). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٦).

الإحرام ذبح أو نحر الذي تيسر من الهدي، من حيث وجوده وقيمته.

فإذا أهدى المحصر حلق وتحلل من إحرامه، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه حين صدهم المشركون عام الحديبية.

ففي حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، قالا: «لما كتب رسول الله ﷺ كتاب القضية بينه وبين مشركي قريش، وذلك بالحديبية عام الحديبية، قال لأصحابه: «**قوموا فانحروا واحلقوا**» قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مراتٍ، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر ذلك لها، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟! اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه، فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا»(١).

وعن ابن عمر ﵄ قال: «لما كان الهدي دون الجبال التي تطلع على وادي الثنية؛ عرض له المشركون فردوا وجهه، قال: فنحر النبي ﷺ الهدي حيث حبسوه، وهي الحديبية، وتأسى به أناس، فحلقوا، حين رأوه حلق، وتربص آخرون، فقالوا: لعلنا نطوف بالبيت، فقال رسول الله ﷺ: «**رحم الله المحلقين**» قيل: والمقصرين. قال: «**رحم الله المحلقين**» قيل: والمقصرين. قال: «**والمقصرين**»(٢).

لكن إن اشترط عند إحرامه، ثم حصر فإنه يتحلل من إحرامه، وليس عليه هدي، لما جاء في حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب، فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج، وأنا شاكية. فقال: «**حجي واشترطي أنَّ محلي حيث حبستني**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط (١٧٣١، ١٧٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٣١)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٤)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، الأكفاء في الدين (٥٠٨٩)، ومسلم في الحج- جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه (١٢٠٧)، وأحمد (٦/ ١٦٤، ٢٠٢). وأخرج مسلم نحوه عن ابن عباس ﵄ (١٢٠٨)، وكذا أبوداود في المناسك (١٧٧٦)، والترمذي في الحج (٩٤١)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٣٨)، وأحمد (١/ ٣٣٧، ٣٥٢).

و«ال» في «الهدي» للعهد الذهني، أي الهدي الشرعي المعلوم، وهو شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة، بأوصافه المعتبرة شرعاً، بكونه جذعاً من الضأن، أو ثنياً مما عداه، سالماً من العيوب التي تمنع الإجزاء.

عن جابر ﷺ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة»(١).

وعن عائشة ﷺ قالت: «أهدى النبي ﷺ مرة غنماً»(٢).

وعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تذبحوا إلا مسنة- أي ثنية- إلا أن تعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن**»(٣).

وعن البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ سئل ما يتقى من الضحايا؟ فقال: «**أربعاً، وأشار بأصابعه: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء التي لا تنقي**»(٤).

وما لا يجزئ في الأضحية لا يجزئ في الهدي، كما أن ما أجزأ في الأضحية أجزأ في الهدي.

وقد رُوي عن عائشة وابن عمر ﷺ: «أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل والبقر»(٥).

وظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ إجزاء كل ما تيسر مما يسمى هدياً من بهيمة الأنعام- الإبل والبقر والضأن والمعز، وتخصيص ذلك بالبدن والبقر مناف لمعنى التيسير الذي أراده الله- عز وجل- بقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾؛ لأن معنى ذلك: فليذبح ما تيسر من الهدي. وهذا ما دلت عليه السنة، وبه قال جماهير السلف وفقهاء الأمة.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٠١)، ومسلم في الحج (١٣٢١)، وابن ماجه في المناسك (٢٠٩٦).

(٣) أخرجه مسلم في الأضاحي- سن الأضحية (١٩٦٣).

(٤) أخرجه أبوداود في الضحايا (٢٨٠٢)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦٩)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٧)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٤)، وأحمد (٤/ ٢٨٤).

(٥) أخرجه عنهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٦).

فإن أهديت البدنة كاملة عن شخص واحد فهي أفضل من البقرة، وكذا البقرة أفضل من الغنم، والشاة أفضل من سبع البدنة وسبع البقرة.

وظاهر الآية أنه إذا تعسر الهدي على المحصر، لعدم وجوده، أو عدم وجود ثمنه فلا شيء عليه.

كما يؤخذ من الآية أنه لا قضاء على المحصر، سواء كان النسك الذي أحصر عنه واجباً أو نفلاً؛ لأن الله- عز وجل- لم يذكر القضاء، لكن من لم يحج حجة الإسلام ولم يعتمر فوجوب الحج والعمرة باق في ذمته.

وإنما وجب على المحصر الحلق، مع عدم ذكره في الآية؛ لأنه ثبت بالسنة، كما في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، وحديث ابن عمر رضي الله عنهم[1].

ويجوز للمحصر الأكل من هديه، كالمتمتع والقارن، بخلاف جزاء الصيد، وفدية الأذى، ونحو ذلك، فلا يجوز الأكل منه؛ لأنها من الكفارات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ يحتمل عطفه على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ ويقوي هذا أنه أقرب مذكور.

ويحتمل أنه معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

والحلق إزالة شعر الرأس بالموسى ونحوه، والمعنى: ولا تزيلوا شعر رؤوسكم؛ لأن ذلك من محظورات الإحرام.

وقاس عليه جمهور أهل العلم بقية شعور البدن، كالشارب والإبط والعانة وغير ذلك، كما قاسوا عليه تقليم الأظافر- بجامع أن ذلك كله من الترفه المنافي للشعث، الذي ينبغي أن يكون عليه المحرم.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: إلى غاية وصول الهدي إلى محله، و«محل» يطلق على اسم الزمان واسم المكان، واختلف في المراد به، بناء على الاختلاف فيما عطف عليه قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ﴾.

---

(١) سبق تخريجهما قريباً.

فمن قال هو معطوف على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: المراد بـ«محله»: ذبحه مكان الإحصار، كما فعل النبي ﷺ لما منعه المشركون من دخول مكة، نحر هديه مكانه في الحديبية، ثم حلق رأسه، وفعل أصحابه كذلك. وقيل: محله أن يصل إلى الحرم، فيذبح فيه.

ومن قال: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: المراد بـ«محله» زمان حلوله، وهو يوم العيد، ومكان حلوله، وهو الحرم، سواء كان هدي تمتع وقران، أو مما ساقه الحاج أو المعتمر من بلده.

والمعنى: حتى يذبح الهدي يوم العيد في الحرم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

وظاهر الآية أنه لا يجوز الحلق قبل النحر، ويتأكد هذا في حق من ساق الهدي لحديث حفصة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، ما بال الناس حلوا ولم تحل؟ فقال ﷺ: «**إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر**»(١).

أما بالنسبة للمتمتع والقارن، إذا لم يسق الهدي، فيجوز في حقهما تقديم الحلق على النحر؛ لقوله ﷺ لما سئل عن ذلك: «**افعل ولا حرج**»(٢).

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

سبب النزول:

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: «حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي. فقال: «**ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟**» قلت: لا. قال: «**صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك**» فنزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة».

---

(١) أخرجه البخاري في الحج- التمتع والإفراد والقران (١٥٦٦)، ومسلم في الحج- بيان أن القارن لا يتحلل إلا في وقت تحلل الحاج المفرد (١٢٢٩)، وأبوداود في المناسك (١٨٠٦)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٣٨)، ومسلم في الحج (١٣٠٦)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٤)، والترمذي في الحج (٩١٦)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥١)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وفي رواية عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية، ونحن محرمون، وقد حصره المشركون، وكانت لي وفرة، فجعلتْ الهوام تساقط على وجهي، فمر بي رسول الله ﷺ، فقال: «**أيؤذيك هوام رأسك**»؟ فأمره أن يحلق، قال: ونزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾»(١).

قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، و«كان» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ وربط الجواب بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ومعنى قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي: به مرض، يحتاج بسببه إلى حلق رأسه، سواء كان المرض بالجسد أو بالرأس.

﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ بسبب القمل ونحو ذلك، واحتاج إلى حلقه.

﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي: فليحلق رأسه، وعليه فدية، أو فحلق رأسه فعليه فدية، أو فله أن يحلق رأسه وعليه فدية، مقابل فعل المحظور، يفدي بها نفسه من العذاب، ونسكه صحيح.

فكل محظورات الإحرام لا تُفسد النسك، حجاً كان أو عمرة، ما عدا الجماع في الحج قبل التحلل الأول، وفي العمرة قبل طوافها.

وهذا بخلاف سائر العبادات، فإنها تبطل بفعل المحظورات فيها، فالصلاة تبطل بالأكل، والكلام فيها ونحو ذلك، والصيام يبطل بالأكل والشرب والجماع ونحو ذلك.

والفدية في الأصل: مال أو عرض يدفع مقابل الخلاص، والخروج من تبعة ما وقع فيه الإنسان؛ قال تعالى مخاطباً المنافقين: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي: تكون هذه الفدية ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

والصيام ثلاثة أيام، والصدقة إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المحصر (١٨١٦)، ومسلم في الحج- جواز حلق الرأس للمحرم (١٢٠١)، وأبوداود في المناسك- الفدية للمحرم (١٨٥٦- ١٨٦٠) والترمذي في التفسير- سورة البقرة (٢٩٧٣، ٢٩٧٤)، وابن ماجه في المناسك- فدية المحصر (٣٠٧٩، ٣٠٨٠).

طعام، والنسك: الذبح، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. أي: ذبحي.

والمراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ ذبح شاة، أو سبع بدنة، أو سبع بقرة، مما يجزئ في الهدي والأضحية.

ومجيء العطف بـ«أو» للدلالة على التخيير، أي: أنه مخير بين صيام ثلاثة أيام، أو الصدقة بإطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، أو ذبح شاة كما في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، أو انسك نسيكة**»(١).

ومثل حلق الرأس حلق الشارب والإبط والعانة ونحو ذلك، وكذا غيره من محظورات الإحرام- مما فيه ترفه- كتقليم الأظافر، وتغطية الرأس، ولبس المخيط، والطيب- ونحو ذلك. فيجوز للمحرم فعله عند الضرورة، وعليه الفدية المذكورة، عدا قتل الصيد، ففيه جزاء مثله، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥].

وعدا الجماع قبل التحلل الأول في الحج، وفي العمرة قبل طوافها فإنه أغلظ المحظورات وأشدها تحريماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ويُفسد النسك، وعليه المضي فيه وإتمامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وعليه قضاء الحج من قابل ونحر بدنة، وعليه قضاء العمرة على الفور وذبح شاة، وعليه التوبة إلى الله- عز وجل- مما حصل منه.

وعدا عقد النكاح فإنه من محظورات الإحرام، لكن لا فدية فيه.

وفي التخيير في الفدية بين الصيام والصدقة والنسك تيسير على من احتاج إلى حلق الرأس، ونحوه من المحظورات، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

كما أن في جعل إحدى خصال الكفارة صدقة وإطعاماً، والأخرى ذبح شاة دلالة على اهتمام الإسلام بالأعمال التي يتعدى نفعها إلى الآخرين، وفضلها على غيرها، ولهذا قال كثير من أهل العلم: الأفضل النسك، ثم الصدقة، ثم الصيام- مع أن الأصل فيها التخيير.

كما أن في عدم ذكر وقت الفدية، وهل هو قبل الحلق، أو بعده دليلاً على جواز ذلك كله.

وفي عدم ذكر مكان الفدية ما قد يدل على أنها مكان حصول المرض والأذى، وبهذا قال بعض العلماء- وبخاصة النسك والإطعام؛ لأن الأصل فعل الواجبات على الفور.

وعامة أهل العلم على أن النسك محله الحرم، وحكي عليه الإجماع، وكذا محل الإطعام عند أكثرهم، وأما الصيام فحيث شاء.

وإذا فدى بذبح النسك فليس له الأكل منه؛ لأنه من الكفارات.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الفاء: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا أمنتم من العدو، وقدرتم على البيت، وعلى أداء المناسك من غير مانع أيًّا كان- وهذا- كما قال عز وجل بعد أن ذكر جواز قصر صلاة الخوف وصفتها: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ الفاء: واقعة في جواب «إذا»، و«من» شرطية، و«تمتع» فعل الشرط، أي: فمن توصل بالعمرة إلى الحج، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها، وهو الذي يحرم بالعمرة في أشهر الحج، ويؤدي مناسكها، ثم يتحلل منها الحل كله، ويتمتع بما كان محظوراً عليه حال الإحرام، ثم يحرم بالحج.

وقد كان أهل الجاهلية يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، ويقولون:

«إذا انسلخ صفر، وبرأ الدبر، وعفا الأثر حلت العمرة لمن اعتمر»(١).

فبين الله- عز وجل- جواز التمتع في هذه الآية، وهو أفضل الأنساك عند كثير من أهل العلم، بل أوجبه بعضهم؛ لما رواه جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر من لم يسق الهدي من أصحابه بالتحلل من العمرة، وقال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، ولحللت معكم**»(٢).

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ جواب الشرط. وقد سبق الكلام على هذا.

والمعنى: فعليه ذبح الذي تيسر وقدر عليه من الهدي: شاة، أو سبع بدنة، أو سبع بقرة، شكراً لله- عز وجل- على نعمة التحلل والتمتع بين النسكين، وحصولهما في سفر واحد. عن أبي هريرة ﷺ «أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه وكن متمتعات»(٣).

ومثل المتمتع في وجوب الهدي، أو بديله الصيام للقارن بين الحج والعمرة شكراً لله- تعالى- على الجمع بين النسكين في سفر واحد. وقد حج النبي ﷺ قارناً، وساق الهدي، ولم يحل من إحرامه حتى نحر هديه.

لكن بعض رواة حجته ﷺ من الصحابة قال: تمتع رسول الله ﷺ، فأطلق التمتع على القران، كما في حديث ابن عمر ﷺ قال: «تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى...» الحديث(٤).

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية. أي: فمن لم يجد الهدي، أو ثمنه.

﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فعليه صيام ثلاثة أيام ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾ أي: في أثناء الحج وأيامه، وأشهره، أول وقتها منذ إحرامه إلى آخر أيام التشريق، عدا يوم العيد فيحرم صومه

---

(١) أخرجه البخاري في الحج- التمتع والقران والإفراد في الحج (١٥٦٤)، ومسلم في العمرة- جواز العمرة في أشهر الحج (١٢٤٠)، وأحمد (١/ ٢٥٢، ٢٦١)، من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبوداود في المناسك (١٧٥٦)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٣).

(٤) أخرجه البخاري في الحج- من ساق البدن معه (١٦٩١)، ومسلم في الحج- وجوب الدم على المتمتع (١٢٢٧)، وأبوداود في المناسك- باب في الإقران (١٨٠٥)، والنسائي في المناسك- باب التمتع (٢٧٣٢)، وأخرج البخاري (١٦٩٢) عن عائشة نحوه، وكذا مسلم (١٢٢٨).

لنهي النبي ﷺ عن صوم يومي العيدين[١].

والأفضل أن لا يصوم يوم عرفة كغيره من الحجاج؛ ليكون أقوى له وأنشط على العبادة والدعاء.

فإن لم يصمها قبل يوم العيد صامها في أيام التشريق- عن عائشة وابن عمر ﵄ قالا: «لم يُرخص في أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهدي»[٢].

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: وسبعة أيام إذا رجعتم إلى أوطانكم وأهلكم؛ لقوله ﷺ فيما رواه ابن عمر ﵄: «**فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله**»[٣].

فإن صامها في الطريق أجزأه ذلك؛ لأن المقصود- والله أعلم- من كونها إذا رجع إلى أهله أن لا تكون في الحج، مع أن صيامها في الطريق قد ينافي حكمة التيسير المقصودة للشارع؛ لأن الصيام في السفر مظنة المشقة، والأولى أن لا يصومها حتى يصل إلى بلده وأهله.

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وكما يقال: رأيت بعيني، وسمعت بأذني.

فهذا تأكيد على وجوب إتمام صيام هذه الأيام العشرة وتكميلها، وأنها- وإن كانت مفرقة- فهي في حكم المتتابعة.

---

(١) كما في حديث ابن عمر ﵄ قال: «نهى النبي ﷺ عن صوم يوم العيد» أخرجه البخاري في الصوم (١٩٩٤)، ومسلم في الصيام (١١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٩٨).

(٣) هذا جزء من حديث ابن عمر- المتقدم- «تمتع رسول الله ﷺ...» الحديث. وقد سبق تخريجه.

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الإشارة يحتمل أن ترجع إلى أقرب مذكور، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

والمعنى على هذا أن من كان أهله حاضري المسجد الحرام إذا تمتع بالعمرة إلى الحج فليس عليه هدي ولا بديله- وهو الصيام.

ويحتمل أن تعود الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ وما بعده. والمعنى على هذا: أن التمتع بالعمرة إلى الحج الموجب للهدي أو بديله الصيام خاص بمن ﴿لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وهذا هو الأظهر- والله أعلم- أن من كان أهله حاضري المسجد الحرام، فلا يشرع في حقه التمتع، ولا ما يوجبه من هدي أو صيام.

ومعنى: ﴿لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ﴿لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ﴾ أي: سكنه الذي يسكن إليه، من زوج، ووالدين وأولاد ونحوهم.

﴿حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: سكان الحرم وأهله، وقيل: هم أهل الحرم ومن دون المواقيت، وقيل: هم أهل الحرم ومن بينه وبين الحرم دون مسافة قصر.

والأظهر- والله أعلم- أن حاضري المسجد الحرام هم أهل الحرم وسكانه، أي: أهل مكة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١).

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك ما ذكر في هذه الآية، من المأمورات والمحظورات.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: واعلموا أن الله شديد العقوبة والمؤاخذة لمن خالف أمره وارتكب نهيه؛ لأن العلم بذلك- مع توفيق الله- عز وجل- يحمل الإنسان على تقوى الله- عز وجل- بامتثال أمره واجتناب نهيه.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٧٢).

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إتمام الحج والعمرة بعد الإحرام بهما، حتى ولو وكانا نفلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

وهذا بخلاف غيرهما من العبادات، فلا يجب إتمام نفلها، لكن يستحب. ويكره قطعها لغير حاجة.

وفي حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال لها ذات يوم: «هل عندكم شيء؟ فقلت: يا رسول الله، ما عندنا شيء، قال: فإني صائم. قالت: فخرج، فأهديت لنا هدية، فلما رجع، قلت: يا رسول الله، أهديت لنا هدية، وقد خبأت لك شيئاً، قال: ما هو؟ قلت: حيس قال: هاتيه. فجئت به، فأكل، ثم قال: قد كنت أصبحت صائماً»(١).

٢- استدل بعض أهل العلم بهذه الآية ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ على وجوب الحج، وأكثر أهل العلم على أن الحج إنما فرض وأوجب بقوله- تعالى- في سورة آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٩٧] وذلك في السنة التاسعة من الهجرة سنة الوفود.

٣- وجوب إخلاص الحج والعمرة لله، والحذر من الرياء والسمعة فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ وكذا سائر العبادات.

٤- إذا أحصر من أحرم بحج أو عمرة بأي سبب كان، من عدو أو مرض أو فقدان نفقة، أو تضييع الطريق، أو غير ذلك، أهدى حيث أحصر، وحلق، وتحلل من إحرامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، ولفعله ﷺ وأصحابه، لما صدهم المشركون عام الحديبية، وهذا عام في كل إحصار، من عدو، وغيره؛ لأن العلة واحدة، وهي عدم القدرة على إتمام النسك.

وقيل: لا إحصار إلا من عدو.

والصحيح العموم، وكون الآية نزلت في شأن قصة الحديبية- كما تقدم- لا يمنع

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام- جواز قطع صوم النافلة (١١٥٤)، وأبوداود في الصوم (٢٤٥٥)، والنسائي في الصيام (٢٣٢٢).

من عموم الحكم؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٥- يجب أن يكون الهدي من الهدي الشرعي المعهود والمعلوم الصفات، بكونه من بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم، جذعاً من الضأن، أو ثنياً من غيره، سليماً من العيوب المانعة من الإجزاء، لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: من الهدي الشرعي، شاة، أو سبع بدنة أو سبع بقرة.

٦- تيسير الله- عز وجل- لأحكام هذه الشريعة المطهرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

٧- أن المحصر إذا تعسر عليه الهدي أو ثمنه فلا شيء عليه؛ لأن الله- عز وجل- لم يذكر بديلاً عنه.

وقيل: عليه صيام عشرة أيام، قياساً على هدي التمتع- وهذا مع مخالفته لظاهر الآية- هو أيضاً قياس مع الفارق، فلا يصح؛ لأن تحلل المتمتع تحلل اختياري، بينما تحلل المحصر تحلل اضطراري.

٨- أن المحصر لا يجب عليه القضاء؛ لأن الله- عز وجل- لم يذكره، ولأن عدم إتمامه النسك بأمر خارج عنه، وليس بسببه هو.

وقيل: عليه القضاء. وهذا ضعيف. لكن إن كان لم يحج ولم يعتمر- بعد- فالفرض باق في ذمته.

٩- ظاهر الآية عدم وجوب الحلق على المحصر، عند التحلل لعدم ذكره، لكن دلت السنة على وجوبه، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها[1].

١٠- تحريم حلق الرأس على المحرم بحج أو عمرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ﴾ وألحق به العلماء سائر شعور البدن، كالشارب والإبط والعانة، وكذا تقليم الأظافر.

١١- أنه لا يجوز الحلق إلا بعد النحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ وهذا على ظاهره بالنسبة للمحصر، ولمن ساق الهدي، كما قال ﷺ: «**إني لبدت**

---

(١) سبق تخريجه.

رأسي، وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر»(١).

أما المتمتع والقارن فالأفضل في حقهما تقديم النحر على الحلق، كما هو ظاهر الآية، ويجوز لهما تقديم الحلق على النحر؛ لقوله ﷺ لمن سأله عن ذلك: «**افعل ولا حرج**»(١).

١٢- جواز حلق الرأس لمن كان مريضاً أو به أذى من رأسه، من قمل ونحوه، وعليه فدية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، وهي كما قال ﷺ: «**صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، أو ذبح شاة**»(١).

وهي على التخيير، كما هو ظاهر الآية والحديث.

١٣- ظاهر الآية أن محل الفدية حيث كان المرض والأذى والحلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ولم يذكر مكان الفدية، والأصل فعل الواجبات على الفور.

وقد ذهب أهل العلم إلى أن النسك محله الحرم، وحكي الإجماع على هذا، وكذا مكان الإطعام الحرم عند أكثرهم، وأما الصيام فحيث شاء.

١٤- جواز إخراج الفدية قبل الحلق وبعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ وهذا محتمل.

١٥- في التخيير بين خصال الكفارة تيسير على العباد، وفي جعل الصدقة والنسك من بينها دلالة على حرص الشرع المطهر على الأعمال التي يتعدى نفعها إلى الآخرين، ونفع المحتاجين.

١٦- أن حلق الرأس لا يفسد النسك؛ لأن الله- عز وجل- لم يوجب فيه إلا الفدية، وهكذا بقية محظورات الإحرام لا تفسد النسك- عدا الجماع قبل التحلل الأول في الحج، وفي العمرة قبل طوافها- وهذا بخلاف سائر العبادات، كالصلاة والصيام، فإنها تفسد بفعل محظوراتها.

---

(١) سبق تخريجه.

١٧- جواز التمتع بالعمرة إلى الحج؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ وهو أن يأتي بالعمرة في أشهر الحج، ثم يتحلل منها تحللاً كاملاً، ويتمتع بما كان محظوراً عليه بالإحرام، إلى أن يحرم بالحج، وهو أفضل الأنساك، لأمره ﷺ من لم يسق الهدي من أصحابه بالتحلل من عمرتهم، وقوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، ولحللت معكم**»(١).

وفي هذا رد على أهل الجاهلية الذين لا يرون العمرة في أشهر الحج.

١٨- وجوب الهدي على المتمتع بالعمرة إلى الحج؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي من الهدي الشرعي؛ شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة- شكراً لله- عز وجل- على نعمة التحلل والتمتع بين النسكين، وحصولهما في سفر واحد، ومثله القارن في وجوب الهدي عليه، لحصول النسكين له في سفر واحد.

أما المفرد فلا هدي عليه.

١٩- في إيجاب الهدي على المتمتع دلالة على فضل إهراق الدم، وحرص الشرع على ما يتعدى نفعه إلى الآخرين من المحتاجين وغيرهم.

٢٠- أن على من لم يجد الهدي أو ثمنه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.

ووقت صيام الأيام الثلاثة منذ أحرم إلى يوم عرفة، فإن لم يصمها قبل العيد صامها أيام التشريق الثلاثة، لحديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهما قالا: «لم يرخص في صيام أيام التشريق إلا لمن لم يجد الهدي»(١).

ووقت صيام الأيام السبعة إذا رجع إلى أهله، وإن صامها بعد أن أنهى أعمال الحج، في مكة، أو في الطريق أجزأه ذلك.

٢١- تأكيد وجوب إكمال صيام هذه الأيام، وإتمامها عشرة؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

٢٢- عدم وجوب التتابع في صيام الأيام الثلاثة في الحج، ولا في صيام الأيام السبعة بعد

---

(١) سبق تخريجه.

الرجوع؛ لقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ وهذا مطلق، ويؤكد عدم وجوب التتابع قوله- تعالى- بعد ذلك: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

٢٣- التيسير بعد التيسير في أحكام هذه الشريعة المطهرة، فالهدي الواجب على المتمتع مما يتيسر له، فإن لم يجده أجزأ عنه صيام عشرة أيام، وفي هذا تيسير من وجوه عدة:

الأول: من حيث جعل الصيام بديلاً عن الهدي عند تعذره.

والثاني: جعل بعض هذه الأيام في الحج، وبعضها إذا رجع إلى أهله.

والثالث: كون الأقل من هذه الأيام، وهي ثلاثة في الحج، والأكثر منها، وهي سبعة إذا فرغ من الحج ورجع إلى أهله.

والرابع: عدم إيجاب التتابع بين هذه الأيام.

٢٤- عدم وجوب الهدي، أو الصيام على حاضري المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وهل يشرع في حقهم التمتع والقران؟! اختلف أهل العلم في هذا على قولين:

فمن قال: الإشارة في قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى وجوب الهدي وبديله الصيام، قال: يشرع التمتع والقران في حقهم، لكن لا هدي عليهم، ولا صيام.

ومن قال: الإشارة ترجع إلى ما ذكر، وإلى ما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ قال: لا يشرع التمتع ولا القران في حقهم، وهو الأقرب.

٢٥- عظم حرمة المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ذي الحرمة العظيمة.

٢٦- وجوب تقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٧- شدة عقاب الله- عز وجل- لمن خالف أمره، وارتكب نهيه، ووجوب العلم بذلك، وفي هذا وعيد وتهديد لمن لم يتق الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ﴾ أي: الحج وقته أشهر معلومات، أو وقت الحج أشهر معلومات، أو الحج ذو أشهر معلومات.

ومعنى ﴿مَّعْلُومَٰتٌ ۚ﴾ أي: معروفات مشهورات، وهي ثلاثة أشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة؛ لأن «أشهر» جمع، وأقل الجمع ثلاثة، وأيضاً فإن أعمال الحج لا تنتهي إلا في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، وما بعد ذلك من الشهر وقت لأعمال الحج التي لا يفوت وقتها كالطواف والسعي والحلق، ونحو ذلك، لكن لا يجوز تأخيرها عن ذي الحجة إلا بعذر.

وقال كثير من السلف ومن بعدهم: أشهر الحج: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، قالوا: لأن الشهرين وبعض الثالث تسمى «أشهراً»، لاسيما إذا كانت بالأهلة. يقال: أمضى ثلاثة أشهر، وإن كان لم يمض سوى شهرين وبعض الثالث، بل إن أقل

الجمع يطلق على اثنين، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، يعني: داود وسليمان- عليهما السلام- وقال تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، فجمع القلوب مع أن الخطاب لاثنتين من أزواج النبي ﷺ.

كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧] قالوا: وفرض الحج، وهو الإحرام به لا يكون إلا في شوال وذي القعدة، وما قبل فجر يوم العاشر من ذي الحجة.

ولا خلاف بين أهل العلم أن الإحرام بالحج لا يصح بعد فجر يوم النحر، كما لا خلاف بينهم أن أعمال الحج لا تنتهي في اليوم العاشر، بل لا تنتهي إلا بعده، كما أن بقية الشهر كله محل لأعمال الحج، التي لا يفوت وقتها كالطواف والسعي والحلق، ونحو ذلك.

عن ابن عباس ﷺ قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج، إلا في شهور الحج، من أجل قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾»(١).

وفي رواية عنه ﷺ قال: «لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من السنة، أو من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج»(٢).

وعن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله، يسأل: أيهل بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا»(٣).

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، و«فرض» فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية.

والضمير «فيهن» يعود إلى أشهر الحج، والمراد بعضها، أي: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة؛ لأن ما بعد طلوع الفجر يوم النحر ليس محلاً للإحرام، لانتهاء وقت

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٤٥)، وأخرجه الشافعي- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٦٢) (٢٥٩٦). وقال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٤٢): «وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: «من السنة كذا» في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولاسيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه».

(٣) أخرجه الشافعي والبيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٤٢).

الوقوف بعرفة، وقد قال ﷺ: «**الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل الفجر فقد أدرك**»(١).

فمن فاته الوقوف بعرفة فاته الحج، كما جاء في حديث عروة بن مُضَرِّس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من شهد صلاتنا هذه- يعني صلاة الفجر بجمع- وقد وقف بعرفة ساعة من ليل أو نهار فقد تم حجه، وقضى تفثه**»(٢).

والفرض: القطع والإيجاب والإلزام، وفرض الحج يكون بنية الدخول فيه، وكذلك العمرة فرضها يكون بنية الدخول فيها، والنية محلها القلب، ولا يجوز التلفظ بها عند أي عبادة.

ومعنى ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: فمن أحرم فيهن بالحج؛ لأن الإحرام والشروع به يصيره فرضاً، حتى ولو كان حج نفل.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في أشهر الحج، وهي: شوال، وذو القعدة، والعشر الأول من ذي الحجة.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ قرأ أبوجعفر وابن كثير، وأبوعمرو، ويعقوب: «فلا رفثٌ ولا فسوقٌ» بالرفع والتنوين، وكذلك قرأ أبوجعفر: «ولا جدالٌ»، وقرأ الباقون الجميع: بالفتح بلا تنوين.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ رابطة لجواب الشرط، و«لا» نافية، والنفي- هنا- بمعنى النهي، أي: فلا يرفث ولا يفسق ولا يجادل في الحج.

و«الرفث»: الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] أي: الجماع ومقدماته.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ الفسوق: الخروج عن طاعة الله- عز وجل- بترك المأمورات، وارتكاب المحظورات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٤٤)، والترمذي في الحج (٨٨٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٥)، من حديث عبدالرحمن بن يعمر رضي الله عنه.

(٢) سيأتي تخريجه قريباً.

٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١٠].

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(١).

ووقوع الفسوق في الحج في الحرم أشد وأعظم، ولاسيما الإخلال بواجبات الحج، وارتكاب محظوراته، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

فالواجب على الحاج اجتناب جميع المعاصي، قال ﷺ: «**من حج ولم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(٢).

وقال ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»(٣).

﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ الجدال: الخصام والمنازعة والمماراة والمغاضبة، ونحو ذلك، أي: ولا جدال ولا خصام في الحج؛ لا في أحكامه ومسائله، ولا في غير ذلك من المخاصمات والمنازعات في أمور الدين والدنيا وقت الحج؛ لأن ذلك يؤدي إلى المشاجرة والعداوة، كما يحصل من كثير من الحجاج في مخيماتهم، حول بعض مسائل الحج، أو بسبب المشاحنة على أماكن النزول، وعلى الخدمات كالماء ونحوه، وعند رمي الجمار، والطواف والسعي، وغير ذلك.

وذلك مناف لما يجب أن يكون عليه الحاج، من الذل والخضوع والانكسار لله- عز وجل- والتقرب إليه.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣) وابن ماجه في المقدمة (٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، والترمذي في الحج (٨١١)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وسبحان العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة، وعالم السر وأخفىٰ، فما نهى الله- عز وجل- عنه من الجدال هو من أكثر ما يشغل الناس في حجهم.

أما الجدال بالتي هي أحسن لبيان الحق، ورد الباطل فهو واجب على الدوام، في كل زمان ومكان، وفي كل حال، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ لما نهاهم عن الرفث والفسوق والجدال في الحج، وما يؤدي إلى الشر، رغبهم في فعل الخير، بامتثال الأوامر.

قوله ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» شرطية، و«تفعلوا» فعل الشرط، وجوابه ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾.

و«من» في قوله: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ بيانية، و«خير» نكرة في سياق الشرط، فتعم كل خير قليلاً كان أو كثيراً، صغيراً كان أو كبيراً، واجباً كان أو مندوباً، ومن ذلك فعل ما أمر الله به من أحكام الحج.

﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ أي: يحيط به- عز وجل- علماً، ويحصيه عدداً ويجازيكم عليه.

وفي هذا ترغيب وحث على الإكثار من أفعال الخير، من أنواع القربات، من صلاة وطواف وصيام، وصدقة وإحسان فعلي وقولي، وأنه لن يضيع عند الله عز وجل.

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: ١١٢].

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة، سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾».

وفي رواية عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ: «كان ناس يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾»(١).

وعن ابن عمر ﷺ قال: «كانوا إذا أحرموا- ومعهم أزودتهم- رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ فنهوا عن ذلك، وأمروا بأن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق»(٢).

قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ الزاد: ما يتزود به المسافر في سفره، أي: تزودوا في سفركم إلى الحج بما تحتاجونه من مال ومأكل ومشرب وأثاث وغير ذلك؛ لأن الواجب على الإنسان أن يستغني بما آتاه الله، عما في أيدي الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويحرم عليه أن يكون عالة وكلاً على الآخرين.

بل إنه يندب للحاج إكثار الزاد والكرم، والمنافسة في إطعام الرفقة في السفر وخدمتهم، عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: «إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر»(٣).

﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ هذا كما قال عز وجل لما ذكر اللباس الحسي: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والمعنى: فإن خير الزاد، وأنفعه للعباد، في الحال والمآل والمعاد، وأبلغه وأوصله إلى المقصود: تقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فهي خير الزادين في الدنيا والآخرة، وهي الزاد الذي لا ينقطع نفعه، للدار التي لا تزول، ولا تحول، في جنات الخلود. قال الشاعر(٤):

---

(١) أخرجه البخاري في الحج- قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (١٥٢٣)، وأبوداود في المناسك- التزود في الحج (١٧٣٠)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٤٩٤)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(٣٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٤٩٤).

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٤٨).

(٤) هذان البيتان للأعشى- في «ديوانه» (ص١٨٥- ١٨٧)- من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

=

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وشاهدت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ رغب عز وجل بالتقوى، ببيان أنها خير الزاد، ثم أمر بها، لإدراك هذا الخير.

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أصحاب العقول والأفهام النيرة، التي تهدي أصحابها وترشدهم إلى ما ينفعهم، وتمنعهم عما يضرهم، والتي هي مناط المدح، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾.

سبب النزول:

عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ وذو المجاز، فلما جاء الإسلام تأثموا من ذلك، أو كأنهم كرهوا ذلك، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾»(١).

وعن أبي أمية التيمي، قال: قلت لابن عمر: «إنا قوم نُكْرِي، فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّف، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني، فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن

=

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا

(١) أخرجه البخاري في الحج- التجارة أيام الموسم (١٧٧٠)، وفي التفسير ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (٤٥١٩)، وأبوداود في المناسك (١٧٣١)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٥٠٤، ٥٠٧، ٥١٠)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(٣٨).

رَبِّكُمْ﴾ فدعاه النبي ﷺ فقال: «أنتم حجاج»(١).

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: ليس عليكم حرج، ولا إثم.

﴿أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أن»، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير: في أن تبتغوا، أي: أن تطلبوا زيادة الرزق من ربكم بالتجارة في موسم الحج، بالبيع والشراء والكرى، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فذلك جائز، ما لم يشغل عن فعل الواجبات، وكان كسباً حلالاً، وما لم يكن هو المقصود من الخروج للحج.

فإن شغل عن الواجبات، أو كان كسباً حراماً فلا يجوز، وإن كان هو المقصود بالسفر للحج، فليس لصاحبه سواه؛ لأن الأعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى(٢).

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا ظرفية شرطية، غير عاملة و«أفضتم» فعل الشرط، والإفاضة: الاندفاع، يقال: أفاض الماء، أي: اندفع، وأفاض في الكلام، أي: استمر فيه وأطال. والإفاضة من عرفات: الدفع والانصراف منها إلى المزدلفة.

و«عرفات» علم على مكان وقوف الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة، وهو معروف.

قيل: سميت هذه البقعة «عرفات» لارتفاعها الذي عرفت به عما حولها، ومنه تسمية «الأعراف» كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وقيل: لأن الناس يعترفون فيها بذنوبهم، ويسألون الله مغفرتها.

وقيل: لأن آدم لما أهبط هو وزوجته «حواء» تعارفا في هذا المكان.

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك- باب الكرى (١٧٣٣)، وأحمد (٢/ ١٥٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٥٢)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٥٠٣، ٥٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٥١)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(٣٧).

(٢) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧).

وقيل: لأن الله بعث جبريل- عليه السلام- إلى إبراهيم، فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة(١).

وقيل غير ذلك.

وهي خارج الحرم، وبقية المشاعر داخل الحرم كالمزدلفة ومنى، والحكمة في ذلك- والله أعلم- ليجمع الحاج بين الحل والحرم.

والوقوف بـ«عرفات» أهم وأعظم أعمال الحج وأركانه؛ لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»(٢).

وقد وقف النبي ﷺ بعرفة بعد الزوال(٣)، وقال ﷺ في حديث عروة بن مضرِّس رضي الله عنه: «**من شهد صلاتنا هذه**- يعني صلاة الفجر في المزدلفة- **وقد وقف بعرفة قبل ذلك ساعة من ليل أو نهار، فقد تم حجه، وقضى تفثه**»(٤).

والإفاضة من عرفات والدفع والانصراف منها إنما يكون بعد غروب الشمس، ولا يجوز الدفع قبل غروبها، كما كان يفعله أهل الجاهلية، لما ثبت في حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حجته ﷺ، قال جابر: «فلم يزل واقفاً- يعني بعرفة، حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ، وقد شنق(٥) للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس، السكينة السكينة، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء، بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر، حين تبين له الصبح، بأذان

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٥١٢)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: «فلما زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس. قال جابر: ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، لم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب رسول الله ﷺ إلى الموقف» الحديث. وسيأتي تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٣٩)، والترمذي في الحج (٨٩١)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٦)- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٥) شنق: أي: ضم وضيق- انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «شنق».

وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جدًّا، فدفع قبل أن تطلع الشمس»(١).

وعن أسامة بن زيد ﵁ أنه سئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين الدفع؟ قال: «كان يسير العنق، فإذا وجد فرجة نَصّ»(٢).

والعنق هو انبساط السير، والنص فوقه(٣).

وعن المعرور بن سويد قال: رأيت عمر ﵁ حين دفع من عرفة، كأني أنظر إليه رجلاً أصلع على بعير له، يوضع(٤)، وهو يقول: «إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع»(٥).

قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ جواب الشرط، والفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ المشعر: على وزن «مَفْعَل» اسم مكان، وهو مكان أداء الشعيرة من شعائر الله- عز وجل- والمراد به هنا المزدلفة كلها، أي: فاذكروا الله بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم، بصلاة المغرب والعشاء والفجر، ودعائه- عز وجل- وتكبيره وتهليله وتوحيده- كما جاء في حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ(٦).

﴿ٱلۡحَرَامِۖ﴾ أي: ذو الحرمة؛ لأنه داخل الحرم، فعرفة مشعر حلال؛ لأنها خارج الحرم، والمزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم، وهي كلها موقف.

عن علي ﵁ قال: «لما أصبح رسول الله ﷺ، بالمزدلفة، غدا فوقف على «قُزَحَ»،

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك- إفراد الحج (١٩٠٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٦٦٦)، ومسلم في الحج (١٢٨٦)، وأبوداود في المناسك (١٩٢٣)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٢٣)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٧).

(٣) أي: السير السريع. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادتي: «عنق»، «نصص».

(٤) الإيضاع: حمل الدابة على سرعة السير. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «وضع».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٥٢).

(٦) سبق تخريجه قريباً.

وأردف الفضل، ثم قال: «**هذا الموقف، وكل مزدلفة موقف**»(١).

وعن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال: «**كل عرفات موقف، وارفعوا عن بطن عرنة، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن محسر، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح**»(٢).

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ أمر الله- عز وجل- بذكره عند المشعر الحرام، ثم أكد الأمر بذلك مقروناً بتنبيههم بما أنعم به عليهم من هدايتهم، وتوفيقهم للطريق المستقيم، ولمعرفة مشاعر الحج ومناسكه وأحكامه خاصة، والامتنان عليهم بذلك وهذا مما يوجب ذكره- عز وجل- وشكره.

فقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ تأكيد وتعليل للأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾

والكاف في قوله: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾: للتعليل، و«ما» مصدرية، والتقدير: واذكروه لهدايته لكم.

وهداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية الدلالة والبيان والإرشاد للطريق المستقيم، وهداية التوفيق منه- عز وجل- لسلوكه.

أي: واذكروه- عز وجل- بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، بأنواع الذكر كلها، في مشاعر الحج وغيرها، شكراً له على هدايته لكم بإرشادكم وتوفيقكم للطريق المستقيم، ولمعرفة مشاعر الحج ومناسكه وأحكامه، وغير ذلك من أمور دينكم.

ويحتمل أن تكون الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ للتشبيه، أي: واذكروه على الصفة التي هداكم وأرشدكم إليها، أي: وفق شرعه عز وجل.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ هذا كما قال ﷺ للأنصار: «**ألم أجدكم**

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٣٥)، والترمذي في الحج (٨٨٥)، وأحمد (٢/ ٥، ٤٥٤)، والبيهقي في «سننه» (٥/ ١٢٢)- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٥٤): «وهذا منقطع» ثم ذكر أنه روي من طريق متصل.

ضلالاً فهداكم الله بي»(١).

الواو حالية، أو استئنافية و«إن» مخففة من الثقيلة، تفيد التوكيد. أي: وإنكم كنتم من قبل هداه لكم، أو قد كنتم من قبل هداه لكم بما أنزل عليكم من القرآن وبعثة محمد ﷺ.

﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ اللام للتوكيد، و«الضالين»: جمع ضال، أي: لمن التائهين البعيدين عن طريق الحق، وعن معرفة مشاعر الحج، ومناسكه وأحكامه، فاقدي الرشاد، وفاقدي الرشد، فأرشدكم ورشّدكم ووفقكم.

وهذا يوجب على المؤمن تذكر نعمة الله عليه بالهداية، فيشكره عليها بملازمة طاعته، وذكره وشكره، ويسأل الله الثبات على ذلك حتى الممات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت قريش ومن يدينون دينها، يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾»(٢).

قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ هذا تأكيد لقوله- تعالى- قبل هذا: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ أي: ثم ادفعوا ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: من المكان الذي وقف فيه الناس، ودفعوا منه، وهو «عرفات».

وقد كانت قريش في الجاهلية- كما جاء في سبب النزول- لا يقفون مع الناس في عرفات» بدعوى أنهم أهل الحرم، ويقولون: لا نقف خارج الحرم. وإنما يقفون بمزدلفة؛

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦١)، من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج- الوقوف بعرفة (١٥٨٢)، وفي تفسير سورة البقرة (٤٥٢٠)، ومسلم في الحج (١٢١٩)، وأبوداود في المناسك (١٩١٠)، والنسائي في المناسك- رفع اليدين في الدعاء بعرفة (٣٠١٢)، والترمذي في أبواب الحج- ما جاء في الوقوف بعرفات (٨٨٤)، وابن ماجه في المناسك- الدفع من عرفة (٣٠١٨).

ولهذا جاء التوكيد بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾.

ويحتمل أن المراد بالإفاضة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ الدفع من المشعر الحرام، أي: من مزدلفة إلى منى لرمي جمرة العقبة وذبح الهدي والطواف والسعي، والمبيت بمنى ليالي أيام التشريق، ورمي الجمار وإكمال بقية المناسك، وقد ثبت عن ابن عباس ما يدل على هذا(١).

ويؤيد هذا الأمر بعده بالاستغفار والإكثار من الذكر بعد قضاء المناسك.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ الاستغفار طلب مغفرة الذنوب من الله- عز وجل- وهو ختام الأعمال والأعمار؛ لما فيه من الاعتراف بالتقصير، والبعد عن المن بالعمل والإدلال به على الله، ولما فيه من جبر للنقص، وسد للخلل الذي يقع في العبادة.

شرع بعد انتهاء أعمال الحج، كما شرع بعد الفراغ من الصلاة أن يقول: «أستغفر الله» ثلاث مرات(٢).

وشرع في نهاية الأعمار، كما قال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

ومعنى الآية: اطلبوا من الله- عز وجل- مغفرة الذنوب.

عن شداد بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها في ليلة فمات من ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ (٤٥٢١).

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩١)، والترمذي في الصلاة (٣٠٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (٩٢٨)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦)، والنسائي في الاستعاذة (٥٥٢٢)، والترمذي في الدعوات (٣٣٩٣).

وعن عبدالله بن عمرو: أن أبابكر قال: يا رسول الله، علمني، دعاءً أدعو به في صلاتي؟ فقال: قل: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته.

﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة واسعة، وسعت كل شيء، وعمت كل حي، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمته- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

وهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالاستغفار، أي: استغفروا الله؛ لأنه أهل أن يُستغفر، وأهل أن يَغفر ويَرحم، كما قال تعالى في سورة المزمل: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥).

خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- مناسك الحج وأحكامه، ثم أتبع ذلك بالأمر بذكره بعد قضاء المناسك، كما أمر به بعد قضاء الصلاة، وبعد الجهاد.

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﵄ قال: «كان أهل الجاهلية يقفون في المواسم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله- تعالى- على نبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ يعني: ذكر آبائهم في الجاهلية»(١).

قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ أي: إذا فرغتم وانتهيتم من أداء مناسك الحج والعمرة وتحللتم منهما. والمنسك والنسك: العبادة، وكثر استعماله في الحج والعمرة، والذبح، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، أي: وذبحي.

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فأتْبِعوا ذلك بذكر الله- عز وجل- بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم، بأنواع الذكر، من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وقراءة القرآن، والصلاة، وغير ذلك، شكراً لله- عز وجل- على أن مكنكم من أداء المناسك، وإعلاناً لدوام عبوديتكم لله- عز وجل- ورغبتكم في الزيادة من الخير، وتفادياً للغفلة، أو الاغترار بما عملتم.

﴿كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ الكاف للتشبيه، أي: مثل ذكركم آباءكم، أو كما تذكرون آباءكم وأجدادكم، حيث كانوا في الجاهلية إذا انتهوا من المناسك، وفي غير ذلك من المواسم يذكرون آباءهم وأجدادهم، ويفتخرون بفعالهم ومآثرهم.

﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ «أو» بمعنى «بل» أي: بل أشد ذكرا، من حيث كثرة ذكره- عز وجل- باللسان، ومن حيث الإخلاص له بالقلب وحضوره ومواطأته للسان،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٥٥- ٣٥٦).

ومن حيث استعمال الجوارح في ذلك.

فأمر الله- عز وجل- العباد بالإكثار من ذكره، وأكد ذلك؛ لأن الذكر غذاء الأرواح، وهو أهم من غذاء الأبدان، فيه الطمأنينة والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم[1]: «ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله- عز وجل- كانت عليه، لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله. وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله- تعالى- كذا وكذا سنة، ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته أعظم مما حصله»

قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- مناسك الحج وأمر بذكره بعد قضائها، ثم ذكر انقسام الناس إلى فريقين في سؤالهم له- عز وجل:

فريق همهم الدنيا لا يسألون غيرها، وما لهم في الآخرة من نصيب، ذكرهم- عز وجل- في هذه الآية، وفريق يسألون الله من خيري الدنيا والآخرة، والوقاية من النار، وهم أهل النصيب الأوفر في الدنيا والآخرة، وذكرهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، قال: «كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن. لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين، فيقولون:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٨٩).

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فأنزل الله فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾»(١).

قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ الفاء: استئنافية، و«من» تبعيضية أي: فبعض الناس ﴿مَن يَقُولُ﴾ «من» موصولة، بمعنى الذي، أي: الذي يقول، بلسان حاله ومقاله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يا ربنا أعطنا نصيباً في الحياة الدنيا وزدنا فيها، فهؤلاء قد ملكت الدنيا أحاسيسهم ومشاعرهم، وأعمت قلوبهم، فلا يفكرون إلا فيها، ولا يشبعون منها غايتهم تحقيق شهواتهم البهيمية، فما أتعس حظهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(٢).

و«الدنيا» هي هذه الدار التي نحن فيها، سميت دنيا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة.

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ الواو: حالية، و«ما» نافية، ﴿لَهُۥ﴾ يعني- هذا القسم من الناس.

﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة التي هي الدار الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وإنما سميت الآخرة لتأخرها في الزمن بعد الدنيا.

﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ «من» لتوكيد العموم، و﴿خَلَٰقٍ﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم. والخلاق: النصيب.

أي: وما لهذا القسم من الناس في الآخرة التي هي الدار الحقيقية، لا في سؤالها، ولا في ثوابها أي نصيب، فلا يسألون الله فيها خيراً، بل هم معرضون عنها غاية الإعراض، وليس لهم فيها أيّ نصيب من الخير، بل ليس لهم فيها إلا النار وبئس القرار.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦).

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي: ومن الناس قسم موفقون يدعون ربهم، ويسألونه من خيري الدارين، في أمور دينهم ودنياهم، وهم المؤمنون، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ والحسنة في الدنيا تشمل كل خير الدنيا من التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، اللذان هما رأس مال الإنسان في هذه الحياة، ومن المتاع الحسن في هذه الحياة، من صحة في البدن، وفسحة في السكن، وسعة في الرزق، وزوجة صالحة، وأولاد تقر بهم العين، وغير ذلك.

والحسنة في الآخرة الجنة وما فيها من ألوان وأنواع النعيم، وأعلاها النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم(١).

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أي: اجعل لنا وقاية من عذاب النار، واكفنا إياه، بحفظنا من الذنوب الموجبة له، ومغفرتها، وزحزحنا عن النار، وأدخلنا الجنة، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وهذا الدعاء من أعظم وأجمع الأدعية وأكملها، وأولاها بالإيثار، ولهذا كان ﷺ يكثر الدعاء به ويحث عليه، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين، قد خَفَتَ(٣)، فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟** قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥١٩)، وأحمد (٣/ ١٠).

(٣) أي: ضعف.

سبحان الله، لا تطيقه- أو لا تستطيعه، أفلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» قال: فدعا الله له، فشفاه»(١).

وعن عبدالله بن السائب ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**»(٢).

فمن أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقي عذاب النار، فقد أوتي خيري الدنيا والآخرة، وكفي شرهما.

عن عبدالسلام بن شداد، قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، وتحدثوا ساعة، حتى إذا أرادوا القيام، قال: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع لهم، فقال: «تريدون أن أشقق لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله»(٣).

ويا ليت من يغلون في الدعاء، بل ويبتدعون فيه ينتبهون لهذا، ففي أدعية الكتاب والسنة الجامعة المانعة ما فيه غنية عما سواها، لمن صدق مع الله، وتحرى القبول والسنة، ونصح لمن خلفه من المصلين، وراقب الله فيهم، وخاف من مغبة مسؤوليته أمام الله- تعالى- عنهم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة لأقرب مذكور، وهم الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ أي: لهم حظ ﴿مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: من الذي كسبوه، أو من كسبهم، كما قال تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ [النساء: ٨٥].

ويحتمل كون الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لهؤلاء ولمن قبلهم وهم الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٨)، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٧)، وأحمد (٣/ ١٠٧).

(٢) أخرجه الشافعي في «مسنده» ص(١٢٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٥٩).

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وما لهم في الآخرة من خلاق، فلكل من هؤلاء وهؤلاء نصيب من كسبهم وجزاء أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ لأنه يشمل القسمين.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: قريب الحساب، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وأجله عز وجل آت، وكل آت قريب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧].

وأيضاً فإن عمر الإنسان قصير، والموت قريب، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام النبي ﷺ على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً. فقال ﷺ: «**مالي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»(١).

كما أنه- عز وجل- يحاسب الخلائق على وجه السرعة؛ لأنه أعلم بهم وبأعمالهم، فلا يحتاج إلى طول وقت لمحاسبتهم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه عز وجل يحاسب الخلائق في نصف يوم، وفي نصفه الآخر يكون أهل الجنة في مقيلهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

كما أن من سرعة حسابه- عز وجل- أن يجد الإنسان في حياته شيئاً من آثار وجزاء أعماله.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ذكر الله- عز وجل- مناسك الحج،

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأمر بذكره بعد قضائها، ثم أكد ذلك بالأمر بذكره في هذه الأيام المعدودات، والتي تلي الحج، وفيها بعض أعماله، وهي أيام التشريق الثلاثة.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم، بتكبيره وتهليله وتحميده، بالتكبير المطلق في هذه الأيام في جميع الأوقات، والتكبير المقيد من صلاة فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق، ونحر الهدي والأضاحي، وذكر اسم الله عليها، والمبيت بمنى والطواف والسعي والصلاة، وذكر الله عند رمي الجمار، وغير ذلك.

عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما جعل الطواف بالبيت، وبالصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»(١).

﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ وهي أيام التشريق الثلاثة؛ الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر؛ لمزيتها وفضلها. عن ابن عباس ﵄ قال: «**الأيام المعدودات: أيام التشريق**»(٢).

فهذه الأيام الثلاثة لها مزية وفضل وشرف.

عن نبيشة الهذلي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر لله**»(٣).

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**أيام التشريق أيام طعم وذكر لله، وقال مرة: أيام أكل وشرب**»(٤).

وعن عائشة ﵂ قالت: «**نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: هي أيام أكل وشرب وذكر لله**»(٥).

وعن عقبة بن عامر ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوم عرفة ويوم النحر، وأيام**

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك- في الرمل (١٨٨٨)، والترمذي في الحج- ما جاء كيف ترمى الجمار (٩٠٢)، وأحمد (٦/ ٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٥٩). وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٥٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٦٠).

(٣) أخرجه مسلم في الصيام- تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨٣٠)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٣٠)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٦٧)، وأحمد (٥/ ٧٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه في الصيام (١٧١٩)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٥٥٣).

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٥٥٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٢٤٤).

التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهن أيام أكل وشرب»(١).

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ بأن خرج من منى بعد رمي جمار اليوم الثاني، وقبل غروب الشمس.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا حرج عليه، ولا يأثم بذلك لجواز الخروج بعد ذلك.

﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ بأن بات ليلة الثالث في منى، ورمى الجمار اليوم الثالث بعد الزوال ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، فكل ذلك جائز، التعجل في يومين، والتأخر، وهذا من التخفيف والتيسير على الأمة، لكن لمن تأخر زيادة أجر عمله في اليوم الثالث.

﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: للذي اتقى الله في أعمال الحج ومناسكه وغيرها، فعلاً لما أمر الله به، وانتهاء عما نهى الله عنه، كما قال ﷺ: «**من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(٢)، وقال ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه عامة، وفي جميع الأوقات، لاسيما في هذه الأيام المعدودات.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: واعلموا أنكم إليه تُرجعون، ولديه تجمعون، وعليه تعرضون يوم القيامة، وتحاسبون.

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وأمر الله- عز وجل- بالعلم بأن إليه حشرهم؛ لأن العلم بذلك، والإيمان به واجب، وهو أعظم واعظ يحمل على تقوى الله عز وجل.

الفوائد والأحكام:

١- أن للحج أشهراً معلومات؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ وهي شوال

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٣).

(٢) سبق تخريجه.

وذو القعدة وذو الحجة، وقال كثير من أهل العلم: هي شوال وذوالقعدة وعشر من ذي الحجة.

ولا خلاف بين أهل العلم أن الإحرام بالحج لا يصح بعد فجر يوم النحر، كما لا خلاف بينهم أن أعمال الحج لا تنتهي في اليوم العاشر، بل لا تنتهي إلا بعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

كما أن بقية الشهر كله محل لأعمال الحج التي لا يفوت وقتها كالطواف والسعي ونحو ذلك.

ففرض الحج والإحرام به في شهرين وعشرة أيام، وأعماله في ثلاثة أشهر .

٢- أن الإحرام بالحج لا يصح إلا في أشهره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ وبهذا قال كثير من السلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، منهم ابن عباس، وجابر بن عبدالله ﷺ(١).

وعلى هذا فمن أحرم بالحج في غير أشهره لم يصح إحرامه ولم ينعقد.

وقال بعض أهل العلم ينعقد ويتحول عمرة.

وذهب جمهور أهل العلم، إلى أن الإحرام بالحج يصح في جميع أشهر السنة، وينعقد مع الكراهة.

وقالوا: معنى الآية ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: الحج الأفضل والأكمل حج أشهر معلومات. أي: أن الإحرام به في هذه الأشهر أفضل من غيرها.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، قالوا: فهذا يعم جميع أشهر السنة.

كما احتجوا بأنه أحد النسكين، فيصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة.

وهذا القول ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ يدل على أن للحج أشهراً معلومة محدودة، ولو كان الإحرام به مشروعاً طوال السنة، ما كان لهذا التحديد فائدة.

---

(١) سبق تخريجه عنهما.

ومثل هذا استدلالهم بالآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ فإن هذا الدليل عليهم، لا لهم، إذ لو كان الإحرام بالحج جائزاً في جميع السنة لم يوقت بالأهلة.

وأما قولهم: إنه أحد النسكين فيصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة. فهذا تعليل في مقابلة الدليل فلا يصح. فالحج جاء تحديده بأشهر معلومة، بخلاف العمرة، وعلى هذا فلا يلزم من صحة الإحرام بالعمرة في جميع السنة صحة الإحرام بالحج كذلك.

٣- ظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ جواز فرض الحج في جميع الأشهر الثلاثة، لكن دلت السنة على أن الإحرام بالحج لا يصح بعد فجر يوم النحر؛ لقوله ﷺ في حديث عروة بن مُضَرِّس رضي الله عنه: «**من شهد صلاتنا هذه- يعني صلاة الفجر في مزدلفة- وقد وقف بعرفة ساعة من ليل أو نهار، فقد تم حجه، وقضى تفثه**»(١)، وعلى هذا أجمع أهل العلم.

٤- أن الإحرام بالحج، أو العمرة ينعقد بمجرد نية الدخول في النسك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: نوى الدخول فيه.

٥- أن من أحرم بالحج وجب عليه إتمامه، حتى ولو كان نفلاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، وكذلك العمرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

٦- تحريم الجماع ومقدماته، والفسوق والجدال والخصام والنزاع على المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ وهكذا سائر محظورات الإحرام.

٧- توكيد حرمة الفسوق والجدال في الحج؛ لحرمة الإحرام والزمان والمكان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

٨- الترغيب في فعل الخير، وأنه لن يضيع عند الله- عز وجل- قل أو كثر؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: يعلمه- عز وجل- ويحصيه ويجازي عليه.

٩- علم الله- عز وجل- بجميع أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ وهو- عز وجل- بكل شيء عليم.

١٠- وجوب الاستعداد بالزاد لسفر الحج والعمرة، والاستغناء عن الناس، فلا يجوز كون الإنسان عالة وكلاً على الآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾.

١١- الحث على التزود بتقوى الله- عز وجل- وأنها خير زاد في الحال والمآل والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

١٢- أن أصحاب العقول هم الذين يتقون الله تعالى؛ لهذا خصهم بالأمر والنداء في قوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. وفي هذا امتداح لهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

١٣- جواز الاتجار في الحج وطلب الرزق في البيع والشراء والتأجير، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمتقين، وأن ما يحصل عليه الإنسان في تجارته من كسب وربح- هو من فضل الله- عز وجل- وزيادته؛ لقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٥- امتنان الله- عز وجل- على عباده، والتوسعة عليهم، ودفع الحرج عنهم في طلب الفضل منه والرزق في الحج.

وفي هذا ما يظهر بجلاء سماحة الإسلام وسمو مبادئه وأحكامه، وموازنته بين متطلبات الروح والجسد.

١٦- مشروعية الوقوف بـ«عرفات»، وأنها من مشاعر الحج؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ

أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ وهو أعظم أركان الحج؛ لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»(١).
ولم يصفها عز وجل بالحرمة؛ لأنها خارج الحرم.

١٧- وجوب المبيت بمزدلفة، وأنه بعد الوقوف بـ«عرفات»؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

١٨- مشروعية ذكر الله عند المشعر الحرام، بصلاة المغرب والعشاء والفجر، ودعاء الله وتكبيره وتهليله وحمده وتوحيده- كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه.

١٩- حرمة مزدلفة وأنها من مشاعر الحج، وكلها موقف؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٢٠- وجوب ذكر الله- عز وجل- وشكره- على العباد على هدايته لهم، وأن يكون ذلك وفق شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾.

٢١- إثبات الهداية لله- عز وجل- بقسميها هداية البيان والدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾.

٢٢- تذكير الله- عز وجل- لعباده- بحالهم في الضلال، قبل هدايته لهم، ليعرفوا قدر نعمة الله- عز وجل- وفضله عليهم، وعلى سائر الخلق، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فيشكروه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾.

٢٣- تأكيد أمر الوقوف بعرفة والإفاضة منها، والمبيت بمزدلفة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾.

٢٤- استواء الناس أمام أحكام الله الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾.

٢٥- مشروعية الاستغفار بعد الإفاضة من عرفات، والانتهاء من أعمال الحج ومناسكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وهو ختام الأعمال والأعمار.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٦- إثبات صفة المغفرة التامة لله- عز وجل- والرحمة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٧- مشروعية ذكر الله- عز وجل- بأنواع الذكر كلها- بعد قضاء المناسك شكراً لله- عز وجل- على ذلك، وإتباعاً للحسنة الحسنة بعدها، وبعداً عن الغفلة، أو الاغترار بالعمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٨- وجوب ذكر الله- عز وجل- وتعظيمه أكثر وأشد من تعظيم أي مخلوق من الآباء وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

٢٩- تنزل القرآن في مخاطبة العرب على نحو ما هم عليه من العادات تقريباً للمعاني لهم، وتأليفاً لقلوبهم، إذ ليس المقصود بقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ المساواة بين ذكر الله وذكر الآباء، ولا المقارنة بينهما فحق الله أعظم وأعظم، وذكره- عز وجل- أوجب وألزم.

٣٠- انقسام الناس إلى فريقين: فريق همهم الدنيا، لا يسألون ربهم سواها، معرضين عن الآخرة، والعمل لها، وعن سؤال الله الفوز فيها- وهم عبّاد المادة والدرهم والدينار، فليس لهم في الآخرة من نصيب، إلا النار وبئس القرار؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

وفريق وفّقوا للعمل للدنيا والآخرة، وسؤال ربهم من خيري الدنيا والآخرة، والوقاية من عذاب النار، فلهم جزاء كسبهم، وهو الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾.

٣١- الإشارة إلى حقارة الدنيا وعظم مكانة الآخرة.

٣٢- حاجة الإنسان إلى سؤال ربه عز وجل حسنة الدنيا والآخرة، وأن يقيه عذاب النار.

٣٣- أن من أجمع الأدعية وأعظمها، وأحراها بالقبول قول الداعي: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٣٤- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الجنة والنعيم، وعذاب النار والجحيم.

٣٥- أن الله- عز وجل- قد يجيب دعوة كل داع، مسلماً كان أو كافراً أو فاسقاً؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾.

لكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له، وخاصة إذا كان ذلك في أمور الدنيا؛ لأن الله- عز وجل- يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، لكنه لا يعطي الدين إلا من يحب كما قال ﷺ(١).

٣٦- أن لكل من الناس نصيباً من كسبه ثواباً كان أو عقاباً؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾.

٣٧- إثبات الكسب للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

٣٨- إثبات قرب القيامة، وسرعة حساب الله- عز وجل- للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: أن حسابه- عز وجل- سريع لقرب القيامة، كما أنه- عز وجل- يحاسب الخلق على وجه السرعة؛ لعلمه بهم وبأعمالهم، وكمال قدرته.

وقد قال بعض أهل العلم: إنه يحاسبهم في نصف يوم، ويقيل أهل الجنة فيها ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤].

٣٩- فضل ذكر الله- عز وجل- في أيام التشريق؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾، وهذا تخصيص لها بعد التعميم بالأمر بالذكر قبلها في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾.

٤٠- فضل بعض الأزمنة على بعض وكذا الأمكنة.

٤١- جواز التعجل في اليوم الثاني عشر من أيام التشريق بعد رمي الجمار، وجواز التأخر إلى اليوم الثالث عشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ وهذا من تيسير الله- عز وجل- على عباده.

٤٢- أن على من أراد التعجل في يومين أن يخرج من مِنى قبل غروب الشمس من اليوم الثاني عشر؛ ليكون تعجله في اليومين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ لأن «في»

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٧)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

للظرفية.

٤٣- عدم جواز التعجل في يوم واحد، أي في اليوم الحادي عشر، وأن من فعل ذلك فهو آثم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ إذ مفهوم هذا أن من تعجل بأقل منهما فهو آثم لفعله ما لا يجوز.

وهذا بيِّن اللهم إلا على قول من قال: المراد باليومين: يوم العيد واليوم الحادي عشر، وهذا لا يصح إلا على قول من قال المراد بالأيام المعدودات أربعة أيام: يوم العيد، وأيام التشريق الثلاثة. وهذا القول ضعيف. والصحيح أن المراد بالأيام المعدودات أيام التشريق الثلاثة، الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة.

٤٤- أن المعوّل عليه- هو تقوى الله- عز وجل- سواء تعجل الإنسان في يومين، أو تأخر؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

٤٥- وجوب تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٤٦- وجوب الإيمان بالبعث والمعاد والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

٤٧- أن الإيمان بالحشر إلى الله والحساب أعظم واعظ يحمل على تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة انقسام الناس في دعائهم في الحج إلى قسمين، منهم من يريد الدنيا دون الآخرة، وهم المشركون والكفار الصرحاء، ومنهم من يريدهما معاً وهم عامة المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [الآيتان: ٢٠٠- ٢٠٢].

ثم قسمهم الله في هذه الآيات إلى قسمين، كفار غير صرحاء قد بلغوا في الكفر والخصام والسعي في الأرض بالفساد وإهلاك الحرث والنسل غايته، وهم المنافقون، وإلى مؤمن مخلص ظاهراً وباطناً يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات نزلت في أناس من المنافقين قالوا لما أصيب خبيب بن عدي رضي الله عنه وأصحابه بالرجيع: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا لا هم قعدوا في بيوتهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله في ذلك من قول المنافقين، وما أصاب أولئك النفر من الشهادة والخير من الله»(١).

وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم إني صادق، فخرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٥٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٦٣- ٣٦٩)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٧٤، ١٧٥).

وحُمُر، فأحرق الزرع وعقر الحمر، فأنزل الله تعالى هذه الآيات»(١).

والصحيح أن الآيات عامة في المنافقين كلهم، وفي المؤمنين كلهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾، و«من» للتبعيض، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]، أي: وبعض الناس.

﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ «من»: اسم موصول بمعنى «الذي»، أي: الذي يعجبك قوله، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الخطاب.

ومعنى ﴿يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ أي: من تستحسن قوله، مما يُظهر به الإيمان، وحب الخير؛ نفاقاً منه، كما قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ [الآية: ٤] من حسنه وفصاحته مع ما في بواطنهم من الكفر والنفاق والخداع والغرور والكذب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وكما قيل:

يعطيك من أدنى اللسان حلاوة ... ويروغ عنك كما يروغ الثعلب
يلقاك يحلف إنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب(٢)

وقال الآخر:

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطب(٣)

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٥٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٦٤- ٣٦٧)، عن السدي.

(٢) ينسب هذان البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٥١).

(٣) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» (ص١١).

وقال المعري[1]:

وقد يُخلفُ الإنسانُ ظَنَّ عشيرةٍ ... وإن راق منه منظر ورُوَاء

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بقوله: ﴿يُعْجِبُكَ﴾، أي: إعجابك بقوله حاصل في هذه الحياة الدنيا، فالحياة الدنيا ظرف لهذا الإعجاب.

وقد يكون: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، متعلق بكلمة ﴿قَوْلُهُۥ﴾، أي: كلامه في أمور الدنيا، أي: عن أمور الدنيا التي هي أكبر همه ومبلغ علمه.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُعْجِبُكَ﴾، و«ما» موصولة، أي: ويشهد الله على الذي في قلبه، وذلك بحلفه بالله أنه مؤمن مصدق، وأن ما في قلبه موافق لقوله، وهو في ذلك كاذب، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ [النساء: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٦].

وأيضاً: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ أي: ويبارز الله تعالى بالاستمرار على ما في قلبه من الكفر والنفاق؛ لأن الله تعالى يعلم ما في قلبه من ذلك، ولا تخفى عليه منه خافية، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨].

وأيضاً ربما قال: «والله على ما أقول شهيد»، كما يردد هذا بعضهم وهو كاذب.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ الضمير «هو» يعود إلى «من» في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وإضافة «ألد» إلى «الخصام» من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«الخصام» يحتمل أن يكون مصدر خاصم يخاصم خصاماً ومخاصمة وخصومة.

و«الألد»: الأعوج الشديد الخصام، قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، و﴿ٱلْخِصَامِ﴾: الخصومة والجدال.

---

(١) انظر: «اللزوميات» (١/ ٥٦).

والمعنى: وهو شديد الخصومة والمجادلة بالباطل، يكذِّب ويزوِّر الحق، ولا يستقيم معه، كما يفتري ويفجر قال ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

ويجوز أن يكون الخصام، جمع مفرده «خَصِم» والمعنى: وهو ألد الخصوم، أي: ألد الناس المخاصمين، أي: أعوجهم وأشدهم خصومة وجدلاً بالباطل.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي: وإذا تولى هذا الذي يعجبك قوله، أي: وإذا ذهب وابتعد عنك وعن من ينكر عليه.

﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: سار ومشى في الأرض وعمل فيها جاهداً، كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يس: ٢٠]، أي: يسير ويمشي، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [الإسراء: ١٩]، أي: عمل لها عملها.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يفسد فيها فساداً معنوياً بالكفر والنفاق والمعاصي، وتشكيك الناس في دينهم، مما يحصل بسببه الفساد الحسي، وهو ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ أي: يُتلف الحرث والنسل بسبب فساده، كما قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والمراد بـ﴿ٱلْحَرْثَ﴾ الزرع والنباتات والثمار، و﴿وَٱلنَّسْلَ﴾ نتاج ومواليد الإنسان والحيوان.

أي والمعنى: فيتسبب في هلاك الحرث والنسل، وخراب البلاد، وهلاك العباد، والقضاء على مقومات الحياة، وبهذا جمع بين عوج وسيء المقال، وبين قبيح وسوء الفعال.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤)، ومسلم في الإيمان (٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٨)، والنسائي في الإيمان (٥٠٢٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال السعدي[١]: «ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم».

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ في هذا تحذير من الفساد، وتوبيخ وتهديد للمفسدين، ونفي محبته ﷻ للفساد يدل على بغضه للفساد وكراهيته له وعلى بغضه وكراهيته للمفسدين، وعدم محبته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: وإذا قيل لهذا المفسد في الأرض المهلك للحرث والنسل:

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخذ وقاية من عذاب الله بالإيمان وترك النفاق والكفر والعناد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ بالبناء للمفعول وحذف الفاعل دلالة على رده الحق أيّاً كان قائله لكراهته للحق.

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾، أي: حملته وأحاطت به العزة.

والمراد بـ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ هنا العزة المذمومة عزة الجاهلية، وهي الأنفة والترفع والتكبر عن قبول الحق وامتثاله، وترك الباطل، وليس المراد بها العزة المحمودة، وهي العزة بحق التي قال الله عنها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ الباء: للمصاحبة والملابسة، و(الإثم): الذنب، أي: احتوته العزة المصاحبة والملابسة للإثم.

والمعنى: احتوته وأحاطت به العزة والأنفة والحمية الجاهلية، وحملته على الإثم،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٢٥١- ٢٥٢).

وهو عدم الإصغاء للناصحين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وقد قال الله ﷻ لصفوة خلقه وسيد رسله نبينا محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقال تعالى له: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**اتق الله**» فأنكر عليه رجل من الحاضرين، فقال عمر رضي الله عنه: «**دعه، فلا خير فيكم إن لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نسمعها منكم**»(١).

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وعيد شديد له وتهديد أكيد، لقوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

والحسب بمعنى الكافي، أي: فكافيته جهنم يدخلها ويعذب فيها مجازاة له على كفره وعدم قبوله الحق.

والحسب بمعنى «الكافي»، أي: كافيه جهنم عقوبة له، و«جهنم»: اسم من أسماء النار، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وقيل: للعلمية والتأنيث.

وسميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها، نسأل الله تعالى السلامة منها.

قال الشاعر:

رَشَدْتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنما ... تَجَنَّبْتَ تنوراً من النَّار مظلماً(٢)

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الواو: عاطفة، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، أي: والله لبئس المهاد.

و﴿بِئْسَ﴾: فعل جامد لإنشاء الذم، وفاعلها ﴿ٱلْمِهَادُ﴾، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: ولبئس المهاد، هي، أي: جهنم، و﴿ٱلْمِهَادُ﴾ في الأصل الفراش والوطاء، والمعنى: ولبئس الفراش والوطاء والمسكن والمستقر جهنم، عذاب أبدي

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه»، انظر: «الفقه الإسلامي وأدلته» (٨/ ٣٣٢).

(٢) البيت لورقة بن نوفل أو أمية بن أبي الصلت يرثي زيد بن عمرو بن نفيل، وكانا معاً ممن تركا عبادة الأوثان في الجاهلية. انظر: «السيرة النبوية» (١٦٤).

سرمدي، معنوي للقلوب، وحسي للأبدان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة حال المنافق، ألد الخصام، المفسد في الأرض، المعرض، المتكبر عن تقوى الله، ثم أتبع ذلك بذكر حال المؤمن الذي يشري نفسه طلب مرضاة الله تعالى، كما هي طريقة القرآن الكريم الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء، فلا يأمن من مكر الله، ولا ييأس ويقنط من رحمة الله تعالى.

وقد روي عن صهيب الرومي رضي الله عنه قال: «**لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تُخَلّون عني؟ قالوا: نعم. فدفعت إليهم مالي، فخلَّوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب، مرتين»**.

وفي رواية عن سعيد بن المسيب، قال: «**أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ فأتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش، قد علمتم أني من أرماكم رجلاً، وأنتم والله لا تصلون إليَّ حتى أرمي كل سهم في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي وقنيتي بمكة وخليتم سبيلي؟ قالوا: نعم نعم، فلما قدم على النبي ﷺ قال: «ربح البيع، ربح البيع»**، قال: ونزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وفي بعض الروايات، قال ﷺ: «**ربح البيع أبا يحيى**».

وفي رواية: «فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة، فقالوا: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك؟ فأخبروه أن الله تعالى أنزل فيه هذه الآية».

وهكذا قال ابن عباس وسعيد بن المسيب وأبوعثمان النهدي وعكرمة، وجماعة: إنها نزلت في صهيب رضي الله عنه، وقيل: نزلت هذه الآية في مدح خبيب بن عدي- رضي الله

تعالى عنه- وأصحابه الذين قتلوا في الرجيع.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن الآية عامة في كل مجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، ولهذا لما تقدم رجل من بين الصفين، وفي بعض الروايات أنه هشام بن عامر، أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(١).

وهذا كله لا ينافي عموم الآية في كل من باع نفسه في طاعة الله تعالى هجرة أو جهاداً في سبيل الله، أو دعوة إلى الله تعالى وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

هذا قسيم قوله تعالى فيما سبق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ الآيات، أي: ومن الناس من يكون كذا، ومنهم من يكون كذا.

و«من» في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: تبعيضية، وفي قوله: ﴿مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾: موصولة، و«يشري» بمعنى «يبيع»، كما قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]، أي: الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

كما أن «شرى» بمعنى «باع»، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، أي: باعوه، وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ولبئس ما باعوا به أنفسهم.

وأما اشترى فهي بمعنى (ابتاع) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، أي: ابتاعها منهم، وقال تعالى:

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٥٧١ - ٥٧٦)، (٥٩٠- ٥٩٤)، و«أسباب النزول» للواحدي، ص (٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦٠- ٣٦١)، و«الصحيح المسند من أسباب النزول» ص(٣٣).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: لمن ابتاعه.

وكذا «يشتري»، بمعنى «يبتاع»، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦].

﴿نَفْسَهُ﴾، أي: ذاته.

﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ مفعول لأجله، أي: طلباً لرضوان الله ﷻ، وإخلاصاً له سبحانه وتعالى.

والمعنى: ومن الناس من يبيع نفسه ابتغاء مرضاة الله ﷻ، أي: يبيعها لله ﷻ، ويبذلها للقيام بطاعته ﷻ والجهاد، والاستشهاد في سبيله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، أي: والله ذو رأفة بالعباد، والرأفة: شدة الرحمة وألطفها وأرقها، وهي قسمان رأفة عامة، ورأفة خاصة.

﴿بِالْعِبَادِ﴾ أي: بالعباد جميعهم؛ لأن عبودية الله ﷻ تنقسم إلى قسمين: عبودية الانقياد لأمر الله تعالى الشرعي، فهذه خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، فهؤلاء لهم رأفة الله تعالى الخاصة.

والقسم الثاني: عبودية الانقياد لأمر الله تعالى الكوني، وهذه عامة، فكل الخلق عباد لله تعالى بهذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وهؤلاء لهم رأفة الله العامة.

الفوائد والأحكام:

١ - أن من الناس من يعجبك قوله بإظهاره بلسانه الإيمان والخير وحسن القصد ونحو ذلك، وحقيقته خلاف ذلك، وهم المنافقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ الآيات.

٢- أن المنافق باستمراره على النفاق يشهد الله على ما في قلبه؛ لأن الله تعالى يعلم ما في قلبه من هذا النفاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾.

٣- علم الله ﷻ بما في القلوب والصدور؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤، التغابن: ٤].

٤- أن المنافق يشهد الله على ما في قلبه بحلفه أن ما في قلبه موافقاً لقوله، أي: أن باطنه موافقاً لظاهره، وهو كاذب.

٥- عدم الاغترار بمن يُظهرون بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم خلاف ما يبطنون.

٦- أن خصام المنافق أشد الخصام، وهو أشد الخصوم وأعندهم وأكذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾.

٧- ذم الخصام والجدال بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾.

وفي الحديث: «**أبغض الرجال الألد الخصم**»(١).

وعن أبي أمامة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾**»(٢).

وهذا بخلاف المجادلة بالتي هي أحسن؛ لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإن هذا مأمور به، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

٧- سعي المنافقين للإفساد في الأرض بما هم عليه من النفاق والكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ (٢٤٥٧)، ومسلم في العلم - الألد الخصم (٢٦٦٨)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٢٣)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٦) من حديث عائشة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٥٣)، وابن ماجه في المقدمة (٤٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة ١١، ١٢].

٨- أن المعاصي والذنوب سبب لهلاك الحرث والنسل وخراب الديار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾.

٩- جبن المنافقين، ومخادعتهم فلا يجرؤون على إظهار ما هم عليه في فساد إلا إذا غابوا عن الأنظار والأسماع؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾.

١٠- صيانة الشرع وحفظه للأموال والأنفس ومقومات الحياة، وذمه، بل وتحريمه التعدي عليها.

١١- نفي محبة الله ﷻ للفساد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، وفي هذا إثبات بغضه وكراهيته ﷻ للفساد والمفسدين.

١٢- إثبات محبة الله ﷻ للصلاح؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.

١٣- ذم الفساد في الأرض والتحذير منه؛ لأن الله تعالى لا يحبه، بل يكرهه ويبغضه.

١٤- أَنَفَةُ أهل النفاق والإفساد في الأرض وتعاظمهم من أن يقال لأحدهم: اتق الله، ومن قول الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾.

١٥- أن الأَنَفَةَ والكبر والتعاظم قد يحمل على رد الحق والوقوع في الإثم؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾.

١٦- الوعيد لمن رد الحق وأَنِفَ من قبوله بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾.

١٧- شدة حر النار وظلمتها وبعد قعرها؛ ولهذا سميت: «جهنم».

١٨- ذم النار وتقبيحها فإنها بئس المهاد والمستقر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

١٩- وجوب قبول الحق، والحذر من رده، أيّاً كان قائله؛ لأن الله ﷻ توعد على ذلك بالنار.

٢٠- أن من الناس من هو موفق ساع في خلاصه، يبيع نفسه؛ طلباً لرضوان الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، بخلاف من قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ الآيات.

٢١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، بذكر أهل الحق وأهل الباطل وما

أعد لكل منهم؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، والرهبة والرغبة.

٢٢- ثناء الله ﷻ وامتداحه لمن باع نفسه طلباً لمرضاة الله ﷻ، وقدم رضى الله على النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٢٣- لا بد لصحة العمل وقبوله من إخلاص النية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٢٤- إثبات صفة الرضا لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٢٥- إثبات صفة الرأفة لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

٢٦- رأفة الله ﷻ العامة بجميع العباد، ورأفته الخاصة بعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وهذا يشمل الرأفة العامة والخاصة، ويعم جميع العباد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»(١).

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر وابن كثير والكسائي (السَّلم) بفتح السين، وقرأ الباقون ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ بكسرها.

ومعنى القراءتين واحد، والمعنى: ادخلوا في الإسلام كافة. قال الشاعر:

وعدت عشيرتي للسَّلم لما ... رأيتهموا تولّوا مدبرينا
فلست مبدِّلاً بالله ربّاً ... ولا مستبدلاً بالسَّلم ديناً(٢)

والإسلام هو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، أي: الاستسلام لله ظاهراً وباطناً.

﴿كَآفَّةٗ﴾: حال من «السلم»، أي: ادخلوا في الإسلام جميعاً، أي: التزموا وامتثلوا جميع شرائع الإسلام وأحكامه الظاهرة والباطنة، فعلاً للمأمورات واجتناباً للمنهيات. وهذا هو مقتضى الإيمان الذي وصفهم الله تعالى وشرفهم به، وفي هذا حض وحث لهم على الاستقامة حقاً على الإيمان والإسلام والثبات على ذلك والاستزادة منه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

ويحتمل أن تكون ﴿كَآفَّةٗ﴾ حالاً من الواو في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، أي: ادخلوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٠٢٧).

(٢) البيتان لامرئ القيس الكندي يدعو بها قومه كندة إلى الرجوع إلى الإسلام لما ارتدوا مع الأشعث بعد وفاة رسول الله ﷺ، انظر: «جامع البيان» (٣/ ٥٩٧)، «الوحشيات» ص (٧٥).

جميعاً في الإسلام، أي: ككلم.

ولا مانع من حمل الآية على الاحتمالين معاً، إذ لا تنافي بينهما، فهم مأمورون بتطبيق أحكام الإسلام كلها، ومأمورون بالدخول في الإسلام كلهم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أمرهم بالدخول بالإسلام كافة، ثم نهاهم عما يصدهم عن ذلك، وهو اتباع خطوات الشيطان.

قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة وخلف وأبوبكر عن عاصم بإسكان الطاء: ﴿خُطْوَات﴾، وقرأ الباقون بضم الطاء: ﴿خُطُوَٰتِ﴾.

و﴿خُطُوَٰتِ﴾: جمع «خطوة»، وهي في الأصل: ما بين قدمي الماشي.

و﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: طرقه ومسالكه وما هو عليه وما يأمر به من الكفر والاستكبار والخروج عن طاعة الله والفحشاء والمنكر.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ١٦٩].

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، و«إنَّ» للتوكيد، فيها توكيد شدة عداوة الشيطان للمؤمنين.

و«العدو»: ضد الولي، وهو من يحب لك الشر، و«مبين»: بيِّن العداوة ظاهرها ومظهرها، ولهذا يجب الحذر منه، واتخاذه عدواً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾.

نهى الله ﷻ عن اتباع خطوات الشيطان لعداوته البينة للمؤمنين، ثم أتبع ذلك بالتحذير عن الميل والعدول عن الحق بعد بيانه، والوعيد لمن فعل ذلك في إشارة واضحة إلى أن ذلك من أعظم الاتباع لخطوات الشيطان.

قوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ الفاء: عاطفة، و«إن»: شرطية، و﴿زَلَلۡتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾.

﴿زَلَلْتُم﴾: وقعتم في الزلل، وهو الخطأ والميل والعدول عن الحق.

فمعنى ﴿زَلَلْتُم﴾ أخطأتم وعدلتم وملتم عن الحق، وسمي العدول والميل عن الحق زللاً؛ لأن فيه الهلكة، نسأل الله تعالى العافية.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ «ما»: مصدرية، و﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: صفة لموصوف محذوف، أي: الآيات البينات، أي: الواضحات في ألفاظها ومعانيها وأحكامها، والمعجزات والدلائل على الحق.

والمعنى: فإن عدلتم عن الحق من بعد مجيء البينات إليكم، أي: عن علم ويقين منكم.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: جواب الشرط، وفيه تحذير وتهديد ووعيد لمن مال وعدل عن الحق، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

أي: فاعلموا أن الله عزيز القهر والغلبة والقوة والامتناع، لا يعجزه شيء من الانتقام ممن عصاه، ولا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب، لا تضره معصية العاصي، كما لا تنفعه طاعة المطيع.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام في كل ما قدره من أحكام كونية؛ من إضلال من ضل من الخلق من هؤلاء وغيرهم، وهداية من اهتدى، وغير ذلك، وهو ذو الحكم التام في كل ما شرعه، وذو الحكم العدل في جزائه ومعاقبة من عصاه، وإثابة من أطاعه، وذو الحكمة البالغة في قدره وشرعه وجزائه.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾.

نهى الله ﷻ في الآيتين السابقتين من اتباع خطوات الشيطان، وحذر من الميل والعدول عن الحق، وتوعد من فعل ذلك، ثم أكد حصول هذا الوعيد وقربه، فقال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ الآية.

قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ (هل): للاستفهام الإنكاري، ويفيد النفي المحقق، أي: ما ينظرون، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة للتنبيه.

و﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى «ينتظرون»، أي: ما ينتظر هؤلاء الذين عدلوا عن الحق ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ الآية.

لأن «نظر» إذا عديت بـ«إلى» فهي بمعنى النظر بالعين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وإذا لم تعدّ فهي بمعنى الانتظار، كما في قوله هنا: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿يَنظُرُ﴾ أي: إلا إتيان الله يعني: يوم القيامة؛ لفصل القضاء بين العباد، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والإتيان بمعنى المجيء، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]، وهو إتيان ومجيء حقيقي يليق بجلاله وعظمته ﷻ.

﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ «في» هنا بمعنى «مع»، والمعنى: إلا أن يأتيهم الله مع ظلل من الغمام، أي: مصاحباً لهذه الظلل، ولا يصح أن تكون «في» للظرفية؛ لأن الله- سبحانه وتعالى- أجل وأعظم وأعلى وأكبر من أن يحيط به شيء من مخلوقاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، [لقمان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وقوله: ﴿ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ «ظلل» جمع (ظلة)، أي: ظلة داخل ظلة، وهي ما يستر من الشمس، فهي في غاية الإظلام والهول والمهابة.

و«الغمام» جمع «غمامة» وهو السحاب، أو السحاب الأبيض الرقيق، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ أبوجعفر «والملائكةِ» بالجر عطفاً على ظلل، وقرأ الباقون «والملائكةُ» بالضم عطفاً على لفظ الجلالة «الله»، أي: وتأتيهم الملائكةُ.

كما قال تعالى في سورة الفجر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الآية: ٢٢]، «الملك» جنس الملائكة، أي: والملائكة ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾، أي: صفاً بعد صفٍ.

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: يحتمل أن تكون الواو: عاطفة، والجملة في محل نصب معطوف على قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ﴾، فيكون قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ مما ينتظر، أي: هل ينتظرون إلا إتيان الله في ظلل من الغمام، وإتيان الملائكة، وقضاء الأمر.

ويحتمل أن تكون الواو استئنافية فالجملة مستأنفة وجاء التعبير بصيغة الماضي؛ لقربه وتحقق وقوعه، وجاء بصيغة ما لم يسم فاعله؛ تعظيماً للأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وانقضاء الأمر: انتهاؤه، والأمر هو الشأن، أي: وانتهى شأن الخلائق وحسابهم، وفصل بينهم، وانتهى كل شيء، فلا اعتذار ولا استعتاب، وجوزي كلٌ بعمله، وصار كلٌّ إلى مصيره، ومأواه، أهل الجنة إلى الجنة، نسأل الله من فضله، وأهل النار إلى النار، نسأل الله السلامة.

كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلى قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، إلى قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآيات: ٦٩-٧٥].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب: «تَرجِعُ الأمور» بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ بضم التاء وفتح الجيم.

«إلى الله» متعلق بـ «ترجع»، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر والاختصاص، أي: وإلى الله وحده، لا إلى غيره ترد الأمور كلها أمور الدنيا والآخرة الدينية والدنيوية، الكونية والشرعية والجزائية، وإليه سبحانه يرد الخلائق كلهم وعليه حسابهم وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

[الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وتشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان والحث على الاتصاف بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- أن من مقتضى الإيمان الدخول في السلم كافة وعدم اتباع خطوات الشيطان.

٣- وجوب الدخول في الإسلام وتطبيق أحكامه الشرعية كلها جملة وتفصيلاً، ظاهراً وباطناً؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.

وفي هذا تحذير من مسالك أهل الكتاب في الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

وفيه تحذير من اتباع الهوى، واتخاذه إلهاً، كما هو حال كثير من الناس إن وافق الشرع هواه أخذ به، وإن خالف الشرع هواه تركه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

٤- في أمر المؤمنين بالدخول في السلم كافة حض وحث على الاستقامة حقاً على الإيمان والإسلام والثبات على ذلك والاستزادة منه، كما أُمر المؤمنون أن يقولوا في صلاتهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: وفقنا وثبتنا عليه وزدنا هداية.

٥- النهي عن اتباع خطوات الشيطان وعمله ومسالكه، وتحريم ذلك؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

٦- أن عدم الدخول في الإسلام وتطبيق أحكامه هو بسبب اتباع خطوات الشيطان.

٧- عداوة الشيطان الشديدة والبينة لبني آدم وبخاصة المؤمنين، ووجوب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٨- إثبات الحكمة لله ﷻ في أمره ونهيه وشرعه؛ لأن الله ﷻ نهى عن اتباع خطوات الشيطان، ثم أتبع ذلك ببيان علة النهي وهو عداوته للمؤمنين.

٩- قرن الحكم بعلته؛ لأن ذلك أدعى للقبول وأقوم للحجة.

١٠- التحذير من الزلل والميل عن الحق والعدول عنه، بعد بيانه وقيام الحجة عليه، والوعيد لمن فعل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١١- قيام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإقامة الحجج وبيان الآيات، بما لا عذر معه لأحد من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

١٢- أن العقاب لا يستحقه إلا من عدل عن الحق بعد بيانه له وإقامة الحجة عليه، وهذا من كمال عدل الله ﷻ.

١٣- إثبات صفة العزة التامة لله ﷻ بأقسامها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ﴾.

١٤- أن من عدل ومال عن الحق بعد بيانه لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً لكمال عزته.

١٥- إثبات صفة الحكم التام لله ﷻ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله ﷻ؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١٦- أن لله ﷻ الحكم التام والحكمة البالغة في إضلال من ضل من الخلق، وفي هداية من اهتدى منهم.

١٧- وجوب العلم بأن الله ﷻ عزيز حكيم، والحذر من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١٨- فضل العلم بالله ﷻ وصفاته وما يجب له؛ لأن ذلك سبب لتقواه والحذر من عقابه، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

١٩- في اجتماع كمال العزة، وكمال الحكم، وكمال الحكمة في حق الله ﷻ زيادة كماله إلى كمال، وإثبات أن له المثل الأعلى، والكمال المطلق من جميع الوجوه.

وهذا بخلاف المخلوق الضعيف الذي إن حصل له شيء من العزة والقوة غرّه ذلك غالباً وحمله على الغشم والطيش والسفه والجهل إلا من رحم الله تعالى، وإن كان لديه شيء من الحكمة صاحب ذلك غالباً الضعف، وقلّ أن تجتمع عند أحد من البشر هاتان الصفتان.

٢٠- تأكيد الوعيد للذين عدلوا عن الحق بعد معرفته وتخويفهم بقرب عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢١- إنظار المكذبين، وأن الله ﷻ يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآية.

٢٢- إثبات إتيان الله ﷻ يوم القيامة للفصل والقضاء بين عباده، وهو من الأفعال الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وهو إتيان ومجيء حقيقي يليق بجلاله وعظمته، ويجب إثباته بلا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تمثيل.

وفي هذا رد على من ينفي ثبوت الأفعال الاختيارية لله ﷻ من أهل التعطيل وغيرهم.

٢٣- التنبيه على عظمة الله ﷻ وعظمة إتيانه ومجيئه؛ لقوله تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾.

٢٤- إثبات وجود الملائكة وإتيانهم يوم القيامة يوم الفصل بين العباد؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٢٥- انقضاء وانتهاء كل شيء يوم القيامة، فلا اعتذار ولا استعتاب، ومصير كل إلى مأواه، إما إلى الجنة، وإما إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

٢٦- أن مرجع الأمور كلها ومردها ومصيرها إلى الله ﷻ وحده دون غيره، أمور الدنيا والآخرة، أمور الكون والشرع، والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢٧- عظمة الله ﷻ، وتمام سلطانه، وكمال ملكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

قوله: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ «سل»: أمر من سأل يسأل، أصله «اسأل» فحذفت الهمزة تخفيفاً بعد نقل حركتها إلى السين الساكنة قبلها، ثم حذفت همزة الوصل لعدم الحاجة إليها.

والأمر للنبي ﷺ، والسؤال لتوبيخ وتقريع بني إسرائيل على طغيانهم وجحودهم الحق بعد وضوح الآيات، وفي ذلك أيضاً تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب قومه.

والمراد بـ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الموجودون في عهده ﷺ.

و«بنو إسرائيل» هم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، و«إسرائيل» هو يعقوب عليه السلام، والمراد بهم في الآية الموجودون في عهد النبي ﷺ.

﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ «كم»: استفهامية تفيد التكثير، أي: كم أعطيناهم من آيات كثيرة.

و«آتينا» تنصب مفعولين، الأول هنا الضمير «هم»، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: كم من آية بينة آتيناهموها.

وقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾: تمييز «كم».

أي: كم أعطيناهم من علامة ظاهرة، وحجة قاطعة، ودلالة واضحة على عظمة الله ﷻ، وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب عبادته وحده، وعلى صدق

رسله عليهم الصلاة والسلام فيما جاؤوا به من الآيات الشرعية في التوراة والإنجيل وغيرهما من كتبهم والتي من أعظم ما جاء فيها الشهادة بصدق نبينا محمد ﷺ.

وكذا الآيات الكونية كما في الآيات التسع التي أعطيها موسى عليه الصلاة والسلام وغيرها، كالعصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، والسنين، ونقص الثمرات، وانفلاق البحر وإنجائهم وإغراق آل فرعون وهم ينظرون، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى عليهم وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وكذا الآيات الكونية التي أعطيها عيسى- عليه الصلاة والسلام- كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ﷻ وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١٠- ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨- ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات التي أعطاها الله لبني إسرائيل.

والمعنى: سل بني إسرائيل؛ توبيخاً وتقريعاً وتبكيتاً لهم: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾، أي: كم أعطينا أسلافهم وتناقلوه عنهم جيلاً بعد جيلٍ من الآيات والدلالات والحجج الكثيرة

البينة الواضحة، الكونية والشرعية، والتي هي أعظم نعم الله تعالى عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

ومع ما آتاهم الله من الآيات البينات لم ينجع ذلك فيهم، بل كفروا بالله فبدلوا شكر نعمته عليهم بهذه الآيات كفراً، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بعد ما ذكر ﷻ كثرة ما آتاه لبني إسرائيل من الآيات البينات، والتي هي أعظم نعمة من الله عليهم، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ الآية، في إشارة واضحة إلى كفرهم بنعمة الله عليهم، وعدم شكرهم لها.

قوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يبدل نعمة الله عليه بالآيات البينات وهي النعمة الدينية التي هي أعظم نعمة من الله على العباد، والتي بها سعادتهم وفوزهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، ويبدل نعمته الدنيوية، بالكفر بها وعدم شكرها، أي: يجعل بدلها وبدل شكرها الكفر بها، وسُمي ذلك تبديلاً؛ لأن النعم إذا كُفِرت فرّت وتبدلت، وإذا شُكرت قرّت واستمرت وزادت.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾، أي: من بعد وصول هذه النعمة إليه ومعرفته إياها.

والتصريح بهذا مع أن التبديل لا يتصور قبل المجيء للإشعار بأنهم قد بدلوها بعد ما وقفوا على تفاصيلها، وفي هذا تقبيح لفعلهم، وإظهار لشناعة حالهم، واستدلال على استحقاقهم العذاب الشديد حيث بدلوا بعد المعرفة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تعليل لجواب الشرط أقيم مقامه، أي: ومن يبدل نعمة الله يعاقبه أشد عقوبة؛ لأنه شديد العقاب، ويجوز كونه هو الجواب بتقدير الضمير، أي: فإن الله شديد العقاب له.

والمعنى: فإن الله قوي الجزاء بالعقوبة والعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى

عن قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

والعقاب: الجزاء المؤلم عن خيانة وجرم وذنب، وسمي عقاباً لأنه يعقب الخيانة والجرم والذنب.

وأظهر اسم الجلالة في مقام الإضمار، فلم يقل: فإنه شديد العقاب، بل قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ للتعظيم وتربية المهابة في النفوس، ولتكون هذه الجملة مستقلة بنفسها.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ «زين»: مبني لما لم يسم فاعله، وجيء به ماضياً للدلالة على أن ذلك قد وقع وفرغ منه، والتزيين معناه التحسين والتجميل، أي: جعل الشيء حسناً جميلاً محبباً إلى النفس.

ويجوز أن يكون الذي زين لهم ذلك هو الله تعالى كوناً وقدراً، أي: زين الله كوناً وقدراً للذين كفروا الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ويجوز أن يكون الذي زين لهم ذلك هو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]، وقال تعالى عن الشيطان أنه قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٩].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين إذ لا تنافي بينهما.

أي: زين وحسن وحبب للذين كفروا من مشركي مكة كأبي جهل وأمثاله من صناديد قريش وغيرهم من أهل الكفر الحياة الدنيا، وما فيها من المتاع والشهوات والملذات، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الواو: عاطفة، فالجملة معطوفة على ﴿زُيِّنَ﴾، ويصح كون الواو للحال؛ أي: وهم يسخرون من الذين آمنوا، كما كان المشركون يسخرون من عمار وبلال وصهيب رضي الله عنهم.

وفي التعبير بالمضارع دلالة على تكرار ذلك منهم واستمراره، أي: ويجعلون الذين آمنوا محل سخرية وازدراء واستهزاء بسبب إيمانهم وإقبالهم على الآخرة وإعراضهم عن اللذات وقلة ذات يدهم.

وهذا يدل على إغراق هؤلاء الكفار بالافتتان في زهرة الحياة الدنيا، وتناهيهم في الغرور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٢]، وكما قال تعالى عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو: عاطفة، أي: والذين اتقوا ربهم وعقابه، بفعل ما أمرهم الله به، وترك ما نهاهم عنه، وهم الذين آمنوا.

وعدل عن الإضمار إلى الإظهار، فلم يقل: وهم فوقهم، بل قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ﴾؛ لئلا يُتوهم أن الضمير يرجع إلى الذين كفروا؛ ولبيان فضل التقوى والحض عليها، وأنها سبب فوقيتهم.

﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ «فوقهم» أي: أعلى منهم في المنازل والدرجات يوم القيامة، فالذين اتقوا في الغرفات في أعلى الجنة في جنات النعيم، والذين كفروا في أسفل الدركات في سواء الجحيم، المتقون في أعلى عليين، والكفار في أسفل سافلين.

كما أن المتقين فوق الكفار في الدنيا والآخرة مطلقاً في الشرف والكرامة.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ الرزق: العطاء، أي: والله يعطي ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: من يرد كوناً إعطاءهم من فضله من الدرجات والمنازل العالية الرفيعة، التي لا نهاية لها في الدين والدنيا والآخرة.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: أنه ﷻ يعطي من يشاء العطاء الجزيل بلا محاسبة منه لهم،

وأكثر مما يستحقون ولا حد ولا حصر لعطائه سبحانه، فهو أكرم الأكرمين، وخزائنه لا تنفد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال ﷺ: «**أنفق يا ابن آدم يُنفق عليك**»(١).

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: كان الناس فيما مضى قبل بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام إليهم.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: طائفة وجماعة واحدة على دين واحد، وهو التوحيد والإسلام والفطرة التي فطر الله الناس عليها، ملة أبيهم آدم، وملة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وقيل: كان الناس أمة واحدة على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا هدى ولا إيمان.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الفاء: عاطفة، والمعطوف عليه محذوف معلوم من السياق اللاحق، أي: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا في دينهم فبعث الله النبيين، كما جاء في قراءة عبد الله بن مسعود وأُبي بن كعب رضي الله عنهما: «**كان الناس أمة واحدة فاختلفوا...**»(٢)، وعليه يدل قوله تعالى في الآية: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [الآية: ١٩].

ومثل هذا في حذف المعطوف عليه، ودلالة السياق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٢)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجهما عنهما الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٦٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٧٦).

مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، «فعدة» معطوف على محذوف، والتقدير: فأفطر فعدة، أي: فأفطر فعليه عدة.

قال ابن القيم(١) في كلامه عن الآية ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: «والمقصود أن العدو كادهم، وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين، كفاراً ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث».

ومعنى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ أي: فأرسل الله النبيين، وأولهم نوح عليه السلام، أرسلهم ﷻ رحمة منه، بالوحي من عنده إلى الناس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

و﴿النَّبِيِّينَ﴾ جمع نبي، وأصله نبيئ، أبدلت الهمزة ياءً تخفيفاً، مشتق من «النبأ» وهو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

وذلك لأن النبي منبأ ومخبر من الله، ومنبئ ومخبر للناس، فهو«فعيل» بمعنى «فاعل» وبمعنى «مفعول».

وهو أيضاً مشتق من النبوة، وهو المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذوو شرف ومكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

و«النبي» من أوحي إليه، فإن أُمر بالتبليغ فهو نبي رسول، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

وعدد من ذكر من الأنبياء في القرآن الكريم خمسة وعشرون، وكلهم رسل.

وعدد الرسل فيما قيل: ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، وعدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: سُئل النبي ﷺ: كم الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**». قلت: يا رسول الله! كم الرسل؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير**»(٢).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٩٠).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٢٢ - ٤٢٦) من رواية ابن مردويه ومن رواية الآجري، وأخرجه أحمد (٢٦٥ - =

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالان، أي: بعث الله النبيين حال كونهم مبشرين ومنذرين، أي: مبشرين لمن أطاعهم فاتقى الله بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة، ومنذرين لمن عصاهم وخالف أمر الله تعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة والنار، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨، الكهف: ٥٦].

والتبشير والإنذار يستلزمان بيان الحق من الباطل والدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل، كما قال ﷻ لنبينا محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ١ - ٤].

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ﴾ أي: مع النبيين، أي: بصحبتهم.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ «ال»: «للجنس» فيعم كل كتاب، أي: وأنزل معهم الكتب، فمع كل رسول كتاب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، أي: متلبساً بالحق، فهو حق، ومشتمل على الحق، وطريق وصوله حق. والحق: الأمر الثابت.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الكاف «ليُحكَم»، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الكاف ﴿لِيَحْكُمَ﴾.

واللام للتعليل، أي: لأجل أن يحكم بين الناس، والضمير في ﴿لِيَحْكُمَ﴾ على قراءة الجمهور يعود إلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أو إلى الله، وقيل: يعود إلى النبيين باعتبار كل فرد منهم.

﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ «ما»: اسم موصول يفيد العموم، أي: في جميع الذي تنازعوا

=

٢٦٦) من حديث طويل عن أبي أمامة رضي الله عنه، وفيه: «عدد الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً»، والحديث ضعيف عند عامة أهل العلم من حديث أبي ذر وأبي أمامة رضي الله عنهما.

فيه من الحق في أمور الدين والدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النمل: ٦٤].

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ الواو: اعتراضية، و«ما» نافية، والضمير في «فيه» وفي «أوتوه» يعود إلى الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود: ١١٠، فصلت: ٤٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا الذين أعطوه من الأمم، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ متعلق بقوله: ﴿ٱخْتَلَفَ﴾ أي: وما اختلف فيه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً إلا الذين أوتوه.

و«ما»: مصدرية، و«البينات»: صفة لمصدر محذوف، أي: من بعد مجيء الآيات والحجج البينات، أي: الواضحات القاطعات في الدلالة على أصل الشريعة ومقاصدها التي تقتضي الاجتماع والائتلاف، ولا تحتمل التفرق ولا الاختلاف، وقيام الحجة عليهم بذلك.

وفي هذا تشنيع عليهم، فهم أسوأ حالاً من المختلفين في الحق قبل مجيء البينات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ «بغياً»: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي، وهو الحسد والظلم والعدوان فيما بينهم، ومن بعضهم على بعض، لا من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الفاء هي الفصيحة، وقيل: عاطفة.

وهداية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: هداية البيان والإرشاد، وهذه عامة لجميع الخلق، ولا تقوم عليهم الحجة إلا بها.

وهداية التوفيق وهذه للمؤمنين خاصة، وهي خاصة بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ «ما»: اسم موصول يفيد العموم، وضمير الواو في ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ يعود إلى الذين أوتوا الكتاب، كما في قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، أو يعود إليهم وإلى الذين اختلفوا قبل بعثة النبيين، وقبل إنزال الكتاب، أي: فهدى الله الذين آمنوا لجميع الذي اختلف فيه المختلفون من الحق.

قال ابن القيم(١): «فأخبر سبحانه أن الذين آمنوا هدوا لما اختلف فيه أهل التأويل الباطل الذي أوقعهم في الاختلاف والتفرق».

﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لـ«ما» الموصولة، أي: فهدى الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: بأمره الكوني ومشيئته.

أي: فوفق الله الذين آمنوا لما اختُلف فيه قبل بعث النبيين وبعد بعثهم، من الحق، بإذنه الكوني والشرعي، بما جاء في القرآن والإسلام.

عن أبي هريرة ﷺ في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، قال: قال النبي ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى**»(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الجملة مقررة لمضمون ما قبلها.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي﴾ أي: يوفق، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: من يريد كوناً هدايته ممن هو أهل للهداية.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى طريق معتدل واضح لا اعوجاج فيه ولا التواء، وهو

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٦٥)، والحديث بدون ذكر الآية، أخرجه مرفوعاً من حديث أبي هريرة ﷺ البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧).

صراط الله، وطريق الحق والإيمان والإسلام، الذي فيه السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهو طريق الإيمان والإسلام، وطريق الهدى ودين الحق، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

فمن أعظم نعم الله تعالى على هذه الأمة أن هداها للصراط المستقيم الذي ضل عنه كثير من الأمم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

وفي حديث أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «**مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا. واستأجر آخرين بعدهم، فقال لهم: أكملوا بقية يومكم هذا، ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال لهم: أكملوا بقية عملكم، فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا. واستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور. فقالت اليهود والنصارى: ما لنا أكثر عملاً وأقل عطاء؟ قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء**»(١).

وفي حديث ابن عمر ﷺ: «**فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ فقال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال فذلك فضلي أوتيه من أشاء**»(٢).

وعن عائشة ﷺ قالت: كان نبي الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللهم**

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة، الإجارة إلى نصف النهار (٢٢٦٩)، والترمذي في الأمثال (٢٨٧١)، وأحمد (٢/ ٦، ١١).

رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي هي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، والتقدير: بل، أحسبتم. والخطاب للمؤمنين وقيل: لكل من يصلح خطابه، و﴿حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى ظننتم تنصب مفعولين.

﴿أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ «أن»: مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حسب»، أي: أم حسبتم دخول الجنة، أو سد مسد مفعولها الأول، والثاني: محذوف، والتقدير: أم حسبتم دخول الجنة حاصلاً.

والجنة في اللغة: البستان كثير الأشجار والثمار، سميت بذلك لأنها تجن وتستر من بداخلها.

وهي في الشرع الدار التي أعدها الله تعالى للمؤمنين والمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وهي جنات عدن، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وهي دار السلام، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ١٢٧].

فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله: أعددت لعبادي الصالحين**

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٧)، والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٥٧).

ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(١).

﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ الواو للحال، أي: والحال أنه لما يأتكم، و«لما»: حرف نفي وجزم وقلب، مثل: «لم».

والفرق بينهما أن «لم» للنفي مع عدم ترقب السامع حصول الفعل المنفي، و«لما» للنفي مع ترقب السامع حصول الفعل المنفي، فيكون النفي بها نفياً لحصول قريب، كما قال النابغة الذبياني(٢):

أزِفَ الترحّل غير أن ركابنا ... لما تزُل برحالنا وكأن قد

أي: وكأنه قد زالت، فقولك: «لم ينزل المطر» نفي لنزول المطر دون توقع نزوله، وقولك: «لما ينزل المطر» نفي لنزول المطر مع توقع نزوله.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ «مثل» فاعل «يأتكم»، ومعنى «مثل» أي: صفة وشبه وسنن.

﴿خَلَوْاْ﴾ أي: مضوا ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ تأكيد لـ«خلوا»، أي: ولما يأتكم صفة وشبه الذين مضوا من قبلكم من الرسل وأممهم، أي: صفة ما حصل لهم من الابتلاء في الدين، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦].

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ استئناف، فيه بيان وتفسير لقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٨٩).

ومعنى ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: أصابتهم إصابة مباشرة، وحلت بهم.

﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ البؤس والفقر الشديد، وهذه مصيبة في الأموال، ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ الضر والمرض والسقم والألم، ونحو ذلك، وهذه مصيبة في الأبدان.

﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ الزلزلة والزلزال: الاضطراب وعدم الثبات، وهو نوعان: زلزال حسي يقع على الأرض فيجعلها تتحرك وتضطرب فيدمر كل ما عليها.

وزلزال معنوي يقع على القلوب وهو أشد وأنكى.

وهو المراد هنا، أي: وزلزلوا في قلوبهم، أي: أزعجوا بالمخاوف والفتن، من القتل والنفي وسلب الأموال ونحو ذلك، وهذه مصيبة في الأنفس والقلوب.

وهكذا لقي المسلمون في صدر الإسلام في مكة من أذى المشركين البأساء والضراء وأخرجوا من ديارهم ولقوا أذى اليهود لهم في المدينة بعد هجرتهم.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفْرَق رأسه، فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه**»، ثم قال: «**والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**»(١).

وهكذا حصل لصحابة رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

ولهذا روي أن هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ نزلت يوم الأحزاب(٢).

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ «حتى»: للغاية، أي: بلغت بهم البأساء والضراء والزلزلة إلى غاية يقول عندها الرسول والذين آمنوا معه: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

قرأ نافع «يقولُ» بالرفع على إلغاء عمل «حتى»، وقرأ الباقون ﴿يَقُولَ﴾ بالنصب على إعمال «حتى»، وإنما عملت هنا مع أنه حكاية عن شيء مضى، وهي لا تعمل إلا في

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٥٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٦٣٧).

المستقبل على حكاية الحال الماضية فصار «يقول» مستقبلاً بالنسبة لقوله: ﴿مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾.

وجاء التعبير بالمضارع مع أن الآية تخبر عن حال من قد مضوا؛ لإنذار المخاطبين أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم.

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ «ال» يحتمل أن تكون للعهد، أي: رسول الذين مستهم البأساء والضراء وزلزلوا، ويحتمل أن تكون للاستغراق، أي: رسول كل أمة حصل لهم ذلك، وهذا أقرب. أي: حتى يقول الرسول، والذي هو أعرف الناس بالله، وأوثقهم بنصره وأعظمهم صبراً.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «الذين»: معطوف على «الرسول»؛ أي: ويقول الذين آمنوا.

﴿مَعَهُۥ﴾ أي: معه في هذه المقالة، ومعه في الإيمان بالله والثقة بوعده ونصره، وأكرم بها من معية.

﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ جملة مقول القول، و«متى» للاستفهام، استبطاءً للنصر واستعجالاً، وطلباً له واستفتاحاً، أي: متى يأتي نصر الله، كما في حديث خباب رضي الله عنه: «**قلنا يا رسول الله: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا**».

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾: الجملة خبرية مؤكدة بأداة التنبيه: «ألا»، و«إنَّ»، يحتمل أن تكون جواباً لقول الرسول والذين آمنوا معه: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، ويحتمل كون الجملة استئنافية، يخبر الله عز وجل بها عن قرب نصره لأوليائه عند كل شدة وضيق.

وكلا الاحتمالين صحيح، فنصر الله قريب من المؤمنين، مما يوجب التعلق به عز وجل والثقة بوعده ونصره، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦].

الفوائد والأحكام:

١- كثرة ما أعطاه الله تعالى لبني إسرائيل من الآيات البينات الشرعية والكونية الدالة على عظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وصدق رسله، إقامةً للحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾، وأن النعمة على السابقين منهم نعمة على اللاحقين.

٢- تقريع وتوبيخ وتبكيت بني إسرائيل الموجودين في عهده ﷺ بسؤالهم كم آتاهم الله

هم وأسلافهم من الآيات البينة والنعم العظيمة، فلم ينجع ذلك فيهم، بل كفروا وبدلوا نعمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٣- تحذير بني إسرائيل في عهده ﷺ وغيرهم من تبديل نعمة الله تعالى بما أعطاهم من الآيات البينات بالكفر بها وعدم شكرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٤- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب قومه مع ما جاءهم به من الآيات البينات.

٥- أن أعظم نعمة أنعم الله تعالى بها على الخلق إعطاؤهم الآيات البينة في نفسها المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾.

٦- شدة عقاب الله والوعيد بذلك لمن بدل نعمة الله وكفر بآياته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٧- تمام عدل الله ﷻ وحكمته، فلا يعاقب أحداً من الخلق إلا بعد بيان الحق له بالآيات البينات وكفره بها، وتبديل نعمة الله بعد ما جاءته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٨- تزيين الحياة الدنيا للكفار واغترارهم بزخرفها، وانشغالهم بها عن الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، وهذا يحتمل أن الله تعالى زين لهم ذلك كوناً وقدراً، إذ لا شيء يحصل في الكون بلا تقديره، وليس في هذا حجة؛ لأنه لا يحتج بالقدر على المعاصي.

ويحتمل أن الذي زين لهم ذلك هو الشيطان بوسوسته، وتسويله لهم، وفي هذا ما يوجب الحذر منه، ومن الاغترار بالدنيا.

٩- عدم اغترار المؤمنين بالحياة الدنيا وزخرفها لمفهوم قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك لعلم المؤمنين بدناءتها وحقارتها، كما أخبر الله عنها في كتابه، ووصفها رسوله ﷺ في سنته.

١٠- دأب الذين كفروا واستمرارهم على السخرية والاستهزاء بالمؤمنين والازدراء لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفي هذا مع بيان أذيتهم للمؤمنين تثبيت قلوب المؤمنين تجاه ذلك.

١١- تسلية المؤمنين تجاه سخرية الكفار منهم في الدنيا، ببيان فوقيتهم على الكفار يوم القيامة، فهم في أعلى الدرجات، والكفار في أسفل الدركات، والعاقبة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وفي هذا تبكيت للكافرين.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل، فحيث يسخر الكفار من المؤمنين ويتعاظمون عليهم في الدنيا يجعل الله ﷻ الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة؛ مجازاةً وإرغاماً لهم، كما أنهم فوقهم في الشرف والكرامة في الدنيا والآخرة، وقد قال الله ﷻ للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

١٣- في الإظهار مكان الإضمار، وفي التعبير بالتقوى بدل الإيمان في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ﴾ تنبيه على فضل التقوى ومكانتها، وأنها سبب فوقية المؤمنين ورفعة منازلهم وعلو درجاتهم.

١٤- أن الله ﷻ يرزق بفضله من يشاء من عباده، ويعطيهم العطاء الجزيل من المنازل والدرجات والخير الكثير الذي لا نهاية له في الدين والدنيا والآخرة بلا حساب ولا عد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال الله ﷻ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»(١).

١٥- إثبات الأفعال الاختيارية لله ﷻ المتعلقة بمشيئته، كالرزق والإحياء والإماتة،

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٤)، ومسلم في الصيام (١١٥١)، وأبو داود في الصوم (٢٣٦٣)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه في الصيام (١٦٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وغير ذلك، وكل ما يقع في الكون من حركة وسكون وغير ذلك إنما هو بمشيئة الله تعالى، أي: بإرادته الكونية.

١٦- أن الناس في أول الأمر كانوا أمة واحدة على الفطرة ودين الإسلام الذي دان به أبوهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

١٧- أن الاختلاف أمر طرأ على الناس، بعد أن كانوا أمة واحدة على دين واحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾، ولا يزال ذلك إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

١٨- أن سبب بعث النبيين ما وقع بين الناس من اختلاف في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ رحمةً منه تعالى للناس وإعذاراً لهم.

١٩- أن الحكمة من بعث الأنبياء والرسل هي التبشير والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وهذا يستلزم بيان الحق والدعوة إليه، وبيان الباطل والتحذير منه.

٢٠- إثبات علو الله ﷻ على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٢١- أن الكتب السماوية منزلة من عند الله ﷻ غير مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢٢- نزول كتب الله ﷻ بالحق، ووصولها بالحق، واشتمالها على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- أن الله ﷻ إنما أنزل الكتب ليُحْكم بها ويتحاكم إليها عند الاختلاف والنزاع؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، أي: ليحكم الكتاب أو الرسول بهذا الكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه، إلى أن صار الحكم على جميع الكتب السماوية وبين الناس كلهم لخاتم كتب الله ﷻ القرآن الكريم المهيمن عليها، والناسخ لها، فبالرجوع إلى القرآن والسنة يحصل الاجتماع والائتلاف، وتزول الفرقة والاختلاف.

٢٤- أن الذين اختلفوا في الكتاب هم الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات؛ لقوله

تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

٢٥- التوبيخ لهؤلاء الذين اختلفوا في الكتاب؛ لأنهم اختلفوا فيه بعد إيتائه لهم ومجيء البينات إليهم بسبب البغي والظلم والحسد بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

٢٦- وجوب الحذر من البغي والظلم والحسد؛ لأن ذلك سبب للاختلاف في الحق، وعدم قبوله بعد بيانه.

٢٧- أن الاختلاف شر يجيب الحذر منه، وخاصة الاختلاف في الدين، لما له من أثر في تفريق وحدة الأمة وبعدها عن الحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٢٨- توفيق الله ﷻ للمؤمنين وهدايته لهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾.

٢٩- أن الإيمان سبب للهداية للحق، وذلك لما يتضمنه الإيمان من صدق صاحبه في طلب الحق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

٣٠- أن هداية التوفيق بيد الله ﷻ وبإذنه الكوني، ولعباده المؤمنين خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ولهذا ينبغي سؤال الله ﷻ وحده الهداية إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

٣١- إثبات إذن الله ﷻ الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإذنه وأمره الكوني والشرعي.

٣٢- إثبات أفعال الله الاختيارية لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٣٣- إثبات المشيئة لله ﷻ، وهي الإرادة الكونية المتعلقة بأفعاله الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٣٤- أن ما جاء به الشرع هو الحق والصراط المستقيم، وما سواه فباطل معوج؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٣٥- أن الابتلاء في الدين سنة من سنن الله ﷻ يختبر الله به العباد ليتبين الصادق الصابر من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٣٦- تقوية قلوب المؤمنين أمام الابتلاء في الدين وتسليتهم بذكر ما وقع لغيرهم من الأمم الخالية، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

٣٧- إثبات الجنة وأنها غالية الثمن، تحتاج إلى مجاهدة وصبر على ما يصيب المؤمن من الابتلاء في ذات الله تعالى.

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالاً، يدال علينا وندال عليه، قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة»(١).

٣٨- أن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما صدقته الأعمال، وطريق الجنة ليس مفروشاً بالورود والرياحين، ولهذا قال ﷺ: «**وحفت الجنة بالمكاره**»(٢). وقال ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»(٣)،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣) من حديث عبد الله بن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

وقال ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأمثل فالأمثل**»(١).

وقد أحسن القائل:

فـدرب الصـاعدين كـما علمـتم ... بـه الأشـواك تكثـر لا الـورود(٢)

وقال الآخر:

ومـن يتهيـب صـعود الجبـال ... يعـش أبـد الـدهر بـين الحفـر

٣٩- أن النصر بيد الله ﷻ يجب أن يطلب منه وحده، كما هو دأب الرسل والمؤمنين معهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

٤٠- جواز استعجال النصر إذا كان ذلك على سبيل الدعاء بتعجيل النصر مع الثقة بوعد الله ﷻ وترقبه والتطلع إليه، لا على سبيل الشك، أو اليأس من نصر الله.

٤١-البشارة للمؤمنين بقرب نصر الله ﷻ لهم مما يقوي عزائمهم، ويثبت قلوبهم، ويجعلهم يترقبون النصر ولا يستبطئونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

وفي هذا بشارة لهم بفتح مكة ونصرهم على أعدائهم.

٤٢- حسن عاقبة الصبر، وأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسراً، وأن العاقبة للتقوى.

٤٣- قدرة الله ﷻ التامة على نصر أوليائه وعلى كل شيء، وحكمته البالغة في عدم مبادرتهم بالنصر ليتطلعوا إليه ويصدقوا في بذل أسبابه.

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣) من حديث مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) هذا البيت للشاعر العراقي وليد الأعظمي في «ديوان الزوابع». انظر «الأعمال الشعرية الكاملة» (ص٨٥).

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتكريم له ﷺ، والسائلون هم الصحابة رضي الله عنهم.

﴿مَاذَا يُنفِقُونَۖ ﴾ «ماذا» اسم استفهام، مبني على السكون، في محل نصب، مفعول مقدّم لـ«ينفقون»، أي: يسألونك، أيَّ شيء ينفقون؟

أو «ما» اسم استفهام، في محل رفع مبتدأ، و«ذا» اسم موصول، مبني على السكون، في محل رفع خبر، و«ينفقون» صلته، والعائد محذوف، أي: ما الذي ينفقونه؟

والجملة في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«يسألونك»، والمعنى: ماذا ينفقون من أموالهم جنساً وقدراً وكيفاً.

والإنفاق: إخراج المال وصرفه في سائر وجوه الإنفاق، والمراد به في الشرع: إخراجه في وجوهه المشروعة؛ الواجبة، والمستحبة، والمباحة.

﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و«ما»: شرطية، و«أنفقتم»: فعل الشرط، وقوله: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾: جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿مِّنْ خَيْرٍ ﴾ «من»: لبيان الجنس، أي: ما أنفقتم من خير، من أيِّ جنس، وأي قدر. والخير: المال.

وقد تضمن قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ ﴾ جواب سؤالهم، وزيادة. فقد سألوا ﴿مَاذَا يُنفِقُونَۖ ﴾ فأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ الآية.

ففي قوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ ﴾ جواب سؤالهم، وهو أن الإنفاق يكون من أيّ أنواع الخير والمال، من غير تحديد جنس المال؛ ولا قدر المنفق منه، وكيفيته.

وفيه إشارة واضحة إلى أن المصلحة عدم تحديد جنس وقدر المنفق تيسيراً عليهم، ودفعاً للحرج عنهم، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

كما أن فيه إشارة إلى أن النفقة تقع موقعها أيًّا كانت جنساً وقدراً. وفي الحديث: «**أفضل الصدقة جهد المقل**»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**سبق درهم مائة ألف درهم**» قالوا: وكيف؟ قال: «**كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها**»(٢).

وأما الزيادة في الإجابة على سؤالهم فهي قوله تعالى: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو بيان محل ومصرف النفقة، وقد انصب الجواب على هذا حتى إنه ليبدو أنهم إنما أجيبوا عنه دون المنْفَق.

ولعل من الحكمة في هذا- والله أعلم- التنبيه إلى أن معرفة محل النفقة ومصرفها أهم من معرفة المنفَق، وذلك؛ لعظم حق من ذكروا وفضل النفقة عليهم، من بين سائر وجوه النفقة، التي لا تحصى، المشروع منها وغيره، فكأنه قيل لهم: ليس المهم معرفة المنفَق، فهو من الخير والمال أيًّا كان جنساً وقدراً، وإنما المهم معرفة المنفَق عليهم، وأن تقع النفقة موقعها، كما قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع(٣)

قوله: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: فينبغي أن يعطى ما أنفق من خير، ويصرف للوالدين والأقربين، واليتامى والمساكين وابن السبيل.

والوالدان هما الأب والأم، والجد والجدة، وإن علوا.

﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ معطوف على «الوالدين» من عطف العام على الخاص؛ لأن الوالدين من الأقربين، وإنما خصهما بالذكر، وقدمهما لفضلهما، وعلو منزلتهما وعظيم حقهما.

﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾: جمع أقرب على وزن «أفعل» فالأولى بالنفقة من الأقارب الأقرب فالأقرب منهم، كما هو الحال في الميراث.

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٤٤٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٦)، من حديث عبدالله بن حبشي ﷺ.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٢٧).

(٣) البيت ينسب لحسان بن ثابت ﷺ، ولغيره. انظر: «ربيع الأبرار» (٥/ ٢٨٠).

عن طارق المحاربي ﷺ قال: قدمنا المدينة، فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس، وهو يقول: «**يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»(١).

وقال ﷺ في المواريث: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(٢).

ويدخل في «الأقربين» الأولاد وإن نزلوا، والإخوة والأعمام وبنوهم وإن نزلوا، وغيرهم.

والنفقة على الأقارب أفضل من غيرها، لأنها كما قال ﷺ: «**صدقة وصلة**»(٣).

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم ويتيمة، وهو من فقد أباه دون البلوغ، لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(٤)، مشتق من اليتم وهو الانفراد، ومنه سميت «الدرة اليتيمة».

وخص اليتامى من بين الأطفال؛ لأنهم فقدوا كاسبهم وكافلهم- بعد الله- عز وجل- وهو والدهم، مما يوجب على المسلمين تعويضهم عن فقد أبيهم، والعطف عليهم، ورعايتهم، والإنفاق عليهم، وقد قال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً**»(٥).

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو من لا يجد كفايته، أو لا يجد شيئاً، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة، واللصوق بالأرض، من شدة الحاجة والفقر، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦].

وسمي مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، فإن تكلم لم يُسمع له، وإن سُمع لم يُصدق.

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض- ميراث الجد مع الأب والإخوة (٦٧٣٧)، ومسلم في الفرائض- ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر (٤١٤١)، من حديث ابن عباس ﷺ.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٨٢)، والترمذي في الزكاة (٦٥٨)، وابن ماجه في الزكاة (١٦٩٩)، من حديث سلمان بن عامر ﷺ، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه أبوداود في الوصايا (٢٨٧٣)، من حديث علي ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٠٤)، وأبوداود في الأدب (٥١٥٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩١٨)، من حديث سهل بن سعد ﷺ.

والمسكين إذا أفرد شمل الفقير، كما أن الفقير إذا أفرد شمل المسكين، وإذا ذكرا معاً، فالمسكين أحسن حالاً من الفقير، وقيل العكس(١).

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر الذي انقطع به السفر، فيُنْفَق ويُتصدق عليه، بل ويعطى من الزكاة الواجبة، ولو كان غنيًّا في بلده.

وسمي المسافر: ابن السبيل؛ لملازمته السبيل، أي: الطريق.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ في هذا ترغيب في فعل الخير عموماً من الإنفاق وغيره.

الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، و«تفعلوا»: فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: وما تفعلوا من خير أيًّا كان بذلاً أو قولاً أو فعلاً، قليلاً كان أو كثيراً، صغيراً كان أو كبيراً.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: فإن الله بالذي تفعلونه من الخير ذو علم تام، محيط به، ولن يضيع عنده، بل سيجازيكم عليه أعظم الجزاء، في الدنيا والآخرة، وفي هذا أعظم الوعد لمن فعل الخير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وقد أحسن القائل(٢):

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال الآخر(٣):

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها كفور أم شكور

---

(١) انظر تفصيل الكلام في الفرق بين الفقير والمسكين عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ الآية [٨] من سورة النساء.

(٢) البيت للحطيئة. انظر: «ديوانه» (ص٥١).

(٣) البيتان لابن عائشة. انظر: «المحاسن والأضداد» للجاحظ (ص٢٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٤).

ففـي شـكر الشـكور لهـا جـزاء وعنـد الله مـا كفـر الكفـور

الفوائد والأحكام:

١- حرص الصحابة ﷺ على السؤال عمّا يحتاجون إليه، وينفعهم في أمر دينهم ودنياهم، من النفقة ووجوه صرفها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾.

دون ما لا حاجة لهم به، ولهذا كانت أسئلتهم ﷺ معدودة محدودة. عن ابن عباس ﷺ قال: «**ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن**»(١).

٢- توجّه الصحابة ﷺ بأسئلتهم إلى الرسول ﷺ؛ لأنه المبلغ عن الله عز وجل، وهو أعلم الخلق.

وهكذا ينبغي التوجه في السؤال بعده إلى أهل العلم والذكر، كما قال عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

٣- أن من كمال وحسن الإجابة الزيادة في الجواب عن السؤال، إذا كان الأمر يحتاج إلى ذلك، كأن يكون فيه تنبيه لما هو أهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

٤- الترغيب في الإنفاق من الخير والمال، من أي جنس، وبأي قدر، وعلى أي كيفية؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ الآية.

٥- التيسير على العباد، ورفع الحرج عنهم في عدم تحديد جنس وقدر المنفَق، وأن المهم معرفة المنفَق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

٦- أن النفقة تقع موقعها من أي جنس كانت من المال، وبأي قدر وعلى أي كيفية؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾.

فلا ينبغي أن يحقر الإنسان شيئاً من ذلك، وقد قال ﷺ: «**لا تحقرن جارة لجارتها**

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٣٣).

ولو فرسن شاة»(١)، وقال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»(٢).

٧- أن من أهم وأعظم وجوه الإنفاق النفقة على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

٨- عظم منزلة الوالدين ووجوب الإنفاق عليهما، لهذا خصهما بالذكر من بين الأقارب، وقد قال ﷺ للرجل الذي قال له: مَن أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال ﷺ: «**أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك**»(٣).

٩- فضل النفقة على الأقارب، فالنفقة عليهم صدقة وصلة، وأن الأولى منهم بالنفقة الأقرب فالأقرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

وعن زينب زوجة عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما أنها قالت لبلال: سل النبي ﷺ: أيجزئ عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري؟ قال: «**نعم، لها أجران، أجر القرابة، وأجر الصدقة**»(٤).

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**زوجك وولدك أحق من تصدقت عليهم**»(٥).

١٠- عناية الإسلام باليتامى والمساكين وأبناء السبيل، وحثه على الإنفاق عليهم؛ لضعف اليتامى بفقدهم من يعولهم، ولفقر المساكين وشدة حاجتهم، ولحاجة أبناء السبيل غالباً في سفرهم إلى المساعدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

١١- أن الدين الإسلامي هو دين التكافل الاجتماعي بأسمى معانيه.

١٢- علم الله- عز وجل- بكل ما يعمله العباد من خير، ووعده- عز وجل- بالمجازاة

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها والتحريض عليها (٢٥٦٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٠)، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٣٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٧)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٢)، من حديث عدي ابن حاتم رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٤٨)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٣)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٣٤).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٢).

على ذلك أعظم الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

١٣- الترغيب في فعل الخير مطلقاً، قولاً وفعلاً وبذلاً، قليلاً كان أو كثيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فرض وأوجب عليكم أيها المؤمنون القتال في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ونشر دينه، والدفاع عن حوزة الإسلام، وعن حرمات المسلمين، وهو فرض كفاية، وقد يتعين في بعض الأحوال.

وبني الفعل «كتب» لما لم يسم فاعله؛ لأن الذي كتب ذلك وأوجبه وفرضه معلوم، وهو الله عز وجل.

قال ﷺ: «**من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**»(١).

وقال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(٢).

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الواو: للحال، والجملة في محل نصب على الحال، أي: ﴿وَهُوَ﴾ أي: القتال ﴿كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ «كُرْه» مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: وهو مكروه لكم، تكرهه النفوس البشرية من حيث طبيعتها، لما فيه من التعرض للقتل، ومجالدة الأعداء، والمشقة والنصب، والجراح، وبذل المال، وغير ذلك.

والنفوس- بطبيعتها البشرية- قد تكره ما هو دون القتال من التكاليف، وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره**»(٣).

لكن المؤمن لا يكره ما أوجبه الله وأمر به، من القتال وغيره، بل يحبه- لما فيه من مرضاة الله، وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة- حتى وإن كرهته النفس بطبعها- قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩١٠)، وأبوداود في الجهاد (٣٠٩٧)، والنسائي في الجهاد (٢٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٤٨٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٥)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

والمؤمن في هذا، في جهاد مع نفسه، وهواه وشيطانه، قبل جهاد الكفار. وقد قيل:

إني بليت بأربع ما سلطت ... إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي
إبليس يسلك في طريق مهالكي ... والنفس تأمرني بكل بلائي
وارى الهوى تدعو إليه خواطري ... في ظلمة الشبهات والآراء
وزخارف الدنيا تقول أما ترى ... حسني وفخر ملابسي وبهائي(١)

وقال ابن دريد(٢):

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾.

«عسى» للترجي في المحبوب، والإشفاق من المكروه، أي: الطمع في حصول المطلوب والسلامة من المرهوب أو زواله- مع كون ذلك ممكناً. قال الشاعر:

عسى وعسى من قبل يوم التفرق ... بما نرتجي يوماً من الخير نلتقي(٣)

وقال الآخر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب(٤)

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر(٥)

كما تأتي «عسى» للتوقع، وهو المراد- والله أعلم- في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ الآية.

---

(١) الأبيات مجهولة النسبة. انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني (١/ ٤٠)، و«مجاني الأدب» (٣/ ١٨٨).

(٢) انظر: «العقد الفريد» (٢/ ١١٣).

(٣) البيت لمحمد بن إسماعيل، كما في حاشية «شذرات الذهب» ص(٣٥١)، وهو بلا نسبة في «الدرر» (٢/ ١٥٧).

(٤) البيت لهدبة بن مشرم وهو في «ديوانه» ص(٥٤).

(٥) البيت لمحمد بن إسماعيل. انظر: «الصاحبي في فقه اللغة» (ص١٥٧).

والترجي والإشفاق والتوقع إنما هو بالنسبة للمخلوق، ولهذا قال ابن عباس ﷺ: «عسى من الله واجبة»(١).

وقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ﴾ هذا عام في الأشياء كلها من أمور الدين والدنيا، فقد يكره المرء الشيء كالقتال أو غيره، وهو خير له؛ لما يعقبه من العز والنصر والتمكين للمسلمين في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وقد يحب المرء الشيء، كالقعود عن القتال، وهو شر له؛ لما يعقبه من ضعف المسلمين، وتسلط الأعداء عليهم، ومن التعرض لعذاب الله الذي توعد به القاعدين عن القتال، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

والخير كل الخير في محبة أوامر الله- عز وجل- وامتثالها من القتال في سبيل الله وغير ذلك، وكراهية ما نهى الله عنه واجتنابه، والتسليم لأمره، والخيرة فيما يختاره الله للعبد، مما يوجب التسليم لأمره وقد أحسن القائل:

رب أمر تتقيه ... جرّ أمراً ترتضيه
خفي المحبوب منه ... وبدا المكروه فيه(٢)

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، وحذف مفعول «يعلم» ليعم كل شيء، أي: والله يعلم كل شيء سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه ـ فيما ذكره الزركشي في «البرهان» (٤/ ٢٨٨). وانظر: «السنن الكبرى» (٩/ ١٣)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٠٣).

(٢) البيتان لابن المعتز. انظر: «ديوانه» (ص٧٤٩).

﴿كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. ومن ذلك ما هو خير لكم، وما هو شر لكم، وما يصلح العباد في دينهم ودنياهم وأخراهم من الأحكام الشرعية والكونية والجزائية وغير ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأنتم لا تعلمون ما هو خير لكم، وما هو شر لكم، فقد تكرهون ما هو خير لكم، وقد تحبون ما هو شر لكم بسبب عدم علمكم.

والأصل في الإنسان الجهل وعدم العلم إلا ما علمه الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

فهو عز وجل عندما فرض القتال وأوجبه يعلم أن ذلك خير للعباد في دينهم ودنياهم وأخراهم، وهم قد يكرهون ذلك؛ لأنهم لا يعلمون وجه المصلحة في ذلك، مما يوجب التسليم لله في ذلك كله، والاستجابة له، والانقياد لأمره.

وفي هذا حض على القتال في سبيل الله، وترغيب فيه، كما أن فيه ما يسلي المؤمن ويطمئنه، فلا يكره شيئاً مما قضاه الله، شرعاً أو قدراً، ويصبر على ما ناله في ذات الله، ولا يأسى على ما فاته من محبوبات الدنيا، أو يُلحف في طلبه، أو يفرح بحصوله، فرح بطر واختيال، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، وقال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

قال ابن القيم(١): «في هذه الآية عدة حكم وأسرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد- أوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شق عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٩١- ٣٩٢).

خيرات ومسرات، ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه، فهو خير لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب المنهي، وإن هويته نفسه، ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان، وشرور ومصائب، وخاصية العاقل تحمّل الألم اليسير، لما يعقبه من اللذة العظيمة، والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة، لما يعقبها من الألم العظيم، والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات، من وراء ستور مباديها؛ فيرى ما وراء تلك الستور، من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي، كطعام لذيذ، قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله، نهاه عنه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء مر المذاق، مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه مرارة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول.

ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم، تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمّل مشقة الطريق، لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر، تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره، هان عليه كل مشقة، يتحملها في طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له، ويقتضيه له لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه، ورضي بما يختاره له، أمره فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات، التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه، بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أن يريحه من الأفكار المتعبة، من أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله، أصابه القدر، وهو محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده، غير ملطوف به فيه، مع

اختياره لنفسه. ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره.

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه: تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام، وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميت، فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف».

وقال أيضاً: «فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله، وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس»(١).

الفوائد والأحكام:

١- وجوب القتال في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله- عز وجل- مع ولاة أمور المسلمين، عند القدرة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾.

وهو فرض على الكفاية، ويتعين في بعض الأحوال، كما إذا كان في الصف، أو استنفره الإمام، أو داهم العدو بلاد الإسلام، ونحو ذلك.

وكان ﷺ يبايع من دخل في الإسلام، على الإسلام والجهاد، كما في حديث مجاشع رضي الله عنه قال: «**أتيت النبي ﷺ أنا وأخي، فقلت: بايعنا على الهجرة. قال: مضت الهجرة لأهلها. قلت: علامَ تبايعنا؟ قال: على الإسلام والجهاد**»(٢).

وقال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(٣).

٢- أن النفوس البشرية طبعت على كراهة ما يشق عليها، ومن ذلك القتال، لما فيه من التعرض لإزهاق الأرواح، والجراح، وبذل الأموال، والنصب والتعب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾.

لكن المؤمن لا يكره شيئاً مما أوجبه الله، وأمر به، من القتال وغيره، بل يحبه، لما فيه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٩٢- ٣٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٤٨٠)، والنسائي في البيعة (٤١٧٠)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

من مرضاة الله- عز وجل- وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة- وإن كرهته النفس بطبعها- وهو في ذلك في جهاد مع نفسه وهواه وشيطانه.

٣- أن الإنسان قد يكره الشيء، وهو خير له، وقد يحب الشيء، وهو شر له؛ لأن ذلك من الغيب، الذي استأثر الله بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾.

٤- أن الخِيرة والخير كل الخير فيما يختاره الله للعبد، وفي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتسليم لقضائه وقدره، وأن الشرور كلها في مخالفة أمر الله- عز وجل- والاعتراض على قضائه وقدره.

٥- أن القتال في سبيل الله خير للأمة، في الحال والمآل، وأن ترك ذلك شر لها، في الحال والمآل.

لما في القتال في سبيل الله من قوة للمسلمين وظهور الإسلام ونشره، والفوز برضوان الله وجنته، ولما في تركه من ضعف للمسلمين وظهور أعدائهم عليهم، وانطماس معالم الدين، والتعرض لسخط الله وعقابه.

٦- علم الله- عز وجل- المحيط بكل شيء، والواسع لكل شيء، لهذا فرض القتال في سبيله، وأوجبه، لعلمه- عز وجل- بما فيه من الخير للأمة في دينها ودنياها وأخراها، وحذر ونهى عن تركه، لعلمه- عز وجل- بما في تركه من الشر على الأمة في دينها ودنياها وأخراها، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾.

٧- قصور علم الخلق، فهم لا يعلمون ما هو خير لهم، ولا ما هو شر لهم، لهذا كان لزاماً عليهم الاهتداء بهدى الله، والاستنارة بوحيه، واتباع أمره، واجتناب نهيه، والرضا والتسليم لقضائه وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

لما ذكر الله تعالى فرض القتال ووجوبه على الأمة، وذلك مطلق يشمل جميع الأوقات، استثنى من ذلك الأشهر الحرم، فلا يجوز القتال فيها.

سبب النزول:

عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، أو عبيدة بن الحارث، فلما ذهب ينطلق، بكى صبابة[1] إلى رسول الله ﷺ فجلس، فبعث عليهم مكانه عبدالله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا[2]، وقال: «لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان[3]، ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم

---

(١) أي: شوقاً إلى رسول الله ﷺ.

(٢) جاء في بعض الروايات: «حتى ينزل بطن «ملل» موضع بين مكة والمدينة على بعد سبعة عشر ميلاً من المدينة. وجاء فيها أيضاً: أنه كتب فيه: «أن سر حتى تبلغ بطن نخلة بين مكة والطائف فترصد قريشاً».

(٣) جاء في الروايات الأخرى أن سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما كان معهما بعير يتعاقبان عليه =

يدروا أن ذلك اليوم من رجب، أو من جمادى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام. فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾»(١).

وهكذا رُويَ عن جمع من المفسرين؛ منهم ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، وعروة بن الزبير وغيرهم، أنها نزلت في سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ ومن معه لترصد قريش، بنخلة، بين مكة والطائف، فمرت بهم عير لقريش، فيهم عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة، وأخوه نوفل ابن عبدالله المخزوميان، والحكم بن كيسان، فأغاروا عليهم، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان والحكم بن كيسان(٢)، وأفلت نوفل فهرب، وذلك في آخر يوم من رجب. فقالت قريش: استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ﴾ الآية(٣).

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: يسألك أصحابك يا محمد، ويقوي هذا قوله بعد ذلك: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ الآية.

وقيل: يسألك المشركون، وقد يقوي هذا قوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾. ويحتمل كون السؤال من الفريقين.

﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ «ال» في ﴿ٱلشَّهْرِ﴾ للجنس، أي: عن جنس الشهر الحرام، أي: عن الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ورجب، التي حرم الله- عز وجل- فيها الظلم والاعتداء، وعظم فيها الحرمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

=

فأضلاه، فتخلفا في طلبه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٨٤)، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٤٠- ٤٢).

(٢) وفاداهما رسول الله ﷺ بعد نزول الآية، أما الحكم بن كيسان فأسلم، وحسن إسلامه، وقتل يوم بئر معونة شهيداً. وأما عثمان بن عبدالله فلحق بمكة، ومات بها كافراً.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٣/ ٦٥٠- ٦٦٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٨٤- ٣٨٦)، و«أسباب النزول» للواحدي، (ص٤١)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠١- ٦٠٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ١٨، ١٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦٨- ٣٧٢).

عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال ﷺ: «**السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان**»(١).

﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ «قتال» بدل اشتمال من ﴿ٱلشَّهْرِ﴾، والضمير في قوله: «فيه» يعود إلى الشهر الحرام- جنس الأشهر الحرم، أي: هل يجوز القتال فيه، أي: يسألونك عن حكم القتال في الشهر الحرام.

وإنما قدم السؤال عن الشهر الحرام، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ مع أن السؤال عن حكم القتال في الشهر الحرام؛ لأنهم إنما سألوا عن حكم القتال في الشهر الحرام، من أجل حرمة الشهر، بعد أن وقع منهم القتال فيه، وشنع عليهم بسبب ذلك المشركون.

﴿قُلْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ أي: في الشهر الحرام.

﴿كَبِيرٌ﴾ أي: عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب، لا يجوز إلا على سبيل المدافعة، وأعاد «قتال» بلفظ الظاهر دون أن يقول «قل هو كبير»؛ لتعظيم ذلك، ولئلا يُتوهم- والله أعلم- اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه- علماً أنه عام في كل قتال وقع في شهر حرام(٢).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الواو: استئنافية، و«صد» مبتدأ، وهو يحتمل أن يكون مصدراً من الفعل اللازم، ومن المتعدي: أي: وصدهم بأنفسهم وللناس عن سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، وأبوداود في المناسك (١٩٤٧)، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٣)، وأحمد (٥/ ٣٧)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٣٩٥).

و«سبيل الله» دينه وصراطه المستقيم. وذلك يشمل الصد عن الإيمان كلية، وعن فعل بعض ما يقتضيه الإيمان من الواجبات والمندوبات، أو حمل الناس على فعل المحرمات والمنهيات، فكل هذا من الصد عن سبيل الله- مع التفاوت في حرمة ذلك.

﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والضمير في قوله: «به» يعود إلى الله، أي: وكفر بالله عز وجل.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ معطوف على الضمير في قوله: «وكفر به» أي: وكفر بالمسجد الحرام، بانتهاك حرمته وعدم احترامه وتعظيمه.

ويحتمل عطفه على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾- وهو أظهر- أي: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والضمير في قوله: «منه» يعود إلى المسجد الحرام، أي: وإخراج أهل المسجد الحرام- وهم الرسول ﷺ وأصحابه والمؤمنون- منه، وذلك بأذيتهم والتضييق عليهم، واضطرارهم إلى الخروج من مكة إلى المدينة، قال ﷺ وقد وقف بالحَزْوَرَة[1]: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[2].

﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا هو خبر المبتدأ في قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وما عطف عليه.

أي: إن صدكم بأنفسكم وللناس عن دين الله وصراطه المستقيم، وكفركم بالله، والمسجد الحرام، وصد الناس عنه، وإخراج أهله منه ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعظم إثماً وجرماً عند الله- عز وجل- من القتال في الشهر الحرام.

قال ابن هشام[3] بعدما ذكر الروايات في سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه: «وهي أول

---

(١) «الحَزْوَرَة» على وزن «قسورة» موضع بمكة عند باب الحناطين. انظر: «النهاية» مادة «حزر».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٠٥)، وقال الترمذي: «حسن غريب صحيح».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» (٢/ ٢٥٦).

غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون، وعثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون»

قال ابن هشام: وفي هذا قال عبدالله بن جحش رضي الله عنه:

تعـدُون قـتلاً في الحـرام عظيمـة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صـدودُكم عـما يقـول محمـد ... وكفـر بـه والله راء وشـاهد
وإخـراجكم مـن مسجد الله أهلـه ... لـئلا يُـرى لله في البيـت سـاجد
فإنـا وإن عيرتمونـا بقتلـه ... وأرجـف بالإسـلام بـاغ وحاسـد
سـقينا مـن ابـن الحضرمي رماحنـا ... بنخلـة لمـا أوقـد الحـرب واقـد
دمـاً، وابـن عبـدالله عـثمان بيننـا ... ينازعـه غُـلٌّ مـن القـدِّ عانـدُ»

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: الفتنة في الدين بالشرك، وصد الناس عن دين الله، وإكراههم على الشرك بالله، وقتالهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي: حتى لا يكون شرك وصد للناس عن دين الله.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. أي: ثم لم تكن نهاية وعاقبة شركهم، إلا أن تبرؤوا من الشرك، وأنكروه، وهيهات.

ومنه قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤]. أي: ذوقوا نهاية وعاقبة شرككم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]. أي: عذبوهم بالنار؛ ليردوهم عن دينهم إلى الشرك.

والمعنى: أن الفتنة في الدين بالكفر والشرك، والصد عن دين الله، أعظم وأشد من القتل؛ لأن غاية القتل أن يموت الإنسان، فيخسر الحياة الدنيا، أما الشرك والصد عن دين الله ففيه خسارة الدارين؛ الدنيا والآخرة، وتلك الخسارة العظمى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ولهذا توعد الله- عز وجل- الذين يفتنون الناس، ويصدونهم عن دينهم بعذاب

جهنم، وعذاب الحريق- كما في سورة البروج.

ونهى ﷺ عن التعرض للفتن- لما فيها من الخطر على الدين، فأمر من سمع بالدجال أن ينأى عنه، فقال ﷺ: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه- وهو يحسب أنه مؤمن- فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات**»(١).

وإن من المحزن والمؤسف- حقًّا- أن يعرِّض كثير من المسلمين أنفسهم وأهليهم وأولادهم للفتن، بمشاهدة وسماع ما يبث في الفضائيات وشبكة الإنترنت وغيرها من الوسائل، مما يفسد العقائد، ويهدم الأخلاق، ويبيحون لأنفسهم الخلوة بالأجنبيات، من الخادمات وغيرهن، والذهاب إلى بلاد الكفار- غير مبالين بما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة، وقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: «**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»(٢).

وقال ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء...**» (٣).

وقال ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»(٤).

---

(١) أخرجه أبوداود في الملاحم- خروج الدجال (٤٣١٩)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٤)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١١٨)، والترمذي في الفتن (٢١٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: ولا يزال هؤلاء الكفار يقاتلونكم؛ لشدة عداوتهم لكم ودوامها.

﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ «حتى» للتعليل: أي: ولا يزالون يقاتلونكم كي يرجعوكم عن دينكم.

﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ استبعاد لاستطاعتهم، أي: ولن يستطيعوا ذلك، كما قال تعالى متحدياً الجن والإنس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣].

وفي الآية دلالة على شدة عداوة الكافرين للمؤمنين ولدينهم، وحرصهم على ردهم عن دينهم واستمرارهم على ذلك مما يوجب الحذر منهم، وعدم الاطمئنان لهم، حتى وإن زعموا خلاف ذلك.

كما أن فيها بشارة للأمة، كما قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك**»(١).

وما نال الأعداء من المسلمين ما نالوا إلا لما بَعُدَ كثير من المسلمين عن دينهم، وغزاهم أعداء الإسلام في أفكارهم وأخلاقهم، وأصبح كثير من المنتسبين إلى الإسلام أداة طيِّعة تنفِّذ مخططات أعداء الإسلام، في بلاد المسلمين، مصداق قوله ﷺ في حديث حذيفة رضي الله عنه: «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**» قال حذيفة: قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا ويتكلمون بلغتنا**»(٢).

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه: «**أنه ﷺ سأل ربه أن لا يهلك أمته بسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بَيْضَتَهُمْ، إلا أن يكون بعضهم يُهْلِك بعضاً، ويَسْبِي بعضهم بعضاً**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن =

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، و«يرتدد»: فعل الشرط، أي: ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر.

﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ الفاء: عاطفة، والواو حالية، فالجملة في محل نصب على الحال، أي: فيمتْ حال كونه كافراً، سواء قتل بعد استتابته، أو مات من غير قتل.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ﴾ واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

والإشارة في قوله: «أولئك» في الموضعين للذين ارتدوا عن دينهم، وجاءت بصيغة الجمع مراعاة لمعنى «من»، وجاءت بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت أعمالهم واضمحلّت، وذهبت هباءً منثوراً.

والمعنى: فأولئك المرتدون عن دينهم، الراجعون عنه بطلت أعمالهم، فلا يثابون عليها، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، سواء منها ما كان صالحاً، وما كان طالحاً غير صالح، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ وذلك لفقدان شرطها، وهو الإيمان.

وفي هذا دلالة على أن المرتد يعامل في الأحكام الشرعية في الدنيا معاملة الكافر، ودلَّت الآية بمفهومها على أن المرتد إذا عاد إلى الإسلام لم يحبط ما عمله من أعمال صالحة قبل ردته.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ من عطف المسبب على السبب؛ لأن حبوط الأعمال سبب لمصاحبة النار والخلود فيها.

ومعنى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها وملازموها، كما يلازم الصاحب صاحبه، والغريم غريمه. وأكد هذا بقوله بعده: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم فيها مقيمون إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ لأن النار- على الصحيح- لا تفنى، ولا يفنى عذابها، ولا يموت أهلها.

=
(٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وكقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠].

وعن جندب بن عبدالله ﷺ قال: «لما كان من أمر عبدالله بن جحش وأصحابه، وأمر ابن الحضرمي ما كان، قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم- وزراً، فليس لهم فيه أجر، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾»(١).

وعن عروة بن الزبير: «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ الآية. طمع عبدالله بن جحش وأصحابه ﷺ في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله- عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ قال: فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء»(٢).

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم، وانقادوا بجوارحهم، أي: آمنوا ظاهراً وباطناً.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ أي: والذين هاجروا من مكة قبل أن تكون دار إسلام- إلى المدينة فراراً بدينهم، إلى الله ورسوله، كما قال ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٦٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق- انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٥٥). وانظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧١).

إلى ما هاجر إليه»(١).

والهجرة لغة: الترك. قال ﷺ: «**والمهاجر من هجر مانهىٰ الله عنه**»(٢). أي: تركه.

وشرعاً: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي واجبة، إذا كان المسلم لا يستطيع إظهار شعائر دينه في بلاد الشرك.

وسموا مهاجرين؛ لأنهم هجروا أوطانهم وديارهم وتركوها. وهجروا ما نهى الله عنه.

وقد فتح الله مكة للمسلمين، فصارت دار إسلام، لا هجرة منها، كما قال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»(٣). أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها وكونها دار إسلام، وإلا فالهجرة باقية إلى طلوع الشمس من مغربها، كما قال ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٤).

﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجهاد والمجاهدة: بذل الجهد، والجهد: هو الطاقة والوسع في أي أمر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩]، أي: إلا طاقتهم، وهو ما لم يتجاوزه التكليف، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومعنى قوله: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بذلوا جهدهم وطاقتهم، بأموالهم وأنفسهم في قتال الكفار، لإعلاء كلمة الله- عز وجل- قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان- المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، وأبوداود في الجهاد (٢٤٨١)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٦)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٥)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٤٧٩)، والدارمي في السير (٢٥١٣)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد =

وقد يحمل الجهاد في سبيل الله على ما هو أعم من ذلك، من بذل الجهد بالحجة واللسان والسنان والبنان، لإعلاء كلمة الله تعالى، وبالجوارح بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، فيشمل جهاد الكفار وجهاد النفس وجهاد الشيطان والهوى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ هذه الجملة خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والإشارة للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم، ورفعة لشأنهم، وتنويهاً بما أُعد لهم.

﴿يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يأملون ويطمعون أن يرحمهم الله ذو الرحمة الواسعة، برحمته الخاصة، التي بها يرحم من اصطفاه من عباده في دينهم ودنياهم وأخراهم، ويدخلهم بها جنته التي هي من رحمته- عز وجل- قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فجمعوا بين فعل السبب بحسن العمل، بالإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، وبين حسن الظن بالله- عز وجل- ورجائه، وحق لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وقال ﷺ: «**لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

بخلاف من يرجو الرحمة بغير عمل، فهو كما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس(٢)

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: إنه- عز وجل- ذو المغفرة التامة لجميع ذنوب عباده إذا

=

(٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت لأبي العتاهية وهو في «ديوانه» ص(١٩٤).

تابوا منها، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه.

ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام.

وناسب ذكر المغفرة هنا؛ لأن العبد لا يخلو من نقص، ولا يسلم من التقصير مهما اجتهد.

﴿رَّحِيمُ﴾ أي: ذو رحمة واسعة، وسعت كل شيء، وعمت كل حي، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده، كما قال- عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقدّم المغفرة على الرحمة- وإن كانت الرحمة سبب المغفرة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب، والتخلية قبل التحلية.

و«الغفور» و«الرحيم» من أسمائه- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧، الأحقاف: ٨].

الفوائد والأحكام:

١- حرص الصحابة ﷺ على معرفة أحكام دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية

وذلك احترازاً منهم عن الوقوع في المخالفة؛ بخلاف أهل الشرك الذين يسألون

إظهاراً للشماتة بالحق وأهله.

٢- توجه الصحابة ﷺ بالسؤال إليه ﷺ؛ لأنه المبلغ عن الله- عز وجل- وهو أعلم الخلق. وهكذا ينبغي الرجوع- بعده- بالسؤال إلى أهل العلم.

٣- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه ﷺ والمؤمنين، وتسليته لهم، وتخفيفه عليهم، وعنايته بهم، بتوليه- عز وجل- الإجابة عن نبيه ﷺ، وأنه إنما هو مبلغ عن الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

٤- تحريم القتال في الأشهر الحرم، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾.

وفي تقديم السؤال عن الشهر الحرام، مع أن المسؤول عنه القتال في الشهر الحرام، تأكيد لبيان العلة في منع القتال فيه، وأنها حرمة الشهر الحرام.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن النهي عن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وبقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦].

قالوا: وقد قاتل النبي ﷺ هوازن وثقيف في ذي القعدة، وكانت غزوة تبوك في رجب، وكلاهما من الأشهر الحرم.

والصحيح أن تحريم القتال في الأشهر الحرم باق لم ينسخ، فلا يجوز القتال في الأشهر الحرم ابتداءً، أما إذا كان القتال دفاعاً أو امتداداً لغزو سابق فإن ذلك جائز.

ولا تنافي بين آيات المنع من القتال في الأشهر الحرم، وآيات الأمر بالقتال؛ لأن آيات الأمر بالقتال، كآية السيف وغيرها عامة بجواز القتال في جميع الأمكنة والأزمنة، وآيات المنع من القتال في الأشهر الحرم خاصة بهذه الأشهر، ولا

تعارض بين عام وخاص.

فإذا استحل المشركون القتال في الأشهر الحرم، وقاتلوا المسلمين فيها جاز للمسلمين قتالهم فيها، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ لا يقاتل في الشهر الحرام إلا أن يغزى، أو يغزو، فإذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ»(١).

ومن هذا خروجه ﷺ لغزو الروم، حيث تجمعوا لقتاله، فخرج إليهم ليدافعهم، وكذا إذا كان القتال امتداداً لقتال قبل دخول الأشهر الحرم، وعلى هذا يحمل قتال النبي ﷺ هوازن في حنين، وثقيفاً في الطائف، فإن النبي ﷺ قاتلهم في شوال، واستمر في محاصرتهم حتى دخل عليه ذو القعدة(٢) إضافة إلى أن قتاله ﷺ لهم كان من باب المدافعة.

٥- وجوب تعظيم الأشهر الحرم؛ لأن الله تعالى حرم القتال فيها تعظيماً لها، وفي هذا دلالة على أن التفضيل كما يقع بين الناس يقع بين الأزمنة، فالأشهر الحرم، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، وعشر ذي الحجة، وبخاصة يوم عرفة، ويوم النحر كل هذه الأزمنة أفضل من غيرها. كما يقع التفضيل بين الأمكنة، فالمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، والمساجد عموماً أفضل من غيرها.

٦- أن الذنوب منها ما هو كبير، ومنها ما هو صغير؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

---

(١) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» الأثر (٣٨٩، ٣٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٤، ٣٤٥)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٤٣٥)- الأثر (٩٣)- وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي من رواية أحمد (٦/ ٦٦)- وقال: «رجاله رجال الصحيح».

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٣٤١)، وانظر الكلام على قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الآية: ٢]، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس، بتحقيقنا (١/ ٥٣٩).

وقال ﷺ عن صاحبي القبرين: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، ألا إنه كبير**»(١).

٧- أن الصد عن سبيل الله، والكفر بالله، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه- هذه الأمور الأربعة- كل واحد منها، وبمجموعها أكبر عند الله من القتال في الأشهر الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٨- حرمة الصد عن سبيل الله، وأنه من أعظم الذنوب، وقد يصل إلى الكفر، ولهذا قرن بالكفر بالله، قال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾.

٩- التحذير من الكفر بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾.

١٠- أن الكفر بالمسجد الحرام بانتهاك حرمته، وعدم تعظيمه، وصد الناس عنه، وإخراج أهله منه من أعظم الذنوب، لهذا عطف على الكفر بالله، وقرن به، قال تعالى: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١١- عظم حرمة المسجد الحرام، وعظم حرمة أهله وساكنيه من المؤمنين.

١٢- أن أهل المسجد الحرام هم الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنون، فهم الذين أخرجهم المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وهم أهل الولاية عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

بل هم أهل الولاية الشرعية على الأرض كلها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

١٣- أن الذنوب والمعاصي تتفاوت، فبعضها أكبر وأعظم من بعض عند الله- عز وجل- وبعضها كبائر، وبعضها صغائر؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٥)، والنسائي في الجنائز (٢٠٦٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر تفصيل الكلام عن الكبائر والصغائر عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

وبحسب تفاوت الذنوب، وتفاوت الأعمال يتفاوت الإيمان فيزيد وينقص- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١٤- أن الفتنة في الدين، وصد الناس عنه أشد من القتل؛ لأن الهلاك الحقيقي والخسران المبين هو الهلاك والخسران في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

١٥- وجوب الحذر من الفتن ودعاتها، والبعد عن مواطنها لخطرها على الدين، ولو أن يعضَّ الإنسان على أصل شجرة، كما قال ﷺ لحذيفة رضي الله عنه: «**اعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة**»(١).

١٦- الإشارة إلى جواز القتال في الشهر الحرام إذا ابتدأ العدو القتال فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾.

١٧- شدة عداوة الكافرين للمؤمنين، ولدينهم، وقتالهم لهم؛ ليرجعوهم عن دينهم، واستمرارهم على ذلك، مما يوجب على المؤمنين الحذر منهم، وعدم الاطمئنان إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾، كما قال تعالى في اليهود والنصارى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

١٨- عدم استطاعة الكافرين ردّ المؤمنين عن دينهم، وتيئيسهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ أي: إنهم لن يستطيعوا ذلك.

١٩- التحذير من الردة عن الدين، وأنها كفر محبط للأعمال الصالحة، إذا مات الإنسان عليها من غير توبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٢٠- أن من ارتد عن دينه ثم تاب قُبلت توبته، ولم يبطل عمله قبل الردة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾، خلافاً لمن قال ببطلان عمله قبل الردة.

---

(١) سبق تخريجه.

٢١- أن المرتد عن دينه كافر يعامل معاملة الكافر، فلا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يرث ولا يورث، ولا تقبل شهادته على المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾.

٢٢- هوان من يرتد عن دينه، ويموت على الكفر، لهذا أشار إليهم في الموضعين بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

٢٣- أن من ارتد عن الإسلام، واستمر حتى مات على الكفر فهو من أصحاب النار الخالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٤- أن الإيمان أساس وشرط لصحة الأعمال، من الهجرة والجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢٥- فضل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله- وأن الهجرة أفضل من الجهاد؛ لتقديمها عليه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢٦- وجوب الإخلاص لله- عز وجل- في الهجرة والجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمن كانت هجرته أو جهاده لغير الله لم ينفعه ذلك عند الله تعالى.

٢٧- التنويه بشأن المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيله، وأنهم هم الراجون لرحمة الله تعالى؛ لإتيانهم بسببها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

٢٨- ينبغي الجمع بين فعل أسباب الرحمة، وبين الرجاء، فلا ينبغي الاعتماد على العمل وحده، مهما كان، ولا على الرجاء وحده دون عمل.

٢٩- وعد الله- عز وجل- بالرحمة للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، والترغيب في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

٣٠- ينبغي للمؤمن أن يحسن الظن بالله؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ من غير أن يغتر بعمله، أو يُدِلَّ به على الله، بل يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه.

٣١- إثبات صفة المغفرة الواسعة- لله عز وجل- وأنه- عز وجل- يغفر ذنوب عباده، فيسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾.

٣٢- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، بتوفيقه لهم للإيمان والأعمال الصالحة، من الهجرة والجهاد وغير ذلك، وإثابتهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٣٣- أن التخلية بمغفرة الذنوب وزوال المرهوب قبل التحلية بالرحمة، وحصول المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بتقديم «غفور» على «رحيم»، وإن كانت الرحمة هي سبب المغفرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

سبب النـزول:

عن أبي ميسرة عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لما نزل تحريم الخمر: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة. فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا»(١).

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتكريم من الله- عز وجل- لنبيه ﷺ، وتعظيم له.

والسائلون هم الصحابة ﷺ، أي: يسألك أصحابك يا محمد.

﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾ أي: عن حكمهما- وسبب السؤال عن ذلك ظاهر، وهو

---

(١) أخرجه أبوداود في الأشربة- تحريم الخمر (٣٦٧٠)، والنسائي في الأشربة- تحريم الخمر (٥٥)، والترمذي في تفسير سورة المائدة (٣٠٤٩)، وقال: «حديث صحيح»، وأحمد (١/ ٥٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٧٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

ما يترتب عليهما من المفاسد العظيمة، التي لا تخفى على من كان له أدنى عقل.

و«الخمر» لغة: مأخوذ من الستر والتغطية، ومنه قوله ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه: «**وخمروا آنيتكم، واذكروا اسم الله**»(١).

وهو في الشرع: اسم لكل ما أسكر العقل، أي: خامره وستره وغطاه، على سبيل اللذة والنشوة والطرب، قال ﷺ: «**كل مسكر خمر**»(٢).

و«الميسر» مأخوذ من اليسر، وهو القمار، وكسب المال على وجه المخاطرة، والمراهنة، والمغالبة، التي يكون فيها عوض من الطرفين، ويكون الطرفان فيها بين غانم وغارم.

وسمي القمار ميسراً من اليسار وهو الغنى، ومن اليسر، وهو السهولة؛ لحصول الغالب فيه على المال بيسر وسهولة، من غير كد ولا تعب.

وقدم الخمر على الميسر؛ لأنه أكثر انتشاراً، وأعم ضرراً، ولأنه يُذهب العقل مع المال.

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالثاء المثلثة: «كثير» أي: كثير من حيث الكمية، وقرأ الباقون بالباء الموحدة: ﴿كَبِيرٌ﴾ أي: من حيث الكيفية، أي: قل لهم يا محمد ﴿فِيهِمَآ﴾ أي: في الخمر والميسر: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ذنب عظيم في الدين، وكبيرة من كبائر الذنوب يستوجب العقوبة الشديدة؛ لأنهما رجس من عمل الشيطان يسبب العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله، وعن الصلاة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن

---

(١) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٢٣)، ومسلم في الأشربة (٢٠١٢)، وأبوداود في الأشربة (٣٧٣١)، والترمذي في الأدب (٢٨٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٢)، ومسلم في الأشربة (٢٠٠١)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٨٢)، والترمذي في الأشربة (١٨٦٣)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٦)، وأحمد (٦/ ٣٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه البخاري في المغازي (٤٣٤٣- ٤٣٤٥)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وغيرهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه. وأخرجه مسلم في الأشربة (٢٠٠٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

أما الخمر فلما فيها من مخامرة العقل وتغطيته وإزالته، وهو النعمة الكبرى التي ميز الله بها الإنسان وكرمه، وهو مناط التكليف والمدح والذم، وبإذهابه يهذي الإنسان بما لا يدري، ويتخبط في حياته، فيخسر دينه ودنياه وأخراه.

وأما الميسر فلما فيه من المقامرة والمخاطرة، وأكل أموال الناس بالباطل، وتعريض النفس للاضطرابات النفسية، والأمراض البدنية المفاجئة من أمراض القلب والسكري وغير ذلك بسبب الخسارة أو الربح.

وفيهما أيضاً: ﴿إِثْمٌ كَثِيرٌ﴾ كما في القراءة الثانية؛ لعظم جرمهما، ولأن من ابتلي بهما أدمن عليهما مرة بعد أخرى حتى لا يكاد ينفك عنهما، وبهذا صار إثمهما كثيراً لكثرة تعاطيهما.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: وفيهما منافع للناس دنيوية فقط.

فالمنافع في الخمر ما فيها من اللذة والنشوة والطرب، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في جاهليته[1]:

ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسداً لا ينهنهنا اللقاء

وكذا ما فيها من منافع ثمنها، والاتجار بها، وغير ذلك.

وأما منافع الميسر فهي ما فيها من الترويح عن النفس، والكسب لمن حالفه الحظ في هذه المقامرة، وما يصيبون من لحم الجزور الذي يياسرون عليه ويقتسمونه على حسب القداح.

وهذه المنافع في الخمر والميسر لا تساوي شيئاً بالنسبة لمضارهما ومفاسدهما؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي: وإثم الخمر والميسر وضررهما أكبر وأعظم من نفعهما، فإثمهما كبير وكثير، لا تساويه تلك المنافع؛ وذلك؛ لأن إثمهما وضررهما في الدين، ومنافعهما في الدنيا فقط. ومنافع الدنيا كلها، بل والدنيا بما فيها لا

(١) انظر «ديوان» حسان، ص(٧٣).

تساوي شيئاً بالنسبة للدين، وماذا يبقى للمرء بعد ضياع دينه، وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

وفي سؤال الصحابة ﷺ عن الخمر والميسر- ما يشير إلى موافقة العقل الصحيح للنقل الصحيح، فأدركوا ﷺ بعقولهم الصحيحة السليمة ما في الخمر والميسر من أضرار ومفاسد، حتى قال عمر ﷺ: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً» فجاء القرآن بتحريمهما، لكن على التدرج- كما هو معلوم.

فقد كان الخمر حلالاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، ثم أنزل الله- عز وجل- هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية، تمهيداً وتعريضاً بتحريمهما، ثم نزل بعدها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ الآية [النساء: ٤٣]، في تحريم الصلاة حال السكر.

ثم نزل بعدها تحريم الخمر والميسر مطلقاً في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ سألوا أولاً: عن الخمر والميسر، ثم سألوا ثانياً: ماذا ينفقون، والمناسبة بينهما أن في الخمر والميسر إضاعة المال بدون فائدة، ومحق بركته، وفي الإنفاق بذل المال بفائدة والمباركة فيه.

«ماذا» «ما» اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل رفع خبر، أي: ما الذي ينفقونه.

أو «ماذا» اسم استفهام مفعول مقدم لـ«ينفقون».

أي: ويسألك أصحابك يا محمد ما الذي ينفقون، أو أيَّ شيء ينفقون من أموالهم

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص٨٠).

من الصدقات ونحوها.

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ قرأ أبوعمرو بالرفع: «قل العفوُ» أي: هو العفوُ، وقرأ الباقون بالنصب ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ أي: ينفقون العفوَ، و«العفو» هو الفضل، وما لا يبلغ الجهد واستفراغ الوسع، قال الشاعر:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب(١)

والمعنى: أنفقوا ما يفضل عن حاجتكم، ولا يشق عليكم، وفي هذا إشارة إلى أن المطلوب إنفاقه لا يمثل غرماً ثقيلاً، وإنما هو شيء يسير، وقليل من كثير، وما زاد عن الكفاية والحاجة، فما أعظم ذلك، وإن كان قليلاً، إذا كان خالصاً لله- عز وجل- ومن مال طيب، وبطيب نفس، بلا مَنّ ولا أذى.

كما أن فيه دلالة على أنه لا يجوز أن ينفق ماله، ويعرض نفسه وأهله وولده للحاجة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار؟ قال: «**أنفقه على نفسك**». قال: عندي آخر؟ قال: «**أنفقه على أهلك**». قال: عندي آخر؟ قال: «**أنفقه على ولدك**». قال عندي آخر؟ قال: «**فأنت أبصر**»(٢).

وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء، فهكذا وهكذا**» يقول: «**فبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك**»(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»(٤).

---

(١) البيت ينسب لشريح القاضي، ينظر: «الحماسة الصغرى» (ص٨٥). وينسب لخارجة بن أسماء الفزاري، انظر: «الموشى= الظرف والظرفاء» (ص١٤٩). وينسب لأبي الأسود الدؤلي، انظر: «حماسة الخالديين» (ص١٠١). وينسب لعامر البكاء، انظر: «الحماسة البصرية» (٢/ ٧١).

(٢) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٩١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤)، وأحمد (٢/ ٣٨١، ٤٧١).

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٩٧)، وأبوداود في العتق (٣٩٥٧)، والنسائي في البيوع (٤٦٥٢).

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٤)، وأبوداود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣).

وعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف**»(١).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الكاف: للتشبيه، وهي: صفة لمصدر محذوف أي: بياناً مثل ذلك البيان، والإشارة لما سبق بيانه في الآيات السابقة، وأشار إليه بإشارة «البعيد» تعظيماً له. أي: مثل ذلك البيان والإيضاح والتفصيل لحكم الخمر والميسر، وبيان قدر المُنْفَق.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾أي: يوضح لكم الآيات ويفصلها في سائر الأحكام، كما قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

والآيات: جمع آية، وهي العلامة. وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وهي كل ما خلقه الله- عز وجل- وذرأه في هذا الكون من المخلوقات العلوية والسفلية- كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وقد أحسن القائل:

فواعجباً كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد(٢)

وسميت المخلوقات آيات لدلالتها على وجود الله- عز وجل- وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة وحده، دون من سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٣٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٤٣).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص(١٠٤).

وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

والقسم الثاني: الآيات الشرعية، وهي ما أنزله- عز وجل- من الوحي على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام- ومنها: آيات القرآن الكريم- وهي المرادة هنا.

وسميت الآيات الشرعية آيات؛ لما فيها من الدلالة على صدق من جاء بها ﷺ، وأنها من عند الله- عز وجل- ذي الكمال التام في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته المستحق للعبادة وحده دون من سواه،- كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولما اشتملت عليه من الهداية لأقوم طريق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولكمالها وتمامها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ومعنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: مثل ذلك البيان الذي بين الله- عز وجل- به هذه الآيات وأوضحها وفصلها، يبين لكم غيرها من الآيات الشرعية المشتملة على المواعظ والأحكام، والآيات الكونية الدالة على عظمته- عز وجل- واستحقاقه للعبادة وحده، دون من سواه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾«لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتفكروا. والتفكر: إعمال الفكر والعقل، والتأمل والنظر والتدبر.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لعلكم تتفكرون فيما هو أنفع لكم في الدنيا والآخرة من البعد عن الخمر والميسر، ومن إنفاق العفو، وتتفكرون في الدنيا، وأنها دار عمل وابتلاء، دار حقيرة، نهايتها الزوال والفناء، وتتفكرون في الآخرة وقربها، وعظم مكانتها، وأنها دار ثواب وجزاء، وخلود وبقاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ

إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فتؤثرون الآخرة العظيمة الباقية، على الدنيا الحقيرة الفانية.

قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء. فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا، ما أنا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»(٢).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(٣).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٤).

طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيُحْبَس له، حتى يأكله، أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هذا السؤال الثالث في هذه الآية، فالسؤال الأول يتعلق بالعقول والأموال، والسؤال الثاني في الحفاظ على المال، وعدم إضاعته وإتلافه، وفي بيان المنفق منه، والسؤال الثالث عن اليتامى والإصلاح لهم وحفظ أموالهم.

أي: ويسألك أصحابك يا محمد- عن اليتامى- كيف يعاملونهم- إشفاقاً منهم عليهم، وخوفاً من التقصير في حقوقهم أو ظلمهم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤].

واليتامى جمع يتيم، ويتيمة، يقال في جمعهما: يتامى، وأيتام، ويقال أيضاً في جمع يتيمة: «يتيمات»، واليتيم واليتيمة مَن مات أبوه وهو دون البلوغ، ذَكراً كان أو أنثى، مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد، ومنه سميت: «الدرة اليتيمة» فإذا بلغ زال عنه اليتم؛ لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(٢).

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ جاء السؤال عامًّا عن اليتامى، وجاء الجواب أعم منه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: عمل الأصلح لهم، أو اعملوا الأصلح لهم في أنفسهم وأموالهم وغير ذلك، من تربيتهم وتعليمهم وتأديبهم، وحفظ أموالهم، وتنميتها لهم، وتمييزها عن أموال الأولياء، إن اقتضى الحال ذلك.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: خير مطلقاً، وخير من عدم الإصلاح؛ خير لكم أيها الأولياء، في دينكم ودنياكم وأخراكم، لما فيه من براءة الذمة، بأداء حقوقهم، والاحتياط من أن يدخل عليكم

---

(١) أخرجه أبوداود في الوصايا- مخالطة اليتيم في الطعام (٢٨٧١)، والنسائي في الوصايا- ما للوصي من مال اليتيم (٣٦٧٠)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٦٩٨- ٦٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٩٥، ٥/ ١٤١٨)، والواحدي في «أسباب النزول»، ص(٤٤، ٤٩)، والبيهقي في «سننه» (٥/ ٢٥٨- ٢٥٩، ٦/ ٢٨٤).

(٢) سبق تخريجه.

شيء من أموالهم، وخير لليتامى بحيث تصلح أحوالهم- بإذن الله- عز وجل- وتحفظ وتنمى أموالهم، وتبقى متميزة عن أموال أوليائهم، حتى ترد إليهم بعد بلوغهم سالمة، بلا إشكال ولا منازعة، وخير للأُمة بأن يكون اليتامى لبنات صالحة في المجتمع.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ الواو: عاطفة، أي: وإن تخالطوهم في طعامهم وأموالهم، فتخلطوا طعامهم مع طعامكم، وتأكلون معهم، وتخلطوا أموالهم مع أموالكم، فتتجرون بها جميعاً، وترعون مواشيهم مع مواشيكم، ونحو ذلك.

﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، أو في النسب، أو فيهما جميعاً، وليسوا أجانب منكم، فلا حرج من خلط طعامهم مع طعامكم، وأموالهم مع أموالكم، دفعاً للمشقة والحرج عنكم.

لكن ذلك مشروط بضبط مال اليتيم، ومعرفته عند خلطه بمال الولي، عدداً، ونوعاً، ووصفاً، وغير ذلك، حتى لا يضيع مع مال الولي، وأن يحدد قدر النفقة عليه في طعامه وشرابه كفرد من أفراد الأسرة، ويحتسب ذلك عليه من ماله.

وفي قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ إشارة إلى مبدأ التسامح بين المسلمين، وأن الأصل بينهم الأمان والثقة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: والله يعلم من قصده ونيته وعمله الإفساد، ومن قصده ونيته وعمله الإصلاح في توليه على اليتيم، وخلط ماله بماله، وغير ذلك.

وفي هذا وعيد للمفسد ووعد للمصلح، كما أن فيه إشارة إلى أن المعول عليه النية والقصد، فمن أحسن النية، وقصد الإصلاح في توليه اليتيم فهو موفق مثاب بإذن الله- عز وجل- سواء خلط مال اليتيم مع ماله، أو لم يخلطه، ومن أساء النية، وقصد الإفساد فهو ونيته.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية، وهي: حرف امتناع لامتناع، و«شاء»: فعل الشرط، وجوابه: «لأعنتكم»، وجاء مقترناً باللام- كما هو الأكثر في جواب «لو» إذا كان الكلام مثبتاً.

﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ العنت: المشقة والشدة والحرج، قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾

[التوبة: ١٢٨]، أي: ما يشق عليكم.

والمعنى: ولو شاء الله لشدد وشق عليكم وأحرجكم، فيما شرعه لكم في أمر اليتامى وغيره، ومن ذلك أن يحظر عليكم مخالطتهم في طعامهم وأموالهم، ولكنه- عز وجل- خفف عنكم، فطلب منكم الإصلاح لليتامى، ما استطعتم، من غير قيود، أو شروط، وأباح لكم مخالطتهم في طعامهم وأموالهم، مع التصرف فيها بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤].

بل إنه- عز وجل- أباح للولي إذا كان فقيراً أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف، فقال عز وجل: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: إن الله- عز وجل- ذو العزة التامة، له- عز وجل- عزة القوة، كما قال- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وله- عز وجل- عزة القهر والغلبة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال- عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وله- عز وجل- عزة الامتناع، فلا يمكن أن يناله أحد بسوء.

قال ابن القيم(١):

وهو العزيز فلن يُرام جنابه	أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذٍ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه	من كل وجه عادم النقصان

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: أنه- عز وجل- ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

---

(١) في «النونية» ص(١٤٧).

وفي اجتماع العزة والحكم والحكمة في حقه- عز وجل- كمال إلى كمال.

وفي ختم الآية بهذين الوصفين إشعار بأن ما حكم به- عز وجل- في شأن اليتامى من الأمر بالإصلاح لهم، وإباحة مخالطتهم في طعامهم وأموالهم، ورفع المشقة عن الأولياء في ذلك، والتنبيه على علمه- عز وجل- بالمفسد من المصلح، وما فيها من الوعد والوعيد- كل ذلك عن عزة وقوة، وحكم تام، وحكمة بالغة.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله- عز وجل- وتكريمه للنبي ﷺ بتوجيه الخطاب إليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٢- حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، والحذر مما يضرهم في ذلك، فسألوا أولاً عن الخمر والميسر؛ حفاظاً على العقول من الذهاب، وحفاظاً على الأموال من الضياع.

وسألوا ثانياً ماذا ينفقون ليرابحوا مع الله- عز وجل- ويبارك لهم في أموالهم.

وسألوا ثالثاً عن اليتامى؛ شفقة عليهم، وحفاظاً على أموالهم، وخوفاً من التقصير في حقوقهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

٣- وجوب الرجوع إليه ﷺ في حياته فيما أشكل من أمر الدين، ووجوب الرجوع بعده إلى أهل العلم، العارفين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٤- موافقة العقل الصحيح، للنقل الصريح، فإن سؤال الصحابة رضي الله عنهم عن الخمر والميسر، لما أدركوا بعقولهم ما فيهما من المضار، فجاء القرآن ببيان ذلك.

٥- عظم إثم الخمر والميسر، وكثرته، وأنهما من كبائر الذنوب؛ لما في الخمر من تغطية العقل وإزالته، فيهذي الإنسان بما لا يدري، ويرتكب بسبب ذلك الجرائم والموبقات.

ولما في الميسر من أكل أموال الناس بالباطل، وما يحدثه من اضطرابات نفسية وأمراض بدنية، وعقلية، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

٦- أن في الخمر بعض المنافع من النشوة والطرب، وفيه وفي الميسر بعض المنافع المادية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ لكنها لا تساوي شيئاً بالنسبة لمضارهما.

ولهذا لما سأل طارق بن سويد الجعفي ﷺ رسول الله ﷺ عن الخمر، فنهاه عنها، وكره أن يصنعها. قال: إنما أصنعها للدواء. قال ﷺ: «**إنه ليس بدواء، ولكنه داء**»(١).

٧- أن إثم الخمر والميسر وضررهما أكبر وأعظم وأشد من نفعهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

٨- أن دفع المضار والمفاسد مقدم على جلب المصالح.

٩- التدرج في التشريع، مراعاة لأحوال المكلفين، ففي هذه الآية توطئة وتمهيد لتحريم الخمر والميسر.

١٠- أن الخمر أشد ضرراً من الميسر، لهذا قدم عليه في الذكر؛ لأن في الخمر زوال العقل، مع ضياع المال.

١١- أن الإنفاق إنما يكون مما فضل عن حاجة المنفِق وأهله، فلا ينبغي أن ينفق ماله، ويبقى عالة على الآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾.

١٢- أن الإنفاق من المال من أسباب حفظه والمباركة فيه؛ لأن الله ذكر ذلك بعد ذكر حكم الخمر والميسر اللذين بهما ضياع المال وإتلافه.

١٣- تبيين الله- عز وجل- وتفصيله للعباد ما أنزله عليهم من الآيات الشرعية والكونية، كما بين لهم الآيات في حكم الخمر والميسر، وفي الإنفاق، وفي اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

١٤- أن الحكمة من إنزال الآيات وتبيينها وتفصيلها التفكر في آيات الله- عز وجل-

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٩٨٤)، من حديث وائل الحضرمي ﷺ.

والتأمل فيها، والعمل بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٥- إثبات الحكمة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٦- ينبغي التفكر في الدنيا والآخرة وأحوالهما، ومعرفة قدر كل منهما، وإنزالهما منزلتهما، وعدم الاغترار بالدنيا الفانية، وتقديمها على الآخرة الباقية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

١٧- عناية الإسلام باليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ الآية.

١٨- الحث على الإصلاح لليتامى في أنفسهم وأموالهم، وجميع أحوالهم، وأن ذلك خير مطلقاً لهم وللأولياء وللأُمة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

١٩- جواز مخالطة اليتامى في أموالهم وطعامهم، رفعاً للمشقة عن الأولياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

٢٠- إثبات مبدأ الأخوة الدينية بين المسلمين، والتسامح فيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

٢١- إثبات علم الله- عز وجل- التام بالمفسد من المصلح، في ولاية اليتامى وأموالهم، وفي غيرها من الولايات، وفي كل شيء، وتمييز كل منهما عن الآخر، ومجازاته بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وفي هذا وعيد للمفسد، وتحذير من الإفساد، ووعد للمصلح وترغيب في الإصلاح.

٢٢- الإشارة إلى أن من قصد الإصلاح لليتامى أُعين على ذلك بإذن الله، وسلم من التبعة فيما لو دخل عليه شيء من مال اليتيم من غير قصد، وفيما لو حصل عليه نقص ما لم يفرط؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وبضد ذلك من قصد الإفساد.

٢٣- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾.

٢٤- امتنان الله- عز وجل- برفع المشقة والحرج فيما شرعه لعباده، ومن ذلك رفع

المشقة عن أولياء اليتامى، حيث رغبهم بالإصلاح لليتامى، وأباح لهم مخالطتهم، في طعامهم وأموالهم؛ رفعاً للمشقة والحرج عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾.

٢٥- إثبات صفة العزة التامة لله- عز وجل- بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

٢٦- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾ الواو: استئنافية.

و«لا» ناهية، والخطاب للمؤمنين، والنكاح لغة: الضم والجمع، وفي الشرع: عقد الزوجية الصحيح، ويطلق على الوطء، والمراد به هنا العقد، أي: لا تتزوجوا أيها المؤمنون المشركات.

والمشركات: جمع مشركة، والمشركة والمشرك: من يدعو غير الله، ويتخذه شريكاً لله، ويسوي غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، قال تعالى عن المشركين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾ «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن يؤمن، فإذا آمنَّ جاز لكم نكاحهن، أي: حتى يُصدقن بما جاء من عند الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ، وينقدن لذلك ظاهراً وباطناً، ويخلصن العبادة لله.

والآية عامة في جميع المشركات من عبدة الأوثان وأهل الكتاب وغيرهم. خص من عمومها نساء أهل الكتاب، فأباحهن الله- عز وجل- في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ﴾ الآية [المائدة: ٥].

وقيل: إن الآية ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ خاصة بالوثنيات.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ الواو: استئنافية، واللام للابتداء، وهذه الجملة تعليل للنهي عن نكاح المشركات.

والأَمة تطلق على المرأة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا

تمنعوا إماء الله مساجد الله»(١)، وقال ﷺ: «**ما أصاب أحداً قط همّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك**»(٢)، وقال ﷺ: «**كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله**»(٣).

وتطلق الأمة على المملوكة، كما في حديث جبريل- عليه السلام: «**وأن تلد الأمة ربَّتها**»(٤)، وقوله ﷺ: «**ورجل كانت عنده أمة، فأدبها فأحسن تأديبها...**»(٥).

﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾ أي: مؤمنة بالله- عز وجل- مصدقة برسوله ﷺ، منقادة لشرعه، حسب ما يظهر منها، وأمر الباطن إلى الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ﴾ [النساء: ٢٥].

وقال ﷺ للأَمَة: «**أين الله**»؟ قالت: في السماء. قال: «**مَن أنا**»؟ قالت: أنت رسول الله. قال ﷺ لسيدها: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(٦).

ومعنى الآية: ولامرأة مؤمنة، حرة كانت أو مملوكة ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾.

وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي: خير وأفضل من امرأة مشركة خيرية مطلقة؛ لأن المشركة لا خير فيها.

واسم التفضيل قد يرد بين شيئين لا فضل في أحدهما البتة، كما في قوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، وأبوداود في الصلاة (٥٦٦)، والنسائي في المساجد (٧٠٦)، والترمذي في الجمعة (٥٧٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٦)، وأحمد (٢/ ٧٢- ٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في العلم (٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٤)، والترمذي في النكاح (١١٦)، وابن ماجه في النكاح (١٩٥٦)- من حديث أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه رضي الله عنه.

(٦) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧)، وأبوداود في الصلاة (٩٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقد يكون اسم التفضيل هنا استعمل على بابه، ويراد بالخير في المشركة ما قد يظهر للناس من جمال أو حسب أو مال، ولهذا قال بعده:

﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ الواو حالية، أي: ولو أعجبتكم هذه المشركة، وسرتكم، بجمالها، أو حسبها، أو ما لها، ونحو ذلك، فكل هذا لا قيمة له، ولا يساوي شيئاً مع الإشراك بالله، وفقدان الدين.

فالمؤمنة طيبة والمشركة خبيثة، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

والمؤمنة رعت حق الله عز وجل فعبدته وحده، فهي أحرى برعاية حق زوجها وحفظ نفسها وولده وماله.

والمشركة لم ترع حق الله، بل أشركت معه غيره، وهي أحرى بعدم رعاية حق زوجها بنفسها وولده وماله.

ولهذا قال ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين، تربت يداك**»(١).

وقال ﷺ: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»(٢).

وفي الأثر: «**إياكم وخضراء الدمن**».

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ الخطاب للمؤمنين، وبخاصة أولياء الأمور منهم، وفيه دليل على اشتراط الولي في النكاح، أي: ولا تُزَوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات حتى يؤمنوا؛ لحرمة المؤمنة على المشرك، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، وأبوداود في النكاح (٢٠٤٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرج مسلم نحوه من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

لأن للزوج ولاية على الزوجة، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فلا يجوز أن يكون لمشرك ولاية على مؤمنة، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ أي: ولعبد مؤمن حراً كان أو مملوكاً خير وأفضل من مشرك خيرية مطلقة من جميع الوجوه. والكلام فيه- كما تقدم في قوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ الواو: حالية، أي: ولو أعجبكم وسركم المشرك، بمظهره، أو ماله، أو منصبه، ونحو ذلك، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، أي: أولئك المشركون الذين نُهيتم عن مناكحتهم يدعون الناس إلى النار، بأقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، وأموالهم، وأحوالهم، وما هم عليه من الشرك.

فمخالطتهم ومعاشرتهم سبب للتشبه بهم، وموالاتهم واتباعهم، وتقليدهم، مما يوجب دخول النار معهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: والله يدعو بما أرسل به الرسل من الوحي والشرع، والأمر والنهي إلى الجنة، دار السلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

ويدعو إلى مغفرة الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

وذلك بالدعوة إلى العلم النافع والعمل الصالح، والحث على التوبة والاستغفار، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإذنه- عز وجل- الكوني والشرعي، فمن أجاب دعوة الله- عز وجل- أدخله الله الجنة، وغفر له، فاجتمع في حقه الإذن الكوني، والإذن الشرعي، وشتّان بين الدعوتين: الدعوة إلى النار، والدعوة إلى الجنة والمغفرة.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان(١)

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ويبين عز وجل ويفصل آياته الشرعية والكونية ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، كما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ومعنى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن يتذكروا، ويتعظوا بما فيها من الوعد والوعيد ونحو ذلك، ويمتثلوا ما فيها من الأمر والنهي، فيثابوا بالجنة والمغفرة- بإذن الله عز وجل.

الفوائد والأحكام:

١- تحريم نكاح المؤمنين للمشركات؛ لقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وهذا عام ويخص منه نساء أهل الكتاب، فيجوز للمؤمنين نكاحهن؛ لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الآية: ٥].

لكن إن كان في زواج المؤمن من الكتابية خطر عليه في دينه، أو على أولاده فلا يجوز له الزواج بها درءاً للمفسدة.

---

(١) البيت لابن القيم. انظر «النونية» ص(١١).

٢- إذا آمنت المشركات جاز نكاحهن؛ لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾.

٣- أن المؤمنة حرة كانت أو أمة خير من المشركة، خيرية مطلقة من جميع الوجوه، حتى ولو كان في المشركة ما يعجب الناكح لها من مال أو جمال أو حسب ونسب ونحو ذلك فلا قيمة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

٤- تحريم تزويج المشركين بالمؤمنات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ فلا يجوز أن يكون لمشرك ولاية على مؤمنة؛ لأن الإسلام يعلو، ولا يعلى عليه.

٥- اعتبار الولي في النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾، وقد قال ﷺ: «لا نكاح إلا بولي»(١).

٦- إذا آمن المشركون جاز تزويجهم؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾.

٧- أن المؤمن حرًّا كان أو مملوكاً خير من المشرك، وإن كان حرًّا قرشيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

٨- عدم الاغترار بمظاهر المشركين والمشركات، فلا خير يرتجى فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

٩- أن الميزان المعتبر في تفاضل الناس هو الدين والإيمان، فالمشرك لا يساوي شيئاً بالنسبة للمؤمن، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٠- التحذير من المشركين، ومخالطتهم، ومعاشرتهم، لأنهم دعاة إلى النار، بأقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، وأحوالهم، وأموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

١١- رحمة الله- عز وجل- بالعباد، ودعوته لهم إلى جنته ومغفرته، والترغيب في ذلك؛

---

(١) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٨٥)، والترمذي في النكاح (١١٠١، ١١٠٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨١)، وأحمد (٤/ ٣٩٨، ٤١٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾.

١٢- أن الاستجابة لدعاء الله- عز وجل- بالإيمان والعمل الصالح، ودخول الجنة والمغفرة بإذن الله- عز وجل- الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾.

١٣- إقامة الله- عز وجل- الحجة على الناس، ببيان آياته وتفصيلها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾.

١٤- أن الحكمة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبيان الآيات وتفصيلها للناس، أن يتذكروا ويتعظوا، ويعملوا بما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٥- إثبات الحكمة في أفعال الله- عز وجل- لقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أُسيد بن حضير، وعبّاد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ، حتى ظننا أن قد وَجَدَ عليهما، فخرجا، فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما»(١).

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ أي: ويسألك أصحابك يا محمد عن المحيض. و«المحيض» مصدر ميمي، بمعنى الحيض، أي: يسألونك عن الحيض، لقوله بعده: في الجواب: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾. وقيل: المحيض مكان الحيض، وهو الفرج.

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: قذر نجس نتن، قدره الله على النساء- ولهذا أوجب الشرع على

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض- جواز غسل الحائض رأس زوجها (٣٠٢)، وأبوداود في الطهارة- مؤاكلة الحائض ومجامعتها (٢٥٨)، والنسائي في الطهارة- تأويل قول الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ (٢٨٧)، وفي الحيض (٣٦٩)، والترمذي في تفسير سورة البقرة (٢٩٧٧)، وابن ماجه في الطهارة- ما جاء في مؤاكلة الحائض وسؤرها (٦٤٤).

الحائض الاغتسال بعد انقطاعه، وأمر ﷺ النساء بحتّ ما أصابهن منه، ثم قرصه بالماء، ثم نضحه(١).

ومُنعت بسببه الحائض من الصلاة والصوم والطواف ومس المصحف.

قال ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل؟ ولم تصم؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان دينها**»(٢).

﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ الاعتزال: الاجتناب والترك. وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: (فاعتزلوا النساء فيه) للتنصيص على أن الحيض هو سبب الاعتزال.

وقدم العلة، وهي كونه أذى ليكون أدعى للامتثال، وقبول الحكم، وتنفيراً من المخالفة.

والمعنى: فاعتزلوا جماع النساء الحائضات ﴿فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي: في مكان الحيض وهو الفرج، وقت الحيض. قال ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»(٣).

وعن مسروق قال: قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: «كل شيء إلا الفرج»(٤).

وفي هذا إبطال لما كان عليه اليهود في معاملة الحائض، حتى إنهم لا يؤاكلونها، ولا يجتمعون معها في البيوت، فلا يحرم من الحائض إلا جماعها في الفرج، وما عدا ذلك، من مباشرتها فيما عدا ذلك، ومن مؤاكلتها، والاجتماع معها فجائز.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري، وأنا حائض، فيقرأ

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء- غسل الدم (٢٢٧)، ومسلم في الطهارة- نجاسة الدم وكيفية غسله (٦٧٥)، من حديث أسماء رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٧٢٦- ٧٢٧).

القرآن»(١).

وعنها قالت: «كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب، وأتعرق العَرْق(٢)، وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ»(٣).

وعنها قالت: «كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد، وإني حائض طامث، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه لم يَعْدُه، وإن أصاب- يعني ثوبه- شيء غسل مكانه لم يَعْدُه، وصلى فيه»(٤).

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبوبكر عن عاصم بتشديد الطاء والهاء «حتى يطَّهَّرن» أي: حتى يغتسلن، وقرأ الباقون بتخفيفهما: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: حتى يطهرن من الدم.

وهذا توكيد وتفسير لما قبله، أي: ولا تقربوهن في مكان الحيض، وهو الفرج، أي: لا تجامعوهن ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: حتى ينقطع دم الحيض عنهن ويغتسلن- كما دلت عليه القراءتان، وهما بمثابة آيتين.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية، و«تطهرن»: فعل الشرط، وجوابه: «فأتوهن».

ومعنى قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: فإذا اغتسلن بالماء، أو تيممن بالصعيد عند فقد الماء أو تعذر استعماله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض (٢٩٧)، ومسلم في الحيض (٣٠١)، وأبوداود في الطهارة (٢٦٠)، والنسائي في الحيض (٣٨١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٣٤).

(٢) العَرْق: العظم، إذا أخذ عنه معظم اللحم، وتَعرَّق العظم: أخذ عنه اللحم بأسنانه.

(٣) أخرجه مسلم في الحيض (٣٠٠)، وأبوداود في الطهارة (٢٥٩)، والنسائي في الطهارة (٢٧٩)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٤٣).

(٤) أخرجه أبوداود في الطهارة (٢٦٩)، والنسائي في الطهارة (٢٨٤).

بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ [المائدة: ٦].

﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فجامعوهن.

والأمر للإباحة لأنه أمر بعد حظر، فنهى عن قربانهن حال الحيض، حتى يطهرن، ثم أمر بإتيانهن، إذا تطهرن واغتسلن، بعد انقطاع الحيض.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في المأتى الذي أمركم الله بإتيانهن فيه، وأحله لكم، وأمركم باعتزالهن فيه حال الحيض، وهو الفرج، كما قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، أي: فجامعوهن في محل الحرث، لبذر الولد بالنطفة وهو القبل، وقال تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي: من الولد وغيره.

ويفهم من هذا تحريم الوطء في الدبر، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون: ٥، ٦ – المعارج: ٢٩، ٣٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ تعليل لما سبق، من الأمر باعتزال النساء في المحيض، وعدم جماعهن، حتى يطهرن، ويتطهرن، وإباحة جماعهن بعد ذلك.

و«التوابين» جمع توّاب. على وزن «فعّال» صيغة مبالغة تفيد الكثرة، فالتوابون كثيرو التوبة.

قال ﷺ: «**توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مائة مرة، أو أكثر من مائة مرة**»(١).

والتوبة: هي الإنابة إلى الله- عز وجل- والرجوع من معصيته إلى طاعته.

وفي الآية: إثبات محبة الله- عز وجل- للتوابين على ما يليق بجلاله وعظمته، والترغيب

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٢)، وأبوداود في الصلاة (١٥١٥)، وأحمد (٤/ ٢١١، ٢٦٠)، من حديث الأغر المزني رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٨١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في التوبة، ويفهم منها عدم محبته- عز وجل- للمصرين على الكفر والمعاصي.

﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: ويحب المتطهرين من الأذى والنجاسات الحسية، من جماع الحائض، أو إتيان النساء في أدبارهن، ومن الحدثين الأكبر والأصغر، وسائر النجاسات.

فجمعوا بين طهارة الباطن، بالتطهر من النجاسات المعنوية، من الشرك والمعاصي بالتوبة، وبين طهارة الظاهر، بالتطهر من النجاسات الحسية باعتزال النساء في المحيض، وفي أدبارهن والتطهر من الأحداث والأخباث.

قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

سبب النزول:

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾»(١).

قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: زوجاتكم أيها المؤمنون ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: موضع حرث وزرع وبذر لكم، تضعون فيها هذا الماء الدافق، فيخرج الولد بإذن الله- عز وجل- كما يوضع البذر في الأرض ويسقى فيخرج النبات بإذن الله عز وجل.

﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ أي: فأتوا موضع حرثكم، وهو «الفرج».

﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ «أنى» ظرف مكان، أي: جامعوا زوجاتكم من أي جهة شئتم، وعلى أي حال كن، متى شئتم، إذا كان ذلك في موضع الحرث، وهو الفرج، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وقال: «**يعني صماماً واحداً**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ (٤٥٢٨)، ومسلم في النكاح- جواز جماع امرأته في قبلها (١٤٣٥)، وأبوداود في النكاح- جامع النكاح (٢١٦٣)، والترمذي في تفسير سورة البقرة (٢٩٧٧)، وابن ماجه في النكاح- النهي عن إتيان النساء في أدبارهن (١٩٢٥)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٧٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٩)، وقال: «حديث حسن صحيح».

وعن بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «**حرثك، ائت حرثك أنى شئت، وأطعمها إذا طعمت، واكسها إذا اكتسيت، ولا تقبح الوجه، ولا تضرب**»(١).

وعن ابن عباس ﵄ قال: «**أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إني أَجُبُّ النساء(٢) فكيف ترى في ذلك، فأنزل الله، ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾**»(٣).

وعن ابن عباس ﵄ قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: «**يا رسول الله، هلكت، قال: ما الذي أهلكك؟ قال: حولت رحلي(٤) البارحة، قال: فلم يرد عليه شيئاً، فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: أقبل وأدبر، واتق الدبر والحيضة**»(٥).

وعن ابن عباس ﵄ قال: «**أنزلت هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ في أناس من الأنصار، أتوا النبي ﷺ فسألوه، فقال النبي ﷺ: «ائتها على كل حال إذا كان في الفرج**»(٦).

فدل الكتاب والسنة والآثار عن سلف الأمة على أن للرجل أن يجامع زوجته على أي هيئة كانت إذا كان ذلك في الفرج موضع الحرث والولد.

أما مباشرتها في الدبر فهي محرمة؛ لأنها مخالفة لحكمة مشروعية النكاح في الفرج من إعفاف كل من الزوجين، وتكثير النسل، والبعد عن الأذى؛ لأن الغائط أشد أذى من الحيض، فهي مخالفة لمقتضى أدلة الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه أبوداود في النكاح (٢١٤٣)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٠).

(٢) أي: أجامع المرأة من نسائي منكبّة على وجهها.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٠٤).

(٤) هذا كناية عن إتيان زوجته مدبرة.

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٠)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٠٥).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٨).

وقد روى أن النبي ﷺ سمى إتيان النساء في أدبارهن اللوطية الصغرى(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ملعون من أتى امرأة في دبرها**»(٢).

وما رُوي عن ابن عمر من أنه أباح إتيان المرأة في دبرها، فهو محمول على أنه يجوز إتيانها في قبلها من دبرها- كما تقدم في معنى الآية- يدل على هذا ما رواه ابن علقمة عن أبي النضر، أنه أخبره، أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن. قال: كذبوا عليَّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده، حتى بلغ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجَبِّي النساء، فلما دخلنا المدينة، ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك، وأعظمنه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾»(٣).

وعن سعيد بن يسار أبي الحباب، قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجواري، أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدبر. فقال: «وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين»(٤).

قال ابن كثير(٥) بعد ذكر هذا الأثر عن ابن عمر- نقلاً عن مسند الدارمي، قال: «وهذا إسناد صحيح، ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٠)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ورواه بعضهم موقوفاً عليه. قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٨٥): «وهذا أصح».

(٢) أخرجه أبوداود في النكاح (٢١٦٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٣).

(٣) أخرجه النسائي- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٨٤)- قال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح. وقد رواه ابن مردويه».

(٤) أخرجه الدارمي في «مسنده» (١/ ٢٦٠)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٤١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٩٧٩)، والطبري في «جامع البيان» (٣/ ٧٥٢).

(٥) في «تفسيره» (١/ ٣٨٨).

ويحتمل فمردود إلى هذا المحكم».

﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: وقدموا لأنفسكم بامتثال أوامر الله، والأعمال الصالحة، ما ينفعكم غداً عند الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

ومن ذلك حسن معاشرة الزوجات، واستحضار النية الصالحة، بأن ينوي عند الجماع تحصين نفسه وزوجه، والولد الصالح، وتكثير الأمة مع ذكر اسم الله- عز وجل- والدعاء الوارد عند الجماع، كما في الحديث، قال ﷺ: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً**»(١).

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمرنا أولاً بالتقديم لأنفسنا، وذلك بامتثال أوامره، والأعمال الصالحة، ثم أمر بتقواه، وذلك باجتناب نواهيه عموماً، وفي أمر النساء خصوصاً.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ في هذا وعد ووعيد، أي: واعلموا أنكم ملاقوه يوم القيامة، فيحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بشر يا محمد، ويا أيّ مبشر ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بشارة مطلقة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

والبشارة: الإخبار بما يسر، وسمي الخبر السار بشارة؛ لأن به تنبسط البشرة، ويستنير الوجه. وقد كان ﷺ- إذا سر استنار وجهه، كأنه قطعة قمر(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١)، ومسلم في النكاح (١٤٣٤)، وأبوداود في النكاح (٢١٦١)، والترمذي في النكاح (١٠٩٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩١٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

أي: وأخبر المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم، المنقادين بجوارحهم ظاهراً وباطناً لما جاءهم من الحق، أي: أخبرهم بما يسرهم، مما أعد الله لهم عنده من الكرامة، والنعيم المقيم، كما قال ﷺ عن الجنة- فيما رواه أبوهريرة ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» ثم قال: «**اقرؤوا إن شئتم هذه الآية:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»(١).

الفوائد والأحكام:

١- حرص الصحابة ﷺ على تعلم أمر دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾.

٢- خطاب الله- عز وجل- لنبيه ﷺ تشريف وتكريم له.

٣- أنه ﷺ مبلّغ عن الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ الآية.

٤- أن الحيض أذى وقذر نجس نتن، قدَّره الله على النساء، تترك المرأة بسببه الصلاة والصيام، ويَمنع الرجل من جماع زوجته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾.

٥- وجوب اعتزال النساء في المحيض، أي: في مكان الحيض وهو الفرج، لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾، وقال ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»(٢).

وعن مسروق قال: قلت لعائشة ﷺ: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: «**كل شيء إلا الفرج**»(٢).

وعنها ﷺ قالت: «كانت إحدانا إذا كانت حائضاً، فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تتزر من فور حيضتها، ثم يباشرها. قالت: وأيكم يملك إربه، كما كان النبي ﷺ يملك إربه»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٢)، ومسلم في الحيض (٢٩٣)، وأبوداود في الطهارة (٢٦٨)، والنسائي في الحيض (٣٧٣)، والترمذي في الطهارة (١٣٢)، وابن ماجه في الطهارة (٦٣٦).

وعن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه، وهي حائض، أمرها فاتزرت»(١).

فالذي يحرم من الحائض مباشرتها في الفرج، وهذا مجمع على تحريمه. أما ما عدا الفرج فجائز مباشرتها فيه سواء كان فوق الإزار أو تحته.

وما ورد من الآثار في النهي عن مجامعتها تحت الإزار، فهو محمول على الاحتياط، لئلا يتوصل إلى الجماع في الفرج، المجمع على تحريمه.

٦- إثبات الحكمة في أحكام الله- عز وجل- الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فأمر عز وجل باعتزال النساء في المحيض؛ لأن الحيض أذى، وقدم ذكر الحكمة والعلة على الحكم؛ ليكون ذلك أدعى لقبول الحكم.

٧- تأكيد وجوب اعتزال جماع النساء في الفرج حال الحيض، وتحريم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ فمن وطئ زوجته في الفرج حال الحيض فهو آثم وعليه التوبة والاستغفار.

٨- إذا طهرت المرأة من الحيض، بأن انقطع دمها، وتطهرت بالاغتسال بالماء، أو بالتيمم، عند فقد الماء، أو تعذر استعماله جاز وطؤها في الفرج؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ والأمر هنا للإباحة؛ لأنه أمر بعد حظر.

٩- إذا طهرت الحائض، بأن انقطع دمها لم يجز وطؤها حتى تغتسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾ بتشديد الطاء والهاء، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾.

١٠- وجوب اغتسال الحائض بعد انقطاع الحيض؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾.

١١- تحريم وطء النساء في أدبارهن لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في الفرج، دون الدبر.

١٢- إثبات المحبة لله- عز وجل- وأنه- عز وجل- يحب التوابين، من الكفر والمعاصي،

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٣)، ومسلم في الحيض (٢٩٤)، وأبوداود في النكاح (٢١٦٧)، والنسائي في الطهارة (٢٨٧).

والمتطهرين من الأحداث والنجاسات، الحسية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وفي المقابل فهو- عز وجل- يبغض ويسخط المصرِّين على الكفر والمعاصي، المتلطخين بالنجاسات الحسية والمعنوية.

١٣- فضل التوبة إلى الله- عز وجل- والتطهر من الأحداث والنجاسات الحسية والمعنوية، ظاهراً وباطناً، والترغيب في ذلك؛ لمحبة الله لذلك.

١٤- أن الزوجات حرث لأزواجهن، أي: موضع بذر وزرع يدفقون بفروجهن هذا الماء، فيحصل الولد بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾.

١٥- أن للأزواج جماع زوجاتهم متى شاؤوا، ما لم يكن ذلك في الحيض، وعلى أي حال، مقبلات ومدبرات وعلى جنب، شريطة أن يكون الجماع في الفرج؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

١٦- تحريم وطء المرأة في دبرها؛ لأنه ليس موضع الحرث، الذي أباحه الله، وأمر بوطئها فيه.

١٧- ينبغي للإنسان أن يقدم لنفسه ما ينفعه غداً عند الله- عز وجل- بامتثال أوامر الله، والأعمال الصالحة، ومن ذلك ذكر اسم الله- عز وجل- عند الجماع، والذكر الوارد عنده، مع استحضار النية الصالحة، بإعفاف نفسه وزوجته، وطلب الولد الصالح، وتكثير الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

١٨- وجوب تقوى الله- عز وجل- عموماً، وفي أمر النساء خصوصاً، بمعاشرتهن بالمعروف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٩- إثبات البعث ولقاء الله- عز وجل- والجزاء والحساب على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ وفي هذا وعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

٢٠- إثبات لقاء الله، ورؤيته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مُّلَٰقُوهُ﴾ لكن رؤيته- عز وجل- خاصة بالمؤمنين، دون الكافرين؛ لقوله تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن

رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فالملاقاة عامة للجميع، والرؤية خاصة بالمؤمنين.

٢١- البشارة المطلقة للمؤمنين، في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٢- فضل الإيمان والترغيب فيه؛ لبشارة الله- عز وجل- لأهله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا﴾ أي: ولا تصَّيروا، من جعل بمعنى صير، التي تنصب مفعولين؛ أولهما- هنا- لفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾، والثاني ﴿عُرْضَةً﴾.

﴿لِأَيْمَانِكُمْ﴾ اللام للتعدية، وقيل للتعليل. والأيمان: جمع يمين، وهو الحلف والقسم، وهو تأكيد الشيء المحلوف عليه، بالحلف بالله- عز وجل- أو اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، بقصد إقناع المحلوف له، وإشهاد الحالف الله على صدقه، كما قال تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء، يقال: والله، وبالله، وتالله.

وسمي الحلف يميناً؛ لأن من عادة العرب إذا تحالفوا أن يمسك أحدهما باليد اليمنى من الآخر، ومنه قولهم: أعطى يمينه، قال كعب بن زهير:

حتى وضعت يميني لا أنازعه ... في كف ذي يسرات قيله القيل(١)

﴿أَن تَبَرُّوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل جر بدل من «أيمان» أو عطف بيان، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: في أن تبروا، وقيل في محل نصب على المفعول لأجله، أي: إرادة أن تبروا.

والمعنى: لا تكثروا الحلف بالله، ولا تحلفوا به على ترك البر والتقوى، والإصلاح بين الناس، وإذا حلفتم على ترك ذلك، فلا تجعلوا حلفكم مانعاً من فعل ذلك، بل كَفِّروا عن أيمانكم، وافعلوا ما حلفتم على تركه، من البر والتقوى والإصلاح بين

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٤).

الناس، وما هو خير، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢].

فلا يجوز الحلف على ترك البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وإذا حلف على ترك ذلك، فلا يجوز الاستمرار على ترك ذلك احتجاجاً بالحلف، بل يجب الحنث في اليمين والتكفير عنها؛ لأن الاستمرار على اليمين المانعة من البر والتقوى والإصلاح بين الناس من الاستمرار على المعصية، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**والله لأن يَلِجَّ أحدكم بيمينه في أهله آثَمُ له عند الله من أن يُعطي كفارته، التي افترض الله عليه**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وإني، والله- إن شاء الله- لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها**»(٢).

وعن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وائت الذي هو خير**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأتها وليكفِّر عن يمينه**»(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب، وفي قطيعة الرحم، وفيما لا تملك**»(٥).

ومعنى قوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ أي: أن تعملوا الخير؛ لأن «البر»: كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة، من فعل الواجبات والمستحبات، من بر الوالدين وصلة الأرحام وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٥)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٢١٣٣)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٩)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٢)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٢)، وأبوداود في الخراج (٢٩٢٩)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٨٣)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٢٩).

(٤) أخرجه مسلم في الأيمان (١٦٥٠)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٠).

(٥) أخرجه أبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٧٢).

قال ﷺ: «**البر: ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب**»(١)، وقال ﷺ: «**البر: حسن الخلق**»(٢).

﴿وَتَتَّقُواْ﴾ التقوى: أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

والمراد بها هنا اجتناب النواهي، لذكر «البر» قبلها، وهو فعل الأوامر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «البر: ما أمرت به، والتقوى: ما نهيت عنه»(٣).

﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: وتوفقوا بين المتنازعين من الناس، بالعمل على إزالة الفساد، والقضاء على أسباب الفرقة، والاختلاف بينهم، وفض خصوماتهم، وإنهائها، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين؛ لعموم قوله: ﴿ٱلنَّاسِۗ﴾.

والإصلاح بين الناس من أعمال البر، وخص بالذكر- والله أعلم- لفضله، وعظيم أثره؛ لأنه من النفع المتعدي، ولأن فساد ذات البين من أعظم وأخطر ما يقع بين الناس. قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النساء: ١١٤].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة**»؟ قالوا: بلى. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**»(٤).

وفي رواية: «**لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(٥).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إياكم وسوء ذات البين، فإنها**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٥٣).

(٤) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وقال: «حديث صحيح».

(٥) ذكرها الترمذي.

الحالقة»(١).

ولهذا قال عز وجل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وجعل عز وجل للغارمين نصيباً من الزكاة، ومنهم الذين يتحملون غرامات للإصلاح بين الناس.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: والله ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»(٢).

ومن ذلك سماعه- عز وجل- لأيمان الحالفين.

﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ أي: ذو علم تام وسع كل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ومن ذلك علمه- عز وجل- بمقاصد ونوايا الحالفين، وفي هذا وعد لمن أطاع الله واجتنب نهيه، ووعيد لمن خالف ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾.

لما نهى عن جعل الحلف مانعاً من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، أتبع ذلك ببيان عدم المؤاخذة بلغو اليمين.

والمؤاخذة: المعاقبة، أي: لا يعاقبكم الله بما صدر منكم من لغو الأيمان، أي: لا يلزمكم بها، ولا بكفارتها.

ولغو اليمين: ما يجري على اللسان من غير قصد عقد اليمين ولا توكيدها، كقول

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٨)- وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري- معلقاً- في التوحيد- باب ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢)، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

الرجل: لا والله، وبلى والله، ونحو ذلك- كما قالت عائشة ﵂: «أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ في قول الرجل: لا والله، وبلى والله»(١).

وروي عنها أيضاً أنها كانت تقول: «هو الشيء يحلف عليه أحدكم، لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه»(٢).

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن يعاقبكم بالذي كسبته قلوبكم، أو بكسب قلوبكم، أي: بالذي عقدتموه وعزمتم عليه وقصدتموه من الأيمان والأعمال. كأن يحلف على شيء وهو يعلم أنه كاذب وهي اليمين الغموس، وهذا متوعد عليه بالنار.

وكأن يحلف على شيء أن يفعله، أو لا يفعله، ثم يحنث في يمينه، فعليه الكفارة، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

فعقد الأيمان هو كسب القلب، الذي عليه مدار صلاح الأعمال وفسادها، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٣).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ أي: والله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو حلم واسع، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب، ولا يهمله.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦١٣)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/٤٠٨- ٤٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير ﵄.

قال ابن القيم(١):

وهـو الحلـيم فـلا يعاجـل عبـده ... بعقوبـة ليتـوب مـن عصـيان

الفوائد والأحكام:

١- وجوب تعظيم الله عز وجل وأسمائه وصفاته، وعدم الإكثار من الحلف، وعدم الحلف بالله وأسمائه على ترك البر وصلة الرحم والتقوى والإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٢- لا ينبغي أن تكون الأيمان سبباً مانعاً لفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، ونحو ذلك، وإذا حلف الإنسان على ترك شيء من ذلك فينبغي أن يكفِّر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ الآية.

فمن حلف على ترك واجب، أو فعل محرم، وجب عليه الحنث في يمينه، والتكفير عنها، والقيام بالواجب، والابتعاد عن المحرم.

ومن حلف على ترك مندوب، أو فعل مكروه، استحب له الحنث، والتكفير وفعل المندوب، وترك المكروه.

٣- دلت الآية على أنه إذا تزاحمت الحقوق قدم أهمها. وعلى اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

٤- الترغيب في البر والتقوى، والإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٥- فضل الإصلاح بين الناس؛ لأن الله خصه بالذكر من بين أعمال البر، وذلك لما فيه من النفع العظيم، المتعدي للآخرين، والقضاء على فساد ذات البين.

٦- إثبات صفة السمع لله- عز وجل- الذي وسع جميع الأصوات، وصفة العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وفي هذا وعيد وتحذير لمن ترك ما

---

(١) في «النونية» ص(١٤٨).

أمر الله به، أو ارتكب ما نهى الله عنه، ووعد لمن امتثل أمر الله، وابتعد عما نهى الله عنه؛ لأن مقتضى سمعه- عز وجل- وعلمه مجازاة كل بعمله.

٧- فضل الله- عز وجل- على العباد، بعدم مؤاخذتهم باللغو في الأيمان، التي تصدر منهم من غير قصد، لعقد اليمين، وكذا غيرها من الأقوال، التي تصدر من غير قصد؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

٨- يسر الدين الإسلامي في تشريعاته، ومراعاته أحوال المكلفين.

٩- أن الأيمان التي يؤاخذ عليها، ويلزم الوفاء بها أو تكفيرها هي الأيمان المنعقدة، التي انطوت عليها القلوب، وكذا أيضاً سائر الأعمال والأقوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

١٠- أن مدار الأعمال على القلوب، صلاحاً أو فساداً، مما يوجب تعاهد القلوب وإصلاحها.

١١- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- لذنوب عباده، ستراً لها عن الخلق، وتجاوزاً عن العقوبة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾.

١٢- إثبات صفة الحلم لله- عز وجل- وأنه- سبحانه- ذو الحلم الواسع، الذي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب، ولا يهمله؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾.

١٣- أن من مغفرة الله- عز وجل- وحلمه، عدم المؤاخذة بلغو اليمين، ونحو ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ «للذين» جار ومجرور خبر مقدم، و«تربص» مبتدأ مؤخر. واللام في قوله «للذين» للإباحة، أي: يباح لهم تربص أربعة أشهر، أو للتوقيت، أي: يوقت لهم أربعة أشهر.

و«الإيلاء» في الأصل: الحلف، قال الأعشى[1]:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقي محمداً

وقال الآخر:

قليل الآلايا حافظ ليمينه ... وإن صدرت منه الألية برت[2]

وقال الآخر:

كفينا من تغيَّب من نزار ... وأَحْنَثْنا أليَّة مُقْسِمينا[3]

ومعنى ﴿يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: يمتنعون باليمين من نكاح زوجاتهم، وعدي الفعل «يؤلون» بـ«من» لتضمينه معنى «يمتنعون».

ويحتمل أن تكون «من» بمعنى «على» أي: يحلفون على ترك وطء زوجاتهم.

وفي هذا دليل على جواز الإيلاء، وأنه يختص بالزوجات، دون الإماء.

وقد آلى النبي ﷺ من نسائه شهراً، تسعة وعشرين يوماً؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنها[4].

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ التربص: الصبر والانتظار، أي: أنهم يُنْتَظرون مدة أربعة

---

(١) في «ديوانه» (ص١٨٥).

(٢) البيت لكثير عزة. انظر «ديوانه» (ص٥٩).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٤/ ٤٢)، و«التبيان» (٢/ ٢٣١).

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٠)، ومسلم في الصيام (١٠٨٥)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٦١).

أشهر، بدءاً من إيلائهم، أو يباح لهم الانتظار والامتناع من نسائهم أربعة أشهر.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ الفيء: الرجوع من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩]. أي: حتى ترجع إلى أمر الله.

ومنه سمي فيء ظل الشمس فيئاً، لرجوعه من جهة الغرب إلى الشرق بعد الزوال، وسمي «الفيء» وهو ما يؤخذ من الكفار بدون قتال، لرجوعه إلى المسلمين.

والمعنى: فإن رجعوا إلى جماع زوجاتهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ أي: فإن الله- عز وجل- ذو مغفرة تامة. فيغفر ما حصل منهم من تقصير في حقوق زوجاتهم، من الحلف على ترك جماعهن أربعة أشهر، مما ينافي العشرة بالمعروف.

﴿رَّحِيمٞ ٢٢٦﴾ أي: ذو رحمة واسعة، فيرحمهم ولا يؤاخذهم على ذلك.

فلا يجوز أن تزيد مدة الإيلاء- وهو الحلف على ترك وطء الزوجة- على أربعة أشهر- فإذا تمت هذه المدة وجب على الزوج الفيء والرجوع إلى ما كان عليه وجماع زوجته، فإن لم يرجع، فلها مطالبته بذلك، أو الطلاق، ويجبره الحاكم على ذلك.

قال السعدي- رحمه الله[1]- في كلامه على هذه الآية: «وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص، وهو حلف الرجل على ترك وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر، أو أكثر، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حنث كفر، وإن أتم يمينه، فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل؛ لأنه ملكه أربعة أشهر.

وإن كان أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه، إذا طلبت زوجته ذلك؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة، وهو الوطء، فإن وطئ فلا شيء عليه، إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم».

وفي ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: ترغيب بالفيء والعود إلى جماع

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٢٨٠- ٢٨١).

الزوجة والإحسان إليها؛ لأنه أحب إلى الله- عز وجل- فمن فعل ذلك غفر الله له ورحمه، والجزاء من جنس العمل.

عن عمرو بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه ... وأرقني ألا خليل ألاعِبُهْ
فوالله لولا الله أني أراقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة ﵂ كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوج؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: «لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك»(١).

وعن السائب بن جبير، مولى ابن عباس، قال: مازلت أسمع حديث عمر، أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيراً، إذ مر بامرأة من نساء العرب، مغلقة بابها، تقول:

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه ... وأرقني أن لا ضجيع ألاعبه
ألاعبه طوراً وطوراً كأنما ... بدا قمراً في ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه ... لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شيء غيره ... لنقض من هذا السرير جوانبه
ولكنني أخشى رقيباً موكلاً ... بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه(٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ عزموا: بمعنى «قصدوا» ولهذا عُديَ بنفسه، أي: وإن قصدوا بعزيمة تامة طلاق زوجاتهم اللاتي مضى على إيلائهم منهن أربعة أشهر.

وفي هذا دلالة على أنه لا يقع الطلاق بمجرد مضي أربعة أشهر على الإيلاء.

عن ابن عمر ﵄ قال: «إذا آلى الرجل من امرأته، لم يقع عليه طلاق، وإن مضت

---

(١) ذكر هذا كله ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٩٤). وقال: «وقد روي هذا من طرق، وهو من المشهورات». وقد أخرج بعض هذا عبدالرزاق في «مصنفه» (٧/ ١٥١- ١٥٢ رقم١٢٥٩٣ و١٢٥٩٤)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٢١٠ رقم٢٤٦٣)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ٥١ رقم١٧٨٥٠).

(٢) انظر «محاسن التأويل» (٢/ ١٣٣).

أربعة أشهر، حتى يوقف، فإما أن يطلق، وإما أن يفيء»(١).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ أي: فإن الله عز وجل ذو سمع تام يسع جميع الأصوات.

وذو علم وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

سميع لما يقولون من الإيلاء والطلاق وغير ذلك، عليم بما يفعلون، وما يعزمون عليه في نفوسهم، وغير ذلك.

وفي وصفه عز وجل بهذين الوصفين «سميع» «عليم» مقترنين زيادة كمال إلى كماله عز وجل.

وختم الآية: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ لأن الطلاق لفظ يسمع ومعنى يقصد، وفي ذلك إشارة إلى ما يشبه التخويف والتحذير، وذلك لعظم أمر الطلاق وبغضه عند الله- عز وجل- ولوجوب مراعاة أحكامه، والإشارة إلى أنه خلاف الأولى.

ونجد الفرق بين هذا، وبين ختام الآية السابقة: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالفيء: الرجوع إلى جماع الزوجة، وإلى ما كان عليه الحال قبل الإيلاء، وهو أمر محبوب عند الله- عز وجل- ولهذا وعد بعده بالمغفرة والرحمة.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الإيلاء من الزوجة، فيما دون أربعة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾. وقد آلى ﷺ من نسائه شهراً.

قال ابن القيم(٢): «جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر؛ لأن الزوج يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارض، من سفر، أو تأديب، أو راحة نفس، أو اشتغال بمهم، ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً بأربعة أشهر مرة».

٢- ثبوت حكم الإيلاء في حق الزوجات، مدخولاً بهن، أو غير مدخولٍ بهن، دون

---

(١) أخرجه البخاري في «الطلاق» (٥٢٩١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٠٦).

ملك اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾.

٣- أن الإيلاء لا يجوز أكثر من أربعة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾.

٤- إذا آلى الرجل من زوجته مطلقاً، أو أكثر من أربعة أشهر انتظر أربعة أشهر، منذ وقع الإيلاء، فإما أن يفيء، ويرجع إلى جماع زوجته، وإما أن يطلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

ويجبر على ذلك، إذا هي طالبته بذلك، فإن أبى فسخها الحاكم منه، أو طلقها عليه.

٥- إذا كان الإيلاء أقل من أربعة أشهر فعلى الزوجة أن تصبر، وليس لها مطالبته وإلزامه، لا بالفيء ولا بالطلاق، ويستحب للزوج أن يفيء ويكفر عن يمينه، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه.

٦- أن وطء الرجل لزوجته- كما أنه من حقوقه عليها- هو أيضاً من حقوقها عليه؛ لهذا يجب عليه وطؤها وإعفافها، ولا يجوز تركها مدة طويلة- مع حاجتها إلى ذلك- ما لم تأذن لزوجها بذلك، فالحق لها.

٧- رعاية الإسلام لحقوق النساء، ودفع ظلم الأزواج عنهن، وفي ذلك حفظ لهم، ولهن من الظلم.

٨- أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي أربعة أشهر على الإيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾.

وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو الصحيح. وقيل: يقع بمجرد مضي أربعة أشهر تطليقة واحدة.

٩- الترغيب في الفيء، والرجوع إلى جماع الزوجات؛ لترتيب مغفرة الله- عز وجل- ورحمته على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٠- إثبات صفة المغفرة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والرحمة سبب المغفرة.

١١- في اقتران صفة المغفرة والرحمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال، وباجتماعهما في حق عباده كمال نعمته عليهم؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب، كما أن في تقديم المغفرة على الرحمة إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

١٢- إثبات صفة السمع لله- عز وجل- وأنه- عز وجل- ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وإثبات صفة العلم الواسع له- عز وجل- وأنه ذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٣- في اقتران هاتين الصفتين: «سميع»، «عليم». زيادة كمال علمه عز وجل وإحاطته إلى كمال.

١٤- في ختام الآية ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. تحذير من التهاون في أمر الطلاق، وإشارة لعظم أمره، ووجوب مراعاة أحكامه، وكراهته، وأنه خلاف الأولى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ﵂ «أنها طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله- عز وجل- حين طلقت أسماء بالعدة للطلاق، فكانت أول من أنزلت فيها العدة للمطلقات»(١).

قوله: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ الواو: عاطفة، و«المطلقات»: جمع مطلقة، أي: اللاتي طلقهن أزواجهن.

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: خبر بمعنى الأمر، أي: عليهن أن ينتظرن بأنفسهن بعد طلاقهن ويصبرن عن الزواج.

وفي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ إشارة إلى شدة حاجة المرأة إلى الزواج، وقوة الداعي فيها إليه، فهي تُرَوِّض نفسها وتصبرها في هذه الحال.

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ القروء: جمع قرء، بفتح القاف، وبضمها، وهو: الحيض، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ [الطلاق: ٤]. فرتب العدة بالأشهر على عدم الحيض، مما يدل على أن أصل العدة بالحِيَض، والأشهر بدل منها.

وفي حديث عائشة ﵂ قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني امرأة استحاض، فلا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا، إنما ذلك عرق، وليس بحيض، فإذا أقبلت حيضتك، فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم، ثم صلي**»(٢).

---

(١) أخرجه أبوداود في الطلاق- عدة المطلقة (٢٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٨)، ومسلم في الحيض (٣٣٣)، وأبوداود في الطهارة (٢٨٢)، والنسائي في الحيض (٣٥٩)، والترمذي في الطهارة (١٢٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٢١).

وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، منهم بضعة عشر من الصحابة، منهم الخلفاء الأربعة وغيرهم(١).

وهو الصحيح؛ لأن الحيض هو الذي يدل على براءة الرحم، وخلوه من الحمل.

وإليه ذهب أبوحنيفة(٢)، وأحمد في أصح الروايتين عنه. وقال: «الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض»(٣).

وعلى هذا، فإذا طهرت المطلقة من الحيضة الثالثة، انتهت عدتها، وجاز لها الزواج.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن المراد بالقرء الطهر، وهو قول عائشة ﵂، وابن عمر ﵄، ورُوي عن ابن عباس وزيد بن ثابت ﵃، وجمع من التابعين، والفقهاء بعدهم(٤)، منهم مالك(٥) والشافعي(٦).

واستُشهد لهذا بقول الأعشى يمدح أحد أمراء العرب:

ففي كل عام أنت جاشم غزوة ... تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالاً وفي الحي رفعة ... لما ضاع فيها من قروء نسائكا

أي: أنه آثر الغزو على المقام، حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه، لم يجامعهن فيها(٧).

وعلى هذا فإذا دخلت المطلقة في الحيضة الثالثة فقد انتهت عدتها.

وذهب بعض أهل العلم من أهل اللغة وغيرهم إلى أن القُرء يطلق على الوقت لمجيء الشيء المعتاد أو إدباره، فيطلق على الحيض وعلى الطهر(٨)، لكن على هذا يبقى

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٤/ ٨٧- ٩٥)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤١٥)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣٤- ٣٥)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٧).

(٢) انظر: «مختصر الطحاوي» (ص٢١٧)، «شرح معاني الآثار» (٣/ ٦٤)، «فتح القدير» لابن الهمام (٤/ ٣٠٨- ٣٠٩)، «تبيين الحقائق» (٣/ ٢٦)، «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٥٠٥).

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية النيسابوري (١/ ٢٤٥)، «المسائل الفقهية» لأبي يعلى (٢/ ٢٠٩)، «الإفصاح» لابن هبيرة (٢/ ١٧٣)، «المغني» (٧/ ٤٥٢- ٤٥٣)، «زاد المعاد» (٥/ ٦٠١).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٤/ ٩٥- ١٠٠)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤١٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٦- ٣٩٧).

(٥) انظر: «المدونة» (٢/ ٤١٩)، «الموطأ» ص(٣٩٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ١٨٤).

(٦) انظر: «الأم» (٥/ ٢٠٩- ٢١٠)، «المهذب» (٢/ ١٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٧).

(٧) انظر: «ديوان الأعشى» ص(٩١)، «لسان العرب» مادة «قرأ»، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٧).

(٨) انظر: «جامع البيان» (٤/ ١٠١)، «لسان العرب» مادة «قرأ»، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٨).

الخلاف في المراد به في الآية.

ويستثنى من هذا الأَمَة، فعدتها قُرْآن فقط، أي: حيضتان، لما رُوي عن عمر وغيره من الصحابة ﷺ قال: «عدة الأمة حيضتان»(١).

ولأن الأَمَة على النصف من الحرة، والقُرء لا يتبعض، فَكُمِّل لها قُرْآن.

وقد جعل الله- عز وجل- العدة على المطلقة- لحكم عظيمة، منها: تعظيم حق الزوج، وإتاحة الفرصة له لمراجعتها، والتأمل في حاله، إذا كان الطلاق رجعيًّا، كما قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وفي هذا مراعاة حق الزوجين ومصلحتهما معاً.

ومنها: التأكد من براءة الرحم، وخلوه من الحمل؛ لئلا تختلط المياه، إذا تزوجت بعد الطلاق مباشرة.

ومنها: تعظيم أمر عقد النكاح، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

وقال ﷺ: «**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»(٢).

قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: ولا يجوز للمطلقات أن يخفين الذي أوجده الله من حمل أو حيض في أرحامهن؛ لأجل الاستعجال في انقضاء العدة أو إطالتها، ونحو ذلك، وذلك لما يترتب على الكتمان من محاذير شرعية عظيمة.

والأرحام: جمع رحم وهو موضع تَكَوُّن الجنين.

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: إن كن يصدقن بالله واليوم الآخر، وفي هذا تخويف وتحذير لهن من الكتمان.

والإيمان بالله: هو الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، وشرعه.

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٤٣)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٦).

(٢) سيأتي تخريجه.

والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال. وسمي يوم القيامة باليوم الآخر؛ لأنه آخر الأيام، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة، ولا يوم بعده.

وكثيراً ما يقرن الله- عز وجل- بين الإيمان به واليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل الناس على مراقبة الله عز وجل.

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية: «ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، وتتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن، وتوعدن فيه، لئلا تخبر بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها؛ لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك، من غير زيادة ولا نقصان».

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ «بعولة»: جمع بعل، وهو: الزوج، كما قال الله- عز وجل- عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]. أي: زوجي.

أي: وأزواجهن ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: أحق وأولى برجعتهن منهن ومن أوليائهن وغيرهم، فكما أن الطلاق بأيدي الأزواج، فكذلك الرجعة بأيديهم.

وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ يقتضي أنهن أزواج بعد الطلاق الرجعي.

﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى التربص المفهوم من قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ أي: في مدة التربص ثلاثة قروء.

والمعنى: وأزواجهن أحق بإرجاعهن، إذا رغبوا في ذلك، مادمن في العدة، وقوله: ﴿أَحَقُّ﴾ اسم تفضيل، أي: أزواجهن أحق بردهن من أنفسهن.

﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ «إن»: شرطية، و«أرادوا»: فعل الشرط، وجوابه يدل عليه ما سبق، أي: إن أرادوا إصلاحاً فهم أحق بردهن، والمعنى: وأزواجهن أحق وأولى برجعتهن إن أرادوا إصلاحاً لما بينهم وبينهن، وائتلافاً.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٣٩٨).

ويفهم من هذا أنهم إن لم يريدوا الإصلاح، بل أرادوا المضارة، وتطويل العدة عليهن، ونحو ذلك، فليسوا أحق بردهن، ولا تجوز لهم مراجعتهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

كما يجب أيضاً على الزوجات في هذه الحال إرادة الإصلاح، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ﴾ [الآية: ٣٥].

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ أي: وللزوجات على أزواجهن، قبل الطلاق وبعده، مادمن رجعيات، من الحقوق، وحسن العشرة مثل الذي لهم عليهن من ذلك ﴿بِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾ أي: بما هو معروف شرعاً وعرفاً، لكل من الزوجين على الآخر.

فلهن عليهم تحصينهن بوطئهن، والإنفاق عليهن، وكسوتهن، وإسكانهن، وتعليمهن، ونحو ذلك.

ولهم عليهن طاعتهم بالمعروف، وتمكينهم من وطئهن، وحفظ أنفسهن، وأولادهم وأموالهم، وبيوتهم، ونحو ذلك.

قال ابن القيم(١): «فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها، فهو حق لها على الزوج، بنص القرآن، وأيضاً فإنه سبحانه أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابة، شهوتها تعدل شهوة الرجل، أو تزيد عليها، بأضعاف مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة، ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه رداً عليه. والله- سبحانه وتعالى- إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه، لا غيره، فقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]».

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً**

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٠٥).

تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(١).

وعن معاوية القشيري عن أبيه عن جده أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت،ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**»(٢).

وهذه الحقوق على الزوجين لكل منهما على الآخر تشمل جميع حقوق المعاشرة بالمعروف قولاً وفعلاً وبذلاً وخلقاً، وغير ذلك.

قال ابن عباس ﷺ: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»(٣).

وقدَّم- في الذكر- حق النساء، فقال: ﴿وَلَهُنَّ﴾- والله أعلم- تأكيداً لذلك، ولئلا يعتقد الرجال أن جعل القوامة فيهم، كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية: ٣٤]، يبرر لهم التساهل في حقوقهن عليهم، بل إن القوامة من أعظم حقوقهن عليهم.

وقدّم حقهن أيضاً؛ لأن المرأة أسيرة عند الرجل، مهيضة الجناح، فلا يجوز التهاون في حقها، كما قال ﷺ: «**فاتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً**»(٤).

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف بين الناس، من حقوق الزوجات على أزواجهن، مع مراعاة اختلاف طبقات النساء، فلكل امرأة من الحقوق ما لأمثالها من النساء، حسب يسر زوجها وعسره، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأخرجه من حديث أبي حرة الرقاشي أبوداود في المناسك (١٩٠٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤).

(٢) أخرجه أبوداود في النكاح (٢١٤٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ١٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤١٧).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢، ٧٣)، من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه ﷺ.

رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ لما ذكر- عز وجل- أن للنساء مثل الذي عليهن بالمعروف أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ احترازاً من أن يظن مساواة النساء للرجال مطلقاً.

ومعنى ﴿دَرَجَةٌ﴾ أي: زيادة في الفضيلة.

فلهم فضل عليهن في العقل والدين؛ لأنهم أكمل عقولاً وديناً منهن من حيث العموم.

قال ﷺ: «**ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»، فسُئِل ﷺ عن نقص دينهن؟ فقال: «**أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم**»، وسُئِل عن نقص عقولهن؟ فقال: «**جُعِلت شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل**»(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولهم فضل عليهن في خَلْقِهم، وخُلُقهم، فهم أشد خَلْقاً، وأقوى أجساماً منهن، وهم أقدر منهن على الصبر والتحمل، ورباطة الجأش، والإمساك بزمام العاطفة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

ولهم فضل عليهن في كون النبوة فيهم والقضاء والإمامة الصغرى والكبرى، ولهذا قال ﷺ: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»(٢).

ولهم فضل عليهن في الميراث، فميراث الرجل بقدر ميراث امرأتين، قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١].

ولهم فضل عليهن بشهود الجُمَع والجماعات وانعقادها بهم دونهن، وفي الجهاد.

ولهم فضل عليهن بقوامتهم عليهن، وإنفاقهم عليهن، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٨)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٢)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

ولهم فضل عليهن في الحقوق بوجوب طاعتهن لهم، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال ﷺ: «**إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها؛ قيل لها: ادخلي الجنة، من أي أبواب الجنة شئت**»(١).

وليس على الرجال طاعة النساء، وإنما عليهم أداء حقوقهن.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ له العزة التامة بأنواعها الثلاثة.

﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ له الحكم التام بأقسامه الثلاثة، وله الحكمة البالغة، بقسميها.

حكيم في خلقه وأمره وشرعه، يضع الأمور مواضعها.

وكثيراً ما يقرن عز وجل في وصف نفسه بين هذين الوصفين؛ لأن باجتماعهما في حقه- عز وجل- زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال، فعزته- عز وجل- مقرونة بالحكمة، وحكمه مقرون بالعزة. بخلاف المخلوق الضعيف فعزته- إن عز- مقرونة غالباً بالغشم والجهل، وحكمه قد يقترن بالضعف.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الطلاق، وهو مكروه لله عز وجل؛ لحديث: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(٢).

ولأنه أمر محبوب للشيطان، كما في حديث بعث الشيطان سراياه: «**فيأتي أحدهم، فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت**»(٣).

وكل أمر محبوب للشيطان، ومن تزيينه، فهو مكروه عند الله عز وجل.

٢- وجوب اعتداد المطلقات وانتظارهن عن الزواج، ثلاث حيض، لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩١)، من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢١٧٨)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠١٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٣)، من حديث جابر رضي الله عنه.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾.

ويستثنى من هذا: النساء اليائسات من الحيض، واللاتي لم يحضن لصغرهن، فعدتهن ثلاثة أشهر، وكذا الحوامل عدتهن وضع حملهن؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾ [الطلاق: ٤].

ويستثنى من ذلك المطلقة قبل الدخول والخلوة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

كما أن عدة الأمة حيضتان لما ثبت عن عمر رضي الله عنه[1] وغيره من الصحابة.

٣- شدة حاجة النساء إلى الزواج، وقوة الداعي عندهن إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: يُصَبِّرن أنفسهن ويحبسنها، عن الزواج وإن كان الداعي إليه قويًّا، والحاجة إليه شديدة.

٤- تحريم كتمان المطلقات ما خلق الله في أرحامهن من الحمل، أو الحيض، ووجوب إظهاره وبيانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾.

٥- أن المرجع في هذا الأمر هي المرأة؛ لأنه لا يعرف إلا من جهتها، وخبرها مقبول في مثل هذا، فعليها بيان الحق، وعدم كتمانه.

٦- وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾. وأن من شرط الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا تكتم المطلقة ما خلق الله في رحمها.

٧- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل على مراقبة الله؛ لهذا كثيراً ما يقرن- عز وجل- بين الإيمان به واليوم الآخر.

٨- أن المطلقة الرجعية في حكم الزوجة، لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ فسماهم بعولة لهن بعد طلاقهم لهن مما يدل على أن الزوجية ما زالت باقية.

---

(١) سبق تخريجه.

٩- أن الأزواج أحق بمراجعة مطلقاتهم الرجعيات، مادمن في العدة، وليس لهن الاعتراض على ذلك ولا الإلزام به، فإذا انتهت العدة فلا رجعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾.

بخلاف البائن فلا رجعة لزوجها عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. أي: فإن طلقها الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، ولقوله تعالى في المطلقة قبل الدخول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ [الأحزاب: ٤٩]. وذلك لأن الطلاق قبل الدخول بائن.

١٠- يجب أن يكون قصد من يراجع مطلقته الإصلاح، لا المضارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ﴾، فإن لم يرد الإصلاح، بل قصد المضارة لها، وإطالة عدتها، حرم عليه مراجعتها، لأنه ليس له الحق بمراجعتها بهذا القصد.

١١- أن للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن، من العشرة بالمعروف، والنفقة، والسكنى والجماع، وغير ذلك من الحقوق بين الزوجين، حسب المعروف شرعاً وعرفاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾.

ومن أعظم حقوق الزوجين على الآخر - والذي لا يهتم به كثير من الأزواج - أن يسعى كل منهما ما استطاع لإعفاء الآخر؛ بظهور كل منهما أمام الآخر بأجمل صورة، وأزكى رائحة، وأكرم خلق، حتى ترى الزوجة في زوجها جمال يوسف عليه السلام، ويرى فيها جمال العنقاء، فلا هي ترى أجمل منه، ولا هو يرى أجمل منها، ويكتفى كل منهما ويقنع الآخر، ويسلم كل منهما من النظر هنا وهناك. أما أن تأتي الزوجة إلى زوجها بلباس المطبخ، ويأتي إليها بلباس السفر أو لباس الورشة فهذا لا ينبغي، وهو تقصير من كل منهما في حق صاحبه، ومؤذن بنفور كل منهما من الآخر. و«على نفسها جنت براقش»(١).

---

(١) براقش: اسم كلبة نبحت ليلًا، فدلت على أهلها خيلًا مغيرة. وهو مثل يضرب لمن لقي شرًّا وآفته من نفسه. انظر: «الأمثال» للهاشمي (١/ ١٧٠)، وانظر: «الحيوان» (٢/ ٢٦٨)، «محاضرات الأدباء» (٢/ ٧٠٣).

١٢- وجوب العناية بأداء حقوق الزوجات، وعدم التهاون فيها؛ ولهذا قدم حقهن فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾.

١٣- فضل الرجال وزيادة حقهم على النساء من حيث العموم؛ لما خصهم الله به من تمام العقل والدين، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

١٤- الإشارة إلى أن الرجال إنما فضلوا على النساء بسبب رجولتهم، والتي قوامها تعظيم الخالق- عز وجل- والقيام بحقوقه، وحقوق من تحت ولايتهم من النساء وغيرهن، كما قال عز وجل: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وقال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(١).

وفي هذا إشارة إلى أنهم إنما أعطوا ما بقي بعد الفرائض لرجولتهم التي بسببها تحملوا كثيراً من المسؤوليات والنفقات.

١٥- إثبات صفة العزة التامة- لله عز وجل؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾.

١٦- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

سبب النزول:

عن عروة بن الزبير، قال: «كان الرجل أحق برجعة امرأته- وإن طلقها ما شاء، مادامت في العدة، وإن رجلاً من الأنصار غضب على امرأته، فقال: لا أؤويك ولا أفارقك. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله- عز وجل: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ قال: فاستقبل الناس الطلاق، من كان طلق، ومن لم يكن طلق»(١).

قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الطلاق: فك وحل قيد النكاح، وسمي طلاقاً؛ لأن الزوجة قبله في قيد النكاح، الذي هو في يد الزوج، كما قال تعالى: ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ولهذا سمى عز وجل زوج امرأة العزيز سيدها، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يوسف: ٢٥].

وقال ﷺ: «**ألا فاتقوا الله- عز وجل- بالنساء، فإنهن عندكم عوان**»(٢) وفي رواية:

---

(١) أخرجه مالك في الطلاق- جامع الطلاق (٢/ ٥٨٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٦٠)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ١٢٥، ١٢٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤١٨)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٣٣٣).

وأخرجه الترمذي في الطلاق (١١٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٧٩)، من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها. والأصح وقفه على عروة- كما قال البخاري والترمذي. انظر: «علل الترمذي الكبير» (١/ ٤٧٠- رقم ١٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

«**ألا فاستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم**»(١)، أي: أسيرات.

ومعنى قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: الطلاق الذي تمكن فيه الرجعة مادامت المطلقة في العدة.

﴿مَرَّتَانِ﴾ أي: طلقتان، بأن يطلق مرة، ثم يراجع، ثم يطلق مرة، ثم يراجع، وهو طلاق السنة، وهو كاف لمراجعة المطلِّق أمره في هذه المدة.

وقد كانوا في الجاهلية، بل وفي أول الإسلام يطلق الرجل امرأته ما شاء، وهو أحق برجعتها ما دامت في العدة، ولو طلقها مائة طلقة، فأبطل الله ذلك؛ لما فيه من الضرر على الزوجات، وبيَّن أن الطلاق الذي تمكن فيه الرجعة الطلقة والطلقتان فقط.

﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: فعليكم إذا طلقتم النساء إمساك ﴿بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

أي: إمساك لهن بمراجعتهن ما دمن في العدة ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: بما عرف في الشرع، وعند الناس من حسن العشرة، قولاً وفعلاً وبذلاً.

وقدّم الإمساك بمعروف؛ لأنه أحب إلى الله- عز وجل- لما فيه من استمرار الحياة الزوجية، وذلك خير من الفراق.

﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ التسريح: الإرسال والإطلاق للشيء، وتخلية سبيله، والمعنى: أو إطلاق لهن بإحسان، وذلك بتركهن حتى تنقضي عدتهن، وتخلية سبيلهن، وإعطائهن ما لهن من حقوق، وتمتيعهن، جبراً لخواطرهن، وتطييباً لقلوبهن، وتخفيفاً لمرارة الفراق عليهن.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ

---

(١) أخرجها الترمذي في الرضاع (١١٦٣)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥١)، من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وأمر عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لأزواجه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، لما أمر في الآية السابقة بالإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان أتبع ذلك ببيان أن من التسريح بإحسان أن لا يأخذوا مما أعطوهن شيئاً.

أي: ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا من الذي أعطيتموهن من المهور والنفقات والهدايا وسائر الأعطيات ﴿شَيْئًا﴾.

و«شيئاً»: نكرة في سياق النفي تعم أي شيء.

أي: لا يحل لكم أن تأخذوا مما أعطيتموهن أيّ شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩].

لكن لو أعطت المرأة زوجها شيئاً مما دفعه إليها عن طيب نفس منها حل له أخذه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ «إلا» أداة استثناء.

قرأ أبوجعفر ويعقوب وحمزة بضم الياء: «يُخافا» بالبناء للمفعول، أي: إلا أن يخاف الحاكم والقاضي، أو أهل الزوجين أو من علم حالهما من المسلمين ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

وقرأ الباقون بفتح الياء ﴿يَخَافَا﴾ بالبناء للفاعل، أي: إلا أن يخاف الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

والخوف: توقع حصول أمر مكروه؛ لأمارة معلومة أو مظنونة.

والمعنى على القراءة الأولى: إلا أن يُخاف أن لا يقيم الزوجان حدود الله فيما بينهما.

والمعنى على القراءة الثانية: إلا أن يخاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله- فيما بينهما،

وهي ما يجب على كل منهما من حقوق تجاه الآخر.

و﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ في الأصل تعم جميع أوامر الله- عز وجل- ونواهيه، وسميت أوامر الله- عز وجل- ونواهيه «حدوداً» لوجوب القيام بأوامره- عز وجل- وعدم جواز تجاوزها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ولوجوب ترك نواهيه، وعدم قربها، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ تصريح بمفهوم الجملة السابقة؛ لتأكيد عدم جواز أخذ الرجل شيئاً مما أعطاه لزوجته، إلا في حال الخوف من عدم إقامة حدود الله فيما بينهما.

والخطاب في قوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لحكام المسلمين وقضاتهم، وأهل الزوجين، ومن علم حالهما من المسلمين، ممن يمكنه الإصلاح بينهما.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلا حرج ولا إثم عليهما، أي: على الزوجين.

﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: في الذي افتدت به نفسها منه، برد بعض ما أعطاها إليه، أو كله، أو أكثر منه؛ أي: فلا حرج عليها في طلب الطلاق والخلع، وبذل الفداء في هذه الحال، ولا حرج عليه في قبول ذلك وأخذه.

والفدية والفداء: مال أو عرض يدفع مقابل الخلاص.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**أتردين عليه حديقته**»؟ قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «**اقبل الحديقة، وطلقها تطليقه**»(١).

وفي بعض الروايات أنها قالت: «لا أطيقه بغضاً. فقال لها النبي ﷺ: «**أتردين عليه حديقته**»؟ قالت: نعم. فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٣)، والنسائي في الطلاق (٣٤٦٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٥٦).

(٢) جاء هذا في رواية ابن ماجه، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٠٣) من رواية ابن مردويه وابن ماجه، قال ابن كثير: «وهذا إسناد مستقيم».

هذا فيما إذا خافا ألا يقيما حدود الله بينهما، كما في قصة امرأة ثابت بن قيس ﵄ حيث وصلت بها كراهتها له إلى حالة تحول بينها وبين القيام بحقه، فيجوز للمرأة في مثل هذه الحال أن تفدي نفسها منه، وله أخذ ذلك.

ومفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾: أنه إذا لم يخافا ألا يقيما حدود الله فيما بينهما، فلا يجوز لها أن تفتدي نفسها منه، ولا يجوز له قبول ذلك وأخذه.

ولهذا قال ﷺ: «**أيما امرأة سألت زوجها الطلاق، من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة**»(١).

وفي تسميته «فدية»: دلالة على حصول البينونة في الخلع؛ لأن المرأة تفدي نفسها بما تبذله من مال.

﴿تِلْكَ﴾ الإشارة لما سبق من الأحكام الشرعية في الطلاق والخلع وغيرهما.

﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ حدود جمع «حد»، وهو الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض ومراسيمها، وهي ما يفصل بعضها عن بعض.

و﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: أحكامه وشرائعه، وهي تنقسم إلى قسمين: حدود أوامر وواجبات، سميت حدوداً؛ لأنه يجب القيام بها، ولا يجوز تجاوزها ولا تعديها، كما قال تعالى هنا: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

والقسم الثاني: حدود نواهٍ ومحرمات، وسميت حدوداً؛ لأنه يجب تركها، وعدم قربها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

(١) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢٢٢٦)، والترمذي في الطلاق واللعان (١١٨٧)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٥٥)، وأحمد (٥/ ٢٧٧)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ١٥١)، من حديث ثوبان ﵁.

وفي تسميتها حدود الله- تعظيم لها، وتحذير من مخالفتها.

﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: أقيموها، ولا تتجاوزوها.

عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله حدّ حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها**»(١).

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: ومن يتجاوز ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: أوامره، ويرتكب نواهيه.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، وأكد الظلم فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم». أي: فأولئك الذين بلغوا الغاية في الظلم؛ ظلم أنفسهم وزوجاتهم، وغير ذلك، واقتحموا الحرام، ولم يسعهم الحلال.

والظلم في الأصل: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

وهو أيضاً وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وأظلم الظلم: الشرك، كما قال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهو قسمان:

١- ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه بالذنوب والمعاصي، وأعظم ذلك الشرك بالله.

٢- ظلم الغير بالاعتداء على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وغير ذلك، وهو أيضاً من ظلم النفس.

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن

---

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٩٧ - ٢٩٨)، وأبونعيم في الحلية (٩/ ١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١١٥)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١٣)، وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٥٢).

وقد أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٤، والبيهقي (١٠/ ١٢)- موقوفاً على أبي ثعلبة رضي الله عنه.

يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: طلقة ثالثة، بعد أن طلقها مرتين.

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: فلا تحل له من بعد الطلقة الثالثة.

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: حتى تتزوج زوجاً غيره، ويطأها بعقد صحيح، لما روته عائشة رضي الله عنها: أن رفاعة القرظي طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت بعده عبدالرحمن بن الزَّبير، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن رفاعة طلقني، فبَتَّ طلاقي، وتزوجت بعده عبدالرحمن بن الزَّبِير، ولم يكن معه إلا مثل هُدْبَةِ الثوب، وقالت بثوبها، فقال لها النبي ﷺ: «**أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟! لا، حتى تذوقي عُسَيْلَتَهُ، ويذوق عُسَيْلَتَكِ**»(١).

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا إن العسيلة الجماع**»(٢).

وفي اشتراط حلها لزوجها الأول بعد الطلقة الثالثة أن يعقد عليها زوج آخر ويطأها ردع للأزواج وتحذير للمطلق وتنفير له من إيقاع الطلقة الثالثة، ونوع من العقوبة له؛ لأن الرجل قد ينفر من اقتران زوجته بغيره، حتى لو كان لا يرغب مراجعتها، فكيف إذا كان يرغب في ذلك.

كما يشترط أن يكون النكاح الثاني نكاح رغبة، فإن كان قصد الزوج الثاني مجرد تحليلها للزوج الأول لم يصح ذلك؛ لبطلان النكاح؛ للحديث: «**لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٣٩)، وفي الطلاق (٥٢٦٠)، ومسلم في النكاح (١٤٣٣)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٣)، والترمذي في النكاح (١١١٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٢)، وأحمد (٦/ ٣٧).

(٢) أخرجها أحمد (٦/ ٦٢).

(٣) أخرجه النسائي في الطلاق (٣٤١٦)، والترمذي في النكاح (١١٢٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
وأخرجه الترمذي في النكاح (١١١٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٥)، من حديث علي رضي الله عنه.
وأخرجه ابن ماجه في النكاح (١٩٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه ابن ماجه أيضاً (١٩٣٦)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بالتيس المستعار**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له**».

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوج الثاني، أو خالعها، أو مات عنها، وانقضت عدتها منه.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي: فلا حرج ولا إثم على الزوج الأول وزوجته ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي: أن يرجع كل منهما إلى الآخر بعقد جديد.

واختلف هل تعود إلى زوجها الأول بما بقي من الطلقات، أو بالطلقات الثلاث كلها.

﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن غلب على ظنهما أنهما سيقيمان حدود الله فيما بينهما بحسن معاشرة كل منهما الآخر، وأداء حقه بالمعروف- وهذا شرط في تراجعهما.

ومفهوم هذا أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله فيما بينهما لم يجز أن يتراجعا.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، والإشارة إلى ما سبق من أحكام النكاح والطلاق، وغير ذلك، وأشار إليها بإشارة البعيد تعظيماً لها، وسماها حدوداً؛ لأنه لا يجوز تجاوزها ولا تعديها.

﴿يُبَيِّنُهَا﴾ أي يفصِّلها ويوضحها بما أنزل من الوحي في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم يعلمون العلم النافع الذي يهتدون به إلى العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، فأعظم العلوم وأجلّها وأعلاها: علم معرفة الله- عز وجل- وعبادته كما شرع، والمسارعة والمسابقة إلى ذلك. وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وبقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

أما من كان علمه دون ذلك سواء كان علماً دينياً، أو علماً دنيويًّا فلا يوصف

بوصف العلم على إطلاقه، لكن كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، وما أكثر هؤلاء حتى بين المنتسبين للعلوم الشرعية.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الطلاق؛ لقوله تعالى ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾، وقد دل الكتاب على هذا في مواضع كثيرة، ودلت عليه السنة وإجماع الأمة، وهو أبغض الحلال إلى الله.

٢- أن الطلاق الذي تمكن معه الرجعة طلقتان فقط، بأن يطلق ثم يراجع، ثم يطلق ثم يراجع؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾.

وفي هذا إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من كون الرجل يطلق امرأته ما شاء من الطلقات، ثم إذا قاربت انتهاء عدتها راجعها، ثم طلقها- وهكذا- فتبقى معلقة، لا هي مطلقة، ولا هي ذات زوج.

٣- الحكمة العظيمة في جعل الطلاق مرتين، واحدة بعد واحدة ليراجع المرء نفسه ويتأمل في حاله ومصلحته، وذلك من رحمة الله عز وجل.

٤- يجب على الرجل إذا طلق زوجته الطلقة الأولى أو الثانية أحد أمرين: إما مراجعتها قبل انتهاء عدتها، وإمساكها ومعاشرتها بالمعروف، أو تركها حتى تنتهي عدتها، وتسريحها بإحسان، بإعطائها مالها من حقوق، وتمتيعها من غير مضارة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾.

٥- تحريم أخذ الأزواج شيئاً مما أعطوه لزوجاتهم من مهر أو غيره مهما قل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

ويستثنى من هذا إذا طلق الرجل امرأته قبل الدخول، فله أخذ نصف المهر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

لكن لو أعطت المرأة زوجها شيئاً من مالها بطيب نفس منها جاز له أخذه؛ لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [الآية: ٤].

٦- الإشارة إلى مسؤولية الأمة عن إصلاح ما يقع بين الأزواج، بما في ذلك حكام المسلمين، وأهل الزوجين، ومن علم حالهما من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

٧- جواز أخذ الزوج شيئاً مما أعطاه لزوجته، وجواز افتدائها نفسها منه بذلك، إذا خافا ألا يقيما حدود الله بينهما، فتفدي نفسها ببذل بعض ما أعطاها، أو كله، أو أكثر منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

و«ما» موصولة تفيد العموم، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ أكثر مما أعطاها؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: مما أعطاها؛ ولهذا قال بعده: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

واستدلوا بما جاء في بعض روايات قصة ثابت بن قيس بن شماس مع امرأته رضي الله عنهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**أتردين عليه حديقته**»؟ قالت: نعم. فأمره أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد»(١).

ويختلف الحال فيما إذا كان الفراق بسبب الزوجة، أو بسبب الزوج، أو بسببهما معاً، فإن كان الفراق بسببها هي جاز للزوج أن يأخذ منها بالإجماع، لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) سبق تخريجه.

ولحديث ابن عباس ﷺ في قصة ثابت بن قيس مع امرأته.

وإن كان الفراق بسببه هو فلا يجوز له أن يأخذ منها شيئاً بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

فإن كان سبب الفراق منهما معاً: فمن أهل العلم من قال: لا يجوز له الأخذ منها، ومنهم من جوز ذلك، والأظهر القول الأول.

٨- تأكيد شدة تحريم أخذ الأزواج شيئاً مما أعطوه لزوجاتهم إلا في حال الخوف ألا يقيم الزوجان حدود الله فيما بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. فهذا تصريح بمفهوم الجملة قبله الغرض منه توكيد شدة حرمته.

٩- تحريم طلب المرأة الطلاق، وفداء نفسها من غير خوف ألا يقيما حدود الله فيما بينهما؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

ولهذا قال ﷺ: «**أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة**»(١).

١٠- جواز الخلع مطلقاً بإذن السلطان، وبدونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ وهذا مطلق. وبهذا قال جهور أهل العلم، وقيل: لابد فيه من إذن السلطان.

١١- عناية التشريع الإسلامي بحقوق المرأة، ودفاعه عنها، مما لم يكن له مثيل في أي شريعة، أو دين، أو نظام.

١٢- حصول البينونة الصغرى بالخلع؛ لأن الله سماه فدية، فقال: ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ والفداء والفدية: مال أو عرض يدفع مقابل الخلاص، فإذا دفعت له هذا الفداء تخلصت منه كلية، بلا رجعة إلا بعقد جديد.

---

(١) سبق تخريجه.

١٣- أن للمرأة كامل التصرف في مالها، دون إذن زوجها أو وليها، إذا كانت حرة رشيدة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

١٤- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه، ولما شرعه من أحكام النكاح، والطلاق والرجعة، والخلع، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

فأشار عز وجل إلى أحكامه بإشارة البعيد ﴿تِلْكَ﴾ تعظيماً لها، وسماها حدوداً، ونهى عن تجاوزها.

١٥- تحريم تعدي حدود الله- عز وجل- وأنه ظلم عظيم، والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقد أكد ذلك بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾.

١٦- إباحة الطلاق الثلاث متفرقة. وهي نهاية طلاق الحر[1]؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني الثالثة- بعد التطليقتين المذكورتين في قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾.

وأما جمع الطلقات الثلاث بلفظ واحد، وبألفاظ متعددة، كأن يقول: «أنت طالق ثلاثاً»، أو يقول: «أنت طالق، طالق، طالق» ونحو ذلك، فهذا محرم وهو من طلاق البدعة، ولا يقع به إلا طلقة واحدة على الصحيح.

وقيل: تقع به الطلقات الثلاث.

١٧- إذا طلق الرجل امرأته الطلقة الثالثة بانت منه، وحرمت عليه، حتى تتزوج زوجاً غيره ويطأها بعقد صحيح، فإذا فارقها بطلاق أو موت، وانتهت عدتها حلت لزوجها الأول بعقد جديد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾.

ولقوله ﷺ لزوجة رفاعة القرظي: «**لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا، حتى**

---

(١) أما العبد فطلاقه طلقتان.

تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك». فلو تزوجها بعقد صحيح ولم يطأها، أو وطئها بعقد غير صحيح، كنكاح المحلل، أو وطئها بملك يمين لم تحل لزوجها الأول.

١٨- حكمة التشريع في اشتراط أن ينكحها ويطأها زوج آخر بعد الطلقة الثالثة؛ لما في ذلك من ردع للأزواج، وعقوبة للمطلقين ثلاثاً، وتحذير من الاستخفاف بحقوق الزوجات.

١٩- إطلاق المراجعة على عقد النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾.

٢٠- يشترط لجواز تراجع الزوجين أن يغلب على ظنهما إقامة حدود الله فيما بينهما بالعشرة بينهما بالمعروف، وأداء كل منهما حقوق الآخر، ويعزما على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

فإن لم يظنا ذلك أو ظنا خلافه لم يجز أن يتراجعا، إذ لا يجوز أن يرجعا إلى حال يعصي الله كل منهما في حق صاحبه.

والمباح إذا كان وسيلة إلى محرم يكون محرماً؛ لأن الوسائل لها أحكام الغايات.

٢١- الاكتفاء بغلبة الظن في الأمور المستقبلة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وذلك بأن يغلب على ظنهما ذلك ويعزما عليه، وقد يحصل في المستقبل ما ليس في الحسبان، ولهذا لم يطالبا بتيقن ذلك.

٢٢- ينبغي للإنسان إذا أراد أن يتحمل مسؤولية من المسؤوليات كبيرة كانت أو صغيرة أن ينظر في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك، وغلب على ظنه قدرته على القيام بها أقدم، وإلا فالعافية لا يعدلها شيء، وقد أحسن القائل:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا(١)

٢٣- توكيد عظمة حدود الله وأحكامه وشرائعه، ووجوب القيام بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) البيت لصفي الدين الحلي. انظر: «ديوانه» (ص٦٩).

٢٤- امتنان الله- عز وجل- على الخلق، ببيان وتفصيل حدوده وأحكام شرعه، وإقامة الحجة عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٥- أن الذين يتبينون حدود الله وأحكامه ويعرفونها، وينتفعون بها هم أهل العلم، أي: أهل العلم بالله، وبشرعه، وما يجب له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح.

٢٦- فضل العلم وأهله وامتداحهم، والتعريض بذم الجهل وأهله؛ لأن الله- عز وجل- جعل تبيينه لحدوده خاصاً بمن يعلمون، وأنهم المقصودون بذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية ﴿طَلَّقْتُمُ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾، والخطاب لعامة المؤمنين، أي: إذا طلقتم أيها الأزواج المؤمنون نساءكم، طلاقاً رجعيًّا، طلقة، أو طلقتين.

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فقاربن انتهاء عدتهن، وذلك بقرب انتهاء الحيضة الثالثة، إذا كن من ذوات الأقراء، أو بقرب انتهاء الشهر الثالث، إذا كن من الآيسات، أو ممن لم يحضن، أو بقرب وضع الحمل، إذا كن من ذوات الأحمال.

وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فبلغن نهاية أجلهن، وعليه فإذا طهرت من الحيضة الثالثة فله مراجعتها ما لم تغتسل، وبهذا قال جمع من الصحابة، رضي الله عنهم.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: راجعوهن وردوهن إلى عصمتكم، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: بنية المعاشرة لهن بالمعروف، والعزم على ذلك، وأشهدوا على إرجاعكم لهن، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهن بدون مراجعة، وخلوا سبيلهن من غير مضارة لهن مع إعطائهن ما لهن لديكم من حقوق، من المهور والنفقات وغيرها، وتمتيعهن.

والمعنى: إما أن تراجعوهن ونيتكم القيام بحقوقهن وهذا أولى، ولهذا قُدِّم، وإما أن تتركوهن، وتخلوا سبيلهن بلا مضارة، ولهذا قال:

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: ولا تراجعوهن، ﴿ضِرَارًا﴾: مفعول لأجله، أي: ولا تراجعوهن؛ لأجل الإضرار بهن بتطويل العدة عليهن، ونحو ذلك.

﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ اللام لام العاقبة، أي: لتكون عاقبة الضرار: الاعتداء عليهن، وتجاوز

الحلال إلى الحرام. وقيل: اللام للتعليل، أي: لأجل أن تعتدوا عليهن، وتتجاوزوا الحلال إلى الحرام.

وكانوا في الجاهلية يطلق الرجل امرأته، فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها؛ لتطول العدة عليها؛ مضارة لها، ولئلا تذهب إلى غيره.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الواو استئنافية، و«من» شرطية، و«يفعل» فعل الشرط، والإشارة لإمساك النساء بعد طلاقهن مضارة لهن، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له، وترهيباً منه.

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾: جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد».

والظلم: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وإنما كان ذلك ظلماً لنفسه؛ لأن عاقبة إمساكه لزوجته مضارة لها- كما هو اعتداء عليها- هو ظلم لنفسه، وإيقاع لها في الإثم، وتعريض لها لعذاب الله. وفي هذا تهديد له ووعيد.

وهكذا كل ظلم للغير هو ظلم للنفس من باب أولى، قال ﷺ: «**من ضار ضار الله به، ومن شاق شق الله عليه**»(١).

قال الشاعر:

لا تظلمَنَّ إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم(٢)

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: ولا تجعلوا آيات الله الشرعية وما فيها من الأحكام في النكاح والطلاق والرجعة وغير ذلك موضع استهزاء ولعب وسخرية، تستخفون بها، وتسخرون منها، وتتركون العمل بها، وتخالفونها.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد:**

---

(١) أخرجه أبوداود في القضاء (٣٦٣٥)، والترمذي في البر والصلة- ما جاء في الخيانة والغش (١٩٤٠)، وابن ماجه في الأحكام- من بنى في حقه ما يضر بجاره (٢٣٤٢)، وأحمد (٣/ ٤٥٣)، من حديث أبي صِرْمَة ﷺ.

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب ﷺ. انظر: «المستطرف» (ص١١٧).

النكاح، والطلاق، والرجعة»(١).

ولما طلق ابن عمر ﷺ امرأته وهي حائض قال ﷺ لعمر ﷺ: «**مره فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك، وإن شاء طلق، قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء**»(٢).

وعن محمود بن لبيد ﷺ قال: «أُخْبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً. فقام غضبان، ثم قال: «**أيلعب بكتاب الله، وأنا بين أظهركم**» حتى قام رجل، وقال: يا رسول الله، ألا أقتله»(٣).

وروي أن رجلاً طلق امرأته مائة طلقة، وسأل ابن عباس ﷺ عن ذلك فقال: «يكفيك منها ثلاث، والسبعة والتسعون اتخذت بها آيات الله هزواً»(٤).

وأيضاً فإن النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ قد يشمل النهي عن اتخاذ آيات الله الكونية هزواً، وذلك بعدم الاستدلال بها على عظمة الله، وكمال وحدانيته وألوهيته، وتمام قدرته، وعدم الاعتبار والاتعاظ بها.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ذكر النعمة يكون بالقلب واللسان والجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا(٥)

و«نعمة» مفرد مضاف، فيعم كل نعمة من نعم الله التي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [الرعد: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣]. وأجل هذه النعم وأعلاها نعمة الإيمان والإسلام.

وذكر نعم الله يكون بشكرها، والاعتراف بها بالألسن بالثناء على الله- عز وجل-

---

(١) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢١٩٤)، والترمذي في الطلاق (١١٨٤)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٣٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٥٢)، ومسلم في الطلاق (١٤٧١)، وأبوداود في الطلاق (٢١٧٩)، والنسائي في الطلاق (٣٣٨٩)، والترمذي في الطلاق (١١٧٦)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠١٩).

(٣) أخرجه النسائي في الطلاق (٣٤٠١).

(٤) ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (١/ ٢٠٠).

(٥) البيت ينسب لبشر، كما في «المفضليات» (ص٣٤٤)، وهو في «ربيع الأبرار» (٥/ ٢٧٧) بلا نسبة.

وحمده؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وباستعمال الجوارح في طاعة الله- عز وجل- والبعد عن معصيته، وأن يُرى أثر نعمة الله عليه؛ كما قال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(١).

﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ معطوف على «نعمة الله»، من عطف الخاص على العام؛ لأن نعمة إنزال الكتاب والحكمة أعظم نعمة.

و«ما» موصولة، أي:- والذي أنزله عليكم من الكتاب- يعني: القرآن.

﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

ومن الحكمة التي أنزلها الله: أسرار الشريعة، وتعليل الأحكام، فما أنزله الله- عز وجل- من الوحي في الكتاب والسنة، وما شرعه من الأحكام كل ذلك لحكمة، مما يدعو إلى الإيمان ويزيده.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يعظكم به، أي: يذكركم بما أنزل عليكم من الكتاب والسنة؛ لتتذكروا وتعتبروا وتنتفعوا بذلك بسلوك الطريق المستقيم.

والموعظة: ذكر الأحكام والأوامر والنواهي مقرونة ببيان الحكمة، والترغيب والترهيب، أو بأحدهما، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة.

وكل ما أنزل الله- عز وجل- من القرآن هو مما يعظ الله به عباده، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ وقال الترمذي: «حديث حسن».

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: واعلموا أن الله ذو علم تام واسع محيط بكل شيء من أقوالكم وأعمالكم وأحوالكم، وغير ذلك، وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على الخبر ﴿عَلِيمٞ﴾ لتوكيد إحاطة علمه- عز وجل- وشموله لكل شيء.

و﴿عَلِيمٞ﴾ على وزن «فعيل»، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على سعة علمه- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

فعلم الله- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل وجودها، وبعد وجودها، وبعد عدمها.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه، إدراكاً تامًّا جازماً.

وفي الأمر بالعلم بأنه بكل شيء عليم تنبيه وتأكيد للأمر بتقوى الله- عز وجل- ووعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه؛ لأن مفاد ذلك أنه سيجازي كلاً بما عمل، لعلمه- عز وجل- بكل شيء من أعمال العباد وغير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

٢- وجوب العدة على المطلقات، وأن لها أجلاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فمن كانت تحيض فعدتها ثلاثة قروء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ومن كانت آيسة أو لم تحض فعدتها ثلاثة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق: ٤].

ومن كانت ذات حمل فعدتها وضع حملها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤].

٣- يجب على الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً رجعيًّا، وقاربت انتهاء عدتها؛ إما مراجعتها ومعاشرتها بالمعروف، أو تخلية سبيلها بمعروف من غير تضييق عليها أو مضارتها؛

لقوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

٤- ظاهر قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ جواز مراجعة الزوج لمطلقته الرجعية بعد بلوغ أجلها، بطهرها من الحيضة الثالثة.

وبهذا قال جمع من الصحابة ﷺ وإليه ذهب الإمام أحمد- رحمه الله[1].

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنه لا رجعة له عليها بعد طهرها من الحيضة الثالثة، وقالوا: معنى ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انتهاء عدتهن.

٥- أن وجوب التعامل بين الزوجين بالمعروف ليس مقصوراً في حال تراجعهما واجتماعهما، بل هو واجب أيضاً بعد الطلاق وعند افتراقهما، لإزالة ما في النفوس وليأخذ كل منهما سبيله وهو في حل من الآخر، إذ قد لا يلتقيان بعد ذلك.

وهكذا يجب على جميع المسلمين التعامل بينهم بالمعروف في حال الاجتماع والوفاق، وفي حال الاختلاف والفراق للتخفف من تبعات ذلك يوم القيامة.

٦- تحريم إمساك المطلقات ومراجعتهن قبل نهاية عدتهن بقصد المضارة لهن والتضييق عليهن بطول العدة، وغير ذلك؛ لما في ذلك من الاعتداء عليهن وظلمهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾.

٧- تحريم المضارة مطلقاً؛ لأنها من الاعتداء على الغير، ومن تجاوز الحلال إلى الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾.

٨- أن من عمد إلى مراجعة مطلقته لأجل المضارة لها والاعتداء عليها وظلمها، فهو في الحقيقة إنما يظلم نفسه؛ لأن عاقبة إثمه وضرره يعود عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

٩- كما تحرم المضارة للزوجات والاعتداء عليهن أو على غيرهن لما في ذلك من الظلم للغير، كذلك يحرم ذلك لما فيه من ظلم المعتدي لنفسه، وإيقاعها في الإثم، والنفس وديعة عنده يجب عليه أن يحملها على ما فيه سلامتها وينأى بها عما يضرها في دينها

---

(١) انظر: «المغني» (١٠/ ٥٥٦).

ودنياها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فمعتق نفسه أو موبقها**»(١).

١٠- في بيان أن المضار المعتدي إنما يظلم نفسه تخفيف على من اعتدي عليه، وبشارة له بحسن العاقبة، ولو لم يكن من ذلك إلا أن المضار المعتدي يهدي حسناته إليه، وربما حمل عنه من سيئاته لكفى.

١١- التنفير من الظلم والإغراء بالبعد عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

١٢- عناية التشريع الإسلامي بحقوق المرأة، ودفع الاعتداء والظلم عنها، وتحذير الرجال من ذلك.

١٣- النهي والتحذير من جعل آيات الله وأحكامه في النكاح والطلاق والرجعة، وغير ذلك هزواً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾.

والاستهزاء بآيات الله قد يكون سخرية بها وتنقصاً لها، وهذا كفر مخرج من الملة، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وقد يكون الاستهزاء بآيات الله تركاً للعمل بها، وهذا قد يكون كفراً إذا كان تركاً لعمل يوجب تركه الكفر كترك الصلاة ونحو ذلك، وقد يكون فسقاً ومعصية دون الكفر، كالمضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، أو غير ذلك.

١٤- وجوب ذكر نعم الله- عز وجل- وشكرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

١٥- إثبات صفة العلو لله- عز وجل- علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ علو الذات، وعلو الصفات؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

١٦- أن نعمة إنزال القرآن والسنة، وتعليل الأحكام أعظم نعمة، لهذا خصها بالذكر من بين النعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

١٧- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله- عز وجل- منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. وفي هذا رد على المعتزلة في زعمهم الباطل أن القرآن مخلوق.

١٨- أن السنة النبوية وحي منزل من عند الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

١٩- أن كل ما أنزل الله- عز وجل- من الوحي في الكتاب والسنة لحكمة؛ عرفناها أو لم نعرفها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

٢٠- أن القرآن الكريم والسنة النبوية أنزلهما الله- عز وجل- للاتعاظ والتذكر والاعتبار والانتفاع؛ فهماً لمعانيهما، وتطبيقاً لأحكامهما، ورجاءً لما فيهما من الوعد، وحذراً مما فيهما من الوعيد.

٢١- بيان خطأ الذين يُغفلون جانب الموعظة في تفسير القرآن- وهو المقصود من تنزيل القرآن الكريم- بينما ينشغلون ويشغلون غيرهم بما لا طائل تحته من كثرة الأقاويل والأعاريب والقراءات الشاذة، ونحو ذلك، مما يحول دون فهم القرآن والتأثر به، والاتعاظ والعمل به.

٢٢- وجوب تقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢٣- إثبات عموم علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وفي هذا وعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

٢٤- أن العلم بسعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء من أسباب تقواه، ومحاسبة النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

سبب النزول:

عن الحسن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ قال: «حدثني معقل بن يسار أنها نزلت فيه، قال: زوجت أختاً لي من رجل، فطلَّقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوَّجتك وَفَرَّشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ، فطلَّقتها، ثم جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوَّجها إياه»(١).

وعن الحسن: «أن أخت معقل بن يسار طلَّقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقل، فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾»(٢).

وفي رواية عن الحسن عن معقل بن يسار ﷺ: «أنه زوَّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة، لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يالكع، أكرمتك بها وزوجتك، فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً، آخر ما عليك. قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة. ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك»(٣).

وفي رواية ابن مردويه زيادة «وكفرت عن يميني»(٤).

قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح- من قال: لا نكاح إلا بولي (٥١٣٠)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ١٨٨)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٥٢٩).

(٣) أخرجها الترمذي في «التفسير» (٢٩٨١)- وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٤١٦).

بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ: «قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ فهذا في الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له في تزويجها وأن يراجعها، وتريد المرأة فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله- سبحانه- أن يمنعوها»(١).

قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، «طلقتم»: فعل الشرط، أي: وإذا طلقتم النساء طلاقاً رجعيًّا طلقة، أو طلقتين، والخطاب للأزواج.

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: فانقضت عدتهن.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ جملة جواب الشرط. والعضل: المنع والتضييق، والخطاب للأولياء، أي: فلا تضيقوا عليهن وتمنعوهن أن ينكحن أزواجهن، ويرجعن إليهم بنكاح جديد، تشفياً منهم وعقوبة لهم بسبب طلاقهم لهن.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به ثانٍ، أي: فلا تمنعوهن نكاح أزواجهن.

ويحتمل كون الخطاب في قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ لأزواجهن الذين طلقوهن، ويكون المراد بـ«أزواجهن» الخاطبين لهن، وسموا أزواجاً لهن باعتبار ما يكون.

وكانوا في الجاهلية إذا طلق الرجل امرأته يمنعها من الزواج، ويستنكف أن تتزوج بعده بغيره.

والنكاح لغة: الضم والجمع، يقال: تناكحت الأشجار، إذا انضم بعضها إلى بعض.

وهو شرعاً: عقد الزوجية الصحيح.

ويطلق النكاح على الوطء والجماع، فإذا قالوا: نكح فلان زوجته، فالمعنى: وطئها وجامعها، وإذا قالوا: نكح فلان فلانة، أو بنت فلان، فالمعنى: عقد عليها وتزوجها، والمراد به في الآية: العقد؛ ولهذا أضيف إلى النساء.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ١٩١ - ١٩٢).

والأزواج: جمع زوج، يقال للرجل: زوج فلانة، ويقال للمرأة زوج فلان، كما يقال في غير الفصحى: زوجة فلان، وهي لغة تميم، وأهل نجد.

والزوج: الشفع، ضد الوتر، وسمى الزوجان بهذا الاسم؛ لأنهما بالعقد انضم أحدهما إلى الآخر، فصارا شفعاً.

﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم﴾ التراضي: مفاعلة من الرضا، أي:إذا تراضى الأزواج وزوجاتهم بينهم، أي: حصل الرضا من كل منهم، فالرضا بين الزوجين شرط لصحة النكاح.

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ الباء للمصاحبة، أي: إذا تراضوا بينهم تراضياً مصاحباً للمعروف، أي: بماهو معروف شرعاً وعرفاً عند المسلمين، وما يحل ويجوز من المهور والتعامل وغير ذلك.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما سبق من الأحكام في الآية، أو إلى ما سبق فيها وفيما قبلها.

﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: يوعظ بما ذكر من الأحكام ويذكَّر، فيتذكر وينتفع.

﴿مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ أي: الذي كان منكم أيها الناس يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأن إيمانه يمنعه من العضل.

والإيمان بالله: التصديق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه والانقياد له. وضده الكفر بالله.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ يوم القيامة.

وسمي باليوم الآخر، لأنه آخر مراحل الإنسان، ولا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بمجيئه والبعث فيه والحساب والجزاء على الأعمال.

وكثيراً ما يقرن عز وجل بين الإيمان به واليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر مما يحمل الناس على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

وإنما خص الموعظة بمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالموعظة فيتذكرون ويتعظون، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾

[هود: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ الإشارة ترجع إلى ما سبق من الأحكام، والاتعاظ والتذكر بها والانتفاع منها.

والخطاب لمن سبق خطابهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ﴾ والميم للجماعة، ويدخل في ذلك الأزواج والزوجات والأولياء وغيرهم.

﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ «أزكى» مأخوذ من الزكاء وهو النمو والزيادة، وهو على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: أعظم وأكثر نمواً وزيادة في إيمانكم وأعمالكم وثوابها.

﴿وَأَطْهَرُ﴾ اسم تفضيل، أي: وأشد طهراً لقلوبكم ونفوسكم، من العضل وغيره من الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وفي قوله: ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ تأكيد على سمو مبادئ الإسلام وآدابه، وأنه جاء لتزكية النفوس وتطهيرها ظاهراً وباطناً، والسمو بها إلى قمة الأخلاق وأزكىٰ الآداب.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه زكاؤكم وطهركم ومصلحتكم، فيما شرع لكم وأمركم به، وما نهاكم عنه من العضل، وغير ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تعلمون ذلك، ولا وجه الحكمة فيه، إلا ما علمكم الله إياه.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الطلاق، ووجوب العدة على المطلقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾.

٢- لا يجوز عقد النكاح على المطلقة ما دامت في العدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٣- يحرم على أولياء النساء منعهن من نكاح أزواجهن بنكاح جديد بعد انتهاء عدتهن من طلاقهم الرجعي، إذا تراضوا بينهم بالمعروف، كما يحرم منعهن من نكاح غيرهم، كما يحرم على الأزواج منع مطلقاتهم من الزواج بعدهم بغيرهم؛ لقوله

تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

٤- أن الأمور قد تتبدل والأحوال قد تتغير بأمر الله- عز وجل- فيحل الرضا مكان الغضب، وحسن العشرة مكان سوء العشرة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

فلا ينبغي أن تحمل الحمية أولياء المرأة على منعها من نكاح زوجها الأول لأمر حصل بينهما فيما سلف إذا تراضيا على الرجوع وحسن العشرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٥- يجب أن يكون التراضي بين الزوجين بالمعروف شرعاً وعرفاً، لا بما ينكره الشرع والعرف؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٦- أن المرأة لا تزوج نفسها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ فلو كانت المرأة تزوج نفسها لما كان لنهي الأولياء عن عضل النساء فائدة.

وفي الحديث: «**لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها**»(١).

٧- اشتراط الولي في النكاح؛ لقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فهذا يدل على أنهن لا يزوجن أنفسهن، وفي الحديث: «**لا نكاح إلا بولي**»(٢).

٨- أن الرضا بين الزوجين شرط لصحة النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم﴾.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن**» قالوا: كيف إذنها يا رسول الله؟ قال: «**أن تسكت**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في النكاح- باب في الولي (٢٠٨٥)، والترمذي في النكاح- ما جاء لا نكاح إلا بولي (١١٠١)، وابن ماجه في النكاح- لا نكاح إلا بولي (١٨٨١)، وأحمد (٤/ ٣٩٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٣٦)، وأبوداود في النكاح (٢٠٩٢)، والنسائي في النكاح (٣٢٦٥)، والترمذي في النكاح (١١٠٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٧١).

وعن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ قال: «**الثيِّب أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأمر، وإذنها سكوتها**».

وفي رواية: «**الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر يستأذنها أبوها في نفسها، وإذنها صماتها، وربما قال: وصمتها إقرارها**»(١).

٩- يجب أن يكون التراضي بين الأزواج بالمعروف شرعاً وعرفاً؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٠- دفاع التشريع الإسلامي عن حقوق المرأة، وحمايته لها.

١١- أن فيما شرعه الله عز وجل من أحكام في هذه الآيات وغيرها موعظة وتذكيراً ينتفع به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٢- أنه لا ينتفع بمواعظ القرآن إلا من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر.

١٣- أن من شرط صحة الإيمان بالله واليوم الآخر الاتعاظ والتذكر والانتفاع بمواعظ القرآن.

١٤- أن الإيمان بالله- عز وجل- بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته هو أصل الإيمان وأعظم أركانه؛ لهذا يذكر دائماً أول أركان الإيمان.

١٥- إثبات اليوم الآخر ووجوب الإيمان به، وعظم مكانة الإيمان به بين أركان الإيمان؛ لأن الله كثيراً ما يقرن بين الإيمان به واليوم الآخر- وذلك أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الدوافع على العمل؛ لأن فيه الحساب والمجازاة على الأعمال.

١٦- الحث والترغيب في الاتعاظ والتذكر والانتفاع بما شرعه الله- عز وجل- من أحكام، فهو أزكى للإيمان والأعمال وثوابها، وأطهر للقلوب والنفوس؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

١٧- كمال علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء، مما يصلح العباد من أحكام في

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٢١).

أمر دينهم ودنياهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾.

١٨- نقص علم الخلق، وعدم معرفتهم بما يصلحهم، وعدم معرفتهم وجه الحكمة فيما أُمِرُوا به، ونهوا عنه، إلا بتعليم الله- عز وجل- لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مما يوجب التسليم لأحكام الله- عز وجل- والامتثال لأمره ونهيه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ ﴾ جمع والدة، أي: اللاتي ولدن، وهن الأمهات.

﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ خبر بمعنى الأمر، أي: يجب عليهن أن يرضعن أولادهن، من بنين وبنات، فإرضاعهم عليهن واجب، وهن أولى بإرضاعهم من غيرهن.

﴿حَوْلَيْنِ ﴾ «الحول» بمعنى السنة والعام، اثنا عشر شهراً.

﴿كَامِلَيْنِ ﴾ تأكيد للحولين، أي: حولين كاملين من غير نقصان، وأكدهما لئلا يفهم أن المراد حول ومعظم الحول، أو بعض الحول؛ لأنه كما يطلق الحول على العام كاملاً يطلق على معظمه أو بعضه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. أي: في يوم وبعض يوم.

﴿لِمَنْ أَرَادَ ﴾ أي: للذي أراد من الآباء والأمهات.

﴿أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«أراد» أي: لمن أراد من الآباء والأمهات إتمام رضاعة أولادهم، من غير نقص.

فتمام الرضاعة وكمالها حولان كاملان، ولهذا قال ﷺ- لما مات ابنه إبراهيم، وعمره سنة وعشرة أشهر: «**إن له مرضعاً في الجنة**»(١). أي: تكمل رضاعه.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ الواو: عاطفة، «على المولود»: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿لَهُۥ ﴾: متعلق بـ«المولود»، ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ مبتدأ مؤخر.

والمعنى: وعلى أبي المولود، أي: والده ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٢)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وفي قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ دون أن يقول: وعلى الوالد، إشعار بأن الوالدات إنما ولدن لهم؛ لأن الأولاد للآباء، ولذلك يُنسبون إليهم، ويُعدون من كسبهم، كما قال ﷺ: «**وإن أولادكم من كسبكم**»(١).

قال الشاعر:

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء(٢)

وقوله: ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي: رزق الوالدات، أي: عطاؤهن ونفقتهن، ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ الكسوة: ما يكسى ويستر به البدن من اللباس.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف بين الناس من نفقة وكسوة أمثالهن وطبقتهن، من حيث نوع الرزق والكسوة وكمية ذلك وكيفيته، مراعى في ذلك حال الزوج من حيث العسر واليسر؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ وهاتان الجملتان معترضتان.

ومعنى ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا تكلف نفس في الشرع، والتكليف: الإلزام بما فيه مشقة، من فعل أو قول أو بذل، أو ترك ونحو ذلك.

﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا طاقتها وقدرتها، أي: لا يكلف الله نفساً إلا ما تقدر عليه، كما قال عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعلى هذا فلا يكلف المولود له فوق طاقته وما يقدر عليه، وإنما عليه الإنفاق والكسوة حسب حاله، كما قال- عز وجل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧].

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب: «لا تضارُّ» بضم الراء، على اعتبار «لا» نافية، فالجملة خبر بمعنى النهي. وقرأ الباقون بفتح الراء ﴿لَا

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٢٨)، والنسائي في البيوع (٤٤٤٩)، والترمذي في الأحكام (١٣٥٨)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٧)، من حديث عائشة- رضي الله عنها. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) البيت للمأمون بن الرشيد. انظر: «الكشاف» (١/ ١٤١).

تُضَآرَّ﴾ على اعتبار «لا» ناهية، والفعل مجزوم بها وحرك بالفتح لالتقاء الساكنين.

والفعل «تضارّ» أصله «تضارر».

ويحتمل على القراءتين أن يكون مبنياً للفاعل، و«والدة» فاعل.

والباء في قوله: ﴿بِوَلَدِهَا﴾ للسببية، أي: لا تضارِرْ والدة بسبب ولدها؛ فتمتنع مثلاً من إرضاعه، أو تطلب زيادة على الواجب لها، ونحو ذلك مضارةً لوالده.

ويحتمل أن يكون الفعل «تضار» مبنياً لما لم يسم فاعله، و«والدة» نائب فاعل، وفاعل المضارة هو المولود له أي: لا يضار المولود له أباً كان أو غيره لوالدته بسبب ولدها كأن يمنعها من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة، ونحو ذلك.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ الواو عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ على القراءتين فيها، فلا تجوز المضارة بين الوالدين بسبب الولد. كما لا تجوز المضارة بين المسلمين مطلقاً. قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢].

وفي الحديث: «**لا ضرر ولا ضرار**»(١).

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما بينهما اعتراض.

فالواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ عاطفة، و﴿عَلَى الوَارِثِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ مؤخر، والإشارة ترجع إلى الرزق والكسوة.

أي: وعلى وارث المولود مثل ما على أبيه من النفقة والكسوة للمرضعة، إذا فقد الأب، وكان الطفل ليس له مال، وإذا وجب على الوارث الإنفاق والكسوة للمرضعة من أجل الرضيع، فالنفقة عليه وكسوته هو أوجب.

واستدل بهذه الآية على وجوب نفقة القريب المعسر على وارثه إذا كان موسراً.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الوالدة والمولود له ﴿فِصَالًا﴾ أي: فطاماً للمولود قبل تمام الحولين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠)، من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وأخرجه أيضاً (٢٣٤١)، وأحمد (١/ ٣١٣)، من حديث ابن عباس ﷺ.

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: عن رضى من الطرفين، الأب والأم على الفصال.

﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: وعن تشاور منهما، والتشاور: تبادل الرأي بين المتشاورين لاستخلاص الأصلح والأصوب، وهو مما أمر الله- عز وجل- به، قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦]، ومما امتدح الله به المؤمنين، فقال عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

والمعنى: وعن تشاور بين الأب والأم فيما فيه مصلحة الطفل، وهل من مصلحته أن يفطم قبل تمام الحولين، أو بعدهما.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلا حرج، ولا إثم عليهما في فصاله وفطامه قبل تمام الحولين، إذا تراضيا على ذلك، وتشاورا، ورأيا أن المصلحة في ذلك، فإن رضي ذلك أحدهما، ورآه دون الآخر لم يجز الفطام قبل الحولين.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أخبر- عز وجل- أولاً أن الوالدات يرضعن أولادهن، وهو خبر بمعنى الأمر يفيد الوجوب، وذلك؛ لأن إرضاع الأم لا يعدله شيء؛ لحنوها وعطفها وشفقتها، فهي لا ترضع الطفل اللبن فقط، بل ترضعه مع ذلك الدفء والحنان والعطف والبر وحميد الخصال، وطيب الأخلاق، ثم أتبع ذلك بذكر جواز الاسترضاع للأولاد.

قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعات لأولادكم غير أمهاتهم، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ما لم يكن ذلك على وجه المضارة، فإن طلبت أمه إرضاعه فهي أحق به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾.

﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ أي: إذا سلمتم للمرضعات وأعطيتموهن.

﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ قرأ ابن كثير بقصر الهمزة: «أتيتم»، وقرأ الباقون بمدها ﴿ءَاتَيْتُم﴾.

أي: إذا سلمتم ما جعلتموه لهن من أجر مقابل الإرضاع.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما هو معروف في الشرع، وعرف المسلمين من حسن القضاء من

غير مماطلة ولا نقصان.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، في جميع أحوالكم وأعمالكم وأقوالكم.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: واعلموا أن الله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿بَصِيرٞ﴾ أي: مطَّلع شاهد على أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها.

وفي الأمر بالعلم بذلك تنبيه وترغيب بتقوى الله- عز وجل- ووعد لمن اتقاه، وتحذير ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

وبين الأمر بتقوى الله، والعلم بأنه بما يعملون بصير ما يشبه ربط السبب بالمسبب، فالعلم بأن الله بصير بما يعملون سبب لتقوى الله- عز وجل- وهو من تقوى الله، كما أن تقوى الله من أسباب التوفيق للعلم بأنه بما يعملون بصير.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إرضاع الوالدات لأولادهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ وهذا خبر معناه الأمر، وليس لهن مطالبة آبائهم بالأجرة على ذلك ما دمن في عصمتهم، فإن كن بوائن منهم فلهن أجرة المثل.

٢- أن الله- عز وجل- أرحم بالأولاد من والداتهم، فمع رحمة الوالدة التي جبلت عليها وشفقتها وحنوها على ولدها وحرصها- غالباً- على إرضاعه وإيثارها له على نفسها- مع هذا كله وغيره لم يجعل الله- عز وجل- لها الخيار في ذلك، فإن شاءت أرضعته وإن شاءت لم ترضعه، بل أوجب عليها إرضاعه.

٣- أن كمال الرضاعة وتمامها حولان كاملان، من غير نقصان، لقوله تعالى: ﴿حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ وقد أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿كَامِلَيۡنِۖ﴾ لئلا يتوهم أن المراد حول وبعض الحول.

٤- أخذ بعض أهل العلم من قوله تعالى: ﴿يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ أن الرضاع المحرِّم ما كان في الحولين واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان:

١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وعن أم سلمة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام**»(١).

ومعنى قوله: «**في الثدي**» أي: في وقت الرضاع، وهو الحولان.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن المحرم من الرضاع ما كان قبل الفطام، سواء كان في الحولين، أو بعدهما. وقيل غير ذلك(٢).

٥- أن الرضاع الطبيعي والصحي ما كان في الحولين؛ لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما أضرت بالولد، إما في بدنه، وإما في عقله. ولو لم يكن من ذلك إلا أن الولد قد يعزف عن الطعام بسبب الرضاع لكان كافياً.

٦- دل قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر.

٧- أن إتمام رضاعة الولد حولين كاملين ليس بواجب؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾.

٨- إثبات الإرادة للإنسان والاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن لا خيار للإنسان، وأنه مجبر على جميع أعماله وأقواله وتصرفاته كالسعفة في الهواء.

٩- أن على آباء المواليد الإنفاق على الوالدات وكسوتهن بالمعروف من نفقة وكسوة أمثالهن وطبقتهن مقابل إرضاعهن أولادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٥٢)- وقال: «حديث حسن صحيح». وقال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤١٧): «تفرد الترمذي برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين». وأخرجه ابن ماجه في النكاح (١٩٤٦) عن عبدالله بن الزبير ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا رضاع إلا ما فتق الأمعاء**».

(٢) انظر تفصيل هذا في تفسير سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [الآية: ٢٣].

وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فإن كن في عصمتهم فذلك أوجب وآكد؛ لأنه يجب عليهم بسببين: الزوجية، والإرضاع لأولادهم.

١٠- إذا كانت المرضعات في عصمة آباء المواليد فلا يجب لهن غير النفقة والكسوة، وقيل: تجب لهن أجرة المثل.

١١- اعتبار العرف بين الناس، ما لم يخالف الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهذا من يسر الشريعة وسماحتها ومرونتها.

١٢- في إيجاب النفقة والكسوة للمرضع من أجل الرضيع دليل على وجوب النفقة والكسوة له من باب أولى.

١٣- لا يكلف الوالد من الإنفاق على والدة مولوده وكسوتها إلا وسعه وطاقته، وهكذا كل نفس لا تكلف فوق طاقتها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]. وهذا من رحمة الله- عز وجل- بعباده.

١٤- تحريم مضارة أحد الوالدين للآخر بولدهما؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢].

وقال ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»(١)، وقال: «**من ضار ضار الله به**»(١).

١٥- أن الأولاد لآبائهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ ولهذا ينسبون إليهم ويعدون من كسبهم، ولهم الأخذ من أموالهم بدون رضاهم، وليس هذا للأمهات.

١٦- أن على وارث المولود مثل ما على والده من الإنفاق على والدته، وكسوتها، بعد فقد والده، ومن باب أولى الإنفاق عليه هو وكسوته.

١٧- وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾.

١٨- جواز فصال المولود وفطامه قبل بلوغ الحولين، بعد تراضي الوالدين وتشاورهما

---

(١) سبق تخريجه.

على ما فيه مصلحة الطفل، ولا حرج عليهما في ذلك ولا إثم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

١٩- إذا أراد أحد الوالدين فصال المولود وفطامه قبل الحولين دون رضى الآخر ومشورته لم يجز ذلك، بل يكمل رضاعه حولين.

٢٠- جواز الاجتهاد في أحكام الشريعة؛ لأن الله جعل للوالدين التشاور والتراضي في الفطام فيعملان على موجب اجتهادهما، وتترتب الأحكام عليه.

٢١- جواز طلب الآباء المراضع لأولادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ما لم يكن ذلك مضارة لأمه.

فإن طلبت أمه إرضاعه فهي أحق به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ فبدأ بهن، بل وأوجب ذلك عليهن؛ لأن لبن والدته أطيب وأنفع لجسمه وعقله وخُلُقه، ترضعه مع اللبن البر والشفقة، والعطف والحنان.

٢٢- وجوب تسليم المرضعات وإعطائهن أجرة الإرضاع حسب ما اتفق عليه بالمعروف من غير مماطلة ولا نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وهكذا يجب على كل من استأجر أجيراً إعطاء الأجير حقه بالمعروف.

كما قال ﷺ: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**»(١).

وقال ﷺ: «**قال الله عز وجل: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يعطه أجره**»(٢).

٢٣- عناية الإسلام بالأسرة، ففي هذه الآية أمر الله- عز وجل- الوالدات بإرضاع أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة عناية بالرضيع، وأوجب على والد المولود رزقهن وكسوتهن بالمعروف عناية بالمرضعات، ونهى عن المضارة بين الأب والأم بالولد عناية به وبهما، وأوجب على وارث المولود من النفقة والكسوة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٣)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مثل ما على والده عناية بالمولود وبأمه، وأجاز للآباء الاسترضاع لأولادهم عناية بهم، وأوجب عليهم تسليم المرضعات أجورهن بالمعروف عناية بهنَّ وبالمولود.

٢٤- وجوب تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢٥- إثبات اطلاع الله- عز وجل- وشهادته وعلمه بكل ما يعمل العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

ومقتضى هذا أنه سيحصي على العباد أعمالهم ويجازيهم عليها، وفي هذا وعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

٢٦- وجوب العلم بأن الله بصير بجميع أعمال العباد؛ لأن الله- عز وجل- أمر بذلك، وهو سبب لتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: والذين يتوفاهم الله منكم أيها المؤمنون، أي: يموتون، وسمي الميت متوفى؛ لأنه قد استوفى رزقه وأجله وعمله.

وقد أسند عز وجل «التوفي» في القرآن الكريم تارة إلى نفسه؛ لأنه- عز وجل- هو الذي كتب الموت وأمر به.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

كما أسنده إلى ملك الموت؛ لأنه هو الذي يقبض الأرواح بأمر الله- عز وجل- قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

كما أسنده- عز وجل- إلى ملائكته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمُ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وذلك لأن ملك الموت من بين الملائكة وإذا قبض ملك الموت الروح لم يدعوها في يده طرفة عين، إما ملائكة الرحمة، وإما ملائكة العذاب، كما جاء في حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه(١).

﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ويتركون أزواجاً بعدهم، أي: زوجات. والزوجة كل من عقد عليها بنكاح صحيح، صغيرة كانت أو كبيرة، دخل بها أولم يدخل بها.

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ «يتربصن» خبر المبتدأ «الذين» والتقدير: يتربصن بعدهم، أي: ينتظرن ويحبسن أنفسهن عن الزواج بعدهم.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: أربعة أشهر هلالية، ﴿وَعَشْرًا﴾ أي: وعشر ليال، والمراد: عشر ليال

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦).

بأيامها؛ لكن يعبر بالليالي عن الأيام؛ لأنها قبلها، قال تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه: ١٠٣، ١٠٤].

والحكمة في ذلك التأكد من براءة الرحم، لئلا تختلط المياه والأنساب، وحرمة للزوج الأول.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح**»(١).

فما بين استقرار النطفة في الرحم إلى نفخ الروح في الجنين أربعة أشهر.

وعشرة أيام بعدها احتياطاً؛ لما قد ينقص بعض الشهور، ولظهور الحركة بعد نفخ الروح في الجنين، وتحركه تحركاً بيناً.

قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فإذا انقضت عدتهن، وهي أربعة أشهر وعشر.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فلا حرج، ولا إثم عليكم. والخطاب للأولياء، وفي هذا إثبات الولاية للرجال على النساء، وأنه يجب عليهم منعهن إذا خالفن أمر الله؛ ولهذا لم يقل: (فلا جناح عليهن).

﴿فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: في فعلهن، أو في الذي فعلن في أنفسهم من التزين والتحلي والتعرض للخطاب والتزوج، ونحو ذلك.

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: بما هو معروف في الشرع وبين الناس، مما لا يخالف الشرع.

فلو فعلن ما يخالف الشرع، كالتبرج والإكثار من الخروج لغير حاجة ونحو ذلك وجب عليهم منعهن.

وهن في الحالين كذلك، فإن لم يخرجن عن المعروف فلا جناح عليهن، وإن خرجن عنه فعليهن جناح، وهن آثمات.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿خَبِيرٞ﴾ أي: مطلع عليه، ولا تخفى عليه منه خافية.

والخبير: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

وفي الآية وعد لمن امتثل أمر الله ووعيد لمن خالفه؛ لأن مقتضى خبرته- عز وجل- محاسبة العباد ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب تربص المتوفى عنهن أزواجهن بترك الزواج، والاعتداد أربعة أشهر وعشراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وعن أم حبيبة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا**»(١).

ويجب عليهن في هذه العدة اجتناب الطيب والزينة بالثياب بأنواعها، والتجمل بالحناء ونحوه، والحلي، والمبيت في غير منازلهن، وكل ما يدعو إلى نكاحهن، امتثالاً لأمر الله عز وجل، ووفاءً بحق الزوج، وتعظيماً لخطر عقد النكاح، وللتأكد من براءة الرحم؛ لئلا تجتمع المياه، فتختلط الأنساب(٢).

عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا» مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: «لا» ثم قال رسول الله ﷺ: «**إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول**».

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٠)، ومسلم في الطلاق (١٤٨٦)، والنسائي في الطلاق (٣٥٠٠)، والترمذي في الطلاق (١١٩٥).

(٢) انظر: «المغني» (١١/ ٢٨٤ - ٢٩٢)، «إعلام الموقعين» (٢/ ٨٥).

قالت زينب بنت أم سلمة: «كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حِفْشاً[١]، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً، حتى تمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طائر، فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة، فترمي بها، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره»[٢].

وعن أم عطية ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً، إلا ثوب عصب، ولا تكتحل، ولا تمس طيباً**»[٣].

٢- أن الاعتداد والحداد أربعة أشهر وعشراً عام لكل متوفى عنها زوجها بعقد صحيح، صغيرة أو كبيرة، مؤمنة أو كتابية؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ وهذا عام لكل زوجة.

ويستثنى من هذا إذا كانت المتوفى عنها حاملاً فعدتها تنتهي بوضع الحمل، سواء زادت عن أربعة أشهر وعشر، أو نقصت، حتى لو وضعت حملها بعد وفاة زوجها بلحظة خرجت من العدة؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

وعن سبيعة الأسلمية ﵂: «أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب[٤] أن وضعت حملها بعد وفاته».

وفي رواية: «فوضعت حملها بعده بليال، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما

---

(١) الحفش: بيت صغير حقير.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٣٧)، ومسلم في الطلاق (١٤٨٨، ١٤٨٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٩٩)، والنسائي في الطلاق (٣٥٣٣)، والترمذي في الطلاق (١١٩٧)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٨٤).

(٣) أخرجه البخاري في الحيض (٣١٣)، ومسلم في الطلاق (٩٣٨)، وأبوداود في الطلاق (٢٣٠٢)، والنسائي في الطلاق (٣٥٣٤)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٨٧).

(٤) أي: فلم تلبث.

قال لي ذلك، جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»(١).

وهكذا عدة المطلقة إذا كانت حاملاً تنتهي بوضع الحمل.

كما يستثنى من هذا الأمة المزوجة، فعدتها إذا مات زوجها عند جمهور أهل العلم على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام، قياساً على تنصيف الحد.

وقال بعضهم: عدتها عدة الحرة؛ لعموم الآية، ولأن المقصود من العدة التثبت من براءة الرحم، وذلك لا يتم إلا بأربعة أشهر وعشر عند جميع النساء؛ لأنه من الجبلة.

فإن كان النكاح باطلاً فلا عدة عليها أياً كانت؛ لأنها لا تسمى زوجة. لكن لابد من استبرائها.

٣- أن عدة الوفاة واجبة على الزوجة، وإن كانت غير مدخول بها، لعموم قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾، والزوجة كل من عقد عليها بنكاح صحيح، دخل بها، أو لم يدخل بها.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن رجل تزوج امرأة، فمات عنها، ولم يدخل بها، ولم يفرض لها، فتردد إليه مراراً في ذلك، فقال: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: لها الصداق كاملاً، وفي لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث». فقام معقل بن يسار الأشجعي، فقال: «سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بِرْوَع بنت واشق». ففرح عبدالله بذلك فرحاً شديداً، وفي رواية: «فقام رجال من أشجع، فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق»(٢).

وهذا مما تخالف فيه المتوفى عنها زوجها المطلقة، فإن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بصريح قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٩١)، ومسلم في الطلاق (١٤٨٤)، وأبوداود في الطلاق (٢٣٠٦)، والنسائي في الطلاق (٣٥١٨)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٧)، والترمذي في النكاح (١١٤٥)، وأخرجه مختصراً أبوداود في النكاح (٢١١٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٥٥)، وابن ماجه في النكاح (١٨٩١).

طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

٤- أن الأمة التي توطأ بملك اليمين ليس عليها عدة الوفاة إذا مات مالكها؛ لأنها ليست زوجة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ لكن يجب استبراؤها بعد وفاة مالكها.

٥- حكمة الله- عز وجل- بتقدير عدة الوفاة بأربعة أشهر وعشر، دون الأقراء؛ لأن في هذه المدة يتبين تماماً ما إذا كانت المعتدة حاملاً أو غير حامل، ففي بلوغ الجنين أربعة أشهر تنفخ فيه الروح، وفي خلال عشرة أيام تظهر حركته وتتبين.

٦- إذا انتهت عدة المتوفى عنهن فلا حرج على أوليائهن، ولا عليهن في فعلهن ما يفعله النساء من الزينة والتحلي، والتصنع للخطاب، والزواج؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٧- إثبات ولاية الرجال على النساء؛ أزواجاً كانوا أو آباء، أو غيرهم، ممن لهم حق الولاية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

٨- اعتبار العرف في التشريع؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٩- تأثم الأولياء إذا خالفت المعتدات من الوفاة ما أمر الله به من التربص؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيجب عليهم إلزامهن امتثال أمر الله تعالى، ومنعهن من المخالفة، وهن يتأثمن إذا خالفن من باب أولى.

١٠- إثبات- خبرة الله- عز وجل- الواسعة، واطلاعه التام على جميع أعمال العباد، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم عليها، وفي هذا وعد لمن أحسن، وترغيب بالإحسان، ووعيد لمن أساء وتحذير من الإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولا حرج عليكم ولا إثم، والخطاب للرجال.

﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ «ما»: موصولة، أي: في الذي عرضتم به من خطبة النساء في عدة الوفاة، أو مصدرية، أي: في تعريضكم لخطبة النساء، والتعريض: التلويح والتلميح، وإفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره، مأخوذ من عَرْض الشيء، وهو جانبه، كأنه يحوم على الشيء ولا يظهره.

كما قال الشاعر:

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه عن تعرضه الثناء(١)

والتعريض في الخطبة: ما يحتمل النكاح وغيره، كأن يقول: «إني أريد التزوج»، «أسأل الله أن يرزقني امرأة صالحة مثلك».

والخِطبة: بكسر الخاء: عرض الرجل نفسه على المرأة؛ ليتزوجها، أو على وليها ليزوجه إياها.

والخُطبة بضم الخاء: القول المشتمل على الموعظة والتذكير.

وهكذا يجوز التعريض والتلميح بخطبة المطلقة البائن في عدتها دون التصريح؛ لعموم الآية، ولقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها ثلاثاً: «إذا حللت فآذنيني».

فلما حلَّتْ آذنته، فخطبها معاوية وأبوجهم وأسامة بن زيد، فأشار عليها ﷺ بأسامة فتزوجته»(٢).

لكن إن كانت البينونة بغير الثلاث كالمختلعة صح لزوجها التعريض والتصريح

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (١٤٨٠)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٨٤)، والنسائي في النكاح (٣٢٢٢)، والترمذي في النكاح (١١٣٥)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٩)، من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

بخطبتها، بل والزواج بها.

أما المطلقة الرجعية فلا تجوز خطبتها لا تعريضاً ولا تصريحاً، لأنها بحكم الزوجة.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أو أخفيتم وأضمرتم في أنفسكم خطبتهن.

أي: فلا حرج ولا إثم عليكم في التعريض في خطبة النساء، ولا في إضمار خطبتهن في أنفسكم.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: أنكم ستذكرون هؤلاء المعتدات في أنفسكم، فرفع عنكم الحرج، والإثم في هذا.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

الواو: عاطفة، و«لكن» للاستدراك، و«لا» ناهية أي: لا تواعدوهن وعداً صريحاً، سرًّا فيما بينكم وبينهن، أن تتزوجوهن، كأن يقول الرجل للمعتدة: «إذا انتهت عدتك فإني سأتزوجك» ونحو ذلك.

وإذا نهي عن المواعدة سرًّا فالمواعدة علانية من باب أولى.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ الاستثناء منقطع و«إلا» بمعنى «لكن» أي: لكن لا مانع أن تقولوا لهن قولاً معروفاً، وهو التعريض بخطبتهن الذي أباحه الله- عز وجل- دون التصريح، أو مواعدتهن سرًّا، الذي نهى الله عنه.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ العزم: إرادة فعل الشيء، والتصميم عليه.

والمراد هنا الفعل نفسه، أي: ولا تعقدوا وتبرموا ﴿عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: عقد النكاح بين الزوجين.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ «حتى»: لانتهاء الغاية ﴿يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: يصل.

والمراد بالكتاب هنا المكتوب، أي: ما كتبه الله وفرضه من عدة الوفاة، و«أجله» غايته ونهايته.

والمعنى: ولا تعقدوا النكاح حتى تنقضي العدة. فلو تم عقد النكاح في العدة لم

يصح، بل هو باطل بالإجماع، ويفرق بينهما، ولا تحرم عليه، بل له أن يتزوجها إذا انقضت عدتها كغيره.

وقيل: تحرم عليه على التأبيد عقوبة له؛ لأن من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه؛ كالقاتل في حرمان الميراث.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: واعلموا أن الله يعلم الذي تضمرونه في نفوسكم من الخير أو الشر، ومن موافقة أمر الله عز وجل أو مخالفته في أمر النساء وغير ذلك، وإذا كان عز وجل يعلم ما في الأنفس فعلمه بما يظهر من باب أولى.

﴿فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ الحَذَر: أخذ الحِذْر والحيطة، والمعنى: فكونوا منه- عز وجل- على حذر بتقواه، وبنية الخير، والعمل به، والبُعد عن نية الشر، والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي: واعلموا أن الله ذو مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة.

وذو حلم واسع، فلا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب، ولا يهمله. قال ابن القيم(١):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

وفي قوله عز وجل: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ تهديد وترهيب، وفي قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ وعد وترغيب بالمبادرة إلى التوبة والاستغفار، فحذرهم عز وجل نفسه وعقابه ترهيباً لهم، وفتح لهم باب المغفرة والحلم ترغيباً لهم.

وهذا على منهج القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ [فصلت: ٤٣].

ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله- عز وجل- بين الخوف، والرجاء، فلا يأمن من

---

(١) في «النونية» ص(١٤٨).

مكر الله، ولا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روحه، وليكون الخوف والرجاء له كجناحي الطائر، فمن أمن مكر الله ضيع وفرّط، ومن قنط من رحمة الله أيس وانقطع.

الفوائد والأحكام:

١- جواز التعريض بخطبة المعتدات من الوفاة، والبوائن، وإضمار خطبتهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

٢- تحريم التصريح بخطبة المعتدات من الوفاة، والبوائن، وإظهار خطبتهن؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾

لكن إن كانت البائن بغير الثلاث، كالمختلعة ونحوها جاز لزوجها التعريض والتصريح بخطبتها والزواج بها.

وإن كانت المطلقة رجعية حرم التصريح والتعريض بخطبتها؛ لأنها بحكم الزوجة.

٣- جواز ذكر الرجال للنساء المعتدات من الوفاة والبوائن، في أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾؛ لأن الله لم ينكر هذا عليهم، وفي هذا رفع للحرج عنهم.

٤- تحريم مواعدة المعتدات من الوفاة والبوائن سرًّا بالتزوج بهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾.

٥- جواز القول المعروف للمعتدات من الوفاة والبوائن، مما ليس به تصريح بخطبتهن، ولا مواعدتهن سرًّا بالزواج، كأن يقول: «إنني أريد الزواج»، أو «أرغب في مثلك» ونحو ذلك من التعريض والقول المعروف؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٦- تحريم عقد النكاح وبطلانه قبل نهاية العدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ لكن إذا كانت المطلقة البائن بغير الثلاث كالمختلعة ونحوها فإنه يجوز لزوجها العقد عليها أثناء العدة، كما يجوز مراجعة المعتدة الرجعية بلا عقد.

٧- إثبات علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه النفوس والضمائر مما يتعلق بأمر النساء وغير ذلك، ووجوب العلم بذلك والتنبه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾.

٨- وجوب الحذر من الله- عز وجل- وعقابه، والحذر من إضمار ما يخالف أمر الله ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾.

٩- إثبات مغفرة الله- عز وجل- الواسعة، وحلمه الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾.

١٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، فقد حذر- عز وجل- المخاطبين في الآية، وخوفهم نفسه وعقابه؛ لئلا يعصوه، ولم يقنطهم بل فتح لهم باب مغفرته وحلمه؛ لكي يطيعوه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم ولا إثم أيها الأزواج.

﴿إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وألف بعد الميم في الموضعين «تُماسوهن» مفاعلة من المماسة.

وقرأ الباقون بفتح التاء من غير ألف ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾، وهما بمعنى واحد.

والمراد «بالمس»: الجماع و«ما» في قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: مصدرية ظرفية، أي: مدة عدم مسكم لهن، ويحتمل كونها شرطية، أي: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسوهن، فدخل الشرط الثاني على الشرط الأول، فكان شرطاً فيه، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧].

ومنه قول الشاعر:

إن تستغيثوا بنا إن تُذعروا تجدوا ... منا معاقل عز زانها كرم(١)

والمعنى: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء بعد العقد عليهن، وقبل أن تمسوهن، أي: قبل الدخول بهن وجماعهن.

وقد أُطلق المس والملامسة والمباشرة في القرآن الكريم على الجماع، كما في هاتين الآيتين، وكما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩].

---

(١) البيت مجهول القائل. انظر: «الأشباه والنظائر» (٧/ ١١٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: «المس: النكاح»(١).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: «المس: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»، وفي رواية عنه: «إن المس واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»(٢).

وقد حكم الصحابة ﷺ بأن للخلوة حكم المسيس والدخول، فإذا خلا بها فهو بحكم من دخل بها وجامعها، وبهذا قال أكثر أهل العلم، وبهذا يجب لها مهر المثل حيث لم يفرض لها مهر.

﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ «أو»: حرف عطف بمعنى الواو، والجملة معطوفة على قوله: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: ما لم تمسوهن وتفرضوا لهن فريضة.

ومعنى ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أو توجبوا وتقدروا لهن مهراً.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ الواو: عاطفة، والضمير يعود إلى النساء المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر، والأمر للوجوب، أي: أعطوهن ما يتمتعن به من مال أو طعام أو لباس أو غير ذلك، جبراً لخواطرهن، وتعويضاً لهن عما فاتهن، من الزواج والمهر.

﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أو استئنافية لا محل لها من الإعراب. قرأ أبوجعفر وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿قَدَرُهُۥ﴾ بفتح الدال في الموضعين، وقرأ الباقون بإسكانها: «قَدْره».

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧، ٧/ ٦٣- ٦٥)، والبيهقي في سننه (١/ ١٢٥)، وأخرجه ابن أبي حاتم مختصراً في «تفسيره» (٣/ ٩٠٨).

والمعنى: «على الموسع» أي: الغني الموسر في ماله قدر سعته وغناه ويسره، بحيث يزيد في المتعة، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧].

﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وعلى المقتر الفقير المضيق عليه في ماله قدر استطاعته، فلا يكلف نفسه ما يضره أو ما لا يطيق، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧].

عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: «متعة الطلاق: أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة»(١).

وليس في المتعة قدر محدد، لكن يستحسن أن تكون مما يجبر خاطر المرأة ويعوضها عما فاتها من الزواج والمهر؛ لأن هذا هو المقصود من إيجاب المتعة، وكما يختلف ذلك باختلاف حال الزوج غنىً وفقراً، فقد يختلف ذلك باختلاف الأوقات، فيرى في وقت أن القليل كاف في المتعة، ويرى في وقت أنه غير كاف فيها.

وقد روي أن الحسن بن علي متع بعشرة آلاف، فقالت المرأة: «متاع قليل من حبيب مفارق»(٢).

﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ «متاعاً» اسم مصدر، مفعول مطلق، أي: متعوهن تمتيعاً بالمعروف، أو حال: أي: حال كون هذا القدر متاعاً بالمعروف.

والمتاع والمتعة: ما يُتمتع ويُتبلغ به من مال وغيره.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الباء للمصاحبة، أي: بما هو معروف في الشرع وعرف المسلمين، مما يُمتَّع به أمثالهن من المطلقات، وأن يعطى لهن من غير مماطلة أو أذى.

ويُلحظ في هذا أمران:

الأول: حرص التشريع الإسلامي على إزالة وتخفيف ما يؤثر على النفوس ويكسر القلوب، فإن في إيجاب المتعة للمطلقات قبل المسيس، وقبل فرض المهر جبراً لقلوبهن

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه عبدالرزاق فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٢٤).

وتعويضاً لهن عما فاتهن من الزواج والمهر.

الثاني: مراعاة التشريع أحوال المكلفين، حيث جعل المتعة للمطلقات حسب حال الزوج يسراً وعسراً.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ «حقاً» منصوب على المصدرية، أي: حق ذلك حقاً، والحق: الشيء الثابت اللازم، أي: حقًّا لازماً ثابتاً واجباً على المحسنين، الذين يحسنون في عبادة الله بالإخلاص له- عز وجل- واتباع شرعه، ويحسنون إلى عباده، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، أي: حقًّا عليهم أن يمتعوا نساءهم بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: وإن طلقتم النساء من قبل الدخول بهن وجماعهن.

﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ الواو: للحال، أي: والحال أنكم قد فرضتم لهن فريضة، أي: قدرتم وحددتم لهن مهراً.

﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: فنصف الذي فرضتم، أي: فلهن عليكم، أو فالواجب لهن نصف المهر الذي قدرتموه.

فمن طلقت قبل المسيس وقبل فرض المهر فلها المتعة، ومن طلقت قبل المسيس وبعد فرض المهر فلها نصف المفروض من المهر، فإن خلا بها وجب لها في الحال الأولى مهر المثل، ووجب لها في الحال الثانية المهر كاملاً؛ لأن الصحابة أعطوا الخلوة حكم الدخول والجماع.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ استثناء من أعم الأحوال، أي: فلهن نصف ما فرضتم في كل حال إلا في حال عفوهن. والنون في «يعفون» ضمير النسوة في محل رفع فاعل، وتعود إلى المطلقات، أي: إلا أن تعفو المطلقات قبل المسيس عما وجب لهن على أزواجهن من نصف المهر المفروض.

﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهو الزوج، فهو الذي بيده عقدة النكاح، إذا شاء أبقاها، وإذا شاء حلها بالطلاق، ويبعد أن يحمل على الولي، لأن الولي لا يصح أن يعفو عمَّا وجب للمرأة.

والمعنى: أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح، وهو الزوج، فيترك للزوجة المهر كاملاً، ولا يطالبها برد نصف المهر.

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ﴾ أي: أيها الأزواج، أو أيها الأزواج والزوجات، وقد يحمل الخطاب على ما هو أعم من ذلك، وهو جميع الأمة.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، والتقدير: وعفوكم أقرب للتقوى، أي: أقرب لتقوى الله عز وجل.

وفي هذا ترغيب بالعفو والتسامح، وبخاصة بين الزوجين، فمن عفا عن صاحبه فهو أقرب لتقوى الله عز وجل.

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: ولا تتركوا الفضل والإحسان والتسامح بينكم وتهملوه وتغفلوا عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: إن الله بالذي تعملونه، أو بعملكم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع عليه كله، وعالم به، لا يخفى عليه شيء منه وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة طلاق النساء بعد العقد عليهن، وقبل الدخول، وفرض المهر؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

٢- تكنية القرآن الكريم عن الجماع بالمس؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: ما لم تجامعوهن، وقد أجرى الصحابة رضي الله عنهم الخلوة مجرى المسيس.

٣- جواز عقد النكاح بدون تسمية المهر وتقديره؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: وما لم تفرضوا لهن فريضة.

لكن إن اشترط عدم المهر فالنكاح باطل[١]؛ لأن المهر شرط لصحة النكاح.

قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤]، فجعل عز وجل من شرط الحل المال.

وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، والأمر للوجوب.

وقال ﷺ: «**أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»[٢].

أما في حال عدم تسمية المهر فلها بعد الدخول مهر المثل.

٤- وجوب المتعة للمطلقات قبل المسيس، وقبل فرض المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وذلك جبراً لخواطرهن، وتعويضاً لهن عما فاتهن من الزواج والمهر- لكن إن كان الطلاق بعد الخلوة، وقبل فرض المهر، فلها مهر المثل، لأن الصحابة ﷺ أعطوا الخلوة حكم المسيس، فأوجبوا العدة بمجرد الخلوة، فهكذا يجب بها مهر المثل إذا لم يسم المهر.

٥- أن المتعة مطلقة في كل ما يُتمتع ويُتبلغ به، من مال، أو أثاث، أو عقار، أو كسوة، أو خادم، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

٦- أن المتعة تكون بقدر حال الزوج يسراً وعسراً، فإن كان ممن وسع الله عليه في الرزق فعليه أن يُمتِّع بقدر سعته، وإن كان ممن قُدِرَ عليه رزقه فليُمَتِّع بقدر استطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

٧- حرص الشرع المطهر على إزالة وتخفيف ما يؤثر على النفوس ويكسر القلوب فقد أوجب المتعة للمطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر تخفيفاً عليهن، وجبراً لخواطرهن، وتعويضاً لهن عما فاتهن من الزواج والمهر.

٨- مراعاة الشرع لأحوال المكلفين وطاقتهم، فلا يكلف الفقير من المتعة مثل ما يكلف الغني، ولا يُكلف أحد فوق طاقته، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) انظر: «الإنصاف» (٨/ ١٦٣)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٢١)، ومسلم في النكاح (١٤١٨)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٩)، والنسائي في النكاح (٣٢٨١)، والترمذي في النكاح (١١٢٧)، وابن ماجه في النكاح (١٩٥٤)، من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٩- اعتبار العرف في الشرع؛ لهذا أوجب أن تكون المتعة للمطلقات بالمعروف؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٠- تأكيد وجوب المتعة للمطلقات قبل المسيس، وقبل فرض المهر؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١١- التنويه بشأن المحسنين بقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنهم هم الذين يمتثلون أمر الله- عز وجل- لإحسانهم في عبادة الله تعالى، وإحسانهم إلى عباده.

١٢- إباحة الطلاق قبل المسيس، وبعد فرض المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

١٣- الإشارة إلى وجوب المهر، وأن تقديره إلى الأزواج، مع رضاهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

١٤- أن للمطلقات قبل المسيس، وبعد فرض المهر نصف المفروض، ما لم تعف النساء عنه، أو يعفو الأزواج عن حقهم، فيتركوا لهن المهر كاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾.

لكن إن حصلت الخلوة وجب المهر كاملاً لأن الصحابة ﷺ أعطوا الخلوة حكم المسيس فأوجبوا بها العدة، فكذلك يجب بها المهر.

وهل تجب المتعة لمن طلقن قبل المسيس، مع نصف المهر المفروض، كما قال بعض أهل العلم احتجاجاً بقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الآية: ٤٩].

قالوا: فأمر بالمتعة لمن طلقن قبل المسيس مطلقاً، سواء من فرض لهن مهر ومن لم يفرض لهن.

لكن ظاهر قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ

فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾.

ظاهر هاتين الآيتين أن المتعة لا تجب إلا لمن طلقن قبل المسيس وقبل فرض المهر؛ لأن الله أمر بها لهن، بينما أمر للمطلقات قبل المسيس وبعد فرض المهر بنصف المفروض، وقد عطف هذه الآية على الآية الأولى وقرنها بها فلو كان للمطلقة قبل المسيس المفروض لها المهر متعة واجبة لذكرها، وهذا هو الراجح. والله أعلم.

١٥- جواز عفو المرأة عما وجب لها من المهر أو بعضه، وجواز تصرفها في مالها، إذا كانت حرة عاقلة رشيدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾.

وجواز عفو الرجل وعدم مطالبته بنصف المهر الذي دفعه، إذا طلق قبل المسيس وبعد فرض المهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ ﴾.

١٦- ترغيب كل من الزوجين بالعفو عما له من حق على الآخر، وأن ذلك من تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ بل وترغيب الأمة جميعاً بالعفو.

١٧- فضل تقوى الله- عز وجل- وأنها مطلب عظيم ينبغي أن يُنافس عليه بصالح الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾.

١٨- في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ إشارة إلى أن الإنسان قد يصل إلى مطلق التقوى، ولا يصل إلى التقوى المطلقة.

١٩- أن عقدة النكاح بيد الأزواج؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ ﴾ وهو الزوج، فإذا شاء أبقاها، وإذا شاء حلها بالطلاق.

٢٠- عظم أمر النكاح، وأنه عقد أشبه بالعقدة بين طرفي الحبل؛ لقوله تعالى: ﴿عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾.

٢١- ينبغي للأزواج وغيرهم عدم ترك الفضل بينهم والإحسان والعفو والتسامح قولاً وفعلاً وخلقاً وبذلاً، وأن لا ينسوا ويتجاهلوا ما سبق بينهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾.

٢٢- إحاطة علم الله- عز وجل- وشهادته واطلاعه على جميع أعمال العباد؛ لقوله

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ومقتضى هذا أن يحصي أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفي هذا ترغيب بالعمل الصالح، ووعد بالمثوبة عليه، وترهيب من العمل السيئ وتحذير من عقوبته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أحكام النكاح والطلاق والرجعة والخلع والرضاع ونحو ذلك مما يتعلق بحقوق الخلق التي يجب مراعاتها فيما بينهم، ثم أتبع ذلك بالأمر بالمحافظة على الصلاة وهي من حقوقه- عز وجل- التي بينه وبين العبد.

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾.

سبب النزول:

عن زيد بن أرقم ﷺ قال: «كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام»(١).

وفي رواية: «إن كنا نتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ، يكلم أحدنا صاحبه بحاجته، حتى نزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ فأمرنا بالسكوت»(٢).

لكن يشكل على هذا أن سورة البقرة كلها نزلت في المدينة، وتحريم الكلام في الصلاة كان بمكة، كما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ قال: «كنا نسلم على النبي ﷺ وهو يصلي، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي، سلمنا عليه، فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، إنا كنا نسلم عليك فترد علينا؟ قال: **إن في الصلاة شغلاً**»(٣).

وفي رواية قال عبدالله بن مسعود: «فلما قدمنا- يعني من الحبشة- سلمت عليه فلم يرد عليَّ، فأخذني ما قرب وما بعد، فلما سلم قال: «**إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث، ألا تكلموا في الصلاة**»(٤).

وفي رواية فقال ﷺ: «**إن الله أحدث في الصلاة أن لا تكلموا إلا بذكر الله، وما**

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة- تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٩)، وأبوداود في الصلاة- النهي عن الكلام في الصلاة (٩٤٩)، والترمذي في الصلاة- نسخ الكلام في الصلاة (٤٠٥)، وأحمد (٤/ ٣٦٨).

(٢) أخرجها البخاري في الجمعة (١٢٠٠)، وفي التفسير (٤٥٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٩٩)، وفي فضائل الصحابة- هجرة الحبشة (٣٦٦٢)، ومسلم في المساجد – تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٨)، وأبوداود في الصلاة (٩٢٣)، وأحمد (٣/ ٤٠٩).

(٤) أخرجه أبوداود في الصلاة (٩٢٤)، والنسائي في السهو (١٢٢١)، وأحمد (٣/ ٣٧٧، ٤١٥، ٤٣٥).

ينبغي لكم، وأن تقوموا لله قانتين»(١).

وعلى هذا فيحتمل أن زيد بن أرقم أراد بقوله: «يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة» الإخبار عن جنس الكلام، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها(٢).

ويحتمل أن المراد بقول ابن مسعود ﷺ «فلما رجعنا من عند النجاشي» رجوعه من الهجرة الثانية إلى الحبشة أي: رجوعه الثاني الذي قدم بعده على النبي ﷺ في المدينة وهو يتجهز لغزوة بدر(٣).

وقد يكون تحريم الكلام في الصلاة جاء في السنة- كما في حديث ابن مسعود، فلما قدم ﷺ المدينة كان بعضهم لم يبلغه التحريم(٤)، فنزلت الآية(٥).

قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ الأمر للوجوب، والمحافظة على الصلاة: المواظبة والمداومة عليها، كما قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج: ٣٤].

والصلاة في اللغة: الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصلاة في الشرع: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مخصوصة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. أي: حافظوا على الصلوات الخمس: صلاة الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، بأدائها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها في أوقاتها

---

(١) أخرجها النسائي في السهو (١٢٢٠)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ٣٨١).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٣٥).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٣/ ٨٩).

(٤) كما جاء في حديث معاوية بن الحكم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له حين تكلم في الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله» أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧)، وأبوداود في الصلاة (٩٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨).

(٥) انظر: «المسند المتصل من أسباب النزول» ص(٣٩).

المحددة لها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]. أي: أدوها كاملة الشروط والأركان والواجبات والسنن.

وقال تعالى في مدح المؤمنين: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تعالى في الوعيد للساهين عنها الذين يؤخرونها عن وقتها: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»(١).

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وحافظوا على الصلاة الوسطى، وهي صلاة العصر، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً**»(٢).

وعن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صلاة الوسطى صلاة العصر**»(٣).

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر. ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً**» أو قال: «**حشا الله أجوافهم وقبورهم ناراً**»(٤).

فهي الوسطى بين الصلوات وقتاً وفضلاً، فهي من حيث الوقت وسط بين صلاة

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٤)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، والنسائي في المواقيت (٦١٠)، والترمذي في الصلاة (١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٧)، وأبوداود في الصلاة (٤٠٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٤)، وابن ماجه في الصلاة (٦٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة (١٨٢)، (٥/ ١٢، ١٣)- وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٨)، والترمذي في الصلاة (١٨١)، وابن ماجه في الصلاة (٦٨٦).

النهار وصلاة الليل، وهي من حيث الفضل الفضلى بين الصلوات، أي: أفضل الصلوات، ولهذا خصها الله- عز وجل- بتأكيد المحافظة عليها- بعد الأمر بالمحافظة على جميع الصلوات؛ لعظم مكانتها فهي أفضل من صلاة الفجر، وهما أفضل الصلوات، ولهذا قال ﷺ: «**من صلى البردين دخل الجنة**»(١) يعني الفجر والعصر.

وقال ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**»(٢).

وقال ﷺ: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**»(٣).

وعن بريدة رضي الله عنه قال: بكروا بصلاة العصر، فإن النبي ﷺ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»(٤).

وعن أبي بَصْرَة الغفاري رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بالْمُخَمَّصِ، فقال: «**إن هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن حافظ عليها كان له أجره مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد، والشاهد النجم**»(٥).

وقد روى أبويونس مولى عائشة رضي الله عنها قال: «أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذِنِّي ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فلما بلغتها آذنتها، فأملت عليّ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وصلاة العصر ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ قالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ»(٦).

وهذا وما روي في معناه محمول على التفسير.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٤)، ومسلم في الموضع السابق (٦٣٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الموضع السابق (٥٥٤)، ومسلم في الموضع السابق (٦٣٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٢٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥١)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٧)، من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الموضع السابق (٥٥٢)، ومسلم في الموضع السابق (٦٢٦)، وأبوداود في الصلاة (٤١٤)، والنسائي في الصلاة ((٤٧٨)، والترمذي في الصلاة (١٧٥)، وابن ماجه في الصلاة (٦٨٥)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٣)، والنسائي في الصلاة (٤٧٤)، وابن ماجه في الصلاة (٦٩٤).

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٣٠)، والنسائي في المواقيت (٥٢١)، وأحمد (٦/ ٧٣).

(٦) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٩)، وأبوداود في الصلاة (٤١٠)، والنسائي في الصلاة (٤٧٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٢).

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ القيام هنا يشمل القيام على القدمين في الصلاة وغيرها. والقيام بمعنى الدوام والاستمرار على الشيء.

﴿لِلَّهِ﴾ أي مخلصين لله ذليلين له.

﴿قَٰنِتِينَ﴾ القنوت يطلق على دوام الطاعة، كما في قوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

أي: وكانت من المطيعين لله- عز وجل- المستمرين على ذلك، وقال تعالى مخاطباً أزواج النبي ﷺ: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

ويطلق القنوت على السكوت والخشوع، أي: وقوموا لله مخلصين في صلاتكم في قيامها وجميع أحوالها، خاشعين له بقلوبكم وجوارحكم، غير متكلمين بما ليس منها، كما قال زيد- رضي الله عنه: «كان أحدنا يكلم صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام».

وكما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]. أي: خاشع ذليل بين يدي ربه، وقال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣].

والقنوت والخشوع لب الصلاة، ولهذا جاء في الحديث: «**أن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

لما أمر عز وجل بالمحافظة على الصلوات بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها وأكد ذلك، أتبع ذلك ببيان كيفية أدائها حال الخوف والقتال، وأنها تصلى كيفما أمكن،

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣١٩)، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

وفي ذلك تخفيف على الأمة، وتأكيد لأمر الصلاة أيضاً، حيث لم يعذر في تركها ولا في تأخيرها عن وقتها في أشد الأحوال حال الخوف والقتال والتحام الصفوف.

قوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ الفاء: عاطفة، و«إن»: شرطية، ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل الشرط.

والخوف: توقع حصول مكروه بأمارة معلومة أو مظنونة، كما في حال القتال والمسايفة والتحام الصفوف.

وحذف المتعلق في قوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾؛ ليعم كل خوف، من عدو، أو سبع، أو فوات ما يتضرر الإنسان بفواته، وغير ذلك.

﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ الفاء: واقعة في جواب الشرط «إن»، أي: فصلوا حال كونكم رجالاً أو ركباناً، و«رجالاً» جمع: «راجل»، وهو: من يمشي على رجليه، أي: حال كونكم ماشين على أرجلكم.

«وركباناً» جمع: راكب أي: حال كونكم راكبين على الخيل والإبل، أو البغال والحمير، أو السيارات أو الطائرات، أو السفن أو غير ذلك من المراكب.

أي: فصلوا على أي حال كنتم رجالاً أو ركباناً، مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها؛ لأن في إباحة الصلاة ماشياً أو راكباً إيذاناً بالصلاة حيث توجه الماشي أو الراكب، ولو كان ذلك إلى غير جهة القبلة.

عن نافع عن ابن عمر ﷺ كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: «فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم، أو ركباناً، مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها».

قال نافع: «لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ»(١).

وفي رواية عن ابن عمر قال: «فإن كان خوف أشد من ذلك فصل راكباً، أو قائماً، تومئ إيماءً»(٢).

وعن جابر بن عبدالله ﷺ قال: «إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه حيث كان

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٣٥)، ومالك في النداء للصلاة (٤٤٢).

(٢) أخرجها مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٣٩).

وجهه، فذلك قوله: ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾»(١).

وبنحو من هذا فسر الآية جمع من السلف من الصحابة والتابعين(٢).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن صلاة الخوف عند التحام القتال والمسايفة تكون ركعة واحدة؛ لما رواه ابن عباس ﵄ قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة»(٣).

قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: فإذا زال الخوف عنكم واطمأننتم.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فاذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، بأنواع الذكر كلها، ومن ذلك الصلاة التي هي من أعظم الذكر، وفيها أعظم الذكر، القرآن، والتكبير والتسبيح والتحميد، وغير ذلك، وذلك بإقامتها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ الكاف للتشبيه، وهي في محل نصب صفة لمصدر محذوف، و«ما» مصدرية، أي: كتعليمه إياكم. ويجوز كونها موصولة، أي: كالذي علمكم إياه.

والمعنى: فإذا أمنتم فاذكروا الله على الصفة التي علمكم أن تؤدوا الصلاة عليها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٤٥٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٤/ ٣٨٦ - ٣٩٢)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٥٠)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٣٦).

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨٧)، وأبوداود في الصلاة (١٢٤٧)، والنسائي في الصلاة (٤٥٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٨)، وأحمد (١/ ٢٣٧).

وانظر: تفصيل القول في صفة صلاة الخوف الكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الآيتين: ١٠١، ١٠٢].

حال الأمن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣].

ويجوز كون «الكاف» للتعليل، أي: اذكروا الله لتعليمه إياكم.

﴿مَا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الذي لم تكونوا تعلمونه.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب المحافظة على الصلوات الخمس؛ بشروطها وأركانها وواجباتها وسائر أعمالها، فهي ثاني أركان الإسلام بعد الشهادتين وعمود الإسلام، وأعظم وأهم العبادات البدنية؛ لقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾.

ومن أعظم واجبات الصلاة إقامتها في المساجد مع جماعة المسلمين بالنسبة للرجال لتوافر النصوص من الكتاب والسُّنَّة على وجوب صلاة الجماعة، وخطر تركها وما فيه من الوعيد؛ ولهذا قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: «من ترك صلاة الجماعة عليه خطر أن يتمادى به الأمر إلى تركها بالكلية».

٢- عظم مكانة الصلاة الوسطى «صلاة العصر»، وفضلها من بين الصلوات الخمس؛ لأن الله خصها بالذكر بعد التعميم، فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

٣- وجوب القيام لله- عز وجل- والإخلاص له، والمداومة على طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

٤- وجوب القيام في الصلاة- مع القدرة- وأنه من أعظم أركانها، ووجوب الخشوع فيها لله، وحضور القلب، واستشعار عظمة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

٥- وجوب السكوت في الصلاة، وتحريم الكلام فيها، إلا بذكر الله تعالى من قراءة القرآن والتكبير والتسبيح والتحميد ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

٦- جواز الصلاة رجالاً وركباناً، كيفما أمكن، عند الخوف والقتال والتحام الصفوف والمسايفة، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فلا يشترط فيها من الخشوع والطمأنينة ما يشترط في حال الأمن.

٧- جواز الحركة الكثيرة في الصلاة عند العذر للضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِجَالًا أَوْ

﴿رُكْبَانًا﴾؛ لأن الراجل: وهو من يمشي على رجليه حركته كثيرة، ومثله الراكب في بعض الحالات.

٨- رفع الحرج والمشقة عن الأمة- رحمة بها- حيث أباح عز وجل الصلاة حال الخوف رجالاً وركباناً، وكيفما أمكن، ومن قواعد الشريعة: أن المشقة تجلب التيسير.

٩- وجوب ذكر الله- عز وجل- وإقامة الصلاة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها حال الأمن كما شرعها الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠- أن الصلاة من ذكر الله؛ لقوله تعالى بعد أن أمر بالمحافظة على الصلوات، وأباح فعلها حال الخوف رجالاً وركباناً: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا يدل على أنها من ذكر الله، بل هي من أعظم ذكر الله- عز وجل- فيها قراءة القرآن والتكبير والتسبيح والتحميد وغير ذلك.

١١- امتنان الله- عز وجل- على العباد بتعليمهم أمور دينهم ودنياهم؛ ليذكروه ويشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٢- أن الأصل في الإنسان الجهل حتى يعلمه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥]. وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

١٣- فضل العلم وأهله، وأن عليهم الإكثار من ذكر الله، مما ليس على غيرهم؛ شكراً لله تعالى على نعمة العلم، التي فيها سعادة العبد، وطلباً للمزيد من الهداية والعلم والأجر.

فائدتان:

الفائدة الأولى: في ذكر أهم الأسباب المعينة على حفظ الصلاة، والخشوع فيها.

أولاً: استحضار العبد لعظمة الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال تعالى: ﴿مَّا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

ثانياً: تذكُّر نعم الله- عز وجل- العظيمة وآلائه الجسيمة، التي لا تعد ولا تحصى؛ خلق ورزق وأنعم علينا بسائر النعم، التي أعظمها نعمة الإسلام والإيمان، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: مخاطباً الإنس والجن في واحد وثلاثين آية في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ففي تعظيم الرب- عز وجل- وتذكر نعمه أعظم معين على حفظ الصلاة، والعناية بها، والخشوع فيها؛ لأن بها كمال العبودية لله- عز وجل- العظيم المنعم. والعبودية أشرف حال يوصف بها البشر، ولهذا لما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢]. قال ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**» ولما نزل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]. قال ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**»(١).

وذلك تعظيماً لله- عز وجل- في أشرف حال، وأعظم عبادة.

ثالثاً: تذكر عظمة الصلاة ومكانتها من الدين، فهي عمود الإسلام وأعظم أركانه بعد الشهادتين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه- عز وجل- فإذا كبّر للإحرام فيها فتح الحجاب بينه وبين ربه، وصار يناجي ربه علانية؛ ولهذا أمر عز وجل بإقامتها في آيات كثيرة من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣].

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٨٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٧)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وجعلها الله- عز وجل- على المؤمنين كتاباً موقوتاً، فقال تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وأكد- عز وجل- وجوبها جماعة، حتى في حال القتال، فقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الآيتان: ١٠٢، ١٠٣].

وبين عدم سقوطها في أي حال حتى في حال الخوف الشديد والمسايفة، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وعظَّم الله- عز وجل- شأنها بإيجاب التطهر لها من الحدث الأصغر والأكبر، فقال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الآية: ٦].

وجعلها الله من أخص أوصاف المؤمنين، وامتدحهم بالمحافظة عليها في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج: ٣٤].

ولهذا دعاء إبراهيم عليه السلام ربه قائلاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال نبينا محمد ﷺ وهو يجود بنفسه مخاطباً أُمَّته: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»(١).

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم**»(٢).

رابعاً: معرفة الآثار العظيمة، والفوائد الكبيرة والكثيرة المترتبة على حفظ الصلاة، وإقامتها كما شرعها الله عز وجل.

فإن الفلاح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة كل ذلك مرتب على حفظها وإقامتها، فهي عمود الإسلام وأساس النجاحات وقاعدتها؛ لصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة. قال ﷺ: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**»(٣).

فحفظها وإقامتها من أعظم الأسباب للتوفيق لحفظ ما سواها من أمور الدين، وتقوى الله، والهداية لكل خير، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [لقمان: ١- ٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٥٦)، وابن ماجه في الوصايا (٦٩٨)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٧)، ومسلم في الإيمان (٥٦)، والنسائي في البيعة (٤١٨٩)، والترمذي في البر و الصلة (١٩٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وحفظها وإقامتها سبب للحفظ من جميع المعاصي والشرور، فهي مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي حفظها وإقامتها- كما شرع الله- عز وجل- الراحة والطمأنينة والسعادة، وانشراح الصدر؛ ولهذا كان يقول ﷺ لبلال رضي الله عنه: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**»(١)؛ وذلك؛ لأنها من أعظم ذكر الله الذي به تطمئن القلوب، وتنشرح الصدور، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وفي حفظها العون على القيام بما عداها من أمور الدين والدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفي حفظها حصول الرزق، كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

وفي المداومة عليها أعظم سياج معنوي وروحي أمام تقلبات الحياة ونوازع النفس، تعطي الإنسان بإذن الله- عز وجل- وتوفيقه التوازن في السرَّاء والضراء، كما

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٨٦)، وأحمد (٤/ ٣٧١)، (٥/ ٣٦٤)، من حديث محمد بن الحنفية عن صهر لهم من الأنصار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٣].

وفي الخشوع فيها الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١-٢].

وإقامتها من أسباب الأخوة في الدين، وعصمة الأنفس والأموال، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

ومن أسباب النصر والتمكين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

وفي حفظها وإقامتها التجارة الرابحة مع الله- عز وجل- والثواب العظيم والزيادة من فضله- عز وجل- في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٦-٣٨].

وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر(١).

وفي حفظها وإقامتها تكفير السيئات ودخول الجنات، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٥)، والترمذي في الصلاة (٤١٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

وقال ﷺ: «**مثل الصلوات الخمس كنهر جار غَمْرٍ عند باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا. قال: كذلك الصلوات الخمس يكفِّر الله بهن الخطايا**»(٢).

توعد الله- عز وجل- المفرطين فيها، وبين أن عاقبة التاركين لها النار، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾[الماعون: ٤، ٥].

وذكر المجرمون فيما حكى الله عنهم أن أول سبب لدخولهم النار ترك الصلاة، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

الفائدة الثانية: في ذكر أهم الوسائل وأنجحها لحفظ الصلوات:

اعلم أخي الكريم أن من أنفع الوسائل وأنجحها لحفظ الصلوات ما يلي:

أولاً: التهيؤ للصلاة من أول وقتها، بدءاً من متابعة المؤذن، ثم الوضوء والتشهد، والذكر بعده والتزين للصلاة باللباس والطيب، والسعي إليها بسكينة ووقار، وتقديم الرجل اليمنى عند دخول المسجد والذكر عنده.

ثانياً: التفرغ التام لها من مشاغل الحياة كلها، فهي الزاد الحقيقي المعنوي والروحي للإنسان، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

ثالثاً: المبادرة إليها بعد سماع النداء، والمسارعة والمسابقة إلى ذلك والمنافسة على الصف الأول وميامن الصفوف- والحذر من التأخر، ومزاحمة الناس وتخطي رقابهم.

فإن ضعفت عن المبادرة والمنافسة في ذلك، فلا تقام الصلاة إلا وأنت في المسجد.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، والترمذي في الصلاة (٢١٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٦٦٧، ٦٦٨)، من حديث أبي هريرة وجابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

وأخيراً أخي الحبيب: تذكر الفرق الشاسع، والبون الواسع بين صلاة حفظها صاحبها، وتهيأ، وتفرغ لها، وبادر إليها، واستحضر عظمة الله- عز وجل- فيها- وعظمة الصلاة وأهميتها، وبين صلاة يؤديها كثير من الناس مجرد عادة من غير تهيؤ، ولا تفرغ لها- مع انشغال البال، وتشوش الفكر، بلا هدوء ولا طمأنينة، مع التأخر، وعدم الحضور إليها إلا بعد فوات تكبيرة الإحرام، أو فوات بعض الصلاة أو أكثرها- وكيف يحفظ الصلاة من أقيمت الصلاة وهو خارج المسجد، وأنى له الخشوع فيها، وقد أضاع أسبابه.

وتذكر أخي الكريم أن ما يصيب الكثير من الناس من الاضطراب وفقدان التوازن في حياتهم سببه الأعظم عدم حفظ الصلاة، وأن ما أصاب الأمة من الضعف والهوان وتسلط الأعداء وتفرق الكلمة من أعظم أسبابه وأهمها ضعف أمر الصلاة عند كثير من المسلمين.

فالصلاة هي القاعدة والأساس لسعادة الفرد، والمجتمع والأمة، ومفتاح التيسير والتوفيق والنجاح والوصول إلى معالي الأمور في الدين والدنيا والآخرة. وأسباب النجاح كلها في الجمع بين العبادة والسعي والعمل وبين التوكل، كما قال عز وجل: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»(١).

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، وأحمد (٣/ ٤١٣، ٤/ ٣٨٥)، من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

ذُكرت هاتان الآيتان في هذا الموضع، وفصل بينهما وبين الآيات السابقة في أحكام النكاح والطلاق والرجعة والخلع والرضاع بالأمر بالمحافظة على الصلوات التي هي من أعظم حقوق الله- عز وجل- وذلك- والله أعلم- لأن هاتين الآيتين تتعلقان بالأحكام بين الزوجين بعد الممات، وتلك تتعلق بالأحكام بينهما حال الحياة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: والذين يُقبضون ويموتون منكم أيها المؤمنون، وسمي الميت متوفى؛ لأنه قد استوفى رزقه وأجله وعمله.

﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ويتركون زوجات لهم.

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ قرأ أبوعمرو وابن عامر وحمزة وحفص ﴿وَصِيَّةً﴾ بالنصب على المصدر، أي: يوصون وصيةً، أو نوصيهم وصيةً لأزواجهم، وقرأ الباقون: «وصيةٌ» بالرفع، أي: عليهم وصية لأزواجهم.

والوصية: العهد بأمر هام.

﴿مَّتَٰعًا﴾: مصدر لفعل محذوف، أي: يمتعونهن متاعاً، أو بدل من وصية.

والمتاع: ما يُتمتع به، من مال أو طعام أو لباس أو غير ذلك، وهو النفقة عليهن وكسوتهن ونحو ذلك.

﴿إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ أي: إلى تمام الحول،أي: العام، منذ وفاة الزوج.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ صفة لـ﴿مَّتَٰعًا﴾، أي: متاعاً غير مخرجات فيه، أو بدل من

«متاعاً»، أو حال من الفاعل في الفعل المحذوف، أي: يمتعونهن متاعاً غير مخرجين لهن، أي: من غير إخراج لهن من بيوتهم، فلهن مع المتاع السكن.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾: الفاء: استئنافية، أي: فإن خرجن- يعني- الزوجات بأنفسهن من غير إخراج أهل الزوج لهن.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«لا» نافية للجنس تعمل عمل «إن»، و«جناح»: اسمها، مبني على الفتح في محل نصب، «عليكم» متعلق بمحذوف خبرها، أي: كائن أو واقع عليكم.

أي: فلا حرج ولا إثم عليكم، والخطاب عام يدخل فيه أهل الزوج وأولياؤهن وغيرهم.

﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية أي: في الذي فعلن في أنفسهن، أو في فعلهن بأنفسهن، من الخروج من بيوت أزواجهن بعد وفاتهم قبل تمام الحول.

﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي: مما هو معروف في الشرع وعرف المسلمين، غير منكر.

ومن باب أولى لا حرج عليهن هن في خروجهن وفيما فعلن بأنفسهن من معروف.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: والله ذو العزة التامة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

﴿حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ أي: ذو الحكم التام النافذ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فما حكم به- عز وجل- من هذه الأحكام صدر عن عزته، ويدل على كمال حكمه وبلوغ حكمته.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الواو: استئنافية، و«للمطلقات» جار ومجرور

خبر مقدم. وقوله ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ مبتدأ مؤخر. أي: وللنساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿مَتَٰعُۢ﴾ أي: ما يتمتعن به من مال أو طعام أو لباس، أو غير ذلك.

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ أي: بما هو معروف بين الناس، مما يمتع به أمثالهن من نسائهن، على قدر يسر الأزواج وعسرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ «حقاً»: مصدر لفعل محذوف، والتقدير: حق ذلك حقًّا.

والحق: الشيء الحتم الثابت اللازم.

أي: أن هذا المتاع حق لازم ثابت واجب على المتقين، الذين يتقون الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ ولهذا خصهم بالذكر.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الكاف للتشبيه بمعنى «مثل» أي: مثل ذلك البيان السابق.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي: يوضح ويفصل.

﴿لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ اللام في قوله ﴿لَكُمۡ﴾ للتعدية، أو للتعليل، أي: يبين الله لأجلكم آياته الشرعية والكونية.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تنتفعوا بعقولكم وتتدبروا وتتفهموا عن الله- عز وجل- آياته، وما فيها من الأحكام والحكم، والأوامر والنواهي، والحلال والحرام.

وفي هذا ثناء من الله- عز وجل- على أحكامه وعلى بيانه لآياته، وموافقتها للعقول السليمة، وأن المقصود من ذلك تعقلها وتفهمها، والعمل بها.

الفوائد والأحكام:

١- الموت غاية كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ﴾.

٢- أن من مات فقد استوفى رزقه وأجله وعمله؛ لهذا سمي متوفى؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾.

٣- أن الزوجية تبقى بين الزوجين حتى بعد موت أحدهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [الآية: ١٢].

٤- وصية الأزواج بأن يوصوا لزوجاتهم بعد وفاتهم بالمتاع، أي: بالنفقة، وبالسكنى في بيوتهم لمدة حول من وفاتهم، من غير إخراج لهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾.

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وبالمواريث، وقالوا: هذه الآية وإن كانت متقدمة في التلاوة، فهي متأخرة في النزول، أي: أن نزولها بعد آية الوصية بالمتاع إلى الحول، وإن كانت قبلها في التلاوة.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الآيتين محكمتان، واختار هذا بعض المحققين منهم ابن تيمية وابن كثير والسعدي وابن عثيمين، وغيرهم.

فالآية الأولى توجب على الزوجة التربص أربعة أشهر وعشراً إذا توفى عنها زوجها، والآية الثانية فيها الوصية للأزواج المتوفين بأن يوصوا لزوجاتهم بالنفقة والسكنى في بيوتهم، حولاً كاملاً جبراً لخواطرهن، وهذا على سبيل الندب والاستحباب(١).

٥- رحمة الله- عز وجل- الواسعة، وأنه أرحم بالعباد من أنفسهم ومن بعضهم لبعض، فقد أوصى عز وجل الأزواج بزوجاتهم، فقال تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، كما أوصى الوالدين بأولادهم فقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١].

٦- لا يلزم المرأة أن تبقى في بيت زوجها حولاً، إذا أوصى بذلك قبل وفاته، بل لها أن

---

(١) انظر في تفصيل الكلام على هاتين الآيتين: «الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس (٢/ ٧٠- ٨٩) بتحقيقنا.

تخرج بعد أربعة أشهر وعشر، ولا إثم عليها، ولا على أهل الزوج، ولا على أوليائها أو غيرهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾.

٧- مسؤولية الرجال عن النساء، أزواجاً كانوا أو أولياء، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ ومفهوم هذا أن عليهم الجناح والإثم إذا خرجن عن المعروف، فيجب عليهم منعهن.

٨- تحريم خروج النساء عن المعروف شرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾.

٩- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل؛ بأقسامها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾.

١٠- أن لله- عز وجل- الحكم التام النافذ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١١- ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وجوب المتعة لكل مطلقة.

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم واستدلوا لذلك بقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الآية: ٤٩]،.

وبقوله- عز وجل- لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وعن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا: «تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن

يجهزها ويكسوها ثوبين رَازِقِيَّيْنِ»(١).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المتعة إنما تجب للمطلقة قبل الدخول وقبل فرض المهر؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وهذا ظاهر.

قالوا: أما من طلقت قبل الدخول وبعد فرض المهر فلها نصف المهر دون المتعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قالوا: وهكذا من طلقت بعد الدخول، فليس لها متعة، لكن لها المهر كاملاً إن كان مسمى، ولها مهر المثل إن لم يكن مسمى.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المتعة مستحبة لكل مطلقة، وعليه حملوا الأدلة السابقة.

قلت: ووجوب المتعة لمن طلقت قبل الدخول وقبل فرض المهر ظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾. أما من عداها فالأولى أن يمتعن.

١٢- اعتبار العرف ما لم يخالف الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإن خالف الشرع فلا اعتبار له.

١٣- تأكيد وجوب المتعة للمطلقات؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ لئلا يتهاون بها، وذلك لأنها في حال الفراق، وهي مظنة للتهاون.

١٤- التنويه بشأن المتقين وتشريفهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنهم هم الذين يمتثلون أمر الله- عز وجل- وفي هذا إغراء لهم بذلك.

١٥- امتنان الله- عز وجل- على العباد ببيان آياته وإيضاحها وتفصيلها، وإقامة الحجة عليهم في ذلك، وامتداح أحكامه وبيانه لها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٥٧).

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

١٦- إنما يستفيد من تبيين الآيات وتفصيلها ذوو العقول النيرة التي هي مناط المدح، والتي تهدي أصحابها وتدلهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

١٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة: للاستفهام، و«لم»: حرف نفي وجزم وقلب، والاستفهام إذا دخل على النفي فمعناه التقرير، أي: قد رأيت، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١]، أي: قد شرحنا لك صدرك.

وقال صاحب الدر(١): «فيمكن أن يكون المخاطب عَلِمَ بهذه القصة قبل نزول هذه الآية، فيكون التقرير ظاهراً، أي: رأيت حال هؤلاء، ويمكن أنه لم يعلم بها إلا من هذه الآية، فيكون معنى هذا الكلام التنبيه والتعجب من حال هؤلاء.

ويجوز أن يكون المراد بالاستفهام التعجب من حال هؤلاء، وأكثر ما يرد كذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ [المجادلة: ١٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]».

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، والرؤية هنا علمية، وهي في الأصل تتعدى إلى مفعولين، لكنها هنا ضمنت معنى ما يتعدى بإلى، أي: ألم ينتهي علمك، أو: ألم تنظر إلى الذين خرجوا من ديارهم.

﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ قيل: إنهم من بني إسرائيل، وقيل من غيرهم.

﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ أي: من بيوتهم وأحيائهم وبلدانهم.

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم ألوف، و«ألوف»: جمع ألف، والمعنى: وهم ألوف كثيرة جداً.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ﴿حَذَرَ﴾ مفعول لأجله، أي: خوفاً وفراراً من الموت، وذلك أنه

---

(١) «الدر المصون» (١/ ٥٩٢).

نزل وباء في ديارهم فخرجوا منها خوفاً وفراراً من الموت بهذا الوباء.

وقيل: إنه أغار عليهم عدو في ديارهم فخرجوا منها جبناً وخوفاً من لقائه وفراراً من القتل.

ويقوي هذا القول قوله: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فهذا يشير إلى أن الأولى أن يقاتلوا ولا يجبنوا وهم بهذه الكثرة الكاثرة، فالكثرة سبب للعزة والمنعة، يقول العرب في الجيش إذا بلغ الألوف «لا يغلب من قلة»(١)، ويقولون: «الكثرة تغلب الشجاعة».

قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر(٢)

ولهذا قال شعيب عليه الصلاة والسلام مذكراً لقومه بنعمة الله عليهم بتكثيرهم بعد القلة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

كما يقوي هذا القول قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

وكذا ما بعده مما أخبر الله به عن بني إسرائيل من طلبهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، ولهذا أمر بعد هذه الآية بالقتال في سبيل الله.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فقال الله لهم قولاً كونياً: ﴿مُوتُواْ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: فأماتهم جميعاً؛ ليريهم أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا مفر من قدره، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» (٢/ ٤٧٨).

(٢) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٩٣).

عن أبي الزناد، عن أبيه: أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة بكى، وقال: «لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح؛ فها أنا أموت على فراشي، حتف أنفي، كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء»(١).

﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، أي: فماتوا ثم أحياهم، وهذا من إيجاز الحذف، و«ثم»: عاطفة تقتضي التراخي.

أي: ثم أحياهم بفضله بعد مدة؛ ليريهم وجميع الخلق قدرته ﷻ التامة على إحياء الموتى، قيل: كان إحياؤهم بسبب دعوة نبي من الأنبياء.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ «إنَّ»، واللام: للتوكيد، و«ذو» بمعنى صاحب.

﴿فَضْلٍ﴾ الفضل: التفضل والزيادة ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ جميعهم، مؤمنهم وكافرهم، خلقهم سبحانه، وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبيَّن لهم الآيات، وأعدهم وأمدهم من فضله، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ومن فضله ﷻ على هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بأن أماتهم ثم أحياهم؛ ليعتبروا، كما أن في ذلك فضلاً على غيرهم من الناس؛ لأن في ذلك عبرة لهم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «ولكن أكثرهم لا يشكرون» زيادة في التشنيع عليهم.

أي: لا يشكرون الله تعالى على ما تفضل به عليهم من النعم، والتي من أعظمها نعمة الخلق من العدم والإحياء بعد الموت، وبعث الرسل وإنزال الكتب، والرزق وغير ذلك.

قال ابن كثير(٢): «﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾،

---

(١) أخرجه في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٧٢)، وفي «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ١٩٤). وانظر: «الاستيعاب» (٢/ ٤٣٠)، «أسد لغابة» (٢/ ١٤٠).

(٢) في تفسيره (١/ ٤٤٠).

أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم».

وشكر الله ﷻ يكون باستعمال نعمه في طاعته والبعد عن معصيته.

وإذا كان أكثر الناس لا يشكرون، كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فلا ينبغي الاغترار بما عليه الأكثرون، بل يجب الحذر منهم ومجانبة طريقهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وفي الحديث: أن الله ﷻ يقول لآدم: «**أخرج بعث النار من ذريتك من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين**»(١).

ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله(٢): «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين».

فالعبرة بالكيف لا بالكم، وكما قيل:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى(٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة حال الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، إما بسبب وباء حل بأرضهم أو عدو أغار عليهم، فأماتهم الله ثم أحياهم، ثم أتبع ذلك بالأمر بالقتال في سبيل الله في إشارة واضحة إلى أنه كما أن الحذر لا ينجي من الموت، فكذلك القتال في سبيل الله لا يقرب من الموت.

قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، والمقاتلة: المفاعلة من جانبين، أي: وقاتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢)؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) ذكره صاحب كتاب «الشيخ محمد بن عبد الوهاب المفترى عليه» (ص٢٣٧)، وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦).

(٣) البيت لابن دريد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤)، «جواهر الأدب» (٢/ ٤٠١).

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طريق إعلاء كلمة الله ودينه، بأن يكون القتال خالصاً لوجه الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ لما سُئل عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

وأن يكون القتال وفق شرع الله تعالى بأن يقوم به المسلمون بإذن من ولي الأمر؛ عندما توجد أسبابه الشرعية، وتتوفر وسائله وأدواته من إعداد العدة والقوة ونحو ذلك.

وأن يكون القتال لمن يقاتل المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ومن غير غلول ولا غدر، ولا قتل لمن لم يقاتل من النساء والصبيان والرهبان، ونحو ذلك، كما قال ﷺ: «**اغزوا بسم الله، قاتلوا من كفر الله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً**» الحديث(٢).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، أي: واعلموا أن الله ذو سمع واسع يسمع جميع الأقوال والأصوات، وذو علم واسع يسع كل شيء، فهو ﷻ سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم وما تنطوي عليه قلوبكم من الإخلاص وضده.

وفي هذا ترغيب بامتثال أمر الله تعالى ووعد لمن قاتل في سبيل الله، بعون الله تعالى له، وإثابته، وتحذير ووعيد لمن خالف أمر الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾.

أمر الله ﷻ في الآية السابقة بالقتال في سبيله، ثم رغب ﷻ في هذه الآية بالإقراض له، بالإنفاق في سبيله مما يشمل القتال في سبيل الله تعالى وغير ذلك؛ لأن القتال في سبيل الله لا يقوم إلا على المال.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٣)، والترمذي في الديات (١٤٠٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨) من حديث بريدة رضي الله عنه.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، إن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدحداح»** قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني أقرضت ربي حائطي، حائطاً فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح! قالت: لبيك. قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي ﷻ»(١).

قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ «من»: اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ، و«ذا»: اسم إشارة مبني في محل رفع خبر، و«الذي»: اسم موصول مبني في محل رفع بدل من «ذا» أو عطف بيان.

ويجوز أن يكون «من ذا» كله اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وخبره الاسم الموصول.

والاستفهام للتحضيض والطلب بألطف أنواع الطلب، وهو أبلغ من الطلب بصيغة الأمر.

«يقرض» بمعنى: يسلف، والقرض لغة: القطع، وشرعاً: دفع مال لمن ينتفع به ويرد بدله.

والمراد به هنا: ما يعطيه الإنسان وينفقه في سبيل الله تعالى ليجازيه الله ﷻ عليه، أي: من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً في الإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ «قرضاً»: على المصدرية، و«حسناً»: صفة له، أي: جميلاً طيباً، وهو ما وافق الشرع، وذلك بأن يكون خالصاً لله تعالى، لا رياء فيه ولا سمعة، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً**

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ ٤٣٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٠)، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤١ – ٤٤٢) وقال: «وقد رواه ابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن أسلم عن أبيه عن عمر مرفوعاً بنحوه».

أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(١).

وأن يكون من مال حلال؛ لقوله ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»(١).

وأن يكون بنفس طيبة، وبلا مَنٍّ ولا أذى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٤].

وأن يكون القرض والإنفاق في محله في مساعدة المحتاجين، وفي مصالح المسلمين، لا في محرم كالفجور وشرب الخمور ونحو ذلك.

وسمى الله ﷻ الصدقة والإنفاق في سبيله قرضاً- مع أن المال ماله تعالى، والملك ملكه، والخلق عبيده- حثّاً عليه وترغيباً فيه.

ولأنه ﷻ تكفل بوفائه بالإثابة عليه ومضاعفة أجره، تفضلاً منه وكرماً، وفي الحديث: «**من يقرض غير عديم ولا ظلوم**»(٢).

وقد حمل بعض المفسرين القرض في الآية على ما يشمل الإنفاق وجميع الأعمال الصالحة.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ قرأ عاصم ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بإثبات الألف مع نصب الفعل بأن مضمرة بعد فاء السببية، أو على أنه جواب الاستفهام.

وكذا قرأ ابن عامر ويعقوب بالنصب، لكن مع حذف الألف والتشديد: (فيُضعِّفَه).

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي بإثبات الألف مع رفع الفعل: «فيُضاعفُهُ» عطفاً على «يقرض»، وكذا قرأ ابن كثير بالرفع لكن مع حذف الألف وتشديد العين: «فيُضَعِّفُهُ».

والمضاعفة: جعل الشيء ضعفين أو أكثر.

﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ «أضعافاً»: حال، أو مصدر، و«كثيرة»: صفة له، أي: أضعافاً كثيرة لا حد لها، من الخُلْف في الدنيا والثواب في الآخرة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وفي الحديث: «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»(١).

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ حضّ ﷻ ورغب في الإنفاق، ثم أخبر أن بيده القبض والبسط لئلا يُزهد في الإنفاق مخافة الفقر.

قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص «ويبسط»، وقرأ الباقون بالصاد ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾.

وبين «يقبض» و«يبسط» طباق إيجاب، فهما ضدان.

و«القبض»: التضييق والإمساك في الرزق وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: ومن ضيق عليه رزقه، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

و«البسط»: التوسيع، قال تعالى: ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ [الرعد: ٤٦]، أي: يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء؛ لحكم يعلمها، وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ﴾ [الطلاق: ٧].

فبيده ﷻ القبض والتضييق، والبسط والتوسيع في الرزق والعلم والعمر والملك والأهل والولد، وفي الأجر والثواب وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة.

فلا ينبغي أن يحول دون الإنفاق الخوف من الفقر؛ لأن القبض والبسط بيد الله تعالى.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإليه وحده تردون فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وقدم المتعلق ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لإفادة الحصر، مع مراعاة فواصل الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- أن الحذر لا ينجي من القدر ولا يؤخر الأجل، ولا مفر من قدر الله؛ لقوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾.

وكما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

٢- قد يؤتى الحذر من مأمنه، ويلقى الجبان حتفه في مظنة نجاته.

٣- لا يجوز الخروج من الديار حذراً من الموت بسبب وباء وقع فيها أو نحو ذلك؛ لأن الله ذكر هؤلاء على وجه الذم لفعلهم، وقدر الله واقع لا محالة.

ولهذا قال ﷺ في الطاعون: «**إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه**»(١).

٤- أن من طبيعة البشر كراهية الموت والفرار منه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

وكما قال ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقائه**»، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله كلنا يكره الموت؟ قال ﷺ: «**ليس ذاك يا عائشة**»(٢)، ولم ينكر عليها.

لكن كلما كان الإنسان أكثر للموت استعداداً بالعمل الصالح كلما كان الموت عليه أهون.

٥- قدرة الله ﷻ التامة على الإماتة والإحياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾، أي: فماتوا ثم أحياهم، وكما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

٦- إثبات القول والكلام لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾.

٧- إثبات المعاد والبعث يوم القيامة؛ لأن الذي أمات هؤلاء ثم أحياهم في الدنيا قادر على بعثهم وإحيائهم يوم القيامة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٣، ١٩٤)، من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وأخرجه بنحوه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٧٣)، ومسلم في السلام والطاعون والطيرة والكهانة (٢٢١٨)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٥) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٢٦٨٥)، ومالك في الجنائز (٥٦٩)، وأحمد (٢/ ٣٤٦، ٤١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٨- فضل الله ﷻ على الناس جميعاً المؤمن منهم والكافر، خلقهم ورزقهم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وبيَّن لهم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٩- ثناء الله ﷻ وامتداحه لنفسه بأنه ذو فضل على الناس؛ لأنه أهل الثناء والحمد والمدح حقاً، كما في الحديث: «**أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد**»(١).

ولهذا في حديث عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك مدح نفسه**»(٢).

١٠- قلة الشاكر من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

١١- وجوب شكر الله تعالى على فضله ونعمه، باستعمال نعمه في طاعته والحذر من معصيته؛ لأن الله ذكر فضله على الناس، وذم الذين لا يشكرون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ دلالة على أنهم لا يشكرون مطلقاً، فلا هم يشكرون الله المتفضل الأول والمنعم الحقيقي عليهم، ولا هم يشكرون من أحسن إليهم من بني جنسهم، وفي الحديث: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»(٣).

١٣- وجوب القتال في سبيل الله، وهو في الأصل فرض كفاية، ويتعين في بعض الأحوال، كما إذا حضر صف القتال، أو استنفر الإمام المسلمين، أو إذا حاصر العدو البلد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- يجب أن يكون القتال في الإسلام خالصاً لوجه الله وابتغاء مرضاته وإقامة دينه؛

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٧)، وأبو داود في الصلاة (٨٤٧)، والنسائي في التطبيق (١٠٦٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة الأعراف، قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ (٤٦٣٤)، ومسلم في التوبة، غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣٠).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩٥٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: «حديث حسن صحيح».

لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لتكون كلمة الله هي العليا، ومن ذلك حرية الدعوة إلى الله تعالى والدفاع عن حرمات المسلمين ومقدساتهم وبلدانهم ومصالحهم ونحو ذلك.

١٥- يجب أن يكون القتال في الإسلام وفق شرع الله تعالى بأن يكون بإذن ولي أمر المسلمين وللذين يقاتلون المسلمين، مع الحذر من الغدر والغلول والقتل لمن لم يقاتل من الرهبان والنساء والصبيان وغيرهم، ومعاملة الأسرى كما أمر الله تعالى وغير ذلك.

١٦- أن ما كان من القتال لغير الله تعالى كالقتال لحمية وعصبية ورياء، وكذا ما كان مخالفاً للشرع مما فيه اعتداء وغلول وغدر وقتل لمن لم يقاتل ونحو ذلك فليس في سبيل الله.

١٧- التحذير من مخالفة أمر الله، وترك القتال في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٨- إثبات صفة السمع الواسع لله ﷻ، والعلم الواسع له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٩- الوعد لمن أطاع الله تعالى والوعيد لمن خالف أمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فمقتضى سمعه وعلمه الواسعين أن يحصي على العباد أقوالهم وأعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها خيرها وشرها.

٢٠- الحث والترغيب بالإنفاق في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، وذلك من وجوه عدة؛ منها أن «من ذا» اسم استفهام يفيد الحث والإغراء بالإنفاق، ومنها أن الله ﷻ جعله قرضاً له سبحانه، ومنها أنه سبحانه وعد بمضاعفته له أضعافاً كثيرة.

٢١- تكفل الله ﷻ وضمانه أجر المنفق في سبيل الله، ولهذا سماه قرضاً، وهذا من عنايته ﷻ بالمنفق والمنفق عليه والمنفق فيه.

٢٢- بلاغة القرآن الكريم فيما يدعو إليه من الخصال والأعمال، فإن في توجيه الخطاب بهذا الأسلوب الاستفهامي «من ذا» مع تسمية ذلك قرضاً مع ما رتب عليه من

المضاعفة الكثيرة ما يجعل المؤمن القادر الموفق لا يتردد في الإنفاق في سبيل الله تعالى رجاء ما عند الله.

٢٣- أن من شرط قبول القرض والإنفاق في سبيل الله أن يكون حسناً، أي: خالصاً لوجه الله تعالى ومن مال حلال، وبطيب نفس من المنفق بلا مَنٍّ ولا أذى، وأن يكون في محله، في ذوي الحاجة ومصالح المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.

٢٤- فضل الله العظيم وجوده الواسع ومضاعفته للمنفق في سبيله الخلف في الدنيا والثواب في الآخرة أضعافاً كثيرة لا حد لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

٢٥- أن لله ﷻ كمال الأمر والتدبير في هذا الكون والقبض والبسط في الرزق وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾.

٢٦- في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ بعد الحض على الإنفاق إشارة واضحة إلى أنه لا ينبغي ترك الإنفاق مخافة الفقر، وأن الإنفاق ليس سبباً للفقر، كما أن التقتير ليس سبباً للغنى، بل الإنفاق سبب للزيادة والبركة، والتقتير سبب للتلف ومحق البركة، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(١)، وقال ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**»(٢).

٢٧- إثبات البعث، وأن مرد الخلائق كلهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وفي هذا وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالف أمر الله تعالى وعصاه.

* * *

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتقرير والتعجيب كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾، والكلام فيه كما سبق.

﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ «الملأ»: الأشراف والوجهاء والرؤساء.

﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: من بعد وفاة نبي الله موسى- عليه الصلاة والسلام- كليم الرحمن، وأفضل أنبياء بني إسرائيل.

﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى «حين» أي: حين قالوا، وتنكير «نبي» للإشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي، وإنما المقصود هو حال القوم، وهذا النبي قيل: إنه «صمويل» وهو بالعربية «شمويل»، وقيل: هو «شمعون»، وقيل غير ذلك.

﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أي: أقم لنا واجعل لنا ملكاً، و«الملك»: من يقوم بتدبير وتصريف أمور المملكة.

وإقامة الملك أو الأمير الذي يدبر شؤون الناس أمر ضروري. كما قيل:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا(١)

وقد قيل: «ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام»(٢).

﴿نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ «نقاتل»: جواب الأمر «ابعث»، أي: نقاتل معه، وتحت إمرته في سبيل الله.

قيل: وذلك حين ظهرت العمالقة من قوم جالوت على كثير من أرضهم.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ الاستفهام للتقرير والتحذير.

قرأ نافع: «عسِيتم» بكسر السين، وقرأ الباقون بفتحها ﴿عَسَيْتُمْ﴾، أي: قال لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

و«عسى» هنا للتوقع، أي: هل يتوقع منكم إن كتب عليكم القتال، أي: إن فرض عليكم القتال أن لا تقاتلوا.

أي: أن هذا هو المتوقع منكم، وهذا تحريض لهم على القتال وتحذير لهم من الجبن.

وجملة ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ معترضة بين اسم «عسى» وهو ضمير التاء، وخبرها وهو قوله: ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

وبُني الفعل «كتب» في الموضوعين لما لم يسم فاعله؛ لأن الذي كتب ذلك وفرضه معلوم وهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) البيت للأفوه الأودي. انظر: «ديوانه» (ص١٠).

(٢) انظر: «السياسة الشرعية» ص(١٧٧).

﴿قَالُوا﴾ أي: قالوا إجابة على الاستفهام السابق: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الواو: رابطة لهذا الكلام بما قبله لتأكيد رغبتهم في القتال في سبيل الله.

معناه هنا: الإنكار والتعجب، والمصدر المؤوّل ﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ في محل جر بحرف جرف محذوف تقديره «في»، أي: أيّ شيء لنا في ترك القتال؟! أي: أيّ شيء لنا يمنعنا من القتال؟!

﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ الجملة حالية فيها تعليل لوجه الإنكار، أي: والحال أننا قد أخرجنا من ديارنا.

﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي: وأخرجنا من بين أبنائنا.

والمعنى: وأي مانع لنا يمنعنا من القتال في سبيل الله، وقد وُجِدَ ما يقتضي ذلك، وهو إخراجنا من ديارنا وأبنائنا.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أيّ: فلما فرض وأوجب عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا بأبدانهم وأدبروا عن القتال، وأعرضوا بقلوبهم عما أمرهم الله به، فصدق فيهم ما توقعه نبيهم أنهم لن يقاتلوا.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ الاستثناء متصل، والتقدير: تولوا إلا عدداً قليلاً منهم، و«القليل» يطلق على الثلث وَمَا دونه، كما قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**الثلث والثلث كثير**»(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: والله ذو علم واسع بالظالمين المعرضين عما أمر الله به والمرتكبين لما نهى الله عنه، وهو سبحانه عليم بالظالمين وغيرهم وبكل شيء، وإنما خص علمه هنا بالظالمين وعيداً للظالمين وتحذيراً من الظلم.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وهو النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣].

واعتبر التولي عن القتال في سبيل الله ظلماً؛ لأنه ترك لما أمر الله به ومعصية له بدل

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١٦٦)، من حديث سعد رضي الله تعالى عنه.

الامتثال لأمره وطاعته.

والظلم ينقسم إلى قسمين: **الأول**: ظلم النفس بترك ما أمر الله تعالى به وارتكاب ما نهى الله عنه، وأظلم الظلم الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والقسم الثاني: ظلم الغير، بالتعدي على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ونحو ذلك، وهو داخل في ظلم النفس؛ لأن ضرره يعود عليها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي: وقال لهؤلاء الملأ من بني إسرائيل نبيهم إجابة على طلبهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، أي: جعل لكم طالوت ملكاً.

و«طالوت»: اسم للملك الذي بعثه الله تعالى عليهم، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

و﴿مَلِكًا﴾: حال من «طالوت»؛ أي: حال كونه ملكاً لكم، والملك من له التصرف والتدبير في مملكته، حسب ما تقتضيه الولاية الشرعية، أو العرفية.

قيل: ولم يكن طالوت من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط «يهوذا»، و«طالوت» من سبط «بنيامين» وهم لا ملك فيهم ولا نبوة.

﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ «أنى» بمعنى كيف، وهو استفهام فيه معنى التعجب، أي: كيف يكون له الملك علينا؟!

وفي قولهم: ﴿عَلَيْنَا﴾ إيماء منهم إلى أنه بعث للسيطرة عليهم، بينما قال في أول الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ باللام الدالة على أنه بعث لمصلحتهم.

﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ هذا تعزيز وتعليل لاستفهامهم السابق وتعجبهم، أي: والحال أننا أحق بالملك منه؛ لأن الملك كان في آبائنا فنحن أولى بالملك منه وراثة وحسباً

ونسباً ومكانة في المجتمع، وهذا كما قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٦].

﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾: حال معطوفة على الحال السابقة، أي: والحال أنه لم يعط سعة من المال، أي: أنه فقير، لا مال له يقوم بالملك.

فمع أنهم يرون أنهم أحق بالملك منه، لكن لو أعطي سعة من المال لهان الأمر عليهم في كونه ملكاً عليهم تنازلاً منهم عن أحقيتهم بالملك لأجل المال.

لأن المال عصب الحياة، وبه يستطيع تدبير وتصريف شؤون الملك وإعداد الجيوش للقتال وغير ذلك، إضافة إلى أنه يغطي العيوب، كما قيل:

يغطى بالسماحة كل عيب ... وكم عيب يغطيه السخاء(١)

والفقر ليس بعيب، فقد تولي الخلافة على المسلمين أبو بكر وعمر وعلي ﷺ، وكانوا من أفقر الناس، وأقلهم مالاً، وما ضرهم ذلك، وماذا عساه أن يفي مال «طالوت» لو كان غنياً بحاجيات المملكة.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: قال لهم نبيهم رداً على قولهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: اختاره من بينكم، واختيار الله تعالى خير لكم من اختياركم لأنفسكم.

﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ﴾ هذا رد على قولهم: ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾، أي: وزاده سعة ووفرة ﴿فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: علم سياسة الأمة، وحسن الرأي والتدبير الذي به يستطيع إدارة الملك والحرب وغير ذلك.

﴿وَٱلۡجِسۡمِ﴾ أي: وزاده سعة في الجسم، في الضخامة والقوة والشجاعة، والطول.

قيل: ولهذا سمي بـ«طالوت» على وزن اسم المصدر، مشتق من الطول، فمنعه من الصرف للعملية وشبه العجمة، فاجتمع فيه القوة المعنوية بسعة العلم بالسياسة وحسن التدبير، مع القوة الحسية بسعة الجسم والقوة والشجاعة التي يستطيع بها مكافحة الأعداء ومكابدة الحروب؛ لأن سياسة أمر الأمة ترجع إلى أصالة الرأي وقوة البدن.

---

(١) البيت للشافعي. انظر: «ديوانه» (ص ١٠).

وقدم زيادة البسطة في العلم من العلم بالسياسة والرأي؛ لأن الرأي أهم وأعظم وهو أول، كما قال أبو الطيب(١):

الـــرأي قبـــل شـــجاعة الشـــجعان هـــو أول وهـــي المحـــل الثـــاني

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أي: والله يعطي الملك من يريد من العباد حسب ما تقتضيه حكمته، ولو من غير إرث ولا مال، وأضاف ﷻ الملك إليه؛ لأن ملك الكون كله له سبحانه.

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: ذو سعة في جميع صفاته، و«الواسع» من أسماء الله ﷻ.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

فهو عليم بمن يستحق الملك من ذوي النسب والغنى وغيرهما ممن لا يستحقه، وغير ذلك، ومن سعة علمه وفضله ﷻ أن يعطي الملك من يشاء حسب ما تقتضيه حكمته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

كأنهم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ الآية، قالوا له: ائت بآية، فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ الآية.

والآية: العلامة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، والضمير في قوله: ﴿مُلْكِهِۦٓ﴾ يعود إلى طالوت، الذي بعثه الله تعالى ملكاً عليهم.

أي: إن علامة أنه ملك من الله تعالى لكم ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية.

---

(١) انظر: «ديوانه» (٤/ ١٧٤)، وانظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (ص٢٩٦).

﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع خبر «إنَّ»، والتقدير: إن آية ملكه إتيان التابوت إليكم.

و«التابوت» في الأصل الصندوق من خشب أو غيره ويحفظ فيه المتاع.

والتابوت المذكور في الآية قيل: هو شيء على هيئة الصندوق مصنوع من الخشب أو غيره، وفي تعريفه إشارة إلى أنه كان معهوداً عندهم لكنه سلب منهم.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه فيه سكينة من ربكم، أي: فيه، وفي مجيئه إليكم ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يُسَكِّن- سبحانه- به نفوسكم، ويُطمئن به قلوبكم، وآية من آيات الله تعالى ورحمة لكم.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ من العلم والحكمة والتوراة.

﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الجملة حالية، أي: حال كون هذا التابوت تحمله الملائكة، وفي هذا إشارة إلى أن هذا التابوت كبير.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ «إنَّ»: حرف توكيد ونصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل رفع خبر «إنَّ» مقدم، و«آية» اسمها منصوب مؤخر، واللام في قوله: ﴿لَءَايَةً﴾ للتوكيد.

والإشارة في «ذلك» لإتيان التابوت إليهم فيه سكينة من ربهم، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة. أي: إن في ذلك لعلامة لكم على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أخبرتكم به من بعث الله ﷻ «طالوت» ملكاً لكم، وعلى قدرة الله تعالى وعظمته.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: كنتم من ذوي الإيمان الذين يصدقون بالآيات وينتفعون بها، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وحينئذٍ سلَّموا وانقادوا له.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي: خرج بهم وانفصل عن البلد، قيل: عن بيت المقدس.

و«الجنود» جمع جندي، وهم الرجال المقاتلون، قيل: كانوا ثمانين ألفاً، وقيل غير ذلك.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي: ممتحنكم ومختبركم ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو الماء الجاري الكثير؛ ليعلم من يصبر ومن لا يصبر؛ لأن القتال يحتاج إلى صبر وتحمل، وليعلم من يطيع ويمتثل الأمر، ممن لا يطيع، وكانوا أشد ما يكونون من العطش، قيل هذا النهر نهر الأردن، وقيل: نهر بين فلسطين والأردن.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ أي: فمن شرب من هذا النهر شرباً كثيراً.

﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾: جواب الشرط، أي: ليس مني لا قرباً ولا ولاءً ولا طاعة؛ لمخالفته وقلة صبره، أو ليس من جندي.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يذقه ولم يشرب منه شيئاً.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾: قرباً وولاءً، لصدقه وصبره وطاعته.

﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بفتح الغين «غَرفةً»، وقرأ الباقون بضمها ﴿غُرْفَةًۢ﴾.

والغَرفة بالفتح: المرة الواحدة من الغرف، وهو أخذ الماء باليد، والغُرفة بالضم: المقدار المعروف.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ استثناء متصل من قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، و«من» في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾ موصولة.

والمعنى: إلا الذي اغترف غرفة واحدة بيده لا بيديه معاً فشربها يبل بها ريقه، فلا بأس عليه.

والجملة الثانية: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ معترضة بين المستثنى والمستثنى منه، وأصلها التأخير إلا أنها قدمت للعناية؛ لأنها تدل عليها الأولى بطريق المفهوم، فإنه لما

قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهم منه أن من لم يشرب فإنه منه، فلما كانت مدلولاً عليها بالمفهوم صار الفصل بها كلا فصل.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أي: أكثرهم، مما يدل على عدم صبرهم، وأنهم ليسوا أهلاً للحرب.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ الاستثناء متصل، أي: إلا عدداً قليلاً منهم لم يشرب.

قال بعض المفسرين: من اغترف منه بيده رَوِيَ، ومن شرب منه لم يرو.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: لما جاوز طالوت النهر هو والذين آمنوا معه من بني إسرائيل.

روى البراء بن عازب ﷺ قال: «**كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة**»(١)، وقيل: أربعة آلاف.

﴿قَالُوا﴾ أي: الذين جاوزوا النهر، أي: قال بعضهم بدليل قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾.

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ أي: لا قدرة لنا ﴿الْيَوْمَ﴾ «ال» للعهد الحضوري، أي: اليوم الذي شاهدوا فيه عدوهم.

قال ابن كثير(٢): «أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم؛ لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر عند الله تعالى ليس عن كثرة عدد ولا عدة».

﴿بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: بقتال وحرب جالوت وجنوده، وذلك لما رأوا كثرتهم. ويحتمل أن الذين قالوا هذه المقالة الذين نكلوا يبررون به نكولهم، ويحتمل أنهم الذين جاوزوا مع طالوت استقلوا أنفسهم، فشجعهم أصحابهم؛ لقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ تثبيتاً لأنفسهم ولأصحابهم وتقوية لقلوبهم: ﴿كَم مِّن

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٧)، والترمذي في السير (١٥٩٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٢٨).

(٢) في تفسيره (١/ ٤٤٧).

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾.

ومعنى ﴿يَظُنُّونَ﴾ أي: يتيقنون. والظن يطلق كثيراً في القرآن الكريم على اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦](١).

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾، أنهم سيلقون الله ويقابلونه ويحشرون إليه ويعرضون عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ «كم»: خبرية، معناها التكثير، و«فئة» أي: جماعة، والمعنى: كثير من فئات قليلة غلبت فئات كثيرة؛ لأن العبرة بالكيف لا بالكم.

ومعنى ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ أي: تفوقت عليها وانتصرت عليها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذن الله وأمره الكوني، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢](١).

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معهم معية خاصة بنصره وتأييده وتوفيقه لهم، كما أنه معهم ومع جميع الخلق معية عامة بعلمه وإحاطته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أي ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله تعالى وعن معصيته وعن التسخط والجزع على أقداره المؤلمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾ أي: ولما ظهر طالوت والذين آمنوا معه.

﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وواجهوهم، و«برزوا» مأخوذ من «البَرَاز» وهي الأرض

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على هذه الآية.

البارزة المنكشفة المستوية الظاهرة، ومنه سُميت المبارزة.

﴿قَالُواْ﴾ أي: قال طالوت والذين آمنوا معه داعين الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يا ربنا، ودعوه ﷻ وتوسلوا إليه بوصف الربوبية؛ لأن الرب من له الخلق والملك والتدبير وبيده الأمر كله.

﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: أَفِضْ علينا واملأ قلوبنا صبراً، ونكر «صبراً» للتفخيم، أي: صبراً عظيماً. وفي التعبير بقولهم: «وأفرغ» إيذان بالكثرة.

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾أي: اجعل أقدامنا ثابتة راسخة بحيث لا تزول فلا نفر ولا نهرب، ولا نتزلزل عند اللقاء بتثبيت قلوبنا.

﴿وَٱنصُرۡنَا﴾ أي: وقونا وأظهرنا ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهم جالوت وجنوده وغيرهم، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقولوا: وانصرنا عليهم، أو وانصرنا على أعدائنا، بل قالوا: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لما فيه من بيان وتعليل سبب دعائهم بالنصر عليهم، وهو كفرهم، لا لحمية أو عصبية ونحو ذلك، أي: وانصرنا عليهم لأجل كفرهم، وعلى هذا فيعم هذا الدعاء طلب النصر على جميع الكافرين.

قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾.

قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: فهزم طالوت والمؤمنون معه من بني إسرائيل، وغيرهم، جالوت وجنوده؛ أي: غلبوهم وقهروهم وانتصروا عليهم.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾الباء للاستعانة، أي: بإذن الله وعونه وتقديره وأمره الكوني.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾داود عليه الصلاة والسلام كان من جنود طالوت، وكان قوياً شجاعاً، وكان جالوت جباراً قوياً عنيداً، فطلب- فيما ذكر- من داود المبارزة، فتبارزا، فقتل داود جالوت فانهزم جنوده.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ الضمير يعود إلى داود، أي: فأعطى الله داود

الملك والسلطان، وآتاه الحكمة، وهي النبوة، ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله.

وذكر الحكمة بعد الملك؛ لأنها كانت بعده وقوعاً، أو للترقي من ذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى، فاجتمع له القوة الدينية الشرعية بالنبوة والرسالة، والقوة الدنيوية والتنفيذية بالملك والإمارة، كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وباجتماع الدين والملك صلاح البلاد والعباد؛ لأن الدين والملك كالتوأمان، وبارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر؛ لأن الدين أس والملك حارس، وما لا أس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: وعلم ﷻ داود من الذي يريده سبحانه من العلم الديني والدنيوي الذي اختصه به، ومن ذلك صنعة الدروع والتقدير في السرد، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها: «دفاع»، وقرأ الباقون بفتح الدال وإسكان الفاء من غير ألف ﴿دَفْعُ﴾.

و«لولا»: حرف امتناع لوجود، و«دفع» مبتدأ وهو مصدر مضاف إلى فاعله لفظ الجلالة (الله)، و«الناس»: مفعول به، و«بعضهم»: بدل منه، «ببعض» متعلق بـ«دفع»، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: موجود.

أي: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض بالجهاد لفسدت الأرض، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود وبالمؤمنين.

﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ جواب «لولا»، واللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لفسدت الأرض، و«الفساد»: ضد الصلاح، والمعنى: لفسدت الأرض باستيلاء الكفرة والفجار وظهور الشرك وانتشار المعاصي والشرور، وحصول الجدب والقحط ومحق البركات وقلة الخيرات، وكثرة الآفات وهلاك الحرث والنسل وخراب البلاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن» للاستدراك، و«ذو» بمعنى صاحب، «الفضل»: الزيادة والعطاء الواسع الكثير.

﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ «العالمين» جمع عالم، وهم جميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ففضله واسع وجوده عميم، على جميع العالمين، الناطق والبهيم، ومن فضله ﷻ على العالمين دفع الناس بعضهم ببعض بالجهاد ونحو ذلك، فإن في تحكيم الإسلام، وإقامة شرع الله نعمة من الله وفضلاً على الخلق كلهم من المسلمين وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ١٠٨].

قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (تلك): إشارة إلى ما سبق من الآيات، ويجوز كون الإشارة للقرآن كله. ويقوي هذا كونها بصيغة البعد- مع ما في ذلك من تعظيم الآيات وتنزيلها منزلة المشاهد لوضوحها وبيانها.

و﴿ءَايَٰتُ﴾: جمع آية، والمراد بها الآيات الشرعية وما تضمنته من الأخبار والأحكام والعبر.

﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ أي: نقرؤها عليك بتلاوة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، والباء للملابسة، أي: نتلوها عليك حال كونها متلبسة بالحق فهذه الآيات حق، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وطريق وصولها حق، فسندها أصح الأسانيد وأعلاها، نزلت من عند الله بواسطة جبريل الأمين على محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤].

وهي مشتملة على الحق فيما جاءت به، أخبارها صدق، وأحكامها عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«إنَّ» واللام للتوكيد، فالجملة فيها توكيد لرسالته ﷺ، وتنويه بشأنه، وتثبيت لقلبه، ورد على المنكرين لرسالته وبيان أنه ليس بدعاً من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل: «إنك رسول الله».

الفوائد والأحكام:

١- الحث على التأمل في أحوال السابقين وقصصهم وما حصل منهم، وما جرى لهم، وأخذ العظة والعبرة من ذلك، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآيات.

٢- حاجة المقاتلين في سبيل الله تعالى إلى ملك وأمير وقائد يقودهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣- أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الملك لقولهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يخاطبون نبيهم، فالنبي له السلطة أن يبعث لهم ملكاً يتولى أمورهم ويدبرهم، وهذا يدل على مكانة أهل العلم بالله ﷻ وبشرعه وأهمية الرجوع إليهم في اختيار من يتولى أمور المسلمين من الحكام والأمراء لكي تصلح أحوال الأمة.

٤- أن مما يشجع الناس على القتال في سبيل الله ما وقع أو يقع عليهم من الظلم والإخراج من ديارهم وأبنائهم، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾.

٥- أن مما يشرع له القتال في سبيل الله الدفاع عن الأنفس والديار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، بل إن ذلك واجب؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾، أي: فرض وأوجب عليهم القتال للدفاع عن الدماء والأنفس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

٦- نكوص كثير من بني إسرائيل وتوليهم عن القتال في سبيل الله، لما فرض القتال عليهم، وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي الإخبار بهذا تعريض ببني إسرائيل في عهده ﷺ، وأنهم لن يعدوا أن يكونوا مثل أسلافهم.

٧- الحذر من الغرور والاعتداد بالنفس؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، وبالتالي تولوا ولم يقاتلوا- كما توقع نبيهم.

٨- أن الأولى عدم سؤال الأنبياء عما سكت عنه الشرع؛ لأن ذلك قد يكون سبباً للتكليف به، بإيجاب أو تحريم مما قد يشق التكليف به- والعافية لا يعدلها شيء، وقد سأل الحواريون عيسى ابن مريم- عليه الصلاة والسلام- المائدة فلما أنزلها الله كفروا بها.

ولهذا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. وقال ﷺ: «**دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»(١).

وقال ﷺ: «**إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرماً رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته**»(٢).

ولما قال ﷺ: «**إن الله كتب عليكم الحج فحجوا**» قام الأقرع بن حابس، فقال: أفي كل سنة مرة؟ فقال ﷺ: «**لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، الحج مرة فما زاد تطوع**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (١، ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٦١٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك (١٧٢١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٠)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي حديث أبي ثعلبة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**»(١).

٩- أن البلاء موكل بالمنطق، فهؤلاء قالوا لنبيهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، فابتلوا ببعث طالوت ملكاً لهم وفرْض القتال عليهم، فتولوا- كما توقع ذلك نبيهم، وقد قال نبينا محمد ﷺ محذراً أمته من هذا المسلك: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**»(٢).

وقد أحسن القائل:

احـــذر لســـانك أن تقـــول فتبـــتلى ... إن الـــبلاء موكـــل بـــالمنطق(٣)

١٠- أن قليلاً من بني إسرائيل قاتلوا ولم يتولوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

١١- علم الله ﷻ بالظالمين، وأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وهو ﷻ عليم بالظالمين وغيرهم، وإنما خصوا بذلك للتحذير من الظلم والوعيد للظالمين؛ لأن مقتضى علمه بهم أن يحصي عليهم أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم بها.

١٢- تحذير المسلمين من حال هؤلاء الذين تولوا عن القتال بعد أن طلبوه وفرض عليهم، وأن ذلك من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه مرفوعاً ابن المنذر والحاكم - فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٣٢)، وأخرجه الدارقطني في سننه (٤/ ٢٩٧- ٢٩٨)، وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٥٢)، وقد أخرجه الطبري عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] موقوفاً على أبي ثعلبة ﷺ، وقال شاكر في «تخريج الطبري»: «ولم أستطع أن أجده في المستدرك، ولا غيره من كتب الصحاح»، وانظر: «مشكاة المصابيح» (١/ ٦٩) حديث (١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١) من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ.

(٣) البيت ينسب لأبي بكر الصديق ﷺ. انظر: «العقد الفريد» (٣/ ١٦).

١٣- بعث الله لهؤلاء الملأ ملكاً استجابة لطلبهم ذلك من نبيهم وامتحاناً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

١٤- كمال أدب الأنبياء مع الله ﷻ وتعظيمهم له ولأمره؛ لإسنادهم الفضل والأمر له؛ لقول نبي هؤلاء الملأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ولم يقل: «**إني قد بعثت لكم**» كما قالوا هم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا﴾.

١٥- ظهور العناد والاستكبار في كلام هؤلاء الملأ من بني إسرائيل، فأولاً طلبوا بعث ملك لهم، ثم لما بعثه الله لهم قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ تعجباً منهم واستكباراً.

١٦- أن في نظر هؤلاء الملأ أنه إنما يستحق الملك من كان ذا منزلة في حسبه ونسبه كأن يكون ممن كان الملك فيهم ونحو ذلك؛ لقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾.

أو كان ذا سعة من المال؛ لقولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، وذلك أن المال به يكثر الأعوان على تدبير شؤون الملك، بل إنه يغطي كثيراً من النقص والعيوب.

١٧- أن طالوت جمع من الصفات ما يستحق به أن يكون ملكاً على هؤلاء الملأ؛ أهمها وأعظمها أن الله ﷻ اختاره بعلمه وحكمته وفضّله عليهم، كما زاده بسطة في العلم والجسم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

١٨- أن الكفاءة في تولي الملك لمن جمع علم السياسة وحسن التدبير، وبين القوة التي ينفذ بها الحق، فمن اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

١٩- أن الله ﷻ يعطي الملك من يشاء بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾.

٢٠- أن ملوك الدنيا وما ملكوا ملك لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾؛ ولهذا لا يجوز أن يتصرف الملوك والملّاك بما يملكون إلا وفق ما شرعه الله تعالى؛ لأن كل ما يملكونه هو ملك لله تعالى.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى وهي تابعة لحكمته، وهي بمعنى الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

٢٢- أن الله ﷻ واسع في جميع صفاته وأفعاله، واسع الفضل والرحمة والمغفرة والجود والمن والعطاء والإحاطة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

٢٣- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ الذي يسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٤- تحقيق بعث طالوت ملكاً على هؤلاء الملأ بجعل علامة على ملكه، وهي إتيان التابوت وتأكيد أن في ذلك آية لهم على ذلك، وعلى قدرة الله التامة وحكمته وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٢٥- حكمة الله ﷻ البالغة وقدرته العظيمة الباهرة فيما جعل في هذا التابوت من سكينة منه سبحانه، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون من العلم والحكمة تحمله الملائكة، تسكن إليه نفوسهم وتطمئن إليه قلوبهم في حربهم وسلمهم، وذلك من آيات الله ﷻ.

٢٦- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وفي هذا إشارة إلى عظم هذا التابوت.

٢٧- أن الآيات لا ينتفع بها إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فالإيمان شرط للانتفاع بالآيات، وكلما قوي الإيمان قوي الانتفاع بالآيات.

٢٨- اختبار الجنود قبل القتال لمعرفة مدى صبرهم وتحملهم وطاعتهم لقائدهم، ومعرفة من هو أهل للقتال من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ الآية، وفي هذا أعظم الابتلاء لهم؛ لأنهم كانوا عطاشاً.

٢٩- أن اختبار القائد لجنوده يكون بعد الانفصال بهم عن البلد وعن مكان الإقامة ليكونوا قد تهيَّئوا واستعدوا وأجمعوا أمرهم وابتعدوا عن مظاهر الحياة والتعلق بها.

٣٠- ينبغي لقائد الجيش أن يختار من الجنود من هم أهل للقتال دون غيرهم، ممن قد يفت في عضد الجيش؛ لقوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

٣١- قلة المطيع من الناس الممتثل لأمر الله ﷻ الصابر عند الابتلاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

٣٢- أن ضعف اليقين سبب للخوف والجبن، والإرجاف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

أي: قال بعضهم وهم ضعاف الإيمان واليقين، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٣٣- كثرة جيش الكفار وجنود جالوت؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ لأنهم قالوا هذا بعد أن رأوا كثرة جنوده.

٣٤- إثبات المعاد وملاقاة الله ورؤية المؤمنين لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾.

٣٥- أن قوة الإيمان واليقين سبب للشجاعة والثقة بنصر الله تعالى؛ لقوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٣٦- أن الكثرة قد يكون لها أثرها في العزة والغلبة أحياناً، كما قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر(١)

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٩٣).

وكما قيل: «الكثرة تغلب الشجاعة».

ولهذا قال هؤلاء لما رأوا كثرة جيش جالوت: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

لكن العبرة غالباً بالكيف لا بالكم، ولهذا قال أهل اليقين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾.

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وكذا ما حصل في بدر وغيرها من الغزوات في الإسلام.

٣٧- أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فهؤلاء أظهروا عزمهم على القتال، كما في قولهم لنبيهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، ولكن عند اللقاء تولوا وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

لهذا كان ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»(١)، ويقول: «**وأسألك الرضا بعد القضاء**»(٢)؛ لأن الرضا بعد وقوع المكروه هو الرضا الحقيقي.

٣٨- إثبات إذن الله ﷻ الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ في الموضعين، أي: بإذنه الكوني القدري، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

٣٩- إثبات معية الله ﷻ الخاصة وأنه ﷻ مع الصابرين معية خاصة بنصره وتوفيقه وتأييده لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٤٠- فضل الصبر والترغيب فيه، وعظيم أثره، وعلو مكانة الصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ومشروعية دعاء الله ﷻ عند لقاء العدو وسؤاله التوفيق للصبر وتثبيت الأقدام والنصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ

---

(١) أخرجه النسائي في السهو (١٣٠٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٧)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في السهو (١٣٠٥)، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

٤١- أن من أفضل دعاء الله ﷻ دعاءه باسم ووصف الربوبية الذي معناه الخلق والملك والتدبير؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ﴾، وبه كان جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٤٢- إثبات خلق الله تعالى الأعمال ومشيئته لها؛ لقول المؤمنين: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

لأن بيده ﷻ الخلق والأمر، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بإذنه الكوني الذي لا يتخلف.

٤٣- أن في الجمع بين الاستعداد للقتال بالصبر والتحمل وغير ذلك، مع الثقة بوعد الله والالتجاء إليه، حصول النصر وهزيمة العدو بإذن الله تعالى؛ لقوله ﷻ: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾.

٤٤- شجاعة داود- عليه الصلاة والسلام، وأنه من جنود طالوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾.

٤٥- فضل الله ﷻ العظيم على داود عليه الصلاة والسلام، حيث جمع الله له بين الملك والنبوة وعلمه مما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

٤٦- أن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- ليس لديهم من العلم إلا ما علمهم الله تعالى؛ لا من علم الشرع ولا من علم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

كما قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال ﷻ له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٤٧- منة الله تعالى وحكمته بدفع الناس بعضهم ببعض بالجهاد؛ لتصلح الأرض ومن عليها وتسلم من الفساد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ

لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾.

٤٨- عظيم فضل الجهاد في سبيل الله؛ لأن به صلاح البلاد والعباد وحفظ الأديان والأبدان والأوطان والأموال.

٤٩- محبة الله ﷻ لصلاح الأرض ومن عليها وكراهته للفساد.

٥٠- من دفع الله ﷻ الناس بعضهم ببعض تظهر حكمة الابتلاء ليتميز الحق من الباطل وأهل الحق من غيرهم، وليعبد الله ﷻ على حق وعلم وبصيرة.

٥١- فضل الله ﷻ العظيم على جميع الخلق حتى الكفار بتهيئة أسباب صلاح الأرض لهم بدفع بعضهم ببعض، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

٥٢- الإشادة والتنويه بما أنزل عز وجل على رسوله من الآيات الشرعية وما فيها من الحق، وإثبات وتأكيد رسالته؛ لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ أشار إلى الرسل بإشارة البعيد «ذلك» تنويهاً بشأنهم وعلو مراتبهم، وأشار إليهم بإشارة المؤنث؛ لأن الرسل جمع تكسير، وجمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في الإشارة إليه، وفي تأنيث فعله، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: جعلنا بعضهم أفضل من بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

والمعنى: جعلنا بعضهم أفضل من بعض في الوحي، وفي الأتباع، وفي الدرجات والمراتب عند الله ﷻ، وفي اكتمال الصفات من الحزم والعزم وغير ذلك.

فأفضلهم أولو العزم من الرسل، وهم المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وأفضل أولو العزم محمد ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع**»(٢).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل**»، وفي لفظ: «**فعنده طهوره ومسجده**»، «**وأحلت**

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٦١٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل - فضل النبي ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨).

لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١).

وقال ﷺ: «**ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»(٢).

إلى غير ذلك من الفضائل التي خصه الله تعالى بها.

وأفضل أولو العزم بعد النبي ﷺ إبراهيم الخليل، أبو الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، اتخذه الله ﷻ خليلاً كما قال ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وأفضلهم بعد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- موسى بن عمران كليم الرحمن- عليه الصلاة والسلام- ثم بقية أولو العزم وهما: نوح وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ الجملة مستأنفة؛ لبيان بعض أوجه التفضيل بينهم، وهي تكليم الله لبعضهم، أي: من الرسل من كلمه الله ﷻ فالعائد محذوف.

وممن كلم الله ﷻ من الرسل موسى- عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

كما كلم الله ﷻ محمداً ﷺ ليلة المعراج، وفرض عليه الصلوات الخمس؛ ولهذا يقال له ﷺ: كليم الله.

كما كلم ﷻ آدم عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.. الآية [البقرة: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [الأعراف: ١٩].

قال ابن كثير(٣): «منهم من كلم الله، يعني: موسى ومحمداً ﷺ، وكذا آدم، كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه».

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» (١/ ٤٤٨).

كما كلم ﷻ وخاطب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠].

كما كلم ﷻ زكريا عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

كما كلم ﷻ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [الآية: ٥٥ آل عمران].

وكلم ﷻ داود عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

وكلم ﷻ نوحاً عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الآيتان: ٤٥، ٤٦ هود].

كما كلم ﷻ الملائكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

كما رُوِيَ أنه ﷻ كلَّم عبدالله الأنصاري والد جابر بن عبد الله كفاحاً، قال ﷺ لجابر رضي الله عنه: «**ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً**» الحديث(١).

كما كلم ﷻ صاحب القرية، قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وإنما خص موسى عليه السلام باسم «الكليم»؛ لأن الله كلمه بالوحي إليه وإرساله، وقال له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠١٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

لكن فيه التفات من التكلم إلى الغيبة، أي: ورفع بعض الرسل على بعض مراتب ومنازل، ومقامات، فأعطى محمداً ﷺ المقام المحمود، وهو الشفاعة بين يدي الرب ﷻ لمحاسبة الخلائق بعدما يلجمهم العرق، ويشتد بهم الكرب، وبعدما يعتذر عن الشفاعة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩]، وهو مقام الشفاعة، وعسى من الله تعالى واجبة.

وفي حديث الشفاعة، فيقول ﷺ: «**أنا لها، فيسجد تحت العرش ويفتح عليه من المحامد، فيقال له: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع**»(١).

كما يرجو ﷺ أن تكون له الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة، ففي حديث عمرو ابن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإن من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل اللهَ لي الوسيلة حلت له الشفاعة**»(٢).

وفي حديث الإسراء أنه ﷺ رأى الأنبياء في السماء بحسب منازلهم عند الله ﷻ، فإبراهيم في السماء السابعة، وموسى في السماء السادسة، وهارون في الخامسة، وإدريس في الرابعة، ويوسف في السماء الثالثة، ويحيى وعيسى في السماء الثانية، وآدم في السماء الدنيا»(٣).

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأعطينا عيسى ابن مريم الآيات الظاهرات والحجج الواضحات، والدلائل القاطعات على صدق

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٤)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣)، والنسائي في الأذان (٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦١٤).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٨٤)، ومسلم في الإيمان (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

رسالته عليه الصلاة والسلام، وعلى أنهن حق من عند الله ﷻ، والمبينات للحق من الباطل والحلال من الحرام.

وهي قسمان: آيات بينات شرعية من تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وآيات كونية جعلها الله ﷻ على يديه من تكليمه الناس في المهد، وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن الله -تعالى.

كما قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩].

وقال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [الآية: ١١٠].

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي: قويناه، ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النمل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ «لو»: شرطية؛ وهي حرف امتناع لامتناع، و«شاء»: فعل الشرط، و«ما»: نافية، وجواب الشرط جملة: ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: من بعد الرسل.

ومفعول «شاء» محذوف دل عليه جواب الشرط، والتقدير: ولو شاء الله أن لا يقتتل الذين من بعدهم ما اختلفوا.

أي: ولوا أراد الله ما وقع الاقتتال بين الذين من بعدهم، أي: من بعد الرسل جملة، أو من بعد كل رسول حيث يحصل الاقتتال والاختلاف في كل أمة بعد رسولها.

كما حصل في هذه الأمة- وهي أفضل الأمم- الخلاف والاقتتال بعد رسول الله

ﷺ بسبب ما أحدثه أهل البدع من الخوارج والرافضة والقرامطة والباطنية وغيرهم من أهل البدع من شرخ شق صف الأمة الإسلامية بعد وحدتها، وأضعفها أمام أعدائها منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يومنا هذا، فما زالت الأمة تكتوي بناره.

حيث كان أهل البدع في جميع الأعصار والأمصار- بما هم عليه من خيانة لله ولدينه ولرسوله وللمؤمنين- غصة في حلوق أهل الإسلام، ومركباً لأعداء الإسلام تمكنوا من خلالهم من محاربة الإسلام؛ والاستيلاء على كثير من بلاد المسلمين وخيراتهم.

ولهذا قال ﷺ محذراً أمته: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١).

وقال ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(٢).

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: من بعد ما جاءتهم على ألسنة الرسل وعلى أيديهم الآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، والدلائل الواضحات الشرعية والكونية على صدق الرسل وما جاؤوا به من الرسالات، أي: بعد إيضاح الحق لهم.

﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم﴾، و«لكن» للاستدراك، أي: ولكن اختلفوا فكان هذا الاختلاف سبباً لاقتتالهم.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَ﴾: بيان لكيفية اختلافهم، وأنه اختلاف في الدين، و«من»: في قوله: ﴿فَمِنۡهُم﴾ في الموضعين تبعيضية، و«من» في قوله: ﴿مَّنۡ ءَامَنَ﴾، وقوله: ﴿مَّن كَفَرَ﴾: موصولة، أي: فبعضهم الذي آمن بالله وصدق رسله ورسالاته، وبعضهم الذي كفر وكذب الرسل وجحد الرسالات.

أي: فمنهم من آمن برسوله، ومنهم من كفر به، ومنهم من آمن برسالات جميع الأنبياء، ومنهم من كفر به كلها، أو ببعضها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة: ١١٣].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، وأبو داود في الفتن (٤٢٦٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٢١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ توكيد لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: ولو شاء الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن» للاستدراك، و«ما»: موصولة، وهذا استدراك على قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ﴾؛ ليبين أن ما وقع من الاختلاف والاقتتال كان بإرادته ﷻ الكونية، والتي هي بمعنى المشيئة، كما قال تعالى: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والمعنى: ولكن الله يفعل الذي يريد، أي: الذي يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ومما شاءه ﷻ وأراده كوناً الاقتتال والاختلاف بين الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

الفوائد والأحكام:

١- علو مقام الرسل ورفعة منزلتهم عند الله ﷻ؛ لأنه تعالى أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿تِلْكَ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾.

٢- إثبات الله ﷻ العظمة لنفسه، تارة بضمير العظمة، وتارة بلفظ الجلالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَا﴾، وقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾.

٣- تفضيل الله ﷻ لبعض الرسل على بعض، ففضلهم كلهم على جميع الخلق، وفضل بعضهم على بعض، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

فأفضلهم أولو العزم: محمد، وإبراهيم، وموسى، ونوح وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

وأفضل أولي العزم: محمد ثم إبراهيم، ثم موسى عليهم الصلاة والسلام، ولا

يقدح في ذلك قوله ﷺ: «**لا تفاضلوا بين الأنبياء**»(١)، وقوله ﷺ: «**لا تخيروني على موسى**»(٢).

فإن هذا النهي فيما إذا كانت المفاضلة بينهم على سبيل التعالي والافتخار بأن يتعالى ويفتخر كل قوم بنبيهم، فهذا لا يجوز، أما على سبيل الإخبار وبيان الواقع فلا بأس بذلك.

٤- إثبات الكلام لله ﷻ بحروف وأصوات مسموعة مفهومة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: من كلمه الله ﷻ.

والكلام من صفات الله ﷻ الذاتية الثابتة له ﷻ، ومن صفاته الفعلية المتعلقة بمشيئته، فهو يتكلم إذا شاء بما شاء- سبحانه وتعالى، وفي هذا رد على من نفى اتصافه ﷻ بالكلام، كالجهمية والمعطلة، ونحوهم، وعلى من زعم أن كلامه ﷻ هو المعنى القائم بالنفس كالأشاعرة، ونحوهم.

٥- أن مما فضل الله به بعض الرسل تكليمه ﷻ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ كموسى عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٦- أن مما فضل الله به بعض الرسل على بعض أن رفع بعضهم درجات حسية ومعنوية في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾.

٧- إثبات نبوة عيسى ابن مريم- عليه الصلاة والسلام، وإعطائه الآيات البينات الشرعية في الإنجيل، والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وفي هذا رد على اليهود الذين أنكروا رسالته عليه السلام.

٨- تأييد الله ﷻ وتقويته لعيسى ابن مريم- عليه الصلاة والسلام- بجبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٤)، وأبو داود في السنة (٤٦٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات - ما يذكر في الأشخاص والخصومة (٢٤١١)، وفي الفضائل- من فضائل موسى (٢٣٧٣)، وأخرجه مسلم في الفضائل (٢٣٧٣)، وأبو داود في السنة (٤٦٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٩- إبطال تأليه النصارى لعيسى ابن مريم وعبادتهم له من دون الله؛ لأنه لو كان رباً وإلهاً ما احتاج إلى تأييد وتقوية لا بجبريل عليه السلام ولا بغيره.

١٠- قوة جبريل عليه السلام ومكانته عند الله تعالى، وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

١١- أنه لا يقع شيء في هذا الكون من خير أو شر إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

فأفعال العباد ومشيئتهم تابعة لمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن العباد يستقلون بخلق أفعالهم وأنها ليست مرتبطة بمشيئة الله تعالى(١).

١٢- أن قتال الكفار للمؤمنين كان بعد بيان الحق لهم بالآيات البينات وقيام الحجة عليهم، والإعذار منهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

١٣- اختلاف الناس وانقسامهم تجاه دعوة الحق إلى مؤمن وكافر، ولله الحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

١٤- أن الاختلاف شر يجب الحذر منه.

١٥- إثبات الاختيار للعبد، وأنه ليس مجبوراً على فعله، كما تزعم الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾.

* * *

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٦٤١).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ الإنفاق: بذل المال، والمراد به هنا: بذل المال في طاعة الله تعالى من النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على من تلزم النفقة عليه من الأهل والأولاد ونحوهم، وكذا النفقات المستحبة كالصدقة والهدية ونحو ذلك، وحذف المعمول ليعم الإنفاق جميع طرق الخير.

﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ «من»: تبعيضية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أنفقوا بعض الذي رزقناكموه، أو بعض رزقنا لكم، والرزق: العطاء.

ويحتمل أن تكون «من» بيانية، وعلى هذا فيجوز إنفاق جميع المال.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ «أن» والفعل «يأتي» في محل جر مضاف إليه، أي: من قبل إتيان يوم، والمراد به يوم القيامة.

﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ هذه الجملة المنفية في محل رفع صفة لـ«يوم».

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالبناء على الفتح بدون تنوين: «لا بيعَ»، «ولا خلةَ» «ولا شفاعةَ»، على اعتبار «لا»: عاملة عمل «إنَّ»، لكن بالبناء على الفتح، لا بالتنوين.

وقرأ الباقون بالضم فيها كلها مع التنوين على اعتبار «لا» ملغاة: ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾.

﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ ﴾ «لا»: نافية، أي: لا بيع موجود أو كائن فيه.

والبيع: عقد المعاوضات التي يطلب بها الأرباح، ويراد به هنا- والله أعلم- ما هو

أعم من ذلك وهو تبادل المنافع.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾، أي: ولا خلة موجودة أو كائنة فيه، والخلة: أعلى المودة والصداقة والمحبة.

ومما يدل على أن الخلة أعلى المحبة أنه ﷺ قال: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**»(١)، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**ولكن صاحبكم خليل الله**»(٢).

بينما قال ﷺ لما سئل: من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة»، قيل: من الرجال؟ قال: «أبوها»(٣)، فاتخذ ﷺ أبا بكر حبيباً ولم يتخذه خليلاً، كما كان يقال لأسامة بن زيد رضي الله عنه: «**حِب رسول الله ﷺ**»(٤).

فالخلة أعلى وأخص من المحبة؛ لأنها تتخلل شغاف القلب والأعضاء.

قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سُميَ الخليل خليلاً(٥)

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: ولا شفاعة موجودة أو كائنة فيه. والشفاعة: الوساطة للغير بجلب نفع أو دفع ضرٍ.

والمراد ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ لأهل الكفر مطلقاً، ولا لغيرهم إلا بعد إذن الله تعالى للشافع ورضاه عن المشفوع، كما سيأتي بيانه.

فانتفت في ذلك اليوم- يوم القيامة- جميع وسائل الانتفاع التي كانت بين الناس في الدنيا من المعاوضة وتبادل المنافع بينهم، أو نفع الخليل لخليله والصديق والقريب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦)، ومسلم في فضائل الصحابة، من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٢)، والترمذي في المناقب (٣٦٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق (٢٣٨٣)، والترمذي (٣٦٥٥)، وابن ماجه في المقدمة (٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٦٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٤)، والترمذي في المناقب (٣٨٨٥)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، وأبو داود في الحدود (٤٣٧٣)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٩٩)، والترمذي في الحدود (١٤٣٠)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) البيت لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (ص١٨٢).

[عبس: ٣٤- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، فكلٌّ منشغل بنفسه، قال كعب بن زهير(١):

وقال كل خليل كنت آمله: لا ألهينك إني عنك مشغول

كما انتفت في ذلك اليوم الشفاعة والوساطة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما يقول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، والناس في الدنيا يتبادلون المنافع بيعاً وشراءً وغير ذلك، وينتصر بعضهم لبعض، كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بدون سلاح(٢)

كما يشفع بعضهم لبعض فيشفع القوي للضعيف وذو الجاه لغيره وهكذا.

أما في ذلك اليوم، يوم القيامة، فلا بيع ولا خلة ولا شفاعة، ولا ينفع المرء في ذلك اليوم إلا العمل الصالح بإذن الله ﷻ وما كان في الله، ولله، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الواو: استئنافية، والكافرون جمع «كافر» والكفر: الإنكار والجحود والتكذيب.

﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: هم الظالمون حقاً، الذين بلغوا في الظلم غايته، فالكافرون الذين أنكروا وجود الله وجحدوا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه ورسله، وكذبوا بذلك أو بشيء منه، ومن ذلك جحد ما أوجبه الله تعالى من النفقات كالزكاة ونحو ذلك، أو منعها على قول بعض أهل العلم.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٩).

(٢) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» (ص٢٩).

﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ «هم» ضمير منفصل يفيد التأكيد، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جمع «ظالم»، والظلم: النقص كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣].

وهو أيضاً: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

والظلم قسمان: ظلم للنفس بإقحامها الكفر والموبقات وتعريضها لعذاب الله، وظلم للغير وهو أيضاً من ظلم النفس؛ لأن وبال ذلك عليها.

وقد أكد ﷻ وصف الكافرين بالظلم وحصره فيهم بكون الجملة اسمية مُعَرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»؛ وذلك لعظم ظلمهم، حيث صرفوا حق الله ﷻ الذي هو أعظم الحقوق، وهو عبادته وحده لا شريك له، صرفوا ذلك لغيره وهو سبحانه الذي خلقهم ورزقهم وعافاهم، ولهذا كان الشرك أعظم الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال ﷺ، وقد سئل: أي الذنب أكبر؟ فقال: «**أن تجعل لله نداً وقد خلقك**»(١).

وكل كفر ظلم، وليس كل ظلم كفراً، ولهذا قال عطاء بن دينار رحمه الله: «الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: «والظالمون هم الكافرون»»(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

هذه الآية أعظم آية في كتاب الله ﷻ، وهي مشتملة على عشر جمل خبرية مستقلة، فيها إثبات عدد من صفات الله ﷻ العظيمة، منها: كمال ألوهيته ووحدانيته، وحياته وقيوميته، وعموم ملكه، وقوة سلطانه، وسعة علمه، وسعة كرسيه وقوته وقدرته وعلوه وكمال عظمته.

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سأله، فقال: «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**»

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٦١)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ٥٢٦).

قال: آية الكرسي. فضرب النبيُّ ﷺ على صدره وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين وكله رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان قال: فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فلا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح**»(٢).

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ «الله»: مبتدأ، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في محل رفع خبره.

و«الله» علم على الرب تبارك وتعالى، وهو أصل الأعلام، وأعرف المعارف، وهو أصل أسماء الله ﷻ، وتأتي أسماء الله تعالى كلها تابعة له، كما في قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآيات: ٢٢-٢٤].

وقد يأتي تابعاً كما في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ١، ٢]، فلفظ الجلالة (الله) أتى بعد اسمه تعالى (الحميد)، لكنه لا يعرب صفة، وإنما يعرب بدلاً أو عطف بيان.

ومعنى (الله) أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً، أي: الذي له وحده جميع معاني الألوهية.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ «لا»: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ»، تفيد العموم والاستغراق في النفي لجميع أفراده، ﴿إِلَٰهَ﴾: اسم «لا» مبني على الفتح في محل نصب، وخبرها محذوف، تقديره: حق، أي: لا إله حق إلا هو، أي: لا معبود حق سواه- سبحانه وتعالى.

وكل ما يعبد من دونه فهو باطل، ولا ينفع ولا يضر، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]

و﴿ٱلْحَىُّ﴾: خبر ثان، أو صفة للفظ الجلالة «الله»، وقيل غير ذلك.

و«ال» فيه للاستغراق، يدل على أنه ﷻ ذو الحياة الكاملة الدائمة الباقية أزلاً وأبداً والتي لا يعتريها نقص، ولم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء أو زوال، والتي هي أصل جميع

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨١٠)، وأبو داود في الصلاة (١٤٦٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في فضائل القرآن (٥٠١٠).

الصفات، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فقوله: ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ من الصفات المنفية التي تتضمن إثبات كمال ضدها، وهو الحياة الجامعة لكمال الأوصاف، كمال السمع والبصر والعلم والقدرة، والإرادة والقوة والرحمة والعفو والمغفرة وغيرها من الصفات الذاتية، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٦٠].

﴿ٱلْقَيُّومِ﴾: خبر ثالث، أو صفة ثانية للفظ الجلالة «الله»، وقيل غير ذلك.

و﴿ٱلْقَيُّومِ﴾: اسم من أسماء الله ﷻ، و«أل» فيه للاستغراق، يدل على أنه ﷻ ذو القيومية التامة، والدال على كمال جميع صفاته الفعلية، القائم بنفسه الغني عما سواه، المقيم لغيره من الخلق، القائم عليهم، المدبر لهم.

فكل المخلوقات لا قوام لها إلا به- سبحانه وتعالى- كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وفي «الحي»: كمال صفاته ﷻ، وفي «القيوم»: كمال أفعاله، وفي اجتماعهما: كمال ذاته ﷻ.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: تأكيد لقوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

والسِّنَةُ: النعاس، وهو مقدمة النوم، أي: لا يعتريه نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ولا سهو ولا غفلة؛ لكمال حياته وقيوميته وعلمه.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١).

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «له»: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿مَا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٩).

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ مؤخر، و«ما» في الموضوعين: اسم موصول يفيد العموم.

واللام في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ مع تقديم الخبر للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: له وحده جميع الذي في السموات والذي في الأرض، خلقاً وملكاً وتدبيراً، وكلهم عبيده، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وفي هذا دلالة على كمال وعموم قيوميته.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون جملة: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ من الخلق، من الأنبياء والملائكة والإنس والجن وغيرهم ﴿يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

و«من»: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، و«ذا»: زائدة من حيث الإعراب، جيء بها لتحسين اللفظ وتأكيد المعنى، أو خبر «من» الاستفهامية.

﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول مبني في محل رفع خبر «من»، أو بدل من «ذا».

والاستفهام هنا للإنكار والنفي بدليل الإثبات بعده بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: لا أحد يشفع عند الله ﷻ إلا بإذنه؛ لكمال ملكه وعظيم سلطانه، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

﴿يَشْفَعُ﴾: صلة الموصول. والشفاعة في اللغة: مأخوذة من الشفع ضد الوتر؛ لأن المشفوع له بعد أن كان وتراً صار شفعاً بانضمام الشافع إليه.

والشفاعة في الاصطلاح: الوساطة لجلب نفع أو دفع ضر.

وفي الحديث: «**هذا حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع**»(١).

فشفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف أن يقضى بينهم بعدما يشتد بهم الحال من الشفاعة في دفع الضر، وشفاعته ﷺ في أهل الجنة أن يدخلوها من الشفاعة في جلب النفع.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ متعلق بمحذوف حال، أي: من ذا الذي يشفع عنده في أي حال من الأحوال إلا في حال إذنه، أي: إلا مأذوناً له، ونحو ذلك.

وإذن الله ﷻ قسمان: إذن كوني كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩].

والمعنى هنا: من ذا الذي يشفع عنده إلا بعد إذنه، أي: إلا بعد أن يأذن ويرخص له في الشفاعة ويبيح له ذلك؛ لعظمته سبحانه وجلاله وكبريائه، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

حتى ولو كان الشافع سيد الخلق، وأفضل الرسل محمداً ﷺ؛ ولهذا يعتذر جميع الأنبياء عن الشفاعة في أهل الموقف كل منهم يقول: نفسي، نفسي إلى أن يأتي الناس إلى نبينا محمد ﷺ، فيقول: «أنا لها» فيسجد تحت العرش تعظيماً لله ﷻ، ويفتح الله عليه من المحامد والدعوات حتى يقال له: «**ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع**».(١).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ كقوله تعالى في سورة طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [الآية: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٧٤].

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ «ما»: اسم موصول يفيد العموم، والضمير «هم» يعود إلى ما في السموات والأرض، بتغليب العقلاء، أي: يعلم الذي بين أيديهم، أي: الحاضر والمستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ويعلم الذي خلفهم، وهو الماضي، كقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) سبق تخريجه.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

وقال بعض السلف: «﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما مضى من الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ما بعدهم من الدنيا والآخرة».

فعلم الله ﷻ محيط بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم.

سُئل موسى عليه الصلاة والسلام عن القرون الأولى، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٦].

بل إن علمه ﷻ متعلق حتى بالمستحيل، كما قال تعالى عن السموات والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً، فمن قال مثلاً: عدد الرسل في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولاً، فهو عالم يعني بالنسبة لهذه المسألة.

ومن قال: لا أدري كم عددهم، فهذا جاهل جهلاً بسيطاً، لا يدري ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: بل هم ثلاثون، فهذا جاهل جهلاً مركباً لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ الإحاطة بالشيء معناها: معرفته والإلمام به، و«شيء»: نكرة في سياق النفي فتعم أيَّ شيء مهما قل أو صغر، قل أو كثر.

﴿مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ يجوز أن يكون الضمير في ﴿عِلْمِهِ ﴾مضافاً إلى الفاعل، فالمعنى: ولا يحيطون بشيء من علم الله ﷻ، أي: من علم نفسه وذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

ويجوز أن يكون الضمير في «علمه» مضافاً إلى المفعول، فالمعنى: ولا يحيطون بشيء من معلوم الله ﷻ، وهو علمه ﷻ ما بين أيديهم وما خلفهم، الشامل للحاضر والمستقبل والماضي.

ولا مانع من حمل الآية على الوجهين، بل إن الوجه الثاني يستلزم الأول، من غير عكس، لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم فعدم إحاطتهم علماً به- سبحانه- من باب أولى.

﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، «ما»: موصولة، أي: إلا بالذي شاء الله أن يعلمهم إياه ويطلعهم عليه من علم نفسه، أو من معلومه، من الأمور الشرعية والقدرية.

كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وذلك قليل جداً بالنسبة لعلمه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، و«الكرسي»: موضع قدمي الله ﷻ»، كما صح ذلك عن ابن عباس ﷺ وعن جمع من السلف، فعن ابن عباس ﷺ، قال: «**الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره**»(١).

وعن أبي موسى ﷺ قال: «**الكرسي موضع القدمين، وله أطيط كأطيط الرحل**»(٢).

وكذا روي عن جمع من السلف، أن الكرسي موضع القدمين(٣).

وهو من سعته وعظمته يسع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من الأفلاك والمخلوقات والعوالم.

ورُويَ عن أبي ذر الغفاري ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة في الأرض**»(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٩٣)، حديث (١٢٤٠٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٦): «رجاله رجال الصحيح»، وأخرجه الحاكم في التفسير (٢/ ٢٨٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وانظر «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٥٧)، وهذا هو المحفوظ والأصح عن ابن عباس ﷺ بتفسير الكرسي بموضع القدمين. وروي عنه أنه قال: «كرسيه علمه»، انظر «جامع البيان» (٥/ ٤٠١)، تحقيق محمود شاكر، وشرح العقيدة الطحاوية (٣٧١).

(٢) أخرجه عن أبي موسى عبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٨٨)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ٥٣٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٤/ ٥٣٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٩١).

(٤) سيأتي تخريجه.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾، أي: ولا يثقله ولا يشق عليه، ولا يجهده.

﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أي: حفظ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، أي: وهو ذو العلو المطلق، علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

قال السعدي(١): «وهو العلي بذاته على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات ودانت له الموجودات وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب».

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾، أي: ذو العظمة التامة في ذاته وصفاته وسلطانه، أي: الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء، كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء، ونداؤهم بوصف الإيمان للعناية والاهتمام والتشريف والتكريم لهم، وأن الإنفاق من رزق الله تعالى من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾.

٢- مشروعية الإنفاق من رزق الله تعالى: وجوباً بإخراج الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ومن تلزم نفقته ونحو ذلك، واستحباباً بالصدقة والهدية ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾.

٣- أخذ بعض أهل العلم من قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ على اعتبار أن «من» في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ بيانية جواز إنفاق جميع المال، لكن هذا مشروط بأن لا يبقى

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣١٥).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٠)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

الإنسان عالة على الآخرين، فإن هذا لا يجوز.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»(١).

٤- الامتنان على العباد وتذكيرهم بأن الرزق منه- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾.

وفي هذا حث وترغيب في الإنفاق؛ لأن الرزق من الله والمال مال الله فلا ينبغي البخل فيه.

٥- عدم الاعتماد على الأسباب في طلب الرزق، ووجوب الجمع بين فعل السبب والتوكل على الله وسؤاله؛ لأن الأرزاق بيده- سبحانه وتعالى.

٦- أن الإنسان لا ينتفع من ماله في الآخرة إلا بما أنفقه قبل موته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ الآية.

ومن ذلك ما كان الإنسان سبباً فيه، كما في قوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

٧- أن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

٨- أن من مات فقد قامت قيامته، كما قال بعض أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ الآية.

٩- الترغيب والإغراء بالاستعداد للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٦٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في الوصية – ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠)، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

١٠- انقطاع تبادل المنافع والصداقات والشفاعات الدنيوية بين الناس يوم القيامة، فلا شيء ينفع في ذلك اليوم إلا ما كان في طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

١١- أن الكفر أعظم الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فأكد ﷻ الظلم وحصره في الكافرين بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم»، أي: والكافرون هم الظالمون حقاً.

١٢- الإشارة إلى عظم منع النفقات الواجبة وبخاصة الزكاة؛ لأن الله تعالى أمر بالإنفاق، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فإن كان منع الزكاة جحداً لوجوبها فهذا كفر بالإجماع، وإن كان منعها بخلاً، فقد قيل بكفره، والجمهور على أنه لا يكفر بذلك.

١٣- أن حق الله ﷻ وهو عبادته وحده لا شريك له أعظم الحقوق؛ ولهذا كان أظلم الظلم وأعظمه الكفر به- سبحانه، وصرف حقه لغيره بالإشراك به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

١٤- أن اسم «الله» ﷻ من أعظم أسمائه- سبحانه وتعالى- وأصلها وتأتي بقية أسمائه تعالى تابعة لهذا الاسم؛ لأن الله ﷻ قدمه في الآية وأتبعه ببقية الأسماء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

وقد قال طائفة من أهل العلم: إنه اسم الله الأعظم.

١٥- إثبات الألوهية لله وحده لا إله غيره، وإبطال الشرك بجميع أنواعه وصوره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٦- إثبات اسم الله ﷻ «الحي» وصفة الحياة الكاملة التامة له سبحانه أزلاً وأبداً، التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها زوال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَيُّ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

١٧- إثبات اسم الله ﷻ «القيوم» وصفة القيومية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، فهو سبحانه

القائم بذاته بنفسه، الغني عما سواه، القيوم على كل شيء، فكل شيء محتاج إليه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

١٨- في هذين الاسمين: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ اسم الله الأعظم عند كثير من أهل العلم لتضمنهما جميع أسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته العليا، الذاتية والفعلية، الدالة على كمال ألوهيته ووحدانيته واستحقاقه العبادة دون من سواه.

كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

وقد ذكر الله ﷻ هذين الاسمين مقترنين في ثلاثة مواضع من القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١].

١٩- تنزه الله ﷻ عن السِّنة والنوم، والنقص، والعجز، وجميع الآفات؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وهذه من الصفات المنفية التي تتضمن إثبات كمال ضدها، فتدل على كمال حياته وقيُّوميته على كل شيء، فلا يعتريه سنة ولا نوم ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، ولا يغيب عنه أو يخفى عليه شيء.

٢٠- أن السنة والنوم نقص، ولهذا نفاها الله ﷻ عن نفسه.

٢١- سعة ملك الله تعالى وكماله وعظمته، وأن له خاصة جميع ما في السموات والأرض، خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، وفي هذا تقرير لانفراده تعالى بالألوهية، وتعليل لاتصافه بالقيومية.

٢٢- كمال سلطان الله ﷻ وعظمته ووحدانيته في ملكه، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾.

وفي هذا رد على المشركين الذين يشركون مع الله غيره ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

٢٣- إثبات الشفاعة بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾

وشرطاها: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٢٤- في إطلاق الشفاعة في قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ رد على الخوارج والمعتزلة الذين ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر.

٢٥- سعة علم الله ﷻ وإحاطته بعلم الماضي والحاضر والمستقبل وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون علم الله ﷻ بأفعال العباد قبل وقوعها.

٢٦- عدم إحاطة الخلق بشيء من علم الله ﷻ، لا من علم نفسه وأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ولا من معلومه، إلا بما شاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

وفي هذا رد على من يقول على الله تعالى بغير حق سواء كان ذلك فيما يتعلق بذاته ﷻ وصفاته كما يفعل أهل البدع من المعطلة والمشبهة وأهل التكييف ونحوهم، أو كان ذلك مما يتعلق بعلمه الكوني والشرعي.

٢٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

٢٨- سعة كرسيه ﷻ وعظمته وأنه يسع السموات والأرض التي هي من أكبر وأعظم المخلوقات، فهو أكبر وأعظم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والعرش أكبر من الكرسي بأضعاف مضاعفة لا يعلمها إلا الله ﷻ.

ورُوي عن أبي ذر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض**»(١).

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١/ ٢٨٧) (٣٦٢)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ٥٣٩)، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١١): «أول الحديث مرسل؛ وعن أبي ذر منقطع وقد روي عنه من طرق أخرى موصولاً»، وانظر: «فتح المجيد» ص (٦١٦).

٢٩- كمال قوة الله ﷻ وقدرته وعلمه ورحمته وتمام حفظه للسموات والأرض، فلا يثقله أو يشق عليه حفظهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾.

لأن له ﷻ الكمال المطلق، فلا يعتريه نقص، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨].

٣٠- حاجة السموات والأرض وجميع المخلوقات إلى حفظ الله ﷻ لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى في حفظ الإنسان: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

٣١- إثبات اسم الله ﷻ «العلي» وصفة العلو المطلق لله ﷻ، علو الذات وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١١].

وفي هذا رد على أهل الحلول الذين يقولون: إنه حال في كل مكان، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

كما أن فيه رداً على نفاة علو الله تعالى، الذين يقولون إنه لا يوصف لا بعلو ولا سفل، ولا يمين ولا شمال، ولا اتصال ولا انفصال تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «العظيم» وصفة العظمة التامة له ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾.

٣٣- في اجتماع صفة العلو والعظمة زيادة كماله ﷻ إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كانت المرأة تكون مقلاة أي: لا يعيش لها ولد فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوِّده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾»(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ قال: «نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله تعالى فيه ذلك»(٢).

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب- كما هو معلوم.

قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ «لا»: نافية، ويحتمل أن يكون النفي على معناه، أي: لن يدخل أحد في دين الإسلام مكرهاً، بل عن اختيار، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، في الأسير يكره على الإسلام (٢٦٨٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» في تفسير قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (١١٠٤٨، ١١٠٤٩)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ٥٤٦)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (٥٢)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ٥٤٨)، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٩)، من رواية ابن إسحاق.

ويحتمل أن يكون النفي بمعنى النهي، أي: لا تكرهوا أحداً على الدين.

كما روي عن أُسَق قال: كنت مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب فكان يعرض عليَّ الإسلام، فآبى، فيقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، ويقول: «**يا أُسَق، لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين**»(١).

قال ابن كثير(٢): «أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بيِّنٌ واضح جلي؛ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا».

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

والإكراه: الإلزام والإرغام ضد الاختيار، و«أل» في «الدين» للعهد الذهني، أي: في الدين المعهود، دين الإسلام، أي: لا إكراه على الدخول في دين الإسلام.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل للجملة التي قبلها، أي: لا إكراه في الدين؛ لأنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، و«قد»: للتحقيق، و﴿تَّبَيَّنَ﴾ أي: تميز الرشد من الحق.

﴿ٱلرُّشۡدُ﴾ في الأصل: الاهتداء إلى طرق الخير وحسن التصرف، وهو بالنسبة لكل شيء بحسبه، فالرشد في الدين الاهتداء إلى الإسلام وطريق الحق، والرشد في المال حسن التصرف في المال، والرشد في الولاية حسن التصرف فيها.. وهكذا.

والمراد بالرشد هنا: الرشد بالدين، وهو سلوك طريق الحق والهدى والإسلام، والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة.

و﴿ٱلۡغَيِّ﴾: سلوك طريق الباطل والضلال والكفر، والشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة.

والمراد: قد تميز الرشد من الغي، والهدى من الضلال، والحق من الباطل، بما أنزل

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٩٣).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٤٥٩).

الله تعالى من الوحي في كتابه العزيز وسنة نبيه محمد ﷺ بما فيه إقامة الحجة وإيضاح المحجة، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقد ترك ﷺ أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، ولهذا قال ﷺ مخاطباً الناس في حجة الوداع: «**ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت**»، قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد**»(١).

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾.

هذا تفسير وبيان للرشد والغي في الجملة السابقة، فالرشد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والغي: خلاف ذلك، وهو أيضاً: مقتضى معنى «**لا إله إلا الله**»؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

كما قال ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»(٢).

قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿يَكْفُرْ﴾: فعل الشرط، و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ في اللغة: مأخوذ من الطغيان وهو تجاوز الحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: لما جاوز الماء حده وعلا وارتفع.

«الطاغوت» في الشرع: الشيطان، وكل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره، أي: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله ﷺ.

«من معبود» كالأصنام والأوثان التي تُعبد من دون الله، وهي لا تنفع ولا تضر، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

«أو متبوع» كالأحبار والرهبان الذين يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وفي

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٤١)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣) من حديث أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه.

حديث عدي أنه قال للنبي ﷺ: إنا لسنا نعبدهم، فقال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: نعم. قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

«**أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله**» كأمراء السوء الذين يأمرون بمعصية الله تعالى، وقد قال ﷺ: «**على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى، فإن أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة**»(٢).

وقال ﷺ: «**إنما الطاعة بالمعروف**»(٣).

ويدل على أن الطاغوت عام في كل ما ذكر أن الله ﷻ قابل في هذه الآية بين الكفر بالطاغوت والإيمان، فكل ما عبد من دون الله وهو راضٍ فهو طاغوت.

ومعنى ﴿يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾، أي: يجحده وينكره ويتبرأ من كل معبود سوى الله تعالى.

﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ والعطف بالواو يقتضي الجمع، فلا بد من الجمع بين الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

وقدم الكفر بالطاغوت؛ لأن التخلية قبل التحلية، إذ لا يجتمع الإيمان بالله مع عدم الكفر بالطاغوت.

والإيمان بالله يتضمن أموراً أربعة: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

ومعنى ذلك أنه سبحانه واجب الوجود، متفرد بالربوبية والألوهية، وكمال الأسماء والصفات.

والإيمان بالله يستلزم القبول بتصديق الخبر، والانقياد بامتثال الطلب، فعلاً للمأمور وتركاً للمحظور.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٠٦)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٦)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٥)، والنسائي في البيعة (٤٢٠٥) من حديث علي رضي الله عنه.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: جواب الشرط «من»، وقرن بالفاء لاتصاله بـ«قد» التي تفيد التحقيق.

﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ السين والتاء للتأكيد، و«استمسك» أبلغ من «تمسك»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً، أي: فقد تمسك بقوة بالعروة الوثقى.

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾عروة الشيء: مقبضه، كعروة الدلو، وعروة الكوز، ونحو ذلك، وعروة الحبل شد طرفه إلى بعضه، وعقده فيصير مثل الحلقة يتمسك به.

و﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾: القوية المبرمة المحكمة الشد، التي هي أوثق العرى، وأقوى سبب للنجاة، وهي لا إله إلا الله، وهي عروة الإيمان والإسلام والقرآن، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

عن قيس بن عباد قال: «كنت جالساً في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع، فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فصلى ركعتين تجوز فيهما، ثم خرج وتبعته، فقلت: إنك حين دخلت المسجد، قالوا: هذا رجل من أهل الجنة. قال: والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لِم ذاك؟ رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، رأيت كأني في روضة ذكر من سعتها وخضرتها، وسطها عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: ارق. قلت: لا أستطيع. فأتاني منصف فرفع ثيابي من خلفي، فرقيت حتى كنت في أعلاها، فأخذت بالعروة، فقيل له: استمسك. فاستيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ، قال: «**تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة عروة الوثقى، فأنت على الإسلام حتى تموت**»، والرجل عبد الله بن سلام»(١).

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ هذه الجملة في محل نصب حال من «العروة»، أي: حال كونها لا انفصام لها، أي: لا انفكاك ولا انقطاع لها لشدة إحكامها وقوتها، والمراد أن من كفر بالطاغوت وآمن بالله فقد استمسك بحبل النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة والزحزحة عن النار.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨١٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٤).

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سبق الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (الله): مبتدأ ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: خبره.

أي: متولي الذين آمنوا بولايته الخاصة، ولاية التوفيق والحفظ والنصر والتسديد لهم على الدوام دون الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ هذا تفسير لولاية الله تعالى للمؤمنين، فيه أعظم ثمرات ولاية الله تعالى لهم، وهي إخراجه لهم من ظلمات الجهل والضلال والكفر والشك والنفاق.

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: إلى نور العلم والهدى والإيمان والقرآن، نسأل الله تعالى التوفيق، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وجمع «الظلمات»، وهي: طرق الباطل والضلال والغي؛ لكثرتها واختلافها وتشعبها، وأفرد «النور»؛ لأن طريق الحق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ «الطاغوت»: اسم جنس فيعم جميع أنواعه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بضمير الجمع «الواو».

﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾ أي: نظراؤهم والذين يتولونهم، وجمع ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾ لكثرتهم

وتعددهم، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الزمر: ٢٩]، أي: لا يستوي المشرك الذين يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فشتان بين هذا وهذا.

وقدم عز وجل في قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اسمه؛ تعظيماً لنفسه وتبركاً بالبداءة باسمه ﷻ، وإظهاراً لمنته على المؤمنين في توليه لهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

بينما قال في الجملة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ فقدم ذكر الذين كفروا إسراعاً في ذمهم، وأخر ذكر اسم الطاغوت تحقيراً له من أن يكون في مقابلة اسم الله أو أن يبتدأ به.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: يخرجونهم من نور الإيمان، ومن نور الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: إلى ظلمات الجهل والكفر.

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١).

وأيضاً يخرجون من آمن ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بتزيين الردة والكفر له، فالآية تشمل هذا وهذا، قال ابن القيم(٢): «وهذا يتضمن إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال».

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الإشارة للذين كفروا وأوليائهم من الطواغيت وشياطين الإنس والجن، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ساكنوا النار وملازموها.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قدم الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ لإفادة الحصر مع مراعاة الفواصل، أي: هم فيها مقيمون إقامة أبدية، لا يخرجون مها، ولا ينفكون عنها».

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٧١٤)، والترمذي في القدر (٢١٣٨).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤١٥).

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا إكراه لأحد على الدخول في الدين، ولا ينبغي أن يكره أحد على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

وقد كان ﷺ إذا أرسل جيوشه إلى الأمصار أوصاهم بثلاث: أولاً: دعوتهم إلى الإسلام، فإن أبوا أخذوا منهم الجزية، فإن أبوا قاتلوهم(١).

فلا يكره أحد على الدخول في الدين سواء كان من أهل الكتاب أو من غيرهم من الكفار، وهذا هو الثابت من سيرة النبي ﷺ في سلمه وغزواته وحروبه، يسالم من يسالمه، ويهادن من يهادنه، ويحارب من يحاربه، ولم يكره أحداً على دينه قط، وهذا واضح جلي لمن تأمل سيرته ﷺ.

٢- إقامة الحجة على الخلق، وبيان المحجة لهم ببيان الرشد من الغي؛ لقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، وليس ثمة غير هذين الطريقين، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

فمن أطاع الله رشد في دنياه وأخراه، ومن عصى الله فقد غوى في دنياه وأخراه، وقد أحسن القائل:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار(٢)

٣- أن الدين الإسلامي دين العقل والعلم ودين الفطرة والحكمة ودين الحق والرشد، لا يحتاج إلى إكراه لكماله وبيان آياته، ووضوح براهينه.

٤- أن الدخول في دين الله يستلزم أمرين: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

---

(١) كما جاء في حديث بريدة رضي الله عنه، أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٢)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨).

(٢) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص(١٤١).

أي يستلزم نفي الشرك، وإخلاص العبودية لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ وذلك معنى: «لا إله إلا الله».

٥- أن النجاة كل النجاة بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله تعالى، فلا نجاة إلا بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

٦- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم الكفر بالطاغوت في الآية على الإيمان بالله.

٧- الإغراء بالتمسك بعروة الدين والإيمان والإسلام؛ لأنها العروة التي لا تنفصم وفيها الضمان والأمان والسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة.

٨- أن من آمن بالطاغوت وكفر بالله، أو كفر بالله وإن لم يؤمن بالطاغوت فهو هالك خاسر، لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الآية.

٩- إثبات صفة السمع لله ﷻ الذي وسع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

١٠- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١١- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين، ولاية التوفيق والحفظ والتسديد والنصر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وهناك النوع الثاني من الولاية، وهي ولايته ﷻ لجميع الخلق بما فيهم الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

فهو ﷻ ولي جميع الخلق خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

١٢- براءة الله ﷻ من الذين كفروا وحرمانهم ولايته الخاصة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

١٣- فضل الإيمان والترغيب فيه؛ لأن به تحصل ولاية الله تعالى الخاصة للعبد.

١٤- أن أعظم ثمرات ولاية الله ﷻ للمؤمنين إخراجهم بالإيمان من الظلمات إلى النور؛ لأن الله أعقب ذكر ولايته لهم بقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

١٥- الإشارة إلى أن طرق الباطل كثيرة متعددة، وأن طريق الحق واحد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بجمع الظلمات وإفراد النور.

١٦- أن الكافرين أولياؤهم الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾، وبئست الولاية.

١٧- سوء عاقبة ولاية الشيطان للذين كفروا لإخراجه لهم بالكفر من النور إلى الظلمات؛ لقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر والجهل.

١٨- تفرده ﷻ وحده بولاية المؤمنين، وكثرة أولياء الكافرين وتعددهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالإفراد، بينما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ بالجمع.

١٩- إثبات وجود النار؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وقد رآها النبي ﷺ حين عرج به إلى السماء، كما عرضت عليه في صلاة الكسوف، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر بن لحي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيَّب السوائب**»(٢).

٢٠- ملازمة الكفار للنار وخلودهم فيها خلوداً أبدياً؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢١- أنه لا يخلد في النار إلا الكفار، للحصر في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وعلى هذا فمن دخل النار من أهل المعاصي من المؤمنين فإنه لا يخلد فيها، بل يعذب بقدر ذنبه ثم يخرج منها، وقد يعفو الله ﷻ عنه فلا يدخلها.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٩)، ومسلم في الكسوف (٩٠٧)، والنسائي في الكسوف (١٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، قصة خزاعة (٣٥٢١)، ومسلم في الجنة، النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٣٨٥٦).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

في هذه الآية إثبات ربوبية الله تعالى وألوهيته ووحدانيته وإبطال ألوهية غيره.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة: للاستفهام، والاستفهام إذا دخل على النفي صار معناه التقرير، أو التقرير والتعجب كما في هذه الآية، والمعنى: ألم تر بقلبك، أي: ألم تعلم، والخطاب للنبي ﷺ أو له ولكل من يصلح له الخطاب.

﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ ضمير الهاء في «ربه» يعود إلى إبراهيم، وقيل: يعود إلى «الذي حاج إبراهيم» قيل: هو ملك بابل النمروذ، وقيل غير ذلك.

والمحاجة: المخاصمة والمجادلة بين اثنين أو طائفتين بحيث يورد كل منهما ما لديه من حجج وبراهين وأدلة على ما يقول.

أي: ألم تر يا محمد إلى الذي خاصم وجادل إبراهيم، ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: في وجود ربه وألوهيته، فإبراهيم عليه السلام يؤمن بالله، أي يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته، ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا المحاج لإبراهيم ينكر وجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته.

﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ «أن أتاه الله»: مفعول لأجله، أي: لأن آتاه، أي: بسبب أن

أعطاه الله الملك التام الذي لا ينازعه فيه أحد.

فبدل أن يشكر الله تعالى على ذلك كفر وطغى وتكبر وعلا وتجبر وأنكر وجود الرب المعبود جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(١)

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ هذا وما بعده بيان للمحاجة.

﴿إِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين»، أي: حين ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، ويظهر من السياق- والله أعلم- أن هذا المحاج سأل إبراهيم: من ربك الذي تدين له وتدعونا إليه؟ فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

كما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأجاب موسى بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

ومعنى: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: الذي يحيى من يشاء بعد موته وعدمه، ويميت من يشاء بعد إحيائه، أي: المتفرد بالخلق والتدبير والموت والحياة، الفاعل المختار.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩-٢٢].

﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ هذا بيان لقوله: ﴿حَآجَّ﴾، أي: قال هذا المعاند: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، أي: إن كان ربك يا إبراهيم يحيى ويميت فأنا أحيي وأميت.

فادعى الربوبية والألوهية، كما قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

قيل: إن هذا المحاج أتى برجلين فقتل أحدهما، وقال: أنا أمَتُّ هذا، وأبقى الآخر، وقال: أنا أحييت هذا تمويهاً منه ومغالطة، والحقيقة أنه ما أحيا ولا أمات، فاستبقاؤه لأحدهما ليس إحياءً له، وقتله للآخر إنما هو فعل ما يكون به الموت.

وقيل: إنه قال هذا مكابرة منه، فإنه يعلم أنه لا يحيى ولا يميت ولو اجتمع معه جميع الخلق.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿قَالَ﴾ أي: قال إبراهيم عليه السلام متحدياً هذا المعاند بما لا يقبل التمويه والتزوير والمغالطة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جواب شرط مقدر، أي: قال إبراهيم: فإن زعمت أو موهت بأنك تحيي وتميت ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

قال ابن القيم(١): «فهو جعل نفسه نداً لله يحيى ويميت- بزعمه- كما يحيى الله ويميت، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي بها الله منها، وليس هذا انتقالاً كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً».

وقال أيضاً: «فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيى ويميت، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا؛ فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقاً فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كان صحيحة».

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤١٥-٤١٦).

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «فبهت»، أو «فبهت هذا المحاج»، بل قال: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ للدلالة على أن كل من أنكر وجحد وجود الرب فهو كافر، أي: فتحير واندهش الذي كفر، فلم يجد جواباً، وانقطع وبطلت حجته، فغلبه إبراهيم عليه السلام، وأفحمه وأسكته.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: والله لا يوفق القوم الظالمين، بسبب ظلمهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

قرر ﷻ في الآية السابقة تفرده بالربوبية والألوهية، ثم أتبع ذلك بتقرير إثبات تمام قدرته على البعث في هذه الآية والتي بعدها، والذي لا ينكره إلا مشرك.

قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ «أو»: عاطفة تفيد التنويع أو التخيير في التشبيه، والعطف على «الذي» في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ﴾، و«الكاف» للتشبيه، فهي اسم معنى «مثل»، والتقدير: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم، أو إلى مثل الذي مر على قرية.

ويحتمل كون «الكاف» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم، أو إلى الذي مر على قرية.

ويجوز أن تكون «الكاف» في محل نصب لفعل محذوف تقديره: أرأيت مثل الذي مر على قرية.

والقرية اسم للبلد الذي يجمع أناساً كثيرين، مأخوذ من «القري» وهو الجمع، ومنه سمي «القرو» مجمع الماء.

وقد سمى الله ﷻ بذلك مكة، وهي أم القرى وأكثرها ساكناً وقت نزول القرآن، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقد اختلف في تعيين هذا المار، فقيل: هو عزير، وقيل غير ذلك، كما اختلف في تعيين القرية، فقيل: هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها وقيل غير ذلك، ولا دليل على شيء من هذه الأقوال ولا فائدة من ذكرها؛ لأن المقصود من القصة وأخذ العبرة منها لا يتوقف على ذلك.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها خاوية على عروشها، ومعنى ﴿خَاوِيَةٌ﴾ أي: خالية من السكان، ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ العروش: جمع عرش، وهو السقف، أي: ساقطة سقفها وجدرانها على عرصاتها.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ «أنى»: في محل نصب على الحال، وهي اسم استفهام للاستبعاد، أي: كيف يحيى الله هذه الأرض بعد موتها؟

فاستبعد حسب تصوره ونظره القاصر أن يحيى الله هذه القرية، وأكّد هذا الاستبعاد بتقديم المفعول «هذه» على الفاعل ﷻ «الله».

وقيل: ﴿أَنَّىٰ﴾: ظرف بمعنى «متى» للاستعجال والتمني، أي: متى يحيى هذه الله بعد موتها؟ أي: متى يعيد الله هذه إلى ما كانت عليه قبل موتها؟

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد أن ماتت وخوت وخربت.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ الفاء: استئنافية، و«أماته» أي: قبض روحه مائة عام، أي: مائة سنة.

﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أي: ثم أحياه، ولم يقل: «ثم أحياه» ليقابل «أماته»، لما في التعبير بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ من الدلالة على سرعة واكتمال حياته وانبعاثه، كما ينبعث البعير بفك عقاله.

﴿قَالَ﴾ أي: قال الله له بعد أن بعثه: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾، «كم» اسم استفهام، وهذا استفهام يراد به الاختبار، لا الاستعلام؛ لأنه تعالى يعلم كم لبث، ولا يخفى عليه شيء، والمعنى: كم مدة، أو كم وقتاً لبثت؟

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ أي: يوماً واحداً ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ «أو» بمعنى «بل» للإضراب الإبطالي، أي: بل بعض يوم.

وإنما قال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأن الله تعالى أماته في أول النهار وأحياه في آخر النهار،

فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وقيل: إن «أو» للشك.

﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ «بل» للإضراب الإبطال، أي: لم تلبث يوماً أو بعض يوم، ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «يتسنَّ» بحذف الهاء من ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ في حال الوصل، وقرأ الباقون بإثباتها وصلاً ووقفاً.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ أي: فانظر بعينك وبصرك إلى طعامك الذي تأكل منه، وشرابك الذي تشرب منه.

والطعام اسم لكل ما يطعم ويؤكل، والشراب: اسم لكل ما يشرب، ولا دليل على ما قيل في تحديد نوع طعامه وشرابه.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير بمرور السنين الكثيرة عليه.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، أي: وانظر بعينك وبصرك إلى حمارك، فنظر إلى حماره تلوح عظامه ليس عليها لحم ولا عصب ولا جلد.

فطعامه وشرابه لم يتغير مع مكثه مائة عام، وهذا أمر خارق للعادة خارج عن السنن الكونية المعتادة، وحماره قد صار عظاماً تلوح لا لحم عليها لمرور مائة عام عليه بعد موته، وفقاً للسنن الكونية، فسبحان من جمع بين الأضداد والمتناقضات! وقد أحسن القائل:

من ظاهر النعم الكبرى وباطنها ... هذا السحاب به ماء به نار
لا ينكر الله إلا جاهلٌ نزق ... غر بليد سفيه الرأي ختار[1]

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ الواو: عاطفة.

والمعطوف عليه محذوف دل عليه السياق، والتقدير: لتعلم قدرة الله ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ واللام في ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾: للتعليل، أي: ولأجل أن نجعلك ﴿آيَةً لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) هذان البيتان للشاعر العراقي وليد الأعظمي في ديوانه: «الزوابع»، انظر: «المجموعة الكاملة» (ص١٣٥).

و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين؛ الأول: «كاف المخاطب»، والثاني قوله: «آية للناس»، والجعل هنا كوني، أي: ولنجعلك علامة كونية للناس على قدرتنا التامة على بعث الموتى.

﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «ننشرها» بالراء، أي: نحييها بعد ما يبست ونخرت وصارت رميماً، وقرأ الباقون: ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي، أي: نركب بعضها على بعض، ونربط بعضها ببعض بالعصب.

﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾ أي: ثم نسترها باللحم تقوية ووقاية لها.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي: فلما اتضح وظهر له قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وعلى كل شيء، بعد أن عرَّفَهُ الله بما جرى له، ونظر إلى طعامه وشرابه لم يتغير مع طول المكث، ونظر إلى حماره وقد صار عظاماً، ثم أحياه الله تعالى، فاجتمع عنده آيتان: إبقاء ما يتغير وهو طعامه وشرابه، وإحياء ما كان ميتاً وهو حماره، ولهذا قال:

﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قرأ حمزة والكسائي بهمزة الوصل على أنه فعل أمر «اعلمْ» فالجملة إنشائية طلبية، أي: قال الله له: «اعلمْ أن الله على كل شيء قدير»، أي: اعلم أيها المخاطب علماً جازماً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة على أنه فعل مضارع: ﴿أَعۡلَمُ﴾ فالجملة خبرية، أي: قال هذا الرجل الذي أماته الله مائة عام: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، أي: أعلم علماً جازماً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

ويستفاد من القراءتين أنه أُمر أن يعلم، فَعِلم وأقر بالعلم.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قدّم المتعلِّق؛ لتأكيد شمول قدرته ﷻ لكل شيء، و﴿قَدِيرٞ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على أنه ﷻ ذو القدرة التامة على كل شيء، يفعل ما يريد.

كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ولا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢].

ولهذا قال تعالى مثنياً على نفسه: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قرر الله ﷻ في الآية السابقة قدرته تعالى التامة على إحياء الموتى، ثم ذكر في هذه الآية كيفية إحيائه للموتى؛ تأكيداً لكمال قدرته على ذلك.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: اذكر.

﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب بإسكان الراء: «أرْني»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿أَرِنِي﴾ أي: يا رب أرني، وحذف حرف النداء؛ لأنه معلوم، وللبداءة باسم «الرب» سبحانه والتبرك والتيمن به.

والرؤية هنا بصرية تنصب مفعولاً واحداً، لكن لما دخلت عليه همزة التعدية نصب مفعولين؛ الأول: «الياء»، والثاني: جملة: ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

«كيف»: اسم استفهام، وهذا استفهام من إبراهيم معناه: الاستعلام من ربه عن كيفية إحيائه ﷻ الموتى، أي: اجعلني أنظر وأشاهد بعيني كيف تحيي الموتى، وليس سؤالاً عن إمكانية الإحياء ولا عن معناه؛ لأن إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، كما أن معنى الإحياء معلوم عنده، وإنما أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين؛ لأن الخبر ليس كالعيان، بل العيان أقوى، كما قال ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»(١).

﴿قَالَ﴾ أي: قال الله ﷻ لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾، الهمزة: للاستفهام، والواو: عاطفة، وقدمت الهمزة؛ لأن لها الصدارة، ومحلها في الأصل بعد الواو، والتقدير: «وألم تؤمن»، وقيل: هي داخلة على مقدر عطف عليها قوله: «ولم تؤمن»، والأول أولى وأقرب.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والحاكم في التفسير (٢/ ٣٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير والإثبات، فمعنى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: ألست قد آمنت، ففي الآية تقرير إيمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإزالة الشبهة عنه.

﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ أي: قال إبراهيم: بلى، أي: قد آمنت، و«بلى»: حرف يجاب بها النفي المقرون بالاستفهام لإثباته، كما يجاب عن الاستفهام المجرد عن النفي بـ«نعم».

فمثلاً: قدم عليك ضيف فقيل لك: ألم يقدم الضيف؟ فتجيب بقولك: «بلى»، وإن قيل لك: هل قدم الضيف؟ فتجيب بقولك: «نعم».

﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، اللام: للتعليل، أي: ولكن لأجل أن يطمئن قلبي، والطمأنينة هي السكون والاستقرار، وفي الحديث: «.. **ثم اركع حتى تطمئن راكعاً.. ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً**»(١). أي: حتى تستقر وتسكن.

والمعنى: ولكن لأجل أن يزداد قلبي طمأنينة، فأترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، وذلك لأن اليقين ثلاث درجات:

الأولى: علم اليقين، وهو العلم اليقيني القطعي المتواتر، وأعلى ذلك ما دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٥].

والثانية: عين اليقين، وهو أن الإنسان يرى الشيء بعينه، وهو أقوى من علم اليقين، كما قال ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»(٢)، ومن هذا قول تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، ومن هذا سؤال إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

والدرجة الثالثة: حق اليقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الآذان، وجوب القراءة للإمام والمأموم (٧٥٧)، ومسلم في الصلاة، وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧)، وأبو داود في الصلاة (٨٥٦)، والنسائي في الافتتاح (٨٨٤)، والترمذي في الصلاة (٣٠٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله إجابة لدعوة إبراهيم:

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة وخلف ورويس عن يعقوب: «فصِرهن» بكسر الصاد، وقرأ الباقون بضمها: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾.

وقد اختلف في جنس هذه الطيور، فقيل: ديك، وطاووس، وغراب، وحمام، وقيل غير ذلك، ولا دليل عل شيء منها، ولا فائدة تتعلق بمعرفته.

وتعدادها أدل على كمال قدرة الله تعالى من لو كانت طيراً واحداً، وجعلها أربعة لحكمة يعلمها الله تعالى.

ومعنى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أمسكهن واضممهن إليك وأوثقهن واذبحهن وقطِّعهن، ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾، أي: ثم صير وألق على كل جبل من الجبال حولك، ولم يذكر عدد هذه الجبال وأسماءها، إذ لا فائدة من ذلك.

﴿مِّنْهُنَّ﴾ أي: من مجموع أجزائهن بعد خلطهن.

﴿جُزْءًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم الزاي: «جُزُءاً»، وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿جُزْءًا﴾، والجزء: البعض والقطعة من الشيء.

وتوزيع أجزائهن على أكثر من جبل يكون أظهر وأدل على كمال قدرة الله تعالى.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾، أي: ثم نادهن، ﴿يَأْتِينَكَ﴾ جواب الأمر: «ادعهن».

«سعياً»: مصدر في موضع الحال، أي: ساعيات سعياً، وقيل: مصدر لفعل محذوف، أي: يسعين سعياً.

والمعنى: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، أي: طيراناً؛ لأن سعي الطيور هو الطيران.

وقيل المراد بالسعي المشي بسرعة على الأرجل، والأول أولى؛ لأنه أدل على حياتهن حياة كاملة بجميع جوارحهن، وهذا أدل وأظهر على كمال قدرة الله تعالى.

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ الخطاب لإبراهيم عليه السلام، أي: واعلم أن الله ذو العزة التامة، عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام: الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة البالغة: الغائية والصورية.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير وإثبات ما جرى من المحاجة لإبراهيم- عليه الصلاة والسلام- في ربه والتعجيب من ذلك.

وفي ذلك تقرير وإثبات ربوبية الله ﷻ، ووحدانيته، وألوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية.

٢- التنويه بفضل إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- ودعوته.

٣- إثبات ربوبية الله ﷻ الخاصة لإبراهيم وتشريفه بإضافة اسم «الرب» ﷻ إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾.

٤- أن الملك كله لله ﷻ، يؤتيه من ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٥- أن الملك والمال والجاه والمنصب ونحو ذلك قد يكون سبباً للكفر والطغيان؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٥].

٦- جواز المجادلة والمناظرة لإثبات العقائد، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، بل قد يندب ذلك، وقد يجب؛ لأن إبراهيم عليه السلام ناظر هذا المحاج، فهذا من مقامات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٧- اعتزاز إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- بأعظم ما يعتز به المخلوق وهو ربوبية الله ﷻ له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّىَ﴾.

٨- إثبات صفتي الإحياء والإماتة لله ﷻ، وأن ذلك بيده ﷻ وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وقوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾، وقوله: ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

وفي هذا إثبات صفات الأفعال الاختيارية لله ﷻ والرد على منكريها من أهل البدع.

٩- أن الإحياء والإماتة من أعظم صفات الربوبية، لهذا خصها إبراهيم عليه السلام بالذكر، وذلك لما في ذلك من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وما يحمل على قوة التعلق بالله وخوفه ورجائه، والتوكل عليه وحده ﷻ.

١٠- شدة مكابرة هذا المحاج لإبراهيم، وجرأته في إنكار الحق، وادعاء الباطل، مما يدل على أن الإنسان قد يرتكس بسبب الكفر والغرور، ويصل إلى غاية لا تتصور من الطغيان، حيث بلغ الحال بهذا المحاج أن يقول: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ وهو يعلم أنه كاذب.

١١- قوة إبراهيم عليه السلام في المناظرة وحكمته، حيث فرع على الحجة السابقة ما هو أقطع لحجة هذا المغالط المعاند بعد أن زعم أنه يحيى ويميت، فجعل نفسه نداً لله تعالى، ولهذا ألزمه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

١٢- قدرة الله ﷻ التامة على تصريف هذا الكون وتدبير الشمس وغيرها من الأفلاك.

١٣- إثبات حركة الشمس وجريانها في فلكها، خلافاً لمن زعم أنها ثابتة.

١٤- حيرة هذا المحاج وانبهاته وانقطاعه أمام حجة إبراهيم الدامغة، لما قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

١٥- أن الباطل لا يثبت أمام الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

١٦- أن من أنكر وجحد وجود الرب الخالق الملك المدبر، أو ادعى أنه يقدر على ما لا يقدر عليه إلا الرب تعالى، كالإحياء والإماتة، فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

١٧- حرمان الظالمين من هداية الله تعالى الخاصة، وهي هداية التوفيق بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٨- التحذير من الظلم، وأن من أعظم الظلم المحاجة بالباطل، وجحود الرب والكفر به تعالى.

١٩- إثبات هداية التوفيق لله تعالى وأنه يهدي من أقر بربوبيته وآمن واتبع الحق؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٠- إثبات قدرة الله ﷻ التامة على إحياء الموتى والبعث والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ الآية.

٢١- عناية القرآن الكريم في تقرير وبيان وإثبات قدرة الله ﷻ التامة على إحياء الموتى بتعداد وتنويع الأدلة والبراهين عليها، كما في هذه الآية، والتي بعدها.

٢٢- جهل الإنسان، وأنه قد يستبعد بسبب ذلك ما ليس بمستبعد على الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٢٣- حكمة الله تعالى ورحمته في جعله لهذا الرجل دليلاً في نفسه؛ ليتبين له تمام قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، حيث أماته ﷻ مائة عام، ثم بعثه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

٢٤- إثبات القول والكلام لله ﷻ بحروف وأصوات مسموعة؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ وقوله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، وقوله تعالى في الآية الأخرى لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ إلى قوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ الآية.

٢٥- في سؤال الله ﷻ هذا الرجل بعد بعثه: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ امتحان له وتقرير وبيان لجهله مدة لبثه.

٢٦- جواز إخبار الإنسان بما يغلب على ظنه، وأنه إذا خالف الواقع لا يعد مخطئاً؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

٢٧- عدم تعنيف الجاهل، وتعليمه برفق؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ ولم يقل له: «أخطأت».

٢٨- التوجيه إلى النظر والتأمل في آيات الله تعالى الكونية، مما يزيد العبد إيماناً ويقيناً؛

لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

٢٩- إثبات الملكية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، فأضاف إليه هذه الأشياء إضافة تملك.

٣٠- إثبات الكرامات وخوارق العادات، لبيان كمال قدرة الله تعالى، وتكريمه ﷻ لمن وقعت له هذه الكرامة وتأييد الحق.

حيث بقي هذا الرجل وشرابه مائة عام لم يتغير، وفي هذا دلالة على قدرة الله تعالى على إجراء ما يخالف بعض السنن الكونية المعتادة، لكن هذا لا يبرر الدعاء بما يخالف السنن الكونية؛ كقول بعضهم في الدعاء على الأعداء من الكفار: «اللهم جمّد الدماء في عروقهم»، ونحو ذلك مما لم تجر به سنن الله الكونية، فهذا من الاعتداء في الدعاء، وإن كان الله ﷻ لا يعجزه شيء.

٣١- تأكيد قدرة الله تعالى التامة الكاملة لهذا الرجل حيث جمع الله له في هذه الآيات الكونية بين الشيء وضده، فطعامه وشرابه لم يتغير مدة مائة عام، وحماره قد صار رفاتاً وعظاماً.

٣٢- جواز الانتفاع بالحُمُرِ، وامتلاكها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

٣٣- جعل الله ﷻ هذا الرجل وما حصل له آية للناس على قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾.

كما قال تعالى في مريم وابنها عيسى عليهما السلام: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

٣٤- الحث على التدقيق في النظر والتأمل في آيات الله على وجه التفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾.

٣٥- حكمة الله تعالى في كسو العظام باللحم تقوية ووقاية لها؛ لأن الضرر في العظام أشد من الضرر في اللحم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾، كما قال تعالى: ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ [المؤمنون: ١٤].

٣٦- فضل التدبر والنظر في آيات الله وعظيم ثمرته، إذ به يتبين الحق، ويحصل العلم

واليقين، وتنجلي غشاوة الغفلة والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا بعد النظر والتدبر.

٣٧- عموم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولهذا قدم المتعلِّق تأكيداً لعموم وشمول قدرته ﷻ لكل شيء.

وفي هذا رد على المعتزلة القدرية الذين يعتقدون أن الخلق يستقلون بخلق أفعالهم، وأنها خارجة عن قدرة الله تعالى، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

٣٨- وجوب العلم بأن الله على كل شيء قدير؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ على قراءة من قرأ «اعلم» على أنها فعل أمر.

٣٩- تذكير هذه الأمة بسؤال إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليطمئن قلبه، وبيان الله ﷻ له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية.

٤٠- فضل إبراهيم وشرفه وعظم مكانته عند الله تعالى، حيث كلم ربه، ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وكلمه ربه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾.

فأجاب إبراهيم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، فأجابه ربه بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ الآية.

٤١- أن من أعظم ما يدعى ويتوسل به إلى الله ﷻ ربوبيته، والتي معناها الخلق والملك والتدبير؛ ولهذا كان أكثر دعاء الأنبياء عليهم السلام باسم «الرب» وصفة «الربوبية»؛ وذلك؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية.

٤٢- رغبة إبراهيم عليه السلام أن يجمع الله له مع «علم اليقين» في إحياء الله ﷻ الموتى «عين اليقين»، فيرى كيفية إحيائه ﷻ للموتى؛ لأن «عين اليقين» أقوى، ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

٤٣- تقرير وإثبات إيمان إبراهيم عليه السلام بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ﴾.

ولهذا قال ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»(١).

أي: أن إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله على إحياء الموتى، ولو شك لكنا أحق وأولى بالشك منه، مع أننا لم نشك في ذلك، فإذا انتفى الشك في حقنا، فانتفاؤه في حق إبراهيم أحق وأولى.

وليس في هذا دلالة على أن إيمان إبراهيم أكمل من إيمان نبينا محمد ﷺ؛ لأن النبي ﷺ إنما قال هذا على سبيل التواضع، وللتأكيد على نفي الشك من إبراهيم- عليه الصلاة والسلام.

٤٤- إثبات زيادة الإيمان في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، كما قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

٤٥- استجابة الله ﷻ لسؤال إبراهيم عليه السلام كرامة له ورحمة بالعباد، حيث أراه كيف يحيى الموتى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، وبهذا جمع الله لإبراهيم عليه السلام بين علم اليقين وعين اليقين.

٤٦- تمام قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

٤٧- عناية القرآن الكريم بذكر مضمون القصص والمقصود منها دون ذكر أصحاب القصة ومكان وقوعها وزمانه وغير ذلك من التفاصيل التي لا فائدة في ذكرها.

فلم يذكر في القصة الأولى اسم الذي حاج إبراهيم في ربه، ولم يذكر في القصة الثانية اسم الذي مر على القرية، ولا اسم القرية، ولا نوع طعامه وشرابه، ونحو ذلك.

ولم يذكر في القصة الثالثة أسماء الطيور التي أحياها لإبراهيم، ولا أسماء الجبال التي وضع عليها أجزاءهن. وكل هذا يدل على أن المقصود التأمل في القصص وأخذ العظة والعبرة منها، دون الانشغال بما سوى ذلك مما طوي ذكره.

٤٨- وجوب العلم بأن الله عزيز حكيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٧٢)، ومسلم في الإيمان (١٥١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤٩- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى؛ عزة الامتناع، وعزة القوة، وعزة القهر والغلبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

٥٠- إثبات صفة الحكم التام لله -تعالى: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، والحكمة البالغة: الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

هذه الآية أشبه بالتفسير والبيان للمضاعفة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وفيها مع الآيات بعدها عود على الحض على الإنفاق في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ «المثل» يطلق على «الشبه» ويطلق على «الصفة»، فإن ذُكر المماثِل فالمراد به الشبه، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وإن لم يذكر المماثِل فالمراد به الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

وفي قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ الآية، تقدير

إما في المبتدأ وهو المشبه، فيكون التقدير: مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة.

وإما في الخبر وهو المشبه به، فيكون التقدير: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل باذر حبة؛ ليطابق الممثَّل الممثَّل به، وفي هذا الطيِّ دليل على بلاغة القرآن الكريم ليكون المثل صالحاً للتمثيل بالمنفق وبالنفقة.

ومعنى ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، أي: يبذلونها ويخرجونها، والأموال جمع مال، وهو كل ما يتمول من النقود والأعيان والمنافع.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ «سبيل الله»: شرعه وصراطه وطريقه المؤدي إليه وإلى مرضاته، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

والمعنى: مثل الذين ينفقون أموالهم طاعة لله تعالى، خالصة لوجهه، وفقاً لشرعه، بكونها من الطيب الحلال، وفي مواضعها التي شرع الله تعالى الإنفاق فيها كالجهاد في سبيل الله وغير ذلك من سبل الخير، من غير إسراف ولا تقتير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه، والمثل: الشبه، أي: كشبه حبة، و«الحبة» واحدة الحَبِّ، وهو ما يزرع للاقتيات كالبر ونحوه.

﴿أَنۢبَتَتْ﴾ أي: بذرت فأنبتت وأخرجت ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾، أي: تشعب منها سبعة سيقان في كل ساق سنبلة، فصارت سبع سنابل.

و«سنابل» جمع «سُنْبلة» وجمعت على «سنابل» جمع كثرة؛ لأن المقام مقام تكثير وتضعيف، بينما جمعت جمع قلة في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٣]؛ لأن السبعة قليلة، ولا مقتضى للتكثير.

﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أي: في كل سنبلة من هذه السنابل مائة حبة، فيكون مجموع حبوب هذه السنابل السبع سبعمائة حبة، وهكذا ثواب الإنفاق في سبيل الله ينميه اللهُ ﷻ ويضاعفه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، كما قال ﷺ: «**كل عمل**

ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به..»(١).

وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: «**لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة**»(٢).

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالتشديد مع حذف الألف هنا وفي جميع القرآن: «يُضَعِّفُ»، وقرأ الباقون بالإثبات والتخفيف ﴿يُضَٰعِفُ﴾.

والمضاعفة الزيادة، أي: والله يضاعف لمن يشاء هذه المضاعفة إلى سبعمائة، وما هو فوق ذلك، إلى أضعاف كثيرة، حسب حكمته ﷻ، وحسب إخلاص المنفق في عمله وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل، واسع في جميع صفاته.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن سعة علمه أنه يعلم من يستحق هذه المضاعفة، وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾.

بيَّن ﷻ في الآية السابقة مضاعفة أجر المنفقين في سبيله إلى سبعمائة ضعف، ثم أتبع ذلك بالتعريض بمن يُتبعون ما أنفقوا بالمن والأذى مؤكداً ما للمنفقين من الأجر عند ربهم وانتفاء الخوف والحزن عنهم.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، كرر هذا تأكيداً لوجوب الإخلاص في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٩٢)، والنسائي في الجهاد (٣١٨٧).

الإنفاق في سبيل الله، وأن تكون النفقة مما شرع الله تعالى، وفيما شرع ﷻ.

وأيضاً ليبني عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

«ثم»: للتراخي تدل على أن «المنّ» والأذى له أثره في إبطال الصدقة حتى ولو تراخى عن الصدقة، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ثم لا يتبعون الذي أنفقوه، أو ثم لا يتبعون إنفاقهم.

﴿مَنًّا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم كل مَنٍّ، أي: لا يتبعون ما أنفقوا، أي شيء من المن قل أو كثر على من أنفقوا عليه.

و«المن» الاعتداد بالإحسان، وإظهار الترفع على المنفَق عليه، كأن يقول له: أما أعطيتك كذا وكذا، أو يعدد عليه أياديه.

وقد يكون المنّ بالقلب بأن يعتقد المنفِق بأن له فضلاً على المنفَق عليه دون أن يصرح بذلك.

فكل هذا لا يجوز والفضل لله ﷻ، وما يخرجه الإنسان من ماله من نفقة واجبة أو مستحبة فهو من حقوق المنفَق عليه، لا منة فيها للمنفِق ولا فضل، بل الفضل والمنة في ذلك لله وحده.

﴿وَلَآ أَذًى﴾، أي: ولا أذى لمن أنفقوا عليه كأن يذكر المنفِق ذلك عند الناس، فيقول مثلاً: أنفقت على فلان كذا، وأعطيته كذا، أو يريد من المنفَق عليه أن يكافئه كأنه عمل إليه معروفاً، ونحو ذلك، أو يفعل معه مكروهاً يحبط ما سلف منه من إحسان، وقدَّم «المن»؛ لأنه أكثر.

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الأجر: ما يعطاه العامل مقابل عمله، والمعنى هنا: لهم ثواب إنفاقهم وعملهم.

وقدم الخبر «لهم»: وسمى ثوابهم أجراً؛ لضمانه ﷻ له وتكفله به، وأنه لا يضيع عنده.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١].

وجرد الخبر «لهم» من الفاء؛ لبيان أنهم المستحقون لهذا الأجر، دون غيرهم ممن ينفقون رياءً أو يتبعون ما أنفقوا بالمن والأذى.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند ربهم في الجنة، وفي كون هذا الأجر عند ربهم، خالقهم ومالكهم ومدبرهم، دليل على عنايته ﷻ بهم، وأنهم بجواره، ودليل على عظمة هذا الأجر؛ لأنه من ربهم العظيم، والأجر والعطاء على قدر المعطي، وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يستقبلهم من أهوال يوم القيامة.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا ولا على ما مضى وما فاتهم من الدنيا؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير من ذلك.

فاجتمع للمنفقين في سبيل الله تعالى المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، والثواب العظيم عند ربهم، مع انتفاء الخوف مما يستقبلهم والحزن على ما مضى وفاتهم، نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، عرّض ﷻ في الآية السابقة بمن يُتبعون ما أنفقوا بالمَن والأذى، ثم أتبع ذلك ببيان أن القول المعروف والمغفرة خير من صدقة يتبعها أذى.

قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قول: مبتدأ، وجاز الابتداء به وهو نكرة؛ لأنه وصف بقوله: ﴿مَّعْرُوفٌ﴾ أي: قول طيب، ووعد حسن واعتذار جميل، أو دعاء لمن سأل النفقة بقوله: «الله يرزقك وييسر أمرك»، ونحو ذلك مما يجبر خاطر السائل.

ونكر ﴿قَوْلٌ﴾ للتقليل، أي: قول معروف وإن قل.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء بالستر عليه والتجاوز عنه، سواء كان سائلاً أو غيره ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

و﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: خير مطلقاً للمسؤول وللسائل ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾ الصدقة: ما يبذل تقرباً إلى الله تعالى من مال وغيره، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة**

صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»(١).

والمراد بالصدقة في الآية- والله أعلم- الصدقة بإنفاق المال بدلالة السياق.

والمعنى أن القول الطيب المعروف شرعاً وعرفاً من الاعتذار للمحتاج وتطييب خاطره ونحو ذلك ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

وقوله: ﴿يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ في محل جر صفة لـ«صدقة»، أي: يتبعها أذى من المتصدِّق للمتصدق عليه؛ لأن ذلك يحبطها ويبطل أجرها، ويصير الإحسان إساءة.

ولم يذكر «المنّ»؛ لأن الأذى يشمله، فإذا لم تحصل الصدقة إلا مع الأذى، فالقول المعروف الطيب الحسن، والمغفرة بالستر لذنب من أساء والتجاوز عنه خير من تلك الصدقة.

بل إن القول المعروف يقوم مقام الصدقة عند عدم القدرة عليها، كما قيل:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم تسعد الحال(٢)

قال ابن القيم: «فالقول المعروف إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى، حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة»(٣).

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ أي: والله غني بذاته غنًى مطلقاً، من جميع الوجوه عن جميع خلقه، لا يحتاج إلى أحد منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

والصدقة لا تناله ولا تنفعه، وإنما ينتفع بها صاحبها، كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن**

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة- فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١)، وأبوداود في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» بشرح العكبري» (٢/ ٢٧٦).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٤٢٠).

تبلغوا نفعي فتنفعوني إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها»(١).

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله ولا يهمله، ويفسح له لعله يتوب، قال ابن القيم(٢):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

ومن حلمه ﷻ أن لا يعاجل من عصاه بإتباع الإنفاق بالمن والأذى ونحو ذلك بالعقوبة، فهو ﷻ غني عن خلقه، ويغني من أنفق وتصدق، وهو سبحانه حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بمنع النفقة أو المن فيها أو الأذى، ويحب الحلم من عباده بالمغفرة والعفو عمن أساء.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾.

عرَّض ﷻ في الآية السابقة بالذين يتبعون ما أنفقوا بالمن والأذى، ثم أتبع ذلك بالتصريح بنهي المؤمنين عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، وتشبيه من يفعل ذلك بمن ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، وتشبيه هذا بصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾.

الإبطال للشيء إزالته وإذهابه بعد وجوده، قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨].

قال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

و﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ جمع صدقة، وهي ما يبذله الإنسان من النفقات الواجبة والمستحبة، قيل: سميت صدقات؛ لدلالتها على صدق إيمان باذلها، وفي الحديث:

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) «النونية» (ص١٤٨).

«**والصدقة برهان**»(١)، أي: برهان على صدق صاحبها وإيمانه.

﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب المن على من تصدقوا عليه بالترفع والتعالي عليه، وإظهار أن لهم المنة والفضل عليه، علماً أن الفضل لله ﷻ وحده، ولو كان هناك شيء من الفضل لأحدهما لكان للمتصدَّق عليه لقبوله الصدقة.

﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾ معطوف على «المن» أي: وبسبب الأذى للمتصدَّق عليه بذكر ذلك للناس، أو إلحاق مكروه به ونحو ذلك، فكل واحد من المنَّ والأذى مبطل للصدقة.

﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الكاف للتشبيه، أي كإبطال الذي ينفقه ماله، فشبه الإبطال بالإبطال، أو لا تكونوا كالذي ينفق له، فشبه المنفق بالمنفق.

﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ «رئاء»: مفعول لأجله، وهو مصدر راءى يرائي مرآءة ورياءً.

أي: كالذي ينفق ماله لرئاء الناس، أي: لأجل أن يراه الناس فيمدحوه على ذلك، ويصفوه بالكرم والصلاح، ونحو ذلك، وليس ذلك لوجه الله، ورجاء ثوابه وخوف عقابه.

والرياء مبطل للعمل، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُنفِقُ﴾، أي: ولا يؤمن بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: ولا يؤمن باليوم الآخر يوم القيامة الذي هو آخر الأيام وما فيه من البعث والمعاد والحساب والجزاء.

وكثيراً ما يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله تعالى؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل ويحفز على العمل؛ لما فيه من الحساب والجزاء.

فشبه ﷻ المبطل لصدقته بالمن والأذى بالمنافق الذي ينفق ماله ليراه الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فهو ينفق وهو كاره ولا تنفعه نفقته، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: كمثل هذا المنفق ماله رئاء الناس مع عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾، أي: كمثل حجر أملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يؤمل أن ينبت ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ أي: مطر غزير، شديد الوقع، سريع التتابع.

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾، أي: فترك الوابل هذا الصفوان «صلداً»، أي: أجرد أملساً لا شيء عليه من تراب ولا نبات ولا غير ذلك.

فشبه ﷻ الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، في بطلان عمله وزواله وذهابه بحجر أملس، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ فأصابه مطر شديد فأزال هذا التراب، فلم يُنبت شيئاً بل ذهب بذره ضائعاً لعدم إيمانه وإخلاصه.

وقد أحسن القائل:

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا اكتسيت به فإنك عاري(١)

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ واو الجماعة في «يقدرون» تعود على «الذي»؛ لأنه اسم موصول يفيد العموم، فلفظه مفرد ومعناه الجمع.

و«شيء»: نكرة في سياق النفي، فيعم أيّ شيء، مهما قل أو كثر صغر أو كبر.

و«ما» في قوله: ﴿مِّمَّا﴾: موصولة أو مصدرية، أي: من الذي كسبوه وعملوه، أو من كسبهم وعملهم، أي: من ثوابه لبطلانه وزواله.

فشبه الله ﷻ المبطل صدقته بالمن والأذى بالمنافق المنفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، في عدم انتفاعه بما أنفق، ومثّله بصفوان عليه تراب فأصابه مطر شديد فتركه صلداً أملساً لا شيء عليه.

ووجه الشبه في هذا هو عدم قدرة المُتْبع صدقته بالمن والأذى والمنفق رياء مع عدم

---

(١) البيت للتهامي. انظر «ديوانه» (ص٤٧).

الإيمان بالله واليوم الآخر على شيء من ثواب ما عملوه؛ لبطلانه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: لا يوفق الله تعالى الكافرين بسبب كفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة مثل الذي ينفق ماله رئاء الناس مع عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم أتبعه بذكر مثل الذين ينفقون أموالهم بالإخلاص والصدق.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ «ابتغاء»: مفعول لأجله، أي: طلب مرضاة الله تعالى، وإخلاصاً لله، أو حال، أي: طالبين بذلك مرضاة الله ومخلصين له.

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ معطوف على «ابتغاء»، أي: تصديقاً وتيقناً من أنفسهم بأن الله تعالى شرع ذلك ويجازي عليه، ودليلاً على صدق إيمانهم.

كما في الحديث: «**الصدقة برهان**»(١)، أي: برهان على إيمان وصدق مخرجها.

وأيضاً: احتساباً من أنفسهم ذلك عند الله، كما قال ﷺ: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢).

قال ابن القيم(٣): «فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منهما كان مثله ما ذكر في هذه الآية، أحدهما: طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثر المنفقين، الآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها، هل يفعل أم لا؟ فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله تعالى، والآفة الثانية تزول بالتثبيت، فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل، وهذا هو صدقها».

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾، أي: كمثل بستان كثير الأشجار، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾.

قرأ عاصم وابن عامر بفتح الراء: ﴿بِرَبْوَةٍ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «برُبوة».

أي: بمكان مرتفع تأخذ نصيبها من الشمس والهواء الطلق، و«الربوة»: المكان المرتفع، يقال ربا الشيء إذا زاد، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: أصاب هذه الجنة وابل، و«الوابل»: المطر الغزير الكثير.

﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «أُكْلَها» بضم الهمزة وسكون الكاف، وقرأ الباقون بضمهما معاً: ﴿أُكُلَهَا﴾.

أي: أعطت وأنتجت ﴿أُكُلَهَا﴾: ثمرها، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، أي: ثمرها الذي يؤكل.

﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: ضعفي ما كان يؤتي غيرها، أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ارتفاعها ونزول الوابل عليها، والمعنى: فآتت أكلها مثلين، كما قال تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، وأبو داود في الصلاة (١٣٧٢)، والنسائي في الصيام (٢٢٠٣)، والترمذي في الصوم (٦٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٢٣).

﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

والمعنى: ومثل الذين ينفقون أموالهم طلب مرضاة الله تعالى وتثبيتاً من أنفسهم في مضاعفة ثواب نفقاتهم كمثل جنة بمكان مرتفع من الأرض بارزة للشمس والهواء نزل عليها مطر غزير كثير فجاء أكلها وثمرها ضعفين.

قال ابن القيم(١): «فهذا حال السابقين المقربين»، فعمل هؤلاء المنفقين ضوعف بسبب صدقهم في طلب مرضاة الله تعالى والتثبيت، وأُكُل تلك الجنة وثمرها جاء مضاعفاً؛ لكونها في مكان مرتفع تأخذ كفايتها من الشمس والهواء، مع نزول المطر الغزير عليها».

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ أي: فإن لم يصب هذه الجنة وينزل عليها ﴿وَابِلٌ﴾ أي: مطر كثير غزير ﴿فَطَلٌّ﴾: جواب الشرط «إن»، و«الطل»: المطر الخفيف.

والمعنى ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: فطل يصيبها أو فيصيبها طل، ويكفيها عن الوابل الكثير في إخراج بركتها.

لارتفاع مكانها وكرم منبتها وطيب مغرسها، وهكذا نفقات الذين ينفقون إخلاصاً لله تعالى وصدقاً يضاعفها الله تعالى لهم حتى وإن قلت.

قال ابن القيم(١): «وهذا حال الأبرار والمقتصدين في النفقة».

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم بصير، أي: مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية؛ لأنه ﷻ مطلع على كل شيء لا تخفى عليه منه خافية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

فهو ﷻ يعلم المنفق المتبع نفقته بالمن والأذى، والمنفق ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسه، وسيحصي ذلك ويحاسبهم ويجازيهم عليه.

قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

(١) انظر: بدائع التفسير (١/ ٤٢٣- ٤٢٤).

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

شبه ﷻ حال من يبطل صدقته بالمن والأذى بمن ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، ثم شبهه ثانياً بحال صاحب جنة من نخيل وأعناب له فيها من كل الثمرات وقد أدركه الكبر وله ذرية ضعفاء، فأصاب هذه الجنة إعصار فيه نار فاحترقت مع شدة حاجته وذريته إليها، فماذا يكون حاله؟ تكون الدنيا عليه أضيق ما يكون ويتحسر على جنته أشد الحسرة، وفي هذا من التنفير من إتباع الصدقة بالمن والأذى ما لا يخفى.

قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، و«يود» يحب، والمعنى: لا يود أحدكم هذا.

﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان كثير الأشجار والثمار، وجاء ﴿أَيَوَدُّ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار والنفي العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من لو قال: «أتودون».

و﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغ في الإنكار والنفي من لو قيل: «أيريد»؛ لأن محبة هذه الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ النخيل والأعناب من أفضل وأنفع الأشجار، وثمرها من أنفع الثمار، قوتاً وغذاءً، وفاكهةً وحلوى وشراباً ودواءً، يؤكل رطباً ويابساً.

قيل: النخيل أنفع وأفضل ولهذا قدَّمه، وقيل: العنب، وقيل: كل منهما في أرضه وموضعه أفضل من الآخر.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، وهذا أكمل لها وأعظم في قدرها.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من جودة هذه الجنة ونخيلها وأعنابها إنتاجها لصاحبها من كل الثمرات المتنوعة الأشكال والألوان والطعوم من النخيل والأعناب وغيرها، كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ الواو: حالية، أو عاطفة، أي: وأصاب صاحب هذه الجنة الكبر، فعجز عن القيام عليها مع شدة حاجته إليها وتعلق قلبه بها.

﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ لا يستطيعون القيام عليها لصغرهم وعجزهم.

والذرية: هم أولاد الرجل وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور.

وإنما جعل الله ﷻ «عيسى ابن مريم» من ذرية إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥] وهو ابن بنت؛ لأنه لا أب له، وأمه بمنزلة أبيه.

قال ابن القيم(١): «وأصابه الكبر» هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه: أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها، الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه، الثالث: أن له ذرية، فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته، الرابع: أنهم ضعفاء، فهم كل عليه، لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم، الخامس: أن نفقتهم عليه؛ لضعفهم وعجزهم.

وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة؛ لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته لها، فإذا تصورت هذا الحال وهذه الحاجة، فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار».

قوله: ﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي: فأصاب هذه الجنة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ وهو الريح التي تستدير في الأرض ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود وفيها نار، وقيل: هي الريح الشديدة السموم.

﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي: فاحترقت هذه الجنة، وتساقطت أوراقها وثمارها وصارت رماداً، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

عن عبيد بن عمير قال: قال عمر ﷺ يوماً لأصحاب النبي ﷺ: «**فيم ترون هذه**

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٢٧).

الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي، قل، ولا تحقر بنفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله ﷻ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»(١).

وعن الحسن قال: «هذا مثل قل والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»(٢).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: يوضح ويفصل لكم الآيات الكونية والشرعية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تتفكروا، والتفكر: إعمال الفكر والعقل والنظر في آيات الله الكونية والشرعية، والحذر من مبطلات الأعمال، ومن إبطال الصدقات بالمن والأذى، فيخسرها المنفق أحوج ما يكون إليها كصاحب هذه الجنة.

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن الكريم بتشبيه المعقول بالمحسوس؛ لتقريب المعاني، وهو وسيلة من وسائل الإيضاح والبيان، ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم وبلاغته؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الآية. كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وفي هذا دلالة على إثبات القياس.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ (٤٥٣٨)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ١٨٣ - ١٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٢٢).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٢٥).

٢- إثبات الملكية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ فالإنفاق إنما يكون مما يملك الإنسان وهو ملك نسبي إضافي؛ لأن الإنسان وما ملك ملك لله تعالى.

٣- أن المعتبر من الإنفاق والأعمال ما كان خالصاً لله تعالى موافقاً لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٤- وجوب معرفة سبيل الله وشرعه ليكون العمل موافقاً له.

٥- سعة فضل الله تعالى وكرمه وجوده حيث يُنمّي للمنفق نفقته وثوابها إلى سبعمائة ضعف أو أكثر.

٦- قدرة الله تعالى التامة ونعمته العظيمة على العباد بجعل هذه الحبة تنتج سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فتكون سبعمائة حبة أو أكثر.

٧- مضاعفة الله ﷻ ثواب الإنفاق بلا حد لمن يشاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وذلك حسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام، وحسب نفقته ونفعها.

٨- فضل الإنفاق في سبيل الله والإغراء فيه، والثناء على المنفقين ترغيباً فيه وحثّاً عليه.

٩- إثبات المشيئة وهي الإرادة الكونية لله ﷻ المقترنة بالعلم والحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

١٠- سعة الله ﷻ، وسعة صفاته، فهو سبحانه واسع الفضل والجود والعطاء، واسع المغفرة والعفو والرحمة واسع الحلم، واسع الصفات جميعاً؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١١- إثبات أن الله ﷻ ذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

١٢- تأكيد الترغيب في الإنفاق خالصاً لله تعالى ووفق شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٣- التعريض بذم إتباع الإنفاق بالمن والأذى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

١٤- عظم أجر المنفقين في سبيل الله؛ لأنه عند ربهم العظيم ذي الفضل العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٥- تكفل الله ﷻ وضمانه لثواب المنفقين، وتأكيد ذلك بتقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وتسميته «أجراً» وكونه عنده.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمنفقين أموالهم في سبيله بلا من ولا أذى، وتشريفهم بإضافة اسم «الرب» إلى ضميرهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٧- سلامة المنفقين من الخوف مما يستقبلهم والحزن على ما مضى وفاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٨- أن من أتبع نفقته بالمن والأذى لا أجر له، وهو عرضة للخوف والحزن؛ لمفهوم قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

١٩- لا بد لقبول الصدقة من توفر الشروط السابقة وهي: الإخلاص والمتابعة، والسلامة من المبطلات اللاحقة، وهي المن والأذى.

٢٠- أن الإحسان بالقول المعروف الطيب، والمغفرة والعفو عمن أساء خير من صدقة يتبعها أذى؛ لقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

٢١- فضل قول المعروف من الاعتذار للسائل بما يطيب خاطره، أو وعده وعداً حسناً، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

٢٢- فضل المغفرة والعفو عمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

٢٣- إثبات تفاضل الأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾، وهذا دليل على زيادة

الإيمان ونقصانه.

٢٤- إثبات اتصاف الله تعالى بالغنى بذاته، غنى مطلقاً، من جميع الوجوه، عن جميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

فهو سبحانه الغني عن خلقه المغني لمن أنفق وتصدق، المخلف عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

٢٥- إثبات حلم الله ﷻ الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾، فهو- سبحانه وتعالى- حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب.

كما أنه تعالى يحب من عباده أن يتصفوا بالحلم والمغفرة والعفو عمن أساء إليهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

٢٦- العناية والاهتمام بخطاب المؤمنين وتشريفهم وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف وأن عدم المن والأذى بالصدقات من مقتضيات الإيمان، والمن والأذى بها نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية.

٢٧- تحريم اتباع الصدقات بالمن والأذى، وأن ذلك يبطلها ويحبط ثوابها؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾.

وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاثاً. قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة منان، ولا عاق،**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأبو داود في اللباس (٤٠٨٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣)، والترمذي في البيوع (١٢١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨).

ولا مدمن خمر»(١).

وفي هذا دلالة أن الحسنة قد تحبط بالسيئة، كما قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الآية: ٢٠].

٢٨- بلاغة القرآن الكريم، وبلوغه الغاية في التنفير عما يريد التنفير عنه حيث شبه من يُتبع صدقته بالمن والأذى بمن ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل حجر أملس عليه تراب فأصابه مطر غزير فصار صلداً أملس؛ لقوله تعالى: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾.

وفي هذا بيان شدة خطر المن والأذى بالصدقة حيث شبه من يفعل ذلك بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

٢٩- ذم الرياء وتحريمه وخطره، وأنه مبطل للعمل وينبئ عن النفاق، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية.

ولهذا قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». فسئل عنه فقال: «**الرياء**»(٢).

وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٣).

٣٠- إثبات اليوم الآخر يوم القيامة، وأن الإيمان به من أعظم أركان الإيمان، ولهذا يقرن كثيراً في القرآن الكريم بالإيمان بالله تعالى.

٣١- عدم قدرة من يتبع الصدقة بالمن والأذى، ومن ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٦٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

بالله واليوم الآخر على شيء مما كسبوه سوى الخسران والحسرات؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾.

٣٢- حرمان الكافرين بسبب كفرهم من هداية الله تعالى؛ هداية التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣٣- هداية الله وتوفيقه للمؤمنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣٤- تأكيد عظم فضل الإنفاق والإغراء فيه والحث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٣٥- إثبات صفة الرضا لله ﷻ وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٣٦- ينبغي أن يكون الإنفاق عن طيب نفس، واطمئنان ورضا وثقة بالخلف من الله وبرهان على قوة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٣٧-أنه كلما كانت الجنة والبستان في ربوة ومكان مرتفع كان ثمرها أكثر وأجود حيث تأخذ نصيبها من جودة التربة والشمس والهواء؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ كما قال تعالى في سورة النور: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [الآية ٣٥].

فإن أصابها «وابل» وهو المطر الغزير آتت أكلها ضعفين، وكذا إن أصابها «طل» وهو دون الوابل؛ لأنها بسبب جودة أرضها ومكانها المرتفع تعوض ما نقص من الماء وتأتي ثمرتها كاملة؛ لقوله تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

٣٨- بركة المطر وعظيم نفعه وآثاره؛ لقوله تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

٣٩- علم الله ﷻ واطلاعه على جميع ما يعمل الخلق، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالف أمر الله؛ لأن مقتضى علمه ﷻ أن يحصي على العباد أعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها، خيرها وشرها.

٤٠- تأكيد التنفير من المن بالصدقة بتشبيه المان بها بحال من كانت له جنة من نخيل وأعناب له فيها من كل الثمرات وقد كبر وذريته ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وهو في حال لا يستطيع القيام عليها؛ لكبره ولا ذريته لضعفهم فخسرها أحوج ما كان إليها، ولم يبق لديه إلا الحسرات عليها، وهذا حال المان بالصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾.

فكما أن الإنسان لا يود أن تكون له هذه الجنة والتي تنتهي بهذه النهاية المرة، فكيف يتبع الإنسان صدقته بالمن والأذى فتحبط فتكون نهايته الخسران والحسرة.

٤١- مدى ضعف الإنسان إذا كبر وله ذرية ضعفاء، فلا هو قادر على القيام بما يصلحهم، ولا هم قادرون على القيام بمصالحه.

٤٢- إقامة الحجة على الخلق ببيان الآيات وتفصيلها وإيضاحها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٤٣- الحث والترغيب في التفكر في آيات الله تعالى الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تتفكروا.

٤٤- إثبات التعليل لأحكام الله تعالى وأفعاله، وأن ذلك كله لحكمة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾.

بين ﷻ في الآيات السابقة فضل الإنفاق في سبيل الله وعظم أجره ومضاعفته، ونهى المؤمنين عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى كحال الذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، ثم أمرهم في هذه الآية بالإنفاق من كسبهم ومما أخرج الله لهم من الأرض، ونهاهم أن يتيمموا الخبيث منه ينفقون.

سبب النزول:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ

﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ قالوا: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض، أو حياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده»(١).

قوله: ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ «الطيب» يطلق على الحلال وعلى الجيد وعلى الطاهر ونحو ذلك.

و«ما» موصولة أو مصدرية، والمعنى: ابذلوا وتصدقوا من حلال وجيد الذي كسبتموه، أو كسبكم، أي: الذي حصلتم عليه بالمعاملة بالبيع والشراء، والإجارة أو غير ذلك بتيسير الله تعالى لكم ذلك.

وقال هنا: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ بينما قال بعده: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ والكل منه سبحانه؛ لأن الكسب بالتعامل بالبيع والشراء ونحو ذلك فِعْلُ العبد فيه ظاهر، بخلاف الخارج من الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: ومن الذي ﴿أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الحبوب والثمار والفواكه والمعادن وغير ذلك.

والعطف على «ما» في قوله: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض.

ويحتمل أن يكون العطف على ﴿طَيِّبَٰتِ﴾، أي: أنفقوا من طيبات ما كسبتم، وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض؛ لأن ما أخرج الله تعالى لنا من الأرض كله طيب حلال لنا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وهذا أولى.

قال ابن القيم(٢): «أضاف سبحانه الكسب إليهم، وإن كان هو الخالق لأفعالهم؛

---

(١) أخرجه الترمذي في «تفسير سورة البقرة» (٢٩٨٧)، وابن ماجه في الزكاة، النهي أن يخرج في الزكاة شر ماله (١٨٢٢)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٩٩)، والحاكم (٢/ ٢٨٥)، وقال الترمذي: «حديث صحيح حسن غريب»، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٢٨).

لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه؛ لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدوراً لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره بالكلية».

والأمر في الآية يدخل فيه الفرض والنفل، فيشمل زكاة النقدين، وعروض التجارة، وزكاة الخارج من الأرض، والنفقات الواجبة والصدقات.

و«من» في قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ للتبعيض، أي: أنفقوا بعض طيبات ما كسبتم، وبعض ما أخرجنا لكم من الأرض، ويجوز كون «من» لبيان الجنس، فيجوز أن ينفق الإنسان كل ماله.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿أَنفِقُواْ﴾ والتيمم في اللغة القصد، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦].

قال الأعشى(١):

تيممت قيساً وكم دونه ... من الأرض من مهمه ذا شَزَن

أي: ولا تقصدوا وتتعمدوا الخبيث.

والمراد بـ«الخبيث» هنا: الرديء، ضد الطيب الجيد، أي: ولا تقصدوا الرديء ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

وقوله: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾: حال من الفاعل في ﴿تَيَمَّمُواْ﴾، أي: منفقين منه، أو حال من المفعول «الخبيث»؛ أي: منفقاً منه، وقدَّم «منه» على متعلقه للحصر.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: ولستم بقابلي هذا الرديء لو كان الحق لكم ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ «إلا»: أداة حصر.

﴿أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ الإغماض: أخذ الشيء على استحياء مع كراهته، كأنه أغمض عينيه كراهية أن يراه فلا يملأ عينه منه، بل يغض من بصره، ويغمض عنه بعض نظره كراهية له.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٦٩).

أي: لو كنتم أنتم المستحقين له وبُذل لكم لم تأخذوه في حقوقكم إلا أن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه.

أي فكيف تبذلون لله ما لا ترضون بذله لكم، ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له؟ والله تعالى أحق من يختار له خيار الأشياء، وكيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيباً؟

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ أي: واعلموا أن الله غني عنكم وعن جميع خلقه، فله خزائن السموات والأرض، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وإنما دعا ﷻ عباده إلى الإنفاق ليجازيهم ويثيبهم أعظم الجزاء.

﴿حَمِيدٌ﴾ أي: محمود- سبحانه وتعالى- في غناه يحمده جميع خلقه لعظيم كرمه وواسع جوده وعطائه، كما أنه ﷻ ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمد ويثني على من يستحق الحمد والثناء، ولهذا أثنى على أنبيائه ورسله والصالحين من عباده.

وفي الجمع بين وصفي «الغني» و«الحميد» بيان أنه ﷻ هو المحمود على غناه، بخلاف من أعطاه الله تعالى الغنى من الخلق فبخل به فإنه لا يحمد على غناه بل ويذم.

كما أن غناه وحمده يأبيان قبول الرديء، فإن قَابِلَ الرديء الخبيث إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله.

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

بيَّن ﷻ في الآيات السابقة فضل الإنفاق في سبيله وأمر المؤمنين بالإنفاق من طيب ما كسبوه ومما أخرج الله لهم من الأرض، ونهاهم عن قصد الخبيث للإنفاق منه، ثم أتبع ذلك ببيان أن الشيطان يعدهم الفقر ويخوفهم منه إن أنفقوا، ويأمرهم بالفحشاء من البخل والمن والأذى، وغير ذلك من المعاصي، والله يعدهم مغفرة وفضلاً، وفي ذلك تحذير من البخل والمن والأذى، وترغيب في الإنفاق بلا من ولا أذى.

قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ «الشيطان» اسم لكل متمرد عات خارج عن طاعة الله تعالى من الإنس والجن والحيوان، والمراد به هنا إبليس لعنه الله.

﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ الوعد غالباً يكون في الخير، وقد يكون في الشر كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

ومعنى ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾، أي: يخوفكم الفقر والحاجة والعيلة بسبب الإنفاق.

فيأتي للإنسان ويقول له: لا تنفق، وأمسك عليك مالك، فأنت محتاج إليه، فيحمله بوعده الكاذب وغروره على إساءة الظن بربه، ويحرمه من أجر المنفقين، وقد أحسن القائل:

دلاهم بغرور ثم أوردهم ... إن الخبيث لمن ولاه غرار(١)

﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: بالبخل، الذي هو من أقبح الفواحش، والفحشاء في الأصل تعم كل ما قبح وفحش في الشرع وعُرْفِ المسلمين.

وفي الحديث: «**إن للشيطان للمَّة بابن آدم، وللملك لَمَّة، فأما لَمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾**»(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾، أي: والله يعدكم بوعده الذي لا يخلف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: مغفرة منه واسعة لذنوبكم بالستر لها، والتجاوز عن العقوبة عليها، وهذا في مقابل أمر الشيطان بالفحشاء.

وفي قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ تعظيم لمغفرته ﷻ، أي: مغفرة عظيمة واسعة لجميع الذنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان» (١٠٩).

(٢) روي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ من حديث ابن مسعود ﷺ، أخرجه الترمذي في التفسير (٢٩٨٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، وأخرجه النسائي في التفسير (٢١١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٢٩)، وأخرجه الطبري مرفوعاً وموقوفاً على ابن مسعود في «جامع البيان» (٥/ ٦ - ٨).

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

بل إنه ﷻ يبدل السيئات حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿وَفَضۡلًا﴾، أي: ويعدكم فضلاً عظيماً منه، وهذا في مقابل وعد الشيطان لكم بالفقر.

أي: وزيادة منه بالخلف على المنفق في الدنيا أضعاف ما أنفق، وزيادة منه في الآخرة بمضاعفة الحسنات وثواب الصدقات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وفي الحديث: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**»(١).

فهذا وعد الله، وذلك وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق، أي الوعدين أوثق، وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه، وشتان ما بين الثرى والثريا، كما قال ابن القيم(٢):

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعاً فما الضدان يجتمعان

قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾.

ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة فضل الإنفاق في سبيل الله لمن منَّ الله ﷻ عليهم بالأموال، ثم أتبع ذلك بذكر ما هو أفضل من الأموال وهو: الحكمة والعلم والرشد،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «النونية» (ص١١).

ممتناً بذلك على من آتاه الله تعالى ذلك، وقدره قدره وأدى حقه.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يعطي الحكمة الذي يشاء من عباده، والحكمة: العلم والرشد والمعرفة بالله تعالى وكتابه، كما قال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»(١).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار**»(٢).

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله(٣).

قال ابن القيم(٤): «الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**رأس الحكمة مخافة الله**»(٥).

﴿من يشاء﴾، أي من يشاء ويريد من عباده.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قرأ يعقوب بكسر التاء: «يؤتِ»، وقرأ الباقون بفتحها ﴿يُؤْتَ﴾ أي: ومن يعط الحكمة، وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن المعطي للحكمة معلوم، وهو الله عز وجل، كما في الجملة السابقة.

﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: فقد أعطي خيراً كثيراً، يجب عليه شكره.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٣١).

(٤) في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٩).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٧/ ١٠٦ (٣٤٥٥٣)، وأبو داود في الزهد ص١٠٦ (١٦٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٢/ ٢٠١ (٧٢٨).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وما يتعظ ويعتبر بآيات الله وينتفع بها إلا أصحاب العقول السوية السليمة، الذين تهديهم عقولهم إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

رَغَّبَ ﷻ في الإنفاق بذكر مضاعفة أجره، وأكد في هذه الآية أنه لن يضيع عنده سبحانه ذلك مهما قل، ويحاسب ويجازي عليه.

قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، و«أنفقتم»: فعل الشرط.

و«من» في قوله: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾، وفي قوله: ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للتنصيص على العموم.

و«نفقة» و«نذر» كل منهما نكرة في سياق الشرط فتعم كل نفقة ونذر، أي: أي شيء تنفقونه من قليل أو كثير، ومن أي شيء كان، وأي نذر تنذرونه.

والنذر: ما يوجبه الإنسان على نفسه؛ كأن يقول: لله عليَّ أن أتصدق بكذا، أو أن أصوم كذا، وهو جائز مع الكراهة لما فيه من إلزام الإنسان نفسه بما لم يكن واجباً عليه، مما قد يعجز عنه ونحو ذلك.

والعافية لا يعدلها شيء، وقد قال ﷺ: «**النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل**»(١).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فإن الله يعلم ذلك، فالضمير في «يعلمه» بمعنى اسم الإشارة؛ لأنه يعود إلى اثنين. أي: فإن الله يعلمه ويحاسب ويجازي عليه، ولن يضيع عنده، يعلم من قصد بذلك وجه الله فيثيبه ويجازيه من واسع فضله، ويعلم من قصد بذلك غيره فيكله إلى من قصد.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: وما للظالمين المانعين لما يجب إنفاقه، أو المبطلين

---

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٨)، ومسلم في النذور (١٦٣٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

صدقاتهم بالمن والأذى أو بالرياء وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، أو المتيممين للخبيث ينفقون منه، أو الذين لا يوفون بما نذروا من طاعة، أو ينذرون في معصية وغيرها.

﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ «من»: زائدة إعراباً مؤكدة من حيث المعنى للعموم، أي: وما لهم أيّ أنصار، والأنصار: جمع ناصر، وهو الذي ينصر ويدفع الضر، أي: وما لهم من أنصار يدفعون عذاب الله ويمنعونه عنهم.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

ذكر ﷻ في الآية السابقة علمه سبحانه بالنفقات أيّاً كانت، ومهما كانت، ثم بين في هذه الآية جواز إبداء الصدقات وإخفائها مع أن إخفاءها خير للمتصدق.

قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: إن تظهروا الصدقات وتعلنوا بها، ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح النون «فنَعما هي» وقرأ أبوجعفر بكسر النون وإسكان العين «فنِعْما هي»، وقرأ الباقون بكسرهما معاً ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾.

وهذه جملة إنشائية للمدح، أي: فنعم شيء هي، وهذا مدح لها.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي: وإن تُسرّوها ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي: وتعطوها الفقراء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: فإخفاؤها وإعطاؤها الفقراء خير لكم خيرية مطلقة من إبدائها وإظهارها.

وقيَّد الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: «**وإن تخفوها فهو خير لكم**»؛ لأن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز الجيوش وبناء المساجد والقناطر وإجراء الأنهار وحفر الآبار ونحو ذلك.

وإنما كان إخفاؤها وإيتاؤها الفقراء خيراً؛ لما فيه من الستر على الفقير والإخلاص لله تعالى، ولهذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على صاحبها، فذكر من بين السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله «**رجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في =

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وحفص بالياء: ﴿وَيُكَفِّرُ﴾.

وقرأ الباقون بالنون: «ونكفر»، وقرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بجزم الراء: «ونكفرْ»، وقرأ الباقون برفعها: «ونكفرُ».

﴿وَيُكَفِّرُ﴾، أي: ويمحو ويستر.

﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، سميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وتسوء غيره إما مباشرة إذا كانت متعدية، أو غير مباشرة إذا كانت غير متعدية.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١].

و«من» في قوله: ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ تبعيضية؛ لأن الإنفاق لا يكفر جميع السيئات.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم خبير.

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها؛ فاطلاعه على الظواهر والجلائل والجليات من باب أولى.

وفي هذا وعد لمن تصدق وأطاع الله ﷻ، ووعيد لمن بخل وخالف أمر الله؛ لأن مقتضى علمه ﷻ بعملهم محاسبتهم ومجازاتهم على ذلك، خيراً كان أو شراً.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس ﵄ قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن

=

الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة ﵁.

يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: ليس عليك يا محمد هدى الناس، أي: ليس عليك هداية قلوبهم وتوفيقهم؛ لأن أمر ذلك إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

أما هدى البيان والإرشاد فهو إليه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، أي: تدل وترشد، وكما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، أي: ولكن الله تعالى يوفق من يريد توفيقه من العباد.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ الواو: استئنافية، و«ما» في هذا الموضع والذي بعده: شرطية، و﴿تُنفِقُواْ﴾: فعل الشرط.

﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ «من» في هذا الموضع والذي بعده زائدة إعراباً مؤكدة من حيث المعنى للتنصيص في العموم، أي: وما تنفقوا من خير أي خير قل أو كثر، ويجوز كون «من» بيانية، أي: بيان لـ«ما» الشرطية.

والخير: المال، وكل ما يبذل في سبيل الله من نقد أو عين أو منفعة.

﴿فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلأنفسكم نفعه وثوابه، وليس لله تعالى، فهو سبحانه الغني عن خلقه، كما قال تعالى في «البُدْن»: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

وأيضاً: فلأنفسكم وليس لغيرها، فكيف يبخل الإنسان على نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» في التفسير، (١١٠٥٢)، والبزار في «مختصر زوائد البزار» (١٤٥٠)، والحاكم (٢/ ٢٨٥) وصححه، كما صححه ابن حجر في تعليقه على مختصر زوائد البزار.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾، أي: وما تنفقون إلا طلب وجه الله تعالى ورضاه، أي: طلب رؤية وجه الله تعالى الكريم ورضاه سبحانه، فالمؤمنون لا ينفقون إلا طلب وجه الله تعالى ورضاه، إذ لا ينفع من النفقة إلا ما كان لوجه الله تعالى.

ومن أنفق بهذا القصد فما عليه بعد ذلك، فالله يتولى نفقته ويثيبه؛ لقوله بعد ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، وكما جاء في حديث الذي تصدق على زانية وعلى غني وعلى سارق، فقال: «**اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر، فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته**»(١).

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ الكلام فيه كما سبق.

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، «يوف»: جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، أي: وما تنفقوا من أي خير كان نقداً أو عيناً أو منفعة قليلاً أو كثيراً ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: يُرجع إليكم وتعطون ثوابه وافياً، كما قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

بل يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم لا تظلمون، أي: لا تنقصون ولا تبخسون شيئاً منه.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

حث ﷻ في الآيات السابقة على الإنفاق وبذل الصدقات والخير، ثم بين في هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢١)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الآية مصرف الإنفاق.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

كأن سائلاً سأل، فقال: إلى أين يصرف الإنفاق والخير؟ فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية، وهو متعلق بقوله: ﴿تُنفِقُواْ﴾ في الآية السابقة، أو بمحذوف تقديره: الإنفاق والصدقات للفقراء.

و«الفقراء»: جمع «فقير» وهو المعدم الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية، مأخوذ من «الفقر» الذي يجتمع في الاشتقاق الأكبر مع «القفر»، وهي: الأرض الخالية التي لا شيء فيها، ومن هنا سمي الفقير؛ لأنه لا شيء عنده، أو مأخوذ من «فقار الظهر»؛ لأن الفقير؛ لشدة حاجته أشبه بمن انفصمت فقار ظهره فلا يستطيع الحراك، والمراد بـ«الفقراء» هنا ما يشمل «المساكين»؛ لأنه إذا أُفرد أحدهما دخل معه الآخر، و«المسكين»: من يجد نصف الكفاية فأكثر ولا يجد تمام الكفاية.

﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الحصر: المنع، أي: الذي منعوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله من المهاجرين وغيرهم.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الضرب في الأرض: السفر فيها، أي: لا يقدرون على السفر والتنقل في الأرض والبحث عن الرزق فيها والتكسب فيها لمنع العدو لهم، أو لقلة ذات اليد، فلا راحلة ولا زاد، أو بسبب المرض والجراح والكسور ونحو ذلك.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين: ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾، وقرأ الباقون بكسرها «يحسِبهم» أي: يظنهم الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء.

﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ «من»: سببية، و«التعفف» هنا إظهار الاستغناء.

والمعنى: بسبب تعففهم في لباسهم وحالهم عن إظهار المسكنة، وفي مقالهم عن السؤال، فإذا رآهم من لا يعرف حالهم ظنهم أغنياء، مع أنهم في غاية الفقر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده اللقمة**

والقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

وفي رواية: «**ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا القمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي يتعفف، اقرؤوا إن شئتم يعني قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾**»(١).

﴿تَعْرِفُهُم﴾ أيها المشاهد العارف المتوسم المتفرس، ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم وصفاتهم الدالة على أنهم فقراء، وإن أظهروا التعفف، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

وفرق بين المسكنة والتمسكن لمن منحه الله بصيرة وفراسة، وفي الحديث: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾** [الحجر: ٧٥]»(٢).

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ﴿إِلْحَافًا﴾: حال، أي ملحفين، و«الإلحاف»: الإلحاح في المسألة، وسؤال الناس وعنده ما يغنيه عن السؤال.

وفي الحديث: «**أن من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف**»(٣).

والنفي هنا للقيد وهو«الإلحاف» وللمقيد وهو«السؤال»، أي: لا يسألون الناس مطلقاً؛ لقوله قبل ذلك: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ فلو كانوا يسألون ما وُصفوا بالتعفف، ولما حسبهم الجاهل أغنياء بسبب ذلك، بل لحسبهم فقراء بسبب سؤالهم، فهم لا يسألون الناس بالكلية، وإن سألوا اضطراراً لم يلحفوا في السؤال.

فذكر ﷻ أعلى أنواع السؤال المذموم وهو السؤال مع الإلحاف الذي يَنُم عن سوء أدب وقلة حياء من السائل، ويؤذي المسؤول ويضايقه.

فمن اجتمعت فيهم هذه الصفات الست فهم أولى بالإنفاق والصدقات، وهي

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (١٤٧٩)، وفي التفسير (٤٥٣٩)، ومسلم في الزكاة المسكين الذي لا يجد غنى (١٠٣٩)، وأبو داود في الزكاة (١٦٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧١)، وأحمد (٢/ ٣١٦).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحجر (٣١٢٧)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: «حديث غريب».

(٣) سيأتي تخريجه.

الفقر، والإحصار في سبيل الله، وعدم استطاعة الضرب في الأرض، والتعفف بدرجة أن من لا يعرفهم يظنهم أغنياء بسبب ذلك، ومعرفتهم بسيماهم، أي: معرفة حالهم وحاجتهم، وعدم سؤالهم الناس إلحافاً.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: وما تبذلوا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قل أو كثر، من أي شيء كان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: جواب الشرط «ما» أي: فإن الله ذو علم تام به، ولن يضيع عنده، فهو لكم محتسب وثوابه عند الله لكم مدخر، أوفر ما يكون، وأحوج ما تكونون إليه.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الإنفاق من طيبات الكسب ومما أخرجه الله لنا من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وهذان هما أصول الأموال، والأصل في الأمر الوجوب، كإخراج الزكاة والنفقات الواجبة، ويحمل على الندب فيما هو مندوب؛ وذلك من مقتضيات الإيمان.

٢- وجوب إخراج الزكاة في عروض التجارة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ وهي مما يكتسب في المعاملة والبيع والشراء.

٣- يجب أن تكون النفقة من الكسب الطيب، واجبة كانت أو مندوبة؛؛ لقوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، ولا تجوز من الكسب الحرام، لمفهوم الآية.

٤- وجوب الزكاة في الخارج من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

وقد بينت السنة ما تجب فيه الزكاة بخصوصه من الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ونحو ذلك، ومقدار النصاب، ومقدار الواجب فيه.

وقد قيل بوجوب الزكاة في كل ما يخرج من الأرض لعموم الآية، والصحيح الأول بدلالة السنة.

٥- تحريم قصد الرديء لإخراج الزكاة منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، ولقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

فلا يجوز إخراج الرديء في الزكاة، كما لا يلزم إخراج الأجود، بل يخرج الوسط، وإن أخرج الأجود فهو أكمل وأفضل، وإن كان كل ماله رديئاً جاز إخراج الزكاة

منه؛ لأنه في هذه الحال لم يتيمم الخبيث، بل أخرج ما عنده.

٦- وجوب الإنصاف من النفس وأن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، فلا يقصد الرديء لينفق منه وهو لا يقبل في المعاملة أخذ الرديء إذا كان الحق له إلا مع الكراهية، فكما لا يرضاه لنفسه، ينبغي أن لا يعطيه ويرضاه لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.

٧- أن من طبيعة الإنسان أن لا يقبل الظلم والغبن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.

٨- وجوب العلم بأن الله غني حميد؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

٩- إثبات أن الله ﷻ حميد محمود في غناه؛ لواسع كرمه وجوده وعطائه، حميد يَحمد ويُثني على من أطاعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وكثير من الخلق يذم على غناه؛ لبخله وشحه.

١٠- حرص الشيطان على إضلال وإغواء بني آدم، ووجوب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

١١- تسلط الشيطان على بني آدم، وبخاصة على من يتولونه ويتبعونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

١٢- دقة مداخل الشيطان على الإنسان، حتى إنه ليبدو أنه الناصح يخوف المنفق من الفقر والمجاهد من القتل، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

١٣- عداوة الشيطان لبني آدم، وأنه لا يأمر إلا بالشر؛ لقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ [النور: ١١]، وهذا عام لجميع الشرور والمعاصي.

١٤- أن البخل وعدم الإنفاق من الفحشاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

١٥- وعد الله ﷻ للمنفقين بمغفرة ذنوبهم وسترها والتجاوز عنها وزيادتهم من فضله

بمضاعفة أجورهم في الآخرة، والمباركة لهم في أموالهم في الدنيا، وتأكيد ذلك وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾.

١٦- إثبات أفعال الله تعالى الاختيارية المتعلقة بمشيئته، وإثبات المشيئة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

١٧- فضل الله ﷻ بإعطائه الحكمة والعلم والرشد من يشاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾.

١٨- إثبات كمال حكمة الله ﷻ وعلمه؛ لأن ما يعطيه الله ﷻ لعباده من ذلك هو من حكمته وعلمه، كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

١٩- أن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً، يوجب عليه معرفة عظم فضل الله عليه وشكره على ذلك بالقيام بحقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٢٠- أنه إنما يتذكر ويتعظ أصحاب العقول السليمة الذين تهديهم عقولهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

بخلاف من لم يتعظوا بآيات الله تعالى فهم ليسوا من العقلاء حقاً، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢١- فضل العقل من بين أعضاء الجسم؛ لأنه مما ميز الله تعالى به الإنسان وكرمه به، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

٢٢- علم الله ﷻ بما ينفق العباد من النفقات وما ينذرونه من النذور، قليلاً كان أو كثيراً ومحاسبته ومجازاته لهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه.

٢٣- ليس في الآية دليل على مشروعية النذر، ولكن فيها دليل على وجوب الوفاء به إذا وقع ولم يكن في معصية الله تعالى كما في الحديث: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»(١).

٢٤- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الخلق يستقلون بخلق أفعالهم وعلمها دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٢٥- أن الظالمين لا أنصار لهم يدفعون عنهم عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، ومن لم ينصره الله فلا ناصر له.

٢٦- التحذير من الظلم وعواقبه السيئة، وذم أهله.

٢٧- الحث على الصدقات والترغيب فيها، سواء أظهرت أو أُخفيت؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ الآية.

٢٨- أن إبداء الصدقة وإظهارها قد يحسن أحياناً كأن يريد من يظهر الصدقة أن يكون قدوة لغيره، ونحو ذلك، ولعل هذا هو السبب- والله أعلم- في تقديم قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾.

٢٩- أن إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص وأستر للمُتَصدَّق عليه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٣٠- أن من أعظم وأهم مصارف الزكاة الفقراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾.

٣١- ينبغي أن لا يكلف الفقير البحث عن الزكاة والإتيان لصاحب المال، بل يذهب بها صاحب المال أو من يُنيبه ويعطيها الفقير؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾، ففي هذا مراعاة لشعور الفقير.

٣٢- تفاضل الأعمال وأن بعضها خير من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وهذا يستلزم تفاضل العمال، وزيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل العمال.

٣٣- أن الصدقات من أسباب تكفير السيئات ومحوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٦)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٩)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠٦)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٢٦)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، ففيها الخير والأجر والثواب، وتكفير السيئات.

٣٤- تأكيد إحاطة علم الله تعالى بجميع أعمال العباد ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

٣٥- أن هداية توفيق الخلق ليست إلى الرسول ﷺ ولا إلى غيره من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾.

وإنما عليه ﷺ البلاغ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

وهكذا غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكذا الدعاة إلى الله واجبهم البلاغ فقط.

٣٦- اختصاص الله ﷻ بهداية التوفيق لمن شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٣٧- أن ما ينفقه الإنسان من خير فلنفسه لا ينصرف لغيره، والله غني عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، ولا ينافي هذا أن يتصدق عن الغير كما دلت على ذلك السنة.

٣٨- لا ينبغي أن يُقصد بالإنفاق إلا وجه الله تعالى، فهذا الذي يقبل وينفع صاحبه، دون ما عداه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا أيضاً تزكية للمؤمنين بأنهم لا ينفقون إلا ابتغاء وجه الله وحث لهم على ذلك.

٣٩- إثبات الوجه لله تعالى، كما يليق بجلاله وعظمته، وإثبات نظر المؤمنين إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢-٢٢]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد فسر ﷺ «الحسنى» بالجنة، و«الزيادة» بالنظر إلى وجه الله الكريم(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧) من حديث صهيب رضي الله عنه، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/١٥٨- ١٦١) من حديث أبي موسى وكعب بن عجرة، =

٤٠- إعطاء المنفقين جزاء أعمالهم وافياً من غير ظلم ولا نقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

بل إنه ﷻ يضاعف للمنفقين عملهم بما لا حد له.

٤١- كمال عدل الله ﷻ وأنه لا يظلم أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

٤٢- تأكيد حق الفقراء في الصدقات؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٤٣- أنه إنما يستحق الصدقات من الفقراء الذين لا قدرة لهم على الكسب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وفي الحديث: «**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي**»(١). وجاء رجلان إلى النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فصعّد فيهما النظر وصوّبه، ثم قال: «**إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب**»(٢).

٤٤- فضل التعفف عما في أيدي الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾.

٤٥- ينبغي أن يكون الإنسان ذا فراسة وفطنة وتبصر وحذق ومعرفة، يعرف المسكين حقاً من المتمسكن، فلا تنطلي عليه الأمور ولا يجهل؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

٤٦- الثناء على الذين لا يسألون الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، وفي هذا تعريض بذم سؤال الناس، فإن كان عن غير ضرورة فهو محرم.

=

وأُبي بن كعب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ.

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٣٤)، والترمذي في الزكاة (٦٥٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن».

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٣٣)، والنسائي في الزكاة (٢٥٩٨) من حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين حدثاه أنهما أتيا رسول الله ﷺ... الحديث.

وفي الحديث: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم**»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر**»(٢).

وعن سهل بن الحنظلية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار، أو من جمر جهنم**»، فقالوا: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: «**قدر ما يغديه أو يعشيه**»(٣).

وعن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا- وأسر كلمة خفيَّة- ولا تسألوا الناس شيئاً**»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه(٤).

٤٧- أن من أشد أنواع السؤال ذماً أن يُلحف الإنسان بالسؤال فيؤذي المسؤول، ويثقل عليه، أو يسأل وعنده ما يغنيه عن السؤال؛ لقوله تعالى: ﴿**لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا**﴾، وفي الحديث: «**من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف**»(٥).

٤٨- تأكيد علم الله ﷻ بكل ما ينفقه العباد من خير ومجازاتهم عليه، وأنه لن يضيع عنده؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ**﴾، كما قال تعالى: ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٤٠].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٠)، من حديث عبدالله بن عمر ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤١)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٢٩).

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٧).

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٢٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٩٥)، وأحمد (٣/ ٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

في هذه الآية امتداح من الله- عز وجل- للمنفقين في سبيله في جميع الأوقات والأحوال، ووعد منه لهم- بالأجر عنده- عز وجل- وعدم الخوف والحزن.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾ «الذين» مبتدأ. وخبره جملة ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، والإنفاق: إخراج المال وبذله.

والمراد به هنا: إخراج المال وبذله في وجوهه الشرعية الواجبة كالزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد، والكفارات ونحو ذلك، والمستحبة كسائر الصدقات والنفقات والهدايا، ونحو ذلك.

﴿أَمْوَٰلَهُم﴾ المال: اسم لكل ما يتمول ويملك من نقد، أو عين؛ من أثاث، أو عقار، أو غير ذلك.

﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الباء للظرفية، أي: في الليل والنهار، والمراد في جميع الأوقات.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: صفتان لمصدر محذوف وقع مفعولاً مطلقاً، أي: إنفاقاً سرًّا

وعلانية، أو مصدران في موضع الحال، أي: مسرين ومعلنين.

ومعنى «سرًّا» أي: خفاءً. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أي: جهراً، كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النحل: ٧٥].

والمراد أنهم ينفقون في جميع الأحوال، وحسب مقتضى الحال، فبعض الأحوال والمواقف يحسن فيها الإسرار؛ لما فيه من الإخلاص لله، والسلامة من الرياء والسمعة؛ ولما فيه من ستر حال المنفَق عليه.

ولهذا ذكر ﷺ ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

وفي بعض الأحوال قد يحسن الإعلان والإظهار، إذا كان المقصود من ذلك إظهار السنة، وإشهارها بين الناس.

ولهذا لما جاء إلى النبي ﷺ قوم من مضر قد اشتدت بهم الحاجة، تمعَّر وجهه ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، وقام ﷺ وخطب الناس، وحثَّ على الصدقة، ورغَّب فيها، فجاءه رجل بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى كان عنده كومان من طعام وثياب، فتهلل وجهه ﷺ كأنه مذهبة، ثم قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»(٢).

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الجملة خبر المبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾ واقترنت بالفاء لمشابهة الموصول للشرط في العموم، وهذه الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، وقدم فيها الخبر، وهو قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿أَجْرُهُمْ﴾ لتأكيد إثابتهم بذلك.

والمعنى: فلهم ثوابهم العظيم على إنفاقهم.

وسمي ثوابهم أجراً؛ لأن الله- عز وجل- تكفل به- وأوجبه على نفسه، كما

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)، من حديث جرير رضي الله عنه.

أوجب- عز وجل- على المستأجر دفع أجرة الأجير، قال ﷺ: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**»(١).

وقال ﷺ: «**قال الله- عز وجل: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة؛ رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يعطه أجره**»(٢).

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في هذه إشارة لعظم ثوابهم، وتأكيد لضمان ذلك لهم؛ لأنه عند ربهم العظيم، خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ومربيهم بنعمه الظاهرة والباطنة.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه: «**وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تضع في فيّ امرأتك**»(٣).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة**»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل**»(٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٣)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبوداود في الوصايا (٢١١٨)، والنسائي في الوصايا (٣٦١٥- ٣٦١٩)، والترمذي في الجنائز (٩٧٤)، وابن ماجه في الوصايا (٢٦٦٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٥)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٤٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٥).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٥)، والترمذي في =

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الخوف يكون مما يستقبل، من حصول مكروه، أو فوات محبوب، أي: ولا خوف عليهم مما أمامهم، من أهوال القيامة، وغير ذلك، بل هم آمنون مطمئنون.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

وهم أيضاً في الدنيا آمنون مطمئنون، لا يخافون مما يخاف منه كثير من الناس، لاعتمادهم على ربهم- عز وجل- وخوفهم منه وحده.

كما قال الله- عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

فلهم في الدنيا الأمن النفسي، والأسري، والاجتماعي والدولي، حالهم كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء(١)

ولهم الأمن في الآخرة من أهوال يوم القيامة، وعذاب النار.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ الحزن يكون على ما مضى من فوات محبوب، أي: ولا هم يحزنون على ما أنفقوه لوجه الله تعالى، ولا على ما فاتهم من الدنيا، ولا على ما خلفوه فيها بعد مماتهم؛ لحقارتها في أعينهم، وثقتهم بأن ما عند الله هو خير لهم وأبقى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

=
الزكاة (٦٦١)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٢)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٤٦، ٤٧).

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص (١١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة المنفقين أموالهم في سبيل الله في جميع الأوقات والأحوال ابتغاء مرضاة الله- عز وجل- وما أعد لهم من الأجر العظيم والأمن من الخوف والسلامة من الحزن، ثم أتبع ذلك بذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل، وما أعد لهم من سوء الحال والمآل، والخلود في النار وبئس القرار.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الربا في اللغة: الزيادة، قال تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠] أي: زائدة، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥، فصلت: ٣٩]. أي: زادت، وعلت.

وفي الشرع: زيادة بين شيئين يحرم التفاضل بينهما، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواء**»(١).

وعن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الذهب بالذهب، تبرها وعينها، والفضة بالفضة، تبرها وعينها، والبر بالبر مدي بمدي، والشعير بالشعير مدي بمدي، والتمر بالتمر، مدي بمدي، والملح بالملح مدي بمدي، فمن زاد أو ازداد، فقد أربى، ولا بأس ببيع الذهب بالفضة، والفضة أكثرهما يداً بيد، وأما نسيئة فلا، ولا بأس**

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٨٤)، والنسائي في البيوع (٤٥٦٥).

ببيع البر بالشعير والشعير أكثرهما يداً بيد، وأما نسيئة فلا»(١).

ومعنى ﴿يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يأخذونه وينتفعون به بأي وجه من أوجه الانتفاع من أكل أو شرب أو لباس أو سكن أو مركب أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦].

وعبر بالأكل مع أن أخذ الربا وصرفه في أي وجه من وجوه الاستعمال كل ذلك سواء؛ لأن الأكل هو المقصود الأهم من جمع المال، وهو- كما يقال: كسوة الباطن.

وقد قال الله- عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وهذا أعم من الأكل، وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «**لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله**»(٢). وفي رواية زيادة «**وكاتبه وشاهديه**»(٣).

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦].

﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ «إلا» أداة حصر، و«الكاف» للتشبيه، و«ما» مصدرية، أي: إلا قياماً كقيام ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ والخبط والتخبط: الضرب الشديد العشوائي، الذي لا يتقي شيئاً، والمعنى: الذي يصرعه الشيطان ويمسه بالجنون، فهم يقومون ويسقطون، وذلك عقوبة لهم، وخزي وفضيحة وهوان، وهذا خبر عنهم ووعيد لهم.

والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله تعالى سمي بذلك لأنه شطُن وبَعُد عن رحمة الله تعالى وعن كل خير، ورأس الشياطين وأصلهم إبليس. لعنه الله.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٩٧)، والنسائي في الطلاق (٣٤١٦).

(٣) أخرجها أبوداود في البيوع (٣٣٣٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٦)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٧٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ قال: «ذلك حين يبعث من قبره»(١).

وقيل: لا يقومون في حياتهم عند التعامل بالربا إلا كقيام الذي يصرعه الشيطان ويمسه بالجنون، فهم في قيامهم وتصرفاتهم وجشعهم حين تعاملهم بالربا أشبه بالمجانين، قد أذهب عقولهم حب المال، وجمعه بأي وسيلة، ولو كان من طريق الظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، وفي هذا تشنيع عليهم، وبيان سوء حالهم في الدنيا قبل الآخرة. وهذه حالهم في الدارين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ الإشارة لقيامهم كقيام من يتخبطه الشيطان من المس، والباء للسببية، أي: إنما جُوزوا بما ذكر بسبب أنهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ بلسان المقال والحال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ أي: إنما البيع شبه الربا ونظيره، فلم حرم الربا، وأبيح البيع، وهما متماثلان وشبيهان.

وهذا منهم اعتراض على الله- عز وجل- في أحكامه وشرعه، سواء كان عمي عليهم الفرق بينهما، أو قالوا ذلك على سبيل المكابرة، وهو الأظهر. فجمعوا بين فعل المحرم واستحلاله.

قال ابن كثير(٢): «وليس هذا منهم قياساً للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ أي: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي: هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا».

وقال السعدي(٣): «فجمعوا بجراءتهم بين ما أحل الله وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا».

وليس ببعيد عن هؤلاء ما عليه كثير من الناس اليوم من إقدام كثير منهم على المعاملات الربوية المحرمة، أو التساهل في الدخول في المعاملات والمساهمات المختلطة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٣٩).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٤٨٣).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٣٧).

وغير النقية، مصداق قوله- ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا**» قيل له: الناس كلهم؟ قال: «**من لم يأكله منهم ناله من غباره**»(١).

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الواو: استئنافية، وهذا رد عليهم في اعتراضهم وقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

فبين الله- عز وجل- أنهما ليسا مثيلين؛ لأن الله- عز وجل- فرق بينهما، فأحل عز وجل البيع وأباحه، وحرم الربا ومنعه، عقداً وأخذاً.

أباح- عز وجل- البيع لحاجة الناس إليه، ومنع الربا لأنه أخذ لمال الغير بلا عوض، وسبب لركود الاقتصاد وتضخم الأموال عند الأغنياء على حساب الفقراء، بلا كد ولا تعب، وانقطاع القرض الحسن الذي ندب الله- عز وجل- إليه، إلى غير ذلك.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ الفاء: استئنافية، و«من» شرطية، «جاءه» فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾.

والموعظة: ذكر الحكم مقروناً بالترغيب بامتثاله أمراً كان أو نهياً، والترهيب من مخالفته.

والمعنى هنا: فمن أتاه وبلغه ﴿مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بتحريم الربا، والنهي عنه، والوعيد عليه، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠].

﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ أي: كف عن الربا، وتركه، وتاب منه.

﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: فله ما مضى من المعاملة بالربا، وما تم قبضه منه، قبل التحريم وقبل العلم بالحكم، دون ما لم يقبضه؛ لقوله تعالى في الآيات التالية بعد هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٣٣١)، والنسائي في «البيوع» (٤٤٥٥)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٧٨)، وأحمد (٢/ ٤٩٤) - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

ولقوله ﷺ: «**ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبدالمطلب، فإنه موضوع كله**»(١).

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وشأنه إلى الله تعالى في مجازاته على الانتهاء من الربا، وهذا أشبه بالوعد، ويقوي هذا مقابلته بالوعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى أخذ الربا وأكله بعد أن بلغه تحريمه والوعيد عليه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة بالجمع باعتبار معنى «من» أي: فأولئك العائدون إلى أخذ وأكل الربا، وما نهى الله عنه.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها وساكنوها وملازموها، ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ أي: هم فيها مقيمون.

وقد أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم، وأكد ملازمتهم النار وخلودهم فيها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

والخلود في الآية قد يحمل على الخلود الأبدي إذا كان المراد بالآية العودة إلى فعل ما يكفر من الذنوب، كاستحلال الربا، وغيره من المحرمات والمعاصي، وكالإشراك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد يحمل الخلود على طول المكث والإقامة في النار، دون الخلود فيها إذا كان المراد العودة إلى فعل ما لا يكفر من الذنوب والمعاصي، كأخذ الربا من غير استحلال له، ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يزيله ويذهبه حسيًّا بالآفات والجوائح، ومعنويًّا

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٩٠٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤)، من حديث جابر رضي الله عنه.

بنزع بركته فلا ينتفع به صاحبه، معاملة له بنقيض قصده، حيث أراد الزيادة بهذا المسلك فصار أمره إلى قلة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠١].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل**»(١).

وفي رواية: «**ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة**»(٢).

فأخذ الربا وأكله محق للكسب والمال، بخلاف ما يعتقده المرابون من أنه يزيد المال، كما أنه محق لبركة الأعمار، وفساد في الأخلاق، في الأنفس والأهل والأولاد، ولهذا قال ﷺ: «**إنه لا يربو لحم نبت من سحت، إلا كانت النار أولى به**»(٣).

وذكر ﷺ: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**»(٤).

ولهذا اعتبر الربا محاربة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

و«**لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه**»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٧٩)، والحاكم (٢/ ٣٧، ٤/ ٣١٧).

(٢) أخرجها ابن ماجه في التجارات (٢٢٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي في الجمعة (٦١٤)، من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه ابن ماجه في التجارات (٢٢٧٤)، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٧)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «**الربا ثلاثة وسبعون باباً**...» الحديث. وفيه زيادة: «**وإن أربا الربا عرض الرجل المسلم**». وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

وعن عبدالله بن حنظلة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم، أشد من ست وثلاثين زنية**»(١).

﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ «ويُرْبي» بضم الياء والتخفيف من «ربا الشيء يربو» أي: زاد ونما «وأرباه» أي: زاده ونماه «يُرْبيه» أي: يزيده، وينميه.

والمعنى: ويزيد الصدقات وينميها ويضاعفها، بزيادة أجرها، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

ويزيد أموال المتصدقين معنوياً؛ بالبركة فيها، وحسيًّا؛ بتنميتها ومضاعفتها بالخلف العاجل في الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقال ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة، من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل**»(٣).

وفي رواية: «**فيربيها كما يربي أحدكم مُهْره- أو فلوه- حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد، وتصديق ذلك في كتاب الله- عز وجل:** ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤]، و﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤).

(٤) أخرجها أحمد (٢/ ٤٧١)، والترمذي في الزكاة (٦٦٢)، وقال: «حسن صحيح» وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٤٧)

وعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل أحد**»(١).

وقال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(٢).

والواقع أكبر شاهد على هذا، فكم من أموال بارك الله فيها، فزادت وتضاعفت بسبب الإنفاق منها، والبذل والصدقات، وحفظها الله بذلك من الكوارث والآفات. وكم من أموال محقت بركتها، وتعرضت للتلف والآفات والهلاك بسبب عدم الإنفاق منها، ومنع الزكاة والصدقات.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ في قلبه، ﴿أَثِيمٍ﴾ في قوله وفعله.

و«كفّار» على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: عظيم الكفر كثيره.

وقد يراد به كفر نعم الله- عز وجل- وعدم شكرها، وما لا يخرج من الملة، وقد يراد به الكفر الأكبر المخرج من الملة.

و«أثيم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: كثير الإثم وعظيمه بإصراره على الربا وكبائر الذنوب، أو على الكفر والشرك.

وإذا كان الله- عز وجل- لا يحبه- فإنه- عز وجل- يبغضه ويكرهه. وفي هذا وعيد شديد له، لأن من أبغضه الله عذبه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويؤخذ من مفهوم الآية محبة الله- عز وجل- لمن كان بضد الكَفّار الأثيم، وهو المؤمن الشكور المطيع لله والتائب من المآثم والذنوب، والوعد له بالأجر والثواب.

قال ابن كثير(٣): «ولابد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع الله له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥١)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)، من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) في «تفسيره» (١/ ٤٨٩).

النعمة، ظلوم آثم، يأكل أموال الناس بالباطل».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

ذم الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين أكلة الربا، وذكر سوء حالهم ومآلهم، وخسرانهم في الدنيا والآخرة، وخلودهم في النار، وعدم محبة الله لهم، ولكل كفار أثيم.

ثم أتبع ذلك بامتداح أهل الإيمان والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وبيان ما أعد لهم عنده من الأجر العظيم، والأمن والسلامة من الحزن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إن الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم وألسنتهم بكل ما يجب الإيمان به، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، إذ لا يستقيم الإيمان بدون العمل، ولا يقبل العمل بدون الإيمان.

وحذف الموصوف وهي «الأعمال» واكتفى بالصفة وهي «الصالحات» لأن المهم كون العمل صالحاً، أي: خالصاً لله- عز وجل- موافقاً لسنة الرسول ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: أخلص العمل لله- عز وجل- وهو متبع لسنة الرسول ﷺ، فبالإخلاص لله تعالى السلامة من الشرك، وبالمتابعة للرسول ﷺ السلامة من الابتداع.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وأقاموا الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، فهي الصلاة التي تنفع صاحبها، وهذا هو المقصود من الأمر بالصلاة.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة لمستحقيها، من الفقراء والمساكين وغيرهم، وخص الصلاة والزكاة- دون سائر العبادات؛ لأن الصلاة أعظم العبادات البدنية، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ وهي عمود الإسلام.

ولأن الزكاة أعظم العبادات المالية، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام وهي قرينة الصلاة، ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله- عز وجل- وفي الزكاة الإحسان إلى

عباد الله تعالى.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ثواب إيمانهم وأعمالهم الصالحات وصلاتهم وزكاتهم.

وفي تسمية ثوابهم أجراً تأكيد لتكفله- عز وجل- لهم بذلك، وفي كونه عند ربهم تعظيم له، وتأكيد ثان لتكفله- عز وجل- لهم به؛ لأنه عند ربهم، الذي لا يخلف الميعاد، الكريم الجواد، مربيهم بسائر النعم، التي لا تحصى.

وأضاف اسم «الرب» إلى ضميرهم تشريفاً وتكريماً لهم.

ولم يقل: «عند الله» إشارة لفضله السابق عليهم بتربيته لهم، فهو ربهم خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وفيه توكيد لضمانه- عز وجل- هذا الأجر لهم، فهو- عز وجل- ذو الفضل السابق عليهم، وهو سبحانه ذو الفضل والإنعام اللاحق عليهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل، ومما أمامهم من أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ أي: ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، ولا على ما خلفوا بعد موتهم، من أهل وولد ومال، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها» للتنبيه، و«الذين» صفة لأي، أو بدل منها.

﴿ءَامَنُوا۟﴾ صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بجوارحكم، بفعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم الله عنه.

﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أي: اتركوا ما بقى من الربا، مما لم يقبض، وإن كان معقوداً عليه.

وهذا في مقابل قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: فله ما سلف قبضه قبل نزول التحريم، دون ما لم يقبض قبل ذلك فيجب تركه.

والأمر بترك ما بقي من الربا أمر بترك الشروع فيه وإنشائه من جديد من باب أولى وأحرى.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ إن: «شرطية»، و«كنتم»: فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق. أي: إن كنتم مؤمنين حقًّا صادقين في إيمانكم فاتقوا الله وذروا ما بقي من الربا.

فمن شرط الإيمان تقوى الله وترك الربا، ومن أعظم تقوى الله ترك الربا، وفي هذا إغراء وإثارة للهمم وتحريك للمشاعر.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: فإن لم تذروا ما بقى من الربا.

﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ﴾ قرأ حمزة وأبوبكر عن عاصم، وخلف «فآذنوا» بالمد وكسر الذال أمر من «آذن» الرباعي، بمعنى «أَعْلَمَ»، يقال: آذنه بكذا، أي: أعلمه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]. والمعنى: أَعْلِموا أنفسكم وغيركم ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ﴾.

وقرأ الباقون بالقصر وفتح الذال: ﴿فَأْذَنُوا﴾ أمر من «أذن» الثلاثي بمعنى: «اعْلَموا»، يقال: «أذن بالشيء»: إذا علم به، أي: كونوا على علم، ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ﴾ قال: ابن عباس: «فاستيقنوا بحرب من الله ورسوله»(١).

و«من» في قوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ﴾ لابتداء الغاية. فالمرابي محارب من الله ورسوله، ومحارب لله ورسوله.

وهذا من أشد التهديد وأعظم الوعيد، إذ لم يرد وصف عمل من الأعمال بأنه محاربة لله ورسوله سوى الربا، وقطع الطريق والسعي بالأرض بالفساد.

ولهذا اعتبر بعض أهل العلم أن الربا أكبر الكبائر وأعظمها بعد الشرك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٥٣).

وقد قال ﷺ: «**الربا نيّف وسبعون باباً أيسرها مثل أن يأتي الرجل أمه**»(١).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﵄ قال: «**يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**»(٢).

قال ابن القيم(٣) في كلامه على الآية: «ففي ضمن هذا الوعيد أن المرابي محارب لله ولرسوله، فقد آذن الله بحربه، ولم يجئ هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس، هذا بقهره وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها».

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله بالواو في قوله: ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ لأن محاربة الرسول ﷺ محاربة لله- عز وجل- كما أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

وهذا بخلاف باب القدر والمشيئة فلا يجوز فيه عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله- عز وجل- بالواو؛ لأنها تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: رجعتم إلى الله- عز وجل- بترك الربا.

والتوبة: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، وذلك بالإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وكونها في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها، وكونها خالصة لله عز وجل.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: فلكم أصول أموالكم كاملة دون الربا.

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ الظلم: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٣٩، ٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٥٠).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٣٤- ٤٣٥).

على سبيل التعدي، أي: لا تظلمون غيركم، بأخذ الزيادة منهم، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أنتم بنقص شيء من رؤوس أموالكم.

قال ابن القيم(١): «يعني إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه، وقد عاقدتم عليه فإنما لكم رؤوس أموالكم، لا تزادون عليها فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها».

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾ الواو: عاطفة، و«كان»: تامة، و«ذو»: فاعل مرفوع بالواو؛ لأنه من الأسماء الستة، وهي بمعنى: صاحب، أي: وإن وجد صاحب عسرة، أي: صاحب إعسار، وهو الذي لا يجد وفاءً لدينه.

﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن كَانَ﴾ والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فله نظرة، أو فعليكم نظرة إلى ميسرة.

قرأ نافع المدني: «ميسُرة» بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مَيْسَرَةٍ ۚ﴾.

والمعنى: فيجب عليكم إنظاره إلى إيسار.

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ قرأ عاصم: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ بتخفيف الصاد.

وقرأ الباقون بتشديدها، «وأن تَصَّدَّقوا».

وجملة ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ في محل رفع مبتدأ، و﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ خبره، أي: وأن تصدقوا على المدين، فتضعوا عنه دينه، أو بعضه.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ أي: خير لكم من إنظاره في دنياكم وأخراكم، فهو في الدنيا سبب للبركة والزيادة في المال والألفة والأخوّة بين المدين ودائنه، وفي الآخرة سبب لمضاعفة الأجر والثواب الجزيل من الله عز وجل.

فأوجب عز وجل أولاً إنظار المعسر، ثم ندب ثانياً إلى الصدقة عليه والوضع عنه.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٣٥)..

عن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: لا. قالوا: تَذَكَّر. قال: كنت أداين الناس، فآمر فتياني أن ينظروا المعسر، ويتجوّزوا عن الموسر. قال: قال الله- عز وجل: تجوّزوا عنه**»(١).

وعن أبي اليسر، كعب بن عمرو، أنه قال: «**من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله**»(٢).

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ أي: إن كنتم ذوي علم، فتصدقوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، أي: إن كنتم ذوي علم فصوموا.

عن أبي أمامة أسعد بن زرارة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فليسر على معسر، أو ليضع عنه**»(٣).

وعن بريدة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أَنْظَر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة**»، قال: ثم سمعته يقول: «**من أنظر معسراً، فله بكل يوم مثلاه صدقة**».

قلت: سمعتك- يا رسول الله- تقول: «**من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة**» ثم سمعتك تقول: «**من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة**»؟! قال: «**له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثلاه صدقة**»(٤).

وعن محمد بن كعب القرظي: أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه، فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال:نعم، هو في البيت يأكل خزيرة(٥)، فناداه: يا فلان، اخرج، فقد أخبرت أنك ههنا، فخرج إليه، فقال: ما

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٧)، وفي الاستقراض (٢٣٩١)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٠)، وأخرجه- مختصراً- ابن ماجه في الأحكام (٢٤٢٠)، وأحمد (٤/ ١١٨).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٣٠١٤)، وأخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٤١٩) بلفظ: «من أحب أن يظله الله في ظله..».

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٩١).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٠)، وأخرجه ابن ماجه- مختصراً- في الأحكام (٢٤١٨)، وأخرجه أحمد أيضاً (٤/ ٤٤٢، ٤٤٣)- مختصراً من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٥) الخزيرة: لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

يغيبك عني؟ فقال: إني معسر، وليس عندي. قال: آلله إنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبوقتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نفس عن غريمه- أو محا عنه- كان في ظل العرش يوم القيامة**»(١).

وفي رواية: «أن أبا قتادة طلب غريماً له، فتوارى عنه، ثم وجده، فقال:إني معسر. فقال: آلله؟ قال: آلله. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر، أو يضع عنه**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾»(٣).

قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ «يوماً» مفعول به منصوب، والمراد به يوم القيامة.

ونكّر للتعظيم، أي: احذروا عذاب يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]، أي: احذروا النار.

وقال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(٤)، أي: احذر دعوة المظلوم.

أي: اجعلوا وقاية بينكم وبين عذاب هذا اليوم، العظيم، الثقيل، العسير، الشديد، القمطرير، الذي يجعل الوالدان شيباً، بتقوى الله- عز وجل- وفعل أوامره واجتناب نواهيه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٠٨).

(٢) أخرجها مسلم في المساقاة (١٥٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في البيوع معلقاً بصيغة الجزم. انظر: «فتح الباري» (٥/ ٣١٤)، وأخرجه النسائي وابن مردويه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٩٤).

(٤) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٨)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الجملة صفة لـ «يوماً» قرأ أبوعمرو ويعقوب بفتح التاء، وكسر الجيم «تَرجِعون» على البناء للفاعل، وقرأ الباقون بضم التاء، وفتح الجيم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ على البناء لما لم يسم فاعله.

أي: تردون فيه إلى الله- عز وجل- للحساب والجزاء؛ ولهذا قال بعده:

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: ثم تعطى كل نفس جزاء الذي كسبت، أو جزاء كسبها، أي: جزاء عملها تامًّا وافياً غير منقوص، خيراً كان أو شرًّا، ثواباً كان أو عذاباً.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم لا يظلمون.

أي: وهم لا يظلمون أيَّ ظلم، فلا ينقص من ثوابهم مثقال ذرة، ولا يزاد في عذابهم مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

الفوائد والأحكام:

١- ثناء الله- عز وجل- على الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله في جميع الأوقات والأحوال ليلاً ونهاراً، وسرًّا وإعلاناً؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

٢- جواز الإعلان بالنفقة وإظهارها، واجبة كانت أو مستحبة، وقد يكون أولى من الإسرار بها، كما إذا كان القصد من ذلك إظهار السنة وإشهارها، وقد يكون الإسرار أولى، كما إذا خاف الإنسان على نفسه من الرياء ونحو ذلك.

٣- عظم ما أعده الله- عز وجل- من الثواب للمنفقين في سبيله، وتكفله- عز وجل- بذلك لهم، وقد أكد ذلك بتقديم الخبر في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وبتسميته أجراً، وإضافته إلى نفسه وأنه عنده، وإضافة «رب» إلى ضميرهم في قوله- عز وجل: ﴿رَبِّهِمْ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومربيهم بسائر النعم.

٤- تشريف المنفقين وتكريمهم بإضافة «رب» إلى ضميرهم في قوله- عز وجل:

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهم.

٥- أن مما أعده الله- عز وجل- للمنفقين في سبيله كمال الأمن وانشراح الصدور في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٦- الترغيب في الإنفاق في سبيل الله، في جميع الأوقات، ليلاً ونهاراً، وفي جميع الأحوال، سرًّا وإعلاناً؛ لعظم ما أعده الله- عز وجل- للمنفقين من الثواب، وعدم الخوف والحزن.

٧- أن كمال السعادة إنما يحصل باجتماع الأجر والثواب، وانتفاء الخوف والحزن، أي: بحصول المطلوب وزوال المرهوب.

٨- التحذير من الربا، وذم آكليه والتهديد لهم، والتشنيع عليهم، وبيان سوء حالهم وأنهم لا يقومون إلا كما يقوم المجنون، الذي تخبطه الشيطان وصرعه ومسّه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

٩- إثبات مس الجن وصرعهم للإنس؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

ولهذا قال ﷺ لماعز بن مالك: «**أبك جنون**»(١)، وقال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٢).

١٠- أن سبب أخذ المرابين للربا وعقوبتهم بما ذكر قولهم: إنما البيع مثل الربا، واستحلالهم له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوا﴾.

١١- جرأة أكلة الربا على الاعتراض على حكم الله الشرعي في تحريم الربا وتحليل البيع، وقياسهم الفاسد، وجمعهم بين ما حرم الله وبين ما أحل بقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٠)، ومسلم في الحدود (١٦٩١)، وأبوداود في الحدود (٤٤٣٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٥٦)، والترمذي في الحدود (١٤٢٩)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٩)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبوداود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩)، من حديث صفية رضي الله عنها.

أي: فإذا كان البيع حلالاً ينبغي أن يكون الربا حلالاً، وإذا كان الربا حراماً ينبغي أن يكون البيع حراماً.

١٢- أن الله- عز وجل- أحل البيع وحرم الربا، والحكم له وحده دون من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

فيجب التسليم لحكمه، عرفنا الحكمة في ذلك، أم لم نعرفها. وفي هذا رد على المعترضين على حكمه- عز وجل- في ذلك.

١٣- إثبات الفرق الشاسع والبون الواسع بين الربا والبيع؛ لأن الله- عز وجل- فرق بينهما فأحل البيع وحرم الربا، فالبيع ضرورة من ضرورات الحياة للتعامل بين الناس، وتبادل المنافع بينهم، وتأمين حاجاتهم.

والربا أكل لأموال الناس بالباطل، وظلم لهم، وسبب لتلف الأموال، ومحق بركتها.

١٤- تذكير الله- عز وجل- العباد- بآيات القرآن الكريم ووعظهم بما فيها من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

١٥- في إضافة «رب» إلى الضمير في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إثبات ربوبية الله تعالى العامة، وتذكير بنعمة ربوبية الله- عز وجل- واستعطاف لقلوب المخاطبين- عسى أن تلين وتقبل الموعظة.

١٦- أن من انتهى من الربا وتاب منه بعد أن بلغه النهي عنه فله ما أخذ قبل ذلك، دون ما لم يقبضه فلا يحل له، وأمره فيما يستقبل، وفي الآخرة إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ولهذا قال ﷺ في حجة الوداع: «**ألا وإن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربانا، ربا العباس ابن عبدالمطلب، فإنه موضوع كله**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

١٧- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن عاد إلى أكل الربا بعد أن بلغته الموعظة، بملازمة النار والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٨- عظم الربا وأنه من أكبر الكبائر؛ لأن الله توعد آخذه بملازمة النار والخلود فيها. وقد عده بعض أهل العلم أكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ لأنه محاربة لله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

١٩- محق الربا بإزالته وإتلافه ونزع بركته؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.
وفي هذا معاملة المرابي بنقيض قصده وسد أبواب الطمع أمام المرابين.

٢٠- زيادة الصدقات بمضاعفة أجورها الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والخلف عنها بزيادة المال ونموه وبركته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٢١- فرْقٌ بين الربا والصدقات، فالربا سبب لمحق المال، والصدقات سبب لنموه وزيادته.

٢٢- نفي محبة الله- عز وجل- عن كل كفار أثيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.
وفي هذا تحذير من الكفر والإثم، وأكل الربا، ووعيد وتهديد لمن هذه صفته؛ لأن مقتضى عدم محبة الله له- بغضه له وتعذيبه.

٢٣- إثبات محبة الله- عز وجل- للمؤمنين المطيعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ فمفهوم هذا محبته لكل مؤمن مطيع.

٢٤- بيان ما أعده الله- عز وجل- عنده للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة؛ من الثواب العظيم، والأمن التام، والسلامة من الحزن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
ويكفي في عظمه أن الله- عز وجل- أضافه إلى نفسه

٢٥- تكريم المؤمنين وتشريفهم بإضافة اسمه- عز وجل- إلى ضميرهم في قوله:

﴿رَبِّهِمْ﴾، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهم.

٢٦- الحث على الإيمان والعمل الصالح، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لعظم ما أعده الله- عز وجل- من الثواب لمن اتصف بذلك.

٢٧- تلازم الإيمان والعمل الصالح، فلا يصح الإيمان بلا عمل، ولا يصح العمل بلا الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٨- لابد لقبول العمل من كونه صالحاً؛ خالصاً لله- عز وجل- وفق شرعه وسنة نبيه- ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٩- عظم مكانة الصلاة والزكاة، وأنهما أعظم أركان الدين وواجباته، لهذا خصهما بالذكر، وفضل الصلاة على الزكاة، لهذا قدمها على الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٣٠- أن المقصود الأعظم من الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، فهي الصلاة التي تنفع صاحبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣١- أن الواجب على أهل الأموال أن يؤدوا الزكاة إلى الفقراء ونحوهم، دون تكليف الفقراء المطالبة بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٣٢- تكفل الله- عز وجل- بهذا الثواب وضمانه؛ لهذا سماه أجراً فقال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

٣٣- الجمع لأهل الجنة بحصول الثواب، والسلامة من الخوف والحزن- وهذا غاية السعادة، ففيه حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

٣٤- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أمر أو نهي من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣٥- وجوب تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٣٦- وجوب ترك ما بقي من الربا وما لم يقبض منه، وإن كان بعد تمام العقد، وأن

ذلك من شرط الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣٧- أن الربا من أعظم المنهيات، لهذا عطف تركه على الأمر بتقوى الله- مع أنه من تقوى الله؛ لمزيد التحذير منه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾

٣٨- إثبات الفعل والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبر على تصرفاته كلها، فعلاً أو تركاً، ولا اختيار له.

٣٩- أن المصرين على الربا معلنون الحرب على الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وفي هذا من التهديد الشديد والوعيد الأكيد ما ترجف له القلوب، مما يدل على شدة حرمة الربا وعظيم خطره.

٤٠- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

٤١- عطف اسمه- ﷺ أو وصفه بالواو، التي تقتضي التشريك، على اسم الله- عز وجل- في قوله تعالى: ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لأن محاربة الرسول ﷺ محاربة لله تعالى، كما أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

٤٢- يجب على من تابوا من الربا ألا يأخذوا سوى رؤوس أموالهم، فلا يظلمون بأخذ الزيادة الربوية، ولا يُظلمون بنقص رؤوس أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

وعلى هذا فلا يجوز أخذ الزيادة الربوية، لا للانتفاع بها ولا للصدقة بها، ولا للتخلص منها، ولا لغير ذلك.

٤٣- أن العلة في تحريم الربا ما فيه من الظلم، بسبب أكل أموال الناس بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

٤٤- تحريم الظلم ووجوب العدل في المعاملات وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

٤٥- وجوب إنظار المعسر وإمهاله حتى يوسر، ويتمكن من وفاء دينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فلا يجوز التضييق عليه ومطالبته، حتى

يوسر؛ لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

٤٦- الإشارة إلى أن العسر يعقبه اليسر، وأن مع كل عسر يسرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

٤٧- الحث على الوضع عن المدين بإسقاط الدين عنه أو بعضه، والترغيب في ذلك بتسميته تصدقاً، وبيان أنه خير من إنظاره أي: خير للدائن في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٤٨- إثبات تفاضل الأعمال والعمّال وتفاضل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٤٩- فضل العلم النافع الذي يهدي صاحبه إلى الخير والعمل الصالح والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٥٠- وجوب اتقاء يوم القيامة والاستعداد له، والحذر من عذابه وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وذلك بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

٥١- أنه إذا كان المراد بـ«التقوى» التحذير والحذر من الشيء دون العبادة والتذلل والخضوع جاز أن تضاف لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

٥٢- عظم يوم القيامة وشدة عذابه وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ بالتنكير.

٥٣- إثبات البعث والمعاد والرجوع إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

٥٤- إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، وتوفية كل نفس عملها، ومجازاتها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

٥٥- الحث على العمل الصالح والترغيب فيه، قليلاً كان أو كثيراً، والتحذير من العمل السيئ، قليلاً كان أو كثيراً؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.
وهذا عام في القليل والكثير من الخير والشر.

٥٦- في قوله تعالى ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ما يدل على انتفاع المؤمن بما يُهدى إليه من الغير، من ثواب الدعاء والصدقات والحج وغير ذلك، مما دلت عليه

السنة الصحيحة، وذلك- وإن لم يكن من كسبه- فهو بسبب إيمانه، وهو من أعظم كسبه، إذ لو لم يكن مؤمناً ما انتفع بذلك.

٥٧- كمال عدل الله- عز وجل- في محاسبة الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾.

رغَّب عز وجل في الآيات السابقة في الإنفاق في سبيله وأكد ذلك، ثم أتبع ذلك بذم الربا وأهله وتحريمه، وشدد في ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر ما يستغنى به عن الربا من المعاملات المباحة والمداينة الشرعية، مما به حفظ الأموال وصيانتها، وعدم استغلال الفقراء وأكل أموالهم بالباطل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾.

هذه الآية أطول آية في القرآن الكريم، وأقصر آية فيه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ [المدثر: ٢١].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ الآية.

وصدر الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

ونادى- عز وجل- المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعده من الأوامر والنواهي، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

أي: يا أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بما جاء من الحق والشرع، وانقادوا لذلك بجوارحهم فجمعوا بين التصديق والإقرار، وبين القبول والإذعان والانقياد.

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة. والتداين والمداينة: التفاعل من الدين، و«الدين» ما ثبت في الذمة، من ثمن مبيع أو أجرة، أو صداق، أو قرض، أو عوض خلع، أو سَلَم، أو غير ذلك.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت محدد معلوم بينكم، إلى سنة، أو سنتين، أو إلى سنة كذا، أو شهر كذا، أو يوم كذا، كما قال ﷺ لما قدم المدينة وهم يسلفون السنة والسنتين والثلاث، فقال ﷺ: «**من أسلف فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم**»(١).

﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾: جواب الشرط «إذا»، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، أي: فاكتبوا هذا الدين المؤجل إلى أجله، سدًّا للذرائع المؤدية إلى النزاع والاختلاف؛ لأن الوقاية خير من العلاج، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ فلله ما أحكم هذا التشريع وما أعدله وأعظمه.

والأصل في الأمر الوجوب، وجمهور العلماء على أن الأمر بالكتابة للإرشاد، وليس بواجب؛ لما في ذلك من التيسير على الناس، ورفع المشقة عنهم، إذ ليس كل أحد يقدر على

---

(١) أخرجه البخاري في السلم (٢٢٤١)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٤)، وأبوداود في البيوع (٣٤٦٣)، والنسائي في البيوع (٤٦١٦)، والترمذي في البيوع (١٣١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الكتابة، بل ولا على الإشهاد، وقد قال ﷺ: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»(١).

ويقوي القول بعدم الوجوب؛ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للأمر، وهو للوجوب، ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: بينكم أيها المتداينون، أي: بحضور الدائن والمدين، فلا تصح الكتابة بحضور أحد الطرفين دون الآخر.

﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ «كاتب» نكرة، يعم أي كاتب، أي: وليكن الكاتب الذي يكتب بينكم كاتباً ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾، يكتب ما تم بينكم من عقد الدين؛ تاريخه ومقداره، وعوضه، وأجله ووقت حلوله، وشاهديه، وغير ذلك.

وقوله: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق، والصدق المطابق للواقع، من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تبديل، ولا غير ذلك.

قال ابن كثير(٢): «وقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق، ولا يجر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه، من غير زيادة ولا نقصان».

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة أن يكتب لغيره، إذا طلب منه ذلك.

﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ الكاف: للتشبيه، وهي: صفة لمصدر محذوف، و«ما» موصولة، أي: كتابة مثل الذي علمه الله إياه من صفة الكتابة، ومن العلم الشرعي في كتابة الوثائق.

ويجوز كون «الكاف»: للتعليل، أي: ولا يمتنع كاتب أن يكتب للناس وينفعهم بكتابته، كما مَنَّ الله عليه وعلمه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (١٠٨٠)، وأبوداود في الصوم (٢٣١٩)، والنسائي في الصيام (٢١٤٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في «تفسيره» (١/ ٤٩٧).

[القصص: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقد قال ﷺ: «**إن من الصدقة أن تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق**»(١).

وعن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**»(٢).

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الفاء للتفريع، واللام: للأمر، وجملة ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ فيها توكيد، لما قبلها، وحث على المبادرة إلى الكتابة، وفيها توطئة وتمهيد لما بعدها.

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ الواو في الموضعين: عاطفة، واللام فيهما للأمر.

ومعنى قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وليمل ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ وهو: المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين ونوعه وصفته وأجله وغير ذلك، وفي هذا دليل على أن القول في ذلك هو قول المدين.

و«الإملال» و«الإملاء»: لغتان بمعنى واحد، فأهل الحجاز وبنو أسد يقولون: «أملَّ» وبنو تميم يقولون: «أملى»، يقال: أمللت عليه، ومنه قوله هنا: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾، ويقال: أمليت عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

ومعنى الإملال والإملاء: أن يلقي على سامعه كلاماً ليكتبه عنه، أو يرويه أو يحفظه.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ الفعل «يتق» مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة «الياء» والكسرة دليل عليها.

والخطاب في هذه الجملة والتي بعدها للمملي، أي: وليتخذ وقاية من عذاب الله

---

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٨)، ومسلم في الإيمان (٨٤)، وأحمد (٢/ ٣٨٨) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه أبوداود في العلم (٣٦٥٨)، والترمذي في العلم (٢٦٤٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢٦١)، وأحمد (٢/ ٣٠٤)- وقال الترمذي: «حديث حسن».

ربه، بأن لا يملي إلا حقًّا، ولا يقول إلا صدقاً.

وفي قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ ترغيب وترهيب أي: وليتق «الله» المعبود العظيم «ربه» خالقه ومالكه المتصرف فيه، والمنعم عليه بسائر النعم، رغبة ورهبة، وخوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه.

﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: ناهية، ﴿يَبْخَسْ مِنْهُ﴾، أي: ينقص منه، ﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة تفيد العموم، أي: ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً أيًّا كان، ومهما قل، لا في كميته، ولا في كيفيته، ولا في نوعه.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾، أي: لا يحسن التصرف في ماله، محجوراً عليه أو غير محجور عليه.

﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ في بدنه كالصغير والشيخ الكبير والمريض، أو في عقله كالمعتوه والمجنون.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ «أن» والفعل «يمل» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«يستطيع»، وفاعل «يمل» مستتر، والضمير «هو» للتوكيد.

والمعنى: أو لا يقدر أن يملي هو؛ لخرس في لسانه، أو لجهل، لا يعرف معه وجه الصواب، ونحو ذلك.

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾؛ الفاء: واقعة في جواب الشرط ﴿فَإِن كَانَ﴾؛ لأنه جملة طلبية، واللام: للأمر.

﴿وَلِيُّهُۥ﴾ أي: الذي يتولى أمره وشأنه؛ من قريب كأب أو جد أو أخ أو ابن أو غيرهم، أو من وصي أو وكيل، وغير ذلك.

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: إملاءً بالعدل والقسط، من غير زيادة في الدين، أو نقص منه.

وقال هنا: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾؛ لأن المملي هنا وهو الولي يُتصور منه الزيادة والنقص، محاباة لهذا أو هذا، بخلاف ما إذا كان المملي هو المدين، فإن المتصور منه النقص فقط؛ ولهذا قال في حقه: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ الواو: استئنافية، والاستشهاد طلب الشهود.

﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ الخطاب للمؤمنين، وحقيقة الشهادة: الحضور والمشاهدة وسماع ما تم بين الطرفين.

أي: اطلبوا لزيادة توثيق الدين- مع كتابته- شهيدين من رجالكم الذكور البالغين العدول الأحرار، كما هو الحال في جميع الحقوق المالية، والبدنية والحدود، لابد فيها من شاهدين، ما عدا الزنا فلابد فيه من أربعة شهود، تأكيداً في الستر، وصيانة للأعراض.

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ﴾، أي: فإن لم يكن الشاهدان رجلين، أي: ذكرين بالغين.

﴿فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾: جواب الشرط ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا﴾، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية ﴿فَرَجُلٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالشهود رجل وامرأتان، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: فرجل وامرأتان يشهدون.

ويحتمل أن الجواب قرن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية والتقدير: فليكن رجل وامرأتان، أو فليشهد رجل وامرأتان.

والرجل: هو الذكر البالغ ﴿وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ أي: أنثيان بالغتان.

وفي الآية تخيير بين شهادة الرجلين، وشهادة الرجل والمرأتين، وفيها ترتيب بتقديم شهادة الرجلين على شهادة الرجل والمرأتين إشارة إلى أنه الأولى.

فالأولى أن يكون الشاهدان على البيع رجلين؛ لأن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين، لأن حفظ النساء وضبطهن من حيث العموم دون حفظ الرجال وضبطهم، وهذا لا ينافي أن يكون في النساء من هن أحفظ وأضبط من بعض الرجال.

يضاف إلى ما سبق تعذر حضورهن مجالس القضاء غالباً، فإن شهد على البيع رجل وامرأتان كفى ذلك.

﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ﴾ «ممن»: جار ومجرور، «من» الأولى: حرف جر، و«من» الثانية: اسم موصول، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لما قبله، أي: كائنون ممن ترضون من الشهداء. والخطاب للمؤمنين، أي: ممن ترضون أيها المؤمنون.

﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ «من»: بيانية، أي: من الذين ترضونهم ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الشهداء العدول، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

عن ابن عباس ﷺ قال: «شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر: «**أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس، وبعد العصر حتى تغرب**»(١).

قال ابن كثير(٢): «فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود وهذا مقيّد، حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد مرضياً».

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ قرأ حمزة بكسر همزة: «إن»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَن﴾.

قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بسكون الذال وتخفيف الكاف: «فتُذْكِرَ»، وقرأ الباقون بفتح الذال وتشديد الكاف: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾، إلا أن حمزة رفع الراء: ﴿فَتُذَكِّرُ﴾.

مأخوذة من التذكير، أي: من الذكر ضد النسيان، أي: إن نسيت إحداهما الشهادة، أو بعضها ذكرتها أو نبهتها الأخرى.

وفي الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ دون أن يقول: «فتذكرها الأخرى» إشارة إلى أن النسيان قد يحصل لكل منهما لشيء من الشهادة، فتذكر كل منهما الأخرى بما نسيت.

وفي قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ بيان الحكمة في جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، وهو كون المرأة عرضة للنسيان أكثر بسبب نقصان عقلها، وضعف حفظها وضبطها.

عن ابن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ- أنه قال: «**يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن**

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس (٥٨١)، وأبوداود في الصلاة (١٢٧٦).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٤٩٧).

الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة[١]: وما لنا يا رسول الله- أكثر أهل النار؟ قال: «**تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن**» قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: «**أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين**»[٢].

قال ابن تيمية[٣]: «فبيّن أن شطر شهادتهن إنما هو؛ لضعف العقل، لا لضعف الدين. فعلم بذلك أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال، وإنما عقلها ينقص عنه. فما كان من الشهادة لا يخاف فيه الضلال في العادة لم تكن فيه على نصف الرجل. وما يقبل فيه شهادتهن منفردات إنما هو في أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها، من غير توقف على عقل، كالولادة والاستهلال والارتضاع والحيض والنفاس، والعيوب تحت الثياب، فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا تحتاج معرفته إلى كمال عقل».

وفي قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أيضاً: دلالة على أن الشاهد إذا نسي الشهادة فذكره بها غيره أنه ليس له أن يرجع إلى قول من ذكره ويقلده، حتى يذكر ذلك بنفسه بعد تذكيره.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾ أي: ولا يمتنع الشهداء ﴿إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ «ما» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: إذا ما دعوا وطلب منهم تحمل الشهادة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ أيضاً لأداء الشهادة التي تحملوها، فهذا واجب قال عز وجل: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وعن زيد بن خالد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الشهداء الذي**

---

(١) أي: تامة الخلق قوية.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٩)، وأخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٤٦).

يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»(١).

ولا ينافي هذا ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثم يخلف قوم يشهدون قبل أن يستشهدوا**»(٢).

وما جاء في حديث عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»(٣).

فالمعنيون بهذين الحديثين وما في معناهما شهداء الزور، والمستخفون بالشهادة والأيمان، أما الشهادة لإحقاق الحق فيجب أداؤها، وإن لم تطلب منه إذا توقف ذلك على شهادته.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: ناهية.

والسأم: الملل، قال لبيد(٤):

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد

وقال زهير(٥):

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «تسأموا» أي: ولا تسأموا كتابة الدين، أي: ولا تملوا كتابة الدين.

﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾: حالان، أي: حال كونه صغيراً، أو كبيراً، أي: قليلًا أو كثيرًا.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي: إلى وقت حلوله؛ لأن في الكتابة ضبط الدين، والقضاء على

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٩)، وأبوداود في الأقضية (٤٥٩٦)، والترمذي في الشهادات (٢٢٩٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢).

(٤) انظر «ديوانه» ص(٣٥).

(٥) انظر «ديوانه» ص(٢٩).

أسباب الاختلاف.

وقَدَّم قوله ﴿صَغِيرًا﴾ على قوله: ﴿كَبِيرًا﴾ تأكيداً على عدم التهاون في كتابة الدين مهما قل، ولأن القليل قد يتساهل في كتابته، وقد يكون سبباً للنزاع والاختلاف؛ لأن من الناس من يشكل عنده ويعظم حتى أقل القليل.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة إلى كل ما سبق من الأحكام، من كتابة الدين والإشهاد عليه، وغير ذلك، والخطاب للمؤمنين.

﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل عند الله- عز وجل- وفي حكمه؛ لما في ذلك من حفظ الحق لمن هو له أو عليه.

﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: وأقرب وأعدل لإقامة الشهادة، وأكمل وأصوب وأضبط لها، بكونها بشهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، وكتابة الدين والشهادة، بحيث يتذكر الشاهد بالكتابة شهادته، وما شهد به، بلفظه، أو بلفظه وخطه إن كان الشاهد هو الكاتب، وغير ذلك.

﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي: وأقرب ألا تشكوا فيما بينكم من دين، في أصله، أو قدره، أو أجله، أو غير ذلك، بحيث ترجعون عند حصول أي ريب وشك إلى المكتوب بينكم وإلى الشهود، فيزول بذلك ما حصل عندكم من شك وريب.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

أمر عز وجل بكتابة الدين والإشهاد عليه إذا كان مؤجلاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ الآية، ثم استثنى من ذلك إذا كان البيع ونحوه تجارة حاضرة غير مؤجلة، فلا جناح في عدم كتابتها.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ استثناء من أعم الأحوال، أو الأكوان في قوله: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ وهو استثناء منقطع؛ لأن التجارة الحاضرة ليست من الدين.

قرأ عاصم بنصب ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ على أن «تجارةً»: خبر «تكون» و«حاضرةً»: صفة لـ«تجارةً»، واسم «يكون»: ضمير مستتر يدل عليه السياق، تقديره: «هي»، أي: إلا أن

تكون المعاملة أو الصفقة «تجارةً حاضرةً»، وجملة «تديرونها بينكم»: صفة ثانية لـ«تجارة».

وقرأ الباقون برفع «تجارةٌ حاضرةٌ»، على أن «تجارةٌ»: اسم «تكون»، و«حاضرةٌ»: صفة لها، وخبرها جملة: «تديرونها بينكم»، ومعنى «حاضرة» منجزة، وليست ديناً مؤجلاً.

﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾: تتبادلونها بينكم، فيأخذ البائع الثمن، ويأخذ المبتاع السلعة.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي تطلب بها الأرباح، كالبيع والشراء والإجارة، ونحو ذلك.

وأعظم التجارة المتاجرة والمرابحة مع الله- عز وجل- بالإيمان به، والجهاد في سبيله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ۝٣٠﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ «الفاء» عاطفة، أي: فليس عليكم حرج ولا إثم في عدم كتابتها، إذ لا محذور يترتب على تركها؛ لأن الكتابة إنما أمر بها لتفادي الجحود والنسيان؛ إمّا لأصل البيع، أو قدر الدين، أو أجله ونحو ذلك، وكل هذا مرتفع في البيع الحاضر ونحوه.

﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ أي: واطلبوا من يشهد على البيع إذا باع بعضكم على بعض؛ حسماً لمادة النزاع والاختلاف.

والأصل في الأمر الوجوب، لكن حمل جمهور أهل العلم الأمر هنا على الندب؛ لما في الإشهاد على كل بيع من المشقة، ويؤيد هذا قوله تعالى في الآية بعد هذه الآية: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وحديث عمارة بن خزيمة الأنصاري ﷺ أن عمه حدثه- وهو من أصحاب النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الإعرابي، قال: «**أوليس قد ابتعته منك؟**» قال الأعرابي: لا والله، ما بعتك. فقال النبي ﷺ: «**بلى قد ابتعته منك**». فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد»؟ قال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً. قال: ائتني بكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه، إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار

---

(١) أخرجه أبوداود في الأقضية (٣٦٠٧)، والنسائي في البيوع (٤٦٤٧)، وأحمد (٥/ ٢١٣- ٢١٤- ٢١٥- ٢١٦)، والحاكم في البيوع (٢/ ١٧- ١٨)، وقال: «صحيح الإسناد، ورجاله باتفاق الشيخين ثقات، ولم يخرجاه». وأخرجه البيهقي في الشهادات (١٠/ ١٤٥- ١٤٦).

وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً. فرضي بذلك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً. فرضي بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني، فلم أجد مركباً، وإني استودعتكها. فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه لعل مركباً يجيء بما له، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي تسلف منه، فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إليَّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً»(١).

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ الواو: عاطفة و«لا» ناهية، و﴿يُضَآرَّ﴾مأخوذ من المضارة، وهي: إلحاق الأذى والضرر.

والفعل «يُضار» أصله «يضارر» ويحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، أي: ولا يضارِرْ كاتب ولا شهيد، فـ«كاتب» فاعل، والواو: عاطفة و«لا» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي من حيث المعنى و«شهيد» معطوف على «كاتب» أي: ولا يُضارِرْ كاتب في كتابته، فيكتب غير ما يُملى عليه، أو يمتنع من الكتابة مضارة للمملي أو لغيره.

ولا يُضارِرْ شهيد في شهادته، فيشهد بخلاف ما رأى وسمع، وبخلاف الحق، أو يمتنع من تحمل الشهادة، أو أدائها أو يكتمها مضارة للمشهود له.

ويحتمل أن يكون الفعل «يضار» مبنياً للمفعول، فيكون «كاتب» نائب فاعل، أي: ولا يُضارَرْ كاتب إذا كتب كما أُملي عليه أو امتنع من الكتابة ونحو ذلك.

ولا يُضارَرْ شهيد إذا شهد بالحق وبما رأى وسمع، أو إذا امتنع من تحمل الشهادة،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٨)، وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم- في الكفالة (٢٢٩١).

ونحو ذلك؛ لأن كلاً منهما محسن، وقد قال الله عز وجل: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]..

﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، أي: وإن تفعلوا المضارة بأن يضار بعضكم بعضاً.

﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: فعل المضارة ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: خروج منكم عن طاعة الله- عز وجل- وفي التعبير بالباء في قوله: ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ بدل «من» إشارة إلى لزوم ذلك لهم، أي: فإنه فسوق كائن بكم، لازم لكم، لا تحيدون عنه، ولا تنفكون منه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره وترك نواهيه يَقِكُم عذابه.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ الواو: للاستئناف، أي: ويعلمكم الله ما ينفعكم في أمر دينكم ودنياكم، وما تفرقون به بين الحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ أي: إن علمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل وجودها، وبعد وجودها، وبعد عدمها، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون.

وقدم المتعلِّقين ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾على المتعلَّق به وهو قوله ﴿عَلِيمٌ﴾ لتأكيد شمول علمه عز وجل- لكل شيء.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ الواو: استئنافية، أو عاطفة، و«إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، أي: وإن كنتم مسافرين، وتداينتم حال السفر، بدين إلى أجل مسمى.

والسفر: هو الضرب في الأرض والسير فيها، سُمي سفراً لأنه خروج من البلد

ومحل الإقامة إلى حيث السفر والنور. قال ابن فارس(١): «سمي بذلك، لأن الناس ينكشفون عن أماكنهم».

وقيل: سمي سفراً، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ يكتب الدين بينكم، ومثل هذا إذا لم يجدوا أدوات الكتابة، كالقرطاس والقلم ونحو ذلك.

﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ جملة جواب الشرط «إن»، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فعليكم رهان مقبوضة، أو فالوثيقة رهان مقبوضة.

قرأ ابن كثير وأبوعمرو «فرُهُن» بضم الراء والهاء من غير ألف، وقرأ الباقون «فرهان» بكسر الراء وفتح الهاء وألف بعدها.

و«الرهان» و«الرُهُن» ما تُوَثَّق به الديون من الأشياء العينية، وهي جمع «رهن» وهو في اللغة الحبس، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]. أي: مرتهنة محبوسة بما كسبت.

والرهن في الاصطلاح: توثقة دين بعين يمكن استيفاؤه أو بعضه منها أو من بعضها.

﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: يقبضها الدائن وهو «المرتهِن»، ويأخذها من «الراهن» وهو المدين، بأن يحوزها إليه، إذا كانت مما ينقل، أو تكون تحت سيطرته إذا كانت مما لا ينقل، كالعقار، ونحوه.

ومثل هذا إذا كان الدين في الحضر، ولم يجدوا كاتباً، وإنما خص السفر؛ لأنه مظنة عدم وجود الكاتب، أما الحضر فيندر فيه عدم وجود الكاتب.

قال ابن القيم(٢): «وقاست الأمة الرهن في الحضر على الرهن في السفر، والرهن مع وجود الكاتب على الرهن مع عدمه، فإن استدل على ذلك بأن النبي ﷺ رهن درعه في الحضر، فلا عموم في ذلك، فإنما رهنها على شعير استقرضه من يهودي، فلابد من

---

(١) في «مقاييس اللغة»، مادة «سفر».

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٤٦- ٤٤٧).

القياس، إما على الآية، وإما على السنة».

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الفاء: عاطفة، و«إن»: شرطية، و«أمن»: فعل الشرط، أي: فإن أمن بعضكم بعضاً، ولم تكتبوا الدين، ولم تشهدوا عليه.

والمعنى: فإن اطمأن بعضكم إلى بعض، ووثق بأنه لن يُنكِر أو يَبخس أو يُغيّر، فلم يوثق حقه برهن مقبوض، ولم يُشهد ولم يَكتب.

﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ جملة جواب الشرط ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، واللام: لام الأمر، أي: فليؤد المدين الذي ائتمنه الدائن، ﴿أَمَانَتَهُ﴾، أي: الذي ائتمن عليه من الدين وغيره.

قال ﷺ: «**أدِ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»(١).

وقال ﷺ: «**على اليد ما أخذت حتى تؤديه**»(٢).

وقال ﷺ: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**»(٣).

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للأمر، والفعل: مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة الياء.

أي: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فلا ينكر ما ائتمن عليه من دين وغيره، ولا يبخس منه شيئاً أو يماطل في أدائه.

وهذه الآية مخصصة لما سبق من الأمر بكتابة الدين والإشهاد عليه وتوثيقه بالرهن المقبوض.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: ناهية.

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٦١)، والترمذي في البيوع (١٢٦٦)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٠٠)، من حديث الحسن عن سمرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض وأداء الديون (٢٣٨٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و«الكتمان»: الإخفاء والجحود، و«الشهادة»: ما شهد به الإنسان، مما حضره ورآه بعينه وسمعه بإذنه.

أي: لا تخفوا وتجحدوا ما شهدتم به، بإنكار الشهادة أصلاً، أو بالتغيير فيها والتبديل، بزيادة، أو نقصان، أو غير ذلك.

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ أي: ومن يكتم الشهادة ويخفها، أو يغير فيها ويبدل.

﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية. و«قلبه»: فاعل اسم الفاعل «آثم».

وأضاف الإثم إلى القلب؛ لأن الشهادة أمر خفي راجع إلى القلب؛ ولأن القلب ملك الأعضاء، عليه مدار الصلاح والفساد، كما قال ﷺ- في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

وقال ﷺ: «**التقوى هٰهنا، ويشير إلى صدره**- ثلاث مرات»(٢).

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

فمن كتم الشهادة فقلبه واقع في الإثم، وهو الذنب، وهو من الآثمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]. أي: إن كتمناها.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ والله بالذي تعملون، أو بعملكم عليم، وسيحاسبكم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على أعمالكم، ويجازيكم عليها، خيرها وشرها. وقدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على المتعلق به. وهو «عليم» لتأكيد إحاطة علمه- عز وجل- بأعمالهم.

وفي هذا وعيد لمن خالف أمر الله، فأنكر ما عليه من حقوق، أو كتم الشهادة، أو غير في ذلك، وفيه وعد لمن أطاع الله واتقاه، فأدى ما عليه من حقوق، من دين أو شهادة، أو غير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام بما تضمنته هاتان الآيتان العظيمتان من أحكام.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريم وتشريف لهم.

٣- في نداء المؤمنين بوصف الإيمان حث على الاتصاف بهذا الوصف، وتعظيم لما ذكر بعده من أحكام، وأن امتثال تلك الأحكام من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثالها يعد نقصاً في الإيمان.

٤- جواز التعامل بالدين، سواء كان هذا الدين ثمن مبيع أو أجرة، أو سَلَماً، وهو تعجيل الثمن وتأخير المثمن، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾.

٥- أن الجائز من الدين ما كان إلى أجل مسمى، أي: معلوم محدد؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كشهر أو سنة أو غير ذلك، فإن كان الأجل مجهولاً غير محدد لم يصح؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقد قال ﷺ: «**من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم**»(١).

فإن كان الدين إلى غير أجل، أي: لم ينقد الثمن في الحال فهو واجب منذ العقد، وللدائن المطالبة به منذ العقد.

٦- وجوب كتابة الدين المؤجل إلى أجل مسمى؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ والأصل

---

(١) سبق تخريجه.

في الأمر الوجوب، ويقوي هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن كتابة الدين مستحبة، وليست بواجبة، وحملوا الأمر في الآية على الاستحباب، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقد ثبت أنه ﷺ ابتاع بلا كتابة ولا إشهاد كما في حديث خزيمة بن ثابت عن عمه رضي الله عنه(١).

وعللوا ذلك أيضاً بمشقة الكتابة على كل متداينين. وهذا القول أرفق، والأول أحوط، وأسلم عاقبة.

ولهذا فالأولى كتابة الدين لمن تمكن من ذلك، تفادياً لما قد يترتب على عدم الكتابة من النسيان، أو الإنكار، أو النزاع والاختلاف، حول الدين أو قدره أو أجله، وغير ذلك، لكن إذا كان الدين في أموال الغير مما للإنسان عليه ولاية أو وكالة، كمال اليتيم، أو غير ذلك وجبت كتابته.

٧- وجوب حضور كل من الدائن والمدين، عند كتابة الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾.

٨- يجب أن يكون الكاتب بين المتداينين عدلاً، معروفاً بالعدل، عارفاً به، يكتب بالعدل المطابق للواقع، الموافق للشرع، من غير ميل لأحدهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٩- أنه يجوز أن يتولى كتابة الدين أيُّ كاتب، إذا كان عدلاً؛ لقوله تعالى: ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ بتنكير «كاتب» أي: أيُّ كاتب، ولا يشترط كاتب بعينه.

١٠- ظاهر الآية أن الكاتب لا يكون أحد المتعاقدين؛ لقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ

---

(١) سبق تخريجه.

﴿كَاتِبٌ﴾ لكن لو تراضيا أن يكتب أحدهما، وبخاصة الذي عليه الحق صح ذلك؛ لأن ذلك بمثابة الاعتراف منه والإقرار على نفسه.

١١- ينبغي لمن منّ الله عليه، فعلمه الكتابة وصنعتها، والعلم الشرعي فيها أن لا يمتنع عن الكتابة لمن يحتاج إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

١٢- أن من شكر نعمة الله- عز وجل- على من علمه الله الكتابة أن يكتب لمن يحتاج إليها؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لتعليم الله إياه، وهذا على اعتبار أن الكاف للتعليل. وفي الحديث: «**ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**»(١).

١٣- نعمة الله- عز وجل- على عباده بتعليمهم الكتابة، وما ينفعهم من العلوم في أمر دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥].

١٤- يجب على الكاتب أن يكتب وفق ما علمه الله من الشرع، ومن حسن الكتابة؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ وهذا على اعتبار الكاف للتشبيه، أي: كالذي علمه الله.

١٥- أن الذي ينبغي أن يملي على الكاتب هو المدين الذي عليه الحق، لا الدائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾.

١٦- أن الكاتب مطالب بأمرين؛ الأول: أن يكتب كما علمه الله من حيث الشرع، وحسن الكتابة. والأمر الثاني: أن يكتب حسب ما يملي عليه الذي عليه الحق وهو المدين، من مقدار الدين وتاريخه وعوضه وأجله وغير ذلك.

١٧- أن القول في مقدار الدين، وصفته وشروطه وغير ذلك مما يتعلق به هو قول المملي الذي عليه الحق؛ لأنه المقر به الملتزم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾.

١٨- أن الإقرار من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق؛ لأن ما يمليه المدين إقرار منه واعتراف بالحق الذي عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر (٢٥٨٠)، وأبوداود في الأدب (٤٨٩٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١٩- يجب على المدين الذي عليه الحق أن يتقي الله ربه، فلا يملي إلا حقاً، ولا يقول إلا صدقاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

٢٠- في إرداف قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بقوله: ﴿رَبَّهُۥ﴾ إثبات الربوبية الخاصة للمؤمنين، وتذكير للمملي بألوهية الله- عز وجل- وربوبيته له، وجمع له بين الترغيب والترهيب، أي: وليتق الله المعبود العظيم ﴿رَبَّهُۥ﴾ خالقه ومالكه ومدبره، والمنعم عليه بسائر النعم. ومثل هذا قوله- عز وجل- للمؤتمن في الآية التي بعد هذه الآية: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

٢١- لا يجوز للمدين أن ينقص مما عليه من الدين شيئاً أيًّا كان، مهما قل، لا في قدره، ولا في وصفه، ولا في شروطه وقيوده، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

٢٢- ثبوت الولاية على من لا يحسن التصرف لسفه، أو صغر أو جنون، أو نحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٢٣- إذا كان الذي عليه الحق سفيهاً لا يحسن التصرف، أو ضعيفاً لصغر، أو كبر، أو مرض، أو جنون أو لا يستطيع الإملال لخرس ونحوه وجب على وليه أن يملل عنه بالعدل، من غير محاباة بزيادة أو نقصان أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٢٤- تفصيل القرآن الكريم فيما يحتاج إلى تفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ﴾.

وهذه الحالات الثلاث هي حالات القصور التي يحتاج معها الشخص إلى ولي، وهي: إما كونه سفيهاً لا يحسن التصرف، أو ضعيفاً في بدنه لصغر أو كبر أو مرض، أو في عقله لجنون ونحوه، أو لا يقدر على الإملاء لخرس ونحوه.

٢٥- قبول قول الولي فيما يقر به على موليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ ما لم يظهر منه

محاباة وميل عن العدل إلى الظلم فلا يقبل؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾.

٢٦- قبول قول الأمين؛ لأنه إذا كان ولي القاصرين يقوم مقامهم، وتقبل اعترافاته عليهم، فالذي ولاه الشخص وائتمنه بنفسه أولى بالقبول.

٢٧- مشروعية الإشهاد على الدين مع الكتابة لزيادة التوثيق؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ وأكثر أهل العلم على أن الأمر للإرشاد والندب، وقال بعضهم بوجوب الإشهاد.

٢٨- لابد في الشهادة على الدين ونحوه، من شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين من المؤمنين العدول الأحرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾.

وهذا أكمل وأوثق، ولا ينافي هذا أنه ﷺ قضى بالشاهد واليمين(١).

٢٩- أن شهادة الرجلين أولى من شهادة رجل وامرأتين، لتقديم شهادة الرجلين في الآية.

٣٠- تفضيل الرجال على النساء في الشهادة- من حيث العموم- حيث جعلت شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد- وذلك لما ميز الله به الرجال- من حيث العموم- على النساء من كمال العقل والدين وقوة الحفظ والضبط.

٣١- جواز شهادة النساء في الأموال ونحوها إلا في الحدود للاحتياط فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ١٣].

٣٢- يشترط كون الشهداء عدولاً مرضيين عند المشهود له والمشهود عليه وعند عامة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾.

٣٣- بيان الحكمة في جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، وهو نقصان عقلها، وضعف حفظها وضبطها، وكمال عقل الرجل وقوة حفظه وضبطه، فالمرأة عرضة للنسيان أكثر من الرجل، من حيث العموم.

٣٤- جواز شهادة الإنسان إذا كان قد نسي الشهادة، ثم ذُكّر فيها فذكر؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٢)، وأبوداود في الأقضية (٣٦٠٨)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ومن باب أولى إذا ذكرها بدون تذكير.

٣٥- إذا نسي الشاهد الشهادة ثم ذُكِّر بها فلم يَذْكُر لم يجز له أن يشهد تقليداً لمن ذَكَّره؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: فتذكر إحداهما الأخرى فتَذْكر.

٣٦- لابد أن تكون الشهادة عن علم ويقين، فمتى شك في الشهادة لم يجز له أن يشهد، وإن غلب ذلك على ظنه.

٣٧- تحريم الامتناع من الشهادة تحملاً وأداء ممن دعي إليها؛ لما في ذلك من ضياع الحقوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾.

أما أداء الشهادة بعد تحملها فوجوبه متأكد لتعينه على الشاهد، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وكذا الحكم إذا كان عنده شهادة لم يُعلم بها ولم يُدع إليها، وعرف أن حق أخيه سيضيع إذا لم يؤدها، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»(١).

وأما تحمل الشهادة فظاهر الآية يدل على وجوبه على من طلب منه ذلك، وقال كثير من أهل العلم: إنه فرض كفاية.

٣٨- أن الشاهد ينبغي أن يأتي هو إذا دعي إلى الشهادة، لا أن يؤتى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ وقد قيل في المثل: «في بيته يؤتى الحكم».

٣٩- التأكيد على مشروعية كتابة الدين إلى أجله، والنهي عن السأم من كتابته، مهما كان الدين صغيراً أو كبيراً؛ لما في ذلك من حفظ الحقوق، والاحتراز من الاختلاف والنزاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾.

٤٠- أن ما أمر الله به في الآية من كتاب الدين والإشهاد عليه على الصفة المذكورة في الآية، والعدل في ذلك، وغير ذلك من التوجيهات هو أعدل عند الله- عز وجل- وفي

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٣)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

حكمه؛ لما فيه من حفظ الحقوق لأصحابها، وأقوم للشهادة، وأضبط لها وأكمل، وأحفظ من النسيان، وأقرب للسلامة من الريب والشك في الدَّين أو قدره أو أجله، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.

٤١- حرص الإسلام على النأي بالمسلمين عن كل ما يؤدي إلى الشك والارتياب، والاحتراز من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.

ولهذا قال ﷺ للصحابيين لما مرا به وأسرعا، وهو يقلب صفية إلى بيتها: «**على رسلكما إنها صفية**»(١).

٤٢- العمل بالكتابة واعتمادها حجة شرعية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.

ويؤيد هذا ما جاء في حديث عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من امرئ مسلم يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**»(٢).

٤٣- إباحة التجارة والمعاوضات الشرعية التي تطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ بل إن ذلك مطلوب شرعاً، وقد يجب لإعفاف المرء نفسه وأهله عن مذلة السؤال.

٤٤- أن الدَّين تجارة غير حاضرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ فهذا استثناء مما قبله يدل على أن الدين تجارة لكنها غير حاضرة.

٤٥- لا حرج في عدم كتابة التجارة الحاضرة، والبيع الناجز ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ وذلك؛ لأنه لا يترتب على ذلك محذور.

٤٦- الأمر بالإشهاد حين البيع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وأكثر أهل العلم على أن الأمر للإرشاد والندب، وذهب بعضهم إلى أن الإشهاد واجب بناءً

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبوداود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩)، من حديث صفية ﷺ.

(٢) سبق تخريجه.

على أن الأصل في الأمر الوجوب.

والراجح أن الإشهاد مستحب ومندوب إليه، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾.

وثبت في حديث عمارة بن خزيمة عن عمه رضي الله عنه أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ولم يشهد(١).

وأيضاً فإن في الإشهاد على كل بيع من المشقة والحرج على الناس ما لا يخفى. لكن الإشهاد بلا شك أحوط وأضبط ويتأكد في صفقات البيع الكبيرة، وقد يجب، وكذا في التصرف للغير كالوكيل والولي.

٤٧- تحريم المضارة للكاتب والشهيد، كأن يدعيا في وقت أو حالة تضرهما، أو ينسب إليهما ما لم يحصل منهما، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ بالبناء للمفعول؛ لأنهما محسنان وما على المحسنين من سبيل، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

٤٨- لا يجوز أن يضار كاتب فيكتب خلاف ما يُملى عليه وخلاف الحق، ونحو ذلك، ولا يجوز أن يضار شهيد فيشهد بخلاف ما رأى وسمع، أو يكتم الشهادة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ على البناء للفاعل.

٤٩- أن المضارة للكاتب والشهيد، والمضارة منهما من الفسوق والخروج عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

٥٠- أن الفسوق يطلق على ما دون الكفر المخرج من الملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ والمضارة دون الكفر.

٥١- وجوب تقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٥٢- أن من اتقى الله علمه الله ما ينفعه في أمر دينه ودنياه وجعل له نوراً يفرق به بين

---

(١) سبق تخريجه.

الحق والباطل والخير والشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

٥٣- أن الأصل في الإنسان الجهل، وعدم العلم إلا بتعليم الله له؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

٥٤- إثبات علم الله- عز وجل- الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

٥٥- أن السفر مظنة عدم وجود الكاتب، ويتجوز فيه ما لا يتجوز في الحضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

٥٦- إذا كان المتداينون في السفر، ولم يجدوا كاتباً شرع لهم توثيق حقوقهم بالرهان المقبوضة.

٥٧- مشروعية الرهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ وهو مشروع في الحضر والسفر، مع وجود الكاتب وعدمه.

وإنما خص في الآية حال السفر وعدم وجود الكاتب؛ لأن السفر مظنة عدم وجود الكاتب.

«وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعاً من شعير»(١).

٥٨- أن الكتابة أولى من الرهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

٥٩- ظاهر الآية ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ لزوم قبض الرهن، لأن «مقبوضة» صفة لـ«رهان» ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أن قبض الرهن شرط لصحته.

وذهب بعضهم إلى أن قبض الرهن شرط للزومه، لا لصحته، بمعنى أن الرهن

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٣)، والنسائي في البيوع (٤٦٠٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٣٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

صحيح وإن لم يقبض لكنه لا يلزم فللراهن التصرف فيه ما لم يقبضه المرتهن.
وذهب بعض أهل العلم إلى أن الرهن لازم صحيح بمجرد عقده، وإن لم يقبض، وليس من شرط لزومه؛ ولا من شرط صحته أن يقبض، والتقييد في الآية بقوله: «مقبوضة» لبيان أن التوثيق التام بالرهن يحصل بقبضه، وبخاصة إذا كان العقد في السفر، وليس ثمة كاتب.

٦٠- استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن فالقول قول المرتهن.

٦١- إذا ائتمن الطرفان بعضهم بعضاً بلا رهن ولا إشهاد ولا كتابة جاز ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.
وهذه الآية مخصصة لما سبقها من الأمر بالكتابة والإشهاد، والتوثيق بالرهن، ودليل لمن ذهب إلى الاستحباب.

٦٢- وجوب أداء الأمانة على من ائتمن، أداءً لحق الله وامتثالاً لأمره، ووفاءً بحق صاحبه الذي ائتمنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

٦٣- يجب على من ائتمنه الناس أن يتقي الله ربه، ويكون عند حسن ظن الناس به، وعليه أن لا يغتر بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.
ولله در الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال له أحد الرعية: «اتق الله» قال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»(١).

٦٤- إثبات اسمين من أسمائه- عز وجل- وهما «الله» و«الرب» وأن له- عز وجل- كمال الألوهية والربوبية؛ لقوله- عز وجل- ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

٦٥- تحريم كتمان الشهادة وإخفائها أو التغيير فيها، وعظم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وإذا أثم القلب أثمت الجوارح كلها.

---

(١) انظر: «الفقه الإسلامي وأدلته» (٨/ ٣٣٢).

٦٦- في وصف كاتم الشهادة بأنه آثم قلبه- وهذه عقوبة خاصة- دليل على خطورة كتمان الشهادة، وأن ذلك من الكبائر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٦٧- إثبات علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل أعمال الخلق، قبل أن يعملوها وبعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وفي هذا وعد لمن امتثل أمر الله، ووعيد لمن خالفه، لأن مقتضى علمه- عز وجل- بأعمال العباد أن يحاسبهم ويجازيهم عليها.

كما أن فيه رداً على القدرية الذين ينفون علم الله- عز وجل- بأفعال العباد، ويقولون: لا يعلمها حتى تقع تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

٦٨- عناية الشرع المطهر بحفظ الأموال وتنميتها وتوثيقها بالكتابة والإشهاد والرهن وغير ذلك، وبما يصلح الناس في أمر معاشهم وحفظ الحقوق والعدل بينهم والقضاء على أسباب المنازعات. مع عنايته في أمر معادهم في منظومة متكاملة تثبت أن الدين الإسلامي هو الدين الصالح، لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ لإفادة الحصر، أي: لله وحده ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ خلقاً وملكاً وتدبيراً، بلا شريك، ولا منازع.

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ موصولة تفيد العموم، وكررت مع قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ لتأكيد العموم.

والسموات: جمع سماء، وهي الأجرام العلوية، وهي كالقبة على الأرض، وكل ما كان منها أعلى فهو أوسع، وهي سبع، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢].

والمراد بالأرض جنس الأرضين، وأفردت في القرآن كله- والله أعلم- لثقل الجمع، وهي سبع أرضين، كما قال تعالى في آية الطلاق: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۚ﴾ أي: مثل السموات في العدد. وفي الحديث: «**من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين يوم القيامة**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٢٤٥٣)، ومسلم في البيوع- تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفيه: «**من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»(١).

فهو- عز وجل- خالق السموات والأرض، وجميع ما فيهما من العوالم، وما بينهما، وجميع ما في الكون، ومالكه ومدبره.

فالخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فله- عز وجل- الخلق والملك والتدبير، وكمال الربوبية، مما يستلزم أن يكون له كمال الألوهية.

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الواو: عاطفة، و«إن» شرطية، و﴿تُبْدُواْ﴾: فعل الشرط، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: وإن تظهروا الذي في صدوركم وقلوبكم من المعتقدات، والمضمرات والسرائر.

﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ معطوف على ﴿تُبْدُواْ﴾ والضمير يعود إلى ﴿مَا﴾ الموصولة، أي: أو تسروه وتضمروه.

﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾: جواب الشرط «إن»، والضمير في «به» يعود إلى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾.

ومعنى ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾: يُطلعكم عليه ويخبركم به ويظهره لكم؛ لأنه- عز وجل- لا تخفى عليه خافية، والسر والعلانية عنده سواء.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران: ١٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التغابن: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود: ٥].

قال ابن تيمية في كلامه على الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾: «فهذا متضمن لكمال علمه- سبحانه وتعالى- بسرائر عباده وظواهرهم، وأنه لا يخرج شيء من ذلك عن علمه، كما لم يخرج شيء ممن في السموات والأرض عن ملكه، فعلمه عام، وملكه عام. ثم أخبر تعالى عن محاسبته لهم بذلك، وهي تعريفهم ما أبدوه أو أخفوه، فتضمن ذلك علمه بهم، وتعريفهم إياه»(١).

ولا يلزم من المحاسبة المعاقبة، ولهذا قال تعالى:

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وأبوجعفر ويعقوب برفع الراء والباء منهما، على الاستئناف، وقرأ الباقون بجزمهما عطفاً على جواب الشرط ﴿يُحَاسِبْكُم﴾ أي: ﴿فَيَغْفِرُ﴾ برحمته ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده المؤمنين.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة- كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في تقرير المؤمن بذنوبه وقول الله- عز وجل- له: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(٢).

ومنه سُمي «المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس حال القتال تستره، وتقيه السهام ونحوها.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من الكفرة والعصاة بعدله، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٤٩).

(٢) سيأتي قريباً تخريجه بتمامه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ دليل على أن المحاسبة لا تستلزم المعاقبة فإنه- عز وجل- قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب.

وعليه يدل حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه- عز وجل- حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. قال: فيعطى صحيفة حسناته- أو كتابه- بيمينه، وأما الكفار فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**»(١).

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ الآية.

وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الآية: ٤٠].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدم المتعلقين وهما قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على الخبر ﴿قَدِيرٌ﴾ لتأكيد شمول قدرته، وإحاطتها بكل شيء.

و«قدير» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، يدل على كمال قدرته عز وجل.

فهو- عز وجل- ذو القدرة التامة، وذو القدرة على كل شيء. لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]. ولا أحد يقدر على كل شيء إلا الله عز وجل.

وناسب ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأن محاسبته- عز وجل- للعباد على ما يبدون وما يخفون، ومغفرته لمن يشاء وتعذيبه لمن يشاء منهم إنما يحصل ذلك يوم البعث والمعاد، الذي هو من أعظم الدلائل على كمال قدرته عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٥)، ومسلم في التوبة- قبول توبة القاتل (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣)، وأحمد (٢/ ٧٤).

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ- فأتوا رسول الله ﷺ- ثم بركوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**». فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ قال: نعم ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: نعم»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء. قال: فقال النبي ﷺ: «**قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا**» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٥)، وأحمد (٢/ ٤١٢).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ قال: قد فعلت»(١).

وعن سالم بن عبدالله بن عمر: «أن أباه قرأ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فدمعت عيناه، فبلغ صنيعه ابن عباس، فقال: يرحم الله أبا عبدالرحمن- لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ، حين أنزلت، فنسختها الآية التي بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾»(٢).

فضل هاتين الآيتين:

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»(٣).

قيل: كفتاه عن قيام الليل، وقيل: كفتاه بركة، وتعوذاً من الشياطين والمضار، وقيل غير ذلك.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خواتيم سورة البقرة، من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبل**»(٤).

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة، فإني أعطيتهما من تحت العرش**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)، وأحمد (١/ ٢٣٣، ٣٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في الزهد (١٤/ ٧)، والطبري مطولاً ومختصراً في «جامع البيان» (٥/ ١٣٢- ١٣٤)، والحاكم في التفسير (٢/ ٢٨٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص(٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في «فضائل القرآن» (٥٠١٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٧)، وأبوداود في الصلاة (١٣٩٧)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٨١) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٥١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ١٦٩)، حديث (٣٠٢٥)، وأبوداود الطيالسي في «مسنده» ص(٥٦) وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧)- وقال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٠٦): «هذا إسناد حسن، ولم يخرجوه في كتبهم».

وعن ابن عباس ﵄ قال: «بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال: «أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته»(١).

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾.

قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ في هذه الآية الكريمة ثناء من الله- عز وجل- على رسول الله ﷺ والمؤمنين، وامتداح لهم بأنهم صدقوا وأقروا بما أنزل إليهم من ربهم، وانقادوا له بجوارحهم، ظاهراً وباطناً.

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ ال للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود المعروف محمد ﷺ المرسل من عند الله- عز وجل- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: ١١٩، فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، الفتح: ٨].

﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بالذي أنزل إليه من ربه من الوحي، وهو القرآن الكريم، والسنة المطهرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] أي: القرآن والسنة.

والمراد بالربوبية هنا أخص الربوبية؛ لأن الربوبية أقسام: الربوبية العامة لجميع الخلق، والربوبية الخاصة للمؤمنين، وربوبية خاصة الخاصة للرسل والأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وربوبية خاصة خاصة الخاصة له- ﷺ من بين الرسل والأنبياء.

والإيمان بالمنزَّل يستلزم الإيمان بالمنزِّل، فآمن ﷺ بربه- عز وجل- وبما أنزله إليه من القرآن والسنة، وقال ﷺ- كما في حديث جابر ﵁: «**أشهد أني رسول الله**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٨٠٦)، والنسائي في الافتتاح- فضل فاتحة الكتاب (٩١٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة- الرطب والتمر، وقول الله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا
=

وانقاد لذلك صلوات الله وسلامه عليه تبليغاً له، ودعوة إليه، وعملاً به، فبلغ البلاغ المبين، وقام حتى تفطرت قدماه(١).

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الرسول، أي: وآمن المؤمنون الذين حققوا الإيمان بما أُنزل إليه ﷺ من ربه من الوحي، اتباعاً له ﷺ فآمنوا بالله- عز وجل- وبالرسول ﷺ، وبما أنزل إليه، وانقادوا لذلك ظاهراً وباطناً.

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ الآية.

هذا توكيد وتفصيل؛ لقوله قبله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: كل من الرسول ﷺ والمؤمنين آمن بالله وصدق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالله ركن من أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره- كما جاء في حديث عمر بن الخطاب وأبي هريرة ﷺ(٢).

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أي: وآمنوا وصدقوا بملائكة الله- عز وجل- على وجه الإجمال والتفصيل- كما جاء في الكتا ب والسنة.

والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة، وهم عالم غيبي، خلقهم الله من نور، كما قال ﷺ: «**خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(٣).

أعطاهم الله قوة وقدرة على القيام بما يأمرهم الله- عز وجل- بتدبيره من أمر

= جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥] (٥٤٤٣).

(١) كما في حديث عائشة ﷺ أخرجه البخاري في التفسير- قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] (٤٨٣٧)، ومسلم في صفات المنافقين- الإكثار من الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨٢٠).

(٢) أخرج حديث عمر ﷺ مسلم في الإيمان (٨)، وأخرج حديث أبي هريرة ﷺ البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩، ١٠)، والنسائي في الإيمان (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤).

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)، من حديث عائشة ﷺ.

الكون، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

يعبدون الله- عز وجل- ويسبحون على الدوام، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠].

منهم من وكِّل بالوحي، وهو جبريل- عليه السلام، ومنهم من وكل بالقطر، وهو ميكائيل، ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، ومنهم إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، ومنهم الموكل بالجبال، ومنهم الموكلون بالرحم والنطف، ومنهم الموكلون بحفظ العباد وأعمالهم، ومنهم الموكلون بالسؤال في القبر، ومنهم الموكلون بالشمس والقمر والأفلاك، ومنهم الموكلون بالجنة، ومنهم الموكلون بالنار، ومنهم الصافون المسبحون، ومنهم حملة العرش، إلى غير ذلك.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «وكتابه» بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بالجمع. والقراءتان بمعنى واحد؛ لأن «كتاب» على قراءة الإفراد مفرد مضاف، والمفرد المضاف يعم- أي: وآمنوا وصدقوا بجميع كتب الله- عز وجل- على وجه الإجمال والتفصيل، كما جاء في الكتاب والسنة:

منها: صحف إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

ومنها: «التوراة والصحف التي أنزلها الله على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

وأكثر أهل العلم على أن المراد «بصحف موسى» التوراة، وقيل: غيرها.

ومنها: «الإنجيل» الذي أنزله الله- عز وجل- على عيسى بن مريم- عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ٤٦].

والمراد بالتوراة والإنجيل الكتابان اللذان أنزلهما الله حقاً، لا ما يوجد اليوم في أيدي اليهود والنصارى مما حرف وبدل.

ومنها: «الزبور» الذي آتاه الله- عز وجل- داود- عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣].

ومنها: «القرآن» الذي أنزله الله- عز وجل- على محمد- عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣].

كما آمنوا على وجه الإجمال بجميع الكتب التي أنزلها الله على جميع رسله، كما قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

آمنوا بأن جميع كتب الله- عز وجل- منزلة من عنده حقًّا وصدقاً، وأنها متفقة في الدعوة إلى عبادة الله- عز وجل- وفي أصول الشرائع من الدعوة إلى الخير وفضائل الأعمال، والنهي عن الشر ومساوئ الأعمال.

وأن القرآن الكريم مصدق لجميع الكتب المنزلة قبله، ومهيمن عليها، وناسخ لها، فما وافقه من أحكامها قبلناه وما خالفه منها تركناه، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأنه كلام الله- عز وجل- حقاً المنزل على محمد ﷺ أخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي: وآمنوا وصدقوا برسله- عز وجل- من لدن آدم- عليه السلام- إلى نبينا محمد- عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، من قصهم الله- عز وجل- في كتابه، ومن لم يقصصهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

والرسول: هو من أوحى الله إليه بشرع، وأمره بتبليغه، وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً، ذكر في القرآن الكريم منهم خمسة وعشرون رسولاً.

منهم ثمانية عشر رسولاً ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

ومنهم إدريس، وذو الكفل، وهود، وصالح، وشعيب، ومنهم وأولهم آدم، ومنهم وآخرهم وخاتمهم وأفضلهم محمد- عليه وعليهم الصلاة والسلام.

قال البيجوري(١):

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**» قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير**». قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «**آدم**». قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: «**نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً**».

ثم قال: «**يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث، ونوح، وخنوخ، وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك**»(٢).

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ قرأ يعقوب بالياء «لا يُفَرِّق»، وقرأ الباقون بالنون ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾.

---

(١) انظر: «جوهرة التوحيد» (ص١٨٥).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٢٢-٤٢٦) من رواية ابن مردويه، ومن رواية الآجري. وأخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥-٢٦٦) بنحوه من حديث طويل عن أبي أمامة ﷺ. وفيه عدد الرسل ثلاث مئة وخمسة عشر جماً غفيراً.

والجملة في محل نصب مقول القول لفعل محذوف، أي: يقولون، وجملة الفعل المقدر «يقولون» في محل نصب على الحال.

وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم، للتنبيه إلى أن المؤمنين الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله، أي: لا نفرق بين أحد من رسله، بل نؤمن ونصدق بهم جميعاً، وبما جاؤوا به من عند الله، من الكتب والرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [النساء: ١٥٢].

وهذا بخلاف الذين قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النساء: ١٥٠].

ولم يذكر الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، وهي من أركان الإيمان وأصوله الستة؛ لأن الإيمان بها مما أنزله الله على نبيه ﷺ، ومما جاء في كتبه وعلى ألسنة رسله.

﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أي: وقال الرسول ﷺ والمؤمنون: ﴿سَمِعۡنَا﴾ أي: سمعنا ما أمرتنا به، وما نهيتنا عنه، بآذاننا، وفهمناه ووعيناه بقلوبنا.

﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أي: وانقدنا لذلك بجوارحنا، فعلاً للمأمورات، وتركاً للمحظورات، فجمعوا بين الإيمان والتصديق بالقلب واللسان، والانقياد بالجوارح. كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ [النور: ٥١]، وقال عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

بخلاف المكذبين من اليهود وغيرهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى محذراً المؤمنين منهم ومن مسلكهم: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: ٢١].

قال ابن تيمية في كلامه على قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾: «فهذا إقرار منهم

بركني الإيمان اللذين لا يقوم إلا بهما، وهما: السمع المتضمن للقبول، لا مجرد سمع الإدراك، المشترك بين المؤمنين والكفار، بل سمع الفهم والقبول. و«الثاني» الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر»(١).

﴿غُفْرَانَكَ﴾ مفعول لفعل محذوف، أي: نسألك غفرانك، أو نرجو غفرانك، والغفران والمغفرة: ستر الذنب، والتجاوز عنه.

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا. وحذفت ياء النداء اختصاراً، وتبركاً وتيمناً بالبداءة باسم الرب عز وجل.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ قُدِّم الخبر ﴿وَإِلَيْكَ﴾ لإفادة الحصر، أي: وإليك وحدك دون غيرك المرجع والمآل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

كما أن إليك وحدك مرجع الأمور والأحكام كلها في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠، آل عمران: ١٠٩، الأنفال: ٤٤، الحج: ٤١، ٧٦، فاطر: ٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ١٤١].

فجمعوا بين الإيمان والسمع والطاعة، وبين الخوف من ذنوبهم، والافتقار إلى الله، وسؤاله المغفرة، ولم يدلّوا على الله بعملهم، إذ لا غنى لأحد عن مغفرته- عز وجل- ورحمته، والاعتراف بأن مصيرهم ومردهم إليه.

ولهذا قال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقال ﷺ: «**لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٥١).

«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿لَا﴾ نافية، و﴿يُكَلِّفُ﴾ بمعنى يُلزم، والتكليف: الإلزام بما فيه كلفة، أي: مشقة.

و﴿نَفْسًا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لا يلزم الله أيَّ نفس ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها وما تستطيعه وما يسعها، بلا حرج ولا ضيق، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»(٢).

وهذه الآية مزيلة لما فهمه الصحابة- رضوان الله عليهم- من تكليفهم ما لا يطيقون بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فبين الله- عز وجل- في هذه الآية أنه لا يؤاخذ الإنسان ولا يكلفه بما لا يستطيع

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

دفعه من وسوسة النفس وحديثها.

عن ابن عباس ﷺ قال: «هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله- عز وجل- أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل»(١).

وفي رواية عنه ﷺ قال: «فَتُجوِّزَ لهم من حديث النفس، وأخذوا بالأعمال»(٢).

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ ذكر عز وجل أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ بياناً منه أن ثمرة هذا التكليف ومنفعته عائدة إليهم، وهو غني عنهم وعن أعمالهم.

أي: لها ما عملت من خير لا ينقص منه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: وعليها ما عملت من سوء لا يحمله غيرها، ولا يزاد فيه أو ينقص.

كما قال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧].

وقدم الخبر في الجملتين في قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ لتأكيد الحصر

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ١٣٢).

(٢) أخرجها أحمد (١/ ٣٣٢)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ١٣٣).

واختصاص كل نفس بجزاء عملها.

و«اكتسبت» أبلغ من «كسبت»؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالباً- على زيادة المعنى.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ هذه الجملة، وما عطف عليها إلى قوله: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في محل نصب مقول القول لفعل محذوف، تقديره: «قولوا»، أي: قولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ فهو تعليم من الله، وإرشاد لهم أن يدعوه بهذا الدعاء.

ويحتمل أن التقدير: «وقالوا ربنا» فيكون معطوفاً على الدعاء السابق: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ المؤاخذة مشتقة من الأخذ، بمعنى العقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، أي: إذا عاقب القرى وهي ظالمة إن عقابه أليم شديد.

﴿إِن نَّسِينَآ﴾ النسيان: ذهول القلب عن شيء معلوم.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ الخطأ: الوقوع في المخالفة من غير قصد، إما لجهل، أو غير ذلك.

والمعنى: ربنا لا تعاقبنا، إن تركنا واجباً، أو ارتكبنا منهياً نسياناً وذهولاً منا، أو خطأً وجهلاً منا، بلا قصد.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «**قال الله: نعم**». وفي حديث ابن عباس ﷺ: «**قال الله: قد فعلت**»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»(٢).

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، وكرر النداء تبركاً بهذا الاسم الكريم.

﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ما قبلها.

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) سيأتي تخريجه.

﴿إِصْرًا﴾ ثقلاً. و«الإصر» و«الإصار» في الأصل: ما تربط وتعقد وتشد به الأشياء.

والمراد به الشيء الثقيل الشاق الذي يعجز الإنسان عن تحمله من الأوامر والنواهي والتكاليف الشرعية.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

أي: وأخذتم على ذلكم عهدي بالإيمان بالرسول ونصرته. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كما يطلق «الإصر» على ما يعجز الإنسان عن تحمله من العقوبات والمصائب الكونية.

والمراد بقول المؤمنين هنا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ أي: ما نعجز عنه من التكاليف الشرعية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «أي: لا تكلفنا من الآصار التي يثقل حملها ما كلفته من قبلنا، فإنا أضعف أجساداً، وأقل احتمالاً، وهذا في الأمر والنهي والتكليف».

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿إِصْرًا﴾ ما يشمل التكاليف الشرعية، والعقوبات والمصائب الكونية.

﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ «الكاف»: للتشبيه، بمعنى: «مثل»، و«ما»: موصولة أي: مثل الذي حملته على الذين من قبلنا، من اليهود والنصارى وغيرهم، من الآصار والأغلال.

من ذلك أن الله جعل من شروط قبول توبة بني إسرائيل قتل أنفسهم، أي: قتل بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل يقتل أخاه وابنه وأباه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٥٣).

عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤].

ومن ذلك التشديد عليهم بصفات البقرة التي أمروا بذبحها؛ وذلك بسبب عنادهم ومخالفتهم أمر الله- عز وجل- وتشديدهم على أنفسهم، فشدد الله عليهم.

وقد وضع الله- عز وجل- هذه الآصار والأغلال عن هذه الأمة بما أنزله على نبي الرحمة نبينا محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولهذا قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(١).

والحكمة من قوله تعالى: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ تذكير الأمة بعظيم فضل الله عليها، وما ميزها به من بين الأمم، وبضدها تتميز الأشياء.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: لا تحملنا ما لا نطيقه، ولا قدرة لنا على تحمله من المصائب والأقدار الكونية ولا تبتلنا بما لا قبل لنا به، وعافنا من بلاء الدنيا والآخرة- كما قال ﷺ لأصحابه: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**»(٢).

قال ابن تيمية(٣): «ثم لما علموا أنهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم، كما أنهم غير منفكين عما يأمرهم به وينهاهم عنه سألوه التخفيف في قضائه وقدره، كما سألوه التخفيف في أمره ونهيه، فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ فهذا في القدر والقضاء والمصائب، وقولهم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ في الأمر والنهي والتكاليف. فسألوه التخفيف في النوعين».

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً (٦/ ١١٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٥٣).

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ ما يشمل الأحكام الكونية والأحكام الشرعية.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: تجاوز عما قصرنا وفرطنا فيه من الواجبات.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: تجاوز عما ارتكبنا من المنهيات.

وقد يكون المعنى ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: تجاوز عن ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استرها عن الخلق.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي: وارحمنا برحمتك الواسعة فيما يستقبل، فلا نُفَرِّط في الواجبات، أو نرتكب المحرمات، قال ابن زيد في قوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ قال: «اعف عنا إن قصرنا عن شيء من أمرك، مما أمرتنا به، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ إن انتهكنا شيئاً مما نهيتنا عنه، ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ قال: «يقول: لا ننال العمل بما أمرتنا به، ولا نترك ما نهيتنا عنه، إلا برحمتك. قال: ولم ينج أحد إلا برحمتك»(١).

قال ابن كثير(٢): «﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر. ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره».

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ كما بدؤوا دعاءهم بالتوسل بربوبية الله- عز وجل- لهم ختموه بالتوسل بولايته عز وجل لهم، فقالوا: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: أنت وحدك ولينا وناصرنا، لا مولى لنا سواك.

والمراد بالولاية هنا: الولاية الخاصة، وهي ولاية الله- عز وجل- للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ١٦٤- ١٦٥).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٥٠٦).

ولهذا قال ﷺ- كما حكى الله عنه: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ولما قال أبوسفيان يوم أحد: «لنا العزى، ولا عزى لكم» قال ﷺ لأصحابه: «**ألا تجيبونه**»؟ قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**»(١).

وهناك الولاية العامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ أي: فأظهرنا على أهل الكفر كلهم من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين وغيرهم، بإظهار ما نحن عليه من حق بالحجة والبرهان، والسيف والسنان.

ونعم المولى- عز وجل- ونعم النصير- لمن عبده، وتوكل عليه واعتصم به ولاذ بحماه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ١٥٠].

وتقدم في حديث أبي هريرة ﷺ أنه لما أنزل على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ الآية. اشتد ذلك على الصحابة ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ وجثوا على الركب- فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ قال: نعم. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: نعم»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) سبق تخريجه.

وفي حديث ابن عباس ﷺ فأنزل الله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ قال: قد فعلت»(١).

وقد روي عن معاذ بن جبل ﷺ أنه كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: «آمين»(٢).

وقد أعطى الله- عز وجل- هذه الأمة وتفضل عليها بما لم يعطه أحداً من الأمم قبلها، فلم يؤاخذها بالنسيان والخطأ، ووضع عنها الآصار والأغلال، التي كانت على الأمم قبلها، ولم يحملها ما لا طاقة لها به، وعفا عنها وغفر لها ورحمها ونصرها على الكافرين، وأيدها عليهم، ومكن لها دينها، واستخلفها في الأرض يوم أن كانت قائمة بأمر الله عز وجل.

وما أصاب الأمة ما أصابها من الضعف وتسلط الأعداء إلا بعد أن بعدت عن دينها، ولن يعود لها مجدها وعزها إلا بالعودة الصحيحة إلى دينها، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أن لله- عز وجل- وحده بلا شريك جميع ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وتفرده بالربوبية؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٢- وجوب إخلاص العبادة لله وحده؛ لأنه الإله المعبود وحده بحق، ولتفرده-

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوعبيد في «فضائل القرآن» ص(١٢٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٤٢٦)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ١٦٩).

عز وجل- بكمال الربوبية؛ الخلق والملك والتدبير، وهذا يستلزم إفراده بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٣- عموم ملك الله- عز وجل- وسعته وعظمته، مما يدل على عظمة ربوبية الله- عز وجل- وألوهيته، وكمال صفاته.

٤- اختيار القرآن الكريم لأحسن التعابير، وأعلاها؛ لقوله تعالى ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بذكر السموات بالجمع والأرض بالإفراد.

وهكذا جاء في القرآن كله- والحكمة- والله أعلم- للثقل في جمع أرض وهو «أرضين» وإلا فهي سبع أرضين، كما دلت عليه الأدلة الأخرى من الكتاب والسنة.

٥- إحاطة علم الله- عز وجل- بجميع أعمال العباد، ما أظهروه منها، وما أضمروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ أي: يعلمه ويحاسبكم عليه فمن لازم محاسبته لهم أن يكون عالماً بأعمالهم.

٦- وجوب مراقبة الله- عز وجل- والحذر من مخالفته في السر والعلن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ الآية. وهذه الآية محكمة غير منسوخة؛ لأنها خبر من الله، والأخبار لا تنسخ.

٧- محاسبة العباد على ما يبدون مما في أنفسهم أو يخفونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»(١).

أما ما أبدوه وأظهروه مما في أنفسهم بقول أو بفعل، فلا إشكال في محاسبتهم عليه.

وأما ما أخفوه فله حالان:

الحالة الأولى: أن يكون من حديث النفس ووساوسها التي لا يستطيع الإنسان لها

---

(١) ذكره الترمذي في صفة القيامة- حديث الكيس من دان نفسه- بعد الحديث (٢٤٥٩)، وأخرجه ابن أبي شيبة في الزهد- كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٨/ ١١٥)- حديث (٣٤٤٨).

دفعاً، بل هي خارجة عن الاستطاعة والوسع، فهذا لا يحاسب عليه، وإن حوسب عليه فلا يؤاخذ به، وليس داخلاً تحت قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ لأن الله لا يكلف الإنسان ما لا يستطيع، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «**وجدتموه**»؟ قال: «**ذاك صريح الإيمان**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ- عن الوسوسة. قال: «**تلك محض الإيمان**»(٢).

وفي حديث ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»(٣).

والحالة الثانية: أن يهم الإنسان بالمعصية، ويعزم عليها، ثم يتركها، وهذا هو المحاسب، والمثاب أو المعاقب.

فإن تركها لله- عز وجل- فهو مثاب مغفور له، كما في حديث ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همَّ بسيئة، فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة**»(٤).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «**وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرائي**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- باب الوسوسة من الإيمان (١٣٢)، وأبوداود في الأدب (٥١١١).
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٣).
(٣) أخرجه أبوداود في الأدب- رد الوسوسة (٥١١٢).
(٤) أخرجه البخاري في الرقاق- باب من هم بحسنة أو سيئة (٦٤٩١)، ومسلم في الإيمان (١٣١).
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٩).

وإن تركها لعجزه عنها، وعدم وصوله إليها، مع الحرص عليها، والعزم على فعلها وتمنيها، فهو معاقب بقدر ما وقع في نفسه، ما لم يعف الله عنه.

كما في حديث أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(١).

وكما في حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ في حديثه الطويل الذي سمعه من النبي ﷺ وفيه: «**وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً، ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء**»(٢).

وإن تركها لا لله، ولا لعجزه عنها، وإنما لعزوف نفسه عنها، فهذا لا يثاب ولا يعاقب؛ لأن الأعمال بالنيات كما قال ﷺ في حديث عمر بن الخطاب ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «**قال الله: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً**»(٤).

وفي رواية: «**قال الله: إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه، فإن**

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] (٣١)، ومسلم في الفتن- إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٦٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٢٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد- الدنيا سجن المؤمن (٢٣٢٥)، وابن ماجه في الزهد - النية (٤٢٢٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٢)، ومسلم في الإيمان (١٢٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٧٣)..

عملها كتبتها سيئة واحدة»(١).

وعلى هذا أيضاً يحمل ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم تكلم، أو تعمل**»(٢).

فهذا محمول على ما حدثت به الأنفس مما لم يحصل العزم عليه، فهذا لا مؤاخذة عليه، ما لم يتكلم به أو يعمل.

وبهذا يتضح أن الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ محكمة غير منسوخة، وأنها فيما هم به الإنسان وعزم عليه- كما سبق.

وليست في حديث النفس، فتكون منسوخة- كما قيل- بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ لأن حديث النفس لا يدخل تحت وسع الإنسان وطاقته فلا يرد التكليف به.

وما جاء من الأحاديث والآثار في نسخها(٣) فهو محمول على إزالة ما وقع في فهم بعض الصحابة ﷺ أن في الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ تكليف ما لا يطاق، وهو المؤاخذة بحديث النفس، فأنزل الله الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ لإزالة هذا المفهوم، وليس ذلك بنسخ للآية.

وأيضاً لبيان أن المحاسبة لا تستلزم المعاقبة، عن علي بن أبي طلحة- عن ابن عباس ﷺ ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ فإنها لم تنسخ، لكن إذا اجتمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله:

---

(١) أخرجها البخاري في التوحيد (٧٥٠١)، ومسلم في الإيمان (١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠٩)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٣)، والترمذي في الطلاق (١١٨٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٠).

(٣) سبق ذكر بعض هذه الأحاديث والآثار في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾ الآيتين. وانظر في ذكر هذه الآثار والخلاف في نسخ هذه الآية «جامع البيان» (٥/ ١٣٢- ١٣٤)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١١٨- ١٢٤).

﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ وهو قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، أي: من الشك والنفاق»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «فإن قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية. إنما تدل على أن الله يحاسب بما في النفوس، لا على أنه يعاقب على كل ما في النفوس».

وقال ابن القيم: «وللنسخ معنى آخر وهو النسخ من أفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يرده، ولا دل اللفظ عليه، وإن أوهمه، كما أطلق الصحابة النسخ على قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قالوا: نسخها قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فهذا نسخ من الفهم، لا نسخ للحكم الثابت، فإن المحاسبة لا تستلزم العقاب في الآخرة، ولا في الدنيا أيضاً، ولهذا عمهم بالمحاسبة، ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ففهم المؤاخذة التي هي المعاقبة من الآية تحميل لها فوق وسعها، فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾»(٣).

قال ابن كثير(٤): «أي: هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان».

٨- أن المحاسبة لا تستلزم المعاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٠٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٠١).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٧- ٢١٨).

(٤) في «تفسيره» (١/ ٥٠٨).

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾.

٩- مغفرة الله- عز وجل- لمن يشاء بفضله، ما دون الشرك، وتعذيبه من يشاء بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾.

١٠- إثبات المشيئة التامة لله- عز وجل- المقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾.

١١- إثبات قدرة الله- عز وجل- التامة على كل شيء، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وفي هذا رد على من أخرج شيئاً من المقدورات عن خلقه وقدرته كالفلاسفة والقدرية المجوسية وغيرهم.

١٢- ثناء الله- عز وجل- على الرسول ﷺ والمؤمنين، وشهادته- عز وجل- له ولهم بإيمانهم بما أنزل الله إليه، وبه وبملائكته وكتبه ورسله، وعدم تفريقهم بين أحد من رسله، وسمعهم وطاعتهم، وسؤالهم مغفرته وإقرارهم بأن إليه- عز وجل- وحده المصير؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية.

١٣- إثبات رسالته ﷺ، وأنه مكلف كغيره من أفراد الأمة، بالإيمان بما أنزل إليه من ربه، والعمل به، مع تبليغه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ وهذا يتضمن الشهادة له ﷺ بالإيمان وصدق الرسالة.

١٤- أن القرآن كلام الله- عز وجل- أنزله على رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٠].

وفي هذا كله رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

١٥- أن السنة منزلة من عند الله؛ لأن قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ يشمل القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣].

١٦- إثبات علو الله عز وجل؛ لأن الإنزال يكون من أعلى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ فله- عز وجل- علو الذات، وعلو الصفات.

١٧- تشريف الرسول ﷺ- وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره، وربوبيته- عز وجل- له الربوبية الخاصة، بل خاصة الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾.

١٨- أن من شرط صحة الإيمان متابعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: والمؤمنون آمنوا اتباعاً له ﷺ، وقد قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»(١).

١٩- وجوب الإيمان بالله، وبما أنزل على رسوله ﷺ، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وبكل ما أخبر الله- عز وجل- به في كتبه، وعلى ألسنة رسله، ومن ذلك الإيمان باليوم الآخر، والقدر وغير ذلك من الغيبيات؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٢٠- تشريف الله- عز وجل- لملائكته وكتبه ورسله بإضافتهم إليه- عز وجل- بقوله ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٢١- لا يجوز التفريق في الإيمان بين أحد من رسل الله- عز وجل- بل يجب الإيمان بهم جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ ومن فرق بينهم فليس بمؤمن، بل هو كافر.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

٢٢- أن من صفات المؤمنين حقاً السمع والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا

---

(١) أخرجه المقدسي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد. قال النووي: «حديث رويناه في الحجة بإسناد صحيح». وقال في «فتح المجيد»: «رواه الطبراني وأبوبكر بن عاصم، والحافظ أبونعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار». انظر: «فتح المجيد» ص(٣٣١- ٣٣٢).

﴿وَأَطَعْنَا﴾ فجمعوا بين التصديق بالقلب واللسان، والانقياد بالجوارح، بين الإيمان الظاهر والباطن.

٢٣- جمع المؤمنين حقاً بين الإحسان بالإيمان والعمل الصالح، وبين الخوف من الله- عز وجل- وطلب مغفرته والافتقار إليه؛ لقولهم: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين، وتوسلهم بها بقولهم: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾.

٢٥- إثبات أن إلى الله- عز وجل- وحده المصير والمرجع يوم القيامة، كما أن إليه- عز وجل- مرجع الأمور والأحكام كلها في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٢٦- رحمة الله- عز وجل- بعباده، حيث لا يكلف نفساً فوق وسعها وطاقتها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية (٢٨٤) من هذه السورة، وتقدم بيان أن هذه الآية محكمة؛ لأنها خبر، والأخبار لا تنسخ، وإنما غاية ما في ذلك أن بعض الصحابة فهموا من الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ الآية محاسبتهم على حديث النفس، مما لا يستطيع الإنسان له دفعاً. فنسخ الله- عز وجل- وأزال هذا المفهوم بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾(١).

٢٧- سماحة الدين الإسلامي، ويسر أحكامه ومراعاته أحوال المكلفين، فلا يوجب على المريض ما يوجبه على الصحيح، ولا يوجب على المسافر ما يوجبه على المقيم، ولا يوجب على العاجز ما يوجبه على القادر، وهكذا.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥٠، ٢٥٢).

٢٨- إثبات وتقرير القاعدة الشرعية: أنه لا واجب مع العجز؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فإذا عجز الإنسان عن الواجب وليس له بدل سقط عنه، فمثلاً الحج واجب، بل ركن من أركان الإسلام على المستطيع، فإذا عجز الإنسان عن الحج ببدنه وماله سقط عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وإن كان الواجب له بدل وجب الانتقال إلى بدله، فإن عجز عن بدله سقط، فمثلاً كفارة الجماع في نهار رمضان عتق رقبة، فإذا لم يجد، فعليه صيام شهرين متتابعين، فإذا لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكيناً، فإن لم يستطع سقطت؛ لما رواه أبوهريرة رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ، إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: «**مالك**»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: «**هل تجد رقبة تعتقها**»؟ قال: لا. قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين**»؟ قال: لا. قال: «**فهل تجد إطعام ستين مسكيناً**»؟ قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ، فبينما نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيه تمر- والعَرَق: المكتل، قال: «**أين السائل**»؟ فقال: أنا. قال: «**خذ هذا فتصدق به**» فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها- يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «**أطعمه لأهلك**»(١).

٢٩- إثبات وتقرير القاعدة الشرعية «أنه لا محرم مع الضرورة، وأن الضرورات تبيح المحظورات»، فالميتة مثلاً محرمة، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، لكنها تباح عند الضرورة كما إذا لم يجد الإنسان ما يسد به رمقه غيرها، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

٣٠- إثبات الاختيار للإنسان فيما يفعل ويكتسب، وأنه ليس مجبوراً على فعله؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٦)، ومسلم في الصيام (١١١١)، وأبوداود في الصوم (٢٣٩٠)، والترمذي في الصوم (٧٢٤)، وابن ماجه في الصيام (١٦٧١).

تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن لا اختيار للإنسان(١).

٣١- أن منفعة التكليف وثمرته للمكلفين، رحمة من الله لهم، وهو سبحانه غني عنهم وعن كسبهم وأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾.

٣٢- أن لكل نفس ثواب وجزاء عملها لا ينقص منه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩].

ومن ذلك ما كان الإنسان سبباً في كسبه وسعيه كدعاء ولده له ونحو ذلك؛ لأن ولده من كسبه، كما قال ﷺ: «**وإن أولادكم من كسبكم**»(٢).

ولهذا قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٣).

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء**»(٤).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»(٥).

كما أن دعاء المسلمين له وتصدقهم عنه داخل ضمن ما كان هو سبباً فيه؛ لأنه

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٢٨)، والنسائي في البيوع (٤٤٤٩)، والترمذي في الأحكام (١٣٥٨)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٧)، وأحمد (٦/ ٣١)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه مسلم في الوصية- ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٨٠)، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في العلم (١٠٨٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)..

(٥) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأبوداود في السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤)، وأحمد (٢/ ٣٨٠، ٣٩٧).

بإيمانه صار منهم، فشمله دعاؤهم وصدقاتهم.

٣٣- أن على كل نفس ما عملت من سوء وشر، ولا تحمل نفس وزر أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، لكن الإنسان يؤاخذ بما كان سبباً في فعله، كما قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء**»(١).

٣٤- أن كسب الخير غنم للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وأن اكتساب الشر غرم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فمعتق نفسه أو موبقها**»(٢).

٣٥- كمال عدل الله- عز وجل- حيث يحاسب كل نفس بما كسبت.

٣٦- الترغيب بكسب الحسنات، والترهيب من اكتساب السيئات.

٣٧- الرد على الخوارج ومن تبعهم القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ولم يجعل اكتسابه مبطلاً لكسبه- كما يقولون(٣).

٣٨- أن من أعظم ما يتوسل به في الدعاء من صفات الله- عز وجل- الربوبية؛ لهذا توسل المؤمنون بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ في ثلاثة مواضع في هذه الآية، وهكذا كان جل دعاء الرسل عليهم السلام وأتباعهم بالتوسل بها.

٣٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

٤٠- إرشاد الله عز وجل للمؤمنين للدعاء بهذه الدعوات الجامعة واستجابته لهم؛ لقوله

---

(١) هذا بقية حديث جرير بن عبدالله- وقد سبق تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٥٣).

تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

ولهذا قال عز وجل كما في حديث ابن عباس ﷺ: «**قد فعلت**» وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «**نعم**».

٤١- عدم المؤاخذة والمعاقبة في النسيان والخطأ والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وفي حديث ابن عباس ﷺ قال- عز وجل: «**قد فعلت**»، وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: «**نعم**».

فإذا ترك الإنسان واجباً أو ارتكب محظوراً نسياناً أو خطأ أو جهلاً فلا عقوبة عليه ولا إثم. وفي الحديث: «**إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»(١).

فإن كان النسيان أو الخطأ والجهل في ارتكاب محظور فلا عقوبة عليه ولا تبعة، ولهذا قال ﷺ: «**من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه**»(٢).

ومثل هذا لو ارتكب الإنسان أي محظور كان، ناسياً أو مخطئاً وجاهلاً، كمحظورات الإحرام وغيرها فلا شيء عليه.

وإن كان النسيان أو الخطأ والجهل في ترك واجب فلا عقوبة عليه، لكن عليه فعل هذا الواجب ما دام في وقته، أو قضاؤه؛ لقوله ﷺ: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك**»(٣).

ولأنه ﷺ لم يعذر المسيء في صلاته لجهله، بل قال له عدة مرات: «**ارجع فصل**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٣)، ومسلم في الصيام- أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر (١١١٥)، وأبوداود في الصوم (٢٣٩٨)، والترمذي في الصوم (٧٢١)، وابن ماجه في الصيام (١٦٧٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- من نسي صلاة فليصلها (٥٩٧)، ومسلم في المساجد- قضاء الصلاة الفائتة (٦٨٤)، وأبوداود في الصلاة (٤٤٢)، والنسائي في المواقيت (٦١٤)، والترمذي في الصلاة (١٧٨)، وابن ماجه في الصلاة (٦٩٥)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

فإنك لم تصل»[١].

فإن فات وقت الواجب، ولا يمكن قضاؤه لزم تقديم فديته إن كان له فدية، كمن ترك المبيت بمزدلفة، أو بمنى، أو رمي الجمار- وفات وقته لزمته الفدية.

أما حقوق الخلق فإنها لا تسقط بالنسيان والخطأ والجهل.

كما يلزم أيضاً في قتل الخطأ دفع الكفارة حقاً لله عز وجل.

٤٢- فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة المحمدية برفع الآصار والأغلال عنها، وعدم تحميلها ما لا تطيق من الأحكام الكونية والشرعية، فلم يؤاخذهم بحديث النفس، والنسيان، والخطأ، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ**﴾.

وفي الحديث القدسي: «**قال الله: قد فعلت**»، وفي لفظ: «**قال: نعم**»[٢].

٤٣- تكليف من قبلنا من الأمم- وبخاصة أهل الكتاب بالآصار والأغلال والتكاليف الثقيلة؛ بسبب تكذيبهم وعنادهم وتشديدهم على أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿**كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ**﴾.

٤٤- تميز الأشياء بضدها، فبمقارنة ما خص الله به هذه الأمة من التيسير والتخفيف بما حمله على من قبلها من الآصار والأغلال يظهر عظم فضل الله عليها؛ ولهذا قال: ﴿**كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ**﴾.

٤٥- ينبغي سؤال الله- عز وجل- العافية، وأن لا يحملنا ما لا طاقة لنا به؛ لقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ**﴾ فالعافية لا يعدلها شيء.

وقد قال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**»[١].

٤٦- ينبغي سؤال الله- عز وجل- العفو والتجاوز عما يحصل منا من تقصير وتفريط

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- وجوب القراءة للإمام والمأموم (٧٥٧)، ومسلم في الصلاة- وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧)، وأبوداود في الصلاة (٨٥٦)، والنسائي في الافتتاح (٨٨٤)، والترمذي في الصلاة (٣٠٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

بحقوقه- عز وجل- وسؤاله المغفرة والتجاوز عما اقترفناه من الذنوب، وأن يرحمنا برحمته الواسعة، فيما يستقبل، فيحفظنا من التفريط في حقه، ومن المعاصي والذنوب.

٤٧- ضعف الإنسان وشدة حاجته إلى ربه في أمور دينه ودنياه، فطاقته وقدرته محدودة، وهو معرّض للنسيان والخطأ والجهل، وهو أحوج ما يكون إلى عفو الله- عز وجل- عن تقصيره، ومغفرته لذنوبه، ورحمته له، مما يوجب عليه التعلق بربه، والالتجاء إليه على الدوام.

٤٨- إثبات ولاية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين، وأنه لا مولى لهم سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَـٰنَا﴾.

٤٩- جمع المؤمنين بين التوسل بربوبية الله- عز وجل- لهم في أول دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، والتوسل بولايته لهم في آخر دعائهم بقولهم: ﴿أَنتَ مَوْلَـٰنَا﴾ وهذا من أعظم أسباب الاستجابة.

٥٠- يجب على المؤمنين الاستعانة بالله، وطلب النصر منه على الكافرين، مع بذل الأسباب بالجهاد بالحجة والقلم واللسان، والسيف والسنان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

٥١- فضل أمة محمد ﷺ على الأمم قبلها حيث خصها الله بالحنيفية السمحة ورفع عنها الآصار والأغلال التي كانت على الأمم قبلها، وعفا عنها، وغفر لها، ورحمها، ونصرها.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة البقرة [الآيات ١٦٨ -٢٨٦] ٥

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ...﴾ الآيات [١٦٨-١٧١]. ٧

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ...﴾ الآيات [١٧٢-١٧٦]. ٢٠

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ...﴾ الآية [١٧٧]. ٣٨

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ...﴾ الآيتين [١٧٨، ١٧٩] ٥١

تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ ...﴾ الآيات [١٨٠-١٨٢]. ٦٢

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ...﴾ الآيات [١٨٣-١٨٦]. ٧٣

تفسير قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ...﴾ الآية [١٨٧]. ... ١٠٠

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ...﴾ الآية [١٨٨]. ١١٥

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ ...﴾ الآية [١٨٩]. ١١٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ...﴾ الآيات [١٩٠-١٩٥]. ١٢٤

تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ ...﴾ الآية [١٩٦]. ١٤٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ ...﴾ الآيات [١٩٧-٢٠٣]. ١٦٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ...﴾ الآيات [٢٠٤-٢٠٧]. ١٩٣

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ...﴾ الآيات [٢٠٨-٢١٠]. ٢٠٥

تفسير قوله تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ ...﴾ الآيات [٢١١-٢١٤]. ٢١٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ ...﴾ الآية [٢١٥]..... ٢٣٥

تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ...﴾ الآية [٢١٦]..... ٢٤٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ ...﴾ الآيتين [٢١٧، ٢١٨]. ٢٤٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ...﴾ الآيتين [٢١٩، ٢٢٠] ٢٦٧

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ ...﴾ الآية [٢٢١]..... ٢٨٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى ...﴾ الآيتين [٢٢٢، ٢٢٣] ٢٨٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ...﴾ الآيتين [٢٢٤، ٢٢٥]. ٣٠١

تفسير قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ ...﴾ الآيتين [٢٢٦، ٢٢٧]. ٣٠٨

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ...﴾ الآية [٢٢٨]. ... ٣١٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ...﴾ الآيتين [٢٢٩، ٢٣٠]. ٣٢٥

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ ...﴾ الآية

[٢٣١]. ٣٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ...﴾ الآية [٢٣٢]. ٣٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ...﴾ الآية [٢٣٣].
..... ٣٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ...﴾ الآية [٢٣٤]. ٣٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآية [٢٣٥].
..... ٣٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ...﴾ الآيتين [٢٣٦، ٢٣٧]. ٣٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ...﴾ الآيتين [٢٣٨، ٢٣٩]. ٣٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ...﴾ الآيات [٢٤٠-٢٤٢]. ٣٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ ...﴾ الآيات [٢٤٣-٢٤٥]. ٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ...﴾ الآيات [٢٤٦-٢٥٣]. ٤١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ...﴾ الآيات [٢٥٤-٢٥٧]. ٤٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ...﴾ الآيات [٢٥٨-٢٦٠]. ٤٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٢٦١-

٢٦٦]. ٤٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ...﴾ الآيات [٢٦٧-٢٧٣]. ٥١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ...﴾ الآيات [٢٧٤-٢٨١]. ٥٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ ...﴾ الآيتين [٢٨٢، ٢٨٣]. ٥٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ...﴾ الآيات [٢٨٤-٢٨٦]. ٥٨٩
فهرس الموضوعات ٦٢٥

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146

9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الرابع

تفسير سورة آل عمران

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٤

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٧٢٦ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

المقدمة

أ -اسم السورة:

سميت السورة «سورة آل عمران»؛ لورود قصة آل عمران فيها بشيء من التفصيل لا يوجد في غيرها وتسمى: «الزهراء»، كما في حديث أبي أمامة: «**اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما يحاجان عن صاحبهما يوم القيامة**»(١).

ب -مكان نزولها:

نزلت سورة آل عمران في المدينة، فهي مدنية بالإجماع.

جـ -فضلها:

وردت عدة أحاديث وآثار في فضل سورة آل عمران منها ما يلي:

عن النواس بن سمعان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة، وبأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران**»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «**كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شَرَق، أي: ضوء، أو كأنهما فِرْقَانِ،- أي: قطعتان- من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**»(١).

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما**»(١).

د -موضوعاتها:

تناولت سورة آل عمران في مجمل قضاياها الجوانب التالية:

أولًا: إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وإقامة الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على ذلك، وإثبات أن الدين الحق الذي لا يقبل من أحد

---

(١) سبق تخريجه.

سواه هو دين الإسلام، الذي ارتضاه الله وبعث به محمدًا ﷺ.

ثانيًا: تفصيل الكلام في أحوال أهل الكتاب؛ لبيان حقيقتهم، وتحذير الأمة منهم ومن مسالكهم وشرورهم، وقد قال المفسرون: إن صدر هذه السورة إلى نحو نيف وثمانين نزل في مناظرة وفد نجران للنبي ﷺ في شأن عيسى- عليه السلام- وكان ﷺ يرد عليهم بالحجة والبرهان إلى أن آل أمرهم إلى دعوتهم للمباهلة.

وقد بيَّنت السورة كفرهم وعدم إسلامهم، وذمتهم بقتلهم الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس، واختلافهم، ونبذهم كتاب الله، ومجادلتهم بالباطل، وسوء أدبهم مع الله، ونقضهم العهود والمواثيق، وكتمانهم الحق، ولبسهم الحق بالباطل، وكفرهم بآيات الله، واشتراءهم بها ثمنًا قليلًا.

ومن ثم توبيخهم وتوعدهم بالعذاب الأليم، وتحذير المؤمنين من طاعتهم، وحثهم على الصبر على أذاهم وشرورهم.

كما امتدحت السورة من آمن منهم وأثنت عليهم، وأنهم ليسوا سواء، فمنهم المؤمنون الذين يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل إليهم خاشعين لله قائمين بعبادته، كما قال تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الآية: ١١٠].

كما تحدثت السورة في بعض آياتها عن المشركين والمنافقين من غير إطالة.

ثالثًا: ذكر أحداث غزوة أحد، وتفصيل الكلام عنها، فكان نحو ستين آية من النصف الثاني من هذه السورة في أعقاب غزوة بدر من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الآية: ١٢١]، بدءًا من تهئه ﷺ لها، وخروجه إليها بأصحابه، وما حصل فيها من نصر، أعقبه الفشل والتنازع وانصرافهم عن عدوهم، ومن ثم عفو الله عنهم وتفضله عليهم، إلى غير ذلك وما يؤخذ من ذلك من العظات والعبر.

رابعًا: تربية الأمة وتوجيهها إلى ما فيها سعادتها في دينها ودنياها وأخراها، والنصر على أعدائها، والفوز بالجنة والنجاة من النار: من الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإيمان، والاعتصام بحبل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقتال في سبيل الله والصبر والمصابرة والمرابطة، وغير ذلك.

والحذر من الفرقة والاختلاف، ومن طاعة الكفار من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين، أو التشبه بهم ونحو ذلك.

وفيما يلي تفصيل لمجمل موضوعات السورة:

١- افتتح الله- عز وجل- سورة آل عمران بقوله: ﴿الٓمٓ﴾ كسورة البقرة. والافتتاح بهذا أو بغيره من الحروف المقطعة مشعر بالتحدي بالقرآن.

وكان أول موضوعاتها إثبات الإلهية لله تعالى وحده ونفيها عما سواه، وإثبات كمال حياته وقيوميته، والامتنان بإنزال القرآن على النبي ﷺ بالحق مصدقًا لما بين يديه، وإنزال التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وإنزال الفرقان، وتوعد الذين كفروا بآيات الله بالعذاب الشديد والانتقام.

٢- ثم أتبع ذلك ببيان سعة علمه- عز وجل- واطلاعه وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، مبينًا من مظاهر علمه- عز وجل- تصويرهم في الأرحام كيف يشاء بعزته وقدرته وحكمته.

٣- تكرار امتنانه- عز وجل- بإنزال القرآن، والتنويه بشأنه وتعظيمه، وبيان أن منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، وبيان اتباع أهل الزيغ ما تشابه منه؛ لأجل الفتنة في الدين وتحريف القرآن، وبيان أن تأويله لا يعلمه إلا الله. وإيمان الراسخين في العلم به، وأنه كله من عند الله، ودعائهم بثبات قلوبهم وسؤالهم رحمة الله وإقرارهم بجمع الله- عز وجل- للناس يوم القيامة، وشهادتهم بصدق وعده عز وجل.

٤- وعيد الذين كفروا، وبيان أنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وأنهم وقود النار، وأن مسلكهم في الكفر والتكذيب كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم بعقابه الشديد، وتأكيد الوعيد والتهديد لكفار قومه ﷺ، بأنهم سيغلبون في الدنيا ويحشرون إلى جهنم في الآخرة، وتوجيههم لأخذ العبرة والعظة مما حصل لهم ولقرنائهم في الكفر من الهزيمة في بدر.

٥- بيان ما جبل الناس عليه من حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والأموال والخيل المسومة والأنعام والحرث، وبيان أن ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده

حسن المآب، وخير من ذلك ما أعد للذين اتقوا عند ربهم من جنات فيها ألوان النعيم خالدين فيها، وأزواج مطهرة ورضوان من الله.

٦- ثم أثنى عز وجل على المؤمنين ونوَّه بذكر صفاتهم الحميدة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [الآيتان: ١٦، ١٧].

٧- ثم ذكر شهادته سبحانه على وحدانيته وشهادة ملائكته وأولوا العلم على ذلك، وأنه لا إله إلا هو قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

٨- بيان أن الدين عند الله الإسلام، وهو دينه ﷺ ودين من اتبعه، فمن أسلم من أهل الكتاب والأميين فقد اهتدىٰ، ومن تولىٰ فإنما عليه ﷺ البلاغ، والله بصير بالعباد.

٩- ثم انتقلت السورة للتنديد بأهل الكتاب وذكر صفاتهم القبيحة من الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، وقتل الآمرين بالقسط من الناس، وبشارتهم بالعذاب الأليم، وبيان حبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة، وذكر إعراض فريق منهم عن كتاب الله تعالى، وقولهم الباطل أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات، واغترارهم بهذا، وتوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٢٥].

١٠- ثم بيَّن- عز وجل- عموم ملكه وسعته، وكمال تصرفه وتدبيره، وأنه سبحانه يؤتي الملك مَن يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز مَن يشاء، ويذل مَن يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق مَن يشاء بغير حساب.

١١- ثم نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذم فعل ذلك بأنه ليس من الله في شيء إلا في حال التقاة منهم، وحذر المؤمنين نفسه، فإليه المصير.

وأكد علمه بما يخفون في صدورهم وما يبدونه، وعموم علمه ما في السموات والأرض، وقدرته على كل شيء، ورغب في الاستعداد ليوم الجزاء، يوم تجد كل نفس ما عملت، وأكد تحذيرهم نفسه، وبيَّن أن محبة الله تعالى تكون في اتباعه ﷺ، وبذلك يحبهم الله ويغفر لهم، وأمر بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول، وحذر من التولي.

١٢- ثم ذكر عز وجل اصطفاءه لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، والثناء عليهم، وذكر نذر امرأة عمران لربها ما في بطنها محررًا لخدمة بيت المقدس، وسؤالها ربها أن يتقبل منها، وكانت تتوقع أن يكون ما في بطنها ذكرًا؛ ولهذا لما وضعتها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾، وقالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾؛ لأن الذكر أقدر على الخدمة في بيت المقدس. وأعاذتها بالله وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكَفَّلَها زكريا وأدر عليها الأرزاق.

١٣- دعاء زكريا- عليه السلام- ربه بأن يهبه ذرية طيبة، ونداء الملائكة له وهو قائم يصلي في المحراب ببشارة الله تعالى له بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين، وتعجبه- عليه السلام- من أن يكون له غلام وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر، وبيان أنه تعالى يفعل ما يشاء، وسؤاله- عليه السلام- آية على ذلك، وإجابته بقوله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [الآية: ٤١].

١٤- بيان فضل مريم- عليها السلام- واصطفاء الله تعالى لها، وتطهيرها، واصطفائها على نساء العالمين ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٤٢].

وأمرها بالقنوت لربها والسجود والركوع مع الراكعين، والإشارة إلى أن ما ذكره سبحانه من اصطفائه لمن ذكروا من أنباء الغيب التي يوحيها عز وجل إلى رسوله ﷺ.

وبشارة الملائكة لمريم بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وثناؤهم عليه، وتعجبها من أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر، وقوله- عز وجل- لها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الآية: ٤٧].

١٥- امتنان الله تعالى على عيسى- عليه السلام- بتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وبعثه رسولًا إلى بني إسرائيل، وتأييده بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكونه مصدقًا لما بين يديه من التوراة؛ وليحل لهم بعض الذي حُرم عليهم،

وأمره لهم بتقوى الله وطاعته، وعبادة الله تعالى.

وقوله- عليه السلام- لما أحس منهم الكفر: من أنصاري إلى الله، وإجابة الحواريين له بقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ٥٢]، وتوجههم إلى ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الآية: ٥٣].

وحفظه- عز وجل- لعيسى من مكر الماكرين، وإخبار الله تعالى وبشارته له بأنه متوفيه ورافعه إليه، ومطهره من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ومعذب الذين كفروا عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة، وموفّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجورهم.

وبيان الآية العظيمة في خلقه- عليه السلام- من أم بلا أب، وأن مثل عيسى عند الله في خلقه من أم بلا أب كمثل آدم خلقه من تراب، بلا أم ولا أب، وأن هذا هو الحق في شأن عيسى- عليه السلام- الذي لا مرية فيه.

وأمره ﷺ بمباهلة من حاجَّه في ذلك، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ [الآيات: ٥٨-٦١]، وبيان أن هذا لهو القصص الحق، ونفي إلهية غير الله- عز وجل- العزيز الحكيم، ووعيد من تولى، وبيان علمه بالمفسدين.

١٦- أمره ﷺ بدعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء بينه وبينهم بالاجتماع على عبادة الله تعالى وحده دون شريك، وعدم اتخاذ أرباب من دونه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: ٦٤].

١٧- تقريع أهل الكتاب وتوبيخهم، وتسفيه عقولهم في محاجتهم في إبراهيم وقولهم: إنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، علمًا أن التوراة والإنجيل ما أنزلت إلا من بعده، ومحاجتهم فيما ليس لهم به علم وبيان أنه- عز وجل- يعلم وهم لا يعلمون، والرد عليهم بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الآية: ٦٧]، وبيان أن الذين هم أولى بإبراهيم هم الذين اتبعوه، وهذا النبي- يعني: محمدًا ﷺ والذين آمنوا والله ولي المؤمنين.

ثم بيَّن مودة طائفة من أهل الكتاب أن يُضلوا المؤمنين، وهم إنما يُضلون أنفسهم وما يشعرون، ووبخهم على الكفر بآيات الله وهم يشهدون، وعلى لبسهم الحق بالباطل وكتمان الحق وهم يعلمون، وبيّن مخادعتهم بقولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [الآية: ٧٢]، وتعصبهم لما هم عليه من الباطل، وزعمهم أنه لن يؤتى أحد مثل ما أوتوا، وحسدهم، والرد عليهم ببيان أن الهدى هدى الله، والفضل بيده يؤتيه من يشاء ويختص برحمته من يشاء.

ثم أتبع ذلك ببيان أن منهم الأمين الذي لو ائتمن على مال كثير أدَّاه، ومنهم مَن لو ائتمن على أقل القليل لم يؤده إلا حال قيام صاحب الحق عليه، وزعمهم أنه ليس عليهم في ظلم الأميين سبيل، أي: حرج، وقولهم الكذب على الله وهم يعلمون. وتفنيد زعمهم فضلهم على الناس، وبيان أن الفضل بالتقوى والله يحب المتقين، وذمهم باشترائهم بآيات الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، وتوعدهم بأنه لا نصيب لهم في الآخرة: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الآية: ٧٧].

ثم بيَّن أن منهم فريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب؛ ليحسبه الناس من الكتاب المنزل عليهم وما هو من الكتاب، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٧٨].

ونفى أن يكون لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يدعو الناس إلى عبادته من دون الله، ولكن يدعوهم إلى عبادة ربهم، ونفى أن يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا، فيأمرهم بالكفر بعد إذ كانوا مسلمين.

١٨- التذكير بأخذه- عز وجل- الميثاق على النبيين بما آتاهم من كتاب وحكمة بالإيمان بمحمد ﷺ، المصدق لما معهم، ونصره، وإقرارهم على ذلك، وأخذ العهد عليهم، وشهادة الله تعالى عليهم بذلك، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم

الفاسقون، والإنكار والتقريع لمن ابتغى غير دين الله الإسلام الذي بعث به محمدًا ﷺ. وأمر الله- عز وجل- له ﷺ أن يقول: آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على الرسل، وما أوتي النبيون من ربهم، وعدم التفريق بينهم، وبيان أن من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

١٩- استبعاد هداية من كفروا بعد إيمانهم، وبعد شهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البينات إليهم، وبيان أن الله لا يهدي القوم الظالمين، وتوعدهم بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والخلود فيها وفي النار إلا من تاب منهم، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الآيتان: ٨٨، ٨٩].

وبيان عدم قبول توبة من كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفرًا، وتأكيد أنهم هم الضالون، وتأكيد عدم قبول الفدية مهما عظمت ممن كفروا وماتوا على الكفر، وتوعدهم بالعذاب الأليم، وما لهم من ناصرين.

٢٠- الترغيب في الإنفاق،وبيان أن البر لا ينال إلا بالإنفاق من المحبوب، وبيان علمه- عز وجل- بما ينفقون، ومجازاتهم على ذلك.

٢١- بيان أن الطعام كله كان حلالًا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وتحدي أهل الكتاب بالإتيان بالتوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين في دعواهم أن ما كان محرمًا في التوراة كان محرمًا قبل نزولها، وإنكارهم النسخ في الشرائع، والتحذير من افتراء الكذب على الله من بعد ذلك، وتأكيد أنهم هم الظالمون.

وأمره- عز وجل- له ﷺ أن يقول: ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الآية: ٩٥]، أي: صدق الله فيما أخبر به عن حل الطعام كله لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه قبل تنزيل التوراة، وصدق عز وجل في كل خبره وقوله وحديثه.

٢٢- بيان أن أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى للذي ببكة، أي: البيت الحرام، وتعظيمه، وبيان ما فيه من الآيات البينات مقام إبراهيم، ووجوب تأمين من

دخله، وفرض الحج بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٩٧].

٢٣- ثم عادت السورة إلى تقريع أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيل الله، وابتغائهم لها العوج، وهم شهداء، وتهديدهم بأن الله شهيد على عملهم، وليس بغافل عنه، وتحذير المؤمنين من طاعتهم فيردوهم بعد إيمانهم كافرين، وتيئيس أهل الكتاب من كفر المؤمنين، وهم تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله.

٢٤- ترغيب المؤمنين بالاعتصام بالله، وأمرهم بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام حتى الممات، والاعتصام بحبل الله، ونهيهم عن التفرق، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم، فصاروا بنعمته إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها، وأمرهم بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وترغيبهم بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية: ١٠٤]، ونهيهم أن يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وتحذيرهم بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٠٥].

وتأكيد ذلك بالترغيب والترهيب بذكر اختلاف الوجوه يوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الآيات: ١٠٦-١٠٩].

والثناء على هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبيان أن أهل الكتاب لو آمنوا لكان خيرًا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون.

٢٥- طمأنة المؤمنين بأن أهل الكتاب لن يضروهم إلا أذى، وأنهم إن يقاتلوهم يولوهم الأدبار، ثم لا ينصرون، وأن الذلة ضربت عليهم أينما وجدوا، وباؤوا

بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة، بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانهم واعتدائهم، وبيان أن أهل الكتاب ليسوا سواء، وأن منهم: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الآيات: ١١٣-١١٥].

٢٦- بيان أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، وتأكيد أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، وأن نفقاتهم في هذه الحياة الدنيا لا تنفعهم، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١١٧].

٢٧- نهي المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دونهم لا يألونهم خبالًا، يودون لهم المشقة، ويبغضونهم ولا يحبونهم، يُظهرون لهم الإيمان إذا لقوهم، مع ما يحملونه في قلوبهم إذا خلوا من الغيظ عليهم، إن أصاب المؤمنين حسنة ساءهم ذلك، وإن أصاب المؤمنين سيئة فرحوا بها، وبشارة المؤمنين أنهم إن صبروا واتقوا فلن يضرهم كيد أولئك شيئًا؛ لأن الله بما يعملون محيط.

٢٨- تذكير النبي ﷺ بخروجه لغزوة أحد يبوأ المؤمنين مقاعد للقتال، وما حصل من هَمِّ طائفتين منهم أن تفشلا، وتذكيرهم بما تم لهم من نصر في غزوة بدر مع قلتهم، وأمرهم بتقوى الله وشكره، وقوله ﷺ للمؤمنين: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [الآية: ١٢٤]، ووعدهم إن صبروا واتقوا بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وبيان أن الوعد بالإمداد إنما هو بشرى لهم، وتطمئن قلوبهم به، وأن النصر إنما هو من عند الله العزيز الحكيم. وبيان أنه ﷺ ليس له من أمر هؤلاء الظالمين شيء فقد يتوب الله عليهم أو يعذبهم بظلمهم، فله عز وجل الأمر كله، وله وحده ما في السموات وما في الأرض، وله التصرف في ذلك كله، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء وهو الغفور الرحيم.

٢٩- تحذير المؤمنين من أكل الربا، وأمرهم بتقوى الله ليفلحوا، وتقوى النار التي أعدت للكافرين، وأمرهم بطاعة الله والرسول؛ لكي يرحموا، والمسارعة إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، والثناء عليهم بذكر صفاتهم، من: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس والإحسان إليهم، وذكر الله تعالى والاستغفار من الذنوب، وعدم الإصرار عليها، ثم وعدهم بتحقيق ما سارعوا إليه، وهو مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين.

وتوجيههم للسير في الأرض، والنظر في سنن الله تعالى في المكذبين، وكيف كانت عاقبتهم.

وإعلان أن القرآن بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، وتقوية قلوبهم، ونهيهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين.

وبيان أن ما أصابهم من قرح يوم أحد قد أصاب عدوهم قرح مثله يوم بدر، والأيام دول؛ وليظهر في علم الله الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء، وليمحص الله المؤمنين ويمحق الكافرين، وبيان أن دخول الجنة يقتضي الابتلاء؛ ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين.

٣٠- بيان أن الرسول سيمضي كما مضى من قبله الرسل، وتحذيرهم من الردة بعد موته أو قبله، وأن الآجال بيد الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الآية: ١٤٥].

٣١- الترغيب في القتال في سبيل الله بالإخبار أن كثيرًا من الأنبياء ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآيات: ١٤٦-١٤٨].

٣٢- تحذير المؤمنين من أن يطيعوا الذين كفروا فيردوهم على أعقابهم فينقلبوا

خاسرين، وتكفله- عز وجل- بتوليهم ونصرهم، وهو خير الناصرين، ووعدهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، بسبب شركهم بالله، وتوعدهم بالنار، وبئس مثوى الظالمين.

٣٣- بيان وتأكيد صدق وعده- عز وجل- لهم بالنصر، وهكذا حصل في أول المعركة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [الآية: ١٥٢]، ولما حصل منهم من الفشل والتنازع والعصيان من بعد ما أراهم الله ما يحبون من النصر، وآثر بعضهم الغنيمة، وخالفوا أمر الرسول ﷺ، وانقسموا إلى مريد للدنيا ومريد للآخرة صرفهم الله عن عدوهم؛ ليبتليهم، فصعد بعضهم الجبل، وفر بعضهم، لا يلوون على أحد، والرسول يدعوهم في أخراهم، فأثابهم غمًا بغم لكيلا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم، وأنزل النعاس عليهم يغشى طائفة منهم وهم المؤمنون أمانًا لهم، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم وهم المنافقون، يظنون بالله غير الحق ويعترضون على أمر الله وقضائه، ويرجفون.

ثم ذم الذين تولوا منهم يوم التقى الجمعان يوم أحد،وبين أنه إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، وذكر عفوه عنهم.

ثم نهى المؤمنين وحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا واعترضوا على قضاء الله وقدره في قتل من قتل من إخوانهم، ووعد من قتل في سبيل الله أو مات بمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، وبيّن أنهم إن ماتوا أو قتلوا فإلى الله يحشرون.

٣٤- ذكر ما امتنَّ الله به على نبيه ﷺ بما منحه من حسن الخلق واللين، وذلك رحمة منه- عز وجل- بالأمة، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [الآية: ١٥٩]، وأمره- عز وجل- له بالعفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم في الأمر، فإذا عزم فليتوكل على الله، وبيّن أنه- عز وجل- إن ينصرهم فلا غالب لهم، وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من دونه.

وأنه ما ﴿ كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الآية: ١٦١]،

وبيّن فرق ما بين من اتبع رضوان الله، ومن باء بسخط من الله، ومأواه جهنم

وبئس المصير، وبيّن أنهم ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [الآية: ١٦٣].

وذكَّر المؤمنين بمنة الله تعالى عليهم ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ١٦٤].

٣٥- ثم عادت السورة فأكدت للمؤمنين أن ما أصابهم يوم أحد كان سببه من عند أنفسهم، وهو مخالفتهم أمر النبي ﷺ، وبيان أن ذلك بإذن الله الكوني القدري؛ ليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، الذين يتخاذلون عن القتال بأنفسهم، ويثبطون غيرهم.

ثم بينت السورة قبل ختام الكلام عن غزوة أحد فضل الشهداء وما أعد الله لهم من الثواب الجزيل، وأنهم ليسوا أموتًا ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الآيات: ١٦٩-١٧١].

ثم أثنت على المؤمنين الصادقين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، وذكرت ما أعد للذين اتقوا منهم وأحسنوا من الأجر العظيم؛ لخشيتهم الله تعالى دون سواه، وقوة إيمانهم، وتوكلهم عليه وحده؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية: ١٧٤].

أعقب ذلك بيان أن ما يحصل من خشية الناس إنما هو من تخويف الشيطان لأوليائه، ونهى المؤمنين عن خوفهم وأمرهم بخوفه- عز وجل- وحده.

٣٦- ثم توجه الخطاب في السورة إليه ﷺ تسلية له وتقوية لقلبه، بنهيه أن يُحزنه الذين يسارعون في الكفر، وبيان أنهم ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٦]، وتأكيد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الآية: ١٧٧]، فتوعد الذين كفروا

ونبههم أن لا يغتروا بإمهال الله لهم فيظنوا أن ذلك خير لهم بل ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الآية: ١٧٨].

٣٧- ثم جاء ختام الآيات في قصة أحد بالتأكيد على أمرين: الأول: ما سبق التنبيه عليه في ثنايا القصة، وهو بيان حكمة الله تعالى البالغة فيما أصاب المسلمين في هذه الغزوة ليتميز الخبيث من الطيب، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [الآية: ١٧٩].

والأمر الثاني: الترغيب في الإنفاق في سبيل الله والتحذير من البخل، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ﴾ [الآية: ١٨٠].

٣٨- ثم عاد الكلام في السورة إلى ذم أهل الكتاب وذكر قبائحهم، وتوعدهم بالعذاب، وفضح أكاذيبهم، وقطع حججهم، بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الآيتان: ١٨١، ١٨٢]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ [الآية: ١٨٣].

وتسليته ﷺ على ما يلاقيه منهم بقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [الآية: ١٨٤].

تلا ذلك بيان حقيقة أنه لابد لكل نفس من مواجهتها، وأعظم منها ما بعدها فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ [الآية: ١٨٥]، وبيان أنه لابد من ابتلائهم في أموالهم وأنفسهم، ولابد أن يسمعوا من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرًا، وفي هذا والذي قبله من بيان حقيقة الموت أعظم تسلية، ولهذا قال بعده: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الآية: ١٨٦].

ثم ذكَّر عز وجل بأخذه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ببيانه للناس وعدم

كتمانه، وذمهم بنبذهم له وراء ظهورهم، واشترائهم به ثمنًا قليلًا فبئس ما يشترون، وذم المنافقين الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم.

٣٩- ثم أتبع ذلك بتأكيد سعة ملكه، واختصاصه بملك السموات والأرض، وقدرته على كل شيء، وبيان أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، ثم أثنى عليهم وامتدحهم بذكر صفاتهم الحميدة، من ذكر لله تعالى في جميع أحوالهم، والتفكر في خلق السموات والأرض، والتماس الحكمة في ذلك، وتعظيم الله تعالى والتوجه إليه في دعوات عظيمة ينبغي أن تكون على لسان كل مؤمن ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الآيات: ١٩١-١٩٤].

واستجابته- عز وجل- لهم وبشارته لهم بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [الآية: ١٩٥]، منوِّهًا بأعمالهم الصالحة من الهجرة في سبيل الله، وتحمُّل الإخراج من ديارهم، والأذى في سبيل الله، وقتالهم وقتلهم، ثم وعدهم بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [الآية: ١٩٥].

ثم أشارت الآيات إلى فرق ما بين الفريقين فلا يُغتر بما عليه الكفار من النعم في الدنيا فهي ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [الآيتان: ١٩٧، ١٩٨].

ثم عادت السورة قبل ختامها احترازًا وإنصافًا؛ لتأكيد أن من أهل الكتاب لمن

يؤمن بالله وما أنزل إلى هذه الأمة، ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الآية: ١٩٩].

٤٠- ثم جاء مسك ختام السورة بأمر المؤمنين بما يُحقق- بإذن الله- فلاحهم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الآية: ٢٠٠].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

تقدم الكلام على البسملة في أول هذا التفسير، وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة وناسب- والله أعلم- افتتاحها بهذه الحروف أن آيات عِدة منها نزلت في قضية مجادلة نصارى نجران حين قدموا إلى المدينة، وبيان فضل الإسلام على النصرانية، وإظهار عظمة القرآن والتحدي به.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وخبره جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، و﴿لَآ﴾: نافية للجنس، و﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها، وخبرها محذوف تقديره: «حق»، أي: لا إله حق إلا هو.

و﴿ٱللَّهُ﴾: علم على الرب تبارك وتعالى خاص به، وهو أصل الأعلام، وأعرف المعارف، وأصل أسماء الله- عز وجل- وتأتي أسماء الله كلها تابعة له، ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، أي: لا إله حق إلا هو.

﴿ٱلْحَيُّ﴾: خبر ثانٍ لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الكامل الحياة من جميع الوجوه، فلا ينال حياته نقص، ولم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال أو فناء، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: خبر ثالث، أي: الكامل القيومية، القائم بنفسه، الغني عما سواه، القائم على غيره المقيم له: خلقًا وملكًا وتدبيرًا وحفظًا، وغير ذلك، فكل شيء محتاج ومفتقر إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وفي الحي كمال الصفات، وفي القيوم كمال الأفعال، وفيهما جميعًا كمال الذات.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾

[آل عمران: ٣].

قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: الجملة في محل رفع خبر رابع للمبتدأ: (الله)، و«التنزيل» و«الإنزال» يكون من أعلى إلى أسفل، والتنزيل قد يدل على التدرج، أي: نزل عليك الكتاب مفرقًا منجمًا في ثلاث وعشرين سنة؛ تعظيمًا لهذا الكتاب، ورحمةً بهذه الأمة، وتيسيرًا عليها، وتثبيتًا لقلب النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ وهذا مما خص الله- عز وجل- به هذا الكتاب العظيم عند أكثر أهل العلم.

والخطاب في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتعظيم له ﷺ، وفي التعبير بـ(على) دون (إلى) في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾: زيادة في تشريفه ﷺ ورفع شأنه، وإعلاء مقامه.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، و«ال» فيه للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم المعروف، والذي هو أعظم الكتب، وأفضل كتب الله على الإطلاق، وإذا أطلق الكتاب فالمراد به القرآن الكريم.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: «فِعال» بمعنى مفعول أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، أي: في اللوح المحفوظ على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٣- ١٦].

وهو مكتوب بأيدي المؤمنين في المصاحف.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الباء للملابسة، أي: متلبسًا بالحق، و«الحق»: الأمر الثابت، فالقرآن حق وصدق في نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩].

وطريق وصوله وإسناده حق وصدق محفوظ عن التبديل والتغيير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:

١٩٢-١٩٤].

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وهو مشتمل على الحق، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: ﴿ مُصَدِّقًا ﴾: حال من الكتاب، أي: حال كونه مصدقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: لما سبقه من كتب الله- عز وجل- وجعل السابق ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ لأنه يجيء قبله، فكأنه يمشي أمامه.

ومعنى كونه مصدقًا لما سبقه من كتب الله تعالى، أي: مخبرًا بصدقها، وأنها حق من عند الله تعالى، وأيضًا: مصدقًا لها بكونه مصداق ما أخبرت به وبشرت به، فمجيئه تصديق لها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وأيضًا: مصدقًا لها لاشتماله على ما دعت إليه من أصول الشرائع ومحاسن الأخلاق والآداب، والحاكم بصدق ذلك كله وصحته، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾: أي وأنزل عز وجل التوراة على نبيه موسى بن عمران عليه السلام، وهي المذكورة- والله أعلم- بصحف موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

وهي أعظم كتب الله تعالى وأفضلها بعد القرآن الكريم، وأشملها وأعمها وأهداها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴾ [القصص:٤٩]. كتبها الله تعالى بيده، كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وفي الحديث في حجاج آدم وموسى: «**وكتب لك التوراة بيده**»(١).

أنزلها الله تعالى جملةً واحدة بألواح، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف:١٥٠].

وقد حصل فيها تحريف وكتمان لكثيرٍ منها، كما قال تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿وَٱلْإِنجِيلَ ﴾: أي وأنزل عز وجل الإنجيل على نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام. وهو متمم لشريعة موسى عليه السلام وللتوراة.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:٤].

قوله ﴿مِن قَبْلُ ﴾: أي من قبل وقت تنزيل هذا القرآن، والتصريح بهذا للمبالغة في البيان، وإشارة إلى أن إنزالهما متضمن الإرهاص لبعثته ﷺ، ونزول القرآن الكريم، وأنهما لمقدمات لذلك، وقدَّم ﴿ مِن قَبْلُ﴾ على ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾؛ لئلا يتوهم أن هدى التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾: مفعول لأجله، والعامل فيه «أنزل»، أو حال من التوراة والإنجيل، أي: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل؛ لأجل هداية الناس، أو حال كونهما هدى للناس.

ويجوز أن يكون العامل فيه «نزَّل» و«أنزل» أي: نزل عليك الكتاب.. وأنزل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة (طه) (٤٧٣٦)، ومسلم في القدر (٢٦٥٢)، والترمذي في القدر (٢١٣٥)، وابن ماجه في «المقدمة» (٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٦٨، ٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التوراة والإنجيل من قبل كل ذلك من أجل هداية الناس، وأن يكون حالًا من الكتب الثلاثة، أي: حال كون الكتاب والتوراة والإنجيل هدىً للناس.

والمراد بالهداية هنا: هداية الدلالة والبيان والعلم، أي: لأجل دلالة الناس، وبيان طريق الحق لهم من طريق الباطل، وتعليمهم ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم. و«الناس» هم بنو آدم.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾: «الفرقان» ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والخير والشر.

والتفريق بين خير الخيرين وشر الشرين، وبين أهل كل منهما، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١].

وهو ما أنزله الله تعالى من الوحي الذي فيه بيان الحق من الباطل في القرآن والتوراة والإنجيل وغيرها من كتبه- عز وجل- وفي هذا تعظيم لما جاء في هذه الكتب.

ويُحتمل أن المراد بـ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ القرآن الكريم خاصةً؛ لأن «الفرقان» من أسماء القرآن، وفي هذا تعظيم للقرآن الكريم، وأنه أفضل كتب الله- عز وجل- وأعظمها هداية وتفريقًا بين الحق والباطل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بعدما امتن- عز وجل- على الناس بتنزيل القرآن وإنزال التوراة والإنجيل، وما في هذه الكتب العظيمة من الهداية، وبيان الفرق بين الحق والباطل، مما لا يبقى معه عذر أو حجة لأحد، أتبع ذلك بالوعيد للذين كفروا بآيات الله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

(الكفر) في اللغة: الستر والتغطية.

ومعنى ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي جحدوها وأنكروها وكذبوا بها من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم.

و«آيات»: جمع آية، وهي في اللغة: (العلامة). قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: علامة ملكه، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] أي: العلامات والدلائل على أنه الحق. وآيات الله- عز وجل- قسمان:

آيات كونية، منها: الليل والنهار والشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، وكل ما في الكون من المخلوقات هو من آيات الله تعالى الكونية، كما قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحدُ(١)

وسميت المخلوقات آيات لدلالتها على وجود الخالق وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لأن الخلق كلهم لو اجتمعوا لا يستطيعون إيجاد شيء من هذه المخلوقات، كما قال تعالى مخاطبًا المشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

والقسم الثاني من آيات الله: آياته الشرعية، وهو الوحي الذي أنزله على رسله في الكتب السماوية، وبخاصة آيات القرآن الكريم.

وسمى ما أوحاه الله- عز وجل- إلى رسله آيات لما فيه من الدلالة على صدقهم، ولما فيه من هداية الناس وإصلاحهم، وصلاح أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، مما يدل على أنه من عند الله تعالى العظيم المستحق للعبادة وحده دون سواه، العالِم بالخلق وما يصلحهم مما لا يستطيع الخلق كلهم لو اجتمعوا الإتيان عليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وقال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى عنه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

والفرق بين القسمين:

أن الآيات الكونية محسوسة مشاهدة؛ ولهذا عامة الناس يؤمنون بها ويقرون

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

بتوحيد الربوبية حتى المشركون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهذا حال كثير من الناس أرباب حس ومشاهدة كالأنعام بل هم أضل، لا يؤمنون إلا بالمحسوس.

وما ضل مَن ضل من الخلق وكفر أو ابتدع في الدين إلا بسبب تحكيم الحس دون الشرع والعقل.

وأما الآيات الشرعية فهي معقولة لا يدركها إلا أصحاب العقول السليمة والنظرة المستقيمة، وكثير من الخلق لا يدركونها.

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾: قدم الخبر ﴿ لَهُمْ ﴾ لتخصيصهم بذلك وتأكيده، ونُكِّر ﴿عَذَابٌ ﴾ للتفخيم، و«العذاب»: العقاب أو العقوبة، و«الشديد»: القوي، أي: ولهم عقاب قوي، فيه أنواع الشدة والقوة من حيث نوعه وكيفه وكمه، عذاب حسي للأبدان، ومعنوي للقلوب، لا يقل عن العذاب الحسي بل هو أشد منه- من التقريع والتوبيخ والتبكيت والتيئيس من الخروج من النار، وتحطيم المعنويات.

كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨]، وقال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾[الهمزة: ٤ – ٧].

أي: لَيُنبذن في النار التي تحطم كل شيء فيها، وتشرف على القلوب فتحطم المعنويات.

﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي: ذو العزة التامة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، فيمتنع أن يناله

سوء أو نقص أو مكروه، وعزة القهر والغلبة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام: ١٨، ٦١]، ومن هذا قوله تعالى في سورة (ص): ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلبني.

وعزة القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠][1].

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام ممن كذب بآياته وعصاه وخالف رسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ [الروم: ٤٧].

والانتقام من الصفات الفعلية الاختيارية، وليس من صفات الله المطلقة، وليس من أسمائه- عز وجل- «المنتقم»، وإنما يوصف سبحانه به مقيدًا، فيُقال: المنتقم من المجرمين، ومن الظالمين، ومن الكافرين، ونحو ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم، وتحدي العرب بذلك، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران: ١].

٢- إثبات ألوهية الله- عز وجل- وأنه وحده المنفرد بالألوهية، فلا معبود بحقٍ سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢].

٣- إثبات اسم الله- عز وجل- «الحي» وصفة الحياة التامة له، وأنه الكامل الحياة من جميع الوجوه، لا يتطرق لحياته نقص، ولم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال أو فناء.

٤- إثبات اسم الله- عز وجل- «القيوم» وصفة القيومية الكاملة له سبحانه وتعالى، وأنه- عز وجل- القائم بنفسه، الغني عما سواه، وكل شيء محتاج ومفتقر إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٥- في وصفه- عز وجل- بـ «الحي، والقيوم» كمال ذاته وصفاته وأفعاله، ففي «الحي» كمال صفاته، وفي «القيوم» كمال أفعاله، وفي اقترانهما واجتماعهما كمال ذاته.

٦- إثبات علو الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿وَأَنزَلَ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فهو- عز وجل- عالٍ على خلقه، بائن منهم، له العلو المطلق عليهم: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله وكلامه وصفة من صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٨- الامتنان على الرسول ﷺ وأمته بتنزيل القرآن عليه منجمًا مفرقًا؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ رحمة بهذه الأمة.

٩- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بإنزال القرآن عليه، وخطابه- عز وجل- له؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي هذا تضعيف لقول من قال: إن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا بعد ذلك وأن للقرآن تَنَزُّلَيْن. والصحيح أن جبريل عليه السلام ينزل به من عند الله- عز وجل- إلى النبي ﷺ مباشرة، ونزوله مرة واحدة.

١٠- تعظيم القرآن الكريم، وأنه أفضل كتب الله على الإطلاق، فإذا أطلق الكتاب فالمراد به القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١١- أن القرآن الكريم نزله الله تعالى بالحق، فهوحق وصدق، وطريق وصوله حق، أوحاه الله- عز وجل- إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل إلى نبينا محمد ﷺ، وهو مشتمل على الحق فيما جاء به ودعا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

١٢- تصديق القرآن الكريم للكتب السابقة، فهو مخبر بصدقها وأنها حق، وهو مصداق ما أخبرت به من بعثة محمد ﷺ ورسالته، ومصدق لها باشتماله على ما دعت إليه من أصول الشرائع ومحاسن الأخلاق والآداب، والحاكم بصدق ذلك كله وصحته؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

١٣- أن التوراة والإنجيل منزلة من عند الله- عز وجل- جملةً واحدة، نزلت التوراة، ثم الإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ﴾.

١٤- أن المقصود من إنزال الكتب والنبوات هداية الناس ودلالتهم إلى طريق الحق، رحمةً

من الله- عز وجل- بالعباد وعنايةً بهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

١٥- إثبات الحكمة لله تعالى في أفعاله وأحكامه الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

١٦- امتنان الله على العباد بإنزال الكتب السماوية التي تشتمل على الفرقان، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والإيمان من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، وفي هذا أيضًا تعظيم لكتبه عز وجل وبخاصة القرآن الكريم أفضل كتب الله عز وجل.

١٧- أن «الفرقان» من أسماء القرآن الكريم وهذاعلى القول بأن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[آل عمران:٤] القرآن خاصة، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وفي هذا التخصيص للقرآن تعظيم له، وتأكيد على فضله على سائر كتب الله- عز وجل- وتفريقه بين الحق والباطل.

١٨- الوعيد الأكيد للذين كفروا بآيات الله بعد بيانها بإنزال الكتب التي فيها الفرقان بين الهدى والضلال، والإيمان والكفر بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، ويفهم من هذا أن الذين آمنوا بآيات الله لهم الثواب العظيم.

١٩- إثبات صفة العزة لله- عز وجل- عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾.

٢٠- التحذير من انتقام الله- عز وجل- ممن عصاه وخالف أمره؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام ممن عصاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ ﴾: ﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد ونصب، واسمها لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾، وخبرها جملة النفي: ﴿ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ ﴾، وهي جملة منفية تدل على ثبوت ضدها وهو ظهور كل شيء له سبحانه وتعالى، وكمال علمه وإحاطته؛ لأن الخفاء يقابله ويضاده الظهور.

و﴿ شَيۡءٞ ﴾: نكرة في سياق النفي، فيعم كل شيء أيًّا كان، صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا.

﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾: متعلق بـ ﴿ يَخۡفَىٰ ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا يخفى عليه شيء في السماء.

والمراد جنس الأرض وجنس السماء، أي: لا يخفى عليه شيء في الكون كله، ومن ذلك إيمان مَن آمن، وكُفر مَن كفر، وغير ذلك؛ لكمال علم الله- عز وجل- الدال على كمال حياته.

وفي هذا وعد لمن آمن بآيات الله، ووعيد لمن كفر بها، وترغيب في الثواب، وترهيب من العقاب.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

هذا من الأدلة على كمال ربوبيته وقيوميته- عز وجل- وتقرير علمه.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾: ﴿ هُوَ ﴾ يعود إلى «الله» أي: الله الذي

﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ أي: يجعلكم على صور معينة في أرحام أمهاتكم.

﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾: حال من ضمير الخطاب « الكاف »، أي: يصوركم حال كونكم في الأرحام.

و﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم، وهو موضع تكون الجنين في بطن أمه، وهو القرار المكين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠ – ٢٢].

﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: حال من فاعل ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ أي: يصوركم في أرحام أمهاتكم، ويخلقكم على أي كيفية أراد كونًا، نطفًا، ثم علقًا، ثم مُضغًا، ثم تنفخ فيه الروح.

هذا شقي وهذا سعيد، هذا ذكر وهذه أنثى، هذا طويل وهذا قصير، هذا أبيض وهذا أسود، هذا جميل وهذا قبيح، هذا مكتمل الخلقة وهذا ناقص الخلقة.

هذا يشبه أباه وهذا يشبه أمه، وهذا يشبههما وهذا لا يشبه واحدًا منهما، وهذا يشبه جده أو جدته، وهذا يشبه عمه أو خاله، ونحو ذلك، وهذا لا يشبه أحدًا من أقاربه، وهذا يشبه بعض الأبعدين، وهذا لا يشبه أحدًا.

ولا تنافي بين كونه تعالى يُصور الجنين كيف يشاء، وبين كونه يشبه أباه أو أمه أو نحو ذلك؛ لأن الله- عز وجل- قد جعل لكل شيءٍ سببًا، وربط المسببات بأسبابها؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود- كأنه يُعرِّض بزوجته[1]- قال النبي ﷺ: «**هل لك من إبل؟**»، قال: نعم، قال: «**ما ألوانها؟**» قال: حمر، قال: «**فهل فيها من أورق؟**» قال: نعم، قال: «**أنى لها ذلك؟**»، قال: لعله نزعه عرق، فقال ﷺ: «**فلذلك ابنك لعله نزعه عرق**»[2].

---

(١) أي: بأنها زانية، وأن الولد ليس منه؛ ولهذا قال رؤبة بن العجاج:

بأبـه اقتـدى عـدي في الكـرم ... ومـن يشـابه أبـه فـما ظلـم

أي: ومن يشابه أباه فما ظلم أمه؛ حيث أراحها من ألسنة المتقولين على المحصنات بالباطل. انظر: «ديوان رؤبة» (ص١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق- إذا عرض بنفي الولد (٥٣٠٥)، ومسلم في اللعان (١٥٠٠)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٦)، والنسائي في الطلاق (٣٤٧٨)، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٨)، وابن ماجه في =

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو، وقد كرر هذا؛ لتوكيد تفرده- عز وجل- بالألوهية، والمبالغة في الرد على النصارى الذين ادَّعوا إلهية عيسى عليه السلام، وعلى غيرهم من المشركين. وقد قرن فيما سبق بتقرير ألوهيته وكمال حياته وقيومته وإنزاله الكتب السماوية.

وقرن هنا بذكر تصويره الخلق في الأرحام كيف يشاء وخلقهم، وكمال عزته، وكمال حكمه وحكمته، وهذا وذاك مما يوجب إفراده بالعبادة دون سواه.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» يدل على أنه سبحانه ذو العزة التامة.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» يدل على أنه الحاكم ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزئي، وعلى أنه المحكم المتقن ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قال ابن كثير: «وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهًا- كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقَّل من حالٍ إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]».

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة نعمته على العباد بتصويرهم في الأرحام وخلقهم، ثم أتبع ذلك بما هو أعظم، وهو نعمته عليهم بإنزال الكتاب على محمد ﷺ لهدايتهم.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾،

النكاح (٢٠٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتمهيد لقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ الآية.

وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قصر صفة إنزال القرآن على الله تعالى، وإبطال لزعم المشركين أنه إنما يعلمه بشر، أو أساطير الأولين.

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾: أي من هذا الكتاب آيات، و﴿ءَايَٰتٌ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، وفى الشرع: القطعة من كلام الله تعالى ذات بداية ونهاية معلومة.

﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾: الإحكام: الإتقان، أي: منه آيات متقنات معلومات واضحات المعنى والدلالة، لا اشتباه فيهن ولا التباس، وجُل القرآن على هذا، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الجملة في محل نصب حال من ﴿ءَايَٰتٌ﴾، أو في محل رفع صفة لـ﴿ءَايَٰتٌ﴾، والضمير ﴿هُنَّ﴾ يعود إلى قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾.

وأم الشيء أصله ومعظمه ومرجعه، أي: هن أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه.

قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، أي: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء، وهو مرجع وأصل كل الكتب.

ومنه سُمِّيت الفاتحة «أم الكتاب»؛ لأنها أصل القرآن الكريم وابتداؤه، ومشتملة على جميع معاينه(١).

ومنه سُمِّيت خريطة الرأس الجامعة له «أم الرأس» وهي الدماغ، وسُمِّيت الرأية «الأم»؛ لأن الجيش ينضوى إليها، كما قال ذو الرمة(٢):

على رأسه أم لنا نقتدي بها ... جماع أمور لا نعاصي لها أمرًا

قال الطبري(٣): «يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق الحاجة إليه من أمر دينهم، وما كُلِّفوا من الفرائض والحدود

---

(١) انظر الكلام على أسماء الفاتحة «أم الكتاب».

(٢) انظر: «ديوانه» (٣/ ١٤٥٥- ١٤٤٦).

(٣) في «جامع البيان» (٥/ ١٨٩).

وسائر ما يحتاجون إليه في عاجلهم وآجلهم».

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: أي وآيات أُخر متشابهات، و«أُخر» ممنوع من الصرف؛ لأنه وصف معدول عن الآخر.

ومعنى ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي: فيهن اشتباه من حيث عدم وضوح المعنى والدلالة، أو لكونهن مما استأثر الله تعالى بعلمه، كحقائق صفات الله وكيفياتها؛ فهذه لا يعلمها إلا الله، وما يتعلق بعلم الغيب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وكقيام الساعة، فهذا مما لا يعلمه إلا الله، وعدَّ بعض أهل العلم من هذا الحروف المقطعة في أوائل بعض السور.

وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات: منسوخه، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به»(١).

فأما قوله تعالى في سورة (الزمر): ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فليس المراد بقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ التشابه الذي هو هذا الإحكام، وإنما المراد أنه يشبه بعضه بعضًا في الكمال والحسن والبلاغة، وما فيه من الهدى والبيان والمواعظ والحكم والأحكام والدعوة إلى الخير، والتحذير من الشر والوعد والوعيد... ونحو ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: الفاء: استئنافية، و«أما» حرف شرط وتفصيل، أي: فأما الناس الذين في قلوبهم زيغ، و«القلوب» جمع قلب، وهو محل الإدراك وهو العقل، و«الزيغ»: الميل والانحراف عن القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧]، أي: ما مال البصر وما انحرف عن المقصود، ويُقال: «زاغت الشمس» أي: مالت وزالت عن كبد السماء.

والمعنى: فأما الناس الذين في قلوبهم ميل عن الحق وقصد للباطل، كما هو حال

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٩٢-٥٩٣).

كثير من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم من أهل البدع والأهواء من الرافضة المجوسية والخوارج والقدرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ « ما »: موصولة، أي: فيتبعون الذي تشابه منه، ويأخذون به، ويحملون المحكم على المتشابه، ويضربون الآيات بعضها ببعض.

وقد كنت أكتب في تفسير هذه الآية جوار بيت الله الحرام يوم الثلاثاء ١١/٨/١٤٣٢هـ، فخرجت لصلاة الظهر في الحرم، وبعد صلاة الظهر جلس بجواري أحد الإخوة، فسألته: من أين أنت؟ فقال: أنا إيراني شيعي، وأخذ يُثني على الشيعة، فقلت له: الشيعة فيهم أناس طيبون، وفيهم غُلاة يزعمون أن القرآن مُحرَّف، وأن الأئمة يدبرون الكون مع الله، ويُكَفِّرون كثيرًا من الصحابة كأبي بكر، وعمر، وعثمان- رضي الله عنهم- فقام وأحضر مصحفًا، وفتح على قول الله تعالى في سورة (الرعد): ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وأشار بأصبعه إلى قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾، وقال: «كل المفسرين من أهل السنة يقولون: المراد بهذا علي بن أبي طالب، قلت: ليس هذا بصحيح، فلا أحد من أهل السنة يقول بهذا، وإنما يقولون: الضمير يعود إلى الله تعالى، أي: قل كفى بالله شهيدًا على رسالتي، وهو الذي عنده علم الكتاب، أي: علم اللوح المحفوظ.

وقال بعض المفسرين: المراد بالضمير في قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾: عبدالله بن سلام، والمراد بالكتاب: التوراة؛ فهو شهيد بصدق النبي ﷺ بشهادة التوراة بذلك، فأخذ يقلِّب في المصحف فأخرج الآية في سورة التوبة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة:٤٠]، فقال: «من صاحبه؟» قلت: أبوبكر- رضي الله عنه- فقال: «كيف يحزن؟!»، كأنه يريد أن ينتقص من أبي بكر- رضي الله عنه- قلت له: الحزن ليس عيبًا، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر:٨]، فخرج من الموضوع وقال: «كيف تسلمون في المدينة على أبي بكر وعمر وتمنعوننا أن نسلم على بعض الصحابة في البقيع؟»، فقلت له: لأنكم نجس

تتبولون على قبور بعض الصحابة كما فعل بعضكم عند قبر عثمان- رضي الله عنه- فقام وانصرف منهزمًا، فقلت: يا سبحان الله!، صدق الله العظيم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: مفعول لأجله، أي: لأجل الفتنة ولأجل تأويله، أي: طلب الفتنة وطلب تأويله، فاتبعوا ما تشابه منه لأجل هذين الغرضين الفاسدين.

والضمير في ﴿تَأْوِيلِهِۦ﴾ يعود إلى المتشابه، والفتنة: الصد عن دين الله والشرك، أي: طلب فتنة الناس وصدهم عن دينهم، وإيقاعهم في الكفر والشرك والشك والإلحاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣، الأنفال:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج:١٠].

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: أي وطلب تأويله التأويل المذموم، وتحريفه تبعًا لأهوائهم المنحرفة، وإيهام أتباعهم أنهم يحتجون بالقرآن نظرًا لتشابهه، بخلاف المحكم فلا يتبعونه لأنه دامغ لهم، وحجة عليهم لوضوحه وعدم احتماله للتأويل.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم**»(١).

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، والضمير في ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ يعود إلى ما تشابه من القرآن، والحال أنه لا يعلم تأويل المتشابه من القرآن، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أداة حصر، أي: وما يعلم تأويله إلا الله وحده، أي: لا يعلم حقيقته وما يؤول إليه إلا الله وحده.

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٥٤٧)، ومسلم في «العلم» (٢٦٦٥)، وأبو داود في «السنة» (٤٥٩٨)، والترمذي في «التفسير» (٢٩٩٤).

والتأويل يأتي بمعنى التفسير، والتعبير، وبيان الشيء، كما قال أحد صاحبي السجن ليوسف عليه السلام: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف:٣٦]، أي: بتفسير وتعبير الرؤيا التي رأى كل منهما.

ومنه قوله ﷺ في دعائه لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(١) أي: تأويل القرآن وتفسيره.

ويأتي التأويل بمعنى العاقبة والغاية التي يؤول إليها الشيء، والتي لا يعلمها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

فالمراد بـ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾ في الموضعين: عاقبته وما يؤول إليه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[يونس:٣٩] عاقبته وما يؤول إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء:٣٩، النساء:٥٩] أي: أحسن مآلًا وعاقبة.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ الواو: استئنافية، والوقف عند أكثر السلف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: لا يعلم عاقبته وما يؤول إليه إلا الله.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾: مبتدأ، وخبره جملة ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، والراسخون: جمع راسخ، والرسوخ بمعنى الثبات والتمكن، فالراسخون في العلم هم الثابتون فيه، المتمكنون منه، العارفون بدقائقه.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى قوله: ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: إلى المتشابه، أي: صدقنا به وإن لم نعلم تأويله، ورددنا علم هذا المتشابه إلى المحكم.

ويحتمل عود الضمير إلى ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، والأول أظهر؛ لقولهم بعده: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦)، وإسناده صحيح.

أي: كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا، فالمحكم صدقنا به وعلمناه والمتشابه صدقنا به ورددناه إلى المحكم ووكلنا علمه إلى الله، وكل ذلك حق وصدق، لا تناقض فيه ولا اختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢].

وبعض السلف يصلون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، بقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فتكون الواو عاطفة، وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وفي هذا تشريف لهم، كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨].

وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويله، أي: تفسيره، كما قال ﷺ لابن عباس- رضي الله عنهما-: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»، ولهذا رُوِيَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «**أنا ممن يعلم تأويله**»(١)، وتكون جملة ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على هذا القول في محل نصب على الحال.

ولا تعارض بين القولين، فإن حُمِلَ معنى «التأويل» في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على التفسير كان الوصل أولى، وإن حُمِلَ معنى «التأويل» على عاقبة الشيء وغايته وما يؤول إليه، ونحو ذلك فالوقف أولى.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «التفسير على أربعة أنحاء؛ فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل»(٢).

ومراده بالذي (لا يعلمه إلا الله): هو ما يتعلق بالأمور الغيبية وحقائق الأشياء ومآلاتها.

وعلى هذا فتأويل القرآن كله بمعنى تفسيره مما يعلمه الراسخون في العلم؛ لأنهم إذا كانوا يعلمون تفسير المتشابه فعلمهم بتفسير المحكم أولى.

وقد فسر السلف- رضي الله عنهم- من الصحابة والتابعين وتابعيهم القرآن كله

---

(١) انظر: «روح المعاني» (٢/ ٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٧٠)، وفي إسناده انقطاع، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٨).

وفهموا معانيه.

قال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية، وأساله عن تفسيرها»(١).

قال ابن تيمية: «وتارة يكون الإحكام في التأويل والمعنى، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها، حتى لا تشتبه بغيرها. وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا، فتكون محتملة للمعنيين، ولم يقل في المتشابه: «لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله» وإنما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع، فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو، والوقف هنا على ما دلت عليه أدلة كثيرة، وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة. ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره، بل قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢]، ولم يستثن شيئًا منه نُهِيَ عن تدبره، والله ورسوله إنما ذمَّا من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمر الله، وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله، بل أمر بذلك ومدح عليه»(٢).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «الواو»: استئنافية، و«ما»: نافية، و﴿يَذَّكَّرُ﴾ أصلها «يتذكر» قُلِبَت التاء ذالًا وأُدغِمت في الذال الأخرى، والمعنى: وما يتعظ بالقرآن وما فيه من الهدى والمواعظ والبيان، ويفهم ويعقل ويتدبر ذلك وينتفع به ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩، الزمر:٩]، و﴿أُوْلُواْ﴾ بمعنى أصحاب، و﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جمع «لُب» وهو العقل؛ لأنه مجمع الخير والشر عند الإنسان، والمعنى: وما يتعظ بالقرآن وينتفع بما فيه من الهدى والبيان إلا أصحاب العقول السليمة، الذين تهديهم عقولهم إلى الحق والخير، وتمنعهم من الباطل

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٨٥)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٧٥).

والشر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، أي: الذي له لُب وعقل يهديه عقله إلى الخير ويحجره ويمنعه من الشر، وليس المراد بالألباب العقول التي بها مجرد الإدراك ضد الجنون، فهذه لا يمتدح بها، بل لا يكلف الإنسان إلا بوجود هذا العقل.

وإنما المراد بالألباب العقول التي بها حسن التصرف وفعل الخير وترك الشر، والتي هي مناط المدح أو الذم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

هذا الدعاء- والله أعلم- من تتمة كلام الراسخين في العلم.

قوله: ﴿رَبَّنَا﴾: أي يا ربنا، وحُذِفت ياء النداء للتخفيف، والتبرك والتيمن بالبداءة باسم الله عز وجل.

﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: ﴿لَا﴾ في الأصل للنهي، وهي هنا للدعاء؛ لأن النهي والطلب إذا جاء من أدنى إلى أعلى كان معناه الدعاء.

وإزاغة القلوب إمالتها عن الهدى والحق، أي: يا ربنا لا تمل قلوبنا عن الهدى والحق، وثبتنا على الصراط المستقيم.

وإنما خصُّوا القلوب؛ لأن عليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

وكان ﷺ كثيرًا ما يدعو: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أُصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة أخذ الحلال وترك الحرام (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠) وقال: «حديث حسن» وقد رُوِيَ نحوه عن عائشة رضي الله عنها.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**قلب ابن آدم على أُصبعين من أصابع الجبار- عز وجل- إذا شاء أن يقلِّبه قلَّبه**»، فكان يُكثِر أن يقول: «**يا مصرف القلوب**»(١).

وذلك لأنها محل العقل، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[الأعراف: ١٧٩].

فالعقل يكون بالقلوب، والقلوب في الصدور- كما ذكر الله- عز وجل- ولا ينافي هذا ارتباط العقل بين القلب والمخ- كما ذكر أهل العلم.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾: أي بعد إذ مننت علينا بدلالتنا وتوفيقنا إلى الحق، وذلك أعظم مِنة، وأفضل نعمة، كما في قول المؤمنين: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، فهم يتوسلون إلى الله- عز وجل- بنعمته السابقة، وهي هدايته لهم، كما في قوله ﷺ وأصحابه يوم الخندق:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألَى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا(٢)

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي: وأعطنا، والهبة: العطية بلا عوض ولا مِنّة.

﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ أي: من عندك؛ لأنك ذو المن والعطاء الجزيل، والفضل العظيم، أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، ولئلا يكون لأحد سواك مِنة علينا.

ولهذا قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٣)، من حديث البراء رضي الله عنه.

كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»(١).

وعلَّم ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا حتى كان يسقط سوط أحدهم وهو على الدابة فينزل فيأخذه، ولا يسأل أحدًا يناوله إياه(٢).

﴿ رَحْمَةً ﴾: رحمة الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾[الكهف:٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾[العنكبوت:٢١].

ومعنى ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي: وأعطنا من عندك رحمة من رحمتك الواسعة تثبتنا بها على الهداية، وتزيدنا هدى وإيمانًا، وتُدخِلنا بها الجنة، فكل ذلك من آثار رحمة الله تعالى، ولهذا سمى الله الجنة رحمة، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٧]، وقال- عز وجل- في الحديث القدسي: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»(٣).

كما سمى عز وجل إنزال الغيث رحمة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورى:٢٨].

فسألوا الله تعالى زوال المرهوب بالتثبيت على الهداية، والسلامة من الميل عن الحق، وحصول المطلوب بالرحمة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾: الجملة استئنافية للتعليل والتوسل، وقد أُكِّدت هذه الجملة

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٧)، من حديث أبي مالك الأشجعى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير باب: (وتقول: هل من مزيد) (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بـ«إنَّ» وبكونها اسمية، وبضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾ الذي يفيد القصر.

و﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعَّال» يدل على سعة عطائه- عز وجل- وفضله وإنعامه.

أي: إننا إنما طلبنا منك هبة الرحمة لأنك أنت وحدك الوهاب ذو العطاء الجزيل، والفضل العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

وفي الحديث: «**يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يده**»(١).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾.

هذا من تتمة مقالة الراسخين يدل على قوة إيمانهم، وتمام يقينهم بالبعث والجزاء، وأنهم أحوج ما يكونوا إلى رحمة الله في هذا، كما قال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

قوله ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يا ربنا إنك جامع الناس.

﴿لِيَوْمٍ﴾ أي: ليوم القيامة، واللام فيه للتوقيت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿لَّا﴾: نافية للجنس، و﴿رَيْبَ﴾: اسمها منصوب، و﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرها، أي: لا ريب حاصل فيه، أو نحو ذلك.

والمعنى: لا شك فيه، أي: لا ينبغي أن يرتاب ويشك فيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]: تعليل وتأكيد لما قبله، أي: لجمعه-

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٥)، وابن ماجه في «المقدمة» (١٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عز وجل- الناس ليومٍ لا ريب فيه، أي: لأن الله لا يخلف الميعاد.

وهذا- والله أعلم- من تتمة كلام الراسخين، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة لتنبيه المخاطب، ولتعظيم الله؛ لأن مجيء الكلام بصيغة الغائب أبلغ في التعظيم كأنه سبحانه يتكلم عن نفسه بصيغة الغائب تعظيمًا وتفخيمًا.

ويُحتمل أن يكون هذا مستأنفًا، وهو من كلام الله تعالى؛ لأن الأصل عدم الالتفات؛ لأنه خروج بالكلام عن المألوف.

والمعنى: إن الله لا يخلف ما وعد به من مجيء هذا اليوم العظيم، وما وعد به من حساب الخلائق ومجازاتهم فيه بأعمالهم، وغير ذلك.

وهذا من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها، وهو وفاؤه- عز وجل- بوعده، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الروم:٦].

وذلك لأن إخلاف الميعاد إنما يكون بسبب كذب الواحد أو عجزه عن الوفاء بوعده، والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد لكمال صدقه، فهو أصدق القائلين، ولكمال قدرته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

الفوائد والأحكام:

١- سعة علم الله- عز وجل- واطِّلاعه التام على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾.

وهذا من الصفات المنفية التي تدل على كمال ضدها وهو سعة علمه- عز وجل- واطِّلاعه على كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وفي هذا دلالة على كمال حياته عز وجل.

٢- الوعد لمن آمن بالله، والوعيد لمن كفر به؛ لأنه سبحانه مُطَّلع على كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

٣- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم بأعمال العباد حتى تقع منهم تعالى الله عن ذلك.

٤- قدرة الله تعالى التامة حيث يصور بني آدم في الأرحام كيف يشاء، وينقلهم فيها من حال إلى حال؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، وفي هذا دلالة على كمال قيوميته- عز وجل- وكمال علمه، وكمال ربوبيته.

٥- عناية الله- عز وجل- ببني آدم حيث يصورهم في بطون أمهاتهم منتقلين فيها من حال إلى حال، ورحمته لهم، ومنته عليهم حيث صورهم وأحسن صورهم، كما قال تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [التغابن:٣]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦-٨].

ولكونه- عز وجل- خلق الإنسان على أحسن صورة؛ نهى الشرع عن التجميل الذي يكون فيه تغيير خلق الله تعالى فقال ﷺ: «**لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، والمغيرات خلق الله**»(١).

أما ما كان من إزالة العيب في أصل الخِلقة فلا بأس به، فقد أذن النبي ﷺ للرجل الذي قُطِعَ أنفه أن يتخذ أنفًا من ورق، فأنتن، فأذن له أن يتخذ أنفًا من ذهب(٢).

٦- في اختلاف صور بني آدم نعمة أخرى في طي نعمة تصويرهم وخلقهم، وهي اختلاف صورهم وأشكالهم وألوانهم ليتعارفوا ويتمايزوا، كما أن في ذلك ابتلاء لهم ليعلم الله من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن ما شاء الله تعالى وأراده كونًا لابد

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٥)، وأبو داود في الترجل (٤١٦٩)، والنسائي في الزينة (٥٠٩٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الخاتم (٤٢٣٢)، والنسائي في الزينة (٥١٦١)، والترمذي في اللباس (١٧٧٠)، من حديث عرفجة بن أسعد رضي الله عنه.

كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

٨- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٩- إثبات انفراد الله تعالى بالألوهية، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- أن كل ما يُعبد من دون الله فهو باطل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا إله حق إلا هو.

١١- إثبات اسم الله «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة التامة لله تعالى؛ عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام والحكمة البالغة لله- عز وجل- الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٣- في اقتران «العزيز» و«الحكيم» واجتماعهما في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

ولله المثل الأعلى، فمع أن المخلوق قد يوصف بالعزة والحكمة المحدودة، لكن قلَّ أن تجتمع في شخص هاتان الصفتان، فإن وُجِدَ عنده عِزة صاحبها الطيش والخفة والسفه وعدم الحكمة، فصار ضرر هذه العزة أكبر من نفعها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦]، وإن وُجِدَ عنده حكمة صاحبها الضعف وعدم القدرة، فلم تنفعه حكمته؛ لأن الناس لا يحترمون إلا الأقوياء، ولا مكان للضعفاء عندهم، وكما قال زهير[1]:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وظلم الناس لا يجوز، لكن لابد من قوة تردع المعتدي، وتمنع من الاعتداء والظلم، كما قال الآخر:

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٣٥).

فـلا منعـت دار ولا عـز أهلهـا ... مـن النـاس إلا بالقنـا والقنابـل[١]

وقد أحسن النابغة الجعدي في قوله[٢]:

ولا خـير في حلـم إذا لم تكـن لـه ... بـوادر تحمـي صـفوه أن يكـدرا

ولا خـير في جهـل إذا لم يكـن لـه ... حلـيم إذا مـا أورد الأمـر أصـدرا

١٤- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله على رسوله محمد ﷺ، وأنه مُنزَّل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقول الراسخين في العلم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وفي هذا الرد على من زعموا أن النبي ﷺ اختلقه وافتراه من عند نفسه، وعلى من زعموا أن القرآن مخلوق.

١٥- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه، فله- عز وجل- العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١٦- تشريف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له، وإنزال الكتاب عليه، وإثبات رسالته ﷺ.

١٧- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتاب الذي هو أعظم الكتب وأفضلها، ويكفيه عظمة أنه مُنزَّل من الله تعالى وكلامه.

١٨- أن القرآن الكريم منه ما هو محكم واضح المعنى والدلالة، وهو أصل الكتاب ومرجعه وجلّه، ومنه ما هو متشابه غير واضح المعنى والدلالة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

١٩- وجوب إرجاع المتشابه من القرآن إلى المحكم منه؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: هي أصله ومرجعه الذي ينبغي أن يُرجع إليه عند الاشتباه، ولهذا قال الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

٢٠- ابتلاء العباد يجعل القرآن الكريم منه محكم ومتشابه؛ ليتميز أهل الزيغ من أهل

---

(١) البيت لطرماح. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (١/ ٧٧).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٦٩).

العلم والإيمان، فمن ردَّ ما اشتبه منه إلى ما وضح منه، وحكم بمحكمه على متشابهه اهتدى، ومن عكس ضل.

٢١- اتباع الذين في قلوبهم زيغ ما تشابه من القرآن؛ لفتنة الناس وصدهم عن دينهم وإيقاعهم في الشك والكفر، ولتأويل هذا المتشابه تأويلًا مذمومًا، وتحريفه ليوافق أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

٢٢- أن مدار فساد الأعمال وصلاحها على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾.

ومفهوم هذا: أن من كانت قلوبهم سليمة لا يتبعون ما تشابه منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

٢٣- التحذير من زيغ القلب وميله عن الحق، ووجوب علاجه والعمل على إصلاحه؛ لأن الله ذم أهل الزيغ وفضحهم، وبيَّن سوء قصدهم وسوء عملهم.

٢٤- أن حقيقة الفتنة هي الفتنة في الدين بالشرك، والصد عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾.

٢٥- أن تأويل المتشابه بمعنى معرفة عاقبته وما يؤول إليه لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، على قراءة الوقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٢٦- أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه ومعناه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ على قراءة الوصل.

٢٧- فضل الرسوخ في العلم والتأصيل والثبات فيه، والثناء على أهله؛ لأنه سبب لعلم تأويل القرآن وتفسيره والإيمان به، ورد المتشابه منه إلى المحكم، والخوف من زيغ القلوب، وسؤال الله الثبات على الهدى والرحمة، والإقرار بالبعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ

لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

٢٨- أن القرآن كله من عند الله- عز وجل- يجب الإيمان به، محكمه ومتشابه؛ فهو حق لاشك فيه، ولا اختلاف.

٢٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٣٠- إنه لا يتذكر ولا يتعظ بمواعظ القرآن وغيرها إلا أصحاب العقول، الذين تهديهم عقولهم إلى ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣١- فضل العقل الذي ينتفع به صاحبه، وهو عقل الرشد وحسن التصرف؛ لأنه سبب للتذكر، ولهذا أثنى الله على أولي الألباب وحصر التذكر فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وفي هذا تعريض بذم الذين لا يعقلون.

٣٢- امتحان العباد في وجود المتشابه في القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله، هل يتأدبون مع الله ويقفون عند حد ما تدركه عقولهم، ويعلمون أن فوق كل ذي علمٍ عليم، أو يتجرؤون على القول على الله بغير علم؟

٣٣- أن مدار صلاح الأعمال والهداية على القلوب مما يوجب الخوف من زيغ القلوب، وسؤال الله الثبات والاستقامة على الهدى، وأن لا يغتر المرء بما هو عليه من الهدى والصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

وفي الحديث: «**قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقلب قلب عبده قلبه**»(١). ومن الذي يأمن- والحالة هذه- إلا مغرور؟!. وقد قيل: «ما أمن النفاق إلا منافق».

٣٤- تصدير الدعاء باسم «الرب»- عز وجل- فذلك أقرب إلى الإجابة؛ لأن الرب هو الذي بيده الخلق والملك والتدبير، فكأن السائل يقول: يا من له الخلق والملك والتدبير لا تُزِغ قلبي، وهب لي من لدنك رحمة؛ ولهذا صدر الراسخون في العلم

---

(١) أخرجه مسلم في القدر تصريف الله القلوب حيث شاء (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

دعاءهم بهذا الاسم، وبه كان دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين.

٣٥- التوسل لله- عز وجل- بقبول الدعاء بالاعتراف بنعمه، والثناء عليه بها؛ لقول الراسخين في العلم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾.

٣٦- أن الاعتراف بنعمة صاحب النعمة والثناء بها عليه قبل السؤال من أسباب الإجابة؛ ولهذا علَّمنا الله- عز وجل- في مطلع سورة (الفاتحة) أن نحمده ونثني عليه ونمجده ثم نسأله، بل إن في الثناء على المنعم ما قد يكفي عن التصريح بالسؤال، كما قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاهُ من تعرضه الثناء(١)

٣٧- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾، فدعوا بزوال المرهوب، ثم حصول المطلوب.

٣٨- حاجة الإنسان إلى ربه- عز وجل- في دفع الضر والشر، وجلب النفع والخير؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾.

٣٩- أن الهداية والإضلال كونًا بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾.

٤٠- ينبغي الاستغناء بالله- عز وجل- وسؤاله الرحمة من عنده دون الخلق ومِنَّتهم؛ لأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة والعطاء الجزيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾، فطلبوا الرحمة منه خاصة؛ تعظيمًا له- عز وجل- ومعرفةً منهم بعظيم رحمته وواسع فضله؛ ولهذا قالوا: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾.

والعطاء على قدر المعطي، وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم(٢)

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٧٢).

٤١- إثبات اسم الله تعالى ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾، وأنه سبحانه يهب ويعطي الرحمة والفضل لمن شاء من خلقه.

٤٢- إثبات يوم القيامة، وأنه آتٍ لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، وأن الناس أحوج ما يكونوا إلى رحمة الله تعالى في هذا اليوم العظيم.

٤٣- قدرة الله تعالى التامة على جمع الناس لهذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤].

٤٤- إثبات الحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن هذا هو المقصود من بعث الناس وجمعهم في ذلك اليوم.

٤٥- أن الله- عز وجل- لا يخلف الميعاد، فوعده حق، ولقاؤه حق، وحسابه حق، وجزاؤه حق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وليس في الآية دليل على وجوب عقاب العاصي كما يقول الوعيدية؛ لأن الوعيد مشروط بعدم التوبة، وعدم العفو عما يدخل تحت العفو، وهو ما دون الشرك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «الكفر» في اللغة الستر، وهو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته وشرعه أو شيء من ذلك، أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه كالصلاة، وهو أقسام(١).

وهو ضد الإيمان، أي: التكذيب بما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله- عز وجل- والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، أو الكفر والتكذيب ببعض ذلك.

والمراد بهم في الآية جنس الكفرة من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تنفعهم، وتمنع أو تدفع عنهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ﴾ [الحاقة:٢٨]. و﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ كل ما يتمولونه ويملكونه من أنواع المال من نقد أو عين أو منفعة أو غير ذلك.

﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ أي: ولن تغني عنهم أولادهم، والأولاد: جمع «ولد» وهو إذا أطلق يشمل الذكور والإناث من أولاد الشخص وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذابه وعقابه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ﴾ [الأحزاب:١٧].

---

(١) سبق ذكر أقسام الكفر في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

والمعنى: لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، فتنجيهم من عذاب الله، بأن تمنع أو تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله قبل وقوعه، أو ترفع عنهم شيئًا من عذاب الله بعد وقوعه، بل كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال ﷺ: «**ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(١) أي: ولا ينفع ذا الغنى والحظ منك غناه وحظه، وخص الأموال والأولاد؛ لأن الاستغناء في الدنيا يكون بهما، فبالمال يكون الفداء ودفع الديات والغرامات، وبالأولاد يكون الانتصار والقتال.

وقدَّم الأموال على الأولاد- والله أعلم- لأن الاعتماد على نفع الأموال في الدنيا أكثر من الاعتماد على نفع الأولاد؛ لأن الأولاد أحيانًا قد ينفعون، وأحيانًا كثيرة لا ينفعون، بل قد يضرون. وفي الآية إشارة إلى انشغالهم بأموالهم وأولادهم.

﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ الواو: عاطفة، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

و﴿هُمْ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ، أو ضمير فصل.

وفي كون الجملة اسمية دلالة وتأكيد على تحقق الأمر وتقرره، وأن هذا هو حقيقة حالهم ومآلهم.

﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ «وَقود» بفتح الواو: ما توقد به النار، أي: حطبها الذي توقد وتسجر به، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٣)، وأبوداود في الصلاة (١٥٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٤١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، فهؤلاء الكفار هم الوقود الذي توقد وتسجر به النار، مع الحجارة.

و﴿ٱلنَّارِ﴾ هي الدار التي أُعدت لتعذيب ـة: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: دأب هؤلاء الكفار كدأب ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، والكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» والدأب: العادة والشأن والصنيع.

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أتباعه وقومه .

والمعنى: دأب هؤلاء الكفار وشأنهم وحالهم في الكفر والتكذيب، وفي استحقاقهم العقاب كدأب وشأن آل فرعون، وفيه تخويف لهم.

وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى- عليه الصلاة والسلام، الذي كذَّب موسى وأنكر رسالته، وادَّعىٰ الربوبية والألوهية فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال مهددًا موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: والذين من قبل آل فرعون من الأمم، كقوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط وغيرهم.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ تفسير وبيان لدأبهم، أي: كذبوا بآياتنا الكونية والشرعية، وما جاء به الرُّسل من المعجزات.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، والباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ للسببية، و«الذنوب» جمع «ذنب» و«الذنب» في الأصل: التلو والتابع، ثم أطلق على الجريمة؛ لأنها يتلو- أي: يتبع- عقابها فاعلها.

والمعنى: فأهلكهم الله وعاقبهم بسبب ذنوبهم، أي: بسبب كفرهم ومعاصيهم، التي تلبسوا بها وأصروا عليها من غير توبة، فأهلك فرعون وقومه بالغرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وكان إهلاك فرعون وقومه بالغرق- والله أعلم- لأنه كان يفتخر بالماء والأنهار، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

كما أهلك الله قوم نوح بالغرق، وأهلك عادًا بالريح الصرصر العاتية، وثمود بالصيحة، قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، فيها تخويف وتحذير من التكذيب بآيات الله، أي: والله شديد الأخذ، قوي العقاب لمن كذَّب بآياته، لا يُقَدِّر أحد قَدْر شدة عقابه وعذابه، لا كمًّا ولا كيفًا ولا نوعًا، ولا غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾.

توعَّدعز وجل في الآيتين السابقتين الذين كفروا بالنار وبأخذهم كما أخذ المكذبين من قبلهم، ثم أكد ذلك وقرره بما فيه تحطيم لمعنوياتهم وتبديد لآمالهم بأمره ﷺ أن يقول لهم بأنكم ستُغلبون في الدنيا وتحشرون إلى جهنم في الآخرة.

رُويَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- من طريق عكرمة وسعيد بن جبير قال: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر، فقدم المدينة جمع يهود في سوق بني قينقاع، فقال: **«يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا»**. فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تأت مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ إلى قوله:

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾»(١).

هكذا أورده أكثر المفسرين وجعلوه سببًا لنزول هاتين الآيتين، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لو صح هذا.

قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وفي أمره تعالى له ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة زيادة عناية واهتمام بها، كما في أمره ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ونحو ذلك. وإلا فهو في الأصل مأمور بتبليغ القرآن كله.

﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء الغيبة: «سيغلبون ويحشرون» وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾.

أي: قل يا محمد للذين كفروا وكذبوك فيما جئت به من الحق من اليهود والنصارى والمشركين، وغيرهم من الكفار: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ السين للتقريب، أي: ستغلبون قريبًا، أي: في الدنيا، أي: ستكون للمؤمنين الغلبة والظهور عليكم، والقهر لكم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: في الآخرة، أي: تجمعون وتساقون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ﴾ «جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها.

والمعنى: وتجمعون وتساقون إلى جهنم وتدخلون فيها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الواو: استئنافية، و«بئس»: فعل جامد يفيد الذم، ﴿ٱلْمِهَادُ﴾

---

(١) أخرجه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس- أبوداود في الخراج والإمارة والفيء- كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٣٠٠١)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٣٩)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ١٨٣)، ومحمد بن أبي محمد مولى زيد قال عنه ابن حجر في «التقريب» (٦٢٧٦): «مجهول»، وقال عنه الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٦): «لا يعرف». وقد أخرجه الطبري (٥/ ٢٣٩) أيضًا من طريق محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: «لما أصاب الله قريشًا يوم بدر- وذكره بنحوه، وكذا أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٠٤). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٧)، وأخرجه الطبري (٩/ ٢٤٠)- مختصرًا من طريق ابن جريج عن عكرمة موقوفًا عليه. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٨٦): «إسناده حسن».

الفراش الذي يفترشونه ويلتحفون به، كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وهكذا حصل، فخسروا الدنيا والآخرة، غلبوا في الدنيا وسيحشرون إلى جهنم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ أن يقول للكافرين مخبرًا ومتوعدًا لهم بأنكم ستغلبون، ثم وجههم لأخذ دليل ذلك ومصداقه من الواقع مما شاهدوه أو عايشوه أو سمعوه، وهو غلبة المسلمين في بدر مع قلة عددهم وضعف عدتهم للكافرين مع كثرتهم وقوة عدتهم.

قوله: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ هذا من جملة مقول القول السابق، ويحتمل أن يكون استئنافًا.

﴿ قَدْ ﴾: للتحقيق، ﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للذين كفروا من اليهود والمشركين وغيرهم ﴿آيَةٌ﴾ أي: علامة ودلالة على أنكم ستغلبون وعلى صدق الرسول، وأن ما جاء به حق، وأن النصر والغلبة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾، ﴿فِئَتَيْنِ﴾: تثنية «فئة»، و«الفئة»: الطائفة والجماعة من الناس، أي: قد كانت لكم علامة ودلالة على صدق الرسول، وعلى صدق ما جاء به وأنكم ستغلبون، في طائفتين، وهما المسلمون والمشركون يوم بدر ﴿الْتَقَتَا﴾، أي: للقتال، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

﴿فِئَةٌ﴾: مبتدأ، وخبره جملة ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأن المقام مقام تقسيم وتفصيل، كما في قول الشاعر:

فيــوم علينــا ويــوم لنــا ويــوم نُســاء ويــوم نُســر(١)

قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فئة مؤمنة؛ لمقابلتها بقوله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾، ولقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فاختار وصفها بهذا الوصف على التصريح بأنها مؤمنة؛ لما فيه من الدلالة على ذلك وأكثر، ففيه الدلالة على أنها مؤمنة؛ لأنه لا يقاتل في سبيل الله إلا المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٦].

كما أن فيه الدلالة على أنهم في أعلى درجات الإيمان والإخلاص، وفي هذا امتداح لهم وتعظيم لشأنهم وتنويه بسمو هدفهم.

و«المقاتلة» المفاعلة بين طائفتين.

ومعنى: ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تقاتل لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «**مَن قاتَل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله**»(٢).

والمراد بهم رسول الله ﷺ وصحابته والمؤمنون.

ومعنى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طريقه ودينه، ونصرة شرعه.

ولابد لكون القتال في سبيل الله من شرطين، هما: شرطا صلاح العمل:

الأول: الإخلاص لله تعالى، بأن يكون القصد منه إعلاء كلمة الله تعالى كما في الحديث.

والثاني: أن يكون موافقًا لشرع الله- عز وجل- بحيث يكون القتال عند وجود أسبابه، وتوافر أدواته، وأن يكون القتال تحت راية ولي أمر المسلمين أو من ينيبه، لا تحت راية عمياء، وأن تكون مصلحة المسلمين فيه ظاهرة، كالدفاع عن بلاد المسلمين ومقدساتهم وحرماتهم وخيرات بلادهم، أو نشر الدعوة الإسلامية وإزالة العوائق أمام دعاة الإسلام، ونحو ذلك، وأن لا يكون فيه بغي ولا اعتداء ولا نقض للعهود أو قتل لمن لم يقاتل كالنساء والصبيان وغيرهم.

﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ «أخرى» صفة لمقدر، أي: وفئة أخرى كافرة، وهم المشركون،

---

(١) البيت لنمر بن تولب. انظر: «ديوانه» (ص ٣٤٧).

(٢) سبق تخريجه.

وكانوا قريبًا من ألف. أي: وفئة أخرى كافرة مغترة بكثرتها، مفتخرة بقوتها، تقاتل في غير سبيل الله، بل في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي الآية إيجاز يدل على بلاغة القرآن الكريم، فقد اكتفى بوصف الفئة الأولى بأنها ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن وصف الثانية بأنها تقاتل في سبيل الطاغوت. كما اكتفى بوصف الفئة الثانية بأنها كافرة عن وصف الأولى بأنها مؤمنة، فدل في كل جملة على ما لم يذكر في الجملة الأخرى.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ قرأ نافع ويعقوب بتاء الخطاب: «ترونهم»، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَرَوْنَهُم﴾.

فعلى قراءة ﴿تَرَوْنَهُم﴾ الخطاب للفئة التي تقاتل في سبيل الله، وضمير الغيبة الهاء يعود إلى الفئة الكافرة، أي: تشاهدون أيها المؤمنون الكفار ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين، أي: كثرهم في الواقع والحقيقة مرتين.

وعلى قراءة: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ بالغيبة، أي: يشاهد كل فريق منهم الفريق الآخر مثليهم أي: كثرهم مرتين، والضمير في ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ يعود إلى الفريق الرائي، أي: يرى المشركون المسلمين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين مما كان سببًا في دخول الرعب في قلوبهم وهزيمتهم.

وقد يشكل على هذا أن المشركين بعثوا عُمر بن سعد يومئذٍ قبل القتال يحْرز لهم عدد المسلمين، فأخبرهم أنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، فهم لديهم خبر بعدد المسلمين ولو على وجه التقريب.

ويرى المسلمون المشركين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: كثرهم مرتين في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم.

ويشكل على هذا أن المشهور والذي عليه الجمهور أن المشركين ما بين التسعمائة إلى الألف. ففي حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سأل الرجل الذي جيء به إليه، فقال: «**كم ينحرون من الجزور؟**» قال: عشرة كل يوم. قال رسول

الله ﷺ: «**القوم ألف**»(١).

وفي حديث عروة بن الزبير أنه سأل الرجلين اللذين جيء بهما إليه، فقال: «**كم ينحرون؟**» قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا. قال ﷺ: «**القوم ما بين التسعمائة إلى الألف**»(٢). فهم على هذا التقدير ثلاثة أمثال المسلمين.

وقد وجه هذا ابن جرير وجعله صحيحًا كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها أي: إلى ألفين معها، أي: أنك محتاج إلى ثلاثة آلاف، وعلى هذا يزول الإشكال(٣).

ويحتمل عود الضمير في ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ إلى الفريق المرئي، أي: يرى كل فريق منهم عدد عدوه مضاعفًا، والأول أقرب.

﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ ﴿رَأْىَ﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ أي: مشاهدة العين، أي: يرونهم بعيونهم وأبصارهم.

فالرؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤].

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿يُؤَيِّدُ﴾: يقوي، ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب نصره.

﴿مَن يَشَآءُ﴾، ﴿مَن﴾: موصولة. أي: الذي يشاء ويريد كونًا نصره من عباده، ممن تقتضي حكمته نصره.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه: ما سبق في الآية، من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾ إلى هنا ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتبارًا وعظة.

﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: لأصحاب الأبصار.

أي: إن في ذلك التقليل والتكثير، وغلبة الفئة القليلة من المسلمين للفئة الكثيرة

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١٧)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٦-٦١٧)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٤٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٥/ ٢٥٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٣).

من الكافرين اعتبارًا وعظة لأصحاب العقول والبصائر، كما أن في ذلك دلالة على صدق الرسول ﷺ، وأنه على الحق، وتحقيق بشارة المؤمنين بالنصر ووعيد الذين كفروا بأنهم المغلوبون، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢].

وهكذا حصل، فقد تم النصر للمسلمين، وغُلب أهل الكفر من اليهود والمشركين وغيرهم، فقتل بنو قريظة، وأجلي بنو النضير، وفتحت خيبر، وأخذت الجزية ممن بقي من اليهود، وتوالت الهزائم على المشركين في معارك الإسلام، وفتحت مكة، وظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

الفوائد والأحكام:

١- أن الكفار لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، فلن ترفع ما وقع عليهم من عذاب الله تعالى، ولن تمنع عنهم ما لم يقع، ولا تعوضهم ما فقدوا من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. وهذا بخلاف المؤمنين فإنهم ينتفعون بأموالهم بالصدقة، وبأولادهم بالدعاء ونحو ذلك وتكون من أسباب رحمة الله تعالى بهم.

٢- إثبات الملكية الخاصة للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ فلا يجوز استباحة أموالهم إلا إذا كانوا محاربين للمسلمين.

٣- أن أولاد الكفار ينسبون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْلَادُهُم﴾.

٤- إمداد الله للكفار بالأموال والأولاد كغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

٥- قدرة الله تعالى التامة وقوته التي لا تقهر، ونفوذ أمره فلا تغني الكفار أموالهم ولا أولادهم منه شيئًا.

٦- الحذر من الانشغال بالأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى، ومن الاغترار بها فهي قد تضر ولا تنفع.

٧- أن الكفار هم وقود النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

٨- التحذير من الكفر والوعيد للكافرين بالنار.

٩- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

١٠- سلوك الكفار من هذه الأمة مسلك آل فرعون والذين من قبلهم بتكذيب آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

١١- تكذيب آل فرعون ومن قبلهم بآيات الله وشدة تكذيب آل فرعون وطغيانهم، للتنصيص عليهم دون غيرهم، كيف؟! وقد ادعى فرعون الربوبية والألوهية.

١٢- إقامة الله- عز وجل- الحجة على الخلق بما آتاهم من الآيات الكونية والشرعية الدالة على ربوبيته وألوهيته وكمال صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

١٣- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

١٤- أخذه- عز وجل- لفرعون وقومه والمكذبين قبلهم بآيات الله، وإهلاكهم بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وفي هذا رد على من زعم أن فرعون نجا من العذاب مستدلًا بقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢].

وليس المراد في هذه الآية أنه نجا من العذاب، وإنما المراد بها أن الله أنجاه ببدنه، أي: بجثته فقط، حيث رمى بها الموج خارج البحر؛ ليتأكد بنو إسرائيل من هلاكه، فيطمئنوا لأنه قد أرعبهم وأرهبهم بجبروته، فلا يكادون يصدقون بأنه هلك حتى يعاينوا جثته، وليكون آية لمن خلفه، أما روحه فهي في العذاب، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

١٥- التهديد والوعيد للمكذبين من هذه الأمة بأخذهم وإهلاكهم بسبب ذنوبهم كالمكذبين من آل فرعون ومن قبلهم.

١٦- تشابه مواقف المكذبين بآيات الله ورسله، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

١٧- أن ما يصيب الناس من عقوبات إنما هو بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ

بِذُنُوبِهِمْ﴾، ومفهوم هذا إثبات العدل له- عز وجل- فلا يعاقب أحدًا إلا بذنب، ولا يظلم أحدًا من خلقه.

١٨- إثبات الأفعال الاختيارية للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأضاف الذنوب إليهم، وقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فأضاف الفعل إليهم، وفي هذا رد على الجبرية الذين ينفون الاختيار للإنسان، ويقولون: إنه كالسعفة في الهواء ونحو ذلك.

١٩- شدة وقوة عقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٢٠- التحذير من عقاب الله وشدته.

٢١- أن القرآن من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وفي هذا رد على من يزعمون أن الرسول ﷺ افترى القرآن وتقوله من عند نفسه.

٢٢- أهمية هذا الخبر الذي أمر الله نبيه ﷺ، أن يبلغه للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿قُل﴾.

٢٣- تخويف الكافرين وإرعابهم وإرهابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾. وفي هذا بشارة للمؤمنين بالغلبة وتقوية لقلوبهم ومعنوياتهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ووعد الله لا يتخلف إذا صدق المسلمون الله.

٢٤- الوعيد والتهديد للكافرين بجمعهم وحشرهم إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٥- الجمع للكافرين بين عقوبة الدنيا والآخرة؛ عقوبة الدنيا بهزيمتهم وغلبة المؤمنين لهم، وعقوبة الآخرة بجمعهم وحشرهم إلى جهنم.

٢٦- شدة ظلمة النار وجهمتها وحرها، وبعد قعرها؛ لهذا سميت جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٧- ذم جهنم وأنها بئست المهاد والفراش؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

٢٨- ضرب الأمثال والتوجيه لأخذ العبر والعظات من الأمور والأحداث الواقعة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا۟ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ الآية.

٢٩- زيادة التصديق والطمأنينة في ربط الخبر والوعيد بحدث وأمر واقع مشاهد محسوس ليجتمع للمخاطب مع علم اليقين- وهو الخبر الصادق- عين اليقين وهو مشاهدة الحدث الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهو عليه الصلاة والسلام مؤمن مصدق بأن الله يحيي الموتى، ولكنه أراد أن يجمع الله له مع علم اليقين عين اليقين، فيرى ذلك بعينه. وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»(١).

٣٠- أن القتال المشروع ما كان في سبيل الله، أي في سبيل إعلاء كلمة الله، خالصًا لله تعالى، موافقًا للشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣١- أن الغلبة والنصرة ليس بكثرة العدد والعدة، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى ونصره للذين صدقوا الله في القتال في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا كانت الغلبة والنصرة للمؤمنين في عهود الإسلام الزاهرة، وفاءً بوعد الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

أيـام كـان المسـلمون أعـزة ... في ديـنهم والعـود صـلب المكسـر
أيـام كـان الـدين مـلء نفوسـهم ... وأتوا على كسرى العظيم وقيصـر(١)

٣٢- أن ما كان من القتال في غير سبيل الله فهو في سبيل الكفر وأهله، سبيل الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

٣٣- أن الله عز وجل قد يُري المقاتلين من كل فئة الفئة الأخرى مثليهم ليكون ذلك من أسباب نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

ولا يعارض هذا قوله تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الآية: ٤٤]، فهذا في حال وذاك في حال أخرى.

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأوهم مثليهم، ليستعد المسلمون ويتوجهوا إلى الله في طلب العون والنصر، وليحصل للكفار الخوف والرعب والوهن. وعندما التحم الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ ليقدم كل منهما على الآخر، ويتم ما أراده الله من نصر المسلمين وهزيمة الكافرين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

قال: هذا يوم بدر. قال عبدالله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضعِفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا، وذلك

---

(١) البيتان للشاعر محمد صادق عرنوس، من قصيدة نشرها في صحيفة الفتح، العدد ٢٠٧، بتاريخ ١٤ صفر ١٣٤٩هـ. انظر: «الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث» (ص١٦٦). والبيتان فيه بلفظ:

أيـام كـان المسـلمون بحالـة ... مرهوبـة والعـود صـلب المكسـر
أيـام كـان الـدين مـلء قلـوبهم ... فـأتوا عـلى كسـرى العظـيم وقيصـر

قول الله- عز وجل-: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٤]»(١).

وقيل: قللوا في أعين بعضهم أولًا ليجترأ كل منهما على الآخر، ثم لما التحم القتال رأى كل فريق الآخر مثليهم.

٣٤- الإشارة إلى أنه ليس الخبر كالعيان؛ لقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

٣٥- تأييد الله تعالى بنصره من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٣٦- إثبات الأفعال لله تعالى، والمشيئة، وأنه تعالى يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

٣٧- الترغيب في التوجه إلى الله تعالى وسؤاله النصر، والتوكل عليه- مع بذل أسباب النصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٣٨- أن فيما ذكر من التقاء الفئتين المتقاتلتين، ورؤية إحداهما الأخرى مثليها، وتأييد الله بنصره للفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة عبرة وعظة لأصحاب الأبصار والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

٣٩- أنه لا يعتبر بالوقائع والأحداث إلا أصحاب البصائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

٤٠- الترغيب في أخذ العبرة والعظة من الوقائع؛ لأن الله أثنى على أهل البصائر وخصهم بالاعتبار، ويفهم من هذا ذم أهل الغفلة وعمي القلوب والبصائر.

* * *

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٠٦).

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيات السابقة أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ثم أتبع ذلك ببيان أن الأموال والأبناء وغير ذلك، مما ذُكِر في هذه الآية مما زين للناس حبه من الشهوات في إشارة إلى أن كل هذه الأشياء لا تنفع ولا تغني في الآخرة؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ زُيِّنَ ﴾: مبني لما لم يسم فاعله، و«المزين» هو الله- عز وجل- أي: زين الله للناس كونًا. والتزيين: التحسين، أي: حُسِّن للناس ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

والتزيين: التحسين لما لم يكن حسنًا، أو لم يكن خالص الحسن فتغطى نقائصه بالمزيِّنات.

﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي: حب المشتهيات، أي: زين للناس حب المشتهيات، وهي ما تشتهيه النفوس وتتلذذ به حسًّا ومعنىً.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ﴾ ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، فقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وما بعده بيان لـ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، فهذه الأشياء السبعة هي أصول الشهوات البشرية والتي تجمع مشتهيات كثيرة، والتي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار والأمصار.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بدأ بهن لأنهن من أعظم زينة الدنيا وشهواتها، والفتنة بهن أشد، كما قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(٢).

لكن ينبغي أن يعلم أن الميل إلى النساء من حيث الأصل أمر جبلي لتكثير النسل وبقاء النوع الإنساني، بل هو أمر محمود مندوب إليه إذا كان لإعفاف النفس وتكثير الأمة.

ولهذا قال ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»(٣)، وقال ﷺ: «**الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة**»(٤).

وقال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته**»(٥).

وقال ﷺ: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»(٦)، وقال ﷺ: «**حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب**»(٧).

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها**

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢)- وأخرجه مختصرًا الترمذي في الفتن (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

(٣) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٥٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٢٧)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٥)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٦٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

في الحلال كان له أجر»(١). وقال ابن عباس لسعيد بن جبير: «تزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء»(٢).

﴿ وَٱلْبَنِينَ ﴾ هذا وما بعده معطوف على ﴿ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي: زين للناس حب الشهوات من النساء، ومن البنين، ومن القناطير المقنطرة... إلخ.

و«البنين» جمع «ابن» يجمع على «بنين» وعلى «أبناء» وهم الذكور من الأولاد، وخص «البنين» لأن بهم كمال الأب وفخره وكرمه وعزه وشرفه، كما قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر: ١١-١٣] أي: شهودًا وحضورًا عنده يقومون بخدمته ويتقوى بهم ويشرف ويفتخر.

وهذا بخلاف الإناث «البنات»، فإنهم كانوا يتشاءمون بهن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، ويقول قائلهم: «والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة»(٣).

وهذه بلا شك نظرة جاهلية محاها الإسلام وفنَّدها القرآن، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال ﷺ: «إن النساء شقائق الرجال»(٤). وكما قيل:

النـاس مـن جهـة التمثيـل أكفـاء ... أبـــوهم آدم والأم حـــواء
فإن يكن لهمو من أصلهم نسب ... يفـاخرون بـه فـالطين والمـاء(٥)

وحب البنين تارة يكون بالتفاخر والتعاظم بهم، وربما التسلط على الآخرين فهو

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٩).

(٣) أخرجه ابن الشجري عن الفراء: أن أعرابيًّا بشر بابنة ولدت ، فقيل له: نعم الولد هي. فقال: «والله ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة». «أمالي ابن الشجري» (٢/ ٤٠٥)، وانظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٥)، «شرح الكافية الشافية» (٢/ ١١٠٢).

(٤) أخرجه الترمذي في الطهارة (١١٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢/ ١٠٨).

أمر مذموم وغير محمود، وتارة يكون حبهم لأجل تكثير الأمة ونفع الإسلام والمسلمين، وتهيئة أجيال صالحين ينفعون أنفسهم ووالديهم وأمتهم، وهذا أمر محمود ومندوب شرعًا، لكنه قليل.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع «قنطار» وهو: المال الكثير الجزيل، وقيل: ما يزن مائة رطل من الفضة، أو اثنا عشر ألف دينار من الذهب، أو مائة ألف دينار من الذهب، وقيل غير ذلك.

﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: المضاعفة المتكاثرة، كقولهم: «آلاف مؤلفة».

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ ﴿مِنَ﴾ بيانية، فقوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطير المقنطرة، وإنما كان الذهب والفضة محبوبين للناس؛ لأنهما ثمن جميع الأشياء، بهما تقدر وتقوَّم جميع الأموال، فالمالك لهما كالمالك لجميع الأشياء.

والمال فتنة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وكلما ازداد وكثر زاد الافتتان به؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ وقد قال ﷺ: **«فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»**(١).

وإذا كان جمع المال بقصد التكثر به والفخر والتعاظم على الناس، وكسبه من أي طريق كان حلالًا أو حرامًا، وصرفه في غير سبله الشرعية فالفتنة به أشد والمصيبة به أعظم.

وبالمقابل فإذا كان حب المال للتعفف به وجعله مطية للآخرة، وإنفاقه في سبيل الله، في القرابات وصلة الأرحام وفي وجوه البر والطاعة ونفع المسلمين مع اكتسابه من حلال، فهذا أمر محمود بل مأمور به شرعًا، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾.

وسميت «خيلًا» من «الخيلاء»؛ لأنها تختال في مشيتها، وتترفع، كأنه يخيل إليها أن لا شيء يساميها. كما أن راكبها قد يبتلى بالخيلاء، لما لها من شأن في رياضة السباق ونحو ذلك.

وقد أقسم الله- عز وجل- بالخيل تعظيمًا لشأنها في الجهاد في سبيل الله، فقال

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ١-٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي الحديث: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل لثلاثة؛ لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر**»(٢).

فمن اقتناها وحبسها للجهاد في سبيل الله فهي له أجر وفعله محمود ممدوح، ومن اقتناها وحبسها للدفاع عن نفسه وحرماته فهي له ستر وفعله مباح، ومن اقتناها وحبسها للفخر والخيلاء فهي له وزر وفعله مذموم.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: الراعية، التي تُسوَّم أي: تُسرَّح وترسل للرعي، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]، أي: فيه ترعون أنعامكم. ومنه سميت: «السائمة من بهيمة الأنعام». وفي الحديث: «**فأطال طيلها في مرج أو روضة**»(٣).

ويحتمل أن المراد بـ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة المطهمة الحسان، بـ«شياتها، وغررها» في وجوهها وتحجيلها في أيديها وأرجلها.

ولا تزال للخيل مكانة ومحبة عند الناس مع التقدم المذهل في أنواع المراكب برًا وبحرًا وجوًا مما يوحي بأنها ستعود في يوم ما لها مكانتها يوم أن كانت عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٠)، ومسلم في الإمارة- فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٢)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠)، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٨).

(٣) هذا جزء من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- السابق.

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ جمع «نَعَم» وهي: الإبل والبقر والغنم، زينت للناس لما فيها من المنافع، فمنها ركوبهم وطعامهم وشرابهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

وأغلاها وأنفسها الإبل؛ ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»(١).

واقتناء الأنعام وتربيتها كغيرها من الأموال قد يكون بقصد المفاخرة والتعاظم والمباهاة ونحو ذلك، وربما مع التقصير في حقها وعدم إخراج حق الله فيها فهو مذموم غاية الذم.

وقد يكون اقتناؤها للانتفاع بمنافعها المتعددة مع أداء حقها، وإخراج حق الله في رقابها فهذا أمر محمود، وعمل مشكور لنفعه العام والخاص.

﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ أي: حرث الأرض وغرسها وزرعها واستخراج الأقوات منها للناس والدواب، وهي كغيرها من الأموال إن قصد بها التكثر والتفاخر، وربما منع حق الله فيها، لا يمدح صاحبها. وإن قصد بذلك التعفف ونفع المسلمين، والبذل منها في سبيل الله، فذلك أمر محمود بل مطلوب شرعًا.

فهذه الأشياء السبعة مما زين للناس حبه، وكذا غيرها لحكم بالغة عظيمة، منها: بناء هذا الكون وعمارته، ومنها ابتلاء وامتحان العباد، ليتميز من ينشغل منهم بذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، وأبوداود في العلم (٣٦٦١)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

عما خلق له من عبادة الله تعالى وطاعته، ممن يتوازن فيعمل لما خلق له ولا ينس نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]؛ ولهذا قال:

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ الإشارة إلى ما ذكر في الآية، أي: ذلك المذكور مما زين للناس من حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. وأشار إليها بإشارة البعيد تحقيرًا لها بالنسبة لنعيم الآخرة.

و﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ ما يتمتع ويتبلغ به في هذه الحياة، ثم يزول.

أي: أن هذه الأشياء مما يتمتع به في هذه الحياة الدنيا ثم تزول أو يزول الإنسان عنها، فلا هي تبقى للإنسان، ولا هو يبقى لها.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد(١)

وقال الآخر:

تعز فلا شيء على الأرض باقيًا ... ولا وزر مما قضى الله واقيا(٢)

و﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن، فهي الدار الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥].

وسميت «دنيا» أيضًا؛ لأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى**

---

(١) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» (ص٣٤٧)، «العمدة في محاسن الشعر» (١/ ٣٤).

(٢) البيت لم ينسب لقائل. انظر: «أوضح المسالك» (١/ ٢٧٥)، «المغني» للسيوطي (٢/ ٦١٢).

كافرًا منها شربة ماء»(١)، وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: «**مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها**»(٢)، وقال ﷺ: «**وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها**»(٣).

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ ختم الله- عز وجل- الآية بهذا الختام لبيان أنه لا ينبغي أن يؤثر الإنسان ما زين للناس من متاع الحياة الدنيا على ما أعدّه الله- عز وجل- لأوليائه في الآخرة من المآل الحسن والثواب العظيم.

و﴿ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾ أي: حسن المرجع والجنة والثواب، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم- كما فسر ذلك رسول الله ﷺ(٤).

ويكفي في حسن هذا المآب أنه عند الله عز وجل، فهو منه وبجواره، لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، الذين عملوا لهذا المآل، ولم ينشغلوا بما زين من متاع الحياة الدنيا، وهو ما فسره بقوله تعالى:

﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾.

أخبر عز وجل في الآية السابقة أن عنده سبحانه حسن المآل، ثم أتبع ذلك بشيء من التفصيل والبيان لهذا المآل الحسن.

قوله: ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿ أَؤُنَبِّئُكُم ﴾، أي: أخبركم، و«النبأ» هو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النبأ: ١، ٢]؛ ولهذا

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «صحيح غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.

صدر هنا بهمزة الاستفهام الدال على الاهتمام والتنبيه والتشويق، أي: أأخبركم.

﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة للمشار إليه في الآية السابقة، وهو ما زين للناس من متاع الحياة الدنيا الزائل، والخطاب لجميع الناس.

والمعنى: قل يا محمد: أأخبركم ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور خيرية مطلقة، وأشار إليه بإشارة البعيد تحقيرًا له.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: خبر مقدم، و﴿جَنَّاتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر، أي: للذين اتقوا خاصة جنات.

أي: للذين اتقوا الله- عز وجل- بفعل أوامره وترك نواهيه، فجعلوا بهذا العمل بينهم وبين عذاب الله وقاية.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في هذا تعظيم لما أعد لهم من ثلاثة أوجه: الأول: أنه من ربهم عز وجل العظيم أكرم الأكرمين، والعطاء يكون على قدر المعطي؛ ولهذا لا أحد يقدر قدر ما أعد عنده سبحانه لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الحديث القدسي يقول عز وجل: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(١).

الوجه الثاني: أنه عند ربهم، بالقرب منه، فنعم القرب، ونعم الجوار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأضاف العندية إلى «الرب» الذي: معناه الخالق المالك المتصرف، المربي لعباده بجميع النعم، ذو العناية التامة بهم، ومربيهم بربوبيته الخاصة؛ ولهذا أضاف اسم «الرب» إلى ضميرهم تشريفًا وتكريمًا لهم.

﴿جَنَّاتٌ﴾ «جنات» جمع «جَنة» وأصل الجنة البستان، سمي بذلك لأنه يجن

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويستر من بداخله بأشجاره وثماره الملتفة.

والمراد بها في الآية البساتين والمنازل التي أعدها الله للمتقين، مما لا تقاس به بساتين الدنيا ومنازلها، أي: لهم جنات كثيرة متعددة ومتنوعة، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وقال ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن**»(١).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» لأن الجمل بعد النكرات صفات.

أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهي تجري بغير أخدود يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا. قال ابن القيم(٢):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلاهي تفنى، ولا هم يخرجون منها.

وقال ﷺ: «**ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]**»(٣).

﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٌ﴾، أي: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ ولهم «أزواج مطهرة»، وعطفها على ﴿جَنَّٰتٌ﴾ لاختلاف أنواع التلذذ، وهو أشبه بعطف

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٨٠)، من حديث عبدالله بن قيس رضي الله عنه.

(٢) «النونية» (ص٢٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٧)، والترمذي في التفسير (٣٢٤٦)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

الخاص على العام؛ لأن التمتع بالأزواج من أعظم نعيم الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وهذه الأزواج المطهرة من أزواجهم في الدنيا، ومن الحور العين.

ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهرة خلْقًا وخُلُقًا، أي: مطهرة من النجاسات الحسية، كالحيض والنفاس والبول والغائط والمني والمخاط وسائر الأدناس ونحو ذلك.

ومن الأرجاس المعنوية، كالغل والحقد والحسد والغيرة والفحش وسوء الخلق، ونحو ذلك.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٌ﴾ فذكر أولًا الجنات وهي المنازل والمساكن وما فيها من أنواع النعيم الحسي ومن ذلك الأزواج المطهرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما هو أعظم من ذلك كله وهو النعيم المعنوي الروحي وهو: «رضوان الله عليهم».

قرأ أبوبكر عن عاصم بضم الراء: «ورُضوان»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «ورضوان منه» بل قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لتعظيم ذلك الرضوان، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي: ورضوان من الله تعالى عليهم، فلا يسخط عليهم أبدًا، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(١).

وأعظم من ذلك كله النظر إلى وجه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﷺ(٢).

وعن صهيب- رضي الله عنه- قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى:**

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في الجنة صفة نعيمها وأهلها- إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»(١).

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: والله مطلع على العباد، خبير بهم لا يخفى عليه منهم خافية.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة: عبودية الخلق والملك والتدبير، فهو بصير بالعباد كلهم يعلم من آثر الشهوات ومتاع الحياة الدنيا، ومن اختار الآخرة وما فيها من ألوان النعيم، يوفق من شاء بفضله، ويخذل من شاء بعدله، ويجازي كلًا بعمله. وفي هذا وعد لمن اتقى الله ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

هاتان الآيتان وصف ونعت للذين اتقوا في قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ يا ربنا ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا بألسنتنا وقلوبنا بك يا ربنا وبكتبك ورسلك، وبكل ما يجب الإيمان به، وانقدنا بجوارحنا لشرعك.

وقد أكَّدوا هذا بـ«إنَّ»، ودعوا الله عز وجل وتوسلوا إليه باسم الربوبية الذي مقتضاه العناية والرعاية، والذي كان به جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الفاء: عاطفة سببية، فتوسلوا إلى الله بإيمانهم، أي: بسبب إيمانهم أن يغفر ذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

والمعنى: استر ذنوبنا وتجاوز عنها، والذنوب هي السيئات والمعاصي كبيرها وصغيرها.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة: «**أن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه،**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧).

فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله تعالى: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك»(١).

ومنه سمي المغفر وهو «البيضة» التي توضع على الرأس في القتال تستره وتقيه السهام وحيث اجتمع سؤال المغفرة والتوبة، فتبدل سيئاتهم حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: اجعل لنا وقاية من عذاب النار، بتوفيقنا للعمل الصالح، والبعد عن العمل الذي يوجب عذاب النار، وبالعفو عما يقع منا من نقص أو تفريط، وإنما خصوا مسألتهم بالمغفرة لذنوبهم ووقايتهم عذاب النار؛ لأن من غفرت ذنوبه، وزحزح عن النار فقد فاز، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وليس ثمة دار غير الجنة والنار فمن وقي عذاب النار فمآله الجنة دار الأبرار.

المَوْتُ بابٌ وكلّ الناسِ داخِلُهُ ... يا ليْتَ شعرِيَ بعدَ البابِ ما الدَّارُ
الدَّارُ جنَّةُ عدنٍ إنْ عمِلتَ بِمَا ... يُرْضِي الإلَهَ، وإنْ فَرَّطتَ، فالنّارُ
هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار(٢)

قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا- كما سبق- من نعت ووصف «الذين اتقوا».

قوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الصابرين: جمع «صابر» أي: الصابرين على فعل الطاعات وترك المحرمات وعلى أقدار الله.

والصبر لغة: الحبس، وهو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٤١).

وهو أنواع ثلاثة: أعظمها وأفضلها: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة(١).

﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: معطوف هو وما بعده على ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

و«الصادقين» جمع «صادق» والصدقة موافقة الباطن للظاهر، ومطابقة الخبر للواقع، والصدق يكون أولًا مع الله تعالى، كما يكون مع النفس، ويكون مع الخلق. أي: والصادقين مع الله في الإيمان باطنًا وظاهرًا، والإخلاص لله- عز وجل- والمتابعة لشرعه، وفعل أمره واجتناب نهيه.

والصادقين مع أنفسهم بالاجتهاد بطلب سعادتها ونجاتها وخلاصها، وعدم تعريضها لعذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(٢).

قال الشاعر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب(٣)

وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانًا بها كانت على الناس أهونا(٤)

والصادقين مع الخلق في تعاملهم معهم قولًا وفعلًا وأداءً لحقوقهم.

والصدق يكون بالأقوال، بأن يَصدق الإنسان فيما يقول وفيما يخبر به عن أمر وقع، ومنه الشهادة ونحو ذلك، فيكون قوله في هذا مطابقًا للواقع، فيخبر بالخبر حقًا- كما رأى أو سمع، ويؤدي الشهادة حقًا كما تحملها، وهكذا.

ويكون الصدق بالأقوال أيضًا: بما يتحمله المرء ويلتزم به في المستقبل من عمل أو وعد أو عهد ونحو ذلك، فيتبع القول بالعمل والوعد والعهد بالوفاء، وقد قال الله-

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [الآية: ٤٥].

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

(٤) البيت مجهول النسبة. انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٢٠)، «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧).

عز وجل- معاتبًا المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وقال ﷺ في ذم أهل النفاق: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(١).

والصدق يكون بالأفعال بأن يكون ما يفعله المرء من أفعال ظاهرة موافقًا لما يقوله، ولما في باطنه، فلا يظهر الإيمان بأفعاله وهو يبطن الكفر، ولا يظهر المسكنة وهو غني، ولا يظهر المودة والمحبة وهو يضمر العداوة والبغضاء ونحو ذلك.

والصديقية مرتبة عظيمة تلي مرتبة النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ﴾ [النساء: ٦٩].

ولهذا قال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(٢).

ومنه سميت مريم- عليها السلام- «صديقة»، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ ﴾ [المائدة: ٧٥].

ومنه سمى أبوبكر- رضي الله عنه- «الصديق»؛ لأنه أول مَن آمن بالنبي ﷺ وصدَّقه من الرجال.

﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ جمع «قانت» والقنوت: دوام الطاعة والخشوع والخضوع لله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ ﴾ [الزمر: ٩]، أي: مديم الطاعة خاشعًا خاضعًا. وقال تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي: خاشعين خاضعين لله، غير

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٥٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة- ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة (١٢٠٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة- تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٩)، وأبوداود في الصلاة (٩٤٩)، والنسائي في السهو (١٢١٩)، والترمذي في الصلاة (٤٠٥)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

متكلمين في الصلاة بغير ما شرع فيها.

كما قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: «كنا نتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ يكلم أحدنا صاحبه بحاجته، حتى نزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت»(١).

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ جمع «منفق» والمنفق: مَن بذل النفقة. والنفقة والإنفاق: بذل المال وإخراجه.

وهو نوعان: محمود يمتدح صاحبه، وهو الإنفاق المشروع، وهو المراد هنا، أي: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ النفقات المشروعة، الواجبة والمستحبة، بإخراج الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد، والصدقات في سبيل الله، وأبواب البر، وطرق الخير، من غير إسراف ولا تقتير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

والنوع الثاني من الإنفاق مذموم يذم صاحبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ «المستغفرين» جمع مستغفر، والاستغفار: طلب مغفرة الذنوب، أي: الذين يصلون في الأسحار ويطلبون من الله مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾ الباء هنا ظرفية بمعنى «في»، أي: في الأسحار، و«الأسحار» جمع «سحر» وهو آخر الليل، الذي هو وقت النزول الإلهي، وإجابة الدعاء.

كما قال ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له، مَن يسألني فأعطيه، مَن يستغفرني فأغفر له؟**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين- الترغيب في الدعاء والذكر من آخر =

فامتدحهم بالاستغفار في هذا الوقت وهو وقت السحر، وفي هذا ثناء عليهم من وجهين، الأول: التماسهم لاستغفارهم وقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا، ووقت إجابة الدعاء.

والثاني: الإشارة إلى أنهم يتهجدون ويقومون الليل ويختمون بالاستغفار بعد الفراغ من قيام الليل، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقد شرع الاستغفار بعد الانتهاء من العبادة؛ بعد الصلاة، وبعد الحج ونحو ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تزيين حب الشهوات من النساء للناس كونًا، وكذا حب البنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾.

٢- حكمة الله تعالى البالغة في تزيين هذه الأشياء السبعة المذكورة للناس وغيرها لبناء هذا الكون وعمارته.

٣- ابتلاء الله تعالى للناس في تزيين الأشياء المذكورة وغيرها من متاع الدنيا لهم ليتبين من لا يشغله ذلك عن عبادة الله تعالى، بل يستغل ذلك ويستعين به على طاعة الله تعالى، ممن يشغله ذلك أو يجره إلى معصية الله تعالى.

٤- أن محبة ما ذكر في الآية على وجه لا يشغل عن طاعة الله تعالى أمر مباح، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وقال ﷺ: «**حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب**»(١).

٥- الحذر من الافتتان بالشهوات من النساء والبنين والأموال، وغير ذلك مما ذكر في الآية وغيره، والانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى.

=

الليل والإجابة فيه (٧٥٨)، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦).

(١) سبق تخريجه.

٦- أن من أعظم ما تحصل به الفتنة، ويشغل عن طاعة الله تعالى النساء والأبناء والأموال، لهذا قدمت في الآية، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

والأولاد يشمل الأبناء والبنات. عن يعلى العامري- رضي الله عنه- قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ فضمهما إليه، وقال: «**إن الولد مبخلة مجبنة**»(١). وقال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»(٢).

٧- تقديم كثير من الناس محبة الأبناء- غالبًا- على محبة البنات، والتفاخر والتعاظم بهم؛ لهذا خص البنين بالذكر دون البنات. والخير فيما يختاره الله، وصدق الله العظيم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

ويكفي البنات فخرًا أن جل نسل الأنبياء عليهم السلام بنات، وأنهن حجاب لوالديهن من النار(٣)، وأنهن سبب لمرافقته النبي في الجنة(٤).

٨- أن المال كلما كثر ازدادت الفتنة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، وفي الحديث: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «الزكاة» (١٤١٨)، ومسلم في «البر والصلة» (٢٦٢٩)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم في «البر والصلة» (٢٦٣١)، والترمذي (١٩١٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

٩- أن مما يزين للناس اقتناء الخيل وركوبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ وهي كما قال ﷺ: «**لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر**»(١).

١٠- أن مما زين للناس اقتناء الأنعام، الإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وذلك إما بقصد الاستفادة من نتاجها أو للاتجار بها وهذا أمر مباح بل مشروع لما فيه من نفع عام ما لم يؤد إلى الفتنة بالمال.

وقد يكون اقتناؤها لأجل المفاخرة والمباهاة بها، كما هو حال أهل مزايين الإبل- كما يقولون- الذين يشترون الفحل أو الناقة بعشرات الملايين، وكما هو حال الذين يشترون «التيس» وهو ذَكَر المعز بمئات الآلاف، ممن يحتاجون إلى «درة» عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

١١- أن مما يزين للناس حرث الأرض وزرعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾.

وهذا فيه أيضًا نفع عام ما لم يؤد بصاحبها إلى الانشغال عن طاعة الله تعالى والافتتان في الدنيا.

١٢- أن كل ما ذكر في الآية مما زين للناس من حب الشهوات من النساء والبنين وغير ذلك هو مجرد متاع في هذه الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٣- التزهيد في التعلق بما ذكر مما زين للناس، والترغيب في الانشغال بما ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. فهو إما أن يزول عن الإنسان أو يزول عنه الإنسان.

١٤- حقارة الحياة الدنيا ودناءتها؛ لهذا سميت «دنيا»؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهي دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة. لكنها أيضًا مزرعة للآخرة لمن وفقه الله تعالى.

١٥- أن الله- عز وجل- عنده حسن المآل والمرجع، وهو الجنة، مما هو خير من الدنيا وزينتها ومتاعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فلا ينبغي الانشغال بالدنيا وما فيها عما عند الله تعالى.

١٦- أن القرآن الكريم كلام الله- عز وجل- أمر نبيه محمدًا ﷺ تبليغه للناس؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿قُلْ﴾.

١٧- بلاغة القرآن الكريم باختيار أسلوب التنبيه والتشويق في الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾.

١٨- أن ما عند الله- عز وجل- للذين اتقوا من جنات تجري من تحتها الأنهار، وأزواج مطهرة، ورضوان الله عليهم خير من الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

١٩- أن المفاضلة قد ترد بين أمرين بينهما في الفضل بون شاسع وفرق واسع، فقد فاضل هنا بين زينة الدنيا ومتاعها، وبين ما أعد للذين اتقوا عند ربهم من الجنات وما فيها من ألوان النعيم. وشتان بين هذا وهذا.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

كما أن المفاضلة قد ترد بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

٢٠- تشريف المتقين وتكريمهم بإضافة اسم «الرب» إلى ضميرهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢١- عظم ما للذين اتقوا عند ربهم، فهم في جوار ربهم الكريم، ولهم جنات تجري من تحتها الأنهار فيها من ألوان النعيم، وأزواج مطهرة، ورضوان من الله أكبر، وأعظم بهذا من نعيم، ويكفي في عظمته أنه من ربهم الكريم ذي الفضل العظيم، وعنده، وفضل التقوى والترغيب فيها؛ لعظم ما خص به المتقين من الثواب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

٢٢- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ والرضا من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).

٢٣- اطلاع الله- عز وجل- وبصره وعلمه بالعباد وأعمالهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

٢٤- حكمة الله- عز وجل- الكونية في كون العباد منهم المتقي ومنهم خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

٢٥- الوعد لمن اتقى الله والوعيد لمن خالف أمر الله وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

فمعنى هذا ومقتضاه أنه محيط بهم وبأعمالهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

٢٦- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى التقي منهم وغيره، عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

٢٧- ثناء الله- عز وجل- على المتقين وامتداحه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

٢٨- أن من أهم وأعظم صفات المتقين سؤال الله تعالى مغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار؛ اعترافًا منهم بتقصيرهم، وبعدًا عن الإدلاء على الله بعملهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٩- دعاء المتقين في طلبهم المغفرة من ربهم بوصف الربوبية الذي مقتضاه العناية بعباده؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

٣٠- توسل المتقين في سؤالهم المغفرة من ربهم بإيمانهم إقرارًا منهم واعترافًا بعبوديتهم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

٣١- جواز التوسل بالإيمان والأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

وكما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فقال بعضهم: «إنه لا نجاة لكم مما أنتم فيه إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي

أبوان شيخان كبيران- الحديث. وفيه «ففرَّج الله عنهم وخرجوا يمشون»[١].

٣٢- حاجة الإنسان مهما كان عليه من التقى إلى سؤال الله تعالى المغفرة والوقاية من عذاب النار، فالإنسان لا يخلو من تقصير ونقص، وعمله مهما كثر لا يعدل شيئًا من نعمة الله تعالى عليه، ولا أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى وفضله.

٣٣- مشروعية البسط في الدعاء تعظيمًا لله- عز وجل- وتقربًا إليه وخضوعًا بين يديه، وإظهارًا للافتقار إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فسؤال مغفرة الذنوب متضمن طلب الوقاية من عذاب النار، ولم يكتفوا به، بل قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. لكن ينبغي أيضًا الحرص على جوامع الدعاء مما ورد في الكتاب والسنة وسلف الأمة والبُعد عن التكلف والاعتداء في الدعاء.

٣٤- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٣٥- أن من صفات المتقين: الصبر، والصدق، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار بالأسحار؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

٣٦- الترغيب بالاتصاف بهذه الصفات السبع التي امتدح الله بها المتقين، من سؤال مغفرة الذنوب، والوقاية من عذاب النار، والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار، ومفهوم ذلك ذم من اتصف بضد هذه الصفات.

٣٧- فضل الصبر على ما ذكر بعده من الصفات لتقديمه عليها، وذلك لأنه لا قيام لها إلا به.

٣٨- فضل الصدق؛ لأن الله امتدح المتصفين به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وهو يشمل الصدق مع الله تعالى في الإيمان به باطنًا وظاهرًا، والانقياد لشرعه.

والصدق مع النفس بطلب خلاصها، ونجاتها، والصدق مع الخلق في الحديث وأداء حقوقهم.

---

(١) أخرجه البخاري في المزارعة (٢٣٢٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)، وأبوداود في البيوع (٣٣٨٧)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

وهو من أفضل الأعمال، يهدي إلى البر ويرفع صاحبه إلى منزلة الصديقين، بسببه خلد الله ذكر الثلاثة الذين خلفوا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٨، ١١٩].

٣٩- فضل القنوت ودوام الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ وفي الحديث: «**إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»(١).

٤٠- فضل الإنفاق في وجوه البر والخير المشروعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾.
وفي الحديث: «**اليد العُليا خير من اليد السُفلى**»(٢).

٤١- فضل أوقات السحر وفضل الاستغفار فيها حيث وقت النزول الإلهي، وإجابة الدعاء، وختام القيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

***

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢)، وأبوداود في الصلاة (١٣٦٨)، والنسائي في القبلة (٧٦٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣)، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: الشهادة تكون بالقول والإخبار والإعلام، وتكون بالفعل، أي: شهد الله بقوله وإخباره وإعلامه لخلقه بما أنزل في كتبه وعلى ألسنة رسله أنه لا معبود بحق إلا هو، المتفرد بالألوهية لجميع الخلق، وكلهم عبيده.

وبذلك قضى وحكم، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ [الأنبياء:٢٤]، وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

وشهد- عز وجل- بفعله أنه لا معبود بحق إلا هو بما نصَّبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تُعلم دلالتها بالعقل والفطرة، من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والإنسان والحيوان والنبات.. وغير ذلك؛ فهو سبحانه وتعالى بخلقه لها ونصبها دلائل على وحدانيته قد شهد وأبان بها أنه لا إله إلا هو.

كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة، وبفعله تارة. فالقول هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، وأوحاه إلى عباده، كما قال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

وأما شهادته بفعله فهو: ما نصَّبه من الأدلة على وحدانيته التي تُعلم دلالتها بالعقل، وإن لم يكن هناك خبر عن الله، وهذا يُستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويُظهِره، فهو بمنزلة المخبر به، الشاهد به.

كما قيل: سل الأرض من فجَّر أنهارها، وغرس أشجاها، وأخرج ثمارها، وأحيا نباتها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تُجِبكَ حِوارًا، أجابتك اعتبارًا.

وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه، فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو سبحانه الذي جعلها دالة عليه، فإن دلالتها إنما هي بخلقه، وبيَّن ذلك؛ فهو الشاهد المبيِّن أنه لا إله إلا هو، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة.

قال ابن كيسان: «شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو»(١).

وقد ذكر ابن القيم أن للشهادة أربع مراتب، قال:

«فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحه المشهود به وثبوته، وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به- وإن لم يُعلِم به غيره، بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها، وثالثها: أن يُعلِم غيره بما شهد به ويخبره به ويبينه له، ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به»، ثم قال: «فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به»(٢).

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٢٨٨- ٢٨٩).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٥٣).

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أنه لا معبود حق إلا هو، فكل ما عُبِد من دون الله فهو باطل، كما قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف هو و﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ على لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: وشهد الملائكة أنه لا إله إلا هو. قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: وشهد أولوا العلم، أي: أصحاب العلم بالله- عز وجل- وشرعه، وما يجب له- عز وجل-: أنه لا إله إلا هو، بإقرارهم بذلك، وبيانهم وإعلامهم بذلك غيرهم.

﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: حال، أي: شهد الله أنه لا إله إلا هو حال كونه قائمًا بالقسط- كما شهد الملائكة أولوا العلم أنه لا إله إلا هو حال كونه قائمًا بالقسط، أي: قائمًا بالعدل، قولًا وفعلًا وإخبارًا وحُكمًا به وأمرًا.

فشهد سبحانه أنه لا إله إلا هو ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ أي: متكلمًا بالعدل، مخبرًا به، حاكمًا به، آمرًا به، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، وقال تعالى في مثل ضربه لنفسه ولما يُشرك به من الأوثان: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:٧٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

فخلقه- عز وجل- السموات والأرض بالعدل، وعبادته وحده دون غيره حقيقة العدل، وجزاؤه المؤمنين بالجنة، والكافرين بالنار عدل.

قال ابن القيم[١]: «فتضمنت هذه الآية أجلّ شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود».

فهو سبحانه خير الشاهدين، وأصدق القائلين، وشهادته على وحدانيته وعلى قيامه بالقسط أكبر وأعظم شهادة، وتوحيده أعدل العدل، والشرك به أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: شهد عز وجل أولًا لنفسه أنه (لا إله إلا هو)، كما شهدت بذلك الملائكة وأولوا العلم، وحكم ثانيًا أنه (لا إله إلا هو) فشهد بذلك أولًا، وحكم به ثانيًا، وأكده وأمر به.

ففي الأولى شهادته- عز وجل- وإخباره أن (لا إله إلا هو)، وفي الثانية حكمه وتأكيد أنه (لا إله الا هو)، وفي ذلك كله تعليم عباده، وأمرهم بالشهادة بذلك واعتقاده وعبادته وحده دون سواه.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه ذو العزة التامة، و«الحكيم»: اسم من أسمائه- عز وجل- يدل على أنه سبحانه ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة[٢].

قال ابن القيم[٣]: «فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: قرأ الكسائي بفتح الهمزة «أنَّ»، وقرأ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٥٢).

(٢) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٦٣).

الباقون بكسرها ﴿إِنَّ﴾.

فعلى قراءة فتح الهمزة تكون الجملة عطف بيان؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يعنى: شهد الله أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام، وعلى قراءة كسر الهمزة تكون الجملة مستأنفة.

و﴿ٱلدِّينَ﴾: الملة والشرعة، قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦].

﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: أي إن الدين المقبول، المرضي عند الله هو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ صيغة حصر، أي: الدين الذي لا دين عند الله سواه.

﴿ٱلْإِسْلَٰمَ﴾: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهو الدين الذي بعث الله به جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم؛ ولهذا قال أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، وقال إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]، وقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

وقال تعالى عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة:٤٤]، وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

وقال تعالى مخاطبًا لهذه الأمة: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

ولما خُتمت الأديان بشريعة محمد ﷺ صار الإسلام علمًا بالغلبة على ما جاء به محمد ﷺ، فلا يقبل بعد بعثه من أحد سواه؛ لنسخه لجميع الأديان السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨].

والإسلام إذا أطلق وأفرد يشمل جميع شرائع الدين الظاهرة، وجميع عقائده الباطنة، فيشمل أركان الإسلام الخمسة.

وفي حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا**»(١).

وكذا أركان الإيمان الستة، كما في حديث: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(٢).

وكذا كل ما أمر الله به من التوكل على الله، وخوفه، ورجائه، وبر الوالدين، وصلة

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في سننه (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣)، من حديث عبدالله بن عمر عن أبيه عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما.

الأرحام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. وغير ذلك، سواء كان ذلك الأمر واجبًا أو مندوبًا.

كما يشمل ذلك ترك كل ما نهى الله عنه من الكفر والشرك، والقتل العمد، والربا، وأكل مال اليتيم، والسحر، والكذب والفجور وقول الزور، والغيبة والنميمة، وغير ذلك.

قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: في هذا تقرير وتأكيد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾، وأن هذا هو الذي كان عليه الناس، وعليه أجمعت الأمة، ثم طرأ الاختلاف بما حصل من أهل الكتاب من اختلاف من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم.

قوله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ هم: اليهود والنصارى.

سُمُّوا أهل الكتاب؛ لأن لهم كتبًا بقيت إلى بعثة النبي ﷺ- وإن كانت محرفة.

أي: وما وقع الاختلاف بين أهل الكتاب في أديانهم وفي دين الإسلام، فاختلف اليهود مع النصارى، واختلف أهل كل ملة منهم فيما بينهم، واجتمعوا على مخالفة الإسلام، وحذف متعلق الاختلاف ليشمل هذا كله.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، أي: إلا من بعد مجيء العلم إليهم، أي: إلا من بعد مجيء الوحي من الله تعالى إليهم في كتبه، وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

أي: إلا من بعد ما عرفوا الحق، وقامت عليهم الحجة، فاختلفوا حيث لا يسوغ لهم الاختلاف.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ «بغيًا»: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي بينهم والحسد، أي: بغيًا من بعضهم على بعض، وحسدًا، وطلبًا للرياسة.

ولم يكن اختلافهم لشبهة عندهم، فأصبح بعضهم يضلل بعضًا، ويُكَفِّر بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الجاثية:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤].

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، أي: ومن يكذِّب بآيات الله الشرعية والكونية ويجحدها ويستكبر عن الانقياد لما جاء فيها من الحق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: جملة جواب الشرط، و«الفاء»: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وفيها تخويف وتهديد، أي: فإن الله سريع الحساب، وسيحاسبه ويجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب، وأكد عز وجل هذا بـ«إنَّ» وكون الجملة اسمية.

والله- عز وجل- سريع الحساب فحسابه آتٍ، وكل آتٍ قريب. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»(١).

وهو عز وجل سريع الحساب؛ لأن عمر الإنسان في هذه الدنيا قليل، والدنيا كلها قليل بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «**ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

وكان ابن عمر يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»(٣).

---

(١) ذكره الترمذي في «صفة القيامة»، و«الرقائق»، و«الورع» (٢٤٥٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في «الرقاق» (٦٤١٦)، والترمذي في «الزهد» (٢٣٣٣)، وابن ماجه في «الزهد» (٤١١٤).

وهو- عز وجل- سريع الحساب؛ لأن الانسان يجد في هذه الحياة الدنيا شيئًا من عاقبة عمله سعادة وتيسيرًا لأموره إن كان مطيعًا، وشقاوة وتعسيرًا لأموره إن كان عاصيًا.

وهو- عز وجل- سريع الحساب، لا يحتاج إلى وقت طويل لمحاسبة الخلائق؛ لأنه لا يخفى عليه شيء من الخلق وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

وقد قال بعض أهل العلم: إن الله- عز وجل- يحاسب الخلائق في نصف يوم أخذًا من قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]. قالوا: فهو يحاسب الخلق في النصف الأول من النهار، والنصف الثاني يكون أهل الجنة فيها، أي: يقيلون فيها.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- اختلاف أهل الكتاب بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في إشارة واضحة إلى أن اختلافهم فيما بينهم مُفضٍ إلى محاجة الرسول ﷺ فيما جاء به.

قوله ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ الفاء: عاطفة، وضمير الواو في «حاجوك» يعود إلى أهل الكتاب والمشركين، بدليل قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾، والخطاب للنبي ﷺ.

و«المحاجة»: المخاصمة، وأكثر ما تكون في المخاصمة بالباطل، أي: فإن خاصموك في الدين خصام مكابرة وعناد.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾: جواب الشرط «إن». قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الياء: ﴿وَجْهِيَ﴾، وقرأ الباقون بتسكينها «وجهيْ».

أي: توجهت إلى الله بوجهي وقلبي وبدني، وأخلصت له في عبادتي، واتبعت شرعه؛ امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، ورضًا بحكمه، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسِعَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٩].

وفي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾: قطع الطريق على المحاجين وإسكاتهم، سواء قلنا: هذا من باب الإعراض عنهم، أو المحاجة لهم.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: اسم موصول معطوف على الضمير في «أسلمت»، أي: والذي اتبعني أسلم وجهه لله، أو ينبغي أن يُسلِم وجهه لله، أي: أسلمت وجهي لله أنا وأتباعي على ديني، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: اليهود والنصارى.

﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: العرب، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة:٢].

و﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: جمع «أُمِيٍّ»، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، نسبةً إلى أمه، أي: إلى الحالة التي وُلِدَ عليها.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾: الاستفهام للتحضيض والأمر، وفيه معنى الاستبطاء، أي: أسلِموا، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٨]، أي: أسلِموا، وكما في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، أي: انتهوا.

والمعنى: أنه قد أتاكم من البينات ما يوجِب أن تُسلِموا، فأسلِموا.

﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ ﴾ أي: فإن استسلموا لله ظاهرًا وباطنًا، بتوحيدهم إياه بالعبادة، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ «قد»، أي: فقد رشدوا وَوُفِّقوا للهدى وسلكوا طريقه.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام باطنًا بقلوبهم، وظاهرًا بأبدانهم فلا يضرك ذلك.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، وقُرِنَ بالفاء لأنه جملة اسمية.

و﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: ما عليك نحوهم إلا البلاغ، وقد بلَّغت البلاغ المبين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤، العنكبوت:١٨].

وأما هداية القلوب وحساب الخلق فإلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

وقد بلَّغ صلوات الله وسلامه عليه البلاغ المبين، وأدَّى الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: والله مطلع على العباد كلهم، خبير بهم وبأعمالهم وأحوالهم، ومن كان منهم أهلًا للهداية، ومن لم يكن أهلًا لذلك.

الفوائد والأحكام:

١- شهادة الله- عز وجل- لنفسه بتفرده بالألوهية، وأنه لا إله إلا هو، بقوله وفعله وعجيب صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وفي هذا تنبيه لعباده على غناه عن توحيدهم له، وأنه سبحانه هو الموحِّد نفسه بنفسه.

٢- شهادة الملائكة وأولوا العلم بما شهد الله به لنفسه من الوحدانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾، والمراد: أولوا العلم بالله وشرعه وأتباعهم.

٣- فضيلة الملائكة؛ حيث جعلهم الله تعالى في المرتبة الأولى في الشهادة بالتوحيد بعده سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٤- أخذ طائفة من أهل العلم من قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنه لا يشترط للشاهد عند الحاكم وغيره في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة.

فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام:١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

فجعل منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]، فسمى إقرار المرء على نفسه شهادة.

وفي حديث ماعز: «**فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ**»(١). فَسُمِّيَ إقراره شهادة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**شهد عندي رجال مرضيون- وأرضاهم عندي عمر- أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس**»(٢).

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة.

والعشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة لم يتلفظ بشهادته لهم بلفظ الشهادة، وإنما قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة...**»(٣).

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» دخل في الإسلام وشهد الشهادتين، وإن لم يقل: «أشهد» ونحو ذلك.

وقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لابد للشاهد عند الحاكم ونحوه من التلفظ بلفظ الشهادة.

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٢)، ومسلم في «الحدود» (١٦٩١)، وأبو داود في «الحدود» (٤٤٣٠)، والنسائي في «الجنائز» (١٩٥٦)، والترمذي في «الحدود» (١٤٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «مواقيت الصلاة» (٥٨١)، ومسلم في «صلاة المسافرين» (٨٢٦)، وأبو داود في الصلاة (١٢٧٦)، والنسائي في «المواقيت» (٥٦٢)، والترمذي في الصلاة (١٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي في «المناقب» (٣٧٤٧)، من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

٥- فضل العلم بالله وشرعه، وفضل أهل هذا العلم والثناء عليهم؛ حيث جعلهم الله شهودًا بعد الملائكة على وحدانيته، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، واستشهد بهم على أجل مشهود به، وجعلهم حُجة على من أنكر هذه الشهادة، فزكَّاهم بهذا وعدَّلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾، وهذه منقبة عظيمة للعلماء في هذا المقام.

وهذا لمن قدَّر منهم للعلم قدره، فعظَّم ربه، وصان علمه، وعمل به وعلَّمه، فوَفَّى بما أخذه الله من الميثاق على أهل العلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وهؤلاء من أهل العلم قليل؛ ولهذا قال تعالى في ختام الآية: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن مِن أول مَن يُقضى يوم القيامة عليه رجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأُتِيَ به فعرَّفهُ نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلم لِيُقال: عالِم، وقرأت القرآن لِيُقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به، فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِيَ في النار»(١).

وقد أحسن القائل:

وعـــالم بعلمـــه لم يعلمـــن ... معذب في قبره من قبل عباد الوثن(٢)

وقال الآخر:

ولـو أن أهـل العلـم صـانوه صـانهم ... ولـو عظّمـوه في النفـوس لعظـما

ولكـن أهـانوه فهـانوا ودنَّسـوا ... محيـاه بـالأطماع حتـى تجهـما(٣)

٦- الترغيب في العلم بالله وشرعه؛ لأن به تحصل الشهادة على وحدانية الله- عز

---

(١) أخرجه مسلم في «الإمارة» (١٩٠٥)، والنسائي في «الجهاد» (٣١٣٧)، والترمذي في «الزهد» (٢٣٨٢).

(٢) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان» (ص٤).

(٣) البيتان للقاضي الجرجاني. انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات لشعراء» (ص١٤).

وجل- بل هي من مقتضياته، فمن لم يشهد من أهل العلم لله بالواحدانية فهو من أجهل الجهال، وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره.

٧- حكم الله- عز وجل- أنه لا إله حق إلا هو، بعد شهادته وإخباره بذلك، وأمره- عز وجل- عباده بتوحيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فمن عبد مع الله غيره فهو مشرك.

٨- تأكيد تفرده- عز وجل- بالألوهية، فشهد عز وجل بذلك لنفسه، وأخبر به، وحكم به وأمر، كما شهد بذلك الملائكة وأولوا العلم.

٩- إثبات قيام الله تعالى واتصافه بالعدل قولًا وفعلًا وحكمًا وإخبارًا، وحكمًا به وأمرًا، وشهادته- عز وجل- لنفسه بذلك وشهادة الملائكة وأولوا العلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾.

١٠- اجتماع صفات الكمال لله عز وجل؛ لأن التوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال، فالتوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحدٍ سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة؛ ففي الأول كمال ذاته، وفي الثاني كمال أفعاله.

١١- إثبات اسم الله «العزيز» وصفة العزة التامة له- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله «الحكيم» وأن له- عز وجل- الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية والجهمية الذين ينفون حكمة الله تعالى.

١٣- في اقتران العزة والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله -تعالى- إلى كمال.

١٤- أن الدين الذي يُعتد به ويُقبل عند الله هو الإسلام الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل، وهو توحيد الله تعالى، والانقياد لشرعه، وهو بعد بعثة محمد ﷺ، ما جاء به من الشرع، فهو الإسلام الذي لا يُقبل من أحدٍ سواه؛ لنسخه لجميع الأديان قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ

ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

١٥- أن حقيقة الدين والتدين لله تعالى الاستسلام له بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك؛ لأن الله سمى «الدين» الإسلام.

١٦- أن أهل الكتاب اليهود والنصارى لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: أن اختلافهم كان عن علم، فلا يعذرون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾.

١٧- أن اختلاف أهل الكتاب كان بسبب بغي بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾.

١٨- التحذير من الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾، وقال تعالى محذرًا هذه الأمة: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[آل عمران:١٠٥].

وقال ﷺ محذرًا أمته من ذلك: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة**»(٢).

١٩- خطر البغي، ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب للاختلاف ورد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾.

٢٠- ينبغي في مسائل الخلاف الانتصار للحق، والبحث عنه، والبعد عن التطاول، والانتصار للنفس.

---

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» وجوب الإيمان برسالة نبينا ﷺ إلى جميع الناس(١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في «السنة» (٤٥٩٦)، والترمذي في «الإيمان» (٢٦٤٠)، وابن ماجه في «الفتن» (٣٩٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢١- التحذير من الكفر بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ فمن كفر بآيات الله فسيحاسبه الله سريعًا، ويجازيه على كفره قريبًا، وفي هذا وعيد لمن كفر بآيات الله، وحض على الإيمان.

٢٢- سرعة حساب الله تعالى للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٢٣- إثبات حساب الخلق على أعمالهم، لكن حساب المؤمنين تقرير وعرض، أما حساب الكفار فمناقشة وتوبيخ وتقريع.

كما فى حديث عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**من حوسِب عُذِّب**»، قالت عائشة: فقلت: أَوَليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟، قالت: فقال: «**إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك**»(١).

٢٤- عناية الله- عز وجل- بنبيه ﷺ، وتهيئته لما سيواجه ممن يدعوهم، وتعليمه ما يقوله للمحاجين له، ولمن يدعوهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:٢٠] الآية. وفى هذا إعداد من الله له، وتقوية لقلبه ولحجته ودعوته.

٢٥- في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران:٢٠] توجيه له ﷺ لما هو أخصر، وبما فيه قطع الطريق على المحاجين وإسكاتهم، أي: هذا طريقي وطريق أتباعي دون محاجة أو جدال، وهذا من أساليب الرد على المحاج إذا كان لا جدوى للمحاجة، كما قال تعالى فى وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

٢٦- أن المنهج الحق في الإسلام أن يتوجه المسلم إلى الله تعالى بكليته، وبوجهه، وقلبه، وبدنه ممتثلًا لأمر الله، مجتنبًا لنهيه، فهذا هو منهج الرسول ﷺ وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾.

٢٧- شرف الوجه من بين الأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فخصَّهُ من بين

---

(١) أخرجه البخاري في «العلم» (١٠٣)، ومسلم في «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» (٢٨٧٦)، والترمذي في «صفة القيامة» (٢٤٢٦).

الأعضاء لشرفه، ولأن توجهه علامة ظاهرة على توجه بقية الأعضاء.

٢٨- أن من لم يُسلِم وجهه لله تعالى فليس متبعًا للرسول ﷺ؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾.

٢٩- وجوب الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾.

٣٠- عموم رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ للعرب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾، وفي هذا رد على من زعم من أهل الكتاب أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب فقط.

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**وكان النبي ﷺ يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثت إلى الناس عامة**»(١).

وفى رواية: «**وبُعِثت إلى كل أحمر وأسود**»(٢).

ولما زار ﷺ الغلام اليهودي في مرض موته، فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان، قُل: لا إله إلا الله**»، فنظر إلى أبيه، فأعاد النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»(٣).

٣١- في تقديم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ إشارة إلى أن قيام الحجة عليهم أعظم؛ لما عندهم من العلم عن الإسلام وعن النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١].

٣٢- أن العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾.

٣٣- أن من أسلم فقد اهتدى للطريق المستقيم، وَوُفِّق إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ

---

(١) أخرجه البخاري في «التيمم» (٣٣٥)، ومسلم في «الغسل والتيمم» (٤٣٢).

(٢) أخرجها مسلم في «المساجد ومواضع الصلاة» (٥٢١).

(٣) أخرجه البخاري في «الجنائز» (١٣٥٦)، وأبو داود في «الجنائز» (٣٠٩٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

فَقَدِ ٱهْتَدَوا﴾، وفي هذا حض على الإسلام، وترغيب فيه.

٣٤- أن من لم يُسلِم فقد تولى وأعرض عن الحق، وليس على الرسول ﷺ هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٣٥- أن مهمة الرسول ﷺ، والواجب عليه بالنسبة للناس هي إبلاغهم الرسالة ودعوتهم، وأما هدايتهم فهي إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٣٦- اطلاع الله- عز وجل- وبصره بالعباد وأعمالهم وأحوالهم، ومَن هو أهل للهداية، ومَن ليس أهلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وفي هذا وعد لمن أسلم واهتدى، ووعيد لمن تولى وأعرض.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة النبي ﷺ بدعوة الذين أوتوا الكتاب إلى الإسلام، وحذَّرهم من التولي، ثم ذمَّهم في هذه الآية بذِكر ما هم عليه من الكفر، وقتل النبيين والآمرين بالقسط، وتوعدهم بعذابٍ أليم.

قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾أي: إن الذين يُكذِّبون بآيات الله الشرعية والكونية ويجحدونها، من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾: معطوف على ﴿يَكْفُرُونَ﴾.

قرأ حمزة: «ويقاتلون»، وقرأ الباقون: ﴿وَيَقْتُلُونَ ﴾، وقرأ نافع «النبيئين» جمع «نبيء» وقرأ الباقون: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ بلا همز، جمع (نبيّ)، مأخوذ من «النبأ»، وهو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢].

وسُمِّيَ النبيون بهذا الاسم؛ لأن النبي مُنْبَأ من عند الله، أي: مُخْبَر من عند الله، و(مُنْبِئ): مُخْبِر لقومه بما أوحاه الله إليه، ومأخوذ أيضًا من «النَّبْوة» وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية مرتفعة عند الله تعالى وعند المؤمنين.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾: جار مجرور حال مؤكدة من فاعل «يقتلون».

والمراد بهذا الوصف: بيان الواقع، أي أن قتلهم عدوانًا وظلمًا كما فعل اليهود؛ حيث قتلوا كثيرًا من أنبياء الله- عز وجل- منهم: زكريا وابنه يحيى، كما همُّوا بقتل عيسى، بل زعموا أنهم قتلوه؛ ولهذا ذمَّهم الله تعالى بهذين الوصفين في آياتٍ كثيرة، كما قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٨٣].

ولا يراد بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إخراج ما خالفه؛ إذ لا يمكن أن يكون قتل النبيين بحق بحالٍ من الأحوال.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾: معطوف على قوله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن الأنبياء في مقدمة الذين يأمرون بالقسط من الناس.

و«القسط»: العدل في الحكم والأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أي: ويقتلون الذين يأمرون بالعدل من الناس عنادًا منهم ومعارضة للعدل والحق وبطرًا وكِبرًا. وفي الحديث: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١).

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: خبر المبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء؛ لتضمُّن الموصول معنى الشرط، أي: بشرهم يا محمد، ويا أي مبشر.

---

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٩١)، والترمذي في «البر والصلة» (١٩٩٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

والبشارة في الأصل: الإخبار بما يَسُر، واستُعمِلت هنا في الإِخْبار بما يسوء من باب التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩].

وفي هذا من العذاب المعنوي ما قد يفوق العذاب الحسي.

والمعنى هنا: فأخبرهم بعذابٍ أليم، أي: مؤلم موجِع حسيًّا للأبدان، ومعنويًا للقلوب. و(العذاب): العقاب.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران:٢٢].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الإشارة للذين يُكذِّبون بآيات الله، ويقتلون النبيين والآمرين بالقسط، وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تحقيرًا لهم.

﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: الذين بطلت وذهبت واضمحلت أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

﴿فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: فلم يستفيدوا منها في الدنيا بل كانت سببًا لشقائهم فيها، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ولم يُثابوا عليها في الآخرة بل عوقبوا بسببها.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ «مِنْ»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما لهم أيُّ ناصرين، أي: وما لهم أي أحد ينصرهم من بأس الله تعالى وعذابه، وجمع «ناصر» لمقابلة الجمع قبله مع مراعاة المناسبة لفواصل الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام للتعجيب، والرؤية هنا علمية، ويُحتمل كونها بصرية، والأول أولى؛ لأنه أشمل، ولأنه يتعلق بالحال، والحال تعلُّم ولا تبصُّر.

أي: ألم تعلم إلى حال ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هنا: اليهود، و﴿نَصِيبًا ﴾ حظًا، والتنوين فيه للتكثير والتعظيم،

و﴿مِّنَ﴾ للتبعيض أو للبيان.

و(ال) في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ للعهد، والمراد به «التوراة»، أي: ألم تعلم وتنظر إلى حال اليهود الذين أُعطوا نصيبًا من الكتاب، أي: أُعطوا حظًا كثيرًا عظيمًا من الكتاب؛ لأن التوراة هي أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

وقيل: المعنى: الذين أُعطوا نصيبًا قليلًا من الكتاب، أي: من العلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. والأول أصح وأنسب للسياق.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: حال من الموصول، أي: حال كونهم يدعون إلى كتاب الله، أو مستأنفة مُبيِّنة لمحل التعجب.

والدعاء: النداء؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

و«كتاب»: بمعنى مكتوب، أي: إلى مكتوب الله؛ لأن كتب الله تعالى كلها مكتوبة عنده في اللوح المحفوظ.

والمراد بـ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ هنا: «القرآن الكريم»، والداعي إليه هو رسول الله ﷺ ومن دعا بدعوته إلى يوم القيامة.

وقيل المراد بـ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: «التوراة أو الإنجيل»؛ لما فيهما من تصديق لبعثته ﷺ ورسالته، كما قالى تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: (اللام): للتعليل، أي: لأجل أن يحكم بينهم، والضمير في ﴿لِيَحْكُمَ﴾ يُحتمل أن يعود إلى «الله»، أي: يدعون إلى كتاب الله؛ ليحكم الله بينهم بكتابه.

ويُحتمل عود الضمير إلى «الكتاب»، أي: ليحكم كتاب الله بينهم.

وأسند الحكم إلى الكتاب؛ لأن الحكم بينهم بما فيه هو حكم الله، أي: ليفصل

بينهم ببيان الحق من الباطل فيما بينهم أنفسهم، وفيما بينهم وبين الداعي لهم وهو الرسول ﷺ في شأن الإسلام، أو في حكم الرجم، أو غير ذلك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: التولي يكون بالأبدان، أي: ثم يتولى فريق وجماعة منهم بأبدانهم.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾: الجملة معطوفة على ما قبلها، ويجوز كونها حالية.

والإعراض يكون بالقلوب، أي: وهم صادون بقلوبهم عن كتاب الله، والمعرِض بقلبه لا فائدة فيه، ولا مطمع في رجوعه، بخلاف المتولي ببدنه فإنه قد يراجع نفسه، ويعود إلى رشده.

وقد جمع هؤلاء بين التولي في الظاهر بأبدانهم، والإعراض في الباطن بقلوبهم، والتولي عن الداعي، والإعراض عن المدعو إليه، فلا مطمع فيهم.

و«التولي» و«الإعراض» من الكلمات المترادفة التي إذا انفردت اجتمعت، واذا اجتمعت انفردت. فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على المعنيين، وهما التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب.

أما إذا اجتمعا فيُحمل «التولي» على الإعراض بالأبدان، ويُحمل الإعراض على التولي بالقلوب، كما في الآية هنا.

ويُفهم من قوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: أن فريقًا منهم لا يتولى ولا يُعرِض، بل يقبل ويؤمن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة تولي وإعراض فريق من أهل الكتاب عن كتاب الله تعالى، ثم ذكر في هذه الآية سبب توليهم وإعراضهم.

قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى تولي فريق منهم وإعراضهم عن كتاب الله، أي: ذلك التولي والإعراض.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء للسببية، أي: بسبب أنهم.

﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: أي بسبب أنهم خدعوا أنفسهم بهذه

المقالة الباطلة، والاعتقاد الخاطىء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠]، فهونوا بهذا الخطوب ولم يبالوا معه بارتكاب الذنوب.

﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾: لن تصيبنا النار ونعذب فيها.

﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَتٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أيامًا قليلات، أوقلائل؛ لأن كل معدود فهو قليل؛ لأنه ينتهي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤].

وجمع هنا جمع القلة ﴿مَّعْدُودَتٍ﴾؛ لأنه أليق بمقام التعجيب والتشنيع.

قيل: إنهم قالوا: لن نعذب إلاسبعة أيام، وقيل: أربعين يومًا، وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل(١).

﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم﴾ أي: أطمعهم في غير مطمع، وخدعهم في دينهم الباطل.

﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: وخدعهم في دينهم افتراؤهم أو الذي كانوا يفترون ويختلقون من الكذب والدعاوى والأماني الباطلة، ومن ذلك قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَتٍ﴾، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

فذكر لتوليهم وإعراضهم سببين، الأول: أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.

والثاني: تزيين الشيطان لهم سوء عملهم، فاغتروا بذلك وتراءى لهم أنه الحق؛ عقوبةً لهم على إعراضهم عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة زعم أهل الكتاب الباطل أنهم لن تمسهم

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله- تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

النار إلا أيامًا معدودات، وخداعهم لأنفسهم بالافتراء والأماني الباطلة، ثم أتبع ذلك باستعظام وتهويل سوء حالهم ومآلهم يوم القيامة مهددًا ومتوعدًا.

قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ ﴾: ﴿ فَكَيْفَ ﴾: استفهام لتعظيم وتهويل سوء حالهم، أي: كيف تكون حالهم، أو كيف يصنعون إذا جمعناهم ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الآية.

فلا تسأل عما هم فيه من الهم والكرب وشدة العذاب والحسرة والندم على ما فاتهم من الأجر والثواب.

﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾: (اللام) بمعنى «في»، وتُسمى لام التوقيت، أي: في يومٍ لا ريب فيه، وهو يوم القيامة، ونُكِّر «يوم» للتعظيم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:٤-٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩-١٠].

قال ابن كثير[1]: «أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به».

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾: أي لا ريب ولا شك في وقوعه؛ وهذا خبر من الله تعالى، فهذا اليوم آتٍ وواقع لا محالة، وعلى ذلك دلَّ الكتاب والسنة والعقل.

ويُحتمل أن يكون قوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبر بمعنى النهي، أي: لا ترتابوا فيه[2].

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ معطوف على قوله: ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾، وجاء العطف بالواو دون «ثم» التي للتراخي؛ للدلالة على سرعة حسابه عز وجل للخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢، والنور: ٣٩].

و«ما»: موصولة أو مصدرية؛ أي: أُعطِيت كل نفس مكلفة من الإنس أو الجن كسبها

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٢).

(٢) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢].

أو الذي كسبته من خير أو شر وافيًا، أي: أُعطِيت جزاء عملها وافيًا ثوابًا كان أو عقابًا، وجُعِلت التوفية للكسب، وجُعِل المكسوب مكان الجزاء؛ إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون، أي: وهم لا يُنقَصون شيئًا من أعمالهم وثوابها، ولا يتعدى عليهم بالزيادة في عقابهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله- عز وجل-: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ذم أهل الكتاب، والتشنيع عليهم، وتوعدهم بعذابٍ أليم؛ لكفرهم بآيات الله، وقتلهم النبيين والآمرين بالعدل تكبرًا منهم وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وهذا وعيد لهم ولمن سلك مسلكهم.

٢- وجوب الإيمان بآيات الله، والحذر من الكفر بها.

٣- عِظم حُرمة قتل وقتال النبيين، وأنه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٤- أن قتل الأنبياء وقتالهم لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٥- شدة حرمة قتل وقتال الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ حيث قُرِنَ بالكفر وقتل

---

(١) أخرجه مسلم في «البر والصلة والآداب» (٢٥٧٧).

النبيين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٦- فضل الأمر بالعدل والآمرين به؛ لأن الله جعلهم بعد النبيين.

٧- جوز التهكم بالكفار؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فسمى إخبارهم بالعذاب بشارة تهكمًا وسخرية بهم.

٨- شدة عذاب الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين والآمرين بالقسط؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: موجِع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

٩- تحقير الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين والآمرين بالقسط، وحبوط أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾، فأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، وبيَّن بطلان أعمالهم وجزائها في الدنيا والآخرة.

١٠- أن الكفر مُحبِط للأعمال، وأن مِن أعظم وأشنع أعمال الكفار قتل الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس.

١١- أن الكفار ليس له ناصر يدفع عنهم عذاب الله ونقمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

١٢- التعجيب من حال الذين أُتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى القرآن ليحكم بينهم، ثم يتولى فريقٌ منهم ويُعرِض مع ما عندهم مما يصدقه في كتبهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٣- أن العلم إذا لم يصاحبه توفيق من الله تعالى فإنه لا ينفع صاحبه، بل يكون وبالًا عليه، فهؤلاء مع ما هم عليه من العلم لم يهتدوا للعمل.

١٤- أن اللوم والذم والمؤاخذة لمن تولى وأعرض إنما تكون بعد إقامة الحُجة عليه بدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٥- أن التحاكم بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن يجب أن يكون إلى حكم الله- عز وجل- في القرآن الكريم في كل شيء من العبادات والمعاملات وغير ذلك؛ لنسخه لجميع الكتب قبله.

١٦- تعظيم القرآن وتشريفه بإضافته إلى الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

١٧- أن من أهل الكتاب من أجاب الدعوة إلى كتاب الله، فأسلموا وحَسُنَ إسلامهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾. ومفهوم هذا أن فريقًا منهم لم يتولَّ ولم يُعرِض، بل أسلم.

١٨- أن أشد ما يكون في المخالفة والرد والعناد، وفي الذم أن يجتمع التولي عن الحق بالأبدان والإعراض عنه بالقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٩- أن سبب تولي وإعراض فريق من أهل الكتاب زعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودات؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

٢٠- جرأة أهل الكتاب على الكذب على الله وغرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

٢١- تصديق أهل الكتاب بوجود النار، وبالبعث بعد الموت، لكن هذا لا ينفعهم مع توليهم وإعراضهم عن الانقياد والعمل بكتاب الله تعالى.

٢٢- التحذير من الاغترار بالأماني الباطلة والانخداع بها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٢٣- لا ينبغي أن يغتر الإنسان ويعجب بما هو عليه من تدين، ويُدِلَّ على الله بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم﴾، وليسأل الله التوفيق للإخلاص والثبات على الحق وحسن الختام.

٢٤- تهويل وتعظيم سوء حال ومآل هؤلاء المتولين المعرضين؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية.

٢٥- إثبات القيامة والمعاد وجمع العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٢٦- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ بضمير العظمة وهو العظيم سبحانه.

٢٧- تعظيم يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ بالتنكير.

٢٨- إعطاء كل نفس عملها وجزاءها وافيًا يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، وأن الجزاء من جنس العمل.

٢٩- انتفاء الظلم في ذلك اليوم، فلا أحد يُظلم بأن يُنتقص من حقه، أو يُزاد في عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لكن المؤمنين يُعاملون بالفضل، فَيُضاعِف الله لهم ويزيدهم من فضله، ويعفو عن سيئات من شاء منهم.

وأما الكفار فَيُعاملون بالعدل، ويجازون بأعمالهم من غير زيادة أو نُقصان.

٣٠- كمال عدل الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فهذا من الصفات المنفية الدالة على كمال ضدها وهو العدل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، وغير ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

في هذه الآية بيان عظمة الله- عز وجل- وكمال ملكه، وتمام قدرته، كما أن فيها تعريضًا بأهل الكتاب، وأن إعراضهم إنما هو حسد على زوال النبوة منهم وانقراض ملكهم، وإبطالًا لزعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة.

قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾: الخطاب والأمر للنبي ﷺ، أي: قُل يا محمد مُعَظِّمًا لربك ومتوكلًا عليه وشاكرًا له ومفوضًا إليه، وهو خطاب له ولمن تبعه.

﴿ٱللَّهُمَّ﴾: أصلها «يا الله» مُنادى حُذِفت منه ياء النداء.

قال ابن القيم[1]: «لا خلاف أن لفظ «اللهم» معناها: (يا الله)؛ ولهذا لا تُستعمل إلا في الطلب، فلا يُقال: (اللهم الغفور الرحيم)، بل يقول: (الله اغفر لي وارحمني)».

واختلفوا في الميم المشددة من آخر الاسم (اللهمَّ) فقيل: زيدت عِوضًا عن حرف النداء؛ ولهذا لا يُجمع بينهما في الشعر، كما قال ابن مالك[2]:

وشذ يا اللهم في قريض

ومن هذا قول الشاعر:

إني إذا ما حدث ألمَّا ... أقول يا اللهم يا اللهم[3]

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم كزيادتها في (زرقم) لشديد الزرقة، وفي (ابنم) في (ابن).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٨٣).

(٢) انظر: «ألفيته» (٥٠).

(٣) البيت لأبي خراش الهذلي، ويقال: لأمية بن أبي الصلت. انظر: «المقتضب» (٤/ ٢٤٢).

قال ابن القيم بعد أن ذكر هذا[1]: «وهذا القول صحيح لكن يحتاج إلى تتمة، وقائله لحظ معنى صحيحًا لابد من بيانه، وهو أن الميم تدل على الجمع وتقتضيه، ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مُطرد على أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعني، كما هو مذهب أساطين العربية».

إلى أن قال: «وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم قد ألحقوها في آخر هذا الاسم (اللهم) الذي يسأل العبد به ربه سبحانه في كل حاجة وكل حال، إيذانًا بجمع أسمائه تعالى وصفاته، فإذا قال السائل: (اللهم إني أسألك) كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذانًا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها.

كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**مَا أَصَابَ عبدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ...**» وذكر الحديث بطوله.

إلى أن قال: «وهذا القول الذي اخترناه قد جاء عن غير واحد من السلف، قال الحسن البصري: «اللهم»: مجمع الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي: إن الميم في قوله «اللهم» فيها تسعة وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى، وقال النضر بن شُميل: من قال «اللهم» فقد دعا الله بجميع أسمائه».

﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾: بدل من قوله «اللهم»، أو منادى ثانٍ، أي: يا مالك الملك.

ومعنى ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: لك الملك، أي: أنت المالك لكل شيء، المتصرف فيه، و(ال) في الملك هنا وفي الموضع بعده للجنس، أي: لك الملك كله، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾: جملة استئنافية فيها مع ما عطف عليها، ومع قوله:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٨٧).

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الآية بيان تمام ملكه، وكمال تصرفه.

و﴿مَن﴾: اسم موصول في محل نصب مفعول ثانٍ لـ ﴿تُؤۡتِي﴾، أي: تُعطي الملك الذي تشاء، أي: الذي تريد كونًا إعطاءه إيَّاه لحكمة تعلمها.

وهو مُلك نسبي كمًّا؛ لأن من أعطاه الله الملك لا يملك إلا مملكته التي أعطاها الله إيَّاها دون غيرها.

وهو مُلك نسبي كيفًا؛ لأن من أتاه الله الملك إنما يجوز له التصرف في ملكه وفق ما شرع الله، وليس له التصرف المطلق.

﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: نزع الملك أخذه ومنعه، وفي التعبير بـ«تنزع» إشارة إلى تشبث الملوك بملكهم.

و«ما»: موصولة، أي: وتأخذ الملك من الذي تريد أخذ الملك منه بعد تمليكه، وتمنع الملك ممن تريد فلا يحصل على الملك أصلًا، كل ذلك لحكمة تعلمها.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: وتقوي وتنصر وتؤيد الذي تريد نصره، فتكون له العزة والنصر والغلبة.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: وتذل الذي تريد إذلاله، فيكون ضعيفًا ذليلًا.

والإعزاز قد يكون كونيًا فقط لحكمة وأسباب مادية، بأن يجعل الله تعالى القوة والغلبة لطائفة ولو كانت كافرة على طائفة أخرى، فيعز هذه الطائفة ويذل الأخرى وهذا في الدنيا.

وقد يكون الإعزاز كونيًا شرعيًا؛ بأن يوفق الله الإنسان لأسباب العزة الحقيقية وهي الإيمان بالله تعالى وطاعته والتقرب إليه؛ فهذه هي العزة حقًّا في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

وبها تحصل الغلبة والنصر مع توافر أسبابه المادية، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

كما أن الإذلال قد يكون كونيًّا فقط لحكمة وأسباب مادية، وقد يكون كونيًّا شرعيًّا، بأن يُخذل الإنسان ويُبتلى بأسباب الذل وهي الكفر والمعاصي؛ وهذا هو الذل

حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

فالعز كل العز بالإيمان بالله تعالى وطاعته، والذل كل الذل بالكفر بالله ومعصيته، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس:٩-١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فمعتق نفسه أو موبقها**»(١).

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾: قدَّم الخبر للتخصيص، أي: بيدك وحدك الخير كله. خير الدين، وخير الدنيا، وخير الآخرة، أي: كل ما فيه نفع ومصلحة، دينية أو دنيوية أو أُخروية من التوفيق للإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وأسباب العزة الحقيقية، والنصر على الأعداء، والأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان، والرزق الحلال، وغير ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النمل:٥٣].

وفي الحديث: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»(٢)، وقال ﷺ: «**يده ملأى سحاء الليل والنهار**»(٣).

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، أي: لأنك على كل شيءٍ قدير. «إنَّ»: حرف توكيد، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ«قدير»، وقُدِّم عليه لتأكيد عموم قدرته على كل شيء أيًّا كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا.

و«القدرة»: فعل الشيء بدون عجز، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

فالقدرة ضدها العجز، كما أن القوة ضدها الضعف، والقدرة يوصف بها فقط ذوو الإدراك، أما القوة فيوصف بها ذوو الإدراك وغيرهم، فيُقال: فلان قوي، كما يُقال: الحديد قوي.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في «الطب» (٣٩١٩)، من حديث عروة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾.

دلَّل عز وجل في الآية السابقة على عظمة ملكه، وتمام قدرته بكونه يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ثم دلَّل لذلك في هذه الآية بمداولته الليالي والأيام والتصرف بالزمان.

قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾: أي وتُدخِل الليل في النهار، فيطول الليل ويزيد على النهار.

﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾: أي وتُدخِل النهار في الليل، فيطول النهار ويزيد على الليل.

قال ابن كثير[1]: «أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة: ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاءً».

فإذا طال الليل- وذلك في الشتاء- مال الجو إلى البرودة حتى تصل البرودة ذروتها لقلة زمن وجود الشمس على سطح الأرض وكون شعاعها غير عمودي، وإذا طال النهار- وذلك في الصيف- مال الجو إلى الحرارة حتى تصل الحرارة ذروتها، وذلك لطول زمن وجود الشمس على سطح الأرض وكون شعاعها عموديًا.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته كون هذا التداخل بين الليل والنهار تدريجيًا؛ حتى لا يؤثِّر ذلك على الكائنات والنبات ونظام الحياة؛ ولهذا كانت فصول السنة أربعة فصول: فصل الشتاء، وفصل الصيف، وفصلان انتقالان بينهما وهما: فصل الربيع، وفصل الخريف.

وفي هذا كله من المنافع والمصالح للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك ما لا يُحصى، فيحصل كل نوع من الكائنات الحية والنباتات على ما يناسبه، فبعض الكائنات والنباتات تحتاج إلى البرودة، وبعضها يحتاج إلى الحرارة، وبعضها يحتاج إلى الأمرين، وبعضها يحتاج إلى الاعتدال.

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾: قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو، وابن

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٣).

عامر «الميْت» بالتخفيف، وقرأ الباقون ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ بالتشديد.

و«الميْت» بالتخفيف: الذي قد مات دون الذي لم يَمُت، و«الميِّت» بالتشديد الذي قد مات والذي لم يَمُت وسيموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر:٣].

قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنما الميْتُ مَيِّتُ الأحياءِ(١)

أي: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾ حياة حسيَّة ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ موتًا حسيًّا، ومن ذلك أن الله- عز وجل- خلق آدم وأوجده وأحياه من التراب والطين الذي هو جماد لا حياة فيه، وخلق كل واحد من ذريته من نطفة وهي ميتة إلى نفخ الروح فيه بعد تمام مراحل تكوينه، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة:٢٨].

ومن ذلك إخراج الدجاجة من البيضة، وإخراج الزرع من الحبة، والنخلة من النواة، كما قال تعالى: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠].

ومن ذلك أن تموت الأم ويخرج ما في بطنها حيًّا.

وأيضًا ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾ أي: الولد المؤمن الحيّ حياة معنوية قلبية ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: من الوالد الكافر الميت موتًا معنويًّا قلبيًّا، أي: يخرج الولد المؤمن من الوالد الكافر، وهذا أعظم وأهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾: أي: وتخرج المولود الميت موتًا حسيًّا إنسانًا كان أو حيوانًا ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ من الوالد الحيّ حياة حسية إنسانًا كان أو حيوانًا، فتلد الأنثى من الإنسان أو الحيوان وتُسقِط مولودًا ميتًا، ومن ذلك إخراج البيضة من الدجاجة.

---

(١) البيت لعدي بن الرعلاء الغساني، والرعلاء أمه. انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجّاج (٢/ ١٥٧)، و«لسان العرب» مادة: (موت).

وأيضًا ﴿وَتُخْرِجُ﴾ الولد الكافر الميت موتًا معنويًّا قلبيًّا ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي: من الوالد المؤمن الحيّ حياة معنوية قلبية، أي: وتُخرِج الولد الكافر من الوالد المؤمن.

فهو سبحانه الذي يُخرِج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر، كما قال الشاعر:

من ظاهر النِّعم الكبرى وباطنها ... هذا السحاب به ماءٌ به نار

لا ينكر الله إلا جاهل نَزِقٌ ... غِرٌّ بليد سفيه الرأي ختّار(١)

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: (الرزق): العطاء، ويشمل رزق الدنيا والآخرة. ورزق الدنيا نوعان: رزق به قوام الأبدان من المآكل والمشارب والمساكن والمراكب.. ونحو ذلك؛ وهذا يُعطيه الله لجميع الخلق المؤمن والكافر، والبر والفاجر حتى البهائم، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

ورزق به قوام القلوب والأرواح من الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وهذا خاص بمن وفَّقهم الله لذلك- نسأل الله من فضله.

أما رزق الآخرة فهو ما أعدهُ الله لأهل الجنة من الثواب العظيم والنعيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

والمعني: وتعطي الذي تريد من الخلق حسب ما اقتضته حكمتك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وحذف مفعول «ترزق»، ليعم كل رزق من رزق الدين والدنيا والآخرة.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير أن تُحصي عليهم ما أعطيتهم وتحده بحد، بل تُعطي العطاء الجزيل بلا حد.

وليس معنى هذا أن الأرزاق غير مقدرة، بل كل شيء مقدر عند الله- عز وجل- كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١].

---

(١) البيتان للشاعر وليد الأعظمي. انظر: «المجموعة الكاملة» (ص١٣٥).

كما أنه سبحانه يُعطي العطاء الجزيل، ولا يخاف أن ينفد ما عنده، ويعطي تفضلًا منه وكرمًا بغير عوض.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ ما ينطق عن الهوى وإنما هو مُبلِّغ عن الله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ ﴾ الآية، وفي هذا رد على من يزعمون أنه تقوَّل القرآن وافتراه من عند نفسه.

٢- أمر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بالثناء عليه وتعظيمه وتفويض الأمر إليه، والتوسل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآيتين، وهذا أمر له ﷺ ولأتباعه.

٣- أن الله- عز وجل- مالك الملك كله، فهو المنفرد بالملك، والمنفرد بالتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية.

٤- تمام ملك الله- عز وجل- وكمال تصرفه؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ الآية.

٥- منح الله- عز وجل- الملك من يشاء، ونزعه ومنعه ممن يشاء، وأنه سبحانه هو المعطي المانع؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية المبنية على الحكمة، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الإنسان: ٣٠].

٧- أن الله- عز وجل- يُعِز من يشاء، ويُذِل من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾.

٨- أن الله تعالى بيده الخير كله؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾.

٩- ينبغي طلب العزة والخير من الله وحده؛ لأن كل ذلك بيده سبحانه وتعالى، مع بذل الأسباب المادية.

١٠- أن أفعال الله تعالى كلها خير، وأن الشر لا يُضاف إليه، وإن كان سبحانه هو الذي خلق كل شيء؛ ولهذا قال ﷺ: «**الخير كله بيديك والشر ليس إليك**»(١).

قال ابن القيم(٢): «فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما يُنسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرًا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله».

وقال السعدي(٣): «وأما الشر- فإنه لا يُضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلًا ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه، فالخير والشر- كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يُضاف إلى الله».

١١- الإرشاد والتنبيه إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ، وعلى هذة الأمة بما خصها به من بعثة رسولها محمد ﷺ أفضل الرسل إلى جميع الثقلين، وجعل كتابه مهيمنًا على جميع الكتب السماوية، وبلغ ملك أمته مشارق الأرض ومغاربها، وأظهر دينه على الأديان كلها. وفي هذا رد على المعترضين بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢].

١٢- عموم قدرة الله تعالى لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٣- الاستغناء بالثناء عن الدعاء؛ لأن الثناء مما يتوسل به إلى الله تعالى، فهذا الثناء والتعظيم متضمن طلب العزة والخير من الله وحده؛ لأنه أهل ذلك والقادر عليه.

وكما قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- .

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٩٥).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٧٠).

إذا أثنى عليك المرء يومًا كَفَاهُ من تعرضه الثناء[١]

١٤- حكمة الله تعالى البالغة، وقدرته التامة، ورحمته وعنايته بخلقه في إيلاج الليل في النهار، وجعل ذلك بتدرج، وما يترتب على ذلك من اختلاف فصول السنة من حر إلى برد إلى اعتدال، وما في ذلك من المنافع والمصالح العظيمة للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

١٥- قدرة الله تعالى العظيمة، وحكمته البالغة في إخراج الحيّ من الميت، وإخراج الميت من الحيّ، حسيًّا كان ذلك أو معنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾.

١٦- إخراج الحيّ من الميت أعظم في القدرة، وأظهر في الحكمة، وأجلّ في النعمة؛ لهذا قُدِّم- والله أعلم- على إخراج الميت من الحيّ.

١٧- ينبغي طلب الهداية من الله تعالى وحده، لأنه وحده القادر على التوفيق للهداية والحياة المعنوية بالإيمان.

١٨- بلاغة القرآن وبديع نظمه، ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ جناس، وفي قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ طِباق، وكذا في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾.

١٩- أن الله تعالى يَرزُق ويُعطي من يشاء، والأرزاق والخزائن كلها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ﴾.

٢٠- أن الله- عز وجل- لا حدَّ لرزقه وعطائه، بل يرزق من يشاء بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

٢١- ينبغي طلب الرزق من الله تعالى وحده؛ لأن الأرزاق بيده، مع بذل الأسباب المادية.

* * *

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

بيَّن الله- عز وجل- في الآيات السابقة في السورة قبل هذه الآيات عداوة المشركين للإسلام وأهله، وحسد اليهود لهم وتوليهم عن الإسلام، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين عن موالاتهم كنتيجة لذلك.

قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «لا» ناهية، و«يتخذ» مجزوم بها، وكسر لالتقاء الساكنين، و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فاعل، و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مفعول أول لـ﴿يَتَّخِذِ﴾ و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ثان.

والمعنى: لا يجعل المؤمنون الكافرين أولياء لهم، يوالونهم ويناصرونهم ويوادونهم.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من سوى المؤمنين، أي: لا يوالون الكافرين، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يوالون الكافرين مع المؤمنين، بل يجب عليهم موالاة المؤمنين، وترك موالاة الكافرين.

وأيضًا: لا يجعلون للكافرين ولاية عليهم، وينتصرون بهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

والنهي للتحريم، فلا يجوز للمؤمنين موالاة الكافرين، ولا مناصرتهم، ولا الانتصار بهم، بل يجب عليهم معاداتهم، والبراءة منهم، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ

سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [الآية: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩].

وقال هنا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بأسلوب الغيبة، والإظهار مقام الإضمار، ولم يقل: «لا تتخذوا» كما في آية آل عمران، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [الآية: ١١٨].

وكما في آية النساء، وآيتي المائدة، وآية التوبة وآية الممتحنة؛ لأنه سبق نداء المؤمنين في هذه الآيات الخمس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم جاء خطابهم بالنهي بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾.

كما سبق خطاب المؤمنين بقوله في سورة النساء: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾، ثم خاطبهم بقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ﴾.

أما قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فلم يسبقه نداء للمؤمنين، ولا خطاب لهم، ولهذا جاء بأسلوب الغيبة، وجاء بالإظهار للدلالة على أن إيمان المؤمنين يمنعهم من موالاة الكافرين.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الموالاة إنما تكون بين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة لمصدر الفعل «يتخذ» أي: للمفهوم من النهي السابق، وهو اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أي: ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

﴿ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي: فقد برئ من الله، والله بريء منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ قرأ يعقوب «تَقِيَّة» بفتح التاء، وكسر القاف، وتشديد الياء مفتوحة بعدها، وقرأ الباقون بضم التاء، وألف بعد القاف ﴿تُقَىٰةً ۗ﴾.

والاستثناء منقطع؛ لأن التقية منهم ليست بموالاة لهم. وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب.

أي: لكن أن تتقوا منهم تقاة بمداراتهم عند الضرورة في الظاهر واللسان، لاتقاء شرهم- دون الباطن والجنان، وهذا أشبه بحال المكره، وقد قال الله- عز وجل-: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن القيم[(١)]: «معلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار، اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال، إلا إذا خافوا من شرهم، فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاة لهم».

وقال ابن كثير[(٢)]: «إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره، لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «إنا لنكشر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٩٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٤).

في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم»(١).

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ الواو: عاطفة، و«يحذر» ينصب مفعولين؛ الأول: ضمير الخطاب الكاف، والثاني: قوله: «نفسه».

والمعنى: ويخوفكم الله نفسه وعقابه، إذا ارتكبتم نهيه فواليتم الكافرين.

وفي ربط التحذير بنفسه- عز وجل- تعظيم للتهديد؛ لأنه العظيم، القادر على كل شيء، الذي لا يقدر أحد على منع عذابه أو رفعه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، وقدم الخبر، وهو قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لأجل الحصر، أي: وإلى الله- عز وجل وحده، لا إلى غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «وإليه المصير»؛ لتربية المهابة في النفوس، أي: وإلى الله- عز وجل وحده المرجع والمآب، وعليه الحساب

كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠، آل عمران: ١٠٩، الأنفال: ٤٤، الحج: ٤١، ٧٦، فاطر: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين في الآية السابقة عن موالاة الكافرين، وحذرهم عذابه ونقمته، ثم أكد ذلك بالتنبيه على علمه- عز وجل- بما يخفونه في صدورهم أو يبدونه من موالاة الكافرين وغير ذلك، وعلمه ما في السمٰوات والأرض وقدرته التامة على كل شيء.

قوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ الخطاب والأمر في الآية للرسول ﷺ.

وكثيرًا ما يأتي الخطاب له ﷺ مصدرًا بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهو أمر بالتبليغ

---

(١) نكشر: أي نضحك في وجوههم ونباسطهم من الكشر، وهو ظهور الأسنان للضحك.

الخاص لهذا القول، يدل على مزيد العناية والاهتمام به والتوكيد له، وإلا فهو ﷺ مأمور بأن يقول القرآن كله ويبلغه للناس.

﴿إِن تُخْفُواْ﴾ أي: إن تسروا وتكتموا، وهو خطاب للمؤمنين وغيرهم.

﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» يعم أي شيء أخفوه من عداوة أو موالاة أو خير أو شر، أو غير ذلك. أي: الذي في قلوبكم أيًّا كان، ويعبر بـ«الصدور»؛ لأن القلوب فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ولهذا يقال للقلوب: «ذات الصدور».

﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ أي: أو تظهروه وتعلنوه، والضمير «الهاء» يعود إلى «ما» الموصولة.

﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿إِن تُخْفُواْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿يَعْلَمْهُ﴾ يعود إلى المفهوم من الفعلين في قوله: ﴿إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ أي: يعلم ما أخفيتموه وما أبديتموه؛ لأنه- عز وجل- يعلم السر وأخفى، والسر والعلانية عنده سواء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَىٰ ۝٧﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: في الموضعين اسم موصول يفيد العموم، وكررت لتأكيد عموم علمه عز وجل.

والمعنى: وهو يعلم أزلًا وأبدًا جميع الذي في السموات، وجميع الذي في الأرض من المخلوقات والكائنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ قدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به وهو ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم وكمال وتمام قدرته- عز وجل- أي: أن قدرته- عز وجل- نافذة في كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

وقال- عز وجل- في الحديث القدسي: «**إني على ما أشاء قادر**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تحريم اتخاذ الكافرين أولياء ومناصرتهم، والانتصار بهم، ووجوب معاداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

فلا تجوز موالاة الكافرين ومناصرتهم على أحد من المؤمنين بحال من الأحوال، ولا تجوز مناصرتهم على أحد من الكافرين، إلا إذا كان في مناصرتهم على الكافرين مثلهم مصلحة ظاهرة للمسلمين، كأن يناصر المسلمون الكفار على كفار يخشى المسلمون منهم، فتكون مناصرتهم، لا لمصلحة الكفار، ولكن لمصلحة المسلمين أنفسهم، ولهذا فرح المؤمنون بنصر الروم على الفرس؛ لشدة عداوة الفرس للمسلمين وتربصهم بهم، وتمزيق مَلِكهم كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه إليه، بخلاف ملك الروم(٢).

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ١-٥].

كما لا يجوز الانتصار بالكافرين والاستعانة بهم على غيرهم من الكافرين، وهذا ما

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- آخر أهل النار خروجًا (١٨٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرج قصة تمزيق كسرى لكتابه ﷺ، أحمد (٣/ ٤٤١-٤٤٢)، من حديث التنوخي رسول هرقل.
وأخرج قصة ملك الروم «هرقل» وإكرامه لمن وفد عليه من الصحابة- أخرجه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما- البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣).

يدل عليه ظاهر الآية، وقد روي أنه ﷺ قال لكافر تبعه يوم أحد: «ارجع فلن استعين بمشرك»(١).

لكن إن احتاج المسلمون إلى الانتصار بهم، وكان في ذلك مصلحة ظاهرة للمسلمين فقد أجاز ذلك بعض أهل العلم بشرط أن يكون ذلك عند الضرورة، وبقدر الحاجة، ودفع الضرر عن المسلمين، من غير مداهنة للكافرين على حساب الدين والأخلاق، ولا مذلة على المؤمنين.

وقد استدلوا على هذا بأن النبي ﷺ استعار يوم خيبر أدراعًا من صفوان بن أمية، وكان يومئذٍ مشركًا. فقال: «أغصبًا يا محمد؟» فقال: «بل عارية مضمونة»(٢).

وقد شهد صفوان حنينًا مع النبي ﷺ وهو لم يسلم بعد(٣).

وحالف ﷺ خزاعة(٤).

٢- أن الإيمان الحقيقي يمنع من اتخاذ الكافرين أولياء، ويوجب عداوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، فعلق الحكم بالمؤمنين، وبوصف الإيمان، فمن والى الكافرين فإيمانه ناقص، ويخشى عليه ما هو أعظم من ذلك.

٣- وجوب الموالاة بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

٤- براءة الله- عز وجل- ممن اتخذ الكافرين أولياء، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٨١٧)، وأبوداود في الجهاد (٢٧٣٢)، والترمذي في السير (١٥٥٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في البيوع- تضمين العارية (٣٥٦٢)، وأحمد (٣/ ٤٠١)، من حديث صفوان بن أمية رضي الله عنه.

(٣) انظر: «فتح الباري» (٦/ ١٧٩).

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٣/ ٣٤٠) حديث (٥٩٩٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢). وانظر: «السيرة النبوية» (٣/ ٣٢١-٣٢٦)، «فتح الباري» (٥/ ٣٣٧-٣٣٨).

﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ ومن برئ الله منه تولاه الشيطان.

٥- أن اتخاذ الكافرين أولياء من كبائر الذنوب؛ لأن الله رتب عليه براءته من فاعله، وما رُتب عليه براءة الله، أو براءة رسوله من فاعله فهو من الكبائر.

٦- لا يجوز أن يكون لأحد من الكفار ولاية على أحد من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

٧- في براءة الله- عز وجل- ممن يوالي الكافرين من دون المؤمنين إثبات ولايته عز وجل للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

٨- تقدير الدين الإسلامي لكل حال ولكل ظرف قدره، ورفع الحرج عن الأمة في اتخاذ التقاة من الكفار ومداراتهم عند الضرورة؛ لاتقاء شرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

٩- تحريم الركون إلى الكفار ومداهنتهم على حساب ديننا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي: لاتقاء شرهم، دون الرضا بما هم عليه؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

١٠- التحذير من نقمة الله وعقابه، وأليم عذابه، لمن اتخذ الكافرين أولياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وفي هذا من الوعيد ما لا يخفى.

١١- جواز إضافة لفظ «نفس» إليه- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

١٢- أن مصير جميع الأمور والأحكام والخلائق إلى الله- عز وجل- وحده، لا إلى غيره في الدنيا والآخرة، وسيحاسب العباد على أعمالهم، ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وفي هذا وعيد لمن خالف أمر الله، ووعد لمن أطاع الله.

١٣- أن القرآن الكريم كلام الله- عز وجل- أنزله على رسوله ﷺ، ولم يتقوله ﷺ من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وفي هذا رد على من زعموا أنه اختلقه وافتراه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨]،

١٤- الأمر بإبلاغ الناس بعلم الله- عز وجل- بما يخفون في صدورهم، وبما يبدون؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ وذلك؛ ليحاسب المرء نفسه على ما يخفي وما يعلن، قبل محاسبته على ذلك.

١٥- إحاطة علم الله- عز وجل- بما يخفي الناس في صدورهم وبما يبدونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ ومقتضى علمه- عز وجل- محاسبتهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

١٦- التحذير من أن يخفي الإنسان في نفسه ما لا يرضي الله- عز وجل- من موالاة الكافرين، أو غير ذلك.

١٧- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٨- كما أن في الآية وعيدًا وتحذيرًا ظاهرًا لمن أخفى الشر أو أبداه، ففيها في المقابل وعد لمن عمل الخير أو نواه.

١٩- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بما في السموات وما في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

٢٠- عموم قدرة الله- عز وجل- وتمامها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ «يوم»: مفعول به لمقدر محذوف تقديره: «اذكر» أي: اذكر للناس هذا اليوم العظيم، وذكرهم به، ويحتمل كون «يوم» منصوبًا بـ«تود» في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾.

﴿تَجِدُ﴾ علمية تنصب مفعولين، الأول: «ما» فهي اسم موصول بمعنى «الذي» مبني في محل نصب، والثاني قوله: ﴿مُّحْضَرًا﴾.

ويجوز أن تكون «تجد» بمعنى «تصيب» فتتعدى إلى مفعول واحد هو «ما» الموصولة، و«محضرًا» حال.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: كل نفس من أنفس المكلفين بعبادة الله- عز وجل- وهم الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

أما ما عدا الإنس والجن فهم غير مكلفين، وغير محاسبين كالملائكة؛ لأنهم كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]، وكذلك البهائم، وإنما يقتص لبعضها من بعض في ذلك اليوم، ثم يقال لها: «**كوني ترابًا**»(١).

﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ «ما» اسم موصول يفيد العموم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ «من» لبيان الجنس.

أي: يوم تجد كل نفس جميع الذي عملته من الخير قليلًا كان أو كثيرًا ﴿مُّحْضَرًا﴾

---

(١) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠).

كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والمراد بالخير هنا ما يشمل الأعمال الصالحة كلها، قولًا، وفعلًا، وبذلًا، وغير ذلك، سواء كانت مما يتعدى نفعه إلى الآخرين، كالدعوة إلى الله، والإنفاق في وجوه البر ومساعدة المحتاجين ونحو ذلك. أو مما يقتصر نفعه على فاعله كالصلاة والصيام ونحو ذلك.

﴿ مُّحْضَرًا ﴾ أي: حاضرًا معدًا جاهزًا- بأمر الله- عز وجل- لتراه وتستبشر به، وتجازى عليه- كما قال تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾ [التكوير: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ ﴾ [الزلزلة: ٦].

فإذا رأى الإنسان ما عمله من خير فرح بذلك واستبشر وسرّه ذلك.

﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ الواو: استئنافية، و«ما» اسم موصول في محل رفع مبتدأ وخبره جملة ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ أي: والذي عملته من سوء ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾.

ويحتمل كون «الواو» عاطفة، فتكون «ما» معطوفة على «ما» في قوله: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ وفي الكلام حذف تقديره: وتجد ما عملت من سوء محضرًا.

والأول وهو كون الجملة استئنافية- أولى من حيث الإعراب، لعدم الحاجة فيه إلى التقدير، وهو الأصل.

كما أنه أصح من حيث المعنى، فإنه على القول بأن الجملة معطوفة يكون التقدير: وتجد ما عملت من سوء محضرًا.

وهذا إنما يكون بالنسبة لأعمال الكفار، كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩ ﴾ [الكهف: ٤٩].

وأما بالنسبة لأعمال المؤمنين، فما كان منها من خير أحضر لهم- كما في أول الآية، وما كان منها من سوء فإنه لا يحضر لهم، وإنما يقررون به، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي، ربي. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك. قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار، والمنافقون، فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: ١٨]» (١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله- عز وجل-:** ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، **قال: ذاك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك**»(٢).

ومعنى قوله: ﴿مِن سُوٓءٖ﴾ أي: من عمل سيئ، يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره؛ لأن الأعمال السيئة، وإن لم تتعد مباشرة إلى الآخرين فلها آثارها السيئة على البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: ٤١].

﴿تَوَدُّ﴾ خبر «ما» كما تقدم، أي: تحب محبة شديدة، والود والمودة: خالص المحبة.

﴿لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ﴾ «لو»: إذا وقعت بعد «ودّ» فهي مصدرية، غير عاملة، وهي داخلة على فعل محذوف، تقديره: لو ثبت أو حصل أن بينها وبينه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، التقدير: أن يردوكم. وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة: ٩٦]، أي: أن يعمر.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٦)، وأبوداود في الجنائز (٣٠٩٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩]، أي: أن تدهن.

وقيل: إن «لو»: شرطية، وقيل: إنها زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

والضمير في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾ يعود إلى النفس، والضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُ﴾ يعود إلى «ما» أي: إلى الذي عملته من سوء.

﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: زمنًا طويلًا متأخرًا، ومكانًا بعيدًا.

أي: تود أنها لم تعمله، ولم يُحضر لها، أو لم تُذكّر به، وأنها بعيدة عنه، وبعيد عنها، كل البعد، بُعد ما بين المشرق والمغرب، كما يتمنى قرين السوء البعد عن قرينه الشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۝٣٨﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨].

فتأمل أخي الكريم هذا الموقف، عندما تُحضر للإنسان صحائف أعماله، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، من وراء ظهره، وتأمل كم هو الغبن، بين هذا وذاك، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرًا(١)

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: ويحذركم الله نفسه، وعقابه، وأليم عذابه، وكرر التحذير هنا وقد سبق في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية؛ لأن المقام يقتضيه، فالتحذير الأول من موالاة الكافرين، والتحذير الثاني من أن يجدوا

---

(١) البيتان لابن هانئ. انظر: «ديوانه» ص(١٤٠).

يوم القيامة ما عملوا من سوء محضرًا.

وقد يكون التحذير الثاني لزيادة التأكيد.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ «رؤوف» على وزن «فعول» صفة مشبهة يدل على أنه- عز وجل- ذو الرأفة الواسعة العظيمة، والرأفة: أشد الرحمة، وأخصها وأرقها.

﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ المراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الخضوع والانقياد، لقدر الله الكوني، كما في قوله- عز وجل-: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ٩٣﴾ [مريم: ٩٣].

والمعنى: أن الله- عز وجل- رؤوف بالخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ توجيه للعباد للجمع بين خوف الله- عز وجل- ورجائه، وبيان أن تحذيره- عز وجل- لهم نفسه- هو من رأفة الله بهم لينجوا من عذابه. كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ [الزمر: ١٦].

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾.

زعم أناس محبة الله فأمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ- أن يقول لهم ولغيرهم ممن يزعم هذا الزعم: إن كنتم صادقين فيما تقولون، فاتبعوني، فذلك علامة صدق محبة الله، وهو الميزان الذي يعرف به من أحب الله حقيقة، ممن ادعى ذلك مجرد دعوى، بلا دليل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿قُلۡ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ. وتصدير الخطاب له ﷺ بـ﴿قُلۡ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وكما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ واقترن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، والخطاب لكل من ادعى أنه يحب الله.

﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ فيما جئتكم به، وفيما أنا عليه من الشرع؛ عقيدة وقولًا وفعلًا وتركًا، ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى في امتداح المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٢).

فجعل عز وجل من شرط صدق محبة الله- عز وجل- اتباعه ﷺ، وهذا هو الميزان العدل في محبة الله- عز وجل- وهو اتباعه ﷺ.

أما من ادعى محبة الله- عز وجل- أو محبة الرسول ﷺ، وهو غير متبع له ﷺ، فدعواه كاذبة باطلة لا حقيقة لها، كما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا(٣)

وقال الآخر:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها ... بينات أصحابها أدعياء

وقد أحسن القائل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) نظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية. (٤/ ٧١).

لـو كـان حبـك صـادقًا لأطعتـه إن المحـب لمـن يحـب مطيـع[١]

قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ رتب على اتباعه ﷺ فائدتين عظيمتين ومنفعتين كبيرتين، هما: محبة الله لهم، ومغفرته.

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحبكم الله؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحب الله، وصدَّق ذلك باتباعه للرسول ﷺ أحبه الله. قال ابن القيم: «فجعل محبة العبد لربه موجبًا مقتضيًا لمحبة الرب عبده».

والشأن كل الشأن في محبة الله- عز وجل- للعبد، فهي أعظم وأسمى، وأجل وأعلى من محبة العبد لله.

قال ابن القيم: «وكون العبد محبوبًا لله أعلى من كونه محبًا لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله»[٢].

وقال ابن كثير[٣]: «أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول».

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، «ذنوبكم، «ذنوب»: جمع مضاف إلى معرفة فيعم جميع الذنوب، أي: ويغفر لكم جميع ذنوبكم، بسترها، والتجاوز عنها، بسبب اتباعكم للنبي ﷺ، ومحبة الله لكم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[٤].

وبتيسير أسباب المغفرة لكم بتوفيقكم للتوبة، ونحو ذلك.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «غفور» على وزن «فعول» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه- عز وجل- ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ

---

(١) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الكامل في اللغة» (٢/ ٤).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٤٩٧).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن صحيح».

ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣].

فهو عز وجل يستر الذنب ويتجاوز عنه، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- **فيقول الله- عز وجل-: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

ومنه سمي «المغفر» وهو «البيضة» التي توضع على الرأس تستره، وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمٌ﴾: على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على أنه- عز وجل- ذو الرحمة الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ [الإسراء: ٥٤].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وباجتماع المغفرة والرحمة يزول المرهوب، ويحصل المطلوب. وقدَّم المغفرة على الرحمة؛ لأن المغفرة وقاية وتخلية، والرحمة عناية وتحلية، والوقاية والتخلية قبل العناية والتحلية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

بيّن في الآية السابقة أن علامة صدق محبة الله اتباعه ﷺ، وأمر بذلك، ثم بيّن في هذه الآية حقيقة اتباعه ﷺ وصفتها.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

قوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ، وصدر بقوله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد. و«الطاعة»: الامتثال والانقياد والموافقة، بفعل المأمور، وترك المحظور، أي: قل يا محمد للناس ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما يأمركم الله به، وترك ما ينهاكم عنه.

﴿وَالرَّسُولَ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمدًا ﷺ، أي: وأطيعوا الرسول محمدًا ﷺ بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه.

و«الرسول» في الشرع: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وعطف «الرسول» على اسمه عز وجل «الله» بالواو التي تفيد التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وهذا بخلاف باب القدر والمشيئة، فلا يجوز عطف اسمه ﷺ ولا غيره بالواو على اسمه- عز وجل- ولهذا لما قال رجل: يا رسول الله، ما شاء الله وشئت. قال ﷺ: «**أجعلتني لله عدلًا، قل: ما شاء الله وحده**»(١).

وفي رواية: «**إذا حلف أحدكم، فلا يقل: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت**»(٢).

وذلك لأن مشيئة الرسول ﷺ وجميع الخلق إنما هي تبع لمشيئة الله- عز وجل- وليست من مشيئة الله.

وفي قوله: ﴿وَالرَّسُولَ﴾ دون إعادة الفعل «أطيعوا» دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ تجب تبعًا لطاعة الله تعالى وأنها طاعة لله.

كما أنها أيضًا تجب استقلالًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٨)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٠٥، ١٣٠٠٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جاء هذا في رواية ابن ماجه.

التغابن: ١٢]، بدليل إعادة الفعل «أطيعوا».

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: فإن تولوا وأعرضوا عن طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ بقلوبهم وأبدانهم وجوارحهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فهم كافرون، بتوليهم عن طاعة الله ورسوله، والله لا يحب الكافرين منهم ومن غيرهم، بسبب كفرهم.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: «لا يحبهم» للتسجيل والحكم عليهم بالكفر، بسبب توليهم، ولتعميم حكم الكفر على كل متول عن طاعة الله ورسوله، ونفي محبته- عز وجل- عن كل كافر منهم ومن غيرهم، ولبيان العلة في نفي محبته عنهم، وهي كفرهم، إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات السابقة واللاحقة.

ومفهوم الآية أنه- عز وجل- يحب المؤمنين المتقين كما قال- عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤، ٧].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية.

٢- التحذير من يوم القيامة، والتذكير بما فيه من إحضار الأعمال، وعظيم الأهوال، والحث على تذكره، وأن يكون منا على بال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية.

٣- أن كل نفس ستجازى بما عملت، من خير أو سوء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

٤- أن كل نفس عملت خيرًا قليلًا كان أو كثيرًا ستجده حاضرًا يوم القيامة، فتفرح وتستبشر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

٥- أن عمل الشر يسوء صاحبه في الحال والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾

فسماه سوء؛ لأنه يسوء صاحبه، وقد يسوء غيره.

٦- أن كل نفس عملت سوءً ستود في ذلك اليوم التخلص منه، والبعد عنه، وأنها لم تعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ وهيهات ذلك.

٧- إحصاء جميع أعمال العباد؛ لأن إحضارها لهم ومجازاتهم عليها يستلزم إحصاءها قبل ذلك، وفي ذلك كله دلالة على كمال رقابة الله- عز وجل- وعظيم قدرته.

٨- الترغيب في عمل الخير قليلًا كان أو كثيرًا، والترهيب من عمل الشر قليلًا كان أو كثيرًا.

٩- تحذير الله- عز وجل- العباد نفسه، ونقمته وعقابه، وأليم عذابه، إن هم خالفوه وعصوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وذلك من رأفته- عز وجل- بهم، ولهذا أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

١٠- إثبات صفة الرأفة لله- عز وجل- وهي أخص من الرحمة، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. فهو- عز وجل- ذو الرأفة العظيمة، واسمه «الرؤوف» سبحانه.

١١- أن رأفة الله- عز وجل- عامة لجميع العباد، مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فهو رؤوف بعباده جميعًا يسعهم حلمه ورحمته وفضله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

١٢- عبودية الخلق كلهم لله، بالمعنى العام للعبودية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فجميع الخلق عبيد لله- عز وجل- خاضعون لحكمه وقدره الكوني.

١٣- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

١٤- أمر الله- عز وجل- لرسوله ﷺ بتحدي من يَدَّعون محبة الله- عز وجل- بتحقيق ما يُصَدِّق دعواهم، وهو اتباعه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

١٥- أن من لازم أي دعوى إقامة الدليل عليها، وفي الحديث: «**البينة على المدعي،**

واليمين على من أنكر»(١).

١٦- أن الميزان العدل في صدق محبة العبد لله- عز وجل- هو اتباع الرسول ﷺ، فمن اتبع الرسول ﷺ فهو محب لله تعالى، وبحسب قوة اتباعه للرسول ﷺ تكون قوة محبته لله عز وجل.

١٧- جواز ادعاء محبة الله شريطة أن يكون على ذلك بينة، وهي اتباع الرسول ﷺ؛ لأن التحدي في الآية والإنكار لمن ادعى ذلك بلا بيِّنة.

١٨- أن محبة الله- عز وجل- من أعظم المطالب، حتى إنه ليتشوف إليها ويدعيها من ليس أهلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾.

١٩- أن من أعظم أساليب إفحام مدعي الكذب إلزامه بفعل ما يُصدق دعواه، فهؤلاء ادعوا محبة الله فألزموا باتباع الرسول ﷺ لتصديق دعواهم.

٢٠- أن اتباع الرسول ﷺ سبب لمحبة الله للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢١- أن الشأن كل الشأن في محبة الله- عز وجل- للعبد، لا في محبة العبد لله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل «تحبوا الله» مع أنهم إنما ادعوا أنهم يحبون الله، فأمرهم بما يكون برهانًا وسببًا لمحبة الله لهم وهو اتباعه ﷺ، وهو بلا شك دليل على محبتهم لله عز وجل.

٢٢- إثبات محبة العبد لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ وهي واجبة ولا يصح الإيمان إلا بها، ويجب تقديمها على كل محبوب. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتجب محبته- عز وجل- لذاته، ولما أنعم به علينا من النعم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٤١)- بلفظ: «البيِّنة على المدعي واليمين على المدعى عليه»- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: «في إسناده مقال».

كما تجب محبة الرسول ﷺ، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين**»(١).

٢٣- إثبات المحبة لله- عز وجل- كما يليق بجلاله وعظمته، وأنه- عز وجل- يحب من اتبع الرسول ﷺ محبة حقيقية؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحب الله، وصدَّق ذلك باتباعه للرسول ﷺ أحبه الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ لكن شتان بين المحبتين، فمحبة الله للعبد أعظم وأسمى، وأجل وأعلى.

٢٥- أن اتباع الرسول ﷺ سبب لمغفرة الله- عز وجل- للذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾.

٢٦- عظم فضل الله وجوده وإحسانه، حيث رتب على اتباع الرسول ﷺ هاتين الفائدتين العظيمتين، وهما محبته- عز وجل- للعبد، ومغفرته لذنوبه.

٢٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ أي: يستر الذنب، ويتجاوز عنه.

٢٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله ﴿رَّحِيمٞ﴾.

٢٩- في اقتران مغفرته- عز وجل- برحمته يزداد كمالًا إلى كمال، حيث يجمع لعباده بين المغفرة، التي بها يزول المرهوب، والرحمة التي بها يحصل المطلوب- نسأل الله تعالى من فضله.

٣٠- الرد على من يزعمون أنهم أولياء الله، ويَدْعون الناس إلى تعظيمهم مع مخالفتهم للرسول ﷺ، وصدق الله العظيم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان و شرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

٣١- وجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ وصدر الخطاب بقوله: «قل» للعناية والاهتمام والتوكيد.

٣٢- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولَ ﴾ أي: الرسول المعهود في الذهن، وهو محمد بن عبدالله ﷺ.

٣٣- أن طاعة الرسول ﷺ تجب تبعًا لطاعة الله تعالى وهي طاعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾.

كما تجب طاعته استقلالًا، فيما أمر به، مما لم يأت الأمر به في القرآن الكريم؛ لأن الله- عز وجل- أمر بطاعته مطلقًا، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة: ٩٢، التغابن: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩، النور: ٥٤، محمد: ٣٣]، بتكرار الفعل «أطيعوا».

٣٤- الرد على الذين ينادون بالأخذ بالقرآن، دون السنة، كما قال ﷺ: «**رب رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**» قال ﷺ: «**ألا إنما حرم رسول الله، مثل ما حرم الله**»(١).

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

٣٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله- عز وجل- في باب الطاعة، بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

٣٦- أن من تولى عن طاعة الله ورسوله ﷺ، فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

٣٧- نفي محبة الله- عز وجل- عن جميع الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة- لزوم السنة (٤٦٠٤، ٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣، ٢٦٦٤)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة (١٢، ١٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠، ١٣٤)، من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

٣٨- أن سبب عدم محبته- عز وجل- للكافرين هو كفرهم.

٣٩- إثبات محبة الله- عز وجل- للمؤمنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فمفهوم الآية محبته- عز وجل- للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

٤٠- التحذير من التولي والإعراض عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأن الله رتَّب على ذلك الكفر وعدم محبته- عز وجل- وذلك مؤذن بغضبه وعذابه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾: «إنَّ»: حرف توكيد ونصب، ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾:

الاصطفاء الاختيار والاجتباء، وصفوة الشيء خياره وأفضله، واصطفى الشيء أخذ صفوته.

أي: إن الله اجتبى آدم عليه السلام واختارة نبيًّا وفضَّلهُ، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شيء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها ليعود إليها أفضل مما كان عليه قبل ذلك، وأوحى إليه بشرع تَعَبَّد الله تعالى به، وبقي الناس عليه مدة لم يحصل بينهم اختلاف، فلما اختلفوا بعث الله النبيين.

كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩].

﴿وَنُوحًا﴾ أي: واصطفى نوحًا عليه السلام، واختاره نبيًّا رسولًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح:١].

وجعله أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن أشرك الناس وعبدوا مع الله غيره.

كما جاء في حديث الشفاعة: أن آدم عندما يعتذر عن الشفاعة يقول: «**ائتوا نوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»(١).

ونجَّاه ومن اتبعه في السفينة، وأغرق من عصاه، وجعل النبيين بعده من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦].

وذكر الله- عز وجل- نوحًا بعد آدم؛ لأنه النبي الثاني، والأب الثاني للبشرية بعد آدم؛ لأن البشر كلهم بعده يرجعون إلى أبنائه الثلاثة: (سام، وحام، ويافث)، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

﴿وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: واصطفى (آل إبراهيم) واختارهم واجتباهم وفضَّلهم، (وآل إبراهيم) هم: ذريته وعشيرته وقرابته، فاختار إبراهيم نبيًّا رسولًا، واتخذه خليلًا، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

وجعل النبوة بعده في عقبه وذريته، ونصَّ على آله- والله أعلم- مع أنه يدخل فيهم من باب الأولى لكثرة الرسل فيهم، ولأن فيهم أفضل الرسل وسيدهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٦].

﴿وَءَالَ عِمْرَانَ﴾ أي: واصطفى (آل عمران) واختارهم، و(عمران): هو والد مريم أم عيسى عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ [التحريم:١٢].

ويدل على هذا قوله بعده: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران:٣٥].

---

(١) أخرجه البخاري في «الأنبياء»- قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾[نوح:١] (٣٣٤٠)، ومسلم في «الإيمان» أول أهل الجنة منزلة فيها (١٩)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٣١٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

و(آل عمران): هم أهل بيته امرأته التي أثنى الله تعالى عليها بقوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران:٣٥].

و«مريم» ابنتها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٤٢].

وعيسى ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فهم مصطفى من مصطفى، من مصطفى من مصطفى.

فاصطفى الله آدم، واصطفى من ذريته نوحًا، واصطفى من ذرية نوح آل إبراهيم، واصطفى من آل إبراهيم آل عمران.

﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: «العالمين» جمع «عالَم» بفتح اللام، وهو كل من سوى الله تعالى.

والمعنى: اصطفينا هؤلاء المذكورين، واخترناهم، وفضَّلنا كلًّا منهم على عالم زمانه، ومنهم من اصطُفِيَ وفُضِّلَ على جميع الخلق، فالرسل والأنبياء أفضل الخلق كلهم، وأفضلهم أولوا العزم من الرسل، وأفضل أولي العزم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى- على اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل.

ويدخل في اصطفاء وتفضيل المذكورين من تبعهم من المؤمنين والصالحين.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال: «هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد. يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾[آل عمران:٦٨] وهم المؤمنون»(١) .

قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٤].

قوله: ﴿ ذُرِّيَّةًۢ ﴾: منصوب بدلًا من ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ أو حال من آل إبراهيم وآل عمران.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٣٢٨)، وابن حبان في «تفسيره» (٢/ ٦٣٥).

و﴿ ذُرِّيَّةًۢ ﴾: مأخوذ من (ذرأ) بمعنى: خلق، كما قال تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ [الشورى:١١]، أي: يخلقكم فيه. والمعنى على هذا: أن هؤلاء الأصناف الأربعة (ذرية) أي نسلًا.

﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾: فكلهم أولاد آدم، ومتوالد بعضهم من بعض، وبعضهم من بعض في جنس الخلقة، وفي الدين، والأخلاق والآداب، وفي التسلسل في الاصطفاء، وعلى هذا تكون الذرية شاملة للأصول والفروع.

ويُحتمل أن ﴿ ذُرِّيَّةًۢ ﴾ مأخوذ من (وذر) بمعنى: ترك، كما في قوله ﷺ: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيرًا من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١).

وعلى هذا يكون المراد بالذرية: الفروع، أي: الأولاد الذين خلفهم وتركهم الإنسان بعده.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي: ذو سمعٍ واسع يسع جميع الأصوات والأقوال ويجيب الدعوات.

﴿عَلِيمٌ ﴾ أي: ذو علمٍ واسع يسع كل شيء، يَصطفي ويُفضِّل مَنْ هو أهل لذلك بعلمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:٩٠-٩١].

فاصطفاؤه لمن اصطفاه من عباده عن سمعٍ منه- عز وجل- لأقوالهم، وعِلم منه بضمائرهم وأفعالهم، وأحوالهم.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

تقرير لاصطفاء الله- عز وجل- آل عمران، وبيان له.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وقد فصَّل عز وجل في هذه الآية وما بعدها قصة أم عمران وزكريا ومريم وعيسى؛ لأن أول هذه السورة نزل في وفد نجران، وهم من النصارى الذين جاؤوا لمحاجة النبي ﷺ؛ ليعلموا أنه ﷺ أعلم منهم بما جرى لأسلافهم.

قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ «إذ»: طرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾: أي: حين قالت امرأة عمران- وقد مات زوجها عمران وهي حبلى. وهي أم مريم، أي: جدة عيسى ابن مريم عليهما السلام.

﴿رَبِّ ﴾ أي: (يا رب) حُذِفت منه ياء النداء اختصارًا؛ لكثرة الاستعمال، وحُذِفَ منه ضمير المتكلم الياء؛ تخفيفيًا، وأصله: (يا ربي).

﴿إِنِّي نَذَرْتُ ﴾ (النذر): أن يُلزِم المرء نفسه بشيءٍ لله لم يكن واجبًا عليه في الأصل.

﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي في بطني من الحمل، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو أكثر.

﴿مُحَرَّرًا ﴾ أي: مخلصًا لعبادتك، وخدمة بيتك المقدس.

والمعنى: إني التزمت أن يكون الذي في بطني محررًا من خدمتي، مخلصًا لعبادتك، وخدمة بيتك المقدس، وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك تعظيمًا لبيت المقدس.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾: (التقبُّل): أخذ الشيء على وجه الرضا، أي: فتقبل مني هذا النذر وهذا العمل بجعله خالصًا لوجهك وفق شرعك، وأثِبْني عليه.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾: هذه الجملة استئنافية للتعليل، أي: لأنك أنت السميع العليم.

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى، يدل على أنه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات والأقوال، يسمع الدعاء سمع إدراك، وسمع إجابة، كما في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب.

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾: اسم من أسماء الله تعالى، يدل على أنه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه:٩٨].

والمعنى: لأنك أنت السميع للدعاء، المستجيب له، العليم بنيتي وبالحال

وبالأصلح وبكل شيء. وقد أكدت هذا بـ «إنَّ» وبضمير الفصل «أنت».

قولـه تعـالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ أي: فلما ولدتها، وأنَّث الضمير مراعاة لمعنى «ما» في قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾؛ لأنها وضعت أنثى.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي: يا رب.

﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ «أنثى» حال، أي: إني ولدتها حال كونها أنثى، وقيل: بدل من «ها» بدل كل من كل، أي: إني وضعت أنثى.

وكأنها بهذا تعتذر أو تتحسر؛ لأنها كانت ترجو أن يكون ما في بطنها ذكرًا، وإنما قالت هذا؛ لأنها جهلت قدر هذه المولودة، وما سيكون لها من شأن عظيم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: الجملة اعتراضية بين قولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ وقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾.

قرأ ابن عامر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: «وضعْتُ» بإسكان العين وضم التاء فيكون هذا من كلام امرأة عمران، احتراسًا منها، أي: ولست أُخبِر الله بما وضعت، فهو أعلم بذلك.

وقرأ الباقون: ﴿وَضَعَتْ﴾ بفتح العين وإسكان الياء، فيكون هذا من كلام الله تعالى.

وفي هذا الاعتراض مع بيان علمه- عز وجل- بما وضعت فائدتان:

الأولى: دفع ما قد يتوهم من أنها قصدت إعلام الله تعالى بقولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ وهي لم تقصد ذلك قطعًا؛ لعلمها أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والثانية: الإشارة إلى أنه سيكون لها شأن عظيم، مما لم تعلمه أمها ولا غيرها.

وقوله ﴿أَعْلَمُ﴾: اسم تفضيل، أي: أنه- عز وجل- أعلم منها ومن كل أحد بما وضعت.

﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾ «ما»: موصولة، والعائد ضمير في محل نصب مفعول به، أي: بالذي وضعته في كونه أنثى، وفيها سيكون لهذه الأنثى من شأنٍ عظيم، خير من مطلق الذكر.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: هذا وما بعده من تتمة كلام امرأة عمران.

وقيل: يُحتمل أن قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ من كلام الله – قصد به التماس العذر لها في التحسُّر والتحزُّن ببيان فضل الذكر على الأنثى؛ ولهذا جُبِلت النفوس على الرغبة فيه.

والظاهر أن قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ كالذي بعده من كلام امرأة عمران على القرائتين- معًا- وهو أظهر على قراءة من قرأ: (والله أعلم بما وضَعْتُ) بضم التاء، ويدل عليه قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

كما يدل عليه السياق السابق.

والمعنى: فإن امرأة عمران كانت تأمل أن يكون ما في بطنها ذكرًا فتجعله مخلصًا لعبادة الله تعالى وخدمة بيت المقدس، فلما كان أنثى قالت هذه المقالة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اعتذارًا منها وتحسُّرًا وانكسارًا، أي: وليس الذكر في الخدمة لبيت المقدس والعبادة فيه كالأنثى، بل هو أقوى وأقدر، وخدمته أتم وأكمل وأدوم، بخلاف الأنثى؛ فهي أضعف، وخدمتها أقل لخروجها من المسجد اضطرارًا حال الحيض والنفاس.

وحقًّا، فالذكر ليس كالأنثى، والأنثى ليست كالذكر، فلا مساواة بينهما، فلكل منهما ميزاته وخصائصه وقدراته العقلية والبدنية وغير ذلك، فالذكر من حيث العموم أكمل عقلًا، وأقوى بدنًا، وأقدر على تحمل المشاق، كما أن الرجل من حيث العموم أفضل من المرأة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وهذا لا يمنع أن يكون من النساء من هي خير من كثير من الرجال في كمال عقلها، وقوة بدنها، وتحملها، ويكفي النساء فخرًا أن منهن فاطمة سيدة نساء العالمين، ومنهن أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن- خديجة، وعائشة، وحفصة، وبقية أمهات المؤمنين، ومنهن مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.. وغيرهن كثير.

وقدَّم «الذكر» في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأنه هو المأمول، فهو أسبق إلى لفظ

المتكلم، ولم يقُل: (وليس الأنثى كالذكر)؛ لدفع ما يشعر بنقص الأنثى مع أن المؤدى واحد، كما في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١] دون أن يقول: «للأنثى نصف ميراث الرجل»؛ لئلا يشعر ذلك بنقص ميراث الأنثى مع أن المؤدى واحد؛ وفي هذا ما لا يخفى من مراعاة الشعور وحسن التعبير.

و(ال) في الذكر والأنثى للجنس، وقيل: للعهد، أي: ليس الذكر الذي طلَبَتْ، كالأنثى التي وُهِبَتْ لها.

قال السعدي[1] في كلامه على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: «كأن في هذا الكلام نوع تضرُّع منها، وانكسار نفس؛ حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكرًا، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها، وتقبَّل نذرها وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر».

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: هذا وما بعده من تتمة كلام امرأة عمران، أي: وإني اخترت لها اسم (مريم)، والاسم مأخوذ من السمو، وهو العلو؛ لأن صاحبه يسمو ويرتفع به، ومن السمة، وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة على صاحبه يتميز بها.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: وإني أُجيرها بك يا رب.

﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: وأُجير ذريتها بك، ولم يكن لمريم ذرية إلا ابنها عيسى عليه السلام.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من إبليس وذريته وجنوده وأعوانه من شياطين الجن والإنس.. وغيرهم.

و﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مشتق من «شطن» بمعنى «بعد»؛ لأنه بَعُدَ عن رحمة الله تعالى، وعن الجنة، وعن كل خير.

---

(١) في «تيسير الرحمن الكريم» (١/ ٣٧٦).

وهو في الشرع: كل متمرد، عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى من الإنس والجن والحيوان، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]. وفي الحديث: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

وقد استجاب الله دعاء امراة عمران فأعاذ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليهما سبيلًا؛ فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسه إيَّاه إلا مريم وابنها**»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٢).

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: المرجوم فهو «فعيل» بمعنى: «مفعول» أي: مرجوم حسًّا، ومعنىً بإهباطه من الجنة، ورميه بالشُّهُب، وطرده عن رحمة الله وعن كل خير.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

قوله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: الفاء: للتعقيب والتفريع؛ وهذا مُؤذِن بسرعة إجابة دعائها، وضمير «الهاء» يعود إلى مريم، أي: تقبل تحريرها لخدمة بيت المقدس وعبادة الله- عز وجل- فيه.

قال ابن كثير(٣): «تقبلها من أمها نذيرة».

و(تقبَّل) أبلغ من (قبل)؛ لأن زيادة المبنى تدل غالبًا على زيادة المعنى.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميرها تكريم وتشريف لها بربوبية الله- عز وجل- لها ربوبية خاصة.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٠٢)، والنسائي في القبلة (٧٥٠)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٦).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٨).

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ الباء: للتأكيد، و(قبول): اسم مصدر، أي: قبولًا حسنًا. فقبل من أمها نذرها إيَّاها وآجرها فيها، ويسَّرها لليُسرى، وسهَّل أمرها.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: أنشأها إنشاءً صالحًا، جسديًا وعقليًا وروحيًا فنَمَّى جسمها، وأتم عقلها، وأكمل خُلُقها وأخلاقها دينًا وعفة وأدبًا وقنوتًا وطاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

وفي الحديث: «**كملَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»(١).

﴿وَكَفَّلَهَا﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بتشديد الفاء، فيكون «زكريا» على هذا مفعولًا ثانيًا لـ«كفل» ومفعولها الأول (الهاء)، أي: كفَّل الله مريم زكريا، أي: جعل الله زكريا كافلًا لها.

وقرأ الباقون «فكفلها» بالتخفيف، فيكون «زكريا» على هذا فاعل، أي: صار زكريا كافلًا لها، أي: تولى كفالتها.

وزكريا زوج خالتها، ويُقال: زوج أختها.

كما قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف ﴿زَكَرِيَّا﴾ بالقصر من غير همز في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالمد والهمز «زكرياء» وهما لغتان.

كفلها زكريا بعد أن تنازع في كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل، واقترعوا في ذلك أيهم يكفلها، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤]، فصارت من نصيب زكريا زوج خالتها فكفلها، وكان كل واحد منهم حريصًا على كفالتها لمكانة أبيها عمران.

---

(١) أخرجه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٤١١)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (٢٤٣١)، والترمذي في الأطعمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٠)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾: «كلما» تفيد التكرار، وهي مركبة من «كل» التي تفيد العموم، و«ما» الظرفية، والتقدير: كل وقت يدخل عليها زكريا المحراب يجد عندها رزقًا، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة:٢٥].

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: مكان العبادة والصلاة، وفي هذا دلالة على ملازمتها الصلاة والعبادة.

وفي قصة داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١]، أي: مكان تعبُّده.

وقيل: سُمِّيَ مكان العبادة بـ«المحراب»؛ لأن المتعبد كأنه يحارب الشيطان فيه.

ويُحتمل أن المراد بـ(المحراب) هنا محراب بيت المقدس بعد أن دخلت فيه لنذر أمها، أو محراب خاص بها في منزلها.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾: عطاء من الله تعالى لها بلا كد ولا تعب، تأكل منه، ويقوم به بدنها ويحفظ حياتها.

قال جمع من المفسرين: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[1]، كرامة من الله تعالى أكرمها بها، كما أكرمها بقوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥].

ومثل هذا ما وُجِدَ عند خبيب بن عدي الأنصاري- رضي الله عنه- الذي استشهد بمكة على أيدي المشركين حيث وُجِدَ عنده قطف عنب[2].

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لكِ هذا الرزق؟.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن الله هو الذي رزقها إياه، وساقه إليها، وأعطاها إياه.

وهذا يذكرني بقصة عمي عبد الرحمن العبد الله مع محمد المطوع- رحمهما الله-

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد هل يستأسر الرجل (٣٠٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان محمد رجلًا كفيفًا مقعدًا بسبب المرض، فكان عمي- رحمه الله- يأتي إلى منزل هذا الرجل ويملأ الثلاجة بالفواكه والخضروات، وكان هذا الرجل لا يعلم من الذي يفعل ذلك، وتمر الأيام ويموت عمي- رحمه الله- وتبدو الثلاجة فارغة لا شيء فيها، فيتفطن ذلك الرجل المقعد ويقول: والله ما علمت أن الذي يفعل ذلك هو عبد الرحمن العبدالله حتى فرغت الثلاجة بعد وفاته، فعلمت أنه الذي كان يفعل ذلك. رحم الله الرجلين معًا، وأسكنهما فسيح جناته، ولا أزكي على الله أحدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: الجملة استئنافية تعليلية، و«من»: موصولة، أي: لأن الله يعطي الذي يشاء من خلقه عطاءً دنيويًا؛ وهذا لا يختص بطائفة دون أخرى، وعطاءً دنيويًّا وأُخرويًا؛ وهذا للمؤمنين خاصة.

﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: بلا حصر ولا حد لما يعطيه، وبغير استحقاق، بل تفضلًا منه.

الفوائد والأحكام:

١- اصطفاء الله تعالى واختياره وتفضيله لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٢- أن الله تعالى يصطفي ويختار من عباده من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

٣- إثبات نبوة آدم ونوح وإبراهيم، وإثبات النبوة في آل إبراهيم وآل عمران؛ فإنها أعظم شيء فُضِّلوا به، وإثبات فضلهم على العالمين.

٤- إثبات التفاضل بين الناس كونًا وشرعًا.

٥- فضل الأنبياء والرسل على جميع الخلق، بما فيهم الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقد أخذ بعض أهل العلم أيضًا من الآية أن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة.

وقد اختلف أهل العلم في هذا على قولين: جمع بينهما شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله: «بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية»(١).

---

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٣٤٣).

أي: أن الملائكة خُلِقُوا من نور وهو أفضل من الطين الذي خُلِقَ منه آدم، فهم في البداية أفضل.

وأما النهاية فإن الجنة تكون للصالحين من بني آدم ومن الجن، فهم في النهاية أفضل.

٦- أن البشر جنس واحد بعضهم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ ﴾، فلا يجوز أن يفخر بعضهم على بعض، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

وفي هذا تعريض باليهود في اتهامهم عيسى وأمه وتكذيبهم له، وتعريض بهم وبالنصارى في تكذيبهم محمد ﷺ فإن كون هؤلاء المصطفين ذرية بعضها من بعض مما يوجِب المحبة والمودة والاتباع والتصديق، لا العداوة والتكذيب.

٧- إثبات صفة السمع لله تعالى، فهو يسمع جميع الأقوال والأصوات والحركات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾.

٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل الذي يسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ ﴾.

٩- التذكير بنذر أم عمران وقصتها تنويهًا بشأنها؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ ﴾ الآية.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ ﴾، وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾، وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ﴾، وقول زكريا: ﴿رَبِّ ﴾.

١١- جواز النذر؛ لقول مريم: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا ﴾، كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان:٧]، وهو في الإسلام مكروه؛ فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: «**إنه لا يرد شيئًا وإنما يُستخرج به من البخيل**»(١).

١٢- جواز نذر الشيء المجهول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٨)، ومسلم في النذر (١٦٣٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠١)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٢).

١٣- أن المهم في العمل القبول، لهذا قالت ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، فلا ينبغي أن يدل الإنسان على الله بعمله، بل يسأل الله القبول ويخاف من الرد.

١٤- التوسل الى الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا؛ لقول أم عمران ﴿رَبِّ﴾ أي: يا رب، وقولها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لأنك أنت السميع للدعاء وغيره، العليم بالحال وغيرها.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، ويؤخذ منها صفتي السمع والعلم.

١٦- في اجتماع صفة السمع الواسع لله- عز وجل- لجميع الأصوات، والعلم الواسع لكل شيء كمال إحاطته وعلمه.

١٧- الإشارة إلى معاناة الأم حال الحمل والوضع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، فأعظم بها من معاناة، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]، وقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤].

١٨- في قول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وقولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ما يُشبه الاعتذار، إما لأن الأنثى لا تخدم في المساجد، وإما لأن خدمتها دون خدمة الذكر.

كما أنه فيه ما يُشعِر بألم قلبها؛ حيث كانت تأمل أن يكون ما في بطنها ذكرًا، ونذرته لله مخلصًا لخدمة بيت المقدس.

١٩- أن الله- عز وجل- أعلم من كل أحد بما وضعت أم عمران؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

٢٠- الاحتراز عما يوهِم الخطأ؛ لقول أم عمران: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

٢١- أن الذكر ليس كالأنثى، والأنثى ليست كالذكر، فلكل منهما ميزاته وخصائصه وقدراته البدنية والعقلية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾. ومن هنا.. فإن الذكر أقدر وأقوى على خدمة بيت المقدس والعبادة فيه وأدوم.

٢٢- مشروعية تسمية المولود يوم ولادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وفي حديث أنس- رضي الله عنه- أنه ﷺ لما وُلِدَ ابنه إبراهيم قال: «**وُلِدَ لي الليلة غلام وسميته باسم أبي إبراهيم**»(١).

فإن فات ففي اليوم السابع؛ لقوله ﷺ في حديث سمرة بن جندب- رضي الله عنه- عن الرسول ﷺ قال: «**كل غلام رهين بعقيقته تُذبح عنه يوم سابعه، ويُحلق رأسه ويُسمى**»(٢).

٢٣- مشروعية إعاذة الأولاد بالله من الشيطان الرجيم؛ لشدة عداوته لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وكان ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامة، ومن كل عينٍ لامة**»(٣).

٢٤- جواز الدعاء للمعدوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٤٠].

٢٥- لا ينبغي الاستعاذة إلا بالله وحده، فيه المعاذ، وإليه الملتجأ، وهو المجير لمن التجأ إليه، والقدير على ذلك وحده.

٢٦- أن الله- عز وجل- سميع قريب مجيب، سمع سبحانه وتعالى دعاء امرأة عمران وأجابها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة:١٨٦].

وفي الحديث القدسي يقول- عز وجل-: «**من يدعوني فأستجيب له**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل (٢٣١٥)، وأبو داود في الجنائز (٣١٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في الضحايا (٢٨٣٨)، والنسائي في العقيقة (٤٢٢٠)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢٢)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، وأبو داود في السنة (٤٧٣٧)، والترمذي في الطب (٢٠٦٠)، وابن ماجه في الطب (٣٥٢٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥)، والترمذي في الصلاة (٤٤٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٧- مِنة الله تعالى وفضله العظيم على مريم عليها السلام؛ حيث جمع الله لها بين حُسن الخَلْق وحُسن الخُلُق؛ لقوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾.

٢٨- أن من نعمة الله تعالى على مريم عليها السلام أن جعل زكريا كفيلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ لتقتبس منه علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وتتعلم منه الخير والعلم والدين.

٢٩- إثبات الحضانة للطفل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾، وكان زكريا زوج خالتها، أو زوج أختها، كما قال ﷺ في حديث الإسراء حين صُعِدَ به إلى السماء الثانية قال: «**فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة**»(١).

فكانت في حضانة خالتها، وكفالة زوجها زكريا.

وفي الحديث أنه ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة أبي جعفر بن أبي طالب وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**»(٢).

٣٠- ملازمة مريم عليها السلام الصلاة والعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم:١٢].

٣١- عناية الله- عز وجل- بمريم عليها السلام وتيسير رزقها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾.

٣٢- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الغيب، وغيرهم من الخلق من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾.

٣٣- تكفُّل الله- عز وجل- بإرزاق الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٨٧)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٠)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

٣٤- أن الله يرزق ويُعطي من يشاء بلا حساب ولا حصر ولا حد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ لذا يجب طلب الرزق منه وحده دون سواه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

لما رأى زكريا عليه السلام هذه الحال، والبر واللطف من الله تعالى بمريم عليها السلام، ذكَّره ذلك أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨].

لِمَا رأى من قدرة الله تعالى في جلب رزق مريم مع أنها متفرغة للعبادة، بل في رزقها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف طمع حينئذٍ في الولد، مع أنه قد بلغ من الكبر عتيًّا، وامرأته كبيرة عاقر، فدعا ربه أن يهبه ذريةً طيبةً.

قوله ﴿هُنَالِكَ﴾: «هنا» اسم إشارة إلى المكان، واللام للبعد، والكاف للخطاب، أي: في ذلك المكان وهو محراب مريم.

ويُحتمل أن تكون الإشارة للزمان، أي: في ذلك الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب:١١].

ويُحتمل أن تكون لهما معًا، أي: في ذلك الزمان والمكان عند رؤية زكريا ما رأى عند مريم من رزق الله.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ﴾ أي: نادى زكريا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

﴿رَبِّ هَبْ﴾ أي: يا رب أعطني، و(الهبة) العطية بلا عوض.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك لا من عند غيرك؛ لأنك أنت الكريم وعطاءك أجزل وأعظم، وكما جاء في الدعاء: «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني»(١).

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: طيبة في خلْقها وخُلُقِها، في أبدانها وأخلاقها وأقوالها وأفعالها، والذرية هم الأولاد وأولاد الأبناء وإن نزلوا بمحض الذكور، ولا يدخل معهم أولاد البنات، كما قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد(٢)

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: جملة استئنافية تعليلية، أي: لأنك سميع الدعاء، أي: تسمع دعاء الداعي وتجيبه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: الفاء: للتفريع والتعقيب، أي: فنادته الملائكة استجابةً من الله تعالى لدعائه.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «فناداه» بألف بعد الدال، وقرأ الباقون ﴿فَنَادَتْهُ﴾ بتاء ساكنة بعد الدال، أي: فكلمته وخاطبته الملائكة شفاهةً.

و﴿الْمَلَائِكَةُ﴾: عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾: الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يصلي في المحراب، والصلاة تُطلق ويُراد بها الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، الدعاء قبل السلام (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء، استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) البيت للفرزدق. انظر: «ديوانه» (ص٢١٧).

صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣].

وتُطلق ويُراد بها الصلاة ذات القيام والركوع والسجود، وهي المرادة هنا، بدليل قوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ و﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾: مكان العبادة والصلاة والمناجاة والخلوة، ومقتضى قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ والتفريع عليه بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ أن المحراب محراب مريم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾: قرأ حمزة وابن عامر بكسر الهمزة: «إنَّ»، فالجملة في محل نصب مقول القول؛ لأن النداء قول، ومقول القول إذا صدر بـ«إنَّ» وجب فيه كسر الهمزة.

كما قال ابن مالك[1]:

واكسر في الابتدا وفي بدء صلةْ ... وحيثُ «إن» ليمينٍ مكملةْ
أوحُكِيتْ بالقول أوحَلّتْ محلّ ... حال كزرته وإني ذو أملْ

وقرأ الباقون ﴿أَنَّ﴾ بفتح الهمزة على تقدير حرف جر، أي: بأن الله يبشرك.

﴿يُبَشِّرُكَ﴾: قرأحمزة والكسائي: (يَبْشُرُك) بفتح الياء، وسكون الباء، وتخفيف الشين وضمها، وقرأ الباقون: ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ بضم الياء، وفتح الباء، وتشديد الشين وكسرها.

والبشارة: الإخبار بأمر سار، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أُخبِر بما يَسُرُّه استنار وجهه، واتسعت بشرته، وفي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر»[2].

﴿بِيَحْيَىٰ﴾: أي بولد لك من صلبك اسمه يحيى، وسمَّاه الله يحيى إشارة إلى أنه سيحيا حياة بدنية، أي: يبقى، وحياة قلبية بالنبوة والإيمان، وهو أول من سُمِّيَ بهذا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]، وهو ابن خالة عيسى، وهو أكبر من عيسى، وأول من صدَّق به[3]؛ ولهذا قال:

---

(١) في «ألفيته» (ص٢١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٥/ ٣٧٢).

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من (يحيى)، أي: حال كونه ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: مصدقًا بعيسى ابن مريم عليه السلام، وعلى سنته ومنهاجه، وأنه كلمة من الله، وكلمته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥].

وسُمِّيَ عيسى عليه السلام (كلمة من الله)، و(كلمته)؛ لأنه خُلِقَ بكلمة من الله تعالى، أي بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ ولم يكن من أب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

وذلك من باب إطلاق السبب على المسبب.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: «من»: للابتداء، أي: مبدؤها ومنشؤها من الله، تكلم بها، وهي قوله تعالى: ﴿كُن﴾.

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: منصوب على الحال عطفًا على ﴿مُصَدِّقًا﴾.

﴿وَسَيِّدًا﴾: السيد «فيعل» من ساد يسود إذا فاق قومه في محامد الخصال.

والسؤدد عند العرب يعتمد كفاية مهمات القبيلة، والبذل لها، وإتعاب النفس لراحة الناس.

قال الهذلي(١):

وإن سيادة الأقوام فاعلم ... لها صعداء مطلبها طويل
أترجو أن تسود ولن تُعنَّى ... وكيف يسود ذو الدعة البخيل

وملاك السؤدد عندهم بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال العظائم، وأصالة الرأي، وفصاحة اللسان.

---

(١) انظر: «البيان والتبيين» (١ / ٢٧٥).

والسيد في الشرع أعم من ذلك، فهو من يفوق غيره في محامد الخصال، والسعي في إصلاح الناس في دنياهم وأخراهم، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»(١).

وقال ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيد وسيُصلِح الله به بين طائفتين من المسلمين**»(٢).

والمعنى: أن يحيى عليه السلام قد فاق قومه دينًا وتقىً وورعًا وحكمةً وعلمًا وأدبًا وخُلُقًا وشرفًا وكرمًا.. وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:١٢-١٥].

﴿وَحَصُورًا﴾ أي: «فعول» بمعنى «فاعل»، أي: حاصرًا نفسه، والحصر ـ بمعنى المنع، أي: حصينًا مانعًا نفسه من الشهوات والمعاصي ومساوئ الأخلاق، فجمع الله له بين كونه «سيدًا» موصوفًا بأكمل الصفات، وبين كونه «حصورًا» سالمًا مبرأ من سيئ الصفات.

وقيل معنى (حصورًا) أي: لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، وقيل: ممنوعًا من إتيان النساء، أي: لا يستطيع إتيان النساء؛ وهذا لا يناسب المقام؛ لأن المقام مقام مدح وثناء، وهذا الآخر يُعد نقصًا وعيبًا.

﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: وصف الله ـ عز وجل ـ يحيى عليه السلام أولًا بكونه مصدقًا بعيسى ابن مريم، ثم بكونه «سيدًا»، ثم بكونه «حصورًا»، ثم وصفه بما هو أفضل وأعظم من ذلك وهو كونه (نبيًّا من الصالحين)، فنفى الله عنه عليه السلام صفات النقص، وأثبت له صفات الكمال، وأعظمها النبوة والصديقية لعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من جملة الصالحين، بل من الذين بلغوا في الصلاح ذورته؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه، فصلحت سرائرهم وعلانيتهم باطنهم

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٢٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤)، وأبو داود في السنة (٢٦٦٢)، والنسائي في الجمعة (١٤١٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وظاهرهم، وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

لما تحقق لزكريا عليه السلام هذه البشارة؛ أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر وامرأته عاقر، ليتثبت ويتأكد من ذلك.

قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أي: قال زكريا: (يا رب).

﴿أَنَّىٰ ﴾: استفهام تعجب، أي: كيف أو من أين يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟، أي: والحال أنه قد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، كما قال تعالى عنه في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم:٨].

وهذان سببان لعدم وجود الولد- وهذا منه من باب التثبت والتأكد، وليس من باب الاستبعاد والاستنكار أو الشك؛ لأنه قد آمن بما بشره الله به، كما قال إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠].

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾: الجمله حالية، أي: والحال أنه قد بلغني الكبر، أي: قد وصلني الكبر وأصابني وتمكن مني كما وصلت إليه وبلغته ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم:٨].

فمن بلغه الكبر، فقد بلغ هو الكبر، ومن بلغ الكبر فقد بلغه الكبر، على نحو قول الشاعر:

فهن المنايا أي وادٍ سلكته ... عليها طريقي أو على طريقها(١)

والمعنى: كيف يوجد لي غلام وقد أصابني الكبر بينما لم يولد لي لما كنت شابًا؟!.

والعادة أن الإنجاب والإخصاب إنما يكون غالبًا في سن الشباب بالنسبة للرجال

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١٥)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١١)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٥).

والنساء.

﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ أي: وزوجتي ﴿عَاقِرٞ﴾، أي: عقيم لا تحمل. يُقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر، لمن لا يولد له.

فكل من زكريا وامرأته في الغالب والعادة لا يولد لمثله؛ فهو كبير السن قد بلغ الغاية في الكبر، وهي عاقر لا يولد لها، ولكن الله جلَّت قدرته إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠].

وفي هذا التعجب من زكريا عليه السلام كناية عن الشكر لله عز وجل.

﴿قَالَ﴾ أي: قال الملك، أو قال الله.

﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾: الكاف: للتشبيه، وهي في محل نصب نعت لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك الفعل العجيب- وهو حصول الولد بين رجل كبير وامرأة عاقر، وقيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

والمعنى: أنه سيكون لك غلام ولو بلغك الكبر وامرأتك عاقر؛ لأن الله يفعل ما يشاء، فكما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة غالبًا، فإنه قد يخرق ذلك؛ لأنه الفعال لما يشاء ويريد، الذي تنقاد جميع الأشياء لقدرته فلا يتعاصى على قدرته شيءٍ منها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: قال زكريا لما تيقن بأن الله سيهب له الولد.

﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ أي: يا رب صَيِّر لي علامة أعرف بها وقت حصول هذا الحمل. قال هذا زكريا عليه السلام لزيادة الطمأنينة فيما بشره الله به، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي: قال الله له: ﴿ءَايَتُكَ﴾، أي: الآية والعلامة التي أجعلها لك،

وأضافها إلى زكريا؛ لأن الله تعالى جعلها علامة له.

﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: «ألا»: مكونة من «أن» التي هي حرف مصدري ونصب، و«لا»: النافية.

أي: ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليها؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠].

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع؛ لأن الرمز ليس من الكلام، أي: لكن ترمز إليهم رمزًا، أي: إشارة وإيماءً باليد أو بالرأس أو بالشفتين، أو الحاجبين أو العينين.. ونحو ذلك.

ويجوز كون الاستثناء متصلًا باعتبار المعنى؛ لأن «الرمز» تعبير عما في النفس كالكلام.

والمعنى واحد، أي: وآيتك أن لا تستطيع تكليم الناس نطقًا بلسانك ثلاثة أيام بلياليهن إلا إشارة مع أنك سويٌّ صحيح، فمتى تمت الثلاثة أيام كان ذلك علامة على ابتداء الحمل.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: أعظم بهذا من آية يعجز عن تكليم الناس بلسانه، بينما لسانه طلق بذكر الله تعالى، وفي هذا بشارة لزكريا وامتنان عليه، وأمر له بذكر الله وتسبيحه، وفي سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾، أي: واذكر ربك بقلبك ولسانك وجوارحك ذِكرًا كثيرًا، شكرًا لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وزمانًا كثيرًا، أي: في جميع الأوقات، وقد كان ﷺ يذكر الله على جميع أحيانه[1].

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض (٣٧٣)، وأبو داود في الطهارة (١٨)، والترمذي في الدعوات (٣٣٨٤)، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: (التسبيح) تنزيه الله عن النقائص والعيوب، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

وعن مماثلة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

ويُطلق على ما هو أعم من ذلك، وهو التعبُّد لله تعالى بأنواع العبادة كلها؛ من الصلاة، والتهليل، والتكبير، والتحميد، وقراءة القرآن.. وغير ذلك.

والتعبُّد لله تعالى هو تسبيح لله تعالى وإن لم يكن بكلمة «سبحان»؛ لأن التعبُّد له يستلزم تعظيمه والإقرار له بالكمال ونفي النقص عنه.

وحيث قُرِنَ التسبيح بالذِّكر قد يُحمل الذِّكر على التعبُّد لله بأنواع العبادة، ويُحمل التسبيح على التنزيه جمعًا بين الإثبات والنفي.

وقد يُحمل التسبيح على ما يعُم ذلك كله، فيكون الأمر به بعد الأمر بالذِّكر أشبه بعطف العام على الخاص، فيشمل التنزيه لله تعالى والتعبُّد له بأنواع العبادة.

﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ «العشيّ»: آخر النهار، ما بعد الزوال، وهو: الأصيل والرواح.

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشيّ**»(١)، يعني: صلاة الظهر أو العصر، ويُقال: (العشيّ) ما بعد صلاة العصر.

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: «الإبكار» أول النهار إلى الزوال، وهو: الغدو والإشراق.

وقد عظَّم الله تعالى هذين الوقتين، وأمر بالتسبيح والذِّكر والصلاة فيهما، وشرع

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة تشبيك الأصابع في المسجد (٤٨٢)، ومسلم في المساجد، في الصلاة والسجود له (٥٧٣)، وأبو داود في الصلاة (١٠٠٨)، والنسائي في السهو (١٢٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيهما أعظم الصلوات صلاة الفجر وصلاة العصر، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

بل إن الأمر بالتسبيح والذِّكر في الصلاة فيهما قد يشمل جميع الصلوات الخمس، ويشمل التسبيح والذِّكر في جميع الأوقات، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، أي: في جميع الأوقات؛ لأن رزق أهل الجنة لا ينقطع، بل هو على الدوام.

الفوائد والأحكام:

١- دعاء زكريا ربه بأن يهبه من لدنه ذرية طيبة، وتوسله إليه بربوبيته له؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

كما قال تعالى عنه في سورة (الأنبياء) أنه قال: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقال عنه في سورة (مريم): ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٥-٦].

٢- في إضافة الهبة إلى الله في قوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ إشارة إلى كرم الله- عز وجل- وعظيم هِباته، وإلى الاستغناء به- عز وجل- عن خلقه.

٣- حاجة الخلق كلهم وافتقارهم إلى الله تعالى حتى الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ الآية.

٤- أن من أعظم ما ينبغي أن يسأل المسلم ربه من أمور الدنيا الذرية الصالحة-

والصالحة فقط، وما عدا الذرية الصالحة فلا غبطة فيهم، بل هم عبء وثِقَل وشر على والديهم وعلى الأمة، فعلى من طلب الذرية مراعاة هذا المعنى.

٥- الدعاء بصلاح الأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، كما جاء في سورة «الأحقاف»: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف:١٥].

٦- إثبات السمع لله- عز وجل- وكرمه وقدرته، وأنه سميع قريب مجيب الدعاء، والثناء على الله- عز وجل- بذلك، والتوسل به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]؛ فهو- عز وجل- سميع مجيب الدعاء.

فإما إن يُعَجِّل للسائل ويُعطيه سؤله في الدنيا، وإما أن يدخره له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من الشر بسبب سؤاله.

ما لم يكن هناك مانع من الإجابة، كالدعاء مع سهو القلب وغفلته ولهوه، وأكل الحرام.. ونحو ذلك.

٧- أن على من حُرِم الذرية أن يلجأ إلى الله- عز وجل- وحده ويسأله، كما قال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩] مع الأخذ بالأسباب المادية.

وقد دعا زكريا عليه السلام بهذه الدعوات فأجاب الله دعاءه، ورزقه يحيى عليهما السلام.

وقد ذُكِرَ عن بعضهم أنه لازم في سجوده الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فرزقه الله الذرية، كما ذكر بعضهم أنه دعا بهذه الدعوات في الملتزم بين الحجر وباب الكعبة، فاستجاب الله دعاءه.

٨- إثبات وجود الملائكة، والإيمان بذلك؛ وهو ركن من أركان الإيمان الستة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٩- أن الملائكة تتكلم بصوت مسموع وتخاطب البشر، لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

١٠- جواز تكليم المصلِّي؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾،

وخصوصًا فيما تدعو الحاجة إليه، كالسلام.. ونحو ذلك، فقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يُسلِّمون على النبي ﷺ وهو يصلي ويرد عليهم بالإشارة(١).

١١- لزوم زكريا العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾.

١٢- جواز اتخاذ أماكن خاصة بالصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾.

١٣- بشارة الله تعالى لزكريا بيحيى استجابةً منه- عز وجل- لدعائه أن يهبه من لدنه ذرية طيبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

١٤- استحباب البشارة بما يسر، فهي منهج شرعي؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، كما قال تعالى في إبراهيم: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] هذا في البشارة بإسماعيل، وقال تعالى في البشارة بإسحاق ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]، وقال تعالى في بشارة زوجه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٠٣، التوبة:١١٢، يونس: ٨٧، الصف:١٣].

وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما: «**وبشرا ولا تنفرا**»(٢).

١٥- مشروعية تسمية المولود، وجواز تهيئة الاسم قبل ولادته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا﴾.

١٦- أن عيسى ابن مريم «كلمة من الله»؛ لقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ خلقه الله تعالى بكلمته، أي: بقوله: ﴿كُن﴾. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

١٧- الثناء على يحيى عليه السلام وامتداحه بهذه الصفات العظيمة، وهي تصديقه

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٩٢٥)، والنسائي في السهو (١١٨٦)، والترمذي في الصلاة (٣٦٧)، من حديث صُهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

بعيسى ابن مريم، وكونه سيدًا وحصورًا، وإثبات نبوته، وأنه من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٨- الجمع ليحيى عليه السلام بين صفات الكمال، وأعظم ذلك صفة النبوة، وبين كونه مانعًا نفسه من الشهوات وسيء الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾.

١٩- أن الصلاح وصف عظيم عام لكل من أخلص لله تعالى، واتبع شرعه من الأنبياء والرسل ومن دونهم؛ ولهذا وصف الله به أنبياءه ورسله كما وصف الله به غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٢٠- في تعجب زكريا بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ طلب التثبُّت والتأكد مما بشره الله به من الولد، وخاصة أنه على خلاف ما جرت به العادة؛ فهو كبير وامرأته عاقر.

٢١- أن زكريا عليه السلام قد بلغه الكبر دون أن يولد له ولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾، وقوله في سورة (مريم): ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨].

٢٢- أن من أسباب عدم الإنجاب الكبر والعقر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

٢٣- جواز الوصف بالعقر لمن كان كذلك للبيان، لا على سبيل التنقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

٢٤- إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ لأنه تعالى يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

٢٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية المتعلِّقة بالحكمة.

٢٦- طلب زكريا عليه السلام من ربه علامة على حصول هذه البشارة لزيادة الاطمئنان، واستعجالًا منه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾.

٢٧- قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، ولو كان على خلاف العادة، كحصول الولد للكبير والعاقر، وجعل الإنسان لا يستطيع أن يكلم الناس مع كون لسانه طلقًا

بذكر الله وتسبيحه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، كما قال تعالى في سورة (مريم): ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٩].

٢٨- أن الإشارة تقوم مقام العبارة عند العجز عن النطق بالكلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًا﴾.

٢٩- الحث على ذكر الله كثيرًا، وتسبيحه في العشيّ والإبكار وفي جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ جمعًا بين ذِكر الله تعالى والثناء عليه، وتنزيهه عن النقائص والعيوب.

٣٠- فضل هذين الوقتين (العشيّ والإبكار)، والتسبيح فيهما، بتخصيصهما بالذِّكر من بين الأوقات.

٣١- فضل زكريا عليه السلام ومكانته عند الله؛ حيث استجاب الله دعاءه، وبشره بيحيى ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وخاطبه، وجعل له آية على حصول هذا الولد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

في هذه الآية وما بعدها تفصيل لما أُجمِل من اصطفاء الله تعالى لآل عمران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]؛ لأن مريم من آل عمران، فهو انتقال من ذكر أم مريم إلى ذكر مريم.

قوله ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين» متعلق بمحذوف، أي: واذكر حين قالت الملائكة، والمراد جنس الملائكة وليس كلهم، والمراد بذلك- والله أعلم- جبريل.

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ نادوها بهذا شفاهًا، وباسمها مريم الذي هو علم عليها تكريمًا لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾: «اصطفى» أصلها (اصتفى)، فقُلِبت التاء «طاء» لعلة تصريفية، والمعنى: أن الله اصطفاك اصطفاءً ذاتيًا عامًا، واختارك واجتباك لطاعته وجعلك من صفوة خلقه، فهي من بيت آل عمران الذين اصطفاهم الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣].

ونذرتها أمها لله وخدمة بيت المقدس، وتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، وكفَّلها زكريا، ورزقها من عنده بغير حساب، ووفقها للتصديق بكلماته وكتبه ودوام الطاعة له.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: وطهرك باطنًا وظاهرًا من الكفر والمعاصي والفواحش بالإيمان، والطاعة، والعفاف، والأخلاق الفاضلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

[التحريم:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

وفي هذا رد على اليهود أخزاهم الله وقبَّحهم في اتهامهم مريم بأنها بَغِيّ، وأن ابنها عيسى ولد زنا، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم:٢٧-٢٨].

﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: هذا معطوف على ما قبله، أي: واصطفاكِ اصطفاءً خاصًا ففضلك ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: على نساء عالم زمانها، أو على نساء العالمين كلهم باعتبار أنها ممن كمل من النساء.

فعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم، وآسية، وامرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد**»(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾.

أخبرت الملائكة مريم باصطفاء الله تعالى لها، ثم أمرتها بالقنوت لربها، والسجود والركوع له شكرًا لله تعالى على ذلك، ولتتهيأ لما أراد الله لها من الابتلاء بسبب هذا، حيث خلق الله بقدرته العظيمة منها ولدًا من غير أب، وقال فيها الأفّاكون ما قالوه- رفعة من الله تعالى لها في الدارين.

قوله ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾: «القنوت»: دوام الطاعة والخضوع والخشوع له، قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩].

﴿لِرَبِّكِ﴾: «اللام»: للاختصاص، أي: قنوتًا خالصًا لربك، تعظيمًا له، وفي إضافة اسم الرب إلى ضمير «مريم» تشريف وتكريم لها، وبيان ربوبية الله تعالى لها ربوبية خاصة.

﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: هذا معطوف على قوله: ﴿ٱقۡنُتِي﴾ من عطف الخاص على العام، فهو أمر بالسجود والركوع مع الراكعين، أي: أمر بالصلاة بعد

---

(١) سبق تخريجه.

الأمر بالقنوت والطاعة.

والمراد بالسجود: السجود المعروف على الأعضاء السبعة، كما في الحديث: «وأُمِرنا أن نسجد على سبعة أعظم»(١).

﴿وَٱرۡكَعِي﴾ «الواو»: عاطفة، وعطف بها الركوع على السجود مع أن «السجود» قبل «الركوع»؛ لأن الواو لمجرد الجمع والتشريك، ولا تقتضي الترتيب.

و«الركوع»: الانحناء للتعظيم، والمراد: صلي مع المصلين، أي: كوني من جملة أهل الصلاة، وليس المراد الصلاة مع الجماعة؛ لأنه ليس على النساء صلاة جماعة.

وعَطْفُ الأمر بالسجود والركوع على الأمر بالقنوت دليل على فضل الصلاة، وعِظَم مكانتها بين الطاعات والعبادات؛ فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام الذي يدور عليها رحاه.

كما أن تخصيص السجود والركوع بالذِّكر دليل على عِظَم السجود والركوع، وأنهما من أعظم أركان الصلاة وأعمالها.

وقُدِّم السجود؛ لأن هيئته- والله أعلم- أفضل وأبلغ في الخضوع، ولأنه أدخل في الشكر، والمقام مقام شكر.

ولا يدل ذلك على أنه أفضل من الركوع مطلقًا؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، إنما هي في الأصل لمطلق الجمع والتشريك، ما لم يدل دليل أن المراد بها الترتيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، فقد قال ﷺ: «**أبدأ بما بدأ الله به**»(٢)، فدل هذا على البداءة بالصفا، كما بدأ الله به في الآية.

قال ابن القيم(٣): «الذي يظهر في الآية- والله أعلم بمراده من كلامه- أنها

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، السجود على سبعة أعظم (٨٠٩-٨١٠)، ومسلم في الصلاة أعضاء السجود (٤٩٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٩٣)، والترمذي في الصلاة (٢٧٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: بدائع التفسير (١/ ٤٩٨-٤٩٩).

اشتملت على مطلق العبادة، وتفضيلها، فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولًا- وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذِّكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت.

ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يُسن الإتيان به منفردًا؛ فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب: النزول من الأعم، إلى الأخص، إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام: النزول من الأعم إلى الاخص، وعكسها وهو: الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم، ونظيرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [آل عمران:٤٢].

فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فِعل الخير العام المتضمن لذلك كله».

﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: في جملة أهل الركوع وأهل الصلاة من الرجال والنساء، وغلَّب هنا الذكور على الإناث.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما أخبر الله تعالى به من القصص من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ الآية عن امرأة عمران، وابنتها مريم، وزكريا، وابنه يحيى.

﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾: «أنباء» جمع «نبأ» وهو الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢]، أي: ذلك من أخبار الغيب العظيمة.

﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: ما غاب عن الحواس فلا تدركه، والمراد: أن ما ذكره الله تعالى في هذه القصص مما غاب عن النبي ﷺ فلم يدركه ولم يعلمه لا هو، ولا قومه؛ لأنهم كانوا أُميين لا يعلمون شيئًا عن الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: نقصه عليك، ونخبرك به.

والوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع، وهو في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ «الواو»: عاطفة، وضمير الخطاب للنبي ﷺ، وضمير الغائب لزكريا وقومه، أي: وما كنت يا محمد عند زكريا وقومه في ذلك الوقت فتخبر عنهم بما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضرًا وشاهدًا.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين يُلقون أقلامهم، وهي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، كانوا يقترعون بها عند الحاجة إلى القُرعة، فيكتبون عليها أسماء المقترعين، أو أسماء الأشياء المقترع عليها، أي: حين يضعون أقلامهم، التي يكتبون بها للاقتراع.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: أيهم الذي يكون كافلًا لمريم تنافسًا منهم لمكانة أبيها عمران، فهو سيدهم وإمامهم لهذا تشاح عليها بنو إسرائيل وتنافسوا في كفالتها.

قيل: إنهم دخلوا نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يُلقوا أقلامهم ، وأيهم ثبت قلمه في مجرى الماء فهو كافلها، فوضعوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، وكان كبيرهم وسيدهم وعالِمهم وإمامهم ونبيهم، فكفلها.

وقيل المراد بأقلامهم: سهامهم التي تكون في النصل يرمون بها، سُمِّيت أقلامًا لشبهها بالأقلام في الاستطالة ودقة الرأس، فخرجت القرعة لزكريا، فضمها إليه وكفلها، كما قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الآية، مِنةً من الله تعالى، ورحمة به وبها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ «الواو»: عاطفة، أي: وما كنت يا محمد عندهم أيضًا حين اختصامهم وتنازعهم أيهم يكفل مريم، كل منهم يريد أن يحظى ويشرف بكفالتها، ويرى أنه أحق بها وأولى بكفالتها؛ حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن يقترعوا.

الفوائد والأحكام:

١ - التذكير بقصة مريم عليها السلام تعظيمًا لشأنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ الآية.

٢- مخاطبة الملائكة عليهم السلام لمريم عليها السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ الآية، مما يدل على فضلها وشرفها وكرامتها.

وليس في هذا دلالة على نبوتها، فالنبوة خاصة في الرجال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف:١٠٩]، و«إلا» تفيد الحصر، أي: إلا رجالًا فقط.

٣- اصطفاء الله تعالى لمريم عليها السلام اصطفاءً ذاتيًا عامًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: حباكِ من صفوة خلقه وخيارهم.

٤- تطهير الله- عز وجل- لمريم بالتصديق والإيمان، وحفظه لها من الفواحش والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾.

٥- الرد على اليهود في اتهامهم مريم أنها بغيّ، وأن ابنها عيسى ولد زنا- أخزاهم الله وقبّحهم ؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾.

٦- تفضيل الله تعالى لمريم عليها السلام، واصطفاؤه لها اصطفاءً خاصًا على نساء العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهي أفضل نساء عالم زمانها، وهي من أفضل وخير نساء العالمين.

قال ﷺ: «**خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة بنت خدويلد**»(١)، أي: خير نساء الجنة.

وقال ﷺ: «**حسبُك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون**»(٢).

وسبق في حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أنها ممن كمل من النساء، بل قيل: إنها أفضل نساء العالمين مطلقًا، ويَرُد هذا ما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٢)، ومسلم في الفضائل (٢٤٣٠)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٧٨)، من حديث أنس- رضي الله عنه- وصححه.

عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على بعلٍ في ذات يده، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت بعيرًا ما فضلت عليها أحدًا**»(١).

٧- تأكيد فضيلة مريم عليها السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لتكرار قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾.

٨- أمر الله- عز وجل- مريم عليها السلام بالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين، شكرًا لله تعالى، وتنبيهًا لما يريد الله بها من أمر قدَّرهُ وقضاه مما فيه محنة لها ورِفعة في الدارين بما أظهره لله تعالى فيها من قدرته العظيمة؛ حيث خلق منها ولدًا من غير أب.

٩- وجوب شكر نعمة الله تعالى، وأنه كلما كانت النعمة والمنة أعظم كان الشكر لله أوجب وأعظم؛ لقوله تعالى لمريم بعد أن بيَّن فضلها واصطفاءه لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ الآية.

١٠- الترغيب بالقنوت لله تعالى، ودوام الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾.

١١- فضل الصلاة، وأنها من أعظم العبادات في جميع الشرائع السماوية، وأنها في كل الشرائع ذات ركوع وسجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

١٢- أن من أعظم أركان الصلاة وأعمالها: الركوع والسجود، وقدَّم السجود في الآية مع أن الركوع قبله في الترتيب؛ لأن السجود- والله أعلم- أفضل من حيث الهيئة، وأبلغ في الخضوع، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**فأما الركوع فعَظِّموا فيه الرب- عز وجل- وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمِن أن يُستجاب لكم**»(٢)، وعن أبي هريرة رضي لله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (٨٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧).

١٣- وجوب الإخلاص لله تعالى وحده في العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكِ﴾.

١٤- ربوبية الله- عز وجل- لمريم ربوبية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكِ﴾.

١٥- تعظيم ما حصل في القصص المذكور؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ فأشار إليها بإشارة البعيد وسمَّاها «أنباء» تعظيمًا لها.

١٦- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

١٧- إثبات رسالة النبي ﷺ، وأن الله تعالى أوحى إليه الرد على المكذبين لرسالته من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الآية.

١٨- تنافس الملأ من بني إسرائيل واقتراعهم بأقلامهم أيهم يكفل مريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

١٩- تخاصم بني إسرائيل في كفالة مريم، فكل منهم يريد أن يكفلها وفاءً لحق عمران والدها، وكان من أكبر أحبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ حتى صارت القرعة من نصيب زكريا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧].

٢٠- تأكيد أن ما ذكر الله في هذه القصص مما غاب عنه ﷺ، ومما أوحاه الله إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وفي هذا تأكيد إثبات رسالته ﷺ، وتعريض بأهل الكتاب. كيف يكذبونه مع ما جاءهم من هذه الأخبار التي يعلمون صدقها مما لم يشهده ﷺ، ولا عَلِمهُ من ذي قبل، وإنما أوحاه الله تعالى إليه، فصار إخبارهم بهذا من طريق ما أوحاه الله إليه، كأنه شاهد معهم.

٢١- مشروعية القرعة عند الحاجة لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾، أي: للاقتراع، وكما قال تعالى: في قصة يونس: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١].

٢٢- المنافسة في عمل الخير، فإن بني إسرائيل تنافسوا أيهم يكفل مريم عليها السلام،

وكلهم يقول: أنا أولى بكفالتها؛ طلبًا للأجر والثواب؛ لأنها بنت إمامهم وسيدهم عمران عليه السلام.

٢٣- عناية الله تعالى بأوليائه، وتسخيره لهم، وحفظهم، بسبب صلاحهم، وصلاح آبائهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾ أي: اذكر حين قالت الملائكة: «يا مريم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾: «البشارة»: الإخبار بما يسر.

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: بولد يكون وجوده بكلمة منه- عز وجل- أي: بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ فيكون من غير أب، و«من» في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ ابتدائية أو بيانية، أي: خلقه- عز وجل- بكلمة صادرة منه سبحانه وتعالى، وهي قوله تعالى: ﴿كُن ﴾.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ «اسم»: مبتدأ، وضمير «الهاء» مضاف إليه راجع إلى «كلمة»، وذُكِّر مراعاة للمعنى؛ لأن المراد منها مذكَّر، و﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: خبر أول، و﴿عِيسَى ﴾: بدل منه أو عطف بيان أو خبر ثانٍ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عيسى، ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾: صفة له.

أي: اسمه الذي يميز به لقبًا «المسيح»، وعَلَمًا «عيسى»، وكُنية «ابن مريم».

﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: «فعيل» بمعنى (فاعل)، وسُمِّيَ عيسى عليه السلام ولُقِّب بـ«المسيح»؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ

ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠].

وقيل: لمسحه الأرض، أي: كثرة سياحته فيها.

وقيل: هو «فعيل» بمعنى (مفعول)؛ لأنه مسح بالبركة واليمن، أو لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، والأقرب القول الأول.

﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: نسبة إلى أمه مريم؛ لأنه لا أب له.

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ «وجيهًا»: حال، أي: حال كونه وجيهًا في الدنيا والآخرة، أي: ذا وجاهة وجاه عظيم عند الله في الدنيا والآخرة، كغيره من أولي العزم من الرسل، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

و«الوجيه»: ذو الجاه، أي: ذو الشرف والقدر والمكانة، مأخوذ من الوجه الذي هو أفضل الأعضاء.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: بالنبوة، وإنزال الكتاب عليه، وإيتائه الآيات الشرعية والآيات الكونية الخارقة، وقبول دعائه، وجعله من أفضل الرسل وهم أولوا العزم.

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ووجيها في الآخرة بقبول شفاعته، وعلو مقامه عند الله بأعلى درجات الجنة مع أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: معطوف على ﴿وَجِيهًا﴾ في محل نصب على الحال عطفًا على «وجيهًا»، أي: وحال كونه من المقربين عند الله تعالى، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠-١١]؛ وهذه أعظم البشارات.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ «الواو»: عاطفة، فالجملة في محل نصب عطفًا على الحال السابقة، أي: ويكلم الناس حال كونه في المهد.

و«المهد»: الفراش الذي يوطَّأ للصبي؛ لينام فيه، والمعنى: أنه عليه السلام يكلم الناس وهو صبي في الفراش.

وهذه آية عظيمة دالة على كمال قدرة الله تعالى، وعلى صدق عيسى، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، ورحمةً بهما وبالخلق.

﴿وَكَهْلًا﴾ «الواو»: عاطفة، و- كهلًا- حال معطوفة على ما قبلها، و«الكهل» من بلغ سن الكهولة وهي من إحدى وثلاثين، أو ثلاث وثلاثين فما بعدها إلى أربعين، وقيل: إلى الستين، أي: ويكلم الناس حال كهولته تكليم النبوة والدعوة إلى الله بعد بعثته، وكان عيسى عليه السلام بُعِثَ وهو ابن نيِّف وثلاثين سنة.

وخصَّ حال كونه في المهد، وحال كونه كهلًا؛ لأن الكلام في الحال الأولى آية على صدقه، وإرهاصًا لنبوته، وفي الحال الثانية بعثته ودعوته إلى الله تعال.

وفي عطف «كهلًا» على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ مع أن (الكهل) ليس مستغربًا أن يتكلم؛ دلالة على أن كلامه في المهد فصاحة وبلاغة وبيانًا مثل كلامه كهلًا بعد مبعثه، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٢٧-٣٣].

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: معطوف على الأحوال السابقة، أي: والحال أنه من الصالحين، أي: من جملة الصالحين الذين بلغوا الغاية في الصلاح باطنًا وظاهرًا، إخلاصًا لله تعالى في قلوبهم، ومتابعة لشرعه في أقوالهم وأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾، كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى

غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [الآيتان: ٢٠-٢١].

قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي: قالت مريم: «يا رب».

﴿أَنَّىٰ﴾: الاستفهام للتعجب، أي: من أين، أو كيف يكون لي ولد؟!، كقول زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[آل عمران: ٤٠] ليس للاستبعاد أو الاستنكار أو الشك، وإنما هو للتثبت وزيادة الطمأنينة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠].

وإلا فمريم عليها السلام مصدقة ببشارة الله تعالى لها بالولد.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ «الواو»: حالية، أي: والحال أنه لم يمسسني بشر، أي: لم يجامعني بشر، أي: لم أكن ذات زوج، و«المس» يُطلق في القرآن الكريم على الجماع ويُكنى به عنه، كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٦]، أي: ما لم تجامعوهن، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النساء: ٤٣]، أي: أو جامعتم النساء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**(المس): الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء**»(١).

و﴿بَشَرٌ﴾: يُطلق على الواحد والجمع، والتنكير للعموم، و«البشر» هم بنو آدم.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ كقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٤٠]، أي: مثل ذلك الخلق العجيب.

وهو حصول الولد لك دون أن يمسسك بشر - يخلق الله ما يشاء، فـ«الكاف» على هذا في محل نصب صفة لمصدر محذوف أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك.

والمعنى: أنه سيكون لك ولد ولو لم يمسسك بشر.

﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: قدَّم اسم الجلالة على الفعل في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ﴾ لتقوية الحكم، وتحقيق الخبر.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٦٥)، والبيهقي في «سننه» (١/ ١٢٥).

وعبر هنا في قصة مريم وعيسى بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وفي قصة زكريا ويحيى عبر بقوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، والحكمة- والله أعلم- أن عيسى عليه السلام خُلِقَ من غير ما جرت به العادة، فناسب التعبير بقوله: «يخلق» الدال على الإبداع، وهذه حكمة كونية، وأيضًا في قوله: «يخلق» إبطال لقول النصارى: إن عيسى هو الله، وأن الله ثالث ثلاثة، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[المائدة:٧٣]، وهذه حكمة شرعية.

ومعنى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يُوجِد الذي يريد من المخلوقات على أي كيفية ونوعية وكمية شاء، سواء كان ذلك وفق الأسباب المعتادة المعلومة، أو على خلاف ذلك.

فخلق عز وجل عيسى عليه السلام من أم بلا أب على خلاف العادة، كما خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

كما خلق عز وجل حواء زوج آدم منه، أي: من أب بلا أم، كما خلق سائر الخلق من أب وأم.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ «إذا»: ظرفية شرطية، ﴿قَضَىٰٓ﴾ أي: قضى- كونًا، ﴿أَمْرًا﴾مفرد، جمعه «أمور» لا (أوامر)، أي: إذا قضى شأنًا من الشؤون، وشيئًا من الأشياء، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾[يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠]، والقضاء له معنيان: كوني، وشرعي.

والقضاء الكوني- كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ:١٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ

أَجَلًا﴾[الأنعام:٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[هود:٤٤].

والقضاء الشرعي كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء:٢٣].

والفرق بين القضاء الكوني والقضاء الشرعي: أن القضاء الكوني لابد من وقوعه، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى، مثل: الإرادة الكونية، والأمر الكوني، والحكم الكوني.. ونحو ذلك.

وأما القضاء الشرعي- فإنه لا يلزم وقوعه لكن لابد أن يكون محبوبًا لله تعالى، مثل: الإرادة الشرعية، والأمر الشرعي، والحكم الشرعي.. ونحو ذلك.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ «الفاء» في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾: رابطة لجواب الشرط، و«إنما»: أداة حصر، ﴿فَيَكُونُ﴾، «الفاء» عاطفة سببية، أي: فبمجرد أن يقول له: ﴿كُن﴾ يكون كما أمر الله تعالى وأراد، دون تأخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[البقرة:١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[غافر:٦٨].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ ۖ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[مريم:٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾[النازعات:١٣-١٤].

فكل شيء منقاد لأمره الكوني ولا يستعصي عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[آل عمران:٨٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:١١].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[آل عمران:٤٨].

قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «ونعلمه» بالنون.

والجملة معطوفة على قوله: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾أو على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾، والضمير في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾يعود على عيسى عليه السلام، أي: ويعلِّمه الله- عز وجل- الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: بمعنى المتكوب، أي: يعلِّمه الكتابة وحسن الخط، ويعلِّمه الكتب السابقة، وعلى هذا فتكون (ال) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للجنس.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾معطوفة على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، و(ال) في «الحكمة» للعهد الذهني، أي: الحكمة التي آتاها الله عيسى، وهي الشريعة التي شرعها الله تعالى له، وسُمِّيت الشريعة بالحكمة؛ لأن كل ما شرعه الله تعالى متضمن للحكمة.

والحكمة أيضًا علم أسرار التشريع. وهذا كما قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النساء:١٣].

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف على ما قبله، وخص بالذِّكر التوراة والإنجيل لفضلهما، ولأن عيسى عليه السلام مُرسل بالحكم والعمل بهما.

و«التوراة»: الكتاب الذي أنزل الله تعالى على موسى، كتبها الله تعالى بيده، وأنزلها بألواح، كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال ﷺ: «**قال آدم لموسى: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده**»(١).

وهي أصل الكتب التي أُنزِلت على بني إسرائيل وأعظمها، وبها حكم أنبياؤهم، وهي أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾[المائدة:٤٤].

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» تفسير سورة طه (٤٧٣٦)، ومسلم في «القدر» (٢٦٥٢)، وأبو داود في «السنة» (٤٧٠)، والترمذي في «القدر» (٢١٣٤)، وابن ماجه في «المقدمة» (٨٠)، وأحمد (٢/٢٦٨) (٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: هو الكتاب الذي أنزل الله تعالى على عيسى، وهو متمم ومكمل للتوراة، قال تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة:٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ «الواو»: عاطفة، و«رسولًا»: مفعول به لفعل محذوف تقديره: يجعله رسولًا إلى بني إسرائيل.

و«الرسول»: من أُوحِيَ إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه. فعيسى عليه السلام رسول إلى بني اسرائيل، ورسالته مكملة لرسالة موسى عليه السلام.

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قائلًا لهم: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أُرسِلت إليكم بآية، أي: بعلامة من ربكم دالة على صدقي.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق، والباء في قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ للملابسة، أي: مقارنة للآية الدالة على صدقي في هذه الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف:٦٣].

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بكسر الهمزة: «إني» على أن الكلام استئناف لبيان «آية»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنِّىٓ﴾ على أنه بدل من قوله: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم﴾.

وهذا وما بعده بيان للآية التي جاء بها عيسى عليه السلام بقوله: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾: قرأ أبو جعفر بالإفراد «كهيئة الطائر»، وقرأ

الباقون: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، والطير: اسم يقع غالبًا على الجمع، وقد يقع على الواحد، والكاف بمعنى: مثل، وهي صفة لموصوف محذوف، أي: أخلق لكم شيئًا كهيئة الطير، أي: كصورة الطير.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾: قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بالإفراد «فيكون طائرًا»، أي: فيكون طائرًا تشاهدونه يطير، وقرأ الباقون: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾، أي: طيرًا حيًّا بعد أن كان صورة على هيئة الطير.

والمعنى: فيكون هذا الذي خلقت لكم من الطين على هيئة الطير، ونفخت فيه الروح طيرًا حياً يطير بجناحيه؛ لأن القراءتين بمثابة آيتين يكمل بعضهما بعضا.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره الكوني الشرعي، فلولا أنَّ الله تعالى قدَّر ذلك كونًا، وأقدر عيسى عليه ما حصل ذلك، ولولا أن الله تعالى أذن لعيسى أن يُصوِّر على هيئة الطير ما فعل ذلك؛ لأن تصوير ذوات الأرواح لا يجوز؛ لما فيه من مضاهاة خلق الله تعالى، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**ومَن أظلم ممَّن ذهب يَخلق كخَلْقي**»(١).

وفي قول عيسى عليه السلام: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إظهار كمال عبوديته لله تعالى، واحتراس من أن يظن أنه يخلق استقلالًا.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾: معطوف على ﴿أَخْلُقُ﴾، و«أُبرئ» من (البرء) وهو الشفاء، أي: وأشفي، قيل: يبرؤهما بالدعاء.

و﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الذي وُلِدَ أعمى، وقيل: الأعمى مطلقًا.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: من به برص، وهي بقع بيضاء شديدة البياض تظهر على الجلد، وقد تنتشر حتى تعُم الجلد كله، وهو مرض مستقذر.

كما في قصة الثلاثة: الأبرص والأقرع والأعمى: «فجاء الملك للأبرص، فقال له: أي شيء أحب اليك؟ قال: «**لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في «اللباس» (٥٩٥٣)، ومسلم في «اللباس والزينة» (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «أحاديث الأنبياء» (٣٤٦٤)، ومسلم في «الزهد والرقائق» (٢٩٦٤)، من حديث =

وخصَّ إبراء الأكمه والأبرص؛ لأنهما أمران مُعضلان أعجزا الأطباء مع كثرتهم في زمنه وحذقهم؛ ولهذا أراهم الله تعالى المعجزة من جنس الطب، وقرن ذلك بالخلق وإحياء الموتى.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾، أي: وأُحيي الذين ماتوا بإذن الله الكوني، و(ال) في «الموتى» للجنس، أي: جنس «الموتى» بأن يقف على أي ميت فيأمره فيحيى، وليس المراد بذلك ميتًا بعينه كما قيل إنه أحيا سام بن نوح أو غيره من أناس بأعيانهم؛ فهذا لا دليل عليه.

﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أخبركم.

﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية في الموضعين، أي: بالذي تأكلونه اليوم، أو بأكلكم في يومكم.

﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ أي: والذي تدخرونه، أو ادخاركم ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾: لغد، أو لما بعده، مما لم أطلع عليه.

وهذا من جملة الآيات التي أعطاها لعيسى؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن ارتضى من رسله، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وكما أن في هذا آية من آيات الله التي منحها الله تعالى لعيسى؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؛ ففي ذلك حض لهم على الأكل والادخار مما أباح الله تعالى لهم، وتحذير مما حرمه الله عليهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾: الإشارة لما سبق من قوله تعالى: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾.

=

أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: إن في ذلك المذكور لآية لكم، أي: لعلامة على صدقي فيما جئتكم به من الرسالة تدعو إلى الإيمان بذلك

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين بآيات الله، منقادين لشرعه؛ ففي ذلك آية لكم؛ لأنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون بخلاف أهل العناد والمكابرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ «مصدقًا»: حال، أي: وحال كوني «مصدقًا لما بين يدي من التوراة»، والمصدق: المخبر بصدق غيره، واللام في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ﴾: للتقوية، أي: تصديقًا مثبتًا محققًا.

والمعنى: ومصدقًا لما تقدم قبلي وسبقني من التوراة، ببيان أنها حق من عند الله، وبكوني مِصداق ما أخبرت به، فأخبرت ببعثته عليه السلام قبل مبعثه، فكان مبعثه مِصداق ما أخبرت به، وأيضًا مصدقًا لها بكون ماجاء به- غالبًا- موافقًا لما جاء فيها من أخبار وأحكام.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ «الواو»: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، و«اللام»: للتعليل.

أي: ولأجل أن أحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم في التوراة تخفيفًا عنكم، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣].

والمحرم عليهم ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠].

فبسبب بغيهم وظلمهم حرَّم الله تعالى عليهم هذه الطيبات، ثم أحل الله تعالى لهم بعضها على لسان عيسى، كما قال عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

و﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وليبني عليه قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾: قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم «وأطيعوني»، وقرأ الباقون بحذفها، و﴿وَأَطِيعُونِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأطيعوني بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

أمر عيسى قومه بتقوى الله تعالى وطاعته، ثم بيَّن عِلة أمره لهم بذلك، وهو أن الله- عز وجل- ربه وربهم، يجب عليهم جميعًا تقواه وطاعته وعبادته وحده.

قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾: هذه الجملة تعليل للأمر بالتقوى والطاعة، أي: لأن الله ربي وربكم، فلكونه ربهم فهو حقيق بأن يتقوه جل وعلا، ولكونه رب عيسى وأرسله يقتضي تقواه وطاعة رسوله.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ «الفاء»: للسببية، أي: فاعبدوه وحده، وفي هذا دلالة على أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

وفيه أيضًا تنبيه وإشارة إلى أن عيسى مع ما أُعطيه من الآيات السابقة؛ فهو كغيره من الخلق مربوب لله تعالى، خاضع، منقاد له؛ ولهذا بدأ عليه السلام بنفسه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾.

والعبادة في اللغة: التذلُّل والخضوع لله تعالى، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة؛ كالصلاة، والزكاة، وبر الوالدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإخلاص لله تعالى، والمحبة في الله تعالى والبغض في الله.. وغير ذلك.

كما تُطلق العبادة على فعل التعبُّد.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾: الإشارة إلى ما سبق في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾، أي: تقوى الله تعالى، وطاعة عيسى عليه السلام، وعبادة الله تعالى هي الصراط المستقيم.

ويُحتمل عود الإشارة إلى أقرب مذكور وهو قوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ أي: هذا طريق واسع.

﴿مُّسۡتَقِيمٌ﴾: عدل، لا اعوجاج فيه، يؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى الله- عز وجل- وجنته بأقصر مسافة، وأقل وقت.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم، وتكليمهم لمريم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾.

٢- بشارة الله تعالى بعيسى عليه السلام؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

٣- أن عيسى عليه السلام «كلمة» من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾، وهو «كلمة الله»، كما قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [النساء:١٧١]؛ لأن الله تعالى خلقه بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ من غير أب، آية من آيات الله العظيمة، ودلائل قدرته التامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

٤- تسمية عيسى عليه السلام وتلقيبه بـ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

وفي هذا ثناء من الله تعالى عليه؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة من عمى أو برص أو غير ذلك إلا برأ باذن الله تعالى.

٥- تكنية عيسى عليه السلام بـ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، ونسبته إلى أمه؛ لأن الله خلقه من أم بلا

أب؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ ولهذا يُذكر في القرآن منسوبًا إلى أمه كثيرًا، بينما لا يُنسب غيره من الأنبياء حتى ولا لآبائهم؛ لأن في ذِكر عيسى عليه السلام منسوبًا إلى أمه تذكيرًا بعظيم قدرة الله تعالى بخلقه من أم بلا أب، فاجتمع في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أنواع العَلَم الثلاثة: اللقب- وهو قوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾، والاسم- وهو قوله: ﴿عِيسَى﴾، والكُنية- وهو قوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

٦- مكانة عيسى عليه السلام، ووجاهته عند الله، وشرفه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٧- إثبات البعث والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٨- قُرب عيسى عليه السلام من الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

٩- تكليم عيسى عليه السلام الناس وهو صبي في المهد آية من آيات الله تعالى العظيمة، ومِنة منَّها الله تعالى على عيسى وأمه مريم عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾.

١٠- أن تكليم عيسى عليه السلام وهو في المهد كتكليمه وهو كهل من حيث فصاحته وبيانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَهْلًا﴾، وفي هذا إعلام بأنه يعيش حتى يصير كهلًا.

١١- أن عيسى عليه السلام من جملة الصالحين، بل ممن بلغوا الغاية في الصلاح؛ فهو أحد أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٢- أن الصلاح يوصف به الأنبياء والرسل كما يوصف به غيرهم؛ لأن به وبكماله يبلغ العبد غاية الإيمان، إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه.

١٣- ربوبية الله تعالى الخاصة لمريم؛ لقولها: ﴿رَبِّ﴾.

١٤- تعجب مريم عليها السلام أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر؛ للتثبت وزيادة الاطمئنان، وليس من باب الاستبعاد أو الإنكار أو الشك؛ لأنها مصدقة بما بشرها الله به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾.

١٥- خطاب الله تعالى لمريم عليها السلام، وفيه تشريف وتكريم لها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ

كَذَٰلِكِ﴾.

١٦- قدرة الله تعالى التامة على خلق ما يشاء، سواء كان على وفق الأسباب المعتادة المعلومة، أو على خلاف ذلك، كما خلق تعالى عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وجعله يكلم الناس في المهد؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٧- إثبات صفة الخلق لله تعالى وصفة المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٨- نفوذ قضاء الله تعالى وأمره الكوني وحدوثه بمجرد قوله تعالى: ﴿كُن﴾ دون تأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لكمال قدرته وقوته.

١٩- مِنة الله تعالى على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتب السابقة، والشريعة وأسرار التشريع، والتوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾.

٢٠- إثبات إرسال عيسى لبني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وفي هذا رد على اليهود الذين كذَّبوا رسالة عيسى عليه السلام.

٢١- عموم رسالة عيسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

٢٢- تأييد الله- عز وجل- عيسى بالآيات الكونية؛ حيث يخلق من الطين كمثل الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا حيًّا يطير بإذن الله تعالى، ويُشفي الأعمى والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، ويُخبِر بني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا

فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠].

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لبني إسرائيل وغيرهم من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٤- استعطاف عيسى عليه السلام لقلوب بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: من المنعم عليكم بنعمة الربوبية مما يوجب عليكم أن تُطيعوه، وتصدقوا رسله، ولا تعصوه.

٢٥- في تأييد الله- عز وجل- لعيسى بهذه الآيات الكونية العظيمة التي ليست بمقدور أحد من الخلق إلا بإذن الله- عز وجل- دلالة عظيمة على كمال قدرة الله تعالى.

٢٦- أن الله- عز وجل- قد يُبيح لحكمة فعل أمر كان في الأصل حرامًا لمن يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾.

فصنع تمثال على هيئة الطير حرام في الأصل، لكن لما كان بأمر الله تعالى كان مُباحًا، ومثل هذا أمر الله- عز وجل- الملائكة بالسجود لآدم؛ مع أن السجود في الأصل لا يجوز لغير الله، ومثل أمره تعالى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام مع تحريم قتل النفس بغير حق.

٢٧- جواز إطلاق وصف الخلق على المخلوق؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وفي الحديث أنه يُقال للمصورين: «**أحيوا ما خلقتم**»(١).

والخلق إذا أُضيف إلى المخلوق فمعناه: تحويل الشيء الموجود من حال إلى حال، كتحويل الخشب والحديد إلى باب.. ونحو ذلك، أما الخلق بمعنى الإيجاد من العدم فذلك خاص بالله تعالى.

٢٨- قدرة عيسى عليه السلام بإقدار الله تعالى، وإذنه له على أن يخلق من الطين كهيئة

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٠٥)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الطير، وينفخ فيه الروح فيكون طيرًا، وعلى إبراء الأعمى والأبرص وإحياء الموتى، وإخبار قومه بما يأكلون ويدَّخِرون في بيوتهم مما هو غيب لا يعلمه إلا الله أو من ارتضى من رسله.

٢٩- إثبات الإذن الكوني والشرعي لله- عز وجل- لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٣٠- أن عيسى عليه السلام عبد مربوب لله تعالى، لا يملك من الربوبية شيئًا كغيره من الرسل وسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرتين، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾.

وفي هذا رد على النصارى الذين يزعمون فيه المشاركة لله تعالى في الربوبية والألوهية.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]، وقال تعالى عنه- عليه السلام- أنه قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران:٥١].

٣١- في إطلاع الله- عز وجل-- عيسى عليه السلام- على ما يأكله بنو إسرائيل وما يدَّخِرونه في بيوتهم ما يُوجِب عليهم الحذر أن يأكلوا ما لا يجوز أكله، أو يدَّخِروا ما لا يجوز ادخاره.

٣٢- تأكيد أن ما جاء به عيسى آية عظيمة، وبخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣٣- أن من شرط الإيمان التصديق بآيات الله تعالى الكونية والشرعية، وذلك أيضًا سبب للإيمان.

٣٤- فضل الإيمان وأهله؛ لأنهم المنتفعون بالآيات دون غيرهم؛ لهذا خصَّهم بالذكر، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣٥- تصديق عيسى عليه السلام لما سبقه من التوراة؛ فهو شاهد بصدقها، وأنها حق ومصداق ما أخبرت به من بعثته، وما جاء به موافق لما جاء فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

٣٦- تحليل عيسى عليه السلام بما جاء به من الشرع بعض ما كان محرمًا على بني إسرائيل تخفيفًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣٧- جواز النسخ في الشرائع السماوية، ونسخ بعضها لبعض، فأُحِل في شريعة عيسى بعض ما كان محرمًا في شريعة موسى، وهذا من قبيل النسخ، كما نسخ بشريعة محمد ﷺ جميع الشرائع السابقة.

٣٨- تأكيد عيسى عليه السلام قيام الحُجة على قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾.

٤٠- تأكيد عيسى استعطاف قلوب بني إسرائيل بربوبية الله تعالى لهم؛ لقوله: ﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ ليتقوا الله ويطيعوه.

٤١- وجوب تقوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٤٢- وجوب طاعة الرسل عليهم السلام، وأنها من تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

٤٣- وجوب عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾.

٤٤- أن توحيد الربوبية، والإقرار به يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

٤٥- أن عبادة الله تعالى وحده دون سواه هي الصراط المستقيم المؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى الفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

لما ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام، وما له من المنزلة العظيمة، والقرب من الله تعالى، وما أعطاه الله- عز وجل- من الآيات الشرعية والكونية، وإرساله إلى بني إسرائيل، وتبليغهم آيات الله تعالى، وأمرهم بتقوى الله وطاعته وعبادته وحده، وأن هذا هو الصراط المستقيم، أتبع ذلك ببيان إطباقهم على الكفر، ولجوء عيسى عليه السلام إلى اختيار الصفوة منهم إعذارًا منه إلى الله تعالى.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ الفاء: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى «حين» متضمن معنى الشرط، أي: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ بعد أن جاءهم بالآيات وبلغهم بالرسالة وأمرهم بتقوى الله وطاعته وعبادته- عز وجل- وحده.

ومعنى ﴿أَحَسَّ﴾ أي: استشعر وأدرك وسمع وعلم وتيقن.

﴿مِنْهُمُ﴾ أي: من بني إسرائيل الذين أُرسِل إليهم.

﴿ٱلْكُفْرَ﴾ أي: التصميم على الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، والاستمرار على الضلال، كما قالى تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: قال عيسى لعموم بني إسرائيل.

﴿مَنْ﴾ للاستفهام، أي: (من أنصاري منكم)، وأنصار: جمع «نصير»، والأنصار: «الأعوان».

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في دعوتي إلى الله وطريقي إلى الله تعالى.

والمعنى: أنه عليه السلام لما تيقن منهم الكفر وعدم الإيمان لجأ إلى الاختيار، وانتخاب الأكْفَاء؛ تأكيدًا للبلاغ وإعذارًا إلى الله تعالى، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من أنصاري منكم في دعوتي وطريقي إلى الله؟.

كما كان نبينا محمد ﷺ يقول في مواسم الحج: «**ألا رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي**»(١).

حتى قيَّض الله تعالى له الأنصار فآووه وآزروه ونصروه.

وفي قول عيسى عليه السلام: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن النصرة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: «الحواريون» جمع «حواريّ» بتشديد الياء، وهو الناصر والصفيّ، أي: قال أنصار عيسى وأصفياؤه وخاصته، قيل: «كانوا اثنى عشر رجلًا». وقد ثبت أن النبي ﷺ انتدب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال ﷺ: «**إن لكل نبي حواريًّا، وإن حواريَّ الزبير بن العوام**»(٢).

وقد غلب اسم الحواريين على أنصار عيسى عليه السلام.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، معرّفة الطرفين تفيد الحصر، أي: نحن لا غيرنا.

﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه، كما قال تعالى في سورة الصف: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صدَّقنا بالله، وأقررنا به، وانقدنا لشرعه.

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: كُن شهيدًا لنا على أننا مسلمون، ولم يطلبوا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢،٣٣٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (١٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الشهادة على إيمانهم بالله لأنه أمر باطن، وإنما استشهدوه على الإسلام؛ لأنه أمر ظاهر، وذلك من باب التوكيد وإعلان الإسلام تقوية لعيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ أي: يا ربنا صدقنا باطنًا بالذي أنزلت؛ أي: بالإنجيل الذي أنزلت على عيسى- عليه السلام- وبالتوراة التي أنزلت على موسى- عليه السلام- وبجميع الكتب التي أنزلتها على أنبيائك، وبهذا أشهدوا ربهم على إيمانهم الباطن بما أنزل على جميع رسله.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَّا﴾، و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود عندنا، أي: رسولنا عيسى- عليه السلام.

ويحتمل كون «ال» للعهد الذكري؛ لقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَرَسُولًا﴾.

ويحتمل كونها للجنس، أي: جنس الرسل؛ أي: وأقررنا بجميع الرسل، واتبعناهم بما جاؤوا به من الدعوة إلى الله، وبهذا أشهدوا ربهم على إيمانهم الظاهر باتباعهم الرسول وانقيادهم له، فجمعوا بين التصديق باطنًا بما أنزل الله، وبين الاتباع ظاهرًا للرسول، وهو ثمرة الإيمان الباطني.

و﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الفاء: واقعة في جواب شرط مقدر، و﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، أي: فاكتبنا مع الشاهدين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولكتبك ورسلك بالصدق والحق، كما قال تعالى عنهم في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الآية:٨٣]؛ أي: فاكتبنا مع الشاهدين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولكتبك ورسلك بالحق والصدق كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقيل: المراد بـ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: أمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين لهم الشهادة المطلقة على جميع الرسل بالبلاغ، وعلى أممهم بمواقفهم من رسلهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

والمعنى على هذا: فاكتبنا مع أمة محمد ﷺ الذي بشرنا به عيسى- عليه السلام- كما قال تعالى عنه: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ [الصف:٦].

قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾: الضمير «الواو» يعود إلى الذين كفروا من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ ﴾، و«المكر»: هو الكيد والتدبير الخفيّ لإلحاق الضرر بالغير خفية.

أي: «ومكر بنو إسرائيل وبخاصة اليهود»، أي: كادوا ودبروا بخفية لإنكار رسالة عيسى عليه السلام، وتكذيب دعوته، والكفر بها، ولقتله، فوشوا به إلى ملكهم، وتمالؤوا على قتله، ولكن الله أنجاه منهم، فعاد وبال كيدهم عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

ولهذا قال: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾، والمكر لا يُضاف ولا يُنسب إلى الله تعالى إلا على سبيل المجازاة للماكرين، كالكيد للكائدين، والاستهزاء بالمستهزئين، والسخرية بالساخرين.. ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

أي: ومكر الله بهم، وكاد لهم معاقبةً لهم ومجازاة على مكرهم، فنصر عيسى عليه السلام ومن معه من الحواريين عليهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤].

ومكر عز وجل بهم فنجّى عيسى عليه السلام منهم حينما تمالؤوا على قتله ودخلوا

عليه يريدون قتله وهو لم يشعر بذلك، فألقى الله- عز وجل- شبه عيسى على رجل منهم، بل قيل على زعيمهم، أو على رجل من أصحاب عيسى عليه السلام، فظنوه عيسى فقتلوه وصلبوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: أقواهم وأشدهم وأعظمهم مكرًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١].

ومن أشد مكره- عز وجل- بهؤلاء الذين همُّوا بقتل عيسى عليه السلام أن يُلقي سبحانه على رجل منهم أو على زعيمهم شبه عيسى عليه السلام، فيظنوه عيسى فيقتلوه ويصلبوه، فعاملهم عز وجل بنقيض قصدهم، وقد قيل «**من حفر حفرة لأخيه وقع فيها**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو بني إسرائيل، فمع ما جاءهم به عيسى عليه السلام من الآيات الشرعية والكونية لم ينجع فيهم ذلك ولم يؤمنوا، بل كفر أكثرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾.

٢- ينبغي للداعية إلى الله تعالى اختيار ذوي الإخلاص والصدق ليكونوا عونًا له في دعوته إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٣- التغيير في أسلوب الدعوة أمر مطلوب؛ لأن عيسى عليه السلام لما استعصى عليه إيمان كثير من بني إسرائيل وجَّه النداء للمخلصين منهم خاصة.

٤- لا ينبغي أن يتطرق اليأس إلى نفس الداعي إلى الله -تعالى-، فعيسى عليه السلام لما كفر به بنو إسرائيل، وكان يطمع في إيمانهم لم ييأس، ولم يُثنه ذلك، بل نادى بهم

---

(١) قيل: كان هذا مكتوبًا في التوراة، روي هذا عن عمرو بن العاص، وعن كعب الأحبار، رواه عنه ابن عباس. انظر: «حلية الأولياء» (١/ ٢٨٨)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ١١٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ١٧٧).

تأكيدًا للبلاغ وإعذارًا إلى الله تعالى قائلًا: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فأجابه الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٥- أن الخير لا يُعدم في الناس، فمع كفر أكثر بني إسرائيل آمن فريق منهم وهم الحواريون، وناصروا عيسى عليه السلام.

٦- عدم الاغترار بما عليه الكثرة، فالأكثرون ضد الحق والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

٧- ترغيب المدعويين في نصرة الحق؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: في طريقي إلى الله ونصرة دينه.

٨- أن دعوة الرسل عليهم السلام إلى الله وإلى إخلاص العبادة له وحده، والانتصار لدينه، لا لأنفسهم؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: في طريقي إلى الله ودعوتي إليه.

٩- حاجة الرسل إلى النصرة في دعوتهم إلى الله؛ لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

وقال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

١٠- أن نصرة الرسل في دعوتهم نصرة لله تعالى؛ لقول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

١١- فضل الحواريين لمسارعتهم لنصرة دين الله لما دعاهم عيسى لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الآية.

١٢- ينبغي نصرة الحق والداعين إليه من الرسل وغيرهم؛ لأن الله امتدح الحواريين بذلك.

١٣- إطلاق اسم المسلمين على أتباع عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

وهكذا أتباع جميع الرسل يُسمون بذلك، وبعد بعثة محمد ﷺ صار الإسلام علمًا على الدين الذي جاء به، والذي لا يقبل الله من أحد سواه بعد مبعثه ﷺ.

١٤- أن الخلق إنما يشهدون على الظاهر، أما الباطن فأمره إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، ولم يقولوا: بأنَّا مؤمنون.

١٥- أنه ليس من الرياء أو السمعة أن يقول الإنسان: أنا من أنصار الله، أو أنا مؤمن، أو مسلم، أو متبع للرسول إذا كان ذلك على سبيل إعلان الحق والجهر به ونصرته ونصرة الداعي إليه وتقوية جانبه وعزيمته ورفع معنويته؛ لقول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾.

١٦- التوسل إلى الله- عز وجل- بربوبيته، وبالإيمان بما أنزل، واتباع الرسول؛ لقول الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ ﴾.

١٨- أن الإيمان بالله مُقدَّم على غيره من أركان الإيمان والإسلام ؛ لقول الحواريين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾.

١٩- أن الواجب الإيمان بكل ما أنزل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾.

٢٠- التلازم بين الإيمان بالله تعالى وبما أنزل وبين الإسلام واتباع الرسول بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾.

٢١- عِظم منزلة الشاهدين الذين يشهدون بوحدانية الله تعالى وبالحق والصدق لكتبه ورسله؛ لقول الحواريين: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

٢٢- مكر بني إسرائيل وكيدهم لعيسى عليه السلام ولدعوته، وتمالؤهم على قتله من حيث لا يشعر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾.

٢٣- مكر الله- عز وجل- بالذين مكروا بعيسى عليه السلام وأنكروا رسالته وردُّوا دعوته وهمُّوا بقتله مُعاقبةً ومجازاةً لهم، وذلك بنصرة عيسى عليه السلام وأتباعه، وإنجائه منهم واستدراجهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾.

٢٤- مكر الله- عز وجل- بالماكرين مجازاةً ومعاقبةً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

٢٥- أن الله- عز وجل- خير الماكرين وأقواهم وأشدهم مكرًا بالماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

٢٦- أن الله- عز وجل- لا يوصف بالمكر مطلقًا؛ لأن المكر بالإطلاق صفة نقص، وإنما يوصف به على سبيل المجازاة والمعاقبة للماكرين، وهو بهذا المعنى صفة مدح ولا يقدح في هذا ما جاء ظاهره الإطلاق، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩].

فهو محمول على الوصف المذكور.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بقوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أو بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر يا محمد منوِّهًا بفضل عيسى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾.

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾: المراد بـ«الوفاة» هنا: الوفاة الصغرى بالنوم، لا الوفاة الكبرى بالموت، أي: إني متوفيك بالنوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]، أي: ويتوفى الأنفس التي لم تَمُت في منامها، أي: يتوفاها حين تنام تشبيهًا للنائمين بالموتى.

وفي الحديث أنه ﷺ إذا قام من النوم، قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**»(١).

وهذا لا ينافي قول من قال معنى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي: قابضك من

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤١٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٠)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

الأرض ورافعك إليَّ.

وأما قول من قال: معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: متوفيك وفاة موت، أي: إني مُميتك. فهذا يضعفه ما ثبت في الأحاديث الصحيحة من نزول عيسى في آخر الزمان.

كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**»(١).

وعنه أنه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده ليهلَّن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنينهما**»(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**ليس بيني وبينه نبي -يعني: عيسى- وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين مُمصَّرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يُصِبهُ بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون**»(٣).

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: الرفع يكون من أسفل إلى أعلى، أي: ورافعك إليَّ في السماء، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وقال ﷺ للجارية: أين الله؟، فقالت: في السماء، فقال ﷺ لسيدها: «**أعتقها، فإنها مؤمنة**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٢)، ومسلم في الإيمان (١٥٥)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٣)، وابن ماجه (٤٠٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٢٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٢٤).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٥٣٧)، وأبو داود في الصلاة (٩٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

والحكمة- والله أعلم- من توفيه بالنوم قبل رفعه: تيسير وتخفيف الانتقال عليه من الأرض إلى السماء.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء، وتبرئتك بما رماك به الذين كفروا من الباطل- وهم اليهود- حيث رموه بالكذب فيما جاءهم به، وأنكروا رسالته، واتهموه بأنه ابن زنا، وأن أمه زانية.. وغير ذلك أخزاهم الله.

كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧-٢٨].

وفي هذا تعريض بأنه ولد زنا، وأن أمه زانية -عياذًا بالله-، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦]، فأنطقه الله- عز وجل- وهو في المهد بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

وفي هذا أعظم التطهير له عليه السلام ولأمه رضي الله عنهما.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَجَاعِلُ﴾ أي: وجاعل كونًا وشرعًا ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

و«جاعل» هنا بمعنى «مُصيِّر» تنصب مفعولين: الأول- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾، و«فوق»: ظرف مكان متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لـ «جاعل» تقديره: كائنين فوق الذين كفروا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: الذين اتبعوك فيما جئت به من الشرع، وهم الحواريون ومن اتبعه بعد ذلك حتى نسخت شريعته بشريعة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: فوق الذين كفروا فوقية معنوية بجعل النصرة والرفعة

لهم والظهور كونًا وشرعًا على الذين كفروا بك وجحدوا رسالتك وكذبوا شريعتك.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: إلى يوم البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

وأتباع عيسى عليه السلام حقًا بعد بعثة محمد ﷺ هم أتباع محمد ﷺ؛ لأن عيسى عليه السلام بَشَّر بمحمد ﷺ، وأوجب تصديقه واتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وأن الدين الباقي إلى يوم القيامة هو دين الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ والذي نسخ جميع الشرائع السابقة وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٥٥].

وقد قال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة**»، قالوا: كيف يا رسول الله؟، قال: «**الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي**»(١).

قال ابن القيم(٢): «فلما كان للنصارى نصيب ما، من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة».

ولهذا فإن عيسى عليه السلام حينما ينزل في آخر الزمان يحكم بالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ويقاتل الناس عليه ولا يقبل منهم إلا الإسلام.

وعلى هذا؛ فليس لمن كذب محمدًا ﷺ وأنكر رسالته من النصارى وغيرهم متمسك في هذه الآية؛ لأنهم ليسوا من أتباع عيسى حقًا، وليسوا من الذين وُعِدوا بالفوقية على الذين كفروا إلى يوم القيامة، بل هم من الذين كفروا لعبادتهم المسيح، وقولهم هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وإنكارهم رسالة محمد ﷺ وكفرهم بالقرآن الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب: [عيسى بن مريم] (٢٣٦٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٠).

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: الخطاب لعيسى عليه السلام والذين اتبعوه والذين كفروا به، ويجوز كونه خطابًا للنبي ﷺ وأمته أو للجميع، أي: ثم إليَّ مصيركم ومآلكم ومآبكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

ومرجع الخلائق ومصيرهم ومردُّهم كلهم إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: المراد بالحكم هنا الحكم الجزائي؛ لأن حكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: كوني وشرعي وجزائي، أي: فأحكم بينكم بالمجازاة لكل منكم، وإنصافه من الآخر.

﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: في الذي كنتم فيه تختلفون، فيحكم عز وجل بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وبين الرسل وأقوامهم، ويُقيم الرسل البينة على أقوامهم أنهم بلَّغوا رسالات ربهم، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

هاتان الآيتان معطوفتان على ما سبق، وفيهما بيان وتفصيل لما أجمل في قوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «الفاء»: عاطفة للتفريع، و«أما» في الموضعين: شرطية تفصيلية.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ «الفاء»: تفريعية، و«العذاب» هو العقاب والنكال، وهو إيقاع المشقة والأذى بالمعَذَّب.

فالمعنى: فأعاقبهم عقابًا شديدًا، أي: قويًا عظيمًا، كمًا وكيفًا ونوعًا.

وفي قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ بضمير المتكلم تعظيم لنفسه- عز وجل- وترهيب وتخويف من عذابه.

﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: وهو ما يحصل لهم من القتل والجرح والأسر، وزوال الملك، وضرب الذلة والمسكنة عليهم، وأخذ الجزية.. ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

وكذلك ما يحصل لهم من المصائب والكوارث، قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وما يحصل لهم من العذاب المعنوي في قلوبهم من القلق، وضيق الصدور، وقلق النفوس بسبب كفرهم وعدم إيمانهم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وأعذبهم في الآخرة.

وعذاب الآخرة أشد، وهو ما يلقونه فيها من الأهوال التي أعظمها الخلود في النار، وبئس القرار.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ «الواو»: عاطفة، و«ما»: نافية، و«مِنْ» في قوله: ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لتنصيص وتأكيد عموم النفي، أي: وما لهم أيُّ أحد من الناصرين، و﴿نَّٰصِرِينَ﴾: جمع «ناصر» وهو الذي يدفع الضُّر، أي: وما لهم من ناصرين يدفعون ويمنعون عنهم عذاب الله قبل وقوعه أو يرفعونه بعد وقوعه.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي

ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى:٨].

والولي الذي يجلب النفع، والنصير الذي يدفع الضُّر.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

توعد عز وجل في الآية السابقة الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، وقدَّم ذِكر وعيدهم لأن السياق فيهم، ثم أتبع ذلك بذِكر ما أعدَّه للذين آمنوا من الأجور الوافية كما هي طريقة القرآن الكريم في ذِكر أهل الكفر وأهل الإيمان، وما أعدَّ لكل منهم جمعًا بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، أي: وأما الذين صدقوا بقلوبهم بكل ما يجب الإيمان والتصديق به.

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: وعملوا الأعمال الصالحات، فانقادوا بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، وبين العلم النافع والعمل الصالح.

وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهو «الأعمال»؛ لأن شرط العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥].

وقال ﷺ: «... **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

وأن يكون موافقًا للشرع؛ قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي لفظ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(١).

ويجمع الشرطين مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، أي: أخلص العمل لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء:١٢٥]، أي: متبع شرع الله.

ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمورٍ ستة: السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والمكان، والزمان.

فالموافقة في السبب مثلًا: أن يصلى للكسوف عند وجود سببه، فمن صلى صلاة الكسوف دون حصول الكسوف لم تصح منه.

والموافقة في الجنس مثلًا: أن يضحي من بهيمة الأنعام (الإبل والبقر والغنم)، فمن ضحَّى بغيرها لم يُقبل منه.

والموافقة في القدر مثلًا: أن يصلي صلاة الظهر أربع ركعات، فمن زاد فيها أو نقص فصلاته باطلة.

والموافقة بالكيفية مثلًا: أن يقدم الركوع على السجود في الصلاة، فمن عكس لم تصح صلاته.

والموافقة في المكان مثلًا: أن يقف الحاج بعرفة يوم التاسع، فمن وقف خارجها لم يصح حجه.

والموافقة في الزمان مثلًا: أن يصلي الصلاة بعد دخول وقتها، فمن صلاها قبل وقتها لم تصح منه(٢).

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ «الفاء»: رابطة لجواب الشرط.

قرأ حفص عن عاصم، ورُوِيَ عن يعقوب: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون، أي: بنون العظمة، «نوفيهم» وفيها تنبيه على عظم الموفى لهم من الأجور.

والمعنى: فيعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا من غير نقصان، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين في تفسيره على قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة:٩] «تفسير سورة المائدة» (١/ ١٥٣-١٥٤).

لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩].

أي: فيوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة بدليل مقابله في ضده؛ لقوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: فيوفيهم أجورهم في الدنيا بالنصر والظفر والحياة الطيبة وحُسن الذِّكر، وفي الآخرة بجنات النعيم والعيش الكريم.

وفي قوله في ذِكر العذاب: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ بينما قال هنا: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة للتنبيه – وهذه فائدة لفظية كما أن فيه فائدة معنوية، وهي إظهار السلطة والعظمة والعزة في باب ذِكر العذاب، وإظهار الفضل والإحسان للعاملين في باب ذِكر الثواب.

وسمَّى الله- عز وجل- جزاء وثواب عملهم أجرًا؛ لأنه- عز وجل- تكفَّل به وأوجبه على نفسه، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، مع أن الله- عز وجل- لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه تفضلًا منه وكرمًا، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الجملة تعليلية، فيها تعليل لما توعد به الذين كفروا من العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، فتوعدهم عز وجل بهذا العذاب الشديد بسبب ظلمهم، وهو سبحانه لا يحب الظالمين بل يبغضهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

وفيها أيضًا تعليل لحكم الله تعالى بين الخلائق، ومجازاة الذين كفروا بالعذاب، ومجازاة الذين آمنوا بتوفيتهم أجورهم، فحكم بينهم بهذا الجزاء بالعدل؛ لأنه سبحانه لا يحب الظلم وأهله.

أي: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك بالله وعبادة غيره، وظلموا عيسى عليه السلام وأمه باتهامه أنه ولد زنا وأن أمه زانية.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما سبق من ذِكر عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران:٤٥] الآية.

أو إليه وإلى ما سبق من ذِكر آل عمران، أي: من قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٣٣].

أو إلى كل ما أنزله الله تعالى في القرآن الكريم، فكل هذا مما تلاه الله تعالى وأوحاه إلى رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام.

وفي الإشارة إليه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ تعظيم له، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران: ١٠٨، البقرة:٢٥٢، الجاثية: ٦]

﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ أي: نقرؤه عليك متتاليًا يتلو بعضه بعضًا، والخطاب للنبي ﷺ، أي: نقرؤه عليك بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣- ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧- ١٩].

﴿ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ «مِنْ»: بيانية، أي: من الآيات الكونية الدالة على صدقك في دعوى الرسالة، كما قال تعالى: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣].

﴿ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾: معطوف على الآيات، أي: «ذلك نتلوه عليك من الآيات الكونية، ومن الذكر الحكيم، وهو القرآن الكريم، أي: الآيات الشرعية.

والقرآن الكريم ذِكرٌ بالمعاني الثلاثة للذكر وهي:

أولًا: «الذكر» الذي يتقرب به إلى الله تعالى بتلاوته، وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، كما قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣].

ثانيًا: «الذكر» بمعنى التذكُّر والاتعاظ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥]، وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٩].

ثالثًا: «الذكر» بمعنى الشرف والرفعة، للرسول ﷺ ولقومه ولكل من تمسك به،

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤]، أي: إنه لشرف عظيم لك ولقومك، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ [الشرح:٤]، أي: أعلينا قدرك وشأنك ومنزلتك.

والقرآن الكريم ذكر يُتذكر به ويُتقرب إلى الله تعالى بتلاوته وتدبره، وتذكرة وعظة يتذكر ويتعظ بها المؤمنون، وشرف ورفعة للرسول ﷺ ولقومه وأمته، وبه نالت الأمة العزة والرفعة والشرف والظهور حين كانت متمسكة به محكِّمة له.

وما ضعفت الأمة وذلت وهان أمرها إلا بعد أن تخلَّت عن كتاب ربها، ولن يصلح حال آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وهو التمسك بكتاب الله تعالى وتحكيمه.

﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾: صفة لـ«الذكر»، أي: الذكر ذو الحكم والحكمة، وهو «فعيل» بمعنى (فاعل)، أي: «حاكم»، وهو «فعيل» بمعنى (مفعل)، أي: «مُحكم».

ومعنى «حاكم» أي: حاكم يحكم بين الناس، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء: ١٠٥].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بعيسى عليه السلام، وما مَنَّ الله تعالى به عليه من تَوَفيه، ورفعه إليه، وتطهيره من الذين كفروا، ونصر أتباعه وإظهارهم على الذين كفروا، تذكيرًا بنعم الله تعالى على رسله وأوليائه، وانتقامه من أعدائه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ الآية.

٢- إثبات القول لله سبحانه، وأنه- عز وجل- يتكلم بحروف وأصوات مسموعة، ويخاطب رسله ومن شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ الآية.

٣- إثبات رسالة عيسى عليه السلام وتشريفه وتكريمه بخطاب الله- عز وجل- له، وتقريبه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ الآية.

٤- إثبات رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بجسمه حيًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾.

٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾.

٦- عناية الله- عز وجل- بعيسى عليه السلام عند رفعه إليه حيث توفاه، أي: أنامه قبل ذلك تخفيفًا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٧- منقبة عظيمة لرسول الله ﷺ تدل على قوة وثبات قلبه؛ حيث أُسرِيَ به إلى السماوات السبع وهو يقظان، بينما رُفِعَ عيسى عليه السلام وهو نائم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٨- إبطال دعوى اليهود أنهم قتلوا عيسى وصلبوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٩].

والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد إلى عيسى عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

٩- تطهير الله- عز وجل- لعيسى وتبرئته مما رماه به الذين كفروا من الكذب والباطل واتهامه بأنه ولد زنا، وأن أمه زانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٠- أن من رمى عيسى عليه السلام بهذا السوء فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وفي هذا دلالة على كفر هؤلاء، وأن كل من رماه بما رموه به فهو كافر، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

١١- وعد الله تعالى لعيسى عليه السلام بنصرة أتباعه، وإظهارهم على الكفار إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وأتباعه حقًّا هم أتباع محمد ﷺ؛ لأنه عليه السلام بَشَّر بمحمد ﷺ، وأخبر بوجوب اتباعه وتصديقه.

١٢- وعد الله تعالى بالنصرة والرفعة والظهور للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

١٣- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١٤- أن مرجع جميع الخلائق إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

١٥- إثبات حكم الله- عزوجل- الجزائي بين الخلائق يوم القيامة؛ بين الرسل وأممهم، وبين الأمم، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فهو- عز وجل- الحَكَم، وإليه الحكم، كما قال ﷺ: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**»(١).

١٦- وقوع الاختلاف يوم القيامة والخصومة بين المؤمنين والكافرين، وبين الرسل وأممهم لقوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١].

١٧- الوعيد للذين كفروا بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

عذاب شديد في الدنيا حسي بالقتل والجراح وأخذ الجزية وأنواع العقوبات والمصائب والكوارث.

وعذاب معنوي بالقلق والاضطراب النفسي بسبب الكفر وعدم الإيمان.

وهذا عام لجميع الكفار، فمن سلم من الأول لم يسلم من الثاني.

وعذاب شديد في الآخرة حسي بالنار، وعذاب معنوي بالتوبيخ وتحطيم المعنويات.. ونحو ذلك.

١٨- حقارة الدنيا؛ لأن الله سماها دنيا لحقارتها.

١٩- أن عذاب الكفار في الدنيا لا يُخفف أو يُسقِط عنهم عذاب الآخرة، بل يجمع لهم بين العذاب الشديد في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

٢٠- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٢١- أن الكفار لا ناصر لهم يدفع أو يمنع عنهم عذاب الله تعالى قبل نزوله، أو

---

(١) أخرجه النسائي في آداب القضاة (٥٣٨٧)، من حديث شريح بن هانئ عن أبيه هانئ رضى الله عنه.

يرفعه بعد نزوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٢٢- وعد الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإعطائهم أجور أعمالهم وافية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٢٣- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فذكر عذاب الكافرين، وأتبعه بذِكر ثواب المؤمنين.

٢٤- أن الوعيد قد يقدم على الوعد، كأن يكون الكلام والسياق مع الكفار ونحو ذلك؛ لأن الله- عز وجل- قدَّم في هذه الآيات وعيد الكافرين على وعد المؤمنين، وهذا لا ينافي أن رحمة الله- عز وجل- تسبق غضبه.

٢٥- لابد في الإيمان من الجمع بين تصديق الباطن وعمل الجوارح في الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٦- أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صالحًا، خالصًا لوجهه، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ولهذا حذف الموصوف- وهو الأعمال- وبقيت الصفة؛ لأن المهم في العمل وشرطه أن يكون صالحًا.

٢٧- تكفل الله- عز وجل- وضمانه لثواب الصالحين، لهذا سماه «أجرًا»؛ لأنه سبحانه وتعالى أوجبه على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أُجُورَهُمْ﴾.

٢٨- التحذير من الكفر، والترغيب في الإيمان؛ لأن الله- عز وجل- توعد الكافرين بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، ووعد المؤمنين بتوفيهم أجورهم.

٢٩- نفي محبة الله تعالى للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فهو- عز وجل- لا يحب الظالمين بل يبغضهم، ومفهوم هذا أنه -تعالى- يحب أهل الإيمان والحق.

٣٠- التحذير من الظلم ومن الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الله تعالى لا يحب الظلم وأهله، بل يبغضهم ويعذبهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٣١- أن الله- عز وجل- حكم عدل، لا يظلم أحدًا من خلقه.

٣٢- تلاوة ما وقع من أخبار وأحوال آل عمران وعيسى عليه السلام وغير ذلك على النبي ﷺ، وقراءتها عليه بواسطة جبريل، وهكذا جميع القرآن الكريم تكلم الله- عز وجل- وتلاه جبريل على النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

٣٣- أن في القرآن الكريم أعظم الآيات والدلائل الشرعية والكونية الدالة على عظمة الله- عز وجل- واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

٣٤- أن القرآن الكريم «ذِكرٌ» يُتقرب إلى الله تعالى بتلاوته، وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه. و«ذِكرٌ» يُتذكَّر به، ويتعظ به المؤمنون، وهو ذِكر وشرف للرسول ﷺ ولقومه ولكل من تمكسك به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلذِّكۡرِ﴾.

٣٥- أن القرآن الكريم «حَكَم» و«حاكِم» يحكم بين الناس، و«مُحكَم» متقن ليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

٣٦- تعظيم آيات القرآن الكريم بالإشارة إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وتسميته بـ «الذِّكر» ووصفه بـ ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾.

٣٧- إثبات رسالة النبي ﷺ، ونزول الآيات عليه، وتشريفه بذلك وبخطاب الله- عز وجل- له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

بيَّن الله- عز وجل- في الآيات السابقة خلقه لعيسى عليه السلام من أم بلا أب، ثم شرع في هذه الآيات في إبطال عقيدة النصارى في تأليه عيسى- عليه السلام- وزعمهم أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ «إنَّ»: للتوكيد، و«مثل» بمعنى شبه، أي: إن شبه عيسى في خلق الله تعالى له من أم بلا أب.

﴿عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: في تقدير الله تعالى وحكمه وفي الواقع ونفس الأمر.

﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾: الكاف: للتشبيه، أي: كشبه آدم.

﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾: بيان وتفسير لقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: كمثل آدم في خلق الله تعالى له ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ بلا أم ولا أب، ووجه الشبه بين آدم وعيسى أن كلًا منهما في خلقه خرقٌ للعادة، فآدم خُلِقَ من غير أبوين، وعيسى خُلِقَ من غير أب.

والضمير في ﴿خَلَقَهُۥ﴾ يعود إلى آدم.

﴿مِن تُرَابٍ ﴾ أي: ابتدأ خلقه من تراب، وصوَّر جسده من تراب.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾: أي: كُن بشرًا حيًا سويًّا كامل الخلق روحًا وجسدًا.

﴿ فَيَكُونُ ﴾ أي: فيكون بشرًا بمجرد قوله- عز وجل-: «كن» من غير تخلف ولا تأخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قال ابن القيم[١]: «فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعًا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يُقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم، فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به».

وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ دون أن يقول: «فكان» لاستحضار صورة تَكَوُّنِهِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩]».

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ «الحق»: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك أو هذا الحق من ربك.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾: في محل نصب على الحال، أي: حال كونه من ربك.

و﴿ٱلْحَقُّ﴾: الشيء الثابت خبرًا كان أو حكمًا، فإن وصف به «الخبر» كان معناه: «الصدق» وإن وصف به «الحكم» كان معناه: «العدل»، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، أي: ثبتت كلمة ربك.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: هذا الذى قص عليك في أمر عيسى وخلقه هو الحق من ربك الذي لا حق غيره، ولا صحيح سواه.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا»: ناهية، و«تكن»: مجزوم بها وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهو الواو؛ لأن أصله «تكون».

و﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: جمع «ممتري» والامتراء: الشك والريب، أي: فلا تكن من الشاكين المرتابين فيما جاءك من الحق من ربك، وهو نهي له ﷺ ونهي لأمته من باب أولى وأحرى، كما أن فيه تعريضًا بأهل الامتراء والشك من النصارى وغيرهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٠).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة شأن عيسى عليه السلام وأَمْر خَلْقه، وأن مثله في خلقه عند الله كمثل آدم.

ثم أمر النبي ﷺ أن يباهل من حاجه في أمر عيسى عليه السلام وخَلْقه، بعد بيان الحق له من النصارى وغيرهم.

قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ «الفاء»: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿حَآجَّكَ﴾: فعل الشرط، أي: فمن جادلك وخاصمك، وسمَّى ذلك محاجة لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته ليغلب الآخر ويخصمه. ومنه الحديث: «حاج موسى آدم»(١).

﴿فيه﴾ الضمير يعود على عيسى عليه السلام، أي: فمن حاجك في شأن عيسى وخلقه وفيما جاءك فيه من الحق من ربك بالحجج الباطلة، وأنكر أن يكون الله خلقه من أم بلا أب، وادَّعى أنه ابن الله تعالى، كما قالت النصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

قالوا: لأنه خلق من غير أب وتكلم في المهد، وقالوا: أنه الله؛ لأنه يحيي الموتى ويُبرئ المرضى ويخلق من الطين كهيئة الطير ويخبر بالمغيبات.

كما قالوا: إنه ثالث ثلاثة لأن الله تعالى يقول: خلقنا وقضينا وقدَّرنا وأنجينا، قالوا: لو كان واحدًا لقال: خلقت وقدرت وأنجيت... إلخ.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: «مِنْ» في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ تدل على المهلة بين مجيء العلم والأمر بالمباهلة؛ لإقامة الحُجة أولًا بالعلم والبيان والإعذار منهم.

و«ما»: موصولة، أي: من بعد الذي جاءك من العلم من الله تعالى بالوحي ببيان

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٣٨)، ومسلم في القدر- حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٠١)، والترمذي في القدر (٢١٣٤)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شأن عيسى- عليه السلام- وبيان ذلك لهم فكابروا وعاندوا.

﴿فَقُلْ﴾: جواب شرط «مَنْ»، والفاء: رابطة لجواب الشرط لأنه جملة طلبية.

﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي: هلُموا وأقبِلوا وائتوا، وجاء بضمير الجمع باعتبار معنى «مَنْ» في قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ لأن معناها الجمع.

﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾ أي: نُحْضِر نحن أبناءنا وتُحْضِرون أنتم أبناءكم، ونحضر نساءنا وتحضرون أنتم نساءكم، أي: يحضر كل منا الأبناء والزوجات لشهود الملاعنة.

﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: ونَحضر نحن وأنتم.

وهؤلاء هم أعز ما يكون عند الإنسان في الدنيا، نفسه، وأبناؤه، وزوجاته.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ «ثم»: للتراخي الرتبي، و«الابتهال» افتعال من البهل.

وهو: الدعاء باللعن، أي: ثم نلتعن.

ويُطلق الابتهال على الاجتهاد في الدعاء، ولهذا سُمِّيَ اللعن ابتهالًا لأنه اجتهاد في الدعاء.

﴿فَنَجْعَل﴾ «الفاء»: عاطفة، أي: فَنُصَيِّر ﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ﴿لَّعْنَتَ﴾: مفعول به أول لـ«نجعل»، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه.

﴿عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ جار وجرور متعلق بمحذوف مفعول به ثان لـ«لنجعل» أي: فتجعل لعنة واقعة على الكاذبين، أي: فندعوا بإيقاع لعنة الله على الكاذبين.

و﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: طرده وإبعاده عن رحمته وجنته.

﴿عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: على الكاذبين منا أو منكم.

وفي دعوتهم إلى المباهلة إلجاء لهم أن يعترفوا بالحق أو يكفوا، ودعوة إنصاف لا يدعو لها إلا من كان واثقًا أنه على الحق.

قال ابن كثير[1]: «وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٤٠).

في وفد نجران أن النصارى حين قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم».

وقد أشفق هؤلاء الوفد من النصارى من الملاعنة، فلم يقدموا عليها وخافوا الهلكة والاستئصال إن هم لاعنوا فعدلوا إلى المصالحة ودفع الجزية، وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل معهم رجلًا أمينًا يحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها في أموالهم، فأرسل معهم أباعبيدة بن الجراح- رضي الله عنه.

فعن حذيفة- رضي الله عنه- قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله إن كان نبيًا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: «لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين»، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال أبوجهل: إن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين باهلوا رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾: الإشارة لما ذُكِرَ في شأن عيسى عليه السلام، فهو تأكيد لما قصه الله تعالى في شأن عيسى عليه السلام، ولهذا أُكدت هذه الجملة بثلاثة مؤكدات: «إنَّ» واللام، وضمير الفصل «هو» في قوله: ﴿لَهُوَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٨٠)، وأخرجه مختصرًا مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٢٠)، والترمذي في المناقب (٣٧٩٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨).

كما أن في ضمير الفصل «هو» حصرًا للحق في هذا القصص دون سواه.

و﴿ٱلْقَصَصُ﴾: مصدر قصَّ يقص قصًا وقصصًا، ويُحتمل أن يكون هذا مصدرًا بمعنى «الفعل»، وأن يكون مصدرًا بمعنى «اسم المفعول» أي: إن هذا لهو المقصوص الحق، والقصص تتبع الوقائع والإخبار عنها شيئًا بعد شيء على ترتيبها ومنه: «قص الأثر» وهو اتباعه.

و﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة للقصص، أي: القصص الثابت الصحيح الصدق، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار والقصص، وعدلًا في الأحكام.

أي: أن هذا الذي ذكره الله في شأن عيسى عليه السلام هو القصص الحق، لا ما تقصه كتب النصارى وعقائدهم.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: لما أكد عز وجل أن ما قصه بشأن عيسى حق نفى أن يكون إله غير الله ردًّا على النصارى في تأليههم لعيسى- عليه السلام.

قوله: ﴿وَمَا مِنْ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَمَا﴾: نافية، و﴿مِنْ﴾ زائدة من حيث الإعراب ومؤكدة للنفي من حيث المعنى، للتنصيص والاستغراق في النفي.

﴿إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود بحق.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما من معبود بحق إلا الله تعالى وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه، فهو- عز وجل- وحده المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيمًا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الجملة كسابقتها مؤكَّدة بـ«إنَّ» واللام وضمير الفصل «هو».

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى يدل على أنه- عز وجل- ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: اسم من أسماءالله- عز وجل- يدل على أنه الحاكم ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، ويدل على أنه سبحانه «المحكم» المتقن لكل ما قدَّر وشرع ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة

الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: التولي: الإعراض بالقلوب والأبدان، أي: فإن تولوا وأعرضوا ونكصوا عن المباهلة وعن اتباع الحق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: فإن الله ذو علم واسع بالمفسدين، أي: فإنما هم مفسدون؛ لأنهم إنما قصدوا المعاندة والمكابرة ولم يتطلبوا الحق، والله عليم بالمفسدين، وأظهر في موضع الإضمار فلم يقل: «عليم بهم»؛ لوصفهم بالمفسدين وتسجيل ذلك عليهم، وليعم هذا الوصف بالإفساد كل من تولى عن اتباع الحق، ولإظهار عموم علمه- عز وجل- بجميع المفسدين من هؤلاء وغيرهم، وفى ذلك تحذير ووعيد وتهديد لمن تولى عن الحق.

الفوائد والأحكام:

١- إبطال قول النصارى: المسيح ابن الله، بدعوى أن الله خلقه بكلمة منه من غير أب؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

وإبطال قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ بدعوى أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، ويبرئ الكمه والأبرص، ويحيي الموتى، ويخبر بالمغيبات؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١].

وإبطال قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، بدعوى أن الله- عز وجل- يتكلم كثيرًا بضمير الجمع نحو: خلقنا- رزقنا- فعلنا، ونحو ذلك؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ردٌّ على النصارى وإبطال لمزاعمهم ومقالاتهم في تأليههم المسيح وزعمهم أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، وذلك بطريق الإلزام من وجوه عدة:

أولًا: من حيث قدرة الله تعالى العجيبة في خلق كل من عيسى وآدم على خلاف العادة، لكن إذا كان عيسى خُلق من أم بلا أب، فآدم خُلق من غير أم ولا أب، وهذا أدل على عظمة قدرة الله تعالى، فالذي خلق آدم من غير أبوين قادر على خلق عيسى من غير أب من باب أولى وأحرى.

ثانيًا: إذا كان الله خلق آدم من غير أب ولا أم، ولم يقل أحد من الخلق إنه ابن الله، لا النصارى ولا غيرهم، فمن باب أولى لا يجوز أن يقال: إن عيسى ابن الله؛ لكونه خلق من غير أب، كما تقول النصارى؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٤، ٣٥].

ثالثًا: أن عيسى مخلوق كآدم- عليهما السلام- وكل منهما خُلق بأمر الله الكوني، أي بقوله تعالى: ﴿كُن﴾، ولم يقل أحد من الخلق بأن آدم إله، فدعوى إلاهية عيسى باطلة، بل هي من أبطل الدعاوى، وفي غاية البطلان، كما قال عيسى- عليه السلام- وهو في المهد: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] إلى أن قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

٢- نقض حجة الخصم وإبطالها بما هو مثلها، فالنصارى يقولون: عيسى ابن الله؛ لأنه خُلِقَ من أم بلا أب، وينتقض عليهم هذا بأن آدم خلقه الله من غير أب ولا أم، وهم لا يقولون ولا غيرهم بأن آدم ابن الله.

٣- قدرة الله تعالى التامة حيث خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وخلق عيسى من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، كما خلق عز وجل حواء من

آدم بلا أم، وخلق سائر البشر من أب وأم.

٤- إثبات حجية القياس، فإن الله مثَّل حال عيسى عليه السلام بحال آدم في الاحتجاج على النصارى.

٥- إثبات صفة الخلق لله تعالى، وهي من الصفات الفعلية؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

٦- إثبات القول لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾.

٧- نفوذ أمر الله- عز وجل- الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٨- أن ما قصَّهُ الله تعالى من أمر عيسى وشأنه ومثله هو الحق من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن الله- عز وجل- لا يصدر منه إلا الحق، ويُطلب منه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

١٠- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إلى اسم «الرب»- عز وجل- وربوبية الله تعالى له ربوبية خاصة.

١١- نهى النبي ﷺ أن يكون من الممترين فيما جاءه من عند الله من الحق في أمر عيسى وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

وليس في هذا دلالة على شكه ﷺ، وهو نهي لأمته بطريق الأولى والأحرى، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١].

١٢- النهي والتحذير من الشك فيما أمر الله به وقصَّهُ على رسله؛ لأن النهي للنبي ﷺ نهي للأمة من باب الأولى والأحرى.

١٣- التعريض بذم الممترين الشاكين فيما جاء عن الله تعالى وسوء حالهم ومآلهم.

١٤- عناية الله- عز وجل- بنبيه ﷺ، والدفاع عنه وتعليمه كيف يرد على خصومه، وتهيئته لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ الآية.

١٥- الاستعداد والإعداد للرد على حجة الخصم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ﴾.

١٦- أن ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه حق؛ لأن الله- عز وجل- أمره ﷺ أن يبتهل مع المحاجين له بجعل لعنة الله على الكاذب من الفريقين.

١٧- أن من شرط المباهلة العلم اليقيني؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، أما مع الشك فلا تجوز المباهلة.

١٨- جواز طلب المباهلة عند عناد الخصم خصوصًا في الأمور الشرعية الهامة بعد البيان والنصح والإعذار والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾.

١٩- أن من تمام المباهلة وقوتها إحضار الأبناء والنساء؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ﴾.

٢٠- جواز الدعاء بجعل لعنة الله على الكاذبين، أو على من كان كاذبًا من الفريقين أو الخصمين ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أما الدعاء على شخص معيَّن فهذا لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ لما دعا على أناس من المشركين بقوله: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» أنزل الله تعالى عليه قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨][1]، وفي هذا تعريض بالنهي عن ذلك.

٢١- تأكيد أن ما أخبر الله تعالى به من القصص في أمر عيسى عليه السلام وغيره هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾.

٢٢- أن القصص منه ما هو حق، ومنه ما هو باطل؛ لمنطوق ومفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾.

٢٣- أنه لا إله بحق إلا الله – تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٢٤- إبطال دعوى النصارى إلاهية عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وذلك من وجهين:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٠٧٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الأول: أن ما قصَّهُ الله تعالى في شأن عيسى أنه كمثل آدم، فهما نظيران في خلقهما على خلاف المعتاد، ولم يقل أحدٌ: إن آدم ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة، ومن باب أولى يجب أن لا يقال ذلك في عيسى.

الثاني: أن الله- عز وجل- نفى وجود إله غيره.

٢٥- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وأنه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله تعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وأنه سبحانه ذو الحكم التام والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٧- في اقتران العزة التامة والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه- عز وجل- زيادة كماله -سبحانه- إلى كمال.

٢٨- تهديد من تولى وأعرض عن الحق من النصارى وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ومقتضى علمه بهم أن يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

٢٩- علم الله- عز وجل- بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وإنما خصَّ العلم بالمفسدين؛ لأن السياق في وعيد المتولين المفسدين.

٣٠- أن التولي عن اتباع الحق وعدم تصديقه فساد وإفساد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و«أهل الكتاب» اليهود والنصارىٰ، وسموا أهل الكتاب؛ لأن الله تعالى أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود «التوراة»، وأنزل على النصارى «الإنجيل»، وبقيت كتبهم إلى أن بعث النبي ﷺ.

وفي تسميتهم أهل الكتاب إشارة إلى أن كونهم أهل كتاب يوجب عليهم قبول الحق وإرشاد الناس إليه لا رده، كما أن في ذلك تعريضًا بقيام الحجة عليهم، وذمهم لما هم عليه من الكفر والشرك وتكذيب رسل الله.

﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي: هلموا وأقبلوا وائتوا.

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ هذه الكلمة هي ما بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾

فالمراد بقوله هنا: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي: إلى كلام مفيد، لا إلى كلمة مفردة، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يعني بها قوله قبل هذا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

كما يقال: «كلمة التوحيد»، و«كلمة الشهادة» ويراد بذلك: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(١)

﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ ﴿سَوَآءٍ﴾: صفة لـ﴿كَلِمَةٍ﴾، أي: كلمة عدل ونَصَفٍ، نستوي نحن وأنتم فيها.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذه الجملة وما عطف عليها بدل من ﴿كَلِمَةٍ﴾ بدل كل من كل، فهي بيان وتفسير لـ﴿كَلِمَةٍ﴾ أي: تعالوا إلى عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به، وعدم اتخاذ أرباب من دونه.

و﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أداة حصر، أي: ألا نعبد نحن وأنتم إلا الله وحده.

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع لله تعالى، وهي في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة قبلها، وهي قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ففي الجملة الأولى إفراد العبادة لله تعالى وحده، ومفهومها نفيها عما عداه، وهو ما صرح به في قوله: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء، أي: لا نشرك به شيئًا من الشرك، لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر، ولا شركًا خفيًّا ولا شركًا جليًّا.

والشرك الأكبر الجلي: عبادة غير الله، وطلب الحاجات من الأولياء وأصحاب القبور ونحو ذلك.

والشرك الأصغر والخفي كالرياء، كما قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. فسئل عنه فقال: الرياء**»(٢).

وهو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

وأيضًا: ولا نشرك به شيئًا من الأشياء أيًّا كان، لا وثنًا، ولا صنمًا، ولا صليبًا، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

نارًا، ولا مَلَكًا، ولا وليًّا، ولا شيئًا غير ذلك.

والمعنى: تعلوا؛ لنفرد العبادة لله تعالى وحده لا شريك له.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: نافية، ﴿يَتَّخِذَ﴾: منصوب عطفًا على ﴿نَعْبُدَ﴾، ﴿بَعْضُنَا﴾: «بعض» فاعل و«نا» مضاف إليه. ﴿بَعْضًا﴾: مفعول أول لـ﴿يَتَّخِذَ﴾، و﴿أَرْبَابًا﴾: مفعول ثانٍ له.

أي: ولا يجعل بعضنا البعض الآخر ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وفي التعبير بالبعض إشارة إلى أنهم من جنس واحد، فكيف يكون بعضهم أربابًا لبعض؟!

و﴿أَرْبَابًا﴾ جمع «رب» أي: أسيادًا نطيعهم بالتحليل والتحريم من دون الله، كما في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ولهذا لما قال عدي بن حاتم: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. قال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما أحل الله فتحلونه؟**» قال نعم. قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

ففي قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ نفي عبادة غير الله والإشراك به في العبادة.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ نفي الإشراك معه في الطاعة والتحليل والتحرير.

وعلى هذا اتفقت جميع الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهذه الآية أحيانًا في الركعة الثانية الفجر: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧-٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦). وانظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٥٥١).

ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(١).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: فإن تولى أهل الكتاب وأعرضوا عن هذه الكلمة السواء والدعوة النَصَف.

﴿فَقُولُواْ﴾ أيها المسلمون لهم: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي: أشهدوهم على استمراركم على الإسلام واعتزازكم به، من غير اكتراث بمن تولى عنه.

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

وقد كان ﷺ يكتب بهذه الآية إلى ملوك أهل الكتاب، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- في حديثه عن أبي سفيان- رضي الله عنه- أن في كتابه ﷺ لهرقل: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تَسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**»(٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٥﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده؛ فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًّا، وقالت

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٢٧)، والنسائي في الافتتاح (٩٤٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣).

النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًّا، فأنزل الله- عز وجل- فيهم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، قالت النصارى: كان نصرانيًّا، وقالت اليهود: كان يهوديًّا. فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل إنما أنزلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية»(١).

قوله: ﴿لِمَ﴾: اللام حرف جر، و«ما»: اسم استفهام حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١].

والاستفهام في قوله: ﴿ لِمَ تُحَآجُّونَ ﴾ للإنكار والتوبيخ، أي: لم تجادلون وتنازعون ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي: في دين إبراهيم، فاليهود يقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا، والنصارى يقولون: إن إبراهيم كان نصرانيًّا.

ويدعي كل منهما أنه على دين إبراهيم، تشبثًا من كل منهما بذلك، وترويجًا ودعوة لدينه، وانتقاصًا من كل منهما لما عليه الآخر، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ ﴾ [البقرة: ١١٣].

وأيضًا ليخلص كل منهما- أي: اليهود والنصارى- إلى نفي أن يكون ما جاء به محمد ﷺ هو دين إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافيه، «إلا»: أداة حصر، والضمير في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ يعود إلى إبراهيم، أي: والحال أنه ما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم، فكيف تحاجون أيها اليهود وتقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا، وكيف تحاجون أيها النصارى، وتقولون: إنه كان نصرانيًّا- علمًا أن التوراة والإنجيل ما أنزلتا إلا من بعده؟!

وقد قيل: إن بين إبراهيم وموسى نحو ستمائة إلى ألف سنة، كما أن بين موسى وعيسى على ما قيل نحو ألفي سنة، وقيل غير ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٤٨١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٨٤)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٣).

وكيف تحاجون وتقولون: إنكم على دين إبراهيم علمًا أن اليهود منكم شريعتهم التوراة، والنصارى شريعتهم الإنجيل، وإبراهيم سابق لنزولهما، فدينه غيرهما، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وكيف تحاجون وتنكرون أن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو دين إبراهيم عليه السلام؟!

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ، والفاء: عاطفة، والجملة معطوفة على مقدر، أي: أغفلتم فلا تعقلون. أي: أفلا يكون لكم عقول تعقلون بها ما تحاجون به، وفي هذا تسفيه لهم، ووصف لهم بالحمق والجهل؛ لأن المنفي هنا عقل الرشد الذي هو مناط المدح والذي يحمل صاحبه على حسن التصرف والتدبير في الأعمال والأقوال والأموال، وجميع الأحوال، وليس المراد به عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف، فهذا موجود عندهم، ولولاه ما كلفوا، كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث: النائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق**»(١).

قوله تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ «ها» في الموضعين للتنبيه، و«أنتم» ضمير فصل في محل رفع مبتدأ، و«أولاء» اسم إشارة للقريب، في محل نصب على النداء، والتقدير: ها أنتم يا هؤلاء، أي: هب أنكم يا هؤلاء.

﴿حَاجَجْتُمْ﴾ الجملة: في محل رفع خبر المبتدأ، أي: جادلتم وخاصمتم ونازعتم، ﴿فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة، أي: في الذي لكم به علم، وهو الذي أنتم عليه من الدين والذي في كتبكم وعليه أنبياؤكم.

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾ الفاء: عاطفة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: فلم تجادلون

---

(١) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٩٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتحاجون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة- كسابقتها- أي: في الذي ليس لكم به علم، وهو أمر إبراهيم وما كان عليه من الدين مما لم يذكر في كتبكم.

والمعنى: كان الأجدر بكم أن تحاجوا في الذي تعلمون، وهو ما أنتم عليه من الدين وما في كتبكم وما عليه أنبياؤكم، دون الذي لا تعلمون من دين إبراهيم عليه السلام.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الواو: استئنافية، أي: والله ذو علم مستمر دائم، يعلم كل شيء على الدوام، مما كان عليه إبراهيم من الدين وغير ذلك، وقد أخبر عز وجل أن إبراهيم كان على ملة الإسلام، وهي الحنيفية السمحة التي جاء بها محمد ﷺ، كما قال تعالى في الآية بعد هذه الآية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأنتم جهلة لا تعلمون شيئًا؛ ولهذا تحاجون بلا علم.

فوصفهم أولًا بالسفه والحمق وعدم العقل، **ووصفهم ثانيًا** بالجهل وعدم العلم وواحد من هذين الوصفين كافٍ في الذم فكيف إذا اجتمعا، فلا حكمة ولا علم، فهذا غاية الذم.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أنكر عز وجل في الآيتين السابقتين على اليهود والنصارى محاجتهم في إبراهيم- وذلك بزعم كل منهما أن إبراهيم كان على دينهم- علمًا أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا من بعده، مبينًا سفههم وعدم رشدهم، ومجادلتهم بما لا علم لهم به، ثم بيَّن في هذه الآية براءة إبراهيم من اليهود والنصارى، وأنه كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين.

قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾«ما»: نافية، أي: ما كان إبراهيم يهوديًّا على دين اليهود، كما يزعمون.

﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي: ولا كان نصرانيًّا على دين النصارى- كما يزعمون- وكرر

النفي بـ«لا» للتأكيد.

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ «لكن»: استدراك؛ لبيان ما كان عليه- عليه السلام.

﴿حَنِيفًا﴾ «الحنف» في اللغة: الميل، فمعنى ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الشرك ثابتًا على التوحيد. ﴿مُّسْلِمًا﴾: مستسلمًا منقادًا لأمر الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، أي: وما كان من المشركين الذين يعبدون الأصنام. وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ ونفي لقول المشركين: إنهم على ملة إبراهيم، وتعريض بأن أهل الكتاب مشركون؛ لقولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١٣٥]، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١٢٠]، وقوله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

هذا رد على محاجة أهل الكتاب في إبراهيم وزعمهم أنهم على دين إبراهيم وإنكارهم أن يكون ما جاء به محمد ﷺ على ملة إبراهيم. فبيَّن عز وجل أن أولىٰ الناس به عليه السلام هم الذين اتبعوه ومحمد ﷺ والمؤمنون معه.

قوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿أَوْلَى﴾: اسم تفضيل، أي: أشد الناس ولاية بإبراهيم أي: أحق الناس بإبراهيم وأخصهم به وأقربهم منه، سواء كان هؤلاء الناس من أهل الكتاب أو من المشركين أو من المسلمين، حيث أن كلًا من هؤلاء الأصناف يقول: إنه على دين إبراهيم. أي: إن أحق الناس بإبراهيم الذين هم على دينه وملته.

﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾: خبر «إنَّ»، واللام تفيد التوكيد، فالجملة مؤكدة بـ«إنَّ» واللام أي: للذين اتبعوه على ما كان عليه من الدين في حياته.

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من عطف الخاص على العام، والإشارة لخاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: والذين آمنوا من أصحابه ﷺ من المهاجرين والأنصار، ومن بعدهم من المؤمنين.

وإنما كان النبي ﷺ والمؤمنون أولى الناس بإبراهيم؛ لأنهم على ملته الحنيفية ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله ولي المؤمنين كلهم: إبراهيم والذين اتبعوه ومحمد والذين آمنوا، أي: والله ولي المؤمنين كلهم ولاية خاصة، يحفظهم وينصرهم ويرزقهم ويوفقهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم في الدنيا وإلى جنات النعيم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية؛ ولهذا كان ﷺ يكتب إلى الملوك بهذه الآية.

٢- شدة عناد أهل الكتاب، ومعالجة القرآن لهم بشتى الأساليب والوسائل، ولم ينجع ذلك فيهم.

٣- وسطية القرآن في دعوته أهل الكتاب فلم يكلفهم شططًا، بل دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك والأرباب من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

٤- تنزل القرآن في دعوته أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بضمير الجمع، وكذا قوله: ﴿وَلَا نُشْرِكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ ولم يقل:

«ألا تعبدوا إلا الله» «ولا تشركوا» «ولا تتخذوا أربابًا من دون الله».

ووجه ذلك أن ضمير الجمع مشعر بكون الفريقين كل منهما يعبد غير الله ويشرك به ويتخذ أربابًا من دون الله، والحقيقة أن الذي يفعل ذلك هم المدعوون أهل الكتاب.

٥- قيام القرآن والإسلام على التوحيد والوسطية والعدل.

٦- يجب العدل في المناظرة حتى مع العدو، ويحسن التنازل للخصم لإلزامه الحق، وإقامة الحجة عليه.

٧- اتفاق الرسل والرسالات على الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

٨- أنه كما يجب إفراد الله تعالى بالتوحيد والعبادة يجب إفراده بالطاعة والحكم والتحليل والتحريم، وعدم اتخاذ أرباب من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٩- التعريض بذم أهل الكتاب وغيرهم من المشركين؛ لما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله واتخاذ الأرباب من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٠- التلازم بين إفراد الله تعالى بالعبادة دون شريك وبين تحكيم شرعه وطاعته وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر، فمن لازم توحيد الله تعالى في العبادة طاعته واتباع شرعه، ومن لازم طاعته واتباع شرعه توحيده في العبادة.

١١- وجوب إظهار الحق والتمسك به وإشهاره، وعدم الاكتراث بمن تولى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

١٢- وجوب اعتزاز المسلم بدينه إعلاءً للحق وإظهارًا له، وإغاظة لأعداء الدين وخصومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

١٣- يجب أن لا يتأثر ولا يكترث من كان على الحق بمن يتولون عنه مهما كثروا، وعليه أن يتمسك بالحق، فالحق أحق أن يتبع.

١٤- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

١٥- الإنكار على أهل الكتاب وتوبيخهم في محاجتهم في إبراهيم وما هو عليه من الدين، وزعم كل من اليهود والنصارى أنه على دينهم أو أنهم على دينه؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾.

١٦- فضل إبراهيم عليه السلام، وعلو شأنه ومنزلته بين الأمم، فكل من المسلمين واليهود والنصارى بل والمشركون يقول: إنه على دينهم أو إنهم على دينه.

١٧- إثبات علو الله على خلقه، وإنزاله التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾.

١٨- إبطال زعم كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينهم أو أنهم كانوا على دينه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

١٩- أن إبراهيم عليه السلام كان قبل نزول التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾ الآية.

٢٠- سفه أهل الكتاب وعدم رشدهم، لمحاجتهم بما لا يقبله العقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، وكما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الآية: ٤٤]، وكما قال تعالى في وصف أهل جهنم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢١- لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال؛ لأن العقل الصريح يوافق النقل الصحيح.

٢٢- التنزل مع الخصم لإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾.

أي: لو فرض أن محاجتكم كانت فيما لكم به علم وقبلت منكم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، مما لا يمكن قبوله- وهذا على سبيل الفرض، وإلا فإن من يحاج لإبطال الحق ورده لا يمكن أن تكون محاجته عن علم، بل العلم حقًّا مع

خصمه صاحب الحق.

٢٣- جواز المحاجة بعلم إذا كانت لإظهار الحق، وبالتي هي أحسن، فإن كانت لإظهار الباطل لم تجز.

٢٤- الإنكار على أهل الكتاب وذمهم لمحاجتهم فيما ليس لهم به علم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٢٥- عدم جواز المحاجة بغير علم وأنها مذمومة حتى لو كانت لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فإن كانت لإبطال الحق وإظهار الباطل فهي أشد حرمة وذمًا، كما في دعوى أهل الكتاب أنهم هم الذين على دين إبراهيم، وإنكارهم أن يكون محمد ﷺ على ملة إبراهيم.

٢٦- إثبات العلم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي: أنه- عز وجل- ذو علم واسع، مستمر دائم، ولا يخفى عليه شيء.

٢٧- نفي العلم عن أهل الكتاب المحاجين في إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٨- جمع أهل الكتاب بين الاعتراض على النقل وتكذيبه، وإغفال العقل وإهماله، والجهل وعدم العلم.

٢٩- يجب رد العلم إلى الله تعالى وطلبه منه، فهو ذو العلم سبحانه، يؤتي العلم والحكمة من يشاء.

٣٠- الإشارة إلى أن ما جاء به محمد ﷺ من الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام، وهو ما صرح به بعد ذلك.

٣١- تبرئة إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصارى، وما هم عليه من الدين، وتكذيبهم في دعواهم، هم والمشركون أنه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٣٢- إثبات أن دين إبراهيم عليه السلام هو الحنيفية السمحة؛ ملة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٣٣- ثناء الله- عز وجل- على إبراهيم عليه السلام؛ لجمعه بين توحيد الله تعالى، والاستسلام والانقياد له ظاهرًا وباطنًا، والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن

كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٣٤- أنه لابد في التوحيد من إثبات العبادة لله وحده ونفيها عما سواه، والاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٣٥- أن أحق الناس بالولاية لإبراهيم والانتساب لملته هم الذين اتبعوه من بني إسرائيل ونبينا محمد ﷺ والمؤمنون من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، ومفهوم هذا التعريض بعدم إيمان أهل الكتاب.

٣٦- إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾.

٣٧- تشريف نبينا محمد ﷺ وقربه من ربه؛ لأن الله تعالى أشار إليه بإشارة القريب بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾.

٣٨- فضل نبينا محمد ﷺ وأمته حيث كانوا أولى بإبراهيم عليه السلام من بين سائر الأمم.

٣٩- إبطال قول كل من اليهود والنصارى أنهم أولى بإبراهيم، بعد تبرئته منهم ومن دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ الآية.

٤٠- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٤١- الترغيب في الإيمان والازدياد منه؛ لأنه سبب لولاية الله تعالى، وكلما كان إيمان العبد أقوى كانت ولاية الله له أعظم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة محاجة أهل الكتاب في إبراهيم وزعمهم أنه على دينهم وأنهم على دينه وأنه أولى به من محمد ﷺ وأمته، ورد عليهم وأبطل زعمهم، وبيَّن أن إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين، ثم بيَّن في هذه الآية السبب الذي يحملهم على هذه المحاجة بالباطل وهو ما توده طائفة منهم من إضلال المؤمنين، فبيَّن في الآيات السابقة ضلالهم ثم بيَّن كونهم دعاة إلى الضلالة.

قوله: ﴿ وَدَّت ﴾، أي: أحبت وتمنت. ﴿ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ «من» للتبعيض، أي: جماعة من بعض أهل الكتاب، وهم رؤساء يهود وأحبارهم.

﴿ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ «لو»: مصدرية بمعنى «أن» أي: أن يضلوكم، والتقدير: ودت إضلالكم.

ومعنى ﴿ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ الإضلال الإتاهة والإبعاد عن الحق، والضلال: التيه والبُعد عن الحق، أي: ودوا إضلالكم: عن الهدى، وإبعادكم عن الحق، وإرجاعكم إلى دينهم، حسدًا منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، أي: والحال أنهم ما يضلون

إلا أنفسهم. و«إلا»: أداة حصر، أي: وما يضلون بمودتهم إضلالكم إلا أنفسهم، ولن يضركم ذلك أيها المؤمنون، فمودتهم إضلالكم إنما هي إضلال لأنفسهم وإهلاك لها في الحال والمآل.

أما في الحال فإن مودتهم إضلالكم هي ضلال أوقعوا فيه أنفسهم وأشغلوها به عن طلب هدايتها. وأما في المآل فإن وبال ذلك وعقوبته عليهم لا على غيرهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على الحال السابقة، والشعور هو إدراك الشيء بإحدى الحواس الخمس، ونفي الشعور معناه عدمه، وإذا انتفى الشعور والإدراك بالحواس انتفى العلم من باب أولى.

فالمعنى: وما يعلمون أنهم بهذا العمل إنما يضلون أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة محاجة أهل الكتاب في إبراهيم معرِّضًا بما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله واتخاذ الأنداد والسفه وعدم العلم ومودتهم إضلال المؤمنين، وهم في الحقيقة لا يضلون إلا أنفسهم، ثم أنكر عليهم ووبخهم في هاتين الآيتين على كفرهم بآيات الله مع شهادتهم، ولبسهم الحق بالباطل مع علمهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التفات إلى خطاب أهل الكتاب، والاستفهام للإنكار، وإعادة ندائهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ثانية لتوبيخهم وتسجيل باطلهم عليهم.

أي: لم تكفرون وتكذبون بآيات الله الشرعية في القرآن الكريم، وفي كتبكم الدالة على نبوة محمد ﷺ.

﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم تشهدون، أي: تعلمون صحتها وصدقها بشهادة كتبكم بذلك، وعبَّر عن العلم بالشهادة ولم يقل: «وأنتم تعلمون»؛ لأن الشهادة أقوى لأنها تقتضي أن يكون العالم كالمشاهد للشيء بحسه، والمشاهدة

بالحس أقوى من العلم، وفي الحديث: «**ليس الخبر كالعيان**»(١).

قال ابن القيم(٢): «يعني: تكفرون بالقرآن، وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق، فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وجفاء».

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار والتوبيخ، و«اللبس» بمعنى: الخلط والستر، أي: لم تخلطون وتسترون الحق بالباطل.

و«الحق»: الأمر الثابت، وهو ما جاءت به الرسل، ودلَّت عليه الآيات الشرعية والكونية.

و«الباطل»: الشيء الزائل المضمحل الزاهق، كما قال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١].

قال لبيد(٣):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

فأنكر عز وجل عليهم أولًا كفرهم بآيات الله، ثم أنكر عليهم مخادعتهم في هذا الكفر بخلطهم الحق وستره بالباطل.

ومن ذلك: تحريف ما جاء من الحق في كتبهم، وتكذيب ما أنزل على نبينا محمد ﷺ، وإظهار الإسلام وإبطان الكفر.

فيضمون للباطل شيئًا من الحق ويتكلمون بعبارات تحتمل الحق والباطل تمويهًا على الناس ومخادعة لهم؛ لأنهم لو تكلموا بالباطل صراحًا لافتضحوا وما قبل منهم.

وما مثلهم في لبسهم الحق بالباطل إلا كما ذُكر أن رجلًا مَرَّ بشخصين كفيفين مستندين في ظل جدار يقول أحدهما للآخر: يا فلان، الصدق ما يصلح دائمًا، والكذب ما يصلح دائمًا. فقال له الآخر: لماذا؟ فقال: لأنك إن صدقت دائمًا نفد ما عندك، وإن كذبت دائمًا لم تُصدَّق.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٠).

(٣) انظر: «ديوانه» ص(٢٥٦).

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾: معطوف على ﴿تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: وتخفون الحق، وهو نبوة محمد ﷺ وما أنزل عليه وما جاء في كتبكم من نعته ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فجمعوا بين خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق، وبهذا أظهروا الباطل.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: والحال أنكم تعلمون، أي: تعلمون الحق وتعرفونه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ذكر الله تعالى في الآيتين السابقتين، محاولتهم الإضلال وكفرهم مجاهرة، ثم ذكر في هذه الآية محاولتهم الإضلال وكفرهم مخادعة.

قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جماعة منهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وأصحابه، أي: صدِّقوا بذلك ظاهرًا واعملوا به، نفاقًا منهم؛ لأنهم لا يؤمنون بذلك حقيقة.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أول النهار، لمقابلته بقوله: ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي: واكفروا آخر النهار. أي: واكفروا بالذي أنزل عليهم آخر النهار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يعود إلى الذين آمنوا، أي: رجاء أن يرجعوا عن دينهم، أو لأجل أن يرجعوا عن دينهم- وهذه مكيدة منهم؛ ليقال عنهم حينما يؤمنون به أول النهار ويكفرون آخره أنهم كفروا عن بصيرة وتجربة، فلولا أنه مخالف للكتب السابقة ما كفروا به بعد الإيمان.

قال ابن كثير[1]: «هذه مكيدة أرادوها؛ ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم،

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٤٨-٤٩).

وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾».

وأنَّى لهم أن يرجع المؤمنون عن دينهم بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان، فحال المؤمن حقًّا كما قال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

وكما في حديث هرقل حين سأل أبا سفيان: «**هل يرجع أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. قال: فكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من قول الطائفة من أهل الكتاب، فهو معطوف على قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ولا تصدقوا إلا للذي تبع دينكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: ويصدق للمؤمنين.

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من باب الاحتراس بعد قولهم مخادعة: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ولا تؤمنوا إيمانًا حقًّا، ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم نبيًّا كان أو غيره.

أو: ولا تظهروا الإيمان بالذي أنزل عليهم وجه النهار والكفر آخره إلا لمن تبع دينكم، أي: لأجل الحفاظ على أتباعكم وبقائهم على دينهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤١)، ومسلم في الجهاد والسير- كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أو: ولا تطمئنوا وتظهروا سركم وما أردتم من المكر والخديعة بالإيمان أول النهار والكفر آخره من إرجاع المسلمين عن دينهم إلا لمن تبع دينكم.

أو ولا تظهروا ما بأيديكم من العلم للمسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة معترضة بين قولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وقولهم: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ الغرض منها المبادرة بما يفيد ضلالهم؛ لأن الله حرمهم التوفيق.

أي: قل لهم: إن التوفيق إلى الهدى بيد الله، والهدى هداه- عز وجل- كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والغرض منها تيئيس أهل الكتاب، أي: مهما عملتم من المكر لصد المؤمنين وإرجاعهم عن دين الله وإضلالهم فلن تستطيعوا، فالله سبحانه وتعالى هو الموفق والهادي، وهداه هو الهدى حقًّا، وهو الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ، لا ما أنتم عليه وما تدعون إليه.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ هذه الجملة من كلام الطائفة من أهل الكتاب، فهي متعلقة بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ قرأ ابن كثير «أأن» بزيادة همزة الاستفهام.

وهذه الجملة ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ يحتمل أن يكون تعليلًا لقولهم قبله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ بقصد تثبيت أنفسهم على دينهم. فيكون التقدير: لئلا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا.

ويحتمل أن يكون هذا إنكارًا منهم أن يؤتى أحد النبوة كما أوتيها أنبياء بني إسرائيل، فيكون الكلام استفهامًا إنكاريًّا حذفت منه همزة الاستفهام لدلالة السياق، ويؤيده قراءة ابن كثير: «أأن يؤتى».

فالمعنى: لا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من النبوة والفضائل، أي: لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من ذلك.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ «أو»: للتقسيم، وهي عاطفة، فالجملة معطوفة على قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ وهي على التقديرين السابقين تحتمل التعليل.

أي: ولئلا يحاجوكم عند ربكم، أو الاستفهام الإنكاري والنفي، أي: كيف يحاجوكم عند ربكم، أي: لا حجة لهم عليكم عند ربكم، أي: ولا تؤمنوا ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم؛ لأنكم أكرم على الله منهم بما فضلكم عليهم.

والذي حملهم على هذا كله هو الحسد أن تكون النبوة في غيرهم، وإرادةُ أن يُتَّبَعوا على دينهم.

قال السعدي(١): «يعني أن الذي حملهم على هذه الأفعال المنكرة الحسد والبغي وخشية الاحتجاج عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا مع قوله بعده: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ففي هذا بيان أن الهدى هو هدى الله، وبيده سبحانه، وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الآية. بيان أن الفضل بيده يخص به من يشاء، وفي هذا وذاك رد على أهل الكتاب، وتيئيس لهم أن يمنعوا هدى الله وفضله عن المؤمنين.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: الخير كله بيد الله- عز وجل- كما قال ﷺ: «**والخير كله في يديك**»(٢)، فبيده- عز وجل- الفضل والخير كله، وبيده ومنه التفضل والزيادة والإحسان بالنعم الدينية والدنيوية والأخروية.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يعطيه من يشاء من عباده، وفي هذا إبطال وتكذيب لأهل الكتاب في قولهم لبعضهم: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: والله ذو سعة في جميع صفاته، فهو- عز وجل- واسع الملك واسع الكرسي، واسع العلم، واسع الحكمة، واسع المغفرة، واسع الرحمة، واسع الحلم، واسع العفو، واسع القدرة، واسع الفضل والغنى والإحسان والجود والعطاء، واسع

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الإحاطة، واسع جميع الصفات.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع بكل شيء. يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

علمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- لما سئل عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَخْتَصُّ﴾ أي: يخص.

﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ أي: برحمته الفعلية الخاصة بأوليائه، ومن ذلك ما خص الله تعالى هذه الأمة من بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ودين الإسلام، وما يخص به أولياءه من توفيقهم وهدايتهم في الدنيا إلى الإيمان، وفي الآخرة إلى الجنان.

﴿مَن يَشَاءُ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب مفعول به، أي: يخص الذي يشاء، أي: الذي يريد كونًا ممن هو أهل لرحمته الخاصة- بعلمه- عز وجل- وحكمته، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ويجوز كون «من» الموصولة في محل رفع فاعل، ويكون المعنى: والله ينفرد برحمته من يشاؤه- والمعنيان متلازمان، فمن اختصه الله برحمته انفرد بها.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ أي: صاحب الفضل، أي: التفضل والزيادة والإحسان، بلا استحقاق من المتفضَّل عليه ﴿الْعَظِيمِ﴾ الواسع الكثير، الذي لا أعظم ولا أوسع ولا أكثر من فضله، ولا يقدر عظمة فضله إلا هو سبحانه.

الفوائد والأحكام:

١- منة الله تعالى على هذه الأمة بفضح أعدائها من أهل الكتاب وبيان مكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ الآيتين.

٢- شدة عداوة أهل الكتاب للمسلمين ومودتهم إضلالهم بغيًا منهم وحسدًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٣- علم الله- سبحانه وتعالى- بما تنطوي عليه القلوب وما تكنه الضمائر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ ﴾ والمودة محلها القلب.

٤- وجوب الحذر من أهل الكتاب وخداعهم ومكرهم؛ لأنهم يودون إضلال المسلمين وصدهم عن دينهم، وأن يتبعوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٥- أن ما عليه أهل الكتاب، وما يودونه من إضلال المؤمنين هو إضلال لأنفسهم، ووبال ذلك وعقوبته عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ وفي هذا تثبيت لقلوب المؤمنين وطمأنة لهم.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾.

٧- عدم شعور أهل الضلال والإضلال بأنهم إنما يضلون أنفسهم بسبب انطماس بصائرهم وعمى قلوبهم، فيرون الضلال هدى، والباطل حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، وصدق الله العظيم: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨].

٨- الإنكار الشديد على أهل الكتاب وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وهم يشهدون؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾.

٩- أن كفر أهل الكتاب وبخاصة اليهود لم يكن عن جهل بل عن علم وشهادة؛ ولهذا شدد النكير عليهم.

١٠- كفر أهل الكتاب بآيات الله كلها حتى لو ادَّعوا الإيمان بما جاء في كتبهم؛ لأن كفرهم بالقرآن كفر بما جاء في كتبهم؛ لأنها مبشرة بالقرآن.

١١- مخادعة أهل الكتاب ولبسهم الحق بالباطل تمويهًا على الناس، وإنكار الله عليهم وتوبيخه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

فيخلطون مع الباطل بعض الحق، ويُلبسون الباطل ثوب الحق، ويتكلمون بما ظاهره الحق وهم يبطنون الباطل.

١٢- أن الناس بفطرهم السليمة يقبلون الحق، ويرفضون الباطل، ولهذا يُلبِّس عليهم هؤلاء بإلباس الباطل ثوب الحق.

١٣- الإنكار على أهل الكتاب في كتمانهم الحق وهم يعلمونه، ومن ذلك كتمانهم ما في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

١٤- أن كتمان الحق مع العلم به أشد وأشنع.

١٥- ينبغي الحذر من خداع أهل الكتاب ومكرهم وتمويههم، ومن مسالكهم من لبس الحق بالباطل وكتمان الحق مع العلم به.

١٦- كيد أهل الكتاب للمسلمين لصدهم عن دينهم وإخراجهم منه بشتى الحيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾.

١٧- إقرار أهل الكتاب بأن الله أنزل آيات على الذين آمنوا؛ لقولهم: ﴿بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٨- أن في أهل الكتاب منافقين؛ لقولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي: آمنوا ظاهرًا ونفاقًا، وليس مقصودهم الإيمان، إذ لو كان مقصدهم الإيمان الحق ما أمروهم بالكفر آخر النهار.

١٩- تعصب أهل الكتاب لدينهم مع ضلالهم وبطلان ما هم عليه؛ لقولهم: ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾.

٢٠- أن التوفيق إلى الهدى بيد الله، وأن الهدى هداه- سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

فمهما حاول أهل الكتاب وغيرهم إرجاع المؤمنين عن دينهم وصد الناس عن

الإسلام فلن يستطيعوا ذلك.

٢١- حسد أهل الكتاب لغيرهم وإعجابهم بأنفسهم وتكبرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

٢٢- إيمان أهل الكتاب بربوبية الله تعالى، وبالبعث والحساب والتخاصم عند الله؛ لقولهم: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ﴾.

٢٣- أن الفضل بيد الله والعطاء منه- سبحانه- يعطي من يشاء من عباده، لا راد لفضله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

٢٤- إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الله- عز وجل- يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

٢٥- إثبات الأفعال الاختيارية لله- عز وجل- المتعلقة بالمشيئة، كالإيتاء والعطاء والمنع، والبسط والقبض، والرضا والغضب، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

٢٧- إثبات صفة الواسع لله- عز وجل- فهو- عز وجل- واسع الصفات كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾.

٢٨- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٩- أن الله- عز وجل- يختص برحمته الخاصة مَن يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

ومن ذلك ما خصَّ الله تعالى به محمدًا ﷺ وأمته من بعثته منهم، وإنزال القرآن الكريم عليه، ودين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩).

٣٠- أن الله- عز وجل- يعطي مَن يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.

٣١- أن الله- عز وجل- ذو الفضل العظيم، لا يقدر عظم فضله إلا هو، وهو العظيم سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة مودة طائفة من أهل الكتاب إضلال المؤمنين، وخيانتهم في الأمور الدينية من لبسهم الحق بالباطل، وكتمانهم الحق وكفرهم، ثم أتبع ذلك في ذكر خيانتهم في تعاملهم في الأمور الدنيوية استمرارًا بفضحهم، وبيان دخائلهم.

قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الواو: استئنافية، ﴿وَمِنْ﴾: تبعيضية.

﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ «مَن»: موصولة، أي: الذي إن تأمنه، و﴿إِن﴾: شرطية، و﴿تَأْمَنْهُ﴾: فعل الشرط، والخطاب في قوله: ﴿تَأْمَنْهُ﴾ لكل من يصلح خطابه، ﴿بِقِنطَارٍ﴾: أي: على قنطار، فالباء بمعنى: «على»، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:١١]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤]، و(القنطار): المال الكثير.

﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾: قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر: «يؤدِّهْ» بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾.

و﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾: جواب شرط مجزوم بحذف حرف العلة الياء؛ لأن أصله «يؤديه».

أي: يرده إليك من غير خيانة، كما في الحديث: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»(١).

والمعنى: ومن أهل الكتاب من هو أمين إن أمنته على مالٍ كثير مهما كثر يؤدهِ إليك كاملًا من غير نقص ولا مماطلة، أي: هذه حال فريق منهم، وإذا كان لا ينقص من المال الكثير شيء مع أنه لو أخذ منه الشيء القليل لا يتبين، فأمانته على المال القليل أولى وأحرى.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: ومِن أهل الكتاب من هو خائن، وهو الذي إن تأمنه بدينار لا يؤدهِ إليك، أي: الذي إن أمنته على مالٍ قليل مهما قلَّ ولو كان دينارًا واحدًا لا يؤدهِ إليك، أي: هذه حال فريق منهم.

و(الدينار): هو الوحدة من النقد الذهبي، وهو المسمى بـ «الجنيه»، وأصله «دِنَّا» ووزنه أربعة وعشرون قيراطًا، والقيراط ثلاث حبات شعير معتدلة، فالمجموع اثنتان وسبعون شعيرة.

﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: لا يرده إليك.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء هنا مفرع من أعم الأوقات أو الأحوال، أي: لا يؤده إليك في وقتٍ من الأوقات، أو في حالٍ من الأحوال إلا في وقت دوام قيامك عليه، أو في حال قيامك عليه بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك.

وإذا كان هذا صنيعه في القليل كالدينار ونحوه، ففي الكثير من باب أولى وأحرى.

وقدَّم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على متعلقه ﴿قَآئِمًا﴾ للتأكيد، أي: إذا لم يكن قيامك عليه لم يرجع لك أمانتك.

وذكر القنطار والدينار من باب التمثيل فقط، فمثَّل للمال الكثير بالقنطار، ومثَّل للمال القليل بالدينار.

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقد قيل: «المأمون على الكثير هم النصارى؛ لأن الخيانة فيهم قليلة، والخائن في القليل هم اليهود؛ لأن الغالب عليهم الخيانة».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ «ذلك»: إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله: ﴿لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم.

وضمير الجمع في «أنهم» يعود إلى معنى «مَن» في قوله: ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أي: أن ترك هذا الفريق للأداء وخيانتهم الأمانة بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي: بسبب قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾.

ويعنون بالأُميين «العرب»؛ لأنهم لا يقرؤون ولا يكتبون، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، يعني في العرب.

وكما وصف الرسول ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال ﷺ: «**نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»(١).

والأُمِّي الذي لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

﴿سَبِيلٌ﴾: حرج أو مؤاخذة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾[التوبة:٩٣].

والمعنى: ليس علينا في ديننا في معاملة العرب، ومَن ليس من أهل الكتاب حرج ولا مؤاخذة في أكل أموالهم وأخذ حقوقهم وظلمهم، فيرون إعجابًا منهم

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (١٠٨٠)، وأبو داود في الصوم (٢٣١٩)، والنسائي في الصيام (٢١٤٠)، من حديث عمر رضي الله عنه.

بأنفسهم، واحتقارًا لغيرهم أن مَن سواهم لا حُرمة لهم، وقد أكذبهم الله تعالى في هذا المقال.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، الجملة: مستأنفة، أي: ويفترون على الله الكذب بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ لأنهم ينسبون ذلك إلى الله تعالى وإلى دينه، أي: ليس علينا في ديننا، وفيما جاء في كتبنا وعلى ألسنة رسلنا.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم يكذبون فيتعمدون الكذب على الله تعالى، وفي الحديث: «إن يهود قوم بهت»(١).

فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار غيرهم، وبين الكذب على الله تعالى وهم يعلمون ذلك، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ «بلى»: حرف جواب مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال ما نفوه بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ وإثبات ضده، أي: بلى عليهم سبيل في الأُميين فلا يجوز لهم أكل أموالهم وظلمهم وأخذ حقوقهم.

و﴿مَنْ﴾: شرطية، ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿أَوْفَىٰ﴾ فيها ثلاث لغات: «أوفى» بإثبات الهمزة، و«وفى» بحذف الهمزة مع تخفيف الفاء وتشديدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

وجملة: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾: استئنافية مقررة للجملة التي دلَّت عليها ﴿بَلَىٰ﴾ حيث أفادت بمفهومها المخالف ذم من لم يفِ بالعهود مطلقًا.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿بِعَهْدِهِۦ﴾: يُحتمل أن يعود الضمير في ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ إلى الله؛ لقوله قبله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: بلى من أوفى بعهد الله، ويُحتمل أن يعود على ﴿مَنْ﴾ أي: بلى من أوفى بعهده الذي عاهد عليه.

أي: أتم عهد الله الذي عاهده عليه من الإيمان بالله وكتبه ورسله وخاتمهم محمد ﷺ، وامتثل ما أمر الله تعالى به من أداء الأمانة وغير ذلك، وأتم ما بينه وبين الخلق من عهود وعقود، وهي أيضًا مما أوجب الله الوفاء به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: واتقى الله في البعد عما نهى الله تعالى عنه من نقض العهود والأيمان، ونكثها، والخيانة.. وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: جواب الشرط «من»، وربط الفاء لأنه جملة إسمية، أي: فإن الله يحب المتقين الذين اتقوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والوفاء بعهده وعدم نقضه.

وأظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: «فإن الله يحبه» بل قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لبيان علة الحكم، أي: يحبهم لتقواهم، وليعم هذا الحكم كل من اتقى فإن الله يحبه، إضافة إلى ما في الإظهار مقام الإضمار من تنبيه المخاطب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

سبب النزول:

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**» فقال الأشعث بن قيس: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**ألك بينة**»؟ قلت: لا، فقال لليهودي: «**احلف**» قلت: يا رسول الله، إذن يحلف فيذهب مالي، فأنزل الله- عز وجل-: ﴿إِنَّ

ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ الآية»(١).

وعن عبدالله بن أبي أوفى- رضي الله عنه- أن رجلًا أقام سلعة في السوق، فحلف بالله، لقد أعطي بها ما لم يعط؛ ليوقع فيها رجلًا من المسلمين، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ الآية»(٢).

امتدح الله سبحانه وتعالى من أوفى بعهده واتقى الله، وبيَّن محبته للمتقين، ثم أتبع ذلك بذم ووعيد الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا في إشارة إلى أهل الكتاب.

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ﴾ وهكذا كل من سلك طريقهم.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ أي: إن الذين يعتاضون ويستبدلون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، والعهد: الميثاق والعقد.

و«عهد الله»: ما أخذه عليهم من الميثاق من الإيمان به، واتباع محمد ﷺ وتصديقه، وبيان ما عندهم من العلم في كتبهم في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ [البقرة:٤١].

وأيضًا ما بينهم وبين الخلق من عهود وعقود؛ فهي من عهد الله؛ لأن الله تعالى أوجب الوفاء بها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١].

﴿ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾: معطوف على «عهد الله»، أي: ويشترون بأيمانهم، و«الأيمان» جمع

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٧)، ومسلم في الإيمان (١٣٨)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٤٣)، والترمذي في أبواب البيوع (١٢٦٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٢)، والواحدي في أسباب النزول ص(٧٢-٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٨)، وفي التفسير (٤٢٧٦)، والواحدي في أسباب النزول ص(٧٣).

(يمين) وهو الحلف، أي: ويأخذون بحلفهم وأيمانهم الكاذبة الفاجرة ثمنًا قليلًا.

والمعنى: إن الذين يعتاضون بعهد الله وبأيمانهم عوضًا زهيدًا من المال وحطام الدنيا ومتاعها الزائل، فينقضون عهد الله، وينكثون في أيمانهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة من أجل ذلك، فيدَّعون ما ليس لهم ويحلفون على ذلك، وينكرون ما يجب عليهم ويحلفون على ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ «أولئك»: خبر «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، والإشارة فيها إلى الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا.

و«الخلاق»: الحظ والنصيب، كما قال تعالى ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١ - ٢٠٢].

فقابل عز وجل بين قوله: ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ فدل على أن (الخلاق) هو النصيب.

والمعنى: أولئك الذين يشترون بعهدهم وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا حظ ولا نصيب لهم في ثواب الدار الآخرة ونعيمها، وهذا يدل على كفرهم بسبب هذا العمل؛ لأنه لا يُنفى نصيب الآخرة إلا عمن كان كافرًا.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

ونفي تكليم الله تعالى لهم في الآخرة ونظره إليهم، وتزكيته لهم هو من أعظم نصيب الآخرة الذي حرموه، ونصَّ عليه- والله أعلم؛ لبيان عِظَم ما حُرِمُوه.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكلمهم الله تعالى تكليم لُطف بهم ورضا عنهم، وبما يَسُرُّهم، كما في تكليم الله- عز وجل- للمؤمنين، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله- عز وجل- يُدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ**

كَنَفَهُ»(١)، فيقرره بذنوبه، ويقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول عز وجل: «إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٢).

وعن صهيب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قال: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟...» الحديث(٣).

أما تكليم الله- عز وجل- لهؤلاء المذكورين وغيرهم من الكفار تكليم سخط وإهانة وتقريع وتوبيخ لهم وبما يسوءهم، فهو ثابت كما في قوله تعالى مخاطبًا أهل النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وغير ذلك.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾: قرأ حمزة بضم الهاء «إليهُم»، وقرأ الباقون بكسرها، أي: ولا ينظر إليهم نظر رحمة ورأفة.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يوم البعث والمعاد والحساب والجزاء، وسُمِّي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم لرب العالمين، كما قال الله تعالى في سورة المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦]، ولقيام الحساب فيه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ولقيام الأشهاد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام العدل والقسط فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والله تعالى لا ينظر إليهم نظر رحمة ورأفة لا في الدنيا ولا يوم القيامة، لكن حرمانهم من ذلك يوم القيامة أعظم عليهم؛ لشدة أهوال ذلك اليوم وكرباته وعذابه.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: ولا يطهرهم مما تلبَّسُوا به من رجس الكفر ودنس

---

(١) أي: ستره ورحمته.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٢٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١).

المعاصي والذنوب، ولا يغفر لهم يوم القيامة، كما أنه لا يطهرهم في الدنيا بسبب كفرهم وعدم إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: وهو عذاب النار. والعذاب: النكال والعقوبة.

﴿أَلِيمٌ ﴾: على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًا ومعنويًا، فرتب الله تعالى على هذا الفعل- وهو الشراء بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا- خمس عقوبات.

وهي: حرمانهم من أي نصيب في الآخرة، ومن تكليم الله لهم تكليم رضا، ومن نظر الله لهم نظر رحمة ورأفة وعطف، ومن تزكية الله لهم، مع توعدهم بالعذاب الأليم.

فهؤلاء وإن نالوا باستبدالهم بعهد الله وأيمانهم قليلًا من حطام الدنيا ومتاعها الحقير الفاني، فقد حرموا نصيب الآخرة التي هي دار الحياة الحقة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٤].

فخسروا الآخرة وما فيها من ألوان النعيم الحسي والمعنوي، وحرموا تكليم الله لهم بما يسرهم ونظره إليهم بعين العطف والرحمة يوم القيامة وتزكيتهم مع ما أعد لهم من العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ أي: وإنَّ من أهل الكتاب (لفريقًا) مُحرِّفون لكتاب الله.

﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ ﴾: قرأ أبو جعفر: «يُلوُّون» بالتشديد مع ضم الياء؛ لقوله تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون:٥]، وقرأ الباقون بالتخفيف مع فتح الياء ﴿يَلْوُۥنَ ﴾.

و«اللي»: الفتل، ومنه يُقال: لويت يد فلان، أي: فتلتها، ولويت الغريم، إذا مطلته.

وفي الحديث: «**مطل الغني ظلم**»(١).

والمعنى: يُحرِّفون بألسنتهم الكتاب تحريفًا لفظيًا وتحريفًا معنويًا، كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣- النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥].

تحريفًا لفظيًا بزيادة أو نقصان في حروفه وكلماته، والإتيان بكلام من عندهم ونسبته إلى كتاب الله تعالى، كما فعل ابن صوريا حيث زعم أن حكم الزاني في التوراة أن يحمم وجهه، ونفى أن يكون فيها الرجم(٢) إلى غير ذلك من أنواع التبديل والتغيير.

أو بتحريف الكلم بلفظه بالتحريف في الحركات كما حرف المبتدعة قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] بنصب لفظ الجلالة ليكون التكليم من موسى- عليه السلام- ومن التحريف اللفظي قولهم: «السام عليكم»(٣) بدل «السلام» يعنون: الموت لكم.

وتحريفًا معنويًا بتأويل الكتاب على غير تأويله كما في تأويلهم في كلامهم «راعنا» بجعلها من الرعونة؛ ليسبوا بذلك النبي ﷺ؛ ولهذا نهى الله تعالى المؤمنين عن قولها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤].

ومن ذلك تحريف أهل البدع ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى «استولى» ونحو ذلك.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اللام للتعليل، والخطاب في ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ للمسلمين،

---

(١) أخرجه البخارى في الحوالات (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٤)، وأبو داود في البيوع (٣٣٤٥)، والنسائي في البيوع (٤٦٨٨)، والترمذي في البيوع (١٣٠٨)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٥٦)، ومسلم في الحدود (١٦٩٩)، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٦)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والضمير (الهاء) يعود إلى ما حصل به اللي من الكتاب.

أي: يلوون ألسنتهم بالكتاب بقصد منهم، لتظنوه أيها المسلمون من الكتاب الذي أنزله الله، أي: من «التوراة» أو «الإنجيل»؛ بقصد التلبيس على المسلمين، وتشكيكهم في القرآن الكريم.

وقيل: يحتمل كون اللام للعاقبة، أي: لتكون العاقبة والنهاية أن تظنوه من الكتاب، والأول أولى.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الواو: حالية، و«ما»: نافية، أي: والحال أنه ليس من الكتاب، أي: ليس هذا الذي لووا به ألسنتهم من الكتاب، لا من التوراة ولا من الإنجيل، بل هو من ليِّهم وتحريفهم ألفاظ الكتاب ومعانيه بألسنتهم.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ويقول هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، ﴿هُوَ﴾ أي: ما لووا به ألسنتهم، ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: مُنزَّل من عند الله، فلا يكتفون بِليّ ألسنتهم به؛ ليظن أنه من الكتاب، بل يقولون صراحةً هو من عند الله، وفي هذا تشنيع عليهم.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: والحال أنه ليس من عند الله، أي: ليس هو نازلًا من عند الله تعالى.

وأظهر في مقام الإضمار في الموضعين، فلم يقل في الموضع الأول: «وما هو منه» ولم يقل هنا: «وما هو من عنده»؛ لتأكيد نفي أن يكون ما لووا به ألسنتهم من الكتاب هو من عند الله، والتشنيع عليهم، ولتهويل ما أقدموا عليه، والعناية والاهتمام كما قيل:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... قهر الموت ذا الغنى والفقيرا(١)

وقال الآخر:

وَلما رَأَيْت الشيب لَاحَ بياضه ... بمفرق رَأسِي قلت للشيب مرْحَبَا(٢)

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿يَلْوُۥنَ﴾.

---

(١) البيت لعدي بن زيد. انظر: «ديوانه» (ص٦٥).

(٢) البيت ليحيى بن زياد. انظر: «ديوان الحماسة» (ص٧٨٤).

أي: في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى تعريضًا وتصريحًا، وجاء التعبير بالمضارع في ﴿يَلْوُونَ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾ للدلالة على التجدد وأن هذا دأبهم، أي: ويفترون على الله الكذب في ليّ ألسنتهم بالكتاب، ونسبتهم ذلك إلى الله تعالى، كما في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤].

وكما في قولهم: «استراح يوم السبت».

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم يعلمون، أي: يعلمون أنهم كاذبون على الله، فهم يكذبون ويفترون على الله عن عمد، وهذا أشد ممن قال الكذب وهو لا يعلم أنه كذب.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة كذب أهل الكتاب وافتراءهم على الله تعالى ونفى ذلك وأبطله، ثم أتبع ذلك بذكر افترائهم على رسله ونفى ذلك وأبطله ومن ذلك زعم النصارى أن عيسى- عليه السلام- أمرهم بعبادته من دون الله.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال أبورافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرِّبِّيس: أوذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني**» أو كما قال، فأنزل الله- عز وجل- في ذلك من قولهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾»(١).

---

(١) أخرجه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٤)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٩٣).

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

« مَا »: نافية، أي: ما كان جائزًا شرعًا وقدرًا لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس هذه المقالة الشركية، أي: أن هذا ممتنع ومستحيل كل الاستحالة.

﴿لِبَشَرٍ﴾ أي: ما كان لواحد من البشر، و«البشر» هم بنو آدم، وسُمِّيَ الإنسان بشرًا لأن بشرته ظاهرة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا زعانف، وقيل: لظهور أثر البشارة عليه إذا أخبر بما يسره، وقيل: لهذا ولهذا.

﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أن يعطيه الله الكتاب شرعًا وقدرًا، و(ال) في «الكتاب» للجنس، أي: جنس الكتاب، أي: أن ينزل عليه الكتاب.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: والحكم الشرعي بين الناس بما أنزل من الكتاب والوحي، كما قال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩].

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: الإنباء والإخبار بالوحي، وهي مأخوذة من «النبأ» وهو الخبر، ومن «النَّبْوة» وهى المكان المرتفع، فالأنبياء مُخبَرون من الله ومُخبِرون لأقوامهم، وهم ذوو مكانة رفيعة ومنزلة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وهذا يدل على أن المراد بقوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أن يعطيه الله الكتاب، وينبأ ويرسل به إلى الناس.

وليس المراد به المرسل إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٤٦].

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾: معطوف على «يؤتيه».

﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، أي: ثم بعد ما يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة يقول للناس.

﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا هو المستحيل والممتنع شرعًا وقدرًا، والذي ينصب عليه النفي، في قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.

ومعنى: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: اعبدوني من دون الله، أي: مع الله أو

اعبدوني ولا تعبدوا الله.

وكل مَن عَبد غير الله فهو مُشرِك، سواء أفرد هذا المعبود بالعبادة ولم يعبد الله، أو عبد هذا المعبود مع الله؛ لأن مَن عبد مع الله غيره فهو لم يعبد الله؛ لأن عبادته لله مع غيره كلا عبادة، وسواء أشرك مع الله غيره في العبادة، أو في الطاعة، أو فيهما معًا، كما جاء في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

وعبادة الأنبياء وإشراكهم مع الله إنما ابتدعها أهل الكفر والشرك من أممهم، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ [التوبة:٣١].

﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن يقول: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾: أي: كونوا شرعًا.

﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾: جمع «رباني» نسبةً إلى «الرب»- عز وجل- وطاعته، والتربي بشرعه، امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، وتربية الناس على ذلك، وتعليمهم الخير مما يصلح دينهم ودنياهم وأُخراهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾ [المائدة:٤٤].

أي: ويحكم بها الربانيون الذين، أطاعوا الله- عز وجل- وتربُّوا على عبادته وطاعته، وعملوا على تربية الناس على ذلك.

فالمعنى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أي: متعبدين للرب- عز وجل- مخلصين له متربين بشرعه ومربين الناس عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق- من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مع تشديدها، أي: تُعَلِّمون الناس الكتاب، أي: تُفَهِّمونهم معناه، وقرأ الباقون «تَعْلَمون» بفتح التاء وإسكان العين وفتح اللام مع التخفيف، أي: تَعْلَمون بأنفسكم الكتاب، أي: تفهمون معناه.

والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾: للسببية، و«ما» مصدرية.

والمراد بـ«الكتاب»: التوراة والإنجيل، أي: بسبب كونكم تعلمون الكتاب وتفهمون معانيه وتُعَلِّمونه للناس؛ لأن الذي يُعَلِّم ويُفَهِّم الناس ينبغي أن يكون ربانيًا يقرن في تعليمه للناس بين التعليم، والتربية على العمل بالعلم، كما كان هدي النبي ﷺ في سيرته مع أصحابه، وهدي الخلفاء الراشدين من بعده.

عن عمرو بن سلمة- رضي الله عنه- قال: «كنت غلامًا في حِجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصفحة، فأمسك ﷺ بيدي، وقال: «**يا غلام، سَمِّ الله، وكُل بيمينك، وكُل مما يليك**». فما زالت تلك طعمتي بعد»(١).

وعن كلدة بن حنبل- رضي الله عنه- قال: «دخلت على النبي ﷺ ولم أُسَلِّم، ولم أستأذن، فقال «**ارجع، فقُل: السلام عليكم. أأدخل؟!**» فرجعت، فقلت: السلام عليكم. أأدخل؟، فأذن لي»(٢).

والجمع بين التعليم والتربية على العمل بالعلم وممارسته وتطبيقه هو المنهج الصحيح في التعليم؛ لأن ثمرة العلم هي العمل به، وما فائدة علم يجمع في الأذهان ولا تظهر ثمرته وأثره على الجوارح والأبدان؟!

ولهذا جاء الوعيد الشديد لمن تعلم القرآن والعلم ولم يعمل به، كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في أول من تسعر بهم النار، قال ﷺ: «**ورجل تعلم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن فأتي به فَعرَّفة نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلَّمت العلم ليُقال: عالِم، وقرأت القرآن**

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧١٠)، وأخرجه أبو داود مختصرًا في الأدب (٥١٧٦).

ليُقال: هو قارىء، فقد قيل. ثم أمر به، فسُحِبَ على وجهه حتى ألقيَ في النار»(١).

وعـــالم بعلمـــه لم يعلمـــن معـذب مـن قبـل عبـاد الـوثن(٢)

وكثير ممن يتولون التعليم في مراحله المختلفة لا تظهر عليهم آثار التربي بالعلم، ولا يربون الناس عليه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وكيف لمن لم يُرَبِّ نفسه بالعلم- إن كان عنده علم- أن يربي الناس عليه؟! وكما قال أحمد شوقي:

وإذا الـمُعلِّم ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر حولا(٣)

ومع أن المؤسسات التعليمية في كثير من البلاد العربية والإسلامية وغيرها تتقمص مُسَمَّى التربية والتعليم إلا أن الملاحظ وجود الانفصام بين التعليم والتربية، فالموجود في كثير من هذه المؤسسات هو التعليم النظري مع ضعف فيه دون التربية- وهذا بلاشك ناقوس الخطر.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: معطوفة على الجملة قبلها، والباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أي: وبسبب كونكم تدرسون الكتاب، أي: تقرؤونه وتتلونه، كما في الحديث: «**وما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينه وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**»(٤).

والمعنى: كونوا ربانيين بسبب كونكم تعلمون وتفهمون معانيه، وتُعلِّمونه للناس وبسبب كونكم تَدْرُسون الكتاب وتكررون قراءته وتُدَرِّسونه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

نفى في الآية السابقة أن يكون لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة فيدعو الناس لعبادته من دون الله، ثم أتبع ذلك بنفي أن يدعوهم إلى اتخاذ الملائكة والنبيين

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧).

(٢) البيت لابن رسلان. انظر: «غاية البيان» (ص٤).

(٣) انظر: «الشوقيات» (٢/ ٧٦).

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٦٩٩)، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٥)، والترمذي في القراءات (٢٩٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أربابًا؛ لأن هذا وذاك أمر بالكفر.

قوله: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾: قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب بنصب الراء ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾ عطفًا على ﴿ يَقُولَ ﴾، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة لمعنى النفي في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وفاعل ﴿ يَأْمُرَكُمْ ﴾: ضمير يعود إلى «بشر»، أي: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادًا له، ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا.

وقرأ الباقون: «ولا يأمُرُكم» بضم الراء على الاستئناف، وقرأها أبو عمرو على أصله من جواز تسكين الراء والاختلاس: «ولا يأمرْكم».

وضمير الفاعل في «يأمركم» على هاتين القراءتين يجوز أن يعود إلى الله تعالى، ويجوز أن يعود إلى «بشر» في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾.

والمعنى: ما كان له أن يقول: اعبدوني من دون الله، وما كان له أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا، أي: أن هذا وهذا مستحيل أن يقوله أو يأمر به من أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة.

﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾: أي: أن تجعلوا وتصيروا الملائكة والنبيين أربابًا و«تتخذوا» ينصب مفعولين: الأول هنا: «الملائكة والنبيين»، والثاني: «أربابًا».

و﴿ أَرْبَابًا ﴾: جمع رب، أي: معبودين وآلهة تُعبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، وقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[التوبة:٣١].

﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ ﴾: قرأ أبو عمرو: «أيأمْركم» بتسكين الراء واختلاسها، وقرأ الباقون بضمها ﴿أَيَأْمُرُكُم ﴾.

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا يمكن أن يأمركم بالكفر بعبادته من دون الله، أو اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا.

﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي: بعد أن تقرر وثبت أنكم مسلمون، أي: بعد أن تقرر وثبت إسلامكم، فالله- عز وجل- لا يأمر بذلك وكذا أنبياؤه عليهم السلام، كما قال

تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥].

الفوائد والأحكام:

١- أن من أهل الكتاب من هو أمين، لو أُئتمن على مال مهما كثر أدَّاه كاملًا من غير نقص، وأن منهم من هو خائن لو أُؤتمن على أقل القليل من المال لم يؤدِّه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾.

٢- إنصاف القرآن لأهل الكتاب، وبيانه أن منهم من هو أمين لو أُئتمن على مالٍ مهما كثر أدَّاه كاملًا ولم يُنقِص منه شيئًا، وذمِّهِ لفريق منهم وهم الخونة.

٣- أن من كان أمينًا عل المال الكثير لا يُنقِص منه شيئًا مع كثرته التي قد لا يظهر معها النقص القليل، فهو من باب أولى أمين على المال القليل الذي يظهر فيه أدنى نقص منه .

٤- أن مَن لم يكن أمينًا على المال القليل الذي يظهر أدنى نقص منه فهو من باب أولى لا يؤمن على المال الكثير الذي قد لا يظهر النقص القليل منه .

٥- جواز التعامل مع أهل الكتاب. وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير(١).

٦- ينبغي الحذر في التعامل مع أهل الكتاب؛ لأن منهم من طُبع على الخيانة وعدم الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾.

وهكذا كل من يخشى خيانته ينبغي مراقبته، والقيام عليه حِفظًا للأموال والحقوق. كما يجب الحذر منهم أشد فيما يتعلق بمسؤوليات المسلمين ومصالحهم العامة، فلا يجوز الاعتماد عليهم في شيءٍ منها، ولا الثقة بهم؛ لأنهم حرب للإسلام وأعداء

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

للمسلمين منذ عهد الرسالة، مهما أظهروا خلاف ذلك، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: ٥١].

ولهذا رُوِيَ أن أباموسى الأشعري- رضي الله عنه- وكان واليًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتب إلى عمر في تولية كاتب نصراني في بيت المال، فكتب له عمر- رضي الله عنه- بعزله، وقال له: كيف تأمن من خوَّنه الله؟!، فكتب له أبو موسى في شأنه مرة ثانية، وأثنى بمعرفته الكتابة والحساب وأنه لا يوجد مثله، ونحو ذلك، فكتب عمر- رضي الله عنه- بطاقة لم يزد فيها على قوله: «مات النصراني.. والسلام»(١).

أي: افترض أن النصراني مات. هل يتعطل بيت المال أو يتعطل شأن الدولة الإسلامية؟!. بمعنى أن المسلمين في غِنىً عنه، فرضى الله عنك يا عمر وأرضاك.

٧- تكبر أهل لكتاب وإعجابهم بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم؛ لقولهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾.

٨- أن العجب والتكبر قد يحمل على أذية الآخرين واحتقارهم وغمط حقوقهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾.

وقد قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»(٢). أي: احتقارهم.

٩- جرأة أهل الكتاب على الكذب على الله وهم يعلمون؛ حيث يقولون: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ أي: أن الله أباح لنا شرعًا استباحة أموال الأُميين وظلمهم، وهذا كذب على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

١٠- أن من حَكَم أو أفتى بغير ما أنزل الله، ونسب ذلك إلى حُكم الله وشرعه فقد كذب على الله تعالى، وفيه شبه من أهل الكتاب.

١١- أن من كذب على الله تعالى وهو يعلم؛ أشد عدوانًا وإثمًا ممن لا يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم يعلمون أنهم يكذبون ويتعمَّدون ذلك.

وقد قال ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»(١). والكذب على الله أشد وأعظم.

١٢- إبطال دعوى أهل الكتاب أنه ليس عليهم في الأُميين سبيل، لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: بلى عليهم سبيل ومُحاسبون في الاعتداء على الأُميين وعلى غيرهم.

١٣- الترغيب في الوفاء بالعهد، والثناء على أهله، وأنه من التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾.

١٤- الترغيب في تقوى الله، وأنها سبب لمحبة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٥- أن خيانة الأمانة وعدم أدائها نقض للعهد ومنافٍ لتقوى الله.

١٦- إثبات صفة المحبة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

١٧- ذم أهل الكتاب وبخاصة أحبارهم وعلمائهم؛ لأخذهم بعهد الله وأيمانهم عِوضًا قليلًا، واستبدال الآخرة بالدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا﴾.

وذلك أن الكلام معهم والسياق فيهم، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١)، والترمذي في العلم (٢٦٦٩)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

١٨- تهديد الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا من أهل الكتاب وغيرهم ووعيدهم بأشد العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

فرتب على فعلهم هذا خمس عقوبات، كل منها في غاية الشدة، وهي:

حرمانهم من أي نصيب في الآخرة، ومن تكليم الله تعالى لهم تكليم لطف ورضا، ومن نظر الله تعالى لهم نظر رحمة ورأفة، ومن تزكيته لهم، مع توعدهم بالعذاب الأليم.

وكل واحدة من هذه العقوبات تدل على كفرهم؛ لأنه لا يستحقها إلا من كان كافرًا.

١٩- التحذير من نقض عهد الله، والكذب في الأيمان، والاشتراء بها ثمنًا قليلًا، والتحذير لهذه الأمة وبخاصة علمائها من مسالك أهل الكتاب السيئة.

وقد قال ﷺ: «**من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئٍ مسلم بغير حق لَقِيَ الله وهو عليه غضبان**»(١).

وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه: قال رسول ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم**». قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارًا. قال أبوذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال «**المسبل، والمنان، والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب**»(٢).

٢٠- يُفهم من قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات؛ كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٤١٧)، ومسلم في الإيمان، وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٨)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٤٣)، والترمذي في البيوع (١٢٦٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٦)، وأبوداود في اللباس (٤٠٨٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣)، والترمذي في البيوع (١٢١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨).

خَلَقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية: أن من وفوا بعهد الله ولم يشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا أن لهم نصيبًا في الآخرة، ويكلمهم الله وينظر إليهم يوم القيامة، ويزكيهم، ويقيهم العذاب الأليم، ولهم الثواب العظيم.

٢١- أن الحظ والنصيب حقًّا ما كان في الآخرة؛ لأنها هي دار الحياة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ولهذا قال: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ولم يقل: في الدنيا؛ لأن نصيب الدنيا مهما كان لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة.

٢٢- إثبات الدار الآخرة والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

٢٣- إثبات الكلام لله تعالى لأن نفي تكليمه لمن اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا يدل بمفهومه على ثبوت تكليمه لمن وفوا ولم يشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا؛ لأنه- عز وجل- لو لم يكن يتكلم ويكلم هؤلاء ما كان لنفي تكليمه عن المذكورين فائدة، وما كان ذلك عقوبة لهم.

٢٤- إثبات النظر لله- عز وجل- لأن نفي نظره تعالى إلى المذكورين يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يدل بمفهومه على نظره إلى من كانوا بخلافهم.

٢٥- عدم تزكية الله لهؤلاء المذكورين وعدم تطهيره لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾، ومفهوم هذا تزكيته- عز وجل- لمن كانوا بخلافهم.

٢٦- شدة عذاب المذكورين يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: أي: مؤلم حسيًا ومعنويًا.

٢٧- أن العقوبات منها ما هو منع وحرمان من الخير كحرمان نصيب الآخرة والحرمان من تكليم الله تعالى ومن نظره وتزكيته، ومنها ما هو جلب شر وخزي كالعذاب الأليم.

٢٨- أن مِن أهل الكتاب فريقًا يلوون ألسنتهم بتحريف ألفاظ الكتاب ومعانيه؛ ليظهر أن هذا المحرف من الكتاب، ويقولون هو من عند الله لإضلال الناس؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٢٩- نفي أن يكون ما لوى به أهل الكتاب ألسنتهم وحرفوه من الكتاب، وأن يكون من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٣٠- كذب أهل الكتاب وافتراؤهم على الله تعالى وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٣١- الوعيد والتهديد لأهل الكتاب لكذبهم على الله وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد لهم ولمن سلك طريقهم في الكذب على الله، ولبس الحق بالباطل.

٣٢- أن الكذب على الله مع العلم والتعمُّد أشد ذنبًا ووعيدًا من الكذب بلا علم ولا تعمد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٣- النفي القاطع أن يدعو أحد ممن مَنَّ الله عليه بإعطائه الكتاب والحكم والنبوة إلى عبادة نفسه وطاعته من دون الله، وأن هذا لا يمكن أن يكون لا شرعًا ولا قدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣٤- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشر من سائر البشر.

٣٥- أن النبي من أُنزِلَ عليه الكتاب والوحي، وأُعطِيَ الحكم الشرعي بين الناس، والنبوة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

٣٦- أن الأنبياء عليهم السلام إنما يأمرون بطاعة الرب- عز وجل- وعبادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

٣٧- ينبغي أن يكون من يُعَلِّم الناس مُعَلِّمًا ربانيًا، يقرن بين التعليم، والتربية على العمل؛ لأن ثمرة العلم هي العمل والتربِّي به؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

٣٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

٣٩- أن علم الكتاب وتعليمه ومُدارسته له الأثر في كون صاحبه ربانيًا عابدًا لله مطيعًا

له، مربيًا الناس على ذلك.

٤٠- استحالة أن يدعو أحد من الأنبياء عليهم السلام إلى الإشراك بالله واتخاذ الملائكة والنبيين آلهة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾.

٤١- الرد على المشركين من أهل الكتاب وغيرهم في اتخاذهم الملائكة والنبيين وغيرهم أربابًا من دون الله.

٤٢- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ ﴾، والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة.

٤٣- أن من قال للناس كونوا عبادًا لي من دون الله، وأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا فقد أمر بالكفر الـمُخرِج مِن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿وَإِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين»، متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر يا محمد حين أخذ الله ميثاق النبيين، اذكره بنفسك ولأمتك ولأهل الكتاب، و«الميثاق»: العهد المؤكد، وسُمِّيَ العهد ميثاقًا لأن كلًا من المتعاهدين يتوثق به مع الآخر، كالوثاق وهو الحبل الذي يُشد به.

والمراد بـ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: ما يشمل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وميثاق النبيين ميثاق على أممهم.

﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾: فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

قرأ حمزة بكسر اللام «لِما»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لَمَآ﴾، وقرأ نافع وأبو جعفر بنون العظمة ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾، وقرأ الباقون بتاء المتكلم ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾.

واللام في قوله «لِما» على قراءة فتح اللام: موطئة للقسم؛ لأن أخذ الميثاق في معنى اليمين، ويجوز كون اللام للابتداء، و«ما»: شرطية أو موصولة، أي: للذي آتيتكم.

أو لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة، أي: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، ولتنصرنه، ولا يمنعكم ما أوتيتم من علم الكتاب والحكمة من ذلك.

وعلى قراءة كسر اللام تكون اللام للتعليل، و«ما»: مصدرية، أي: من أجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة، ولمجيء رسول مصدِّق لما معكم لتؤمنن به.

ويجوز كون «ما»: موصولة، أي: لأجل الذي آتيتكم، ولمجيء رسول مصدق، أي: شكرًا على إيتائي إياكم أو على الذي آتيتكم وعلى أن بعثت رسولًا مصدقًا لما معكم لتؤمنن به.

﴿مِّن كِتَٰبٍ وَحِكۡمَةٖ﴾ «مِن»: تبعيضية، أي: بعض الكتاب والحكمة، وقيل: بيانية.

وقوله: ﴿كِتَٰبٍ﴾: كالتوراة والإنجيل.

﴿وَحِكۡمَةٖ﴾ الحكمة: الشريعة، والحكم بها بين الناس.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

ويحتمل أن يشمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ محمدًا ﷺ وغيره من الرسل- عليهم السلام- بأن أخذ الله الميثاق على النبيين جميعًا بأن يؤمن المتقدم منهم بمن يأتي بعده ويناصره، ويصدق بعضهم بعضًا(١).

وقوله: ﴿مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ أي: مصدق لما معكم من كتب الله تعالى؛ كالتوراة والإنجيل وغيرهما ببيان أنها حق من عند الله تعالى، وذلك باشتماله على ما يشهد بصدقها، وبكونه مصداق ما أخبرت به حيث أخبرت هذه الكتب ببعثته ﷺ، كما قال عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف:٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فكانت بعثته الله ﷺ مصداق ما أخبرت به هذه الكتب، فكان بهذا مصدقًا لها.

﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، فالجملة جواب القسم، ويجوز أن تكون اللام: موطئة للقسم، أي: لتصدقنه.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٥/ ٥٣٩-٥٤٤).

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾، أي: ولتُعِيْنُنَّه على تبليغ رسالته ونشرها، وعلى قتال أعدائه، فالنصر هنا يشمل نصره باللسان، والدعوة إلى الله، وبالسنان والعُدة والعتاد. والمراد: لتؤمنن به ولتنصرنه أنتم وأتباعكم.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي: اعترفتم والتزمتم بذلك.

﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾: معطوف على ما قبله، أي: وأخذتم على ذلكم عهدي، أي: ميثاقي الشديد المؤكد الثقيل، والإصر: العهد الثقيل، وجمعه: آصار، قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ أي: اعترفنا والتزمنا بأن نؤمن به وننصره.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: ليشهد كل منكم على نفسه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

وأيضًا ليشهد بعضكم على بعض، واشهدوا على أممكم بذلك.

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: على العهد الذي أخذته عليكم وعلى أممكم، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩، ١٦٦، الفتح:٢٨].

فاستشهدهم عز وجل على أنفسهم، وعلى بعضهم، وعلى أممهم على الميثاق الذي أخذه عليهم، وشهد عز وجل عليهم كلهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- أخذه ميثاق النبيين إن بُعِثَ محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه، وأن يؤمن بعضهم بعضًا، ويصدِّق بعضهم بعضًا، وإقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك، وشهادته تعالى عليهم، وهو ميثاق عليهم وعلى أممهم، ثم أتبع ذلك ببيان حكم من تولى من أممهم عن الالتزام بهذا الميثاق، وأنه من الفاسقين، وفي هذا تحذير لأمة محمد

ﷺ وبخاصة أهل الكتاب الموجودين في عهده ﷺ من التولي عن الإيمان به ونُصرته.

قوله: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ الفاء: استئنافية، و«من»: شرطية، و﴿ تَوَلَّىٰ ﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. ومعنى «تولي» أي: أعرض بقلبه وبدنه.

﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: بعد أخذ ميثاق الأنبياء، وتقريرهم، وإشهادهم على ذلك، وشهادة الله عليهم بذلك.

والمعنى: من تولى وأعرض من اتباع الأنبياء وأممهم عن الإيمان بالرسل ونصرتهم وبخاصةً خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ بعد تبليغ أنبيائهم لهم بما أخذ من الميثاق عليهم في ذلك؛

ولهذا لم يقل: «فمن تولى بعد ذلك منكم» كما قال في سورة المائدة في خطاب بني إسرائيل: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٢].

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾: لأن الميثاق الذي أُخِذَ على الأنبياء ميثاق عليهم وعلى أممهم، ولهذا لما رأى النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قطعة من التوراة غضب؟ فقال: «**أمُتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**»(١).

والفاء في قوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ رابطة لجواب الشرط، والجملة جواب الشرط.

والإشارة في قوله: «أولئك» لـ «من» في قوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ ﴾؛ لأن معناها الجمع، وقد أُكِدت هذه الجمله بكونها اسمية مُعَرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: فأولئك الذين بلغوا غاية الفسق. و(الفسق): الخروج عن طاعة الله تعالى.

وهو نوعان: فسق مُخرِج من الملة وكفر، كما في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨].

وفسق دون ذلك، لا يُخرِج من الملة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦].

والمراد بالفسق هنا في قوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الفسق المخرج من الملة، المؤدِّي إلى الكفر؛ لأن من تولى وأعرض عن الإيمان بالرسل وتصديقهم ونصرتهم، وخصوصًا خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ فهو كافر.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

حذَّر عز وجل عن التولِّي والإعراض عن الإيمان بالرسول ﷺ وغيره من الرسل ونُصرتهم؛ ثم أتبع ذلك بالإنكار على الذين يَبْغُون غير دين الله من أهل الكتاب وغيرهم، وقد أسلم له سبحانه الخلق كلهم وإليه مرجعهم.

قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والفاء: حرف عطف على ما سبق، وقد أخرت لتكون الصدارة لهمزة الاستفهام، والتقدير: «فأغير دين الله يبغون»، ويجوز أن يكون حرف العطف عاطفًا لما بعده على مقدر بينه وبين الهمزة، والتقدير: «أيتولون فغير دين الله يبغون؟».

و﴿دِينِ ٱللَّهِ ﴾: شرعه الذي شرعه لعباده، وهو دين التوحيد والعدل والإسلام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[آل عمران: ٨٥].

وأضافه- عز وجل- إليه؛ لأنه سبحانه هو الذي شرعه، وهو الذي يجازي عليه، وتعظيمًا له وتشريفًا.

﴿يَبْغُونَ ﴾: قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب بياء الغيبة: ﴿يَبْغُونَ ﴾، وقرأ الباقون بتاء الخطاب «تبغون»، والمعنى: أفغير دين الله وشرعه وحكمه يطلبون ويريدون، أو تطلبون وتريدون، والمراد بهذا أهل الكتاب وغيرهم ممن يبتغي غير دين الله.

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه أسلم له مَن في السموات والأرض، وقدَّم الخبر: ﴿لَهُۥٓ﴾ للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: وله وحده أسلم مَن في السموات والأرض.

ومعنى «أسلم»: أي استسلم وانقاد كونًا، وليس المراد الاستسلام شرعًا؛ لأن الإسلام الشرعي لا إكراه فيه، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ ولأن الإسلام الشرعي لا يعم كل مَن في الأرض بل أكثرهم لا يسلم.

و﴿مَن﴾: موصولة تدل على العموم، أي: جميع مَن في السموات والأرض.

وفي التعبير بـ﴿مَن﴾ تغليب لجانب العقلاء؛ تكريمًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ولأنهم هم المكلفون دون غيرهم، ولأنهم أكثر من غيرهم؛ لأن من بينهم الملائكة.

وفي الحديث: «**أطت السماء وحق لها أن تئط. ما مِن موضع شبر إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد**»(١).

والسموات أكبر من الأرض، بل السماء الدنيا أكبر من الأرض، وكل سماء أكبر من التي تحتها.

﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾: منصوبان على الحال، أي: طائعين وكارهين، و«الطوع»: ما فُعِلَ بالاختيار، و«الكُره»: ما فُعِلَ بغير الاختيار.

أي: استسلم له من فيها طوعًا وكرهًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد:١٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فالمؤمن مستسلم لله تعالى طوعًا بقلبه وقالبه، والكافر مستسلم لله تعالى كرهًا، والخلق والكون كله مستسلم منقاد لله تعالى طوعًا كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾: قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بياء الغيبة ﴿يُرْجَعُونَ﴾ والضمير على هذه القراءة يعود إلى الذين يبغون غير دين الله، أو إلى «من» في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو إليهما معًا، وهو أولى.

فجميعهم إليه يرجعون، أي: يُرَدُّون يوم القيامة، فيحاسبهم ويفصل بينهم بحكمه، من كان منهم من أهل التكليف أو غيرهم.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «ترجعون» وفقًا لقراءة «تبغون» فيعود الخطاب للذين يبغون غير دين الله، وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

وقدَّم المتعلق في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ لإفادة الحصر والتخصيص، أي: وإليه وحده يرجعون، لا إلى غيره، فلله- عز وجل- استسلم كل مَن في السموات والأرض طوعًا وكرهًا في الدنيا، وإليه رجوعهم في الآخرة فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم. فكيف لعاقل أن يبتغي غير دين الله ويعدل به غيره؟!!

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أخذ الله الميثاق على النبيين بأن يؤمن كل منهم بمحمد ﷺ وينصره إن بُعِثَ في زمانه، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا، ويأخذوا ذلك على أقوامهم وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية .

٢- امتنان الله- عز وجل- على الأنبياء عليهم السلام بما أعطاهم من الكتاب والحكمة، وتذكيرهم بذلك ليؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه، وليؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضًا؛ إذ الواجب عليهم أعظم من غيرهم؛ لأن الواجب على قدر النعمة، ويتفرع على هذا أن المنة على العلماء أعظم من المنة على غيرهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولهذا فالواجب عليهم من القيام بأمر الله، وبيان الحق، والدعوة إلى الله أعظم من الواجب على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٨٧].

٣- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مُكلَّفون متعبدون كغيرهم من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية.

٤- فضيلة نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء عليهم السلام؛ لأن الله- عز وجل- أخذ عليهم جميعًا الميثاق بالإيمان به، ونُصرته؛ فهو سيد الأنبياء وإمامهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وهو صاحب الشفاعة العُظمى، والمقام المحمود يوم القيام للفصل بين الخلائق.

٥- تحذير أهل الكتاب في عهد النبي ﷺ من تكذيب النبي ﷺ ومخالفته والكفر بما جاء به، بتذكيرهم بهذا الميثاق.

٦- تذكير النبي ﷺ وأمته بهذا الميثاق، والذي أخذه الله على الأنبياء بالإيمان به ونُصرته تشريفًا وتكريمًا له ولأمته.

٧- تصديق الرسول ﷺ لما مع الأنبياء من قبله؛ لاشتمال ما جاء به من الوحي على بيان صدق ما معهم، ولأن بعثته ﷺ مِصداق لما أخبرت به كتبهم، وتصديق بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

٨- فضل ما بُعِثَ به نبينا محمد ﷺ من دين الإسلام على جميع الأديان؛ لأنه المصدِّق لها، والشاهد والمهيمن عليها، المشتمل على جميع أصول الشرائع السابقة.

٩- تقرير الأنبياء بما أخذ الله عليهم من ميثاق، وإقرارهم جميعًا بذلك، وإشهادهم على أنفسهم وعلى أممهم، وشهادة الله تعالى عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الآية.

١٠- أن ما أخذ الله من الميثاق على الأنبياء من الإيمان به ﷺ ونصرته وتصديق بعضهم بعضًا هو ميثاق على أقوامهم وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن تولى من أقوام الأنبياء وأتباعهم بعد أخذ الميثاق على أنبيائهم، ولا يدخل في هذا التحذير الأنبياء؛ لأنهم أقروا بهذا الميثاق، والتزموا به، وشهدوا بذلك على أنفسهم وعلى أقوامهم.

١١- أن من تولى من أتباع الأنبياء عن الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته وغيره من الأنبياء

فهو من الفاسقين الخارجين عن الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. والمراد بالفسق هنا الكفر المخرج من الملة.

١٢- أن مَن تولى قبل البيان وقيام الحُجة لا يُحكم عليه بالفسق ولا يُؤاخذ؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

١٣- التحذير من التولِّي والإعراض عن الإيمان بالرسول ﷺ، وعن اتباعه ومناصرته في دعوته باللسان والأبدان، وأن ذلك فسق وكفر.

عن عبد الله بن ثابت قال: «جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخٍ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ فقال: فتغير وجه رسول الله ﷺ قال: عبدالله بن ثابت: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا.

قال: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، وقال: «**والذي نفس محمدٍ بيده، لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين**»(١).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، فإنه لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني**»(٢).

١٤- الإنكار الشديد على من يبتغي غير دين الله وشرعه وحكمه من أهل الكتاب وغيرهم- مع أن الملك والأمر كله لله؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠].

١٥- تعظيم الله لنفسه بكمال ربوبيته وعموم ملكه وسلطانه، واستسلام جميع مَن في السموات والأرض له طوعًا وكرهًا، وتعظيمًا لدينه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ الآية،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٦) ونسبه للحافظ أبي بكر.

فأضاف الدين إليه اهتمامًا به وتعظيمًا له.

١٦- أن مرجع كل مَن في السموات والأرض إلى الله تعالى، فإليه إيابهم وعليه حسابهم والحكم والفصل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، فله استسلم وانقاد جميع مَن في السموات والأرض في الدنيا، وإليه رجوعهم جميعًا في الآخرة.

١٧- الوعيد والتهديد لمن يبغون غير دين الله من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

١٨- فضل الله تعالى وحكمه بين الخلق، ومجازاة أهل التكليف منهم بما عملوا، والوعد لمن آمن بالله، والوعيد لمن كفر بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة أخذه ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ﷺ ونُصرته هم وأممهم، وأنكر على من يبغون غير دين الله، ثم مقابل ذلك أمر النبي ﷺ أن يقول للناس من أهل الكتاب وغيرهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ الآية.

فكما أخذ ميثاق النبيين وأممهم بالإيمان به وبرسالته، كذلك أمره ﷺ أن يخبر الناس بإيمانه هو وأمته بما أنزل على النبيين قبله، وأن يقول لمن ابتغوا غير دين الله وغيرهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية، وهذه الآية شعار الإسلام.

قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: الخطاب والأمر للنبي ﷺ وهو أمر له ولأمته، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].

ولهذا جمع الضمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

والإيمان بالله يتضمن التصديق والإقرار بوجوده، وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وآمنا بالذي أُنزِل علينا من الوحي، أي: بالقرآن والسنة؛ لأن كلًّا منها وحي مُنَزَّل من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال هنا: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية، وقال في آية البقرة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [الآية: ١٣٦]، فباعتبار مبدأ الإنزال عُدي بـ«على»؛ لأنه من أعلى ومن فوق، وباعتبار انتهاء الإنزال إلى المنزَّل عليه عُدي بـ«إلى».

وقدَّم الأمر بالإيمان بالمنزل على هذه الأمة في الآيتين تعظيمًا له واعتناءً به.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: وآمنا بالذي أُنزِل على إبراهيم عليه السلام- وهو أبو الأنبياء- من الصحف، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨- ١٩].

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ أي: وآمنا بالذي أنزل على إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط.

وهؤلاء وإن لم تصل إلينا كتبهم فنؤمن بأن الله أنزل عليهم؛ لأن الله أخبرنا بذلك.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾: هو إسماعيل بن إبراهيم- عليهما السلام- وهو الابن الأول لإبراهيم، وهو الذي ابتلى الله إبراهيم بالأمر بذبحه فاستسلما معًا لأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ

ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٧].

وهو أبو العرب وجد نبينا محمد ﷺ سيد الخلق وأفضل الرسل- عليهم السلام-.

فقدَّم ذِكر «إسماعيل» لسبقة زمنًا وفضلًا، فهو أكبر من «إسحاق» وهو أفضل منه؛ لأنه أب لأفضل الرسل وسيد الخلق محمد ﷺ.

﴿ وَإِسْحَٰقَ ﴾: هو إسحاق بن إبراهيم. الابن الثاني لإبراهيم- عليهما السلام- ومن فضله أن جل الأنبياء بعده من ذريته.

﴿ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾: هو يعقوب بن إسحاق- عليهما السلام- ويلقب «إسرائيل»، ومعناه «عبد الله»، وهو الذي ينسب إليه بنو إسرائيل.

﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾: جمع سِبط، وأصل السبط في اللغة ابن البنت، ولهذا يقال للحسن والحسين- رضي الله عنهما- سبطا رسول الله ﷺ.

قيل: المراد بـ «الأسباط» أحفاد إبراهيم أبناء ابنه يعقوب الاثنا عشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف:٤].

وعلى هذا يكون أولاد يعقوب كلهم أنبياء. وقد قال تعالى عن يوسف- عليه السلام : ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾ [غافر:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة:١٤٠].

وقيل: المراد بـ «الأسباط» بطون بني إسرائيل الذين فيهم الأنبياء، فيكون التقدير: وما أنزل على أنبياء الأسباط، قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف:١٦٠].

وخص هؤلاء المذكورين؛ لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ أي: وآمنا بالذي أوتيَ موسى وعيسى، أي: بالذي أنزل إليهما من الوحي والآيات الشرعية في التوراة والإنجيل، ومن الآيات الكونية التي

أُعطيها كل منهما.

ولعل السبب في التعبير بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ﴾ بدل، «وما أنزل» للإشارة إلى الآيات الكونية التي أعطاها الله كلا منهما، والتي بقي ذكرها إلى نزول القرآن؛ لأن موسى وعيسى-عليهما السلام- أُعطيا الكثير من الآيات الكونية؛ لأن موسى بعث في وقت قد انتشر فيه السحر، وعيسى قد بعث في وقت قد ظهر فيه الطب، فأعطي كل منهما من الآيات ما يناسب ما ظهر في عهده.

﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾: معطوف على «موسى وعيسى»، أي: وآمنا بما أوتي النبيون من ربهم من الآيات الشرعية والكونية،كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٣٦]، أي: وآمنا بما أوتي جميع النبيين والرسل من الكتب والمعجزات، كما قال تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: الجملة الحالية أي: حال كوننا لا نفرق بين أحد منهم في الإيمان، أي: لا نفرق بين أحد منهم والآخر، بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما هو حال اليهود والنصارى، بل نؤمن بهم جميعًا على السواء، إيمانًا مجملًا- كما أخبر القرآن والسنة عنهم.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: الجملة في محل نصب معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ونحن له، أي: لله وحده مستسلمون، منقادون ظاهرًا وباطنًا، بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا.

وقدَّم المتعلِّق (له) على المتعلَّق به وهو (مسلمون) للدلالة على الحصر، أي: مستسلمون له وحده دون سواه، وهنا انتهت المجادلة مع نصارى نجران.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، و«يبتغ»: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة الياء، أي: ومن يطلب ويريد ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ «غير»: مفعول ﴿يَبْتَغِ﴾، و﴿دِينًا﴾: تمييز أو مفعول ثانٍ لـ«يبتغ» أي: دينًا يدين لله تعالى به، ويعمل به،

ويجازى عليه، ويُدان به، كما قال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦]، أي: لكم دينكم الذي تدينون به، وعملكم الذي تعملون به، وليَ ديني الذي أدين به وأعمل به.

﴿ ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾: معناه العام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهذا يطلق على جميع الأديان، فكل من انقاد لما جاءت به رسل الله فهو مسلم.

ومعناه الخاص: ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع -وهو المراد هنا- وهو ينتظم المعنى الأول، أي: ومن يبتغ غير الإسلام دينًا بعد مجيء الإسلام.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾: جواب الشرط «مَنْ»، والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلن يقبل منه ذلك الدين، كما قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، أي: مردود غير صحيح، فلا يقبله الله تعالى منه، ولا يقره رسوله ﷺ ولا المؤمنون، ولا يُثاب عليه، ولهذا قال:

﴿وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، أي: وهو في الدار الآخرة من الخاسرين، الذين خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم وخسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وخسروا كل شيء، وحرموا من الثواب وأُركِسوا في العذاب.

خسروا دينهم لأنهم دانوا بغير الإسلام، وخسروا دنياهم لأنهم لم يعملوا فيها ما يقربهم إلى الله تعالى، وخسروا أنفسهم فضاعت أعمارهم وحياتهم سدى، وخسروا أموالهم فلم يقدموا منها ما ينفعهم في الآخرة، وخسروا أهليهم فحيل بينهم وبينهم في الآخرة؛ وتلك والله الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر:١٥]، وقال تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

قولة تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: «سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟» فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ، فقالو: إن فلانًا قد ندم، وإنه أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، فأرسل إليه، فأسلم»(١).

وذهب بعض المفسرين إلى أنها نزلت في أهل الكتاب، آمنوا برسلهم، ثم كفروا فعبدوا غير الله، وآمنوا بمحمد ﷺ، وشهدوا أنه حق قبل مبعثه وبعده، بما في كتبهم من البشارة به، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، وبما عندهم من المعرفة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠]. ثم كفروا به حسدًا منهم وعنادًا.

---

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم- توبة المرتد (٤٠٦٨)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٥٥٧، ٥٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٧٠٠)، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

والآية أعم من هذا كله فتشمل كل من كفر بعد الإيمان، وبعد قيام الحجة عليه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ «كيف»: اسم استفهام ومعناه هنا: الاستبعاد، والمراد بالهداية في قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾: هداية التوفيق، أي: يبعد أن يوفق الله للهدى قومًا كفروا بعد إيمانهم من العرب وأهل الكتاب وغيرهم، أي: ارتدوا ورجعوا إلى الكفر بعد أن آمنوا، وكيف يستحق من هذه صفته أن يهديه الله، أو كيف يتوقع أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم.

ويُحتمل كون الاستفهام للإنكار والنفي، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وذلك لأن من آمن وعرف الحق ثم ارتد عنه أعظم ذنبًا وكفرًا ممن لم يعرف الحق وبقي على كفره ولم يدخل في الإيمان.

فمن عرف الحق وتركه يُعاقب بالانتكاس وانقلاب القلب وزيغه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

والكفر بعد الإيمان وبعد معرفة الحق علامة على عدم تمكن الإيمان، فإن من ذاق حلاوة الإيمان يبعد أن يعود إلى الكفر، كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار**»(١).

﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾: الجملة في محل نصب عطفًا على جملة ﴿ كَفَرُوا۟ ﴾، أي: كيف يهديهم بعد اجتماع الأمرين الكفر والشهادة بصدق الرسول.

ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنهم قد شهدوا أن

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في «الإيمان» (٤٣)، والنسائي في «الإيمان وشرائعه» (٤٩٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الرسول ﷺ حق، والواو في شهدوا تعود لمن كفروا.

والمراد بـ«الرسول»: محمد ﷺ، و(ال) فيه للعهد الذهني؛ لأنه ﷺ معهود في الأذهان بعد بعثته ونزول القرآن عليه.

أي: شهدوا أن الرسول محمدًا ﷺ حق ثابت، صادق فيما أخبر به، عادل فيما حكم به، لاشك في رسالته.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: معطوف على: ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾، ولم يؤنث الفعل، فلم يقل: «وجاءتهم»؛ لأن التأنيث في ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ غير حقيقي، وفصل بينه وبين الفعل بالمفعول «هم» ويجوز تأنيثه، كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة:٢١٣].

أي: وجاءهم الآيات البينات في القرآن الكريم والكتب السابقة، واكتفى بذكر الصفة وهي «البينات» دون الموصوف وهي «الآيات»؛ لأن المهم في الآيات كونها بيِّنات مُبيَّنات مُبيِّنات للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

والمعنى: وجاءهم الآيات البينات الواضحات، والحجج والبراهين القاطعات، على أن الرسول ﷺ حق، وما جاء به حق وصدق وعدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الجملة استئنافية، وهي كالتعليل لما قبلها، فاستبعد هداية من كفروا بعد إيمانهم وشهادتهم أن الرسول حق، وبعد مجيء البينات إليهم؛ لأنهم ظالمون: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: والله لا يوفق القوم الظالمين.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جمع «ظالم»، والظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو إما تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم عمدًا، فهؤلاء ظلموا باختيارهم الكفر، ووضعه مكان الإيمان، بعد تبين الحق لهم، وظلموا أنفسهم، فنقصوها حقها، وعرَّضوها للعذاب ودسوها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(١).

قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الآيتان:١٦١-١٦٢].

قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: الإشارة للذين كفروا بعد إيمانهم، وشهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البينات إليهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تحقيرًا لهم.

﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾: مبتدأ ثانٍ، وهو وما بعده خبر للمبتدأ الأول ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أو بدل من ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾.

﴿ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي: أن الله تعالى يلعنهم؛ لاستحقاقهم للعنته عز وجل، واللعنة من الله: طرده وإبعاده لهم عن رحمته وعن جنته، وإدخالهم في عذابه وناره، ومقته لهم.

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي: وعليهم لعنة الملائكة.

﴿ وَٱلنَّاسِ ﴾ أي: وعليهم لعنة الناس، ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾: توكيد، أي: عليهم لعنة الملائكة أجمعين، ولعنة الناس أجمعين، مؤمنهم وكافرهم.

واللعنة من الملائكة ومن الناس: هي الدعاء بالطرد، والإبعاد عن رحمة الله وجنته، ومقتهم وبغضهم لهم.

قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾: حال.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠)، من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه- وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، أي: ماكثين في هذة اللعنة مكثًا أبدًا، تلاحقهم وتستمر معهم؛ لأن عذاب الكفار أبدي سرمدي، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ كقوله في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الآية:١٨٥].

وجملة: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ في محل نصب على الحال، و﴿الْعَذَابُ﴾: العقوبة، أي: لا يخفف عنهم العذاب بأن يهوِّن عليهم من شدته، أو بأن يقطع عنهم يومًا أو فترة، كما قال أهل النار لخزنتها: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، وكما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، أي: لا ينقطع عنهم فترة، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: يائسون من الخروج منه أو انقطاعه.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ولاهم يمهلون ويؤخَّر عنهم العذاب، بل يُبادرون بالعذاب.

فيبادرون بالعذاب في الحياة الدنيا قبل الموت بالقتل على أيدي المؤمنين، والسبي، والاضطراب النفسي، والقلق، والشقاء الدنيوي، والمصائب التي سببها الكفر والبعد عن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

ويُبادرون بالعذاب عند الموت، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠].

ويُبادرون بالعذاب في البرزخ بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

ويُبادرون بالعذاب بعد البعث يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الزمر:٧١].

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

بعد ما ذكر عز وجل في الآيات السابقة استبعاد أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، وشهادتهم أن الرسول حق، ومجيء البينات إليهم، وتوعدهم باللعنة والخلود فيها وفي العذاب، لم يؤيسهم، بل فتح لهم باب التوبة، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من لطفه ورأفته وواسع رحمته.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء هنا متصل، المستثنى: ﴿ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾، والمستثنى منه قوله تعالى: ﴿قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾.

ومعنى ﴿تَابُواْ ﴾ أي: رجعوا إلى الله، وأنابوا إليه، فرجعوا من الكفر إلى الإيمان، وتابوا مما حصل منهم من الكفر بعد الإيمان، فأقلعوا عن الردة بالرجوع إلى الإسلام، وندموا على ذلك، وعزموا على عدم العودة إليه، وكان ذلك في وقت قبول التوبة قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾: الإشارة إلى ما سبق من كفرهم بعد إيمانهم، وأشار إليه بإشارة البعيد تحقيرًا له.

﴿وَأَصْلَحُواْ ﴾ أي: وأصلحوا حالهم وأعمالهم، وما حصل منهم من فساد وإفساد.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: فإن الله يتوب عليهم ويغفر لهم ويرحمهم؛ لأنه غفور رحيم، أي: ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم:٣٢].

وذو رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٧].

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

والمغفرة ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

والرحمة قسمان: رحمة ذاتية، ورحمة فعلية يوصلها عز وجل من شاء من خلقه، رحمة عامة، وخاصة، وباجتماع المغفرة والرحمة زوال المرهوب وحصول المطلوب.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة استبعاد أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم وشهودهم أن الرسول ﷺ حق وجاءهم البينات، واستثنى من ذلك من تابوا وأصلحوا، ثم يبين في هذه الآية أن التوبة لا تقبل ممن كفروا بعد إيمانهم، واستمروا على الكفر وازداد منه؛ لشدة ضلالهم وبعدهم عن الهدى.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ أي: ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا وعرفوا الحق من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾ أي: أوغلوا في الكفر وانحدروا في دركاته، واستمروا عليه فازداد كفرهم كيفية ونوعية وكمية.

﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ أي: عند حضور الموت، بحضور علاماته، كما قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ [النساء:١٨]، وقال ﷺ: «**إن الله يقبل التوبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾: كما قال تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، والإشارة «أولئك» لمن كفروا وبعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا.

وأكد ضلالهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: الذين بلغوا غاية الضلال؛ لأنهم تركوا الحق بعد معرفته، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قومًا أسلموا ثم ارتدوا، ثم

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن غريب».

أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذة الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة عدم قبول توبة الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفرًا، أي عند حضور الموت، ثم أتبع ذلك بذكر عدم قبول الفداء منهم بعد الموت.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾، جملة ﴿وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾: حال، أي: وماتوا حال كونهم كفارًا، أي: وماتوا على الكفر وعلى غير الإيمان.

﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾: الجملة في محل رفع خبر «إنَّ»، أي: فلن يقبل منه لوكان أنفق ملء الأرض ذهبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

قال ابن كثير(٢): «أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يره قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبدالله بن جُدْعان، وكان يقري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: «**لا، إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»(٣).

﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾: معطوف على ماقبله فدلَّ على أنه غيره؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، أي: لو أنفق هذا المبلغ في الدنيا لم يُقبل منه، ولو افتدى به يوم القيامة من العذاب لم يُقبل منه، ولم ينقذه من عذاب الله عز وجل.

ويُحتمل كون الجملة حالية، أي: فلن يُقبل منه ولو في حال الافتداء به.

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٥) وقال ابن كثير: «هكذا رواه وإسناده جيد».

(٢) «تفسيره» (٢/ ٩٥).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمعنى: ولو جعل هذا المال فدية له من عذاب الله لم يقبل منه.

و«الفدية»: مال أو عرض يدفع مقابل الخلاص. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة:٣٦].

وعن أنس ابن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو أن لك ما في الأرض من شيء، أكنت مفتديًا به؟**» قال: «**فيقول: نعم**» قال: «**فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئًا، فأبيت إلا أن تُشرِك**»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: والإشارة للذين كفروا وماتوا وهم كفار، وفي الإشارة بإشارة البعيد تحقير لهم، و«العذاب»: العقوبة.

﴿أَلِيمٞ﴾: على وزن «فعيل» بمعنى: «مفعل» أي: مؤلم موجِع حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة لاستغراق النفي من حيث المعنى، و«ناصرين» جمع (ناصر) وهو الذي يدفع ويمنع الضر عن غيره.

والمعنى: وما لهم من أيّ ناصر ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله ويمنعه قبل وقوعه، أو يرفعه بعد وقوعه.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة أن مَن مات على الكفر فلن يقبل منه ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به، ثم بيَّن في هذه الآية ما ينال به البر وهو الإنفاق ابتغاء مرضاة الله مما يحبون.

قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ﴾ «لن»: حرف نفي ونصب للفعل المضارع، وتنقله من الحال

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٥)، وأحمد (٣/ ٢٠٨).

إلى الاستقبال، والمعنى: لن تدركوا البر وتحصلوا عليه، وتكونوا أبرارًا.

و«البر»: كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة:١٨٩].

وقال ﷺ: «**البر حُسن الخُلق**»(١)، «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب**»(٢).

وهو ضد الإثم؛ ولهذا قال ﷺ: «**والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(١)، «**والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب**»(٢).

﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن تنفقوا مما تحبون، وفي هذا دلالة على تعدد خصال البر وأنه درجات، من أعلاها الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى مما يحبون.

و«من» في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ تبعيضية، و«ما» موصولة، أي: بعض الذي تحبون من المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠].

أي: حتى تنفقوا بعض المال الذي تحبونه، ومن أحبه إليكم وأفضله عندكم؛ لما في ذلك من كرم النفس والبعد عن البخل والشح، ومن إيثار محبة الله تعالى ومرضاته على محبة المال والنفس.

وقيل: إن «من» لبيان الجنس.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذة الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب (٣٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

الله، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله- عز وجل- أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**بخ بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**» قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أصاب أرضًا بخيبر، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضًا بخيبر لم أُصب مالًا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**»(٢)، وفي رواية قال: «**فاحبس أصلها وسبل الثمرة**»(٣).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، يتأول قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٤).

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: اسم شرط، و﴿تُنفِقُواْ﴾: فعل الشرط، و﴿مِن﴾: بيانية مبينة للعموم في «ما»، ﴿شَيْءٍ﴾: نكرة في سياق الشرط وتفيد العموم أيضًا.

أي: وما تنفقوا من شيء، أيِّ شيءكان، قليلًا كان أو كثيرًا، مما تحبون أو مما لا تحبون، طيبًا أو غير طيب.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة في جواب الشرط، أي: فإن

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة- فضل الصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (٩٩٨)، وأحمد (٣/ ١٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣٧)، ومسلم في الوصية (١٦٣٣)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٨)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٩٦).

(٣) أخرجها النسائي في الأحباس (٣٦٠٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٩٧).

(٤) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٥) أن ابن عمر أعتق جارية له يقال لها رميثة. وقال: «إني سمعت الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإني والله إن كنت لأحبك في الدنيا، اذهبي فأنت حرة لوجه الله عز وجل».

الله ذو علم تام به سيحصيه لكم، ويحاسبكم ويجازيكم عليه بالخلف العاجل في الدنيا والنعيم الآجل في الآخرة، ولن يضيع عنده، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

والحصر في تقديم المتعلق «به» لتأكيد علمه- عز وجل- بكل ما ينفقون.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله- عز وجل- لا ينطق عن الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية.

٢- وجوب الإيمان بالله، والتصديق والإقرار بوجوده وبربوبيته والوهيته وأسمائه وصفاته؛ قولًا باللسان، واعتقادًا بالجنان؛ لقوله تعالى: ﴿﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، وهذا خطاب للنبي ﷺ ولأمته.

٣- أن الإيمان بالله هو أصل وأساس الإيمان وأعظم أركانه، ولهذا قُدِّم في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية.

٤- وجوب الإيمان والتصديق بالقرآن والسنة، وامتثال ما فيهما من الأمر، واجتناب ما فيهما من النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ الآية.

٥- ثبوت نبوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ووجوب الإيمان بما أنزل عليهم على وجه الإجمال؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي: وما أنزل عليهم من الوحي، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء:١٦٣].

وكل من أُوحيَ إليه فهو نبي.

٦- في تقديم «إسماعيل» على «إسحاق» في الذكر دلالة على أن إسماعيل أكبر، وإشارة إلى فضله.

٧- وجوب الإيمان بما أنزل على الأسباط؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ وهم أولاد يعقوب، فهم أنبياء، وقيل المراد بالأسباط بطون بني إسرائيل، فيكون التقدير: وما

أنزل على أنبياء الأسباط.

٨- ثبوت نبوة موسى وعيسى عليهما السلام، ووجوب الإيمان بما أوتيَ كل منهما من الآيات الشرعية في التوراة والإنجيل والآيات الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

٩- في التعبير بالإيتاء في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ بدل الإنزال، وإعادة العامل تنبيه وتعظيم لما أُوتيَ موسى وعيسى عليهما السلام من الآيات الكونية والشرعية.

١٠- وجوب الإيمان بما أُوتيَ جميع النبيين من ربهم من الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: وما أُوتيَ النبيون من ربهم من الآيات الكونية، ومن الكتب والآيات الشرعية، وما فيها من الأخبار وأصول الإيمان والشرائع إيمانًا مجملًا.

أما من حيث الاتباع والعمل فالواجب بعد بعثة محمد ﷺ على جميع الناس اتباع شريعته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وما جاء من الأحكام في شرع من قبلنا، فإن وافقه شرعنا وجب العمل به لمجيئه في شرعنا، وما خالفه شرعنا فلا يُعمل به؛ وهذا بالاتفاق.

أما ما لم يأت في شرعنا مخالفةً له ولا موافقة، فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من قال: لا يُعمل به وفي شرعنا غنية عنه، ومنهم من قال: يُعمل به، لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، والصحيح أن ما حكاه شرعنا على سبيل الاقرار له يعمل به، وما عداه فلا يعمل به.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة، بل خاصة الخاصة للنبيين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن

رَّبِّهِمْ ﴾، وتشريفهم وتكريمهم بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم.

١٢- وجوب الإيمان بجميع الرسل دون تفريق بين أحدٍ منهم والآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾.

وفي هذا تعريض بذم أهل الكتاب الذين يكذِّبون رسالة محمد ﷺ؛ لأن الإيمان بالرسل أمر لا يتجزأ، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ أو بغيره من الرسل فليس بمؤمن، وإن آمن بموسى وعيسى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

١٣- وجوب الاستسلام والانقياد لله وحده باطنًا وظاهرًا، بالقلب واللسان والجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

١٤- أن كل من دان بغير دين الإسلام فلن يقبل منه، ودينه باطل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

١٥- نسخ الإسلام لجميع الأديان السابقة.

١٦- فضل الدين الإسلامي على جميع الأديان، فهو الحاكم والمهيمن عليها، الناسخ لها، الذي لا يقبل الله بعد بعثة محمد من أحدٍ سواه.

١٧- خسارة من دان بغير الإسلام؛ لقولة تعالى ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٨- إثبات الدار الآخرة، لقولة تعالى ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ﴾.

١٩- أن من ارتد وكفر بعد الإيمان يُستبعد أن يُهدى؛ لأنه ضل على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾.

وهذا بخلاف الكافر الأصلي، فهو أقرب للهداية، كما قال تعالى: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن

يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة:٧].

٢٠- أن من ارتد بعد الإيمان أعظم ذنبًا، وأشد كفرًا ممن كان باقٍ على كفره؛ ولهذا لا يُجبر الكافر الأصلي في الدنيا على ترك الكفر، كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] بخلاف الكافر المرتد فإنه يجبر على ترك الكفر والرجوع للإسلام وإلا قتل، قال ﷺ: «**من بدَّل دينه فاقتلوه**»(١).

٢١- أن هداية التوفيق والقبول خاصة بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ ﴾ الآية.

٢٢- أن الرسول ﷺ حق؛ لقولة تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ ﴾.

٢٣- إقامة الحجة على الخلق على وجوب الإيمان وترك الكفر بالآيات البينات الشرعية والكونية، بما لا عذر معه لمن أقام على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾.

٢٤- أن الظلم سبب للضلالة والحيلولة دون الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠].

٢٥- إثبات الجزاء، وشدة وعيد المرتدين وعِظم عقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

٢٦- التحذير من الردة إلى الكفر بعد الإيمان؛ لأن الله رتَب على ذلك لعنته، وهي طرده وإبعاده من رحمته لمن كفر بعد الإيمان، ودعاء الملائكة والناس جميعًا عليه بذلك.

٢٧- جواز لعن الكافر غير المعيَّن؛ لأن الله تعالى لعن الكافرين وأخبر بلعن الملائكة والناس أجمعين لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٧)، وأبو داود في الحدود (٤٣٥١)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٥٩)، والترمذي في الحدود (١٤٥٨)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٨- إثبات الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٢٩- خلود المرتدين إلى الكفر بعد الإيمان في لعنة الله تعالى، والطرد والإبعاد عن رحمته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وليس ثمة لمن طُرِد عن الرحمة والجنة إلا العذاب والنار، كما قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار(١)

٣٠- عدم تخفيف العذاب عن هؤلاء الكفرة المرتدين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لا بتهوينه عليهم، ولا بانقطاعه عنهم ولو لحظة.

٣١- مبادرة هؤلاء الكفرة بالعذاب، وعدم إنظارهم في الحياة، وعند الموت، وبعد الموت، وبعد البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٣٢- أن التوبة تَجُبُّ ما قبلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣٣- أن هداية من ارتد بعد الإيمان وإن كانت مستبعدة؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الآية، فإنها ليست ممتنعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية.

٣٤- أن رحمة الله تعالى تسبق غضبه، وعفوه أوسع من عقوبته، حيث فتح باب التوبة لمن ارتدوا بعد الإيمان، بل ورغَّبهُم في ذلك، فلا يأس من رحمته.

٣٥- الترغيب في التوبة، وأنه ينبغي لمن تاب أن يصلح حاله، وأن يصلح ما أفسده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾.

٣٦- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٤١).

٣٧- عدم قبول توبة من ارتدوا إلى الكفر بعد إيمانهم، وازدادوا كفرًا، واستمروا على الكفر حتى حضور الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ ﴾.

٣٨- أن من استمر على الكفر ولم يَتُب فإنه يزداد كفرًا يومًا بعد يوم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا ﴾ فهذا يتضمن زيادة كفرهم كيفية ونوعية وكمية بسبب الاستمرار على الكفر.

٣٩- أن من كفروا بعد الإيمان وازدادوا كفرًا فقد ضلوا غاية الضلال؛ لأنهم تركوا طريق الهدى والحق والإيمان بعد ما عرفوه واختاروا طريق الضلال والباطل والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾.

٤٠- أن من كفر ومات على الكفر لا يقبل منه ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾.

٤١- شدة عذاب الكفار الذين ماتوا على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجِع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

٤٢- أنه لا ناصر لمن مات على الكفر، يدفع ويمنع عنه عذاب الله قبل وقوعه، أو يرفعه عنه بعد وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

٤٣- أن البر لا يُنال إلا بالإنفاق من المال المحبوب، ومن أحبه وأفضله؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه ذات يوم: «**أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وراثه، قال: «**فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر**»(١).

وذلك لأن خصال البر درجات، ومن أعلاها الإنفاق في مرضاة الله تعالى، لما فيه

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

من الدلالة على كرم النفس، والسلامة من البخل والشُّح، ولما فيه من إيثار مرضاة الله تعالى على حب المال والنفس.

والمال كما يقال: «شريك الروح»، فمن أنفق منه بسخاء وَوُقِيَ شُح نفسه، فإنه أقدر على القيام بما عداه من خصال البر، ولهذا رتَّب عز وجل عليه الفلاح، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩، التغابن:١٦].

٤٤- الترغيب في الإنفاق مما يحب من المال؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان:٨].

وقد اختلف أهل العلم: هل يجوز أن ينفق الإنسان جميع ماله؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه لا يجوز، واعتبروا «من» في الآية تبعيضية- وهو الأظهر-، واستدلوا بأن النبي ﷺ قال لسعد رضي الله عنه: «**الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١).

ولما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: يا رسول الله، إن من توبتي أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ، قال: «**امسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر»(٢).

وذهب بعض أهل العلم إلى جواز التصدق بجميع المال، واعتبروا «من» في الآية للجنس، فيشمل الصدقة بجميع المال، واستدلوا بما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ حث على الصدقة ذات يوم، فجاء عمر- رضي الله عنه- بنصف ماله، وجاء أبو بكر- رضي الله عنه- بجميع ماله حيث قال له

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣١٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٦٢٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٢)، من حديث كعب رضي الله عنه.

الرسول ﷺ: «**ماذا لأهلك**»، قال: لهم الله ورسوله[١].

فأثنى ﷺ عليهما، ودعا لكل منهما.

والأظهر أن الأمر يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فمتى دعت الضرورة والحاجة إلى إنفاق جميع المال جاز ذلك، كما في الكوارث والنكبات والمجاعات الشديدة.

وكذا إذا كان الإنسان لديه قوة في التوكل على الله تعالى، وقدرة على العمل بالبحث عما يستغني به عن السؤال.

أما إذا كان سيبقى عالة على الآخرين، ويعرض نفسه لمذلة السؤال، ويُقصِّر في النفقة الواجبة لنفسه ومن يعول؛ فهذا لا يجوز له التصدُّق بجميع ماله، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

٤٥- أن حب المال أمر جبلي طُبِعَ عليه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ لكن ينبغي الحذر من تقديم محبته على محبة الله ورسوله، وما يقرب إلى الله تعالى.

٤٦- علم الله- عز وجل- بكل ما ينفق من شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

٤٧- وعد الله- عز وجل- بإثابة المنفقين ومجازاتهم على القليل والكثير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أي: يعلمه وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥).

قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

في هذه الآية وما بعدها ما يقوي دخول أهل الكتاب في قوله تعالى فيما سبق: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الآية: ٨٦].

وفيها رد على اليهود في إبطالهم النسخ وإنكارهم نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام بدعوى أنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله، والشرائع لا تتبدل لأنها من عند الله.

قوله: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ «كل» للتنصيص على العموم، و«الطعام» كل ما يطعم ويؤكل، وقد يطلق على ما يشرب.

﴿حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: حلالًا لبني إسرائيل، سواء كان نباتًا أو حيوانًا أو غير ذلك.

و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ومعنى ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ عبدالله، وبنوه هم الأسباط الاثنا عشر وما تناسل منهم.

﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ ﴿إِلَّا ﴾: أداة الاستثناء، والاستثناء هنا متصل، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: إلا الذي حرم إسرائيل على نفسه.

قيل: كان حرّم على نفسه عِرق النَّسَا الذي على الفخذ، وقيل: حرّم لحوم الإبل وألبانها، وقيل غير ذلك.

قيل: كان ذلك بوحي من الله تعالى. وقيل: كان اجتهادًا من يعقوب نذر تحريم ذلك على نفسه تقربًا إلى الله تعالى، وقيل: نهاه الأطباء عن ذلك، وتبعه بنوه

في تحريم ذلك.

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي مع سكون النون: «تُنْزَل»، وقرأ الباقون بتشديد الزاي وفتح النون: ﴿تُنَزَّلَ﴾.

أي: من قبل نزول التوراة على موسى- عليه السلام- وبين يعقوب وموسى مدد طويلة- ثم بعد نزول التوراة جاء فيها تحريم أشياء كثيرة مما كان حلالًا قبل نزولها- وهم يعلمون ذلك- وهذا هو النسخ بعينه، فلا ضير أن يأتي في شريعة عيسى وفي شريعة محمد عليهما الصلاة والسلام ما ينسخ بعض ما جاء في التوراة، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ، والخطاب في: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ لليهود وفيه تحدٍّ لهم، أي: فهاتوا التوراة فاقرؤوها أنتم بأنفسكم، لتعلموا صدق ما أخبر به القرآن من أن كل الطعام كان حلاًّ لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم حُرِّم في التوراة أشياء كثيرة. وهذا هو النسخ وبهذا تعلموا صحة ما جئتُ به من الشرع الناسخ للتوراة وغيرها.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿كُنتُمْ﴾: فعل الشرط، وجوابه محذوف يدل عليه ما سبق، أي: إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها.

أي: إن كنتم صادقين في دعواكم إبطال النسخ في الشرائع، وأن ما كان محرمًا في التوراة كان محرمًا قبل نزول التوراة.

قال ابن القيم[1]: «هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان ما سواه حلالًا له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيرًا منه ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع والحجر

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠١-٥٠٢).

على الله تعالى في نسخها».

ومع تحديهم بهذا فإنهم لم يجرؤوا على الإتيان بالتوراة، بل بهتوا وانقلبوا صاغرين.

قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم، و«افترى»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

والافتراء: الاختلاق والتقول بغير حق، أي: أن ينسب للشخص ما لم يقله.

و«الكذب»: الإخبار بخلاف الواقع، ضد الصدق، فإن كان مخالفًا للواقع والاعتقاد المخبِر فهو أشد ذنبًا وإثمًا.

والمعنى: فمن اختلق وتقول على الله الكذب، بأن قال على الله ما ليس بحق، من أهل الكتاب أو غيرهم، فادعى أن ما حرم في التوراة كان محرمًا قبل ذلك، وأنكر نبوة عيسى عليه السلام، ونسخ ما جاء به لبعض ما جاء في التوراة، وأنكر نسخ شريعة محمد ﷺ لشريعة موسى عليه السلام، ولجميع الشرائع قبلها، أو نفى أن يكون محمد ﷺ على ملة إبراهيم وشريعته.

﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي: من بعد ذلك البيان، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له، أي من بعد بيانه- عز وجل- أن كل الطعام كان حلالًا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه حتى نزلت التوراة فحرم فيها أشياء كثيرة مما كان قبل ذلك حلالًا مما يدل على وقوع النسخ في الشرائع.

﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، وقد أكد وحصر وصف الظلم فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: فأولئك المفترون هم الذين بلغوا الغاية في الظلم بوضع الافتراء والكذب مكان الصدق. وردهم الحق الذي يعلمونه بدل قبوله، ونقص أنفسهم حقها بهذا المسلك.

وجمعهم باعتبار معنى «من» وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لأهل الكتاب وغيرهم: صدق الله تعالى فيما أخبر به أن كل الطعام كان حلًا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، وفي كل ما أخبر به، وفي كل ما قاله أو شرعه، فلا أحد أصدق من الله قيلًا ولا أحد أصدق من الله حديثًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، و«اتبعوا»: معطوفة على صدق، فهي من جملة مقول القول، أي: وقل فاتبعوا ملة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

و«الملة» هي: الدين والشريعة، و«ملة إبراهيم»: ما كان عليه من إخلاص التوحيد والبراءة من الشرك، كما قال تعالى عنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وهي الحنيفية السمحة التي بعث بها نبينا محمد، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا بيان لملة إبراهيم.

﴿ حَنِيفًا ﴾: حال، و«الحنف» الميل، أي: مائلًا عن الشرك والأديان الباطلة إلى التوحيد ودين الحق، مستقيمًا على شرع الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على الحال «حنيفًا».

أي: وما كان من المشركين بالله الذين يعبدون الأصنام، ويدخلون الشرك في عباداتهم.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: بل كان موحدًا مخلصًا لله تعالى، ولهذا يسمى «إمام الحنفاء».

والشرك: دعوة وعبادة غير الله، وتسويته بالله فيما هو من خصائص الله، كما قال المشركون: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

الفوائد والأحكام:

١- إباحة كل الأطعمة لبني إسرائيل من الحيوان وغيره، قبل نزول التوراة، إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾.

٢- أن لله تعالى أن يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الآية.

٣- توسيع الله تعالى على بني إسرائيل قبل بغيهم، بإحلال كل الطعام لهم، وكانوا على شريعة إبراهيم عليه السلام، فلم يكن محرمًا عليهم سوى ما حرمه إسرائيل على نفسه.

٤- أن ما حرمه إسرائيل على نفسه حرمه بنوه وأحفاده من بعده حتى نزول التوراة.

٥- إثبات نزول التوراة من عند الله، وإثبات علوه- عز وجل- على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾.

٦- تبكيت اليهود والإشارة إلى أنهم سبب ما جاء من تحريم كثير من الأشياء عليهم في التوراة، وذلك بسبب بغيهم كما ذكر الله تعالى.

٧- إفحام اليهود وإقامة الحجة عليهم من كتابهم التوراة على جواز النسخ عقلًا وحصوله شرعًا حيث نسخت التوراة بعض الأحكام قبلها من إحلال كل الطعام لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، فحرمت عليهم أشياء كثيرة بسبب بغيهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قال ابن القيم[١]: ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالًا إنما هو بإحلال الله تعالى لهم على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التي كانت حلًا لبني إسرائيل وهذا محض النسخ».

وقال ابن كثير[٢]: «شرع في الرد على اليهود- قبحهم الله- وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله- عز وجل- قد نص في كتابه التوراة أن نوحًا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر، زيادة على ذلك، وكان الله- عز وجل- قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحًا في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعًا، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، ثم حرم ذلك عليهم في التوراة.

وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه، وكذلك ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الدين القويم وملة إبراهيم، فما لهم لا يؤمنون؟».

٨- الرد على اليهود في إنكارهم نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، بناء على إنكارهم النسخ، بدعوى أنه لا يمكن أن يأتي نبي بخلاف ما جاء به الذي قبله.

٩- أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم؛ لأن ملة إبراهيم لم يحرم فيها شيء من الأطعمة، بينما حرم على اليهود أشياء كثيرة في التوراة.

١٠- بلوغ الذين يفترون على الله الكذب ويردون الحق وينكرونه غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فأكد الظلم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠١).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٦٢-٦٣).

وحصره فيهم لبلوغهم من الظلم غايته.

١١- جرأة المكذبين من أهل الكتاب وغيرهم على افتراء الكذب على الله تعالى، ومن اجترأ على الكذب على الله فجرأته على الكذب على الرسول ﷺ وعلى سائر الناس من باب أولى.

١٢- أن الحجة لا تقوم على العباد إلا بعد البيان والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

١٣- وجوب تصديق الله، وإظهار القول بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ فأقواله- عز وجل- وأخباره صدق، وأحكامه عدل وحق، وفي هذا أيضًا: تعريض بكذب أهل الكتاب.

١٤- وجوب اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وإخلاص التوحيد لله تعالى والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: اتبعوا ملة إبراهيم في إخلاص التوحيد والبراءة من الشرك وأهله وعلى هذا الأصل اتفقت جميع الشرائع؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

أما من حيث فروع الشرائع فقد جعل الله لكل نبي شرعة ومنهاجًا؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة:٤٨].

١٥- فضيلة إبراهيم عليه السلام؛ لأن الله- عز وجل- أمرنا باتباعه وأثنى عليه، وجعله إمامًا وقدوة في إخلاص التوحيد لله تعالى والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣].

١٦- فضل التوحيد، وأنه سبب النجاة، وخطر الشرك؛ لأنه سبب الهلاك، مما يوجب على العبد صيانة جناب التوحيد، والحذر من الشرك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ أي: إن أسبق وأقدم بيت. والبيت في الأصل: بناء، يُؤوى إليه للسكن، أو للصلاة، أو غير ذلك. يكون من حجر، أو شجر، أو نسيج شعر أو صوف، أو من أدم، أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، يعني المساجد، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٨٠].

و«البيت» بالتعريف: علم على بيت الله الحرام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

كما أن «الكتاب» علم على كتاب الله القرآن الكريم.

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: وضع وأسس في الأرض للناس لعبادة الله- عز وجل- باستقباله في الصلاة والدعاء وغير ذلك، وللطواف والصلاة والاعتكاف، وغيرها من أنواع العبادة والنسك.

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي: لهو الذي ببكة، و«بكة» اسم من أسماء مكة، والبك: دق العنق، والتزاحم، وغير ذلك.

وسميت مكة بهذا الاسم، قيل: لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم، أي: تذلها وتدقها. وقيل: لأن الناس يتباكُّون فيها أي: يتزاحمون. وقيل: لأنه لا يوصل إليها إلا بمشقة وتعب، وقيل غير ذلك.

ويقال لها: «مكة»، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، ويقال لها: «أم القرى»، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

[الأنعام: ٩٢]، ويقال لها: «البلد الأمين»، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ٣]، ويقال لها: «البلد الحرام»(١).

والمراد بقوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ الكعبة. زادها الله شرفًا وتعظيمًا، ويقال له: «البيت الحرام»، «البيت المحرم»، «البيت العتيق»، «المسجد الحرام»، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال إبراهيم فيما حكى الله عنه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠].

وهو البيت الذي بناه إبراهيم الخليل- عليه السلام- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧].

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: «قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد»(٢).

﴿مُبَارَكًا﴾ حال من «بيت» أي: وضع للناس حال كونه مباركًا فيه، والبركة: كثرة الخير ودوامه، أي فيه البركة والخير الكثير الدائم، والمنافع العظيمة، التي لا تحصى شرعية وقدرية، حسية ومعنوية، دينية ودنيوية.

فهو أول بيت وضع للناس لعبادة الله مباركًا، وهو قبلة المسلمين منذ عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- ومقصد الحجاج والمعتمرين، تضاعف فيه الحسنات،

---

(١) كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وغيره وسيأتي ذكره قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٠)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥٣)، وأحمد (٥/ ١٥٠).

الصلاة فيه عن مائة ألف صلاة فيما سواه، كما جاء في الحديث(١)، وكذا سائر العبادات فيه أفضل منها في غيره.

من حجه ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه(٢)، وليس له جزاء إلا الجنة، ومن زاره كفرت ذنوبه(٣).

وأعظم هذه البركات بعثة محمد ﷺ فيه، الذي بعثه الله- عز وجل- رحمة للعالمين، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

ومن البركات الدنيوية: أمن من دخله، وجلب الأرزاق وجباية الثمرات إليه من كل حدب وصوب، بسبب دعاء إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

ومن البركات الدنيوية: ما يحصل فيه من المكاسب في أيام المواسم وغيرها وخاصة في موسم الحج، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومن بركاته أيضًا ماء زمزم الذي قال فيه ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**»(٤).

وقال فيه أيضًا: «**طعام طعم**»(٥).

---

(١) كما في حديث جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه» أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٦).

(٢) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩)، وأخرجه الترمذي في الحج، بنحوه (٨١١).

(٣) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٣٠٦٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

إلى غير ذلك من البركات والمنافع الدينية، والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٨].

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ معطوف على الحال السابقة، أي: حال كونه مباركًا وهدى للعالمين، أي: علامة ومنارًا يهتدي به الناس، وقبلة للتوجه إلى ربهم في الصلاة والدعاء، وعند القراءة والنوم، ويُوجهون إليها بعد مماتهم، كما قال ﷺ: «**البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتًا**»(١).

وفيه أداء مناسك حجهم وعمرتهم، وفيه الطواف والصلاة، والاعتكاف والتعبد لله- عز وجل- بأنواع العبادات، تهوي إليه أفئدة الناس، ويأتون إليه من كل فج عميق، ويجتمعون فيه، ويُعلم ويُرشد بعضهم بعضًا، وبذلك كله يزدادون هدى وإيمانًا.

قال ابن القيم(٢) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: «ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه هو نفس الهدى».

و(العالمين) في الأصل جمع «عالَم» وهم كل ما سوى الله، أي: كل ما خلق الله فهو «عالم» فعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الحيوانات، وعالم الجمادات، وغير ذلك.

وسمي الخلق بـ«العالمين» أخذًا من العلامة لأنهم عَلَمٌ على خالقهم، وكل منهم آية تدل على وجوده- عز وجل- وعظمته وربوبيته وألوهيته ووحدانيته، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟

---

(١) أخرجه أبوداود في الوصايا- التشديد في أكل مال اليتيم (٢٨٧٥)، من حديث عبيد بن عمير- عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٦).

لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد(١)

والمراد بـ(العالمين) في قوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ البشر؛ بنو آدم، وهم المكلفون، الذين ميزهم الله بالعقول التي هي مناط التكليف وكرمهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ الضمير يعود إلى البيت في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾.

أي: فيه علامات واضحات، ودلالات ظاهرات، من عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- إلى يومنا هذا- تدل على شرف البيت وعظمته- آيات شرعية، وهي الشعائر والمناسك التي تقام فيه كالحج والعمرة والهدي، وتأمين من دخله وغير ذلك، وآيات كونية، وهي المشاعر التي تقام فيها تلك الشعائر والمناسك؛ الكعبة ومقام إبراهيم، والصفا والمروة، وعرفة، ومزدلفة، ومنى، وغير ذلك.

قال ابن القيم(٢): «ما تضمنه من الآيات البينات، التي تزيد على أربعين آية».

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: بدل من (آيات)، أو عطف بيان، أي: من هذه الآيات البينات ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: مكان قيامه. واختلف المفسرون في المراد به، فذهب بعضهم إلى أن المراد بـ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم، ويناوله ولده إسماعيل

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٦).

الحجارة بعد أن ارتفع بناء البيت، وأثر قدميه فيه، والذي شرفه الله وعظمه، وأمر بالصلاة خلفه، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال أبو طالب في قصيدته اللامية(١):

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

قال ابن كثير(٢): «﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به، على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه، ويناوله ولده إسماعيل، وكان بجوار البيت، حتى أخره عمر بن الخطاب إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطُّوَّاف، ولا يشوشون على المصلين عنده، بعد الطواف، لأن الله أمرنا بالصلاة عنده».

وذهب بعضهم إلى أن المراد بـ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كل مقام قام فيه إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- في مناسك الحج، فيشمل المشاعر كلها. وهذا أولى لأنه يدخل فيه المقام المعروف، وكل مقام قامه إبراهيم- عليه السلام- في مناسك الحج.

ولهذا روى عطاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الحرم كله»، وفي رواية: «الحج كله»(٣).

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ الضمير في «دخله» يرجع إلى البيت، والمراد ما يشمل الحرم كله، بدليل النصوص الأخرى من الكتاب والسنة.

وجملة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يحتمل أن تكون تابعة لقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيكون من الآيات البينات في البيت أن من دخله كان آمنًا حتى في زمن الجاهلية، وهذا يوجب تأمينه في الإسلام؛ لأن الله أخبرنا بذلك وأقره.

ويحتمل أن تكون جملة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ مستأنفة، وهي خبر معناه: ومن دخله يجب أن يكون آمنًا فلا يعتدى عليه، ولا يتعرض له.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٩)، «خزانة الأدب» (٢/ ٦٢).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٦٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧١١).

وعلى هذا فالاحتمالان يتفقان على وجوب تأمين من دخل الحرم، وأن من دخله كان آمنًا، في الجاهلية والإسلام، آمنًا قدرًا، مؤمَّنًا شرعًا ودينًا(١). قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٣، ٤].

وحتى إن الله- عز وجل- أمّن الصيد فيه، وحرم تنفيره، وحرّم قطع شجره وحشيشه، عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنفر صيده، ولا تُلتقط لقطته إلا لمنشد، ولا يُختلى خلاه**»(٢). فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، لقينهم ولبيوتهم. فقال: «**إلا الإذخر**»(٣).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح**»(٤).

وعن أبي شريح العدوي- رضي الله عنه- أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولًا قام به رسول الله ﷺ، الغد من يوم الفتح سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي، حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول**

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٣٠٤)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٤٠٣).

(٢) أي: لا يجز ولا يحش حشيشه ونباته.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٤٩)، وفي الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٥، ٢٨٩٢)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣).

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٣٥٦).

الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب» فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخزية»(١).

ولهذا كانت مكة شرفها الله خير أرض الله وأحبها إلى الله- عز وجل- كما قال ﷺ- فيما رواه عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحَزْوَرة(٢) في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قرأ أبوجعفر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بكسر الحاء: ﴿حِجُّ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: «حَجُّ».

والجملة مستأنفة، و﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ مبتدأ مؤخر، وخبره ما قبله، إما قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾، أو قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذا أولى.

قال ابن القيم(٤): «والذي يقتضيه المعنى أن يكون- أي: الخبر- في قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه وجوب والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق. وعلى هذا ففي تقديم قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وليس بخبر فائدتان إحداهما: أنه اسم لموجِب الحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب. فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها الموجِب، لهذا الغرض، والثاني: مؤدي الواجب، وهو المفترض عليه، وهم الناس. والثالث: النسبة والحق

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٤)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٦)، والترمذي في الحج (٨٠٩).

(٢) «الحَزْوَرة» على وزن «قسورة» موضع بمكة عند باب الحناطين. انظر: «النهاية في غريب الحديث» مادة «حزر»

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٠٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٢-٥٠٣).

المتعلق به إيجابًا، وبهم وجوبًا وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان لله اسمًا سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفًا من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله ـ سبحانه- بمثابة ما أوجبه غيره».

واللام في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾ للاستحقاق، و«على» للوجوب، أي: يجب على الناس حقًّا لله أن يحجوا.

و﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: قصد البيت تعبدًا لله عز وجل؛ لأداء المناسك في وقت مخصوص.

والمراد بالناس المؤمنون منهم؛ لأن غير المؤمنين لا يقبل منهم الحج، بل ولا يمكنون من دخول الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «من»: موصولة، وهي بدل من «الناس»، بدل بعض من كل؛ لأن الناس، منهم المستطيع للحج، ومنهم غير المستطيع له، ووجوب الحج إنما هو على المستطيع، أي: من استطاع منهم طريقًا إلى البيت، ووصولًا إليه.

ونص في وجوب الحج على شرط الاستطاعة، مع أنها شرط في كل العبادات، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وكما قال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١)؛ وذلك لمشقة الوصول إلى البيت، وكثرة الأسباب التي قد تحول دون الحج- مما لا يوجد في غيره من العبادات- كبعد الديار، وقلة المال، وعدم معرفة الطريق، أو عدم أمنه، وغير ذلك.

ولهذا فإن في تقييد الحج بالاستطاعة والنص عليها ما ليس في غيره من رفع الحرج وجبر خاطر من لم يستطعه، وذلك معنى مقصود للشارع.

والاستطاعة: القدرة، وتشمل القدرة بالبدن، والقدرة بالمال، والقدرة بهما أي: من

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام- الاقتداء ببعض سنن الرسول ﷺ (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج- فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استطاع إليه سبيلًا بأي وجه من أوجه الاستطاعة، وبأي سبيل.

فمن استطاع الحج ببدنه بأن استطاع الوصول إلى البيت، وأداء المناسك ماشيًا وجب عليه ذلك، وإن لم يكن لديه مال. ومن استطاع الحج ببدنه وماله وجب عليه الحج، ومن استطاع الحج بماله دون بدنه وجب عليه أن ينيب من يحج عنه.

ومفهوم قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أن من لم يستطع السبيل إلى حج البيت فلا يجب عليه الحج، أي: من عجز عن الحج ببدنه وماله، بأن كان فقيرًا وضعيفًا في بدنه فهذا لا يجب عليه الحج؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، و«من»: شرطية، و«كفر»: فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويحتمل أن تكون «من» اسمًا موصولًا في محل رفع مبتدأ، أي: والذي كفر. وخبره جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقرنت بالفاء؛ لشبه الموصول بالشرط في العموم.

والكفر لغة: الستر والتغطية، وهو في الشرع نوعان[1]: كفر أكبر، مضاد للإيمان، ومخرج من الملة وموجب للخلود في النار، وهو أقسام خمسة:

١- كفر تكذيب وجحود، وهو اعتقاد كذب الرسل فيما جاؤوا به من عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧].

٢- كفر استكبار وإباء- مع التصديق، ككفر إبليس- لعنه الله، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، ومنه كفر اليهود، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٣٥)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٥-٣٧٩)، «الدرر السنية» (٢/ ٧٠-٧١)، «عقيدة التوحيد» ص(١٠٠-١٠١)، وانظر: «لسان العرب» مادة «كفر».

٣- كفر الإعراض بأن يعرض الإنسان عن الرسول ﷺ، بسمعه وقلبه، ولا يصدقه، ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء إليه البتة.

٤- كفر الشك، بأن لا يجزم بصدق الرسول، ولا بكذبه، بل يشك في أمره. قال ابن القيم: «وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة».

٥- كفر النفاق، وهو أن يظهر الإيمان بلسانه، وينطوي بقلبه على التكذيب، وهذا هو المنافق.

والنوع الثاني من أنواع الكفر: الكفر الأصغر، الذي لا يُضاد الإيمان بالكلية، ولا يُخرج من الملة، ولا يُخلد صاحبه في النار، وإنما يوجب استحقاق الوعيد، كما في قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**»[(٣)].

ومن الكفر الأصغر كفر النعمة وعدم شكرها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومعنى الآية: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي: أن من حج عند الاستطاعة فقد أدى فريضته، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فأنكر وجحد وجوب الحج، وهذا لا إشكال في كفره، حج، أو لم يحج، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٤)]: «وكل من لم ير حج البيت واجبًا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين، كما دل عليه القرآن».

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ هذه الفريضة، فريضة الحج، فلم يحج مع الاستطاعة،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢)، من حديث جرير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٣٠٥، ٣٣٦).

وهذا بلا شك متعرض للوعيد، ولو لم يجحد وجوب الحج، كما هو ظاهر الآية.

عن عبدالرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهوديًّا أو نصرانيًّا»(١).

وعن الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار، فينظروا كل من له جدة فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين»(٢).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ أي: له الغنى الكامل التام من كل وجه.

﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن كل أحد، من جميع خلقه، ليس بحاجة إليهم، ولا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا...**»(٣).

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: «فإن الله غني عنه، أو عنهم»، وذلك لإظهار عموم غناه- عز وجل- عنهم، وعن غيرهم من الخلق.

قال ابن القيم(٤) في كلامه على الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية: «أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه: أحدها: أنه قدّم اسمه تعالى، وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم، الداخلة

---

(١) أخرجه أبوبكر الإسماعيلي- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٠)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه»- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٠).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٥).

عليها حرف «على»، ثم أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكّر السبيل في سياق الشرط، إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلًا، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: بعد التزام هذا الواجب وتركه، ثم عظّم الشأن، وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكّد ذلك بذكر اسم العالمين عمومًا، ولم يقل: فإن الله غني عنه؛ لأنه إذا كان غنيًّا عن العالمين كلهم، فله الغنى الكامل التام من كل وجه، عن كل أحد، بكل اعتبار، وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكّد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التوكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم».

الفوائد والأحكام:

١- أن أول بيت وضع للناس لعبادة الله هو الكعبة شرفها الله، التي في مكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ فهو قبل المسجد الأقصى والمسجد النبوي.

وفي الحديث أنه ﷺ سئل أي المساجد بُني أول؟ فقال: «المسجد الحرام»، قيل: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس»، قيل: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»(١).

٢- عظم مكانة البيت الحرام، وفضله على المسجد الأقصى، والمسجد النبوي، وسائر المساجد؛ لأنه أول بيت وضع للناس يستقبلونه ويتعبدون فيه- منذ عهد إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- شرفه الله وعظمه، وأضافه لنفسه، وبارك فيه، وجعله هدى للعالمين، وجعل فيه آيات بينات، منها مقام إبراهيم، وأمّن من دخله، وأوجب على الناس حجه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة، فيما سواه**»(١).

٣- أنه كلما كان المسجد أقدم في بنائه والصلاة فيه فهو أفضل؛ لأن مما فضل به البيت الحرام على غيره كونه أول بيت وضع للناس لعبادة الله، لكن قد يُفَضَّلُ غير الأقدم لاعتبارات أخرى.

٤- حكمة الله- عز وجل- التامة في وضع البيت للناس لحاجتهم إلى بيت يكون قبلة ومتعبدًا لهم، ولهذا وضع الله- عز وجل- لهم هذا البيت المبارك بمكة، تأوي إليه أفئدتهم ويقصدونه من كل حدب وصوب ومن كل فج عميق.

٥- أن من أسماء مكة- شرفها الله-: «بكة»؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، كما أن من أسمائها: «مكة»، و«أم القرى»، و«البلد الأمين» و«البلد الحرام» وغير ذلك.

٦- بركة البيت الحرام، وكثرة خيراته ومنافعه، الدينية والدنيوية، الحسية والمعنوية؛ لأن الله وضعه مباركًا؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾.

٧- أن الله- عز وجل- وضع البيت ليكون منارًا للعالمين يهتدون به، وقبلة للتوجه إلى ربهم في صلاتهم وعباداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

٨- أن في هذا البيت آيات بينات، ودلالات ظاهرات شرعية، وهي الشعائر والمناسك التي تقام فيه، كالحج والعمرة، والهدي، وتأمين من دخله، وغير ذلك، وفيه آيات كونية، وهي المشاعر التي جعلها الله محلاً لتلك الشعائر والمناسك، منها البيت، ومقام إبراهيم، والصفا والمروة، وعرفة، ومزدلفة، ومنى، وغير ذلك؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٦).

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

٩- أن من أعظم الآيات البينات التي فُضِّل وشُرِّف بها البيت الحرام ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أماكن قيامه- عليه الصلاة والسلام، عند بناء البيت، وفي أداء المناسك، وتنقلاته في الحج.

١٠- فضل إبراهيم- عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله عظم مقامه، وجعله قدوة للناس في كل مقام قامه، وفي أداء المناسك.

١١- وجوب تأمين من دخل البيت الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ ولهذا حرّم عز وجل القتال فيه، إلا على سبيل الرد والمدافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: ١٩١]، وهذا يدل على أن حرمة المسلم أعظم من حرمة المسجد الحرام.

كما حرم عز وجل- تعظيمًا لحرمة البيت- تنفير صيده، وقطع شجره وحشيشه، كما قال ﷺ: «**لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد، ولا يختلى خلاه**»(١).

وإنما أبيح القتال فيه لرسول الله ﷺ ساعة من نهار، عام الفتح؛ لحمايته، وتوطيد أمنه، وتطهيره من الشرك والأصنام، ودفع ظلم أهل الشرك عنه، حيث منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من العمرة عام الحديبية، وقد عادت حرمته بعد ذلك، فهو حرام بحرمة الله، إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: «**إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أحلها لرسوله، ولم يحلها لكم**»(١).

لكن الحرم لا يؤوي محدثًا، ولا يعيذ عاصيًا. ولهذا لما أُخبر رسول الله ﷺ أن ابن

---

(١) سبق تخريجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

خطل متعلق بأستار الكعبة، قال ﷺ: «**اقتلوه**»(١).

وفي حديث أبي شريح أنه لما ذكر لعمرو بن سعيد حديث تحريم مكة، وكان عمرو يبعث البعوث إلى مكة، قال عمرو: «**يا أبا شريح: إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخزية**»(٢).

١٢- وجوب الحج على كل من استطاع إليه سبيلًا، ببدنه، أو بماله وبدنه، أو بماله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

وهو ركن من أركان الإسلام ومبانيه العظام، كما قال ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «**أيها الناس، قد فُرض عليكم الحج فحجوا**» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم**». ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أُهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»(٤).

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحج**»، فقام الأقرع بن حابس، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ قال: «**لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فما زاد فهو تطوع**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٤٦)، ومسلم في الحج (١٣٥٧)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٨٥)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٦٧)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وأحمد (٢/ ٥٠٨).

(٥) أخرجه أبوداود في المناسك (١٧٢١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٠)، وابن ماجه في المناسك =

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قالوا: يا رسول الله، الحج في كل عام؟ قال: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها لعذبتم**»(١).

ولهذا قال ﷺ لنسائه في حجته: «**هذه ثم ظهور الحصر**» يعني: ثم الزمن ظهور الحصر، ولا تخرجن من البيوت(٢).

ومن شرط الاستطاعة عند المرأة وجود محرم لها؛ لأنه لا يجوز للمرأة أن تسافر مطلقًا بدون محرم، لا لحج، ولا لغيره، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم**» فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال ﷺ: «**انطلق فحج مع امرأتك**»(٣).

فإذا كانت المرأة قادرة ببدنها ومالها ووجدت محرمًا وجب عليها الحج، وإن لم تجد محرمًا فلا يجب عليها الحج بنفسها، لكن هل يلزمها أن تنيب من يحج عنها إذا كانت قادرة بمالها أو ببدنها ومالها؟ اختلف أهل العلم في هذا على قولين:

فمنهم من قال: لا يلزمها؛ لأن الحج لا يجب عليها شرعًا إلا بوجود محرم لها، وإذا لم يوجد المحرم فلا حج عليها.

ومنهم من قال: يلزمها أن تنيب؛ لأن وجود المحرم إنما هو شرط للأداء، وليس بشرط للوجوب فالحج واجب عليها بوجود القدرة المالية، أو البدنية والمالية، لكن أداءه لا يجب عليها إلا بوجود المحرم، وإذا لم يوجد المحرم وجب عليها أن تنيب من يحج عنها، وإذا ماتت والحال هذه وجب إخراج أجرة الحج من تركتها.

والأظهر القول الأول، وعلى هذا فلا يجوز إخراج قيمة الحج من مالها إذا ماتت؛ لأنه قد صار إلى الورثة، والحج ليس بواجب عليها شرعًا.

واختلف أهل العلم هل الحج واجب على الفور أم على التراخي، فذهب بعضهم

=

(٢٨٨٦)، والحاكم (٢/ ٢٩٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك- فرض الحج (٢٨٨٥).

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٧٢٢)، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٨٦٢)، ومسلم في الحج (١٣٤١)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٠).

إلى أنه على التراخي؛ لأن الحج فرض في السنة التاسعة، فأمر ﷺ أبا بكر أن يحج بالناس في تلك السنة، ولم يحج ﷺ إلا في السنة العاشرة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحج واجب على الفور وهو الأحوط؛ لأن الإنسان ما يدري ما يعرض له.

١٣- أن الحج لا يجب على من لم يستطع إليه سبيلًا؛ لعجزه في بدنه، وماله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

١٤- في تقييد وجوب الحج بشرط الاستطاعة والنص عليها ما ليس في غيره من رفع الحرج وجبر خاطر من لم يستطعه، وذلك معنى مقصود للشارع.

١٥- سماحة الدين الإسلامي، ويسر تعاليمه، وعدم تكليفه ما لا يستطاع، وذلك من رحمة الله عز وجل بهذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

١٦- كفر من ترك الحج مع الاستطاعة؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر وجوب الحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن جحد وجوب الحج فهو كافر الكفر الأكبر المخرج من الإسلام، يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتدًّا.

واختلف أهل العلم فيما إذا ترك الحج غير جاحد لوجوبه، فذهب بعضهم إلى أنه يكون كافرًا كفرًا أكبر، كمن جحد وجوبه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنه لا يكفر كفرًا أكبر، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ومن كفر هذه الفريضة، أي: فريضة الحج، فلم يؤدها، فهو كفر دون كفر، كما في قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(١)، وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١).

وقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس، هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على**

(١) سبق تخريجه.

الميت»[١]، وقوله ﷺ: «فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم»[٢].

ويقوي هذا القول ما رواه عبدالله بن شقيق، قال: «كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[٣].

ولا شك أن من ترك الحج مع الاستطاعة متعرض للوعيد الشديد، ويخشى عليه الموت على غير الإسلام، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام»[٥].

١٧- غنى الله- عز وجل- الكامل التام عن جميع خلقه، فلا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفي المقابل فإن العالمين كلهم هم الفقراء إليه- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٢٨)، ومسلم في الإيمان (٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان- ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢٢).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» (١/ ٣٠٥).

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ في الموضعين، وصدر بـ﴿ قُلْ ﴾ للعناية والاهتمام والتوكيد، و«يا» في الموضعين حرف نداء، وصدر خطاب أهل الكتاب بالنداء لهم للتنبيه على عظم الأمر، وخطورته.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، سموا بذلك لأن الله- عز وجل- أنزل عليهم الكتاب، فأنزل على اليهود «التوراة»، وأنزل على النصارى «الإنجيل».

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

واللام: حرف جر و«ما» استفهامية، وحذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، أي: لماذا تكفرون بآيات الله، وتجحدونها، وتكذبون بها.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، فالآيات الكونية سميت آيات لدلالتها على وجود خالقها وعظمته ووحدانيته، وكماله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون من سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

والآيات الشرعية سميت آيات، لدلالتها على صدق من جاء بها، وأنها من عند الله، بكونها صالحة لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، لا اختلاف فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

والمراد بقوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيات الكونية والشرعية.

والكفر بالآيات الكونية بإنكار خالقها- كما يزعم أهل الإلحاد، أو اعتقاد شريك

مع الله عز وجل أو معين في خلقها، كما يزعم أهل الشرك.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

والكفر بالآيات الشرعية يكون بتكذيبها وجحودها، أو بمخالفتها وعدم اتباعها؛ إما استكبارًا وإباءً، وإما إعراضًا عنها، وإما شكًّا فيها، وإما نفاقًا بإظهار الاتباع مع التكذيب بها باطنًا.

﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ الواو: حالية، فالجملة داخلة ضمن التوبيخ في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم تكفرون بآيات الله، والحال أنكم تعلمون أنه شهيد على عملكم.

ويحتمل أن تكون الواو استئنافية، فتكون الجملة مستأنفة للتهديد والوعيد.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهد مطلع رقيب حفيظ، و«شهيد» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على عظم شهادته عز وجل.

﴿ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ «ما» مصدرية، أي: على عملكم، أو موصولة، أي:على الذي تعملونه، وهي تفيد العموم، أي: والله شهيد ومطلع على أعمالكم، وفي هذا من الوعيد ما فيه لأهل الكتاب؛ لأنه- عز وجل- إذا كان شهيدًا على أعمالهم، مطلعًا عليها، من كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ومخالفتهم لها، فسيحصيها عليهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- النبي ﷺ في الآية السابقة بتوبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله، بأنفسهم، ثم أمره بتوبيخهم على ما هو أشد من ذلك، وهو عدوانهم بصد غيرهم عن سبيل الله.

قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ لم تصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن دين الله وشرعه الذي شرعه، وصراطه المستقيم الموصل إليه، وإلى مرضاته.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، «من»: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول لـ«تصدون» أي: تصرفون عن دين الله الذي آمن به، وهم في الحقيقة يصدون من آمن فيخرجونه من الإيمان، ويصدون من لم يؤمن فيمنعونه من الدخول في الإيمان.

ولهذا قال: «تصدون»، ولم يقل «تخرجون» ونحوه؛ لأن الصد يكون لمن آمن ولمن لم يؤمن. وإنما ذكر صدهم من آمن، لأنه أشد وأعظم، وهو أيضًا سبب لصد من لم يؤمن؛ لأن من رأى الناس يخرجون من الدين زهد في الدخول فيه.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونكم تبغونها عوجًا.

و«عوجًا» مفعول به ثانٍ لـ«تبغونها»، أو حال. يقال في المعاني «عِوَج» بكسر العين، اسم مصدر، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢]، ويقال في الأعيان: «عَوَج» بفتح العين، مصدر، فيقال: «حائط عَوَج»، و«سور عَوَج».

و«العِوج» و«العَوج» بالكسر والفتح: الميل، ضد الاستقامة، قال الشاعر:

تمرون الديار ولم تعوجوا ... كلامكمُ عليّ إذًا حرام[1]

أي: ولم تميلوا.

والضمير في «تبغونها» يعود إلى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: تطلبون السبيل وتريدونها ﴿عِوَجًا﴾ أي: مائلة عن الحق معوجة، غير مستقيمة، بسلوك ما أنتم عليه من الكفر والضلال، والتهاون والتفريط فيما أمر الله به، أو الغلو والإفراط فيه، وارتكاب ما نهى الله عنه، مخالفة لهدي الله القويم، وصراطه المستقيم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ

(١) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (ص ٢٦٨).

ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦، يوسف: ٤٠، الروم: ٣٠].

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ الواو للحال، أي: والحال أنكم شهداء، تشهدون على أنكم تصدون عن سبيل الله، وتبغونها عوجًا؛ لعلمكم بصدق محمد ﷺ، وأنه يدعو إلى سبيل الله ودينه الحق، وأنتم شهداء على ذلك، بشهادة كتب الله- عز وجل- المنزلة على أنبيائكم.

فهم شهداء على أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا؛ لأنهم يعرفون الحق ويخالفونه استكبارًا وعنادًا، وهم شهداء على صدقه ﷺ بشهادة كتبهم المنزلة عليهم، لكنهم جحدوا هذه الشهادة وأنكروها، وكانوا أول كافر به، كما قال تعالى مخاطبًا لهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: حالية، و«ما» نافية، و«ما» في قوله ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ موصولة، أو مصدرية. أي: وما الله بغافل عن عملكم، أو عن الذي تعملونه، وهي تفيد العموم، أي: وما الله بغافل عن جميع الذي تعملونه من الصد عن دين الله، وابتغاء العوج، وغير ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بأنه- عز وجل- سيحصي عليهم أعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصفات السلبية، التي تدل على كمال ضدها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لإثبات كمال حياته- عز وجل- وهكذا قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يتضمن مع نفي أن يكون- عز وجل- غافلًا عما يعملون يتضمن إثبات كمال رقابته على أعمالهم، وعلى كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

بعدما وبخ عز وجل أهل الكتاب، وتوعدهم وهددهم على كفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيله من آمن، وابتغائهم الطريق العوج، حذر المؤمنين من طاعتهم.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب «ها» للتنبيه، و«الذين» صفة لـ«أي» أو بدل منها، وصدر خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم بوصف الإيمان؛ تكريمًا وتشريفًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من توجيهات من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

وقد فرق عز وجل بين خطاب المؤمنين، وخطاب أهل الكتاب، فخاطب المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بغير واسطة تشريفًا وتفضيلًا لهم، بينما خاطب أهل الكتاب بواسطة، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب، والمراد من لم يؤمن منهم، وهم أكثرهم، أي: إن تطيعوا طائفة من اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه.

وقوله: ﴿ فَرِيقًا ﴾ يدل على أن أهل الكتاب ليس كلهم على هذا الوصف؛ لأن منهم من آمن، فآمن من النصارى النجاشي، وآمن من اليهود عبدالله بن سلام رضي الله عنهما.

﴿ يَرُدُّوكُم ﴾ يرجعوكم ﴿ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾؛ لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، ويودون رد المؤمنين كفارًا، ويعملون على ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وفي قوله: ﴿ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ إشارة إلى أنهم يبذلون ما في وسعهم لإخراج المؤمنين عن دينهم، كما أنهم يسعون في صد من لم يؤمن عن الإيمان، وأنهم لا يقنعهم حتى يردوا المؤمنين عن دينهم، إلى ما هم عليه من الكفر؛ لأنهم حرفوا وبدلوا، وأشركوا مع الله «عزيرًا» و«المسيح».

لكنهم يتدرجون في الوصول إلى ذلك بالسعي أولًا، لإفساد عقائد وأخلاق

المسلمين، بما يثيرون من الشبه، وما ينشرون من الرذائل؛ لتزهيد المسلمين في دينهم، وإخراجهم منه، فإذا صار الواحد منهم بلا دين سهل عليهم اقتناصه لدينهم.

وقد مكثتْ إحدى حملاتهم التنصيرية في مصر سنتين لم يعتنق النصرانية مسلم واحد، فشكا قائد الحملة إلى أحد بطارقتهم، فقال له: أنا لا أريدك أن تخرج المسلمين من الإسلام وتدخلهم في النصرانية، هذا أمر صعب، أنا أريدك أن تخرجهم من الإسلام، فإذا خرجوا منه سهل علينا اقتناصهم للنصرانية. وصدق الله العظيم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«كيف» للاستفهام. ومعناه الاستبعاد، أي: يُستبعد أن تكفروا، وحاشاكم أن تكفروا، وفيه معنى: التحذير أيضًا.

﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ الواو للحال، أي: والحال أنكم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: تقرأ عليكم آيات الله، القرآن الكريم.

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يعيش بين أظهركم، يدعوكم ويعلمكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع(١)

فهذان وازعان لهم من الكفر: آيات الله، ورسوله.

ويحتمل كون الاستفهام في الآية بمعنى التعجب، أي: كيف يمكن أن تكفروا وأنتم تقرأ عليكم آيات الله القرآن الكريم، ورسول الله بين أظهركم وهو تعجب من حالهم، وتوبيخ لهم لو حصل منهم ذلك، وحاشاهم من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٥٥)- عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

والآية على الاحتمالين فيها تيئيس لأهل الكتاب من رجوع المسلمين عن دينهم مهما حاول أهل الكتاب، كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟ قالوا: الملائكة. قال: وكيف لا يؤمنون، وهم عند ربهم؟! وذكروا الأنبياء. قال: وكيف لا يؤمنون، والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: وكيف لا تؤمنون، وأنا بين أظهركم؟ قالوا: فأي الناس أعجب إيمانًا؟ قال: قوم يجيئون من بعدكم، يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها**»(١).

وفي رواية أنه قال ﷺ: «يا أيها الناس من أعجب الخلق إيمانا؟ قالوا: الملائكة. قال: وكيف لا يؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر؟ قالوا: فالنبيون يا رسول الله. قال: وكيف لا يؤمن النبيون والوحي ينزل عليهم من السماء؟ قالوا: فأصحابك يا رسول الله. قال: وكيف لا يؤمن أصحابي وهم يرون ما يرون؟ ولكن أعجب الناس إيمانا قوم يجيئون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، أولئك إخواني»(٢).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(٣).

---

(١) الحديث في «جزء ابن عرفة» (ص٥٢ رقم ١٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ٥٣٨)؛ من حديث عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.

وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧١) وقال: «وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري، ولله الحمد».

وروي معناه من حديث عمر بن الخطاب وابن عباس وأنس رضي الله عنهم. انظر: «مسند أبي يعلى» (١/ ١٤٧ رقم ١٦٠)، «مجمع الزوائد» (١٠/ ٦٥ رقم ١٦٦٨٩)، «المعجم الكبير» للطبراني (١٢/ ٨٧ رقم ١٢٥٦٠)، «شرح مشكل الآثار» (٦/ ٢٦٩ رقم ٢٤٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٨٧ رقم١٢٥٦٠).

(٣) سبق تخريجه.

قال ابن عباس: «ولن يجد أحد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»(١).

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يعبده، ويتمسك بحبله، ويستعن به، ويتوكل عليه، كما في قول المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: فلا يُخشى عليه من الضلال، وهذه الجملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ والفاء: رابطة لجواب الشرط لاقترانه بـ«قد».

و«هُدي» بالبناء للمفعول، أي: كُتبت له الهداية أزلًا في اللوح المحفوظ، ووفق لها عملًا باعتصامه بالله، دُلَّ على الحق، ووفِّق إليه، وفيه.

وذلك؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهذه عامة، فالله هاد بهذا المعنى، أي: دال ومرشد كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: دللناهم وأرشدناهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

والرسل والدعاة إلى الله هداة بهداية الله- عز وجل- كما قال تعالى مخاطبًا نبينا محمدًا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال إبراهيم- عليه السلام- لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ [مريم: ٤٣]، وقال موسى- عليه السلام- مخاطبًا فرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى:

---

(١) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٧٩).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [غافر: ٣٨].

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله- عز وجل- كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ولعل الحكمة في مجيء الفعل «هُدي» مبنيًا للمفعول محذوفًا فاعله؛ ليشمل نوعي الهداية وطرقها.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ قرأ ابن كثير في رواية قنبل في جميع القرآن بالسين: «سراط»؛ معرفًا ومنكرًا. وقرأ حمزة بإشمام الصاد زايًا، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة: ﴿صِرَٰطٍ﴾.

ونُكّر الصراط في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعظيمًا له وتفخيمًا.

و«الصراط» الطريق الواضح الواسع المسلوك.

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ معتدل مستوٍ، غير معوج، يوصل إلى الغاية بأقرب وقت، وأقصر مسافة، لا انحراف فيه يمينًا أو شمالًا يزيد في مسافته، ويعرض للضياع، ولا نزول فيه ولا ارتفاع، يزيد في مسافته، ويشق على سالكيه بالنزول والارتفاع، قال جرير[1] يمدح هشام بن عبدالملك:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

والمستقيم في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين.

والمعنى: ومن يعتصم بالله عبادة له، وتمسكًا بكتابه، وسنة رسوله ﷺ، واستعانة بالله- عز وجل- وتوكلًا عليه، فقد هُدي ووفق إلى طريق واضح معتدل لا اعوجاج فيه، وهو صراط الله، الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥٣].

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٢١٨)

وهو الذي يهدي ويدعو إليه رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].

قال ابن كثير[١]: «فالاعتصام بالله، والتوكل عليه، هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد».

ولكن المصيبة كل المصيبة عدم تحقيق الاعتصام بالله لدى كثير من المسلمين، وما أصاب الأمة ما أصابها من الضعف على مستوى الأفراد والجماعات والدول، وما ابتلي كثير من المسلمين بما ابتلي به إلا بسبب عدم تحقيق الاعتصام بالله وبكتابه وسنة رسوله ﷺ.

فبسبب ذلك وقع كثير من المسلمين في كثير من البلاد الإسلامية في الشرك ودعاء غير الله والاستغاثة به.

وبسبب ذلك حصل التفريط في كثير من الواجبات؛ وأعظمها الصلاة عمود الإسلام، والزكاة، وصلاة الجماعة وغير ذلك من حقوق الله، وحقوق الخلق.

وبسبب ذلك تساهل كثير من المسلمين في الوقوع في المحرمات كالربا والمعاملات المحرمة والمشتبهة، والزنا، والعقوق، وقطيعة الرحم والغيبة والنميمة، والحسد والعداوة والبغضاء والظلم والكذب وشهادة الزور، وغير ذلك.

وبسبب ذلك وئدت وحدة المسلمين تحت شعارات ما أنزل الله بها من سلطان فرقت المسلمين، وجعلتهم شيعًا وأحزابًا وجماعات يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام.

وبسبب ذلك انحرف فئام من أبناء المسلمين، ووقعوا في حبائل أعداء الإسلام، وخرجوا على الأمة وعلمائها وولاتها بالتكفير والتفجير.

ولن يصلح آخر هذه الآمة إلا ما أصلح أولها. فمن اعتصم بالله حقًّا، فعظَّم الله- عز وجل- وحقق توحيده، وأدى حقوقه التي من أعظمها بعد التوحيد إقامة الصلاة إقامة تامة كما شرع الله- عز وجل- مع جماعة المسلمين، وأدى حقوق الخلق؛ من الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب وغيرهم، وحقوق الأمة التي يتولاها، وتدبر كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ، فهو مهدي محفوظ بحفظ الله عز وجل؛ ولهذا

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٧١).

قال- عز وجل- مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾، أي: إن هذا يكاد يستحيل.

وهكذا كل من تمسك بكتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ فهو محفوظ بحفظ الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بتوبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٢- وجوب الإيمان بآيات الله- عز وجل- الكونية والشرعية؛ لأن الله- عز وجل- أمره ﷺ بتوبيخ من أنكروها.

٣- إثبات شهادة الله- عز وجل- واطلاعه التام، على ما يعمله أهل الكتاب وغيرهم من الكفر بآيات الله وتكذيبها ومخالفتها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

٤- تهديد من يكفر بآيات الله ويكذبها ويخالفها من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو- عز وجل- شهيد على أعمالهم يحصيها عليهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

٥- توبيخ أهل الكتاب على صدهم عن سبيل الله ودينه من آمن به، ومن أراد الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾.

٦- أن ما جاء به محمد ﷺ هو دين الله وصراطه الذي يجب اتباعه، لهذا سماه- عز وجل- سبيله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

٧- إرادة أهل الكتاب سلوك الناس الطريق العوج، وهو ما هم عليه من الباطل والمخالفة للحق والعدول عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

وهكذا يريد كل دعاة الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

٨- أن كل من سعى في صد الناس عن دين الله، وأراد الطريق العِوج من دعاة التغريب وغيرهم ففيه شبه من اليهود والنصارى؛ لأن هذا مسلكهم.

٩- أن إخراج من دخل في دين الله وحمله على الارتداد، أعظم وأشد من منع من أراد الدخول فيه، كما أنه سبب للمنع من الدخول فيه، لهذا خصه- عز وجل- بالذكر فقال: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾.

١٠- شهادة أهل الكتاب على أنفسهم أنهم يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، وأنه ﷺ يدعو إلى سبيل الله ودينه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ وإنما منعهم من اتباعه ﷺ الاستكبار والحسد.

١١- كان الواجب على أهل الكتاب عدم الصد عن سبيل الله وعدم ابتغاء العوج؛ لأنهم يعلمون أنهم على الباطل، وأنه ﷺ على الطريق الحق.

١٢- إثبات كمال رقابة الله عز وجل على أعمال أهل الكتاب وغيرهم، وأنه ليس بغافل عما يعملون، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

١٣- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده وهو عدم طاعة أهل الكتاب من مقتضيات الإيمان، وعدم ذلك نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

١٤- تحذير المؤمنين من طاعة دعاة الكفر، من أهل الكتاب، وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

فلا يجوز الاغترار بما يبدونه من الصداقة والمودة، فهم أعداء مهما أظهروا من ذلك كما

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

١٥- حرص الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على رد المسلمين عن دينهم إلى ما هم عليه من الكفر، وأنهم لا يقنعون منهم بدون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولأجل ذلك تجدهم يسعون بشتى الوسائل لإفساد عقائد وأخلاق المسلمين ويدسون السم في الدسم، فيدعون إلى إخراج المرأة من بيتها وسفورها باسم تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها، ويدعون إلى مصادرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باسم الحرية وعدم التدخل في شؤون الآخرين، ويزينون للناس الربا والقمار والمكاسب الخبيثة بدعوى حرية الكسب وتنمية المال ونحو ذلك.

ويدعون إلى تعطيل الحدود في الإسلام، ويصمونها بالوحشية كقتل القاتل، ورجم الزاني أو جلده، وقطع يد السارق، وجلد القاذف وشارب الخمر بدعوى الدفاع عن حقوق الإنسان، وكأنهم أرحم بالإنسان من خالقه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

يرحمون المجرمين، ولا يرحمون المجتمع بأسره من شرور المجرمين، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

١٦- أن السبب في تسلط الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المؤمنين، هو إيمانهم بالله وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

١٧- أن من أهل الكتاب من آمن فلا يسعى في رد المسلمين إلى الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. ومفهوم هذا أن فريقًا منهم ليسوا كذلك.

١٨- استبعاد كفر المؤمنين، وآيات الله تتلى عليهم، ورسوله ﷺ بين أظهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ والتعجيب والتحذير من أن يحصل شيء من ذلك، والتوبيخ لمن فعله؛ لأن الحجة عليه أقوم، وذنبه أعظم- وحاشاهم رضي الله عنهم من ذلك- وإنما سيقت الآيات لتيئيس كفار أهل الكتاب من ارتداد المؤمنين؛ ولهذا لم تقع الردة إلا بعد موته ﷺ من بعض الأعراب، وممن لم يتمكن الإيمان من قلوبهم.

١٩- أن القرآن الكريم هو آيات الله الدالة على كماله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى صدق من جاء به من عند الله- عز وجل- المعجز بأقصر سورة منه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- أن من بلغه القرآن قامت عليه الحجة، سواء تلاه عليه الرسول ﷺ، أو غيره؛ لقوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ﴾ أي: يتلوها الرسول ﷺ أو غيره، ممن يبلغ عنه.

٢١- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بإضافته إليه عز وجل- في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾.

٢٢- أن في كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ العصمة- بإذن الله لمن تمسك بهما من الكفر والضلال.

٢٣- أن من اعتصم بالله- عز وجل- عبادة له وتمسكًا بحبله، واستعانة به وتوكلًا عليه، فقد كتبت له الهداية إلى الصراط المستقيم أزلًا في اللوح المحفوظ، وعملًا في هذه الحياة، أُرشد إلى الحق، ووفق إليه، وفيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

٢٤- الحث على الاعتصام بالله؛ عبادة له، وتوكلًا عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

٢٥- في تنكير «صراط» في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تعظيم له، لأنه صراط الله المؤدي إلى الله- عز وجل- ومرضاته، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا وصفه بأنه ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: معتدل لا عوج فيه.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام على هذا.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

والتقوى: مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الشيء الضار، أوالمخوف وقاية، فتتقي البرد بلبس الملابس الثقيلة، وتتقي الشوك بلبس النعلين، وهكذا.

وأصلها: «وَقْوى» قلبت الواو تاء؛ لعلة تصريفية.

وتقوى الله- عز وجل- هي وصيته للأولين والآخرين، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١].

قال الشاعر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا

﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: حق تقواه، بقدر استطاعتكم وجهدكم، كما قال تعالى في سورة التغابن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الآية: ١٦].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»(١).

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ١٢٩)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩٧، ٢٩٨)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٧٤٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٢٨- الأثر ٢٩٩)، والطبراني (٨٥٠١)، والحاكم (٢/ ٢٩٤). وهو صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ولا غضاضة في أمر المؤمنين بتقوى الله- عز وجل- فقد أمر الله بها نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وهو ﷺ أتقى الناس لربه، كما قال ﷺ: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»(١).

ولما قال أحدهم للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اتق الله» أنكر عليه بعض الحاضرين، وقال: كيف تقول لأمير المؤمنين «اتق الله»؟ فقال عمر رضي الله عنه: «دعه، فليقلها، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»(٢).

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، و«تموتن» فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والنون المذكورة للتوكيد.

﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ استثناء من أعم الأحوال، أي: ولا تموتن على حال من الأحوال إلا على حال كونكم مسلمين.

والمراد بالإسلام ما يشمل الإيمان، أي: إلا وأنتم مسلمون ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل معه الآخر. أي: ولا تموتن إلا على الإسلام.

والنهي عن الموت إلا على الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام طوال الحياة، أي: بادروا إلى الإسلام، والزموه، واثبتوا عليه إلى الموت؛ لأن العبرة بالخاتمة، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

والمرء ما يدري متى يفجأه الموت، وقد قيل:

كل امرئٍ مُصَبَّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله(٣)

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن

=

وروي مرفوعًا. انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧١).

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الفقه الإسلامي وأدلته» (٨/ ٣٣٢).

(٣) البيت لحكيم النهشلي. انظر: «البيان والتبيين» (٣/ ١٢٦).

يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(١).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(٢).

لكن من عاش مستمسكًا بالإسلام فهو حري أن يحفظه الله حتى يتوفاه على ذلك- بكرمه- عز وجل- وفضله.

ويؤيد هذا ما جاء في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة- فيما يبدو للناس- وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»(٣).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**»(٤).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء- خلق آدم صلوات الله وسلامه عليه وذريته (٣٣٣٢)، ومسلم في القدر- كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان (١١٢).

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٧)، وأبوداود في الجنائز (٣١١٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٧).

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر (٢٦٧٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٨)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٢).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كان رجل من الأنصار مريضًا، فجاءه النبي ﷺ يعوده، فوافقه في السوق فسلم عليه، فقال له: «**كيف أنت يا فلان**»؟ قال: بخير يا رسول الله، أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**»(١).

والله- عز وجل- لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فالغالب أن من عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه؛ ولهذا فإن من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

رُوي أن هذه الآية نزلت في الأوس والخزرج(٣). والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ الواو: عاطفة، والاعتصام: التمسك بما يعصم، ويحمي من المخوف والمحذور، و«حبل الله»: دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

وسمي دين الله وشرعه حبلًا له- عز وجل- لأنه الموصل إليه وإلى رضوانه وجنته، وهو الذي وضعه.

﴿جَمِيعًا﴾: حال، أي: كلكم أيها المؤمنون.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز (٩٨٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١)- وقال الترمذي: «حسن غريب» ورواه البزار- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٣) قال: «وقد رواه بعضهم مرسلًا».

(٢) أخرجه مسلم في «الإمارة» (١٩٠٩)، وأبو داود في «الصلاة» (١٥٢٠)، والنسائي في «الجهاد» (٣١٦٢)، والترمذي في «فضائل الجهاد» (١٦٥٣)، وابن ماجه في «الجهاد» (٢٧٩٧)؛ من حديث سهل ابن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٩٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧٤).

قال ابن القيم[١]: «ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله، فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها. فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يسلم بها في طريقه».

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أمرهم بالاجتماع، ثم أكد ذلك بنهيهم عن التفرق، أي: ولا تفرقوا شيعًا وأحزابًا، جماعات وأفرادًا.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[٢].

وفي حديث أبي مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[٣].

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من الضعف والتخلف، وتسلط الأعداء، والجهل والفقر والمرض، إلا بسبب التفرق شيعًا وأحزابًا وجماعات، كما قال الشاعر:

وتشعبوا شعبًا فكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر[٤]

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٦-٥٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة- تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الصف الأول فالأول (٤٣٢)، والنسائي في الإمامة (٨٠٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٧٦).

(٤) البيت لمساور بن هند بن زهير. انظر: «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ١٧٦)، «شرح ديوان الحماسة» للأصفهاني (ص٣٣٢)، «شرح حماسة أبي تمام» (٢/ ٢٥٣).

بل إن ما وقع فيه المسلمون اليوم من التفرق جماعات وحزبيات وتصنيف للطوائف أشد وأعظم، حيث يكيد بعض هذه الجماعات لبعض باسم الإسلام على حساب الإسلام- نسأل الله الهداية والتوفيق، وجمع كلمة المسلمين على الحق.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: واذكروا بألسنتكم ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالثناء عليه، والتحدث بها، واذكروها بقلوبكم، واشكروها بجوارحكم؛ لأن ذكر نعمه- عز وجل- سبب لشكرها، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢].

و«نعمة» مفرد مضاف إلى معرفة يفيد العموم.

و«نعمة الله»: كل ما أنعم الله به على خلقه من النعم الدينية والدنيوية، والعطاء والرزق، وجلب النعم، ودفع النقم.

أي: تذكروا كل نعم الله عليكم، والتي أهمها وأعظمها نعمة الإيمان، ببعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن.

﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ هذا بيان وتفسير لنعمة الله عليهم.

﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» أي: حين كنتم أعداء بينكم الحروب والغارات والفتن والثارات.

فالأوس والخزرج كانت بينهم حروب دامت أكثر من مائة وعشرين سنة، منها يوم بعاث، وكذا الحال بالنسبة لقبائل العرب الأخرى: قريش، وهوازن وغيرها.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: جمع بين قلوبكم على الحق والهدى.

ولم يقل: «فألف بينكم»؛ لأن الشأن والمدار على اجتماع القلوب، حتى ولو تباعدت الأبدان والأوطان، ولا فائدة في اجتماع الأبدان مع تنافر القلوب وتفرقها، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

بل إن اجتماع الأبدان مع تنافر القلوب يمثل خطرًا عظيمًا، ولهذا كان المنافقون أخطر أعداء الإسلام على المسلمين؛ لأنهم بين أظهرهم.

والتأليف بين القلوب ليس بالأمر السهل، وكما قيل:

إن القلـــوب إذا تنافـــر ودهـــا مثل الزجاجة كسرها لا يجبر(١)

لكن الذي خلق القلوب- سبحانه وتعالى- يؤلف بينها بقدرته وعزته وحكمته؛ ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال عز وجل للمؤمنين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧]، وقال ﷺ: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا، فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين، فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي.** كلما قال شيئًا، قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ»(٢).

﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ أي: صرتم.

﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب إنعامه عليكم بالهداية للإسلام.

﴿إِخْوَانًا﴾ أي: إخوة متآلفين متحابين، تربط بينكم أقوى رابطة هي رابطة أخوة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

تلك الرابطة التي تتضاءل أمامها جميع روابط النسب، والعرق والوطن، والجماعات والحزبيات والقوميات، وغير ذلك.

تلك الرابطة التي آخت بين أبي بكر القرشي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

وقد أحسن القائل:

أبي الإســـــلام لا أب لي ســـــواه إذا افتخـــروا بقيـــس أو تمـــيم(٣)

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس، أو لعلي رضي الله عنه. انظر: «اللطائف والطرائف» (ص١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٣) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» (٣/ ١٣٣).

وقال الآخر:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اعتمادًا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب(١)

وقد ضرب الصحابة- رضوان الله عليهم- في هذه الأخوة الإيمانية فيما بينهم أروع الأمثلة، حتى إن الأنصار لما قدم إليهم المهاجرون- قاسموهم أموالهم وديارهم، وآثروهم على أنفسهم، وعلى قراباتهم للأخوة التي آخاها الرسول ﷺ بينهم.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: وكنتم قبل الإسلام ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: على طرف ﴿حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ وشفا الشيء طرفه، الذي من كان عليه فهو عرضة للسقوط والهلاك، كما قال تعالى في أصحاب مسجد الضرار: ﴿أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ومعنى قوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: على طرف حفرة من نار جهنم بسبب ما أنتم عليه من الكفر والشرك، أي: ليس بينكم وبين السقوط في النار والوقوع فيها إلا أن تموتوا، كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: فخلصكم منها، وأبعدكم عنها، بهدايتكم للإيمان.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الكاف: اسم بمعنى «مثل» نعت لمصدر محذوف؛ أي: بيانًا مثل ذلك البيان في هذه الآيات، يبين الله لكم آياته، الشرعية والكونية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تهتدوا، إلى ما ينفعكم في دينكم ودنياكم وأخراكم، هداية دلالة وعلم، وهداية توفيق وعمل.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

أمر الله عز وجل المؤمنين في الآيتين السابقتين بتقواه، والاعتصام بحبله، ونهاهم عن

---

(١) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» (١/ ٤١٤).

التفرق، ثم أمرهم بأن يكون منهم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر- وهو من تقوى الله- عز وجل- لأهميته فعطْفه على الأمر بتقوى الله أشبه بعطف الخاص على العام.

قوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، واللام: للأمر، ولهذا جزم الفعل بعدها، والأصل في الأمر: الوجوب.

﴿ مِّنكُمْ ﴾ الخطاب: للمؤمنين، و«من»: تبعيضية، أي: وليكن بعضكم يدعون إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويؤيد هذا قوله ﴿أُمَّةٌ﴾.

ويحتمل أن تكون «من» لبيان الجنس، أي: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة.

﴿ يَدْعُونَ ﴾ كل من يصلح توجيه الدعوة إليه، كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس: ٢٥].

﴿إِلَى الْخَيْرِ ﴾ الخير اسم يجمع خصال الإسلام، كما في حديث حذيفة- رضي الله عنه- أنه قال: «يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟»(١).

فالدعاء إلى الخير هو الدعاء إلى الإسلام وجميع شرائعه العظام، من فعل المأمورات، وترك المحظورات، والتي كلها خير في الدين والدنيا والآخرة، كالدعوة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، وغير ذلك من الواجبات، والدعوة إلى ترك المحرمات كالربا والزنا والسرقة، وغير ذلك. وكل ذلك خير وضده شر، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة (٨٤٧)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٤٤).

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم الخير، وهو سبب لفعل الخير، وقدم الدعوة إلى الخير لأنها ينبغي أن تكون قبل الأمر والنهي، لأنها توجيه وتعليم، ثم يعقبها الأمر والنهي، وقرن بين الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهما من أعظم وأهم واجبات الدين.

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ويأمرون الناس بفعل المعروف. و«المعروف» كل ما أمر به الشرع وأقره، كالأمر بالإيمان بأركان الإيمان الستة، وأداء أركان الإسلام الخمسة وغير ذلك.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: وينهون الناس عن المنكر، وهو كل ما نهى عنه الشرع وأنكره من المعاصي وأنواع الشرور والفساد، كالشرك والربا وقتل النفس بغير حق، والزنا والسرقة وغير ذلك من فعل المحرمات، أو ترك الواجبات.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الإشارة للذين يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم ورفعةً لشأنهم.

وأكد الفلاح وقصره فيهم، بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم» أي: أولئك هم المفلحون حقًا، دون غيرهم.

قال ابن القيم[1]: «فخص هؤلاء بالفلاح، دون من عداهم، والداعون إلى الخير، هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان».

والفلاح: الفوز والظفر بالمطلوب، والنجاة والسلامة من المرهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا، بالإيمان والحياة الطيبة، والسعادة في الآخرة بالجنة والنجاة من النار.

فالمفلحون: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٨).

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ الآية.

في هذا تأكيد لما سبق من الأمر بتقوى الله- عز وجل- والاعتصام بحبله، والنهي عن التفرق، كما أن فيه إشارة إلى أن من أعظم أسباب التفرق ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: ولا تصيروا أيها المؤمنون ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ أي: مثل الذين تفرقوا من أهل الكتاب، وغيرهم، وصاروا أحزابًا وشيعًا.

﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ في قلوبهم تجاه ما جاءهم من الحق، على ألسن رسل الله، وفي كتبه، وتركوا الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقدَّم التفرق على الاختلاف، مع أن الاختلاف هو سبب التفرق- والله أعلم؛ لأن التفرق هو محصلة الاختلاف، ونتيجته الظاهرة السيئة.

والمعنى: ولا تصيروا أيها المؤمنون كأهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا، فتتفرقون وتختلفون مثلهم، بل اعتصموا بحبل الله جميعًا، وادعوا إلى الخير، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر.

قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ أي: من بعد ما جاءتهم من عند الله- عز وجل- الآيات البينات في كتب الله- عز وجل- وعلى ألسنة وأيدي رسله من الآيات الشرعية والآيات الكونية، مما لا عذر لهم معه في التفرق و الاختلاف، وترك الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وعن معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة- يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة، وهي: الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكَلَب[1] بصاحبه، لا يبقى منه عرق، ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب- لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لَغيْرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به**»[2].

وفي حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»[3].

وإذا كان ﷺ في هذا لا ينطق عن الهوى، فيجب على كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية أن يحذر من هذا التفرق، وأن يلزم جماعة المسلمين، كما قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك**»[4].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: وأولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب: العقاب، و«عظيم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على شدة عظمة هذا العذاب، ولا أحد يقدر عظمة هذا العذاب، إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

---

(١) الكَلَب: داء يصيب الكلاب، فمن عضه قتله.

(٢) أخرجه أبوداود في السنة (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، لانحطاط مرتبتهم، وأكد عذابهم، بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء، للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده: من الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام إلى الموت والاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق والاختلاف من مقتضيات الإيمان، وأن عدم ذلك نقص في الإيمان.

٢- وجوب تقوى الله- عز وجل- حق تقواه، بقدر الاستطاعة والجهد، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٣- لا غضاضة في أمر المؤمنين بتقوى الله- عز وجل- فقد أمر الله بها سيد الخلق ﷺ.

٤- وجوب المبادرة إلى الإسلام، ولزومه، والثبات عليه، إلى الممات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٥- أن المدار على الخاتمة، وما يموت عليه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لكن جرت العادة بفضل الله- عز وجل- أن من عاش على الإسلام فإنه يحفظه الله، حتى يتوفاه على الإسلام- وهذا أمر مشاهد وواقع، حتى إن أناسًا صدقوا في طلب أن يموتوا شهداء، فرزقهم الله الشهادة، وأناسًا صدقوا مع الله في طلب الموت سُجدًا، وصوامًا، ونحو ذلك فتوفاهم الله على ذلك.

٦- وجوب الاعتصام بشرع الله، والتمسك به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾.

٧- وجوب الاجتماع على شرع الله، والتحاكم إليه، وتحريم التفرق شيعًا وأحزابًا وجماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

٨- أن في تمسك الأمة بشرع الله واجتماعها عليه عصمة لها وقوة في داخلها، وأمام أعدائها وغيرهم. وفي تهاونها في التمسك بشرع الله وتفرقها ضعفها وتخلفها وتسلط الأعداء عليها- كما هو حال الأمة اليوم.

٩- وجوب ذكر نعم الله بالثناء عليه بها باللسان، وتذكرها بالقلب، وشكرها بالجوارح، والتي أعظمها نعمة الإسلام والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠- أن من أكبر نعم الله- عز وجل- وأعظمها على المؤمنين تأليفه- عز وجل- بين قلوبهم بالإيمان- بعد أن كانوا أعداءً قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

وهي نعمة من الله- عز وجل- ومنة على الصحابة- رضي الله عنهم- على وجه الخصوص، وعلى من يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة على وجه العموم.

١١- أن تذكر المنعم عليه لحاله قبل النعمة، من فرقة، أو مرض، أو فقر، أو فقدان أمن، أو غير ذلك، من أسباب شكر النعمة، وقد قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

١٢- أن ثمرة التأليف بين القلوب تحقيق الأخوة الإيمانية بين المؤمنين التي تتلاشى أمامها جميع روابط النسب والعرق والوطن، والقوميات، والحزبيات، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

١٣- أن التفرق والتشتت نقمة، وعلامة على سلب النعمة، يجب الحذر منه.

١٤- نعمة الله- عز وجل- ومنته على المؤمنين السابق منهم واللاحق، بإنقاذهم بالإيمان من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

١٥- إثبات النار، وأنها موجودة الآن معدة للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: وكنتم على طرف حفرة من النار، تكادون تسقطون فيها، بسبب الكفر والشرك، فأنقذكم منها بالإيمان.

١٦- تبيين الله- عز وجل- آياته الشرعية والكونية لنا أتم بيان، إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، والآيات في بيانه عز وجل لآياته وتفصيلها كثيرة جدًّا.

وفي هذا رد على أهل التحريف والتأويل المذموم الذين يقولون: المراد بالآيات

خلاف ما يظهر منها، فهم بهذا يزعمون أن الله لم يبينها، وأنهم أعلم بالمراد بها منه تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

١٧- أن الحكمة والعلة في بيانه- عز وجل- آياته للناس؛ لأجل أن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وفي هذا رد على من ينفي من أهل البدع حكمته- عز وجل- في أفعاله.

١٩- رحمة الله- عز وجل- بالناس ومحبته لهدايتهم، ولهذا بين لهم آياته لأجل أن يهتدوا، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، كما قال عز وجل مخاطبًا لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢٠- وجوب الدعوة إلى الإسلام وشرائعه العظام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وهو فرض كفاية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ و«من» للتبعيض.

ويحتمل كون «من» لبيان الجنس، فتكون الدعوة واجبة على الأمة كلها، أي: ولتكونوا أمة داعية إلى الخير.

وذلك حسب معرفة الإنسان وقدرته؛ لأن هناك من الأمور ما يمكن أن يدعو له كل مسلم، وهناك منها ما يحتاج إلى أهل العلم.

وينبغي أن تكون الدعوة إلى الخير بالحكمة وبالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، مع الإخلاص، والحذر من الانتصار للنفس، ونحو ذلك.

ويجب على الداعية إلى الخير أن يكون عالمًا بما يدعو إليه شرعًا، ولا يكفي مجرد حسن النية والقصد، فإن الشيطان قد يأمر بسبعين بابًا من الخير؛ ليصل إلى باب من الشر أعظم من ذلك الخير. قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه-: «ليس كل مريد للخير يصيبه». وقد قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصدًا ... وصولًا إلى باب من الشر أعظم[1]

---

(١) هذا البيت من قصيدة لي.

ولهذا فإن ما يُرفع من شعار «كن داعيًا» ينبغي ألا يكون على إطلاقه، فيدخل في الدعوة من لا يحسنها، ولا يصلح لها، فيكون ضرره أكبر من نفعه.

٢١- الترغيب في كل ما هو خير؛ قولًا أو فعلًا أو بذلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وذلك يشمل خير الدين والدنيا.

٢٢- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو فرض كفاية؛ لقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ وقد يجب على جميع الأمة إذا لم يستطعه بعضها.

عن حذيفة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدعنه، فلا يستجيب لكم**»(١).

وعن أبي سعيد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢).

فالإنكار باليد يكون لولي الأمر ولأهل الحسبة الذين ولاهم، ولمن له ولاية من الرجال والنساء، على من تحت ولايته كالأب والأم، وولي اليتيم ونحوهم.

والإنكار باللسان لكل من قدر عليه وأحسنه، والإنكار بالقلب لا يعذر في تركه أحد.

ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أولًا: العلم الشرعي بما يأمر به الإنسان أو ينهى عنه، بحيث يعلم أن هذا الأمر مما أمر الله به، أو مما نهى الله عنه، فإن كان يجهل ذلك وجب عليه ترك الأمر والنهي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥).

ثانيًا: أن يكون على بينة من حال المأمور والمنهي بأنه ترك هذا المعروف، أو ارتكب هذا المنهي، فإن كان لا يدري، أو يشك في ذلك، أو قيل له ذلك ونحو ذلك، فلا يجوز له الدخول في ذلك؛ لما يترتب عليه من مفاسد، وقد قال الله- عز وجل-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦].

ثالثًا: أن يكون الأمر والنهي بالحكمة، بأن لا يؤدي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى منكر أعظم من ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداب من أهمها:

أن لا يخالف فعل الآمر والناهي قوله، بأن يأمر بالمعروف وهو لا يفعله، أو ينهى عن المنكر وهو يفعله، قال تعالى موبخًا من يفعل ذلك: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

وفي حديث أسامة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: مالك، يا فلان، ألم تك تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلاّ لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٩).

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم(١)

وامتثال الإنسان لما يأمر به، واجتنابه لما ينهى عنه من أعظم أسباب القبول لأمره ونهيه عند الناس، لكنه ليس شرطًا في الأمر والنهي، لانفكاك الجهة، فعليه أن يأمر نفسه وينهاها بل ويبدأ بها، فإن لم يأمر نفسه ولم ينهها، فلا يبرر له ذلك ترك أمر غيره ونهيه، فهو يحاسب على الأمرين؛ ولهذا قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، وهذا يقتضي اشتراكهم في الفعل، وذمهم على ترك التناهي.

وكما قيل:

إذا لم يعظ في الناس من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

ومن آداب الأمر والنهي: القول اللين؛ كما قال عز وجل لموسى وهارون- وقد أرسلهما إلى أعتى الخلق، فرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

وقال الله- عز وجل- لسيد الخلق نبينا محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فليت كثيرًا ممن يتولون الأمر والنهي والدعوة والتوجيه ينتبهون لهذا، ويتفطنون له، وقد قال ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلا شانه**»(٢)، وقال ﷺ: «**إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»(٣).

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: توطين النفس على الأذى في سبيل

---

(١) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» (ص٤٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر (٢٥٩٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٣٥٦)، ومسلم في البر (٢٥٩٣)، من حديث عائشة- رضي الله عنها، وأخرجه أبوداود في الأدب (٤٨٠٧)، وأحمد (٤/ ٨٧)، من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه.

ذلك، والصبر عليه، كما قال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

٢٣- عظم مكانة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لهذا خصهما الله بالذكر وقرن بينهما في الآية.

٢٤- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أعظم الدعاء إلى الخير، ولهذا عطف عليه من عطف الخاص على العام.

٢٥- وعد الله عز وجل- الذي لا يتخلف- للدعاة إلى الخير، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر بالفلاح، وتأكيد ذلك لهم، بل وحصره فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

وهذا يدل على فضل الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكفى ذلك شرفًا أنه طريق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام.

٢٦- نهي المؤمنين عن التفرق والاختلاف، كما فعل أهل الكتاب من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾، كما قال عز وجل عنهم: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ﴾ [الحشر: ١٤].

٢٧- أن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أسباب التفرق والاختلاف؛ لأن الله أعقب الأمر بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنهي عن التفرق والاختلاف.

٢٨- ذم أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وقامت عليهم الحجة.

٢٩- إذا كان التفرق والاختلاف قد يُبرر قبل مجيء البينات، فإن التفرق والاختلاف بعد مجيء البينات، وظهور الحق أمر لا مبرر له، ولا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾.

٣٠- بيان الحق في هذه الشريعة الكاملة أتم بيان، في كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ، مما لا عذر فيه في التفرق والاختلاف.

٣١- الوعيد الشديد للذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

٣٢- أن من سلك مسالك أهل الكتاب وسننهم السيئة من هذه الأمة فمصيره مصيرهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

نهى الله تعالى هذه الأمة أن يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وتوعدهم بالعذاب العظيم، ثم أتبعه ببيان متى يكون ذلك وحال الناس فيه، وذكر شيء من جزائهم.

قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ «يوم»: ظرف زمان منصوب متعلق بالخبر المحذوف للعذاب في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه، أو بمضمر تدل عليه الجملة، أي: يعذبون يوم تبيض وجوه، أو بمحذوف تقديره: «اذكر» أي: اذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

والمراد به يوم القيامة. وعرفه بما يحصل فيه من بياض وجوه، وسواد وجوه، تعظيمًا له وتهويلًا، ترغيبًا وتشويقًا، وترهيبًا وتخويفًا.

ومعنى ﴿ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ أي: تكون بيضاء تعلوها النضارة والنور، وهي وجوه المؤمنين السعداء، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤].

وقال ﷺ: «**لكم سيما ليست لأحد من الأمم، تردون عليّ غرًّا محجلين من أثر الوضوء**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الطهارة (١٣٦)، ومسلم في الطهارة (٢٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٢)، من =

فوجوههم بيضاء مسفرة مستنيرة بسبب ما يقابلون به من التهنئة والبشارة بالجنات وما فيها من ألوان النعيم، وما هم فيه من الفرح والسرور والأمن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقدم ذكر بياض وجوه؛ لأن رحمة الله تعالى تسبق غضبه.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تكون سوداء مظلمة، وهي وجوه الأشقياء من الكفرة وأهل الأهواء والبدع والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:٦]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

وذلك لما في قلوبهم من الغم والهم وشدة الخوف، وما يلاقون من التوبيخ والتقريع، ولما يترقبون ويتوقعون من حلول النقمة والعذاب الأليم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

ولا تنافي بين قوله: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وقوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] لاختلاف الأحوال والأوقات، ففي بعضها يكونون زرقًا وفي بعضها يكونون سودًا.

وأيضًا فقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي زرق العيون وهذا لا ينافي سواد الوجوه.

وقيل: المراد بالسواد ما يجمع الزرقة والسواد فيكون المعنى واحدًا، وقيل غير ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الفاء: عاطفة للتفريع، و«أما»: للتفصيل، وبدأ بذكر الذين اسودت وجوههم في هذا التفصيل، بينما أخرهم فيما قبل، وهذا من باب اللف والنشر، فبدأ هنا بحال الذين اسودت وجوههم لمجاورته: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وتعجيلًا بذكر مساءتهم، وليكون الاختتام بالحال الحسن كما ابتدئ بالوصف الحسن.

=

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم والتوبيخ لهم، والتعجب من حالهم، أي: فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم. وجواب «أما» لابد فيه من الفاء، فلما سقط الجواب سقطت الفاء معه. وجاز ترك الجواب لدلالة السياق عليه.

وأبهم القائل؛ للتهويل، وليعم كل قائل، فيحتمل أن القائل لهم ذلك هو الله تعالى، أو الملائكة، أو أهل المحشر، أو الرسول ﷺ.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**ليَردن عليَّ أقوام أعرفهم ثم يختلجون دوني فأقول يا رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(١).

واختلف في المعنيين بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فقيل: هم أهل الكتاب، آمنوا بالنبي ﷺ قبل بعثته، فلما بعث كفروا به، وقيل: هم أهل الأهواء والبدع، وقيل: هم المنافقون، آمنوا بالظاهر، وكفروا بالباطن.

والظاهر أن الوصف بسواد الوجوه والتوبيخ بقوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعم جميع الكفار، كما أن الوصف ببياض الوجوه، وحصول الرحمة، ودخول الجنة يعم جميع المؤمنين.

وقد يحمل الإيمان في قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ في حق البعض أنهم آمنوا ثم ارتدوا وكفروا، أو غير ذلك.

وقد يحمل في حق الجميع على الفطرة؛ لأن الإيمان في الأصل هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٨٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٤)، والنسائي في الافتتاح (٩٠٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ويقال لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ومعنى ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: قاسوا العذاب وتجرعوه وأحسوا به، و«العذاب»: العقوبة والنكال، والأمر للإهانة.

فجمع لهم بين العذاب المعنوي المؤلم للقلب، بالتقريع والتوبيخ والتنديم والإهانة، وبين العذاب الحسي المؤلم للبدن. والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي، بل هو أشد منه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفركم وعدم إيمانكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

كما بدأ بذكر بياض وجوه المؤمنين ختم بالكلام على حسن حالهم، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«أما»: تفصيلية كسابقتها، أي: وأما الذين ابيضت وجوههم، وهم المؤمنون.

﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الفاء: واقعة في جواب «أما»، و«في» للظرفية، والمراد برحمة الله تعالى هنا رحمته المخلوقة وهي الجنة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**»(١).

فسمى «الجنة» رحمته؛ لأنه- عز وجل- يرحم بها من يشاء؛ ولأنهم لا يدخلونها إلا برحمته، كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة**»(٢).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم ماكثون فيها مقيمون، مكثًا أبديًّا، وإقامة دائمة؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرض (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها يخرجون منها، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

قوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ الإشارة لما سبق من الآيات، وبخاصة من الآيات من بعد قوله: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الآية: ٥٨]. وقد تكون الإشارة للقرآن كله، ويقوي هذا كونها جاءت بصيغة البعد «تلك».

و«آيات» جمع آية، وهي العلامة، والمراد بها هنا: آيات الله الشرعية؛ آيات القرآن الكريم. وسمي القرآن الكريم آيات الله؛ لما فيه من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وكونه صالحًا لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، دالًا على كمال الخالق- عز وجل- في ذاته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، وعلى صدق من جاء به، ولما فيه من صفات الخلود والشمول والكمال، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي: نقرؤها عليك بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، أي: إذا قرأه جبريل عليه السلام فاتبع قراءته.

﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾: حال أي: نتلوها عليك حال كونها متلبسة بالحق، والحق الأمر الثابت، فهي بنفسها حق، كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ

مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وطريق وصولها حق، وسندها أصح الأسانيد وأعلاها، نزلت من عند الله- عز وجل- بواسطة جبريل الأمين على قلب محمد ﷺ سيد المرسلين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

وهي أيضًا مشتملة على الحق، أخبارها صدق وأحكامها عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ لما ذكر عز وجل انقسام الناس إلى قسمين: قسم تبيض وجوههم، وقسم تسود وجوههم، وما لكل منهم من الجزاء أتبع ذلك بنفي أن يريد ظلمًا للعالمين في إشارة إلى أن كلًا منهما جوزي بما عمل من غير ظلم بزيادة في عذاب مذنب أو نقص من ثواب محسن، أي: لا يريد كونًا؛ أي: لا يشاء.

والواو في قوله ﴿وَمَا﴾: استئنافية، و«ما»: نافية عاملة عمل «ليس»، ولفظ الجلالة اسمها، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ في محل نصب خبرها، و﴿ظُلْمًا﴾ مفعول لـ«يريد»، وهي نكرة في سياق النفي تدل على انتفاء جنس الظلم أن تتعلق به إرادة الله تعالى، و«العالمين» كل ما سوى الله تعالى.

فنفى عز وجل أن يريد ظلمًا للعالمين، بأن يعذب أحدًا منهم بغير ذنب، أو يزيد في عقابه، أو يضيع عنده ثواب أحد أو ينقص، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١، الحج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

نفى عز وجل أن يريد ظلمًا للعالمين، ثم أيَّد هذا النفي وقوَّاه ببيان أن له ما في السموات والأرض، وإليه مرجع الأمور كلها، فليس هناك ما يدعوه للظلم؛ لأنه سبحانه وتعالى ذو الكمال في ذاته وصفاته وفي ملكه وسلطانه وغناه، وفي قدرته على كل شيء.

والظالم إنما يظلم غيره ليكمل نقصًا في نفسه، أو ليزداد عزًّا أو سلطانًا أو ملكًا.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، ولفظ الجلالة «الله» متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«ما»: اسم موصول يفيد العموم بمعنى «الذي» في محل رفع مبتدأ مؤخر.

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله، وجاء التعبير بـ«ما» في الموضعين بدل «من» تغليبًا للعالم على غير العالم.

وقدم الخبر لإفادة الحصر، أي: ولله وحده كل الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ بيَّن- عز وجل- أن له ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا، ثم بيَّن أن مرجع الأمور كلها إليه تدبيرًا وتصريفًا.

وقدم الخبر هنا أيضًا لإفادة الحصر، أي: وإلى الله تعالى وحده وإلى حكمه وقضائه ترجع الأمور كلها، أي: إليه وحده تصير وتعود جميع الأمور والشؤون، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

وأظهر في الجمل الثلاث، بذكر لفظ الجلالة «الله» دون الإضمار تعظيمًا لله- عز وجل- ولتكون كل جملة منها مستقلة الدلالة بنفسها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والجزاء، والحث على تذكره والتذكير به وأحوال الناس فيه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآية.

٢- انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين، فريق تبيض وجوههم، وفريق تسود وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

٣- أن الوجه مرآة يظهر عليها أثر الحالة التي فيها الإنسان من فرح واستبشار، أو خوف وقلق واضطراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، وفي الحديث: «**أنه ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه**

قطعة قمر»[١].

٤- أن الذين تسود وجوههم يوم القيامة هم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

٥- أن الأصل في العباد الإيمان، فهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن الكفر طارئ عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

٦- شدة عذاب الكفار وأنه يجمع لهم بين التقريع والتوبيخ والعذاب المعنوي القلبي، وبين العذاب الحسي البدني؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٧- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بأمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٨- التحذير من الكفر؛ لأن الله رتب عليه اسوداد الوجوه والعذاب والنكال المعنوي والحسي، القلبي والبدني.

٩- أن الذين تبيض وجوههم يوم القيامة هم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا إنما يكون لأهل الإيمان.

١٠- أن الجنة رحمة الله تعالى يرحم بها من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

١١- إثبات خلود أهل الجنة في رحمته- عز وجل- وجنته خلودًا أبديًّا لا يحول ولا يزول؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فالجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها.

١٢- الترغيب في الإيمان لما رتب الله عليه من بياض الوجوه ورحمته- عز وجل- والخلود في جنته.

١٣- تعظيم آيات الله الشرعية، آيات القرآن الكريم؛ لأن الله أشار إليها بإشارة البعيد تعظيمًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

١٤- دلالة القرآن الكريم بإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره على أنه من عند الله- عز وجل- ذو الكمال في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته المستحق للعبادة دون سواه؛ لهذا سمي القرآن الكريم آيات الله.

١٥- نزول القرآن الكريم وتلاوته على الرسول ﷺ بالحق، فهو حق ثابت وطريق وصوله إلى الرسول ﷺ حق، وهو مشتمل على الحق، أخباره صدق وأحكامه عدل؛ لقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٦- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾.

١٧- نفي إرادة الظلم عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ونفي إرادته- عز وجل- للظلم لا يدل على استحالة ذلك في حقه، كما يزعم المعتزلة، بل لو شاء إرادة ذلك لفعل، لكنه تعالى لا يريد الظلم، وقد حرمه على نفسه.

١٨- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فمفهوم هذا أنه- عز وجل- يريد العدل فيهم.

١٩- نفي الظلم عن الله عز وجل؛ لأنه إذا انتفى عنه إرادة الظلم فانتفاء الظلم عنه من باب أولى.

٢٠- إثبات كمال عدل الله تعالى؛ لأن نفي إرادة الظلم عنه من الصفات السلبية التي تدل على كمال ضدها وهو عدله في جميع أحكامه الشرعية والجزائية والكونية.

٢١- عموم ملك الله عز وجل وأن كل ما في السموات وما في الأرض له وحده؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢٢- أن مرجع الأمور كلها ومصيرها إلى الله تعالى وحده، وإلى حكمه وقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢٣- أنه ليس ثمة ما يدعو لإرادته تعالى للظلم، وذلك لعصمته- عز وجل- وكماله، وتمام عزته وسلطانه، وعموم ملكه وسعته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أن تكون من المؤمنين أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبيَّن أنهم هم المفلحون، وحذَّر من سلوك منهج الذين تفرقوا واختلفوا بعد البينات وتوعدهم بالعذاب العظيم.

ثم أثنى في هذه الآية على هذه الأمة ببيان أنها كانت خير الأمم لقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وفي هذا تأكيد لمكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام، ووجوب الاهتمام به.

قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ كُنتُمْ ﴾ الخطاب لهذه الأمة أمة محمد ﷺ، و«كان» هنا مسلوبة الزمن تدل على تحقق الوصف، أي: على تحقق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كنتم وما زلتم.

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ ﴿خَيْرَ ﴾: اسم تفضيل، ﴿أُمَّةٍ ﴾ أي: جماعة وطائفة.

﴿أُخْرِجَتْ ﴾ أوجدت أي: كنتم خير وأفضل الأمم التي أوجدها الله تعالى منذ بدء الخليقة وأفضلها، وأنفعها للناس، فكتابكم أعظم الكتب، ورسولكم أفضل الرسل، وأمتكم خير الأمم.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: «خير الناس

للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلون الإسلام»(١).

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الجملة في محل نصب خبر ثان لـ﴿كُنتُمْ﴾ أو في محل نصب على الحال من ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أو نعت لها، أومستأنفة.

وهذه الجملة وما عطف عليها وهو قوله: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فيها بيان وجه وسبب خيرية هذه الأمة على الأمم.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ معطوف على ما قبله. والإيمان بالله يشمل الإيمان والتصديق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه.

والإيمان بالله تعالى شرط لصحة وقبول جميع الأعمال الظاهرة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

وبهذا كله كانت هذه الأمة خير أمة، وكانت أمة وسطًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله مع أنه لا يقبل بدون الإيمان بالله؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعار وعنوان ظاهر لقوة الأمة، وقوة إيمانها.

وفي قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ امتازت الأمة عن أهل الكتاب، وفي قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ امتازت عن أهل الشرك.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ الواو: استئنافية، و«لو»: شرطية. و﴿ءَامَنَ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

واقترن الجواب باللام على الأفصح والأكثر في جواب «لو» إذا كان مثبتًا، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وقد تحذف اللام من جوابها، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٥٧)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٧٤).

وقوله: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء:٩].

أما إذا كان جوابها منفيًا فالعكس هو الأكثر، وهو حذف اللام من جوابها. وقد يقترن بها نادرًا كما قيل:

ولو نُعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الليالي(١)

والمعنى: ولو آمن أهل الكتاب وبخاصة اليهود بما جاءهم عن الله تعالى على ألسنة رسلهم، وعلى لسان محمد ﷺ كما آمنتم أيها المؤمنون ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ أي: لكان الإيمان خيرًا لهم خيرية مطلقة، من الكفر، ومما هم عليه من الرئاسة في الدنيا ومن كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة:١٣٧].

وأيضًا لارتفعت عنهم الذلة والمسكنة وغضب الله، وضوعفت أجورهم؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وقال ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمَن بنبيه، وآمن بي فله أجران**» الحديث(٢).

﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: من أهل الكتاب الذين آمنوا وهم قليل، كالنجاشي من النصارى، و«عبدالله بن سلام» من اليهود.

﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ أي: وأكثر أهل الكتاب الفاسقون، أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى، وعن الإيمان به خروجًا مطلقًا إلى معصيته والكفر به. يدل على

---

(١) البيت مجهول القائل. انظر: «خزانة الأدب» (٤/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، وأبوداود في النكاح (٢٠٥٣)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٤)، والترمذي في النكاح (١١١٦)، وابن ماجه في النكاح (٢٩٥٦)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

هذا: أن قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ذكر في مقابل قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والفسق في الأصل يطلق على الكفر.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، كما يطلق على ما دون الكفر؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦].

فأكثر أهل الكتاب فاسقون، وأكثر الناس كذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أثنى عز وجل على هذه الأمة بكونها خير الأمم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وبيّن أنه لو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم، وأن منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، ثم أتبع ذلك بطمأنة المؤمنين أن أهل الكتاب لن يضروهم إلا أذى.

قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين. والفاعل في ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾ يعود إلى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء الفاسقون وبخاصة من اليهود الذين ينتشرون بكثرة حول المدينة.

﴿إِلَّآ أَذًى ۖ﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، والاستثناء هنا منقطع، أي: لن يضروكم ضررًا بقتال أو غلبة لكن أذى بألسنتهم بما تسمعون منهم من شرك بالله واستهزاء بكم وبدينكم وسب وشتم ونحو ذلك.

قال ابن القيم[1]: «إذ المعنى: لن ينالوا منكم إلا أذى، وأما الضرر فإنهم لن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٠٩).

ينالوه منكم ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، فنفى لحوق ضرر كيدهم بهم، مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم، ولو أنه بالإرهاب والكلام وإلجائهم إلى محاربتهم، وما ينالهم من الأذى والتعب، ولكن ليس ذلك بضارهم، ففرق بين الأذى والضرر».

ويدل على هذا وأنه لا يلزم من الأذى حصول الضرر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[الأحزاب:٥٧]، فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله.

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر**»(١).

وقال ﷺ: «**ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»(٢).

فأثبت الأذى له لكنه- عز وجل- نفى ضررهم له، فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»(٣).

وقيل: إن الاستثناء متصل، أي: لن يضروكم ضررًا ألبتة إلا ضرر أذى، أي: ضررًا يسيرًا لا يبالى به، مما يتفوهون به من سيئ الكلام.

وهذا وعد لرسول الله ﷺ ولأصحابه ولمن تبعهم من المؤمنين باتباع سنته ﷺ واقتفاء آثار أصحابه الكرام، إخلاصًا وعقيدة وعلمًا وعملًا، كما قال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، ومسلم في الألفاظ (٢٢٤٦)، وأبوداود في الأدب (٥٢٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

«لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»(١).

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ أي: وإن يقاتلكم أيها المؤمنون أهل الكتاب وبخاصة اليهود ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: يجعلون أدبارهم وظهورهم وأقفيتهم تليكم بدل أن تكون وجوههم نحوكم، وهذا كناية عن الانهزام والفرار من موقع القتال، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥]، وقال تعالى في اليهود: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾ [الحشر:١٤].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: استئنافية، أي: ثم هم لا ينصرون مطلقًا، قاتلوكم أو لم يقاتلوكم.

قال السمين الحلبي(٢): «قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مستأنف، ولم يجزم عطفًا على جواب الشرط؛ لأنه كان يتغير المعنى، وذلك أن الله تعالى أخبر بعدم نصرتهم مطلقًا، ولو عطف على جواب الشرط للزم تقييده بمقاتلتهم لنا، وهم غير منصورين مطلقًا قاتلونا أو لم يقاتلونا».

ويحتمل أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة للتراخي في المرتبة، والجملة معطوفة على جملة الشرط والجزاء معًا، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون مطلقًا، فترقى من الإخبار والوعد بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة إلى الإخبار والوعد بما هو أتم وأعلى وأعظم من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقًا، ولا يصح أن يكون العطف على جملة الجواب وحدها ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ لأنه لو كان العطف على هذه الجملة، لجاء الفعل مجزومًا أي: «ثم لا ينصروا»،

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) في «الدر المصونة» (٢/ ١٨٨).

ولكان المعنى أقلّ، أي: ثم لا ينصروا عند مقاتلتهم لكم.

والنصر: المنعة والتقوية والتأييد. أي: فلا هم ينتصرون بمنعة وقوة منهم، ولا أحد غيرهم يستطيع نصرهم بتأييده وتقويته لهم، وجعلهم في منعة من عدوهم.

قال ابن كثير(١): «وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله، وأرغم آنافهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، سلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين».

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يضر الفاسقون من أهل الكتاب المؤمنين إلا أذى، وأخبر أنهم لو قاتلوا المؤمنين لولوهم الأدبار ثم لا ينصرون، ثم بيَّن في هذه الآية سبب ذلك فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الآية.

قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: ضربت على هؤلاء الفاسقين من اليهود الذلة.

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن الضارب للذلة عليهم معلوم وهو الله- عز وجل- وإيثارًا لعدم إسناد ذلك إليه- عز وجل- مباشرةً، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(٢).

ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أي: فرضت عليهم الذلة، وألزموها قدرًا وشرعًا، فلا تفارق قلوبهم، أشبه بالنقش على سكة النقود المضروبة، لا يزول عنها، فصارت هذه الذلة كالطبع على قلوبهم لا مخلص لهم منها.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان والصغار.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ «أينما» اسم شرط جازم مبني في محل نصب على الظرفية المكانية، أي: في أي مكان وُجدوا من الأرض، فهم أذلاء.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، والباء للمصاحبة والملابسة، أي: ضربت عليهم الذلة في عموم الأحوال إلا في حال كونهم متلبسين ومتمسكين بحبل من الله.

و«الحبل» في الأصل ما يتوصل به إلى المقصود، والمراد به في الآية السبب، وسمي السبب «حبلًا»؛ لأنه يوصل إلى المقصود.

فمعنى ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا بسبب من الله، أي: بعهد من الله ترتفع عنهم به الذلة. وذلك إما بالإسلام وبهذا يحصل لهم كمال العزة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨].

وإما بأدائهم الجزية ورضوخهم لحكم الإسلام ظاهرًا، فيأمنون وتحفظ لهم حقوقهم بسبب كونهم أهل ذمة، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وبحبل من الناس، أي: وبسبب من الناس، أي: بعهد أو أمان من الناس.

والعهد: ما يتم بين المسلمين وبين غيرهم من الكفار أن لا يعتدي أحد على أحد، كما حصل بين الرسول ﷺ وبين المشركين في صلح الحديبية، ولا يصح إلا من ولي أمر المسلمين أو نائبه أو من يقوم مقامه من قائد الجيش ونحوه.

والأمان أن يدخل أحد من غير المسلمين بأمان من أحد من المسلمين يؤمنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦]، ويصح هذا من أي فرد من أفراد المسلمين، كما قال ﷺ لأم

هانئ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»(١).

وقد يكون المراد بقوله: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ما هو أعم من العهد والأمان، فيدخل فيه المناصرة والتأييد لليهود من غيرهم من الكفار، كما حصل منذ نحو سبعين سنة وإلى يومنا هذا من مناصرة النصارى لليهود واستيلائهم على فلسطين وبيت المقدس.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا وانصرفوا بغضب من الله. وهذا مما يقوي أن المراد بالآيات اليهود؛ لأنهم أخص بغضب الله تعالى من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

وقال ﷺ في تفسير قوله تعالى في الفاتحة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الآية:٧]، قال: «**المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى**»(٢).

والباء في قوله: ﴿بِغَضَبٍ﴾ للمصاحبة، أي: مصطحبين لغضب من الله، أي: مستحقين مستوجبين لغضب من الله، و«من» في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: للابتداء، أي: صادر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

ومن غضب الله عليه أغضب عليه الخلق، كما قال ﷺ: «**ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس**»(٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الذين غضب الله عليهم وأغضب الله عليهم خلقه.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٣٣٦)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨-٣٧٩)، والترمذي في تفسير سورة الفاتحة (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٩٣).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضرب الله تعالى عليهم المسكنة، وبُني الفعل لما لم يسم فاعله هنا؛ لما ذكر في قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾.

أي: وفرضت عليهم المسكنة وألزموها قدرًا وشرعًا، فلا تنفك عنهم.

والمسكنة في الأصل: الفقر والحاجة، ومنه سمي «المسكين» أخذاً من السكون وعدم الحركة واللصوق للتراب بسبب الفقر والحاجة.

والمعنى: ألزموا السكنة، وهي فقر القلوب؛ ولهذا فهم أحرص الناس على جمع المال وأشدهم إمساكًا له، فمع أنهم الآن أغنى العالم وأكثرهم عرضًا فهم أفقر الناس قلوبًا، وأقلهم بذلًا وأعظمهم شحًا وبخلًا، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما سبق، أي: ذلك المذكور من ضرب الذلة عليهم، ورجوعهم بغضب من الله، وضرب المسكنة عليهم.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ «كان» هنا مسلوبة الزمن تدل على اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كانوا ومازالوا، ولهذا عبر هنا بالمضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على ذلك في المستقبل.

أي: بسبب أنهم كانوا يكذبون بآيات الله الشرعية والكونية ويجحدونها، ولا يؤمنون بها، مما أنزل على رسلهم، وعلى محمد ﷺ.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ويقتلون الأنبياء الذين أرسلوا إليهم قتلًا بغير حق، أي: بالباطل والظلم. والمراد بهذا أسلاف بني إسرائيل، لا المعاصرين له ﷺ.

كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية:٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لبيان الواقع، وهو أن قتل الأنبياء كله بغير حق، ولا يمكن أن يكون بحق، وفيه أيضًا: تشنيع على أهل الكتاب.

فجمعوا بين الكفر بآيات الله وهذا إخلال بالتوحيد وبين قتل الأنبياء وهذا إخلال بالرسالة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ هذا تأكيد وتعليل لما قبله، أي: ضربت عليهم الذلة، ورجعوا بالغضب وضربت عليهم المسكنة بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ لأن الكفر عصيان ومخالفة، وقتل الأنبياء تعدٍ واعتداء.

فالإشارة هنا لسبب ما وقع بهم وهو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق.

والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم بالكفر بآيات الله، ولسبب اعتدائهم بقتل أنبياء الله بغير حق، بل ظلمًا وعدوانًا. فكفرهم بالآيات سببه العصيان، وقتلهم الأنبياء سببه الاعتداء. ويحتمل أن تكون الإشارة إشارة ثانية إلى ضرب الذلة والمسكنة والغضب، فيكون سببًا ثانيًا.

الفوائد والأحكام:

١- شهادة الله تعالى لهذه الأمة بأنها خير الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]؛ لأن المراد به عالمو زمانهم، يقوي هذا قوله ﷺ في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه: «**أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(١).

وقوله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أعطوا الكتاب من قبلنا**»(٢).

وهذا مما خص الله تعالى به هذه الأمة، كما قال ﷺ: «**وجعلت أمتي خير الأمم**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير- سورة آل عمران- (٣٠٠١)، وابن ماجه في الزهد- صفة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، وأحمد (١/ ١٢٦، ٤/ ٤٤٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٨): «وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبي سعيد، ونحوه».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٩٨)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عن سهل بن سعد- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا، أو سبعمائة ألف، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**»(١).

٢- أن سبب خيرية هذه الأمة على غيرها من الأمم كونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وبهذا امتازت هذه الأمة وتميزت عن سائر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فمتى تخلت الأمة عن القيام بهذه الشعيرة فإنها لا تستحق هذه الخيرية. ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله منها»(٢).

٣- التعريض بما عليه أهل الكتاب من عدم التناهي عن المنكر، كما قال تعالى عنهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

بل ومن عدم الإيمان بالله حقًا وبما أوجب الإيمان به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١].

٤- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعظم مكانتهما في الإسلام؛ لأن الله رتب الخيرية على القيام بهما مع الإيمان بالله.

ولهذا عد بعض أهل العلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الركن السادس من أركان الإسلام.

٥- أنه كلما قامت الأمة بهذا الواجب العظيم؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثر فيها الخير والصلاح وظهر فيها الحق، وبإضاعة هذا الواجب يكثر الشر، وينتشر

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٧)، ومسلم في الإيمان (٣٧٣)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٧٣).

الفساد، ويعلو صوت الباطل، كما هو الحال في كثير من البلاد الإسلامية. ولن يعود للأمة مجدها وعزها وسؤددها وكرامتها، ولن تحقق خيريتها إلا بالقيام بهذه الشعيرة العظيمة، فهي صمام أمان للأمة.

٦- إثبات التفاضل بين العمّال، وتفاضل العمّال بتفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية. وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصانه- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

٧- أن الإيمان بالله شرط لصحة وقبول جميع الأعمال من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

٨- البشارة ببقاء هذه الشعيرة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله في هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وكما قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(١).

٩- التنديد بمسلك أهل الكتاب باختيار الكفر بدل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

١٠- أن أهل الكتاب منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

١١- عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم ليسوا على الحق والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

١٢- أن أهل الكتاب لن يضروا المسلمين في قتال أو غلبة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾. وهذا وعد من الله- عز وجل- لا يتخلف مع تحقيق الإيمان والقيام بأمر الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من واجبات الدين. فإن فرطت الأمة في ذلك- كما هو حال المسلمين

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

اليوم- فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب.

١٣- أن أهل الكتاب قد يستطيعون أذى المؤمنين بالاستهزاء بهم وبدينهم وبرسولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَذًى﴾ أي: لكن يؤذونكم أذى بالاستهزاء ونحوه.

وقد كان اليهود ينادون الرسول ﷺ بقولهم: «راعنا» ويورون بوصفه ﷺ بالرعونة. فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن هذه الكلمة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة:١٠٤]. وكانوا يسلمون على النبي ﷺ وأصحابه بقولهم: «السام عليكم»(١) أي: الموت.

١٤- أن أهل الكتاب لو قاتلوا المسلمين، لولوا أدبارهم المسلمين فارين منهزمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ لما هم عليه من الخوف والجبن وفي الإخبار بهذا تقوية للمسلمين وتثبيت لهم.

وهذا مرهون بصدق المسلمين مع الله وتمسكهم حقًا بدينهم وإعداد القوة مما يجعل لهم القوة والهيبة في نفوس أعدائهم، كما قال ﷺ في الحديث: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(٢).

وما حصل من استئساد لليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، ليس لشجاعة فيهم وإنما سبب ذلك تخلي المسلمين عن الأسباب التي رتب الله النصر عليها، من التمسك حقًا بدينهم، وإعداد القوة، ففقدوا القوتين القوة المعنوية بعدم التمسك بدينهم، والقوة المادية بعدم إعداد العدة والعتاد، وبهذا خلا الجو لغيرهم واستأسد الفأر، وكما قيل:

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقِّري ما شئت أن تنقِّري(٣)

والله- عز وجل- لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» (ص٤٦).

ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

١٥- أن أهل الكتاب لا ينصرون على أهل الإيمان سواء قاتلوهم أم لم يقاتلوهم؟ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وهذا وذاك والذي قبلهما، أعني عدم نصرة أهل الكتاب، وتوليتهم الأدبار، وعدم ضررهم المؤمنين إلا أذى كل هذا مشروط باجتماع القوتين المعنوية والمادية عند المسلمين؛ المعنوية بتمسكهم بدينهم عقيدة وقولًا وعملًا، والمادية بإعداد العدة والعتاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

١٦- ضرب الذلة على أهل الكتاب وبخاصة اليهود وملازمتها لهم وعدم انفكاكها عنهم، حتى ولو صار لهم بعض الظهور، فإنهم أذلاء مهزومون من الداخل؛ لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾، فحالهم كحال الذي يصيح ويصرخ وهو الأعلى، فقيل: كيف تصرخ وأنت الأعلى؟ فقال: أخاف أن يقلب بي.

١٧- أن الذلة لا ترتفع عن أهل الكتاب إلا بحبل من الله، أي: إلا بعهد من الله بأن يسلموا، أو يدفعوا الجزية فيكونوا أهل ذمة تحفظ لهم بذلك حقوقهم وكرامتهم، أو بحبل من الناس كالعهد أو الأمان بينهم وبين المسلمين ونحو ذلك.

١٨- غضب الله على أهل الكتاب وبخاصة اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

١٩- إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق به، وهو من الصفات الفعلية الاختيارية المتعلقة بمشيئته عز وجل. وهو صفة كمال لله تعالى عند حصول سببه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

٢٠- ضرب المسكنة على أهل الكتاب، فهم فقراء النفوس والقلوب حتى ولو كانوا من أكثر الناس مالًا وثروة؛ لقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾. وقد قال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٣)، وابن =

٢١- الدلالة على نبوته ﷺ وصدق ما جاء به من الإخبار بالغيب الذي وقع من ضرب الذلة والمسكنة على اليهود وغير ذلك.

٢٢- أن السبب في ضرب الذلة على أهل الكتاب، وغضب الله عليهم وضرب المسكنة عليهم هو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

٢٣- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

٢٤- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ﴾.

٢٥- التشنيع على أهل الكتاب وبيان شدة عتوهم وطغيانهم، حيث جمعوا بين الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق، وبين العصيان والعدوان، بين معصية الله تعالى بالكفر، والاعتداء بقتل الأنبياء بغير حق.

٢٦- أن المعاصي يجر بعضها بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

٢٧- ربط الأشياء بأسبابها والعقوبات بموجباتها وبيان عدل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾.

٢٨- التحذير من مسالك أهل الكتاب من الكفر بآيات الله والعصيان والاعتداء ونحو ذلك.

* * *

=

ماجه في الزهد (٤١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أن أكثر أهل الكتاب فاسقون، وضرب الذلة والمسكنة والغضب عليهم بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم، ثم أتبع ذلك ببيان أن أهل الكتاب ليسوا سواء فمنهم أمة مؤمنة قائمة على أمر الله، وفيه تأكيد لقوله تعالى في ذلك: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما أسلم عبدالله ابن سلام، وثعلبة بن سَعْيَة، وأسيد بن سَعْيَة، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام، وتنحَّوا فيه[1]، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد، ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾»[2].

قوله: ﴿لَيْسُوا۟﴾ الضمير يعود إلى أهل الكتاب، والمراد بهم الموجودون في عهد النبي ﷺ، والواو: اسم ليس. ﴿سَوَآءً﴾: خبرها. و«سواء» بمعنى متساوين، أي: ليسوا على حد سواء؛ كلهم فاسقون وكفار، بل منهم المؤمنون، كما قال تعالى قبل هذا:

---

(١) أي: توجهوا له، وصاروا في ناحيته وقصدوه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ٦٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٣٧). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٧).

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الآية:١١٠]، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، وفي هذا إنصاف لهم، واحتراز من أن يظن أن أهل الكتاب كلهم على غير الإيمان.

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾: جملة مستأنفة، وهو وما بعده بيان لقوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾.

وأظهر هنا في مقام الإضمار فلم يقل: «منهم» بل قال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾- والله أعلم- لطول الفصل بين الظاهر الذي ترجع إليه الضمائر، أو لاستئناف الجملة، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها ومعناها، ولتشريف هذه الأمة من أهل الكتاب.

و﴿مِّنْ أَهْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى.

﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وجاز الابتداء بها وهي نكرة لوصفها بـ﴿قَآئِمَةٌ﴾.

و﴿أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة وجماعة. ﴿قَآئِمَةٌ﴾ أي: ثابتة على الحق، مستقيمة على طاعة الله تعالى قائمة بأمره، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى:١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠، الأحقاف:١٣].

وقال ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة**»(٢).

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«أمة»، ويجوز كونها في محل

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، والترمذي في الفتن (٢١٧٣)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

نصب على الحال والتعبير بالمضارع في «يتلون» وفي الأفعال بعده للدلالة تجدد هذه الأفعال منهم.

والمراد بـ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ آياته الشرعية «القرآن الكريم».

وتلاوتها تكون بقراءتها قراءة لفظية- مع تدبر معانيها، وتكون باتباعها والعمل بأحكامها- وكل منهما مراد هنا، فالمعنى: يقرؤون آيات الله الشرعية ويعملون بما فيها.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: أوقات الليل وساعاته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٥٣] أي: غير منتظرين وقت نضجه.

﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ الجملة مستأنفة، أي: وهم يسجدون لله ويصلون، ويحتمل كونها في محل نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿يَتۡلُونَ﴾ أي: يتلون آيات الله وهم ساجدون أي: وهم يصلون.

والسجود يطلق على السجود على الأعظم السبعة، كما في الحديث: «**أمرت أن أسجد على سبعة أعظم**»(١).

كما يطلق السجود على الصلاة كلها، وإنما خص السجود بالذكر أو أطلق على الصلاة كلها؛ لأنه أفضل حالات الصلاة فهو أفضل من القيام، ومن الركوع؛ لأنه أدل على كمال الخضوع؛ لقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٢)، وقوله ﷺ لربيعة الأسلمي لما سأله مرافقته في الجنة قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»(٣).

فوصفهم في هذه الآية بتلاوة آيات الله، وهي أفضل الذكر، وبالسجود وهو أفضل الحالات؛ الصلاة، والسجود فيها، أي: جمعوا بين أفضل القول وهو تلاوة القرآن، وأفضل الفعل وهو السجود لله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٠)، ومسلم في الصلاة (٤٩٠)، والنسائي في التطبيق (١٠٩٧)، والترمذي في الصلاة (٢٧٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبوداود في الصلاة (١٣٢٠)، والنسائي في التطبيق (١١٣٨)، من حديث ربيعة بن كعب رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ الكلام مستأنف. وقدم ذكر تلاوة آيات الله والسجود على الإيمان بالله واليوم الآخر- والله أعلم؛ لأن تلاوة آيات الله سبب للإيمان به وباليوم الآخر والثبات على ذلك.

﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لـ«أمة» وأن تكون حالًا، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: يصدقون بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويصدقون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وما يقع فيه من الأهوال والحساب والجزاء والجنة والنار وغير ذلك. وسمي بـ«اليوم الآخر» لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

ويقرن عز وجل في القرآن الكريم الإيمان باليوم الآخر كثيرًا بالإيمان به- سبحانه وتعالى؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحمل ويحفز على العمل حيث فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ وخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذكر لعظم مكانته في الإسلام، ومقابلة لوصف المؤمنين به في قوله قبل هذا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [الآية: ١١٠]، فوصف به أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩].

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص.

وعُدي الفعل «يسارعون» بـ«في» دون «إلى»؛ ليتضمن ذلك المسارعة إلى الخيرات، والمسارعة في الخيرات أثناء القيام بها، فهم يفعلون الخيرات ويبادرون إلى فعلها وفي فعلها ويكملونها.

و﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ جمع «خيرة» أو «خير» وهي كل ما يقرب إلى الله تعالى من فعل الواجبات والمندوبات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدقات والإحسان إلى الغير قولًا وفعلًا وبذلًا وغير ذلك.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الإشارة للأمة من أهل الكتاب القائمة بأمر الله تعالى الموصوفة بالصفات المذكورة. وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تعظيمًا لشأنهم ورفعة لمنزلتهم. و«من» في قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: تبعيضية، و﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جمع «صالح»، والصلاح ما توفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بياء الغيبة: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات «وما تفعلوا من خير فلن تكفروه».

والواو في قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ﴾: عاطفة، و«ما»: شرطية، و﴿يَفْعَلُواْ﴾: فعل الشرط، و«مِن» في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بيانية فيها بيان الإبهام في اسم الشرط «ما»، أيَّ: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أيَّ خير كان، قليلًا كان أو كثيرًا، وأيًا كان نوعه وكيفه وكمه.

﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾: جملة جواب الشرط، وربط بالفاء لاقترانه بـ(لن).

والمعنى: فلن يجحد ويستر ذلك الخير، أي: فلن يحرموا ثوابه ولن يضيع عند الله عز وجل.

بل سيجازون ويشكرون عليه. والكفر ضد الشكر، كما قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾

[الإسراء:١٩].

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: والله ذو علم بالمتقين الذين اتقوا الله بفعل الخيرات وترك المحرمات، رجاء في ثوابه وخوفًا من عقابه.

وفي ختم الآية بهذا تأكيد لقوله قبله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، ولقوله: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾، وفيه وصف لهم بالمتقين وهو مسك ختام أوصافهم، ووعد لهم بالجزاء والثواب، كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩].

الفوائد والأحكام:

١- أن أهل الكتاب ليسوا سواء على منهج واحد، فكما أن منهم الفاسقين الكافرين فمنهم أمة مؤمنة قائمة بأمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ الآية.

٢- كمال عدل الله- عز وجل- فإنه لما ذكر أن أكثر أهل الكتاب فاسقون وذمهم وذكر ما عوقبوا به بيّن في هذه الآيات أنهم ليسوا سواء، وأن منهم أمة قائمة- يعني قائمة بأمر الله وأثنى عليهم بذكر صفاتهم- احترازًا من أن يظن أن أهل الكتاب كلهم فاسقون وكفار لا خير فيهم.

٣- امتداح من آمن من أهل الكتاب والثناء عليهم بالقيام بأمر الله تعالى، وتلاوة آياته آناء الليل، والصلاة والسجود لله تعالى، والإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

٤- أن ما فعله أهل الكتاب وغيرهم من خير فلن يضيع عند الله، وسيجازون به ويعطون ثوابه كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾.

٥- تساوي الناس في الإسلام فيما يشرع لهم القيام به من الأعمال، ومجازاة كل منهم بما عمل، سواء من كان منهم أصله من أهل الكتاب أو من هذه الأمة.

٦- الحث والترغيب في الصفات المذكورة من القيام بأمر الله تعالى، وتلاوة آياته آناء الليل والسجود له، والإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات، وبيان فضيلة هذه الأعمال، ومكانة المتصفين بها؛ لأن الله- عز وجل- أثنى على أهلها، وأشار إلى رفعة مكانتهم وأنهم من الصالحين، المتقين، ووعدهم بإثابتهم على ذلك.

٧- فضيلة الصلاح؛ لأن الله وصف به أهل الإيمان به، بل وصف به أنبياءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

٨- أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾.

٩- الترغيب في عمل الخير مطلقًا قليلًا أو كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾.

١٠- علم الله تعالى الواسع بالمتقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وفي هذا تأكيد لقوله تعالى قبل هذا: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾.

١١- أن من عمل بما ذكر من الصفات المذكورة في الآيات فهو من الصالحين المتقين.

١٢- الترغيب بتقوى الله تعالى؛ لأن علمه عز وجل بالمتقين فيه وعد لهم بمجازاتهم بالثواب، كما يفهم من ذلك التحذير من ترك التقوى، والوعيد لغير المتقين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

كما قال تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [الآية:١٠].

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أن من أهل الكتاب أمة قائمة بأمر الله وأثنى عليهم ووعدهم بالثواب، ثم أتبع ذلك بالوعيد للذين كفروا في هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «إنَّ» للتوكيد، أي: إن الذين جحدوا وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه أو شيئًا من ذلك، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المجادلة:١٧].

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ أي: لن تدفع ولن تجزي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا بدفع ومنع شيء من عذاب الله وبأسه عنهم قبل وقوعه، أو رفعه بعد وقوعه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

﴿شَيْـًٔاۖ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء، فلا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله أيَّ شيء، أيًّا كان ومهما قل.

﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الأموال: جمع مال، وهي كل ما يتحول ويملك من نقد أو عين وغير ذلك، أي: لن تغني عنهم أموالهم من الله شيئًا، بأن يقدموها فدية للخلاص من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ

لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٥].

﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الواو: عاطفة، وكرر حرف النفي «لا» لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم شيئًا، بدفع ومنع عذاب الله عنهم أو رفعه.

وخص الأموال والأولاد؛ لأنهم يفتخرون بذلك، ولأن الناس في الدنيا يفتدون بالمال ويدفعون به عن أنفسهم، ويتقوون بالأولاد وينتصرون بهم، كما ينتصر الأقارب بعضهم ببعض، كما قال الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجاء بدون سلاح[1]

لكن ذلك لا يدفع بأس الله تعالى عنهم وعقابه إذا أراده بهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:١٧].

وأما في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج:١٠-١٤].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: أولئك الذين كفروا ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها وساكنوها وملازموها.

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» (ص٢٩).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تأكيد للجملة قبلها، وبيان أن مصاحبتهم للنار مصاحبة خلود فيها، لا انقطاع لها.

أي: هم فيها ماكثون مقيمون إقامة أبدية؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها. وقد أكد هذا باختيار الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والدوام.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ثم أتبع ذلك ببيان السبب في ذلك وهو بطلان نفقاتهم بسبب كفرهم وظلمهم.

قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿مَثَلُ﴾ أي: شبه وصفة، ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة تفيد العموم أي: مثل الذي ينفقون في هذه الحياة الدنيا في بطلانه واضمحلاله، وهو عام لكل ما ينفقونه من أموالهم في وجوه البر والخير، أو في وجوه الكفر والشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ الكاف للتشبيه، كشبه وصفة ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: ريح عاصفة شديدة الهبوب، شديدة البرد، شديدة الصوت، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: زرع قوم، ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الظلم: النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]. أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

ويشمل في الشرع ترك الواجب وفعل المحرم، أي: ظلموا أنفسهم بالمعاصي، وأعظم ذلك الشرك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾

[الأنعام:٨٢] أي: بشرك، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي: أيبسته وأحرقته، بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

فشبه عز وجل نفقات الكفار في اضمحلالها وعدم انتفاعهم بها بسبب كفرهم- وهم أحوج ما يكونوا إليها- بزرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فسلط الله عليه ريحًا شديدة البرودة فأهلكته، وهم أحوج ما يكونوا إليه فلم تقبل نفقات هؤلاء بسبب كفرهم، ولم يسلم لهؤلاء حرثهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، أي: وما ظلمهم الله فيما أوقع بهم، بل هذا مقتضى عدله، والجزاء من جنس العمل.

والضمائر في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تعود إلى الذين كفروا، أي: وما ظلمهم الله في إبطال نفقاتهم وعدم قبولها؛ لأنهم هم الذين تسببوا في ذلك بظلمهم لأنفسهم بالكفر المحبط للأعمال.

ويحتمل أيضًا عود الضمائر على أصحاب الحرث، أي: وما ظلمهم الله في إهلاك حرثهم بالريح والبرد؛ لأن سبب ذلك ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

ولا مانع من حمل الضمائر على الجميع فكل من الفريقين هلك وضاع نتاج عمله بسبب ظلمه لنفسه بالكفر والمعاصي.

وقدم المفعول ﴿أَنفُسَهُمْ﴾؛ لإفادة الحصر، أي: لا يظلمون إلا أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن الذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عقاب الله وعذابه شيئًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، بل هي وبال وحسرة عليهم؛ لأنهم اتخذوها للصد عن

دين الله، والتكاثر والتفاخر والخيلاء.

٢- أن أهم ما يستغني به الناس في حياتهم الأموال والأولاد.

٣- ينبغي التعلق بالله ورجائه، وعدم الاغترار بالأموال والأولاد فإنها لا تنفع إلا إذا استعين بها على طاعة الله تعالى وأنفقت في سبيله.

٤- أن الذين كفروا هم أهل النار وساكنوها وملازموها، والخالدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٥- إثبات النار، وأنها لا تفنى ولا يفنى عذابها.

٦- تحقير الكفار؛ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ بإشارة البعيد.

٧- ضرب الأمثال في القرآن الكريم بتشبيه المعقول بالمحسوس لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ﴾ الآية.

٨- أن نفقات الكفار في الحياة الدنيا لا تنفعهم في الآخرة بل تضيع سدى وتذهب هباءً؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤]، وقال تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [الكهف:١٠٥].

ولما سألت عائشة- رضي الله عنها- رسول الله ﷺ: قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «**لا، إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»(١).

٩- التحذير من إنفاق الأموال لغير وجه الله تعالى، للرياء وكسب الثناء والذكر عند

---

(١) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٣٦٥).

الناس، وفي المحرمات والمعاصي.

١٠- بلوغ القرآن الكريم الغاية في البلاغة في تشبيهه نفقات الكفار في ضياعها واضمحلالها وهلاكها بريح فيها صر أصابت حرث قوم فأهلكته.

١١- أن الله- عز وجل- ما ظلم هؤلاء الكفار في إبطال نفقاتهم؛ لأن ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر، كما أنه سبحانه ما ظلم أصحاب هذا الحرث بإهلاكه بالريح؛ لأن ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٢- كمال عدل الله- عز وجل- وأنه لا يظلم أحد من خلقه، وإنما هم يظلمون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

١٣- الإشارة إلى أن نفس الإنسان وديعة عنده ينبغي أن يحملها على ما فيه صلاحها ونجاتها وسعادتها في دينها ودنياها وأخراها وأن ينأى بها عن مواقع الزلل والخطر، وما يعرضها للهلاك، ولعذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٤- أن الكافر والعاصي لا يضر في الحقيقة إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتقديم المفعول أنفسهم للدلالة على الحصر؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧، الأعراف:١٦٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ أي: تجعلوا، وهو ينصب مفعولين، الأول هنا «بطانة» والثاني محذوف تقديره «أصفياء» أو نحو ذلك.

و«البطانة» بكسر الباء وهي في الأصل: داخل الثوب الذي يلي البدن، وجمعها بطائن، كما قال تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، وبطانة الرجل هم أصفياؤه وأصدقاؤه وخاصته الذين يفضي إليهم بأسراره ويطلعهم على خاصة أموره وأحواله. قال الشاعر:

أولئك خُلْصاني نَعم وبِطانتي ... وهم عيبتي من دون كل قريب(١)

سموا بطانة؛ لأنهم يلونه ويطلعون على أسراره وأموره الباطنة، كما تلي بطانة الثوب بدن لابسه، والثوب له بطانة وله ظهارة، فالبطانة: ما ولي الجسد، والظهارة: ما كان فوق ذلك.

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«بطانة»، ويجوز تعلقه بـ«لا تتخذوا»، و«من» للتبعيض أي: من غيركم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم:٨١]، أي: من غير الله. فقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٠٧).

غير أهل دينكم المسلمين.

وقيل: «مِن» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير على هذا: لا تتخذوا بطانة دونكم في الإيمان والعمل والمنزلة.

والمعنى: لا تتخذوا وتجعلوا أولياء وأصفياء وخواص لكم من المنافقين، واليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر تفضون إليهم بأسراركم، وتطلعونهم على دواخل أموركم وأحوالكم، وهم «الوليجة»، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

وقد روي أن هذه الآيات نزلت في قوم من المؤمنين كان يصافون المنافقين ويواصلون رجالًا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية عامة فلا يجوز اتخاذ بطانة من غير المؤمنين مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

هذه الجملة مستأنفة، تعليلًا للنهي في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: لأنهم لا يألونكم خبالًا ويودون ما عنتم، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ ﴿لَا﴾: نافية، و«يألون»: ينصب مفعولين، الأول ضمير المخاطبين، والثاني ﴿خَبَالًا﴾. أي: لا يألون جهدًا ولا يقصرون في خبالكم.

ومنه قول معاذ رضي الله عنه: «أجتهد رأي ولا آلو»[1] أي: لا أقصر في ذلك.

والخبال: الفساد في الرأي والعقل؛ ولهذا يوصف به فاسد الرأي والعقل.

والمعنى: أنهم يبذلون كل جهد لإفساد رأيكم، وتقليلكم، واختلال أموركم.

﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ الود: خالص المحبة، و«ما»: مصدرية، و«العنت»: المشقة الشديدة والتعب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي: لشق

(١) أخرجه أبوداود في الأقضية (٣٥٩٢)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

عليكم، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨] أي: ما شق عليكم.

فمعنى ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أحبوا بكل قلوبهم «عنتكم» أي: المشقة الشديدة عليكم وإتعابكم، معنويًا بقلوبكم، وحسيًّا بأبدانكم وأموالكم، في أمور دينكم ودنياكم، بإضعاف قوتكم المعنوية؛ قوة الدين والإيمان بالتشكيك في دينكم، وصد الناس عنه ونحو ذلك، وإضعاف قوتكم المادية العلمية والاقتصادية والسياسية، وقوة العدة والعتاد وغير ذلك.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿بَدَتِ﴾ أي: ظهرت، ﴿الْبَغْضَاءُ﴾: الكراهية والحنق والحقد والعداوة، ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، ﴿مِنْ﴾: لابتداء الغاية، اي: قد ظهرت الكراهة والعداوة الشديدة لكم، ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: من أقوالهم وفلتات ألسنتهم، فهم لشدة عداوتهم لا يملكون أنفسهم، ولا يقدرون على حفظ ألسنتهم من النضح بما في قلوبهم، وإن حاولوا التكتم على ذلك بغية الوصول إلى مآربهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠].

وفي الأثر: «**ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله عز وجل على صفحات وجهه وفلتات لسانه**»(١)، وكما قيل: «كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان». قال الشاعر:

فحسبكم هذا التمايز بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح(٢)

وقال الآخر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٣)

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ «ما»: موصولة، أي: والذي تخفي صدورهم وقلوبهم من البغضاء والكراهية والعداوة لكم أكبر وأعظم، مما يظهر من أفواههم وعلى ألسنتهم.

---

(١) انظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١٣٦).

(٢) البيت لحيص بيص. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ١٩١).

(٣) البيت لزهير. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

وفي هذه الجمل الأربع تأكيد للنهي السابق وكشف وفضح لكثير ممن يتملقون ويظهرون خلاف ما يبطنون من البغضاء والعداوة وإضمار الشر والغش، كما قيل:

لا تـــأمنن عـــدوًا لان جانبـــه ... خشونة الصل عقبى ذلك اللين[١]

وقال الآخر:

إن الأفـاعي وإن لانـت ملامسـها ... عنـد التقلـب في أنيابهـا العطـب[٢]

وقال الآخر:

يعطيـك مـن أدنـى اللسـان حـلاوة ... ويـروغ منـك كـما يـروغ الثعلـب
يلقـاك يحلـف إنـه بـك واثـق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب[٣]

واتخاذ بطانة من غير المسلمين خطره عظيم، وضرره جسيم على الأمة، على الأفراد والجماعات، وبخاصة ولاة الأمر وأرباب المسؤوليات في الأمة، ولهذا يجب الحذر كل الحذر من ذلك، فإنهم مهما أظهروا من النصح فلا يوثق بهم، ولا ينبغي أن يطَّلعوا على أحوال المسلمين وأسرارهم.

وقد ذكر أن أبا موسى الأشعري- رضي الله عنه- اتخذ كاتبًا نصرانيًا في بيت المال فكتب إليه عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- بعزله، وقال: كيف نأمنهم وقد خوّفهم الله؟ فكتب إليه أبوموسى: إن بيت المال بحاجة إليه وإنه ذو معرفة بالكتابة والحساب ولا يوجد من يقوم مقامه.

فأرسل إليه عمر- رضي الله عنه- بطاقة صغيرة كتب فيها: «مات النصراني والسلام»[٤] أي: قدّر أن هذا النصراني مات، هل تتعطل أمور الأمة؟ أي: ابحث عن غيره فلسنا بحاجة إلى مثله.

كما ينبغي أن يحذر من البطانة السيئة حتى ممن يحسبون على الإسلام من أرباب الشبهات والشهوات الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن

---

(١) البيت ينسب للشريف الرضي. انظر: «جواهر البلاغة» ص١٨٢، «البلاغة الواضحة» ص١٥٦.
(٢) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» (ص١٥).
(٣) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٥١).
(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٤٤).

تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٢٧].

وما أكثر هؤلاء من دعاة الديمقراطية والتطور والانفتاح ونبذ الموروث القديم من أبواق أعداء الإسلام ممن هم من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه: «**دعاة على أبواب جهنم**»(١).

وكم زال من ملك، وتبدلت من دول، وزالت من نعم، وحلت من نقم، بسبب التساهل في اختيار البطانة الصالحة، مما يوجب الحرص على اختيار البطانة الصالحة، والحذر من بطانة السوء.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله**»(٢).

ولهذا كان من أهم ما يُدْعَى به لولاة أمور المسلمين أن يرزقهم الله البطانة الصالحة التي تدلهم على الخير وتحثهم عليه، وتحذرهم من الشر وتنهاهم عنه.

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ أي: قد أوضحنا وأظهرنا لكم عناية بكم الآيات الكونية والشرعية، ومن ذلك الدلائل على سوء اتخاذ بطانة من دونكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر:٧٥].

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي عقول تعقلون بها وتفهمون ما بيّناه لكم من الآيات، وتهديكم إلى ما ينفعكم وتمنعكم عما يضركم.

وذلك أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، ولولاه ما كلفوا، وليس مرادًا هنا، وعقل هو مناط المدح والذم، وهو المراد هنا.

أي: إن كنتم ذوي عقول تعقلون بها الآيات وتهتدون بها إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ [الفجر:٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١١)، والنسائي في البيعة (٤٢٠٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أي: إن بياننا الآيات لكم لا يظهر إلا لمن كان له عقل يدله ويهديه إلى الحق، ويحجزه ويمنعه عن الباطل واتباع الهوى، فيهتدى بالآيات إلى الحق، ويبتعد عن الباطل، ويسلم من اتخاذ بطانة من دون المؤمنين تفسد عليه أمره. قال الشاعر:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

أما من كان له عقل لكنه لم يهده إلى الحق ولم يحجزه عن الباطل فإنه أعمى عن بيان الآيات، وليس بعاقل، بل متبع لهواه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال الذين كفروا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن اتخاذ بطانة من غيرهم، وعلل لذلك النهي بأن هؤلاء البطانة لا يألون جهدًا في خبال المؤمنين، ويودون عنتهم، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وأنه ليس من العقل اتخاذهم بطانة، ثم ذكر في هذه الآية والتي بعدها ما يؤيد ذلك من واقع تعاملهم ويبين خطأ المؤمنين في موالاتهم حث يبذلونها لمن لا يحبهم بل يبغضهم ويعاديهم.

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ قرأ قنبل عن ابن كثير بالقصر: «هأنتم»، وقرأ الباقون بالمد ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ و«ها»: حرف تنبيه، «أنتم»: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والخطاب للمؤمنين. ﴿أُو۟لَآءِ﴾: اسم إشارة منادى، وأصله: يا هؤلاء ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾: خبر المبتدأ.

والضمير «هم» في ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعود إلى البطانة في قوله: ﴿بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: تحبون هذه البطانة، أي: ها أنتم يا هؤلاء المؤمنين تحبون هؤلاء المنافقين الذين اتخذتموهم بطانة من دونكم إحسانًا منكم الظن بهم، لما يظهرون لكم من الإيمان.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي: وهم لا يحبونكم لا ظاهرًا ولا باطنًا، كما قال تعالى: ﴿قَدْ

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ١١٣).

بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾: معطوف على ما قبله، و«ال» في «الكتاب»: للجنس، أي: وتؤمنون بكتب الله تعالى كلها، ولهذا أكده بقوله: ﴿كُلِّهِۦ﴾.

أي: وتصدقون ظاهرًا وباطنًا بجميع الكتب التي أنزلها الله تعالى؛ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبرهيم وغيرها، مما سمى الله تعالى لكم ومما لم يسم.

وهم في شك وريب من ذلك، بل لا يؤمنون بذلك، أو يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، كاليهود يؤمنون بالتوراة، والنصارى يؤمنون بالإنجيل، ويكفرون جميعًا بالقرآن الكريم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ﴾ نفاقًا وتقية: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا بما جاء به محمد ﷺ مثلكم، وهم كما قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤].

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾ أي: انفردوا وحدهم.

﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ العض: تحامل الأسنان بعضها على بعض، ويعبر به عن الندم المفرط، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:٢٧]، فكأن صاحب الغيظ يتمنى أن يجعل عدوه بين أسنانه فيقضمه من شدة غيظه، قال أبو طالب:

وقد صالحوا قومًا علينا أشحة ... يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل(١)

و﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ جمع أنملة، وهي: أطراف الأصابع.

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: من شدة الغيظ في قلوبهم، والغيظ: الحنق، وشدة الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، والتغيظ: إظهار الغيظ، وقد يكون مع ذلك صوت، كما قال تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢].

---

(١) البيت لأبي طالب عم النبي ﷺ. انظر: «خزانة الأدب» (٢/ ٦٠).

﴿مِنَ﴾ للسببية، أي: بسبب شدة الغيظ والحنق عليكم؛ لما يرون من نعمة الله عليكم بالإيمان، وظهور أمركم، واجتماع كلمتكم، وعدم تمكنهم من ردكم إلى دينهم ومن نيل مآربهم فيكم.

﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل مؤمن، أي: قل لهؤلاء موتوا بغيظكم. والأمر في قوله: ﴿مُوتُوا۟﴾ للإهانة والإغاظة، أي: موتوا بغيظكم تأسفًا وتحسرًا حيث لم تجدوا إلى التشفي سبيلًا.

والباء في قوله: ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ للسببية، أي: موتوا كمدًا بسبب غيظكم، فهو دعاء عليهم بزيادة غيظهم لما يرون من عز الإسلام وقوة المسلمين إلى أن يهلكوا بسبب ذلك.

ويجوز كون الباء للحال والملابسة والغاية، أي: موتوا متلبسين بغيظكم، وهذا دعاء ببقائهم على غيظهم بسبب عز الإسلام وقوة أهله إلى أن يموتوا متلبسين به.

والأول أولى؛ لأنه أشد في التحدي لهم وإغاظتهم، وإظهار القوة أمامهم، ومفاصلتهم، أي: موتوا بسبب غيظكم، فإن الله- عز وجل- متم نعمته على المؤمنين ومكمل دينه ومظهره ومعل كلمته، رغم أنوفكم.

عن تميم الداري- رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو ذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلاًّ يذل الله به الكفر**»(١).

وعن أبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فما له في الآخرة من نصيب**»(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد، و﴿عَلِيمٌۢ﴾ على وزن «فعيل». أي: ذو علم تام واسع ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ ولهذا بيَّن عز وجل لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه قلوب البطانة من غيرهم من الغيظ والبغضاء والعدوان وغير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤).

و«ذات الصدور» صاحبة الصدور، وهي القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج:٤٦] أي: إن الله ذو علم واسع تام بالقلوب وما فيها من المكنونات من المعتقدات والأسرار والنوايا، والصلاح والفساد، والتي عليها مدار صلاح البدن أو فساده، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة شدة غيظ المنافقين وأعداء المؤمنين، ثم أتبع ذلك وأكده بما يدل على تناهي عداوتهم إلى حد الحسد والشماتة، فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية.

قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين.

و﴿حَسَنَةٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل حسنة. والحسنة: كل ما حسن في أمر الدين والدنيا.

أي: إن تحصل لكم أيها المؤمنون أيُّ حسنة في دينكم، من نصر كما في بدر وغير ذلك، ومن ظهور وكثرة وعزة، وتأييد لدينكم أو في دنياكم بأبدانكم وأموالكم وبلدانكم من عافية وغنى، وخصب ونماء ونحو ذلك.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾: جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة الواو. والأصل «تسوؤهم».

أي: تحزنهم تلك الحسنة أيًّا كانت؛ لشدة عداوتهم لكم، فلم يقف الحال بهم عند عدم محبة الحسنة والخير لكم وعدم مسرتهم بذلك، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد، وهو أن ذلك يسوؤهم، مما يؤكد شدة عداوتهم ووجوب الحذر منهم.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها. والسيئة: كل ما يسوء في أمر الدين أو أمر الدنيا.

و«سيئة» هنا نكرة في سياق الشرط فتعم أي: سيئة تصيب المؤمنين في دينهم، أو دنياهم، في أبدانهم أو أموالهم وبلدانهم، كما حصل في أُحد حديث أديل العدو على المؤمنين؛ لحكمة يعلمها الله تعالى، وكما في حصول جدب وقحط، أو إصابة طرف من المؤمنين، أو اختلاف بينهم ونحو ذلك.

﴿يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ «الباء» في ﴿بِهَا﴾ للسببية، أي: يفرحوا بسببها، أي: يُسرُّوا لشدة عداوتهم لكم.

وهنا كذلك لم يقف الحال بهم عند عدم المبالاة بما يصيب المسلمين، أو عدم كراهة المصيبة لهم، بل يفرحون بها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٢-٧٣].

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

ختم الله تعالى هذه الآيات بعد النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، وتأكيد ذلك والتحذير منه، بذكر البلسم الشافي والعلاج الكافي والسبب الواقي، بإذن الله تعالى من كيد هؤلاء وغيرهم فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الآية، أي: وإن تصبروا على ما ينالكم منهم، وعلى غير ذلك من المصائب.

﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه، من اتخاذ بطانة من دونكم وغير ذلك.

وقدَّم الصبر على التقوى؛ لأنها مبنية عليه، ولا تقوم إلا به.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبوعمرو ويعقوب وخلف: «لا يَضِرْكم» بكسر الضاد والتخفيف من «الضير» بمعنى الضرر والضيم، ومنه ما جاء في الحديث: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تَضارون**»، وفي رواية: «**لا**

تُضارون» في رؤيته»[١]، أي: لا يلحقكم «ضير» أي: ضرر وضيم.

وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ من «الضرر».

﴿كَيْدُهُمْ﴾ أي: مكرهم الخفي؛ للإيقاع بكم وخداعكم.

﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء.

أي: لا يضركم ولا يضيمكم كيدهم ومكرهم وخداعهم شيئًا أيًّا كان، ومهما قل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ولفظ الجلالة اسمها، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: متعلق بالخبر ﴿مُحِيطٌ﴾، وقدم عليه للتأكيد على عموم إحاطته- عز وجل- بكل ما يعملون، و«ما»: موصولة أو مصدرية.

أي: إن الله بالذي يعمله أعداؤكم أيها المؤمنون، أو بعملهم، من الكيد لكم والكفر والصد عن دين الله ﴿مُحِيطٌ﴾.

أي: مطلع عليه بعلمه، محيط به بقدرته وسلطانه، فلا يخرجون عن علم الله تعالى، ولا يفرون عن قدر الله وقدرته وسلطانه، وسيجازيهم ويعاقبهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، ويكفيكم إياهم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحضًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن الانتهاء عما نهى الله عنه في الآية من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان.

٣- نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- فضل صلاة الفجر (٥٧٣)، وفي التوحيد (٧٤٣٨)، ومسلم في المساجد- فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٤)، من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

دُونِكُمْ ﴾، والنهي يقتضي التحريم، كما قال تعالى: في الكفار والمشركين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة:١]، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٥١]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون:٤] .

فلا يجوز لولاة الأمور وأصحاب المسؤوليات في الأمة اتخاذ بطانة من دون المؤمنين من المنافقين أو من أهل الكتاب وغيرهم كما لا يجوز ذلك لعامة المسلمين أفرادًا أو جماعات، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة هود:١١٣].

وقد روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن ههنا غلامًا نصرانيًا من أهل الحيرة، حافظًا كاتبًا، فلو اتخذته كاتبًا؟ قال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين»(١).

٤- أن العلة والسبب في النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين أنهم لا يألون المؤمنين خبالًا، ويودون عنتهم والمشقة عليهم، وما تظهره أفواههم من البغضاء، مع ما تخفيه صدورهم مما هو أكبر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

٥- أن المنافقين وأعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم لا يألون جهدًا في خبال المؤمنين أي: إفساد رأيهم وأمورهم مما يوجب عدم الركون إلى آرائهم ومشورتهم.

٦- مودة غير المؤمنين العنت والمشقة للمؤمنين.

٧- ظهور بغض المنافقين وغيرهم من أعداء الإسلام للمؤمنين من أفواههم وفلتات

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٤٣).

ألسنتهم مهما أرادوا كتمان ذلك.

٨- أن ما يخفيه هؤلاء من البغضاء والعداوة في صدورهم أكبر مما يظهرونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ودلائل هذا واضحة من واقعهم فإنهم يتحينون الفرص فإذا سنحت لهم فرصة وقوي جانبهم أظهروا ما هو أكبر.

٩- عدم جواز اتخاذ بطانة ممن ليسوا محلًا لذلك من المسلمين، ممن لا يعرف نصحهم- بل ربما يظهر غشهم وعدم نصحهم- وما أكثر هؤلاء- ممن قد يكونون أشد خطرًا، وأعظم ضررًا من غير المسلمين- وهذا أمر مشاهد فإنه ما أضر بالمسلمين اليوم أكثر من هؤلاء ممن هم من جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- قال: «**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»(١).

١٠- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين ببيان الآيات الشرعية والكونية ومن ذلك بيان الآثار السيئة المترتبة على اتخاذ بطانة من غير المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾.

١١- إقامة الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ وهذا البيان عام.

١٢- أن الذين يعقلون آيات ويتفكرون بها هم المؤمنون فقط، ولهذا خصهم بالخطاب فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٩).

١٣- أنه لا يهتدي لبيان الآيات وينتفع بها إلا العقلاء الذين تهديهم عقولهم إلى الخير وتمنعهم من الشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- أن من لم يهده عقله إلى التأمل والتفكر في آيات الله والإيمان بها فهو غير عاقل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وإن كان عنده عقل الإدراك، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

١٥- تأكيد النهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين، بذكر البراهين الدالة على علل ذلك النهي من الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ الآية.

١٦- التوبيخ الشديد للمؤمنين في اتخاذهم بطانة من دونهم. والإشارة إلى أن هؤلاء في باطلهم أصلب منكم في حقكم، كما قال عمر رضي الله عنه: «اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة»(١).

١٧- علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه القلوب من المحبة وضدها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

١٨- كراهة غير المؤمنين للمؤمنين وعدم محبتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

١٩- الثناء على المؤمنين من هذه الأمة بإيمانهم بجميع كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾.

وفي هذا تعريض بأن من عداهم لا يؤمنون بجميع الكتب كاليهود لا يؤمنون بالإنجيل والقرآن، والنصارى لا يؤمنون بالقرآن. ومن لم يؤمن بجميع كتب الله فليس بمؤمن، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة:٨٥].

٢٠- نفاق هؤلاء ومخادعتهم للمؤمنين بقولهم: (آمنا) وإذا خلوا أظهروا خلاف

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٤٣).

ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾، والعبرة بالأفعال لا بالأقوال.

٢١- شدة غيظ هؤلاء وعداوتهم وحنقهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾، وهذا علامة على أشد ما يكون من الغيظ.

٢٢- بلاغة القرآن الكريم في تصويره شدة غيظ أعداء المؤمنين بِعَضِّهم عليهم الأنامل من الغيظ، أي: بمن يتمنى أن يكون عدوه بين أسنانه وأضراسه فيطحنه ويقضمه بها من شدة الغيظ والحنق.

٢٣- ينبغي إظهار القوة والشدة أمام أعداء المسلمين وإهانتهم وإغاظتهم، وعدم الملاينة معهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾.

٢٤- إثبات وتأكيد علم الله التام بما تخفيه الصدور، وتضمره القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وإذا كان عليمًا بما في الصدور والقلوب فعلمه بما ظهر من باب أولى.

٢٥- الوعيد لمن أضمر الشر، والوعد لمن أضمر الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فمقتضى علمه أن يحاسب ويجازي على ما في الصدور من خير أو شر.

٢٦- أن أعداء المسلمين من المنافقين وغيرهم يسوؤهم أن يحصل للمسلمين أيُّ حسنة وخير، ويفرحهم أن يحصل لهم أيُّ سيئة ونقيصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، وإن أظهروا خلاف ذلك.

٢٧- أن من يسوؤه حصول الخير لك، ويفرحه حصول الشر لك فهو عدو وليس بصديق، وإن ادَّعىٰ ذلك وأظهره، وكما قيل:

صديقي من يقاسمني همومي ... ويرمي بالعداوة من رماني
ويصفو لي إذا ما غبت عنه ... وأرجوه لنائبة الزمان

٢٨- الإطناب بذكر عشر مساوئ للبطانة من غير المؤمنين، تأكيدًا على شدة

تحريم ذلك، ودليلًا على عظيم خطره.

٢٩- أن في الصبر والتقوى ضمانة لدفع ضرر كيد أعداء الأمة؛ بل لدفع جميع الشرور؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

٣٠- الحث على الصبر والتقوى ففيهما النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

٣١- إحاطة الله- عز وجل- بعلمه وقدرته وسلطانه بأعمال هؤلاء الذين يكيدون للمسلمين والوعيد والتهديد لهم وأنه- عز وجل- لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عقابه لهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

٣٢- في ابتلاء المؤمنين بكيد أعدائهم لهم تمحيص للمؤمنين، يظهر صبرهم وتعظم تقواهم لله تعالى وتعلقهم به وثقتهم بوعده ونصره، كما أن فيه استدراجًا لأعدائهم؛ ليتمادوا في طغيانهم فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم لا يألونهم خبالًا من المنافقين وأهل الكتاب؛ لما في ذلك من الفساد، ولما تنطوي عليه قلوبهم من محبة المشقة على المؤمنين، والبغضاء وعدم المحبة لهم، والكفر والنفاق، والغيظ على المؤمنين ومحبة السوء لهم، ثم أيَّد ذلك بذكر قصة أحد التي نجم فيها نفاق المنافقين وكيدهم وأسيادهم من اليهود حيث رجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش، وقال كما حكى الله عنه: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]. فهذه الآية ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ إلى تمام ستين آية نزلت في وقعة أُحد، وهذه السورة كلها نزلت بعد أُحد.

قال ابن القيم(١): «افتتح القصة بقوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية».

قوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، أي: واذكر حين غدوت من أهلك، والغدو: الخروج أول النهار، وقد يحمل هنا على مجرد الخروج؛ لأن خروج النبي ﷺ في «أُحد» كان يوم

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥١٠).

الجمعة بعد الصلاة عند أكثر أهل السير، وكانت وقعة أُحد في السنة الثالثة من الهجرة في شهر شوال، يوم السبت الحادي عشر من شوال، وقيل: السابع من شوال.

﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ ﴿مِنْ﴾: ابتدائية، أي: مبتدأ هذه الغدوة من أهلك، أي: من بيت أهلك وزوجك في المدينة.

وسبب هذه الغزوة أن المشركين لما قُتل يوم بدر سبعون رجلًا من أشرافهم وكبرائهم، وأُسر سبعون أرادوا الأخذ بالثأر من النبي ﷺ وأصحابه، فجمعوا الجموع والأحابيش، وأقبلوا في نحو ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبًا من أُحد تلقاء المدينة في مكان يُقال له: «عَينَيْن».

فاستشار النبي ﷺ أصحابه هل يخرج إليهم؟ فأشار عليه بعضهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم، وأشار عبدالله بن أبي وبعض الصحابة بعدم الخروج من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا رأيه ﷺ، وكان هو الرأي، لكن ألحّ عليه الذين أشاروا بالخروج، فدخل ﷺ ولبس لَأْمَة الحرب التي توضع على الرأس، وخرج إلى أصحابه، فقال بعض الذين أشاروا عليه بالخروج: لعلنا استكرهنا رسول الله، ليتنا لم نتكلم بهذا. فقالوا: يا رسول الله: إن شئت أن لا نخرج فعلنا. فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لَأْمَته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»(١).

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الجمعة بعد الصلاة في ألف من أصحابه، وفي أثناء الطريق رجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش مغاضبًا لرسول الله ﷺ؛ لأنه لم يأخذ برأيه ومشورته في البقاء في المدينة، وقال هو وأصحابه- كما ذكر الله عنهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾. [آل عمران:١٦٧].

واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشِّعْب من أُحد في عُدْوة الوادي، وجعل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥١)، والدارمي (٢/ ١٢٩، ١٣٠)، من حديث جابر- رضي الله عنه- ورجاله ثقات، وله شاهد من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٨، ١٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

ظهره وعسكره إلى أُحد وقال: «**لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال**».

وتهيأ ﷺ للقتال، وبوَّأ أصحابه، وهم سبعمائة مقاعدهم للقتال، وجعلهم ميمنة وميسرة، وأمَّر على الرماة عبدالله بن جبير وكانوا خمسين رجلًا، وقال لهم: «انضحوا الخيل عنا، أي: ادفعوها عنا بالنبال، ولا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم، إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا العير فلا تبرحوا مكانكم».

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، أي: لبس درعًا فوق درع، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبدالدار- رضي الله عنه.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبدالدار اللواء(١).

فحصل القتال يوم السبت في أول النهار، وانتصر المسلمون وولى المشركون الأدبار، فجعل المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة- وهم على الجبل- أن المشركين قد وَلَّوا الأدبار، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم، قالوا: انتهت الحرب وأرادوا النزول للمشاركة في جمع الغنائم، فذكَّرهم أميرهم بقول رسول الله ﷺ: «لا تبرحوا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا»، لكنهم لم يأخذوا بذلك ونزلوا. فكر خالد ابن الوليد في مجموعة من فرسان قريش من خلف ظهور المؤمنين لما انكشفت بنزول الرماة، فاختلط المشركون بالمسلمين من ورائهم، فقتل سبعون رجلًا من المسلمين، منهم حمزة عم النبي ﷺ، ومُثِّل به.

وجرح النبي ﷺ وشج في وجهه وكسرت رباعيته، فأخذ يمسح عن وجهه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله»(٢).

وأمر النبي ﷺ بدفن شهداء أُحد في مصارعهم، ولم يُغَسَّلوا ولم يُكَفَّنوا؛ لأن الشهيد يُبْعَث يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم والريح ريح المسك»(٣).

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٣)- وما بعدها، «زاد المعاد» (٣/ ١٩٢) وما بعدها، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩١).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٩١)، والترمذي في التفسير (٣٠٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٤٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحصل ما حصل من الابتلاء للنبي ﷺ وأصحابه مما قدَّره الله تعالى وقضاه؛ لحكم وأسرار عظيمة جاءت الإشارة إليها في ثنايا الآيات في ذكر هذه القصة.

وقتل من المشركين نيّفًا وعشرين، وقال أبوسفيان يومئذ: «اعل هُبَل، اعل هُبَل، يوم بيوم بدر، والحرب سجال»(١).

وقد أطال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»(٢): بذكر هذه الغزوة وما جرى فيها، وما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام والفقه، وفي ذكر بعض الحكم والغايات التي كانت فيها.

﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال. ومعنى ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنزِّل، أي: تنزل المؤمنين مقاعد للقتال.

والتبوؤ: النزول. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر:٩] أي: نزلوها، وقال ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»(٣).

﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ «مقاعد» مفعول ثانٍ لـ«تبوئ» أي: تنزل المؤمنين منازل للقتال، وتجعلهم ميمنة وميسرة، وكلًا في مكانه، وموقعه المناسب له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

حيث نزل صلوات الله وسلامه عليه المؤمنين منازلهم، ورتبهم ونظمهم تنظيمًا عجيبًا، يدل على براعته ﷺ في فنون السياسة والحرب. وفي التعبير بقوله: «مقاعد» إشارة إلى ثبات كل منهم بمكانه المحدد له بثبوت القاعد في مجلسه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: ذو سمع واسع لما يقولون، ولجميع الأقوال والأصوات،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، وأحمد (٤/ ٢٩٣)؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) (٣/ ١٩٢-٢٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء- ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه في العلم (١١٠)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه في الجنائز (١٢٩١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وقد أخرجه مسلم في المقدمة، تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (٢)، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٣)، ومن حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (٤).

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع بما في ضمائركم وبكل شيء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

سبب النزول:

عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة- وما نحب، أو ما يسرني أنها لم تنزل؛ لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾»(١).

قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ «إذ» بدل من «إذ» في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ فالتقدير على هذا: اذكر إذ هممت، أي: حين همت طائفتان منكم أن تفشلا.

﴿هَمَّت﴾ الهم: يطلق على العزم، ويطلق على مجرد حديث النفس.

﴿طَّآئِفَتَانِ﴾: مثنى: «طائفة»، وهي الجماعة من الناس، والطائفتان هنا: هما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج- وهما الجناحان.

﴿أَن تَفْشَلَا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف محذوف، والتقدير: همتا بالفشل، و«الفشل» في كل أمر بحسبه، والمراد به هنا الجبن والخوف والانهزام، أي: همت هاتان الطائفتان أن تجبنا وترجعا، لا لشك منهما أو نفاق، ولكن بسبب ما فعله عبدالله بن أبي حيث انخزل ورجع بثلث الجيش، مما كان له الأثر على نفوس الجيش، ولكن الله عصمهما وثبتهما، فمضيا مع رسول الله ﷺ. ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ فتولاهما عز وجل بولايته الخاصة فثبتهما، فلم تفشلا ولم تفعلا ما همتا به ولم ترجعا، وهو نعم المولى ونعم النصير.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ أي: متوليهما بولايته الخاصة وناصرهما؛ ولهذا ثبتهما فمضيا

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ (٤٢٨٢)، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل الأنصار- رضي الله عنهم- (٢٥٠٥).

مع رسول الله ﷺ، فلم تفشلا ولم ترجعا، فصار ذلك منقبةً لهما.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾: متعلق بـ«يتوكل»، وقدم عليه للدلالة على الحصر، أي: وعلى الله وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

و«التوكل على الله»: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار- مع تمام الثقة بالله- عز وجل- وفعل الأسباب المشروعة.

وأكثر الناس يدّعون التوكل على الله، وينطقون بذلك بألسنتهم، لكنهم يلهثون وراء الأسباب، وينسون مسبب الأسباب- سبحانه وتعالى- وهذا دليل على عدم صدقهم في الاعتماد على الله والثقة به.

وفريق من الناس يزعمون التوكل على الله تعالى ويهملون فعل الأسباب المشروعة وهذا ليس بتوكل، ولكنه تواكل، كما قال عمر- رضي الله عنه- لما قيل له: إن أناسًا من أهل اليمن يحجون وليس معهم زاد، ويقولون: نحن المتوكلون. فقال رضي الله عنه: «هؤلاء ليسوا بمتوكلين ولكنهم متواكلون».

وقال عمر رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»(١).

فالمتوكل على الله حقًا من جمع بين الاعتماد على الله وفعل الأسباب.

وخص عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾؛ لأن التوكل من مقتضيات الإيمان؛ ولأن المؤمنين هم الذين يتوكلون على الله تعالى، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩].

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

ذكَّر عز وجل نبيه ﷺ والمؤمنين بخروجه إلى أُحد وما جرى عليهم من المصيبة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ والآيات بعدها، وذكّر عز وجل المؤمنين في أثناء ذلك بما منّ به عليهم قبل ذلك من النصر العظيم يوم بدر- بسبب توكلهم على الله-

(١) ذكره في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٦٢).

مع قلة عددهم وضعف عدتهم وكثرة عدوهم وقوته، في إشارة واضحة إلى أن عدم النصر في أُحد ليس سببه القلة والضعف، وإنما كان سببه المخالفة وعدم الطاعة- كما سيأتي في الآيات بعد هذا، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

فالذي نصرهم ببدر وهم أذلة قادر على نصرهم في سائر المواطن، وما حصل لهم في أُحد لا ينبغي أن يفت في عضدهم فالحرب سجال.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾ الواو: استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، و«قد»: للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم المقدر، و«قد»، والتقدير: والله لقد نصركم الله ببدر، أي: جعل لكم الغلبة والظهور في وقعة بدر الكبرى، حيث قتلوا سبعين من صناديد قريش، وأسروا سبعين، وكانت في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة.

والباء في قوله: ﴿بِبَدۡرٖ﴾ للظرفية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] أي: وفي الليل.

و«بدر» محلة بين مكة والمدينة، وهي إلى المدينة أقرب، بينها وبين المدينة نحو ثمان وعشرين فرسخًا، تعرف ببئر فيها، تنسب إلى رجل حفرها يقال له: بدر بن النارين، وقيل غير ذلك.

جرت فيها معركة بين المسلمين والمشركين، وسببها أن النبي ﷺ سمع بعير لقريش مع أبي سفيان قدمت من الشام تحمل تجارة لهم، وبما أنهم قد أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من ديارهم وأموالهم، وهم حرب على المسلمين، فندب ﷺ أصحابه للخروج لأخذ هذه العير، فخرج بنحو ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، ومعهم سبعون بعيرًا وفَرَسان فقط، يتعاقب على البعير الواحد الرجلان أو الثلاثة، فعدد أقل وعدة قليلة.

فعلم أبوسفيان بخروجهم فأرسل إلى أهل مكة يستنجدهم؛ لحماية عيرهم فخرجوا لنجدته بكبرائهم وأشرافهم ما بين التسعمائة إلى ألف بعدتهم وعتادهم وسلك أبوسفيان طريق الساحل، ونجا بالعير فأرسل إليهم؛ ليرجعوا، لكنهم أبوا الرجوع، بطرًا منهم ورياءً، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم وغرهم، كما قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ

لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفال:٤٧-٤٨].

فالتقى الجمعان ببدر ونصر الله رسوله ﷺ والمؤمنين مع ما هم عليه من قلة العدد والعدة، فقتلوا سبعين رجلًا من صناديد قريش وألقوهم في قليب بدر، وأسروا سبعين منهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا. وقد ذكر الله تعالى قصة هذه الغزوة مفصلة في سورة الأنفال.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونكم أذلة. و«أذلة» جمع «ذليل» أي: ضعفاء، قليل عددكم، قليلة عدتكم، وأنتم في أُحد أكثر عددًا وعدة منكم في بدر- وفي هذا إشارة إلى أن تخلف النصر في «أحد» ليس بسبب الضعف وقلة العدد والعدة، وإنما بسبب المخالفة والعصيان.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الفاء: للتفريع أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، واثبتوا في القتال، ولا يفلّ حدّكم ما حصل لكم في أُحد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ «لعلَّ» للتعليل، أي: لأجل أن تكونوا ممن يشكرون، أي: لتنالوا درجة الشاكرين، القائمين بطاعة الله؛ لأن حقيقة شكر الله تعالى على نعمة النصر وغيرها من النعم؛ يكون بتقوى الله تعالى بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه.

فبذلك تدوم النعم؛ وتندفع النقم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

قال الشاعر:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم[1]

والشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا[2]

فالشكر بالقلب بالإقرار بالنعمة، باطنًا، والشكر باللسان بالاعتراف بالنعمة ظاهرًا

---

(١) البيتان ينسبان لأبي العتاهية، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الدر الفريد» (٢/ ٣٩٥).
(٢) البيت لبشر. انظر: «المفضليات» (ص٣٤٤).

بالقول بالثناء على الله تعالى ونسبتها إليه والتحدث بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، والشكر بالجوارح يكون بالاستعانة بها على مرضاة الله، واستعمالها في طاعة الله تعالى والبعد بها عن معصيته.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» بدل من «إذ» في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١]، أو متعلق بـ«نصركم».

والخطاب للنبي ﷺ خاصة، كقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الآية:٣٧] ونحو ذلك.

أي: إذ تقول مبشرًا ومثبتًا للمؤمنين.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ هذا إلى قوله ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مقول القول، أي: إذ تقول للمؤمنين وهم الصحابة- رضي الله عنهم- هذا القول. روي أن الصحابة- رضي الله عنهم- رأوا أن المشركين أخذ يمد بعضهم بعضًا على قتال النبي ﷺ وأصحابه، فقال لهم ﷺ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الآية(١).

وهذا وعد لا يتخلف؛ لأنه ﷺ كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣-٤].

﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، ي بن والتقدير: ألن يكفيكم إمداد ربكم. والإمداد: الزيادة والعطاء، والإعانة.

وأسند الفعل «يمد» إلى اسم الربوبية؛ لأن الرب هو الذي له الخلق والملك والتدبير. والاستفهام للتقرير؛ أي: أن ذلك يكفيكم؛ ولهذا قال بعده: «بلى».

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٢٠-٢١).

﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ قرأ ابن عامر بتشديد الزاي: «منزَّلين» من «نزَّل»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿مُنزَلِينَ﴾ من: «أنزل».

و«أنزل» و«نزّل» بمعنى واحد. أي: منزلين من السماء، كما قال تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

يحتمل أن يكون هذا من تتمة قول الرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من الله تعالى تأييدًا لقول نبيه ﷺ وزيادة على ما وعدهم تكرمًا وتفضلًا.

﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب للإثبات، وإبطال النفي، والتقرير.

أي: بلى يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين:

﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

قوله: ﴿إِن تَصْبِرُواْ﴾، أي: إن تصبروا على قتال عدوكم، وعلى فعل ما أمركم الله به، وعلى أقدار الله المؤلمة.

﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي: وتتقوا الله باجتناب ما نهاكم الله عنه من الفشل والهوان أمام الكفار، وغير ذلك.

﴿وَيَأْتُوكُم﴾ الضمير الواو في «يأتوكم» للمشركين، وكذا في قوله: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾.

﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: من وجههم هذا، ومن ساعتهم هذه مبادرين ومباغتين لكم غضبًا منهم للانتقام ليوم بدر. يقال: جاء فلان وخرج من فوره.أي: خرج مبادرًا.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ أي: يزودكم ربكم.

﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فوعدهم ﷺ بأن يمدهم ربهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وقرر ذلك بتكفله عز وجل لهم إن صبروا واتقوا، وجاءهم العدو من فورهم هذا؛ بأن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.

قرأ ابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر وعاصم بكسر الواو: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ اسم فاعل، أي: معلِّمين أي: هم سوّموا أنفسهم، أي: جعلوا عليها علامات تدل على شجاعتهم مثل لبس لَأْمةِ الحرب، ونحو ذلك.

وقرأ الباقون بفتح الواو: «مسوَّمين» اسم مفعول، أي: معلَّمين من السماء بعلامات الجهاد والقتال. قيل: عليهم عمائم سود أو بيض، وعلى نواصي خيولهم وذيولها الصوف الأبيض، وقيل غير ذلك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»(١).

وكونهم معلمين أخص من مجرد الإنزال فتكفل عز وجل لهم بزيادتهم من حيث الكمية إلى خمسة آلاف وتكفل لهم من حيث الكيفية بكونهم مسومين معلمين عليهم علامات القتال والشجاعة.

والسيماء: العلامة. قال الشاعر(٢):

غلام رماه الله بالحسن يافعًا ... له سيمياء لا تشق على البصر

أي: له علامة حسن ظاهرة يراها كل ناظر إليه بلا مشقة.

وقد اختلف المفسرون هل هذا الإمداد المذكور هنا في بدر أو في أُحد على قولين:

القول الأول: أن هذا كان يوم بدر وأن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله قبله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ ويشكل على هذا أنه قال هنا: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ و﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ بينما قال في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الآية:٩].

وقال ابن كثير(٣) في الإجابة على هذه: «فالجواب أن التنصيص على الألف هاهنا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- شهود الملائكة بدرًا (٣٩٩٥).

(٢) البيت لابن عنقاء الفزاري. انظر: «الكامل في اللغة» (١/ ٢٢)، «زهر الآداب» (٤/ ١٠٢٧)، «أمالي القالي» (١/ ٢٣٧)، «الحماسة البصرية» (١/ ١٥٦)، «التذكرة الحمدونية» (٢/ ٣٠٦-٣٠٧)، وروايته في الأمالي والتذكرة والحماسة: «غلام رماه الله بالخير مقبلا».

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٩٤).

لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها؛ لقوله: ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بمعنى: يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم.

وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف».

وعلى هذا يكون المسلمون في بدر أمدوا بألف ثم بثلاثة، ثم بخمسة آلاف.

والقول الثاني: أن هذا الوعد بالإمداد كان في أحد، فيكون قوله: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلقًا بقوله قبل ذلك: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ وذلك يوم أحد، وهذا الوعد مشروط بالصبر والتقوى؛ لقوله: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ ولم يتحقق هذا من المسلمين، بل حصل منهم ما يخالفه وهو المعصية والتنازع والفشل، ولهذا لم يتحقق هذا الوعد بالإمداد، لا بثلاثة ولا بخمسة.

وعلى هذا فلا إشكال بين آيتي آل عمران وآية الأنفال. فآية الأنفال ذكر فيها الإمداد بألف من الملائكة مردفين، وهو ما حصل في بدر، وآيتا آل عمران ذكر فيها الوعد بالإمدد بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف في أحد بشروط ولم يحصل الإمداد فيها، لعدم تحقق الشروط.

ولا ينافي هذا ما ثبت من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد»(١). فإن هذا قتالًا من الملائكة عن رسول الله ﷺ، وليس هو الإمداد المذكور.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٤)، ومسلم في الفضائل- قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أُحد (٢٣٠٦).

قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، والضمير في «جعله» في محل نصب مفعول أول لـ«جعل» يعود إلى الإمداد، والوعد به بالشروط الثلاثة، أو إلى قول النبي ﷺ، أي: إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

والمراد بـ«الجَعْل» هنا الجعل الكوني، أي: وما جعله الله كونًا.

﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ «بشرى»: مفعول ثان لـ«جعل» إذا كانت بمعنى «صيَّر»، وقد تكون «بشرى» مفعولًا لأجله، أي: وما جعله الله إلا لأجل البشرى لكم. أي: ما هو إلا بشرى لكم تبشرون بها.

و«البشرى»: الخبر السار، مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت بشرته، واستنار وجهه.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تطمئن قلوبكم به، أي: لأجل أن تسكن قلوبكم، ويزول عنها الخوف ويقوى التفاؤل ويحصل الثبات، والضمير في «به» يرجع إلى مرجع الضمير في «جعله»، والباء: للسببية، أي: ولتطمئن قلوبكم بسببه.

وأخر هنا المتعلِّق «به» وقدمه في آية سورة الأنفال، كما حذف منها قوله: ﴿لَكُمْ﴾ فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال:١٠].

وهذا قد يدل على أن السياقين ليسا في غزوة بدر، بل آية الأنفال في غزوة بدر، وآيتا آل عمران في غزوة أُحد.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، أي: وما النصر إلا من عند الله تعالى وحده- حتى وإن أمدكم بثلاثة آلاف وخمسة آلاف من الملائكة، فليس النصر منهم ولا بكثرة العدد والعدة، ولا بحولكم وقوتكم، وإنما النصر من عند الله تعالى وحده فيجب الاعتماد عليه وحده مع فعل الأسباب.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وفي الأنفال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية:١٠].

و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه ذو العزة التي لا ترام،

كما جاء في الدعاء: «ذو العزة التي لا ترام»(١).

عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه ذو الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يقطع طرفًا من الذين كفروا، وهو متعلق بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، أو متعلق بـ﴿نَصَرَكُمُ﴾، أو متعلق بقوله: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾.

والأول أولى؛ ليكون عامًا في كل نصر.

والمعنى: ليهلك طائفة من الذين كفروا، وفي قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ إشارة إلى أن العدو الذي يلي المسلمين أولى بالقطع والقتل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣].

وهذا كما هو المأمور به شرعًا، فهو أيضًا مقتضى الحكمة، فليس من الحكمة أن يقاتل العدو البعيد ويترك القريب؛ لأن القريب أشد خطرًا على المسلمين.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ «أو»: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة التعليل: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾.

والكبت: الإذلال والإهانة؛ أي: يذلهم ويخزيهم ويردهم بغيظهم وغمهم وكمدهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة:٥]. أي: أهينوا وأذلوا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١].

﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيرجعوا مخذولين خاسرين لم ينالو ما أرادوا

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وما أملوا، كما حصل في غزوة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب:٢٥].

حيث أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾ [الأحزاب:٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

هذه الآية مما يقوي أن السياق والإمداد المذكور في هذه الآيات في أُحد وليس في بدر.

سبب النزول:

عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أُحد، وشجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله- عز وجل-**» فأنزل الله- عز وجل-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»(١).

وعن سالم عن أبيه «أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا**»، بعدما يقول: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾».

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾»(٢).

وفي رواية عن نافع عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة، قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى آخر الآية، وهداهم الله

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير- غزوة أُحد (١٧٩١)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن- من سورة آل عمران (٣٠٠٢)، وابن ماجه في الفتن- الصبر على البلاء (٤٠٢٧).

(٢) أخرجهما البخاري في المغازي (٤٠٧٠).

للإسلام»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية»(٢).

قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: بل الأمر كله لله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]. أي: ترجع الأمور كلها.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ «أو» في الموضعين عاطفة، والجملتان معطوفتان على جملة التعليل ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾.

وعلى هذا تكون جملة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ معترضة بين هاتين الجملتين وبين الجملة المعطوف عليها.

وقيل: «أو» بمعنى «إلى» وفي الآية حذف، والتقدير: فاصبر إلى أن يتوب الله عليهم. أي: لا تيأس، ولا تدعُ عليهم، بل اصبر إلى أن يتوب الله عليهم، أو يعذبهم.

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوفقهم للرجوع عما هم عليه من الكفر إلى الإسلام، ومن الضلال إلى الهدى، ويقبل ذلك منهم.

وفي هذا إشارة إلى أنه- عز وجل- سيتوب عليهم أو على بعضهم. وهو ما حصل حيث تاب الله على بعضهم.

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ العذاب: العقوبة، وهو في الأصل يحمل على عذاب الدنيا والآخرة،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٠).

وعلى العذاب من الله الذي ليس للمؤمنين فيه يد، وعلى العذاب بأيدي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١٤].

والأولى أن يحمل قوله: ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ على العذاب من الله في الدنيا والآخرة، الذي ليس للمؤمنين فيه يد، لأن تعذيبهم على أيدي المؤمنين بنصر الله لهم ذكر في قوله تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآية.

وهكذا حصل لهؤلاء الكفار، فقطع الله طرفًا منهم فهلك، وكبت فريقًا منهم فانقلبوا خائبين، وتاب الله على فريق منهم ودخلوا الإسلام، وعذب فريقًا منهم بالموت على الكفر.

﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾: تعليل لما قبله، أي: لقوله ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾، وقوله: ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾.

أي: فإنهم بسبب ظلمهم يستحقون ما ذكر من العقوبات، من قطع طرف منهم، وكبتهم ورجوعهم خائبين، أو تعذيبهم، إلا أن يوفقهم الله للتوبة فيتوبوا ويتوب الله عليهم- وبهذا يرتفع عنهم وصف الظلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة أن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، ثم بيَّن في هذه الآية أن له- عز وجل- وحده الأمر والملك كله.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الواو: عاطفة، واللام في قوله: (لله) لام الملك والاستحقاق والاختصاص، وقدم الخبر (لله) على المبتدأ للدلالة على الحصر، و«ما» في الموضعين: اسم موصول يدل على العموم، أي: ولله تعالى وحده جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾

المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «**يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى**

يضع عليه كنفه[١] ثم يقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله- عز وجل-: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[٢].

ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ «من»: موصولة، أي: للذي يشاء من العباد، وهو من اقتضت حكمته المغفرة له من أهل المعاصي دون من مات على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ويعذب الذي يشاء من العباد، وهو من استحق العذاب ممن ماتوا على الشرك أو على المعاصي.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: والله ذو مغفرة واسعة، ولهذا يغفر لمن يشاء.

﴿رَّحِيمٌ﴾: ذو رحمة واسعة، هي سبب مغفرته.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ المؤمنين بخروجه لـ«أُحد» وما جرى فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وكان خروجه ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة، وكانت المعركة يوم السبت أول النهار الحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وقيل: في السابع من شوال، وقيل غير ذلك.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣- حسن تدبير النبي ﷺ في إنزال المؤمنين مقاعدهم للقتال؛ لقوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فجعلهم ﷺ ميمنة وميسرة، وجعل الرماة على الجبل.

٤- أهمية التنظيم في الحرب بإنزال المقاتلين مقاعدهم ومعرفة كل فرد وفريق منهم

---

(١) أي: ستره ورحمته.

(٢) سبق تخريجه.

مكانه ومهمته، حتى لا تضطرب الأمور.

٥- أن الذين شهدوا أُحدًا مع النبي ﷺ من المؤمنين حقًّا؛ لأن الله شهد لهم بذلك، فقال: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكفى بها شهادة. وهذا بخلاف المنافقين الذين رجعوا من عرض الطريق.

٦- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ فهو سبحانه ذو سمع يسع جميع الأقوال والأصوات ويجيب الدعوات.

٧- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

٨- أن طائفتين من المؤمنين همَّتا بالفشل والرجوع، كما رجع المنافقون، ولكن الله ثبتهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وهما بنو حارثة وبنو سلمة.

٩- خطر المنافقين والمثبطين على الأمة فإن رجوع عبدالله بن أبي بثلث الجيش، وقولهم، كما حكى الله عنهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٧]، كان له الأثر على المؤمنين حتى همَّت طائفتان منهم بالفشل والرجوع.

١٠- أن مَن تولاه الله تعالى سلم من الفشل ووفق للفوز والفلاح والنجاح في دينه ودنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

١١- منة الله تعالى على هاتين الطائفتين ومنقبة عظيمة لهما حيث كان الله وليهما.

١٢- وجوب التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

١٣- أن التوكل على الله تعالى من مقتضيات الإيمان، وأن الذين يتوكلون على الله حقًّا هم المؤمنون.

١٤- أن التوكل على الله أكبر معين للمؤمن في الملمات وما دونها، شريطة فعل الأسباب المشروعة.

١٥- امتنان الله تعالى على المؤمنين بنصرهم في بدر مع قلة عددهم وعدتهم، وكثرة عدوهم وعدته.

١٦- قدرة الله تعالى التامة على قلب موازين القوى، وأن النصر من الله، وليس بكثرة العدد والعدة- وإن كانت من أسباب النصر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٥].

وعن عياض الأشعري أنهم كتبوا إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يستمدونه، قال: فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا، وأحصن جندًا: الله- عز وجل- فاستنصروه، فإن محمدًا ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم، فهزمناهم أربعة فراسخ. قال: وأصبنا أموالًا»(١).

١٧- أن المؤمنين قد يكونون أذلة بسبب قلة عددهم، وضعف عتادهم- لكنهم أقوياء بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾.

١٨- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

١٩- أن شكر نعمة النصر وغيرها من النعم يكون بتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

٢٠- بث النبي ﷺ روح الأمل والتفاؤل في نفوس أصحابه: تقوية لقلوبهم، ورفعًا لمعنوياتهم، عند القتال، وفي الأزمات؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم ﴾ الآيتين.

وهكذا ينبغي لولاة المسلمين وقادتهم ودعاتهم.

ولما كان الصحابة- رضي الله عنهم- يحفرون الخندق، واعترضتهم صخرة شديدة فجاؤوا للنبي ﷺ وأخبروه، فجاء ونزل في الخندق وأخذ المعول فضربها به ضربة انقدح منها شعاع أضاءت منه قصور كسرى، وفي الثانية قصور قيصر،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٩). قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٩٣): «وهذا إسناد صحيح».

وفي الثالثة قصور تبع في اليمن. فقال ﷺ: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، ومفاتيح فارس، ومفاتيح اليمن**»(١) مع ما كان عليه المؤمنون من شدة الخوف، كما وصف الله حالهم بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

٢١- ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُم﴾ ربوبية النصر والإمداد والعون والتأييد والتوفيق.

٢٢- إثبات وجود الملائكة؛ لأن الرسول ﷺ وعد المؤمنين بأن يمدهم ربهم بهم، وأنهم ذوو أجسام يحصون بالعدد وينزلون من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، وقوله: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، وقد تم إمداد المؤمنين في «بدر»، وتخلف الإمداد في «أُحد» لتخلف شرطه.

٢٣- أن الصبر والتقوى سببان للنصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾.

٢٤- أن إتيان العدو من فورهم مبادرين ومباغتين المؤمنين من أسباب النصر والإمداد بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾.

٢٥- أن الوعد بالإمداد بالملائكة ما جعله إلا لأجل بشارة المؤمنين وطمأنة قلوبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾.

٢٦- عناية الشرع بالبشارة وطمأنة قلوب المؤمنين، وبخاصة وقت الأزمات، عند القتال ونحو ذلك؛ لعظم الحاجة إلى ذلك، مما يكون سببًا للتفاؤل، ورفع المعنويات.

٢٧- أن النصر لا يأتي إلا من عند الله تعالى مهما بلغت الأسباب المادية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

لهذا يجب فعل الأسباب والاعتماد على الله تعالى وطلب النصر منه وحده، كما قال

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٦)، وأحمد (١٨٦٨٤).

تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

٢٨- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة التي لا ترام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْحَكِيمِ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة؛ الكوني والشرعي والجزائي، والحكمة البالغة، بقسميها؛ الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمِ﴾.

٣٠- في اجتماع العزة والحكم والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال ودلالة على أن مقتضى عزته وحكمه وحكمته نصر أوليائه.

٣١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾

وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم الذين ينفون الحكمة في أفعال الله ويزعمون أنه يفعل بمجرد المشيئة تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

٣٢- أن الله تعالى ينصر المؤمنين، ويمدهم بالملائكة وبنصره؛ ليهلك طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم فيرجعوا ذليلين منهزمين، فيسلم المسلمون من شرهم ويكونوا عبرة لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

٣٣- أن عاقبة الذين كفروا إما أن يهلكهم الله أو يذلهم على أيدي المؤمنين، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

٣٤- أن من حكمة الله تعالى بل مما أمر به وشرعه عدم استئصال أهل الكفر؛ ليتوب الله

على من شاء منهم، وليبقى الصراع بين الحق والباطل؛ ليميز الله الخبيث من الطيب والكافر من المؤمن.

٣٥- أن الرسول ﷺ لا يملك من الأمر الكوني شيئًا، فلا يستطيع هداية أحد أو إضلاله أو جلب النفع والنصر لا لنفسه ولا لغيره، ولا دفع الضر؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

وفي هذا رد على الذين يغلون بالرسول ﷺ ويرفعونه إلى مقام العبودية ويطلبون منه قضاء الحاجات. وقد قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

كما أن في هذا إبطالًا لقول غلاة الصوفية أن المكلف قد يترقى في العبودية إلى أن يصل درجة اليقين فتسقط عنه التكاليف، فلا يجب أو يحرم عليه شيء.

وإذا كان ﷺ لا تسقط عنه التكاليف بل هو مأمور منهي، فما دونه من باب أولى.

٣٦- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ وتخفيف من حزنه لكفر قومه.

٣٧- أن الله قد يتوب على أعتى الناس وأشدهم كفرًا، فيوفقهم للإيمان ويقبله منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

٣٨- أن الله تعالى قد يعذب الكافرين بعذاب من عنده، ليس للمؤمنين فيه يد؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾.

٣٩- أن الظلم سبب لعذاب الله تعالى، وأنه سبحانه لا يعذب إلا الظالمين، بارتكاب الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

٤٠- بيان أن لله- عز وجل- وحده كل ما في السمٰوات وما في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٤١- مغفرة الله تعالى حسب مقتضى حكمته ورحمته وفضله لمن يشاء ممن هو أهل

لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

٤٢- تعذيب الله- عز وجل- لمن يشاء حسب مقتضى حكمته وعدله لمن هو أهل لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

٤٣- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة.

٤٤- إثبات صفة المغفرة لله- عز وجل- وأنه ذو المغفرة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾.

٤٥- إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل- فهو- عز وجل- ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمّت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٤٦- اقتران هاتين الصفتين في حقه- عز وجل- سعة المغفرة، وسعة الرحمة زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال حيث يجمع لعباده بين زوال المرهوب بمغفرته لهم، وحصول المطلوب برحمته لهم- نسأل الله تعالى من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن عمرو بن أقيش- رضي الله عنه- كان له ربًا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد. قال: فأين فلان؟ قالوا: بأُحد. فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجه قِبَلَهم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت، فقاتَل حتى جُرح، فحُمِل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخته: سليه: حمية لقومك أو غضبًا لهم، أم غضبًا لله؟ فقال: بل غضبًا لله ولرسوله، فمات، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة»(١).

ولعل من حكمة نظم هذه الآية في قصة أُحد ما جاء في هذا الخبر- إن كان صحيحًا وهذه الآية نزلت قبل آيات الربا في سورة البقرة.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ «لا»: ناهية، والنهي هنا للتحريم المؤكد؛ لأن أكل الربا من أعظم الكبائر، بل قال بعضهم هو أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

وخصَّ النهي عن أكل الربا دون سائر الانتفاعات به في المشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك؛ لأن الأكل هو أخص أنواع الانتفاع، وهو كسوة الباطن وأشد ما يكون ضرورة للإنسان، فالنهي عن أكل الربا نهي عن سائر الانتفاعات التي دون الأكل من باب أولى.

و«الربا» في اللغة: الزيادة، قال تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةٗ ﴾

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد- فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله- عز وجل- (٢٥٣٧).

[الحاقة:١٠]، أي: زائدة، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]، أي: علت وزادت، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٩]، أي: فما آتيتم من ربا ليزيد في أموال الناس فلا يزيد عند الله.

والربا نوعان:

ربا النسيئة: والنسيئة: التأجيل والتأخير، فيؤجل ما على المدين من الدين الحال سنة أو سنتين أو أقل أو أكثر مقابل الزيادة فيه وهذا هو ربا الجاهلية، فإذا حل الدين قالوا للمدين: إما أن تفي، وإما أن تُربي، أي: إما أن تسدد الدين، وإما أن تزيد فيه.

وربا الفضل: وهو الزيادة بين شيئين يحرم التفاضل بينهما، قال ﷺ: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلًا بمثل سواءً بسواء يدًا بيد فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**»(١).

فإذا بيع أحد هذه الأصناف بجنسه لزم فيه شرطان: التساوي، والتقابض في مجلس العقد. وإذا بيع أحد هذه الأصناف بغير جنسه من الأصناف المذكورة مما يوافقه في علة الربا لزم فيه شرط واحد، وهو التقابض في مجلس العقد، وإذا بيع بغير جنسه مما لا يوافقه في علة الربا لم يشترط فيه التساوي ولا التقابض.

فإذا بيع ذهب بذهب، أو فضة بفضة، أو بر ببر- ونحو ذلك لزم التساوي بينهما وأن يتم القبض في مجلس العقد.

وإذا بيع ذهب بفضة، أو فضة بذهب، أو بر بشعير أو شعير ببر ونحو ذلك لزم القبض في مجلس العقد دون التساوي بينهما؛ لقوله ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**».

وإذا بيع ذهب أو فضة ببر أ وشعير لم يلزم التساوي ولا القبض.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وهم يسلفون السنة والسنتين فقال: «**من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل**

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة- الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا (١٥٨٧)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

معلوم»(١).

ومعنى «يسلفون» أي: يقدمون الدراهم، أي: الثمن، ويؤخرون السلعة من تمر أو بر ونحو ذلك، أي: يؤخرون المثمن.

فهذا الحديث مخصص لعموم قوله ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**».

فيجوز تعجيل الثمن من النقد ذهبًا كان أو فضة، وتأجيل المثمن من غيرهما من هذه الأصناف الربوية؛ برًّا كان أو تمرًا أو شعيرًا أو ملحًا.

فيشتري الرجل مثلًا من صاحب بستان أو غيره «برًّا» لمدة سنة أو سنتين ويعطيه ثمنه دراهم نقدًا. فهنا قدم الثمن وهو الدراهم، وأخَّر المثمن وهو البر، وهذا هو السلف الذي كان يتعامل به أهل المدينة حين قدمها النبي ﷺ، ويسمى «السَّلم» وقد أقرهم النبي ﷺ عليه، وقال: «**من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم**».

﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾: حال، أي: حال كونه أضعافًا مضاعفة، و﴿أَضْعَٰفًا﴾ جمع «ضِعف» و«ضعف الشيء» كثره مرتين، أي: مثله مرتين، فضعف الدرهم درهمان.

﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبوجعفر ويعقوب: «مضعَّفة» بالتشديد مع حذف الألف، وقرأ الباقون: ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ بإثبات الألف مع التخفيف. ومعنى القراءتين واحد.

و﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ صفة لـ«أضعافًا» أي: كل ضِعف من هذه الأصناف مضاعف وكل ما ازداد أجلًا ازداد مضاعفة إلى ما لا حدّ له.

وهذا ربا الجاهلية الذي كانوا عليه قبل الإسلام، فإذا حلَّ أجل الدين قال الدائن للمدين: إما أن تفي وإما أن تربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر،

---

(١) أخرجه البخاري في السلم (٢٢٤١)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٤)، وأبوداود في البيوع (٣٤٦٣)، والنسائي في البيوع (٤٦١٦)، والترمذي في البيوع (١٣١١)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهكذا كل عام فيضاعف القليل حتى يصير كثيرًا.

وعلى هذا فالقيد والوصف بقوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾؛ لبيان الواقع غالبًا، ولا مفهوم له، فلا يفهم منه أن الربا إذا لم يكن أضعافًا مضاعفة جاز أكله. فالربا بشتى صوره محرم لا يجوز.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ نهى عز وجل المؤمنين عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة، ثم أمرهم بتقوى الله في إشارة واضحة إلى خطورة أكل الربا ومنافاته تقوى الله، أي: اتقوا الله بترك الربا، وترك ما نهاكم الله عنه، وفعل ما أمركم الله به.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

روي عن أبي حنيفة- رحمه الله- أنه كان يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه(١).

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أي: واجعلوا بينكم وبين النار وقاية بترك الربا، وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وبمعنى آخر: واتقوا عذاب النار بتقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه. ولهذا قدَّم الأمر بتقوى الله تعالى فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ لأنها هي السبب الواقي من النار.

﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: التي هيئت للكافرين؛ لتكون لهم مآلًا ومصيرًا ودارًا لتعذيبهم. أي: أعدها الله وهيأها لتعذيب الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الواو: عاطفة، والطاعة: امتثال الطلب وموافقته، فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور.

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٤١٤)، و«غرائب القرآن» للنيسابوري (٢/ ٢٥٧)، و«محاسن التأويل» (٢/ ٤١١).

﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: وأطيعوا الرسول، و«ال» في «الرسول» للعهد الذهني أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

أي: وأطيعوا الله والرسول في فعل المأمورات وترك المحظورات.

وقد يحمل الأمر بتقوى الله والأمر بتقوى النار على ترك المحظورات، ويحمل الأمر بطاعة الله والرسول على فعل المأمورات.

وعطف اسم الرسول أو وصفه على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وهذا بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله تعالى بالواو؛ ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال ﷺ: «**أجعلتني لله ندًّا أو عدلًا؟ ما شاء الله وحده**»(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (لعل) للتعليل، أي: لأجل أن ترحموا، فلما كانت التقوى سببًا للوقاية من النار، فطاعة الله تعالى والرسول سبب للرحمة.

والمعنى: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الخاصة بأوليائه، والتي هي سبب السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب والحث على الاتصاف بهذا الوصف.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٨٣)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- أن عدم أكل الربا من مقتضيات الإيمان، وأن أكله نقص في الإيمان، بل نقص عظيم في الإيمان؛ لأن الربا من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله. إن لم يكن أكبرها، وذلك؛ لأنه محاربة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

٤- تحريم أكل الربا، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وإذا كان أكل الربا محرمًا، وهو أخص وأهم وجوه الانتفاع فسائر الانتفاعات التي دونه محرمة من باب أولى.

وإنما شدد الشرع في تحريم الربا حتى عد من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله إن لم يكن أكبرها كما قال بعض أهل العلم؛ لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل، وبخاصة أموال الفقراء والمحتاجين.

ولما فيه من المنافاة لما أمر الله به من الإحسان والمواساة بالصدقة والقرض، وإنظار المعسر، ونحو ذلك إضافة إلى ما فيه من تضخيم الأموال عند طبقة من الناس دون غيرهم؛ مما يؤدي إلى ركود اقتصاد الأمة بسبب عدم استثمار هذه الأموال في مشاريع زراعية وصناعية وتجارية تنفع الأمة كلها.

٥- ظاهر قوله تعالى: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافًا مضاعفة.

والصحيح أن هذا القيد والوصف إنما هو لبيان الواقع والغالب، وإذا كان القيد لبيان الواقع فلا مفهوم له، كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [الآية: ٢٣]، فقوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قيد لبيان الواقع غالبًا فلا مفهوم له فتحرم الربيبة على زوج أمها سواء كانت في حجره أو لم تكن في حجره. ومثل هذا قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [الآية: ٣٣]. فقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لبيان الواقع والغالب، وهو أنهم كانوا يكرهونهن مع أنهن يردن التحصن، فلا يدل بمفهومه على جواز إكراههن إن لم يردن التحصن. وعلى هذا فالربا محرم بشتى

صوره وأشكاله سواء كان أضعافًا مضاعفة أو لم يكن كذلك.

٦- وجوب تقوى الله تعالى باجتناب الربا، وفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٧- أن تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه هي سبب الفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٨- أن الفلاح والفوز من الله- عز وجل- وليست التقوى عوضًا عنه، وإنما هي مجرد سبب؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٩- أن الفلاح والفوز والنجاح مطلب لكل أحد، فمن موفق له، ومن مخذول دونه، نسأل الله التوفيق.

١٠- وجوب اتقاء النار وعذابها باجتناب الربا وبتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾.

١١- خطر الربا وعظم أمره وشدة عقابه، والوعيد عليه والتنفير منه؛ لأن الله- عز وجل- نهى عنه، ثم أتبعه بالأمر بتقواه- عز وجل- ثم أتبع ذلك بالأمر بتقوى النار، ووصفها بأنها أعدت للكافرين تنفيرًا منها ومن أهلها ومن أسباب دخولها؛ ولهذا قال أبو حنيفة رحمه الله: «هذه أخوف آية في القرآن»(١).

١٢- إثبات وجود النار وأنها معدة الآن ومهيأة للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٣- أن مآل الكافرين ومصيرهم ودارهم في الآخرة هي النار؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾. أما العصاة فإنها ليست لهم بدار، بل يدخلونها لتطهيرهم، ويخرجون منها، وقد يعفو الله عنهم فلا يدخلونها.

١٤- التحذير من الكفر؛ لأنه سبب لدخول النار والخلود فيها.

١٥- وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

١٦- أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ لهذا عطف بالواو التي تقتضي

---

(١) سبق تخريجه.

التشريك اسم الرسول ﷺ أو وصفه على لفظ الجلالة في قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾.

١٧- أن طاعة الله تعالى ورسوله سبب رحمة الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، وليست الطاعة عوضًا عن رحمة الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

نهى عز وجل المؤمنين في الآيات السابقة عن أكل الربا، وأمرهم بتقواه عز وجل واتقاء النار، وطاعته عز وجل والرسول ﷺ، ورتب على ذلك الفلاح والرحمة، ثم أتبع ذلك بأمرهم بالمسارعة إلى مغفرته وجنته الواسعة التي أعدها للمتقين، وهذا أشبه بالبيان والتأكيد؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢].

قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر: «سارعوا». بدون عطف، وقرأ الباقون بالعطف: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ فهو معطوف على «أطيعوا» أو على «اتقوا».

والمسارعة: المسابقة والمنافسة، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة:١٤٨، المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

والمسارعة: مفاعلة كالمغالبة، أي: ليسبق بعضكم بعضًا، أي: تنافسوا أيكم يسبق الآخر إلى مغفرة ربكم وجنته الواسعة، وفي هذا أمر بالمسارعة والمنافسة، وهو أيضًا مبالغة في طلب الإسراع، وفي ذلك كله ما لا يخفى من الإغراء والترغيب في المسارعة إلى مغفرة الرب وجنته.

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته. أي: وسارعوا إلى طلب ونيل مغفرة من ربكم بالاستغفار والتوبة من الذنوب، وبالأعمال الصالحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١].

وفي الحديث: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

وفي تنكير وتنوين «مغفرة» ووصفها بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعظيم لها؛ لأنها من الرب؛ الخالق المالك المدبر- سبحانه، المربي عباده بجميع النعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: معطوف على «مغفرة»، أي: وسارعوا إلى جنة عرضها السموات والأرض.

والجنة هي الدار التي أعدها الله لعباده المؤمنين وأوليائه المتقين، فيها من ألوان النعيم ما لا يقدر قدره إلا الرب العظيم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

فيها كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

أي: وسارعوا إلى جنة من ربكم عرضها السموات والأرض بالأعمال الصالحة.

وبحصول مغفرة الرب- عز وجل- يزول المكروه والمرهوب، وبدخول جنته يحصل المحبوب والمطلوب- نسأل الله من فضله.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٧٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الجملة في محل جر صفة لـ«جنة»، أي: عرضها كعرض السموات والأرض، كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١].

والعرض يطلق على ما يقابل الطول وليس مرادًا هنا، ويطلق على الاتساع، وهو المراد هنا، والشيء العريض هو الواسع في العرض بخلاف الطويل غير العريض فهو ضيق؛ ولهذا ذكر هنا عرض الجنة للدلالة على سعتها، وكما قيل:

كأن بلاد الله وهي عريضة ... على الخائف المذعور كِفَّةُ حابِلِ(١)

وأيضًا: فإن الجنة مقببة مستديرة، والشيء المقبب المستدير عرضه كطوله.

والجنة قبة تحت العرش، كما قال ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أُراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(٢).

قال ابن كثير(٣): «وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تنبيهًا على اتساع طولها. وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح» وذكر حديث: «**إذا سألتم الله الجنة...**».

وفي هذا الحديث دلالة على أن الجنة فوق السموات تحت العرش في أعلى عليين، كما أن النار تحت الأرض في أسفل سافلين.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الجملة في محل جر صفة ثانية لـ«جنة».

﴿أُعِدَّتْ﴾ بني الفعل لما لم يسم فاعله ليوافق قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، ولأن المعد لها معلوم وهو الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:٨٩].

---

(١) البيت لعبدالله بن العجاج. انظر: «ديوانه» (ص٣١١).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٩٨).

ومعنى ﴿أُعِدَّتْ﴾: هيئت وجهزت، أي: أعدها الله- عز وجل- وجهزها ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله- عز وجل- واتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبالإيمان ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالى في آية سورة الحديد: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الآية:٢١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

أمر عز وجل في الآية السابقة بالمسارعة إلى مغفرته وجنته التي أعدها للمتقين، ثم نوّه ببعض صفاتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الآية.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل جر صفة «للمتقين».

وبدأ بذكر وصفهم بالإنفاق في السراء والضراء، ليقابل- والله أعلم- ما نهى عنه قبل هذا في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [الآية:١٣٠]؛ لأن الإنفاق ضد أكل الربا، فالإنفاق مأمور به ومحمود، وأكل الربا منهي عنه ومذموم.

ولأن المال شريك الحياة وعزيز على النفس فإنفاقه دليل صدق وقوة الإيمان، ولهذا قال ﷺ: «**والصدقة برهان**»(١).

والإنفاق: إخراج المال وبذله. والمراد به هنا الإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله تعالى من النفقات الواجبة كالزكاة والإنفاق على الأهل ونحو ذلك، والنفقات المستحبة من الصدقات والهدية ونحو ذلك.

ولم يذكر مفعول ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ ليعم كل ما ينفق ويبذل من نقود وأعيان ومنافع وغير ذلك، كما لم يذكر المنفق فيه؛ ليعم جميع مجالات الإنفاق، واجبة كانت أو مستحبة.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، أي: في حال السراء والضراء، والسراء: ما يسر، أي: في حال الرخاء والسعة واليسر، ونحو ذلك. و«الضراء»: ما يضر، أي: في حال الشدة والضيق والعسر، ونحو ذلك.

فهم ينفقون في الحالين، فليسوا ينفقون في السراء فقط، ويمسكون في الضراء، بل ينفقون حتى في الضراء فلا يمنعهم ضيق الحال من الإنفاق قدر وسعهم، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق:٧].

وإذا كانوا ينفقون في السراء والضراء، فهم ينفقون في جميع الأحوال والأوقات، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة:٢٧٤]. والإنفاق في الضراء أشد وأصعب، وعليه المحك فهو أدل على حقيقة التقوى.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾: معطوف على ما قبله، وهذه هي الصفة الثانية من صفات المتقين. و«الكاظمين»: جمع «كاظم» و«الكظم» معناه: الكتم والإمساك- مع شدة الألم والتأثر.

وفي الحديث: «**إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع**»[1] أن يمنع فتح فمه ما استطاع مع شدة ذلك.

والغيظ: الحنق وشدة الغضب الموجب للانتقام بالقول، والفعل بالطبيعة البشرية فالكاظم الذي امتلأ قلبه غيظًا وغضبًا وحبسه، قال تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤] أي: ممتلئ قلبه حزنًا، وقال تعالى عن يونس- عليه السلام-: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨] أي: ممتلئ قلبه غمًا وهمًا.

أي: والذين يكتمون ويخفون ويمسكون غيظهم وغضبهم، فإذا اغتاظوا وثاروا واشتد غضبهم حبسوا غيظهم ومنعوه، ولم يحملهم على الانتقام أو التشفي بقول أو

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨٩)، ومسلم في الزهد والرقائق- تشميت العاطس وكراهة التثاؤب (٢٩٩٤)، وأبو داود في الأدب (٥٠٢٨)، والترمذي في الصلاة(٣٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فعل- وهذا من أشد ما يكون على النفس؛ وذلك لأن أقوى القوى تأثيرًا على النفس القوة الغاضبة تشتهي إظهار الغضب والتنفس بها في داخل النفس من الغضب، فإذا استطاع الإنسان إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها دل ذلك على عزيمة في النفس وقهرًا لإرادة الشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة، وهو القوة حقًا؛ ولهذا قال ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١).

وقال ﷺ: «**فما تعدون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٢).

وكظم الغيظ من أعظم الصفات؛ لأن الغضب إذا اشتد قد يوقع الإنسان فيما لا تحمد عقباه من الأفعال كالقتل وإتلاف المال، وربما قتل نفسه بأي وسيلة كانت.

ومن الأقوال كالطلاق والسب والشتم، وربما التلفظ بالكفر. نسأل الله السلامة والعافية.

وقد روي أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي قولًا، وأقلل لعلي أعيه، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تغضب، فأعاد عليه، حتى أعاد عليه مرارًا، كل ذلك يقول: لا تغضب**»(٣).

وفي رواية عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصني. قال: «**لا تغضب**» قال الرجل: ففكرت حين قال ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله(٤).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ جوفه إيمانًا**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة- فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء؟ (٢٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٠٨)، وأبوداود في الأدب (٤٧٧٩)، وأحمد (١/ ٣٨٢)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤)، من حديث الأحنف بن قيس عن عم له يقال له: جارية بن قدامة السعدي.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧) قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٠٢): «إسناده حسن ليس فيه مجروح».

وعن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء**»(١).

وقال ﷺ: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**»(٢).

ولهذا فإن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الغضبان الذي اشتد به الغضب لا عبرة بأقواله، ولا بإقراراته؛ من طلاق أو قذف أو عتق أو بيع أو شراء أو غير ذلك.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المتقين، فترقوا من كظم الغيظ، إلى العفو عن الناس.

﴿وَٱلْعَافِينَ﴾ جمع «عاف» والعفو: ترك المؤاخذة على الذنب، أو التسامح عن الحق أو بعضه.

أي: الذين إذا أساء إليهم أحد من الناس بقول أو فعل لم يقابلوا إساءته بالانتقام بل يعفون عنه ولا يكون في قلوبهم أي موجدة عليه، كما يعفون ويتسامحون عن بعض حقهم أو كله، كل ذلك طلبًا للأجر من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فيتبعون كظم الغيظ بالعفو عمن أساء إليهم من الناس، وفي هذا تتويج وتكميل لكظمهم الغيظ؛ لأن العفو منزلة أعلى وأجل من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة، والتجاوز كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

ويعفون ويتسامحون عن بعض حقهم أو كله، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٧].

و«العفو»: صفة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ولو لم يكن إلا أنه من أعظم صفات الرب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وأبوداود في الأدب (٤٧٧٧)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٢)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٢)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

عز وجل، وبخاصة إذا كان العفو عند المقدرة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

أما إذا كان العفو عن عجز عن الانتقام فهذا لا يحمد ولا يمدح صاحبه، بل يذم؛ لأنه عفو العاجز، كما قال الشاعر يذم قومه:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسبٍ ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظُلْم أهل الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانًا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانًا وركبانًا(١)

وفي قوله: ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ دلالة على أن العفو مشروع ما أمكن عن الناس جميعًا من المؤمنين وغيرهم ما لم يكن غير المؤمن محاربًا- وهذا فيما هو من حقوق الخلق، أما ما كان من حق الله تعالى، فلا يجوز العفو عنه؛ لأنه ليس لأحد من الخلق أن يعفو عن حق الله تعالى، أو يسقطه.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أثنى الله- عز وجل- على المتقين بالصفات المذكورة، وهي الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ثم أتبعها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في إشارة واضحة إلى أن عملهم هذا من الإحسان، وأن هذه الصفات الثلاث كلها من الإحسان.

فيكون في الآية وصفهم بأربع صفات: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان، أي: أنهم محسنون، فهم محسنون بالإنفاق وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وهم محسنون أيضًا باتباع كظم الغيظ والعفو عمن أساء إليهم بالإحسان إليه، وهذه درجة عظيمة أعلى من الكظم والعفو، وأعم منهما وأجل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]. وقال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا**

---

(١) الأبيات لقريط بن أنيف. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (١/ ٥).

بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(١).

وفي التعبير بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دون وصفهم بالمحسنين زيادة ترغيب بالإحسان، والذي يشمل الإحسان في عبادة الله تعالى بالإخلاص له- عز وجل- والمتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله تعالى بإيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ودفع الشر عنهم في ذلك كله.

كما أن فيه إثبات المحبة لله تعالى، وإذا كان عز وجل يحب المحسنين، فمفهوم ذلك أنه لا يحب المسيئين، بل يبغضهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيتين السابقتين صفات المتقين مما يتعلق بفعل الطاعات من الإنفاق والكظم للغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم، ثم أتبع ذلك بذكر صفتهم وحالهم إذا وقع منهم فاحشة أو ظلم، فذكر أولًا حال كمالهم، ثم ذكر حال تداركهم لنقائصهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾، الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على الموصول في الآية السابقة، فهي في محل جر صفة رابعة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿فَعَلُوا۟﴾: فعل الشرط، و«الفاحشة»: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين، كالزنا واللواط، ونكاح الابن زوجة أبيه، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى حكاية عن لوط أنه قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠، النمل:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة و الآداب- استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكل ما تجاوز الحد في الفساد فهو فاحشة، كعقوق الوالدين وشهادة الزور والسرقة وغير ذلك من الكبائر، وأفحش الفواحش الشرك بالله.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ «أو»: عاطفة تفيد التقسيم والتنويع، أي: أو ظلموا أنفسهم بما دون الفاحشة، وهي الصغائر.

وقد تحمل الفاحشة هنا على ما يستفحش من الذنوب كالزنا ونحوه، من الكبائر، ويحمل ظلم النفس على ما سوى ذلك من الذنب كبائر كانت أو صغائر.

كما قيل العطف في الآية من عطف العام على الخاص، لأن الذنوب كلها ظلم للنفس. وقيل: «أو» بمعنى الواو، أي: فعلوا فاحشة وظلموا أنفسهم.

وكل خروج عن طاعة الله تعالى فهو ظلم للنفس، سواء كان تركًا لما أمر الله به، أو ارتكاب لما نهى الله عنه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

وذلك أن النفس وديعة عند الإنسان يجب عليه أن يسعى في سلامتها وخلاصها وفكاكها، وفيما يسعدها في دينها ودنياها وأخراها، فيحملها على فعل أسباب السعادة والنجاة، وينأى بها عن أسباب الشقاء والهلاك، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

وكما قيل:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يُتبِّرُ ما يبني وآخر رافع(٢)

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾، جواب الشرط «إذا»، أي: ذكروا الله- عز وجل- بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم؛ فذكروا الله تعالى بقلوبهم؛ بذكر عظمته ووعده ووعيده،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص٥٦).

وذكروه بألسنتهم بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والاستغفار والتوبة، والدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك.

وذكروا الله تعالى بجوارحهم؛ فابتعدوا بها عن معصيته خوفًا من عقابه، واستقاموا بها على طاعته، رجاءً في ثوابه.

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء: للتعقيب والترتيب، والاستغفار: طلب الغَفْر، أي: طلب الستر للذنوب، وعدم المؤاخذة عليها، أي: فطلبوا من الله- عز وجل- المغفرة لذنوبهم، أي: لما وقع ويقع منهم من المعاصي والآثام، من فعل فاحشة، أو ظلم للنفس أو غير ذلك.

فجمعوا بين الندم على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه بقلوبهم، والإقلاع والبعد عنه بجوارحهم، وطلب المغفرة والتوبة والاستغفار بألسنتهم.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذه الجملة اعتراض- بين قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

والغرض من هذا الاعتراض واضح وهو بيان وتأكيد وجوب التعلق بالله والرجوع إليه وحده، وتسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب، والتعريض بالمشركين الذين يدعون غير الله ويتخذون الشفعاء بينهم وبين الله تعالى.

و«مَنْ» في قوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله، والنفي بصيغة الاستفهام أبلغ لكونه مشربًا بالتحدي، كأنه يقول: ائتوا لي بأحد يغفر الذنوب إلا الله، لا أحد يغفر الذنوب غيره.

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر. أي: لا أحد يغفر الذنوب بسترها والتجاوز عنها إلا الله تعالى، كما قال ﷺ في الدعاء الذي علمه أبوبكر الصديق رضي الله عنه: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت**»(١).

وكما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

عن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه- عز وجل- قال: «**أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال- تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي: رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي: رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**» وفي رواية: «**قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم مادامت الأرواح فيهم. فقال الله: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**»(٣).

وعن علي- رضي الله عنه- أن أبابكر- رضي الله عنه- حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ، فيحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، أو ثم يصلي ويستغفر الله- عز وجل- إلا غفر الله له**»(٤).

وفي رواية: «**ما من رجل يذنب، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ إلى آخر الآية**»(٥).

﴿ وَلَمۡ يُصِرُّواْ ﴾: معطوف على قوله: ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ والإصرار على

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢، ١٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٩٥).

(٥) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٠٦).

الشيء: الاستمرار عليه.

﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: لم يستمروا على الذي فعلوا، أو على فعلهم من الفاحشة أو ظلم النفس بل أقلعوا وتابوا.

فجمعوا بين الندم على فعل الذنب، والعزم على عدم العودة إليه بقلوبهم، والإقلاع والبعد عنه بجوارحهم وطلب المغفرة والتوبة والاستغفار منه بألسنتهم.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يعلمون عظمة من عصوه- سبحانه وتعالى، ويعلمون عظم معصيته ومخالفة أمره بفعل فاحشة أو ظلم للنفس، أو غير ذلك، ويعلمون أن المغفرة لا تحصل مع الإصرار، ويعلمون أن الله- عز وجل- يغفر ويتوب على مَن استغفر وتاب إليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ذكر عز وجل صفات المتقين في الآيات السابقة، ثم أتبعها بذكر جزائهم في هذه الآية.

قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الإشارة للمتقين المتصفين بالصفات السابقة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهًا بشأنهم.

﴿جَزَآؤُهُم﴾ ثوابهم ومكافأتهم على عملهم.

﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ستر من ربهم- عز وجل- لذنوبهم عن الخلق، وتجاوز منه تعالى عنها، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تعظيم لهذه المغفرة.

﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾: معطوف على مغفرة، وهي جمع «جنة»، وجمعت؛ لأنها جنان كثيرة ومتنوعة، ودرجات ومنازل مختلفة، حسب اختلاف الأعمال، كما قال ﷺ: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الغابر في الأفق**». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال**

آمنوا بالله وصدِّقوا المرسلين»(١).

ولما سألت أم حارثة رسول الله ﷺ فقالت: «يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة- وكان قُتل يوم بدر- فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(٢).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» أي: تجري من تحت غرفها وقصورها وأشجارها الأنهار، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتنعمون بمشاهدتها ويصرِّفونها حيث شاؤوا من غير أخدود.

قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان(٣)

وهي أنواع أربعة كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد:١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ أي: مقيمين في هذه الجنات إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها بإجماع المسلمين.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: معطوف على قوله: ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ﴾.

﴿وَنِعْمَ﴾: فعل لإنشاء المدح، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره «هو».

و«ال» في ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ للعهد، أي: نعم أجر العاملين هذا الجزاء.

﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: ثواب العاملين وجزاؤهم، أي: نعم وحسن وعظم هذا الجزاء بالمغفرة من ربهم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار مع الخلود فيها أجر العاملين بتقوى الله تعالى المتصفين بالصفات العظيمة المذكورة.

وفي هذا ثناء منه- عز وجل- وامتداح لأجرهم وتعظيم له، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب (٢٨٣١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، والترمذي في التفسير (٣١٧٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) «النونية» (ص٢٢٩).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ [الكهف:٣١].

نعمت جزاء المتقين الجنة فيها الأماني والمنى والمنة[١]

والتعريف في ﴿ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ للعهد، أي: ونعم أجر العاملين هذا الجزاء، وفي هذا تفضيل للجزاء، وللعمل المجازى عليه، وللعاملين، أي: إذا كان لأصناف العاملين أجور- كما هو المتعارف- فنعم أجر العاملين بتقوى هذا الأجر.

وسُمى ثوابهم «أجرًا» لأنه- سبحانه وتعالى- تكفل به وضمنه لهم، وأوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا وامتنانًا على عباده.

الفوائد والأحكام:

١- الحث والترغيب والإغراء بالمسارعة إلى مغفرة الله عز وجل وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ الآيات.

٢- أن الحياة ميدان للمنافسة والمسابقة والمسارعة إلى مغفرة الله تعالى وجنته، فأين المشمرون؟! ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ حث على الصدقة فجاء عمر- رضي الله عنه- بنصف ماله، وقال: لأسبقن أبا بكر إن سبقته، فجاء أبوبكر- رضي الله عنه- بجميع ماله، وسأل رسول الله ﷺ عمر: ما تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم مثله، وسأل أبا بكر: ما تركت لأهلك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله، قال عمر رضي الله عنه: فعلمت أنني لن أسبق أبا بكر بعد اليوم»[٢].

وقد رُوي عن الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»[٣].

وفي هذا المطلب العظيم أزهقت نفوس المجاهدون، وأفنيت أعمار العلماء الربانيين في خدمة القرآن والسنة والشرع المبين، وفيه أنفقت أموال المحسنين، وسهرت

---

(١) البيت مجهول النسبة. انظر: «صناعة الإعراب» (٢/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة المصنف (٧/ ٨٨)، وأحمد في الزهد (ص١٧٦)، وابن أبي الدنيا في الزهد (ص٢٢٩).

لأجله عيون العابدين.

٣- عناية الله- عز وجل- بالمؤمنين حيث يأمرهم بالمسارعة إلى مغفرته وجنته.

٤- إثبات صفة المغفرة العظيمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ففي تنكيرها وكونها منه- عز وجل- إشارة إلى عظمتها وسعتها.

٥- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة بعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٦- سعة الجنة وعظمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ولأنها من الله- عز وجل- وعنده.

٧- أن التخلية قبل التحلية، وإزالة المرهوب مقدمة على توفير المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ فقدَّم ﴿مَغْفِرَةٍ﴾؛ لأن بها التخلية وزوال المرهوب، ثم ذكر الجنة التي بها حصول المطلوب؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٨- فضل التقوى والترغيب فيها والبشارة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٩- أن الجنة موجودة الآن معدّة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

١٠- امتداح الله- عز وجل- للمتقين وثناؤه عليهم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

١١- فضل الاتصاف بالصفات المذكورة، وهي الإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس والإحسان إليهم، والاستغفار من الذنوب، وعدم الإصرار عليها؛ لأن الله امتدح المتقين بها، وخصها من بين خصال التقوى.

وإذا كان عز وجل قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم ذكر صفاتهم، وقال في سورة الحديد: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الآية: ٢١]، ففي هذا وذاك دلالة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة. خلافًا للمرجئة.

١٢- فضيلة الإنفاق والترغيب فيه في جميع الأحوال؛ لأن الله امتدح به المتقين وقدَّمه على الصفات بعده؛ لما فيه من نفع الآخرين.

١٣- فضيلة كظم الغيظ، والترغيب في الإمساك بزمام النفس عند الغضب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

١٤- الترغيب في العفو عن الناس وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

١٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى، كما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٦- محبة الله تعالى للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وهذا غاية مطلبهم، ويفهم من الآية عدم محبته للمسيئين.

١٧- الترغيب في الإحسان إلى الناس مطلقًا، وأن منه الإنفاق، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس؛ لأن الله لما ذكر هذه الصفات أتبعها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٨- أن المتقين ليسوا بمعصومين عن فعل الفاحشة أوظلم الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٩- أن فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يخدش التقوى إذا استغفر الإنسان وتاب، وقد قال ﷺ: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم**»(١)، وقال ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(٢).

وهذان الأبوان- عليهما السلام- لما تابا وأنابا إلى الله تعالى، وتاب الله عليهما صارت منزلتهما عند الله تعالى بعد التوبة أفضل من منزلتهما قبل المعصية والتوبة.

وهكذا حال كل تائب إلى الله تعالى إذا صدق في توبته ورجوعه إلى الله تعالى وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وابن ماجه في الزهد- ذكر التوبة (٤٢٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب».

٢٠- أن الذنوب منها ما هو مستفحش، ومنها ما هو دون ذلك، لكنه ظلم للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ أي: فعلوا ما يستفحش، أو ظلموا أنفسهم بما دون ذلك، مع أن الكل ظلم للنفس. لكن الذنوب بعضها أفحش من بعض، كما أن منها كبائر، ومنها صغائر.

٢١- مبادرة المتقين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم إلى ذكر الله تعالى والاستغفار لذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾.

٢٢- أن ذكر الله تعالى سبب للتوبة والاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾.

٢٣- لا أحد يغفر الذنوب إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فهو سبحانه يغفر الذنوب جميعًا مغفرة تامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢].

وعن الأسود بن سريع- رضي الله عنه- قال: إن النبي ﷺ أتي بأسير، فقال: «اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي ﷺ: عرف الحق لأهله»(١).

فلا يتعاظمه- سبحانه- ذنب أن يغفره، بل إنه يبدل السيئات حسنات، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ ﴾ [الفرقان:٧٠].

أما المخلوق فإنه لو غفر لمن أساء إليه- وهذا في الناس قليل- فإنه غالبًا يتبع ذلك بالمن والأذى لمن عفى عنه، وربما يذكره بين حين وآخر بذلك.

٢٤- عدم إصرار المتقين على ما فعلوا من فاحشة أو ظلم للنفس وهم يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾.

٢٥- وجوب الاستغفار من الذنوب، والتحذير من الإصرار عليها؛ لأن الإصرار على الذنب سبب لعدم التوفيق للتوبة، وقد يجعل من الصغيرة كبيرة؛ ولهذا قال ابن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥).

عباس رضي الله عنهما: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»(١).

٢٦- أن من استمر على ذنب وهو لا يعلم أنه ذنب فإنه قد يعذر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٧- رفعة شأن المتقين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

٢٨- التنويه بما أُعد للمتقين من الجزاء العظيم من مغفرة ربهم لذنوبهم وجنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وبهذا يزول عنهم المرهوب ويحصل لهم المطلوب.

٢٩- أن من أعظم نعم الجنة جريان الأنهار من تحت قصورها وغرفها وأشجارها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٣٠- خلود أهل الجنة فيها خلودًا أبديًّا؛ وأمنهم من الخروج منها، ومن انقطاع نعيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وهذا نعيم معنوي يضاف إلى ما هم فيه من ألوان النعيم.

٣١- امتداح الله تعالى وثناؤه لما أعده للمتقين من عظيم الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ عملوا قليلًا فأجروا كثيرًا، وعند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الجزاء يجد العامل جزاءه كاملًا موفورًا.

٣٢- الحث والإغراء على العمل، أي: العمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

٣٣- تكفل الله عز وجل بثواب أهل الجنة وجزائهم، لهذا سمّاه «أجرًا» تفضلًا منه وكرمًا.

* * *

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٦٥١).

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

نهى الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين عن أكل الربا، وأمرهم بتقواه، واتقاء النار، وطاعته- عز وجل- ورسوله ﷺ، والمسارعة إلى مغفرته- عز وجل- وجنته التي أعدها للمتقين، وأثنى عليهم بذكر صفاتهم ومَدَح جزاءهم وثوابهم.

وفي هذه الآية وما بعدها عود إلى قصة أُحد، وفيها تسلية للمؤمنين وتعزية لهم في مصابهم في أُحد، وفيها تشجيع وبشارة لهم، وتقوية لنفوسهم، وإحياء لعزائمهم وهممهم وذكر الحكم الباهرة، والفوائد الظاهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم.

قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ ﴿ قَدْ ﴾: للتحقيق، وتأكيد الخبر ﴿ خَلَتْ ﴾: مضت وسبقت، والخطاب في قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ ﴾ لهذه الأمة.

﴿سُنَنٌ ﴾: جمع «سنة»، وهي: السيرة والطريقة، والمثال المُتَّبع، كما قال الشاعر:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها ... فأوَّل راض سنة من يسيرها(١)

والمراد: قد خلت سنن الله في الأمم قبلكم في نصرة المؤمنين وإهلاك المكذبين، كما قال تعالى: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]، وقال

(١) البيت لخالد بن زهير الهذلي يخاطب أبا ذؤيب الهذلي. انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٥٥).

تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد:٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:١٣].

وسنن الله تعالى ثابتة لا تتبدل ولا تتحول في نصرة أوليائه وإهلاك أعدائه وأعدائهم، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٧].

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فسيروا في الأرض بأبدانكم وقلوبكم، أي: فسيروا في الأرض سيرًا حسيًّا بأبدانكم على أقدامكم ومراكبكم؛ لتقفوا بأنفسكم على ديار أولئك المكذبين وتشاهدوها بأبصاركم فذلك أقوى في الاعتبار من السماع.

وسيروا في الأرض سيرًا معنويًّا بقلوبكم بالتفكر في أحوال تلك الأمم وهذا أعم وأوسع، والمراد بالأرض أرض الله عامة، وبخاصة أرض وديار المكذبين.

﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ بأبصاركم وعيونكم، وتأملوا وتفكروا ببصائركم وقلوبكم.

فالسير الحسي في الأرض أقوى في الاعتبار؛ لأنه يجتمع فيه التأمل والتفكر في القلب، والنظر والمشاهدة بالبصر، وليس الخبر كالعيان(١).

والسير المعنوي في الأرض أوسع وأعم لأنه يشمل التفكر بالقلب بكل ما سمع، وإن لم يشاهده.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الجملة في محل نصب مفعول ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾، و﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام وعاقبة الشيء نهايته وما يؤول إليه.

أي: كيف كانت عاقبة ونهاية المكذبين لله ورسوله أن عاقبهم الله بأنواع العقوبات، وحلت بهم المثلات فصارت نهايتهم الهلاك، وزال ملكهم، وصاروا أثرًا بعد عين،

---

(١) سبق تخريجه.

وصارت ديارهم بلاقع بسبب الذنوب والمعاصي والكفر بالله وتكذيب رسله.

وفي هذا تسلية للمؤمنين في مصابهم في أُحد، وتحذير للأمة كلها من مسالك المكذبين وعقوباتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر:٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

فأهلك قوم لوط بالحاصب، وثمود بالصيحة، وقارون بالخسف في الأرض، وقوم نوح وفرعون بالغرق.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾: الإشارة إلى القرآن الكريم، ومنه ما ذكِّروا به في هذه الآيات من مؤاخذة المكذبين.

وأشار إلى القرآن بإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾؛ لأنه حاضر في الأذهان.

﴿بَيَانٌ﴾: مصدر «بيَّن» يقال: بيَّن يُبيِّن تَبينًا وبيانًا. وجاء التعبير باسم المصدر عن

الموصوف بالبيان، وهو القرآن من باب المبالغة، حتى كأن الموصوف هو الصفة نفسها. فالقرآن بيان، وفيه البيان.

والبيان: الإيضاح، وكشف الحقائق الواقعة، والهدى والرشاد، وحذف المتعلق في قوله: ﴿بَيَانٌ﴾؛ ليعم بيان كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي: بيان للناس كلهم، فالقرآن عام من حيث «التبيين» فهو بيان لكل شيء، ومن حيث «المبيَّن له» فهو بيان لجميع الناس.

أي: هذا القرآن بيان لكل شيء، وهدى وإرشاد للناس كلهم، به تقوم عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

فيه بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وبيان أخبار الأمم السابقة، وما جرى بين الرسل وأتباعهم، وبين المكذبين من أقوامهم، وعاقبة كل منهم، بنصر الله لأوليائه المؤمنين، وإهلاكه لأعدائه المكذبين.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: معطوف على ﴿بَيَانٌ﴾ فهو بيان للناس عامة، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون بهدي القرآن ويعملون به، ويتعظون بمواعظه.

والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]. أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ الواو: استئنافية، و«لا»: ناهية، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين.

والوهن: الضعف، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم:٤] أي: لا تضعفوا عن الجهاد وقتال الكفار في المستقبل بسبب ما نالكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾

[النساء:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥].

﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾: معطوف على ما قبله، وكرر «لا» للتأكيد، والحزن: الأسف والأسى على مصاب قد مضى من حصول شر أو فوات خير، أي: ولا تحزنوا بقلوبكم على من قتل منكم.

فكل مصيبة دون الدين تهون، وفي الله عوض عن كل فائت، وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران[1]

فنهاهم عن الوهن والضعف؛ لإشعارهم أنهم أقوياء بالله تعالى؛ ليزدادوا قوة وإقدامًا، ونهاهم عن الحزن على ما مضى؛ إذ لا فائدة في ذلك، ولئلا تفتر عزائمهم، أو يفت ذلك في عضدهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم أنتم الأعلون، ويحتمل كون الواو: استئنافية، أي: وأنتم الأعلون شرعًا ومنزلة بالإيمان، وأنتم الأعلون العالون قدرًا بنصر الله تعالى لكم حتى ولو أصابكم ما أصابكم، فالعقبى لكم في الدنيا والآخرة والنصر لكم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وفي هذا بشارة لهم.

و﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جمع «الأعلى» وفُتِح ما قبل الواو في ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ للدلالة على الألف المحذوفة في «الأعلى» لالتقاء الساكنين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن»: شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، وجوابه محذوف دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون؛ لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

فأنتم الأعلون بإيمانكم، وبكون مصابكم أقل من مصابهم، مع أن عددكم وعدتكم أقل منهم، وأنتم الأعلون بوعد الله لكم بالنصر في المستقبل في دينكم ودنياكم وأخراكم.

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص٨٠).

بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر بضم القاف: «قُرْحٌ»، وقرأ الباقون بفتح القاف ﴿قَرْحٌ﴾، ومعناهما واحد فـ«القرح» بضم القاف وفتحها: «الجرح».

وقيل: إن «القُرح» بالضم: «الجرح»، و«القَرح» بالفتح: «ألم الجرح»، والقولان متلازمان؛ لأن الألم من لازم الجرح.

ومعنى ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: يصبكم، كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة:٢١٤]، أي: أصابتهم. والمعنى: إن يصبكم جراح وقتل.

﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ«قد». والمراد بـ«القوم» كفار مكة، أي: فقد أصاب المشركين قرح مثله، أي: جراح وقتل وذلك في بدر حيث قتل منهم سبعون وأُسر سبعون، فكنتم كفافًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥]، أي: أصبتم منهم في بدر مثلي ما أصابوا منكم في أُحد، أي: ضعفه، حيث قتلتم منهم سبعين رجلًا وأسرتم سبعين.

وفي هذا تسلية للمؤمنين بأن ما أصابهم من قتل وجراح يوم أُحد، قد أصاب عدوهم مثله يوم بدر فليس المصاب خاصًّا بهم، وفي هذا تخفيف لمصاب المؤمنين، أي: هذا بهذا، والإنسان إذا علم أن عدوه قد أصابه مثل مصابه هانت عليه مصيبته، مع الفرق الشاسع والبون الواسع بين قتلى الفريقين، فقتلى المؤمنين في الجنة، وقتلى المشركين في النار؛ ولهذا لما قال أبوسفيان: الحرب سجال؛ يوم لنا، ويوم لكم. فقال ﷺ لأصحابه: أجيبوه: فقالوا:

«لا سواء، لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»(١).

والمصائب إذا عمت خفت؛ ولهذا قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر(٢):

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

ولما حضرت الاسكندر المقدوني الوفاة أمر أمه أن تكتب على باب قصره بأن لا يأتي أحد للعزاء إلا من لم تصبه مصيبة، فلما مات كتبت ذلك فلم يأتها أحد يعزيها، فسألت لم ذلك؟ فقيل لها: إنك كتبت على باب القصر أنه لا يأتيك للعزاء إلا من لم تصبه مصيبة، وما من الناس أحد إلا وقد أصابته مصيبة، فقالت: يا ولدي لقد عزيتني عن نفسك بنفسك.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ الواو: استئنافية، وأشار للأيام بإشارة البعيد «تلك»؛ لأن الأيام منها ما هو بعيد ومنها ما هو قريب، كما أن منها ما هو سابق ومنها ما هو لاحق.

والأيام تشمل الأيام المعروفة والأزمنة، وما يقع فيها من النقم والنعم، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤].

﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ تكلم عز وجل بضمير العظمة إشارة إلى عظمته- عز وجل- وكمال سلطانه في تدبير أمر هذا الكون، ومداولة الأيام بين الناس.

ومعنى ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نجعلها دولًا بينهم، فتارة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء، وتارة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء.

وهذا من سنن الله تعالى الكونية، ففي بدر كانت الدولة للمسلمين على المشركين، وفي أُحد كانت الدولة للمشركين على المسلمين، لحكم وأسرار عظيمة ذكرها الله تعالى في هذه الآيات.

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «كيف كان قتالكم إياه؟ قال: الحرب بيننا سجال،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٧١).
(٢) انظر: «ديوانها» (ص٨٤).

ينال منا وننال منه. فقال هرقل: وكذلك الرسل تبتلى وتكون لهم العاقبة»[١].

قال ابن القيم[٢] في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحد: «ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يميز الصادق من غيره، ولو انتُصِر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، اقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة».

فالأيام دول، ودوام الحال من المحال، فمِن عِز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، ومن صحة إلى سقم ومن سقم إلى صحة، وهكذا، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤].

وقال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر[٣]

وقال الآخر:

ومن عاش في الدنيا فلابد أن يرى ... من العيش ما يصفو وما يتكدر[٤]

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ هذا شروع في بيان الحكمة فيما أصابهم يوم بدر.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الواو: عاطفة، والمعطوف عليه مقدر دل عليه ما

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٣٩٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥١٠).

(٣) البيت لنمر بن تولب. انظر: «ديوانه» (ص٣٤٧).

(٤) البيت مجهول القائل. انظر: «المستطرف» (ص٤٣).

سبق، أي: أصابكم ما أصابكم من القرح، وجعلنا الأيام دولًا ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ واللام في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾: للتعليل، أي: ولأجل أن يعلم الله الذين آمنوا»، أي: لأجل أن يعلم علمًا يترتب عليه مجازاتهم؛ لأن الله- عز وجل- قد علم أزلًا المؤمنين من غيرهم، وعلم كل شيء، لكنه- عز وجل- لا يحاسب الخلائق على ما في علمه السابق أزلًا قبل إيجادهم وحصول الإيمان منهم أو عدمه، وإنما يحاسبهم بعد وجود ذلك وحصوله منهم. أي: وليعلم الله الذين يرضون ويسلمون بما يقدره الله تعالى من مداولة الأيام بين الناس، فيصبرون على الضراء، ويشكرون عند السراء، ويلبسون لكل حالة لبوسها الشرعي، فلا تجزعهم المصيبة، ولا تبطرهم النعمة، كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]، والمراد بالفتنة في الآية ضد الخير.

فمداولة الأيام وما يحصل فيها من خير أو شر أو نصر أو هزيمة فيه أعظم الابتلاء والامتحان للعباد ليتميز المؤمن الصادق من الكافر والمنافق، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾ [الأنفال:٣٧].

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾: معطوف على قوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ أي: جعل الله تعالى الأيام دولًا بين الناس وجعل الدولة للكفار عليهم في أُحد؛ ليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم أيها المؤمنون شهداء، أي: يجعل ويختار ويصطفي منكم شهداء، أي: أناسًا يستشهدون ويقتلون في سبيله، حيث قتل في هذه الغزوة سبعون رجلًا منهم، اختارهم الله واصطفاهم للشهادة في سبيله.

والشهداء: جمع شهيد، وهو الذي يقتل في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، سمي شهيدًا؛ لأن تعريضه نفسه للقتل شهادة فعلية منه على صدق إيمانه، ولأن الملائكة تشهده، وغير ذلك.

أي: ليعلم الذين آمنوا بصبرهم حال الشدة وشكرهم حال الرخاء، ولكي يختار ويصطفي من المؤمنين شهداء.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وقتال المؤمنين والصد عن دين الله، وقابل قوله: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ في إشارة إلى فضل الشهادة ومحبة الله للشهداء وأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار- كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما[1]، فهو كقوله تعالى: ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة:٥٢]، وفي قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ احتراس من أن يظن ما حصل لهم من الدولة في أحد من محبة الله لهم.

وأيضًا: ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالقعود عن القتال من المنافقين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة:٤٦]؛ ولهذا لم يتخذ منهم شهداء.

و﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ جمع «ظالم»، والظلم النقص، كما قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف:٣٣]، وهو أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

العدوان.

وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

فالظالم مَن اعتدى في حق الله، أو حق عباده، ونقص حق الله، أو حق عباده، فمن أشرك بالله أو عصاه فقد ظلم واعتدى ونقص حق الله تعالى، ومن اعتدى على عباد الله تعالى فقد ظلمهم ونقص حقهم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بل يبغضهم بقدر ظلمهم، ومفهوم هذا محبته للمقسطين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢، الحجرات:٩، الممتحنة:٨].

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

معطوف على ما قبله داخل ضمن الحكمة في إصابتهم بالقرح وجعل الأيام دولًا، أي: ولأجل أن يمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾ «التمحيص»: التنقية والتصفية والتخليص.

أي: يمحص الله الذين آمنوا، أي: ليبتليهم ويصفيهم بما أصابهم من القرح وإدالة الكافرين عليهم؛ ليتبين ويتميز المؤمنين الخلص منهم والصفوة، ولينقيهم من ذنوبهم بذلك المصاب؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: معطوف على ما قبله، و«المحق»: إهلاك الشيء وإذهابه بالكلية، أي: ويهلك الكافرين، أي: ومن حكمة الله تعالى في إصابتكم بالقرح ومداولة الأيام، وجعل الدولة لهم عليكم استدراجًا لهم؛ ليمحقهم؛ لأنهم إذا انتصروا ازدادوا طغيانًا وبغيًا وبطرًا؛ اغترارًا منهم بما حصل لهم من نصر، فيعودون لقتالكم مرة بعد أخرى، فيكون محقهم ومعاجلتهم بالعقوبة والهلاك في الدنيا الموصول بهلاكهم وعذابهم في الآخرة في النار وبئس القرار. وقد أهلك جميع الذين حاربوا رسول الله ﷺ يوم أُحد، وأصروا على الكفر، فما أصاب المؤمنين فضيلة وشهادة وتمحيص، وما أصاب الكافرين محق وهلاك، وشتان بين الحالين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

ذكر عز وجل أن من الحكم فيما أصاب المسلمين في أُحد تميز المؤمنين وتمحيصهم واصطفاء شهداء منهم، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ الآية؛ تأكيدا لما قبلهً، وبيانًا لتحتم هذا الابتلاء والتمحيص، فدرب الجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين.

قوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ ﴿أَمۡ﴾: هي المنقطعة التي بمعنى «بل» الانتقالية وهمزة الاستفهام، أي: بل أحسبتم، والاستفهام للتوبيخ والإنكار والنفي. و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«حسب» أي: أحسبتم دخول الجنة، ومعنى «أحسبتم» أي: أظننتم.

﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الواو: حالية، و«لمَّا»: حرف نفي وجزم، وهي أشد نفيًا من «لم» وتفيد ترقب حصول المنفي، و﴿يَعۡلَمِ﴾: مجزوم بها حرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

أي: أظننتم أن تدخلوا الجنة، والحال أن الله لما يعلم الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. أي: ولم تبتلوا بالجهاد والشدائد، فتجاهدوا وتصبروا؛ ويعلم الله ذلك منكم بعد وقوعه فيجازيكم عليه بدخول الجنة.

والمعنى: لا تحسبوا ولا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

قال الشاعر:

فـدرب الصـاعدين كـما علمـتم ... بـه الأشـواك تكثـر لا الـورود[١]

وقال الحسن: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن الإيمان ما وقع في القلب وصدقه العمل»[٢]، ولهذا يقال: «التمني رأس مال المفاليس».

وقال الشاعر:

ترجو النجـاة ولم تسـلك مسـالكها ... إن السفينة لا تجري عـلى اليبس[٣]

وسلعة الله تعالى غالية، كما قال ﷺ: «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»[٤].

قال ابن القيم[٥]:

يـا سـلعة الـرحمن لسـت رخيصـة ... بـل أنـت غاليـة عـلى الكسـلان
يـا سـلعة الـرحمن لـيس يناهـا ... في الألـف إلا واحـد لا اثنـان

ومعنى ﴿جَٰهَدُواْ﴾ بذلوا جهدهم بأموالهم وأنفسهم في القتال في سبيل الله.

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الصابرين على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وكل هذه الأقسام الثلاثة تجتمع في القتال في سبيل الله، ففيه الصبر وحبس النفس على طاعة الله؛ لأن القتال أمر شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦]، وفيه الصبر عن معصية الله بعدم الفرار وترك القتال، وفيه الصبر على أقدار الله المؤلمة من القتل والجراح والمشقة، ونحو ذلك. وقد كان من أسباب ما أصاب المسلمين في أُحد عدم صبر الرماة؛ فحصل على المسلمين ما حصل.

---

(١) البيت لوليد الأعظمي- شاعر عراقي- في ديوانه «الزوابع». انظر: «الأعمال الشعرية الكاملة» (ص٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٦٣)، وفي «الإيمان» ص(٩٢)، وأحمد في الزهد ص(٢٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٦٥).

(٣) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٩٤).

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق (٢٤٥٠)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن غريب».

(٥) «النونية» (ص٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لقد كنتم، و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿تَمَنَّوْنَ﴾ أصلها تتمنون، والتمني: طلب ما يصعب ويتعسر حصوله، أو يستحيل، كما في قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب(١)

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ إشارة إلى أن ما حصل منهم لما استشار النبي ﷺ الناس في الخروج إلى أُحد أو البقاء في المدينة والتحصن فيها أشار عليه الشباب- وبخاصة مَن لم يشهدوا بدرًا- بالخروج، وكانوا يتمنون أن يموتوا ويستشهدوا، كما استشهد بعض إخوانهم في بدر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: كنتم تمنون الموت بالقتل والاستشهاد مع مَن استشهد في بدر، ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أي: من قبل هذا اليوم.

وها أنتم اليوم في أُحد لقيتموه وجعل لكم ما تمنون، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿رَأَيْتُمُوهُ﴾: أبصرتموه وشاهدتموه بأعينكم فيما بينكم، والضمير يعود إلى الموت. أي: رآه مَن استشهد منكم في «أُحد» بنفسه، ورآه مَن لم يستشهد بغيره. وقيل: رأيتم أسبابه في صفوف المقاتلين ولمعان السيوف، وحد الأسنة، واشتباك الرماح.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم تنظرون عيانًا بيانًا على أشد ما تكونوا إحساسًا، فأين بلاؤكم وصبركم، وكيف جبنتم وتخاذلتم وانهزمتهم.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله تعالى هذه الأمة بسنن الله تعالى الخالية في الأمم الماضية؛ لقوله تعالى:

---

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾.

٢- الحث على السير في الأرض والنظر فيها والاعتبار بالأمم السابقة وديارهم، وما آلت إليه أحوالهم، وعاقبة المكذبين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: سيروا في الأرض وانظروا فيها معتبرين متعظين، لا متفرجين؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»(١).

٣- أن للمسير في الأرض ومشاهدة آثار الغابرين أثرًا في الاعتبار أقوى من أثر السماع.

٤- أن ما حصل للمؤمنين من الابتلاء في أُحد بسبب المخالفة هو من سنن الله تعالى مع أتباع الأنبياء، مما يوجب الحذر من مخالفة أمر الله ورسوله.

٥- سوء عاقبة المكذبين لله تعالى ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ مما يوجب الحذر من مسالكهم.

٦- أن القرآن الكريم بيان لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ ﴾ بحذف المتعلق، أي: بيان لكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

٧- أن القرآن الكريم بيان وإرشاد وهدى لجميع الناس المؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾.

٨- أن القرن الكريم هدى وموعظة للمتقين خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٩- أن كثيرًا من الناس لا ينتفع بالقرآن، ولهذا خصّ الله تعالى من بين الناس المتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن فيهتدون به ويتعظون.

١٠- فضيلة التقوى، وأن مَن لم يهتد بالقرآن ولم يتعظ به فليس من المتقين.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر:٨٠] (٤٧٠٢)، ومسلم في الزهد والرقائق- «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين» (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١١- نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن الوهن والضعف فيما يستقبلهم من الأحداث والنوائب، وعن الحزن على ما فاتهم فيما مضى، وما وقع لهم من المصائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾.

١٢- وضوح الحكمة التشريعية في النهي عن الوهن وعن الحزن؛ لأن الوهن ينافي ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان وبخاصة المؤمن من الحزم والعزم في جميع أموره، كما أن الحزن على ما مضى لا يرد فائتًا، بل قد يكون سببًا لفتور العزيمة وضعف الإرادة.

١٣- تقوية عزائم المؤمنين، وتثبيت قلوبهم وتشجيعهم للمضي قدمًا والتغلب على ما يلاقيهم من الصعاب والنوائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم(١)

١٤- أن المؤمنين هم الأعلون في كل حال؛ في حال النصر وعدمه، لأنهم يحيون ويقاتلون لهدف نبيل، وهو إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه، فهم الأعلون في كل حال، والعقبى لهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. وكما قيل:

علو في الحياة وفي الممات .....(٢)

١٥- أن من شرط الإيمان أن لا يهن المؤمن ولا يضعف أمام الأعداء، وما يلاقيه من الصعاب؛ لأنه قوي بالله تعالى والله معه، ومعينه وناصره، وأن لا يحزن على ما مضى وفات فلن يفيده ذلك، ومن الله تعالى عوض عن كل فائت، وما كان في الله تلفه كان على الله خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٦- ينبغي أن يكون المؤمن قويًا بالله تعالى في أي حال من شدة أو رخاء أو غنى أو فقر أو صحة أو مرض، أو نصر أو عدمه؛ لأن العزة لله تعالى ولرسوله والمؤمنين. والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٧٢).

(٢) من شطر بيت لابن الأنباري. انظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٧٩).

سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١].

١٧- أن الوهن والضعف تجاه العدو والنوائب، والحزن على ما مضى، نقص وضعف في الإيمان، وليس من صفات المؤمنين.

وإذا كان الله- عز وجل- قد نهى المؤمنين عن الوهن والضعف أمام الأعداء وفي طلبهم وقتالهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [النساء:١٠٤].

فإن مما يحز في النفس ويحزن القلب ويندى له الجبين أن تجد الوهن والضعف قد دبَّ، بل واستشرى بين كثير من المسلمين أمام أنفسهم، فضعفوا عن القيام بكثير من حقوق الله تعالى، وحقوق الأمة، حتى أصابهم الوهن والضعف في أعظم حقوق الله تعالى بعد الشهادتين- وهي الصلاة، التي هي عمود الإسلام وقاعدته التي تدور عليها رحاه، فمنهم من تركها بالكلية، ومنهم من يصليها حينًا ويتركها أحيانًا، ومنهم من لا يقيمها كما شرعها الله، ولا يصليها مع جماعة المسلمين في المساجد.

كما أصابهم الوهن والضعف في القيام بحقوق الأمة ومصالحها وتحمل مسؤولياتها كالأذان والإمامة في المساجد، والتدريس والتعليم في شتى المراحل، والأعمال الوظيفية على اختلافها وتنوعها- وغير ذلك من مسؤوليات الأمة، بسبب ضعف الاحتساب وعدم استحضار النية، وعدم الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى في الحفاظ على مصالح الأمة ومكانتها.

وضعفت بسبب ذلك العزائم وتحطمت المعنويات وتقاعست الهمم فالقائمون على المساجد من المؤذنين والأئمة لسان حال فريق منهم ومقالهم يقول: ربطني المسجد وقيَّد حريَّتي، ولسان حال كثير من المدرسين ومقالهم يقول: النصاب كثير، ولسان حال كثير من الموظفين ومقالهم يقول: الدوام طويل- وهكذا- وكما قيل:

كل من لقيت يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن[1]

وكل هذا وذاك مما جعل الأمة في مؤخرة الركب. تتقدم الأمم وتنتظم فيها الحياة كما تنتظم دقات عقارب الساعة بينما يراوح المسلمون مكانهم ويعيشون حياة

---

(١) البيت للمعري. انظر: «روض الأخبار» (ص١٤١).

التخلف والفوضى والجهل والفقر والمرض، ولن يعود للأمة عزها ومجدها وكرامتها، ولن تنهض من كبوتها وتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم إلا بالعودة حقًّا إلى دينها، وتحمل المسلمين جميعًا؛ دولًا ومؤسسات وأفرادًا مسؤولياتهم، وقيام كل منهم بواجبه المنوط به في عمله، وبهذا تنتظم حياة الأمة دينًا ودنيا، وتأخذ مكانها بين الأمم، وما ذلك على الله بعزيز.

١٨- تسلية المؤمنين وتعزيتهم والتخفيف عليهم بأن ما أصابهم من قرح يوم أُحد فقد أصاب القوم قرح مثله في بدر، والأيام دول، فيوم لهم ويوم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١٩- أن مما يهون المصيبة على المصاب تذكيره بأن ما أصابه قد أصاب غيره مثله أو أشد وأن المصائب جمة وليست حكرًا على أحد، وأعظم مصيبة المصيبة في الدين، وأعظم مصيبة أصيبت بها الخليقة فقد محمد ﷺ، كما قال حسان- رضي الله عنه[1]:

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد

٢٠- أن الأيام دول بين الناس تكون فيها الدولة لهؤلاء على هؤلاء، ولهؤلاء على هؤلاء، وتتقلب فيها الأحوال بالنسبة للأفراد والجماعات والدول، فمن عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢١- تمام ربوبية الله تعالى وسلطانه في خلقه؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢٢- أن ما حصل على المؤمنين في أُحد من قرح بقتل سبعين رجلًا منهم وجعل الدولة لعدوهم عليهم؛ لحكم وأسرار عظيمة، منها: أن يظهر في علم الله الذين آمنوا، ويتخذ منهم شهداء، ويمحصهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٦٣).

٢٣- أن في الابتلاء بالمصائب ونحوها تميز المؤمنين وتمحيص الصفوة منهم وتنقيتهم من الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢٤- أن الله- عز وجل- لا يحاسب العباد على ما في علمه الأزلي عنهم، وإنما يحاسبهم على ما وجد وظهر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢٥- فضيلة الشهادة ومكانة الشهداء عند الله؛ لأن الله يتخذهم ويصطفيهم لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

٢٦- فضل شهداء أُحد- رضي الله عنهم؛ لأن الله اتخذهم شهداء، وشهد لهم بالشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

٢٧- نفي محبة الله للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٨- إثبات المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب العادلين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٩- التحذير من الظلم سواء كان في حق الله تعالى، أو في حق الخلق، في دمائهم أو أعراضهم أو أموالهم؛ لأن الله تعالى لا يحب الظالمين، بل يبغضهم وينتقم منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

٣٠- أن من حكمة الله تعالى في إدالة الكافرين على المؤمنين كما حصل في أُحد، وفي جعل الأيام دولًا بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ليغتر أهل الباطل ويستمروا في عنادهم واستكبارهم فيمحقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣١- أن نهاية أهل الكفر المحق والهلاك والدمار والخسران والبوار.

٣٢- الإنكار على من يطمع في دخول الجنة بلا جهاد ولا صبر، ولا ابتلاء؛ لقوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾، والمعنى: لا تحسبوا ذلك فإن حسبتم دخول الجنة بغير جهاد فأنتم جاهلون، كما أنكم إن لم تحسبوا ذلك ولم تقوموا بالجهاد وتصبروا عليه فأنتم مفرطون.

٣٣- أن سلعة الله الجنة غالية الثمن لا تنال بالتمني، وإنما تنال بالجهاد والصبر والعمل.

٣٤- أن الجهاد والصبر من أسباب دخول الجنة؛ الجهاد بالنفس والمال والعلم والعمل، والصبر بأنواعه الثلاثة؛ الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٣٥- إقامة الحجة على من كانوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه بجعلهم يرونه وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

٣٦- لا ينبغي أن يتمنى الإنسان المكروه وما قد يعجز عنه، وإنما يسأل الله تعالى العافية فإذا ابتلي فعليه الصبر، كما قال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**»(١).

وليس في الآية دليل كراهية تمني الشهادة، بل فيها دليل على عدم كراهية ذلك؛ لأن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها.

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده وددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل**»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك. واجعل

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- لا تتمنوا لقاء العدو (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير- كراهة تمني لقاء العدو (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٢٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٥٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

موتي في بلد رسولك»[١].

وقد أجاب الله دعاءه فقتل وهو يصلي بالمسلمين بمسجد رسول الله ﷺ.

وقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا[٢]

٣٧- ينبغي أن لا يعتمد الإنسان على نفسه وقوته وجهده، بل يجب أن يعتمد على ربه- عز وجل- ويسأله العون والتوفيق- مع فعل السبب، ويخاف من شؤم نفسه وذنوبه، وكما قال علي رضي الله عنه[٣]:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

* * *

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٩٠)، من حديث سالم عن أبيه عن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (١/ ١٩١).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٣٧)، «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/ ١٧٧)، «محاضرات الأدباء» (١/ ٥٣٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

قال ابن كثير[1]: «لما انهزم مَن انهزم مِن المسلمين يوم أُحد، وقُتل مَن قُتل منهم نادى الشيطان: ألا إن محمدًا قد قُتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمدًا، وإنما كان ضرب رسول الله ﷺ، فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء- عليهم السلام- فحصل وهن وضعف وتأخُّرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾ أي: له أسوة بهم في الرسالة، وفي جواز القتل عليه».

وعن ابن أبي نجيح عن أبيه: أن رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمدًا ﷺ قد قُتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾»[2].

وروي أن أناسًا من أهل النفاق قالوا: إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٠٢)، وذكره ابن كثير (٢/ ١٠٩) ونسبه للبيهقي في دلائل النبوة.

فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: «إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه»(١).

وفي رواية أنه قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أُحد، فمضى فقُتِل»(٢).

قوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، و﴿مُحَمَّدٌ﴾: هو نبينا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، أي: ما هو إلا رسول من عند الله، مهمته تبليغ رسالة ربه، وليس بدعًا من الرسل بل هو من جنس الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾: صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ وهي محط القصر، أي: ما هو إلا رسول موصوف بخلو الرسل قبله، أي: مضيهم وانقراضهم قبله وسيخلو ويمضي مثلهم. و﴿قَدْ﴾: للتحقيق ﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: مضت؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران:١٣٧]. أي: قد مضت وسبقت من قبله الرسل، فمنهم من مات ومنهم من قُتل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١].

و«ال» في ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ للعموم، أي: قد خلت من قبله جميع الرسل، فهو خاتمهم، وفي هذا توطئة لقوله بعده: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ الآية، والهمزة للاستفهام، ومعناه التوبيخ والإنكار والنهي، والفاء للتعقيب.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٠٢) مختصرًا عن أنس رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

و«إن»: شرطية، و﴿مَّاتَ﴾: فعل الشرط، ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾: جواب الشرط، والخطاب لمن شهدوا بدرًا وغيرهم من المؤمنين.

﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، «أعقاب» جمع «عقب»، وهو: «العرقوب» مؤخر القدم.

وفي الحديث: «**ويل للأعقاب من النار**»(١)، أي: مؤخرة الأقدام.

والانقلاب على العقب: الرجوع على الوراء، ورجوع القهقرى، والسير على غير هدى، وأصل الانقلاب التحول من حال إلى حال.

والمعنى: أفإن مات أو قتل كغيره من الرسل ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي: رجعتم وارتددتم عن دينكم. أي: أتنقلبون على أعقابكم وترجعون عن دينكم وتتركون الجهاد إن مات أو قتل رسولكم، والمراد: اثبتوا على دينكم، ولا ترتدوا عنه، وإن مات رسولكم أو قتل، كما ثبتت الأمم قبلكم على أديانهم ولم يرجعوا ويرتدوا بعد أنبيائهم.

وكنى بالرجوع والارتداد عن الدين بالانقلاب والرجوع على الأعقاب تقبيحًا له وذمًّا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ انتقل الكلام من صيغة الخطاب إلى صيغة العموم والغيبة، فلم يقل: «وإن انقلبتم على أعقابكم فلن يضر الله شيئًا»؛ ليكون الحكم عامًّا لكل مَن رجع وارتد عن دينه منهم ومن غيرهم، كما أن فيه عدم مواجهتهم بالخطاب بهذا بعد أن وبخهم وحذرهم من ذلك، إضافةً إلى ما في تنويع التعبير من لفت الانتباه.

والواو: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم، ﴿يَنقَلِبْ﴾: فعل الشرط.

﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ«لن» و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيّ شيء.

---

(١) سيأتي تخريجه برواياته عند تفسير قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الآية:٦].

أي: فمن يرجع على عقبيه ويرتد عن دينه فلن يضر الله أي شيء، وإنما يضر نفسه؛ لأن الله تعالى لا تضره طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أنكر عز وجل ووبخ من انقلب على عقبيه، ثم أثنى وامتدح الشاكرين ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ وامتثلوا أمره، ولم يرتدوا عن دينه، والسين في قوله: ﴿وَسَيَجْزِى﴾ للتنفيس، وهي تحول الفعل المضارع من كونه صالحًا للحال والاستقبال معًا إلى كونه خالصًا للاستقبال.

والجزاء: الثواب والمكافأة على العمل، و﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جمع «شاكر»، وهم الذين شكروا الله تعالى على نعمه واستعانوا بها على طاعته والثبات على العبودية له وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واتباع رسوله ﷺ حيًّا وميتًا وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ- رضوان الله عليهم- الذين ثبتوا على دينه بعد وفاته ﷺ وارتداد مَن ارتد من العرب.

فهم سادات الشاكرين وفي مقدمتهم أميرهم أبوبكر- رضي الله عنه- كما قال علي رضي الله عنه: «﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الثابتين على دينهم، منهم أبوبكر وأصحابه، فكان علي- رضي الله عنه- يقول: كان أبوبكر أمير الشاكرين، وأمير أحباء الله، وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله»(٢).

قال ابن القيم(٣): «فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد مَن ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم».

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٩٧-٩٨).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٥).

و«الشكر» يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا(١)

وشكر الله تعالى بالقلب بالاعتراف باطنًا بنعم الله تعالى واستشعار أنها من الله تعالى وبفضله، لا بحول الإنسان وقوته.

والشكر باللسان يكون بالثناء على الله تعالى بلسان المقال بحمده تعالى على نعمه؛ من نعمة الإسلام والإيمان والخلق والرزق وغير ذلك، والاعتراف بها، ونسبتها إلى الله تعالى، والتحدث بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وشكر الله تعالى بالجوارح يكون باستعمالها في طاعته والثبات على دينه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ويكون بظهور أثر نعمة الله تعالى على العبد في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ومركبه ونحو ذلك؛ كما قال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

ولم يذكر أو يحدد جزاءهم، ليُدلل على عظمته وكثرته؛ لأنه على قدر من جازاهم به وهو العظيم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]، وأيضًا فإن جزاءهم متفاوت ومختلف؛ لأنه على قدر شكرهم.

والمعنى: وسيجزي الشاكرين بمغفرة ذنوبهم، ورفعة درجاتهم، وبالثواب العظيم والفضل الواسع والجزاء الحسن، كما قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**»(٣).

---

(١) البيت لبشر. انظر: «المفضليات» (ص٣٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنهما- وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه في الصيام (١٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

بيَّن في الآية السابقة أن محمدًا ﷺ سيمضي كما مضى غيره من الرسل، إما بموت أو قتل، وحذر من الرجوع عن دينه بعد ذهابه، ثم بيَّن في هذه الآية أنه ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله تعالى في أجلها المكتوب المحدد. وفي هذا تسلية للأمة بموته، وأنه لا عذر في الرجوع عن دينه كما أن فيه حضًّا على الجهاد ولومًا على تركه خشية القتل.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية.

تدل على نفي هذا الشيء وامتناعه قدرًا وكونًا.

﴿ لِنَفْسٍ ﴾ «نفس»: نكرة في سياق النفي، فتعم كل نفس من أنفس الآدميين وغيرهم من جن وحيوان.

و«أن» والفعل بعدها في قوله: ﴿أَن تَمُوتَ ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان، و«إلا» في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾: أداة حصر.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾.

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج:٣٩]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الشورى:٢١].

والفرق بينهما: أن ما أذن الله به كونًا لابد من وقوعه ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى، وما أذن الله به شرعًا فلا يلزم وقوعه، ولابد أن يكون محبوبًا لله تعالى.

فمعنى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إلا بقضائه وقدره، أي: لا يمكن أن تموت نفس أيّ نفس إلا بإذن الله تعالى وقضائه وقدره الكوني، فمهما حاول الناس أن يميتوا أحدًا فلن يستطيعوا ما لم يأذن الله تعالى بذلك قدرًا وكونًا.

وهذه العقيدة الراسخة هي سر بطولات وتضحيات المجاهدين في الإسلام، كما

قال سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رضي الله عنه: «لقد خضت أكثر من مائة معركة وما في جسدي شبرًا إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء»(١).

وكما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء(٢)

و«الموت»: خروج الروح من البدن ومفارقتها له. وفي الحديث: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه**»(٣).

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، ﴿كِتَٰبًا﴾: مصدر مؤكد للجملة التي قبله.

أي: أن الموت مكتوب ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨].

ومعنى ﴿كِتَٰبًا﴾ أي: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١].

ومكتوب عند نفخ الروح في الإنسان في بطن أمه كما في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»(٤).

ومكتوب أيضًا فيما يقدر ويقضى كل سنة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٧٣)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٤٤١).
(٢) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص١١).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤].

ولا يشكل على هذا قوله ﷺ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**»(١).

فإن معنى الحديث أن صلة الرحم سبب لسعة الرزق وطول العمر- في المقدر والمكتوب في اللوح المحفوظ عند الله تعالى، بمعنى أن الله قدر وكتب سعة رزق هذا وطول عمره بسبب صلته لرحمه- وكل ذلك مكتوب عند الله تعالى كما أن صلة الرحم سبب للبركة في الرزق والعمر، والذكر الحسن بعد الموت.

..... **والذكر للإنسان عمر ثان**(٢)

﴿مُّؤَجَّلًا﴾ أي: محددًا بأجل، أي: بوقت معلوم لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر.

فكتب لكل نفس متى تموت وكيف تموت كتابًا مؤجلًا محددًا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر:٢٤].

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿يُرِدْ﴾: فعل الشرط، ﴿نُؤْتِهِۦ﴾: جواب الشرط، مجزوم وعلامة جزمه حذف الياء.

أي: ومن يقصد بعمله جزاء الدنيا دون الآخرة، وفي هذا تعريض بمن يحضر القتال لأجل الغنيمة.

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: نعطه جزاء عمله في الدنيا، من الدنيا حسب ما قدر له، وليس له في الآخرة من نصيب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سطر بيت لأحمد شوقي. انظر: «الشوقيات» (١/ ٦٣).

ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٨].

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: ومن يقصد بعمله جزاء الآخرة، ويعمل لها نعطه منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

وفرق ما بين الإرادتين والمرادَين، وشتان ما بين العطاءين.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدانِ يجتمعان(١)

فعطاء الدنيا بل الدنيا بما فيها متاع قليل، متاع غرور، لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وعطاء الآخرة أعظم وأجزل وأدوم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٢٠-٢١].

﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي: وسنجزي ونثيب ونكافئ الشاكرين على شكرهم بالاعتراف بنعم الله تعالى بقلوبهم والثناء عليه بها بألسنتهم وظهور أثرها عليهم والاستعانة بها بجوارحهم على طاعة الله تعالى بالمغفرة والجزاء العظيم والثواب الجزيل والفضل الواسع، وهم الذين أرادوا ثواب الآخرة دون من أراد الدنيا وحدها كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١٤٨).

في هذه الآية تشجيع وحفز لهمم أصحاب النبي ﷺ- وتثبيت لهم- وهم خير الأصحاب- بذكر ما جرى لكثير من الأنبياء وأتباعهم من قتال وقتل، وما كان عليه أتباع الأنبياء قبلهم، من القوة وتحمل ما يصيبهم في سبيل الله، وعدم الضعف والاستكانة، وقوة الصبر، وفيها تسلية للمسلمين عما أصابهم يوم أُحد، وعما وقع في نفوسهم بسبب الإرجاف بقتله ﷺ، وتوبيخ لمن جزعوا وضعفوا بسبب ما أصابهم.

قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ قرأ ابن كثير وأبوجعفر بألف ممدودة بعد الكاف وبعدها همزة مكسورة «وكآئن»، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعدها ياء مشددة: ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ وهي كلمة مبنية على السكون على القراءتين في محل رفع مبتدأ، تفيد التكثير مثل «كم» الخبرية.

﴿مِّن نَّبِيٍّ ﴾: جار ومجرور مميز «كأين»؛ لأنها لفظة مبهمة، والمعنى: وكم من نبي، أي: وكثير من النبيين.

﴿ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو، ويعقوب بضم الكاف وكسر التاء من غير ألف: «قُتِل» بصيغة المبني للمجهول، وقرأ الباقون بفتح الكاف والتاء وألف بينهما ﴿قَـٰتَلَ ﴾ بصيغة المفاعلة من القتل، وهي المدافعة بالقتل بين فريقين.

والفاعل على قراءة (قاتل) ونائب الفاعل على قراءة (قُتل) ضمير مستتر يعود إلى (نبي) والتقدير: وكأين من نبي قاتل هو، أو كأين من نبي قتل هو.

وتكون جملة ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ ﴾ جملة تامة مستقلة، والوقف على ﴿قَـٰتَلَ ﴾ وعلى (قُتل) في القراءة الأخرى.

وعلى هذا تكون جملة ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ مستأنفة في محل نصب على الحال، أي: حال كونه معه ربيون كثير، و(مع): ظرف مكان متعلق بـ«قاتل» أو «قتل» والهاء مضاف إليه، وهو في محل رفع خبر مقدم، و﴿رِبِّيُّونَ ﴾: مبتدأ مؤخر.

ويكون المعنى على هذا: وكثير من النبيين قاتل، أو قتل حال كونه معه ربيون كثير، فالقتال واقع من النبيين، والقتل واقع عليهم، وفي الحالين معهم ربيون كثير من أصحابهم مقاتلون. ويجوز أن يكون الفاعل على قراءة (قاتل) ونائب الفاعل على قراءة

«قُتل»: (ربيون): والوقف على قوله (كثير)، والمعنى على هذا: وكثير من النبيين قاتل ربيون كثيرون معه، أو قُتل ربيون كثيرون معه من أتباعه، وعلى هذا فالقتال واقع من الربيين والقتل واقع عليهم.

وعلى تقدير أخصر يجوز أن يكون الفاعل على قراءة «قاتل» ضمير يعود إلى النبي ﷺ و(ربيون) أي: وكأين من نبي قاتل وقاتل معه ربيون كثير.

وعلى قراءة (قُتل) يجوز أن يكون نائب الفاعل ضمير النبي ﷺ، و(ربيون) أي: وكأين من نبي قتل وقتل معه ربيون كثير، ويكون الوقف على هذا على قوله: ﴿كَثِيرٌ﴾.

والقراءتان بمثابة آيتين، فالقتال واقع من الجميع الأنبياء والربيين، والقتل واقع عليهم جميعًا.

﴿رِبِّيُّونَ﴾: جمع «ربي، مثل «الربانيين»: جمع «رباني»، وكلاهما منسوب إلى «الرب»، لكن ﴿رِبِّيُّونَ﴾ كسرت راؤه عند النسب، وهم المتبعون شريعة الرب. أو منسوب إلى «الرِّبة» بكسر الراء وهي الطائفة والجماعة، فـ«ربيون»، أي: طوائف وجموع كثيرة من الأتباع الذين تربوا على الإيمان وطاعة الله تعالى وعبادته، رباهم الله تعالى واختارهم لربوبيته الخاصة.

﴿كَثِيرٌ﴾: صفة لـ﴿رِبِّيُّونَ﴾، أي: ربيون كثيرون.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: نافية، والضمير في «وهنوا»، وما بعده يعود إلى الربيين» على القراءتين (قاتل)، و«قتل».

﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ أي: فما عجزوا، أو جبنوا وما خارت عزائمهم.

﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ اللام: تعليلية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي أصابهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طريقه ونصرة دينه.

أي: في القتال في سبيل الله لإعلاء كلمته، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: فما وهنوا بسبب الذي أصابهم في سبيل إعلاء كلمة الله، بل زادهم ذلك شجاعة وعزيمة وإقدامًا، لقوة إيمانهم ويقينهم أن ما يصيبهم في سبيل الله مغنم، وليس بمغرم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥٢].

ولما دميت إصبع النبي ﷺ في إحدى الغزوات قال:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»(١)

وقال عمير بن حمام رضي الله عنه: «**بخ بخ، لئن بقيت إلى أن آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة**»(٢).

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي: في مقاومة العدو بل كانوا أقوياء بقلوبهم وأبدانهم.

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا﴾ «الاستكانة»: الذل والخضوع ضد العز، أي: وما ذلوا وما ضعفوا لعدوهم، مع أنه قُتل كثير منهم أو قُتل أنبياؤهم، بل كانوا أعزاء شامخي الرؤوس؛ لأنهم يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وأن قتلاهم في الجنة وقتلى عدوهم في النار.

ويدخل في الوصف بقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا﴾ من قُتل منهم ومن لم يُقتل، أي: فما وهن مَن بقي منهم؛ لما أصابهم من قتل أصحابهم وغير ذلك، وما ضعفوا وما استكانوا.

وما وهن من قتل منهم عند القتل، ولا ضعفوا ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كرامًا مقبلين غير مدبرين.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بعد أن نفى عنهم الوهن في سبيل الله والضعف والاستكانة ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ في إشارة واضحة إلى وصفهم بالصبر.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، ومسلم في الجهاد والسير- ما لقي النبي ﷺ من أذى (١٧٩٦)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٥)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أي: والله يحب الصابرين على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وكل ذلك متحقق بمن قاتل في سبيل الله من غير وهن ولا ضعف ولا استكانة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة عن هؤلاء الربيين الصفات السلبية في قتالهم مع أنبيائهم، وهي: الوهن والضعف والاستكانة مما يدل على حسن فعلهم وثبات قلوبهم ورباطة جأشهم، وعظيم صبرهم، ثم أتبع ذلك بما يدل على حُسن قولهم بدعائهم ربهم بالمغفرة والتثبيت والنصر، وعظيم رجائهم بنصر الله تعالى، فجمعوا بين فعل السبب قولًا وفعلًا وبين الاعتماد على الله عز وجل.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، و﴿قَوْلَهُمْ﴾ خبرها مقدم، قُدِّم؛ لأنه خبر عن مبتدأ محصور.

﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، ﴿أَن قَالُواْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخر، أي: وما كان قولهم إلا هذا القول ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

أي: وما كان قولهم في قتالهم، وتجاه ما أصابهم في سبيل الله من قتل كثير منهم أو قتل أنبيائهم إلا هذا القول، أي: طلب مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وتثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين.

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، حذفت منه «يا» تخفيفًا، وتبركًا بالبداءة باسمه- عز وجل- ونادوه وتوسلوا إليه باسم أو وصف الربوبية الذي معناه: الخلق والملك والتدبير، فكأنهم يقولون: يا من له التصرف وإجابة الدعاء:

﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: استر ذنوبنا وتجاوز عنها.

﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، أي: واغفر لنا إسرافنا في أمرنا، وتجاوز عنه، أي: اغفر لنا صغائر الذنوب وكبائرها، وما حصل منا من تقصير أو إفراط؛ لأنهم يعلمون أن ما أصابهم هو بسبب ذنوبهم وإسرافهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [آل عمران:١٥٥]، وقال تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠].

فعلموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن ما أصابهم بسبب ذلك، فسألوا الله المغفرة، والاعتراف بالذنب توبة.

و«الإسراف»: مجاوزة الحد، و«الأمر» واحد الأمور، وهو الشأن، أي: وإسرافنا في أمورنا وشؤوننا، والإسراف في الأمر قسمان:

القسم الأول: الإسراف ومجاوزة الحد في الغلو، كما في قصة النفر الذين حرّموا على أنفسهم بعض المباحات، كما في حديث أنس- رضي الله عنه- قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(١).

والقسم الثاني: الإسراف ومجاوزة الحد في التقصير، وهو نوعان:

النوع الأول: إسراف في تعدي حدود الله تعالى بترك واجب أو الإخلال به، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩].

والنوع الثاني: إسراف في قربان حدود الله تعالى، أي: محارمه، بفعل محرم، كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة:١٨٧].

والإسراف يكون في المأمور واجبًا أو مندوبًا.

ويكون في المنهي محرمًا كان أو مكروها، كما يكون في المباح كالإسراف في النفقة ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠١)، والنسائي في النكاح (٣٢٦٧).

قال ابن القيم: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ فوفوا المقامين حقهما؛ مقام المقتضي وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف»(١).

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سألوا ربهم أولًا مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم؛ تطهيرًا وتزكية لهم، ثم سألوه تثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين- تقديمًا للتخلية على التحلية.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ الواو: عاطفة، أي: اجعل أقدامنا ثابتة راسخة عند ملاقاة الأعداء، فلا تزل بنا أقدامنا فنفر عند اللقاء، وثبت أقدامنا عند ورود الشبهات، وأمام الشهوات.

وتثبيت الأقدام يكون حسيًّا كما في مواطن القتال والنزال، وبه يحفظ الله المؤمن من الفرار من الزحف.

ويكون معنويًّا، وبه يحفظ الله المؤمن من الزيغ عند ورود الشبهات، ومن الوقوع في حبائل الشهوات.

وتثبيت الأقدام علامة ظاهرة على ثبات القلوب، والذي هو سبب ثبات الأقدام.

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: واجعل النصر والغلبة والظهور لنا على القوم الكافرين أي: على أعدائنا، وهذا اعتراف منهم أنه لا ناصر لهم سوى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وهذا يدل على عظم رجائهم بالله تعالى وثقتهم بوعده ونصره، فلم يصدهم ما أصابهم عن رجاء نصره، وفي الحديث: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت**

---

(١) «بدائع التفسير» (١/ ٥١٦) بتصرف واختصار.

ودعوت فلم يستجب لي»(١).

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾.

قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الفاء: استئنافية، و«آتاهم»: أعطاهم، وهي تنصب مفعولين، الأول: ضمير الهاء، والثاني: ﴿ثَوَابَ﴾.

و﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ جزاءها وأجرها بالنصر على أعدائهم، والظفر بهم، وكون العزة والغلبة لهم في الدنيا، وتيسير أمورهم فيها، هذا جزاؤهم المعجل.

وخير من ذلك وأفضل، وأعظم منه وأجزل ثوابهم المؤجل في الآخرة، ولهذا وصفه بالحسن- دون ثواب الدنيا- فقال:

﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ أي: وحسن جزاء الآخرة، أي: والجزاء الحسن في الآخرة، بالمغفرة، ورفعة الدرجات كما قال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»(٢).

وبمضاعفة الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة، وأحسن ذلك وأعظمه وأفضله وأجله النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦]. فالحسنى الجنة والثواب الحسن، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﷺ(٢).

ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن؛ لأنه لا مقارنة بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [الشورى:٣٦].

بل ولا مقارنة بين الدنيا كلها وما فيها، وبين الآخرة وثوابها؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥)، وأبوداود في الصلاة (١٤٨٤)، والترمذي في الدعوات (٣٣٨٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

[الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»(١).

وثواب الدنيا وإن كان فيه حسن، كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة:٢٠١]، فهو حسن نسبي مشوب بالمنغصات؛ لأن الدنيا دار شقاء وعناء، لا تصفو، ونعيمها مشوب بالكدر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤].

وكما قيل:

ومن عاش في الدنيا فلابد أن يرى ... من العيش ما يصفو وما يتكدر(٢)

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغررك ما فيها ... من الزخارف واحذر من دواهيها

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في ختم الآية بهذا إشارة إلى أن المذكورين محسنون، فأحبهم الله؛ ولهذا أثابهم بهذا الثواب العظيم في الدنيا والآخرة. أي: والله يحب المحسنين في عبادة الله تعالى إخلاصًا له ومتابعة لرسوله ﷺ والمحسنين إلى عباده.

ولم يقل: والله يحبهم لأنهم محسنون لبيان محبته- عز وجل- المحسنين منهم ومن غيرهم، وأن من عمل مثلهم فهو محسن يستحق الثواب.

ومن أحبه الله وفقه لكل خير، وحفظه من كل شر، ويسر له أمور دينه ودنياه وأخراه، وألقى في قلوب الخلق محبته، نسأل الله تعالى من فضله، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «المستطرف» (ص٤٣).

سمعه الذي يسمع به. الحديث»(١).

وقال ﷺ: «إن الله- عز وجل- إذا أحب عبدًا نادى جبريل إني أحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن الرسول محمدًا ﷺ سيمضي ويفارق الحياة كما مضى من قبله من الرسل، إما بموت أو قتل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾، وفي هذا مقدمة وإرهاص بين يدي موت الرسول ﷺ.

٢- الرد على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويرفعونه إلى مقام الربوبية أو الألوهية، فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ الآية.

٣- في التذكير بمضي الرسل عليهم السلام قبل محمد ﷺ تهيئة للأمة وإعداد لها؛ ليخف عليها مصابها به وتسلية لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾ الآية.

٤- أن الرسول محمدًا ﷺ خاتم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾ وأل للعموم، أي: قد خلت من قبله جميع الرسل.

٥- في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ إشارةً إلى جواز أن تكون مفارقة الرسول ﷺ الدنيا إما بسبب الموت أو القتل. وقد مات النبي ﷺ على فراشه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبوبكر: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها».

قال عمر- رضي الله عنه-: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات»(١).

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أقبل أبوبكر- رضي الله عنه- على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم النبي ﷺ وهو مُسَجًّى ببرد، أو مُغَشًّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله، ثم بكى فقال: بأبي أنت وأمي، يا نبي الله، لا يجمع الله عليك مَوْتَتَين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها»(٢).

ومع أنه ﷺ مات على فراشه إلا أنه ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مازلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر، فهذا أوان قطعت أبهري**»(٣).

وذلك حين أكل من الشاة المسمومة التي أهدتها إليه اليهودية، فقد تكون وفاته ﷺ بسبب ذلك؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه ﷺ مات شهيدًا قتله اليهود.

وهو ﷺ وجميع الرسل أكمل حياة في البرزخ من الشهداء، وإن ماتوا على فرشهم؛ ولهذا فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، قال ﷺ لما قالوا له كيف نسلم عليك وقد أرمت؟ قال ﷺ: «**إن الله- عز وجل- قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام**»(٤).

٦- التحذير من الانقلاب على الأعقاب والردة عن الإسلام بموت النبي ﷺ أو قتله،

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٢)، وفي المغازي (٤٤٥٤).

(٣) أخرجه أبوداود في الديات (٤٥١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٠٤٧)، والنسائي في الجمعة (١٣٧٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٦٣٦)، من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه.

والتهديد والوعيد لمن فعل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

٧- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية في التنفير فيما يريد التنفير منه بوصفه الردة عن الإسلام بالانقلاب على الأعقاب، ففي هذا أبلغ وأشد التنفير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وذلك أن الارتداد على العقب عَلَمٌ في انتكاس الأمر، ومَثَلٌ للحور بعد الكور.

٨- أن الإسلام دين التقدم والرقي؛ لمفهوم قوله: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾؛ لأنه إذا كانت الردة عن الإسلام رجوع إلى الوراء فالتمسك به هو عين التقدم والرقي بلا شك.

وإذا كان الله- عز وجل- وبخ الأمة وأنكر عليهم ارتداد مَن ارتد منهم بسبب موت النبي ﷺ أو قتله- مع أنه رسول الأمة، وبموته انقطاع الوحي من السماء، كما قالت أم أيمن لما جاء إليها أبوبكر وعمر- رضي الله عنهما- يزورانها فبكت. فقالا لها: «ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»(١).

ومع أن مصيبة الأمة به ﷺ لا تعدلها مصيبة، كما قال حسان رضي الله عنه:

فما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد(٢)

فيجب ألا يفت في عضد الأمة أو يزعزع إيمانها، أو بعض لوازمه، فَقْدُ من هو دونه ﷺ من العظماء في الأمة؛ كالحاكم العادل، والعالم الرباني، والجواد الكريم، ونحوهم، وينبغي للأمة أن تستعد في كل أمر من مهماتها من أمور الولاية والدين بعدة أناس من أهل الكفاءات في ذلك إذا فقد أحدهم قام غيره مقامه؛ لأن في الآية إشارة للأمة أن لا تكون بحال يزعزها عن إيمانها أو عن بعض لوازمه فقد

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٦٣).

رئيس أو عظيم، وما ذاك إلا بالاستعداد لكل طارئ.

٩- أن من انقلب على عقبيه وارتد عن الإسلام لن يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

١٠- أن الله- عز وجل- لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

١١- وعد الله تعالى لا يخلف وعده بالجزاء العظيم للشاكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وفي هذا تفضل منه- عز وجل- عليهم من وجهين: مدحهم بوصفهم بالشاكرين- مع أن القيام بطاعته واجب عليهم، ووعده لهم بالجزاء وتكفله لهم بذلك- مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

١٢- أنه لا يمكن أن تموت نفس إلا بإذن الله تعالى وقدره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٣- أن آجال الأنفس وغيرها محددة لا تتقدم ولا تتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩].

١٤- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، وفي هذا الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على فعله لا اختيار له.

١٥- أن لكل من الناس وجهة هو موليها فمن مريد ثواب الدنيا ومن مريد ثواب الآخرة، وشتان ما بين الإرادتين والمرادين- والله غالب على أمره. وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، وصدق المصطفى الكريم حيث قال: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

١٦- ليس في الإخبار بإعطاء كل من مريد الآخرة ومريد الدنيا منهما، والمقابلة بينهما ما

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

يدل على جواز إرادة الدنيا دون الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فهذا لا يدل على جواز فعل الشر، كما أنه ليس فيه ما يدل على منع مريد الآخرة من ذكر نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص:٧٧].

١٧- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئٍ ما نوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ﴾، فمن أراد بعمله ثواب الآخرة أعطاه الله منها، ومن أراد بعمله ثواب الدنيا أعطاه الله منها، ولكل امرئٍ ما نوى، كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

١٨- تفضيل الآخرة وثوابها على الدنيا وثوابها؛ ولهذا قدم إرادة ثواب الآخرة على إرادة ثواب الدنيا؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، ولهذا سميت دنيا، والآخرة هي الحيوان.

١٩- عدل الله- عز وجل- في إيتاء كل مريد من مراده، سواء من الآخرة، أو من الدنيا ومجازاة كلٍّ بما عمل.

٢٠- أن فضل الله- عز وجل- واسع يسع البر والفاجر والمؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

٢١- أن من أراد بعمله ثواب الآخرة فهو من الشاكرين الذين وعدهم الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بالجزاء؛ لأن الله ختم الآية بقوله: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: الذين شكروا نعم الله تعالى عليهم بطاعته واجتناب معصيته، رجاء ثوابه والدار الآخرة.

٢٢- فضيلة الشكر والترغيب فيه والحث عليه؛ لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقوله في هذه الآية: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٢٣- أن كثيرًا من الأنبياء السابقين وكثيرًا من أتباعهم قاتلوا أو قتلوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

٢٤- الثناء على الأنبياء السابقين وأتباعهم بالتضحية والصبر وتحمل القتال والقتل في سبيل الله بلا وهن ولا ضعف ولا استكانة؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾.

٢٥- إغراء المؤمنين وحثهم على القتال مع نبيهم والتضحية والصبر على القتال والقتل في سبيل الله دون وهن أو ضعف أو استكانة- كما هو حال أتباع الأنبياء قبلهم، فعن خباب بن الأرت- رضي الله عنه- قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله. فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه عن دينه. وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله، والذئب على غنمه**»(١).

٢٦- أن القتال في سبيل الله والجهاد مشروع في الملل السابقة.

٢٧- محبة الله تعالى للصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وهذا يدل على علو مكانتهم عنده، وعظم ما أعد لهم من الأجر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

٢٨- إثبات صفة المحبة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٥٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٩).

الاختيارية المتعلقة بالمشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٩- الترغيب في الصبر والحث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٣٠- بيان ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الشجاعة والقوة والعزيمة والعزة وعدم الذل والاستكانة إلا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾.

٣١- الثناء على هؤلاء الربيين بجمعهم بين الجهاد بالفعل بالصبر على القتال والقتل وعدم الوهن في سبيل الله وعدم الضعف والاستكانة، وبين الجهاد بالقول بالتوسل إلى ربهم بطلب مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وتثبيت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وبهذا جمعوا بين فعل السبب والتوكل على الله والاستعانة به ودعائه. وهكذا ينبغي للمؤمنين في حربهم وسلمهم وجميع أحوالهم.

٣٢- فضيلة هذا الدعاء ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلخ. والترغيب فيه؛ لما فيه من تعظيم الرب وسؤاله المغفرة والاعتراف بالذنب والإسراف؛ لأن الاعتراف بذلك توبة، ولما فيه من الافتقار إلى الله تعالى وطلب التثبيت والعون منه والنصر على القوم الكافرين- وهذا من جوامع الدعاء.

٣٣- ينبغي الحذر من الذنوب ومن الإسراف في الأمور، وسؤال الله تعالى المغفرة، والتثبيت والعون والنصر؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير، وليس في غنى عن الله تعالى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

٣٤- امتنان الله تعالى على المذكورين بسبب قتالهم مع أنبيائهم ودعائهم، بإعطائهم ثواب الدنيا بالنصر، وحسن ثواب الآخرة بالجنة وعظيم الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٣٥- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، حيث يجمع تفضلًا منه للعبد بين ثواب الدنيا

وثواب الآخرة، بخلاف العقوبة، فإن من عوقب في الدنيا لا يعاقب في الآخرة، فلا يجمع له بين عقوبتين- عدل منه عز وجل.

٣٦- شتان بين الدنيا وثوابها والآخرة وثوابها؛ ولهذا وصف الله- عز وجل- ثواب الآخرة بالحسن دون ثواب الدنيا، فقال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾.

٣٧- إثبات الآخرة والبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾.

٣٨- محبة الله تعالى للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ومفهوم هذا أنه لا يحب المسيئين.

٣٩- في ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثناء على المذكورين بوصفهم بالمحسنين.

٤٠- الترغيب في الإحسان والحث عليه؛ الإحسان في عبادة الله تعالى إخلاصًا له، ومتابعة لرسله، والإحسان إلى عباد الله؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ومَن أحبه الله تعالى أثابه وأكرمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

وبَّخ عز وجل المؤمنين في الآيات السابقة، وأنكر عليهم أن ينقلبوا على أعقابهم بموت الرسول ﷺ أو قتله، ثم حذرهم في هذه الآية من طاعة الكافرين مبينًا لهم أن مراد الكافرين هو ردهم على أعقابهم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: سبق الكلام عليه.

﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ ﴿إن﴾: شرطية، و﴿تُطِيعُواْ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿يَرُدُّوكُمۡ﴾، وكل منهما علامة جزمه حذف النون، أي: إن تطيعوا الذين كفروا من المنافقين والمشركين وأهل الكتاب- فيما يأمرونكم به أو ينهونكم عنه؛ لأن الطاعة امتثال الطلب بفعل المأمور أو ترك المنهي.

﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ أي: يُرجعوكم على أعقابكم، وعلى أدباركم، والمراد: يردوكم ويرجعوكم عن دينكم إلى أول أمركم من الكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٠٠]، أي: إن تطيعوا فريقًا من أهل الكتاب وهم الكفار منهم.

﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ الفاء: واقعة في جواب الشرط، ﴿خَٰسِرِينَ﴾: حال. والانقلاب: التحول من حال إلى حال، والمعنى: فترجعوا بطاعتكم لهم والارتداد عن

دينكم حال كونكم خاسرين دينكم ودنياكم وأخراكم، وذلك هو الخسران المبين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝١٥٠﴾.

لما كان الحامل على طاعة الكفار- غالبًا- إما رجاء نصر أو عون منهم، أو خوفًا منهم ومداراة لهم. أي: رجاء جلب خير أو دفع ضر منهم أتبع عز وجل النهي عن طاعتهم بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾، وفي ضمن ذلك أمرهم بطاعته- عز وجل- وموالاته وحده.

قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾ ﴿بَلِ﴾ للإضراب الإبطالي، أي: لا تطيعوا الكافرين ولا تتولوهم طمعًا في نفعهم أو خوفًا منهم، بل أطيعوا الله ووالوه، واستعينوا به وتوكلوا عليه؛ فهو مولاكم وحده؛ الذي بيده جلب الخير ودفع الضر، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

وولاية الله تعالى للخلق نوعان:

ولاية عامة لجميع الخلق؛ فهو- عز وجل- متولي أمورهم لا يخرجون عن تدبيره وقدره؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢].

وولاية خاصة بالمؤمنين؛ بتوفيقهم وحفظهم ونصرهم ونحو ذلك، كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال ﷺ: «**مَن عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- التواضع (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و«المولى»: الذي يتولى غيره بجلب النفع والخير له، و«الناصر» الذي يدفع الضر والشر عنه.

والله عز وجل ﴿خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي: أعظمهم وأقدرهم وأقواهم نصرًا، كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي: أعدلهم في نصره؛ لأنه سبحانه ينصر الحق وأهله.

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

رُويَ أن المشركين بعدما انصرفوا من وقعة «أُحد» تشاوروا فيما بينهم، وقالوا كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمناهم، ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك فألقى الله في قلوبهم الرعب، فانصرفوا خائبين.

قوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بما يدل على عظمته، أي: «سنلقي نحن» لأنه العظيم سبحانه، كما يتكلم عن نفسه- عز وجل- بصيغة الإفراد للدلالة على وحدانيته، كما قال تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢].

والسين في قوله: ﴿سَنُلْقِى﴾ للتنفيس، تفيد التحقيق والقرب.

﴿ٱلرُّعْبَ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بضم العين: «الرُّعُب»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ بإسكان العين.

و﴿ٱلرُّعْبَ﴾: الفزع وأشد الخوف، وإذا وقع الرعب في القلب انهزم المقاتل من الداخل وعجز عن المقاومة وانهزم في الظاهر، كما قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:٢٦]، كما قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر:٢].

وقال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١)، وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «**ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذفه في قلوب أعدائي**»(٢).

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب شركهم بالله، والشرك بالله: دعوة غير الله وعبادته مع الله.

﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي لم ينزل به سلطانًا ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: شيئًا لم ينزل به سلطانًا.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي مع سكون النون: «يُنْزِل».

وقرأ الباقون: ﴿يُنَزِّلۡ﴾ بالتشديد، مع فتح النون.

﴿سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ أي: حجة وبرهانًا، أي: ما لم ينزل به حجة وبرهانًا، ولم يقم عليه دليل ولا حجة.

والقيد في قوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾؛ لبيان الواقع، ولتسفيه عقول المشركين، وليس للاحتراز؛ لأن الواقع أنه لا يمكن أن يقوم دليل أو حجة على أن لله شركاء، بل الأدلة والحجج النقلية والعقلية وغيرها قائمة على نفي ذلك؛ ولهذا كان سبب إلقاء الرعب في قلوبهم شركهم بالله؛ لخواء قلوبهم وخلوها من الإيمان بالله وتوحيده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ أي: ومرجعهم ومصيرهم في الآخرة النار، وفي تعريف «النار» دلالة على وجودها، أي: النار المعلومة.

﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «بئس»: فعل جامد؛ لإنشاء الذم، أي: وقبح وساء مثوى الظالمين هي، أو النار.

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل و التيمم (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨)، والترمذي في السير (١٥٥٣)- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

و«المثوى» المستقر الذي يثوي إليه الإنسان، ويستقر فيه. أي: وقبح وساء مستقر الظالمين ومسكنهم النار.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ الواو: استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والله لقد صدقكم الله وعده، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم المقدر، و«قد» التي للتحقيق.

﴿ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ يقال: صَدَقَه، أي: أخبره بالصدق، أي: أخبر المتكلم المخاطب بالصدق. ويقال: صَدَّقه، أي: صَدَّق المخاطبُ المتكلم فيما أخبر به.

و«صدق الوعد»: تحقيقه والوفاء به، ولا أحد أوفى بعهده ووعده من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [التوبة:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الروم:٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ ﴾ [الحج:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ ﴾ [البقرة:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر:٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:٩، الرعد:٣١].

ومعنى ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ أي: وفى لكم بوعده وأنجزه لكم، فصار ما أخبركم به واقعًا صدقًا.

و﴿ وَعْدَهُۥٓ ﴾: منصوب بنزع الخافض، أي: صدقكم الله في وعده، أي: فيما وعدكم به من النصر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ﴿صَدَقَكُمُ ﴾ أي: صدقكم الله وعده حين تحسونهم، أي: وقت حسهم، وعبر عن الماضي بصيغة المضارع،

أي: بحكاية الحال، لاستحضار الصورة في الذهن.

ومعنى ﴿تَحُسُّونَهُم﴾: تقتلونهم، والحس: أشد القتل.

قال الشاعر[١]:

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فحس به الأعداء عرض العساكر

وقال أيضًا:

ونحسهم بالبيض حتى كأننا نفلق منهم بالجماجم حنظلا[٢]

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإذن الله تعالى الكوني والشرعي.

والمعنى: إذ تقتلونه أشد القتل بإذن الله -عز وجل- الكوني والشرعي، وتسليطه إياكم عليهم، حيث قتلوا منهم تسعة عشر أو سبعة عشر رجلًا، وانهزم المشركون، وفروا هاربين، وكان النصر والغلبة للمؤمنين وذلك أول النهار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ﴾: للغاية، و﴿إِذَا﴾: ظرفية غير شرطية، والتقدير إذ تحسونهم بإذنه إلى وقت فشلكم.

والمعنى: ولقد صدقكم الله وعده حين تقتلونهم بإذنه إلى وقت فشلكم وتنازعكم في الأمر.

ويجوز كون ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية، والجملة مستأنفة، و﴿إِذَا﴾: شرطية، و﴿فَشِلْتُمْ﴾: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب. أي: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون فاتكم النصر، أو خذلتم، أو انقسمتم إلى قسمين، ونحو ذلك.

و«الفشل»: الجبن والضعف والخور.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الفشل: الجبن»[٣].

---

(١) ينسب هذا البيت لعتبة الليثي، وينسب أيضًا لحسان رضي الله عنه وليس في ديوانه. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢١٦).

(٢) البيت لعتبة الليثي. انظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٠٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٦/ ١٣٨).

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ المنازعة: المخاصمة والتجاذب؛ لأن كل واحد من المتخاصمين ينزع حجة الآخر؛ ليكون الحق معه. والمعنى: وتخاصمتم واختلفتم في الأمر.

و﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾: الشأن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [الأنفال:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [الحج:٦٧]. والأمر أيضًا: واحد الأوامر. أي: وتنازعتم في أمركم، أي: في شأنكم، وفي الأمر الذي أمركم به الرسول ﷺ.

والخطاب على هذا للرماة الذين أمّر عليهم الرسول ﷺ عبدالله بن جبير، وكانوا خمسين رجلًا. وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، ابقوا في الجبل سواء كانت لنا أو علينا»، لكنهم لما انتصر المسلمون في بادئ الأمر وانهزم المشركون وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم طمعوا في مشاركة المسلمين في جمع الغنائم فأرادوا النزول من الجبل وحاول أميرهم أن يمنعهم وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «لا تبرحوا مكانكم..» وتنازعوا في ذلك فمنهم من قال: نبقى امتثالًا لأمر النبي ﷺ، ومنهم من نزل اغتنامًا لكسب الغنيمة(١).

والنزاع والخلاف شر، وهو أعظم أسباب الفشل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- لما أتم الصلاة خلف عثمان- رضي الله عنه-وسئل في ذلك وهو ممن لا يرى الإتمام في السفر- قال: «الخلاف شر»، وصدق رضي الله عنه وأرضاه(٢).

﴿وَعَصَيۡتُم﴾، «المعصية»: مخالفة الطلب، بترك المأمور، أو ارتكاب المحظور، أي: وخالفتم الرسول فيما أمركم به من البقاء على الجبل، أي: وعصيتم الله والرسول؛ لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله تعالى، والمراد بهذا: ما حصل من الرماة.

وترتيب الأمور الثلاثة في الآية حسب ترتيبها في الحصول؛ الفشل، فالتنازع، فالعصيان والمخالفة.

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا بتمامه ولفظه.

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٦٠)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾، ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَرَىٰكُم﴾: مصدرية، وفي قوله: ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾: موصولة، أي: من بعد ما أراكم الذي تحبون من نصركم وهزيمة أعدائكم وانخذالهم وتوليتهم الأدبار وغنم ما معهم.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ تفصيل لـ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾، وتبيين لـ﴿وَعَصَيۡتُم﴾، وأن المراد به الذين يريدون الدنيا، و«من» في قوله: ﴿مِنكُم﴾ في الموضعين تبعيضية، و﴿مَّن﴾ في الموضعين موصولة، أي: بعضكم يريد الدنيا، وهم الذين رغبوا في المغنم لما رأوا هزيمة العدو- وليس المراد بإرادة الدنيا هنا ما ينافي إرادة الآخرة- كما هو حال الكفار الذين يريدون الدنيا فقط ولا حظ لهم في الآخرة ولا نصيب، بل ليس لهم فيها إلا النار، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

بل هذا كما في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال:٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: وبعضكم الذي يريد الآخرة، كالذين ثبتوا على الجبل، والذين نالوا شرف الشهادة وغيرهم.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: ثم بعد أن فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم الذي تحبون من نصركم وهزيمتهم ﴿صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: ردكم ودفعكم عنهم وأداهم عليكم بسبب ما حصل منكم من الفشل والتنازع والمعصية، أي: بسبب ما أصابكم من أنفسكم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩].

والتعبير بقوله: ﴿صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ يفيد إقبال المسلمين الشديد وشدة رغبتهم على القضاء عليهم وتوقعهم اكتمال النصر لهم، وهزيمة عدوهم- لكنه- بسبب فشلهم

وتنازعهم ومعصيتهم وقع عليهم ما ليس بالحسبان، فصرفهم وكفهم عنهم.

قال ابن كثير[١]: «فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة، وفشل بعض المقاتلة، تأخر الدعم الذي كان مشروطًا بالثبات والطاعة».

عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير، وقال: «**لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتمونا ظهروا علينا فلا تعينونا**» فلما لقيناهم هربوا حتى رأينا النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبدالله: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا. فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم. فأصيب سبعون قتيلًا. فأشرف أبوسفيان، فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك. فقال أبوسفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». فقال أبوسفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**». قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**». قال أبوسفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها، ولم تسؤني»[٢].

وفي رواية عن البراء- رضي الله عنه- قال: «جعل النبي ﷺ على الرجّالة يوم أُحد- وكانوا سبعين رجلًا- عبدالله بن جبير. فقال: «**وإن رأيتمونا تخطفتنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم، وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**» فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن. فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي: قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله، لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٤٣)، وأحمد (٤/ ٢٩٣).

عشر رجلًا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا. فقال أبوسفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات. فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات. ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه، قال: كذبت، والله، يا عدو الله، إن الذين عددت أحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك. قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: اعلُ هُبَلْ. قال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: يا رسول الله: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قال: قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»(١).

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبتليكم، أي: ليختبركم ويمتحنكم في صرفكم عنهم. والابتلاء يكون في الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال سليمان- عليه السلام-: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥-١٦].

قال الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٢)

فيبتلي الله بعض القوم بالخير والنعم ليتبين هل يشكر أم يكفر، ويبتلي بعض الناس بالشر والنقم ليتبين هل يصبر أم يجزع.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: والله لقد عفا الله عنكم، والجملة كسابقتها مؤكدة باللام والقسم المقدر، و«قد».

وأقسم عز وجل على عفوه عنهم وأكده؛ لأنه قد يتبادر إلى أذهانهم أن الله -كما

---

(١) أخرجها البخاري في الجهاد والسير- ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب (٣٠٣٩).

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

ابتلاهم بسبب ما حصل منهم من الفشل والتنازع والمعصية- سوف يعاقبهم أيضًا على ذلك.

كما أقسم في أول الآية على صدق وعده لهم لئلا يتبادر إلى أذهانهم- بسبب ما أصابهم- أن الله لم يصدقهم وعده.

والمعنى: ولقد تجاوز الله عنكم، فلم يعاقبكم على ما حصل منكم من فشل وتنازع وعصيان، ولذلك صرف عدوكم فلم يستأصلكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: والله صاحب فضل وزيادة عليهم، ومن أعظم ذلك هدايتهم للإيمان وتوفيقهم للإسلام، وشمولهم برحمته وعفوه، ولهذا عفا عنكم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: والله ذو فضل عليكم، وفي ذلك عدة فوائد منها وصف المذكورين بالإيمان، وتعميم فضله -عز وجل- لجميع المؤمنين، وبيان علة تفضله عليهم وهي الإيمان - إضافة إلى مراعاة فواصل الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف.

٢- عناية الله تعالى بالمؤمنين حيث يحذرهم من طاعة الكافرين.

٣- وجوب الحذر من الكافرين، وتحريم طاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾.

٤- شدة خطر طاعة الكافرين؛ لأنها سبب للارتداد على الأعقاب والرجوع عن الإسلام، والانقلاب بالخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

٥- أن الكفار ليسوا بنصحة للمؤمنين، مهما ادعوا النصح لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾.

وهذا خبر الذي يعلم السر وأخفى -سبحانه وتعالى؛ ولهذا يجب الحذر كل الحذر أن يكون تبادل المصالح بين المسلمين وبينهم على حساب التنازل عن شيء من ثوابت

الدين ومبادئ الإسلام أو تكون مصالحتهم أو مهادنتهم على حساب ذلك.

٦- أن الكفر خسران، وأهله هم الخاسرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

فلا خسارة تفوق الخسارة في الدين، فهي الخسارة العظمى، والمصيبة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا ينجبر، وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

٧- بلاغة القرآن الكريم في التنفير عن طاعة الكافرين والرجوع عن الدين بتشبيه ذلك بالارتداد على الأعقاب ومشي القهقرى، والسير على الوراء وعلى غير هدى.

٨- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

٩- أن الله تعالى ناصر المؤمنين، وهو خير الناصرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

١٠- الإشارة إلى أن طاعة الكافرين من توليهم واتخاذهم أولياء ونصراء؛ لأن الله لما حذر من طاعتهم أعقب ذلك بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

١١- جواز إطلاق «الناصر» على غير المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ بالجمع، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال:٧٢]، لكنه- عز وجل- هو خير الناصرين.

١٢- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم، كما قال عز وجل: «**الكبرياء إزاري والعظمة ردائي**»(٢).

١٣- بشارة الله تعالى للمؤمنين ووعده لهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾.

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

١٤- إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِي ﴾ أي: في المستقبل، فهو سبحانه وتعالى يفعل ما شاء متى شاء، كما قال عز وجل: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٠٧].

١٥- قدرة الله تعالى العظيمة الباهرة في هزيمة الكفار من الداخل، بإلقاء الرعب في قلوبهم، مهما كانت قوتهم الظاهرة.

١٦- أن إلقاء الرعب في قلوب الكفار من أقوى أسباب الهزيمة لهم، والنصر للمؤمنين؛ لأن الرعب إذا وقع في القلب خارت القوى وعجز العدو عن المقاومة واستسلم وهذا من خصائص هذه الأمة، كما قال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١).

١٧- أن مدار قوة البدن وشجاعته وضعفه وانهزامه على قوة ثبات القلب، فإن ثبت القلب قوي البدن وقاوم، وإن ضعف القلب ضعف البدن وانهزم.

١٨- أن سبب إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إشراكهم بالله ما لا دليل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، وبقدر عظم شركهم بالله يكون عظم الرعب في قلوبهم، إذ لا أمن إلا لأهل الإيمان والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

١٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعال الله من الجهمية وغيرهم.

٢٠- أنه لا دليل للمشركين، ولا حجة لهم على شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

٢١- أن الأحكام التعبدية توقيفية، فلا يجوز التعبد لله بشيء لا دليل عليه، أو التقليد على غير هدى.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٢- تسفيه عقول المشركين؛ لإشراكهم بالله ما لا دليل عليه من عقل أو نقل.

٢٣- أن مأوى الكافرين ومصيرهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾

٢٤- إثبات الآخرة، والجزاء فيها على الأعمال، وإثبات النار، وأنها موجودة معدة مأوى للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾. أي: ومأواهم في الآخرة النار، مجازاة لهم على كفرهم وشركهم.

٢٥- الإشارة إلى خلود الكافرين في النار؛ لأن المأوى محل الإقامة الطويلة، أو الأبدية.

٢٦- ذم النار وتقبيحها وأنها بئس المثوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٧- أن الذين كفروا وأشركوا بالله هم الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فوصفهم بالكفر والشرك والظلم، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

٢٨- إثبات نصر الله تعالى للمؤمنين في أُحد، كما وعدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ واستمر معهم النصر حتى حصل منهم الفشل والنزاع والعصيان.

٢٩- إذن الله تعالى كونًا وشرعًا للمؤمنين بقتل أعدائهم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإذنه الكوني والشرعي.

٣٠- أن ما حصل للمسلمين يوم أُحد من صرفهم عن العدو سببه فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾.

٣١- أن الفشل والتنازع والعصيان من أسباب الخذلان وفوات النصر، مما يوجب الحذر من ذلك والأخذ بأسباب النجاح والنصر من وحدة الكلمة ولزوم الطاعة وغير ذلك.

٣٢- أن المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة؛ وأن الواجب على مَن أنعم

الله عليه بما أحب أعظم من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؛ لأن الواجب مقابلة النعمة بالشكر والطاعة لا بالمخالفة والمعصية، ولشؤم هذه المعصية أصاب المسلمين ما أصابهم.

ومعصيته ﷺ في هذا المقام عظيمة من وجهين؛ الأول: أن أمره ﷺ شرع يجب اتباعه، والثاني: أنه ﷺ قائد وولي أمر يجب اتباع أمره ولو لم يكن رسول.

٣٣- أن الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

٣٤- الإشارة إلى أن من أسباب ما حصل للمسلمين من الفشل والنزاع والمعصية كون بعضهم يريد الدنيا.

٣٥- أن الصحابة- رضي الله عنهم- ليسوا في عصمة من أن يريد بعضهم الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لكن لهم رضوان الله عليهم من الصحبة والفضائل والسوابق في الإسلام ما يكفر ويمحو ما كان منهم. ويكفيهم أن الله تعالى عفا عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾.

قال ابن القيم[1]: «﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة، ولم يكن فيهم منافق؛ ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أُحد، ونزلت هذه الآية»[2].

قال ابن القيم: والذين أُريدوا بهذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة، حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرداة هؤلاء لون».

٣٦- أن صرف المسلمين عن عدوهم- بسبب ما حصل منهم من الفشل والنزاع

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٣٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦٥/ ١٤١، ١٤٢).

والمعصية ابتلاء لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

٣٧- عفو الله- عز وجل- عما حصل يوم أُحد من المؤمنين من الفشل والتنازع والمعصية، وإرادة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾؛ ولهذا صرف عز وجل أعداءهم عنهم فلم يستأصلوهم.

٣٨- فضل الله- عز وجل- على المؤمنين بالعفو عنهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو فضل خاص، كما أنه ذو فضل عام على جميع الخلق، كما قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ ﴿إِذْ ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ﴿صَرَفَكُمْ ﴾ أو بـ﴿عَفَا عَنكُمْ ﴾، أو متعلق بمحذوف،والتقدير: اذكروا حين تصعدون، وقيل غير ذلك.

﴿ تُصْعِدُونَ ﴾: بضم التاء، و«الإصعاد»: السير في الأرض والذهاب فيها والإسراع فيها هربًا؛ لأن الأرض تسمى «الصعيد»، كما قال تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة:٦]، يقال: أصعد في الأرض إذا ذهب فيها، قال الشاعر:

هوايَ مع الركب اليمانين مُصْعدٌ ... جنيبٌ وجثماني بمكة مُوثَقُ(١)

وقال الأعشى(٢):

فإن تسألي عني فيا ربَّ سائل ... حفيّ عن الأعشى به حيث أصعدا

---

(١) البيت لجعفر بن عُلْبة الحارثي. انظر: «شرح حماسة أبي تمام» للفارسي (٢/ ٨٧).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(١٣٥).

وقال أيضًا:

ألا أيهذا السائلي أين أصعدت فإن لها في أهل يثرب موعدا

والمعنى: إذ تذهبون في الأرض مسرعين فارين جادين في الهرب. وقيل: إذ تصعدون في الجبل فرارًا. وكل هذا حصل من بعض الصحابة يوم أُحد فمنهم من فر وهرب في الأرض، ومنهم من صعد الجبل.

كما في حديث البراء- رضي الله عنه- بعد أن ذكر قول بعض الرماة: «إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين. فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثنى عشر رجلًا...» الحديث(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضًا، فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة. فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «**ما أَنْصَفْنا أصحابنا**»(٢).

وعن أبي عثمان النهدي قال: «لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهم رسول الله ﷺ غير طلحة بن عبيدالله وسعد- عن حديثهما»(٣).

وعن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «رأيت يوم أُحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده- يعني جبريل وميكائيل- عليهما السلام»(٤).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله وهو حينئذٍ يشير إلى رباعيته، واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب- مناقب المهاجرين (٣٧٢٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٤).

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٢٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٦).

ﷺ في سبيل الله»(١).

وعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: «جُرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى إذا صار رمادًا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم»(٢).

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ معطوف على ﴿تُصْعِدُونَ﴾ و«اللي» الانعطاف على الشيء والعكوف عليه، والمعنى: لا تعطفون على أحد، ولا تلتفتون إلى أحد، ولا تعرجون على أحد، لا على نبيكم، ولا على أصحابه، ودينه، من الدهش والرعب وشدة الهرب خوفًا من القتل، لا يفكر أحدكم إلا في نجاته بنفسه.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن الرسول يدعوكم في أخراكم، أي: يناديكم إليَّ عباد الله، إليَّ عبادالله(٣).

﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: من ورائكم وخلف ظهوركم مما يلي القوم، وهذا يدل على شجاعته ﷺ وثباته.

كما أن من سيرته ﷺ في قيادته أن يكون في مؤخرة الجيش مسايرة لضعيفهم ورفقًا بهم.

وفي قصة جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أنه كان يسير على جمل له قد أعيا، فمر النبي ﷺ فضربه فدعا له، فسار بسير ليس يسير مثله... الحديث»(٤).

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾: معطوف على «تصعدون»، و«أثاب»: تنصب مفعولين، الأول ضمير المخاطب، والثاني «غمًا»، أي: فجازاكم على فراركم وهربكم، و«الثواب»

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٧٣)، ومسلم في الجهاد والسير- غزوة أُحد (١٧٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٢٩١١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٤٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الشروط- إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى (٢٧١٨)، ومسلم في المساقاة- بيع البعير واستثناء ركوبه (٧١٥).

يطلق على الجزاء على العمل، إن خيرًا فخير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، وإن شرًّا فشر، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦].

﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾: هذا من تمام الثواب، وليس هو سبب الثواب، والباء في قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾ للمصاحبة، أي: وأثابكم غمًا مع غم، أي: بغم يصحبه غم، أي: بغموم متتابعة، ويجوز كون الباء بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]. أي: فأثابكم غمًا على غم، أي: بغموم متعددة لكن لا يلزم أن تكون متتابعة، أي: فجازاكم على ما حصل منكم بغموم متتابعة أو متعددة؛ منها: غم فوات النصر والغنيمة بعد أن ظهرت لكم بوارق النصر، ومنها: غم الهزيمة والانكسار الذي حصل لكم، ومنها: غم ما أصابكم من القتل والجراح والأسر، ومنها: الغم الذي أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قتل، فجازاهم الله تعالى بغموم متعددة مترادفة عليهم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم، وفرارهم وإسلامهم النبي ﷺ وأصحابه، وعدم استجابتهم له وهو يدعوهم. والجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

وقيل: الباء للبدل. والتقدير: فأثابكم غمًا بدل غم، أي: فأثابكم غمًا بدلًا من الغم الذي حصل منكم للرسول ﷺ.

والمعنى: فجازاكم غمًّا بما أصابكم بدل غمكم للرسول ﷺ بعصيانكم أمره وفراركم عنه.

وهذا يغمه في هذا الموقف من وجهين؛ الأول: أنه رسول الله، أمره واجب الاتباع، والثاني: أنه قائدكم وولي أمركم تجب عليكم طاعته. فما حصل لكم من المصاب والغم مقابل ما وقع للرسول ﷺ من غم بسبب عصيانكم أمره.

وقيل: فأثابكم غمًا يوم أُحد بغمكم يوم بدر للمشركين، فما أصابكم يوم أُحد بدل ما أصابهم يوم بدر.

والأول أظهر وهو الذي يدل عليه قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

﴿وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمۡۗ﴾، اللام: للتعليل، فالجملة تعليل لقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾، أي: فأثابكم غمًا بغم؛ لأجل أن لا ﴿تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمۡۗ﴾.

بمعنى أنه- عز وجل- أثابكم غمًا بغم لأجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم؛ لأن هذه الغموم ينسي بعضها بعضًا، فينسي أكبرُها أصغرَها، وآخرُها أولَها، كما أن في تعددها توطينًا للنفوس بتمرينها على الصبر على المصائب وتخفيف تحمل المشاق عليها.

فما حصل للمؤمنين من فوات النصر والغنيمة أنساهم إياه ما حصل لهم من الهزيمة والانكسار والقتل والجراح، ثم أنساهم تلك الغموم ما هو أعظم منها وهو ما سمعوا من أنه ﷺ قد قتل، ثم أنساهم ذلك كله وخففه عليهم تأكدهم من حياته ﷺ وبقائه وسلامته، وهكذا المصائب والفتن كما قال ﷺ: «**يرقق بعضها بعضًا**»(١).

وقوله: ﴿تَحۡزَنُواْ﴾ منصوب بـ«كي».

و«الحزن»: الغم والتحسر على ما فات ومضى، و«ما» في الموضعين: موصولة، أي: لأجل أن لا تحزنوا على الذي فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على الذي أصابكم من الهزيمة والقتل والجراح والأسر، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة.

وبين قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمۡۗ﴾ طباق.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿خَبِيرٌۢ﴾: مأخوذ من «الخُبْر»، وهو: العلم ببواطن الأمور، ومنه سمي الزارع «خبيرًا»؛ لأنه يدفن الحب ويخفيه، ومن ذلك سميت «المزارعة» بالمخابرة.

أي: والله- عز وجل- ذو خبرة تامة ببواطن الأمور ودقائقها وخفياتها.

وإذا كان عز وجل خبيرًا بالبواطن والدقائق والخفيات فخبرته وعلمه بالظواهر والجلائل والجليات من باب أولى.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما»: تفيد العموم، وهي موصولة أو مصدرية، أي: بجميع الذي تعملون، أو بجميع عملكم من أعمال القلوب والجوارح، من الأفعال والأقوال، وفي ختم الآية بهذه الجملة وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى خبرته- عز وجل- بعملهم محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب مع التراخي. أي: ثم أنزل الله عليكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ «ال» في الغم للجنس، أي: من بعد كل الغموم السابقة؛ لقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: بغموم متعددة ملاحقة.

﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾: مفعول به منصوب لـ﴿أَنزَلَ﴾، و﴿نُّعَاسًا﴾ بدل اشتمال من ﴿أَمَنَةً﴾.

ومعنى ﴿أَمَنَةً﴾ أي: أمانًا.

و«النعاس» مقدمة النوم، أو النوم الخفيف.

وقيل: ﴿أَمَنَةً﴾: مفعول لأجله، و﴿نُّعَاسًا﴾: مفعول ﴿أَنزَلَ﴾ ويقوي كون ﴿أَمَنَةً﴾ مفعولًا لأجله قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال:١٢]، أي: إذ يغطيكم النعاس لأجل أمنكم.

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء: «تغشى» أي: الأمنة، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَغْشَىٰ﴾ أي: النعاس.

والغشيان والتغشية: التغطية، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١].

والخطاب في قوله: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ للمؤمنين، أي: يغطي عقول طائفة

منكم، وهم أهل الإيمان واليقين والثبات الواثقون بوعد الله تعالى ونصره، طمأنة لهم وتثبيتًا لقلوبهم وإراحة لأبدانهم وتجديدًا لنشاطهم؛ لأن الحزن والألم على المصاب تبدأ خفته من أول نومة بعده.

عن أبي طلحة- رضي الله عنه- قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه»(١).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه»(٢).

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن طائفة قد أهمتهم أنفسهم، و«طائفة»: مبتدأ، ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ صفة لـ«طائفة» أي: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ فلم يغشهم النعاس لما هم عليه من الهم والخوف والقلق، والخائف لا يأتيه النعاس.

ومعنى ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: قد أوقعتهم أنفسهم في الهم، فلم يكن لهم هم سوى أنفسهم وسلامتها، فلم يهتموا لدينهم ولا لنبيهم ولا لأصحابه، لضعف إيمانهم أو نفاقهم، كما قال أبوطلحة رضي الله عنه: «والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همة إلا أنفسهم ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾»(٣).

ولهذا لم يصف هذه الطائفة بقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ كما وصف الطائفة الأولى.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ جملة ﴿يَظُنُّونَ﴾ في محل رفع خبر لـ(طائفة).

ويجوز كونها في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم يظنون بالله غير الحق. أي:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٢)، والترمذي في «التفسير» (٣٠٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٦٨).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٦٢).

يظنون بالله بقلوبهم.

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: مفعول مطلق نائب عن المصدر؛ لتأكيد معنى الظن، أو مفعول أول لـ﴿يَظُنُّونَ﴾، و﴿بِٱللَّهِ﴾: مفعول ثاني. ومعنى ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ظنًا غير ظن الحق، و﴿ٱلْحَقِّ﴾: الشيء الثابت، أي: يظنون بالله ظنًّا غير صحيح، وغير الحق، أي: ظن الباطل، ولم يحدد هذا الظن إلا بأنه غير الحق، أي: ليس بحق؛ ليعم جميع الظنون الباطلة التي ظنوها.

﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: بدل من قوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أو مفعول مطلق؛ لبيان نوع الظن. أي: ظن أهل الجاهلية الذين لا علم عندهم؛ لأن الجهل عدم العلم، كما قال السموأل(١):

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

وقال النابغة:

.... وليس جاهل شيء مثل من علما(٢)

والمعنى: يظنون بالله غير الحق ظن أهل الجهل الذين لا علم ولا معرفة لهم بالله تعالى وعظمته وكمال أسمائه وصفاته وأحكامه وما يجب له، وما ينزّه عنه، كظنهم أن الله يديل الباطل على الحق إدالة يضمحل معها الحق، وأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وأن ما أصابهم ليس بقضاء الله وقدره، ولا حكمة فيه، ونحو ذلك فأساؤوا الظن بالله تعالى وبدينه وبرسوله ﷺ؛ لما رأوا من ظهور المشركين في ذلك اليوم، وهذا هو ظن أهل الشك والريب والنفاق، والكفر والشرك، ظن السوء.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٩٢).

(٢) عجز بيت للنابغة. انظر: «ديوانه» (ص١٠٢).

وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من ﴿يَظُنُّونَ﴾، أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يَظُنُّونَ﴾، أي: حال كونهم ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾.

أي: يقولون بألسنتهم بعضهم لبعض: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وهو إفصاح عما تنطوي عليه قلوبهم من كونهم قد أهمتهم أنفسهم، ومن ظنهم بالله غير الحق.

﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿هَل﴾ للاستفهام، ومعناه هنا الإنكار والنفي، أي: ليس لنا من الأمر من شيء؛ ولهذا رد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

أي: يقول هؤلاء الطائفة الذين قد أهمتهم أنفسهم الظانين بالله غير الحق، ظن الجاهلية: ليس لنا من الأمر شيء، ولم يؤخذ رأينا ولا مشورتنا، ولم نراجع في الأمر.

﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: من الشأن والتدبير في الحرب والقتال.

﴿مِن شَىْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى للإنكار والنفي، أي: ليس لنا من الأمر أيُّ شيء كان ومهما قل، فالأمر والتدبير كله لغيرنا.

وكأنهم يقولون أيضًا: أقحمنا وأدخلنا في أمر لا رأي لنا فيه ولا خيرة، ولا طائل تحته، ويتنصلون من مسؤولية ما حصل. وقيل: المعنى: ما لنا من أمر النصر والظهور من شيء.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب: «كلُّه» برفع «كلُّ» على أنها مبتدأ خبره ﴿لِلَّهِ﴾ والجملة من المبتدأ والخبر خبر ﴿إِنَّ﴾.

وقرأ الباقون ﴿كُلَّهُۥ﴾ بنصبها على أنها توكيد لـ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿لِلَّهِ﴾.

والأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ، أي: قل لهم يا محمد: إن الشأن كله لله. فله- عز وجل- الأمر الكوني وتدبير الكون كله، وله- سبحانه- الأمر الشرعي، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ الجملة في محل نصب على الحال من فاعل يقولون، أي:

يضمرون ويسرون في أنفسهم.

﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ﴿مَّا﴾: موصولة، أي: الذي لا يظهرونه ولا يعلنونه لك، أو نكرة موصوفة، أي: شيئًا لا يظهرونه لك، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: بدل من قوله: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾، أو استئنافية، وهي بيان للذي يخفون في أنفسهم ولا يبدونه للرسول ﷺ، وهو أنهم يقولون، أي: يقول بعضهم لبعض فيما بينهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

عن الزبير- رضي الله عنه- قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره. قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول معتب»(١).

أي: لو كان لنا من الأمر شيء في هذه الغزوة والخروج إليها ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: ما خرجنا إليها، وما قتلنا ههنا، أي: في أُحد، وكأنهم في هذا يشيرون إلى ما جرى حين استشار ﷺ أصحابه في الخروج إلى أُحد، فأشار عليه بعضهم بالخروج وبخاصة الشباب الذين لم يشهدوا بدرًا، وقال بعضهم ومنهم عبدالله بن أُبي وغيره: بل نبقى في المدينة، ونقاتلهم من أعلى السطوح وفي الشوارع إذا دخلوا، وكان النبي ﷺ يميل إلى هذا، لكنه ﷺ عزم على الخروج، فدخل بيته ولبس لأمة الحرب وخرج.

فالذين رأوا البقاء وعدم الخروج هم- والله أعلم- الذين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: ما خرجنا من المدينة، وما قتلنا في أُحد- يعنون: من قتل منهم.

وهذا منهم تكذيب لله تعالى، وإنكار لحكمته، واعتراض على قدره، وتسفيه لرأي الرسول ﷺ وأصحابه، وتزكية لأنفسهم؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٩٥)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٦٨)، بأخصر من هذا.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و﴿لَّوْ﴾: شرطية، و﴿كُنتُمْ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَبَرَزَ﴾، قرأ أبوجعفر وأبوعمرو ويعقوب الحضرمي وورش عن نافع وحفص عن عاصم: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ بضم الباء، وقرأ الباقون: «بيوت» بكسرها في جميع القرآن. أي: قل لهم يا محمد: لو كنتم في بيوتكم في المدينة ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، أي: لظهر وخرج الذين كتب وقدر عليهم القتل ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، و«مضاجع» جمع «مضجع» وهو مكان النوم، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦]، ويطلق على مكان الموت والقتل، ومكان الدفن في القبر.

أي: أن بقاءكم في بيوتكم في المدينة لا يمنع من خروج من كتب وقدر عليهم القتل منكم ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: إلى أماكن قتلهم واضطجاعهم في قبورهم، فما حصل لكم قدر مقدر محتم، لا محيد لكم عنه ولا مناص ولا مفر لكم منه، ولا ينجي حذر من قدر.

وكما قيل:

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها[1]

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها[2]

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، والمعطوف عليه مقدر، أي: فعل ذلك؛ ليقضي الله أمره، وليبتلي ما في صدوركم، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: الذي في صدوركم.

والابتلاء: الاختبار والامتحان، أي: وليختبر الله ويمتحن ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾

---

(١) البيتان قيل: لأحمد بن فارس، وقيل: للمعري، وقيل: لعبدالعزيز الدريني. انظر: «المستطرف» (١/ ٤٩١).
(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١٥)، «بدائع الفوائد» (١/ ١١٩)، «مدارج السالكين» (١/ ١٥).

أي: الذي في صدوركم، وهي القلوب وما فيها من المضمرات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

أي: ليمتحن بما جرى عليكم الذي في صدوركم وقلوبكم من الإيمان والنفاق، فالمؤمن يزداد بذلك إيمانًا ويقينًا، والمنافق ومَن في قلبه مرض يظهر ذلك على جوارحه وفلتات لسانه.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ معطوف على: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ﴾، والتمحيص: التخليص والتنقية والتصفية، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: وليخلص الذي في قلوبكم من إرادة الدنيا أو التسخط والاعتراض على قدر الله تعالى، وغير ذلك من وساوس الشيطان.

فالابتلاء والامتحان للقلوب التي في الصدور، والتمحيص والتخليص والتنقية لما في القلوب، لا للقلوب نفسها، فبالإبتلاء للقلوب، والتمحيص لما فيها يتميز المؤمن من المنافق، والطيب من الخبيث، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

قال ابن القيم(١): «فكانت نقمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم المنة التامة في هذا وفي هذا».

وكما قيل:

لله در النائبات فإنها ... صدأ اللئام وصيقل الأحرار(٢)

وكم وراء المحنة من منحة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الجملة استئنافية، أي: والله ذو علم واسع ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما فيها من المكنونات من المعتقدات والنوايا، والصلاح والفساد، والسرائر والضمائر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٦).

(٢) البيت لأبي الحسن التهامي. انظر: «ديوانه» (ص٢٨).

وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق:١٦].

وإذا كان عز وجل ذا علم واسع بالقلوب وما فيها من المكنونات فعلمه بكل ما ظهر من باب أولى، أي: والله ذو علم واسع بالقلوب، وما فيها، قبل ابتلائها، وتمحيص ما فيها، وبعده.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ ﴾، ﴿ إِنَّ ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿تَوَلَّوْاْ ﴾: أدبروا وهربوا وانهزموا، حيث لم يبق مع الرسول ﷺ إلا نحو ثلاثة عشر رجلًا منهم أبوبكر وعمر وعلي رضي الله عنهم(١).

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾، ﴿يَوْمَ ﴾: ظرف منصوب على الظرفية بمعنى «حين».

﴿ٱلْتَقَى ﴾، أي: تقابل، أي: يوم تقابل الجمعان وتلاقيا وجهًا لوجه.

﴿ٱلْجَمْعَانِ ﴾ مثنى: «جمع»، أي: جمع الرسول ﷺ والمسلمين معه، وجمع الكفار بقيادة أبي سفيان- وذلك يوم أُحد.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ﴿إِنَّمَا ﴾: أداة حصر.

﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: دعاهم إلى الزلل وأوقعهم فيه، والزلل: الخطأ، والزلة: الخطئية.

أي: إنما أوقعهم في الزلل والتولي والانهزام يوم أُحد الشيطان، أي: إنما أوقعوا فيما وقعوا فيه وحصل عليهم ما حصل بسبب الشيطان وتسويله.

فلو اعتصموا بطاعة الله تعالى ما كان له عليهم من سلطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ الباء للسببية، و﴿مَا﴾: موصولة أو مصدرية، بسبب بعض الذي كسبوه، أو بعض كسبهم من الذنوب والمعاصي، من مفارقة موقعهم وعصيان أمر

---

(١) سبق تخريجه. وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢١٣).

الرسول ﷺ، والتنازع والتعجل إلى الغنيمة، فكان سببًا في تسلط الشيطان عليهم واستزلاله لهم، وفي هذا إبطال لما عرّض به المنافقون من إلقاء تبعة ما أصابهم على أمر الرسول ﷺ بالخروج.

والمعاصي يجر بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

وقال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها»(١).

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وكرره للتأكيد، والامتنان، والجملتان كل منهما مؤكدة بالقسم المقدر، ولام القسم، و«قد»، أي: والله لقد عفا الله عنهم، والضمير يعود إلى الذين تولوا.

و«العفو»: ترك المؤاخذة على الذنب والتجاوز عنه.

أي: ولقد تجاوز الله عما كان منهم من المخالفة والفرار فلم يستأصلهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ استئناف وتعليل لما قبله، أي: ولقد عفا الله عنهم؛ لأنه سبحانه غفور حليم.

ومعنى ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

و﴿ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو حلم واسع وذو أناة، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يتأنى به ويدعوه إلى التوبة والإنابة، ويمهل ولا يهمل. قال ابن القيم(٢):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٢٦).

(٢) «النونية» (ص١٤٨).

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين بما وقع منهم من المخالفة والفرار، وعدم إجابة دعوة الرسول ﷺ لهم بالرجوع إليه والكرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾، وفي هذا توبيخ وعتاب لطيف لهم.

٢- ينبغي للمسلم أن لا يغفل وينسى إخوانه فلا يلتفت إليهم في خضم الأحداث مهما عظمت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. وأنزل الله تعالى هذه الآية عجبًا من صنيع أبي أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- الذي آثر ضيفه بالعشاء، ونام هو وزوجه وأولاده جياعًا رضي الله عنه وأرضاه(١).

ولما أصيب عكرمة وبعض الصحابة- رضي الله عنهم- في اليرموك وعرض عليهم الماء آثر كل منهم وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء أن يدفع الماء إلى الآخر، وكانوا ثلاثة فماتوا كلهم ولم يشرب أحد منهم(٢).

٣- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾.

٤- شجاعته ﷺ وثباته مما يلي القوم بعد أن فر كثير من أصحابه، ودعوته ﷺ لهم للرجعة والكرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

٥- حنكته ﷺ في قيادة الجيش حيث يكون في آخر القوم رفقًا بهم، وتفقدًا لأحوالهم، ومسايرة لضعيفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

٦- ينبغي لقادة الجيوش في الإسلام أن يكون لهم أسوة برسول الله ﷺ في ثباته وشجاعته وحُسن قيادته للجيش.

٧- حكمة الله تعالى فيما أصاب به المسلمين من الغموم، ليُخفف وينسي بعضها بعضًا، فلا يحزنوا على ما فاتهم من النصر والغنيمة، ولا ما أصابهم من الخذلان وإدالة العدو

---

(١) أخرج القصة البخاري في تفسير سورة الحشر (٤٨٨٩)، ومسلم في الأشربة- إكرام الضيف (٢٠٥٤)، والترمذي في تفسير سورة الحشر (٣٣١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٩٦-٩٧).

عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾.

٨- أن ما أصاب المسلمين من الغموم مقابل مخالفتهم الرسول ﷺ وغمهم له ﷺ، والجزاء من جنس العمل، وهذا من عدل الله عز وجل.

٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله- عز وجل- وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

وفي هذا رد على الجهمية وغيرهم، ممن ينفون الحكمة في أفعال الله وأحكامه، ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

١٠- تربية الإسلام أتباعه على الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره وعدم الحزن على ما فات من محبوب، وما وقع من مكروه؛ لأن الحزن لا يرد فائتًا، ولا يرفع ما وقع من مكروه. والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره يقوي النفس والعزيمة ويجعل الإنسان يمضي قدمًا ولا يتعثر ويتغلب بعون الله وتوفيقه على مصائب ومتاعب الحياة.

١١- خبرة الله تعالى واطلاعه وعلمه الواسع بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع الذي تعملون من أعمال القلوب والجوارح ومن الأفعال والأقوال.

١٢- التحذير من المخالفة، والوعد لمن أطاع الله، والوعيد لمن عصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ومقتضى خبرته محاسبة الخلق ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها.

١٣- إثبات الاختيار للإنسان وأنه يعمل ويفعل بمحض إرادته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ وقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ وقوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾. وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور لا اختيار له كالسعفة في الهواء.

١٤- أن العمل يطلق على القول، كما يطلق على عمل القلب وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

١٥- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين بعد أن تتابعت عليهم الغموم بإنزاله عليهم أمنة نعاسًا؛ لطمأنة قلوبهم وأمانًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾.

١٦- إثبات العلو المطلق لله تعالى بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾.

١٧- أن من نعمة الله تعالى على العباد النعاس والنوم الذي به راحة الأبدان والقلوب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ [النبأ:٩].

١٨- أن طائفة ممن شهد أُحدًا من المسلمين لم ينتفعوا من هذا النعاس الذي أنزل الله أمنة بل بقوا على ما هم عليه من غم؛ لأنهم قد أهمتهم أنفسهم، ليس لهم هَم سواها ونجاتها، لقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ الآية.

١٩- ينبغي للمجاهد أن يكون همه عز الإسلام وإعلاء كلمة الله، وأن يكون شجاعًا ويبيع نفسه لله، لا أن يكون همه نفسه ونجاتها؛ لأن الله ذم مَن كان هذه صفته.

٢٠- ظن هؤلاء المذكورين بالله غير الحق؛ لقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو دليل على أنهم قد أهمتهم أنفسهم، وسببه أيضًا أنهم قد أهمتهم أنفسهم.

٢١- أن من ظن بالله غير الحق فهو جاهل بالله- عز وجل- وما يجب له، ولم يقدر الله- عز وجل- حق قدره، ظان بالله ظن الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٢٢- وجوب حسن الظن بالله تعالى في جميع الأحوال فإن كثيرًا من الخلق قل أن يسلم من سوء الظن بالله تعالى والاعتراض على حكمته وقدره وخاصة عند وقوع المصائب والنوائب، فعلى المسلم أن يفتش نفسه. قال الشاعر:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجيًا[1]

وقال ابن القيم[2]:

فلا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل

---

(١) البيت للأسود بن سريع، وقيل: للفرزدق، وقيل: لذي الرمة. انظر: «البيان والتبيين» (١/ ٣٦٧).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢١١-٢١٢)، «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٤).

ولا تظـنن بنفسـك قـط خـيرًا فكيـف بظـالم جـان جهـول
وقـل يـا نفـس مـأوى كـل سـوء أيرجـى الخـير مـن ميـت بخيـل
وظـن بنفسـك السـوآى تجـدها كـذاك وخيرهـا كالمسـتحيل
ومـا بـك مـن تقـى فيهـا وخـير فتلـك مواهـب الـرب الجليـل
ولـيس بهـا ولا منهـا ولكـن مـن الـرحمن فاشـكر للـدليل

٢٣- اعتراض المذكورين على الرسول ﷺ في خروجه إلى أُحد؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء.

٢٤- أن الأمر كله لله؛ الأمر الكوني والأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، وفي هذا إبطال لقول القدرية النفاة الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

٢٥- وجوب امتثال أمر الله تعالى الشرعي، والرضا بالتسليم لأمره الكوني القدري.

٢٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ الآية.

٢٧- ذم هؤلاء المذكورين بكونهم يخفون في أنفسهم ما لا يظهرونه للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

٢٨- أن ما يخفيه هؤلاء في أنفسهم ولا يبدونه للرسول ﷺ هو اعتراضهم على خروجه، وعلى قدر الله تعالى في ذلك، وفي قتل من قُتل منهم، وهذا أشد في ذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

٢٩- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ وإذا كان ﷺ لا يعلم الغيب في حياته فبعد وفاته من باب أولى. وقد قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠].

٣٠- أن ما قدره الله تعالى وقضاه كائن لا محالة، ولا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

٣١- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.

٣٢- عناية الله تعالى برسوله ﷺ ببيان وإظهار ما يخفيه هؤلاء وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات أنه مبلغ عن الله تعالى.

٣٣- الإشارة إلى أن الشهداء يدفنون في أماكن استشهادهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

كما جاء في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ: أمر بقتلى أُحد أن يردوا إلى مصارعهم، وكانوا قد نقلوا إلى المدينة»(١).

٣٤- أن ما أجراه الله تعالى على المؤمنين من خروج إلى أُحد وما حصل لهم بسبب عصيانهم لأجل أن يمتحن الله ما في صدورهم وقلوبهم من إيمان ونفاق ويمحص ما في قلوبهم من إرادة الدنيا والاعتراض على قدر الله ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

٣٥- أن مدار الأعمال صحة وفسادًا، وقبولًا وعدمه على ما في الصدور والقلوب.

٣٦- أن الابتلاء بالتكاليف أو المصائب ليس المقصود منه المشقة على العبد، وإنما المقصود منه تصفية ما في صدره وتمحيص ما في قلبه، مما ينافي الإخلاص من الشوائب.

٣٧- علم الله الواسع التام بما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفي هذا وعد ووعيد؛ وعد لمن أخلص لله تعالى وأضمر الخير وأحسن الظن، ووعيد لمن كان على ضد ذلك؛ لأن مقتضى علمه- عز وجل- بذات الصدور أن يحاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

٣٨- أن سبب تولي مَن تولى مِن المؤمنين يوم أُحد استزلال الشيطان لهم بسبب بعض ما اكتسبوا من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الجنائز- أين يدفن الشهيد (٢٠٠٤)، وابن ماجه في الجنائز- ما جاء في الصلاة على الشهداء ودفنهم (١٥١٦).

٣٩- أن تسليط الشيطان على بني آدم بسبب الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾.

٤٠- أن سبب الوقوع في المعاصي هو استزلال الشيطان وتزيينه لها.

٤١- أن المعاصي يجر بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

٤٢- تحريم الفرار إذا التقى الجمعان، والتحذير منه؛ لأن الله ذمَّه، وجعله من استزلال الشيطان.

٤٣- أن للشيطان تسلطًا على بني آدم في إيقاعهم في الزلل، وتزيين المعاصي لهم، مما يوجب الاستعاذة بالله منه، والحذر من اتباع خطواته.

٤٤- عفو الله- عز وجل- عما حصل من بعض المؤمنين من التولي لما التقى الجمعان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وأكد عز وجل هذا لهم لطمأنة قلوبهم.
قال ابن القيم[1]: «لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضًا عفا الله عنه».

٤٥- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة.

٤٦- إثبات صفة الحلم الواسعة لله- عز وجل- وأنه لا يعاجل مَن عصاه بالعقوبة، لعله يتوب؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾.

٤٧- عظم فضل الله- عز وجل- ومغفرته وحلمه بعفوه عن عباده المؤمنين؛ ولهذا عفا سبحانه عن الذين تولوا وفروا يوم التقى الجمعان مع عظم ما ارتكبوه.

٤٨- أن الصحابة- رضي الله عنهم- ليسوا بمعصومين من الوقوع في الخطأ والذنوب والمعاصي، ولكنهم أقرب إلى التوبة والإنابة، وإلى عفو الله تعالى من غيرهم.

* * *

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٦).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- اعتراض المنافقين على قضاء الله تعالى وقدره بقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾، ثم نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التشبه بالكفار فيما هم عليه من الكفر واعتراضهم على قضائه تعالى وقدره.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾. ﴿لَا﴾: ناهية، والكاف في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ للتشبيه بمعنى «مثل» أي: لا تكونوا مثل الذين كفروا من المنافقين وغيرهم في اعتراضهم على قضاء الله وما هم عليه من المعتقدات والأفعال والأقوال الباطلة.

﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ اللام في قوله: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ ليست للتعدية، أي: ليست للتبليغ كالتي في قولك: قلت لزيد افعل كذا، أي: ليست لتعدية وتبليغ القول إلى إخوانهم؛ لأن إخوانهم قد قتلوا أو ماتوا، ولكنها هنا: للتعليل، وقالوا لأجل إخوانهم، أي: وقالوا عن إخوانهم، أو بمعنى: «في»، أي: وقالوا في إخوانهم، أي: في شأن إخوانهم أي: إخوانهم من النسب والقرابة ممن قُتل من المؤمنين، أو إخوانهم في الكفر ممن قُتل من الكفار، أو إخوانهم في النسب والدين.

﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال بعض أهل العلم: ﴿إِذَا﴾ هنا: ظرف للماضي بدليل قوله: «قالوا»، و﴿ضَرَبُواْ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة:١١].

وقال بعضهم: ﴿إِذَا﴾ هنا لمجرد الظرفية والزمان، وهي مسلوبة الاستقبال. والضرب في الأرض، هو السير والسفر فيها؛ لتجارة ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠].

وسمي السير والسفر ضربًا في الأرض أخذًا من ضرب الأقدام على الأرض أثناء السفر.

﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾، ﴿أَوْ﴾: عاطفة، و﴿غُزًّى﴾: على وزن «فُعَّل» جمع: «غاز»، يقال في جمعه: «غُزَّى» و«غزاة»، وهم المجاهدون في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [النساء:١٠١]. والمعنى: إذا ساروا في الأرض وسافروا فيها؛ لتجارة ونحو ذلك فماتوا، أو كانوا غزاة في سبيل الله فقتلوا.

وقدَّم الضرب في الأرض على الغزو؛ لأن الضرب في الأرض أكثر، كما أنه يشرع لأهداف كثيرة كالتجارة وطلب العلم ونحو ذلك.

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ هذه جملة مقول القول السابق.

«لو»: شرطية، وهي: حرف امتناع لامتناع، ﴿كَانُواْ﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿مَا مَاتُواْ﴾ أي: لو كان عندنا مقيمين في البلد ما ماتوا وما قتلوا.

﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾: معطوف على قوله: ﴿مَا مَاتُواْ﴾ أي: ولو كانوا عندنا في البلد ولم يغزوا ما قتلوا، وهذا من باب اللف والنشر المرتب.

فقوله: ﴿مَا مَاتُواْ﴾ يقابل ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ يقابل ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ أي: لو كانوا عندنا لم يسافروا ما ماتوا، أي: ولو كانوا عندنا لم يغزوا ما قتلوا، كقولهم في الآية الثانية: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران:١٦٨].

وهذا كذب منهم واعتراض على قدر الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤].

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام: لام العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، أي: لتكون عاقبة قولهم هذا أن يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، أي: أن يترتب على قولهم واعتقادهم هذا أن يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، ولم يفدهم ذلك شيئًا.

و«جعل» هنا بمعنى «صيَّر» تنصب مفعولين؛ الأول ﴿ذَٰلِكَ﴾ والثاني ﴿حَسْرَةً﴾.

ومعنى ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: حزنًا شديدًا وأسى وندمًا في قلوبهم، فلا يكادون ينسون مصيبتهم؛ لأنهم يرون أن مصابهم بسبب خروجهم، لا بقضاء الله وقدره، وإنهم لو لم يخرجوا ما أصابهم هذا المصاب، فلا يزالون متلهفين على ما أصابهم وعلى ما فاتهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده -عز وجل- الحياة والموت، وهو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا أحد يحيا أو يموت إلا بمشيئة الله تعالى وقدره، ولا مدخل للضرب في الأرض أو الغزو في ذلك، فمن قدر الله موته بأي أرض سيموت فيها، في بلده أو خارجها، ومن قدر الله موته بأي سبب سيموت به، ومن قدر الله قتله بأي أرض سيقتل فيها، في بلده أو خارجها، ومن قدر الله قتله بأي سبب من الغزو أو غيره سيقتل به، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضاء الله وقدره، كما قال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١].

ولا يُقَرِّب سبب مهما عظم موت أو قتل مَن لم تحن وفاته. ولا تنجي أسباب السلامة مهما كانت ولا حذر من قدر، وكما قال خالد بن الوليد -رضي الله عنه: «لقد خضت أكثر من مائة معركة، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»(١).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بياء الغيبة: «يعملون» ويعود الضمير إلى الذين كفروا، أي: والله بما يعمل هؤلاء الكفار بصير. أي: والله بجميع الذي يعمل هؤلاء أو بجميع عملهم بصير.

---

(١) سبق تخريجه.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، والخطاب للذين آمنوا، أي: والله بجميع الذي تعملون أو بجميع عملكم أيها المؤمنون بصير. وقد يكون خطابًا لهم وللذين كفروا، أي: والله بما تعملون أيها المؤمنون أنتم والذين كفروا ﴿بَصِيرٌ﴾.

ومعنى ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع عليه عالم به، فلا يخفى عليه منه شيء، ولا من جميع أعمال العباد، فهو -عز وجل- ذو بصر يبصر ويرى أعمال العباد وغيرها كما قال ﷺ: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١). وهو- سبحانه وتعالى- ذو بصر وإحاطة وعلم بأعمال العباد، وبكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:١٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التشبه بالكفار الذين يرون القتل في سبيل الله أو الموت فيه منقصة ومغرمًا، ثم أتبع ذلك ببيان أن ذلك مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون؛ لأنه سبب موصل إلى مغفرة الله تعالى ورحمته وذلك خير مما يجمعون، وأن كل من ماتوا أو قتلوا فإنما مرجعهم إلى الله تعالى وحشرهم إليه فيجازي كلًا بعمله.

وقدّم في الآية الأولى القتل في سبيل الله على الموت؛ لأن القتل في سبيل الله أفضل ونصيب صاحبه من المغفرة والرحمة أوفر -غالبًا- بينما قدم في الآية الثانية الموت على القتل؛ لأن الموت أكثر من القتل، ولأن الميت والمقتول كلاهما في الحشر إلى الله تعالى سواء- مع ما في ذلك من التفنن ورد العجز على الصدر وجعل القتل مبدأ الكلام وعوده.

قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: مؤذنة بأن قبلها قسمًا، والخطاب للمؤمنين، أي: والله لئن قتلتم في سبيل الله، أي: في الجهاد لإعلاء كلمة الله.

وقد يحمل ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ما هو أعم، فيشمل من قتل في الجهاد لإعلاء

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

كلمة الله أو في الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق ونحو ذلك.

﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ ﴿أَوْ﴾: عاطفة، ﴿مُتُّمْ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم: «مِتم» في هذا الموضع والذي بعده، من مات الرجل يمات، وقرأ الباقون بضم الميم في الموضعين: ﴿مُتُّمْ﴾ من مات الرجل يموت. أي: أو متم من غير قتل في سبيل الله.

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم في قوله: ﴿وَلَئِن﴾ أي: لمغفرة من الله تعالى لذنوبكم، والمغفرة ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ورحمة من الله تعالى لكم.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قرأ حفص عن عاصم بياء الغيبة: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ على الالتفات أي: خير مما يجمع الكفار أو الخلق كلهم، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «تجمعون» والخطاب للمؤمنين.

و«ما» في قوله: ﴿مِّمَّا﴾: موصولة، تفيد العموم. أي: خير مما يجمع الكفار والخلق كلهم من الدنيا كلها، وخير مما تجمعون أيها المؤمنون من الغنائم ومن الدنيا كلها.

فمن قتل في سبيل الله نال منازل الشهداء، ومن مات في غير الجهاد في سبيل الله مات على الإيمان ونال ثواب المؤمنين، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ اللام كالتي قبلها موطئة للقسم، أي: والله لئن متم أو قتلتم. أي: لئن متم من غير قتل في سبيل الله، أو قتلتم في سبيل الله.

﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، ﴿وَلَئِن﴾، ﴿تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بأن مردهم ومرجعهم إلى الله تعالى من مات منهم من غير قتل، ومن قتل منهم في سبيل الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وفي الحديث: «**مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفي هذا إغراء بالاتصاف بهذا الوصف، وأن الانتهاء عما نهى الله عنه وعدم التشبه بالكفار من مقتضيات الإيمان، وأن التشبه بهم منافٍ للإيمان.

٣- النهي عن التشبه بالكفار وتحريم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والنهي يقتضي التحريم، وفيه من الوعيد ما لا يخفى، وقد قال ﷺ: «**مَن تشبَّه بقوم فهو منهم**»(٢).

وفي نهيه- عز وجل- عن التشبه بالكفار مع ذكر قولهم في الاعتراض على قضاء الله بقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وقولهم لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ ما يدل على أن هذا من كفرهم.

وسواء كان التشبه بهم عن قصد أو عن غير قصد، لكن إذا كان ذلك عن قصد كأن يكون ذلك تعظيمًا لهم، أو إعجابًا بهم ونحو ذلك، فهذا أشد خطرًا وآكد وعيدًا.

كما أن التشبه بهم في الأمور الدينية أشد خطرًا من التشبه بهم في الأمور العادية؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية والعبادات فيه تعظيم لدينهم وما هم عليه من المعتقدات والعبادات الباطلة أو المنسوخة بدين الإسلام.

٤- ذم الكفار وما هم عليه من الكفر اعتقادًا وفعلًا وقولًا؛ لنهي الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم.

٥- أن الكفار إخوة فيما بينهم بالكفر، كما أن الناس كلهم إخوة في النسب مؤمنهم وكافرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٣٦)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٦)، من حديث عبادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس- لبس الشهرة (٤٠٣١)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

٦- جواز الضرب في الأرض والسفر فيها، فإن كان لأمر مشروع، كطلب علم أو تجارة أو نحو ذلك فهو مشروع، ولهذا- والله أعلم- قدم الضرب في الأرض على الغزو- إضافة إلى أن الضرب في الأرض هو الغالب. وإن كان الضرب في الأرض والسفر فيها لأمر جائز، فهو جائز ما لم يترتب على ذلك محظور، كالسفر لأغراض محرمة، أو لبلاد الكفر، ونحو ذلك.

٧- مشروعية الغزو والجهاد في سبيل الله.

٨- اعتراض الكفار على قضاء الله وقدره، وعلى الرسول ﷺ في خروجه إلى أُحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾.

٩- أن الاعتراض على قضاء الله وقدره، وعلى أمر الرسول ﷺ من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

١٠- أن الندم على ما مضى والحزن على ما فات لا يجدي شيئًا، وهو أمر مذموم؛ لما فيه من اعتراض على قدر الله، وكونه من عمل الكفار، وفي الحديث: «**فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١).

١١- أن عاقبة الاعتراض على قضاء الله وقدره حسرة في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: حسرة تلازم قلوبهم وحزنًا وأسى.

وهذا بخلاف الإيمان بقضاء الله وقدره، فإن به تخفيف المصاب، وانشراح الصدر، وثبات القلب، وهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»(٢).

١٢- أن قدر الله نافذ وحكمه- عز وجل- الكوني تام ولا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بعد أن ذكر قول الكفار عن إخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٩٥)، والطبري في «جامع البيان» (٢٣/ ١٢).

مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾.

١٣- أن الله- عز وجل- هو الذي يحيي ويميت، أي: بيده الإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

١٤- اطلاع الله- عز وجل- على أعمال العباد ورؤيته لها وعلمه بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن أحسن العمل ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى بصره- عز وجل- وعلمه بأعمال العباد أن يحاسبهم ويجازيهم على خيرها وشرها.

١٥- أن مَن قتل في سبيل الله، أو مات من المؤمنين فله مغفرة من الله ورحمة خير من الدنيا وما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فالأول فاز بنيل الشهادة في سبيل الله، والثاني فاز بالموت على الإيمان، وكلًا وعد الله الحسنى.

١٦- عظم مغفرة الله تعالى ورحمته، وعظم ما أعده من المغفرة والرحمة لمن قتل في سبيله، أو مات من المؤمنين.

١٧- إقسام الله- عز وجل- على وعده بالمغفرة والرحمة لمن قتلوا في سبيله أو ماتوا من المؤمنين- وهو أصدق القائلين- تأكيدًا لذلك الوعد، وتعظيمًا للموعود به.

١٨- تسلية من قتل في سبيل الله، ومن مات من المؤمنين، وبشارتهم بذكر ما أعد الله لهم من عظيم مغفرته ورحمته، مما هو خير من الدنيا وما فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى:٣٦].

١٩- كمال سعادة المؤمنين عند الله تعالى، فبمغفرته لهم زوال المرهوب، وبرحمته لهم حصول المطلوب.

٢٠- أن التخليلة قبل التحلية.

٢١- أن المفاضلة قد تكون بين شيئين بينهما بُعد تام؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾؛ لأن الدنيا بما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة لمغفرة الله ورحمته.

بل قد ترد المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة، كما في قوله تعالى:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] أي: خير مستقرًا وأحسن مقيلًا من مستقر أهل النار ومقيلهم؛ لأن النار شر محض لا خير فيها.

٢٢- زيادة التسلية والبشارة لَمن مات من المؤمنين أو قُتل في سبيل الله ببيان أن مرجعهم إليه وجمعهم لديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

٢٣- أن مرجع الخلائق كلهم من مات منهم أو قتل إلى الله تعالى وحشرهم إليه، لا مفر إلا إليه، فيجازي كلًا بما عمل.

٢٤- إثبات البعث والمعاد وحشر العباد وجمعهم عند الله تعالى، وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ الفاء للتفريع، أو استئنافية، والباء حرف جر تفيد السببية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ [النساء:١٥٥]، ﴿ رَحْمَةٍ ﴾: مجرورة بالباء، والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿لِنتَ ﴾، ونكرت «رحمة» للتعظيم.

أي: فبسبب رحمة من الله لك ولأصحابك لنت لهم، أو أيّ شيء جعلك لينًا لهم لولا رحمة الله بك وبهم. وفي هذا امتنان من الله- عز وجل- عليه ﷺ وعلى أمته.

﴿لِنتَ لَهُمْ ﴾ اي: كنت لينًا لأصحابك وأمتك، رفيقًا بهم: ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، فأحبوك، واجتمعوا عليك.

فقد كان ﷺ لينًا حسن الخلق والتعامل مع أصحابه، كما كان ﷺ رؤوفًا رحيمًا بأمته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا**

تنفرا»(١)، وقال ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا**»(٢)، وقال ﷺ: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»(٣).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»(٤).

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾، وفيها بيان وإيضاح لمعنى ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: لنت لهم، ولم تكن فظًّا غليظ القلب، أي: ولم تكن شديدًا- وبضدها تتميز الأشياء.

و«لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، ﴿كُنتَ﴾: فعل الشرط، ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾: جواب الشرط، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿فَظًّا﴾: خبر كان، و«الفظ»: السيئ الخلق، الجافي الطبع، غليظ القول والفعل. قال الشاعر:

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلم(٥)

وقال الآخر:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد ... لنحن أغلظ أكبادًا من الإبل(٦)

﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ غلظ القلب: قساوته، وغليظ القلب: قاسي القلب الذي لا يلين وليس في قلبه رأفة ولا رحمة- وهذا هو سبب الفظاظة.

وفي حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**وإن أبعد**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، من حديث أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، وأبوداود في الطهارة (٣٨٠)، والنسائي في الطهارة (٥٦)، والترمذي في الطهارة (١٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥).

(٥) البيت لإسحاق بن خلف، انظر: «شرح حماسة أبي تمام» (٢/ ١٨٣).

(٦) البيت لمهلهل بن ربيعة، وقيل: للمخبل. انظر: «شرح ديوان الحماسة للمرزوقي» (ص٤٢٠).

الناس من الله القلب القاسي»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**مَن لا يَرحم لا يُرحم**»(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تُقَبِّلون الصبيان فما نُقَبِّلهم، فقال النبي ﷺ: «**أوَأَمْلِكُ لك أن نَزع الله من قلبك الرحمة**»(٣).

﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لتفرق أصحابك من حولك وانصرفوا وتركوك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ [الجمعة:١١].

وفي قوله: ﴿مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ دلالة على شدة ابتعادهم عنه، أي: لتفرَّق من حولك، وابتعدوا عنك كل البعد.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أن مما جاء في صفته ﷺ في التوراة: «ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح»(٤).

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، للتفريع على قوله: ﴿لِنتَ لَهُمْۖ﴾ أي: فتجاوز عن أصحابك، وسامحهم ولا تؤاخذهم فيما يقع منهم من تقصير في حقك، من ترك واجب لك أو ارتكاب منهي في حقك.

وما أكثر ما حصل له ﷺ من الأذى وخاصة من بعض المنافقين.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قسم النبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: «والله إنها لقسمة ما أُريد بها وجه الله». قلت: أمَّا أنا

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١١)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٨)، وأبوداود في الأدب (٥٢١٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩١١).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٥).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة الفتح (٤٨٣٨)، وأحمد (٢/ ١٧٤).

لأقولن للنبي ﷺ، فأتيته وهو في أصحابه، فساررته؛ فشق ذلك على النبي ﷺ، وتغيّر وجهه وغضب حتى وددت أني لم أكن أخبرته. ثم قال: «**قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «بينا النبي ﷺ يُقْسِمُ جاء عبدالله بن ذي الخُوَيْصِرَة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل**»، قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه. قال: «**دعه فإن له أصحابًا يُحَقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»(٢).

ولما خاصم الأنصاري الزبير- رضي الله عنه- في شِرَاج الحَرَّةِ التي يسقون بها النخل، وقال النبي ﷺ: «**اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك**» فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك. فتلوّن وجه رسول الله ﷺ»(٣).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فَجَبَذَهُ جَبْذَةً شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته. ثم قال: مُر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»(٤).

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: واطلب لهم المغفرة من الله فيما يقع منهم من تقصير في حق الله تعالى، سواء كان بسبب تقصيرهم في حقك أو في غير ذلك من حقوق الله تعالى؛ لأن ما يجب للرسول ﷺ، بل وما يجب لغيره من الخلق كل ذلك من حق الله تعالى؛ لأن الله هو الذي أوجب ذلك كله.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٣٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٧)، وأبوداود في الأقضية (٣٦٣٧)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠٧)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٣)، من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٤٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٧).

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ المشورة: استطلاع رأي المستشار، أي: شاور أصحابك واستطلع آراءهم واطلب منهم المشورة.

﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في الشأن، و﴿الْأَمْرِ﴾ واحد الأمور، أي: شاورهم في الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر وتجربة ونحو ذلك.

ولهذا كان ﷺ يستشير أصحابه في كثير من الأمور تشجيعًا لهم وتطييبًا لخواطرهم واستئناسًا برأيهم، فعن أنس رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان..**»(١).

واستشارهم في أسرى بدر فأشار عليه أبوبكر- رضي الله عنه- باستبقائهم وفدائهم، وأشار عليه عمر- رضي الله عنه- بقتلهم، وكان ﷺ يميل إلى رأي أبي بكر- رضي الله عنه- فاستبقاهم، فعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٩](٢).

كما استشار ﷺ أصحابه في الخروج إلى أُحد، فأشار أكثرهم بالخروج فخرج(٣).

كما استشارهم يوم الأحزاب فأشار عليه سلمان الفارسي- رضي الله عنه- بحفر الخندق حول المدينة(٤).

كما استشارهم في قصة الإفك فقال ﷺ: «**أشيروا عليَّ أيها الناس في رجل بلغني أذاه في أهلي**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)- وسيأتي ذكره وتخريجه بتمامه في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى.

(٣) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران: ١٢١].

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٨٤).

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٨)، والترمذي =

قال البخاري- رحمه الله[١]:«وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره». وقال: «وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولًا كانوا أو شبانًا، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل».

وقد تشاور الصحابة- رضي الله عنهم- في أمر الخليفة بعد رسول الله ﷺ، واستشار أبوبكر- رضي الله عنه- الصحابة في قتال أهل الردة، وجعل عمر- رضي الله عنه- الأمر شورى بعده في ستة عيّنهم رضي الله عنه وعنهم.

والاستشارة كما تكون في أمور الأمة الهامة والعامة تكون في الأمور الخاصة بين الناس بين أفراد المجتمع بين الأقارب والأزواج والإخوان والأصدقاء وسائر أفراد المجتمع، كما قال تعالى في الزوجين:﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقد امتدح الله- عز وجل- هذه الأمة بقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى:٣٨]، وقد قيل: «ما خاب مَن استخار، ولا ندم مَن استشار»[٢].

وقال الشاعر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآة[٣]

وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم[٤]

=

في التفسير (٣١٨٠)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) انظر: «صحيح البخاري مع فتح الباري» كتاب الاعتصام- باب قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:٣٩]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩] (١٣/ ٣٣٩).

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٠٠).

(٣) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» (١/ ٢٤٦).

(٤) البيت لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (٤/ ١٧٣).

وقال الآخر:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد أشيرا عليّ بالذي تريان[1]

والشورى في الأصل مما جبل عليه الإنسان في فطرته السليمة في طلب الصلاح والنجاح في المساعي إذا سلم من آفة الأنانية والاستبداد أو الاستكبار، ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر، فقد قال تعالى عن بلقيس: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، والاستشارة ليست لكل أحد وإنما يستشار أهل الدين والعقل والعلم والحكمة والرأي والتجربة والحزم والعزم والقوة والنصح والأمانة، ونحو ذلك، وأهل التخصص كل في مجال تخصصه. ولا يستشار من لا يطمئن إلى نصحة للأمة كأهل الكفر والفسق والنفاق وأهل البدع والأهواء وأرباب الشهوات، ونحوهم.

وليس من شرط الشورى في الإسلام أن يؤخذ فيها رأي أكثر الناس كما يزعم أدعياء الديمقراطية الموهومة، فإن أكثر الناس ودهماءهم أتباع كل ناعق، والحكم في الإسلام لشرع الله تعالى وفق الكتاب والسنة، والشورى إنما تكون فيما ليس فيه حكم شرعي مما يستجد من القضايا والنوازل، فسيتطلع رأي أهل الشورى فيها بما يتفق مع ما جاء في الكتاب والسنة ولا يتعارض معهما.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء للتفريع، و«إذا» ظرفية مضمنة معنى الشرط. أي: فإذا صممت على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة سواء كان مما استظهرته من أهل الشورى، أو مما تبين لك سداده من بين آراء أهل الشورى، كما يقال في المثل: «ما بين الرأيين رأي».

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط. أي: فاعتمد على الله تعالى، وعلى حوله وقوته وحده، لا على مشورتك وحدك.

وفي هذا أمر له ﷺ بفعل السبب باستشارة أصحابهم واستطلاع رأيهم، وبالاعتماد على الله- عز وجل- وحده، والمضي قدمًا فيما عزم عليه من أمر بعد التوكل على الله-

---

(١) البيت لابن الدمينة. انظر: «حماسة الخالدين» (ص٧٠).

وعدم التردد.

و«التوكل على الله» صدق الاعتماد على الله تعالى في جلب النفع ودفع الضر مع تمام الثقة به- سبحانه وتعالى، وحسن الظن به، وفعل الأسباب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، وترغيب بالتوكل على الله، أي: فتوكل على الله؛ لأن الله يحب المتوكلين عليه، أي: يحب المعتمدين عليه وحده المفوضين أمورهم إليه، ومن أحبه الله تعالى أكرمه. نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، ﴿يَنصُرْكُمُ﴾: فعل الشرط، وقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾: جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: إن يقدر الله نصركم- كما حصل في بدر.

﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾، «لا»: نافية للجنس نص في العموم، ﴿غَالِبَ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: إن ينصركم الله فلا أحد يغلبكم أيًّا كان، ومهما كان عليه من القوة عدة وعددًا.

وهذا مما يوجب التعلق بالله تعالى وحده، وطاعته والحذر من معصيته وسبب خذلانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ «الخذلان»: عدم النصر، بدليل مقابلته لقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقوله بعده: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ أي: وإن يقدر الله خذلانكم، ويتخل عن نصركم ويكلكم إلى أنفسكم بسبب معصيتكم له ومخالفة أمر رسول الله ﷺ كما حصل في أُحد. ومن وكل إلى نفسه هلك؛ ولهذا جاء في الدعاء: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»(١).

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ جملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥٠٩٠)، من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه.

وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

و«من» في قوله: ﴿فَمَن ذَا﴾ اسم استفهام بمعنى النفي مشرب بالتحدي، أي: فلا أحد ينصركم من بعده، كأنه يقول: وإن يقدر الله خذلانكم فتحداكم أن ينصركم أحد من بعده، ولو اجتمع لكم من بأقطارها، و﴿ذَا﴾: اسم إشارة، أي: فمن هذا الذي ينصركم من بعده؟!

وفي الآية مقابلة بين قوله: ﴿يَنصُرُكُم﴾ و﴿يَخْذُلْكُمْ﴾، وبين قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الواو: عاطفة، وقدم الجار والمجرور «على الله».

على متعلقه «يتوكل»؛ لإفادة الحصر، أي: وعلى الله وحده لا على غيره فليعتمد المؤمنون.

والفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ رابطة لشرط مقدر، واللام للأمر، أي: وعلى الله وحده، لا على غيره، فليعتمد المؤمنون حقًّا. وخص المؤمنين لأن إيمانهم يوجب عليهم التوكل على الله وحده، ولا إيمان لأحد بدون التوكل على الله تعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فقدوا قطيفة يوم بدر، فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ أي: يخون»(١).

---

(١) أخرجه أبوداود في الحروف (٣٩٧١)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٩)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ١٩٤، ١٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٠٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٦٠١، ٥٦٠٢)- وقال الترمذي: «حسن غريب». والحديث من رواية خصيف بن عبدالرحمن. وقد قال عنه الإمام أحمد: «شديد الاضطراب». «تهذيب التهذيب» (٣/ ١٢٤). وقال ابن حجر في «التقريب»: «سيئ الحفظ خلط بآخرة» وقد اضطرب فيه خصيف فجعله تارة من حديث عكرمة عن ابن عباس، وتارة من حديث مقسم عن ابن عباس، وتارة من حديث عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس. ولهذا أورده ابن عدي في «الكامل في الضعفاء والمتروكين» (٣/ ٧٢) في ترجمة خصيف بن عبدالرحمن.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وعاصم: ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين على البناء للفاعل، وقرأ الباقون: «يُغَل» بضم الياء وفتح الغين بالبناء للمفعول. و«نبي»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: وما كان لنبي من الأنبياء أن يغل. والغلول: أخذ شيء من الغنيمة خفية قبل قسمتها، ويطلق على الخيانة في كل ما يتولاه الإنسان من الأموال لغيره.

والمعنى على قراءة (يَغُل) بالبناء للفاعل، أي: وما كان لنبي من الأنبياء أن يقع منه الغلول لا شرعًا وقدرًا؛ لا غلول المال بأخذه من الغنيمة خفية أو من غيرها، ولا غلول العلم بكتمان بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته، بل هم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩]، وقد أخذ الله عليهم الميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب:٧]. والمعنى على قراءة (يُغَل) بالبناء للمفعول، أي: ما كان لنبي أن يَغُلُّه غيره شرعًا بأن يكسب النبي ﷺ ومن معه غنيمة ثم يقوم أحد بإخفاء شيء منها وأخذه. هذا أمر محرم لا يجوز شرعًا؛ لأن الغنيمة لجميع المسلمين، لكن هذا قد يقع قدرًا، وقد وقع هذا في عهد النبي ﷺ. ففي الحديث أنه ﷺ «**رأى رجلًا يتقلب في النار في بردة غلها**»(١).

وقيل: النفي بمعنى النهي، أي: لا يُغله أحد. وقيل: معنى (يُغَل) يتهم بالغلول.

﴿ وَمَن يَغْلُلْ ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية تفيد العموم. ﴿ يَغْلُلْ ﴾: فعل الشرط، أي: ومن يغلل بإخفاء المال وأخذه من نبي أو غيره- على سبيل افتراض وقوع الغلول من أي نبي؛ لأن الله نفى أن يقع ذلك من الأنبياء شرعًا وقدرًا.

﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ﴿يَأْتِ ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف الياء، والكسرة قبلها دليل عليها.

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا ﴾: موصولة، تفيد العموم، أي: يأت بجميع الذي غلّ وأخفى

---

(١) سيأتي ذكره وتخريجه بتمامه، قريبًا.

وأخذ من المال يوم القيامة على رؤوس الأشهاد حاملًا له على ظهره، حيوانًا كان أو متاعًا أو غير ذلك؛ فضيحة له وعذابًا معنويًّا له يوم القيامة.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، أي: ثم بعد أن تأتي كل نفس بما غلّت يوم القيامة فضيحة لها، ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة أو مصدرية، أي: تعطى كل نفس من أهل الغلول أو غيرهم الذي كسبت، أو كسبها وافيًا، أي: تعطى جزاء عملها وافيًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وجعل الكسب مكان الجزاء؛ لبيان أن الجزاء من جنس العمل والكسب، وبحسبه.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: حال، أي: حال كونهم لا يظلمون، أي: لا ينقصون من أجورهم وحسناتهم شيئًا، ولا يزادون في سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠].

وذلك لكمال عدل الله عز وجل؛ لأن الصفات المنفية تدل على كمال ضدها، فنفي الظلم عنه- عز وجل- يدل على كمال عدله، كما أن نفي الموت عنه في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، يدل على كمال حياته. وهكذا.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه: الإنكار والنفي.

والفاء: عاطفة، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، والفاء العاطفة محلها في الأصل قبل الهمزة، والتقدير: «فأمن اتبع».

وقيل: الهمزة داخلة على جملة مقدرة تناسب المقام.

و«من»: اسم موصول، أي: أفيستوي ويكون الذي اتبع وطلب رضوان الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، من ترك الغلول وغيره في جزائه في الحياة وبعد الممات، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه.

﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ الكاف: للتشبيه، بمعنى «مثل»، و﴿بَاءَ﴾ بمعنى: رجع ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، وسخط الله: غضبه وعدم رضاه،

أي: كالذي رجع متلبسًا بغضب من الله بتركه ما أمر الله به، وارتكابه ما نهى الله عنه من الغلول وغيره، واستحق عقاب الله، وعظيم عذابه.

وبين قوله: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ مقابلة.

﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الواو: عاطفة، أي: ومرجعه الذي يأوي إليه ويستقر فيه، ﴿ جَهَنَّمُ ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لشدة ظلمتها وجهمتها وحرها وبُعد قعرها.

﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، «بئس»: فعل جامد؛ لإنشاء الذم، و﴿ٱلْمَصِيرُ ﴾ فاعله، وهو المرجع، والمآل والمآب.

والمخصوص بالذم محذوف، أي: وبئس المصير ﴿جَهَنَّمُ ﴾، أو وبئس المصير «مصيره».

فنفى عز وجل أن يكون من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، أي: لا يستوي هذا وهذا، أي: لا يستويان في حكم الله وجزائه، لا في الدنيا ولا في الآخرة وشتان بينهما، فالأول: مؤمن، والثاني: كافر، وشتان بين عمل كل منهما، فالمؤمن: اتبع في عمله رضوان الله، والكافر: اتبع في عمله ما يسخط الله، وشتان بين جزاء كل منهما فالمؤمن: مأواه جنات النعيم، والكافر: مأواه جهنم وبئس المصير.

قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

نفى عز وجل أن يكون من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم درجات عند الله.

والضمير في قوله: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ ﴾ يعود إلى الفريقين مَن اتبع رضوان الله ومَن باء بسخط من الله. وجاء بضمير الجمع ﴿ هُمْ ﴾ مراعاة لمعنى «من» في قوله: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ ﴾، وقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ ﴾؛ لأن معناها الجمع.

﴿ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: منازل مختلفة متفاوتة عند الله تعالى بحسب تفاوتهم في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأنعام:١٣٢].

فالذين اتبعوا رضوان الله في أعالي الدرجات وكل مَن كان منهم لرضوان الله أتبع كانت درجته أرفع.

والذين باؤوا بسخط في أسافل الدركات، وكل مَن كانت مباءته بسخط الله أعظم كانت دركته أسفل.

فهم درجات عند الله، فالذين آمنوا فوق الذين كفروا، وأهل الإيمان درجات في إيمانهم، ودرجات في نعيمهم وثوابهم، وأهل الكفر درجات في كفرهم، ودرجات في عذابهم وعقابهم.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: مطلع على الذين يعملون وعلى عملهم مشاهد له عالم به، لا يخفى عليه منه شيء، ظاهرًا كان أو باطنًا، حقًّا كان أو باطلًا.

وفي هذا وعد لمن عمل صالحًا، ووعيد لمن عمل خلاف ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- رحمه الله- عز وجل- بالنبي ﷺ وبأمته بأن جعله لينًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ وفي هذا امتنان من الله تعالى عليه ﷺ وعلى أمته.

٢- أن اللين صفة محمودة امتدح الله بها نبيه ﷺ وجعلها بسبب رحمته- عز وجل- له ولأمته، لهذا ينبغي لولاة أمور المسلمين وأصحاب المسؤوليات في الأمة كبيرها وصغيرها الاتصاف بها، وقد قال ﷺ: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**»(١).

ولكن اللين الممدوح ما كان لينًا من غير ضعف- مع قوة من غير عنف، كما كانت صفته ﷺ؛ ولهذا لما أنشد النابغة الجعدي قصيدته المشهورة. والتي ختمها بقوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قيل: إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده هذين البيتين: «**أحسنت أو أجدت، لا يفضض الله فاك**»، قيل: فعاش مئة وعشرين سنة لم تسقط له سن، أو كلما سقطت له سن نبتت(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ومطلع هذه القصيدة:

خليلي غضا ساعة وتهجرا ... ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

=

٣- امتداح الله تعالى لنبيه ﷺ بأن كان لينًا لأمته غير فظ ولا غليظ القلب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾.

٤- ذم الفظاظة وغلظة القلب وقساوته، وأنها سبب لنفور الناس ممن اتصف بها، والحيلولة دون استفادة الناس من علمه ودعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾.

٥- ميل النفوس بطبيعتها لمن لان لها وأحسن التعامل معها، ونفورها ممن كان بضد ذلك. وكما قيل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان(١)

٦- الترغيب في لين الجانب وحُسن الخلق، والتحذير من الفظاظة وغلظة القلب وقساوته وسوء الخلق.

٧- ينبغي للآباء والموجهين والمربين والمعلمين والدعاة وغيرهم أن يكون لهم أسوة بالرسول ﷺ في لين جانبه، وحُسن خلقه في تعاملهم، وأن يبتعدوا كل البعد عن الفظاظة والغلظة والجفاء وسوء الخلق؛ لكي تثمر جهودهم، فكم من مربٍ وعالم وداعية لم يستفد الناس من علمه، ولا من جهوده بسبب فظاظته وغلظته وسوء خلقه. وإذا كان الرسول ﷺ المؤيد بالوحي لو كان فظًا غليظ القلب لانفض أصحابه من حوله. فكيف بمن دونه ﷺ.

ومن المؤسف أن تجد كثيرًا من دعاة النصرانية وغيرها من الملل من هم ألين في التعامل وأحسن خلقًا من كثير من دعاة الإسلام.

=

وفيها قوله:

بلغنا السماء مجدُنا وجدودنا ... وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

قيل: لما أنشد هذا البيت قال له النبي ﷺ: «**أين المظهر يا أبا ليلى؟**»، قال: الجنة. قال: «**أجل، إن شاء الله**». انظر: «ديوان النابغة الجعدي» ص(٦٩)، وانظر: «المطالب العالية» (١٦/ ٣٨٣ رقم ٤٠٣٢)، «أحاديث الشعر» (ص١٠٩)، «مجمع الزوائد» (٨/ ١٢٦)، «كنز العمال» (١٣/ ٦٠٠ حرف النون/ ٣٧٥رقم ٤٢).

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٥٠).

٨- فضل العفو عن الناس والترغيب فيه؛ لأن الله- عز وجل- أمر به رسوله ﷺ فقال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾، كما امتدح به المتقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وأمر به ورغب فيه، فقال: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ﴾ [النور:٢٢]، وتكفَّل بثوابه إذا كان على سبيل الإصلاح، فقال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:٤٠].

٩- أن ما كان من حق للرسول ﷺ ولو خاصًّا فهو من حق الله تعالى؛ لأن الله تعالى لما أمر الرسول ﷺ بالعفو عن حقه بقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ أمره ﷺ بالاستغفار عن حق الله تعالى فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، ولأن الله تعالى هو الذي أوجب حق الرسول ﷺ- كما أوجب حقوق غيره من الخلق، فكل ذلك من حق الله، والتقصير فيه تقصير في حق الله.

١٠- ينبغي الجمع بين العفو والإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ فالاستغفار بعد العفو من قبيل الإحسان.

١١- أمر الله- عز وجل- للنبي ﷺ باستشارة أصحابه، وذلك والله أعلم- فيما ليس فيه وحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، وذلك لما في مشورته لهم من تطييب خواطرهم، واستظهار آرائهم، وتعليم الأمة المشورة.

١٢- مشروعية الشورى في الإسلام؛ لأن الله- عز وجل- أمر بها رسوله ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، وقد يكون للندب حسب الحاجة إلى المشورة، وإذا كان الرسول ﷺ مأمورًا بالاستشارة فغيره من ولاة أمور الأمة من باب أولى، فيتأكد في حقهم استشارة من تحت ولايتهم في أمور الأمة، فيستشار العلماء فيما يشكل من أمور الدين، ويستشار العارفون بالسياسة وشؤون القتال والحرب فيما يعرفون، ويستشار كل فيما يخصه ويختار للشورى في الأمور الهامة أهل الدين والنصح والعقل والحنكة وسداد الرأي والخبرة والتجربة.

ويجب على من استشير محض النصح لمن استشاره؛ لأن المستشار مؤتمن، كما قال

ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»[١].

وقال ﷺ: «**الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٢]. والنصيحة للرسول ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم- وإن كانت مطلوبة دائمًا إلا أنها في حال طلبهم المشورة والنصيحة أوجب وأوكد.

١٣- سمو مبادئ الإسلام وتعاليمه وأحكامه في أمره بالشورى لما فيها من المصالح العظيمة.

فهي في المقام الأول: طاعة لله تعالى، وهي في المقام الثاني: صمام أمان للأمة بإذن الله تعالى، توفق بالأخذ بها إلى الرأي الأرشد والأصوب في قراراتها في قضاياها ومشكلاتها الداخلية والخارجية، والسلامة من المزالق الخطيرة التي قد تحصل بسبب الأنانية واستبداد المسؤول أو ولي الأمر وتفرده بالرأي؛ لأن الفرد مهما كان عليه من الحذق والدهاء وحُسن التدبير سيفوته الكثير، ويصعب عليه وحده المقارنة بين المصالح والمفاسد، والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات.

وهي في المقام الثالث: سبب لاجتماع الأمة وسلامتها من الاختلاف والتفرق بسبب الاعتراض على ما يصدر من ولي الأمر من قرارات؛ لعلم الناس أن هذه القرارات قد أخذ فيها رأي أهل الحل والعقد والرأي والمعرفة في الأمة.

وبهذا تسلم الأمة من الاضطراب والفوضى، وتسد الطريق أمام المتربصين بها من الداخل والخارج.

وقد أحسن حافظ إبراهيم- رحمه الله- في قوله في قصيدته العمرية[٣] التي تعتبر من روائع الشعر العربي مشيدًا بمواقف عمر- رضي الله عنه- في جعل الأمر بعده شورى:

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨٢٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٩١).

يا رافعًا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيرًا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها ... و للمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله ... إلى الجماعة إنذارًا وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رأيهم شعبًا ... فجرد السيف واضرب في هواديها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها ... طعم المنية مرًا عن مراميها
درى عميد بني الشورى بموضعها ... فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
و ما استبد برأي في حكومته ... إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

كما أن المشورة دليل على رجحان عقل المستشير وحكمته وتواضعه، وحُسن قصده في البحث عن الأصلح غالبًا، وفيها مصلحة عظيمة له؛ لأنه بالاستشارة يضيف إلى عقله وتجاربه عقول مَن استشارهم وتجاربهم ويأخذ خلاصة أفكارهم، فيسلم من الاستبداد بالرأي الذي قد يكون هو أول ضحاياه. وفيها ستر لعيوبه وعدم تحميله المسؤولية وحده عند الخطأ.

كما أن المشورة أيضًا مصلحة للمستشار تجعله يشعر بقيمته في الأمة، ويشارك في حل قضاياها ومشكلاتها، فينشط في تقديم محض المشورة والنصح لها، ولكل من استشاره.

١٤- ينبغي بعد المشورة والعزم على الأمر التوكل على الله تعالى والمضي قدمًا فيه، بعد الجمع بين فعل السبب والاعتماد عليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٥- ينبغي الحذر من التردد الذي به فساد الرأي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾. فينبغي الجمع بين تدبر الأمر وإبرام الرأي وعدم العجلة، وبين العزم والتوكل على الله والمضي قدمًا وعدم التردد، كما قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبر ... فإن فساد الرأي أن تتعجلا[1]

وقال الآخر:

---

(١) البيت لعيسى بن موسى. انظر: «زهر الآداب» (١/ ٢٥٧).

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا[1]

١٦- أن النبي ﷺ قد يحتاج كغيره من البشر إلى المشورة، وخاصة فيما ليس فيه وحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

١٧- محبة الله تعالى للمتوكلين عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

١٨- إثبات المحبة لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، ومن آثارها الثواب، وليست هي الثواب كما يقوله منكروها من أهل البدع.

١٩- عدم محبة الله تعالى للذين لا يتوكلون عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: ولا يحب من لم يتوكل عليه.

٢٠- فضل التوكل على الله والترغيب فيه؛ لأن الله رتب عليه محبته تعالى لأهله.

٢١- أن من قدّر الله نصره فلا غالب له؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

وتحقُّق نصر الله مرهون بالإيمان وعمل الصالحات، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

٢٢- كمال قوة الله- عز وجل وقدرته، ووجوب طاعته والتعلق به والاستعانة به وحده في طلب النصر وغير ذلك.

٢٣- أن من قَدَّر الله خذلانه فلا ناصر له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾.

---

(١) البيت للمنصور. انظر: «زهر الآداب» (١/ ٢٥٧).

٢٤- وجوب الحذر من أسباب الخذلان، بمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، وأمر رسوله ﷺ.

٢٥- وجوب التوكل على الله تعالى وحده، والاعتماد عليه دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

٢٦- أن التوكل على الله من مقتضيات الإيمان ومن صفات المؤمنين خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

٢٧- نفي وقوع الغلول من الأنبياء شرعًا وقدرًا، فلا يجوز وقوعه منهم شرعًا، ولا يمكن أن يقع منهم قدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾.

٢٨- أنه لا يجوز شرعًا لأحد أن يغل من الغنيمة التي اكتسبها النبي في حربه؛ لقوله تعالى: (أن يُغَلَّ) على قراءة ضم الياء وفتح الغين على البناء للمفعول.

٢٩- شدة حرمة الغلول؛ لأن الله- عز وجل- نزَّه منه أنبياءه، وتوعد عليه بأن من يغلل يأت بما غل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾. فهو محرم بالإجماع وكبيرة من كبائر الذنوب.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال:حدثني عمر بن الخطاب، قال: «لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ، فقالوا: فلان شهيد، حتى أتوا على رجل، فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: «**كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها- أو عباءة**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**». قال: فخرجت فناديت، ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[1].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا فذكر الغلول، فعظّمه وعظّم أمره، قال: «**لا أَلْفِيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حَمْحَمَة، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم**

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- غلظ تحريم الغلول (١١٤)، وأحمد (١/ ٣٠).

القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد أبلغتك»(١).

وعن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولًا يأتي به يوم القيامة**». قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك. قال: «وما»؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «**وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ وما نهي عنه انتهى**»(٢).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: كان على ثَقَلِ النبي ﷺ رجل يقال له كَرْكَرَةُ، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «**هو في النار**» فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلها»(٣).

وعن زيد بن خالد الجهني- رضي الله عنه- أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**صلوا على صاحبكم**» فتغيرت وجوه الناس لذلك. فقال: «**إن صاحبكم قد غلّ في سبيل الله**» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزًا من خرز يهود لا يساوي درهمين»(٤).

عن أبي حميد الساعدي- رضي الله عنه- قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأزد يقال له: ابن اللّتْبِية على الصدقة، فجاء، فقال: هذا لكم، وهذا أهدي إلي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر. ثم رفع يديه حتى

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٧٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٣١)، وأحمد (٢/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٣٣)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٨)، وأحمد (٤/ ١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد- القليل من الغلول (٣٠٧٤)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٩).

(٤) أخرجه أبوداود في الغلول- تعظيم الغلول (٢٧١٠).

رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت ثلاثًا»(١).

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣٢- كمال قدرة الله- عز وجل- حيث يجعل الغال يأتي بما غل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهو- عز وجل- على كل شيء قدير.

٣٣- موافاة كل نفس ومجازاتها بما عملت من غير زيادة أو نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

وهذا لا ينافي مجازاة الإنسان بثواب دعاء غيره له، وثواب القربات التي أهديت له أو تُصدق بها عليه، من صدقة أو حج وغير ذلك؛ لثبوت ذلك بالأدلة الصحيحة.

كما لا ينافي مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف؛ إلى أضعاف كثيرة- كما ثبت بالأدلة.

٣٤- انتفاء الظلم في محاسبة الخلائق يوم القيامة؛ لأن حسابهم عند الحَكم العَدل الذي لا يَظلم أحدًا سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٣٥- شتان بين من اتبع رضوان الله تعالى؛ ونال رضى الله تعالى، وسعد في الدنيا والآخرة، وبين من رجع بسخط من الله، فشقي في الدنيا والآخرة وكان مأواه إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا.

٣٦- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

٣٧- إثبات صفة السخط لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٣٨- أن مَن سخط الله تعالى عليه عذَّبه بالنار، وانتقم منه؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٩٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٢)، وأبوداود في الخراج (٢٩٤٦)، وأحمد (٥/ ٤٢٣-٤٢٤).

بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥].

٣٩- وجوب الحذر من التعرض لسخط الله تعالى وغضبه؛ لأنه سبب للمصير إلى النار.

٤٠- إثبات النار وأنها موجودة الآن، وأن من أسمائها «جهنم»؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٤١- أن النار مظلمة شديدة القعر شديدة الحر؛ لهذا سميت «جهنم».

٤٢- ذم النار وأنها بئس المصير والمرجع؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٤٣- أن الناس درجات عند الله، فأهل الإيمان فوق أهل الكفر، وأهل الإيمان فيما بينهم درجات في إيمانهم، وفي نعيمهم، كما أن أهل الكفر درجات في كفرهم، ودرجات ودركات في عذابهم.

٤٤- اطلاع الله- عز وجل- التام وعلمه الواسع بما يعمل العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى علمه مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يستوي مَن اتبع رضوان الله بمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، ثم أتبع ذلك ببيان منته على المؤمنين في بعث الرسول ﷺ منهم، وإنقاذهم به وبما جاء به من الوحي والعلم مما كانوا فيه من الضلال المبين، وهي المنة العظمى والنعمة الكبرى، التي هي أصل كل نعمة ومنة.

كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

وهذا استجابة لدعوة إبراهيم- عليه السلام- بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد مَنّ الله على المؤمنين، أي: أنعم عليهم وتفضل، و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و«قد».

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرفية بمعنى «حين» أي: حين بعث فيهم رسولًا من أنفسهم ويحتمل أن تكون «إذ» للتعليل، أي: لأنه بعث فيهم رسولًا

من أنفسهم، ففيها بيان لمحل المنة ومبدئها وهو حين بعث ﷺ فيهم، وفيها تعليل للمنة، أي: لأنه بعثه فيهم.

ومعنى ﴿بَعَثَ فِيهِمْ﴾ أي: أرسل فيهم، وسميت الرسالة «بعثًا»؛ لأن بها إخراج الناس من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

﴿فِيهِمْ﴾ «في» للظرفيه؛ لأن النبي ﷺ بُعث في سِطَة المؤمنين نسبًا وقرابة؛ ولهذا قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

﴿رَسُولًا﴾ أي: مرسلًا من عند الله- عز وجل- ونكر للتعظيم، أي: عظيم القدر، جليل الشأن.

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: منهم ومن جنسهم، فهو منهم نسبًا يتكلم بلسانهم، وبشر مثلهم، كما قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الآية:٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١] أي: من جنسكم، فكونه منهم ومن أنفسهم أبلغ في المنة، وأتم للنعمة؛ ليألفوه ويفهموا خطابه، ويكون أنصح لهم وأشفق عليهم، بل؛ ولتقوم الحجة به عليهم، بخلاف ما لو كان من غير جنسهم، كأن يكون من الملائكة أو الجن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، الجملة في محل نصب، صفة لـ﴿رَسُولًا﴾، والمعنى: يقرأ عليهم آياته، وهو القرآن الكريم.

والتلاوة: تطلق على التلاوة لفظًا بقراءة القرآن عليهم، وتطلق على التلاوة معنى ببيان معانيه لهم، وتطلق على التلاوة حكمًا ببيان أحكامه لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في

ركوعه وسجوده: سبحانك ربنا وبحمدك، يتأول القرآن»[١] يعني: يعمل به ويطبقه.

لكن قد يحسن هنا أن يحمل قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على تلاوة آيات القرآن وقراءتها عليهم لفظًا؛ لقوله بعده: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهرهم طهارة معنوية بأمرهم بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، ونهيهم عن الشرك والمعاصي، والأخلاق الذميمة، مما كانوا عليه في الجاهلية.

كما يطهرهم من الأحداث والنجاسات الحسية بأمرهم بالوضوء من الحدث الأصغر والغسل من الحدث الأكبر، والحث على النظافة عمومًا.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، سمي بذلك؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩].

ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٣-١٦].

ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين، والمعنى: ويعلمهم القرآن؛ ألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، والعمل بها.

وقال بعضهم: المراد بالكتاب في الآية «الكتابة» أي: ويعلمهم الكتابة؛ لأن العرب كانوا أميين، فلما نزل القرآن العظيم تعلموا الكتابة فصاروا يكتبونه للرسول ﷺ، وبهذا تعلموا الكتابة.

ولا منافاة بين القولين، فالرسول ﷺ علمهم القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وعلمهم الكتابة بأمره لهم بكتابة القرآن الكريم، فتعلموا القرآن وتعلموا الكتابة.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمراد بالحكمة عند أكثر أهل

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٧)، ومسلم في الطهارة (٤٨٤)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٧)، والنسائي في التطبيق (١١٢٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٩).

العلم: السنة، أي: ويعلمهم القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، أي: القرآن والسنة.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالحكمة في الآية: الحكمة في مشروعية الأحكام، أي: ويعلمهم الحكمة في مشروعية الأحكام، أي: أسرار الشريعة كحكمة مشروعية الصلاة وأنها صلة بين العبد وربه، ونحو ذلك. وحكمة مشروعية الزكاة وأن بها تزكية المال، وتزكية نفس الغني ونفس الفقير- وهكذا.

ولا منافاة بين القولين فيجوز حمل قوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ على تعليم السنة، وتعليم أسرار الشريعة، والحكم في مشروعية الأحكام مما يقوي الإيمان ويزيده.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الواو: حالية، و«إن» مخففة من الثقيلة؛ ولهذا جاءت اللام في خبرها ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، واسمها: ضمير الشأن محذوف، والضمير في ﴿كَانُوا۟﴾ يعود إلى المؤمنين.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثة الرسول ﷺ فيهم.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ اللام هي الفارقة التي تشعر بكون «إن» مخففة، و«في» للظرفية.

﴿ضَلَٰلٍ﴾ بُعد وتيه عن الحق وجهل.

﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بيّن واضح ظاهر لكل ذي بصيرة وعقل.

أي: وإنهم كانوا من قبل بعثته ﷺ لفي ضلال وتيه وبُعد عن الحق بيّن واضح، قد أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه وإحاطة السوار بالمعصم- وفي هذا تعظيم لمنة الله تعالى ونعمته عليهم، حيث أنقذهم به من هذا الضلال المبين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الهمزة للاستفهام، وفيه معنى الإنكار والتقريع والتقرير والتعجب، والواو: عاطفة، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، أي: وألما أصابتكم مصيبة، و«لما» هنا: شرطية بمعنى: «حين» أي: أوحين أصابتكم مصيبة،

و ﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾: فعل الشرط، وجملة ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾: جواب الشرط.

ومعنى ﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾: حلت ووقعت بكم.

﴿مُّصِيبَةٞ﴾ هي ما حصل لهم يوم أُحد من قتل سبعين رجلًا منهم وإدالة المشركين عليهم.

والمصيبة في الأصل: تشمل كل ما يصيب الإنسان من نقص، في النفس والأهل والولد والمال وغير ذلك.

﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ الجملة في محل رفع صفة لـ﴿مُّصِيبَةٞ﴾، وفيها تسلية لهم وتخفيف لمصابهم، بتذكيرهم بما أصابوه قبل من عدوهم.

و﴿قَدۡ﴾: للتحقيق، أي: قد أصبتم مثلها مرتين من عدوكم- يعني يوم بدر حيث قتل المسلمون منهم سبعين رجلًا، وأسروا سبعين، فالمجموع مائة وأربعون، كُثْر من قتل من المسلمين يوم بدر مرتين، وجعل الأسرى كالقتلى؛ لأن الأسر لا يقل عن القتل لما فيه من إذلال المأسور، وكونه عرضة للقتل؛ لأن الإمام مخير في الأسرى بين الفداء بمال أو بأسير مسلم، أو الرق، أو القتل، أو المن عليهم بإطلاق سراحهم بلا شيء، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد:٤].

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا: استفهامية، فيها معنى الإنكار والتعجب.

﴿هَٰذَاۖ﴾ أي: ما حصل لهم من قتل وهزيمة، أي: من أين أصابنا هذا الذي أصابنا، كما في قوله: تعالى: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران:٣٧]. أي: من أين لك هذا الرزق؟

وقال بعضهم: المعنى: كيف أصابنا هذا المصاب ونحن نقاتل مع رسول الله؟ كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة:٢٤٧]. أي: كيف يكون له الملك علينا؟

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿هُوَ﴾ أي: الذي أصابكم ﴿مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ ﴿مِنۡ﴾ للسببية، أي: هو بسبب منكم، وهو ما حصل منهم من الفشل

والتنازع والعصيان، ومخالفة الرماة أمر الرسول ﷺ وتركهم مواقعهم، التي أمرهم الرسول ﷺ بلزومها فوق الجبل، حيث ظنوا أن المعركة قد انتهت، فنزلوا للمشاركة في الغنائم، فحصل ما قدر الله تعالى من مصاب على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ ختم عز وجل الآية بهذه الجملة، للدلالة على أنه سبحانه لو شاء لنصركم؛ لأنه على كل شيء قدير، ينصر مَن يشاء بفضله، ويخذل مَن يشاء بعدله، وله في ذلك كله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد:٤]، ويوضح هذا ويبينه قوله بعده: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

«إنَّ»: حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبرها، وهو على وزن «فعيل»، يدل على كمال قدرته وعظمته.

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ متعلق بـ «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾.

ذكَّر الله- عز وجل- في الآية السابقة المؤمنين، تسلية لهم وتخفيفًا لمصابهم في «أُحد» بأنهم قد أصابوا مثليه من عدوهم- يعني في بدر، مبينًا أن ما أصابهم في أُحد هو من عند أنفسهم، ثم أتبع ذلك ببيان أن ذلك بإذن الله- عز وجل- الكوني وقضائه القدري، فجمع لهم بين بيان أنهم السبب فيما أصابهم يوم أُحد، مع تسليتهم وتخفيف مصابهم بذكر ما أصابوا قبل من عدوهم، وبيان أن ما أصابهم إنما هو بقضاء الله وقدره.

قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: شرطية، و﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ فعل الشرط، ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط.

أي: وما أصابكم من القتل والهزيمة ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، أي: يوم التقى جمع

المسلمين وجمع المشركين، أي: جيش المسلمين وجيش المشركين، وذلك في أُحد.

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فهو كائن بإذن الله، أي: بإذن الله الكوني وقضائه القدري، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥].

والباء في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ للسببية؛ ولهذا صح أن يعطف عليه قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: وليعلم الله المؤمنين، أي: وليتبين ويتميز ويظهر أهل الإيمان حقًا الذين صدقوا في إيمانهم، وقالوا فيما أصابهم إنه بقدر الله ورضوا به، وتابوا إلى الله، مما سبب لهم ذلك، وهو العصيان والمخالفة.

فالعلم هنا علم ظهور، أي: وليعلم المؤمنين علمًا يترتب عليه الجزاء وذلك بعد أن يقع ويظهر منهم الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وهو سبحانه وتعالى قد علم أزلًا المؤمنين والمجاهدين من غيرهم، أي: علم من سيؤمن ومن سيجاهد، ومن ليس كذلك، ولكنه لا يترتب على هذا العلم ثواب ولا عقاب.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ معطوف على ما قبله.

والذين نافقوا هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي فقد كان ممن لا يرى الخروج إلى أُحد، ولما خرج ﷺ انخذل عبدالله بن أبي أثناء الطريق ورجع بثلث الجيش.

قال ابن القيم[1]: «ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين عن الآخر تميزًا ظاهرًا، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله

(١) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٧).

عليهم، وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه».

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ الجملة: معطوفة على ﴿نَافَقُوا﴾، أو حال على تقدير: «قد»، أي: وقد قيل لهم: تعالوا، «أو»: استئنافية، وأضمر القائل في قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ ليعم كل من قال لهم ذلك، سواء الرسول ﷺ أو غيره، والضمير (لهم) يعود إلى الذين نافقوا.

﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا.

﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: قاتلوا وجاهدوا؛ لإعلاء كلمة الله، كما قال ﷺ: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ ﴿أَوِ﴾: عاطفة، والجملة: معطوفة على ﴿قَاتِلُوا﴾، أي: ادفعوا العدو عن أنفسكم وحرماتكم وأموالكم وأوطانكم.

أي: إن لم تكن لديكم رغبة في القتال في سبيل الله، فعلى الأقل ادفعوا العدو عن أنفسكم وحرماتكم وأموالكم وأوطانكم.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال هؤلاء المنافقون لمن يقول لهم: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾.

﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾: شرطية، ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل الشرط، وجوابه ﴿لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: قال هؤلاء المنافقون؛ تبريرًا لانخذالهم ورجوعهم من الجيش وتركهم القتال: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: لو نعلم قتالًا يحصل بينكم وبين العدو ﴿لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وذهبنا معكم، ولكننا لن نتبعكم لعلمنا أنه لن يكون هناك قتال. وهم في الحقيقة يعلمون أنه سيحصل قتال؛ لأن المشركين جاؤوا من بلاد بعيدة، وهم يتحرقون غيظًا على المسلمين، بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين.

وقيل: معنى قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ أي: ما هو إلا إلقاء النفس في التهلكة.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: هم للكفر في هذا اليوم أو هذا الوقت الذي انخذلوا

---

(١) سبق تخريجه.

فيه عن المسلمين، ورجعوا وبرروا لأنفسهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، لنفاقهم، ولهذا قال:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾: الجملة: استئنافية لا محل لها، أو في محل نصب على الحال. أي: يقولون قولًا ظاهرًا بأفواههم، أي: بألسنتهم، من دعوى الإيمان والتبرير الكاذب لانخذالهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ونحو ذلك.

﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ «ما» موصولة، أو نكرة موصوفة، أي: الذي ليس في قلوبهم، أو قولًا ليس في قلوبهم من الكفر، والعلم بأنه سيقع قتال ونحو ذلك؛ لأن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان.

وقيل: إن قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ للتأكيد والمبالغة، كما يقال: «أبصرت بعيني، وسمعت بأذني».

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ﴿أَعْلَمُ﴾ أفعل تفضيل، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي يكتمون أو بكتمانهم، ﴿يَكْتُمُونَ﴾: يخفون ويضمرون ويسرون.

أي: والله أعلم من غيره بالذي يخفون ويضمرون في قلوبهم من الكفر ونحو ذلك؛ ولهذا فضحهم عز وجل، وبيّن أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ هنا صفة لـ«الذين» في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران:١٦٧].

﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: قالوا لإخوانهم ظاهرًا ممن استشهدوا يوم أُحد؛ لأن المنافقين إخوان في الظاهر للمسلمين، وإن كان بينهم في الباطن أبعد مما بين المشرق والمغرب، وشتان بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وقيل: المراد إخوانهم في النسب.

واللام في قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ بمعنى: «عن» أو بمعنى: «في»؛ لأن «إخوانهم» هؤلاء قد ماتوا. فالمعنى: قالوا عن إخوانهم أو في إخوانهم- أي: بعد ما قتلوا.

﴿وَقَعَدُواْ﴾ الجملة: في محل نصب على الحال بتقدير «قد»، أي: وقد قعدوا.

أي: قالوا لإخوانهم حال كونهم قعودًا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ فجمعوا بين سوء الفعل بالتخلف عن القتال، وسوء القول بالاعتراض على قضاء الله وقدره.

وقيل: جملة ﴿وَقَعَدُواْ﴾ معطوفة على ﴿قَالُواْ﴾، فتكون معترضة بين ﴿قَالُواْ﴾ ومعمولها وهو: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾.

أي: لو أطاعونا في مشورتنا عليهم بعدم الخروج إلى أُحد، وفي الرجوع وترك القتال.

﴿مَا قُتِلُواْ﴾ قرأ هشام عن ابن عامر: «ما قُتِّلوا» بالتشديد، والتقتيل: المبالغة في القتل، وربما المثلة.

وقرأ الباقون بالتخفيف: ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ أي: ما قتلوا مع من قتل، كما لم نقتل نحن، وكأنهم بهذا دفعوا عن أنفسهم الموت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لأصحاب هذه المقالة.

﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فادفعوا عن أنفسكم الموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا. لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

وهذا من باب التحدي لهم، أي: لستم بصادقين في أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، وليس بإمكانكم دفع الموت عن أنفسكم، ولو تخلفتم، فالموت سيأتيكم، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

وكما قيل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد(١)

الفوائد والأحكام:

١- منة الله تعالى العظمى ونعمته الكبرى على المؤمنين ببعث رسول فيهم من أنفسهم؛

---

(١) البيت لابن نباتة السعدي. انظر: «الدر الفريد» (٧/ ٤٤٧)، «وفيات الأعيان» (٣/ ١٩٣).

لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ ولهذا أكد عز وجل هذه المنة بالقسم.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه بكونه مبعوثًا من الله تعالى.

٣- أن المنة ببعث الرسول ﷺ إنما هي على المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم المتبعون له المنتفعون بهذه النعمة والمنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

علمًا أنه ﷺ رسول للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

٤- أن من عظم المنة ببعث الرسول ﷺ في المؤمنين كونه منهم يعرفونه ويعرفهم ويفهمون عنه كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾.

٥- وجوب شكر نعمة الله تعالى علينا وفضله ببعثة محمد ﷺ بطاعة الله- عز وجل- واتباع رسوله ﷺ.

٦- لا ينبغي أن يُدل الإنسان بإيمانه أو بعمله على الله تعالى؛ لأن المنة في هداية من اهتدى للإيمان إنما هي لله عز وجل؛ ولهذا قال عز وجل ردًا على الأعراب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

٧- أن مهمة الرسول ﷺ تبليغ رسالة ربه بتلاوة آيات الله على من أرسل إليهم وتطهيرهم من الأرجاس المعنوية والحسية وتعليمهم الكتاب والحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٨- جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فأضاف التزكية- وهي التطهير- إلى الرسول ﷺ، والرسول ﷺ إنما هو سبب لذلك والمزكي والمطهر حقًّا هو الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

٩- أن بالإيمان زكاء النفوس وطهارتها، كما أن في الوضوء والغسل طهارة الأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

١٠- قيام الإسلام في دعوته على العلم، وعلى تزكية النفوس، والطهارة المعنوية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

١١- أن الناس قبل بعثته ﷺ كانوا في ضلال مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذا زيادة لمنة الله تعالى على المؤمنين ببعثه ﷺ، وهدايتهم به من الضلال المبين.

١٢- توبيخ الله تعالى للذين قالوا لما أصيبوا يوم أُحد ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾.

١٣- تسلية المؤمنين، وتخفيف مصابهم في أُحد بتذكيرهم ما أصابوا من عدوهم في بدر؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، وأن ما أصابهم بقضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- ينبغي مقارنة ما يحصل من محن ورزايا بما يقابل ذلك- مما هو أعظم- من منح وعطايا؛ فإن هذا مما يعين على تحمل المصائب ويهوِّن وقعها، وأحرى بشكر النعم وعدم كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

وقد قال ﷺ: «**انظروا لمن هو دونكم، ولا تنظروا لمن هو فوقكم، فإن ذلك أحرى ألا تزدروا نعمة ربكم**»(١).

١٥- أن ما أصاب المسلمين يوم أُحد من الهزيمة إنما هو من عند أنفسهم، أي: بسبب منهم وهو العصيان والمخالفة.

١٦- أن ما يصيب الناس من المصائب إنما هو بسبب أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] وفي هذا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إثبات الأسباب.

١٧- إثبات صفة القدرة التامة لله- عز وجل- وأنه- سبحانه- ذو قدرة تامة على كل شيء وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٨- في ختم الآية بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: دلالة على قدرة الله تعالى التامة على نصر مَن يشاء بفضله، وخذلان من يشاء بعدله، وله الحكمة في ذلك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

١٩- لا تنافي بين كون مصاب المؤمنين سببه من عند أنفسهم بما حصل منهم من العصيان والمخالفة، وكون ذلك بإذن الله، أي: بقضاء الله وقدره.

٢٠- أن كل ما يجري ي الكون من المصائب وغيرها كل ذلك بقضاء الله تعالى الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢١- أن الله- عز وجل- قد يقدر المصيبة على المؤمن؛ لأسباب وحكم يعلمها.

٢٢- أن من حكمة مصاب المؤمنين يوم أُحد أن يتميز ويظهر المؤمنون حقيقة من المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

٢٣- إثبات النفاق، وقدّمه في هذه الأمة، ولم يبرز إلا في المدينة، لما قويت شوكة المسلمين، فأصبح أناس يظهرون الإسلام نفاقًا، ويبطنون الكفر خوفًا من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

٢٤- نكوص المنافقين عن القتال في سبيل الله، والدفاع عن الأنفس والحرمات والأوطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

٢٥- أن من لم يرغب في القتال في سبيل الله بنية خالصة، فلا يعذر في ترك الدفاع عن الحرمات والأوطان؛ لقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

٢٦- فعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا في سبيل الله، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن الحرمات والأوطان.

٢٧- تبرير المنافقين لموقفهم المخزي في النكوص عن القتال بالكذب الذي لا يمكن تصديقه ولا ينطلي على أحد؛ لقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ وقوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

٢٨- أن ما حصل من المنافقين يوم أُحد من النكوص عن القتال ومن الاعتراض على قضاء الله وقدره ونحو ذلك يدل على أنهم- وإن كانوا في الظاهر من المؤمنين- فهم للكفر أقرب منهم للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٢٩- تعليم الاحتراس في الحكم على الأشخاص؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ ولهذا لا ينبغي الحكم من بعض الظواهر على ما في البواطن.

٣٠- تذبذب المنافقين بين الإيمان والكفر، وبين أهل الإيمان وأهل الكفر، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣].

٣١- أن الكفر والإيمان صنوان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٣٢- الإشارة إلى أن الإيمان يزيد وينقص- كما أن الكفر يزيد وينقص، وأنهما مراتب، وأن الإنسان قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان، وأن الإنسان قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٣٣- فضح المنافقين، وأن ما في قلوبهم يخالف ما يقولونه بأفواههم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٤- أن القول باللسان لا ينفع دون مواطئة القلب لذلك، فمن أظهر الإيمان بقوله، أو بقوله وفعله، دون اعتقاد ذلك في قلبه فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]. فشهد عز وجل بكذبهم لقولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

٣٥- أن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٦- أن الله تعالى أعلم من غيره بما يكتمه المنافقون ويخفونه مما يخالف ما يظهرون؛ ولهذا فضحهم وأظهر نفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

٣٧- اعتراض المنافقين على قضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

٣٨- أن المنافقين في الظاهر إخوان للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾.

٣٩- جمع المنافقين بين الفعل القبيح بالقعود عن القتال، والقول القبيح بالاعتراض على قدر الله، والتثبيط عن القتال في سبيله.

٤٠- تحدي المنافقين الذين قالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ بدفع الموت عن أنفسهم، إن كانوا صادقين في مقالتهم هذه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وفي هذا تأكيد وتحقيق كذبهم.

٤١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾.

٤٢- أن ما قدر الله تعالى نافذ لا محالة، ولا يمكن رده بحال من الأحوال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما يدل على جبن المنافقين، وحبهم للحياة، وخوفهم من الموت، وظنهم أن الحذر ينجي من القدر، وأن القتل في سبيل الله خسارة، ثم ذكر في هذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فضل الشهادة في سبيل الله، وما أعده الله للشهداء في الحياة البرزخية الكريمة عنده من ألوان النعيم الذي لا يناله سواهم، والذي يغبطهم عليه من مات على فراشه من الجبناء، إضافة إلى ما في الآيات من تعزية وتسلية للمسلمين بقتلاهم.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى**

سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾**»(٢).

قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾ قرأ ابن عامر: «قُتِّلوا» بالتشديد.

وقرأ الباقون: ﴿قُتِلُوا۟﴾ بالتخفيف.

والخطاب في قوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾: للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، والمعنى: ولا تظنن.

﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: الذين قتلوا في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٣).

وهذا عام لكل من قتل في سبيل الله في «بدر» أو في «أُحد» أو في غير ذلك.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينه وطريقه وشرعه.

﴿أَمْوَٰتًۢا ﴾: مفعول ثان لـ«تحسب»، ومفعولها الأول: الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ أي: لا تظنن الذين قتلوا في الجهاد لإعلاء كلمة الله أمواتًا، ولا يخطر ذلك ببالك.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾، ﴿بَلْ ﴾: للإضراب الانتقالي، ﴿أَحْيَآءٌ ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي: بل هم أحياء، أي: بل هم- وإن ماتت أبدانهم- أحياء بأرواحهم حياة برزخية خاصة بهم، بها يحسون ويتلذذون ويتنعمون ويشعرون.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ بالقرب منه في دار كرامته، كما قال ﷺ: «**أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل**» الحديث(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٥-٢٦٦)، وأبوداود في الجهاد (٢٥٢٠)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٢٨)، والحاكم في الجهاد (٢/ ٨٨)، وفي التفسير (٢/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه الحاكم وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٤١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سيأتي تخريجه بتمامه.

﴿يُرْزَقُونَ﴾ الرزق: العطاء، أي: يعطون رزقهم في الجنة، فعن مسروق قال: سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «**أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا**»(١).

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ﴿فَرِحِينَ﴾: حال. والفرح: السرور، وهو دليل كمال الرضا، أي: مسرورين مغتبطين.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: بالذي أعطاهم الله، من ألوان النعيم، الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم، حسنًا وكثرة وعظمة ولذة، من غير مكدر ولا منغص.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، ﴿مِن﴾: للسببية، أي: بسبب تفضله عليهم وزيادته لهم مما لم يستحقوه بعملهم، لكن بتفضله- عز وجل- عليهم، وبهذا جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: معطوف على ﴿فَرِحِينَ﴾، أو على ﴿يُرْزَقُونَ﴾، أي: فتم لهم النعيم والسرور وجعلوا يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (١٨٨٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠١)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٥).

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا.

والبشارة الإخبار بما يسر، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا بشر بما يسره استنارت بشرته.

﴿بِٱلَّذِينَ﴾ أي: بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾، أي: الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم، ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: من بعدهم، أي: ينتظرون قتلهم في سبيل الله ولحوقهم بهم، لينالوا ما نالوه من الشهادة والمنزلة الرفيعة، والثواب العظيم.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الجملة في محل جر بدل من قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾، أي: بأن لا خوف عليهم، أي: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ بأن لا خوف عليهم، و﴿أَلَّا﴾ أصلها: «أن لا» أدغمت «أن» المصدرية بـ«لا» النافية.

وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل من أمرهم.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا هم يحزنون على ما مضى من أمرهم، ولا على ما خلفوه وراءهم.

وبانتفاء الخوف والحزن عنهم يتم لهم الفرح والسرور، بحصول المطلوب من النعيم الحسي والمعنوي، وزوال المرهوب من الخوف والحزن.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة فرح الذين قتلوا في سبيل الله بما أعطاهم الله من فضله، واستبشارهم بالذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم، ثم أتبع ذلك بذكر استبشارهم بما هو أعظم أي: بنعمة من الله وفضل وما ادخر الله لهم من عظيم الأجر.

قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الجملة: استئنافية.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا، ويهنئ بعضهم بعضًا، بنعمة من الله وتفضل وزيادة منه تعالى من النعم والفضل العظيم في جنات النعيم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي بكسر همزة «إنَّ»: «وإنَّ الله» فتكون الجملة: استئنافية، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، فتكون معطوفة على «نعمة» أي:

وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. أي: لا يضيع ثواب أعمالهم فيتركها سدى، بل يشكرهم عليها وينميها لهم ويجازيهم عليها أعظم الجزاء، وسمى ثوابهم أجرًا؛ لأن الله ضمنه وتكفل به لهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما انصرف المشركون عن أُحد وبلغوا الروحاء[1] قالوا: لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعب أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا، حتى بلغوا حمراء الأسد[2]، وبئر أبي عتبة، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ﴾»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم، الزبير وأبوبكر، لما أصاب رسول الله ﷺ- ما أصاب يوم أُحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في إثرهم». فانتدب منهم سبعون رجلًا، قال: كان فيهم أبوبكر والزبير»[4].

قال ابن القيم[5]: «ولما انقضت الحرب انكفأ المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فشق ذلك عليهم. قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإنْ هُمْ جنَّبوا

---

(١) الروحاء قرية بين مكة والمدينة تبعد عن المدينة نحو ثلاثة وسبعين كيلًا.

(٢) حمراء الأسد موضع على ثمانية أميال من المدينة.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير- قوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ (١١٠٨٣)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨١٦) عن عكرمة مرسلًا. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٧٧): «رجاله رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس».

(٤) أخرجه البخاري في المغازي- باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (٤٠٧٧).

(٥) في «زاد المعاد» (٣/ ٢٤١-٢٤٢)، وانظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٨-٥٢٩)، «جامع البيان» (٦/ ٢٤٠) وما بعدها، «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٢١).

الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأنحرن فيها. قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكة ولما عزموا على الرجوع إلى مكة، أشرف على المسلمين أبوسفيان، ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر. فقال النبي ﷺ: قولوا: نعم، قد فعلنا. قال أبوسفيان: فذلكم الموعد، ثم انصرف هو وأصحابه. فلما كان في بعض الطريق، تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم وحدّهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: لا يخرج معنا إلا من شهد القتال. فقال له عبدالله بن أبي: أركب معك. قال: لا. فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعًا وطاعة، واستأذنه جابر بن عبدالله، وقال: يا رسول الله، إني أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأذن لي أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد. وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيُخذِّله، فلحقه بالروحاء- ولم يعلم بإسلامه- فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم. فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، فقال أبوسفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل؛ فإني لك ناصح. فرجعوا على أعقابهم إلى مكة».

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: اسم موصول في محل جر صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد يكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين استجابوا لله والرسول.

ومعنى ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾: أجابوا، والسين والتاء؛ للتأكيد والمبالغة، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا، أي: أجابوا دعوة الله تعالى وانقادوا لأمره.

﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ الواو: عاطفة، وحذف الفعل واللام من المعطوف، فلم يقل:

«واستجابوا للرسول» في إشارة إلى أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله تعالى، كما أن أمر الرسول ﷺ أمر لله تعالى، أي: الذين استجابوا وانقادوا لأمر الله والرسول ﷺ لما دعاهم إلى الخروج، والذي أمرهم بذلك هو الرسول ﷺ بأمر الله تعالى له.

و«ال» في الرسول للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود بالأذهان محمد ﷺ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبوبكر عن عاصم: «القُرح» بضم القاف، وقرأ الباقون بفتحها: «القَرح»، و«ما»: مصدرية، أي: من بعد إصابة القرح لهم.

وهو ما حصل لهم في أُحد من القتل والجراح، والتعب والألم النفسي، حيث قتل منهم سبعون، وجرح النبي ﷺ، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته، وغير ذلك.

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾، أي: للذين أحسنوا بالاستجابة لله والرسول، واتباع أمر الله تعالى ورسوله.

﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾، أي: واتقوا الله تعالى بترك مخالفة أمر الله تعالى ورسوله.

﴿أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثواب عظيم من حيث كمه وكيفه ونوعه وغير ذلك، لا يقدر قدر عظمته إلا مَن وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾.

لما ثَنَى معبدُ أبا سفيان ومن معه كما تقدم، مرَّ بأبي سفيان ركب من عبدالقيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ، وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبوسفيان وأصحابه، فقالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ

حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾»(١).

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ صفة ثانية للمؤمنين، والمراد بالناس هنا الركب الذين أوصاهم أبوسفيان من عبدالقيس فيهم نعيم بن مسعود الأشجعي.

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾ المراد بـ﴿ٱلنَّاسَ ﴾ هنا أبوسفيان ومن معه من المشركين ﴿ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾ أي: جمعوا لكم الجموع من الرجال والعدة والعتاد للكرة عليكم واستئصال بقيتكم.

﴿ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، أي: فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فزادهم هذا القول إيمانًا إلى إيمانهم، ولم يثنهم ذلك عن المضي قدمًا لما أمرهم به رسول الله ﷺ، وهكذا- فإن المصائب تلو المصائب تمحص المؤمنين وتزيدهم إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران:١٤١].

ولهذا لما رأى المؤمنون الأحزاب يوم الخندق قد حاصروا المدينة قالوا: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٢].

﴿وَقَالُوا۟ ﴾ ثقة بالله، وتوكلًا عليه.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾، «الحسب» بمعنى «الكافي»، أي: كافينا الله إياهم، وكافينا كل شيء، ومهما جمعوا لنا من جموع، فلا نخشى سوى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤].

﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ الوكيل: اسم من أسماء الله- عز وجل- أي: الوكيل على خلقه، ومعناه: المفوض إليه أمور خلقه القائم بمصالحهم، الذي يُعتمد عليه في دفع الضر وجلب النفع، الكافي لمن توكل عليه. والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٢٤٨)، «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٢١)، «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٢)، «بدائع التفسير» (١/ ٥٢٩-٥٣٠).

الوكيل الله، أو هو.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم- عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- «أنها تفاخرت هي وزينب- رضي الله عنهما- فقالت زينب: زوجني الله، وزوجكن أهاليكن. وقالت عائشة: أنزلت براءتي من السماء في القرآن. فسلَّمت زينب، ثم قالت: كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل؟ فقالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين»(٢).

قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

أي: فرجعوا عائدين إلى المدينة بعد أن بلغوا حمراء الأسد، وأقاموا بها ثلاثة أيام، وبعد أن تأكدوا من رجوع أبي سفيان وأصحابه إلى مكة.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حيث كفاهم من ملاقاة العدو والقتال.

﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: وتفضل وزيادة من الله تعالى لهم بأن كتب لهم أجر هذه الغزوة وثوابها تامًا دون قتال.

وفضل الله واسع، فإن من نوى عملًا وحال العذر بينه وبين ذلك العمل، فإن الله يكتب له أجر ذلك العمل تامًا.

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي: لم يصبهم أي سوء، لا من قتل ولا جراح ولا أي أذى.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم الراء: «رُضوان»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿رِضْوَٰنَ﴾.

أي: واتبعوا ما يرضي الله تعالى باستجابتهم لله تعالى والرسول، واستكفائهم بالله

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٧/ ١٩٤-١٩٥)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥).

وتوكلهم عليه، فحصل لهم السلامة من ملاقاة العدو والقتال، والفوز برضوان الله تعالى بالاستجابة له وطاعته والتوكل عليه، وهو كما يقال: «غنيمة باردة».

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب فضل عظيم على عباده، ومن ذلك تفضله- عز وجل- على المؤمنين بأن صرف عدوهم عنهم فرجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، وكتب لهم أجر هذه الغزوة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: دخلت فيها «ما» النافية على «إنَّ» المؤكدة فكفتها عن العمل.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ أو إلى من قال ذلك، أو إلى الأمرين معًا.

والخطاب للمؤمنين، والميم للجماعة.

﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾، ﴿يُخَوِّفُ﴾: ينصب مفعولين، الأول محذوف، والتقدير: يخوفكم، والمفعول الثاني: ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم أولياءه المشركين، أي: يوهمكم أنهم ذوو بأس وقوة وشدة، ويعظمهم في نفوسكم؛ لتخافوهم، وتتركوا الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب تخويف الشيطان لكم.

وأولياء الشيطان هم أتباعه وحزبه من المشركين، وأهل الكفر والمعاصي.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا»: ناهية، أي: فلا تخافوا أولياء الشيطان، فتتركوا الجهاد خوفًا منهم، فنواصيهم بيدي، وهم أذل وأحقر وأضعف من أن تخافوهم.

﴿وَخَافُونِ﴾ أي: وخافوني وحدي، فأطيعوني، ولا تخالفوا أمري. وأنا أكفيكم إياهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر:٣٦].

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: جملة شرطية، وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم وخافوني؛ لأن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره.

الفوائد والأحكام:

١- أن من قتلوا في سبيل الله فليسوا بأموات، بل أحياء عند ربهم حياة برزخية خاصة ولا ينبغي أن يظن بأنهم أموات؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾.

٢- فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله؛ لعظم ما أعد الله لمن قتل في سبيله عنده من الرزق والفضل وألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ الآيات.

وعن أنس- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى**»(١).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: لما قتل أبي يوم أُحد، جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهوني. والنبي ﷺ لم يَنْهَ. وقال النبي ﷺ: «**لا تبكيه- أو ما تبكيه، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع**»(٢).

وعنه- رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أما علمت أن الله أحيا أباك، فقال له: تمنَّ عليّ. فقال له: أرد إلى الدنيا، فأقتل مرة أخرى. فقال: إني قضيت الحكم، أنهم إليها لا يرجعون**»(٣).

وفي رواية عنه- رضي الله عنه- قال: «لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «**يا جابر، ما لي أراك منكسرًا**»؟ قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالًا ودينًا، قال: «**أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك**»؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: «**ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا. فقال: يا عبدي، تمن عليّ أعطك. قال: تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم لا**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٧)، وأحمد (٣/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة أُحد (٤٠٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦١)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٣١)، و«الحاكم» (٢/ ١١٩-٢٢٠).

يرجعون، وأنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾»(١).

٣- تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم وتنشيطهم للقتال والتعرض للشهادة.

٤- إثبات أن الأنبياء أحياء عند ربهم حياة برزخية بأرواحهم؛ لأنه إذا ثبت هذا للشهداء فالأنبياء من باب أولى؛ لأن مرتبة الأنبياء أعلى من مرتبة الشهداء- مع ما خصَّ الله تعالى به الأنبياء من تحريم أجسادهم على الأرض(٢).

كما أن في الآية إبطالًا لمن زعم أن النبي ﷺ حي في قبره، محتجًا بالآية، وبأن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الشهادة، ولا إشكال في أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الشهادة. والآية إنما فيها دلالة على حياة الشهداء حياة برزخية بأرواحهم فقط دون حياة أبدانهم، فكيف يستدل بها على حياة النبي ﷺ في قبره ببدنه. والصحيح أن حياة النبي ﷺ إنما هي حياة برزخية حياة الروح فقط.

٥- إثبات نعيم البرزخ، وعظم ما أعده الله للشهداء في حياتهم البرزخية من علو درجتهم عنده في دار كرامته وقربهم منه، ورزقهم، وفرحهم واستبشارهم بمن سيلحق بهم من إخوانهم وسلامتهم من الخوف والحزن، واستبشارهم بنعمة من الله وفضل؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وبهذا جمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم الروح بالفرح والاستبشار، والأمن من الخوف والحزن، بين النعيم الحسي، والنعيم المعنوي، بين حصول المطلوب، وزوال المرهوب.

٦- تلاقي أرواح الشهداء وتبشير بعضهم بعضًا.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠١٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)، وفي الجهاد- فضل الشهادة في سبيل الله (٢٨٠٠)، وابن حبان (١٥/ ٤٩٠)، والحاكم (٢/ ٢٠٣)- وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) سبق تخريجه.

٧- ينبغي نسبة النعم إلى مسديها وهو الله- عز وجل- وإسناد الفضل إليه فهو أهل الفضل سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، فمنه- عز وجل- جميع النعم، وهو صاحب الفضل كله.

٨- تكفل الله- عز وجل- بأجر المؤمنين وضمانه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأخبر بعدم إضاعة أجرهم، وسماه «أجرًا» تأكيدًا لضمانه لهم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران:١٩٥].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مع الشهادة بإيمان هؤلاء إشارة إلى أن كل عمل من جهاد وغيره فهو مبني على أصل الإيمان، كما أن فيه إشارة إلى واسع رحمة الله تعالى وفضله بعموم هذا الوعد لجميع المؤمنين مَن قَاتل أو قُتل في سبيل الله، ومن لم يُقاتل.

١٠- ثناء الله تعالى على الصحابة- رضي الله عنهم- باستجابتهم لله والرسول بالخروج إلى المشركين بعد أُحد مع ما هم فيه من المصاب العظيم، والإحسان والتقوى وزيادة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

١١- أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ مع حذف العامل: «استجابوا»، واللام من المعطوف، وهو قوله: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾.

١٢- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله تعالى بالواو التي تقتضي التشريك، في باب التشريع والأمر والنهي والطاعة والمعصية والاستجابة نحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

١٣- أن المؤمن حقًّا يزداد بالمصائب ثباتًا ورسوخًا وإقدامًا وإيمانًا.

١٤- أن استجابة الصحابة- رضي الله عنهم- لله والرسول من الإحسان والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

١٥- عظم ما أعدّه الله تعالى للذين أحسنوا واتقوا من الأجر؛ لأن الله وصفه بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾ ولا يقدر عظمة هذا الأجر إلا العظيم سبحانه، وفي هذا ترغيب بالإحسان والتقوى.

١٦- قوة إيمان الصحابة- رضي الله عنهم- ويقينهم وتوكلهم على الله تعالى وخشيتهم منه وحده، واستكفاؤهم به وحده، وعدم خشيتهم من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

١٧- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

١٨- ينبغي التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه وخشيته دون سواه، والحذر من المرجفين.

١٩- أن المصائب والشدائد تمحص الناس، وتزيد في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٢٠- أن الله تعالى هو الحسب والكافي وحده، فمن استكفاه كفاه وحفظه ووقاه من جميع الشرور، ولو اجتمع عليه جميع الخلق ما نالوه بسوء؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وقوله: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

٢١- أن الله- عز وجل- نعم «الوكيل» الموكول إليه شؤون خلقه، الكافي لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْوَكِيلُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٢٣- استحباب قول هذه الكلمة ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وبخاصة عند الغم والأمور العظيمة؛ لما لها من الأثر العظيم فقد قالها إبراهيم- عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.

فجعل الله النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وانقلب محمد ﷺ وأصحابه بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

٢٤- تحصيل الصحابة- رضي الله عنهم- باستجابتهم لله والرسول، واستكفائهم بالله- عز وجل- وتوكلهم عليه المصلحتين معًا؛ الأولى رجوعهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، والثانية اتباعهم رضوان الله تعالى.

فسلموا من ملاقاة العدو والحرب، ونالوا أجر هذه الغزوة، وفازوا باتباع رضوان الله باستجابتهم لله والرسول، ومن اتبع رضوان الله أثابه الله وأكرمه.

٢٥- نعمة الله تعالى على هؤلاء بتسليمه لهم من الحرب ولقاء العدو، وتفضله عليهم بأجر هذه الغزوة دون عناء أو قتال.

٢٦- إثبات صفة الرضا لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وهو من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة.

٢٧- أن الله- عز وجل- صاحب الفضل العظيم على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

٢٨- تحقير وتهوين أمر الشيطان وإرجافه بالتخويف من أوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

٢٩- عداوة الشيطان للمؤمنين، ودفاعه عن أوليائه الكافرين، بتخويف المؤمنين منهم.

٣٠- يجب أن لا يخاف المؤمنون من أولياء الشيطان؛ لضعف كيده وإياهم، ويجب عليهم الخوف من الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

٣١- أن من شرط صحة الإيمان أن لا يخاف المؤمن إلا من الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة أن الشيطان يخوف أولياءه ونهى المؤمنين عن الخوف منهم وأمرهم بخوفه وحده- في إشارة واضحة إلى أن الشيطان وأولياءه أذل وأحقر من أن يخاف منهم، وهذا في الدنيا، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعد لهم في الآخرة من الخسران، والعذاب العظيم، وفي هذا تهديد لهم.

قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي «يُحزِنك» من الرباعي: «أحزن»، وقرأ الباقون: ﴿يَحْزُنكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي من الثلاثي: «حَزَنَ»، والخطاب للنبي ﷺ. و«الحزن» الهم والغم.

أي: لا تهتم بهم ولا تبال لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر:٩٧، ٩٨].

وقد كان ﷺ من شدة حرصه على هداية قومه يحزنه الذين يسارعون في الكفر والعناد والمخالفة والشقاق، ويضيق بذلك حتى أنه يُخشى على نفسه من الهلاك، وحتى نهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]،

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: عام في كل مَن سارع في الكفر من المنافقين والمرتدين وغيرهم، ومعنى ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يسارعون إلى الدخول في الكفر ويعجلون إلى إظهاره، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة:٤١].

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تعليل للنهي قبله، أي: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنهم ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ مهما سارعوا في الكفر، وإنما يضرون أنفسهم.

و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لن يضروا الله أي شيء من الضرر، أي: لن يستطيعوا أن يلحقوا به أي شيء من الضرر وإن قل، كما قال تعالى في الحديث: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»(١). ولن يستطيعوا إطفاء نوره، لأنه- عز وجل- متم نوره ولو كره الكافرون، لا تضره- عز وجل- معصية العاصي، كما لا تنفعه طاعة المطيع، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا**»(١).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إرادة كونية قدرية، أي: يريد الله ويشاء بحكمته بكونهم يسارعون في الكفر.

﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ﴾ «أن» حرف مصدري ونصب، و«لا» نافية. والمصدر المؤوّل في محل نصب مفعول «يريد». والمراد بالجعل هنا: «الجعل الكوني».

﴿حَظًّا﴾ أي: نصيبًا.

﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة يوم القيامة.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، الواو: عاطفة، أي: ولهم عقاب عظيم، من حيث كيفه وكمه ونوعه وغير ذلك، لا يقدر قدر عظمته إلا مَن وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

نهى عز وجل الرسول ﷺ أن يحزنه الذين يسارعون في الكفر مبينًا أنهم لن يضروا الله شيئًا ولهم عذاب عظيم، ثم أكد ذلك في هذه الآية اهتمامًا به وتقريرًا له وتأكيدًا.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي: إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، أي: اختاروا الكفر على الإيمان.

﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ ذكر هذا أولًا تعليلًا لتسلية الرسول ﷺ، ثم أكده هنا بالخبر استقلالًا للاهتمام به، وهو هنا أظهر في التعريض باقتصار الضرر عليهم، كأنه قيل: إنما يضرون أنفسهم.

﴿ أَلِيمٌ ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيتين السابقتين أن الذين كفروا لن يضروا الله شيئًا، وتوعدهم بعذاب عظيم وأليم، ثم نهاهم في هذه الآية أن يحسبوا أنما يمليه الله لهم خير لأنفسهم، وإنما ليزدادوا إثمًا، وتوعدهم بعذاب مهين.

قوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ قرأ حمزة بتاء الخطاب: «ولا تحسبن» والخطاب للنبي ﷺ ولمن يصلح له، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾.

والمعنى على قراءة الخطاب: «ولا تحسبن» أيها المخاطب، أي: ولا تظنن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم.

والمعنى على قراءة الغيبة ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ أي: ولا يظنن الذين كفروا أنما نملي لهم

خير لأنفسهم، ويجوز أن يكون مسندًا إلى ضمير غائب، يراد به النبي ﷺ وغيره، أي: ولا يحسبن النبي ﷺ أو ولا يحسبن أحد ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾، «أنَّ»: حرف مشبه بالفعل للتوكيد، و«ما» اسم موصول في محل نصب اسم «أنَّ» أي: أن الذي نملي لهم خير، أو مصدرية، أي: أنَّ إملاءنا لهم خير.

ومعنى ﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: نمهلهم ونؤخر عقوبتهم، وقد تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله: ﴿نُمْلِي﴾ في الموضعين؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿خَيْرٌ﴾: خبر «أنَّ»، وهو: اسم تفضيل، ﴿لِّأَنفُسِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾ أي: لا يحسبوا أن الإملاء لهم خير من معاجلتهم بالعقوبة.

أي: لا يظنّ الذين كفروا أنما إمهالنا لهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة خير لهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للحصر، واللام في: ﴿لِيَزْدَادُوا﴾: للتعليل؛ أي: ما نملي لهم إلا لأجل أن يزدادوا إثمًا إلى إثمهم، فيزداد عذابهم. ويجوز أن تكون اللام: للعاقبة، أي: إنما نملي لهم ونمهلهم؛ لتكون العاقبة أن يزدادوا إثمًا.

والمعنى على التقديرين أن ذلك استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: مهين مذل لهم، ولكل من عذب به يهينهم ويذلهم، أي: عذاب معنوي ينصب على القلوب، لا يقل عن العذاب الحسي، والجزاء من جنس العمل؛ لأنهم إنما كفروا استكبارًا، فعوقبوا بعذاب يذلهم ويهينهم.

فوصف عذاب الكافرين في هذه الآية بأنه: ﴿عَظِيمٌ﴾، و﴿أَلِيمٌ﴾، و﴿مُّهِينٌ﴾. ﴿عَظِيمٌ﴾ من حيث كيفه وكمه ونوعه ونحو ذلك، و﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجع حسيًّا للبدن، و﴿مُّهِينٌ﴾ مذل معنويًّا للنفس والقلب.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾.

في هذا- وفي ختام الآيات في قصة أحد- تأكيد لما سبق التنبيه عليه في هذه القصة، وهو حكمة الله تعالى البالغة فيما أصاب المسلمين في هذه الغزوة؛ لتمييز المؤمنين من المنافقين.

و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: نافية، واللام في ﴿لِيَذَرَ﴾: لام الجحود، وينصب المضارع بعدها بإضمار «إن»، ﴿لِيَذَرَ﴾، أي: ليترك، أي: ما كان الله ليترك المؤمنين الخلص من النفاق. ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَآ﴾ موصولة والضمير ﴿أَنتُمْ﴾ للمسلمين عمومًا بما فيهم المناقون.

ويدل على أن المراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخلّص منهم، وأن المراد بقوله: ﴿أَنتُمْ﴾ عموم المسلمين أنه لم يقل: «ليذركم على ما أنتم عليه» ففي هذا تنبيه على أن المراد بضمير الخطاب أكثر من المراد بلفظ المؤمنين؛ ولهذا لم يقل: على ما هم عليه.

والمعنى: يمتنع شرعًا غاية الامتناع أن الله يترك المؤمنين الخلص من النفاق على الذي أنتم أيها المسلمون عليه من الالتباس والاختلاط، وعدم تميز الخبيث من الطيب.

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء الأولى وتشديد الياء الأخرى: «يُميِّز»، وقرأ الباقون بفتح الياء والتخفيف «يَميْز» و﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، و﴿يَمِيزَ﴾ بمعنى: يفصل.

أي: إلى غاية أن يفصل بين الخبيث والطيب، أي: يبين ويظهر الخبيث من الطيب.

و«الخبيث» و«الطيب» من الأوصاف التي تطلق على الأعيان والأقوال والأفعال والمعتقدات.

والمراد هنا بـ«الخبيث» المنافق، و«الطيب» المؤمن. والمعنى: ما كان الله ليترك المؤمنين على الحال الذي أنتم عليه، من عدم تميز أهل الإيمان الخالص من أهل النفاق حتى يميز ويظهر المؤمن الخالص من المنافق بالابتلاء بالجهاد وغيره مما تظهر به علامات المنافق، وبما ينزله الله من الوحي على رسله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

فقد تميز في أُحد وما حصل به من مصاب على المسلمين المؤمنون الخلص من المنافقين؛ المؤمنون الذين زادهم ما أصابهم يوم أُحد إيمانًا وتوكلًا على الله- تعلى- وثباتًا، من المنافقين الذين نكصوا عن الجهاد، وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، ونجم نفاقهم وأظهروا ما كانوا يكتمونه.

فامتدح الله- عز وجل- المؤمنين الصادقين وأثنى عليهم. وفضح المنافقين، وهتك أستارهم، وبهذا عرف المسلمون أن بين ظهرانيهم عدوًا أشد عليهم من الأعداء الظاهرين، وهكذا الشدائد فيها تمييز الصادق من الكاذب، والعدو من الصديق. وكما قيل:

جزى الله الشدائد كل خير ... عرفت بها عدوي من صديقي(١)

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، معطوف على قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، و﴿مَا﴾: نافية، واللام في ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ﴾: لام الجحود، والخطاب عام لجميع الخلق.

ومعنى ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ﴾: ليظهركم، أي: وما كان الله ليظهركم على الغيب فتميزون به الخبيث من الطيب، أي: تميزون المؤمن الخالص من المنافق؛ لأن الإيمان والنفاق من الأمور الباطنة في الصدور والقلوب.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾، الواو: عاطفة، و«لكن»: للاستدراك.

﴿يَجۡتَبِي﴾: يختار ويصطفي.

﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ ﴿مِن: تبعيضية، أي: من بعض رسله.

﴿مَن يَشَآءُۖ﴾ ﴿مَن﴾: موصولة، أي: الذي يشاء، فيطلعه على الغيب الذي يريد اطلاعه عليه، كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦

(١) انظر: «مجاني الأدب» (١/ ٢٧)، «المنهاج الواضح للبلاغة» (٢/ ١٢١). وينسب للشافعي.

إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

أي: يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييدًا لهم.

ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

كما كان ﷺ يعرف المنافقين، وقد أخبر صاحب سره حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- بأسمائهم.

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: حققوا إيمانكم بالله تعالى بالتصديق التام بالله- عز وجل- وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والانقياد التام لشرعه، والرضا والتسليم لقدره.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بالتصديق بهم جميعًا وبما جاؤوا به من الشرع من عند الله- عز وجل- والانقياد والاتباع لما جاء به خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

والمؤمن في حاجة دائمًا إلى الإيمان بالله ورسوله، أي: بأن يوفقه تعالى إلى الإيمان بالله ورسوله في كل لحظة، وأن يوفقه فيه ويثبته عليه، ويزيده منه، ويعينه عليه، وقد قال الله- عز وجل- للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦].

وأمرنا أن نقول في الفاتحة وفي كل ركعة من الصلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الآية:٧]؛ لأن المؤمن في حاجة في كل لحظة إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم، ويهديه فيه، ويثبته عليه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: تحقيق الإيمان بالله ورسله، والانقياد لشرع الله، والرضا والتسليم لقدره.

﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ الواو: استئنافية، أي: وإن تؤمنوا وتصدقوا بقلوبكم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ بجوارحكم، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات.

﴿ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلكم ثواب عظيم، لا يقدر قدره إلا من أعطاه لكم، ووصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

وسمى عز وجل ثوابهم «أجرًا»؛ لأنه تكفل به وضمنه لهم تفضيلًا منه وكرمًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

المال هو عصب الجهاد والقتال في سبيل الله، ولهذا- والله أعلم- ختم الآيات في قصة أحد في التحذير من البخل في المال، ومنع حقوق الله تعالى فيه من الإنفاق في الجهاد وغيره.

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قرأ حمزة بتاء الخطاب وفتح السين: «ولا تحسبن»، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح خطابه، أي: ولا تظنن أيها المخاطب.

وقرأ ابن كثير وأبوعمرو بياء الغيبة مع كسر السين: «ولا يحسِبن»، وقرأ الباقون بياء الغيبة مع فتح السين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾.

أي: ولا يحسبن، أي: ولا يظنن هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

«البخل»: هو منع الحقوق الواجبة في المال، وهو ضد الكرم.

﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، «ما»: موصولة، أي: بالذي أعطاهم الله.

﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: من تفضله- عز وجل- وزيادته وليس ذلك من كسبهم وكدهم، ولا باستحقاقهم ذلك على الله تعالى، وهو مال الله تعالى استخلفهم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

وقد أحسن القائل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائع(١)

﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، عائد على «البخل» المأخوذ من قوله: ﴿يَبْخَلُونَ﴾، وهذا المقدر: مفعول أول «يحسبن»، و﴿خَيْرًا﴾: مفعول ثان و﴿خَيْرًا﴾: اسم تفضيل، أي: لا يظنن البخل والشح خيرًا لهم من الإنفاق والعطاء.

---

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص١٧٠).

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، وفيه تأكيد لنفي كونه خيرًا. والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى البخل المفهوم من قوله: ﴿يَبْخَلُونَ﴾، و﴿شَرٌّ﴾: اسم تفضيل، أي: بل هو أي: البخل شر لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، أي: البخل شر لهم من العطاء، والعطاء ليس فيه شر- من حيث الأصل- بل هو خير، ولكن الله خاطب هؤلاء بحسب اعتقادهم؛ لأنهم يظنون أنهم إذا أنفقوا افتقروا. وقد قال الله- عز وجل-: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩]، وقال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(١).

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الجملة: في موقع التعليل، لقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾، وهي وعيد وتهديد لهم.

والسين في قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ للتنفيس والدلالة على تحقق وقوع عذابهم وقربه، و«يطوقون» مشتق من الطَّوْق، كطوق القميص ونحوه، والتطويق: جعل الشيء طوقًا في العنق.

و«ما»: موصولة، بمعنى الذي، أي: سيطوقون الذي بخلوا به يوم القيامة.

والمعنى: سيجعل الذي بخلوا به طوقًا في أعناقهم يوم القيامة يعذبون به كما قال ﷺ: «**مَن آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مُثّل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه- يعني بشدقيه- ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك**. ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية»(٢).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجل له مال لا يؤدي حق ماله إلا جعل له طوقًا في عنقه، شجاع أقرع، وهو يفر منه، وهو يتبعه، ثم قرأ مصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ**

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب- استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، من حديث- أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة- إثم مانع الزكاة (١٤٠٣)، والنسائي في الزكاة (٢٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية»(١).

والجزاء من جنس العمل، فحيث بخلوا بما آتاهم الله من فضله، ومنعوا حق الله تعالى فيه عوقبوا وعذبوا بأن جعل ذلك طوقًا في أعناقهم يوم القيامة.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لما كان الذي يبخل بالمال إنما يبخل به ليبقى له بيّن عز وجل في هذه الآية أن المال لن يبقى له وأن له- عز وجل- ميراث السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠].

والواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾: اعتراضية، و(لله): جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر للحصر والاختصاص، أي: ولله وحده ميراث السموات والأرض.

والجملة اعتراضية بين قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والمعطوف عليه وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والغرض منها: بيان أن المال لن يبقى لمن بخل به بل سينتقل منه إلى أن ينتهي إلى الله تعالى ميراث السموات والأرض.

ولله ميراث السموات والأرض بعد فناء سكانها وما فيها وزوال كل ملك وملكه وكل ما ملك، فيتحول ميراثهما وينتهي إلى الله- عز وجل- فترد جميع الأملاك إلى مالكها الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم:٤٠].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بياء الغيبة «يعملون» أي: بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما تعملون كلكم؛ أنتم أيها المؤمنون وهؤلاء الذين يبخلون. و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿خَبِيرٌ﴾، أي: مطلع على أعمالكم دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، باطنها وظاهرها.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٧)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤١)، والترمذي في التفسير (٣٠١٢). وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وختم الآية بهذا واضح المناسبة؛ لأن من الناس من يملك أموالًا طائلة ويبخل في الزكاة والحقوق فيها، والناس لا يعلمون عنه، وفي هذا الختام تذكير له بأن عمله لا يخفى على العليم الخبير.

وبهذه الآية انتهى الحديث عن قصة غزوة أُحد والتي بدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [الآية:١٢١].

الفوائد والأحكام:

١- دفاع الله تعالى عن نبيه وتسليته له، وتشريفه وتكريمه بخطابه- عز وجل- له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية.

٢- حرص النبي ﷺ على هداية الناس؛ ولهذا يحزنه ﷺ كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، كما قال تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

٣- ينبغي بذل الجهد في الدعوة إلى الله تعالى وعدم الاكتراث بالمعاندين والمخالفين.

٤- ذم المسارعين إلى الكفر الذي فيه هلاكهم، وكان الأجدر بهم المسارعة إلى الإيمان.

٥- انتفاء الضرر عن الله تعالى، فلا تضره- سبحانه- معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين، ومن كفر فلا يضر إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

٦- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾.

٧- حرمان المسارعين بالكفر من النصيب في الآخرة، وتوعدهم بالعذاب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾.

٩- الإشارة إلى أن الحظ الأوفر هو حظ الآخرة، فمن حرمه فهو المحروم والخاسر حقًّا.

١٠- أن الكفار لهم حظ من الدنيا؛ لمفهوم قوله: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

[الإسراء:٢٠].

١١- الجمع لهؤلاء الكفار بين عقوبتين: فوات حظهم ونصيبهم من الآخرة، والعذاب العظيم في النار، بين فوات المرغوب والمطلوب، وحصول المكروه والمرهوب.

١٢- بيان حكمة الله تعالى في كون هؤلاء يسارعون في الكفر، وهي ما يريده كونًا من حرمانهم من حظ الآخرة، وتعذيبهم بالعذاب الأليم.

١٣- تسفيه من اختاروا الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

١٤- تأكيد نفي الضرر عن الله تعالى وأن هؤلاء لا يضرون بكفرهم سوى أنفسهم، وتوعدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

١٥- أن الله يمهل ولا يهمل فلا ينبغي أن يُغْتر بإمهال الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾.

١٦- استدراج الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤-٤٥].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]»(١).

١٧- لا ينبغي الاغترار بالنعم، فليست دليلًا على الخير والرضا مطلقًا.

١٨- إثبات زيادة الإثم والكفر ونقصانه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصانه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١٩- الوعيد للكافرين بالعذاب المهين الذين يهينهم ويذلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) سبق تخريجه.

مُّهِينٌ ﴾.

٢٠- أن الجزاء من جنس العمل، فحيث استكبر هؤلاء الكفار عن عبادة الله تعالى جازاهم الله بعذاب مهين يهينهم ويذلهم- وكما يدين المرء يدان.

٢١- شدة عذاب الكفار، فهو عظيم من حيث كيفه وكمه ونوعه، وهو أليم مؤلم موجع للأبدان حسيًّا، ومهين للقلوب والأنفس معنويًّا.

٢٢- اقتضاء حكمة الله تعالى أنه لابد أن يميز الخبيث من الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾، وذلك بالابتلاء بالجهاد وغيره، وبالوحي من عند الله عز وجل.

٢٣- انقسام الناس إلى خبيث وطيب، مؤمن وكافر، ومؤمن مخلص، ومنافق- وهكذا الأعمال والأقوال والأعيان فيها خبيث وطيب.

٢٤- أن الخبيث لا يساوي الطيب في أيِّ شيء كان، والمنافق لا يساوي المؤمن المخلص، فالمؤمن طيب طاهر والمنافق خبيث نجس.

٢٥- أن علم الغيب مما اختص الله- عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾، فمن ادعى علم الغيب فهو كاذب كافر، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥].

٢٦- اصطفاء الله تعالى واختياره من رسله من يشاء، وإطلاعه إياهم على شيء من الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن:٢٦-٢٨].

٢٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ ﴾، وهي الإرادة الكونية.

٢٨- وجوب الإيمان بالله ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾.

٢٩- فضل الإيمان والتقوى؛ لأن الله رتب عليهما الأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

٣٠- أن الإيمان هو الأصل وعليه تبنى الأعمال؛ لهذا قدم الإيمان على التقوى، التي هي فعل الأوامر واجتناب النواهي، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

٣١- تكفل الله- عز وجل- بثواب المؤمنين المتقين؛ لهذا سماه «أجرًا».

٣٢- عظم ثواب مَن آمن واتقى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. فلا يعلم عظم هذا الأجر إلا مَن وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

٣٣- أن البخل شر محض وبخاصة منع الواجب في المال كالزكاة والنفقة الواجبة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾.

٣٤- لا ينبغي أن يظن أن البخل سبب للغنى وبقاء المال، وأن الإنفاق سبب للفقر وفناء المال؛ لأن هذا من الشيطان، بل العكس صحيح، فالإنفاق سبب لزيادة المال وسلامته، والبخل سبب لنقصانه وهلاكه. هذا ما دلت عليه النصوص، وشهد به الواقع.

٣٥- تذكير أهل البخل بأن ما عندهم من مال مما تفضل الله به عليهم، وفي هذا توبيخ لهم على البخل به؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٣٦- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾.

٣٧- أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخل بما أوجبه الله عليه طوّقه الله يوم القيامة.

٣٨- أن لله- عز وجل- ميراث السموات والأض، وكل ما فيهما سينتقل وينتهي إليه- عز وجل- فلا المال يبقى لصاحبه، ولا صاحب المال يبقى لماله، والبقاء للحي القيوم، الآخر الذي لا شيء بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٣٩- أن المال من الله- عز وجل- ومن فضله ابتداءً، وأن مرده ومرجعه إليه انتهاءً، كما أن مبدأ الخلائق منه ومحياهم منه، ومماتهم ونهايتهم إليه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣].

٤٠- علم الله- عز وجل- بأعمال العباد؛ دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، باطنها وظاهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وفي هذا وعد لمن أحسن العمل ووعيد لمن أساء؛ لأن مقتضى علمه- عز وجل- أن يحاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

بعد أن أسدل الستار على قصة أُحد، محذرًا في آخرها من البخل ومتوعدًا أهله، أتبع ذلك بذكر قبائح اليهود، والذين هم ردء للمشركين والمنافقين في المدينة، وجرأتهم على الله بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ إمعانًا منهم في دفع تحذيره- عز وجل- عن البخل ووعيد أهله.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزل قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥] قالت اليهود: افتقر ربك؛ يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «دخل أبوبكر الصديق- رضي الله عنه- بيت المدراس، فوجد ناسًا من يهود كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فِنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع. فقال أبوبكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٢٨). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٥٣).

عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل. قال فنحاص: والله يا أبابكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا، ويعطيناه، ولو كان غنيًا عنا ما أعطانا الربا. فغضب أبوبكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فأكْذِبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت»؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولًا عظيمًا، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء. فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك: فأنزل الله- جل ثناؤه- فيما قال فنحاص ردًا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقول أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]»(١).

وقد روي أنها نزلت في حيي بن أخطب.

قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر، تقديره: والله لقد سمع الله، و«قد»: حرف تحقيق، فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، و«قد».

والله- عز وجل- هو أصدق القائلين، وخبره أصدق الأخبار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

وإنما أقسم الله- عز وجل- على هذا الخبر للتأكيد والمبالغة في تهديد هؤلاء ووعيدهم.

والسمع من الصفات الذاتية الثابتة لله- عز وجل- أي: ذو سمع واسع، يسمع جميع

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ٢٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٢٨-٨٢٩).

الأقوال والأصوات، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تجادله في زوجها وما بيني وبينها إلا ساتر فلما أسمع كلامها وقد سمع الله صوتها من فوق سبع سموات»(١).

﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ أي: لقد سمع الله قول الذين قالوا هذه المقالة، من اليهود، منهم: فنحاص بن عازر، وحيي بن أخطب.

وذلك لما حذر عز وجل عن البخل وتوعد أهله وحث على الصدقة، وقد جمعوا في هذه المقالة السيئة بين أمرين في غاية القبح والشناعة، الأول: وصفهم الله بالفقر، والثاني: أنهم هم الأغنياء. أي: أنهم أغنى من الله تعالى الله عن قولهم.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ قرأ حمزة بالياء: «سيكتب»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿سَنَكْتُبُ﴾.

وقراءة: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ بضمير المتكلم؛ لأنه- عز وجل- هو الآمر لملائكته بكتابة أقوال العباد، وهذا ما بينته القراءة الثانية بالياء: «سيكتب»، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

و﴿مَا﴾: موصولة، أو مصدرية، أي: سنكتب أو سيكتب الذي قالوا، أو قولهم. والمعنى: ستكتب ملائكتنا الذي قالوا من الإفك والفرية على الله عز وجل.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم، أي: سنكتب الذي قالوا ونحاسبهم ونجازيهم عليه.

﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قرأ حمزة برفع القتل: «وقتلُهم»، وقرأ الباقون بنصبه: ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾.

وهو معطوف على قوله: ﴿مَا قَالُواْ﴾ أي: سنكتب قولهم وقتلهم الأنبياء، وفي عطفه على قوله: ﴿مَا قَالُواْ﴾ ونضمه معه إيذانًا بسوابقهم القبيحة فلا يستبعد منهم أي جرم.

و﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ جمع «نبي»، والمراد به: ما يشمل الأنبياء والرسل.

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق، باب في الظهار (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨).

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير في «قتلهم» وهذا قيد كاشف؛ لأن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق.

وفائدة هذا القيد أمران؛ الأول: بيان الواقع، وأنهم يقتلون الأنبياء بغير حق. والثاني: المبالغة في التشنيع عليهم حيث يقتلونهم بغير موجب لقتلهم، بل ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ معطوف على ﴿سَنَكْتُبُ﴾.

قرأ حمزة بالياء: «ويقول»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿وَنَقُولُ﴾.

وفي هذا وعيد وتهديد لهم، أي: ونقول لهم؛ تبكيتًا وتقريعًا وإهانة لهم وتحقيرًا ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: تجرعوه وأحسوا به وتألموا.

وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب مع العذاب الحسي، كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار المحرقة، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

هذا من جملة مقول القول، أي: ونقول لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ونقول لهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى توبيخهم وعقابهم بقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية.

أي: بسبب الذي قدمت أيديكم، أو بسبب تقديم أيديكم، أي: ذلك الذي عوقبتم به بسبب الذي قدمت أيديكم وعملت أنفسكم. وإنما يضاف التقديم إلى الأيدي؛ لأنها أداة البطش والعمل والأخذ والعطاء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ:٤٠].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ معطوف على «ما» في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾

أي: ذلك بما قدمت أيديكم، وبأن الله ليس بظلام للعبيد.

و(ظلام) هنا على وزن «فعّال»، يراد بها النسبة، أي: ليس بذي ظلم للعبيد، فلا يظلم أحدًا منهم، لا بقليل ولا بكثير؛ لأنه- عز وجل- حرَّم الظلم على نفسه، قليله وكثيره، وجعله بين عباده محرمًا.

﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ «العبيد» جمع «عبد» والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الخضوع والانقياد الكوني، الذي يشمل المؤمن والكافر، وجميع الخلق، فالله- عز وجل- لا يظلم أحدًا من الخلق، بل يجازي كلًا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيئ بعدله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾.

هذا أيضًا من كذب اليهود وافتراءاتهم الباطلة على الله تعالى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل جر صفة لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾.

﴿عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أي: أمرنا وأوصانا وصية موثقة بالعهد في كتبه وعلى ألسنة رسله ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ﴾ «أن»: حرف مصدري ونصب، و«لا»: نافية، والمصدر المؤول ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾ في محل جر بـ«في» مقدرة، والتقدير: في ألا نؤمن، أي: في عدم الإيمان.

والمعنى: ألا نصدق لأي رسول أيًا كان فيما جاء به.

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: للغاية، أي: إلى غاية أن يأتينا ﴿بِقُرۡبَانٖ﴾ القربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من الصدقات من الأطعمة والذبائح وغير ذلك.

ومعنى ﴿يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ﴾ أي: بأن يتقرب إلى الله بقربان ثم تنزل نار من السماء فتأكل كل هذا القربان.

وكان هذا علامة على قبول القربان، كما قال بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى عن بني آدم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. قالوا: فتقبل من أحدهما بأن نزلت نار من السماء فأكلت قربانه دون قربان أخيه.

وهكذا كانت الغنائم في الأمم السابقة إذا غنموا غنيمة من الكفار جمعوها ثم نزلت نار من السماء فأكلتها، حتى أحل الله- عز وجل- الغنائم لهذه الأمة، كما قال ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي**»(١).

فزعموا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا ولا يصدقوا لأي رسول إلا إذا أتاهم بهذه الآية، بأن يقرب أو يقربوا قربانًا فتأكله النار، فحصروا آية الرسل بهذا، وهذا تحكم على الله- عز وجل- وعلى رسله.

وآيات الرسل ومعجزاتهم إنما تكون على ما يناسب هداية وإصلاح أقوامهم، كما قال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(٢).

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ. أي: قل لهم إظهارًا لكذبهم.

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ونكَّر ﴿رُسُلٌ﴾ للتكثير، أي: قد جاءكم رسل كثيرون.

﴿مِّن قَبْلِى﴾أي: من قبل مجيئي وبعثتي.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالآيات والحجج والبراهين والدلائل الواضحات الشرعية والكونية التي تبين وتبرهن على صدق رسالاتهم.

﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾: معطوف على البينات، أي: جاءكم رسل من قبلي بالبينات،

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجاؤوكم بالذي قلتم، وهو الإتيان بقربان تأكله النار.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر دل عليه ما بعده، أي: إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم، وكان من هؤلاء الرسل الذين قتلوهم زكريا ويحيى عليهما السلام.

واللام في: «لِمَ»: حرف جر، و«ما»: استفهامية، حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها. أي: فلم قتلتموهم، وقد جاؤوكم بالآيات البينات، وبالذي قلتم، والاستفهام للإنكار.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أن الله عهد إليكم بما قلتم، وأنكم تؤمنون بالرسل إذا جاؤوكم بهذه الآية التي طلبتم.

وقد عدل هنا عن مطالبتهم بصدق مقالتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾- إلى قوله لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ من باب موافقة الخصم والتسليم له؛ لإفحامه، ودحض حجته، أي: إذا كنتم تزعمون أن الله عهد إليكم ألا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار فقد جاءكم رسل من قبلي بهذه الآية التي ذكرتم، وبما هو أعظم منها من الآيات البينات، فلم كذبتموهم وقتلتموهم؟

فلو كنتم صادقين في طلبكم هذه الآية لكنتم آمنتم بمن جاؤوكم من قبلي بها، وبأعظم منها، أي: أنكم لا تريدون تصديق الرسل، وإنما تريدون تكذيبهم، ولستم بصادقين في أن الله عهد إليكم بما ذكرتم، ولا أنكم تؤمنون بالرسول لو جاءكم بذلك.

وفي تقديم قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: دلالة على أن ما جاءت به الرسل من الآيات أعظم من الآية التي طلبوها، وأن الآية التي طلبوها وهي الإتيان بقربان تأكله النار دون تلك الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب قومه له.

قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الفاء: عاطفة، والخطاب للنبي ﷺ، والواو في ﴿كَذَّبُوكَ﴾

لكل من كذب الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم.

﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ والتقدير: فإن كذبوك فتسلَّ، أو فلا تحزن فقد كذب رسل كثيرون من قبلك. أي: كذبهم أقوامهم، أي: فهذه سنة قديمة في الأمم مع الرسل قبلك.

وفي الآية الأخرى: ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر:٤]، لأن ﴿رُسُلٌ﴾ جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه إثبات التاء وحذفها.

﴿ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ صفة لـ: ﴿رُسُلٌ﴾ أي: فليس تكذيب أممهم لهم عن قصور بما أتوا به أو عدم تبين حجة، بل قد جاؤوا ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: بالآيات البينات والحجج والبراهين الواضحات الدالة على صدقهم.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ قرأ ابن عامر بإعادة الباء: «وبالزبر»، وقرأ الباقون بدونها: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾، وهي: جمع «زبور»، وهو «فعول» بمعنى «مفعول»، أي: مزبور، بمعنى مخطوط. وقيل: مأخوذ من «زبر»: إذا زجر.

والمراد بالزبر: كتب الأنبياء والرسل، مما يتضمن مواعظ وزواجر وتذكير، مثل كتاب داود عليه السلام «الزبور»، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣]، وكذا الإنجيل.

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ الواو: عاطفة، و﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ﴾ بمعنى «المكتوب» و«ال» فيه للجنس، أي: جنس الكتب التي انزلها الله تعالى كالتوراة والإنجيل.

﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ صفة لـ(الكتاب) أي: البين الواضح الجلي، المبين للحق، المنير لطريق الهداية، الذي فيه بيان الأحكام الشرعية.

ويحتمل كون «ال»: للعهد، والمراد بـ«الكتاب»: التوراة، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة:٤٤].

وقد قال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦].

كما قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:١]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن:٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢].

والعطف في قوله: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ منظور فيه إلى التوزيع، فبعض الرسل جاء بالزبر، وبعضهم جاء بالكتاب المنير، وكلهم جاؤوا بالبينات.

ويحتمل أن يكون العطف هنا: من عطف الصفات لا من عطف الذوات، أي: أن ما جاءت به الرسل مشتمل على الآيات البينات والحجج والبراهين، وعلى الزبر والمواعظ، وعلى بيان الحق للناس وإنارة الطريق لهم، وهذا حق.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ ﴿كُلُّ﴾ من صيغ العموم.

و﴿نَفۡسٖ﴾ تطلق على الروح والبدن، أي: كل الأنفس ذائقة الموت، أي: ذائقة طعم الموت، أي: لابد أن تموت وتذوق وتتجرع غصص الموت وسكراته، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩].

وقال ﷺ وهو يجود بروحه: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**»(١).

قال الشاعر:

لكل جديد لذة غير أنني ... وجدت جديد الموت غير لذيذ(٢)

والمعنى: كل نفس من أنفس الإنس والجن والملائكة وجميع ما خلق الله من الحيوانات ستموت، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٤٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البيت لضابئ بن الحارث، وينسب للحطيئة. انظر: «أمثال العرب» (ص٩٦)، «الأغاني» (٢/ ١٨)، «مجمع الأمثال» (٢/ ٢٢٣)، «المستقصى في أمثال العرب» (٢/ ٢٩١)، «نهاية الأرب» (٣/ ٢٩٧)، «خزانة الأدب» (٢/ ٤١١)، «زهر الأكم» (٣/ ٢٢).

مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٦٨].

وفي الحديث: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه**»(١).

وقال الشاعر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب(٢)

وقال الآخر:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد(٣)

وقال الآخر:

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها ... لكان رسول الله حيًّا مخلدا(٤)

وقال الآخر:

تَعَزَّ فلا شيءٌ على الأرض باقيًا ... ولا وَزرٌ مما قضى الله واقيًا(٥)

وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد(٦)

وقال الآخر:

كُتب الموت على الخلق فكم ... فَلّ من جمع وأفنى من دُوَل(٧)

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الواو: عاطفة، و«إنما»: أداة حصر،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت للشاعر محمد بن صالح العثيمين، شاعر حوطة بني تميم من قصيدة مؤثرة في رثاء صديقه عبدالله العجيري، ملحقة بآخر «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧.

(٣) البيت لابن نباتة السعدي. انظر: «الدر الفريد» (٧/ ٤٤٧)، «المغني» للسيوطي (٣٧٩).

(٤) انظر: «الكشكول» (١/ ٢٨٩)، والبيت ينسب لحسان.

(٥) البيت لم ينسب لقائل. انظر: «الجنى الداني» (ث٩٢)، «أوضح المسالك» (١/ ٢٧٥)، «المغني» للسيوطي (٦١٢).

(٦) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتناع والمؤانسة» (ص٣٤٧)، «العمدة في محاسن الشعر» (١/ ٣٤).

(٧) البيت لأبي الوردي. انظر: «ديوانه» (ص٧١).

أي: لا توفون أجوركم إلا يوم القيامة.

ومعنى: ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تعطون ثواب أعمالكم وافيًا من غير نقصان يوم القيامة. وهذا لا ينافي أن ينالوا شيئًا من ثواب أعمالهم في البرزخ، كما لا ينافي أن ينالوا شيئًا من ثواب أعمالهم في الدنيا؛ لأن الإنسان يجد شيئًا من آثار عمله في الدنيا فإن كان عمله صالحًا وجد من آثار السعادة بقدر ذلك وإن كان عمله سيئًا وجد شيئًا من آثار ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

وأما توفية الأجور على التمام والكمال فإن ذلك لا يكون إلا في الآخرة.

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿زُحْزِحَ﴾: فعل الشرط، ومعنى ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾، أي: أبعد ودفع عنها ببطء وشدة ومشقة، ولو بعد جهد جهيد؛ لأن النار حفت بالشهوات، وقيل: أبعد عنها بسرعة وعجلة.

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ معطوف على ما قبله.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، أي: فقد أفلح وربح كل الربح؛ لأنه نجا من المرهوب وهي النار، وحصل على المطلوب وهي الجنة- نسأل الله تعالى من فضله.

وهذا يحتاج إلى عمل، قال ﷺ: «**فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**»(١).

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية.

و﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا؛ لدنوها زمنًا فهي قبل الآخرة من حيث الزمن، ولدنوها وانحطاطها قدرًا، فهي لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

وقال ﷺ: «**موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(٢).

﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، والمتاع: ما يتمتع به ثم ينتهي. و﴿ٱلْغُرُورِ﴾: الخداع، أي: وما الحياة الدنيا إلا متعة تغر صاحبها وتخدعه، كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الآية:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

وكم من أناس اغتروا وانخدعوا فيها وفي زينتها وزخرفها، فتحول عزهم ذلًا وغناهم فقرًا، وفرحهم وسرورهم ترحًا وبؤسًا.

وإذا أردت أن تنظر إلى غرورها العاجل وحقارتها فتأمل في أحوال المنوَّمين على الأسرة في المستشفيات أو في البيوت، ممن فقدوا وعيهم أو كادوا أن يفقدوه، وارث لحالك، ولا ترث لحالهم.

قال الشاعر:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّفت ... له عن عدو في ثياب صديق(٣)

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغررك ما فيها ... من الزخارف واحذر من دواهيها

وقال الآخر:

إياك والدنيا الدنية إنها ... هي السحر في تخييله وافترائه

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) البيت لأبي نواس. انظر: «ديوانه» (ص١٩٢).

متاع غرور لا يدوم سرورها ... وأضغاث حلم خادع ببهائه[١]

وقال الآخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خانته فروج الأصابع[٢]

وقال الآخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركمُ مني ابتسام ... فقولي مضحك والفعل مبكي[٣]

وقال الآخر:

هي الليالي وقاك الله صولتها ... فضول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكًا لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب ... يرمى بأفجع حتف من بهن رمي[٤]

وقال الآخر:

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفيرٍ هار[٥]

الفوائد والأحكام:

١- إثبات صفة السمع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، فهو- عز وجل- ذو سمع واسع، يسمع جميع الأصوات، جهرها وخفيها.

٢- تهديد اليهود بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ فأخبر عز وجل بسماع قولهم تهديدًا لهم، وأقسم على ذلك وأخبر بكتابته تأكيدًا لذلك.

٣- شدة عداوة اليهود لله تعالى ووقاحتهم وجرأتهم العظيمة على الله تعالى بقولهم:

---

(١) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» (ص٧٨).

(٢) البيت لأبي نواس. انظر: «العقد الفريد» (٣/ ٤٧).

(٣) البيتان لأبي الفرج الساوي. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص٥٣).

(٤) الأبيات لأبي عبدالله العقيلي. انظر: «نفح الطيب» (٤/ ٥٢٩).

(٥) البيتان لأبي الحسن التهامي. انظر: «ديوانه» (ص٢٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

٤- شدة غرور اليهود واستكبارهم وبغيهم، حيث وصفوا الله بالفقر والنقص، وأثبتوا الكمال والغنى لأنفسهم.

٥- إثبات كتابة أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾.

٦- قتل اليهود لكثير من الأنبياء، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾.

٧- جمع اليهود بين الطعن في توحيد الله بوصفه بالفقر، والطعن في رسله بتكذيبهم وقتلهم، فلم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله، ولم يشهدوا لرسله بالصدق، بل كذبوهم وقتلوهم.

٨- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فهذا قيد لبيان الواقع.

٩- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ الآية.

١٠- الجمع لهؤلاء بين العذاب الحسي البدني بالحريق بالنار وبين العذاب المعنوي النفسي بالتوبيخ والإهانة؛ كقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

١١- الرد على من قال: إن أهل النار يكونون جهنميين لا يحسون بألمها؛ لقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٢-١٣]. أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة، بل حياة شقاء وعذاب.

١٢- أن ما هدد الله به اليهود وتوعدهم به من العذاب البدني والنفسي بسبب ما قدمته أيديهم، أي: بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٣- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٤- أن مجازاة الله تعالى للخلائق بحسب أعمالهم.

١٥- نفي الظلم عن الله- عز وجل- وأنه- سبحانه- لا يظلم أحدًا من الخلق ولا

مثقال ذرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠].

وذلك؛ لكمال عدله؛ لأن الصفات المنفية تدل على كمال ضدها.

١٦- كذب اليهود وافتراؤهم على الله- عز وجل- بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾.

١٧- إفحام اليهود ودحض حجتهم بما يدعونه، فقد ادعوا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار فلم يطلب منهم عز وجل دليلًا على صدق قولهم، ولا أكذبهم فيه، بل قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وبهذا برهن على كذبهم وعدم صدقهم في دعواهم، لأنهم لو كانوا صادقين في دعواهم لآمنوا بالرسل الذين جاؤوهم بهذه الآية التي طلبوها، وبما هو أعظم منها من الآيات البينات. وحيث لم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وقتلوهم دل هذا على عدم صدقهم في هذه الدعوى، وأن قصدهم إنما هو تكذيب الرسل، وهذا من باب موافقة الخصم والتنزل معه؛ لإفحامه ودحض حجته.

١٨- تصديق النبي ﷺ وشهادته للرسل من قبله، وما جاؤوا به من البينات؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

١٩- أن اليهود قد جاءتهم رسل من قبله ﷺ بالبينات، وبالذي قالوه، أي: بقربان تأكله النار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ﴾.

٢٠- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب قومه بذكر تكذيب الأمم قبله لرسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾

أي: فإن كذبك قومك فقد كُذب رسل كثيرون من قبلك كذبهم أقوامهم، فلست أول رسول يُكَّذب، ولا قومك أول المكذبين للرسل، ولا شك أن في هذا تسلية

له وتهوينًا لمصابه، كما قالت الخنساء(١):

ولــولا كثــرة البــاكين حــولي ... عــلى إخــوانهم لقتلــت نفســي
ومــا يبكــون مثــل أخــي ولكــن ... أســلي الــنفس عنــه بالتــأسي

٢١- في تسلية النبي ﷺ بذكر ما جرى لمن قبله من الرسل من التكذيب حث له على التأسي بهم والصبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام:٣٤].

٢٢- إقامة الرسل السابقين الحجة على أممهم بما جاؤوا به من الآيات البينات والمواعظ والشرع المبين للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

٢٣- أن الرسل- عليهم الصلاة والسلام- مشاعل نور ومنارات هدى في أقوامهم فيما جاؤوا به من الوحي من عند الله- وأعظمهم وأفضلهم في ذلك خاتمهم محمد ﷺ.

٢٤- أن الموت حق لابد منه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

٢٥- أن توفية الأجور بكمالها وتمامها إنما تكون يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا لا ينافي مجازاة الإنسان بشيء من عمله في الدنيا، وكذا في البرزخ- كما هو مقتضى النصوص. لكن توفية الأجور كاملة إنما تكون يوم القيامة.

٢٦- الحث على المبادرة بالأعمال الصالحة، والاستزادة منها قبل فوات الأوان، وحلول الموت.

٢٧- إثبات القيامة، وما فيها من الحساب والجزاء.

٢٨- أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز؛ لنجاته من المرهوب، وحصوله على المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

٢٩- حقارة الدنيا والتزهيد فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

---

(١) انظر: «ديوانها» (ص٨٤).

٣٠- التحذير من الاغترار بالدنيا، وزخرفها، ومتاعها الزائل، والانخداع بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

وقد قال ﷺ: «**فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد والرقاق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله لتبلون، فالجملة مؤكدة بلام القسم، وبالقسم المقدر، ونون التوكيد، والخطاب للمؤمنين، فأخبر عز وجل المؤمنين بأنهم سيبتلون بما ذكر، وأقسم على تحقيق ذلك وأكده.

والابتلاء: الاختبار، ويكون في الشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وكما قال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

وقال ﷺ: «**يبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»(١).

والمعنى: لتبلون في أموالكم في إنفاقها في الجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك من النفقات الواجبة والمستحبة، وفيما يصيبها أيضًا من الآفات والجوائح، وتسلط الكفار عليها.

﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾، أي: ولتبلون في أنفسكم بالجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

من التكاليف، وفيما يصيبكم من القتل والجراح والأمراض وغير ذلك، في ذات أنفسكم وفيمن تحبون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾: معطوف على ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ مؤكد مثله بلام القسم وبالقسم المقدر، ونون التوكيد.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني: من اليهود والنصارى.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ﴾ أي: ومن الذين أشركوا بالله من قريش وغيرهم من المشركين.

﴿أَذًى كَثِيرًا ﴾ من القول، من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم، ومن الافتراء على الله ووصفه بما لا يليق كما قال اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة:٦٤]، وقولهم: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]، وقولهم: «استراح يوم السبت»(١)، وغير ذلك.

وكقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

وكقول اليهود للنبي ﷺ: «راعنا» ويورون بالرعونة.

وكقول المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ سحر أو كهانة، ونحو ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف:٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر:٢]، وقال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥].

وقولهم عنه ﷺ بأنه ساحر كذاب وكاهن ومجنون وشاعر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص:٤]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان:٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات:٣٦].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢١/ ٤٦٥-٤٦٧).

فهو أذى كثير، ويؤذي كثيرًا، لكنه لا يضر المؤمنين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ ولم يقل: «ضررًا كثيرًا»، كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران:١١١].

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾، الواو: استئنافية، والصبر: الحبس والمنع، أي: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة؛ صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والمعنى: وإن تصبروا على ما ابتليتم به في أموالكم وأنفسكم، وعلى ما سمعتم من الذين أوتوا الكتاب ومن المشركين من الأذى الكثير.

والصبر من أعظم ما يعين بتوفيق الله على تخطي الصعاب، وتحقيق الآمال، والقيام بالأعمال، وهو من أفضل الأعمال، وفي الحديث: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: وتتقوا الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

والمراد بالتقوى هنا- والله أعلم- اتقاء ما نهى الله تعالى عنه من التجاوز والاعتداء على سبيل الانتقام ممن اعتدى عليكم وآذاكم، بل عاملوه بالعدل، وهذا يدل على أنه ليس المراد بالصبر: ترك القتال، وعدم ردع المعتدي والمؤذي.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والإشارة إلى ما رغب الله فيه من الصبر والتقوى، أي: فإن ذلك، أي: المذكور.

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، «عزم الأمور» من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«العزم» هنا: مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: من الأمور التي يعزم عليها، والعزم: إمضاء الرأي، وعدم التردد بعد تبين الرأي، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (١٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وكما قيل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن ترددا[١]

فالصبر وتقوى الله مما عزم الله عليه وأمر به وأكّده، ومن عزائم الأمور التي يتنافس فيها المتنافسون، وهي من الصفات العالية التي وصف بها الكُمّل من الخلق، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، ولا يوفق لها إلا أهل الهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

قال ابن كثير[٢]: «فكان من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر فلابد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله عز وجل».

وقد روى عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- أخبره قال: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾ الآية. قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم»[٣].

وظاهر معنى الآية وسياقها أنها نزلت بعد أُحد، أي بعد الأمر بالقتال. فهي تؤكد حصول الابتلاء في الأموال ببذلها في الجهاد وغير ذلك، والابتلاء بالنفوس بالتضحية بها في القتال في سبيل الله، وما يصيبها من الجراح والألم في ذلك، والصبر على ذلك وتقوى الله بعدم الاعتداء والتجاوز في الانتقام.

وأحسن ما في هذا أن يحمل قول أسامة رضي الله عنه: «وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله حتى أذن الله فيهم» على أنه ليس المراد به الإذن بالقتال ومشروعيته فقد كان مشروعًا قبل نزول الآية، وإنما المراد به الإذن الكوني. وكل من القتال والصبر والصفح مأمور به في الوقت والمقام المناسب له.

---

(١) البيت للمنصور. انظر: «زهر الآداب» (١/ ٢٥٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٥٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٣٤)، وأخرجه البخاري مطولًا في التفسير (٤٥٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ أخذ الله.

والميثاق: العهد الثقيل المؤكد، سمي بذلك أخذًا من الوثاق، وهو الحبل الذي يشد به ويربط، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد:٤].

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الذين أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى، أخذ الله عليهم الميثاق بما أنزل عليهم في التوراة والإنجيل.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وعاصم في رواية أبي بكر بياء الغيبة: «ليبيننه»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، واللام في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾: للقسم، أي: والله لتبيينه للناس.

والضمير في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، وفي ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ يعود إلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، وما أخذه الله عليهم فيه من الميثاق من الإيمان والعمل بما فيه، ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ وأتباعه.

ومعنى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾: أي: لتظهرنه للناس وتوضحنه لهم، عملًا به وبيانًا وتعليمًا له، وهو ميثاق على كل من أعطاهم الله الكتب، وعلمهم العلم أن يبينوا للناس ما يحتاجون إليه.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾: معطوف على ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، داخل ضمن المقسم عليه، أي: ولا تخفونه عن الناس، وهو تأكيد من حيث المعنى لقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾؛ لأن البيان ضد الكتمان، أي: لتبينه للناس بيانًا تامًا لا كتمان فيه.

والكتمان قد يكون بإخفاء بعض الآيات، كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ﴾ [الأنعام:٩١].

وقد يكون الكتمان بتحريف معاني بعض الآيات، وحملها على معان باطلة، وكتمان

معانيها الحقيقية، ومن ذلك قول النصارى: إن محمد بن عبدالله ليس هو الذي بشر به عيسى؛ لأن الذي بشر به عيسى اسمه: «أحمد»، وهذا اسمه محمد. وبهذا كتموا ما أخذ الله عليهم من الميثاق بالإيمان به وتصديقه واتباعه.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ الفاء: للتعقيب، وفيها إشارة إلى مسارعتهم إلى ذلك، وضمير الهاء في «نبذوه» يعود إلى الكتاب، وإلى ما أخذه عليهم من الميثاق في بيانه وعدم كتمانه.

أي: فطرحوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: خلفهم، ولم ينبذوه بين أيديهم وأمامهم، بل نبذوه وراء ظهورهم من شدة الإعراض عنه والاستكبار، والاستخفاف به، وعدم المبالاة، وإضاعته وإهماله، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:٩٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة:١٠٠].

﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ﴾، أي: واستبدلوا بالكتاب، وبما أخذ الله عليهم من الميثاق بالإيمان به والعمل بما فيه وبيانه وعدم كتمانه.

﴿ثَمَنًا﴾ من الرشوة ومتاع الدنيا، والجاه والمنصب والرياسة.

﴿قَلِيلًا﴾ أي: زهيدًا حقيرًا، وكل ما في الدنيا قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ الفاء: استئنافية، و«بئس»: فعل ماض جامد؛ لإنشاء الذم، و«ما»: نكرة موصوفة، في محل نصب تمييز للضمير المستتر في «بئس»، ويجوز كونها مصدرية. والمصدر المؤول منها ومن الفعل بعدها في محل نصب تمييز للضمير المستتر.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم قال: اذهب يا رافع- لبوابه- إلى ابن

عباس، فقل: لئن كان كل امرئٍ منا فرح بما أوتي معذبًا، لنعذبن أجمعون؟ فقال ابن عباس: «وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾».

وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه»(١).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذ خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ الآية»(٢).

وفي رواية: أن مروان بن الحكم قال لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه: يا أبا سعيد، رأيت قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل؟ فقال أبوسعيد: إن هذا ليس من ذاك، إنما ذاك أن ناسًا من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثًا، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم؛ ليرضوهم ويحمدوهم بالنصر والفتح. فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبوسعيد: وهذا يعلم هذا- يعني- زيد بن ثابت. فقال مروان: أكذلك يا زيد؟ قال: نعم صدق أبوسعيد. ثم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٨)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٠١٤)، وأحمد (١/ ٢٩٨)، والواحدي ص(٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٧)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٧٧)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ٣٠٠)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(٩١).

قال أبو سعيد: وهذا يعلم ذاك- يعني رافع بن خديج..»[١].

وقد اختار بعض المفسرين- منهم الطبري- أن الآية نزلت في أهل الكتاب.

واختار بعضهم- منهم القرطبي، وابن كثير وغيرهم- أنها نزلت في الفريقين، من أهل الكتاب والمنافقين[٢].

قال ابن كثير[٣]: «ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء؛ لأن الآية عامة في جميع ما ذكر. والله أعلم».

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بتاء الخطاب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح خطابه، أي: لا تظنن أيها المخاطب.

وقرأ الباقون بياء الغيبة «لا يحسبن» أي: لا يظنن هؤلاء الذين يفرحون. وقرأ بعضهم بكسر السين، وبعضهم بفتحها من ﴿تَحْسَبَنَّ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ من أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم.

﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ «ما»: موصولة، أي: بالذي أتوا، أي: بالذي فعلوا من كتمان ما أخذ الله عليهم من الميثاق في كتابه، ومن ذلك كتمان أمر النبي ﷺ، ونبذ كتاب الله وميثاقه خلف ظهورهم، والاستبدال به ثمنًا قليلًا من الدنيا، ومن النفاق بإظهار الإيمان وإبطان الكفر.

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟﴾، الواو: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول، أي: ويحبون حمد الناس لهم.

﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي لم يفعلوه.

أي: ويحبون أن يحمدهم الناس على الذي لم يفعلوه من الإيمان والصلاح وبيان الحق واتباعه.

---

(١) أخرجه ابن مردويه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٥٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٠٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣٠٦-٣٠٧)، «فتح الباري» (٩/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ١٥٨).

والآية وإن كانت نازلة على سبب خاص فهي عامة في كل من فرح بما أتى من الباطل من الكفر والبدع والمعاصي وأحب أن يحمد بما لم يفعل من الإيمان واتباع الحق والطاعة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو بياء الغيبة وضم الباء: «يحسبُنهم» أي: فلا يظنن هؤلاء أنهم ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب وفتح الباء: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ أي: فلا تظننهم أيها المخاطب، كما قرأ بعضهم بكسر السين وبعضهم بفتحها.

﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، «المفازة»: مكان الفوز والنجاة، أي: فلا يظنن أنفسهم ولا تظننهم أيها المخاطب بمكان يفوزون به وينجون به من العذاب، فلا نجاة لهم من العذاب، بل سيصيرون إليه، ولهذا قال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم عذاب مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للأنفس والقلوب، وقدّم الخبر؛ لتأكيد عذابهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

توعَّد عز وجل الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من أهل الكتاب والمنافقين بالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك ببيان أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، في إشارة واضحة إلى أن تعذيبه لهم أمر يسير عليه؛ لكمال ملكه وتمام قدرته، وفي هذا تحذير لهم ولغيرهم عن مخالفته ومعصيته، كما أن في هذا تكذيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الواو: استئنافية، (لله): جار ومجرور خبر مقدم، للدلالة على الحصر والاختصاص، وأن له- عز وجل- وحده ملك السموات والأرض، هو المالك لذلك كله والمتصرف فيه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، «القدرة»: التمكن من الفعل بلا عجز، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

[فاطر:٤٤]. فقابل عز وجل العجز بالقدرة، وقدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته وشمولها لكل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- على ما أخبر به بقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية- وهو أصدق القائلين؛ تأكيدًا لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

٢- ابتلاء المؤمنين في أموالهم، بالإنفاق في الجهاد في سبيل الله، وفي غير ذلك من وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة، وبما يصيبهم في أموالهم من الجوائح والآفات، وتسلط الكفار عليها، وابتلاؤهم في أنفسهم بالجهاد في سبيل الله، وما يصيبهم في ذلك من قتل وجراح وألم، وبما يصيبهم من الأمراض وغير ذلك؛ ليتميز الصابر المتقي من غيره؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٣- أذى أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين بما يسمعه المؤمنون منهم من قبيح القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾، وهذا من الابتلاء.

٤- توطين نفوس المؤمنين بإخبارهم بالابتلاء في أموالهم وأنفسهم وسماع أذى أهل الكتاب والمشركين قبل وقوعه، مما يهون عليهم وقعه والصبر عليه إذا وقع، كما أن في ذلك زيادة لإيمانهم ويقينهم إذا وقع كما أخبر الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

٥- أن الابتلاء في الأموال من أعظم ما يبتلى به، ولهذا قدمه الله- عز وجل- على الابتلاء بالأنفس؛ لأن المال قوام الحياة، وتلفه وهلاكه قد يكون سببًا لتلف الأنفس وهلاكها.

٦- أن أهل الكتاب وبخاصة اليهود أشد أذى للمسلمين من المشركين، لهذا قدموا

عليهم في الآية، وذلك لشدة عداوتهم للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢].

٧- ينبغي الحذر من أهل الكتاب والمشركين، والاحتراز ما أمكن منهم ومن أذاهم والاستعداد لدحض باطلهم وافتراءاتهم.

٨- الحث على الصبر والتقوى والترغيب فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

٩- فضيلة الصبر والتقوى وأنهما من عزائم الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

١٠- ينبغي أخذ الأمور بالعزم؛ لأن الله امتدحه؛ لما فيه من صلاح الأمور والأحوال.

١١- التذكير بما أخذه الله على أهل الكتاب من الميثاق، من بيان ما أنزله الله عليهم وعدم كتمانه، وبخاصة الإيمان بمحمد ﷺ؛ توبيخًا وتهديدًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

١٢- شدة إعراض أهل الكتاب واستكبارهم واستهانتهم بما أخذه الله عليهم من الميثاق لبيان الكتاب، حيث نبذوه وراء ظهورهم ولم يبينوه بل كتموه؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

١٣- استبدال أهل الكتاب بماأخذه الله عليهم من الميثاق ثمنًا زهيدًا من متاع الدنيا وما فيها من الجاه والمناصب والرئاسات الزائلة الحقيرة، مما يدل على دنو همتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

١٤- حقارة الدنيا وما فيها من المتاع والجاه والمناصب والرياسات، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾.

١٥- ذم الثمن الذي أخذه أهل الكتاب بدلًا من الميثاق الذي أخذه الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ حيث أخذوا القليل الأدنى بدلًا عن الكثير الأعلى.

١٦- وجوب بيان العلم وبذله، وتحريم كتمانه، وعظم مسؤولية العلماء في الأمة؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ورُبان السفينة، والموقعون عن الله عز وجل. فعليهم تحمل المسؤولية أمام الله تعالى في تبصير الأمة وتعليمها وقيادتها إلى ما فيه سعادتها في دينها ودنياها

وأخراها قال ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»(١).

١٧- تحذير العلماء من المداهنة والمحاباة في بيان العلم وإظهاره وبيان الحق، ومن سلوك مسالك علماء السوء من أهل الكتاب.

١٨- تهديد الذين يفرحون بما أتوا من الباطل من كتمان الحق، والكذب والنفاق من أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم، وذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ ﴾.

١٩- ذم الذين يحبون أن يحمدهم الناس بما لم يفعلوه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾، وفي الحديث: «**ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة**»(٢)، وقال ﷺ: «**المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»(٣).

٢٠- أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعل من الخير واتباع الحق لا يدخل تحت الذم، بل قد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾، وقد قال إبراهيم- عليه السلام-: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الشعراء:٨٤]، لكن إن كان قصد من أحب أن يحمد بما فعل هو مجرد حمد الناس له والرياء والسمعة فهذا محرم لا يجوز.

٢١- الوعيد والتهديد للذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه، وأنهم لن ينجوا من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

٢٢- أن لهؤلاء الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا عذابًا أليمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٢٣- ينبغي أن لا يفرح الإنسان- حتى بما أتى من الخير- فرح بطر واختيال، وإنما فرح استبشار، كما ينبغي للإنسان أن يخلص لله تعالى في عمله، وأن لا يطلب المدح من

---

(١) أخرجه أبوداود في العلم (٣٦٥٨)، والترمذي في العلم (٢٦٤٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦)، وأحمد (٢/ ٢٩٦، ٤٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١١٠)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٩)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٣٠)، وأبوداود في الأدب (٤٩٩٧)، من حديث أسماء رضي الله عنها.

الناس، وأن يخشى أن يقع في الرياء والسمعة؛ كما قال حصين بن عبدالرحمن لما سأل سعيد بن جبير أصحابه: «أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قال حصين: قلت أنا: ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت»(١).

٢٤- أن لله- عز وجل- وحده ملك السموات والأرض ملكًا مطلقًا لأعيانها وما فيهما، وتصرفًا مطلقًا فيهما وبما فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٥- يجب أن يكون تصرف الملوك والملاك بما تحت أيديهم وفق شرع الله تعالى؛ لأن ملكهم لذلك ملك مقيد، وهم وما تحت أيديهم ملك لله تعالى.

٢٦- لا يجوز اختصاص أحد بشيء مما أوجده الله لعامة الخلق إلا بمقتضى الشرع؛ لأن الملك كله لله؛ ولهذا قال ﷺ: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»(٢).

٢٧- عموم قدرة الله- عز وجل- لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٠).

(٢) أخرجه أبوداود في الخراج والإمارة (٣٠٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٨)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى ختام هذه الآيات العشر من سورة آل عمران»(١).

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿فِي خَلْقِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾، أي: إن في إبداع وإيجاد السموات والأرض على غير مثال سابق، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧، الأنعام:١٠١].

و«الخلق» معناه: الإبداع والإيجاد على غير مثال سبق، وأصله: التقدير: ثم الإيجاد والتنفيذ، كما قال زهير(٢):

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٨٦).

أي: ولأنت تنفذ وتوجد ما قدّرت.

أي: أنَّ في إيجاد السموات والأرض وتعددهما وكبرهما وسعتهما، وكثرة ما أُودع فيهما من المخلوقات العظيمة والمنافع الكثيرة، وما هما عليه من انتظام السير والحركة، والإحكام والإتقان، وبديع الصنع، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وإن في اختلاف الليل والنهار. أي: في تعاقبهما وتداخلهما وطول أحدهما وقصر الآخر، وتساويهما أحيانًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

واختلافهما أيضًا في كون الليل مظلمًا والنهار مضيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

واختلافهما فيما يقع ويتغير فيهما من الأحوال من حر وبرد، وشدة ورخاء، وفقر وغناء، وعز وذل، ونعيم وخذلان، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

﴿ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، ﴿ لَأٓيَٰتٍ ﴾: اللام للتوكيد، و(آيات): اسم ﴿ إِنَّ ﴾ مؤخر، و(آيات): جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ ﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: علامة ملكه.

والآيات نوعان: آيات شرعية، وآيات كونية، وهي المرادة في هذه الآية. أي: لآيات كونية دالة على كمال قدرة الله تعالى وقوته وعظمته، وكماله في ذاته وصفاته؛ في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

ففي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من الآيات العظيمة والدلائل العجيبة ما يبهر الناظرين، ويأخذ بلباب عقول المتفكرين، ويدل على عظمة الخالق وكمال قوته، وتمام قدرته وشمولها، وحكمته، وعظيم سلطانه، وسعة علمه ورحمته وعموم فضله، ووجوب شكره وطلب مرضاته، وتعلق القلب به وإخلاص العبادة له وحده، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي: لأصحاب الألباب، و﴿ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾: جمع «لب» وهو العقل، وسمي العقل لبًا؛ لأنه خالص الإنسان، كما أن اللب خالص الحبة؛ ولهذا قال ﷺ عن العقل: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

أي: لآيات لأصحاب العقول الذين ينتفعون بعقولهم بالتفكر والنظر في آيات الله تعالى، ويستدلون بها على عظمة الخالق وكماله في ذاته وصفاته، في ربوبيته وألوهيته

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، فيهتدون بالتفكر في هذه الآيات إلى الرشد في دينهم وإلى الحق[١]. وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[٢]

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب، ثم بين صفاتهم في هذه الآية وما بعدها، ليدلل على أنه ليس كل ذي لب وعقل ينتفع بالآيات، وإنما ينتفع بها الذين ترشدهم عقولهم إلى النظر والتأمل في الآيات وإلى اتباع الحق.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾: في محل جر صفة لـ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي: الذين يذكرون الله بقلوبهم بالتفكر في عظمة الله تعالى والتأمل في آياته الكونية والشرعية وغير ذلك، وبألسنتهم بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك، وبجوارحهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك.

﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾: حال، أي: حال كونهم ﴿قِيَٰمٗا ﴾ على أقدامهم، وحال كونهم ﴿قُعُودٗا﴾ أي: جلوسًا، وحال كونهم ﴿عَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ أي: مضطجعين على جنوبهم.

والمراد أنهم يذكرون الله تعالى على أي حال كانوا عليها، أي: في جميع أحوالهم. وفي حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[٣].

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة:١٦٤].

(٢) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١١١٧)، وأبوداود في الصلاة (٩٥٢)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «التفكر»: إعمال الفكر والعقل، وهو من أعظم أنواع العبادة، أي: ويتأملون بأفكارهم وعقولهم في كيفية خلق السموات والأرض وعظمة ذلك، وأنها لم تخلق عبثًا، وإنما خلقت لأمر عظيم، ولهذا يقولون:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا. والمراد بالربوبية في الآية وما بعدها الربوبية الخاصة، ربوبية التوفيق والنصر والتأييد.

﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ «ما»: نافية. والإشارة «هذا» تعود إلى خلق السموات والأرض، أي: ما خلقت هذا الخلق العظيم ﴿بَٰطِلًا﴾: صفة لمصدر محذوف، والتقدير: خلقًا باطلًا، أو حال من «هذا»، وهي حال لازمة، لا يستغنى عنها؛ لأنها لو حذفت لاختل الكلام، أي: ما خلقت هذا في حال أنه باطل.

ويجب الوصل بين ﴿بَٰطِلًا﴾ وما قبله؛ لئلا يُفهم السكوت على ما قبله معنى فاسدًا، والباطل: ضد الحق، والمعنى: ما خلقت السموات والأرض باطلًا، أي: لعبًا ولهوًا وعبثًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦].

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، «سبحان»: مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف، والتقدير: نسبحك تسبيحك.

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين أي: تنزيهًا لك أن تخلق السموات والأرض باطلًا وعبثًا.

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط السبب بالمسبب، و«قنا» مأخوذ من الوقاية، أي: واجعل لنا وقاية من عذاب النار، بتوفيقنا لتقواك بعمل ما أمرتنا به، وترك ما نهيتنا عنه، ومغفرة ذنوبنا، ورحمتنا فننجو من النار.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

هذه الآية كالتعليل لما قبلها، أي: قنا عذاب النار؛ لأنك من تدخل النار فقد أخزيته.

قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا.

﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ﴾، ﴿مَن﴾: شرطية، ﴿تُدۡخِلِ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد».

وقوله: ﴿مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ﴾: يشمل كل من يدخل النار من الكفار والعصاة.

﴿فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ «الخزي»: الفضيحة، وهتك الستر والإهانة والإذلال على رؤوس الأشهاد، أي: فقد فضحته وهتكت سترته وأهنته وأذللته على رؤوس الخلائق، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:٦٣]، وقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [هود:٣٩].

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿مِنۡ أَنصَارٖ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف مبتدأ مؤخر. وقدم الخبر؛ تأكيدًا للنفي، و﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَنصَارٖ﴾: للاستغراق في النفي، أي: ما لهم من أيِّ أنصار، أي: من أيِّ أعوان يمنعونهم أو يخلصونهم من النار قبل دخولها أو بعده.

وأظهر هنا في مقام الإضمار فلم يقل: «وما لهم من أنصار»؛ للتسجيل عليهم بالظلم ووصفهم به، وربط الحكم بعلته، وبيان أن الظلم هو سبب دخولهم النار وخزيهم، ولتعميم الحكم، وأن كل ظالم سيدخل النار، ولا ناصر له- وفي هذا كله التحذير من الظلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾.

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا﴾، أي: يا ربنا إننا سمعنا، أي: سمعنا سماعًا حسيًّا بآذاننا، وسماعًا معنويًّا بقلوبنا، ﴿مُنَادِيٗا﴾، المنادي: الذي يرفع صوته بالنداء بالكلام؛ لأجل أن يسمع، ومنه سُمي «الأذان»: بالنداء.

أي: سمعنا داعيًا، وهو الرسول محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾، صفة لـ﴿مُنَادِيًا ﴾، أي: يدعو للإيمان، وقال ﴿لِلْإِيمَٰنِ ﴾ باللام، ولم يقل: «إلى الإيمان»؛ لأن اللام ألصق.

وفي قوله: ﴿مُنَادِيًا ﴾ بالتنكر، وقوله: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾ تعظيم لشأن المنادي، ولشأن المنادى به: فالمنادي محمد ﷺ أفضل وأشرف منادٍ وداعٍ إلى الله تعالى، والمنادى به هو الإيمان بالرب عز وجل، أعظم وأكرم نداء.

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾، ﴿أَنْ ﴾: تفسيرية، أي: يقول: آمنوا بربكم، أو مصدرية، أي: بأن آمنوا بربكم؛ يقولون هذا تحدثًا بنعمة الله تعالى، على ما أنعم به من إرسال هذا المنادي، محمد ﷺ.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه، والإذعان والانقياد له.

﴿فَـَٔامَنَّا ﴾ الفاء: للتعقيب، تفيد مبادرتهم للإيمان، وتسبب الإيمان عن السماع من غير مهلة، والمعنى فآمنا بربنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ الفاء: عاطفة، تفيد السببية، أي: فبسبب إيماننا اغفر لنا ذنوبنا، أي: استر ذنوبنا وتجاوز عنا.

والمراد بالذنوب هنا- والله أعلم- الكبائر، فهي التي تحتاج إلى مغفرة الله تعالى، إما بقبوله التوبة منها، وإما بتفضل منه- عز وجل- بمغفرتها، ويؤيد هذا قولهم بعده:

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ تكفير السيئات: سترها ومحوها. و«سيئات» جمع «سيئة»، والمراد بها هنا- والله أعلم- الصغائر- وهي التي تكفر بالأعمال الصالحة وبالمصائب، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١]، وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٣٣)- من حدث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب**»(١).

وسميت «سيئات» لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره مباشرة أو غير مباشرة، فتسوء صاحبها في الحال بظهور آثارها السيئة على نفسيته بالاضطراب والقلق وضيق الصدر، وعلى وجهه وبشرته بالانقباض والاسوداد، وعلى مسار حياته وأموره وأحواله- بحيث تتعسر أموره، وفي الحديث: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(٢).

وتسوء صاحبها في المآل عندما يحاسب ويجازى ويعاقب عليها.

وقد تسوء السيئات غير صاحبها مباشرة، إذا كانت متعدية، أي: فيها اعتداء على الغير.

وقد تكون مساءتها للغير غير مباشرة إذا كانت غير متعدية، لكنها تسوء الغير مساءة عامة للعباد والبلاد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، الواو: عاطفة، والوفاة: الموت، أي: وأمتنا واقبضنا مع الأبرار، و«الأبرار»: جمع «بار»، أو جمع «بَرّ»، وهو كثير البر والخير، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨].

وسمي الموت وفاة؛ لأن الميت قد استكمل أجله ورزقه وعمله. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢].

والمراد بالمعية هنا في قولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ المعية والمصاحبة الحكمية، لا

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٠٣).

(٢) سبق تخريجه.

الزمنية؛ لتعذر وفاة الأبرار في آن واحد.

أي: واقبضنا إليك إذا قبضتنا في عداد الأبرار وجملتهم، واحشرنا معهم، واجمعنا بهم. وليس هذا منهم دعاء بالموت، وإنما هو دعاء بملازمة البر، والاستمرار عليه إلى الممات، كما قال يوسف- عليه السلام-: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] أي: توفني على الإسلام إذا توفيتني، وكما قالت مريم- عليها السلام: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم:٢٣]، فليس هذا دعاء بالموت، وإنما معناه: يا ليتني مت قبل أن يقع هذا.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا﴾، أي: يا ربنا وآتنا، أي: وأعطنا.

وفي تصديرهم كل دعواتهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: بندائهم ربهم عز وجل باسم الربوبية الخاصة دلالة على قوة إيمانهم، وشدة تعلقهم بربهم، وتعظيمهم له، وخضوعهم له وتلذذهم بمناجاته بهذا الدعاء.

﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية في محل نصب مفعول ثان لـ«آت»، أي: الذي وعدتنا من دخول الجنة، أو من النصر ودخول الجنة، أي: ما وعدتنا من ثواب الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:١٤٨].

﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، أي: على ألسنة رسلك، وقيل: على الإيمان برسلك، والأول أصح.

والمعنى: يا ربنا، وأعطنا الذي وعدتنا على ألسنة رسلك، من النصر ودخول الجنة بالتوفيق لفعل أسبابه، والاستمرار على ذلك حتى الممات على الإيمان.

ويدل لصحة هذا قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ مع أنهم لم يطلبوا هنا عدم إضاعة أعمالهم، ويؤيد هذا قولهم قبله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الخزي: الفضيحة والإهانة والإذلال، أي: ولا تفضحنا يوم القيامة بين الخلائق.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾: تعليل لما قبله، أي: لأنك لا تخلف الميعاد، وهذه من الصفات السلبية المنفية، التي تدل مع نفي هذه الصفة إثبات كمال ضدها، فكونه- عز وجل- لا يخلف الميعاد يدل على كمال صدقه، وتمام وفائه بوعده، كما يدل على كمال وتمام قدرته؛ لأن إخلاف الوعد إنما يكون بسبب أمرين، إما كذب الواعد، أو عجزه وعدم قدرته على الوفاء بوعده، ووعد الله تعالى حق، وهو أصدق القائلين، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم:٦] ، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠] ، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم:٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، الفاء للتعقيب، تفيد سرعة إجابته لهم، و«استجاب» بمعنى «أجاب» أي: أجابهم ربهم، قال الشاعر:

وداع داعا يا من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب(١)

أي: فلم يجبه.

و«استجاب» أبلغ من «أجاب»؛ لأن السين والتاء للتأكيد، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا.

وكما سألوه- عز وجل- باسم ووصف الربوبية الخاصة ﴿رَبَّنَا﴾ ربوبية النصر والتأييد واللطف والعناية الخاصة، أجابهم بذلك فقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ هذا تفسير للاستجابة، أي: فاستجاب لهم ربهم، قائلًا: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي: بأني لا أضيع عمل عامل منكم، أي: لا

---

(١) البيت لكعب بن الأسود الغنوي يرثي قريبًا له. انظر «الأصمعيات» (ص٩٦).

أهدر ولا ألغي عمل عامل منكم، أي: جزاء عمل عامل منكم.

وهذا دليل على أن المراد بقولهم: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ تحقيق قبول أعملهم وسلامتها من الحبوط؛ لينالوا بذلك ما وعدهم الله به على ألسنة رسله.

و﴿عَمَلَ﴾: مضاف، و﴿عَٰمِلٍ﴾ مضاف إليه، فيقتضي العموم لأي عمل قلَّ أو كثرُ، فإن الله لا يُضِيعه، والعموم لكل عامل منهم، فإن الله لا يضيع عمله، أيًّا كان هذا العامل، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ﴾ ﴿مِّن﴾ بيانية، بيان لـ﴿عَٰمِلٍ﴾ أي: سواء كان هذا العامل ذكرًا أو أنثى، وقدم الذكر؛ لأنه أفضل من حيث العموم.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ أي: الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، وكلكم سواء في الاستجابة لدعائكم، وحفظ أعمالكم، ومجازاتكم عليها، كما قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [النساء:٣٢].

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾، الفاء للتفريع على قوله: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ فهو من ذكر الخاص بعد العام؛ لأهمية الخاص.

﴿هَاجَرُوا۟﴾: خرجوا من بلادهم وتركوها وانتقلوا إلى بلاد الإسلام، والهجرة في اللغة: الترك. وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: ضُيِّق عليهم، وأُلجئوا واضطُروا إلى الخروج من ديارهم، كما حصل للنبي ﷺ وكثير من أصحابه- رضي الله عنهم- كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة:١] أي: يضطرونكم بأذاهم لكم للخروج، كما قال كعب بن زهير(١):

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٣).

في فتيـة مـن قـريش قـال قـائلهم بـبطن مكـة لمـا أسـلموا زولـوا

أي: قائل قائلهم من المسلمين اخرجوا من مكة، وذلك لما لقوا من أذى المشركين. وقد قال ورقة بن نوفل عندما انطلقت خديجة بالنبي ﷺ إليه في بدء الوحي، وأخبره ﷺ بما رأى قال ورقة: «يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجيَّ هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»(١).

﴿وَأُوذُواْ﴾ أي: وأصابهم الأذى بالقول والفعل قبل الهجرة والإخراج وبعد ذلك.

﴿فِي سَبِيلِي﴾ أي: في طريقي وسبيل مرضاتي وديني، كما حصل للنبي ﷺ حيث وضع سلا الجزور على ظهره وهو ساجد عند الكعبة»(٢).

وأغرى به أهل الطائف سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه(٣)، ورماه المشركون بالسحر والجنون والشعر والكهانة وغير ذلك- كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في مواضع عدة.

كما أُوذي أصحابه- رضي الله عنهم- وعُذِّبوا، منهم بلال وخباب وغيرهما.

﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر: «وقاتلوا وقُتّلوا»، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «وقُتِلوا وقاتلوا»، وقرأ الباقون كالأولى لكن بالتخفيف: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

أي: ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ أي: قاتلوا الكفار وجاهدوهم في سبيل الله.

﴿وَقُتِلُواْ﴾ أي: وقتلهم الكفار في سبيل الله، وكانوا شهداء.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر، قال: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفر الله عني

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٤)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٠)، ومسلم في الجهاد والسير- ما لقي النبي ﷺ من الأذى (١٧٩٤)، والنسائي في الطهارة (٣٠٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

سيئاتي؟ قال: نعم، ثم سكت ساعة. قال: أين السائل آنفًا؟ فقال الرجل: ها أنا ذا. قال: ما قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر أيكفر الله عني سيئاتي؟ قال: نعم، إلا الدَّين، سارني به جبريل آنفًا»(١).

وقراءة (قُتِّلوا) بالتشديد معناها شدة القتل.

وليس المراد بالآية أنهم جميعًا قتلوا، فيكون الوعد بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ الآية خاصًّا بمن (قُتل)، وإنما معنى الآية: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ فمنهم من قتل، ومنهم من لم يقتل، والجميع منهم من قتل ومن لم يقتل موعدون بقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الآية، ويدخل في هذا المهاجرون والأنصار- رضي الله عنهم.

قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، الجملة: خبر المبتدأ في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ واللام في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: للقسم.

فالجملة مؤكدة بلام القسم، وبالقسم المقدر، ونون التوكيد، والتقدير: والله لأكفرن عنهم سيئاتهم.

فبسبب ما حصل منهم وما حصل لهم من هجرتهم وإخراجهم من ديارهم، وإيذائهم في سبيل الله ودينه، وقتالهم للكفار، وقتل من قتل منهم واستشهاده في سبيل الله، بسبب هذه الأشياء الخمسة أقسم الله- عز وجل- على تكفير سيئاتهم، أي: محو ما وقع منهم من السيئات، أي: الذنوب الصغائر، التي تكفرها الأعمال الصالحة والمصائب.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، الجملة: في محل رفع معطوفة على جملة: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾، مؤكدة مثلها باللام، والقسم المقدر، ونون التوكيد، أي: والله لأدخلنهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

و﴿جَنَّٰتٍ﴾ جمع «جنة» وهي البساتين والمنازل التي أعدها الله تعالى لأوليائه المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢].

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٥٥).

وقال ﷺ لأم حارثة: «**إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(١).

وتأتي ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في القرآن الكريم كثيرًا مجموعة، فيراد بها أنواع الجنات، كما تأتي كثيرًا منفردة ﴿جَنَّةٌ﴾ ويراد بها مطلق الجنس.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، الجملة: في محل جر صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها، وبين جنباتها الأنهار، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها، يُصرِّفونها كيف شاؤوا من غير أخدود، قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان(٢)

وهي أنواع أربعة كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد:١٥].

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ ﴿ثَوَابًا﴾: مصدر مؤكد لعامل محذوف، والتقدير: لأثيبنهم ثوابًا. وقيل: حال من جنات، أي: مثابًا بها.

والثواب: اسم لما يثاب به، أي: لما يجازى به، كالعطاء: اسم لما يعطى، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦] أي: هل جوزي.

وقد يطلق الثواب على الإثابة، أي: على فعل المثيب.

﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: منه- عز وجل- وعنده، وفي هذا تعظيم لهذا الثواب؛ لأنه من العظيم سبحانه وتعالى، ومن عنده؛ ولهذا قال ﷺ في الدعاء الذي علمه أبوبكر رضي الله عنه: «**واغفر لي مغفرة من عندك وارحمني**»(٣).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ الجملة: مؤكدة لما سبق أي: والله عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا، أي: الثواب الحسن، الذي لا أحسن منه، فهو يجازي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأعد لأوليائه في دار كرامته من النعيم ما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «النونية» (ص٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

لا يحيط به الوصف.

كما قال ﷺ عن الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾»(١) [السجدة:١٧].

الفوائد والأحكام:

١- عظم ما في الكون من الآيات الدالة على معرفة الله تعالى وعظمته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧].

٢- عظم خلق السموات والأرض وما فيها من الأعيان والمنافع، وعظم اختلاف الليل والنهار في تعاقبهما واختلاف الأحوال فيهما، وغير ذلك.

٣- الحث على التأمل والنظر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وما في ذلك من الآيات العظيمة.

٤- منة الله- عز وجل- ونعمته على العباد في إيجاد هذه الآيات العظيمة في الكون لتكون منارًا لهم للطريق إليه والإقبال عليه، وأعلامًا شاهدة على توحيده بالربوبية

---

(١) سبق تخريجه.

والألوهية وكمال الذات والصفات.

٥- منة الله عز وجل ونعمته على الخلق باختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، وتساويهما أحيانًا، وتقلب الأحوال فيها من حر وبرد ونحو ذلك لما في ذلك من المنافع لهم.

٦- أن الذين ينتفعون بالآيات الكونية والشرعية هم أصحاب الألباب والعقول، الذين يُعملون عقولهم في الآيات ويستفيدون منها؛ لذلك خصّهم الله تعالى فقال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ومن عداهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

٧- فضيلة أصحاب الألباب والعقول النيرة التي تتأمل وتنظر في آيات الله والثناء عليهم؛ لأن الله خصَّهم بالذكر.

٨- أن العقل الذي هو مناط المدح هو عقل الرشد الذي يهدي ويرشد صاحبه إلى الحق ويمنعه عن الباطل، كما قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]. أي: لذي لب وعقل يحجز صاحبه عما لا يليق. أما عقل: الإدراك، فهو مناط التكليف، لكن لا يمدح به.

٩- الثناء على أصحاب الألباب والعقول بذكرهم الله تعالى على جميع أحوالهم وتفكرهم في خلق السموات والأرض، ودعائهم ربهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآيات.

١٠- الترغيب بذكر الله تعالى على الدوام، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾. وعن عائشة- رضي الله عنها- أنه ﷺ: «**كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه**»(١). وقال ﷺ: «**لايزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض- ذكر الله تعالى حال الجنابة وغيرها (٣٧٣)، وأبوداود في الطهارة (١٨٥)، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، من حديث عبدالله بن بسر رضي الله عنه.

١١- أن من أيسر الأعمال ذكر الله تعالى حيث يستطيع الإنسان القيام به على أي حال كان.

١٢- جواز ذكر الله تعالى حال الجنابة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ الآية.

١٣- مشروعية ذكر الله تعالى حال كون الإنسان مضطجعًا على جنبه، وأنه لا يعد استهانة بالذكر ولو كان ذلك بقراءة القرآن.

١٤- الثناء على الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ويعلمون أنها لم تخلق باطلًا وعبثًا، ترغيبًا فيه وحثًّا عليه، لقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾، وقد ذم عز وجل الذين لا يتفكرون في آياته، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥].

١٥- فضيلة التفكر في آيات الله الكونية؛ لأن الله أثنى على الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، وفي الأثر: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه»(٢).

وقال عيسى عليه السلام: «طوبى لمن كان قيله تذكرًا وصمته تفكرًا، ونظره عبرًا»(٣).

١٦- إثبات أن الله- عز وجل- خلق السموات والأرض بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾، والصفات المنفية تدل مع النفي على إثبات كمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر:٨٥].

وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الآية:٣].

---

(١) روي هذا عن ابن عباس وأبي الدرداء وأنس- رضي الله عنهم. انظر: «روح المعاني» (١/ ٣٧٠).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٦٠).

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٦٠).

١٧- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، ومن أن يخلق هذا الخلق باطلًا وعبثًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾.

١٨- أن من تفكر في خلق السموات والأرض متجردًا عن الهوى قاده ذلك إلى أن الله تعالى لم يخلق هذا الخلق باطلًا وعبثًا، وإنما خلقه لأمر عظيم، ولحكمة بالغة، وهو تحقيق العبودية لله تعالى، ومجازاة الخلائق بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

وقد أحسن القائل[1]:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح[2]

١٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين، والتوسل إليه تعالى بدعائه باسم الرب ووصف الربوبية الخاصة؛ لأن من أخص معاني الربوبية الخلق والملك والتدبير، والعناية بالمربوب والرحمة له والرأفة به والشفقة؛ ولهذا كان جل دعاء الأنبياء- عليهم السلام- والصالحين بهذا الاسم، كما في دعاء أولي الألباب في هذه الآيات، فقد ابتدأوا دعاءهم وخللوه بندائه تعالى بهذا الاسم خمس مرات إظهارًا للخضوع له- عز وجل- والتضرع إليه وشدة حاجتهم إليه.

٢١- أن من أعظم وأول ما يدعو به أصحاب العقول ربهم سؤاله الوقاية من النار؛

---

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» (ص١٢٤).

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» (ص١).

لقولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، وطلب النجاة من المرهوب مقدم على سؤال المطلوب، وكما يقال: التخلية قبل التحلية.

٢٢- أن الدعاء ينبغي أن يكون بعد الثناء على الله تعالى؛ لقولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ثم أتبعوا ذلك بالدعاء بقولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ وما بعده. وفي الحديث: **أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو في صلاته، ولم يحمد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال ﷺ: «عجل هذا» ثم قال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بما شاء»**(١).

٢٣- جمع هؤلاء بين الذكر والتفكر والخوف من النار؛ بخلاف ما عليه كثير من الخلق من التفريط مع الأمن من مكر الله.

٢٤- إثبات النار وعذابها وما فيها من الخزي لمن أدخل فيها، ووجوب الحذر منها، وسؤال الوقاية منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾.

٢٥- أن من أدخله الله النار فقد أخزاه وأذله.

٢٦- أن الظلم سبب لدخول النار، والظالمون والكفار هم أهلها، ولا ناصر لهم يدفع عنهم أو ينقذهم من عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

٢٧- إعلان المؤمنين منة الله تعالى ونعمته عليهم في بعثة محمد ﷺ يدعوهم إلى الإيمان؛ لقولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾.

٢٨- أن مهمة الرسول ﷺ، وكذا الرسل قبله دعوة الناس للإيمان بربهم، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾.

٢٩- شهادة الأمة للنبي ﷺ بالبلاغ؛ لقولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾.

---

(١) أخرجه أبوداود في الدعاء (١٤٨١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧)، من حديث فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

٣٠- في قرن الدعوة للإيمان باسم ووصف الربوبية تذكير للعباد بنعمة ربوبيته تعالى لهم، فهو خالقهم ومالكهم ورازقهم ومدبرهم.

٣١- مبادرة أصحاب الألباب والعقول إلى الإيمان، والاستجابة للمنادي، لقولهم: ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾.

٣٢- جواز التوسل بالإيمان والأعمال الصالحة في الدعاء؛ لقولهم: ﴿فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾، وكما جاء في قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فقال بعضهم لبعض: «إنه لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تتوسلوا إلى الله بصالح أعمالكم» الحديث[1].

٣٣- أن مغفرة الذنوب وتكفير السيئات مطلب شرعي لجميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ إذ لا أحد يسلم من الذنوب والسيئات.

٣٤- أن المعاصي منها ما يسمى ذنوبًا ومنها ما يسمى سيئات؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ فالذنوب المراد بها الكبائر التي تحتاج إلى مغفرة الله، إما تفضلًا منه سبحانه، أو بسبب التوبة منها، ونحو ذلك. وأما السيئات فالمراد بها الصغائر، وهي التي تكفر بالأعمال الصالحة، أو بالمصائب ونحو ذلك.

٣٥- جواز سؤال الوفاة مع الأبرار، أي: على ما ماتوا عليه من الإيما ن والبر، والحشر معهم وفي جملتهم وعدادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

وكما قال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

٣٦- فضيلة الأبرار وعلو مكانتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ حيث رغب هؤلاء الوفاة معهم.

٣٧- كمال إيمان هؤلاء المؤمنين بوعد الله تعالى لهم على ألسنة رسله بالجنة والثواب العظيم، وإيمانهم برسله؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٣٨- أن النجاة من المرهوب مقدمة على حصول المطلوب؛ لهذا قدم هؤلاء سؤال

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

الوقاية من النار ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات ثم سألوا الوفاة مع الأبرا ر وإيتائهم ما وعدهم الله على ألسنة رسله.

٣٩- أن الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه، وهم المبلغون عن الله وحيه ووعده ووعيده؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٤٠- إثبات الرسل والرسالات، ووجوب الإيمان بهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٤١- إثبات يوم القيامة وما فيه من الخزي والذل للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٤٢- جمع هؤلاء المؤمنين في دعائهم بين الرجاء والخوف، بين رجاء الله والثقة بوعده وثوابه وبين الخوف من الله ومن عذاب النار والخزي يوم القيامة.

٤٣- أن الله تعالى لا يخلف الميعاد، لكمال صدقه وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

٤٤- إجابة الله تعالى دعاء هؤلاء المؤمنين ونضمهم تحت ربوبيته الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٤٥- أن الله تعالى يجازي كلًا بما عمل، ولا يضيع عنده عمل عامل، مهماكان العمل قلة وكثرة، وأيًا كان العامل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾.

٤٦- تساوي العاملين في الجزاء أمام الله تعالى، حسب أعمالهم، ذكورهم وإناثهم.

٤٧- تضييق المشركين على المؤمنين في مكة حتى ألجؤوهم إلى الهجرة وأخرجوهم من ديارهم، وأذيتهم لهم بسبب إيمانهم ومقاتلتهم لهم وقتلهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾.

٤٨- أن الهجرة والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، والقتال والاستشهاد سبب لتكفير السيئات، ودخول الجنات والثواب الحسن من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾، وقد أكد هذا بلام القسم، والقسم المقدر ونون التوكيد.

٤٩- فضل الهجرة والصبر على الأذى في سبيل الله، والقتال والاستشهاد في سبيله.

٥٠- أن الهجرة أفضل من القتال في سبيل الله؛ لتقديم قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ في الآية.

٥١- لا يلتذ بحصول المطلوب إلا بعد زوال المرهوب، ولهذا قدم تكفير السيئات في الآية على دخول الجنات.

٥٢- إثبات الجنات التي أعدها الله منازل للمؤمنين وما فيها من الأنهار الجارية تحت أشجارها وقصورها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٥٣- عظم ما أعد الله للمؤمنين، يؤخذ من قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بالتنكير، أي: جنات عظيمة، ومن قوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فكونه من عند الله يدل على عظمته التي لا يقدر قدرها إلا العظيم سبحانه وتعالى.

٥٤- أن أحسن الثواب وأعظمه وأجله من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، و(يغرن) فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصح خطابه، أي: لا يغرنك أيها الرائي تقلب الذين كفروا في البلاد.

﴿تَقَلُّبُ﴾ التقلب: التردد والتصرف والتنقل، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الذين أنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه وكذبوا رسله أو شيئًا من ذلك.

﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ﴿ٱلْبِلَٰدِ﴾: جمع «بلد» يجمع على «بلاد» وعلى «بلدان».

والمعنى: لا يخدعنك أيها الرائي تردد الذين كفروا وتصرفهم في البلاد والأرض وتنقلهم من بلد إلى آخر في تجاراتهم وصناعاتهم وأعمالهم وما هم فيه من النعم ورغد العيش، فتظن أنهم على شيء وتنخدع بما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤].

والمصيبة أن كثيرًا من المسلمين قد اغتروا وانبهروا بما عليه الغرب فصاروا دعاة لتقليدهم – ليس بما هو مطلوب من الأخذ بأسباب التقدم الصناعي والحضارة والرقي- ولكن بما هم عليه من التحلل عن الدين والأخلاق، فكانوا دعاة للتغريب والسفور، والتخلي عن الثوابت والأخلاق الإسلامية لسان حالهم ومقالهم كما قال الشاعر:

يقولون في الإسلام ظلمًا بأنه ... يصد ذويه عن طريق التقدم

فإن كان ذا حقّا فكيف تقدمت ... أوائله في عصرها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله ... فماذا على الإسلام من جهل مسلم
هل العلم في الإسلام إلا فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلم
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نوم
ودك حصون الجاهلية بالهدى ... وقوض أطناب الضلال المخيم
ألا قل لمن جاروا علينا بحكمهم ... رويدًا فقد قارفتم كل مأثم
فلا تنكروا هذي الحقيقة إنها ... لأبين من هذا الحديث المرجم(١)

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ هذه الجملة وما بعدها: تعليل للنهي السابق، و﴿مَتَٰعٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هو متاع قليل، والمعنى: لأنه متاع قليل، والضمير يعود إلى ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾. أي: أن ما هم فيه من التقلب في البلاد والنعم مع ما هم عليه من الكفر.

والمتاع: كل ما يتمتع ويتلذذ ويتنعم به من منفعة عاجلة، من مأكل ومشرب أو ملبس أو مسكن أو مركب، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد:٢٦].

﴿قَلِيلٞ﴾ أي: قليل في كمه وكيفه، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها، فهو زهيد حقير ليس بشيء بالنسبة لما أعد لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، قليل في زمنه فما أسرع ما يزول أو يزول الإنسان عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [التوبة:٣٨].

﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ ﴿ثُمَّ﴾: للعطف مع التراخي، وجيء بها هنا للإشارة إلى حقارة ذلك المتاع مهما طالت مدته، إذا كانت نهايتهم إلى هذا المآل القبيح المؤلم، فهو مجرد استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

---

(١) الأبيات للشاعر معروف الرصافي. انظر: «ديوانه» (ص١٩٨).

أي: ثم مصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ أي: النار، وسميت بهذا الاسم؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ الواو: استئنافية، و(بئس): فعل جامد لإنشاء الذم، و﴿ٱلْمِهَادُ ﴾: فاعل (بئس)، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: وبئس المهاد هي- يعني جهنم.

و﴿ ٱلْمِهَادُ ﴾: الفراش والمقر الذي يستقر فيه، ومنه (مهاد الطفل أومهده) أي: فراشه، ومنه سميت الأرض مهادًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ [النبأ:٦]، أي: مقرًّا تستقرون عليها.

والمعنى: وبئس الفراش والمهاد جهنم للذين كفروا، وبئس ما مهدوا لأنفسهم، وفي هذا إشارة إلى أن هذا المصير بسبب ما جنته أنفسهم، وما كسبته أيديهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ قرأ أبوجعفر بتشديد النون «لكنَّ»، وقرأ الباقون بتخفيها، ﴿ لَٰكِنِ ﴾ وهي: حرف استدراك، وجيء بالاستدراك هنا؛ للإشارة للبون الشاسع والفرق الواسع بين ما متع به الذين كفروا في الدنيا، وبين ما أعد للمتقين من الجنات والنزل والخير عند الله- زيادة على مشاركتهم لغيرهم في متاع الدنيا.

﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، الذي رباهم وأيدهم ووفقهم بربوبيته الخاصة، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾، ﴿لَهُمْ ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف، خبر مقدم؛ لتأكيد حصول ذلك لهم، و﴿جَنَّٰتٌ ﴾: خبره، والجملة خبر ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ في قوله: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ سبق الكلام عليه قريبًا.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: حال، أي: حال كونهم خالدين فيها، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الجنة لا تفنى ولا ينقطع نعيمها، ولا يفنى أهلها باتفاق المسلمين؛ لتضافر

أدلة الكتاب والسنة على ذلك.

﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾: حال من ﴿ جَنَّٰتٌ ﴾، وصح مجيء الحال منها؛ لأنها تخصصت بالوصف بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

والنزل: ما يعد للنزيل، وهو: الضيف عند أول قدومه من القرى والكرامة، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣١-٣٢]، وهم ضيوف على أكرم الأكرمين منذ دخولهم الجنات وإلى الأبد، ولهم هذا النزل على الدوام.

﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: منه- عز وجل- وعنده- وهذا مما يزيده عظمة وكثرة، لأنه من أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وعنده سبحانه.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ الواو: استئنافية، و«ما»: اسم موصول.

أي: والذي عند الله من الفضل والزيادة ﴿خَيْرٌ ﴾ مما ذكر؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، أي: لهم الجنة. ﴿وَزِيَادَةٌ ﴾ **وهي النظر إلى وجه الله الكريم** كما قال ﷺ(١).

وأيضًا: وما عند الله من الحياة الطيبة والكرامة، ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ مما هم فيه في الدنيا، ومما يتقلب فيه الكفار من متاع قليل زائل.

و«الأبرار»: جمع «بَر» أو جمع «بار»، وهم: أهل «البر» وهو حسن الخلق وحسن العمل، فـ«الأبرار»: المكثرون من فعل الطاعات والخيرات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- فيما سبق من السورة أنه أخذ ميثاق أهل الكتاب؛ لبيانه للناس وعدم كتمانه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا، ثم بين في هذه الآية

---

(١) سبق تخريجه.

وقبل ختام السورة أن بعضًا من أهل الكتاب يؤمن بالله تعالى حق الإيمان، وبما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل عليهم، وفي هذا إنصاف لأهل الكتاب واحتراز من أن يظن أنهم على شاكلة واحدة.

قوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ «إنَّ»: حرف توكيد ونصب، ﴿مِنْ أَهْلِ ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر «إنَّ» مقدم، و﴿ٱلْكِتَٰبِ ﴾: مضاف إليه، و﴿مِنْ ﴾ تبعيضية، أي: وإن بعض أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ الآية، وهم قلة من اليهود، منهم عبدالله بن سلام وغيره، وكثير من النصارى، منهم النجاشي ملك الحبشة وغيره.

قال ابن كثير[1] في كلامه على هذه الآيات: «وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلًا، كما وجد في عبدالله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ الآية [المائدة:٨٢-٨٥].

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- لما قرأ سورة ﴿كٓهيعٓصٓ ﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه، حتى أخضبوا لحاهم»؛ ولهذا لما مات النجاشي قال ﷺ لأصحابه: «**إن أخًا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه**» فخرج إلى الصحراء، فصفّهم، وصلى عليه»[2].

واللام في قوله: ﴿لَمَن ﴾: لام الابتداء للتوكيد، و«مَنْ»: اسم موصول مبني في محل نصب اسم «إنَّ» مؤخر، أي: للذي يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز- الرجل ينعى في أهل الميت بنفسه (١٢٤٥)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وأخرجه مسلم في الجنائز (٩٥٣)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ الواو: عاطفة، أي: ويؤمن بالذي أنزل إليكم، والخطاب لهذه الأمة، أي: ويؤمن ويصدق بالوحي الذي أنزل إليكم على لسان نبيكم ﷺ من القرآن والسنة، وعموم ذلك للناس جميعًا، قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: ويؤمن بالذي أنزل إليهم من الوحي، فاليهود منهم يؤمنون بما أنزل في التوراة، والنصارى يؤمنون بما أنزل في الإنجيل، ومن ذلك ما جاء في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾: حال، أي: حال كونهم خاشعين لله، والخشوع لله هو: الذل والخضوع له- عز وجل- والطاعة.

﴿لَا يَشۡتَرُونَ﴾أي: لا يستبدلون ولا يأخذون ولا يطلبون، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالتصديق بآيات الله الشرعية والعمل والحكم بها وبيانها.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ أي: ثمنًا زهيدًا حقيرًا من الدنيا، من المال أو الجاه أو الرياسة، ونحو ذلك- مقابل تكذيبهم بها وكتمانهم لها- كما هو حال كثير من أهل الكتاب، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ الإشارة: لمن آمن من أهل الكتاب بالله وبما أنزل إليهم، وما أنزل إلى هذه الأمة، ولم يشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ رفعة لهم وتعظيمًا لشأنهم.

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ قدم الخبر ﴿لَهُمۡ﴾؛ تأكيدًا لحصول الأجر لهم.

﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ جزاؤهم وثوابهم، وسمى عزوجل ثوابهم أجرًا؛ لأنه ضمنه لهم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وتكفل لهم به.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من ربهم- عز وجل- ومدخر لهم عنده، وفي هذا تعظيم لأجرهم، وتأكيد لضمانه لهم وبيان قربهم من ربهم عز وجل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، والسرعة: عدم التباطؤ في الشيء. والله- عز وجل- سريع الحساب من وجوه عدة.

الأول: أن أجله وحسابه آت، وكل آت قريب.

والثاني: أن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، فمهما طال عمره فهو قصير، بل الدنيا كلها قليلة بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

والثالث: أن الإنسان يجد في الحال شيئًا من ثمرة وآثار عمله، فإن عمل خيرًا وجد من آثار ذلك نورًا في وجهه وتيسيرًا في أموره، وإن عمل شرًّا وجد من آثار ذلك سوادًا في وجهه وعسرًا في أموره.

ففي الآية على هذا: إخبار بقرب أجرهم، وأنه يبادر لهم بشيء من أجرهم في الدنيا، كما يبادرون بأجرهم كاملًا يوم القيامة.

الرابع: أنه- عز وجل- يحاسب الخلائق على وجه السرعة ولا يحتاج إلى طويل وقت لحسابهم؛ لأنه لا يخفى عليه منهم ولا من أعمالهم شيء، كما قال: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وقد قال بعض أهل العلم: إن الله يحاسب الخلائق في نصف يوم؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩). وقال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤]، قالوا: فيحاسب عز وجل الخلائق في نصف النهار الأول ثم في النصف الثاني من النهار يقيل أهل الجنة فيها.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه السورة العظيمة بأمر المؤمنين في هذه الآية الكريمة بهذه الوصايا الأربع العظيمة، التي عليها مدار صلاح أمر الدين والدنيا والآخرة، وعِز الإسلام ونصر المسلمين، وهي: **الصبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله تعالى**؛ ولهذا رتَّب الله- عز وجل- عليها الفلاح في الدنيا والآخرة.

ولا يخفى ما في الأمر بهذه الوصايا العظيمة من تجديد عزائم المؤمنين، وبعث هممهم، ورفع معنوياتهم، وغمر قلوبهم بالرجاء، بعدما أصابهم ما أصابهم في أُحد، بسبب مخالفة الرُّماة أمر الرسول ﷺ.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ ﴾ أي: اصبروا على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وعلى قتال الكفار، وبدأ بالصبر لأن معه النصر والظفر، وبه نُجْح المطالب، ونيل المآرب، وقد أحسن القائل:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر (١)

وقال الآخر:

والصبر مثل اسمه مر مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل (٢)

﴿وَصَابِرُواْ ﴾ «المصابرة» على وزن «المفاعلة» كالمقابلة، ونحو ذلك، وهي: مقاومة الخصم في ميدان الصبر، أي: الصبر في وجه الصابر، وتكون بين اثنين، أو فريقين فأكثر، وهي: أخص من الصبر، وأشد على النفس، ونتيجتها تكون لأطول الصابرين صبرًا، وأشدهم مقاومة، وهي: من أسباب الانتصار على العدو وعلى الخصم، كما قال

---

(١) البيت مجهول القائل. انظر: «أوضح المسالك» (٤/ ١٧٢).

(٢) البيت مجهول القائل. انظر: «ربيع الأخيار» (ص٢١٢).

الشاعر[١]:

سقيناهم كأسًا سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

أي: وصابروا الأعداء، أي: غالبوهم بالصبر، كما أنهم يغالبونكم فيه، فكونوا أصبر منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء:١٠٤].

والفرق بين «الصبر» و«المصابرة» أن الصبر هو حال الصابر في نفسه، والمصابرة حاله في الصبر مع خصمه، أي: مقاومة الخصم في ميدان الصبر.

﴿وَرَابِطُوا۟﴾ هذا انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فـ«الصبر»: دون «المصابرة»، و«المصابرة»: دون «المرابطة»، و«المرابطة»: مفاعلة من الربط، وهو: ربط الخيل للحراسة في الثغور، وللجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠].

والمرابطة: الثبات والملازمة، والإقامة على الصبر والمصابرة في حراسة ثغور المسلمين، وقتال الأعداء، وفي عبادة الله تعالى. أي: ورابطوا في الثغور وفي قتال الأعداء. قال ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**»[٢].

وعن سلمان الفارسي- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتَّان**»[٣].

وعن عثمان- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**»[٤].

---

(١) هذا البيت للنابغة الجعدي. انظر: «ديوانه» (ص٧٢). وينسب لزفر بن الحارث في اعتذاره عن انهزام قومه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد- فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الرباط (١٩١٣).

(٤) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٦٩)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٧)، وأحمد (١/ ٦١، ٦٤، ٦٥). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»(١).

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»(٢).

وأيضًا: ورابطوا على العبادة وداوموا عليها في مكانها، ومن ذلك انتظار الصلاة بعد الصلاة، كما قال ﷺ: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط**»(٣).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أعم مما قبله، أي: اتقوا الله في فعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأن التقوى هي جماع هذه الأمور الثلاثة : الصبر والمصابرة والمرابطة، وملاك الأمر كله، فلا ينفع الصبر، ولا المصابرة، ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على الصبر والمصابرة والمرابطة.

قال ابن القيم(٤): «فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته».

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، وأعظم ذلك وأجله الفوز بالجنة ورؤية العزيز الجبار، والنجاة من النار.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن الاغترار بما عليه الكفار من التقلب في البلاد، وما هم فيه من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾. وفي هذا أيضًا: تسلية

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩). وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١)، والنسائي (١٤٣)، والترمذي في الطهارة (٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (١/ ٥٤١).

للرسول ﷺ والمؤمنين لما يرون عليه الكفار من التقلب في البلاد والنعم.

٢- أن الله- عز وجل- يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فليس التمكين في الدنيا دليلًا على رضى الله ومحبته.

٣- استدراج الكفرة والعُصاة بالنعم والخيرات، فتنة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤-٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٧].

٤- أن المؤمن قد يبتلى بالفقر وضيق العيش ونحو ذلك؛ ليرجع إلى الله تعالى، ويسلم من الأشر والبطر، كما قال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(١).

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(٢).

وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: جئت رسول الله ﷺ، فإذا هو في مشربة، وإنه لعلى حصير، ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وعند رجليه قرظ مصبور، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: «**ما يبكيك**»؟ قلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت رسول الله! فقال: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة**»(٣).

٥- أن من أوتي الإيمان فقد أعطي خيرًا كثيرًا- يقصر دونه من حرم الإيمان ولو ملك الدنيا بحذافيرها، فلا ينبغي أن نغتر بما في أيدي الكفار من الدنيا- وقد خسروا الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ

---

(١) أخرج الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩١٣)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩).

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص:٦١].

٦- أن الدنيا كلها متاع قليل، عمرها، وما فيها من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿متاع قليل﴾ فلا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقال ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم لينظر بم يرجع**»(١).

٧- الإشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن الحذر كل الحذر من الافتتان في الدنيا وما فيها من الزخرف ومتاع الغرور، فلا ينتقل منها من شيء إلى شيء؛ طلبًا للترف والرفاهية فينغمس في وحلها، وينسى الهدف الذي خلق له، وهو عبادة الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٥، الحديد:٢٠].

٨- أن مصير الذين كفروا إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ ﴾.

٩- شدة ظلمة النار وجهمتها وشدة حرها وبعد قعرها؛ لهذا سميت بـ﴿جَهَنَّمُ ۚ ﴾.

١٠- أن ما يحصل عليه الكفار من التقلب في البلاد، ومتاع الدنيا القليل سرعان ما ينسيهم إياه ما يصيرون إليه من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤].

وفي الحديث: «أنه يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب»(٢).

١١- أن النار بئس الفراش والمقر لمن مهد لنفسه المصير إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ

---

(١) أخرجه مسلم- في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٨٥٨)، من حديث المستورد أخي بني فهر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- صبغ أنعم أهل الدنيا في النار (٢٨٠٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ٱلْمِهَادُ ﴾.

١٢- الإشادة بحال المؤمنين ومآلهم وما أعد لهم في الآخرة من الكرامة- مهما كانوا عليه في الدنيا من ضيق الحال أو سعتها؛ لقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾ الآية.

١٣- فضيلة التقوى والترغيب فيها والإغراء بما أعد الله لأهلها من جنات تجري تحت قصورها وغرفها وأشجارها الأنهار.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمتقين.

١٥- خلود أهل الجنة فيها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾، وعلى هذا تكاثرت الأدلة وأجمعت الأمة.

١٦- عظم ما أعد لأهل الجنة من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾. فوصفه بـ«النزل» وهو ما يقدم للضيف أول قدومه من القرى والكرامة. فهذا النزل لهم عند الله تعالى على الدوام؛ لأبدية الجنة، بخلاف نزل الضيف، فإنما يكون أول قدومه ثم ينقطع، كما بين عز وجل أنه من عنده، فلا يقدر قدر عظمته إلا الذي منحهم إياه، وهو أكرم الأكرمين.

١٧- شتان بين حال الكفار وحال المتقين في الدارين، فالكفار متعوا في الدنيا قليلًا وصار مآلهم ومقرهم النار، والمتقون فازوا برضى ربهم في الدنيا مع ما متعوا فيها، وصاروا إلى الجنات وضيافة أكرم الأكرمين.

١٨- أن ما عند الله تعالى للأبرار خير مما ذكر في الآية، وخير مما هم فيه في الدنيا، وخير مما يتقلب فيه الكفار في الدنيا من النعم؛ لقوله-تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

١٩- الثناء على بعض أهل الكتاب بالإيمان بالله، وما أنزل على النبي ﷺ وأمته من الوحي في القرآن والسنة، والإيمان بما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

٢٠- كمال عدل الله- عز وجل- بإسناد الفضل لأهله، والثناء على مَن آمن مِن أهل الكتاب، والاحتراز من أن يظن أنهم سواء وأنهم كلهم كفار، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟

سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران:١١٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩].

٢١- إخلاص هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب لله تعالى وخشوعهم وذلهم له، وتعظيمهم لآياته عملًا بها وبيانًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

٢٢- التعريض بذم أكثر أهل الكتاب لكفرهم بالله وكتمانهم آياته.

٢٣- وعد الله تعالى لهؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بالأجر العظيم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، بل إن الله- عز وجل- وعدهم بمضاعفة أجرهم مرتين، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وفي الحديث: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران**»(١) الحديث.

٢٤- إثبات الحساب، وسرعة حساب الله- عز وجل- للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

٢٥- الترغيب في ثواب الله لمن أطاعه واتقاه، والترهيب من عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٢٦- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢٧- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢٨- وجوب الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٢٩- ينبغي مصابرة الأعداء ما أمكن؛ إقامة للحق، ودفعًا للباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَابِرُواْ ﴾.

٣٠- الحث على المرابطة في ثغور المسلمين وفي الجهاد في سبيل الله، والمداومة على عبادة الله تعالى، والصلاة ولزوم الطاعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَابِطُواْ ﴾.

٣١- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

٣٢- الوعد بالفلاح والفوز لمن صبر وصابر ورابط واتقى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة آل عمران..... ٥
المقدمة ٧
أ-اسم السورة: ٧
ب-مكان نزولها:..... ٧
جـ-فضلها:..... ٧
د-موضوعاتها:..... ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢...﴾ الآيات [١-٤] ٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥...﴾ الآيات [٥-٩] ... ٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ ...﴾ الآيات [١٠-١٣] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ ...﴾ الآيات [١٤-١٧] ٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ...﴾ الآيات [١٨-٢٠] ٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١...﴾ الآيات [٢١-٢٥]..... ١١١
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ ...﴾ الآيتين [٢٦، ٢٧] ١٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ...﴾ الآيتين [٢٨، ٢٩] ١٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ ...﴾ الآيات [٣٠-٣٢] ١٤١

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ...﴾ الآيات [٣٣-٣٧] ١٥٦

تفسير قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ...﴾ الآيات [٣٨-٤١] ١٧٣

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ...﴾ الآيات [٤٢-٤٤] ١٨٧

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ...﴾ الآيات [٤٥-٥١] ١٩٦

تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٥٢-٥٤] ٢١٤

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ ...﴾ الآيات [٥٥-٥٨] ٢٢٢

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ...﴾ الآيات [٥٩-٦٣] ٢٣٧

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ...﴾ الآيات [٦٤-٦٨] ٢٤٨

تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ...﴾ الآيات [٦٩-٧٤] ٢٦١

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ...﴾ الآيات [٧٥-٨٠] ٢٧٣

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ الآيات [٨١-٨٣] ٢٩٧

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ...﴾ الآيات [٨٤-٩٢] ٣٠٧

تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ...﴾

الآيات [٩٣-٩٥] ٣٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾...﴾
الآيتين [٩٦، ٩٧] ٣٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾...﴾
الآيات [٩٩-١٠١] ٣٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾...﴾
الآيات [١٠٢-١٠٥] ٣٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾ الآيات [١٠٦-١٠٩] ٣٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ الآيات [١١٠-١١٢] ٤٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآيات
[١١٣-١١٥] ٤١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾
الآيتين [١١٦، ١١٧] ٤٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾
الآيات [١١٨-١٢٠] ٤٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ...﴾ الآيات
[١٢١-١٢٩] ٤٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً...﴾ الآيات
[١٣٠-١٣٢] ٤٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾
الآيات [١٣٣-١٣٦] ٤٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾...﴾ الآيات [١٣٧-١٤٣] ٤٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ الآيات [١٤٤-
١٤٨] ٥١٨

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩...﴾ الآيات [١٤٩-١٥٢]..... ٥٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ ...﴾ الآيات [١٥٣-١٥٥] ٥٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ...﴾ الآيات [١٥٦-١٥٨]..... ٥٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ...﴾ الآيات [١٥٩-١٦٣]..... ٥٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ...﴾ الآيات [١٦٤-١٦٨]..... ٦١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩...﴾ الآيات [١٦٩-١٧٥]..... ٦٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ ...﴾ الآيات [١٧٦-١٨٠]..... ٦٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ ...﴾ الآيات [١٨١-١٨٥] ٦٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ...﴾ الآيات [١٨٦-١٨٩] ٦٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠...﴾ الآيات [١٩٠-١٩٥]..... ٦٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦...﴾ الآيات [١٩٦-٢٠٠] ٧٠٧
فهرس الموضوعات..... ٧٢٣

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الخامس

تفسير سورة النساء (الآيات: ١-٤٨)

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٥

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

(ح) دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٣٦ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنِّسَاءِ

(ٱلآيَات: ١-٤٨)

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة سورة النساء[١]؛ لذكر النساء فيها، ولأن فيها كثيرًا من الأحكام تتعلق بالنساء: من العدل بينهن، وإيتائهن مهورهن وتوريثهن، وتأديبهن إذا أتين بفاحشة، وحسن معاشرتهن، وذكر ما حرّم وما أحل منهن، وقوامة الرجال عليهن، والثناء على الصالحات منهن، وكيفية معالجة الناشزات منهن، والصلح بينهن وبين الأزواج عند النشوز، وغير ذلك.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة النساء بالمدينة، فهي مدنية، ويدل على ذلك ما يلي:

١- عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ- وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده...**»[٢].

والرسول ﷺ إنما بنى بعائشة ودخل بها في المدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة، وإن كان عقد عليها قبل ذلك في مكة[٣].

٢- ما روي عن عبدالله بن عباس(٤)، وعبدالله بن الزبير، وزيد بن ثابت رضي الله

---

(١) كما تسمى «سورة الطلاق» سورة النساء القصرى.

أخرجه البخاري عن عبدالله بن مسعود في تفسير سورة الطلاق (٤٩١٠)، وانظر «الإتقان» (١/ ٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- باب تأليف القرآن (٤٩٩٣).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١)، «زاد المعاد» (١/ ١٠٥- ١٠٦).

(٤) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» ص(٧٣- ٧٤)- الأثر (١٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣١٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٤٤). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١١٦)، وفي «الإتقان» (١/ ١٠- ١١) وانظر «البرهان» للزركشي (١/ ١٩٣- ١٩٤).

عنهم[١]: «أن سورة النساء نزلت بالمدينة».

وكذا روي عن قتادة[٢] ولا مخالف لهم من السلف[٣].

٣- أن سورة النساء اشتملت على كثير من الأحكام الشرعية التفريعية والأحكام إنما نزل أغلبها في المدينة بخلاف العقائد فإن أغلبها نزل بمكة.

٤- كما أنها تتميز بطول الآيات، كما هو الغالب في الآيات المدنية.

- وكونها صدرت بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لا يلزم منه أن تكون مكية؛ لأن القول بأن ما صُدِّر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي، وما صُدِّر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو مدني إنما هو ضابط أغلبي، وغير مطرد؛ ولهذا فإن سورة البقرة مدنية بالإجماع بلا خلاف، ومع ذلك ففيها موضعان صدرا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الآية (٢١) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الآية (١٦٨).

وإنما الضابط المطرد في المكي والمدني: أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، سواء نزل بمكة أو خارجها، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني، سواء نزل بالمدينة أو خارجها، فالعبرة بالزمان، لا بالمكان؛ ولهذا فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ الآية (٥٨) من سورة النساء مدنية، وقد نزلت في مكة، بل في جوف الكعبة، كما هو المشهور في سبب نزولها[٤]؛ لأنها نزلت بعد الهجرة.

جـ- ترتيبها بين سور القرآن الكريم:

ترتيب سورة النساء بين سور القرآن الكريم: الرابعة، قبلها الفاتحة والبقرة وآل عمران، في الترتيب الأخير الذي استقر عليه الأمر، كما جاء في المصحف الذي

---

(١) ذكره عنهما ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٧٨). ونسبه لابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي عن قتادة في «الدر المنثور» (٢/ ١١٦) ونسبه لابن المنذر.

(٣) وما روي عن النحاس أن سورة النساء مكية كما ذكره ابن عطية وغيره، فهو قول شاذ.
انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١).

(٤) سيأتي ذكره عند تفسير هذه الآية إن شاء الله.

جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم عثمان رضي الله عنه وأجمعت عليه الأمة[١].

عن حذيفة- رضي الله عنه- قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها..» الحديث[٢].

وكان هذا- والله أعلم- في أول الأمر، لكن يستدل به أيضًا على جواز ترك الترتيب بين السور، سواء في الصلاة أو خارجها[٣].

د- فضلها:

أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام[٤]، بإسناده عن حارثة بن مضرب قال: «**كتب إلينا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور**».

ورُويَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**من قرأ سورة النساء فعلم ما يحجب، مما لا يحجب علم الفرائض**»[٥] كما رُويَ عنه وعن ابن مسعود آثار في فضل آيات منها[٦].

هـ- موضوعات السورة ومجمل قضاياها:

سورة النساء أطول سورة في القرآن بعد سورة البقرة. وقد اشتملت على موضوعات عدة منها ما يلي:

١- تقرير حقيقة الربوبية، وأمر الناس جميعا بتقوى الله عز وجل إجمالا- والتي هي وصية الله للأولين والآخرين- وتوكيد وجوبها بعدة مؤكدات في مطلع السورة وفي ثناياها.

---

(١) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٢٦٢)، «الإتقان» (١/ ٢١٦)، «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي (٧١).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل» (٧٧٢)، وأحمد (٥/ ٣٨٤، ٣٩٧).

(٣) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٦/ ٦٢).

(٤) في «فضائل القرآن» باب فضل سورة البقرة وآل عمران والنساء ص(١٢٨).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١١٦)، ونسبه لابن أبي شيبة في المصنف.

(٦) انظر: «فتح القدير» (١/ ٤١٦- ٤١٧).

٢- بيان أن الناس خلقوا من أصل واحد هو آدم، خلقه الله، وخلق منه زوجه حواء عليهما السلام، ومنهما تناسل البشر، والأمر بتقوى الأرحام وصلتها إجمالا، وهو داخل تحت الإجمال الأول «**الأمر بتقوى الله**» ثم جاء تفصيل ذلك كله بعد هذا، وفي ثنايا السورة.

٣- حماية حقوق اليتامى.

فأول وصية في السورة- بعد الأمر بتقوى الله وتقوى الأرحام: الأمر بإيتاء اليتامى أموالهم، وحفظها لهم والنهي عن أكلها، والأمر بالعدل معهم، والقيام لهم بالقسط، وبخاصة اليتيمات عند الرغبة في نكاحهن، والنهي عن ترك الأموال بأيدي السفهاء من اليتامى والصبيان والنساء والرجال، والأمر بالنفقة عليهم فيها والكسوة واختبار اليتامى عند البلوغ؛ لمعرفة رشدهم، ورد أموالهم إليهم، إذا تحقق رشدهم، والنهي عن أكل أموالهم على وجه الإسراف والمبادرة خوف كبرهم، ووجوب استعفاف الولي إذا كان غنيًّا عن مال اليتيم، وجواز أكله منه بالمعروف إذا كان فقيرًا، والإشهاد عليهم عند دفع الأموال إليهم، وتحريك مشاعر الأولياء والأوصياء وعامة الناس تجاه حقوق اليتامى بتذكيرهم أن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، ومن ثم الوعيد الشديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلما.

٤- حماية حقوق النساء، وتنظيم الأسرة:

تناولت السورة كثيرًا من الأحكام المتعلقة بحقوق النساء، وتنظيم الأسرة، منها: الأمر بالعدل فيهن وبخاصة اليتيمات بأداء حقوقهن من المهور وغيرها، وإباحة تعدد الزوجات بشرط العدل بينهن بما يمكن العدل فيه، ووجوب إيتاء النساء مهورهن دون الاعتداء عليها من الأزواج أو الأولياء إلا بطيبة أنفسهن، وبيان أن للنساء نصيبًا من الميراث كما أن للرجال نصيبًا منه، والنهي عن إرث النساء مكرهات، بأن يخلف أقارب الرجل على زوجته إذا مات عنها دون رضاها، والنهي عن عضلهن ما لم يأتين بفاحشة مبينة، والأمر بمعاشرتهن بالمعروف، والصبر عليهن عند كراهتهن، فإن العاقبة قد تكون حميدة. وجواز الطلاق واستبدال زوجة بأخرى، والنهي عن أخذ شيء مما أعطى للمطلقات، والتشديد في ذلك وأنه من البهتان العظيم والإثم المبين، والإنكار بعد

الإنكار على من يفعله، وبيان المحرمات من النساء بالمصاهرة، والنسب، والرضاع، والجمع، والنكاح، وبيان الحلال منهن، وإباحة نكاح الإماء المؤمنات بشروط، وتأديبهن إذا فعلن فاحشة، وذكر أن القوامة للرجال على النساء؛ لفضلهم وإفضالهم عليهن، والثناء على الصالحات منهن، وذكر علاج الناشزات منهن، والإصلاح بين الزوجين عند حصول النشوز بينهما توفيقًا أو تفريقًا، والوصية بالنساء، وبخاصة اليتيمات بالقيام لهن بالقسط والعدل، أداءً لحقوقهن ودفعًا للظلم عنهن.

٥- تقسيم المواريث:

مما اختصت به سورة النساء وتميزت به عن سائر سور القرآن تضمنها لأحكام المواريث على سبيل الإجمال والتفصيل، فذكر فيها إجمالا أن لكل من الرجال ولكل من النساء نصيبًا من الميراث.

ثم جاء تفصيل ذلك في ثلاث آيات منها ذكر فيها جميع الورثة وأنصبتهم ما عدا الجدة.

فاشتملت الآية الأولى على ذكر ميراث الأولاد والأبوين، واشتملت الآية الثانية على ميراث الأزواج والإخوة لأم، واشتملت الآية الثالثة وهي التي في نهاية السورة على ميراث الإخوة الأشقاء والإخوة لأب، وقد تضمنت الآيتان في أول السورة التوكيد على إخراج الوصية والدين قبل قسمة المواريث.

كما جاء في السورة قبل ذلك الأمر بإعطاء من حضر القسمة من أولي القربى واليتامى والمساكين غير الوارثين والجمع لهم بين الإحسانين: الإحسان الفعلي والإحسان القولي، وجاء فيها بعد ذلك ذكر ما يجب للموالي من الميراث والنصرة وغير ذلك.

٦- الترغيب والحث على طاعة الله والإيمان، والعمل الصالح، والتحذير من المعصية والكفر والشرك واتباع الشيطان، والوعد لمن أطاع الله والرسول وآمن وعمل صالحًا بالجنة وما فيها من النعيم والمغفرة والرحمة والأجر العظيم، والوعيد لمن عصى الله ورسوله وتعدى حدوده بالكفر والشرك بالخلود في النار والعذاب المهين والأليم.

٧- حماية المجتمع الإسلامي من الفاحشة رجاله ونسائه أحراره وأرقائه، والعقوبة لمن ارتكب فاحشة الزنا أو اللواط، والحث على الزواج الشرعي وتحصين الفروج،

وتحريم السفاح واتخاذ الأخدان ونكاح المتعة.

٨- تقرير توبة الله عز وجل على من تاب وأناب إليه ممن عملوا السيئات بجهالة، ثم تابوا من غير إصرار على عمل السيئات حتى حضور الموت، ونفي التوبة عن الذين يستمرون على عمل السيئات حتى حضور الموت.

٩- بيان أن الله عز وجل يريد البيان للمؤمنين، وهدايتهم إلى طرق الأنبياء والصالحين، والتوبة عليهم، فيما شرعه لهم من الأحكام، خلاف ما يريده أتباع الشهوات من إبعادهم كل البعد عن دينهم، وتقرير أنه عز وجل يريد التخفيف فيما شرعه مراعاة لضعف الإنسان.

١٠- الحفاظ على الأموال والأنفس والدين، وذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل، وإباحة المكاسب الطيبة عن طريق التجارة التي يحصل فيها التراضي، والنهي عن قتل الأنفس بغير حق، والحث على اجتناب الكبائر، والوعد على ذلك بتكفير الصغائر.

١١- الحث على إصلاح القلب والنهي عن التمني، والحسد المذموم، وهو تمني ما عند الغير، والحث على السعي والعمل وسؤال الله من فضله.

١٢- تقرير وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والنهي والتحذير عن الشرك، وبيان أنه لا يغفر، وأن ما دونه تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذب به، وإن شاء عفا عنه، وتوكيد ذلك بذكره في موضعين من السورة.

١٣- تقرير مبدأ الإحسان والتكافل الاجتماعي في الإسلام، والأمر بالإحسان الفعلي والإحسان القولي إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان وغيرهم من بني الإنسان، والإحسان إلى الحيوان.

١٤- ذم بعض الصفات غير الحميدة والتحذير منها: كالاختيال والفخر والبخل والرياء وغير ذلك.

١٥- تقرير عدله عز وجل في حساب الخلائق، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولا مقدار فتيل. وفضله عز وجل في مضاعفة الحسنات والأجور، وأن من يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه، ومن يعمل سوء يجز به.

١٦- تقرير شهادة الأنبياء على أممهم، وشهادة نبينا محمد ﷺ على هذه الأمة.

١٧- النهي عن الصلاة وعن دخول المسجد حال السكر وحال الجنابة، وتحريم السكر وقت الصلاة، والتعريض بتحريمه مطلقًا، والأمر بالغسل عن الجنابة لمن يريد الصلاة أو دخول مواضعها، ومشروعية التيمم عن الحدثين الأصغر والأكبر عند فقد الماء.

١٨- التنديد باليهود ومؤامراتهم مع المشركين والمنافقين ضد المسلمين، وكيدهم للإسلام، واشترائهم الضلالة، وإرادتهم إضلال المسلمين، وبيان أنهم أعداء الأمة الإسلامية، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وطعنهم في الدين، ودعوتهم للإيمان بما جاء به الرسول ﷺ وتحذيرهم من طمس الوجوه وردها على أدبارها، ولعنهم بسبب كفرهم وعدم إيمانهم- كما لعن أصحاب السبت، والتنديد بهم في تزكيتهم لأنفسهم، وافترائهم الكذب على الله، وإيمانهم بالجبت والطاغوت، وقولهم إن الكافرين أهدى سبيلا من المؤمنين، وحسدهم للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وعنادهم وسؤالهم الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء كما سألوا موسى أكبر من ذلك أن يريهم الله جهرة، وأخذ الصاعقة لهم، واتخاذهم العجل، ونقضهم ميثاقهم وكفرهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا، وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم والرد عليهم، وتحريم الطيبات عليهم بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل، ونهي الله لهم عن الغلو في دينهم، وعن القول على الله بغير حق، وبيان أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والرد على النصارى في زعمهم أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة! الله وعيسى وأمه تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

وتقرير أن الألوهية لله وحده سبحانه أن يكون له ولد، وبيان أن المسيح عليه السلام بريء مما يقولون، ولا يستنكف ولا يستكبر أن يكون عبدًا لله، وكذا الملائكة المقربون، فكلهم عبيد لله- تعالى.

١٩- الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، وطاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر، وأن ذلك من شرط الإيمان، ووجوب التحاكم إلى الرسول ﷺ والانقياد لحكمه مع الرضى والتسليم لذلك، وتحريم التحاكم إلى الطاغوت.

٢٠- التنديد بالمنافقين، وما هم عليه من النفاق، وفي زعمهم الإيمان بما أنزل إلى

الرسول ﷺ، وما أنزل من قبله مع تحاكمهم إلى الطاغوت، واتباعهم الشيطان وصدودهم عما أنزل الله، وحلفهم عندما تصيبهم مصيبة أنهم ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق، وبيان كذبهم في ذلك، وأمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم، وبيان أنهم لا يؤمنون حتى يتحاكموا إلى الرسول ﷺ وينقادوا لحكمه ويرضوا به ويسلموا له تسليمًا.

وبيان عدم خروجهم للجهاد وتثاقلهم وتبطئتهم لغيرهم، وإظهار فرحهم على المسلمين عندما تصيبهم مصيبة، وأنهم لم يشهدوا القتال معهم، وتمنيهم أنهم شهدوا القتال عندما يصيب المسلمين فضل من الله من نصر وغنيمة، وإظهارهم الطاعة عند رسول الله ﷺ، فإذا برز بعضهم إلى بعض بيَّت طائفة منهم العداء والكيد للإسلام خلاف ما يقولون، وإذاعتهم ما يأتيهم من الأمر أو الخوف وعدم رد ذلك إلى الرسول ﷺ وأولي الأمر منهم، وتحرُّج طائفة من الصحابة من قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما يظهرون من الإيمان.

وبيانه عز وجل وضوح أمر المنافقين وظهور نفاقهم وكفرهم، وبيان بعدهم عن الإيمان والهدى؛ لأن الله أضلهم، ومودتهم أن يكفر المؤمنون فيكونون سواء، والنهي عن اتخاذهم أولياء، والأمر بأخذهم وقتالهم إن تولوا وأعرضوا وظهر كفرهم ونفاقهم، وموالاتهم للكافرين واليهود يريدون منهم العزة، والعزة لله جميعًا، وكفرهم بآيات الله واستهزاؤهم بها، والتحذير من مجالستهم والقعود معهم، وتربصهم مع الكافرين بالمؤمنين الدوائر، فإن كان للمؤمنين فتح زعموا أنهم مع المؤمنين، وإن كان للكافرين نصيب مالؤوهم على المؤمنين، ومخادعتهم لله وهو خادعهم، وقيامهم للصلاة- إذا قاموا- كسالى، ومراءاتهم للناس، وقلة ذكرهم لله، وتذبذبهم بين المؤمنين والكافرين، والوعيد لهم بأنهم في الدرك الأسفل من النار إلا الذين تابوا منهم.

٢١- تقرير أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله- تعالى.

٢٢- الأمر بالقتال في سبيل الله وأخذ الحذر من أعداء الأمة عسكريًّا وفكريًّا، والتحذير من المبطئين عن الخروج إلى القتال من ضعاف الإيمان والمنافقين، والحث والحض على القتال في سبيل الله وتخليص المستضعفين ببيان ما أعده الله للمجاهدين، وبيان فرق ما بين القتالين: القتال في سبيل الله، والقتال في سبيل الطاغوت، وبيان

ضعف كيد الشيطان، والتعجب من حال الذين يزعمون الإيمان ويخشون الناس ويودون لو تأخَّر فرض القتال في سبيل الله، وبيان أن الموت له أجل محدد وقدر مقدر، فالقتال لا يقربه والاختفاء في بروج مشيدة لا ينجي منه، وبيان بعض الطوائف التي لا ينبغي قتالها، والذين يُقاتَلون، ونفى استواء القاعدين غير أولي الضرر والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبيان ما أعده الله للمجاهدين من الدرجات والأجر العظيم والمغفرة والرحمة، وتقوية قلوب المؤمنين في الجهاد وفي طلب الكفار، بذكر أن الألم كما يصيبهم فهو يصيب أعداءهم، مع ما يرجوه المؤمنون من ثواب الله، والتوكيد بأخذ الحيطة والاحتراز من الكفار، وحمل السلاح حتى حال صلاة الخوف.

٢٣- التزهيد في الدنيا ومتاعها الزائل، والترغيب في الآخرة، والتذكير بالموت والاستعداد له.

٢٤- تقرير أن الحسنات والسيئات كلها من عند الله تقديرًا، وأن الحسنات شرعًا من الله ومن العبد فعلا.

٢٥- الحثُّ على تدبر القرآن، وبيان أنه من عند الله، لا اختلاف فيه، وأن الله أنزله بالحق؛ لتدبره والحكم به والعمل بما فيه.

٢٦- الترغيب في الشفاعة الحسنة، والتحذير من الشفاعة السيئة.

٢٧- الأمر برد التحية بأحسن منها أو بمثلها.

٢٨- تقرير المعاد وجمع الخلائق يوم القيامة.

٢٩- النهي عن موالاة اليهود والمنافقين والكافرين.

٣٠- تحريم القتل العمد والوعيد الشديد عليه، وذكر حالات القتل الخطأ، وما يترتب عليه من الكفارة والدية.

٣١- الأمر بالتثبت والتبين في الأمور، وعدم التسرع في الإقدام على قتل معصوم لأجل عرض الدنيا الزائل.

٣٢- وجوب الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام، والوعيد لمن ترك الهجرة مع القدرة عليها، والعفو عمن لم يستطع الهجرة من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

٣٣- مشروعية قصر الصلاة، وصفة صلاة الخوف.

٣٤- وجوب صلاة الجماعة، والتوكيد على أداء الصلاة كاملة إذا زال الخوف.

٣٥- الأمر بذكر الله على كل حال بعد قضاء الصلاة؛ لأنه يقوي القلب، ويعوِّض ما فات وما حصل من تجاوز في صلاة الخوف.

٣٦- وجوب الحكم بما أنزل الله، والنهي عن المخاصمة لأجل الخائنين والمجادلة عنهم، ووجوب الاستغفار، وتأكده عند الانغلاق في الحكم.

٣٧- فضل الله على رسوله ﷺ وعصمته له من الخطأ في الحكم، وإنزال الكتاب والحكمة عليه.

٣٨- بيان أنه لا خير في كثير مما يتناجى الناس فيه، إلا الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس.

٣٩- التحذير من مشاقة الرسول ﷺ، والخروج عن إجماع المسلمين.

٤٠- التحذير من اتخاذ الشيطان وليًّا، ومن مكره وغروره.

٤١- تقرير كمال غناه عز وجل وكمال قدرته، وأن ما في السموات والأرض كله له.

٤٢- التحذير من إرادة الإنسان بعمله الدنيا فقط، والترغيب في طلب ثواب الدنيا والآخرة.

٤٣- الأمر بالقيام بالقسط وإقامة الشهادة لله على كل أحد ولو على النفس أو الوالدين والأقربين، وعلى الغني والفقير، والتحذير من ترك العدل والتحريف في الشهادة أو كتمانها.

٤٤- حاجة المؤمنين في كل لحظة، وعلى كل حال إلى صدق الإيمان وتجديده وتوكيد ذلك.

٤٥- تيئيس من تكرر منهم الكفر بعد الإيمان مرة تلو أخرى، ثم ازدادوا كفرًا، والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وظلموا ببعدهم عن الهداية والمغفرة.

٤٦- النهي عن الجهر بالسوء من القول إلا في رفع ظلامة.

٤٧- الحثُّ على فعل الخير سرًا وجهرًا والعفو عمن أساء.

٤٨- تقرير صدق رسالة النبي ﷺ، وأنه أوحي إليه كما أوحي إلى غيره من الأنبياء

عليه وعليهم الصلاة والسلام.

٤٩- شهادة الله على أن ما أنزل على رسوله من الوحي هو الحق، أنزله بعلمه وشهادة الملائكة بذلك.

٥٠- حثُّ الناس جميعًا على اتباع الرسول ﷺ، والإيمان بما جاء به من الحق والبرهان من عند الله.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

افتتح الله- عز وجل- هذه السورة بأمر الناس عمومًا بتقواه بعبادته، وتقوى الأرحام بصلتها، والحث على ذلك إجمالا، ثم فصل ذلك فيما بعد أتم تفصيل.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾.

افتتح الله بهذا المطلع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ سورتين من سور القرآن الرابعة من النصف الأول من القرآن وهي سورة النساء، والرابعة من النصف الثاني من القرآن وهي سورة الحج، وقد علل في المحل الأول وهو سورة النساء بذكر مبدأ الخلق لأنه الأول، وعلل في المحل الثاني وهو سورة الحج بذكر المعاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، «يا» حرف نداء مبني على السكون لا محل له من الإعراب، و«أيّ» اسم منادًى، نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب مفعول به، لفعل محذوف تقديره: «أدعو»، و«ها» حرف تنبيه.

﴿ٱلنَّاسُ﴾ نعت لـ«أيّ»، تبعه في اللفظ، أو بدل منه، مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره و«ال» في قوله «الناس» للاستغراق.

وهو مشتق من «النوس»، وهو الحركة المتتابعة، الظاهرة والباطنة، وأصل «ناس»: «نَوَس» تحركت الواو وانفتح ما قبلها فصارت ألفا(١).

وقيل: «الناس» مشتق مما اشتق منه «الإنس»، و«الإنسان»، وهو: «الإيناس»، وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: رآها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي: أحسستموه، ورأيتموه، فسمي «الإنس» و«الإنسان» و«الناس» بهذا؛ لأنهم يؤنسون، أي: يرون بالعين، بخلاف «الجن»، فإنهم لا يرون بالعين؛ ولهذا سموا «جنا» من الاجتنان وهو الاستتار.

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «نوس»، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٤).

قال ابن القيم[١]: «وبين الناس» و«الإنس» مناسبة من حيث اللفظ والمعنى وبينهما اشتقاق أوسط هو عقد تقاليب الكلمة على معنى واحد»، أي: رجوع تصاريفها إلى معنى واحد».

وعلى هذا القول فأصل «الناس»: «الأناس» فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال فقيل «الناس»[٢]. قال الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا[٣]

وقيل: «الناس» مشتق من «الأنس» لأنهم يأنس بعضهم ببعض؛ لأن الإنسان كما قيل: مدني بالطبع. وقيل: إنه مقلوب «أنس» واستبعده ابن القيم[٤]؛ لأن الأصل عدم القلب.

وقيل: إن «الناس» وكذا «الإنسان» كل منهما مشتق من النسيان كما قيل:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقد رد ابن القيم هذا القول وضعفه[٤] فقال: «وأما قول بعضهم: إنه من النسيان، وسمي الإنسان «إنسانًا» لنسيانه، وكذلك الناس سموا: «ناسا» لنسيانهم فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان الذي مادته «ن س ي» إلى الناس الذي مادته «ن وس»، وكذلك أين هو من الأنس الذي مادته «أ ن س»، وأما إنسان فهو «فعلان» من «أ ن س» والألف والنون في آخره زائدتان.. ولو كان مشتقًا من «نسي» لكان «نسيانا» لا «إنسانًا».

والمراد بـ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عموم البشر الموجودين حال نزول الآية، وكذا من سيوجد من البشر إلى قيام الساعة.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ هذا أمر عام بتقوى الرب سبحانه وتعالى جاء مجملًا، وجاء تفصيله

---

(١) في «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٤)، وانظر «لسان العرب» مادة «جن».

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٦)، «لسان العرب» مادة «نوس»، «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٢٦٥)، «بدائع التفسير» (٢/ ٢٦٤).

(٣) البيت لذي جرن الحميري. انظر «اشتقاق أسماء الله الحسنى» للزجاجي (٣٢)، «لسان العرب» مادة «نوس».

(٤) في «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٤).

فيما بعده من الآيات.

و«تقوى» على وزن «فعلى». وأصلها «وقوى»، ثم قلبت الواو تاء لعلة تصريفية[١]، وهي مأخوذة من الوقاية، يقال وقاه، يقيه وقاية، أي: من الوقاية من الأذى والشر ودفع الضرر[٢].

قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، أي: مالهم من الله من دافع يدفع عنهم ويقيهم عذاب الله.

قال الشاعر[٣]:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا

ومنه يقال اتقى البرد، واتقى الحر، واتقى الشوك ونحو ذلك.

رُويَ أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- سأل أبي بن كعب- رضي الله عنه- عن التقوى فقال له: «**هل أخذت طريقًا ذا شوك ؟ قال: نعم. قال فما عملت؟ قال تشمرت وحذرت. قال: فذاك التقوى**»[٤].

فمعنى قوله: تشمرت وحذرت، أي: اتقيت الشوك أن يصيبني.

ورُويَ أن رجلًا سأل أبا هريرة: «ما التقوى؟ قال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى»[٥]. قال ابن المعتز[٦]:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى
كن مثل ماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «تقي» ومادة «وقى»، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٦٢)، «البيان والتعريف بما في القرآن من التصريف» (١/ ١٤).

(٢) انظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة «وقى»، «بدائع التفسير» (٢/ ٩٧).

(٣) البيت لأفنون التغلبي انظر «لسان العرب» مادة «وقى».

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٦١).

(٥) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٤) ونسبه لابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى».

(٦) انظر: «ديوانه» (٢/ ٣٧٦) تحقيق محمد بديع شريف. دار المعارف بمصر.

لا تحقـــــــرن صـــــــغيرة إن الجبـــــال مـــــن الحصـــــى

﴿رَبَّكُمُ﴾، أي: خالقكم ومالككم ومدبركم.

فالرب: هو الخالق الموجد من العدم، وهو المالك الذي لا يشركه أحد في ملكه وهو المدبر المصرف لأمور خلقه كلها على ما تقتضيه حكمته وإرادته.

وكلمة «رب» في الأصل: مأخوذة من التربية للشيء، والقيام عليه وإصلاحه وتعاهده والإنعام عليه(١) قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣]، أي: اللاتي تربونهن في حجوركم.

وفي الحديث: «**هل لك عليه من نعمة تربها**»(٢)، أي: تحفظها وتراعيها وتربيها(٣).

ورب العبد: مالكه وسيده، قال تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٤١].

ورب الشيء: صاحبه، ومنه قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، أي: صاحب العزة.

ومنه الحديث: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة**»(٤)، أي: صاحبها(٥).

ويطلق «رب» على المعبود، حتى ولو كان معبودا بغير حق، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

قال أحدهم لما وجد صنمه وقد بال عليه الثعلب:

أرب يبـــول الثعلبـــان برأســـه لقـد هـان مـن بالـت عليـه الثعالـب(٦)

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٣٨٢)، «النهاية» مادة «ربب».

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٧) عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي «ﷺ أن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه».

(٣) انظر: «النهاية» مادة «ربب».

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤)، والترمذي في الصلاة (٢١١)، وابن ماجه في الأذان (٧٢٢) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٥) انظر: «النهاية» مادة «ربب».

(٦) يروى هذا البيت لراشد بن عبدالله، ولغاوي بن ظالم السلمي، ولأبي ذر الغفاري، انظر «شرح مغني =

و«الرب» بالتعريف لا يطلق إلا على الله- عز وجل، ورب كذا- بالإضافة يطلق عليه وعلى غيره[1] ومن إطلاقه على غيره قوله تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٤١]، وقوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

وربوبية الله لخلقه نوعان؛ ربوبية عامة لجميع الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] أي خالقهم ومالكهم ومدبرهم ومربيهم بأصناف النعم.

وربوبية خاصة لأوليائه، بهدايتهم الصراط المستقيم بمعرفة الحق والعمل به، وتوفيقهم لهم، وحفظهم، كما في قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢، المؤمنون: ٤٨]، وقول المؤمنين ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥][2]. فالمراد بالربوبية في هذه الآيات الربوبية الخاصة.

ومعنى قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا معنى «تقوى الله» إذا أفردت أما إذا قرنت بالوسيلة كما في قوله ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أو بالبر كما في قوله ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فإن معناها اجتناب المعاصي، ومعنى كل من «الوسيلة» «والبر» فعل الأوامر والطاعات.

وكذلك إذا جاءت مقيدة فإنها بحسب ما قيدت به، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤].

=
اللبيب» (٢/ ٣٠٤- ٣٠٩).

(١) انظر: «النهاية» مادة «ربب».

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٦٨)، «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٦)، وانظر تفسير قول الله تعالى في مطلع الفاتحة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

وهذا أجمع معنى قيل في تفسير: تقوى الله[١].

وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف رضي الله عنهم كلها داخلة تحت هذا المعنى.

سئل علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- عن التقوى فقال: «**هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل**»[٢].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «**حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يُعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر**»[٣].

وعن عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه- قال: «**ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرًا فهو خير إلى خير**»[٤].

وعن طلق بن حبيب[٥]- رضي الله عنه- قال: «**إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى. قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله**»[٦].

قال ابن القيم في «الرسالة التبوكية»[٧] بعد أن ذكر هذا الأثر: «وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى».

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» ص(١٩٠)، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣، ٢٠/ ١٣٢)، «بدائع التفسير» (٢/ ٩٧).

(٢) انظر: «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (١/ ٤٢١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٢٢)- قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧١، ٧٢): «وهذا إسناد صحيح موقوف» وأخرجه الحاكم (٢/ ٢٩٤).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٥) ونسبه لابن أبي الدنيا.

(٥) طلق بن حبيب العنزي تابعي مشهور قال عنه الذهبي: «بصري زاهد كبير من العلماء العاملين، وكان طيب الصوت بالقرآن، برًا بوالديه مات قبل المائة. انظر «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠٦)، «البداية والنهاية» (٩/ ١٠١).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص(٤٧٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٤)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» الأثر (١٠٤٠٥، ١٧٠٠٩)، وفي «كتاب الإيمان» (٩٩). وابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١١٩)، وابن تيمية. انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣) و(٢٠/ ١٣٢).

(٧) ص(١٨).

قال القرطبي[١]: «التقوى فيها جماع الخير كله، وهو وصية الله في الأولين والآخرين وهي خير ما يستفيده الإنسان كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه:

يريد المرء أن يؤتى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضل ما استفادا»

وقال الآخر:

ألا إنما التقوى هي العز والكرم ... وتركك للتقوى هو الذل والندم[٢]

- وقرن عز وجل الأمر بالتقوى بلفظ الربوبية في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ للإشعار بوجوب تقواه على الناس جميعًا شكرًا له على نعمه التي لا تحصى واعترافًا بها؛ خلق ورزق وأنعم على الخلق بسائر النعم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ الذي: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة لـ«رب» صفة كاشفة، أي: موضحة مميزة لمعنى من معاني الرب، وهو كونه الخالق، وليست صفة مقيدة؛ لأنها لو كانت صفة مقيدة لكان المعنى أنه يوجد رب خلق ورب لم يخلق، وهذا معنى باطل؛ لأن رب الناس واحد، هو خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

ومعنى ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، أي: أوجدكم، وأصل معنى الخلق: التقدير، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها».

وقال حافظ الحكمي[٤]: «الخالق: المقدر والمقلب للشيء، بالتدبير إلى غيره».

وقال أيضًا: في كلامه على معنى «البارئ»، أي: المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود، والبرء هو الفري وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٦٢).
(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٢٩٤).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٦٠)، وانظر «الكشاف» (١/ ٤٥).
(٤) في «معارج القبول» (١/ ١٣١، ١٣٢)، وانظر «اللسان» مادة «خلق».

قدَّر شيئًا ورتَّبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل كما قال زهير(١):

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: ما قدرت، بخلاف غيرك، فإنه لا يستطيع كل ما يريد. فالخلق: التقدير والفري: التنفيذ».

فمعنى ﴿خَلَقَكُم﴾: أوجدكم بقدرته على كل شيء، وعلمه المحيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

فغير القادر لا يستطيع أن يخلق شيئًا لعجزه، وغير العالم لا يعرف كيف يخلق، وإنما الخلق- وهو الإيجاد من العدم- من خصائص العليم القدير سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقد يضاف وصف «خالق» إلى غير الله، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ومعناه على هذا تحويل المادة التي خلقها الله وأوجدها من شيء إلى شيء كتحويل المعادن التي أوجدها الله في الأرض إلى بعض المصنوعات من الأواني وغيرها، وتحويل الخشب الذي أنبته الله إلى مصنوعات خشبية من أبواب ونحوها.

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ من: بيانية، فيها بيان ما خلق الناس منه.

و«النفس» تطلق على ما يشمل الروح والبدن، وقد تطلق على الروح، كما في الحديث عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم- رضي الله عنه- وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان» الحديث(٢).

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الجنائز (٢٣١٥)، وأبو داود في الجنائز (٣١٢٦)، ومعنى يجود بنفسه: أي: يدفعها ويخرجها.

والمراد بالنفس: هنا نفس آدم عليه الصلاة والسلام، أبو البشر، الذي خلقه الله تعالى من طين، بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧١- ٧٥].

وهذا هو ظاهر الآية: أن المراد بالنفس نفس بعينها، هي نفس آدم عليه السلام، وإنما أنّث الصفة «واحدة»؛ لأن لفظ «نفس» مؤنث.

ويدل على هذا ظاهر الحديث: «**إن المرأة خلقت من ضلع أعوج**»، كما سيأتي. وقيل: المراد بالنفس الجنس، أي: من جنس نفس واحدة.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾، وقيل: معطوفة على فعل محذوف، التقدير: أنشأها وخلق منها زوجها والأول أولى؛ لعدم الحاجة إلى التقدير.

﴿زَوْجَهَا﴾: الزوج: يطلق على الشفع خلاف الوتر، وعلى الفرد الذي له قرين، فيطلق على الذكر والأنثى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] ويطلق على الجنسين المختلفين من أي شيء كانا قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

والرجل زوج المرأة، وهي زوجه وزوجته، والأفصح أن يقال: هي زوجه؛ لأن القرآن جاء بالتذكير قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، ويقال أيضًا: زوجة، في لغة تميم وأهل نجد، لكنها دون اللغة الفصحى لغة القرآن، وقد جاءت في السنة وفي كلام العرب.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال في ذكر نعيم أهل الجنة: «**ولكل امرئ منهم زوجتان**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤).

قال الفرزدق[١]:

وإن الـذي يمشـي يحـرش زوجتـي كسـاع إلى أسـد الشـرى يسـتبيلها

وقال الآخر:

فبكـى بنـاتي شـجوهن وزوجتـي والظـاعنون إليَّ ثـم تصـدعوا[٢]

والمعنى: وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها، وهي حواء عليها السلام، هذا ما يدل عليه ظاهر القرآن، كما يدل عليه ظاهر السنة والأثر.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**»[٣].

قال ابن كثير[٤]: «**وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر**».

فظاهر قوله ﷺ: «**من ضلع أعوج**» أن المراد ضلع آدم، كما قال ابن كثير وغيره، وعليه دلت بعض الآثار.

منها ما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**خلقت المرأة من الرجل**»[٥].

وعلى هذا فتكون «من» في قوله «**منها**» تبعيضية.

وقيل: المعنى: وخلق من جنسها زوجها، كقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] أي: ومن آياته أن خلق لكم من جنسكم أزواجًا، وكقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢، الشورى: ١١]، أي: من جنسكم وكقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: من جنسكم.

---

(١) انظر: «ديوانه» (٦٠٥)، «جامع البيان» (١/ ٥١٤، ٢/ ٤٤٦)، «لسان العرب» مادة «زوج».

(٢) البيت لعبدة الطبيب، وهو في «ديوانه» ص(٥٠) شعر عبدة بن الطبيب تحقيق يحيى الجبوري. وانظر «لسان العرب» مادة «زوج»، «المعجم الوسيط» (١/ ٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٣٣١)، ومسلم في الأيمان (٤٧)، وفي الرضاع (١٤٦٨)، والترمذي في الطلاق واللعان (١١٨٨)، والدارمي في النكاح (٢٢٢٢).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ١٧٩).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٥٢).

وعلى هذا القول تكون ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ لبيان الجنس، أي: من جنسها أو لابتداء الغاية.

قال ابن عطية[١] بعد أن ذكر القولين: «واللفظ يتناول المعنيين».

وقال الرازي[٢]: «الأول أقوى إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين، لا من نفس واحدة».

وفي بيانه ﷺ لطبيعة خلق المرأة وصية ثمينة للأزواج، فيها ما يضمن- بإذن الله- سعادتهما ويثلج صدر كل واحد منهما، وبالأخص الرجل. فيقنع من المرأة بما تيسر ولا يكلفها ما يتعسر، ولا يطلب الكمال منها في كل شيء ليعيشا في محبة وسلام وسعادة ووئام، وليعلم الأزواج أن كل ما يحصل من مشاكل بين الزوجين غالبًا يرجع إلى عدم تفهم الرجل لطبيعة المرأة وصدق المصطفى ﷺ حيث يقول: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها خلقا آخر**»[٣].

وقد قيل:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ... ألا إن تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضعفًا واقتدارًا على الفتى ... أليس غريبًا ضعفها واقتدارها[٤]

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾: الواو عاطفة. بث: نشر وأخرج، وذرأ وفرق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

﴿مِنْهُمَا﴾: من النفس الواحدة، وزوجها، أي: من آدم وحواء عليهما السلام، فآدم من طين، وحواء من آدم- على الصحيح من أقوال أهل العلم- وسائر البشر من آدم وحواء، ومن ذكر وأنثى، عدا عيسى بن مريم- عليه السلام- فهو وإن كان من ذرية آدم وحواء، إلا أن الله خلقه من أنثى بلا ذكر.

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٧).

(٢) في «التفسير الكبير» (٩/ ١٣١)، وانظر «البحر المحيط» (٣/ ١٥٤).

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع ١٤٦٩، وأحمد ٢/ ٣٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البيتان لحاجب بن ذبيان. انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٣٦٨) تحقيق عبدالسلام هارون «اللسان» مادة «ضلع»، «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٠٣).

وعلى هذا فآدم خلق من جماد، وهو التراب والطين، وحواء خلقت من آدم، أي: من ذكر بلا أنثى، وعيسى بن مريم خلق من أنثى بلا ذكر، ولهذا يُذكر دائمًا منسوبًا إلى أمه للتذكير بقدرة الله تعالى، وما له من الحكمة في ذلك، وسائر البشر خلقوا من ذكر وأنثى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ ﴿رِجَالًا﴾: جمع «رجل»، والرجل هو البالغ من الذكور، ويطلق على الذكر عمومًا من باب تغليب البالغ على غيره، والرجل يكون من الجن كما يكون من الإنس قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وقدم الرجال في الذكر على النساء؛ لأن الرجال أفضل من حيث العموم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقالت امرأة عمران عليها السلام فيما ذكر الله عنها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وإنما فضل الرجال على النساء لرجولتهم؛ ولهذا قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(١).

فلم يقل: فلأولى ذكر، بل قال: «**فلأولى رجل ذكر**» تنبيها على سبب تفضيلهم، وهي رجولتهم.

﴿كَثِيرًا﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، وهي صفة ﴿رِجَالًا﴾ وصرح بذكر صفة الكثرة في الرجال؛ لأهمية الكثرة في الرجال، وكونها مرغوبة؛ لأنها عز وفخر وقوة ومنعة، كما قال قائلهم:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر(٢)

أي إنما العزة للأكثر عددًا، وكانوا يضبطون عدد أفراد القبيلة بالعد بالحصى، فالأكثرون حصى هم الأكثرون عددًا.

﴿وَنِسَآءً﴾ معطوف على «رجالًا»، وبين «رجالًا» و«نساءً» طباق إيجاب.

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا.

(٢) البيت للأعشى يُفضِّل به عامرا على علقمة. انظر «ديوانه» ص(١٩٣) شرح وتعليق محمد حسين، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة السابعة، «لسان العرب» مادة «حصى».

والنساء: اسم يطلق على الإناث البالغات، كما يطلق على الإناث عمومًا من باب تغليب البالغات على غيرهن. ونساء: جمع لا واحد له من لفظه، يقال: «نساء»، ويقال: نسوة؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]، ومفرده: امرأة(١).

واستغنى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بذلك، مع أنهن أكثر من الرجال، كما هو الواقع أن النساء أكثر من الرجال، بل قد تصل نسبة عدد النساء في بعض المجتمعات إلى نحو ٦٠٪.

وقد استنبط شيخ الإسلام ابن تيمية هذا من المقارنة بين قول النبي ﷺ «**تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم؛ لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير**»(٢).

وقوله ﷺ: «**اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»(٣).

وبين قوله ﷺ في حديث أبي سعيد: «**يقول الله تعالى يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين...**» الحديث(٤).

قال ابن تيمية: «فإذا كن، أي: النساء أكثر أهل النار، وأهل النار من بني آدم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون لزم من هذا أن يكن أكثر من الرجال»(٥).

لكن تَرَك التصريح بوصفهن بالكثرة؛ لأن الكثرة في النساء غير مرغوبة؛ لأنها عالة وتعب، ومشقة ونصب؛ لضعف المرأة غالبًا، وقلة تحملها، وحاجتها إلى رجل يقف بجانبها، يدافع عنها ويحفظها، وهي هكذا خلقت، وهذا لا يقلل من شأن النساء فهن من

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «نسا».

(٢) أخرجه مسلم في العيدين (٨٨٥)، وأحمد (٣/ ٣١٨) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه. وأخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (٨٠)، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما (٧٩).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢)، والترمذي في التفسير (٣١٦٨).

(٥) انظر: «تفسير القرآن الكريم» للشيخ محمد بن عثيمين (١/ ١٤ تفسير سورة النساء)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٣٢).

الرجال والرجال منهن، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقال ﷺ: «**إنما النساء شقائق الرجال**»(١).

ولم يذكر الخنثى لأنه إما أن يكون ذكرًا فيلحق بالرجال، أو يكون أنثى فتلحق بالنساء، وإما أن يكون مكونًا من ذكر وأنثى فيلحق بهما معًا فهو آدمي بكل حال(٢).

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كرر الأمر بتقوى الله تنبيهًا وتوكيدًا لوجوب تقوى الله عز وجل.

وقرنه بلفظ الألوهية؛ ترهيبًا وإشعارًا بعظمة الله وقهره.

ولفظ الجلالة «الله» علم على ذات الرب سبحانه(٣).

﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب، صفة للفظ الجلالة «الله».

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ بتخفيف السين، وأصلها: «تتساءلون»، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا.

وقرأ الباقون: ﴿تَسَّآءَلُونَ﴾ بتشديد السين، وأصلها أيضًا: «تتساءلون»، فأدغمت التاء في السين تخفيفًا(٤).

ومعنى ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، أي: يسأل بعضكم بعضًا به، أي: بالله، تذكيرًا به وبعظمته، أو بالإيمان به مما يكون سببًا لأن يستجيب المسؤول فيعطي السائل ما سأله إياه.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (٢٣٦)، والترمذي في الطهارة (١١٣)، وابن ماجه في الطهارة (٦١٢)، وأحمد (٦/ ٢٥٦، ٣٧٧) من حديث عائشة- رضي الله عنها- وفيه عبدالله بن عمر العمري قال الترمذي: «ضعفه يحيى بن سعيد من قبل حفظه في الحديث»، قال أحمد شاكر في تعليقه على الترمذي: «والحق أنه ثقة، وإن كان في حفظه شيء روى عثمان الدارمي عن ابن معين أنه قال فيه: «صالح ثقة» فهذا إسناد صحيح». ثم ذكر ما يشهد لصحته من الأحاديث. وقد حسن الألباني أصل هذا الحديث دون قوله: «إنما النساء شقائق الرجال».

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٧).

(٣) وقد سبق الكلام عن اشتقاقه ومعناه في الكلام عن البسملة.

(٤) انظر: «جامع البيان» (٧/ ٥١٧)، «المبسوط في القراءات العشر» ص(١٥٣)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٧٥).

فيقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله[١] أن تساعدني على ردع هذا الظالم، أو أسألك بالله أن ترد إلي حقي، وهكذا.

والمساءلة على وزن «المفاعلة»، كالمقاتلة، تكون من طرفين ومن جانبين، أي: يسال كل واحد منهما الآخر بالله.

قال الطبري[٢]: «تأويله: اتقوا الله أيها الناس، الذي إذا سأل بعضكم بعضًا سأل به، فقال السائل للمسؤول: أسألك بالله وأنشدك الله، وأعزم عليك بالله، وما أشبه ذلك. يقول تعالى ذكره: فكما تعظمون أيها الناس ربكم بألسنتكم، حتى تروا أن من أعطاكم عهده فأخفركموه، فقد أتى عظيمًا، فكذلك فعظموه بطاعتكم إياه فيما أمركم واجتناب ما نهاكم عنه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «قال طائفة من المفسرين من السلف ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تتعاهدون به وتتعاقدون، وهو كما قالوا؛ لأن كل واحد من المتعاقدين عقد البيع أو النكاح، أو الهدنة، أو غير ذلك يسأل الآخر مطلوبه، هذا يطلب تسليم المبيع، وهذا تسليم الثمن، وكل منهما قد أوجب على نفسه مطلوب الآخر، فكل منهما طالب من الآخر موجب لمطلوب الآخر».

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾، قرأ العشرة عدا حمزة بالنصب: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾، عطفًا على لفظ الجلالة «الله» في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا الله، واتقوا الأرحام.

وقيل: والأرحامَ بالنصب عطفًا على محل الضمير «به» قبل دخول حرف الجر، كقول الشاعر:

فلسنا بالجبال ولا الحديدا[٤]

فـ«الحديدا» منصوب على محل الجبال قبل دخول حرف الجر.

---

(١) انظر: «التوسل والوسيلة» ص(٥٢، ١٤٠).

(٢) في «جامع البيان» (٧/ ٥١٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣). وانظر «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» ص(١٠٨).

(٤) البيت لعقيبة بن هبيرة الأسدي. انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٣٤)، وصدره:

معاويَ إننا بشر فأسجح

والصحيح الأول؛ لأن العطف على الظاهر أولى[١].

والمعنى: اتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، بل صلوها وأدوا حقها. قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وقرأ حمزة الزيات: «والأرحامِ» بالجر عطفًا على الضمير في «به»[٢].

ومعنى: تساءلون به والأرحَامِ، أي: يسأل بعضكم بعضًا بالله والرحم، كما جرت به العادة عند العرب يقول أحدهم للآخر: أسألك بالله والرحم التي بيننا، أو أنشدك الله والرحم التي بيننا. فيقرنون بينهما بالسؤال والمناشدة ونحو ذلك[٣].

وقراءة حمزة بجر «الأرحامِ» قراءة سبعية صحيحة. وقد أجمع أهل العلم على الاحتجاج بالقراءات السبع وصحتها، كما حكى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

وقد طعن في قراءة الجر كثير من أهل اللغة والمفسرين، منهم الفراء في «معاني القرآن»[٤]، والزجاج في «معاني القرآن وإعرابه»[٥]، وهكذا اختار الطبري قراءة النصب، بل لم يجز قراءة غيرها، حيث قال: «والقراءة التي لا نستجيز لقارئ أن يقرأ غيرها في ذلك: النصب» واحتج بأن العرب لا تعطف بظاهر من الأسماء على مكني في حال الخفض إلا في ضرورة الشعر[٦].

وحيث ثبتت هذه القراءة عن حمزة وأجمع أهل العلم على صحة القراءات السبع والاحتجاج بها، فهي على هذا مما نزل من القرآن، والقرآن هو أصل اللغة، ولا عبرة بمن خالف هذا من أهل اللغة، قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى:

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (٩/ ١٣٤).

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» ص(١٥٣).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٧/ ٥١٨، ٥١٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧٩).

(٤) (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٥) (٢/ ٢).

(٦) انظر: «جامع البيان» (٧/ ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٣).

١٠]، وهذا شامل لما اختلف فيه من جميع الأحكام في العقائد والفقه واللغة وغير ذلك.

قال القشيري ردًّا على من طعن في هذه القراءة، فيما ذكره عنه القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»(١): «ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين؛ لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ تواترًا يعرفه أهل الصنعة، وإذا ثبت شيء عن النبي ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ، واستقبح ما قرأ به، وهذا مقام محذور، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو، فإن العربية تتلقى من النبي ﷺ، ولا يشك أحد في فصاحته...».

وبنحو من هذا قال أبو حيان في معرض رده على البصريين وعلى ابن عطية والزمخشري في ردهما هذه القراءة. مبينا صحة قراءة حمزة وثبوتها، بل وتواترها، وقال: «ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم»(٢).

وقال الرازي(٣)- بعدما ذكر عدة من الوجوه التي ضعف بها كثير من النحويين قراءة حمزة: «واعلم أن هذه الوجوه ليست وجوها قوية في دفع الروايات الواردة في اللغات، وذلك أن حمزة أحد القراء السبعة، رواها عن رسول الله ﷺ، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة، والقياس يتضاءل عند السماع، لا سيما بمثل هذه الأقيسة التي هي أوهن من بيت العنكبوت، وأيضًا فلهذه القراءة وجهان: أحدهما: أنها على تقدير تكرير الجار كأنه قيل: تساءلون به وبالأرحام. وثانيها: أنه ورد ذلك في الشعر، وأنشد سيبويه في ذلك:

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا ... فاذهب فما بك والأيامِ من عجب(٤)

وأنشد أيضًا:

نعلق في مثل السواري سيوفنا ... وما بينها والكعبِ غوط نفانف(٥)

ثم قال الرازي: والعجب من هؤلاء النحاةِ أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة

---

(١) (٥/ ٤).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٥٩)، وانظر أيضًا (٢/ ١٤٧)، «الكشاف» (١/ ٢٤١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٩).

(٣) في «التفسير الكبير» (٩/ ١٣٣، ١٣٤).

(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٥) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ٥٣، وفيه: «تنائف» مكان «نفائف». وانظر: «لسان العرب» مادة (غوط)، «خزانة الأدب» (٥/ ١٢٥).

بهذين البيتين المجهولين، ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد مع أنهما من أكابر علماء السلف في علم القرآن».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»[١]: «ومن زعم من النحاة أنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار فإنما قاله لما رأى غالب الكلام بإعادة الجار، وإلا فقد سمع من الكلام العربي نثره ونظمه العطف بدون ذلك كما حكى سيبويه: «ما فيها غيره وفرسِه» ولا ضرورة هنا كما يدّعى مثل ذلك في الشعر..».

وأيضًا فإن ما ذكره الفراء والطبري والزجاج وغيرهم عن العرب، وأخذ به جمهور النحاة من البصريين وغيرهم، من أنه إذا عطف على ضمير الخفض لزم إعادة الخافض- رده بعض النحاة قال ابن مالك في ألفيته:

وليس عندي لازمًا إذ قد أتى ... في النثر والنظم الصحيح مثبتًا

قال ابن عقيل في شرحه: «أي: وليس إعادة الخافض- إذا عطف على ضمير الخفض لازمًا، ولا أقول به لورود السماع نثرا ونظما بالعطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، فمن النثر قراءة حمزة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بجر الأرحام عطفًا على الهاء المجرورة بالباء، ومن النظم ما أنشده سيبويه- رحمه الله تعالى:

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا ... فاذهب فما بك والأيامِ من عجب»[٢]

وقال ابن القيم[٣]: «يجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة حرف الجر على المذهب المختار، وشواهده كثيرة وشبه المنع واهية».

ومعنى التساؤل بالأرحام كما تفيده قراءة الجر: إنما هو توسل واستعطاف بحق

---

(١) (٢/ ٧٧٤).

(٢) انظر: «شرح ابن عقيل» (٣/ ٢٤٠).

وانظر «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٣٨٣)، قيل: البيت للأعشى، وليس في ديوانه، وقيل: لعمرو بن معديكرب، وذكره جامع الديوان مطابع الطرابيشي في ملحق الديوان ص(١٩٧) مجمع اللغة العربية بدمشق الطبعة الثانية (١٤٠٥)هـ وينسب أيضًا للعباس بن مرداس السلمي.

وانظر: «شرح المفصل» (٣/ ٧٨)، «الإنصاف» (٢/ ٢٧٣)، «الكامل للمبرد» (٣/ ٣٩)، «همع الهوامع» (٢/ ١٣٩).

(٣) في «زاد المعاد» (١/ ٣٥).

الرحم، التي عظم الله حقها وأمر بصلتها[١].

أو أن المعنى: أنهم يسأل بعضهم بعضًا بسبب الرحم التي بينهم لأنها توجب لبعضهم حقوقا على البعض، وليس هذا من باب الحلف.

وقيل: إن هذا إخبار عن سؤالهم بالله وبالرحم، وعلى هذا فلا يلزم منه جواز السؤال بالرحم[٢].

والأرحام: جمع رحم وهو في الأصل: موضع تكون الجنين، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]: أي: ما فيها من الأجنة.

والمراد بالأرحام في الآية: الأقارب عامة.

وسموا أرحاما؛ لأنهم خرجوا من رحم واحد، وقيل: لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

قال في اللسان[٣]: «الأرحام: مشتق من الرحم التي هي منبت الولد ووعاؤه في البطن، والرحم: أسباب القرابة وأصلها الرحم التي هي منبت الولد».

قال الجوهري: الرَّحم: القرابة، والرِّحم بالكسر مثله قال الأعشى:

إما لطالب نعمة يممتها ... ووصال رِحم قد بردت بلالها

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ هذه الجملة توكيد للأمر بتقوى الله وتقوى الأرحام، فيها وعيد وتحذير لمن لم يتق الله ولم يتق الأرحام، وفيها وعد لمن اتقى الله واتقى الأرحام.

و«كان» هنا مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف وثبوته، أي: تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، تحقيق اتصاف الموصوفة بالصفة، في جميع الأوقات، ماضيها، وحاضرها ومستقبلها.

وليست للمضي فقط، قال الطبري[٤]: «يعني بذلك تعالى ذكره: أن الله لم يزل عليكم رقيبا».

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٤١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤)، «التوسل والوسيلة» ص(٥٠، ٦٠، ١٤٠).

(٢) انظر: «التوسل والوسيلة» ص(٥٠، ٦٠، ١٤٠).

(٣) مادة: «رحم». وانظر: «ديوان الأعشى» ص(١٥٤).

(٤) في «جامع البيان» (٧/ ٥٢٣).

وقال ابن عطية[١]: و«كان» في هذه الآية ليست لتحديد الماضي فقط، بل المعنى: «كان، وهو يكون».

وكل ما أضيف إلى الله من هذا التركيب فإن «كان» فيه تفيد التحقيق فهي هنا تفيد تحقيق اتصاف الله بكونه رقيبا على العباد في جميع الأوقات والأحوال أزلا وأبدًا.

﴿رَقِيبًا﴾ «رقيب» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، و«الرقيب»: اسم من أسماء الله عز وجل، أي إنه عز وجل كان رقيبا لجميع أعمالكم وأحوالكم، مطلعًا وشاهدًا عليها، حفيظًا ومحصيًا لها، يعلم المتقي من غيره، ومن أدى حق الله وحق الرحم، ومن قصر في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦، البروج: ٩].

وكما قال ﷺ في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**الإحسان أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

وقال ﷺ فيما رواه أبو ذر رضي الله عنه: «**اتق الله حيثما كنت**»[٣].

وكان الإمام أحمد رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين[٤]:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب[٥]

والمرقب: هو المكان العالي المشرف الذي يقف عليه الرقيب ويطلع منه.

الفوائد والأحكام:

١- أهمية الأحكام المذكورة في هذه السورة والعناية بها؛ لأن الله صدرها بالنداء الدال على العناية والاهتمام والتنبيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩، ١٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارمي في الرقائق- باب في حسن الخلق (٢/ ٣٢٣).

(٤) انظر: «أمالي القالي» (٢/ ٩٤)، «صيد الأفكار» (٢/ ٩٩)، «الجليس الصالح» (ص٥٥١).

(٥) هذان البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤، وقيل: لصالح عبد القدوس وهما في ديوانه ص١٣٣.

٢- عموم الرسالة المحمدية لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا نداء وخطاب لجميع الناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال ﷺ: «**بعثت إلى الناس كافة**»(١).

٣- أن الضابط الذي ذكره بعض أهل العلم بأن ما صدر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي، وما صدر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو مدني ضابط غير مطرد، بل ضابط أغلبي فقط؛ لأن سورة النساء مدنية، ومع ذلك صدرت بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٤- وجوب تقوى «الرب» عز وجل على جميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، وفي هذا تذكير للناس بأن تقوى الله تعالى تجب عليهم بمقتضى الربوبية، اعترافا بنعمه، وشكرًا له عليها؛ خلق ورزق، وأنعم بسائر النعم، له الملك والخلق والأمر؛ ولهذا نبه بتفصيل بعض نعم الربوبية فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ الآية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «**وجميع ما يفعله الله بعبده من الخير فهو من مقتضى اسمه «الرب»**».

ولهذا يقال في الدعاء: يا رب يا رب، كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وكذلك سائر الأنبياء.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الناس، وتذكيرهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، والدارمي في الصلاة (١٣٨٩) عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلي، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة».

(٢) في «التوسل والوسيلة» ص(٥١).

رَبَّكُمُ﴾؛ لأن الخطاب يرجع إلى الناس في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، كما أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية؛ لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٢٨].

٦- بيان أن الناس أوجدوا من العدم وتذكيرهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: أوجدكم بعد أن كنتم عدمًا، لا وجود لكم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا.

٧- بيان أن الناس خلقوا من نفس واحدة، هي نفس آدم عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، ولقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فهم يرجعون إلى أصل واحد، وينتسبون إلى أب واحد، هو آدم عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا تذكير الناس بأصل خلقهم، وتوكيد لوجوب تقوى الله عليهم عمومًا، وفي حق بعضهم على بعض خصوصًا.

كما أن فيه إبطال فكرة اليهودي «داروِن» الإلحادية: أن الإنسان تطور من حشرة إلى قرد إلى أن صار إنسانًا. والمعروفة بنظرية «النشوء والتطور».

٨- أن حواء خلقت من آدم عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهي أيضًا من جنس نفس آدم، فهي بعض منه، ومن جنسه، وهذا من فضل الله تعالى على آدم وزوجه، وعلى ذريتهما؛ ليسكن كل من الزوجين إلى الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وهذا مما يوجب على الزوجين شكر الله، وأداء كل منهما حق زوجه عليه.

وقد ذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أن حواء خلقت من التراب كما خلق آدم، وأن

المعنى: خلقكم من جنس نفس واحدة، واختار هذا محمد عبده في «تفسير المنار»[١] والصحيح القول الأول، وهو مقتضى ظاهر النصوص من الكتاب والسنة.

٩- أن البشر تناسلوا من هذه النفس الواحدة وزوجها، أي من آدم وحواء؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ فهم إخوة في النسب من أب واحد وأم واحدة، وفي هذا نعمة من الله عليهم؛ ليتعاطفوا فيما بينهم ويؤدي كل منهم حق الآخرين عليه، فالولد يؤدي حق الوالد، والوالد يؤدي حق الولد، والزوج يؤدي حق الزوج الآخر، والقريب حق قريبه، والجار حق جاره، والشريك حق شريكه، والمسلم حق المسلم، والقوي حق الضعيف، والغني حق الفقير، وهكذا، بل الإنسان حق أخيه الإنسان.

ففي صحيح مسلم عن جرير عبدالله- رضي الله عنه- قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار[٢] متقلدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ والآية التي في الحشر ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره حتى قال: «**ولو بشق تمرة...**» الحديث بطوله[٣].

كما أن في تذكيرهم أنهم خلقوا من نفس واحدة، خلقها الله وخلق منها زوجها، وأنهم بثوا من هذين الزوجين ما يوجب ألا يظلم بعضهم بعضًا، وأن لا يفتخر بعضهم على بعض في حسب أو نسب، أو يتعالى ذكر على أنثى؛ لأنهم يرجعون إلى أصل واحد، وأب واحد وأم واحدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) انظر (٤/ ٣٣٢).

(٢) النمار: جمع نمرة، وهي الشملة المخططة من مآزر الأعراب، كأنها أخذت من لون النمر. ومعنى: مجتابي النمار، أي: لابسوها.. انظر «النهاية» مادة «نمر».

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)، والدارمي في المقدمة (٥١٢، ٥١٤).

وكما قيل:

النـاس مـن جهـة التمثيـل أكفـاء ... أبـوهم آدم والأم حـواء
فـإن يكـن لهـم مـن أصـلهم نسـب ... يفـاخرون بـه فـالطين والمـاء[١]

١٠- الحكمة من التصريح بصفة الكثرة مع الرجال دون النساء في قوله ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ وإن كانت النساء أكثر؛ لأن الكثرة في الرجال مرغوبة، فهي عز ومنعة وقوة بخلاف الكثرة في النساء، فهي ضعف وثقل وتعب ونصب.

١١- فضل الرجال على النساء؛ لأن الله قدمهم في الذكر عليهن، فقال: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، وهذا من حيث العموم، وإلا فقد يوجد من النساء من هي خير وأفضل من بعض الرجال.

١٢- إثبات قدرة الله تعالى التامة، حيث أوجد الخلق من نفس واحدة، منها خلق زوجها، ومنهما أوجد بقية الخلق، وفي هذا دليل على تمام قدرته عز وجل على الإعادة من باب أولى، قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥].

١٣- توكيد الأمر بالتقوى بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وفي هذا دلالة على أنه يجب على الناس جميعًا أن يتقوا الله؛ لأنه هو الإله المستحق للعبادة.

١٤- الجمع بين الترغيب والترهيب ففي قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ ترغيب وتذكير بنعمة الربوبية عليهم، وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ترهيب أي اتقوا المستحق للعبادة، ومن له العظمة والقهر، وهو الله- عز وجل.

١٥- جواز التساؤل بالله؛ لأن الله ذكر أنهم كانوا يتساءلون به، ولم ينكر ذلك عليهم، بل ساقه مساق المقر لهم على ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ فدل هذا على أنه أمر واقع عندهم، وأنه جائز، وفي الحديث «**من سأل بالله فأعطوه**»[٢].

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (١٦٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٨)، وأحمد (٢/ ٦٨)، والبيهقي في سننه (٢/ ١٩٩) من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا =

وإجابة من سأل بالله قد تكون مشروعة إما مستحبة وإما واجبة، وقد تكون محرمة.

فإذا سأل في أمر جائز له، ولا يترتب عليه، أو على إجابته ظلم، أو قطيعة رحم، كأن يقول: أسألك بالله أن تحمل معي متاعي، فهذا إجابته مستحبة مندوب إليها تعظيمًا للمسؤول به وهو الله، وعونا لأخيك المسلم.

وقد تجب إجابته فيما إذا سأل بأمر واجب له، كأن يقول: أسالك بالله أن تعطيني مالي الذي عندك. فهذا تجب إجابته تعظيمًا للمسؤول به وهو الله، ولأنه سأل حقًا واجبًا له.

وقد يحرم السؤال وتحرم إجابته، كأن يقول السائل: أسألك بالله أن تشتري لي خمرًا. فهذا السؤال لا يجوز مطلقًا، فكيف إذا كان بالله!! فإن ذلك أشد تحريمًا؛ لأن فيه اعتداءً واستخفافًا بالله.

وإجابته تحرم؛ لأنه سأل أمرًا محرمًا، واستخف بالله حين سأل به شيئًا محرمًا في الشرع.

وقد يحرم السؤال أو يكره فيما إذا سأل شيئًا فيه ضرر على المسؤول، كأن يقول أسألك بالله أن تعطيني شطر مالك. فهذا لا تلزم إجابته؛ لأنه استخف بالله عندما سأل به أمرًا غير جائز له، ولأنه سأل أمرًا لا يحق له.

أما إذا كان قصد السائل بالله هو الاستشفاع بالله إلى المسؤول، فهذا محرم لا يجوز؛ لأن الله لا يستشفع به إلى أحد من خلقه، كما في حديث جبير بن مطعم؛ أنه ﷺ قال: «**إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**»(١).

وهذا الحديث وإن كان سنده ضعيفًا إلا أن معناه صحيح، فإن الله عز وجل أعظم وأجل من أن يستشفع به على أحد من خلقه وهكذا استدل به شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب على حرمة الاستشفاع بالله على أحد من خلقه في «كتاب التوحيد»، وكذا

=

ما تكافئوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

وقد صحح هذا الحديث شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب انظر «فتح المجيد» ص(٣٨٦) كما صححه الألباني في الأحاديث الصحيحة (٢٥) وفي صحيح سنن أبي داود.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة (٤٧٢٦) وضعفه الألباني في هذا الموضع، وفي المشكاة (٥٧٢٧).

وقال في «فتح المجيد» ص(٤٢٨) «قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار».

استدل به أحفاده من بعده منهم سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب في «تيسير العزيز الحميد»، ومنهم عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ في كتابه «فتح المجيد» وغيرهم.

وكذلك إذا كان قصد السائل بالله إلزام المسؤول، فإن هذا لا يجوز؛ لأن فيه إحراجًا، وإلزاما للمسؤول بما لا يلزمه، خاصة إذا كان السؤال في أمر غير واجب على المسؤول(١).

١٦- وجوب تقوى الأرحام؛ بصلتها وأداء حقوقها واحترامها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾، فقد عطف تعالى الأمر بتقوى الأرحام على الأمر بتقواه؛ توكيدًا لعظم حق الرحم، وهذا على قراءة النصب واضح: أي اتقوا الله واتقوا الأرحام، وكذا قراءة الجر فإن فيها ما يدل على وجوب احترام الأرحام وأداء حقوقها؛ لأن الله ذكرهم بأنهم كانوا يتساءلون بها ويعظمونها، وفي هذا تقرير لهم على تعظيمها واحترامها وتوكيد لذلك، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو(٢) الرحمن فقال لها: مه؟ قالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك. ثم قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾**»(٣).

وحكم ﷺ بأن من ملك أحدًا من ذوي رحمه المحرم فهو حر(٤).

ولما استأذنت أسماء: هل تصل أمها وهي مشركة: قال ﷺ: «**نعم صلي أمك**»(٥).

---

(١) انظر: «في حكم السؤال بالله وإجابته» واختلاف أحواله «تيسير العزيز الحميد» ص(٦٥٧، ٦٥٨)، «فتح المجيد» ص(٣٨٥).

(٢) «الحقو» هو في الأصل موضع الإزار من الإنسان، انظر «النهاية» مادة «حقا».

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٤).

(٤) أخرجه أبو داود في العتق (٣٩٤٩)، والترمذي في الأحكام (١٩٦٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥٢٤) من حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «من ملك ذا رحم محرم فهو حر»، وأخرجه ابن ماجه أيضًا من حديث عبدالله بن عمر في الأحكام (٢٥٢٥).

وصححها الألباني. وانظر «نيل الأوطار» (٦/ ٢٠٣) «العذب الفائض» (٢/ ١٠٥، ١٠٦).

(٥) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٢٠) ومسلم في الزكاة (١٠٠٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٦٨)، وأحمد =

١٧- أن العرب قبل الإسلام كانوا يعظمون الرحم ويحترمونها، ويسألون بحقها يدل على هذا قراءة حمزة بجر «الأرحامِ».

فكانوا من شدة تعظيمهم إياها واحترامهم لها إذا أراد أحدهم أن يسأل صاحبه قال له: أسألك بالله والرحم التي بيني وبينك، أو أنشدك الله والرحم.

بل كانوا يتعصبون لها تعصبًا ممقوتًا حيث يقول قائلهم:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد(١)

١٨- أن العطف على محل الضمير المتصل المجرور دون إعادة حرف الجر تعبير جاء به القرآن الكريم، الذي هو في أعلى درجات الفصاحة، بدليل قراءة حمزة «والأرحامِ» بالجر، كما قال تعالى: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولا اعتبار لقول من منع من ذلك من أهل اللغة كائنا من كان.

كما أن إعادة حرف الجر في مثل هذا تعبير قرآني كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١].

١٩- جواز التساؤل بالأرحام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ على قراءة حمزة بجر «الأرحامِ»؛ لأن الله ذكر أنهم يتساءلون بها، وأقرهم على ذلك.

وقد ذهب إلى هذا طائفة من أهل العلم مستدلين بهذه القراءة، وحملوها على معنى التوسل بالرحم والاستعطاف بحقها الذي عظمه الله، وليس من باب الحلف المهني عنه، وممن ذهب إلى هذا القشيري، حيث قال: «هو توسل إلى الغير بحق الرحم»(٢).

وذهب بعض أهل العلم إلى عدم جواز التساؤل بالأرحام، واعتبروه من باب الحلف بالأرحام، والحلف بغير الله محرم لا يجوز عند جمهور أهل العلم، بل حُكيَ عليه إجماع الصحابة- رضي الله عنهم(٣).

=

(٦/ ٣٤٤) من حديث أسماء- رضي الله عنها.

(١) البيت لدريد بن الصمة، انظر «ديوانه» ص(٦٢) «لسان العرب» مادة «غوي».

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤)، وانظر «الكشاف» (١/ ٢٤١)، «التوسل والوسيلة» ص(٥٠، ٦٠، ١٤٠).

(٣) انظر: «التوسل والوسيلة» ص(٤٩).

ورد بعض هؤلاء قراءة حمزة بجر «الأرحام» كالزجاج[١] وابن عطية[٢] وغيرهما، مستدلين بالأحاديث التي فيها النهي عن الحلف بغير الله.

كحديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[٣].

والصحيح القول الأول، وهو جواز التساؤل بالأرحام؛ لصحة قراءة حمزة وثبوتها وإجماع العلماء على صحة القراءات السبع والاحتجاج بها.

ومعنى هذه القراءة: التوسل والاستعطاف بحق الرحم، لا الحلف المنهي عنه، كما قال القشيري واختاره ابن تيمية[٤].

٢٠- إثبات رقابة الله تعالى على الناس، وكمال شهوده واطلاعه عليهم وعلى أعمالهم في جميع الأحوال والأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وفي هذا توكيد لوجوب تقواه وطاعته وتحذير من مخالفته، ووعيد لمن خالف، وبهذا يكون وجوب التقوى أكد بخمسة مؤكدات:

الأول: الأمر بها مقرونًا بلفظ الربوبية، مما يدل على وجوبها بمقتضى الربوبية.

الثاني: تذكير الناس بأن أصلهم من نفس واحدة خلقها الله، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وفي هذا امتنان عليهم مما يوجب عليهم تقوى الله بطاعته، وتقوى الله فيما بينهم بأداء حقوق بعضهم على بعض، والتعاطف فيما بينهم.

الثالث: الأمر بالتقوى مقرونًا بلفظ الألوهية؛ ليدل على وجوبها عليهم بمقتضى

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٢).

(٢) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٩).

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٩)، ومسلم في الأيمان، (١٦٤٦)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٤٩)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٦٦، ٣٧٦٧، ٣٧٦٨)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥)، وابن ماجه في الكفارات (٢٠٩٤).

وأخرج مسلم أيضًا في الأيمان (١٦٤٨)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٤)، وابن ماجه في الكفارات (٢٠٩٥) عن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغيت ولا بآبائكم».

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٨- ٣٣٩)، (٢٤/ ١٣٢).

أنه الإله المستحق للعبادة.

الرابع: تذكيرهم بأنهم كانوا يتساءلون به سبحانه- تعظيمًا له- وأنهم كانوا يتساءلون بالأرحام احترامًا لها وتقديرًا، وأمره لهم بتقواه بصلتها، وفي هذا كله تأكيد للأمر بتقوى الله، واستمالة لقلوبهم، وحث لهم على امتثال ذلك.

الخامس: تذكيرهم بأن الله عليهم رقيب، مما يوجب عليهم تقواه وطاعته والحذر من مخالفته، وإنما أكدها عز وجل؛ لأنها وصيته سبحانه للأولين والآخرين، وبها النجاة والسعادة في الدارين، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢].

وهي خير لباس، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قال الشاعر:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وشاهدت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا(١)

وقال الآخر:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تقلب عريانًا وإن كان كاسيا(٢)

* * *

(١) هذان البيتان للأعشى من قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ، انظر ديوانه (١٨٥- ١٨٧)، «السيرة النبوية» (٢/ ٢٦- ٢٨)، «الشعر والشعراء» ص(٢٧٥).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٤٨٢.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾.

هذه الآية وما بعدها إلى نهاية السورة تفصيل وبيان لما أجمل في الآية السابقة من الأمر بتقوى الله، وتقوى الأرحام، وقد بدأ- عز وجل- أول وصية بعد هذين الإجمالين بالأمر بإيتاء اليتامى أموالهم، مما يؤكد على وجوب حفظ أموالهم والعناية بهم ورعايتهم؛ نظرًا لشدة حاجتهم إلى العناية والرعاية، حيث فقدوا آباءهم الذين يقومون برعايتهم.

قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، الخطاب عام لكل من كان عنده مال لليتامى، سواء كان وصيا عليهم، والوصي: هو الذي يعهد إليه بالتصرف بعد الموت، أو وليا، والولي: هو الذي يتولى مال غيره بغير إذن منه، بل بإذن من الشرع، أو ممن يتولون قسمة الميراث، أو ممن أخذ أموالهم بغير حق، ونحوهم.

﴿وَءَاتُواْ﴾ فعل أمر ينصب مفعولين، ليس أصلهما المبتدأ والخبر، الأول: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾، والثاني: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

ومعنى ﴿ءَاتُواْ﴾: أعطوا، و﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾: جمع يتيم ويتيمة، وهو مأخوذ من «اليتم» وهو الانفراد، فاليتيم: الفرد، ومنه سميت: «الدرة اليتيمة»(١).

واليتيم في اصطلاح الشرع: من مات أبوه(٢) وهو صغير، دون البلوغ، ذكرًا

---

(١) الدرة اليتيمة في النحو، نظم لابن نبهان سعيد بن سعد الحضرمي، طبع مع كتاب الآجرومية في المطبعة الميمنية سنة (١٣٣٣هـ).

والدرة اليتيمة في التجويد، طبع في الآستانة سنة (١٢٥٢هـ) لزين الدين محمد بن بير علي محيي الدين المشهور باسم بيركلي أو بركلي أو بركوي (٩٢٩- ٩٨١). انظر: « العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم» (٢/ ٤٣٠).

والدرة اليتيمة في الأمثال القديمة، لإبراهيم بن خطار سركيس اللبناني، طبع في بيروت سنة (١٨٧١م).

والدرة اليتمية في طاعة الملوك لابن المقفع (١٤٣)هـ، طبع عدة طبعات، منها طبعة القاهرة بتحقيق شكيب أرسلان، وطبعة بيروت سنة (١٨٩٧م)، وغيرهما.

(٢) والعجي من ماتت أمه، واللطيم: من مات أبوه وأمه قبل بلوغه. واليتيم في البهيمة: من ماتت أمه وهو صغير. انظر «المفردات» مادة «يتم»، «المحرر الوجيز» (٤/ ١١)، «لسان العرب» مادة «يتم».

كان أو أنثى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «اليتيم في الآدميين من فقد أباه؛ لأن أباه هو الذي يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق؛ ولهذا كان تابعًا في الدين لوالده، وكانت نفقته عليه، وحضانته عليه، والإنفاق هو الرزق، والحضانة هي النصر؛ لأنها الإيواء ودفع الأذى، فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه؛ لأن الإنسان ظلوم جهول، والمظلوم عاجز ضعيف، فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضي ومن جهة ضعف المانع؛ ولهذا أعظم الله أمر اليتامى في كتابه في آيات كثيرة..».

فإذا بلغ زال عنه اليتم واستقل بنفسه؛ لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»[٢].

﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، أموال: جمع مال، وهو كل ما يتمول من نقد أو عين من أثاث وغيره، وضمير الهاء عائد على اليتامى.

والمعنى: أعطوا اليتامى أموالهم التي هي ملك لهم، مما عهد إليكم بحفظه، أو مما توليتم حفظه، أو مما يستحقونه من الميراث، أو مما أخذتموه منها بغير حق.

وإذا كان الخطاب للأولياء على اليتامى فالمراد بإيتاء اليتامى أموالهم في هذا الموضع حفظها لهم؛ لكي تؤدى إليهم كاملة إذا بلغوا ورشدوا.

أي: احفظوها لهم؛ لكي تؤدوها إليهم كاملة بعد بلوغهم ورشدهم من غير أكل شيء منها أو كتمانه أو تعريضها للفساد أو الضياع، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟﴾، التبدل والاستبدال: أخذ شيء مكان شيء آخر غيره.

﴿ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾: الخبث والطيب: وصفان يطلق كل منهما على ما يتصف به من الأشخاص والأقوال والأعمال والأعيان كالأموال وغيرها. قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٠٨- ١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا الحديث (٢٨٧٣) من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل»، وصححه الألباني، وله شاهد من حديث جابر وأنس رضي الله عنهما. والصمات: السكوت.

﴿ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠] أي لا يستوي الخبيث والطيب من كل شيء، وقال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥].

والمراد بالخبيث والطيب في الآية: الحرام والحلال، أو الرديء والجيد.

أي لا تتبدلوا الخبيث، أي: المحرم عليكم وهو مال اليتيم، بالطيب، أي: بالحلال الذي أحله الله لكم من أموالكم، أي كلوا من مالكم الذي أحله الله لكم ودعوا مال اليتامى المحرم عليكم.

أو لا تتبدلوا الخبيث، أي: الرديء من أموالكم بالطيب، أي: بالجيد من أموال اليتامى، فتأخذوا مالهم الطيب وتعطونهم بدله رديئًا.

وكلا القولين صحيح تحتمله الآية، والأول منهما أعم وأشمل فهو ينتظم القول الثاني؛ لأن استبدال مال اليتيم بغيره منهي عنه، سواء رد بدله جيدًا أو رديئًا أو لم يرد بدله شيئًا.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: خص النهي في الآية بالنهي عن أكل أموالهم؛ لأن الهدف من جمع المال غالبًا هو الأكل، وهو أوفى أنواع التمتع بالمال، وهو كسوة الباطن، فلو خلا البطن من الأكل مات الإنسان.

لكن غيره من وجوه الانتفاع بأموال اليتامى والتصرف بها لمصلحة الولي مثله في النهي، فلا يجوز للولي مثلًا: أن يشتري له بمال اليتيم سيارة أو عقارا أو غير ذلك.

﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ «إلى» على بابها والفعل «تأكلوا» مُضَمَّنٌ معنى «الضم»، أي: لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم.

وقيل: ﴿إِلَىٰٓ﴾ بمعنى «مع»، أي: لا تأكلوا أموالهم مع أموالكم والأول أولى؛ لأن

تضمين «فِعل» معنى «فِعل» آخر أكثر ورودا في القرآن من تضمين حرف معنى حرف آخر، وحمل الآية على المعنى الكثير في القرآن أولى من حملها على المعنى القليل(١)؛ لأن المعنى الكثير هو اصطلاح القرآن، وهذا قول جمهور النحويين، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، أي: كان عند الله، وفي حكمه، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] والجملة تعليل للنهي في الجملتين السابقتين، فالضمير «إنه» يعود على مصدر الفعلين السابقين؛ وهما تبديل الطيب من أموال اليتامى بالخبيث من أموال المخاطبين، وأكل أموال اليتامى مضمومة إلى أموال المخاطبين.

«وكان» مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف. ﴿حُوبًا﴾، أي: ذنبا وإثما(٣).

---

(١) اختلف أهل اللغة في مثل هذا، فذهب جمهور النحويين من البصريين وغيرهم إلى أن الفعل يضمن معنى فعل يناسب الحرف الذي يتعدى به، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] فضمن الفعل «يشرب» معنى «يروى» ولهذا عدي بالباء، ولم يقل «يشرب منها» وكقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: ١] ضمن الفعل «سأل» معنى «أجيب»، أي: سأل سائل فأجيب بعذاب واقع؛ ولهذا عدي بالباء، ولم يقل: «عن عذاب واقع».
وقد ذهب الكوفيون إلى أن الحرف يفسر بمعنى الحرف المناسب، فيقال: «عينا يشرب بها»، أي: منها، و﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، أي: عن عذاب واقع.
انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٣٥٨) طبعة الحلبي، «مغني اللبيب» (١/ ١٧٨)، «ضياء السالك» (٢/ ٢٥٩)، «مجموع الفتاوى»(٢٠/ ٤٧٤، ٢١/ ١٢٤).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: و«باب تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بتعديه، كقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وقوله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وأمثال ذلك كثير في القرآن، وهو يغني عند البصريين من النحاة عما يتكلفه الكوفيون من دعوى الاشتراك في الحروف» انظر «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٣، ١٢٤).

(٣) ويطلق الحوب على زجر الإبل وعلى المسكنة وعلى الحاجة ومنه: «إليك أرفع حوبتي»، أي: حاجتي. ويطلق الحوب على الوحشة. وفي الأثر «إن طلاق أم أيوب لحوب» انظر «التفسير الكبير» (٩/ ١٣٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨١)، «البحر المحيط» (٣/ ١٥٠)، «فتح القدير» (١/ ٤١٩)، وانظر مادة «حوب» في «المفردات»، «لسان العرب».

وفي الحديث: «رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي»(١)، أي: ذنبي.

﴿كَبِيرًا﴾: أي إثما كبيرًا؛ وذنبا عظيمًا من كبائر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

الفوائد والأحكام:

١- رحمة الله تعالى باليتامى، ورأفته بهم، حيث أوصى بالعناية بهم وبأموالهم، بل جعل سبحانه وتعالى الوصية بهم أول وصية أوصى بها من حقوق الخلق في هذه السورة، بعد أن أجمل سبحانه وتعالى الأمر بتقواه، وتقوى الأرحام، وذلك؛ لأن اليتيم فقد كافله وكاسبه، فهو مكسور الخاطر مهيض الجناح، وقد ضرب الإسلام في هذا أروع الأمثلة في العناية باليتامى، مما يفوق جميع المنظمات الحقوقية والإنسانية.

٢- وجوب إصلاح أموال اليتامى والحفاظ عليها؛ لأن ذلك من تمام إيتائهم أموالهم الذي أمر الله به في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وقدّم الله في هذه الآية الأمر بإيتاء اليتامى أموالهم قبل الأمر باختبارهم وتحقق بلوغهم ورشدهم، تأكيدًا على وجوب إصلاحها وحفظها والاحتياط في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤].

٣- ثبوت الولاية على اليتيم؛ لأن من لازم إيتائه ماله ثبوت ولاية المؤتي عليه.

٤- أن اليتيم يملك وملكه تام ثابت؛ لأن الله أضاف الأموال إلى اليتامى في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

وفي هذا دليل على وجوب النفقات التي تتعلق بعين المال في أموال اليتامى كالزكاة والنفقة على من تجب على اليتيم النفقة عليه من أقاربه الفقراء.

خلافًا لمن قال بعدم وجوب ذلك في أموال اليتامى والمجانين؛ لأنهم غير مكلفين.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥١٠)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥١)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو: «رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر هداي إلي، وانصرني على من بغى علي، اللهم اجعلني لك شاكرًا، لك ذاكرًا، لك راهبًا، لك مطواعًا، إليك مخبتًا أو منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي» وصححه الألباني.

٥- جواز إطلاق الخبيث على الرديء على أحد المعنيين في تفسير الآية ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، أي: لا تقصدوا الرديء منه تنفقون.

٦- أنه يحرم على الأولياء أن يستبدلوا أموال اليتامى بأموالهم، سواء كان ذلك بأخذ أموال اليتامى دون مقابل والاستغناء بها وتوفير أموالهم، أو بإعطاء اليتامى الرديء وأخذ الجيد من أموالهم أو العكس بإعطائهم الجيد وأخذ الرديء، ومع أن هذا قد يبعد إلا أنه أيضًا لا يجوز؛ لأن مال اليتيم في يد الوصي أو الولي بحكم الأمانة يجب عدم التعرض له وتركه بحاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾.

٧- تحريم أكل أموال اليتامى وضمها إلى أموال الأوصياء والأولياء بقصد أكلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

وليس في الآية نهي عن الضم إذا كان لقصد الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠].

فدلت هذه الآية على جواز خلط مال اليتيم مع مال الولي إذا كان ذلك لقصد الإصلاح، كالاتجار به، أو المحافظة عليه ونحو ذلك. بل إن الضم قد يتعين جلبا لمصلحة مال اليتيم، ودفعًا للمشقة عن الولي في عزل مال اليتيم عن ماله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لشق عليكم فمنعكم من مخالطتهم.

لكن ينبغي على الولي إذا ضم مال اليتيم إلى ماله أن يحتاط بكتابة ذلك والإشهاد عليه.

٨- الإشارة إلى أن بعض الأولياء قد يتستر إذا أراد أن يأكل مال يتيمه بضم مال اليتيم إلى ماله، ويأكله مع غناه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾. وفي ذلك تنبيه على قبح هذا الفعل وشناعته.

٩- أن التعدي على أموال اليتامى باستبدالها بالخبيث أو أكلها، أو ضمها إلى أموال الأولياء بقصد أكلها من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.بل ذهب بعض أهل العلم إلى أن أكل مال اليتيم بغير حق أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾.

لما أمر الله تعالى بحفظ أموال اليتامى والعناية بها أتبع ذلك بذكر وجوب الإقساط في اليتيمات، والعدل بين النساء، فالآية الأولى في أموال اليتامى، والثانية في أبضاع اليتيمات وغيرهن من النساء.

سبب النزول:

عن عروة بن الزبير- رضي الله عنهما- قال: سألت عائشة- رضي الله عنها- عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ فقالت: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾(١).

وفي رواية عن عروة عن عائشة رضي الله عنها: «**أن رجلًا كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عذق وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾**»(٢).

قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الواو للاستئناف، و«إن» شرطية، ﴿خِفْتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَانكِحُوا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٤)، ومسلم في التفسير (٣٠١٨) وأبو داود في النكاح (٢٠٦٨)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٦)، والدارقطني في سننه (٣/ ٢٦٥)، والواحدي في أسباب النزول ص(١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٥٧٣).

والخوف هنا على بابه قال الراغب الأصفهاني[١]: «الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف الأمن».

أي: إن غلب على ظنكم ألا تقسطوا.

وقيل: ﴿خِفۡتُمۡ﴾ بمعنى: علمتم وأيقنتم، كقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢]، أي: من علم من موص جنفا.

والصحيح أن الخوف هنا على معناه، فمتى وجد الخوف من عدم الإقساط مع اليتامى وجب العدول عنهن وترك نكاحهن إلى غيرهن، وإن لم يكن عدم الإقساط أمرًا معلومًا متيقنا؛ لأن هذا في الغالب لا تتم معرفته إلا بعد الزواج بهن، أي: بعد العقد والدخول.

﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾، أي: ألا تعدلوا، من «أقسط» الرباعي. بمعنى: «عدل» ومنه قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [النساء: ١٣٥]. واسم الفاعل منه «مقسط»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقوله ﷺ: «**المقسطون على منابر من نور**»[٢].

وأما الفعل الثلاثي: «قسط»، فمعناه: جار وظلم، واسم الفاعل منه «قاسط»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥].

و﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم ويتيمة.

والمراد باليتامى هنا اليتامى من النساء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٧].

أي: إن خفتم ألا تعدلوا مع اليتيمات إذا تزوجتموهن بعدم إعطائهن مثل غيرهن من المهور والنفقات، أو بالإمساك لهن لأجل مالهن من غير حاجة بكم لهن، ومن غير بذل حقوق الزوجية لهن، كما دلت على ذلك روايتا سبب النزول، أو بإجبارهن على

---

(١) في «المفردات» مادة «خوف».

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٧)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٧٩) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

الزواج منكم وهن كارهات ونحو ذلك، كما كان يفعله أهل الجاهلية.

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، الجملة جواب الشرط المتقدم في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة طلبية.

إسمية طلبية وبجامد وبما ولن وبقد وبالتنفيس(١)

ولم يأت الجواب بالنهي عن نكاح اليتيمات، أو بالأمر بترك نكاحهن إذا خيف عدم الإقساط فيهن- وإنما جاء الأمر بنكاح ما طاب لهم من النساء؛ إرشادًا لهم وتوجيهًا إلى البديل، وأن النساء غير اليتيمات كثير، وأن الأمر واسع ولم يضيق الله عليهم.

قال الحافظ ابن كثير(٢): «أي إذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه».

ومن هذا ومثله يعلم أن الشرع إذا منع من شيء وحرمه لسبب من الأسباب فإنه يبيح ويحل أضعاف أضعافه؛ ولهذا فإن الأصل في الأشياء الإباحة، إلا ما دل الدليل على تحريمه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، أي: أباحه لكم؛ لأن اللام في قوله «لكم» للإباحة. فإذا انغلق باب، فتح الله ألف باب، وكما قيل:

وإذا رأيت الرزق ضاق ببلدة وخشيت فيها أن يضيق المذهب
فارحل فأرض الله واسعة الفضا طولًا وعرضا شرقها والمغرب(٣)

وحاشا للشرع الحكيم، الذي وضع الله به عن هذه الأمة الآصار والأغلال أن يغلق الباب على المكلف، فيكون كما قال الشاعر(٤):

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وصدق الله العظيم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) انظر: «حاشية الخضري» (٢/ ١٢٣)، «حاشية الصبان» (٤/ ٩).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٨١).

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهمن القصيدة الزينبية»، وهي من نفيس مواعظه. انظر: «ديوانه» (ص٢٨).

(٤) البيت للحلاج. انظر: «ديوانه» ص(١٤٥).

فالمعنى: فإن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فاتركوهن وجوبًا، وانكحوا ما طاب لكم من النساء سواهن استحبابا، أو جوازا.

﴿فَٱنكِحُواْ﴾ النكاح معناه في اللغة الضم والجمع؛ لأنه بعقد النكاح يكون اجتماع الزوج والزوجة، واجتماع الأصهار بعضهم إلى بعض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

ويطلق على الوطء، وعلى التزوج، وهو في الشرع: عقد الزوجية الصحيح.

﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ «ما» موصولة أي: انكحوا الذي طاب لكم، وإنما جاء التعبير بها- وهي لغير العاقل، أو لغير العالم على الأصح[1]؛ لأنه أريد بها الوصف؛ لأن اختيار الرجل للمرأة لما قام بها من صفات طيبة، والصفات ليست من فصيلة العقلاء، أي: انكحوا الطيبات من النساء.

قال الزجاج[2]: «﴿مَا طَابَ﴾ لم يقل: «من طاب»، والوجه في الآدميين أن يقال: «من»، وفي الصفات لأسماء الأجناس أن يقال: «ما»؛ فالمعنى فانكحوا الطيب الحلال؛ لأنه ليس كل النساء طيبًا».

وقيل: إن «ما» ليست على معناها، وإنما هي بمعنى «من» التي للعالم؛ لأنهما يتعاقبان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] والذي يمشي على أربع ليس بعالم. وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥، ٦][3].

فـ«ما» في قوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ بمعنى «من»، أي: والسماء ومن بناها

---

(١) الأصح أن يقال «ما» لغير العالم و«من» للعالم، كما قال ابن هشام، انظر «أوضح المسالك» (١/ ١٣٤) وانظر «ضياء السالك» (١/ ٤٢). واختار بعض النحاة هذا؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بالعلم و«من» تستعمل في الدلالة عليه سبحانه في مثل قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وصفات الله توقيفية. كما أن «ما» جاءت للدلالة عليه سبحانه في عدة مواضع، وذلك على سبيل التبادل مع «من» كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل: ٣]، أي: والذي خلق الذكر والأنثى. وانظر «دليل السالك» للفوزان (١/ ١٢٩).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٤، ٥).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (٩/ ١٤١)، «فتح القدير» (١/ ٤٢٠).

والأرض ومن طحاها، وهو الله سبحانه وتعالى العليم بكل شيء.

قالوا: وإنما قلنا بأن «ما» في قوله: ﴿مَا طَابَ﴾ بمعنى «من»؛ «لقوله» بعد ذلك ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ مبينًا لمبهم، والنساء من فصيلة العقلاء(١).

وقال الفراء(٢): «قوله: ﴿مَاطَابَ﴾ ولم يقل «من طاب»، وذلك لأنه ذهب إلى الفعل».

وبنحو من هذا قال الطبري حيث قال(٣): «معناه: فانكحوا نكاحا طيبًا.. فالمَعْنِيُّ بقوله: ﴿مَاطَابَ﴾ الفعل دون أعيان النساء وأشخاصهن، فلذلك قيل «ما» ولم يقل «من».

والصحيح القول الأول؛ أن «ما» هنا على معناها لغير العالم؛ لأنه أريد بذلك الوصف، وليست في هذا الموضع، بمعنى «مَن» ولا بمعنى «الفعل».

﴿طَابَ﴾: قرأ حمزة «طاب» بالإمالة.

﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: «من» بيانية، فيها بيان للاسم الموصول «ما». و﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ والتقدير: انكحوا ما يطيب لكم من النساء، أو متعلق بقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ﴾، أي: انكحوا من النساء ما طاب لكم.

و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ والنسوة: جمع لا واحد له من لفظه، ولكن يقال: امرأة.

والمعنى: فانكحوا ما طابت به نفوسكم ورغبتم فيه مما أحل الله لكم، من ذوات الصفات الطيبة من النساء، كالدين والخلق والجمال ونحو ذلك.

قال ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها وحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(٤).

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ هذه الألفاظ نكرات في محل نصب على الحال من النساء. أي حال كونهن مثنى وثلاث ورباع، وهي ممنوعة من الصرف؛ لعلتين:

العلة الأولى: الوصفية؛ لأنها بمعنى الوصف لنساء، أي: نساء مثنى وثلاث ورباع.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٩١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢).

(٢) في «معاني القرآن» (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) في «جامع البيان» (٧/ ٥٤٢).

(٤) سيأتي تخريجه.

والعلة الثانية: العدل، فـ﴿مَثْنَىٰ﴾ معدولة من: اثنتين، و«ثلاث» معدولة من ثلاث، و«رباع» معدولة من أربع.

وهذه الألفاظ مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، فمن المؤنث هذه الآية، ومن المذكر قوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ فالجناح مذكر.

وهي تدل على تكرار العدد مما عدلت منه بلا حصر، أي: إلى غاية المعدود.

فيقال: جاء الرجال مثنى أي: اثنين اثنين، وجاءت النساء مثنى، أي: اثنتين اثنتين- وهكذا «ثلاث» و«رباع».

وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أسلوب تنويع وتقسيم، أي: انكحوا على اثنتين اثنتين، وعلى ثلاث ثلاث، وعلى أربع أربع.

وفيه معنى التخيير أي: منكم من ينكح اثنتين، ومنكم من ينكح ثلاثًا، ومنكم من ينكح أربعًا.

قال تعالى في وصف الملائكة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة(١).

وقد زعم الرافضة أن المعنى: انكحوا اثنتين وثلاثًا وأربعًا، أي: تسعًا؛ مجموع اثنتين وثلاث وأربع.

وهذا ليس بصحيح من حيث اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم؛ لأن الخطاب في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ للجماعة، وليس لمفرد، وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ موزع ومفرق على الجماعة، فيكون المعنى: ينكح بعضكم مثنى، أي على اثنتين اثنتين، وينكح بعضكم ثلاث، أي على ثلاث ثلاث، وينكح بعضكم رباع، أي على أربع أربع(٢). وقد جيء بصيغة العدل؛ للدلالة على هذا المعنى، ولئلا يتوهم جواز

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٢) قال ابن كثير بعد هذا: «ولا ينفي ما عدا ذلك بالنسبة للملائكة لدلالة الدليل عليه» يشير رحمه الله إلى ما ثبت في الصحيح: «أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح» أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (١٧٤)، والترمذي في التفسير (٣٢٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٦)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٤١، ١٤٣).

الجمع بين هذه الأعداد[١].

ولو قال قائل خذ اثنين وثلاثة وأربعة بدل أن يقول: خذ تسعة، لعد هذا في منتهى الضعف عند العرب وأئمة اللغة، فكيف يحمل على هذا كلام الله تعالى في هذه الآية[٢].

وقد جاء العطف بالواو بدل «أو»؛ لئلا يتوهم أنه لا يجوز إلا أحد هذه الأعداد[٣].

ولم تذكر الواحدة في هذا المقام، بل قال سبحانه: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾؛ لأن المقام مقام إقناع وامتنان وتوسعة وتخيير للمخاطبين- بعد أن منعوا من نكاح اليتامى عند خوف عدم العدل معهن- في أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن من حيث الكيفية، وهن ذوات الصفات الطيبة؛ ومن حيث الكمية من اثنتين إلى أربع.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾: الفاء عاطفة، و«إن» شرطية، ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل الشرط.

﴿أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾، ﴿أَلَّا﴾ مكونة من «أن» المصدرية، و«لا» النافية.

﴿فَوَٰحِدَةً﴾ قرأ العشرة عدا أبي جعفر بالنصب ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ على أن هذا جواب الشرط، والتقدير: فانكحوا واحدة. واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة طلبية.

وقرأ أبو جعفر: «فواحدةٌ» بالرفع، أي: فواحدة تكفي، أو تقنع[٤]، واقترن الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

والمعنى: وإن خفتم، أي: ظننتم عدم العدل مع الزوجات إذا تعددن فيما يجب لهن عليكم من حقوق النكاح في القسم والنفقة والعشرة ونحو ذلك مما يدخل تحت الاستطاعة فاكتفوا بنكاح واحدة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، «أو» عاطفة جملة على جملة، وهي بمعنى الواو، والتقدير: فانكحوا واحدة، واستمتعوا بما ملكت أيمانكم.

ومعنى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: ما ملكتموه من السراري والإماء، بملك

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٤٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٦).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (٩/ ١٤٣).

(٤) انظر: «المبسوط» ص(١٥٣)، «النشر» (٢/ ٢٤٧).

الرقبة والمنافع.

والأيمان جمع يمين، وأسند الملك إليها؛ لأنها المختصة بالمحاسن، بها يأخذ المؤمن كتابه، كما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] وهي المنفقة قال ﷺ: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

والمعنى: واستمتعوا بوطء ما ملكتموه من السراري والإماء، حيث لا يجب القسم لهن.

وليس المعنى: أو انكحوا ما ملكت أيمانكم من الإماء؛ لأنه يحرم على الرجل أن يتزوج أمته؛ لأنها تحل له بعقد ملك يمين، وهو أقوى من عقد النكاح(٢)، ولا يرد العقد الأضعف على العقد الأقوى، بخلاف العكس، فإن العقد الأقوى يرد على العقد الأضعف، فلو تزوج الرجل أمة(٣)، ثم اشتراها انفسخ نكاحها، وحلت له بملك اليمين، فملك رقبتها ومنافعها، بينما لا يملك بعقد الزواج سوى منفعة البضع.

وقيل: المعنى: التخيير بين نكاح واحدة حرة أو تركها والاكتفاء بالاستمتاع بملك اليمين. وهذا ضعيف؛ لأن الرغبة عن نكاح الحرة إلى الاستمتاع بملك اليمين أمر غير محمود شرعًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى مضمون الجملتين السابقتين، وهما ترك نكاح اليتامى عند خوف عدم الإقساط فيهن ونكاح غيرهن من النساء مثنى وثلاث ورباع، والاكتفاء بنكاح واحدة والاستمتاع بملك اليمين عند خوف عدم العدل مع الزوجات إذا تعددن.

﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أقرب، ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾، أي: ألا تعولوا، والجملة من «أن» وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض، والتقدير: ذلك أدنى إلى أن لا تعولوا.

والعول لغة: الميل، يقال: عال الميزان، إذا مال، وعال السهم عن الهدف إذا مال.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٨١)، «زاد المعاد» (٥/ ١٣٠).

(٣) لا يجوز للرجل أن يتزوج أمة إلا إذا لم يجد الطول إلى نكاح الحرة وخاف على نفسه العنت كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥].

قال أبو طالب(١):

بميـــزان قســـط لا يغـــل شـــعيرة ... لـــه شـــاهد مـــن نفســـه غـــير عائـــل

أي: غير مائل.

ويقال: عال الحاكم: إذا مال وجار وظلم. قال الشاعر(٢):

إنـــا تبعنـــا رســـول الله واطرحـــوا ... قـــول الرســـول وعـــالوا في المـــوازين

أي: جاروا.

والمعنى: ذلك- أي: ترك نكاح اليتيمات، وترك تعداد الزوجات إذا خيف عدم العدل معهن- أقرب ألا تميلوا وتجوروا.

وقيل: معنى ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾: ألا تكثر عيالكم فتفتقروا.

قال بهذا بعض أهل العلم منهم الشافعي(٣) وبعض أهل اللغة أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨]، أي: وإن خفتم فقرًا ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، كما قال الشاعر(٤):

وإن المـــوت يأخـــذ كـــل حـــي ... بـــلا شـــك وإن أمشـــى وعـــالا

أي: وإن كثرت ماشيته وعياله.

وهذا القول ضعيف من وجوه ثلاثة: الأول من حيث اللغة؛ لأنه لو أراد كثرة الأولاد والافتقار لقال: تعيلوا. الثاني: من حيث المعنى؛ لأن كثرة العيال وكثرة النفقة تحصل بالتسري، كما تحصل بالزوجات. الثالث: من حيث منافاة هذا القول لمقصود الشرع؛ لأن الشرع أمر بتكثير النسل، قال ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»(٥).

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٢٨).

(٢) البيت لعبد الله بن الحارث. انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٣١)، «اللسان»، «الصحاح» مادة «عول».

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣١٣) «معالم التنزيل» (١/ ٣٩٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٤).

(٤) البيت لأحيحة بن الجلاح الأوسي. انظر «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٥٥)، «جامع البيان» (٧/ ٥٤٩)، «اللسان» مادة «عيل».

(٥) سيأتي تخريجه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «وظن طائفة من العلماء: أن المراد ألا تكثر عيالكم، وغلَّط أكثر العلماء من قال ذلك لفظًا ومعنى، أما اللفظ: فلأنه يقال عال يعول إذا جار، وعال يعيل إذا افتقر، وأعال يعيل إذا كثر عياله، وهو سبحانه قال: ﴿تَعُولُوا۟﴾ ولم يقل: تعيلوا. وأما المعنى: فإن كثرة النفقة والعيال يحصل بالتسري، كما يحصل بالزوجات..».

وقال ابن القيم(٢): «يتعين القول الأول من وجوه»، وذكر عشرة أوجه في هذا: منها أنه المعروف في اللغة، الذي لا يكاد يعرف سواه، ولا يعرف عال يعول إذا كثر عياله إلا في حكاية الكسائي، وسائر أهل اللغة على خلافه.

ومنها أن الأحاديث الواردة في استحباب تزوج الودود الولود، وأنه ﷺ يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة ترد هذا التفسير.

ومنها أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون من الظلم والجور فيه إلى غيره، فإنه قال في أولها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ، وأباح لهم منهن أربعًا، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، ثم أخبر سبحانه أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور، وهذا صريح في المقصود المهم..».

والخلاصة في معنى الآية كما دل عليه سبب النزول: وإن خفتم ألا تعدلوا مع اليتامى إذا نكحتموهن فاتركوهن، وانكحوا ما طاب لكم من النساء سواهن ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، فإن خفتم ألا تعدلوا مع الزوجات إذا تعددن فاكتفوا بنكاح واحدة، ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ترك نكاح اليتامى وترك التعدد إذا خفتم عدم العدل أقرب ألا تجوروا وتظلموا.

الفوائد والأحكام:

١- يجب على أولياء اليتامى إذا خافوا عدم العدل معهن في أداء حقوقهن ترك الزواج بهن، وأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧٠، ٧١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٨- ١٠).

نُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾.

فإن خاف الولي عدم العدل مع اليتيمة في المهر والنفقة، أو في وطئها[1]، أو في غير ذلك من حقوقها فليتركها إلى سواها، وفي هذا سلامة اليتامى من الظلم، والأولياء من الإثم، ولهذا قال في آخر الآية ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

٢- يجب على الإنسان الاحتياط إذا خاف الوقوع في المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾.

فإذا كان فعل الشيء قد يؤدي إلى الوقوع في المحرم وجب ترك ذلك الفعل درءا للمفسدة وإيثارا للسلامة والعافية.

٣- أنه يجوز لأولياء اليتامى الزواج بهن إذا لم يخافوا عدم العدل معهن؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾، فإذا لم يخافوا جاز لهم الزواج بهن.

٤- جواز نكاح اليتيمة قبل بلوغها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ الآية، وجه ذلك أن الله نهى الأولياء عن نكاح اليتامى إذا خافوا عدم العدل فيهن، ومفهوم ذلك جواز نكاحهن وهن يتامى إذا لم يخافوا عدم العدل فيهن، وقد سماهن في الآية يتامى، ولا يسمين يتامى إلا قبل البلوغ، ولو أراد البالغات لما نهى عن حطهن عن صداق مثلهن؛ لأن البالغة لها الخيار في أن تسقط من مهرها ما شاءت، وترضى بدون صداق المثل.

ويدل على هذا ما جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- في سبب نزول الآية: «وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ الآية.

---

(١) كما دل على هذا سبب النزول، واختلف في الواجب من الوطء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قيل: إنه واجب في كل أربعة أشهر مرة، وقيل بقدر حاجتها وقدرته، كما يطعمها بقدر حاجتها وقدرته. وهذا أصح القولين» انظر «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٧١) وانظر (٢٨/ ٣٨٣، ٣٨٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «اليتيمة يجوز تزويجها بكفء لها عند أكثر السلف والفقهاء، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في ظاهر مذهبه وغيرهما، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ..﴾ الآية».

وقال: بعد ما ذكر دلالة قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ...﴾ على جواز نكاح اليتيمة قبل بلوغها، وأشار إلى حديث عائشة في تفسيرها، قال: «وهو دليل في اليتيمة، وزوجها من يعدل عليها في المهر».

وقال أيضًا: «فهذا يدل على أن الله أذن لهم أن يزوجوهن إذا فرض لهن صداق المثل، ولم يأذن لهم في تزويجهن بدونه؛ لأنها ليست من أهل التبرع».

وهكذا استدل ابن القيم بالآية وحديث عائشة وغيرهما على جواز نكاح اليتيمة قبل البلوغ[٢].

واستدل أصحاب هذا القول أيضًا بما يلي:

ما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «اليتيمة تستأمر في نفسها، فإذا صمتت فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها»[٣].

ما رُويَ عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه قال: زوجني خالي قدامة بن مظعون بنت أخيه عثمان بن مظعون، فدخل المغيرة بن شعبة على أمها ورغبها في المال وخطبها إليه، فرفع شأنها للنبي ﷺ، فقال قدامة: يا رسول الله ابنة أخي وأنا وصي أبيها، ولم أقصر بها، زوجتها من قد علمت فضله وقرابته، فقال رسول الله ﷺ: «**إنها يتيمة، واليتيمة أولى بأمرها**»، وفي رواية: «**لا تنكحوا اليتامى حتى تستأمروهن، فإذا سكتن**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٤٣، ٤٤، ٤٥).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٠٠).

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٩٣)، والنسائي في النكاح (٣٢٧٠)، والترمذي في النكاح (١١٠٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٧١)، والدارمي في النكاح (٢١٨٦).

وقد حسن هذا الحديث الترمذي، وصححه ابن حبان (١٢٣٩)، والحاكم (٢/ ١٦٦)، ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

وأخرجه أحمد (٤/ ٣٩٤، ٤٠٨، ٤١١) من حديث أبي موسى الأشعري بنحوه وصححه ابن حبان (١١٣٨)، والحاكم (٢/ ١٦٢) ووافقه الذهبي. وانظر «زاد المعاد» (٥/ ١٠٠).

فهو إذنهن» فنزعت منه وزوجها المغيرة بن شعبة»[١].

فعلى هذا يجوز نكاح اليتيمة قبل أن تبلغ بإذنها، لكن قال بعضهم كأبي حنيفة: لها الخيار إذا بلغت[٢].

والراجح أنه لا خيار لها إذا نكحت بإذنها للأدلة السابقة. وهو الظاهر المشهور من مذهب الإمام أحمد[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «وقد دل على ذلك الكتاب والسنة».

وقيل: لا تزوج اليتيمة إذا لم يكن لها أب ولا جد إلا بعد بلوغها وإذنها، وبه قال مالك[٥]، والشافعي[٦]، وأحمد في رواية[٧] ونسب إلى الجمهور[٨].

قالوا: لأنه ليس لها ولي يجبرها في نفسها، ولا إذن لها قبل البلوغ فتعذر تزويجها بإذنها وإذن وليها.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ١٢٧].

قالوا: فأطلق عليهن اسم النساء، وهو يطلق على الإناث البالغات؛ فدل على أن المراد باليتامى في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هن البالغات لأن المراد باليتامى في قوله: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ هو المراد بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[٩].

فالمراد بهذه الآية اليتيمة البالغة، فلا تنكح إلا بإذنها ولا تنكح الصغيرة؛ إذ لا إذن

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٠)، والبيهقي (٧/ ١١٣، ١٢٠، ١٢١).
قال الألباني: «الحديث حسن» انظر «إرواء الغليل» (٦/ ٢٣٣).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٥٠- ٥٣).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٤٣)، «زاد المعاد» (٥/ ١٠٠).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٤٣، ٤٨).
(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣١٠، ٣١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣).
(٦) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣١٢- ٣١٤).
(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٤٧).
(٨) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٦٢).
(٩) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣١٢، ٣١٤).

لها حتى تبلغ[١].

كما استدلوا بحديث ابن عمر المتقدم: «**ولا تنكحوا اليتامى حتى تستأمروهن**»، قالوا: لأنه لا إذن لها معتبر إلا بعد البلوغ[٢].

والصحيح القول الأول وهو جواز تزويج اليتيمة بإذنها[٣] قبل البلوغ، لدلالة الآيتين والأحاديث السابقة، ولمصلحة اليتيمة نفسها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «أما تخصيص لفظ اليتيم بما بعد البلوغ فلا يحتمله اللفظ بحال، ولأن الصغير المميز يصح لفظه مع إذن وليه، كما يصح إحرامه بالحج بإذن الولي، وكما يصح تصرفه في البيع وغيره بإذن وليه عند أكثر العلماء، كما دل على ذلك القرآن بقوله: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ الآية. فأمر بالابتلاء قبل البلوغ».

٥- إذا وقع الظلم لليتيمة بالنقص من مهرها يرجع إلى مهر المثل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ فالقسط فيهن بإيتائهن مهور أمثالهن من النساء، كما جاء في سبب نزول الآية.

٦- استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣١٠، ٣١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤).

(٣) كما لا تزوج البكر البالغة إلا بإذنها لما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنكح البكر حتى تستأذن». قالوا: يا رسول الله. وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت» أخرجه البخاري في النكاح- الحديث (٥١٣٦) ومسلم في النكاح (١٤١٩)، وأخرجه مسلم أيضًا بنحوه من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما (١٤٢١). وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن جارية أتت النبي ﷺ فذكرت له أن أباها زوجها وهي كارهة فخيرها النبي ﷺ» أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٩٦)، وابن ماجه في النكاح (١٨٧٥)، وأحمد (١/ ٢٧٣)، وصححه الألباني وعن عائشة نحوه أخرجه أحمد (٦/ ١٣٦).

وانظر «تهذيب سنن أبي داود» لابن القيم (٣/ ٤٠).

قال ابن القيم: «وموجب هذا الحكم ألا تجبر البكر البالغ على النكاح، ولا تزوج إلا برضاها، وهذا قول جمهور السلف ومذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايات عنه، وهو القول الذي ندين الله به، ولا نعتقد سواه، وهو الموافق لحكم رسول الله ﷺ وأمره ونهيه وقواعد شريعته ومصالح أمته..» «زاد المعاد» (٥/ ٩٦- ٩٨).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٤٨).

طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ مع سبب النزول على أن للولي أن يزوج اليتيمة التي تحت ولايته من نفسه، بمعنى أن يكون هو الناكح والمنكح.

وممن ذهب إلى هذا جماعة من السلف منهم الحسن وابن سيرين والأوزاعي والثوري، وأبو ثور وربيعة والليث بن سعد[١]، ومالك[٢]، وأحمد في رواية عنه[٣].

واستدلوا بما رواه البخاري معلقًا[٤] أن عبدالرحمن بن عوف قال لأم حكيم بنت قارظ: «أتجعلين أمرك إلي؟ قالت: نعم، فقال: قد تزوجتك».

ووجه الدلالة منه أنه وجد الإيجاب من ولي هو أهل لذلك، والقبول من زوج هو أهل لذلك.

كما استدلوا أيضًا بأن النبي ﷺ «**أعتق صفية، وجعل عتقها صداقها**»[٥].

وقد أجيب عن هذا بأنه خاص بالنبي ﷺ، وليس ظاهرًا بأنه بدون ولي.

وذهب بعض العلماء منهم الإمام الشافعي، وأحمد في رواية له، إلى أنه لا يجوز للولي أن يعقد لنفسه، وإنما يتولى العقد السلطان، أو أحد أقاربها الذين هم أقرب إليها منه.

وفي رواية لأحمد: أو تجعل أمرها إلى رجل يزوجها منه.

واستدلوا بحديث «**لا نكاح إلى بولي**»[٦] قالوا: فالولاية شرط في النكاح.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣١٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٠٤).

(٤) في كتاب النكاح، باب إذا كان الولي هو الخاطب «فتح الباري» (٩/ ١٨٨). وقد وصله ابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٤٦). وصحح الألباني إسناده. انظر «إرواء الغليل» (٦/ ٢٥٦) حديث (١٨٥٤).

(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٦) ومسلم في الحج وفي الجهاد والسير (١٣٦٥)، وأبو داود في النكاح الحديث (٢٠٥٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٢)، والترمذي في النكاح الحديث (١٠٩٥)، وابن ماجه في النكاح (١٩٥٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٨٥)، والترمذي في النكاح (١١٠١، ١١٠٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨١)، وأحمد (٤/ ٣٩٨، ٤١٣، ٤١٨)، والدارمي في النكاح (٢١٨٢)، والبيهقي في سننه (٧/ ١٠٧- كلهم من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ وصححه ابن حبان (١٢٤٣-١٢٤٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٩)، وأطال في تخريج طرقه، وقد اختلف في وصله وإرساله، وقال الحاكم: «وقد صحت الرواية فيه عن أزواج النبي ﷺ عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش..»
=

كما استدلوا بما روي أن المغيرة بن شعبة خطب امرأة هو أولى الناس بها، فأمر رجلًا فزوجه[١].

وأجيب عن هذا بأن في إسناده عبد الملك بن عمير وهو مدلس[٢].

كما أجيب عن حديث «**لا نكاح إلا بولي**» بأن الذي تزوجها هو وليها.

قال ابن القيم بعد أن ذكر القولين: «الأول أصح دليلًا[٣] والثاني أبعد عن التهمة».

وقد يجاب عن هذا بأن التهمة تزول بالإشهاد على النكاح وإعلانه.

وعلى هذا فيجوز للولي أن يعقد لنفسه فيأتي بشاهدين ويقول أشهدكما أني زوجت نفسي مثلًا ابنة عمي فلانة بالولاية الشرعية. وهذا إيجاب منه يتضمن القبول، فلا يحتاج أن يقول: قبلت. وقال: قال ﷺ لصفية: «**إني أعتقتك، وجعلت عتقك صداقك**»[٤].

ولم يحتج إلى إيجاب ولا قبول لظهور المعنى.

لكن دلالة الآية على هذه المسألة ليست ظاهرة، وقد فرع بعض من استدل بالآية على الجواز مسألة أخرى، وهي جواز بيع الوكيل والوصي لنفسه والشراء منها.

فذكر القرطبي[٥] عن ابن خويز منداد أنه قال: «ولهذا قلنا: إنه يجوز أن يشتري الوصي من مال اليتيم لنفسه ويبيع من نفسه من غير محاباة، وللموكل النظر فيما اشترى وكيله لنفسه أو باع منها، وللسلطان النظر فيما يفعله الوصي من ذلك، فأما الأب فليس لأحد عليه نظر ما لم تظهر عليه المحاباة فيعترض عليه السلطان».

=

وقال الترمذي: «وفي الباب عن عائشة وابن عباس وأبي هريرة وعمران بن حصين وأنس» وانظر «نصب الراية» (٣/ ١٨٣، ١٩٠)، وصححه الألباني. انظر «إرواء الغليل» (٦/ ٢٣٨ «١٨٣٩»).

(١) ذكره البخاري معلقا انظر «فتح الباري» (٩/ ١٨٨) قال الحافظ ابن حجر: «هذا الأثر وصله وكيع في مصنفه والبيهقي من طريقه عن الثوري عن عبدالملك بن عمير، وأخرجه عبد الرزاق عن الثوري وسعيد ابن منصور من طريق الشعبي..» وصححه الألباني، انظر «إرواء الغليل» (٦/ ٢٥٦) حديث (١٨٥٥).

(٢) قال في «التقريب» (١/ ٥٢١) ترجمة (١٣٣١): «عبد الملك بن عمير بن سويد اللخمي: ثقة فقيه، تغير حفظه، وربما دلس، مات سنة (٢٣٦)هـ.

(٣) يعني ما جاء في البخاري عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٤) انظر: «سنن البيهقي» (٧/ ٥٦).

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١، ١٢).

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز للوكيل والوصي الشراء من نفسه أو البيع لها؛ لأنه متهم، كما لا يجوز أن يعطي الزكاة لنفسه إذا وكل في إخراجها- وهذا هو الأظهر؛ لأنه أحوط وأبعد عن التهمة، وليس في الآية دليل على جواز ذلك.

٧- سعة فضل الله تعالى ورحمته وتيسيره على الأمة المحمدية، فإذا سد باب حرام فتح في المقابل أبوابًا كثيرةً من الحلال؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي في مقابل ترك نكاح اليتامى إذا خفتم عدم العدل معهن.

٨- أن القرآن الكريم جاء بأحسن الأساليب وأجودها في مخاطباته وأوامره ونواهيه، مما يكون له الأثر في نفوس المخاطبين، ويحملهم على الإذعان والقبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية.

حيث جاء الأمر للأولياء بنكاح ما طاب لهم من النساء، وكان المتوقع كما يوحي به السياق أن يأتي الأمر بترك نكاح اليتامى إذا خافوا عدم العدل فيهن، أو النهي عن نكاحهن في هذه الحال.

والغرض من هذا إرشاد المخاطبين وتوجيههم إلى أن الأمر واسع، ولم يضيق الله عليهم، فلهم إذا خافوا عدم العدل مع اليتامى أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء[1] كيفية وكمية إلى حد الأربع.

٩- ينبغي للرجل أن يتزوج من تطيب له من النساء ويرغب فيها وتميل نفسه إليها، فهذا أحرى أن يؤدم بينهما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: ما رغبتم فيه منهن من ذوات الصفات الطيبة من الدين والخلق والجمال ونحو ذلك، وفي الحديث: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[2].

١٠- الإشارة إلى أنه ينبغي للزوج أن يرى من مخطوبته ما يرغبه في نكاحها من

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨١).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، وأبو داود في النكاح (٢٠٤٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٠)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
ومعنى تربت يداك: التصقت يداك بالتراب، وهو كلمة تقولها العرب، وليس معناها الدعاء، وقيل معناها: لله درك. انظر «النهاية» مادة «ترب».

الصفات الطيبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وفي الحديث عن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ: «**انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»(١).

أي أقرب بأن يؤلف بينكما، فتستمر العشرة بينكما ويحصن كل منكما صاحبه.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها، فليفعل»، قال: فخطبت جارية فكنت أتخبأ لها حتى حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها وتزوُّجِها، فتزوجتها(٢).

والناس في هذا- والله المستعان- بين الغالي والجافي، فمنهم من يمنع من رؤية المخطوبة البتة، ومنهم من يتركها تذهب مع خطيبها حيث شاء، ودين الله وسط بين هذا وهذا.

١١- أنه لا ينبغي أن يكره الإنسان على الزواج بامرأة لم تطب بها نفسه، كما يحصل هذا في بعض القبائل يجبر الرجل على نكاح ابنة عمه وإن كان لا يريدها، ولا ينبغي أن يتزوجها وهو كاره لها؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

ومثل هذا الزواج في الغالب نهايته الفشل.

ومثل هذا إكراه الفتاة على الزواج من رجل لا تريده، مع أن هذا محرم لا يجوز، والعقد باطل على الصحيح من أقوال أهل العلم.

١٢- أن نكاح الخبيثة منهي عنه: كالمشركة والفاجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، فيفهم من هذا أن غير الطيب لا يجوز نكاحه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ

---

(١) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٣٥)، والترمذي في النكاح (١٠٨٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٦)، قال الترمذي: «هو حديث حسن، وفي الباب عن محمد بن مسلمة وجابر وأبي حميد وأنس وأبي هريرة». وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح ٢٠٨٢، وأحمد ٣/ ٣٣٤، وحسنه الألباني.

إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١٣- جواز نكاح زوجتين أو ثلاث أو أربع أو استحباب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ؛ لأن الله ذكر هذا مقابل النهي عن نكاح اليتامى إذا خافوا عدم العدل فيهن[١]، كما دلَّ عليه قوله في أول الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، أي: فاتركوهن وانكحوا ما طاب لكم من النساء سواهن.

وقد اختلف أهل العلم في الأمر بعد الحظر، فذهب بعضهم: إلى أن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة، وعلى هذا فالآية تدل على جواز تعدد الزوجات كما تدل على إباحة النكاح.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر بعد الحظر يعود فيه الحكم إلى ما كان عليه قبل الحظر واجبًا كان أو مندوبًا أو مباحًا أو غير ذلك[٢].

وقد استدل بعض أهل العلم بالآية على أفضلية التعدد، وأنه هو الأصل منهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله- تعالى- [٣]، وقد دلَّ على أفضلية التعدد أدلة أخرى، كقوله ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء**»[٤].

وكقوله ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»[٥].

ولا يقدح في جوازه، بل ولا في فضله كون كثير ممن يعددون الزوجات لا يعدلون بينهن أو لا يستطيعون القيام بحقوقهن وحقوق الأولاد، فإن هؤلاء لا يجوز التعدد في حقهم، أما من سواهم ممن يعدلون بين الزوجات ويستطيعون القيام بحقوقهن وحقوق الأولاد فالتعدد في حقهم أفضل، ولا يجوز تحريم ما أحل الله أو القول بأنه إنما يباح

---

(١) لكنه يجوز للرجل أن يعدد الزوجات وإن لم يخف عدم الإقساط مع اليتيمات باتفاق أهل العلم؛ لأن هذه الآية نزلت جوابًا لمن خاف ذلك، وحكمها أعم، فالشرط في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لا مفهوم له.

(٢) النكاح في الأصل مندوب إليه وسنة من سنن المرسلين، ومستحب من حيث العموم، وقد يجب- وخاصة إذا خاف على نفسه الوقوع في الفاحشة، ويكون تارة مباحًا أو محرمًا أو مكروهًا.

(٣) انظر: «فضل تعدد الزوجات» ص(١٧، ١٨).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٩).

(٥) سيأتي تخريجه.

للضرورة فقط، لأجل أن فئاما من الناس لا يقومون بما شرطه الله من العدل بين الزوجات[١].

١٤- عدم جواز الجمع بين أكثر من أربع زوجات في عصمة الرجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ؛ لأنه لو كان يجوز الزيادة على أربع لذكره الله تعالى في هذا المقام؛ لأنه مقام توسعة وامتنان، وفتح للباب إلى أعلى حد يجوز ذلك، في مقابل المنع من نكاح اليتامى إذا خيف عدم العدل فيهن.

قال الحافظ ابن كثير[٢]: «قصر الله الرجال على أربع في هذه الآية، كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز أكثر من ذلك لذكره».

وعلى هذا دلت السنة وأجمعت الأمة، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- «أن غيلان بن سلمة أسلم وتحته عشر نسوة، فقال النبي ﷺ: «**اختر منهن أربعًا، وفارق سائرهن**»[٣].

قال الحافظ ابن كثير[٤] بعد أن ذكر روايات حديث غيلان: «فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد

---

(١) تعصب لهذا القول وهو أن التعدد إنما يباح للضرورة فقط صاحب «تفسير المنار» معللا ومتأثرا بواقع كثير ممن يعددون الزوجات ولا يعدلون بينهن ولا يؤدون حقوقهن وحقوق أولادهن، وما يحصل بين الضرائر وبين أولادهن من العداوات والمفاسد. وهذا كله لا يبيح قصر التعدد في حدود الضرورة، وقد دلت الأدلة على جوازه، بل على فضله. انظر «تفسير المنار» (٤/ ٣٦٦- ٣٧٠).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٨٢).

(٣) أخرجه الترمذي في «النكاح» (١١٢٨)، وابن ماجه في «النكاح» (١٩٥٣)، وأحمد (٢/ ١٤، ٨٣)، وصححه ابن حبان (١٢٧٧)، وأخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٤٠)- الأثر (٣٠٩) وإسناده صحيح.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٨٣)- عن إسناد الإمام أحمد: «رجاله ثقات على شرط الصحيحين».

وقال الحافظ في «تلخيص الحبير» (٣/ ١٦٩): «رجال إسناده ثقات» وصححه الألباني.

انظر «إرواء الغليل» (٦/ ٢٩١)، وانظر في بسط الكلام في تخريج هذا الحديث والحكم عليه في تخريج «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٤٠- ١٤٤).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ١٨٤). وإنما أمره الرسول ﷺ أن يختار منهن أربعًا؛ لأنه عقد عليهن قبل التحريم. أما لو حصل العقد على زيادة عن أربع بعد التحريم فعقد الخامسة وما بعدها باطل.

أسلمن معه، فلما أمره بإمساك أربع، وفراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، وإذا كان هذا في الدوام ففي الاستئناف بطريق الأولى والأحرى».

وعن الحارث بن قيس، أو قيس بن الحارث، قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة، فأتيت النبي ﷺ فقلت ذلك له، فقال: «**اختر منهن أربعًا**»(١).

وقد أجمع المسلمون على هذا. قال أبوجعفر النحاس(٢): «**ولم يزل المسلمون من لدن رسول الله ﷺ إلى هذا الوقت يحرمون ما فوق الأربع بالقرآن والسنة**».

وقال البغوي:(٣) «**وهذا إجماع أن أحدًا من الأمة لا يجوز له الزيادة على أربع نسوة**».

وقال ابن كثير(٤): «وعلى هذا أجمعت الأمة».

وقال أيضًا: «قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله الشافعي- رحمه الله- مجمع عليه بين العلماء».

وشذ الرافضة فأباحوا نكاح تسع زوجات، واحتجوا بالآية، وقالوا: إن الواو فيها للجمع، وأن معنى ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، أي: اثنتين وثلاثا وأربعا.

كما احتجوا بأن النبي ﷺ اجتمع في عصمته تسع نسوة.

وقولهم هذا باطل بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وبدلالة اللغة.

لأنه لو كان المراد بالآية- كما يقولون- جواز الجمع بين تسع زوجات، لقال: انكحوا تسع زوجات، إذ لم يكن معروفًا عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم إذا أراد أحدهم أن يقول لصاحبه خذ تسعا أن يقول: خذ اثنتين وثلاثًا وأربعًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق (٢٢٤١، ٢٢٤٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٥٢).
قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٨٤)، بعد أن ساق هذا الحديث بإسناد أبي داود «وهذا الإسناد حسن» وصححه الألباني. وقال ابن كثير أيضًا (٢/ ١٨٤) بعد أن ذكر حديث الحارث بن قيس: «ونحوه من حديث نوفل بن معاوية الديلي أنه أسلم وعنده خمس نسوة فخيره الرسول في أربع، كما أخرجه الشافعي في مسنده». قال ابن كثير: «فهذه كلها شواهد لصحة حديث غيلان، كما قاله الحافظ أبو بكر البيهقي».

(٢) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٣٩، ١٤٠).

(٣) في «معالم التنزيل» (١/ ٣٩١).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ١٨٢).

قال القرطبي[١] رحمه الله: «اعلم أن هذا العدد «مثنى وثلاث ورباع» لا يدل على إباحة تسع، كما قاله من بَعُد فهمه للكتاب والسنة، وأعرض عما كان عليه سلف هذه الأمة، وزعم أن الواو جامعة، وعضد ذلك بأن النبي ﷺ نكح تسعا وجمع بينهن في عصمته، والذي صار إلى هذه الجهالة وقال هذه المقالة الرافضة وبعض أهل الظاهر، فجعلوا «مثنى» مثل اثنتين، وكذلك «ثلاث» و«رباع»، وذهب بعض أهل الظاهر أيضًا إلى أقبح منها فقالوا بإباحة الجمع بين ثمان عشرة تمسكا منه بأن العدل في تلك الصيغ يفيد التكرار، والواو للجمع، فجعل مثنى: بمعنى اثنتين اثنتين، وكذلك ثلاث ورباع.

وهذا كله جهل باللسان والسنة ومخالفة لإجماع الأمة، إذ لم يسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع في عصمته أكثر من أربع...».

وقال أيضًا: «وأما قولهم: إن الواو جامعة. فقد قيل ذلك لكن الله تعالى خاطب العرب بأفصح اللغات، والعرب لا تدع أن تقول تسعة، وتقول: اثنين وثلاثة وأربعة، وكذلك تستقبح من يقول أعط فلانًا أربعة ستة ثمانية، ولا يقول: ثمانية عشر».

وأما ما احتجوا به من أن الرسول ﷺ اجتمع في عصمته تسع نسوة فلا حجة فيه؛ لأن هذا من خصائصه ﷺ[٢]. فقد خصه الله تعالى بذلك، ومنعه من الزواج عليهن أو أن يتبدل بهن، فقصره على العدد تسع، وعلى المعدود، وهن هؤلاء الزوجات، قال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، بينما الأمة قصرت على العدد وهو أربع، ولم تقصر في المعدود فللرجل أن ينكح ما طاب له من النساء، وله أن يستبدل منهن ما شاء.

كما خصَّه الله تعالى بتحريم الزواج بزوجاته ﷺ بعده، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

كما أباح له خاصة أن يتزوج بهبة، كما قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٧).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٩١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣١٢، ٤/ ٢١٢).

إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قال ابن كثير[١]: «وقد يتمسك بعضهم بفعل النبي ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع، كما ثبت في الصحيحين، وإما إحدى عشرة كما جاء في بعض ألفاظ البخاري، وقد علقه البخاري. وقد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة، ودخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده أحدى عشرة، ومات عن تسع، وهذا عند العلماء من خصائص رسول الله ﷺ دون غيره من الأمة، لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع» ثم ساق رحمه الله حديث غيلان وغيره.

وأيضًا فزواجه ﷺ بهن لحكم دينية وسياسية واجتماعية.

وأيضًا فإن الرسول ﷺ قواه الله على العدل بين أكثر من أربع على القول بوجوب القسم عليه، كما هو المشهور، بينما الذي يطيقه عامة الناس من العدل ينتهي غالبًا إلى أربع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «فالعدل الذي يطيقه عامة الناس ينتهي إلى الأربعة. وأما رسول الله ﷺ فإن الله قواه على العدل فيما هو أكثر من ذلك- على القول المشهور- وهو وجوب القسم عليه، وسقوط القسم عنه على القول الآخر، كما أنه لما كان أحق بالمؤمنين من أنفسهم أحل له التزوج، بلا مهر».

وعلى هذا فالقول بجواز الزيادة على أربع زوجات باطل بدلالة الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، واللغة.

لكن اختلف العلماء في حكم من تزوج الخامسة بعد اتفاقهم على أنه يفرق بينهما. فذهب طائفة من أهل العلم منهم مالك، وأبو ثور والزهري وغيرهم[٣]، إلى أنه يرجم وقيل: عليه التعزير.

والصحيح الأول؛ لأنه أقدم على هذا النكاح وهو يعلم أنه محرم.

١٥- إذا طلق الرجل امرأته طلاقا رجعيا فلا يجوز له أن يتزوج رابعة ما دامت في

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٨٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧١).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٨).

العدة بالإجماع[١]؛ لأن الرجعية بحكم الزوجة ما دامت في العدة، وقد قال الله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، فلو تزوج والرابعة ما زالت في عدتها من طلاق رجعي فالنكاح باطل.

فإن كان الفراق بائنا كفرقة لعان أو طلاق ثلاث، أو فسخ أو طلاق على عوض فذهب أكثر أهل العلم منهم مالك، وأبوثور وأبوعبيد وابن المنذر، وغيرهم إلى أن له أن يتزوج رابعة وإن كانت المفارقة ما زالت في العدة؛ لأنها قد بانت منه فليست بزوجة له الآن[٢].

وذهب طائفة من أهل العلم منهم أبوحنيفة[٣]، وأحمد[٤]، والثوري[٥]، وغيرهم إلى أنه لا يجوز أن يتزوج رابعة مادامت المفارقة في العدة، وإن كان الفراق بائنًا؛ لأن المفارقة ما زالت مشغولة بحق الزوج، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

١٦- بُعْد القرآن الكريم في تعبيره عما يوجب الإيهام؛ لقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ حيث جاء بصيغة العدل؛ لأنه لو قال: (اثنتين وثلاثا وأربعا) لأوهم جواز الجمع بين هذه الأعداد، وحيث جاء العطف بالواو بدل «أو» لئلا يتوهم أنه لا يجوز إلا أحد هذه الأعداد.

١٧- وجوب العدل بين الزوجات في حقوق النكاح؛ من القسم والمبيت[٦]

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٩)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧٢).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٩).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٣٢).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٨٣).

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٩).

(٦) عن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ: «جعل للبكر سبعًا وللثيب ثلاثًا» أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٣)، ومسلم في النكاح (١٤٦١)، وأبو داود في النكاح (٢١٢٣، ٢١٢٤)، والترمذي في النكاح (١١٣٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩١٦).

وأخرجه مسلم (١٤٦١) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها =

والنفقة والمسكن والعشرة ونحو ذلك، مما يدخل تحت الاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

دون ما لا يقدر عليه كالمحبة القلبية والجماع قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

وفي الحديث عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول: «اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[١]. قال أبو داود: «يعني القلب».

وهذا الحديث وإن تكلم فيه وضُعف، فمعناه صحيح، فإن القسم واجب فيما يملك الإنسان، أما ما لا يملك فلا مؤاخذة فيه، كالمحبة والجماع، لكن لا يجوز أن يجمع نفسه لزوجة دون أخرى كما قال الفقهاء رحمهم الله.

قال ابن القيم[٢] أثناء ذكره لفوائد أحاديث قسمه ﷺ بين زوجاته فيما يملك، قال: «ومنها أنه لا تجب التسوية بين النساء في المحبة؛ فإنها لا تملك، وكانت عائشة- رضي الله عنها- أحب نسائه إليه، وأخذ من هذا أنه لا تجب التسوية بينهن في الوطء؛ لأنه موقوف على المحبة والميل، وهو بيد مقلب القلوب. وفي هذا تفصيل وهو: إن تركه لعدم الداعي إليه، وعدم الانتشار فهو معذور، وإن تركه مع الداعي إليه، ولكن داعيه إلى الضرة أقوى، فهذا مما يدخل تحت قدرته وملكه، فإن أدى الواجب عليه منه لم يبق لها حق ولم يلزمه التسوية، وإن ترك الواجب منه فلها المطالبة به».

=

وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضى رسول الله ﷺ». أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٥)، وأبو داود في النكاح (٢١٣٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠).

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٣٤)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٣)، والترمذي في النكاح (١١٤٠)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧١)، والحاكم (٢/ ١٨٧) وصححه ووافقه الذهبي.

قال الترمذي «رواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب عن أبي قلابة مرسلًا. قال: وهذا أصح».

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٨٢) بعد ما ذكر رواية أبي داود لهذا الحديث: «وهذا إسناد صحيح» ثم ذكر قول الترمذي. وقد ضعفه الألباني. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٦٩)، «إرواء الغليل» (٧/ ٨١).

(٢) في «زاد المعاد» (٥/ ١٥١).

١٨- وجوب الاقتصار على زوجة واحدة، وترك التعدد، إذا خاف ألا يعدل بين الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

١٩- إباحة الاستمتاع بما شاء من ملك اليمين، وأنه لا يجب القسم بينهن، وليس لهن من الحقوق مثل ما للحرائر[١]، ولهذا جعلهن الله بمثابة الواحدة فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «فقد أباح مما ملكت اليمين ما شاء الإنسان بغير عدد؛ لأن المملوكات لا يجب لهن قسم، ولا يستحققن على الرجل وطئًا؛ ولهذا يملك من لا يحل له وطؤها كأم امرأته وبنتها، وأخته وابنته من الرضاع».

لكن لو تزوج حرة على أمة فقد قضى عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- للأمة ليلة وللحرة ليلتين، وبهذا أخذ الإمام أحمد رحمه الله.

قال ابن القيم[٣]: «وقد احتج الإمام أحمد بهذا القضاء عن علي- رضي الله عنه- ولا يعرف لعلي مخالف من الصحابة، وهو قول جمهور الفقهاء، إلا رواية عن مالك: أنهما سواء، وبه قال أهل الظاهر. قال ابن القيم: وقول الجمهور هو الذي يقتضيه العدل، فإن الله سبحانه لم يسو بين الحرة والأمة، لا في الطلاق، ولا في العدة، ولا في الحد، ولا في الملك، ولا في الميراث ولا في الحج، ولا في مدة الكون عند الزوج ليلا ونهارًا، ولا في أصل النكاح، بل جعل نكاحها بمنزلة الضرورة، ولا في عدد المنكوحات، فإن العبد لا يتزوج أكثر من اثنتين. هذا قول الجمهور. وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «ويتزوج العبد ثنتين ويطلق ثنتين، وتعتد امرأته حيضتين» واحتج به أحمد، ورواه أبو بكر عبدالعزيز عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «لا يحل للعبد من النساء إلا ثنتان» وروى الإمام أحمد بإسناده عن محمد بن سيرين قال: «سأل عمر- رضي الله عنه- الناس كم يتزوج العبد؟ فقال عبدالرحمن بن عوف: ثنتين وطلاقه

---

(١) لكن يستحب العدل بينهن، ولهن من الحقوق ما يجب مراعاته من حسن الملكية والرفق بالرقيق، ونحو ذلك.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧١).

(٣) في «زاد المعاد» (٥/ ١٥٠، ١٥٣- ١٥٤).

ثنتين»، فهذا عمر، وعلي وعبدالرحمن- رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة مع انتشار هذا القول وظهوره، وموافقته للقياس».

٢٠- جواز وطء الأمة، كتابية أو مجوسية أو وثنية؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وهذا مطلق.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك فذهب جمهور أهل العلم إلى جواز وطء الأمة الكتابية؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥]؛ ولأن الله أباح نكاح حرائرهم بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

وأما إن كانت الأمة مجوسية أو عابدة وثن فجمهور العلماء على منع وطئها بملك اليمين، وظاهر الكتاب والسنة جواز ذلك، قال ابن القيم[1] في ذكر فوائد حديث أبي سعيد في سبي أوطاس: «ودل هذا القضاء النبوي على جواز وطء الإماء الوثنيات بملك اليمين فإن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات، ولم يشترط رسول الله ﷺ في وطئهن إسلامهن، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء فقط، وهذا مذهب طاوس، وقواه صاحب المغني ورجح أدلته».

وقال الشنقيطي[2]: «والذي يظهر من جهة الدليل- والله تعالى أعلم- جواز وطء الأمة بملك اليمين، وإن كانت عابدة وثن أو مجوسية..».

٢١- إثبات ملك اليمين وهو «الرق»؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وهو كما قال الفقهاء «عجز حكمي يقوم بالإنسان سببه الكفر» فإذا وجد سببه بأن قاتل المسلمون الكفار، وسبوا منهم سبايا فهؤلاء السبايا أرقاء وملك للمسلمين حتى يعتقوا.

أما ما يوجد الآن في بعض البلاد من سرقة بعض الأولاد وبيعهم، أو بيع بعض الناس أولادهم بسبب الحاجة، فهذا كله ليس من ملك اليمين في شيء، وإنما هؤلاء أحرار. وقد قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي**

---

(١) في «زاد المعاد» (٥/ ١٣٢).

(٢) في «أضواء البيان» (١/ ٣٢٦).

ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»(١).

٢٢- إثبات الملكية الفردية الخاصة للإنسان، وأنه يملك وله التصرف في ملكه حسب ما أذن به الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وفي هذا رد على الشيوعية الاشتراكية الملحدة.

٢٣- فضل اليمين على الشمال؛ لأن الله أضاف الملك إلى اليمين، فقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وفي الحديث: «أنه كان ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله»(٢).

٢٤- إطلاق البعض على الكل؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ؛ لأن الأيمان جمع يمين وهي اليد والملك إنما هو للإنسان كله، وإنما يعبر باليمين؛ لأن الأخذ والإعطاء بها.

٢٥- أن الخطاب في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ للأحرار؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فهم الذين يملكون، وهم الذين يجوز للواحد منهم الزواج بأربع زوجات. وعليه جمهور أهل العلم.

وقد قيل: إن الخطاب في الآية عام للأحرار والعبيد، فيجوز للعبد أن يتزوج أربع زوجات بهذا قال مالك في المشهور عنه، والظاهرية(٣).

والصحيح أن الخطاب في الآية خاص بالأحرار، وأن العبد له أن يتزوج اثنتين فقط لما صح عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «ينكح العبد امرأتين ويطلق تطليقتين، وتعتد الأمة حيضتين»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٠)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٢)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ عن ربه عز وجل.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٨)، ومسلم في الطهارة (٢٦٨)، وأبو داود في اللباس (٤١٤٠)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٢١)، والترمذي في الطهارة (٦٠٨)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٠١)من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣١٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢- ٢٣).

(٤) أخرجه الشافعي وأحمد والدارقطني والبيهقي (٧/ ٤٢٥)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٣٩١- ٣٩٢).

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٥/ ١٥٣): «واحتج به الإمام أحمد». وقد صححه الألباني في «إرواء =

وهو قول جمهور أهل العلم منهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- وعبدالرحمن بن عوف، ولا مخالف لهم من الصحابة.

قال ابن القيم[١] بعد ذكر الرواية عن عمر وعلي وعبدالرحمن بن عوف: «ولم يعرف لهم مخالف من الصحابة مع انتشار هذا القول وظهوره، وموافقته للقياس».

٢٦- أن ترك تعدد الزوجات إذا خاف عدم العدل معهن والاقتصار على نكاح واحدة والاستمتاع بملك اليمين أقرب ألا يقع المرء في الجور والظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «من كان له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»[٢] وفي بعض الروايات: «وشقه ساقط»[٣].

٢٧- الإشارة إلى أن الإنسان قد لا يسلم من الظلم والجور حتى لو ترك نكاح اليتامى، ولو لم يعدد الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ ولم يقل: ذلك ألا تعولوا، لكن حنانيك بعض الشر أهون من بعض.

٢٨- تحريم الوسائل المؤدية إلى فعل المحرم، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد[٤]، وقد دلت الآية على هذا المعنى في موضعين منها: الأول: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، فأوجبت الآية العدول عن اليتامى إذا

=
الغليل» (٧/ ١٥٠) الحديث (٢٠٦٧). وانظر «نصب الراية» (٣/ ٢٢٧).

(١) في «زاد المعاد» (٥/ ١٥٣، ١٥٤)، وانظر «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٥٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٣٩١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣١٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢- ٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٣٣)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٢)، والدارمي في النكاح (٢٢٠٦) وصححه الألباني.

(٣) أخرجها الترمذي في النكاح (١١٤١)، وابن ماجه في النكاح (١٩٦٩)، وصححها الألباني.

(٤) وهذه قاعدة أصولية فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المندوب إلا به فهو مندوب، وما يكون وسيلة إلى المحرم فهو محرم.
انظر «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (١/ ١٥٧- ١٦٠).

خيف عدم العدل فيهن، ووجهت إلى نكاح ما طاب لهم من النساء سواهن. والثاني: في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

فأوجبت الآية ترك تعدد الزوجات إذا خيف عدم العدل معهن، ووجهت إلى الاقتصار على واحدة والاستمتاع بملك اليمين.

الحكمة التشريعية في إباحة الإسلام تعدد الزوجات

تظهر الحكمة التشريعية في إباحة تعدد الزوجات في مراعاة التشريع الإسلامي قدرات الناس الجسمانية والمالية فأباح لهم التعدد ولم يحصرهم في عدد معين، بل جعل لهم الخيار في ذلك، فمن أحب أن ينكح اثنتين فله ذلك، ومن أحب أن ينكح ثلاثا أو أربعا فله ذلك، وبالأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر.

كما تظهر الحكمة التشريعية في إباحة الإسلام تعدد الزوجات في حل مشكلة من أكبر المشاكل الاجتماعية، وهي كثرة عدد النساء مقابل عدد الرجال إذ تبلغ نسبة عدد النساء في بعض المجتمعات إلى نحو ٦٠٪، بل وأكثر من ذلك.

ويقال: إن «تايلاند» يقابل الواحد من الرجال عشرًا من النساء، وفي ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية يقابل كل شاب ثلاث فتيات[1]، وفي أمريكا نسبة عدد النساء ١٦٠٪ إلى الرجال.

وهكذا في حالات اختلال التوازن بين الجنسين في أيام الحروب والأوبئة، التي يتعرض لها الرجال أكثر.

وإن جلوس كثير من الفتيات بلا زواج ومجاهدتهن داعية الزواج والنسل في طبيعتهن يسبب لهن أمراضا بدنية وعقلية كثيرة إضافة إلى حاجة المرأة إلى كفالة الرجل وقيامه عليها.

يضاف إلى هذا أن المرأة قد تكون مريضة فلا تعف زوجها، أو عقيما لا تنجب.

وأيضًا فإن الرجل لديه القدرة على الإنجاب والنسل إلى نحو مائة سنة، بينما المرأة تقف عند حد الخمسين أو قبل ذلك، فإذا قصر على زوجة واحدة تعطل بقية عمره عن

---

(١) انظر: «كتاب السلام العالمي والإسلام» لسيد قطب.

الإنجاب والنسل، الذي هو المقصود الشرعي الأول من الزواج[١] ولهذا قال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[٢].

كما أن في ذلك تقليل الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله؛ لأن الرجل إذا كانت امرأته مريضة أو عقيما يمسكها ويتزوج عليها، وإذا منع من التعدد طلقها وتزوج غيرها.

وأخيرًا فإن الإسلام لما أباح التعدد حده بحد وهو الأربع، وجعل من شرطه العدل بين الزوجات، خلاف ما كان عليه أهل الجاهلية حيث كان التعدد عندهم موجودًا بلا حد ولا قيد، بل خاضعا للهوى والشهوة، فكان في إباحة الإسلام للتعدد على هذه الكيفية بهذا الحد وذلك الشرط مفخرة من مفاخر الإسلام، وهو بهذا الحد وذلك الشرط في مصلحة الرجال والنساء، بل في مصلحة الأمة كلها[٣].

الحكمة في كونه ﷺ جمع في عصمته بين تسع زوجات:

وأما كونه ﷺ جمع في عصمته بين تسع زوجات فذلك من خصائصه ﷺ، وقد تزوج بهن لحكم دينية وعلمية وسياسية واجتماعية ونحو ذلك.

فمن الحكمة في زواجه ﷺ بسودة بنت زمعة، وهي أول زوجة تزوجها بعد وفاة خديجة رضي الله عنهما، أن سودة كانت من المهاجرات الهجرة الثانية إلى الحبشة خوف

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٣٥١) وما بعدها.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٥٤)، والنسائي في النكاح (٣٢٢٧)، وابن حبان والحاكم من حديث معقل ابن يسار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحببت امرأة ذات حسب إلا أنها لا تلد أفأتزوجها؟ فنهاه ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فنهاه، فقال: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم».
وأخرجه أحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥)، من حديث أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة وينهي عن التبتل نهيا شديدا ويقول: «تزوجوا الودود الولود إني مكاثر الأنبياء يوم القيامة».
وكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢٢٨)، والبيهقي في سننه (٧/ ٨١)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» هذه الأحاديث وإن كان الكثير منها ضعيفا فمجموعها يدل على أن لما يحصل به المقصود من الترغيب أصلا، لكن في حق من يتأتى منه النسل» وصححه الألباني انظر «صحيح الجامع الصغير» الحديث (٢٩٣٧) «إرواء الغليل» الحديث (١٧٨٤).

(٣) من عجيب ما يقال: أن المرأة هي السبب في التعدد، فلو امتنعت من الزواج على أختها ما حصل تعدد؟؟!! فيا سبحان الله ألا يقال إن المرأة بهذا الشعور، وبمثل هذه المواقف هي السبب في عنوسة كثير من أخواتها، وجلوسهن بلا أزواج، فأين الرحمة؟ وأين الشفقة؟ وأين الإيثار؟

الفتنة عليها، فلو عادت إلى أهلها بعد وفاة زوجها ابن عمها لعذبوها وفتنوها عن دينها فكفلها ﷺ وكافأها بهذه المنة العظيمة بأن تزوجها.

ومن الحكمة في زواجه ﷺ من عائشة وحفصة- رضي الله عنهما- إكرام صاحبيه ﷺ ووزيريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإقرار أعينهما بهذا الشرف العظيم، كما أكرم عليا وعثمان- رضي الله عنهما- ببناته ﷺ.

والحكمة في زواجه ﷺ بزينب بنت جحش ظاهرة وفوق كل حكمة، وهي إبطال دعوى حرمة زوجة المتبنى على من تبناه، وفي القصة بكاملها إبطال بدعة التبني الذي كان في الجاهلية كلية.

ومن الحكمة في زواجه ﷺ بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق أن المسلمين أسروا من قومها مائتي بيت بنسائهم وذراريهم، فأراد ﷺ أن يعتقهم المسلمون وأن يتألفهم للإسلام، فتزوج جويرية، فقال أصحابه رضوان الله عليهم: أصهار رسول الله ﷺ لا ينبغي أسرهم وأعتقوا، فأسلم بنو المصطلق جميعا، ودخلوا في دين الله.

وهكذا كان من حكمة زواجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي تأليف قلوب قومها للإسلام، ومكافأة لها على ثباتها على الإسلام بعد أن هاجرت مع زوجها عبيدالله بن جحش إلى الحبشة وتنصر هناك.

ومن الحكمة بزواجه ﷺ بزينب بنت خزيمة بعد قتل زوجها عبدالله بن جحش في «أحد» أنها كانت من فضليات النساء في الجاهلية، وكانت تدعى أم المساكين لبرها بهم وعنايتها بشأنهم، فلما قتل زوجها كافأها ﷺ بزواجه بها، فلم يدعها أرملة تقاسي الذل والحاجة الذي كانت تجير الناس منه، وقد ماتت في حياته ﷺ.

ومن الحكمة بزواجه ﷺ بأم سلمة «هند» أنه لما توفي زوجها عبدالله أبو سلمة، وكان أول من هاجر إلى الحبشة، وكانت تحب زوجها محبة عظيمة، حتى إن أبا بكر وعمر خطباها بعد وفاته فلم تقبل.

ولما رأى النبي ﷺ ما بها على زوجها قال لها النبي ﷺ قولي: «اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها» قالت: ومن يكون خيرًا من أبي سلمة؟ فرق لها النبي

ﷺ وتزوجها[١].

وكانت امرأة فاضلة عرفت يوم الحديبية بجودة رأيها، وذلك حين أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتحلل لما منعهم المشركون من دخول الحرم فامتنع الصحابة فدخل عليها ﷺ مغضبا، فقالت: احلق واخرج إليهم. فحلق وخرج إليهم فتسارعوا إلى الحلق والتحلل[٢].

ومن حكمة زواجه بصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير، وقد قتل أبوها مع بني قريظة، وقتل زوجها يوم خيبر، فقال الصحابة يا رسول الله إنها سيدة بني قريظة والنضير. فاستحسن ﷺ رأيهم، وهو الذين ينزل الناس منازلهم، وأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها.

ولعل من حكمة زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث الهلالية، تشعب قرابتها في بني هاشم وبني مخزوم، فهي خالة عبدالله بن عباس وخالد بن الوليد. وكان زوجها الثاني أبورهم بن عبد العزى قد توفي فجعلت أمرها للعباس فزوجها رسول الله ﷺ[٣].

قال محمد رشيد رضا[٤]- بعد تفصيل الحكمة في تعدد زوجاته ﷺ: «وجملة الحكمة في الجواب أنه ﷺ راعى المصلحة في اختيار كل زوج من أزواجه عليهن الرضوان في التشريع والتأديب، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم، وعلم أتباعه احترام النساء، وإكرام كرائمهن، والعدل بينهن، وقرر الأحكام بذلك وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم من الأحكام ما يليق بهن مما ينبغي أن يتعلمنه من النساء دون الرجال، ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغني في الأمة غناء التسع، ولو كان عليه السلام أراد بتعدد الزواج ما يريده الملوك والأمراء من التمتع بالحلال فقط لاختار حسان الأبكار،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٩١٨)، وأبو داود في الجنائز (٣١١٩)، والنسائي في الجنائز (١٨٢٥)، والترمذي في الجنائز (٩٧٧)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٧)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١)، وابن إسحاق في السيرة النبوية (٣/ ٣٢١)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٣٣) حديث (٩٧٢٠)، والطبري في «جامع البيان» (٢٦/ ٩٧) من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٣٧١- ٣٧٣).

(٤) في «تفسير المنار» (٤/ ٣٧٣).

على أولئك الثيبات المكتهلات، كما قال لمن اختار ثيبًا: «هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك» هذا ما ظهر لنا من حكمة التعدد، وإن أسرار سيرته ﷺ أعلى من أن تحيط بها أفكار مثلنا».

من لطائف التفسير:

قال القرطبي(١): «ذكر الزبير بن بكار حدثني إبراهيم الحزامي عن محمد بن معبد الغفاري، قال: أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وعنده كعب بن سوار الأسدي، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، فأنا أكره أن أشكوه، وهو يعمل في طاعة الله عز وجل، فقال لها: نعم الزوج زوجك. فأخذت تكرر عليه، وهو يكرر عليها الجواب، فقال كعب الأسدي: يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه. فقال عمر: كما فهمت كلامها فاقض بينهما. فقال كعب: عليَّ بزوجها، فأُتي به، فقال: إن امرأتك هذه تشكوك. قال: أفي طعام أم شراب؟ قال: لا، فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم رشده ... ألهى خليلي عن فراشي مسجده
زهده في مضجعي تعبده ... فاقض القضاء كعب لا تردده
نهاره وليله ما يرقده ... فلست في أمر النساء أحمده

قال زوجها:

زهدني في فرشها وفي الحجل(٢) ... أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول ... وفي كتاب الله تخويف جلل

قال كعب:

إن لها حقًا عليك يا رجل ... نصيبها في أربع لمن عقل
فأعطها ذاك ودع عنك العلل(٣)

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٩).

(٢) الحجل: بيت العروس المزين بالثياب والأسرة والستور.

(٣) أي: افترض أن لها ضرائر ثلاثًا أعطها نصيبها وتصرف فيما عدا ذلك.

وعن عائشة أن النبي ﷺ: «بعث إلى عثمان بن مظعون فجاءه، فقال: يا عثمان أرغبت عن سنتي؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر وأنكح النساء، فاتق =

ثم قال: إن الله أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك. فقال عمر: «والله ما أدري من أي أمريك أعجب، أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما، اذهب فقد وليتك قضاء البصرة».

فقد استنبط كعب هذا من الآية، وهو استنباط مليح، لكن ليس في الآية ما يدل على هذا التحديد. والأمر في هذا واسع، إذ الواجب على الزوج أداء حق الزوجة كيفما كان، ولهذا لم يتفق العلماء على المدة التي يسافر فيها الرجل عن زوجته.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية[1] اختلاف العلماء في الواجب من الوطء، فقيل: «يجب في كل أربعة أشهر، وقيل: بقدر حاجتها وقدرته، كما يطعمها بقدر حاجتها وقدرته، قال ابن تيمية: وهذا هو الصحيح».

* * *

=

الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقًا، وإن لضيفك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا فصم وأفطر وصل ونم» أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣٦٩) وصححه الألباني.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٨٣- ٣٨٤).

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾.

لما بين الله عز وجل في الآية السابقة وجوب العدل بين النساء وتحريم ظلمهن أمر في هذه الآية بإيتائهن مهورهن من غير مماطلة أو اعتداء عليها من الأزواج أو الأولياء، وذلك من العدل معهن وعدم ظلمهن.

سبب نزول الآية:

روي في سبب نزول هذه الآية عدة روايات لم يثبت صحة شيء منها، لكنها صحيحة المعنى.

فروي أن الرجل كان يتزوج أخت الرجل أو بنته على أن يزوجه الآخر أخته أو بنته على أن لا مهر بينهما، أو لا مهر كثير بينهما. فنزلت الآية.

وروي أن الرجل كان يتزوج المرأة على أن ترثه ويرثها، ولا يعطيها صداقا فأنزل الله هذه الآية.

وروي أن الأولياء كانوا يأخذون مهور النساء ولا يعطونهن منها شيئا إلا ما تلبسه المرأة ليلة زفافها، فنزلت هذه الآية.

وروي أن الأزواج تحرجوا من أن يرجع إليهم شيء مما دفعوا لزوجاتهم فأنزل الله قوله: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ (١).

قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾. الواو: عاطفة، ﴿وَءَاتُواْ﴾، أي: أعطوا، وهو ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، الأول هنا: «النساء»، والثاني: «صدقاتهن».

والخطاب للأزواج؛ لأن الخطاب معهم في الآية السابقة، والضمائر معطوف بعضها على بعض.

ويحتمل أن الخطاب لأولياء النساء، أمروا أن يعطوا النساء صدقاتهن، فلا يأخذوا منها شيئًا.

ولا مانع من جعل الخطاب في الآية للطائفتين: الأزواج والأولياء؛ لأنه إذا كانت

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٧/ ٥٣٣- ٥٥٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٥- ١٨٦).

الآية تحتمل أكثر من معنى وجب حملها عليها جميعا، فلا يجوز حملها على معنى دون غيره، أو إخراج بعض المعاني بلا دليل، كما هو منهج المحققين، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[١] وتلميذه ابن القيم[٢]، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي[٣] رحمهم الله تعالى.

وأيضًا فلو جعل الخطاب في الآية للأزواج خاصة فإن الأولياء ممنوعون من أخذ صداق من تحت ولايتهم من باب أولى، اللهم إلا الأب فله أن يأخذ من مهر ابنته ومن مال ابنه ما لا يضر بهما.

﴿ٱلنِّسَآءَ﴾، أي: المتزوجات؛ لقوله بعده ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾.

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾: جمع صَدُقة- بضم الدال، وهي: المهور، وسمي المهر صدقة؛ لأن بذله يدل على صدق باذله في طلب النكاح.

﴿نِحۡلَةٗ﴾ مفعول مطلق، أي: أعطوا النساء صدقاتهن عطية طيبة بها نفوسكم.

وقيل حال، أي: فريضة وحقا واجبا عليكم، وقيل: مفعول لأجله، أي: ديانة وشريعة.

فالمعنى: أعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس منكم، من غير «منٍّ» من الأزواج عليهن أو مماطلة أو تمنُّع، ومن غير اعتداء من الأولياء بأخذها منهن.

قال الحافظ ابن كثير[٤] بعد ما ذكر أقوال السلف في معنى «نحلة»: «ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق حتمًا، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة، ويعطي النحلة طيبًا بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبا بذلك».

﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ﴾، أي: النساء ﴿لَكُمۡ﴾ أيها الأزواج، أو الأولياء.

﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾ شيء نكرة في سياق الشرط، فتعم أيَّ شيء قليلًا أو كثيرًا.

﴿مِّنۡهُ﴾ من تبعيضية، أو لبيان الجنس؛ لأنها لو طابت نفسها بجميع المهر حل كله

---

(١) في «مقدمة التفسير» انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٤٠- ٣٤١).

(٢) انظر: «جلاء الأفهام» (ص٣٠٨).

(٣) انظر: «مقدمة أضواء البيان» (١/ ٣١- ٣٢) وانظر (٣/ ١٢٤).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ١٨٥).

للزوج، و«الهاء» ضمير يعود على الصداق واحد الصدقات، أو هو بمعنى اسم الإشارة، أي: من ذلك المذكور، كقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي: بين ذلك المذكور.

﴿نَفْسًا﴾ تمييز.

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية، والضمير في ﴿فَكُلُوهُ﴾ يعود إلى الشيء الذي طابت به نفوس الزوجات من الصداق.

وذكر الأكل دون سائر وجوه الانتفاع- مع أنها في حكمه؛ لأن الأكل أهم وجوه الانتفاع وأخصها، فهو كسوة الباطن، به يعيش الإنسان ويتحرك، وبدونه يموت، بخلاف سائر وجوه الانتفاع من الملابس والمساكن والمراكب وغيرها، فكلها منافع خارجية.

﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ صفتان لمصدر محذوف، التقدير: أكلًا هنيئًا مريئًا، أو حال من ضمير «الهاء» في «كلوه»، أي: حال كونه هنيئًا مريئًا، أي: هنيئًا حال الأكل بكونه مستساغًا طيبًا لذيذًا.

ومريئًا: بعد الأكل محمود العاقبة لا تنغيص فيه ولا كدر ولا مشقة، سهل الهضم ينفع ولا يضر.

قال كثير عزة[1]:

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

والمأكول لا يخلو من حالات أربع: إما أن يكون هنيئا حال الأكل، ومريئا بعد الأكل، وهذا أطيب الطعام، وأطيبه طعام أهل الجنة نسأل الله تعالى أن يجعلنا ووالدينا وجميع المسلمين من أهلها.

والنوع الثاني: ألا يكون هنيئا ولا مريئا، وهذا أخبث الطعام وأشده خبثا طعام أهل النار، نسأل الله تعالى النجاة منها.

والثالث: أن يكون هنيئا حال الأكل، لكنه غير مريء بعد الأكل، بل يمغص البطن ويضر.

---

(١) انظر ديوانه (ص١٠٣).

والرابع: أن يكون غير هنيء حال الأكل، بل مر المذاق، لكنه مريء بعد الأكل، وذلك كالدواء.

والمعنى فإن طابت نفوس النساء لكم أيها الأزواج أو الأولياء عن شيء من المهر، بعضه أو كله، فكلوه حلالًا طيبًا لا شائبة فيه ولا شبهة بوجه من الوجوه.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الصداق على الأزواج لزوجاتهم، وهذا أمر مجمع عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾(١)، كما قال تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ [النساء: ٢٤]، وقال تعالى في الإماء: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ٢٥].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥].

فهذه الآيات تدل على وجوب الصداق، وأنه شرط لصحة النكاح، وقد قال ﷺ: «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج»(٢).

ويتقرر المهر بكامله بالخلوة الصحيحة بعد العقد على الصحيح من أقوال أهل العلم.

فإن اشترط عدم الصداق فالنكاح باطل على قول طائفة من أهل العلم(٣)، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية(٤) وهو الراجح للأدلة السابقة.

لأن النكاح بشرط عدم المهر يكون نكاح هبة، وهو لا يجوز إلا للرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٢١)، ومسلم في النكاح (١٤١٨)، وأبو داود في النكاح (٢١٣٩)، والنسائي في النكاح (٣٢٨١)، والترمذي في النكاح (١١٢٧)، وابن ماجه في النكاح (١٩٥٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الإنصاف» (٨/ ١٦٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٢).

وقيل: إن اشترط عدمه فالنكاح صحيح والشرط فاسد، ويجب لها مهر المثل؛ لقوله ﷺ في حديث عائشة- رضي الله عنها- في قصة بريرة: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط»(١).

وإن لم يشترط عدمه لكن وقع النكاح بلا صداق فلها مهر المثل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

فهذا يدل على أنه يجوز النكاح بدون فرض المهر وتحديده، فإن طلق قبل المسيس وقبل الفرض فلها المتعة حسب يسر الزوج وعسره، وإن دخل بها فلها مهر المثل.

٢- أن الصداق يعطى للمرأة إذا كانت رشيدة، وأنها تملكه بالعقد ولو لم تكن رشيدة؛ لأن الله أضافه إليها، فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ والإضافة تقتضي التمليك، لكن إذا كانت غير رشيدة يقبضه وليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

٣- يجب على الأزواج إيتاء نسائهم صدقاتهن على وجه النحلة، طيبة بها نفوسهم من غير منٍّ ولا أذى ولا مماطلة في أداء الصداق أو بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

٤- لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئا من صداق زوجته، أو يسقطه، وكذلك لايجوز للولي أن يأخذ شيئا من صداق موليته؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾.

٥- أن المهر حق للمرأة لا حق للولي فيه أبًا كان أو غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

لأن الله تعالى أضافه إلى النساء، فهو حق خاص بالمرأة مقابل الاستمتاع ببضعها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]؛ ولهذا سماه الله أجرا، ولهذا لا يجوز للولي أبًا كان أو غيره أن يشترط لنفسه شيئا من المهر؛ لأن المهر

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٥٥، ٢١٦٨)، ومسلم في العتق (١٥٠٤)، وأبو داود في العتق (٣٩٢٩)، والنسائي في الطلاق (٣٤٥١)، والترمذي في البيوع (١٢٥٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥).

حق للمرأة، على هذا دل الكتاب والسنة[١].

وللأب خاصة عندما يتحدد المهر وتملكه المرأة بالعقد أن يأخذ منه ما يحتاجه بشرط أن لا يضر بابنته، لما جاء في السنة أن رسول الله ﷺ قال: «أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»[٢].

ولهذا لما ذكر الله عز وجل في سورة النور من لا جناح على المرء في الأكل من بيوتهم لم يذكر بيوت الأولاد؛ لأن الولد وماله لأبيه.

فإن كان أخذ شيء من المهر يضر بها فلا يجوز للأب أخذ شيء منه، وفي الحديث: «لا ضرر ولا ضرار»[٣].

---

(١) ومن الخطأ في هذا ما يفعله بعض الآباء يشترط لنفسه مبلغا من المال، ولأم البنت مبلغا من المال وربما لخالتها وعمتها كذلك وغير ذلك، لكن لو تبرع الزوج لهم على سبيل الإكرام فلا بأس بذلك.

(٢) أخرجه من حديث جابر بن عبدالله ابن ماجه في التجارات (٢٢٩١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٢٣٠) باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: «أنت ومالك لأبيك»، وفي «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٨)، والإسماعيلي في «معجم شيوخه» (٣/ ١٦٤) ترجمة رقم (٤٠٨)، وأخرجه أبو داود في البيوع (٣٥٢٨)، والنسائي في البيوع (٤٤٤٩- ٤٤٥٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٥٨)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٠)، والدارمي في البيوع (٢٥٣٧) من حديث عائشة- رضي الله عنها. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأخرجه أبو داود في البيوع والتجارات (٣٥٣٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله: إن لي مالًا ووالدًا وإن والدي يحتاج مالي، قال: «أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم» وهكذا أخرجه ابن ماجه في التجارات (٢٢٩٢)، بلفظ «أنت ومالك لأبيك» وبقيته بنحو لفظ أبي داود، وأخرجه أحمد بعدة روايات بنحو (٢/ ١٧٩، ٢٠٤، ٢١٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٨)، قال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٥/ ١٨٣): «رجال إسناده ثقات» وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٣٣٧): «قال ابن القطان: إسناده صحيح» وذكره الهيثمي أيضًا من حديث ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أنت ومالك لأبيك» قال: «رواه أبويعلى وفيه حريز وثقه أبوزرعة وأبوحاتم وابن حبان وضعفه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات».

وقد صححه الألباني من حديث جابر وعبدالله بن عمرو. انظر «صحيح الجامع الصغير» (١٤٩٨، ١٤٩٩)، وانظر في بسط طرق الحديث «نصب الراية» (٣/ ٣٣٧- ٣٣٩)، «مجمع الزوائد» (٣/ ١٥٤- ١٥٦)، «إرواء الغليل» حديث (٨٣٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠) من حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- وصححه =

٦- أنه يجوز للمرأة التصرف في مالها بالتبرع وغيره إذا كانت رشيدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ فلها إسقاط الصداق أو بعضه عن زوجها أو رده أو شيء منه لزوجها، أو إعطاء وليها منه ما شاءت، سواء كانت بكرًا أو ثيبًا.

٧- إذا أسقطت المرأة شيئا من صداقها عن زوجها أو وهبته له أو لوليها بطيب نفس منها، فهو حلال لا شائبة فيه بوجه من الوجوه، يجوز أكله والانتفاع به؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾.

٨- أن المرأة لو أسقطت عن زوجها شيئا من المهر أو أعطته له أو لوليها من غير طيب نفس منها، بل حياء منها أو أكرهت على ذلك لم يجز أخذه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ فإذا لم تطب نفسها فيه لم يحل.

وهذا حكم عام فلا يجوز أخذ مال الغير إلا بطيب نفسٍ منه، قال ﷺ: «إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفسٍ منه»(١).

٩- أن المأكول الطيب ما كان هنيئا مريئا، هنيئا حال الأكل، لذيذًا سهل المساغ، مريئًا بعد الأكل، محمود العاقبة، سهل الهضم، لا تنغيص فيه للبطن، ولا مشقة، تام الفائدة، يمتص الجسم منه ما ينفعه ويُخرج ما يضره.

١٠- استدل بعض أهل العلم ومنهم الأئمة الثلاثة أبوحنيفة(٢)، ومالك(٣)،

=

الألباني، وله شاهد عند ابن ماجه (٢٣٤١)، وأحمد (١/ ٣١٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٧٢) عن أبي حرة الرقاشي عن عمه قال: «كنت آخذا بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود عنه الناس، فقال: «يا أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟» قالوا في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه» ثم قال: «اسمعوا مني تعيشوا ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا ألا لا تظلموا، إنه لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه..» الحديث بطوله.

وأخرج أحمد أيضًا (٥/ ١٧٢) عن عمرو بن يثربي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «ألا ولا يحل لامرئ من مال أخيه شيء إلا بطيب نفس منه». الحديث.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٤٢- ١٤٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٥، ١٢٧- ١٢٨).

والشافعي[١] بقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ على أن العتق لا يكون صداقا؛ لأن هذا أمر يقتضي الإعطاء، وإعطاء العتق لا يصح، وبقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

قالوا: فإن العتق لا يمكن للزوجة هبته، ولا للزوج أو الولي أكله، وليس فيه مال، وإنما هو إسقاط الملك، وقد قال الله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ [النساء: ٢٤].

والصحيح أن الصداق كما يكون من الأعيان فإنه أيضًا يكون من المنافع، وفي حديث سهل بن سعد أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت لك من نفسي. فقال رجل: زوجنيها، قال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن»[٢].

والعتق من أعظم المنافع، وليس في الآية ما يمنع من ذلك، وغاية ما فيها أن الصداق يعطى للزوجة إن كان عينا، وأن لها أن تهب منه لزوجها أو لوليها أو لمن شاءت، ولمن وهب له ذلك أكله والانتفاع به.

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ فإن المال قد يطلق على المنافع كما يطلق على الأعيان، وقد سمى الله تعالى المهور أجورا قال تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]، والأجور جمع أجر، وهي تقع على المنفعة كما تقع على العين.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أعتق صفية بنت حيي، وجعل عتقها صداقها[٣].

وما قيل من أن هذا خاص بالنبي ﷺ كما في الواهبة نفسها بدون بذل مال، فالجواب عنه أنه لا دليل على خصوصيته ﷺ بكون العتق صداقًا في حقه بخلاف هبة المرأة نفسها له، فقد قال الله فيها: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠][٤].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للكيا الهراسي (١/ ٤٠٨- ٤٠٩)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٩)، ومسلم في النكاح (١٤٢٥)، وأبو داود في النكاح (٢١١١)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٠)، والترمذي في النكاح (١١١٤)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٧٨- ١٧٩).

وقد رُويَ أن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أعتق أمة، وجعل عتقها صداقها[١].

وأيضًا فإن العتق من أعظم المنافع، فيه انتفاع المرأة بحريتها وملكها لرقبتها، وقيمة ذلك قد تفوق مقدار الصداق عرفا فما الذي يمنع من كونه صداقا، وإلى هذا ذهبت طائفة من أهل العلم.

قال ابن القيم[٢]: «وثبت عنه في الصحيح أنه أعتق صفية وجعل عتقها صداقها، قيل لأنس: «ما أصدقها؟ قال: أصدقها نفسها».

وذهب إلى جواز ذلك علي بن أبي طالب، وفعله أنس بن مالك، وهو مذهب أعلم التابعين وسيدهم سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبدالرحمن، والحسن البصري، والزهري، وأحمد وإسحاق- وبعد أن ذكر ابن القيم بقية الأقوال قال: الصحيح هو القول الموافق للسنة، وأقوال الصحابة والقياس، فإنه كذلك يملك رقبتها، فأزال ملكه عن رقبتها، وأبقى ملك المنفعة بعقد النكاح، فهو أولى بالجواز مما لو أعتقها، واستثنى خدمتها..».

* * *

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٦).

(٢) في «زاد المعاد» (٥/ ١٥٦)، وانظر (٥/ ١٧٨- ١٧٩).

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

لما بين الله عز وجل في الآيات السابقة وجوب حفظ أموال اليتامى والعدل بين النساء، وإيتائهن مهورهن أتبع ذلك ببيان أنه لا يجوز ترك الأموال بأيدي السفهاء عامة ممن لا يحسن التصرف، من اليتامى والصبيان والنساء والرجال؛ لعدم إدراكهم وجوه المصالح والمضار غالبًا، ثم أتبع ذلك بالأمر برد المال إليهم إذا بلغوا وزال عنهم السفه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ بهمزتين محققتين كما هو الأصل، وقرأ أبو عمرو، وقالون عن نافع، والبزي عن ابن كثير بإسقاط الهمزة الأولى: ﴿ٱلسُّفَهَا أَمْوَٰلَكُمُ﴾ ورُوي عن نافع تسهيل الهمزة الثانية مع تحقيق الأولى، وروي عنه إبدال الهمزة الثانية ألفا[1].

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟﴾، أي: ولا تعطوا، والخطاب للأولياء عامة.

﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: مفعول أول لـ﴿تُؤْتُوا۟﴾، و«السفهاء» جمع سفيه، مأخوذ من السفه، وهو في الأصل الحركة، يقال: تسفهت الريح الشجر: إذا أمالته، قال الشاعر:

رويدا كما اهتزت رماح تسفهت ... أعاليها مر الرياح النواسم[2]

والسفه: خفة وطيش، ينشأ عنه سوء تصرف في الأقوال والأعمال والأموال.

قال الماوردي[3]: «وأصل السفه: خفة الحلم، فلذلك وصف به الناقص العقل،

---

(١) انظر: «النشر» (١/ ٣٨٢- ٣٨٦).

(٢) البيت لذي الرمة انظر ديوانه (٢/ ٧٥٤).

(٣) في «النكت والعيون» (١/ ٣٦٣).

ووصف به المفسد لماله؛ لنقصان تدبيره، ووصف به الفاسق لنقصانه عند أهل الدين والعلم».

والسفيه من لا يُحسن التصرف؛ لقصور في عقله: إما لكونه مجنونًا، أو لكونه صغيرًا، أو لكونه غير رشيد(١).

والسفه يكون في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقال تعالى عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

ويكون في التصرف في الأموال، وهو المراد في قوله هنا: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ بقرينة قولكم ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

قال الطبري(٢): «والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحجر بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ذلك».

ومن السفه: صرف المال فيما يضر ولا ينفع: كآلات اللهو وشرب الخمر والدخان، ونحو ذلك مما لا فائدة فيه تعود على الإنسان، بل هو ضرر محض.

﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ مفعول ثان لـ﴿تُؤْتُوا۟﴾ والأموال جمع مال، وهو كل ما يتمول من أثمان وأعيان وغير ذلك، والخطاب للأولياء عامة.

والأموال هنا يحتمل أن المراد بها أموال اليتامى والسفهاء، لا أموال المخاطبين، وإنما أضيفت إلى المخاطبين بقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾؛ لأنها تحت ولايتهم وتصرفهم، وللتنبيه على أنه يجب عليهم حفظها كما يجب عليهم حفظ أموالهم الخاصة بهم، وفي هذا توكيد على حفظ أموال هؤلاء السفهاء وتنميتها لهم.

ويحتمل أن المراد بالأموال أموال المخاطبين أنفسهم، نهوا أن يعطوها للسفهاء من أولادهم ونسائهم وغيرهم خشية إتلافها وإفسادها.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٨).

(٢) في «جامع البيان» (٧/ ٥٦٥).

والآية تشمل القولين.

﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾، ﴿ٱلَّتِي﴾: اسم موصول في محل نصب صفة لـ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾، وما بعدها صلة الموصول.

﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صير، تنصب مفعولين، الأول «ها» مقدرة، والتقدير: جعلها؛ يعني: الأموال، والثاني: ﴿قِيَٰمًا﴾.

﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للأولياء؛ ويحتمل أن المراد به أصحاب الأموال أنفسهم، فالأموال قيام لهم ولأولادهم وأهليهم.

ويحتمل أن المراد به أولياء اليتامى والسفهاء؛ لأن الأموال قيام للناس جميعًا.

﴿قِيَٰمًا﴾ قرأ نافع المدني وابن عامر الدمشقي: ﴿قِيَمًا﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿قِيَٰمًا﴾ بالألف(١).

وهي على القراءتين منصوبة مفعول ثان لجعل، وقيل على المصدرية، وقيل على الحال.

ومعنى القراءتين واحد، فالأموال جعلها الله قيامًا وقيمًا، بمعنى أنها تقوم بها مصالح العباد الدينية والدنيوية، فالمال قوام الحياة والمعاش، وبه تقوم الأبدان وبقيام الأبدان يُوحد الله ويعبد، ويحصل للكون العمران، كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

لأنه بسبب الكعبة وحرمة الحرم والإحرام حصل الأمن، وبحصول الأمن تقوم أمور الناس الدينية والدنيوية، وتصلح أحوالهم، وبهذا صارت قيامًا للناس.

وقيل «قيما» جمع قيمة أي قيمة للأشياء، وهو راجع للأول، فبكونها قيمة للأشياء كانت قياما للناس تقوم بها مصالحهم الدينية والدنيوية.

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، الرزق بمعنى العطاء، أي: أعطوهم منها طعاما وشرابا وسكنا وفراشًا ومركبًا، وغير ذلك مما يعطى لغيرهم حسب العرف.

﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ الكسوة: ما يكسى به البدن من ثوب وقميص وسراويلات وإزار

---

(١) انظر: «المبسوط» ص(١٥٣)، «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ٣٧٦)، «النشر» (٢/ ٢٤٧).

ورداء ونحو ذلك، مما يحتاجونه كسوة لأبدانهم حسب العرف.

والضمير في قوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾، وفي ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ كما سبق، يحتمل أن يكون لأولاد المخاطبين وأهليهم، ويحتمل أن يكون لمن تحت ولايتهم من السفهاء من اليتامى وغيرهم ممن ليسوا من أولادهم.

وقال في هذا الموضع: ﴿فِيهَا﴾، ولم يقل: «منها»؛ إشارة إلى أنه ينبغي للأولياء أن ينموا أموال السفهاء، وأن تكون النفقة عليهم من ربح الأموال، لا من أصولها، فيكون الرزق فيها لا منها.

قال الزمخشري(١): «أي اجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح، لا من صلب المال، فلا يأكلها الإنفاق».

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ ﴿قَوۡلٗا﴾: مفعول مطلق، وبينه وبين «قولوا» جناس اشتقاق. أي قولوا لمن تحت ولايتكم قولًا طيبًا جميلًا لا غلظة فيه، مما يُعرف ولا ينكره الشرع، مما يكون فيه خير وعدة جميلة وتطييب لخواطرهم، كأن يقول الولي لمن تحت ولايته من اليتامى ونحوهم: المال لكم وسنحفظه لكم، ونعمل فيه لصالحكم، ثم نرده إليكم، ويقول لمن تحت ولايته من أولاده وأهله: المال لنا ولكم، ونحن ننفق عليكم منه، وسينتقل بعدنا إليكم، ونحو هذا.

وما أحسن هذا بأن يجمع الولي بين الإحسانين: الإحسان الفعلي بإعطائهم وكسوتهم والإحسان القولي بالقول الطيب.

قال الحافظ ابن كثير(٢): «وهذه الآية انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق والكلام الطيب وتحسين الأخلاق».

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾﴾.

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٢٤٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١١٧).

لما أمر تعالى في الآيات السابقة بحفظ أموال اليتامى ورعايتها وعدم ترك الأموال بأيدي السفهاء من اليتامى وغيرهم، أتبع ذلك بالأمر باختبارهم ورد أموالهم إليهم إذا بلغوا النكاح ورشدوا.

قوله: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، الخطاب لمن عهد إليهم أمر اليتامى من الأوصياء، ولمن تولى كفالتهم من الأولياء بأمر الوالي الشرعي، أو من أقاربهم أو من عامة الناس.

والابتلاء: الاختبار، ويكون في الخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: اختبروا اليتامى، وذلك عند البلوغ أو قبله بيسير وعند مقاربتهم للرشد وكونه ممكنا منهم، وذلك بالتعرف على حسن تصرف اليتيم في ماله وحفظه وإصلاحه له، كأن يعطى شيئا من المال فينظر هل يحسن التصرف فيه، أو توكل إليه نفقة البيت وتدبيره، فينظر كيف تصرفه في ذلك، أو نحو ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ﴾: لابتداء الغاية، أي: اختبروهم واستمروا في اختبارهم.

﴿إِذَا﴾: ظرفية شرطية غير جازمة.

﴿بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾، أي: بلغوا سن النكاح بالإنزال يقظة، أو منامًا وذلك بالاحتلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩].

وقال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(١).

وذلك أنه بالاحتلام يبلغ مبلغ الرجال، وتجب عليه التكاليف، كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل**»(٢).

وقال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**خذ من كل حالم دينارا**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٠٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٢- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- وصححه الألباني. وأخرجه بعضهم من حديث عائشة وغيرها من الصحابة. انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٥٧٦)، والترمذي في الزكاة (٦٢٣)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن» =

أو ببلوغ خمسة عشر عاما؛ لما رواه عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: «**عرضت على النبي ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني**»(١).

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث: «إن هذا الفرق بين الصغير والكبير»(٢).

وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم أن البلوغ يعتبر ببلوغ خمس عشرة سنة(٣).

وقال أبو حنيفة: يعتبر ببلوغ الجارية سبع عشرة سنة، وبلوغ الغلام ثمان عشرة سنة وروي عنه ببلوغ الغلام تسع عشرة سنة(٤) وهو قول لمالك(٥).

أو بإنبات الشعر الخشن حول الفرج، وهو يعتبر بالنسبة لأولاد المشركين بلوغا بدليل ما رواه عطية القرظي قال: عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لم ينبت خلى سبيله، فكنت ممن لم ينبت فخلي سبيلي»(٦).

وكتب عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لأمراء الأجناد: «ألا تضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي»(٧).

واختلف هل يعتبر بلوغا بالنسبة لأولاد المسلمين على قولين أظهرهما أنه يعتبر

=

وصححه الألباني.

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٨)، وأبو داود في الحدود (٤٤٠٦)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣١)، والترمذي في الجهاد (١٧١١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٣).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٧).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٩٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٠)، «المغني» (٦/ ٥٩٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٧).

(٤) انظر: «بدائع الصنائع» (٧/ ١٧٢).

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥).

(٦) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٠٤)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٠)، وفي قطع يد السارق (٤٩٨١)، والترمذي في السير (١٥٨٤)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٢)، وأحمد (٤/ ٤١٠، ٥/ ٣١١- ٣١٢)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٧) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥).

بلوغا، وهو قول أحمد[١]، وإسحاق[٢].

قال الحافظ ابن كثير[٣]: «واختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج، وهي الشعرة، هل تدل على بلوغ أم لا؟ على ثلاثة أقوال يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين، فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة، وبين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغا في حقهم؛ لأنه لا يتعجل بها إلا ضرب الجزية عليه فلا يعالجها، والصحيح أنها بلوغ في حق الجميع؛ لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس واحتمال المعالجة بعيد».

ثم ذكر حديث عطية القرظي الذي تقدم.

ومن علامات البلوغ عند النساء زيادة على ما تقدم: الحيض، والحبل[٤].

فهذه خمس علامات منها ثلاث مشتركة بين الذكور والإناث، وهي الاحتلام والسن المخصوص، ونبات الشعر الخشن حول الفرج، واثنتان مختصتان بالنساء، وهما الحيض والحبل.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، الخطاب للأوصياء والأولياء على أموال السفهاء من اليتامى وغيرهم.

الفاء رابطة لجواب الشرط «إذا»، و«إن «شرطية، و﴿ءَانَسْتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

وهذا الشرط وجوابه جواب الشرط في قوله: ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾.

ومعنى ﴿ءَانَسْتُم﴾: أبصرتم ورأيتم، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: أبصر ورأى.

﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾، أي: من اليتامى. والرشد: حسن التصرف، ضد السفه، وهو في كل شيء بحسبه، فالرشد في الدين صلاح المرء في دينه بأداء ما أوجب الله واجتناب ما نهى

---

(١) انظر: «المغني» (٦/ ٥٩٧).

(٢) انظر: «سنن الترمذي» (٤/ ١٤٦).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ١٨٧).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٩٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥)، «المغني» (٦/ ٥٩٧).

الله عنه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والرشد في الولاية أن يكون الولي يحسن التصرف فيما ولي عليه، سواء كانت ولاية عامة على أمر من أمور المسلمين، أو ولاية خاصة، كالولاية على اليتيم والسفيه، وكولاية النكاح على من تحت يده من الإناث.

والرشد في المال: حسن التصرف فيه، وهو المراد بقوله هنا: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾، أي: تصرفا صحيحا في أموالهم.

ونكر «رشدا»؛ لأن المراد به مطلق الرشد[1]، لا الرشد المطلق، والرشيد الرشد المطلق من جمع هذا كله، فأصلح دينه وماله، وأحسن التصرف فيمن تحت ولايته، وأحسن تعامله مع الناس وغير ذلك.

وبهذا تجتمع الأقوال التي حكيت عن السلف في معنى الرشد، فمن قائل: هو الصلاح في العقل. ومن قائل: هو الصلاح في الدين، ومن قائل: هو الصلاح في العقل والدين. ومن قائل: هو الصلاح في العقل والمال، ومن قائل: هو الصلاح في الدين والمال. ومن قائل: هو الصلاح في المال[2].

﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ جواب الشرط لقوله ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ واقترن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية.

أي: أعطوا أيها الأوصياء والأولياء اليتامى أموالهم ولا تحبسوها عنهم، وبادروا بإيصالها إليهم إبراء للذمة، ولا تكلفوهم البحث عنها أو طلبها، ولا تماطلوا في ردها إليهم، ولهذا عبر بقوله ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ﴾، الواو عاطفة، و«لا» ناهية، «تأكلوها» مجزوم بها، وعلامة جزمه

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٤٧- ٢٤٨)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٥٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٧/ ٥٧٧- ٥٧٨)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٢- ٣٢٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٨).

حذف النون إذ الأصل «تأكلونها».

وذكر الأكل خاصة- وإن كان الانتفاع بأموال اليتامى بأي وجه منهيا عنه؛ لأن الأكل أهم أوجه الانتفاع، ومن أجله يجمع المال، وهو كسوة الباطن التي لا حياة بدونها.

﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾، إسرافا وبدارا: منصوبان على الحال، أي: مسرفين ومبادرين، أو على المفعول المطلق، أو على أنهما صفتان لمصدر محذوف، التقدير: أكل إسراف وبدار(١).

والإسراف: مجاوزة الحد، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وهو في كل شيء بحسبه. فالإسراف في المعاصي: تعدي حدود الله بارتكاب ما نهى الله عنه قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [طه: ١٢٧].

والإسراف في أكل المال: مجاوزة الحد في تبديده وتبذيره واستنزافه في المباحات أو في المعاصي(٢).

والمراد هنا الإسراف في أكل المال؛ لقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾.

وضده البخل والتقتير، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

﴿وَبِدَارًا﴾، أي: مبادرة ومسارعة واستعجالا.

﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ «أن» والفعل «يكبروا» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «بدارا»

---

(١) وقيل منصوبان على المفعول لأجله: أي لأجل الإسراف والمبادرة، وهو وإن كان جيدا بالنسبة لـ«بدارا» من حيث المعنى فهو ضعيف بالنسبة لـ«إسرافا» من حيث المعنى؛ لأن الولي لا يأكل من أجل الإسراف، بل يأكل مسرفا. انظر «البيان في غريب إعراب القرآن» (١/ ٢٤٣)، «الدر المصون» (٢/ ٣١٢)، «فتح القدير» (١/ ٤٢٧).

(٢) انظر: «النهاية و«اللسان» مادة «سرف».

والتقدير: بدار كبرهم، أي تبادرون كبرهم؛ لأنهم إذا كبروا في الغالب وبلغوا زال عنهم السفه، فزالت الولاية عليهم، ووجب رد أموالهم إليهم.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ الواو استئنافية، و«من» شرطية «كان» فعل الشرط، وجوابه ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة طلبية.

أي: ومن كان من الأولياء أو الأوصياء على السفهاء من اليتامى وغيرهم غنيا، أي: عنده من المال ما يكفيه، ولا يحتاج إلى مال من تحت ولايته.

﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾، اللام لام الأمر، واستعف عن الشيء بمعنى كف عنه، وتركه واستغنى عنه.

واستعف: أبلغ من عف؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالبا[1]- على زيادة المعنى.

أي: ومن كان عنده ما يكفيه من المال فليكف عن مال اليتيم وليستغن عنه.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ معطوف على ما قبله، مشتمل على شرط وجوابه.

وبين قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ مقابلة بديعة بين قوله ﴿غَنِيًّا﴾ و﴿فَقِيرًا﴾ وبين قوله ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وقوله ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾.

أي: ومن كان من الأولياء أو الأوصياء على السفهاء من اليتامى وغيرهم فقيرا، أي: معدما ليس عنده شيء، أو عنده شيء يسير لا يكفي لحاجته[2].

قال الراعي النميري[3] يمدح عبد الملك بن مروان ويشكوا إليه سعاته:

أما الفقير الذي كانت حلوبته ... وفق العيال فلم يترك له سبد

﴿فَلْيَأْكُلْ﴾، اللام لام الأمر، وهو للإباحة؛ لأنه أمر بعد حظر، فبعد أن نهى عن أكل أموال اليتامى قال: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والأمر بعد الحظر يفيد الإباحة، أو يعود لما كان عليه الحال قبل النهي وهو الإباحة هنا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ

---

(١) أي: ليس ذلك مطردا فمثلا: «ثمر» أقل حروفا من «ثمرة» وهو أكثر منها معنى؛ لأنه جمع وهي مفردة، ومثله شجر وشجرة، وبقر وبقرة، وهكذا.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٨)، وانظر «اللسان» مادة «فقر».

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٦٤).

﴿فَٱصۡطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، فالأمر بالاصطياد هنا للإباحة؛ لأنه جاء بعد الحظر في قوله قبل هذا ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١].

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، أي: فليأكل أكلا بالمعروف، والمعروف ما جرى به العرف بأن يأكل الولي الفقير من مال السفيه أكل مثله من الفقراء، سواء كان المولي عليه غنيا أو فقيرا.

قالت عائشة رضي الله عنها: «نزلت هذه الآية في والي اليتيم: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بقدر قيامه عليه»(١).

﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، الفاء عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير جازمة، ﴿دَفَعۡتُمۡ﴾ فعل الشرط، أي: إذا أعطيتم أيها الأوصياء، أو الأولياء من تحت ولايتكم من اليتامى وغيرهم أموالهم، ورددتموها إليهم بدون ممانعة منكم أو مماطلة، وبدون تكليفهم المطالبة بها ﴿فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾.

وقال: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ بالإطناب ولم يقل: «فإذا دفعتموها إليهم»، مع أنه قال قبل هذا ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ والغرض من هذا كله تأكيد وجوب حفظ أموال اليتامى، ودفعها إليهم كاملة سالمة.

﴿فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، أي: فأشهدوا عليهم أي: على أنكم دفعتم ورددتم إليهم أموالهم؛ لئلا يقع منهم جحود أو إنكار لما قبضوه، وإزالة للتهمة، وتفاديا للخلاف، وتحصينا للأموال، وضبطًا للأمور.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ كفى: تأتي متعدية كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وتأتي لازمة، وعلامة لزومها جر فاعلها بالباء الزائدة إعرابا لتحسين اللفظ كما في هذه الآية، والأصل: كفى الله حسيبا.

ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾، أي: ما أعظم كفاية الله في محاسبته لعباده، فهو جل وعلا يكفي عن كل أحد، وهي بمعنى «حسب»: أي حسب هؤلاء وجميع الخلق، ويكفيهم أن الله حسيب عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٥)، ومسلم في التفسير (٣٠١٩).

حسيبا: تمييز، أو حال، أي: محاسبا وشهيدا ورقيبا على العباد وأعمالهم، مجازيا لهم عليها قال ابن القيم(١):

وهو الحسيب كفاية وحماية والحسب كافي العبد كل أوان

قال الحافظ ابن كثير(٢): «وكفى بالله محاسبا وشهيدا ورقيبا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال، هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمورها، الله أعلم بذلك كله».

وفي قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ تهديد للأولياء والأوصياء على أموال اليتامى والسفهاء وتحذير لهم من الخيانة فيها ولاهم الله، وتهديد أيضًا وتحذير لليتامى وغيرهم من السفهاء من الإنكار بعد رد المال إليهم.

الفوائد والأحكام:

١- تحريم إعطاء السفهاء الأموال؛ لأنهم لا يحسنون التصرف فيها، سواء كانت أموالهم أو أموال أوليائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

٢- ثبوت الحجر على السفهاء من الأيتام وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨].

٣- وجوب الحجر على السفيه في ماله، سواء لحظ نفسه؛ لئلا يُضيِّع ماله، أو لحظ غيره فيما إذا كانت عليه ديون تستغرق ماله وطلب غرماؤه الحجر عليه(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

والمراد بالسفهاء- كما سبق- مَن لا يحسنون التصرف في المال، ولا يعرفون وجوه المصالح والمضار في ذلك(٤).

---

(١) في «النونية» (ص١٥٠).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٩١).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٨- ٢٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٦).

(٤) أما الفاسق وهو السفيه في دينه فلا يحجر عليه في ماله إذا كان يُحسن التصرف فيه، وليس في الآية دليل لمن ذهب من أهل العلم إلى وجوب الحجر على الفاسق كالشافعي وغيره، وسواء كان فسقه مما يتعلق =

٤- أن السفه مذموم؛ لأن الله عز وجل نهى عن إيتاء السفهاء الأموال، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

٥- حرص الإسلام على حفظ الأموال وعدم إضاعتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

٦- عناية الإسلام بمن لا يحسن التصرف في ماله؛ لأن الأمر بعدم إيتائه ماله والحجر عليه هنا لحظ نفسه ومصلحته هو، وحتى الحجر عليه لحظ غيره هو راجع في ثاني الحال لمصلحته هو؛ لأنه لتسديد ديون كانت عليه.

٧- ينبغي للوصي والولي أن يحفظ مال السفيه فيما يحفظ فيه ماله، وينميه كما ينمي ماله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ حيث أضاف أموال السفهاء إلى المخاطبين على أحد الاحتمالين في الآية.

٨- أن المال قوام الحياة والمعاش، به تقوم مصالح الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

فيجب العناية به كسبا وإنفاقا وحفظه، وتحرم إضاعته أو صرفه في غير ما جعل له من مصالح الدين والدنيا.

ولا يجوز للمسلم أن يكون عالة على غيره، ولا للأمة الإسلامية أن تحتاج لغير المسلمين ولا في إبرة المخيط، بل يجب عليها أن تكون هي الرائدة في التجارة والزراعة والصناعة وغير ذلك.

٩- مشروعية طلب المال بالطرق الحلال؛ لأن مصالح الناس في دينهم ودنياهم لا تقوم إلا بالمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ وهكذا كان شأن رسولنا ﷺ وأسوتنا، فقد رعى ﷺ الغنم، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم» فقال أصحابه وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها على

=

بالفجور وشرب الخمور أم لا؛ لأن المراد بالسفه في الآية عدم حسن التصرف في المال، وليس المراد بها السفه في الدين الذي هو الفسق والكفر، ولهذا لا يحجر على الكافر في ماله.

انظر «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٢٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٣٩٣، ٣٩٥).

قراريط لأهل مكة»(١).

واشتغل ﷺ بالتجارة في مال خديجة(٢).

وقال ﷺ: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود- عليه السلام- كان يأكل من عمل يده»(٣).

وقد روي أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- دخل المسجد فإذا شباب أصحاء أقوياء، فقال: من ينفق عليكم؟ فقالوا: جيراننا، فقال: انتظروا حتى آتيكم فخرج ثم جاء ومعه الدرة، فضربهم حتى أوجعهم، وقال: «اخرجوا في طلب الرزق، فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»(٤).

ورُويَ عنه أنه دخل المسجد، فوجد فيه رجلا معتكفا للعبادة، فسأله عمن يعوله؟ فقال: أخي يعمل ويسعى لرزقه ورزقي ورزق عياله، فقال له: «أخوك أعبد منك»(٥).

فطلب الرزق والمال مشروع إذا لم يشغل عن طاعة الله، بل هو من طاعة الله إذا اكتسب المال من الحلال، وأنفق في الحلال، وأديت حقوقه، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقد ذكر المفسرون أن هؤلاء الرجال كانوا يشتغلون بالتجارة، لكن إذا سمع الواحد منهم منادي الله «حي على الصلاة، حي على الفلاح» بادر للإجابة حتى ولو كان الميزان بيده ألقاه وذهب إلى الصلاة(٦).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من**

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» (١/ ١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٨) من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

(٤) ذكره مختصرًا في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٦٢).

(٥) روي هذا بمعناه عن عيسى عليه السلام. انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (٣/ ١٢٣)، «إحياء علوم الدين» (٢/ ٦٢).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٧٣- ٧٤).

المؤمن الضعيف، وفي كل خير»[١].

أي القوي في دينه وبدنه وماله وفي كل شيء.

ولا شك أن المؤمن ذا المال أنفع لنفسه وللمسلمين إذا وفق لمعرفة حقوق المال عليه وأداها. ففي الحديث: «**ذهب أهل الدثور بالأجور**»[٢]. والدثور هي الأموال، وإنما ذهبوا بالأجور؛ لإنفاقهم منها في سبيل الله.

بل إن العمل في طلب الرزق يقدم على طلب العلم إذا كان من يطلب العلم سيعيش عالة على غيره.

وقد ذكر بعضهم قصة طريفة في هذا المعنى، وهي أنه كان هناك أخوان: أحدهما يشتغل بالتجارة، والآخر متفرغ لطلب العلم على أحد المشايخ، فبينما كان هذا الذي يشتغل بالتجارة في سفره لطلب التجارة اشتد به الحر، فأوى إلى غار في أحد الجبال، واستلقى فيه ليستريح فرفع بصره، فإذا طائر كسيح مقطع الأجنة، فتعجب: كيف يعيش هذا الطائر بهذه المفازة وهو بهذه الحال؟! فبينا هو في تفكيره وتعجبه إذ جاء طائر قوي فوضع الماء والطعام في فم هذا الطائر الكسيح، فاندهش هذا الرجل وأخذ يفكر ويتأمل، فقال في نفسه: أنا مُعَرِّض نفسي للتعب والأخطار في طلب التجارة، فلماذا لا أرجع لطلب العلم مع أخي، والذي تكفل برزق هذا الطائر الكسيح في هذه المفازة سيرزقني، وعاد أدراجه إلى بلده، وجلس في الحلقة مع أخيه، ولما انتهت القراءة إليه سأله الشيخ- وكان عارفا بحاله وحال أخيه- قائلا: ما الذي أتى بك؟! فذكر له ما رأى في الغار من حال ذينك الطائرين، وما جال في فكره من أن من كفل رزق ذلك الطائر الكسيح سيكفل رزقه، فقال له الشيخ بمنطق العالم العارف بقيمة السعي في طلب الرزق في الإسلام: عجبا لك كيف رضيت لنفسك أن تكون بمنزلة الطائر الكسيح، ولم ترض لها أن تكون بمنزلة الطائر القوي الذي يقوم على نفسه وعلى غيره. فقام هذا الرجل ولبس نعليه، وعاد في تجارته.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٥)، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم أيضًا في الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وحسبي أن أكون قد أطلت في التعليق على هذه المسألة؛ لأن كثيرًا من شباب الأمة أصبحوا عالة على الآخرين، وهم يعيشون الفراغ، وحياة الضياع، دأبهم الأسفار والرحلات والنزهات، وهمهم تزجية الأوقات، انشغلوا بما يعدونه من المباحات، وقد أدى ذلك بكثير منهم إلى التقصير في الواجبات وانتهاك المحرمات والتخلي عن المسؤوليات، فقصر الواحد منهم من أجل ذلك في حق ربه، وفي حق نفسه، وفي حق والديه وزوجته وأولاده وأقاربه وجيرانه وإخوانه وأمته.

يقضي الواحد منهم الليالي والأيام، بل والأسابيع والشهور خارج منزله، وأهله وأولاده ووالداه ينتظرونه بفارغ الصبر، يتمنى والداه وأولاده أن يجلس معهم على مائدة الإفطار أو الغداء أو العشاء، فلا يتحقق لهم ذلك، منشغل بدون شغل إلا تزجية الأوقات، أثقلته الديون فلا يفكر في عمل لكي يسدد هذه الديون، وليس في ديننا مكان للكسل والبطالة، فأمتنا بحاجة إلى العالم المحقق، والتاجر الأمين، والصانع الماهر، والزارع الخبير، والطبيب الحاذق، والمهندس المعماري. وديننا الإسلامي دين ودنيا، علم وعمل.

قال الشاعر:

الجد بالجد والحرمان بالكسل ... فانصب تصب عن قريب غاية الأمل[١]

وقال ابن هاني[٢]:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا

١٠- أنه يجب على الإنسان في ماله نفقة من تلزمه نفقتهم ممن تحت يده من أزواج وأولاد وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ وفي الحديث عن حكيم بن حزام- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»[٣].

---

(١) البيت لصلاح الدين الصفدي من «لاميته». انظر: «نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص١٤٨).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(١٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣).

واختلف في النفقة على الأبناء بعد بلوغهم فقيل النفقة على الابن حتى يحتلم وعلى البنت حتى تتزوج، =

١١- أن نفقة السفهاء تكون في أموالهم إذا كان لهم مال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ ويكون ذلك على قدر ماله وحاله[١].

١٢- ينبغي للولي أن ينمي مال السفيه ويتجر به؛ ليكون ما يعطيه من النفقة والكسوة ونحو ذلك من الربح، لا من أصل المال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾، أي: فيها، لا منها، والأمر للوجوب؛ ولأن مال السفيه إذا لم ينم ويحرك طلبا للفائدة أكلته الزكاة، والنفقة عليه، وعلى من تجب عليه نفقته من أقاربه. وفي الأثر: «تاجروا بأموال اليتامى، لا تتركوها تأكلها الصدقة»[٢].

قال القرطبي[٣]: «ويجوز للوصي أن يصنع في مال اليتيم ما كان للأب أن يصنعه من تجارة، وإبضاع، وشراء وبيع، وعليه أن يؤدي الزكاة من سائر أمواله[٤]، عين وحرث وماشية وفطرة ويؤدي عنه أروش الجنايات، وقيم المتلفات، ونفقة الوالدين وسائر الحقوق اللازمة، ويجوز أن يزوجه ويؤدي عنه الصداق، ويفي ما عليه من الديون».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: «يجوز لوصي اليتيم، بل ينبغي له أن يتصرف بماله في التجارة، ولا يفتقر إلى إذن الحاكم إن كان وصيًا. وإن كان غير وصي، وكان الناظر في

=

والقول الثاني ينفق عليهم ما داموا محتاجين وهو الأظهر» انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣١٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢).

(١) قال القرطبي: «فإن لم يكن له مال فعلى الإمام من بيت المال، فإن لم يفعل وجب ذلك على المسلمين الأخص فالأخص، وأمه أخص به فيجب عليها رضاعه والقيام به ولا ترجع على أحد». «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣)

(٢) روي هذا عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وعن عائشة وجمع من السلف- رضي الله عنهم.
بل روي ذلك مرفوعا من حديث عمرو بن العاص- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من ولي يتيما له مال فلتيجر له، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة» أخرجه الترمذي في الزكاة (٦٤١)، والبيهقي في البيوع (٦/ ٢)، وانظر «سنن الترمذي (٣/ ٣٢)، «المغني» (٦/ ٣٣٩).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠) وانظر (٤٤). وانظر «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ١٧- ١٨).

(٤) هذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم أن الزكاة واجبة في مال اليتيم والسفهاء عموما، وهو قول كثير من أهل العلم منهم مالك والشافعي وأحمد والليث بن سعد وأبو ثور، وهو مروي عن عمر وعائشة وابن عمر- رضي الله عنهم. انظر «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ١٧- ١٨).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٤٨).

أموال اليتامى الحاكم العادل يحفظه، ويأمر فيه بالمصلحة وجب استئذانه في ذلك».

وقال أيضًا[١]: «وإذا ضارب الولي وفرط ضمن، وأما إذا فعل ما ظاهره المصلحة فلا ضمان عليه».

١٣- أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأنه جعل مؤتمنا على مالهم والإنفاق عليهم منه والكسوة لهم، ولم يؤمر بالإشهاد على ذلك، فلزم قبول قول الأمين[٢].

١٤- يجب على الولي والوصي أن يقول لمن تحت ولايته من السفهاء قولًا معروفًا طيبًا جميلًا حسنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

وبهذا يجمع بين الإحسان الفعلي والإحسان القولي، وإذا كان العطاء قليلا نظرا لقلة المال، أو منعه عنهم في بعض الأحوال؛ لمصلحتهم؛ ولما هو أهم وأنفع فلا يجمع بين هذا وبين جفاء القول، وعلى الأقل لا يعدم القول الجميل.

١٥- مراعاة الإسلام للجانب المعنوي النفسي؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي جبرًا لخواطرهم.

١٦- يجب اختبار اليتامى عند مقاربتهم البلوغ والرشد، وكونه ممكنًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ وذلك ليتبين بالاختبار والتجربة مدى حسن تصرفهم في الأموال.

١٧- أن لولي اليتيم تأديبه عند اختباره، إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ قال ابن العربي[٣]: «إن للوصي والكافل أن يحفظ الصبي في بدنه وماله، إذ لا يصح الابتلاء إلا بذلك فالمال يحفظه بضبطه، والبدن يحفظه بأدبه».

وفي الحديث أن رجلا قال للنبي ﷺ: «**إن في حجري يتيما فهل آكل من ماله؟ قال: نعم غير متأثل مالا، ولا واق مالك بماله**». قال: يا رسول الله: أفأضربه قال: «**ما كنت ضاربا منه ولدك**»[٤].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١- ٤٨)، وانظر «المغني» (٦/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١١).

(٣) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٢٦- ٣٢٧).

(٤) سيأتي تخريجه.

١٨- إذا بلغ اليتامى، ورشدوا بأن أحسنوا التصرف في أموالهم، وجب دفع أموالهم إليهم، وزال عنهم السفه، وزالت الولاية عنهم، وانفك الحجر عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾.

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم أنه لا تزول الولاية عن السفيه، ولا ينفك الحجر عنه إلا بهذين الشرطين: البلوغ، وإيناس الرشد، فلو رشد السفيه قبل أن يبلغ- مع أن هذا بعيد- لم ينفك الحجر عنه، ولو بلغ السفيه، واستمر معه السفه لا ينفك الحجر عنه ولو بلغ ستين سنة ما زال سفيها، وهذا هو الصحيح[١].

وذهب أبو حنيفة إلى أنه إذا بلغ السفيه خمسا وعشرين سنة وجب دفع المال إليه، وإن كان ما زال سفيها؛ لأنه يصلح أن يكون جدا[٢].

وهذا ضعيف لمخالفته للآية الكريمة.

ولو فك الحجر عنه بعد بلوغه ورشده، ثم عاد إلى السفه بعد ذلك حجر عليه أيضًا عند أكثر أهل العلم منهم مالك[٣]، والشافعي[٤] بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾.

وقال أبو حنيفة: لا يحجر عليه مرة أخرى لأنه بالغ عاقل[٥].

١٩- أن الحجر على اليتامى في أموالهم وفك الحجر عنهم موكول الأمر فيه إلى أوليائهم، لا يحتاج إلى حكم حاكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾[٦].

٢٠- وجوب المسارعة إلى رد المال إلى اليتامى إذا بلغوا ورشدوا دون مماطلة،

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٩٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٢)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٥١، ١٥٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٨، ٩، ٣٠، ٣٧- ٣٨).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٩، ٦٤).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٩- ٤٠).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٩٥)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٥٤).

(٥) انظر: «بدائع الصنائع» (٧/ ١٦٩، ١٧١).

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣- ٣٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨).

ودون تكليفهم المطالبة بها، بل على الولي أن يوصلها إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، أي: بادروا بردها إليهم بأنفسكم وتخلصوا منها.

وعلى هذا فلو فرط الولي في دفع المال إليهم مع إمكانه أثم، ويضمن فيما لو تلف المال عنده في هذه المدة.

٢١- تحريم أكل أموال اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ والنهي للتحريم؛ وإنما قيد النهي بهذين الأمرين وهما الإسراف والبدار، مع أن أكل أموال اليتامى بغير حق لا يجوز مطلقا؛ لأن هذين الأمرين هما اللذان يحملان غالبا على أكلها، والقيد إذا كان أغلبيًا لا مفهوم له.

لكن لا شك أن أكل مال اليتيم مع قصد أحد هذين الأمرين: الإسراف أو المبادرة أشد تحريما، وأشد منه قصدهما معا.

٢٢- أن بعض الأولياء والأوصياء على اليتامى قد يتعجل في أكل مال اليتامى مسرفًا في الأكل ومبادرًا خوف كبرهم، ورد المال إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾.

٢٣- يجب على من كان غنيا من الأوصياء والأولياء أن يستعفف عن أموال اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾ فاللام للأمر، والأصل في الأمر الوجوب.

وفي الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»(١).

هذا إذا كان الولي على اليتيم متبرعا أما إذا لم يوجد من يتولى اليتيم إلا بأجرة، فإن لمن تولى عليه أخذ هذه الأجرة وإن كان غنيا.

٢٤- إذا كان الولي فقيرا جاز له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ والأمر بعد الحظر يفيد الإباحة، أو يرد الأمر إلى ما كان عليه قبل الحظر.

فللولي إذا كان فقيرا أن يأكل من مال اليتيم أكل أمثاله من الفقراء، كما يدل على

---

(١) سبق تخريجه.

هذا مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية، فإن مفهومه جواز الأكل بحق.

وفي الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إني فقير، ليس لي شيء، ولي يتيم. قال: فقال: «**كل من مال يتيمك، غير مسرف، ولا مبادر، ولا متأثل**»(١).

والمتأثل: هو المستزيد من مال اليتيم إلى ماله.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجوز للولي الأكل من مال اليتيم إلا على سبيل الاقتراض، ويرده إذا أغناه الله، مستدلين بما روي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت»(٢).

وقد رجح هذا الطبري(٣) محتجا بعدم الإجماع على أن الآية في الأكل بدون قرض.

وقيل: لا يأكل الولي من مال اليتيم مطلقا.

واستدل من قال هذا بالنصوص من الكتاب والسنة التي فيها التشديد في حكم الاعتداء على أموال اليتامى وظلمهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وكقوله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» وذكر منهن: «**أكل مال اليتيم**»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٢)، والنسائي في الوصايا (٣٦٦٨)، وابن ماجه في الوصايا (٢٧١٨)، وأحمد (٣/ ١٨٦، ٦٧٠٨)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٥٤) الأثر (٣٢٤)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٣٩٥- ٣٩٦) قال الألباني «حسن صحيح» انظر «إرواء الغليل» (٥/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٧٦)، والطبري (٧/ ٥٨٢)، الأثر (٨٥٩٧)، والبيهقي في سننه (٦/ ٤، ٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٩٠) وقال: «إسناده صحيح».

(٣) في «جامع البيان» (٧/ ٥٩٤- ٥٩٦).

(٤) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله =

وقوله ﷺ لأبي ذر: «**يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأَمَّرنَّ على اثنين، ولا تتولين مال يتيم**»(١).

والصحيح القول الأول، وأنه يجوز للولي إذا كان فقيرا الأكل من مال اليتيم بالمعروف، أي أكل أمثاله من الفقراء، والآية نص صريح في هذا مع حديث عمرو بن شعيب؛ ولأنه جرى مجرى أجرة عمله في هذا المال.

قال القرطبي(٢): «والدليل على صحة هذا القول: إجماع الأمة على أن الإمام الناظر للمسلمين لا يجب عليه غرم ما أكل بالمعروف؛ لأن الله قد فرض سهمه في مال الله، فلا حجة لهم في قول عمر: فإذا أيسرت قضيت».

وأيضًا فإن القول بوجوب الرد إذا أيسر خلاف ما دلت عليه الآية الكريمة من إباحة الأكل في هذه الحال، وهو ينافي الإباحة، والمباح لا ينقلب حراما، ويلزم على القول بوجوب الرد على أن يكون الأكل حراما لا مباحا.

وأي فائدة في إباحة الأكل من مال اليتيم إذا جعلنا ذلك بمثابة القرض، فليقترض من مال غير اليتيم.

أما القول الثالث: أنه لا يجوز للولي الأكل مطلقا من مال اليتيم حتى ولو كان الولي فقيرا. فهو ضعيف. إذ لا دليل عليه سوى العمومات التي استدلوا بها، وهذه العمومات مخصوصة بحال الولي الفقير، فإن له أن يأكل بالمعروف، كما دلت عليه الآية، والحديث.

وإذا كان الصحيح من أقوال أهل العلم أن للولي الفقير أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف، أي: أكل أمثاله من الفقراء، فهل له أن يأكل ما زاد على أجرة المثل أم يأكل أقل الأمرين منهما، فمثلا إذا كانت أجرة العمل في مال اليتيم تقدر بثلاثة آلاف ريال في السنة، والولي إذا أكل بالمعروف، أي: أَكْلَ أمثاله من الفقراء، سيأكل ما مقداره أربعة

=

إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» ومعنى الموبقات: الذنوب المهلكات.

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤١- ٤٢).

آلاف ريال، فهل له أكل ما زاد على أجرة المثل في هذا، وهو ألف ريال.

اختلف العلماء في هذا على قولين. أصحهما أن له أن يأكل أكل أمثاله من الفقراء، ولو زاد ذلك على أجرة المثل؛ لأن هذا هو الذي يدل عليه ظاهر الآية؛ ولأن الولي ليس كالأجير الأجنبي في مراعاة مال اليتيم، فكيف يلحق بالأجنبي.

وقال بعض الفقهاء له أقل الأمرين: إما أجرة المثل، أو الأكل بالمعروف، ولا يجوز له الزيادة على ذلك، ولا دليل لهم في هذا، اللهم إلا الاحتياط ولا احتياط مع النص.

٢٥- مراعاة الشرع في أحكامه للظروف والأحوال، وتنزيل كل حال منزلتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فقد منعت الآية الولي الغني من الأكل من مال اليتيم، وأباحت ذلك للفقير، وهذا يدل على حكمة الله عز وجل فيما شرع، وعلى سمو مبادئ الشريعة.

٢٦- بلاغة القرآن الكريم في المقابلة بين قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٢٧- اعتبار العرف والرجوع إليه من الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ما عرف من أكل أمثاله من الفقراء.

٢٨- التوكيد على وجوب دفع أموال اليتامى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، ولم يقل: فإذا دفعتموها إليهم. علما أنه سبق ذكر الأموال قبل هذا، وهذا إطناب الغرض منه التوكيد على وجوب دفعها إليهم.

٢٩- وجوب الإشهاد على دفع الأموال إلى اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ والأصل في الأمر الوجوب. وعلى هذا لو ادعى الوصي أو الولي الرد، وأنكر اليتيم لم تقبل دعوى الولي؛ لأنه لو قبلت دعواه لم يحتج إلى الإشهاد- وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم مالك(١)، والشافعي(٢)، وغيرهما.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٧)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥- ٢٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٥).

(٢) انظر: «الأم» (٧/ ٧٤)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٢٨)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٣٢).

وذهب طائفة من أهل العلم منهم أبو حنيفة وأصحابه[١]، وغيرهم إلى أن الإشهاد مستحب، وعلى هذا فتقبل دعوى الولي بالرد وإن لم يشهد؛ ولهذا قبل قوله بالنفقة والكسوة الممكنة دون إشهاد.

وقال بعضهم: إن كان الولي بأجرة لم تقبل دعواه؛ لأنه إنما عمل لحظ نفسه، ولأجل مصلحته هو، وإن كان بدون أجرة قبلت دعواه؛ لأنه محسن و﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين[٢] رحمه الله: «والأخذ بظاهر الآية أولى، وهو أنه لا تقبل دعواه الدفع إلا بشهود إلا إذا وجدت قرائن قوية، تؤيد هذه الدعوى، مثل أن يكون الولي معروفا بالصدق والأمانة، ويكون المولي عليه- وهو اليتيم- معروفا بالطمع والجشع، فحينئذ نقبل قول الولي بالقرينة وبقوة الظاهر، ولأننا لو لم نقبل قوله لكان في هذا منع من التولي على أموال اليتامى؛ لأن الإنسان قد لا يتسنى له الإشهاد عند الدفع».

٣٠- حرص الشرع المطهر على إبعاد المسلم عن كل ما يسبب النزع، أو يوقع في التهمة؛ لهذا أمر الولي بالإشهاد على دفع مال اليتيم إليه؛ إبعادا له ولليتيم عن النزاع والاختلاف والتهمة.

٣١- عظم كفاية الله عز وجل في حسابه للخلائق، ومجازاته لهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

٣٢- الوعيد والتحذير للولي من التعدي على مال يتيمه والخيانة في ولايته، والوعيد والتحذير لليتيم من أن يدعي ما ليس له أو ينكر شيئا مما دُفع إليه، كما أن في ذلك وعيدًا وتحذيرًا لكل من خالف وتعدى حدود الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

* * *

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٦٨- ٦٩).

(٢) في «تفسير القرآن الكريم» (١/ ٤٧-٤٨ تفسير سورة النساء).

قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

لما بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة وجوب رعاية وحفظ أموال اليتامى ووجوب العدل بين النساء، أتبع ذلك بذكر أحكام المواريث؛ لأن من العدل مع النساء ومن رعاية حقوق اليتامى إعطاءهم نصيبهم من الميراث؛ كما أن المال الذي عند اليتيم غالبا ما يكون آيلًا إليه من طريق الميراث.

وقد كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويقولون: كيف نورث من لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا ولا يكسب ولا يكتسب!! يا سبحان الله، بل لقد قيل: إنهم مكثوا مدة يتمنون أن لو نسخ ميراث النساء والصبيان.

فبين سبحانه وتعالى أن لكل من الرجال والنساء والصبيان نصيبا من الميراث؛ صغيرهم وكبيرهم، وذكر الله عز وجل هذا الإجمال قبل تفصيل الورثة وأنصبتهم، توطئة وتوطينا للنفوس، وتدرجا بها؛ لكي تزول الوحشة التي منشؤها العادات الجاهلية القبيحة، وتتشوق النفوس إلى التفصيل(١).

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿نَصِيبٌ﴾ مبتدأ مؤخر.

والمراد بالرجال الذكور: كبيرهم وصغيرهم من أولاد الميت وأقربائه الوارثين.

كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(٢).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩١، ١٩٧)، «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٣- ١٤).

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبو داود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠).

﴿نَصِيبٌ﴾ حظ، وحق وحصة. وقد ذكره الله هنا مجملًا ثم فصله بعد أن تشوقت النفوس إلى تفصيله وبيانه في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [الآية:١١]، والآية التي بعدها ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ [الآية:١٢]، والآية التي في آخر سورة النساء ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ [الآية:١٧٦].

﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، ﴿مِّمَّا﴾: مكونة من حرف الجر «من» و«ما» الموصولة، والتقدير: من الذي ترك الوالدان، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لـ «نصيب»، ﴿تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة لا محل لها من الإعراب، صلة الموصول.

﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ من الأقربين، وإنما خصهما بالذكر؛ لشدة قرابتهما وعظم منزلتهما بين الأقارب.

أي: مما خلف الوالدان والأقربون بعد موتهم من الميراث من الأعيان كالدراهم والعقار والحيوان والأثاث، ومن الديون على الناس: كثمن مبيع وبدل قرض وأرش جناية، ومن المنافع: كمنفعة أجرة، ومن الحقوق: كحق شفعة، وغير ذلك.

و﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ هما الأب والأم، أما الأم فهي والدة؛ لأنها هي التي ولدت، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وأما الأب فقد جاء تسميته في الكتاب والسنة- مع الأم- بالوالد، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]،

وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وهذا يشمل الأب والأم، ومثله قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**لا يجزي ولد والده، إلا أن يجده مملوكا فيعتقه**»(١).

ففي هذه النصوص وغيرها كثير في الكتاب والسنة سُمي الأب والدا كما سُميت

---

(١) أخرجه مسلم في العتق- الحديث (١٥١٠)، وأبو داود- في الأدب- الحديث (٥١٣٧)، والترمذي في البر والصلة- الحديث (١٩٠٦).

الأم والدة.

قال أبو حيان[١]: «وسمي الأب والدا؛ لأن الولد منه ومن الوالدة».

﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ جمع أقرب، وهذا يدل على أن علة الميراث القرابة.

وجاءت ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: بصيغة التفضيل، ولم يقل: «الأقارب»؛ للدلالة على أن الميراث للأقرب فالأقرب، فإذا وجد الابن مثلا لم يستحق ابن الابن شيئا، وإذا وجد العم لم يستحق ابن العم شيئا، وهكذا.

وعلى هذا دلت السنة النبوية المطهرة. قال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**» متفق عليه[٢].

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ هذا كقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ من حيث الإعراب والمعنى، والنساء اسم للإناث، سواء كن كبارًا أو صغارًا.

وإنما جاءت الآية على هذا الوجه من الإطناب والتنصيص على نصيب النساء بمفردهن، كما نص على نصيب الرجال، ولم يقل: «للرجال وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون»، مع أن هذا أخصر وأوجز؛ لأن الغرض من ذلك توكيد نصيب النساء في الميراث وأصالتهن في ذلك؛ لأنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان، ويقولون: كيف نورث من لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا ولا يكسب ولا يكتسب»[٣].

قال الحافظ ابن كثير[٤] في كلامه على هذه الآية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الآية: «أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يدلي به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو

---

(١) في «البحر المحيط» (٣/ ١٧٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هكذا كان العرب في الجاهلية، لا يورثون الصبيان الصغار ولا النساء. قيل: وكان اليونان يعطون جميع المال للبنات؛ لأن الرجل لا يعجز عن الكسب، والمرأة تعجز عن ذلك. انظر «البحر المحيط» (٣/ ١٧٤).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ١٩١).

ولاء، فإنه لحمة كلحمة النسب».

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾: جار ومجرور ومتعلق بمحذوف صفة لـ «نصيب»، أو بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، و«ما» موصولة، أي: ذلك من الذي قل منه، و«منه» راجع إلى «ما» في قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾.

﴿أَوْ كَثُرَ﴾ ﴿أَوْ﴾ عاطفة و﴿كَثُرَ﴾ معطوف على ﴿قَلَّ﴾، وبين الكلمتين طباق إيجاب.

وجملة ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾: بدل من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بتكرير العامل.

والمعنى لكل من الرجال والنساء نصيب مما خلف الميت من الميراث قليلا كان هذا الميراث أو كثيرًا. فلا يقال: لا نصيب للنساء أو لا نصيب للصغار إذا كان الميراث قليلًا.

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، ﴿نَصِيبًا﴾ حال، أي: حال كونه نصيبا مفروضا، وقيل: مفعول لجعل المقدرة، أي: جعل الله ذلك نصيبًا. وقيل: على المصدرية، فهو بمعنى: قسمة مفروضة.

﴿مَّفْرُوضًا﴾ صفة لـ «نصيبا». وأصل الفرض: الحز والقطع. ومعنى ﴿مَّفْرُوضًا﴾ أي مقطوعًا به واجبًا، مقدرًا معلومًا.

أي هذا النصيب واجب مقطوع به لمن جعله الله له من الورثة، وهو مقدر تقديرا خاصا بالنسبة لأصحاب الفروض، فهذا له النصف، وهذا له الربع، وهكذا.

كما أنه مقدر تقديرا عاما بالنسبة لأصحاب التعصيب، وهو أن للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقد بينت هذا النصيب وفصلته أتم تفصيل آيات المواريث.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

لما بين عز وجل في الآية السابقة أن لكل من الرجال والنساء نصيبا من الميراث، أمر في هذه الآية بإعطاء من حضر القسمة من غير الوارثين من الأقارب واليتامى والمساكين من الميراث جبرا لقلوبهم.

قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ الواو عاطفة: و«إذا» ظرفية شرطية غير جازمة، ﴿حَضَرَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾.

و«القسمة»: مفعول به منصوب، قدم على الفاعل.

والمراد بالقسمة: قسمة المال الذي تركه الوالدان والأقربون، كما في الآية ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ وهو الميراث.

﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾: «أولو» فاعل لقوله «حضر» مرفوع وعلامة رفعه «الواو»؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

و«أولو» بمعنى أصحاب، و«القربى» هم القرابة. أي قرابة الميت وقرابة الورثة أي: أصحاب القرابة من غير الوارثين؛ لأن الوارثين هم المقسوم عليهم، ولكل منهم نصيب مفروض مقدر.

وقدم ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ على ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾؛ لأن الصدقة لأولي القربى أولى، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]. وقال ﷺ لأبي طلحة في شأن صدقته: «**اجعلها في قرابتك**»(١)، وقال ﷺ: «**الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي القرابة صدقة وصلة**»(٢).

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾. معطوف على ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ «واليتامى» جمع «يتيم»، واليتيم من مات أبوه وهو دون البلوغ، ذكرًا كان أو أنثى، وقدم اليتامى على المساكين؛ لأن ضعف اليتامى أكثر وحاجتهم أشد.

«والمساكين»: جمع مسكين، وهو من لا يجد تمام كفايته. وهو أحسن حالا من الفقير؛ لأن الفقير- كما تقدم- هو المعدم تماما، أو من لا يجد إلا قليلا، والمسكين هو المقل لكن عنده بعض الكفاية، والتفريق بينهما فيما إذا ذكرا جميعا، أما إذا ذكر المساكين وحدهم فإن الفقراء يدخلون فيهم، وإذا ذكر الفقراء وحدهم دخل فيهم المساكين. والمسكين: مأخوذ من المسكنة، وهي الذل والانكسار وسكون الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله. تجده إذا دخل في مجلس مع الناس تنحى في مؤخرة المجلس؛ لأنه يشعر بأنه لا قيمة له ولا يؤبه به، ويجلس ساكتًا لا يتكلم؛ لأنه يشعر بأنه إذا تكلم لم يسمع،

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٢)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

ولو سُمع لم يُصدّق.

وقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر والجوع.

ففي حديث أبي بكرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ يقول: «**وأعوذ بك من فتنه الفقر**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة**»(٣).

وقد اختلف في الفرق بين الفقير والمسكين وأيهما أشد حالا؟ على أقوال عدة، أصحها ما ذكر؛ لأن النبي ﷺ استعاذ بالله من الفقر، بينما روي عنه أنه قال: «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين»(٤).

على أن الفقر ليس عيبًا في نظر الإسلام، بل إن المسلم إذا ابتلي بالفقر فصبر نال بذلك الدرجات العالية عند الله تعالى قال الله تعالى ممتدحًا الصابرين: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. والبأساء: الفقر والشدة.

وعن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يُستمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري أن خطب أن لا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يُستمع.

---

(١) أخرجه النسائي في السهو (١٣٤٧). وصححه الألباني (١٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٨)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٤٧)، والنسائي، (٥٤٦٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٤) وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٥٢) من حديث أنس- رضي الله عنه- كما أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤١٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- وصححه الألباني. وانظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٤٤٢- ٤٤٦)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٥٢).

فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره**»(٢).

وأكثر أهل الجنة وأولهم دخولا الفقراء، قال ﷺ: «**اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء**»(٣).

وقال ﷺ: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا**»(٤).

وقد اعتنى الإسلام بالفقراء والمساكين؛ ليرفع عنهم ذل الفقر، ومرارة المسكنة فجعل الله في أموال الأغنياء حقوقًا لهؤلاء الفقراء والمساكين.

منها ما هو واجب كالزكاة والنفقات على من تلزم الرجل النفقة عليه من ذوي قرابته المحتاجين، ومنها ما هو مستحب كالصدقة على كل محتاج، وكإعطاء من حضر القسمة من هؤلاء المذكورين على خلاف في وجوب هذا أو كونه مندوبا فقط.

إلى غير ذلك من الحقوق التي فيها التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع الإسلامي، يشارك الغني في حل مشكلات أخيه الفقير، وفي آلامه وآماله، كما قال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»(٥).

ولكن عندما تطغى الأنانية واللؤم والجشع والطمع، فإن الفقير والمسكين يضيع كل منهما في خضم الأحداث، عندما يصبح الناس يوزنون بما عندهم من الدرهم والدينار.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢). وأخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤١)، وأحمد (٤/ ٤٢٩) من حديث عمران بن حصين، وأخرجه أيضًا من حديث ابن عباس (١/ ٢٣٤)، ومن حديث عبدالله بن عمرو (٢/ ١٧٣).

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٩)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤٦، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، وأبو داود في الأدب (٥١٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

قال أبو العيناء[١]:

إن الدراهم في المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة ... وهي السنان لمن أراد قتالا
إن الغني إذا تكلم كاذبًا ... قالوا صدقت وما نطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا لم تصب ... وكذبت يا هذا وقلت ضلالا

وقال الآخر:

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير[٢]

وقال الآخر:

إذا قل مال المرء لانت قناته ... وهان على الأدنى فكيف الأباعد[٣]

وقال الآخر:

إذا قل مال المرء قل بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازما ... أقدامه خير له أم وراؤه
وإن غاب لم يشتق إليه خليله ... وإن مات لم يسرر صديقا بقاؤه[٤]

وقال الآخر:

يحيى بالسلام غني قوم ... ويبخل بالسلام على الفقير
أليس الموت بينهما سواء ... إذا ماتوا وصاروا في القبور[٥]

وقال الآخر:

رأيت الناس قد ذهبوا ... إلى من عنده ذهب

---

(١) انظر: «معجم الأدباء» (ص٢٦١٣).

(٢) البيت لعروة بن الورد. انظر: «ديوانه» (ص٩١).

(٣) البيت بلا نسبة. انظر: «شرح شواهد المغني» (٢/ ٥٥٧).

(٤) الأبيات لأبي حيان التوحيدي انظر «ديوانه» (ص٢٤٦)، وانظر «الكشكول» (٢/ ٢٣٩)، «الوابل الصيب» (ص٧٦).

(٥) انظر: «لسان العرب» (٣/ ١٥٨)، مادة (ف ق ر)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٣)، «الكشف والبيان» (٣/ ٢٦٨).

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده المال

﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية أي: أعطوهم منه.

أي: من المال الموروث المقسوم بحضرتهم؛ لقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ و«من» للتبعيض.

وقال هنا «منه»؛ لأن الرزق لهم يكون من أصل المال الموروث، وهذا المال ليس محلا للمرابحة، بل تجب قسمته قليلا كان أو كثيرًا على مستحقيه من الورثة، بعد موت المورِّث، ولا يجوز تأخير قسمته، اللهم إلا إذا تراضى الورثة على ذلك، أو كان الورثة كلهم قصارا، فيتولى وليهم حفظه وتنميته حتى بلوغهم ورشدهم.

وقال في الآية قبل هذا: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ ؛ لأن رزق السفهاء ينبغي أن يكون من ربح أموالهم، لا من أصل المال، كما تقدم بيانه.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ ﴿قَوۡلٗا﴾: مفعول مطلق، وبينه وبين ﴿وَقُولُواْ﴾ جناس اشتقاق.

والمعنى: قولوا لمن حضر قسمة الميراث من المذكورين، قولا معروفا لا ينكره الشرع، بل قولا لينا طيبا تطيب به نفوسهم، فيجمع لهم بين أن يعطوا من هذا المال ما تيسر، وبين الكلام الطيب الذي تطيب به نفوسهم ويجبر خواطرهم.

وبهذا يُجمع لهم بين الإحسان الفعلي والإحسان القولي، وهذا غاية المطلوب في حقهم.

وحتى في حال عدم التمكن من إعطائهم؛ إما لقلة المال المقسوم أو لغير ذلك، فلا ينبغي أن يُعدم الإحسان القولي الذي هو في مقدور كل أحد من الاعتذار إليهم برفق ولين جبرًا لخواطرهم.

فما أجمل هذه التوجيهات القرآنية الكريمة ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

ولكن عندما يستبد بالناس الطمع والجشع، ويفشو الكبر والتعاظم وتقسو القلوب، لا تجد لهذه التوجيهات الكريمة واقعًا عند كثير من الناس، فلا يرحمون ضعيفًا، ولا يعطفون على يتيم، ولا يمسحون دمعة بائس، ولا يسدون خلة فقير أو محتاج، بل حتى الكلمة الطيبة فقدوها، واستبدلوها بالغلظة والجفاء والفظاظة إلا مع من يرجونه لمصالحهم المادية فحسب، حتى بخل كثير من الناس بالسلام، وقد قال ﷺ: «**أبخل**

الناس الذي يبخل بالسلام»(١).

وبهذا فقد كثير من المسلمين التعاطف، وكل لون من ألوان الرحمة، وأصبح الشخص يعيش لنفسه فحسب، لا يخطر على باله، ولا يهمه أحد سواها.

وهذا والله غاية اللؤم والأنانية، ومنذر بزيادة تفكك الأمة، وهزيمتها أمام أعدائها في أهم قضاياها المصيرية، ومفض إلى خسارة الدنيا والآخرة، فكيف بأمة لا يحترم صغيرها كبيرها ولا يعطف كبيرها على صغيرها ولا يحس فيها القوي بحاجة الضعيف، ولا الغني بحاجة الفقير.

وهذا والله من أشد أدواء الأمة، ولا علاج له إلا في استلهام مثل هذه التوجيهات الكريمة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فعلى الدعاة والمصلحين والمدرسين والآباء والموجهين ومعلمي كتاب الله تعالى وتفسيره، وسنة نبيه ﷺ عليهم استظهار هذه المعاني والتوجيهات من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومعالجة واقع الأمة من خلالها، فهي الشفاء لأدوائها.

الفوائد والأحكام:

١- تفضيل الرجال على النساء؛ لأن الله قدمهم في الذكر عليهن حتى في أمر يشتركون في الاستحقاق فيه وهو الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

وهذا هو المشروع وهو الموافق للعقل والفطرة، أن يقدم الرجال على النساء من حيث العموم؛ لأنهم أفضل منهن، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٢٨]. وقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٤٠) حديث (٥٥٩١)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٢٩)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- مرفوعًا بلفظ: «أعجز الناس من عجز في الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام» وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٣٤٩) حديث (٤٤٩٨) موقوفًا على أبي هريرة. وصحح سند الموقوف ابن حجر عند شرح حديث (٥٥٤١)، وحسّن سنده مرفوعًا الألباني، كما في السلسلة الصحيحة (٦٠١).

٢- أن لكل من الرجال والنساء نصيبا من الميراث، وقد ذكر الله تعالى هذا النصيب هنا مجملا، ثم جاء تفصيل الورثة وأنصبتهم في آيات المواريث.

٣- إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية الأولى من الجور في عدم توريث النساء والصبيان، وبيان خطأ ما كانوا يعتقدون من أن الأحق بالميراث هم الرجال الكبار، حيث يقولون: «كيف نورث من لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا ولا يكسب ولا يكتسب»

وإن هذا لغاية الظلم والجور والقصور العقلي أن تحرم النساء والصغار من الميراث، وهم في غاية الضعف، بينما يستبد بالميراث الرجال الأقوياء الأشداء.

وهذا دليل على ضعف الرأي، وسفاهة عقول البشر، وتخبطها في دياجير الظلمات والجهل، ما لم تهتد بهدى الله وتستنر بنوره.

كما أن في هذا دليلا على أن الإسلام هو الذي أنصف المرأة وانتصر لها فجعل لها نصيبا في الميراث، بعد أن كانت لا ترث، بل تورث كسقط المتاع، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ [النساء:١٩].

وهذا فيه رد على أهل الجاهلية المعاصرة في زعمهم أن الإسلام ظلم المرأة، وهم الذين ظلموها في الحقيقة، حيث سلبوها عزتها وكرامتها وجعلوها دمية يروجون بها سلعهم ومنتجاتهم، وخرجوا بها عن طبيعتها وأنوثتها، وزَجُّوا بها في أعمال لا تناسبها ولم تُهيّأ لها.

٤- أن علة الميراث هي: القرابة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾.

ويتفرع على هذا أن ذوي الأرحام يرثون إذا لم يوجد أحد من أصحاب الفروض ولا العصبات؛ لأن ذوي الأرحام من الأقربين، فهم أولى بميراث ميتهم من بيت المال، وبهذا قال أكثر السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبه قال أبو حنيفة(١) وأحمد في المشهور عنه، وإسحاق(٢) واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمه(٣).

وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: لا يرثون، ويكون المال لبيت المال، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال بعض التابعين والفقهاء منهم مالك

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٦٩).

(٢) انظر: «المغنى» (٩/ ٨٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٨).

والشافعي(١).

٥- أن الأحق بالميراث الأقرب فالأقرب؛ لأن «الأقربون» اسم تفضيل، وهذا يدل على أن الميراث يستحقه الأقرب فالأقرب، فلا يرث ابن الابن مع وجود الابن، أو ابن العم مع وجود العم، وهكذا.

٦- توكيد نصيب النساء في الميراث؛ لأن الله نص على نصيبهن بصيغة مساوية للصيغة في ذكر نصيب الرجال، فقال تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ وهذا إطناب الغرض منه توكيد نصيبهن، وأنهن كالرجال في الاشتراك في أصل الميراث، وأن لكل منهم نصيبا منه، وإن كن دونهم في مقدار ذلك النصيب، كما قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦].

٧- الإشارة إلى فضل الوالدين على بقية الأقارب؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ وهذا من عطف العام على الخاص؛ لأن الوالدين من ضمن الأقربين، وذكرا مفردين للإشارة- والله أعلم- إلى فضلهما على بقية الأقارب.

٨- أن كل ما تركه الميت فهو ميراث من الأعيان كالدراهم والأثاث والعقار ونحو ذلك، ومن الديون التي للميت على الناس، ومن الحقوق كحق الشفعة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾ و«ما» موصولة تفيد العموم أي من جميع الذي ترك.

٩- وجوب قسمة ما تركه الميت من الميراث، بين الوارثين من الرجال والنساء، سواء كان قليلا أو كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ فلا يقال إذا كان الميراث قليلا فلا نصيب للنساء فيه.

لكن لو كان الميراث قليلا بحيث لو قسم على الورثة بطلت منفعته، أو تضرر بعض الورثة بقسمته على هيئته؛ كقطعة أرض إذا قسمت بين الورثة لم يكن في نصيب الواحد منهم ما يستفيد منه لا سكنا ولا بيعا.

---

(١) انظر: «شرح مختصر خليل» للخرشي (٨/ ٢٠٧)، «الحاوي» للماوردي (٨/ ٧٣)، «المجموع» (١٦/ ١١٣)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٥٨)، «العذب الفائض» (٢/ ١٧).

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا يقسم، وإنما يباع وتقسم قيمته؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢]، وقوله ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»(١).

وبه قال ابن أبي ليلى وأبو ثور(٢)، ورواه ابن القاسم عن مالك(٣). قال ابن المنذر: وهو أصح القولين(٤)، واختار هذا ابن العربي(٥). وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن ما تركه الميت يقسم مطلقا بين ورثته، وإن لم يكن في نصيب أحدهم ما ينتفع به. وبه قال مالك، والشافعي(٦).

١٠- دل قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ على أنه لا يجوز التهاون بأكل شيء مما خلفه الميت، قليلا كان أو كثيرًا، أو استعماله أو الاختصاص به دون بقية الورثة، كالأكل مما خلفه من طعام في بيته، واستعمال أثاثه ونحو ذلك، إلا بعد استئذان كل من له حق في الميراث، ممن يكونون خارج البيت. والناس يتساهلون في هذا كثيرًا، فينبغي التنبيه لذلك.

كما أن هناك كثيرًا من المواريث وخاصة الأملاك والعقارات يتساهل الناس في قسمتها؛ إما لكون بعض الورثة وخاصة الأغنياء منهم لا يرون قسمتها في الوقت الحاضر؛ أملا بزيادة قيمتها، أو بقصد التجارة فيها وتنميتها ونحو ذلك، مع حرمان المحتاجين إليها من الورثة، وربما مات الكثير منهم ولم ينتفع من ذلك بشيء، وكم من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠)، من حديث عبادة بن الصامت: «أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار». ومن حديث ابن عباس بنحوه (٢٣٤١) وصححهما الألباني في صحيح ابن ماجه وانظر «إرواء الغليل» (٨٩٦).

وفي حديث آخر «لا تعضية على أهل الميراث إلا ما حمل القسم» ذكره القرطبي ونسبه للدار قطني عن محمد بن أبي بكر عن أبيه. والتعضية: التفريق. انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٧- ٤٨).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٧)، «البحر المحيط» (٣/ ١٧٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٨).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٧).

(٥) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٢٨).

(٦) انظر: «الحاوي» للماوردي (٨/ ٣٤٣، ٣٤٤) «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٢٨)، «البحر المحيط» (٣/ ١٥٧).

بنات مع رجال فقراء حرمن من ميراث والدهن أو غيرهن، بهذه الحجة الشيطانية؛ مما سبب ضياع كثير من الحقوق، بل وضياع كثير من الأملاك لعدم التمكن من حصر ورثتها بعد موت كثير منهم وانتقال المواريث من بعضهم إلى بعض ووجود أملاك لا يعرف أهلها أو لا يعرف من أهلها إلا من كان له جزء قليل منها، وهكذا فينبغي المبادرة إلى قسمة ما تركه الميت وما خلفه من قليل أو كثير، ومن كان من الورثة من القصار، فهذا يعطى نصيبه ويولى عليه من يحفظه وينميه له وهكذا.

١١- أن هذا النصيب الذي جعله الله للرجال والنساء نصيب واجب محتم دفعه لمستحقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

كما أنه نصيب مقدر محدد، فلكل وارث بالفرض فرضه المقدر، والورثة بالتعصيب للذكر منهم مثل حظ الأنثيين.

١٢- التدرج في الأحكام والتوطئة وذكر الإجمال ثم التفصيل؛ لتشويق النفوس، وإزالة الوحشة التي منشؤها العادات الجاهلية؛ لأنه عز وجل ذكر أولا أن لكل من الرجال والنساء نصيبا من الميراث، ثم فصل ذلك وبينه أتم تفصيل. وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

١٣- مشروعية إعطاء من حضر قسمة الميراث من الأقارب غير الوارثين واليتامى والمساكين من هذا الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في هذا الأمر بإعطاء المذكورين أهو للوجوب أم للاستحباب؟ فذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الأمر بإعطاء المذكورين للوجوب؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب ولا صارف له هنا.

وقالوا أيضًا مما يدل على وجوب إعطاء من حضر القسمة أن الله قدم الأمر بإعطاء هؤلاء على ذكر أصحاب الفروض والعصبات وتفصيل أنصبتهم.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الأمر بإعطائهم للاستحباب؛ لأن هذا من قبيل الآداب وحسن الأخلاق والإحسان، والأوامر في باب الآداب تحمل على الاستحباب، وأيضًا فلو كان هذا النصيب واجبا لحدد وقدر.

كما اختلفوا إذا كان الميراث لقصار: هل يعطى منه أو لا؟ على قولين.

وقد اختلفوا أيضًا هل هذا الحكم منسوخ أو محكم، أي: هل الآية ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ محكمة أو منسوخة؟.

فروي عن ابن عباس والزهري أنها محكمة.

وروي عن ابن عباس وكثير من التابعين أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، أي: بالمواريث(١).

قال ابن كثير(٢): «وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم».

والذي يظهر- والله أعلم- أن الآية ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ الآية محكمة غير منسوخة، وأن حكمها باق(٣)- وإن كان القائلون بنسخها هم الأكثر- لأنهم يقولون: إن الآية ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ منسوخة بالمواريث. علما أن الآية في الحقيقة قررت إعطاء المذكورين مع تقرير قسمة المواريث على أصحابها في آن واحد، فكأن القائل بنسخها يقول نسخ أول الآية آخرها، وهذا لا يمكن.

فمعنى الآية: وإذا حضر قسمة المواريث على الوجه الذي بينه الله عز وجل هؤلاء المذكورون، وهم أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه. فكيف يقال بنسخ المواريث للآية، بل لو قال قائل بأن هذه الآية نزلت بعد المواريث لم يكن بعيدا، وإن كان ترتيبها في السورة قبل آيات المواريث؛ لأن ترتيب الآيات والسور ليس على ترتيب النزول.

وإذا كان الصحيح أن الآية محكمة، فالأمر فيها بإعطاء المذكورين محتمل للوجوب والاستحباب.

والأحوط إعطاؤهم إبراءً للذمة إن كان الأمر واجبا، وامتثالا لأمر الله تعالى بذلك إن كان مستحبًّا، وبرًّا بهم وصدقة عليهم وإحسانًا إليهم وجبرًا لخواطرهم.

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (٩/ ١٦٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩١- ١٩٢).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٩٣).

(٣) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٥٦- ١٦٠).

١٤- أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي أن يعطى منه ما تيسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين، فإنه ولي حره وعلاجه**»(١).

وكان الصحابة- رضي الله عنهم- إذا بدت باكورة أشجارهم أتوا بها رسول الله ﷺ فبرك فيها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك؛ لشدة تشوفه إلى ذلك.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «**اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه**» ثم **يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر**»(٢).

وهذا من محاسن الدين الإسلامي وآدابه العالية الكريمة وأخلاقه الفاضلة.

١٥- أن المأمور به قد يوكل تقديره إلى المأمور نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، أي: ما طابت به نفوسكم من غير تحديد، فيرجع هذا إلى كرم المعطي من وجه، وإلى كثرة المال من وجه آخر.

١٦- جواز قسمة الميراث، وكل مال مشترك بحضور غير الشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في كلامه على هذه الآية(٣): «الذي يظهر لي- والعلم عند الله- من هذه الآية والتي قبلها: أن الناس فيما سبق كانوا إذا أرادوا قسم مال الميت فإنهم يقسمونه علنًا ظاهرًا، سواء كان ظاهرًا للناس عمومًا،

---

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٦٣)، والترمذي في الأطعمة (١٨٥٣)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٩، ٣٢٩٠)، والدارمي في الأطعمة (٢٠٧٣، ٢٠٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٧٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٤)، وابن ماجه في المناسك (٣١١٣)، ومالك في الجامع (١٦٣٧)، والدارمي في الأطعمة (٢٠٧٢).

(٣) في «تفسير القرآن الكريم» (١/ ٥٣ تفسير سورة النساء).

أو ظاهرًا لمن حولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ».

أقول: وهذا أمر جائز لا يطالب الناس به، لكنهم يطالبون بعدم التكتم والتحفظ على أمور عادية، قد يجر التكتم عليها إلى إيجاد العداوة والبغضاء بين الأقارب والجيران والإخوان؛ لأن كثيرًا من الناس أصبحت ثقتهم بأنفسهم واعتمادهم عليها، وعلى حنكتهم وتحفظهم أقوى من اعتمادهم على الله عز وجل، كما قال الله عن قارون أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

وبين الناس آداب وأخلاق وأعراف وتقاليد ينبغي مراعاتها؛ حفاظا على الألفة والمحبة والأخوة بين المسلمين.

وخير الأمور الوسط، فلا نفشي ونظهر ما ينبغي ستره وما لا فائدة في إظهاره، ولا نطالب الناس ونسألهم عن ذلك، ولا نتكتم على أمور عادية قد يؤدي التكتم عليها إلى سوء الظن والاختلاف بيننا، وينبغي ألا نخاف إلا من الله، ولا نعتمد إلا على الله، وأن نعلم بأنه هو الواقي والحافظ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

أما أن نعتمد على حولنا وقوتنا وتحفظنا، ونعتقد بأننا بهذا حفظنا أنفسنا فهذا لا يجدي شيئا.

وأقول هذا وأؤكده؛ لأن كثيرًا من الناس أصبحوا يعيشون في أوهام لا يعلم مداها إلا الله، وأصبحت حياتهم قلقا واضطرابا بسبب هذه الأوهام وتلك المعتقدات الباطلة، وأصغ سمعك إلى ما يدور بين كثير من الأسر والأقارب والجيران، وما يدور في مجالس الناس وخاصة مجالس النساء. والله المستعان.

١٧- يظهر من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ الآية أن الأموال آنذاك جلُّها ظاهرة؛ تجارة أو زراعة أو صناعة أو غير ذلك، وأن أصحاب الأموال كلهم رجال أعمال يساهمون في نهضة الأمة وتقدمها ودعم اقتصادها، بخلاف ما عليه كثير من أصحاب الأموال اليوم حيث صاروا عبئًا على اقتصاد الأمة يكدسون الأموال في البنوك ويأخذون عليها الفوائد الربوية، أو يشغلونها في المساهمات أمام الشاشات دون أن ينتفع بها أحد من الناس، أو يضعونها في العقارات والتراب مما ضخم قيمتها وجعل امتلاك كثير من الشباب للسكن أمر أشبه بالخيال.

١٨- فضل الإحسان إلى القرابة، وأنه أفضل من الإحسان إلى اليتامى والمساكين؛ لأن الله قدمهم في الآية فقال: ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾.

وفي حديث سلمان بن عامر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**»(١).

وعن ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: «أنها أعتقت وليدة، ولم تستأذن النبي ﷺ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي؟ قال: «أوفعلت»؟ قالت: نعم، قال: «**أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك**»(٢).

فدل هذا الحديث على أن صلة الرحم أفضل من إعتاق الرقيق.

١٩- عناية الله عز وجل باليتامى؛ لأنهم بموت آبائهم فقدوا من يعولهم، ويقوم بأمرهم، ويعطف عليهم؛ لهذا أمر الله بإعطائهم إذا حضروا قسمة الميراث وإن كانوا غير وارثين.

٢٠- عناية الله عز وجل بالمساكين؛ لفقرهم وحاجتهم؛ لهذا أمر عز وجل بإعطائهم إذا حضروا قسمة الميراث، وإن كانوا غير وارثين.

٢١- ينبغي الجمع بين إعطاء هؤلاء المذكورين إذا حضروا القسمة، وأن يقال لهم قول معروف، يجبر خواطرهم، ويطيب قلوبهم، فلا يشعرون بالمن عليهم بما أُعطوا، وبهذا يُجمع لهم بين الإحسانين: الإحسان الفعلي، والإحسان القولي؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، وهكذا كل من أعطى أحدا شيئا ينبغي أن يجمع له بين الإحسانين؛ لأن هذا هو غاية الإحسان.

ومن عدم الإحسان الفعلي ولم يتمكن منه، فلا أقل من الإحسان القولي بالقول الجميل والاعتذار الذي هو في مقدور كل أحد.

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٨٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٤)، والدارمي في الزكاة (١٦٨٠) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩٢)، ومسلم في الزكاة (٩٩٩)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٠).

قال المتنبي[١]:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

٢٢- مراعاة الإسلام للمشاعر والجانب النفسي والمعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، أي: قولا طيبا لينا يجبر قلوبهم ويطيب خواطرهم سواء أعطوا ما يكفيهم أو أعطوا قليلا، أو لم يُتمكن من إعطائهم، فالقول الطيب في هذه الأحوال قد يعدل العطاء، بل وقد يغني عنه ويفوق عليه.

والعامة عندنا يقولون: «الكلام الطيب يساق مع الدية» واللبيب يفهم هذا.

* * *

(١) انظر: «ديوانه» (٣/ ٣٩٤).

قال الله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾.

لما ذكر عز وجل في الآيات السابقة وجوبَ حفظِ أموال اليتامى ورعايتِها وتوريثِهم إذا كانوا ممن يرث، وإعطاءَهم إذا حضروا القسمة وكانوا غير وارثين- ذكَّر الأولياء والأوصياء وغيرهم ممن يدخل تحت هذه الآية بما يحملهم على أداء الحقوق المذكورة لليتامى، وذلك بتذكيرهم بأنهم قد يموتون وأولادهم صغار يخافون عليهم من الملمات والشدائد والجور والظلم والضياع، وفي هذا تحريك لمشاعرهم تجاه حقوق اليتامى، فمن أحسن إلى اليتامى وأولاد الناس يسر الله لأولاده من يحسن إليهم بعد وفاته، وكما تدين تدان.

قوله: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ ﴾ الواو مستأنفة، واللام لام الأمر، وهي كذلك في قوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلْيَقُولُوا۟ ﴾.

ولام الأمر الأصل فيها الكسر، مثل لام التعليل، وإنما سكنت؛ لأنها جاءت بعد الواو والفاء.

ولام الأمر تسكن بعد الواو والفاء، كما تسكن بعد «ثم»، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٩].

قال الفراء(١): «كل لام أمر إذا استؤنفت، ولم يكن قبلها واو ولا فاء ولا «ثم» كسرت، فإذا كان معها شيء من هذه الحروف سكنت».

أما لام التعليل، وهي لام «كي» فهي مكسورة دائمًا، كما في قوله تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ [العنكبوت: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن

(١) في «معاني القرآن» (١/ ٢٨٤).

فَضْلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، ولو سكنت لام التعليل لاختلف المعنى.

والفعل «يخش» مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف الألف، أصله «يخشى» و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل «يخش» ومفعولها محذوف.

والخطاب في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ والأفعال المعطوفة عليه عام، ويدخل تحته من باب أولى الأوصياء والأولياء على اليتامى، ومن يحضر الميت حال احتضاره، ومن يتولون قسمة الميراث، وغيرهم.

والخشية بمعنى الخوف، بل هي أخص من الخوف. قال ابن فارس(١): «الخاء والشين والياء تدل على خوف وذعر».

والخشية لا تكون غالبًا إلا مع العلم، ومع عظم المخشي قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٤٦].

قال الراغب(٢): «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه؛ ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ». وحذف مفعول «يخش»؛ ليكون أعم، والمعنى: وليخش هؤلاء من ظلم اليتامى، وأكل أموالهم، ومن الجور في الوصية وظلم الورثة، ومن ترك الوصية للمساكين، ومن عدم إعطاء من حضر القسمة من ذوي القربى واليتامى والمساكين، أو ليخش هؤلاء العاقبة، أو ليخش الله، إن ظلموا اليتامى وأكلوا أموالهم، إلى غير ذلك؛ لأن المفعول إنما حذف ليذهب الفكر في تصوره كل مذهب.

﴿لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿لَوْ﴾ أداة شرط غير جازمة، وهي حرف امتناع لامتناع، ﴿تَرَكُواْ﴾ فعل الشرط، ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: بعد موتهم.

---

(١) في «مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٤) مادة «خشي».

(٢) في «المفردات في غريب القرآن» مادة «خشي».

قال في «تفسير المنار» (٤/ ٣٩٣) بعد أن ذكر قول الراغب: «وهذا القيد لا يظهر على كل الحروف التي وردت في القرآن وكلام العرب، فلم يكن عند عنترة خوف قوي بتعظيم ولا علم في قوله:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابني ضمضم

قال: والأقرب عندي: أن تكون الخشية هي الخوف في محل الأمل».

﴿ذُرِّيَّةً﴾: «ذرية» مفعول تركوا، والذرية: هم الأولاد من بنين وبنات، وأولاد البنين، وإن نزلوا دون أولاد البنات.

قال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين- رحمه الله- في كلامه على هذه الآية[١]: «فإن قال قائل: هذا القول ينتقض بعيسى ابن مريم؛ فإن الله تعالى جعله من ذرية إبراهيم وهو ابن بنت، فيجاب عن ذلك بأنه لا أب له، فأمه أبوه؛ ولهذا قال العلماء- رحمهم الله- : إن ولد الزنا ترثه أمه بالفرض والتعصيب؛ لأنها أم وأب، إذ لا أب له شرعا».

﴿ضِعَٰفًا﴾ صفة لـ«ذرية»، أي: لا يستطيعون التكسب وجلب المنفعة لأنفسهم، أو دفع الضرر عنها؛ لصغرهم أو لعدم رشدهم ونحو ذلك.

﴿خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ جواب «لو»، أي: لو تركوهم خافوا عليهم، ولم يقترن جوابها هنا باللام مع أنه فعل ماض مثبت، كما في قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠].

والأكثر إذا كان جوابها مثبتا أن تقترن به اللام؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ [محمد: ٣٠]، وقوله: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥].

أما إذا كان جوابها منفيا بـ«ما» فعلى العكس، الأكثر، بل الأفصح ألا يقترن جوابها باللام، تقول: لو جاء زيد ما كلمتك، وقد يقترن أحيانًا، فتقول: لو جاء زيد لما كلمتك[٢]، ومنه قول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الليالي[٣]

وذلك لأن اللام تفيد التوكيد، والنفي يضاد التوكيد.

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ«خافوا».

والمعنى: خافوا عليهم من الجور والظلم، وأن تؤكل أموالهم وتهضم حقوقهم وتساء معاملتهم وغير ذلك، وحذف مفعول «خافوا» ليذهب الفكر في تصوره كل مذهب.

---

(١) في «تفسير القرآن الكريم» (١/ ٥٨-٥٩ تفسير سورة النساء).

(٢) انظر: «شرح ابن عقيل بحاشية الخضري» (٢/ ١٢٩)، «شرح التصريح» (٢/ ٢٥٦).

(٣) البيت بلا نسبة في «الدرر» (٢/ ٨٢)، و«أوضح المسالك» (٤/ ٢٣١)، و«شرح شواهد المغني» (٢/ ٦٦٥)، و«مغني اللبيب» (١/ ٢٧١).

فكل من حضرته الوفاة وله أولاد صغار قد ترد عليه مثل هذه الخواطر؛ من التخوف على أولاده والتفكير في حالهم، ومن يتولاهم بعده، وبقدر إيمان العبد واستقامته تقل هذه المخاوف، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

أي: لا تخافوا مما أمامكم، ولا تحزنوا على ما خلفتم.

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

وقد ذكر أهل العلم أن عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- حين قالوا له: «يا أمير المؤمنين: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء، لا شيء لهم. وكان في مرض موته، فقال: أدخلوهم علي. فأدخلوهم، وهم بضعة عشر ذكرا، ليس فيهم بالغ. فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: «يا بني، والله ما منعتكم حقا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين[1]، وإما غير صالح، فلا أُخَلِّف له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني».

قال راوي القصة: «فلقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس في سبيل الله يعني: أعطاها لمن يغزو عليها»، أي: أن الله أغناهم من فضله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكره لهذه القصة[2]: «قلت: هذا وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق ببلاد الترك إلى أقصى المغرب بلاد الأندلس وغيرها، ومن جزائر قبرس وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها إلى أقصى اليمن، وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئا يسيرا. يقال: أقل من عشرين درهما قال: وحضرت

---

(١) أخذًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

(٢) انظر: «السياسة الشرعية» (ص١٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٩- ٢٥٠)، وانظر «العقد الفريد» (٥/ ١٧٤- ١٧٥)، «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٤٠- ١٤١).

بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه، فأخذ كل واحد منهم ستمائة ألف دينار، ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس، أي: يسألهم بكفه».

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ معطوف على ﴿وَلْيَخْشَ﴾، توكيد للأمر بالخشية؛ لأن الخشية من التقوى، أي: فليتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأداء ما يجب عليهم من حقوق لليتامى والمساكين والورثة وغيرهم من أصحاب الحقوق، وأن يحذروا من الجور والظلم.

﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ معطوف على ما سبق، و﴿قَوْلًا﴾: مفعول مطلق، وبينه وبين «يقولوا» جناس اشتقاق.

﴿سَدِيدًا﴾: صفة لـ﴿قَوْلًا﴾. والقول السديد: هو الصواب، العدل، الموافق للشرع، وللحكمة.

وسمي سديدًا؛ لأنه يسد مكانه، فيناسب الحال والمقام؛ لأن لكل حال ما يناسبها من القول، ولكل مقام مقال، ولكل شخص ما يناسبه، فأحيانا يكون المناسب القول اللين، وهو السداد في موضعه، وأحيانا يكون المناسب القول الشديد وهو السداد في موضعه، وهكذا.

فالقول السديد هو الذي يسد موضعه، أي: يفي بالغرض الذي قيل من أجله، فهو عام في كل قول.

فمن القول السديد: أن يقال لليتامى قول معروف طيب، لا غلظة فيه، وأن يُعلَّموا ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

ومن القول السديد: أن يوصى من حضره الموت بالعدل بالوصية، وعدم الإضرار بالورثة وعدم ترك الوصية.

ومن القول السديد: أن يقال لمن حضروا عند قسمة الميراث من غير الوارثين قول لين طيب يجبر قلوبهم.

ومن القول السديد: أن يتحرى الإنسان في كلامه كله الصواب والحق والعدل والإنصاف والحكمة، حتى لا يضر نفسه ولا غيره.

قال النابغة الجعدي(١):

ولا خـير في حلـم إذا لم تكـن لـه ... بـوادر تحمـي صـفوه أن يكـدرا
ولا خـير في جهـل إذا لم يكـن لـه ... حلـيم إذا مـا أورد الأمـر أصـدرا

وخلاصة معنى الآية أنه كما يجب الإنسان أن تعامل ذريته معاملة طيبة من بعده فليعامل الناس في ذرياتهم معاملة طيبة، وليتق الله فيما يقول ويفعل، وليتحر الصواب والعدل والحكمة في ذلك كله.

قال ابن العربي(٢): «والصحيح أن الآية عامة في كل ضرر يعود عليهم، بأي وجه كان على ذرية المتكلم، فلا يقول إلا ما يريد أن يقال فيه وله».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾.

أكد الله عز وجل في الآيات السابقة وجوب حفظ أموال اليتامى ورعايتها، ونهى عن أكل أموالهم، وأمر بدفعها إليهم إذا بلغوا ورشدوا، وتوريثهم وإعطائهم إذا حضروا قسمة الميراث، ثم ختم هذه الآيات في حقوق اليتامى بالوعيد الشديد في هذه الآية للذين يأكلون أموال اليتامى ظلما بأنهم: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾(٣).

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾، «إن» حرف توكيد ونصب، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم «إن» وخبرها جملة ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾.

﴿يَأۡكُلُونَ﴾، خص الأكل بالذكر؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع بالمال وأهمها، وأهم ما يجمع المال من أجله، وإلا فسائر الانتفاعات مثله، كأن يأخذ مال اليتيم ليشتري به دارا

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٦٩).

(٢) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٣٠).

(٣) وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا من مخالطة اليتامى وشق عليهم ذلك، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، انظر «التفسير الكبير» (٩/ ١٦٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤- ٣٧٥)، (٢/ ١٩٥).

أو عقارا أو غير ذلك، بل وأشد منه وأعظم ما لو أتلف مال اليتيم بإحراق أو إغراق ونحو ذلك.

﴿أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ﴾ المال: اسم لكل ما يتمول ويملك من نقد أو أثاث وغيره.

﴿ظُلْمًا﴾ منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف، التقدير: أكل ظلم، أو منصوب، على الحال، أي: ظالمين لهم.

والظلم هو النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو وضع الشيء في غير موضعه، على سبيل التعدي والجور، ومجاوزة الحد والميل عن القصد والمراد به هنا الأكل بغير حق.

فمن أكل مال اليتيم بغير حق فقد ظلمه، أي: نقصه حقه، واستبدل ما أُمر به من العدل في معاملة اليتيم، بل وفي معاملة الناس أجمعين، بالظلم والتعدي، ووضع مال اليتيم في غير موضعه، حيث الواجب عليه حفظه لليتيم، وقد أكله تعديًا وظلمًا.

ويفهم من قوله ﴿ظُلْمًا﴾ أن الأكل قد يكون بحق، كأن يأكل الولي إذا كان فقيرا من مال يتيمه بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦].

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما يأكلون إلا نارا تشتعل وتتأجج في بطونهم(١).

وقيل: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوجب لهم النار ويؤول بهم إليها.

والأول أولى وهو ظاهر الآية، ويؤيده المعنى فإن الجزاء من جنس العمل، وقد قابل عز وجل أكلهم أموال اليتامى في الدنيا بأكلهم النار يوم القيامة.

وقد قال عز وجل: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢] قال المفسرون: سلسلة من نار تدخل مع فيه وتخرج من دبره(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٦)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٦٢- ١٦٣)، «البحر المحيط» (٣/ ١٧٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٣).

كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦]. وهذه الشجرة في أصل الجحيم، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤].

وذكر البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتوكيد والمبالغة كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]. وكما يقال: أبصرت بعيني، وسمعت بأذني.

كما أن في ذلك تشنيعا عليهم، حيث اعتدوا على أموال اليتامى من أجل بطونهم التي مآل ما يوضع فيها إلى الاضمحلال والتلف، ولذلك جاء في الحديث: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه**»(١).

قال أبو حيان(٢): «وعَرَّض بذكر البطون؛ لخستهم وسقوط هممهم، والعرب تذم بذلك. قال الحطيئة(٣):

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي»

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. قرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «وسيُصلون» بضم الياء، على البناء للمفعول، ومنه قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦].

وقرأ الباقون: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ بفتح الياء(٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣].

ومعنى قراءة الضم: أنهم يدخلون النار ويغمرون فيها ويحرقون ويقاسون حرها. ومعنى قراءة الفتح: أنهم سيدخلون النار وينغمرون فيها ويقاسون حرها ويحترقون فيها.

قال أبو حيان(٥): «وعبر بالصلي بالنار عن العذاب الدائم بها إذ النار لا تذهب ذواتهم بالكلية، بل ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]».

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٨٠)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معد يكرب- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٢) في «البحر المحيط» (٣/ ١٧٩).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٥٠).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٧، ٢٩)، «المبسوط» (ص١٥٤)، «النشر» (٢/ ٢٤٧).

(٥) في «البحر المحيط» (٣/ ١٧٩).

﴿سَعِيرًا﴾: «فعيل» بمعنى «مفعول»، أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول، أي: وسيصلون نارًا مسعورة متوقدة مشتعلة.

قال الطبري[١]: «وأما السعير فإنه شدة حر جهنم، ومنه قيل: استعرت الحرب إذا اشتدت، إنما هو مسعور، ثم صرف إلى سعير فتأويل الكلام إذا: وسيصلون نارا مسعرة، أي: موقدة مشعلة شديدا حرها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢]. فوصفها بأنها مسعورة».

الفوائد والأحكام:

١- تحذير الذين يأكلون أموال اليتامى ويظلمونهم، وتذكيرهم بما لعله يحرك مشاعر الإحساس في نفوسهم بأنه قد يحصل مثل ذلك لأولادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾.

٢- يجب على الإنسان أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه، فكما يحب أن يعامل أولاده بعد موته معاملة طيبة، فكذلك يجب عليه هو أن يعامل أولاد الناس معاملة طيبة، وفي الحديث: «**وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**»[٢].

٣- أن الجزاء من جنس العمل، وأنه كما تدين تدان، وما عملت مع الناس يعمل معك مثله، كما قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الأثر: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا عن نساء المسلمين يعف عن نسائكم»[٣].

---

(١) في «جامع البيان» (٨/ ٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٤٨)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٤)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وفي سنده سويد بن إبراهيم الجحدري ضعفه أكثر الأئمة.

وأخرجه أيضًا الحاكم (٤/ ١٥٤) من حديث جابر رضي الله عنه. وفي سنده علي بن قتيبة الرفاعي، قال ابن عدي: «حدث عن مالك بأحاديث باطلة» ثم ذكر هذا الحديث. انظر «الكامل» لابن عدي (٥/ ٢٠٧)، «تهذيب التهذيب» (٤/ ٢٤٥)، وقد ضعفه الألباني في «الجامع الصغير» رقم (٢٣٣٠).

وهذا- وإن كان ضعيفا- إلا أن معناه صحيح.

قال الشافعي[١] في هذا المعنى:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم ... وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
من يزن في بيت بألفي درهم ... في بيته يزنى بغير الدرهم
من يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجداره ... إن كنت يا هذا لبيبًا فافهم

وقال صالح بن عبد القدوس[٢]:

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

٤- الإشارة إلى ضعف الإنسان، وأنه وإن كان مؤمنًا بالله متوكلًا عليه قد ترد عليه بعض الخواطر كالتخوف على أولاده من بعده، وخاصة عندما يصل الإنسان إلى حالة شديدة من الضعف، فإنه قد ترد عليه هذه الخواطر اضطرارًا ولا يستطيع لها دفعًا، وقد قال الله تعالى مخاطبًا المؤمنين في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

ولهذا قال بعض المفسرين: «ظن المؤمنون كل ظن»[٣] ولكن المؤمنين سرعان ما قالوا كما ذكر الله عنهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهكذا المؤمن المتوكل على الله حقًا، حتى وإن عرضت له في ساعات الضعف بعض الخواطر التي قد لا يسلم منها البشر فإنه يثق بوعد الله؛ ولهذا لما اشتكى بعض الصحابة- رضي الله عنهم- ما يجدون في أنفسهم من الوسوسة مما يتعاظمون الكلام به كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال ﷺ: «وقد وجدتموه»؟

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٧٦).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٤٧).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٨٨- ٣٨٩).

قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان»، وفي لفظ: «ذاك محض الإيمان»(١).

وقد رُوي أن تميم بن جميل السدوسي خرج بشاطئ الفرات، واجتمع عليه كثير من الأعراب، فعظُم أمره، وبَعُدَ ذكره، فطلبه المعتصم، وأُحضر بين يديه، وأُحضر السيف والنطع، وأوقف بينهما، وتأمله المعتصم وكان جميلًا وسيمًا، فأحب أن يعلم أين لسانه وجنانه من منظره، فقال له: تكلم، وأدل بحجتك. فقال على البديهة(٢):

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ... يلاحظني من حيثما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ عما قضى الله يُفلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يهز عليَّ السيف فيه، واسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية إن تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الأذى عنهم وإن مت موتوا
فكم قائل لا يبعد الله داره ... وآخر جذلان يسر ويشمت

وقال الآخر:

وإنما حزني في صبية دَرجوا ... غُفْل عن الشر لم توقد لهم نار
قد كنت أرجو زمانًا أن أقودهم ... للمكرمات فلا ظلم ولا عار
والآن قد سارعت دربي إلى كفن ... يومًا سيلبسه بر وفجار
بالله يا صبيتي لا تهلكوا جزعًا ... على أبيكم طريق الموت أقدار
تركتم في حمى الرحمن يكلؤكم ... من يحمه الله لا تدركه أوزار
وأنتم يا أهيل الحي صبيتكم ... أمانة عندكم هل يهمل الجار(٣)

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٢)، وأبو داود في الأدب (٥١١١)، وأحمد (٢/ ٤٤١).

(٢) ديوان تميم بن جميل» (ص٣٥)، وانظر «الفرج بعد الشدة» (٤/ ٨٩- ٩٠)، «المستجاد من فعلات الأجواد» (ص١١٧- ١١٩).

(٣) هذه الأبيات لمصطفى السباعي ضمن قصيده له بعنوان «وداع راحل» نشرت في مجلة حضارة الإسلام، السنة الخامسة الأعداد: (٤، ٥، ٦) (ص٥١) وهي موجودة في كتاب «شعراء الدعوة الإسلامية في =

فمثل هذه الخواطر قد لا يسلم منها أحد، نسأل الله الثبات وحُسن الختام.

٥- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٦- وجوب تقوى الله، بأداء حقوق اليتامى وغيرهم من الضعفاء والمساكين، وخصوصا من له عليهم ولاية، وأن من لم يؤد حقوقهم أو ظلمهم فقد أخل بما يجب عليه من تقوى الله فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٧- عظم حق هؤلاء الضعفاء من اليتامى وغيرهم؛ لأن القيام به من تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ ؛ ولهذا قرن عز وجل حقهم بحقه سبحانه، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩- ١١]، أي: بنعمة الله عليك بالنبوة فحدث، أي: ادع إلى الله عز وجل.

٨- يجب على المرء أن يختار في كلامه القول السديد الصواب، الموافق للشرع، المشتمل على الحكمة، المناسب للحال والمقام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فبالقول السديد صلاح الأعمال والحال والمآل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

٩- يجب الحذر من القول غير السديد الذي قد يضر المتكلم به ويضر غيره، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»(١).

١٠- تحريم أكل أموال اليتامى ظلما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية.

وقد أكد ذلك بعدة مؤكدات: منها هذه الآية، ومنها قوله قبل هذا: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

١١- أن من أكل من مال اليتيم بحق فلا إثم عليه: كالولي الفقير يأكل بالمعروف؛

=

العصر الحديث» (٢/ ٤٦).

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لمفهوم قوله تعالى: ﴿ظُلْمًا﴾، فمفهوم هذا أن الأكل بحق جائز، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦].

١٢- التوكيد والمبالغة في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

فذكر الله البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها من باب التوكيد والمبالغة للتشنيع عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

١٣- أن الجزاء من جنس العمل، فالذين يأكلون أموال اليتامى بغير حق، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

١٤- الوعيد الشديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

فهم يقاسون حرارة النار داخل أجسادهم وخارجها، وهذا الوعيد إن لم يعف الله عنهم، وليس فيه ما يوجب خلودهم- كما تقول المعتزلة والخوارج[1]- لأنه لا يخلد في النار إلا من مات على الشرك والكفر.

١٥- إثبات البعث والجزاء على الأعمال؛ لأن الله توعد الذين يأكلون أموال اليتامى بغير حق بالنار، يأكلونها في بطونهم، ويصلونها خارج أجسامهم، وهذا بعد البعث.

١٦- أن أكل أموال اليتامى ظلما من كبائر الذنوب؛ لأن الله توعد عليه بالنار بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

وفي الحديث[2]: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «أكل مال اليتيم».

وقال ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر إنك إنسان ضعيف، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تتأمرن على اثنين، ولا تتولين مال يتيم»[3].

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (٩/ ١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة من النصوص التي فيها التوكيد على وجوب رعاية اليتامى وحفظ حقوقهم والنهي عن قربان أموالهم إلا بالتي هي أحسن، لهذا عد بعض العلماء أكل أموال اليتامى أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة فمنهم من عد أكبر الكبائر بعد الشرك بالله الربا.

ومنهم من قال: أكبر الكبائر أكل مال اليتيم.

ومنهم من قال: أكبر الكبائر القتل بغير حق وهو قول الجمهور.

وهذا مبني على الاختلاف في أعظم وعيد ورد في القرآن في الكبائر فمنهم من قال: هو قول الله تعالى في الربا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

ومنهم من قال: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ [النساء: ١٠].

ومنهم من قال: هو قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٩٣].

ومذهب أهل السنة والجماعة أن ما عدا الشرك بالله من الذنوب فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذب به وإن شاء عفا عنه، فلا حجة في هذه الآيات ولا غيرها من آيات الوعيد لمن يُكفِّرون بالذنوب.

١٧- عناية الله عز وجل العظيمة باليتامى؛ لأنهم بلغوا الغاية في الضعف؛ لفقد آبائهم، الذين يحوطونهم، ويكتسبون لهم، وينفقون عليهم، ويعلمونهم، ويؤدبونهم، ويعطفون عليهم، ويرحمونهم؛ لهذا أنزل الله في شأنهم تسع آيات متوالية في مطلع هذه السورة عناية بهم ورحمة لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾﴾.

هذه الآية والتي بعدها والآية التي هي آخر هذه السورة تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [الآية:٧].

وذكر الله المواريث بعد الكلام عن اليتامى؛ لأن الغالب أن مال اليتامى إنما آل إليهم من طريق الميراث.

وهذه الآيات الثلاث هن آيات علم الفرائض وهو مستنبط منهن، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك(١): كحديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر»(٢).

سبب النزول:

عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالًا، ولا تنكحان إلا ولهما مال، فقال النبي ﷺ: «يقضي الله في ذلك»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما: «أن أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك»(٣).

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في الفرائض (٢٨٩١، ٢٨٩٢)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٢)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢٠)، وأحمد (٣/ ٣٥٢)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٢٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٩٦- ٩٧) وحسنه الألباني.

وقد ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٩٦) عند تفسير هذه الآية هذا الحديث، وذكر قبله حديث جابر:
=

قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: يأمركم ويعهد إليكم. ووصى، وأوصى بمعنى واحد.

والوصية: هي العهد والأمر بأمر هام، وتكون في الحياة وبعد الممات، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢]، أي أمرهم بكلمة التوحيد وعهد إليهم بها في حياته، وبعد مماته.

والوصية: بعد الموت تنقسم إلى قسمين: أمر وعهد بالتصرف بعد الموت: كأن يعهد الرجل قبل موته إلى شخص بالنظر على أولاده القصار، فهذه وصية بفعل وتصرف.

والقسم الثاني: تبرع بالمال بعد الموت، كما في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

قال الناظم:

وصية في غير مال عَرِّفِ ... بالأمر بعد الموت بالتصرف
وهي به تبرع بالمال ... من بعد موت الموص لا في الحال(١)

والخطاب في قوله ﴿يُوصِيكُمُ﴾ عام لجميع المسلمين، وخص من هذا العموم أو استثني منه النبي ﷺ على القول بدخوله في هذا العموم بقوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»(٢).

=

«أن رسول الله ﷺ عاده وهو مريض» من رواية البخاري ثم قال ابن كثير: «والظاهر أن حديث جابر الأول- يعني حديث عيادة النبي ﷺ له- إنما نزلت بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة، كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلالة، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعا للبخاري رحمه الله، فإنه ذكره هنا، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية والله أعلم» يعني أن حديث جابر في قصة امرأة سعد بن الربيع هو الأشبه بنزول هذه الآية ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾.

وهكذا أكثر الروايات تنص على أن حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ عاده وهو مريض سبب لنزول الآية الأخيرة من السورة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، كما سيأتي تخريج هذا الحديث هناك إن شاء الله- تعالى.

(١) انظر: «العذب الفائض» (٢/ ١٧٤)، «كشاف القناع» (٤/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٣، ٣٠٩٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٨، ١٧٥٩)، من حديث عائشة- رضي الله عنها. وأخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٧٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُوصِيكُمُ﴾، أي: يعهد إليكم في أولادكم أنفسهم.

والأولاد: جمع ولد. ويشمل الذكور والإناث بدليل قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، من أولاد الميت وأولاد بنيه، وإن نزلوا بمحض الذكور دون أولاد البنات. كما قيل:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد(١)

وقدم الله ميراث الأولاد؛ لأنهم بضعة من والدهم. قال ﷺ: «فاطمة بضعة مني»(٢).

فتعلق الوالد بأولاده أشد التعلقات، وصلتهم به أشد الصلات، وقرابتهم منه أقوى أنواع القرابات.

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾. ﴿لِلذَّكَرِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿مِثۡلُ﴾ مبتدأ مؤخر، أو صفة لمبتدأ محذوف، تقديره: حظ مثل، واللام في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ﴾ للتمليك أي: للذكر منهم كبيرا كان أو صغيرا غنيا كان أو فقيرا مثل حظ الأنثيين.

والحظ: النصيب، أي: للذكر منهم نصيب مثل نصيب الأنثيين، سواء ورثوا جميع المال أو ما أبقت الفروض، وبين قوله: ﴿لِلذَّكَرِ﴾ وقوله: ﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، طباق.

وجاء التعبير بقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ دون: «للأنثى نصف حظ الذكر» مع أن المعنى واحد مراعاة لأمرين: الأول: تقديما للذكر على الأنثى لأنه أفضل من الأنثى، من حيث العموم. ولهذا أيضًا لم يقل: «للأنثيين مثل حظ الذكر».

والأمر الثاني: إيثارًا للتعبير بالأحسن؛ لأن الحظ والنصيب فضل وزيادة والنصف نقص، فلو قال: «للأنثى نصف حظ الذكر»، لأشعر اللفظ بالنقص بالنسبة للأنثى؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ إيثارًا للتعبير الأحسن، وإن كان

---

(١) البيت للفرزدق كما في الخزانة (١/ ٤٤٤)، ولم أجده في ديوانه وهو بلا نسبة في «الإنصاف» (١/ ٦٦)، «أوضح المسالك» (١/ ١٠٦)، «شرح شواهد المغني» (٢/ ٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٧١٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٩)، وأبو داود في النكاح (٢٠٦٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٩٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

المؤدى واحدًا.

والمعنى: يعهد الله إليكم إذا مات أحدكم وخلف أولادا فقط ذكورا وإناثا، فالميراث لهم جميعا يستوون فيه في أصل الميراث للذكر منهم مثل نصيب الأنثيين.

وهذه قاعدة فرضية دل عليه قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وقوله في الآية آخر هذه السورة: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فمتى اجتمع ذكور وإناث من جنس واحد وفي مرتبة واحدة كالأولاد والإخوة الأشقاء، أو لأب فللذكر منهم مثل حظ الأنثيين عدا الإخوة لأم فذكرهم وأنثاهم سواء؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢].

وإن كان معهم صاحب فرض فلهم ما أبقت الفروض على هذا النحو إن لم يكن محجوبا بهم، فمثلا: إذا مات الميت عن جمع من الأولاد: ثلاثة ذكور وأربع إناث، فالمال يجعل عشرة أسهم، للبنات أربعة أسهم لكل واحدة سهم، وللذكور ستة أسهم لكل واحد منهم سهمان، مقدار نصيب أنثيين.

فإن كان معهم أب، فله السدس فرضًا، فيجعل المال اثني عشر سهمًا، سهمان للأب وهما سدس المال، والباقي عشرة يقسم على الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين على النحو السابق، وهكذا.

وإنما جعل للذكر مثل نصيب أنثيين تكريما للذكور؛ لأنهم أفضل من الإناث من حيث العموم، ولما يجب عليهم من النفقات، والالتزامات التي ليست على الإناث.

كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

ويخص من الأولاد الكافر والرقيق والقاتل كما سيأتي بيانه في الأحكام.

﴿فَإِن كُنَّ﴾ أي النساء. والضمير إذا اكتنفه مذكر ومؤنث، أي: سبقه مذكر ولحقه مؤنث، أو العكس بأن سبقه مؤنث ولحقه مذكر جاز عوده على أحدهما، السابق أو اللاحق.

ففي قوله: ﴿كُنَّ﴾ أنث الضمير عودا على قوله ﴿نِسَآءً﴾ بعده، ولو جاء ﴿فَإِن كَانُوٓا۟﴾ عودًا على ﴿أَوْلَٰدِكُمْ﴾ قبله جاز ذلك.

والمعنى: وإن كن المولودات أو البنات أو الوارثات نساء. و﴿نِسَآءً﴾: جمع لا واحد له من لفظه، والمراد به الإناث، أي: وإن كن إناثًا.

وقوله: ﴿نِسَآءً﴾ هنا يحتمل أن المراد به الجمع من ثلاث فأكثر، فيكون قوله بعد ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ توكيدًا له، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

ويحتمل أن المراد به الاثنتان على القول بأن أقل الجمع اثنان.

﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ فوق: صفة لنساء، أو خبر ثان لكان.

ومعنى ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾، أي: ثلاثًا فأكثر، وهذا لا إشكال فيه، وعلى هذا فيكون قوله ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ توكيدًا لقوله: ﴿نِسَآءً﴾؛ لأن النساء جمع.

ويحتمل أن المعنى: اثنتين فما فوق، وقوله: ﴿فَوْقَ﴾؛ للدلالة على أن نصيبهن لا يزيد عن الثلثين، وإن زدن عن الاثنتين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميه(١): «﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ ذكر ضمير ﴿كُنَّ﴾ و﴿نِسَآءً﴾ وذلك جمع لم يمكن أن يقال اثنتين؛ لأن ضمير الجمع لا يختص باثنتين، ولأن الحكم لا يختص باثنتين فلزم أن يقال: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾؛ لأنه عرف حكم الثنتين، وعرف حكم الواحدة».

وقيل: «فوق» زائدة، وقد رد هذا جمع من المفسرين.

قال ابن كثير(٢): «قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة، وتقديره: «فإن كن نساء اثنتين»، كما في قوله: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢]. وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك».

﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾، أي: فللنساء فوق اثنتين، واللام للتمليك، ﴿ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾، أي: ثلثا ما ترك الميت؛ بدلالة السياق، أي: فلهن ثلثا الذي تركه الميت وخلفه بعد وفاته من أثمان أو أعيان، وديون ومنافع وحقوق، وغير ذلك، قليلا كان أو كثيرًا.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٠).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٩٧).

فللثلاث من البنات فأكثر الثلثان بدلالة هذه الآية بلا إشكال. أما الاثنتان فمن قال من أهل العلم: إن «فوق» زائدة- مع ضعف هذا القول- استدل بالآية على أن ميراث البنتين الثلثان، وكذا من قال: إن «فوق» إنما ذكرت لبيان أن البنات وإن زدن عن الاثنتين فنصيبهن هو الثلثان.

ومثل البنات في الميراث: بنات الابن، وإن نزلن عند فقد من فوقهن، وانفرادهن.

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، قرأ نافع المدني، وأبو جعفر: ﴿وَاحِدَةٌ﴾ بالرفع على أن «كان» تامة مكتفية بمرفوعها عن خبرها، أي: فإن وجدت واحدة، أو وقعت واحدة أو حدثت.

وقرأ الباقون: ﴿وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على أن «كان» ناقصة تحتاج إلى خبر(١).

﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، اللام للتمليك، أي: فإن كانت الوراثة بنتا واحدة، أو وجدت بنت واحدة منفردة بلا معصب- وهو أخوها- ولا مشارك- وهي أختها- فلها النصف، أي نصف ما ترك أبوها أو أمها(٢) ومثل البنت بنت الابن وإن نزلت عند فقد من فوقها، وانفرادها.

ثم ذكر عز وجل ميراث الأصول بعد ذكر ميراث الفروع؛ لأن الأصول الميت بضعة منهم، فقال تعالى:

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ الآية.

---

(١) انظر: «المبسوط» (ص١٥٤)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٧٨)، «النشر» (٢/ ٢٤٧).

(٢) فإن كان مع البنت بنت ابن أو بنات ابن أخذن السدس تكملة الثلثين، كما قضى به رسول الله ﷺ كما في حديث هزيل بن شرحبيل قال: «سئل أبو موسى عن بنت وابنة ابن وأخت، فقال: للبنت النصف وللأخت النصف وائت ابن مسعود فسيتابعني فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى، فقال: لقد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم» أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٦)، وأبو داود في الفرائض (٢٨٩٠)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٣)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢١). وهذا ما يدل عليه ظاهر الآية ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾، الواو للاستئناف، واللام للتمليك، وهي حرف جر، «أبويه» مجرور بها وعلامة جره الياء؛ لأنه ملحق بالمثنى، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مبتدأ مؤخر.

والضمير في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ يعود إلى الميت وإن لم يذكر؛ لأن المقام يقتضيه، والسياق يدل عليه؛ لقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، أي: بعد موته.

والمراد بـ«أبويه»: أبوه وأمه، وغلب الذكر على الأنثى، ولا يدخل في هذا الجدة بالإجماع، ولا الجد على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأن الله ثناهما فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾، ولم يقل: ولآبائه.

قال ابن العربي[1]: «ولم يدخل في قوله ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ من علا من الآباء دخول من سفل من الأبناء في قوله: ﴿أَوْلَٰدِكُمْ﴾؛ لأن قوله ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ لفظ مثنى، والمثنى لا يحتمل العموم والجمع، بخلاف قوله: ﴿أَوْلَٰدِكُمْ﴾.

والدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ والأم العليا جدة ولا يفرض لها الثلث بإجماع، فخروج الجدة من هذا اللفظ مقطوع به، وتناوله للجد مختلف فيه».

﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾، بإعادة العامل؛ حرف الجر، وذكرت هذه الجملة لئلا يتوهم اشتراك الأبوين في السدس، والضمير في «منهما» لأبويه.

﴿ٱلسُّدُسُ﴾ بضم الدال في قراءة العشرة، وفيه لغة بإسكان الدال، قرأ بها بعضهم، ومثله الثلث والربع والثمن؛ قرأ العشرة بضم وسطها، وقرئ بإسكانه. والسدس: واحد من ستة أجزاء.

﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: من الذي ترك الميت، وهو ابنهما، أو بنتهما.

﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ الضمير في «له» يعود على الميت، وهو ابنهما أو بنتهما.

---

(١) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٣٧)، وانظر «التفسير الكبير» (٩/ ١٦٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٦٨)، «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٢).

و﴿وَلَدٌ﴾ بمعنى مولود، وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الواحد والمتعدد، والذكر والأنثى من أولاد الميت وأولاد بنيه، وإن نزلوا بمحض الذكور.

أي: لكل واحد من أبويه سدس ما خلف إن كان له ولد أو ولد ابن وإن نزل بمحض الذكور واحدا أو متعددا، ذكرا أو أنثى؛ بشرط ألا يكون الولد محجوبا بوصف من رق أو قتل، أو كفر؛ لأن المحجوب بوصف من هذه الأوصاف الثلاثة: الرق، أو القتل، أو الكفر، كما أنه لا يرث، لا يحجب غيره، وهذا عام لجميع الورثة فمن كان منهم به وصف يمنعه من الميراث، لا يحجب غيره، سواء كان من الأصول أو الفروع أو الحواشي أو غيرهم.

وليس للأم مع الولد ذكرا كان أو أنثى سوى السدس.

أما الأب فإن كان الولد أنثى فإنه يأخذ مع السدس ما تبقى بعد نصيب البنت تعصيبًا. وكذا لو انفرد عن الأم مع البنات فإنه يأخذ مع السدس الباقي تعصيبًا لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر»(١).

وليس هناك من هو أولى من الأب إلا الابن وهو غير موجود.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾. أي فإن لم يكن للميت ولد، أي: لم يكن له فرع وارث مطلقًا، لا أولاد ولا أولاد بنين لا ذكور، ولا إناث؛ لأن «ولد» نكرة في سياق الشرط والنفي فيعم.

﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾، أي: وورثه أبوه وأمه.

﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فلإِمه» بكسر الهمزة والباقون بضمها(٢)، وهو جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، واللام فيه للتمليك والثلث مبتدأ مؤخر.

والمعنى: فإن لم يكن له ولد ولا ولد ابن وإن نزل، وورثه أبواه، فلأمه ثلث ما ورثته هي والأب، فإن انفردا عن بقية الورثة فلها ثلث المال كله، وإن كان معهما أحد الزوجين، فلها ثلث ما ورثته هي والأب، أي ثلث الباقي(٣).

وسكت عن الأب فلم يسم نصيبه؛ لأن ميراثه هنا بالتعصيب إذا لم يكن للميت

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «المبسوط» ص(١٥٤)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٧٩)، «النشر» (٢/ ٢٤٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣١/ ٣٤٣).

ولد؛ لقوله ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**».

فإذا أخذت الأم الثلث فله الباقي تعصيبًا، وهو يساوي الثلثين؛ ثلثي المال كاملًا إن انفرد هو والأم بالميراث كله، وثلثي الباقي إن كان معهما أحد الزوجين. فما ورثته الأم والأب هو مشترك بينهما، فحيث أخذت الأم الثلث فالباقي للأب، كما يقال هذا المال لزيد وعمرو، لزيد منه الثلث فيعلم قطعًا أن باقيه وهو الثلثان لعمرو.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، الفاء عاطفة تفيد الترتيب والتفريع، أي: ترتيب ما بعدها وتفريعه على ما قبلها، والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، أي: فإن كان له، أي: للميت الذي ورثه أبواه، و«كان» تامة، أي: فإن وجد له إخوة.

﴿إِخۡوَةٞ﴾ جمع أخ، وهو من شارك الميت في أصليه، أي: في أبيه وأمه أو في أحدهما.

﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ اللام للتمليك، أي: فلأمه سدس ما خلفه، سواء كان هؤلاء الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم، ذكورًا أو إناثًا أو مختلطين، وارثين، أو غير وارثين، فإذا مات شخص عن أبيه وأمه، وإخوته فلأمه السدس ولأبيه الباقي ويسقط الإخوة؛ لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر» والأب أولى من الإخوة.

فتبين أن الأم تُحجب حجب نقصان من الثلث إلى السدس بأحد أمرين: وجود الولد، أو وجود جمع من الإخوة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ جار ومجرور متعلق إما بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾، أو بمحذوف تقديره: يستحقون ذلك من بعد وصية.

﴿وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾. قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حماد ويحيى عن أبي بكر، وكذا في رواية الأعشى والبرجمي عن أبي بكر «يوصَى» بفتح الصاد على البناء للمفعول، وقرأ عاصم في رواية حفص والباقون بكسر الصاد على البناء للفاعل[1]: ﴿يُوصِي﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٧)، «المبسوط في القراءات العشر» ص(١٥٤)، «الكشف في وجوه القراءات» (١/ ٣٨٠)، «النشر» (٢/ ٢٤٨).

والوصية في الأصل: العهد بالشيء المهم، وهي إما عهد بالتصرف بعد الموت، أو تبرع بالمال بعد الموت، كما سبق بيانه.

والمراد بالوصية في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ﴾ وفي المواضع الثلاثة بعد هذا هي: التبرع بالمال بعد الموت:

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ﴾ الوصية هنا مطلقة من حيث مقدارها، ولمن تكون، وقد دلت السنة على عدم جواز الزيادة على الثلث، قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «الثلث والثلث كثير»(١).

كما دل ذكرها مستقلة عن الميراث، وتخصيصه- عز وجل- للورثة بما خصهم به من الميراث أنها لا تجوز لوارث؛ ولهذا قال ﷺ: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»(١).

﴿يُوصِي بِهَآ﴾: أي يتبرع بها، في حال تعتبر فيها تصرفاته، لا في حال ذهوله.

وعلى هذا فيكون المعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ﴾، أي: من بعد وصية صحيحة شرعًا من الثلث فأقل ولغير وارث، ومن غير مضارة؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿غَيۡرَ مُضَآرٍّۚ﴾، فإن كانت غير صحيحة شرعًا فهي باطلة ولا اعتبار لها.

﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾، «أو» عاطفة، وهي هنا مانعة خلو، لا مانعة اجتماع، بمعنى أنه لا يخلو الحال من أن يوجد وصية، أو يوجد دين، أو يوجدان جميعًا(٢)، كما في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين. فإما أن يجالس الحسن، وإما أن يجالس ابن سيرين، وإما أن يجالسهما جميعًا.

وليست مانعة اجتماع كما في قولهم: تزوج هندًا أو أختها.

على أنه قد يخلو الحال من وجودهما، فلا وصية ولا دين، وإنما أطلق عليها مانعة خلو مع تصور هذه الحالة الرابعة للتفريق بينها وبين مانعة الاجتماع.

والدَّين: كل ما ثبت في الذمة من قرض، أو أجرة، أو ثمن مبيع، أو صداق على

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٦٩)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٧٦).

الزوج، أو عوض الخلع على الزوجة، أو أرش الجراحات، ونحو ذلك من حقوق العباد المالية.

وكذا ما في ذمته من حقوق الله، كالزكاة والكفارات والنذور ونفقة حج واجب[١] ونحو ذلك قال ﷺ في حديث الخثعمية، لما سألته عن الحج عن أبيها، قال ﷺ: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيتيه أكان يجزي عنه؟» فقالت: نعم. فقال- عليه الصلاة والسلام: «فدين الله أحق أن يقضى»[٢].

والمعنى: أن الميراث يقسم بين الورثة بعد إخراج ما يوجد من وصية شرعية أوصى بها الميت، أو دين كان عليه لله أو للآدميين، أو بعد إخراجهما معًا إن وجدا جميعًا.

و«الدَّين» مقدم في الإخراج على الوصية بالإجماع[٣]، وإنما قدمت عليه في الذكر في الآية للعناية بها والاهتمام، فعن علي- رضي الله عنه- قال: «إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية»[٤].

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾، ﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾ مبتدأ، ﴿وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ معطوف عليه، وبين الكلمتين طباق إيجاب،. وخبر المبتدأ جملة: ﴿لَا تَدۡرُونَ﴾، أي: لا تعلمون.

﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾، ﴿أَيُّهُمۡ﴾ مبتدأ، و﴿أَقۡرَبُ﴾ خبره، ﴿لَكُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَقۡرَبُ﴾، و﴿نَفۡعٗا﴾ تمييز.

والمعنى: آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون ولا تعلمون أيهم الأقرب لكم نفعا في الدنيا والآخرة[٥]، أهم الآباء أم الأبناء،وهل الأنفع لكم الآباء الأدنون أم الأجداد، أو

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٧١)، «العذب الفائض» ص(١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١٥)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٣٣)، والدارمي في النذور والأيمان (٢٣٣٢)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وهذا ما عليه جمهور أهل العلم من أن حقوق الله كحقوق العباد، يجب أداؤها، خلافًا لما ذهب إليه أبو حنيفة وأصحابه من أن حقوق الله تسقط بالوفاة؛ لأنها عبادة. قالوا: إلا إذا أوصى بها أو تبرع الورثة بها من عندهم. انظر «التفسير الكبير» (٩/ ١٨٢)، «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٧٦٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٩).

(٤) سيأتي تخريج هذا الحديث.

(٥) من النفع في الدنيا: البر والصلة والنفقة وجميع أوجه المساعدة والإحسان، ومن النفع الأخروي الدعاء =

الأبناء الكبار أم الصغار أم من بينهم.

وفي هذا إشارة إلى أنه- عز وجل- قسم المواريث على الوجه الأكمل، وأنه لو وكل ذلك إلى الناس ما عرفوا وجه الصواب في ذلك؛ لعدم معرفتهم الأقرب نفعا أهم الآباء أم الأبناء.

وفيه إشارة إلى أنه يجب أن يوكل الأمر في هذه القسمة إلى الله- عز وجل، وأن هذا مما ليس للرأي فيه مجال، وأن هذه القسمة هي عين الحكمة والصواب.

قال ابن كثير(١): «أي: إنما فرضنا للآباء وللأبناء وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللوالدين الوصية كما تقدم في حديث ابن عباس؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أوهما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس، أي: كأن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث».

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَرِيضَةً﴾: مصدر، والتقدير: فرضنا ذلك فريضة، أو فرض الله ذلك فريضة.

وقد تكون مصدرًا مؤكدًا لما سبق، وعلى هذا لا تحتاج إلى عامل ينصبها. قال القرطبي(٢): «إذ معنى يوصيكم: يفرض عليكم».

ومعنى ﴿فَرِيضَةً﴾، أي: مفروضة، والفرض لغة: الحز والقطع، يقال: فرض اللحمة، أي: حزها وقطعها.

=
قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» أخرجه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠)، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومنه شفاعة الفاضل للمفضول، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٣٢].

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٩٩- ٢٠٠).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٥).

وفي الشرع: ما ألزم الله به، وهو الواجب على الصحيح[١]، فالفريضة ما أمر الله به وأوجبه وألزم به. وقال أبو حنيفة ما ثبت بدليل قطعي فهو فرض، وما ثبت بدليل ظني فهو واجب[٢].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: هذه الفريضة صادرة من الله تعالى، لا من غيره، فهو الذي فرض هذه الفرائض وأوجبها، وقدرها بنفسه سبحانه، ولم يتولَّ فرضها أحد سواه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، هذه الجملة كالتعليل والتقرير لما سبق، أي: إن الله فرض الفرائض وقدرها، وذكر المستحقين وقدر استحقاق كل منهم على الكيفية السابقة، والتي هي عين الحكمة والصواب؛ لأنه- عز وجل- العليم الحكيم في كل ما خلق وصنع، وفيما قدر وشرع، فهذه القسمة العادلة تدل على سعة علمه وحكمته.

و«كان» هنا مسلوبة الدلالة على الزمن، أي: لا تدل على المضي، وإنما تدل على تحقق الأمر وقوعه، أي: تحقق اتصاف اسمها بخبرها مطلقًا في جميع الأوقات.

فهي في هذا الموضع تفيد تحقيق اتصافه- عز وجل- بهذين الاسمين وبما دلا عليه، أي: تحقيق اتصافه- عز وجل- بالعلم والحكم والحكمة في جميع الأوقات والأحوال أزلًا وأبدًا.

قال الطبري[٣]: «يعني جل ثناؤه: أن الله لم يزل ذا علم بما يصلح خلقه، لم يزل ذا حكمة في تدبيره».

﴿عَلِيمًا﴾ صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة تدل على اتصافه- عز وجل- بالعلم التام الواسع، والشامل لجميع المخلوقات في أطوارها الثلاثة قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون[٤].

وعلمه- عز وجل- يتعلق بالواجب كالعلم بأسمائه وصفاته، والممكن وهو ما

---

(١) انظر: «العدة في أصول الفقه» لأبي يعلى (١/ ١٦١)، «لسان العرب» مادة «فرض».

(٢) انظر: «المغني في أصول الفقه» ص(٨٣، ٨٤).

(٣) في «جامع البيان» (٨/ ٥١).

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٣٥٣).

خلقه- عز وجل- من المخلوقات، والمستحيل كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

لا يعتري علمه- عز وجل- جهل سابق، ولا نسيان لاحق، كما قال كليمه موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عندما سئل عن القرون الأولى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وعلمه- عز وجل- محيط بالخفي والجلي والدقيق والجليل، كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

بخلاف علم المخلوق فهو محفوف بنقصين: جهل سابق بالأشياء قبل وجودها، ونسيان لاحق لها بعد عدمها، بل قد يكون ذلك في حال وجودها، قال ابن القيم[١]:

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما ... قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كا ... ن كيف يكون ذا إمكان

وحقيقة العلم إدراك المعلوم على ما هو عليه[٢] إدراكًا جازمًا.

فمن لم يدرك الشيء فهو جاهل، لكن جهله جهل بسيط.

ومن أدرك الشيء على غير ما هو عليه فهو جاهل جهلًا مركبًا.

فالأول لا يدري ويدري أنه لا يدري، والثاني لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

---

(١) في «النونية» ص (١٤٦- ١٤٧).

(٢) انظر: «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٢١٣).

ومن أدرك الشيء على ما هو عليه فهو عالم.

فإذا سأل سائل كم عدد الرسل المذكورين في القرآن، فقال: واحد لا أدري. وقال الثاني: أربعون رسولًا، وقال الثالث: خمسة وعشرون رسولًا.

فمن قال: لا أدري فهو جاهل جهلا بسيطا؛ لأنه لا يدري ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: هم أربعون. فهذا جاهل جهلا مركبا؛ لأنه جاهل بالواقع، وجاهل بحاله، لا يدري ولا يدري أنه لا يدري. ومن قال هم خمسة وعشرون، فهو عالم.

يقال: إن رجلًا يسمى «توما» وكان يدَّعي أنه عالم حكيم، ولهذا يقال: «توما الحكيم» وكان له حمار يركبه فقال:

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصف الناس كنت أركب
لأنني جاهل بسيط ... وصاحبي جاهل مركب(١)

يقول: لو أنصف الناس كنت أنا الراكب على صاحبي «توما»؛ لأنني جاهل بسيط، وصاحبي «توما» جاهل مركب؛ لأنه كما قال عنه الشاعر:

ومن رام العلوم بغير شيخ ... يضل عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليه حتى ... يكون أضل من توما الحكيم
تصدق بالبنات على رجال ... يريد بذاك جنات النعيم(٢)

فهو من جهله المركب تصدق ببناته على رجال، ليزنوا بهن بلا عقود ظنًّا منه أن في ذلك صدقة وقربة إلى الله.

﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لـ«كان»، ولا يصح كونه صفة للعليم؛ لأن وصف الحكم والحكمة ثابت لله- عز وجل- لا للعليم.

وهو على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على أنه- عز وجل- ذو الحكم والحكمة(٣).

فهو تعالى «حكيم»، بمعنى: حاكم كونًا وقدرًا، وحاكم شرعًا، وحاكم جزاءً، له

---

(١) انظر: «المثل السائر في أدب الكاتب» (٢/ ٣٣٨)، «الآداب لابن مفلح» (٢/ ١٢٦).

(٢) الأبيات لأبي حيان الأندلسي. انظر: «ديوانه» (ص٣٧٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٤/ ١٨٠).

الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي[1]، كما قال تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

فهذا يشمل الأحكام الثلاثة.

ومن الحكم الكوني قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] أي حتى يحكم الله لي حكمًا كونيًّا قدريًّا، وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

والحكم الكوني هو كل ما يقع في الكون من حركات وسكون، فهو من أحكام الله وتقديره وأمره الكوني، ولا بد من وقوعه حتى الحكم الشرعي إن وقع فهو مقدر كونًا، وإن لم يقع فخلافه هو المقدر كونًا. فالحكم الكوني كالإرادة الكونية لا بد من وقوعها.

ومن الحكم الشرعي قوله تعالى في سورة الممتحنة لما ذكر أحكام النساء: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

والحكم الشرعي هو ما شرعه- عز وجل- من أحكام، شرعها لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله، وهو كالإرادة الشرعية قد يُمتثل وقد لا يُمتثل.

والحكم الجزائي كل ما حكم به سبحانه من أحكام الجزاء في الدنيا والآخرة، فهو- عز وجل- الحاكم بين عباده والحاكم عليهم ولهم، بأحكامه القدرية والشرعية والجزائية.

وهو- عز وجل- حكيم بمعنى: محكم ومتقن، والحكمة هي إحكام الشيء وإتقانه ووضعه موضعه، وهي تنقسم إلى قسمين: حكمة غائية وحكمة صورية.

والحكمة الغائية هي الحكمة من حدوث هذا الحكم الكوني، أو من مشروعية هذا الحكم الشرعي، أو الحكم الجزائي.

والحكمة الصورية هي الحكمة من مجيء هذا الحكم على هذه الصورة، سواء كان حكما كونيًّا أو حكمًا شرعيًّا، أو حكمًا جزائيًا.

فلكل حكم من أحكامه- عز وجل- حكمتان: حكمة غائية وحكمة صورية،

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية»(٢/ ٦٥٧)، «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ٩٩).

سواء كان هذا الحكم كونيًّا أو شرعيًّا أو جزائيًا، فمثلًا من الحكم الكوني خلق الجن والإنس، الغاية منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والحكمة الصورية كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

ومن ذلك خلق الليل والنهار والشمس والقمر، له حكمة غائية وهي الغاية من جعل هذه المخلوقات وإيجادها، وحكمة صورية وهي كونها على هذه الصورة التي جعلت عليها.

وهكذا الحكم الشرعي، مثلًا مشروعية الصلاة له حكمة غائية، وهي الغاية من مشروعية الصلاة، وهي كونها صلة بين العبد وبين ربّه تتمثل فيها غاية الذل والخضوع لله- عز وجل، وغير ذلك، وله حكمة صورية وهي كونها جاءت على هذه الصورة قيام وركوع وسجود وجلوس، ركعتان في الفجر وثلاث في المغرب، وأربع في الظهر والعصر والعشاء. وهكذا.

فهو- عز وجل- ذو العلم التام والحكم النافذ والحكمة البالغة في كل ما خلق وقدر وشرع، عليم وحكيم فيما قسم من المواريث، عليم بالمستحق، ومقدار ما يستحق، حكيم يضع الأمور مواضعها.

قال ابن القيم(١):

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضًا ما هما عدمان
حكم وإحكام فكل منهما ... نوعان أيضًا ثابتا البرهان
والحكم شرعي وكوني ولا ... يتلازمان وما هما سيان
والحكمة العليا على نوعين أيـ ... ـضًا حصلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه ... نوعان أيضًا ليس يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده ... في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له ... وله عليها حمد كل لسان

(١) في «النونية» ص (١٤٧- ١٤٨) وانظر: «شرح ابن عيسى للنونية» (٢/ ٢٢٦)، نشر المكتب الإسلامي.

والحكمة الأخرى فحكمة شرعه أيضًا وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللاتي حمدن وكونها في غاية الإتقان والإحسان

وكثيرًا ما يقرن الله- عز وجل- بين اسميه «العليم» و«الحكيم»؛ لبيان أن علمه- عز وجل- مقرون بحكمة، وأن حكمته- عز وجل- مقرونة بعلم، وهذا غاية الكمال.

قال الشيخ محمد العثيمين- رحمه الله- في كلامه على هذه الآية[1]: «وبالعلم والحكمة تتم الأمور؛ لأن تخلف الأمور سببه أحد أمرين: إما الجهل، وإما السفه، فإذا وجد العلم ارتفع الجهل، وإذا وجدت الحكمة ارتفع السفه... ولهذا نجد الجاهل يتخبط في الأحكام؛ لأنه جاهل... وتجد العالم السفيه الذي ليس لديه حكمة ترشده إلى ما فيه الخير، يتخبط ويتعسف في أحكامه».

الفوائد والأحكام:

١- أن الله أرحم بالأولاد من والديهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾؛ لأنه- عز وجل- أوصى الوالدين بأولادهم.

وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2].

٢- فضل علم الفرائض حيث تولى الله- سبحانه وتعالى- قسمتها بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ الآية، وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى في آخر الآية الثانية: ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى في آخر الآية التي في آخر السورة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقد روي عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «من لم يتعلم الفرائض

---

(١) في «تفسير القرآن الكريم» سورة النساء (١/ ٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب- (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤).

والحج والطلاق فبم يفضل أهل البادية؟»(١).

٣- أن الميراث لأولاد الميت جميعًا، وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور عند فقد من فوقهم يستوون في أصل الميراث: ذكورهم وإناثهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾.

فإذا خلف الميت أولادا ذكورا وإناثا فلا شيء لأولاد البنين. وإن خلف أولادا إناثا أخذن نصيبهن وما بقي فلأولاد البنين إن كان فيهم ذكر فإن كان أولاد البنين كلهم إناثا وقد استكملت البنات الثلثين فلا شيء لأولاد البنين.

٤- أن الميراث للأولاد سواء كانوا كبارًا أو صغارًا، ذكورًا أو إناثًا؛ لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ وهذا عام لجميع الأولاد كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم، خلافًا لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم توريث الصبيان والنساء.

٥- أن الوارث يملك نصيبه ملكًا تامًا قهريًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ﴾ لأن اللام للتمليك، وهكذا جاءت هذه اللام مع ذكر نصيب كل وارث في آيات الفرائض الثلاث في هذه السورة سواء كان إرثه بالتعصيب أو الفرض كقوله هنا: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ وقوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾، وقوله في الآية بعدها: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ وقوله في الآية الأخيرة في الإخوة: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»(٢).

ومعنى كون الوارث يملك نصيبه ملكًا تامًا قهريًّا أنه لا اختيار له فيه؛ لأن الله أثبته له شرعًا، فله حق التصرف فيه بعد قبضه والتبرع به بهبته، أو التصدق به على مورثه، أو على الورثة أو على غيرهم. لكن لو كان عليه دين فإن تبرعه به لا يجوز، ولا ينفذ، وهذا فائدة كونه قهريًّا.

٦- يشترط في الوارث أن يكون حرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾؛ لأن

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٣١).

(٢) سبق تخريجه.

اللام في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ﴾ للتمليك، وهكذا جاءت هذه اللام مع نصيب كل وارث كما سبق بيانه.

فالرقيق لا يرث لأنه لا يملك(١)، قال ﷺ: «من باع عبدًا له مال فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع»(٢).

وهذا يدل على أن الرقيق لا يرث ولا يورث(٣)؛ لأنه لو ورث لانتقل المال لأجنبي من الميت وهو مالك العبد، ولا يورث لأنه لا مال له، بل هو وماله ملك لسيده. وقد أجمع العلماء على أن الرق مانع من موانع الإرث(٤).

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ١٧٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٠١)، «العذب الفائض» (١/ ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٣٧٩)، ومسلم في البيوع (١٥٤٣)، وأبو داود في البيوع (٣٤٣٣)، والنسائي في البيوع (٤٦٣٦)، والترمذي في البيوع (١٢٤٤)، وابن ماجه في التجارات (٢٢١١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ابتاع نخلًا بعد أن تؤبر فثمرتها للبائع، إلا أن يشترط المبتاع، ومن ابتاع عبدًا وله مال فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع».

(٣) وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى أن الرقيق يرث قريبه وسيده إذا لم يكن لهما وارث. انظر «إعلام الموقعين» (٢/ ١٩٦- ١٩٧).

(٤) وقد قيل: إن الرقيق إذا عتق قبل قسمة التركة فإنه يرث، وعامة أهل العلم على أن لا يرث، والمبعَّض يرث بقدر حريته.

كما أجمع العلماء على أن الكفر مانع من الإرث؛ لقوله ﷺ: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر» أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبو داود في الفرئض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢٩)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وقد اختلفوا في إرث المسلم الكافر، والصحيح أن المسلم لا يرث الكافر.

قال ﷺ: «لا توارث بين أهل ملتين» أخرجه أبو داود في الفرائض (٢٩١١)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٣١)، وأحمد (٢/ ١٩٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وحسنه الألباني. وأخرجه الترمذي في الفرائض (٢١٠٩) من حديث جابر رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب».

وأيضًا فإن الكافر ليس من أهل الميت المؤمن. قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

فالجمهور على أن المسلم لا يرث الكافر للحديث السابق وغيره.

وقيل: إن المسلم يرث الكافر؛ لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، روي هذا عن معاوية بن أبي سفيان ومعاذ بن جبل والحسن وطائفة من السلف. وذكر ابن القيم أن ابن تيمية ذهب إلى هذا. وهذا ضعيف؛ لأن الحديث نص في نفي هذا مع بقية الأدلة التي تدل على منعه.

=

أما المرتد فيرثه أقاربه المسلمون عند الصحابة، ولا يدخل تحت عموم قوله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر» قال ابن القيم: وهذا هو الصحيح».

واختلف فيما إذا أسلم الكافر قبل قسمة التركة، فذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه إلى أنه يرث، وذهب الأئمة الثلاثة وأحمد في رواية إلى أنه لا يرث.

كما أجمع العلماء على أن القاتل عمدًا لا يرث، وفي الحديث: «لا يرث القاتل شيئًا» وفي رواية «ليس لقاتل ميراث». أخرجه من حديث أبي هريرة أحمد (١/ ٤٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٩) وقال: «لا يصح» وابن ماجه في الديات (٢٦٤٥)، الدارقطني (٤/ ٩٥- ٩٦).

وأخرجه أيضًا من حديث عمر بن الخطاب ومن حديث عمرو بن العاص، وكذا أخرجه ابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «ليس لقاتل ميراث» الديات (٢٦٤٦)، ومالك في العقول (١٦٢٠). قال الألباني: «وفيه ضعف، لكن له شواهد بألفاظ متقاربة، فيرتقي إلى الحسن» «إرواء الغليل» (٦/ ٦)، وصححه في صحيح ابن ماجه.

ومن شارك في القتل أو أعان عليه فإنه لا يرث.

واختلفوا في القاتل خطأ على أقوال ثلاثة:

فذهب أكثر أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة أبو حنيفة والشافعي وأحمد- رحمهم الله- إلى أن القاتل خطأ لا يرث مطلقًا، لا من المال ولا من الدية، استدلالا بما سبق.

وذهب الإمام مالك- رحمه الله- ، وإسحاق، والثوري وأبو ثور وسعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح ومجاهد والزهري والأوزاعي وابن المنذر- إلى أنه يرث من المال دون الدية.

وقيل يرث من المال والدية معًا. وهذا أضعف الأقوال.

والأظهر- والله أعلم- القول الثاني إذا كان القتل خطأ محضًا ووجدت قرائن تدل على ذلك، فإنه يرث من المال دون الدية.

أما القاتل بحق صيالة أو بحد شرعي، كأن يكون سيافا للإمام فإنه يرث عند عامة أهل العلم، خلافًا للشافعي- رحمه الله- وقوله هذا في غاية الضعف.

والخلاصة أن الأولاد وغيرهم من الورثة يشترط ألا يكون فيهم مانع من موانع الإرث المذكورة بإجماع أهل العلم، فيخرج من عموم الورثة المذكورين: الرقيق بدلالة القرآن والسنة والإجماع، ويخرج منهم الكافر والقاتل عمدًا أو شبهه بالسنة والإجماع.

قال الناظم:

ويمنع الشخص من الميراث ... واحدة من علل ثلاث
رق وقتل واختلاف دين ... فافهم فليس الشك كاليقين

فمن كان به مانع من هذه الموانع فلا يرث، ولا يحجب غيره من الإرث؛ لأنه محجوب بوصف والمحجوب بوصف لا يرث ولا يحجب.

=

٧- إذا خلف الميت أولادا ذكورا وإناثا، فإنهم يرثون تعصيبًا جميع المال، أو ما أبقت الفروض للذكر منهم مثل حظ الأنثيين؛ لقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وكذا إذا خلف أولادا ذكورا فقط فإنهم يرثون جميع المال أو ما أبقت الفروض بينهم بالسوية؛ لأن الله ذكر كيف يقسم الميراث بين الأولاد إذا كانوا ذكورا وإناثا، وذكر نصيبهم إذا كانوا إناثا واحدة أو أكثر، وسكت عن الحال الثالثة، وهي ما إذا كانوا أولادا ذكورا فقط، مما يدل على أنهم يرثون المال كله أو ما أبقت الفروض بينهم بالسوية، ومما يدل من الآية على أن الأولاد الذكور إذا انفردوا يأخذون جميع المال أن البنت إذا انفردت تأخذ النصف بدليل قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، فإن الابن إذا انفرد يأخذ جميع المال بدليل هذه الآية وقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ كما يدل عليه قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر».

٨- أن الولد يشمل الذكر والأنثى؛ لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

٩- فضل الذكر على الأنثى، حيث قدمه الله في الذكر في الآية على الإناث، وجعل نصيبه بمقدار نصيب أنثيين، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

١٠- مراعاة الإسلام في تشريعاته للحكمة والمصلحة، وسمو أحكامه، فقد جعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لفضل الذكر، ولما عليه من النفقات والتكاليف والالتزامات من دفع المهر والإنفاق، والجهاد والعقل عن القاتل، وغير ذلك، مما ليس

=

ويدخل في الأولاد وغيرهم من الورثة الأسير، ما دام تعلم حياته، فإن لم تعلم حياته فحكمه حكم المفقود، ويدخل فيهم الخنثى والحمل، ويورَّث كل منهم حسب الحالات والتقادير التي ذكرها أهل العلم في باب المفقود والخنثى والحمل، وأما الغرقى والهدمى الذين يموتون جميعًا ولا يعلم المتقدم من المتأخر منهم فلا يرث بعضهم بعضًا.

انظر «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٠١)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٠)، «المغني» (٩/ ١٦٠- ١٦١)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٦٩- ١٧٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٥٩، ٦٥- ٦٦)، «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٦)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ٣٢٢- ٣٣٥)، «البحر المحيط» (٣/ ١٨٠)، «العذب الفائض» (١/ ٢٣- ٣٠، ٥٣، ٧٩، ٨٩). وانظر: «متن الرحبية»، «بغية الباحث عن جمل المواريث» (ص٣).

على الأنثى، بل إن الزوجة تجب نفقتها في مال زوجها حتى ولو كانت غنية وهو فقير.

قال الحافظ ابن كثير(١): «وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشم المشقة، فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى».

والإسلام في هذا وسط بين الجاهليتين الجاهلية الأولى التي تئد البنت وتحرم المرأة بالكلية من الميراث، بل وتجعلها تورث كسقط المتاع. وبين الجاهلية المعاصرة التي تقدمها على الرجل.

١١- أن القرآن الكريم جاء على أحسن الألفاظ وأفضل التعابير؛ لقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ولم يقل: (للأنثى نصف ميراث الذكر) مع أن المؤدى واحد، إيثارًا لحسن التعبير، واختيارًا للألفاظ؛ لأنه لو جاء بلفظ: (للأنثى نصف حظ الذكر) لأشعر بالنقص بالنسبة للأنثى؛ لأن النصف نقص، بخلاف ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فإن الحظ الزيادة علمًا أن مودى الجملتين واحد.

وهكذا ينبغي أن يختار الإنسان في كلامه ومخاطباته أفضل الألفاظ وأحسنها؛ لأن حسن التعبير له أثره ووقعه(٢).

١٢- أن ميراث الاثنتين فأكثر من البنات مع عدم المعصب لهن هو الثلثان، وكذلك بنات الابن وإن نزلن، عند عدم المعصب لهن، وعدم الولد الذي فوقهن ذكرًا كان أو أنثى.

وقد دلت الآية على هذا في مواضع عدة، منها ما يلي:

أ- قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فإذا كان عندنا: ابن، وبنت، فالمسألة من ثلاثة أسهم: للابن سهمان، وللبنت سهم، فنصيب الابن اثنان مثل حظ الأنثيين.

ب- إذا كانت البنت تأخذ مع أخيها الثلث، فلأن تأخذه مع أختها من باب أولى.

جـ- أن قوله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يفيد أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الأنثى

---

(١) في «تفسيره «(٢/ ١٩٦).

(٢) كما قيل في قصة الملك الذي رأى في المنام أن جميع أسنانه سقطت، فجاء بمفسر للأحلام فقال له: يموت جميع أهلك وحاشيتك فجلده وطرده، وجاء بمفسر آخر للأحلام، فقال له: لا يا سيدي: يطول عمرك حتى تكون آخر أهلك وحاشيتك موتا. فأكرمه وأمر له بجائزة. علمًا أن مؤدى التفسيرين واحد.

الواحدة، وإذا ثبت أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الأنثى الواحدة وجب أن يكون نصيبهما الثلثين.

د- قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، فمفهوم هذا يدل على أن ما زاد عن الواحدة ليس لهما النصف، بل لهما نصيب أزيد منه، وإذا لم يكن لهما النصف فنصيبهما الثلثان؛ لأنه لا فرض أزيد من النصف سوى الثلثين.

هـ- قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

وهذا نص في ميراث الثلاث من البنات للثلثين.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أن ميراث البنتين هو الثلثان، وقال: إنما جيء بـ(فوق) للدلالة على أن البنات لا يزدن عن الثلثين وإن زدن عن الاثنتين.

ومما يقوي هذا القول من حيث المعنى أن الله ذكر بعد هذا أن للواحدة النصف، فيبعد أن يذكر نصيب الثلاث فأكثر والواحدة ويترك نصيب الاثنتين.

و- قوله تعالى في ميراث الأخوات: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦].

وذلك بالقياس على الأختين، فإذا كانت الأختان تأخذان الثلثين فلأن تأخذهما البنتان من باب أولى؛ لأن البنات أقرب من الأخوات؛ لأن البنات بضعة من الميت والأخوات من الحواشي.

فاستنبط حكم البنتين من حكم الأختين في قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، واستنبط حكم الأخوات من حكم البنات في قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

ز- ما رواه جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- في قصة ابنتي سعد بن الربيع وامرأته، وأن النبي ﷺ قال: «أعط ابنتي سعد الثلثين» كما تقدم في سبب نزوله الآية.

ح- «أن النبي ﷺ قضى كما في حديث ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت، فأعطى البنت النصف، وبنت الابن السدس تكملة الثلثين والأخت الباقي»[1] فإذا

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٦).

كانت البنت مع بنت الابن تأخذان بمجموع نصيبهما الثلثين، فلأن تأخذه البنتان من باب أولى.

ط- الإجماع، فقد أجمع العلماء على أن نصيب البنتين الثلثان، ولم يخالف في ذلك إلا ابن عباس حيث كان يقول: «لهما النصف لظاهر الآية ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ (١).

وقد رجع عن قوله فكان ذلك إجماعًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وهذا إجماع لا يصح فيه خلاف عن ابن عباس».

١٣- أن الفرض قد يزيد بزيادة المفروض له، فالبنت الواحدة لها النصف، وللاثنتين فأكثر الثلثان بخلاف الزوجات والجدات وبنات الابن مع البنت، والأخوات لأب مع الأخت الشقيقة، فإن فرضهن لا يزيد بزيادتهن.

١٤- أن فرض البنات لا يزيد عن الثلثين ولو زدن عن اثنتين؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾.

١٥- أنه إذا استكملت البنات الثلثين فلا شيء لبنات الابن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ لأن بنات الابن نصيبهن مع البنت الواحدة تكملة الثلثين، فإذا أخذت البنات الثلثين سقطت بنات الابن ما لم يكن معهن معصب، وهذا إجماع(٣).

١٦- أن الميراث يشمل كل ما تركه الميت من الأعيان والمنافع والديون التي له على الناس وسائر الحقوق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ لأن «ما» موصولة تفيد العموم.

١٧- أن نصيب البنت الواحدة النصف إذا لم يكن معها مشارك وهو أختها، ولا معصب وهو أخوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾.

١٨- تقديم ذكر ميراث الأولاد على ذكر ميراث الأبوين في الآية؛ لأن الأولاد

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٨٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٤)، «فتح الباري» (١٢/ ١٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٠)، وانظر «أضواء البيان» (١/ ٣١١).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٨٥)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٦٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٥)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣١/ ٣٥٤- ٣٥٥).

فرع الميت وبضعة منه، والأبوين أصله وهو بضعة منهما، ومن كان بضعة من الميت فهو أولى بالتقديم.

١٩- أن لكل واحد من الأبوين «الأب والأم» السدس إن كان للميت ولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ولا تزيد الأم عن السدس مع الولد مطلقًا ذكرًا كان أو أنثى، أما الأب فإنه إن كان الولد أنثى أو إناثا فإنه يأخذ مع السدس ما بقي تعصيبًا؛ لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر» ففي مسألة أم وأب وابن، المسألة من ستة للأم السدس واحد، وللأب أيضًا السدس واحد، والباقي أربعة للابن تعصيبًا. وفي مسألة أم وبنت وأب، المسألة من ستة أيضًا للأم السدس واحد وللبنت النصف ثلاثة، وللأب الباقي اثنان فرضًا وتعصيبًا.

٢٠- أن حظ الأولاد أكثر من حظ الوالدين، وذلك- والله أعلم- لأن حاجة الوالد أقل من حاجة الولد، فالأولاد قد يكونون صغارًا لا يقدرون على الكسب، وهم في حاجة إلى الزواج وبناء الحياة، أما الوالدان فحاجتهما أقل لاستقلالهما وتمولهما ولوجوب نفقتهما على الموجود من أولادهما وغير ذلك.

٢١- أن الجد لا يرث مع الأب، وأن الجدة لا ترث مع الأم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ بالتثنية، فدل هذا على أنه لا يرث سواهما من الآباء والأمهات حال وجودهما.

٢٢- إذا لم يكن للميت ولد، لا ذكر ولا أنثى وورثه أبواه منفردين فلأمه ثلث المال كله، وإن كان معهما أحد الزوجين، فلأمه ثلث الباقي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، أي: فلأمه ثلث ما ورثته هي والأب، سواء ورثا جميع المال أو ما بقي بعد أحد الزوجين.

وسكت عن نصيب الأب؛ لأن ميراثه هنا بالتعصيب؛ لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر».

فإذا لم يكن للميت ولد، فللأب الباقي تعصيبًا، وهو يساوي ثلثي المال كله إذا انفرد هو والأم، وثلثي الباقي إذا كان معهما أحد الزوجين. ويكون الأب في هذا كله قد أخذ ضعف ما فرض للأم، وفق القاعدة في الفرائض إذا اجتمع ذكور وإناث من جنس واحد فللذكر مثل حظ الأنثيين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «ومحض القياس أن الأب مع الأم كالبنت مع الابن والأخت مع الأخ؛ لأنهما ذكر وأنثى من جنس واحد هما عصبة، وقد أعطيت الزوجة نصف ما يعطاه الزوج؛ لأنهما ذكر وأنثى من جنس».

فإذا مات الابن أو البنت عن أم وأب، فالمسألة من ثلاثة أسهم: للأم الثلث سهم واحد، والباقي للأب سهمان، وهذا بإجماع أهل العلم.

فإن كان مع الأبوين أحد الزوجين فجمهور أهل العلم على أن للأم ثلث الباقي والباقي للأب.

فإذا ماتت البنت عن زوج، وأم وأب فالمسألة من ستة للزوج النصف ثلاثة، وللأم ثلث الباقي واحد. وللأب الباقي اثنان.

وإذا مات الابن عن زوجة وأم وأب. فالمسألة من اثني عشر للزوجة الربع ثلاثة، وللأم ثلث الباقي ثلاثة وللأب الباقي ستة.

وقد ذهب ابن عباس- رضي الله عنهما- إلى أن للأم مع الزوج أو الزوجة، والأب ثلث المال كاملًا مستدلًا أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ وللأب الباقي.

فتعطى الأم في مسألة الزوج الثلث اثنين، ويبقى واحد للأب، وهذا عكس القاعدة الفرضية ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فقد أخذت الأنثى مثل حظ الذكرين.

وفي مسألة الزوجة تعطى الأم الثلث أربعة، والباقي خمسة للأب، وهو وإن كان أكثر من نصيبها إلا أنه لم يأخذ مثل حظ الأنثيين.

والصحيح الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن للأم ثلث الباقي مع أحد الزوجين، وللأب الباقي وهو الموافق للقاعدة الفرضية ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وهو الذي قضى به الخليفة الراشد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أيام خلافته.

ولهذا تسميان العمريتين؛ لأن هاتين الصورتين لم توجدا في عهد النبي ﷺ، ولا في عهد أبي بكر- رضي الله عنه- وإنما وجدتا في عهد عمر رضي الله عنه.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»: (٣١/ ٣٤٤).

كما تسميان: الغراوين. قالوا: لأنهما في الوضوح والاشتهار كالغرة في وجه الفرس[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «ومفهوم القرآن ينفي أن تأخذ الأم الثلث مطلقًا، فمن أعطاها الثلث مطلقًا حتى مع الزوجة، فقد خالف مفهوم القرآن».

وقال أيضًا: «فإنه لو كان كذلك كان يقول: «فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث»، فإنها على هذا التقدير تستحق الثلث مطلقًا، فلما خص الثلث ببعض الحال علم أنها لا تستحقه مطلقًا»[٣].

أما مع الجد فإن الأم تأخذ ثلث المال كله عند جمهور أهل العلم.

٢٣- إذا كان للميت إخوة، اثنان فأكثر فلأمه السدس. سواء كانوا إخوة أشقاء أو لأب أو لأم[٤] ذكورًا، أو إناثًا، أو مختلطين وارثين أو محجوبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» للماوردي (١٠/ ٢٦٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٣، ٣٤٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣١/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٤) من عجيب مسائل الفرائض أن الإخوة لأم يرثون مع الأم، بل ويحجبونها مع أنهم مدلون بها بدليل هذه الآية، والغالب أن من أدلى بواسطة حجبته تلك الواسطة، فابن الابن لا يرث مع وجود الابن، ولا يرث الجد مع وجود الأب، ولا ترث الجدة مع وجود الأم، ومثل الإخوة لأم في إرثهم مع من أدلوا به: الجدة على الصحيح من أقوال أهل العلم، فإنها ترث وابنها حي؛ لأن الجدة لا يسقطها إلا الأم، كما أن الجد لا يسقطه إلا الأب، وبه قال أحمد وإسحاق وطائفة من أهل العلم، وقال بعض أهل العلم منهم أبو حنيفة ومالك: لا ترث؛ لأن من أدلى بواسطة حجبته تلك الواسطة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والصحيح أنها لا تسقط بابنها- أي الأب- كما هو أظهر الروايتين عن أحمد، لحديث ابن مسعود، ولأنها لو أدلت به فهي لا ترث ميراثه، بل هي معه كولد الأم مع الأم لم يسقطوا بها- وقول من قال: من أدلى بشخص سقط به باطل طردا وعكسا، باطل طردا بولد الأم مع الأم، وعكسا بولد الابن مع عمهم، وولد الأخ مع عمهم، وأمثال ذلك مما فيه سقوط شخص بمن لم يدل به، وإنما العلة أنه يرث ميراثه، فكل من ورث ميراث شخص سقط به إذا كان أقرب منه. والجدات يقمن مقام الأم فيسقطن بها وإن لم يدلين بها». انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٤).

والحديث الذي أشار إليه ابن تيمية حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «أن أول جدة أطعمها رسول الله ﷺ أم أب وابنها حي» أخرجه الترمذي في الفرائض (٢١٠٢)، والدارمي في الفرائض (٢٩٣٢). وهو حديث ضعيف.

لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ وهذا عام.

وقد ذهب ابن عباس إلى أنه لا يحجب الأم من الثلث إلى السدس إلا ثلاثة من الإخوة فأكثر، أما اثنان فلا يحجبانها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ (١).

والصحيح أن أقل الجمع يطلق على اثنين، كما في قوله تعالى لما ذكر حكم داود وسليمان قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ [الحج: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٥].

فالأَخوان يسميان إخوة قال الزجاج(٢): «وقال جميع أهل اللغة: أن الأخوين جماعة، كما أن الأخوة جماعة؛ لأنك إذا جمعت واحدًا إلى واحد فهما جماعة، ويقال لهما إخوة».

وعلى هذا فالأخوان يحجبان الأم من الثلث إلى السدس بإجماع أهل العلم إلا ما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما(٣).

كما ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن الإخوة إذا كانوا محجوبين بالأب فلا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، قال: لأنهم إنما حجبوها لحظهم ليزداد نصيبهم، فإذا حجبهم الأب فما الفائدة من حجبهم إياها وهم محجوبون بالأب(٤)، واختاره الشيخ السعدي رحمه الله(٥).

والصحيح قول جمهور أهل العلم أن الإخوة يحجبون الأم مطلقًا من الثلث إلى السدس حتى ولو كانوا غير وارثين؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ وهذا عام.

---

(١) أخرجه عن ابن عباس الطبري (٨/ ٤٠)- الأثر (٨٧٣٢)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٢٧)، وضعفه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٩٩) فقال: «وفي صحة هذا الأثر نظر- من طريق شعبة مولى ابن عباس، فإن شعبة تكلم فيه مالك بن أنس، ولو كان هذا صحيحًا عن ابن عباس لذهب إليه أصحابه الأخصاء به، والمنقول عنهم خلافه».

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٢٠).

(٣) انظر: «الوسيط» (٢/ ٢٠- ٢١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦- ٣٧)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٧٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٢).

(٤) انظر: «الاختيارات الفقهية»، ص(١٩٧).

(٥) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٢).

وأيضًا فإن الله تعالى قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، أي: وللأب الباقي، ثم عطف عليه قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ مما يدل على أن الآية في بيان نصيب الأم مع الإخوة في حال وجود الأب؛ لأن الكلام معطوف ومفرع بعضه على بعض، أي: فإن كان له إخوة في حال وجود الأم والأب، فلأمه السدس والباقي للأب.

قال ابن العربي[1] في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾: «وإن وجد له إخوة فلأمه السدس، وإن لم يكن لهم شيء من الميراث، فهم يحجبون ولا يرثون بظاهر هذا اللفظ بخلاف الابن الكافر[2]، وكان دليل ذلك وعاضده، وبسطه أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ معطوف على ما سبق، فصار تقدير الكلام: فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث، والباقي للأب، وإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقي للأب، وهكذا يزدوج الكلام، ويصح الاشتراك الذي يقتضيه العطف...».

٢٤- أن الواحد من الإخوة لا يحجب الأم من الثلث إلى السدس؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، بخلاف الأولاد فإن الواحد منهم يحجبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

٢٥- أن الجمع يطلق على اثنين لقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾.

٢٦- إنصاف الإسلام للمرأة وتوريثها بنتا كانت أو أما أو أختا خلافًا لما كان عليه أهل الجاهلية.

٢٧- أن الميراث يكون بعد إخراج الوصية والدين؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

وهكذا جاء في ثلاثة مواضع من الآية التي بعد هذه الآية: أن الميراث يكون من

---

(١) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٣٩- ٣٤٠).

(٢) وكذا الابن الرقيق أو القاتل، وكذا الإخوة إذا كان بهم مانع من كفر أو رق أو قتل، فإنهم لا يحجبونها؛ لأن الكافر والرقيق والقاتل محجوبون بوصف، فهم ليسوا من الورثة أصلًا، بل وجودهم كالعدم، بخلاف الإخوة الذين حجبهم الأب فهم محجوبون بشخص ووجودهم معتبر انظر «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٤٥).

بعد الوصية والدين، وقد أجمع أهل العلم على هذا(١).

٢٨- مشروعية الوصية؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وقال ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»(٢)(٣).

٢٩- وجوب إخراج الوصية وتنفيذها؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، فقدَّمها على الدين هنا، وفي المواضع الثلاثة الآتية بعد هذه الآية، وكرر ذلك توكيدًا لوجوب إخراجها وتنفيذها، شريطة أن تكون وصية شرعية؛ لأنها لا تسمى وصية إلا إذا كانت وصية شرعية، وذلك بأن تكون في حدود الثلث فأقل؛ لما ثبت في حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغني ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا»، قال: قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: «لا، الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»(٤).

وقد أجمع العلماء على هذا(٥).

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٩٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٦١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨)، ومسلم في الوصية (١٦٢٧)، وأبو داود في الوصايا (٢١١٨)، والنسائي في الوصايا (٣٦١٥- ٣٦١٩)، والترمذي في الجنائز (٩٧٤)، وابن ماجه في الوصايا (٢٦٩٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) أجمع العلماء على نسخ الوصية للوالدين والأقربين الوارثين بآيات المواريث واختلفوا في نسخها بالنسبة للأقربين غير الوارثين.

(٤) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦).

(٥) انظر: «الإجماع» لابن المنذر ص (٨١)، «الإفصاح» (٢/ ٧٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩)، «المغني» =

فلو أوصى بأكثر من الثلث لم تصح إلا بإجازة الورثة.

فإن لم يكن له وارث وأوصى بجميع ماله جاز ذلك عند أكثر أهل العلم، وقيل: لا يجوز إلا بالثلث.

ويستحب أن تكون دون الثلث، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أن الناس غضوا من الثلث، فإن رسول الله قال: «الثلث والثلث كثير»(١).

وأيضًا فإن النبي ﷺ لم يقر سعدا إلا في المراجعة الثالثة.

وقد أوصى أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- بالخمس، وقال: «أرضى لنفسي بما رضيه الله لنفسه»(٢).

واختار هذا جمهور الفقهاء، وعلى هذا فالخمس أفضل من الربع، والربع أفضل من الثلث.

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوص بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إليَّ من أن أوصي بالثلث»(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الذي يوصي بالخمس أفضل من الذي يوصي بالربع، والذي يوصي بالربع أفضل من الذي يوصي بالثلث»(٤).

وقيل بحسب كثرة المال وقلته، وبحسب حال الورثة غنى وفقرا، فإن كان المال قليلًا والورثة فقراء ندب إلى الغض من الوصية، وإن كان المال كثيرًا والورثة أغنياء ندب إلى الزيادة فيها شريطة ألا تتجاوز الثلث(٥).

وأن تكون في أمر مباح شرعًا، فلو أوصى بأمر محرم، كآلات اللهو والخمر لم تصح

= (٨/ ٣٩٥).

(١) أخرجه البخاري في «الوصايا» (٢٧٤٣)، ومسلم في «الوصية» (١٦٢٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» كتاب الوصايا (٩/ ٦٦)، الأثرين: (١٦٣٦٣، ١٦٣٦٤)، وابن أبي شيبة في الوصايا (١١/ ٢٠٠) الأثر (١٠٩٦٥)، والبيهقي في الوصايا (٦/ ٢٧٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي في المواضع السابقة.

(٤) أخرجه البيهقي في «الوصايا» (٦/ ٢٧٠).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٧٠)، «الكشاف» (١/ ٢٥٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٩)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٨٢- ١٨٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٢)، «العذب الفائض» (٢/ ١٨٢).

ويحرم تنفيذها؛ لأن ذلك معصية لله- تعالى.

٣٠- أن الوصية لا تجوز لوارث؛ لأن الله جعلها مستقلة عن الميراث، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وهكذا جاء في المواضع الثلاثة في الآية التي بعد هذه الآية ذكر الوصية مستقلة عن الميراث، وخص كل وارث بما خصه به من الميراث مما يدل على عدم جواز زيادته على ذلك؛ ولهذا قال تعالى في ختام هذه الآيات: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ...﴾ إلى قوله ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الآيتان:١٣، ١٤].

وفي حديث عمرو بن خارجة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»(١).

فلا يجوز أن يجمع للشخص بين الميراث والوصية بالإجماع، إلا إذا أجاز ذلك الورثة، فإن الحق لهم في ذلك(٢).

٣١- أنه لابد من ثبوت الوصية؛ لقوله تعالى: ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ فلو أوصى في حال ذهوله من شدة المرض ونحو ذلك لم تعتبر، وكذا إذا لم يكن عليها بينة من كتابة أو إشهاد ونحو ذلك إلا إذا أجازها الورثة، فإن الحق لهم في ذلك.

٣٢- وجوب أداء الدين الذي على الميت من تركته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ في هذه الآية، وقوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ﴾ ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الوصايا (٣٦٤١)، والترمذي في الوصايا (٢١٢١)، وابن ماجه في الوصايا (٢٧١٢).

وأخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٠)، وابن ماجه في الوصايا (٢٧١٣) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

وقد روي عن جمع من الصحابة منهم ابن عباس وأنس بن مالك- رضي الله عنهم، وقواه ابن خزيمة وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٠٢)، والألباني. وانظر «إرواء الغليل» (٦/ ٨٧).

(٢) انظر: «الأم» (٤/ ١٠٦)، «الإجماع» لابن المنذر (٨١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٩٨)، «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٢/ ٧٠)، «اختلاف العلماء» للرازي ص(٢٣٣)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٨٢)، «العذب الفائض» (١/ ١٥، ٢/ ١٧٦).

وسواء كان هذا الدين حقًّا لله تعالى كالزكاة، والكفارات والنذور، ونفقة الحج الواجب، أو حقًّا لآدمي كقرض، أو أجرة، وثمن مبيع ونحو ذلك.

وهو مقدم في الإخراج على الوصية بإجماع أهل العلم؛ لأنه حق واجب ثابت في ذمة الميت، فقضاؤه أوجب وأداؤه ألزم، بخلاف الوصية، فهي في الأصل تبرع مستحب، فلا يجب إخراجها إلا بعد قضاء الدين.

قال الحافظ ابن كثير(١): «أجمع العلماء سلفا وخلفا أن الدَّين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة».

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية»(٢).

وفي حديث سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه- قال: «كنا جلوسا عند النبي ﷺ. فأتى بجنازة فقالوا: صل عليها، فقال: «هل عليه دين؟» قالوا: نعم. قال: «هل ترك شيئًا؟» قالوا: ثلاثة دنانير. فصلى عليه...» الحديث بطوله(٣)، وفيه أنه ﷺ أُتي بثلاث جنائز واحدة بعد الأخرى، فكان ﷺ قبل أن يصلي عليه يقول: «هل عليه دين؟» ولم يسأل في واحدة منها: هل أوصى؟ وهذا أيضًا يدل على أن الدين مقدم على الوصية.

فإذا كان على الميت دين يستغرق جميع ماله سقطت الوصية والميراث، وإذا كان

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي في الفرائض (٢٠٩٤) وابن ماجه في الوصايا (٢٧١٥)، والشافعي في الأم (٤/ ٢٩)، وأحمد (١/ ٧٩)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٦- ٤٨) الآثار (٨٧٣٦- ٨٧٣٨)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٣٦)، كلهم من طريق الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب. قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث أبي إسحاق عن الحارث عن علي، وقد تكلم بعض أهل العلم في الحارث. والعمل على هذا الحديث عند عامة أهل العلم».

وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٩٩) «وكان حافظًا للفرائض معتنيًا بها وبالحساب».

وضعف الحديث الشافعي في «الأم» (٤/ ٢٩)، كما ضعفه أحمد شاكر في تخريجه لمسند الإمام أحمد رقم (٥٩٥، ١٩٠١)، وحسنه الألباني. انظر «إرواء الغليل» (٦/ ٩٤).

لكن معنى هذا الحديث صحيح، والعمل عليه بإجماع أهل العلم، كما قال الترمذي. وانظر: «فتح الباري» (٥/ ٣٧٧)، «نيل الأوطار» (٦/ ٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٩١)، والنسائي في الجنائز (١٩٦١).

عليه دين يستغرق نصف ماله قضي ما عليه من دين وما بقي بعد قضاء الدين تخرج منه الوصية والميراث.

فإذا كان على الميت دين مقداره خمسون ألفًا، وأوصى بالخمس، وقد خلف بعد موته مائة ألف، فيقضى الدين أولًا، ثم الباقي بعد قضاء الدين وهو خمسون ألفًا يخرج منه الخمس في الوصية، وهو عشرة آلاف والباقي هو الميراث.

وعلى هذا لو قُتل الشخص خطأ، وعليه دين، وله وصية، فليس لورثته العفو عن الدية إلا بعد قضاء الدين والوصية(١).

(**فائدة**) يقدم في الإخراج على الدين والوصية مؤونة التجهيز، أي تجهيز الميت وتكفينه ودفنه، لما ثبت في السنة أن رجلًا وقصته ناقته وهو محرم، فقال النبي ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا»(٢).

ولم يسأل النبي ﷺ هل عليه دين أو وصية. وإنما قدمت مؤونة التجهيز؛ لأنها من حاجة الميت الضرورية المتعلقة ببدنه، كأكله وشربه ولباسه لستر عورته في حياته، وكالمفلس لا يحجر عليه في نفقته الخاصة- ولهذا والله أعلم- لم تذكر في الآية لأنها من حاجة الميت الضرورية، لا يمكن تركها.

وقال بعض أهل العلم بتقديم الحقوق المتعلقة بعين التركة، كالدين برهن أو أرش جناية على مؤونة التجهيز؛ لتعلقها بالمال قبل صيرورته تركة، والراجح القول الأول.

وقد فصّل العلماء- رحمهم الله- الحقوق المتعلقة بالتركة.

وهي عند الجمهور منهم على النحو التالي:

أولًا: مؤونة التجهيز.

ثانيًا: الديون المتعلقة بعين التركة كالدين برهن، وأرش جناية. ومن أهل العلم من قدّم الديون المتعلقة بعين التركة على مؤونة التجهيز، والراجح تقديم مؤونة التجهيز لأنها حاجة الإنسان نفسه، أشبه بمأكله ومشربه وملبسه في حياته.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٨٥١، ومسلم ١٢٠٦، وأبو داود في الجنائز ٣٢٣٨، والنسائي في الجنائز ١٩٠٤، والترمذي في الحج ٩٥١، وابن ماجه في المناسك ٣٠٨٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ثالثًا: الديون المرسلة، وهي الديون المتعلقة بالذمة، لا بعين التركة.

رابعًا: الوصية.

خامسًا: الميراث.

فأولًا يجهز الميت، فإن بقي من التركة شيء قضيت منه الحقوق المتعلقة بعين التركة، فإن بقي شيء قضيت منه الديون المرسلة، سواء في ذلك ما كان لله كالزكاة والحج الواجب والكفارات والنذور ونحو ذلك، وما كان للآدميين، فإن لم يف الباقي بهما تحاصا، وقال بعض أهل العلم: يقدم دين الآدمي لأنه مبني على المشاحة، أما حق الله فهو مبني على المسامحة، وقال بعضهم: يقدم حق الله؛ لقوله ﷺ: «فدين الله أحق بالقضاء» الحديث[1]. فإن بقي بعد ذلك شيء أخرجت منه الوصية التي أوصى بها الميت بشرط أن تكون من ثلث المال المتبقي فأقل، وما بقي بعد إخراج الوصية فهو الميراث يقسم على الورثة.

٣٣- أن المهم قد يقدم في الذكر على ما هو أهم منه، وأن الواجب قد يقدم على ما هو أوجب منه وألزم، لحكم واعتبارات أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وهكذا في المواضع الثلاثة في الآية التي بعد هذه الآية حيث قدَّم الوصية على الدين مع أنه أهم منها وأوجب وألزم.

وإنما قدمت الوصية عليه في الآية لأمور منها ما يلي:

أ- الإشارة إلى كثرة الوصية، والتأكيد على أهميتها، وأنه لا ينبغي للمرء أن يموت بدون أن يوصي؛ لأن الوصية مستحبة عند أكثر أهل العلم، وقال بعضهم: بوجوبها للأقارب غير الوارثين[2]. وكذا التأكيد على وجوب إخراجها وتنفيذها.

ب- الإشارة إلى قلة وجود الدين بالنسبة للوصية؛ لأن الوصية حق للموصي، بخلاف الدين فهو مرتهن به؛ ولهذا فإن العاقل لا يُحمِّله نفسه، وإن اضطر إلى ذلك تخفف منه ما استطاع حال حياته.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣١/ ٢٣). وانظر في ذكر أقوال أهل العلم في حكم الوصية «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (١/ ٤٨٤).

ج- أن الدين حق واجب ثابت في الذمة، أما الوصية فإنها تبرع ناشئ من قبل الميت فقد يُتساهل فيها.

د- أن الدين لغريم يطالب فيه بالبينة والحجة والبرهان، وقوة السلطان

ولهذا قال ﷺ لما جاء الرجل إليه يطلب منه وفاء القرض الذي اقترضه منه وشدد عليه القول في ذلك، وأراد الصحابة أن ينهروه. قال ﷺ: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالًا، واشتروا له بعيرا فأعطوه إياه»، قالوا: لا نجد إلا أفضل من سنه قال: «اشتروه فأعطوه إياه فإن خيركم أحسنكم قضاء»(١).

بخلاف الوصية، فإنها في الغالب لضعفاء ومساكين قد يُغلبون على أمرهم، وقد يكتمها الورثة فلا يعلم بها الموصى لهم.

هـ- أن الدين له مقابل وله عوض مما يجعل أنفس الورثة تطيب به بخلاف الوصية، فهي تبرع بدون مقابل وبدون عوض، فقد تشح بها أنفس الورثة، ويشق عليهم إخراجها، وتكون مظنة للتفريط والكتمان.

إلى غير ذلك من الحكم التي من أجلها قدمت الوصية في الآية على الدين، وإن كان الدين مقدمًا عليها في الإخراج كما سبق بيانه.

٣٤- أن الإنسان لا يدري من الأقرب له نفعا: أهم آباؤه أم أبناؤه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛ وذلك لقصور علمه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

٣٥- أن الناس لو وكلوا إلى اجتهادهم في قسمة الميراث ما عرفوا من المستحق لذلك، ولا قدر ما يستحق، وما عرفوا الذي لا يستحق؛ لقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن قسمة المواريث مما ليس للرأي فيه مجال، ولا مدخل للاجتهاد فيها؛ ولهذا فإن من عجيب مسائل الفرائض أن يرث الإخوة لأم مع الأم، وقد أدلوا بها

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض وأداء الديون (٢٣٩٠)، مسلم في المساقاة (١٦١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بل ويحجبونها حجب نقصان حتى ولو كانوا محجوبين بالأب أو الجد، ومن ذلك أن الإخوة لأم في إرثهم يقدمون على الإخوة الأشقاء، كما في المسألة المشركة إلى غير ذلك.

٣٦- وجوب إعطاء كل وارث نصيبه من الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: حقًّا واجبًا من الله، وفرضا لازمًا أدواؤه لأصحابه.

وإن توقفت قسمتها على تعلم حساب الفرائض فهو فريضة أيضًا لكن على الكفاية.

٣٧- أن الله هو الذي تولى قسمة الفرائض بنفسه، ولم يكل أمرها إلى رسول الله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وقد فصّل ذلك- عز وجل- أتم تفصيل بذكر كل وارث ونصيبه وشروط إرثه. ولهذا قال ربيعة «من تعلم الفرائض من غير علم بها من القرآن ما أسرع ما ينساها، قال مالك: وصدق»(١).

٣٨- أن «كان» تأتي «مسلوبة الزمن» تفيد تحقيق الوصف أي تحقيق اتصاف اسمها بخبرها مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: إنه- عز وجل- كان عليمًا حكيمًا أزلًا وأبدًا.

٣٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾.

٤٠- إثبات صفة الحكم التام بأقسامه الثلاثة لله تعالى: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة له- عز وجل- بقسميها: الغائية، والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله، فإذا أمر بأمر كان حسنًا، وإذا أخبر بخبر كان صادقًا، وإذا أراد خلق شيء كان صوابا، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله».

٤١- أنه يجب على الإنسان أن يكل الأمر في قسمة المواريث، وفي غيرها مما قدره الله وقضاه من الأمور الشرعية والكونية والجزائية لمن هو أعلم وأحكم وهو الله- عز

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٣١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٥٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٨٠).

وجل، وأن يرضى بذلك ويسلم ويطمئن وينشرح صدرا بذلك؛ لأن ذلك كله عن علم تام منه- عز وجل- وحكمة بالغة، قال تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فكل ما شرعه الله- عز وجل- وقدره وقضاه عن علم وحكمة يقبله العقل الصريح السالم من الهوى والشبهات، كما نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في كتابه «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول».

٤٢- في ذكره- عز وجل- صفتي العلم والحكمة مقرونة كلٌّ منهما بالأخرى دلالة على كمال علمه وكمال حكمته، فإن من تمام العلم أن يكون مقرونا بالحكمة، ومن تمام الحكمة أن تكون مقرونة بالعلم، فكم من عالم لا يستفاد من علمه بسبب عجلته وعدم حكمته، وكم من حكيم لا يستفاد من حكمته بسبب جهله وعدم علمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

قدَّم الله- عز وجل- في الآية السابقة ميراث الأولاد والأبوين؛ لأن صلتهم بالميت من جهة النسب وهو أقوى أسباب الإرث؛ لأن أولاد الميت فرعه وبضعة منه، وأبويه أصله، وهو بضعة منهما، فهم أحق بالميت وميراثه من غيرهم من الورثة، ثم أتبع ذلك بذكر ميراث الزوجين؛ لأن الزوج اتصاله بغير واسطة كالولد والوالد، وكلهم لا يسقطون بحال.

ثم أتبع ذلك بذكر ميراث الإخوة، وهم من الحواشي؛ لأن اتصالهم بالميت بواسطة، ويسقطون في كثير من الأحوال.

قوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ الخطاب للرجال الأزواج، واللام للتمليك، فلا يرث الزوج إلا إذا كان حرًّا.

﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، «ما» موصولة، أي: نصف الذي ترك أزواجكم، و«أزواج» جمع زوج، مأخوذ من المزاوجة والمخالطة والضم، والمراد به هنا: المرأة التي تم العقد عليها بعقد الزوجية الصحيح.

وهو ما أجمع العلماء على صحته، لاجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وإن لم يحصل وطء ولا خلوة.

﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ ﴿وَلَدٌ﴾ بمعنى مولود، وهو نكرة في سياق النفي، فيعم كل مولود ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو متعددًا من أولاد الزوجة أو أولاد بنيها وإن نزلوا بمحض الذكور، وسواء كانوا أولادًا من هذا الزوج أو من زوج سابق.

أي: لكم أيها الرجال نصف الذي تركته زوجاتكم بعد وفاتهن إن لم يوجد لهن ولد، وهذا شرط عدمي.

فمن شرط إرث الزوج نصف ما تركته زوجته عدم وجود ولد لها.

ويفهم من قوله هنا ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أنه إذا كان للزوجة ولد فلا يأخذ الزوج النصف، وإنما له نصيب آخر دون ذلك، وقد صرح تعالى بذلك، وبينه بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

أي: فإن كان لأزواجكم أيها الرجال ولد فلكم الربع مما تركن بعد وفاتهن، وهذا شرط وجودي.

فمن شرط إرث الزوج ربع ما تركته زوجته: وجود ولد لها.

وقوله «ولد» هنا أيضًا نكرة في سياق الشرط يعم كل ولد، فيشمل الواحد والمتعدد الذكر والأنثى من هذا الزوج أو من زوج سابق ممن ولدتهم هي أو من أولاد أبنائها وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي أن ميراثكم وغيركم مما تركته زوجاتكم يكون بعد إخراج وصيتهن إن كن أوصين بوصية، وقضاء ما عليهن من الدين إن وجد، وهذا توكيد لما سبق.

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾، أي: ولأزواجكم أيها الرجال الربع من الذي تركتم بعد وفاتكم إن لم يوجد لكم ولد، وهذا شرط عدمي.

وقوله: ﴿وَلَدٌ﴾ كما سبق نكرة في سياق النفي يعم كل ولد مطلقًا: ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو متعددًا من أولاد الميت وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، وسواء كانوا من أولاد هذه الزوجة أو من زوجة سابقة.

ويفهم من قوله: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ أنه إذا كان للرجل ولد فلا تأخذ الزوجة الربع، وإنما لها نصيب آخر، دون ذلك، وقد صرح تعالى بذلك، وبينه بقوله:

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾، أي: فإن كان لكم أيها الأزواج ولد فلزوجاتكم الثمن مما تركتم بعد وفاتكم، وهذا شرط وجودي.

وقوله «ولد» كما سبق نكرة في سياق الشرط يعم كل ولد.

والربع أو الثمن للزوجات، سواء كن واحدة أو متعددات؛ لأن الله لم يفرق بينهن،

بينما في ميراث البنات والأخوات بيَّن أن للواحدة النصف، وللمتعددات الثلثين.

وإنما أعطي الزوج النصف والزوجة الربع في حال عدم وجود الولد، بينما أعطي الزوج الربع والزوجة الثمن في حال وجود الولد مراعاة لحال الولد، ليزداد نصيبه؛ لأن الأولاد في حاجة إلى المال غالبًا، وقد يكونون في الغالب قصارًا، وهم أولى من الأزواج.

والحكمة في إعطاء الزوج ضعف ما للزوجة في الحالين: في حال عدم وجود الولد وفي حال وجوده، أن هذا هو الموافق للقاعدة في الفرائض في حال اجتماع ذكور وإناث من جنس واحد، وفي مرتبة واحدة أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، كما في الأولاد والإخوة.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، أي: أن ميراث زوجاتكم وغيرهن مما تركتموه يكون بعد إخراج وصيتكم إن كنتم أوصيتم بوصية، وقضاء ما عليكم من الدين إن وجد، وهذا توكيد لما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ﴾.

بعد أن ذكر الله ميراث الفروع والأصول والأزواج وقدّمهم؛ لأنهم لا يسقطون بحال وهم خمسة من الورثة: الابن، والبنت، والأب، والأم، وأحد الزوجين، أتبع ذلك بذكر ميراث الإخوة لأم؛ لأنهم من الحواشي ويسقطون في أكثر الأحوال.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ الواو استئنافية و«إن» شرطية، و«كان» فعل الشرط، وجوابه ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

و «كان» هنا تامة، تستغني بمرفوعها عن الخبر، و«رجل» فاعل مرفوع، وجملة «يورث» في محل رفع صفة لرجل، والتقدير: وإن وجد رجل يورث كلالة.

ويجوز أن تكون «كان» ناقصة، تحتاج إلى خبر، و«رجل» اسمها مرفوع بها، وجملة «يورث» في محل نصب خبرها.

والأول أظهر وأقرب من حيث المعنى؛ لأنه يدل على قلة هذه الحالة، وهي كون الميت يورث كلالة، كما هو الواقع.

﴿كَلَٰلَةً﴾ منصوب صفة لمصدر محذوف، تقديره: إرث كلالة أو وراثة كلالة، ويجوز أن تكون حالًا، أي: حال كونه كلالة، أو خبرًا لـ «كان» على اعتبار «كان» ناقصة.

والكلالة لغة: بمعنى الإحاطة، يقال: تكلله النسب، أي: أحاط به، و«الإكليل»: ما يحيط بالشيء، ومنه سميت العصابة والتاج الذي يوضع على الرأس بالإكليل؛ لإحاطته به من جوانبه، و«الإكليل»: منزلة من منازل القمر، سميت بذلك؛ لأنها تحيط بالقمر إذا نزل فيها.

والكلالة مصدر لا يثني ولا يجمع، يقال: رجل كلالة، وامرأة كلالة، ورجلان كلالة، وامرأتان كلالة، وقوم كلالة.

وقيل: الكلالة لغة: مأخوذة من الكلال، وهو الإعياء، كما في قول الأعشى[١]:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقى محمدًا

قالوا: كأن الميراث يصل إلى الوارث عن بعد وإعياء.

والمراد بالكلالة من مات وليس له والد ذكر، ولا ولد مطلقًا فورثه الحواشي.

وهو قول أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود[٢] وجمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المفسرين والفقهاء.

قال ابن كثير[٣]: «وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة، وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم. وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد».

ويدل عليه حديث جابر أنه قال: «يا رسول الله لا يرثني إلا كلالة»[٤]؛ لأنه لم يكن له وارث إلا أخوات. قال الناظم:

ويسألونك عن الكلاله ... هي انقطاع النسل لا محاله
لا والد يبقى ولا مولود ... فانقطع الأبناء والجدود[٥]

---

(١) انظر ديوانه ص (١٨٥- ١٨٧).

(٢) أخرجه عنهم جميعًا الطبري (٨/ ٥٣- ٥٤) الآثار (٨٧٤٥- ٨٧٤٩)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٠- ٢٠١).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٠١).

(٤) سيأتي تخريجه بتمامه- إن شاء الله تعالى عند الكلام على قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

(٥) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣١٣).

فالحواشي وهم الإخوة وبنوهم، والأعمام وبنوهم سموا كلالة؛ لأنهم أحاطوا بالميت حين فقد قرابة الولادة والنسب؛ الأولاد والآباء الذين هم طرفا الميت، بل هو وإياهم كالشيء الواحد؛ لأن أولاده بضعة منه، وهو بضعة من آبائه فهم تفرع بعضهم عن بعض، وتولد بعضهم من بعض. كما قال الشاعر:

نسب تتابع كابرا عن كابر ... كالرمح أنبوبا على أنبوب(١)

والميت الذي ورثه من دون أصوله وفروعه يسمى كلالة؛ لأنه أحاط به من ليس من أصوله ولا من فروعه.

قال الشاعر(٢):

ورثتم قناة الملك غير كلالة ... عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

يعني أنهم ورثوا المجد عن آبائهم ابني مناف: عبد شمس وهاشم ولم يرثوها عن كلالة.

قال ابن القيم(٣): «أي: إنما ورثتموها عن الآباء والأجداد، لا عن حواشي النسب».

قال الشنقيطي(٤): «والكلالة تطلق على القرابة من غير جهة الولد والوالد، وعلى الميت الذي لم يخلف ولدًا ولا والدًا، وعلى الوارث الذي ليس بوالد ولا ولد، وعلى المال الموروث عمن ليس بوالد ولا ولد».

﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ معطوف على «رجل» بصفته، والتقدير: أو امرأة تورث كلالة.

والمعنى: وإن وجد رجل يورث كلالة، أو وجدت امرأة تورث كلالة.

﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ الضمير في «له» يعود على الرجل الذي يورث كلالة، والمرأة التي تورث كلالة؛ لأنها معطوفة على «رجل».

ولم يقل لهما، وإنما أفرد الضمير، وذكَّره اعتبارًا بالموصوف الأول، الذي هو الرجل، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]،

---

(١) البيت للبحتري. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٧)، وفيه: «شرف تتابع...».

(٢) البيت للفرزدق. انظر: «ديوانه» (٢/ ٣٠٩)، «لسان العرب» مادة «كلل».

(٣) في «إعلام الموقعين» (١/ ٨٣).

(٤) في «أضواء البيان» (١/ ٣١٣).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

ففي هاتين الآيتين أفرد الضمير وأنّثه اعتبارًا بالموصوف الثاني في كل من الآيتين، وهي الصلاة في الآية الأولى، والفضة في الآية الثانية.

وقد يُذْكر الضمير مثنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾، الأخ والأخت من شاركك في أصليك أو في أحدهما، قرأ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «وله أخ أو أخت لأمه، أو من أمه»(١).

وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: «وله أخ أو أخت من الأم»(٢).

وقد أجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة لأم، وأجمعوا على أن المراد بالإخوة في قوله تعالى: في آخر السورة: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] الإخوة الأشقاء، والإخوة لأب(٣).

وشرط إرثهم جميعًا: عدم الأصل من الذكور الوارث، وعدم الفرع الوارث مطلقًا.

﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾، أي: فلكل واحد من الأخ لأم، أو الأخت لأم عند انفراده السدس؛ إذا لم يكن للميت ولد ولا والد ذكر.

﴿فَإِن كَانُوٓاْ﴾: أي الإخوة لأم.

﴿أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾: الإشارة لكل من الأخ والأخت في حال انفراد كل منهما؛ لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾، أي: فإن كانوا أكثر من أخ، وأكثر من أخت وغلب ضمير المذكر.

والمعنى: فإن كان الإخوة لأم اثنين فأكثر، ذكورًا كانوا أو إناثًا، أو ذكورًا وإناثًا مجتمعين.

---

(١) أخرجها الطبري (/ ٦١- ٦٢) الآثار (٨٧٧٢- ٨٧٧٥) والبيهقي في سننه (٦/ ٢٢٣).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٩٠).

(٣) انظر: «الإجماع» ص(٧٣)، «الوسيط» (٢/ ٢٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٠٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٨١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٨)، «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٢٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠١).

﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾، أي: فهم شركاء في الثلث، ولا يزادون على الثلث؛ لأنهم يستحقون ذلك بقرابة الأم وهي لا تزاد على الثلث، ولا يفضَّل ذكرهم على أنثاهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ ؛ لأن التشريك عند الإطلاق يقتضي التسوية بين الذكر والأنثى.

وهذا من الأحكام التي انفرد بها أولاد الأم: أن ذكرهم وأنثاهم سواء؛ لأنهم أدلوا بجهة أمومة، أي: بالرحم المجردة، وليست لديهم جهة أُبوّة يفضل بها بعضهم على بعض، كالأولاد والإخوة الأشقاء أو لأب، فإرثهم بالفرض فقط، فلا يمكن أن يرثوا بالتعصيب مطلقًا، ولا أن يجمعوا بين الفرض والتعصيب، بخلاف غيرهم من الورثة، حتى ذوو الأرحام ينزلون منزلة من أدلوا به، ويفضل ذكرهم على أنثاهم، إلا إذا كان المدلى بهم الإخوة لأم، فإن المدلي بهم يأخذ حكمهم من حيث التسوية بين ذكرهم وأنثاهم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص، وفي رواية حماد ويحيى عن أبي بكر: ﴿يُوصَىٰ﴾ بفتح الصاد على البناء للمفعول، وقرأ عاصم في رواية البرجمي عن أبي بكر، وكذا بقية العشرة: «يوصِي» بكسر الصاد على البناء للفاعل(١).

أي: ميراث الإخوة لأم، الواحد منهم فأكثر وغيرهم يكون بعد إخراج الوصية إن كان ثمت وصية، وقضاء الدين إن كان هناك دين على الميت، وهذا توكيد لما سبق وزيادة في العناية والاهتمام بالدين والوصية، ونظرا لاختلاف الموصِي والمَدين. فالأول الوالدان والأولاد، والثاني الزوجات، والثالث الأزواج، والرابع الكلالة.

وناسب أن تأتي القراءة هنا بالألف والبناء للمفعول ﴿يُوصَىٰ﴾؛ ليشمل ذلك ما إذا كان الموصِي هو الرجل أو المرأة؛ ولأن الكلام عن ميراث الحواشي، وهم بعيدون عن الميت، فجاءت القراءة هكذا، كأن الكلام عن غائب، وللإشارة أيضًا إلى أن هذه الحالة، وهي إرث الحواشي أقل من غيرها، إذ الغالب أن يكون للميت ولد، أو والد أو كلاهما.

---

(١) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» ص(١٥٤)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٨٠)، «النشر» (٢/ ٢٤٨).

كما أشار إليه أيضًا قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ الآية أي: إن وجد رجل.

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ «غير» حال و«مضار» مضاف إليه، أي: حال كونه غير مضار.

والمعنى: بشرط ألا تكون الوصية والدين مقصودا بهما أو بأحدهما المضارة للورثة، بأيِّ وجه من أوجه الضرر، كأن يوصِي لوارث، أو بأكثر من الثلث، أو بالثلث فأقل لكن بقصد الإضرار بالورثة والتضييق عليهم وتقليل نصيبهم.

وكأن يستدين المريض دينًا يضر بالورثة، أو يقر بشيء ليس عليه، أو يقر بأن الدين الذي له على غيره قد استوفاه ووصل إليه، أو يبيع شيئًا بثمن بخس أو يشتري بثمن غال، فإذا تبين أن ذلك منه بقصد الإضرار بالورثة نظر في تصرفه هذا وأزيل الضرر، ولم ينفذ ما ثبت أنه أراد به الضرر، اللهم إلا ما كان من الوصية في الثلث وما دونه فإنه ينفذ، وإن قصد به الإضرار وأمره إلى الله.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفعول مطلق، أي: يوصيكم الله بذلك وصية.

ومعنى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: عهدًا مؤكدًا من الله.

قال الرازي(١): «فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة، وختم شرح ميراث الكلالة بالوصية؛ ليدل بذلك على أن الكل وإن كان واجب الرعاية إلا أن القسم الأول وهو رعاية حال الأولاد أولى».

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع، شامل للأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- لما سئل عن القرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

﴿حَلِيمٌ﴾، أي: ذو حلم واسع؛ لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لعله يتوب.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

قال الطبري(٢): «ذو حلم على خلقه، وذو أناة، في تركه معاجلتهم بالعقوبة على

---

(١) في «التفسير الكبير» (٩/ ١٨٣).

(٢) «جامع البيان» (٨/ ٦٨).

ظلم بعضهم بعضًا».

قال ابن القيم[1]:

وهـو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

فهو سبحانه يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

فهو- عز وجل- عليم بما يصلح عباده، عليم بمن يستحق الميراث، وبمقدار ما يستحق، عليم بمن يعمل بمقتضى أوامره ونواهيه، وبمن يخالف ذلك، فيمنع الحق عن مستحقه، أو يضار الورثة في الوصية والدين، عليم بكل شيء، لكنه مع علمه بكل شيء حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، لعله يتوب.

والحكمة- والله أعلم- في أنه- عز وجل- ختم هذه الآية التي اشتملت على ميراث الزوجين والإخوة لأم بقوله: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ؛ لأن احتمال وجود المضارة من الميت، إذا لم يكن له أصل، ولا فرع، وإنما يرثه فقط الإخوة لأم أكثر؛ لأن ميراثه انتقل إلى الحواشي وهم بعيدون عنه بخلاف ما إذا ورثه أولاده وأبواه، فإنه يبعد أن يضارهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن الوارث يملك نصيبه ملكًا تامًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ؛ لأن اللام للتمليك، وقد ذكرت هذه اللام مع نصيب كل وارث، سواء كان إرثه بالفرض أو بالتعصيب في الآية السابقة وفي هذه الآية والآية التي هي خاتمة هذه السورة. وقد سبقت الإشارة إلى هذا.

٢- أنه يشترط في الوارث أن يكون حرًا، وأن الرقيق لا يرث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾.

٣- أن الميراث يشمل كل ما ترك الميت من الأعيان كالدراهم والعقارات والأمتعة

---

(١) في «النونية» ص (١٤٨).

ونحوها، ومن الديون التي له عند الناس، وسائر الحقوق: كحق الشفعة وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿مِمَّا تَرَكْنَ﴾ وقوله: ﴿مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ ؛ لأن «ما» موصولة تفيد العموم.

٤- ثبوت الزوجية؛ لقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾، ولا تثبت الزوجية إلا بعقد صحيح.

٥- أن الرجل يرث المرأة وترثه بمجرد عقده عليها عقدًا صحيحًا؛ لأنها تسمى زوجا له حتى ولو مات أحدهما قبل الدخول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ الآية.

وكذا إذا طلقها طلاقا رجعيا ما دامت في العدة، فإنه يرثها وترثه؛ لأن الرجعية بحكم الزوجة.

٦- أنه إذا كان العقد غير صحيح فلا ثورات بينهما؛ لأنها لا تسمى زوجا، فإن كان النكاح باطلًا متفقا على بطلانه كأن ينكح إحدى محارمه، فلا توارث بينهما بالإجماع، وكذا إذا كان النكاح فاسدًا وهو ما اختل شرط من شروطه كالنكاح بدون ولي أو بدون إشهاد، فلا توارث بينهما على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وكذا إذا بانت منه بينونة كبرى أو صغرى، ما لم يطلقها طلاقا بائنا في مرض موته المخوف متهما بقصد حرمانها من الميراث، فإنها ترثه ما لم تتزوج أو ترتد.

٧- أن للزوج نصف ما تركته زوجته إن لم يكن لها ولد مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

٨- إن للزوج الربع مما تركته زوجته إن كان لها ولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

٩- إن للزوجة أو الزوجات الربع مما ترك الزوج بعد وفاته إن لم يكن له ولد مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾.

١٠- أن للزوجة أو الزوجات الثمن مما ترك الزوج بعد وفاته إن كان له ولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾.

١١- أن ميراث الزوجة الواحدة، والزوجات المتعددات لا يختلف: الربع مع عدم

الولد، والثمن مع وجوده؛ لأن الله لم يفرق بين حكم الواحدة منهن وبين حكم الجمع، كما فرق في البنات والأخوات بين حكم الواحدة والجمع، وكذلك في الإخوة لأم.

ومثل الزوجة والزوجات في عدم زيادة نصيبهن إذا تعددن: بنات الابن لهن السدس مع البنت سواء كن واحدة أو أكثر، ومثلهن الأخوات لأب مع الشقيقة لهن السدس سواء كن واحدة أو أكثر، والجدات لهن السدس واحدة أو متعددات.

١٢- إنصاف الإسلام للمرأة حيث جعل لها نصيبا من ميراث زوجها، وقد كانت في الجاهلية لا ترث، بل تورث كسقط المتاع، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ [النساء: ١٩].

وهذا يدل على العدل في الدين الإسلامي حيث لم يهضم حق المرأة، ويظهر العدل أيضًا بكونه عز وجل عبر عن ميراث الزوجات بمثل ما عبر به عن ميراث الأزواج الرجال تأكيدًا لأصالتهن في الميراث.

١٣- فضل الرجال على النساء من وجوه: الأول: أن الله قدم ذكر ميراثهم على ذكر ميراثهن مع أنهم يشتركون جميعًا في أصل الاستحقاق، كما دل على هذا أيضًا من الآية قوله ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ فقدم الرجل على المرأة سواء كان مورثا أو وارثا.

الوجه الثاني: أن الله خاطب الرجال في مواضع عدة من الآيتين بينما ذكرهن بضمير الغيبة. الوجه الثالث: أن الله جعل نصيب الزوج ضعف نصيب الزوجة.

١٤- في إعطاء الزوج ضعف نصيب الزوجة موافقة للقاعدة العامة في الفرائض للذكر مثل حظ الأنثيين، وبيان لحكمته عز وجل في قسمة المواريث لما على الذكر من مسئوليات ونفقات ليست على الأنثى، فنسبة ميراث الزوجين كالعصبات للذكر مثل حظ الأنثيين، إلا أن ميراث العصبات لا يتقدر وهذا مقدر، وميراث العصبات يشترك فيه الذكور والإناث وميراث الزوجين لا يتصور فيه الشركة.

١٥- عناية الله عز وجل بالأولاد حيث جعل للزوج النصف وللزوجة الربع في حال عدم وجودهم، بينما في حال وجودهم أعطى الزوج الربع والزوجة الثمن، ليزداد نصيب الأولاد؛ لأنهم بضعة من الميت وحاجتهم إلى المال أكثر من غيرهم غالبًا.

١٦- أن الزوجة حرة في التصرف في مالها، بدون إذن زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ فلها أن توصي من مالها بما شاءت في حدود الوصية المشروعة، وليس له حق منعها، وإن كان ذلك يضره.

١٧- الإشارة إلى أن كون الميت يورث كلالة ليس بالكثير؛ لدلالة سياق قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾، أي: وإن وجد رجل يورث كلالة، إذ الغالب ألا يكون الميت يورث كلالة.

١٨- أن الميت إذا لم يكن له والد ذكر ولا ولد، أحاط به الحواشي من بعيد وورثوا ما خلف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ الآية.

١٩- أن الإخوة لأم لا يرثون إلا إذا كان الميت يورث كلالة، أي ليس له ولد لا ذكر ولا أنثى، ولا والد ذكر، أي لا أب له ولا جد وارثا، وهو الجد من جهة الأب؛ لأن الجد من جهة الأم لا يرث.

أما الأب فبالإجماع يحجب الإخوة مطلقًا من أي جهة كانوا(١).

وأما الجد فجمهور الصحابة والتابعين والفقهاء على أنه أيضًا يحجبهم؛ لهذه الآية، ولأن الله سماه أبا فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال ﷺ: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا»(٢).

وقال كثير من أهل العلم: إنه لا يحجب الإخوة لأبوين أو لأب، بل يشرك بينهم وبينه، ولا ينزل معهم عن الثلث، ولا مع ذي فرض عن السدس، وقيل: لا ينزل معهم

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه- قال: مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني فلان» قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله ﷺ: «مالكم لا ترمون؟» قالوا: كيف نرمي وأنت معهم قال ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلكم».

عن الثلث مطلقًا[١].

والصحيح القول الأول وهو قول أبي حنيفة[٢]، وقول للشافعي[٣]، ورواية عن أحمد[٤]، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]، وابن القيم[٦]، ومحمد بن عبدالوهاب[٧] قال ابن تيمية: «وهو الصواب بلا ريب».

وقال السعدي[٨]: «فليس مع من يورث الإخوة مع الجد نص ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح».

أما الإخوة لأم فيحجبهم الجد بالإجماع كالأب[٩].

٢٠- إذا كان الأخ لأم واحدًا، ذكرًا كان أو أنثى فله السدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

٢١- إذا كان الإخوة لأم أكثر من واحد، أي: اثنين فأكثر فهم شركاء في الثلث؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ فشروط إرثهم الثلث ثلاثة: عدم الأصل من الذكور الوارث، وعدم الفرع الوارث، وأن يكونوا اثنين فأكثر.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه لا يرث الثلث إلا ثلاثة فأكثر من الإخوة كأن ابن عباس أعاد الإشارة في قوله: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ إلى الأخ والأخت مجتمعين، والصواب رجوعها إلى كل منهما على انفراده كما سبق بيانه.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٨١- ٨٢)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٠١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٣٧- ٣٣٨)، ٣٤٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٦٨)، «العذب الفائض» (١/ ١٠٨) وما بعدها.

(٢) انظر: «المبسوط» (٢٩/ ١٨٠).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٦١).

(٤) انظر: «المغني» (٩/ ٦٦، ٦٧)، «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٢).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٢- ٣٤٣).

(٦) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٣٧٤).

(٧) انظر: «الفوائد الجلية» لابن باز ص(٣٣).

(٨) في «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٢).

(٩) انظر: «العذب الفائض» (١/ ١٠٧).

وقد حكي الإجماع على أن فرض الإخوة لأم اثنين فأكثر الثلث(١).

٢٢- أن الإخوة لأم يستوي ذكرهم وأنثاهم في الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾، فلا يفضل ذكرهم على أنثاهم؛ لأنهم- والله أعلم- إنما يرثون بالفرض فقط، وقد أدلوا بجهة أمومة، وليس لديهم جهة أبوة يتفاضلون بها بخلاف من عداهم من الورثة، فللذكر منهم مثل حظ الأنثيين لاستوائهم، في المرتبة كالأولاد، والأبوين، والزوجين والإخوة الأشقاء أو لأب(٢).

٢٣- إذا كان الإخوة لأم فرضهم الثلث إذا كان ميتهم يورث كلالة، فإنهم يقدمون في الميراث على الإخوة الأشقاء؛ لأن نصيب الإخوة لأم بالفرض، والإخوة الأشقاء أو لأب إنما يرثون بالتعصيب، فإن بقي لهم شيء بعد الفروض، وإلا سقطوا.

ففي مسألة زوج وأم وإخوة لأم وإخوة أشقاء، المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة، وللأم السدس واحد- لوجود الجمع من الإخوة- وللإخوة لأم الثلث؛ لأنهم أكثر من واحد، وميتهم يورث كلالة، لا والد له ولا ولد، ويسقط الإخوة الأشقاء؛ لاستكمال فروض المسألة بالإخوة لأم، وقد قال ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»(٣) وقد ألحقت الفرائض بأهلها، ولم يبق لأهل التعصيب شيء(٤).

وبهذا حكم عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أولًا، أي: في أول قضائه في المسألة قال ابن تيمية: «عمر حكم أول عام في الفريضة الجارية بعدم التشريك، وفي العام الثاني

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير للماوردي» (١٠/ ٢٧٣)، «الإفصاح» (٢/ ٨٥)، «المغني» (٩/ ١٨).

(٢) قد يشارك الإخوة لأم في التسوية بين الذكر والأنثى الأب مع الأم لعارض، كما إذا هلك هالك عن أم وأب وابن، فإن لكل واحد من الأبوين السدس والباقي للابن فاستوى نصيب الأب والأم هنا لوجود العارض، وهو المعصب الذي هو أولى من الأب وهو الابن، فهو أحق بالتعصيب من الأب لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر» وكذا إذا كان مع الأبوين ابنتان، فلهما الثلثان ولكل واحد من الأبوين السدس، واستوى الأب مع الأم لعارض وهو أنه لم يبق شيء بعد الفروض حتى يأخذه الأب.

ومما انفرد به الإخوة لأم أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلالة أي ولا والد له ذكر ولا ولد، وأنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم، والقاعدة غالبًا أن من أدلى بواسطة حجبته تلك الواسطة، وأن ذكرهم يدلي بأنثى ويرث، وأنهم يحجبون من أدلوا به، وهي أمهم، حجب نقصان إذا كانوا اثنين فأكثر.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٩)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣١/ ٣٤٠).

بالتشريك في واقعة مثل الأولى، ولما سئل عن ذلك قال: تلك على ما قضينا، وهذه على ما نقضي»[١].

وهو قول علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري والمشهور عن ابن عباس- رضي الله عنهم، وبه قال جماعة من التابعين والفقهاء، منهم أبو حنيفة[٢] وأحمد في المشهور عنه[٣]، واختاره ابن المنذر[٤].

وذهب عمر في آخر قضائه في المسألة، وعثمان وابن مسعود، وزيد بن ثابت وابن عباس- رضي الله عنهم، وجماعة من التابعين إلى أنه يشرك بين الإخوة لأم والإخوة الأشقاء، وبه قال جماعة من الفقهاء منهم مالك[٥]، والشافعي[٦]، وهو رواية عن أحمد[٧]. قالوا: لأن أمهم واحدة[٨].

والصحيح القول الأول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٩]: «والنص والقياس دلا على ما قال علي: أما النص فقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾، والمراد به ولد الأم، وإذا أدخلنا فيهم ولد الأبوين لم يشتركوا في الثلث، بل زاحمهم غيرهم».

وقال أيضًا[١٠] بعد ما استدل على هذا القول بحديث ابن عباس: «ألحقوا

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٢٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٩١- ٩٢).

(٣) انظر: «المغني» (٩/ ٢٤) «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٣٩).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٩)، «العذب الفائض» (١/ ١٠١- ١٠٢).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٩).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٦٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠١).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٣٩).

(٨) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠١- ٢٠٢).

(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٣٩).

(١٠) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٠).

الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر» قال: «وهذا يقتضي أنه إذا لم تبق الفرائض شيئًا لم يكن للعصبة شيء، وهنا لم تبق الفرائض شيئًا، وأما قول القائل: إن أباهم كان حمارا[1] فقد اشتركوا في الأم، فقول فاسد حسًا وشرعًا، أما الحس فلأن الأب لو كان حمارا لكانت الأم أتانا، ولم يكونوا من بني آدم، وإذا قيل: مراده أن وجوده كعدمه، فيقال: هذا باطل، فإن الوجود لا يكون معدوما، وأما الشرع فلأن الله حكم في ولد الأبوين بخلاف حكمه في ولد الأم».

وقال أيضًا: «وقول القائل: هو استحسان، يقال: هذا استحسان يخالف الكتاب والميزان، فإنه ظلم للإخوة من الأم، حيث يؤخذ حقهم فيعطاه غيرهم. والمنازعون في هذه المسألة ليس معهم حجة إلا أنه قول زيد»[2].

وقال ابن تيمية أيضًا: «الأب قد يضرهم كما ينفعهم، بدليل ما لو كان ولد الأم واحدًا وولد الأبوين كثيرين فإن ولد الأم وحده يأخذ السدس والباقي يكون لهم كله، ولولا الأب لتشاركوا هم وذاك الواحد في الثلث وإذا جاز أن يكون وجود الأب ينفعهم جاز أن يحرمهم، فعلم أنه يضرهم.

... ومما يبين الحكم في مسألة المشركة أن لو كان فيهن أخوات من أب لفرض لهن الثلثان وعالت الفريضة فلو كان معهن أخوهن سقطن، ويسمى «الأخ المشئوم» فلما صرن

---

(١) لما قيل: إن الإخوة الأشقاء قالوا لعمر- رضي الله عنه- لما أعطى الثلث للإخوة لأم وتركهم: «هب أن أبانا كان حمارا ألسنا من أم واحدة فشرك بينهم، ولهذا يسميها بعضهم بالحمارية. والله أعلم بصحة هذه المقالة.
انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠١)، «العذب الفائض» (١/ ١٠١) كما يسميها بعضهم باليمية، أو الحجرية؛ لما روي أنهم قالوا لعمر: «هب أن أبانا كان حجرا ملقى في اليم» ولهذا قال الناظم:

وإن تجد زوجا وأما ورثا ... وإخوة للأم حازوا الثلثا
وإخوة أيضًا لأم وأب ... واستغرقوا المال بفرض النصب
فأجعلهم كلهم لأم ... واجعل أباهم حجرا في اليم

انظر «الرحبية» ص (٩).
وقد اشتهرت هذه المسألة عند علماء الفرائض بالمشركة، أو المشتركة، للتشريك بين الإخوة لأم والإخوة الأشقاء على القول بتشريكهم.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٢).

بوجوده يصرن عصبة صار تارة ينفعهن وتارة يضرهن، ولم يجعل وجوده كعدمه في حالة الضر، كذلك قرابة الأب لما الإخوة بها عصبة صار ينفعهم تارة ويضرهم أخرى»[١].

ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: إذا لم تستغرق الفروض المسألة، وليس هناك عاصب فإن الباقي يرد على جميع الورثة ما عدا الزوجين عند جمهور أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦].

وذهب ابن عباس- رضي الله عنهما- إلى أنه يرد على جميع الورثة ما عدا الزوجين والجدة.

وذهب عثمان- رضي الله عنه- إلى أنه يرد على جميع الورثة واختاره ابن تيمية في أحد قوليه، والشيخ عبدالرحمن السعدي.

والراجح قول الجمهور، وهو اختيار ابن تيمية في القول الآخر، أنه يرد على جميع الورثة ما عدا الزوجين؛ لأنهما بمنزلة الغرماء، وبقية الأقارب أولى منهما، ولأنهما لا رحم لهما.

وذهب زيد بن ثابت إلى أن الباقي لا يرد على الورثة وإنما يرد إلى بيت المال لأنه لا ينبغي أن يعطى الوارث أكثر مما أعطاه الله. والصحيح القول الأول[٢].

الفائدة الثانية: إذا زادت الفروض عن المسألة كما في مسألة زوج وشقيقة وأم فالجمهور على القول بالعول فالمسألة من ستة وتعول إلى ثمانية للزوج النصف ثلاثة، وللشقيقة النصف ثلاثة وللأم الثلث اثنان فيدخل النقص على الجميع كالغرماء يتحاصون عن حقوقهم إذا ضاق المال.

وقد ذهب ابن عباس- رضي الله عنهما- إلى عدم القول بالعول فيدخل النقص في هذه المسألة على الشقيقة فيعطيها ما بقي بعد فرض الزوج والأم؛ لأن الشقيقة تنتقل

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤١- ٣٤٢).

(٢) انظر: «المغني (٩/ ٤٨- ٥٠)، «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٣٨)، «العذب الفائض» (٢/ ٤٠٣)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٣).

من فرض إلى تعصيب، بل تسقط أحيانًا(١).

الفائدة الثالثة:

إذا لم يوجد أحد من أصحاب الفروض ولا التعصيب فإن الميراث ينتقل إلى ذوي الأرحام- كالخال والخالة والعمة وينزلون منزلة من أدلوا به، فلو أدلوا بالإخوة لأم لم يفضل ذكرهم على أنثاهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥، الأحزاب ٦]، وبهذا قال جمهور أهل العلم، منهم: أبو حنيفة وأحمد في رواية عنه، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية والسعدي وهو الراجح.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى عدم توريثهم، وأن المال يكون لبيت مال المسلمين. منهم الإمام مالك.

٢٤- توكيد أمر الوصية والدين ووجوب إخراجهما قبل الميراث؛ لأن الله كرر ذكرهما في أربعة مواضع، فذكرهما مع ميراث الفروع والأصول بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ومع ميراث كل واحد من الزوجين بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ ومع ميراث الإخوة لأم بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

وقدمت الوصية على الدين في هذه المواضع كلها- عناية بها واهتماما وتوكيدا لأمرها، من حيث عدم تركها، ومن حيث إخراجها وتنفيذها، وإلا فالدين مقدم عليها في الإخراج بإجماع أهل العلم- كما سبق بيان ذلك.

٢٥- أن الوصية المضار بها باطلة، لا اعتبار لها ولا تنفذ؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾.

٢٦- تحريم المضارة للورثة بالوصية أو الدين؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ وذلك من كبائر الذنوب فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال:

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٩٠- ٩١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٩).

«الإضرار بالوصية من الكبائر»[١].

ومن أوجه المضارة للورثة بالوصية أن يوصي لوارث، أو لغيره بأكثر من الثلث، أو يوصي بالثلث فما دونه لا قصد له إلا مضارة الورثة وحرمانهم، ومن أوجه المضارة بالدين أن يقر بدين ليس عليه ونحو ذلك.

قال ابن القيم[٢]: «والضرار نوعان: جنف وإثم فإنه قد يقصد الضرار وهو الإثم، وقد يضار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصى بزيادة عن الثلث فهو مضار قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية، وإن أوصى بالثلث فما دونه، ولم يعلم أنه قصد الضرار وجب إمضاؤها، فإن علم الموصى له أن الموصي إنما أوصى ضرارا لم يحل له الأخذ، ولو اعترف الموصي أنه إنما أوصى ضرارا لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية. وقد جوز الله سبحانه وتعالى إبطال وصية الجنف والإثم، وأن يصلح الوصي أو غيره بين الورثة، والموصى له فقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢].

٢٧- إبعاد المسلم عما يكون فيه ضرر عليه وعلى الآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾.

٢٨- الإشارة إلى أن الشخص لا يكاد يضار والديه وولده، بينما قد يضار زوجه

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٦٥)- الآثار (٨٧٨٣- ٨٧٨٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٨٨- ٨٨٩)- الآثار (٤٩٣٩- ٤٩٤٠)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٧١)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٠٢).

وقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار سبعين سنة، فإذا أوصى عدل في وصيته، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها واقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾».

أخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٦٧)، والترمذي في الوصايا (٢١١٧) وابن ماجه في الوصايا (٢٧٠٤)، وأحمد (٢/ ٢٧٨) قال الترمذي: «حسن غريب».

وقد ضعف هذا الحديث الألباني.

وصححه أحمد شاكر في تحقيقه لمسند الإمام أحمد رقم (٧٧٢٨) وقال حكمت ياسين في تخريجه مرويات الإمام أحمد رقم ٧١٥: «وهو حسن الإسناد».

(٢) في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٧٧- ٣٧٨). وانظر «بدائع التفسير» (٢/ ١١).

وإخوته لقوله هنا: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ دون الآية الأولى.

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «وتأمل كيف ذكر سبحانه وتعالى الضرر في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف من الزوجين والإخوة، والعادة أن الميت قد يضار زوجته وإخوته، ولا يكاد يضار والديه وولده».

وبناء على هذا فقد اختلف العلماء في حكم الإقرار لوارث، فقال بعض أهل العلم بجوازه.

وقال بعض أهل العلم: لا يجوز؛ لقوله ﷺ: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» وهو قول الأئمة الثلاثة والقديم من قولي الشافعي، قالوا: لأنه قد يوصي له بصيغة الإقرار، وهذا من المضارة المنهي عنها.

والظاهر أنه إذا أقر أن في ذمته شيئًا لأحد الورثة فإن هذا يختلف عن الوصية، فينظر فيه إلى القرائن قال ابن كثير[٢] «فمتى كان الإقرار صحيحًا مطابقًا لما في نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم فهو حرام بالإجماع، وبنص هذه الآية الكريمة ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾».

كما اختلفوا فيما إذا أقر لغير وارث بدين في حالة المرض وعليه دين في الصحة أيهما يقدم في القضاء فقيل يقدم دين الصحة، والراجح أنهما سواء.

٢٩- أن قسمة الميراث على الكيفية التي بينها الله تعالى في هذه الآيات: وصية من الله وعهد مؤكد يجب العمل بمقتضاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٣٠- عناية الله عز وجل بالمواريث، حيث فصلها أتم تفصيل ببيان كل وارث ونصيبه وشروط إرثه لذلك النصيب، وتولى ذلك بنفسه سبحانه قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿فريضة من الله﴾، وقال تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٧٧- ٣٧٨).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٠٢).

٣١- إثبات سعة علم الله عز وجل الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾.

٣٢- إثبات صفة الحلم الواسع له سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾.

٣٣- أن ما أوصى به عز وجل من أحكام في قسمة المواريث، وجميع أحكامه وأوامره الكونية والشرعية، كل ذلك مبني على علم وحلم تامين منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

٣٤- أنه عز وجل لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب، وهو سبحانه يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾.

٣٥- تحذير من خالف أمر الله في قسمة المواريث أو بالمضارة للورثة بالدين أو الوصية أو بغير ذلك أن لا يغتر بحلم الله وعدم معاجلته له بالعقوبة، فينسى إطلاع الله عليه، أو تهون في نفسه معصية الله فيستمرئ المعصية، وليعلم بأن الله عليم لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، لكنه حليم لا يعاجل العاصي بالعقوبة لعله يتوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

فائدتان:

الفائدة الأولى:

اعلم أن أسباب الإرث بالإجماع ثلاثة: النسب، والنكاح، والولاء.

قال الناظم(١):

أسباب ميراث الورى ثلاثة ... كل يفيد ربه الوراثة
وهي نكاح وولاء ونسب ... ما بعدهن للمواريث سبب

وقد تجتمع هذه الأسباب في الشخص فيكون زوج المرأة ومولاها وابن عمها.

والنكاح لغة: الضم والجمع، وشرعا عقد الزوجية الصحيح، ويطلق على العقد وعلى الوطء، فإذا قالوا نكح فلان بنت فلان، فالمعنى: تزوجها وعقد عليها، وإذا قالوا نكح فلان زوجته، فالمعنى: وطئها(٢).

---

(١) انظر: «متن الرحبية» (ص٣).

(٢) انظر: «لسان العرب مادة «نكح»، «التعريفات» ص (٣٦٦): «المغني» (٩/ ٣٣٩).

والولاء: عصوبة سببها نعمة المعتق، مأخوذة من الموالاة والنصرة[١]، يورث به من جانب واحد، فيرث المعتق عتيقه إجماعًا، وعصبة المعتق كالمعتق، ولا يرث العتيقُ معتقه إجماعًا[٢].

الفائدة الثانية:

اعلم أن الله عز وجل ذكر أحكام الفرائض وفصلها أتم تفصيل وبينها أكمل بيان بذكر كل وارث ونصيبه وشروط إرثه لذلك النصيب في ثلاث آيات من هذه السورة الكريمة، مما يدل على إيجاز القرآن الكريم وإعجازه، فسبحان العليم الخبير. وفيما يلي ذكر ملخص لتلك الفرائض.

ذكر الله في هذه الآيات ست فرائض: النصف والربع، والثمن، والثلثين، والثلث، والسدس.

فالنصف: فرض خمسة من الورثة وهم: البنت: وترث النصف بشرطين عدميين، وهما: عدم المعصب وهو أخوها، وعدم المشارك وهي أختها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ﴾، أي: منفردة بلا معصب ولا مشارك.

بنت الابن: وترث النصف بثلاثة شروط عدمية وهي: عدم الفرع الوارث الذي هو أعلى منها «الولد» ذكرًا كان أو أنثى، وعدم المعصب وهو أخوها أو ابن عمها الذي في درجتها، وعدم المشارك وهي أختها أو بنت عمها التي في درجتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ﴾.

الأخت الشقيقة: وترث النصف بأربعة شروط عدمية، وهي: عدم الأصل من الذكور الوارث «الآباء والأجداد»، وعدم الفرع الوارث، وعدم المعصب وهو أخوها، وعدم المشارك وهي أختها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾.

الأخت لأب: وترث النصف بشروط خمسة، الأربعة المشترطة للشقيقة والخامس

---

(١) انظر: «مختار الصحاح»، «لسان العرب» مادة «عتق».

(٢) انظر: «الإجماع» لابن المنذر ص (٧٩)، «الإفصاح» (٢/ ١٠٥) «المغني» (٩/ ٢١٥).

عدم الأشقاء والشقائق؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

الزوج: ويرث النصف بشرط عدم الولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

والربع: فرض اثنين من الورثة.

الزوج: ويرث الربع مع وجود الولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

الزوجة، أو الزوجات ويرثن الربع مع عدم الولد؛ لقوله تعالى:﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾.

والثمن: فرض وارث واحد- هو الزوجة أو الزوجات بشرط واحد وهو وجود الولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾.

والثلثان: فرض أربعة من الورثة.

البنات: ويرثن الثلثين بشرطين: عدم المعصب وهو أخوهن، وأن يكن اثنتين فأكثر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ والأدلة كثيرة سبق ذكرها في الكلام على هذه الآية.

وبنات الابن وإن نزلن: ويرثن الثلثين: بشروط ثلاثة عدم الفرع الوارث الذي هو أعلى منهن، وعدم المعصب وهو أخوهن أو ابن عمهن الذي في درجتهن، وأن يكن اثنتين فأكثر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وغيره من الأدلة التي سبق ذكرها في ميراث البنات في الكلام على هذه الآية.

الأخوات الشقائق: ويرثن الثلثين بأربعة شروط: عدم الأصل من الذكور الوارث، وعدم الفرع الوارث، وعدم المعصب وهو أخوهن، وأن يكن اثنتين فأكثر؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

الأخوات لأب: ويرثن الثلثين بشروط خمسة، الأربعة المشترطة للأخوات

الشقائق، والشرط الخامس عدم الأشقاء والشقائق؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

والثلث: فرض اثنين من الورثة.

الأم: وترث الثلث بشرطين: عدم الفرع الوارث، وعدم الاثنين فأكثر من الإخوة.

الإخوة لأم: ويرثون الثلث بشروط ثلاثة: عدم الأصل من الذكور الوارث، وعدم الفرع الوارث، وأن يكونوا اثنين فأكثر.

والسدس: فرض سبعة من الورثة.

الأب: ويرث السدس مع وجود الولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

الأم: وترث السدس مع وجود الولد، أو اثنين فأكثر من الإخوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾.

الجد: ويرث السدس بشرط عدم الأب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فهذا يدل على أن الجد لا يرث مع الأب فإذا فقد الأب ورث الجد السدس في هذه الحالة. وقد دلت السنة على ذلك.

الجدة أو الجدات: ويرثن السدس بشرط عدم الأم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فهذا يدل على أن الجدة لا ترث مع الأم، فإن فقدت الأم ورثت الجدة السدس وقد دلت السنة على أن ميراث الجدة أو الجدات السدس، كما سبق بيانه.

بنات الابن واحدة فأكثر وإن نزلن ويرثن السدس بشروط ثلاثة. عدم الفرع الوارث الذكر الذي هو أعلى منهن، وعدم المعصب وهو أخوهن أو ابن عمهن الذي في مرتبتهن، وأن لا تستوفي البنات أو بنات الابن اللاتي هن أعلى منهن الثلثين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ مع بقية الأدلة في ميراث البنات الثلثين كما سبق.

الأخت لأب واحدة أو أكثر، ويرثن السدس بشروط اربعة: عدم الأصل من

الذكور الوارث، وعدم الفرع الوارث، وعدم المعصب وهو أخوهن، وأن لا تستوفي الشقائق الثلثين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

الأخ لأم: ويرث السدس بشروط ثلاثة عدم الأصل من الذكور الوارث، وعدم الفرع الوارث، وأن يكون منفردًا. ذكرًا كان أو أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

وهذه الفرائض كلها مأخوذة من كتاب الله تعالى، وعليها الإجماع إلا ميراث الجدة أو الجدات، فهو مأخوذ من السنة[1].

الوارثون من الرجال والنساء:

الوارثون من الرجال عشرة: الابن وابن الابن وإن نزل، والأب والجد أبو الأب وإن علا والأخ وابن الأخ، والعم وابن العم من أبيه، والزوج، والمعتق.

قال الرحبي:

والوارثون من الرجال عشرة ... أسماؤهم معروفة مشتهرة
الابن وابن الابن مهما نزلا ... والأب والجد له وإن علا
والأخ من أي الجهات كانا ... قد أنزل الله به القرآنا
وابن الأخ المدلي إليه بالأب ... فاسمع مقالا ليس بالمكذب
والعم وابن العم من أبيه ... فاشكر لذي الإيجاز والتنبيه
والزوج والمعتق ذو الولاء ... فجملة الذكور هؤلاء[2]

وهم على سبيل البسط والتفصيل خمسة عشر: الابن وابن الابن وإن نزل، والأب والجد أبو الأب وإن علا، والأخ الشقيق، والأخ لأب والأخ لأم، وابن الأخ الشقيق وابن الأخ لأب، والعم الشقيق والعم لأب وابن العم الشقيق، وابن العم لأب، والزوج والمعتق.

---

(١) انظر: «الإجماع» (٧١- ٧٦)، «المهذب» (٢/ ٣٣)، «الإفصاح» (٢/ ٨٤- ٨٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٣٩- ٤٠٢)، «متن الرحبية» ص(٤- ٧)، «المغني» (٩/ ١١، ٢١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٧٨)، «العذب الفائض» (١/ ٤٨- ٦٣) «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٣٩).

(٢) الرحبية ص (٣، ٤) وشرحها «البسيط» ص (٤٢).

الوارثات من النساء، سبع: البنت، وبنت الابن، والأم، والجدة، والأخت، والزوجة، والمعتقة.

قال الرحبي:

والوارثات من النساء سبع ... لم يعط أنثى غيرهن الشرع
بنت وبنت ابن وأم مشفقة ... وزوجة وجدة ومعتقة
والأخت من أي الجهات كانت ... فهذه عدتهن بانت[1]

وهن على سبيل البسط والتفصيل عشر: البنت وبنت الابن، والأم، والزوجة، واثنتان من الجدات والأخت الشقيقة، والأخت لأب والأخت لأم والمعتقة[2].

* * *

(١) الرحبية ص (٣، ٤) وشرحها «البسيط» ص(٤٢).

(٢) انظر: «الحاوي الكبير» للماوردي (١٠/ ٢٢١)، «المهذب» (٢/ ٣٠)، «الإنصاف» (٢/ ٨٢)، «معالم التنزيل» (١/ ٣٣٩- ٤٠٢) «المغني» (٩/ ٦٣)، «روضة الطالبين» (٦/ ٤)، «شرح الوجيز» للرافعي (٦/ ٤٤٨)، «العذب الفائض» (١/ ٤٢- ٤٤).

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيتين السابقتين أحكام المواريث، بذكر الوارثين وأنصبتهم وشروط إرثهم، ثم أتبع ذلك بذكر الوعد لمن أطاع الله ورسوله ووقف عند حدود الله، وذكر الوعيد لمن عصى الله ورسوله وتعدى حدود الله، وذلك بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ الآيتين؛ توكيدًا لوجوب امتثال ما أمر الله به في الآيتين، وترغيبا في طاعته وترهيبا من معصيته.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ تِلْكَ ﴾ اسم إشارة مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما ذكره الله عز وجل في الآيتين السابقتين من أحكام المواريث.

وقيل: لكل ما سبق من الأحكام في هذه السورة، وقيل: لأقرب مذكور وهو ما سبق في قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾ الآية.

أو لكل ما أنزله الله في القرآن الكريم من الأحكام قبل هذه الآية؛ لأن القرآن كلام واحد من حيث المعنى والسياق(١).

والأظهر القول الأول أن الإشارة لما ذكر في الآيتين من أحكام المواريث والوصية؛ لأن موضوع الآيتين واحد، ولأن ما سبق قبلهما في هذه السورة ختم بوعيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ الآية؛ ولأن القول بأن الإشارة إلى كل ما أنزل الله في القرآن من الأحكام وإن كان ممكنا إلا أن الأولى إرجاع الإشارة إلى ما تقدم قريبًا في السياق.

﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ «حدود»: جمع حد، والحد هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٦٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٥)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٨٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٣).

حدود الأرض، وهي ما يفصل بعضها عن بعض.

وحدود الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: حدود أوامر وواجبات، وهي كل ما أمر الله به وأوجب على العباد فعله؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج، ومنها قسمة المواريث بعد إخراج الدين والوصية، كما في الآيتين السابقتين، فهذه كلها حدود يجب فعلها، ولا يجوز تركها ولا تعديها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

القسم الثاني: حدود نواهٍ ومحرمات، وهي كل ما نهى الله عنه وحرم فعله؛ كقتل النفس بغير حق، والربا والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومنها المضارة للورثة بالوصية أو الدين، كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ فهذه حدود يجب تركها وعدم الاقتراب منها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧](١).

ويحتمل أن المراد بحدود الله هنا حدود الأوامر، قال الزمخشري(٢): «سماها حدودًا؛ لأنه لا يجوز تجاوزها ولا تخطيها».

ويحتمل أن المراد بها حدود الأوامر والنواهي معًا؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(٣).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الواو للاستئناف، و«من» اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

﴿يُطِعِ﴾ فعل الشرط، مجزوم وعلامة جزمه السكون، وحرك بالكسر؛ لالتقاء الساكنين، وأصله: «يطيع»، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين.

ومعنى الطاعة في الأصل: موافقة الأمر والامتثال، بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فيقال لمن صلى امتثالًا لأمر الله مطيع، ويقال لمن ترك الربا امتثالا لنهي الله

---

(١) انظر: «القواعد الحسان» ص (٧٧).

(٢) في «الكشاف» (١/ ٢٥٦).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٧٠).

مطيع. قال السعدي[١]: «الطاعة هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة».

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ الواو عاطفة، و«رسوله» هو محمد ﷺ؛ لأن القرآن الكريم أنزل عليه، ولا رسول بعده، وإنما عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

والمعنى: ومن يطع الله ورسوله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه في الآيتين السابقتين وجميع السورة وكل ما أمر الله به أو نهى عنه.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ جواب الشرط السابق مجزوم.

قرأ نافع، وابن عامر وأبو جعفر: ﴿نُدْخِلْهُ﴾ بضمير العظمة «النون» في هذا الموضع والذي بعده.

وقرأ الباقون: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياء المثناة في الموضعين[٢].

﴿جَنَّٰتٍ﴾ جمع جَنَّة، بفتح الجيم، والجنة في الأصل هي البستان الكثير الأشجار والثمار.

وسمي البستان: جَنَّة؛ لأنه يجن أي يستر من كان فيه بأشجاره الكثيرة الملتفة، فالجيم والنون تدل على الستر[٣].

ومن هنا سمي الجنان- وهو القلب- : «جنانًا»؛ لأنه مستتر، وسُمِّي الأجنة- وهم من في البطون- : «أجنة»؛ لأنهم مستترون، وسُمِّي الجن: «جنًّا»؛ لأنهم أيضًا مستترون، وسمي الصوم: «جُنة»؛ لأنه يقي الصائم ويحول بينه وبين الوقوع في المعاصي، وسمي «المجن، أو الجُنّة» وهو ما يلبسه المحارب؛ لأنه يستتر به ويتقي من السهام، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢] أي: سترًا

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ٨٥).

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» ص (١٥٤)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٨٠)، «النشر» ٢/ ٢٤٨).

(٣) انظر: «المفردات في غريب القرآن»، «النهاية» «لسان العرب» مادة «جن»، «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٣- ٢٦٤).

ووقاية لأنفسهم وأموالهم.

والمراد بالجنات هنا: ما أعده الله لأوليائه المؤمنين من المنازل العظيمة في دار كرامته.

وإذا كان الأصل: أن الجنات هي البساتين، فشتان ما بين بساتين الدنيا وبين ما أعده الله لأوليائه في دار كرامته من النعيم الحسي والنعيم المعنوي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»(١).

وإلا فالحقائق تختلف، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ »(٢).

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعا فما الضدان يجتمعان(٣)

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (٤)، الجملة في محل نصب، صفة لـ«جنات»؛ لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال.

ومعنى ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي تجري وتسيل على أرض الجنة ومن تحت أشجارها وغرفها الأنهار، وليس المعنى أنها تجري من تحت أرضها، بل على وجه الأرض ليكمل لأهلها النعيم، في ظل وارف ظليل، وماءٍ جارٍ عليل، كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

يتمتعون بالشرب منها، والاغتسال فيها، وبرؤيتها مع أنواع المناظر والمآكل

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٥٧، ١١/ ٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤) والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

(٣) البيت لابن القيم. انظر «النونية» ص (١١).

(٤) هكذا جاءت في جميع الآيات في القرآن الكريم: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إلا في موضع واحد من سورة التوبة جاء فيه ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية (١٠٠).

والمشارب والملابس والمناكح وغير ذلك من ألوان النعيم، كما قال عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

والأنهار: جمع نهر، وهو الماء الكثير. وأنهار الجنة ليست من الماء فقط، بل كما قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهي تجري من غير أخدود(١)، يسيرونها كيف شاءوا من غير تعب ولا مشقة.

قال ابن القيم(٢):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان
من تحتهم تجري كما شاءوا مفجـ ... ـرة وما للنهر من نقصان

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من «مَن» الشرطية في قوله ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وجمع مراعاة لمعناها، بينما أفرد الفعل «يطع» والفعل «يدخله» مراعاة للفظها.

وجُمع «خالدين» إشارة إلى أن أهل الجنة يتنعمون فيها باجتماع بعضهم إلى بعض، الآباء والأبناء والذريات والأزواج والإخوة والقرناء، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

قال المعري(٣):

ولو أني حُبيت الخلد فردًا ... لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا

ومعنى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول فلا يموتون، ولا يفنون ولا يخرجون منها.

﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ذلك: إشارة لدخول الجنة، والخلود فيها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٧٠).

(٢) في «النونية» ص (٢٢٩).

(٣) انظر: «ديوانه» المسمى بسقط الزند ص (١٩٨).

﴿ٱلْفَوْزُ﴾: الربح، يقال: فاز فلان بمعنى ربح، أي: الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة للفوز، أي الربح العظيم كيفية من حيث كبره وضخامته وجلالته وتنوعه، وكمية من حيث كثرة عدده ودوامه.

ولا يمكن أن يقدِّر عظم هذا الفوز إلا الذي وصفه بالعظمة، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة ما أعده للمطيع، وأتبعه في هذه الآية بذكر ما أعده للعاصي، وقدم ذكر ما أعده للمطيع إشارة إلى أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، وتنبيهًا على أنه ينبغي أن يبدأ بالخير والوعد قبل الوعيد.

وبين هذه الآية والآية السابقة مقابلة.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الواو: استئنافية، و«من» شرطية.

﴿يَعْصِ﴾ فعل الشرط، مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة الياء.

و«يعص» ضد «يطع»، فبينهما طباق.

والمعصية: ضد الطاعة، وهي مخالفة الأمر، أو الوقوع في النهي، وذلك بترك الواجبات، وارتكاب المنهيات، فمن ترك الواجب فقد عصى، ومن فعل المحرم فقد عصى. هذا إذا جاءت المعصية مفردة عن الطاعة.

أي: ومن يعص الله ورسوله بمخالفة ما أمر الله به ورسوله في قسمة المواريث، وغير ذلك وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

وإنما عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه- عز وجل- بالواو في قوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لأن معصية الرسول ﷺ من معصية الله عز وجل.

﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾، الواو عاطفة، «يتعد» معطوف على فعل الشرط ﴿يَعْصِ﴾ مجزوم مثله، وعلامة جزمه حذف حرف العلة «الألف».

ومعنى «يتعد» يتجاوز، والحدود: جمع حد، والمراد بها هنا الأوامر، أي: ومن

يتجاوز أوامر الله[١]، بترك الواجب أو الغلو فيه.

قال بعض المفسرين، إذا قال الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[٢] فهي من حدود الأوامر كالصلاة والزكاة ونحوهما.

وإذا قال ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[٣] فهي من حدود النواهي كالزنا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال ابن القيم[٤]: «فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية، وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه فيكون لها حكم المقابلة، فبالاعتبار الأول نهي عن تعديها، وبالاعتبار الثاني نهى عن قربانها».

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ جواب الشرط: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

﴿نَارًا﴾، النار: هي الدار التي أعدها الله لأعدائه، وهي مضاعفة على نار الدنيا بتسعة وستين جزء، كما جاء في الحديث. عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم» قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية قال: «فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها»[٥].

﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾: «خالدًا» حال من اسم الشرط «من».

وجاءت الحال مفردة مراعاة للفظ «من»، إشارة إلى أن أهل النار كما يعذبون عذابًا حسيا بإصلائهم النار يعذبون أيضًا عذابًا معنويًا بكون كل واحد منهم يعذب منفردًا وحيدا[٦]، لا يرى أحدًا، ولا يراه أحد، وقد جاء في الأثر: «أن كلا منهم يوضع في

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٦).

(٢) كما في الآية (٢٢٩) من سورة البقرة.

(٣) كما في الآية (١٨٧) من سورة البقرة.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٩٩).

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق، (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٩)، ومالك في الجامع (١٨٧٢).

(٦) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٩٢).

تابوت من نار، لا يرى أن أحدًا أشد عذابًا منه».

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وأصل معنى الخلود الإقامة الأبدية، والمكث الدائم بلا انقطاع، وقد يستعمل للإقامة الطويلة المؤقتة بدليل أو قرينة تدل على ذلك.

كما قال زهير(١):

ألا لا أرى على الحوادث باقيًا ... ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

مع أن الجبال لا تدوم ولا تبقى، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥].

ويقال: «خلد الله ملكه» مع أنه لا شيء في الدنيا يدوم، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

والخلود في الآيتين هنا باق على الأصل، وهو الإقامة الأبدية الدائمة، التي لا تحول ولا تزول، وهو بالنسبة لأهل الجنة بلا خلاف، وهو الصحيح من قولي أهل العلم بالنسبة لأهل النار إذا حملت المعصية في الآية وتعدي حدود الله على الكفر. أما إذا حملت المعصية وتعدي حدود الله على ما دون الكفر فالمراد بالخلود الإقامة الطويلة دون الإقامة الأبدية.

﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، الضمير في قوله: (له) يعود لـ«من» في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، على مراعاة لفظها.

و«العذاب» هو النكال والعقوبة(٢)، وقوله: «مهين»، أي: يهينه ويخزيه ويذله؛ لأنه استهان بربه وعصاه وتعدى حدوده، فجوزي بالعذاب المهين؛ وذلك لهوانه على الله، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٤١).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «عذب».

قال ابن كثير[١]: «أي لكونه غيّر ما حكم الله به وضاد الله في حكمه؛ وهذا إنما يصدر عن عدم الرضى بما قسم الله، وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم».

وذلك لأن أهل النار- عياذًا بالله- يجمع لهم بين العذاب الحسي الجسمي، والعذاب المعنوي النفسي الذي ينصب على القلب، وهذا أشد من العذاب الجسمي.

فالعذاب الحسي الجسمي ما يقاسونه من آلام العذاب في أجسامهم بإدخالهم النار، وإصلائهم فيها، كما قال تعالى هنا: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وكما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

والعذاب المعنوي القلبي النفسي ما يلاقونه من الهوان والذل والخزي وتحطم المعنويات واليأس من الخروج من النار والانفكاك من العذاب ومن التقريع والتوبيخ لهم، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وكقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فجمع لهم بين العذاب الحسي الجسمي وبين العذاب المعنوي النفسي القلبي، وهذا غاية العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

وقال أبو حيان[٢]: «وقد تقل المبالاة بالشدائد ما لم ينضم إليها الهوان، ولهذا قالوا: «المنية ولا الدنية».

فالألم المعنوي أشد من الألم الحسي، ولو أن رجلين ارتكبا جرما فجيء بهما ومثلا أمام السلطان فضرب أحدهما خمسين سوطًا وأخرجه، ثم أجلس الآخر عنده وأخذ يعاتبه ويقول أنت أجرمت وفعلت كذا وكذا وبين فترة وأخرى يلتفت إليه ويقول نحو

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٠٣).

(٢) في «البحر المحيط» (٣/ ١٩٢) وانظر (٣/ ٢٤٧).

ذلك لتمني هذا أنه جلد مائة سوط وخرج مع صاحبه وسلم من هذا العتاب والتوبيخ، لما له من وقع على النفس والقلب.

ولهذا استُحب ختان الطفل وهو صغير؛ لأن الصغير لا يشعر إلا بالألم الحسي الجسمي، وليس لديه ألم نفسي قلبي، فإذا شعر بالألم صاح، وإذا سكن الألم سكت ونام، بخلاف ما لو ختن وهو كبير فإنه يجتمع عليه مع الألم الحسي الجسمي الألم النفسي القلبي كالخوف من بطء الشفاء وزيادة العلة، ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أعظم الوعيد والتهديد والتحذير والزجر عن المعاصي وتعدي حدود الله، وأن من فعل ذلك معاقب بما ذكر، كما أن من ترك ذلك لوجه الله أثيب.

أما من ترك ذلك عجزا عنه فهو معاقب قال ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه حريص على قتل صاحبه»(١).

الفوائد والأحكام:

١- وجوب قسمة المواريث على الوجه الذي شرع الله وحدده دون زيادة أو نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، فالمواريث من حدود الله التي لا يجوز تجاوزها ولا تعديها.

٢- تحريم المضارة بالوصية كالزيادة عن الثلث أو الوصية لوارث وبطلانها، وأنه لا يجوز للموصى له أخذها إلا بإجازة الورثة؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

٣- أن قسمة المواريث كما فرضها الله وقسمها من طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤- أن ما أمر الله به من أوامر، وما فرضه من فرائض في المواريث وغيرها، كل ذلك من حدود الله تعالى التي لا يجوز تجاوزها، بل تجب طاعته عز وجل فيها وطاعة

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٨)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٣٢٦٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٢٠)، وابن ماجه في الفتن (٢٩٦٥)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

رسوله؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٥- أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، وأن معصيته ﷺ معصية لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ حيث عطف عز وجل اسم الرسول أو وصفه ﷺ على اسمه سبحانه، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

٦- أنه يجوز في الأمور الشرعية العطف بالواو بذكر الرسول ﷺ مقرونا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، ومعصيته معصية لله- كما سبق- بخلاف الأمور الكونية القدرية، فلا يجوز العطف فيها بالواو؛ لأن الواو تقتضي الجمع والتشريك، وأمور الكون والقدر والمشيئة من خصائص ربوبيته عز وجل، وفعل العبد ومشيئته تبع لمشيئة الله تعالى ولهذا أنكر ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت» فقال: «جعلتني لله عدلًا، بل ما شاء الله وحده»(١)، وفي رواية «ليقل ما شاء الله ثم شئت»(٢). لأن مشيئة الرسول ﷺ ليست مستقلة، وإنما هي تابعة لمشيئة الله تعالى وهكذا مشيئة سائر الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩](٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رجلًا قال: يا رسول الله ما شاء الله وشئت. فقال: «جعلتني لله عدلًا، بل ما شاء الله وحده».

(٢) أخرجها ابن ماجه في الكفارات (٢١١٧) من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت» قال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) أما إنكاره ﷺ على الخطيب الذي قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى» الحديث أخرجه مسلم في الجمعة (٨٧٠)، وأبو داود في الصلاة (١٠٩٩)، والنسائي في النكاح (٣٢٧٩)، من حديث عدي بن حاتم أن رجلًا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله». فإنما أنكر عليه؛ لأنه اختصر الكلام في مقام يقتضي البسط والبيان، وهي الخطبة، وإلا فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: «إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية» أخرجه البخاري في المغازي (٤١٩٩)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٤٠)، والنسائي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الذبائح =

٧- إثبات البعث والقيامة والجزاء على الأعمال في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٨- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: (ندخله) بنون العظمة، التي بمعنى «نحن»؛ لأنه عز وجل هو العظيم ذو العظمة التامة، وليس في هذا دلالة على تعدد الآلهة كما يقوله النصارى الضلال- قبحهم الله- (١) بل هو الواحد الأحد الفرد الصمد، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

٩- الوعد لمن أطاع الله ورسوله بما أمر به في قسمة المواريث وغيرها بدخول الجنات والتمتع بما فيها من الأنهار وألوان النعيم مع الخلود الأبدي فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

فرتب عز وجل على طاعته هذا الثواب ترتيب المشروط على الشرط، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، بل هو أصدق القائلين، كما قال سبحانه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلا في الأحكام.

١٠- أن أهل الجنة يتنعمون بما فيها من الأشجار والفواكه والثمار والأنهار، وكونهم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، كما أنهم أيضًا يتنعمون باجتماعهم فيها، ولهذا جاءت الحال مجموعة في قوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

=

(٣١٩٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) انظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

١١- أن الجنة لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، ولا يبلى أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ هذا بإجماع المسلمين، قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة:٨](١).

١٢- أن دخول الجنات والتمتع بما فيها من الأنهار وألوان النعيم والخلود فيها هو الربح الذي لا ربح أعظم منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٣- تقديم الترغيب على الترهيب، لتقديم ذكر المطيعين لله ورسوله وثوابهم، على ذكر العصاة وعقابهم، وهذا هو الأصل؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه(٢)، وقد قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى(٣): «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا».

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»(٤).

١٤- انقسام الناس تجاه أوامر الله ونواهيه إلى ثلاثة أقسام: المطيعون لله ورسوله الممتثلون للأوامر، المنتهون عن النواهي، والعصاة لله ورسوله، وهم مرتكبو المحرمات. والقسم الثالث: المتعدون لحدود الله بترك الواجبات أو الغلو فيها.

١٥- تحريم قسمة الميراث على غير ما فرض الله، أو الوصية لوارث أو الوصية

---

(١) ذكر الله خلود أهل الجنة فيها في أكثر من أربعين موضعا في القرآن الكريم، وذكر أبدية نعيمهم في تسعة مواضع: موضعان في سورة النساء الآيتان (٥٧، ١٢٢)، وفي سورة المائدة الآية (١١٩)، وفي سورة التوبة الآيتان (٢٢، ١٠٠)، وفي سورة الكهف الآية (٣)، وفي التغابن الآية (٩)، وفي سورة الطلاق الآية (١١)، وفي سورة البينة الآية (٨).

(٢) لما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي» أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩).

(٣) وذلك حين بعثهما إلى اليمن أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وأبو داود في الأشربة (٣٦٨٤)، والنسائي في الأشربة (٥٥٩٥) وابن ماجه في الأشربة (٣٣٩١)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤).

بأكثر من الثلث؛ لأن ذلك من تعدي حدود الله.

١٦- أن من عصى الله ورسوله في ارتكاب ما نهى الله عنه، وتعدى حدوده التي أوجبها بتركها، أو بالغلو فيها، وغيّر ما حكم الله به، ولم يرض بما قسم الله، وحكم به، فإن له النار خالدا فيها وله عذاب مهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

١٧- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، ولا يبلى أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ لأن الأصل في الخلود البقاء الدائم بلا انقطاع. وهذا إذا كان المراد بالمعصية وتعدي الحدود في قوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ العاصي معصية مطلقة والمتعدي للحدود تعديا مطلقًا، وهو الكافر فإن هذا يخلد في النار خلودًا أبديًا.

أما إذا كان المراد بالمعصية وتعدي الحدود ما دون الكفر، فإن الآية تدل على أن من عصى الله وتعدى حدوده- على هذا المعنى- متوعد بدخول النار والمكث الطويل فيها والعذاب المهين إن لم يعف الله عنه؛ لأن الخلود قد يطلق على المكث الطويل- كما سبق بيانه؛ ولأن أهل المعاصي من المؤمنين تحت المشيئة، إن شاء الله عفا عنهم ولم يدخلهم النار، وإن شاء أدخلهم النار، وعذبهم بقدر ذنوبهم وأخرجهم منها بعد تطهيرهم، وأدخلهم الجنة، ولا يخلد في النار إلا الكفار.

وقد ذكر الله عز وجل خلود أهل النار فيها خلودا أبديًّا في ثلاث آيات من كتابه، وهي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الآيتان: ١٦٨، ١٦٩].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥].

وقوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣].

إضافة إلى الآيات التي ذكر الله فيها خلودهم في النار غير مقرون بذكر الأبدية في أكثر من أربعين موضعا في القرآن الكريم؛ لأن الأصل في معنى الخلود هو الإقامة الأبدية، ما لم يقم دليل على أن المراد به غير ذلك.

وقيل: إن النار تفنى ويفنى عذابها(١)، وبهذا قال المعتزلة. ومما استدل به لهذا القول:

قوله تعالى في أهل النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

فقالوا: لو كانت النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها لذكر بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ما يدل على أبديتها كما قال عن نعيم أهل الجنة ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨](٢).

والصحيح الذي عليه جمهور أهل العلم القول الأول لدلالة القرآن على ذلك.

١٨- أن أهل النار يقاسون حرها، مع العذاب المهين طيلة خلودهم في النار، ولا يحترقون فيفنون أو يكونون جهنميين أو تكون طبيعتهم طبيعة نارية؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فلو كانوا يحترقون فيفنون أو يكونون جهنميين لم يكن لخلودهم فيها معنى، وقد قال الله- عز وجل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧](٣).

١٩- أنه يجمع لأهل النار- عياذًا بالله- بين العذاب الحسي الجسمي بإدخالهم النار وإصلائهم فيها، وبين العذاب المعنوي النفسي القلبي؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

---

(١) انظر: «شفاء العليل» لابن القيم (ص٢٥٥).

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٦٢٠- ٦٢٩).

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٦٢٤- ٦٢٥).

لأنه لا عز لهم ولا كرامة بوجه من الوجوه، بل لهم العذاب المؤلم لأجسادهم المهين لقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

وقال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٠- ٢٢].

٢٠- أهمية حقوق الخلق والتوكيد على وجوب إيصالها إلى أهلها، يدل على هذا قوله تعالى بعد أن ذكر قسمة الفرائض: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٢١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، فقد ذكر الله المطيعين وما أعده لهم، وذكر العصاة وما أعد لهم جمعًا بين الترغيب والترهيب، كما هي طريقة القرآن، ليجمع العبد بين الخوف والرجاء في طريقه إلى الله قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

قال ابن القيم(١): «أكمل الأحوال اعتدال الخوف والرجاء كجناحي الطائر، لكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف...».

وإن من أعظم ما يعين على طاعة الله تعالى والبعد عن معصيته التفكر في عظمة الله تعالى ونعمه على العباد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٥٧٠).

تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

ومما يعين على ذلك أيضًا تأمل الإنسان في ضعفه، كما قال عز وجل: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨] فيوجب له هذا التأمل في ضعفه اللجوء إلى القوي العزيز سبحانه وتعالى.

وكذلك التفكر في حقارة الدنيا وأنها متاع قليل، ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء(١).

والتفكر في عظمة الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

* * *

(١) كما جاء في الحديث أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «صحيح غريب». وصححه الألباني.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

بين الله عز وجل في الآيات السابقة وجوب أداء حقوق النساء والعدل بينهن وتوريثهن، ثم أتبع ذلك بالتغليظ عليهن إذا فعلن فاحشة وتأديبهن؛ لأن ذلك من الإحسان إليهن وتقويمهن.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ الواو للاستئناف، و(اللاتي): اسم موصول، مبني في محل رفع مبتدأ، وهي جمع «التي» على المعنى دون اللفظ، أي: لم يراع فيها ما يراعي في جمع المؤنث السالم؛ لأنه غير مشتق.

ويقال فيها: «اللائي» كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ [الطلاق: ٤].

﴿يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، أي: يفعلن ويرتكبن ويغشين الفاحشة، والفاحشة في الأصل مأخوذة من الفحش، وهو كل ما تناهى وظهر قبحه في الشرع وعرف المسلمين من قول أو فعل، كالقذف والسب، وكالقتل العمد، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وكالزنا واللواط، وغير ذلك.

ذَكَر تعالى عن لوط أنه قال لقومه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

والمراد بالفاحشة في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ الزنا[1]؛ لأن «ال» للعهد

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٧٣)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٦)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٨٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٤).

الذهني[١]، أي الفاحشة المعهودة المعروفة شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولقوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾؛ فإن الفاحشة التي تقع من النساء هي الزنا.

وبهذا فسر الآية عامة المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[٢].

﴿مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ «من» بيانية، فيها بيان للاسم الموصول «اللاتي».

والمراد بقوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ جنس النساء، أي اللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم المسلمات، سواء كن زوجات أو بنات أو أخوات أو غيرهن من نسائكم أيها المسلمون، وسواء كن محصنات أو غير محصنات؛ لعموم قوله: ﴿وَٱلَّٰتِى ﴾.

﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ خبر المبتدأ: ﴿وَٱلَّٰتِى ﴾، واقترنت به الفاء؛ لأن المبتدأ اسم موصول يشبه الشرط في العموم.

والخطاب لولاة الأمر، أي: اطلبوا عليهن، أي: على اللاتي أتين الفاحشة من نسائكم.

﴿أَرْبَعَةً ﴾ أي: أربعة رجال ذكور؛ لأن العدد «أربعة» مؤنث فيكون معدوده مذكرًا[٣]، فلا تقبل في هذا شهادة النساء، فلو شهد ثلاثة رجال وامرأتان لم يثبت بهذه

---

(١) العهد الذهني إذا كان الشيء معهودا في الذهن كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٦٩]، فالرسول هو الرسول المعهود نبينا محمد ﷺ الذي أنزل عليه القرآن وهناك العهد الذكري إذا كانت الإشارة لشيء قد ذكر كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] وهناك العهد الحضوري إذا كان المراد به الشيء الحاضر كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] وغالبًا ما يأتي بعد اسم الإشارة كقوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] لأن اسم الإشارة للقريب يدل على شيء حاضر.

(٢) وقد ذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أن المراد بالفاحشة هنا: السحاق بين النساء. وقوله باطل؛ لأن القرآن إنما أطلق الفاحشة على الزنا واللواط وعلى هذا عامة المفسرين فقوله هذا خلاف ما عليه إطلاق القرآن، وخلاف ما عليه عامة المفسرين من أن المراد بالفاحشة هنا الزنا، ولعل الذي دفعه إلى هذا القول الشاذ الفرار من القول بنسخ الآية، وهو ممن لا يرى وقوع النسخ في القرآن انظر «التفسير الكبير» (٩/ ١٨٧)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٠١)، «البحر المحيط» (٣/ ١٩٤).

(٣) القاعدة النحوية أن العدد ما بين ثلاثة إلى تسعة إن كان مؤنثًا فمعدوده- أي: تمييزه- يكون مذكرًا، فنقول: ثلاثة رجال، وتسعة رجال..، وإن كان العدد مذكرًا فمعدوده وتمييزه يكون مؤنثًا، فنقول: ثلاث نساء، وتسع نساء.

الشهادة شيء، بل يقام على الجميع حد القذف، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

﴿مِّنكُمْ﴾: أيها المسلمون، فلابد أن يكون الشهود كلهم مسلمين، ولابد أن يكونوا عدولًا مكلفين قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

والمعنى: اطلبوا عليهن شهودًا أربعة من رجالكم أيها المسلمون يشهدون بأنهن أتين الفاحشة، أي: زنين، وليس الأمر بطلب الشهود هنا أمر إيجاب أو ندب للبحث عن الشهود وطلبهم، وإنما معناه أنه لابد لثبوت العقوبة عليهن من أن يشهد عليهن أربعة منكم.

﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾، الفاء استئنافية، و«إن» شرطية، و«شهدوا» فعل الشرط، أي: فإن شهد هؤلاء الأربعة الشهود منكم، بأنهن أتين الفاحشة، أي: زنين.

وفي قوله ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ بعد قوله ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ توكيد على أن الشهادة لابد أن تكون صريحة لا تعريض فيها، ولا كناية.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية، و«أمسكوهن» جواب الشرط.

أي: احبسوهن في البيوت وامنعوهن عن الخروج، والخطاب لولاة الأمر من القضاة والأمراء.

والبيوت: جمع بيت، وهو موضع السكن.

والمعنى احبسوهن في البيوت، وامنعوهن من الخروج، حتى لا يخرجن فيفتن الرجال، ويفتتن بالرجال، ففي حبسهن درء لأسباب الفتنة، وتقليل من الوقوع في الفاحشة، وعقوبة لهن أيضًا.

﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ لابتداء الغاية، وما بعدها غاية لما قبلها.

﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾ منصوب بأن مضمرة بعد «حتى»، أي: حتى يقبضهن الموت، أي: ملك الموت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

وسُمي الميت متوفًّى؛ لأنه قد وُفِّي رزقَه وأجلَه وعملَه، فلم يبق له شيء في هذه

الحياة.

و«الموت»: هو فقد الحياة، وذلك بخروج الروح ومفارقتها للبدن، وكل من الحياة والموت سر من أسرار الله في خلقه لم يستطع البشر ولن يستطيعوا معرفة كنه ذلك وحقيقته.

﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، «أو» حرف عطف، والفعل «يجعل» منصوب عطفًا على الفعل «يتوفى» وهو بمعنى «يصير» ينصب مفعولين.

والجعل: نوعان شرعي وكوني، وهذا من الجعل الشرعي، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

ومن الجعل الكوني قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وغير ذلك.

﴿لَهُنَّ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول ثان لـ «يجعل».

﴿سَبِيلًا﴾ مفعول به أول لـ«يجعل»، أي: طريقًا ومخرجا للنجاة والخلاص من هذا الإمساك، ومما وقعن فيه.

أي: أو يجعل الله لهن حكمًا شرعيًا آخر يكون طريقًا ومخرجا من هذا الإمساك فمنتهى الإمساك، ونهايته أن يمتن، أو يجعل الله لهن طريقًا، وقد جعل الله لهن سبيلًا بما شرعه من جلد الزاني غير المحصن وتغريبه، ورجم المحصن(١).

قال ﷺ: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»(٢).

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ قرأ ابن كثير «واللذانِّ» بتشديد النون، وقرأ الباقون بتخفيفها ﴿وَٱلَّذَانِ﴾(٣)، وهي تثنية «الذي»، وهو مبتدأ.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٧٣- ٧٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٠)، وأبو داود في الحدود (٤٤١٦، ٤٤١٧) والترمذي في الحدود (١٤٣٤) من حديث عبادة بن الصامت وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٠)، وأحمد (٥/ ٣١٣، ٣١٧).

(٣) انظر: «المبسوط» ص (١٥٥)، «الكشف» (٣٨١٨)، «النشر» (٢/ ٢٤٨).

﴿وَٱلَّذَانِ﴾ في هذه الآية في مقابلة ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ في الآية قبلها، فبينهما «طباق» فاللاتي للمؤنث، واللذان للمذكر، وإن كان بينهما اختلاف من حيث كون الأول مجموعا، والثاني مثنى.

﴿يَأْتِيَٰنِهَا﴾، الضمير يعود إلى الفاحشة، والمراد: الفاحشة بين الذكور، وهي اللواط، قال مجاهد: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ قال: «الرجلان الفاعلان لا يكني»[1].

ولهذا ذكرهما بلفظ التثنية في قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ وفي قوله: ﴿يَأْتِيَٰنِهَا﴾ أي الفاعل والمفعول به، وأضاف الإتيان إلى المفعول به مع أنه مأتي، لرضاه بذلك، والراضي كالفاعل قال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[2].

قال ابن كثير[3]: «قال مجاهد: «نزلت في الرجلين إذا فعلا لا يكني» وكأنه يريد اللواط والله أعلم».

وقيل: المراد بـ«اللذان»: الزانيان ، والضمير في «يأتيانها» يراد به: فاحشة الزنا.

واللواط أشد فحشا، وأعظم عقوبة من الزنا؛ لهذا ذكر الله عز وجل فاحشة الزنا بدون تعريف فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، أي: فاحشة من الفواحش.

بينما جاء تسمية اللواط بالفاحشة معرفا بال في جميع المواضع التي جاء فيها ذكره في القرآن الكريم قال لوط عليه السلام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم

---

(١) أخرجه الطبري الأثر (٨٨١٤)، وانظر «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٧٥- ٣٧٦).

(٢) أخرجه من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أبو داود في الحدود (٤٤٦٢)، والترمذي في الحدود (١٤٥٦)، وقال «حديث حسن»، وابن ماجه في الحدود (٢٥٦١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٥) وصححه ووافقه الذهبي. قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٥/ ٤٠- ٤١) «وإسناده صحيح» وقد أخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة ابن ماجه الحديث (٢٥٦٢) والحاكم (٤/ ٣٥٥) وسنده ضعيف لكنه يصلح في الشواهد. قال الألباني: «حسن صحيح»؟

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٠٥).

بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

وذلك أن اللواط، وهو أن يفعل الذكر بالذكر لا يحل أبدًا في حال من الأحوال، وهو أمر في غاية الاستهجان. قال الوليد بن عبد الملك: «لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا»(١).

بخلاف وطء الذكر للأنثى، فإنه يحل إذا كان بنكاح شرعي، أو بملك يمين.

وأيضًا: فإن اللواط يصعب الاحتراز منه؛ لأن الذكر لا يستنكر أن يُرى مع الذكر، بخلاف الزنا فإن الاحتراز منه ممكن؛ لأنه يستنكر رؤية الأنثى مع الذكر، ما لم تكن من محارمه.

ولهذا كان حد اللواط قتل الفاعل والمفعول به مطلقًا؛ محصنًا كان أو غير محصن.

وأجمع العلماء على أن حده القتل وإن اختلفوا في كيفية ذلك هل يقتل بالسيف أو يرجم بالحجارة أو يلقى من شاهق أو غير ذلك.

﴿مِنكُمْ﴾ «من» بيانية، فيها بيان الاسم الموصول «اللذان»، أي: منكم أيها الرجال المسلمون.

وهذا مما يدل على أن المراد بالضمير في قوله ﴿يَأْتِيَٰنِهَا﴾ فاحشة اللوط بين الذكور(٢).

بينما المراد بالآية الأولى الزانيات من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ وهذا أقرب الأقوال.

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن المراد بالفاحشة في الآيتين: فاحشة الزنا، لكنهم اختلفوا في توجيه الآيتين على هذا:

فمنهم من قال: المراد بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الزانيات من النساء محصنات وغير محصنات والمراد بقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ الزانيان من الرجال المحصن وغير المحصن.

وقيل المراد بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ النساء عمومًا، ﴿وَٱلَّذَانِ﴾: الرجل والمرأة معًا، وعلى هذا تكون عقوبة النساء: الحبس والأذى، وعقوبة الرجال: الأذى فقط.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ١٦٣ طبعة دار الفكر).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٧٥- ٣٧٦)، «الكشاف» (١/ ٢٥٦)، «تفسير المنار» (٤/ ٤٣٨).

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾: النساء المحصنات خاصة ويدخل معهن الرجال المحصنون.

والمراد بقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾: البكران من الرجال والنساء.

وقيل الآية الأولى في السحاق بين النساء، والآية الثانية في اللواط بين الرجال، وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني(١).

وأقرب الأقوال وأظهرها في تفسير الآيتين القول بأن الآية الأولى في فاحشة الزنا والآية الثانية في اللواط(٢).

ويحتمل أن يراد بالفاحشة في الآيتين فاحشة الزنا، وتكون الآية الأولى في الزانيات من النساء مطلقًا، محصنات وغير محصنات، والآية الثانية: في الزناة من الرجال، المحصن وغير المحصن.

وأما بقية الأقوال فهي ضعيفة، بل القول الأخير منها باطل، وهو القول بأن الآية الأولى في السحاق بين النساء، وذلك أن ذكر السحاق لم يرد في القرآن الكريم ولم يذكر هذا القول عن أحد من سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ولا من جاء بعدهم من المفسرين إلا عن أبي مسلم الأصفهاني، وقد يكون حمله على هذا التأويل البعيد الهروب من القول بوقوع النسخ في القرآن، ظنًا منه أنه يلزم على القول بأنها في الزنا القول بأنها منسوخة.

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ خبر المبتدأ ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ ودخلت عليه الفاء لمشابهة الموصول للشرط.

أي: افعلوا معهما وقولوا لهما ما يكون فيه أذية لهما بالقول؛ بالسب والتعيير والتوبيخ، وبالفعل؛ بالضرب باليد والنعال، ونحو ذلك، وبالإعراض عنهما هجرا لهما

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٨١، ٨٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٠٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٥، ٣٦٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٩٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٥).

(٢) إلا أنه قد يشكل على هذا أن حكم الزاني الرجل لا ذكر له على هذا القول، وقد يقال إنما اقتصر على ذكر حكم الزانيات من النساء فقط لأنهن السبب غالبًا في وقوع هذه الفاحشة إذ لو امتنعت المرأة من ذلك ولزمت بيتها لم تقع الفاحشة.

وتعزيرًا ونحو ذلك(١).

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾، الفاء استئنافية، و«إن» شرطية، ﴿تَابَا﴾ فعل الشرط، والتوبة في الأصل: الرجوع والإنابة إلى الله تعالى، أي: رجعا عما فعلا من الفاحشة، وأنابا إلى الله.

﴿وَأَصْلَحَا﴾، الصلاح بالنسبة لكل شيء بحسبه، أي: أصلحا حالهما وعملهما في البعد عن الفاحشة وأسبابها في المستقبل الدال على صدق توبتهما.

وصلاح العمل وإصلاحه: أن يكون خالصًا لله، وفق ما شرع الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾، أي: كفوا عنهما، واتركوهما، ولا تتعرضوا لهما بأذى لا بقول، ولا بفعل؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

هذه الجملة تعليل لقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾، أي: فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عن أذاهما؛ لأن الله من صفته عز وجل التوبة على من تاب إليه والرحمة له ولعباده المؤمنين.

و«كان» هنا مسلوبة الدلالة على الزمن، تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها مطلقًا، أي غير مقيد بوقت، أي: إنه عز وجل متصف بالتوبة والرحمة أزلا وأبدًا.

﴿تَوَّابًا﴾ صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على إثبات صفة التوبة الواسعة الكثيرة لله- عز وجل- وكثرة من يتوب عليهم من عباده، وفي الحديث: «إن الله يبسط يده في الليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

وتوبة الله على عبده نوعان:

الأول: توفيق منه عز وجل للعبد للتوبة، كما قال تعالى في قصة الثلاثة الذين

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٨٤- ٨٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

خلفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، أي ثم: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والنوع الثاني: قبوله عز وجل لتوبة عبده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

قال ابن القيم(١):

وكذلك التواب من أوصافه ... والتوب في أوصافه نوعان
إذن بتوبة عبده وقبولها ... بعد المتاب بمنة المنان

﴿رَحِيمًا﴾، أي: ذا رحمة واسعة؛ رحمة ذاتية هي صفة ثابتة له سبحانه، كما قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

فهو عز وجل رحيم رحمة عامة لجميع الخلق، ورحيم رحمة خاصة بالمؤمنين تتصل بها سعادة الدنيا بسعادة الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

ومن رحمته بهم شرع لهم التوبة، ووفقهم لها، وقبلها منهم.

الفوائد والأحكام:

١- حرص الدين الإسلامي على حفظ الأعراض وصيانتها بما رتب من العقوبات على مرتكبي الفواحش.

٢- أن الزنا من أعظم الذنوب وأكبرها؛ لأن الله سماه بالفاحشة ورتب عليه ما رتب من العقوبة فقال: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

٣- الإشارة إلى أن السبب لوقوع فاحشة الزنا هو النساء؛ لأن الله قدم ذكرهن(٢)

---

(١) في «النونية» ص (١٥٠).

(٢) بل إن الزاني من الرجال لم يذكر في الآيتين جميعًا على قول بعض أهل العلم: إن المراد بالآية الأولى الزانيات من النساء، والمراد بالآية الثانية اللواط بين الرجال وهو أظهر الأقوال.

فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ ؛ لأن المرأة لو امتنعت من ذلك وقرت في بيتها لما وقعت الفاحشة غالبًا، ولهذا قدم الله ذكر الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ٢].

٤- أن حد الزنا إنما يقام على من زنى من نساء المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ والخطاب للمسلمين.

٥- لابد في بينة الزنا من شهادة أربعة رجال؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾، ولا تقبل فيه شهادة النساء مطلقًا، فلو شهد ثلاثة رجال وامرأتان لم يثبت حد الزنا، بل يقام على الشهود حد القذف، كما قال تعالى في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ [النور: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

وهذا إجماع(١)، وهو حكم ثابت فيمن قبلنا من أهل الكتاب، ففي حديث جابر بن عبدالله في قصة مجيء اليهود للنبي ﷺ باللذين زنيا أن رسول الله ﷺ قال: «ائتوني بأعلم رجلين منكم»، فأتوه بابني صوريا فنشدهما: «كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟»، قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رُجِما، فدعا النبي ﷺ بالشهود فجاؤوا بأربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما(٢).

وقد قاس بعض أهل العلم على هذا شهادته على نفسه، فقالوا: لا يقام عليه الحد حتى يشهد على نفسه أربع شهادات، واستدلوا بما رواه جابر في قصة ماعز وأن الرسول ﷺ لم يرجمه حتى أقر على نفسه أربع مرات(٣).

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٣٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٥- ٣٥٦)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٥/ ٢٩٧، ٢٨/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٥٢)، وصححه الألباني وأخرجه مختصرًا جدًّا مسلم في الحدود (١٧٠١).

(٣) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٢٩)، وقال: «حديث حسن صحيح» وأخرجه أيضًا (١٤٢٨)، وكذا ابن ماجه في الحدود (٢٥٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن» =

وقال طائفة من أهل العلم: يكفي أن يشهد على نفسه ويقر عليها مرة واحدة وهو الصحيح؛ لقوله ﷺ: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها»(١)، ولم يقل: فإن اعترفت أربع مرات(٢).

ومثل الزنا اللواط فلابد فيه من أربعة شهود(٣).

٦- لابد أن يكون الشهود على الزنا من المسلمين، وأن يكونوا مكلفين؛ لقوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾، فالخطاب للمسلمين المكلفين، وهم العقلاء البالغون.

٧- لابد أن يكون الشهود عدولًا؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ لأن هذا الخطاب للصحابة وكلهم عدول، وهذا الإطلاق محمول أيضًا على العدالة كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢](٤)، فهذا عام في جميع الشهود، لا سيما الشهادة على هذا الأمر العظيم، وهو الزنا.

٨- الإشارة إلى أن الرجال أقوى في الشهادة من النساء وأثبت؛ لأن الله لم يعتبر في الزنا إلا شهادة الرجال. وقد جاء ما يدل على هذا صراحة في الإشهاد على الدين إلى أجل مسمى، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٩- لابد أن تكون الشهادة على الزنا صريحة من غير تعريض ولا كناية؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ بعد أن قال: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ فلابد أن يشهد كل من الشهود شهادة صريحة بأنه رأى ذكر الرجل داخل فرج المرأة، كما يرى الميل في المكحلة- كما سبق في حديث جابر- رضي الله عنه- فلا يكفي أن يقول: رأيت ذكره بين فخذيها؛ ولهذا لما شهد ماعز على نفسه بالزنا أربع مرات لم يكتف منه ﷺ إلا

=

وقال الألباني: «حسن صحيح».

(١) سيأتي تخرجه قريبًا.

(٢) انظر: «الأم» (٦/ ١١٩- ١٢١)، «اختلاف الحديث» ص (٢٥١)، «المغني» (١٢/ ٣٥٤، ٣٥٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٣).

(٣) «انظر الطرق الحكمية» ص (١٦٣)

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٨٣- ٨٥).

بالتصريح حتى إنه قال له: «أنكتها»؟ لا يكني. قال: نعم. قال: حتى غاب ذلك منك فيها؟ قال: نعم. قال: كما يغيب المرود في المكحلة والرشا في البئر؟قال: نعم. قال: هل تدري ما الزنا؟ قال: نعم، أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من أهله حلالًا. قال: فما تريد بهذا القول؟ قال: أريد أن تطهرني، فأمر به فرجم»(١).

١٠- درء الحدود بالشبهات؛ لأن الله اشترط لإثبات الشهادة في الزنا شهادة أربعة رجال، فلا يكفي فيها ثلاثة رجال، ولا تقبل فيها شهادة النساء مطلقًا، لا بانفرادهن، ولا مع ثلاثة رجال، واشترط فيها أن تكون شهادة صريحة، فلا يقام الحد إلا إذا ثبت الزنا ثبوتًا قطعيا بالشهود الأربعة، أو الإقرار من الزاني نفسه بلا تردد، وليس معنى درء الحدود بالشبهات تعطيل الحدود إذا ثبتت.

١١- أن تعمد النظر إلى الفرج لا يقدح إذا كان لأجل الشهادة على الزنا(٢).

١٢- أنه ليس لنا أن نبحث عن الشهود لإثبات الشهادة على الفاحشة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾، أي: فإن جاؤوا طوع اختيارهم، وشهدوا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾.

وفي هذا بيان أن المراد بقوله قبل هذا ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ أنه لابد لإثبات الفاحشة من الشهود، وليس المعنى أننا نبحث عنهم، ونقول: من يشهد على فلانة أو على فلان، فهذا خلاف مقصود الشرع، وهو درء الحدود بالشبهات، ولهذا اشترط لثبوت الحد أربعة شهود رجال، وأمر بجلد من دون الأربعة حد القذف، وردد رسول الله ﷺ ماعز بن مالك عدة مرات وقد جاء مقرا على نفسه، وقالت الغامدية: «أتريد أن ترددني كما رددت ماعزا»(٣).

١٣- حرص الدين الإسلامي على صيانة الأعراض وحمايتها، حيث اشترط لثبوت حد الزنا شهادة أربعة رجال شهادة صريحة. فإن كانوا دون الأربعة أقيم عليهم حد القذف، وذلك صيانة للأعراض وسترا على العباد وتغليظا على المدعي؛ ليجعل ذلك سدًّا منيعًا دون إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، ولو لم يكن ذلك كذلك، لأطلق

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في الحدود (٤٤٢٨)، من حديث أبي هريرة.
وقد أخرجه بمعناه مسلم في الحدود (١٦٩١)، والترمذي في الحدود (١٤٢٨).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٩٥).

(٣) سيأتي قريبًا تخريج حديث ماعز والغامدية. وانظر «زاد المعاد» (٥/ ٣٣).

أناس ألسنتهم بأعراض بريئة، ولأصبحت كثير من البيوت مهجورة لا تخطب نساؤها ولا يزوج رجالها، «كيف وقد قيل».

ولهذا ذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله في زمنه: «إنه لم يثبت حد الزنا بالشهادة إلى يومنا هذا»(١).

وقد يقول قائل: حصول الشهادة بهذه الكمية والكيفية فيه من الصعوبة ما فيه، فيقال: إن المشرع حكيم، وكل غيرة لا تتفق مع شرع الله فهي باطلة، وقد قال ﷺ لما قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؛ لأنا أغير منه، والله أغير مني»(٢).

وليس الدين بالرأي. ولو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه. كما قال علي- رضي الله عنه(٣).

١٤- حبس الزانية حتى تموت؛ عقوبة لها، ومنعا لأسباب الفتنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾، وكان هذا حكم الزانية في أول الإسلام، وهذا يدل على أن للعقوبة بالحبس مدى الحياة أصلًا في الشرع، لكنه انتهى العمل به بما جعله الله لهن من السبيل.

١٥- أن بيوت النساء خير لهن، وأسلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾.

وفي الحديث: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن»(٤).

وإذا كانت بيوتهن خيرًا لهن من الخروج للمساجد، فهي خير لهن من الخروج لغير

---

(١) انظر: «الشرح الممتع» لابن عثيمين (١٤/ ٢٧١)، «تفسير القرآن الكريم» له (١/ ١٢٧- ١٢٨ تفسير سورة النساء). وعلى صحة هذا عن ابن تيمية فمن الممكن أن حديث جابر السابق في قصة اليهوديين اللذين زنيا، لم يثبت عنده، أو أن مراده أنه لم يثبت في هذه الأمة، أو غير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٤٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩)، والدارمي في النكاح (٢٢٢٧)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة (١٦٢)، والدارمي في الطهارة (٧١٥) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، وأبو داود في الصلاة (٥٦٦، ٥٦٧) والنسائي في المساجد (٧٠٦)، والترمذي في الجمعة (٥٧٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٦)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

المساجد من باب أولى.

١٦- دل مفهوم قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ على أن المرأة لها الخروج من بيتها، وهذا هو الأصل إلا إذا ترتب على ذلك فتنة ومفسدة، فإنها تمنع من الخروج، وكذا إذا توفي عنها زوجها فإنها تبقى في بيتها مدة العدة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

١٧- إثبات الجعل الشرعي لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، أي: أو يجعل الله لهن مخرجًا شرعيًّا مما وقعن فيه.

وهذا يدل على ثبوت الأفعال الاختيارية لله عز وجل، وأنه تعالى لم يزل ولا يزال فعالا لما يريد أزلا وأبدًا خلافًا للأشاعرة والمعتزلة ومن سلك سبيلهم، الذين نفوا أن يوصف الله بصفة حدوثية أبدًا، قالوا: لأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، وهذا قول باطل وتعليل عليل؛ لأن قيام الحوادث به سبحانه وأنه يفعل ما يريد يدل على كماله وكمال حياته(١).

١٨- أن العقوبة بالإمساك في البيوت ليست منسوخة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾؛ لأن الله جعل هذا الحكم ممتدًّا إلى غاية، وهي أن يجعل الله لهن سبيلًا، فمتى جعل الله لهن هذا السبيل انتهى العمل بالحكم الأول، وهذا لا يسمى نسخًا على الصحيح.

قال القرطبي(٢): «وهو نحو قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فإذا جاء الليل ارتفع حكم الصيام؛ لانتهاء غايته لا نسخه، وهذا قول المحققين من المتأخرين من الأصوليين، فإن النسخ إنما يكون في القولين المتعارضين من كل وجه، اللذين لا يمكن الجمع بينهما... وإطلاق المتقدمين النسخ على مثل هذا تجوّز».

وقد جعل الله لهن سبيلًا بما شرع من جلد الزاني غير المحصن وتغريبه ورجم

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله- على هذا في فوائد هذه الآية في «تفسيره» (١/ ١٢٨- ١٢٩ تفسير سورة النساء).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٨٥).

المحصن.

قال تعالى في حكم غير المحصن: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني- رضي الله عنهما- في قصة العسيف أن النبي ﷺ قال: «وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ ضرب وغرب، وأن أبا بكر ضرب وغرب، وأن عمر ضرب وغرب»(٢).

أما رجم الزاني المحصن(٣) فكما في الآية التي نسخ لفظها وبقي حكمها، كما ثبت في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «إن الله بعث محمدًا

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٦)، ومسلم في الحدود (١٦٩٧، ١٦٩٨)، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤١٠، ٥٤١١)، والترمذي في الحدود (١٤٣٣)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٣٨) من طريق عبدالله بن إدريس عن عبدالله عن نافع عن ابن عمر: «أن النبي ﷺ ضرب وغرب وأن أبا بكر ضرب وغرب، وأن عمر ضرب وغرب».
قال الترمذي «حديث ابن عمر حديث غريب رواه غير واحد عن عبدالله بن إدريس فرفعوه. وروى بعضهم عن عبدالله بن إدريس هذا الحديث عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر: «أن أبا بكر ضرب وغرب وأن عمر ضرب وغرب». وهكذا روى هذا الحديث من غير رواية ابن إدريس عن عبيد الله بن عمر نحو هذا وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر أن أبا بكر ضرب وغرب وأن عمر ضرب وغرب ولم يذكروا فيه عن النبي ﷺ». وقد صحح هذا الحديث الألباني.
وعلى القول بالتغريب جمهور أهل العلم الخلفاء الأربعة والأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وهو الصحيح لهذه الأدلة وغيرها، واختلفوا في تغريب المرأة والأمة والعبد على قولين.
وقال بعض أهل العلم بترك التغريب مطلقًا، واستدلوا بحديث أبي هريرة «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ثم إذا زنت فليجلدها» الحديث ولم يذكر التغريب، وسيأتي تخريجه.
وأجيب عنه بأنه خاص بالإماء، وأيضًا فقد غرب بعض السلف إماءهم في الزنا، كما استدلوا بأن عمر غرب عمر بن أبي ربيعة في الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل فتنصر فقال عمر: لا أغرب مسلمًا بعد هذا. وأجيب عن هذا بأنه في الخمر. انظر: «المبسوط» للسرخسي (٩/ ٤٣)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٠٥، ٤٠٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٨- ٣٥٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٨٧- ٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣٣).

(٣) المحصن: هو من وطئ وهو حر مكلف لمن تزوجها بنكاح صحيح في قبلها ولو مرة واحدة. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣٤).

بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكان فيما أنزل آية الرجم[١]، قرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله»[٢].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني- رضي الله عنهما- في قصة العسيف: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها. فاعترفت ورجمها»[٣].

وقد رجم ﷺ ماعز بن مالك[٤]، والغامدية[٥]، واليهوديين[٦]، ورجم المسلمون بعده.

---

(١) جاء في بعض الروايات أن لفظ هذه الآية «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم» وفي رواية «بما قضيا من اللذة والله عزيز حكيم».
وفي صحة كون هذا اللفظ هو لفظ الآية التي نسخت نظر، بل لا يصح ذلك لعدة أمور:
أولًا: أن رواية البخاري ومسلم وهي أصح الروايات لم تذكر هذا اللفظ.
ثانيًا: أن لفظ هذه الآية مضطرب فجاءت بأكثر من لفظ كما سبق.
ثالثًا: أن الرجم في هذا اللفظ مرتب على الشيخوخة علمًا أن الحكم المستقر في الإسلام ترتيب حكم الرجم على الإحصان.
فلهذا لا يلزم أن نسلم بصحة هذا اللفظ، بل لا ينبغي ذلك، وإنما يلزم التسليم بأن الرجم مما أنزل في كتاب الله ثم نسخ لفظه، كما في حديث عمر ﷺ عند البخاري وغيره. وانظر في تفصيل الكلام في هذه المسألة التعليق على «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (١/ ٤٣٦- ٤٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٢٩)، ومسلم في الحدود (١٦٩١)، وأبو داود في الحدود (٤٤١٨)، والترمذي في الحدود (١٤٣٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) كما سبق تخريجه من حديث أبي هريرة، وكما رواه جابر بن سمرة ﷺ أن رجلا من أسلم أتى النبي ﷺ وهو في المسجد، فقال: إنه قد زنى إلى قوله: (فأمر به).
أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٠)، ومسلم في الحدود (١٦٦٢)، وأبو داود في الحدود (٤٤٣٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٥٦)، والترمذي في الحدود (١٤٢٩).
وكما أخرجه أيضًا مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأبو داود في الحدود (٤٤٣٣)، من حديث بريدة ﷺ.
وكما أخرجه أيضًا مسلم في الحدود (١٦٩٣)، وأبو داود في الحدود (٤٤٢٥)، والترمذي في الحدود (١٤٢٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) كما في حديث بريدة الذي أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأبو داود في الحدود (٤٤٣٤، ٤٤٤٢)، والدرامي (٢٣٢٠، ٢٣٢٤).

(٦) كما سبق تخريجه من حديث جابر بن عبدالله، وكما في حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ أتى بيهودي =

ولهذا قال ﷺ في حديث عبادة بن الصامت: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر: جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب: جلد مائة والرجم[١]»[٢].

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة بالحدود في القرآن والسنة[٣]، بل حكى بعضهم الإجماع على هذا[٤].

والصحيح القول الأول، وهو أن الإمساك في البيوت مغيًّا بغاية ينتهي حكمه عند حلول تلك الغاية، وهو جعل السبيل لهن؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

وقد جعل الله لهن السبيل بما شرع من الحدود، وليس هذا من باب النسخ، كما

=

ويهودية قد زنيا الحديث أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٩)، وفي الحدود (٦٨١٩)، ومسلم في الحدود (١٦٩٩)، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٦، ٤٤٤٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٦)، والترمذي في الحدود (١٤٣٦)، ومالك في الحدود (١٥٥١)، والدارمي في الحدود (٢٣٢١)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٣).

(١) اختلف أهل العلم في الجمع للزاني المحصن بين الجلد والرجم، فجمهور أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة وعامة الفقهاء أن حد المحصن الرجم فقط، كما رجم رسول الله ﷺ ماعزا والغامدية واليهوديين، ولم يجلد واحدًا منهم.

وقال في حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» ولم يذكر الجلد. وتكلموا في حديث عبادة، فمنهم من قال: منسوخ، ومنهم من قال غير ذلك.

وقيل: حده الجلد ثم الرجم، لحديث عبادة، ولما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه جلد شراحة الهمدانية ورجمها، وقال: «جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ».

أخرجه أحمد (١/ ١٤١)، وعبد الرزاق في «المصنف» الأثر (١٣٥٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٨٨).

وانظر «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣٠٥، ٣٠٧)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٠٥- ٤٠٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٨٧)، «زاد المعاد» (٥/ ٣٤، ٣٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٥)، وانظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٠)، وأبو داود في الحدود (٤٤١٥)، والترمذي في الحدود (١٤٣٤)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٠)، وأحمد (٥/ ٣١٨)، والدارمي في الحدود (٢٣٢٧).

(٣) انظر: «الرسالة» (ص١٢٨)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣٠٤)، «جامع البيان» (٨/ ٨٦- ٨٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٠٥- ١٠٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٠٥- ٤٠٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٩٨).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٤).

ذهب إلى هذا طائفة من أهل العلم(١).

١٩- أن عقوبة من أتى الفاحشة من الرجال أن يؤذى بأنواع الأذى؛ من الأذى بالقول وبالفعل وبالهجر، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾، وهذا باق لم ينسخ؛ لأنه لا تعارض بينه وبين الحدود، بل يكون الأذى مفسرًا ومبينا بالحدود، فإن كان المراد بـ «اللذان» الزانيين فالأذى برجم المحصن منهم وجلد غير المحصن وتغريبه، كما دل على ذلك الكتاب والسنة(٢).

وإن كان المراد بقوله ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا﴾ فاحشة اللواط كما هو الأظهر فقد دلت السنة أيضًا على قتل من عمل عمل قوم لوط قال ﷺ فيما رواه ابن عباس: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(٣).

سواء كان محصنا أو غير محصن؛ وذلك لعظم هذه الفاحشة وشناعتها وقبحها وصعوبة التحرز منها وإفسادها للمجتمع؛ لأن الذي يرتكب هذه الفاحشة يعاقب بأن يضعف عنده داعي الشهوة إلى النساء، فتبقى النساء متعطلة فيحصل بهذا الشر والفساد، قال لوط- عليه السلام- لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]، وقال لهم أيضًا: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦].

وقد أجمع الصحابة وعامة السلف وأهل العلم على قتل الفاعل والمفعول به إذا كانا بالغين محصنين أو غير محصنين، إلا أنهم اختلفوا في كيفية قتلهما، فذهب أكثر السلف إلى أنهما يقتلان رجما بالحجارة كالزاني المحصن؛ لأن الله رجم قوم لوط

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٤، ٣٥٧- ٣٥٨)، «التفسير الكبير» (٩/ ١٨٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٨٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٩٨)، «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٣٧)، وانظر تفصيل الكلام في القول بنسخ الآية أو عدمه في التعليق على «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٦٢- ١٧٠).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ١٩٦)، «تفسير المنار» (٤/ ٤٣٧- ٤٣٨).

(٣) سبق تخريجه.

بالحجارة، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ [الحجر: ٧٤].

ومنهم من قال: يرميان من أعلى شاهق في البلد ويتبعان بالحجارة، ومنهم من قال: يهدم عليهما حائط، ومنهم من قال: يقتلان بالسيف، ومنهم من قال غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١) «الصحيح الذي اتفقت عليه الصحابة أنه يقتل الاثنان الأعلى والأسفل، سواء كانا محصنين أو غير محصنين».

وبعد ذكر الحديث في قتلهما قال: «ولم تختلف الصحابة في قتله، ولكن تنوعوا فيه، فروي عن الصديق ﷺ أنه أمر بتحريقه، وعن غيره قتله، وعن بعضهم أنه يلقى عليه جدار حتى يموت تحت الهدم. وقيل: يحبسان في أنتن موضع حتى يموتا، وعن بعضهم: يرفع على أعلى جدار في القرية، ويرمى منه، ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، وهذه رواية عن ابن عباس. والرواية الأخرى قال: يرجم، وعلى هذا أكثر السلف. قال: لأن الله رجم قوم لوط، وشرع رجم الزاني تشبيها برجم قوم لوط، فيرجم الاثنان، سواء كانا حرين أو مملوكين، أو كان أحدهما مملوكا والآخر حرًا، أو كان أحدهما مملوك الآخر، إذا كانا بالغين، فإن كان أحدهما غير بالغ عوقب بما دون القتل، ولا يرجم إلا البالغ».

وقال ابن القيم(٢): «قال ابن القصار وشيخنا: أجمعت الصحابة على قتله، وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فقال أبو بكر الصديق: يرمى من شاهق، وقال علي ﷺ: يهدم عليه حائط، وقال ابن عباس: يقتلان بالحجارة. فهذا اتفاق منهم على قتله وإن اختلفوا في كيفيته، وهذا موافق لمن وطئ ذات محرم؛ لأن الوطء في الموضعين لا يباح للواطئ بحال».

وجمهور العلماء على أن الأذى أيضًا كالحبس منسوخ بالحدود، والأظهر- والله أعلم- أن الآية: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ ليست منسوخة، وإنما هي مفسرة ومبينة. بالحدود، أو يجمع بين ما جاء فيها من الأذى، وبين الحدود إذ لا تعارض بينهما(٣).

---

(١) في «السياسة الشرعية» (ص١١١- ١١٢)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤/ ١٨٢).

(٢) في «زاد المعاد» (٥/ ٤٠).

(٣) انظر جامع البيان (٨/ ٨٦- ٨٧)، النكت والعيون، (١/ ٣٧٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٦٠- ٣٦١) المحرر الوجيز (٤/ ٤٨) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٨٥- ٨٦).

٢٠- أنه قد تأتي العقوبة غير محددة من حيث الكمية والكيفية والنوعية؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بهذا الإطلاق؛ ولهذا وقع اختلاف بين السلف بماذا يكون الأذى؟ هل هو بالقول بالسب والتعيير والتوبيخ، أو بالفعل بالضرب باليد والنعال، أو بغير ذلك؟ والصحيح أنه عام في كل ما يؤذيهما(١).

٢١- الحث على التوبة وإصلاح العمل والبعد عن مواطن الريبة، وأسباب الوقوع في الفاحشة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾، فقرن سبحانه التوبة بإصلاح العمل.

لكن ليست التوبة مشروطة بإصلاح جميع الأعمال، كما يقوله المعتزلة بأنه لا يعتبر تائبا من أقام على ذنب؛ وذلك لأن من تمام عدل الله- عز وجل- أن يجازي كلا بما عمل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨](٢).

لأن من تاب من الفاحشة يقال له: تائب مطلق توبة، إلا أنه لا يصح أن يوصف بالتوبة المطلقة، ولا يستحق الثناء بهذا الوصف إلا من جمع بين التوبة وإصلاح جميع الأعمال.

٢٢- أن من تاب من فعل الفاحشة وأصلح عمله وجب الكف عنه وترك أذيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾، وقال تعالى بعد آية السرقة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٣). وقال ﷺ في قصة ماعز: «هلا تركتموه لعله أن يتوب، فيتوب الله عليه»(٤).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٨٤- ٨٦).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٩١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠) عن أبي عبيدة بن عبدالله عن أبيه ﷺ وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤١٩)، من حديث نعيم بن هزال عن أبيه- رضي الله عنه- وصحح الألباني أوله دون قوله: «لعله» وما بعده.

وهذا مشروط بكون التوبة قبل القدرة عليه؛ لقوله تعالى في المحاربين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٤].

وإلى مضمون هذه الأدلة- وهو أن من تاب قبل القدرة عليه من الزنا أو السرقة فإنه يسقط عنه الحد- ذهب طائفة من أهل العلم منهم الإمام أحمد- رحمه الله- في رواية عنه.

وقد ذهب أكثر أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة أبوحنيفة ومالك والشافعي[١]- رحمهم الله- إلى أن التوبة قبل القدرة لا تسقط حد الزنا.

واستدلوا بأن النبي ﷺ أقام الحد على ماعز، والغامدية[٢]، وقد جاءا تائبين، حتى لقد قال النبي ﷺ عن ماعز: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[٣].

وقال عن الغامدية: «لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»[٤] والمكس هو الضريبة والإتاوة التي تؤخذ بغير حق.

وفي رواية: «لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»[٥].

والراجح- والله أعلم- القول الأول؛ للأدلة السابقة.

ولأنه إذا كانت التوبة قبل القدرة تسقط حد قاطع الطريق، وهو محارب لله ورسوله يخيف الناس ويقتل، ويأخذ المال، فكونها تسقط حد الزنا والسرقة من باب أولى.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[٦] حيث قال: «إن تاب من الزنا والسرقة أو شرب الخمر قبل أن يرفع إلى الإمام فالصحيح أن الحد يسقط عنه كما يسقط عن المحاربين بالإجماع، إذا تابوا قبل القدرة».

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٦)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٧، ٩٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦١٤)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٨١)، «المغني» لابن قدامة (٩/ ١٥٢)، «بدائع الصنائع» (٧/ ٩٦).

(٢) سبق تخريجهما.

(٣) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٥) من حديث بريدة ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٢) من حديث بريدة ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٦)، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٥٧)، والترمذي في الحدود (١٤٣٥)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٥)، وأحمد (٤/ ٤٣٠، ٤٣٥)، من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٨٠).

أما لو كانت التوبة بعد القدرة عليه فإنها لا تسقط الحد أيًا كان، واستثنى بعض أهل العلم من أقر على نفسه إذا استقال أثناء إقامة الحد عليه وفر، فإنه لا يتمم عليه الحد، بل يترك يتوب، ودليل ذلك حديث ماعز بن مالك ﷺ حين جاء إلى النبي ﷺ واقر عنده بالزنا فأمر برجمه فلما أصابه مس الحجارة هرب، فلحقه الصحابة فأتموا عليه الحد، فلما أخبروا النبي ﷺ قال ﷺ: «هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه»(١).

قال ابن القيم في «زاد المعاد»(٢) بعدما ذكر أحاديث الرجم، ومنها حديث ماعز بن مالك في ضمن ذكر ما يؤخذ من هذه الأحاديث من أحكام قال: «وأن المقر إذا استقال في أثناء الحد، وفر ترك، ولم يتمم عليه الحد، فقيل: لأنه رجوع، وقيل: لأنه توبة قبل تكميل الحد، فلا يقام عليه، كما لو تاب قبل الشروع فيه، وهذا اختيار شيخنا» يعني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله جميعًا.

وإنما أقام ﷺ الحد على ماعز والغامدية، وقد جاءا تائبين؛ لأنهما جاءا طالبين إقامة الحد عليهما، وأصرا على ذلك، حتى قالت الغامدية: «أتريد أن تردني كما رددت ماعزًا»(٣).

وهذا منهما أمر مباح، وليس بمشروع، بل المشروع أن يتوب الإنسان بينه وبين ربه، ويستر على نفسه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وروي في الحديث: «من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»(٤).

وعن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) (٥/ ٣٣).

(٣) سبق تخريجه، وانظر «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠١).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الحدود (١٥٦٢) من حديث زيد بن أسلم. فهو مرسل.

فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»(١)، فليس من المشروع إذا فعل الإنسان ذنبًا أن يقر بذنبه حتى يقام عليه الحد، بل الأولى أن يتوب بينه وبين الله ويستر نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «فمن أذنب ذنبا سرًا فليتب سرًا، وليس عليه أن يظهر ذنبه».

والنبي ﷺ لا يمنع مَن فَعَل أمرًا مباحًا، كالذي طلب منه أن يحج عن أمه أو يتصدق، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم»(٣).

٢٣- أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾.

فيؤذيان ما لم يتوبا من الفاحشة ويصلحا عملهما، فإن تابا وأصلحا وجب الكف عنهما.

٢٤- إثبات صفة التوبة بنوعيها لله عز وجل، وهما توفيق العبد للتوبة، وقبولها منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

٢٥- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- الرحمة الذاتية والفعلية؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٠٢- ٣٠٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٤).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

لما بين الله ﷻ في الآية السابقة أنه يقبل التوبة ممن تاب وأناب إليه في قوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ بين في هذه الآية من تقبل منهم التوبة وهم الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ الآية. هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، «إنما» أداة حصر، والحصر: هو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه. ويقال لها: كافة ومكفوفة.

لأن «ما» دخلت على «إن» التي تنصب الاسم وترفع الخبر، فكفتها عن العمل، فـ«ما» كافة، و«إن» مكفوفة.

﴿ٱلتَّوْبَةُ﴾: مبتدأ مرفوع. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف خبر، تقديره: مستحقة على الله أو واجبة على الله.

﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بما تعلق به «على الله» ويحتمل أن يكون هو الخبر.

والتوبة من الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: توفيقه لعبده أن يتوب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والثاني قبولها منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، ويجمعهما قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

وهي من العبد: الرجوع والإنابة إلى الله ﷻ، والإخلاص له مع الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون في وقتها المناسب.

وتقع التوبة كلية من جميع الذنوب، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، وتقع جزئية من بعض الذنوب.

ومعنى ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: التزم بها ﷻ وأوجبها على نفسه[1]، تفضلا منه ورحمة، ومنة منه وكرما، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سبحانه في الحديث القدسي: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»، وفي رواية: «**سبقت غضبي**»[2].

﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ صلة الموصول «الذين»، أي: يعملون العمل السيئ القبيح الذي يسوء صاحبه، وربما يسوء غيره، إذا كان مما يتعدى إلى الغير.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧].

والمعنى: يعملون الأعمال السيئة؛ من ترك الواجبات، وفعل المحظورات فهو عام لجميع المعاصي؛ لأن المعاصي كلها تسوء مرتكبها وتسوء غيره، تسوء مرتكبها

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٩١)، «بدائع الفوائد» (٢/ ١٦١- ١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٤)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

عاجلًا بظهور آثارها عليه في حياته ظلمة في الوجه وضيقا في الصدر والخلق والرزق(١).

فيفقد من السعادة، في الحياة بقدر ما عمل من السوء، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وتسوؤه آجلًا بعد مماته بمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو يتداركه الله بعفوه.

وهي أيضًا تسوء غيره، إما بتعديها إلى الغير مباشرة، كالإساءة إليهم بالأذية لهم في دينهم أو أبدانهم أو أعراضهم أو أموالهم أو غير ذلك.

وإما بتأثيرها على حياتهم بما تسببه هذه الأعمال السيئة من محق البركات وقلة الخيرات، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وفي الحديث: «**ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا**»(٢).

وإنما أفرد السوء- والله أعلم- إشارة إلى أن الأولى بالتوفيق للتوبة وقبولها من لم يكثر من الأعمال السيئة.

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف وقع حالًا، أي: حال كونهم جاهلين.

فهو قيد لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي: لمن يعملون ذلك بجهالة، والباء في قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ للمصاحبة أو للسببية، أي: مصحوبين بالجهالة، أو بسبب الجهالة(٣).

---

(١) وبضد ذلك الطاعة فهي نور في الوجه وسعة في الصدر والخلق والرزق.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩) من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- وحسنه الألباني. انظر «الأحاديث الصحيحة» حديث (١٠٦) «صحيح سنن أبن ماجه» حديث (٣٢٤٦).

(٣) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٥٦- ٢٥٧)، «البحر المحيط» (٣/ ١٩٧)، «الدر المصون» (٢/ ٣٣٢).

ومعنى ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: بسفاهة[١]، ثم يرشدون، كما قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الحديث[٢] أي: أن إيمانه يضعف عند ارتكابه لهذه الفاحشة، فكذا من عمل أي معصية، فإنه في حال ارتكابه المعصية يرتفع أو يضعف عنده الرشد ويصير سفيها.

ولهذا أجمع الصحابة- رضي الله عنهم- على أن كل ذنب عصي الله به فهو جهالة، عمدًا كان أو جهلا[٣].

وقال الطبري[٤]: «عملهم السوء هو الجهالة التي جهلوها» يقال: أتاه بجهالة، أي: فعل فعل الجهال»، وكما قيل:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[٥]

وليس المراد بالجهالة الجهل ضد العلم؛ لأن من يعمل السوء وهو جاهل، غير عالم، غير مؤاخذ، ولا ذنب له، بل هو معذور، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وفي صحيح مسلم: «**قال الله: قد فعلت**»[٦].

وأما الذي يجب عليه التوبة فهو من عمل السوء عالمًا.

قال ابن عطية[٧]: «وليس المعنى أن تكون الجهالة أن ذلك الفعل معصية؛ لأن المتعمد للذنوب كان يخرج من التوبة، وهذا فاسد إجماعا».

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٥٧) «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣)، «التسهيل لعلوم التنزيل» (ص١٣٤)، «تفسير المنار» (٤/ ٤٤٠- ٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٩)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٧٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٨٩- ٩٠)، «دقائق التفسير» (٢/ ٣٨٧)، «شفاء العليل» (١٧١- ١٧٢)، «بدائع التفسير» (٢/ ١١- ١٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٥- ٢٠٦).

(٤) في «جامع البيان» (٨/ ٩١).

(٥) البيت لعمرو بن كلثوم وهو في ديوانه (ص٩١) جمع وتحقيق إميل يعقوب طبعة دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١م.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾، أي: ثم بعد رشدهم وزوال السفه عنهم يتوبون، أي: يرجعون إلى الله وينيبون إليه بترك العمل السيئ مع الندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه والإخلاص لله تعالى.

﴿مِن قَرِيبٍ﴾، «من» تبعيضية، أي: في وقت وحال تقبل فيهما التوبة، وذلك قبل حضور الموت ومعاينة علاماته، من حضور الملائكة، وغلبة المرء على نفسه، وبلوغ الروح الحلقوم، أي: في حال يعقل فيها المرء معنى التوبة، ويصح منه الندم على فعل السوء والعزم على عدم العودة إليه؛ لقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

ولقوله ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. قال الرب** ﷻ: «**وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»(٢).

وقوله ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ فيه إشارة إلى أن الأجل آت، وكل آت قريب، وتنبيه على أن مدة عمر الإنسان وإن طالت فهي قصيرة.

ولقد أحسن محمود الوراق(٣) في قوله:

قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ... ذخر وغنم للمنيب المحسن

---

(١) أخرجه من حديث ابن عمر الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/ ١٣٢) وابن حبان في «موارد الظمآن» (٢٤٤٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٢٤٩) وصححه أحمد شاكر في المسند (٦١٦٠)، والألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١/ ٣٨٦)، «مشكاة المصابيح» الحديث (٢٣٤٣) وأخرجه ابن مردويه من حديث أبي هريرة فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٠٧).

ومعنى: «ما لم يغرغر» ما لم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩)، وأبويعلى (٢/ ٤٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٠) حديث (٧٦٧٢). وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحه رقم (١٠٤).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص١٥٢).

ويدخل تحت الآية أيضًا قول من قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، أي عن قرب عهد بالمعصية من غير إصرار عليها، وتكون «من» في قوله ﴿مِن قَرِيبٍ﴾، لابتداء الغاية، أي: تكون التوبة من زمان قريب من المعصية(١)؛ لأن من استمر على المعصية وأصر عليها قد تعسر عليه التوبة، وقد لا يوفق لأسبابها، وقد تحول ذنوبه ومعاصيه بينه وبين التوبة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الفاء عاطفة، «أولئك»: إشارة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك»، إشارة إلى علو منزلتهم بالتوبة، و«أولئك» مبتدأ، وخبره جملة: ﴿يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وهذه الجملة توكيد لما قبلها، فقد حصر سبحانه التوبة في الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، والتزم بذلك لهم، ثم أكده بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فهذا وعد من الله بأن يفي لهم، ويقبلها منهم بعد أن وفقهم إليها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، «كان» مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي: أنه سبحانه متصف بالعلم والحكمة أزلا وأبدًا.

﴿عَلِيمًا﴾: خبر «كان» منصوب، أي: ذا العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال كليمه موسى عليه السلام- عندما سئل عن القرون الأولى- : ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

فنفى عن ربه الضلال وهو الجهل السابق، والنسيان وهو الضلال اللاحق.

وعلمه ﷻ علم واسع شامل للأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٥)، «البحر المحيط» (٣/ ١٩٨).

عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لـ«كان»، أي: ذا الحكم التام وذا الحكمة التامة البالغة(١).

له الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وله الحكمة بقسيمها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

وقد ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. بعد أن ذكر أنه التزم بقبول التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم تاب من قريب، ليبين أن توبته على هؤلاء عن علم وحكمة، فهو ﷻ أعلم بمن يستحق التوبة ممن توفرت فيهم شروطها، ممن لا يستحقها.

وهو سبحانه يوفق للتوبة برحمته من اقتضت حكمته توفيقه لها، ويخذل بعدله من اقتضت حكمته عدم توفيقه، فهو سبحانه حكيم يضع الأمور مواضعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

حصر الله ﷻ في الآية السابقة التوبة في الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، ومفهوم هذه الآية أن من عداهم ممن يستمرون على عمل السيئات حتى حضور الموت ليس لهم توبة، وقد صرح بهذا المفهوم في هذه الآية؛ توكيدًا لذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: لما بين من تقبل منهم التوبة أتبع ذلك ببيان من لا تقبل منهم التوبة.

قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، الواو: عاطفة، و«ليس»

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٨٠).

نافية، وهي فعل ماض ناقص، ﴿ٱلتَّوۡبَةُ﴾ اسم ليس مرفوع بها، ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ليس، ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صلة الموصول.

و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: جمع سيئة، ويحتمل أن يراد بها جنس السيئات، أي: يعملون جنس السيئات، ويحتمل أن يراد بها الجمع نفسه، أي: جمع السيئات، وجمعت إشارة إلى أن كثرتها وتراكمها سبب لعدم التوبة. والأول أولى وأشمل، والثاني هو ظاهر اللفظ، وإذا كان اللفظ محتملًا لهذا وهذا، فالعموم أولى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ﴾: لابتداء الغاية، وما بعدها غاية لما قبلها، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية، ﴿حَضَرَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

و﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾: هو خروج الروح عن البدن ومفارقتها له، الذي كتبه الله على جميع الخلق، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال جبريل للنبي ﷺ: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه**»(١).

ومعنى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، أي: بحضور أسبابه وعلاماته من رؤية الملائكة، وغلبة المرء على نفسه، وبلوغ الروح الحلقوم.

﴿قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، أي: قال في هذه الحال حال حضور الموت واليأس من الحياة: ﴿إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، فهؤلاء لا تنفعهم التوبة في هذه الحال؛ لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠- ٩١]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

قال الحافظ ابن كثير[١]: «فأما متى وقع الإياس من الحياة وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم[٢] فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص.. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ الآيتين، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها، كما قال: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ [الأنعام: ١٥٨]».

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، الواو حرف عطف، و«لا» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول معطوف على اسم الموصول الذي قبله في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ﴾، أي: وليست التوبة أيضًا للذين يموتون وهم كفار، أي: تخرج أرواحهم من أجسادهم، وهم ما زالوا على الكفر.

وفي عطف هؤلاء على من سبقهم تيئيس لمن يحضرهم الموت وهم يعملون السيئات من قبول التوبة.

فكما لا تقبل التوبة ممن يموتون على الكفر، لا تقبل أيضًا ممن يحضرهم الموت وهم يعملون السيئات.

وقيل المراد الذين يحضرهم الموت وهم كفار، فلا تقبل توبتهم في هذه الحال عند حضور الموت، والظاهر أن هؤلاء يدخلون تحت قوله: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ أما قوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ فالمراد بهم الذين يموتون على الكفر.

والكفر في الأصل: الستر، ومنه يقال للزارع: كافر؛ لأنه يستر البذر في الأرض؛

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٠٨).

(٢) الغلاصم: جمع غلصمة وهي رأس الحلقوم، والموضع الناتئ في الحلق، وقيل هي اللحم بين الرأس والعنق. انظر «لسان العرب» مادة: «غلصم».

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

وهو نوعان: كفر أكبر مخرج من الملة موجب للخلود في النار، وكفر أصغر لا يخرج من الملة وهو موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود، كما في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»(١).

والكفر الأكبر خمسة أنواع: كفر تكذيب وجحود، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق(٢).

والمراد بالتوبة بالنسبة للذين يموتون وهم كفار ندمهم بعد الموت، وتقطع قلوبهم حسرات على تفريطهم أيام الحياة؛ لأن من مات انقطع عمله، فلا توبة تقبل منه ولا عمل؛ لأن دار العمل هي الدنيا، أما الآخرة فهي دار الجزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

قال ابن عطية(٣): «والإيمان للكافر ليس نفس توبته، وإنما ندمه على سالف كفره».

وقال ابن كثير(٤): «يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه، لا ينفعه ندمه وتوبته، ولا يقبل منه فدية، ولو بملء الأرض».

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦- ٥٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الإشارة للذين يموتون وهم كفار؛ لأن عذابهم محقق، أما من مات على ما دون الكفر من المعاصي فهو تحت مشيئة الله، إن شاء الله

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٦- ٣٧٩).

(٣) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٢، ٥٧).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٢٠٨).

عذبه، وإن شاء عفا عنه وغفر له.

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾، أي: أعددنا وهيأنا وجهزنا لهم، ومنه العتاد، وهو ما يعد للضيف، وما يعده المسافر لسفره، ومنه: العتيد؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]، أي: حاضر.

وقد عبر ﷻ عن نفسه بضمير العظمة «نا»؛ لأنه سبحانه العظيم ذو العظمة التامة.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾: «فعيلا» بمعنى: «مفعلًا»، أي: مؤلما موجعا غاية الإيلام والإيجاع، حسيًّا ومعنويًّا.

الفوائد والأحكام:

١- فضل الله سبحانه وتعالى على عباده، وامتنانه عليهم في إيجابه التوبة على نفسه، والتزامه بها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فهو سبحانه الذي يمنّ بالتوبة على من شاء من عباده، وهو الذي يقبلها منهم.

٢- أن لله ﷻ أن يوجب على نفسه ما شاء، وهذا من كماله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قلت الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد ألا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(١).

فهو سبحانه الذي يمنُّ على من شاء من عباده، فيوفقهم للعمل الصالح، ويمنّ عليهم بقبوله منهم وإثابتهم عليه؛ ولهذا يُسمي سبحانه جزاء الأعمال وثوابها «أجرًا»،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)، وانظر «التوسل والوسيلة» (ص٥٥).

كما يسمي سبحانه الصدقة «قرضًا» تفضلا منه وامتنانا وإحسانا، ولقد أحسن القائل(١):

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا عمل لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

وأحسن من هذا قول ابن القيم في «النونية»(٢) مضمنا مقاله هذين البيتين، ومبينا أنه لا واجب على الله للعباد إلا ما أوجبه على نفسه بفضله ومنه، وأنه لا يضيع لديه عمل اشتمل على الإخلاص لله والإحسان في المتابعة لرسول الله ﷺ:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والفضل للمنان

كما أن له ﷻ أن يُحرِّم على نفسه ما شاء، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»(٣).

فله ﷻ أن يوجب على نفسه ما شاء، ويحرم على نفسه ما شاء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وفي هذا إبطال لقول المعتزلة ومن سلك مسلكهم في أن قبول التوبة واجب على الله بطريق العقل، وزعمهم أن الأعمال عوض عن دخول الجنة، وأن من عمل صالحًا وجب على الله أن يدخله الجنة بطريق العقل(٤).

والصحيح عند أهل السنة أن العمل الصالح إنما هو سبب لدخول الجنة، ودخولها إنما هو برحمة الله، الذي كتب على نفسه الرحمة شرعًا وسمعا، ولهذا قال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله**

---

(١) انظر: «الوابل الصيب» (ص١٣٨)، «شرح الطحاوية» (١/ ٢٩٦).

(٢) (ص١٤٩- ١٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٣)، «التوسل والوسيلة» (ص٥٤- ٥٥).

برحمة منه وفضل»(١).

وكيف يجب على الله واجبات لخلقه بطريق العقل، علمًا أنه ينبغي أن يكون الموجِب فوق الموجَب عليه، والله جل وعلا فوق الجميع وربهم وخالقهم، تعالى الله عما يقول الظالمون علو كبيرًا.

٣- الترغيب في التوبة؛ لأن الله أوجبها على نفسه، ويحب من اتصف بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهي واجبة على جميع العباد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم مائة مرة**»(٢)، وقال ﷺ: «**لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم بضالته إذا وجدها بعد أن أيس منها وعليها طعامه وشرابه**»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): «كل مؤمن لابد له من التوبة، ولا يكمل أحد إلا بها».

وقال أيضًا: «وليست التوبة نقصًا، بل هي من أفضل الكمالات، والله قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار؛ عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم».

وقد قيل: «رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا»(٥).

٤- أن كل عامل للسوء فإنما يعمله بجهالة وسفه وعدم رشد، وأن كل ذنب عصي الله به فهو جهالة، سواء كان فاعله عالمًا أو جاهلًا، ذاكرا أو ناسيا، متعمدًا أو مخطئًا،

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وانظر «التوسل والوسيلة» (ص٥٤- ٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٤٧) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث أبي هريرة وابن مسعود والنعمان بن بشير والبراء- رضي الله عنهم- (٢٦٧٥، ٢٧٤٤، ٢٧٤٦).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٥١- ٥٣، ٥٥- ٥٧).

(٥) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٣٩٩).

مختارًا أو مكرها؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «فمن عصى الله فهو جاهل أيًا كان، ومن أطاعه فهو عالم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فكل عالم يخشاه، فمن لم يخش الله فليس من العلماء، بل من الجهال قال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار به جهلا».

وقال رجل للشعبي: أيها العالم فقال: «إنما العالم من يخشى الله».

٥- أن من معاني الجهل: السفه وعدم الرشد في الدين؛ لأن المراد بقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ بسفه وعدم رشد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وليس معنى الجهالة في الآية الجهل ضد العلم؛ لأن التوبة تقبل ممن عمل السوء عالمًا بالإجماع كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣- ٥٥].

بل إن من شرط المؤاخذة على الذنب كون مرتكبه عالمًا بأنه ذنب ومعصية؛ لأن الجاهل غير مؤاخذ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ قال الله في الحديث القدسي: «**قد فعلت**»(٢).

فإن كانت المعصية التي فعلها جهلا أو خطأ من باب الإخلال بالمأمور فعليه أن يأتي بما أخل به أو بما يجبره، فمن ترك التشهد الأول في الصلاة مثلًا فعليه أن يأتي به ما لم يستتم قائمًا، وإلا جبره بسجود السهو، ومن أخل بالطمأنينة في الصلاة فعليه أن يعيدها

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٧٨- ١٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بطمأنينة، كما قال ﷺ للمسيء في صلاته «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»(١).

وإن كانت المعصية التي ارتكبها جهلا أو خطأ من باب ارتكاب المحظور كحلق الشعر بالنسبة للمحرم فلا شيء عليه، إلا في القتل خطأ فإن القاتل تلزمه الكفارة حقًا لله تعالى وإن كان غير آثم، كما يجب عليه التوبة.

وكذا كل من عمل معصية من ترك مأمور أو انتهاك محظور تجب عليه التوبة، وإن كان ذلك خطأ؛ لقوله في كفارة القتل الخطأ: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

أما ما كان من حقوق الآدميين فلا يسقط بحال، بل يجب عليه أداؤه وإن كان إتلافه له جهلا منه أو خطأ(٢).

٦- وجوب المبادرة إلى التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، أي: من قبل حضور الموت، وإذا كان الإنسان لا يدري متى يحضره الموت، ويفجأه الأجل، فالواجب عليه المبادرة بالتوبة حتى لا يأتيه الموت على غرة، وهو مقيم على المعصية.

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»(٣).

٧- أن من شرط قبول التوبة أن يتوب الإنسان من قريب أي في الحياة، وقبل حضور الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

لكن ليس من شرط قبول التوبة أن تكون عقب الذنب مباشرة؛ لأن «ثم» للتراخي، لكن الواجب كما سبق المبادرة إليها.

---

(١) أخرجه البخاري في الاذان (٧٥٧)، ومسلم في الصلاة (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٥٨- ٢٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

٨- التحذير من الإصرار على المعصية والتسويف، وتأخير التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾؛ لأن الإصرار عليها قد يكون سببًا لعدم التوفيق للتوبة وعدم قبولها وسببًا لقسوة القلب وانطماس البصيرة- والعياذ بالله- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وفي الحديث: «**إن المؤمن إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء**»(١).

والإصرار على الصغائر يجعلها كبائر، قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»(٢).

وكما قيل:

لا تحقرن من الذنوب صغيرة ... إن الصغير غدًا يكون كبيرًا

وقال الآخر:

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصا(٣)

٩- أن من تاب عن قرب عهد بالمعصية فهو أحرى من غيره بقبول التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

١٠- قبول التوبة ممن تاب من قريب؛ لأن الله حصر التوبة فيهم، فقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

١١- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾.

١٢- إثبات صفة الحكم التام والحكمة البالغة لله ﷻ: الحكم الشرعي والكوني والجزائي، والحكمة بقسميها: الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٣٣٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني. انظر «التعليق الرغيب» (٢/ ٢٦٨، ٤/ ٧٤)، «صحيح سنن أبن ماجه» حديث (٣٤٢٢).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٥)- الأثر (٩٢٠٧).

(٣) البيت لابن المعتز، انظر «ديوانه» (٢/ ٣٧٦).

١٣- أن الله ﷻ شرع التوبة لعباده عن علم منه وحكمة، وذلك لضعفهم أمام نوازع الشر، ويوفق بعلمه وحكمته للتوبة من شاء منهم، ويخذل من شاء منهم، فلا يوفقه لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

١٤- أن الكمال في اجتماع العلم والحكمة. فالعلم وحده لا يكفى، بل قد يضر إذا صاحبه طيش وعجلة، والحكمة وحدها لا تكفي بدون العلم، بل قد تضر إذا صاحبها الجهل. ولهذا وصف الله ﷻ نفسه بأكمل الكمالين، وهو اجتماع العلم والحكمة، وكمال كل منهما وتمامه، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

١٥- بلوغ القرآن الكريم الغاية في الإيضاح والبيان؛ لأن الله ﷻ حصر التوبة في الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، ومفهوم هذا أن من استمر على عمل السوء حتى حضره الموت ليس له توبة، وتوكيدا لذلك، وزيادة في البيان والإيضاح جاء التصريح بهذا المفهوم بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾.

١٦- أن التوبة تنقطع بحضور الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ (١).

وقال ﷺ: «**إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(٢)؛ لأن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا اختيار، فلا تنفع صاحبها.

كما تنقطع التوبة بطلوع الشمس من مغربها كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا

---

(١) وما جاء في حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي ﷺ: «أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» الحديث أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٧٥)، ومسلم في الإيمان (٢٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٥)، وأحمد (٥/ ٤٣٣). فالمراد بقوله: لما حضرت أبا طالب الوفاة، أي: قربت وفاته، وحضرت دلائلها، وذلك قبل المعاينة وقبل النزع، ولهذا كان أبو طالب يحاور النبي ﷺ. أما بعد رؤية الملائكة والشروع في النزع فلا تقبل التوبة. انظر «شرح صحيح مسلم» (١/ ١٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٣)، من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- وحسنه الألباني.

يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فبعد فوات الأوان لا تقبل التوبة، سواء كان خاصًّا؛ وهو حضور الموت، أو عامًّا؛ وهو طلوع الشمس من مغربها؛ فهي واجبة على الفور.

قال ابن القيم:(١) «وأما إذا وقع في السياق، فقال: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ لم تقبل توبته ذلك لأنها توبة اضطرار، لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله».

فتجب المبادرة إلى التوبة والحذر من التسويف ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوحا، قبل غلق الباب وطي الكتاب، وهذا هو أحد شروط التوبة، وهو أن تكون في وقتها الذي تصح فيه. وذلك أن شروط التوبة خمسة:

الشرط الأول: الإخلاص لله تعالى بأن تكون التوبة صادقة نصوحا، ابتغاء وجه الله، وطلب مرضاته ومحبته، والخوف من عذابه، لا رياء، ولا سمعة، ولا خوف من مخلوق، ولا لغرض دنيوي ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

والإخلاص شرط في جميع الأعمال، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية، وتركها والبعد عنها، فإن كان فيها حق لآدمي من دم أو مال وغير ذلك وجب رده إليه أو استحلاله منه.

قال ﷺ: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئاته فطرحت عليه**»(٣).

وإن كان حق عرض من غيبة أو نميمة استحله منه إن أمكنه ذلك ولم يخش شرًا

---

(١) في «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بسبب ذلك، فإن لم يمكنه ذلك أو خشي أن يحصل شر بسبب إعلامه بذلك خاصة إذا عرف أنه لم يعلم بذلك استغفر الله له، وأثنى عليه بخير في المواضع التي اغتابه فيها.

فإن علم أنه قد بلغه ذلك فينبغي أن يستحله؛ ليذهب ما في نفسه من ذلك.

ومن هنا يعلم أن رد حقوق الآدميين لا يعتبر شرطًا مستقلًا- كما يذكره بعض أهل العلم- بل إنه داخل ضمن شرط الإقلاع عن المعصية، إذ كيف يعد مقلعا عن المعصية من كانت حقوق الناس عنده.

فإن كان صاحب الحق قد مات رد ذلك الحق إلى ورثته؛ فإن لم يمكن رده تصدق به عنه واستغفر له.

ومن الإقلاع عن المعصية الاعتراف والإقرار، قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إن كنت ألممت بشيء فأقري، فإن الاعتراف توبة»(١).

الشرط الثالث: الندم على فعل المعصية بحيث يحس بحرقة وحزن وأسى في نفسه على ارتكابه هذه المعصية، ويود أنه لم يفعل ذلك، ولا يكون تائبا من كان عديم المبالاة بما ارتكب من معصية الله.

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الندم توبة**»(٢).

الشرط الرابع: العزم الأكيد في نفسه على ألا يعود إلى تلك المعصية بحيث يصمم ويعزم على ألا يرتكب تلك المعصية مرة ثانية، فإن أضمر في نفسه أنه سيعود إليها فلا يعد تائبًا؛ لأن فعله هذا استهزاء ومخادعة، لكن لو تاب وعزم على ألا يعود إلى المعصية لكن غلبه الشيطان وهواه ونفسه الأمارة بالسوء فعاود المعصية مرة ثانية فتوبته الأولى صحيحة، لكن عليه أن يجدد التوبة من معاودته للمعصية، وهكذا كلما وقع في المعصية فعليه تجديد التوبة ما لم يضمر العودة إليها فلا توبة له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «ولو تاب العبد، ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (١/ ٣٧٦)، وصححه أحمد شاكر برقم (٣٥٦٨)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٨).

الأولى، ثم إذا عاد استحق العقوبة، فإن تاب تاب الله عليه أيضًا، ولا يجوز لمسلم إذا تاب، ثم عاد، أن يصر، بل يتوب، ولو عاد في اليوم مائة مرة».

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقتها قبل حضور الموت وغلبة المرء على نفسه وبلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

أما الأول: فلقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

وقوله ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

وأما الثاني: وهو طلوع الشمس من مغربها؛ فلقوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٢).

وقوله ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٣).

وجعل بعض أهل العلم من شرط التوبة أن يتوب عن جميع المعاصي؛ لأن هذا هو مقتضى تعظيم التائب لربه أن ينزع عن جميع المعاصي، وجعل بعضهم هذا شرطًا سادسًا من شروط التوبة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وبقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ [النساء: ١٦]، وبقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقال بعضهم: إنما يشترط للتوبة أن لا يصر على ذنب من جنس الذنب الذي تاب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٧٩)، والدارمي في السير (٢٥١٣)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

منه فيشترط فيمن تاب من الزنا أن يتوب عن دواعيه من النظر المحرم، والخلوة المحرمة، واللمس المحرم، ونحو ذلك. ولا يشترط لها أن يتوب عما ليس من جنسه فتقبل توبته عن الزنا وإن كان مرتكبا لمعصية الإسبال مثلًا.

والصحيح أن التوبة من ذنب تقبل وإن كان مصرًّا على غيره، خلافًا للمعتزلة الذين يقولون لا يعتبر تائبًا من أقام على ذنب؛ وذلك لأن من تاب من ذنب يقال له تائب مطلق توبة، ومن عدل الله ﷻ أن يجازيه على توبته من ذلك الذنب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. لكن لا يستحق الوصف بالتوبة المطلقة إلا من تاب من جميع الذنوب وأصلح جميع أعماله، فهذا هو التائب التوبة المطلقة من جميع الذنوب(١).

١٧- أن جميع إقرارات المحتضر على نفسه أو ماله وتبرعاته وسائر تصرفاته في هذه الحال لا اعتبار لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾.

فلو تصدق في هذه الحال لم ينفعه ذلك، بل ولا تنفذ صدقته إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

وقال ﷺ: «**خير الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفقر، ولا تهمل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا. وقد كان لفلان**»(٢).

١٨- أن الذين يموتون وهم كفار لا توبة لهم، ولا ينفعهم ندمهم يوم القيامة؛

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٩١)، «الاختيارات الفقهية» (ص٢٩٧)، «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٨)، «مدارج السالكين» (١/ ٢١٢، ٣٠٦- ٣١٠، ٣٢٥- ٣٢٦، ٣٤٢- ٣٤٣، ٣٧٥، ٤٢٩، ٤٣٤)، «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٤)، وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٢)، وأبو داود في الوصايا (١٨٦٥)، والنسائي في الزكاة (٢٥٤٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

١٩- تيئيس من يحضرهم الموت وهم مصرون على عمل السيئات في عدم قبول توبتهم، وذلك بقرنهم مع الذين يموتون وهم كفار، مع أن هؤلاء ماتوا على الكفر ولا توبة لهم.

٢٠- أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾، أي: أعددنا وهيأنا، خلافًا لمن قال: إنها لم تخلق بعد(١).

٢١- أن الله أعد للذين يموتون وهم كفار عذابًا مؤلما موجعا حسيا ومعنويا؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٢- تعظيم الله ﷻ لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ بضمير العظمة «نا»؛ لأنه العظيم- جل وعلا.

٢٣- أن أهل النار المعذبين بها يتألمون على الدوام بما فيها من العذاب ألما حسيا ومعنويًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وفي هذا إبطال لقول من يقول إنهم يكونون جهنميين ويتكيفون فيها ويتأقلمون، فلا يضرهم حرها، ولا يحسون بألم العذاب فيها، أو تكون طبيعتهم طبيعة نارية فيتلذذون بالنار لموافقتها لطبعهم(٢)، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧، التوبة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

* * *

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٩)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٦١٤) وما بعدها.

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٦٢٤- ٦٢٥)، وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ١٥٠ تفسير سورة النساء).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾.

الآية متصلة بما سبق من وجوب العدل بين النساء وإنصافهن وإيتائهن حقوقهن ودفع الظلم عنهن.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان أهل الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ الآية»(١).

وفي رواية: «كان الرجل إذا مات وترك جارية ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها»(٢).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي» اسم منادى، نكرة مقصودة، مبني على الضم في محل نصب.

و«ها» للتنبيه، «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة، لأي، أو بدل.

﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول.

والإيمان لغةً: التصديق عند جمهور أهل العلم، قال إخوة يوسف لأبيهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق(٣)، وقال تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٩)، وأبو داود في النكاح (٢٠٨٩)، والطبري في «جامع البيان» (٨/ ١٠٤)- الأثر (٨٨٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢) الأثر (٩٠٢٩)، والبيهقي في سننه (٧/ ١٣٨)، والواحدي في أسباب النزول (ص٩٧).

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٨/ ١٠٩)- الأثر (٨٨٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٠٢٨).

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٥٩).

وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١]، أي: يصدق لهم.

وقال الطبري(١): «الإيمان هو التصديق والإقرار».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق. والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد».

وعلى قول ابن تيمية فمجرد التصديق لا يكفي، بل لابد من الإقرار.

فأبو طالب عم النبي ﷺ مصدق له، وما نفعه تصديقه؛ لأنه لم يقر بذلك.

قال أبو طالب:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل(٣)

وقال أيضًا:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا(٤)

والإيمان شرعًا: قول باللسان، واعتقاد بالجنان- وهو القلب- وعمل بالأركان، وهي الجوارح»(٥).

والإيمان شرعًا أعم من الإيمان لغة؛ إذ الإيمان شرعًا هو: الإقرار بالقلب المتضمن للإذعان والانقياد بتصديق الخبر وقبول الطلب وامتثاله.

وهو يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويتفاضل، قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الحديث(٦)، أي: أن إيمانه يضعف

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ٥٩٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣٨)، وانظر (٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٢٩٠، ٢٩٣، ٥٢٩- ٥٤٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٩).

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٦١).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧٠، ٦٧٢).

(٦) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨١٠)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٩)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٧٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٦)، والدارمي في الأشربة (٢١٠٦) من حديث =

وينقص عند ارتكابه هذه الفاحشة ونحوها مما ذكر في الحديث.

وأركانه ستة كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ- الطويل- وفيه سؤال النبي ﷺ جبريل عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

والإيمان بالله يتضمن أمورا أربعة: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته.

والإيمان بالملائكة يتضمن: الإيمان بوجودهم، وبأعمالهم على جهة الإجمال والتفصيل.

والإيمان بكتبه يتضمن: الإيمان بأنها من عند الله والإيمان بكل ما فيها والإيمان برسله يتضمن الإيمان بأنهم رسل الله وأن ما جاؤوا به من عند الله حق واتباعهم.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن: الإيمان بالبعث، والحساب والجزاء على الأعمال، والجنة والنار، وغير ذلك مما يكون في هذا اليوم.

والإيمان بالقدر خيره وشره يتضمن: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء، وأن كل شيء بقضاء وقدر، وأن ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه(٢).

قال عبدالله بن مسعود ﷺ: «**إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه**»(٣).

وهذه عبارة جامعة؛ فما بعد هذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لا يخلو:

إما أن يكون أمرا؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وإما أن يكون نهيًا؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ

=

أبي هريرة ﷺ، ورواه البخاري أيضًا من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- في الحدود (٦٧٨٢).

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٥١١) وما بعدها.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٠٢٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤).

وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد يجتمع الأمر والنهي؛ كما في هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]. وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقد يأتي بعد هذا النداء خبر لكن الغرض منه إما أمر، وإما نهي وتحذير، وهذا كثير كالإخبار عن أحوال السابقين من المؤمنين والمكذبين وعاقبتهم في الدنيا، ومآل كل منهم في الآخرة وما أعد للمؤمنين من النعيم المقيم، وما أعد للمكذبين من العذاب الأليم.

فالغرض من هذا الأمر بسلوك طريق المؤمنين، والنهي عن سلوك طريق المكذبين.

والفرق بين الإسلام والإيمان أن الإسلام يطلق على الأعمال الظاهرة كالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج.

والإيمان يطلق على الأعمال الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ، قال: «**بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» الحديث[1].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «فالإحسان أخص من الإيمان، والإيمان أخص من الإسلام».

وإذا ذكر الإيمان مجردًا دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة، كما في حديث «**الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[٢].

وإذا ذكر الإسلام مفردًا دخل تحته الإيمان، وإذا اجتمعا فسر الإيمان بالأعمال الباطنة والإسلام بالأعمال الظاهرة[٣].

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، «لا» نافية، ونفي الحل يقتضي التحريم؛ لأن نفي الشيء إثبات ضده، فالمعنى: يحرم عليكم.

﴿لَكُمْ﴾: الخطاب للأولياء أولياء الزوج، كما يفسره سبب النزول.

وأولياء المرأة أيضًا أخذًا من العموم في قوله: ﴿لَكُمْ﴾، بل يدخل فيه الأزواج كما قال بعض المفسرين[٤].

﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، «أن» حرف مصدري ونصب، «ترثوا» فعل مضارع منصوب بـ «أن» وعلامة نصبه حذف النون، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، تقديره: لا يحل لكم وراثة النساء، أو إرث النساء.

ومعنى ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾، أي: لا يحل لكم أن تخلفوا على زوجات أقاربكم إذا ماتوا بحيث ترون أنكم أحق بهن، إن شئتم تزوجتموهن، أو زوجتموهن من شئتم، أو منعتموهن من الزواج ليفتدين منكم، أو حتى يمتن فترثون مالهن.

كما كانوا في الجاهلية إذا مات الزوج جاء أقاربه كأخيه أو ابن عمه فألقى على زوجته ثوبًا فتحماها، فإن شاء تزوجها، أو زوجها لمن شاء، أو منعها لتفدي نفسها، أو

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٩)، ومسلم في الإيمان (٣٥)، وأبو داود في السنة (٤٦٧٦)، والنسائي في الإيمان (٥٠٠٤- ٥٠٠٥)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٤)، وابن ماجه في المقدمة (٥٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٤٨- ٤٩٠)، «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠، ١٤، ٥٧٦- ٥٧٧).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٩- ٦٠).

تموت فيرثها[١].

فمعنى ﴿تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾، أي: تخلفوا أزواجهن عليهن، وتكون لكم الولاية عليهن، وليس المراد أنهم يرثونهن كما يورث المال والمتاع، بل المراد الخلافة عليهن، كما قال زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥، ٦] أي: يخلفني في قومي في النبوة والعلم، وليس إرث المال؛ لأن الأنبياء- عليهم السلام- لا يورثون كما قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه**»[٢].

﴿كُرْهًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف، وقرأ الباقون: ﴿كَرْهًا﴾ بفتحها[٣].

وهي بضم الكاف بمعنى التعب والمشقة، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وبفتح الكاف بمعنى مكرهات من الإكراه، وهو عدم الرضى، وقيل: هما بمعنى واحد.

وكل من عدم الرضى، والمشقة يحصلان لمن ورثت كرها.

و«كرها» مصدر في موضع الحال من النساء، فيقدر باسم فاعل، أو اسم مفعول، أي كارهات أو مكرهات.

وقوله: ﴿كُرْهًا﴾ قيد لبيان الواقع، وهو أنهم كانوا يكرهونهن على ذلك غالبًا، فيرث الواحد منهم زوجة قريبه، ولو لم ترض بذلك، وشق عليها، كقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٠٤، ١٠٩- ١١٠) «تهذيب سنن أبي داود» (٣/ ٣٥- ٣٦)، «بدائع التفسير» (٢/ ١٣).

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٧٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٠)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٣، ٣٠٩٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٨، ١٧٥٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر: «المبسوط» (ص١٥٥)، «الكشف» (١/ ٣٨٢).

وإذا كان القيد لبيان الواقع فلا مفهوم له، أي: فلا يدل على أنهن لو رضين بذلك جاز لهم أن يخلفوا قريبهم على زوجته دون عقد شرعي، بل لا بد فيه من عقد شرعي، إذا رضيت، وكانت تحل لمن أراد الزواج بها.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، والفعل «تعضلوهن» مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون، إذ الأصل: تعضلونهن فتكون الواو عطفت جملة نهي على جملة نفي، أي: عطفت جملة طلبية على جملة خبرية.

ويجوز أن تكون «لا» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، ويكون الفعل «تعضلوهن» منصوبًا عطفًا على «أن ترثوا» وعلامة نصبه حذف النون، فتكون الواو عطفت فعلًا على فعل(١). والأول أولى؛ لأن تنويع التعبير أفصح وأبين وأبلغ.

والخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ للأزواج، بدليل قوله: ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وبدليل الآيتين بعد هذه الآية، فهذه الآيات كلها تدل على أن الخطاب مع الأزواج.

والعضل: الحبس، والتضييق والمنع، أي: ولا تحبسوهن وتضيقوا عليهن وتمنعوهن.

﴿لِتَذْهَبُوا﴾، أي: لأجل أن تذهبوا.

﴿بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ الباء للتعدية و«ما» موصولة، أي: لتذهبوا ببعض الذي آتيتموهن، ويجوز كون الباء للمصاحبة: أي: لتذهبوا مصحوبين ببعض الذي آتيتموهن(٢).

والمعنى: لا تمنعوهن حقوقهن وتحبسوهن، وتضيقوا عليهن؛ لأجل أن تلجئوهن إلى المخالعة وافتداء أنفسهن؛ ليرجعن لكن بعض الذي آتيتموهن من المهور.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١١٤)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٩)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٠٤).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٠٣).

قال ابن كثير[١]: «أي: لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقًا من حقوقها عليك أو شيئًا من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد».

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾: «إلا» أداة استثناء، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا يحل لكم أن تعضلوهن بحال من الأحوال إلا في حال إتيانهن بفاحشة مبينة[٢].

ومعنى ﴿يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ﴾: أي يفعلن ويرتكبن فاحشة، والفاحشة: مأخوذة من الفحش، وهو كل ما يستفحش شرعًا وعرفا عند المسلمين، وهي هنا تشمل كل ما كان من سوء العشرة فعلًا كان أو قولًا، كالزنا، وبذاءة اللسان، والنشوز والخروج عن طاعة الزوج، وعدم القيام بحقوقه الواجبة عليها، أو الممانعة فيها إلا على سبيل التكره، ونحو ذلك. فكل هذا مما يبيح للزوج التضييق عليها بمنعها حقها أو بعضه؛ لتفدي نفسها منه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، أي: يقيما حدود الله بحسن العشرة، وقيام كل منهما بحق الآخر.

﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾: قرأ ابن كثير وعاصم برواية أبي بكر بفتح الياء وتشديدها: ﴿مُبَيَّنَةٖ﴾ اسم مفعول، أي: أنها بُيِّنت وَوُضِّحت وأُظهرت.

وقرأ الباقون: ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ بكسر الياء وتشديدها، اسم فاعل، أي: أنها بيِّنة واضحة ظاهرة بنفسها من «بيَّن» وهو فعل لازم بمعنى: بان أي: ظهر.

وقرأ ابن عباس: «مُبِينَة» بإسكان الياء[٣].

ومعنى هذه القراءات واحد، وهو أنه لا يجوز للزوج التضييق على زوجته ومنعها حقها إلا إذا أتت بفاحشة مبينة واضحة، يسوغ له معها عضلها والتضييق عليها.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، كقوله تعالى: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والأمر في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ للأزواج، والضمير «هن» للزوجات، والمعاشرة:

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢١٠).

(٢) انظر: «الدر المصون» (٢/ ٣٣٥).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٢١)، «المبسوط» (ص١٥٥)، «الكشف» (١/ ٣٨٣)، «النشر» (٢/ ٢٤٨).

من المفاعلة التي تكون بين جانبين- غالبًا- كالمقاتلة، أي: ليعاشر الزوج زوجته وتعاشره بالمعروف. والمعاشرة: الصحبة والمخالطة والمخالقة.

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، أي: بالمعروف شرعًا وعرفا ومروءة.

أي: ليعاشر كل من الزوجين الآخر بما هو واجب في الشريعة الإسلامية من حسن العشرة، قولًا وفعلًا وبذلا، لينًا في القول من كل منهما للآخر، ومعاملة حسنة، وصحبة جميلة، وبذلا للحقوق، كالنفقة والكسوة والمسكن من الزوج، والخدمة والطاعة بالمعروف من الزوجة، وكفا للأذى من الجانبين، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قال ابن عباس- رضي الله عنهما- في هذه الآية: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي؛ لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾»(١).

وقال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»(٢).

قال ابن كثير(٣): «وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين، يتودد إليها بذلك. قالت: «سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني. فقال: هذه بتلك السبقة»(٤).

ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من

---

(١) أخرجه الطبري (٤/ ٥٣٢)، الأثر (٤٧٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥) من حديث عائشة وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، والدارمي في النكاح (٢٢٦٠).

وأخرجه ابن ماجه في النكاح، (١٩٧٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال الألباني في «الأحاديث الصحيحة» (٢٨٥): «صحيح على شرط الشيخين». وقال عبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (١/ ٤١٧) «إسناده صحيح».

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢١١).

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٩) من حديث عائشة- رضي الله عنها- وصححه الألباني.

نسائه في شعار واحد يضع على كتفيه الرداء، وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلًا قبل أن ينام يؤانسهم بذلك ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾».

بل كان ﷺ محسنا لخديجة- رضي الله عنها- بعد وفاتها وكان يرسل الأعطيات إلى صديقاتها ويقول: «**اذهبوا به إلى صديقات خديجة**»(١).

واستأذنت هالة بنت خويلد، فعرف استئذان خديجة فقال ﷺ: «**اللهم هالة بنت خويلد**». كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- قال: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك فقال: «**اللهم هالة. قالت: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرًا منها**»(٢).

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾، الفاء: استئنافية، و«إن» شرطية، ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

والمعنى: فإن كرهتموهن فاصبروا.

والكراهة ضد المحبة، أي عدم المحبة القلبية، أي: فإن كرهتموهن، فلم يكن في قلوبكم محبة لهن، إما لعدم توافق الطباع، وإما لسوء خلق محتمل أو نحو ذلك، من غير ارتكاب فاحشة الزنا التي لا يليق الإبقاء على الزوجة معها، أو النشوز بالخروج عن طاعة الزوج مما يشق على الزوج تحمله، ويؤدي إلى استمرار المعصية بينهما في عدم أداء كل منهما حق الآخر عليه.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ هذا تعليل لجواب الشرط المقدر: «فاصبروا»، أو فيه معنى جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، و«عسى» هنا تامة لا تحتاج إلى اسم وخبر، وهي فعل جامد، و«أن» والفعل «تكرهوا»

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨١٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٥)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٢١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٧).

في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «عسى»، و«شيئًا» مفعول «تكرهوا».

﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، الواو للمعية، أي: ويجعل الله فيه كونًا خيرًا كثيرًا.

والضمير «فيه» عائد إلى «شيئًا»، أي: ويجعل الله في ذلك الشيء المكروه خيرًا كثيرًا، وقيل عائد إلى المصدر من «تكرهوا» أي ويجعل الله في كراهتكم ذلك الشيء خيرًا كثيرًا[١].

أي: فإن كرهتموهن فاصبروا، فعسى أن يجعل الله في صبركم عليهن وإمساككم لهن مع كراهتهن خيرًا كثيرًا لا تتوقعونه، في الدنيا والآخرة، فربما رزق الزوج منها ولدًا صالحًا تقر به عيونهما، وتبدلت الكراهة بالمحبة، وحصل لم شملهما مع أولادهما واستدامة الصحبة بينهما قال ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر**»[٢].

كما أن في ذلك امتثالًا لأمر الله، ومجاهدة للنفس، والتخلق بالأخلاق الحميدة، مما يرجو المرء ثوابه في الآخرة، وهذا كله مع إمكان الصبر وعدم المحذور.

وهذا وعد من الله أن من صبر على ما يكره؛ ابتغاء وجه الله، واحتسابا لثواب الله فإن الله يجعل فيه خيرًا كثيرًا.

و«عسى» في الأصل للرجاء، لكنها من الله واجبة- كما قال ابن عباس وغيره من المفسرين[٣]، بمعنى أنها من الله تفيد التحقيق، أي وعد من الله سيتحقق، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩]، وذلك؛ لأنه تعالى هو المالك لكل شيء المتصرف فيه، والرجاء لا يكون إلا ممن لا يملك الشيء، فيرجوه من غيره.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه لأهمية ما بعده وأنه جدير بالعناية والاهتمام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يفيد ما يلي:

أ- تكريم المؤمنين وتشريفهم بندائهم بهذا الوصف.

ب- الحث والتحضيض على الاتصاف بهذا الوصف.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٢٣)، «الدر المصون» (٢/ ٣٣٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٦٩)، وأحمد (٢/ ٣٢٩) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ

(٣) انظر: «البرهان» (٤/ ٢٨٨).

جـ- أن امتثال ما بعده من أمر أو نهي من مقتضيات الإيمان، ومخالفته نقص في الإيمان.

قال ابن القيم[١] في كلامه على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]: «وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره؛ ولهذا كثيرا ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ [الجمعة: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه».

٣- يحرم إرث النساء مكرهات، وذلك بأن يخلف أولياء الزوج بعد موته على زوجته، أو تكون لهم الولاية عليها بأن يزوجوها من شاؤوا، أو يمنعوها من الزواج، كما كان يفعله أهل الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾.

٤- أنه يجوز للرجل إذا مات قريبه أن يتزوج زوجته برضاها؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾، فمفهوم هذا أنه إذا تزوجها بغير إكراه جاز ذلك. لكن ذلك مشروط بأن يكون بعقد شرعي، وألا تكون من محارمه كزوجة أبيه أو ابنه.

٥- تحريم عضل الزوج زوجته بغير حق لتفتدي نفسها منه ببعض ما آتاها من المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾.

ومثل هذا في التحريم أن يحبسها وهو لا يريدها رجاء أن تموت فيرثها.

وأيضًا فإذا كان الزوج يحرم عليه عضل زوجته، فكذلك الولي كأبيها وأخيها وغيرهما يحرم عليهم منعها من الزواج حتى تفدي نفسها منهم بدفع مهرها إليهم أو حتى تموت فيرثوها، وإذا عضل الولي القريب انتقلت الولاية إلى من بعده، أو إلى القاضي.

٦- أن الدين الإسلامي أنصف المرأة غاية الإنصاف، فحرم إرثها كرها، وحرم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٧- ٢٨).

عضلها، وفي هذا إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية الأولى من إرث النساء مكرهات وعضلهن، كما أن فيه ردًّا على أهل الجاهلية المعاصرة الذين يزعمون إن الإسلام ظلم المرأة، وهضمها حقوقها.

٧- استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ على أنه لا يجوز أن يكون الخلع بأكثر مما أعطاها.

وفي الاستدلال بالآية على هذا نظر؛ لأن الآية في بيان تحريم العضل لأخذ شيء مما أعطاه الزوج لزوجته، ولو كان شيئا قليلا، وليس فيها تعرض لحكم أخذ أكثر أو أقل مما أعطاها.

وفي هذه المسالة ثلاثة أقوال لأهل العلم أكثرهم على الجواز، وقيل بالتحريم، وقيل بالكراهة. وقد ذكر المفسرون الخلاف في هذه المسألة عند قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [الآية: ٢٢٩] وظاهر هذه الآية أنه لا حرج عليهما فيما افتدت به سواء كان أقل أو أكثر مما أعطاها(١).

٨- أن الصداق ملك للمرأة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

٩- أنه يجوز للزوج أن يعضل زوجته بمنعها حقها أو بعضه لتفتدي نفسها منه إذا أتت بفاحشة مبينة من زنا أو نشوز أو نحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

١٠- لا يجوز للزوج أن يعضل زوجته لتفتدي نفسها منه إلا بحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فلا بد أن تكون أتت بفاحشة بينة واضحة ويتبين منها ذلك، فكم من رجل يعضل زوجته بحجة أنها سيئة العشرة وليست كذلك، لترد إليه ما أصدقها، ولو كان ذلك ظلما منه لها وعدوانا.

١١- العدل في أحكام الدين الإسلامي، وأن الجزاء من جنس العمل، فقد حرم الإسلام عضل الزوجة والتضييق عليها ومنعها حقها ما لم تأت بفاحشة وتخرج عن طاعة زوجها ولا تقم بحقوقه، فإن فعلت ذلك جاز له عضلها والتضييق عليها

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٢٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٣٩٣) «زاد المعاد» (٥/ ١٩٣- ١٩٥).

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

١٢- وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف قولا[١] وفعلا وبذلا، بالقول اللين والخلق الحسن والمعاملة الطيبة والصحبة الجميلة، وكف الأذى وبذل الإحسان وأداء الحقوق كالنفقة والكسوة والسكن ونحو ذلك، مما يجب من مثله لمثلها حسب الأحوال والزمان والمكان وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وقال ﷺ: «**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن هند امرأة أبي سفيان قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[٣].

وليس في قدر النفقة حد وإنما المرجع فيها إلى العرف.

وعن الأسود بن يزيد قال: سألت عائشة- رضي الله عنها- ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله- تعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[٤].

وروى عنها أنها قالت: «**كان يرقع الثوب، ويخصف النعل**»[٥].

---

(١) وقد قيل: المرأة تسمن من أذنها. انظر «البحر المحيط» (٣/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم في الحج من حديث جابر بن عبدالله ﷺ (١٢١٨).

وأخرجه من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه عن النبي ﷺ أبو داود في المناسك (١٩٠٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢١١)، ومسلم في الأقضية (١٧١٤)، وأبو داود في البيوع (٣٥٣٢)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٢٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٦٧٦)، وفي الأدب (٦٠٣٩)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٨٩).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٦) من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: قيل لعائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كما يصنع أحدكم، يخصف نعله، ويرقع ثوبه». وفي الشمائل للترمذي من طريق عمرة عن عائشة: «ما =

وكان ﷺ يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١).

وعن عمرو بن الأحوص- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا فاتقوا الله ﷻ في النساء، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئًا**»(٢).

وفي لفظ: «**فاستوصوا بالنساء خيرًا فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك**»(٣).

ومعنى «عوان عندكم»، أي: أسيرات، فإذا ضيق الرجل على زوجته فأين تذهب المسكينة؟؛ ولهذا قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «**إن النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته**»(٤).

قال ابن القيم: «ولا ريب أن النكاح نوع من الرق»

وهل من المعاشرة بالمعروف أن يخدم الرجل زوجته أو يجلب لها خادمًا يخدمها؟ ذهب إلى هذا بعض أهل العلم، مستدلين بالآية.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الخدمة في البيت إنما هي على الزوجة، وعلى هذا سار نساء الصحابة- رضي الله عنهم- كما قالت أسماء رضي الله عنها: «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكان له فرس وكنت أسوسه وكنت احتش له، وأقوم عليه».

وصح عنها أنها كانت تعلف فرسه وتسقي الماء وتخرز الدلو وتعجن وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ»(٥).

١٣- اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهذا مقيد بما لم يخالف الشرع؛ لأنه قد يتعارف بعض المجتمعات على إباحة الزنا، أو على تحريم

=

كان إلا بشرًا من البشر يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه» انظر «فتح الباري» (٢/ ١٦٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢، ٧٣).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في الرضاع (١١٦٣)، وقال: «حديث حسن صحيح» وابن ماجه في النكاح (١٨٥١) وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٩١ رقم ٥٩١)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ١٣٢).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٧، ٣٥٢) وإسناده صحيح، وانظر «زاد المعاد» (٥/ ١٨٦- ١٨٩).

الطلاق. فلا اعتبار لهذا العرف المخالف لشرع الله.

١٤- التوكيد على وجوب المعاشرة بين الزوجين بالمعروف. والإشارة إلى قوة الرابطة بين الزوجين، فهي- بعد رابطة الدين- أقوى رابطة تربط بين اثنين من البشر، يشعر بها كل من الزوجين أنه شريك الآخر، في كل أمر مادي ومعنوي.

١٥- يندب للزوج إذا كره زوجته أن يصبر ولا يستعجل، فقد تكون العاقبة حميدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وفي الحديث: «**وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

وينبغي للزوج، بل لكل من الزوجين أن يستشعر أنه قل أن تجد متعاشرين يرضى كل منهما خلق الآخر على التمام، ويقال: ما تعاشر اثنان إلا وأحدهما يتغاضى عن الآخر.

وقد قيل:

ومن لا يُغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عائب
ومن يتتبع جاهدًا كل عثرة ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب(٢)

١٦- الإشارة إلى كراهية الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وفي الحديث: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(٣).

وعن جابر ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**يبعث الشيطان سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم، فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا. قال: ثم يجيء أحدهم، فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه ويقول: نِعْمَ أنت**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) البيتان لكثير عزة انظر «ديوانه» ص (١٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق (٢١٧٨)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠١٨) من حديث عبدالله بن عمر ﷺ وضعفه الألباني. وقد حسن هذا الحديث بعض أهل العلم.

(٤) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٣).

١٧- اختيار التعبير الأحسن والأفصح؛ لقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾، فعلق الكراهة بشيء، وهو عام، ولم يعلقها بضميرهن، فيقول: «فعسى أن تكرهوهن».

١٨- أن كراهة الأنفس للشيء وعدم محبتها له لا تدل على انتفاء الخير فيه، ولا ينبغي أن تكون مقياسا يُتَّبع في الحكم على الأشياء، والتعامل معها، فقد يكره الإنسان الشيء، ويجعل الله فيه الخير الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾. وهذا عام في كراهية أي شيء، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

١٩- أن الخِيرة للعبد فيما يختاره الله له، وما يجري عليه لحكمة يعلمها الله، فلا ينبغي أن يضجر ويتعجل؛ لأنه لا يعلم أين الخيرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

٢٠- أن الإنسان في هذه الحياة معرض لأن يحصل له بعض المكاره أيا كانت؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾، وذلك ابتلاء من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

وقد قيل:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه(١)

وقال زهير(٢):

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقال أبو العلاء المعري(٣):

إذا كنت تبغي العز فابغ توسطا ... فعند التناهي يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهي أهلة ... ويدركها النقصان وهي كوامل

---

(١) البيت لبشار بن برد وهو في «ديوانه» (١/ ٣٠٩).
(٢) انظر: «شرح ديوان زهير بن أبي سلمى» ص (٢٩).
(٣) انظر: «ديوانه سقط الزند» ص (٥٩).

وقال آخر:

ومن عاش في الدنيا فلابد أن يرى ... من العيش ما يصفو وما يتكدر[١]

٢١- أن من جاهد نفسه على ما تكره وصبر، فإن العاقبة له بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

٢٢- إثبات الجعل الكوني لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

٢٣- أن الكراهة قد تحصل بين المسلم وأخيه المسلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

فإن كانت الكراهة لمبرر شرعي كأن يكره شخصًا؛ لأنه يرتكب بعض المعاصي، أو لكونه اعتدى عليه أو منعه حقه وهكذا فعليه في مثل هذا أن يناصح أخاه ويخوفه في الله علَّه أن يرجع إلى الحق، فتزول الكراهة بينهما.

وإن كانت الكراهة لغير مبرر شرعي، بل وجد الإنسان من نفسه كراهة لذلك الشخص، أو كرهه لمرض في قلبه؛ من حسد أو غير ذلك، فعليه أن يحاسب نفسه ويعالج قلبه، فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله[٢].

وقال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**»[٣].

وقال أيضًا: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٤].

* * *

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» (١/ ٣٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر «الجامع الصغير» (٢٧٧٨)، وأخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦) عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله»، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «الجامع الصغير» (٢٢٤٧).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٣)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٦٨٨)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٦)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

لما بين ﷻ في الآية السابقة أنه يجوز للأزواج أن يأخذوا من زوجاتهم بعض ما آتوهن إذا أتين بفاحشة مبينة بين في هاتين الآيتين أنه إذا كان الفراق بسببهم هم فلا يجوز لهم أن يأخذوا شيئًا مما آتوهن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ الواو: استئنافية. و«إن» شرطية. ﴿أَرَدتُّمُ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.

ومعنى ﴿أَرَدتُّمُ﴾، أي: اخترتم وشئتم، فالإرادة بمعنى الاختيار والمشيئة.

﴿اسْتِبْدَالَ﴾ الاستبدال: أخذ شيء مكان شيء. ﴿زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾، أي: زوجة مكان زوجة.

والمعنى: وإن أردتم استبدال زوجة تتزوجونها مكان زوجة تطلقونها.

فالبدل هي الزوجة الأخيرة، والمبدل منه هي الزوجة الأولى.

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾، الواو للحال، ﴿آتيتم﴾، أي: أعطيتم، وهو فعل متعدٍ ينصب مفعولين، ليس أصلهما المبتدأ والخبر، الأول: إحداهن، والثاني: قنطارا.

أي: وأعطيتم إحداهن، أي: إحدى الزوجتين، وهي المستبدل مكانها المفارقة.

﴿قِنطَارًا﴾ القنطار: هو المال الكثير الجزيل، قال الزمخشري[1]: «القنطار المال العظيم، من قنطرت الشيء إذا رفعته، ومنه القنطرة؛ لأنها بناء مشيد».

وقال الحافظ ابن كثير[2]: «وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره».

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٢٥٨).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ١٥).

﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

و«لا» ناهية «تأخذوا» فعل مضارع مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة.

﴿مِنْهُ﴾، أي: من المال الذي آتيتموها. ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعم القليل والكثير من المال.

والمعنى: وإن أردتم طلاق إحدى الزوجتين وقد أعطيتموها مالًا كثيرًا مهرًا لها، فلا تأخذوا منه شيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا؛ لأن المهر كله ملك لها بما استحل من فرجها، فلا يجوز الرجوع بشيء منه.

وسواء استبدلها بغيرها أو جلس أعزب بدون زوجة، فلا يحل له أن يأخذ من المفارقة شيئًا، والآية إنما جاءت على الغالب أن الطلاق؛ لأجل الاستبدال، لا لأجل العزوبة.

﴿أَتَأْخُذُونَهُ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ، وهذه الجملة الاستفهامية: مقررة لجملة النهي السابق.

﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ «بهتانًا» و«إثمًا» مصدران منصوبان على الحال، أي: باهتين وآثمين.

ومعنى ﴿بُهْتَانًا﴾: أي كذبًا، بمعنى أن رجوعكم عليهن بشيء مما أعطيتموهن بدعوى أنه حق لكم هذا بهتان وكذب؛ لأنكم لا تستحقون شيئًا من ذلك، ولا حق لكم فيه البتة بعد الإفضاء.

ولأن تعلق الزوج بشيء مما دفع لزوجته قد يحمله إلى نسبتها للنشوز والفاحشة وليست كذلك، وهذا عين الكذب والبهتان، فسواء نسبها لما ليس فيها ليبرر دعواه استحقاق ذلك، أو أدعى أن له حقاً في ذلك بدون أن ينسبها لشيء من ذلك فكل هذا من البهتان.

وسُمِّي الكذب بهتانًا؛ لأن الكذب على البريء يبهته ويحيره ويدهشه.

﴿وَإِثْمًا﴾، أي: ذنبًا، وفي الحديث: «**الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع**

عليه الناس»[١].

﴿مُّبِينًا﴾ صفة لإثم منصوبة، أي ذنبًا بينا واضحًا، ظاهرًا. و«مبين» اسم فاعل، يأتي لازمًا ومتعديًا، وهو هنا من «أبان» الرباعي المتعدي.

قال الطبري[٢]: «يعني إثمًا قد أبان أمر آخذه أنه بأخذه إياه عمن أخذه منه ظالم».

ويحتمل أن يكون من «أبان» الرباعي اللازم.

وإنما كان إثمًا مبينًا؛ لأنه ظلم للمرأة وأخذ لمالها بغير حق.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾: استفهام تعجب، وإنكار بعد إنكار؛ لتوكيد التحريم. والضمير في قوله ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾ يعود إلى ﴿شَيْـًٔا﴾.

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الواو: حالية، فالجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنه قد أفضى بعضكم إلى بعض إفضاءً سريًّا، والإفضاء إلى الشيء: الوصول إليه مباشرة بلا حائل، ومنه الفضاء.

والمعنى: بأي وجه، أو على أي جهة تأخذون ما أعطيتموهن من العوض وهو المهر، والحال أنكم قد استوفيتم المعوّض عنه، وذلك بأن أفضى بعضكم إلى بعض إفضاءً سريًّا بما لا ينتهي إليه ولا يستحله إلا الأزواج، وهو الجماع.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ قال: الإفضاء هو الجماع، ولكن الله حيي كريم يُكَنّي عما يشاء»[٣].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾. هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها،

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، من حديث النواس بن سمعان الأنصاري ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

(٢) في «جامع البيان» (٨/ ١٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٨).

فهي في محل نصب على الحال، أي والحال أنهن أخذن منكم ميثاقًا غليظًا.

﴿وَأَخَذْنَ﴾، أي: الزوجات، وجمعن؛ لأن ما سبق من الإفراد في قوله: «زوج». وفي قوله: «إحداهن» يراد به الجنس، فصح جمعهن هنا باعتبار الجنس.

﴿مِنكُم﴾ أيها الأزواج، ﴿مِّيثَٰقًا﴾ عهدًا وعقدًا، ﴿غَلِيظًا﴾ شديدًا مؤكدًا محكمًا، وهو عقد النكاح الذي هو أشد العقود وأخطرها وأعظمها من حيث شروط عقده وما يترتب عليه من حقوق يجب الوفاء بها واحترامها.

وقيل المراد بالميثاق: الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان. والصحيح أن هذا مما يلزم على هذا الميثاق ومن مقتضياته، وليس هو نفس الميثاق.

وقيل المراد به الأولاد، وقيل طول الصحبة وقد قيل صحبة عشرين يومًا قرابة.

والصحيح أن المراد به العقد، فمتى تم العقد بالإيجاب والقبول وغيره من شروط النكاح وأركانه وانتفت موانعه، فإن المهر يستقر للزوجة عوضًا عما استحل من فرجها، فلا يجوز الرجوع بشيء من هذا العوض بعد تمام العقد.

قال ﷺ: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»(١).

ومن مقتضيات هذا العقد الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان، كما قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الطلاق، واستبدال زوجة مكان أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾.

أي: وإن أردتم استبدال زوجة تتزوجونها مكان أخرى تطلقونها.

والطلاق- وإن كان مباحًا- فإنه مكروه إذا كان لغير حاجة.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأبو داود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في المناسك (٢٩٦٢)، والترمذي في الحج (٨٦٢)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤)، من حديث جابر بن عبدالله ﷺ. وأخرجه أحمد (٥/ ٧٣)، من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه عمرو بن الأحوص.

ومما يدل على كراهة الطلاق قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

وجه ذلك أن الله ختم الآية الأولى وهي التي بها الرجوع عن الإيلاء بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بينما ختم الآية الثانية التي فيها العزم على الطلاق بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ومما يدل على كراهة الطلاق أيضًا الحديث في بعث الشيطان سراياه.. وفيه «**فيأتيه أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى زنى أو سرق فقال: ما عملت شيئًا، يستغفر الله ويتوب.. ويأتيه الآخر ويقول: ما زلت بفلان بينه وبين امرأته حتى طلقها، فيدنيه ويقول: أنت أنت**» الحديث(١).

وإذا كان الطلاق من عمل الشيطان وتزيينه وتسويله ومحبوب له فهو مما يبغضه الله.

٢- أن اللغة الفصحى التي جاء بها القرآن الكريم أن يقال للمرأة: زوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾.

٣- مشروعية المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾.

٤- جواز الإصداق بالمال الكثير، وأنه لا حد لأكثر المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾.

والقنطار: المال الكثير بلا حد، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم مستدلين بهذه الآية؛ لأن الله مثَّل بالقنطار ولا يمثل سبحانه إلا بمباح.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى عدم جواز الإكثار من المهر، وقالوا: إن ذكر القنطار في الآية من باب المبالغة، أي: لو أعطيتم إحداهن هذا القدر الذي لا يعطيه أحد، كقوله ﷺ: «**من بنى لله بيتًا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتًا في الجنة**»(٢).

فمفحص القطاة لا يمكن أن يكون مسجدًا، ولكن هذا من باب الترغيب في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٣)، والترمذي في الصلاة (٣١٨)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٣٦)، من حديث عثمان بن عفان ﷺ، وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٣٨) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.

بناء المساجد.

قال الرازي في كلامه على الآية[١]: «وعندي أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة؛ لأن قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار، كما أن قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. لا يدل على حصول الآلهة، والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطًا لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع..».

واستدلوا بما روى أبو هريرة ﷺ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال: «**على كم تزوجتها؟**» قال: على أربع أواق. فقال النبي ﷺ: «**على أربع أواق كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل!!**»[٢].

وفي رواية عند الإمام أحمد[٣] والطبراني في الكبير والأوسط[٤]، أن أبا حدرد جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في مهر، فسأله النبي ﷺ عنه فقال: مائتين. فغضب النبي ﷺ وقال: «**كأنما تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة أو جبل**».

والصحيح الذي يدل عليه ظاهر الآية الجواز، وقد حكي الإجماع عليه، فعلى أي قدر من المهر تراضى الزوجان جاز ذلك، قليلًا كان ذلك أو كثيرًا ولو بلغ قناطير مقنطرة. قال القرطبي[٥]: «وقد أجمع العلماء على أن لا تحديد في أكثر الصداق».

وإنما غضب النبي ﷺ على ذلك الرجل الذي جاء يسأل عندما سأله عن المهر، فقال: مائتين؛ لأنه فقير، وقد كلف نفسه ما لا يطيق، ولهذا اضطر إلى السؤال[٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٧]: «ويكره للرجل أن يصدق المرأة صداقًا يضر به ويعجز عن وفائه إن كان دينًا».

---

(١) في «التفسير الكبير» (١٠/ ١٢).

(٢) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٢٤). والأوقية أربعون درهمًا من فضة. ويحتمل أن اسم الرجل «أبو حدرد» كما في رواية أحمد والطبراني، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ١٨١): «يحتمل أن يكون المغيرة بن شعبة».

(٣) في «المسند» (٦/ ١١).

(٤) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٨٢) وقال: «ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠١).

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٦٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠١)..

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٩٢).

ولاشك أن الأولى والأفضل الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر.

كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «ألا لا تغلوا بصداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثني عشر أوقية[١]، وإن كان الرجل ليبتلى بصداق امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه»[٢].

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان صداق النبي ﷺ لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشًا، فذلك خمس مئة»[٣].

وعن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: «أيها الناس ما إكثاركم في صُدُق النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه، وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم. قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء صداقهن على أربعمائة درهم؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن، قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ الآية فقال: اللهم غفرًا، كل الناس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر، فقال: إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب»[٤].

---

(١) الأوقية أربعون درهمًا انظر «زاد المعاد» (٥/ ١٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١٠٦، والنسائي في النكاح (٣٣٤٩)، والترمذي في النكاح (١١١٤)، وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٨٧) وأحمد (١/ ٤١، ٤٨)، والدرامي في النكاح (٢٢٠٠). وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٧٤)، وحسنه الأرنؤوط في تخريجه «زاد المعاد» (٥/ ١٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٢٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤١٤).

(٤) أخرج هذه القصة عبد الرزاق في «المصنف» (٦/ ١٨٠)- الأثر (١٠٤٢٠)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٢٣٣) وقال: «ضعيف منكر». والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢٣١- ٢٤١).

وذكرها ابن العربي في «أحكام القرآن» (١/ ٣٦٤)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٦٤)، والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٩٩- ١٠٠) وذكرها ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢١٢- =

قال ابن العربي[١]: «وهذا لم يقله عمر على طريق التحريم، وإنما على طريق الندب والتعليم، ولاشك أن الأولى تخفيف المهر للأحاديث السابقة وغيرها كحديث عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «خير النكاح أيسره»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «السنة تخفيف المهر، وأن لا يزيد على نساء النبي ﷺ وبناته.. ما بين أربعمائة إلى خمسمائة درهم نحو من تسعة عشر دينارًا، والسنة تعجيله.. ومن كان عنده يسار ووجد فأحب أن يعطي امرأته صداقًا كثيرًا فلا بأس بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾».

وقال ابن القيم[٤] بعد ذكر الأحاديث في الصداق وعدم تحديده قلة وكثرة.

قال: «فتضمن هذا الحديث أن الصداق لا يتقدر أقله، وأن قبضة السويق وخاتم الحديد والنعلين يصح تسميتها مهرًا، وتحل بها الزوجة. وتضمن أن المغالاة في المهر مكروهة في النكاح، وأنها من قلة بركته وعسره».

وقال السعدي[٥]: «وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر، ووجه الدلالة أن الله أخبر أنه يقع ولم ينكره عليهم، فدل على عدم تحريمه، لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم».

٥- تحريم أخذ الزوج شيئًا من مهر زوجته، مهما كانت كثرة المهر المدفوع لها، ومهما كانت قلة الشيء المأخوذ، إذا كان الفراق بسببه بعد أن أفضى بعضهما إلى بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا

=

٢١٣) وقال بعد سياق هذه القصة: «إسناده جيد قوي» وذكرها من طريق أخرى وقال: «في سندها انقطاع». وضعفها الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٤٨) حديث (١٩٢٧).

(١) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١١٧)، وإسناده قوي، وصححه ابن حبان (١٢٥٧)، والألباني.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٩٢- ١٩٥).

(٤) في «زاد المعاد» (٥/ ١٧٨).

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٣).

تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

وإنما خص النهي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال وإن كان المنع عامًا.

قال بعض أهل العلم: لئلا يظن أنه لما عاد البضع إلى ملكها وجب أن يسقط حقها من المهر، أو أن الثانية أولى بالمهر منها لقيامها مقامها(١).

أما إذا كان الفراق بسببها بأن أتت بفاحشة فله أن يأخذ منها مما أعطاها كما في الآية السابقة ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [النساء:١٩]، وكذا إذا طلبت الفسخ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وكذا إذا رضيت بأن يأخذ زوجها شيئًا مما أعطاها، وكانت مكلفة رشيدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤].

أما إذا كان الفراق بسببهما معًا، فقيل: للزوج أن يأخذ منها، وقيل: ليس له ذلك وهو الأظهر(٢).

٦- الإنكار الشديد والتهديد والوعيد لمن يأخذ من مهر زوجته، وبيان أن مطالبته بشيء مما دفعه لها إذا أراد فراقها دعوى باطلة وكذب وبهتان، وذنب بين؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

٧- أن أخذ الزوج شيئًا مما دفعه من المهر لزوجته عند فراقه لها أمر يثير الدهشة والاستغراب والعجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ ﴾.

٨- أن من أدعى على أحد شيئًا فعليه أن يبين وجه دعواه ومبرراتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ ﴾، أي: على أي وجه، أو على أي جهة تأخذونه.

٩- الإشارة إلى ستر ما بين الزوجين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾، أي: وقد أفضى بعضكم إلى بعض إفضاء سريًا مما لا يكون إلا بين الزوجين،

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١١٠).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٦٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٩٩).

وفي الحديث: «إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»(١).

١٠- بلوغ القرآن الغاية في البلاغة في التنفير مما يريد التنفير عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

ففي هذا أبلغ صورة للتنفير من أخذ الزوج شيئًا مما دفعه إلى زوجته بعد أن تم العقد بينهما وأفضى كل منهما إلى الآخر بالجماع.

١١- أن المهر يستقر بكامله للزوجة بالإفضاء وهو الجماع بعد العقد؛ لأنه عوض عن استباحة فرجها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

كما أن المهر أيضًا يتقرر بالخلوة بعد العقد، فإذا أسدل سترًا أو أغلق بابًا وجب المهر على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو الذي عليه عمل الصحابة- رضي الله عنهم.

١٢- أن عقد النكاح عقد شديد وميثاق غليظ؛ لما يترتب عليه من ثبوت المحرمية والنسب والقرابة، ومن استباحة البضع الذي كان محرمًا قبل العقد، ومن وجوب النفقة وغير ذلك؛ لهذا يجب عند عقده مراعاة توفر شروطه وأركانه وانتفاء موانعه، ويجب بعد تمام عقده احترامه والوفاء بجميع الحقوق المترتبة عليه بين الزوجين، ويجب عند فسخه مراعاة ما يلزم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

١٣- حماية الإسلام لحقوق المرأة والدفاع عنها وإنصافها، ورفع الظلم عنها والتشديد في الدفاع عنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ فقد ذكر الله ﷻ في هذه الآية سبعة أمور، تبين حرمة أخذ الزوج شيئًا مما دفعه لها، وتبين عظم ذلك وشناعته:

الأول: النهي عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، والأصل في النهي التحريم.

والثاني: الإنكار والإعظام لذلك بقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٣٧)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٠)، وأحمد (٣/ ٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

الثالث: تسميته بهتانًا.

الرابع: تسميته إثمًا مبينًا.

الخامس: الإنكار مرة أخرى والتعجب من ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

السادس: ذكر أن إفضاء بعضهم إلى بعض يمنع من ذلك.

السابع: أن الميثاق الغليظ بين الزوجين يمنع من ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن إرث النساء كرهًا ومن جملتهن زوجات الآباء المذكورات في هذه الآية ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية.... فلما ذكر حرمة من يورثن كرهًا من النساء أتبع ذلك بذكر بقية المحرمات.

وأيضًا لما بين عز وجل في الآيات السابقة وجوب الإحسان في معاشرة النساء، وتحريم الأخذ من مهورهن أتبع ذلك بذكر المحرمات من النساء اللاتي لا يجوز التزوج بهن.

سبب النزول:

عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: «توفي أبو قيس بن الأسلت وكان من صالح الأنصار فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: إنما أعدك ولدًا، وأنت من صالح قومك، ولكني آتي رسول الله ﷺ فأستأمره، فأتت رسول الله ﷺ واستأذنته، فقالت: إنما أعده ولدًا فما ترى؟ فقال: «ارجعي إلى بيتك» فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢: ٩٠٩ الأثر ٥٠٧٣.

وذكره ابن كثير ٢: ٢١٤ والسيوطي في «اللباب» ص ٦٦. وقال الحافظ في «الفتح» ٩/ ٣٠٥، والسيوطي في «اللباب»: «سنده حسن» وانظر «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص٦٦.

ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗاۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هؤلاء هن النوع الأول من القسم الأول من المحرمات، وهن المحرمات بسبب المصاهرة، وهن زوجات الآباء.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾: الواو استئنافية و«لا» ناهية. ﴿تَنكِحُواْ﴾ النكاح لغة: الضم والجمع، ويطلق على العقد، وعلى الوطء، فإذا قالوا: نكح فلان بنت فلان، فمعناه: عقد عليها وتزوجها، وإذا قالوا: نكح فلان زوجته، فمعناه: وطئها.

والمراد بالنكاح في الموضعين في الآية هنا العقد.

وقيل: المراد به الوطء. والصحيح الأول.

﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، «ما» موصولة بمعنى: «اللاتي»، وهي لغير العالم، ولم يقل: «من نكح»؛ لأنه لوحظ الوصف، وهو كونهن منكوحات الآباء، أي: ولا تنكحوا النساء اللاتي نكحهن آباؤكم.

وقيل: التقدير: ولا تنكحوا كنكاح آبائكم الفاسد، و«ما» مصدرية لا موصولة؛ لأنه لو أراد النساء لقال: «من نكح آباؤكم»، واختار هذا الطبري(٢).

والصحيح الأول، وهو ظاهر سياق الآية، وعليه جمهور المفسرين.

والنكاح: يطلق على العقد وحده، وإن لم يحصل مسيس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ويطلق على الجماع بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

﴿ءَابَآؤُكُم﴾ جمع أب يشمل الأب الأقرب، والجد وإن علا من أي جهة كان؛

---

(١) أخرجه الطبري الأثر (٨٩٣٨)، ورجاله رجال الصحيح إلا محمد بن عبدالله المخزومي وهو ثقة. انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٥)، «الصحيح المسند» ص (٦٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٣٦- ١٣٨).

لأن التحريم يكتفي فيه بأدنى ملابسة.

﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ «من» بيانية، فيها بيان لـ «ما» الموصولة في قوله ﴿مَا نَكَحَ﴾.

والمعنى: ولا تتزوجوا اللاتي تزوجهن آباؤكم من النساء، أي: لا تعقدوا على ما عقد عليه آباؤكم منهن، سواء حصل مع العقد دخول ووطء أو لم يحصل شيء من ذلك.

قال ابن عباس: «كل امرأة تزوجها أبوك أو ابنك دخل بها أو لم يدخل فهي عليك حرام»(١).

وقيل: إن قوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ يراد به الوطء مطلقًا، فإذا وطئ الرجل امرأة، ولو بطريق الحرام حرمت على أبنائه(٢).

والصحيح: أن المراد به العقد. قال الكيا الهراسي(٣): «فالتي عقد عليها الأب مراد الآية إجماعًا، ودل عليه نظيره ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].وسيقت الآيات بعدها لتحريم العقد، وقال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ ولا يجوز أن يريد به الوطء دون النكاح، فإن ذلك محرم لا بهذه العلة، بل بالزنا محرم على الإطلاق، وإنما يكون قد حرم ما كان تحريمه لأجل نكاح الأب، وهو عقد نكاح الابن، وهذا لا يشك فيه عاقل. ودل على ذلك أيضًا قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]. معناه دخلتم بهن من نسائكم، ولا يكون ذلك إلا في النكاح».

﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ «إلا» أداة استدراك بمعنى «لكن».

وقيل «إلا» بمعنى «بعد» كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الدخان: ٥٦]، أي: بعد الموتة الأولى.

﴿مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ «ما» موصولة، و«قد» للتحقيق، و«سلف» بمعنى: مضى وانتهى.

ومعنى الآية: لكن الذي قد مضى وانتهى مما حصل من نكاح زوجات الآباء قبل

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ١٣٥ - ١٣٦ الأثر (٨٩٤٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١١٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٦٩).

(٣) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٨٣- ٣٨٤).

تقرير هذا الحكم بأن زال هذا النكاح بأي سبب من أسباب الفرقة قبل نزول الآية وقبل التحريم، فلا حرج فيه ولا إثم فقد عفا الله عنه.

وجاء استدراك ما قد سلف واستثناؤه علمًا أنهم قبل التحريم على البراءة الأصلية- والله أعلم- لئلا يقع في قلوبهم شيء مما حصل منهم قبل نزول الآية، نظرًا لشدة حرمة نكاح المحارم، فطمأنهم ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أن ما قبل التحريم عفو لا مؤاخذة فيه.

وليس المعنى إقرار ما كان من عقود هذا النكاح التي عقدت قبل نزول الآية وما زالت قائمة بعد نزول الآية بل يجب فسخها والتفريق بين الرجل وبين من تزوج من زوجات أبيه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، أي: إن نكاحكم ما نكح آباؤكم كان فاحشة.

و﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف وثبوته، أي: تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي: إن هذا النكاح تحقق وثبت إنه فاحشة، وليس المعنى أنه كان في الماضي، بل كان ولم يزل.

﴿فَٰحِشَةً﴾ الفاحشة مأخوذة من الفحش، وهو كل ما فحش من قول أو عمل في الشرع وفي عرف المسلمين ولدى ذوي العقول السليمة، أي: إن هذا العمل وهو نكاح زوجات الآباء عمل سيء قبيح في نفسه مستفحش شرعًا وعقلًا وعرفًا.

﴿وَمَقْتًا﴾ معطوف على ﴿فَٰحِشَةً﴾. والمقت: أشد البغض[1].

قال أبو حيان[2]: «المقت البغض المقرون باستحقار حصل بسبب أمر قبيح ارتكبه صاحبه».

أي: إن نكاح ما نكح الآباء مقت عند الله، قال عطاء بن أبي رباح: «يمقت الله

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣١)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٠).
(٢) في «البحر المحيط» (٣/ ١٩٣).

عليه»[١]. كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] أي: كبر بغضًا.

وهو أيضًا «مقت» عند الخلق وبسببه يمقت الابن أباه، والأب ابنه.

قال الحافظ ابن كثير[٢]: «ومقتًا، أي: بغضًا، أي: هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات المؤمنين؛ لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه».

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ معطوف على ما قبله، ﴿وَسَآءَ﴾ فعل ماض جامد يراد به إنشاء الذم بمعنى: «قبح»، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: ساء سبيلا سبيل ذلك النكاح، وهو كـ«بئس» في الذم والعمل والمعنى.

وقد يأتي الفعل «ساء» متصرفًا إذا لم يقصد به إنشاء الذم، بل قصد به ضد ما يسر، كقولك: ساءني زجرك لليتيم، وسرني تعليمك له، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

﴿سَبِيلًا﴾: تمييز، أي: طريقًا ومنهجًا.

والمعنى: بئس وقبح هذا العمل طريقًا ومنهجًا ومسلكًا.

فوصف الله ﷻ نكاح ما نكح الآباء بثلاثة أوصاف كلها في غاية الشناعة والقبح تنفيرًا منه، وهي: كونه فاحشة، ومقتًا، وساء سبيلا؛ لأن امرأة الأب من المحارم، بل هي تشبه الأم فنكاحها من أعظم المحرمات[٣].

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩١٠)- الأثر (٥٠٧٩).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢١٥).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٢١).

ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾ الآية هن المقصودات بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الأحزاب: ٥٢] أي: من بعد المذكورات في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾»(١).

وهؤلاء هن القسم الثاني من المحرمات، وهن المحرمات من النسب، وهن أنواع؛ الأول: الأصول؛ لقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾، «حرِّم» فعل ماضٍ مبني للمجهول، والمحرم هو الله تعالى، وإنما حذف الفاعل للعلم به؛ ولهذا قال في آخر الآية ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

والتحريم لغة: الحظر والمنع، وهو ينقسم إلى قسمين: تحريم شرعي ديني، ومنه قوله هنا: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ الآية، وقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣].

وتحريم كوني، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥](٢).

﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ نائب فاعل مرفوع بالضمة والكاف للخطاب، والميم للجماعة. و«أمهات» جمع «أم»، أو جمع «أمهة»(٣). والأم في الأصل الشيء الذي ينسب إليه غيره، أو يرجع إليه غيره، كأم الكتاب، وأم القرى، قال الشاعر:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٥).

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٦٥٧). «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠٧).

عـلى رأسـه أم لنـا نقتـدي بهـا جماع أمور ليس نعصي لها أمرًا[١]

والمراد بها هنا: الأم التي ولدت قال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢].

وتشمل الأم الدنيا، وإن علت من جهة الأب، أو من جهة الأم.

والمعنى: حرم عليكم نكاح أمهاتكم؛ بدليل قوله قبل هذا: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

قال الطبري[٢]: «حرم عليكم نكاح أمهاتكم، فترك ذكر النكاح اكتفاء بدلالة الكلام عليه».

والتحريم إنما يقع على الأفعال لا على الأعيان والذوات كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] أي حرم عليكم أكلها.

قال ابن العربي[٣]: «والأعيان ليست موردًا للتحليل والتحريم، ولا مصدرًا، وإنما يتعلق التكليف بالأمر والنهي بأفعال المكلفين من حركة وسكون، لكن الأعيان لما كانت موردًا للأفعال أضيف الأمر والنهي والحكم إليها».

وإذا كان المراد بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وما بعده تحريم نكاحهن فكذلك يحرم وطؤهن بملك اليمين؛ لأن من حرم عقد النكاح عليها حرم وطؤها بملك اليمين.

بل إن أكثر هذه المحرمات إذا ملكها الشخص عتقت عليه كأمه وابنته للحديث: «**من ملك ذا رحم محرم عتق عليه**»[٤].

كما يحل النظر إلى جميع هذه المحرمات والخلوة بهن.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ١٠٧- ١٠٨).

(٢) في «جامع البيان» (٨/ ١٤١- ١٤٣).

(٣) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٧١).

(٤) أخرجه أبو داود في العتق (٣٩٤٩)، والترمذي في الأحكام (١٩٦٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥٢٤)، من حديث الحسن عن سمرة. وأخرجه ابن ماجه أيضًا من حديث عبدالله بن عمر في الأحكام (٢٥٢٥). وصححهما الألباني. وانظر «نيل الأوطار» (٦/ ٢٠٣). قال ابن تيمية: «وللإنسان أن يملك أم امرأته وبنتها، وأخته وابنته من الرضاع». انظر «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧١).

والنوع الثاني: من المحرمات بالنسب: الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾.

وهذا وما بعده معطوف على نائب الفاعل ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ جمع بنت، وهي تشمل البنات من الصلب، وبنات الأولاد، بنت الابن، وبنت البنت وإن نزلن.

قال ابن كثير[1]: «ويشمل أيضًا البنت من الزنا على قول الجمهور».

قالوا: لأنها خلقت من مائه، وإن كانت لا تنسب إليه شرعًا؛ لقوله ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[2].

والنوع الثالث: من المحرمات بالنسب: الحواشي، وهي بقية المحرمات بالنسب الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾.

قوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ الأخوات: جمع أخت، وهن فروع الأب والأم الأدنين.

ويقال: كل أنثى شاركتك في أصليك الأدنين أو في أحدهما، فتشمل الأخت الشقيقة، والأخت لأب، والأخت لأم[3].

﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ العمات جمع عمة، وهن فروع الأب الأعلى، أي فروع الجد وإن علا، أي: كل أخت لأبيك أو جدك.

ويقال: العمة كل أنثى شاركت أباك أو جدك في أصليه، أو في أحدهما، وقد تكون العمة من جهة الأم، وهي أخت أب الأم.

فالعمة قد تكون من جهة الأب وهي أخت الأب أو أخت أبيه وإن علا، وقد تكون من جهة الأم وهي أخت أب الأم وإن علا.

وعمة الرجل عمة لأولاده وأولاد أولاده وإن نزلوا.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢١٦) وانظر «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٩- ١٤٠)، وتشمل البنت عند بعض أهل العلم أيضًا البنت من الرضاع.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٧٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠٨).

﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ الخالات: جمع خالة، وهن فروع أب الأم وإن علا، أي: أخت الأم، وأخت الجدة وإن علت.

ويقال: الخالة كل أنثى شاركت أمك في أصليها أو في أحدهما. وقد تكون الخالة من جهة الأب، وهي: أخت أم الأب وإن علت.

قال في «تفسير المنار»[1]: «وقدم العمات والخالات على بنات الإخوة وبنات الأخوات في النظم القرآني؛ لأن إدلاء العمات والخالات من جهة الآباء والأمهات فصلتهما أشرف وأعلى من صلة الإخوة والأخوات».

وقد اشتهر عند بعض الناس تسمية أم الزوجة خالة وكذا أم الزوج، وتسمية زوجة الأب عمة، وهذا خلاف التسمية الشرعية فالخالة أخت الأم والجدة، والعمة أخت الأب والجد، وتسمية هذه الأسماء الشرعية لغير من سمي بها شرعًا لا يجوز لما فيها من الإيهام والالتباس. وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

فنهي عن تسمية الشخص ونسبته لغير أبيه شرعًا.

ونهي ﷺ عن تسمية صلاة العشاء بالعتمة؛ لأنه خلاف مسماها في القرآن فقال: «لا يغلبنكم الأعراب على صلاتكم العشاء تسمونها العتمة، فإنها في كتاب الله العشاء: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ [النور: ٥٨][2].

قال ابن تيمية[3]: «وكل من الزوجين يكون أقارب الآخر أصهارًا له، وأقارب الرجل أحماء المرأة، وأقارب المرأة أختان الرجل».

﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ﴾ بنات الأخ تشمل بناته لصلبه وبنات أولاده، أي: بناته وبنات أبنائه وبنات بناته وإن نزلن شقيقًا كان الأخ أو لأب أو لأم ونسبة الشخص إلى بنات

---

(١) (٥/ ٣١).

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٦٤٤)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٤)، والنسائي في المواقيت (٥٤١)، وابن ماجه في الصلاة (٧٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٦).

أخيه يكون عمهن.

﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾، أي: بنات الأخت وبنات أولادها وإن نزلن شقيقة كانت الأخت أو لأب أو لأم. ونسبة الشخص إلى بنات أخته يكون خالهن.

هؤلاء هن المحرمات من النسب، وهن سبع: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت. وما عداهن فهو حلال يدخل تحت قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ كبنات الأعمام وبنات العمات وبنات الأخوال وبنات الخالات.

قال ابن تيمية[1]: «وأما المحرمات من النسب فالضابط فيه أن جميع أقارب الرجل من النسب حرام عليه إلا بنات أعمامه وأخواله وعماته وخالاته، وهذه الأصناف الأربعة هن اللاتي أحلهن الله لرسوله ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]».

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

هؤلاء هن القسم الثالث من المحرمات من النساء، وهن المحرمات بالرضاع.

قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وحرمت عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعنكم وهكذا ما بعده.

﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾ الرضاع: هو امتصاص الرضيع للثدي مرة، أو أكثر من ذلك، وسواء في الحكم ما إذا امتص الطفل من ثدي المرأة مباشرة، أو وضعت اللبن في إناء وأسقته للطفل، فإنها تسمى أمه من الرضاع مادام تغذى بلبنها امتصاصًا أو شربًا.

والآية هنا مطلقة تدل على أن مطلق الرضاع يثبت به التحريم، وقد جاء تقييد هذا الإطلاق في السنة؛ ولهذا اختلف العلماء في مقدار الرضاع المحرم كما سيأتي تفصيله في الأحكام.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٢)، وانظر «زاد المعاد» (٥/ ١٢٩).

﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ سواء كن شقائق أو لأب أو لأم فأختك الشقيقة من الرضاع هي التي رضعت من أمك من لبن أبيك أو رضعت من أمها من لبن أبيها.

وأختك من الرضاع لأب هي التي رضعت من لبن أبيك من زوجة غير أمك، أو رضعت من لبن أبيها من زوجة غير أمها.

وأختك من الرضاع لأم هي التي رضعت من أمك من لبن زوج غير أبيك أو رضعت من أمها من لبن زوج غير أبيها.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وحرمت عليكم أمهات نسائكم.

وهؤلاء من القسم الأول من المحرمات وهن المحرمات بالمصاهرة، وقد سبق ذكر النوع الأول منهن وهن زوجات الآباء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وهذا هو النوع الثاني منهن.

قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، أي: أمهات زوجاتكم، فإذا عقد الرجل على امرأة عقدًا صحيحًا حرمت عليه أمها وجداتها وإن علون من أي جهة كن، دخل بها أو لم يدخل بها، وطئها أو لم يطأها.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وحرمت عليكم ربائبكم اللاتي في حجوركم.

وهؤلاء هن النوع الثالث من المحرمات بالمصاهرة، وهن الربائب.

والربائب: جمع ربيبة(١)، وهي: بنت امرأة الرجل من غيره وإن نزلت، سميت بذلك؛ لأنه غالبًا يربيها في حجره، فهي «فعيلة» بمعنى «مفعولة»، أي: مربوبة.

وولد الربيب ربيب، كما أن ولد الولد ولد فتحرم بنت الربيب، وإن نزلت كما تحرم بنت الربيبة(٢).

---

(١) يقال: ابن ربيب وبنت ربيب، فإذا حذف الموصوف وجعلت الصفة اسمًا مكانه أثبتت الهاء؛ للفرق بين المذكر والمؤنث فيقال: ربيبة. انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٤٧٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية ٣٢/ ٦٥، ٦٦.

وقد تكون الربيبة من زوج سابق أو من زوج لاحق.

﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُمۡ﴾ اللاتي اسم موصول مبني في محل رفع صفة لـ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾.

والحجور: جمع حجر. والحجر بفتح الحاء وكسرها وهو في الأصل مقدم ثوب الإنسان وما بين يديه منه حال اللبس وقيل: المراد بالحجور البيوت(١).

والمعنى: وربائبكم اللاتي تربونهن- غالبًا- في حجوركم وذلك بضمّهن مع أمهاتهن في كنفكم ورعايتكم وتربيتكم.

وهذا الوصف ليس شرطًا في تحريم الربيبة، وإنما هو لبيان الواقع- غالبًا- فلا مفهوم له كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ لأن الغالب أنهم لم يكونوا يقتلونهم إلا من خشية الفقر، أو من الفقر، لكن هذا ليس قيدًا للنهي فلو قتلوهم بسبب آخر كان محرمًا أيضًا.

قال الشيخ السعدي(٢): «وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قيد خرج بمخرج الغالب، لا مفهوم له فإن الربيبة تحرم، ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداهما: التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن».

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ «من» بيانية، ﴿نِّسَآئِكُمُ﴾: زوجاتكم، أي: من زوجاتكم اللاتي عقدتم عليهن عقدًا صحيحًا، به أصبحن من جملة «نسائكم»، أي: زوجاتكم.

﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ وصف لقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾، أي: من زوجاتكم اللاتي

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٢١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٧١)، «البحر المحيط» (٣/ ١٩٣).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦- ٤٧).

دخلتم بهن، والباء في «بهن» للتعدية[١]، أي: من نسائكم اللاتي جامعتموهن.

وهذا على الصحيح من أقوال أهل العلم أن المراد بالدخول هنا الجماع، وهو قول الجمهور، بل حكى الطبري وغيره الإجماع على أن المراد بالدخول هنا الجماع.

وقيل: المراد بالدخول الخلوة، أو التمتع بها دون الجماع. والصحيح أن المراد به الجماع[٢].

فلابد لحرمة الربيبة. من شرطين: الأول: العقد الصحيح على أمها؛ لقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾، أي: من زوجاتكم.

والثاني: الدخول بأمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾، أي: جامعتموهن.

ومفهوم قوله: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ أنه إذا لم يدخل بالأم لم تحرم الربيبة، وقد جاء التصريح بهذا المفهوم في قوله:

﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: فإن لم تكونوا دخلتم بهن وفارقتموهن بعد العقد وقبل الدخول بهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: فلا حرج عليكم ولا إثم في نكاح الربائب، وإنما لم يكتف بمفهوم قوله: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ بل صرح به في قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ مع ما فيه من الإطناب؛ لأن حكم الربيبة خالف حكم سائر المحرمات بالمصاهرة، فهن يحرمن بمجرد العقد، بينما الربيبة لا تحرم إلا بالدخول بأمها بعد العقد الصحيح؛ لهذا جاء الكلام على هذا النحو من البسط والتوكيد والبيان.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وحرمت عليكم حلائل أبنائكم، وهؤلاء هن النوع الرابع من المحرمات بالمصاهرة.

و«حلائل»: جمع حليلة، أي: محللة، من الحل بكسر الحاء، أي: الحلال.

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢١٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٤٧- ١٤٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٢٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٠).

وفي حديث ابن مسعود ﷺ في ذكر أي الذنوب أكبر قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»(١).

﴿أَبْنَآئِكُمْ﴾ جمع ابن، ويشمل أبناء الرجل وأبناء أولاده وإن نزلوا.

أي: وحرم عليكم نكاح النساء اللاتي أحلهن الله لأبنائكم؛ إما بالعقد وهن زوجاتهم، وإما بالملك وهن إماؤهم اللاتي أباح الله لهم وطأهن بملك اليمين.

وزوجة الابن تحرم على الأب بمجرد عقد الابن عليها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها، وطئها أو لم يطأها.

أما مملوكة الابن فلا تحرم على الأب إلا بعد وطء الابن لها.

﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾، «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة لأبناء، وأصلاب: جمع صلب، وهو الظهر، والمراد: أبناء الرجل الذين ولدوا من مائه، وأبناء أبنائه وأبناء بناته وإن نزلوا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ قيد للأبناء، وقد اختلف أهل العلم في الذين يخرجون بهذا القيد:

فذهب جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن هذا القيد؛ لإخراج الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية(٢)، كما تبنى النبي ﷺ قبل بعثته زيد بن حارثة فكان يقال له: زيد بن محمد، حتى أبطل الإسلام التبني قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾ [الأحزاب: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال الحافظ ابن كثير(٣): «في كلامه على قوله تعالى: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾: «يحترز

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ١٨١)، «جامع البيان» (٨/ ١٤٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٢٩- ١٣٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٧٩) «المحرر الوجيز» (٤/ ٧٢)، «زاد المعاد» (٥/ ١٢٣).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٢٠).

بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]».

وعلى هذا فتحرم على الأب زوجة ابنه من الصلب وكذا زوجة ابنه من الرضاع دون زوجة من تبناه وادعاه من أبناء غيره.

وذهب بعض العلماء إلى أن القيد في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾؛ لإخراج الأبناء من الرضاع، فلا تحرم زوجاتهم على آبائهم من الرضاع، وذكر هذا قولًا للشافعي(١)، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

وهذا القول له اتجاه؛ لأن التبني والادعاء قد أبطله الإسلام، كما في الآيات السابقة، وانتهى حكمه، فلم يرد الاحتراز منه في نص من الكتاب أو السنة بعدما أبطله الله، فمثلًا ذكر الله الأولاد في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، ولم يحترز بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾؛ لأن الأدعياء لا يدخلون أصلا بعدما أبطل الله هذا الحكم، فالابن المتبنى ليس ابنًا لمن تبناه لا حقيقة ولا شرعًا ولا عرفًا.

لا حقيقة؛ لأن المتبنى ليس متولدًا من ماء من تبناه، ولا شرعًا؛ لأن الشرع أبطل التبني، ولا عرفًا لأن المسلمين تعارفوا على إنكاره لما أبطله الشرع(٣).

﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، الواو حرف عطف، و«أن» حرف مصدري ونصب، ﴿تَجْمَعُوا۟﴾ فعل مضارع منصوب بها، وعلامة نصبه حذف النون، «وأن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع معطوف على ما سبق، أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين.

والمعنى: وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين شقيقتين أو لأب أو لأم أو مختلفتين، من النسب أو من الرضاع، في التزويج والعقد، أو في الوطء بملك اليمين، أو بالعقد على إحداهما ووطء الأخرى بملك اليمين، فكل هذا من الجمع بين الأختين

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٤٩)، «زاد المعاد» (٥/ ١٢٤).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٢٤- ١٢٥، ٥٦٠- ٥٦٤).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٢٤)، «تفسير المنار» (٤/ ٤٧٩).

وهو محرم لا يجوز.

وهذا هو القسم الرابع من المحرمات، وهن المحرمات بالجمع، ذكر الله منهن في القرآن الجمع بين الأختين، وجاء ذكر بقيتهن في السنة.

وقدم ﷻ ذكر المحرمات بالنسب والمحرمات بالمصاهرة والمحرمات بالرضاع؛ لأن حرمتهن حرمة مؤبدة، ثم ذكر بعدهن من يحرمن بالجمع؛ لأن حرمتهن حرمة مؤقتة لسبب عارض، فإذا زال السبب زال التحريم.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، «إلا» أداة استدراك بمعنى «لكن»، و«ما» اسم موصول بمعنى «الذي»، و«قد» حرف تحقيق، و«سلف»، أي: مضى وانتهى.

والمعنى: وحرمت عليكم هذه المذكورات لكن ما قد سلف ومضى وانتهى من نكاح شيء منهن قبل نزول الآية وقبل التحريم فهو معفو عنه.

والحكمة- والله أعلم- في هذا الاستدراك لئلا يقع في قلوبهم شيء مما حصل منهم من نكاح شيء من هذه المحرمات قبل نزول الآية.

وليس المعنى إقرار ما كان من عقود على شيء من هذه المحرمات قبل نزول الآية وما زالت موجودة بعد نزول الآية، بل يجب التفريق بين الرجل وبين كل من نكحها أو وطئها من هذه المحرمات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها.

﴿إِنَّ﴾ حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها منصوب بها، وخبرها جملة: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف وثبوته، أي: تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي تحقيق وثبوت أن الله غفور رحيم.

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا المغفرة الواسعة، وهي: ستر الذنب والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه ﷻ حتى يضع عليه كنفه**[1]**، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب**

(١) أي: ستره وعفوه ورحمته.

كذا؟ فيقول: نعم، أَيْ رَبِّ، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله ﷻ: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك، فيعطى كتاب حسناته...»[١].

قال ابن القيم[٢]:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران

ومنه سُميَ «المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام[٣].

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ومن مغفرته ﷻ ورحمته أن حرم على عباده نكاح هذه المحرمات وعفا عما سلف منهم قبل التحريم.

وكثيرًا ما يقرن ﷻ بين المغفرة والرحمة؛ لأن المغفرة بها زوال المرهوب وهو الذنوب وآثارها، والرحمة فيها حصول المطلوب، وهو الفوز بالجنة والنعيم. وإذا افترقا حمل كل منهما على المعنيين جميعًا.

وقدَّم سبحانه وتعالى المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

الفوائد والأحكام:

١- تحريم نكاح من نكحه الآباء وإن علوا من أي جهة كانوا على أبنائهم وإن نزلوا، سواء حصل مع العقد وطء أو خلوة أو لم يحصل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

فلا يجوز للأبناء العقد عليهن، ولا وطؤهن بملك اليمين، وهكذا جميع المحرمات، فمن حرمت بعقد النكاح حرمت بملك اليمين.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣). وانظر «لسان العرب» مادة «غفر».

(٢) في «النونية» ص (١٥٠).

(٣) انظر: «اللسان مادة «غفر».

٢- أنه لو وقع هذا العقد بأن نكح الابن ما نكحه أبوه، فإن النكاح باطل، ويجب التفريق بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

وهكذا نكاح أيٍّ من المحرمات قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «اتفق الفقهاء على أن نكاح المحارم يقع باطلًا».

٣- الإشارة إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من العادات القبيحة، كنكاح الابن زوجة أبيه بعد فراق الأب لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

وكما روي في سبب النزول. قيل: وقد كانت هذه العادة أمرًا لازمًا في الأنصار، وفي قريش على التخيير[٢].

٤- أن ما سلف قبل بيان الحكم عفو، لا مؤاخذة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

ومن هنا يؤخذ أن من ترك واجبًا أو فعل محرمًا قبل العلم بالإيجاب أو التحريم فلا إثم عليه، بشرط ألا يكون مفرطًا في تعلم أحكام دينه، كأن يكون في بلد ليس فيه أحد من أهل العلم أو في بادية أو نحو ذلك قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥][٣].

ولهذا لم يأمر النبي ﷺ المسيء صلاته بإعادة الصلوات التي صلاها قبل العلم بوجوب الطمأنينة لما قال له: «والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا»، وإنما أمره بإعادة الصلاة الحاضرة فقط، بعد أن علَّمه صفة الصلاة والطمأنينة فيها[٤].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٨، ١/ ٣٥).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠٤).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٩٠- ٣٩١).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٧)، ومسلم في الصلاة (٣٩٧)، وأبو داود في الصلاة (٨٥٦)، والنسائي في الافتتاح (٨٨٤)، والترمذي في الصلاة (٣٠٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٦٠)، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى فسلم على النبي ﷺ فرد وقال:
=

٥- أن من نكح ما نكح أبوه قبل التحريم فولده ثابت النسب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (١).

٦- أن نكاح الابن لمنكوحة أبيه بعد فراقه لها بوفاة أو طلاق زيادة على أنه محرم هو أيضًا أمر في غاية الفحش في الشرع وعرف المسلمين ومقت عند الله وعند الخلق أيضًا، كما أنه مسلك سيء قبيح، فهو أشد من الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ بينما قال في الزنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقد اختلف أهل العلم في حد من تزوج امرأة أبيه بعد إجماعهم على بطلان نكاحه بدليل الآية وغيرها، فذهب جمهور أهل العلم ومنهم مالك، والشافعي(٢) إلى أن حده حد الزنا فإن كان محصنًا رجم وإن كان غير محصن جلد أخذًا بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ قالوا: معناه: زنا.

وذهب بعض أهل العلم منهم الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه إلى أنه يقتل ويدخل ماله بيت المال.

قال ابن القيم(٣): «وقد نص الإمام أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد في رجل تزوج امرأة أبيه أو بذات محرم فقال: يقتل ويدخل ماله في بيت المال؛ لما روي عن البراء بن عازب ﷺ قال: «**لقيت خالي ومعه الراية فقلت: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده، فأمرني أن أضرب عنقه، وآخذ ماله**».

=

«ارجع فصل فإنك لم تصل» فرجع يصلي كما صلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» ثلاثًا فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا ثم أسجد حتى تطمئن ساجدًا ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، وافعل ذلك في صلاتك كلها».

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٦٨- ٦٩).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٩١)، «الإشراف على نكت مسائل الخلاف» (٢/ ٨٦٩)، «شرح مختصر خليل» (٨/ ٧٦).

(٣) في «زاد المعاد» (٥/ ١٥).

وفي رواية أخرى: «**فضرب عنقه وخمس ماله**»(١).

قال الترمذي بعد روايته لحديث البراء: «**وعليه العمل عند أصحابنا**».

وقال ابن القيم(٢): «وهذا القول هو الصحيح، وهو مقتضى حكم رسول الله ﷺ، وحكم رسول الله ﷺ وقضاؤه أحق وأولى».

وقال أيضًا: «وذكر ابن أبي خيثمة في «تاريخه» من حديث معاوية بن قرة عن أبيه عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى رجل أعرس بامرأة أبيه فضرب عنقه وخمَّس ماله». قال يحيى بن معين: «هذا حديث صحيح».

وقال الحافظ ابن كثير(٣): «وساء سبيلا وبئس طريقًا لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئًا لبيت المال، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب عن خاله أبي بردة، وفي رواية ابن عمر عن عمه أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله، ويأخذ ماله».

وهذا يدل على شدة حرمة نكاح المحارم، ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى أن من تزوج بامرأة من محارمه أو زنى بها فإنه يرجم بكل حال محصنًا كان أو غير محصن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): «من زنى بأخته مع علمه بتحريم ذلك وجب قتله» ثم استدل بحديث البراء السابق.

٧- تحذير القرآن من سلوك السبل السيئة وتوجيهه إلى أحسن السبل؛ لقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ إذ المعنى احذروا سلوك هذا السبيل السيئ وخذوا بأحسن السبل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩].

٨- بلوغ القرآن الغاية في البلاغة في التنفير مما يقصد التنفير منه، فقد وصف الله

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٥٦، ٤٤٥٧)، والنسائي في النكاح (٣٣٣١، ٣٣٣٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٦٠٧)، وأحمد (٤/ ٢٩٥). وأخرجه ابن ماجه أيضًا (٢٦٠٨) من حديث معاوية بن قرة عن أبيه ﷺ وصححه ابن معين.

(٢) في «زاد المعاد» (٥/ ١٥).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢١٥.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٧٧).

نكاح نساء الآباء بصفات ثلاث من أبشع الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٩- جواز حذف الفاعل إذا كان معلومًا؛ لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الآية، والمحرم هو الله ﷻ.

١٠- أن النساء اللاتي يحرم نكاحهن بسبب النسب والقرابة سبع هن: الأمهات وإن علون، والبنات وإن نزلن، والأخوات من أي جهة كن، والعمات والخالات، وبنات الأخ وبنات الأخت وإن نزلن؛ لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «إذًا حرم عليه أصوله وفروعه وفروع أصوله البعيدة، دون بنات العم والعمات، وبنات الخال والخالات».

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وهؤلاء هن القسم الثاني من المحرمات، وهن المحرمات بالنسب، وتحريمهن يسميه العلماء: التحريم المبهم، كما يقال فيهن: المبهمات، أي: أن تحريمهن لا يحل بوجه من الوجوه أو سبب من الأسباب[2]، كالبهيم من ألوان الخيل: الذي لا شية فيه تخالف معظم لونه، وكما يقال: باب مبهم أي مغلق لا طريق إليه، ويقال بهمة للشجاع الذي لا يُدرى من أين يؤتى، ويقال: ليل بهيم، أي: أسود لا بياض فيه، وحلقة مبهمة لا يدرى أين طرفاها، وهكذا فالتحريم المبهم أو مبهم التحريم ما كان تحريمه عامًا في كل حال على التأبيد، لا يتخصص بوجه من الوجوه، أي: لا باب فيه، ولا طريق إليه، لانسداد التحريم وقوته[3].

---

(١) في «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣٢- ٣٣).

(٣) انظر: «مقاييس اللغة»، «لسان العرب» مادة «بهم»، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠٦، ١٠٧).

قال أبو حيان[١]: «ومتى جاء التحريم من الله فلا يفهم منه إلا التأبيد، فإن كان له حالة إباحة نص عليها كقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة، ١٧٣، الأنعام: ١٤٥، النحل: ١١٥]».

١١- تحريم البنت من الزنا على الزاني لأنها متولدة من مائة، وبضعة منه، فهي تدخل تحت عموم قوله: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ [٢]، وإن كانت لا تنسب إليه شرعًا؛ لقوله ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[٣].

وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة، ومالك، وأحمد[٤].

وذهب الإمام الشافعي إلى أنها لا تحرم عليه لأن الشرع لم يعطها حقوق البنت من النسب فلم يلحقها به نسبًا، ولم يورثها، ولم يجعل له ولاية عليها، ولم يجعله محرما لها[٥].

والصحيح القول الأول بدليل الآية؛ ولأن العلماء اتفقوا على تحريم الأم على ابنها من الزنا[٦]، فكذلك البنت من الزنا تحرم على الزاني، وأيضًا فإنه إذا كان التحريم يثبت بالرضاع فإن هذه خلقت من مائه فحرمتها من باب أولى وأحرى[٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٨]: «وهو الصواب المقطوع به».

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض العلماء كالإمام أحمد أن من فعل

---

(١) في «البحر المحيط» (٣/ ٣٠٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٤- ١٣٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٥)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٧٣)، والنسائي في الطلاق (٣٤٨٤، (٣٤٨٧)، وابن ماجه في النكاح (٢٠٠٤)، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «اختصم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة في غلام فقال سعد: هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إلي أنه ابنه انظر إلى شبهه، وقال عبدالله بن زمعة هذا أخي يا رسول الله ولد على فراش أبي من وليدته، فنظر رسول الله ﷺ إلى شبهه فرأى شبهًا بينًا بعتبة فقال: «هو لك يا عبدالله بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر، واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة» فلم ير سودة قط».

(٤) انظر: «المبسوط» (٤/ ٢٠٦)، «فتح القدير» لابن الهمام (٣/ ٢٠٩)، «الدر المختار، وحاشية ابن عابدين: رد المحتار» (٣/ ٢٩)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٤، ١٤٢).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤١١)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٦).

(٦) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٠).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٥)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٦٩).

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٤، ٣٢/ ١٣٨- ١٣٩، ١٤٢)، وانظر «تفسير المنار» (٤/ ٤٦٧.

ذلك يقتل[١].

كما نقل إنكار الإمام أحمد أن يكون في ذلك نزاع بين السلف، وتكذيبه النقل في ذلك عن مالك، وإنكار كثير من الشافعية نسبة ذلك إلى الشافعي.

وقال ابن القيم[٢]: «وإذا كانت بنته من الرضاعة بنتًا في حكمين فقط الحرمة والمحرمية، وتخلف سائر الأحكام عنها لم تخرجها عن التحريم، وتوجب حلها، فكذا ابنته من الزنا تكون بنتًا في التحريم، وتخلف أحكام البنت عنها لا يوجب حلها».

١٢- جواز الرضاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، ولو لم يكن الرضاع جائزًا ما ترتبت عليه الحرمة[٣].

١٣- ثبوت التحريم بالرضاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، فسماهن أمهات؛ لأجل الحرمة، وكذلك سمي من رضعن معهم: أخوات.

وفي السنة: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»[٤].

وفيها: «**إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة**»[٥].

وهؤلاء هن القسم الثالث من المحرمات، وهن المحرمات من الرضاع، وهن سبع كالمحرمات من النسب، كما جاء صريحًا في السنة «يحرم من الرضاع ما يحرم من

---

(١) انظر المواضع السابقة من الفتاوى.

(٢) في «زاد المعاد» (٥/ ٥٦٩- ٥٧٠).

(٣) قال في «تفسير المنار» (٤/ ٤٧٠): «ينبغي عدم التساهل في الرضاع وأن يكون بقدر الحاجة مع التنبيه على ذلك».

(٤) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٤٥)، ومسلم في الرضاع (١٤٤٧)، والنسائي في النكاح (٣٣٠٥، ٣٣٠٦)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٨)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال النبي ﷺ في بنت حمزة «لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة».

(٥) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٤٦)، ومسلم في الرضاع (١٤٤٤)، وأبو داود في النكاح (٢٠٥٥)، والنسائي في النكاح (٣٣٠٠، ٣٣٠٢)، والترمذي في الرضاع (١١٤٧)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

النسب»[١]. وهن محرمات تحريمًا مبهمًا فلا يحللن بوجه من الوجوه ولا بسبب من الأسباب[٢].

وقد استنبط ذلك أهل العلم من قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

وقالوا إنما اكتفى القرآن الكريم بذكر اثنتين من المحرمات من الرضاع، وهما الأمهات اللاتي أرضعن والأخوات من الرضاعة؛ لأن في ذكرهما ما يدل على إثبات أن المرضعة تكون أمًا للمرتضع ويكون زوجها صاحب اللبن أبًا له من الرضاع.

أما كون المرضعة أمًا للمرتضع فهذا واضح صريح بقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾.

أما كون الزوج، صاحب اللبن أبًا للمرتضع فلأنه إذا ثبتت الأمومة للمرضعة فثبوت الأبوة لزوجها من باب أولى؛ لأنه صاحب اللبن؛ لأن اللبن ثاب بوطئه.

كما أن في إطلاق الأخوات في قوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ ما يدل على أن الزوج صاحب اللبن يكون أبًا للمرتضع؛ لأنه يدخل تحت هذا الإطلاق الأخت لأب من الرضاعة وهي التي رضعت من لبن أبيك من زوجة غير أمك فهي أختك من الرضاعة من أبيك. كما يدخل تحته الأخت الشقيقة من الرضاعة وهي التي رضعت من أمك من لبن أبيك والأخت لأم من الرضاعة وهي التي رضعت من أمك من لبن زوج غير أبيك.

فثبت بطريق النص: أن المرضعة تكون أمًا للمرتضع، وبطريق تنبيهه وإيمائه أن زوجها يكون أبًا للمرتضع فلزم انتقال الحرمة إلى أصولهما وفروعهما وحواشيهما، وإلى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال أهل العلم: تحريم الرضاع، كتحريم النسب إلا في مسألتين إحداهما أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من النسب ويجوز له أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع؛ لأن المانع في النسب وطؤه أمها، وهذا المانع غير موجود في الرضاع، والثانية: لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب ويجوز في الرضاع؛ لأن المانع في النسب وطء الأب إياها وهذا المعنى غير موجود في الرضاع. «البحر المحيط» (٣/ ٢١١).

فروع المرتضع وزوجته فحرم من الرضاع ما يحرم من النسب بدلالة الكتاب والسنة»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): بعدما بين أن الرجل صاحب اللبن يكون أبا للمرتضع بدليل السنة قال: «وإذا صار الرجل والمرأة والدي المرتضع صار كل من أولادهما إخوة المرتضع، سواء قبل الرضاع أو بعده، وجميع أقاربهما أقارب للمرتضع، وأما إخوة المرتضع من النسب وأخواته وأمه، وأبوه من النسب فهم أجانب عن أبيه وأمه وإخوته من الرضاع».

وقال الرازي(٣): «وذلك لأنه تعالى لما سمي المرضِعة أمًا والمرضَعة أختًا فقد نبه بذلك على أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب، وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعًا: اثنتان هما المنتسبتان بطريق الولادة وهما الأمهات والبنات، وخمس منها بطريق الأخوة، وهن الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، ثم إنه تعالى لما شرع بعد ذلك في أحوال الرضاع ذكر من هذين القسمين صورة واحدة تنبيهًا بها على الباقي، فذكر من قسم قرابة الولادة: الأمهات، ومن قسم قرابة الأخوة الأخوات ونبه بذكر هذين المثالين على أن الحال في باب الرضاع كالحال في باب النسب».

١٤- أن المرضعة تكون أمًا للمرتضع من الرضاع وبناتها أخواته من الرضاع وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

١٥- أنه ينبغي ذكر المحرمات من الرضاع بهذا القيد والوصف، فيقال لمن أرضعت شخصًا: هي أمه من الرضاع، ولبناتها: أخواته من الرضاع، وهكذا وأنهن لا يدخلن في مسميات المحرمات من النسب عند الإطلاق كالأم والبنت والأخت؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر المحرمات من النسب ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، فقيدهن بوصف الرضاع(٤)، وذكرهن مفردات عن الأمهات والأخوات من النسب.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٢٠، ٥٥٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣١- ٣٨).

(٣) في «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٥).

(٤) استدل الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله- بقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ بهذا القيد بأن =

١٦- أن لبن الفحل يُحرِّم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ فإذا كانت المرضعة تكون أمًا للمرتضع فزوجها صاحب اللبن يكون أبًا للمرتضع من باب أولى؛ لأنه صاحب اللبن(١).

ولقوله أيضًا ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ بهذا الإطلاق، فيشمل التحريم الأخوات من الرضاعة من أي جهة كن، ومنهن الأخوات من الرضاعة من جهة الأب وهن اللاتي رضعن من لبن أبيك من زوجة غير أمك، فدل هذا على أن التحريم ينتقل من جهة الفحل لأنه صاحب اللبن(٢).

ولعل هذا من الحكمة في ذكر الأخوات من الرضاعة بعد أن ذكر الأمهات اللاتي أرضعن دون ذكر البنات من الرضاعة والعمات والخالات من الرضاعة وبنات الأخ والأخت من الرضاعة.

وقد دلت السنة على ذلك فإن عائشة- رضي الله عنها- أرضعتها امرأة أبي القعيس فجاء أخوه يستأذن على عائشة فأبت أن تأذن له حتى سألت النبي ﷺ فقال لها: «**ائذني له فإنه عمك**» فقالت عائشة: إنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل، فقال: إنه عمك فليلج عليك»(٣).

وبهذا قال جمهور أهل العلم، منهم: الأئمة الأربعة وأصحابهم وغيرهم(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «إذا ارتضع الطفل من امرأة خمس رضعات في

= الأم عند الإطلاق لا تدخل فيها الأم من الرضاعة، وبأن أم الزوجة من الرضاع لا تدخل في قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾. انظر كلام الشيخ على هذه الآية في «تفسيره» (١/ ١٨٣ تفسير سورة النساء).

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١١)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣١- ٣٣، ٣٧).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٥٠١)، ومسلم في الرضاع (١٤٤٥)، وأبو داود في النكاح (٢٠٥٧)، والنسائي في النكاح (١/ ٣٣٠١- ٣٣٣٢، ٣٣١٣، ٣٣١٨)، والترمذي في الرضاع ١١٤٨، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٨، ١٩٤٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٢٦)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٩٤- ٣٩٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٧٠)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٧٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١١)، «زاد المعاد» (٥/ ١٢٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٧).

الحولين قبل الفطام صار ولدها باتفاق الأئمة، وصار الرجل الذي در اللبن بوطئه أبًا لهذا المرتضع باتفاق الأئمة المشهورين وهذا يسمى: لبن الفحل».

وقد قال بعضهم: إن لبن الفحل لا يحرم، ولا دليل لهذا القول يعتمد عليه، ولا معول عليه لمخالفته الكتاب والسنة، وما عليه اتفاق الأئمة فهو قول باطل(٢).

بل قد تثبت أبوة الزوج صاحب اللبن دون أن تثبت أمومة المرضعة، وذلك على مذهب الجمهور: أن المحرم خمس رضعات فأكثر- كأن يكون لرجل أربع زوجات فيرضعن طفلًا كل واحدة منهن ترضعه رضعتين، فإنهن لا يصرن أمهات له من الرضاعة لأن كل واحدة منهن لم ترضعه خمس رضعات. أما الزوج صاحب اللبن فإنه يكون أبًا له من الرضاع؛ لأن هذا الطفل رضع من لبنه خمس رضعات، وقيل: لا يكون أبًا له. وصحح ابن القيم الأول. أما هؤلاء المرضعات فإنهن يحرمن على الطفل؛ لأنهن موطوءات أبيه فهو ابن زوجهن. وعلى قول من قال: يحرم قليل الرضاع وكثيره تثبت الأمومة والأبوة على حد سواء(٣).

١٧- أن مطلق الرضاع يُحرِّم قليلًا كان أو كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ هذا ما يدل عليه ظاهر الآية.

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم أبو حنيفة(٤)، ومالك(٥)، وأحمد في رواية عنه(٦)، مستدلين بإطلاق الرضاع في الآية وفي بعض الأحاديث كحديث «يحرم

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣١- ٣٣).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٦١- ٥٦٧).

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٢٤).

(٥) انظر: «المدونة» (٢/ ٢٨٨)، «الموطأ» ص (٤١٨)، «الكافي» لابن عبد البر (٢/ ٥٣٩)، «التمهيد» (٨/ ٢٦٨)، «المنتقي شرح الموطأ» (٤/ ١٥٢)، «مقدمات ابن رشد» ص (٣٧٩)، «شرح موطأ مالك» للزرقاني» (٤/ ١٧١).

(٦) انظر: «نواسخ القرآن» ص (١٢٠)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣٥، ٤٢- ٤٤)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٠- ٥٧١).

من الرضاع ما يحرم من النسب»[١] فقالوا: إن التحريم يقع بمطلق الرضاع ولو مصة واحدة؛ لأن من مص من الثدي مرة واحدة يقال له «رضع» وعلى هذا فلا فرق بين قليل الرضاع وكثيره في ثبوت التحريم.

كما استدلوا بحديث عقبة بن الحارث: «أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت: قد أرضعتكما، قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأعرض عني، قال فتنحيت فذكرت ذلك له قال: «كيف وقد زعمت أنها أرضعتكما» فنهاه عنها[٢].

قالوا: فقد نهاه عنها ولم يسأله عن عدد الرضاع[٣].

والقول الثاني: أن المحرم من الرضاع ثلاث رضعات فأكثر، وإلى هذا ذهب طائفة من العلماء منهم الإمام أحمد في رواية عنه[٤]. وبه قال إسحاق بن راهويه وأبو ثور وأبو عبيد وابن المنذر[٥]، وداود الظاهري[٦] وغيرهم.

لقوله ﷺ: «**لا تحرم المصة ولا المصتان**»[٧] وفي الحديث الآخر: «**ولا الإملاجة ولا الإملاجتان**»[٨].

قالوا فمنطوق هذا الحديث أن الرضعتين لا يقع بهما تحريم، ومفهومه أن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٥١٠٤).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٧١- ٥٧٢).

(٤) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية إسحاق بن إبراهيم (١/ ٢٠٢)، «المسائل الفقهية» لأبي يعلي (٢/ ٢٣٢)، «المغني» (٧/ ٥٣٥- ٥٣٦) «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣٥، ٤٢- ٤٤).

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٠)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٠- ٥٧١).

(٦) انظر: «المحلى» (١٠/ ١٠).

(٧) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٠)، وأبو داود في النكاح (٢٠٦٣)، والنسائي في النكاح (٣٣١٠)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٨) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥١)، والنسائي في النكاح (٣٣٠٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٠)، من حديث أم الفضل قالت: «دخل أعرابي على نبي الله ﷺ وهو في بيتي فقال: يا نبي الله، إني كانت لي امرأة فتزوجت عليها أخرى، فزعمت امرأتي الأولى أنها أرضعت امرأتي الحدثى رضعة أو رضعتين. فقال نبي الله ﷺ: «لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجتان» وفي لفظ ابن ماجه «لا تحرم الرضعة ولا الرضعتان، أو المصة أو المصتان».

الرضعات الثلاث فأكثر تحرم.

قالوا: وما جاء من إطلاق الرضاع في القرآن وفي بعض الأحاديث مقيد بهذا الحديث، والسنة تقيد القرآن(١).

القول الثالث: أن المحرم من الرضاع خمس رضعات فأكثر، وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم الإمام الشافعي(٢)، وأحمد في الصحيح عنه(٣). وابن حزم(٤).

لقول عائشة رضي الله عنها: «**كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن**»(٥).

قالوا فقولها: «بخمس معلومات» يدل على أنه لا يُحَرِّم الرضاع إلا إذا بلغ خمس رضعات بلا شك، فلو وقع الشك أهن ثلاث أم أربع لم يثبت بهذا الرضاع تحريم.

وقد أشكل قولها: «فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن».

وقد أجاب أهل العلم على هذا الإشكال بأن قولها: «فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن»، معناه: أن رسول الله ﷺ توفي وما زال بعض الناس يقرأ ذلك؛ لعدم علمه بالنسخ؛ لأن النسخ وقع متأخرًا، كما يدل عليه الحديث(٦).

كما استدلوا بقصة سالم مولى أبي حذيفة، وفيه قوله ﷺ لسهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: «أرضعيه» فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة(٧).

قالوا: فهذان الحديثان فيهما النص على عدد الرضعات المحرمة، وهي: خمس

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٢).

(٢) انظر: «الأم» (٣/ ٢٦- ٢٧)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٥٧)، «المهذب» (٢/ ١٥٧).

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية إسحاق بن إبراهيم (١/ ٢٠٢)، «المسائل الفقهية» لأبي يعلي (٢/ ٢٣٢)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣٥، ٤٢- ٤٤).

(٤) انظر: «المحلى» (١٠/ ٩، ١٠).

(٥) أخرجه مسلم في الرضاع الحديث (١٤٥٢).

(٦) انظر: «نواسخ القرآن» ص(١٢٠- ١٢١)، «شرح صحيح مسلم» (١٠/ ٢٩)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٥٣).
وقد أجاب الطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ٦- ٨) بأنه رواه القاسم بن محمد ويحيى بن سعيد الأنصاري فلم يذكرا هذه اللفظة وإنما أثبتها عبدالله بن أبي بكر، والقاسم أضبط من عبدالله بن أبي بكر، وقد تابع القاسم يحيى بن سعيد الأنصاري. وهذا مسلك ضعيف لأن الرواة كلهم ثقات.

(٧) سيأتي تخريجه.

رضعات، وفي هذا تقييد لإطلاق الرضاع في الآية وفي بعض الأحاديث[١].

وأما حديث: «**لا تحرّم المصة ولا المصتان، ولا الإملاجة ولا الإملجتان**» فدلالته على تحريم الثلاثة إنما هي بالمفهوم، وإذا تعارض المفهوم والمنطوق قُدِّمَ المنطوقُ.

وهذا اختيار جمع من محققي العلماء، منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ عبدالرحمن السعدي[٢].

وهو اختيار هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وعلى رأسهم سماحة المفتي العام للملكة (الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز) رحمه الله[٣].

وعلى هذا، فإذا ثبت أن الرضاع خمس رضعات فأكثر فهو محرم، وإن ثبت أنه أقل من ذلك أو شك في كونه أربعًا أو خمسًا فلا يحرم حتى يتيقن أنه خمس رضعات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «الشك في الرضاع، لا يحرم عند أحد من الأئمة الأربعة»[٥].

ويتفرع على هذا مسائل عدة.

المسألة الأولى: مقدار الرضعة.

اختلف أهل العلم رحمهم الله في مقدار الرضعة فذهب جمهور أهل العلم منهم الشافعي، وأحمد[٦] إلى أن مقدار الرضعة أن يلتقم الطفل الثدي، ثم يتركه باختياره فتعد هذه رضعة، سواء شبع بها أو لم يشبع إلا برضعات، فإذا التقمه مرة أخرى فرضع ثم تركه فرضعة أخرى وهكذا.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٢- ٥٧٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣١- ٣٣، ٣٥، ٣٧، ٥٦، ٥٩)، «منهج السالكين» ص(٥٩) من القسم(٤)- الفقه، المجلد الثاني من «مجموعة مؤلفات العلامة السعدي رحمه الله».

(٣) انظر: «فتوى» رقم (٢٨٢٣)، وتاريخ: ١٠/ ٢/ ١٤٠٠هـ.

وسواء كان الرضاع من الثدي مباشرة أو بواسطة إناء يوضع فيه اللبن فإذا رضع من أحدهما أو منهما جميعًا خمس رضعات ثبت التحريم.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٦٢).

(٥) لكن مع أن الشك في الرضاع وعدده لا يحرِّم إلا أن الأولى الأخذ بما هو أحوط، ففرق بين رضاع مشكوك فيه بين زوجين فلا اعتبار له، وبين رضاع مشكوك فيه بين رجل ومخطوبته فالأولى عدم الزواج بها.

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣٦)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٦).

فإذا التقمه خمس مرات ثبت التحريم، ولو كان ذلك في مجلس واحد. واختار هذا هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وعلى رأسهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله.

وقال بعضهم مقدار الرضعة: المصة الواحدة بحيث يمص الطفل خمس مرات ولو في مجلس واحد، بل ولو في نَفَس واحد والثدي في فمه.

وقال بعضهم: مقدار الرضعة هي الوجبة الكاملة من الرضاع المنفصلة عن أختها انفصالًا بينًا، بأن تكون واحدة في الصباح وواحدة في المساء أو واحدة أول النهار وواحدة في وسطه والثالثة في آخره، وهكذا، قالوا: لأن «الرضعة»: «فعلة» كالأكلة، كما في الحديث: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها**»(١)، والمراد بالأكلة هنا الانتهاء من الأكل فعنده يحمد الله، كما دلت عليه السنة، لا أن ذلك عند كل لقمة.

وهذا اختيار ابن القيم(٢) والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي(٣)، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، قال رحمه الله بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة(٤): «وإذا قدرنا أن الحديث يحتمل المعاني الثلاثة وهي: المصة، والتقام الثدي، والوجبة من الرضاع، فإن الأصل الحل حتى يقوم دليل بيِّنٌ على أن هذا الرضاع محرم، وبناء على هذا الأصل يكون الراجح الثالث؛ لأن دلالة الحديث على المعنى الأول مشكلة وفيها اشتباه، وعلى المعنى الثاني فيها أيضًا اشتباه، وعلى المعنى الثالث تتفق الأقوال وليس فيها اشتباه، وحينئذٍ فنأخذ بهذا؛ لأن الأصل الحل حتى يثبت التحريم بيقين ليرفع هذا الأصل».

المسألة الثانية: وقت الرضاع المُحَرِّمِ:

اختلف العلماء في هذا على أقوال:

فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المحرم من الرضاع ما كان في الحولين(٥)؛ لقوله

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر (٢٧٣٤)، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) من حديث أنس ﷺ.

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٥).

(٣) انظر: «منهج السالكين» (ص٩٥).

(٤) في كلامه على هذه الآية في «تفسيره» (١/ ١٨٨ تفسير سورة النساء).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٥٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٤١١- ٤١٢)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٨٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٥٧)، =

تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قالوا: فالرضاع المعتبر شرعًا ما كان في الحولين، والآية: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ مقيدة بالرضاع في الحولين.

ولحديث أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام**»(١).

ومعنى قوله: «في الثدي»، أي: في وقته، وهو الحولان كما في الحديث: «**إن إبراهيم مات في الثدي**»(٢)، أي: في زمن الرضاع.

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما الرضاعة من المجاعة**»(٣)، أي: في وقت يعتمد فيه الطفل على الرضاع ويتغذى به وذلك في الحولين.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**لا رضاع إلا ما كان في الحولين**»(٤).

القول الثاني: أن المحرِّم من الرضاع ما كان قبل الفطام، سواء كان قبل الحولين أو بعدهما، روي هذا عن طائفة من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم(٥).

واستدل أصحاب هذا القول بحديث أم سلمة رضي الله عنها: «**لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام**»(٦).

=

«الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠٩)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣٩، ٥٩).

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٥٢)، وقال: «حديث صحيح»، وصححه الألباني، وأخرجه ابن ماجه في النكاح (١٩٤٦)، عن عبدالله بن الزبير أن رسول الله ﷺ قال: «لا رضاع إلا ما فتق الأمعاء».

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣١٦)، وأحمد (٣/ ١١٢)، من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٤٧)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٥)، وأبو داود في النكاح (٢٠٥٨)، والنسائي في النكاح (٣٣١٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٥).

(٤) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٧٤)، بإسناد صحيح، وقد روي موقوفًا على ابن عباسٍ، وصحح جمع من أهل العلم وقفه، انظر: «التعليق المغني على الدارقطني».

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٤١١- ٤١٢)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٧)، «تفسير المنار» (٤/ ٤٧٤- ٤٧٥).

(٦) سبق تخريجه قريبًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «وهذا يقتضي أنه لا رضاع بعد الحولين ولا بعد الفطام، وإن كان الفطام قبل تمام الحولين».

كما استدلوا بحديث: «**إنما الرضاعة من المجاعة**»(٢). وحديث: «**لا رضاع إلا ما شدّ العظم وأنبت اللحم**»(٣).

واستدلوا من حيث المعنى بأن الرضاع قبل الفطام يؤثر في نمو الطفل؛ لأنه ليس له إلا هذا الغذاء بخلاف ما بعد الفطام، وظاهر الآية يدل على هذا؛ لأن معنى قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، أي: في زمن الرضاعة وقبل الفطام.

واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية(٤)، والشيخ عبد الرحمن السعدي(٥).

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين(٦): «ولو قال قائل باعتبار الأكثر من الفطام أو السنتين، لم يكن هذا القول بعيدًا فإذا فطم قبل السنتين امتد الحكم إلى السنتين، وإذا تمت السنتان قبل فطامه امتد الحكم إلى فطامه، فلو قيل بهذا لكان جيدًا، لكن تعليقه بالفطام أصح من حيث المعنى؛ لأنه إذا فطم فلن يتغذى باللبن».

القول الثالث: أن رضاع الكبير يحرِّم وإلى هذا ذهبت عائشة رضي الله عنها(٧).

واستدلت- رضي الله عنها- بقصة سالم مولى أبي حذيفة قالت عائشة رضي الله عنها: جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله إني أرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم وهو حليفه، فقال النبي ﷺ: «**أرضعيه**». قالت: وكيف أرضعه،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٦٠).

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٥٩) من حديث ابن مسعود ﷺ، وصححه الألباني.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٣١- ٣٣)، وانظر «الاختيارات الفقهية» (ص٢٨٣).

(٥) انظر: «منهج السالكين» (ص٥٩) من القسم (٤)- الفقه، المجلد الثاني من «مجموعة مؤلفات العلامة السعدي» رحمه الله.

(٦) في كلامه على هذه الآية في «تفسيره» (١/ ١٩٠ تفسير سورة النساء).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٣٩٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٧٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٦٠)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٨).

وهو رجل كبير!! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**قد علمت أنه رجل كبير**»(١).

وفي رواية عن عائشة وأم سلمة(٢)، فيها ذكر تبني أبي حذيفة لسالم، وفيها إبطال التبني وأن سهلة بنت سهيل بن عمرو جاءت فقالت: «**يا رسول الله إنا كنا نرى سالمًا ولدًا وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحدٍ ويراني فُضُلًا، وقد أنزل الله فيه ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه»** فأرضعته خمس رضعات فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة، فبذلك كانت عائشة- رضي الله عنها- تأمر بنات أخواتها وبنات إخوتها أن يرضعن من أحبت عائشة أن يراها ويدخل عليها وإن كان كبيرًا خمس رضعات ثم يدخل عليها، وأبت أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ أن يدخلن عليهن بتلك الرضاعة أحدًا من الناس حتى يرضع في المهد، وقلن لعائشة: والله ما ندري لعلها كانت رخصة من النبي ﷺ لسالم دون الناس».

وقد روي هذا القول عن طائفة من السلف، وهو قول الليث بن سعد(٣)، وابن حزم(٤)، مستدلين بقصة سالم، وبإطلاق الآية: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، قالوا: وآية: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ﴾ ليس فيها تحريم للرضاعة بعد ذلك(٥).

فالخلاصة في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

قول جمهور أهل العلم أن الرضاع المحرم ما كان في الحولين.

والقول الثاني: أن المحرم من الرضاع ما كان قبل الفطام، سواء كان في الحولين أو بعدهما.

والقول الثالث: قول عائشة وبعضهم أن رضاع الكبير محرم لقصة سالم مولى أبي

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٣)، وأبو داود في النكاح (٢٠٦١)، والنسائي في النكاح (٣٣١٩-٣٣٢٣)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٣)، وأحمد (٦/ ٣٩، ٢٠١، ٣٥٦).

(٢) أخرجها أبو داود في النكاح (٢٠٦١)، وإسنادها صحيح.

(٣) انظر: «المصنف» لعبد الرزاق (٧/ ٤٥٨- ٤٦٣)، «سنن البيهقي» (٧/ ٤٥٩- ٤٦١)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٨- ٥٧٩، ٥٨١- ٥٨٦).

(٤) انظر: «المُحَلَّى» (١٠/ ١٧).

(٥) انظر: «المحلى» (١٠/ ١٧)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٨١).

حذيفة.

وأظهر هذه الأقوال- والله أعلم- القول بأن المحرم من الرضاع ما كان قبل الفطام؛ لأن الأحاديث علقت تحريم الرضاع واعتباره على ما قبل الفطام، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، أي: في وقت الرضاع قبل الفطام؛ ولأن الرضاع إنما يكون غذاء قبل الفطام أما بعد الفطام حتى ولو كان في الحولين فإن الكبير والصغير سواء في عدم الحاجة إلى التغذي بهذا الرضاع لاكتفائهما بالطعام.

وقول الجمهور قريب من هذا؛ لأن الفطام غالبًا يكون بعد الحولين.

أما القول الثالث: وهو القول بأن رضاع الكبير يحرّم، فهذا أضعف الأقوال.

وقد رد أزواج النبي ﷺ على عائشة- رضي الله عنها وعنهن- فيما ذهبت إليه. وقلن: ما نرى هذا إلا خاصًا بسالم، كما قالت أم سلمة رضي الله عنها: «**أبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يدخل عليهن أحد بتلك الرضاعة، وقلن لعائشة: ما نرى هذا إلا رخصة أرخصها رسول الله ﷺ لسالم خاصة، فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة ولا رائينا**»(١).

وعن عبدالله بن دينار أنه قال جاء رجل إلى عبدالله بن عمر يسأله عن رضاعة الكبير، فقال عبدالله بن عمر: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني كانت لي وليدة وكنت أطؤها فعَمَدَت امرأتي إليها فأرضَعَتْها فَدَخَلْتُ عليها، فقالت: دونك فقد والله أرضَعْتُها، فقال عمر: «أوجعها وائت جاريتك فإنما الرضاعة رضاعة الصغير»(٢).

وأفتى ابن عمر(٣)، وابن عباس(٤)، وابن مسعود وأبو موسى- رضي الله عنهم(٥)-

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٢٥)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٧)، وأحمد (٦/ ٣١٢)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه مالك في الرضاع (١٢٨٩)، والدارقطني في «سننه» (٤/ ١٧٢) وإسناده صحيح، رجاله ثقات وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢١٥٠).

(٣) أخرجه عن ابن عمر مالك في الرضاع كما في تخريج الأثر السابق وكما في الأثر (١٢٨٢)، وإسنادهما صحيح.

(٤) أخرجه عن ابن عباس مالك في الرضاع (١٢٨٠)، وعبد الرزاق في «المصنف» (الأثر ١٣٩٠٣)، وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه عن ابن مسعود وأبي موسى عبد الرزاق في «المصنف» (الأثر ١٣٨٩٥)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٤٦١).

أن المحرم هو الرضاع في الصغر.

ولهذا ذهب الجمهور إلى أن قول الرسول ﷺ في قصة سالم: «**أرضعيه خمس رضعات يحرمن**» خاص بسالم، إما بشخصه، لكن هذا لا دليل عليه وإما بحاله، حيث إن أبا حذيفة قد تبناه، فكان يدخل عليهم البيت.

لكن الإسلام أبطل التبني كما جاء في سورة الأحزاب، وعلى هذا فيمتنع وجود حالة مشابهة لحالة سالم.

وفي قولٍ لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: من كان بحاله بحيث يحتاج إليه ويشق التحرز منه فله حكمه(١).

وهذا ضعيف جدًا؛ لأن النبي ﷺ لما نهى عن الدخول على النساء قالوا: يا رسول الله أرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»(٢).

والحمو هو أخو الزوج أو قريبه الذي يحتاج إلى دخوله كثيرًا، وقد يكون ساكنًا مع قريبه لحاجة أو ضرورة، ولو كان رضاع الكبير مؤثرًا للحاجة لقال: «الحمو ترضعه زوجة قريبه» فيزول الحرج.

١٨- تحريم أصول الزوجة: أمها وجداتها وإن علون من أي جهة كُنَّ على زوجها، وكذا أمها وجداتها من الرضاع(٣) بمجرد العقد عليها عقدًا صحيحًا، سواء دخل بها، أو لم يدخل بها، وطئها أو لم يطأها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾.

وهذه هي المحرمة الثانية من المحرمات بالمصاهرة.

وقد ذهب ابن تيمية إلى أن أم الزوجة من الرضاع لا تحرم؛ لأن قرابتها من جهة المصاهرة لا من جهة النسب، والرضاع إنما يُحَرِّم من جهة النسب.

كما قيل: إن أم الزوجة لا تحرم إلا بعد الدخول ببنتها بناء على أن القيد والوصف في قوله: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ قيد ووصف لأمهات النساء والربائب.

---

(١) انظر: «الاختيارات الفقهية» (ص٢٨٣)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٩٣)، «تفسير المنار» (٤/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢)، ومسلم في السلام (٢١٧٢)، والترمذي في الرضاع (١١٧١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٢١).

وروي هذا عن بعض السلف(١). وجمهور النحويين يمنعون أن يأتي الوصف معمولًا لعاملين مختلفين، فالعامل في ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ الإضافة، والعامل في ﴿مِن نِّسَآئِكُمُ﴾ حرف الجر، وعلى هذا فلا يصح عندهم كون قوله: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ وصفًا للنساء في الموضعين؛ لاختلاف العامل في كل منهما، فالأول: الإضافة، والثاني: حرف الجر(٢).

كما يمنع من ذلك أيضًا حيلولة المعطوف بين الصفة والموصوف، وامتناع جعل الصفة للمضاف إليه دون المضاف إلا عند البيان نحو: مررت بغلام زيد العاقل، فالصفة للغلام لا لزيد إلا عند زوال اللبس.

وأيضًا فإن الموصوف الذي تليه الصفة أولى بها لجواره، ما لم تدع ضرورة إلى نقلها عنه أو تخطيها إياه إلى الأبعد(٣).

وعلى هذا فالصحيح أن أمهات النساء يحرمن بمجرد العقد على بناتهن كما هو ظاهر الآية فتحريمهن تحريم مبهم، ولا يشترط لحرمتهن الدخول بالبنات.

قال الأزهري(٤): «ولما سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، ولم يبين الله الدخول بهن، أجاب فقال: هذا من مبهم التحريم، الذي لا وجه فيه غير التحريم، سواء دخلتم بالنساء أو لم تدخلوا بهن، فأمهات نسائكم حرام عليكم من جميع الجهات».

وقال الطبري(٥) بعد أن ذكر القولين: «فقال جميع أهل العلم متقدمهم ومتأخرهم: من المبهمات، وحرام على من تزوج امرأة أمها، دخل بامرأته التي نكحها أو لم يدخل بها، وقالوا شرط الدخول في الربيبة دون الأم، فأما أم المرأة فمطلقة بالتحريم..».

وقال الطبري(٦) أيضًا: «والقول الأول أولى بالصواب، أعني قول من قال: «الأم من

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٧/ ١٤٤- ١٤٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣٣- ٣٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٧٠)، «البحر المحيط» (٣/ ٢١٢).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٢٢).

(٤) في «الصحاح» مادة «بهم».

(٥) في «جامع البيان» (٨/ ١٤٣- ١٤٤).

(٦) في «جامع البيان» (٨/ ١٤٥- ١٤٦).

المبهمات»؛ لأن الله لم يشرط معهن الدخول ببناتهن كما شرط ذلك مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضًا إجماع من الحجة، التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه».

وقال الحافظ ابن كثير(١) بعد أن ذكر القائلين من السلف بعدم اشتراط الدخول: «وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الفقهاء قديمًا وحديثًا ولله الحمد».

١٩- تحريم فروع الزوجة بناتها وبنات أولادها وإن نزلن، وهن الربائب بعد الدخول بأمهن(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾، أي: جامعتموهن على الصحيح(٣).

ولهذا قالوا: «العقد على البنات يحرم الأمهات والدخول بالأمهات يحرم البنات».

وسواء كانت الربيبة في حجر الزوج أم لم تكن في حجره؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ ليس قيدًا معتبرًا؛ وإنما هو لبيان الواقع غالبًا، والقيد إذا كان لبيان الواقع فلا مفهوم له(٤).

ومما يدل على أن هذا القيد لا اعتبار له، وإنما هو لبيان الواقع فقط عدم توكيده بذكر مفهومه(٥) بينما أكد قيد الدخول لما كان معتبرًا بقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾، ومثل قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ في كونه لبيان الواقع غالبًا قوله ﷺ في درة بنت أبي سلمة: «**لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة**»(٦).

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢١٨- ٢١٩)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٥- ٣٠٣- ٣٠٤، ٣٢/ ٦٥- ٦٦)، «زاد المعاد» (٥/ ١٢١).

(٢) الربيبة إنما تحرم على زوج أمها فقط فليست أختًا لأبنائه، بل يحل لأبنائه الزواج بها.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٢٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٧٦)، «زاد المعاد» (٥/ ١٢١/ ١٢٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٧).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٩٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٢)، «زاد المعاد» (٥/ ١٢١)، «تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٩).

(٥) فلم يقل «فإن لم يكن في حجوركم فلا جناح عليكم»، انظر: «تفسير المنار» (٤/ ٤٧٨).

(٦) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧٢)، ومسلم في الرضاع (١٤٤٩)، وأخرجه أبو داود (٢٠٥٦)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٤)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٩) من حديث أم حبيبة- رضي الله عنها.

=

قال ابن كثير[١]: «هذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور السلف والخلف».

وقيل: لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في الحجر، فإن لم تكن في حجر زوج أمها لم تحرم عليه وإلى هذا ذهب أهل الظاهر[٢].

٢٠- الإشارة إلى أن الربيبة لها حكم البنت من حيث عدم الزواج بها، ومن حيث جواز الخلوة بها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾.

٢١- إذا عقد الرجل على امرأة، ولم يدخل بها، لم تحرم عليه بناتها «الربائب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٢٢- بلوغ القرآن الكريم الغاية في البيان والإيضاح، والاحتراز عما قد يكون فيه لبس؛ لأنه لما خالفت الربيبة بقية المحرمات بالمصاهرة في كونها لا تحرم إلا بالدخول بأمها جاء التفصيل في بيان حكمها منطوقًا ومفهومًا، فقال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾.

ومفهوم هذا أنه إذا لم يدخل بالأم فلا تحرم الربيبة، وقد جاء التصريح بهذا المفهوم لزيادة البيان والإيضاح، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٢٣- تحريم زوجات الأبناء اللاتي عقدوا عليهنَّ عقدًا صحيحًا، وإمائهم اللاتي وطئوهن بملك اليمين على آبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في زوجة الابن من الرضاع، فذهب جمهور أهل العلم من المفسرين والفقهاء سلفًا وخلفًا إلى أن زوجة الابن من الرضاع تحرم، كزوجة الابن من الصلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾.

=

فـ«درةُ بنت أبي سلمة» حرمت عليه ﷺ من جهتين، إحداهما أنها ربيبته ﷺ، والأخرى أنها بنت أخيه من الرضاعة، فهو ﷺ عمها من الرضاعة، انظر: «فتح الباري» (٩/ ٥١٦).

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢١٩).

(٢) انظر: «المحلى» (٩/ ٥٢٧).

وقالوا: إن القيد في قوله: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾؛ لإخراج زوجة الابن من التبني والادعاء، كما هو معروف في الجاهلية(١).

كما استدلوا بقوله ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»(٢)، وما في معناه من الأحاديث، بل حكى القرطبي(٣) الإجماع على حرمتها لهذا الدليل.

وقال الحافظ ابن كثير(٤): «فإن قيل: من أين تحرم امرأة ابنه من الرضاع، كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعًا، وليس من صلبه، فالجواب من قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». قالوا: فأجرى الرضاع مجرى النسب، فإذا حرمت زوجة الأب والابن وأم المرأة وابنتها من النسب حرمن من الرضاعة، وإذا حرم الجمع بين أختي النسب حُرِّم بين أختي الرضاعة».

وذهب بعض أهل العلم إلى أن زوجة الابن من الرضاع لا تحرم؛ لأن القيد في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ لإخراج الابن من الرضاع، أما الابن المُتَبَنّى فليس ابنًا شرعيًا فلا يحتاج إلى قيد لإخراجه، واختار هذا شيخ السلام ابن تيمية، وهذا القول له وجاهة من حيث إن الاحتراز من الابن المتبنى فيه بُعْدٌ؛ لأن التبني قد أبطله الله ﷻ جملة في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الآية: ٥]، فلا يترتب عليه أي حكم من الأحكام.

وقد نقل ابن القيم(٥) عن ابن تيمية أن النبي ﷺ ما قال «يحرم من الرضاعة ما يحرم

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٠١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٧٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٧٢)، «زاد المعاد» (٥/ ١٢٤)، «أضواء البيان» (١/ ٣١٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٦).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٢٢١).

(٥) في «زاد المعاد» (٥/ ٥٥٧- ٥٥٨)، وانظر: (٥/ ١٢٤- ١٢٥)، (٥٦٠- ٥٦٤)، وقد يكون الأحوط عدم الزواج بمن تزوجها الابن من الرضاع؛ لقول جمهور العلماء: إنها تحرم، وعدم الخلوة بها لقول بعض أهل العلم: إنها لا تحرم. والاحتياط له دليل في الشرع كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أن عبد بن زمعة وسعد بن أبي وقاص اختصما إلى النبي ﷺ في ابن زمعة فقال سعد: يا رسول الله أوصاني أخي إذا قدمت أن أنظر ابن أمة زمعة فاقبضه فإنه ابني، وقال عبد بن زمعة أخي وابن أمة أبي ولد على فراش =

من المصاهرة» ولا ذكر الله تعالى ذلك في كتابه كما ذكر تحريم الصهر، ولا ذكر تحريم الجمع في الرضاع كما ذكره في النسب، والصهر قسيم النسب وشقيقه ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فالعلاقة بين البشر بالنسب والصهر، وهما سببا التحريم والرضاع فرع على النسب.

وقال ابن القيم أيضًا: «وهل يحرم نظير المصاهرة بالرضاع فيحرم عليه أم امرأته من الرضاعة وبنتها من الرضاعة، وامرأة ابنه من الرضاعة، أو يحرم الجمع بين الأختين من الرضاعة أو بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها من الرضاعة، فحرمه الأئمة الأربعة وأتباعهم، وتوقف فيه شيخنا، وقال: «إن كان قد قال أحد بعدم التحريم فهو أقوى».

وهذه هي المحرمة الرابعة والأخيرة من المحرمات بالمصاهرة، وهن باختصار: زوجة الأب، وأم الزوجة، وبنت الزوجة، وزوجة الابن، وكلهن من المبهمات، أي أنهن يحرمن تحريمًا مبهمًا بمجرد العقد، المدخول بها وغير المدخول بها، سوى الربيبة فلا تحرم إلا بالدخول بأمها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «وأما المحرمات بالصهر فنقول: كل نساء الصهر حلال له إلا أربعة أصناف بخلاف الأقارب، فأقارب الإنسان كلهن حرام إلا أربعة أصناف، وأقارب الزوجين كلهن حلال إلا أربعة أصناف، وهن حلائل الآباء والأبناء وأمهات النساء وبناتهن، فيحرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه. يحرم على الرجل أم امرأته وأم أمها وأبيها، وإن علت، وتحرم عليه بنت امرأته، وهي الربيبة وبنت بنتها وإن سفلت، وبنت الربيب أيضًا حرام كما نص عليه الأئمة المشهورون الشافعي وأحمد وغيرهما، ولا أعلم فيه نزاعًا، ويحرم عليه أن يتزوج بامرأة أبيه، وإن علا وامرأة ابنه، وإن سفل، فهؤلاء الأربعة هن المحرمات بالمصاهرة في كتاب الله، وكل

=
أبي فرأى النبي ﷺ شبهًا بَيِّنًا بعتبة، فقال: «هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش واحتجبي منه يا سودة». يعني عبد بن زمعة. أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤٢١)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٧)، وأبو داو دفي الطلاق (٢٢٧٣)، والنسائي في الطلاق (٣٤٨٤)، وابن ماجه في النكاح (٢٠٠٤).
وإنما أمر ﷺ سودة أن تحتجب منه مع أنه أخ لعبد بن زمعة من أبيه، فيكون أيضًا أخًا لسودة بنت زمعة من أبيها، وذلك احتياطًا لما رأى من شبهه بعتبة بن أبي وقاص، انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٣٦- ٣٧).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٥- ٦٦).

من الزوجين يكون أقارب الآخر أصهارًا له، وأقارب الرجل أحماء المرأة وأقارب المرأة أختان الرجل، وهؤلاء الأصناف الأربعة يحرمن بالعقد إلا الربيبة، فإنها لا تحرم حتى يدخل بأمها، فإن الله لم يجعل هذا الشرط إلا في الربيبة، والبواقي أطلق فيهن التحريم، فلهذا قال الصحابة: أبهموا ما أبهم الله. وعلى هذا الأئمة الأربعة وجماهير العلماء.

وأما بنات امرأة أبيه، وابنه فلا يحرمن باتفاق العلماء، فإن هذه ليست من حلائل الآباء والأبناء، فإن الحليلة هي الزوجة، وبنت الزوجة وأمها ليست زوجة بخلاف الربيبة، فإن ولد الربيب ربيب، كما أن ولد الولد ولد، وكذلك أم أم الزوجة أم للزوجة، وبنت أم الزوجة لم تحرّم لأنها ليست أمًا، فلهذا قال من قال من الفقهاء: «بنات المحرمات محرمات، إلا بنات العمات والخالات وأمهات النساء، وحلائل الآباء والأبناء».

ومثل النكاح: الوطء بملك اليمين، فإذا ملك أمة ووطئها حرمت على أبيه وابنه، وحرمت عليه أمها وبنتها.

فإن كان النكاح فاسدًا- وهو المختلف فيه- كالعقد بدون ولي، أو بدون شهود، أو نحو ذلك، فإن كان معه وطء حرمت هذه المنكوحة على أبيه وابنه، وحرمت عليه أمها وبنتها على الصحيح من أقوال أهل العلم، بل حكى ابن المنذر وابن كثير: الإجماع عليه(١). قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «لأنه لو قدر بينهما ولد في هذا الوطء، فإنه بلا شك يلحق بأبيه؛ لأن النكاح نكاح شبهة، فكذلك التحريم يتبع النسب، فما دام أنه ثبت النسب فالتحريم يثبت من باب أولى».

أما إذا لم يكن مع النكاح الفاسد وطء، فقد اختلف فيه أيضًا على قولين.

قال ابن العربي(٣): «إذا نكح الأب أو الابن نكاحًا فاسدًا حرم على كل واحد منهما من انعقد لصاحبه عقد فاسد عليه من النساء كما يحرم بالصحيح. فإن كان النكاح متفقًا على فساده لم يوجب حكمًا ولا تحريمًا وكان وجوده كعدمه، وإن كان مختلفًا فيه تعلق به إلى الحرمة ما يتعلق بالصحيح؛ لاحتمال أن يكون نكاحًا، فيدخل تحت مطلق اللفظ.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٧).

(٣) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٧٠- ٣٧١).

والفروج إذا تعارض فيها التحليل والتحريم غُلِّب التحريم».

فإن كان النكاح باطلًا وهو ما اتفق على بطلانه كنكاح أحد المحارم، فإن وجوده كعدمه، كما قال ابن العربي، لكن إن كان الناكح يعتقد صحة هذا النكاح ووطئ كالكافر إذا نكح نكاحًا محرمًا في دين الإسلام، فإن هذا يلحقه فيه النسب، وتثبت به المصاهرة، فيحرم على كل منهما إذا أسلم أصول الآخر وفروعه باتفاق العلماء. ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية(١)، قال: «فالنسب يتبع باعتقاد الواطئ للحل وإن كان مخطئًا في اعتقاده، والمصاهرة تتبع النسب، فإذا ثبت النسب فالمصاهرة بطريق الأولى».

ومن حرم وطؤهن بطريق العقد والنكاح حرم أيضًا وطؤهن بطريق ملك اليمين بالإجماع، إلا إماء أهل الكتاب فإن نكحاهن حرام ووطؤهن بملك اليمين جائز(٢).

قال الجصاص(٣): «لا خلاف بين أهل العلم في تحريم من ذكر ممن لا يعتق عليه بملك اليمين(٤)، وأن الأم والأخت من الرضاعة محرمتان بملك اليمين كما هما بالنكاح، وكذلك أم المرأة وابنتها إذا دخل بالأم، وأن كل واحدة منهما محرمة عليه تحريمًا مؤبدًا إذا وطئ الأخرى، وكذلك لا خلاف أنه لا يجوز له الجمع بين أم وبنت بملك اليمين، ولا خلاف أيضًا أن الوطء بملك اليمين يحرم ما يحرمه الوطء بالنكاح فيما يتعلق به تحريم مؤبد».

قال القرطبي(٥): «وأجمع العلماء على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرمها على أبيه وابنه، ولا يحرم عليه بنتها وأمها، فإن وطئها حرمت على أبيه وابنه، وحرمت عليه بنتها وأمها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٦): «لا نزاع بين الأئمة أنه لا فرق بين وطئها بالنكاح وبين وطئها بملك اليمين».

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٦- ٦٧).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٢٨)، وانظر الكلام على الآية (٢٥) من هذه السورة.

(٣) في «أحكام القرآن» (٢/ ١٢٩).

(٤) كالمحرمات من النسب على الإنسان، فإنهن يعتقن بمجرد ملكه لهن.

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٤).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٨، ٧٧).

وقال ابن كثير[١]: «قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحدٍ أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين؛ لأن الله ﷻ حرم ذلك في النكاح، وملك اليمين يتبع النكاح إلا ما روي عن عمر، وابن عباس وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى، ولا من تبعهم..».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «فلا يتزوج الرجل ذات رحمه المحرم ولا يتسرى بها، وهذا متفق عليه.. وقال أيضًا: وهم متفقون على أنه لا يتسرى من تحرم عليه بنسب أو رضاع، وإنما تنازعوا في الجمع فتوقف بعض الصحابة فيها، فقال أحلتهما آية وحرمتهما آية. وأما الجمهور فقطعوا بالتحريم، وهو المعروف من مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم، قالوا: لأن كل ما حرم الله في الآية بملك النكاح حرم بملك اليمين».

٢٤- أن من زنى بها الرجل لا تحرم على ابنه ولا على أبيه ولا تحرم عليه أمها ولا بنتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ ؛ لأن المراد بقوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، أي: ما عقدوا عليه عقدًا شرعيًا صحيحًا.

ولقوله تعالى أيضًا: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾؛ إذ المعنى: وحرم عليكم نكاح أمهات زوجاتكم اللاتي تزوجتموهن بالعقد الشرعي الصحيح.

ولقوله تعالى أيضًا: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، أي: من زوجاتكم اللاتي تزوجتموهن بالعقد الشرعي الصحيح ودخلتم بهن أيضًا.

ولقوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾، أي: النساء اللاتي أحلهن الله لأبنائكم بالعقد الشرعي الصحيح، أو بملك اليمين.

فهؤلاء المحرمات إنما حرمن بسبب مباح وهو النكاح والعقد الشرعي الصحيح. أو بسببه مع الوطء كما في الربيبة، أو بسبب الوطء بملك اليمين. لا بسبب الزنا المحرم، الذي هو سفاح لا نكاح.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٢٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٩- ٧٠).

وقد جعل الله الحرمة بسبب النسب والمصاهرة؛ تكريمًا لهما، فكيف تجعل للزنا وهو فاحشة وساء سبيلًا، وكيف يحرم الحرام حلالًا[١]؟

وكيف يلحق الزنا وهو السفاح المحرَّم بالنكاح المعتبر شرعًا، وقد ارتفع في الزنا الصداق، والميراث، ووجوب العدة[٢]، ولحوق النسب، ووجب الحد على الزاني فلا يجوز إلحاق الزنا بالنكاح الشرعي.

وبهذا قال الشافعي[٣]، ومالك[٤] في الصحيح عنه وكثير من أهل العلم.

قال القرطبي[٥]: «ومن زنى بامرأة لا تحرم عليه هي ولا بنتها ولا أمها، أكثر أهل العلم على هذا، وهو الصحيح من قول مالك وأهل الحجاز: أن الزنا لا حكم له؛ لأن الله- سبحانه وتعالى- قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، وليست التي زنى بها من أمهات نسائه، ولا ابنتها من ربائبه، وهو قول الشافعي وأبي ثور؛ لأنه لما ارتفع الصداق في الزنا ووجوب العدة والميراث ولحوق الولد، ووجب الحد ارتفع أن يحكم له بحكم النكاح الجائز».

وذهب أكثر أهل العلم منهم أبو حنيفة[٦] وأحمد في المشهور عنه[٧] وإسحاق، إلى أن الزنا يُحرِّم فإذا زنى الرجل بامرأة حرمت على ابنه وعلى أبيه وحرمت عليه أمها وبنتها، وروي هذا عن مالك[٨].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٨٤- ٣٨٦).

(٢) اختلف في وجوب العدة على المزني بها، فقال بعض أهل العلم تستبرًا بحيضة، وقيل عليها العدة كالموطوءة بشبهة وقيل لا عدة عليها والأظهر أن عليها التربص مدة يعرف بها براءة رحمها وهو الاستبراء بحيضة انظر «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ١٤٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٨٤- ٣٨٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٢)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٥، ٢٨).

(٤) انظر: «الموطأ» كتاب الرضاع (١٢٨٨).

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٤- ١١٥).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١١٣)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٠٤).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٧، ١٤٠).

(٨) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٤- ١١٥).

وحملوا النكاح في قوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ على الوطء.

قالوا: وإذا كان المراد بالنكاح الوطء، فسواء كان الوطء حلالًا أو حرامًا.

كما استدلوا بما جاء في قصة جريج العابد، وقول الغلام لما سئل مَنْ أبوك؟ قال: «فلان الراعي»(١) قالوا فنسب نفسه إلى أبيه من الزنا.

واستدلوا بأحاديث ضعيفة(٢).

والصحيح: القول الأول، وأنه لا يقع التحريم بسبب الزنا(٣). لأن المراد بالنكاح في الآية هو العقد الشرعي الصحيح عند أكثر أهل العلم، أو ما يشمل العقد والوطء معًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): «فليس في القرآن لفظ نكاح إلا ولا بد أن يراد به العقد، وإن دخل فيه الوطء أيضًا، فأما أن يراد به مجرد الوطء، فهذا لا يوجد في كتاب الله قط».

وأما قول الغلام في قصة جريج: «أبي فلان الراعي»، فالصحيح: أن الولد لا ينسب للزاني، وإنما ينسب لزوج المرأة المزني بها؛ لقوله ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر**

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٨٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٠)، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كان رجل في بني إسرائيل يقال له جُريج يصلي فجاءته أمهُ فدعته فأبى أن يجيبها، فقال: أجيبها أو أصلي؟ ثم أتته، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته، فقالت امرأة لأفتنن جريجًا فتعرضت له فكلمته فأبى فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها فولدت غلامًا، فقالت: هو من جريج. فأتوه وكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب. قال: لا، إلا من طين».

(٢) كالذي روي عن عبدالله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة وابنتها ولم يفرق بين الحلال والحرام». أخرجه الدارقطني في سننه (٣/ ٢٦٩) موقوفًا على ابن مسعود، قال: وفيه «ليث وحماد ضعيفان»، كما ضعفه البيهقي في «سننه» (٧/ ١٧٧).

(٣) اللهم إلا في البنت من الزنا، فإنها تحرم؛ لأنها متولدة من ماء الزاني فتحرم عليه على الصحيح كما سبق. وإذا كان لا يقع التحريم بسبب الزنا، فمن باب أولى لا يقع التحريم بسبب اللواط خلافًا لما قيل من أنه إذا عمل بشخص فاحشة اللواط حرمت عليه أمه وأخته. انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٦)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٤- ١٤٠)، «البحر المحيط» (٣/ ٢١٦).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١١٣).

الحجر»(١).

أي: فالولد ينسب لزوج المرأة المزني بها، وللعاهر الحجر، أي: الخيبة والخسران، وقيل الرجم(٢).

فولد الزانية يلحقها بإجماع المسلمين ويرثها للعلم بأنها أمه(٣).

٢٥- تحريم الجمع بين الأختين من النسب أو الرضاع بعقد النكاح، أو بالوطء بملك اليمين، أو إحداهما بالعقد والثانية بالوطء بملك اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾.

وعن أم حبيبة- رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، قال: «وتحبين؟» قلت: نعم، لست لك بمُخْلية، وأَحَب من شاركني في خير أختي. فقال النبي ﷺ: «**إن ذلك لا يحل لي**». قلت: يا رسول الله فوالله إنا لنتحدث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، قال: «**بنت أم سلمة؟**» فقلت: نعم. قال: «**فوالله لو لم تكن في حجري ما حلت لي إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة فلا تعرضنَّ عليَّ بناتكن ولا أخواتكن**»(٤).

وعن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال: قلت يا رسول الله: إني أسلمت وتحتي

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨١٨)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٨٢)، وابن ماجه في النكاح (٢٠٠٦)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٣٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٣٩، ١٤٠)، «زاد المعاد» (٥/ ١٤٠) وما بعدها، «تفسير المنار» (٤/ ٤٦٧).

ومن زنى بامرأة فإنه لا يحرم عليه نكاحها عند أكثر أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة، لكن لا يجوز له أن يتزوجها حتى يتوبا، فإن كان الزاني أحدهما لم يعقد له على الآخر حتى يتوب؛ لقوله- عز وجل: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرص على أن يجمع بين رجل وامرأة زنيا فأبى الغلام. أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٤٨)، وهذا إن صح مشروط بالتوبة.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٠٧)، ومسلم في الرضاع (١٤٤٩)، وأبو داود في النكاح (٢٠٥٦)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٩).

أختان؟ قال: «**طلق أيتهما شئت**»(١).

والعلة في ذلك كله خوف قطيعة الرحم، كما جاء في حديث ابن عباس ﷺ(٢).

فإذا عقد على امرأة أو وطئها بملك اليمين حرم عليه العقد على أختها أو وطؤُها بملك اليمين حتى يفارق الأولى بموت أو غيره.

قال الحافظ ابن كثير(٣): «وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديمًا وحديثًا على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحته أختان خُيِّر فيمسك إحداهما، ويطلق الأخرى لا محالة».

وقال أيضًا(٤): «وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضًا؛ لعموم الآية، وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة، وتوقف بعض السلف في ذلك(٥).

وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح، وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون نظرًا وقياسًا الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب، وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها، وشذّ عنها، والله المحمود».

وعلى هذا، فإذا كان الشخص عنده أختان بملك اليمين، ووطئ إحداهما فليس له أن

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٢٤٣)، والترمذي في النكاح (١١٢٩، ١١٣٠)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه في النكاح (١٩٥١)، وأحمد (٤/ ٢٣٢)، وابن حبان (١٢٧٦)، وحسنه الألباني.

(٢) سيأتي قريبًا.

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٢١).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٢٢٢- ٢٢٣).

(٥) كما روي عن عثمان ﷺ أنه توقف في هذا، وقال: أحلتهما آية يعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]، و[المعارج: ٢٩، ٣٠]، قال: وحرمتهما آية، يعني: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، انظر «زاد المعاد» (٥/ ١٢٦- ١٢٧]، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٥).

يطأ الأخرى حتى يحرم الموطوءة على نفسه بإعتاقها أو بيعها أو هبتها أو تزويجها بعد استبرائها.

وهؤلاء هن القسم الرابع من المحرمات، وهن المحرمات بالجمع(١)، وهن اللاتي

---

(١) والمحرمات بالجمع هن: أ- الجمع بين الأختين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾.

ب- بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها؛ لقوله ﷺ: «لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها»، أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ البخاري في النكاح (٥١٠٩- ٥١١٠)، ومسلم في النكاح (١٤٠٨)، وأبو داود في النكاح (٢٠٦٥، ٢٠٦٦)، والترمذي في النكاح (١١٣٦)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٩)، وأحمد (٢/ ٤٦٢).

وأخرجه البخاري أيضًا في النكاح (٥٠١٨)، والنسائي في النكاح (٣٢٩٧- ٣٢٩٩)، وأحمد (٣/ ٣٢٣٨)، من حديث جابر بن عبدالله ﷺ، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها».

وفي رواية عن ابن عباس زيادة: «إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم». أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٦٧)، والترمذي في النكاح (١١٢٥)، وأحمد (١/ ٢١٧، ٣٧٢)، وابن حبان (١٢٧٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٣/ ١٦٧): «رواه ابن حبان في صحيحه، وابن عدي من حديث أبي حريز عن عكرمة عن ابن عباس بنحو ما تقدم، وزاد آخره، هذه الزيادة، ورواه ابن عبد البر في «التمهيد» من هذا الوجه، وأبو حريز علق له البخاري، ووثقه ابن معين، وأبو زرعة، وضعفه جماعة، فهو حسن الحديث».

وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناديه عند الإمام أحمد (١٨٧٨، ٣٥٣٠).

وقد ضعفه الألباني، وانظر: «إرواء الغليل» (١٨٨٢).

وفي هذه الزيادة بيان العلة من النهي عن الجمع، وهي قطيعة الرحم. وقد نقل ابن عبد البر وغيره الإجماع على تحريم نكاح المرأة على عمتها، والمرأة على خالتها، خلافًا للرافضة الذين أباحوا ذلك. انظر: «اللمعة الدمشقية» (٥/ ١٨١)، «الرد على الرافضة» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، (ص٤٩).

ج- الجمع بين العمتين، وبين الخالتين، أي: الجمع بين امرأتين كل منهما عمة للأخرى، أو كل منهما خالة للأخرى؛ لنهي النبي ﷺ عن الجمع بين العمة والخالة وبين العمتين والخالتين.

أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٦٧)، والترمذي في النكاح (١١٢٥)، وأحمد (١/ ٣٧٢)، وابن حبان في صحيحه (١٢٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأيضًا فإنه إذا امتنع الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها فالجمع بين العمتين والخالتين من باب أولى.

وصورة ذلك: إذا تزوج رجلان كل منهما أم الآخر صارت بنتاهما عمتين، أي: كل واحدة منهما عمة للأخرى فلا يجوز لزيد، أو لعمرو أن يجمع بينهما.

وإذا تزوج رجلان كل منهما بنت الآخر صارت بنتاهما خالتين، أي: كل واحدة منهما خالة للأخرى فلا

=

لا يحرمن على التأبيد، وإنما تزول الحرمة إذا فارق الزوجة الأولى بموت أو بغيره من أسباب الفرقة، بخلاف الأقسام الثلاثة من المحرمات وهن المحرمات بالنسب والمحرمات بالمصاهرة والمحرمات بالرضاع فإن تحريمهن على التأبيد.

٢٦- إذا طلق الرجل امرأته طلاقًا رجعيًا فلا يجوز له أن يتزوج أختها ما دامت في العدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ ؛ لأن الرجعية بحكم الزوجة ما دامت في العدة، وهذا بالإجماع(١).

فإن كان الفراق بائنًا كطلاق الثلاث وفرقة اللعان والطلاق على عوض والفسخ، فذهب طائفة من أهل العلم منهم مالك(٢)، والشافعي(٣) وأبو ثور وأبوعبيد وابن المنذر(٤)، وكثير من أهل العلم إلى أن له أن يتزوج أختها وإن كانت المفارقة ما زالت في العدة؛ لأنها إذا كان الفراق بائنًا ليست زوجة، بل قد بانت منه، وسواء كانت البينونة

=
يجوز لشخص أن يجمع بينهما.
انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٨٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٥- ١٢٦).
قال الفقهاء: «كل امرأتين إذا جعلت موضع إحداهما ذكرًا لم يجز له أن يتزوج الأخرى فالجمع بينهما باطل»، انظر «المصدرين السابقين»، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٩).
والعلة في تحريم ذلك كله خوف قطيعة الرحم كما سبق، ولهذا يجوز أن يجمع بين امرأتين إذا كان بينهما نسب بلا حرمة أو حرمة بلا نسب مثل أن يجمع بين المرأة وابنة زوجها كما جمع عبدالله بن جعفر لما مات علي بن أبي طالب ﷺ بين امرأة علي وابنته، وهذا يباح عند أكثر العلماء، الأئمة الأربعة وغيرهم، فإن هاتين المرأتين وإن كانتا لو كانت إحداهما ذكرًا لم يجز له أن يتزوج الأخرى، فذلك تحريم بالمصاهرة لا بالرحم والعلة في تحريم الجمع هي قطيعة الرحم فلم تدخل هذه في آية التحريم فإن كان بينهما رحم غير محرم مثل بنت العم والخال جاز الجمع بينهما، وقيل: يكره ذلك، انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧١- ٧٢).
وقد ذكر ابن القيم في «زاد المعاد» (٥/ ١٢٨) هذه القاعدة في التحريم، ثم قال: «ولا يستثنى من هذا صورة، قال: فإن لم يكن بينهما قرابة لم يحرم الجمع بينهما، وهل يكره على قولين، وهذا كالجمع بين امرأة الرجل وابنته من غيرها».

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٧٢).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٩).
(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٣١).
(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٩).

بينونة كبرى أم بينونة صغرى[١].

فلا يمكن الجمع بينها وبين أختها في هذه الحال والله تعالى يقول: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾.

وذهب طائفة من أهل العلم منهم أبو حنيفة[٢]، وأحمد[٣]، والثوري[٤] إلى أنه لا يجوز له ذلك ما دامت في العدة؛ لأنها ما زالت مشغولة بحق من حقوق الزوج، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٢٧- حرص الشرع على إبعاد المسلمين عن كل ما يسبب قطيعة الأرحام والعداوة بين الأقارب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ فإن من الحكمة في تحريم الجمع: الخوف من قطيعة الرحم، كما في حديث ابن عباس: «**إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحاكم**»[٥].

٢٨- أن ما سبق ومضى وانتهى من نكاح هذه المحرمات قبل نزول الآية وقبل التحريم فهو عفو لا مؤاخذة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

لكن من وجد بعد نزول الآية متزوجًا لامرأة من محارمه وكان زواجه بها قبل التحريم فيفرق بينهما، فإن كان معه أختان، أو نحوهما مما يحرم الجمع بينهما فإنه يختار واحدة منهما ويفارق الأخرى[٦].

٢٩- أن من ترك واجبًا أو فعل محرمًا من غير علم منه ومعرفة بالحكم مع كونه معذورًا فلا إثم عليه ولا مؤاخذة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

---

(١) البينونة الكبرى كفرقة اللعان، فلا يجتمعان أبدًا، كما في الحديث، وكطلاق الثلاث، فلا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره. والبينونة الصغرى كالطلاق على عوض والفسخ، فله أن يراجعها بعد نهاية العدة بعقد جديد.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٣٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٨٣).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١١٩).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٣٣- ١٣٤)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٠١- ٤٠٢).

٣٠- أنه لو حصل نكاح أيٍّ من هذه المحرمات، سواء المحرمات بالنسب، أو بالرضاع، أو بالمصاهرة، أو بالجمع- بعد التحريم- فإن العقد باطل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

٣١- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ فالمغفرة صفة ثابتة لله ﷻ من مقتضاها رفع المؤاخذة والستر والتجاوز، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

٣٢- إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية لله تعالى رحمة واسعة كما قال ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، رحمة عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَحِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ذكر الله تعالى في الآيتين السابقتين أربعة أقسام من المحرمات من النساء، وفي هذه الآية ذكر القسم الخامس، وهن المحرمات بسبب الزواج والنكاح، ثم أتبع ذلك ببيان أن ما عداهن حلال.

سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ «**أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشًا إلى أوطاس**(١)**، فلقوا عدوهم ففاتلوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ أناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: فهن لهم حلال، إذا انقضت عدتهن**»(٢).

قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، الواو حرف عطف، و(المحصنات) معطوف على المحرمات السابقة، أي: وحرمت عليكم المحصنات من النساء، وهؤلاء هن القسم الخامس من المحرمات من النساء.

و(المحصنات) بفتح الصاد، جمع «مُحْصَنَة»، اسم مفعول.

والإحصان لغة: المنع والحفظ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، أي: لتمنعكم وتحفظكم.

ومنه سُميَ «الحصن» وهو القصر الممتنع؛ لأنه يُمتنع به من العدو، وسُمِّي

---

(١) أوطاس: موضع عند الطائف.

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٦)، وأحمد (٣/ ٧٢- ٧٣، ٨٤)، وأبو داود في النكاح (٢١٥٥)، والنسائي في النكاح (٣٣٣٣)، والترمذي في النكاح (١١٣٢)، وفي التفسير (٣٠١٦)، والطبري في «جامع البيان» (٨٩٦٧- ٨٩٧١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٨٩- ٩٩).

«الحِصان» «حصانًا»؛ لأن صاحبه يركبه فيمتنع به وينجو.

و «الحَصَان» بفتح الحاء: المرأة العفيفة الممتنعة عما لا يليق.

قال حسان رضي الله عنه(١) في عائشة رضي الله عنها:

حَصَــان رزان ما تُــزن بريبــة وتُصبح غرثى من لحوم الغوافل

والإحصان من الألفاظ المشتركة التي أطلقت في القرآن الكريم على عدة معانٍ يتعين المراد بها من السياق، وقد يحمل في بعض المواضع على أكثر من معنى.

وأصله العفة؛ لأن العفة تمنع صاحبها عن ارتكاب الفاحشة، والمرأة العفيفة التي أحصنت فرجها، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢]، أي: حفظته، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

فالمراد بالمحصنات في الآيتين هنا «العفائف»(٢) بقرينة قوله في السياق بعد «الغافلات»، أي: اللاتي لم يطرأ الزنا منهن على بال.

وأطلق الإحصان بمعنى الحرية؛ لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق بالأحرار؛ ولهذا كان من عادة العرب أن الحرة عندهم لا تعرف بالزنا، وإنما تعرف بالزنا الإماء، ولهذا روي أنه لما بايع النبي ﷺ هند امرأة أبي سفيان على ألا يزنين، قالت: «أوتزني الحرة؟!»(٣).

ومن إطلاق الإحصان بمعنى الحرية قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥].

فالمراد بالمحصنات هنا «الحرائر» بقرينة قوله في السياق بعد: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٢٢٨)، ومعنى حصان: عفيفة، رزان: ذات وقار وثبات، ما تُزن بريبة، أي: ما تتهم بريبة، وتصبح غرثى، أي: جائعة من لحوم النساء الغوافل، فلا تتكلم فيهن، علمًا أنه قد أُكل لحمها ورُميت بالإفك كذبًا وزورًا.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٦٦)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٢٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٢٢، ١٢٦).

أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وأطلق الإحصان بمعنى التزوج كما في هذه الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وسُمِّي الزواج إحصانًا؛ لأن كلًا من الزوجين يُحَصِّن صاحبه، كما قال ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(١).

فالمراد بالمحصنات هنا المتزوجات اللاتي حصنهن أزواجهن، أي: وحرم عليكم نكاح ذوات الأزواج ما دمن في ذمة أزواجهن حتى يفارقنهم بطلاق أو وفاة أو غير ذلك وتنتهي عدتهن.

والدليل على أن المراد بالمحصنات هنا المتزوجات حديث أبي سعيد في سبب نزول هذه الآية، وأنها في السبايا من الكفار، وأن بعض الصحابة تحرج من غشيانهن من أجل أزواجهن من الكفار، فأنزل الله هذه الآية.

قال ابن القيم(٢): «الإحصان هاهنا إحصان التزوج بلا ريب إذ لا يصح أن يراد به إحصان العفة، ولا إحصان الحرية، ولا إحصان الإسلام فهو إحصان التزويج قطعًا».

وهناك معنى رابع ورد الإحصان بمعناه، وهو الإسلام، وجعل بعضهم منه قوله تعالى في الإماء: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

قيل: معنى «أحصن»: أسلمن، وسيأتي بيان هذا قريبًا إن شاء الله.

قال شيخ الإسلام(٣): «وكذلك الإسلام هو ينهى عن الفحشاء والمنكر، وكذلك المرأة المزوجة زوجها يحصنها؛ لأنها تستكفي به، ولأنه يغار عليها، فصار لفظ الإحصان يتناول الإسلام والحرية والنكاح، وأصله العفة فإن العفيفة هي التي

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٦)، ومسلم في النكاح (١٤٠٠)، وأبو داود في النكاح (٢٠٤٦)، والنسائي في الصيام (٢٢٣٩- ٢٢٤٣)، والنكاح (٣٢٠٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٤٥)، والدارمي في النكاح (٢١٦٥، ٢١٦٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٢٢).

أحصنت فرجها من غير صاحبها».

وهؤلاء هن القسم الخامس من المحرمات، وهن المحرمات بالنكاح، وهن زوجات الغير ومعتداتهم.

وتحريمهن تحريم غير مؤبد، بل يحرمْنَ ما دمن في عصمتهم، أو في عدة بعد فراقهم.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إلا: أداة استثناء، ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المتصل، والمستثنى منه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ و«ما» موصولة.

أي: وحرمت عليكم المحصنات من النساء إلا الذي ملكت أيمانكم منهن فهو حلال، ووقعت «ما» للنساء وهن من فصيلة «العالم أو العاقل»؛ لأن المراد بها صفة من يعلم ومن يعقل(١).

وإنما أضاف الملك لليمين خاصة؛ لأنها هي الآخذة المعطية.

والمعنى: حرمت عليكم المحصنات من النساء، وهن زوجات الغير أو معتداتهم إلا اللاتي ملكتموهن بطريق السبي من الكفار(٢)، فإنه ينفسخ نكاحهن من أزواجهن الكفار، ويحل لكم وطؤهن بعد استبرائهن(٣) قال الفرزدق:

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلق(٤)

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ توكيد للتحريم السابق في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

و«كتابَ»: منصوب على الإغراء بفعل محذوف تقديره: الزموا كتاب الله عليكم.

ويحتمل أن يكون «كتاب» مصدرًا لفعل محذوف دل عليه السياق، أي: كتب الله

---

(١) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/ ١٩٥)، «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٣، ٧٥).

(٢) إذا قامت سوق الجهاد بين المسلمين وبين أعدائهم من أصناف الكفار فإن ما يأخذه المسلمون من سباياي الكفار من رجال ونساء يكونون أرقاء للمسلمين، ويجوز للمسلمين وطء ما سبوه من هذه النساء بعد استبرائهن.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٥١- ١٥٢)، «أحكام القرآن» (للجصاص) (٢/ ١٣٥- ١٣٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٣- ٢٢٤).

(٤) انظر: «ديوانه» (٢/ ٣٨)، ومعنى البيت: رب امرأة ذات بعل سبيناها فزوجناها بالذي سباها ولم تكن طلقت من بعلها.

عليكم كتابًا.

و«كتاب» بمعنى مكتوب، أي: مفروض وكتاب الله ينقسم إلى قسمين: كتاب شرعي كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكتاب كوني كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩]، وقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١](١).

قال الحافظ ابن كثير في كلامه على هذه الآية(٢): «أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل أن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين».

ومعنى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: كتب الله عليكم تحريم هذه الأنواع من النساء تحريمًا مؤكدًا.

أو الزموا كتاب الله عليكم، أي: مكتوبه وما فرضه عليكم وأوجبه من تحريم هذه المحرمات.

---

(١) مادة «كتب» تأتي لعدة معانٍ منها: الفرض كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ومنه قوله هنا: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، والثاني: الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

والثالث: الجعل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

والرابع: القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]. ومنه قول النابغة الجعدي:

يا ابنة عمي كتاب الله أخرجني ... كرهًا وهل أمنعن الله ما فعلا

انظر: «ديوانه» (ص١٩٤).

والخامس: الحفظ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١]، انظر «الأعين النواظر» (ص٥١٤).

(٢) في «تفسيره» (٨/ ٧٩).

قال الحافظ ابن كثير[١]: «هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم فالزموا كتابه ولا تخرجوا عن حدوده والزموا شرعه، وما فرضه».

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ قرأ عاصم برواية حفص، وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الألف وكسر الحاء على البناء للمفعول ﴿وَأُحِلَّ﴾ عطفًا على قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الآية.

وإنما حذف الفاعل للعلم به، وهو الله ﷻ؛ لأن التحليل والتحريم من خصائصه سبحانه.

وقرأ الباقون بفتح الألف والحاء على البناء للفاعل: «وأَحَلّ»، أي: وأحل الله وهو معطوف على فعل مقدر تقديره: كتب الله ذلك وأحل[٢] أو معطوف على «حرمت»[٣].

﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ «ما» اسم موصول مبني في محل رفع نائب فاعل على قراءة «أُحل» بالبناء للمفعول، وفي محل نصب مفعول على قراءة البناء للفاعل.

﴿وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، أي: سوى، وعدا ذلكم.

والإشارة للمحرمات السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

والميم للجمع، فالخطاب لجماعة الذكور.

والمعنى: وأحل لكم نكاح كل ما سوى المحرمات السابقة؛ لأن الاسم الموصول يفيد العموم، وكذا وطؤهن بملك اليمين.

ويخص من هذا العموم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها[٤]، وبين العمتين

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٢٥).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٧٣)، «المبسوط» (ص١٥٦)، «الكشف» (١/ ٣٨٥)، «النشر» (٢/ ٢٤٩).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢١٦).

(٤) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٣٧).

والخالتين، ونكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرة، ونكاح خامسة، وزوجة الملاعن(١).

﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ «أن» مصدرية والفعل ﴿تَبْتَغُوا﴾ منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون، والجملة بدل من «ما» الموصولة في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾، فهي في محل رفع على قراءة البناء للمفعول، أو في محل نصب على قراءة البناء للفاعل.

ويحتمل أن تكون في محل نصب مفعول لأجله، أي: لأجل أن تبتغوا.

ومعنى: ﴿تَبْتَغُوا﴾ تطلبوا وتلتمسوا.

﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تَبْتَغُوا﴾ والأموال جمع مال، وهو كل ما يتمول ويملك من الأثمان والأعيان والمنافع، قليلًا كان أو كثيرًا(٢).

أي: أن تطلبوا نكاح من وقع نظركم واختياركم عليهن من النساء اللاتي أحلهن الله لكم بما تدفعون من مهور الحرائر من الزوجات إلى أربع، أو أثمان الإماء والسراري إلى ما شئتم.

﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ حالان من فاعل تبتغوا، أي: حال كونكم محصنين غير مسافحين.

ومعنى «محصنين»، أي: متزوجين الزواج الشرعي الذي يحصن فروجكم وفروج زوجاتكم، متعففين به عن الزنا.

﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ المسافحة: المفاعلة من السفح، وهو الصب والدفق ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾، وهو الذي ينصب ويتدفق بقوة من البهيمة عند الذبح، ومعنى ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير زانين، وسُمِّي الزنا سفاحًا، والزاني مسافحًا؛ لأن قصد الزاني، هو سفح الماء ودفقه، ونيل اللذة والشهوة، دون المقاصد الشريفة للنكاح الشرعي، من إعفاف نفسه وزوجته، وتكثير الأمة.

وقوله هنا: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ كقوله في سورة المائدة: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ

---

(١) كما سيأتي بيانه في الأحكام.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٨)، «البحر المحيط» (٣/ ٢١٧).

مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ [المائدة: ٥].

قيل: وقد اقتصر هنا على قوله: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ لأنه في الحرائر المسلمات وهن أبعد عن الخيانة من الإماء؛ ولهذا قال في الإماء: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ [النساء: ٢٥]؛ لأن الإماء إلى الخيانة أقرب من الحرائر.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾، الفاء استئنافية، و«ما» اسم شرط جازم مبني في محل رفع مبتدأ، أو اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، بمعنى: «الذي»، ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ فعل الشرط، أو صلة الموصول، والضمير «به» يعود إلى «ما» الموصولة، و«مِن» بيانية أو تبعيضية، والضمير «هن» يعود إلى النساء.

والاستمتاع بالشيء: الانتفاع به، والمتاع هو الشيء الذي ينتفع به، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، أي: تعجلتم الانتفاع بها.

والسين والتاء في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾ للتوكيد، أو للطلب.

والمعنى: فما استمتعتم به منهن بالنكاح الشرعي الصحيح، كما ثبت عن الربيع بن سبرة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**استمتعوا من هذه النساء**» قال: «**والاستمتاع عندنا يومئذٍ التزوج**»(١)، وعن ابن عباس: «**الاستمتاع النكاح**»(٢).

ويدل على هذا حديث: «**وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج**»(٣).

قال الجصاص(٤): «ومما يدل على أن المراد بالآية النكاح الشرعي، أن الله ذكر ما

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في النكاح (١٩٦٢)، والدارمي في النكاح (٢١٩٥)، وأحمد (٣/ ٤٠٥-٤٠٦)، والطبري في «جامع البيان» (٩٠٤٤)، والبيهقي في سننه (٧/ ٢٠٣)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤١٣)، وصححه الألباني والحديث أصله في مسلم.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ١٨٥)، الأثر (٩٠٢٨)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٩٨- الأثر (٣٦١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٠/ ١٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٣٣١)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، والترمذي في الطلاق واللعان (١٨٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في أحكام القرآن» (٢/ ١٤٨).

حرم نكاحه، ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، أي: أباح نكاح ما عدا ذلك بشرط الصداق والمهر، وقوله: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ فالإحصان لا يكون إلا في نكاح صحيح؛ لأن الواطئ بنكاح المتعة لا يكون محصنًا ولا يتناوله هذا الاسم».

وقال الزمخشري(١): «فما استمتعتم به منهن من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهن».

وقال صاحب تفسير المنار(٢): «فالآية بينت ما يحل من نكاح النساء في مقابلة ما حرم فيما قبلها وفي صدرها، وبينت كيفيته، وهو أن يكون بمال يعطى للمرأة، وبأن يكون الغرض المقصود منه الإحصان، دون مجرد التمتع بسفح الماء».

وقال أيضًا: «ومما يؤيد أن المراد بالاستمتاع هو النكاح الثابت، لا المتعة التي هي استئجار عارض إتباع ذلك بإباحة نكاح الإماء إن لم يستطع نكاح الحرائر».

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة، أو هو خبر المبتدأ «ما».

و«آتوا» بمعنى أعطوا، ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، الأول الضمير «هن»، والثاني «أجورهن».

أي: أعطوهن أجورهن، والأجور، جمع أجر، وهي المهور، أي: الأموال التي طلبتموهن بها كما قال تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ وسُمي المهر أجرًا؛ لأنه في مقابل الاستمتاع بمنفعة البضع.

قال القرطبي(٣): «وسُمي المهر أجرًا؛ لأنه أجر الاستمتاع، وهذا نص على أن المهر يسمى أجرًا، وذلك دليل على أنه في مقابلة البضع؛ لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجرًا».

وقال الحافظ ابن كثير(٤): «كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن مقابل ذلك؛ ولهذا إذا دخل الرجل بامرأته تقرر عليه جميع صداقها، قال ﷺ: «**أيما امرأة نكحت بغير إذن مواليها فنكاحها باطل**» ثلاث مرات، «**فإن دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها، فإن**

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٢٦٢).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ١٣، ١٨).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٩).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٢٢٥).

تشاجروا فالسلطان ولي من لا ولي له»(١).

وقد قيل: إن المراد بالاستمتاع في الآية نكاح المتعة(٢).

ورُوي عن أبي بن كعب وابن عباس وسعيد بن جبير أنهم قرؤوا: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى»(٣).

وصورة نكاح المتعة: أن يعقد الرجل على امرأة مدة معينة بأجر معلوم.

والصحيح أن المراد بالاستمتاع في الآية الاستمتاع بهن بالنكاح الصحيح، وهو قول عامة المفسرين من السلف والخلف. قال الطبري(٤) بعد ما ذكر الآثار الواردة في القولين: «وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من تأوله: فما نكحتم منهن فجامعتموهن فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله متعة النساء على غير وجه النكاح الصحيح، أو الملك الصحيح على لسان رسول الله ﷺ.. إلى أن قال: وأما ما رُوي عن أُبي بن كعب وابن عباس من قراءتهما: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» فقراءة بخلاف ما جاءت به مصاحف المسلمين، وغير جائز لأحدٍ أن يُلحق في كتاب الله تعالى شيئًا لم يأت به الخبر القاطع العذر عمن لا يجوز خلافه».

وقال الزجاج(٥): «هذه الآية قد غلط فيها قوم غلطًا عظيمًا جدًا لجهلهم باللغة، وذلك أنهم ذهبوا إلى أن قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ﴾ من المتعة التي أجمع أهل الفقه أنها حرام، وإنما معنى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ على الشريطة التي جرت في الآية آية الإحصان ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ﴾، أي: عاقدين التزويج الذي جرى ذكره، فإن استمتع بالدخول بها أعطى المهر تامًا، وإن استمتع بعقد النكاح آتى نصف المهر».

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٨٣)، والترمذي في النكاح (١١٠٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٧٩)، والدارمي في النكاح (٢١٨٥)، من حديث عائشة- رضي الله عنها، وصححه الألباني.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٧٦).

(٣) أخرجها عنهم الطبري في «جامع البيان» (٨/ ١٧٧- ١٧٨).

(٤) في «جامع البيان» (٨/ ١٧٨- ١٧٩).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٣٧- ٣٨).

وقال الجصاص[١]: «وأيضًا لو كان فيه ذكر لأجل ما دل على متعة النساء، فقد يكون المعنى، فما استمتعتم به منهن في النكاح الشرعي بمهر مؤجل إلى أجل مسمى».

﴿فَرِيضَةً﴾ حال من أجورهن، أو مصدر، أي: مفروضة، مقدرة معلومة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

أي: ولا حرج عليكم ولا إثم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة، من زيادة في المهر بعد تسميته وفرضه، أو نقص منه.

فللزوج أن يزيد في المهر إذا كان ذلك عن رضًى منه، وللزوجة أن تعفوا عن شيء من المهر بعد فرضه، وتبرئ الزوج منه، أو تهبه له أو بعضه، أو تأذن له بتأخيره إذا كان عن رضًى منها وطيب نفس، كما قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

وعلى ما قيل: إنها في المتعة. قيل: المعنى: لا حرج عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة من زيادة في المدة أو نقص منها أو زيادة في الأجر أو نقص منه.

وقد رد هذا الطبري رحمه الله. وهو حقيق بالرد[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كان: مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف وثبوته، أي: تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي: إنه ﷻ لم يزل أزلًا وأبدًا عليمًا حكيمًا.

﴿عَلِيمًا﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ.

والعلم: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمًا﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة تدل على أنه حاكم، له الحكم التام بأقسامه: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وأنه محكم، له الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية، فهو ذو الحكمة في خلقه وتقديره وشرعه، يضع الأمور مواضعها، وما شرعه في هذه الآيات من الأحكام الشرعية في

---

(١) في «أحكام القرآن» (٢/ ١٤٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٨١).

بيان ما يحل وما يحرم من النساء وغير ذلك من الأحكام هو صادر عن علم تام بما يصلح الخلق، وعن حكم صائب عادل وحكمة تامة بالغة.

قال الطبري(١): «يعني أن الله كان ذا علم بما يصلحكم أيها الناس في مناكحكم وغيرها من أموركم، وأمور سائر خلقه. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يدبر لكم ولهم من التدبير، وفيما يأمركم وينهاكم، لا يدخل حكمته خلل ولا زلل».

الفوائد والأحكام:

١- أن المرأة إذا كانت ذات زوج فإنها تحرم على غيره حتى يفارقها، وتنقضي عدتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: المتزوجات، والمعتدة بحكم الزوجة تحرم ما دامت في العدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وذلك لئلا تختلط المياه فتختلط الأنساب، واحترامًا لحق الزوج الأول.

وهؤلاء هن القسم الخامس من المحرمات، وهن المحرمات بالنكاح، وهن زوجات الغير ومعتداتهم.

٢- أن نساء الكفار إذا سبين في القتال بينهم وبين المسلمين يكنَّ ملكًا للمسلمين وإماءً لهم، وينفسخ نكاحهن من أزواجهن الكفار، ويحل للمسلمين وطؤهن بملك اليمين بعد استبرائهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وظاهر الآية وما جاء في سبايا أوطاس أنه يجوز وطء الإماء مطلقًا، سواء كن وثنيات أو مجوسيات أو كتابيات أو على أي دين كنَّ أسلمن أو لم يسلمن.

قال ابن القيم في «زاد المعاد»(٢) بعد ما ذكر حديث أبي سعيد في سبايا أوطاس: «ودل هذا القضاء النبوي على جواز وطء الإماء الوثنيات بملك اليمين، فإن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات ولم يشترط رسول الله ﷺ في وطئهن إسلامهن، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء فقط، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع.

---

(١) في «جامع البيان» (٨/ ١٨٢).

(٢) (٥/ ١٣٢).

إلى أن قال: فمقتضى السنة وعمل الصحابة في عهد رسول الله ﷺ وبعده جواز وطء المملوكات على أي دين كن، وهذا مذهب طاوس وغيره، وقواه صاحب «المغني» فيه، ورجح أدلته.

ثم استدل ابن القيم على عدم اشتراط إسلامهن بالأحاديث التي فيها تحريم وطء السبايا حتى يضعن ما في بطونهن، أو حتى يحضن- إلى أن قال:- فلم يجيء عنه ﷺ اشتراط إسلام المسبية في موضع واحد البتة».

وقيل: لا بد أن يسلمن.

وجمهور العلماء على جواز وطء الإماء الكتابيات دون الوثنيات والمجوسيات، فيحرمن كما تحرم ذبائحهم(١).

والأظهر الذي يؤيده ظاهر الأدلة القول الأول، كما ذهب إليه ابن القيم وغيره.

ولا يجوز وطء الأمة أيًّا كانت حتى تستبرأ؛ لقوله ﷺ: «**لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة**»(٢).

وعن رويفع بن ثابت أن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها**»(٣).

وكافة أهل العلم أن استبراءها يكون بحيضة واحدة، وقيل بحيضتين(٤).

فإن سُبِيَ مع المرأة زوجها استرقا جميعًا وبقيا على نكاحهما عند بعض أهل العلم منهم أبو حنيفة(٥) والقاضي أبو يعلى(٦) وغيرهما. وقال بعض أهل العلم: بل ينفسخ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٨٢- ١٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٥٧)، والدارمي في الطلاق (٢٢٩٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٨، ١٠٩)، وسنده صحيح، والدارمي في السير (٢٤٧٧)، وصححه الألباني.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٣٧- ١٣٩)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٠٧- ٤٠٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٢)، «زاد المعاد» (٥/ ١٣٣).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٣٧).

(٦) انظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٥).

نكاحها ولو سبي معها زوجها، وبه قال مالك[١] والشافعي[٢] وأبو الخطاب من الحنابلة[٣] وعلل الأولون بأنها إذا سبيت وحدها فبقاء الزوج مجهول والمجهول كالمعدوم، فنزلت منزلة من لا زوج لها، ولا كذلك إذا كان زوجها معها.

واستدل أصحاب القول الثاني بالآية والأحاديث التي فيها إباحة المسبيات وإن كن ذوات أزواجن كما في حديث أبي سعيد وغيره وقال ﷺ: «**لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض**» فجعل غاية تحريمها وضع الحمل، أو الاستبراء بالحيض، ولم يجعل بقاء الزوج مانعًا من حلها.

ولأن ملك الكافر الحربي البضع لم يبق له حرمة ولا عصمة وقد ملك المسلمون عليه ما كان يملكه حتى رقبته.. واختار هذا ابن القيم[٤].

وإنما ينفسخ النكاح في الكافرات المسبيات فقط على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأن سبب النزول فيهن[٥] وكانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث- رضي الله عنها- متزوجة برجل اسمه مسافع فسبيت في غزوة بني المصطلق وقصتها معروفة[٦].

أما لو ملك الإنسان أمة بطريق الشراء أو الهبة أو غير ذلك، وهي ذات زوج فإن نكاحها لا ينفسخ، بل تبقى مع زوجها حرًّا كان أو رقيقًا. ويحل المالك الثاني محل المالك الأول.

فكما أن المالك الأول لا يحل له وطؤها بعد تزويجها، فكذلك المالك الثاني.

وذلك لما جاء في قصة بريرة. فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**اشتريت بريرة**

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٠٦)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٣٥).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٤).

(٤) انظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٤- ٧٥)، «زاد المعاد» (٥/ ١٣١- ١٣٢).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٥١- ١٥٢)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٣٧)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٠٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٢)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٧٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٣- ٢٢٤).

(٦) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٢٢).

فاشترط أهلها ولاءها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أعتقيها، فإن الولاء لمن أعطى الورق»، وفي رواية: «**فإنما الولاء لمن أعتق**» فأعتقتها، فدعاها النبي ﷺ فخيرها من زوجها، فقالت: لو أعطاني كذا وكذا ما ثبت عنده، فاختارت نفسها»(١).

ففي تخيير النبي ﷺ لها في البقاء مع زوجها أو فسخ النكاح بعد عتقها دليل على أن النكاح لا ينفسخ ببيعها، بل ولا تخير بعده، وإنما تخير بعد إعتاقها إذا كانت مع رقيق(٢).

ولو كان النكاح ينفسخ بمجرد البيع، أو أنها تطلق بذلك، لما كان لتخيير النبي ﷺ لها معنى(٣).

وقيل: إن الأمة المزوجة تطلق بمجرد انتقالها إلى مالك آخر(٤).

والصحيح القول الأول، وأن انفساخ النكاح إنما هو خاص بالمسبيات.

قال الطبري(٥): «وأما الأمة التي لها زوج فإنها لا تحل لمالكها إلا بعد طلاق زوجها إياها أو وفاته، وانقضاء عدتها منه، فأما بيع سيدها إياها فغير موجب بينها وبين زوجها فراقًا، ولا تحليلًا لمشتريها..».

٣- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وعلى هذا دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

والرق هو كما عرفه الفقهاء: عجز حكمي يقوم بالإنسان سببه الكفر(٦).

فإذا وقع قتال بين المسلمين والكفار فإن ما يصيبه المسلمون من الكفار من السبي من رجال ونساء، يعتبرون أرقاء يملكهم المسلمون، وهذا هو السبب الشرعي الوحيد للرق في الإسلام.

وما يحصل في بعض البلاد من سرقة بعض الأطفال وبيعهم، أو بيع بعض الناس

---

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٣٦، ٢٥٦٠)، ومسلم في العتق (١٥٠٤)، وأبو داود في العتق (٣٩٢٩)، والترمذي في البيوع (١٢٥٦)، ومالك في العتق والولاء (١٥١٩).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٦١).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٧٤).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٥٥- ١٥٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٣٧).

(٥) في «جامع البيان» (٨/ ١٦٧- ١٦٨).

(٦) انظر: «العذب الفائض» (١/ ٢٣).

أولادهم بسبب الحاجة فليس هذا من الرق الشرعي في شيء، ولا يجوز أن يعطي أمثال هؤلاء حكم الرق في الإسلام، بل إن هذا أمر محرم لا يجوز، وقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل عاهد بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»(١).

٤- إثبات الملكية الفردية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وفي هذا رد على الشيوعية الاشتراكية الملحدة.

٥- فضل اليمين على الشمال؛ لأن الله أضاف الملك إلى اليمين، فقال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٦- إطلاق البعض على الكل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فالأيمان جمع يمين وهي اليد، والملك إنما هو للإنسان كله، وإنما يعبر باليمين؛ لأن الأخذ والإعطاء بها.

٧- أن ما ذكره الله من المحرمات من النساء مما أوجب وفرض على المسلمين التزامه والأخذ به؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: الزموا كتاب الله عليكم.

٨- أن المحرمات من النساء محصورات بخلاف الحلال منهن فهو غير محصور؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

أي أحل لكم ماعدا هذه المحرمات. وهذا من فضل الله تعالى وتيسيره على العباد، فله الحمد والمنة.

لكن يخص من قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ما يلي:

أ- الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها وهذا بالإجماع، وبين العمتين وبين الخالتين، لنهيه ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها(١).

ولنهيه ﷺ عن الجمع بين العمتين وبين الخالتين»(١).

ب- كما يخص منه عند بعضهم البائن بينونة كبرى إما بطلاق ثلاث، فلا تحل لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

---

(١) سبق تخريجه.

وإما بفرقة لعان، فلا تحل له أبدًا لما جاء في حديث سهل بن سعد في خبر المتلاعنين، وقوله: «فمضت السنة بعد في المتلاعنين أن يفرق بينهما، ولا يجتمعان أبدًا»(١).

ج- الزيادة على أربع؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣].

ولما جاء في الحديث: «**أن غيلان بن سلمة أسلم وعنده عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعًا وفارق سائرهن»**»(٢).

د- نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

هـ- بقية المحرمات من الرضاع التي لم تذكر في الآية: كالبنات وبنات الأخ وبنات الأخت والعمات والخالات من الرضاع؛ لقوله ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»(٢).

ومن أهل العلم من قال: إن الآية تشمل جميع المحرمات من الرضاع؛ لأن الله قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وهذا يدل على أن المرضعة تكون أما من الرضاع، فالزوج صاحب اللبن يكون أبا من الرضاع من باب أولى، ويؤكد هذا بل ويدل عليه إطلاق لفظ: «**أخواتكم من الرضاعة**»، فهو يشمل الأخت الشقيقة من الرضاعة، والأخت لأم من الرضاعة، والأخت لأب من الرضاعة، وهذا يدل على أن الزوج يكون أبا، وإذا ثبتت الأمومة والأبوة ثبت ما هو فرع عنهما، وهو انتقال الحرمة إلى أصولهما وفروعهما وحواشيهما وإلى فروع المرتضع وزوجته.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق (٢٢٤٨) والبيهقي في «سننه» (٧/ ٤١٠) قال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٦/ ٢٧١) «رجاله رجال الصحيح».

وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، وفي «إرواء الغليل» (٢١٠٤) وقال: «وله شواهد» وانظر «تلخيص الحبير» (٣/ ٢٢٧).

وأصل الحديث في خبر المتلاعنين أخرجه البخاري في الصلاة (٤١٣)، ومسلم في اللعان (١٤٩٢) والنسائي في الطلاق (٢٤٠٢، ٣٤٦٦)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

٩- فضل الله ﷻ في جعل المحرمات من النساء محصورات بخلاف المحللات(١) منهن، فهن غير محصورات؛ لأن الله عدد المحرمات منهن، ثم ذكر الإطلاق في الحلال، فقال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

١٠- أن الطالب للنكاح هم الأزواج «الرجال» غالبًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ وقد تطلب المرأة زوجا لها، كما في قصة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ(٢)، وكما عرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان(٣)- رضي الله عنهم أجمعين، وهكذا فعل كثير من السلف رحمهم الله كسعيد بن المسيب وغيره.

١١- اشتراط الصداق وبذل المال في النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء: ٢٥]. وقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وقوله تعالى في أول السورة ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ الآية: [النساء: ٤] وقوله تعالى في الإماء: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥]. وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥].

فإن اشترط عدمه فالنكاح باطل على قول طائفة من أهل العلم(٤) وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية(٥).

وإن لم يشترط عدمه لكن وقع النكاح بلا صداق فلها مهر المثل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا

---

(١) أي: اللاتي يحل الزواج بهن. وإلا فالأصل في الأبضاع الحرمة، انظر «زاد المعاد» (٥/ ١٢٩)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٥).

(٢) هبة المرأة نفسها خاص بالنبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

(٣) كما في حديث ابن عمر أن عمر حين تأيمت حفصة بنت عمر من ابن حذافة السهمي وكان من أصحاب النبي ﷺ من أهل بدر توفي بالمدينة، قال عمر: «لقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي ثم لقيني فقال: بدا لي ألا أتزوج يومي هذا قال عمر: فلقيت أبا بكر فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة...» الحديث، أخرجه البخاري في النكاح (٥١٢٩)، والنسائي في النكاح (٣٢٤٨، ٤٢٥٩).

(٤) انظر: «الإنصاف مع الشرح الكبير» (٢٠/ ٤٢٢).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٣- ٦٤).

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقا ولم يدخل بها حتى مات فقال ابن مسعود: «لها مثل صداق نسائها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: قضى رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق امرأة منا مثل الذي قضيت. ففرح بها ابن مسعود»(١).

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه إذا وقع العقد بدون صداق فالنكاح باطل أيضًا(٢).

والصحيح صحة هذا النكاح، ولها مهر المثل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٣٣٦] الآية(٣).

١٢- أنه لابد أن يكون الصداق مالًا؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ والمال يطلق على العين وعلى المنفعة. قال ابن العربي(٤): «لما أمر الله تعالى بالنكاح بالأموال لم يجز أن يبدل فيه ما ليس بمال، وتحقيق المال ما تتعلق به الأطماع ويُعتدّ للانتفاع، وتحقيق بيانه يترتب عليه أن منفعة الرقبة في الإجارة مال، ومنفعة التعليم للعلم كله مال».

١٣- أنه لا يصح أن يكون الصداق شيئًا محرمًا كالخمر والخنزير؛ لأن المحرم ليس بمال؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾(٥).

١٤- أنه لابد أن يكون الصداق ملكًا لمريد الزواج، فلو أصدقها مالًا مغصوبًا لم يصح؛ لأن الله قال: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ فأضاف الأموال إليهم، والمغصوب مال لغيرهم.

١٥- أنه لا حد لقليل المهر، ولا لكثيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ والأموال تطلق على القليل والكثير.

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١١٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٥٥)، والترمذي في النكاح (١١٤٥)، وقال حسن صحيح وابن ماجه في النكاح (١٨٩١)، والدارمي في النكاح (٢٢٤٦)، وصححه الألباني.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٧، ١٢٨).

(٣) انظر: «الحاوي» (٩/ ٣٩٣)، «المغني» (١٠/ ١٣٧، ١٣٨).

(٤) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٨٨).

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٧).

وقد اختلف أهل العلم في هاتين المسألتين، وقد سبق ذكر الخلاف في تحديد كثير المهر وأدلته، وبيان أن الصحيح أنه لا حد لكثير المهر، كما تدل عليه هذه الآية وغيرها من الأدلة التي سبق ذكرها هناك(١).

وهكذا لا حد لقليل المهر على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو قول جمهور أهل العلم منهم عمر بن الخطاب وسعيد بن المسيب وربيعة وسفيان الثوري(٢)، والشافعي(٣)، وأحمد(٤)، وإسحاق(٥)، واختاره ابن المنذر(٦)؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ والأموال تطلق على القليل والكثير.

كما استدلوا بأدلة أخرى منها:

قوله ﷺ في حديث سهل بن سعد الساعدي: «**اذهب والتمس ولو خاتمًا من حديد**». فذهب فلم يجد فقال: «ما معك من القرآن؟» فقال سورة كذا وكذا، فقال «زوجتكها بما معك من القرآن»(٧).

قال البغوي(٨) بعد إخراجه هذا الحديث: «وفيه دليل على ألا تقدير لأقل الصداق؛ لأنه قال: التمس شيئًا، وهذا يدل على جواز أي شيء كان من المال. وقال: «ولو خاتمًا من حديد» ولا قيمة لخاتم الحديد إلا القليل التافه».

ومن ذلك قوله ﷺ في حديث جابر بن عبد الله: «**لو أن رجلًا أعطى امرأة صداقا**

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠].

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤١٤).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤١٤- ٤١٥)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٣٩).

(٤) انظر: «المغني» (١٠/ ٩٩).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤١٤).

(٦) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٨).

(٧) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٩)، ومسلم في النكاح (١٤٢٥)، وأبو داود في النكاح (٢١١١)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٠)، والترمذي في النكاح (١١١٤)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨٩)، ومالك في النكاح (١١١٨)، والدارمي في النكاح (٢٢٠١).

(٨) في «معالم التنزيل» (١/ ٤١٥).

ملء يديه طعامًا كانت له حلالا»(١).

وما ثبت في الصحيح أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة بنواة من ذهب(٢) يقال وزنها ثلاثة دراهم وثلث(٣)، وقيل خمسة دراهم(٤).

قال سعيد بن المسيب وكان من سادات التابعين: «لو أصدقها سوطًا حلت به» وقد زوَّج سعيد بن المسيب ابنته تلميذه «أبا وداعة» بدرهمين، وهي البنت التي أبى أن يزوجها الوليد بن عبد الملك ولم ينكر ذلك عليه(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١١٠) بلفظ «من أعطى في صداق امرأة ملء كفيه سويقا أو تمرا فقد استحل» وذكر أن بعضهم رواه موقوفًا على جابر. وقرر الحافظ ابن حجر وقفه.
وقد صحح الحديث أحمد شاكر في تعليقه على مختصر السنن (٣/ ٤٨). وكذا صححه الألباني. وهو في صحيح مسلم لكن في المتعة.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٨)، ومسلم في النكاح (١٤٢٧)، وأبو داود في النكاح (٢١٠٩)، والنسائي في النكاح (٣٣٥١- ٣٣٥٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٠٧)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٩٥).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٦٥)، «زاد المعاد» (٥/ ١٧٩).

(٥) أخرج ابن سعد في الطبقات (٥/ ١٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٦٧) والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٣٣) «أن سعيد بن المسيب زوج ابنة له بدرهمين».
قال الذهبي: وقال أبو بكر بن أبي داود: «كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك لابنه الوليد فأبى عليه فلم يزل يحتال عبد الملك عليه حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف».
وقال أبو بكر بن أبي داود حدثني أحمد بن أخي عبد الرحمن بن وهب عن كثير بن المطلب عن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أيامًا، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، ثم قال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمد وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين- أو قال: ثلاثة- فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر فيمن أستدين، فصليت المغرب ورجعت إلى منزلي وكنت وحدي صائمًا فقدمت عشائي أفطر، وكان خبزا وزيتا، فإذا بابي يقرع، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد، فتفكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيب فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ قال: لا، أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلًا عزبا فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب، ورد الباب فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم وضعت القصعة في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدت
=

قال ابن القيم[١]: «بل عد ذلك في مناقبه وفضائله».

وذهب بعض أهل العلم منهم الحنفية والمالكية إلى أن هناك حداً لأقل المهر قدره الحنفية بعشرة دراهم، قياسًا على نصاب السرقة عندهم[٢].

واستدلوا بما روي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صداق دون عشرة دراهم**»[٣].

وقدره المالكية بثلاثة دراهم «ربع دينار»، قياسًا أيضًا على نصاب السرقة عندهم[٤].

والصحيح القول الأول، وأنه لا حد لقليل المهر كما أنه لا حد لكثيره، فيجوز الصداق بالقليل والكثير من المال.

قال القرطبي[٥] بعد ما ذكر استدلال الشافعي بقوله: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ على جواز الصداق بقليل وكثير. قال القرطبي: «وهو الصحيح- وذكر ما يعضده من الأدلة ثم قال: وهذا قول جمهور أهل العلم وجماعة من أهل الحديث من أهل المدينة وغيرها كلهم أجازوا الصداق بقليل المال وكثيره...».

=

إلى السطح فرميت الجيران، فجاؤوني فقالوا ما شأنك، فأخبرتهم، ونزلوا إليها وبلغ أمي، فجاءت، وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام فأقامت ثلاثًا ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج، فمكثت شهرًا لا آتي سعيد بن المسيب، ثم أتيته وهو في حلقته، فسلمت فرد عليّ السلام، ولم يكلمني حتى تقوَّض المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، على ما يحب الصديق ويكره العدو. قال: إن رابك شيء فالعصا. فانصرفت إلى منزلي فوجه إليَّ بعشرين ألف درهم».

«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٣٣- ٢٣٤)، وانظر «الحلية لأبي نعيم» (٢/ ١٦٧، ١٦٨)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٩٥).

(١) في «زاد المعاد» (٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٤٠).

(٣) أخرجه الدارقطني في النكاح- باب المهر (٣/ ٢٤٥)، من حديث جابر وعلي رضي الله عنهما.

وهذا الحديث من طريق مبشر بن عبيد وهو متروك الحديث، ورماه أحمد بالوضع وضعفه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ١٩٦). كما ضعف الحديثين صاحب كتاب المغني على الدارقطني.

وانظر «التقريب» (٢/ ٢٢٨) ترجمة (٩٠٧).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٨).

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٢٨).

وقال ابن القيم(١): «ولا سبيل إلى إثبات المقادير إلا من جهة صاحب الشرع».

١٦- يشترط أن يكون النكاح بطريق الزواج الشرعي، وأن يقصد به التعفف عن الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، وغير ذلك من مقاصد النكاح الشريفة كتكثير الأمة، قال ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»(٢).

١٧- تحريم الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، وأنه لا يترتب عليه شيء من أحكام النكاح من ثبوت النسب ووجوب العدة والميراث ونحو ذلك؛ لأن الله سماه سفاحا لا نكاحا(٣).

١٨- تحريم نكاح المتعة؛ لأنه سفاح كالزنا؛ لأن صاحب المتعة لا يريد الاحصان، وإنما يريد سفح النطفة ودفق الماء لتبرد شهوته، والإحصان لا يحصل إلا بالملازمة.

أما أن يبقى عندها يومًا أو يومين أو ثلاثة أو أسبوعًا فهذا لا يحصنه ولا يحصنها، بل يزيد تعلق أحدهما بالآخر، مما قد يؤدي بهما إلى الوقوع في الفاحشة بعد ذلك.

١٩- الإشارة إلى أنه ينبغي ألا يزوج إلا العفيف؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

٢٠- وجوب دفع المهر، وأنه يتقرر بكامله بالاستمتاع بالمرأة بالجماع وما دونه مما لا يحل إلا للزوج كالضم والتقبيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فهو مفروض على الزوج لازم له لزوم الأجرة للمستأجر، وكما يتقرر المهر بالدخول فإنه يتقرر أيضًا بالخلوة لما ثبت عن الخلفاء الراشدين- رضي الله عنهم.

فإن طلقها من قبل أن يمسها وقبل أن يفرض لها مهرا فلها المتعة، وإن طلقها قبل أن يمسها وبعد فرض المهر فلها نصف المفروض.

---

(١) في «زاد المعاد» (٥/ ١٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٥٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٢٧)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (٣/ ١٥٨) والبيهقي، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقد صحح هذا الحديث الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ١٨١١).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٤٨).

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧].

٢١- أن المهر يسمى أجرًا؛ لقوله: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لأنه في مقابل الاستمتاع بمنفعة البضع، وهذا مما يؤكد وجوبه ولزومه على الزوج، كلزوم الأجرة على المستأجر.

لكن ينبغي أن يعلم أن ما بين الزوجين أعلى وأسمى مما بين المستأجر والأجير، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

٢٢- جواز جعل المهر منفعة كتعليم علم وبناء حائط ورعي غنم ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ فسمى الله تعالى المهور أجورا، والأجور جمع أجر، وهي تقع على المنفعة كما تقع على العين. قال القرطبي: «قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ يعم المال وغيره، فيجوز أن يكون الصداق منافع أعيان».

ويدل على هذا حديث سهل بن سعد الذي سبق ذكره[1] وفيه قوله ﷺ: «اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن» وفي رواية: «**انطلق فقد زوجتكها فعلمها من القرآن**».

وزوج صاحب مدين ابنته لموسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام على أن يرعى موسى غنمه ثمان سنوات، كما قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧][2].

ولما خطب أبو طلحة أم سليم قالت: «والله يا أبا طلحة ما مثلك يرد ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك فإن تسلم فذاك مهري، وما أسألك غيره، فأسلم فكان ذلك مهرها، قال ثابت: فما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم

---

(١) سبق تخريجه وانظر «معالم التنزيل» (١/ ٤١٥)، «الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٣٣- ١٣٤).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤١٥)، «التفسير الكبير» (١/ ٣٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٣- ١٣٥).

في قصة صاحب مدين عادت المنفعة إلى غير الزوجة، بل إلى أبيها لكن بإذنها، وهذا جائز بل لو وهبت المرأة صداقها لوليها أو أسقطته فلها ذلك كما قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

سليم، فدخل بها فولدت له»[١].

قال ابن القيم[٢]: بعدما ذكر كون العتق صداقا: «وهذا هو الذي اختارته أم سليم من انتفاعها بإسلام أبي طلحة، وبذلها نفسها له إن أسلم، فإذا رضيت بالعلم والدين وإسلام الزوج وقراءته للقرآن كان هذا من أفضل المهور وأنفعها وأجلها فما خلا العقد من مهر..».

وبهذا قال طائفة من أهل العلم منهم الشافعي[٣]، وأحمد في رواية عنه[٤].

ومنع بعض أهل العلم من كون المنفعة مهرا منهم أبو حنيفة[٥]، ومالك[٦]، ورواية عن أحمد[٧].

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾.

والمنافع كتعليم القرآن ونحو ذلك لا يكون بها ابتغاء المال، قالوا: فالمال ما تتعلق به الأطماع، وهو اسم للأعيان لا للمنافع.

والصحيح القول الأول وهو صحة كون المنفعة مهرا من تعليم القرآن والإسلام والدين ونحو ذلك؛ لقوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، ولحديث سهل بن سعد وقصة صاحب موسى وغير ذلك.

وقوله: ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ لا حجة فيه على منع أن تكون المنفعة مهرا؛ لأن المال يطلق على الأعيان وعلى المنافع[٨].

---

(١) أخرجه النسائي في النكاح (٣٣٤١) من حديث جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك وإسناده صحيح، وصححه الألباني.

(٢) في «زاد المعاد» (٥/ ١٧٨- ١٧٩).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٠٩)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٥).

(٤) انظر: «المغني» (١٠/ ١٠٢، ١٠٤)، «زاد المعاد» (٥/ ١٧٩).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٤٢- ١٤٤).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٣- ١٣٤).

(٧) انظر: «المغني» (١٠/ ١٠٢، ١٠٤).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٨٨)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٣٩)، «زاد المعاد» (٥/ ١٧٨- ١٧٩).

فإن كانت المنفعة على أن- يخدمها الزوج فقد منع من ذلك بعض أهل العلم(١)، قالوا: لأن في خدمته لها مذلة له، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال ﷺ: «**إنهن عوان عندكم**»(٢) أي: أسيرات.

وخدمته لها فيها ما يشعر بعكس هذه المعاني.

وأجاز ذلك بعض أهل العلم منهم الشافعي(٣)، والحسن بن صالح(٤) وغيرهما.

والأصل جوازه، وبخاصة إذا دعت الحاجة ولم يجد الرجل بدًّا من هذا(٥).

٢٣- أن المهر حق للمرأة وملك لها تتصرف فيه إذا كانت رشيدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فأمر بإعطائهن مهورهن وأضافها إليهن، لكن لو كانت غير رشيدة فالمهر يسلم لوليها.

٢٤- أن المهر حق واجب مفروض للزوجة يجب فرضه وتقديره ودفعه إليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً﴾، أي: مفروضة مقدرة.

٢٥- لا حرج على الزوجين فيما تراضيا عليه بعد تقدير المهر، من زيادة فيه أو نقص منه، أو إسقاطه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

فإذا زاد الزوج في المهر بعد تقديره، أو أسقطت عنه الزوجة المهر أو بعضه عن رضى منها جاز، قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

وهكذا كل من كان له حق فأسقطه برضى منه عمن هو عليه جاز ذلك، بل قد يثاب على ذلك.

٢٦- ذهب بعضهم إلى أن الآية في نكاح المتعة(٦) واستدلوا بقراءة أبي بن كعب

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٤٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «الحاوي» للماوردي (٩/ ٤١١).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٤٢).

(٥) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ٢٠٩ تفسير سورة النساء).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٥).

وابن عباس وسعيد بن جبير «إلى أجل مسمى».

والصحيح أن الآية- كما سبق في تفسيرها- في النكاح الشرعي، كما قال سبرة بن معبد الجهني: «إن رسول الله ﷺ قال: «**استمتعوا من هذه النساء**» والاستمتاع عندنا يومئذ التزويج». وعلى هذا أكثر أهل العلم.

ولا شك أن نكاح المتعة كان مباحًا في ابتداء الإسلام(١)، ثم نسخ بعد ذلك(٢)، والأظهر- والله أعلم- أنه أبيح بالسنة، ونسخ بالسنة وعلى هذا أكثر أهل العلم لما رواه سبرة بن معبد الجهني أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «**إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيلها، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا**»(٣).

وهذا يدل على أن تحريم المتعة تحريم مؤبد لا يمكن نسخه.

وعن جابر وسلمة بن الأكوع- رضي الله عنهما- قالا: خرج علينا منادي رسول الله ﷺ، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أذن لكم أن تستمتعوا يعني متعة النساء»(٤).

وعن سلمة بن الأكوع قال: رخص رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثًا، ثم نهى عنها»(٥).

وعام أوطاس عام الفتح لأن غزوة أوطاس متصلة بفتح مكة(٦).

وعن جابر بن عبدالله ﷺ قال: «**تمتعنا مع رسول الله ﷺ: فلما قام عمر قال: إن الله**

---

(١) ولاشك أنه لما كان مباحًا كان له ضوابط تميزه عن السفاح، كالاستبراء ولحوق الولد ونحو ذلك.
أما بعد تحريمه فلا يترتب عليه شيء من أحكام النكاح كالطلاق والعدة والميراث ولحقوق النسب والإحصان وغير ذلك بل هو سفاح لا نكاح.
انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٨٠- ٨١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٢- ١٣٣)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٠٨).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٤١، ٤٤)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٠٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٠٦)، وأبو داود في المناسك (١٨٠١)، والنكاح (٢٠٧٢، ٢٠٧٣)، والنسائي في النكاح (٣٣٦٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٤٨٢٧)، ومسلم في النكاح (١٤٠٥).

(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥١١٩)، ومسلم في النكاح (١٤٠٥).

(٦) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٤٦٢).

كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء. وإن القرآن قد نزل منازله فأتموا الحج والعمرة لله كما أمركم الله وأبتوا نكاح هذه النساء، فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة»(١).

فهذه الأحاديث تدل على أن نكاح المتعة أبيح بالسنة ونسخ بالسنة.

وقد أجمعت الأمة على تحريم نكاح المتعة لدلالة الكتاب والسنة على ذلك، فمن الكتاب قوله تعالى في هذه الآية ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥- ٧، المعارج:٢٩- ٣١].

فالمتمتع بها ليست زوجة ولا من ملك اليمين.

ومن أدلة السنة حديث سبرة بن معبد وحديث سلمة بن الأكوع وحديث ابن عمر وحديث جابر- التي سبق ذكرها، والدالة على نسخ إباحة هذا النكاح، وتحريمه تحريما مؤبدا إلى يوم القيامة.

ومنها حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: «**نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر**(٢) **عن**

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٧). وأخرجه ابن ماجه في النكاح (١٩٦٣)، والطبراني بإسناد قوي كما ذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٦٥)، وحسنه الألباني من حديث ابن عمر ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ أذن لنا في المتعة ثلاثًا ثم حرمها، والله لا أعلم أحدًا تمتع وهو محصن إلا رجمته بالحجارة».

(٢) اختلف أهل العلم في وقت تحريم المتعة فقال بعض أهل العلم أبيحت ثم نسخت يوم خيبر ثم أبيحت ونسخت يوم الفتح- يعني أبيحت مرتين ونسخت مرتين جمعًا بين حديث علي هذا وحديث سبرة بن معبد- السابق. وقال بعض أهل العلم. نسخت مرة واحدة يوم الفتح، كما جاء في حديث سبرة. والذي وقع في خيبر تحريم الحمر الأهلية فقط، فظن بعض الرواة أن يوم خيبر ظرف أيضًا لتحريم المتعة واختار هذا ابن القيم، وابن حجر رحمهما الله وقيل غير ذلك.

قال الشنقيطي:«لكن بعض الروايات الصحيحة صريحة في تحريم المتعة يوم خيبر أيضًا فالظاهر أنها حرمت مرتين كما جزم به غير واحد وصحت الرواية به».

ويمكن القول بأن التحريم وقع يوم خيبر، وأن الذي حصل في فتح مكة توكيد لذلك لكثرة من حضر من الناس هذا اليوم كما قاله بعض أهل العلم.

انظر «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٥١)، «التمهيد» لابن عبد البر (١٠/ ٩٤- ١١١)، «زاد المعاد» (٣/ ٣٤٣- ٣٤٥، ٤٥٩- ٤٦١، ٥/ ١١١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٥)، «فتح الباري» (٢/ ١٦٩).

متعة النساء ولحوم الحمر الأهلية»(١).

وقد نادى عمر بن الخطاب ﷺ بتحريمه على منبره، ولم يخالفه أحد من الصحابة فكان إجماعًا(٢).

وأيضًا فإن نكاح المتعة مناف لظاهر القرآن والسنة في أحكام النكاح والطلاق والعدة والميراث(٣).

ولا يقصد به سوى سفح النطفة والتلذذ والشهوة دون تحصين الزوج، وقد قال الله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، ودون بقية المقاصد الشريفة للنكاح من كون النكاح يقصد به الدوام والاستمرار، والمودة والرحمة والسكن وإنجاب الأولاد وتكثير الأمة وبناء الأسرة والترابط الأسري والاجتماعي وغير ذلك(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١١٥)، ومسلم في النكاح (١٤٠٧)، والنسائي في النكاح (٣٣٦٥، ٣٣٦٦، والترمذي في النكاح (١١٢١)، وابن ماجه في النكاح (١٩٦١).

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٤١)، «تفسير المنار» (٥/ ١٥).

(٤) وقد روي أن الذي حرم المتعة ونهى عنها هو عمر بن الخطاب ﷺ. فعن جابر بن عبدالله قال: «كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول ﷺ وأبي بكر حتى نهى عنها عمر في شأن عمرو بن حريث» رواه مسلم الحديث (١٤٠٥). وعن جابر ﷺ قال: «تمتعنا مع رسول الله ﷺ فلما قام عمر قال إن الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء وإن القرآن قد نزل منازله، فأتموا الحج والعمرة كما أمركم الله، وأبتوا نكاح هذه النساء فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة» رواه مسلم، الحديث رقم (١٢١٧). فمن أهل العلم من قال إن الذي حرمها ونهى عنها هو عمر بن الخطاب ﷺ.

وقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» الحديث أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة (٤٢) من حديث العرباض بن سارية ﷺ وصححه الألباني. ولم ير هؤلاء تصحيح حديث سبرة بن معبد لأنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة وقد تكلم فيه ابن معين قالوا، ولهذا لم ير البخاري إخراج حديثه.

ومن أهل العلم من رأى تصحيح حديث سبرة بن معبد، ولو لم يصح فقد صح حديث علي في تحريمها فوجب حمل حديث جابر على أن الذي أخبر عنها بفعلها لم يبلغه التحريم، ولم يكن قد اشتهر حتى كان زمن عمر ﷺ فلما وقع فيها النزاع ظهر تحريمها واشتهر. قال ابن القيم: «وبهذا تأتلف الأحاديث الواردة فيها وبالله التوفيق».

انظر «زاد المعاد» (٣/ ٤٦٣- ٤٦٤)، وانظر «التفسير الكبير» (١٠/ ٤٤).

وقد شذ الرافضة عن إجماع المسلمين، وأباحوا نكاح المتعة محتجين بالآية وأنها في نكاح المتعة، وبما روي عن أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير زاعمين أن إباحة هذا النكاح لم تنسخ(١).

قال صاحب تفسير المنار(٢) بعد أن ذكر قول الشيعة أن المراد بالآية نكاح المتعة قال: «واستدلوا على ذلك بقراءة شاذة رويت عن أبي وابن مسعود وابن عباس، وبالأخبار والآثار التي رويت في المتعة، فأما القراءة فهي شاذة لم تثبت قرآنًا، وقد تقدم أن ما صحت فيه من مثل هذا آحادا، فالزيادة فيه من قبيل التفسير وهو فهم لصاحبه، وفهم الصحابي ليس حجة في الدين، لا سيما إذا كان النظم والأسلوب يأباه، كما هنا فإن المتمتع بالنكاح المؤقت لا يقصد الإحصان دون المسافحة، بل يكون قصده الأول المسافحة».

وهكذا رد الشنقيطي رحمه الله الاستدلال بهذه القراءة من وجوه ثلاثة(٣):

«الأول: أن هذا لم يثبت قرآنًا؛ لإجماع الصحابة على عدم كتبه في المصاحف العثمانية، وأكثر الأصوليين على أن ما قرأه الصحابي على أنه قرآن، ولم يثبت كونه قرآنًا لا يستدل به على شيء؛ لأنه باطل من أصله.

الثاني: أنا لو مشينا على أنه يحتج به كالاحتجاج بخبر الآحاد كما قال به قوم أو على أنه تفسير منهم للآية بذلك، فهو معارض بأقوى منه؛ لأن جمهور العلماء على خلافه؛ ولأن الأحاديث الصحيحة الصريحة قاطعة بكثرة تحريم نكاح المتعة.

الثالث: أنا لو سلمنا جدلًا بأن الآية تدل على إباحة نكاح المتعة، فإن إباحتها منسوخة، كما صح نسخ ذلك بالأحاديث المتفق عليها».

وقد خالف الرافضة في هذا طريقتهم في الرجوع في المخالفات إلى علي وأهل البيت؛ لأن عليا ﷺ وهو أفضل أهل بيت رسول الله ﷺ ثبت عنه تحريم المتعة، بل أصح حديث في تحريمها اتفق عليه الشيخان هو حديث علي ﷺ(٤).

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٤١- ٤٤).

(٢) «تفسير المنار» (٥/ ١٣).

(٣) في «أضواء البيان» (١/ ٣٢٣- ٣٢٤).

(٤) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ١٥).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله[١]: «ومما يدل على أن مبنى عقيدتهم ليس على هدى ولكنه على هوى: أنهم لو كانوا يتشيعون لآل البيت حقيقة لما صاروا إلى مخالفة علي رضي الله عنه الذي هو أفضل آل البيت»[٢].

وما ذكر عن ابن عباس- رضي الله عنهما- من إباحته للمتعة، فقد روي عنه تقييدها بالضرورة[٣].

قال سعيد بن جبير: «قلت لابن عباس سارت بفتياك الركبان وقال فيها الشعراء[٤] فقال: يا سبحان الله ما بهذا أفتيت، إنما هي كالميتة والدم ولحم الخنزير لا تحل إلا للمضطر»[٥].

وسئل ابن عباس- رضي الله عنهما- عن متعة النساء فرخص فيها، فقال له مولى له: «إنما ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلة أو نحوه، فقال ابن عباس: نعم»[٦].

قال الخطابي[٧]: «تحريم نكاح المتعة كالإجماع بين المسلمين، وقد كان ذلك مباحًا في صدر الإسلام، ثم حرمه في حجة الوداع، وذلك في آخر أيام رسول الله ﷺفلم يبق اليوم فيه خلاف بين الأئمة إلا شيئًا ذهب إليه بعض الروافض وكان ابن عباس يتأول في إباحته للمضطر إليه بطول العزبة، وقلة اليسار والجدة، ثم توقف عنه وأمسك عن الفتوى به» ثم أخرج الخطابي ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس: «أنها كالميتة والدم

---

(١) في كلامه على هذه الآية في تفسيره (١/ ٢١٢ تفسير سورة النساء).

(٢) والرافضة أيضًا في هذه المسألة متناقضون فهم مع إباحتهم نكاح المتعة لا يعدون المتمتع بها زوجة ولا يعطونها أحكام الزوجة، ولا يعدونها في عدد ما يباح للرجل الجمع بينه من عدد النساء، بل يرون أن للرجل أن يتمتع بما شاء من النساء، ولا يعدون المتمتع محصنًا يرجم إذا زني. انظر «تفسير المنار» (٥/ ١٣).

(٣) وقد روى عن ابن مسعود أيضًا إباحتها للضرورة انظر «زاد المعاد» (٣/ ٤٦١- ٤٦٣، ٥/ ١١١).

(٤) قال بعضهم:

أقول للركب إذ طال الثواء بنا ... يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

هل لك في رخصة الأطراف ناعمة ... تكون مثواك حتى مرجع الناس

انظر «معالم السنن» (٣/ ١٦٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٣)، «تفسير المنار» (٥/ ١٤).

(٥) أخرجه الترمذي (١١٢١) وصححه الألباني.

(٦) أخرجه البخاري في النكاح (٥١١٦).

(٧) في «معالم السنن» (٣/ ١٦٣).

ولحم الخنزير لا تحل إلا للمضطر» ثم قال: فهذا يبين لك أنه إنما سلك فيه مذهب القياس، وشبهه بالمضطر إلى الطعام وهو قياس غير صحيح؛ لأن الضرورة في هذا الباب لا تتحقق كهي في باب الطعام الذي به قوام الأنفس وبعدمه يكون التلف، وإنما هذا من باب غلبة الشهوة ومصابرتها ممكنة وقد تحسم مادتها بالصوم والعلاج فليس أحدهما في حكم الضرورة كالآخر».

أقول: رحمك الله يا خطابي على هذا التوجيه السديد فشتان ما بين الضرورتين فالمضطر إلى أكل الميتة وغيرها من المحرمات قال الله فيه ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] فأباح له الأكل منها عند الضرورة، ولم يبح الله للمضطر للنكاح أن يتمتع وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، وقال- عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فأباح الله له نكاح الأمة. ولم يأمره بالتمتع. وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ولم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١).

فأمر ﷺ من لم يستطع الزواج بالصوم ولم يأمره بالتمتع.

وقال أبو عبيد(٢): «فالمسلمون اليوم مجمعون على هذا القول أن متعة النساء قد نسخت بالتحريم، ولا نعلم أحدًا من الصحابة كان يترخص فيها إلا ما كان من ابن عباس، فإنه كان ذلك معروفًا من رأيه ثم بلغنا أنه رجع عنه».

وقال القرطبي(٣): قال ابن العربي: «وقد كان ابن عباس يقول بجوازها، ثم ثبت رجوعه عنها، فانعقد الإجماع على تحريمها».

وقال ابن القيم(٤): «النظر هل تحريم المتعة تحريم بتات، أو تحريم مثل تحريم الميتة

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٥)، ومسلم في النكاح (١٤٠٠)، وأبو داود في النكاح (٢٠٤٦) والنسائي في الصيام (٢٢٣٩)، والترمذي في النكاح (١٠٨١)، وابن ماجه في النكاح (١٨٤٥).

(٢) في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٢٤١).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٢- ١٣٥).

(٤) في «زاد المعاد» (٥/ ١١٢).

والدم وتحريم نكاح الأمة، فيباح عند الضرورة، هذا هو الذي لحظه ابن عباس، وأفتى بحلها للضرورة، فلما توسع الناس فيها ولم يقتصروا على موضع الضرورة أمسك عن فتياه ورجع عنها».

وقال رشيد رضا[١] بعد أن ذكر قول ابن عباس في إباحتها: «وهو اجتهاد منه، وهو اجتهاد معارض بالنصوص، ويقابله اجتهاد السواد الأعظم من الصحابة والتابعين وسائر المسلمين».

وبهذا يتبين أن نكاح المتعة كالزنا حرام مطلقًا، لا يجوز لضرورة ولا غيرها بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة[٢].

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب[٣]: «والحاصل أن المتعة كانت حلالًا ثم نسخت وحرمت تحريما مؤبدا، فمن فعلها فقد فتح على نفسه باب الزنا».

وأما النكاح بنية الطلاق وهو أن يتزوج الرجل المرأة، وفي نيته أن يطلقها بعد مدة كأن ينوي أن يطلقها بعد انتهاء دراسته أو إقامته أو حاجته ونحو ذلك.

فقد اختلف فيه أهل العلم قديمًا وحديثًا.

فذهب إلى القول بجوازه أبو حنيفة[٤]، ومالك[٥]، والشافعي[٦]، وابن قدامة[٧] من الحنابلة، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية[٨] وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز[٩] رحمهم الله.

---

(١) في «تفسير المنار» (٥/ ١٤- ١٥).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٤٦- ١٥٥)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٨٩- ١٩٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٥- ٢٢٦).

(٣) في «رسالته في الرد على الرافضة» ص (٤٥- ٤٦).

(٤) انظر: «فتح القدير» لابن الهمام (٣/ ٣٤٩)، «مجمع الأنهار» (١/ ٢٣١)، «البحر الرائق» (٣/ ١٠٨).

(٥) انظر: «المنتقي شرح موطأ مالك» (٣/ ٣٣٥).

(٦) انظر: «شرح نهاية المحتاج» (٦/ ٢١٤، ٢٨٢).

(٧) انظر: «المغني مع الشرح الكبير» (٣/ ٥٧٣).

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٠٧- ١٠٨، ١٤٧- ١٥٠).

(٩) انظر: «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لابن باز (٤/ ٣٠).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى عدم جوازه منهم الأوزاعي[١] وأحمد بن حنبل وطائفة من أصحابه منهم القاضي أبو يعلي[٢]. وكرهه مالك[٣] وشيخ الإسلام ابن تيمية[٤].

وقد أفتت بتحريمه اللجنة الدائمة للإفتاء في المملكة برئاسة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز- رحمه الله- وقد أختار هذا القول كثير من محققي العلماء المتأخرين منهم العلامة رشيد رضا حيث قال: «هذا وإن تشديد علماء السلف والخلف في منع المتعة يقتضي منع النكاح بنية الطلاق، وإن كان الفقهاء يقولون: إن عقد النكاح يكون صحيحًا إذا نوى الزوج التوقيت ولم يشترطه في صيغة العقد، ولكن كتمانه إياه يعد خداعا وغشا، وهو أجدر بالبطلان من العقد الذي يشترط فيه التوقيت يكون بالتراضي بين الزوج والمرأة ووليها، ولا يكون فيه من المفسدة إلا العبث بهذه الرابطة العظيمة، التي هي من أعظم الروابط البشرية، وإيثار التنقل في مراتع الشهوات بين الذواقين والذواقات، وما يترتب على ذلك من المنكرات، وما لا يشترط فيه ذلك يكون على اشتماله على ذلك غشًا وخداعا يترتب عليه مفاسد أخرى، من العداوة والبغضاء، وذهاب الثقة حتى بالصادقين الذين يريدون بالزواج حقيقته، وهو إحصان كل من الزوجين للآخر وإخلاصه وتعاونهما على تأسيس بيت صالح من بيوت الأمة»[٥].

كما اختار المنع من هذا النكاح كثير من المحققين المعاصرين، منهم فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين قال[٦]: «وعلى كل حال لا أرى أنه يجوز للإنسان أن يتزوج بنية الطلاق إذا سافر، لكن هل يصح النكاح أو لا؟ المذهب عند الحنابلة أن النكاح غير صحيح؛ لأن نية المتعة كشرطها، كما أن نية التحليل كشرطه».

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٤٦).

(٢) انظر: «المحرر» (٢/ ٢٣)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٠٨، ١٤٧)، «الاختيارات الفقهية» ص (٢٢٠)، «الفروع» لابن مفلح ص (٢١٥)، «المبدع شرح المقنع» (٧/ ٨٨).

(٣) انظر: «المنتقي شرح موطأ مالك» (٣/ ٣٣٥).

(٤) انظر: «الفتاوى الكبرى المصرية» لابن تيمية (٤/ ٧٢، ٧٣)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٠٧).

(٥) «تفسير المنار» (٥/ ١٧).

(٦) في كلامه على هذه الآية في تفسيره (١/ ٢١٣ تفسير سورة النساء).

واختاره أيضًا فضيلة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان عضو هيئة كبار العلماء(١).

كما اختاره فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل منصور في كتابه القيم: «الزواج بنية الطلاق من خلال أدلة الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة»(٢).

والراجح- والله أعلم- حرمة هذا النكاح؛ لما فيه من الغش والخداع والظلم للمرأة وأهلها، ولخلوه من المقاصد الشريفة للنكاح الشرعي، ولأنه أشبه شيء بنكاح المتعة ونكاح التحليل اللذين ثبت تحريمهما بالنص والإجماع.

٢٧- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾.

٢٨- إثبات صفة الحكم والحكمة لله ﷻ، وأنه سبحانه حاكم؛ له الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، ومحكم؛ له الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

فائـــدة:

ذكر ابن العربي(٣) أن المحرمات من النساء أربعون امرأة:

منهن من يحرمن حرمة مؤبدة وهن سبع من النسب؛ وهن: الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت.

ويحرم سبع مثلهن من الرضاع.

وأربع من المصاهرة زوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة وبنت الزوجة.

وخمس يحرمن بالجمع: الجمع بين الأختين، والمرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، وبين العمتين، وبين الخالتين.

والملاعنة؛ لقوله تعالى: «**لا يجتمعان أبدًا**».

والمنكوحة في العدة بإجماع الصحابة في قضاء عمر بن الخطاب ﷺ؛ لأن الناكح لها

---

(١) انظر تقريظ فضيلة الشيخ صالح اللحيدان لـ كتاب: «الزواج بنية الطلاق» للشيخ صالح المنصور.

(٢) خصص فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل منصور- رحمه الله- هذا الكتاب القيم لبحث هذه المسألة وقد أجاد فيه فضيلته وأفاد فجمع الأقوال وأدلتها وبين أن الراجح تحريم هذا النكاح لمخالفته لمقاصد الشريعة في النكاح ولما فيه من غش وخديعة وظلم للمرأة وأوليائها وتقويض الأسر وهدم بنيانها. وأجاب عن شبه المجيزين لهذا النكاح وفندها.

(٣) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٨٥).

استعجل شيئًا قبل أوانه فعوقب بحرمانه، كالقاتل لا يمكن من الميراث.

وزوجات النبي ﷺ وسقط هذا بموتهن.

ومنهن من يحرمن لعارض: الخامسة، المزوجة، المعتدة، المستبرأة، الحامل، المطلقة ثلاثًا على مطلِّقها حتى تنكح زوجًا غيره، المشركة، الأمة الكافرة، الأمة المسلمة لواجد الطول، أمة الابن[1]، المحرِمة، المريضة، اليتيمة، المنكوحة عند النداء يوم الجمعة، المنكوحة عند الخطبة يوم الجمعة.

* * *

(١) أمة الابن إنما تحرم إذا وطئها الابن، أما مجرد ملكه لها فلا يحرمها على أبيه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

بعدما بين الله ﷻ ما يحرم نكاحه من النساء الحرائر، وما يحل منهن بين في هذه الآية حل نكاح الإماء المؤمنات لمن لم يجد طولًا لنكاح الحرائر وخشي العنت، فالأمة يحرم نكاحها، لواجد الطول، ويحل نكاحها لمن لم يجد الطول وخشي العنت.

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الواو للاستئناف، و«من» اسم شرط جازم، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب.

﴿يَسْتَطِعْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ «لم»؛ لأنها هي المباشرة له، وعلامة جزمه السكون.

والاستطاعة أن يكون الشيء في طوعك لا يتعاصى على قدرتك، وهي أوسع من الإطاقة.

﴿مِنكُمْ﴾ أيها المسلمون، والمراد به الأحرار خاصة؛ لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والمملوك لا يملك.

﴿طَوْلًا﴾ مفعول «يستطع»، والطول: بفتح الطاء[1]: الفضل والزيادة والغنى والسعة، كما قال تعالى: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٦]، أي: أولو الغنى والسعة، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢]، أي: أولو الغنى.

وقيل: الطول المرأة الحرة، وبه قال أبو حنيفة[2]، وروي عن مالك[3] وعلى هذا فمن كان تحته امرأة حرة فلا يجوز له نكاح الأمة.

---

(١) والطول بضم الطاء ضد القصر.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٥٨).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٨٢- ٨٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٦).

والصحيح أن المراد بالطول: الفضل والزيادة والغنى والسعة ماديًا ومعنويًا.

قال في «تفسير المنار»(١): «فمن عجز عن التزوج بحرة لنفور النساء منه لعيب في خلقه أو خلقه أو غير ذلك، فهو ممن لم يجد الطول وإن كان ذا مال كثير».

﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ «أن» حرف مصدري ونصب ﴿يَنكِحَ﴾ فعل مضارع منصوب بها وعلامة نصبه الفتحة. والفاعل ضمير مستتر تقديره «هو» يعود على «من».

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب، بدل من قوله: «طولًا»، تقديره: ومن لم يستطع منكم طولًا نكاح المحصنات.

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ قرأ الكسائي بكسر الصاد اسم فاعل، في هذا الموضع وفي جميع القرآن عدا قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في الآية السابقة، وقرأ الباقون بفتحها اسم مفعول(٢).

والمراد بالمحصنات هنا الحرائر بقرينة قوله بعد هذا ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وسميت الحرائر محصنات؛ لأنهن أحصن بالحرية عما تكون عليه الأمة من كونها خراجة ولاجة مبتذلة ونحو ذلك، أما الحرة فإنها مصونة محصنة.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ صفة لـ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، والمؤمنات ضد الكافرات، أي: اللاتي آمن بالله وبكل ما يجب الإيمان به، وانقدن لذلك قولًا واعتقادا وعملًا.

والمعنى: ومن لم يستطع منكم غنى يكفي لنكاح الحرائر المؤمنات.

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، والتقدير: فلينكح مما ملكت أيمانكم.

و«من» تبعيضية، و«ما» موصولة.

والمعنى: فلينكح من النساء اللاتي ملكت أيمانكم.

والأيمان: جمع يمين، وهي اليد اليمنى، لكن المراد بها الشخص نفسه.

---

(١) (٥/ ١٩).

(٢) «المبسوط» ص (١٥٥، ١٥٦)، «العنوان» ص (٨٤)، «الإقناع» (٢/ ٦٢٩)، «النشر» (٢/ ٢٤٩).

أي: فمما ملكتموه؛ لأن الذي يملك حقيقة هو الشخص نفسه لا يمينه فقط، وإنما يضاف الملك إليها؛ لأن الأخذ والعطاء بها.

﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ «من» بيانية، فيها بيان «ما» الموصولة في قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ﴾.

﴿فَتَيَٰتِكُمُ﴾ جمع فتاة، والفتاة تطلق على الشابة الحرة، وعلى الأمة المملوكة، شابة كانت أو كبيرة، وفي الحديث: «**ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي**»(١).

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وصف لـ ﴿فَتَيَٰتِكُمُ﴾، والمؤمنات: ضد الكافرات سواء في ذلك الوثنيات والكتابيات، فلا يصح الزواج إلا بالأمة المؤمنة التي آمنت بالله وبكل ما يجب الإيمان به منقادة لذلك قولًا واعتقادا وعملًا.

والخطاب في قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ للجميع باعتبار المجموع لا باعتبار كل فرد.

والمعنى: ومن لم يستطع منكم أيها المسلمون غنى وسعة لنكاح الحرائر المؤمنات، فلينكح من الذي ملكته أيمان غيره من المسلمين؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾.

وذلك أن المالك لا يصح أن يتزوج مملوكته؛ لأن الله جعل ملك اليمين قسيمًا ومعادلا للزواج فقال سبحانه ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦، المعارج:٣٠]. فدل هذا على أن ملك اليمين غير الزواج، ولأن مملوكة الرجل تحل له بعقد الملكية، وهو أقوى من عقد الزواج(٢)؛ لأن مالك الأمة يملك رقبتها ومنافعها بما في ذلك منفعة البضع بخلاف الزوج، فإنه لا يملك سوى منفعة البضع.

لهذا لا يرد العقد الأضعف وهو عقد الزواج على العقد الأقوى وهو ملك اليمين،

---

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٢)، ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٩)، وأبو داود في الأدب (٤٩٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

(٢) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٢١).

فلا يتزوج الرجل أمته، بينما يرد العكس، فيرد العقد الأقوى وهو ملك اليمين على العقد الأضعف وهو عقد الزواج، فيصح للرجل الذي تزوج أمة غيره أن يشتريها فينفسخ النكاح ويحل له وطؤها بملك اليمين(١).

وكذلك لا تزوج السيدة بعبدها؛ لأنها تملكه، ولأن المملوك لا يزوج بحرة.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ هذه الجملة اعتراضية، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡ﴾، أي: ليس لكم إلا الظاهر، أما الباطن فعلمه إلى الله تعالى فإذا كانت الأمة مؤمنة في الظاهر جاز نكاحها، وباطنها إلى الله- تعالى.

وهكذا أحكام الدنيا كلها مبنية على الظواهر، أما البواطن فأمرها إلى الله تعالى وعليها مدار الثواب والعقاب في الآخرة قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩- ١٠].

﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾، أي: كلكم سواء في البشرية والإنسانية الأحرار والأرقاء، وكلكم من آدم وآدم من تراب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

فلا ينبغي أن يُستهجن نكاح الإماء عند الحاجة إلى ذلك. وقد كان العرب عندهم أنفة عظيمة من الزواج بالإماء، ويرون ذلك من الدناءة والعيب، فخفف الله ذلك، وقال: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾. وفي هذا أيضًا تسلية لمن نكح أمة ممن لم يستطع نكاح حرة. قال الشاعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء(٢)

وقيل المعنى: بعضكم من بعض في الإيمان(٣).

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره.

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب ﷺ. انظر: «ديوانه» (ص٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٠).

وما بينهما اعتراض.

والأمر في قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ لمن لم يجد الطول لنكاح الحرائر، وهو للإباحة، والضمير «هن» لما ملكته الأيمان من الفتيات المؤمنات.

والمعنى: فتزوجوهن بالعقد الشرعي، ولهذا أمر بعده بإيتائهن أجورهن.

﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، أي: برضى مالكيهن وأسيادهن.

لأن ولي الأمة هو مالكها وسيدها، فهو الذي يملكها ويملك منافعها، وليس لأحد عليها ولاية سواه، لا أبوها، ولا غيره؛ ولهذا قال: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ ولم يقل بإذن أوليائهن، وسواء كان المالك للأمة واحدًا أو متعددًا.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، «آتوهن» من الرباعي «آتى»، بمعنى: أعطى، يتعدى إلى مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر.

الأول ضمير «هن» والثاني «أجورهن». وأجورهن: مهورهن، أي: وأعطوهن مهورهن، وسُمي المهر أجرًا؛ لأنه في مقابل منفعة البضع.

والمهر إنما يعطى لسيد الأمة، وإنما أضيف إليهن إضافة اختصاص، لا إضافة تمليك، كما يقال: سرج الدابة، أو لأنهن السبب في حصول هذه المهور لأسيادهن؛ لأن الأمة لا تملك، فهن ومهورهن ملك لأسيادهن.

قال ﷺ: «**من باع عبدًا وله مال فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع**»(١).

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المعروف: ضد المنكر، أي: بالمعروف شرعًا بكونه متمولا حلالًا غير محرم ولا مغصوب ونحو ذلك.

وبالمعروف عادة عند الناس من حيث كونه مثل مهر أمثالهن من الإماء.

وعن طيب نفس منكم من غير من ولا مماطلة أو بخس منه؛ استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات.

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٧٩)، ومسلم في البيوع (١٥٤٣)، والنسائي في البيوع (٤٦٣٦)، والترمذي في البيوع (١٢٤٤)، وابن ماجه في التجارات (٢٢١١، ٢٢١٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ حالان من ضمير النسوة في قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾.

أي: فانكحوهن حال كونهن محصنات غير مسافحات، أو من الضمير في قوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾، أي: آتوهن أجورهن حال كونهن محصنات.

ومعنى ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ متعففات بالزواج الشرعي عن الزنا.

لأن الله ذكر مقابل هذا ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، وذكر قبله ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فصح حمل معنى ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ على المعنيين العفة والزواج الشرعي.

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ مسافحات: جمع مسافحة، وهن الزواني المعلنات بالزنا، اللاتي لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة.

وأصل المسافحة مأخوذة من السفح وهو صب الماء وإراقته، ولهذا سميت الزانية مسافحة، وسمي الزاني مسافحا، كما في قوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة ونيل الشهوة، دون المقاصد الشريفة للنكاح من إعفاف النفس وتكثير الأمة والمودة والعشرة بالمعروف وتكوين الأسرة.

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ معطوف على ما قبله، فالجملة في محل نصب أي: ولا حال كونهن متخذات أخدان، أي: جاعلات أخدان.

و﴿أَخْدَانٍ﴾ جمع «خِدْن» بكسر الخاء وسكون الدال، أو جمع «خَدَن» بفتحهما والخدن للذكر والأنثى هو الصديق والخليل والصاحب في السر، تتخذه المرأة يزني بها سرًّا دون غيره فمتخذات الأخدان هن اللاتي يتخذن الأصحاب والأصدقاء للزنا سرًّا[1].

---

(١) هناك من يدعي أن الصديق الذي تتخذه المرأة صاحبًا لها لا يصل معها إلى الجماع، وأقول يا سبحان الله وما الذي يعصمهما من ذلك، وقد قال ﷺ: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٧١)، والدارمي في الاستئذان (٢٦٤٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.
وقال ﷺ لما سئل عن أخ الزوج أو قريبه فقال ﷺ «الحمو الموت» وهو حديث صحيح سبق تخريجه.
وقال بعض السلف «لا تخلون بامرأة ولو كنت تحفظها القرآن» وإن من يدعي هذا الإدعاء حتى كأنه يزعم العصمة لنفسه أشبه بقول القائل:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

وهكذا أخذ هذه المقالة من أجازوا لأنفسهم الخلوة بالخادمات بزعم منهم بلسان الحال أو بلسان المقال =

وكان من عادة أهل الجاهلية أنهم يحرمون الإعلان بالزنا، ولا يرون به بأسًا في السر، فنهى الله عن ذلك كله سرًّا كان أو علنًا فقال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وإنما قيد نكاح الإماء بقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ ؛ لأن الزنا إنما كان معروفًا فيهن بخلاف الحرائر، فالزنا فيهن قليل وبخاصة الأبكار منهن(١).

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ الفاء استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية، ﴿أُحْصِنَّ﴾ فعل الشرط.

قرأ عاصم برواية أبي بكر، وحمزة والكسائي وخلف ﴿فَإِذَآ أَحْصَنَّ﴾ بفتح الألف والصاد.

وقرأ عاصم برواية حفص، وكذا الباقون: ﴿أُحْصِنَّ﴾ بضم الألف وكسر الصاد(٢).

قال الطبري(٣): «نختار لمن قرأ ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ بفتح الصاد في هذا الموضع أن يقرأ ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بضم الألف، ولمن قرأ «محصِنات» بكسر الصاد فيه أن يقرأ: (فإذا أَحصَن) بفتح الألف لتأتلف قراءة القارئ على معنى واحد وسياق واحد؛ لقرب قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ من قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ ».

ومعنى القراءتين واحد، أي: فإذا تزوجن فحصّن أنفسهن وحصّنهن أزواجهن بذلك.

وقيل: ﴿أُحْصِنَّ﴾ بمعنى: أسلمن(٤).

=

أنهم لا يمكن أن يقعوا معهن في المحذور. فاخطئوا ووقعوا في المحرم من وجوه عدة: أحدها خلوتهم بالأجنبية، فهذا محرم بحد ذاته ولو لم يقع الإنسان معها في المحذور للأدلة السابقة وغيرها.

الوجه الثاني زعمهم أنهم لن يقعوا في هذا المحذور معهن حتى كأن أحدهم يزعم لنفسه العصمة، والعصمة إنما هي للرسل والأنبياء.

الوجه الثالث أن كثيرًا منهم وقع في المحذور مع هذه الخادمات أو أوقع غيره من أبنائه أو غيرهم.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٢٦)، «تفسير المنار» (٥/ ٢٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٩٥)، «المبسوط» ص (١٥٦)، «الكشف» (١/ ٣٨٥).

(٣) في «جامع البيان» (٨/ ١٩٩).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣٠٨)، «جامع البيان» (٨/ ١٩٩- ٢٠٢).

وقال بعضهم: «أَحصَن» بالفتح بمعنى: أسلمن، و﴿أُحْصِنَّ﴾ بالضم بمعنى: تزوجن(١).

والأظهر- والله أعلم- أن معناها هنا على القراءتين: تزوجن، وذلك؛ لأن الله ذكر إيمانهن قبل هذا في قوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

قال الحافظ ابن كثير(٢): «والأظهر- والله أعلم- أن المراد بالإحصان ههنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾».

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«إن» شرطية، ﴿أَتَيْنَ﴾ فعل الشرط، ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ جواب الشرط، وهذا الشرط وجوابه جواب الشرط الأول ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾.

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾، أي: فإن ارتكبن وفعلن فاحشة.

والمراد بالفاحشة- هنا- الزنا؛ لأنه مما يستفحش شرعًا وعرفًا عند المسلمين؛ ولقرينة قوله: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أي: فعليهن حدًا.

﴿نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أي: نصف الذي على المحصنات، يعني: الحرائر الأبكار.

﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني: من الجلد حدًا وهو مائة جلدة، كما قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

هذا على الأحرار، ونصفه على الإماء؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وإنما خصت المحصنات هنا بالحرائر الأبكار دون الثيبات؛ لأن الأبكار حدهن الجلد، وهو يتنصف بخلاف الثيبات، فإن حدهن الرجم، والرجم لا يتنصف؛ لأن

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٩٥، ١٩٨- ١٩٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٣).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٢٨).

الرجم نهايته الموت.

وعلى هذا فإذا تزوجت الأمة، وأتت بفاحشة فعليها حدًا خمسون جلدة.

واختلف في تغريب الأمة، وهل تغرب نصف تغريب الحرة أم لا؟ كما اختلف في حكم الأمة إذا زنت ولم تحصن؛ لأن مفهوم قوله: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ أنه لا حد على الأمة إذا لم تحصن، وسيأتي تفصيل هذا في الأحكام إن شاء الله.

وإنما نقص حد الإماء عن حد الحرائر؛ لأن العقوبة على قدر النعمة، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وهو إشارة إلى جواز نكاح الإماء في قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ اللام حرف جر، و«من» اسم موصول مبني على السكون في محل جر، أي: للذي خشي العنت منكم.

والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: جائز، أو ثابت أو كائن.

﴿خَشِيَ﴾، أي: خاف، والخوف بمعنى الخشية، لكن الخشية أخص منه وأشد وأقوى.

قال ابن فارس(١): «الخاء، والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر».

والفرق بين الخشية والخوف أن الخشية غالبًا تكون مع علم الخاشي وعظم المخشي كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

و﴿ٱلۡعَنَتَ﴾ المشقة الشديدة(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، أي: لشق عليكم، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: عزيز عليه الذي يشق عليكم، وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [آل عمران: ١١٨]، أي: تمنوا وأحبوا ما يشق عليكم.

ومعنى قوله: ﴿خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ﴾، أي: خاف على نفسه الوقوع في الزنا خوفًا شديدًا

---

(١) في «مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٢).

مؤكدًا، وشق عليه الصبر عن الجماع[١].

﴿مِنكُمْ﴾ «من» بيانية، فيها بيان لـ «من» في قوله: ﴿لِمَنْ خَشِىَ﴾.

والمعنى: إباحة نكاح الأمة لمن خاف منكم على نفسه الزنا وشق عليه الصبر عن الجماع.

﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الواو استئنافية، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، والتقدير: وصبركم خير لكم[٢].

والصبر: هو الحبس والمنع، والمعنى: وأن تحبسوا أنفسكم عن نكاح الإماء.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: الصبر عن نكاح الإماء خير لكم مطلقًا من نكاحهن حتى وإن كنتم لا تستطيعون طولًا لمهر حرة، وتخشون العنت والمشقة.

وقد علل المفسرون رحمهم الله لذلك لما في نكاح الإماء من تعريض الولد للرق تبعًا للأم، ولما فيه من الدناءة والحط من النفس[٣]، ولأن نكاح الحرائر أعلى وأشرف. ولثبوت حق مالكها عليها باستخدامها، إلى غير ذلك[٤]؛ لأن الخيرية جاءت مطلقة في الآية، أي الصبر عن نكاحهن خير لكم مطلقًا من نكاحهن.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ «غفور» على وزن «فعول» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، تدل على سعة مغفرته ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر في المناجاة: «يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه، ثم يقرره بذنوبه، فيقول: يا فلان أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله: أنا سترتها عليك في

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٢)، وانظر «جامع البيان» (٨/ ٢٠٤- ٢٠٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٠٨).

(٣) روي عن عمر ﷺ قال: «إذا نكح العبد الحرة فقد أعتق نصفه، وإذا نكح الحر الأمة فقد أرق نصفه» وقد قيل:

إذا لم تكن في منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

انظر «تفسير المنار» (٥/ ٢٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٠٨)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠)، «الوسيط» (٢/ ٣٧)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٣٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٦)، «الكشاف» (١/ ٢٦٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٨٨).

الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس؛ لأنها تستر الرأس، وتقيه السهام.

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ويكفر ذنوب عباده، كما جاء في الحديث: «**فمن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارة له**»(٢).

﴿رَّحِيمٌ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، تدل على ثبوت صفة الرحمة لله ﷻ وسعتها؛ الرحمة الذاتية، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ [الأنعام: ١٤٧].

والرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهو رحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

كما أنه ﷻ رحيم رحمة عامة بالناس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

والرحمة صفة تقتضي الإحسان إلى الخلق، ورفع الضرر عنهم، وليست هي الإحسان أو إرادة الإحسان كما يقول المبتدعة، وإنما الإحسان من آثارها.

وختم الله الآية بهذين الوصفين الكريمين؛ للإشارة إلى أنه غفور لما قد يفرط منهم من الذنوب، رحيم بهم حيث وسّع عليهم فأباح نكاح الإماء بشروط.

وقرن ﷻ بين هاتين الصفتين؛ لأنه بالمغفرة زوال المرهوب؛ وبالرحمة حصول المطلوب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الحدود (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٦١)، والترمذي في الحدود (١٤٣٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٦٠٣)، من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب بذل المال في النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾.

٢- فضل الغنى إذ به يستطيع الإنسان نكاح الحرائر، ولا يحتاج إلى نكاح الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الآية.

بل به يستفيد الإنسان في دينه ودنياه إذا وفق لشكر الله وأداء حقوقه وحقوق العباد من هذا المال، وفي الحديث: «**ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم..**» الحديث، وفي آخره قال ﷺ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»(١).

وقال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار**»(١).

ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

٣- الإشارة إلى فضل النكاح والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

٤- أنه يشترط في نكاح الحرة أن تكون مؤمنة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

٥- أن الواجب على من أراد النكاح أن ينكح حرة؛ لأن الله لم يرخص في نكاح الأمة إلا لمن يستطع نكاح حرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

٦- أن من لم يستطع طولًا لنكاح الحرائر، لا يلزمه أن يستدين، بل ولا ينبغي له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ فلم يأمره الله ﷻ بالاستدانة، وإنما وجهه لنكاح الأمة لكونها أيسر.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد قال الله تعالى في سورة النور: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

وقال ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**»(١).

وقال ﷺ: لرجل «**اذهب والتمس ولو خاتمًا من حديد**»، فلما لم يجد لم يأمره أن يستدين، بل زوجه إياها بما معه من القرآن(١).

٧- أن الإحصان يطلق بمعنى الحرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ فهذا يدل على أن المراد بالمحصنات في قوله: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الحرائر.

٨- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، وعلى هذا دلت السنة، وأجمعت الأمة.

٩- إثبات الملكية الفردية؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾.

١٠- فضل اليمين على الشمال؛ لأن الله أضاف الملك إليها؛ لقوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾.

١١- إطلاق البعض على الكل؛ لقوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ والملك حقيقة إنما هو للإنسان كله، فهو الذي يملك.

١٢- أنه يجوز للحر أن يتزوج أمة بشرطين: الأول: أن لا يستطيع طولًا لنكاح الحرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والثاني: أن يخشى على نفسه المشقة؛ لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

١٣- أن أحكام الشرع مبنية على التيسير، فقد أباح الله نكاح الأمة لمن لم يستطع طولًا لنكاح حرة.

---

(١) سبق تخريجه.

١٤- أن مهر الأمة- غالبًا- أقل من مهر الحرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

١٥- أنه يشترط أن تكون الأمة المنكوحة مؤمنة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وقد عد بعضهم هذا شرطًا من شروط صحة نكاح الإماء، والصحيح أن هذا وإن كان شرطًا في جواز نكاحهن إلا أنه ليس خاصًا بهن، كما سيأتي بيانه قريبًا.

وعلى هذا فلا يجوز نكاح الأمة الكافرة مطلقًا وثنية كانت أو مجوسية أو كتابية، وهو قول جمهور أهل العلم.

وإذا لم يجز نكاح الأمة الكتابية مع عدم استطاعة الطول لنكاح حرة فمع استطاعة الطول تحرم من باب أولى.

وذهب أبوحنيفة إلى جواز نكاح الأمة الكتابية(١) محتجًّا بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]. وحمل المحصنات في هذه الآية على العفائف.

قال: فيجوز الزواج بالكتابية إذا كانت عفيفة حرة كانت أو أمة، وقال: إن قوله: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ لإخراج إماء المشركين وعبدة الأوثان.

وجمهور أهل العلم على تحريم نكاح الأمة الكتابية؛ لقوله تعالى هنا: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فقالوا: إن الله أباح نكاح الأمة المؤمنة فقط بشروط. أما الأمة غير المؤمنة وهي الكافرة فعلى الأصل في الأبضاع، وهو التحريم، سواء كانت كتابية أو غير كتابية.

قالوا: ولا يحل من نساء أهل الكتاب إلا الحرائر فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٢).

قالوا: فهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٦٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٨٨- ١٩٠)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٩٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٨٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٣).

[البقرة: ٢٢١]، وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

لأن المراد بهذه الآية ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الحرائر، أو ما يعم الحرائر والعفائف، وعلى التسليم بأن المراد بها العفائف فالآية مخصوصة بقوله هنا: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (١).

١٦- أن الإنسان إذا لم يجد الطول لنكاح حرة مؤمنة فله أن ينكح أمة مؤمنة حتى ولو قدر على مهر حرة كتابية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وبهذا قال مالك(٢).

وذهب بعض أهل العلم ومنهم الإمام أحمد في المشهور عنه(٣) إلى أنه إذا قدر على نكاح حرة كتابية فلا يجوز له أن يتزوج الأمة المؤمنة؛ لأن أولاد الحرة الكتابية يكونون أحرارًا، وأولاد الأمة يكونون أرقاء مملوكين لسيدها(٤).

وأيضًا فإن نكاح الحرة الكتابية لم يقيد بشروط، بينما قيد نكاح الأمة المؤمنة بعدة شروط.

لكن ما دل عليه ظاهر القرآن أولى، وهو الجواز، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١](٥).

وأيضًا فإنه قد يترتب على الزواج بالحرة الكتابية محاذير تفوق ما يترتب على نكاح الأمة المؤمنة من استرقاق الأولاد، إذ قد يؤدي الزواج بالكتابية إلى تأثر الزوج والأولاد بدينها خاصة إذا كان الزوج فقيرًا وهي غنية أو غير متعلم وهي متعلمة ونحو ذلك.

١٧- أن الله أعلم بإيمان العباد باطنه وظاهره من بعضهم لبعض، بل أعلم بهم من أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾.

١٨- إثبات علم الله ببواطن الأمور، وظواهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٩٠).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٩٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٨٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٨).

(٣) انظر: «المغني» (٩/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٨).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٩٣).

بِإِيمَٰنِكُم﴾؛ لأن الإيمان له باطن وظاهر(١).

١٩- جواز استعمال اسم التفضيل في صفات الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ كما يقال الله أكبر، الله أعظم، الله أرحم ونحو ذلك خلافًا لمن قال: لا يجوز ذلك، وفسر اسم التفضيل باسم الفاعل، فقال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ أي عالم بإيمانكم، وهذا خطأ؛ لأن فيه نقصًا عما أراد الله؛ لأن «عالم» اسم فاعل، لا يمنع المشاركة في الوصف ولا في الرتبة و«أعلم» اسم تفضيل يمنع المشاركة في الرتبة(٢).

٢٠- أنه ليس لنا في الحكم على الناس إلا الظاهر، أما البواطن فعلمها إلى الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾.

وفي الحديث: «**فمن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله**»(٣).

فإذا كانت الأمة مؤمنة في الظاهر جاز الزواج بها، وعلم باطنها إلى الله تعالى؛ ولهذا لما سأل النبي ﷺ الجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء. قال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله قال ﷺ للرجل الذي عليه رقبة «**اعتقها فإنها مؤمنة**»(٤).

حملًا على الظاهر من الإيمان، والظاهر من الألفاظ(٥).

وإن كان مدار الثواب والعقاب في الآخرة على صلاح البواطن(٦).

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٠).

(٢) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ٢٣٠ تفسير سورة النساء).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٤٤، ٣٨٣) والبيهقي (٨/ ٣٣٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٦٦٣).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧)، وأبو داود في الصلاة (٩٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨)، والدارمي في الصلاة (١٥٠٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٩٦).

(٦) كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وقال ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبو داود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، والدارمي في البيوع (٢٥٣١) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

٢١- الإشارة إلى وجوب إخلاص الإيمان بالله ومحاسبة النفس، ومراقبة الله باطنًا وظاهرًا، والرجاء في ثوابه والخوف من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾.

٢٢- أن الأحرار والأرقاء بعضهم من بعض يستوون في البشرية، كلهم لآدم وآدم من تراب؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، وإن كان الحر أعلى مرتبة وأشرف من الرقيق.

٢٣- تسلية من احتاج إلى نكاح الأمة، وتخفيف الأمر عليه وتهوينه؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ لأن العرب كانوا يأنفون بشدة عن نكاح الإماء.

وهكذا ينبغي تهوين الأمر على من فاته شيء بالرضى والقناعة بما دونه، وبخاصة فيما يتعلق بحظوظ الدنيا الفانية.

٢٤- أنه يشترط في تزويج الإماء إذن أسيادهن ورضاهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾.

وقال- ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي**»(١)، وولي الأمة هو سيدها ومالكها، فلا تزوج الأمة نفسها، كما لا تزوج الحرة نفسها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزوج المرأة المرأةَ، ولا المرأةُ نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها**»(٢).

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «**أيما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها، فنكاحها باطل فنكاحها باطل فنكاحها باطل**»(٣).

فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من له حق تزويج سيدتها بإذنها أو توكل من

---

(١) سبق تخريجه عند الكلام على الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣] من هذه السورة.
وكذلك العبد لا يتزوج إلا بإذن سيده كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر» أي زان. أخرجه أبو داود في النكاح الحديث (٢٠٧٨)، والترمذي في النكاح الحديث (١١١١) وقال «حديث حسن»، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٨٢) وصححه الألباني. وقال الأرنؤوط في تعليقه على «زاد المعاد» (٥/ ١٠٢) «سنده حسن» وانظر «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ١٧٤).

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح (٢٠٨٣)، والترمذي في النكاح (١١٠٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٧٩)، وصححه ابن حبان (١٢٤٨)، وأخرجه الحاكم (٢/ ١٦٨)، والبيهقي في سننه (٧/ ١٠٥، ١٠٧) وقد أطال الحافظ ابن حجر الكلام عليه في «تلخيص الحبير» (٢/ ١٥٦، ١٥٧). وصححه الألباني.

يزوج أمتها(١).

٢٥- وجوب إعطاء المهر وبذل المال في نكاح الإماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

٢٦- ظاهر الآية أن مهور الإماء تعطى لهن، وأنهن يملكن المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم كالإمام مالك قالوا: لأن الأمة تحتاج إلى مهرها للتزين به لزوجها ونحو ذلك(٢).

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن الإماء لا يملكن المهر، إنما مهورهن لأسيادهن ومالكيهن(٣).

قال تعالى: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٧٥] فهذا يدل على أن المملوك لا يملك شيئًا أصلًا.

وقال ﷺ: «**من باع عبدًا له مال فماله للذي باعه، إلا أن يشترط المبتاع**»(٤).

وأجابوا عن إضافة الأجور إليهن في الآية، أنها ليست إضافة تمليك، وإنما هي إضافة اختصاص فقط، كما يقال: سرج الدابة؛ لأنه خاص بها، أو أن ذلك من باب مراعاة السبب؛ لأنهن السبب في حصول هذه المهور لأسيادهن(٥)، ولأنهن ومالهن ملك لأسيادهن. وهذا هو الصحيح.

لكن يجب على سيد الأمة إذا زوجها أن يجهزها من مهرها بما تحتاج إليه.

٢٧- أن المهر يسمى أجرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لأنه في مقابل الانتفاع بالبضع.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤١- ١٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٧).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٠١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٨٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٢).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٦٦- ١٦٧)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٥١).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٣٠).

٢٨- الرجوع إلى العرف؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وذلك في كل شيء لم يحدد في الشرع.

٢٩- وجوب إيتاء الإماء مهورهن حسب ما هو معروف من مهور أمثالهن من غير من ولا مماطلة أو انتقاص لحقهن؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٣٠- يشترط أن يكون نكاح الإماء نكاح إحصان على الوجه الشرعي، لا نكاح سفاح؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

٣١- أن الإحصان يطلق بمعنى التعفف من الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ لأن الله ذكر الإحصان مقابل السفاح.

٣٢- أن من شرط نكاح الإماء أن يكن عفيفات عن الزنا، غير متخذات أخدان؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾؛ لأن الزانية يحرم نكاحها، كما قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى﴾ [النور: ٣].

ولأن الخلوة بالأجنبية محرمة لا تجوز، سواء فعل هؤلاء الأخدان معهن الفاحشة أم لا. ويبعد ألا يفعلوا؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، وقد حرم الشرع الخلوة بالأجنبية؛ لهذا قال ﷺ: «**ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**»(١).

وقد عد بعضهم هذا شرطًا من شروط صحة نكاح الإماء، والصحيح أن هذا- وإن كان شرطًا في جواز نكاحهن إلا أنه ليس خاصًا بهن، فالحرائر لا يجوز نكاحهن إلا إذا كن عفيفات.

٣٣- تحريم الزنا مطلقًا سرًا كان أو جهارًا؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

٣٤- أن الزنا إنما كان معروفًا في الإماء دون الحرائر؛ لقوله تعالى هنا لما ذكر الإماء

---

(١) سبق تخريجه.

﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

بينما لما ذكر الحرائر المؤمنات قال تعالى مخاطبًا الأزواج الذكور دونهن: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤].

وهكذا لما ذكر حرائر أهل الكتاب قال ﷻ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥][(١)].

وقد روي أن هند بنت عتبة لما بايع النبي ﷺ النساء ألا يسرقن ولا يزنين قالت: أو تزني الحرة؟[(٢)].

٣٥- أن حد الأمة إذا زنت وهي محصنة نصف حد الحرة البكر خمسون جلدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ والمراد بالمحصنات هنا: الحرائر الأبكار، وحدهن مائة جلدة، ونصفها خمسون جلدة هو حد الأمة، وسواء كانت ما زالت على الرق أو أعتقت إذا كان فعلها للفاحشة قبل العتق، وهذا إجماع[(٣)].

وهل تغرب الأمة نصف سنة؟ اختلف أهل العلم في هذا، كما اختلفوا في تغريب الحرة.

فمن أهل العلم من قال تغرب الحرة مستدلين بحديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**»[(٤)].

وبحديث العسيف، وفيه: «**وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام**»[(٤)].

وقال بعض أهل العلم بأن المرأة الحرة، لا تغرب، وإنما التغريب خاص بالرجال؛ لأن في تغريب المرأة تعريضا لتكرر وقوع الفاحشة منها، وخاصة إذا لم يكن معها محرم، والتغريب إنما هو للصيانة من الزنا.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٢٦).

(٢) أخرجه ابن سعد مرسلًا في الطبقات (٨/ ٩) بإسناد صحيح، وأخرجه أبو يعلي في «مسنده» (٨/ ١٩٤) وانظر «تلخيص الحبير» (٤/ ٥٩).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٢٣).

(٤) سبق تخريجه.

وبناء على هذا اختلفوا في تغريب الأمة إذا زنت.

فمن أهل العلم من قال: تغرب الأمة نصف عام، أي: نصف تغريب الحرة؛ لأن التغريب من عذاب الحرائر؛ لقول الله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وذهب أكثر أهل العلم(١) إلى أن الأمة لا تغرب، قالوا: لما في تغريبها من تمكينها من الفاحشة؛ لأنها لدنو منزلتها قد لا تمتنع من الزنا، كما أن في تغريبها ضررًا لسيدها وضياع منافعها عليه من الخدمة ونحوها، بل قد تهرب إذا غربت ولا ترجع إلى سيدها، وقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. والله أعلم(٢).

٣٦- أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وبهذا قال ابن عباس وجماعة من التابعين، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي الظاهري في رواية عنه. وهو وجه في مذهب الشافعية ورواية عن أحمد، قالوا: إن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها، مستدلين بمفهوم هذه الآية، وهو من مفاهيم

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٨٧)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٢٣).

ولما كان على الأمة نصف حد الحرة فكذلك العبد قياسًا عليها. وكما أن على الأرقاء ذكورهم وإناثهم نصف حد الأحرار في الزنا فكذلك عليهم نصف حد الأحرار في القذف وشرب الخمر قياسًا على الزنا. انظر «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٣٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٠٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٥- ١٤٦).

(٢) وقد اختلفوا فيمن يقيم الحدود على الإماء فذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد إلى أن الذي يقيم الحد عليهن هم أسيادهن لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد». وحديث علي: «أقيموا الحدود على أرقائكم» وسيأتي تخريج هذين الحديثين قريبًا وروي عن ابن عمر وأنس أنهما أقاما الحدود على أرقائهما ولا مخالف لهما من الصحابة.

وذهب أبو حنيفة إلى أن الذي يقيم عليهن الحد هو السلطان كالحرائر.

وقيل: قبل الإحصان يقيمه السيد، وبعد الإحصان يقيمه الإمام. قال ابن القيم: «وهذا أقرب ما يقال». وإذا رفع إلى السلطان فعليه أن يقيمه. انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٠٦)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٧٨)، «زاد المعاد» (٥/ ٤٣- ٤٤)، «فتح الباري» (١٢/ ١٦٣).

الشرط، وهو حجة عند أكثر أهل العلم قالوا: وإنما تجلد تأديبًا وتعزيرا للأحاديث الواردة في جلدها(١).

وذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين والفقهاء بعدهم، ومنهم الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد إلى أن حد الأمة غير المحصنة هو حد الأمة المحصنة خمسون جلدة. وقالوا: صحيح أن مفهوم الآية ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾: أنه لا حد على الأمة غير المحصنة، ولكنا قدمنا منطوق الأحاديث الدالة على أن على الأمة إذا زنت الحد مطلقًا أحصنت أو لم تحصن(٢)، منها: حديث أبي هريرة وزيد بن خالد- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن. فقال: «**إذا زنت الأمة فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها ولو بضفير(٣)**»(٤).

ومنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إذا زنت الثانية فليجلدها، ولا يثرب عليها(٥)، ثم إذا زنت الثالثة، فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر**»(٦).

قالوا: فقوله: «**أمة أحدكم**» يتناول المزوجة وغيرها(٧).

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤١٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٣- ١٤٤)، «زاد المعاد» (٥/ ٤٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٩- ٢٣١)، «فتح الباري» (١٢/ ١٦١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٩٦- ١٩٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٣- ١٤٤)، «المغني» (١٢/ ٣٣١)، «شرح مسلم للنووي (١١/ ٣٠٤)، «زاد المعاد» (٥/ ٤٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٨- ٢٢٩)، «فتح الباري» (١٢/ ١٦٩).

(٣) الضفير: الحبل. انظر «النهاية في غريب الحديث» مادة «ضفر».

وهل يلزم بيعها في الثالثة ذكر القرطبي إجماع أهل العلم على أن ذلك ليس بلازم. «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٣٧، ٦٨٣٨)، ومسلم في الحدود (١٧٠٣، ١٧٠٤)، وأبو داود في الحدود (٤٤٦٩، ٤٤٧٠)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٦٥).

(٥) لا يثرب عليها: أي: لا يعيرها بالزنا، ولا يبكتها، ولا يعنف عليها باللوم ولا يوبخها.

(٦) أخرجه البخاري في الحدود- الحديث (٦٨٣٩)، ومسلم في الحدود- الحديث (١٧٠٣).

(٧) انظر: «شرح صحيح مسلم» (١١/ ٣٠٤)، «عون المعبود» (١٢/ ١٠٧- ١٠٨)، «سبل السلام» (٤/ ١٩).

ومنها حديث علي ﷺ قال: «**أيها الناس أقيموا الحد على أرقائكم من أحصن منهم، ومن لم يحصن، فإن أمة رسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أحسنت اتركها حتى تماثل**[١]»[٢].

قالوا: فعلى الأمة إذا زنت خمسون جلدة، سواء كانت محصنة أو غير محصنة؛ لمنطوق هذه الأحاديث. وهو مقدم على مفهوم الآية؛ لأن المنطوق مقدم على المفهوم.

قال ابن حجر[٣]: «فأخذ حكم زناها بعد الإحصان من الكتاب، وحكم زناها قبل الإحصان من السنة».

وقال ابن القيم[٤]: «وقد يقال: إن تنصيصه في الآية على التنصيف بعد الإحصان لئلا يتوهم متوهم أن بالإحصان يزول التنصيف، ويصير حدها حد الحرة، كما أن الجلد زال عن البكر بالإحصان، وانتقل إلى الرجم، فبقي على التنصيف في أكمل حالتيها، وهي الإحصان تنبيها على أنه إذا اكتفي به ففيما قبل الإحصان أولى وأحرى».

وقال الشنقيطي[٥]: «وحمل الجلد في الحديث على التأديب غير ظاهر، لاسيما أن في بعض الروايات التصريح بالحد، فمفهوم هذه الآية هو بعينه الذي سئل عنه النبي ﷺ وأجاب فيه بالأمر بالجلد في هذا الحديث المتفق عليه، والظاهر أن السائل ما سأله إلا أنه أشكل عليه مفهوم الآية، فالحديث نص في محل النزاع، ولو كان جلد غير المحصنة أكثر أو أقل من جلد المحصنة لبينه ﷺ».

وقد أجاب أصحاب القول الأول القائلون بأن عليها الجلد تعزيرا وتأديبا عن أدلة

---

(١) يقال: تماثل المريض: إذا قارب الشفاء.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٧٠٥)، وأبو داود في الحدود (٤٤٧٣)، والترمذي في الحدود (١٤٤١)، وأحمد (١/ ٨٩، ١٢١، ١٤٥).

قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ١٦١) «واختلف في وقفه ورفعه، والراجح أنه موقوف لكن سياق مسلم يدل على رفعه فالتمسك به أقوى».

(٣) في «فتح الباري» (١٢/ ١٦١- ١٦٣).

(٤) في «زاد المعاد» (٥/ ٤٤).

(٥) في «أضواء البيان» (١/ ٣٣٨).

أصحاب القول الثاني بعدة أجوبة، فأجابوا عن حديث أبي هريرة وزيد بن خالد- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «**إذا زنت فاجلدوها...**» الحديث.

قالوا: فلم يوقت في هذا الحديث عددًا كما وقت في المحصنة بنصف ما على المحصنات من العذاب. فدل على أن هذا الجلد تعزير فقط.

وأجابوا عن حديث علي: «**أيها الناس أقيموا الحدود على أرقائكم من أحصن ومن لم يحصن فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها...**» بأن هذه قضية عين[١].

وأجابوا عن حديث أبي هريرة: «**إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد..**» الحديث بأن هذا إما محمول على الأمة المزوجة، أو أن لفظ «الحد» في هذا الحديث لفظ مقحم من بعض الرواة.

قال ابن كثير[٢]: «لأن الحديث جاء من رواية صحابيين أبي هريرة وزيد بن خالد، وهذا من رواية أبي هريرة فقط، وما كان من اثنين فهو أولى بالتقدم من رواية واحد، وأيضًا فقد رواه النسائي بإسناد على شرط مسلم من حديث عباد بن تميم عن عمه، وكان شهد بدرًا أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زنت الأمة فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضفير» ولا يبعد أن يكون بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد أو على التأديب؛ لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد».

وأجاب ابن القيم[٣] عن ذكر الحد في حديث أبي هريرة وحديث علي: «بأن هذا لا يبطل أن يكون جلدها قبل الإحصان تعزيرا لا حدًا، فإن التعزير يدخل تحته لفظ الحد في لسان الشارع، كما في قوله ﷺ: «لا يضرب فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله تعالى»[٤].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٣٠).

(٣) في «زاد المعاد» (٥/ ٤٣- ٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٤٨) ومسلم في الحدود (١٧٠٨)، وأبو داود في الحدود (٤٤٩١)، والترمذي في الحدود (١٤٦٣)، وابن ماجه في الحدود (٢٦٠١)، من حديث أبي بردة عن النبي ﷺ.

وقد ثبت التعزير بالزيادة على العشرة جنسًا وقدرًا في مواضع عديدة، لم يثبت نسخها، ولم تجمع الأمة على خلافها».

قالوا: فعلى هذا لا تدل هذه الأحاديث على أن الأمة إذا زنت ولم تحصن عليها الحد، بل تدل على أن عليها الجلد تعزيرا وتأديبا، وبهذا تجتمع الآية والأحاديث.

وقال ابن القيم أيضًا(١): «وعلى كل حال فلابد أن يخالف حالها بعد الإحصان حالها قبله، وإلا لم يكن للتقييد فائدة، فإما أن يقال: قبل الإحصان لا حد عليها والسنة الصحيحة تبطل ذلك، وإما أن يقال حدها قبل الإحصان حد الحرة وبعده نصفه(٢)، وهذا باطل قطعًا مخالف لقواعد الشرع وأصوله، وإما أن يقال: جلدها قبل الإحصان تعزير وبعده حد، وهذا أقوى.

وإما أن يقال: الافتراق بين الحالتين في إقامة الحد لا في قدره، وأنه قبل التزويج يقيمه السيد وبعد التزويج يقيمه الإمام، وهذا أقرب ما يقال».

٣٧- أنه لا رجم على الأمة إذا زنت ولو كانت محصنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، والرجم لا يتنصف(٣).

٣٨- الإشارة إلى أن عند الإماء من دنو المنزلة ما لا يمنعهن من الزنا؛ لأن الله ذكر حكمهن إذا زنين بين الشروط في نكاحهن، فقال تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولًا..﴾ الآية ثم قال: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

٣٩- يشترط لجواز نكاح الإماء خوف المشقة والوقوع في الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ وهذا هو الشرط الثاني، والشرط الأول هو عدم

---

(١) في «زاد المعاد» (٥/ ٤٣- ٤٤).

(٢) هذا هو المشهور عن داود الظاهري قال: إذا زنت ولم تحصن فعليها الجلد مائة جلدة لعمومات الكتاب والسنة، وأما بعد الإحصان فعليها خمسون جلدة بدليل الآية. وهذا في غاية الضعف، بل مناف للحكمة ولقواعد الشريعة؛ إذ كيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد من حكمها بعد الإحصان. انظر المحلى (١١/ ١٦٠).

(٣) العجيب أن أبا ثور قال إذا زنت الأمة المحصنة فعليها الرجم، وقبل الإحصان عليها الجلد خمسون جلدة فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم قال الشافعي «لم يختلف المسلمون في أنه لا رجم على مملوك في الزنا». انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣١).

استطاعة الطول لنكاح الحرة كما سبق.

هذان هما الشرطان الخاصان في جواز نكاح الإماء.

وقد اعتبر بعض أهل العلم شرطين آخرين، وهما أن تكون الأمة مؤمنة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وأن تكون عفيفة؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾. فتكون شروط نكاح الأمة أربعة شروط، ولاشك أن هذه الشروط كلها معتبرة. إلا أن الشرط الثالث والرابع، وهما كونها مؤمنة، وكونها عفيفة. هذان الشرطان ليسا خاصين في نكاح الأمة، بل هما معتبران في نكاح الأمة والحرة على حد سواء، فلا يجوز نكاح الحرة إلا أن تكون مؤمنة؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] إلا أنه خص من هذا حرائر أهل الكتاب بدليل قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

ولا يجوز نكاح أي امرأة حرة كانت أو أمة إلا إذا كانت عفيفة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، بل لا يجوز وطء الأمة بملك اليمين إلا إذا كانت عفيفة(١).

٤٠- أن المباح أن ينكح الرجل أمة واحدة إذا لم يستطع طولًا لنكاح الحرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾؛ لأنه بنكاح واحدة يزول هذا المعنى، وهذا قول جمهور أهل العلم منهم الشافعي(٢)، وأحمد(٣)، وإسحاق وأبو ثور(٤) وغيرهم.

---

(١) اشترط بعض أهل العلم كبعض فقهاء الحنابلة أن لا يجد ثمن أمة، فإن وجد ثمن أمة لم يجز له أن يتزوج الأمة؛ لأنه بوطء الأمة بالملك يزول ما يخشاه من المشقة وخوف الوقوع في الزنا، ووطء الأمة بملك اليمين عز وشرف عند العرب، بخلاف نكاح الإماء فهو مستهجن عندهم، وأيضًا فإن ولد الأمة من سيدها حر بخلاف ولد الزوج الحر من الأمة فهو رقيق ملك لسيدها ما لم يشترطه الزوج كما أن ولد الزوج الرقيق منها رقيق. والصحيح عدم اعتبار هذا الشرط؛ لأنه لا دليل عليه، بل ظاهر الآية عدم اشتراطه.

(٢) انظر: «الحاوي» (٩/ ٢٣٩).

(٣) انظر: «المغني» (٩/ ٥٥٥، ٥٥٦).

(٤) انظر: «المغني» (٩/ ٥٥٥، ٥٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٩).

خلافًا لما ذهب إليه بعض أهل العلم كأبي حنيفة، ومالك[1] من أنه يجوز له الزواج بأربع من الإماء، كما هو الحال في الحرائر. وخلافًا لما ذهب إليه بعضهم أن له أن يتزوج اثنتين قياسًا على زواج العبد حيث يباح له نكاح اثنتين.

٤١- أن الصبر عن نكاح الإماء خير مطلقًا، وأولى من نكاحهن، وإن كان مباحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٤٢- نقص مرتبة الرق عن مرتبة الحرية، وقد دلت الآية على هذا في موضعين منها الأول: أن الله اشترط لنكاح الإماء عدم وجود الطول لنكاح الحرائر، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، والثاني: أن الله ذكر أن الصبر عن نكاحهن أولى مع توفر شروط جوازه، فقال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٤٣- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٣٩).

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

لما بيّن الله ﷻ في الآيات السابقة ما حرم وما أحل من النساء، وأنه ﷻ أباح نكاح الإماء بشروط، وأن حدهن إذا أحصن، وأتين بفاحشة نصف حد الحرائر، أتبع ذلك ببيان أنه ﷻ يريد بما شرع من هذه الأحكام وغيرها البيان للعباد، وهدايتهم الطرق الحميدة التي هدى إليها من قبلهم، والتوبة عليهم، والتخفيف عنهم في الأحكام.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، أي: يريد الله فيما أنزل من الآيات، وفيما شرع من الأحكام؛ ليبين لكم.

وإرادة الله نوعان: إرادة شرعية كما في هذه الآية، وكما في قوله بعدها: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، وكقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وإرادة كونية، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والفرق بين الإرادتين أن الإرادة الكونية بمعنى المشيئة تتعلق بكل ما شاءه الله سواء كان محبوبًا لله، أو مكروها له. ولابد فيها من وقوع المراد؛ لأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة الشرعية فهي بمعنى المحبة، تتعلق بكل ما يحبه الله ويرضاه فقط ولا

تستلزم وقوع المراد(١).

فإذا كانت الإرادة يصح أن يحل محلها: «أحب» أو «يحب»، فهي إرادة شرعية، وإذا كان يصح أن يحل محلها: «شاء» أو «يشاء»، فهي إرادة كونية.

﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللام زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، وهكذا يقال في كل لام جر بعد الإرادة فهي زائدة.

وهي هنا: إما لإفادة التعليل، وهي التي يقال لها «لام كي»، وإما للتعدية.

والتقدير: يريد الله كي يبين لكم، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف: ٨]. فالفعل «يبين» منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل.

أو يريد الله أن يبين لكم، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢].

والفعل «يُبَيِّن» منصوب بأن مضمرة، وهذا أظهر، ومفعول (يبين) محذوف، وحذف المفعول؛ ليعم بيان كل ما يحتاجون إليه، ومن ذلك بيان ما أحله لهم وما حرمه عليهم في هذه الآيات وغيرها، وليتأملوا في آيات الله الشرعية والكونية.

والمصدر المؤول من «أن» والفعل بعدها في محل نصب مفعول «يريد» تقديره: يريد الله البيان لكم.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٨٨، ١٠/ ٢٤- ٢٥)، «شرح الطحاوية» (١/ ٧٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر نوعي الإرادة ومتعلق كل منهما: «ولهذا كانت الأقسام أربعة أحدها: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع فأمر به وأحبه ورضيه وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك لما كان.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

الثالث: ما تعلقت به الإرادة لكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه وهو ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي». انظر «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٨٨- ١٨٩).

ومعنى قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي: يحب أن يبين لكم فيما ذكره في الآيات السابقة مما حرمه من النساء وما أحله منهن، وفيما أنزله من الآيات وفيما شرعه من الأحكام، بيانًا لفظيًّا وبيانا معنويًّا.

وقد بين الله ﷻ للعباد الآيات والأحكام، وفصلها لهم غاية البيان والتفصيل لفظًا ومعنى، فأنزل عليهم القرآن الكريم بأفصح اللغات لغة العرب، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

وجاءت أحكامه مفصلة مبينة، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦- ١٩] أي: علينا بيانه لفظًا ومعنى.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي: يريد الله البيان لكم وهدايتكم، والبيان ضد الجهل، والهدى ضد الضلال(١).

أي: ويريد أن يدلكم ويوفقكم؛ لأن الخطاب مع المؤمنين الذين جمع الله لهم بين الهدايتين فدلهم، ووفقهم؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين:

هداية الدلالة والإرشاد، وهذه عامة فالله هاد- على هذا المعنى- لجميع العباد ومرشد لهم بما أنزله من الوحي على رسوله ﷺ في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: دللناهم.

وقال ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والنور كمثل غيث أصاب أرضًا..**»

---

(١) انظر: «الدرر السنية» (١٠/ ٦٢).

الحديث(١).

كما أن الرسل والدعاة إلى الله والمصلحين هم هداة بهذا المعنى، يدلون الناس، ويرشدونهم إلى الخير. قال تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

والقسم الثاني: هداية التوفيق. وهذه خاصة بالله ﷻ، فهو ﷻ يوفق من شاء لسلوك طريق الحق بفضله، ويخذل من شاء بعدله.

قال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وذلك حين عزَّ عليه ﷺ أن يموت عمه أبو طالب على الكفر، وقد كانت له الأيادي البيضاء في الدفاع عنه. فدعاه ﷺ وأرشده ودله على طريق الحق حتى في آخر لحظة من لحظات حياة أبي طالب كان ﷺ جالسًا عند رأس عمه يقول: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**». وكان عنده عبدالله بن أمية فقال له: «**قل بل على ملة عبد المطلب. فمات وهو يقول: بل على ملة عبد المطلب**»(٢).

فأنزل الله هذه الآية تبين للنبي ﷺ وللأمة أجمع أن هداية التوفيق للإيمان خاصة بالله ﷻ.

﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ﴿سُنَنَ﴾: جمع سنة، وهي الطريقة.

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الرسل والأنبياء وأتباعهم الصالحين من أهل الكتاب وغيرهم من الأمم الذين أرسلهم الله إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب.

والمراد بسننهم ما كانوا عليه من أصول الشرائع التي تتفق عليها جميع الشرائع كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكما قال ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٩)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٢)، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، وأبو داود في السنة =

وأولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. ومراده ﷺ أن أصول دينهم واحد وفروع شرائعهم مختلفة[١]، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

دون السنن الباطلة التي سنوها مما لم يشرعه الله، كما قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»[٢].

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على «يبين»، أي: ويريد أن يتوب عليكم أي: يوفقكم للتوبة، وهي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، ويقبلها منكم؛ لأن توبة الله على العبد نوعان:

أحدهما: توفيق الله للعبد للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] بمعنى وفقهم للتوبة ليتوبوا.

الثاني: قبولها من العبد إذا تاب، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع التام الذي وسع كل شيء.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام النافذ، وذو الحكمة البالغة، فهو حكيم بمعنى حاكم، له الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، وهو حكيم بمعنى: محكم، له الحكمة الغائية والحكمة الصورية، حكيم في خلقه وشرعه وأمره ونهيه.

ومن علمه ﷻ وحكمته أن شرع هذه الأحكام، وبين ما أحل من النساء وما حرم منهن، وأباح نكاح الإماء بشروط.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟

=
(٤٦٧٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي».

(١) انظر: «النهاية» مادة «علل».

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد ﷺ.

مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا توكيد لقوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ في الآية السابقة وتوطئة ومقابلة لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

فالله يريد هذه الإرادة، والذين يتبعون الشهوات يريدون هذه الإرادة، وشتان ما بين الإرادتين، إرادة الله بيان الحق والهداية له والتوبة على العباد، وإرادة أتباع الشهوات إبعاد الناس عن الحق وصرفهم عنه.

﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول يريد، تقديره: والله يريد التوبة عليكم.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي: ويريد أتباع الشهوات عمومًا من أهل الكفر والفسوق والفجور والعصيان، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩].

والشهوات: جمع شهوة، وهي ما يغلب على النفس محبته وهواه وهي من أمراض القلوب.

وأمراض القلوب المعنوية نوعان: مرض شهوة ومرض شبهة، ومرض الشهوة ثلاثة أقسام: شهوة فرج، وشهوة بطن، وشهوة اتباع الهوى، وهي أشدها.

فشهوة الفرج والبطن تدفع الإنسان إلى استباحة ما حرم الله من الفروج والمآكل، كما هو حال من يستبيحون نكاح المحارم، ونكاح المتعة، وشهوة اتباع الهوى تحمل المرء على رد الحق وقبول الباطل. ومرض الشبهة أشد من ذلك كله.

﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ «أن» والفعل «تميلوا» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ «يريد»، والتقدير: ويريد الذين يتبعون الشهوات ميلكم.

﴿مَيْلًا﴾: مفعول مطلق، و﴿عَظِيمًا﴾ صفة له.

والميل: هو الانحراف والعدول عن الحق والخروج عن قصد السبيل.

والمراد به هنا: الانحراف والعدول عن الطريق المستقيم والمنهج القويم الذي رسمه الله لعباده.

أي: ويريد أتباع الشهوات أن تنحرفوا عما يريد الله لكم من الاستقامة على هدى

الله وسلوك طريق الحق، والأخذ بأسباب التوبة بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

أي: يريدون أن تتركوا سلوك طريق الحق وتسلكوا طريق الباطل.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، أي: في مقابل ضعفكم ولهذا قال بعد: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، و«أن» والفعل «يخفف» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به تقديره: يريد الله التخفيف عنكم.

والتخفيف: ضد التشديد والتثقيل، والمعنى: يريد الله أن يخفف عنكم وييسر عليكم فيما شرعه لكم في أوامره ونواهيه، ولهذا أباح نكاح الإماء بشروط.

وقد خفف الله ﷻ على هذه الأمة قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ: «**ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**»(١).

فخفف ﷻ على العباد في الأوامر، ففي باب الطهارة أباح الله لمن لم يتمكن من الوضوء والاغتسال بالماء أن يتيمم بالصعيد قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وفي باب الصلاة أباح القصر للمسافر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ، وأخرج أحمد أيضًا نحوه (٦/ ١١٦، ٢٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال ﷺ: «**صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب**» الحديث[١].

إلى غير ذلك وأمثال هذا كثير في جميع الأوامر في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر العبادات والمعاملات، قال ﷺ: «**وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»[٢] وقال ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «**عليكم بما تطيقون**»[٣].

وخفف ﷻ عليهم في النواهي: قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [المائدة: ٣] فحرم الله الأكل مما ذكر في هذه الآية، ثم استثنى حال الضرورة، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]؛ أي: فليس بحرام.

كما أباح لهم هنا في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]: نكاح الإماء بشروط.

فخفف الله عن هذه الأمة في الأوامر والنواهي، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [التغابن: ١٦]، أي: بفعل ما استطعتم من الأوامر واجتناب ما استطعتم من النواهي.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، الواو استئنافية، ﴿ضَعِيفًا﴾: حال، أي: حال كونه

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١١٧)، وأبو داود في الصلاة (٩٥٢)، والترمذي في الصلاة (٣٧١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٢٣) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢)، وأبو داود في الصلاة (١٣٦٨) والنسائي في القبلة (١٦٤٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣٨)، ومالك في النداء للصلاة (٤٢٢).

ضعيفًا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤].

أي: ضعيفًا في جسمه، ضعيفًا في علمه، ضعيفًا في عزمه وإرادته، ضعيفًا أمام نوازع النفس وغرائزها، ضعيفًا في كل أموره وأحواله.

قال ابن القيم(١): «فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صبب الحدور، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه».

وجملة ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ فيها تعليل لقوله قبل هذا ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي يريد الله أن يخفف عنكم فيما شرعه لكم من الشرائع؛ لأن الإنسان خلق ضعيفًا، فجاءت الشرائع مناسبة لحاله.

وفي حديث الإسراء أنه ﷺ مر على موسى- عليه الصلاة والسلام- فقال له موسى: «**ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إليَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك، فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماعا وأبصارا وقلوبا. فرجع فوضع عشرا ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمسًا..**»(٢).

وما أحسن تأمل هذا المعنى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾؛ ليعرف الإنسان قدر نفسه ومدى ضعفه، وليستمد القوة من القوي العزيز تبارك وتعالى، بالاعتصام بحبله، والفرار والالتجاء إليه، والتوكل عليه.

---

(١) في «طريق الهجرتين» ص (٢٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٧) ومسلم في الإيمان (١٦٢)، وأبو داود في الصلاة ٧٨٤)، والنسائي في الصلاة (٤٤٩)، والترمذي في التفسير (٣٣٥٩، ٣٣٦٠)، وأحمد (٣/ ١٤٩، ٤/ ٢٠٨-٢٠٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري أيضًا في بدء الخلق (٣٢٠٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٤)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٦)، والنسائي في الصلاة (٤٤٨)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾.

وهذا يشمل الإرادة الشرعية والكونية؛ لأن الخطاب مع المؤمنين وقد أراد الله البيان لهم شرعًا وكونا.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين(١): «فهو تعالى يريد إرادة أزلية سابقة لفعله وهو ملكه- سبحانه وتعالى- لكل ما سيكون، ويريد إرادة حادثة، وهي الإرادة المقارنة للفعل».

٢- تعليل الله ﷻ للأحكام؛ ليحصل للمؤمنين المخاطبين بذلك تمام الاطمئنان والرضى وانشراح الصدور؛ ليقوموا بما أوجب الله عليهم على أحسن حال؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين ينفون الحكمة والعلة في أفعال الله، ويقولون: إنه يفعل لا لحكمة، بل لمجرد المشيئة؛ لأنه لو فعل لحكمة لقلنا هذا الفعل واجب عليه.

وعلى النقيض منهم المعتزلة الذين يغلون في إثبات الحكمة والعلة والسبب، ويقولون: إذا وجدت الحكمة والعلة كان فعل ذلك واجبًا على الله عقلًا.

وأهل السنة وسط في ذلك فهم يثبتون أن أفعال الله تعالى كلها لحكمة ومن حكمته أنه أوجب على نفسه فعل ما تقتضيه الحكمة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، كما حرم على نفسه فعل ما تقتضي الحكمة تحريمه، كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا**»(٢).

٣- فضل الله ﷻ وسعة رحمته بعباده، حيث بيّن لهم ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم، وهداهم لأحسن الطرق؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ

---

(١) في كلامه على هذه الآية في تفسيره (١/ ٢٤٠ تفسير سورة النساء).

(٢) أخرجه من حديث طويل عن أبي ذر ﷺ مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٨).

سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

٤- إقامة الحجة على العباد بما بين الله لهم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، وقد بين سبحانه الشرع غاية البيان، وفصَّله أتم التفصيل. قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فليس في الشرع شيء يخفى على كل أحد، وإنما قد يخفى على بعض الناس إما لقلة العلم، وإما لقلة الفهم، وإما لتقصير في الطلب، وإما لسوء القصد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «فمن غلط في فهم القرآن فمن قصوره أو تقصيره».

٥- أن أصول الشرائع واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٦- أن هذه الأمة المحمدية أفضل الأمم، وشريعتها أكمل الشرائع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فجمع الله لها بين أصول ومحاسن الأديان السابقة مع ما في دينها من الكمالات، حيث اختار الله لها أفضل رسول، وأنزل عليها أفضل كتاب، وخصَّها بأفضل تشريع، واختارها من بين الأمم، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.

٧- إثبات هداية الدلالة والتوفيق لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: يدلكم عليها ويوفقكم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: هديناهم هداية الدلالة والإرشاد والبيان،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٧٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، أي: هداية التوفيق والقبول الخاصة بالله ﷻ.

٨- أن اتباع سنن الأمم السابقة المحمودة من أصول الشرائع والدعوة إلى الخير والتحذير من الشر ونحو ذلك أمر مأمور به ومشروع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

بخلاف السنن غير المحمودة فاتباعها منهي عنه. قال ﷺ: محذرًا مخبرًا: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»(١).

وقال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(٢).

وقال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة..**»(٣).

٩- أن الله تعالى يريد من العباد أن يتوبوا إليه، ويحب ذلك منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ويريد أن يتوب عليكم، أي: يحب ذلك سبحانه؛ لأن الإرادة الشرعية بمعنى المحبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دويَّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، من حديث الزبير بن العوام ﷺ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، من حديث أبي هريرة ﷺ. وصححه الألباني.

وزاده»[١].

١٠- الترغيب في التوبة والحث عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

١١- أن من صفته ﷻ التوبة على من تاب وأناب إليه توفيقًا لعبده أن يتوب، وقبولها منه إذا تاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

١٢- إثبات صفة العلم لله ﷻ وأنه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء سبحانه.

وإثبات صفة الحكم التام لله ﷻ؛ الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة له ﷻ بقسميها الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

فأحكامه وأوامره الكونية والشرعية صادرة عن علم تام وحكمة بالغة مما يوجب على العبد الاقتناع بذلك والرضى والتسليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١٣- وجوب مراقبة الله تعالى في جميع الأحوال في السر والعلن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ وهذا يوجب مراقبته سبحانه، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

١٤- توكيد إرادته ﷻ للتوبة، ومحبته لها ترغيبًا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٥- التوطئة والتمهيد لذكر الشيء ففي تكرار قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ مع توكيد ما سبق توطئة وتمهيد لذكر إرادة أتباع الشهوات، ولهذا قال بعده: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الآية.

كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨)، ومسلم في التوبة (٣٧٤٤).

فذكر المحصنات من المؤمنات تمهيدًا وتوطئة لذكر المحصنات من أهل الكتاب.

١٦- الإشارة إلى أن الشيء يعرف بضده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ فالله يريد شيئًا وهم يريدون خلافه.

١٧- الإرشاد إلى أنه ينبغي للإنسان اتباع طريق الداعي إلى الخير، والحذر من دعاة الشر، من أتباع الشهوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

١٨- علم الله تعالى بما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾، والإرادة محلها القلب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

١٩- أن أتباع الشهوات من أهل الكفر والفسوق والعصيان والفجور يحبون أن ينحرف المؤمنون عن الحق الذي يريده الله منهم انحرافًا عظيمًا فيكفروا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

وهكذا كثير من أصحاب البدع والمعاصي غالبًا يحبون أن يكون الناس على ما هم عليه.

اللهم إلا الوالد غالبًا فإنه إذا كان عنده شيء من المعاصي لا يحب أن يقع فيها أولاده، بل تجده غالبًا يخفي ذلك عنهم؛ ولهذا قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، إنه حتى الأب الفاسق يحب أن يكون أولاده صالحين.

٢٠- الإشارة إلى أنه لا مقارنة بين ما يريده الله لعباده، وبين ما يريده لهم أهل الشهوات.

فالله ﷻ يريد لعباده البيان والهداية لخير الطرق وإلى التوبة، وفي ذلك سعادة الدارين بينما يريد منهم أتباع الشهوات الانحراف عن الحق إلى الباطل فتتحقق لهم شقاوة الدارين، وشتان بين الإرادتين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعا فما الضدان يجتمعان[١]

٢١- وجوب الحذر من أتباع الشهوات من الكفرة وأهل البدع والفساق والعصاة وأهل الفجور؛ لأنهم يريدون لنا الانحراف عن الحق إلى الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾.

٢٢- ضرر الشهوات وخطرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[٢].

٢٣- الإشارة إلى أن اتباع الشهوات ذل وهوان؛ لأن من اتبعها فقد ملكته وصار تابعًا لا متبوعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

٢٤- أن أتباع الشهوات لا يكفيهم إلا أن يميل المؤمنون عن الحق ميلا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾، لا أدنى ميل، بل يريدون نقلهم من الحق إلى الباطل.

٢٥- أن الله يحب التخفيف على العباد والتيسير عليهم فيما شرع لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾.

ولهذا أباح نكاح الإماء لمن لم يستطع طولًا لنكاح الحرة وخشي على نفسه العنت، كما رخص لهم في التيمم لمن لم يستطع استعمال الماء في الطهارتين الكبرى والصغرى، ورخص لهم في قصر الصلاة في الخوف والسفر إلى غير ذلك.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦].

٢٦- الأخذ بأيسر القولين فيما اختلف فيه أهل العلم، وسوغوا فيه الاجتهاد؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾[٣].

---

(١) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص (١١).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)، والدارمي في الرقاق (٢٨٤٣)، من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (/ ١٧١).

٢٧- الإشارة إلى أنه ﷻ يحب أن تؤتى رخصه؛ لأنها من التخفيف والتيسير؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، أي: يحب أن يخفف عنكم فيما شرع، لتأخذوا به عند اقتضاء الحال ذلك. وفي الحديث: «**إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**»(١).

٢٨- مراعاة الشرع لأحوال المكلفين؛ لقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، أي: فناسبه التخفيف في الأحكام.

٢٩- الرد على الجبرية وإبطال قولهم: إن الله يكلف العبد ما لا يطيق؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾.

٣٠- ضعف الإنسان في كل أموره وأحواله؛ في جسمه، وإرادته، وأمام نوازع النفس، ونوازع الشهوة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

٣١- تذكير الإنسان بضعفه فلا يتكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

٣٢- جواز حذف الفاعل إذا كان معلومًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ لأنه معلوم أن لا خالق إلا الله.

٣٣- الحكمة في التعبير بقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ بالبناء للمفعول أن ما كان مكروها للعبد فلا يضاف إلى الله مباشرة وإن كان هو الخالق ﷻ، كما في قوله عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وقال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وفي الحديث: «**والشر ليس إليك**»(٢).

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨) من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٦٢) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. والبزار والطبراني في الأوسط وإسناده حسن».
وقال أحمد شاكر في تخريجه للمسند «إسناده صحيح» حديث (٥٨٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾.

بيَّن الله ﷻ في الآيات السابقة ما حرمه من النساء وما أحله منهن، صيانة للأعراض، ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل، وقتل الأنفس، وأمر باجتناب الكبائر صيانة للأموال والأنفس والدين.

وهذه من الضروريات الخمس التي جاء الشرع بالمحافظة عليها، وهي الدين والنفس والعقل والعرض والمال.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، «لا» ناهية، ﴿تَأۡكُلُوٓاْ﴾ مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف النون.

﴿أَمۡوَٰلَكُم﴾ جمع مال، وهو اسم لكل ما يتمول ويملك من النقود والأعيان والديون والمنافع وغير ذلك.

وأضاف الأموال إلى الجميع ولم يقل: لا يأكل بعضكم مال بعض. تنبيها على وجوب تكافل المؤمنين في حقوقهم ومصالحهم، وأنه كما أن الشخص لا يحب أن يؤكل ماله بالباطل كذلك ينبغي ألا يأكل مال أخيه بالباطل، بل ولا يحب أن يؤكل مال أخيه بالباطل، فهم كأعضاء الجسد الواحد، الضرر في عضو منها يؤثر على بقية الأعضاء، كما مثل ذلك المصطفى ﷺ في قوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»(١).

﴿بَيۡنَكُم﴾، أي: في التعامل بينكم، ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، الباطل في الأصل: الهالك

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

الضائع الزائل الذي لا خير فيه. قال لبيد[١]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

أي: إلا نعيم الجنة.

والمراد بالباطل هنا: ما ليس بحق، وهو كل ما خالف الشرع؛ لأن الشرع حق، وما خالفه فباطل.

والمعنى: لا تأكلوا أموالكم في تعاملكم فيما بينكم بالطرق المحرمة المخالفة للشرع؛ كالربا والقمار والغش والكذب والنجش والتدليس وسائر المعاملات المخالفة للشرع، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وأخذ الأموال بالطرق المحرمة لأي غرض كان من وجوه الانتفاع بها كل ذلك باطل، وإنما خص الأكل بالنهي؛ لأن الأكل هو كسوة الباطن، وهو الهدف الأهم، والمقصود الأعظم من الأموال.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ إلا: أداة استثناء بمعنى «لكن» تفيد الاستدراك، والتقدير: لكن تجارة عن تراض منكم غير منهي عنه[٢].

فالاستثناء منقطع؛ لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فالمستثنى منه: أكل المال بالباطل، والمستثنى «كون تجارة عن تراض منا»، وهذا جائز، وليس من أكل المال بالباطل.

قال أبو حيان[٣]: «إلا أن تكون تجارة استثناء منقطع لوجهين: أن التجارة لا تندرج في الأموال، الثاني أن الاستثناء إنما وقع على الكون. والكون معنى من المعاني، وليس مالًا من الأموال».

وقال الحافظ ابن كثير[٤]: «وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب

---

(١) انظر: «ديوانه» ص (٢٥٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٦٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٩١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٥١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٤).

(٣) في «البحر المحيط» (٣/ ٢٣١).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٢٣٤).

المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال».

﴿أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ «أن» حرف مصدري ونصب، «تكون» منصوب بها، وعلامة نصبه الفتحة.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿تِجَٰرَةً﴾ بالنصب على اعتبار «كان» ناقصة، وخبرها: «تجارة». واسمها ضمير مستتر تقديره: هي، يعود إلى الأموال، والتقدير: إلا أن تكون الأموال التي تأكلونها بينكم تجارةً عن تراض منكم.

وقرأ الباقون: «تجارةٌ» بالرفع، على أنها فاعل «كان»، على اعتبار «كان» تامة، تستغني بفاعلها عن الخبر.

والتقدير: إلا أن تقع تجارةٌ، أو تحدث تجارةٌ أو توجد تجارةٌ. كما قيل:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... إذا كان يوم ذو كواكب أشهب(١)

والتجارة هي: عقود المعاوضات التي يطلب بها الربح مثل البيع والشراء والإجارة ونحو ذلك(٢).

أما ما لا يطلب فيه الربح كالقرض والصدقة والهدية والعارية والرهن والعطية وكشراء الشيء لحاجة أكله، ونحو ذلك من أنواع التعامل فهي جائزة بأدلة الكتاب والسنة، ومن شرطها التراضي كذلك، لكنها لم تذكر لأنها ليست من التجارة؛ لأنه لا يقصد بها طلب الأرباح.

قال ابن العربي(٣): «لما شرط العوض في أكل المال وصارت تجارة خرج عنها كل عقد لا عوض فيه يرد على المال كالهبة والصدقة».

---

(١) البيت من شواهد سيبويه، ولم أقف على قائله. انظر «اللسان» مادة «شهب»، «البحر المحيط» (٣/ ٢٣١).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٧٢)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٣٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٠٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٥١- ١٥٢).

وتطلق التجارة على جزاء الأعمال في الآخرة في الجنة لأن ذلك أعظم الربح قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] وقال تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

(٣) في «أحكام القرآن» (١/ ٤٠٨).

وقال أبو حيان[١]: «لا يدل هذا على الحصر في أنه لا يجوز أكل المال إلا بالتجارة فقط، بل ذكر نوع غالب من أكل المال به وهو التجارة، إذ أسباب الرزق أكثرها متعلق بها».

﴿عَن تَرَاضٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«تجارة»، تقديره: صادرة عن تراض منكم.

ومعنى ﴿عَن تَرَاضٍ﴾: أي عن رضى من الطرفين: البائع والمشتري، أو المؤجر والمستأجر، وهكذا، ولهذا جاء على صيغة «تفاعل»؛ لأنه من جانبين[٢].

﴿مِّنكُمْ﴾ يعني المتعاقدين.

والمعنى: لكن إن وقعت تجارة بينكم حاصلة عن رضى منكم أيها المتعاقدون فذلك مباح لكم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

فبعد أن نهى عن أكل المال بالباطل صيانة للأموال أتبع ذلك بالنهي عن القتل صيانة للأنفس والأبدان.

والقتل: هو إزهاق النفس، بأي وسيلة كان ذلك.

﴿أَنفُسَكُمْ﴾ جمع نَفْس أي: لا يقتل أحدكم نفسه؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان، يجب أن يوردها موارد السلامة، ويجنبها موارد الهلاك والعطب في دينها ودنياها.

وأيضًا: لا يقتل بعضكم بعضًا؛ لأن قتل المسلم لأخيه المسلم بمثابة قتله لنفسه[٣].

كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أي: ليسلم بعضكم على بعض، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا يلمز بعضكم

---

(١) في «البحر المحيط» (٣/ ٢٣١).

(٢) وقد حمل بعضهم التراضي هنا على تخيير كل واحد من المتبايعين الآخر على إمضاء البيع أو فسخه أو التفرق من مجلسهما بأبدانهما. انظر «جامع البيان» (٨/ ٢٢٢- ٢٢٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٨)، والأظهر أن المراد الرضى بين الطرفين.

(٣) وقد قيل إن مما يدخل تحت الآية ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قتل النفس وإهلاكها بارتكاب المعاصي ولكن حمل الآية على هذا فيه بعد فالظاهر أن المراد بالآية القتل حقيقة انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤١١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٥).

بعضًا؛ لأن الإنسان لا يلمز نفسه وإنما يلمز غيره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ الجملة تعليل للنهي عن أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس.

فمن رحمته ﷻ بنا أن نهانا عن أكل الأموال بيننا بالباطل وأحل لنا التجارة بيننا عن تراض منا، ونهانا عن قتل الأنفس صيانة للأموال والأنفس.

قال الطبري(١): «ومن رحمته بكم كفّ بعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنون بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظر أكل مال بعضكم على بعض بالباطل إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتم وأهلك بعضكم بعضًا قتلًا وسلبًا وغصبًا».

وقال ابن كثير(٢): «﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه».

و«كان» مسلوبة الزمن تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها على الدوام والاستمرار في جميع الأوقات.

قال الطبري(٣): «فإنه يعني أن الله- تبارك وتعالى- لم يزل رحيما بخلقه».

﴿بِكُمۡ﴾ أيها المؤمنون لأن الخطاب معهم في أول الآية في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، الواو عاطفة، و«من» شرطية، و«يفعل» فعل الشرط. «ذلك» الإشارة لما نهى الله عنه في الآية السابقة من أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس.

﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ مصدران منصوبان على الحال، أي: حال كونه معتديا ظالما، أو على أنهما مفعولان لأجله.

---

(١) في «جامع البيان» (٨/ ٢٢٩).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٣٥).

(٣) في «جامع البيان» (٨/ ٢٢٩).

ومعنى ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾، أي: تجاوزًا لما حده الله، واعتداءً على الآخرين عن قصد وعمد بأكل أموالهم أو قتلهم، وظلما لنفسه بهذا التعدي على الغير، أو ظلمًا لها خاصة.

والظلم في الأصل النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه[١] على سبيل العدوان.

قال ابن كثير[٢]: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾، أي: ومن يتعاط ما نهاه الله عنه متعديا فيه ظالما في تعاطيه، أي: عالمًا بتحريمه، متجاسرًا على انتهاكه».

وقيل: العدوان والظلم بمعنى واحد، وعطف أحدهما على الآخر، وإن كانا مترادفين من باب التوكيد، كما في قوله يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

قالوا: فالبث بمعنى الحزن.

وكقول عدي بن زيد[٣]:

وقدَّمت الأديم لراهشيه ... وألفى قولها كذبًا ومينا

فالمين هو الكذب.

والأظهر أن العدوان والظلم من الكلمات المترادفة، التي إذا أفردت دل كل منها على معنى الأخرى، وإذا ذكرت جميعًا حمل كل منها على معنى كالإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والفقير والمسكين ونحو ذلك.

وهذا أولى؛ لأن التأسيس- وهو حمل الكلام على معنى جديد- أولى من التكرار والترادف والتوكيد.

وأيضًا فإن الأصل في العطف أنه يقتضي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر، وأن بينهما مغايرة إما في الذات أو الصفات.

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٥٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٣٦).

(٣) البيت في ذيل «ديوانه» ص(١٨٣).

ويفهم من قوله: ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ أن من فعل ذلك جهلا أو خطأ أو نسيانا أو مكرهًا فلا إثم عليه، إلا أنه يطالب بحقوق الآدميين.

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء لوجود سوف.

﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾ «نصلي» فعل مضارع، والضمير الهاء في محل نصب مفعول أول، و«نارًا» مفعول ثانٍ.

وعبَّر سبحانه عن نفسه بضمير العظمة «النون»؛ لأنه ﷻ هو العظيم ذو العظمة التامة.

ومعنى ﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾: ندخله نارًا نغمره فيها من جميع جهاته، تحرقه ويصلاه حرها.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه: إصلاؤه النار.

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلًا؛ لأن الله لا يعجزه شيء، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ولا يمانعه أحد في ملكه كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤، ١٥].

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

لما نهى ﷻ في الآيتين السابقتين عن أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس بغير حق صيانة للأموال والأنفس، وذكر الوعيد لمن فعل ذلك حث في هذه الآية على اجتناب الكبائر عمومًا صيانة للدين، وإشارة إلى أن أكل المال بالباطل وقتل الأنفس من جملة الكبائر.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، «إن» شرطية، «تجتنبوا» فعل الشرط، مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون، والاجتناب: ترك الشيء جانبا والابتعاد عنه.

وقوله: ﴿تَجْتَنِبُوا۟﴾ أبلغ من قول: حرمت عليكم الكبائر؛ لأن معنى اجتناب الشيء: البعد عنه، وعما يؤدي إليه، أي: إن تجتنبوا هذه الكبائر وعما يؤدي إليها.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، أي: ابتعدوا عن الزنا وما يؤدي إليه من النظر المحرم والخلوة بالأجنبية ونحو ذلك.

والكبائر: جمع كبيرة، وقد اختلف في تحديدها على أقوال عدة:

فقال بعض أهل العلم: الكبيرة كل ما نص على أنها من الكبائر كقوله في أكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، وكقوله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات..**» الحديث[١].

وكقوله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين..**» الحديث[٢].

واختار هذا القول الطبري، وساق الأحاديث في تعدادها[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**الكبائر: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب**»[٤].

وقال الضحاك: «الكبيرة ما رتب عليها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة»[٥] وبهذا قال الإمام أحمد[٦].

قال ابن عبد القوي في منظومته[٧]:

فما فيه حد في الدنى أو توعد ... فسم كبرى على نص أحمد

واختار هذا طائفة من العلماء[٨].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكبيرة: ما رتب عليه عقوبة خاصة دينية أو

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١)، والتفسير (٢٣٠١) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٤٨- ٢٥٤).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٦)- الأثر (٩٢١٢).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٧).

(٦) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٧).

(٧) المسماة بالدارية.

(٨) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٢٥).

دنيوية أو أخروية»[١].

فالعقوبة الدينية كقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «**والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه**»[٢].

وكقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣].

وكقوله ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**»[٤].

والعقوبة الأخروية كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»[٥] وقوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[٦].

والعقوبة الدنيوية: كقتل القاتل: ورجم الزاني المحصن، وجلد غير المحصن، وقطع السارق، وجلد القاذف وشارب الخمر ونحو ذلك.

وما قاله شيخ الإسلام أظهر؛ لأنه يندرج تحته بقية الأقوال.

وروي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «**الكبائر ما ذكر الله من أول سورة النساء إلى**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٧٣)، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «الجار لا يأمن جاره بوائقه». قالوا: يا رسول الله وما بوائقه؟ قال: «شره»، وأخرجه أحمد أيضًا بنحوه عن عبدالله بن مسعود (١/ ٣٨٧)، وعن أبي شريح الخزاعي (٤/ ٣١)، وأبي شريح الكعبي (٦/ ٣٨٥).

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣)، ومسلم في الإيمان (٤٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٦، ٥٠١٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٦)، والدارمي في الرقاق (٢٧٤٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٤)، ومسلم في الإيمان (١٠٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٠)، والترمذي في الجنائز (٩٩٩) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٦)، ومسلم في الإيمان (١٠٥)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧١)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٦) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الثلاثين منها»[١].

وقيل في تحديدها غير ذلك[٢].

وقد اختلفوا في عددها على أقوال عدة لا دليل على شيء منها[٣].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٣٣). وهذا- والله أعلم- يحتمل أن ابن مسعود ﷺ أراد به الكبائر المذكورة في السورة لا أنه لا كبائر سواها.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٩- ٣٦٧).

(٣) فقيل ثلاث كما جاء في حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قلنا بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». وقد سبق تخريجه.

وقيل أربع كما في حديث عبدالله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٥).

وقيل سبع كما جاء في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يارسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» سبق تخريجه.

وقيل: تسع. انظر «جامع البيان» (٨/ ٢٣٩).

وعن ابن عباس: «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع». وفي رواية عنه: «هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، ولكن لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٥- ٢٤٦)، الآثار (٩٢٠٦، ٩٢٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٤) الأثر (٥٢١٦).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «الكبائر محدودة لا معدودة». انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٠٩- ٤١٠).

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٣٧). بعد أن ذكر قول من قال: إنهن سبع، وحديث اجتنبوا السبع الموبقات قال: «فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن إلا عند من يقول بمفهوم اللقب وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولاسيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم..»

ثم ساق عددًا من الأحاديث المتضمنة غير هذه السبع منها غير ما تقدم:

حديث عبدالله بن مسعود قال قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم، وفي رواية: أكبر؟ قال: أن تجعل لله ندا وقد خلقك. قلت ثم أي: قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]» أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٢٠)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢).

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، =

والصحيح أن الكبائر غير محصورة بعدد، وأنها محدودة لا معدودة- كما قال الإمام أحمد رحمه الله.

﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ «ما» موصولة، أي: الذي تنهون عنه.

والنهي: هو طلب الكف على جهة الاستعلاء، أي: ممن هو أعلى لمن هو دونه، فإن كان ممن هو بمنزلته فهذا التماس، وإن كان ممن هو دونه فهو دعاء.

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ جواب الشرط: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾.

ومعنى ﴿نُكَفِّرْ﴾: نستر، مأخوذ من «الكَفْر» بفتح الكاف وسكون الفاء وهو الستر(١)، ومنه سميت الكفارة؛ لأنها تستر الذنب، وسُمِّي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر الحب في الأرض، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وهكذا.

﴿عَنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين.

﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾: «سيئات» جمع «سيئة»؛ سميت بذلك لأنها سيئة بنفسها وقبيحة.

ولأنها أيضًا تسوء مرتكبها حالًا ومآلًا، وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة، أو بأن يكون لها أثرها السيئ على البلاد والعباد عامة بمحق البركات وقلة الخيرات، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وفي الحديث: «**وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا**»(٢).

و«السيئات» في الأصل تطلق على الكبائر والصغائر، لكن المراد بها هنا الصغائر

= ويسب أمه فيسب أمه».

أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، وأبو داود في الأدب (٥١٤١).

وقد روي عن بعض السلف أن الذنوب كلها كبائر، وبه أخذ بعض الأشاعرة قال ابن فورك: «معاصي الله كلها كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة». والصحيح الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر وعلى هذا عامة أهل العلم.

(١) انظر: «لسان العرب» «القاموس المحيط» مادة «كفر».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

خاصة[١]؛ وذلك لأن الله ذكرها في مقابلة الكبائر فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ومن ذلك معرفة معنى الكلمة بذكر ما يقابلها كما قيل: «وبضدها تتميز الأشياء».

ومعنى الآية: أنكم إذا اجتنبتم كبائر ما نهيتم عنه من الذنوب والمعاصي فإن الله يكفر عنكم الصغائر ويسترها ويمحوها ويتجاوز عنها، فشرط ستر الصغائر والتجاوز عنها أن تجتنب الكبائر.

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ الجملة معطوفة على ما سبق، و«ندخلكم» بضمير العظمة تعظيمًا لنفسه ﷻ.

قرأ نافع المدني: «مَدْخلًا» بفتح الميم، والمراد به موضع الدخول، وهو منصوب على أنه اسم مكان مفعول به، أي: وندخلكم مكانًا كريمًا، وهي الجنة دار السلام.

ويحتمل كونه مصدرًا، أي: وندخلكم إدخالا كريمًا.

وقرأ الباقون: ﴿مُّدْخَلًا﴾ بضم الميم[٢]، يراد به المصدر وهو الإدخال، وهو مصدر ميمي، أي: ندخلكم إدخالًا كريمًا. ويحتمل كونه اسم مكان، أي: ندخلكم في مكان دخول كريم، كقوله تعالى: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠][٣].

﴿كَرِيمًا﴾: صفة لـ«مدخلًا» على القراءتين باعتباره مصدرًا ميميًّا، أو اسم مكان.

فالدخول كريم، ومكان الدخول كريم، وهي الجنة دار السلام، دار الكرم والفضل والإحسان، كما قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣١، ٣٢].

جعلنا الله ووالدينا وجميع المسلمين من أهلها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٥٦).

(٢) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٨٦- ٣٨٧)، «التبصرة» ص(٤٧٧)، «العنوان» ص(٨٤)، «النشر» (٢/ ٢٤٩).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٥٨- ٢٥٩)، «معاني القرآن إعرابه» للزجاج (٢/ ٤٦)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٩٥)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٦٤)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٣٥).

ومعنى «كريمًا»، أي: كثير الخير والفضل والإحسان طيبًا حسنًا مرضيًّا خاليًا من الآفات والعاهات والهموم والأحزان والأكدار.

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٣- الحث والحض على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ لأن في ندائهم بهذا الوصف ترغيبًا وحثًّا على الاتصاف به.

٤- أن امتثال ما ذكر بعد النداء بوصف الإيمان يعد من مقتضيات الإيمان وزيادته، وأن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان، كما قال عبدالله بن مسعود ﷺ: «**إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه**»(٢).

فمن مقتضى الإيمان تجنب أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس بغير حق، واجتناب الكبائر، وغير ذلك مما ذكر في هذه الآية وفي غيرها.

٥- الإشارة إلى الحقوق الواجبة والمستحبة في المال ووجوب التكافل بين المسلمين؛ لقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾ حيث أضاف الأموال إلى عموم المخاطبين، ولم يقل: لا يأكل بعضكم مال بعض، فكما أن الإنسان لا يرضى أن يستبيح غيرُه مالَه، فكذلك يجب عليه أن لا يستبيح أموال إخوانه المسلمين، وقد قال ﷺ في ضالة الغنم:

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٠٢٧).

«خذها، فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب»(١).

٦- تحريم أكل المال بالباطل، وذلك بالتعامل المحرم: كالربا والقمار والنجش وسائر البيوع المحرمة، حتى ولو حصل فيها التراضي بين الطرفين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، فخرج بهذا كل عوض لا يجوز.

٧- أهمية المال في الإسلام، ووجوب حفظه، وتحريم إضاعته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

٨- جواز أكل الأموال بطريق الهبة والصدقة ونحو ذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٩- جواز التعامل بالتجارة، وهي المعاوضة التي يطلب بها الربح إذا كانت عن تراض بين الطرفين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ﴾ (٢).

١٠- اشتراط التراضي في جميع عقود التجارة والمعاملات؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ فكل عقد لا يتم فيه التراضي بين الطرفين فهو باطل.

١١- أن العقود تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل؛ لأن الله شرط التراضي، فبأي طريق حصل التراضي انعقد العقد.

١٢- أنه متى وجد الرضى بين الطرفين صح العقد، سواء كان الرضى سابقًا للعقد- وهذا لا خلاف فيه، أو متأخرًا عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٢)، ومسلم في اللقطة (١٧٢٢)، وأبو داود في اللقطة (١٧٠٤)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥٠٤)، ومالك في الأقضية (١٤٨٢)، من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٢) وليس في الآية دليل لمن قال من أهل العلم: إن البيع يتم بالتفرق بالأقوال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ فقالوا الذي يطلق عليه «تجارة» هو الإيجاب والقبول. فإن التجارة هي المعاوضة التي يطلب بها الربح. وفي حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو يقول أحدهما للآخر اختر» الحديث أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٢)، ومسلم في البيوع (١٥٣١)، وأبو داود في البيوع (٣٤٥٤)، والترمذي في البيوع (١٢٤٥).

وهذا صريح أن البيع يحصل بالتفرق بالأبدان، كما ذهب إليه أكثر أهل العلم.

وهو المعروف بالتصرف الفضولي: كأن يشتري لشخص سلعة أو يبيعها له دون إذنه ورضاه، ثم يأذن بعد ذلك ويرضى.

وقد منع من هذا بعض أهل العلم. وظاهر الآية جواز ذلك كله، لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

١٣- تحريم أخذ أموال الغير بغير رضى منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

١٤- جواز طلب الرزق، والرد على من ينكر ذلك من المتصوفة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، بل إن طلب الرزق بطرق الكسب المباحة أمر مشروع ومأمور به، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فذكر الضرب في الأرض لطلب الرزق مع الجهاد في سبيل الله، بل قدمه عليه، فدل على أنه مندوب إليه.

ورُويَ أنه لما جاء سائل إلى النبي ﷺ أعطاه درهمين وقال له: «**احتطب وبع، وهذا خير لك من المسألة**»(١).

وقال ﷺ في حديث المقدام بن معد يكرب: «**ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»(٢).

وهكذا كان أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، فقد كان نوح نجارًا وداود حدادا. وإدريس خياطًا.

وقال ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «**ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم**» فقال أصحابه

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٤١)، والنسائي في البيوع (٤٥٠٨)، والترمذي في البيوع (١١١٨)، وأحمد (٣/ ١٠٠، ١١٤، ١٢٦))، من حديث أنس بن مالك ﷺ. وقال الترمذي: «حديث حسن» وقال الألباني ضعيف. انظر «إرواء الغليل» (٥/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٢) وابن ماجه في التجارات (٢١٣٨).

وأنت؟ فقال: «**نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(١).

واشتغل ﷺ بالتجارة لخديجة كما جاء في سيرته ﷺ.

ولما ولي أبوبكر الصديق ﷺ الخلافة نزل السوق ليبيع ويشتري، فقالوا له: كيف تبيع وتشتري، وأنت خليفة مسئول. قال: لابد من ذلك: فضربوا له نصيبًا معينًا من بيت المال بقدر كفايته ﷺ(٢).

وقال الله تعالى في وصف الرجال المؤمنين المسبحين: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦. ٣٧].

فامتدحهم الله ﷻ بأنهم لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله، وليس المعنى أنهم لا يشتغلون بالتجارة، ولكن المعنى- كما يفهم من ظاهر الآية وكما قاله المفسرون- أنهم مع عملهم في التجارة لا تلهيهم هذه التجارة عن ذكر الله، فإذا سمع أحدهم منادي الله: حيّ الصلاة، حيّ على الفلاح. قام إلى الصلاة، وترك التجارة، ولو كان الميزان في يده(٣).

فامتدحهم الله بأنهم بين عمل لدينهم وعمل لدنياهم، ولا يشغلهم عمل دنياهم عن عمل دينهم، وليسوا من اللاهين الضائعين المضيعين للأوقات بما لا ينفع، بل بما يضر من القيل والقال وكثرة التجوال والنزه والذهاب هنا وهناك فلا دينًا حفظوا، ولا دنيا حصلوا.

وإذا كان الإنسان كسب المال من طرق حلال، وصرفه في الحلال، وأدى حق الله فيه، وأعفّ به نفسه، ونفع به المسلمين من ذوي الحاجات، ولم يشغله عن ذكر الله، وكان المال في يده، وليس في قلبه فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

و«**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»(٤).

أما إذا كسب المال من طرق حرام أو منع حق الله فيه، أو كان القصد به المكاثرة أو شغل عن ذكر الله، فهذه هي التجارة المذمومة.

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤٩).

(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٣٧)، «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٦٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٧٤).

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

١٥- أن المعاوضة والتبادل بين الناس بالتجارة بقصد الربح جائزة، حتى ولو كان الربح من الثلث فأكثر؛ لإطلاق التجارة في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

وقال بعضهم: إذا تجاوز الربح الثلث فهو مردود.

والصحيح الجواز مطلقًا[1]. وليس هناك تحديد لمقدار الربح، وإن كان يكره أن يزيد البائع في السلعة زيادة فاحشة؛ لما في ذلك من التضييق على الناس، وبخاصة المعسرين منهم.

١٦- تحريم قتل الإنسان نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدًا، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جنهم خالدا مخلدا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأبها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدًا**»[2].

وعن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال: «**ومن قتل نفسه بحديدة عذب بها في نار جهنم**»[3].

وعن جندب بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح، فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة**»[4].

ويدخل تحت هذا ارتكاب الإنسان ما يضر بنفسه من استعمال المخدرات والدخان، والسرعة المفرطة في السيارة ونحوها، وركوب الأخطار المؤدية إلى التلف

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٠٩)، وأبو داود في الطب (٣٨٧٢)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٥)، وابن ماجه في الطب (٣٤٦٠)، والدارمي في الديات (٢٣٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٤)، ومسلم في الإيمان (١١٠)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٥٧)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٠، ٣٧٧١)، والترمذي في النذوروالأيمان (١٥٤٣)، وأحمد (٤/ ٣٣).

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٣)، ومسلم في الإيمان (١١٣)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤١٨).

والهلاك دون مقصد شرعي صحيح؛ لأن نفس الإنسان وديعة عنده.

وقد استدل بهذه الآية عمرو بن العاص حينما أصابته جنابة وتيمم وصلى بأصحابه، فقال له النبي: «**يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب**» قال عمرو فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا، وفي رواية فسكت النبي ﷺ»(١).

١٧- رحمة الله ﷻ بعباده، وأنه أرحم بهم من أنفسهم؛ لهذا نهاهم عن قتل أنفسهم، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

١٨- تحريم قتل الإنسان لغيره، وأن من قتل أخاه المؤمن فكأنما قتل نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

فالمؤمنون كنفس واحدة، قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»(٢).

وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

١٩- إثبات صفة الرحمة الخاصة لله ﷻ، وأثرها على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

٢٠- الوعيد الشديد لمن فعل ما نهى الله عنه من أكل المال بالباطل، وقتل الأنفس عدوانا وظلما، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لأن الله توعد عليه بالنار، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣٤)، وأحمد (٤/ ٢٠٣، ٢٠٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه وذكره البخاري تعليقًا بصيغة: ويذكر أن عمرو بن العاص.. الخ.
قال ابن حجر في «الفتح» (١/ ٣٥٤): «إسناده قوي».
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. وفي «إرواء الغليل» (١/ ١٨١).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن كثير[١]: «وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد».

وليس في الآية ما يدل على أنهم مخلدون في النار، ولا أن هذا الوعيد واقع بهم لا محالة كما تقول المعتزلة[٢].

بل إن ذلك تحت مشيئة الله إن شاء الله عذبهم بقدر ذنوبهم، وإن شاء عفا عنهم.

٢١- إذا كان أكل مال الغير أو القتل ليس على سبيل العدوان والظلم، وإنما على سبيل الخطأ أو النسيان أو الجهل فلا إثم في ذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾.

إلا أن حقوق الآدميين لا تسقط، فعلى من أخذ مالًا بطريق الخطأ أو النسيان أو الجهل أن يرده إلى صاحبه، وعلى القاتل خطأ الدية لأهل المقتول إلا أن يعفو عنها، كما أن عليه الكفارة حقاً لله- تعالى.

٢٢- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿نُصْلِيهِ﴾، وقوله: ﴿نُكَفِّرْ﴾، وقوله: ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾ بنون العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه.

٢٣- بيان عظمة الله تعالى وتمام سلطانه وقدرته، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٢٤- الإشارة إلى أن أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس بغير حق من كبائر الذنوب؛ لأن الله بعد أن نهى عنهما أتبع ذلك بقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

٢٥- أن ما نهى الله عنه ينقسم إلى كبائر وصغائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٣٦).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٥٩).

كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

وقد نص النبي ﷺ على ذنوب بأعيانها بأنها كبائر، وكل هذه الأدلة ترد قول من قال: «إن الذنوب كلها كبائر»(١).

٢٦- الحث على اجتناب الكبائر، وجه ذلك أن الله وعد بتكفير الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

٢٧- أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وأن المراد بالكلمة يعرف بذكر ما يقابلها؛ لأنه تعين أن المراد بالسيئات في الآية الصغائر لذكر الكبائر قبلها. قال ابن تيمية(٢): «وليس في القرآن لفظ إلا مقرون بما يبين به المراد».

٢٨- الدلالة على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للمرجئة والمعتزلة والخوارج وجه ذلك أن الله قسم الذنوب إلى كبائر وصغائر، فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، وهذا يدل على أن مرتكب الكبيرة إيمانه أنقص من إيمان مرتكب الصغيرة(٣).

٢٩- أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

وذلك إضافة إلى فعل الواجبات والفرائض، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(٤). وعن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- أنه سمع

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٤٤- ٢٤٩)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٦٠)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٢- ٣٥٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٤٧).

(٢) في «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٧٤).

(٣) انظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ٢٦٥ تفسير سورة النساء).

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، والترمذي في الصلاة (٢١٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٦)، =

رسول الله ﷺ يقول: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**»(١).

فإذا اجتنبت الكبائر فإنه ﷻ وعد بتكفير الصغائر، ووعده حق لا يخلف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩ الرعد: ٣١].

إما إذا لم تجتنب الكبائر فإنه قد يؤخذ بالصغائر، لكنها هي والكبائر تحت مشيئة الله، قد يؤخذ بها، وقد يعفو الله عنها. كما جاء في حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ﷻ: ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة**»(٢).

وفي حديث عتبان بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله الله يبتغي بذلك وجه الله**»(٣).

قال ابن القيم(٤): «فمن اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره كما أن من اجتنب الكبائر كفرت عنه الصغائر، فنسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر... بل محو التوحيد- الذي هو التوحيد- الكبائر أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر».

٣٠- فضل الله تعالى على عباده ورحمته بهم حيث يكفر عنهم الصغائر إذا اجتنبوا الكبائر، ولو عاملهم بعدله لأخذهم بالصغائر والكبائر كل منها بحسبه. كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

=
والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في المساجد (٦٦٧)، والنسائي في الصلاة (٤٦٢)، والترمذي في الأمثال (٢٨٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٢١)، وأحمد (٥/ ١٤٧)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٢٥)، ومسلم في الإيمان (٣٣)، وأخرجه البخاري أيضًا في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٥)، ومسلم في الإيمان (٢٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣٨).

(٤) في «إعلام الموقعين» (١/ ٢٩٠- ٢٩١).

٣١- أن من أجتنب الكبائر فإن الله مع تكفيره سيئاته يدخله الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

٣٢- أن الجنة نعم المدخل والمسكن الحسن الطيب الكثير الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

لما نهى الله ﷻ في الآيات السابقة عن أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس بغير حق، وهما من أعمال الجوارح الظاهرة أتبع ذلك بالنهي عن الحسد، وهو من أعمال الجوارح الباطنة «القلب»، ليجمع المؤمن بين طهارة الظاهر والباطن.

ولأن مما يحمل على أكل الأموال بالباطل والقتل بغير حق الحسد وهو الذي حمل ابن آدم على قتل أخيه، كما قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

سبب النزول:

عن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: «يا رسول الله: تغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث، فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «**قال: «أتت امرأة النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، أفنحن في العمل هكذا؟ إن عملت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ فإنه عدل مني وأنا صنعته**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النساء (٣٠٢٢)، وأحمد (٦/ ٣٢٢)، والطبري (٨/ ٢٦٣)، الآثار (٩٢٣٦، ٩٢٣٧، ٩٢٣٩، ٩٢٤٠، ٩٢٤١، ٩٢٤٣)، والواحدي في أسباب النزول ص (٩٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٥- ٣٠٦). وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٥) الأثر (٥٢٢٣).

قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ﴾ الواو للاستئناف. و«لا» ناهية، ﴿تَتَمَنَّوْاْ﴾ فعل مضارع مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة.

والتمني هو الطمع في طلب ما يعلم عدم حصوله لتعذره واستحالته، أو ما يغلب على الظن عدم حصوله لتعسره(١).

فمن الأول قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب(٢)

ومن الثاني قول الفقير: ليتني غنيًا. وقول الجاهل: ليتني عالمًا.

﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ «ما» اسم موصول في محل نصب مفعول «تتمنوا»، والتقدير: ولا تتمنوا الذي فضل الله به بعضكم على بعض، والضمير «به» يعود إلى «ما».

والتفضيل: الزيادة، أي: لا تطمعوا فيما زاد الله به بعضكم على بعض من الأمور الدينية والدنيوية، سواء كان ذلك في الأمور المتعذرة وغير الممكنة كأن تتمنى النساء شيئًا من خصائص الرجال التي فضلهم الله بها كالجهاد ومضاعفة الميراث ونحو ذلك.

أو في الأمور الممكنة التي يتعسر نيلها بالتمني كأن يتمنى البعض ما فضل الله به البعض الآخر عليه من العلم والمال ونحو ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**لا يتمنى الرجل، فيقول: ليت أن لي مال فلان وأهله. فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله**»(٣).

وإنما نهى الله ﷻ عن تمني ما فضل الله به البعض على البعض الآخر؛ لأن هذا هو الحسد المذموم.

وهو تمني زوال النعمة عن الغير. وسواء تمنى حصولها لنفسه أو لغيره، أو تمني زوالها فقط.

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٦٥) وانظر «القاموس المحيط» مادة «م ن ي».

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٦١) الأثر (٩٢٣٨) وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٥١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود، وهو نوعان: أحدهما كراهة للنعمة عليه مطلقًا، فهذا هو الحسد المذموم..».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد هذا: «وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضا في قلبه، ويلتذ بزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه..فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض. والحاسد ليس له غرض في شيء معين، لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع، ولهذا قال من قال: إنه تمني زوال النعمة، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه...».

ثم ذكر النوع الثاني من الحسد وهو الغبطة.

وذكر ابن القيم للحسد المذموم مرتبتين: «إحداهما حسد تمني زوال النعمة، وهذا هو الحسد المذموم.

والثانية تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباد الله، وممقوت عند الله تعالى وعند الناس..» [٢].

وفي الحسد مفاسد كثيرة وعظيمة، منها: الاعتراض على قضاء الله وقدره وحكمته فيما قسم بين عباده. كما قيل:

جلّ من قسم الحظوظ فهذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا[٣]

ومنها: أن الحاسد ينشغل بمتابعة ما عند الآخرين من الفضل، ويترك السعي والعمل.

ومنها: أنه عدوان على المحسود بلا جرم منه إلا أن الله أعطاه من فضله إلى غير

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٥/ ٤٢٤).

(٣) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» (ص٢٥٢).

ذلك من المفاسد(١).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ هذه الجملة تعليل للنهي السابق.

أي: لا يتمنى البعض ما فضل به البعض الآخر عليه؛ لأن لكل من الرجال والنساء نصيبا مما اكتسبوا.

﴿لِّلرِّجَالِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«نصيب» مبتدأ مؤخر.

«مما» مُكوَّنة من حرف الجر «من» و«ما» الموصولة أو المصدرية أي: من الذي اكتسبوا، أو من كسبهم.

والرجال اسم للذكور البالغين، والمراد به هنا ما يشمل البالغين ومن دون البلوغ من الذكور من باب التغليب.

﴿نَصِيبٌ﴾، أي: حظ وحق وقسط.

﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، أي: من الذي اكتسبوه من عمل ديني أو دنيوي.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ القول في إعرابه كما سبق.

والنساء: اسم للإناث البالغات، والمراد به هنا ما يشمل البالغات ومن دون البلوغ من الإناث.

والمعنى: لكل من الرجال والنساء حظ مما قسمه الله له من الميراث، ولكل منهم حظ مما قدره الله له وخصه به من الأعمال فللرجال الجهاد والجمع والجماعات، والولاية، ونحو ذلك. وللنساء حفظ البيوت وتربية الأولاد وطاعة الزوج وخدمته، والقيام بما يناسب أنوثتها من الأعمال في الأمة.

ولكل منهم حظ من جزاء وثمرة سعيه وما قدم من عمل ديني أو دنيوي.

فمن عمل منهم صالحًا وجد ثوابه عند الله تعالى مضاعفًا سواء في ذلك الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ومن عمل خلاف ذلك وجد جزاءه، جزاءً وفاقًا.

---

(١) سيأتي ذكر بعض هذه المفاسد في الفوائد والأحكام.

ومن سعي وكدح في أمر دنياه وجد ثمرة ذلك بإذن الله تعالى، ومن استسلم للبطالة والدعة والكسل والأماني الكاذبة لم يجن إلا الخيبة والخسران.

قال ابن هانئ(١):

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا

وقال الآخر:

الجد بالجد والحرمان بالكسل ... فانصب تصب عن قريب غاية الأمل(٢)

كما أن لكل من الرجال والنساء حظًا مما قسمه الله له وقدره من التوفيق وعدمه وسعة الرزق وضيقه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: ٢٦].

وجاء «نصيب» منكرًا إشارة- والله أعلم- إلى أن الإنسان لا يؤجر من عمله إلا ما كان منه خالصًا(٣)، صوابًا، ولا يحصل له من سعيه إلا ما قدره الله له، ولا من الميراث إلا ما فرضه له الله وقدره.

﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۗ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾، وما بينهما جملة معترضة وهي قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾.

قرأ ابن كثير والكسائي وخلف: ﴿وَسَلُواْ﴾ وقرأ الباقون: ﴿وَسۡـَٔلُواْ﴾(٤).

والمعنى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، أي: من زيادته وإحسانه من خيري الدنيا والآخرة فإن الفضل بيده؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾

---

(١) في «ديوانه» ص (١٤٠)، وهذان البيتان من قصيدة لابن هانئ يمدح بها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ويصف هدية القائد جوهر، وذلك بعد تسخير القائد بلاد المغرب وانتهائه إلى البحر المحيط سنة ٣٤٨هـ ومطلعها:

ألا هكذا فليُهد من قاد عسكرا ... وأورد عن رأي الإمام وأصدرا

(٢) البيت لصلاح الدين الصفدي من «لاميته». انظر: «نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص١٤٨).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٥٨).

(٤) انظر: «المبسوط» ص (١٥٦)، «الكشف» (١/ ٣٨٧- ٣٨٨)، «النشر» (٢/ ٢٤٩).

[آل عمران: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤، والحديد: ٢١، والجمعة: ٤].

وهكذا جاء في الحديث لما قال الفقراء: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور(١).

والمعنى: لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم، على بعض، وعليكم السعي والاكتساب، واسألوا الله يعطكم من فضله ما فيه صلاح أمر دينكم ودنياكم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال الشاعر:

لا تسألن بُنَيَّ آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب(٢)

وكمال العبودية أن يجمع الإنسان بين فعل السبب بالسعي والعمل وبين الاعتماد على الله ﷻ وسؤاله من فضله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ الجملة استئنافية؛ ولهذا كسرت همزة «إن».

و «كان» مسلوبة الزمن تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي: إنه ﷻ لم يزل عليمًا بكل شيء من الأشياء على الدوام وفي جميع الأوقات.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ١٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٦٤).

روي عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «سلوا الله من فضله، فإن الله ﷻ يحب أن يُسأل» أخرجه الترمذي في الدعوات (٢٥٧١). وفي إسناده حماد بن واقد قال الترمذي: «ليس بالحافظ» وروى أبو نعيم هذا الحديث مرسلًا قال الترمذي: «وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح» وقال ابن حجر عن حماد بن واقد: «ضعيف» انظر «التقريب» (١/ ١٩٨). وحسنه الألباني، وروي «من لم يسأل الله يغضب عليه» أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٧)، وأحمد (٢/ ٤٧٧)، والحاكم (١/ ٤٩١)، وصححه ووافقه الذهبي، كلهم من رواية أبي صالح الخوزي عن أبي هريرة، وأبو صالح الخوزي ضعفه ابن معين. وقال أبو زرعة: لا بأس به وبقية رجاله ثقات. انظر «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٤١٨- ٤١٩)، ترجمة رقم (٧٤٣٨). وحسنه الألباني.

﴿عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع لكل شيء.

والمعنى: أن الله فضل من فضل من عباده بما فضلهم به عن علم منه ﷻ بأن الأصلح لهذا أن يعطى، والأصلح لهذا أن يمنع، فيعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.

قال الطبري[١]: «يعني بذلك جل ثناؤه: أن الله كان بما يصلح عباده فيما قسم لهم من خير، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في الدين والدنيا وبغير ذلك من قضائه وأحكامه فيهم ﴿عَلِيمًا﴾ ذا علم فلا تتمنوا غير الذي قضى لكم ولكن عليكم بطاعته والتسليم لأمره، والرضى بقضائه ومسألته من فضله».

وقال الحافظ ابن كثير[٢]: «عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه».

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

لما نهى الله ﷻ عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض، ومنه تفضيل الرجال على النساء في الميراث بين أنه جعل لكل إنسان من ذكر أو أنثى موالي يتولون ميراثه؛ ليرضى كل منهم بما قسم له من الميراث وغيره ولا يتمنى نصيب الآخر.

قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ الواو للاستئناف. و«لكل» جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ لجعلنا، أي: لكل إنسان أو لكل ميت أو لكل أحد، أو لكل مال.

وجعلنا بمعنى: صيرنا، يتعدى إلى مفعولين؛ الأول قوله: ﴿مَوَالِيَ﴾ والثاني الجار والمجرور ﴿وَلِكُلٍّ﴾ ومتعلقه، والتقدير: وجعلنا وارثًا لكل ميت أو لكل إنسان أو لكل مال[٣].

---

(١) في «جامع البيان» (٨/ ٢٦٩).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٥١).

(٣) انظر: «إملاء ما منَّ به الرحمن» (١/ ١٧٧ - ١٧٨).

وقدم المفعول الثاني لتأكيد إرادة الشمول.

والجعل: نوعان جعل شرعي كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ومنه قوله هنا: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾، أي: جعلنا جعلًا شرعيًّا.

وجعل كوني وهو كثير في القرآن الكريم، ومنه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

و«كل» لا يقع إلا مضافًا؛ إما لفظًا، وإما تقديرًا[١]؛ لفظًا كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج: ٣٤]. وهذا كثير.

أو تقديرًا فيقدر مضاف مناسب للمقام، كقوله تعالى هنا: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ التقدير: ولكل أحد من الذكور والإناث جعلنا موالي[٢].

﴿مَوَالِيَ﴾ جمع مولى. والمولى لفظ مشترك يطلق على عدة معانٍ[٣].

فيطلق على من يتولى غيره وينصره ويعينه أو يتولاه مطلقًا كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وقال ﷺ: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[٤].

ويطلق على المعتِق- بكسر التاء قال ﷺ: «**إنما الولاء لمن أعتق**»[٥].

ويطلق على المعتَق، بفتح التاء، أي على العتيق، قال ﷺ: «**إن مولى القوم**

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠١)، البحر المحيط» (٣/ ٢٣٧).

(٢) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/ ١٩٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٦٦).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٢٤)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٦٨).

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٧١٣)، من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري، أو زيد بن أرقم رضي الله عنهما.

(٥) سبق تخريجه.

منهم»[١].

ويطلق على من يتولى الأمر من ملك أو أمير أو وزير.

ويطلق على الورثة والعصبة والقرابة؛ لأنهم يتولون قريبهم إرثًا ونصرة وعقلًا وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقال ﷺ: «**فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[٢].

قال الشاعر:

مهلًا بني عمنا مهلًا موالينا ... لا تُظْهِرُنَّ لنا ما كان مدفونًا[٣]

كما يقال للحليف مولى؛ لأنه يتولى غيره بالنصرة أو بالنصرة والإرث ونحو ذلك.

والمراد بقوله هنا ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾، أي: ورثة يلون تركته من بعده.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال ورثة»[٤] ويدل على هذا قوله ﷺ في الحديث المتقدم «**فلأولى رجل ذكر**».

والمعنى: لكل إنسان جعلنا ورثة يتولون ميراثه.

﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، ﴿مِمَّا﴾ «من» حرف جر، بيانية أو تبعيضية، و«ما» اسم موصول بمعنى الذي، في محل جر.

والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف يدل عليه السياق ويناسب المقام، تقديره: يرثون، أي: ولكل جعلنا موالي يرثون مما ترك الوالدان والأقربون، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي من**

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٥٠)، والنسائي في الزكاة (٢٦١٢)، والترمذي في الزكاة (٦٥٧) من حديث أبي رافع وصححه الألباني.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البيت للفضل بن عباس انظر «مجاز القرآن» (١/ ١٢٥)، «الكامل» (٢/ ٢٧٩)، «جامع البيان» (٨/ ٢٧٠)، «لسان العرب» مادة «ولي».

(٤) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٩٢)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٢١، ٢٩٢٢)، والطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٧٠) الأثران، (٩٢٥٨، ٩٢٥٩).

المؤمنين فترك دينًا فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالًا فلورثته»(١).

﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ هما الأب والأم، ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ في الأصل هم القرابة مطلقًا، والمراد بهم هنا ما عدا الوالدين؛ لأن الله عطفهم على «الوالدان» والعطف في الأصل يقتضي المغايرة.

﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: جمع «أقرب» اسم تفضيل، يدل على أن الأولى بالميراث الأقرب فالأقرب.

و﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ فاعل للفعل ﴿تَرَكَ﴾، ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾.

والتقدير: ولكل جعلنا موالي يرثون مما ترك الوالدان والأقربون، أي: مما تركه والداه وأقربوه، وعلى هذا يكون الوالدان والأقربون مورِّثين.

وورثة الوالدين: هم الفروع المولودون، الأقرب فالأقرب منهم.

وورثة الأقربين هم الأقرب فالأقرب من قراباتهم الوارثين.

ويحتمل الإعراب وجهًا آخر. وهو أن يكون ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ معطوف عليه.

والتقدير: هم الوالدان والأقربون. ويكون الوقف على قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ﴾.

والتقدير: ولكل جعلنا موالي يرثون مما تركه، هم الوالدان والأقربون.

فيكون الوالدان والأقربون تفسيرًا لقوله: ﴿مَوَٰلِيَ﴾. وعلى هذا يكون الوالدان والأقربون وارثين(٢).

وكلا الوجهين صحيح من حيث الإعراب، ومن حيث المعنى؛ لأنه ما من وارث إلا وله مورِّث.

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧١)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٥٥)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٣)، والترمذي في الجنائز (١٠٧٠)، وابن ماجه في الصدقات (٢٤١٥).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٢١)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٣٧).

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ﴾ «الذين» اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، وقيل: معطوف على ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿عَقَدَتۡ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: «عاقدت» بالألف[1] وهي مفاعلة من العقد؛ لأنه يكون بين طرفين.

ومعنى القراءتين واحد «عقدت» و«عاقدت» من العقد، وأصله الشد والربط والتوثيق يقال: عقدت الحبل بالحبل وعقدت البناء بالجص ونحو ذلك.

والمراد بالعقد هنا العهد، وسمي العهد عقدًا؛ لما فيه من التوثيق والتوكيد.

والمعاقدة على وزن «المفاعلة» وهي: المعاهدة بين متعاهدين.

﴿أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أيمان جمع «يمين»، وهو: الحلف.

والمعنى: والذين تعاهدتم وتحالفتم وإياهم بالأيمان والمواثيق المؤكدة المغلظة، وقد كانوا في الجاهلية يتعاقدون، كما قال ابن عباس: «كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر..»[2].

﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ خبر المبتدأ «الذين».

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٧٢)، «المبسوط» (١٥٦)، «الكشف» (١/ ٣٨٨)، «النشر» (٢/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٦) الأثر (٥٢٣٧).

وقيل المراد بالذين عقدت أيمانكم المؤاخاة التي آخاها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، واستدل بعضهم لهذا بما رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ ورثة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ من النصرة والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له» أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٨٠)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٢٢).

وقيل: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ الذين تبنوهم من أولاد غيرهم.

وقيل المراد بهم الأزواج. واختاره محمد رشيد رضا. انظر «جامع البيان» (٨/ ٢٨٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٠١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤١٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٦٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٢)، «تفسير المنار» (٥/ ٤٦).

وآتوا: بمعنى: أعطوا وهو ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر. الأول هنا الضمير «هم»، والثاني: «نصيبهم».

والمعنى: فاعطوهم نصيبهم من الميراث، أي: أعطوهم نصيبهم من الميراث حسب ما اتفقتم عليه في عقد اليمين «الحلف»: السدس[1]، أو أقل أو أكثر؛ لأن هذا من الوفاء بالعهد والعقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقد قال بعض المفسرين: المراد بقوله: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصرة والمعونة والرفادة والنصيحة والرأي والعقل دون الميراث، واختار هذا أبو جعفر الطبري[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ الجملة استئنافية؛ ولهذا كسرت همزة «إن» وهي حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة «الله» اسمها منصوب، وجملة ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ في محل رفع خبرها.

و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف، أي: تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي: إن الله ﷻ لم يزل على كل شيء شهيدًا أزلًا وأبدًا.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾، وقدم عليه لتأكيد عموم شهادته على كل شيء، و«شيء» نكرة فتعم كل شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، ظاهرًا كان أو خفيًّا.

﴿شَهِيدًا﴾، أي: مطلعًا رقيبًا لا تخفى عليه خافية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣، التوبة: ٩٤، ١٠٥، الرعد: ٩، المؤمنون: ٩٢، السجدة: ٦، الزمر: ٤٦، الحشر: ٢٢، الجمعة: ٨، التغابن: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾. تهديد لمن لم يف بما عاقد عليه،

---

(١) قيل إنهم كانوا يجعلون للحليف السدس. انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٦٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٧٨- ٢٨١).

وحسن ختم الآية بهذا؛ لأن الميراث موضع الطمع من بعض الورثة.

والمعنى: أنه ﷻ كان على كل شيء شهيدًا، ومن ذلك تلك المعاقدات والعهود، فيجب الوفاء بها، وأداء ما التزم فيها من نصيب؛ لأن الله شاهد عليها وعلى غيرها وسيجازي كلا بعمله.

قال الحافظ ابن كثير(١): «فآتوهم نصيبهم من الميراث، كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا ولا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة».

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله للمؤمنين أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره عليه، سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية، في الأمور الممكنة، وغير الممكنة، فلا تتمنى النساء ما خص الله به الرجال من الأعمال كالجهاد وغيره أو من الميراث وغير ذلك.

ولا يتمنى الإنسان ما عند غيره من علم أو مال أو ولد، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والنهي للتحريم؛ لأن هذا هو الحسد المذموم.

وإنما نهى الله عن الحسد وذمه وحرمه، وشدد في ذلك؛ لما يترتب عليه من مفاسد كثيرة وعظيمة منها ما يلي:

أولًا: أن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره فيما قسم بين عباده من الفضل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٥٠]

ثانيًا: أن فيه اعتراضا على حكمته ﷻ في عطائه ومنعه؛ لأن عطاءه ﷻ ومنعه لحكمة يعلمها، وقد يكون ذلك ابتلاءً وامتحانًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٥٢)، وانظر «تفسير المنار» (٥/ ٦٤).

وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

وفي الحديث: «**من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه**»(١).

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

قال الزمخشري في «الكشاف»(٢) في كلامه على هذه الآية: «نهوا عن التحاسد، وعن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح المقسوم له من بسط في الرزق أو قبض.. فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له».

ثالثًا: أنه سبب لرد الحق وعدم قبوله، وهو من صفات اليهود وغيرهم من المكذبين للرسل، قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى عنهم: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

وبسبب حسدهم للنبي ﷺ وسحرهم له- كما قال أكثر المفسرين- أنزل الله قوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وقال تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: ٢٥].

وقال تعالى عن قريش أنهم قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وكل هذا سببه الحسد.

---

(١) رواه الطبراني وغيره فيما ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣٣). وقد ضعفه ابن رجب، وقد ذكره القرطبي عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٢٧] في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٨)، وذكره أيضًا ابن كثير عند تفسير هذه الآية في «تفسيره» (٧/ ١٩٤). وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في تعليقه في دروس التفسير على تفسير ابن كثير في هذا الموضع: «وهذا من الآثار التي لا يعلم لها سند، ومعناه صحيح».

(٢) (١/ ٢٦٥).

رابعًا: أن الحسد من نواقض عرى الإيمان.

فكون الإنسان يضمر في قلبه كراهية الخير لأخيه المسلم ومحبة الشر له، هذا من نواقض عرى الإيمان؛ لقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١).

وإذا كان هذا هو الواجب على المسلم تجاه أخيه المسلم فكيف يكون بضد ذلك يحب له الشر، ويكره له الخير.

خامسًا: أن فيه اعتداء على المحسود بغير جرم منه، وإنما لأن الله أعطاه من فضله.

وقد قيل: «كل صاحب نعمة محسود» وهو وإن لم يكن عدوانًا مباشرًا، إلا أنه غالبًا ما يؤدي إلى الاعتداء المباشر، إما بالقول وإما بالفعل وإما بهما جميعًا، كما حصل من ابن آدم مع أخيه قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

ولهذا جاء في الحديث: «**إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق**»(٢).

والمعنى: إذا حسدت فلا يحملك الحسد على البغي بالقول أو الفعل أو بهما، وإذا ظننت فلا تعتقد ما ظننته حقًا وتجزم بذلك؛ لأن كثيرًا من الظن إثم.

وليس في الحديث إقرار للحسد، وإنما معناه أنه إذا وجد الإنسان في قلبه شيئًا من الحسد، فعليه أن يعالج قلبه ما استطاع، وألا يحمله الحسد على البغي والعدوان على المحسود.

سادسًا: أن الحسد لا يعود على الحاسد إلا بالقلق والهم والكمد، والأسى والحسرات- هذا- في الدنيا؛ لأنه لا يستطيع أن يمنع فضل الله عن عباده فتجده دائمًا يتألم لما هم فيه من النعمة، وهو لا يستطيع منعها.

وتجد قلبه يتقطع حسرات؛ ليحصل على ما حصلوا عليه وهيهات؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، وقد قيل:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣)، ومسلم في الإيمان (٤٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٦)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) سيأتي تخريجه بتمامه.

لله در الحسد ما أعدله ... عاد على صاحبه فقتله[١]

وقيل:

دع الحسود وما يلقاه من كمده ... يكفيك منه لهيب النار في كبده[٢]

وقال علي بن محمد أبو الحسن التهامي[٣]:

إني لأرحم حاسديَّ لفرط ما ... ضمت صدورهم من الأوغار

نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنة وقلوبهم في نار

وقال الآخر:

اصبر على حسد الحسو ... د فإن صبرك قاتله

النار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله[٤]

وقال الآخر:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... من كان قبلي أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهمُ ... ومات أكثرنا همًّا بما يجد[٥]

سابعًا: أن الحاسد ممقوت مبغض عند الله وعند الناس؛ لأنه عدو نعمة الله وعدو عباد الله، ولا يمكن أن يسود أبدًا ولا يواسى كما قيل: «**الحسود لا يسود**»؛ لأن الأنفس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.

ثامنًا: أن الحاسد بدل أن يسعى ويعمل ينشغل بمتابعة الآخرين وما أعطاهم الله من الفضل، ولو أنه ترك الحسد، وأقبل على السعي ومعالي الأمور، وسأل الله من فضله لحصل على خير كثير- بإذن الله تعالى وسلم من شر مستطير وذنب كبير وهو الحسد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ﴾ [النساء: ٣٢].

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب ﷺ. انظر: «شرح نهج البلاغة» (١/ ٣١٦) تحقيق محمد أبو الفضل.

(٢) البيت بلا نسبة. كما في «المعين على تفهم الأربعين» لابن الملقن (ص٤٠١).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٤٨).

(٤) البيتان لابن المعتز. انظر: «ديوانه» (ص٣٨٩).

(٥) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (ص٦٨).

تاسعًا: أن الحسد سبب لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس؛ لأنه غالبًا يحمل صاحبه على البغي مباشرة على المحسود بالقول أو الفعل أو بهما، فإن لم يكن ذلك حمله على منع حقوق أخيه المحسود في الإسلام كالسلام وبشاشة الوجه وأداء حق القربى والجوار ونحو ذلك، وهذا وذاك سبب بلا شك لإيقاع العداوة بين الناس.

ولهذا قال ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»(١).

قال الشاعر:

وكل عداوة ترجىٰ إماتتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد(٢)

عاشرًا: أن الحسد كبيرة من كبائر الذنوب ويأكل الحسنات، ولهذا ذمه الله ونهى عنه وأنكر على فاعله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]. وأمر ﷻ بالاستعاذة من شر الحاسد، وقرنه بالسحر، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

الحادي عشر: أن الحسد مرض قلبي، بل من أخطر أمراض القلوب وأقدمها؛ ولهذا قال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم؛ الحسد والبغضاء وهي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحسد(٤): «وهو شر من البخل، والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها بل وحبها لما يضرها؛ ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب».

وقال ابن القيم في «الفوائد»(٥): «أصول الخطايا كلها ثلاث: الكبر وهو الذي

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٩)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد» (ص١١).

(٣) سبق تخريجه وهو حديث صحيح.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٩).

(٥) ص (١٠٥).

أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد وهو الذي جرّأ أحد ابني آدم على أخيه، فمن وقي شر هذه الثلاثة فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد».

وأخيرًا: فإن الحسد مرض غالب لا يكاد يسلم منه أحد- كما جاء في الحديث: «**ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض**»(١).

وعن حارثة بن النعمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن**». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «**إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض**»(٢).

قال ابن القيم(٣): «وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد لكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله».

وقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه»(٤).

وقيل للحسن البصري: «أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف، لا أبالك، ولكن غمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدًا ولسانًا»(٥).

ولهذا ينبغي للمسلم إذا وجد هذا من نفسه أن يقاومها ويلجمها بلجان التقوى، ويعلم أن ما عند أخيه من خير هو من فضل الله يؤتيه من يشاء، وأن الحسد في الحقيقة إنما يعود ضرره على الحاسد في الدنيا والآخرة بلا مصلحة تعود عليه البتة، ويجاهد

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة. وأخرجه الحافظ عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني في الإيمان عن الحسن البصري مرسلًا، انظر «الجامع الصغير» (٣٤٦٦).

(٢) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٥٧).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٥/ ٤٢٣).

(٤) انظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص٢١).

(٥) المرجع السابق.

نفسه على دفع ذلك ويدعو للمحسود بزيادة الخير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن وجد في نفسه حسدًا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه، وكثير من الناس من الذين عندهم دين، لا يعتدون على المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضًا، لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه، ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا. وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه، مفرطون في ذلك، لا معتدون عليه، وجزاؤهم أيضًا أنهم يبخسون حقوقهم، فلا ينصفون أيضًا في مواضع»(١).

- والحسد يقع كثيرًا بين الأقران والنظراء، والمتشاركين والمتنافسين في علم أو رئاسة أو مال، ونحو ذلك كما حصل من إخوة يوسف قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] فحسدوا يوسف وأخاه على تفضيل أبيهما لهما، ولهذا قال يعقوب: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وكما حسد ابن آدم أخاه فقتله؛ لأن الله تقبل قربانه. وكحسد اليهود للمسلمين.

تنبيه وتذكير:

ألا فليعلم العاقل اللبيب: أن القلوب عليها مدار صلاح الأعمال، وصلاح الحال في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(٢).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] أي: سليم من الشرك والنفاق مخلص العبادة لله تعالى، وسليم من الحقد والحسد والبغضاء وسائر أمراض القلوب في حق عباد الله.

عن أنس رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ، فقال: «**يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة**» قال فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوء، قد علق

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥) وانظر (١٠/ ١٢٤، ١٢٦).

(٢) سبق تخريجه.

نعليه في يده الشمال، فسلم فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مقالته، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله. فلما قام النبي ﷺ اتبعه عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ، فقال: إني لاحيت أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث، فعلت؟ قال: نعم. قال أنس ﷺ: فكان عبدالله يحدث، أنه بات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعار وانقلب على فراشه ذكر الله ﷻ وكبر، حتى يقوم إلى صلاة الفجر، فقال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما فرغنا من الثلاث، وكدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبدالله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات: «**يطلع عليكم رجل من أهل الجنة**» فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك؛ لأنظر ما عملك فأقتدي بذلك، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشًا ولا حسدًا على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»(١).

٢- أن التمني المنهي عنه أن يتمنى الشخص ما فضل به غيره عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أما تمني أن يكون له مثل ما عند الغير من الفضل فليس منهيًّا عنه- خاصة إذا كان على سبيل المنافسة والمسابقة إلى الخير.

بأن يحب حال الغير فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، وقد سموه الغبطة، وسماه النبي ﷺ حسدًا(٢)، كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٦٦)، والطبراني، بإسناد حسن. وانظر «العلل» للدارقطني (٤/ ٢٦ب) و«مرويات الإمام الزهري المعللة» للدكتور عبدالله دمغو (٣/ ١٣١١) حديث (٧٩)، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١٨- ١١٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١٢)، «بدائع التفسير» (٥/ ٤٢٤).

النهار. ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»(١).

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلطه على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**»(٢).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله، فهما في الأجر سواء**»(٣).

وفي حديث أبي كبشة الأنماري قال ﷺ: «**وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء**»(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٥): «وسُمّي حسدًا؛ لنظره إلى إنعامه على الغير وكراهيته أن يفضل عليه الغير.. قال: وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده شيء من الحسد».

وقد ذهب بعضهم إلى عدم جواز الغبطة مستدلين بالآية، ولا دليل لهم فيها؛ لأن النهي فيها إنما هو عن تمني عين ما فضل الله به الغير.

والصحيح الذي عليه جمهور أهل العلم جواز الغبطة بدليل السنة، وليس في الآية ما يدل على عدم جوازها.

قال الحافظ ابن كثير(٦) بعدما ذكر قول ابن عباس وغيره: إن الآية في تمني مال فلان وأهله ونحو ذلك، قال: «وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩)

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٦).

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨) وصححه الألباني.

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١٣).

(٦) في «تفسيره» (٢/ ٢٥١).

الصحيح «لا حسد إلا في اثنيتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، فيقول رجل..» الحديث. فإن هذا شيء غير ما نهت الآية عنه، وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا..».

وإنما تجوز الغبطة إذا كانت على سبيل تمني الخير والمسابقة إليه والمنافسة عليه(١).

كما حصل من عمر مع أبي بكر الصديق- رضي الله عنهما- حين أمر النبي ﷺ بالصدقة. قال عمر بن الخطاب ﷺ: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا. قال: فجئت بنصف مالي، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. وجاء أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣) بعد ذكر هذا الحديث: «فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق ﷺ أفضل منه، وهو أنه خال من المنافسة مطلقًا، لا ينظر إلى حال غيره.

وكذلك موسى- عليه السلام- في حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبي ﷺ حتى بكى لما تجاوزه النبي ﷺ، فقيل ما يبكيك، فقال: أبكي؛ لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي(٤).

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة، وإن كان ذلك مباحًا.. وبهذا أثنى الله على الأنصار فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٩٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٦٣- ١٦٤)، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١٣- ١١٨).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، والدارمي في الزكاة (١٦٦٠) من حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب ﷺ. وحسنه الألباني.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١٧- ١١٩).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤) من حديث أنس بن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].. قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة، أي: حسدًا وغيظًا مما أوتي المهاجرون».

فإن خشي الإنسان أن يقع في قلبه شيء من الحسد المذموم، فالأولى له أن لا يسأل الله مثل ما عند فلان، وإنما يسأل الله من فضله مطلقًا، دون ذكر فلان وما عنده، ولا شك أن هذا أسلم؛ لأن الله ﷻ لما نهى عن التمني في الآية أتبع ذلك بسؤال الله من فضله فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ﴾.

ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، وقلّ من يسلم من ذلك

وهكذا يجوز تمني الخير والأعمال الصالحة مجردًا. قال ﷺ فيما رواه أبوهريرة رضي الله عنه: «**ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل**»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى**»(٢).

أما إذا كان التمني على سبيل الاستزادة من الدنيا، دون حاجة تدعو إلى ذلك ودون مقصد شرعي فلا ينبغي.

قال الحسن: «تتمنى مال فلان ومال فلان، وما يدريك لعل هلاكه في ذلك المال»(٣).

كما لا يجوز تمني ما يستحيل وقوعه كتمني المرأة أن تكون مثل الرجل ونحو ذلك.

٣- أن الله يعطي من يشاء بفضله وحكمته، ويمنع من يشاء بعدله وحكمته. لا

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٥٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦١).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٢٦٣) الأثر (٩٢٤٤).

مانع لما أعطى ولا معطي لما منع؛ لقوله تعالى: ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾.

وليس للمفضل عليه أن يحتج على الله في هذا؛ لأن الله لم يمنعه حقه، أما تفضيل غيره عليه، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٤- أن لكل من الرجال والنساء نصيبًا مما اكتسبوه فلكل منهم ثواب عمله ونتاج كسبه، وما قسمه الله له من الميراث، وما خصه به من الأعمال والخصائص؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾.

٥- الحث على السعي والعمل فيما فيه صلاح المرء في دينه ودنياه؛ لأن الله بعد أن نهى عن التمني عقب ذلك بقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ ترغيبًا في السعي والاكتساب؛ لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى واكتسب.

٦- فضل الرجال على النساء- من حيث العموم- لأن الله قدمهم عليهن في الذكر، فقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾؛ ولأن الله خصهم بخصائص دونهن كزيادة الميراث وغير ذلك.

٧- إباحة العمل والسعي لطلب الكسب الدنيوي للمرأة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾، وهذا يشمل العمل والسعي للدين والدنيا.

٨- إثبات كمال عدل لله ﷻ في إعطاء كل من الرجال والنساء نصيبًا مما اكتسبوه؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾، فكل منهم يجازي في الآخرة بعمله، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وكل منهم له نتاج عمله وثمرة سعيه الدنيوي، كما أن قسمته ﷻ الميراث بين الرجال والنساء للذكر مثل حظ الأنثيين هو محض العدل منه سبحانه في إعطاء كل ما يستحق؛ الرجال والنساء.

٩- وجوب سؤال الله من فضله ما فيه صلاح أمر الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ لأن العبد ليس له غنى عن الله طرفة عين؛ ولهذا جاء في

الدعاء قوله ﷺ: «**اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١).

وسؤال العبد لربه عبادة له، كما قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وسؤال العبد لربه من أفضل العبادات وهو طريق أنبياء الله».

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٠)، من حديث أبي بكرة ﷺ، وحسنه الألباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٣٨).

وينبغي أن يعلم أن للسؤال آدابًا وللإجابة أسبابًا؛ منها أن يسأل الله سؤال مفتقر إليه عازمًا في سؤاله، كما قال ﷺ: «لا يقل أحدكم، اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له» أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٢٦٧٩)، وأبو داود في الصلاة (١٤٨٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٧)، ومالك في النداء للصلاة (٤٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومنها أن يثق بوعد الله، وأنه ﷻ يعطي السائلين ما سألوه وفوق ما سألوه، وقد وعد بذلك ووعده حق فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ومنها اختيار الأوقات والأحوال والأماكن الفاضلة التي تكون سببًا للإجابة، فمن الأوقات الفاضلة أوقات السحر، وما بين الأذان والإقامة، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، ومن الأحوال الفاضلة حال السجود، كما قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال ﷺ: «فأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم» أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن الأماكن الفاضلة المسجد الحرام، والمسجد النبوي كما جاء الحديث بذلك.

ومن أسباب إجابة الدعاء أن يجتنب السائل أكل الحرام؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فإنى يستجاب لذلك» أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٩)، والدارمي في الرقاق (٢٧١٧).

ومنها أن لا يستبطئ الإجابة، ومنها أن لا يعتدي في الدعاء، فيدعو بإثم أو قطيعة رحم، أو يسأل ما لا يحل له قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

١٠- سعة فضل الله وكرمه وجوده وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

فقد أمر ﷻ بسؤاله أمرًا شرعيًّا، فدل ذلك على أنه يحب أن يسأل، ويعطي السائل أكثر مما أمل، بخلاف الخلق فإنهم لا يحبون أن يسألوا، وإذا سئلوا بخلوا ومنعوا كما قيل.

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا[١]

ولهذا بايع النبي ﷺ أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا حتى كان سوط أحدهم يسقط من على ظهر بعيره، فينزل فيأخذه، ويركب، ولا يقول للناس: أعطوني إياه[٢] وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «إذا سألت فاسأل الله..» الحديث[٣].

ولما جاء رجل إلى النبي ﷺ وباع له ﷺ الحلس، والقدح[٤] بدرهمين، أعطاه النبي ﷺ الدرهمين وقال له: «**اشتر بأحدهما طعامًا وبالآخر قدومًا، واحتطب وبع هذا خير لك من المسألة**»[٥].

وذلك لما في مسألة الناس من المذلة والهوان[٦] فينبغي أن يتوجه العبد بقلبه وقالبه إلى ربه فلا يسأل إلا ربه، ولا يرجو سواه، ولا يعتمد على غيره مع بذل الأسباب.

---

(١) البيت بلا نسبة في أوضح المسالك (١/ ٣١١)، «تلخيص الشواهد» (٣٢٢)، و«اللسان» مادة «وشك».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٧)، وأخرجه مختصرًا النسائي في الصلاة (٤٦٠) كلهم عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) الحلس هو الكساء، والقدح: إناء الشرب.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٤١)، وابن ماجه في التجارات (٢١٩٨)، وأخرجه مختصرًا النسائي في البيوع (٤٥٠٨) كلهم من حديث أنس بن مالك ﷺ، وضعفه الألباني.

(٦) وقد أباح الإسلام المسألة في حدود ضيقة عند الحاجة، كما في حديث قبيصة بن مخارق أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، أو قال سدادًا من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش أو قال سدادًا من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا» أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٩)، من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «سؤال المخلوق فيه ثلاث مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك، ومفسدة إيذاء المسئول وهي من نوع ظلم الخلق، وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة».

وقال أيضًا: «ومن قال لغيره من الناس: ادع لي أو لنا وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضًا بأمره بفعل ذلك المأمور به فهو كما يأمره بسائر فعل الخير فهو مقتد بالنبي ﷺ مؤتم به ليس هذا من السؤال المرجوح[٢]. وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه فهذا ليس من المقتدين بالرسول ﷺ المؤتمين به في ذلك، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة للمخلوق وسؤاله»[٣].

وقال أيضًا[٤]: «مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما أبيحت للضرورة».

وعلى هذا فالأولى ترك مسألة المخلوقين ومن ذلك سؤال الدعاء كأن يقول: يا فلان ادع الله لي.

وجمهور العلماء على جواز طلب الدعاء مطلقًا مستدلين بأدلة منها قول أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

وفي حديث عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «**خير التابعين رجل يقال له أويس، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»[٥].

١١- جواز سؤال الله في أمور الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

---

(١) في «التوسل والوسيلة» ص (٤٠).

(٢) عن أبي الدرداء ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قالت الملائكة آمين، ولك بمثل» أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٢)، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٤).
وأخرجه مسلم أيضا (٢٧٣٣) عن أم الدرداء أنها قالت لصفوان بن عبدالله بن صفوان: أتريد الحج العام، فقلت: نعم. قالت: فادع الله لنا بخير فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل».

(٣) انظر: «التوسل والوسيلة» ص (٤٢).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٢- ١٨٣).

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة والتابعين (٢٥٤٢).

وهذا عام يشمل أمور الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

١٢- ينبغي الجمع بين السعي وفعل الأسباب وبين الاعتماد على الله تعالى وسؤاله من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ لأن الاعتماد على الأسباب وحدها شرك وترك الأسباب نقص في التوحيد والدين.

١٣- إحاطة علم الله وشموله لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

١٤- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ وأثره.

١٥- أنه ﷻ فضّل من شاء من عباده بما فضّلهم به، ومنع من شاء عن علم منه بما يستحق كل منهم وما يصلح له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

١٦- وجوب مراقبة الله والحذر من مخالفته في السر والعلانية؛ لأنه بكل شيء عليم.

١٧- إثبات الجعل الشرعي لله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾، أي: جعلنا جعلًا شرعيًا.

والجعل بنوعيه: الشرعي والكوني من صفات الله تعالى الفعلية المتعلقة بمشيئته.

١٨- إثبات الإرث بالنسب والقرابة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ ﴾.

١٩- فضل الوالدين من بين القرابة؛ لأن الله خصهما بالذكر وقدمهما وعطف عليهما ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ فقال: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ ﴾ مع أنهما يدخلان في عموم الأقربين.

٢٠- أن الأولى بالميراث الأقرب فالأقرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ بصيغة التفضيل.

٢١- توريث ذوي الأرحام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ وهذا يعم جميع

الأقربين بما فيهم ذوو الأرحام عند فقد أصحاب الفروض والتعصيب.

٢٢- الإرث بالحلف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾؛ لأن جمهور أهل العلم من المفسرين وغيرهم على أن المراد بالنصيب في قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ الميراث(١).

وقد اختلف أهل العلم في هذا، فذهب جمهور السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الفقهاء كالإمام مالك(٢)، والشافعي(٣)، وأحمد في المشهور عنه(٤) إلى أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فالميراث لذوي الأرحام، أما الحليف فلا يرث.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فآتوهم نصيبهم» من النصرة والنصيحة والرفادة ويوصي لهم، وقد ذهب الميراث»(٥).

وعن جبير بن مطعم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»(٦).

وذهب بعض أهل العلم منهم أبو حنيفة(٧)، وأحمد في رواية عنه(٨) إلى أن الآية

---

(١) هذا إرث بالسبب لا بالنسب، كالنكاح والولاء.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٦٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٤٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٢١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٤).

(٤) انظر: «المقنع مع الشرح» (١٨/ ٧، ٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٣٨)- الأثر (٥٢٣٩).

(٦) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٠)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٢٥)، وأحمد (٤/ ٨٣)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٣٧١)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٦٢). وأخرجه أيضًا الدارمي في السير (٢٥٢٦)، والطبري في «جامع البيان» الحديثان (٩٢٨٩، ٩٢٩٠)،- عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كل حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» وإسناده صحيح.
وأخرجه الطبري أيضًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده الأثر (٩٢٩٤، ٩٢٩٧)، ومن حديث قيس بن عاصم (٨/ ٢٨٢- ٢٨٣)- الأثر (٩٢٩٢).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٧٦- ٧٧، ٩٩، ١٨٦).

(٨) انظر: «المقنع مع الشرح» (١٨/ ٧، ٨).

محكمة غير منسوخة، قالوا: وإنما يرث الحليف عند فقدان ذوي الأرحام. فإذا فقدوا توارث المتعاقدان بما اتفقا عليه فلا تعارض بين هذه الآية وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

وعن تميم الداري أنه قال يا رسول الله: ما السنة في الرجل يسلم على يَدَي رجل من المسلمين؟ قال: «هو أولى الناس بمحياه ومماته»[١].

قالوا: فقوله: «ومماته»، أي: هو أولى بميراثه، إذ لا ولاية بينهما بعد الموت إلا بالميراث[٢]. واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية[٣].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنصيب في قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ هو النصرة والمعونة والرفادة والرأي والنصيحة والعقل دون الميراث، وعلى هذا تكون الآية محكمة غير منسوخة.

روي هذا عن ابن عباس- رضي الله عنهما- واختاره الطبري[٤].

وقيل: إن معنى الآية: والذين عقدت أيمانكم جعلنا لهم موالي، أي: عصبة يرثونهم، وليس معناها أن الحليف يرث[٥].

قال ابن كثير[٦]: «والصحيح الأول، وأن هذا كان في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف ثم نسخ، وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعقود والعهود، والحلف الذي كانوا تعاقدوه قبل ذلك».

---

(١) أخرجه أبو داود في الفرائض (٢٩١٨)، والترمذي في الفرائض (٢١١٢)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٥٢)، والدارمي في الفرائض (٣٠٣٢)، والجصاص في «أحكام القرآن» (٢/ ١٨٦)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٨٦).

(٣) ذكر هذا عن ابن تيمية تلميذه ابن مفلح في الفروع في أول كتاب الفرائض (٥/ ٣)، وكذا صاحب الإنصاف في أول كتاب الفرائض (٧/ ٣٠٣).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٧٨، ٢٨٨).

(٥) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٦٩، ٧٠).

(٦) في «تفسيره (٢/ ٢٥٤- ٢٥٥).

ثم استدل ابن كثير على هذا بحديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة: «لا حلف في الإسلام..» وقال: «وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم.. والصحيح قول الجمهور.. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، أي: ورثته من أقربائه من أبويه وأقربيه هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر»... وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، أي: قبل نزول هذه الآية ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، أي: من الميراث، فأما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له...

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: «كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦] يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت وذلك هو المعروف»(١).

قال ابن كثير: «وهذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾».

وبعد أن ذكر ابن كثير اختيار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، أي: من النصرة والنصيحة والمعونة لا أن المراد نصيبهم من الميراث، وأن الآية محكمة غير منسوخة.

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله فيه نظر، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعاونة، ومنه ما كان على الإرث، كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: «كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، حتى نسخ ذلك» فكيف يقول: إن هذه الآية محكمة غير منسوخة».

---

(١) أخرجه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» الأثر (٤١٥)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٢١)، والطبري (٨/ ٢٧٥)- الأثر (٩٢٦٨)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٠٤) الأثر (٢٦٨).

ويؤيد القول بأن الحليف لا يرث ما ذكره الشيخ رشيد رضا في «تفسير المنار»(١) بعد أن ذكر القول بأن هذه الآية في الحلفاء ثم نسخت بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] قال: «والظاهر أن سورة النساء نزلت بعد سورة الأنفال، فإن سورة الأنفال نزلت في سنة بدر، والمواريث شرعت بعد ذلك، والآية التي نفسرها نزلت بعد آية المواريث، لا لأنها بعدها في ترتيب السورة، بل لأنها أشارت إلى أحكام المواريث، وبنيت على أن الله جعل لكل من الوارثين نصيبًا يجب أن يؤدى إليه تامًا، فهل يعقل أن تكون مع ذلك مقررة للإرث بالتحالف، إن الإسلام لم يشرع للناس الإرث بالتحالف وإنما أبطله ونسخ ما كان عليه الناس فيه قبل نزول آيات المواريث، كما هو ظاهر..».

٢٣- وجوب الوفاء بالعقود والعهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وإيتاؤهم هذا النصيب فيما كان بينهم من معاقدة قبل نسخ الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦].

أما بعد النسخ فإن المعاقدة باطلة؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»(٢).

٢٤- إثبات اسم الله «الشهيد»؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

٢٥- إثبات شهادة الله ﷻ وإطلاعه على كل شيء، وأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وفي هذا أبلغ الوعد والوعيد. والحث على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه والتحذير من مخالفة ذلك.

* * *

---

(١) (٥/ ٦٥).

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

نهى الله تعالى في الآية السابقة عن تمني ما فضل الله به البعض على البعض الآخر، ومن ذلك تفضيل الرجال على النساء في الميراث والجهاد، وفي قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان سبب اختصاصهم بالتفضيل.

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الجملة مستأنفة، ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ مبتدأ، وهو جمع تكسير مفرده «رجل»، و«ال» فيه للجنس، فالمراد جنس الرجال.

والرجل هو البالغ من الذكور من بني آدم، وقد يطلق على البالغ وغيره من باب التغليب كما في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ فالمراد بالرجال هنا ما يعم البالغ وغيره من الذكور؛ لأنهم في الإرث سواء.

ولهذا قال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**» فقوله: «ذكر» لبيان أن الذكر يستحق التعصيب، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا. أما قوله: «رجل» فللإشارة إلى الحكمة في كون الذكر أولى بالتعصيب؛ لأنه رجل عليه مسؤوليات ليست على المرأة.

﴿قَوَّٰمُونَ﴾ خبر المبتدأ، وهي جمع: «قوَّام» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة من «قائم» أو نسبة، ويقال: قوَّام، وقيَّام، وهو الذي يقوم على الشيء ويحفظه، وفي الحديث

«أنت قيَّام السموات والأرض ومن فيهن»(١).

فقوله تعالى: ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ بهذه الصيغة يدل على أن للرجال كامل القوامة، أي: الولاية والسلطة على النساء، في كل الأمور والأحوال، فهم قوامون عليهن في الأمر والنهي والتعليم والتوجيه والتأديب والحفظ، لهم كامل الولاية عليهن، وعليهم كامل المسؤولية عنهن.

فالرجل سيد المرأة، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ [يوسف: ٢٥](٢).

﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: النساء جمع كنسوة، وكل منهما جمع لا واحد له من لفظه، ويقال للواحدة منهن: امرأة.

﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، «بما» الباء للسببية، و«ما» مصدرية، والتقدير: بسبب تفضيل الله بعضهم على بعض، أو موصولة، أي: بسبب الذي فضل الله به بعضهم على بعض.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾، أي: زاد، والفضل: الزيادة، ﴿بَعْضَهُمْ﴾، وهم الرجال، فهم الذين فُضلوا.

﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهن النساء، فهن المفضل عليهن.

والمعنى: بسبب ما زاد الله به الرجال على النساء في القوى الظاهرة والباطنة.

فمن القوى الظاهرة قوة البدن، فالرجال غالبًا أقوى وأشد أبدانًا من النساء.

ومن القوى الباطنة العقل والذكاء والشجاعة والحزم والعزم والصبر والتحمل.

ولهذا خصهم الله وفضلهم بأن جعل الرسالة والنبوة والولاية فيهم(٣)، وجعلهم

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩)، وأبو داود في الصلاة (٧٧١)، والنسائي في قيام الليل (١٦١٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤١٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٥٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٨٤).

(٣) قال ﷺ: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٩٩)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٨)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٢) من حديث أبي بكرة ﷺ.

أكمل دينًا منهن[١] وخصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع والجماعات، وبكون شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وميراثه مثل نصيب الأنثيين، وكون عقدة النكاح والطلاق بأيديهم- إلى غير ذلك من الخصائص التي هي تابعة لكمال استعدادهم الفطري.

فالرجل أفضل من المرأة وخير منها من حيث العموم، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وفي قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دون أن يقول: بما فضلهم الله عليهن تنبيه على أن الرجل من المرأة والمرأة من الرجل، وأن كل واحد منهما بالنسبة للآخر كأعضاء الجسد، فلا ينبغي أن يتكبر أحدهما على الآخر، وإن كان بعض الأعضاء أفضل من بعض.

كما أن فيه تنبيهًا على أن التفضيل إنما هو بالنسبة للجنس، أي: جنس الرجال على جنس النساء، لا بالنسبة للأفراد، فكم من امرأة خير من زوجها، بل ومن عشرات الرجال في العلم والدين والخلق.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الواو عاطفة، والباء للسببية و«ما» مصدرية أو موصولة- كسابقتها، والتقدير: وبسبب إنفاقهم من أموالهم، أو بسبب الذي أنفقوه من أموالهم من المهور والنفقات التي أوجبها الله للنساء على الرجال في الكتاب والسنة.

فقد جعل الله القوامة للرجال على النساء لسببين أحدهما: وهبي وهبهم الله إياه، وهو تفضيلهم عليهن.

والثاني كسبي اكتسبوه وهو إفضالهم عليهن بالإنفاق.

---

(١) قال ﷺ: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟. قلن بلى. قال: فذلك نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟. قلن بلى. قال: «فذلك نقصان دينها».
أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (٨٠)،- من حديث أبي سعيد الخدري وأخرجه مسلم أيضًا من حديث ابن عمر ومن حديث أبي هريرة في الإيمان (٧٩- ٨٠).

قال ابن كثير[١]: «فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيمًا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾».

وبعد أن ذكر الله وظيفة الرجل، وهي القوامة ذكر وظيفة المرأة وما يطلب منها فقال:

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ الفاء استئنافية، و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ مبتدأ، والمعنى: فالنساء الصالحات وهن اللاتي أخلصن العمل لله تعالى مع المتابعة للرسول ﷺ؛ لأن العمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ بإخلاص العمل لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ متبع الرسول ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فمعنى الصالحات: اللاتي قمن بحقوق الله تعالى، وحقوق أزواجهن.

﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ خبر المبتدأ، والقنوت: هو دوام الطاعة، أو هو الطاعة نفسها، قال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، أي: من المطيعين المداومين على الطاعة.

والأولى هنا: حمل معنى القنوت على دوام الطاعة؛ لقوله قبل هذا ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ فيكون المعنى ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، أي: المطيعات بأداء حقوق الله وحقوق أزواجهن ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾، أي: مديمات على الصلاح والطاعة.

ويجوز حمل القنوت على الطاعة فيكون قوله: ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ توكيدًا لقوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾.

﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ «حافظات» خبر ثان لقوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾.

والغيب: هو ما غاب عن الأعين.

والمعنى: حافظات لما يجب حفظه في غياب أزواجهن من حفظ أنفسهن وحفظ

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٥٦).

بيوتهم وأموالهم.

قال ﷺ: «**خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك**»- ثم قرأ رسول الله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية.

وفي لفظ: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**» الحديث(١).

وأيضًا حافظات لما غاب عن الناس مما يكون في بيوتهن من أمور وأحوال، وما يجري بينهن وبين أزواجهن(٢).

فعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود عنده، فقال: «**لعل رجلًا يقول ما يفعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها**».

فسكت القوم، فقلت: إي والله إنهن ليقلن وإنهم ليفعلون، قال: «**فلا تفعلوا، فإنما**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٩٥) (٩٣٢٨)، والطيالسي ص (٣٠٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٢). والحاكم مختصرًا (٢/ ١٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه بمعناه أبو داود في الزكاة (١٦٦٤) من حديث ابن عباس عن عمر- رضي الله عنهما، وابن ماجه في النكاح (١٨٧٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أحوال الناس وأمورهم منها أحوال وأمور خاصة الأولى سترها، بل قد يجب سترها لما يترتب على إفشائها ونشرها من مفاسد، ومنها أمور عادية لا يلزم التكتم عليها، بل لا يحسن التكتم عليها لما قد يترتب على ذلك من أضرار بين الأسر.

والناس في هذا بين طرفين ووسط منهم من يتكتم على كل شيء حتى على الأمور العادية ظنًا منهم أنهم بهذا يحفظون أنفسهم من العين فتجدهم يحيطون أنفسهم وأهليهم بهالة من التكتمات وإن أدى ذلك إلى سوء العلاقات بينهم وبين جيرانهم وأقاربهم ومن له بهم معرفة، وما علموا أن المعطي هو الله، وأن الواقي هو الله، وأن المطلوب من الإنسان فعل الأسباب مع الاعتماد على الله، وتحصين النفس بالأوراد الشرعية.

وهؤلاء أشبه حالًا بقارون الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨] لأنهم اعتقدوا أنهم بهذا الفعل حفظوا أنفسهم، حتى نشأت ناشئة من الناس تخشى من الناس أكثر مما تخشى من الله وضعف عندهم اليقين والاعتماد على الله من أجل هذه التربية العقيمة.

والطرف الثاني من يفشي كل شيء، وهذا لا ينبغي، وخير الأمور الوسط، فالأمور والأحوال الخاصة في البيت وبين الزوجين ونحو ذلك ينبغي سترها.

والأمور العادية لا يتكتم عليها، ولا يلزم من هذا أن نعلنها ودين الله وسط بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط والله المستعان.

ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون»(١).

قال القرطبي(٢): ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ هذا كله خبر، ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه في ماله وفي نفسها في حال غيبة الزوج».

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿**بِمَا حَفِظَ ٱللَّهَ**﴾ بنصب لفظ الجلالة؛ يعني: بحفظهن الله في طاعته وأداء حقه بما أمرهن من حفظ الغيب، كقول الرجل للرجل: ما حفظت اللهَ في كذا وكذا، بمعنى: ما راقبته.

وقرأ الباقون برفع لفظ الجلالة: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾(٣).

وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: فهن حافظات للغيب: بحفظ الله لهن. من باب إضافة المصدر إلى الفاعل.

والمعنى حافظات للغيب بحفظ الله لهن وتوفيقه وعونه وتيسيره.

فلولا حفظ الله وتوفيقه لهن ما استطعن حفظ الغيب قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال ﷺ لابن عباس: «**يا غلام أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك**»(٤).

فالمعنى: فالنساء الصالحات المطيعات لله ولأزواجهن مديمات للطاعة حافظات لما يجب حفظه في غياب أزواجهن، ولما غاب عن الناس مما ينبغي حفظه وستره، كل ذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه وعونه وتيسيره.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٦- ٤٥٧)، وفي سنده شهر بن حوشب، وفيه ضعف، لكن للحديث شواهد يتقوى بها منها حديث أبي هريرة بمعناه، الذي أخرجه أحمد (٢/ ٢٠، ٥٤١)، وأبو داود (٢١٧٤)، ومنها حديث سلمان الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٦)، ومنها حديث سعد بن أبي وقاص الذي أخرجه البزار كما ذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٧٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٢٩٦- ٢٩٧)، «المبسوط» ص (١٥٦)، «النشر» (٢/ ٢٤٩).

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال «حديث حسن صحيح» وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧). من طريق حنش الصنعاني قال ابن منده: «هذا إسناد مشهور ورواته ثقات». وقال ابن رجب: «إسناد حسن لا بأس به» وقد شرحه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» في رسالته: «نور الاقتباس في وصية النبي ﷺ لابن عباس» وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند (٢٦٦٩، ٢٧٦٣).

إذ لو وكلهن الله لأنفسهن ما استطعن ذلك- كما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده(١)

فمَن حَفظ الله حَفظه الله؛ ولهذا لما جاء النبي ﷺ في بدء الوحي فزعًا إلى خديجة- رضي الله عنها، يقول: «زملوني زملوني، والله لقد خشيت على نفسي» قالت له بلسان الواثقة بالله- عز وجل: «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(٢).

وقالت هاجر لما أنزلها إبراهيم- عليه السلام- وابنها إسماعيل بمكة بوادٍ غير ذي زرع، وولىٰ تاركًا لها. قالت: «آلله أمرك بهذا»؟ قال: نعم. قالت ثقة بالله تعالى: «إذن لا يضيعنا»(٣).

ويصح أن تكون «ما» موصولة، ويكون المعنى: بالذي حفظه الله، أي: أمر بحفظه وعدم نشره وإفشائه.

والمعنيان متلازمان فهن حافظات لما أمر الله بحفظه بحفظ الله لهن وتوفيقه.

وقيل المعنى: حافظات للغيب بما حفظ الله: أي بما حفظ الله لهن من حقوق على أزواجهن أي هذا بهذا أو بما حفظ لهن من الثواب العظيم إذا هن حفظن غيب أزواجهن(٤).

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ هؤلاء هن القسم الثاني من النساء، وهن اللاتي يخاف منهن النشوز، وهن خلاف الصالحات القانتات الحافظات للغيب.

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ مبتدأ، وهو جمع «التي»، أي: النساء اللاتي ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، أي: تعلمون نشوزهن بظهوره منهن، فالخوف هنا بمعنى العلم، وعبر عنه بالخوف ولم يقل «تعلمون»، أو: «اللاتي نشزن»؛ لأن الأصل عدم النشوز، فهو خروج عن الأصل، ويقوي هذا قوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ قال أبو محجن الثقفي:

---

(١) هذا البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر «ديوانه» ص (٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٨٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٢)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٤٠).

فـلا تـدفنني في الفـلاة فـإنني أخـاف إذا مـا مـت ألا أذوقهـا

أي: فإنني أعلم[١].

وقال بعض أهل العلم: الخوف- هنا- على بابه، أي: اللاتي تخافون وتخشون نشوزهن بظهور أماراته[٢].

النشوز: الارتفاع والغلظ، ومنه قيل للمكان المرتفع الغليظ من الأرض: «نشز» و«نشاز»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾، أي: ارتفعوا وانهضوا.

والمراد بالنشوز هنا ترفع المرأة على زوجها وغلظتها معه ومعصيتها له في أمره ونهيه، والخروج عن طاعته بقولها وفعلها، وعدم القيام بما يجب عليها له من حقوق، أو القيام بذلك على وجه التكره والتبرم، يدل على هذا قوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ خبر المبتدأ «واللاتي»، وما بعده معطوف عليه.

والموعظة هي: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل معالجة النشوز، أي: عظوهن بالقول بذكر حكم النشوز، وأنه لا يجوز، وذكر حقوق الزوج على زوجته ووجوب طاعته عليها مع ذكر ما يلين قلوبهن بذكر ما أعد الله للزوجة الصالحة المطيعة.

كما قال ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت**»[٣].

وبِذِكْر ما أُعد من الوعيد للزوجة المترفعة على زوجها العاصية له، كقوله ﷺ: «**إذا**

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤٦، ٢٦٥) «جامع البيان» (٨/ ٢٩٨).

(٢) انظر: «جامع البيان (٨/ ٢٩٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٨٩)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٣).

(٣) أخرجه أحمد من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (١/ ١٩١).

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٠٦) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح».

ورجح أحمد شاكر أن في إسناد أحمد انقطاعًا.

دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»(١).

وبذكر عظم حق الزوج عليها، كما قال ﷺ: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه**»(٢).

وعن الحصين بن محصن أن عمة له أتت النبي ﷺ في حاجة ففرغت من حاجتها، فقال لها النبي ﷺ: «**أذاتُ زوج أنت؟**» قالت: نعم. قال: «**كيف أنت له؟**» قالت: ما آلوه إلا ما عجزت قال: «**فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك**»(٣).

ويُذَكِّرها بأنه سيعاملها بمثل ما تعامله به فإن هي أطاعت وأدت حقوقه عليها فسيؤدي حقوقها ويحسن إليها.

وإن هي استمرت على نشوزها والخروج عن طاعة زوجها فسيمنعها حقها أو بعضه، إلى غير ذلك مما يؤدي إلى انقياد المرأة وتركها للنشوز، وهو يختلف باختلاف حال المرأة. والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر على امرأته.

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ﴾ إذا لم تجد الموعظة في علاج النشوز ينتقل إلى المرحلة الثانية، وهي التأديب بالهجر في المضاجع.

والهجر: لغة الترك، ومنه سميت الهجرة، وهي ترك بلد الكفر والانتقال منه إلى بلد الإسلام، ومنه قوله ﷺ: «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(٤).

أي: ترك ما نهى الله عنه.

﴿فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾، ﴿ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ جمع مضجع، وهو موضع الاضطجاع، أي: موضع

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٧)، ومسلم في النكاح (١٤٣٦)، وأبو داود في النكاح (٢١٤١)، والدارمي في النكاح (٢٢٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٢، ١٨٥٣)، وأحمد (٤/ ٣٨١) من حديث عبدالله بن أبي أوفى ﷺ.
قال الألباني: «حسن صحيح» وأخرجه أحمد أيضًا من حديث معاذ بن جبل ﷺ (٥/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ومن حديث عائشة- رضي الله عنها (٦/ ٧٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٨١)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٦)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

النوم، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦].

والمعنى: اتركوا جماعهن مع المضاجعة لهن لكن يدير لها ظهره، أو اتركوا جماعهن وفرشهن كلية بأن يكون الزوج في فراش، وهي في فراش آخر، أو يكون في حجرة، وهي في حجرة، أو بترك جماعهن وكلامهن بشرط ألا يزيد ترك الكلام عن ثلاثة أيام؛ لقوله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»(١).

والأظهر أن المراد بالهجر ترك جماعهن وهو من أشد الأشياء على المرأة وبخاصة إذا كانت تحب زوجها، كما قالت تلك المرأة لما هجر زوجها فراشها غضبًا عليها لأنها لا تنجب أبناءً:

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أنا لا نلد البنينا ... والله ما ذلك في أيدينا(٢)

أما ترك فراشها بالكلية وعدم النوم معها في فراش أو ترك بيتها وغرفتها فقد يؤدي إلى زيادة الجفوة.

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ إذا لم تُجْدِ الموعظة، ولا الهجر في المضاجع في علاج النشوز ينتقل إلى المرحلة الثالثة، وهي التأديب بالضرب، ضربًا غير مبرح أي: غير شديد ولا شاق.

قال ﷺ في حديث جابر بن عبدالله ﷺ الطويل في الحج: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف..» الحديث(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٢)، من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

(٢) البيتان لامرأة أبي حمزة الضبي. انظر: «البيان والتبيين» (١/ ١٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأبو داود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في المناسك (٢٩٦٢، ٢٩٧٤)، والترمذي في الحج (٨٦٢)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤). وأخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٣)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥١)، عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله =

والضرب غير المبرح هو الذي ليس بشديد ولا شاق، الذي يؤلم في الحال فيحصل به المقصود، وهو التأديب، ولا يؤذي في ثاني الحال، فلا يكون له آثار تبقى على الجسم من جروح ونحو ذلك.

عن عطاء قال: قلت لابن عباس: «ما الضرب غير المبرح؟ قال: السواك وشبهه يضربها به»(١).

ويتقي الضرب في المواضع التي قد يحصل من ضربها خطورة ويبقى أثرها كالرأس والوجه ونحو ذلك، عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت أو اكتسبت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت»(٢).

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، و«إن» شرطية، ﴿أَطَعْنَكُمْ﴾ فعل الشرط.

والمعنى: فإن أطعنكم بالقيام بما يجب عليهن من الطاعة وأداء حقوقكم، وتركن النشوز.

﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط.

= ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، فذكر في الحديث قصة، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا إن لكم على نسائكم حقًا ولنسائكم عليكم حقًا فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهونه، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهونه ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» قال الترمذي «حسن صحيح».

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٣١٤- ٣١٦).

(٢) أخرجه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية أبو داود في النكاح (٢١٤٢، ٢١٤٣، ٢١٤٤)، والنسائي في تفسير سورة النساء (١٢٤)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٠)، وأحمد (٤/ ٤٤٦- ٤٤٧، ٥/ ٣، ٥).

قال المنذري في «مختصر السنن» (٣/ ٦٨)، حديث (٢٠٥٧): «اختلف الأئمة في الاحتجاج بهذه النسخة- يعني نسخة بهز بن حكيم عن أبيه عن جده- فمنهم من احتج بها، ومنهم من أبى ذلك. وخرج الترمذي منها شيئًا وصححه»: وقال أحمد شاكر في تخريجه للطبري (٨/ ٣١١): «والحق أنها صحيحة إذا صح الإسناد إلى بهز» وقال الألباني عن هذا الحديث: «حسن صحيح».

أي: فلا تطلبوا وتلتمسوا عليهن طريقًا لإيذائهن؛ لا بقول ولا بفعل؛ لا بهجر، ولا ضرب، ولا غير ذلك، فما دمن أطعن، وتركن النشوز، فلا ينبغي معاتبتهن على الأمور الماضية، والتنقيب عنها، بل ينبغي ترك ما مضى وتناسيه كأنه لم يكن؛ لأن التذكير بذلك يؤدي إلى استمرار النشوز والمعصية ويؤدي إلى وقوع الشر والخلاف.

قال ابن كثير(١): «فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها».

وقيل: لا تكلفوهن المحبة لكم، فإن ذلك ليس باختيارهن، فعليهن أن يطعنكم، وليس يلزمهن المحبة لكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ هذه الجملة استئنافية، المقصود منها التذكير والتحذير للرجال.

﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف، تحقيق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات أزلًا وأبدًا.

﴿عَلِيًّا﴾ «العلي»، أي: ذا العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، علو القدر وعلو القهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فهو عال بذاته فوق جميع خلقه، عليُّ القدر، وعليُّ القهر. قال ابن القيم(٢):

فهو العلي بذاته سبحانه ... إذ يستحيل خلاف ذا ببيان
وهو العلي فكل أنواع العلو ... له فثابتة بلا نكران

﴿كَبِيرًا﴾، أي: كبير الذات والصفات، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، له الكبرياء والعظمة، كما قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»(٣).

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٥٩).

(٢) في النونية ص (١٤٦).

(٣) هذا جملة من حديث قدسي أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠)، وأبو داود في اللباس =

وقد ختم الله ﷻ قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾؛ لتذكير الرجال وتحذيرهم من التعالي والتعاظم على النساء والتكبر عليهن، أو البغي عليهن وظلمهن بحجة أن الله جعل لهم القوامة عليهن فذكرهم ﷻ وحذّرهم وأعلمهم بأنه أعلى وأكبر من كل شيء، وأنه ينبغي منكم معشر الرجال خفض الجناح ولين الجانب مع زوجاتكم، وإذا كان الله جعل لكم الولاية عليهن وأقدركم عليهن فاذكروا قدرة الله عليكم فإنها فوق كل قدرة.

عن أبي مسعود البدري ﷺ قال: «كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود»، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ، فألقيت السوط من يدي فقال: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»[1].

وقد قيل: «إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك».

أي: فإن ظلمتموهن وبغيتم عليهن بغير سبب فإن الله العلي الكبير ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

إذا لم تجد الوسائل الثلاث السابقة في علاج النشوز وهي: الموعظة: ثم الهجر في المضاجع، ثم الضرب غير المبرح، والتي هي أستر لحال الزوجين؛ لأنها تتم فيما بينهما من غير إطلاع غيرهما على أحوالهما، وهي أولى بلا شك.

لكن إذا لم تجد هذه الوسائل في علاج النشوز، أو كان النفور من الزوجين معا، وخيف من اتساع الشقاق والخلاف بينهما فينتقل إلى المرحلة الرابعة: وهي بعث الحكمين كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

ولما كان بعث الحكمين فيه دخول أطراف غير الزوجين جعله الله آخر المراحل، كما يقال: آخر الدواء الكي. فمهما أمكن علاج النشوز بالوسائل السابقة فهو أولى لما فيه

=

(٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وعند مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (١٦٥٩)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٨).

من الستر لأحوال الزوجين؛ لأنه إذا تدخل في قضيتهما أطراف أُخَر لأجل الإصلاح لا يؤمن أن يكون ذلك سببًا لفشو أمرهما مما قد يؤدي إلى اتساع رقعة الشقاق، لكن بعث الحكمين إذا لم تجد الوسائل السابقة لابد منه، كما قال ﷻ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ الآية.

والخطاب للمسلمين، والمراد حكامهم الشرعيون.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾، الواو استئنافية، و«إن» شرطية، و«خفتم» فعل الشرط.

ومعنى «خفتم»: أيقنتم وعلمتم؛ لأن بعث الحكمين، وتدخل الناس في قضية بين الزوجين لا ينبغي إلا عن علم ويقين بأن بين الزوجين شقاقًا، إذ قد يكون إطلاع غير الزوجين على شيء من أحوالهما وعلى الشقاق بينهما سببًا لبعد الفجوة بينهما فيتسع الخرق على الراقع.

﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ شقاق مفعول به منصوب لـ «خفتم»، وهو مصدر مضاف و«بين» ظرف مضاف إليه، و«بين» مضاف والضمير «هما» مضاف إليه وهو عائد على الزوجين، وإن لم يسبق لهما ذكر لدلالة السياق عليهما في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى آخر الآية.

والشقاق: هو الخلاف والعداوة والمباعدة، مأخوذ من الشق، وهو الجانب؛ لأن كل واحد منهما يأخذ شقًا غير شق صاحبه، وجانبًا غير جانبه، أو لأن كلًا منهما يفعل ما يشق على الآخر.

﴿فَٱبْعَثُواْ﴾ أمر للمسلمين جميعًا، والمراد الحكام- كما سبق، والمعنى: أرسلوا.

﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ الحكم: هو ذو الحكم النافذ، المُحكّم في الفصل بين المتنازعين، وهو أخص من الحاكم، ولابد في الحَكَم أن يكون مسلمًا عدلًا رشيدًا بالغًا عاقلًا، عالمًا بالحكم الشرعي، عارفًا بحال الزوجين وواقعهما وأسباب الخلاف بينهما.

﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ ﴾، أي: من أهل الزوج، و﴿مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ أي من أهل الزوجة.

فلابد من كون أحد الحكمين من أهل الزوج والآخر من أهل الزوجة، وكونهما من أهل الزوجين؛ لأنهما أعرف بأحوالهما، وأقرب للنصح لهما، والشفقة عليهما، وأستر لحالهما، وأدعى لقبول الزوجين منهما.

وقد قيل: إن المراد بالحكم الشاهد الذي ينظر إلى أحوالهما فقط[١]. والصحيح الأول؛ لأن الله سماه حكمًا، والحكم هو المحكّم في الفصل بين المتنازعين.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، ﴿يُرِيدَآ﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة.

والضمير في قوله: ﴿يُرِيدَآ﴾ يعود على الحكمين، وقيل يعود على الزوجين.

والأظهر أنه للحكمين- كما هو قول جمهور المفسرين؛ لأن الحكمين هما اللذان يريدان أن يحكما، فنية الإصلاح تكون منهما، أما الزوجان فالخلاف قائم بينهما وكل واحد منهما يريد الانتصار لنفسه، ولو أرادا الإصلاح فيما بينهما لم يكن هناك حاجة لبعث الحكمين بينهما.

﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ جواب الشرط. الضمير «بينهما» للزوجين، أي: يوفق الله بين الزوجين.

ويحتمل أن يعود الضمير على الحكمين[٢]، أي يوفق الله بينهما في الوصول إلى حكم يتفقان عليه، فيه حل الخلاف بين الزوجين.

والمعنى: إن يرد كل من الحكمين ويحب الإصلاح بنية خالصة سليمة يوفق الله بينهما، فيصلان- بإذن الله- إلى حكم يكون فيه إزالة الشقاق والخلاف بين الزوجين والتوفيق بينهما.

أما لو ساءت نية الحكمين أو أحدهما بأن ينوي كل منهما أو أحدهما الانتصار لصاحبه، فهذا ينتصر للزوج، وذاك ينتصر للزوجة، فإنهما لا يوفقان للإصلاح لأنهما لم يريداه حقيقة.

فعلى الحكمين أن يقصدا الإصلاح ويخلصا النية، فينظرا في حال الزوجين، وما الذي أثار الشقاق بينهما، وما الذي ينقم أحدهما من صاحبه، ثم يُلزمان كلا منهما ما يجب فإن لم يستطع أحد الزوجين ذلك أقنعا الآخر بما تيسر من الرزق والخلق.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٣٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٣٢- ٣٣٣)، «النكت والعيون» (١/ ٣٨٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٣)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٨٦).

ومهما أمكن الإصلاح فلا يعدلان عنه، فإن لم يجدا سبيلًا للإصلاح والجمع بينهما فرقا بينهما؛ لأن هذا هو الأصلح لهما.

وعلى القول بأن الضمير في «يريدا» يعود إلى الزوجين- مع أن فيه بُعدًا؛ يكون المعنى: إن يردْ كل من الزوجين الإصلاح مع صاحبه فيما يستقبل إذ قد تكون بدت بينهما أمور تفاقمت وما استطاعا حلها وتلافيها فيما بينهما، ويود كل منهما أن تصلح حالهما وتعود الألفة بينهما ويزول الشقاق والخلاف فمع وجود هذه النية السليمة الصادقة يوفق الله بينهما، فيتوصل الحكمان إلى حل يرضي الطرفين، فيوفق بينهما، ويهيئ لهما أسباب الوفاق، ويجنبهما أسباب الشقاق فتعود الألفة بينهما وتزول الوحشة عنهما.

ولا شك أن صلاح نية كل واحد من الحكمين وكل واحد من الزوجين وإرادة كل منهم الإصلاح سبب في توفيق الحكمين ووصولهما إلى حل يكون فيه التوفيق بين الزوجين وأن سوء نية أحد هؤلاء الأطراف الأربعة قد يكون سببًا في ضد ذلك فعلى الحكمين أن يخلصا النية ويقصدا الإصلاح، وعلى الزوجين أيضًا أن يصدقا في طلب الإصلاح والخروج من هذا الشقاق.

وأن يحسن كل منهما النية فيما يعامل به صاحبه في المستقبل. وبهذا يوفق الله بين الجميع، بين الحكمين في حكمهما، وبين الزوجين في عشرتهما وعلاقاتهما بقية حياتهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هذه الجملة مستأنفة، ولهذا كسرت همزة «إن»، وفيها تهديد ووعيد لمن وقع في المخالفة من الزوجين أو الحكمين، ووعد لمن امتثل من الزوجين أو الحكمين.

و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها أي: إنه ﷻ كان عليمًا خبيرًا في جميع الأوقات أزلًا وأبدًا.

﴿عَلِيمًا﴾ خبر «كان»، أي: ذا العلم الواسع لكل شيء.

﴿خَبِيرًا﴾ خبر ثان لـ «كان»، أي: ذا الخبرة الواسعة.

ومعنى الخبير: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفيَّاتها. ومن هنا سُمِّي الزارع خبيرًا، وسميت المزارعة مخابرة؛ لأن الزارع يدس البذر ويخفيه في الأرض.

وبين الوصفين ﴿عَلِيمًا﴾ و﴿خَبِيرًا﴾ عموم وخصوص، فالخبير أخص من العليم.

وإذا اجتمعا- كما في هذه الآية- حمل «عليم» على العلم بالظواهر والجلائل والجليات، وحمل «خبير» على العلم بالبواطن والدقائق والخفيات.

وإذا انفرد أحدهما دل على معنى الآخر، فـ«عليم» إذا انفرد فمعناه: العليم بكل شيء من الظواهر والبواطن وغير ذلك.

و«خبير» إذا انفرد فمعناه: العليم ببواطن الأمور وظواهرها؛ لأنه إذا كان عليمًا بالبواطن فعلمه بالظواهر من باب أولى.

ويظهر تمام خبرته ﷻ عندما يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور كما قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩- ١١].

وهو ﷻ لم يزل خبيرًا في جميع الأوقات والأحوال سبحانه، لكن يظهر للخلائق تمام خبرته وكمالها ذلك اليوم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١].

وإذا كان ﷻ عليمًا بالبواطن والظواهر، وخبيرًا بها فهذا يوجب على العبد تقوى الله ﷻ، ومراقبته في السر والعلانية. وقد أحسن القائل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب(١)

الفوائد والأحكام:

١- أن للرجال كامل الولاية على النساء؛ لقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فعليهم تحمل هذه المسؤولية، والقيام بهذه الأمانة خير قيام تعليمًا وتأديبًا وأمرًا ونهيًا وإنفاقًا وحفظًا، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦](٢).

٢- الإشارة إلى أن من أسباب جعل القوامة في الرجال «رجولتهم»؛ لقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ولم يقل الذكور قوامون على الإناث، وفي هذا إثارة

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٣٤)، وقيل: لصالح عبد القدوس، وهما في «ديوانه» ص (١٣٣).

(٢) لكن ليس في الآية دليل لمن قال من أهل العلم: إن للزوج الحجر على زوجته في مالها.

وإيقاظ لمكامن الرجولة فيهم تجاه هذه المسؤولية العظيمة، ومن هنا يعلم أنه لا يقوم بهذه القوامة حقًا إلا من كانوا رجالًا حقًا، وكم ابتليت هذه الأمة بأشباه الرجال ولا رجال، وكما قيل:

أكل امرئ تحسبين امرأ ... ونار توقد بالليل نارا(١)

٣- أنه لا يجوز تولية النساء على الرجال، ولا ولاية لهن عليهم مطلقًا، لا في قضاء ولا في إمارة، لا ولاية صغرى، ولا ولاية كبرى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. وفي الحديث: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»(٢).

لكن للمرأة ولاية خاصة في بيت زوجها وأولادها فقط؛ لقوله ﷺ: «**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**»(٣).

ولها ولاية أيضًا على المؤسسات النسائية كالمدارس وغيرها.

٤- أن النساء في حاجة إلى من يقوم عليهن لما جبلن عليه من الضعف والنقص في العقل والدين. فينبغي للمرأة أن تعرف أن عليها طاعة الرجل بالمعروف، وأن تعرف أن قوامة الرجل عليها من مصلحتها هي.

٥- أن كل مجتمع وإن صغر في حاجة إلى من يتولى شؤونه ويديرها، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»(٤).

وقد قيل: «ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام»(٥).

وقال الشاعر:

---

(١) البيت لعدي بن زيد: انظر: «الكامل في اللغة والأدب» (٣/ ٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٩٩)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٨)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٢) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٢٨)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٨)، وحسنه الألباني. وقد صححه في «إرواء الغليل» وفي «صحيح الجامع الصغير».

(٥) انظر: «السياسة الشرعية» ص (١٧٧).

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

٦- فضل الرجال على النساء؛ لأن الله جعل لهم القوامة عليهن فقال ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

والقوامة- وإن كانت تكليفًا ومسؤولية على الرجال فهي أيضًا تشريف وتفضيل لهم؛ ولهذا علل لذلك بقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: بما خصهم الله به من الخصائص دونهن، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٧- التفضيل بين البشر؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٨- اختيار القرآن لأحسن الأساليب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دون أن يقول: «بما فضلهم الله عليهن»؛ لما في التعبير الأخير من الإشعار بنقص المرأة. مع أن المعنى واحد.

٩- في قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دون أن يقول: بما فضلهم الله عليهن. إشارة إلى أن التفضيل إنما هو لجنس الرجال على جنس النساء، لا بالنسبة للأفراد، فكم من امرأة خير من زوجها في العلم والدين والخلق، بل وفي الشجاعة وسائر الصفات، بل خير من عشرات الرجال.

١٠- الإشارة إلى أن الرجل من المرأة والمرأة من الرجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

فكل منهما في حاجة إلى الآخر كأعضاء الجسد لا يستغني عنها الجسد جميعًا، وإن كان بعضها أفضل من بعض، فالقلب أفضل من اليد، واليمين أفضل من الشمال وهكذا فلا ينبغي أن يأخذ الرجل من هذا التفضيل طريقًا للتعالي والتعاظم على المرأة.

١١- أن الله جعل القوامة في الرجال على النساء لسببين: الأول فضلهم عليهن.

والثاني: إفضالهم عليهن بالإنفاق من أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

من هنا أخذ بعض أهل العلم أن الزوجة متى عجز زوجها عن النفقة عليها فإن

لها طلب فسخ النكاح؛ لأن الزوج في هذه الحال لم يكن قوامًا عليها.

واستدلوا بما روته عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ خير زوجاته حينما طالبن بزيادة النفقة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩][(١)].

وممن ذهب إلى هذا القول: مالك والشافعي وكثير من أهل العلم.

وقد ذهب بعض أهل العلم منهم أبو حنيفة وغيره إلى أنه ليس لها طلب الفسخ في هذه الحال، وإنما يجب عليها الصبر، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧].

واختار هذا العلامة ابن القيم، وهو الراجح إن شاء الله، وهو أرفق بالأمة.

أما تخييره ﷺ لزوجاته حين طالبنه بزيادة النفقة فلعله- والله أعلم- أنه لا يليق أن تبقى مع النبي ﷺ من تريد الدنيا تشريفًا وتكريمًا لفراشه ﷺ، وهو لما خيرهن ﷺ لم يطالبنه بالفسخ[(٢)].

١٢- أن أحكام الله تعالى الكونية والشرعية معللة بعلل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا﴾، والباء للسببية، ويلزم من هذا إثبات الحكمة لله ﷻ وأن أفعاله لحكمة، لا لمجرد المشيئة كما تقوله الجبرية الذين ينفون الحكمة والعلة في أفعال الله.

١٣- أن نفقة النساء واجبة على الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾، أي: من المهور والنفقات.

١٤- أن المنفق خير وأفضل من المنفق عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٨٥، ٤٧٨٦)، ومسلم في الطلاق- الحديث (١٤٧٥).

(٢) انظر: «الأم» (٥/ ٩٦)، «المبسوط» للسرخسي (٥/ ١٨٠)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٤٩)، «المجموع» للنووي (١٨/ ٢٦٧- ٧٧٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٧١، ٥/ ١٦٩)، «زاد المعاد» (٥/ ٥١١- ٥٢٢).

أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، فجعل سبحانه من سبب جعل القوامة في الرجال كونهم المنفقين عليهن.

وفي الحديث «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»(١) واليد العليا هي المنفقة المعطية واليد السفلى هي الآخذة، ومن هنا يؤخذ كراهة مسألة الناس إلا لفاقة وحاجة شديدة لما في ذلك من المذلة.

١٥- أن النفقة على الزوجات وغيرهن ينبغي أن تكون من الحلال؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، أي: مما يتمولونه مما أحل الله لهم، لا من مغصوب، ولا من محرم ونحو ذلك.

١٦- أن النساء ينقسمن إلى قسمين صالحات مطيعات، وناشزات خارجات عن الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾.

١٧- الثناء على النساء الصالحات القانتات الحافظات للغيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ فهذا ثناء عليهن وتنويه بشأنهن.

١٨- الترغيب في إصلاح العمل بإخلاصه لله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ، والمداومة على الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ ﴾.

١٩- الترغيب في حفظ ما غاب عن الناس من أحوال الزوجين وأمور البيت وفي حفظ السر؛ لقوله تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾.

٢٠- أن النساء لا يستطعن أن يكن حافظات للغيب إلا بتوفيق الله لهن وعونه وتيسيره؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ ﴾، أي: بتوفيقه وعونه وتيسيره، وهكذا كل إنسان لا يستطيع أن يقوم بأي عمل ديني أو دنيوي إلا بتوفيق الله له وإعانته وتسديده وتيسيره له، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣)، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

وقال ﷺ لابن عباس: «**أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك**»(١).

٢١- أن على النساء أن يحفظن ما غاب عن الناس من أحوال البيوت ومما يجري بينهن وبين أزواجهن مما أمر الله بحفظه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾، أي: بما أمر بحفظه وهذا على الوجه الثاني في تفسير الآية.

٢٢- أن وظيفة الرجل هي القوامة على المرأة، ووظيفة المرأة طاعة زوجها وحفظ الغيب بعد طاعة الله ﷻ وحفظه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

قال ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت**»(١).

٢٣- أن من قوامة الرجال على النساء تأديبهن إذا خرجن عن الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾.

٢٤- عناية الإسلام بالحياة الزوجية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

٢٥- الإشارة إلى أنه ينبغي البدء بعلاج النشوز في أول أمره قبل أن يستفحل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ وذلك بأن بدت تظهر علاماته.

وهكذا كل خروج عن الطاعة ينبغي أن يعالج في أول أمره؛ لأن هذا أيسر وأقرب للرجوع إلى الطاعة.

٢٦- العمل بالقرائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، أي: بوجود قرائن تدل على ذلك، والعمل بالقرائن ثابت بالكتاب والسنة.

٢٧- أنه ينبغي البدء بعلاج النشوز بالموعظة بالقول بما يبين الحكم ويلين القلب ترغيبًا وترهيبًا، وهكذا كل خروج عن الطاعة يبدأ بعلاجه بالموعظة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فبدأ ﷻ بالموعظة.

٢٨- الهجر للنساء في المضاجع إذا خرجن عن الطاعة ولم تجد فيهن الموعظة-

---

(١) سبق تخريجه.

وذلك بترك جماعهن وفرشهن؛ لأن الهجر يؤلمهن معنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾.

فإن هجر في الكلام فلا يزيد على ثلاثة أيام؛ لقوله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**» الحديث(١).

٢٩- الإشارة إلى أن فراش الزوج والزوجة واحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ وتركه لفراشها إنما يكون عند النشوز(٢).

٣٠- إذا لم تجد الموعظة، ولا الهجر في المضاجع في علاج النشوز يُنتقل إلى الضرب غير المبرح، وهو المرحلة الثالثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾؛ لأن بعض النفوس لا ينجع فيها إلا التأديب بالضرب.

وقال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ: «**والله ما يزع الله بسلطان أعظم مما يزع بالقرآن**»(٣).

٣١- أن علاج النشوز بالموعظة ثم الهجر ثم الضرب غير المبرح؛ لأن الله ذكرها مرتبة فبدأ بالأسهل، ثم الأثقل منه، ثم الأثقل منهما، فدل هذا على مراعاة التدرج والترتيب، وهو قول جمهور أهل العلم، خلافًا لقول بعضهم بجواز الجمع بين هذه العقوبات، وتقديم بعضها على بعض بحجة أن الواو تفيد الجمع أو أنه ظاهر الآية(٤).

٣٢- أن الضرب وسيلة من وسائل التربية والتأديب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لكن هذا ليس على سبيل الإلزام، بل قد تدعو حاجة الزوج إلى الراحة وخاصة عند وجود أطفال لهم صغار أن يكون في فراش أو في غرفة أخرى، ليتمكن من القيام بما عليه من مسؤوليات أثناء النهار فينبغي للزوجة أن تقدر هذا.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد. انظر «كنز العمال» (١٤٢٨٤). وقد رُوي نحو ذلك عن عثمان ﷺ.

(٤) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٣٨٧)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٢٠، ٤٢١)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٧٣).

وقد قال ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر**»(١).

وهذا يبطل قول بعض علماء التربية الذين يقولون: لا تحسن التربية بالضرب؛ لأنه لا يفيد، وإنما يقسي القلب.

لكن ينبغي أن يعلم أن الضرب إنما يجوز في حالات معينة وعلى صفة معينة، يجوز إذا استنفذت كل الوسائل التي دونه ولم تفد شيئًا فيلجأ إليه للحاجة إليه لتقويم الاعوجاج وعلاج النشوز، وإن استقامت الأمور وصلحت الأحوال بدونه فلا يجوز.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تضربوا إماء الله**» فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرن(٢) النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي ﷺ: «**لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم**» وفي لفظ «**ولن يضرب خياركم**»(٣).

فَتَرْكُ الضرب أولى، بل لا ينبغي الضرب ولا يجوز إذا صلحت الأحوال بدونه.

قال القاضي شريح:

رأيت رجالًا يضربون نساءهم ... فَشَلّت يميني حين أضرب زينبا(٤)

وهو أيضًا على صفة معينة كما قال ﷺ «**ضربًا غير مبرح**»(٥).

وقال ﷺ: «**لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها آخر اليوم**»(٦).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٥)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) ذئرن: نشزن وتجرأن وساء خلقهن انظر «النهاية مادة «ذأر».

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٤٦)، وابن ماجه في النكاح (١٨٩٥)، والدارمي في النكاح (٢٢١٩) من حديث عبدالله بن أبي ذباب ﷺ وصححه الألباني.

(٤) انظر: «العقد الفريد» (٦/ ١٤٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤١٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري في التفسير (٥٢٠٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٥)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٣)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٣)، والدارمي في النكاح (٢٢٢٠) من حديث عبدالله ابن زمعة ﷺ.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة ولا خادمًا**»(١).

فالضرب إنما هو علاج شرعي إذا لم تنجع الوسائل التي دونه، ولا شك أن الضرب في مثل هذه الحال وعلى الصفة التي بينها رسول الله ﷺ «**ضربًا غير مبرح**» أولى من بعث الحكمين للإصلاح بين الزوجين، ولهذا قدّمه الله عليه، كما أنه أولى وأفضل من الطلاق الذي لم يذكره ضمن مراحل العلاج؛ لأنه أمر مبغض له سبحانه؛ لما فيه من تشتيت شمل الأسرة، وكما قيل: «**وعند ذكر العمى يستحسن العور**».

٣٣- عظم حق الزوج على زوجته، ووجوب طاعته، وتحريم النشوز عليه بمعصيته والخروج عن طاعته؛ لأن الله أمر بتأديب من نشزن بهجرهن في المضاجع وضربهن، وهذا لا يكون إلا على أمر عظيم من ترك واجب أو فعل محرم؛ ولهذا قال بعد ذلك ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «إذا تزوجت المرأة كان زوجها أملك بها من أبويها، وطاعة زوجها عليها أوجب، فإن كل طاعة كانت للوالدين انتقلت إلى الأزواج، ولم يبق للأبوين عليها طاعة، تلك وجبت بالأرحام وهذه وجبت بالعهود».

فعلى المرأة طاعة زوجها بالمعروف ما لم يأمرها بمعصية الله، وعليها موافقته في السكن في أي بلد كان، ما لم تشترط خلافه، وإجابته إذا دعاها إلى فراشه، وعدم الخروج إلا بإذنه، وعليها خدمته الخدمة المعروفة من مثلها لمثله.

وقد اختلف أهل العلم هل تجب على الزوجة خدمة زوجها أو لا؟

فذهب طائفة من السلف إلى وجوب خدمتها له في مصالح البيت فيما جرت به العادة والعرف.

لما رُوي أن علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة- رضي الله عنهما- اشتكيا الخدمة فحكم ﷺ على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت، وحكم على علي بالخدمة الظاهرة(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٦١- ٢٦٤).

(٣) انظر: «أفضية رسول الله ﷺ» لأبي فرج القرطبي المالكي ص (٧٣)، «زاد المعاد» (٥/ ١٨٦).

وعن أسماء أنها قالت: «**كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكان له فرس، وكنت أسوسه وكنت احتش له، وأقوم عليه**».

وعنها «أنها كانت تعلف فرسه، وتسقي، وتخرز الدلو، وتعجن، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ»(١).

ولأن المعروف قيامها بهذه الخدمة للزوج. وقيام الزوج بخدمتها- وقد قال الله ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]؛ ينافي قوامته عليها؛ بل يجعل القوامة لها عليه.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا تجب عليها خدمته.

قالوا: لأن عقد النكاح إنما اقتضى الاستمتاع، لا الاستخدام وبذل المنافع، وحملوا ما جاء في الأحاديث والآثار الواردة في خدمة المرأة لزوجها على أنه من باب التطوع ومكارم الأخلاق، لا الوجوب(٢).

والصحيح أن على المرأة الخدمة في بيت زوجها؛ لعموم دلالة الكتاب والسنة والآثار على ذلك، وهو المعروف عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يعرف أن الرجل هو الذي يقوم بخدمة البيت أبدًا، اللهم إلا من باب مساعدة الزوجة فهذا كان معروفًا من فعله ﷺ(٣).

ولهذا لم يقل النبي ﷺ لعلي لما اشتكت فاطمة ما تلقى من الخدمة: ليس عليها خدمة بل الخدمة عليك.

وأيضًا: فإن المهر في مقابلة الاستمتاع بالبضع، وكل من الزوجين يقضي وطره من صاحبه، وإنما أوجب الله سبحانه نفقتها وكسوتها ومسكنها في مقابلة استمتاعه بها وخدمتها، وما جرت به عادة الأزواج(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٥): «وتنازع العلماء هل عليها أن تخدمه في مثل فراش

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٧، ٣٥٢) بإسناد صحيح، وصححه ابن القيم في «زاد المعاد» (٥/ ١٨٧).

(٢) انظر زاد المعاد (٥/ ١٨٨).

(٣) راجع الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

(٤) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ١٨٨).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٨٩- ٩٠).

المنزل ومناولة الطعام والشراب والخبز والطحن والطعام للمماليكه وبهائمه، مثل علف دابته، ونحو ذلك، فمنهم من قال: لا تجب الخدمة، وهذا ضعيف، كضعف قول من قال: لا تجب عليه العشرة والوطء، بل الصاحب في السفر، الذي هو نظير الإنسان وصاحبه في المسكن إن لم يعاونه على مصلحة لم يكن عاشره بالمعروف.

وقيل- وهو الصواب- وجوب الخدمة، فإن الزوج سيدها في كتاب الله(١)، وهي عانية عنده بسنة رسول الله ﷺ(٢)، وعلى العاني والعبد الخدمة؛ ولأن ذلك هو المعروف. ثم من هؤلاء من قال: تجب الخدمة اليسيرة، ومنهم من قال: تجب الخدمة بالمعروف، وهذا هو الصواب، فعليها أن تخدمه الخدمة المعروفة من مثلها لمثله ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية، وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة».

٣٤- إذا تركت الزوجات النشوز، والتزمن الطاعة، فلا يجوز للأزواج أن يطلبوا طريقًا لأذيتهن ونحو ذلك، لا في التذكير في الماضي، ولا فيما يستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فينبغي الكف عنهن فيما يستقبل، والتغاضي عما مضى، وعدم البغي عليهن أو ظلمهن.

وهذا يجب على كل من ولاه الله ولاية مع من تحت ولايته.

٣٥- الإشارة إلى أن الواجب للزوج على زوجته أن تطيعه ولا يلزم أن تحبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾؛ لأن المحبة القلبية لا تدخل تحت الاختيار فقد تحبه، وقد لا تحبه، لكن عليها أن تطيعه بالمعروف(٣).

٣٦- أن الجزاء من جنس العمل، وأن المكافأة تكون بالمثل، فإذا النساء نشزن وخرجن عن طاعة أزواجهن كان لهم هجرهن في المضاجع وضربهن ضربًا غير مبرح،

---

(١) قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

(٢) كما في قوله ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم»، أي: أسيرات وقد سبق تخريجه.

(٣) روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال للتي أخبرته أنها لا تحب زوجها: «إذا كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تخبره بذلك، فإن أقل البيوت ما بني على المحبة، وإنما يتعاشر الناس بالحسب والإسلام».
قال رشيد رضا: «فحسب الإنسان وشرفه ودينه يجعله يحفظ حق الآخر، فسعادة المحبة الزوجية قلما تمتع بها زوجان، لكن تستبدل بالمحبة العملية». انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٨٠).

تأديبًا لهن، وإذا أطعن فلا يجوز لهم أن يبغوا عليهن سبيلا.

٣٧- إثبات صفة العلو المطلق لله تعالى علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فكل معاني العلو ثابتة له ﷻ علو القهر فلا غالب له قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وعلو الشأن والقدر وعلو الصفات، فهو تعالى متعال عن جميع النقائص والعيوب في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

وعلو الذات فله العلو والفوقية على خلقه قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وهذا يتضمن علو القهر وعلو الفوقية. والآيات في هذا كثيرة(١).

وفي هذا رد على الحلولية الذين يقولون: إن الله حالّ في كل مكان تعالى الله عن قولهم. كما أن فيه رداً على المعتزلة والأشاعرة ونحوهم الذين يقولون إن الله لا فوق العالم ولا تحته، ولا داخل العالم ولا خارجه فهو على مذهبهم أشبه بالعدم تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا(٢).

٣٨- إثبات أنه ﷻ الكبير، كبير الذات، وكبير الصفات، ذو الكبرياء والعظمة؛ لقوله تعالى: ﴿كَبِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ﴾ [الحشر: ٢٣].

٣٩- تذكير الرجال بأن العلو المطلق والكبرياء والعظمة المطلقة لله ﷻ؛ لئلا يتخذوا من جعل القوامة فيهم سبيلًا للتعالي والتعاظم على النساء والتكبر عليهن،

---

(١) انظر: «معارج القبول» (١/ ١٤٤)، وما بعدها.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ٣٠٠- ٣٠١ تفسير سورة النساء).

وهكذا كل من ولاه الله ولاية ينبغي أن يذكر علو الله وعظمته وكبرياءه وقدرته عليه، فإنها فوق كل قدرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ وقد قيل: «إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك».

٤٠- إذا لم تُجْدِ الوسائل السابقة، وهي الموعظة، والهجر في المضاجع، والضرب غير المبرح، وخيف اتساع رقعة الخلاف بين الزوجين ينتقل إلى المرحلة الرابعة:

وهي بعث حكمين للإصلاح بين الزوجين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا﴾، وإنما جعله الله في المرتبة الرابعة؛ لأنه تدخل خارجي من أطراف غير الزوجين، وكان الأولى أن تحل مشاكل الزوجين فيما بينهما دون تدخل أطراف غيرهما؛ لأن تدخل غير الزوجين فيما بينهما من خلاف قد يكون سببًا في فشو ما بين الزوجين مما الأحسن ستره، وقد يكون سببًا لاتساع رقعة الخلاف؛ لكن إذا احتدم الشقاق بين الزوجين، وصعب عليهما تلافي ما بينهما فلابد من إرسال الحكمين، للإصلاح بينهما وتخليصهما مما هما فيه، وكما يقال: آخر الدواء الكي.

٤١- مسؤولية ولاة الأمر الشرعيين عن القضاء على المنازعات والخلافات بين الزوجين وغيرها من مشاكل المجتمع؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ﴾، والخطاب للولاة والحكام الشرعيين.

٤٢- حرص الشرع على تماسك الأسرة وصفاء ما بين الزوجين، وعلى الاتفاق والائتلاف، ونبذ الفرقة والاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا﴾.

٤٣- جواز التحكيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا﴾ خلافًا للخوارج القائلين ليس التحكيم لأحد سوى الله تعالى، قال القرطبي[1]: «وهذه كلمة حق ولكن يريدون بها الباطل».

٤٤- ينبغي أن يكون الحكمان مسلمين مكلفين عدلين عالمين بالشرع؛ لأن الله سماهما حَكَمين، فقال: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ والحكم لابد أن

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٧٩).

يكون متصفًا بما ذكر؛ لأنه مُخْبِر عن حكم الله، ومُلزِم بما يحكم به، فاصل بين الخمصين.

٤٥- أن المبعوثين للحكم بين الزوجين حَكَمان لهما الحكم والفصل بين الزوجين توفيقًا أو تفريقًا؛ لأن الله سماهما حَكَمين، فقال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ والحَكَم هو المحكَّم الذي له الفصل بين المتنازعين، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف ومن بعدهم(١).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنهما وكيلان ناظران فقط محتجين بقوله في آخر الآية ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ قالوا: فجعل لهما الإصلاح فقط دون التفريق، والصحيح أنهما حكمان لهما الإصلاح والتفريق؛ لأن الله سماهما حَكَمين(٢)، وإنما خص الإصلاح بالذكر في الآية لحكمة سيأتي بيانها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣) بعدما ذكر القول بأنهما حكمان، ثم القول الآخر أنهما وكيلان قال: «والأول أصح لأن الوكيل ليس بحكم، ولا يحتاج فيه إلى أمر الأئمة، ولا يشترط أن يكون من الأهل ولا يختص بحال الشقاق، فيفعلان ما هو الأصلح من جمع بينهما وتفريق بعوض أو بغيره».

وقال ابن القيم(٤): «بعد ما ذكر القولين قال: «وهذا هو الصحيح- يعني القول بأنهما حكمان- ثم قال: والعجب كل العجب ممن يقول: هما وكيلان لا حاكمان، والله تعالى قد نصبهما حكمين، وجعل نصبهما إلى غير الزوجين... وأيضًا فإنه جعل الحُكم إليهما فقال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ والوكيلان لا إرادة لهما إنما يتصرفان

---

(١) صح هذا عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس ومعاوية- رضي الله عنهم- أخرجه عبد الرزاق في المصنف الأثران (١١٨٨٣، ١١٨٨٥)، والطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٢٠- ٢٢٨)، بأسانيد صحيحة.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٢٠- ٣٣٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ١٩١)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٥٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٢٢- ٤٢٦)، «تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٩- ٢٦٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٥- ٢٦)، وانظر (٣٥/ ٣٨٦).

(٤) في «زاد المعاد» (٥/ ١٨٩- ١٩٢).

بإرادة موكليهما، وأيضًا فإن الوكيل لا يسمى حكمًا في لغة القرآن، ولا في لسان الشارع، ولا في العرف العام ولا الخاص، وأيضًا فإن الحكم من له ولاية الحكم والإلزام، وليس للوكيل شيء من ذلك، وأيضًا فإن الحكم أبلغ من الحاكم لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبوت، فإذا كان اسم الحاكم لا يصدق على الوكيل المحض فكيف بما هو أبلغ منه. وأيضًا فإنه سبحانه خاطب بذلك غير الزوجين، وكيف يصح أن يوكل عن الرجل والمرأة غيرهما..».

ثم ذكر ابن القيم صحة هذا القول عن عثمان وعلي وابن عباس ومعاوية ثم قال: «ولا يعرف لهم من الصحابة مخالف، وإنما يعرف بين التابعين، فمن بعدهم... ولا ريب أنهما حكمان فيهما شائبة الوكالة، ووكيلان منصوبان للحكم، فمن العلماء من رجح جانب الحكم، ومنهم من رجح جانب الوكالة، ومنهم من اعتبر الأمرين».

٤٦- ينبغي أن يكون الحكمان من أهل الزوجين؛ لقوله تعالى: ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ لأنهما أعرف بأحوالهما، وأنصح لهما، وأشفق عليهما، وأستر لحالهما، وأقرب إلى أن يستمع الزوجان كلامهما، ويقبلا حكمهما.

٤٧- الإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الحاكم عالمًا بأحوال من يحكم فيهم وواقعهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وذلك أدعى لإصابة الحق في الحكم.

٤٨- كمال العدل في تشريعات الإسلام حيث أمر الله ببعث حكمين أحدهما من أهل الزوج، والثاني من أهل الزوجة؛ لئلا يحصل محاباة إذا كان الحكمان من أهل أحد الزوجين فقط.

٤٩- جواز حكم القريب على قريبه وحكمه له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

وقد منع بعض أهل العلم من حكم القريب لقريبه لتهمة المحاباة، فقال: لا يحكم الشخص لأصله ولا لفرعه ولا لزوجه؛ لقوة الصلة بينه وبينهم. والصحيح أنه يحكم له إذا كان ثقة عدلًا كما هو ظاهر الآية.

٥٠- فضل الرجل على المرأة لتقديم ذكر ضمير الرجل على ذكر ضمير المرأة في قوله: ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

٥١- أهمية حسن النية في الحكم وغيره؛ لأن مدار صلاح الأعمال وفسادها على النية، فإن حسنت النية صلح العمل، وإن ساءت النية فسد العمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾.

وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١).

٥٢- يجب على كل واحد من الحَكَمين أن يحسن نيته وقصده في الإصلاح بين الزوجين؛ لأن ذلك سبب للتوفيق بينهما في التوصل إلى حكم يكون به التوفيق بين الزوجين؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾.

٥٣- تحريم سوء النية في الحكم؛ لأنه يؤدي إلى عدم التوفيق فيه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ فإذا أراد الحكمان أو أحدهما الإفساد بين الزوجين أو محاباة قريبه أو نحو ذلك لم يوفقا إلى حكم تصلح به حال الزوجين.

٥٤- أن حسن نية كل من الزوجين فيما يعامل به صاحبه فيما يستقبل وتناسي ما مضى سبب للتوفيق بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾.

٥٥- تشوف الشرع إلى الإصلاح، والوفاق، وأن الإصلاح بين الزوجين والتوفيق بينهما أولى من التفريق، وأنه لا ينبغي اللجوء إلى التفريق إلا إذا استعصى أمر الزوجين ولم يمكن الوصول إلى حل يكون فيه الجمع بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ فذكر الإصلاح دون التفريق وقد قال ﷻ: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

قال ابن كثير(٢): «فإن تفاقم أمرهما- يعني الزوجين- وطالت خصومتهما بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا وينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوف الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والطلاق (٣٤٣٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٥٩).

(٣) لكن ينبغي أن يعلم أن الإصلاح والصلح الذي ندب إليه الشرع ليس معناه إماتة القضية لعدة سنوات =

٥٦- أن التوفيق من الله ﷻ والأمور كلها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ وفي هذا رد على المعتزلة والقدرية الذين يقولون إن العباد يخلقون أفعالهم ولا علاقة لله بها.

٥٧- إذا اختلف الحَكَمان ولم يتفقا على الحكم فإنه لا ينفذ حكم واحد منهما إجماعًا، بل يرجع لغيرهما؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ (١).

٥٨- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ فإذا أراد الحكمان الإصلاح وفق الله بينهما في الحكم.

٥٩- إثبات صفة العلم الواسع لله ﷻ، وصفة الخبرة الواسعة له ﷻ، فهو ﷻ عليم خبير بكل شيء من أحوال الزوجين والحكمين وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

٦٠- الوعد لمن امتثل أمر الله والوعيد لمن خالف ذلك من الزوجين أو الحكمين أو غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، فمقتضى علمه وخبرته ﷻ أن يحاسب العباد ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

* * *

=

كما يفعله بعض القضاة هداهم الله، فتجده يطلب من الخصمين أن يصطلحا بينهما ويؤجل البت في قضيتهما لمدة طويلة، بحجة لعلهما يصطلحان، فتطول المنازعات بين الخصمين بل ربما بين قبيلتين ويكثر الكلام والقيل والقال حول هذه القضية من كلا الخصمين وأنصار كل منهما وتضيع أوقات وأعمال، بل وأعمار ويموت أناس ويحيا أناس والقضية معلقة وبالتالي يضطر صاحب الحق إلى الصلح ولو ترك نصف حقه أو أكثر وهذا ليس من الصلح الذي أمر الله به إذ الواجب على القاضي والحاكم النظر في القضية فإن أمكن الإصلاح بين الخصمين دون ظلم واضح لأحدهما لحساب الآخر أصلح بينهما. وإلا بتَّ في الحكم فيها، وأراح الخصمين.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٧٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٠).

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

هذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة.

قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أمر بعبادة الله- عز وجل- والأصل في الأمر الوجوب.

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، يقال: طريق معبد، أي: مذلل، ذللته الأقدام بالسير عليه.

والعبادة في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وكحب الله وخشيته والإنابة إليه وإخلاص الدين له.

وهي تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له سبحانه(١).

والعبادة تطلق على فعل التَّعبد، وعلى العبادة نفسها؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك.

والعبادة لها أصلان:

أحدهما: الإخلاص لله تعالى بأن لا يعبد إلا الله. قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٢).

والثاني: المتابعة بأن يعبد الله بما أمر وشرع في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ لا بغير ذلك من البدع، فعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٣).

وعنها قالت قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٤).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩، ١٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨).

(٤) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، =

ويجمع الأصلين قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

فمعنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: أخلص العمل لله- تعالى. وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: متبع الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: «أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة».

وكان عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»(١).

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح».

والعبادة تشمل الواجب والمستحب، بل وتشمل المباحات وجميع أعمال الجوارح فإنها مع النية تكون عبادات.

قال ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أما يكون عليه وزر؟**» قالوا: بلى، قال: «**فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال؟**»(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال له: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تجعلها في فم**

=

وابن ماجه في المقدمة (١٤).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٧٣- ١٧٤، ٢٨/ ١٣٤- ١٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٥/ ١٦٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

امرأتك»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على جميع أفعاله وكانت المباحات من صالح أعماله؛ لصلاح قلبه ونيته».

ولهذا قال أهل العلم: الموفقون عاداتهم عبادات والمخذولون عبادتهم عادات.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الواو عاطفة، و«لا» ناهية، فأمر أولًا بعبادة الله، ثم نهى عن الشرك، وأمر بإخلاص العبادة لله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعم كل شيء، أي: لا تشركوا به شيئًا من الأشياء، أو شيئًا من الإشراك، سواء كان هذا الشيء صغيرًا أو كبيرًا، عظيمًا أو حقيرًا، وسواء كان هذا الشرك صغيرًا أو كبيرًا، خفيًّا أو جليًّا.

والشرك دعوة غير الله وعبادته مع الله، وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كأن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كحب الله ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ [النحل: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ [الرعد:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [النحل:٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

وهو يشمل الإشراك به في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، أي: في أيّ نوع من أنواع التوحيد[٣].

قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الصلاة (٢٨٦٤)، والنسائي في الوصايا (٢٨٦٤)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، وأحمد (١/ ١٧٩).

(٢) في «السياسة الشرعية» (ص١٤٨).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٨١).

شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»[١].

وعبادة الله تعالى وحده دون شريك هي حق الله تعالى على العباد، ومن أجلها خلقوا، وهي أعظم حق عليهم؛ لأنه عز وجل هو المنعم عليهم بجميع النعم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال ﷺ لمعاذ: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا....**» الحديث[٢].

ولما كان حق الله تعالى وهو عبادته أعظم الحقوق وأوضحها وأبينها كان الشرك أظلم الظلم؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ هذا هو الحق الثاني في الآية، وهو حق الوالدين، وقد عطفه الله على حقه عزَّوجلّ؛ لعظم حق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وإنما عظّم الله حق الوالدين وقرنه بحقه في آيات عدة؛ لأنهما السبب الظاهر في وجود الولد، ولما بذلا وتحملا من الجهد في تربية الولد بكل رحمة وإخلاص.

قال ابن كثير[٣]: «ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين».

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف دل عليه المصدر «إحسانا»، أي: أحسنوا بالوالدين إحسانا.

والوالدان: هما الأب وإن علا، والأم وإن علت، وكلما كان الوالد أقرب كان حقه أعظم.

---

(١) انظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص٢٤- ٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٤).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٢٦١).

﴿إِحْسَٰنًا﴾ مفعول مطلق، أي: أحسنوا بالوالدين إحسانا.

قال في «تفسير المنار»[1] وهو أبلغ من: أحسنوا إلى الوالدين؛ لأن التعدية بالباء أبلغ لإشعارها بإلصاق الإحسان لمن يوجه إليه من غير إشعار بالفرق بينه وبين المحسن، والتعدية بإلى تشعر بطرفين متباعدين يصل الإحسان من أحدهما إلى الآخر...».

والإحسان إلى الوالدين يشمل أنواع الإحسان القولي والفعلي؛ أداءً لحقوقهما وبرًا بهما، وعطفًا عليهما. وذلك بالإحسان في معاملتهما وخدمتهما وتكريمهما، والسعي في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما والبشاشة في وجوههما، وإظهار الاغتباط والفرح عند الدخول عليهما، والتأدب معهما في القول والعمل حتى يكونا مغتبطين بأولادهما، والدعاء لهما مقابل جميل معروفهما وعظيم صنيعهما، وتقبيل رؤوسهما والسلام عليهما وصدق المحبة لهما، والصدق في طلب رضاهما قال تعالى بعد أن ذكر عظيم حقهما: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

فالعبرة بما في نفس الولد من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه، وصدق المحبة لهما، والصدق في طلب رضاهما.

وضد الإحسان إليهما الإساءة إليهما، أو ترك الإحسان إليهما.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ معطوف على «الوالدين» متعلق بما تعلق به تقديره: وأحسنوا بذي القربى، وهذا من ذكر العام بعد الخاص؛ لأن الوالدين من ذوي القربى، وإنما قدمهما وخصهما بالذكر من بين القرابة؛ لفضلهما وعظيم حقهما؛ ولأنهما الواسطة بين الشخص وبين سائر قرابته من الإخوان والأعمام والأخوال.

وأعاد حرف الجر «الباء» في قوله: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ للتوكيد والمبالغة، ولبيان أن الإحسان إلى القرابة مستقل، وليس تابعا للإحسان إلى الوالدين، فحق القرابة ثابت ولو فقد الوالدان.

وقيل لتوكيد الوصية بذي القربى في هذه الأمة زيادة عن بني إسرائيل فقد جاء في الكلام عنهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي

---

(١) (٥/ ٨٤).

ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [البقرة: ٨٣].

و«ذي» بمعنى: صاحب، و(القربى) بمعنى: القرابة، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]، أي: إلا المودة بسبب قرابتي منكم.

ومعنى الآية هنا: وأحسنوا بصاحب القرابة، وهذا هو الحق الثالث في الآية: حق ذوي القربى. والإحسان إليهم بأنواع البر والصلة من الزيارة والسلام والنصح وتفقد الأحوال والمساعدة وغير ذلك من وجوه الإحسان.

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وأحسنوا إلى اليتامى، وهذا هو الحق الرابع في الآية، وهو حق اليتامى.

واليتامى: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ.

وإنما أمر الله بالإحسان إلى اليتامى؛ لانكسار قلوبهم بفقد آبائهم الذين يحوطونهم ويرعونهم برعاية الله ويقومون بمصالحهم وينفقون عليهم ويوجهونهم، ويدافعون عنهم، مع عجزهم بأنفسهم؛ لكونهم صغارًا.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وأحسنوا إلى المساكين، وهذا هو الحق الخامس في الآية: حق المساكين.

والمساكين: جمع مسكين، مشتق من السكون، وعدم الحركة وهو المُعدم الذي لا يجد شيئا من المال، أو لا يجد ما يكفيه.

ويدخل في المساكين هنا: الفقراء؛ لأن كلاًّ منهما يطلق على الآخر إذا انفردا، أما إذا ذكرا معا كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠]، فلكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر(١).

وسمى المُعدم مسكينا؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، فلا يطمع أن يصل إلى مرتبة

---

(١) وقد اختلف في تحديد الفرق بينهما على أقوال عدة، أوصلها بعضهم إلى أحد عشر قولًا، أصحها وأقربها أن الفقير من لا يجد شيئا أو يجد قليلا من الكفاية، وأن المسكين من لا يجد كفايته كلها، فهو أحسن حالا من الفقير. انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٤٤٢- ٤٤٦)، وانظر: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠].

الأغنياء، ولا من دونهم.

فتراه إذا حضر في مجلس جلس في مؤخرة القوم؛ لأنه يرى الكثيرين ينظرون إليه نظرة دونية، وتراه ساكتا لا يستطيع أن يعبر عما في نفسه؛ لأنه إن تكلم لم يستمع لكلامه، وإن استمع له فإنه لا يصدق.

قال أبو العيناء(١):

إن الدراهم في المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة ... وهي السنان لمن أراد قتالا
إن الغني إذا تكلم كاذبًا ... قالوا: صدقت وما نطقت محالا
وإذا الفقير اصاب قالوا لم تصب ... وكذبت يا هذا وقلت ضلالا

وهذا، وإن لم يكن بلسان المقال، فهو بلسان حال الكثيرين.

وقال الآخر:

إذا قل مال المرء قل أصدقاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازما ... أقدامه خير له أم وراؤه
وإن غاب لم يشتق إليه خليله ... وإن مات لم يسرر صديقا بقاؤه
وللموت خير لامرئ ذي خصاصة ... من العيش في ظل كثير عناؤه(٢)

وهذا في ميزان الناس، أما في ميزان الله تعالى فأكرم الناس عند الله عز وجل أتقاهم لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره**»(٣).

وعن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- قال: مر رجل على رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: «معجم الأدباء» (ص٢٦١٣)، «المستطرف» (٢/ ٢٧١)، «جواهر الأدب» (٢/ ٤٨٩).

(٢) الأبيات لأبي حيان التوحيدي، انظر «ديوانه» (ص٢٤٦)، وانظر «الكشكول» للعاملي (٢/ ٢٣٩)، وروي البيت الأول: إذا قل مال المرء قل بهاؤه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وأخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع. قال ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال ألا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا**»(١).

وقال ﷺ: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»(٢).

قال محمد رشيد رضا(٣): «المساكين على ضربين: مسكين معذور يساعد بالمال ينفقه، أو يساعد على تحصيله بكسبه إن كان قادرا على ذلك، ومسكين غير معذور يرشد إلى تقصيره، ولا يساعد على إسرافه وتبذيره، بل يدل على طريق الكسب».

وإنما قدم اليتامى على المساكين نظرا لضعف اليتامى وعجزهم، فهم أشد حاجة إلى العناية والإحسان من المساكين غالبا.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ معطوف كذلك على ما سبق، أي: أحسنوا إلى الجار ذي القربى. وهذا هو الحق السادس في هذه الآية وهو حق الجار ذي القربى.

﴿وَٱلْجَارِ﴾: هو من كان منزله قريبا من منزلك، والأولى من الجيران الأقرب فالأقرب، كما في الحديث عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: «**إلى أقربهما منك بابًا**»(٤).

﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: ذي القرابة نسبا، والأولى منهم الأقرب فالأقرب فالمعنى: والجار الذي منزله قريب من منزلك، وهو أيضًا قريب منك نسبا.

وقدمه عز وجل؛ لأن له حقين: حق الجوار وهو من أعظم الحقوق قال ﷺ: «**ما**

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في الشفعة (٢٢٥٩)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٥)، وأحمد (٦/ ١٧٥).

زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(١).

وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه**»(٢).

وقال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»(٣).

وقال ﷺ: «**الجار أحق بصقبه**»(٤) والصقب: الجوار والقرب.

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»(٥).

والحق الثاني: حق القرابة وهو من أعظم الحقوق وأولاها- كما سبق بيانه.

وعن سلمان بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**»(٦).

هذا إضافة إلى حق الإسلام. فله ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام- إن كان مسلمًا.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وأحسنوا إلى الجار الجنب، وهذا هو الحق السابع في الآية، وهو حق الجار الجنب.

«والجار» هو من منزله بجوار منزلك كما سبق.

و«الجنب» بمعنى البعيد منك نسبا، أي: الذي ليس بينك وبينه قرابة.

فالمعنى ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: أي الجار القريب منزلًا، البعيد نسبًا، فله حق الجوار

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٤)، وأبو داود في الأدب (٥١٥١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٣)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري بلفظ «حتى يحب لأخيه» في الإيمان (١٣)، وكذا أخرجه مسلم، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في الإيمان (٤٨)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٤٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٢)، عن أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٧٨)، وأبو داود في البيوع (٣٥١٦)، والنسائي في البيوع (٤٧٠٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٩٥)، من حديث أبي رافع رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٨٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٤)، والدارمي في الزكاة (١٦٨٠).

وهو عظيم جدًا كما سبق بيانه.

فإن كان مسلمًا فله أيضًا مع ذلك حق الإسلام، وإن كان غير مسلم فله حق الجوار فقط ما لم يكن محاربا.

والإحسان إلى الجار يكون بأنواع الإحسان؛ من السلام والزيارة والنصح والإرشاد والمساعدة والهدية والدعوة إلى الطعام وغير ذلك من وجوه الإحسان مع كف الأذى.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ معطوف على ما سبق أيضًا: أي: وأحسنوا بالصاحب بالجنب، وهذا هو الحق الثامن في الآية، وهو حق الصاحب بالجنب.

والصاحب بالجنب هو الذي يصاحبك في جنبك، وقد اختلف المفسرون فيه. فقال بعضهم: هو الزوجة، وقال بعضهم: إنه الصديق، وقال بعضهم: هو الصاحب في السفر(١).

ويمكن حمل الصاحب بالجنب على هذا كله، وما هو أعم منه؛ لأن كل من صحبته وصحبك، فهو من الصاحب بالجنب له حق الصحبة فيجب الإحسان إليه سواء كان زوجة، أو رفيقا في السفر، أو صديقا أو غير ذلك.

عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**»(٢).

وقد قيل في المثل: «صحبة عشرين يومًا قرابة»(٣).

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وأحسنوا لابن السبيل. وهذا هو الحق التاسع في الآية وهو حق ابن السبيل.

وابن السبيل: هو المسافر، والسبيل: الطريق، وسمى المسافر ابن السبيل لملازمته السبيل والطريق.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٤٠- ٣٤٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٤٤)، وقال: «حديث حسن غريب»، والدارمي في السير (٢٤٣٧)، والطبري في «جامع البيان» (٨/ ٣٤٥)- الحديث (٩٤٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٦٤).

(٣) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

فابن السبيل له حق على المقيمين أن يحسنوا إليه في سفره بمساعدته بما يحتاج إليه من مال أو دلالة أو تسهيل مهمة جاء لأجلها، أو دفع الأذى عنه ونحو ذلك؛ ولهذا جعل الإسلام له حقًّا في الزكاة، حتى ولو كان غنيًّا في بلده.

قال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم(١):

إن الغريب له حق لغربته ... على المقيمين في الأوطان والسكن
لا تنهرن غريبًا حال غربته ... الدهر ينهره بالذل والمحن

وقيل: المراد بابن السبيل: الضيف(٢).

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة بمعنى «الذي» تفيد العموم، أي: وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من بني آدم من الأرقاء، ومن الحيوان، وهذا هو الحق العاشر والأخير من الحقوق في الآية الكريمة، وهو حق ملك اليمين.

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة كان يردد «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»(٣).

والذي يَملك هو الإنسان نفسه، وإنما أضيف الملك إلى اليمين وحدها؛ لأنها هي الآخذة والمعطية.

والإحسان إلى ما ملكت الأيمان من الأرقاء من بني آدم أوكد من الإحسان إلى الحيوان وأوجب؛ لأن حق الإنسان أوكد.

ومن الإحسان إلى ملك اليمين: عتقهم وإعانتهم على شراء أنفسهم، ومكاتبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

---

(١) ضمن قصيدته المشهورة:

ليس الغريب غريب الشام واليمن ... إن الغريب غريب اللحد والكفن

انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١٤٨/ ٥ ترقيم الشاملة)، «قصائد من عيون الشعر» (ص١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٤٦- ٣٤٧).

(٣) سيأتي تخريجه.

ومن الإحسان إليهم: أداء حقوقهم من الطعام والشراب والملبس وغير ذلك، وأن لا يكلفوا ما لا يستطيعون قال ﷺ: «**للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق**»(١).

وقال ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوتهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه**»(٣).

ومن الإحسان إلى الحيوان من البهائم إطعامها وسقيها، وألا يحمل عليها فوق طاقتها، والإحسان في ذبحها، إذا كانت مما يؤكل لحمه كما في الحديث: «**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»(٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«من» اسم موصول بمعنى «الذي»، و«كان» مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف، أي لا يحب من اتصف بالاختيال والفخر.

﴿مُخْتَالًا﴾ خبر كان، أي: مختالا في هيئته ومشيته معجبا بنفسه متكبرًا.

قال ﷺ: «**كلوا وشربوا والبسوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة**»(٥).

ومن الاختيال: مشية المرح، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ

---

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (١٦٦٢)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٩٦)، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٥٥)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه ابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥)، وأحمد (٢/ ١٨١)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه. وحسنه الألباني، وذكره البخاري معلقا في اللباس باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾. انظر «فتح الباري» (١٠/ ٢٥٢).

وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

ومنه الإسبال قال ﷺ: «**إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة**»(١).

﴿فَخُورًا ﴾ خبر ثان لكان، أي فخورًا على الناس يعدد مناقبه تطاولًا عليهم، وأنه خير منهم.

والمعنى أنه عز وجل لا يحب من كان ذا اختيال على الناس، وتكبر بنفسه بفعله، بهيئته ومشيته، ومن كان ذا فخر على الناس بقوله، يتطاول عليهم بتعداد مناقبه، وبما أوتي من نعم، دون أن يشكر الله عليها، كما ذكر الله عن قارون أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨].

وختم الله هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

لأن من استكبر عن عبادة الله تعالى وعن الأخذ بهذه الوصايا وأداء حقوق من ذكروا في الآية، فإن الغالب عليه أن فيه اختيالًا وفخرًا وكبرًا وإعجابًا.

كما جاء في الحديث: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٢) أي: رد الحق واحتقار الناس.

قال القرطبي(٣): «وخص هاتين الصفتين بالذكر هنا لأنهما تحملان صاحبيهما على الأنفة من القريب الفقير والجار الفقير وغيرهما ممن ذكر في الآية، فيضيع أمر الله بالإحسان إليهم».

وقيل: إنما ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾؛ لئلا يقع في نفس المحسن للأصناف المذكورة زهو واختيال وافتخار بما عمل من هذا الإحسان،

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٨٤)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧٢١)، من حديث جابر بن سليم رضي الله عنه. وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)، عن عبد الله ابن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قبله مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» وأخرج أوله أبو داود في اللباس (٤٠٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٥٩)، وفي الزهد (٤١٧٣).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٩٢).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤](١).

الفوائد والأحكام:

١- وجوب عبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والأمر في الآية للوجوب بالإجماع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢- تحريم الشرك بشتى أنواعه؛ صغيره وكبيره، خفيه وجليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ لأن شيئًا نكرة في سياق النفي تعم كل شيء من أنواع الشرك سواء كان شركًا أكبر، كالشرك في الربوبية والإلوهية والأسماء والصفات أو شركًا أصغر كالرياء والحلف بغير الله، وقول القائل: لولا الله وفلان، ونحو ذلك كما تعم كل شيء من الأشياء يشرك به مع الله.

٣- وجوب إخلاص العبادة لله وحده دون شريك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغني الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

٤- أن الإثبات المحض لا يدل على التوحيد؛ لأن الله لما أمر بعبادته نهى عن الإشراك به، فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ وذلك أن من عبد مع الله غيره لم يخلص العبادة لله، ومن لم يخلص العبادة لله فليس بموحد، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه وماله وحسابه على الله**»(٣).

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٤٥- ٢٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣)، من حديث أبي مالك عن أبيه رضي الله عنهما. وانظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ٣٠٩، تفسير سورة النساء).

٥- أن الشرك بالله أعظم الذنوب وأنه ينافي العبادة ويبطلها؛ لأن الله نهى عنه في مقابل الأمر بعبادته، وقد دل على هذا المعنى آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى عن لقمان أنه قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٦- أن حق الله تعالى على الإنسان هو أعظم الحقوق؛ لهذا قدمه على غيره؛ لأنه عز وجل خلق ورزق وهو المنعم بجميع النعم قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

٧- أن حق الرسول ﷺ، وهو إتباعه ومحبته داخل ضمن حق الله تعالى؛ ولهذا لم يذكر في الآية؛ لأن العبادة لا تصح إلا بشرطين هما: الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ. وإلا فحقه ﷺ هو أول حق بعد حق الله تعالى قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(١).

وقال لعمر بن الخطاب لما قال له: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. قال له ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٢).

ولا يدخل المرء في الإسلام حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

٨- وجوب الإحسان بالوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: أحسنوا بالوالدين إحسانا ببرهما وطاعتهما وخدمتهما وأداء حقوقهما حتى ولو

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

كانا مشركين قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

٩- أن الله أرحم بالوالدين من أولادهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، فأمر الأولاد بالإحسان إلى والديهم، فدل على أنه عز وجل أرحم بالوالدين من أولادهما.

١٠- عظم حق الوالدين، وأنه من أعظم الحقوق؛ لأن الله قرنه بعبادته وجعله في المرتبة الثانية بعد حقه عز وجل فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

كما قرن ﷺ عقوق الوالدين بالإشراك بالله قال ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**عقوق الوالدين...**» الحديث(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف، قيل من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما، أو كليهما، فلم يدخل الجنة**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**لا يدخل الجنة منان ولا عاق**

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ولهذا روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «ثلاث آيات في القرآن لا يقبل أحدهما إلا بالأخرى ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة لم يقبل منه ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه». انظر: «الكبائر» للذهبي ص٤٠٠، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢/ ١٠٧).

ومما ينبغي التنبيه عليه أنه في المقابل يجب على الوالدين أن يكونا عونا لأولادهما على برهما، وذلك بدءًا من اختيار أمهم وتحسين أسمائهم وتربيتهم التربية الصالحة وعدم تكليفهم مال يطيقون القيام به ويتعذر إرضاؤهما به كأن يطلب الوالدان أو أحدهما من الابن من غير ما مبرر، بل لمجرد الهوى أو الغيرة أو غير ذلك تطليق زوجته التي يحبها، أو يلزمانه بالتزوج ممن لا يريد، وقد قيل: «لاعب ولدك سبعًا، وعلمه سبعًا، وصاحبه سبعا، ثم اجعل حبله على غاربه» انظر «تفسير المنار» (٥/ ٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥١).

ولا مدمن خمر»(١).

١١- وجوب الإحسان إلى القرابة عمومًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فقد عطف الإحسان إلى ذي القربى على الإحسان إلى الوالدين؛ لعظيم فضل الإحسان إلى القرابة، كما جاء في الحديث: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة**»(٢).

والأولى منهم بالإحسان: الأقرب فالأقرب، ومما يدل على هذا أن الله قدم عليهم الوالدين؛ لأنهما أقرب القرابات، فدل على أنه كل من كانت قرابته أقوى كان أولى وأحق بالإحسان ممن دونه وهكذا.

١٢- وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وذلك بكفالتهم ورعايتهم وتعليمهم وتوجيههم والنفقة عليهم والدفاع عنهم، وغير ذلك من أنواع الإحسان، قال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئًا(٣).

١٣- وجوب الإحسان إلى المساكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وكل من كان أشد مسكنة فالإحسان إليه أولى وأوكد.

١٤- وجوب الإحسان إلى الجار مطلقًا سواء كان قريبًا من حيث النسب أو بعيدًا، قريبًا من حيث المنزل أو بعيدًا، مسلمًا أو كافرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾.

وكلما كان الجار أقرب نسبًا أو منزلًا فحقه أولى وأوكد.

فالجار من ذوي القربى له ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام.

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٢٤١)، والدارمي في الأشربة (٢٠٩٣) من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٠٤)، وفي الأدب (٦٠٠٥)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩١٨)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

والجار من غير ذوي القربى له حقان: حق الجوار وحق الإسلام؛ لأن تعدد الأوصاف كتعدد الأشخاص.

فإن كان الجار غير مسلم، وهو من ذوي القربى، فله حق الجوار وحق القرابة، وإن لم يكن من ذوي القربى فله حق الجوار فقط.

روي عن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقًا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، وهو أفضل الجيران حقًا، فأما الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، وله حق الجوار، وأما الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الإسلام، وحق الرحم»(١).

وقد عاد ﷺ غلامًا يهوديًا كان يخدمه لما مرض(٢).

فإن كان الجار غير مسلم، ومحاربًا للمسلمين فليس له شيء من الحقوق، بل هو حلال الدم والمال.

١٥- وجوب الإحسان إلى الصاحب بالجنب، من الزوجة والصديق والصاحب في السفر وغيرهم ممن صحبه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

١٦- وجوب الإحسان إلى ابن السبيل، وهو المسافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيجب الإحسان إليه بما يحتاجه من وجوه الإحسان من نفقة، أو ضيافة أو دلالة أو حمل متاع أو كف الأذى ودفعه عنه ونحو ذلك.

١٧- وجوب الإحسان إلى ما ملكت الأيمان من بني آدم من الرقيق، ومن الحيوانات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: كان من آخر وصية رسول الله ﷺ: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**» حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره، وما يفيض بها

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٧) من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده...».

لسانه»[١].

وعن المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك. فقال: إني سببت رجلًا فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «**يا أبا ذر أعيرته بأمه! إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم[٢]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم**»[٣].

وقال ﷺ: «**إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، أو ليناوله اللقمة واللقمتين**»[٤].

وممن يجب الإحسان إليهم من كانوا تحت كفالة الإنسان من العمال فإن حق هؤلاء من أعظم الحقوق، ومما يؤسف له أنه وجد من العمال الرعاة من يموتون عطشا في القفار بسبب قسوة قلوب كفلائهم وإهمالهم لهم وعدم رحمتهم، ووجد من العمال من يتكففون الناس طلبًا للقمة العيش لعدم إعطائهم حقوقهم.

فيا أخي الكفيل احمد الله على أن جعل يدك هي العليا وراقب الله في أداء حقوق هؤلاء المساكين، وتفكر لو كنت في مقام أحدهم ماذا يكون حالك، واعلم أن الظلم ظلمات يوم القيامة. وقد أحسن القائل:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم[٥]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز (١٦٢٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٠، ٣١١)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٢٦) وصححه الألباني.

(٢) أي: خدمكم وعطية الله لكم.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٠)، ومسلم في الإيمان (١٦٦١)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٧، ٥١٥٨)والترمذي في البر والصلة (١٩٤٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٦٣)، والترمذي في الأطعمة (١٨٥٣)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٩، ٣٢٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٥٣.

وعلى الجهات المسؤولة عن حقوق هؤلاء العمال الأخذ بحزم على أيدي من يتلاعب بحقوقهم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لَـما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن»(١).

كما يجب الإحسان لما ملكته الأيمان من البهائم والحيوانات، قال ﷺ في الإبل: «**ومن حقها حلبها يوم وردها**»(٢).

١٨- جواز إطلاق البعض على الكل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ؛ لأن المعنى: وما ملكتم أنتم بأنفسكم، وإنما أضيف الملك إلى اليمين لشرفها وكون العطاء والأخذ بها.

١٩- إثبات الرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٢٠- إثبات الملكية الفردية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وفي هذا رد على الشيوعية الاشتراكية الملحدة.

٢١- تحريم الإساءة إلى الوالدين ومن ذكر بعدهم من ذوي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت الأيمان. بل وتحريم ترك الإحسان إليهم أيضًا؛ لأن الله أمر بالإحسان إليهم والأمر بالشيء نهي عن ضده، وضد الإحسان ترك الإحسان، أو الإساءة.

قال تعالى: في حق الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى في حق الأقارب: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ؟ فقال: «**إن كنت**

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٥/ ١٧٢، عن عمر رضي الله عنه، وأخرج نحوه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٨٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١١٨)، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٢)، ومسلم في الزكاة (٩٨٧)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قلت فكأنما تسفهم الملّ[١]، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك»[٢].

وقال تعالى في حق اليتامى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» وذكر منها «**أكل ما اليتيم**»[٣].

وقال تعالى في حق المساكين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال ﷺ في حق الجار: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[٤].

٢٢- حرص الشرع الإسلامي على ما فيه سعادة العباد في الدنيا والآخرة؛ لأن في الأخذ بهذه الوصايا العشر- وهي: عبادة الله تعالى وترك الشرك، والإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجيران والأصحاب وابن السبيل وما ملكته الأيمان- في هذا بإذن الله تعالى ما يكفل للمرء السعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن في هذه الوصايا أداء حق الله، وحقوق العباد وسعادة المجتمع.

٢٣- جمع القرآن الكريم بين الأمر بالإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباده، وهذا كثير في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى في نظير هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]،

---

(١) أي: كأنما تضع في أفواههم الرمل الحار. انظر «النهاية» «مل».

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [سورة الماعون].

وقد قرن الله عز وجل بين الصلاة والزكاة في أكثر من ثمانين موضعًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وهذان الأصلان هما جماع الدين العام، كما يقال: التعظيم لأمر الله، والرحمة لعباد الله: فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع، وذلك أصل التقوى، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة، فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له والتواضع له والذل له وكل ذلك مضاد للخيلاء والفخر والكبر، والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم، وذلك مضاد للبخل».

٢٤- إثبات المحبة لله عز وجل- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة وإجماع المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾؛ لأن في نفيها عمن هذه صفته دليلًا على إثباتها لمن سلم من هذا الوصف، فهو سبحانه لا يحب من كان مختالا فخورا، وبالمقابل يحب من لم يكن مختالًا فخورًا.

وفي هذا رد على منكري صفة المحبة لله عز وجل من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم.

٢٥- التحذير من الاختيال والفخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ لأن هاتين الصفتين تحملان صاحبهما على رد الحق والاستكبار عن عبادة الله تعالى والأنفة من الإحسان إلى من ذكروا في الآية.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مُرَجِّل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢١٢، ٢١٤).

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٩)، ومسلم في اللباس (٢٠٨٨)، وأحمد (٢/ ٢٦٧).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة**»(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٤)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٥)، وأبو داود في اللباس (٤٠٨٥)، والنسائي في الزينة (٥٣٢٧)، والترمذي في اللباس (١٧٣٠، ١٧٣١)، وابن ماجه في اللباس (٣٥٦٩).

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾﴾.

رُويَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن أُناسًا من اليهود كانوا يأتون رجالًا من الأنصار، وكانوا يخالطونهم يتنصحون لهم- من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون لهم: «لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون. فأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾، أي: من النبوة التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾»[1].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، «الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب صفة لـ «من» الموصولة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾».

ويجوز أن يكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم الذين يبخلون.

«والبخل»: إمساك ما يجب بذله من مال أو علم أو جاه أو قول أو عمل، وهو ضد الجود.

ولهذا جاء في الحديث: «**البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي**»[2].

وعن جابر- رضي الله عنه- أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لفلان في حائطي

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٦)، من حديث الحسين بن علي رضي الله عنه.

عذقا، وإنه قد آذاني وشق عليّ مكان عذقه. فأرسل إليه النبي ﷺ فقال: «بعني عذقك الذي في حائط فلان. قال: لا. قال: فهبه لي، قال: لا. قال: فبعنيه بعذق في الجنة. قال: لا. فقال النبي ﷺ: «**ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام**»[(١)].

والمعنى: الذين يمسكون المال ويمتنعون عن أداء ما يجب عليهم من النفقات الواجبة كالزكاة ونحوها أو المستحبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أو يمتنعون عما يجب عليهم بذله من علم وجاه ونحو ذلك.

﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿بِٱلْبَخَلِ﴾ بفتح الباء والخاء، وقرأ الباقون: ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾ بضم الباء وإسكان الخاء، والمعنى واحد، أي: لا يكتفون بالبخل بأنفسهم، بل ويأمرون الناس به، أي: يأمرونهم أن يبخلوا بتخويفهم الفقر وضياع ما لهم، والحاجة في المستقبل ونحو ذلك، وهذا أشد، وفي أمثال العرب: «أبخل من الضنين بنائل غيره».

قال الشاعر:

وإن امرأ ضنت يداه على امرئ ... بنيل يد من غيره لبخيل[(٢)]

وقال الآخر:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إلى ما تأمرين سبيل
أرى الناس خلان الكريم ولا أرى ... بخيلا له في العالمين خليل[(٣)]

وقد جمع هؤلاء بين البخل بأنفسهم وأمر غيرهم به، فصاروا قدوة في ذلك بفعالهم، ودعاة له بأقوالهم، كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، الواو عاطفة، و«ما» موصولة، أي:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٨).

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٨٨٤.

(٣) البيتان بلا نسبة؛ كما في «البخلاء» للبغدادي ص٧٥.

ويخفون الذي أعطاهم الله، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: من إفضاله- عز وجل- وزيادته من المال والغنى في حالهم، فلا تظهر عليهم آثار نعمة الله تعالى؛ لشدة بخلهم، أو خوفًا من أن يسألهم ذوو الحاجة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦، ٧]، وقد قال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(١).

وقد يخفون فضل الله عليهم بادعاء أنهم فقراء ولا شيء عندهم؛ خوفًا من سؤال أهل الحاجة إياهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وفي الحديث في الدعاء قال ﷺ: «**واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها**»(٢).

والتعبير هنا بقوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾ فيه دلالة واضحة على أن المراد بالبخل في الآية ما يشمل البخل بالعلم والجاه والعمل ونحو ذلك:

أي: ويخفون الذي أعطاهم الله من العلم وغير ذلك.

ومن ذلك كتمان أهل الكتاب ما جاءهم من العلم، وبخاصة البشارة في كتبهم بالنبي ﷺ ودين الإسلام، فجمع هؤلاء بين البخل بالمال والبخل بالعلم، بين منع المال الذي فيه حياة الأبدان، ومنع العلم الذي فيه حياة القلوب، بين السعي في خسارتهم، والسعي في خسارة غيرهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: أعددنا وهيأنا، والعتاد: ما يعد للمسافر والضيف.

أي: وأعتدنا وهيأنا للكافرين بالله تعالى ودينه وشرعه ونعمه من أهل الكتاب والمنافقين وغيرهم.

﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾، أي: عذابًا ذا إهانة يهينهم ويذلهم؛ لاختيالهم وفخرهم وتكبرهم

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨٢٠)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن» ورُويَ بمعناه من حديث أبي الأحوص عن أبيه- رضي الله عنه- أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٦٣) والنسائي (٤٨١٩)، وأخرجه أحمد (٢/ ٣١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٣/ ٩٦٨)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

على عباد الله ومنعهم حقوقهم، وذلك بالتوبيخ لهم والتقريع ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقال تعالى عن النار: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٤-٧] أي: تشرف على القلوب فتحطمها معنويًّا.

وأظهر هنا في مقام الإضمار ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: (وأعتدنا لهم)؛ للحكم عليهم بالكفر، ويؤيد هذا قوله بعده: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، ولبيان علة إعداد هذا العذاب لهم، وهي كفرهم، وليعم هذا الوعيد المذكورين وغيرهم من الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على ما قبله، فوصفهم أولًا بالبخل وأَمْر الناس به، ثم وصفهم بالإنفاق رئاء الناس.

أي: والذين يبذلون أموالهم من المنافقين وغيرهم.

﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: مفعول لأجله، أي: لأجل مُرَآءَاة الناس، أي: لأجل أن يراهم الناس، فيمدحونهم على إنفاقهم، وليس تقربًا إلى الله تعالى، وقد قال تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

ولهذا تراهم لا يلتمسون في إنفاقهم موضع الحاجة، بل ربما أعطوا الغني وتركوا الفقير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى إذا كان**

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يُقتَتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: ماذا عملت فيما عُلِّمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلانا قارئ فقد قيل ذاك.

ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقد قيل ذاك.

وذكر الذي قتل في سبيل الله ثم قال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»[1].

وفي رواية[2]: «أول من يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها. قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم وقرأت القرآن؛ ليقال: قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت؛ ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار».

وسئل ﷺ عن عبدالله بن جدعان، وهل ينفعه إنفاقه وسخاؤه، فقال: «إنه لم يقل

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٣٣٨٢). وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠٥).

يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[(١)].

وقال ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه: «**إن أباك قد رام أمرًا فبلغه**»[(٢)].

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو أشد وأعظم، وإنما قدم عليد ذكر إنفاقهم أموالهم رئاء الناس لمناسبته ما قبله وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: ولا يصدقون ولا يقرون بالله، أي: بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه؛ ولهذا يراؤن الناس بنفقاتهم ولا يتقربون بها إلى الله.

﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: ولا يصدقون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة وما فيه من الثواب والعقاب، فإنفاقهم ليس صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله، ولا رجاء ثوابه وخوف عقابه يوم القيامة.

وسمي يوم القيامة باليوم الآخر؛ لأنه آخر الأيام. فآخر ليلة من الدنيا صبحيتها يوم القيامة، ولا ليل بعد ذلك.

وأيام الإنسان أربعة: يوم في بطن أمه، ويوم في الدنيا بعد ولادته، ويوم في البرزخ بعد موته، ويوم في القيامة بعد بعثه.

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، و«يكن»: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة وكسر لالتقاء الساكنين، و«أل» في (الشيطان) للجنس؛ لأن كل واحد من الناس له قرين، والقرين: المصاحب الملازم، والمراد به هنا قرين السوء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قال ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن**» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢١٤)، وأحمد (٦/ ٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٨، ٣٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم. تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٢٨١٤).

أي: ومن يكن الشيطان له مقارنًا مصاحبًا ملازمًا، يأمره بمعصية الله ويطيعه ويتبع خطواته، ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه فعل جامد، وهو فعل لإنشاء الذم مثل «بئس»، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فساء قرينًا هو، أي: الشيطان، أي: فبئس المقارن الذي يريد إهلاك من قارنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾.

هذا توبيخ لمن وصفهم- عز وجل- في الآيات السابقة بالاختيال والفخر والبخل وأمْر الناس به، وكتمان ما آتاهم الله من فضله، والإنفاق رئاء الناس، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر.

قوله:﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الواو: استئنافية و«ما» للاستفهام، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي»، ويجوز كون «ماذا» كلها للاستفهام، و«لو» حرف شرط غير جازم، حرف امتناع لامتناع.

والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، والمعنى: أي: شيء وأي تبعة عليهم لو آمنوا وصدقوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ابتغاء وجه الله؟ والجواب: لا شيء عليهم لو فعلوا ذلك، وكان هذا هو الأجدر والأليق بهم والأسلم لهم، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر: ٨]. بل لو فعلوا ذلك لنجوا من العذاب وفازوا بالثواب.

﴿وَأَنفَقُواْ﴾، أي: وبذلوا في سبيل الله من النفقات الواجبة والمستحبة.

﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ﴾: «ما» موصولة، أو مصدرية.

و﴿رَزَقَهُمُ﴾: أعطاهم، أي: من الذي أعطاهم، أو من عطائه مخلصين له في ذلك راجين ثوابه يوم القيامة لا رئاء الناس.

وفي الآية حث على التفكر لطلب الجواب الذي محصلته أنه لا شيء عليهم لو فعلوا

ذلك، بل لو فعلوه لحصلوا على منافع عظيمة ونجوا من العذاب وفازوا بالثواب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ الواو: استئنافية، «وكان» مسلوبة الزمن، أي: وكان الله ومازال بهم عليمًا.

أي: عليمًا بما هم عليه من كفر حال كفرهم، وبما هم عليه لو آمنوا، وبمقصدهم في إنفاقهم أهو ابتغاء وجه الله، أو رئاء الناس. وفي هذا ترغيب وترهيب، ووعد وعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

توعد عز وجل في الآيات السابقة أهل البخل والرياء والكذب بالله وبنعمه، وبيَّن أنه لا شيء عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، في إشارة إلى أن هذا هو الأجدر بهم، ثم أتبع ذلك ببيان عدله في العقاب، وفضله في الثواب فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ الآية.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾، أي: لا يظلم أحدا من الخلق زنة ذرة.

أي: لا يبخس أحدًا من ثوابه ولا يزيد في عقابه زنة ذرة، وهي النملة الصغيرة يضرب بها المثل في المبالغة في التقليل، أي: إن الله لا يظلم مثقال ذرة ولا دونه، أي: ولا ما هو أقل منه؛ لأن ما جيء به على سبيل المبالغة في التقليل أو التكثير لا مفهوم له، كما قال المفسرون في معنى قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٨٠]. قالوا: إن المراد بهذا التكثير، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة ما غفر لهم.

فمعنى الآية: إن الله لا يظلم زنة ذرة، ولا ما هو أقل منه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وفي حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- الطويل في الشفاعة: «**فيقول الله عز وجل: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا. ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾**».

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**فيقول الله تعالى:**

اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا. قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾»[1].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطي بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها**»[2].

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير برفع ﴿حَسَنَةٌ﴾ على اعتبار «كان» تامة، أي: وإن توجد حسنة.

وقرأ الباقون: ﴿حَسَنَةً﴾ بالنصب، على أنها خبر «كان»، واسمها ضمير مستتر، تقديره: «هي» يعود إلى (مثقال ذرة) أي: وإن تك مثقال ذرة حسنة يضاعفها.

وأنث ضمير ﴿مِثْقَالَ﴾ في قوله: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾؛ لتأنيث الخبر ﴿حَسَنَةً﴾، ولإضافة ﴿مِثْقَالَ﴾ إلى ﴿ذَرَّةٍ﴾.

﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ جواب الشرط، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: «يُضَعِّفْها» بدون ألف مع التشديد، وقرأ الباقون: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ بالألف مع التخفيف.

ومعنى ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ و(يُضَعِّفْهَا) واحد، أي: يجزي الحسنة بأكثر منها عدة مرات، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩، القصص: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»[3].

﴿وَيُؤْتِ﴾ الواو: عاطفة، أي: ويعطي زيادة على المضاعفة.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٨).

(٣) سبق تخريجه.

﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، أي: من عنده ﴿أَجْرًا﴾، أي: ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾، أي: جزيلًا من حيث نوعه وكيفه وكمه، وغير ذلك، مما لا حد له، كما قال ﷺ: «**إلى أضعاف كثيرة**».

وهو الجنة وما فيها من ألوان وأنواع النعيم، وأعلى ذلك وأعظمه وأجله رؤية الرب العظيم، ولا يقدر قدر عظمة هذا الأجر إلا الذي أتاه، والذي هو من لدنه، ومن عنده وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة كمال عدله، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، كما ذكر تمام فضله، وأنه- عز وجل- يضاعف الحسنات، ويؤت من لدنه الأجر العظيم، ثم أكد عظمة ذلك الحكم، وكمال وتمام ذلك العدل والفضل، وأنه يجري في موقف عظيم بشهادة أزكى الخلق وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة السلام.

الفاء: استئنافية، و«كيف» للاستفهام، وهو للتعظيم المشرب بالتعجب.

أي: فكيف يكون الحال، وكيف يكون المشهد، وكيف يكون أولئك وغيرهم، وكيف تكون عظمة ذلك الحكم، أي: ما أشد تلك الحال، وما أعظم ذلك المشهد، وما أشد الكرب على الناس، وما أحكم وأعدل ذلك الحكم الذي يحكم به الحكم العدل سبحانه وتعالى، بشهادة أزكى الخلق، وهم الأنبياء والرسل- عليهم الصلاة والسلام.

﴿إِذَا جِئْنَا﴾، أي: إذا أتينا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ الأمة: الجماعة، أي: من كل أمة من أمم الأنبياء السابقين، أي: من كل أمة من الأمم السابقة قبل أمة محمد ﷺ.

﴿بِشَهِيدٍ﴾، وهو رسولهم، يشهد على تبليغه إياهم رسالة ربه وعلى أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاْيَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهذه شهادة خاصة كما تشهد عليهم أمة محمد ﷺ شهادة عامة، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾، أي: وأتينا بك، والخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتكريم له.

﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ الإشارة إلى أمته، أي: على أمتك، و﴿شَهِيدًا﴾: حال.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ عليه القرآن، قال له: «**اقرأ علي القرآن**» قال: كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال النبي ﷺ: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**». فقرأ عليه سورة النساء حتى إذا بلغ هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال ﷺ: «**حسبك**». قال ابن مسعود: فنظرت فإذا عيناه تذرفان»[(١)].

أي: وأتينا بك على هذه الأمة شهيدًا، أي: تشهد على تبليغك إياهم رسالة ربك، وعلى أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولهذا استشهد ﷺ أمته في حياته؛ ليقروا بذلك على أنفسهم، فقال ﷺ: «**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم. قال: «**اللهم اشهد**»[(٢)].

وفي بكائه ﷺ وقوله لابن مسعود: «حسبك»، لما قرأ هذه الآية ما يشعر بدلائل عظيمة منها: شدة ذلك المشهد، وعظم تلك الشهادة، ومسرته ﷺ بمن شهد لهم بالخير من أمته، وما حصل لهم من الخير والفضل من الله بواسطته، وأسفه ﷺ على من شهد عليهم بالتكذيب، وما آلوا إليه من العذاب بسبب تكذيبهم ومعصيتهم له.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

هذا موقع الاستفهام والتعظيم، في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ الآية.

ولما كان المقام مقام وعيد وتهديد اكتفى- والله أعلم- بذكر حال الكفار بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، ويفهم من هذا أن من آمنوا وأطاعوا الرسول لهم شأن آخر.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- قول المقرئ للقارئ: «حسبك» (٤٧٦٣)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها- فضل استماع القرآن (٨٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٤١)، ومسلم في القسامة تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾، أي: يوم إذ نأتي من كل أمة بشهيد ونأتي بك شهيدا على هؤلاء.

﴿يَوَدُّ ﴾، أي: يتمنى ويحب غاية المحبة.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، أي: الذين أنكروا وجحدوا بقلوبهم ما يجب الإيمان والإقرار به، والكفر ضد الإيمان.

﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ ﴾، المعصية: المخالفة بعدم امتثال الأمر، وبارتكاب النهي. و(ال) في ﴿ٱلرَّسُولَ ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الذهن محمد ﷺ، أي: وعصوا الرسول بجوارحهم، فلم يمتثلوا ما أمرهم به، ولم يجتنبوا ما نهاهم عنه.

ويحتمل أن تكون (ال) للجنس، فيشمل كل رسول، ويشمل الوعيد كل الكفار وجميع عصاة الرسل.

﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح التاء وتخفيف السين: ﴿تَسَوَّىٰ﴾.

وقرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر بفتح التاء وتشديد السين: ﴿تَسَّوَّىٰ﴾.

والأرض على هاتين القراءتين فاعل.

وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين: ﴿تُسَوَّىٰ ﴾ فتكون «الأرض» على هذا نائب فاعل، و(لو) مصدرية بمعنى (أن) أي: أن تسوى بهم الأرض.

(بهم) الباء للملابسة، والمعنى: تمنوا وأحبوا أن يكونوا مثل الأرض، كما هو حال البهائم عندما يقال لها: «كوني ترابا»، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

أو تمنوا أن ترتفع الأرض فتسوى بأجسادهم أو تنشق فيغيبوا ويدفنوا فيها ولا يظهرون عليها، أو أنهم لم يخلقوا، وذلك لشدة ما هم فيه الأهوال والخوف والخزي والذل والفضيحة والتوبيخ والهوان والعذاب.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾، الجملة معطوفة على قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ويجوز كونها حالية.

أي: ولا يخفون الله حديثا، و«لا» نافية، و﴿حَدِيثًا ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم

أي: حديث كان منهم، من حديث النفس وغيره، قولًا كان أو فعلًا، فلا يكتمون أي: شيء من ذلك، بل يقرون إقرارًا كاملًا بأنهم كفروا وعصوا الرسول، ويعترفون بجميع أقوالهم وأفعالهم، وتشهد عليهم ألسنتهم وجوارحهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، فقال: أتدرون مما أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: «بلى»، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، فيقول: «كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا» فيختم على فيه، ويقال لأركانه انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل»[(١)].

الفوائد والأحكام:

١- ذم البخل وأهله، وأشد ذلك البخل بالواجب، كالبخل في إخراج الزكاة والنفقات الواجبة في المال، والبخل في بذل العلم والجاه أو العمل مع الحاجة إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**وأي داء أدوأ من البخل**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[(٣)].

٢- إن ما هو أسوأ من البخل أن يكون الإنسان آمرًا به وداعيًا إليه؛ فيكون داعية سوء؛

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٢٩٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٧، ٣٠٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، وأحمد (٢/ ١٥٩، ١٦٠) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

لقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ وفي الحديث: «**ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(١).

«ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»(٢).

٣- ذم الذين يكتمون فضل الله تعالى عليهم بالرزق والمال، فيدّعون بألسنتهم أنهم فقراء لا شيء عندهم، أو يظهرون المسكنة والحاجة مع غناهم؛ لما في ذلك من كفران نعمة الله تعالى وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

٤- ذم الذين يكتمون ما أتاهم الله من فضله من العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهذا عام لكتمان فضل الله تعالى بالعلم وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

٥- مفهوم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ يدل على فضل الكرم وأهله، وفضل الاعتراف بنعم الله تعالى وشكره وإظهار فضله، وفضل بذل العلم.

٦- أن الفضل كله من الله تعالى علمًا كان أو مالًا أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

٧- أن هذه الصفات المذكورة من الاختيال والفخر والبخل، وكتمان فضل الله كلها من

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣- من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صفات الكفار ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٨- الوعيد والتهديد لمن اتصفوا بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٩- إثبات وجود النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: هيأنا وجهزنا وأعددنا.

١٠- أن عذاب النار كما أنه حسي يؤلم الأجساد والأبدان، فهو أيضًا معنوي يهين النفوس والقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿مُّهِينًا﴾.

١١- ذم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وما فيه من الثواب والعقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

١٢- أن هؤلاء المذكورين لما بخلوا وامتنعوا من إنفاق المال في وجهه خالصًا لله عوقبوا بإنفاقه رئاء الناس حيث لا ينفعهم.

١٣- أن من عدل عن الحق المشروع ابتلي بالباطل والممنوع.

١٤- ذم الرياء وأن إنفاق المال رئاء الناس دليل على ضعف الإيمان بالله واليوم الآخر، بل يخاف على فاعله أشد من ذلك.

١٥- أن الإنفاق لا ينفع بدون الإيمان بالله واليوم الآخر.

١٦- عظم مكانة الإيمان بالله، فهو أصل الإيمان، وأساس أركانه؛ لتقديمه في قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾.

١٧- أهمية الإيمان باليوم الآخر بين أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وذلك لأنه من أعظم ما يحفز على العمل، ولهذا يقرن كثيرًا بالإيمان بالله تعالى.

١٨- الحث على الإخلاص والإيمان بالله واليوم الآخر. قال مالك بن دينار: «قولوا لمن لم يكن صادقًا: لا تتعب»[1].

١٩- شدة التنفير من الرياء وترك الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ

---

(١) انظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي ص١٣٧.

ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾.

٢٠- التحذير من الشيطان ومقارنته للإنسان وما يزينه من الرياء، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن الفحشاء وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩].

٢١- أن من كان الشيطان له قرينًا فبئس القرين قرينه؛ لقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ ؛ لأنه يأمره بالشر ويزينه له، وينهاه عن الخير ويزهده فيه.

٢٢- توبيخ من عَدَلوا عن الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق مما رزقهم الله، ولومهم على تفريطهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

٢٣- الإشارة إلى خسارة من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، ولم ينفق مما رزقه الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ الآية.

٢٤- أن ما عند الناس من مال هو من رزق الله تعالى، وهم مستخلفون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧].

٢٥- علم الله تعالى الواسع بالعباد وأحوالهم وأعمالهم، والمخلص منهم بالنفقة وغيره، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾.

وفي هذا ترغيب بالإيمان والإخلاص، وتحذير من الرياء وعدم الإيمان؛ لأنه تعالى إذا كان عليمًا بهم وبأعمالهم فسيحاسبهم ويجازي كلًا بما عمل.

٢٦- انتفاء الظلم عن الله عز وجل مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾.

٢٧- كمال عدل الله عز وجل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ والصفات المنفية يؤتى بها؛ لإثبات كمال ضدها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ لإثبات كمال حياته.

٢٨- أن ما ذكر على سبيل المبالغة في التقليل أو التكثير ونحو ذلك، فلا مفهوم له؛ لقوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فلا يفهم من هذا أنه يظلم دون ذلك؛ لأن المعنى أنه لا يظلم أي: شيء مهما قل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤] و«شيئًا» نكرة في سياق النفي تعم أيّ شيء مهما كان قلة أو كثرة.

٢٩- مضاعفة الله تعالى للحسنات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٣٠- أن الله- عز وجل- يعطي على الحسنة ثوابًا عظيما يفوق المضاعفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣١- كمال عدل الله عز وجل، وتمام فضله، فلا يظلم سبحانه مثقال ذرة ولا أقل من ذلك، ويضاعف الحسنات ويعطي من الأجر العظيم ما لا حد له.

٣٢- عظم المشهد وشدة الحال عندما يأتي عز وجل بالأنبياء والرسل ويشهدهم على أممهم، ويقضي بينهم بالعدل والفضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

وفي هذا وعيد للكافرين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ووعد للمؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾.

٣٣- إثبات شهادة الأنبياء والرسل عليهم السلام على أممهم، بأنهم قد بلغوهم رسالات الله تعالى، وشهادة محمد ﷺ على أمته بأنه قد بلغهم رسالة ربه.

٣٤- حكمة الله تعالى في إشهاد الرسل على أممهم يوم القيامة؛ تأكيدًا لكمال عدله وتمام فضله؛ لأن الرسل بهم أقام- عز وجل- الحجة على الخلق في الدنيا، وبشهادتهم تكون الحجة على من لم يؤمن أبلغ، والتبكيت له أعظم وحسرته أشد، ويكون سرور المؤمن أتم وأعظم.

٣٥- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ بقوله تعالى: ﴿بِكَ﴾.

٣٦- شدة الكرب وعظم الخطب على الكفرة وعصاة الرسل، وما ينتابهم في ذلك الموقف من الخوف والرعب الشديد والحسرة، حتى إنهم ليتمنون أنهم لم يخلقوا،

وأن تسوى بهم الأرض من شدة ما هم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

٣٧- التحذير من الكفر ومعصية الرسول ﷺ.

٣٨- أن الكفرة والعصاة يقرون في ذلك اليوم بكل ما قالوا وما فعلوا، ولا يكتمون شيئًا من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فلا يستطيعون كتمان شيء، مما قالوه أو عملوه أو اعتقدوه.

وأما ما ورد من أن الكفار يكتمون شركهم وكفرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فهذا إنما يكون في بعض مواضع القيامة، حيث يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم فحينئذ يتجلى الأمر ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨- ١١].

وعن سعيد بن جبير قال: أتى رجل إلى ابن عباس فقال: «سمعت الله يقول: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس: فأما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا، فلنجحد، فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله تعالى على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم فلا يكتمون

الله حديثًا»[١].

٣٩- إحاطة الله- عز وجل- بأقوال العباد وأعمالهم وبواطنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

* * *

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٤٢، ٤٣) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٥٧).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾(١).

سبب النزول:

عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعانا وسقانا من الخمر، حتى أخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني، فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون، قال فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ »(٢).

وعن أبي ميسرة قال، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. قال: فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال: فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، قال: وكان منادي رسول الله ﷺ ينادي إذا حضرت الصلاة: «**لا يقربن الصلاة سكران**» الحديث(٣).

---

(١) ذكر الله في هذه الآية تحريم الخمر عند الصلاة، وذكر فيها ضمنا الغسل من الجناية والتيمم من الحدثين، وذكر في آية المائدة صفة الوضوء المعروفة، من ذي قبل والتيمم من الحدثين، وليس فيها أول شرعية الوضوء فالوضوء معروف بالسنة القولية والفعلية منذ أن فرضت الصلاة بمكة.

وهاتان الآيتان نزلتا بالمدينة. وقيل: إن الآيتين نزلتا في بيان الطهارتين الكبرى والصغرى وما يقوم مقامها من التيمم وكانت الصلاة قبل ذلك بدون وضوء. وهذا ضعيف لأنه ما عهد صلاة بدون وضوء.

(٢) أخرجه أبو داود في الأشربة (٣٦٧١)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٦)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح» وعبد بن حميد في مسنده (٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٠٧)، وصححه ووافقه الذهبي. وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧١)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود في الأشربة (٣٦٧٠)، والنسائي في الأشربة وتحريم الخمر (٥٥٤٠)، والترمذي في التفسير =

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «أنزلت فيَّ أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعامًا فدعانا أناسًا من المهاجرين والأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لحْيَ بعير ففزر به أنف سعد[١]. فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل تحريم الخمر، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره[٣] حتى إذا كنا بالبيداء[٤] أو بذات الجيش انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق. فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة، أقامت برسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا. فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته»[٥].

=

(٣٠٤٩)، وأحمد (١/ ٥٣)، والحاكم (٢/ ٢٧٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي (٨/ ٢٨٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١٣٨- ١٣٩)، وصحح إسناده علي بن المديني، كما صححه أحمد شاكر في تحقيقه مسند الإمام أحمد. حديث (٣٧٨)، وصححه الألباني.

(١) فزر به أنف سعد، أي: شق به أنف سعد رضي الله عنه. انظر «النهاية» مادة «فزر».

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٧٤٨)، وأحمد (١/ ١٨١، ١٨٥، ١٨٦).

(٣) في غزوة المريسيع سنة ست من الهجرة.

(٤) البيداء: موضع بالقرب من المدينة.

(٥) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٤)، وفي التفسير- تفسير سورة المائدة (٤٠٦٧، ٤٦٠٨). ومسلم في الحيض (٣٦٧)، وأبو داود في الطهارة (٣١٧)، والنسائي في الطهارة (٣١٠، ٣٢٣)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٦٨).

وأخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والطبري في «جامع البيان» (٨/ ٤١٩)- الأثر من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن كثير[١] تحت عنوان: «ذكر سبب نزول مشروعية التيمم» في كلامه على هذه الآية بعد أن ذكر قصة عقد عائشة- رضي الله عنها، قال: «وإنما ذكرنا ذلك هاهنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه الآية نزلت قبل تحتم تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير بعد أحد بيسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل، ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر سبب النزول هاهنا وبالله الثقة».

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

«يا»: حرف نداء، و«أي» اسم منادى مبني على الضم في محل نصب[٢]. وهو نكرة مقصودة. و«ها» للتنبيه.

«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة لـ«أي»، أو بدل منها.

﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول.

والإيمان لغة: التصديق، قال تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا.

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن معناه الإقرار.

وهو شرعًا: قول باللسان، واعتقاد بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح[٣].

وصُدر الكلام بنداء المؤمنين بوصف الإيمان للتنبيه والعناية والاهتمام، والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف، والحث على الامتثال بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٨٢). وكذا ذكر القرطبي هذه القصة سببا لنزول آية النساء.

أما ابن العربي فأشار إلى احتمال كون القصة سببا لنزول الآيتين: آية النساء وآية المائدة، لكنه مال إلى أن القصة سبب لنزول آية المائدة قال لوجود الطهارة بالماء والتراب فيها كاملتين قال: ثم أعيد بعض ذلك في سورة النساء، وكأنه يرى تأخر سورة النساء خلافا لابن كثير.

انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤١- ٤٤٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢١٤- ٢١٥).

(٢) لأن المنادى مفعول به كما تقول: أدعوك.

(٣) راجع الكلام على قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ﴾ [النساء: ١٩].

قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- إذا سمعت الله يقول: «**يا أيها الذين آمنوا. فأرعها سمعك، فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه**»(١).

وإنما خص الله المؤمنين بالنداء؛ لأنهم هم الذين يطبقون شرع الله، فهم الذين يصلون ويتطهرون ويرتادون المساجد بخلاف الكفار.

﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، الخطاب في النهي في الآية للصاحين لا للسكارى، ولا يجوز الوقوف على: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لفساد المعنى.

و«لا» في قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟﴾ ناهية، والفعل «تقربوا» مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف النون.

وقال: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟﴾ ولم يقل: لا تصلوا وأنتم سكارى؛ مبالغة في النهي، فقوله: «لا تقربوا» نهي عن مباشرة فعل الشيء، ونهي عن الدنو منه(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لغة: الدعاء قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال ﷺ لما سأله رجل: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»(٣).

والصلاة شرعًا: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير ومختتمة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٢٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤).

(٢) وقيل: لا تقرَبوا- بفتح الراء- نهي عن التلبس بالفعل ومباشرته. وبضمها نهي عن الدنو منه كما قال الشاعر:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقرُبوا ... وتذرف عيناي الدموع لتجمدا

انظر «جامع البيان» (٨/ ٣٧٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٠١). لكن هذا خلاف ما دل عليه القرآن الكريم؛ لأن الوارد فيه فتح الراء، وهو محمول على النهي عن الأمرين: التلبس بالفعل والدنو منه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤)، عن مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه- وضعفه الألباني، وانظر «النهاية» لابن الأثير، «اللسان» مادة «صلى».

بالتسليم.

والمراد بـ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هنا ما يشمل صلاة الفريضة والنافلة؛ لأنها اسم جنس.

﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الواو للحال، أي: حال كونكم سكارى.

وسكارى: جمع سكران، وهو من زال عقله بالخمر على سبيل اللذة والنشوة والطرب(١).

كما قال أحدهم(٢):

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء

والسكر: ضد الصحو، مأخوذ من السكر، وهو سد مجرى الماء؛ لأن بزوال العقل ينسد طريق المعرفة عند الإنسان.

وسواء كان السكر بمشروب أو مشموم أو مأكول؛ لأن كل مسكر خمر، قال ﷺ: «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**»(٣).

وقيل: سكارى من النوم. والصحيح أن المراد سكر الخمر، لكن من به نوم مفرط بحيث لا يعلم ما يقول داخل في النهي، وكذا ما أشبهه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): «وما روي: وأنتم سكارى من النوم، وهذا إذا قيل: إن الآية دلت عليه بطريق الاعتبار أو شمول معنى اللفظ العام، وإلا فلا ريب أن سبب نزول الآية كان السكر من الخمر واللفظ صريح في ذلك».

والمعنى: لا تصلوا، ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم سكارى، فأطلق الصلاة هنا على ما يعم الصلاة حقيقة ومواضعها، وهي المساجد.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٧٥- ٣٧٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٣٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٠١).

بخلاف الإغماء والبنج، فإنهما ليسا بسكر، لعدم وجود الطرب والنشوة، وإن كان كل منهما يغطي العقل.

(٢) البيت لحسان بن ثابت- رضي الله عنه- من شعره قبل الإسلام، وهو في «ديوانه» (ص٧٣).

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (٢٠٠٣)، وأبو داود في الأشربة (٣٦٧٩)، والترمذي في الأشربة (١٨٦١)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٧٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقد أخرجه الأئمة أيضًا عن غير ابن عمر. وسيأتي تخريجه مستوفى في الكلام على تحريم الخمر في سورة المائدة إن شاء الله- تعالى.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٣٨).

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]. قال القرطبي(١): «فأطلق الصلاة على مواضعها».

وقال الحافظ ابن كثير(٢): «ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محلها وهي المساجد للجنب».

وقال محمد رشيد رضا(٣): «النهي عن الصلاة ومقدماتها من دخول المسجد ونحوه- لا بأدائها ولا بالمكث في مكانها».

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن تعلموا ما تقولون، و﴿تَعْلَمُوا۟﴾ فعل مضارع منصوب بـ«حتى» وعلامة نصبه حذف النون.

و(حتى) هنا تفيد معنيين:

الأول: الغاية، أي: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، إلى أن تصحوا وتعلموا ما تقولون(٤).

والثاني: التعليل، أي: لأجل أن تعلموا ما تقولون.

فلا يجوز للسكران أن يقرب الصلاة حتى يصحو ويعلم ما يقول، ولأجل أن يعلم ما يقول.

﴿مَا تَقُولُونَ﴾، «ما» موصولة، والتقدير: حتى تعلموا الذي تقولون، أو مصدرية، والتقدير: حتى تعلموا قولكم.

أي: حتى تصحوا وتعلموا ما تقولون من القراءة والأدعية من حيث لفظه ومعناه، وكذلك ما تفعلون من حركات وانتقال من حال إلى حال في الصلاة، من قيام وركوع وسجود وغير ذلك.

لأن السكران لا يعلم ما يقول ولا يفعل، كما حصل من حمزة- رضي الله عنه- عندما سكر قبل تحريم الخمر وجب أسنمة بعيري علي- رضي الله عنه- وبقر بطونهما

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٠٢).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٧٠- ٢٧١)، وانظر (٢/ ٢٧٤).

(٣) في «تفسير المنار» (١١٧- ١١٨).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٦).

وأخذ من أكبادهما، فلما جاءه الرسول ﷺ؛ لينكر عليه قال له حمزة وهو ما زال سكران: «هل أنتم إلا عبيد أبي»(١).

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾.

عن يزيد بن أبي حبيب أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فكانت تصيبهم جنابة، ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممرا إلا في المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ (٢).

﴿وَلَا جُنُبًا﴾، الواو عاطفة، و﴿جُنُبًا﴾ حال، معطوفة على الحال السابقة: ﴿وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾.

أي: ولا تقربوا الصلاة حال كونكم جنبًا إلا عابري سبيل.

و«جنب» لفظ يصلح للمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، يقال: رجل جنب، وامرأة جنب، ورجلان جنب، ورجال جنب؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ بالجمع.

و«الجنب»: مأخوذ من الجنابة، وهي البعد.

قال الشاعر:

فلا تحرمني نائلا عن جنابة(٣)

والجنب هو الذي عليه الغسل من إنزال في يقظة أو منام، قال ﷺ: «**إنما الماء من الماء**»(٤).

أو من مجاوزة ختان؛ لقوله ﷺ: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختان،**

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٧٥)، ومسلم في الأشربة (١٩٧٩)، وأبو داود في الخراج (٢٩٨٦)، - من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٣٨٤)- الأثر (٩٥٦٧). وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٣): «ويشهد لصحته ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر» أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦٧)، والخوخة: باب صغير كالنافذة يكون بين بيتين. انظر «النهاية» مادة «خوخ».

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٤٥).

(٤) أخرجه مسلم في الحيض (٥١٨)، وأبو داود في الطهارة (٢١٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فقد وجب الغسل»(١).

وسمي جنبًا؛ لأن ماء الرجل جانب مكانه، أي: انتقل إلى مكان آخر.

وقيل: لأنه يجب عليه اجتناب الصلاة وقراءة القرآن والطواف ومس المصحف واللبث في المسجد ونحو ذلك.

﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو استثناء من أعم الأحوال، أي: لا تقربوا الصلاة حال الجنابة في حال من الأحوال إلا في حال عبور السبيل.

و﴿عَابِرِي﴾: جمع عابر، وهو المجتاز المار، والسبيل: الطريق، يقال: عبر فلان النهر: إذا اجتازه وقطعه.

والمعنى: لا تقربوا مواضع الصلاة، وهي المساجد حال الجنابة إلا حال كونكم مجتازين مارين بها مرورا دون اللبث، قال ﷺ: «**وجهوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب**»(٢).

وإطلاق الصلاة على مواضعها دل عليه- كما سبق- قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قال الطبري(٣): «فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل».

قال ابن كثير(٤): «ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض (٣٤٩)، والترمذي في الطهارة (١٠٨٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٠٨)، ومالك في الطهارة (١٠٤) من حديث عائشة- رضي الله عنها.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذ جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل» أخرجه البخاري في الغسل (٢٩١)، ومسلم في الحيض (٣٤٨)، وأبو داود في الطهارة (٢١٦)، والنسائي في الطهارة (١٩١)، وابن ماجه في الطهارة (٦١٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٢٣٢)، من حديث عائشة- رضي الله عنها. وأخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٤٥) من حديث أم سلمة- رضي الله عنها. وحسنه الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ١٩٤)، وضعفه الإمام أحمد، انظر «معالم السنن» للخطابي (١/ ١٥٨)، كما ضعفه الألباني.

(٣) في «جامع البيان» (٨/ ٣٨٥).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٢٧٠).

لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محلها وهي المساجد للجنب إلا أن يكون مجتازا من باب إلى باب من غير مكث».

وقال أيضًا[١]: بعد أن ذكر كلام الطبري السابق: «وهذا الذي نصره هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة وهي الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضًا».

﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، «حتى» للغاية، أي: لا تقربوا أماكن الصلاة حال الجنابة إلى أن تغتسلوا.

والاغتسال والغسل: صب الماء على الجسد، أو الانغماس فيه، وجعل بعض أهل العلم من شرطه الدلك[٢].

قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة»[٣]: «الغين والسين واللام أصل صحيح، يدل على تطهير الشيء وتنقيته، يقال: غسلت الشيء غسلا، والغسل: الاسم. والغسول: ما يغسل به».

ويجزئ أن يعمم بدنه بالماء على الصحيح من أقوال أهل العلم لكن الأفضل فعله ﷺ في غسله حيث كان ﷺ يبدأ فيغسل يديه، ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم يأخذ الماء فيدخل أصابعه في أصول الشعر حتى إذا رأى أنه قد أروى بشرته حفن على رأسه ثلاث حفنات.

كما جاء في حديث ميمونة بنت الحارث- رضي الله عنها- قالت: وضعت لرسول

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٥).

وقد قيل: المراد بعابر السبيل: المسافر يجوز له أن يصلي إذا كان جنبا في حال السفر بعد التيمم، وهذا ضعيف؛ لأن عابر السبيل هو المجتاز مرورا وقطعا، ولأن حكم التيمم للمسافر وغيره ممن عليه حدث أكبر أو أصغر ولم يجد الماء مذكور في آخر الآية. انظر «جامع البيان» (٨/ ٣٧٩- ٣٨٢، ٣٨٤- ٣٨٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٣٦- ٤٣٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٠٦).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٣٨- ٤٣٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٠٩- ٢١١). «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٧).

(٣) (٤/ ٤٢٤).

الله ﷺ غسلا وسترته فصب على يده فغسلها مرة أو مرتين قال سليمان: لا أدري أذكر الثالثة أم لا، ثم أفرغ بيمينه على شماله فغسل فرجه، ثم دلك يده بالأرض أو بالحائط، ثم تمضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه وغسل رأسه، ثم صب على جسده، ثم تنحى فغسل قدميه فناولته خرقة، فقال بيده هكذا، ولم يردها»(١).

وكما في حديث عائشة- رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه، ثم يفرغ بيمينه على شماله، فيغسل فرجه، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم يأخذ الماء فيدخل أصابعه في أصول الشعر، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات، ثم أفاض على سائر جسده، ثم غسل رجليه»(٢).

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

هذا كالاستثناء من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، ففي هذه الأحوال المذكورة لا يجب الغسل، بل يغني عنه التيمم.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، الواو استئنافية، و﴿مَّرْضَىٰٓ﴾ جمع مريض، وهو من به علة(٣).

وقد أطلق المرض هنا، والمراد به المرض الذي يخاف من استعمال الماء معه التلف على نفسه، أو تلف عضو من أعضائه، أو يخاف باستعمال الماء زيادة المرض أو بطء البرء، أو لا يستطيع معه تناول الماء واستعماله، أو يخاف حدوث علة، كما في البرد الشديد ونحو ذلك.

أما المرض الذي يستطيع معه تناول الماء، ولا يؤثر عليه استعماله، ولا يخاف منه ضررًا فهذا لا يبيح التيمم؛ لأن فرض الأعضاء هو الغسل بالماء، والتيمم بدل منه، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل (٢٦٦)، ومسلم في الحيض (٣١٧)، وأبو داود في الطهارة (٢٤٥)، والنسائي في الغسل (٤١٩)، والترمذي في الطهارة (١٠٣)، وابن ماجه في الطهارة (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الغسل (٢٧٢)، ومسلم في الحيض (٣١٦)، وأبو داود في الطهارة (٢٤٢)، والترمذي في الطهارة (١٠٤)، وابن ماجه في الطهارة (٥٧٤).

(٣) وقيل: المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ. انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٠).

يصح الأخذ بالبدل إلا إذا تعذر الأخذ بالمبدل منه.

﴿أَوْ﴾ عاطفة، ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، أي: مسافرين.

والسفر: هو الضرب في الأرض والسير فيها، وسمي سفرًا؛ لأنه خروج من البلد إلى حيث السفر والنور.

قال ابن فارس[١]: «السين والفاء والراء أصل واحد يدل على الانكشاف والجلاء، من ذلك السفر سمي بذلك؛ لأن الناس ينكشفون عن أماكنهم».

وقيل: سمي سفرًا؛ لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

والسفر هنا مطلق، سواء كان طويلًا أو قصيرًا، وسواء كان سفر طاعة أو سفر معصية، لكنه مقيد بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ «أو» بمعنى الواو، والتقدير: وإن كنتم مرضى أو على سفر، وجاء أحد منكم من الغائط؛ لأن المجيء من الغائط ليس قسيمًا للمرض والسفر، ولا نوعًا منهما؛ ولأن المرض والسفر ليسا من موجبات التيمم.

قال القرطبي[٢]: «و«أو» بمعنى الواو، أي: إن كنتم مرضى، أو على سفر، وجاء أحد منكم من الغائط فتيمموا، فالسبب الموجب للتيمم على هذا هو الحدث، لا المرض والسفر».

﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ «من» بيانية، والغائط في الأصل: هو المكان المطمئن المنخفض من الأرض، عُبِّر به عن الخارج المستقذر من البول والغائط «الحدث الأصغر»؛ لأن الناس فيما سبق كانوا يقصدون هذه الأماكن لقضاء الحاجة؛ تسترًا عن أعين الناس، فسمي به الخارج من الإنسان من تسمية الشيء باسم مكانه[٣].

والقرآن الكريم يكني عن ذكر الأشياء المستقذرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) في «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٨٢).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٠)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٨١).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٨٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٥).

«إن الله حيي كريم يكني»[١].

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ «أو» عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، فالجملة الأولى في الحدث الأصغر، وهذه في الحدث الأكبر.

قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ﴾ بالألف[٢].

واللمس ما يكون من جانب واحد، والملامسة: مفاعلة من جانبين.

قال الطبري[٣]: «﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ﴾، بمعنى: أو لمستم نساءكم ولَـمَسْتكم، و﴿أَوْ لَمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، بمعنى: أو لمستم أيها الرجال نساءكم».

وقال أيضًا: «وهما قراءتان متقاربتا المعنى؛ لأنه لا يكون الرجل لامسًا امرأته إلا وهي لامسته، فبأي القراءتين قرأ القارئ فمصيب لاتفاق معنييهما».

والمراد باللمس والملامسة في الآية الجماع؛ لأن اللمس والمس إذا أضيف إلى النساء فالمراد به الجماع[٤]، هكذا ورد في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

---

(١) سيأتي تخريجه، وفي الحديث عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا» أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٨٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥١)، وقال: «حسن غريب» وابن ماجه في الدعاة (٣٨٦٥) وصححه الألباني.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٠٦)، «المبسوط» (ص١٥٧)، «الكشف» (١/ ٣٩١- ٣٩٢)، «النشر» (٢/ ٢٥٠).

(٣) في «جامع البيان» (٨/ ٤٠٦).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٢٨)، «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله (ص٢٠)، «جامع البيان» (٨/ ٣٨٩- ٣٩٢، ٣٩٦، ٤٢٠)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٦٣- ٤٦٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٣)، «المغني» (١/ ٢٥٧)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣١٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٠١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٥- ٢٧٦).

وكان ﷺ: «**يقبل بعض نسائه ولا يتوضأ**»(١).

وقيل: المراد بالملامسة في الآية مجرد الجس باليد ونحوه، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧]، أي: جسوه، واستدلوا بقراءة «أو لمستم»(٢).

وقيل: «لامستم» للجماع، و«لمستم» لمجرد اللمس باليد ونحوها(٣).

والصحيح أن اللمس والملامسة في الآية كناية عن الجماع بدلالة الكتاب والسنة والأثر، قال ابن عباس: «إن «المس» و«اللمس» و«المباشرة» الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»(٤).

وقال الطبري(٥)- بعد أن ذكر الآثار الواردة على أن المراد باللمس والملامسة الجماع، والأحاديث الدالة على ذلك قال: «ففي صحة الخبر فيما ذكرنا عن رسول الله ﷺ الدلالة الواضحة على أن اللمس في هذا الموضع لمس الجماع، لا جميع معاني اللمس».

وهذا لا يمنع أن يكون من معاني اللمس والملامسة الجس في اليد ونحوه، لكن في غير هذا الموضع كما دل على ذلك الكتاب والسنة واللغة(٦).

وأيضًا فإنا إذا حملنا اللمس والملامسة على الجماع كانت الآية مشتملة على ذكر الحدثين الأصغر في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ والأكبر في قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

وهذا أولى من حمل الملامسة على اللمس باليد ونحوه، وجعل الآية مقصورة على تكرار الحدث الأصغر فقط؛ لأن تأسيس معنى جديد أولى من التكرار والتوكيد، وحمل

---

(١) كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- وهو حديث صحيح، سيأتي تخريجه في الفوائد.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٩٢- ٣٩٦)، «العدة في أصول الفقه» (٣/ ١٠٤٥)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٥).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٣٨٩) الأثر (٩٥٨١)، والبيهقي في «سننه» (١/ ١٢٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٦)، وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٨) عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ قال الإفضاء: الجماع ولكن الله حيي كريم يكني عما يشاء».

(٥) في «جامع البيان» (٨/ ٣٩٩).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٦- ٢٧٧).

الآية على أكثر من معنى أولى من قصرها على معنى واحد بلا دليل.

﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ اسم جنس يشمل هنا جميع الإناث الحرائر والإماء ما عدا الصغيرة التي لا يوطأ مثلها.

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ الفاء عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وما بينهما تمثيل لموجب الحدث الأصغر والحدث الأكبر.

وهذا يفيد أنه لابد من طلب الماء والبحث عنه؛ لأنه لا يقال: لم يجد إلا لمن طلب الشيء فلم يجده(١).

﴿مَآءً﴾ نكرة في سياق النفي يعم كل ماء، وإن كان متغيرًا بطاهر ما لم يغلب عليه التغير فيخرج عن مسمى الماء.

﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية. و(تيمموا) جواب الشرط.

ومعنى ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾، أي: اقصدوا، والتيمم لغة: القصد(٢)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، أي: ولا تقصدوا الرديء منه تنفقون.

قال الأعشى(٣):

تيممت قيسا وكم دونه ... من الأرض من مهمه ذي شزن

والتيمم شرعًا: ضرب اليدين بوجه الأرض ومسح الوجه واليدين بهما.

﴿صَعِيدًا﴾ مفعول «تيمموا»، وقيل: منصوب بنزع الخافض، والتقدير: تيمموا بصعيد.

والصعيد: وجه الأرض؛ لأنه صاعد ظاهر، سواء كان ترابا أو رملا أو حجارة أو

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٠٧).

(٢) انظر: «اللسان» مادة «أمم».

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٢٠٨). والشزن: الغليظ من الأرض، والرجل العسر الخلق، وشظف العيش والبيت من قصيدة مطلعها:

لعمرك ما طول هذا الزمن ... على المرء إلا عناء معن

غير ذلك[١]، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠].

قال الزجاج[٢]: «الصعيد وجه الأرض ترابا كان أو غيره، سُمي صعيدا؛ لأنه نهاية ما يصعد إليه من باطن الأرض، لا أعلم فيه بين أهل اللغة اختلافًا: أن الصعيد وجه الأرض».

﴿طَيِّبًا﴾ الطيب في الأصل: ضد الخبيث، وهو عام في كل ما يوصف بالطيب من الأجناس والأشخاص والأقوال والأفعال وغير ذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] أي: لا يستوي الخبيث من أي شيء كان، والطيب من أي شيء كان.

ومعنى قوله: ﴿طَيِّبًا﴾ في الآية هنا: أي طاهرًا، وقيل: حلالا، وقيل غير ذلك. والصحيح الأول؛ لأنه إذا كان الصعيد في الآية مقصودا به التطهر فإن معنى قوله تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾، أي: طاهرًا[٣].

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجده فليمسه بشرته، فإن ذلك خير**»[٤].

﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾، الفاء عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٢٨)، «جامع البيان» (٨/ ٤٠٨- ٤٠٩)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٨)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٦).
وقد قيل: المراد بالصعيد: التراب الذي له غبار، وقيل: الأرض الملساء التي لا نبات فيها، وقيل: الأرض المستوية وقيل غير ذلك، والصحيح أنه وجه الأرض مطلقا، وهو يعم بقية الأقوال.

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٥٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٠٩، ٤١٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٠).

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣٢، ٣٣٣)، والترمذي في الطهارة (١٢٤)، وأحمد (٥/ ١٤٦، ١٥٥، ١٨٠)، والنسائي في الطهارة (٣٢٠)- دون قوله: «فإذا وجد الماء- إلى آخره».
وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

والمسح: هو إمرار اليد على الشيء.

قال في «اللسان»[١]: «والمسح: إمرارك يدك على الشيء السائل أو المتلطخ تريد إذهابه بذلك، كمسحك رأسك من الماء، وجبينك من الرشح، يقال: مسحه يمسحه مسحًا ومسّحه وتمسّح منه وبه».

﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾، الباء للإلصاق، وهذا قول سيبويه[٢] والمبرد[٣] والمالقي في «رصف المباني»[٤] والعكبري[٥] وابن هشام في «المغني»[٦]، والرضي في «شرح الكافية»[٧]. وقيل: إنها للتعدية[٨].

والوجوه: جمع وجه، مأخوذ من المواجهة، وحدُّه: من منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية طولًا، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا.

﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ معطوف على «وجوهكم»، فمسح اليدين بعد مسح الوجه.

واليد إذا أطلقت فالمراد بها الكف، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، أي: من مفصل الكف كما دلت على ذلك السنة.

وقال ﷺ لعمار: «**إنما يكفيك هكذا**» وضرب بيديه الأرض، ومسح بهما وجهه وكفيه[٩].

وقد جاء في المائدة زيادة ﴿مِنْهُ﴾؛ قيل: لأنه استكمل في آية المائدة الكلام على

---

(١) مادة: «مسح».

(٢) في «الكتاب» (٤/ ٢١٧).

(٣) في «المقتضب» (٤/ ١٤٢).

(٤) (ص٢٢٤).

(٥) في «إملاء ما منَّ به الرحمن» (١/ ٢٠٨).

(٦) (١/ ٩٥).

(٧) (٢/ ٢٠٤).

(٨) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٦٠).

(٩) أخرجه البخاري في التيمم (٣٤٧)، ومسلم في الحيض (٣٦٨)، وأبو داود في الطهارة (٣٢١- ٣٢٣)، والنسائي في الطهارة (٣١٣، ٣٢١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٦٩)، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

الطهارة فحسن البيان هناك بخلاف آية النساء(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ هذه الجملة تعليل لما سبق، أي: إنه عز وجل لعفوه ومغفرته، عفا عما حصل منكم من السكر وقت الصلاة والتخليط فيها وغفر لكم، كما شرع لكم التيمم عند عدم الماء، أو عند المرض؛ توسعة عليكم ورخصة لكم ورحمة بكم(٢).

﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها مطلقًا، أي إنه عز وجل لم يزل عفوًا غفورًا.

﴿عَفُوًّا﴾ خبر «كان»، أي: ذا العفو، أي: التجاوز الواسع عن عباده، أي: عن عقوبتهم فيما يقع منهم؛ من ترك لواجب، أو ارتكاب لمحرم، و«العفوّ» من أسمائه عز وجل، قال ابن القيم(٣):

وهو العفو بعفوه وسع الورى ... لولاه غار الأرض بالسكان

وعفوه- عز وجل- عفو كامل مع القدرة التامة على العقوبة والانتقام، بخلاف عفو المخلوق، فقد يكون عن ضعف وذل وعجز وعدم قدرة؛ ولهذا قرن عز وجل عفوه بالقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩](٤).

﴿غَفُورًا﴾ خبر ثان لـ«كان»، أي: ذا المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

فالغفور: هو الساتر للذنوب المتجاوز عنها فلا يعاقب عليها.

كما في حديث ابن عمر في المناجاة: «يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ويقرره بذنوبه، وفيه: «فيقول الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته»(٥).

---

(١) انظر: «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (١/ ١١٤- ١١٥).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٢٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٢).

(٣) في «النونية» (ص١٤٨).

(٤) انظر: «الروح» لابن القيم (ص٢٤٢).

(٥) سبق تخريجه.

وإذ اجتمع هذان الوصفان: «عفوّ» و«غفور»- كما في هذه الآية- حمل «عفوّ» على معنى التجاوز، و«غفور» على معنى الستر، أو حمل «عفوّ» على العفوِ عن ترك الواجب، وحمل «غفور» على العفوِ عن ارتكاب المحرم.

وإذا انفرد أحدهما عن الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، حمل كل منهما على التجاوز عن الذنوب كلها من ترك واجب أو فعل محرم، وعلى الستر لها.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام والخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وذلك للإشارة إلى أهمية الصلاة، وأنه ينبغي أن تفعل على أكمل هيئة، وأن تنزه أماكنها وهي المساجد عن الجنب.

٢- تكريم المؤمنين وتشريفهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- الحث على الاتصاف بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٤- الحث والإغراء على امتثال ما ذكر بعد هذا النداء، إن كان طلبًا وتصديقه إن كان خبرًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، أي: إن كنتم مؤمنين فافعلوا كذا.

٥- أن امتثال ما ذكر من أمر أو نهي بعد النداء بهذا الوصف وتصديقه إن كان خبرًا يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله أو عدم تصديقه يعد نقصًا في الإيمان.

٦- أن الخمر حين نزول الآية كانت حلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فمفهوم الآية حل الخمر في غير وقت الصلاة، وقد نسخ هذا المفهوم بتحريم الخمر مطلقًا في جميع الأوقات[1] بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣٧٦- ٣٧٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٠١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٢).

وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١].

وقد جاء التعريض بتحريمها في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم نهاهم عن شربها وقت الصلاة، ثم حرمها مطلقًا بآيتي المائدة، وأجمع المسلمون على تحريمها في جميع الأوقات.

٧- تحريم شرب الخمر وقت الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «وأما قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ فهو نهي لهم أن يسكروا سكرًا يفوتون به الصلاة، أو نهي لهم عن الشرب قريب الصلاة، أو نهي لمن يدب فيه أوائل النشوة، وأما حال السكر فلا يخاطب بحال».

وقد ذكر الحافظ ابن كثير[٢] قول ابن جرير وغير واحد من الأصوليين أن الخطاب في الآية لم يتوجه إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب، وإنما خوطب بالنهي الثمل الذي يفهم التكليف؛ لأن الفهم شرط التكليف، ثم قال ابن كثير: «وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائمًا والله أعلم».

٨- ذم السكر؛ لأنه مانع من الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ولقوله في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

٩- أن حد السكران: ألا يعلم ما يقول؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

قال ابن القيم[٣]: «فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر أن يعلم ما يقول،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٠٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٢)، وانظر «جامع البيان» (٨/ ٣٧٨).

(٣) في «إعلام الموقعين» (٣/ ١٤٢).

فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم.

قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: بماذا نعلم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره».

وقال ابن كثير(١): «وهذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة، وعدم تدبره وخشوعه فيها».

١٠- تحريم الصلاة مع السكر، وأنها لا تصح من السكران؛ لأنه لا يعلم ما يقول؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

ولهذا اتفق العلماء على أنه لا تصح صلاة من زال عقله بأي سبب حتى ولو كان سببًا غير محرم(٢) كالمبنج والمغمى عليه ونحوهما.

١١- ينبغي للمصلي الخشوع والإقبال على الله تعالى بقلبه، والتدبر فيما يقرأ ويقول لفظًا ومعنى، وأن يقطع عنه كل شاغل يجعله لا يعلم ما يقول كنعاس مفرط(٣)، أو مدافعة أحد الأخبثين(٤) أو بحضرة طعام يشتهيه(٥) ونحو ذلك.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٧٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٤٣٧- ٤٣٨).

(٣) أخرج البخاري في الوضوء (٢١٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (١٣٠٩)، والنسائي في الطهارة (١٦٢٥)، والترمذي في الصلاة (٣٢٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٠) عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد عن عائشة رضي الله عنها: «لا صلاة وهو يدافع الأخبثين» (٥٦٠) وأخرج ابن ماجه في الطهارة (٦١٧) عن أبي أمامة- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى الرجل وهو حاقن» وأخرجه أيضًا من حديث عبد الله بن أرقم وحديث أبي هريرة وحديث ثوبان (٦١٦، ٦١٨، ٦١٩)، وصححه الألباني.

(٥) أخرج البخاري في الأذان (٦٧١)ومسلم في المساجد (٥٥٨) من حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء» وأخرجه البخاري بنحوه من حديث أنس بن مالك وابن عمر- رضي الله عنهما- (٦٧٢، ٦٧٣)، وكذا أخرجه مسلم عنهما (٥٥٧، ٥٥٩).

=

١٢- أن أقوال السكران وإقراراته لا حكم لها ولا عبرة بها؛ لأنه لا يعلم ما يقول، فلو حلف لم تنعقد يمينه، ولو طلق زوجته لم يقع الطلاق، وبهذا قال كثير من أهل العلم.

وذهب طائفة من أهل العلم؛ منهم الشافعي[١] وأحمد في رواية عنه إلى أن طلاقه يقع عقوبة له؛ ولأن حكم التكليف جار عليه، ليس كالمجنون المرفوع عنه القلم، ولا كالنائم، والسكران معاقب. والصحيح الأول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «هذه المسألة فيها قولان للعلماء: أصحهما أنه لا يقع طلاقه، فلا تنعقد يمين السكران، ولا يقع به طلاق إذا طلق، وهذا ثابت عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ولم يثبت عن الصحابة خلافه- فيما أعلم- وهو قول كثير من السلف والخلف كعمر بن عبد العزيز وغيره، وهو إحدى الروايتين عن أحمد اختارها طائفة من أصحابه، وهو القول القديم للشافعي، واختاره طائفة من أصحابه، وهو قول طائفة من أصحاب أبي حنيفة كالطحاوي، وهذا القول هو الصواب؛ فإنه قد ثبت في الصحيح عن ماعز بن مالك لما جاء إلى النبي ﷺ، وأقر أنه زنى أمر النبي ﷺ أن يستنكهوه؛ ليعلموا هل هو سكران أم لا؟ فإن كان سكران لم يصح إقراره، وإذا لم يصح إقراره علم أن أقواله باطلة كأقوال المجنون؛ ولأن السكران، وإن كان عاصيا في

=

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الوسواس إذا غلب على أكثر الصلاة فإن الصلاة لا تصح، واستدلوا بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

والصحيح من أقوال أهل العلم أن الصلاة صحيحة؛ لأن الوسواس أمر قد يغلب على الإنسان، ولا شك أنه ينقص من ثواب الصلاة، فعلى المرء أن يدافعه ما استطاع، قال ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع الأذان، فإذا قضي الأذان أقبل فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول اذكر كذا وكذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى» أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٨)، ومسلم في الصلاة (٣٨٩)، وأبو داود في الصلاة (٥١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم يقل ﷺ: «بطلت صلاته» وقد روي عن عمر- رضي الله عنه- قال: «إني لأجهز الجيش وأنا في الصلاة» قال بعض أهل العلم: اشتغل بعبادة عن عبادة. انظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٣٥)، «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٦٠٩- ٦١٠)، «زاد المعاد» (١/ ٢٥٠).

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٠٢- ١٠٦).

الشرب فهو لا يعلم ما يقول، وإذا لم يعلم ما يقول لم يكن له قصد صحيح، و«**إنما الأعمال بالنيات**»(١).

والشريعة لم تعاقب أحدًا بهذا الجنس من إيقاع الطلاق أو عدم إيقاعه؛ ولأن في هذا من الضرر على زوجته البريئة وغيرها ما لا يجوز، فإنه لا يجوز أن يعاقب الشخص بذنب غيره؛ ولأن السكران عقوبته ما جاءت به الشريعة من الجلد ونحوه، فعقوبته بغير ذلك تغيير لحدود الشريعة.

والقول بأن حكم التكليف جار عليه ليس كالمجنون المرفوع عنه القلم.. إلخ هذا ضعيف أيضًا؛ لأنه إن أريد وقت السكر يؤمر وينهى، فهذا باطل، فإن من لا عقل له، ولا يفهم الخطاب لم يرد بشرع ولا غيره على أنه يؤمر وينهى، بل أدلة الشرع والعقل تنفي أن يخاطب مثل هذا، وإن أريد أنه يؤخذ بما يفعله في سكره، فهذا صحيح في الجملة.

وأما قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ فهو نهي لهم أن يسكروا سكرًا يُفوِّتون به الصلاة، أو نهي لهم عن الشرب قريب الصلاة، أو نهي لمن يدب فيه أوائل النشوة، وأما في حال السكر، فلا يخاطب بحال».

وفي الحديث: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**»(٢) لانسداد باب العلم والقصد عليه كطلاق المجنون والسكران والغضبان الذي لا يعقل ما يقول؛ لأن كلا من هؤلاء أغلق عليه باب العلم والقصد(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا(٤): «والدليل على أنه لا تصح تصرفاته- يعني السكران- وجوه:

أحدها: حديث جابر بن سمرة الذي في صحيح مسلم، لما أمر النبي ﷺ باستنكاه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق (٢١٩٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٦)، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وحسنه الألباني.

(٣) انظر: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص١٩).

(٤) في «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٠٦- ١٠٨).

ماعز بن مالك[١].

الثاني: أن عبادته باطلة بالنص والإجماع، فإن الله نهى عن قرب الصلاة مع السكر حتى يعلم ما يقوله، واتفق الناس على هذا؛ لأنه لا يعلم ما يقول، كما دل عليه القرآن، فنقول: كل من بطلت عبادته لعدم عقله فبطلان عقوده أولى وأحرى، كالنائم والمجنون.

الثالث: أن جميع الأقوال والعقود مشروطة بوجود التمييز والعقل، فمن لا تمييز له ولا عقل له ليس لكلامه في الشرع اعتبار أصلًا، كما قال النبي ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٢].

الرابع: أن العقود وغيرها من التصرفات مشروطة بالقصود، كما قال النبي ﷺ «**إنما الأعمال بالنيات**»[٣] وكل لفظ بغير قصد من المتكلم لسهو أو سبق لسان، وعدم عقل، فإنه لا يترتب عليه حكم.

الخامس: أن هذا من باب خطاب الوضع والإخبار، لا من باب خطاب التكليف، وذلك أن كون السكران معاقبا أو غير معاقب ليس له تعلق بصحة عقوده وفسادها، فإن العقود ليست من باب العبادات التي يثاب عليها، ولا الجنايات التي يعاقب عليها، بل هي من التصرفات التي يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر...».

وقال ابن القيم[٤]: «فلم يرتب على كلام السكران حكمًا حتى يكون عالمًا بما يقول، ولذلك أمر النبي ﷺ رجلًا يشكك المقر بالزنا، ليعلم هل هو عالم بما يقول أم غير عالم بما يقول، ولم يؤاخذ حمزة بقوله في حال سكره: «هل أنتم إلا عبيد أبي»[٥].

ولم يكفر من قرأ في حال سكره في الصلاة: «أعبد ما تبعدون ونحن نعبد ما تعبدون»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأبو داود في الحدود (٤٤٣٣)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في «إعلام الموقعين» (٣/ ١٤٢).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) كما جاء في سبب النزول.

وقال ابن القيم أيضًا[١]: «إن مما يؤخذ من الحديث، من قوله ﷺ له: «**أبك جنون**»، «**شموا فمه**»: أن زائل العقل بجنون أو سكر لا عبرة به، وكذلك طلاقه وعتقه وأيمانه ووصيته».

١٣- أن الغضبان الذي اشتد به الغضب حتى أصبح لا يعلم ما يقول لا تصح صلاته، ولا حكم لقوله في يمين ولا عتق ولا طلاق ولا غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا[٢].

ولهذا اجمعوا على أن طلاق المعتوه لا يقع، وكذا من ذهب عقله بالبنج[٣].

١٤- أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾.

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**وجهوا هذه البيوت عن المسجد، فإني لا أحل المسجد لحائض[٤] ولا جنب**»[٥].

وأكثر أهل العلم على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد مطلقًا[٦].

وقد ذهب الإمام أحمد إلى أنه إذا توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد؛ لما ورد أن الصحابة كانوا يفعلوا ذلك[٧].

---

(١) في «زاد المعاد» (٥/ ٣٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٠٩).

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٦).

(٤) والنفساء بحكم الحائض، فيحرم على كل منهما اللبث في المسجد ولهما المرور فقط، إن أمنتا من تلويث المسجد، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الخمرة من المسجد» قالت فقلت إني حائض فقال: «إن حيضتك ليس في يدك» أخرجه مسلم في الحيض (٢٩٨)، وأبو داود في الطهارة (٢٦١)، والنسائي في الطهارة (٢٧١)، والحيض والاستحاضة (٣٨٤)، والترمذي في الطهارة (١٣٤)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٣٢).

قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٣): ففيه دلالة على جواز مرور الحائض، والنفساء بمعناها».

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٦- ٢٥٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٣، ٢٧٥).

(٧) انظر: «المغني» (١/ ٢٠٢)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٤٤، ٢٦/ ١٧٨).

لما رواه عطاء بن يسار قال: «**رأيت رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة**»(١).

ولما رواه هشام بن سعد: «أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يتوضؤون وهم جنب، ثم يجلسون في المسجد ويتحدثون»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «وهذا لأن النبي ﷺ أمر الجنب بالوضوء عند النوم. في الصحيح أن النبي ﷺ سئل: هل يرقد أحدنا وهو جنب؟، فقال: «**نعم إذا توضأ للصلاة**»(٤).

فلما أمر النبي ﷺ الجنب بالوضوء عند النوم دل ذلك على أن الوضوء يرفع الجنابة الغليظة، وتبقى مرتبة بين المحدث وبين الجنب لم يرخص له فيما يرخص فيه للمحدث من القراءة، ولم يمنع مما يمنع منه الجنب من اللبث في المسجد».

وقال أيضًا(٥): «وقد أمر النبي ﷺ الجنب بالوضوء عند الأكل والشرب والمعاودة، وهذا دليل أنه إذا توضأ ذهبت الجنابة عن أعضاء الوضوء، فلا تبقى جنابة تامة، وإن كان قد بقي عليه بعض الحدث، كما أن المحدث حدثا أصغر عليه حدث دون الجنابة، وإن كان حدثه فوق الحدث الأصغر، فهو دون الجنب، فلا تمنع الملائكة، فلهذا ينام ويلبث في المسجد».

والراجح- والله أعلم- أنه لا يجوز للجنب اللبث في المسجد حتى ولو توضأ حتى يغتسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ ولقوله ﷺ: «**لا أحل المسجد لجنب ولا حائض**».

---

(١) أخرجه أحمد- فيما ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١٧٨). وسعيد بن منصور في «سننه». فيما ذكره ابن كثير، قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٥): «وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم. وقال المنذري: أخرجه البخاري في التاريخ الكبير» وانظر «المغني» (١/ ٢٠٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٤٤).

(٣) المرجع السابق.

(٤) أخرجه البخاري في الغسل (٢٨٩)، ومسلم في الحيض (٣٠٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه البخاري أيضًا من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- (٢٨٧)، ومن حديث عائشة- رضي الله عنها- (٢٨٦، ٢٨٨). وكذا أخرجه مسلم من حديث عائشة (٣٠٥، ٣٠٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١٨٨).

١٥- أنه يجوز للجنب المرور والاجتياز بالمسجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾.

١٦- أن العبور في المسجد ليس كالجلوس فيه، فمن مر بالمسجد عابرا فلا يلزمه أن يصلي ركعتين بخلاف من أراد الجلوس فيه، فيلزمه صلاة ركعتين؛ لقوله ﷺ: «**إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين**»(١).

١٧- إذا اغتسل الجنب جاز له اللبث في المسجد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾.

١٨- اشتراط النية في الغسل من الجنابة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾، وبهذا قال جمهور أهل العلم، وكذلك تشترط في الوضوء والتيمم(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»(٣).

١٩- وجوب المضمضة والاستنشاق في الغسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ وهذا يعم جميع أجزاء الجسم، ومنها الفم والأنف، وهذا قول طائفة من أهل العلم، ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]، فهذا يعم جميع أجزاء البدن، وعلى هذا دلت السنة(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٦٧)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧١٤)، وأبو داود في الصلاة (٤٦٧)، والنسائي في المساجد (٧٣٠)، والترمذي في الصلاة (٣١٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠١٣)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢١٣)، و«البحر المحيط» (٣/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠١)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد ذهب بعضهم إلى عدم اشتراط النية في الغسل ولا في غيره من الطهارات عدا التيمم، والصحيح أن النية تشترط لجميع الطهارات عدا إزالة النجاسة، فلا تشترط لها النية، فلو نزل المطر على نجاسة في الأرض أو في الثوب أو البدن فأزالها طهر محلها بدون نية.

(٤) سيأتي ذكر الأحاديث الواردة في ذلك إن شاء الله في الكلام على آية الطهارة في سورة المائدة.

٢٠- عدم وجوب الترتيب في الغسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ وهذا مطلق(١).

٢١- جواز التيمم للمريض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

وقد أُطلق المرض في الآية، والمراد به ما يخشى المتطهر من استعمال الماء معه تلف نفسه أو عضو من أعضائه، أو يتضرر باستعماله بزيادة العلة أو بطء الشفاء أو يشق عليه استعمال الماء ونحو ذلك.

وقيل: لا يتيمم إلا إذا خاف على نفسه الهلاك.

وقيل: يتيمم لكل مرض، ولو كان لا يؤثر عليه استعمال الماء(٢).

والصحيح القول الأول، وهو وسط بين القولين؛ لأن القول الثاني فيه مشقة، والشرع ميسر ولله الحمد، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

أما القول الثالث ففيه تساهل وتفريط؛ لأن التيمم إنما شرع للتيسير ورفع المشقة باستعمال الماء، فحيث لا ضرر ولا تأثير لاستعمال الماء، فإن الفرض هو استعمال الماء ما لم يكن هناك عذر يمنع من استعماله.

وعلى هذا فمن به مرض يؤثر عليه استعمال الماء بأي وجه من الوجوه فله التيمم، ومن عداه فلا.

فإن كان المرض في بعض أعضاء الوضوء فقط غسل الصحيح بالماء وتيمم عن الجريح؛ لأن الصحيح واجبه الغسل بالماء، والجريح يكفي فيه التيمم.

وقيل: إن كان الأكثر صحيحًا غسله ولا تيمم عليه، وإن كان الأكثر جريحًا تيمم ولا غسل عليه؛ لأنه لا يجمع بين البدل والمبدل منه.

٢٢- جواز التيمم للمسافر من الحدثين الأصغر والأكبر إذا لم يجد الماء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٤٧).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٥)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٧).

صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، سواء كان السفر طويلًا أو قصيرًا، سفر طاعة أو سفر معصية؛ لإطلاق السفر في الآية.

فإذا لم يجد المسافر الماء، أو لم يجد منه إلا ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه فله التيمم عن الحدثين الأصغر والأكبر.

ومثله من لم يجد الماء في الحضر عند أكثر أهل العلم؛ لأن العلة واحدة، وإنما ذكر السفر؛ لأنه مظنة عدم الماء، فهو قيد أغلبي، لا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣].

وقال الشافعي: إذا عدم الماء في الحضر يتيمم ويصلي، فإذا وجد الماء توضأ وأعاد الصلاة(١).

وقال أبو حنيفة: يؤخر الصلاة حتى يجد الماء(٢).

والصحيح القول الأول، قال ﷺ: «**الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجد الماء فليسمه بشرته، فإن ذلك خير**»(٣).

٢٣- أن السفر ليس له مسافة محددة؛ لأن الله ذكر السفر مطلقًا، فقال: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ولم يحدده بحد معين، وعلى هذا فما سُمي سفرا ثبتت له أحكام السفر.

وهذا اختيار جمع من المحققين منهم ابن قدامه(٤)، وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم(٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٦): «عدم تحديد مسافة القصر والفطر في السفر، ولو كان له مسافة محدودة لبينه الله ورسوله، ولا له في اللغة مسافة محدودة، فكل ما يسميه أهل اللغة سفرا فإنه يجوز فيه القصر والفطر كما دل عليه الكتاب والسنة».

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٢- ٤٣٣)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٨).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٤٩- ٥٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «المغنى» (٣/ ١٠٨- ١٠٩).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٢- ١٥، ٣٤- ٣٩)، «زاد المعاد» (١/ ٤٨١).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٤٣- ٢٤٥).

٢٤- أن «أو» تأتي بمعنى الواو؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾؛ لأن المعنى: وجاء أحد منكم من الغائط.

٢٥- أن الغائط والبول ناقضان من نواقض الوضوء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ (١).

---

(١) ذكر الله هنا من نواقض الوضوء الغائط؛ لأن الآية في مقام التمثيل للحدث الأصغر. والغائط يشمل البول، وفي حكمهما الريح وفي الحديث: «لا ينصرف أحدكم حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا».
أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٧). ومسلم في الحيض (٣٦١)، وأبو داود في الطهارة (١٧٦)، والنسائي في الطهارة (١٦٠)، وابن ماجه في الطهارة (٥١٣)، من حديث عم عباد بن تميم. وأخرجه مسلم أيضًا (٣٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
ومن نواقض الوضوء النوم الثقيل العميق المستغرق؛ لقوله ﷺ: «وكاء السه العينان، فمن نام فليتوضأ» أخرجه أبو داود في الطهارة (١٧٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٧٧)، من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- وحسنه الألباني.
ولقوله ﷺ في حديث صفوان بن عسال في المسح على الخفين: «وأمرنا ألا نخلع خفافنا ثلاثًا إلا من جنابة ولكن من غائط وبول ونوم» أخرجه النسائي في الطهارة (١٢٦، ١٥٨)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٩)، وابن ماجه في الطهارة (٤٧٨)، وحسنه الألباني.
فسوى ﷺ في هذا الحديث بين البول والغائط والنوم.
وذهب بعض أهل العلم إلى أن النوم يوجب الوضوء مطلقًا على أي حال كان قليلًا كان أو كثيرًا.
والصحيح الأول وهو قول جمهور أهل العلم، لحديث ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ شغل عنها ليلة يعني العشاء فأخرها حتى رقدنا في المسجد، ثم استيقظنا، ثم رقدنا ثم استيقظنا، ثم خرج علينا النبي ﷺ ثم قال ليس أحد من أهل الأرض من ينتظر الصلاة غيركم» أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧١)، ومسلم في المساجد (٦٣٩)، وأبو داود في الصلاة (٤٢٠)، والنسائي في الصلاة (٥٣١)، والدارمي في الصلاة (١٢١٥).
وعن أنس- رضي الله عنه- كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العشاء فينامون أحسبه قال قعودا حتى تخفق رؤوسهم ثم يصلون ولا يتوضؤون» أخرجه مسلم في الحيض (٣٧٦)، وأبو داود في الطهارة (٢٠٠)، والترمذي في الطهارة (٧٨)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٤).
وهذا محمول على النوم الخفيف اليسير، غير الثقيل، وحديث صفوان وما في معناه محمول على النوم الثقيل العميق.
ومثل النوم زوال العقل بإغماء أو جنون أو بنج أو نحو ذلك.
ومن نواقض الوضوء أكل لحم الإبل؛ لحديث البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال سئل رسول الله ﷺ
=

٢٦- أن القرآن لا يصرح بذكر الأشياء المستقذرة، وإنما يكني عنها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وهذا أدب قرآني ينبغي الأخذ به.

٢٧- الإشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد قضاء الحاجة أن يستتر عن أعين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

٢٨- أن مجامعة النساء من الأحداث الموجبة للتطهر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ

=

عن الوضوء من لحوم الإبل؟ فقال: «توضأ منها»، وسئل عن لحوم الغنم فقال: «لا توضأ منها».
أخرجه أبو داود في الطهارة (١٨٤)، والترمذي في الطهارة (٨١)، وابن ماجه في الطهارة (٤٩٤)، وصححه الألباني.

وحديث جابر بن سمرة- رضي الله عنه- أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ أأتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: «إن شئت فتوضأ وإن شئت فلا توضأ» قال: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «نعم فتوضأ من لحوم الإبل» الحديث أخرجه مسلم في الحيض (٣٦٠)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٩٥).

ومن نواقض الوضوء الخارج من السبيلين كالقيء والدم ونحوهما، ومنه الرعاف، وقد اختلف فيه، فمن أهل العلم من قال ينقض الوضوء إذا كان كثيرًا فاحشًا، ومنهم من قال ينقض الوضوء مطلقًا كثيرًا كان أو قليلًا، ومنهم من قال لا ينقض الوضوء مطلقًا.

قالوا: وقد كان الصحابة- رضي الله عنهم- تصيبهم الجراحة في القتال وفي غيره ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه أمرهم بالوضوء.

ومنها مس الفرج، وقد اختلف فيه أيضًا فقال بعض أهل العلم: ينقض الوضوء مطلقًا؛ لحديث: «من مس ذكره فليتوضأ» أخرجه أبو داود في الطهارة (١٨١)، والنسائي في الطهارة (١٦٣)، والترمذي في الطهارة (٨٢)، وابن ماجه في الطهارة (٤٧٩) من حديث مروان بن الحكم عن بسرة بنت صفوان. وقال الترمذي: «حسن صحيح» وصححه الألباني.

ومنهم من قال: لا ينقض الوضوء مطلقًا؛ لقوله ﷺ: «وهل هو إلا بضعة منك».
أخرجه أبو داود في الطهارة (١٨٢)، والنسائي في الطهارة (١٦٥)، والترمذي في الطهارة (٨٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٨٣) من حديث قيس بن طلق عن أبيه رضي الله عنه. وصححه الألباني.
وقيل: ينقض إذا كان بشهوة فقط.

ومنها مس المرأة واختلف فيه، فقيل: ينقض مطلقًا. وقيل: لا ينقض مطلقًا. وقيل: ينقض إذا كان بشهوة فقط. وسيأتي قريبًا تفصيل القول في هذا إن شاء الله.

ومنها تغسيل الميت، وقد اختلف فيه أيضًا، فذهب بعض أهل العلم إلى أنه ينقض، وذهب بعضهم إلى أنه لا ينقض.

ٱلنِّسَآءَ﴾، وهي حدث أكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦].

فإذا جامع الرجل المرأة وجب عليهما الغسل، سواء أنزل أو لم ينزل.

قال ﷺ: «**إذا جلس بين شعبها الأربع، ثم جهدها، فقد وجب الغسل**»(١).

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جلس بين شعبها الأربع، ومس الختان الختان وجب الغسل**»(١).

وكذا إذا أنزل من غير جماع فعليه الغسل، قال ﷺ: «**إنما الماء من الماء**»(١).

٢٩- أن الملامسة إذا أضيفت إلى النساء فالمراد بها الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالملامسة في الآية اللمس باليد ونحو ذلك دون الجماع، واستدلوا بقراءة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾، وغير ذلك(٢).

ولهذا اختلفوا في مس المرأة هل ينقض الوضوء أم لا.

فذهب الشافعي(٣) وأحمد في رواية عنه(٤) إلى أن مس المرأة ينقض الوضوء مطلقًا، سواء كان بشهوة أو بغير شهوة، وحملوا الملامسة على مجرد اللمس.

وذهب أبو حنيفة(٥) وأحمد في رواية عنه(٦) إلى أنه لا ينقض مطلقًا، لما روي: «**أن النبي ﷺ كان يتوضأ ثم يقبل بعض نسائه، ثم يخرج إلى الصلاة ولا يتوضأ**»(٧).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) راجع ما سبق في تفسير الآية.

(٣) انظر: «الأم» (١/ ١٢- ١٣)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٤٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٣)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٥٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٤) انظر: «العدة في أصول الفقه» (٣/ ١٠٤٥، ٤/ ١٤٢٠)، «المغني» (١/ ٢٥٧).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٧٢- ٣٧٣).

(٦) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله (ص٢٠)، وانظر مرويات الإمام أحمد في التفسير (١/ ٣٦٢)، «المغني» (١/ ٢٥٧).

(٧) أخرجه أبو داود في الطهارة (١٥٢) والنسائي في الطهارة (١٧٠)، والترمذي في الطهارة (٧٩)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٠٢)، وأحمد (٦/ ٢١٠)، والطبري (٨/ ٣٥٦)، من حديث عائشة- رضي الله عنها، وقال الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٧٣): «سنده جيد».

=

والتقبيل إنما يكون غالبًا عن شهوة.

ولما رُوي عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ، ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما. قالت: والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح»(٢).

وحملوا الملامسة في الآية على الجماع- كما هو قول الجمهور.

وذهب مالك(٣)، وأحمد في المشهور عنه(٤) إلى أنه إن كان اللمس بشهوة فإنه ينقض الوضوء، وإن كان بدونها فلا ينقض، جمعًا بين الأدلة.

والراجح- والله أعلم- أن مس المرأة لا ينقض الوضوء مطلقًا؛ لأن المراد بالملامسة في الآية الجماع على الصحيح من أقوال أهل العلم، ولما ثبت في السنة من أنه ﷺ كان يقبل بعض نسائه ويخرج إلى الصلاة دون إعادة الوضوء، وغيره من الأحاديث.

وقد اختار هذا القول جمع من المحققين منهم شيخ الإسلام ابن تيمية(٥) وتلميذه

=

قال أبو داود: وهو مرسل. إبراهيم التيمي لم يسمع من عائشة. وقد صححه أحمد شاكر في شرحه للترمذي (١/ ١٣٣- ١٤٢) وصححه الألباني.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٨٢)، ومسلم في الصلاة (٥١٢)، وأبو داود في الصلاة (٧١٢)، والنسائي في الطهارة (١٦٧).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧).

(٤) انظر: «المغني» (١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٠١).

ابن القيم[١].

٣٠- وجوب طلب الماء والبحث عنه قبل التيمم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾. ولا يقال: لم يجد، إلا لمن طلب الشيء فلم يجده[٢]؛ ولأن التيمم بدل من الماء ولا يجوز الأخذ بالبدل إلا إذا لم يجد المبدل منه أو تعذر الأخذ به[٣]، فإن طلب الماء ولم يجده تيمم، سواء كان في أول الوقت أو وسطه أو آخره؛ لعموم الآية[٤].

فإن وجد ما يكفي لبعض أعضائه غسلها وتيمم عما بقي منها.

وقيل: يتيمم ولا يستعمل الماء في هذه الحال؛ لأن فرضه أحد الشيئين: إما الماء وإما التراب، والصحيح الأول.

٣١- لا يجب طلب الماء والبحث عنه إلا بعد دخول الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، أي: بعد دخول وقت الصلاة؛ لأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب، وهو دخول وقت الصلاة.

فإن كان في مكان أيس فيه من وجود الماء فلا يلزمه البحث عنه عند وقت كل صلاة، وقيل يلزمه.

وإن طلب الماء فلم يجده وتيمم قبل دخول الوقت جاز، وقيل: لا يتيمم قبل دخول الوقت[٥].

وإن وجد ماء يباع بثمن مثله لزمه شراؤه واستعمال الماء، أما إذا زاد الماء عن ثمن مثله فقد اختلف أهل العلم في ذلك، فمنهم من قال: يلزمه شراؤه وإن زاد عن ثمن مثله، وذهب بعضهم إلى أنه لا يلزمه، وهذا أقرب لأنه أرفق.

---

(١) وانظر تعليق أحمد شاكر على سنن الترمذي (١/ ١٣٣- ١٤٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٤٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٩).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٩، ٢٣٣).

(٤) وقيل: لا يتيمم إلا في آخر الوقت، وقيل غير ذلك، انظر «المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٨- ١٢٩) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٩)، وطلب الماء إنما يشترط إذا أمكن وجوده من غير مشقة، كأن يكون على مسافة ربع ساعة أو عشر دقائق ونحو ذلك.

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٥).

٣٢- أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات طهور يجوز التطهر به؛ لأنه ماء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ (١).

خلافًا لما ذهب إليه بعض الفقهاء من أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات لا يجوز التطهر به؛ لأنه طاهر وليس بطهور، ولا دليل على هذا.

فإن غلب عليه التغير بحيث زال مسمى الماء عنه فأصبح يسمى وردا، أو زعفرانا أو نحو ذلك، فلا يتطهر به؛ لأنه ليس بماء.

٣٣- جواز التيمم بالصعيد عند تعذر استعمال الماء، إما لمرض، وإما لفقد الماء أو لغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

فالتراب طهور عند تعذر استعمال الماء، كما أنه طهور لبعض الأشياء مطلقًا كالخف والسيف بدلًا من الغسل، كما أنه طهور مع الماء لإزالة أثر فم الكلب، كما جاء في السنة(٢).

٣٤- أن من مبطلات التيمم القدرة على استعمال الماء إما بزوال المرض، وإما بوجود الماء بعد عدمه، ونحو ذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾، كما قال ﷺ: «**فإذا وجدت الماء فاتق الله وأمسه بشرتك**»(٣).

فلو وجد الماء ولو في أثناء الصلاة قطعها وتوضأ بالماء واستأنف الصلاة على الصحيح من أقوال أهل العلم، وقيل يتمها ما دام دخل فيها قبل وجود الماء(٤).

فإن وجده بعد أن صلى فلا يعيد.

وقد رُويَ عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمما صعيدا طيبًا ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال للذي لم يعد: «أصبت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذي توضأ وأعاد: «لك الأجر مرتين»(٥).

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٠).

(٢) انظر: «تفسيره المنار» (٥/ ١٢٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٤- ٢٣٥).

(٥) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣٨)، والدارمي في الطهارة (٧٤٤).

٣٥- أن التيمم بالصعيد عند تعذر استعمال الماء يقوم مقام الماء في رفع الحدث الأصغر والأكبر كالماء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وهذا مطلق يدل على أن التيمم يقوم مقام الماء مطلقًا في رفع الحدثين، عند تعذر استعمال الماء، فإذا تيمم فله أن يصلي به من الصلوات ما شاء من الفرائض والنوافل، ما لم يحدث، أو يتمكن من استعمال الماء(١).

قال ﷺ في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «**وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء**»(٢).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الصعيد الطيب طهور المسلم، ولو لم يجد الماء عشر سنين**»(٣).

خلافًا لمن قال: إن التيمم مبيح لفعل العبادة، لا رافع للحدث، وأنه يلزم التيمم لكل صلاة(٤).

وخلافًا لمن قال: لا يباح التيمم للجنب(٥).

عن عمار بن ياسر- رضي الله عنه- قال: «بعثني رسول الله ﷺ فأجنبت فتمرغت كما تتمرغ الدابة، فقال ﷺ: «**إنما يكفيك هكذا**» وضرب بيديه الأرض، ومسح بهما وجهه وكفيه»(٦).

=

قال أبو داود: «وذكر أبي سعيد في هذا الحديث ليس بمحفوظ، وهو مرسل، حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن أبي عبد الله مولى إسماعيل بن عبيد عن عطاء بن يسار أن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ بمعناه» وصححه الألباني.

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٢٥).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «الأم» (١/ ١٩)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٤٩)، «جامع البيان» (٨/ ٤٢٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٥).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٢٠- ٤٢٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٣).

(٦) أخرجه البخاري في التيمم (٣٤٧)، ومسلم في الحيض (٣٦٨)، وأبو داود في الطهارة (٣٢١- ٣٢٣)، والنسائي في الطهارة (٣١٣)، وابن ماجه في الطهارة (٥٦٩).

وعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا معتزلا لم يصل في القوم، فقال: «**يا فلان: ما منعك أن تصلي مع القوم؟ ألست برجل مسلم؟!**» قال: بلى يا رسول الله لكن أصابتني جنابة، ولا ماء. قال: «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**»(١).

وعن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**يا عمرو أصليت بأصحابك وأنت جنب**».

فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فضحك رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئًا»(٢).

وقد أجمع أهل العلم على هذا وأن الجنب يتيمم(٣).

٣٦- أن المشقة تجلب التيسير؛ لأن الله شرع التيمم عند تعذر استعمال الماء؛ إما لفقد الماء، أو خوف الضرر باستعماله.

٣٧- أن التيمم لا يشرع لإزالة النجاسة على البدن أو الثوب أو البقعة؛ لأن الله لم يذكره، كما أنه لم يرد في السنة، خلافًا لمن قال من أهل العلم بأنه يتيمم عن النجاسة.

٣٨- اشتراط النية للتيمم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾، أي: اقصدوا.

قال البغوي(٤): «والقصد إلى التراب شرط لصحة التيمم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ والتيمم: القصد، حتى لو وقف في مهب الريح فأصاب الغبار وجهه

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٤٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٤٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣٤) وصححه الألباني.

وقال البخاري في باب إذا خاف الجنب على نفسه: «ويذكر أن عمرا أجنب في ليلة باردة فتيمم وتلا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فذكر للنبي ﷺ فلم يعنفه»، انظر «فتح الباري» (١/ ٤٥٤)، وقال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (١/ ١٥٠): «وله شاهد من حديث ابن عباس وأبي أمامة عند الطبراني».

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٢٠).

(٤) في «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٥)، وانظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٧).

ونوى لم يصح».

٣٩- جواز التيمم على وجه الأرض كله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا﴾ والصعيد: هو وجه الأرض؛ ترابا كان أو رملا أو سبخة أو حصى أو غير ذلك.

قال ﷺ: «**الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين**»(١).

وقال ﷺ للرجل الذي تنحى، ولم يصل مع القوم لأنه جنب «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**»(٢).

وبهذا القول وهو جواز التيمم بكل وجه الأرض مما كان من جنسها؛ ترابا كان أو رملا أو سبخة أو حجرا أو غير ذلك قال كثير من أهل العلم، منهم: أبو حنيفة(٣) والثوري(٤)، والطبري(٥) وهو قول لمالك(٦).

قالوا: لأن الصعيد وجه الأرض كله مطلقًا.

وذهب بعض أهل العلم كالإمام مالك إلى جواز التيمم بكل ما صعد على وجه الأرض، سواء كان من جنسها، كالتراب والرمل والحجارة ونحو ذلك، أو من غير جنسها، كالشجر والنبات والمعادن ونحو ذلك، سواء كان متصلًا بالأرض أو منفصلًا عنها؛ لأن الصعيد يشمل ذلك كله، أي كل ما صعد على وجه الأرض(٧).

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يجوز التيمم بكل وجه الأرض مما كان من جنسها كالتراب والرمل والحجر، وكذا ما كان من غير جنسها إذا كان متصلًا بها كجذع شجرة ونحوه(٨).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٩، ٣٩٤).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٦).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤١٠).

(٦) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٦).

(٧) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٦- ٢٣٨).

(٨) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٨).

واشترط طائفة من أهل العلم منهم الشافعي[١]، وأحمد في رواية عنه[٢] أن يكون التيمم بتراب له غبار يعلق منه شيء بالوجه واليدين؛ لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ قالوا: «من» في قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ للتبعيض.

كما استدلوا بحديث حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء**» وفي لفظ: «**وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد الماء**»[٣].

قالوا: فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه[٤].

والراجح- والله أعلم- جواز التيمم- بكل وجه الأرض مما كان من جنسها؛ من تراب ورمل وحجر وغيره، ومما كان من غير جنسها مما هو متصل بها؛ كجذع شجرة ونحوه؛ لأن الصعيد يشمل ذلك كله، وسواء كان له غبار أو لم يكن له غبار؛ لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ ولم يقل «منه» مع أن سورة النساء نزلت قبل سورة المائدة، فلو كان الغبار شرطًا لذكرت «منه» في سورة النساء؛ ولأن النبي ﷺ لما علَّم عمار بن ياسر كيف يتيمم ضرب بيديه الأرض ونفخ فيهما[٥]، ولو كان الغبار شرطًا لما نفخ فيهما؛ لأن النفخ يلزم منه أن يطير الغبار.

وعن الحارث بن الصمة: «**أن رسول الله ﷺ أقبل من نحو بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد عليه النبي ﷺ، حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه، ثم رد السلام**»[٦].

---

(١) انظر: «الأم» (١/ ٤٣)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٤٧- ٤٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٥)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٩٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٩، ٢٨١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٦٤- ٣٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٢).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٩)، وانظر «التفسير الكبير» (١٠/ ٩٢).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٧)، ومسلم في الحيض (٣٦٩)، وأبو داود في الطهارة (٣٢٩)، والنسائي في الطهارة (٣١١).

والجدار في الغالب لا يكون له غبار.

ويكون قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ في سورة المائدة إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار، أو إرشادًا للأفضل والأكمل(١).

٤٠- لا يصح التيمم بالصعيد النجس؛ لقوله تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ والمعنى: طاهرًا.

٤١- أن الأعضاء التي يجب مسحها في التيمم هما الوجه واليدان فقط؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ في هذه الآية وآية المائدة.

ولا يشترط في مسح الوجه مسح داخل الفم والأنف، ولا مسح ما تحت الشعور حتى ولو كانت خفيفة؛ لأن طهارة التيمم طهارة معنوية مبنية على التخفيف، لا يشترط فيها ما يشترط في طهارة الماء.

٤٢- وجوب الترتيب والموالاة في التيمم، سواء في الطهارة الصغرى أو الكبرى، فيمسح الوجه ثم اليدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ فذكر الله مسح الوجه قبل مسح اليدين وعطف الأيدي على الوجوه هنا وفي آية المائدة(٢).

وقد قال ﷺ حين أقبل على الصفا: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ثم قال: «**أبدأ بما بدأ الله به**»(٣)، وفي رواية: «**نبدأ بما بدأ الله به**»(٤).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الترتيب في التيمم في الطهارة الصغرى فقط؛ لأنه بدل من الوضوء يجب فيه الترتيب؛ فالبدل له حكم المبدل بخلاف الطهارة الكبرى، فلا يجب فيها الترتيب.

قال القرطبي(٥): «وقد يستدل لهذا بما جاء في بعض روايات حديث عمار عند البخاري في باب التيمم ذكر اليدين قبل الوجه».

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٧٤، ٢٥٥).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن «(٥/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأبو داود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في المناسك (٢٩٧٤)، والترمذي في الحج (٨٦٢)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤)، من حديث جابر بن عبد الله مطولا.

(٤) أخرجها النسائي.

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٩).

وقال بعضهم: لا يجب الترتيب في التيمم مطلقًا، أي سواء عن حدث أصغر أو أكبر؛ لأن العطف هنا بالواو، وهي لا تقتضي الترتيب[١].

٤٣- أن حد مسح اليدين إلى مفصل الكف؛ لأن اليد عند الإطلاق يراد بها الكف، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨][٢].

وقد أجمع أهل العلم المعتد بقولهم على أن اليد تقطع من مفصل الكف «الرسغ»[٣].

وقد قال ﷺ في حديث عمار: «**إنما يكفيك هكذا**» وضرب بيديه الأرض ومسح بهما وجهه وكفيه[٤].

وإلى هذا ذهب كثير من أهل العلم منهم: مالك[٥] وأحمد[٦]، وإسحاق[٧]، وداود[٨]، والشافعي في القديم[٩].

وذهب بعض أهل العلم[١٠] منهم: أبو حنيفة[١١]، والشافعي في الجديد[١٢] إلى أن مسح اليدين في التيمم إلى المرفقين قياسًا على الوضوء[١٣].

كما استدلوا بما رُوِيَ عن جابر وابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: التيمم ضربتان:

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٦٠).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٤٠).

(٣) انظر: «الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «أضواء البيان (٢/ ٤٢- ٤٤).

(٦) انظر المغني» (١/ ٣٣١).

(٧) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٤٠).

(٨) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٤٠).

(٩) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٣٩٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨١).

(١٠) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤١٥- ٤١٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٩- ٢٤٠).

(١١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٧- ٣٨٨).

(١٢) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٣٩٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٠).

(١٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤١٦).

ضربة للوجه، وضربة للذراعين إلى المرفقين»[١].

والصحيح الأول لصحة أدلته.

أما ما احتج به أصحاب القول الثاني من قياس التيمم على الوضوء، فيجاب عنه بأن هذا قياس مع الفارق الكبير، والتباين العظيم بين الفرع والأصل؛ لأن طهارة التيمم طهارة معنوية تعبدية مبنية على التخفيف؛ لهذا اكتفى فيها بمسح عضوين فقط من أعضاء الوضوء، وتساوى فيها التيمم للحدث الأصغر والتيمم للحدث الأكبر، ولم يجب فيها ما يجب في طهارة الماء من تعميم الأعضاء الأربعة في الوضوء، وتعميم جميع الأعضاء في الغسل، وعلى هذا فلا يصح قياس مسح اليدين في التيمم على غسلهما في الوضوء.

وأما ما احتجوا به من حديث جابر وابن عمر فضعيف، كما هو مذكور في تخريجه.

٤٤- أن طهارة التيمم طهارة معنوية، يقصد بها كمال التعبد لله عز وجل والتذلل له؛ لهذا لم يفرق فيها بين الطهارة من الحدث الأكبر والحدث الأصغر، كما هو الحال بالنسبة للطهارة بالماء، بل اكتفي بالتيمم بمسح الوجه واليدين فقط في الطهارة الكبرى والصغرى، بينما في الطهارة بالماء لزم تعميم أعضاء الوضوء الأربعة في الطهارة

---

(١) أخرجه الدار قطني في «سننه» (١/ ١٧٩- ١٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٩- ١٨٠)، والبيهقي في سننه (١/ ٢٠٦- ٢٠٧) من حديث جابر بن عبد الله، وابن عمر- رضي الله عنهما، وقد صحح الدار قطني وقفه على جابر، وابن عمر، وصحح الحاكم حديث جابر، ووافقه الذهبي، وقد رواه أبو داود وغيره من حديث عمار- رضي الله عنه- وفي إسناده «مجهول».

وقد رُوي هذا الحديث من حديث الأسلع وأبي أمامة وعائشة- رضي الله عنهم، وكلها أحاديث ضعيفة، بيَّن الحافظ ابن حجر ضعفها وعللها في «تلخيص الحبير» (١/ ١٥١- ١٥٣).

قال الشنقيطي: «كل ما روي في هذا المعنى فهو ما بين ضعيف وموقوف، لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين من حديث عمار في صفة التيمم».

وقد ضعف ابن كثير أسانيد حديث ابن عمر، وضعفها الألباني كلها.

وعلى هذا فالصحيح أن التيمم ضربة واحدة على الأرض يمسح بها وجهه وكفيه. كما دل عليه حديث عمار بن ياسر، وهو أصح حديث في هذا الباب.

انظر «جامع البيان» (٨/ ٤١١- ٤١٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٦)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٤)، «المغني» (١/ ٣٣١- ٣٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٤٠- ٢٤١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٠)، «أضواء البيان» (٢/ ٤٢- ٤٨)، «إرواء الغليل» (١/ ١٨٥).

الصغرى وتعميم جميع البدن في الطهارة الكبرى.

قال الحافظ ابن كثير[١]: «التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين بالإجماع».

٤٥- تيسير الله تعالى على هذه الأمة، حيث أباح لهم التيمم عند فقد الماء، أو عدم القدرة على استعماله، أو خوف الضرر باستعماله.

عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجلعت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل**»، وفي لفظ «**فعنده طهوره ومسجده**»، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»[٢].

٤٦- إثبات صفتي العفو والمغفرة الواسعتين لله جل وعلا، وهو أنه يعفو ويتجاوز عن ذنوب عباده ويسترها، يعفو عما ارتكبوه من المحظورات، ويغفر ما حصل منهم من تقصير في فعل المأمورات. قال الشافعي رحمه الله[٣]:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما

وقال القحطاني رحمه الله[٤]:

ونشرت لي في العالمين محاسنا ... وسترت عن أبصارهم عصياني
والله لو علموا قبيح سريرتي ... لأبى السلام علي من يلقاني
لكن سترت معائبي ومثالبي ... وحلمت عن سقطي وعن طغياني

* * *

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص١٠٩).

(٤) في «النونية القحطانية» (ص١٢٤) مع ديوان ابن مشرف.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التقرير والتعجب، والاستفهام إذا جاء بعد النفي كان معناه التقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولمن صح خطابه.

والمعنى: قد رأيت كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شرحنا لك صدرك، أي: ألم تشاهد ببصرك وتعلم.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾، أي: إلى اليهود ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾، أي: أعطوا، أي: آتاهم الله ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿نَصِيبًا﴾ مفعول ثاني لـ ﴿أُوتُوا۟﴾، والمعنى: أعطوا حظًّا.

﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو: التوراة.

وفي قوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، دون أن يقول: (أوتوا الكتاب) إشارة إلى قلة ما معهم من العلم، وقلة انتفاعهم بهذا الكتاب العظيم (التوراة).

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ الجملة حالية، أي: يختارون الضلالة، ويرغبون فيها أشد الرغبة ويؤثرونها على الهدى، ولم يذكر ما اعتاضوا عنه بالضلالة، وهو الهدى؛ لظهوره، كما قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٧٥].

وفي الآية تسفيه وذم لهم حيث أخذوا الضلالة واختاروها بدلًا من الهدى فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، كما قال موسى عليه السلام:

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿وَيُرِيدُونَ﴾ معطوف على ﴿يَشْتَرُونَ﴾، أي: ويودون ويحبون أشد المحبة.

﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾: (أن) والفعل ﴿تَضِلُّوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يريدون»، أي: ويريدون ضلالكم السبيل، بإلقاء الشبه وصرفكم عن الإيمان، والضلال بمعنى البعد والتيه.

و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: الطريق إلى الله تعالى؛ طريق الإسلام والدين الحق.

أي: ويريدون ويحبون أن تبتعدوا وتتيهوا عن الطريق الحق، دين الإسلام، فتكفروا بما أنزل عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾[النساء:٢٧].

أي: فاحذروهم فهم أعداء؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ وهم كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فجمعوا بين اختيارهم الضلالة لأنفسهم وإرادتهم ومحبتهم إضلال المؤمنين لئلا يفضلوهم بالاهتداء، وهذا منهج الشيطان ومسلكه كما قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

وهكذا كل ضال أو صاحب بدعة أو معصية يريد ويحب أن يكون الناس على شاكلته، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ولا يستثنى من هذا اللهم إلا الوالد فإنه- غالبًا- يحب أن يسلم أولاده مما وقع فيه من فخاخ المعاصي، ولا يحسد أولاده على الصلاح وإن كان هو على ضد ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- إرادة أهل الكتاب إضلال المؤمنين وأتبع ذلك ببيان علمه بأعدائهم، في إشارة واضحة إلى أنهم أعداء ألدَّاء للمؤمنين يجب على المؤمنين معرفة

ذلك والحذر منهم، وأنه- عز وجل- متوليهم وناصرهم فليلجؤوا إليه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، أي: والله أعلم منكم بأعدائكم، وفي هذا دلالة على عداوة أهل الكتاب للمؤمنين وبخاصة اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

والواقع يشهد لهذا بمخططات اليهود، فهم وأذنابهم من المجوس والرافضة وراء كل مكيدة تحاك للمسلمين منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا، فبيَّن عز وجل أنه أعلم بالمؤمنين من أعدائهم، وفي هذا تسلية للمؤمنين، وإشارة إلى دفاعه- عز وجل- عنهم، وتحذير لهم من هؤلاء الأعداء، وتحريض لهم على الأخذ بتحذير الله لهم منهم، كما أن فيه ما لا يخفى من الوعيد والتهديد لهؤلاء الأعداء.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ الواو: عاطفة، ﴿وَكَفَىٰ﴾ بمعنى «حَسْب».

﴿وَلِيًّا﴾: تمييز، و(الولي) الذي يتولى غيره بجلب النفع والخير له.

والمعنى: وكفى بالله وحسبه وليًا لمن لجأ إليه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، ﴿نَصِيرًا﴾: تمييز، و«النصير» الناصر والمعين الذي يدفع الضر والشر، أي: وكفى بالله وحسبه نصيرًا لمن استنصر به.

والمراد: ثقوا بالله عز وجل أيها المؤمنون والجؤوا إليه يتولاكم، واستنصروه ينصركم.

وفي قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ وعد للمؤمنين وطمأنة لهم، بأن الله سيتولاهم ويهديهم في مقابل قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، كما أن في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ وعدًا وطمأنةً لهم في مقابل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾، وفي هذا كله وعيد لأعدائهم.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ «من»: تبعيضية، أي: بعض الذين هادوا، وهم علماء السوء والضلال من اليهود، ومعنى ﴿هَادُواْ﴾، أي: رجعوا من الكفر والشرك وعبادة العجل إلى عبادة الله تعالى، كما قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: رجعنا إليك.

ومن هنا سموا (يهودًا)، وسمي دينهم (اليهودية)، وقيل: سموا (يهودًا) نسبة إلى (يهوذا) بالذال، وهو أحد أبناء يعقوب عليه السلام.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ الجملة خبر قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾.

و«التحريف»: الميل بالشيء إلى الحرف وهو جانب الشيء وحافته، وتبديله وتغييره ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، أي: عن وجهه الصحيح، وهو نوعان: تحريف وتغيير للفظ، وتحريف وتغيير للمعنى، وكل منهما فعله اليهود، فحرفوا في ألفاظ التوراة وفي معانيها الصحيحة التي أرادها الله إلى ألفاظ ومعان باطلة توافق أهواءهم وشهواتهم. من ذلك تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم في صفة النبي ﷺ ومبعثه ونزول القرآن عليه، والتي لا تصدق إلا عليه بأنه غير مراد بها، وأن المراد بها غيره. وبهذا أنكروا رسالته ﷺ وما جاء به من القرآن، كما أنكروا قبل ذلك رسالة عيسى عليه السلام وما جاء في الإنجيل، وأنكروا كثيرا مما دلت عليه التوراة.

وهكذا فعل أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة فحرفوا في آيات القرآن الكريم تحريفًا لفظيًا، كتحريف بعضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. بنصب لفظ الجلالة (الله) ليكون المكلِّم هو موسى.

وتحريفًا معنويًّا كتحريف نفاة الصفات، قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. قالوا: استوى بمعنى (استولى).

وأشد التحريف وأعظمه ما كان في الأحكام، وأشد ذلك ما كان في العقائد كتحريف صفات الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ معطوف على ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ذكر سوء أفعالهم ثم عطف عليه سوء أقوالهم، أي: يقولون عنادًا ومحادة لله تعالى ورسوله.

﴿سَمِعْنَا﴾، أي: سمعنا قولك ودعوتك يا محمد.

﴿وَعَصَيْنَا﴾، أي: وعصينا أمرك، فلن نطيعك، وهذا غاية ما يكون من العناد والمحادة لله تعالى ورسوله بعد سماعهم ما تقوم به عليهم الحجة.

وفي هذا إظهار لتمسكهم بدينهم، وعدم طاعتهم له ﷺ؛ ليزول طمعه في إيمانهم.

وهكذا قال أسلافهم لموسى عليه السلام: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أي: يقولون للنبي ﷺ عند مراجعته في أمر الإسلام ﴿وَاسْمَعْ﴾، أي: واسمع منا.

﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ﴿غَيْرَ﴾: حال، أي: حال كونك غير مسمع، أي: غير مأمور بأن تسمع، وهذا إيهام منهم؛ لإظهار التأدب معه ﷺ، كما تقول العرب: «افعل غير مأمور»، وكما يقال: أعطني هذا الشيء ولا أمر عليك، أو لا عليك أمر، أي: غير صاغر- من باب التلطف والإكرام.

وهم في الحقيقة لا يريدون هذا، بل يريدون الدعاء عليه بعدم السمع، وبالصمم، أي: واسمع لا أسمعك الله. فجمعوا بين التعالي والتعاظم بالأمر له ﷺ بقولهم: ﴿وَاسْمَعْ﴾، أي: واسمع منا، وبين الاستهزاء به والدعاء عليه بالصمم وعدم السمع بقولهم: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أي: لا سمعت، أو لا أسمعك الله.

﴿وَرَاعِنَا﴾ معطوف على ما قبله، وظاهره طلب المراعاة، أي: راع أحوالنا وارفق وتأن بنا، لكنهم لا يقصدون هذا المعنى، بل يورون به لمعنى سيئ يقصدونه، وهو وصفه ﷺ بـ«الرعونة» وهو الحمق والجهل تنقصًا منهم له ﷺ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

فنهى المؤمنين عن قول هذه الكلمة، وأمرهم بأن يقولوا بدلها ﴿وَانْظُرْنَا﴾ ؛ سدًا للذريعة.

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، ﴿لَيًّا﴾: منصوب على الحال، أو مفعول مطلق. وأصلها (لويا) فأدغمت الواو بالياء، و(اللي) أصله: الانعطاف والانثناء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

والمعنى: إظهارًا بألسنتهم بأنهم يقصدون معنى حسنًا، وتورية للمعنى السيئ الذي يقصدونه.

فقولهم: ﴿وَرَاعِنَا﴾ يظهرون أنهم يقصدون المراعاة، وهم يقصدون معنى الرعونة.

﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾، ﴿وَطَعْنًا﴾ منصوب عطفًا على ﴿لَيًّا﴾، والطعن: التنقص والقدح، أي: تنقصًا وقدحًا في الدين، لما فيه من استهزاء بالرسول ﷺ ودعاء عليه، ووصف له بالرعونة، وإيهام لمن على شاكلتهم، بأنه لو كان محمد نبيا حقا لعلم ما أردنا بقولنا؛ ولهذا فضحهم الله تعالى بهذه الآية ونظائرها.

وقد جمعوا بين أسوأ الحالين، كما يقال: «حشفًا وسوء كيلا» فحالهم في العلم تحريف الكلم وقلب الحقائق، ورد الحق وحجده ولبسه بالباطل، وحالهم في العمل يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، الواو: استئنافية، و(لو): شرطية غير جازمة، حرف امتناع لامتناع.

أي: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أي: سمعنا قولك وأطعناك وانقدنا لك بجوارحنا، كما يقال في المثل: «سمعًا وطاعة».

﴿وَاسْمَعْ﴾، أي: وقالوا: ﴿وَاسْمَعْ﴾ دون قولهم: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أي: واسمع منا.

﴿وَانْظُرْنَا﴾، أي: وقالوا: (انظرنا)، ولم يقولوا: (راعنا).

ومعنى (انظرنا) أي: ارفق بنا وارقبنا وانتظرنا.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، اللام واقعة في جواب «لو»، والضمير المستتر في «كان» يعود إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾، أي: لكان هذا القول ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾.

و﴿خَيْرًا﴾ خبر كان، وهو اسم تفضيل، أي: لكان هذا خيرًا لهم من قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾.

والمعنى: لكان هذا خيرًا لهم خيرية مطلقة من جميع الوجوه في الدين والدنيا والآخرة.

﴿وَأَقْوَمَ﴾: منصوب عطفًا على ﴿خَيْرًا﴾، أي: وأقوم لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لأن القرآن كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ومعنى ﴿وَأَقْوَمَ﴾، أي: وأعدل وأصوب، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦] أي: وأصوب قيلًا.

و(أقوم): اسم تفضيل، أي: وأقوم من مقالتهم السابقة. والتفضيل قد يقع بين

أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، فليس في مقالتهم السابقة شيء من الخير، ولا من الاستقامة، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، الواو: عاطفة، ﴿وَلَٰكِن﴾: حرف استدراك أي: ولكنهم لم يقولوا ما هو خير لهم وأقوم فلعنهم الله، أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته.

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب كفرهم وجحودهم، وكما قيل: «على نفسها جنت براقش».

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، الفاء تعليلية، و﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء من ﴿لَّعَنَهُمُ﴾، أي: لعنهم الله إلا قليلًا منهم، فإنهم آمنوا فلم يلعنهم، أو مستثنى من الضمير في ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: فلا يؤمنون إلا قليلا منهم كعبدالله بن سلام وأضرابه.

ويحتمل أن تكون (إلا) أداة حصر، و﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف، والتقدير: «إلا إيمانا قليلا».

وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وأطلق القلة على العدم، كقولهم: «فلان قليل الحياء»، ليس مرادهم أنه عنده حياءً وإن قل- بل مرادهم أنه لا حياء عنده، ومنه قول العرب: «قلَّ رجل يفعل ذلك» يريدون أنه غير موجود.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

بيَّن- عز وجل- في الآيتين السابقتين ما عليه أهل الكتاب من الضلالة وإرادة إضلال المؤمنين، وتحريف بعضهم الكلم عن مواضعه ليًا بألسنتهم وطعنًا في الدين وعنادهم ومحادتهم، ولعن الله لهم فلا يؤمنون إلا قليلا، ثم أتبع ذلك بتهديدهم إن لم يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ مصدقًا لما معهم بالطمس على وجوههم وردهم على أدبارهم، أو لعنهم كما لعن أصحاب السبت، ومع هذا التهديد إعطاء فرصة لهم لو كانوا يعقلون.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، النداء: موجّه لليهود الذين كان الخطاب معهم في الآيات السابقة، وقال هنا: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولم يقل: (نصيبًا من الكتاب)

لمناسبة قوله بعده: ﴿نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾، أي: مصدقًا للكتاب الذي أوتوه كله.

﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾، أي: صدقوا بقلوبكم وانقادوا بجوارحكم.

﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ ما: موصولة، أي: الذي نزلنا، وهو القرآن الكريم، نزله الله تعالى مفرقًا حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال. و«ما» موصولة، أي: مصدقًا للذي معكم من التوراة والإنجيل، أي: شاهدًا بصدق ما جاءت به وأنه حق.

ومصداق ما أخبرت به من بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ هذا تحذير وتهديد لهم إن تأخروا عن الإيمان.

و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة ﴿قَبْلِ﴾ إليه، أي: من قبل طمس وجوه، والطمس: العفو والدثور، ومنه يقال: طمست أعلام الطريق، إذا اندثرت وعفت واستوت بالأرض، ومنه الطمس على العيون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦].

ونكر ﴿وُجُوهًا﴾ إشارة إلى عظمة هذه الوجوه عندهم من أسيادهم ورؤسائهم، بل قيل معنى ﴿وُجُوهًا﴾: وجهاؤهم.

ويحتمل أن يكون الطمس طمسًا معنويًا لوجوههم وقلوبهم، فلا ترى الحق ولا تسمعه ولا تنتفع به، وترد على أعقابها في الكفر ويحال بينها وبين الإيمان.

ويحتمل أن يكون طمسًا حسيًا بحيث يكون الوجه كخف البعير ليس فيه عين ولا أنف ولا فم ولا شفة ولا حاجب، فتعمى وتزول حواسها وتكون وجوههم كأقفائهم فترد على الأدبار، أو تلوى الأعناق فتكون الوجوه من الخلف فترد على الأدبار،

فتوعدهم عز وجل بطمس وجوههم حسيًا ومعنويًا.

والفاء في قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا﴾، للتسبب، أي: فيتسبب عن طمس الوجوه ردها على أدبارها، أو لمجرد التعقيب أي: من قبل أن يحصل الأمران: الطمس والرد.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾، أي: نطردهم من رحمتنا، ومن طرده الله من رحمته فليس له إلا العقاب والعذاب.

﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، أي: لعنًّا كلعن أصحاب السبت الذين اعتدوا في السبت على الاصطياد، وقد لعنهم الله ومسخهم قردة وخنازير، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

قيل: ولم يقع هذا التهديد؛ لأنه آمن منهم من آمن، واستدل لهذا بقوله في الآيات التالية: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥].

وأيضًا فإن التهديد لا يلزم منه وقوع المهدد به، كما في الحديث: «**أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل صورته صورة حمار**»[(١)].

وقد يكون شيء من هذا التهديد وقع لبعضهم، وبخاصة الطمس المعنوي، وهذا أمر قد لا يدركه المرء نفسه.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، أي: وكان أمر الله تعالى وقضاؤه الكوني واقعًا لا محالة.

وذلك يشمل ما يقع في الدنيا من العقوبات وغير ذلك، والقيامة وما فيها من الجزاء.

وفي الآية التفات من التكلم إلى الغيبة، وإظهار مقام الإضمار للتنبيه، وتعظيم الله- عز وجل- فلم يقل: «وكان أمرنا»، بل قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٩١)، ومسلم في الصلاة (٤٢٧)، وأبوداود في الصلاة (٦٢٣)، والنسائي في الإمامة (٨٢٨)، والترمذي في الجمعة (٥٨٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير تنكب اليهود طريق الحق عن علم منهم ومعرفة، لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ ولهذا سموا بـ «المغضوب عليهم» ووصفهم الله تعالى بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥].

٢- اشتراء اليهود واختيارهم الضلالة بدل الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾.

٣- تسفيه اليهود في مسلكهم هذا في اختيارهم الأدنى على الأعلى.

٤- التحذير لعلماء هذه الأمة من عدم الانتفاع بعلمهم والتشبه باليهود.

٥- محبة اليهود إضلال المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾، وبهذا جمعوا بين اختيار الضلالة لأنفسهم، والعمل على تضليل غيرهم، فكانوا دعاة للباطل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١].

٦- أن المؤمنين هم الذين على السبيل والطريق الحق، وأن أهل الكتاب عنه ضالون.

٧- أن من كان على ضلال أو فسق ونحو ذلك يحب أن يكون الناس على شاكلته غالبًا.

٨- أن الله تعالى أعلم من المؤمنين بأعدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ ﴾.

وهذا يوجب على المؤمنين امتثال أمر الله في التحذير من هؤلاء الأعداء، كما أن فيه تسلية لهم وتقوية لعزائمهم وطمأنة لهم، وتهديدًا لهؤلاء الأعداء.

٩- شدة عداوة اليهود للمؤمنين؛ لإرادتهم إضلالهم؛ ولهذا أتبع ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ ﴾؛ ولهذا يجب الحذر منهم.

١٠- ما أعظم كفاية الله تعالى في ولايته ونصره لمن تولاه ونصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾.

١١- أن الله تعالى متولي المؤمنين وناصرهم؛ لأنه تعالى لما أخبر أنه أعلم بأعدائهم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾، أي: أن الله سيتولاكم وينصركم، وهو كافيكم فالجؤوا إليه.

١٢- تحريف بعض اليهود الكلم عن مواضعه، تحريفا لفظيا ومعنويا، من ذلك

تحريفهم ما جاء في التوراة في صفة النبي ﷺ ومبعثه، فأنكروا رسالته وما جاء به، كما أنكروا قبل ذلك رسالة عيسى عليه السلام.

١٣- أن من اليهود من اتبع الحق ولم يحرف الكلم عن مواضعه، منهم عبدالله بن سلام وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، فالتبعيض في قوله: ﴿مِّنَ﴾ يدل على أن بعضًا منهم لم يحرف.

١٤- كمال عدل الله- عز وجل- وإقامته الشرع على العدل، وعدم أخذ المحسن بجريرة المسيء، فبين عز وجل أن بعض اليهود يحرفون، ومفهوم هذا أن بعضهم لا يحرفون.

١٥- شدة عناد اليهود ومحادتهم لله ورسوله؛ لقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وهكذا كل من عصى أمر الله تعالى فخالف أمره أو ارتكب نهيه بعد قيام الحجة عليه فهو محاد لله تعالى، وفيه شبه من اليهود.

١٦- تعالِي اليهود وتعاظمهم على النبي ﷺ لأمرهم له بقوله: ﴿وَٱسْمَعْ﴾.

١٧- شدة عداوة اليهود للنبي ﷺ حيث يدعون عليه بقولهم: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أي: لا سمعت، أو لا أسمعك الله.

١٨- تنقص اليهود للنبي ﷺ؛ لقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾، ويورون بمعنى (الرعونة)، وهي الحمق والجهل.

١٩- ليّ اليهود الكلام بألسنتهم بحيث يكون ظاهره صحيحا مقبولًا، وباطنه معنى سيئًا، كقولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾.

٢٠- أن الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فيحاسبون على ما أرادوا من المعاني السيئة، وإن كان الظاهر صحيحًا.

٢١- أن العصيان لأمر الله ورسوله، والتعالي على الرسول ﷺ والدعاء عليه والتنقص له- كل ذلك من الطعن في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾.

٢٢- أن الطعن في الدين من خصال اليهود، فمن طعن في دين الله ففيه شبه منهم.

٢٣- وجوب تعظيم دين الله وشرعه، واحترام رسله.

٢٤- عرض الحق على المستكبر عنه، حيث بيَّن الله تعالى أن لهؤلاء المعاندين لله ورسوله مخرجًا لو أرادوا الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الآية.

٢٥- ينبغي لمن أنكر على غيره ارتكابه للممنوع أن يبين له بدل ذلك المشروع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل قولهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَاسْمَعْ﴾ دون ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ﴿وَانظُرْنَا﴾ بدل ﴿وَرَاعِنَا﴾. كما قال تعالى للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

٢٦- جواز المفاضلة بين شيئين لا يوجد في أحدهما شيء من الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ وقولهم السابق لا شيء فيه من الخير، ولا الاستقامة.

٢٧- تبكيت هؤلاء المعاندين وتأسيفهم على ما فاتهم من الخير والاستقامة.

٢٨- لعن الله تعالى للمذكورين بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٢٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٣٠- أن الكفر سبب للعنة الله تعالى.

٣١- أن من لعنه الله وطرده عن رحمته لا سبيل له إلا الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٣٢- الرد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾.

٣٣- أن الإيمان في اليهود قليل، كما أن المؤمنين منهم قليلون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٣٤- أن خصال الكفر والمعاصي يجر بعضها بعضا؛ لقوله تعالى: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

٣٥- تصدير الخطاب بالناء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

٣٦- وجوب الإيمان بالقرآن على أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾.

فمن لم يؤمن بالقرآن فهو غير مؤمن بما سبقه من كتب الله، كما أن من آمن بالقرآن ولم يؤمن بما قبله من كتب الله فليس بمؤمن؛ لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا، ولا يصح الإيمان ببعضها دون بعض.

٣٧- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلۡنَا﴾ ؛ لأن التنزيل يكون من الأعلى.

٣٨- إثبات عظمة الله تعالى؛ لأنه تكلم عن نفسه بضمير العظمة، كما في قوله: ﴿أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ﴾ [النساء: ٤٧].

٣٩- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله من عنده؛ لقوله: ﴿نَزَّلۡنَا﴾.

٤٠- أن القرآن نزل منجمًا مفرقًا؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلۡنَا﴾.

٤١- أن القرآن الكريم مصدق للكتب السابقة، أي: شاهد بصدق ما جاء فيها من الحق، ومصداق لما أخبرت به من بعثته ﷺ، ونزول القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾.

٤٢- استعطاف قلوب أهل الكتاب من جهة، وبيان قيام الحجة عليهم أكثر من غيرهم من جهة أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾.

٤٣- تحذير أهل الكتاب وتهديدهم إن لم يؤمنوا بالقرآن بطمس وجوههم، وردها على أدبارها، أو لعنهم كما لعن أصحاب السبت؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ [يس: ٦٦، ٦٧].

٤٤- في تنكير ﴿وُجُوهًا﴾ إشارة إلى أن هذا الطمس لوجوه عظيمة عندهم من زعمائهم وأسيادهم.

٤٥- في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وعدم مخاطبتهم بقوله: (وجوهكم) تعليم للأدب في مثل هذا المقام، وعدم المواجهة بالخطاب فيما يستكره.

٤٦- أن الجزاء من جنس العمل، فكما آثر أهل الكتاب الضلال على الهدى والباطل على الحق، بل وطمسوا الحق، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقًا والحق باطلًا جوزوا بطمس وجوههم وردها على أدبارها، وعمى قلوبهم وبصائرهم عن الحق.

٤٧- أن ما قدره الله وقضاه كونًا واقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

ذكر الله هذه الآية بعد الأمر لأهل الكتاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

وذلك لبيان وجوب الإيمان بما جاء في القرآن الكريم، وعلى لسان الرسول محمد ﷺ، وأن من لم يؤمن منهم بذلك وأقام على دينه فهو مشرك، والآية عامة في هذا وغيره(١).

وقد روي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾»(٢).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ «إنّ» حرف توكيد ونصب. ولفظ الجلالة «الله» اسمها منصوب، وهو علم على ذات الرب سبحانه وتعالى، ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، مشتق من أَلِه: إذا عبد.

وأخبر تعالى عن نفسه بصيغة الغائب إشعارًا بعظمته.

﴿لَا يَغْفِرُ﴾ «لا» نافية، والجملة خبر «إن». والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة(٣).

ومنه «المغفر»، وهو البيضة التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام.

﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، «أن» مصدرية، «يشرك» فعل مضارع منصوب بها وعلامة نصبه

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٩٩- ١٠٠) وقد روى في سبب نزولها عن ابن عمر: «لما نزلت ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ...﴾ الآيات [الزمر: ٥٣]. قام رجل، فقال: والشرك يا نبي الله، فكره ذلك النبي ﷺ فقال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا...﴾ الآيات [النساء:٤٨]» أخرجه الطبري (٨/ ٤٤٩) الأثر (٩٧٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٣٧)، وقال: «حديث حسن غريب»، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٦٩)، وزاد نسبته للفريابي. وقال الألباني: «إسناده ضعيف».

(٣) سبق تخريجه.

الفتحة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بالفعل «يغفر»، والتقدير: إن الله لا يغفر شركًا به، أو إشراكا به، وهو على هذا نكرة في سياق النفي يعم كل شرك.

و«الشرك»: دعوة غير الله، وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، كأن يتخذ من دون الله ندا يحبه كحب الله.

وهو ينقسم إلى قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر:

فالشرك الأكبر: أن يجعل لله ندا في ربوبيته، وفي تشريعه، بأن يتخذ لله شريكًا في التشريع يرتضي حكمه ويدين له في التحليل والتحريم عبادةً وتقربًا وقضاءً في الفصل في الخصومات، قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

أو أن يجعل له ندا في العبادة بأن يتضرع إلى غير الله من شمس أو قمر أو نبي أو ملك أو ولي بقربة من القرب من صلاة أو نذر أو استغاثة، أو استعانة مما لا يجوز صرفه إلا لله تعالى قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

أو أن يجعل له ندا في أسمائه وصفاته، فيسميه بأسماء الله ويصفه بصفاته قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالشرك الأكبر يشمل الإشراك بالله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فمن أشرك بالله في نوع من أنواع التوحيد فإن الله لا يغفر له، وكذلك ما كان بمنزلة الشرك من كفر الجحود كمن أنكر رسالة محمد ﷺ فهذا أيضًا لا يغفر، وهذا كله من الشرك الأكبر المخرج من الملة(١).

والقسم الثاني من أقسام الشرك: الشرك الأصغر، وهو كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة ووسيلة إلى الشرك الأكبر، وجاء في النصوص تسميته شركًا، كالحلف بغير الله،

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٩- ٣٨٤)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٢٣).

قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(١) وكقول: «**ما شاء الله وشئت**» قال ﷺ لمن قال له ذلك: «**أجعلتني لله ندا ما شاء وحده**»(٢).

ومنه الرياء قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه فقال: «**الرياء**»(٣).

وهو لا يخرج من الملة، ولكنه أكبر الكبائر بعد الشرك الأكبر؛ ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغيره صادقًا**»(٤).

وصاحبه عند أهل السنة كسائر مرتكبي الكبائر لا يخلد في النار، وهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه- خلافًا للمعتزلة والخوارج.

فمعنى الآية هنا أن الله لا يغفر لمن مات على الشرك الأكبر من غير توبة، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قال في «تفسير المنار»(٥): «وإنما عظم الله أمر الشرك، وبيَّن أنه لا يغفر لما فيه من الذل والخضوع والعبودية لغير الله، واستعباد الخلق بعضهم البعض، والإنسان كرمه الله على سائر المخلوقات، فينبغي أن يكون حرًا كريمًا عزيزا لا يخضع إلا لله عز وجل

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤) عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رجلا قال للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت» فقال له النبي ﷺ: «أجعلتني والله عدلا، بل ما شاء الله وحده» وصححه أحمد شاكر في تخريجه للمسند رقم (١٨٣٩).

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) أخرجه الطبراني هكذا موقوفا على ابن مسعود رضي الله عنه. وقال المنذري: ورواته رواة الصحيح. وقد ذكره ابن جرير الطبري بغير سند، وروي نحوه عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما. انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٩٤)، «فتح المجيد» (ص٣٤٨).

(٥) (٥/ ١٤٨).

الذي خضعت لجبروته جميع الكائنات».

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ «ما»: اسم موصول بمعنى «الذي» مبني على السكون في محل نصب مفعول لـ(يغفر).

﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: أقل وأصغر من ذلك والإشارة في قوله (ذلك) ترجع إلى الشرك بالله.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ اللام حرف جر، و«من» اسم موصول بمعنى الذي، مبني على السكون في محل جر، والجار والمجرور متعلق بقوله: (يغفر)، أي: ويغفر الذي هو أقل وأصغر من الشرك للذين يشاء المغفرة لهم من عباده.

والمعنى: أن الله لا يغفر الإشراك به مطلقًا، ويغفر جميع المعاصي والذنوب التي هي أقل وأصغر من الشرك لمن يشاء ويريد من عباده.

أي: أن ما كان أقل من الشرك فهو تحت مشيئته عز وجل يغفره لمن يشاء من عباده ويعاقب عليه من يشاء من عباده بعلمه وحكمته عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، الواو استئنافية، و«من» شرطية، و«يشرك» فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه مسبوق بـ «قد». و«قد» للتحقيق.

﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾ الفرية: الكذب والاختلاق، أي: كذب واختلق، ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾، أي: ذنبا عظيمًا؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، وأظلم الظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم، قال: «**أن تجعل لله ندا وقد خلقك...**»(١).

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله سبحانه أوضح الحقوق وأَبْيَنها، فمن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣- ٤٠١٥)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢- ٣١٨٣).

اعتدى على حق الله، وأشرك معه غيره في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فقد ارتكب أظلم الظلم، وكل ظلم فهو دون الشرك بالله، لكن كلما كان الحق أوضح وأبين كان الظلم أعظم.

الفوائد والأحكام:

١- أن الأمر في الثواب والعقاب والمغفرة والمؤاخذة لله عز وجل، الأمر أمره، والخلق خلقه، والحكم حكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢- أن الله لا يغفر أن يشرك به، سواء كان هذا الشرك في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

والتقدير: إن الله لا يغفر شركًا به أو إشراكًا به، وهذا نكرة في سياق النفي فيعم؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن هذا يشمل الشرك الأكبر والأصغر(١)، وأن كلا منهما لا يغفر.

أما الشرك الأكبر: فالإجماع على أنه لا يغفر(٢)؛ لهذه الآية(٣) ولغيرها من الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله:**

---

(١) الشرك الأصغر كالرياء والحلف بغير الله، قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسئل عنه فقال: «الرياء» أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.
وقال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٥١)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٥)، وحسنه من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما، وصححه ابن حبان (٦/ ٢٧٨)، والحاكم (١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧)، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني. وانظر «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٨٩).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٤٥)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٩- ٣٨٤).

(٣) هذه الآية جاءت في موضعين في هذه السورة في هذا الموضع وفي الآية رقم (١١٦).

فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله- عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا، فظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله- عز وجل- يغفر ذلك، ويتجاوز إن شاء.

وأما الديوان الذي لا يترك منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضًا: القصاص لا محالة»(١).

أما الشرك الأصغر فهو من أعظم الذنوب، قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الصغر**».

ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقًا**»(٢).

وجمهور أهل العلم على أن الشرك الأصغر كغيره من الذنوب تحت المشيئة، إن شاء الله غفره، وإن شاء عذب به.

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى دخول الشرك الأصغر تحت عموم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ قال فالشرك الأصغر لا يغفر(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠) والحاكم (٤/ ٥٧٥- ٥٧٦) بسند ضعيف، لكن للحديث شاهد من حديث أنس أخرجه الطيالسي (٢/ ٦١- ٦٠) والبزار في مسنده رقم (٣٤٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٩)، وإسناده جيد في الشواهد والمتابعات، وله شواهد أخرى فالحديث بمجموع شواهده حسن، وانظر الأحاديث في الشرك والتحذير منه في «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٦- ٢٩١). وانظر «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٨).

(٢) سبق تخريجهما.

(٣) انظر: «مسائل وفتاوى الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ» ضمن «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» جمع ابن قاسم (٥/ ٤٧٤)»، وقوله: «لا يغفر» محمول والله أعلم على أنه يعذب به بقدر ذنبه، لا أنه يخلد في النار للإجماع على أنه لا يخلد في النار إلا المشرك شركا أكبر، وقد ذُكر عن ابن تيمية أن الشرك الأصغر كغيره من الذنوب تحت مشيئة الله إن شاء غفره، وإن شاء عذب به. انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص٩٨)، «الدرر السنية» (٥/ ١٤٨). وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ٣٩١ تفسير سورة النساء).

وهذا كله محول على من لم يتب من الشرك؛ لأن الآية مقيدة في غير التائبين، فمن تاب من الشرك وغيره، فإن الله يتوب عليه قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣][(١)].

٣- إثبات صفة المغفرة لله عز وجل، صفة ذاتية ثابتة لله عز وجل وصفة فعلية؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

٤- أن ما دون الشرك من الذنوب تحت المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فإن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه.

وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة فيما دون الشرك من المعاصي الصغائر منها والكبائر.

ويدل على هذا أيضًا: ما جاء في حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه**». فبايعناه على ذلك[(٢)].

٥- الرد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة، الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

فما دون الشرك من الكبائر والصغائر قد يؤاخذ به، فيعذب صاحبه بقدر ذنبه، وقد يعفو الله عنه، فلا يؤاخذ به[(٣)].

عن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**ما من عبد قال: لا**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٥٨، ١٦/ ١٨)، «الجواب الكافي»(ص٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الحدود (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩، ٤١٦١)، وابن ماجه في الحدود (٢٦٠٣).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٥٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٤٢، ١٤٤)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٠٠، ١٠١)، «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٩)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٦٨).

إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: «وإن زنى وإن سرق، على رغم أنف أبي ذر»(١).

٦- الرد على المتصوفة الذين يعملون المعاصي، ويحتجون بأن الله يغفر ما دون الشرك لمن يشاء؛ لأن مغفرة ذلك تحت مشيئته فمن شاء غفر له بفضله ومن شاء عاقبه بعدله، كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨، الفتح: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ولا يدري الإنسان أهو ممن يشاء الله المغفرة له أم لا.

كما أن فيها ردًا على أهل التفريط والإضاعة الذين يُقَصِّرون في الواجبات، ويرتكبون المحظورات، ويقولون: الله غفور رحيم، وينسون أنه شديد العقاب، وأنه يغفر لمن شاء بفضله، ويعاقب من شاء بعدله.

٧- الرد على المرجئة الواقفية الذين يقولون: يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد، ويجوز أن يغفر للجميع(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ردًا عليهم(٣): «فإنه قد قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك، وأن المغفرة هي لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك، لكنها لبعض الناس، وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ومن لم يغفر له عذب».

٨- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٢٧)، ومسلم في الإيمان (٩٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٤)، وأحمد (٥/ ١٦٦).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٤٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٩)، وانظر (١١/ ٦٦٣).

تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩].

٩- إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

وهذا يدل على بطلان قول المعتزلة والأشاعرة ونحوهم الذين ينكرون أن يقوم لله فعل متعلق بإرادته(١).

١٠- وجوب إخلاص التوحيد لله تعالى: توحيد الربوبية: وتوحيد الإلوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾، فكونه عز وجل لا يغفر الإشراك به يدل على وجوب توحيده.

١١- عظم الشرك، وأنه أعظم الذنوب؛ لأنه لا يغفر؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ ؛ ولقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وكما قال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٤٦] أي: على الشرك، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وسئل النبي ﷺ أي الشرك أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وقد خلقك**»(٢).

١٢- أن من أشرك بالله فقد افترى وكذب على الله تعالى كذبًا عظيمًا وارتكب ذنبا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

فهو مفتر بقوله، ضال في دينه وفعله.

* * *

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره (١/ ٣٩٠، تفسير سورة النساء).
(٢) سبق تخريجه.

فهرس الموضوعات

تفسير سورة النساء، الآيات (١- ٤٨) ٥
المقدمة ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ الآية [١] ١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ...﴾ الآية [٢] ٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ الآية [٣] ٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ...﴾ الآية [٤] ٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ...﴾ الآيتين [٥، ٦] ٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ...﴾ الآيتين [٧، ٨] ١٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ...﴾ الآيتين [٩، ١٠] ١٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ...﴾ الآية [١١] ١٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ...﴾ الآية [١٢] ... ١٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ...﴾ الآيتين [١٣، ١٤] .. ٢١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ...﴾ الآيتين [١٥، ١٦] ٢٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ...﴾ الآيتين [١٧، ١٨] ٢٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ...﴾ الآية [١٩] ٢٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ...﴾ الآيتين [٢٠، ٢١] ٢٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ...﴾ الآيتين [٢٢، ٢٣] ٣١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ...﴾ الآية [٢٤] ٣٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ الآية [٢٥] ... ٣٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ الآيات [٢٦-٢٨] ٤٢٥

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ...﴾ الآيات [٢٩-٣١] ٤٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ...﴾ الآيتين [٣٢، ٣٣] ٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ...﴾ الآيتين [٣٤، ٣٥] ٤٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ...﴾ الآية [٣٦] ٥٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ...﴾ الآيتين [٣٧-٤٢] ٥٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ...﴾ الآية [٤٣] ٥٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾ الآيات [٤٥-٤٧] ٦١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ...﴾ الآية [٤٨] ٦٢٦
فهرس الموضوعات ٦٣٥

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد السادس

تفسير سورة النساء (الآيات: ٤٩ - ١٧٦)

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٦

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٥٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنِّسَاءِ

(ٱلآيَات: ٤٩ - ١٧٦)

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: تعجب من حال هؤلاء الذين يزكون أنفسهم، من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غرتهم أنفسهم. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح خطابه.

والتزكية: التطهير والتنزيه من القبيح، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي: طهرها بالأعمال الصالحة والتوبة من الذنوب والمعاصي، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: تطهرهم بها.

ومعنى ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ينسبون أنفسهم إلى الزكاء والطهر والنقاء والسلامة من الذنوب، وأهلية دخول الجنة والنجاة من النار، كما قال اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

وقال تعالى عنهم وعن النصارى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فزكوا أنفسهم بالعمل، وزكوا أنفسهم بالجزاء.

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، «بل» للإضراب الإبطالي، وفي هذا إبطال؛ لتزكيتهم أنفسهم، أي: المرجع في التزكية إلى الله- عز وجل- يزكي من يشاء؛ لأنه العليم الخبير، ذو العلم التام بالظواهر والبواطن، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والمعنى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ أتحصل لهم التزكية؟ الجواب: لا تحصل لهم التزكية، أي: ليس لهم أن يزكوا أنفسهم.

بل الله- عز وجل- هو الذي يزكي من يشاء، سواء قبل العمل باصطفائه وتوفيقه لمن يشاء كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أو بعد العمل كما قال تعالى في معرض الرد على اليهود والنصارى في زعمهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] فهؤلاء هم الذين زكاهم الله.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [النساء: ٩٥].

وتزكية الرسول ﷺ من تزكية الله عز وجل، كما في قوله: ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[(١)]، وقوله: ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(٣)].

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الجملة يجوز أن تكون حالية، وأن تكون مستأنفة.

و﴿فَتِيلًا﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته، أي: ظلما قدر فتيل، أو مفعول ثان لـ﴿يُظۡلَمُونَ﴾.

و(الفتيل) هو الخيط الرقيق الذي يكون في شق النواة يضرب به المثل في قلة الشيء وحقارته كالنقير والقطمير، أي: ولا يظلمون شيئًا مهما قل، وإن كان بمقدار الفتيل أو دونه.

والضمير في ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ يجوز أن يعود على ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧)، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٢)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٧)، وابن ماجه في المقدمة (٢١١)، من حديث عثمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥)، والدارمي في النكاح (٢٢٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وجُمِعَ الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، أي: ولا ينقص من تزكيتهم ولا من ثوابهم شيء.

ويجوز أن يعود الضمير في ﴿يُظْلَمُونَ﴾ على الذين يزكون أنفسهم، أي: فلا يزاد في عقابهم شيء، وتزكية الله غيرهم لا تعد ظلما لهم.

والأولى حمل الضمير عليهما معًا، من زكوا أنفسهم، ومن زكاهم الله تعالى، فلا المزكون لأنفسهم يظلمون شيئا بالزيادة في عقابهم، ولا من زكاهم الله تعالى يظلمون شيئًا بالنقص من ثوابهم، كما لا يظلم أحد من الخلق غيرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ﴾ [النساء: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وجَّه- عز وجل- الخطاب في الآية السابقة على سبيل الإنكار والتعجب من حال الذين يزكون أنفسهم.

ثم أمر في هذه الآية بالنظر على سبيل الإنكار والتعجب من افترائهم على الله الكذب في تزكية أنفسهم مبينًا عظم أثر هذا العمل وشدته.

قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: انظر وتأمل بعقلك.

﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ كيف: للاستفهام، ومعناه الانكار والتعجب من جرأتهم على الله، ﴿يَفْتَرُونَ﴾، أي: يختلقون، أي: انظر وتعجب كيف يختلقون على الله الكذب بتزكيتهم أنفسهم، بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، ونحو ذلك، فهذا من أعظم الافتراء والكذب على الله تعالى؛ لأنهم بهذا يجعلون ما هم عليه حقًا، وما عليه المؤمنون باطلًا، وهذا من أعظم الكذب، وقلب الحقائق.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾، أي: وكفى بالافتراء، ﴿وَكَفَىٰ﴾ بمعنى (حسب)، أي: وحسبهم بافتراء الكذب على الله ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

﴿إِثْمًا﴾: تمييز، أو حال، أي: ذنبا يؤثم فاعله، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة، لـ﴿إِثْمًا﴾، أي: بينًا ظاهرًا في نفسه، ومبينًا أمر فاعله بأنه آثم، وفي هذا دلالة على عظم افتراء الكذب على

الله، وبلوغه غاية الإثم، وظهوره غاية الظهور.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾.

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور[1] المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة[2]، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. وأنزلت ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ »[3].

وعن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة، حيى بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وأبو عمار، ووَحوح بن عامر، وهوذة بن قيس، فأما وَحوَح، وأبو عمار، وهوذة، فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش، قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتب الأول، فسلوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾»[4].

قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام كسابقه: للإنكار والتعجب، وهو أعجب من حالهم الأولى التي مرَّ ذكرها في قوله:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾

---

(١) الصنبور: الرجل الفرد الضعيف الذليل الذي لا أخ له ولا عقب فإذا مات انقطع ذكره.

(٢) السدانة: خدمة الكعبة وتولي أمرها، وفتح بابها وإغلاقه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ١٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٣)، وابن حبان (٦٥٧٢).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ١٤٦) وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٥٦١-٥٦٢).

الآية؛ لأن ما وصفوا به هنا في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآية أشد مما سبق.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: إلى الذين أعطوا حظًا من الكتاب المنزل على الرسل عليهم السلام، وهم اليهود أتاهم الله تعالى التوراة وقامت عليهم بذلك الحجة ومع ذلك ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، أي: يصدقون بالجبت والطاغوت ويقرونه.

والجبت: السحر والكهانة والطرق والعيافة وعبادة الأصنام وغير ذلك.

وفي الحديث: «**إن الطيرة والعيافة والطرق من الجبت**»[1].

ويطلق الجبت على الصنم والساحر والكاهن والشيطان وغير ذلك[2].

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان، وهو تجاوز الحد، وهو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله، فيطلق على الشيطان وعلى من عُبِد من دون الله وهو راض، وعلى مدعي علم الغيب وعلى غيرهم.

قال عمر رضي الله عنه: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان»[3].

وقال مالك: «الطاغوت: كل ما يعبد من دون الله عز وجل»[4].

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اللام في قوله ﴿لِلَّذِينَ﴾ بمعنى: «في»، أي: ويقولون في الذين كفروا، أي: في شأن الذين كفروا من مشركي مكة، أو هي لام التعليل، أي: لأجل الذين الذين كفروا.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون: مشركي مكة.

﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾، أي: ويقول هؤلاء اليهود في شأن الذين كفروا من أهل مكة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون مشركي مكة ﴿أَهْدَىٰ﴾: اسم تفضيل، أي: أرشد وأقوم وأعدل ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعنون النبي ﷺ وأصحابه، ﴿سَبِيلًا﴾: تمييز، أي: طريقًا.

ولا غرابة أن ينتهز اليهود هذه الفرصة؛ لأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا

---

(١) العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض، والطيرة: التطير.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩٠٧)، وأحمد (٥/ ٦٠)، من حديث قبيصة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٩٥).

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٩٤).

فيشهدوا لإخوانهم في عداوة المؤمنين مشركي مكة بأنهم أهدى من المؤمنين طريقًا.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ٥٢﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة: لأهل الكتاب اليهود الذين قالوا للذين كفروا من أهل مكة: أنتم خير وأهدى من الذين آمنوا سبيلا.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تحقيرًا لهم.

﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: الذين طردهم الله وأبعدهم عن رحمته وجنته.

﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، و«من» شرطية، و﴿يَلۡعَنِ﴾ فعل الشرط، أي: ومن يطرده الله ويبعده عن رحمته وجنته.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ الجملة جواب الشرط، والفاء رابطةلجواب الشرط، أي: فلن تجد له من ينصره ويدفع عنه عقاب الله وعذابه الدنيوي والأخروي؛ لأن من طرد من رحمة الله فليس له سوى العقاب والعذاب في النار.

وهذا في مقابل قوله تعالى في المؤمنين: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ٥٣﴾.

ذكر الله- عز وجل- قبل هذا حكم أهل الكتاب الجائر للذين كفروا بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا، ثم بيَّن في هذه الآية أنه ليس لهم نصيب من الملك فيجعلون من أنفسهم حكما، ويمنعون فضل الله تعالى عن الرسول ﷺ والمؤمنين.

قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى ﴿بَلۡ﴾ التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الذي معناه الإنكار والنفي، أي: بل ألهم نصيب من الملك، أي: بل ألهؤلاء اليهود حظ من الملك فيكونون شركاء لله في ملك الأعيان وتدبير الأمور، فيمنعون فضل الله تعالى على نبيه ﷺ والمؤمنين، ويجعلون الفضل لهؤلاء الكفار، ويفضلون من شاؤوا على من شاؤوا.

والجواب: لا، ليس لهم نصيب من الملك.

﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، ﴿فَإِذٗا﴾: الفاء للسببية، رابطة لجواب شرط محذوف،

والتقدير: إن حصل لهم نصيب، أو إذا حصل لهم نصيب من الملك ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، ويجوز كون الفاء عاطفة.

و(النقير): هو النقرة التي في ظهر النواة، يضرب بها المثل للقلة مثل: (الفتيل)، و(القطمير)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

أي: لو قدر أن لهؤلاء اليهود نصيبًا من الملك، فإنهم لشدة بخلهم وطمعهم، وحرصهم على المال لا يعطون الناس، ولا سيما محمد ﷺ ﴿نَقِيرًا﴾ وهو أقل شيء، وما فوقه من باب أولى، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

أنكر عز وجل في الآيات السابقة على اليهود قولهم للذين كفروا: إنهم ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾، وبيَّن أنه ليس لهم نصيب من الملك فيفضلون مَنْ شاؤوا، ولو كان لهم شيء من الملك لم يعطوا الناس شيئًا، ثم بيَّن أن الذي حملهم على تفضيل أهل الكفر إنما هو حسدهم للرسول ﷺ والمؤمنين، ووصفهم أولًا بالبخل، وأتبع ذلك بوصفهم بالحسد.

قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَمْ﴾: هي المنقطعة التي بمعنى: ﴿بَلِ﴾، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيحسدون الناس.

و﴿ٱلنَّاسَ﴾ وإن كان لفظه عامًا فالمراد به النبي ﷺ والمؤمنون خاصة، فهو من العام الذي أريد به الخاص، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(والحسد): تمني زوال النعمة عن الغير، أو كراهة حصول النعمة للغير، وهذا

أعم[(١)].

﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾، (ما): موصولة، أي: على الذي أعطاهم الله.

﴿مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾، أي: من زيادته تعالى وتفضله:

أولًا: على نبينا محمد ﷺ بتخصيصه بالنبوة والرسالة.

ثانيًا: تفضله على العرب بجعله منهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

ثالثًا: تفضله على أصحابه والمؤمنين بتوفيقهم لاتباعه والإيمان بما جاء به.

فحسدوا النبي ﷺ لما خصه الله به من النبوة، وحسدوا العرب لكونه منهم، وحسدوا أصحابه والمؤمنين على ما نالوا من الفضل أو الخير بسببه.

﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ الفاء: تعليلية، أي: فليس ببدع ولا غريب على فضل الله تعالى، وليس هو أول فضل تفضل به على عباده ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، أي: فقد أعطينا آل إبراهيم، أي: أبناءه وعقبه ونسله، أي: آتيناه وإياهم.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، (ال): للجنس، أي: الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم عليه السلام، وعلى الأنبياء من بعده؛ لأنهم كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فأنبياء بني إسرائيل كلهم من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ونبينا محمد ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. ومن هذه الكتب: صحف إبراهيم وموسى والزبور والتوراة والإنجيل، وغير ذلك.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: السنن وما أوحي إليهم مما ليس في الكتب، ومعرفة أسرار كلام الله وحكمه، وقيل: النبوة.

---

(١) سبق الكلام عن الحسد وأنواعه وما يترتب عليه من المفاسد الدينية والدنيوية في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [النساء: ٣٢].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾، أي: وآتينا آل إبراهيم ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ منها: ملك داود وسليمان ويوسف وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وقال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٥- ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٢- ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٣٨- ٤٠].

وقال تعالى عن يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وهذا الفضل من الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وآله، هو فضل على محمد ﷺ؛ لأنه من آل إبراهيم، وهو فضل أيضًا على أسلاف هؤلاء الذين يحسدون الناس، بل هو فضل عليهم لو آمنوا وعرفوا قدر فضل الله تعالى، كما أن الفضل على محمد وأمته فضل على آل إبراهيم السابق منهم واللاحق، فكيف يحسدهم هؤلاء؟!

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ الفاء: عاطفة، و«من» للتبعيض، والضمير (هم) يعود إلى آل إبراهيم، أي: بعض من آل إبراهيم.

﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول، أي: الذي آمن وصدَّق به، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى ما آتاهم الله من الكتاب والحكمة والملك العظيم.

أي: وبعض من آل إبراهيم الذي آمن وصدق بما أتاهم الله، فآمن بالكتاب وقَبِله واتبعه، وبالحكمة، وشكر الله على نعمة الملك، فنال السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، أي: وبعضهم الذي صد عنه، أي: أعرض عما أتاهم الله من الكتاب والحكمة وكفر به ولم يؤمن، ولم يشكر الله على نعمة الملك العظيم، فصد بنفسه عن ذلك وسعى في صد الناس عنه، فنال الشقاء في الدنيا والآخرة.

ويجوز أن يعود الضمير في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ إلى أهل الكتاب الموجودين وقت بعثته ﷺ، والضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى النبي ﷺ، أي: فمنهم من آمن بالنبي ﷺ وبما جاء به من القرآن والوحي مصدقًا لما معهم، وهم قليل، ومنهم من صد عن النبي ﷺ وأعرض عنه وعما جاء به وكذبه، وهم الأكثرون.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ الواو: استئنافيه، و(كفى) بمعنى: «حسب».

و(جهنم): اسم من أسماء النار؛ سميت به، لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿سَعِيرًا﴾: تمييز، وهو (فعيل) بمعنى: (مفعول)، أي: مسعور.

وهذا تهديد ووعيد لمن كفر بالله تعالى وأعرض عن اتباع رسله وتصديق ما أنزل عليهم من الوحي، أي: ما أعظم سعير جهنم وتوقدها بهؤلاء، أو: وحسبهم جهنم تسعر بهم وتوقد عليهم.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على الذين يزكون أنفسهم، والتعجب من فعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾.

٢- تزكية أهل الكتاب لأنفسهم وقد شهد عليهم القرآن بذلك صراحة فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

٣- أن تزكية المرء لنفسه خلق ذميم من صفات اليهود، ويجب الحذر منه، وهو محرم شرعًا، ومبغض عرفًا، فما من أحد أثقل ظلًا ممن إذا جلس بين الناس قال: أنا

فعلت، وأنا عملت، وأنا قلت، وأنا أنا. وهو من أسباب حبوط العمل، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

٤- أن تزكية الغير بالحق والعدل والصواب، وبما يعلمه الإنسان عنهم لا بأس بها؛ لأن الإنكار إنما هو على من يزكي نفسه، فعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يثني على رجل، فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك. ثم قال: إن كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل: أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدًا»[(١)].

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب»[(٢)].

وعن معاوية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه وإياكم والتمادح، فإنه الذبح**»[(٣)].

٥- أن الأمر المطلق في التزكية إنما هو إلى الله- عز وجل- وحده؛ لقوله تعالى ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، وفي الحديث: «**اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**»[(٤)].

٦- أن تزكية النفس ليست مجرد دعوى يدعيها المرء لنفسه، إنما تكون بتقوى الله تعالى، ولزوم طاعته، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي: طهر نفسه بتقوى الله تعالى وطاعته، وبهذا يكون المرء حريًا بتزكية الله- عز وجل- الذي يزكي من يشاء.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: من يريد كونا تزكيته.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦١)، ومسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٠)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٣٠٠٢)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٤)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٣)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٤٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٩٣)، وأخرج ابن ماجة في الأدب منه قوله: «إياكم والتمادح فإنه الذبح» (٣٧٤٣).

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٨)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

٨- نفي الظلم عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، فلا يظلم الذين زكوا أنفسهم، بل يجازون بالعدل بقدر عملهم، ولا يظلم الذين زكاهم الله تعالى ممن شاء تزكيتهم بل يعطون كامل حقهم، ولا يظلم أحد من الخلق قدر فتيل ولا أقل من ذلك.

٩- إثبات كمال عدل الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

١٠- الأمر بالنظر نظر تعجب وإنكار، كيف يجترأ هؤلاء الذين يزكون أنفسهم على افتراء الكذب على الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

١١- أن تزكية الإنسان لنفسه بمجرد الدعوى من افتراء الكذب على الله تعالى.

١٢- عظم أمر الكذب على الله تعالى؛ لأن الله أمر بالتعجب من حال مرتكبيه إنكارًا له وتعظيما لأمره.

١٣- أن افتراء الكذب على الله تعالى به أعظم الإثم وأبينه؛ لقوله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ وفي هذا أعظم التهديد والوعيد لمرتكبه.

١٤- الإنكار والتعجب من حال اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ومع ذلك يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويفضلون أهل الكفر على أهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية.

١٥- مخالفة اليهود أمر الله تعالى عن علم منهم بما يجب عليهم الإيمان به، أو الكفر؛ لأن كتاب الله بين أيديهم.

١٦- أن أصل السحر والعمل به متلقى من اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾ وهو السحر، وقد سحروا النبي ﷺ، ولكن الله شفاه وحفظه منهم.

١٧- أن الطغيان وتجاوز الحد وترك الحق بعد معرفته من أخص صفات اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾.

١٨- أن من عمل بالسحر وآمن به وطغى ففيه صفة من اليهود.

١٩- ظلم اليهود وشدة حقدهم على المؤمنين وحسدهم لهم بتفضيلهم الذين كفروا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.

٢٠- أن الحقد والحسد قد يحمل على الظلم والجور في الحكم، كما حمل ذلك اليهود على تفضيل الكفار على المؤمنين، فيجب الحذر من ذلك.

٢١- أن المؤمنين أهدى سبيلا من الكفار؛ لأن الله أنكر على هؤلاء تفضيلهم الكفار، فلا يجوز بحال من الأحوال تفضيل الكافر على المؤمن، فالمؤمن طيب طاهر، والكافر خبيث نجس، ولا يبرر وجود بعض الصفات السلبية عند المؤمن أن يفضل عليه الكافر، مهما كان عليه من حسن الصفات ما دام على الكفر.

وإن مما يؤسف له أن نجد من غير المسلمين منهم أخلص وأدق في العمل والمواعيد من بعض المسلمين.

٢٢- أن للدعاية أثرها في قلب الحقائق، ولبس الحق بالباطل، وإلا فكيف يقال في أهل الكفر: إنهم ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾، مما يوجب الحذر من الدعاية المضللة وخاصة في هذا العصر الذي تفنن فيه أهل الشر والباطل والضلال بنشر الدعايات المضللة في وسائل الإعلام المختلفة.

٢٣- لعنة الله تعالى لهؤلاء اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته وجنته.

٢٤- أن من لعنه الله وطرده من رحمته فلا نصير له يدفع عنه عقاب الله تعالى وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

٢٥- التحذير مما يوجب لعنة الله تعالى.

٢٦- تأكيد الإنكار على أهل الكتاب في تفضيلهم الكفار على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾، أي: ليس لهم نصيب من الملك، فيفضلون من شاؤوا.

٢٧- أن الملك لله وحده، لا شريك له في ذلك؛ لمفهوم قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾، أي: ليس لهم نصيب من الملك، بل الملك لله وحده.

٢٨- شدة بخل اليهود وطمعهم وحرصهم على المال؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾.

٢٩- حسد اليهود للرسول ﷺ والمؤمنين على ما أتاهم الله من فضله، من بعثته ﷺ

وإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٣٠- تحريم الحسد؛ لأن الله أنكره، وهو من أخص صفات اليهود، ومن كبائر الذنوب؛ لما فيه من الاعتراض على قضاء الله وقدره في قسمة الفضل والأرزاق بين عباده، ولما فيه من العدوان على المحسود بلا جرم، ولما فيه ضرر على الحاسد نفسه لما يحدثه الحسد في نفسه من الهم والقلق والتحسر، لما يرى عند الغير من الخير والفضل الذي لا يستطيع منعه أو نزعه فيموت حسرة.

كما قيل: «لله در الحسد ما أعدله عاد على صاحب فقتله».

وكما قال الشاعر:

دع الحسود وما يلقاه من كمده ... يكفيك منه لهيب النار في كبده

وقد نهى النبي ﷺ عن الحسد فقال: «**ولا تحاسدوا**»[1]، وحذر منه وعظم خطره، فقال ﷺ: «**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**، أو قال: **العشب**»[2].

٣١- عظم فضل الله تعالى وما امتن به على آل إبراهيم، من جعل النبوة فيهم وإيتائهم الكتاب والحكمة والملك العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

وفي هذا إفحام لليهود من وجهين: **الأول**: بيان أن فضل الله تعالى سابق، ولن يزل على من هم أهل لذلك، فكيف يحسدون محمدًا ﷺ وأمته على ما أتاهم الله من الفضل.

الوجه الثاني: أن ما أتاه الله آل إبراهيم من النبوة والفضل هو من الفضل على هؤلاء الحسدة لو آمنوا وعرفوا قدر نعمة الله تعالى وفضله عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٥)، ومسلم في البر والصلة والأداب (٢٥٥٩)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٢- أن النبوة والكتاب بعد إبراهيم عليه السلام كلها في ذريته، فمن ذرية يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم جاء كل أنبياء بني إسرائيل، ومن ذرية إسماعيل بن إبراهيم جاء نبينا محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

٣٣- فضل إبراهيم عليه السلام وذريته من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأفضلهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، عليهم الصلاة والسلام، وهم أولو العزم من الرسل- مع نوح عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

٣٤- أن النبوة والملك لا يتنافيان، فقد جمع الله- عز وجل- لبعض آل إبراهيم بين النبوة والملك منهم داود وسليمان عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

وفي هذا رد على من يزعم من بني إسرائيل أن داود وسليمان عليهما السلام كانا ملكين فقط.

٣٥- عظم ما أوتي بعض آل إبراهيم- وبخاصة سليمان عليه السلام من الملك الذي لم يؤت أحد مثله؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

٣٦- أن من آل إبراهيم من آمن بما آتاهم الله من الكتاب والحكمة، والملك العظيم، ومنهم من صد عنه بنفسه وصد غيره عنه، كما أن من بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ من آمن بالنبي ﷺ وبما أنزل عليه مصدقا لما معهم، ومنهم من صد وأعرض عنه وكفر به وسعى في صد الناس عنه، وهو أكثر بني إسرائيل.

٣٧- تعظيم سعير النار وشدة إحراقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

٣٨- شدة ظلمة النار وبعد قعرها وشدة حرها، لهذا سميت بـ«جهنم».

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

توعد الله- عز وجل- أهل الكتاب بجهنم وسعيرها، ثم توعد عز وجل كل من كفر بآياته بإصلائهم النار، فهو عموم بعد خصوص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: إن الذين كذبوا بآياتنا الشرعية والكونية وجحدوها وأنكروها.

﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾ سوف: حرف تسويف، تدل على تأكيد وتحقيق وقوع الشيء بعد زمن. والتسويف: التأخير، وفيها إشارة إلى أنه يفسح لهم لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الله.

﴿نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾، أي: نجعل النار تصلاهم وتشويهم وتحرقهم، ونكرت «نارا»: للتفخيم والتعظيم والتهويل، أي: نارًا عظيمة.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ كلما: ظرف للزمان متضمن معنى الشرط، يدل على التكرار ﴿نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾، أي: انشوت واحترقت جلودهم وزالت من شدة صليها بالنار.

﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، أي: بدلناهم جلودا غير الأولى التي نضجت.

﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يذوقوا العذاب.

والذوق: الإحساس بالشيء، أي: ليجدوا ألم العذاب ويحسوا به على الدوام ويبلغ منهم كل مبلغ؛ لأن الجلد الذي احترق زال عنه ألم العذاب، وقد يكون بقاؤه حائلا دون وصول الألم لما تحته من الجسم، أو مخففًا لذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ ﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن، أي: كان الله- عز وجل- وما

زال عزيزًا حكيمًا.

﴿عَزِيزًا﴾ ذا العزة التامة بأنواعها الثلاثة، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لـ﴿كَانَ﴾، أي: ذا الحكم التام؛ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

وذا الحكمة البالغة، بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ومن عزته تعالى القدرة على هذا التبديل، وهو من حكمته؛ لدوام الإحساس بالعذاب.

وباجتماع صفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه- عز وجل- زيادة كمال إلى كمال.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾.

توعد عز وجل في الآيتين السابقتين الكفار من أهل الكتاب والكفار عمومًا بجهنم وسعيرها والنار وصلاها، ثم أتبع ذلك بوعد المؤمنين بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار وخلودهم فيها، وما لهم فيها من النعيم؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب، كما هي طريقة القرآن الكريم؛ ليسير المؤمن إلى ربه في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، وفي هذا تكميل لحسرة ومساءة الكافرين، وغبطة ومسرة المؤمنين.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم بكل ما يجب الإيمان به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أوجب الله الإيمان به.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، من الصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الواجبات والمستحبات.

وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي: الأعمال، وأبقى الصفة؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

والعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توافر فيه شرطان هما: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الشرع، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]. فمعنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: أخلص العمل لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: متبع شرع الله تعالى.

﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ السين للتنفيس، وفيها دلالة وبشارة على قرب هذا الوعد؛ تنشيطًا لهم.

وتكلم عز وجل بضمير العظمة في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار المختلفة، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾، أي: مقيمين في هذه الجنات على الدوام، لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿لَّهُمْ فِيهَآ﴾، أي: للمؤمنين الذين عملوا الصالحات في هذه الجنات.

﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، أزواج: جمع زوج. والزوج يطلق في القرآن الكريم، وفي اللغة الفصحى على الذكر والأنثى، فيقال: زوج فلان، ويقال: زوج فلانة، أي: لكل واحد منهم زوجات عدة، وجنات متعددة، كما قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٣]، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما**»(١).

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾، أي: مطهرة طهارة حسية ومعنوية؛ طهارة حسية من البول والغائط والحيض والنفاس والمخاط والأذى.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان- إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (١٨٠)، والترمذي في صفة الجنة (٦٤٨)، وابن ماجه في المقدمة- باب ما أنكرت الجهمية (١٨٦).

وطهارة معنوية من الأخلاق السيئة من الغضب، والكراهية، والحقد والحسد والعصيان، وغير ذلك مما يكون في نساء الدنيا.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ الظل: هو ما لا تنسخه الشمس، ولا حر فيه، ولا برد.

و«الظليل» المؤدي معناه تمامًا، أي: المظل تمامًا لمن دخل فيه، والدائم، كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها»[2].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد لجميع من كفروا بآيات ربهم بإصلائهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.

٢- وجوب الإيمان بآيات الله تعالى الكونية والشرعية؛ لأن الله توعد من كفر بها بالنار.

٣- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه، بالتكلم بضمير الجمع الدال على التعظيم؛ لأنه هو العظيم سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ﴾.

٤- إثبات المعاد والحساب والجزاء على الأعمال والعقاب للكافرين بآيات الله في النار.

٥- شدة هول النار وعظمتها؛ لقوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ بالتنكير.

٦- أن جلود أهل النار كلما نضجت بدلوا جلودًا غيرها؛ ليحسوا على الدوام بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

٧- أن أهل النار لا يكونون جهنميين بمعنى أن يزول عنهم الألم والإحساس بحرها،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٨١)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٥)، وأحمد (٢/ ٤٥٥، ٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٣).

بل إنهم يحسون بعذابها وألمها على الدوام.

٨- إثبات الحكمة لله- عز وجل- في أفعاله وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، وفي هذا رد على من ينكرون الحكمة في أفعال الله- عز وجل- وأحكامه الكونية والشرعية والجزائية، ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة.

٩- إثبات صفة العزة التامة لله- عز وجل- بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾.

١٠- أن لله- عز وجل- الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الكوني والشرعي والجزائي، وله الحكمة البالغة، بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

١١- وعد الله تعالى المؤكد والمحقق والقريب للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم الجنات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ الآية.

١٢- أن الإيمان لا ينفع بدون العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كما أن العمل لا ينفع بدون الإيمان.

١٣- أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى تبعًا لشرعه.

١٤- أن المهم في العمل كونه صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بحذف الموصوف وهو الأعمال وإثبات الصفة.

١٥- عظم ما أعد الله للمؤمنين من الجنات والنعيم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بالتنكير تعظيمًا لها.

١٦- أن من أعظم نعيم الجنة ما فيها من الأنهار الجارية تحتها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ولهذا كثيرًا ما يقرن ذكرها بذكر الأنهار.

١٧- خلود أهل الجنة فيها أبد الآباد بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

١٨- أن مما يتنعم به أهل الجنة: الأزواج المطهرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

١٩- طهارة نساء أهل الجنة، حسيًا ومعنويًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

٢٠- دخول أهل الجنة فيها في ظل ظليل، ليس فيه حر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

٢١- البون الشاسع والفرق الواسع بين ما في الدنيا من النعم، وبين نعيم الجنة، فنعيم الجنة لا ينقطع، وأزواجها مطهرة، وظلها ظليل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾.

قال القرطبي(١): «هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع».

سبب النزول:

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ قال: نزلت في ابن أبي طلحة قبض النبي ﷺ مفتاح الكعبة منه، فدخل الكعبة يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان فرد إليه المفتاح، وقال: «**خذوها يا بني طلحة بأمانة الله لا ينزعها منكم إلا ظالم**»(٢).

وعن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قال: «**دفع النبي ﷺ المفتاح إليَّ وإلى عثمان، وقال: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم**»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): «فإن النبي ﷺ لما فتح مكة، وتسلم مفاتيح الكعبة من بني شيبة طلبها منه العباس، ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت، فأنزل الله هذه الآية، فدفع مفاتيح الكعبة إلى بني شيبة».

قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾، «إن» حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة «الله»:

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٥٥).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٠٥)، وقد ذكره أيضًا برواية أطول مما ذكر (ص١٠٤-١٠٥)، وأخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فيما ذكره السيوطي في «لباب النقول» (ص٧١) وهي طريق ضعيفة.

وقال العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٤٤٩): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن عباس- رضي الله عنهما- رفعه بسند فيه عبد الله بن المؤمل وثقه ابن معين».

(٣) أخرجه الواحدي في الموضع السابق.

وقد أخرج السبب مختصرا الطبري عن ابن جريج وعن الزهري في «جامع البيان» (٨/ ٤٩١-٤٩٢) الآثار (٩٨٤٦، ٩٨٤٧)، وقال ابن كثير: «ذكروا أن سبب نزول الآية في شأن عثمان بن أبي طلحة وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك أولًا»، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٩)، وانظر: «السيرة النبوية» (٤/ ٥٥).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٦).

اسمها منصوب وعلامة نصبه الفتحة.

وقد ذكر عز وجل اسمه ظاهرًا، فقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾، ولم يقل «إني آمركم»، تعظيمًا لنفسه عز وجل، وتذكيرًا للخلق بعظمته ووجوب طاعته وتعظيمه؛ لأن له الإلوهية، فالخلق خلقه، والأمر أمره، والشرع شرعه.

﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾ الأمر: هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

ومعنى على وجه الاستعلاء، أي: ممن هو عال حقيقة، له أن يأمر من دونه وكل أوامر الله عز وجل على هذا النحو؛ لأنه عز وجل عال على خلقه، وهو خالقهم ومالكهم ومدبرهم، وأوامره لهم عز وجل محمولة على الوجوب، وقد يخرج الأمر عن الوجوب بقرينة إلى الندب أو الإباحة.

وأمر الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: أمر شرعي: كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وغير ذلك.

وأمر كوني، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦][1].

والخطاب في قوله: ﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾ عام لجميع المسلمين؛ ولاة الأمر من الحكام والأمراء وغيرهم من أصحاب الولايات الكبيرة والصغيرة وعامة المسلمين.

﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾، «أن» مصدرية، والفعل «تؤدوا»: منصوب بها، وعلامة نصبه حذف النون. و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، والتقدير: إن الله يأمركم بأداء الأمانات إلى أهلها.

﴿ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ جمع أمانة، وهي كل ما ائتمن عليه الإنسان من الأعمال والأقوال والأموال والأحوال، مأخوذة من الأمن، وهو طمأنينة النفس وعدم الخوف، قال تعالى عن يعقوب- عليه السلام- أنه قال: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٦٥٧).

قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وسواء كانت الأمانات مما بين الله وبين خلقه، وهي الأمانة العظمى، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أو مما بين الخلق مع بعضهم البعض ويدخل في ذلك دخولًا أوليا أمانات الولايات كما جاء في سبب نزول الآية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «أما أداء الأمانات ففيه نوعان: أحدهما: الولايات، وهو كان سبب نزول الآية... والقسم الثاني من الأمانات: أمانات الأموال.. من الأعيان والديون الخاصة والعامة، مثل رد الودائع، ومال الشريك، والموكل والمضارب، ومال اليتيم، ووفاء الديون وبدل القرض وصدقات النساء، وأجور المنافع ونحو ذلك..».

وقال ابن كثير في كلامه على الآية(٢): «وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان؛ من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير إطلاع بينة على ذلك».

ويدخل في ذلك أيضًا أمانة تعليم العلم الذي علمه الله الإنسان، بل إن هذا من أعظم الأمانات قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وغير ذلك.

ومن ذلك أداء الشهادة؛ لأن أداء الشهادة من الأمانة، ومن ذلك حفظ السر وغير ذلك.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٦-٢٦٥).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٢٩٨).

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، أي: إلى من أمرتم بأدائها إليهم لا إلى غيرهم، فالعبادة تؤدى خالصة لوجه الله تعالى، وهي الأمانة العظمى، فمن أشرك مع الله غيره أو كفر بالله فقد خان الأمانة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومن أعظم الأمانات الولاية على مصالح المسلمين قال ﷺ لأبي ذر في الولاية: «**إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها**»(١).

ومن كان مؤتمنًا على عمل من أعمال الأمة ومصالحها وجب أن يؤدي إليها ما أؤتمن عليه بالقيام به على الوجه المطلوب؛ كالحكام والقضاة والأمراء والمدرسين والموظفين وغيرهم.

ومن أهم ذلك أن تُسند الأعمال في الأمة إلى أهلها، أي: إلى من يصلح لذلك؛ لأن من أعظم الخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أن يسند الأمر إلى غير أهله، وذلك من علامات الساعة.

قال ﷺ: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**»،وقيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(٢).

وإن ائتمنك زيد أو عمرو على عمل وجب أن تؤديه إليه بأن تقوم به على الوجه المطلوب.

وإن ائتمنك على قول كسر أفضى به إليك وجب أن تحفظه، قال ﷺ: «**إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي للمرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**»(٣).

وكذا إذا ائتمنك على قول تحملته كشهادة، أو سلام أو نحو ذلك، وجب تأديته كما تحملته.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٥٩)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، من حديث أبي هريرة، وانظر: «السياسة الشرعية» (ص١٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٧-٢٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٣٧)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٠)، وأحمد (٣/ ٦٩)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وإن ائتمنك على مال من نقود أو غير ذلك وجب أداؤه إليه من الديون وغيرها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، الواو عاطفة، فالجملة معطوفة على ما سبق، و«إذا»: ظرفية شرطية متعلقة بـ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾.

أي: ويأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، وإنما ذكر الله الحكم بين الناس بالعدل بعد الأمر بتأدية الأمانات إلى أهلها مع أنه داخل فيها؛ لأن الحكم بين الناس بالعدل من أعظم الأمانات؛ لأن به إيصال الحقوق إلى أهلها؛ ولأنه يحتاج إليه عند وجود الخيانة في الأمانات(١)، ولأن إصلاح الإنسان لنفسه وحملها على أداء الأمانة مقدم على إصلاحه لغيره(٢).

والخطاب لولاة الأمر والحكام، ومن كان أهلًا للحكم بين الناس.

ومعنى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: وإذا أردتم الحكم، وهو الفصل والقضاء في الخصومات في الحقوق، وفي الحدود(٣).

﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: في خصوماتهم ومشاجراتهم، والناس عام في كل الناس القريب والبعيد، والمسلم والكافر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ «أن» والفعل «تحكموا» في تأويل مصدر، في محل جر، التقدير: إن الله يأمركم بالحكم بالعدل.

والعدل: في الأصل هو الاستقامة، ومنه العصا المستقيمة التي ليس فيها ميل.

والحكم بالعدل: هو الحكم بشريعة الله تعالى أي: بما في الكتاب والسنة وما

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ١٧٥) وهذا يذكرنا بما رُويَ أن عمر تولى القضاء أيام خلافة أبي بكر- رضي الله عنهما- فمكث سنة لم يدخل عليه خصمان. انظر: «تاريخ الطبري» (٣/ ٤٢٦).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١١٣).

(٣) انظر: «السياسة الشرعية» (ص٧٢).

يوافقهما من الاجتهاد والقياس؛ لأنه لا حكم أعدل من حكم الله تعالى، ولا أحد أحسن من الله حكمًا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

وضد العدل: الظلم والجور(١).

فالمعنى: ويأمركم إذا أردتم الفصل بين الناس في خصوماتهم بالحكم بينهم بشريعة الله.

قال الطبري(٢): «أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، وذلك حكم الله الذي أنزله في كتابه، وبينه على لسان رسوله».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، هم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ قرأه ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين «نَعِما» وقرأ الباقون: بكسرهما جميعًا ﴿نِعِمَّا﴾(٤)، وأصلها: «نعم ما»، مكوّنة من «نعم» التي للمدح، و«ما» الموصولة، التي بمعنى «الذي»(٥) فأدغمت الميم بالميم.

قال ابن عطية(٦): «سكنت الأولى، وأدغمت في الثانية، وحركت العين لالتقاء الساكنين».

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: نعم الذي يعظكم به تأدية الأمانات والحكم بالعدل.

---

(١) انظر: «اللسان» مادة «عدل».

(٢) في «جامع البيان» (٨/ ٤٩٤).

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٧)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٧٩)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٤٤).

(٤) انظر: «العنوان» (ص٧٥)، «النشر» (٢/ ٢٣٥).

(٥) وقيل «ما» نكرة موصوفة بـ «يعظكم» التقدير: نعم شيئا يعظكم به. انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٣٢٦).

(٦) في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٥٧-١٥٨).

ومعنى القراءتين واحد، أي: نعم الذي يعظكم به، أو نعم الموعظة يعظكم بها من الأمر بتأدية الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل.

والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بترغيب أو ترهيب.

وهذا امتداح منه عز وجل لأوامره ونواهيه وشرعه؛ لاشتمال ذلك على مصالح الدارين ودفع مضارهما، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ هذه الجملة استئنافية؛ لهذا كسرت همزة «إن»، وفيها معنى التهديد والتحذير من المخالفة لأمر الله تعالى.

﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن، أي: إنه لم يزل سمعيًا بصيرًا في جميع الأوقات والأحوال(١).

﴿سَمِيعًۢا﴾، أي: ذا السمع الواسع يسمع الدعاء ويجيبه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله- عزوجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾»(٢).

قال ابن القيم في «النونية»(٣):

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

﴿بَصِيرًا﴾، أي: ذا البصر الواسع المحيط بكل شيء، يبصر جميع المخلوقات وكل شيء.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٢) أخرجه البخاري معلقا في التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ من حديث عائشة رضي الله عنها. انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢).
وأخرجه موصولا من حديث عائشة- رضي الله عنها- النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)،وابن ماجه في المقدمة (١٨٨) وصححه الألباني.

(٣) (ص ١٤٦).

أي: أنه عز وجل لم يزل سميعًا لأقوالكم وغيرها، بصيرًا بكم وبأفعالكم وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

يسمع دبيب النملة السوداء ويبصرها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال ابن القيم(١):

وهو البصير يرى دبيب النملة السـ ـوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ويرى بياض عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذاك تقلب الأجفان

وخَتْم الآية بهذين الوصفين فيه تهديد ووعيد وتحذير من المخالفة لأمر الله، ووعد بالثواب لمن امتثل أمر الله.

فمن خالف ما أمر الله به فلم يؤد الأمانة إلى أهلها، وحكم بين الناس بغير العدل فليحذر عقوبة الله.

ومن امتثل أمر الله فليبشر بالعقبى الحسنة من الله؛ لأن الله يسمع أقوالكم، ويبصر أفعالكم، وسيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

الفوائد والأحكام:

١- بيان عظمة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ لأنه سبحانه ذكر نفسه بصيغة الغائب، وهذا يدل على التعظيم.

٢- وجوب أداء الأمانات إلى أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، والأمر للوجوب، وهو عام في جميع أمانات الأعمال والأقوال والأموال والأحوال مما كان بين الله وبين خلقه، ومما بين العباد مع بعضهم البعض، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالأمانة الكبرى هي عبادة الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ولهذا وصف الله بها عباده المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢].

---

(١) في «النونية» (ص١٤٦).

٣- وجوب حفظ الأمانات العينية من النقود والأمتعة وغيرها في حرز مثلها؛ لأن ذلك من لازم حفظها وأدائها إلى أهلها، فمن لم يحفظها في حرز مثلها وتلفت فهو ضامن لها(١).

٤- تحريم الخيانة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال ﷺ: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»(٢).

وقال ﷺ: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(٣).

وقال ﷺ: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**»(٤).

ونفى ﷺ الإيمان عمن لا أمانة له، فقال ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»(٥).

---

(١) انظر تفصيل الكلام على الحرز، في الكلام على قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [٣٨].

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع والإجارات (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، والدارمي في البيوع (٢٥٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود أيضًا في البيوع (٣٥٣٤)، وأحمد (٣/ ٤١٤)، من حديث يوسف بن ماهك، وهو حديث صحيح. وصححه الألباني. انظر: «الأحاديث الصحيحة» (٤٢٤).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٣٨٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٤)، والبزار في زوائد كتاب الإيمان (١/ ٦٨) حديث (١٠٠)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٤٤)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٢/ ١٨٩).

وقال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(١).

وقال ﷺ: «**المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»(٢).

وقد قيل:

فأخلفن ميعادي وخن أمانتي ... وليس لمن خان الأمانة دين(٣)

٥- أن الواجب تأدية الأمانات إلى أهلها أو من يقوم مقامهم من وكيل ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

فلو أن شخصًا عنده أمانة لشخص آخر، فدفعها لشخص ثالث؛ ليدفعها لصاحبها فتلفت؛ ضمنها المؤتمن؛ لأنه لم يؤدها إلى صاحبها.

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك**»(٤).

٦- سمو أحكام الإسلام وآدابه، حيث أمر بأداء الأمانات إلى أهلها.

٧- وجوب الحكم بين الناس بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، أي: في كل الأحوال والأعمال، ومع كل الناس؛ القوي والضعيف، والغني والفقير، قال تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

ومع الشريف والوضيع. قال ﷺ لما كلمه أسامة بن زيد في شأن المخزومية التي سرقت: «أتشفع في حد من حدود الله! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٥٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٥)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الترمذي، وصححه الألباني.

(٣) البيت لكثير عزة. انظر: «ديوانه» (ص١٧٢).

(٤) سبق تخريجه.

بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١).

فكل من له ولاية في المسلمين فالواجب عليه العدل فيمن تحت ولايته، فالحاكم عليه العدل في رعيته، قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...**»(٢).

وهذه من أعظم الولايات والأمانات، فيجب على الحاكم تولية الأصلح على مصالح المسلمين في الولايات الكبيرة والصغيرة، واختيار الأمثل فالأمثل للرعية في إقامة دينهم ودنياهم، ممن يتوفر فيهم ركنا الولاية، وهما: القوة والأمانة(٣)، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال صاحب مصر ليوسف: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

وقال تعالى في صفة جبريل- عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١].

والقوة في كل منصب بحسبه، فالقوة في الحرب: ترجع إلى شجاعة القلب، والقدرة على أنواع القتال والخبرة بها ونحو ذلك.

والقوة في الحكم ترجع: إلى معرفة الحكم والقدرة على تنفيذه.

والأمانة: ترجع إلى خشية الله- تعالى.

ومع أن اجتماع هذين الركنين وهما القوة والأمانة في الناس قليل، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة» فليس على الوالي إلا بذل جهده فيمن يختاره لمصالح الأمة، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، وأبو داود في الحدود (٤٣٧٣، ٤٣٧٤)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٩٥)، والترمذي في الحدود (١٤٣٠)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، وأحمد (٢/ ٤٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر في هذا وما بعده «السياسة الشرعية» (ص١٢-٥٠)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٦-٢٤٧، ٥٢٠-٢٥٨، ٢٦٢، ٣٦١).

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية، فمثلًا في ولاية المال يقدم الأمين؛ لأن الحاجة إلى الأمانة هنا أشد.

وفي ولاية الحرب يقدم القوي؛ لأن الحاجة إلى القوة في الحرب أشد- وهكذا.

وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عن الرجلين يكونان قائدين في الغزو: أحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغزى؟ فقال: «أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوي الفاجر»(١).

وقد قال ﷺ: «**وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»(٢).

وقال ﷺ لأبي ذر: «**يا أبا ذر إنك إنسان ضعيف، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرن على اثنين، ولا تَوليَنّ مال يتيم**»(٣).

وإذا لم تتم المصلحة ولم تقع الكفاية برجل واحد، جمع بين عدد، فإذا تعين رجل قوي ضممنا إليه رجلًا أمينًا، ليكمل أحدهما الآخر- وهكذا.

ويقدم في ولاية القضاء الأعلم الأورع الأكفأ، فإن لم تتوفر صفتا العلم والورع قدم فيما يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى الأورع، وقدم فيما دق حكمه، ويخاف فيه الاشتباه الأعلم.

وفي إمامة الصلاة يقدم من قدمه رسول الله ﷺ في قوله: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فأكبرهم سنًا، ولا يؤمن الرجل في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه**»(٤).

فإن تكافأ رجلان أو خفي حالهما أقرع بينهما، كما أقرع سعد بن أبي وقاص- رضي

---

(١) انظر: «السياسة الشرعية» (ص١٥)، «حسن السلوك الحافظ دولة الملوك» لابن الموصلي (ص٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٦٢)، ومسلم في الإيمان (١١١)، وأحمد (٢/ ٣٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٨)، وأحمد (٥/ ٧٣).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧٣)،وأبو داود في الصلاة (٥٨٢-٥٨٤)،والنسائي في الإمامة (٧٨٠)، والترمذي في الصلاة (٢٣٥). من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

الله عنه- يوم القادسية لما تشاجروا على الأذان متابعة؛ لقوله ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا**»(١).

ولا يجوز توليه غير الأصلح أو استنابته على مصالح المسلمين؛ لقرابة أو صداقة أو نحو ذلك، فإن في ذلك خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال ﷺ في حديث معقل بن يسار: «**ما من راع يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»(٢).

وفي رواية: «ما من أمير يلي من أمر المسلمين شيئًا ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة»(٣).

وقال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنه: «**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**»(٤).

ولا ينبغي تولية من طلب الولاية؛ لأن قومًا دخلوا على رسول الله ﷺ فسألوه ولاية فقال: «**إنا لا نولي أمرنا من طلبه ولا من حرص عليه**»(٥).

وقال ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «**يا عبد الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة، فإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها**»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٥)، ومسلم في الصلاة (٤٣٧)، وأبو داود في الأدب (٥٢٤٥)، والنسائي في المواقيت (٥٤٠)، والترمذي في الصلاة (٢٢٥)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)،من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥١)، ومسلم في الإيمان (٢٤٢)، وأحمد (٥/ ٢٥، ٢٧).

(٣) أخرجها البخاري في الأحكام (٧١٥٠)، ومسلم في الإيمان (١٤٢)، والدارمي في الرقاق (٢٧٩٦)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، وأبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٢٨)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٥)، وأحمد (٢/ ٥، ٥٤).

(٥) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٩)، ومسلم في الإمارة (١٧٣٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٢)، ومسلم في الإمارة (١٦٥٢)، وأبو داود في الخراج (٢٩٢٩)، والنسائي في الأيمان (٣٧٨٤)، والترمذي في النذور (١٥٢٩).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»(١).

كما أن من الأمانة أن تؤدي الرعية ما يجب عليها لولي الأمر من الطاعة بالمعروف والنصح له.

قال ﷺ: «**على المرء السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية**»(٢).

وعن تميم الداري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قيل: لمن يا رسول الله قال: «**لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها**». قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم»(٤).

وإن من أشد أنواع الخيانة أن يأخذ الوالي ما لا يحل له، أو تمنع الرعية ما يجب عليها، أو يضمر أحدهما الغش للآخر، وعدم النصح له.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إن ولي الأمر كالسوق ما نفق فيه جلب إليه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٥) بعد أن ذكر مقالة عمر هذه: «فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة جلب إليه ذلك، وإن نفق فيه الكذب والفجور والخيانة جلب إليه ذلك».

وقال أيضًا(٦): «والمقصود بالواجب بالولايات صلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانًا مبينًا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٦)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٣)، والترمذي في الفتن (٢١٩٠).

(٥) في «السياسة الشرعية» ص٤٠، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٦٨).

(٦) في «السياسة الشرعية» ص ٣٠، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٦٢).

من أمر دنياهم».

وقال أيضًا[١]: «ومتى اهتمت الولاة بإصلاح دين الناس صلح للطائفتين دينهم ودنياهم، وإلا اضطربت الأمور عليهم، وملاك ذلك صلاح النية للرعية وإخلاص الدين كله لله والتوكل عليه، فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة... وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة، ثلاثة أمور: أحدها الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن. الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة. الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب..».

والقاضي يجب عليه العدل بين الخصوم[٢]، والاجتهاد في تحري والصواب، قال ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر**»[٣].

والأمير يجب عليه العدل بين من تحت إمرته والرئيس يجب عليه العدل بين مرؤوسيه، والموظف يجب عليه العدل بين مراجعيه، والمدرس يجب عليه العدل بين طلابه فيما لهم وما عليهم.

والوالد يجب عليه العدل بين أولاده فيما لهم من حقوق عليه وفي أعطياتهم[٤]،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٦١).

(٢) قال الفقهاء: يجب على القاضي أن يعدل بين الخصمين في دخولهما عليه ومجلسهما منه، وفي الالتفات إليهما، وفي اللحظ والنظر إليهما، وفي لفظ خطابه لهما، وفي استخلاص الحجة من كل منهما وفي الحكم بينهما وغير ذلك انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١١٤)، «تفسير المنار» (٥/ ١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية (١٠٥٦، ١٧١٦)، وأبو داود في الأقضية (٣٥٧٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٤)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٤) هذا إذا كان هدية أو عطية،أما إذا كان لدفع حاجة فلا مانع أن يعطي المحتاج دون غيره من الأولاد. أما إذا لم يكن لدفع حاجة فلا يجوز، قال ﷺ لوالد النعمان بن بشير لما جاء يشهده على عطية أعطاها للنعمان: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا قال: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» وفي رواية فقال: «أكل بنيك قد نحلت مثل ما نحلت النعمان ؟» قال: لا، قال: «فأشهد على هذا غيري» ثم قال: «أيسرك أن يكونوا إليك في البر سوءا؟» قال: بلي، قال «فلا إذا» أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٨٦، ٢٥٨٧)، ومسلم في الهبات (١٦٢٣)، وأبو داود في البيوع (٣٥٤٢)، والنسائي في النحل (٣٦٧٢-٣٦٨٧)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٧٥)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

ومن العدل بين الأولاد أن يعطى الذكر مثل حظ الأنثيين على الصحيح من أقوال أهل العلم، كما في =

والزوج يجب عليه العدل بين زوجاته بقدر استطاعته.

والتاجر والصانع والمستأجر وكل من له تعامل مع الناس، ينبغي أن يعدل في معاملته لهم، فيأخذ حقه كاملًا، ويعطيهم حقوقهم كاملة، ولا يكون مطففا، فيبخس الناس حقوقهم، ويأخذ حقه كاملًا، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «فعلى كل من ولي أمر الأمة، أو حكم بين اثنين أن يحكم بالعدل والقسط، وأن يحكم بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ وهذا هو الشرع المنزل من عند الله، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وهكذا ينبغي من كل إنسان العدل والإنصاف من نفسه في تعامله مع الناس فيما يقول ويفعل؛ القريب مع أقاربه، والجار مع جيرانه، والأخ مع إخوانه، كما قال ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**»[٢].

وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٤].

وإن من الظلم وعدم العدل أن يرى الإنسان عيوب الآخرين وينسى عيوبه، يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه، كما قيل:

=

قسمة الله- عز وجل- الميراث بينهم.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٤٨)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣)، ومسلم في الإيمان (٤٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٦)، وابن ماجه في المقدمة (٦٦)، والدارمي في الرقاق (٢٧٤٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ... ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى
ولو كان ذا فضل لما عاب غيره ... وفيه عيوب لو رآها به اكتفى[1]

٨- أنه يجب على من يتصدر للحكم بين الناس أن يكون عالمًا بالشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ والعدل هو ما شرعه الله في الكتاب والسنة.

لأن من لم يكن على معرفة بالكتاب والسنة لا يستطيع الحكم بالشرع؛ وفاقد الشيء لا يعطيه.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم﴾ إشارة إلى أنه ليس لكل أحد أن يحكم، وإنما ذلك لمن كان أهلًا للحكم.

٩- أن الدين الإسلامي دين العدل، أوجب إعطاء كل ذي حق حقه، ونزل كلا منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾.

وفي هذا رد على القائلين بأن الإسلام ظلم المرأة، حيث جعل نصيب الرجل ضعف نصيب الأنثى، وجعل شهادة امرأتين بشهادة رجل، ونحو ذلك؛ لأن ما شرعه الله تعالى هو عين العدل، فيه تنزيل كل من الجنسين منزلته، وإعطاء كل منهما حقه اللائق به.

١٠- كمال شرع الله تعالى؛ لأن الله تعالى أثنى عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾.

وذلك لما اشتمل عليه من الموعظة ومصالح الدارين وسعادتهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

١١- إثبات صفة السمع لله تعالى الذي وسع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا﴾.

١٢- إثبات صفة البصر الواسع لله عز وجل، الذي يبصر كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾.

---

(١) البيتان بلا نسبة. انظر: «نفح الأزهار في منتخبات الأشعار» (ص٦٠).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ فرأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه، ويقرأها»(١).

١٣- التهديد لمن خالف أمر الله، فخان الأمانة أو حكم بغير العدل، والتبشير لمن أمتثل أمر الله، فأدى الأمانة إلى أهلها وحكم بين الناس بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، أي: يسمع أقوالكم ويرى أفعالكم، وسيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٤٧٢٨)، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

في الآية السابقة أمر الله الولاة بأداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، ثم أمر الله الرعية في هذه الآية بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر وذلك من أعظم الأمانات.

روي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه قال: «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وإن كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانة إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة».

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ قال: «نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية»(٣).

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل عليهم رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطبا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارًا، فأوقدوها فقال: ادخلوها. فَهَمُّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضًا، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار. فمازالوا حتى خمدت النار فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ، فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، إنما الطاعة في المعروف**»(٤).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: اسم منادى مبني على الضم

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١١٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٨٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩٤)، وأحمد (١/ ٣٣٧)، والطبري في «جامع البيان» (٩٨٥٧، ٩٨٥٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١٠٦).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٤٠)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٢٥)، والنسائي في البيعة (٤٢٠٥)،وأحمد (١/ ٨٢، ٩٤، ١٢٤).

في محل نصب نكرة مقصودة، و«ها»: للتنبيه. و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة لـ «أي» أو بدل، و«آمنوا» صلة الموصول.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: «يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك، فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»(١).

والإيمان: لغة التصديق عند جمهور أهل العلم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أي: بمصدق، وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]؛ أي: يصدق.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هو الإقرار(٢).

وهو في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح.

أي: يا أيها الذين آمنوا نطقا بألسنتهم بالشهادتين، واعتقادًا وتصديقًا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما أخبر الله تعالى به في الكتاب والسنة من الغيوب السابقة واللاحقة، وانقيادًا وعملًا بجوارحهم.

قال ابن القيم(٣): «أمر الله سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به، وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله أحسن كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم أحكم بالحق. ونظائره.

ولهذا كثيرًا ما يقع الخطاب في القرآن الكريم بالشرائع، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٠٢٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤).

(٢) سبق ذكر النقل عن ابن تيمية في هذا وذكر أدلته عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ الآية (١٩) من هذه السورة.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٧-٢٨).

ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه».

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، «أطيعوا» فعل أمر، والأصل في الأمر الوجوب، والطاعة: هي امتثال الأمر وموافقته، وترك النهي؛ مأخوذة من المطاوعة، وهي الانقياد، أي: أطيعوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ الواو عاطفة، والجملة معطوفة على الجملة السابقة، وأعاد الفعل «أطيعوا»؛ للدلالة على أن الرسول ﷺ يطاع استقلالا، وطاعة مطلقة، وإن أمر بما ليس في القرآن الأمر به أو نهى عما ليس في القرآن النهي عنه؛ لأنه أوتي الكتاب ومثله معه، وطاعته من طاعة الله، ولا يمكن أن يأمر بغير طاعة الله(١).

﴿ٱلرَّسُولَ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الذهن وهو نبينا محمد ﷺ.

وهكذا إذا جاء «الرسول» معرفا في القرآن، فالمراد به نبينا محمد ﷺ ما لم تكن «ال» فيه للعهد الذكري كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٥- ١٦]، فالمراد بالرسول هنا موسى عليه السلام.

وطاعته ﷺ: امتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، واتباعه والاقتداء به في حياته ﷺ واتباع سنته بعد وفاته قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، «أولي» معطوفة على «الرسول»، و«أولي الأمر» أصحاب الأمر، و«الأمر» الشأن، أو الأمر ضد النهي، وهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء.

ويمكن حمله على المعنيين، أي: الذين لهم الشأن والولاية عليكم، ولهم أمركم ونهيكم من العلماء والأمراء. فالعلماء لهم الشأن والأمر في بيان الأحكام الشرعية للناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٢-٨٣).

مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ولهذا قال بعد هذا ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ومعناه: الرد إلى الكتاب والسنة، وهذا إنما يكون بمقدور العلماء، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

كما أن لهم أمر الناس بالخير ودعوتهم إليه ونهيهم عن الشر، قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

والأمراء لهم الشأن والأمر في حمل الناس على شريعة الله، وإلزامهم بها وإقامة حدود الله على من خالف.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني**»(١).

قال الجصاص(٢): «وأولي الأمر يجوز أن يراد به العلماء والأمراء؛ لأن الأمراء يلون الجيوش والرايات، وقتال العدو، والعلماء يلون حفظ الشريعة وما يجوز مما لا يجوز، فأمر الناس بطاعتهم والقبول منهم، ما عدل الحكام والأمراء، وكان العلماء عدولا مرضيين موثوقا بدينهم وأمانتهم...».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «وأولوا الأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس، فعلى كل منهما أن يتحرى بما يقوله ويفعله طاعة الله ورسوله وإتباع كتاب الله».

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٣٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٥)، والنسائي في البيعة (٤١٩٣).
(٢) في «أحكام القرآن» (٢/ ٢١٠).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٨٨).

وقال ابن القيم[١] بعدما ذكر عن الإمام أحمد روايتين في المراد بأولي الأمر: إحداهما أنهم العلماء، والثانية أنهم الأمراء. قال: «والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية. والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعًا. فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء ولاته حفظا وبيانا وذبا عنه وردا على من ألحد فيه وزاغ عنه، وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، فيا لها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم، وكون الناس تبعًا لهم.

والأمراء ولاته قياما وعناية وجهادا وإلزاما للناس به وأخذهم على يد من خرج عنه، فهذان الصنفان هم الناس، وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية».

وإنما حذف الفعل ﴿أَطِيعُواْ﴾ مع أولي الأمر، فقال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ بينما أعاده مع الرسول ﷺ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لأن طاعة أولي الأمر إنما هي تبع لطاعة الله ورسوله، فلو أمروا أو نهوا بما يخالف طاعة الله ورسوله فلا طاعة لهم.

قال ابن القيم[٢]: «ولم يعد الفعل في طاعة أولي الأمر، بل جعلها ضمنا وتبعا لطاعة الرسول، فإنما يطاعون تبعًا لطاعة الرسول، إذا أمروا بما أمر به، ونهوا عما نهى عنه ولا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به وينهون عنه».

وقال الحافظ ابن كثير[٣]: «﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**على المرء السمع والطاعة، فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[٤].

---

(١) في «الرسالة التبوكية» (ص٥٠-٥١) وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٦-٣٠).

(٢) في «الكلام على مسألة السماع» (ص٩٧-٩٨)، وانظر: «الرسالة التبوكية» (ص٥٠)، «إعلام الموقعين» (١/ ٨٢-٨٣).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٠٤).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٦)، والنسائي في البيعة (٤١٨٧)،والترمذي في السير (١٥٩٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٤).

وفي حديث علي السابق في سبب النزول: «**إنما الطاعة في المعروف**»(١).

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، الفاء عاطفة و«إن» شرطية، ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ فعل الشرط، والخطاب لعامة المؤمنين المخاطبين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، فيدخل فيه العلماء والأمراء وسائر الرعية.

﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، أي: اختلفتم في شيء، والتنازع: التجاذب، مأخوذ من النزع، وهو الجذب؛ لأن كل واحد من الخصمين ينزع ويجذب حجة الآخر؛ ليكون الحق معه.

﴿فِي شَيۡءٖ﴾، «شيء»: نكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فتعم كل شيء يتنازع فيه.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ جملة جواب الشرط، واقترنت بالفاء؛ لأنها طلبيه. والضمير في «ردوه» «الهاء» يعود على الشيء المتنازع فيه.

والرد: بمعنى الرجوع في التحاكم، أي: أرجعوه إلى الله والرسول.

والرد إلى الله هو الرجوع إلى كتابه الكريم، والرد إلى الرسول هو الرجوع إليه ﷺ في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

قال ابن القيم(٢): «ولم يقل: «وإلى الرسول» إعلامًا بأن ما رُدَّ إلى الله فقد رُدَّ إلى رسوله، وما رُدَّ إلى رسوله فقد رُدَّ إليه سبحانه، وأن ما حكم به فقد حكم به رسوله، وما حكم به رسوله فهو حكمه سبحانه».

فالمعنى: وإن اختلفتم أيها المؤمنون فيما بينكم أو فيما بينكم وبين ولاة أمركم، أو فيما بين ولاتكم في أي شيء كان فأرجعوه وتحاكموا فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣].

وقال علي رضي الله عنه: «ما عندنا إلا ما في كتاب الله، وهذه الصحيفة، أو فهم أعطيه رجل مسلم»(٣) يعني من الكتاب والسنة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «الكلام على مسألة السماع» (ص٩٧-٩٨)، وانظر: «الرسالة التبوكية» (ص٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في العلم (١١١)، ومسلم في الحج (١٣٧٠)، وأبو داود المناسك (٢٠٣٤)، والنسائي =

وفي حديث معاذ- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له: «**بم تحكم؟**» قال: بكتاب الله. قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: اجتهد رأيي ولا آلو. قال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله...**»(١).

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

هذه جملة شرطية، فـ«إن» شرطية و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه مفهوم من السياق. أي: فامتثلوا ما ذكر.

أي: إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ومصدقين بذلك حقًا فامتثلوا ما ذكر من طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر، والرد عند التنازع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

ويحتمل عوده إلى الجملة الأخيرة فقط، وهي قوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، أي: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوا المتنازع فيه إلى الله والرسول. والأول أولى.

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده، وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة، سمي بالآخر؛ لأنه لا يوم بعده، ولأنه يأتي متأخرًا بعد الدنيا.

ومراحل الإنسان أربع مراحل: مرحلة في بطن أمه، ومرحلة في الدنيا، ومرحلة في

=

في القسامة (٤٧٣٥)، والترمذي في الديات (١٤١٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٥٨)، وأحمد (١/ ١١٩، ١٢٢).

وقد قيل: معنى فردوه إلى الله والرسول: قولوا: الله ورسوله أعلم.

قال القرطبي: «لو كان كما قال- يعني صاحب هذا القول- لبطل الاجتهاد والاستنباط، نعم ما كان مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحد من خلقه فذلك الذي يقال فيه: الله أعلم» انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٦١-٢٦٢).

(١) أخرجه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٧)، وصححه ابن العربي انظر: «أحكام القرآن» (١/ ٤٥٣)، وضعفه الألباني.

البرزخ، ومرحلة يوم القيامة.

واليوم الآخر يبدأ عند الإنسان بعد موته، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١].

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مما يكون في البرزخ من سؤال منكر ونكير، ونعيم القبر وعذابه، وغير ذلك، والبعث، وما يكون بعد البعث وقيام الساعة.

وكثيرًا ما يقرن الله- عز وجل- بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحفز على العمل والاستقامة؛ لأنه اليوم الذي يقع فيه الجزاء على الأعمال، والثواب والعقاب، وهو اليوم الذي ينبغي أن يستعد الإنسان له، ويحسب له كل حساب.

رُويَ عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى» أو كلمة نحوها. أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض، وتكالبوا على الشهوات والمعاصي، ولكن الخوف من هذا اليوم يردعهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق في الآية من طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر، والرد عند التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

﴿خَيْرٌ﴾، أي: خير لكم في الحال والحاضر، خيرية مطلقة، في دينكم ودنياكم.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ تأويلا: منصوب على التمييز، أي: أحسن مالًا وعاقبة لكم في المستقبل في دينكم ودنياكم وأخراكم.

قال ابن القيم[٢]: «أي: هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي، وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إليّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة.. عاجلًا وآجلا».

والمعنى: أن طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر، والرد عند التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ خير لكم في معاشكم ومعادكم، في دينكم ودنياكم.

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الواسطية» (٣/ ١٤٥).

(٢) في «الرسالة التبوكية» (ص٥٢-٥٣)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٠-٣١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدل على ما يلي:

أ- تكريم المؤمنين وتشريفهم بندائهم بهذا الوصف.

ب- الحث والإغراء على الاتصاف بهذا الوصف.

جـ- الحث والإغراء على امتثال ما ذكر في الآية من أوامر وأحكام بعد هذا الوصف.

د- أن امتثال ما ذكر بعد هذا الوصف من مقتضيات الإيمان.

هـ- أن مخالفة ما ذكره بعد هذا الوصف يعد نقصًا في الإيمان(١).

٣- وجوب طاعة الله بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه في كتابه العزيز، وإن خالف هوى النفس؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٤- وجوب طاعة الرسول ﷺ- استقلالًا فيما أمر به أو نهى عنه في سنته المطهرة، ولو لم يكن ذلك في القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، فأعاد الفعل «أطيعوا»، فدل على أنها تجب طاعته ﷺ مفردة ومقرونة.

قال ابن القيم في كلامه على الآية(٢): «وتحته سر لطيف، وهو دلالته على أن ما يأمر به الرسول ﷺ يجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورًا به بعينه في القرآن، طاعة الرسول مفردة ومقرونة، فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه».

وفي هذا الرد على من لا يأخذ بسنة الرسول ﷺ، ويقول: لا نأخذ إلا بما في القرآن، أو بما كان له أصل في القرآن.

كما جاء في الحديث عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٧-٢٨).

(٢) «الرسالة التبوكية» (ص٤٩)، وانظر: «الكلام على مسالة السماع» (ص٩٧-٩٨).

رجل شبعان متكئ على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، ما وجدنا فيه من شيء أتبعناه، ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه».

وفي لفظ: «رب رجل جالس على أريكته، يقول: عليكم هذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»(١).

وهذا القول باطل؛ لأن القرآن الكريم هو الذي أمر بإتباع الرسول ﷺ، والأخذ بسنته مطلقًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]، وقال تعالى عن أهل النار ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٥- في الأمر بطاعة الرسول ﷺ طاعة مفردة ومستقلة عن طاعة الله دليل على أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ودليل أيضًا على عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الوقوع في الخطأ في

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة «باب لزوم السنة» (٤٦٠٤، ٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣، ٢٦٦٤)، وقال: «حسن غريب». وابن ماجه في المقدمة (١٢، ١٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠-١٣٤)، وابن حبان في «موارد الظمآن» (٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٠٨)، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على كتاب «الرسالة» (ص٩١)، وصححه الألباني.

التبليغ، وهذا إجماع.

٦- في عطف الأمر بطاعة الرسول ﷺ على الأمر بطاعة الله الدلالة على وجوب متابعة الكتاب والسنة؛ لأن ما أمر الله به في كتابه العزيز يأمر به الرسول ﷺ لا محالة، وما أمر به الرسول ﷺ في سنته هو من أمر الله لا محالة، وبهذا دلت الآية على وجوب متابعة الكتاب والسنة.

٧- أن حق الله تعالى مقدم على حق الرسول ﷺ؛ لأن الله قدم طاعته عزوجل على طاعة الرسول ﷺ، وإن كانت كلتا الطاعتين واجبتين؛ طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، بل إن طاعة الله تعالى لا تتم إلا بطاعة الرسول ﷺ؛ لأن الله أمر بطاعة الرسول ﷺ، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله- تعالى.

٨- وجوب طاعة ولاة الأمر من العلماء والحكام والأمراء وغيرهم فيما أمروا به، أو نهوا عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم، فقال: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، سواء كان ذلك مما ورد في الكتاب والسنة، أو مما لم يرد بهما، لكن مصلحة المسلمين تقتضيه، ولا يتعارض مع الكتاب والسنة.

قال ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة»(١).

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا، لا نخاف في الله لومه لائم»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب على الإنسان، وإن لم يعاهدهم عليه، وإن لم يحلف لهم الأيمان

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٩٣)، وفي الأحكام (٧١٤٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٠)، وأحمد (٢/ ٩٨، ١٣٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩، ٧٢٠٠)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٦)، ومالك في الجهاد (٩٧٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٩-١٢، ١٦).

المؤكدة كما يجب عليه الصلوات الخمس والزكاة والصيام وحج البيت، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله من الطاعة.

وأهل العلم والدين والفضل لا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور وغشهم والخروج عليهم بوجه من الوجوه، كما عرف من عادات أهل السنة والدين قديمًا وحديثًا، ومن سيرة غيرهم فطاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال، فإن أعطوه أطاعهم،وإن منعوه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق.

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ رجل على فضل ماء بالطريق يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلًا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأَخذها بكذا وكذا، فصدقه، وهو غير ذلك، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف»(١)».

٩- أن طاعة ولاة الأمر إنما هي في حدود طاعة الله ورسوله، فلو أمروا بما يخالف طاعة الله ورسوله فلا طاعة لهم؛ لأن الله جعل طاعتهم تابعه لطاعته وطاعة رسوله ﷺ فقال: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ دون إعادة الفعل «وأطيعوا».

وفي الحديث: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى، فإن أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة»(٢).

١٠- أن وجود ولاة أمر في الأمة متعين، لا تصلح حالها إلا به؛ لأن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر، فدل ذلك على تعين وجود ولاة أمر للأمة، يحملونها على كتاب الله، وينفذون فيها أحكام الله، ويقودونها إلى ما فيه الخير

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢١٢)، ومسلم في الإيمان (١٠٨)، وأبو داود في البيوع (٣٤٧٤)، والنسائي في البيوع (٤٤٦٢).

(٢) سبق تخريجه، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٥)، «الكلام على مسألة السماع» (ص ٩٧-٩٨)، «الرسالة التبوكية» (ص٥٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٠٤).

والصلاح والفلاح، تأتمر بأمرهم، وتنتهي بنهيهم، وتَسْلَم- بإذن الله- بوجودهم من التشتت والفوضى والاختلاف، قال عثمان رضي الله عنه: «أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١).

وكما قيل:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وقد قيل: «ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان»(٢).

وهذا أمر تقتضيه سنة الله الكونية، أن كل مجتمع صغيرًا كان أو كبيرًا لابد له من راع، فالدولة لابد لها من حاكم، والبلدة لابد لها من أمير، والمسجد لابد له من إمام، والمدرسة لابد لها من مدير، والبيت لابد له من راع وهكذا(٣).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»(٤).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا مات ميتة جاهلية»(٥).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة، لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعه مات ميتة جاهلية»(٦).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات

---

(١) انظر: «تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٩٨٨).

(٢) انظر: «السياسة الشرعية» (ص١٧٧).

(٣) بل إن هذا ليس في البشر فحسب، بل في الحيوانات الأعجمية، كالطيور والظباء والنحل والنمل وغير ذلك، قال تعالى حكاية عن النمل: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٨)، من حديث أبي سعيد- رضي الله عنه- و(٢٦٠٩)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٥) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٩)، والدارمي في السير (٢٥١٩).

(٦) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٥١).

مات ميتة الجاهلية»[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلًا، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره[٢] إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل الله عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه. فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» قال عبد الله: سمعته أذناي ووعاه قلبي»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس- ثم ذكر الحديث: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» ثم قال: «فأوجب ﷺ تأمير

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤١١٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٨).

(٢) يعني: الدواب التي ترعى وتبيت.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٤٨)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦).

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧١).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٩٠-٣٩١).

الواحد في الاجتماع العارض في السفر، تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه الله في الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي: «إن السلطان ظل الله في الأرض» ويقال: «ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان» والتجربة تبين ذلك؛ ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: «لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان...».

١١- عظم مكانة ولاة الأمور في الأمة الإسلامية؛ لأن الله أمر بطاعتهم بعد الأمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فقال: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

١٢- أن الدين الإسلامي دين ودولة، عبادة وسياسة، تضمن في تشريعاته ما يكفل سعادة المجتمع في دينه ودنياه، حيث أمر بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ وفي هذا رد على العلمانيين الذين يريدون عزل الدين عن السياسية وفصله عن الدولة.

١٣- أن الكتاب والسنة هما المصدران للتشريع، لا يقدم عليهما قياس ولا غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فدل هذا وذاك على أن الكتاب والسنة يقدمان على غيرهما من مصادر التشريع من القياس والاجتهاد.

١٤- الإشارة إلى أنه ينبغي درء النزاع وتفاديه ما أمكن ذلك، وأن الأصل في الأمة الاجتماع والاتفاق وعدم النزاع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾، أي: إن حصل النزاع بينكم ولم يقل «فإذا تنازعتم» و«إن» لا تدل على وقوع الشرط بخلاف «إذا»، فهي تدل على وقوعه.

١٥- وجوب رد المتنازع فيه إلى الله والرسول؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

قال ابن القيم[١]: «وهذا يعم دقيق ما تنازع فيه المسلمون وجليله من شرائع الإسلام وحقائق الإيمان وأعمال الجوارح والقلوب في فروع الدين وأصوله، فهي عامة في كل حكم من أحكام الدين وأصوله، حقائقه وشرائعه».

وقال الحافظ ابن كثير[٢]: «وهذا أمر من الله- عز وجل- بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]. فما حكم به كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال».

١٦- إبطال قول الرافضة في الإمامة؛ لأنه لو كان هناك إمام معصوم لقال: «فردوه إلى الإمام» وما قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٣].

١٧- تحريم الرجوع في المسائل المتنازع فيها إلى غير الكتاب والسنة من القوانين الوضعية وآراء البشر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

قال ابن القيم[٤]: «فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية...».

١٨- وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وفي هذا رد على من يرون العمل بالقرآن فقط، ويَطّرِحون سنة الرسول ﷺ كما قال ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[٥].

---

(١) في «الكلام على مسألة السماع» (ص٩٨)، وانظر: «الرسالة التبوكية» (ص٥١).
(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٠٤).
(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢١١)، «بدائع التفسير» (٢/ ٣٠).
(٤) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٠).
(٥) سبق تخريجه.

١٩- مشروعية الاجتهاد والقياس على ما في الكتاب والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال بعض أهل العلم: هذا فيما ليس فيه نص صريح من الكتاب والسنة، وقوله قبل هذا: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ هذا فيما فيه نص صريح من الكتاب والسنة(١).

٢٠- أن الكتاب والسنة فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو بالاجتهاد والقياس على ما فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فأمر بطاعة الله والرسول، وأمر بالرد عند التنازع إليهما(٢).

وقد ذكر الشنقيطي(٣) قول الجمهور: أنه ليس في الآية ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إبطال للقياس؛ لأن إلحاق غير المنصوص بالمنصوص لوجود معنى النص فيه، لا يخرج عن الرد إلى الكتاب والسنة، بل قال بعض أهل العلم: إن الآية متضمنة لجميع الأدلة الشرعية.

٢١- تحريم التقليد مع وضوح الدليل؛ لقوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

قال ابن القيم(٤). «وهذا صريح في إبطال التقليد والمنع من رد المتنازع فيه إلى رأي أو مذهب أو تقليد».

٢٢- أن طاعة الله وطاعة الرسول وولاة الأمر، ورد المتنازع فيه إلى الله والرسول: من مقتضيات الإيمان(٥)، بل شرط لصحته؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢١٢-٢١٣)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١١٧-١٢٢)، «أضواء البيان» (١/ ٣٣٤).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١١٩).

(٣) في «أضواء البيان» (١/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٤) في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٦١)، «الرسالة التبوكية» (ص٤٩-٥١).

فقد أقسم عز وجل بنفسه قسما مؤكدًا أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا الرسول ﷺ فيما شجر بينهم، ثم ينقادوا لقضائه باطنًا، بأن تنشرح صدورهم لقضائه بينهم، ولا يكون في أنفسهم ضيق ولا حرج، حتى من كان منهم محكوما عليه، وظاهرًا بأن يسلموا تسليمًا تامًا لقضائه ﷺ(١).

قال ابن القيم(٢) في كلامه على الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية «فأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يردوا ما تنازعوا فيه إليه وإلى رسوله، وخاطبهم أولًا بلفظ الإيمان، ثم جعل آخرًا الإيمان شرطًا في هذا الرد، فالإيمان يوجب عليهم هذا الرد، وينتفي عند انتفائه، فمن لم يرد ما تنازع فيه هو وغيره إلى الله ورسوله لم يكن مؤمنًا».

وقال أيضًا(٣): «فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله، فهو شرط ينتفي المشروط بانتفائه».

وقال ابن كثير(٤) في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾: «أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا بالله واليوم الآخر».

فإن كان الحاكم بغير ما أنزل الله يرى أن ذلك أفضل من حكم الله أو مساوٍ له ونحو ذلك فهذا كفر مخرج من الملة بالإجماع، وإن كان لا يرى ذلك وإنما حكم بغير ما أنزل الله رغبة أو رهبة أو لرشوة أو محاباة قريب ونحو ذلك فهذا كفر دون كفر لا يخرج من الملة، وقال بعض أهل العلم: يخرج من الملة.

وسيأتي التفصيل في الحكم بغير ما أنزل الله في سورة المائدة إن شاء الله(٥).

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٩٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٤).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٠).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٣٠٤).

(٥) انظر: الكلام على قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة:٤٤].

٢٣- وجوب الإيمان بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٢٤- إثبات اليوم الآخر والبعث والجزاء على الأعمال، وأن من آمن بالله ولم يؤمن بهذا اليوم فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٢٥- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان الستة؛ لأن الله يقرن الإيمان بهذا اليوم بالإيمان به سبحانه، وذلك؛ لأن اليوم الآخر من أعظم الدوافع على العمل الصالح؛ لأن فيه مجازاة الناس على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

٢٦- أن يوم القيامة هو آخر الأيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٢٧- أن طاعة الله- عز وجل- وطاعة الرسول ﷺ، وأولي الأمر، والرجوع عند التنازع إلى الكتاب والسنة خير في الحال والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: خير في الحال والحاضر وأحسن عاقبة ومآلا في المستقبل.

قال ابن القيم[1]: «فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلًا وآجلا..».

٢٨- أن الخروج عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ وأولي الأمر، والرجوع إلى غير الكتاب والسنة، وتحكيم القوانين التي وضعها البشر شر على الأمة في حاضرها وأسوأ مآلًا وعاقبة لها في مستقبلها؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

قال ابن القيم[2]: «ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول، وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها فعاد الشر في الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط».

* * *

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣١).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- شيئًا من أحوال أهل الكتاب وتوعدهم، كما توعد الكافرين عمومًا، ثم ذكر في هذه الآية وما بعدها أحوال الصنف الثالث وهم المنافقون سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم.

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان أبو برزة الأسلمي كاهنًا[1] يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه أناس من المسلمين، فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾»[2].

وعن مجاهد قال: «تنازع رجل من المنافقين ورجل من اليهود، فقال المنافق: اذهب

---

(١) كان هذا قبل أن يسلم أبو برزة، وقد أسلم- رضي الله عنه- وصحب النبي ﷺ، واسمه: نضلة بن عبيد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٩١) والطبراني وإسناده صحيح.

بنا إلى كعب بن الأشرف، وقال اليهودي: اذهب بنا إلى محمد، فقال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية والتي بعدها فيهما»(١).

وعن قتادة والشعبي: «أن يهوديًّا اختصم مع منافق اسمه بشر فدعا اليهودي المنافق إلى التحاكم عند النبي ﷺ، ودعا المنافق إلى التحاكم عند كاهن من جهينة»(٢).

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: ألم تبصر وتعلم، والخطاب للنبي ﷺ؛ لقوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وهو خطاب له ولمن تبعه.

أي: ألا تتعجب من هؤلاء المنافقين من اليهود وغيرهم ﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

والزعم- غالبًا- يطلق على القول والخبر الكاذب، كما في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وفي المثل: «بئس مطية الكذب زعموا».

ومن هذا قول جرير في الفرزدق في أشد بيت في السخرية:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا ... أبشر بطول سلامة يا مربع(٣)

﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، «ما»: موصولة، أي: أنهم صدقوا بالذي أنزل إليك، وهو القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: وآمنوا بالذي أنزل من قبلك كالتوراة والإنجيل، وغيرهما من كتب الله تعالى.

﴿يُرِيدُونَ﴾، أي: يودون ويحبون ويرغبون، ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريدون»، والتقدير: يريدون

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٩١، ٩٩٣).

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٧/ ١٨٩-١٩١).

(٣) انظر: «ديوان جرير» (ص٢٧٢).

التحاكم إلى الطاغوت: وهذا هو محل التعجيب.

والطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو: تجاوز الحد، وهو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله.

والمراد: يريدون أن يتحاكموا فيما شجر بينهم من خصومات إلى غير الكتاب والسنة، أي: إلى غير حكم الله ورسوله؛ لأن كل ما عدى شرع الله فهو طاغوت، وكل تحاكم إلى غير الشرع فهو تحاكم إلى الطاغوت، وحكم بالباطل.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنهم قد أمروا أن يكفروا به، أي: بالطاغوت.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: وقد أمروا بالكفر به، أي: وقد أمروا شرعًا بالكفر به، في جميع كتب الله تعالى، وعلى ألسنة رسله، فكيف يدّعون الإيمان- كما يزعمون- مع تحكيم الطاغوت؟!

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: ويريد الشيطان في تزيينه وتحسينه لهم التحاكم إلى الطاغوت.

﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾، أي: أن يبعدهم، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريد»، أي: ويريد الشيطان إضلالهم، أي: إبعادهم عن الحق.

﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: مفعول مطلق نائب عن المصدر، و﴿بَعِيدًا﴾ صفة له، أي: ضلالًا بعيدًا كل البعد عن الحق، بالكفر بالله، والحكم بغير شرعه، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الواو: عاطفة، فهذه الآية ضمن جملة الاستفهام السابق، أي: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين.

وجاء ﴿قِيلَ﴾ بصيغة ما لم يسم فاعله؛ ليعم كل قائل، سواء كان الرسول ﷺ أو غيره.

﴿تَعَالَوْاْ﴾، أي: هلموا واحضروا، وأقبلوا.

﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: «ما»: موصولة، أي: إلى الذي أنزل الله، وهو القرآن الكريم، أي: إلى التحاكم إلى ما أنزل الله.

وفي التعبير بقوله: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: «إلى القرآن»: تعظيم للقرآن الكريم، وإثبات أنه منزل من عند الله عز وجل.

﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: «ال» في الرسول: للعهد الذهني، أي: وتعالوا واحضروا إلى الرسول محمد ﷺ ليحكم بيننا.

﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: جواب الشرط «إذا»، والخطاب للرسول ﷺ و﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جمع «منافق»، وهو: من يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

مأخوذ من نافقاء «اليربوع» دويبة صغيرة- يتخذ جحرًا في الأرض ويجعل في آخره مخرجًا عليه قشرة خفيفة من الأرض، تسمى النافقاء، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج منها.

ومن هذا سمي النفاق، والمنافقون؛ لأنهم يبطنون ما لا يظهرون، يأتون المؤمنين بوجه، ويأتون أهل الكفر بوجه آخر، وهم أشد كفرًا من أهل الكفر الظاهر؛ لجمعهم بين الكفر والمخادعة، وهم أشد خطرًا على المؤمنين؛ لأنهم بين ظهرانيهم؛ ولهذا وذاك كانوا أشد أهل النار عذابًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

والنفاق: قسمان: نفاق اعتقادي، وهو المقصود هنا.

ونفاق عملي، كما قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»(١).

وقال ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد**

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٥٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، من حديث أبي- هريرة رضي الله عنه.

غدر، وإذا خاصم فجر»[١].

وفي قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ إظهار مقام الإضمار، فلم يقل: «رأيتهم»، وفي ذلك فوائد منها: تسجيل وصفهم بالنفاق، ومنها: بيان علة الحكم، أي: علة حصول الصدود منهم، وهي نفاقهم، ومنها: عموم هذا الحكم للمذكورين وغيرهم من المنافقين.

﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾، أي: يعرضون عنك.

﴿صُدُودًا﴾ مصدر مؤكد، أي: يصدون عنك صدودًا عظيمًا، أي: يعرضون عنك بأنفسهم إعراضًا شديدًا، ويصدون غيرهم عن التحاكم إليك.

ولم يقل: «يصدون عما أنزل الله»؛ لأن الصدود عن الرسول ﷺ صدود عما أنزل الله تعالى؛ لأنه هو المبلغ عن الله، ويجتمع فيه الصدود المعنوي عما أنزل الله، والصدود الحسي عنه ﷺ بشخصه.

ولم يقل: رأيت المنافقين يصدون عن الذي قال لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ بل قال: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾؛ لأن الذي قال لهم ذلك لا يهمهم ولا يعنيهم، وإنما حقيقة ما يريدون الصدود عن الرسول ﷺ وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾، الفاء: عاطفة، و«كيف»: اسم استفهام والمراد به هنا التعجب والتهويل، و«إذا»: ظرفية شرطية.

﴿أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾، أي: نالتهم مصيبة بافتضاح نفاقهم فهذا بالنسبة لهم أعظم مصيبة، أي: كيف يكون صنيعهم، أو كيف يكون حالهم، أو كيف تراهم، إذا نالتهم مصيبة، بأن يُطَّلع على نفاقهم.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤)، ومسلم في الإيمان (٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٨)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣٢)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

الذي قدمته أيديهم، أو بسبب تقديم أيديهم، أي: بسبب الذي عملوه من التحاكم إلى الطاغوت، والصدود عن الرسول ﷺ.

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾، «ثم»: حرف عطف، أي: ثم أتوك معتذرين، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾، الجملة: حالية، أي: حال كونهم يحلفون بالله، كذبًا وزورًا.

﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾، «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، أي: ما قصدنا في تحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، «إلا»: أداة حصر، و«إحسانا»: مفعول «أردنا».

أي: ما قصدنا بالتحاكم إلى غيرك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ إلى المتخاصمين، ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بينهم، لا إعراضًا عن حكمك، أو عدم رضا به، أو إيثارًا لغيره عليه- وهم بهذا كذبة، فإن الإحسان والتوفيق إنما يكون بتحكيم شرع الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وأنهم سيندمون حين لا ينفع الندم، ويعتذرون حين لا يغني الاعتذار.

قال ابن كثير(١): «فكيف إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، أي: يعتذرون ويحلفون؛ ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عداك، إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقادًا منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]».

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الإشارة: للمنافقين، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذين يعلم الله الذي في

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٠٥).

قلوبهم من محبة التحاكم إلى غير الله، ومن النفاق والكفر، والقصد السيئ مما يخالف ظاهر حالهم ومقالهم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

وقال: ﴿يَعْلَمُ﴾ ولم يقل: «علم»؛ للدلالة على استمرار علمه- عز وجل- بهم.

فلا يعلم حقيقة ما في قلوبهم إلا الله، لكن الله- عز وجل- وضع لهم علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

كما بيّن ﷺ بعض علاماتهم في قوله: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»، وفي رواية: «**إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

وقد كان ﷺ بما علمه الله تعالى يعرف المنافقين؛ ولهذا أخبر حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- بأسمائهم أو أسماء بعضهم، وكان حذيفة- رضي الله عنه- صاحب سر النبي ﷺ.

وقد روي أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال لحذيفة رضي الله عنه: «يا حذيفة نشدتك بالله هل سماني لك رسول الله منهم؟ يعني المنافقين؟ قال: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا»(٢).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: اتركهم ولا تجهد نفسك معهم، ولا تعنفهم على ما في قلوبهم من النفاق ولا تعاملهم معاملة الكافرين فتقاتلهم؛ لأنهم لم يعلنوا الكفر والعداوة؛ ولهذا لما قال عمر- رضي الله عنه- دعني أضرب عنق هذا المنافق- يعني عبدالله بن أبي، نهاه النبي ﷺ وقال: «دعه، لا يتحدث الناس: أن محمدًا يقتل

---

(١) سبق تخريجها

(٢) انظر ترجمة حذيفة في «تاريخ دمشق»، «كنز العمال» (١٣/ ٣٤٤)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٩).

أصحابه»(١).

﴿وَعِظْهُمْ﴾، الموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، أي: ذكِّرهم وبيِّن لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد له، والترهيب من تركه، وانهم عما في قلوبهم من النفاق.

﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾، أي: وقل لهم قولًا يصل إلى قرارة أنفسهم في شأنهم وحالهم، وما هم عليه من المخالفة والعصيان، وانصحهم سرًا بينك وبينهم فهو أنجح في حصول المقصود.

﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾، ﴿قَوْلًۢا﴾: مفعول به، و﴿بَلِيغًا﴾: صفة له؛ أي: قولًا ذا بلاغة يبلغ غايته في البيان والإقناع والتأثير في النفوس والقلوب؛ لجذبها إلى الخير وتحذيرها من الشر. وفي الحديث: «**إن من البيان لسحرًا**»(٢)، أي: في تأثيره في النفوس.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ في هذا تعريض بتوبيخ المنافقين المتحاكمين إلى غير حكم الله ورسوله، والواو: استئنافية، و«ما»: نافية، و«من» في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للعموم من حيث المعنى، أي: وما أرسلنا من أيِّ رسول ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، واللام في قوله: ﴿لِيُطَاعَ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يطاع وجوبًا.

والطاعة: الامتثال، بفعل المأمور، وترك المحظور.

وطاعة الرسول فعل ما يأمر به، وترك ما ينهى عنه، والرجوع إليه في التحاكم.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: بأمره الشرعي الذي أمر به على ألسنة رسله، وبأمره الكوني، أي: بما أذن به كونًا، أي: لا يطيعهم إلا من وفقه الله، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة- نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤)، والترمذي في «التفسير» (٣٣١٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤١)، وأبوداود في الأدب (٥٠٠٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أي: بأمره الشرعي، وقدره ومشيئته.

وفي الآية هنا إشارة إلى خذلان الله للمنافقين، وغلبة الشقاء عليهم.

فالحكمة من إرسال الرسل وبعثهم: طاعتهم بإذن الله تعالى، فمنهم من أطيع، ومنهم من عُصي وكُذب، بل ومنهم من قتل، وهذا كما قال تعالى في الحكمة من خلق الثقلين: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: إلا؛ لأجل أن يعبدون.

فالحكمة من إرسال الرسل: أن يطاعوا بإذن الله، ويشهد لهم بالرسالة، والحكمة من خلق الثقلين: أن يعبدوا الله ويوحدوه.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا توبيخ لهم على تحاكمهم إلى الطاغوت، وتماديهم في الصدود والإعراض.

الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية غير جازمة، وهي مختصة بالدخول على الأفعال، والتقدير هنا: ولو حصل أنهم، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين» للزمن الماضي.

أي: ولو أنهم حين ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت دون ما أنزل الله، والصدود عن الرسول ﷺ.

وفي قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ تنبيه لهم أنهم بفعلهم هذا لا يظلمون إلا أنفسهم.

﴿جَآءُوكَ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن»، أي: جاؤوك معترفين بذنوبهم وذلك في حال حياته ﷺ؛ لقوله بعده: ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ لأنه بعد وفاته لا يمكن أن يستغفر لهم.

﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوف على ﴿جَآءُوكَ﴾، أي: فسألوا الله وطلبوا منه المغفرة لما وقع منهم من ظلم لأنفسهم، واعترفوا بذلك، فإن الاعتراف توبة.

﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أيضًا: لما وقع منهم من ظلم لأنفسهم.

و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان وهو محمد ﷺ، وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «واستغفرت لهم» تفخيمًا لشأنه ﷺ وتعظيمًا لشأن استغفاره ﷺ؛ لأن دعوته ﷺ مستجابة.

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ اللام: واقعة في جواب «لو» أي: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم، ويرحمهم برحمته الواسعة.

﴿تَوَّابًا﴾، أي: ذا التوبة الواسعة على عباده، يوفق من شاء منهم للتوبة والإنابة والرجوع إليه، ويقبلها منهم.

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل، وصفة من صفاته الفعلية التي يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة خاصة، ورحمة عامة، في الدنيا والآخرة(١).

قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

ذكر- عز وجل- إرادة المنافقين ورغبتهم في التحاكم إلى الطاغوت وصدودهم عن اتباع الرسول ﷺ وحكمه وطاعته، ثم أقسم عز وجل بنفسه في هذه الآية أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه ﷺ فيما شجر بينهم ويرضوا بحكمه ويسلموا له.

عن عبدالله بن الزبير- رضي الله عنه- أن رجلًا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج(٢) الحرة التي يسقون بها النخل. فقال الأنصاري: سرِّح الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «**اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك**» فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك. فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر**» فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾»(٣).

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [الآية: ١٦]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الآية: ١٧].

(٢) الشراج: جمع «شرجة» وهي مسيل الماء من الحرة إلى السهل. والحرة: الحجارة الصلبة الشديدة وهي مكان شرق المدينة.

(٣) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٠)، ومسلم في الفضائل- وجوب اتباعه ﷺ (٢٣٥٧)، وأبو داود في الأقضية- أبواب من القضاء (٣٦٣٧)، والترمذي في أبواب الأحكام (١٣٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٥).

قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾، الفاء: إستئنافية، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لنفي المقسم عليه من حيث المعنى، والواو: للقسم، و«رب»: مقسم به، والخطاب للنبي ﷺ، فأقسم تعالى بأجلِّ مقسم به وهو نفسه عز وجل.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، «لا» نافية، أي: لا يؤمن هؤلاء المنافقون، وأتى بالمقسم عليه بصيغة الفعل الدالة على الحدوث للتأكيد، أي: أنه لا يقع منهم إيمان، ولا يصح.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا هو الشرط الأول، و«حتى»: للغاية، والغاية بـ«حتى» آكد من الغاية بـ«إلا»؛ لأن الغاية بـ«حتى» تشعر بأنه لا يوجد الإيمان إلا بعد حصول التحكيم؛ لأن ما بعد «حتى» يدخل فيما قبلها. أي: ينتفي عنهم الإيمان إلى غاية أن يحكموك.

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، «ما» اسم موصول يدل على العموم، و«التشاجر»: الاختلاف والتنازع.

والمعنى: حتى يجعلوك حكمًا في جميع الذي يختلفون ويتنازعون فيه، أي: في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين، من الأحكام العقدية والشرعية، في الأصول والفروع، وغير ذلك.

فإن حكَّموا غيرك، أو ردوا حكمك فليسوا بمؤمنين.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ هذا هو الشرط الثاني، و﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿حَرَجًا﴾: ضيقًا، وهي: نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: ثم لا يجدوا في أنفسهم شيئًا أو نوعًا من الحرج والضيق.

و«ما» في قوله: ﴿مِّمَّا﴾ مصدرية أو موصولة تدل على العموم، أي: من قضائك، أو من الذي قضيته، وهذا يتناول كل فرد من أفراد قضائه.

والمعنى: ثم لا يجدوا ولا يحسوا في أنفسهم؛ في قلوبهم وفي بواطنهم شيئًا من الحرج وضيق الصدر من الحكم الذي حكمت به بينهم، سواء في ذلك المحكوم عليه والمحكوم له، بل تنشرح صدورهم له.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ هذا هو الشرط الثالث، و﴿تَسْلِيمًا﴾: مصدر مؤكد، أي: وينقادوا انقيادًا تامًا باطنًا بالقبول والرضا في قلوبهم، وظاهرًا بالقبول والانقياد

بجوارحهم لما حكمت به، من دون ممانعة، ولا مدافعة، ولا منازعة، كما قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(١).

قال السعدي(٢): «فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب، وكمّلها، فقد استكمل مراتب الدين كلها، ومن ترك هذا التحكيم المذكور، غير ملتزم له، فهو كافر، ومن تركه مع التزامه- فله حكم أمثاله من العاصين».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية غير جازمة.

﴿أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه هو العظيم سبحانه.

﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: أوجبنا عليهم ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: يقتل بعضكم بعضا، كما قال تعالى لأهل الكتاب: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أي: يقتل بعضكم بعضا.

﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ معطوف على ما قبله، أي: أو كتبنا عليهم: أن اخرجوا من دياركم وأوطانكم.

و﴿أَنِ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿كَتَبْنَا﴾، أي: ولو أنا كتبنا عليهم قتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم.

﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ الضمير الهاء: يعود إلى مصدر الفعلين ﴿اقْتُلُوا﴾ و﴿اخْرُجُوا﴾، أي: ما فعلوا المذكور؛ لمشقة الأمرين قتل أنفسهم، أو الخروج من ديارهم وأوطانهم.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء.

---

(١) أخرجه المقدسي في كتاب (الحجة على تارك المحجة) بإسناد صحيح، كما قال شيخ الإسلام محمد عبد الوهاب. قال النووي: «حديث رويناه في الحجة بإسناد صحيح»، انظر (فتح المجيد) ص(٣٣١-٣٣٢).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٩٣).

قرأ ابن عامر: ﴿قَلِيلًا﴾ بالنصب على الاستثناء.

وقرأ الباقون: ﴿قَلِيلٌ﴾ بالرفع على أنه بدل من ضمير الفاعل في قوله: ﴿فَعَلُوهُ﴾.

والمعنى: أن الله- عز وجل- يقول: لو أنا أوجبنا عليهم قتل أنفسهم، أي: قتل بعضهم بعضا، أو الخروج من ديارهم وترك أوطانهم ما فعلوا ذلك وما انقادوا له، لما فيه من المشقة، إلا قليل منهم.

فيخبر عز وجل أنه لو كتب على العباد ما يشق عليهم من قتل النفوس، والخروج من الديار لم يفعله إلا قليل منهم ونادر، فلنحمد الله ونشكره على تيسير التكاليف.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾، أي: ولو أن هؤلاء الذين تحاكموا إلى غير الرسول ﷺ.

﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾، «ما»: موصولة، والضمير في «به» يعود إلى الرجوع والتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، كما في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، أي: لو أنهم فعلوا الذي يوعظون به من الرجوع إلى ما أنزل الله وإلى الرسول.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لكان ذلك خيرًا لهم خيريّة مطلقة.

وليس في عدم رجوعهم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول خير مطلقًا، والتفضيل قد يكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ معطوف على ﴿خَيْرًا﴾، أي: وكان أشد تثبيتًا لهم في دينهم، أي: أشد وأقوى في ثباتهم على الحق والإيمان، وأسلم لهم من الشك والنفاق؛ لأن الإنسان كلما استقام على طاعة الله، وامتثل أمره واجتنب نهيه إزداد إيمانًا ويقينًا وثباتًا على الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذًا﴾، الواو: عاطفة، و«إذًا»: حرف جواب، واللام في ﴿لَّآتَيْنَاهُم﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، أي: لو ثبتوا لآتيناهم.

والمعنى: ولو أنهم فعلوا الذي يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتًا لهم في دينهم، ولو فعلوا ذلك ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في أخراهم، أو في عاجلهم وآجلهم.

ومعنى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: من عندنا، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثوابًا عظيمًا، وسمى جزاءهم

أجرًا؛ لتكفله به وضمانه لهم.

وقد يقال: المعنى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دنياهم، ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في أخراهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ معطوف على قوله ﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾، أي: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في دينهم.

وإذا تعدى الفعل «هدى» بنفسه، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. فإنه يشمل الهدايتين: هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق.

أي: ولأرشدناهم ووفقناهم.

﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: طريقًا مستقيمًا، والصراط: الطريق، ونكر للتعظيم.

﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ معتدلًا لا اعوجاج فيه، يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، و«المستقيم» في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين.

ومن هُدي إلى الصراط المستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير- نسأل الله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾.

بعد ما ذكر عز وجل أحوال المنافقين وما هم عليه من المخالفة والعصيان لأمر الله تعالى ورسوله، أتبع ذلك بذكر أهل طاعة الله ورسوله وما لهم من المنزلة العالية والفضل.

رُويَ عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون. فقال له النبي ﷺ: «يا فلان، ما لي أراك محزونًا؟ قال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه. قال: ما هو؟ قال: نحن نغدوا عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، وغدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ عليه شيئًا، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية. فبعث النبي ﷺ فبشره»(١).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٣١٣-٣١٤). وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣١٠).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك أنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾»(١).

ورُوي عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشق ذلك علي، وأحب أن أكون معك في الدرجة، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا. فأنزل الله- عز وجل- هذه الآية»(٢).

قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، ﴿يُطِعِ﴾ فعل الشرط مجزوم بها، وكسر لالتقاء الساكنين، وأصله: (يطيْعْ) وحذف حرف العلة لالتقاء الساكنين، و«ال» في (الرسول): للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ، ويجوز كونها للجنس، فيعم جميع الرسل.

وطاعة الله تعالى والرسول بفعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

وعَطَف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك والجمع؛ لأن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص(١١١). وأخرجه ابن مردويه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣١٠-٣١١) قال ابن كثير: «وهكذا رواه الحافظ أبوعبدالله المقدسي في كتابه «صفة الجنة» ثم قال: «ولا أرى بإسناده بأسًا». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٧): «رجاله رجال الصحيح إلا عبدالله بن عمران، وهو ثقة».

(٢) أخرجه ابن مردويه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣١١). وقد أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٢١٦) عن الشعبي مرسلًا.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ جملة جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، وجاءت الإشارة بالجمع «أولئك» مراعاة لمعنى «من» في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ لأن معناها الجمع، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ رفعة لشأنهم، وتنويهًا بعلو مرتبتهم وسمو منزلتهم.

﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، وقيل: هي بمعنى «من»، والأول أولى، فهو معهم ومصاحبًا لهم، وإذا كان مصاحبًا لهم فهو منهم، أي: معهم في الدنيا والآخرة، وفي الجنة- مع تفاوت المنازل.

وفي الحديث: «**المرء مع من أحب**»(١)، وفيه: «**أنت مع من أحببت**»(٢).

قال الشافعي(٣):

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلى أن أنال بهم شفاعه
وأكره من بضاعته المعاصي ... وإن كنا جميعا في البضاعه

فأجابه الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم ... محب القوم يلحق بالجماعه(٣)

﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ بالنعمة الكبرى والمنة العظمي بالهدى والإيمان، بالعلم النافع والعمل الصالح، بمعرفة الحق والعمل به، كما في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. النعمة التي يترتب عليها كمال الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ﴿مِّنَ﴾: بيانية، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمع (نبي)، وجمع (نبيء) بالهمز، مأخوذ من النبأ وهو الخبر، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢]. أي: الخبر العظيم؛

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٨)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٤١)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٨٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩). والترمذي في الزهد (٢٣٨٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بلغة السالك لأقرب المسالك» (٤/ ٧٣٥).

لأن النبي «مُنْبأٌ». أي: «مُخْبَرٌ» من عند الله تعالى، و«مُنْبِئ» أي: «مُخْبِر» لقومه.

ومأخوذ أيضًا: من النَّبْوَة، وهي المكان المرتفع؛ لأن الانبياء- عليهم السلام- ذوو مكانة عالية، عند الله، وعند المؤمنين.

والنبي من أوحيَ إليه بشرع من الله تعالى، فإن أمر بالتبليغ فهو نبي رسول، وكل الأنبياء المذكورين في القرآن ممن أوحى إليهم، وأمروا بالتبليغ فهم أنبياء ورسل، فيدخل في قوله: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الرسل من باب أولى؛ لأن كل رسول فهو نبي.

عن ربيعة بن كعب الأسلمي- رضي الله عنه- قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل» فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: «أوغير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»(١).

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ جمع (صِدِّيق)، وهم المصدِّقون للأنبياء حق التصديق، المتبعون لهم تمام الاتباع، الذين تُصدِّق أفعالُهم أقوالَهم، الذين كمُل تصديقهم ويقينهم وعملهم.

قال ابن القيم(٢): «وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط من الرسول ﷺ وأمته، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»(٣).

وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- فهو أفضل الصديقين؛ لأن هذه الأمة هي أفضل الأمم، وهو خير هذه الأمة بعد رسولها. وفي الحديث: «**ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل أو خير من أبي بكر**»(٤).

وقال ﷺ: «**إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبو داود في الصلاة (١٣٢٠)، والنسائي في التطبيق (١١٣٨).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ١٥٢)، وعبد بن حميد في «مسنده». انظر: «المنتخب في مسند عبد بن حميد» تحقيق صبحي السامرائي (ص١٠١). وانظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٤٦).

(٥) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٤٠)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافيه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله**»(١).

ومنهم مريم ابنة عمران أم عيسى عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ جمع «شهيد»، وهو من قتل في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى ويدخل فيه كل من شهد له النبي ﷺ بالشهادة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تعدون الشهيد فيكم؟**» **قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتي إذًا لقليل». قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد**»(٢).

وفي رواية عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغرِق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله**»(٣).

وعن جابر بن عتيك- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرِق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة بجُمع شهيدة**»(٤).

وعن عبدالله بن عمر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من**

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٦٦١)، وابن ماجه في المقدمة (٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ١٥٢)، وعبد بن حميد في «مسنده». انظر: «المنتخب من مسند عبد بن حميد» تحقيق صبحي السامرائي (ص١٠١)، وانظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٩)، ومسلم في الصلاة (٤٣٧)، والترمذي في الجنائز (١٠٦٣).

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٦).

قتل دون ماله فهو شهيد»(١).

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جمع: «صالح»، وهو من أخلص لله تعالى، واتبع شرعه. وعَطْفُه على ما قبله من عطف العام على الخاص، فكل نبي وصديق وشهيد هو من الصالحين، وليس كل صالح يكون نبيًا أو صديقًا أو شهيدًا.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة**». وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بُحَّة شديدة، فسمعته يقول: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**» فعلمت أنه خُيِّر»(٢).

قال ابن كثير(٣): «وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**اللهم الرفيق الأعلى ثلاثًا**»(٤).

فقسم عز وجل الذين أنعم الله عليهم إلى أصناف أربعة: النبيين، والصديقين والشهداء، والصالحين، وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩].

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، الواو: استئنافية، و«حسن»: فعل ماض مشرب بالتعجب، أي: ما أحسن أولئك رفيقًا، والإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعود إلى الأصناف الأربعة: النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لشأنهم، وتنبيهًا على علو منزلتهم.

﴿رَفِيقًا﴾: تمييز، وهو مفرد صالح للجمع والمفرد، فيقال: هؤلاء رفيق فلان، وهذا رفيق فلان.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٨٠)، ومسلم في الإيمان (١٤١)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٨٤)، والترمذي في الديات (١٤١٩).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء (٤٥٨٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٦٢٠).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣١٠).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومعنى ﴿رَفِيقًا﴾، أي: مرافقًا ومصاحبًا وجليسًا ومؤانسًا.

والمعنى: وحسن هؤلاء الصحبة رفيقًا لمن أطاع الله والرسول- نسأل الله التوفيق.

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم ... فقد وضحت للسالكين عيانا[١]

وفي هذا إشارة إلى اختيار الرفقة الصالحة لما لهم من آثار طيبة على من رافقهم وكما في الحديث: «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**»[٢].

وفيه: «**مثل الجليس الصالح كحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة**»[٣]

وهذا بخلاف جليس السوء. وقد قيل:

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي[٤]

وقال آخر:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد[٥]

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة لما سبق من إنعام الله- عز وجل- على الأصناف الأربعة: النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، ومن أطاع الله والرسول فكان معهم».

﴿ٱلْفَضْلُ﴾ بدل من «ذا» أو نعت له، أي: ذلك الفضل العظيم، كما يقال في التعظيم: أنت الرجل.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٢)، «زاد المهاجر إلى ربه» (ص٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب- استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) البيتان لعدي بن زيد. انظر: «بهجة المجالس» (ص١٥١).

(٥) البيت لأبي بكر الخوارزمي انظر: «روض الاخيار المنتخب من ربيع الأبرار» ص٣٨٨.

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ تقديره: حاصل من الله- عز وجل- لا من غيره، ولا من كسبهم؛ وذلك يظهر من وجهين:

الأول: أنه- عز وجل- تفضل عليهم بما أنعم به عليهم من توفيقهم للإيمان، واجتبائهم لهذه المنازل العالية، مما لم يدركوه بمجرد كسبهم، بل بفضل الله تعالى؛ ولهذا كان ﷺ يقول في الدعاء: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١).

الوجه الثاني: أنه- عز وجل- تفضل عليهم بمضاعفة الأجور بما لا يقدر قدره إلا هو- سبحانه، مما لم يستحقوه بأعمالهم، ولهذا قال ﷺ: «**لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(٢).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ الواو: استئنافية، ﴿بِٱللَّهِ﴾ الباء: حرف جر زائد من حيث الإعراب ومؤكد من حيث المعنى، ولفظ الجلالة: فاعل، أي: وكفى الله عليمًا. و﴿عَلِيمًا﴾: حال، أي: حال كونه عليمًا، أي: ذا علم واسع، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

يعلم سبحانه من هو أهل لهذا الفضل فيعطيه من فضله، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويعلم من هو ليس أهلًا لذلك فيحرمه منه، كما قال تعالى ردًا على المشركين لما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال الله تعالى ردًا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

الفوائد والأحكام:

١- التعجب والإنكار على المنافقين فيما هم عليه من التناقض والتذبذب؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

٢- كذب المنافقين في دعواهم الإيمان، وتناقضهم، فيزعمون الإيمان بما أنزل إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرسول ﷺ وبما أنزل من قبله، ومع ذلك يتحاكمون إلى الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٣- وجوب الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ وعلى الرسل قبله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٤- إثبات نزول القرآن الكريم من عند الله- عز وجل- وغيره من كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وقوله: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾، وقوله: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى، فله- عز وجل- العلو المطلق، علو الذات وعلو الصفات.

٦- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له في هذه الآيات، وإثبات رسالته.

٧- أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله تحاكم إلى الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٨- أن التحاكم إلى الطاغوت وإلى غير الله ورسوله كفر؛ لأن الله قابل بينه وبين الإيمان بما أنزل الله، فهو ينافي الإيمان بما أنزل الله؛ لقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ فهذا يدل على أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به، والإيمان بالطاغوت ضد الإيمان بالله، فهو كفر، وكما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٩- لا عذر لمن تحاكموا إلى الطاغوت وآمنوا به؛ لأنهم وغيرهم قد أمروا أن يكفروا به.

١٠- اتباع هؤلاء المذكورين تضليل الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

١١- وجوب الحذر من الشيطان وما يريده من إضلال من اتبعه وإبعاده كل البعد عن الهدى والإيمان، وإيقاعه في الكفر والعصيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

١٢- أن الشيطان لا يكفيه ولا يقنعه ولا يرضيه إلا أن يضل الناس ضلالًا بعيدًا كل البعد، ويوقعهم بالكفر، وكما قال تعالى عن أتباعه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

لكنه يتدرج بالإنسان من فعل الصغائر إلى ارتكاب الكبائر، ثم إلى الكفر ومن المعصية إلى البدعة، ثم إلى الكفر.

١٣- شدة كفر المنافقين وعنادهم وعظم صدودهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

١٤- أن التحاكم إلى الرسول ﷺ قد يكون مستقلًا، أي: بما لم يرد في القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ بإعادة العامل «إلى».

١٥- التعجب من حال المنافقين، فإذا أصيبوا بالاطلاع على نفاقهم تمادوا في نفاقهم وحلفهم على الكذب وتحسين مرادهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنًا وَتَوۡفِيقًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٢].

١٦- أن ما يصيب الناس من مصائب في دينهم أو دنياهم هو بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾.

١٧- إثبات الإرادة للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله كما يقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ ﴾.

١٨- تذبذب المنافقين بين هؤلاء وهؤلاء؛ لقولهم: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنًا وَتَوۡفِيقًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء:١٤٣].

١٩- علم الله تعالى بما تنطوي عليه القلوب وما تكنه الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾.

٢٠- المؤاخذة على كسب القلوب؛ لأن الله توعد المذكورين على ذلك، فقال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾، أي: من النفاق ومخالفة بواطنهم لظواهرهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١).

٢١- الإعراض عما لا جدوى ولا فائدة في الكلام معهم بعد بيان الحق لهم، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾.

٢٢- ينبغي مع الإعراض عن المذكورين موعظتهم ترغيبًا وترهيبًا، وعدم تركهم كلية، وأن يناصحوا سرًّا، ويقال لهم في أنفسهم قولًا بليغًا مؤثرًا لعلهم ينتفعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾.

٢٣- ينبغي للداعي أن يتوجه بوجهه إلى من يدعو، وأن يختار من القول أبلغه، ومن الكلام أسده وأصوبه وأحسنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾.

٢٤- عظمة التشريع الإسلامي، وما فيه من الحكمة والسعة في معالجة الأمور من كل وجه، فإن المتأمل في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ يلحظ أمورًا عدة، منها.

أولًا: مراعاة شعور الداعي إلى الله وتقوية معنويته؛ لئلا يؤثر في نفسه صدود من صد عنه، فقوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾، أي: اتركهم فلا تبالهم، وامضِ في طريقك.

ثانيًا: إشعار هؤلاء وغيرهم أن صدودهم لم يؤثر في طريق الدعوة، فالكلاب تنبح والقافلة تسير.

ثالثًا: عدم اليأس من رجوع من صد إلى الحق.

رابعًا: أن لا يترك أمثال هؤلاء فريسة للشيطان.

فما أعظم هذا التشريع، وما أزكى وأرقى تعاليمه، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)-- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢٥- أن الحكمة من إرسال الرسل إلى الناس أن يطيعوهم بامتثال أمر الله الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

٢٦- إثبات الحكمة لله عز وجل، والأفعال الاختيارية له؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

٢٧- وجوب طاعة الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ وفي هذا دلالة على عظمتهم.

٢٨- إثبات الإذن لله تعالى، وهو قسمان: إذن شرعي، وإذن كوني.

٢٩- إثبات القضاء والقدر، وأن ما يحصل من طاعة أو معصية هو بإذن الله الكوني القدري؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا يوجب على العبد الاستعانة بالله تعالى.

٣٠- وجوب المبادرة إلى الاستغفار والتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ ﴾.

٣١- أن الأولى لمن ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى غير الله ورسوله الإتيان إلى الرسول ﷺ والاعتذار واستغفار الله، ليستغفر لهم ﷺ، وهذا إنما يكون في حياته ﷺ أما بعد وفاته فإنه لا يمكن أن يستغفر لأحد.

٣٢- أن التحاكم إلى غير الله ورسوله ظلم للنفس، وكذا المعاصي كلها صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

٣٣- أن من تحاكم إلى غير الشرع، وخالف أمر الله ورسوله فإنه لا يظلم إلا نفسه.

٣٤- أن من استغفر الله تعالى وتاب إليه صادقًا مخلصًا، فإن الله تعالى يتوب عليه ويرحمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾.

٣٥- إثبات صفة التوبة لله- عز وجل- بقسميها: توفيقه العبد ليتوب، وقبولها منه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا﴾.

٣٦- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل: رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه: رحمة خاصة، ورحمة عامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٗا ﴾.

٣٧- الانتفاع بدعاء الغير؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، كما قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي الحديث: «**أن المؤمن إذا دعا لأخيه بظهر الغيب تلقاها ملك وقال: ولك بمثل**»(١).

واختلفوا هل يجوز أن يطلب من أحد أن يدعو له، على قولين لأهل العلم، فمن قائل بالجواز ومن قائل بالمنع، والأولى بالمسلم في مثل هذا ألا يسأل إلا الله- تعالى. والأمر في هذا واسع.

٣٨- إقسام الله تعالى بنفسه وهو أعظم مقسم بأعظم مقسم به؛ لقول تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الآية.

٣٩- نفي الإيمان نفيًا قاطعًا ومؤكدًا عمن لم يحكِّموا الرسول ﷺ وحكَّموا غيره؛ لأن الله تعالى أقسم بنفسه على نفي ذلك، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾.

٤٠- أن من لازم صحة الإيمان بعد تحكيم الرسول ﷺ أن يرضى المتحاكمون إلى الرسول ﷺ كل الرضى بحكمه؛ المحكوم عليه، والمحكوم له، وتنشرح صدورهم له، ويسلموا وينقادوا له ظاهرا وباطنًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾.

والمتأمل في واقع المسلمين اليوم- بسبب بعدهم عن دينهم يندى جبينه عندما يرى أنه قل أن يرضى أحد بما حُكِم به عليه شرعًا ويسلم وينقاد لذلك، بل تراه يُرعد ويُزمجر ويزبد، وربما أخذ يشتم في القضاة، وربما في القضاء بأكمله، وهذا إنما يدل على ضعف وازع الإيمان عند كثير من المسلمين وتعلقهم بالدنيا.

وقد أحسن القائل:

إذا المرء لم يرضى بما ربه وهبْ ... فلن يغنه مال وإن زاد ما كسبْ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٢)، وأبوداود في الصلاة (١٥٣٤)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

فكـــن راضـــيًا تـــرضي الإلـــه بـــأمره فدرب الرضـا نـور ونبـت الرضـا ذهـبْ

٤١- أن تحكيم الرسول ﷺ هو تحكيم لما أنزل الله، ولهذا اكتفى في الآية هنا بنفي الإيمان عمن لم يحكِّموا الرسول ﷺ.

٤٢- أن الشجار والاختلاف أمر لابد منه، ومن طبيعة البشر؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

٤٣- تعظيم الله تعالى لنفسه بالتكلم بضمير الجمع؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾، ﴿لَآتَيْنَاهُم﴾، ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ﴾.

٤٤- الامتنان على هذه الأمة بتيسير التكاليف الشرعية، ورفع الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم وأنه- عز وجل- لو كتب عليهم ما يشق عليهم من قتل النفوس، والخروج من الديار ما فعله إلا قليل منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ فليحمدوا الله وليشكروه على التيسير والتخفيف.

٤٥- أن التكليف بقتل الناس بعضهم بعضًا، أو الخروج من الديار من أشق ما يكون على النفوس؛ لأن الله مثَّل بهما في الآية.

٤٦- قبول توبة المنافق والكافر، وأن هؤلاء المذكورين لو فعلوا الذي يوعظون به من الرجوع إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، والإيمان بذلك لكان خيرًا لهم خيرية مطلقة، وأشد تثبيتًا لهم في دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٤٧- أن الأحكام الشرعية والأوامر والنواهي هي مواعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾.

٤٨- تفاوت درجات الإيمان وأنه يزيد وينقص، وتفاوت الناس في المنازل؛ لقوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٤٩- وعد الله تعالى لهؤلاء لو فعلوا ما يوعظون به بالأجر العظيم في الدنيا والآخرة، والهداية للصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾

وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

٥٠- عظم ما أعده الله تعالى من الأجر العظيم لمن أطاع الله ورسوله، وتكفله- عز وجل- به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فأضافه- عز وجل- إليه، ووصفه بأنه عظيم، وسماه أجرًا تكفلًا به لهم.

٥١- الترغيب في الانتفاع من المواعظ وفعل ما يوعظ به، وأنه خير للإنسان وأشد تثبيتًا له، وَعَد الله تعالى عليه بالأجر العظيم، وجعله سببًا للهداية للصراط المستقيم.

٥٢- أن الطاعة سبب للطاعة بعدها؛ لأن الله رتب على فعل المواعظ التثبيت على الحق والإيمان، والهداية للصراط المستقيم.

٥٣- أن صراط الله تعالى هو أقوم الطرق وأعدلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

٥٤- الإغراء بطاعة الله تعالى والرسول والحث عليها بالترغيب فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(١).

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل يحب القوم، ولما يلحق بهم؟ فقال ﷺ: «**المرء مع من أحب**»(٢).

٥٥- أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ بعطف اسم الرسول ﷺ على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك.

٥٦- أن النعمة الكبرى، والمنة العظمى أن يوفق الله تعالى الإنسان لطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦)، ومسلم في صفة الجنة (٢٨٣١).

(٢) سبق تخريجه.

الآية. كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

٥٧- أن الذين أنعم الله عليهم أربعة أصناف: النبيون والصديقون، والشهداء، والصالحون؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾. فهذه الآية تفسير؛ لقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

٥٨- أن النبيين أفضل من الصديقين، والصديقين أفضل من الشهداء، والشهداء أفضل من الصالحين؛ لأن الترتيب في الآية من الأعلى إلى الأدنى.

قال ابن القيم[1]: «فذكر مراتب السعداء وهي أربعة: بدأها بأعلاها مرتبة ثم الذين يلونهم، إلى آخر المراتب وهؤلاء هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه».

٥٩- الترغيب في الصديقية، والشهادة في سبيل الله، والصلاح.

٦٠- الثناء على هؤلاء الأصناف المذكورين، والتنويه بشأنهم، فياغبطة من أطاع الله ورسوله فكان معهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

٦١- الإشارة لاختيار الرفقة الصالحة، لما لهم من الآثار الطيبة على من رافقهم.

٦٢- أن ما حصل لهؤلاء الأصناف من نعم الله تعالى وما يحصل لمن أطاع الله ورسوله فكان معهم، كل ذلك من فضل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٦٣- أن ما يحصل للإنسان من نعم ليس بكده ولا كسبه، وإنما بفضل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤، الحديد: ٢١، الجمعة: ٤].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨).

٦٤- سعة علم الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ ومن ذلك علمه- عز وجل- بمن هو أهل لهذا الفضل فيمنحه إياه، ومن ليس أهلًا له فيمنعه منه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّۖ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾.

قوله: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ الحذر: الاحتراز والحيطة من الشيء المخيف، يقال: «حِذْر»، بكسر الحاء وسكون الذال، ويقال «حَذَر» بفتحها(١).

ومعنى ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾، أي: كونوا حذرين يقظين محترزين من عدوكم الظاهر منهم وهم الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٠١].

والباطن منهم وهم المنافقون، كما قال تعالى: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالمراد بقوله: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ أهل الكفر الظاهر، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ أهل الكفر الباطن، وهم المنافقون(٢) وهم أشد أهل الكفر عداوة للمؤمنين، وأشدهم عليهم خطرًا، ولهذا حصر العداوة فيهم في سورة المنافقين، فقال عنهم: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون: ٤](٣).

كما توعدهم بأشد أنواع العذاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٥١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٧٣)، «مدارك التنزيل» (ص١/ ٣٣٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٦).

(٣) يؤخذ الحصر هنا من تعريف طرفي الجملة، المبتدأ والخبر.

كما يجب أيضًا الاحتراز، وأخذ الحذر من أهل المعاصي، وأتباع الشهوات، الذين يريدون أن يكون الناس على ما هم عليه من الفسق، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] فإن كل صاحب بدعة أو معصية يحب غالبًا أن يكون الناس على ما هو عليه(١).

وأخذ الحذر يكون بالنسبة لكل شيء بحسبه يكون بالعلم والإيمان والقوة المعنوية، وبالسلاح والعدة والقوة المادية والعسكرية وغير ذلك.

أي: كونوا حذرين محترزين من عدوكم من غزوهم العسكري بالاستعداد ماديًا بالقوة العسكرية بشتى أنواع الأسلحة والتأهب بإعداد العدة وتكثير العدد وتأمين ثغور الدولة الإسلامية برًا وبحرًا وجوًا.

كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكونوا حذرين محترزين من غزوهم الفكري والأخلاقي بالاستعداد معنويًا بالتسلح والتحصن بالعلم الشرعي المستمد من الكتاب والسنة، وفهم المسلم لعقيدته، وما دعا إليه الإسلام من الأحكام والأخلاق والآداب الفاضلة والتمسك بثوابت الدين، عقيدةً وأحكامًا وأخلاقًا وآدابًا، و العضّ عليها بالنواجذ.

والحذر كل الحذر من دعوات الملحدين وأهل البدع والأهواء ودعاة الإباحية ونشر الرذيلة ومحاربة الفضيلة، مما يبث في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، لإفساد عقائد المسلمين وأخلاقهم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿فَٱنفِرُواْ﴾، النفور: هو الخروج للقتال، أو لغيره، و«النفار» و«النفور» في الأصل:

---

(١) إلا الأب فإنه وإن كان عنده بعض الفسق والمعاصي لا يحب أن يكون أولاده على ما هو عليه. إذا كان سليم الفطرة.

الفزع، قال تعالى: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، أي: نافرين.

ويوم النفر: يوم ينفر الناس من منى، أي: يخرجون منها.

والنفير: اسم للخروج لقتال الأعداء، وللقوم الذين ينفرون. ومنه قولهم: «فلان ليس في العير ولا في النفير».

والمعنى: فاخرجوا وانهضوا لقتال الأعداء، قال ﷺ: «**وإذا استنفرتم فانفروا**»(١)، أي: إذا استنفركم الإمام، أي: طلب منكم النفور والخروج للقتال، فانفروا، أي: اخرجوا(٢).

﴿ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾، ﴿ثُبَاتٍ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾ حالان من الضمير «الواو» في «انفروا».

و﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثبة، وهي الجماعة، والسرية والعصبة، أي: انفروا جماعات متفرقة، وسرايا(٣). يدل على هذا قوله بعد: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾.

قال زهير(٤):

لقد أغدو على ثبة كرام ... نشاوى واجدين لما نشاء

﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾، أي: مجتمعين، جيشا واحدًا وكتيبة واحدة.

والمعنى: أخرجوا لقتال الأعداء جماعات متفرقة وسرايا، أو اخرجوا جميعًا جيشًا واحدًا، فتارة يخرجون جماعات وسرايا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وتارة يخرجون جميعًا جيشا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]. وذلك حسب الداعي والحاجة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ۖ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «النهاية» مادة «نفر».

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٣٦-٥٣٧)، «معاني القرآن وإعرابه للزجاج» (٢/ ٧٩)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٢)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٩٠).

(٤) انظر: «ديوانه» (٩٦)، «مجاز القرآن» (١/ ١٣٢)، «اللسان» مادة «ثبا»، «نشا».

شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾، الواو: استئنافية، «إن»: حرف توكيد ونصب، «منكم»: جار ومجرور، متعلق بمحذوف في محل رفع خبر «إن» مقدم، و«من»: للتبعيض، أي: وإن بعضكم، والخطاب للمؤمنين المخاطبين في أول الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾.

﴿لَمَن﴾ اللام لام الابتداء، وتفيد التوكيد، و«من» اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم «إن» مؤخر، أي: وإن منكم للذي.

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ اللام موطئة للقسم، و﴿يبطئن﴾ جواب القسم، والتقدير: وإن منكم للذي والله ليبطئن(١).

ومعنى «يبطئن»، أي: يدعو إلى التباطؤ، والتباطؤ والتبطئة: التأخر والتثاقل عن الخروج للقتال.

والمعنى: وإن بعضكم للذي يبطئ نفسه ويتأخر عن الخروج للقتال في سبيل الله، ويبطئ غيره ويثبطه بدعوته إياه إلى التباطؤ والتأخر عن الخروج، فهو يبطئ نفسه وغيره بتخذيله عن الخروج للقتال.

وأكثر المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ هم المنافقون، وإنما عدوا من المؤمنين في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾؛ لأنهم يعدون من المؤمنين حسب الظاهر؛ لأنهم يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، وإلا فهم في الحقيقة ليسوا من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤].

ويدل على أن المراد بالآية المنافقون قوله بعده: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٧٥-٢٧٦)، «جامع البيان» (٨/ ٥٣٩)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٨٠)، «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٧٠)، «الكشاف» (١/ ٢٨٠).

وقيل: المراد بذلك المنافقون وضعفة الإيمان[١].

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾، الفاء عاطفة، و«إن»: شرطية، «أصابتكم»: فعل الشرط، مبني على الفتح في محل جزم.

أي: وإن أصابتكم مصيبة، من قتل أو جراح أو ذهاب مال وغلبة العدو لكم؛ لما لله من الحكمة؛ لأن نتيجة القتال الظاهرة إما أن يُغلب المقاتل، وإما أن ينتصر.

قال ابن عطية[٢]: «وإنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد».

﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ جملة جواب الشرط.

﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ «إذ» تأتي ظرف زمان في الأصل، وتأتي للتعليل، وهو المراد هنا، والتقدير: حيث لم أكن معهم شهيدا، أو لأني لم أكن معهم شهيدا[٣].

أي: قال هذا المبطئ؛ فرحًا كما ذكر الله عن الكفار ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ومغتبطًا بأنه لم يكن حاضرًا مع المجاهدين، ومفتخرًا عليهم ومحتقرًا لهم ومتشمتًا بهم لما أصابهم في سبيل الله، ومشككًا فيما أعد الله لهم من الجزاء: قد أنعم الله علي حيث لم أكن معهم حاضرًا المعركة فيصيبني ما أصابهم.

قال الطبري[٤]: «يقول: فإن أصابتكم هزيمة، أو نالكم قتل أو جراح من عدوكم ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ فيصيبني جراح أو ألم أو قتل، وسره تخلفه عنكم شماتة بكم؛ لأنه من أهل الشك في وعد الله الذي وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيله من الأجر والثواب، وفي وعيده، فهو غير راج ثوابا ولا خائف عقابا».

وقال ابن كثير[٥]: «أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يَعُدّ ذلك من نعم الله

---

(١) انظر: «جامع البيان «(٨/ ٥٣٨-٥٣٩)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٥١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٣)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٩٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣١٣).

(٢) في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٣).

(٣) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٠٧).

و انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (١/ ٥١٨ تفسير سورة النساء).

(٤) في «جامع البيان» (٨/ ٥٣٨).

(٥) في «تفسيره «(٢/ ٣١٣).

عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل».

وقال السعدي[١]: «رأي من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضى الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه إن استراح قليلًا، فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين من الأجر العظيم».

وعلى القول بأنها في المنافقين فإنه يعتقد أن عدم شهوده المعركة نعمة من الله عليه، ويقول هذه المقالة معتقدًا لها ومتشمتا بالمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَئِنْ ﴾، الواو عاطفة واللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن، و«إن» شرطية، ﴿أَصَابَكُمْ ﴾ فعل الشرط.

﴿فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾، الفضل: الزيادة، أي: ولئن أصابكم فضل من الله من نصر وظفر وغنيمة، وتغلب على عدوكم.

﴿لَيَقُولَنَّ ﴾ جواب القسم؛ لأنه تقدم على الشرط؛ ولهذا اقترن باللام.

والقاعدة أنه إذا اجتمع شرط وقسم، فالجواب للمتقدم منهما، ويحذف جواب المتأخر، كما قال ابن مالك[٢]:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

وفاعل: «يقولن» ضمير مستتر تقديره: هو، يعود على «من» في قوله: ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، أي: ليقولن هذا المبطئ.

﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ هذه الجملة معترضة بين الفعل: ﴿لَيَقُولَنَّ ﴾ وبين

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٩٩).

(٢) انظر: «شرح ابن عقيل» (٤/ ٤٣).

مقوله جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾[١].

والغرض من هذه الجملة المعترضة: بيان أن هذا المبطئ قد أصبح وكأنه من أبعد الناس عن المؤمنين، وقد نسي المودة التي بينه وبينهم، بل قد قطعها، ولم يُقم لها أيَّ اعتبار حتى في حال نصرهم على عدوهم، وإنما تمنى أن يكون معهم؛ لأجل الحصول على الفضل فقط من النصر والغنيمة، وفي هذا دلالة على ضعف إيمانه، أو فقدانه وتعجب من حاله، أو تهكم به وبحاله[٢].

﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة «كأَنَّ»، واسمها ضمير الشأن محذوف، أي: كأَنَّه[٣].

وجملة ﴿لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ في محل رفع خبر «كأَنْ».

قرأ عاصم في رواية حفص، ورواية البرجمي عن أبي بكر، وابن كثير، ويعقوب ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ﴾ بالتاء مراعاة للفظ مودة.

وقرأ الباقون: «يكن» بالياء على اعتبار المعنى، وهو «الود»[٤].

والمودة والود في الأصل: خالص الحب، أي: كأن لم تكن بينكم وبينه محبة وصحبة وارتباط، وكأنه بعيد منكم، أي: يشبه بهذه المقالة من لا يربطه بكم أي رابطة.

وقال ابن كثير[٥]: «أي كأنه ليس من أهل دينكم».

﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ الجملة مقول لقوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾.

و«يا»: للتنبيه، وقيل: للنداء، والمنادى محذوف أي: يا قوم[٦].

والمعنى: أتمنى أني كنت معهم، أي: حاضرًا القتال.

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٨٠)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٢)، «الدر المصون» (٢/ ٣٩١).

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٢٨٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٣٣٣)، «البحر المحيط» (٣/ ٢٩١).

(٤) انظر: «المبسوط» (ص١٥٧)، «العنوان» (ص٨٤)، «تلخيص العبارات» (ص٨٢)، «الإقناع» (٢/ ٦٣٠)، «النشر» (٢/ ٢٥٠).

(٥) في «تفسيره» (٢/ ٣١٤).

(٦) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٩١).

﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، الفاء للسببية، والفعل «أفوز» منصوب بأن مضمرة بعدها وجوبًا، والتقدير: «فأن أفوز»؛ لأنه جواب التمني(١).

ومعنى ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، أي: فأربح ربحا عظيمًا.

والمعنى: أن هذا المبطئ إلى الخروج عن القتال بنفسه وبدعوة غيره إلى التباطؤ إذا أصاب المسلمين المقاتلين فضل من الله من نصر وغنيمة تمنى على الله الأماني الباطلة بأن كان معهم، ليفوز بهذا الفضل من النصر والغنيمة ونحو ذلك؛ حسدًا منه لهم، ورغبة منه في حطام الدنيا الفاني، وأنه أكبر مقصوده وغاية مراده(٢).

كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقال ﷺ عنهم: «**ولو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين(٣) حسنتين لشهد العشاء**»(٤).

وما علم هذا القائل أن الفوز الأعظم إنما هو بطاعة الله ورسوله ودخول الجنة والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

بل ذكر الله عن المنافقين أنهم يستآؤون عند حصول الفضل والخير للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٧٦)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٨١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٤٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣١٤).

(٣) عرقا سمينا: أي عظيما سمينا، أو مرماتين حسنتين، المرماة ما بين ظلفي الشاة من اللحم. انظر: «النهاية» مادة «عرف» ومادة «رمى».

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥١)، والنسائي في الإمامة (٨٤٨)، ومالك في النداء للصلاة (٢٩٢)، والدارمي في الصلاة (١٢١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ﴾، الفاء استئنافية، واللام: لام الأمر، وهي في الأصل مكسورة، وإنما سكنت هنا؛ لوقوعها بعد الفاء(١).

وقيل: إن قوله: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ﴾ جواب شرط مقدر، تقديره: إن لم يقاتل في سبيل الله أولئك المبطئون، فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. كقوله: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ﴾، وقدم على الفاعل، لبيان أن قتالهم لمقصد شريف عظيم، وهو كونه في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه وشرعه.

قال ﷺ لما سئل عن الرجل يقاتل؛ حمية، والرجل؛ يقاتل شجاعة؛ والرجل يقاتل؛ ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل؛ لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٢).

والمعنى: ليكون الدين كله لله، ظاهرًا على جميع الأديان، فإما أن يدخل فيه هؤلاء الكفار المقاتَلون ويؤمنوا، وإما أن يذلوا بأداء الجزية، وإما أن يقتلوا، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، الذين: اسم موصول، مبني على الفتح في محل رفع فاعل «يقاتل»(٣).

---

(١) تسكن اللام إذا وقعت بعد الفاء أو الواو أو ثم، كما تقدم بيانه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٠٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٧٧).

﴿يَشْرُونَ﴾، أي: يبيعون[١]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. أي: يبيع نفسه طلبًا لمرضاة الله تعالى، وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، أي: باعوه، وقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ما باعوا به أنفسهم.

يقال للبائع: شرى داره بمعنى باعها فهو شار.

ويقال للمشتري «الآخذ» اشترى دارًا آي: ابتاعها، ودفع قيمتها، وأخذ الدار، فهو مشترٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

قال الطبري[٢]: «وكلام العرب- فيما بلغنا- أن يقولوا: «شريت» بمعنى: بعت، و«اشتريت» بمعنى: «ابتعت» وربما استعمل «اشتريت» بمعنى: بعت، و«شريت» في معنى: ابتعت، والكلام المستفيض فيهم هو ما وصفت».

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ هي هذه الدار التي نحن فيها، سميت دنيا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن؛ ولأنها دون الآخرة من حيث المنزلة، أي: أقل منها، بل لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

ولأنها دنيئة حقيرة، كما قال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[٣].

ومعنى الآية: فليقاتل في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، فيستبدلون الحياة الدنيا الفانية، ويعتاضون عنها بالآخرة الباقية، وهم الذين عرفوا في الحقيقة فرق ما بين الدارين، فآثروا الباقي على الفاني، وربحوا الصفقة قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٤٢)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٨١).

(٢) في «جامع البيان» (٢/ ٣٤١).

(٣) سبق تخريجه.

[الأعلى: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد ٢٠].

وقيل: إن المعنى فليقاتل المقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة وهم الكفار. وعلى هذا فيكون الاسم الموصول «الذين» في محل نصب مفعول به، ومعنى ﴿يَشْرُونَ﴾، أي: يبتاعون.

قال ابن كثير[١]: «﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾، أي: المؤمن النافر ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم».

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الواو: استئنافية، و«من»: اسم شرط جازم، ﴿يُقَٰتِلْ﴾ فعل الشرط، مجزوم، وعلامة جزمه السكون.

﴿فَيُقْتَلْ﴾ معطوف على «فعل الشرط»، ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ «أو» عاطفة و«يغلب» معطوف على «يقتل».

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء لوجود «سوف».

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي في رواية قتيبة، وخلف: «فسوف يؤتيه» بالياء، وقرأ الباقون: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ بالنون[٢].

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: ثوابا عظيمًا، وسمى الله الثواب أجرًا؛ لأنه عز وجل تكفل به، والتزم بإثابة المقاتل، وأوجب ذلك على نفسه، كما أوجب على المستأجر إعطاء الأجير أجره.

﴿عَظِيمًا﴾، أي: لا يُقَدَّر قدر عظمته إلا من تفضل به، وهو الله العظيم سبحانه وتعالى، قال الطبري[٣]: «وليس لما سمى الله جل ثناؤه ﴿عَظِيمًا﴾ مقدار يعرف مبلغه عباد الله».

والمعنى: أن أي إنسان يقاتل في سبيل الله، أي: لتكون كلمة الله هي العلياء، فهو رابح في الحالين، فإن قتل فهو شهيد، له ما أعد الله للشهداء من الأجر العظيم، كما قال تعالى:

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣١٤).

(٢) انظر: «المبسوط» (ص١٥٨)، «الكشف» (١/ ٣٩٧)، «الإقناع» (٢/ ٦٣١)، «النشر» (٢/ ٢٥١).

(٣) في «جامع البيان» (٨/ ٥٤٢).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١].

وإن غَلَب وانتصر، فله مع الفوز بالنصر الأجر العظيم، الذي أعده الله للمجاهدين في سبيله، ولا يبطل غلبه أجره، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥- ٩٦].

وقال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»(١).

فالمجاهد في سبيل الله رابح بكل حال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، أي: الشهادة في سبيل الله، أو النصرة والغلبة والغنيمة.

قال ﷺ: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي وتصديق برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»(٢).

وفي حديث خباب- رضي الله عنه- قال: «هاجرنا مع النبي ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد، فلم نجد ما نكفنه به إلا بردة إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه. فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجليه من الإذخر. ومنا من أينعت له ثمرته، فهو يهد بها»(٣).

ولا يلزم من قوله: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أن يكون أجرهما سواء، بل لكل منهما أجر عظيم، وإلا فمعلوم أن أجر الشهيد أعظم، ودرجته أرفع، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٦)، وفي الجهاد والسير (٢٧٩٠)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٢٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة البخاري في الإيمان (٣٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٧٦)، ومسلم في الجنائز (٩٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لزيادة الحث على القتال.

والواو: عاطفة، و«ما»: للاستفهام، ومعناه: الإنكار، وفيه: معنى التعجب من حالهم والحض والتحريض على القتال والحث عليه[1].

﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للذين لم يخرجوا للقتال في سبيل الله[2].

ويحتمل أن يكون لهم ولمن خرج على معنى زيادة التحضيض، أي: ما الذي يبرر عدم خروجكم للقتال في سبيل الله.

ومعنى ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في إعلاء كلمة الله.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوف على ما سبق؛ إما على لفظ الجلالة «الله»، والتقدير، في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين.

وإما: معطوف على «سبيل» والتقدير: في سبيل الله وفي المستضعفين[3].

والآية تحتمل هذا وهذا، ولا يختلف المعنى على كلا التقديرين.

والمعنى: ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل استنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

وفي هذا تحريض على القتال في سبيل الله، بل إن في هذا ما يوحي بتَعيُّن القتال عليهم، وتَوَجُّه اللوم العظيم والإنكار الشديد على من تركه.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ هم الضعفة، الذين استضعفهم الكفار، فاستذلوهم ابتغاء فتنتهم وصدهم عن دينهم، وآذوهم ونالوهم بالعذاب.

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٤٥)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٣٣)، «تفسر ابن كثير» (٢/ ٣١٤).

(٢) انظر: «البيان» لابن الأنباري (١/ ٢٦٠)، «الدر المصون» (٢/ ٣٩٤).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٤٣-٥٤٥)، «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٨١-٨٢)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧١).

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ جار ومجرور، والمراد بالرجال الذكور البالغون؛ لذكر «الولدان» بعد ذلك.

﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ معطوف على ما سبق؛ يحتمل أن يكون معطوفا على الرجال، فيكون المعنى: والمستضعفين من الرجال، ومن النساء، أي: والمستضعفات من النساء، وهن اللاتي لم يهاجرن، وبقين تحت استذلال الكفار وأذاهم، دون اللاتي هاجرن وسلمن من استذلال الكفار وأذيتهم، فهؤلاء لم يستضعفهن الكفار.

وهذا أقرب؛ لأن الواقع كذلك، فمن النساء من هاجرن، ومنهن من لم يستطعن الهجرة.

ويحتمل أن يكون معطوفا على ﴿المستضعفين﴾ فيكون المعنى: أن النساء كلهن مستضعفات ولا تلزمهن الهجرة.

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، والولدان: جمع «وليد»، وهم: الصبيان.

والمراد بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان من كان بمكة من المؤمنين، تحت إذلال كفار قريش وأذاهم، لا يستطيعون حيلة للتخلص مما هم فيه، ولا يهتدون سبيلًا للهجرة.

وهم الذين كان يدعو لهم النبي ﷺ بقوله: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين»[١].

قال ابن عباس: «كنت أنا وأمي من المستضعفين»[٢].

وفي رواية: «كنت أنا وأمي ممن عذر الله، أنا من الولدان، وأمي من النساء».

قال ابن كثير[٣]: «قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ

---

(١) أخرجه البخاري في الآذان (٨٠٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٥)، والنسائي في التطبيق (١٠٧٤)، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٢)، وابن ماجه في الصلاة (١٢٤٤)، والدارمي في الصلاة (١٥٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٧)، وفي تفسير سورة النساء (٤٥٨٧).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣١٤).

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين بالمقام بها».

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة لما قبله من المعطوف والمعطوف عليه، أي: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الذين من صفتهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، لا وسيلة لهم ولا حيلة إلا الدعاء، وأنعم به من وسيلة إذا ضاقت الحيل وانقطعت الأسباب.

﴿يَقُولُونَ﴾، أي: يقول كل واحد منهم، أو يقولون بمجموعهم.

﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا، أي: ينادون ربهم باسم «الرب»، وصفة «الربوبية» التي معناها الخلق والملك والتدبير، والتي أكثر دعاء الأنبياء والصالحين بها.

﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، القرية: مأخوذة من القري، وهو الجمع؛ لأنها تجمع أُناسًا كثيرين.

والمراد بالقرية هنا القرية التي هم ساكنوها وباقون فيها وهي مكة، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، يعني مكة، وسميت مكة قرية، وهي كبرى المدن آنذاك، بل هي أم القرى، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

قال الطبري(١): «والعرب تسمي كل مدينة قرية».

﴿ٱلظَّالِمِ﴾ اسم فاعل، وهو نعت للقرية(٢)، ولهذا أتبع لها في الإعراب. وهو نعت سببي لا حقيقي(٣).

والنعت السببي هو ما كان فيه الوصف قائمًا بغير المنعوت، لما له به علاقة، كما في قولهم: مررت بالرجل الكريم أبوه، فالكريم تابع من حيث اللفظ للرجل فهو نعت له، وهو في الحقيقة قائم بقوله «أبوه» ووصف له، لعلاقته بالرجل فضمير الهاء في قوله:

---

(١) في «جامع البيان» (٨/ ٥٤٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٨٢)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٣).

(٣) النعت الحقيقي هو ما كان فيه الوصف قائما بالموصوف نحو مررت بالرجل الكريم.

«أبوه» يعود على الرجل، كذلك هنا «الظلم» ليس قائمًا بالقرية، وإنما هو قائم بأهلها في الحقيقة، وإنما جعل «الظالم» نعتا للقرية لعلاقة المنعوت وهو «أهلها» بالقرية؛ لأن «ها» في قوله «أهلها» تعود على القرية(١).

قال الطبري(٢): «وخفض «الظالم» لأنه صفة «الأهل» قد عادت «الهاء والألف» اللتان فيه على القرية، وكذلك تفعل العرب إذا تقدمت صفة الاسم الذي معه عائد الاسم قبلها أتبعت إعرابها إعراب الاسم الذي قبلها، كأنه صفة له، فتقول: مررت بالرجل الكريم أبوه».

وقال الزجاج(٣): «ووجه «الظالم» لأنه صفة يقع موقع الفعل تقول: مررت بالقرية الصالح أهلها؛ أي: التي صلح أهلها».

﴿أَهْلُهَا﴾ «أهل»: فاعل لاسم الفاعل «الظالم»، و«أهل» مضاف، و«ها» مضاف إليه. والمراد بأهلها كفار قريش.

والمعنى: أخرجنا من هذه القرية التي ظَلَمَنا أهلها، حيث كان كفار قريش يسومون هؤلاء المستضعفين ويذيقونهم سوء العذاب، ويفتنونهم عن دينهم ويمنعونهم من الهجرة والخروج من مكة.

وأصل الظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهؤلاء المذكورون جمعوا بين الظلم لأنفسهم بالشرك بالله، وبين الظلم لغيرهم بأذيتهم لمن آمن بالله ومنعه من الهجرة والفرار بدينه.

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ هاتان الجملتان معطوفتان على قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾، فهما من تمام مقالة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان في

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٧٧)، «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٧١)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٣)، «البيان» لابن الأنباري (١/ ٢٦٠)، «الدر المصون» (٢/ ٣٩٥).

(٢) في «جامع البيان «(٨/ ٥٤٣).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٨٢).

دعائهم ربهم، أي: من جملة مقول القول في قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ الآية.

﴿وَٱجْعَل﴾ بمعنى: صير، تنصب مفعولين، المفعول الأول في الجملتين قوله: ﴿لَّنَا﴾، والمفعول الثاني في الجملة الأولى ﴿وَلِيًّا﴾، وفي الجملة الثانية: ﴿نَصِيرًا﴾.

والمراد بالجعل هنا: الجعل الشرعي، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك. ﴿وَلِيًّا﴾ الولي هو من يتولى غيره، أي: اجعل لنا من لدنك وليا يتولانا ويلي أمورنا، ويجلب لنا النفع.

قال الطبري(١): «واجعل لنا من لدنك وليًا يلي أمرنا بالكفاية مما نحن فيه من فتن أهل الكفر به».

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، النصير: هو من ينصر على الأعداء، أي: واجعل لنا من لدنك نصيرًا، ينصرنا على أعدائنا، ويدفع عنا الضر، وينقذنا من هذه القرية، ويخلصنا من هذا الظلم.

و«الولي والنصير «من الكلمات المترادفة كالإيمان والإسلام، و«الفقير والمسكين» و«البر والتقوى» ونحو ذلك، فإذا اجتمع الولي والنصير كما في هذه الآية حمل «الولي» على من يجلب الخير والنفع، وحمل «النصير» على من يدفع الشر والضر، وإذا افترقا حمل كل منهما على المعنيين معًا.

وقد استجاب الله عز وجل لهؤلاء المستضعفين، فيسر لبعضهم الهجرة إلى المدينة حيث القوة والمنعة، وبقي بعضهم إلى الفتح فجعل الله لهم خير ولي ونصير، وهو رسول الله ﷺ، فتولاهم أحسن التولي، ونصرهم أتم النصر.

ولما خرج ﷺ من مكة ولى عليهم عتاب بن أسيد، فتولاهم أحسن التولي، وانتصر لضعيفهم من قويهم، كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ

---

(١) في «جامع البيان» (٨/ ٥٢٣).

(٢) انظر: «الوسيط» (٢/ ٨١)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٤٦).

أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

في الآية السابقة أنكر سبحانه وتعالى على الذين لا يقاتلون، ووبخهم، وتعجب من حالهم، ثم أتبع ذلك ببيان فرق ما بين المقاتلين، فالذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله؛ أي: في دينه وشرعه ولإعلاء كلمته، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت.

ثم ختم تعالى الآيات بالأمر بقتال أولياء الشيطان، وبيان ضعف كيده، وأنه لا يقوى أمام قوة الحق، وهذا مما يقوي قلوب المؤمنين وعزائمهم على القتال في سبيل الله.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في هذا ثناء على المؤمنين وتنويه بشأنهم، وبيان سمو هدفهم في قتالهم؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

كما أن فيه إغراءً وحثًّا للمؤمنين على الجهاد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ في هذا ذم للذين كفروا، وبيان حقارة الهدف الذي يقاتلون من أجله، وهو نصرة الطاغوت.

والكفر معناه: الستر والتغطية والجحود. ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، أي: أعجب الزراع(٢).

ومنه سمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب.

ومنه سُمي «الكَفْر» «أكمام طلع النخل»؛ لأنه يستر ما بداخله من الطلع(٣).

وهو إنكار وجحود وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وجحود شريعته والتكذيب بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر(٤).

والكفر ينقسم إلى نوعين: كفر مخرج من الملة، وهو خمسة أقسام، كما ذكر أهل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠).

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «كفر».

(٤) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٤٦)، «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ٨٦).

العلم، الأول: كفر التكذيب، والثاني: كفر الاستكبار والإباء مع التصديق، والثالث: كفر الشك، والرابع: كفر الإعراض، والخامس: كفر النفاق.

والنوع الثاني من أنواع الكفر: كفر أصغر، لا يخرج من الملة، وهو كفر النعمة(١).

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾، أي: في طريق الطاغوت ونصرته.

والطاغوت: صيغة مبالغة من الطغيان، وهو الزيادة وتجاوز الحد، والتاء فيه مزيدة للمبالغة كالتاء في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وكالهاء في قول «علَّامة».

والطاغوت: يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧].

والطاغوت في الشرع: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله(٢)، فيدخل فيه الشيطان وغيره؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وكل من قاتل في غير سبيل الله فهو مقاتل في سبيل الطاغوت، سواء كان قتاله لحمية أو عصبية أو لمغنم أو رياء، أو نصرة للباطل أو غير ذلك؛ لأن الله قابل بين سبيله عز وجل، وسبيل الطاغوت، فدل على أن كل قتال في غير سبيل الله تعالى فهو قتال في سبيل الطاغوت، وسبيل الله واحد، وسُبُل الطاغوت وطرقه متعددة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، وهذه الجملة: توكيد وتحريض وتهييج للمؤمنين على قتال أعداء الله.

أي: فقاتلوا أيها المؤمنون المقاتلون في سبيل الله ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

---

(١) انظر: «الدر السنية»، «دلائل التوحيد» (ص٢٢-٢٣) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٨٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٧)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٤٧)، «لسان العرب» مادة «طغى».

و﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: أنصاره وأعوانه وحزبه، الذين اتخذوه وليًا من دون الله، فقاتَلوا في سبيله وهم الكفار.

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كيد الشيطان: تدبيره الأذى والشر بمكر وخديعة وخفية واحتيال(١).

﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾: كان مسلوبة الزمن، أي: إن كيد الشيطان ومكره لم يزل ضعيفًا لا يقوى على مقاومة الحق وأهله أبدًا.

وإذا كان كيد الشيطان ضعيفًا، وهو ما يخفيه من محاولة المكر بالمؤمنين وخديعتهم فما يدبره ظاهرًا أضعف من باب أولى.

ولهذا لما رأى الملائكة يوم بدر خاف أن يأخذوه فهرب(٢) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وإذا سمع الأذان أدبر وله ضراط كما قال ﷺ(٣).

كما أنه يوسوس للإنسان، فإذا ذكر الله خنس، ولهذا سُمي بالخناس، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

قال ﷺ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»(٤).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٧/ ١٥٦، ٨/ ٥٤٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢١٣)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٤٧).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٥٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٦-١٩).

(٣) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان، وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل، حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه...» الحديث أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٨)، ومسلم في الصلاة (٣٨٩)، وأبو داود في الصلاة (٥١٦)، والنسائي في الأذان (٦٧٠)، والترمذي في الصلاة (٣٩٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢١٦).

(٤) كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أحدنا يجد في نفسه، يعرض بالشيء لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: «الله أكبر الله أكبر، الله =

وفي ختام الآيات بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ تقوية لقلوب المؤمنين، وتنشيط لعزائمهم، وإشارة إلى أن الغلبة للحق وأهله؛ لأن كيد الشيطان ومكره ضعيف، لا يقوى على مقاومة الحق، ولا يثبت أمامه أبدًا[1].

قال في «فتح الرحمن»[2]: «ووصف كيد الشيطان بالضعف، بينما قال في النساء حاكيا ما قاله العزيز ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، قال: مع أن كيد الشيطان أعظم؛ لأنه ضعيف بالنسبة لنصرة الله لأوليائه، وكيد النساء عظيم بالنسبة للرجال».

الفوائد والأحكام:

١- التنبيه والعناية والاهتمام بهذه الأحكام المذكورة في الآيات؛ لأن الله صدر الخطاب فيها بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٣- الحض والحث على الاتصاف بهذا الوصف.

٤- الحض والحث على امتثال ما ذكر بعد هذا الوصف.

٥- أن امتثال ما ذكر بعد هذا الوصف يعد من مقتضيات الإيمان.

٦- أن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٧- أنه يجب على المؤمنين أخذ الحذر والحيطة من أعدائهم من الكفار والمنافقين والفاسقين وغيرهم، والاحتراس منهم بشتى أنواع الاحتراس في جميع أمور دينهم ودنياهم؛ عسكريًا وعقائديًا وعلميًا وأخلاقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾.

٨- ينبغي للمؤمن أن يكون كيِّسًا فطنًا حازمًا، حذرًا من خديعة أعدائه وتربصهم، لا يترك لهم فرصة يتسللون منها إليه؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾.

=

أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» أخرجه أبو داود في الأدب (٥١١٢) وصححه الألباني.

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١١٧)، «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٠٣).

(٢) (١/ ١١٨) بتصرف.

وليس في الأمر بأخذ الحذر ما ينافي التوكل، بل هو أمر بالأخذ بالأسباب مع التوكيل على الله والاعتماد عليه.

قال القرطبي(١): «ولا ينافي هذا التوكل، بل هو مقام عين التوكل».

وأيضًا فإن الحذر لا يدفع القدر، فما قدره الله كائن لا محالة، خلافًا للقدرية الذين يقولون: إن الحذر يدفع ويمنع من مكائد الأعداء، ولو لم يكن كذلك ما كان لأمرهم بأخذ الحذر معنى. وهذا باطل؛ لأن أخذ الحذر أخذ بالأسباب التي أمر الله بفعلها، وقد يندفع بها كيد الأعداء بإذن الله، وقد لا يندفع، وكل ذلك بتقدير الله.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال ﷺ لابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(٢).

٩- وجوب النفور والخروج للجهاد في سبيل الله جماعات وسرايا، أو جميعًا جيشا واحدًا حسب الداعي؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ لأن قوله: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أمر لمن نفروا أن ينفروا على هذه الكيفية متفرقين ومجتمعين، وليس أمرًا للمؤمنين جميعًا بالنفور.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية توجيه للمؤمنين: أنه لا ينبغي أن ينفروا كافة(٣).

١٠- أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فقوله: ﴿ثُبَاتٍ﴾ معناه: متفرقين، أي: جماعات

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن صحيح». وهكذا صحح إسناده أحمد شاكر في تخريجه للمسند.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧٢).

جماعات؛ لقوله بعده ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، وذلك بذكر الشيء وضده.

وقد قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

١١- أن من بين المؤمنين أناسا من المنافقين وضعاف الإيمان، يدعون إلى التباطؤ عن الخروج إلى القتال يبطئون أنفسهم وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾.

١٢- ذم التباطؤ والتثاقل عن فعل الواجبات، وأنه من أسباب النفاق وعلاماته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الآية، وهذا الوصف المذكور في الآية لا يصدر غالبًا إلا من منافق، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

فينبغي للمؤمن المبادرة والمسارعة على امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، وليحذر من التباطؤ والتثاقل عن الخير، فإنه من صفات المنافقين.

١٣- أن نظرة هذا الصنف المبطئ عن القتال نظرة دنيوية مادية فقط، فإذا أصاب المقاتلين في سبيل الله مصيبة من قتل ونحوه أظهر الشماتة بهم، وفرح وافتخر أنه لم يكن معهم، فيصيبه ما أصابهم. وإذا أصابهم فضل من الله من نصر وغنيمة تمنى أنه كان حاضرًا القتال معهم، لينال هذا العرض الدنيوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

وهذا يدل على التذبذب، كما ذكر الله عن المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣].

١٤- أن هذا الصنف المبطئ لضعف إيمانه أو انعدامه يعتقد أن عدم حضوره المعركة نعمة من الله حيث سلم أن يصيبه ما أصاب المقاتلين، والحقيقة أنه لو كان معهم، ومؤمنا حقًا لفاز بإحدى الحسنيين: إما النصر والأجر، وإما الشهادة ونعم الذخر.

١٥- تسمية ما يصيب المقاتلين في سبيل الله من قتل وسلب مال ونحوه: مصيبة. وإن كانت العقبى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾.

١٦- في ذكر المصيبة دون نسبتها إلى الله في قوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ وذكر الفضل منسوبًا إلى الله في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. إشارة إلى معنى

الحديث: «والشر ليس إليك»(١).

كما قال تعالى: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فنسب عز وجل النعمة إلى نفسه مباشرة، ونسب الغضب لما لم يسم فاعله(٢).

١٧- تسمية العلاقة بين المؤمنين ومن بين ظهرانيهم من المنافقين بأنها مودة بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾، وإن كانت حسب الظاهر فقط أي: بمعنى الصحبة.

وإلا فإن الله قد قطع المودة الحقيقية بين المؤمنين والمنافقين وسائر الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

١٨- أن هؤلاء المبطئين الذين يفرحون بعدم شهود القتال إذا أصاب المقاتلين مصيبة، ويتمنون أنهم معهم عندما يصيبهم فضل من الله من نصر وغنيمة قد تناسوا ما بينهم وبين المؤمنين من مودة، بل قد قطعوها حتى في حال انتصار المؤمنين على عدوهم، فصرحوا بأنهم يتمنون لو حضروا القتال لأجل هذا الفضل فقط، لا لمودة بينهم وبين المؤمنين فحالهم أشبه بحال من لا يربطه بالمؤمنين أي علاقة أو رباط.

١٩- أن المؤمن حقًا هو من يشارك المؤمنين في آمالهم وآلامهم، في أفراحهم وفي أتراحهم، فيتألم لمصابهم، ويفرح لنصرهم وفوزهم، سواء شهد المعركة أو لم يشهدها، قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(٣).

٢٠- أن نظر هذا المبطئ نظر قاصر مادي بحت، حيث يرى أن الحصول على شيء من النصر والغنيمة هو أعظم الفوز؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فغاية ما يتمناه الحصول على

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢١)، والدارمي في الصلاة (١٢٣٨)، من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- مطولًا.

(٢) انظر تفسير الفاتحة.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

شيء من هذه الغنيمة.

٢١- وجوب القتال في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والأمر للوجوب والأصل في الجهاد في سبيل الله أنه فرض كفاية، وقد يتعين كما إذا داهم العدو المسلمين في بلدهم، أو كان الشخص في صف القتال أو عيَّنه الإمام، أو نحو ذلك.

٢٢- وجوب إخلاص النية في القتال؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله، قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

٢٣- الحث على القتال في سبيل الله والترغيب في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، فهم لصدق إيمانهم وقوة يقينهم، وثبات عزائمهم، ورجحان عقولهم، وعلو هممهم، وتمام معرفتهم أن ما عند الله خير وأبقى يقدمون الباقي على الفاني، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال ﷺ فيما رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها. والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة(٢) خير من الدنيا وما عليها»(٣).

٢٤- أن شرى بمعنى «باع»؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

٢٥- الإشارة إلى حقارة الدنيا وعلو منزلة الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ لأن هذا في مقام التنويه بشأن المقاتلين في سبيل الله، وأنهم يبيعون الدنيا الحقيرة الفانية بالآخرة الباقية كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الروحة الخروج آخر النهار، والغدوة: الخروج أول النهار. انظر: «النهاية» مادة «غدا» ومادة «روح».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٨١)، والنسائي في الجهاد (٣١١٨)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٠).

ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

٢٦- أن المقاتل في سبيل الله فائز رابح بكلا الحالين: إن قُتِل أو غَلَب، فإن قتل فله أجر المجاهد والشهيد. وإن غَلَب فله مع النصر والغنيمة أجر المجاهد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

٢٧- تعظيم الله عز وجل لنفسه، وأنه المستحق سبحانه للتعظيم؛ لأنه تكلم عن نفسه سبحانه بضمير الجمع في قوله: ﴿نُؤْتِيهِ﴾.

٢٨- الإنكار على من يتوانى عن القتال في سبيل الله، وفي نصرة المستضعفين، ولومه وتوبيخه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

٢٩- الحض على القتال والتهييج عليه، وإلهاب الحماس وتحريك مشاعر النفوس، لتنهض للقتال بذكر دواعيه وموجباته ومؤكداته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، أي: إعلاء لكلمة الله، ونصرة لهؤلاء المستضعفين المظلومين، ودفعا للظلم عنهم.

٣٠- وجوب تخليص المستضعفين، وإنقاذهم مما هم فيه من الظلم، وأن ذلك من آكد أسباب وجوب القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

٣١- وجوب التوجه إلى الله وحده، لدفع الضر وجلب الخير، وأن من أهم الأسباب التي يحصل بها تفريج الكروب وإزالة الشدة إذا ضاقت الحيل وانقطعت الأسباب الضراعة إلى الله تعالى بالدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾.

٣٣- دعاء الله عز وجل باسم الرب وصفة الربوبية، كما كان أكثر دعاء الأنبياء

---

(١) أخرج مسلم في الإمارة (١٩٠٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٩٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٥)، وأحمد (٢/ ١٦٩)، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون غنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم».

والصالحين. وهذا أدعى للقبول، وأنجع للإجابة، فكأن الداعي يقول: يا من له الخلق والملك والتدبير أخرجنا من هذه القرية.

٣٤- جواز التوسل إلى الله بذكر الحال؛ لقوله تعالى: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾(١)؛ لأن ذكر الشخص لحاله وأنه مظلوم، أو فقير أو ضعيف أو نحو ذلك يوجب الرحمة والرقة والعطف عليه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وكما قال أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

٣٥- ما حصل للمستضعفين من المؤمنين بمكة على أيدي كفار قريش من الظلم والأذى والتعذيب لهذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

ولهذا كان النبي ﷺ يقنت في صلاته يدعو لهم بقوله: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين»(٢).

٣٦- بيان ما عليه أهل مكة من الظلم لأنفسهم بالشرك بالله، والظلم لغيرهم بأذيتهم للمؤمنين وتعذيبهم لهم وفتنتهم لهم في دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وهذا هو الغالب على أهل مكة حين نزول الآيات، لكنها بعد الفتح خلت بفضل الله من الشرك، وصارت دار إسلام.

٣٧- أنه يجوز للمظلوم أن يعلن ما وقع عليه من الظلم؛ لتخليصه من هذا الظلم ورفعه عنه، ولا يعد هذا من الغيبة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

٣٨- مشروعية دعاء المسلم ربه أن يخرجه من البلد الذي يقع فيه الظلم على المسلمين بأذيتهم في أبدانهم ومنعهم من إقامة دينهم، إذا لم يستطع الخروج، كما قال

---

(١) ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في كلامه على هذه الآية في تفسيره الأمور التي يجوز التوسل إلى الله تعالى بها، وعدها سبعة أمور، ذكر منها التوسل إلى الله تعالى بذكر الحال. انظر: «تفسير سورة النساء» للشيخ رحمه الله (١/ ٥٣٤-٥٣٨).

(٢) سبق تخريجه.

هؤلاء المستضعفون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾.

٣٩- جواز نسبة أهلية القرية أو البلد للكفار، وأن لهم الولاية عليها ما داموا هم أهلها في واقع الأمر(١)، وإلا فالحقيقة أن الأرض والحكم فيها ينبغي أن يكون لعباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٤٠- إثبات الجعل الشرعي لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

٤١- مشروعية دعاء المسلم ربه أن يجعل له وليا من لدنه- عز وجل- ونصيرا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

٤٢- أن الولي الذي ينفع حقيقة، والنصير الذي يدفع حقيقة، هو ما كان من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

٤٣- أن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط والإطناب؛ لأنه أدل على الرغبة والمحبة، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره، وليس هناك أحد أولى بالمحبة من الله جل وعلا؛ لهذا كرر هؤلاء قولهم ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا﴾ في الآية مرتين.

٤٤- أن الإيمان يحمل على الإخلاص في القتال وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأن الجهاد في سبيل الله أثر من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه.

٤٥- الثناء على المؤمنين بالإخلاص في قتالهم، وتعظيم الهدف الذي يقاتلون من أجله، وهو إعلاء كلمة الله ونصرة دينه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا حض على القتال في سبيل الله وترغيب فيه.

٤٦- أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، ويأوي إلى ركن شديد،

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (١/ ٥٣٨ تفسير سورة النساء).

وهو الاعتماد على الله تعالى، وكونه على الحق ولنصرة الحق؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

٤٧- ذم الذين كفروا، وتحقير الهدف الذي يقاتلون من أجله، وهو نصرة الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٤٨- أن كل قتال ليس في سبيل الله فهو في سبيل الطاغوت، ومن خصال الكفار؛ لأن الله قابل بين القتالين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾، فمن قاتل في غير سبيل الله فهو مقاتل في سبيل الطاغوت، سواء كان قتاله لحمية أو عصبية، أو ليرى مكانه أو للحصول على مغنم أو غير ذلك، فكل ذلك في سبيل الطاغوت.

٤٩- الإشارة إلى الفرق الشاسع والبون الواسع بين القتالين: القتال في سبيل الله، والقتال في سبيل الطاغوت؛ فالأول لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق وأهله، والثاني لرفع راية الشيطان ونصر الباطل وأهله.

قال ابن القيم(١):

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان

٥٠- أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه، من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره من أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

٥١- وجوب قتال أولياء الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

٥٢- ذكر ما يرغب في القتال في سبيل الله، ويقوي العزائم، من ذم الكفار وبيان ضعف كيد الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

٥٣- أن من قاتل في سبيل الطاغوت فهو من أولياء الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، أي: أنصاره وحزبه.

---

(١) في «النونية» (ص١١). وانظر: «شرح النونية» للدكتور محمد خليل هراس (١/ ١٩).

٥٤- أن الشيطان يكيد للإنسان، أي: يدبر له الشر بمكر وخديعة وخفية، ويوسوس له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ فأثبت الله- عز وجل- أن للشيطان كيدا، فجيب الحذر من مكره وكيده ووسوسته.

٥٥- أن كيد الشيطان ضعيف، لا يثبت أمام قوة الحق، ولا يقاوم الحق أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

فغاية ما عند الشيطان «الكيد» وكيده ضعيف بحمد الله، لا يقوى أمام الحق، ولهذا قال ﷺ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»(١).

وإذا كان كيده ضعيفًا فما يظهره ويدبره هو وأولياؤه من شياطين الإنس والجن أشد ضعفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ولهذا فأولياء الطاغوت من الظلمة والجبابرة حتى ولو كان لهم الظهور أحيانًا فإن نهايتهم مؤلمة- غالبًا- ولايبقى لهم إلا الذكر السيئ إن بقي لهم ذكر.

أما أولياء الله فإن العقبى لهم، وذكرهم الحسن باق بعد موتهم كهو حال حياتهم أو أشد ذكرًا.

٥٦- في أمر الله عز وجل للمؤمنين في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الآية، وما تلا ذلك من ذكر أحوال القتال وأحكامه وأحوال المقاتلين إلى قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. دلالة على اشتمال الشريعة على بيان أحكام الخوف والحرب، كما بينت أحكام الأمن والسلم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا» فلما حولنا إلى المدينة أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾»(١).

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «فكفوا» لا يلزم أن يكون المراد به عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وأصحابه، الذين هم من كبار الصحابة، بل لا يصح أن يكون المراد به ذلك، كيف وعبدالرحمن بن عوف وأصحابه رضي الله عنهم من أوائل من

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد- وجوب الجهاد (٣٠٨٦)، والطبري في «جامع البيان» (٧/ ٢٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٠٥)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١١١)، والبيهقي في سننه (٩/ ١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٦، ٣٠٧)، وقال: «صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقال الوادعي: «وفيما قالاه نظر؛ فإن حسين بن واقد ليس من رجال البخاري، فألاولى أن يقال: رجاله رجال الصحيح فإن حسينًا من رجال مسلم» انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص(٧٢).

شهد بدرًا وغيرها من الغزوات.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتعجيب، والخطاب للنبي ﷺ ولمن يتأتى خطابه.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: قيل لهم في الشرع، كما في قوله ﷺ: «**فلا تقاتلوا**»، وكما قال تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]، أي: ألم تبصر وتعلم وتعجب من حال هؤلاء الذين قيل لهم.

﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾، أي: امنعوا أيديكم عن القتال، أي: لا تقاتلوا الكفار، فالمراد بكف أيديهم هنا منعها عن القتال، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

وهذا في أول الإسلام حيث كان كفار قريش في مكة يؤذون ويضطهدون بعض من أسلم من الصحابة ويعذبونهم، وكانوا يقولون: أفلا نقاتلهم؟ فقيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾، وهذا قبل أن يشرع القتال، وذلك لحكم عظيمة؛ منها: ضعف المسلمين أول الأمر، ومنها: ترغيب الناس في الدخول في الإسلام، ومنها: البداءة بالأهم والأسهل فالأسهل، ومنها: كونهم في البلد الحرام الذي لا يجوز البداءة فيه بالقتال، إلى غير ذلك.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوف على قوله «كفوا»، فنهوا عن القتال، وأمروا بالقيام بالعبادات.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أقيموها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وهذا هو سر التعبير غالبًا في القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأمر بإقامة الصلاة دون الأمر بها مباشرة، كأن يقول: «صلوا».

والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: وأعطوا الزكاة للمحتاجين، والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، وفي الشرع: التعبد لله بدفع حق مالي مخصوص، من مال مخصوص لطائفة مخصوصة في وقت مخصوص.

وليس المراد بالآية هنا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط فإنها لم تفرض إلا

في المدينة.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾، الفاء: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، متضمنة معنى الشرط، أي: فلما فرض وأوجب عليهم القتال بفرضه على الأمة، بعد أن هاجروا إلى المدينة، وقويت شوكة الإسلام، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩].

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، ﴿إِذَا﴾ الفجائية لا عمل لها، تدل على أن هذا الفريق لم يكن يترقب منهم هذه الحال؛ لأن الذي يظهر منهم حرصهم على القتال.

أي: إذا طائفة منهم، أي: من الذي طلبوا الإذن لهم بالقتال بمكة، فقيل لهم: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾.

وهذا الفريق منهم هم المنافقون، فهم الذين ينطبق عليهم ما ذكر بعد في الآية؛ إذ لا يجوز بحال أن يقال: إن ذلك في عبد الرحمن بن عوف وأصحابه رضي الله عنهم.

أي: إذا فريق منهم؛ ضعفًا وخورًا ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾، أي: يخافون الناس من المشركين من أهل مكة خوفًا شديدًا أن يقتلوهم، والخشية أشد الخوف.

﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، الكاف: للتشبه، وخشية: مضاف، ولفظ الجلالة: مضاف إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: كخشيتهم الله، أو كما يخشون الله أي: يخافون الناس مثل خوفهم من الله وبأسه، و«أو» في قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ إما للتنويع، أي: بعضهم يخشون الناس كخشية الله، وبعضهم يخشون الناس أشد خشية.

ويحتمل أن تكون «أو» للإضراب الانتقالي، أي: بل، أشد خشية.

ويحتمل أن تكون «أو» لتحقيق ما سبق.

ومعنى ﴿أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، أي: أعظم خشية، أي: أنهم يخشون من مواجهة الناس أشد الخشية، ويخافون منهم أشد الخوف.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، الواو: عاطفة، والضمير في «قالوا»: يعود إلى الفريق المذكور، أي: قالوا بنفوسهم وألسنتهم جزعًا من القتال الذي فرض عليهم.

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا.

﴿لِمَ﴾: الاستفهام للتعجب، وقيل: للإنكار، وهذا من المنافقين اعتراض على

حكم الله تعالى الشرعي أي: لم أوجبت علينا القتال؟

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، «لولا» للتحضيض، بمعنى «هلا».

أي: هلا أخرتنا، أي: أنظرتنا وأجلتنا إلى أجل قريب، وأخرت فرض القتال إلى مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، فيكون تمنيًا لتأخير فرض القتال؛ ليستعدوا له، كقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١].

ويحتمل أن مرادهم بقولهم: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، أي: لولا أخرتنا إلى أن تنقضي آجالنا دون قتال، فيكون تمنيًا لانتفاء فرض القتال- والأول أقرب.

وكأنهم بهذا القول من شدة خوفهم وجبنهم- يرون أن من لازم فرض القتال أن يموتوا إذا قاتلوا، وهذا ليس بصحيح، فإن للموت أجلًا محدودًا لا يقربه القتال، ولا يبعده التحصن بالبروج المشيدة، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨].

وقالوا: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ولم يقولوا: إلى أجل بعيد؛ لأن أجل الدنيا كلها قريب، ولأن عمر الإنسان فيها قصير مهما طالت به الحياة.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ جواب عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾، أي: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، والمتمتع به منها من مأكل ومشرب وغير ذلك كله قليل، أي: فوقت التمتع فيها قليل والمتمتع به منها قليل، ولو كان ذلك الدنيا كلها فكله قليل بالنسبة للآخرة.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

فكل ما في الدنيا من تمتع ومتمع ب فهو قليل، قليل بالنسبة لكمه وكيفه ونوعه ووقته وقيمته.

﴿وَٱلْآخِرَةُ﴾، أي: الدار الآخرة دار الحساب والجزاء، وسميت الآخرة؛ لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد الدنيا.

﴿خَيْرٌ﴾، أي: خير من الدنيا ومتاعها خيرية مطلقة من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، اللام: تفيد التخصيص، أي: خير لمن اتقى الله خاصة، أما من لم يتق الله فهي ليست بخير له بل هي شر له، و«من»: موصولة، أي: للذي اتقى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فآخرة المتقي خير من دنياه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

فالآخرة خير من الدنيا لمن اتقى الله تعالى، من حيث ذاتها ولذاتها وزمانها.

فذاتها كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**»(١).

وأما لذاتها ونعيمها فلا يقدر قدر ذلك إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

وأما زمانها فإنها دائمة النعيم وأهلها خالدون مخلدون فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٨١)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٥٧، ١٢٢] إلى غير ذلك من الآيات.

أما الدنيا فلا قيمة لها في ذاتها، كما قال ﷺ: **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**(١).

قال ابن القيم(٢):

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة ... لم يسق منها الرب ذا الكفران
لكنها والله أحقر عنده ... من ذا الجناح القاصر الطيران

ولهذا سميت دنيا؛ لأنها دنيئة حقيرة.

وأما لذاتها فإنها مشوبة بالكدر والتنغيص، ولا تصفو على حال.

كما قيل:

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار(٣)

وأما زمانها فقليل، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] وعمر الإنسان فيها قصير، وهي كلها بالنسبة للآخرة كالحلم، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥، ٢٠٧].

قال الشاعر:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار الجزاء نصيب
فإن تُعجب الدنيا رجالًا فإنها ... متاع قليل والزوال قريب(٤)

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح عن يعقوب وخلف بياء الغيبة: «ولا يظلمون»، فهي: استئناف من كلام الله تعالى، وقرأ الباقون بتاء

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سعد بن سهل رضي الله عنه.
(٢) في «النونية» (ص٣٠٨).
(٣) الأبيات لأبي الحسن التهامي. انظر: «ديوانه» (ص٤٨).
(٤) البيتان لمنفعة بن مالك الضبي. انظر: «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» (٤/ ١٠١-١٠٢).

الخطاب: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فهي معطوفة على ما قبلها، من ضمن الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يقوله.

و«الفتيل»: هو الخيط الرفيع الرقيق الذي يكون في شق النواة يضرب به المثل في القلة والحقارة، أي: ولا يظلم أحد منكم بل، ولا، من الخلق كلهم مقدار فتيل، أي: فلا تنقصون شيئا من أعمالكم وسعيكم للآخرة، بل توفونها وتجزون عليها أتم الجزاء، وفي هذا ترغيب لهم في الآخرة وتحريض على الجهاد

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة عن هؤلاء المذكورين شدة خشيتهم من الناس، وأنهم يخشونهم كخشية الله أو أشد، وتعجبهم أو إنكارهم لفرض القتال عليهم، وقولهم: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وكل هذا هربًا من الموت وتشبثًا بالحياة.

فبيَّن- عز وجل- في هذه الآية أنه لا ينجي حذر من قدر، وأن الموت يدركهم أينما كانوا، ولو كانوا في بروج مشيدة.

قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ هذا قد يكون من تمام القول السابق، وقد يكون استئنافًا.

«أين»: اسم شرط جازم، وهو اسم مكان يستغرق الأمكنة.

و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، ﴿تَكُونُوا﴾: فعل الشرط، أي: أينما توجدوا، سواء كنتم في البر أو في البحر أو في الجو، وفي أيِّ وقت؛ لأن استغراق الأمكنة يستغرق الأزمنة.

﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ جواب الشرط، أي: لا يخطئكم الموت، ولا تفوتونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] فعد الفرار من الموت- لعدم جدواه- كالفرار إليه؛ ولهذا قال ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، فكأنكم بفراركم منه تلاقونه وهو يلاقيكم.

﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، «لو» شرطية، و«كنتم»: فعل الشرط، وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: يدرككم الموت.

أي: ولو وجدتم ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، و«بروج»: جمع «برج»، وهو: البناء العالي، ومنه سميت البروج التي جعلها الله في السماء منازل للكواكب وهي اثنا عشر برجًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [البروج: ١٦]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

ومعنى (مشيدة)، أي: عالية رفيعة محصنة منيعة محكمة قوية

والمعنى: ولو كنتم في أبنية عالية رفيعة، محصنة محكمة أدرككم الموت.

قال زهير[١]:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم

وقال الآخر:

أرى الموت لا يبقي عزيزًا ولم يدع ... لعاد ملاذًا في البلاد ومربعا

يُبيِّت أهل الحصن والحصن مغلق ... ويأتي الجبال في شماريخها معا[٢]

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: «لقد خضت أكثر من مائة معركة وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسهم أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء»[٣].

قال الشاعر:

فهن المنايا أيَّ واد سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب[٤]

---

(١) انظر ديوانه ص ٣٠.

(٢) البيتان تمثل بهما عثمان رضي الله عنه. انظر: «المحتضرين» لابن أبي الدنيا (ص٥٧).

(٣) انظر مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨/ ٢٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣١٦).

(٤) البيت للشاعر ابن عثيمين، وهو مطلع قصيدة يرثي بها صديقه عبدالله العجيري، والقصيدة مطبوعة في آخر «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧.

وقال الآخر:

مشـــيناها خطـــى كتبـــت علينـــا ومـــن كتبـــت عليـــه خطـــى مشـــاها
ومـــن كانـــت منيتـــه بـــأرض فلـــيس يمـــوت في أرض ســـواها[1]

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: وإن تحصل لهم نعمة من مطر ورزق وخصب ونماء وأولاد وصحة وغنى، ونحو ذلك، مما يستحسنونه، وليس المراد بالحسنة هنا ثواب الطاعة.

﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا حق- وذكر هذا- والله أعلم توطئة وتمهيدًا لما بعده، وهو قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾.

والسيئة: ضد الحسنة، أي: وإن تصبهم ويحصل لهم بلية تسوؤهم من جدب وقحط ونقص في الأنفس والزروع والثمار والمواشي، ومرض وفقر، ونحو ذلك، وليس المراد بالسيئة الذنب أو ثمرته.

﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾، أي: بسببك وبسبب ما جئتنا به؛ تطيرًا وتشاؤمًا بك وبدعوتك، فيقولون: ما أصابنا هذا البلاء إلا بسبب محمد ودعوته، كما هو شأن المكذبين للرسل؛ لتنفير الناس منهم، ومن اتباعهم، كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وقال أصحاب القرية لرسلهم عليهم السلام: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد؛ ردًا عليهم في نسبتهم السيئة إليك: كل من

---

(١) البيتان قيل: لأحمد بن فارس، وقيل: للمعري، وقيل: لعبد العزيز الدريني، انظر: «المستطرف» (١/ ٤٩١).

الحسنة والسيئة من عند الله، أي: بقضائه وقدره وخلقه- عز وجل- الكوني، فلا يقع شيء في هذا الكون، خيرًا كان أو شرًّا إلا بتقدير الله عز وجل.

قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١].

وعن عروة بن عامر قال أحمد القرشي قال: ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»(٢).

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ الفاء: استئنافية، و«ما» للاستفهام والتعجب والإنكار.

أي: فعجبًا لهؤلاء القوم الصادر منهم هذا القول.

﴿لَا يَكَادُونَ﴾، «لا» نافية، أي: لايقاربون.

﴿يَفۡقَهُونَ﴾ يفهمون ويعلمون ويعقلون.

﴿حَدِيثٗا﴾، أي: قولًا، وهو نكرة في سياق النفي فيعم، أي: لا يكادون يفهمون ويعقلون أيّ حديث بالكلية، وأيّ قول كان، ودليل ذلك تطيرهم بالنبي ﷺ ودعوته، مع أن ذلك خير محض لا شر فيه.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾.

أمر عز وجل في الآية النبي ﷺ بالرد على المشركين في نسبتهم الحسنة إلى الله ونسبتهم السيئة إليه ﷺ بقوله: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، أي: كل من الحسنة والسيئة من عند الله تقديرًا.

ثم بين في هذه الآية أن الحسنة من الله، وأن السيئة- وإن كان تقديرها من الله- فسببها من الإنسان نفسه.

قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل إنسان، أي: ما أصابك من نعمة في دينك ودنياك، ومن توفيق للإيمان والعمل الصالح، ومن رزق

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩١٩).

وصحة وغنى وأهل وولد ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: فهي تفضل من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾، أي: من بلية مما يسوءك في دينك ودنياك.

﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، أي: فسببه من نفسك، وبسبب ذنوبك وكسبك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عن عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب عبدًا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. قال: وقرأ:** ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]»(١).

وإلى هذا يشير قوله ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من خطاياه**»(٢).

قال السعدي(٣): «وما أصابك من سيئة في الدين والدنيا ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، أي: بذنوبك وكسبك وما يعفو الله عنه أكثر، فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه عن وصوله فضل الله وبره».

ووجَّه الخطاب للنبي ﷺ في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ دون أن يقول: (ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم)، مع أنهم معينون بالخطاب من باب أولى، للإشارة- والله أعلم- إلى أنه ﷺ لا يملك من الأمر شيئًا حتى ولا لنفسه، فكيف يملك ذلك لغيره؟!

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٥٢) وقال: «هذا حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣)، والترمذي في الجنائز (٩٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٠٩).

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وأرسلناك يا محمد للناس جميعًا ﴿رَسُولًا﴾ حال مؤكدة.

وهذا يقوي أن الخطاب في قوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ له ﷺ خلافًا لمن قال: ليس داخلًا في الخطاب.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، «كفى» بمعنى: «حسب»، ﴿بِاللَّهِ﴾، الباء زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وكفى بالله شهيدًا على صحة رسالتك، شهادة قولية تغني عن كل شهادة، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء: ١٦٦].

وشهادة فعلية بتأييده ﷺ بالمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة وتمكينه من تبليغ الرسالة ونصره ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكفى بالله شهيدًا بينك وبينهم، فيما تبلغهم إياه، وفيما يكون منهم من التصديق والإيمان، أو التكذيب والكفر.

وهي أكبر وأعظم شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أن تقدير الحسنات والسيئات كله من عند الله، حتى ما يجري على النبي ﷺ بمعنى أن الأمر في باب القدر والمشيئة كله لله تعالى، مما يدل على أن مشيئته ﷺ تابعة لمشيئة الله عز وجل.

ثم أتبع ذلك ببيان أن الأمر يختلف في باب الطاعة والتشريع، فطاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، وذلك احترازًا من توهم التفريق بين الله ورسوله في باب التشريع، لأن الحقوق ثلاثة: حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق فيه شركًا، وهو عبادته والرغبة إليه، وحق خاص بالرسول ﷺ وهو التوقير والتعزير والنصرة، وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما، ويجمع هذه الحقوق قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿مَّن﴾: شرطية، و﴿يُطِعِ﴾: فعل الشرط مجزوم بها وعلامة جزمه السكون، وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

أما حرف العلة الياء في ﴿يُطِعِ﴾ فحذف لأنه التقى ساكنان وأحدهما حرف علة فكان أولى بالحذف، قال ابن مالك(١):

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإن يكن لينا فحذفه استحق

والطاعة: الامتثال بفعل الأمر وترك النهي.

و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ ويقوي هذا قوله بعده: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، ويجوز كونها للجنس، فيشمل طاعة كل رسول، والأول أولى، وهو يدل على المعنى الثاني وهو وجوب طاعة كل رسول.

أي: ومن يطع الرسول في فعل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه.

﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لاقترانه بـ «قد».

أي: أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، فإذا أمر ﷺ بأمر فأطعناه فنحن قد أطعنا الله حتى ولو لم يكن ذلك مما جاء في القرآن الكريم.

قال ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**»(٢).

وفي هذا رد على الذين يقولون: لا نأخذ إلا بما جاء في القرآن، أي: ونترك السنة كما في حديث المقدام بن معد يكرب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**رب رجل جالس على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله**»(٣).

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ الجملة: شرطية، معطوفة على الجملة

---

(١) في «الكافية». انظر: «حاشية الصبان» (١/ ١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٥)، والنسائي في البيعة (٤١٩٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (١٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

السابقة، أي: ومن تولى وأعرض عن طاعتك.

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لاتصاله بـ«ما» النافية، أي: فما أرسلناك عليهم حفيظًا تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتلزمهم الطاعة، وإنما مهمتك البلاغ فقط، كما قال تعالى في سورة الشورى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الآية: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وهداية القلوب بيد علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي هذا تعريض بهم وتهديد لهم، وتوجيه لعدم الانشغال بهم، وأن الله سيتولاهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾.

بيَّن- عز وجل- في الآية السابقة أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله. والمراد بذلك طاعة الرسول حقًا لا طاعة المنافقين؛ ولهذا أتبعه بقوله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾، أي: ويقول المنافقون إذا أمرتهم طاعة: أي: أمرنا وشأننا طاعة، أي: يُظهرون الموافقة والطاعة وعدم المخالفة، في حال الحضور والغيبة.

﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فإذا خرجوا من عندك وتواروا عنك، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ التبييت: القيام بالعمل وتدبيره ليلًا حرصًا على إخفائه وإسراره؛ لأن الليل محل الإخفاء والإسرار، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: لنقتلنه ليلًا.

﴿طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾، أي: جماعة منهم، وليس كلهم.

﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ الضمير في «تقول»: يعود إلى الطائفة، أي: بيّت طائفة وجماعة منهم قولًا وأمرًا مغايرًا ومخالفًا للذي تقول لك من الطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

ويجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ خطابًا للنبي ﷺ، أي: غير الذي تقول لهم أنت، والمؤدى واحد، أي: بيت طائفة منهم قولًا مخالفًا للحق مما قالوه لك وقلته لهم أداروه بينهم واستقروا عليه.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ خبر فيه تهديد ووعيد لهم، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: والله يعلم ويحصي ويكتب الذي يبيتون من النوايا والأقوال والأفعال المخالفة لما يقول الرسول ﷺ، ولما قالوه وأقروا به عنده من الطاعة، فلا يخفى عليه منه شيء، ولن يفلتهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليه عاجلًا أو آجلًا.

وفيه أيضًا تسلية للنبي ﷺ؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تبالهم ولا تهتم لهم، ولا تكترث بهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: واعتمد على الله وحده وفوض أمرك إليه، وثق بعونه ونصره يكفكهم وما بيّتوه.

والتوكل على الله: صدق الاعتماد عليه في جلب النفع ودفع الضر- مع تمام الثقة به، وفعل الأسباب المشروعة.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، «كفى» بمعنى: «حسب»، والباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى،أي: كفى الله وكيلا، و﴿وَكِيلًا﴾ تمييز، أو حال أي: وكفى بالله تعالى وحسبه كافيًا لمن اعتمد عليه، وفوض أموره إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار والتعجيب من حال المذكورين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية.

٢- الحكمة الشرعية في الأمر بالكف عن القتال في أول الإسلام، والإقبال على العبادات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وذلك لتهيئة الأمة معنويًا وماديًا للقتال، ووجود الحاجة إليه.

٣- لا ينبغي أن يتعجل الإنسان الشيء قبل أوانه، فإن هؤلاء تعجلوا أمرًا كان لهم فيه سعة، وطلبوا أمرًا كان لهم مندوحة عنه؛ ولهذا لما كتب عليهم القتال نكص فريق منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ الآية.

وقد قال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(١).

٤- ينبغي أن لا يدخل الإنسان في أمر قد يعجز عنه، أو لا يستطيع القيام به، أو الخروج منه، وقد أحسن القائل:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ ... لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا(٢)

وفي حكاية الثعلب والمعز أنه بعد أن أغراها بالنزول في البئر والشرب ليتسلق على ظهرها قال لها بعد أن شربت وعجزت عن الخروج: «كان من الواجب عليك أن تفكري في الصعود قبل النزول».

٥- أن في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والقيام بما شرع من العبادات تهيئة للقيام بالجهاد وتحمله والصبر عليه.

٦- إذا لم يستطع الإنسان الجهاد فعليه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنه أُمر بهما من قيل لهم: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾.

٧- أن قتال الكفار فرض على الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾، أي: فرض واجب وهو فرض كفاية من حيث الأصل، ويكون فرض عين في حالات؛ كما إذا حضر صف القتال، أو استنفره الإمام، أو داهم العدو البلد، ونحو ذلك.

٨- الإنكار على الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد، وذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وعلامة ذلك أن يترك الإنسان فعل ما أوجبه الله، أو يرتكب ما حرمه الله خوفًا من الناس، ولا يستثنى من هذا إلا من أكره على

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) البيت لصفي الدين الحلي. انظر: «ديوانه» (ص٦٩).

شيء من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

٩- ينبغي خشية الله تعالى وحده، والحذر من خشية الناس كخشية الله أو أشد، فمن خشي الله وحده كفاه الناس، ومن خشي الناس تركه الله لمن خشيه وربما سلطه الله عليه، وفي الحديث: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعو على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»(١).

١٠- الإنكار على من اعترض على حكم الله الشرعي والكوني وذمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

١١- وجوب الانقياد لحكم الله الشرعي، والرضا والتسليم لحكمه الكوني؛ لأن الله أنكر على الذين اعترضوا على حكمه وذمهم.

١٢- أنه ليس من لازم القتال أن يقتل الإنسان ما لم يحضر أجله؛ لأن الله أنكر على هؤلاء وذمهم على هذا التصور.

١٣- قصر عمر الدنيا، وقصر عمر الإنسان فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

١٤- قلة متاع الدنيا وحقارتها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

١٥- أن الآخرة خير من الدنيا مطلقًا لمن اتقى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

١٦- الترغيب في تقوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

١٧- تمام العدل في محاسبة الخلائق، وأنهم لا يظلمون شيئًا ولو كان مقدار فتيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

١٨- أنه لا مفر من الموت؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الترمذي: «حسن صحيح» وقال أحمد: هذا إسناد مشهور، ورواته ثقاة، وقال ابن رجب: «إسناد حسن لا بأس به» وقد شرح الحديث بطوله في كتابه «جامع العلوم والحكم» وفي رسالته «نور الاقتباس في وصية الرسول ﷺ لابن عباس».

١٩- لا ينجى حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

٢٠- التذكير بالموت ووجوب الاستعداد له، إذ لا مفر ولا محيد عنه؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

٢١- الحث على الجهاد في سبيل الله والترغيب فيه وبيان فضله، والترهيب من تركه، وتسهيل أمره، والإخبار بأنه لا ينفع القاعدين قعودهم ولا ينجي حذر من قدر.

٢٢- نسبة المكذبين ما يصيبهم من حسنات وخير إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا حق، وفيه إقرار منهم بتوحيد الربوبية.

٢٣- تشاؤم المكذبين بالرسول ﷺ وتطيرهم به ﷺ بنسبة ما يصيبهم من سيئات وشر له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾، وهذا باطل.

٢٤- أن هؤلاء المكذبين- مع تكذيبهم بتوحيد الألوهية، لم يحققوا توحيد الربوبية حيث نسبوا ما يصيبهم من سيئات وشر إلى النبي ﷺ.

٢٥- أن الحسنات والسيئات كلها بتقدير الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

٢٦- بُعد هؤلاء المكذبين من فقه الحديث في الدين وذمهم والتوبيخ لهم، والتعجب من حالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

٢٧- أن ما يصيب الإنسان من حسنات وخير في دينه ودنياه وأخراه فذلك كله من الله وبفضله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ فهو- عز وجل- بفضله يمد عباده بالرزق، ويوفقهم للحق، ويثيبهم عليه.

وهو عز وجل وإن أوجب على نفسه إثابة المطيع وكتب على نفسه الرحمة، فهو تفضل منه عز وجل، لا باستحقاق العبد لذلك، مما يوجب على العبد شكر الله تعالى وطاعته.

٢٨- أن ما يصيب الإنسان من سيئات فسببها من نفسه- فعلًا وكسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وهي من الله تعالى تقديرًا كما سبق.

٢٩- جواز إضافة الشيء إلى سببه شريطة أن يعلم أن ذلك بتقدير الله تعالى موجد الأسباب ومسبباتها، وأن الأسباب لا تأثير لها بذاتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وقوله قبل هذا: ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

٣٠- أن الرسول ﷺ كغيره من البشر تصيبه الحسنات كما تصيبه السيئات لكنه ﷺ معصوم من الكبائر، ومن الخطأ في تبليغ الدعوة، وكذا غيره من الرسل- عليهم السلام، وقد تقع منهم الصغائر لكنهم لا يقرون عليها وسرعان ما يتوبون منها؛ كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه كان يدعو: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطأي وعمدي وكل ذلك عندي**»(١).

وعد أهل العلم من هذا أخذه ﷺ الفداء من أسرى بدر، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ١- ٤].

٣١- أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأفراد أمته من حيث الأصل ما لم يرد دليل على تخصيصه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ الآية؛ إذ لا إشكال أن هذا خطاب له ولغيره.

٣٢- إثبات رسالته ﷺ وعمومها لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ وفي هذا رد على من ينكر رسالته ﷺ من اليهود والمشركين كما أن فيه ردًا على من يزعم من النصارى أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب.

٣٣- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣٤- أن مهمة الرسول ﷺ هي تبليغ رسالة ربه للناس فقط، وليس هو سبب حصول السيئات- كما يزعم المكذبون- بل هو سبب حصول الخير والهداية لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩).

٣٥- كفاية الله تعالى في شهادته واطلاعه على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٣٦- أن شهادة الله تعالى للنبي ﷺ بالرسالة كافية عن كل شهادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٣٧- أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

٣٨- أن ما أمر به الرسول ﷺ أو نهى عنه فكله شرع ووحي من الله تعالى؛ لأن الله جعل طاعته ﷺ طاعة لله تعالى وكما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

٣٩- أن معصية الرسول ﷺ معصية لله عز وجل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

٤٠- عصمة الرسول ﷺ؛ لأن الله تعالى أمر بطاعته وجعلها مطلقًا طاعة لله تعالى ومدح على ذلك.

٤١- تهديد من تولى وأعرض عن طاعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: فأمره إلينا وحسابه علينا.

٤٢- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بضمير الجمع الدال على العظمة؛ لأنه- عز وجل- هو العظيم.

٤٣- أنه ليس من مهمة الرسول ﷺ حفظ أعمال العباد، أو إلزامهم الهداية أو حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

٤٤- نفاق هؤلاء المذكورين ومخادعتهم بإظهارهم الطاعة وإضمارهم المعصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾.

٤٥- الوعيد والتهديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾، أي: وسيحاسبهم ويجازيهم عليه.

٤٦- علم الله- عز وجل- بما يُبطن ويُضمر في القلوب، وبما يُعلن ويُظهر من الأقوال والأعمال، وكتابته لذلك بأمره الحفظة الكاتبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا

يُبَيِّتُونَ﴾.

٤٧- التحذير من النفاق، ومن صفات المنافقين؛ لأن الله- عز وجل- توعدهم.

٤٨- الإعراض عمن تولى وأعرض عن الحق، فلا يكون عقبة في طريق الداعي إلى الحق، ولا ينشغل به عمن هو أولى منه، ولا يأسى عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

٤٩- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في نصرة أوليائه، وجلب الخير لهم ودفع الشر عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٥٠- كفاية الله تعالى لمن توكل عليه وفوض أموره إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَلَا﴾، الهمزة للاستفهام، ومعناه التوبيخ، والفاء عاطفة، والمعطوف عليه محذوف، تقديره: أغفلوا فلا يتدبرون القرآن، أو: أيعرضون فلا يتدبرون.

أو أن المعطوف عليه هو ما سبق في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء: ٨١]. ويكون موضع الهمزة على هذا التقدير بعد الفاء، وإنما قدمت؛ لأن لها الصدارة، والأصل: فألا يتدبرون القرآن، وعلى هذا فلا يحتاج إلى تقدير.

﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، التدبر: التأمل والتفكر في الشيء وإطالة النظر والفكر فيه إقبالا وإدبارًا.

القرآن: على وزن «فعلان» بمعنى المفعول، وقيل: مصدر.

وهو بمعنى المقروء، أي: المجموع، من قرى يقري، أي: جمع يجمع؛ لأن القرآن مجموع بعضه إلى بعض، أي: حروفه وكلماته وآياته وسوره مجموع بعضها إلى بعض.

أو هو بمعنى المقروء، أي: المتلو، من قرأ، بمعنى تلا قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي: اقرأ.

والمراد بالقرآن: كلام الله- عز وجل- الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

والمعنى: أفلا يتدبرون ويتأملون القرآن، ويتفكرون فيه ويتفهمون ألفاظه ومبانيه وأحكامه ومعانيه، ويتبعونه علما وعملا.

وتدبر القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: تدبر ألفاظه بالإكثار من قراءته، وإتقان تلاوته، وحفظه ما أمكن؛ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

والثاني: تدبر معانيه؛ بالتفكر فيها، وتفهم مدلولاتها، واستنباط الأحكام والفوائد منها، والدروس والعبر والمواعظ.

والثالث- وهو الأهم-: تطبيق أحكامه والعمل بها؛ فإن تدبر ألفاظ القرآن ومعانيه دون العمل بأحكامه لا يجدي شيئًا، بل هو حجة على صاحبه؛ كما في حديث:

«أول من يقضى عليهم وأول من تسعر النار بهم ثلاثة...»، وذكر منهم: رجلًا قرأ القرآن ليقال: قارئ[١].

وقد قيل:

وعـــالمٍ بعلمـــه لم يعملَـــنْ معذّبٌ من قبلِ عُبّاد الوثنْ[٢]

وليس تدبر القرآن مجرد ثقافة قرآنية، كما يظهر ويتناقل في كثير من وسائل الاتصال، حتى صار كثير من المتابعين لذلك ينصبُّ اهتمامهم على جزئيات لفظية؛ لم قال هنا كذا؟! ولم قال في الآية الأخرى كذا؟! ولم زاد حرفًا هنا ونقص حرفًا هناك؟! وربما خرجوا عن السؤال عن المحكم إلى المتشابه، وكأن القرآن أنزل للإلغاز والثقافة! وقلَّ أن يعرض هؤلاء للمقصود من التدبر وثمرته ولُبِّه؛ وهو العمل بالقرآن وتطبيق أحكامه.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾، الواو: استئنافية، و«لو» شرطية، و«كان» فعل الشرط، أي: ولو كان القرآن من عند غير الله، أي: من عند أحد غير الله كائنا من كان، أي: لو كان مختلقًا كما يقول المشركون والمكذبون.

قال ابن كثير[٣]: «أي لو كان مفتعلًا مختلقًا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم».

﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾: جواب الشرط «لو»، وقد اقترنت به اللام- كما هو الغالب- إذا كان الجواب مثبتًا، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]، وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان في شرح زبد ابن رسلان» ص٤.

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٠).

جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩][(١)].

﴿ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، أي: تناقضا وتفاوتا كثيرًا واضطرابًا، وخطأً في لفظه أو في معناه، أو أسلوبه، أو أحكامه، وغير ذلك، أو في ذلك كله.

وهذا بيان لواقع أنه لو كان الكتاب من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، وليس بالقليل.

ولا يفهم من هذا أن القرآن يوجد فيه اختلاف قليل، بل القرآن لا اختلاف فيه البتة، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال الطبري[(٢)]: «أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك وإتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لا تساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض».

وقال ابن كثير[(٣)]: «لا اختلاف فيه ولا اضطراب ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق».

وقال أيضًا: «وهذا سالم من اختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم، حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، أي: محكمه ومتشابهه حق، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح الله تعالى الراسخين في العلم وذم الزائغين.

---

(١) وقد تحذف اللام من جواب «لو» على قلة وإن كان جوابها مثبتا كقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩]. أما إذا كان الجواب منفيًا فالأكثر العكس تقول لو جاء زيد ما كلمتك. على الأكثر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وتقول: لو جاء زيد لما كلمتك. وهذا على الأقل.

(٢) في «جامع البيان «(٨/ ٥٦٧).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٠).

وعن عبد الله بن عمرو قال: هَجّرت[١] إلى رسول الله ﷺ يومًا، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم بالكتاب»[٢]».

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على من لا يتدبر القرآن وتوبيخه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٢- وجوب تدبر القرآن لفظًا ومعنى، وعملًا بما فيه؛ لأن الله أنكر على الذين لا يتدبرون القرآن ووبخهم، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

٣- الرد على أهل التفويض الذين يقولون: آيات الصفات مجهولة المعنى، لا يجوز التكلم في معناها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فأمر الله بتدبر القرآن، وهذا عام، يشمل جميع القرآن بما في ذلك آيات الصفات وغيرها، وهذا يدل على أن آيات الصفات لها معنى[٣].

٤- الرد على من يقول من الرافضة: لا يفهم معنى القرآن إلا النبي والإمام المعصوم[٤]؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وهذا خطاب لجميع الأمة بأن يتدبروا القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه.

٥- إثبات أن القرآن كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾، فهو كلام الله تعالى، وصفة من صفاته، منزل من عنده، غير مخلوق، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن، والذين مقتضى قولهم هذا إبطال الأمر والنهي، وبهذا تبطل الشريعة[٥].

---

(١) معنى هجّرت: بكرت، والتهجير: التبكير. انظر: «النهاية» مادة «هجر».

(٢) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٦٦)، وأحمد (٢/ ١٩٢).

(٣) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٧ تفسير سورة النساء).

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٥٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٣٤)، «النونية» لابن القيم وشرحها للهراسي (١/ ١٢٩-١٣٠).

٦- إثبات العندية لله، وأن القرآن من عنده تعالى، أي: أنه كلامه وصفة من صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

٧- إثبات أن القرآن الكريم لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا اضطراب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1]

فمن توهم فيه الاضطراب أو غلط في فهمه فبسبب قصور فهمه وعلمه، أو بسبب تقصيره في التعلم أو بسبب سوء قصده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «من غلط في فهم القرآن فمن قصوره أو تقصيره».

٨- أن ما يكتبه البشر ويقولونه هو عرضة للاختلاف والاضطراب والتناقض والخطأ وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

وصدق الله العظيم، لهذا نجد كثيرًا مما يكتبه البشر ينقض بعضه بعضًا، ومهما حاول المؤلف أن يرقى بعمله نجد عمله ناقصًا، بل إننا نجد المؤلف نفسه ينتقد اليوم ما كتبه بالأمس؛ ولهذا نجد أنه يُروى عن كثير من العلماء في بعض المسائل الخلافية أكثر من قول.

٩- إثبات نبوة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي أنه ﷺ إنما جاء بالقرآن من عند الله، فثبتت نبوته ﷺ.

* * *

(١) جمع بعض أهل العلم بين الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض، وهي في الحقيقة غير متعارضة منهم الإمام أحمد رحمه الله في كتاب «الرد على الزنادقة» والشنقيطي رحمه الله في كتابه: «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب».

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٧٤).

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، والضمير في ﴿جَآءَهُمْ ﴾ للمنافقين أو ضعاف الإيمان أولهما معًا، ﴿جَآءَهُمْ ﴾، أي: أخبروا به، كما قال امرؤ القيس(١):

وذلك من نبأ جاءني ... وخُبِّرته عن أبي الأسود

﴿أَمْرٌ﴾، أي: خبر بقرينة ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾.

﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾، أي: مما يوجب الأمن، كخبر عن انتصار سرايا المسلمين وغزاتهم وظهورهم على عدوهم.

﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾، ﴿أَوِ﴾: عاطفة، أي: أو جاءهم أمر وخبر مما يوجب الخوف كخبر عن غلبة العدو وظهوره على سرايا المسلمين وغزاتهم.

﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ جواب الشرط، أي: أفشوه وأعلنوه ونشروه من غير تدبر ولا تأمل ولا تأكد- كما هو حال المسلمين اليوم- وربما كان إشاعة بعضهم لخبر الأمن بقصد التخذيل عن القتال والتثبيط عن الاستعداد له؛ ليؤخذ المسلمون على غرة، وإشاعتهم لخبر الخوف بقصد الإرجاف بالمسلمين.

والكلام مسوق للتوبيخ واللوم لهم، والإنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا تكون صحيحة. وقد قال ﷺ: «**كفى بالمرء**

---

(١) انظر: «ديوانه» تحقيق المصطاوي (ص٨٧).

كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»(١).

وعن أبي مسعود الأنصاري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٢).

وقال ﷺ: «**من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**»(٣).

وعن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»(٤).

ومعنى «**قيل وقال**»: كثرة الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، والضمير الهاء: يعود إلى «أمر»، و(ال) في الرسول للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ.

والمعنى: ولو أرجعوا ما جاءهم من خبر الأمن أو الخوف إلى الرسول ﷺ.

﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ معطوف على قوله ﴿ٱلرَّسُولِ﴾، أي: ولو أرجعوه إلى النبي ﷺ، وإلى أولي الأمر منهم بحقائق الأمور.

و«أولو الأمر» يطلق على العلماء وعلى الحكام، كما قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

والمراد بأولي الأمر هنا: من لديهم القدرة على تجلية حقيقة هذا الأمر، وما وراءه من أهل العلم والحكم والرأي والحنكة السياسية.

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ ﴿لَعَلِمَهُ﴾: جواب الشرط «لو».

ومعنى ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾، أي: يستخرجونه ويتحققونه من معدنه ويعرفون ما يراد بمثل هذه الأخبار وما وراءها، يقال: استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، وأحمد (٤/ ١١٩).

(٣) أخرجه مسلم أول المقدمة والترمذي في العلم (٢٦٦٢)، وابن ماجه في المقدمة (٣٩)، من حديث سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٣).

قعورها، ومن هذا قول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه لما بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ قال: «فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر»(١).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، الواو: استئنافية، و«لولا»: شرطية، وهي حرف امتناع لوجود، أي: ولولا فضل الله عليكم موجود ورحمته.

و﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: زيادته وعطاؤه، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾، أي: ورحمته الفعلية لكم، بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتاب، وهدايته لكم.

﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ جواب «لولا»، أي: لاتبعتم الشيطان على الضلال والكفر، وضللتم وكفرتم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«قليلا»: منصوب على الاستثناء، أي: إلا قليلًا منكم ممن مَنَّ الله عليهم بالاهتداء، ويحتمل أن المراد إلا قليلًا من أعمالكم.

قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الفاء: عاطفة، وقيل: رابطة لجواب شرط مقدر، والأمر للرسول ﷺ.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله- تعالى، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٢).

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُكَلَّفُ﴾: مضارع مبني للمجهول مرفوع

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (١٤٧٩)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

ونائب الفاعل ضمير مستر، تقديره: أنت، و«إِلَّا»: أداة حصر، أي: لا تُكلف أنت إلا نفسك، أي: لا تكلف إلا فعل نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: حثهم على القتال ورغبهم فيه، وشجعهم عليه بذكر ثمراته العظيمة وما أعده الله للمجاهدين في سبيله، مما يقوي قلوبهم، ويشد عزائمهم.

وهكذا فعل ﷺ فقد قال ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»(٢).

وعنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده وددت أن أقاتل في سبيل الله، فأقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل**» يقولهن ثلاثًا: أشهد بالله»(٣).

وعن أنس- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة**»(٤).

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ﴿عَسَى﴾: من الله تفيد الوعد الذي لا يتخلف؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ﴿عَسَى﴾ في القرآن فهي واجبة»(٥).

﴿أَن يَكُفَّ﴾ أن والفعل بعدها في محل نصب خبر ﴿عَسَى﴾، ومعنى ﴿يَكُفَّ﴾ يمنع ﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قوتهم وقتالهم للمؤمنين.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٢٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٥٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٠)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦١).

(٥) أخرجه البيهقي في «سننه» (٩/ ١٣).

أي: قاتل في سبيل الله بنفسك وحرض المؤمنين وحثهم على ذلك؛ ليكف الله عنكم بسبب ذلك بأس الذين كفروا بنصره لكم وإظهاركم عليهم.

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾، أي: أشد قوة وعزة، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، أي: وأشد تعذيبًا وعقوبة، والتنكيل والنكال: معاقبة المخالف عقوبة ينكل بها فلا يعود إلى المخالفة، وينكل بها غيره، فلا يقع فيما وقع فيه من المخالفة.

أي: والله أشد بأسًا وقوة، وأشد تنكيلًا في الدنيا والآخرة لمن كفر به، فلو شاء لانتصر منهم بقوته في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾، ﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم، ﴿يَشْفَعْ﴾: فعل الشرط، والشفاعة: جعل الوتر شفعًا، وفي الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة، سواء كانت بطلب من الغير أم لا.

قال ابن القيم(١): «وكل من أعان غيره على أمر بقوله أو فعله فقد صار شفيعًا له. قال: والشفاعة للمشفوع له، هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة، فيصير له شفعًا في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في هذه الآية كل متعاونين على خير أو شر بقول أو عمل، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]».

﴿حَسَنَةً﴾: صفة لـ﴿شَفَٰعَةً﴾، أي: من يشفع شفاعة حسنة، فيتوسط لجلب نفع أو دفع ضر، ومن هذا تحريض المؤمنين وحثهم على القتال، ومنه قوله ﷺ لما عتقت بريرة واختارت نفسها فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيته، فقال لها النبي ﷺ: «**لو راجعته فإنه أبو ولدك**» قالت: تأمرني؟ قال: «**إنما أنا شافع**». قالت: «لا

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٦٤).

حاجة لي فيه»(١).

﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ جواب الشرط «مَن»، أي: يكن له حظ وجزء من شفاعته.

و«النصيب»: الحظ من كل شيء، خيرًا كان أو شرًا، والمراد به هنا النصيب والحظ من الخير، أي: أنه يؤجر ويثاب عليها.

قال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**»(٢).

وقال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**»(٣).

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ بأن يتوسط ويعين صاحب باطل أو ظالم على باطله أو ظلمه، أو يسعى في أمر غير جائز؛ لإبطال حق أو نصر باطل. ومن هذا الشفاعة لأناس؛ ليقدموا على من هو أكفأ وأحق منهم في التوظيف أو غير ذلك.

وقد تكون تسمية مثل هذا شفاعة من باب المشاكلة، لأن الشفاعة في الغالب إنما تكون في الخير.

﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾.

و«الكفل» النصيب والحظ، وأكثر استعماله في الشر. ويستعمل في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

ومعنى ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾، أي: يكن له كفل من وزر العمل الذي ترتب على شفاعته وسعيه.

وفي الحديث: «**ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى**

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق- شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة (٥٢٨٣)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤١٧)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٧٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٧)، وأبو داود في الأدب (٥١٣١)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

يوم القيامة»(١).

وحسن- والله أعلم- في الشفاعة الحسنة: ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾، بينما قال في الشفاعة السيئة ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾؛ لأن «النصيب»، يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وفيه إشارة إلى المضاعفة والزيادة.

بينما «الكفل» يشعر بالحمل والثقل، وفيه معنى المثل والمساوي دون زيادة.

إضافة إلى التنويع في التعبير؛ لأن اختلاف اللفظ من أساليب البلاغة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾، الواو: استئنافية، و«كان» هنا مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف، أي: تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي: وكان الله وما زال على كل شيء مقيتًا.

﴿مُّقِيتًا﴾، أي: حفيظًا رقيبًا، شهيدًا حسيبًا مقتدرًا في جميع الأوقات.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على الذين يبادرون إلى إذاعة وإشاعة ما يأتيهم من أمر من الأمن أو الخوف دون تيقن ومعرفة لحقيقة الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾.

٢- أن الواجب رد ما يأتي من أمر من الأمن أو الخوف، وغير ذلك من الأمور المهمة إلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى أولي الأمر من أهل العلم والحكم والرأي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

٣- ذم العجلة في نشر الأخبار والشائعات قبل التأكد منها ومعرفة حقيقتها، وما وراءها، وآثار نشرها وإذاعتها، والتحذير من نشرها حتى لو صحت، فذلك أولى وأسلم، والسلامة غنيمة، والعافية لا يعد لها شيء.

٤- أن استنباط ومعرفة حقائق الأخبار وما وراءها من شأن أولي الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

٥- فضل الله تعالى على كل من اهتدى ورحمته له بتوفيقه لاتباع الحق، وحفظه من

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

الضلال واتباع الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٦- وجوب التعلق بالله تعالى وحده، وسؤاله من فضله ورحمته التوفيق لصراطه المستقيم.

٧- ذم أتباع الشيطان، والتحذير من سلوك طرقه واتباع خطواته.

٨- أن من لم يتبع طريق الحق والهدى اتبع الشيطان وسلك سبل الضلال والردى، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين.

٩- وجوب القتال في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو فرض على الكفاية، ويكون فرضًا على الأعيان في بعض الأحوال.

١٠- يجب أن يكون القتال ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: خالصًا لله تعالى لإعلاء كلمته، وأن يكون وفق شرعه، بحيث يكون بإذن من ولي الأمر، وعند الحاجة إليه، ومع القدرة عليه، ولا يقتل من لم يقاتل، ولا النساء ولا الصبيان ولا الرهبان ونحو ذلك.

١١- أن الرسول ﷺ لا يكلف إلا نفسه، فلا يكلف فعل أحد من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، ومن باب أولى لا يكلف أحد من الخلق فعل غيره.

١٢- الرد على الذين يغلون في النبي ﷺ، أو في غيره من الصالحين فهو ﷺ لا يملك لا هو ولا غيره من أمر الخلق شيئًا.

١٣- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يعرض له من تكذيب ومخالفة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وفي هذا درس للدعاة إلى الله تعالى والمصلحين، فعليهم فعل الأسباب وبذل النصح والإرشاد، وهداية القلوب بيد الله- تعالى.

١٤- أن على الإنسان إلجام نفسه بلجام التقوى، وقيادها للحق، لأنه مكلف بها، وهي أمانة في عنقه يجب أن يقودها لما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخراها؛ لقوله

تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.

وقد قال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

قال الشاعر:

صن النفس واحملها على ما يزينها ... تعش سالمًا والقول فيك جميل
ولا ترين الناس إلا تجملًا ... نبا بك دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ ... عسى نكبات الدهر عنك تزول(٢)

وقال الآخر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب(٣)

وقال الآخر:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام(٤)

وقال الآخر:

ومن يتهيب صعود الجبال ... يبت أبد الدهر بين الحفر(٥)

١٥- وجوب تحريض المؤمنين وحثهم على القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦- ينبغي لمن وفقه الله إلى فعل خير دعوة غيره إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفيه احتراز؛ لئلا يتوهم سامع أنه إذا لم يكلف بهم فإنه يهملهم ويتركهم.

قال السعدي(٦): «وهذه الحالة أفضل أحوال العبد أن يجتهد في نفسه على امتثال

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات (٢٥١٧)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) الأبيات لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص١٥٧).

(٣) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٥.

(٤) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص١٦٤.

(٥) البيت لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص٧٠).

(٦) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١١٥).

أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه».

١٧- أن من أهداف القتال والجهاد في الإسلام كف بأس الذين كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

١٨- وعد الله المؤمنين إذا صدقوا في القتال في سبيله بكف بأس الذين كفروا؛ لأن ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة.

١٩- أن علينا فعل الأسباب والعمل، والنتائج أمرها إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٢٠- أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وفي هذا الرد على القدرية القائلين بأن أفعال الخلق مخلوقة لهم.

٢١- أن الكفار قد يكون لهم بأس وقوة، لكنها ليست بشيء أمام قوة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

٢٢- شدة بأس الله تعالى وتنكيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

٢٣- أن من شفع شفاعة حسنة فله حظ من أجرها، ومن شفع شفاعة سيئة فله حظ من وزرها؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾.

٢٤- الترغيب في الشفاعة الحسنة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ﴾، أي: يؤجر ويثاب عليها، وفي الحديث: «**من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»(١).

٢٥- التحذير من الشفاعة السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، والترمذي في الحدود (١٤٢٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كمن يسعى في إبطال حد من حدود الله، أو حق من حقوق الخلق، وفي الحديث: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله**»(١).

ولا يخفى أن جل الشفاعات اليوم فيها ما فيها؛ لأن أكثرها في تقديم أناس على حساب غيرهم ممن هم أولى وأحق، فلينبته لهذا، ويحذر من مغبته والعاقبة للتقوى.

٢٦- أن الله- عز وجل- حفيظ مقتدر على كل شيء في كل وقت وحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾.

٢٧- وجوب مراقبة الله تعالى والاستقامة على طاعته والحذر من معصيته؛ لأنه سبحانه- حفيظ مقتدر على كل شيء في جميع الأوقات.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾، الواو استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية غير جازمة.

﴿حُيِّيتُم﴾: فعل الشرط ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾، الباء حرف جر و«تحية» مجرور بها وهي نكرة في سياق الشرط فتعم كل تحية، أي: كل ما يدل على أنه تحية.

والتحية: مصدر مأخوذة من الحياة؛ لأنها دعاء بالحياة والبقاء، وكانت التحية عند العرب قبل الإسلام إذا لقي أحدهم الآخر أن يقول: حياك الله. قال عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم[1]

والمراد بالتحية في الآية: السلام، الذي جعله الله تحية المسلمين في الدنيا والآخرة، وهو أكمل وأفضل التحيات، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

والتحية بالسلام: دعاء بالحياة والبقاء والسلامة من الآفات في الدين والدنيا، وإخبار للمسلَّم عليه بسلامته من غيلة المسلِّم وغشه ومكره، ومن مكروه يناله منه، فيرد عليه المسلَّم عليه بمثل ذلك[2].

والمعنى: إذا سلم عليكم بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾، الباء حرف جر، و«أحسن» على وزن «أفعل»: ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل[3].

أي: فحيوا من حياكم بتحية أحسن، أي: أفضل مما حياكم ودعا لكم به، كمية وكيفية، كمية بأن يزاد في الرد، فمن قال: السلام عليكم: فحيوه بقولكم. وعليكم السلام ورحمة الله.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٨٦)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٥٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٢).

ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله، فحيوه بقولكم: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ولا مزيد على هذا؛ لأن هذا هو أكمل وأتم السلام من حيث الكمية.

كما دلت على ذلك السنة؛ كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعًا. فلما خلقه، قال: اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. قال فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. فزادوه: ورحمة الله»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال لها: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته»(٢).

وأحسن منها كيفية: بأن يرد المسلَّم عليه السلام جهرًا بصوت واضح بين، ولو كان المسلِّم سلم مخافتة.

﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾، «أو» للتنويع، أي: حيوا بهذا، أو هذا، ومعنى «ردوها» حيوه بمثلها.

فمن حياكم بقوله: «السلام عليكم» فحيوه بمثلها بقولكم: «وعليكم السلام».

ومن حياكم بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله» فحيوه بمثلها بقولكم: «وعليكم السلام ورحمة الله، ومن حياكم بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فحيوه بمثلها بالتحية الكاملة كما حياكم بقولكم: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

عن سلمان الفارسي- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله»، ثم أتى آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: «وعليكم»، فقال له الرجل: يا نبي الله بأبي أنت وأمي أتاك فلان وفلان، فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي، فقال: «إنك لم تدع لنا شيئًا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤١).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤٤٧)، وأبو داود في الأدب (٥٢٣٢)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٥٢)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٦٩٣)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٦).

﴿حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فرددناها عليك»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ».

وقال ابن كثير أيضًا في بيانه معنى الآية[٣]: «وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، أي: إذا سلَّم عليكم المُسلِّم فردوا عليه أفضل مما سلَّم، أو ردوا عليه بمثل ما سلَّم، فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة».

والأولى أن يكون المعنى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ فيما إذا كان المسلِّم سَلَّم بالتحية غير كاملة، فيرد المسلَّم عليه بأحسن منها، «أو ردوها» فيما إذا كان المسلِّم سَلَّم بالتحية كاملة «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فيرد عليه بمثل هذا إذ لا زيادة على هذا اللفظ، فيقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

وعلى هذا يكون الأولى للمسلَّم عليه أن يرد بأحسن مما سُلِّمَ به عليه إن وجد مجالًا لذلك، ويرد بمثلها إن لم يجد مجالًا للزيادة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ كان: مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف على الدوام، أي: إنه عز وجل كان ولم يزل على كل شيء حسيبا، و﴿شَيْءٍ﴾: نكرة، أي: على كل شيء من الأشياء.

﴿حَسِيبًا﴾، الحسيب: اسم من أسماء الله عز وجل، ومعناه أنه تعالى محاسب لكل أحد وكافٍ، وحفيظ لكل شيء، وعلى كل شيء، وسيجازي كلا بما عمل من التحية وردها وغير ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر[٤]، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٥٨٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٥).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٤).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٣٥)، «جامع البيان» (٨/ ٥٩١).

وهو الكافي في حسابه كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦، الأحزاب: ٣٩]، وهو الكافي لمن توكل عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١، ١٣٢، ١٧١، الأحزاب: ٣، ٤٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»(١):

وهو الحسيب كفاية وحماية ... والحسب كافي العبد كل أوان

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾، وأن السُّنَّة إذا التقى المسلمان أن يبادر كل منهما صاحبه بالسلام.

عن عبد الله بن سلام- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر، ثم لقيه فليسلم عليه أيضًا»(٣).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع.. وذكر منها: إفشاء السلام»(٤).

وكان ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام(٥). وفي الحديث: «وخيرهما الذي يبدأ

---

(١) (ص٢١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥)، وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٤)، وأحمد (٥/ ٤٥١)، والحاكم (٣/ ١٣)، وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٠) بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٥)، ومسلم في اللباس (٢٠٦٦).

(٥) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٤١٩).

بالسلام»(١).

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: قيل يا رسول الله: الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام؟ فقال: «أَوْلَاهُمَا بالله»(٢).

وروي عن أنس رضي الله عنه قال: «كنا إذا كنا مع رسول الله ﷺ فتفرق بيننا الشجر، فإذا التقينا يسلم بعضنا على بعض»(٣).

والأولى أن يكون السلام جهرًا بصوت يُسمع كما في حديث المقداد قال: «كنا نرفع للنبي ﷺ نصيبه من اللبن، فيجيء من الليل فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا ويسمع اليقظان، فجاء النبي ﷺ فسلم كما كان يسلم»(٤).

كما أن من السنة أيضًا إذا أراد المسلم أن يقوم من المجلس أن يسلم- وهذه من السنن التي هجرها كثير من المسلمين- وقد قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإن أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»(٥).

وأكمل صفة للسلام وأتمها أن يقول المُسلِّم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». ويرد عليه المُسلَّم عليه بقوله: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

وليس هناك صيغة أفضل ولا أزيد من حيث الكمية من هذه الصيغة، كما دلت على ذلك السنة(٦).

وأما ما روي من زيادة «ومغفرته» أو «ومغفرته ورضوانه» فهذا لا يصح، كما بين

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٢)، من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود- باب الأدب- باب فضل بدء السلام (٥١٩٧) بإسناد صحيح، والترمذي في الاستئذان- فضل الذي يبدأ بالسلام (٢٦٩٤)، وقال: «حديث حسن» وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨/ ٦٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١/ ٢٣٨)، وانظر: «شرح مشكل الآثار» (١٣/ ١٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في الأشربة، إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٥).

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب- باب السلام إذا قام من المجلس (٥٢٠٨)، والترمذي في الاستئذان- التسليم عند القيام وعند القعود (٢٧٠٦)، وقال «حديث حسن» وصححه الألباني.

(٦) كما سبق في حديث أبي هريرة وعائشة وسلمان رضي الله عنهم، وكما سيأتي في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وانظر: «زاد المعاد» (٢/ ٤١٧-٤١٨).

ذلك ابن القيم[١]، وابن حجر[٢]، رحمهما الله.

والسنة الجهر بالسلام حتى يسمعه المُسلَّم عليه ما أمكن، فإن لم يمكن إسماعه كأن يكون المُسلِّم بعيدًا راكبًا أو ماشيًا جمع بين السلام والإشارة باليد ونحوها، ليُعرف أنه يسلم، ولا تكفي الإشارة باليد دون أن يقارنها التلفظ بالسلام[٣]، كما اعتاده بعض الناس، وهذا من فعل أهل الكتاب.

والسنة أن يكون السلام بلفظ خطاب الجمع «السلام عليكم» وكذلك الرد بـ«وعليكم السلام» ولو كان المُسلِّم أو المُسلَّم عليه واحدًا[٤].

ويكون السلام بالتعريف لورود الأحاديث بذلك فيقال: «السلام عليكم»، ويقال في الرد «وعليكم السلام».

ويكون بالتنكير كما في سلام الملائكة على إبراهيم عليه السلام، ورده عليهم، قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]. والتعريف أبلغ[٥].

وقد يكون من تمام السلام أحيانًا أن يسلم ثلاثًا، لما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا تلكم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم ثلاثًا»[٦].

قال ابن القيم[٧]: «ولعل هذا كان هديه في السلام على الجمع الكثير الذين لا يبلغهم سلام واحد، أو هديه في إسماع الثاني والثالث إن ظن أن الأول لم يحصل به الإسماع، وإلا فلو كان هديه الدائم التسليم ثلاثًا لكان أصحابه يسلمون عليه كذلك، وكان يسلم على كل من لقيه ثلاثًا، وإذا دخل بيته سلم ثلاثًا، ومن تأمل هديه، علم أن الأمر ليس كذلك، وأن تكرار السلام كان منه أمرًا عارضا في بعض الأحيان».

---

(١) في «زاد المعاد» (٢/ ٤١٧-٤١٨)، وانظر: «كلام الأرنؤوط» على الحديث في تخريج زاد المعاد.

(٢) في «تخريج الأذكار» نقله عن ابن علان في «الفتوحات الربانية» (٥/ ٢٩٢).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧٠-١٧١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٠٣).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٠٠).

(٥) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٦٩-١٧٠).

(٦) أخرجه البخاري في العلم (٩٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٣).

(٧) في «زاد المعاد» (٢/ ٤١٨-٤١٩).

ويكره أن يقول المُسلِّم «عليك السلام»[١] لما رواه أبو جري الهجيمي- رضي الله عنه- قال: «أتيت النبي ﷺ فقلت: عليك السلام يا رسول الله. فقال: لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الأموات»[٢].

قال ابن القيم[٣]: «وهذا لا يعارض ما ثبت عنه ﷺ في السلام على الأموات بلفظ: «السلام عليكم»[٤] بتقديم «السلام»؛ لأن حديث الهجيمي إخبار عن الواقع لا المشروع، أي: أن الشعراء وغيرهم يحيون الموتى بهذه اللفظة، كقول قائلهم[٥]:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

فكره النبي ﷺ أن يُحيى بتحية الأموات، ومن كراهته لذلك لم يرد على المُسلِّم بها».

وقال ابن القيم أيضًا[٦]: «الدعاء بالسلام دعاء بالخير والأحسن في دعاء الخير أن يقدم الدعاء على المدعو له كقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ [مريم: ١٥]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

وأما الدعاء بالشر فيقدم المدعو عليه على الدعاء غالبًا كقوله لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥]، وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨، الفتح: ٦]، وقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

وإنما قال النبي ﷺ ذلك- أي: إن «عليك السلام تحية الموتى»- إشارة إلى ما

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٠٩)، والترمذي (٢٧٢٢)، وأحمد في المسند (٥/ ٦٣، ٦٤)- مطولا وإسناده صحيح.

(٣) في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٠-٤٢١).

(٤) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين...» الحديث. أخرجه مسلم في الطهارة (٢٤٩)، وأبو داود في الجنائز (٣٢٣٧)، والنسائي في الطهارة (١٥٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٦).

(٥) البيتان لعبدة بن الطيب، وهما في «ديوانه» (ص٨٨) تحقيق يحيى الجبوري.

(٦) في «مختصر السنن» (٦/ ٤٩).

جرت به العادة منهم في تحية الأموات، إذ كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء، وهو مذكور في أشعارهم كقول الشمّاخ[١]:

عليك سلام من أديم وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق

وليس مراده أن السنة في تحية الميت أن يقال له: عليك السلام، كيف؟ وقد ثبت في الصحيح عنه أنه دخل المقبرة، فقال: «السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين»[٢] فقدم الدعاء على اسم المدعو، كهو في تحية الأحياء، فالسنة لا تختلف في تحية الأحياء والأموات».

وليس من التحية الشرعية في الإسلام أن يقول لمن لقيه: «مرحبًا» أو «أهلًا وسهلا» أو «حياكم الله» أو نحو ذلك، وإن كان هذا يعد كلامًا طيبًا، لكن التحية في الإسلام ما ثبت في سنة المصطفى ﷺ وهي التي رتب عليها الأجر العظيم.

وليس من التحية في شيء أن يقول في الهاتف لمن يكلمه: «ألو»، ونحو ذلك، فإن هذه الكلمة مع أنها غير عربية فلا يؤجر الإنسان عليها.

والسنة أن يسلم القليل على الكثير؛ لفضل الجماعة، ويسلم الصغير على الكبير؛ احتراما للكبير، ويسلم القائم على القاعد، والراكب على الماشي؛ ليكون أبعد عن الزهو[٣].

قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ويسلم القليل على الكثير، والصغير على الكبير، والقائم على القاعد، والراكب على الماشي»[٤].

وإذا علمت أن من لقيك من قليل أو صغير أو راكب لن يسلم فسلم أنت، واكسب الأجر- والشكوى إلى الله، وكما قيل:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها[٥]

وينبغي أن يُسلم على كل من لقيه من المسلمين، كما كان ﷺ يفعل؛ من صغير أو

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤٤٨)، وقد اختلف في نسبته إلى الشمّاخ أو إلى غيره كما هو مفصل في ديوانه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧٠)، «زاد المعاد»، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣١)، ومسلم في السلام (٢١٦٠)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٨)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠٣).

(٥) البيت للكميت بن زيد. انظر: «ديوانه» (ص٧١) مع اختلاف فيه.

كبير؛ لأنه كان ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم[١] تواضعا منه ﷺ بأبي هو وأمي.

وينبغي أن يسلم على كل من لقيه من المسلمين، عرفه أو لم يعرفه، ولا يقتصر بالسلام على من يعرف- كما هو حال كثير من المسلمين اليوم- والله المستعان- يقابل بعضهم بعضًا في الأسواق والطرقات رجالًا وركبانًا، فلا يسلم بعضهم على بعض، ويقفون بسياراتهم عند الإشارات الضوئية جنبًا إلى جنب، ولا يسلم بعضهم على بعض، بحجة أنه لا يعرف بعضهم بعضًا، وإذا سلم عليهم مُسَلِّم وهم لا يعرفونه لحظوه بأعينهم وأكثروا الالتفات والنظر إليه، ولسان حالهم، وربما لسان مقالهم يردد: هل هذا يعرفنا؟! من هذا الذي يسلم علينا؟! وإذا لقي أحد الأشخاص من يعرفه فلم يسلم عليه وعاتبه في ذلك قال: لأني لم أعرفك. فيا سبحان الله!!

وهذا مصداق ما أخبر به المصطفى ﷺ أن السلام في آخر الزمان يكون على المعرفة، كما في حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يُسَلِّم الرجل على الرجل، لا يُسَلِّم عليه إلا للمعرفة».

وفي لفظ: «إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة»[٢].

وفي حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه؛ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «أن تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٣].

وقد جهل كثير من الناس هذا أو تجاهلوه وفاتهم أن يحصل الواحد منهم على ثلاثين حسنة بكل سلام يؤديه، كما جاء في حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: «السلام عليكم» فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشر» ثم جاء آخر

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٧)، ومسلم في السلام (٢١٦٨)، وأبو داود في الأدب (٥٢٠٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٩٦)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٠٠)- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال: «كان النبي ﷺ يفعله».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧، ٤٠٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٢٨-٣٢٩)، ونسبه لأحمد والبزار والطبراني، وقال: «رجال أحمد والبزار رجال الصحيح» وقال أحمد شاكر في تخريجه للمسند (٣٨٤٨): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٢)، ومسلم في الإيمان (٣٩)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٠)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٥٣)، والدارمي في الأطعمة (٢٠٨١).

فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر، فقال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فرد عليه ثم جلس، فقال: «ثلاثون»(١).

كما أن للمُسلِّم مثل ذلك؛ لأنه السبب في ذلك.

كما فات هذا الفضل وهذا الأجر العظيم أرباب المصالح والعلاقات المادية فقط الذين يقيسون الناس بالدرهم والدينار والجاه والمنصب، فيقصرون سلامهم على طبقات الأغنياء وذوي الجاه والمناصب ويبخلون بالسلام على من دونهم من الفقراء والمساكين والعمالة ونحوهم، وفي الحديث: «أبخل الناس من بخل بالسلام»(٢).

وعن الطفيل بن أبي كعب أنه كان يأتي عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبدالله على سقّاط ولا على صاحب بيعة ولا مسكين، ولا أحد إلا سلم عليه، قال الطفيل: فجئت عبد الله بن عمر يومًا فاستتبعني إلى السوق، فقلت له: ما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق؟ وأقول اجلس بنا ههنا نتحدث، فقال: يا أبا بطن- وكان الطفيل ذا بطن- إنما نغدو من أجل السلام، فنسلم على من لقيناه»(٣).

كما فات هذا الأجر العظيم من يستبدل تحية الإسلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» بغيرها، كأن يقول: مرحبًا، أو أهلًا وسهلا، أو حياكم الله، أو يقول في المكالمة الهاتفية «ألو» ونحو ذلك وصدق في الجميع قول ابن القيم:

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم(٤)

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٥٩)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٨٩، ٢٦٩٠)، وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٤/ ٤٣٩، ٤٤٠)، قال الحافظ ابن حجر عن إسناد أبي داود «إسناد قوي». انظر: «فتح الباري» (١١/ ٥)، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٤٠) حديث (٥٥٩١)، والبيهقي في «شعيب الإيمان» (٦/ ٤٢٩)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- مرفوعا وحسن سنده الألباني في الصحيحة (٦٠١)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٣٤٩)، حديث (٤٤٩٨) موقوفا على أبي هريرة.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٦١-٩٦٢) وإسناده صحيح.

(٤) انظر: «حادي الأرواح» (ص٣٢)، «إغاثة اللهفان» (١/ ٧١)، «طريق الهجرتين» (ص١٠١).

ويسن إذا دخل على أهله أن يسلم لما رواه أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهلك»(١).

ويسن إذا دخل البيت أن يسلم- وإن كان البيت خاليا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١](٢).

ويسن إذا أراد الدخول على أحد أن يسلم ويستأذن قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥].

وعن كلدة بن حنبل- رضي الله عنه- أنه دخل على النبي ﷺ ولم يستأذن ولم يسلم، فقال له النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل»(٣).

وفي حديث ربعي حدثنا رجل من بني عامر: «أنه استأذن على النبي ﷺ، وهو في بيت، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل»(٤).

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «الاستئذان ثلاثًا، فإن أذن لك وإلا فارجع»(٥).

وتسن المصافحة بين الرجال، وبين النساء فيما بينهن، لما رواه البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر

---

(١) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٦٩٨)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- كيف الاستئذان (٥١٧٦)، والترمذي في الاستئذان- التسليم قبل الاستئذان (٢٧١٠)، وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٧٧، ٥١٧٨، ٥١٧٩)، بإسناد صحيح، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه البخاري في الاستئذان- التسليم والاستئذان ثلاثا (٦٢٤٥)، ومسلم في الأدب- باب الاستئذان (٢١٥٣، ٢١٥٤)، وأبو داود في الأدب (٥١٨٠، ٥١٨١)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٩٠).

لهما قبل أن يفترقا»[١].

وعن أبي الخطاب قتادة قال: «قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم»[٢].

وكان ﷺ إذا صافح أحدًا لا ينزع يده حتى يكون الآخر هو الذي ينزع يده، مع تبسمه ﷺ واحتفائه بمن يسلم عليه ويصافحه.

والمشاهد لحال كثير من المسلمين اليوم خلاف ذلك، فبرود في السلام والمصافحة، حتى من كثير من المنتسبين للعلم والدعوة، فإن وجد السلام عدمت المصافحة، وإن وجد السلام والمصافحة عدمت الابتسامة، وقل أن تجد من يجمع بينها وقد قال جرير ابن عبد الله رضي الله عنه: «**ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي**»[٣].

ويسلم على النساء الأجنبيات إذا أمنت الفتنة، كما إذا كن كبيرات في السن، أو من محارمه، ونحو ذلك؛ لحديث سهل بن سعد أنهم كانوا يسلمون على العجوز[٤].

وعن أسماء بنت يزيد قالت: «مر علينا النبي ﷺ في نسوة فسلم علينا»[٥].

فإن خيفت الفتنة فلا يسلم عليهن.

وإذا تحمل السلام من شخص إلى آخر كأن يقال له: أقرئ فلانًا مني السلام. وجب على المتحمل أداء ذلك، ونقله للمسلم عليه، فيقول له: إن فلانًا يقرئك السلام.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢١٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨)، من حديث أبي إسحاق عن البراء، وقال: «حديث حسن غريب من حديث أبي إسحاق عن البراء، وقد روي هذا الحديث عن البراء من غير وجه» وأخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٧٠٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٩، ٣٠٣)، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٣/ ١٤٢)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٥)، وابن ماجه في المقدمة (١٥٩).

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٨).

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٩٧)، وقال: «حديث حسن» وابن ماجه في الأدب (٣٧٠١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤٨)، وصححه الألباني.

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل يقرئك السلام» قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته[١].

ولا يجوز ابتداء اليهود والنصارى بالسلام[٢] لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»[٣].

ولأنه ﷺ لما كتب إلى هرقل وغيره كتب: «السلام على من اتبع الهدى»[٤].

وقيل يجوز ابتداؤهم بالسلام، روي ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة، وابن محيريز وروي عن الأوزاعي قال: «إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون»[٥]. يعني على أهل الكتاب.

قال ابن القيم[٦]: «وهو وجه في مذهب الشافعي- رحمه الله- لكن صاحب هذا الوجه قال: يقال له: السلام عليك فقط بدون ذكر الرحمة[٧] وبلفظ الإفراد».

وقيل: يجوز ابتداؤهم لمصلحة راجحة من حاجة تكون له إليه، أو خوف من أذاه، أو لقرابة بينهما، أو لسبب يقتضي ذلك. روي هذا عن إبراهيم النخعي وعلقمة[٨].

والصحيح القول الأول، وهو عدم جواز ابتدائهم بالسلام لحديث أبي هريرة-

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧٠)، «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في السلام (٢١٦٧)، وأبو داود في الأدب (٥٢٠٥)، والترمذي في السير (١٦٠٢)، وفي الاستئذان (٢٧٠٠)، وأحمد (٢/ ٢٦٦، ٣٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦١)، ومسلم في الجهاد (١٧٧٣)، وأبو داود في الأدب (٥١٣٦)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧١٧)، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٥) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٥).

(٦) في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٥).

(٧) كأن صاحب هذا القول اعتقد أن الدعاء لهم بالرحمة كالدعاء للمؤمنين بذلك، وقد ذكر أهل العلم أن معنى الدعاء بالرحمة لغير المؤمنين هو الدعاء لهم بالهداية، ولهذا فالصحيح جواز رد السلام عليهم كما سيأتي بيانه إن شاء الله- تعالى.

(٨) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٥).

رضي الله عنه- وغيره، وإذا كان اليهود والنصارى لا يجوز ابتداؤهم بالسلام فغيرهم من الكفار من باب أولى.

وأما إذا كان المجلس فيه أخلاط من المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب أو عبدة الأوثان، فإنه يسلم عليهم. لحديث أسامة بن زيد رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين وعبدة الأوثان فسلم عليهم»(١).

والأصل أن يسلم على كل من لقيه من المسلمين على أي حال كان المُسلَّم عليه، أي: سواء كان حال السلام عليه متلبسا بفعل طاعة أو بفعل معصية أو غير ذلك إلا من دل الدليل على منع السلام عليه.

فيسلم على من يصلي؛ لأن النبي ﷺ لم ينكر على من سلم عليه وهو يصلي، خلافًا لما استحسنه بعض أهل العلم، من أنه لا يسلم على من يصلي(٢)؛ لأن هذا القول لا دليل عليه، بل هو مخالف لما ثبت من سلام بعض أصحاب النبي ﷺ عليه وهو يصلي وإقراره لهم على ذلك، بل ورده عليهم بالإشارة، كما سيأتي بيانه.

وإذا كان المصلي يسلم عليه مع اشتمال الصلاة على قراءة القرآن وغيره فمن يقرأ القرآن خارج الصلاة يسلم عليه من باب أولى، وكذا من يشتغل برواية الحديث ونحو ذلك، خلافًا لمن منع من ذلك بلا دليل ولا تعليل مقبول.

وقد سئل العلامة ابن باز رحمه الله: ما الأفضل لمن يكون بجانب قارئ القرآن، هل يسلم عليه ويصافحه بعد انتهائه من تحية المسجد، أم أن عدم قطع قراءته وإشغاله عن التلاوة أفضل؟

فقال رحمه الله: «السنة أن يسلم عليه ويصافحه؛ لما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا التقى المسلمان فتصافحا تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها».

ويقول أنس رضي الله عنه: « كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا،

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٦٣) ومسلم في الجهاد (١٧٩٨)، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠٢)، وأحمد (٥/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٠٤).

وإذا قدموا من سفر تعانقوا»؛ رواه الطبري، ورواته محتجّ بهم في الصحيح، ولأن في ذلك تأكيد المودة والإيناس، والتعارف بين المسلمين، وقطع القراءة لمصلحة عارضة أمر مطلوب»(١).

ولا يسلم حال كون الإمام يخطب يوم الجمعة؛ لأن المسلَّم عليه وكذا المسلِّم مأمور كل منهم بالإنصات حال خطبة الإمام، ولا يسلم على المشتغل بالأذان والإقامة؛ لأنه مشتغل بعبادة أخرى.

ولا يسلم على من يقضي حاجته؛ لأن النبي ﷺ لما سلم عليه المهاجر بن قنفذ وهو ﷺ يبول لم يرد عليه، كما سيأتي بيانه- فدل على أنه لا يسلم على من يقضي حاجته، كما لا يسلم على مكشوف العورة؛ لأنه على حال لا يليق معه السلام عليه.

أما المتلبس بفعل المعصية كالمغني ولاعب الشطرنج وغيرهما فإن كان ترك السلام عليه أنفع له بحيث يحمله على ترك هذه المعصية فترك السلام عليه أولى(٢) وإن لم يكن في ترك السلام عليه منفعة له فيسلم عليه على الصحيح؛ لعموم الأحاديث في الأمر بالسلام، حتى ولو كانت معصيته بدعة ما لم يكن في هجره مصلحة له وردع لأمثاله.

٢- وجوب رد التحية؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، والأصل في الأمر الوجوب، فالسلام سنة ورده واجب(٣).

وهذا خلاف القاعدة الشرعية أن الواجب أفضل، فصارت السنة هنا أفضل؛ لأن الواجب هنا كان مبنيًا عليها.

قال ابن كثير(٤): «قول العلماء قاطبة أن الرد واجب عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾».

فيجب رد التحية حتى ولو كان يقرأ القرآن؛ لأن رد التحية واجب، والقراءة سنة.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى ومقالات متنوعة» (١١/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٠٤)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤١).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٩٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٦٧)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٩٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٩٨).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٦).

لكن إذا كان المسلَّم عليهم جماعة فرد بعضهم كفى، وكذا إذا سلم واحد من جماعة كان كافيا(١).

عن علي- رضي الله عنه- قال: «يجزي عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، وعن الجلوس أن يرد أحدهم»(٢).

٣- أنه ينبغي رد السلام على الفور(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

فرتب الرد على السلام ترتب الجواب على الشرط؛ ولأنه يفوت وقته إلا إذا سلم عليه وهو في مقام لا يشرع فيه السلام ولا رده، كما إذا كان يقضي حاجته، لما رواه المهاجر بن قنفد: «أنه سلم على النبي ﷺ وهو يبول فلم يرد عليه حتى توضأ فلما توضأ رد عليه»(٤).

٤- أنه يجب رد التحية بأحسن منها أو بمثلها، والأولى والأكمل والأفضل أن ترد بأحسن منها؛ لأن الله قدمه، ولأنه أحسن وأفضل وأكمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

أي: أحسن منها من حيث الصفة والكيفية، وذلك بإظهار رد السلام ووضوحه، والجهر به أكثر من المُسلَّم، وأحسن منها من حيث اللفظ والكمية بأن يزيد في الرد؛ فمن قال: «السلام عليكم» يرد عليه بـ (وعليكم السلام ورحمه الله)، أو بـ «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» وهذا أفضل، ومن قال: «السلام عليكم ورحمة الله» يرد عليه بـ «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ومن كمل السلام فقال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» يرد عليه بالكمال: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ولا أزيد

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٥٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٦٧)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٩٨-٢٩٩)، «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢١٠)، قال أبو داود: «رفعه الحسن بن علي» وقال المنذري: «في إسناده سعيد بن خالد الخزاعي المدني، قال أبو زرعة الرازي: «مدني ضعيف».
قال ابن عبد البر: «وهو حديث حسن لا معارض له» وصححه الألباني موقوفا.

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧١)، «زاد المعاد» (٢/ ٤١٩).

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة (١٧)، وابن ماجه في الطهارة (٣٥٠)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٥٢) حديث (٤٢١)، وإسناده صحيح.

ولا أفضل من هذا بدءًا وردًا.

قال ابن القيم- رحمه الله[١]- في ذكر هدي النبي ﷺ في السلام: «وكان يبدأ من لقيه بالسلام، وإذا سلم عليه أحد رد عليه مثل تحيته أو أفضل منها على الفور من غير تأخير إلا لعذر، مثل حالة الصلاة[٢] وحالة قضاء الحاجة. قال: وكان يُسمع المُسلِّم رده عليه، ولم يكن يرد بيده ولا رأسه ولا أصبعه إلا في الصلاة، فإنه كان يرد على من سلم عليه إشارة، ثبت ذلك عنه في عدة أحاديث..»[٣].

ومن تمام رد السلام الإتيان بالواو في أوله، فيقول: وعليكم السلام، وإن حذفها فلا بأس، والصواب الإتيان بالواو، وهو أحسن من حذفها، وهو هديه ﷺ[٤].

وإذا بلَّغه أحد السلام عن غيره وجب عليه الرد، والأفضل أن يرد عليه وعلى المبلِّغ، لما روي أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إن أبي يقرئك السلام فقال: «عليك وعلى أبيك السلام»[٥].

وإذا بعث السلام له في كتاب وجب عليه رده في الجواب[٦].

٥- أن أقل الواجب في رد السلام أن ترد التحية بمثلها فإذا قال: «السلام عليكم ورحمة الله» فيجب أن يرد عليه بـ «وعليكم السلام ورحمة الله» ولا يكتفي بـ«وعليكم السلام» وإذا قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فيجب الرد عليه بمثل ما قال ولا يكتفي بما دونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

قال ابن كثير[٧]: «فالزيارة مندوبة والمماثلة مفروضة».

---

(١) في «زاد المعاد» (٢/ ٤١٩، ٤٢١-٤٢٤).

(٢)، أي: أنه حال الصلاة لا يرد بالقول، أما الرد بالإشارة فهو ثابت عنه ﷺ كما ذكره المؤلف بعد هذا.

(٣) سيأتي تخريج بعضها.

(٤) قال ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٥٦): «ثبتت الروايات بإثبات الواو وحذفها» وانظر: «زاد المعاد» (٢/ ٤٢١-٤٢٤).

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٣١)، ونسبه الحافظ ابن حجر في «أمالي الأذكار» إلى النسائي في الكبرى وفي سنده جهالة. وحسنه الألباني.

(٦) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧١).

(٧) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٤).

٦- أن السلام يرد على كل من سلم مسلمًا كان أو كافرًا صغيرًا كان أو كبيرًا رجلًا كان أو امرأة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ وهذا عام(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من يسلم عليك من خلق الله فسلم عليه وإن كان مجوسيا ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾(٢).

وعلى هذا فإذا سلم علينا أحد من غير المسلمين بلفظ صريح، فقال: «السلام عليكم» نرد عليه بمثله فنقول: «وعليكم السلام».

قال ابن القيم(٣): «فلو تحقق السامع أن الذمي قال له «سلام عليكم» لا شك فيه فهل له أن يقول: «وعليك السلام» أو يقتصر على قوله: «وعليك» فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: «وعليك السلام» فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فندب إلى الفضل وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئًا من أحاديث الباب بوجه ما، فإنه ﷺ إنما أمر بالاقتصار على قول الراد «وعليكم» بناء على السبب المذكور الذي كانوا يتعمدونه في تحيته، وأشار إليه في حديث عائشة- رضي الله عنها، فقال: «ألا ترينني قلت: «وعليكم» لما قالوا: «السام عليكم» ؟ ثم قال: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»(٤).

والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ، فإنما يعتبر عمومه في نظير المذكور، لا فيما يخالفه قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، فإذا زال السبب وقال الكتابي: «سلام عليكم ورحمة الله» فالعدل في التحية يقتضي أن يرد عليه نظير سلامه، وبالله التوفيق».

أما إذا سلموا علينا بلفظ محتمل غير صريح، كما ذكر النبي ﷺ عن اليهود أنهم

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٩٠)، «النكت والعيون» (١/ ٤١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٥٨٧)- الأثر (١٠٠٣٩)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٢٥).

(٣) في «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٥٧).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، وأحمد (٦/ ٣٧).

يقولون: «السام عليكم» يعنون «الموت لكم»[١] فيرد عليهم كما قال ﷺ: بـ«وعليكم» أي: وعليكم ما دعوتم به[٢].

قال ابن كثير[٣]: «وأما أهل الذمة فلا يبدؤون بالسلام، ولا يزادون، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك»[٤].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجب الرد على أهل الكتاب، وجمهور أهل العلم على القول الأول. قال ابن القيم[٥]: «وهو الصواب».

وهل يرد عليهم بأحسن من تحيتهم أو يكتفى بردها؟ ظاهر الآية التخيير في ذلك. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنهم لا يزادون على تحيتهم[٦].

ويجب على كل من سُلِّم عليه رد السلام على أي حال كان، فإن كان يصلي فإنه يرد بالإشارة بيده أو أصبعه، لما رواه صهيب- رضي الله عنه- قال: مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه فرد إشارة. قال: ولا أعلمه إلا قال إشارة بأصبعه»[٧].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: أرسلني نبي الله ﷺ إلى بني المصطلق، فأتيته وهو يصلي على بعيره، فكلمته، فقال لي بيده هكذا، ثم كلمته فقال لي بيده هكذا، وأنا أسمعه يقرأ ويومئ برأسه فلما فرغ قال: ما فعلت في الذي أرسلتك؟ فإنه لم يمنعني أن أكلمك إلا أني كنت أصلي»[٨].

---

(١) انظر: «النهاية» مادة «سمم».

(٢) انظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٥٦).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٧)، ومسلم في السلام (٢١٦٤)، وأبو داود في الأدب (٥٢٠٦)، والترمذي في السير (١٦٠٣)، ومالك في «الجامع» (١٧٩٠)، والدارمي في الاستئذان (٢٦٣٥).

(٥) في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٥-٤٢٦).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢٥).

(٧) أخرجه أبو داود في الصلاة (٩٢٥)، والنسائي في السهو (١١٨٦)، والترمذي في الصلاة (٣٦٧)، وقال: «حديث حسن» وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠١٧) وصححه الألباني.

(٨) أخرجه مسلم في المساجد (٥٤٠)، وأبو داود في الصلاة (٩٢٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠١٨).

وعن ابن عمر- رضي الله عنه- قال: قلت لبلال كيف كان النبي ﷺ يرد عليهم حين كانوا يسلمون عليه وهو في الصلاة؟ قال: «كان يشير بيده».

وفي رواية: «كان يرد إشارة»[١]، وفي رواية: «أنه صلى الله عليه وسلم كان يرد بكفه، يجعل بطنه أسفل وظهره إلى فوق»[٢].

وكذلك الحكم لمن سُلِّم عليه حال خطبة الإمام يوم الجمعة فإنه يرد بالإشارة»[٣]؛ لأنه مأمور بالإنصات، وحيث تعارض واجبان عام وهو رد السلام، وخاص وهو الإنصات لسماع الخطبة يقدم الواجب الخاص.

ويرد قارئ القرآن؛ لأن رد السلام واجب، وقراءة القرآن سنة، ومثله المشتغل برواية الحديث خلافًا لمن قال: قارئ القرآن مخير بين الرد وتركه فهذا لا دليل عليه، وإذا كان المصلي يُسلَّم عليه ويرد بالإشارة فالقارئ من باب أولى يُسلَّم عليه لكن يرد بالقول لا بالإشارة؛ لأن قراءة القرآن لا تمنعه من الرد بالقول، بخلاف المصلي فهو ممنوع من الكلام حال الصلاة.

ولا يرد السلام حال قضاء الحاجة- إن سُلِّم عليه- ويرد بعد فراغه منه؛ لحديث المهاجر بن قنفذ أنه أتى النبي ﷺ وهو يبول، فسلم عليه، فلم يرد عليه حتى توضأ، ثم اعتذر إليه، فقال: «كرهت أن أذكر الله- عز وجل- إلا على طهر أو قال: على غير طهارة»[٤].

ولا يرد السلام على من قال: «عليك السلام»؛ لأن النبي ﷺ كره ذلك وقال: «عليك السلام تحية الموتى» ولم يرد على من سلم عليه بهذا اللفظ.

ويراعى في الرد على صاحب المعصية المتلبس بها وصاحب البدعة الأنفع لهما والأصلح من الرد أو تركه- كما سبق تفصيله في بدء السلام عليهما.

---

(١) أخرجها الترمذي في الصلاة (٣٦٨)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجها أبو داود في الصلاة (٩٢٧).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٧٠).

(٤) سبق تخريجه.

قال ابن القيم[١]: «وكان هديه ترك السلام ابتداءً وردًا على من أحدث[٢] حتى يتوب منه، كما هجر كعب بن مالك وصاحبيه، وكان كعب يسلم عليه، ولا يدري هل حرك شفتيه برد السلام عليه أم لا»[٣].

٧- أن من رد السلام بقوله: «أهلًا وسهلًا» أو «مرحبًا» ونحو ذلك، لم يجزئه ذلك؛ لأنه لم يرد التحية لا بأحسن منها ولا بمثلها فالتحية وردها فيما شرع الله.

لكن الترحيب بعد رد السلام سنة نبوية؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «مرحبًا بابنتي»[٤].

وعن أم هانئ رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال لها: «مرحبًا يا أم هانئ»[٥].

وقال ﷺ لوفد عبد القيس: «مرحبًا بالقوم، أو بالوفد»[٦].

٨- كمال الإسلام وسمو آدابه وتعاليمه ومراعاته العدل في أحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

٩- أنه ينبغي أن يقابل الإحسان القولي أو الفعلي بأحسن منه، وهذا هو الأكمل والأفضل، وإلا فبمثله؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[٧].

١٠- في أمر الإسلام بالتحية وترغيبه فيها وإيجاب رد السلام ما يدل على حرص الإسلام على التأليف بين القلوب، وفي الحديث عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال:

---

(١) في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٧).

(٢)، أي: أحدث حدثا، بمعنى أذنب ذنبا وارتكب جرما يستحق أن يهجر بسببه.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٢٣، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٥٠، وابن ماجه في الجنائز ١٦٢١.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٣، ومسلم في الإيمان ١٧، والنسائي في الأشربة ٥٦٢، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) .

(٧) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧). وصححه الألباني.

قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»(١).

١١- أن الله حسيب على كل شيء، وهو الكافي في حسابه، يحصي جميع أعمال العباد ويجازيهم عليها، وهو الكافي لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

١٢- الوعد لمن رد التحية بأحسن منها أو بمثلها، والوعيد لمن ترك الرد أو قصر فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٣)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٨٨)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨).

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿لَآ﴾: نافية للجنس، ﴿إِلَٰهَ﴾: اسم ﴿لَآ﴾، مبني على الفتح في محل نصب، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، أي: لا إله موجود إلا هو، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾، ومعنى ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود حق إلا هو.

وهذا خبر منه- عز وجل- بأنه لا معبود بحق إلا هو، لكماله في ذاته وصفاته وربوبيته، وأن كل ما يعبد من دونه فهو باطل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وفي هذا أمر بألا يؤله غيره؛ ولا يعبد سواه؛ ولهذا أتبعه بالإقسام على جمع الخلائق يوم القيامة للجزاء على أعمالهم، فقال: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٤، ١٥].

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله ليجمعنكم،

والنون للتوكيد، فالجملة مؤكدة بالقسم، ولام القسم، ونون التوكيد.

والمعنى: ليبعثنكم بعد موتكم ويجمعكم يوم القيامة للحساب والجزاء على الأعمال.

وهذا خبر من الله تعالى وهو- عز وجل- أصدق القائلين، وخبره أصدق الأخبار، كما قال تعالى بعده: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

وإنما أقسم عز وجل على ذلك وأكده؛ لأن هناك من ينكره كما قال عز وجل: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. وقد جرت عادة العرب- الذين نزل القرآن بلغتهم- بتأكيد الخبر بالقسم وبغيره، إذا كان المخاطب منكرًا.

وأقسم أيضًا على هذا وأكده؛ لعظم الإيمان بيوم القيامة؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال والذي هو من أعظم ما يحمل الناس على العمل، ولهذا يقرن الله- عز وجل- في القرآن الكريم كثيرًا بين الإيمان به سبحانه واليوم الآخر.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿لَا﴾: نافية للجنس، أي: ينتفي عنه جنس الريب بالكلية، أي: لا ريب فيه بوجه من الوجوه، و«الريب»: الشك، ﴿فِيهِ﴾، أي: في يوم القيامة وجمع الناس فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: خبر، وفي ضمنه النهي عن الارتياب والشك فيه؛ لأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستة فمن لم يؤمن به فليس بؤمن.

وسمي يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام الحساب فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ولقيام العدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، الواو: استئنافية، و«مَنْ»: اسم استفهام، وهو هنا للنفي المشرب بالتحدي، أي: لا أحد أصدق من الله حديثًا خبرًا وقولًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

والصدق: مطابقة الخبر للواقع، ومطابقة الواقع للخبر.

فخبره- عز وجل- أصدق الأخبار كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام. فلا أصدق منه- سبحانه- في حديثه وخبره وقوله ووعده ووعيده، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

سبب النزول:

روي عن مجاهد وغيره أن هذه الآية نزلت في قوم أظهروا الإسلام وقدموا المدينة ثم رجعوا إلى مكة وأظهروا الشرك(١).

وروي عن قتادة ومعمر بن راشد والضحاك أنها أنزلت في أناس أظهروا الإسلام بمكة ولم يهاجروا(٢).

وعن زيد بن ثابت- رضي الله عنه- أن رسول ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه(٣)، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين؛ فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا. فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**إنها طيبة؛ وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة**»(٤).

ويشكل على هذا قوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والذين خرجوا ثم رجعوا يوم أحدهم من أهل المدينة دار الهجرة فكيف يقال: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اللهم إلا أن

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٧٠/ ٢٨٢-٢٨٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٢٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٧/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٣) وهم عبدالله بن أبي وأصحابه رجع بثلث الجيش.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٨٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٨)، وأحمد (٥/ ١٨٤).

يحمل هذا على الجهاد في سبيل الله.

كما يشكل عليه قوله بعد ذلك: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ والثابت عن الرسول ﷺ أنه لم يكن يقتل المنافقين ولا يأذن في قتلهم مع شدة خطرهم خشية أن يقال: إن محمدًا يقتل أصحابه.

قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾، الفاء: استئنافية، و«ما»: اسم استفهام وهو للإنكار واللوم والتعجب، والخطاب للصحابة رضي الله عنهم.

﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أي: في شأن المنافقين وحكمهم، و«ال» في (المنافقين) للعهد

﴿فِئَتَيْنِ﴾: حال من ضمير الخطاب في (لكم)، أو خبر لـ «كان» أو «صار» المحذوفة، أي: فما لكم في شأن المنافقين وحكمهم افترقتم حال كونكم فئتين أو صرتم فئتين، أي: طائفتين.

وذلك لأن الصحابة- رضوان الله عليهم- اختلفوا فيهم، فقال بعضهم: نقتلهم لإضمارهم الكفر، وقال بعضهم: لا نقتلهم لإظهارهم الإسلام.

أي: لا ينبغي لكم أن تشكوا في حكم المنافقين، فحكمهم واضح وغير مشكل فهم كفرة في أعمق دركات الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

ومعنى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾، أي: ردهم ونكسهم إلى أذل وأقبح حال؛ وأسوأ عاقبة وأسفل مآل، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥].

قال أمية بن أبي الصلت(١):

فأركسوا في حميم النار إنهم ... كانوا عصاة وقالوا الإفك والزورا

والركس: الرد والنكس، والمركوس والمنكوس بمعنى واحد، وفي الحديث في الروثة: «إنها ركس»(٢)، أي: نجس، وسمي الروث رجيعًا؛ لرجوعه إلى النجاسة.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٦)، والنسائي (٤٢)، والترمذي في الطهارة (١٧)، من حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، الباء للسببية، «وما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كسبوه، أو بسبب كسبهم، أي: بسبب نفاقهم بإظهارهم الإيمان مع ما هم عليه من الكفر في الباطن والمخالفة والعصيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، الهمزة للاستفهام، ومعناه: الإنكار والتوبيخ والتيئيس من هداية من أضله الله، وهو خطاب للمؤمنين، وبخاصة القائلين منهم بإيمان المنافقين.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ «تريدون»، أي: أتريدون هداية من أضل الله، من المنافقين، وفي قوله: ﴿أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ بيان لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾، أي: أركسهم في الضلال.

والإرادة هنا بمعنى المحبة أو المشيئة، أي: أتحبون أو تشاؤون أن تهدوا من أضل الله، أي: أن هذا ليس بممكن، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، «مَنْ»: اسم موصول، أي: الذي أضله الله، أي: أتريدون هداية من كتب الله عليه الضلال؟ هذا ليس بممكن؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣، ٣٦، غافر: ٣٣].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، الواو: استئنافية، و«مَنْ»: اسم شرط جازم.

و﴿يُضْلِلِ﴾ فعل الشرط، وحرك بالكسر؛ لالتقاء الساكنين، وجوابه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«لن».

أي: ومن يضلل الله كونًا فلن تجد له أيها المخاطب ﴿سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا إلى الهداية، وأفرد الضمير في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ بينما كان الخطاب للجمع في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ في إشارة- والله أعلم- لانفصال هذه الجملة عما قبلها، فالخطاب فيها لكل من يصح خطابه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾، الضمير في ﴿وَدُّواْ﴾ يعود إلى المنافقين، و﴿لَوۡ﴾ مصدرية بمعنى «أن»، وجملة ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾: في محل نصب مفعول لـ﴿وَدُّواْ﴾، أي: ودوا كفركم، أي: أحبوا وتمنوا كفركم.

﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾، الكاف: للتشبيه، «وما»: مصدرية، أي: ككفرهم الذي هو أشد الكفر حيث يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَدۡ دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: ٦١].

فجمعوا بين كفرهم بأنفسهم، ومودتهم، بل وعملهم على كفر وإضلال غيرهم.

﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾، الفاء: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾، أي: فتكونون أنتم وهم سواء في الكفر والضلال، لا فضل لكم عليهم ولا تعيبون ما هم عليه من الكفر، فهو تأكيد لمضمون قوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾.

وهكذا كل من كان على منهج أو عمل حتى لو كان باطلا يريد أن يكون الناس على ما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧].

ولا يستثنى من هذا اللهم إلا الأب فإنه غالبًا لا يحب أن يكون أولاده على ما هو عليه من الشر، بل يحب أن يسلموا من الشر وأن يسبقوه بالخير.

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: قد بانت عداوتهم فلا تتخذوا منهم أولياء.

أي: فلا تجعلوا منهم أولياء توالونهم وتحبونهم، أو يوالونكم؛ لأنهم كفار وأعداء لا يطمئن إليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، «حتى»: للغاية، أي: لا تجعلوا منهم أولياء إلى غاية أن يهاجروا في سبيل الله فيبرهنوا بهجرتهم على صدق إيمانهم وتتحقون ذلك منهم.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في دين الله ولإعلاء كلمة الله.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: فإن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله، وأظهروا كفرهم.

﴿فَخُذُوهُمْ﴾، الأخذ: الأسر، أي: فخذوهم أسرى، أي: فأسروهم.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾، بإزهاق أرواحهم.

﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، (حيث): ظرف، أي: في أي مكان أو زمان وجدتموهم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تأكيد للنهي السابق، أي: ولا تجعلوا منهم في حال توليهم.

﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، «الولي»: من يتولى غيره، بجلب الخير والنفع له، و«النصير» من ينصر غيره، بدفع الشر والضر عنه.

أي: لا توالوهم ولا يوالوكم، ولا تستنصروا بهم على الأعداء.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ﴾.

«إلا»: أداة استثناء وما بعدها مستثنى من قوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: الذين يصلون، أي: إلا قومًا من صفتهم كذا.

و«الذين»: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء، يفيد العموم لكل من كانوا بهذين الوصفين، ﴿يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ بينهم وبين المؤمنين ميثاق، أو جاؤوهم حصرت صدورهم.

ومعنى ﴿يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: يلتجئون إلى قوم.

﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، أي: بينكم وبينهم عهد مؤكد وموادعة فحكمهم حكم من وصلوا إليهم والتجؤوا إليهم ممن بينكم وبينهم ميثاق في حقن دمائهم، وصيانة أعراضهم، وحفظ أموالهم احترامًا للميثاق الذي بينكم وبين من وصل إليهم هؤلاء، ودخلوا معهم.

وهكذا جاء في صلح الحديبية «أن من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم دخل معهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم دخل معهم»(١).

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ معطوف على ﴿يَصِلُونَ﴾، أي: أو الذين جاؤوكم حصرت صدورهم، وهؤلاء هم القسم الثاني من الذين استثنوا عن الأمر بقتالهم، وقوله: ﴿جَآءُوكُمْ﴾، أي: في المدينة، أو عند القتال أو غير ذلك.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم قد حصرت صدورهم، قرأ يعقوب «حَصِرةً» بنصب التاء منونة، وقرأ الباقون: ﴿حَصِرَتْ﴾ بإسكان التاء وصلا ووقفًا.

ومعنى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، أي: ضاقت صدورهم وحرجت، والتعبير بقوله: ﴿حَصِرَتْ﴾ فيه دلالة على صدقهم.

﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف مقدر، أي: عن قتالكم، والمعنى: حصرت صدروهم عن أن يقاتلوكم مع قومهم.

﴿أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ «أو» عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾.

أي: وحصرت صدورهم عن أن يقاتلوا قومهم معكم أيها المؤمنون.

فهؤلاء الذين ضاقت صدورهم وحرجت من قتال المؤمنين ومن قتال قومهم لا يجوز قتالهم.

عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: «لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأبو داود في الجهاد باب صلح العدو (٢٧٦٥، ٢٧٦٦)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

قومي بنى مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة.. بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم يحسن تغليب قومك عليهم فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال: اذهب معه فافعل ما يريد، فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، وأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم»(١).

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡ﴾، الواو: استئنافية، و«لو»: شرطية غير عاملة، و«شاء»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَسَلَّطَهُمۡ﴾.

وقوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡ﴾ معطوف على جواب الشرط، مع إعادة اللام الرابطة، والضمير في قوله: ﴿لَسَلَّطَهُمۡ﴾ يعود إلى القوم الذين جاؤوا إلى المؤمنين وقد حصرت صدورهم أن يقاتلوا المؤمنين أو يقاتلوا قومهم.

أي: ولو شاء الله، أي: أراد كونًا ﴿لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: لجعل لهم سلطانا عليكم بالمقاتلة لكم، وفي هذا إشعار بقوتهم مما يوجب على المؤمنين شكر الله تعالى على أن كفهم عنهم ولم يسلطهم عليهم.

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾، «الفاء»: عاطفة، «وإن»: شرطية، «اعتزلوكم»: فعل الشرط، أي: فإن تركوكم.

﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الجملتان معطوفتان على قوله: ﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾، وهما بيان وتفسير لها، أي: فإن اعتزلوكم بترك قتالكم، وألقوا إليكم المسالمة والموادعة.

﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ جملة جواب الشرط ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ «ما».

﴿سَبِيلٗا﴾، أي: طريقًا يبيح لكم أخذهم وقتلهم؛ لأنهم قد اعتزلوكم وسالموكم وصدقوا فيما أبدوا لكم من تحرجهم من قتالكم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/١٠٢٦)، وابن مردويه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/٣٢٧-٣٢٨).

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة ثلاثة أقسام من الناس:

القسم الأول: الذين يودون كفر المؤمنين ولم يهاجروا وتولوا وأمر بأخذهم وقتلهم حيث وجدوا.

ثم القسم الثاني والثالث الذين يصلون إلى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق، والذين جاؤوا وقد حصرت صدورهم أن يقاتلوا المؤمنين أو يقاتلوا قومهم.

هذان القسمان لا يجوز قتالهم، ثم ذكر في هذه الآية قسمًا رابعًا لا هَمَّ لهم إلا أنفسهم ولا يأبهون بغيرهم، فقال: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ الآية.

قوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾، السين: للتنفيس، وهي تفيد التقرير والتوكيد والثبوت والتحقيق مثل: «سوف»، لكن «سوف» للتراخي، والسين للقرب.

أي: ستجدون طائفة أو قومًا ﴿ءَاخَرِينَ﴾، أي: غير من تقدم ذكرهم، والوجدان: العثور والاطلاع؛ أي: ستطلعون على قوم آخرين.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾، أي: يحبون أن يكونوا في أمان منكم وفي أمان من قومهم، وهذا لا يمكن إلا بالنفاق، ولهذا يُظهرون للنبي ﷺ وأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك على دمائهم وأموالهم وأولادهم، ويصانعون الكفار في الباطن على ما هم عليه من الكفر؛ ليأمنوا عندهم، وهم في الباطن معهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦].

وفي هذا دلالة على أن هؤلاء إنما تركوا قتال المؤمنين خوفًا منهم على أنفسهم، ولو وجدوا فرصة لانتهزوها، بخلاف الذين قبلهم فقد تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم.

فهؤلاء يحبون أن يكونوا في أمان من الفريقين ومرضيين لدى كل منهما، ولا يهمهم

إلا مصلحة أنفسهم، وهذا لا يمكن، إذ لا يمكن إرضاء أولياء الله وأعداء الله في آن واحد، فمن أرضى أولياء الله ووالاهم فهو عدو لأعداء الله، ومن أرضى أعداء الله ووالاهم فهو عدو لأولياء الله، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

ولهذا كان المنافقون أشد الناس خوفًا وأقلهم أمنًا لما تنطوي عليه قلوبهم من النفاق والتذبذب والقلق، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾، أي: كلما أرجعوا وردوا إلى الفتنة، أي: إلى الكفر والشرك والضلال.

﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾، أي: سقطوا فيها وازدادوا ركسًا وإيغالًا فيها، وبعدًا عن الإيمان والهدى، كما قال تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩].

فهم لقضاء لبانات لهم يأتون المؤمنين فيظهرون لهم الإسلام، ويرجعون إلى قومهم فيرتكسون في عبادة الأصنام.

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾، «الفاء»: عاطفة، «إن»: شرطية، ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾: فعل الشرط، أي: فإن لم يتركوكم بترك قتالكم.

﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الجملتان معطوفتان على قوله: ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ وتفسير وبيان له.

﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، أي: المسالمة والموادعة.

﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: ويمنعوا أيديهم عنكم، أي: عن أذاكم وقتالكم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤].

﴿فَخُذُوهُمْ﴾: جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية، أي: فخذوهم وأسروهم.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾: معطوف على ﴿فَخُذُوهُمْ﴾، أي: واقتلوهم بإزهاق أرواحهم.

﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، أي: أين وجدتموهم، في أي مكان وفي أي زمان، ولا يستثنى

من هذا إلا ما دل الدليل على منع ابتداء القتال فيه كالحرم والأشهر الحرم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، الواو: عاطفة، والإشارة للمذكورين في قوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ الآية، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم.

﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، أي: جعلنا لكم شرعًا عليهم حجة شرعية بينة بأخذهم وقتلهم بسبب اعتدائهم وظلمهم، وأيضًا جعلنا لكم كونا تسلطًا عليهم.

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي، ومعنى «جعلنا»: صيرنا.

﴿مُّبِينًا﴾ صفة لـ «سلطانا»، أي: بينا واضحًا، لما هم عليه من الكفر والأذى والقتال لكم.

ومفهوم الآية: أن هؤلاء الفريق لو اعتزلوا المؤمنين وألقوا إليهم السلم، وكفوا أيديهم كحال الذين قبلهم لم يجز أخذهم وقتلهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وحدانية الله وانفراده بالألوهية، ونفيها عما عداه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وفي هذا رد على المشركين في قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

٢- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣- إثبات وتأكيد جمع الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فأخبر عز وجل بهذا وهو أصدق القائلين وخبره أصدق الأخبار، وأقسم على ذلك تأكيدًا له.

٤- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٥- لا شك في وقوع يوم القيامة، ولا يجوز أن يشك فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

٦- لا أحد أصدق من الله حديثًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، كما قال

تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

٧- وجوب الإيمان والتصديق بكل ما أخبر الله تعالى به في وحيه إلى رسله من الأخبار والغيوب السابقة واللاحقة، ومن ذلك بعث الخلائق وجمعهم يوم القيامة، ومن أعظم ذلك ما أخبر به عن نفسه عز وجل.

٨- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، فالكلام من حيث أصله من صفات الله- عز وجل- الذاتية، وهو من حيث آحاده حادث، فهو- عز وجل- لم يزل ولا يزال يتكلم بما شاء متى شاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٩- الإنكار على المؤمنين وتوبيخهم على اختلافهم في حكم المنافقين مع وضوح أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

١٠- ذم الاختلاف وأنه شر، لأن الله أنكر على المؤمنين اختلافهم في شأن المنافقين.

١١- أن حال المنافقين وتذبذبهم مما يوجب الحيرة والاضطراب في أمرهم.

١٢- رد المنافقين بسبب نفاقهم إلى ما هو أسوأ في الحال والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾.

١٣- أن منزلة الإنسان علوًا أو انحطاطًا مرهونة بعمله، فإن عمل خيرًا ارتفع إلى أعلى المنازل، وإن عمل شرًا انحط إلى أسفل المنازل.

١٤- إثبات تأثير الأسباب بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾.

١٥- وجوب الحذر من الذنوب والمعاصي، لأنها قد تؤدي إلى دركات الكفر كما قال تعالى؛ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

١٦- في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ رد على القدرية القائلين بأن العبد يخلق فعل نفسه، وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ وقوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا اختيار له بل هو مجبر على فعله.

١٧- توبيخ المؤمنين وتيئيسهم من هداية بعض المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

١٨- أن الهداية والإضلال بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

١٩- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

٢٠- لا سبيل للهداية والسعادة والخلاص إلا بتوفيق الله مما يوجب صدق اللجوء إليه وحده وسؤاله الهداية دون سواه.

٢١- مودة المنافقين ومحبتهم أن يكفر المؤمنون وسعيهم لذلك بكل وسيلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

٢٢- أن من كان على باطل يحب أن يكون الناس على ما هو عليه ليتكثر ويتشجع بهم، اللهم إلا الوالد فإنه- غالبًا- لا يحب أن يقع أولاده فيما وقع فيه من الباطل.

٢٣- بلاغة القرآن الكريم حيث عبر عما يحصل من المؤمنين بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، وفي هذا إشارة إلى حرصهم على هداية هؤلاء المنافقين وغيرهم- بينما عبر في جانب المنافقين بقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا مجرد تمنٍ منهم لا يحصلون منه على طائل؛ لأن من ذاق حلاوة الإيمان قل أن يرجع عن دينه.

٢٤- النهي والتحذير من اتخاذ المؤمنين أولياء ممن لم يهاجروا في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والنهي للتحريم.

٢٥- أهمية الهجرة في سبيل الله؛ لقوله تعالى ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بل إن في الاكتفاء بذكر الهجرة دون الإيمان إشارة إلى أنها دليل على صدق الإيمان.

٢٦- وجوب الإخلاص لله تعالى في الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

٢٧- أن من تولى عن الهجرة وعن دين الله وجب أخذه وقتله حيث وجد؛ لقوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

٢٨- تأكيد النهي عن اتخاذ أولياء ممن لم يهاجروا وتولوا، والنهي عن اتخاذ أنصار منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

٢٩- عدم جواز أخذ أو قتل من يصلون إلى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق؛ ومن جاؤوا إلى المؤمنين وقد حصرت صدورهم أن يقاتلوا المؤمنين أو يقاتلوا قومهم؛ لأن الله استثنى هاتين الطائفتين من الأخذ والقتل، فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾.

٣٠- احترام الإسلام للعهود والمواثيق، والوفاء بما يترتب عليها، ومن هنا منع من أخذ وقتل الذين يصلون إلى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق.

٣١- أن من لم يقاتلوا المؤمنين لا يجوز قتالهم وأخذهم وقتلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾.

٣٢- أن الإسلام لا يؤاخذ أحدًا بجريرة غيره، فمن سالم المؤمنين سالموه، وإن كان قومه حربًا على المؤمنين.

٣٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وأن أفعال الخلق واقعة بمشيئة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٣٤- لطف الله تعالى بالمؤمنين في كف الكافرين عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٣٥- إذا اعتزل هؤلاء الذين لم يهاجروا وتولوا وتركوا قتال المؤمنين، وألقوا إليهم السلم وجب الكف عنهم، إذ لا سبيل يبيح للمؤمنين أخذهم وقتلهم؛ لقوله تعالى ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ومفهوم هذا أنهم إذا لم يعتزلوا المؤمنين ويتركوا قتالهم ويلقوا إليهم السلم فللمؤمنين سبيل عليهم إلى قتالهم.

٣٦- علم الله بالغيب وما تنطوي عليه البواطن من الإرادات؛ لقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾.

٣٧- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: ليس له إرادة، بل هو مجبر لا اختيار له، وقد سبق ذكره في الفائدة (١٦) الإشارة إلى هذا.

٣٨- ذم هؤلاء الآخرين غاية الذم؛ لمسلكهم القبيح الذي لا يقوم إلا على الكذب والنفاق، ويستحيل أن يحصل لهم به ما يريدون من الأمن منكم ومن قومهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية.

٣٩- استحالة الجمع بين ولاية المؤمنين وولاية الكافرين، وبين الولاية والعداوة في آن واحد، وبين رضا المؤمنين ورضا الكافرين.

٤٠- خطر النفاق، ووجوب الحذر منه؛ لأن صاحبه يرتكس من فتنة إلى أكبر منها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾.

٤١- إذا لم يعتزل هؤلاء المؤمنين ويسالموهم ويكفوا أيديهم عن أذى المؤمنين وقتالهم وجب على المؤمنين أخذهم وقتلهم في أي: مكان وزمان وجدوا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٤٢- إذا اعتزل هؤلاء المؤمنين وسالموهم وكفوا أيديهم لم يجز أخذهم وقتلهم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

٤٣- أن الله- عز وجل- جعل للمؤمنين على أعدائهم من المنافقين والكافرين تسلطًا شرعيًا وقد يجعل لهم أيضًا تسلطًا قدريًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

٤٤- أن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

٤٥- أن الذل كل الذل في الكفر والنفاق.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

قال القرطبي[١]: «هذه آية من أمهات الأحكام».

سبب نزول الآية:

رُويَ عن مجاهد وسعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي قتل رجلًا مسلمًا ولم يعلم بإسلامه[٢].

وروي أنها نزلت في أبي الدرداء قتل رجلًا مسلمًا يحسبه كافرًا[٣]، وروي أنها نزلت في الحسيل والد حذيفة بن اليمان قتله المسلمون يوم أحد خطأ[٤].

قال ابن كثير[٥]: «واختلف في سبب نزول هذه الآية. فقال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه، وذلك أنه قتل رجلًا كان يعذبه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامري فأضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآية».

قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾، الواو استئنافية، و«ما»: نافية، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص منفي.

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عنهما في «تفسيره» (٣/ ١٠٣١)- الأثر (٥٧٨١، ٥٧٨٢)، وذكره السيوطي في «لباب النقول» (ص٧٧).

وأخرجه الطبري عن مجاهد والسدي (٩/ ٣٢-٣٤)- الآثار (١٠٠٨٩-١٠٠٩٢)، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص١١٣) عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه، وذكره مطولًا عن الكلبي (ص١١٣-١١٤) وذكره السيوطي في «اللباب» (ص٧٦-٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري عن ابن زيد (٩/ ٣٤)- الأثر (١٠٠٩٣).

(٤) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤١٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٨).

(٥) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٩).

﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل نصب خبر كان مقدمًا، والتقدير: وما كان جائزًا لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ.

و«مؤمن» نكرة في سياق النفي، يعم كل مؤمن، سواء كان قوي الإيمان أو ناقص الإيمان.

والمؤمن هو من صدق بما جاء عن الله تعالى، وقبل ذلك، وأذعن له، وانقاد بقلبه ولسانه وجوارحه.

والمراد بالمؤمن- هنا- ما يشمل المسلم؛ لأن الإسلام يطلق على الأفعال الظاهرة، والإيمان يطلق على الأفعال الباطنة، فيما إذا اجتمع الإسلام والإيمان، أما إذا انفرد أحدهما فإنه يراد به كلا المعنيين(١).

﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، «أن» حرف مصدري ونصب، و«يقتل»: فعل مضارع منصوب بها، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع: اسم «كان» مؤخر، والتقدير: وما كان لمؤمن: قتل مؤمن(٢).

والقتل: هو إزهاق الروح بأي وسيلة كانت، وبأي نوع من أنواع القتل(٣).

قال ابن كثير(٤): «يقول تعالى ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه».

﴿مُؤْمِنًا﴾ نكرة، يعم كل مؤمن صغيرًا كان أو كبيرًا، ذكرًا أو أنثى، حرًّا أو عبدًا، عاقلًا أو مجنونًا.

﴿إِلَّا خَطَئًا﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء هنا: منقطع عند جمهور المفسرين، والتقدير: ما كان له أن يقتله البتة، لكن إن قتله خطأ فعليه كذا أو فحكمه كذا(٥).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠، ١٤، ٥٧٦-٥٧٧).

(٢) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٠)، «البيان» لابن الأنباري (١/ ٢٦٤).

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «قتل».

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٩)، وانظر: «المناقب» لابن أبي حاتم (ص٩٩)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤٤).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣١)، «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٧)، «البيان» (١/ ٢٦٤)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٠-٣٢١)، «الدر المصون» (٢/ ٤١٣).

وقال بعضهم: الاستثناء متصل، بمعنى أنه قد يقتله خطأ، كأن يظنه مشركًا، والتقدير: ما ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ(١).

﴿خَطَـًٔا﴾: صفة لمصدر محذوف، والتقدير: إلا قتلا خطأ، كقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ [سبأ: ١١]، أي: دروعا سابغات.

ويحتمل أن يكون «خطأ» منصوب على الاستثناء المتصل أو على الحال، أي: إلا مخطئًا، أو على المفعول لأجله(٢).

والخطأ: ما كان من غير عمد ولا قصد(٣).

والخطأ يكون بالقصد، ويكون بالآلة؛ فالخطأ بالقصد مثل أن يرمي صيدًا، فيصيب إنسانًا، أو يرمي في صفوف المشركين فيصيب مسلمًا، فهذا خطأ في القصد؛ لأنه لم يقصد قتل المسلم(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٥): «مثل أن يرمي صيدا أو هدفا فيصيب إنسانًا بغير علمه وقصده».

والخطأ بالآلة مثل: أن يضربه متعمدًا قاصدًا بسوط أو عصا لا يقتل مثله غالبًا فيموت بسبب ذلك، فهذا خطأ في الآلة؛ لأنه لم يظن أنها تقتله، ولم يقصد قتله.

والمعنى: أنه يمتنع شرعًا أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن عمدًا، لكن قد يقتله عن طريق الخطأ.

قال الطبري(٦): «وما أذن الله لمؤمن، ولا أباح له أن يقتل مؤمنًا. يقول: ما كان له

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٧٦-٤٧٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٨).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٨٩)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٨٢)، «الدر المصون» (٢/ ٤١٣).

(٣) يقال: مخطئا، ويقال خاطئا، والفرق بينهما أن المخطئ الذي يرتكب الخطأ بغير قصد ولا عمد، والخاطئ الذي يرتكب الخطأ قصدًا وعمدًا. انظر: «لسان العرب» مادة «خطأ».

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٣).

(٥) في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٨).

(٦) في «جامع البيان» (٩/ ٣٠).

ذلك فيما أتاه من ربه من عهد الله الذي عهد إليه، وقوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾، فإنه يقول: قد يقتل المؤمن خطأً».

قال الماوردي(١): «يعني أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأً، وليس مما جعله الله له».

وقال ابن العربي(٢): «معناه: وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا قتلًا جائزًا، أما أنه يوجد منه ذلك غير جائز، فنفى الله جوازه، لا وجوده».

وقال ابن عطية(٣): «قال جمهور المفسرين: معنى هذه الآية، وما كان في إذن الله، وفي أمره للمؤمن أن يقتل مؤمنًا بوجه».

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

أي: ما كان لكم جائزًا شرعًا أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا(٤).

وبعد أن نفى سبحانه وتعالى جواز قتل المؤمن لأخيه المؤمن إلا أنه يمكن أن يقتله بطريق الخطأ، بين بعد ذلك حكم من قتل مؤمنًا خطأً وأحواله؛ فقال:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ...﴾ الآية.

قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ﴾ الواو عاطفة، و«من» اسم شرط جازم، «قتل» فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط.

﴿مُؤْمِنًا﴾ نكرة في سياق الشرط، يعم كل مؤمن صغيرًا كان أو كبيرًا، ذكرًا كان أو أنثى، عاقلًا كان أو مجنونًا، حراً كان أو عبدًا.

﴿خَطَـًٔا﴾ صفة لمصدر محذوف، والتقدير: قتلًا خطأً.

---

(١) في «النكت والعيون» (١/ ٤١٤).

(٢) في «أحكام القرآن» (١/ ٤٧٠).

(٣) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٧).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٤٥).

وسواء كان خطأً بالقصد: كأن يقصد قتل مشرك فيصيب مؤمنًا، أو خطأً في الآلة كأن يضرب مؤمنًا عمدًا بسوط لا يقتل مثله غالبًا فيموت بسبب ذلك.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، و«تحرير»: مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: فعليه تحرير رقبة، واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

والتحرير: التخليص، قالت امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، أي: مخلصًا لك.

ومعنى «تحرير رقبة مؤمنة»، أي: تخليص رقبة مؤمنة من الرق، وإعتاقها، أي: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له.

والمعنى: ومن قتل مؤمنًا خطأً بأي وجه من وجوه الخطأ فيلزمه كفارة لذلك عتق رقبة مؤمنة من ماله، حقًا لله عز وجل.

والمراد بالرقبة في الآية النفس كاملة؛ لدلالة السياق ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، وإنما يعبر عن النفس بالرقبة؛ لأن الجسد لا يمكن أن يقوم بدونها، ولو قطعت رقبته لمات.

﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ صفة لـ«رقبة»، أي: مصدقة منقادة بالقلب واللسان والجوارح.

وحيث ذكر الإيمان هنا وحده فالمراد به ما يشمل الإسلام والإيمان معًا، أي: ما يشمل الانقياد باطنًا وظاهرًا إلا أنه ليس لنا بالنسبة للناس إلا الظاهر، وأما الباطن فأمره إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

ولهذا لما سأل ﷺ الجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء. وقال لها: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، قال ﷺ: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(١).

وسواء كانت هذه الرقبة نفسًا مميزة أو بالغة، عقلت الإيمان وصلّت وصامت ونحو ذلك، أو صغيرة ولدت بين أبوين مسلمين أو أحدهما مسلم، بل لو أعتق فاسقًا أجزأه؛ لأن المراد بالإيمان في الآية: مطلق الإيمان لا الإيمان المطلق(٢).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]. وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح =

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، الواو: حرف عطف، و«دية»: معطوفة على «تحرير»، أي: فعليه تحرير رقبة مؤمنة ودية.

والدية: هي ما يُعطى عوضًا عن دم القتيل إلى أوليائه جبرًا لقلوبهم، وعوضًا عما فاتهم من قريبهم، وتجب على عاقلة القاتل[١]، وهم عصبته وقرابته من جهة أبيه: الإخوة وبنوهم والأعمام وبنوهم: الرجال البالغون، دون النساء، والذكور الصغار[٢]، للحديث: «**وقضى بدية المرأة على عاقلتها**»[٣].

﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾، بالبناء للمفعول، أي: مؤداة مدفوعة.

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، أي: إلى ورثته، الذين يرثون ما خلف، ومن ذلك ديته.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾، إلا: أداة استثناء بمعنى: لكن، أي: لكن إن تصدق أولياء المقتول على القاتل، فلا شيء عليه، فالاستثناء منقطع.

وقيل: الاستثناء متصل[٤].

﴿أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء من قوله: ﴿وَدِيَةٌ﴾.

والتقدير: وعليه دية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا على من وجبت عليه الدية بالعفو عنها فتسقط.

وأصلها: «يتصدقوا» لكن أدغمت التاء في الصاد تخفيفًا[٥].

ومعنى ﴿يَصَّدَّقُواْ﴾، أي: يعفوا عن الدية، والصدقة قد تكون بذلًا وإعطاءً، وقد تكون عفوًا وإسقاطًا، بأن يعفو الشخص عن حق له على الآخرين.

=

العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٦٩ تفسير سورة النساء).

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٠).

(٢) انظر: «الوسيط» (٢/ ٩٤-٩٥)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٤).

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٧)، «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٠)، «البيان» لابن الأنباري (١/ ٢٦٤)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٣)، «الدر المصون» (٢/ ٤١٤).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣١، ٣٨).

وإنما سمي العفو عن الدية وإسقاطها تصدقًا ترغيبًا فيه.

والمعنى إلا أن يعفو أهل القتيل وورثته عن الدية فتسقط؛ لأنها حق لهم، وتبقى على القاتل الكفارة؛ لأنها حق لله تعالى، فلا تسقط بعفو الورثة عن الدية.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

هذه الحالة الثانية للمقتول خطأ، وهو أن يكون من قوم أعداء لنا، وهو مؤمن.

الفاء: عاطفة، و«إن» شرطية، ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط.

واسمها: ضمير مستتر، تقديره: «هو» يعود على المقتول، أي: فإن كان هذا القتيل الذي قتله المؤمن خطأ.

﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾، ﴿مِن قَوْمٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل نصب خبر كان.

والقوم: هم الجماعة، ﴿عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٍ﴾، أي: من قوم أعداء لكم، وهم الكفار المحاربون.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الواو للحال، وجملة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير المستتر في ﴿كَانَ﴾، والتقدير: والحال أنه مؤمن.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ جواب الشرط، والتقدير: فعليه تحرير رقبة مؤمنة، والقول فيه إعرابًا ومعنى كما سبق.

والمعنى: وإن كان القتيل من قوم كفار محاربين فعلى قاتله عتق رقبة مؤمنة فقط، ولم يذكر الدية هنا؛ لأنه لا دية على القاتل؛ لأن أهل المقتول كفار محاربون، لا عهد لهم ولا ذمة، وقد يتقوون بها على حرب المسلمين، ولأنه مؤمن وهم كفار، والكافر لا يرث المؤمن[1].

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٩، ٤٠)، «الوسيط» (٢/ ٩٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣١).

هذه الحالة الثالثة من حالات المقتول خطأ أن يكون من قوم بيننا وبينهم ميثاق.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ﴾، الواو عاطفة، ﴿وَإِن﴾ شرطية، و﴿كَانَ﴾ فعل الشرط، وفيه ضمير مستتر تقديره: «هو» يعود على المقتول، أي: وإن كان القتيل أو المقتول.

﴿مِن قَوْمٍ﴾ متعلق بمحذوف في محل نصب خبر «كان»، أي: وإن كان القتيل كائنًا من قوم.

﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون، ﴿وَبَيْنَهُم﴾، أي: وبين هؤلاء القوم الكفار.

﴿مِّيثَٰقٌ﴾، أي: عهد موثق مؤكد، وليسوا أهل حرب لكم.

وأهل العهدثلاثة أصناف: أهل ذمة؛ وهم أهل الكتاب، وأهل هدنة وصلح، وأهل إيمان، وهؤلاء تجري عليهم أحكام الإسلام(١).

وسمي العهد ميثاقًا؛ لأنه بمنزلة الحبل، يوثق به المأسور، ويربط به. فالعهد رباط بين المتعاهدين بأن لا يعتدي أحدهما على الآخر. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

وقال ﷺ: «**ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(٢).

وقال ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»(٣).

﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ جملة جواب الشرط، وقرنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، والتقدير: فعليه، أي: القاتل دية مسلمة إلى أهل المقتول وتحرير رقبة مؤمنة.

و«دية» في هذا الموضع بالتنكير يدل على أنها غير الدية الأولى؛ لأنه إذا أعيد الاسم منكرًا دل على أن الثاني غير الأول، وإذا أُعيد الاسم معرفًا دل على أن الثاني هو الأول، كما

---

(١) انظر: «أحكام أهل الذمة» ٢/ ٨٧٣-٨٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٧٠)، وأبو داود في الديات (٢٠٣٤)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧١)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] فاليسر الثاني غير الأول(١)، ولهذا قال بعض السلف «لن يغلب عسر يسرين»(٢).

ولم يقل هنا: «إلا أن يصدقوا»؛ لأن الصدقة إنما هي معتبرة من أهل الإيمان، وأيضًا فإنه لا ينبغي أن يذل المؤمن، ويكون عليه منة من أهل الكفر، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين(٣)، ولكن لو عفا أهل المقتول الكفرة فلهم ذلك.

والمعنى: وإن كان القتيل من قوم كفار بينكم أيها المؤمنون وبينهم عهد؛ لكونهم معاهدين أو أهل ذمة أو هدنة أو أمان فيلزم قاتله دية مؤداة إلى ورثة المقتول، عوضًا عن دمه، وجبرًا لقلوبهم، وعليه أيضًا عتق رقبة مؤمنة كفارة للقتل، وتجب الدية في هذه الحال سواء كان المقتول مؤمنًا أو كافرًا؛ لأن الآية مطلقة مبهمة.

وقيل: لابد أن يكون مؤمنًا، فالمراد: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

قال الطبري بعد أن ذكر القولين(٤): «وأولى القولين في ذلك بتأويل الآية قول من قال: عني بذلك المقتول من أهل العهد؛ لأن الله أبهم ذلك، فقال: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ ولم يقل: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، كما في القتيل من المؤمنين وأهل الحرب».

وأخر ذكر الكفارة هنا بينما قدمها في الحالة الأولى؛ لأنه هنا سيذكر بعدها البديل عن الرقبة إذا لم يجدها القاتل، وهو صيام شهرين متتابعين.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾، الفاء عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿لَّمْ﴾ حرف نفي وجزم

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٤).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ في الجهاد- أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح: «... وإنه لن يغلب عسر يسرين» انظر: «تنوير الحوالك» للسيوطي (١/ ٢٩٦). وأخرجه الطبري (٣٠/ ١٥١) عن الحسن البصري مرسلًا.

وروي عن قتادة أيضًا مرسلًا، وأخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن. قال: «كانوا يقولون لن يغلب عسر يسرين».

انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٤٦)، «الأثر» (١٩٣٩٦)، «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٣-٤٥٤).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٤) في «جامع البيان» (٩/ ٤١-٤٣).

وقلب. ﴿يَجِدْ﴾ فعل مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، لا بـ«من» الشرطية؛ لأن ﴿لَّمْ﴾ هي المباشرة له ومفعوله محذوف، تقديره: فمن لم يجد الرقبة، أو لم يجد ثمنها فاضلًا عن نفقته ونفقة من يعوله.

وإنما حذف هذا المفعول- والله أعلم-؛ ليكون ذلك أعم وأشمل؛ لأن الإنسان قد يجد الرقبة ولا يجد ثمنها، وقد يجد الثمن ولا يجد الرقبة.

وقد قيل: المعنى: فمن لم يجد الدية والرقبة، وليس هذا بصحيح؛ لأن الدية على عاقلة القاتل، ولأن الصيام حق لله تعالى، فكيف يصح أن يكون عن الدية، وهي حق للآدميين(١).

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية و«صيام» مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: فعليه صيام شهرين.

﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾، أي: يتبع أحدهما الآخر، بحيث لا يفطر بينهما ولا يقطعهما بإفطار يوم أو أكثر في أثنائهما من غير عذر شرعي.

وسواء بدأ الصيام من أول الشهر، أو من وسطه، أو من آخره ويحسب شهرين متتابعين، فإن أفطر بينهما من غير عذر شرعي استأنف(٢).

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ توبة: مصدر، والتقدير: يتوب بذلك توبة إلى الله، أو تاب الله عليه توبة بها خفف من أحكام القتل الخطأ في الدية، وفي الكفارة بعتق الرقبة، فإن لم يجد الرقبة صام شهرين متتابعين. ولو شاء الله لجعل الواجب فيه أعظم من ذلك. وقيل ﴿تَوْبَةً﴾: مفعول لأجله(٣).

والتوبة من الله على العبد توفيقه للتوبة وقبولها منه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٥-٥٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣١).

(٣) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٨١)، «البيان» لابن الأنباري (١/ ٢٦٤)، «الدر المصون» (٢/ ٤١٥).

عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

وتخفيفه فيما شرع من الأحكام، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي: خفف عنكم وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠]، أي: خفف عنكم.

قال الطبري(١): ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ «تجاوزًا من الله لكم إلى التيسير عليكم بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها بإيجابه عليكم صوم شهرين متتابعين».

أي: إن هذه الكفارة الواجبة على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، الواو استئنافية، و«كان» فعل ماض ناقص، وهي مسلوبة الزمن تفيد تحقيق الوصف، أي إنه عز وجل لم يزل عليمًا حكيمًا ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمها.

﴿عَلِيمًا﴾ خبر «كان»، أي: ذا العلم الواسع الذي وسع كل شيء، فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والعلم في الأصل: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان لـ«كان»، أي: ذا الحكم التام، والحكمة البالغة، فهو عز وجل حاكم مُحْكم، حاكم، له الحكم بأنواعه الثلاثة: الحكم الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، والحكم الكوني، كما قال أخو يوسف: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]، والحكم الجزائي في الآخرة. كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٩].

وهو مُحْكم يضع الأمور مواضعها، مُحْكم فيما خلق وشرع وقدر، له الحكمة

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ٥٦).

بنوعيها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية[١].

الفوائد والأحكام:

١- أنه يمتنع شرعًا أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن عمدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، فهذا نفي للجواز الشرعي[٢].

قال ابن كثير[٣]: «ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٤].

٢- أنه لا يمتنع قدرًا أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن عمدًا[٥].

٣- أن من قتل مؤمنًا عمدًا فهو ناقص الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

وقال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن**»[٦].

أي: «**وهو مؤمن**» كامل الإيمان، عنده الإيمان المطلق لا مطلق الإيمان، فإن من ليس عنده من الإيمان إلا مطلق إيمان قد يرتكب ما ذكر وأعظم منه.

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

(٢) انظر: «جامع البيان «(٩/ ٣٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٧).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٢٩).

(٤) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة والمحاربين (١٦٧٦)، وأبو داود في الحدود (٤٣٥٣)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٠).

(٦) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٧٢)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٩)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٧٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا كان الزاني ينتفي عنه الإيمان المطلق، فمن قتل مؤمنًا عمدًا ينتفي عنه الإيمان المطلق من باب أولى، بل يخشى عليه ما هو أعظم من ذلك؛ لأن هذا الفعل لا يصدر إلا من كافر أو فاسق؛ لأن مقتضى الإيمان المحبة والموالاة، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى[١]، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٢].

وأي أذى أشد من قتله؛ ولهذا قال ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[٣].

وقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٤].

٤- الإشارة إلى عظم دم المؤمن وبشاعة قتله عمدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

٥- أن الإيمان المطلق يمنع صاحبه عن فعل ما لا ينبغي، من قتل مؤمن عمدًا، وما دون ذلك من الكبائر؛ لأن الإيمان القوي سياج بإذن الله تعالى يمنع صاحبه من ذلك، وهو سر أمن الأمة الإسلامية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٦- أن المؤمن قد يقتل مؤمنًا خطأً؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾. فإن كان خطًا محضًا فلا إثم عليه، وإن كان خطًا في القتل عمدًا في الضرب فهو آثم بقصد الضرب[٥]، لا بالقتل؛ لأنه لم يقصده.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله في الحديث

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣)، ومسلم في الإيمان (٤٥)، والنسائي في الإيمان (٥١٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥)، وابن ماجه في المقدمة (٦٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١). وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢)، والدارمي في المناسك (١٩٢١). من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٥) ما لم يكن الضرب لمسوغ شرعي لتعزير، أو حد ونحوه، فلا إثم.

القدسي: «**قد فعلت**»[١]. وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «فمن فعل ما نهى الله عنه ناسيًا أو مخطئًا فلا إثم عليه، بخلاف من ترك ما أمر به، كمن ترك الصلاة فلابد من قَضائها».

٧- أنه يجوز للمؤمن أن يقتل غير المؤمن عمدًا، كأن يكون محاربًا؛ لمفهوم قوله: ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أما غير المحارب كالمعاهد والذمي والمستأمن فلا يجوز قتله.

٨- أن القتل ينقسم إلى خطأ وغير خطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، إذ المعنى: ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا عمدًا، لكن قد يقتله خطًا. وقد جاء التصريح بذكر العمد في قوله بعد هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية.

ولهذا ذهب بعض أهل العلم كالإمام مالك[٤] إلى أن القتل لا يخرج عن هذين القسمين: فهو إما خطأ أو عمد، حيث لم يذكر في القرآن سواهما.

وذهب أكثر أهل العلم، كأبي حنيفة[٥]، والشافعي[٦]، وأحمد[٧] وغيرهم إلى أن هناك قسمًا ثالثًا، وهو شبه العمد، وهو ما كان مترددًا بين العمد والخطأ، كأن يضرب عامدًا بما لا يقتل غالبًا، كالعصا ونحوه[٨]، فالضرب مقصود، والقتل غير مقصود فيسقط القود وتغلظ الدية.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. وصححه الألباني.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٩).

(٥) انظر: «بدائع الصنائع» (٧/ ٢٣٣).

(٦) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٨٢).

(٧) انظر: «المغني» (١١/ ٤٤٥).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٣، ٢٢٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٩).

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قام يوم فتح مكة، وهو على درج الكعبة، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: «**الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا إن قتيل الخطأ؛ قتيل السوط والعصا، فيه مائة من الإبل، منها: أربعون خلفة في بطونها أولادها، ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية ودم تحت قدمي هاتين، إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا إني قد أمضيتهما لأهلهما، كما كانا**»(١).

٩- أن من قتل مؤمنًا خطأ فعليه شيئان: الأول: الكفارة حقاً لله تعالى، وهي: عتق رقبة مؤمنة.

والثاني: الدية لأهل المقتول عوضًا عن دم قريبهم، وجبرًا لقلوبهم(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾(٣).

والكفارة تجب في مال القاتل(٤)، فإن اشترك في القتل الخطأ جماعة، فأكثر أهل العلم منهم الأئمة الأربعة أبو حنيفة(٥)، ومالك(٦)، والشافعي(٧)، وأحمد(٨) على أن على كل واحد منهم الكفارة. وقيل: عليهم كفارة واحدة(٩).

وقيل: عليهم كلهم عتق رقبة واحدة، فإن لم يجدوا، وانتقلوا إلى الصوم فعلى كل واحد منهم صوم شهرين متتابعين(١٠).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الديات (٢٦٢٨)، والدارمي (٢٣٨٣)، وحسنه الألباني.

(٢) وقيس على الخطأ شبه العمد في وجوب الكفارة والدية إلا أن الدية فيه مغلظة كما بينت ذلك السنة وسيأتي.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٣١٣-٣١٤)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٨-١٣٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢٩).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٣).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٤٤).

(٦) انظر: «الكافي» لابن عبد البر ص (٥٩٥).

(٧) انظر: «مغني المحتاج» (٤/ ١٠٨).

(٨) انظر: «المغني» (١٢/ ٢٢٧).

(٩) وبه قال أبو ثور والأوزاعي انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٢).

(١٠) وهو قول الزهري. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٢).

١٠- تعظيم حق الله تعالى وتقديمه؛ لأن الله قدَّم الكفارة وهي حقه تعالى على الدية، وهي حق أولياء المقتول؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾.

١١- أن الرقبة تطلق ويراد بها النفس؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، وهذا مفهوم من السياق، ومن الواقع إذ لا يمكن أن يراد بالرقبة الجزء من البدن، ما بين الرأس والجسد، إذ هذا لا يمكن إعتاقه وحده إلا بموت الإنسان، والمقصود بعتق الرقبة أن تكون منافع الشخص له بدل أن كانت لمالكه، لا أن المراد إهلاكه، وإنما يعبر بالرقبة عن الجسد كله؛ لأنه لا يحيا بدونها فلو قطعت لهلك.

١٢- فضل العتق، ووجه ذلك أن الله جعله كفارة لقتل المؤمن.

١٣- حرص الدين الإسلامي على تحرير الرقيق، حيث جعل عتق الرقبة في مقدمة كفارة القتل الخطأ، لا ينتقل منها إلى غيرها إلا إذا لم يجد الرقبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

وهكذا جاء في كفارة الظهار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣، ٤].

١٤- جواز إعتاق الذكر والأنثى في كفارة القتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، وهذا مطلق يشمل الذكر والأنثى.

١٥- اشتراط الإيمان في الرقبة المعتقة في كفارة القتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فلو أعتق القاتل رقبة كافرة لم تجزئ عنه(١).

وقوله: ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ يدل على أنه يكفي مطلق الإيمان لا الإيمان المطلق، فلو أعتق فاسقًا أجزأه.

ومما يدل على اشتراط الإيمان في الرقبة، وأنه يكفي فيه مطلق الإيمان ما جاء في حديث

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٧٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٢٩).

معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ: «**أين الله؟**» قالت: في السماء. قال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله. قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(١).

وسواء كانت الرقبة كبيرة، عقلت الإيمان وصلت وصامت، أو صغيرة ولدت بين أبوين مسلمين أو أحدهما مسلم؛ لأن الولد يتبع في الدين خير أبويه دينًا عند عامة أهل العلم(٢).

هذا ما عليه جمهور أهل العلم من أن الرقبة المؤمنة تجزئ: صغيرة كانت أو كبيرة، وهو الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وهذا مطلق يعم الرقبة الصغيرة والكبيرة، ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾، فهذا يعم الصغير والكبير، فكذلك قوله: ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يعم الصغيرة والكبيرة وقيل لا تجزئ الرقبة الصغيرة(٣).

١٦- فضل الإيمان وأثره إذ به يعلو شأن الإنسان، حتى ولو كان رقيقًا؛ لأن الله اشترط في عتق الرقبة في كفارة القتل أن تكون مؤمنة، فقال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

١٧- الإشارة إلى أن الرقبة المعتقة ينبغي أن تكون سليمة من العيوب الجسدية المخلة بالعمل؛ لأن معنى عتق الرقبة تمليك هذا الرقيق منافعه التي كانت مملوكة لسيده. وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم فاشترطوا سلامة الرقبة المعتقة من العيوب الجسدية.

قال ابن عطية(٤): «وأجمع أهل العلم على أن الناقص النقصان الكثير كقطع اليدين أو الرجلين أو الأعمى لا يجزئ».

وقال القرطبي(٥): «ولا يجزئ في قول كافة العلماء أعمى، ولا مقعد، ولا مقطوع اليدين أو الرجلين أو أشلهما، ويجزئ عند أكثرهم الأعرج والأعور».

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧)، وأبو داود في الصلاة (٧٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨)، وأحمد (٥/ ٤٤٧)، ومالك في العتق والولاء (١٥١١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٦-٣٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٧)، «النكت والعيون» (١/ ٤١٥)، «الوسيط» (٢/ ٩٤)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٦٧).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٧)، «النكت والعيون» (١/ ٤١٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٠).

(٤) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٩).

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٤).

وقيل: تجزئ الرقبة، وإن كانت معيبة بأي عيب كان؛ لإطلاق الرقبة في الآية قالوا: وإنما اشترط فيها الإيمان؛ لأن الله قيدها بقوله: ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ أما السلامة من العيوب فلم تذكر.

والظاهر- والله أعلم- أنه إذا كان العيب تنعدم معه المنافع، فلا تجزئ؛ لأن معنى التحرير: هو تخليص من استحقت منافعه لغيره بأن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير؛ لأن هذا عالة على غيره، سواء كان رقيقًا أو حرًا.

١٨- تعظيم أمر قتل النفس المعصومة بالإسلام، سواء كانت مؤمنة، أو ممن بيننا وبينهم عهد؛ لأن الله أوجب فيه الكفارة، ولم يوجبها سبحانه وتعالى في أي معصية تقع من المسلم خطأ، إذ أن القاعدة الشرعية التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة أن من أخطأ في فعل واجب فلا إثم عليه، لكن عليه أن يأتي بذلك الواجب على وجه صحيح[1]، إن كان ذلك ممكنًا، وإلا فعليه الإتيان بما يجبر ذلك الواجب، كمن ترك واجبًا من واجبات الحج، فعليه دم.

أما من أخطأ في ارتكاب محظور، فلا إثم عليه، ولا كفارة، كمن فعل محظورًا من محظورات الإحرام خطأ، فهذا عليه البعد عن التلبس بهذا المحظور، والتوبة إلى الله، وهكذا جميع المحرمات التي ترتكب خطأً[2]، ما عدا القتل خطأً، فإنه لعظمه عند الله تعالى أوجب فيه الكفارة على القاتل، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

قال ابن العربي[3]: «وهي لا تجب- أي الكفارة- لأنه آثم؛ لأن المخطئ لا إثم عليه، وإنما أوجبها الله عبادة، أو في مقابلة التقصير، وترك الحذر والتوقي، ولكونه لم

---

(١) كما جاء في حديث المسيء صلاته، قال له ﷺ: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**» قالها له النبي ﷺ ثلاثًا.
أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٧)، ومسلم في الصلاة (٣٩٧)، وأبو داود في الصلاة (٨٥٦)، والنسائي في الافتتاح (٨٨٤)، والترمذي في الصلاة (٣٠٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وفي صحيح مسلم قال الله: «قد فعلت». وقال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». سبق تخريجهما.

(٣) في «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٤-٤٧٥).

يرتكب إثمًا جعلت الدية على العاقلة، جبرًا لورثة الميت، ورفقًا بالقاتل».

١٩- الإشارة إلى أن الدية في قتل الخطأ لا تجب على القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ ولم يقل يسلمها.

وعلى هذا دلت السنة، وأجمعت الأمة، أن الدية في قتل الخطأ لا تجب على القاتل، وإنما تجب على عاقلته، وهم عصبته من الرجال البالغين الموسرين دون الفقراء، ويجتهد الحاكم في تحميل كل منهم ما يناسبه، فيحمل الأقرب أكثر من الأبعد، والغني أكثر ممن دونه، وهكذا[١].

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو أمة، وقضى أن دية المرأة على عاقلتها»[٢].

والعاقلة هم عصبة القاتل، كما جاء في بعض روايات حديث أبي هريرة: «فقضى رسول الله ﷺ أن ميراثها لزوجها، والعقل على عصبتها»[٣] وهم الإخوة وبنوهم والأعمام وبنوهم باتفاق العلماء. وجمهور العلماء على أن أبا القاتل وابنه من العاقلة. وقيل: ليسا من العاقلة»[٤].

قال الشافعي[٥]: «لم أعلم مخالفًا أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة».

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٧٩ تفسير سورة النساء).

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٩١٠)، ومسلم في القسامة (١٦٨١)، وأبو داود في الديات (٤٥٧٦)، والنسائي في القسامة (٤٨١٨)، والترمذي في الديات (١٤١٠)، وابن ماجه في الديات (٢٦٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٤٠)، ومسلم في القسامة (١٦٨١)، وأبو داود في الديات ٤٥٧٦)، والنسائي في القسامة (٤٨١٨)، والترمذي في الفرائض (٢١١١)، وابن ماجه في الديات (٢٦٣٩).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٤)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٥٨).

(٥) في «الأم» (٦/ ١٠١) وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٣-٢٢٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٩)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٥٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٠)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٠).

وكذلك دية شبه العمد تجب على العاقلة على الصحيح من أقوال أهل العلم لحديث أبي هريرة «وقضى بدية المرأة على عاقلتها» انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣١).

وقد اختلف أهل العلم هل الدية واجبة على القاتل في الأصل، وعلى العاقلة بالتبع، أو هي واجبة على العاقلة أصلًا؟، فمنهم من قال: هي في الأصل على القاتل؛ لأنه هو المباشر للقتل، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]، وإنما جعلت على العاقلة من باب المواساة له(١).

قال القرطبي(٢): «ولاشك أن إيجاب المواساة على العاقلة خلاف قياس الأصول في الغرامات، وضمان المتلفات، والذي وجب على العاقلة لم يجب تغليظًا، ولا أن وزر القاتل عليهم، ولكنه مواساة محضة».

وعلى هذا فلو كانت العاقلة فقيرة، والقاتل غنياً، لا تلزم بها العاقلة، بل يلزم بها القاتل.

ومن أهل العلم من قال: هي واجبة في الأصل على العاقلة، فهي ملزمة بها ولو كانت فقيرة، وليس على القاتل شيء ولو كان من أغنى الناس.

وتحمل العاقلة ما فوق ثلث الدية واختلفوا فيما دونه.

قال ابن تيمية(٣): «والذي تحمله العاقلة بالاتفاق ما كان فوق ثلث الدية، مثل قلع العين فيه نصف الدية، واختلفوا فيما دون ذلك كدية الأصبع عشر الدية».

٢٠- وجوب إيصال دية المقتول خطأً إلى أهل الميت وهم ورثته، وتسليمها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾، وأنه لا تجوز المماطلة بها، ولا يكلفون المجيء لأخذها، بل يأتي بها من وجبت عليه، ويسلمها لهم.

واختلف أهل العلم في حكم تأجيلها على قولين:

فمنهم من قال: يجب أداؤها على الفور، ولا تؤجل؛ لأن الأصل في قضاء الدين وجوب قضائه على الفور.

ولا تؤجل إلا إذا رأى الحاكم في تأجيلها مصلحة، وتؤجل ثلاث سنين.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تدفع نجومًا في ثلاث سنين، وحكي الإجماع على هذا لقضاء عمر بن الخطاب وعلي- رضي الله عنهما- وسائر الصحابة بذلك.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٠).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٥٩).

قال الجصاص[١]: «لا خلاف بين الفقهاء في وجوب دية الخطأ في ثلاث سنين».

وقال ابن العربي[٢]: «وقد كان النبي ﷺ يعطيها دفعة واحدة صلحًا وتسديدًا وتأليفًا، فلما تمهد الإسلام قررتها الصحابة، وبه قضى عمر وعلي أن تنجم على العاقلة في ثلاثة أعوام، وحكى ابن عبد البر الإجماع عليه قال: أجمع العلماء قديمًا وحديثًا أن الدية على العاقلة لا تكون إلا في ثلاث سنين، ولا تكون في أقل منها».

والدية بينتها السنة وهي في الأصل من الإبل، ومقدارها مائة من الإبل عن الذكر الحر، وخمسون من الإبل عن الأنثى الحرة[٣].

وتجب الدية أخماسًا[٤].

وقد روي عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكورًا، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة»[٥].

وبهذا قال أبو حنيفة[٦]، وأحمد[٧] وطائفة من أهل العلم.

وأبدل طائفة من أهل العلم مكان عشرين بني مخاض عشرين بني لبون، وبهذا قال مالك[٨]، والشافعي[٩].

وقيل: هي أرباع: خمس وعشرون حقة، وخمس وعشرون جذعة، وخمس وعشرون بنات مخاض، وخمس وعشرون بنات لبون. روي هذا عن جماعة من السلف

---

(١) في «أحكام القرآن» (٢/ ٢٤٥).

(٢) في «أحكام القرآن» (١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٨٢)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٦، ٣٢٥).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٣٢)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٠).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٤، ٤٥٠)، والنسائي في القسامة (٤٨٠٢)، وأبو داود في الديات (٤٥٤٥)، والترمذي في الديات (١٣٨٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٣١). وقد رُويَ عن السائب بن يزيد نحوه.

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٧) انظر: «المغني» (١٢/ ١٩).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٩).

(٩) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٤)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٨٤).

منهم علي بن أبي طالب وابن مسعود- رضي الله عنهما[١].

وقيل: هي أرباع غير أنها ثلاثون حقة، وثلاثون بنات لبون، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بني لبون ذكورًا، روي هذا عن جماعة من السلف منهم عثمان بن عفان وزيد بن ثابت- رضي الله عنهما[٢].

وإذا جُني على الجنين في بطن أمه فإن ولد حياً ثم مات فعلى قاتله الكفارة، وعليه الدية كاملة على عاقلته[٣].

وإن سقط ميتًا ففيه غرة عبد أو أمة، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن امرأتين من هذيل رمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فقضى فيها رسول الله ﷺ بغرة عبد أو وليدة في الجنين، وجعل دية المقتول على عاقلة القاتلة».

وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ قضى في جنين امرأة من بني لحيان بغرة عبد أو وليدة، ثم إن المرأة التي قضي عليها بالغرة توفيت، فقضى رسول الله ﷺ أن ميراثها لزوجها وأن العقل على عصبتها»[٤].

والغرة على عاقلة الجاني على الصحيح[٥]، وقيل: تجب في مال الجاني.

واختلف في وجوب الكفارة على الجاني إذا سقط الجنين ميتًا، فقال: أكثر أهل العلم: عليه الكفارة، وقيل: لا كفارة عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٦]: «من أسقط الحمل خطأً كأن يضرب امرأة خطأً فيسقط، عليه غرة عبد أو أمة بنص النبي ﷺ واتفاق الأئمة، وتكون قيمة الغرة عشر دية الأم عند جمهور العلماء، كمالك والشافعي وأحمد، كذلك عليه كفارة القتل عند جمهور الفقهاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

---

(١) أخرجه عن علي أبو داود في الديات (٤٥٥٣)، وعن ابن مسعود (٤٥٥٢)، كما أخرجه عن ابن مسعود الطبري (١٠١٣١-١٠١٣٤).

(٢) أخرجه عنهما الطبري الآثار (١٠١٤٠-١٠١٤٢).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢١، ٣٢٣).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٢)، «زاد المعاد» (٥/ ٩).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٦٠).

وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾».

أما إذا ماتت الأم وهو في بطنها فلا شيء بالنسبة للجنين بالإجماع(١).

فإن عدمت الإبل أخرج قيمتها من الذهب أو الفضة أو البقر أو الغنم أو الحلل(٢).

وأما دية الخطأ شبه العمد فهي مغلظة: مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها، وثلاثون حقة وثلاثون جذعة.

لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «ألا إن دية شبه العمد ما كان في السوط والعصا مغلظة مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها»(٣).

وقيل: خمس وعشرون بنت مخاض، وخمس وعشرون بنت لبون، وخمس وعشرون حقة وخمس وعشرون جذعة(٤).

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢١).

(٢) وقد قدرها بعض أهل العلم بألف دينار من الذهب، واثني عشر ألف درهم من الفضة، وقال بعضهم: عشرة آلاف من الفضة، ومن البقر مائتا بقرة، ومن الغنم ألف شاة، ومن الحلل مائتا حلة، والحلة هي الكسوة الكاملة.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت قيمة الدية في عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار، أو ثمانية آلاف درهم ودية أهل الكتاب يومئذ النصف من دية المسلمين. قال: فكان ذلك حتى استخلف عمر رحمه الله تعالى، فقام خطيبًا فقال: ألا إن الإبل قد غلت. قال: ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألفًا، وعلى أهل البقر مائتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، وعلى أهل الحلل مائتي حلة. قال: وترك دية أهل الذمة لم يرفعها فيما رفع» أخرجه أبو داود في الديات (٤٥٤٢) وحسنه الألباني.

وانظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٠-٥١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٣٧)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٩-٢١٠)، «التفسير الكبير» (١٠/ ١٨٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الديات (٢٦٢٧). وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في الديات (٤٥٥٢) عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- وضعفه الألباني.

وتجب على العاقلة كدية الخطأ[١].

٢١- حرص الدين الإسلامي على جبر الخواطر ومراعاة المشاعر، حيث أوجب الدية على القاتل وعاقلته تخفيفًا للمصاب على أهل القتيل وجبرًا لخواطرهم ومراعاة لمشاعرهم.

٢٢- الترغيب في العفو عن الدية، وأنه من الصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾[٢]؛ لأن الصدقة كما تكون إعطاء تكون أيضًا إبراءً، وذلك بإبراء الشخص المدين من الدين وإسقاطه عنه[٣].

وإنما يندب العفو عن الدية إذا كان فيه إصلاح ولا يترتب عليه مفسدة أعظم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فإن كان العفو قد يؤدي إلى مفسدة، كأن يكون سبب القتل كون الشخص متهورًا في القيادة، ولو عفي عنه لاستمر، وربما تشجع على هذا الفعل، فالأولى بل قد يجب ترك العفو عنه دفعًا للمفسدة ومراعاة للمصلحة العامة.

٢٣- أن الواجب على من قتل مؤمنًا خطأً من قوم عدو للمسلمين- وهم الكفار المحاربون- الكفارة فقط، وهي عتق رقبة مؤمنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ولم يذكر الدية[٤].

وإنما سقطت ديته؛ لأن ورثته كفار محاربون، ولا يرث الكافر المسلم، لما رواه أسامة ابن زيد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم»[٥].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٥-٤٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٠).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٣). فإن عفا أهل المقتول عن الدية سقطت إذ هي حقهم فأسقطوها، لكن الكفارة لا تسقط بعفوهم، لأنها حق لله- تعالى.

(٣) استثنى العلماء من هذا زكاة العين، وذلك كأن يكون على الإنسان زكاة وكان له دين على فقير فأبرأه من الدين، واحتسب ذلك من الزكاة لم يجزئه ذلك فلا يجزئ الدين عن زكاة العين.
انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٧٥-٧٦ تفسير سورة النساء).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٤).

(٥) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢٩).

ولأنهم لو أعطوا الدية لاستعانوا بها على حرب المسلمين(١).

٢٤- تحريم قتل المعاهد، والذمي والمستأمن، وهم من بيننا وبينهم ميثاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

قال ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**»(٢).

٢٥- أنه يلزم من قتل معاهدًا الدية والكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾(٣) بخلاف الحربي والمرتد، فلا دية لهما ولا كفارة على قاتلهما.

٢٦- تعظيم الدين الإسلامي للعهود والمواثيق واحترامه لها، وإيجابه الوفاء بمضمونها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾، فقد سوَّى بين من يقتل مؤمنًا وبين من يقتل معاهدًا في إيجاب الكفارة على كل منهما، وفي إيجاب الدية أيضًا على كل منهما يسلمها لأهل المقتول، وإن كانت دية المعاهد أقل من دية المؤمن.

وهذا يدل على سمو تعاليم الإسلام، وعدل أحكامه، وحسن آدابه.

٢٧- أن دية المعاهد ليست كدية المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ﴾.

و«دية» نكرة، وإعادة الكلمة بلفظ النكرة يدل على أن الثاني غير الأول، ولو كانت

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٦-٤٧٧)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٤).

وقيل: لأن حرمته قليلة، لأنه لم يهاجر وهذا ضعيف، لأنه لو هاجر وقومه محاربون فقتل خطأً فإن أولياءه لا يعطون الدية. وقيل: إن ديته لبيت المال، وهذا أيضًا ضعيف، لأنه خلاف ما دلت عليه الآية، ولا دليل عليه. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة (٣١٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٨-١٣٩، ١٤٦).

دية المعاهد كدية المؤمن لقال: «فالدية مسلمة إلى أهله» بالتعريف، أي: الدية التي سبقت، ولما جاءت نكرة في المحل الثاني دل على أنها ليست هي الأولى، بل دية أخرى.

قال القرطبي[١]: «وقوله: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ على لفظ النكرة، ليس يقتضي دية بعينها».

ولهذا اختلف أهل العلم في مقدار دية المعاهد.

فذهب بعض أهل العلم إلى أن دية المعاهد كدية المسلم، روي هذا عن أبي بكر وعثمان وابن مسعود- رضي الله عنهم، والنخعي والشعبي ومجاهد وعطاء والزهري[٢]، وبه قال أبو حنيفة[٣]، وسفيان الثوري[٤].

واستدلوا بقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾.

قالوا: وقد عطف على أول الآية[٥].

والجواب عن هذا ما ذكر في أول هذه الفائدة.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن ديته على النصف من دية المسلم.

روي هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن عمر بن عبد العزيز[٦] وطائفة من السلف، وبه قال مالك[٧]، وأحمد[٨].

واستدلوا بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح قال في خطبته: «دية الكافر نصف دية المسلم»[٩].

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥١-٥٣) الآثار (١٠١٤٤-١٠١٥٧).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٣٨)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤٦).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٣٨).

(٦) أخرجه عنهما الطبري الآثار (١٠١٥٨-١٠١٥٩).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٨، ٤٧٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٦).

(٨) انظر: «المغني» (١٢/ ٥١).

(٩) أخرجه أبو داود في الديات (٤٥٠٦)، والنسائي في القسامة (٤٨٠٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٤٤) =

وذهب بعض أهل العلم إلى أن ديته على الثلث من دية المسلم.

روي هذا أيضًا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسليمان بن يسار وعطاء[١]، وبه قال الشافعي[٢]، وأبو ثور[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «دية الذمي نصف دية المسلم، وقيل: ثلث وقيل: يفرق بين العمد والخطأ، فيجب في العمد مثل دية المسلم. وفي الخطأ نصف الدية».

ودية المجوسي قال طائفة من أهل العلم منهم مالك[٥]، والشافعي[٦]، وأحمد[٧]: ثمان مئة درهم.

وروي عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «**دية المجوسي ثمانمائة درهم**»[٨].

وديات نسائهم على النصف من ذلك[٩].

=

والترمذي في الديات (١٤١٣)، مختصرًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- وحسنه الترمذي، وأخرجه أحمد (٢/ ١٨٠) عن عبد الله بن عمر مطولًا بلفظ: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح قام في الناس خطيبًا فقال: «**يا أيها الناس إنه ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا حلف في الإسلام، والمسلمون يد على من سواهم تكافأ دماؤهم يجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم ترد سراياهم على قعدهم، لا يقتل مؤمن بكافر، دية الكافر نصف دية المسلم لا جلب ولا جنب، ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في ديارهم**» وحسنه الألباني.

(١) أخرجه عنهم الطبري الآثار (١٠١٦٠-١٠١٦٩).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٨٤-٢٨٥)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١١).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٤٦).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٦).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٨٤-٢٨٥)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣)، «سنن الترمذي» (٤/ ٢٦).

(٧) انظر: «المغني» (١٢/ ٥٥).

(٨) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى «كتاب الديات» (٨/ ١٠١).

وفي سنده ابن لهيعة عن عبد الله بن صالح ضعيف. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٤٠)، الجوهر النقي» مع سنن البيهقي (٨/ ١٠١). وفيه آثار عن عمر وعثمان وابن مسعود- رضي الله عنهم؛ صحيحة. انظر: «المعرفة» للبيهقي (٦/ ٢٣٣). وقال ابن قدامة في «المغني» (١٢/ ٥٥) بعد أن ذكر أن ممن قال بهذا القول عمر وعثمان وابن مسعود، قال: «ولم نعرف لهم في عصرهم مخالفًا فكان إجماعًا».

(٩) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٣٨).

٢٨- الحكمة التشريعية في التفريق بين حكم من قتل مؤمنًا، أهله مؤمنون، وبين من قتل مؤمنًا أهله كفار محاربون، من حيث إيجاب الدية لأهل المقتول المؤمنين دون الكفار المحاربين؛ لأن في أداء الدية لأهل المقتول المؤمنين جبرًا لقلوبهم وتخفيفًا لمصابهم، أما الكفار المحاربون فلا حرمة لهم، لا في دمائهم ولا في أموالهم، والكافر لا يرث المؤمن؛ ولأنهم لو أعطوا الدية لاستعانوا بها على حرب المسلمين.

وأيضًا: الحكمة التشريعية في التفريق بين من قُتل من قوم معاهدين، وبين من قتل من قوم أعداء محاربين، من حيث إيجاب الدية في حق المعاهد وإن كان كافرًا دون من كان من قوم عدو لنا وإن كان مؤمنًا، وذلك احترامًا للعهود والمواثيق بين المسلمين وغيرهم.

وأيضًا: الحكمة التشريعية في التفريق بين دية المؤمن، ودية المعاهد؛ لأن في الآية ما يشير إلى ذلك كما سبق، وذلك لأن الكافر لا يساوي المؤمن بحال من الأحوال.

٢٩- بلاغة التعبير القرآني، ففي أول الآية قدَّم ذكر الكفارة على الدية، وفي آخرها وهي الحالة الثالثة قدّم ذكر الدية وأخّر ذكر الكفارة؛ ليناسب ذلك مع ما بعدها، وهو ذكر بديل الكفارة «صيام شهرين متتابعين».

وأيضًا: فلو قدَّم ذكر بديل الكفارة في الموضع الأول لما فهم أن هذا بديل لها في المواضع الثلاثة كلها.

٣٠- أن من لم يجد الرقبة، أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، أي: يتبع أحدهما الآخر، فإن صام بالأهلة من بداية الشهر أجزأه ذلك، سواء كان الشهر ناقصًا أو تامًا.

وإن ابتدأ في أثناء الشهر لزمه أن يتم ستين يومًا، ولا يفطر بينهما إلا لعذر من حيض أو نفاس بالاتفاق(١).

واختلفوا في الفطر لأجل المرض.

فذهب بعض أهل العلم إلى أن الفطر لأجل المرض لا يقطع التتابع منهم مالك(٢)،

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٤٦)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٣)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٧)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٩).

(٢) انظر: «الكافي» لابن عبد البر ص (٢٨٥).

وأحمد[١].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الفطر لأجل المرض يقطع التتابع منهم أبوحنيفة[٢]، والشافعي في أظهر قوليه[٣]، ووجه لأحمد[٤].

والصحيح أن الفطر لأجل المرض لا يقطع التتابع؛ لأنه من غير اختيار الإنسان، فأشبه الحيض والنفاس[٥]، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. ومن ذا الذي يضمن أن يمر عليه شهران متتابعان دون أن يصاب بمرض.

كما اختلفوا في الفطر لأجل السفر. فذهب أبو حنيفة[٦]، ومالك[٧] والشافعي في أظهر قوليه[٨] إلى أنه يقطع التتابع وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يقطع التتابع، منهم أحمد[٩] وغيره.

والصحيح أيضًا أنه لا يقطع التتابع؛ لأنه كما يباح للمسافر أن يفطر في نهار رمضان، وصيامه واجب، بل ركن من أركان الإسلام، فكذلك يباح لمن كان يصوم عن كفارة القتل أن يفطر إذا سافر.

وكذا لو تخلل الشهرين ما يحرم صومه كيومي العيدين وأيام التشريق، فإنه يفطر، ولا يقطع ذلك التتابع، وكذا لو تخلل الشهرين صيام شهر رمضان فإنه لا يقطع التتابع أيضًا[١٠].

٣١- إذا لم يجد القاتل الرقبة، أو لم يجد ثمنها، ولم يستطع الصيام فلا شيء عليه؛

---

(١) انظر: «المغني» (١١/ ٨٩).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٤٦).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٣)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٩).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣١): «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٥).

(٦) انظر: «شرح فتح القدير» لابن الهمام (٤/ ٢٦٧).

(٧) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٨)، «شرح الزرقاني» (٤/ ١٨١).

(٨) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٥).

(٩) انظر: «المغني» (١١/ ٩٠)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٩).

(١٠) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٩).

لأن الكفارة حق لله، فإذا لم يقدر عليها سقطت؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وليس عليه إطعام؛ لأن الله لم يذكر في الآية كفارة للقتل سوى تحرير الرقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم، قال ابن كثير(١): «لا يعدل إلى الإطعام؛ لأنه لو كان واجبًا لما أخَّر بيانه عن وقت الحاجة».

وذهب بعض أهل العلم إلى أن القاتل إذا لم يستطع الصيام فعليه إطعام ستين مسكينًا قياسًا على كفارة الظهار، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤].

قالوا: وإنما لم يذكر الإطعام هاهنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص(٢).

والصحيح القول الأول؛ لأنه لا يجوز قياس القتل الخطأ على الظهار لاختلاف السبب لأن سبب الكفارة في الظهار هو الظهار، وسبب الكفارة في القتل هو القتل، وبينهما فرق كبير؛ لأن القتل الخطأ- وإن أوجب الله فيه الكفارة إلا أن صاحبه محل للتسامح؛ لأنه من باب الخطأ، بخلاف الظهار فإن الله جعله منكرًا من القول وزورًا. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢].

وعلى هذا فالواجب على القاتل عتق رقبة، فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فلا شيء عليه. أما الدية فإنها حق لورثة القتيل، لا تسقط إلا بعفوهم عنها.

٣٢- أنه يجب على القاتل خطأً أن يتوب إلى الله- مع فعل الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾، وإنما وجبت عليه التوبة والكفارة، مع أن فعله خطأ، وهو غير آثم(٣)؛ لأن الله أمر عباده جميعًا بالتوبة، وأوجبها عليهم، ولو من باب اتهام النفس بالتقصير، ومن ذا الذي يسلم من الخطأ، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. كما أن في ذلك إشارة إلى عظم حرمة نفس

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٣١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣١).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٨).

المؤمن والمعاهد وعظم قتلها.

وأيضًا فإن القتل الخطأ قد يكون سببه التساهل والتقصير، وعدم الاحتراز.

قال القرطبي(١): «وإنما مست حاجة المخطئ إلى التوبة؛ لأنه لم يتحرز، وكان من حقه أن يتحفظ».

٣٣- تيسير الله- عز وجل- التوبة- للقاتل خطأً، بتيسير أسبابها، وتوبته عليه إذا أدى ما يجب عليه من الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: توبة منه سبحانه على عبده بأن يسر له أسباب التوبة، فشرع في حقه الدية، والكفارة بعتق رقبة، فإن لم يجد الرقبة صام شهرين متتابعين، ولو شاء الله لشق عليه، وجعل الواجب في القتل أعظم من ذلك.

٣٤- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، وأن ما يحكم به ويشرعه فهو عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

٣٥- إثبات صفة الحكم والحكمة لله عز وجل، فهو حاكم محكم، حاكم له الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي. ومحكم ما خلق وشرع وقدر، له الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

٣٦- في الجمع بين هذين الوصفين: «عليمًا» و«حكيمًا» دلالة على كمال أحكام الله تعالى؛ لأنه عز وجل اجتمع له كمال العلم وكمال الحكمة فجاءت أحكامه في غاية الكمال، ولهذا كثيرًا ما يختم الله عز وجل الآيات بهذين الوصفين؛ ليدل على هذا الكمال.

ولأن النقص في الحكم إنما يأتي بسبب كون الحكم عن جهل وسفه، لا عن علم وحكمة، أو كونه عن علم بلا حكمة، أو عن حكمة بلا علم.

٣٧- الإشارة إلى أن الخطأ في الحكم: إما من الجهل وهو عدم العلم، وإما من السفه وهو عدم الحكمة، وإما من عدمهما معًا، فلا علم ولا حكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٣٨- ثناء الله عز وجل على نفسه؛ لأنه أهل الثناء والمجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٨).

ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

٣٩- أن كان تأتي مسلوبة الزمن، لمجرد تحقيق الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾، أي: كان ومازال.

٤٠- في اقتران وصفيه عز وجل «عليمًا» و«حكيمًا» الإشارة إلى كماله- عز وجل- في ذاته وأسمائه وصفاته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

هذه الآية من أعظم آيات الوعيد، الوارد في الكبائر فيما دون الشرك، بل ذهب أكثر أهل العلم إلى أنها أعظم آية في الوعيد، وعدوا أكبر الكبائر بعد الشرك بالله قتل المؤمن عمدًا، كما سيأتي ذكره في الأحكام.

لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد.

سبب النزول:

رُويَ أنها نزلت في مقْيَس بن ضبابة، وذلك أنه أسلم هو وأخوه هشام بن ضبابة، فوجد هشام قتيلًا في بني النجار، فأعطاه بنو النجار الدية، فارتد مقيس، وقتل رجلًا من بني فهر بأخيه بعد أن أخذ الدية مائة من الإبل، وانصرف إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «**لا أؤمنه في حل ولا حرم**» وأمر بقتله يوم فتح مكة، وهو متعلق بالكعبة»[١].

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾، الواو: استئنافية، ﴿وَمَن﴾ شرطية، ﴿يَقْتُلْ﴾ فعل الشرط، والقتل: إزهاق الروح.

﴿مُؤْمِنًا﴾ نكرة في سياق الشرط يعم كل مؤمن، سواء كان ذكرًا أو أنثى حرًا أو عبدًا، وسواء كان عنده الإيمان المطلق، أو ليس عنده إلا مطلق الإيمان، فيشمل المؤمن والمسلم؛ لأن الإيمان إذا أفرد دخل معه الإسلام، وإذا أفرد الإسلام دخل معه الإيمان، أما إذا اجتمعا فيحمل الإيمان على الأعمال الباطنة، والإسلام على الأعمال الظاهرة[٢].

﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من فاعل﴿يَقْتُلْ﴾، أي: حال كون القاتل قاصدًا للقتل، وذلك بقصد الفعل، أي: القتل بما يقتل غالبًا، كالسيف، والرمي بالرصاص، والحجر الكبير، والسم، والسحر، وكالخنق والتغريق والتحريق، والإلقاء من شاهق، أو إمساك الخصيتين حتى تخرج الروح أو غم الوجه حتى تخرج الروح، ونحو ذلك[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٦١)، الأثر (١٠١٨٦) عن عكرمة- رضي الله عنه، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٣٧)، الأثر (٥٨١٦) عن سعيد بن جبير رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠، ١٤، ٥٧٦-٥٧٧).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٧، ٥٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٣)، «الوسيط» (٢/ ٩٥)، =

كما في حديث أنس بن مالك: «أن يهودياً رضّ رأس جارية على أوضاح لها بين حجرين، فأمر به النبي ﷺ فرض رأسه بين حجرين»(١).

وهذا هو النوع الثاني من أنواع القتل المذكورة في القرآن، وهو «العمد».

وسبق ذكر «القتل الخطأ» في الآية السابقة، وهناك «شبه العمد».

فالخطأ المحض: كأن يرمي صيدًا أو هدفًا أو مشركًا فيصيب معصومًا بغير علمه ولا قصده.

والعمد المحض: أن يقصد من يعلمه معصومًا بما يقتل غالبًا إما بحده كالسيف، وإما بنفوذه في الجسم كالرصاص والسهام، وإما بثقله كالسندان، أو بغير ذلك: كالتحريق، والتغريق، والإلقاء من شاهق والخنق، وإمساك الخصيتين حتى يموت، وسقي السم، وغير ذلك.

وشبه العمد بينهما أن يقصد الضرب بما لا يقتل غالبًا كالسوط والعصا(٢) فهذا ليس بخطأ لوجود القصد فيه، وليس بعمد لأن الآلة لا تقتل.

قال ﷺ: «**ألا إن في قتل الخطأ شبه العمد ما كان في السوط والعصا مائة من الإبل، منها أربعون خلفة في بطونها أولادها**»(٣).

قال ابن تيمية(٤): «سماه شبه العمد؛ لأنه قصد العدوان عليه بالضرب، لكنه لا يقتل غالبًا، فقد تعمد العدوان، ولم يتعمد ما يقتل».

﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، أي: فعقوبته، التي يجازى بها.

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها،

=

«المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٢٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٣).

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٢)، وأبو داود في الديات (٤٥٢٧)، والنسائي في القسامة (٤٧٤١)، والترمذي في الديات (١٣٩٤)، وابن ماجه في الديات (٢٦٦٥).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٨).

أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ «**تدرون ما هذا؟**» قال: قلنا الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار، الآن انتهى إلى قعرها**»(١).

﴿خَٰلِدًا﴾: حال من الهاء في قوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ..﴾.

﴿فِيهَا﴾، أي: في جهنم، والخلود: يطلق على المكث الطويل. قال زهير(٢):

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ... ولا خالدًا إلا الجبال الرواسيا

والجبال وإن طال مكثها فإنه يأتيها من أمر الله ما يغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

ويقولون: «خلد الله ملكه»، «لأخلدن فلانًا في السجن»(٣) مع أنه لا شيء في الدنيا يدوم.

وعلى هذا لا إشكال في الآية، فالقاتل عمدًا متوعد بالعقوبة في النار والمكث الطويل فيها، إن لم يعف الله عنه.

كما يطلق الخلود على المكث الدائم، كما جاء في آيات كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء: ١٣]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤٤).

(٢) انظر ديوانه ص (١١٧).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٥).

هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ [الزمر: ٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويدل على أن المراد بالخلود في هذه الآيات الخلود الدائم أن الله ذكر تأبيد خلود أهل الجنة فيها في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩، والبينة: ٨] وغير ذلك من الآيات.

كما ذكر تأبيد خلود أهل النار في ثلاث آيات في القرآن الكريم: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٥].

وقوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

فيحمل الخلود المطلق في الآيات على الخلود المقيد بالتأبيد.

ولا خلاف بين أهل العلم في أن خلود أهل الجنة فيها خلود دائم أبدي.

كما أن خلود أهل النار فيها خلود أبدي على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وبناء على هذا- وهو أن الخلود قد يطلق على المكث الدائم- ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بقوله هنا ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ المكث الدائم، لكنهم اختلفوا في توجيه الآية، على ضوء النصوص الدالة على أنه لا يخلد في النار إلا المشرك، كما سيأتي بيانه في الأحكام.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ والغضب: صفة من صفات الله عز وجل، وهو من الصفات الفعلية الاختيارية له عز وجل، وهو غضب يليق بجلاله وعظمته سبحانه(١)، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الأسماء والصفات» (٢/ ٤٧١): «وأما قول القائل الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام فليس بصحيح في حقنا، بل الغضب يكون لدفع المنافي قبل وجوده، فلا يكون =

ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٦].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا: «والغضب أبلغ من العقوبة؛ لأن الله إذا غضب لا يكلم من غضب عليه، ولا يرحمه كما يرحم غيره، وينتقم منه بما يقتضيه ذنبه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥]، أي: لما أغضبونا انتقمنا منهم»(١).

﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وطرده وأبعده عن رحمته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، أي: هيأ له عذابًا عظيمًا، لا يعلم مقدار عظمته سوى الله عز وجل.

الفوائد والأحكام:

١- أن قتل المؤمن عمدًا من كبائر الذنوب، بل من أكبر الكبائر، بل هو أكبر الكبائر عند كثير من أهل العلم؛ للوعيد الشديد عليه في هذه الآية؛ ولأن الله قرنه بالشرك في عدة آيات من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ ولما ورد في السنة من الوعيد عليه.

قال ابن كثير(٢) في كلامه على الآية: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ الآية قال: «وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية من كتاب الله..».

وقال ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**»(٣).

=

هناك انتقام أصلًا، وأيضًا فغليان دم القلب يقارنه الغضب ليس أن مجرد الغضب هو غليان دم القلب كما أن الحياء يقارن حمرة الوجه، والوجل يقارن صفرة الوجه، لا أنه هو.. إلى أن قال: وأيضًا لو قدر أن هذا هو حقيقة غضبنا لم يلزم أن يكون غضب الله مثل غضبنا» ثم بين رحمه الله أن ذات الله وصفاته لا تشبه ذوات المخلوقين وصفاتهم.

(١) انظر كلام الشيخ محمد على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٨٢ تفسير سورة النساء).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٣١)، وانظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم**»(١).

ولأن الله رتب عليه القتل قصاصًا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴾ [الإسراء: ٣٣].

ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أن أكبر الكبائر بعد الشرك بالله هو القتل العمد، لما جاء فيه من الوعيد الشديد في الكتاب والسنة.

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله**» الحديث(٢).

---

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم (٣٩٨٧)، والترمذي في الديات (١٣٩٥)، من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- وصحح الترمذي والبيهقي وقفه. انظر: «سنن البيهقي» (٨/ ٢٢)، وأخرجه ابن ماجه في الديات (٢٦١٩)، من حديث البراء- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧١)، ومسلم في الإيمان (٨٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٠)، والترمذي في البيوع (١٢٠٧). وفي حديث ابن مسعود قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، وقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٧٧)، ومسلم في الإيمان (٦٦)، من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وغيره.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن أكبر الكبائر بعد الشرك بالله: الربا لما جاء فيه أيضًا من الوعيد الشديد في الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] وكقوله ﷺ: «**درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستٍ وثلاثين زنية**» أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٥)، من حديث عبد الله بن حنظلة رضي الله عنه.

وذهب بعضهم إلى أن أكبر الكبائر بعد الشرك أكل مال اليتيم، لما جاء فيه أيضًا من الوعيد الشديد في الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ [النساء: ١٠].

وكقوله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات. وذكر منهن: أكل مال اليتيم» سبق تخريجه.

راجع الكلام على الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ﴾ [النساء: ١٠].

ولم يذكر ﷻ في هذه الآية ما يترتب على القتل العمد في الدنيا من القصاص، وقد ذكره ﷻ في آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله تعالى:
=

٢- أن من قتل كافرًا، حتى ولو كان معاهدًا لا يلحقه الوعيد المذكور؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا ﴾ وإن كان قتل المعاهد محرمًا لا يجوز، وفاعله آثمًا.

٣- أن مدار العقوبة بما ذكر على النية والقصد؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَعَمِّدًا ﴾، أي: قاصدًا عالمًا بأنه مؤمن، وسواء أصاب الشخص الذي قصده، أو أصاب مؤمنًا غيره، كأن يريد قتل زيد فيصيب عمرًا؛ لأنهما سواء، وقصد قتل المؤمن موجود لدى القاتل إلا أنه قتل هذا مكان هذا.

أما لو أراد قتل صيد أو مشرك، أو معاهد فأصاب مؤمنًا فليس هذا بعمد.

وقال بعض أهل العلم: إذا قصد قتل ما لا يجوز له قتله، كأن يقصد قتل معاهدٍ أو صيد في الحرم، فأصاب مؤمنًا عد هذا من قبيل العمد.

والصحيح أن هذا لا يعد من قبيل قتل المؤمن عمدًا، وإن كان قتل المعاهد لا يجوز، وكذا قتل صيد الحرم، وإنما «العمد» أن يقصد مؤمنًا معينًا فيقتله، أو يقصده ويصيب غيره من المؤمنين(١).

٤- أن من قتل مؤمنًا غير متعمد قتله لا يلحقه الوعيد المذكور؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مُّتَعَمِّدًا ﴾.

٥- أن جزاء القاتل للمؤمن عمدًا أن يخلد في النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾.

لكن اختلف أهل العلم في المراد بالخلود في الآية، فمنهم من قال: المراد بالخلود المكث الطويل، لا الإقامة الأبدية الدائمة.

=

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وعلى هذا دلت السنة. فإن عفا أولياء المقتول عن القصاص إلى الدية وجب على القاتل دفع الدية، وهي مغلظة، أو حسب ما يصطلحان عليه وتجب في مال القاتل لا على العاقلة.

ولم يذكر الله ﷻ الكفارة في قتل العمد لأنه أعظم من أن يكفر. وقيل: تجب فيه الكفارة الواجبة في الخطأ، والصحيح الأول.

انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣١).

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٨٤ تفسير سورة النساء).

ويقوي هذا القول أمران: الأول: أن الآية لم تقيد بالأبدية. الأمر الثاني: أن هذا القول يتفق مع النصوص الدالة على أنه لا يخلد في النار إلا المشرك.

فلا إشكال في الآية على هذا القول.

قال ابن كثير(١): «وبتقدير دخول القاتل النار.. فليس يخلد فيها أبدًا، بل الخلود، هو المكث الطويل».

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالخلود في الآية المكث الدائم الأبدي، ويلزم على هذا القول إشكالان.

الأول: القول بأن المؤمن القاتل للمؤمن عمدًا يخرج بهذا القتل من الإيمان.

والإشكال الثاني: القول بأن المؤمن القاتل للمؤمن عمدًا يخلد في النار.

وكل من هذين القولين غير صحيح.

فإن قاتل المؤمن عمدًا لا يخرج من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فقوله: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾ يدل على أن القاتل لا يخرج من الإيمان ولو كان يخرج من الإيمان بالقتل لم يكن أخًا للمقتول. وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة.

خلافًا للخوارج الذي يكفرون فاعل الكبيرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه عن أهل السنة: «وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال سبحانه وتعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]»(٢).

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٣٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٥١).

وقال القاضي أبويعلي في كلامه على آيتي الحجرات[١]: «فسماهم إخوة للمؤمنين في حال البغي والمعصية».

وقال البغوي[٢]: «وفي هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن الله سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين، يدل عليه ما روي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه سئل عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ فقال: لا، من الشرك فروا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا. قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا»[٣].

وقال ابن تيمية أيضًا[٤]: «القتل العمد من الكبائر ولا يُكفَّر بمجرد ذلك عند أهل السنة والجماعة، وإنما يُكفِّر بمثل هذا الخوارج».

وقال السعدي[٥]: «وفي هاتين الآيتين أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيرهما من الذنوب الكبائر التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة».

وإذا كان القاتل عمدًا لا يخرج بالقتل من الإيمان، بل يبقى على إيمانه، فإن المؤمن لا يخلد في النار أبدًا مهما عمل من الكبائر عند أهل السنة والجماعة[٦]، بل مآله إلى الجنة: فإما أن يطهر بالنار من هذه المعاصي، وإما أن يعفو الله عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أما أن يخلد في النار فلا.

---

(١) في «مسائل الإيمان» ص (٣٦٨).

(٢) في «معالم التنزيل» (٤/ ٢١٣).

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٥٤٣-٥٤٤).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٧).

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ١٣٤) وانظر: «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٢٩٥)، «الإيمان» ص (٢٢٨)، «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٤٤٢)، «فتح الباري» (١/ ١٠٦)، «معارج القبول» (٣/ ١٠١٧)، «الوسائل والمسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» (١/ ١٢٦، ١٣٢)، «ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة» (ص١٨٩، ١٩٠).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٧)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٢٤).

ولهذا اختلف العلماء الذين يقولون: إن المراد بالخلود في الآية المكث الدائم الأبدي في تخريج الآية على ما جاءت به النصوص الدالة على أن المؤمن لا يخلد في النار(١).

فقال بعضهم: إن الآية نزلت في أهل الشرك(٢)، قالوا: وعلى هذا فيكون سبب التخليد هو الكفر والشرك، لا القتل العمد.

لكن هذا القول خلاف ظاهر الآية؛ لأن الآية ظاهرها العموم، وحملها على المشركين خاصة لا دليل عليه.

وقال بعضهم: الآية محمولة على من استحل قتل المؤمن(٣).

وهذا في غاية الضعف؛ لأن من استحل قتل المؤمن عمدًا فهو كافر سواء قتله أو لم يقتله(٤).

وكذا من استحل أي معصية وإن كانت دون القتل، سواء فعلها أو لم يفعلها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

وقال بعضهم معنى الآية: «فجزاؤهم جهنم إن جازاه»(٥).

وهذا القول في غاية الضعف أيضًا؛ لأنه في الحقيقة لا معنى له؛ لأن الآية واضح أنها في جزاء القاتل عمدًا فيما إذا جازاه الله، فهل يخلد في النار أو لا يخلد.

أما إذا عفا الله عنه فلا إشكال، ولم تتعرض الآية لهذا، وهكذا كل عقوبة توعد الله بها على أي معصية من المعاصي، فإنما يتحقق وقوعها إذا الله جازى العبد عليها ولم يعف عنه(٦).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٦١-٦٤).

(٢) كما روي في سبب النزول أنها نزلت في مقيس بن ضبابة ارتد عن الإسلام وقتل رجلًا فأمر النبي ﷺ بقتله وهو متعلق بأستار الكعبة. وقد سبق تخريجه.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٦١)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٤).

(٤) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٢٦)، «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٩).

(٥) أخرجه الطبري عن أبي مجلز وأبي صالح ورجحه الطبري. انظر: «جامع البيان» (٩/ ٦١)، الأثران (١٠١٨٤، ١٠١٨٥)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٢٦). وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٣٥) عن أبي هريرة.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٥).

وقيل: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وهذا ليس بصحيح؛ لأن كلا الآيتين خبر، والأخبار لا تنسخ(١).

وقيل بتخليد القاتل عمدًا في النار بدليل ظاهر الآية، روي هذا عن ابن عباس- رضي الله عنهما(٢)، واستُدل لهذا بما رواه معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا والرجل يموت كافرًا**»(٣).

وهذا القول أيضًا لا يصح لما سبق من أن القاتل عمدًا لا يخرج من الإيمان بالقتل العمد، وإذا لم يخرج من الإيمان بالقتل فلا يخلد في النار؛ لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك.

وما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في هذا: فإما أن يكون من باب التشديد والمبالغة أو غير ذلك.

قال البغوي(٤): «وما روي عن ابن عباس فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل.. وليس في الآية متعلق لمن يقول بالتخليد في النار بارتكاب الكبائر»(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٦): «وآية النساء يعني: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية إنما هي وعيد كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾، ومع هذا فهذا إذا لم يتب».

وقال ابن كثير(٧): «وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا» فعسى للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين، لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما، وهو القتل لما ذكرنا من الأدلة. وأما

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٥).

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه النسائي في تحريم الدم (٣٩٨٤)، وأحمد (٤/ ٩٩). وصححه الألباني.

(٤) في «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٥).

(٥) كالمعتزلة والخوارج. انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٧).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٥).

(٧) في «تفسيره» (٢/ ٣٣٥).

من مات كافرًا فالنص أنه لا يغفر له البتة».

وأولى ما يمكن حمل الآية عليه على القول بأن المراد بالخلود المكث الدائم: أن هذا من باب الوعيد، والوعيد لا يقع إلا بوجود السبب، وانتفاء المانع، من التوحيد والأعمال الصالحة والتوبة والاستغفار، أو الحسنات التي تمحو السيئات، ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١).

أو المصائب الدنيوية قال ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر به من خطاياه**»(٢).

وعذاب القبر، ودعاء المؤمنين واستغفارهم له في الحياة وبعد الممات، وما يُهدى إليه من ثواب صدقة أو حج ونحو ذلك، وأهوال القيامة وشدائده، والاقتصاص للمؤمنين بعضهم من بعض بعد عبور الصراط(٣)، وشفاعة الشافعين، وعفو أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨](٤).

وعلى هذا فالصحيح الذي يدل عليه الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة وأهل السنة: أن القاتل لا يخلد في النار، وأنه كغيره من أصحاب الكبائر، تحت مشيئة الله إن شاء الله عذبه بقدر ذنبه ثم أدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه(٥).

---

(١) أخرجه من حديث أبي ذر- رضي الله عنه- الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨)، والدارمي (٢/ ٣٢٣)، وأخرجه أيضًا أحمد وغيره من حديث معاذ بن جبل- رضي الله عنه- (٥/ ٢٢٨، ٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣)، والترمذي في الجنائز (٩٦٦)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله عنهما، وأخرجه أيضًا مختصرًا من حديث عائشة- رضي الله عنها- البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٣) حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة كما في حديث أبي سعيد- رضي الله عنه- عند البخاري في المظالم (٢٤٤٠)، وأحمد (٣/ ١٣، ٥٧) وغيرهما.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٠-٤٤١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٥)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٥١-٤٥٥)، وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٨٦ تفسير سورة النساء).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٦٩).

ولا يخلد في النار إلا المشرك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني آت من ربي فأخبرني- أو قال- بشرني أن من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرقَ؟ قال وإن زنى وإن سرق**»(١).

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه**». فبايعناه على ذلك(٢).

قال ابن كثير(٣): «وبتقدير دخول القاتل إلى النار؛ إما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل صالحًا ينجو به، فليس يخلد فيها أبدًا، بل الخلود هو المكث الطويل وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان».

وبهذا يتبين بطلان ما ذهب إليه المعتزلة والخوارج من تخليد القاتل عمدًا في النار وغيره من أهل الكبائر(٤).

وإذا كانت الآية لا تدل على أن القاتل عمدًا يخلد في النار أبدًا، إما لأن المراد بالخلود في الآية المكث الطويل، أو أن المراد به المكث الدائم لكن هذا وعيد مشروط بوجود سببه وانتفاء المانع، وحيث إن المانع من تخليد القاتل عمدًا موجود وهو الإيمان، فعلى هذا يتبين أن القاتل عمدًا لا يخلد في النار أبدًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٣٧)، ومسلم في الإيمان (٩٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الحدود (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (١٠٦٢)، والترمذي في الحدود (١٤٣٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٦٠٣).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٣٥).

(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٩١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٢-٢١٤)، «شرح الطحاوية» (١/ ٥٢٥).

ومن باب أولى، فإن توبته مقبولة بإذن الله إذا تاب توبة نصوحًا، وسلم نفسه لأولياء المقتول ليختاروا؛ إما القصاص، أو الدية، أو العفو؛ لأن القاتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله تعالى وهذا يسقط بالتوبة، وحق أولياء المقتول وهذا يسقط بتسليمه نفسه لهم واختيارهم ما شاؤوا من القصاص أو الدية أو العفو- علمًا أن تسليمه نفسه لهم من شروط صحة توبته، والحق الثالث حق المقتول نفسه.

ومقتضى أدلة الشرع أن المقتول يرد على القاتل يوم القيامة كغيره من أصحاب الحقوق فيأخذ حقه من حسناته، وقد يكافئه الله من فضله(١).

وليس في الآية ما يدل على عدم قبول توبته، بل قد دل القرآن الكريم على قبول توبته، كما دل على قبول التوبة حتى من المشرك. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

وقال تعالى عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥].

وإذا كانت التوبة تقبل من المشرك فقبولها من القاتل عمدًا من باب أولى.

وهكذا كل وعيد رتب على ذنب، فإن ذلك مبني على ما إذا لم يتب صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، قال ابن تيمية(٢): «أي لمن تاب».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد ذكر الله القتل بين هاتين الآيتين مما يدل على أن ما دون الشرك فإن الله يغفره. وإذا كان

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٨، ١٧١-١٧٣)، «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٢-٤٤٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٧١-١٧٣).

سبحانه يغفر ما دون الشرك فقبوله التوبة من القاتل من باب أولى(١).

وقال ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم خرج يسأل فأتى راهبًا فسأله، فقال: هل له من توبة؟ قال: لا. فقتله فجعل يسأل فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا. فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له**»(٣).

وأيضًا فإن رحمة الله سبقت غضبه، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(٤)، وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، فكيف يقال بعدم قبول توبة القاتل(٥).

وقد ذهب ابن عباس- رضي الله عنهما- إلى أنه لا توبة للقاتل عمدًا.

فروى سالم بن أبي الجعد قال: كنا جلوسًا عند ابن عباس بعد ما كُفَّ بصره، فأتاه رجل فناداه يا عبد الله بن عباس ما ترى في رجل قتل مؤمنًا متعمدًا؟ فقال: «جزاؤه ﴿جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾. قال: أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه! وأنَّى له التوبة والهدى؟ فوالذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «**ثكلته أمه! رجل قتل رجلًا متعمدًا**

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٩١).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩). من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢٦).

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي».

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٥-٤٤٣).

جاء يوم القيامة آخذًا بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دمًا[١] في قبل عرش الرحمن، يلزم قاتله بيده الأخرى، يقول: سل هذا فيم قتلني؟» والذي نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية وما نسختها من آية[٢] حتى قبض نبيكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان»[٣].

وقد رُويَ هذا القول عن زيد بن ثابت[٤] وأبي هريرة وعبد الله بن عمر- رضي الله عنهم، ورُويَ عن جمع من التابعين[٥]، وروي عن الإمام أحمد[٦].

والصحيح القول الأول، وهو قول جمهور أهل العلم، وأهل السنة والجماعة[٧]، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس[٨]، وعبد الله بن عمر[٩]، وزيد بن ثابت[١]- رضي الله

---

(١) الأوداج: هي العروق التي في الحلق يقطعها الذابح، ومعنى تشخب دمًا، أي: تسيل دمًا له صوت في خروجه كصوت حلب الشاة. انظر: «النهاية» مادة «شخب».

(٢) يقصد ابن عباس بهذا الرد على من يقول: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].
والصحيح أن كلًا من الآيتين خبر، والخبر لا يَنسخ ولا يُنسخ.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٦٢)، ومسلم في التفسير (٣٠٢٣)- مختصرًا- فيه فقط ذكر عدم نسخ آية النساء، وأنها هي الناسخة لآية الفرقان.
وأخرجه مطولًا النسائي في تحريم الدم (٣٩٩٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٩)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢١)، وأحمد (١/ ٢٤٠) وأبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٤٦)- حديث (٤٨٧)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه عن زيد بن ثابت أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٤٧) الأثر (٤٨٨)، وأبو داود في الفتن (٤٢٧٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢١٧-٢١٨) الأثر (٣٨٣)، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص(٢٩٢).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٣).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٥)، «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٥).

(٧) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٢٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٥)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٣)، «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٥).

(٨) أخرج الطبري عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ قال: «ليس لقاتل توبة إلا أن يستغفر الله» الأثر (١٠٢٠١)، وأخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٢٣)- الأثر (٣٩٢)- بمعناه.

(٩) أخرجه النحاس عن ابن عمر- رضي الله عنهما- في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٢٣)- الأثر (٣٩١).

عنهم، وغيرهم[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «والذنب وإن عظم والكفر وإن غلظ وجسم، فإن التوبة تمحو ذلك كله، والله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب، بل يغفر الشرك وغيره للتائبين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذه الآية عامة مطلقة؛ لأنها للتائبين».

وقال أيضًا[٤]: «وكل وعيد في القرآن، فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقًا به وإن تاب، هذا في غاية الضعف، ولكن قد يقال: لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل، بل التوبة تسقط حق الله، والمقتول مطالبه بحقه، وهذا صحيح في جميع حقوق الآدميين، حتى الدين، فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين**»[٥] لكن حق الآدمي يعطاه من حسنات القاتل، فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات، حتى يكون له ما يقابل حق المقتول.

ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر، فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول، فلابد أن يبقى له سيئات يعذب بها، وهذا الذي قاله قد يقع من بعض الناس، فيبقى الكلام فيمن تاب، وأخلص وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به، وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس، لكن هذا كله لا ينافي موجب الآية، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب: الشرك والقتل والزنا، وغير ذلك، من حيث الجملة، فهي عامة في الأفعال مطلقة في الأشخاص».

=

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم (٧/ ٨٨)، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٢٥).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٥٨، ١٦/ ١٨).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٥-٢٦)، وانظر (٣٤/ ١٧١-١٧٣).

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٨٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وقال الحافظ ابن كثير[١]: «والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملًا صالحًا بدل الله سيئاته حسنات وعوَّض المقتول من ظلامته، وأرضاه عن طلابته- وبعد أن استدل ابن كثير على هذا بآيتي سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وبيَّن أن هذا خبر لا يجوز نسخه، قال: وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال: وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك، كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء».

ثم ذكر ابن كثير حديث الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم تاب- ثم قال ابن كثير: «إن كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى؛ لأن الله وضع عنا الأغلال والآصار التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة».

ثم قال ابن كثير: «وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين، وهي لا تسقط بالتوبة[٢]؛ ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغصوب منه، والمقذوف، وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولابد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك، فلابد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، وقد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء، من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها، ونحو ذلك والله أعلم».

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أراد هذا؛ أي: أنه ليس للقاتل توبة بالنسبة لحق المقتول.

وحق المقتول لا يسقط بحال سواء تاب القاتل، أو أخذت منه الدية أو عفي عنه، أو اقتص منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «فإذا عفا عنه أولياء المقتول، أو أخذوا الدية لم يسقط بذلك حق المقتول في الآخرة، وإذا قتلوه ففيه نزاع في مذهب أحمد، والأظهر أنه لا يسقط، لكن القاتل إذا كثرت حسناته أخذ منه بعض ما يرضى به المقتول، أو يعوضه الله من عنده إذا تاب القاتل توبة نصوحًا».

٦- إثبات صفة الغضب لله على ما يليق بجلاله، وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، وفي هذا رد على أهل التعطيل والتحريف، الذين يفسرون الغضب بالانتقام، أو إرادة الانتقام وقولهم هذا باطل؛ لأن الانتقام ليس هو الغضب، وإنما هو متسبب عن الغضب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

والغضب صفة كمال بالنسبة لله عز وجل؛ لأنه يدل على كمال السلطة وكمال القوة له عز وجل، بخلاف المخلوق، فإن الغضب بالنسبة له يعد صفة نقص؛ ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ أوصني قال له ﷺ: «**لا تغضب**». فردد مرارًا قال له ﷺ: «**لا تغضب**»(٢).

٧- أنه يجوز لعن غير المُعَيَّن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وفي الحديث: «**لعن الله من آوى محدثا، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير منار الأرض**»(٣).

وقال ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٤).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٨٨ تفسير سورة النساء».

(٣) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٨)، والنسائي في الضحايا (٤٤٢٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٣٠)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٩)، من حديث عائشة =

أما المُعَيَّن فلا يجوز لعنه؛ لأن الله- عز وجل- نهى النبي ﷺ عن ذلك، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ لعن في صلاة الفجر بعد الركوع في الركعة الآخرة فقال: «اللهم العن فلانًا وفلانًا»: ناسًا من المنافقين، فأنزل الله- عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨](١).

ولأنه ﷺ نهى عن لعن عبد الله بن حمار(٢)، مع أنه ﷺ لعن شارب الخمر عمومًا(٣).

وذلك؛ لأن المُعَيَّن قد يتوب، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر الأدلة، وهو رواية عن الإمام أحمد، اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية(٤) وغيره.

وقيل: بجواز لعنه، وهو رواية عن أحمد، اختارها ابن الجوزي(٥).

والراجح القول الأول: عدم جواز لعن المُعَيَّن، إلا إذا مات على الكفر، وكان من رؤوس الكفر كفرعون وأبي جهل وأمثالهما(٦).

لكن يقال لمن قتل مؤمنًا عمدًا: أنت قتلت مؤمنًا عمدًا، ومن قتل مؤمنًا عمدًا ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

٨- أن من جزاء القاتل عمدًا وعقوبته غضب الله عليه، ولعنه وطرده من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾.

٩- أن النار مخلوقة الآن موجودة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، أي: في النار كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤، آل عمران: ١٣١]، وقد رآها النبي ﷺ حين

=

رضي الله عنها.

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٩٠) وفي التفسير (٤٥٥٩)، والنسائي في الصلاة- باب لعن المنافقين (٧٠٣)، وأحمد (٢/ ١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) قال ﷺ: «لعن الله الخمر وشاربها...» الحديث أخرجه أبو داود في الأشربة (٣٦٧٤)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٠)، من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وصححه الألباني.

(٤) انظر كتابه «الأسماء والصفات» (١/ ٣٢٤)، وانظر: «فتح المجيد» ص (١١٣).

(٥) انظر: «فتح المجيد» ص (١١٢).

(٦) انظر: «الأسماء والصفات» لابن تيمية (١/ ٣٢٤).

أسري به، كما رآها في صلاة الكسوف(١).

١٠- أن الله أعد للقاتل عمدًا عذابًا عظيمًا، لا يدرك كنهه إلا الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٢٤)، ومسلم في الكسوف (٩٠١)، وأبو داود في الصلاة (١١٧٧)، والنسائي في الكسوف (١٤٧٢)، والترمذي في الجمعة (٥٦١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٦٣)، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا ورأيت عمرًا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب**» يعني: عمرو بن لحي، وأخرجه البخاري أيضًا في الأذان (٧٤٥)، والنسائي في الكسوف (١٤٩٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٦٥)، من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق- رضي الله عنهما- مطولًا فيه أنه دنت منه ﷺ الجنة والنار...» الحديث.

(٢) وهناك عقوبات دنيوية يؤخذ بها القاتل عمدًا منها القصاص كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وإن اختار الجاني القصاص لم يلزم بالدية على قول طائفة من أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: يلزم بها؛ لأن الأولياء لهم أن يختاروا ما شاؤوا من القصاص أو الدية أو العفو، وهم قد تنازلوا عن القصاص إلى الدية.

فإن اقتص من القاتل عمدًا سقط ما عليه من الوعيد على القول الراجح من أقوال أهل العلم أن الحدود كفارات وزواجر وهو قول الجمهور، وقيل: يؤخذ بذلك أيضًا في الآخرة؛ لأن الحدود إنما هي زواجر فقط. وانظر تفصيل الكلام على هذا في الكلام على تفسير آية الحرابة في سورة المائدة.

فإن عفا ولي الدم عن القصاص إلى الدية وجب على القاتل دفعها حالة من ماله بقدر ما اصطلحا عليه على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو قول الجمهور، وقال الشافعي مقدارها كشبه العمد ثلاثون حقه وثلاثون جذعة وأربعون خلفة.

ومما يؤخذ به القاتل عمدًا في الدنيا حرمانه من الميراث، بل القاتل خطأ لا يرث على قول طائفة من أهل العلم؛ لقوله ﷺ: «لا يرث القاتل شيئًا». وقد سبق تخريجه في الكلام على قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١].

أما الكفارة فليس على القاتل عمدًا كفارة على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأن القتل العمد أعظم من أن يكفر؛ ولهذا لم تذكر معه الكفارة، هذا ما عليه جمهور أهل العلم منهم أبو حنيفة ومالك وأحمد في المشهور عنه.

وقال الشافعي وبعض أهل العلم: إذا وجبت الكفارة في الخطأ فوجوبها في العمد من باب أولى، وهو رواية عن أحمد، واستدلوا بما روي عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم، فقالوا: =

١١- الحكمة التشريعية في التفريق بين حكم الخطأ وحكم العمد في القتل وغيره، وما يترتب على كل منهما؛ لأن المخطئ وقع ذلك منه من غير قصد، فكان محلًّا للعفو والمسامحة؛ بخلاف المتعمد.

* * *

=

إن صاحبًا لنا قد أوجب، أي: فعل فعلًا استوجب به النار قال: «فليعتق رقبة يفدي بكل عضو منها عضوًا منه من النار» أخرجه أبو داود في العتق (٣٩٦٤) وأحمد (٣/ ٤٩١، ٤/ ١٠٧) وضعفه الألباني.

والصحيح الأول ولا يمكن قياس القتل العمد على الخطأ لاختلاف السبب والمقتضى، فإن القتل العمد تعمد فيه القاتل القتل وقصده، والخطأ وقع فيه القتل من غير قصد، ومقتضى القتل العمد قتل القاتل قصاصًا بخلاف القاتل خطأ فإنه لا يقتل، وأيضًا فإن الدية في القتل العمد تجب في مال القاتل مغلظة، وفي الخطأ تجب على العاقلة وهي مخففة، فكيف يلحق القتل العمد بالقتل الخطأ هذا لا يمكن، وقد اتفق العلماء حتى القائلون منهم بوجوب الكفارة في القتل العمد على أن الإثم لا يسقط بمجرد الكفارة.

انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٤٥)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٧٤) «التفسير الكبير» (١٠/ ١٨٣، ١٨٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣١-٣٣٥) «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٩)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآيتين السابقتين القتل الخطأ والعمد، ذكر في هذه الآية ضربًا من ضروب القتل الخطأ(١).

وأيضًا لما ذكر الله عز وجل في الآية السابقة الوعيد الشديد على القتل العمد، اتبع ذلك بالأمر بالتبين والتثبت وعدم الإقدام على قتل من أظهر الإيمان، وخص السفر بالذكر لأن الخفاء فيه أكثر، وإلا فالتثبت مأمور به في الحضر والسفر.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لحق ناس من المسلمين رجلًا في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، فأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تلك الغنيمة»(٢).

وفي رواية عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو في غنم له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم. فعمدوا إليه فقتلوه، وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾»(٣).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد ابن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال:

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء (٤٥٩١)، ومسلم في التفسير (٣٠٢٥)، وأبو داود في الحروف والقراءات (٣٩٧٤)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٧٥)- الآثار (١٠٢١٤-١٠٢١٦)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (١١٥).

(٣) أخرجها بهذا اللفظ الترمذي في التفسير (٣٠٣٠)، وأحمد (١/ ٢٢٩، ٢٧٢)، والطبري الأثران (١٠٢١٧-١٠٢١٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٥). وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

أشهد أن لا إله إلا الله. وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلًا شهد أن لا إله إلا الله، والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله إن رجلًا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد. فقال: «ادعوا لي المقداد: يا مقداد، أقتلت رجلًا يقول: لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدًا»؟ فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل»(١).

وعن المقداد بن عمرو- رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله، إن لقيت كافرًا فاقتتلنا فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، وقال: أسلمت لله أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتله**» قال: يا رسول الله فإنه طرح إحدى يدي، ثم قال ذلك بعدما قطعها أقتله؟ قال: «**لا تقتله. فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**» وقال حبيب بن أبي عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ للمقداد: «**إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا ومختصرًا من قوله: «قال رسول الله ﷺ للمقداد إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه- إلى آخره- في الديات (٦٨٦٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٣٨)، والسيوطي في «لباب النقول» ص (٧٧) من رواية البزار.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ١٩٠) «وهذا التعليق وصله البزار والدارقطني في «الأفراد» والطبراني في الكبير».

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٥)، ومسلم في الإيمان (٩٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٤).

وقيل: نزلت في محلم بن جثامة قتل عامر بن الأضبط الأشجعي بعدما سلم عليهم لشيء كان بينه وبينه وأخذ متاعه، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ الآية» أخرجه أحمد (٦/ ١١)، والطبري (٩/ ٧٢)- الأثر (١٠٢١١)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (١١٦).

قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٣٧-٣٣٨): «تفرد به أحمد».

وقيل: نزلت في أسامة بن زيد، وقيل: في أبي الدرداء، وقيل: في أبي قتادة، وقيل: «نزلت في قوم خرجوا للجهاد فأصابوا قومًا. قالوا صبأنا يعنون: أسلمنا، فظنوا أنهم يعنون بقولهم صبأنا، أي: بقينا صابئين، =

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي»: اسم منادى، مبني على الضم في محل نصب، وهو نكرة مقصودة و«ها»: للتنبيه، وصدر الكلام بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام.

الذين: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة لأي، أو بدل منه.

آمنوا: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

والإيمان لغة التصديق: قال تعالى- عن إخوة يوسف أنهم قالوا لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: معناه لغة الإقرار، فلا يكفي مجرد التصديق.

وهو في الاصطلاح: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح[٢].

فمعناه من حيث الاصطلاح أعم من معناه اللغوي.

والفرق بينه وبين الإسلام: أن الإسلام يطلق على الأعمال الظاهرة كالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، والإيمان يطلق على الأعمال الباطنة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كما في حديث جبريل عليه السلام[٣].

فالإيمان أخص من الإسلام، وإذا أفرد الإيمان دخل فيه الإسلام والأعمال الظاهرة، وإذا أفرد الإسلام دخل فيه الإيمان والأعمال الباطنة[٤].

﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾: فعل الشرط، أي: إذا

=

أي غير مسلمين فقاتلوهم فأنزل الله هذه الآية» وقيل غير ذلك.

قال القرطبي: «ولعل هذه الأحوال جرت في زمان متقارب، فنزلت الآية في «الجميع».

انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤١٧)، «أسباب النزول» للواحدي ص (١١٦-١١٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٠-٤٨١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٦-٢١٧)، «التفسير الكبير» (١١/ ٣-٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٦-٣٣٧)، «لباب النقول» ص (٧٧-٧٨).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٥٢٩-٥٤٣، ٦٣٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧٠، ٦٧٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠، ١٤، ٥٧٦-٥٧٧).

سرتم وسافرتم، مأخوذ من ضرب الأقدام على الأرض قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله، قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

والمعنى: إذا خرجتم وسرتم للجهاد إعلاءً لكلمة الله، وفق ما شرعه الله.

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ جواب الشرط، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «فتثبتوا» بالثاء المثلثة في الموضعين من التثبت.

وقرأ الباقون: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾» بالياء المثناة في الموضعين من التبين(٢).

فتجوز القراءة بهذا وبهذا، لكن لا تجوز المخالفة بين الموضعين بأن يقرأ أحدهما «فتثبتوا» والآخر «فتبينوا»، أو العكس؛ لأنهما بمثابة موضع واحد، والثانية توكيد للأولى.

ومعنى ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، أي: اطلبوا بيان حقيقة الأمر، واستكشفوا عنه حتى يتضح.

ومعنى: «فتثبتوا» أي: تأنوا وتأكدوا ولا تستعجلوا(٣).

والمعنيان مترتب أحدهما على الآخر ونتيجة له؛ لأن التبين نتيجة التثبت، فمن تثبت وتأنى وتأكد ولم يستعجل تبين وانكشف له حقيقة الأمر.

والمعنى: إذا خرجتم وسرتم وسافرتم للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله فتثبتوا وتأنوا ولا تستعجلوا فتقدموا على قتل أحد حتى تتبين لكم حقيقة حاله وأمره حتى لا تقتلوا من لا يجوز قتله، فتندموا حين لا ينفع الندم.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يتثبت في جميع أموره حتى لا يقدم على فعل شيء يندم عليه، سواء كان في الحضر أو السفر؛ لأن الشرط في قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا مفهوم له، وإنما خص السفر بالذكر؛ لأن الحادثة التي فيها نزلت الآية وقعت في السفر؛

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٨١) «المبسوط» ص (١٥٧)، «الكشف» (١/ ٣٩٤)، «النشر» (٢/ ٢٥١).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٧٠، ٨١)، «أحكام القرآن» لان العربي (١/ ٤٨٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٧، ٣٣٩).

ولأن السفر مظنة الخفاء وعدم اتضاح الأمر؛ لأن الناس في الحضر- غالبًا- معروفة أحوالهم، بخلاف السفر.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، و«لا» ناهية، ﴿لِمَنْ﴾، اللام حرف جر، و«من» اسم موصول مبني على السكون في محل جر، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَقُولُوا﴾.

قرأ عاصم والكسائي وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «السلام» بالألف.

وقرأ الباقون: ﴿السَّلَمَ﴾ بغير ألف(١).

ومدلول القراءتين واحد، ومعناهما متقارب، حتى قال بعض أهل العلم- كالبخاري(٢)-: معناهما واحد.

فمن قرأ: (السلام)، فالمعنى: ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام: أي سلَّم عليكم بتحية الإسلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، فأظهر لكم بهذه التحية أنه مسلم.

ومن قرأ «السلم» كقوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٧]، فالمعنى: ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلم، أي: استسلم لكم وانقاد ظاهرًا، وأظهر أنه مسلم بقوله: لا إله إلا الله، أو بقوله: «إني مسلم» ونحو ذلك- لست مؤمنًا(٣).

أي: لا تقولوا لمن ابتدأكم بما يدل على أنه مسلم من السلام بتحية الإسلام، أو الشهادة ونحو ذلك- لست مؤمنًا، أي: لم يدخل الإيمان في قلبك، فتنفون عنه الإيمان، بل خذوه بظاهر حاله؛ لأنه ليس لنا إلا الظاهر، والأحكام في الدنيا إنما تجُرى على الظواهر، وأما البواطن، وما في القلوب فعلمها إلى الله علام الغيوب، وهو الذي عليه

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٨٢)، «المبسوط» ص (١٥٨)، «الكشف» (١/ ٣٩٥)، «التبصرة» ص (٤٨١)، «العنوان» ص (٨٥)، «تلخيص العبارات» ص (٨٣)، «الإقناع» (٢/ ٦٣١)، «النشر» (٢/ ٢٥١).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٨/ ٢٥٨)، وانظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٧٠، ٨١-٨٢)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٩٩)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٤)، «الكشاف» (١/ ٢٩٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٧-٢١٨)، «التفسير الكبير» (١١/ ٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٣٨)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤٧)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٢٨).

مدار الجزاء في الآخرة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقبل من المنافقين علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله عز وجل.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الجملة: حالية، وفيها ما يشعر بتوبيخ هؤلاء الذين تعجلوا فلم يتثبتوا ولم يتبينوا.

﴿تَبْتَغُونَ﴾، أي: تطلبون وتريدون.

﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، العرض: هو ما يعرض ثم يزول.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: هي ما قبل الموت، وسميت دنيا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة، لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

وقال ﷺ: «**ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم**»(٢).

وعرض الحياة الدنيا هو ما فيها من مال ومتاع، وغير ذلك، بل الدنيا كلها عرض، يعرض ثم يزول وينتهي، قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧].

وإنما سُمي ما في الدنيا كلها عرضًا؛ لأنه يعرض ثم يزول، فالإنسان يزول، والمال يزول، والدنيا كلها تزول، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٢)- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حسن غريب» وحسنه الألباني.

قال لبيد[١]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه ﷺ قال: «**أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل..**»[٢].

وروي عنه أنه قال عن قول لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل، قال: «**إلا نعيم الجنة**»[٣].

وكما قيل:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾، ﴿مَغَانِمُ﴾ جمع «مغنم»، وهي: ما يحصل عليه المسلمون من أموال الكفار في القتال في سبيل الله، و﴿كَثِيرَةٌ﴾ صفة لـ﴿مَغَانِمُ﴾.

وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها، أي: لا تتركوا التثبت في الأمور والتبين فيها، فتقدموا على ما تندمون عليه من نفي الإيمان عمن أظهر لكم الإسلام وقتله؛ طلبًا لعرض دنيوي زائل، فعند الله مغانم كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠، الشورى: ٣٦].

قال ابن كثير[٤]: «أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل هذا الذي ألقى إليكم السلام، وأظهر إليكم الإيمان، فتغافلتم عنه، واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من المغانم الحلال خير لكم من مال هذا».

وهكذا فلقد جيء بالمغانم والنقود يوم حنين كالصبرة من الطعام.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص (٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦).

(٣) روى هذا الطبراني في الكبير (٩/ ٣٤) حديث (٨٣١٦) مرسلًا في قصة طويلة وفيه أن هذه الجملة «إلا نعيم الجنة» من قول عثمان بن مظعون. وروي هذا مرفوعًا. انظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٤)، «فيض القدير» (١/ ٥٢٤).

(٤) في «تفسيره».

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى حال الذي ألقى إليهم السلام والسَّلم وأظهر لهم إسلامه بعد أن كان يخفيه خوفًا من قومه، أو بعد أن كان كافرًا، فهداه الله، فأسلم.

والمعنى كذلك كنتم من قبل كحال هذا الشخص تخفون إيمانكم خوفًا من قومكم؛ نظرًا لضعفكم، فمنّ الله عليكم، فأعزكم وقواكم، فأظهرتم إيمانكم، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: ٢٦].

أو: كذلك كنتم من قبل كحاله قبل أن يسلم، أي: كنتم كفارًا فمن الله عليكم وهداكم للإيمان[١]، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، إذ لا تنافي بينهما؛ ولأن الواقع كذلك فقد كانت حالهم قبل أن يسلموا وفي أول إسلامهم كحاله سواء بسواء.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: فمن الله عليكم فهداكم وآواكم[٢].

و«المن» هو العطاء بدون ثمن، فالمعنى: فأعطاكم الله عطاء بلا ثمن.

والشكر وإن كان واجبًا على النعمة، إلا أنه ليس ثمنًا لها؛ لأن الله لا ينتفع بالشكر، ولا تنفعه طاعة المطيع، كما لا تضره معصية العاصي[٣].

وإنما الذي ينتفع بالشكر هو الشاكر نفسه؛ لأن شكر الله على نعمة أنعم بها عليك هو أيضًا نعمة منه سبحانه تستحق الشكر، ولهذا لا يمكن أن يقوم الإنسان بشكر الله

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٧١، ٨٢-٨٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٤٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٩).

(٢) وقيل: فمن الله عليكم بالتوبة من قتلكم هذا الذي قتلتموه وأخذتم ماله بعد أن ألقى إليكم السلام. انظر: «جامع البيان» (٩/ ٧١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٩).

(٣) كما في حديث أبي ذر- رضي الله عنه- الذي أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧) أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﷻ: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا..» الحديث.

حق شكره، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

وقال ﷺ: «**سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر(٢)

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ توكيد لما سبق؛ نظرًا لأهمية الأمر وخطورته؛ لأنه قد يترتب على عدم التبين قتل نفس معصومة.

قرأ بعض العشرة كما سبق: «فتثبتوا»، والمعنى فتثبتوا في جميع أموركم وتأنوا وتبينوا الأمر على حقيقته، ولا تتعجلوا فتندموا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ﴿كَانَ﴾ كان هنا مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، أي: إنه كان ومازال بما تعملون خبيرًا.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، الباء حرف جر، و«ما»: موصولة، أي: بالذي تعملون، أو مصدرية: أي بعملكم.

﴿خَبِيرًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، و«الخبير» اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على سعة خبرته عز وجل.

ومعنى «الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فهو أخص من «العليم».

وإذا كان عز وجل مطلعًا على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فعلمه بظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

والمعنى أن الله عز وجل ذو خبرة تامة وعلم واسع، يعلم ما خفي من أعمالكم وما بطن، كما يعلم ما ظهر منها، ويعلم ما يحصل منكم من التثبت في الأمور والتبين لها،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الفاضل» ص٩٥.

ومن العجلة في ذلك وترك التثبت والتبين، ويعلم الحامل لكم على ذلك من إرادة عرض الدنيا وغير ذلك، وفي هذا وعيد وتهديد وتحذير لهم، كما أن فيه وعدًا لمن تثبت وتبين ولم يقع في المحذور، ولم يخالف أمر الله.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٣- الحث على الاتصاف بوصف الإيمان.

٤- الإغراء والحث على امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف إن كان طلبًا، وتصديقه إن كان خبرًا، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك: فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»(١).

٥- أن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء إن كان طلبًا وتصديقه إن كان خبرًا يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله وتصديقه يعد نقصًا في الإيمان، أي: يا أيها الذين آمنوا إن من الإيمان أن تفعلوا كذا وتجتنبوا كذا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

٦- وجوب التثبت في الأمور والتبين فيها وعدم العجلة، لاسيما في الأمور الخطيرة كالقتال؛ لأنه ربما أقدم الإنسان على قتل رجل معصوم الدم؛ إما بالإسلام، أو بالعهد، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ والشرط هنا لا مفهوم له فيجب التبين حضرًا وسفرًا وفي جميع الأحوال.

٧- أن من ألقى السلام والسَّلم وأظهر ما يدل على أنه مسلم، كأن يشهد أن لا إله إلا الله ونحو ذلك فهو معصوم الدم والمال؛ لأن الله عاتب المؤمنين على ترك التثبت والتبين، وقال لهم: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

٨- وجوب حمل الناس على الظاهر، وإجراء الأحكام عليهم حسب ما يظهر

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٠٢٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤).

منهم، وترك أمر القلوب والبواطن إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع. فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**»(١).

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله. فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟!» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا» فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»(٢).

وفي الحديث: «من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»(٣).

وروي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملًا»(٤).

٩- التحذير من اتهام الناس في نياتهم وطوياتهم، ومالا يظهر منهم، مما لا يعلمه إلا الله؛ لأن الله عاتب المؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، وقال ﷺ لأسامة: «**أفلا شققت عن قلبه**»(٥).

ولهذا لما أمر النبي ﷺ بالصدقة، وجاء أحد الصحابة بمال كثير قال المنافقون: هذه صدقة ما أريد بها وجه الله، أي: إن صاحبها مراءٍ.

فأنزل الله فيهم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٩)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، وأبو داود في الأقضية (٣٥٨٣)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (٩٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٥٧).

(٥) سبق تخريجه قريبًا.

ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩][(١)].

١٠- عتاب الله للمؤمنين وتوبيخه لهم على تركهم التثبت والتبين في الأمر، والإقدام على قتل من ألقى إليهم السلام طلبًا للعرض الدنيوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١١- التحذير من أن تكون إرادة العرض الدنيوي الزائل حاملًا للإنسان على فعل ما لا ينبغي؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٢- الإشارة إلى أنه ينبغي الحذر من الدنيا وفتنتها؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

١٣- الإشارة إلى هوان الدنيا وحقارتها وما فيها من عرض زائل؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: ٣٩]، ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦].

١٤- سعة فضل الله، وما عنده من المغانم الدنيوية والأخروية؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

قال القرطبي[(٢)]: «عدة من الله تعالى بما يأتي به على وجهه ومن حله دون ارتكاب محظور، أي: فلا تتهافتوا».

١٥- الإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون المؤمن أوثق بما عند الله من المغانم والفضل

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٥)- ومسلم في الزكاة (١٠١٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٠) عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: هذا مراءٍ، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾».

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٤٠).

والرزق مما عنده؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

١٦- تذكير المجاهدين في سبيل الله من المؤمنين بحالهم قبل أن يمن الله عليهم بالهداية؛ لئلا يحملهم الاستعجال وحب العرض الدنيوي على قتل من أظهر إسلامه قريبًا، فقد كانوا هم بالأمس كفارًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾.

١٧- تذكير المجاهدين في سبيل الله من المؤمنين بحالهم حين كانوا يخفون إسلامهم خوفًا من أعدائهم؛ لئلا تحملهم العجلة وحب العرض الدنيوي على قتل من كان يخفي إسلامه خوفًا من قومه، حيث كانوا بالأمس مثله يخفون إسلامهم، فمنّ الله عليهم وقوّاهم، فأظهروا إسلامهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾.

١٨- في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ درس تربوي للدعاة والمصلحين والمربين والموجهين والمدرسين والآباء؛ لأن تذكير الشخص بما كان عليه من قبل أحرى بأن ينجح في دعوته وتوجيهه وتربيته، فيعلم أن الخطأ متوقع من الجميع، ومن ذا الذي سلم من التقصير؟ إما في ترك واجب أو انتهاك محرم، فيعالج الخطأ بالأسلوب المناسب، الذي يضمن بإذن الله أن يكون سببًا لتصحيح الخطأ والتوجيه إلى السلوك الحسن بأسلم طريق وأخصره.

أما أن يُغفل الداعية والمربي والموجه، ما كان عليه من ذي قبل، ويتناساه، ويطلب ممن يدعوهم ويوجههم الكمال والتمام، فليس هذا من العدل ولا من الإنصاف.

وليس من أسلوب التربية والتوجيه أن يعامل من في سن المراهقة، ومن كان عمره دون العشرين، معاملة من كان في سن الثلاثين أو الأربعين، فلكل منهما معاملة ومحاسبة تليق به، ولكل منهما خطاب وتوجيه يناسبه.

هذا إذا أردنا أن تؤتي التربية ثمارها، وهذا هو منهج الإسلام العدل في معاملة كل بما يليق به قال ﷺ: «**إن الله ليعجب من الشاب ليست له صبوة**[1]»[2]، وذلك؛ لأن

---

(١) الصبوة: سفه الفتوة، والميل إلى اللهو والغزل والهوى انظر: «النهاية» و«لسان العرب» مادة «صبا».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الشباب مرحلة القوة والفتوة والنوازع النفسية، وله نزوات ونزعات قل من يتغلب عليها ويسلم منها؛ ولهذا قدر الإسلام لهذه المرحلة قدرها.

وقال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم شابًا نشأ في عبادة الله..(١).

وقال ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(٢).

فمع أن الزنا من كبائر الذنوب ومحرم على الجميع، إلا أنه بالنسبة للشيخ الكبير أعظم.

فتدبروا أيها الآباء والأمهات ويا أيها المربون ويا أيها الدعاة والمصلحون معنى هذه الآية: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، وأرفقوا بمن تربون وتوجهون وعاملوهم المعاملة اللائقة بهم على ضوء تعاليم الإسلام، وما جاء في الكتاب والسنة؛ من حيث معرفة من توجهون سنًّا وعقلًا، ومن حيث مقارنة اللاحق بالسابق، فإنه أحرى لنجاحكم في تربية أبنائكم وفلذات أكبادكم وفي توجيه طلابكم، وإياكم والمسلك الصعب، وطلب الكمال ممن هم محل النقص والضعف غالبًا، فإن هذا الأسلوب قد يهدم ولا يبني، وقد ينفر من الحق الذي يراد التوجيه إليه.

١٩- فضل الله عز وجل على المؤمنين حيث منّ عليهم وهداهم للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: بهدايتكم للإيمان الذي هو أعظم منحة، وأكبر نعمة منه سبحانه قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، أي: بالنعمة الكبرى وهو الإيمان ومعرفة الحق والعمل به وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩].

قال القرطبي(٣): «وفيها رد على القدرية، فإن الله تعالى أخبر أنه منّ على المؤمنين من بين جميع الخلق بأن خصهم بالتوفيق. والقدرية تقول: خلقهم كلهم للإيمان، ولو

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٤١).

كان كما زعموا لما كان لاختصاص المؤمنين بالمنة من بين الخلق معنى».

٢٠- فضل الله- عز وجل- على المؤمنين حيث قواهم بعد الضعف، فأظهروا إسلامهم بعد أن كانوا يخفونه.

وهذا على المعنى الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٢١- أن المعطي للنعم بلا ثمن، كبيرها وصغيرها هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾. أي: أعطاكم عطاء عظيمًا، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾[النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨، إبراهيم ٣٤].

٢٢- إثبات صفة الخبرة التامة لله عز وجل، وأنه- عز وجل- ذو الخبرة والعلم ببواطن الأمور ودقائقها وخفياتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

وإذا كان خبيرًا وعليمًا بالبواطن والدقائق والخفيات فعلمه بالظواهر وجلائل الأمور وجلياتها من باب أولى.

٢٣- التهديد والتحذير لمن خالف أمر الله بأن الله خبير بعمله وسيجازيه عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

أي: لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد مهما خفي ودق، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وكان الإمام أحمد- رحمه الله- يتمثل دائمًا بهذين البيتين[1]:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى عليه يغيب

* * *

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص (٣٤).

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أملى عليه: «**لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله**»، قال: فجاءه ابن أم مكتوم، وهو يمليها عليَّ، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلًا أعمى، فأنزل الله- تبارك وتعالى- على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سرّي عنه، فأنزل الله- عز وجل: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾»(١).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «لما نزلت: «﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾» قال: فأمر رسول الله ﷺ زيدًا فجاء بكتف فكتبها. قال: فشكا إليه ابن أم مكتوم ضرارته، فنزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾»(٢).

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، «لا» نافية، ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: فاعل، ﴿يَسْتَوِي﴾، وهو: جمع «قاعد»، والمراد بهم المتخلفون عن الخروج للجهاد.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٢)، والنسائي في الجهاد (٣٠٩٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٣٣)، وأحمد (٥/ ١٨٤، ١٩١) والطبري في «جامع البيان» الأثر (١٠٢٣٨)، والواحدي في أسباب النزول ص (١١٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣١)، ومسلم في الإمارة (١٨٩٨)، والنسائي في الجهاد (٣١٠١)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٠)، وأحمد (٤/ ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٩)، والطبري (١٠٢٣٣-١٠٢٣٧، ١٠٢٤٨، ١٠٢٤٩) والواحدي في «أسباب النزول» ص(١١٨).

وأخرجه البخاري أيضًا من حديث عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- في كتاب التفسير، والطبري الأثران (١٠٢٤٢، ١٠٢٤٣).

وفي تسميتهم بـ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ ما يشعر بالدون؛ لأن القعود هيئة من لا يتحرك[١].

قال: الحطيئة[٢] يهجو الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبُغْيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، أو حال من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾.

قال أبو حيان[٣]: «نفى المساواة في الفضل، وفي ذلك إبهام على السامع، وهو أبلغ من تحرير المنزلة التي بين القاعد والمجاهد، فالمتأمل يبقى مع فكره ولا يزال يتخيل الدرجات بينهما».

﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ قرأ عاصم وأبو عمرو وابن كثير وحمزة ويعقوب ﴿غَيْرُ﴾ بالرفع على أنها صفة لـ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾؛ لأنه لا يقصد بهم قومًا بأعيانهم، فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بـ﴿غَيْرُ﴾ التي لا يوصف بها إلا نكرة.

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف: ﴿غَيْرَ﴾ بالنصب على الاستثناء من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، أو من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والتقدير: إلا أولي الضرر[٤].

و﴿غَيْرُ﴾ مضاف و﴿أُوْلِي﴾ مضاف إليه، و﴿أُوْلِي﴾ مضاف و﴿ٱلضَّرَرِ﴾ مضاف إليه.

و﴿أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ أصحاب وأهل الضرر.

والضرر: هو العذر الذي أضرّ بصاحبه، فسقط معه وجوب الجهاد كالعمى والمرض والعرج والضعف، وعدم وجود النفقة ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٠).

(٢) انظر: «ديوانه» ص (٥٠).

(٣) في «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٠).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٨٣)، «جامع البيان» (٩/ ٨٥-٨٦)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٠٠-١٠١)، «المبسوط» ص (١٥٨)، «بدائع التفسير» (٢/ ٦٧)، «النشر» (٢/ ٢٥١).

مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١- ٩٢].

﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾، الواو حرف عطف، و﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾، والتقدير: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون.

والمجاهدون: جمع مجاهد، مأخوذ من بذل الجهد، أي:بذل الطاقة والوسع لإدراك المراد، والمراد بهم المقاتلون في سبيل الله الذين بذلوا جهدهم ومهجهم لإعلاء كلمة الله.

وهكذا إذا أطلق الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم، فالمراد به قتال الكفار.

و«في» في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ظرفية، أي: أن جهادهم خالص لله ونصرة دينه وإعلاء كلمته(١)، وأيضًا وفق شرعه.

قال ﷺ حينما سئل عن الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل رياء والرجل يقاتل ليُرى مكانه أيّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٢).

وأيضًا فإن جهادهم وفق ما شرع الله حيث يقومون به عندما يكون واجبًا أو مندوبًا بعد إعداد القوة كما أمر الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٥٩](٣).

ولا يعتدون في جهادهم فيقتلون من لم يقاتل من النساء والصبيان ونحوهم(٤)، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، الباء حرف جرف، تفيد هنا معنى «التعدية»، و«أموالهم»: مجرور بها، والجار والمجرور: متعلق بـ«المجاهدون». والأموال: جمع مال وهي: كل ما يتمول

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٨٥)، «البرهان» (٤/ ٣٠٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٠٠ تفسير سورة النساء).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠١٤، ٣٠١٥) ومسلم في الجهاد (١٧٤٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٨)، والترمذي في السير (١٥٦٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤١)، وأحمد (٢/ ٢٢-٢٣)، وغيرهم عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان».

ويتملك من نقود وأعيان وغير ذلك.

﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ معطوف على «أموالهم» أي: وبمباشرة الجهاد بأنفسهم وذواتهم.

والمعنى: أنهم يجاهدون ببذل ما يحصل به الجهاد في سبيل الله من الأموال والأنفس.

وإنما قدم الله الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس في الآية، بل وفي جميع المواضع في القرآن الكريم، عدا قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، لما للجهاد بالمال- والله أعلم- من أهمية، فإن الجهاد لا يمكن أن يقوم إلا بالمال، فبالمال يشترى السلاح، وبالمال يشترى الزاد والراحلة التي يستطيع المجاهد أن يصل بها إلى أرض المعركة، وغير ذلك.

ولأن الجهاد بالمال قد يكون نفعه أكثر، فالمجاهد بنفسه يجاهد بذاته، ويقوم مقام شخص واحد، لكن المجاهد بالمال قد يجهز مئات وآلاف المجاهدين، بل قد يجهز جيشًا كاملًا، كما فعل عثمان بن عفان- رضي الله عنه- جهز جيش العسرة، فقال ﷺ: «**ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»(١).

وأيضًا فإن الجهاد بالمال أهون وأخف، والذين يقدرون عليه أكثر كل حسب قدرته.

والمعنى أنه لا يتساوى في الفضل والأجر المؤمنون القاعدون عن الجهاد والمؤمنون المجاهدون، أي: ليسوا سواء، غير أولي العذر، فإنهم يساوون المجاهدين؛ لأن العذر أقعدهم(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إلى بدر»(٣).

والآية أعم من هذا.

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان في غزاة، فقال: «**إن أقوامًا بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر**».

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٧٠١)، وأحمد (٥/ ٦٣)، من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (٣٣٣-٣٣٦)، «بدائع التفسير» (٢/ ٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٣٢)، والطبري- الأثر (١٠٢٤١).

وفي رواية عنه قال: «**لمَّا رجعنا من غزوة تبوك قال عليه الصلاة والسلام: إن بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا ولا سرتم مسيرًا إلا شركوكم فيه**» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**نعم حبسهم العذر**»(١).

قال أحدهم:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسومًا وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر نكابده ... ومن أقام على عذر كمن راحا(٢)

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ هذه الجملة بيان للجملة الأولى قبلها(٣).

و﴿فَضَّلَ﴾ ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، الأول في هذه الجملة ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، والثاني قوله: ﴿دَرَجَةً﴾.

ومعنى ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، أي: زادهم، والتفضيل: هو الزيادة.

﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، أي: على القاعدين عن الخروج للجهاد من غير أولي الضرر.

﴿دَرَجَةً﴾ منصوب على التمييز، أو بنزع الخافض، أي: بدرجة، أو على المصدر، أي فضيلة(٤).

ومعنى ﴿دَرَجَةً﴾، أي: رفعة ومنزلة عظيمة كبيرة؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٩].

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩)، وفي المغازي (٤٤٢٣)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٤)، وأحمد (٣/ ١٠٣).

(٢) البيتان لأبي العباس أحمد بن العريف الأندلسي. انظر: «نفحات الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٤/ ٣٣١).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٨)، «طريق الهجرتين» ص (٦٣٩-٦٤٤).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٣١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤١).

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وفي التوحيد (٧٤٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله =

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، الواو عاطفة، و«كلًّا» مفعول أول لـ﴿وَعَدَ﴾، قُدِّم عليه؛ لإفادة حصر هذا الوعد الكريم في هذين الفريقين، أي: وكلًا من القاعدين والمجاهدين وعد الله الحسنى؛ لاشتراكهم في الإيمان(١).

وقيل: وكلًا من المجاهدين والقاعدين من أولي الضرر وعد الله الحسنى(٢).

و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مفعول ثان لـ﴿وَعَدَ﴾، أو صفة للمفعول الثاني لـ﴿وَعَدَ﴾ التقدير: وكلًا وعد الله الموعدة الحسنى، أو المثوبة الحسنى. وهي الجنة وما فيها من الثواب الجزيل، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال ﷺ: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله»(٣).

والحسنى: اسم تفضيل، أي: التي بلغت الغاية في الحسن، وكل حسن فهو دونها.

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قال أبو حيان(٤): «كرر هذا وذكره بعد أن بين أن للجميع الحسنى؛ لئلا يتوهم أن حالهما في الوعد بالحسنى سواء».

﴿أَجْرًا﴾: تمييز أو مصدر، أي: وزاد الله المجاهدين على القاعدين من غير أولي العذر ثوابًا عظيمًا لا يعلم عظمه إلا الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ تفسير لقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٥)، وتوكيد له،

=

عنه. وأخرجه مسلم في الإمارة (١٨٨٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وأخرجه النسائي في الجهاد (٣١٣٢)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٦٤١)، «بدائع التفسير» (٢/ ٦٨).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٣٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٤) في «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٩٨)، «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ١٠١).

وترغيب في الجهاد[١].

و﴿ دَرَجَٰتٍ ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله: ﴿أَجْرًا﴾.

أي: منازل بعضها أعلى من بعض في الجنة، كما في الحديث: «**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض**»[٢].

ودرجات المجاهدين متفاوتة أيضًا، قال تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ معطوف على ﴿ دَرَجَٰتٍ ﴾.

والمغفرة هي: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، كما جاء في حديث المناجاة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل، حتى يضع عليه كنفه. فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟**»، وفيه: «**فيقول: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها، فيعطى كتاب حسناته**»[٢].

ومنه سمي المغفر، وهو: الخوذة والبيضة من الحديد التي توضع على الرأس في القتال، تستره، وتقيه ضرب السيوف والسهام[٣].

﴿وَرَحْمَةً ۚ﴾، أي: ورحمة منه تعالى لهم.

وقد جمع الله لهم بين المغفرة والرحمة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب من الذنوب وشؤمها وعقوبتها، وبالرحمة حصول المطلوب من الثواب والأجر العظيم. وقدمت المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ «كان» مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، أي: كان الله ولم يزل غفورًا رحيمًا.

﴿غَفُورًا﴾: خبر «كان»، أي: ذا المغفرة الواسعة.

---

(١) «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «النهاية» و«اللسان» مادة: «غفر».

﴿رَّحِيمًا﴾ خبر ثان لـ«كان»، أي: ذا الرحمه الواسعه؛ رحمة هي صفة ذاتية ثابتة له عزوجل، وصفة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال النسفي(١): ﴿غَفُورًا﴾ بتكفير العذر و﴿رَّحِيمًا﴾ بتوفير الأجر.

الفوائد والأحكام:

١- نفي التساوي بين القاعدين عن القتال من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

٢- توبيخ القاعدين عن القتال وتحريك همم المؤمنين للجهاد في سبيل الله.

٣- كمال العدل في الدين الإسلامي؛ لأن الله نفى المساواة بين القاعدين والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولاشك أن هذا من عدل الإسلام وحكمته، إذ لا يمكن أن يسوى بين القاعدين عن القتال وبين من بذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله.

٤- عدم التساوي بين الناس، وأنهم يختلفون حسب ما وهبهم الله من خصائص، وحسب كسبهم وجهودهم، فالقاعد لا يساوي المجاهد، والجاهل لا يساوي العالم، والمرأة لا تساوي الرجل، والكافر لا يساوي المؤمن، والرقيق لا يساوي الحر، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

٥- أن القاعدين عن القتال لضرر من مرض ونحوه يستوون مع المجاهدين في سبيل الله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾(٢).

---

(١) في «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤٩).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٦-٤٨٧)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

قال الهراسي: «وفي هذا رد على المعتزلة فإنهم يمنعون المساواة بين المجاهدين وأولي الضرر على فاسد =

ويشهد لهذا ما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**». قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»(١).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- نحوه(٢).

لكن ذلك مشروط بكون القاعد يتلهف أن لو كان قادرًا على الجهاد، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١](٣).

قال ابن القيم(٤): «فالصواب أن يقال: الآية دلت على أن القاعدين عن الجهاد من غير أولي الضرر لا يستوون هم والمجاهدون. وسكت عن القاعدين من أولي الضرر، فلم يدل على حكمهم بطريق منطوقها، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين، بل هذا النوع منقسم إلى معذور من أهل الجهاد، غلبه عذره، وأقعده عنه، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها، وإنما أقعده العجز، فهذا الذي تقتضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد، وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية.

القسم الثاني: معذور ليس من نيته الجهاد، ولا هو عازم عليه عزمًا تامًا فهذا لا يستوي هو والمجاهد في سبيل الله».

وهكذا كل عبادة لم يتمكن الإنسان من القيام بها لعذر من مرض ونحوه، قال ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»(٥).

لكن ذلك مشروط بما إذا كان المعذور عنده النية، ويتمنى أن لو زال عذره لخرج

=

أصولهم ونص القرآن يبطل قولهم».

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩١١)

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٧).

(٤) في «طريق الهجرتين» ص (٦٤٤، ٦٤٦)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٧٠).

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٦)، وأبو داود في الجنائز (٣٠٩١)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

مع المجاهدين، أو عمل تلك العبادة التي أقعده العذر عن فعلها أيا كانت، فتراه يحدث نفسه بذلك، ويتلهف عليه قال ابن القيم[١]: «وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نُزِّل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام».

قال ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[٢].

وقال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار. فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالًا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل**»[٣].

وعن أبي كبشة الأنماري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي بماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم أن لله فيه حقًا، فهذا بأحسن المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فهما في الأجر سواء، وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، فهو لا يتقي في ماله ربه، ولا يصل به رحمه، ولا يعلم فيه لله حقًا، فهذا بأسوأ المنازل عند الله، وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، وهما في الوزر سواء**»[٤].

فأخبر ﷺ أن أجر الفاعل والناوي سواء، وكذلك وزر الفاعل والناوي سواء الذي اقترن قوله بنيته كما في قوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في**

---

(١) في «طريق الهجرتين» ص(٦٤٤)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠)، والنسائي في الجهاد (٣١٦٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٧)، من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٠-٢٣١) وصححه الألباني.

النار». قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول. قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»(١).

أما من كان من أولي الضرر والعذر راضيًا بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد، ولا يستوي مع المجاهد، قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»(٢).

وقد قال النبي ﷺ في عبدالله بن ثابت: «**إن الله قد أوقع له أجره على قدر نيته**»(٣).

٦- سعة فضل الله تعالى على عباده، وأنه يعطيهم بلا من وبدون مقابل، حيث يعطي القاعدين بسبب العذر مثل ما يعطي المجاهدين.

٧- أن من به ضرر فهو معذور بترك الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾، وذلك كالعمى والعرج والمرض ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].

ومن ذلك الضعف وعدم وجود النفقة كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

٨- فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم على القاعدين عن الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ﴾، وقوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ﴾.

---

(١) سبق تخريجه، وانظر: «طريق الهجرتين» ص (٦٤٤-٦٤٦)، «بدائع التفسير» (٢/ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١١)، والنسائي في الجنائز (١٨٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠٣)، من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه.

وفي الحديث: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»(١).

٩- أن شرف الإنسان بعمله وجهده، فالمجاهدون إنما شرفوا وفضلوا على القاعدين بسبب جهادهم في سبيل الله بالمال والنفس.

١٠- أن الجزاء من جنس العمل، وأن الأجر على قدر المشقة، فما أعده الله للمجاهدين في سبيله من الدرجات والأجر والثواب العظيم؛ لأنهم بذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله، بينما حرم القاعدون من هذا الفضل؛ لأنهم قعدوا عن الجهاد.

وهذا التفاضل في الجزاء بين المجاهدين والقاعدين يدل على تفاضل الأعمال، وتفاضل العاملين، وهذا يدل على تفاضل الإيمان أيضًا، وأنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

١١- أهمية الجهاد بالمال؛ لأن الله قدمه على الجهاد بالنفس؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ وذلك لأن ضرورة الجهاد بالمال أكثر من ضرورة الجهاد بالنفس، ولا يقوم الجهاد بالنفس إلا بالجهاد بالمال.

١٢- فضل الغنى(٢)؛ لأن من كان غنيًا تمكن من الجهاد بماله ونفسه، فحصل له أجر الجهادين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، ولاشك أن الغني الشاكر المؤدي لحق الله فيما آتاه الله أفضل من الفقير الصابر؛ ولهذا قال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»(٣).

وفي الحديث: «**ذهب أهل الدثور بالأجور**.. إلى قوله ﷺ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢١)، «طريق الهجرتين» ص (٦٤١).

(٣) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، والزهد (٤١٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٥)، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم أيضًا في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

١٣- بلاغة القرآن في الاحتراس مما قد يُتوهم من معنى غير مراد، فبعد أن ذكر الله فضل المجاهدين على القاعدين، وعدم مساواة القاعدين للمجاهدين أتبع ذلك بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لئلا يُتوهم أن القاعدين من المؤمنين لا فضل عندهم، فبين أن لكل المؤمنين عند الله الحسنى، أي: الجنة والمثوبة الحسنة، القاعد منهم والمجاهد، وإن كانت درجة المجاهد أرفع وأعلى وأجره أعظم.

ومثل هذا في الاحتراس قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

١٤- وعد الله تعالى الذي لا يتخلف لجميع المؤمنين من القاعدين والمجاهدين بالجنة والأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وعلى هذا فتجوز الشهادة لجميع المؤمنين بالجنة على سبيل العموم، أما على سبيل الخصوص فلا تجوز الشهادة، إلا لمن شهد له الرسول ﷺ بالجنة كالعشرة المبشرين(١)، وعكاشة بن محصن(٢)، وغيرهم(٣).

١٥- أن الجهاد من حيث الأصل فرض كفاية لا فرض عين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا

---

(١) كما جاء في حديث سعيد بن زيد- رضي الله عنه- قال: «أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته وهو يقول: «عشرة في الجنة، النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة. ولو شئت لسميت العاشر. قال: فقالوا من هو؟ فسكت. قال: فقالوا من هو؟ فقال: هو سعيد بن زيد». أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٤٩)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٣٤) وصححه الألباني.

(٢) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عند البخاري في اللباس (٥٨١١)، ومسلم في الإيمان (٢١٦)- وفيه أنه ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زمرة هي سبعون ألفًا تضيء وجوههم إضاءة القمر، فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله لي يا رسول الله أن يجعلني منهم، فقال اللهم اجعله منهم...» الحديث.

(٣) وقيل يشهد بذلك لمن استفاض عن الأمة أنه رجل صالح كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما. انظر: «النبوات» لابن تيمية ص (٢٥).

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(١).

قال ابن كثير(٢): «فيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية».

لكن هذا لا يمنع أن يكون هناك حالات يكون الجهاد فيها فرض عين، كما إذا داهم العدو بلاد المسلمين(٣)، أو عينه الإمام، أو كان في صف القتال.

١٦- بلوغ الجنة التي أعدها الله للمؤمنين غاية الحسن؛ لأن الله سماها «الحسنى»، فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، والحسنى: اسم تفضيل، وهي مؤنث «أحسن».

١٧- الترغيب في الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، والحث عليه، والتعريض بالقعود عن الجهاد بلا عذر، لنفي الله التساوي بين القاعدين والمجاهدين، وتفضيله المجاهدين على القاعدين بالدرجة، بل بالدرجات والمغفرة والأجر العظيم.

١٨- تفضل الله عز وجل ومنه وكرمه على العباد، حيث سمَّى جزاءهم وثوابهم على الأعمال أجرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، والتزم لهم عز وجل بهذا الثواب، كما يلتزم المستأجر بأجرة الأجير عنده- مع أنه عز وجل لا يلزمه شيء لخلقه، فله الفضل أولًا وآخرًا، وهو المنعم بسائر النعم؛ خلق ورزق ووفق للهداية والعمل، وأثاب عليه، لكنه- عز وجل- أوجب هذا على نفسه، والتزم به تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا(٤)، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

١٩- عظم أجر المجاهدين في سبيل الله، وما أعد الله لهم من الرفعة والدرجات والمغفرة والرحمة؛ لأن الله وصف أجرهم بأنه عظيم، وأضاف ما أعد لهم من الدرجات

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٤٩)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٩)، «التفسير الكبير» (١١/ ٨).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٤١).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٩).

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٢)، وانظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٠٧ تفسير سورة النساء).

والمغفرة والرحمة إلى نفسه، مما يدل على عظم ما أعده لهم؛ لأنه من عظيم ومن جواد كريم لا يستعظم ولا يستكثر شيئًا أعطاه لعبده قال ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»(١).

٢٠- بلاغة القرآن الكريم في الانتقال من حالة إلى أعلى منها، فإن الآية أولًا نفت التسوية بين القاعدين والمجاهدين، ثم ذكر فيها تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم تفضيلهم على القاعدين بالأجر العظيم والدرجات والمغفرة والرحمة.

٢١- أن «كان» تستعمل لتحقيق الوصف، أي مسلوبة الزمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢٢- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾.

٢٣- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ رحمة ذاتية، ورحمة فعلية خاصة وعامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٩)، وأبو داود في الصلاة (١٤٨٣)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وليس في تعظيم ثواب المجاهدين متعلق للرافضة في زعمهم أن عليًا أفضل من أبي بكر- رضي الله عنهما- قالوا: لأن عليًا أكثر جهادًا من أبي بكر. ففي الأثر: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجح بهم إيمان أبي بكر» أخرجه البيهقي في الشعب بسند صحيح موقوفًا على عمر رضي الله عنه، وروي مرفوعًا من طرق لا يخلو شيء منها من مقال من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
انظر: «المقاصد الحسنة» ص (٣٤٩)، وقد قال بعض السلف: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه». رُوي هذا عن بكر بن عبد الله المزني. انظر: «المقاصد الحسنة» ص (٣٦٩) حديث (٩٧٠). وانظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٩).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة ما يفوت من الأجر على القاعدين عن الجهاد وما أعده للمجاهدين من الأجر العظيم، ثم أتبع ذلك بالوعيد على ترك الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، والترغيب في الهجرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكَثِّرون سواد المشركين على عهد النبي ﷺ، يأتي السهم فيُرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يُضرب فيُقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾»(١).

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف توكيد ونصب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾، ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ فعل ماضٍ مبني على فتح مقدر على الألف لم تلحقه تاء التأنيث، أي: «توفتهم».

فيكون المراد بهؤلاء: الذين ماتوا قبل نزول الآية ممن قتلوا في بدر وغيرهم.

ويحتمل أن يراد به الاستقبال، فيكون فعلًا مضارعًا مرفوعًا بضمة مقدرة على الألف، والتقدير: «تتوفاهم» فحذفت إحدى التاءين(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء (٤٥٩٦)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٠٣-١٠٤)- الأثران (١٠٢٦٢-١٠٢٦٣)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (١١٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٨٤)، «جامع البيان» (٩/ ١٠٠)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٠٢)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٠).

﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ حال من الهاء في قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾، ويحتمل أن تكون سدت مسد خبر ﴿إِنَّ﴾. والأظهر أن خبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾.

ومعنى ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾، أي: تقبض أرواحهم من أبدانهم عند الموت(١)، وسُمِّي الميت متوفى؛ لأنه استوفى رزقه وأجله وعمله.

وقيل: تحشرهم إلى النار(٢).

وهو عز وجل تارة يضيف التوفي إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لأنه عز وجل هو خالق الموت ومقدره، وهو الآمر للملائكة بقبض روح العبد.

وتارة يضيف التوفي إلى الملائكة؛ لأنه عز وجل وكَّلهم بقبض أرواح بني آدم.

﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جمع ملك، والمراد بالملائكة هنا: «ملك الموت» وأعوانه، قال تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

فملائكة الرحمة يقبضون روح المؤمن وملائكة العذاب يقبضون روح الكافر، كما في حديث الاحتضار: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس**» إلى قوله «**وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة سود الوجوه**» الحديث(٣).

والملائكة: عالم غيبي، خلقهم الله تعالى من نور، قال ﷺ: «**خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(٤).

والإيمان بهم على جهة الإجمال واجب، بل ركن من أركان الإيمان، كما في حديث

---

(١) ويطلق التوفي على النوم، وهو الموتة الصغرى قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٦)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

جبريل عليه السلام الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

كما يجب الإيمان بما ذكر في الكتاب والسنة من أسمائهم وأوصافهم وأعمالهم على جهة التفصيل، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١]، وقال تعالى في وصف الملائكة الموكلين على النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦].

وكما قال تعالى في وصف عملهم وطاعتهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وقد ذكر الله من أسمائهم «جبريل» وهو ملك الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وسماه الله «الروح الأمين» في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

ومنهم «ميكائيل»، وهو الموكل بالقطر قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

ومنهم ملك الموت(٢) وأعوانه، الموكلون بقبض الأرواح من الأبدان، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ومنهم «إسرافيل»، الموكل بالنفخ في الصور.

ومنهم حملة العرش، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٖ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩، ١٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ما قيل: إن ملك الموت اسمه «عزرائيل» هو من أخبار بني إسرائيل، ولا دليل عليه من الكتاب والسنة.

ثَمَٰنِيَةَ﴾ [الحاقة: ١٧].

ومنهم الصافُّون، ومنهم المسبحون، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦].

ومنهم من وكل بالجبال، ومنهم من وكل بالرحم والنطف، ومنهم الموكلون على العباد بحفظهم وحفظ أعمالهم، ومنهم الموكلون بالسؤال في القبر، ومنهم الموكل بالشمس والقمر والأفلاك، ومنهم الموكلون بالنار، ومنهم الموكلون بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، إلى غير ذلك.

وهم كما ذكر الله عنهم يعملون بأمر الله عز وجل، ولا يعصون أمره، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦](١).

قوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال، أي: حال كونهم ظالمي أنفسهم، و﴿ظَالِمِىٓ﴾ جمع ظالم، وأصله «ظالمين» حذفت منه النون للإضافة، و«ظالمي» مضاف وأنفسهم مضاف إليه مجرور لفظًا، وهو من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

والظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[الكهف: ٣٣]. أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وأظلم الظلم الشرك بالله، وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله أوضح الحقوق وأبينها، قال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي: بشرك.

وقد يحمل الظلم على ما دون الشرك من المعاصي، كما في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢].

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٤٠٥-٤١٠)، وانظر ما كتبه الدكتور سليمان بن عمر الأشقر عن أحوال الملائكة وصفاتهم وغير ذلك في كتابه: «عالم الملائكة الأبرار».

والمعنى ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بتركهم الهجرة من أرض الشرك؛ لأن ترك الهجرة معصية لله وظلم للنفس(١).

والمراد بالنفس ما يشمل الروح والجسد.

﴿قَالُواْ﴾، أي: الملائكة. ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع(٢).

قال مكي(٣): «حذفت ألف «ما»؛ لدخول حرف الجر عليها للفرق بين الخبر والاستفهام، فتحذف الألف في الاستفهام وتثبت في الخبر، ومثله ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجرات: ٥٤].

ومعنى ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾، أي: في أي مكان كنتم، ولم مكثتم هنا وتركتم الهجرة، أو: في أي شيء كنتم من أمر دينكم.

أو على أي حال كنتم(٤)، وتكون «في» بمعنى: «على»، كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على جذوع النخل، وقوله: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١١، النمل: ٦٩، العنكبوت: ٢٠، الروم: ٤٢]، أي: على الأرض.

فتضمن قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ توبيخ الملائكة لهم لِما أقاموا في دار الشرك وتركوا الهجرة، وما حالهم في هذا المقام الذليل في أرض الشرك.

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا جواب الاستفهام السابق ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾؟، أي: بقينا في هذا المكان وتركنا الهجرة؛ لأننا كنا مستضعفين في الأرض.

فضمنوا جوابهم هذا الإشارة إلى بقائهم في أرض تجب الهجرة منها، وبيان حالهم، وهو كونهم مستضعفين في الأرض.

وكان حق الجواب أن يقولوا: كنا في كذا أو لم نكن في شيء، ولكنهم لما وبخوا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٣٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ١٠٢)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٦).

(٣) في «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٠٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٤٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٣).

بقول الملائكة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ أجابوا بما يتضمن الإشارة إلى بقائهم في أرض تجب عليهم الهجرة منها، والاعتذار عن بقائهم فيها، بكونهم مستضعفين في الأرض(١).

﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾ خبر «كان»، وهو: جمع «مستضعف»: اسم مفعول، وهو: الذي استضعفه غيره.

والمعنى: أن الكفار استضعفونا، فكانوا يعاملوننا معاملة الضعيف؛ لضعفنا وقوتهم، ولقلتنا وكثرتهم، فنحن عاجزون عن الهجرة(٢).

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة، أو كل أرض تجب الهجرة منها.

وقولهم هذا ليس بصحيح واعتذارهم مردود غير مقبول(٣)؛ ولهذا ردت عليهم الملائكة بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾، ﴿أَلَمْ﴾، الهمزة للاستفهام و«لم»حرف نفي وجزم وقلب.

والاستفهام في هذا الموضع يفيد معنيين: الأول التقرير، أي: تقرير أن أرض الله واسعة، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

والمعنى الثاني: التبكيت(٤)، والتوبيخ لهم، أي لماذا لم تهاجروا إذا كانت أرض الله واسعة؟

والمراد بأرض الله مطلق الأرض(٥)، أي: أن هناك أراضي كثيرة غير هذه الأرض التي أنتم فيها مستضعفون.

﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾، الفاء للسببية، و«تهاجروا»: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية؛ لأنه جواب استفهام(٦).

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٠٠)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤٩)، «تفسير المنار» (٥/ ٣٥٥).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٦).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٤).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٦). وقال القرطبي: أرض الله، أي: المدينة «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٤٦)، والصحيح عموم الأرض.

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤٩)، «الدر المصون» (٢/ ٤١٩).

ومعنى ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، أي: في أرض الله الواسعة، والمهاجرة: مأخوذة لغة من الهجر وهو الترك، وهي شرعًا الانتقال من بلد الشرك التي لا يستطيع فيها الإنسان إقامة شعائر دينه إلى بلد الإسلام.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾ هذه الجملة خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض، ودخلت الفاء على الخبر؛ لما في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من الإبهام المشابه للشرط(١).

ويحتمل أن تكون الفاء للعطف، عطفت جملة على جملة(٢).

والإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم بترك الهجرة.

﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾، أي: مصيرهم الذي يأوون إليه ومسكنهم.

﴿جَهَنَّمُ﴾ اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها، أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، «ساء» فعل جامد لإنشاء الذم، كـ «بئس»، ومعناه قبح، و«التاء» للتأنيث، أي: وساءت هي، أي النار، مصيرًا؛ لأن كل ما فيها يسوء ولا يسر.

﴿مَصِيرًا﴾ منصوب على التمييز، ومعناه: مرجعًا ومردًا ومآبًا ومنقلبًا ومستقرًا لهم، وهذا الوعيد إنما يتحقق فيما إذا وجد السبب المقتضي للعقوبة، وانتفى المانع منها من التوحيد والإيمان أو التوبة والاستغفار والحسنات الماحية وغير ذلك من المكفرات.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء واستدراك بمعنى «لكن»؛ لأن الاستثناء هنا منقطع؛ لأن المستثنى وهو ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ ليس من جنس المستثنى منه، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أو الضمير في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ﴾؛ لأن ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ لا يتوجه عليهم الوعيد.

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٠)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٤٩).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٤).

وقيل: الاستثناء هنا متصل[١]. و﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ منصوب على الاستثناء.

و﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ جمع مستضعَف، وهو الذي استضعفه غيره والمعنى: إلا الذين استضعفهم المشركون بسبب مرضهم أو كبرهم أو صغرهم أو فقرهم ونحو ذلك.

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، ﴿مِنَ﴾ بيانية تبين المستضعفين ممن هم، ﴿ٱلرِّجَالِ﴾ جمع رجل وهم: الذكور البالغون، ويطلق على البالغين وغير البالغين من باب تغليب البالغين على غيرهم، والمراد بهم هنا الرجال البالغون فقط؛ لقوله بعد هذا و﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾: اسم للإناث البالغات، وهو جمع امرأة، مفرده من غير لفظه، ويطلق اسم النساء على الإناث البالغات وغير البالغات من باب التغليب. وأما اسم المرأة فلا يطلق إلا على البالغة.

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: جمع «وليد»، وهم الصغار، ذكورًا كانوا أو إناثًا؛ لضعفهم مطلقًا.

ولعل في ذكرهم وهم غير مكلفين ولا يتوجه الوعيد عليهم إشارة إلى أنهم يمثلون ثقلًا على آبائهم، فهم من أسباب عجز آبائهم عن الهجرة.

وإشارة أيضًا إلى أنه يجب على آبائهم أن يهاجروا بهم؛ لأن الولدان عليهم خطر أعظم في جلوسهم بين ظهراني المشركين؛ لأنهم قد يتربون تربيتهم، ويتأثرون بأخلاقهم، ولهذا يولي المربون عنايتهم بالصغير.

وقيل: المراد بالمستضعفين من الولدان: العبيد والإماء، وعلى هذا لا إشكال في دخولهم في المستثنين[٢].

والمعنى: إلا الذين أصابهم الضعف من الرجال والنساء لكبر أو مرض أو فقر أو نحو ذلك. ومن الولدان الصغار.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة للمستضعفين، أو للرجال والنساء

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٨٤)، «جامع البيان» (٩/ ١٠١)، «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ١٠٢)، «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٤)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ١٠٧).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٥).

والولدان، وقيل: حال، وهي: بيان وتفسير لقوله: ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾(١).

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿حِيلَةً﴾: مفعول ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾، وهي نكرة في سياق النفي، فتعم كل حيلة، أي: لا يستطيعون أيَّ حيلة للخروج والتخلص من أيدي المشركين، إما بسبب الضعف البدني أو المالي أو بسببهما معًا أو غير ذلك.

و«الحيلة» فعلة من الحول أي: لا قوة لهم على الهجرة، أو هي من التحيل، أي: التوصل إلى الشيء بما يخالف ظاهره، أي: على وجه لا يشعر به الغير. أي: لا يستطيعون التحيل للتخلص من الكفار، والمعنى: أنهم لا يستطيعون أي سبب للتخلص(٢).

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ معطوفة على قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، و﴿سَبِيلًا﴾ مفعول به منصوب لـ﴿يَهْتَدُونَ﴾، وهي أيضًا: نكرة في سياق النفي، فتعم كل سبيل، والسبيل الطريق. أي: لا يعرفون طريقًا يسلكونها وينفذون إليها بأنفسهم للخروج من دار الشرك إلى دار الإسلام.

والمعنى: لا يقدرون على الهجرة؛ لعجزهم وقلة حيلتهم، ولو قدروا عليها ما عرفوا طريقًا يسلكونه فيها، وفي هذا بيان لعذر هؤلاء المستضعفين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنت أنا وأمي ممن عذر الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: بينا النبي ﷺ يصلي العشاء، إذ قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قال قبل أن يسجد: «**اللهم نج عياش ابن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم**

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٠١)، «الكشاف» (١/ ٢٩٣)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٧)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٥).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١١١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٧)، «إعلام الموقعين» (٣/ ٣٠٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٣)، وانظر: «لسان العرب» مادة «حول»، «حيل».

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء (٤٥٨٨) والطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٠٩)، الأثر (١٢٠٧٠-١٢٠٧١، ١٢٠٧٤)، والبيهقي في سننه (٩/ ١٣).

اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»(١).

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٩٩﴾.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾، الفاء عاطفة، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، «أولاء» اسم إشارة مبني على الكسر- يعود على المستضعفين، والكاف للخطاب. وجملة ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾: في محل رفع خبر المبتدأ.

و﴿عَسَى﴾ في الأصل: «فِعْل» ترج، والترجي والرجاء أن يترجى الإنسان ويطمع في حصول مطلوب، أو زوال مكروه، مع كون ذلك ممكنًا.

كما قال الشاعر:

عسى وعسى من قبل وقت التفرق ... بما نرتجي يومًا من الخير نلتقي(٢)

وقال الآخر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب(٣)

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر(٤)

لكن هذا المعنى لا يمكن أن تفسر به «عسى» إذا جاءت منسوبة إلى الله؛ لأن الله لا يترجى شيئًا؛ لأنه سبحانه القادر على كل شيء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وهو سبحانه المرجو لجلب كل خير ودفع كل ضير.

فإما أن تحمل «عسى» على الرجاء، ويكون المراد بذلك ما يقوم في قلب المخاطب، أي: أن هؤلاء يرجى أن يعفو الله عنهم، وإما أن يكون معناها هنا الوعد من الله تعالى، كما قال ابن عباس: «عسى من الله واجبة»(٥) بمعنى أن «عسى» إذا نسبت إلى الله فليس

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٩٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٥)، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٢)، والنسائي في التطبيق (١٠٧٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٤٤).

(٢) البيت بلا نسبه كما في «لطائف المعارف» لابن رجب (ص٢١٧).

(٣) البيت لهدبة العذري. انظر: «ديوانه» ص (٥٤).

(٤) البيت لمحمد بن إسماعيل، كما في حاشية «شذور الذهب» (ص٣٥١)، وهو بلا نسبة في «الدرر» (٢/ ١٥٧).

(٥) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» (٤/ ٢٨٨).

=

معناها الترجي، وإنما معناها الوعد من الله عز وجل أن هذا الشيء سيحصل، ويدل على صحة قول ابن عباس- رضي الله عنهما- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧] مع قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠] وجه ذلك أنه وعد بالفلاح في الآية الأولى، ثم أكَّده، بل جعله محققًا في دلالة الآية الثانية.

وقال بعض أهل العلم: معناها التوقع بأنه سيحصل لهم العفو من الله، والفرق بين الترجي والتوقع: أن الترجي رجاء ما لم يوجد سبب وقوعه لكنه ممكن، والتوقع ما يوجد سبب وقوعه فيتوقع أن يكون(١).

﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، أي: أن يتجاوز عنهم بتركهم الهجرة مع قدرته عز وجل على المؤاخذة والعقوبة، وهذه صفة كمال ومدح بخلاف العفو مع عدم القدرة على العقوبة؛ ولهذا يقرن سبحانه تارة بين اسميه «العفو» و«القدير»؛ ليبين أنه يعفو مع قدرته على العقوبة، كما قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

كما أن في هذا تعريضًا بذم الظلم إذا قدر الإنسان عليه، وقد قيل: «إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك».

والمعنى: فأولئك- يعني المستضعفين- ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، أي: يُرجى أو يتوقع أن يتجاوز الله عنهم، أو سيتجاوز الله عنهم بتركهم الهجرة لضعفهم.

وإنما جاء التعبير بـ﴿عَسَى﴾ بأمر أشبه بالوعد من الله تعالى والله أعلم- حتى يظل العبد يرجو عفو الله وثوابه، ويخشى نقمته وعقابه، فلا يأمن من مكر الله، فيعتمد على عفو الله، وينسى عقاب الله.

=

وانظر: «جامع البيان» (٩/ ١٠١)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٠٣)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٧)، «السنن الكبرى (٩/ ١٣)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٣).

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١١٩ تفسير سورة النساء).

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[النساء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

وإنما قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ مع أنهم لم يذنبوا بترك الهجرة؛ لأنهم معذورون؛ لئلا يحصل التساهل من البعض بترك الهجرة مع قدرتهم عليها وعدم ضعفهم، أو ضعفهم ضعفًا يسيرًا يقدرون معه على الهجرة، وفي هذا تحضيض على الهجرة وتوكيد لوجوبها(١).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ هذا مما يؤكد قول ابن عباس وغيره «عسى من الله واجبة».

﴿وَكَانَ﴾ هنا مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، أي: إنه عز وجل لم يزل عفوًا غفورًا.

﴿عَفُوًّا﴾، أي: ذا العفو عن ذنوب عباده، والعفو معناه: التجاوز والصفح عن الذنوب وترك العقوبة عليها.

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا المغفرة الواسعة لذنوب عباده.

ومعنى المغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، كما في قوله عز وجل عندما يقرر عبده المؤمن بذنوبه: «**أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك**»(٢).

بمعنى: سترتها في الدنيا عن العباد، وأنا أتجاوز عن العقوبة عليها اليوم.

وإذا اجتمع «العفو» و«الغفور» كما في هذه الآية، فالأولى حمل معنى الغفور على الستر، وحمل معنى العفو على التجاوز.

وقال بعض أهل العلم إذا اجتمع «العفو» و«الغفور» صار المراد بالعفو ما يقابل ترك الواجب، والغفور ما يقابل فعل المحرم(٣).

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٩٢)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٢٢ في تفسير سورة النساء».

مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

لما ذكر الوعيد الشديد على ترك الهجرة ذكر ما يترتب عليها من مراغمة الأعداء والسعة.

قال ابن كثير(١): «هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه».

قوله: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

هذا تقرير وتوكيد لما قالته الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

«الواو» استئنافية ﴿وَمَن﴾ شرطية، ﴿يُهَاجِرْ﴾: فعل الشرط، وجوابه ﴿يَجِدْ﴾.

و﴿يُهَاجِرْ﴾: كما سبق مأخوذ من الهجر وهو الترك، والمراد به هنا ترك البلد التي يقيم فيها، والتي لا يستطيع أن يؤدي فيها شعائر دينه، والخروج منها إلى بلد يستطيع فيها إظهار دينه.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿فِي﴾: للظرفية، وسبيل الله: طريقه كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ومعنى كون الهجرة في سبيل الله، أي: خالصة لله، وتبعًا لشرعه وما جاء به رسول الله ﷺ(٢)، يدل على هذا قوله تعالى في الآية بعد هذه الآية ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: إخلاصًا لله تعالى ومتابعة لرسوله ﷺ.

قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٣).

هذا شرط الإخلاص.

أما شرط المتابعة، فمعناه أن يهاجر حيث تجب عليه الهجرة، وإنما تجب عليه الهجرة

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٤٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١١٢).

(٣) سبق تخريجه.

إذا كان لا يستطيع أن يقيم دينه.

﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المراد جنس الأرض، أي: يجد في أرض الله عمومًا.

﴿مُرَٰغَمٗا﴾: مفعول به منصوب لـ﴿يَجِدۡ﴾، و﴿كَثِيرٗا﴾ صفة لـ﴿مُرَٰغَمٗا﴾، أو صفة لموصوف محذوف، أي: مهاجرًا مراغمًا.

و﴿مُرَٰغَمٗا﴾: مصدر، يقال: راغم فلان قومه مراغمًا ومراغمة[1]. والرغام في الأصل التراب، يقال: رغم أنف فلان، أي: التصق بالتراب[2]. وهذا غاية الذل ومنتهاه.

وفي حديث أبي سعيد الخدري في سجود السهو: «ترغيمًا للشيطان»[3].

أي: إذلالًا له وإغاظة.

والمعنى: يجد في الأرض مهاجرًا ومتحولًا ومذهبًا في البلاد ومتزحزحًا ومضطربًا يمتنع فيه ويتقوى، ويُرغم به أنوف أعدائه[4].

قال النابغة الجعدي[5]:

كطـــود يـــلاذ بأركانـــه عزيـــز المَـــراغم والمهـــرب

وهكذا وجد أصحاب رسول الله ﷺ في هجرتيهم الأولى والثانية، ففي هجرتهم الأولى إلى الحبشة استقبلهم النجاشي وأكرمهم، مما أرغم أنوف قريش، فأرسلت من يتكلم فيهم عند النجاشي.

وفي هجرتهم الثانية إلى المدينة وجدوا في دار مهاجرهم إكرامًا من إخوانهم الأنصار، ونصرة، وحصل لهم بذلك قوة ومنعة وتمكين في الأرض، مما أرغم أنوف المشركين وأغاظهم.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١١٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ١٠٤-١٠٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٣-٤٨٤).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٥٧١)، وأبو داود في الصلاة (١٠٢٤)، والنسائي في السهو (١٢٣٨)، والترمذي في الصلاة (٣٩٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٠).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٣٨)، «جامع البيان» (٩/ ١١٢، ١١٩، ١٢١-١٢٣)، «الكشاف» (١/ ٢٩٣)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٧-٢٢٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٥).

(٥) انظر: «ديوانه» (٢٢)، «لسان العرب» مادة «رغم».

قال عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالى في وصف استقبال الأنصار لإخوانهم المهاجرين وفرحهم بهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ ﴾ [الحشر: ٩].

وفي قوله: ﴿كَثِيرًا﴾ إشارة إلى أنه يلقى أعوانًا على الحق وأنصارًا، يتكثر بهم بعد القلة، وينتصر بهم بعد الذلة.

وخلاصة القول: أن من هاجر مخلصًا لله، متبعًا سنة رسول الله ﷺ فسيجد في أرض مهاجره مصالح دينية ودنيوية، يرغم بذلك ويغيظ أنوف أعدائه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَسَعَةً﴾ منصوب عطفًا على ﴿مُرَٰغَمًا﴾، أي: ويجد أيضًا سعة في كل شيء؛ سعة في دينه بحيث يقيم شعائر دينه ولا يُضيَّق عليه في دينه.

وسعة في الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ ﴾ [الزمر: ١٠].

وسعة في الرزق بأن يجد المهاجر في أرض مهاجره رزقًا أوسع مما كان عليه قبل الهجرة وإن ترك في سبيل ذلك كل ما يملك من أهل ومال؛ لأن ما كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

وقد قيل:

وإذا رأيت الرزق ضاق ببلدة ... وخشيت فيها أن يضيق المذهب
فارحل فأرض الله واسعة الفضا ... طولًا وعرضًا شرقها والمغرب[1]

وسعة في الصدر وانشراحًا، وزوال هموم وكروب[2] حيث يقيم المهاجر بين

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٢٣)، «معالم التنزيل» (١/ ٤١٨)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٥).

إخوانه المسلمين ويؤدي شعائر دينه بطمأنينة، ويأمن على دينه ونفسه وماله.

قال الطبري[١]: بعد أن ذكر الأقوال في قوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطربًا ومتسعًا، وقد يدخل في «السعة» السعة في الرزق والغني من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم والكرب، الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة وغير ذلك من معاني «السعة» التي هي بمعنى الروح والفرج من المكروه، ولم يضع الله دلالة على أنه عنى بقوله: «سعة» بعض معاني السعة التي وصفنا، فكل معاني السعة التي هي بمعنى الروح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغم جوار أهل الشرك، وضيق الصدر بتعذر إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة داخل في ذلك».

وقدم المراغم على السعة في قوله: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾؛ لأن في المراغم ابتهاج القلب وسروره بمراغمة أعدائه[٢].

ثم أخبر جل ثناؤه عن حكم من خرج مهاجرًا من أرض الشرك إلى الله ورسوله وأدركه الموت قبل بلوغه أرض الإسلام، فقال تعالى:

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٣].

وعن ابن عباس وغيره[٤]: «أن رجلًا خرج من مكة مهاجرًا إلى الله ورسوله فمات

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ١٢٣).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٥١)، الأثر (٥٨٨٩)، وأبو يعلي قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠): «رجاله ثقات». وانظر: «أسد الغابة» (٣/ ٦١-٦٣)، «الإصابة» (١/ ٢٥٣).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١١٤-١١٩) عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والضحاك والسدي، وابن زيد. وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ١٠٥٠، ١٠٥١)، الآثار (٥٨٨٧-٥٨٩٠).

في الطريق، وقيل في التنعيم، وقيل في غيره، فسخر به قومه واستهزؤوا به، وقالوا: لا هو بلغ الذي يريد، ولا هو أقام في أهله، يقومون عليه ويدفن، فأنزل الله هذه الآية».

ولما كان من أهم أسباب ترك الهجرة أمران: الأول: طلب الراحة والرفاهية في الوطن وخوف المشقة والشدة وضيق العيش.

والثاني: تخوف المهاجر ألا يصل إلى مقصوده. أجاب عز وجل عن الأول بقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

ثم أجاب عن الثاني بقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١).

﴿وَمَن يَخْرُجْ﴾، الواو عاطفة، و«من» اسم شرط جازم مبني في محل رفع مبتدأ، و«يخرج» فعل الشرط.

﴿مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾: من داره التي تحويه ويبيت فيها ووطنه الذي يسكنه ويألفه.

﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، مهاجرا: حال من الضمير المستتر في «يخرج».

أي: تاركًا لبلده؛ إخلاصا لله، وإتباعا لرسوله ﷺ، وهذا معنى قوله قبل هذا ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، و﴿يُدْرِكْهُ﴾: معطوف على ﴿يَخْرُجْ﴾؛ ولهذا جزم.

والمعنى: ثم يموت بعد خروجه من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله قبل بلوغه دار الإسلام.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ﴾ إشارة إلى أنه خرج فارًّا بدينه هاربًا من دار الشرك، لكن الموت لحقه، فأدركه قبل بلوغه دار الهجرة.

والموت: هو خروج الروح من البدن ومفارقتها له.

وفي الحديث أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه**»(٢).

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٣).

(٢) سبق تخريجه.

وبه ينكشف الغطاء كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩- ٢٢].

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ وقرن بالفاء لوجود «قد».

قال الناظم(١):

اسمية طلبية وبجامد ... وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وجملة الشرط «يخرج» وجوابه: في محل رفع خبر المبتدأ: «من».

والمعنى: فقد ثبت أجره على الله عز وجل، والأجر هو الثواب. قال الطبري(٢): «فقد استوجب ثواب هجرته على ربه».

والوقوع كالوجوب يتواردان على محل واحد، قال تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦]، أي: سقطت ووقعت.

وسمى الله عز وجل ما وعد به المهاجر من الثواب أجرًا، كأنه يستحقه كما يستحق الأجير أجره على المستأجر من باب التفضل منه- سبحانه وتعالى؛ لأنه عز وجل التزم بهذا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن كثير(٣): «أي ومن خرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له من الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كان هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها**

---

(١) ذكره الخضري في حاشيته (٢/ ١٢٣)، والصبان في حاشيته (٤/ ٩).

(٢) في «جامع البيان» (٩/ ١١٣).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٤٥).

أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجره إليه»(١).

وذلك لأنه نوى وجزم وشرع في العمل.

ويدل لهذا أيضًا قصة الذي قتل مائة نفس، ثم خرج مهاجرا تائبا فأدركه الموت قبل أن يصل إلى البلدة التي هاجر إليها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمروا أن يقيسوا ما بين القريتين، فوجد أقرب للبلدة التي هاجر إليها فقبضته ملائكة الرحمة...»(٢).

وعن عبدالله بن عتيك- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من خرج من بيته مجاهدًا في سبيل الله**» ثم قال: وأين المجاهد في سبيل الله- فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة، فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه وقع أجره على الله»(٣).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ «كان» مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف أي: إنه عز وجل لم يزل غفورًا رحيمًا.

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا المغفرة الواسعة للتائبين من عباده، يستر ذنوبهم ويتجاوز عنها.

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة لعباده وخلقه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين هذين الوصفين؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

ويقدم سبحانه- غالبًا- المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية- كما يقول أهل العلم. وإن كانت الرحمة هي سبب المغفرة كما هو معلوم، فلو لم يكن رحيما لما غفر ذنوب عباده.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٤ رقم ١٩٣٣٠)، وأحمد (٤/ ٣٦).

الفوائد والأحكام:

١- أن الموت غاية كل حي من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢- أن الملائكة تتوفى بني آدم بقبض أرواحهم من أبدانهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] أي رسلنا من الملائكة فهم من رسل الله، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] لأن الله نسب التوفي إليه لأنه بأمره عز وجل.

كما لا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

فأضيف التوفي إلى ملك الموت بالإفراد لأنه هو المباشر لقبض الروح، وأضيف إلى الملائكة لأنهم أعوانه.

كما في الحديث الصحيح: «**أنه إذا قبض ملك الموت الروح، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها...**»(١).

٣- أن من مات فقد استوفى واستكمل رزقه وأجله وعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تقبض أرواحهم.

٤- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم(٢)، وبما ذكر من توفيهم لبني آدم وتكليمهم لهم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

فهم ذوو أجسام تفعل وتقول، ومن فعلهم قبض أرواح بني آدم، ومن قولهم توبيخ من لم يهاجر- كما ذكر الله في هذه الآية، إلى غير ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة، كما جاء في حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**» وقد سبق تخريجه.

من أفعالهم وأقوالهم وصفاتهم(١).

وفي هذا إبطال لقول من زعم أن الملائكة هي القوى الخَيِّرة، وأن الشياطين هي القوى الشريرة؛ خلافًا لما دل عليه الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة.

٥- أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**فإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(٢).

والمراد بقوله «**إلا ذراع**» بالنسبة لقرب الأجل.

وفي حديث سهل بن سعد «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»(٣).

٦- وجوب الخوف والحذر من سوء الخاتمة، وذلك بأن توافي الإنسان المنية وهو مقيم على الظلم والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

ولهذا ينبغي للعبد أن يجمع بين أمرين: الأول: لزوم طاعة الله تعالى والبعد عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

الأمر الثاني: أن يسأ ل العبد ربه الثبات على الحق، وحسن الخاتمة، وأن يتوفاه الله على الإسلام، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

٧- وجوب الهجرة والانتقال من بلد الشرك الذي لا يستطيع فيه المسلم إقامة

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (١/ ٤٠٥-٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٢)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨) والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٨)، ومسلم في الإيمان (١١٢).

شعائر دينه إلى بلد الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

وقد قال ﷺ: «**أنا بريء من أي مسلم يقيم بين أظهر المشركين**» قالوا يا رسول الله. لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»(١).

وروي عنه: «**من جامع مشرك أو سكن معه فإنه مثله**»(٢).

والهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٣).

وأما قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»(٤) فمعناه: لا هجرة من مكة؛ لأنها أصبحت بعد فتحها دار إسلام(٥).

٨- توبيخ الملائكة لهؤلاء الذين يموتون، وهم ظالمون لأنفسهم بترك الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

٩- أن ترك الهجرة معصية وظلم للنفس يوبخ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقول الملائكة لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾.

١٠- ينبغي للمؤمن أن لا يرضى لنفسه بعيش الذل والهوان، وذلك بأن يقيم في بلد لا يستطيع أن يؤدي فيه شعائر دينه، ويهان في بدنه ومعتقده؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾،

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٤٥)، والترمذي في السير (١٦٠٤)، من حديث جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٧٨٧)، من حديث سمرة بن جندب- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٧٩)، والدارمي في السير (٢٥١٣)، من حديث معاوية- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبو داود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في المناسك (٤١٧٠)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)، والدارمي في السير (٢٥١٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) كما تنبغي الهجرة من بلد الجهل إلى بلد العلم، ومن بلد المعصية إلى بلد الطاعة، ومن بلد البدعة إلى بلد السنة. قال مالك: «أنا لا أقيم في بلد يسب فيه السلف». انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٠).

أي: كيف رضيتم بحياة الذل في بلاد الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

١١- كذب هؤلاء الظالمين لأنفسهم، باحتجاجهم بقولهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؛ ولأن الله توعدهم بالنار، فقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

١٢- أن الظالم إذا انقطعت حجته قد يتعلل بأي علة ولو كانت علة واهية ضعيفة؛ لقول هؤلاء: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٣- أن أرض الله واسعة لمن أراد الفرار بدينه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

١٤- الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة الواجبة، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لأن الله رتب على تركها العقوبة في النار، فقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وهذا من نصوص الوعيد، يدل على أن جزاء من ترك الهجرة العقوبة في النار، وهذا إنما يتحقق فيما إذا وجد المقتضي للعقوبة وانتفى المانع منها من التوحيد والإيمان، أو التوبة والاستغفار، والحسنات الماحية للسيئات وغير ذلك من المكفرات، وفيما إذا لم يعف الله عن العقوبة؛ لأن ما دون الشرك من الذنوب تحت مشيئة الله عز وجل، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذب به، ولا يخلد في النار إلا من مات على الشرك(١).

١٥- أن النار مجهمة سوداء مظلمة بعيدة القعر شديدة الحر؛ لأن الله سماها «جهنم» لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

١٦- أن النار بئست المصير والمنقلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

١٧- أن الهجرة لا تجب على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا حيلة لهم ولا قوة لهم على الهجرة، ولا يعرفون طريقًا يسلكونه لدار الهجرة؛ لقوله

---

(١) انظر الكلام على الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾، بل إنه إذا كان لا يهتدي إلى السبيل ويخاف أن يضل، فإنه لا يجوز له الخروج؛ لئلا يلقي بنفسه إلى التهلكة.

١٨- أن من عجز عن فعل مأمور فإنه معذور؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»(١).

١٩- الإشارة إلى خطر الإقامة في بلاد الشرك، وبخاصة بالنسبة للولدان؛ لأنهم قد يؤَثَّر عليهم فيردون إلى الكفر بعد الإيمان؛ لهذا ذكرهم الله مع الرجال والنساء وهم غير مكلفين والهجرة غير واجبة عليهم، لكن يجب على أوليائهم أن يهاجروا بهم.

٢٠- أن على المؤمن أن يحتال بأي حيلة ليفر بدينه ويهاجر من بلاد الشرك ومن أي طريق أمكنه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ و«حيلة» و«سبيلًا» كل منهما نكرة في سياق النفي، فمن كان يستطيع أي حيلة للهجرة، ويعرف أي طريق للخروج إليها وجب عليه أن يهاجر، وكذلك الحال بالنسبة للقيام بأي عمل مما أوجبه الله على الإنسان، فعليه أن يحتال لكي يقوم بذلك الواجب، فلو أن إنسانًا منع من الصلاة فعليه أن يحتال بأي حيلة لأدائها وهكذا.

٢١- جواز التحيل لفعل أمر مشروع؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾.

قال ابن القيم(٢): «أراد بالحيلة التحيل على التخلص من بين الكفار، وهذه حيلة محمودة يثاب عليها. وكذلك الحيلة على هزيمة الكفار، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق، أو على تخليص ماله منهم، كما فعل الحجاج بن عِلاط بامرأته(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في المناسك (٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة (١، ٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «إعلام الموقعين» (٣/ ٣٠٨). وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٧٣-٧٤).

(٣) الحجاج بن علاط بكسر العين وتخفيف اللام ابن خالد السلمي وحيلته المحمودة أنه لما فتح الرسول ﷺ خيبر استأذن الرسول ﷺ في أن يأتي مكة وقال: إن لي مالًا عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة ولي مال متفرق في تجارة مكة. وقال: يا رسول الله لا بد أن أقول أي: احتال عليهم لتخليص مالي. فقال له =

وكذا الحيلة على قتل رأس من رؤوس أعداء الله، كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحقيق اليهودي[١]، وكعب بن الأشرف»[٢].

٢٢- أن وجود الدليل شرط لوجوب الحج والعمرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

٢٣- وعد الله تعالى بالعفو عن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ وقد قال ابن عباس- رضي الله عنهما- وبعض أهل العلم: «عسى» من الله واجبة[٣]، أي: أنها وعد من الله أوجبه على نفسه سبحانه.

٢٤- تيسير الله تعالى على العباد، وأنه سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فمع العجز والمشقة يسقط الوجوب، وينتفي الحرج؛ لأن الله استثنى من الوعيد المستضعفين الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٢٥- إثبات صفة العفو الواسع لله عز وجل، وهو التجاوز عن ذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾.

٢٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل، وهي الستر لذنوب عباده عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليها؛ لقوله: ﴿غَفُورًا﴾.

=

الرسول ﷺ: قل. فجاء إلى أهل مكة وإلى امرأته ولم يكونوا يعلمون بإسلامه فقال لهم: إن محمدًا قد أسر، وقتل أصحابه في خيبر، وإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فرص البيع مما غنم من محمد وأصحابه فأعينوني يا أهل مكة على جمع مالي وعلى غرمائي لأذهب هناك. فلما جمع ماله خرج وأخبر العباس عم النبي ﷺ بحقيقة الأمر، وأن محمدًا ﷺ فتح خيبر وتزوج ﷺ صفية بنت ملكهم. انظر: «السيرة النبوية» (٣/ ٣٥٩-٣٦١)، «الإصابة» (١/ ٣١٣).

(١) انظر: «السيرة النبوية» (٣/ ٢٨٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» (٣/ ٥٤-٦١).

(٣) سبق تخريجه.

٢٧- في اجتماع العفو والمغفرة: اجتماع التجاوز عن الذنوب وسترها عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليها؛ وبالعفو يزول المرهوب، وبالمغفرة حصول المطلوب.

٢٨- أن من هاجر في سبيل الله سيجد في أرض الله ما يرغم به أنوف أعدائه من العز والمنعة والتمكين بعد الذل والهوان، وسيجد سعة بعد الضيق؛ سعة في الأرض، فأرض الله واسعة، وسعة في رزقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ مع ما أعده الله له من الأجر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠][1].

٢٩- الحث على الهجرة والترغيب فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ ففيها مصالح دينية ودنيوية.

٣٠- أن من هاجر لأجل أمر دنيوي يفوته ما وعد الله به المهاجرين في سبيله من خيري الدنيا والآخرة؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[2].

٣١- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وأن ما كان في الله تلفه كان على الله خلفه، وأنه- عز وجل- يعطي الأجر الكثير على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

٣٢- أن المشركين والكفرة يغيظهم ويرغم أنوفهم أن يخرج المسلم مهاجرًا، فيجد في مهاجره العزة والمنعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

وقد حصل هذا للمشركين عندما هاجر الصحابة إلى الحبشة، وعندما هاجروا مع الرسول ﷺ إلى المدينة.

٣٣- أن الكرب والضيق يعقبهما الفرج والسعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَعَةً﴾ كما قال

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

وفي الحديث: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**»(١).

٣٤- أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، فمن أوذي في الله واستضعف وأهين وأذل وضيق عليه بسبب طاعته لله، فإن الله يجعل له من الأذى مخرجًا، ويبدله بعد الضعف قوة، وبعد الإهانة والذل عزًا وبعد الضيق سعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

٣٥- الإشارة إلى وجوب حسن الظن بالله، وبما وعد به المهاجر في سبيل الله من العز والمنعة والسعة، وطرح وساوس الشيطان، وتثبيط قرناء السوء من شياطين الإنس والجن من كون المهاجر يذهب ويترك بلده وماله ومسكنه، وأنه سيفتقر؛ لقوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، أي: سيجد عزًا بعد الذل وغنى بعد الفقر.

٣٦- إذا ضاق الرزق على المرء في بلد فليطلبه في بلد آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَعَةً﴾ فأرض الله واسعة ورزقه واسع أيضًا.

٣٧- أن الهجرة الشرعية ما كانت خالصة لله، واتباعًا لرسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٣٨- أن الأجل قد يحول دون الأمل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾.

فينبغي للإنسان أن يكون مستعدًا للموت، مكثرًا من ذكره، قال ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»(٢).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «**أحسنهم خلقا**»، قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «**أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما**

---

(١) سبق تخريجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز (١٨٢٤)، والترمذي في الزهد (٢٣٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

بعده استعدادًا أولئك الأكياس(١)»(٢).

٣٩- أن من خرج مهاجرا إلى الله ورسوله فأدركه الموت قبل أن يصل إلى مهاجره فله أجر المهاجر وثوابه(٣) ثابتًا كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٤). كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وفي الصحيحين في قصة الذي قتل مائة نفس، ثم خرج تائبا إلى قرية صالحة، فمات في الطريق، فتخاصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فوجد أنه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر فقبضته ملائكة الرحمة(٥).

وإذا كان هذا فيمن قبلنا، فهذه الأمة أولى بهذا الفضل من الله؛ لأنها أفضل الأمم، فمن شرع في عمل ثم أدركه الموت قبل إتمامه فله أجر ذلك العمل(٦).

فمن خرج لأداء الصلاة، أو الحج، أو الجهاد، أو طلب العلم فمات في أثناء الطريق كتب الله له أجر ذلك، وفضل الله تعالى واسع(٧).

وفي الحديث: «**إن العبد إذا هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة**»(٨).

قال ابن كثير(٩) بعد أن ذكر حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**» قال: «وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال».

---

(١) الكيس: الفطنة والذكاء. انظر: «النهاية» مادة «كيس».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٩). وحسنه الألباني.

(٣) وليس في الآية دليل لمن قال إن الغازي إذا مات في الطريق استحق سهمه من الغنيمة؛ لأن الآية هنا في الأجر والثواب الأخروي. انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٣-١٤).

(٤) قال بعض أهل العلم: إذا خرج يريد الحج ثم مات في بعض الطريق وقد أوصى أن يحج عنه فإنه يحج عنه من الموضع الذي مات فيه انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥١).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٥).

(٧) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٢٩)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣).

(٨) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩١)، ومسلم في الإيمان (١٣١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٩) في «تفسيره» (٢/ ٣٤٥).

٤٠- فضل الله الواسع على عباده؛ لأنه- عز وجل- تكفل وتضمن الثواب لمن خرج مهاجرًا وأدركه الموت قبل بلوغ مهاجره، وسمى ذلك أجرًا، فقال: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فالتزم سبحانه بهذا الثواب كما يلتزم المستأجر بأجر الأجير عنده.

مع أن الله عز وجل لا يلزمه شيء لعباده، لكنه سبحانه التزم بذلك لهم تفضلًا منه وكرمًا، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وليس في الآية دليل للمعتزلة الذين يقولون: إن الثواب عوض عن العمل. فيرون أنه يجب على الله بطريق العقل أن يثيب المطيع[(١)]. والصحيح أن العمل إنما هو سبب للثواب، قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عملُه الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب**»[(٢)].

٤١- أنه عز وجل يعطي على العمل القليل الأجر العظيم الوفير، فيعطي سبحانه أجر العمل كاملًا لمن نواه أو شرع فيه، وإن أدركه الموت قبل فعله وإتمامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٤٢- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٤٣- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى، رحمة ذاتية، ورحمة فعلية، رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾.

* * *

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٣-١٤).

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

ذكر الله تعالى في الآيات السابقة شيئًا من أحكام الجهاد والهجرة، ثم أتبع ذلك بذكر قصر الصلاة في السفر وكيفية صلاة الخوف؛ لأن كلا من الجهاد والهجرة غالبًا يحتاجان إلى السفر، وكل منهما مظنة الخوف، فهذه الآيات على هذا تعتبر تتمة لذكر أحكام الجهاد والهجرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، الواو استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ فعل الشرط، والخطاب للمؤمنين؛ لأنهم هم أمة الإجابة، المخاطبون بالتكاليف الشرعية.

والضرب في الأرض: هو السفر فيها[1]، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، أي: يسافرون في الأرض لطلب الرزق من الله، وسُمي السفر: ضربًا في الأرض أخذًا من ضرب المسافر الأرض برجليه وعصاه وقوائم دابته[2]، أو أخذًا من ضرب المسافر لدابته حال السفر.

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٠٨)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٧).

(٢) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٣٦٣).

قال ابن العربي[١]: «وما أظنه سُميَ به إلا لأن الرجل إذا سافر ضرب بعصاه دابته، ليصرفها في السير على حكمه، ثم سُميَ به كل مسافر».

ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ في أبي جهم: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[٢].

بمعنى أنه كثير الأسفار، أو بمعنى أنه ضراب للنساء[٣].

وسواء كان السفر مشروعًا كالسفر للحج أو للجهاد، أو مباحًا كالسفر لطلب الرزق والتجارة، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

أو كان السفر محرمًا كالسفر لقطع الطريق ونحو ذلك؛ وذلك لإطلاق الضرب في الأرض في الآية.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، والجناح: الإثم والحرج، أي: فلا إثم عليكم ولا حرج أن تقصروا من الصلاة، وهذا لا ينافي كون القصر أفضل من الإتمام، بل، ولا ينافي كون القصر واجبًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، والسعي عند عامة أهل العلم إما ركن وإما واجب، فنفي الجناح عمن قصر الصلاة؛ لإزالة ما قد يتوهم أنه لا يجوز قصرها، حيث تقرر عند المسلمين وجوب إقامتها تامة حال الأمن والإقامة[٤].

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، والتقدير: في أن تقصروا، أي: في قصر الصلاة.

والقصر لغة: النقص، ضد الإتمام والطول[٥].

---

(١) في «أحكام القرآن» (١/ ٤٨٣).

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (١٤٨٠)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٨٤)، والنسائي في النكاح (٣٢٤٥)، والترمذي في النكاح (١١٣٥)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٩)، من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(٣) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٠/ ٩٧).

(٤) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٤٢-١٤٣).

(٥) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٣٨)، «لسان العرب» مادة «قصر».

﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، من تبعيضية، أي: أن تقصروا من بعض الصلاة، وهي: الصلاة الرباعية.

قال السعدي: «قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ولم يقل: أن تقصروا الصلاة فيه فائدتان: إحداهما؛ ليدل على أن القصر محدود مضبوط مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه. الثانية أن «من» تفيد التبعيض؛ ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها»(١).

والصلاة في اللغة: الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. أي: ادع لهم.

وهي في الشرع: التعبد لله بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

و«ال» في الصلاة للعهد الذهني، أي: الصلوات الخمس المعهودة المعروفة.

واختلف في المراد بقصر الصلاة في الآية على قولين(٢).

القول الأول: قول أكثر أهل العلم: أن المراد به قصر الكمية والعدد؛ قالوا: لأن القصر عبارة عن الإتيان ببعض الشيء والاقتصار عليه؛ ولأن لفظ القصر كان مخصوصا في عرفهم بنقص العدد؛ ولهذا لما صلى النبي ﷺ الظهر ركعتين قال ذو اليدين: «**أقصرت الصلاة أم نسيت**»(٣)، ويدل على هذا «من» فهي للتبعيض أي: بعض الصلاة. قالوا: ولأن قصر الهيئة مذكور في الآية التي بعدها(٤).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٤٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٢٣-١٤٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٢٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٢-٢٥٣)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٩)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٤-٢٣٦)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٤-١٥)، «الجامع لأحكام القرآن» ٥/ ٣٦٠-٣٦١)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٧-٣٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في السهو (١٢٢٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٣)، وأبو داود في الصلاة (١٠٠٨)، والنسائي في السهو (١٢٢٤)، والترمذي في الصلاة (٣٩٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٤، ١٥).

ومن هؤلاء من قال: المراد قصر صلاة السفر من أربع إلى اثنتين (١).

واستدلوا بما رواه يعلي بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد أمن الناس؟! فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ فقال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**» (٢).

وقال بعضهم: المراد بالقصر قصر صلاة الخوف من اثنتين إلى واحدة؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولما جاء عن النبي ﷺ في بعض صفات صلاة الخوف أنه صلى بكل طائفة ركعة واحدة فقط، وانصرفوا، وكانت له ركعتان.

القول الثاني: أن المراد بالقصر في الآية قصر الكيفية والصفة عند الخوف (٣). لقوله بعده: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، قالوا: ويدل على هذا أنه عز وجل أتبع ذلك بذكر صفة صلاة الخوف بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية.

ولهذا لما عقد البخاري رحمه الله كتاب صلاة الخوف صدره بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٤).

كما يدل على هذا قوله بعد هذا: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أقيموها تامة

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٦)، وأبو داود في الصلاة (١١٩٩)، والنسائي في تقصير الصلاة (١٤٣٣)، والترمذي في التفسير (٣٠٣٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٢-٢٥٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٤)، «تفسير المنار» (٥/ ٣٦٥)، «أضواء البيان» (١/ ٣٣٧).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٩، ٣٥١).

قال الشنقيطي: «ومعنى قصر كيفيتها أن يجوز فيها من الأمور ما لا يجوز في صلاة الأمن كأن يصلي بعضهم مع الإمام ركعة واحدة، ويقف الإمام حتى يأتي البعض الآخر فيصلي معهم الركعة الأخرى، وكصلاتهم إيماء رجالًا وركبانا وغير متوجهين إلى القبلة، فكل هذا من قصر كيفيتها» «أضواء البيان» (١/ ٣٣٧).

بكيفيتها وصفتها حال الأمن[١].

واستدلوا على هذا بالأحاديث الدالة على أن صلاة السفر أصلها ركعتان: كحديث عائشة وعمر وابن عباس- رضي الله عنهم- وغيرهم[٢]، كما سيأتي في ذكر أدلة القائلين بوجوب القصر في الأحكام.

وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبدالله: «**إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملًا عملنا به**»[٣].

قال ابن كثير[٤] بعد أن ذكر هذا الأثر: «فقد سمى صلاة الخوف مقصورة وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك، واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن».

قال ابن كثير: «وأصرح من هذا ما أخرجه ابن جرير أيضًا عن سماك الحنفي: سألت ابن عمر عن صلاة السفر؟ فقال: ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر صلاة المخافة. فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة ركعة»[٥].

وهذا القول مروي عن جابر بن عبدالله ومجاهد والضحاك والسدي[٦]، وغيرهم واختاره الطبري[٧].

وقال بعض العلماء: القصر في الآية يحتمل الأمرين: قصر العدد والكمية، وقصر

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٢٩) الأثر (١٠٣١٨).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٣٥١).

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٤) الأثر (١٠٣٢٧).

(٦) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٣٢-١٣٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٠).

(٧) في «جامع البيان» (٩/ ١٣٩-١٤٠).

الصفة والكيفية[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «وهو سبحانه ذكر الخوف والسفر؛ لأن القصر يتناول قصر العدد، وقصر الأركان، فالخوف يبيح قصر الأركان، والسفر يبيح قصر العدد، فإذ اجتمعا أبيح القصر بالوجهين، وإن انفرد السفر أبيح أحد نوعي القصر».

وقال أيضًا[٣]: «قيل المراد بالقصر في الآية قصر العدد فقط، فعلى هذا يكون التخصيص بالخوف غير مفيد. والثاني: أن المراد قصر الأعمال، وهذا يرد عليه أن صلاة الخوف جائزة حضرا سفرا، والآية أفادت القصر في السفر.

والثالث: وهو الأصح أن الآية أفادت قصر العدد وقصر العمل جميعًا، ولهذا علق ذلك بالسفر والخوف، فإذا اجتمع الضرب في الأرض والخوف أبيح القصر الجامع لهذا ولهذا، وإذا انفرد السفر فإنما يبيح قصر العدد، وإذا انفرد الخوف فإنما يبيح قصر العمل».

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: «إن» شرطية، «خفتم» فعل الشرط، ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ﴾، «أن»: حرف مصدري ونصب، و«يفتنكم»: منصوب به، وعلامة نصبه الفتحة.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«خفتم» تقديره: إن خفتم فتنة الذين كفروا.

وجواب الشرط معلوم من السياق.

ومفهوم الشرط ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أن القصر لا يجوز إلا بوجود الخوف مع السفر، وهذا المفهوم غير مراد على الصحيح من أقوال أهل العلم.

إما لأن الله رفع هذا الشرط يدل على هذا قوله ﷺ لعمر لما سأله عن القصر وقد أمن الناس، فقال ﷺ: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[٤].

وقيل: إن هذا الشرط، خرج مخرج الغالب، إذ كان الغالب على أسفارهم آنذاك

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٩٨-٩٩)، وانظر (٢٤/ ١٢٣).

(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.

الخوف(١).

والأول أولى: وأيا كان ذلك فالآية- كما سبق- تدل على جواز القصر حال السفر وحال الخوف، فإن وجد السفر وحده جاز قصر العدد والكمية، وإن وجد الخوف وحده جاز قصر الصفة والكيفية، وإن وجدا معًا جاز القصران.

﴿أَن يَفْتِنَكُمُ﴾، الفتنة الابتلاء والاختبار وتكون في الخير والشر قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، الكفر لغةً: الستر والتغطية، وهو: جحود وإنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه، أو الاستكبار عن الانقياد لشرعه أو الإعراض عنه أو الشك فيه ونحو ذلك.

ومعنى قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا بقتالهم لكم ومنعكم من تمام الصلاة وصدكم عن دينكم.

قال الطبري(٢): «إن خشيتم أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم، وفتنتهم إياهم حملهم عليهم وهم فيها ساجدون حتى يقتلوهم ويأسروهم فيمنعوهم من إقامتها وأدائها، ويحولوا بينهم وبين عبادة الله وإخلاص التوحيد له».

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ تعليل للحكم السابق، وهو قصر الصلاة.

و«كان» مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، وإثبات هذا الحكم، وهو عداوة الكافرين للمؤمنين في جميع الأوقات والأحوال.

وإنما وحَّد «عدوًا» وقبله جمع كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٦١).

وقد يكون من فائدة ذكر هذا الشرط ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر في السفر، وهو أن السفر مظنة للخوف والمشقة، وهذا أقصى ما يكون، ولهذا إذا اجتمع السفر والخوف جاز القصران، وإن انفرد أحدهما جاز أحد القصرين. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٠)، «زاد المعاد» (١/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٢) في «جامع البيان» (٩/ ١٢٣).

٧٧]؛ لأنه بمعنى المصدر يستوي فيه ويوصف به الواحد والجمع(١)، والتقدير: كانوا لكم ذوي عداوة(٢).

﴿مُّبِينًا﴾: صفة لـ«عدوًا»، أي: مظهري العداوة.

والمعنى: أن الكافرين كانوا للمؤمنين أعداء، عداوتهم للمؤمنين ظاهرة بينة، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

قال الطبري(٣): «عدوًا قد أبانوا لكم عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله ورسوله».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

لما ذكر الله مشروعية قصر الصلاة في السفر والخوف أتبع ذلك بذكر كيفية الصلاة وصفتها حال الخوف، وإذا تقابل الصفان(٤).

سبب النزول:

عن أبي عياش الزرقي قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر. وعلى المشركين خالد بن الوليد، فقال المشركون: لقد أصبنا منهم غرة، لقد أصبنا منهم غفلة، لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة، فأنزل الله صلاة الخوف بين الظهر والعصر، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر- يعني فرقتين- فرقة تصلي مع النبي ﷺ، وفرقة خلفهم يحرسونهم، ثم كبر فكبروا جميعًا، وركعوا جميعًا، ثم سجد الذين يلون رسول الله ﷺ، ثم قام فتقدم الآخرون فسجدوا، ثم قام فركع بهم جميعًا،

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٩)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٩).

(٢) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٧).

(٣) في «جامع البيان» (٩/ ١٢٣-١٢٤).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٤١)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٩).

ثم سجد بالذين يلونه حتى تأخر هؤلاء، فقاموا في مصاف أصحابهم، ثم تقدم الآخرون فسجدوا، ثم سلم فكانت لكلهم ركعتين مع إمامهم. وصلى مرة أخرى في أرض بني سليم»(١).

قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، الواو عاطفة، و«إذا» ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط.

﴿كُنتَ﴾، كان فعل الشرط، والخطاب للنبي ﷺ وهو من حيث الحكم يشمل قادة جيوش الأمة من بعده، وإنما خص به ﷺ؛ لأنه رسول الأمة وقائدها وزعيمها، والأمة تتأسى به، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿فِيهِمْ﴾، الضمير يعود إلى الصحابة المجاهدين مع رسول الله ﷺ، ويشمل الحكم أيضًا المجاهدين بعده مع ولاة أمرهم(٢).

﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، الفاء عاطفة، و«أقمت» معطوف على «كنت».

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٣٦)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٥٠)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ٥٠٥)- الأثر (٤٢٣٧)، وأحمد (٤/ ٥٩، ٦٠)، والطيالسي (١/ ١٥٠)، والطبري (٩/ ١٣١، ١٥٨) الآثار (١٠٣٢٣-١٠٣٢٤، ١٠٣٧٨)، والواحدي في «أسباب النزول» ص (١٢٠)، والبيهقي (٢/ ٢٥٤-٢٥٦) وصححه، والحاكم (١/ ٣٣٧). وقال: «صحيح على شرطهما» ووافقه الذهبي.
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٥٤-٣٥٥)- بعد أن ذكر هذا الحديث من رواية عبد الرزاق، وأشار إلى رواية أحمد له بإسناده ثم قال: «وهذا إسناد صحيح، وله شواهد كثيرة».
وقال البيهقي: «هذا إسناد صحيح» وقال محمود شاكر في تخريجه لتفسير الطبري (٩/ ١٣٢): «وهو حديث صحيح» وصححه الألباني.
ومن شواهده ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما سيأتي في ذكر صفات صلاة الخوف.
ومن شواهده أيضًا ما أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٣٥)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٣٨) الأثر (١٠٣٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من حديث عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة». وما أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٣/ ٣٠) والواحدي في «أسباب النزول» ص (١٢٠)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما وقال الحاكم: «صحيح على شرط البخاري» ووافقه الذهبي.
(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٧).

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، «ال» للعهد الذهني؛ لأن المراد الصلوات الخمس المكتوبة، لا جنس الصلاة.

والمعنى إذا أردت أن تقيم لهم الصلاة بإقامة أركانها وواجباتها وغير ذلك.

قال ابن كثير(١): «أي: إذا صليت بهم إمامًا في صلاة الخوف».

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الإقامة التي هي الإعلام للقيام للصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، قد قامت الصلاة. قد قامت الصلاة... إلخ(٢).

والمعنيان متقاربان، بل ومتلازمان؛ لأن من أراد الصلاة سيُعلم للقيام لها.

ومن أعلم للقيام لها فهو مريد لإقامة أركانها وواجباتها.

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾: جواب الشرط ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية، واللام: لام الأمر، سُكِّنت؛ لوقوعها بعد الفاء، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

والطائفة هي الفرقة والجماعة من الناس.

﴿مِّنْهُمْ﴾، «من» لبيان الجنس، أي: من أصحابك.

والمعنى: فلتقم فرقة وجماعة من أصحابك يصلون معك(٣).

ويفهم من هذا أن الجيش يقسم إلى طائفتين: فرقة تقوم تصلي مع الرسول ﷺ، وفرقة تكون بإزاء العدو، والخطاب للنبي ﷺ، ويشمل من بعده من قادة الجيوش الإسلامية.

﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾، الواو عاطفة، واللام لام الأمر، وسكنت؛ لأنها بعد الواو.

والأمر بأخذ السلاح للطائفة التي قامت تصلي مع النبي ﷺ.

وقيل: إنه للطائفة التي لم تقم بعد للصلاة، وقيل للطائفتين معًا.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٤١، ١٤٣)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٩)، «تفسير المنار» (٥/ ٣٧٢).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٤٢).

والصحيح أنه للطائفة التي تصلي؛ لدلالة السياق على ذلك؛ ولأن هذه الطائفة هي التي قد تعتقد بأنه لا يجوز لها حمل السلاح في الصلاة؛ أما الطائفة الأخرى التي لم تقم بعد للصلاة فأخذها للسلاح أمر مفروغ منه، إذ الغرض من جعلهم طائفتين لتبقى الطائفة التي لم تقم للصلاة في مواجهة العدو، وفي غاية الاستعداد واليقظة والاحتراس بأخذ السلاح وغيره.

﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: جمع سلاح، والسلاح ما يستخدمه المجاهدون في الحرب من أي أنواع الأسلحة، ثقيلًا كان أو خفيفًا، كبيرًا كان أو صغيرًا أو غير ذلك.

والمعنى: وليأخذوا أسلحتهم التي يتمكنون من حملها في صلاتهم ولا تشغلهم عن الصلاة(١).

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾، الفاء عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير جازمة، ﴿سَجَدُواْ﴾: فعل الشرط.

والواو في ﴿سَجَدُواْ﴾ ضمير في محل رفع فاعل يعود على الطائفة التي قامت تصلي مع النبي ﷺ باعتبار معناها؛ لأنها وإن كانت مفردة، فإن معناها الجمع والعدد من الناس.

والسجود لغة: الخضوع(٢)، وشرعا: السجود على الأعضاء السبعة، وهي: اليدان، والركبتان، وأطراف القدمين، والأنف والجبهة- عبادة لله- تعالى(٣).

والمراد بقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾، أي: فإذا أتموا صلاتهم، فأطلق السجود على الصلاة كلها(٤)، كما قال ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي لما سأله مرافقته في الجنة: «أعني على نفسك بكثرة السجود»(٥).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٤٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٢).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «سجد».

(٣) انظر: «المغني» (٢/ ١٩٤، ١٩٥)، «الحاوي» للماوردي (٢/ ١٢٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٤٢، ١٤٩).

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبوداود في الصلاة (١٣٢٠)، والنسائي في التطبيق (١١٣٨)- عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه، قال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة قال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعني =

وإنما أطلق السجود على الصلاة كلها؛ لأنه أفضل أركانها، ولهذا قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(١).

﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ جواب الشرط «فإذا سجدوا»، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية. واللام لام الأمر، وسكنت بعد الفاء، «يكونوا» مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون، والواو ضمير يعود إلى الطائفة الأولى التي صلت.

﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ من خلفكم، أي: من خلف الطائفة الثانية، فالأمر للطائفة التي صلت، والخطاب للطائفة الثانية التي ستأتي لتصلي.

والمعنى: إذا صلوا، أي فرغوا من صلاتهم، فليكونوا من وراء الطائفة الثانية، يحرسونها إذا قامت تصلي(٢)، وفي هذا إشارة إلى أن العدو خلفهم.

ويحتمل أن يكون المعنى: فإذا سجدوا، أي: إذا انتهوا من سجدتي الركعة الأولى، فليكونوا من ورائكم من غير تسليم، ثم بعد تسليم الإمام بالطائفة الثانية، تقوم كل طائفة لتقضي لنفسها ركعة- كما جاء في إحدى صفات صلاة الخوف الثابتة عن النبي ﷺ وجاه العدو فصلى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائمًا فأتموا لأنفسهم، ثم جاءت الطائفة الأخرى، فصلى بهم، وثبت جالسًا، فأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم»(٣).

=

على نفسك بكثرة السجود».

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)،والنسائي في التطبيق (١١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٤٢-١٦٢).

وقيل المعنى: فإذا سجدت الطائفة الأولى السجود المعهود على الأعضاء السبعة فلتكن الطائفة الأخرى من خلفهم يحرسونهم حال سجودهم لئلا يباغتهم العدو حال السجود.

وهذا غير صحيح؛ لأنه لو أراد هذا المعنى لقال: فإذا سجدتم فليكونوا من ورائكم. ولذكر هذا أيضًا مع الطائفة الأخرى في قوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٠)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، وأبو داود في الصلاة (١٢٣٧-١٢٣٩)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٣٦-١٥٣٧)، والترمذي في الجمعة (٥٦٥)، وابن ماجه في إقامة: الصلاة والسنة فيها (١٢٥٩)، من حديث صالح بن خوات عمن شهد

=

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾، الواو عاطفة، واللام لام الأمر سُكِّنت بعد الواو.

«تأت»: فعل أمر مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة الياء؛ لأن أصله «تأتي» بالياء.

﴿طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾: فرقة وجماعة أخرى «ثانية».

﴿لَمْ يُصَلُّوا۟﴾، أي: لم يصلوا بعد.

﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾، الفاء عاطفة، واللام لام الأمر، سُكِّنت بعد الفاء.

وهذا يدل على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظرًا الطائفة الثانية، ثم يصلي بهم ما بقي من الصلاة.

وفي قوله هنا: ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾: إشارة إلى أنهم يصلون معه حتى يسلم بهم هو، بينما قال في الطائفة الأولى ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ وفي هذا إشارة إلى أنهم يكملون لأنفسهم.

﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، الواو عاطفة، واللام لام الأمر سكنت بعد الواو.

و«الحذر»: هو الحيطة والاحتراز للأمر والاستعداد له، وفيه لغتان: «حِذْر»، و«حَذَر» الأولى بكسر الحاء وسكون الذال، كما في الآية، والثانية بفتحهما معًا(١).

والأمر في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ للطائفة الأخرى التي قامت تصلي، وإنما أمرت الطائفة الثانية بأخذ الحذر دون الطائفة الأولى- والله أعلم؛ لأن وقت صلاة الطائفة الأولى قد لا يشعر العدو بأنهم يصلون، أو لا يتمكن من الاستعداد لمهاجمتهم، أما وقت صلاة الطائفة الثانية، وهو آخر الصلاة، فإن العدو قد يكون عرف أنهم منشغلون بالصلاة(٢).

=

رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلى صلاة الخوف: أن طائفة صفت معه وطائفة وجاه العدو، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائمًا، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا، فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالسًا وأتموا لأنفسهم، فسلم بهم».

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «حذر».

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢١).

وإذا أراد مهاجمتهم فلن يؤخرها عن هذا الوقت؛ لأنه آخر الصلاة، وهو آخر فرصة له.

قال القرطبي[١]: «وذكر الحذر في الطائفة الثانية دون الأولى؛ لأنها أولى بأخذ الحذر؛ لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت؛ لأنه آخر الصلاة».

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ود: بمعنى أحب،[٢]. أي: أحبوا محبة شديدة.

﴿لَوۡ تَغۡفُلُونَ﴾، «لو» في الأصل تأتي شرطية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، ويقال لها: حرف امتناع لامتناع.

وقد تأتي «لو» مصدرية بمعنى «أن» كما في هذه الآية، والغالب أن تكون بعد «ود» أو «أحب»، والتقدير هنا: ود الذين كفروا أن تغفلوا، أي: ودوا غفلتكم عن أسلحتكم.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة: ٩٦][٣].

والغفلة السهو عن الشيء أو تركه[٤].

﴿عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾، الأسلحة: جمع سلاح، وهو اسم لكل ما يستخدم في الحرب من الأدوات والآلات وغيرها.

﴿وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾، الأمتعة جمع متاع اسم لكل ما يتمتع به الإنسان في سفره وإقامته من الزاد والأثاث ونحوه.

والمعنى: أحب الذين كفروا وتمنوا لو تنشغلون وتلتهون عن أسلحتكم التي تقاتلون فيها وأمتعتكم التي فيها بلاغكم في أسفاركم وجهادكم فتسهون عنها، كما في قولهم: «لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم».

وفي هذا إشارة إلى وجه الحكمة في الأمر بأخذ الحذر والسلاح.

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، «ميلة» مفعول مطلق، «واحدة» توكيد، أي:

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٦٥).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «ودد».

(٣) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٤) انظر: «لسان العرب» مادة «غفل».

فيحملون عليكم جميعًا حملة واحدة، ويشدون عليكم شدة واحدة، كما يقال: ضربة رجل واحد، فيقتلونكم ويجهزون عليكم، ويقضون عليكم ويستأصلونكم.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت في عبد الرحمن بن عوف وكان جريحًا»(١).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، الواو عاطفة، أي: ولا حرج عليكم ولا إثم.

﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾، أي: إن كان بكم أذى بسبب المطر لما يحصل منه من الوحل والطين، وبلل الثياب والسلاح، فيحصل منه ثقل على المقاتل يشق معه حمل السلاح.

﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، «أو» عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾.

﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض، والمريض ضد الصحيح.

والمعنى: وإن كنتم مرضى مرضا تعجزون معه عن حمل السلاح أو يشق عليكم معه حمل السلاح من جراح وغيره.

﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾، «أن» حرف مصدري ونصب، ﴿تَضَعُوٓا۟﴾: فعل مضارع منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون، وأن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بفي مقدرة، التقدير: ولا جناح عليكم في وضع أسلحتكم.

والمعنى: ولا حرج عليكم ولا إثم إن كان بكم أذى بسبب المطر، أو كنتم مرضى لا تستطيعون حمل السلاح، أو يشق عليكم حمله أن تضعوا أسلحتكم فلا تحملوها.

﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾، أمر لهم بأخذ الحذر مرة أخرى مبالغة في الحيطة والتيقظ، وهو معطوف على قوله: ﴿أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾، أي: إن وضعتم أسلحتكم بسبب مطر أو مرض فلا تغفلوا، بل خذوا حذركم من عدوكم، واحتاطوا واحترسوا، وكونوا متيقظين وعلى أتم الأهبة والاستعداد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿أَعَدَّ﴾: بمعنى هيأ وجهز، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾، الكافرين:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٩٩)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٦٣) الأثر (١٠٣٧٩)، والحاكم (٢/ ٣٠٨).

جمع كافر، وهو الذي أنكر وحدانية الله وجحد شريعته.

واستكبر عن الانقياد لشرعه أو أعرض عنه أو شك فيه.

﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾، أي: عذابًا مذلًا لهم، والإهانة: الإذلال، أي: عذابًا يذلهم غاية الإذلال في الدنيا والآخرة، في الدنيا بقتلهم وأخذ أموالهم على أيدي المؤمنين، وفي الآخرة بعذاب جهنم خالدين فيها أبدًا، لا يموتون فيها ولا هم منها يخرجون.

ويجمع الله لهم بين العذب الحسي والعذاب المعنوي الذي يهينهم ويذلهم في الدنيا والآخرة.

فمن العذاب الحسي في الدنيا: ما يلقونه من قتال المؤمنين لهم وقتلهم وأخذ أموالهم، ومن العذاب الحسي في الآخرة: إصلاؤهم جهنم وبئس المصير.

ومن العذاب المعنوي في الدنيا ما يلقونه في قلوبهم من القلق النفسي، وضيق الصدر بسبب عدم الإيمان وغلبة المؤمنين عليهم.

ومن العذاب المعنوي في الآخرة ما يلقونه من التوبيخ والتقريع لهم من الله عز وجل ومن الملائكة، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٠- ٦٤].

وكما في قوله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. وهذا على سبيل الاستهزاء به والتهكم.

وأنى لهم العزة والكرامة وقد أهانهم الله، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

ذكر الله عز وجل الرخصة في قصر الصلاة حال السفر والخوف وصفة صلاة الخوف، وحيث إن الصلاة حال السفر والخوف ينقص من ركعاتها، أو من حدودها أو

منهما معًا لحال العذر أتبع ذلك بالأمر بذكر الله بعد الفراغ من الصلاة على كل حال، ثم أتبع ذلك بالأمر بإقامة الصلاة بتمامها إذا زال الخوف والسفر(١).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الفاء عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير جازمة، ﴿قَضَيْتُمُ﴾: فعل الشرط، وجوابه ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

ومعنى ﴿قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: فرغتم منها وأتممتموها وأنهيتموها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي: فرغتم منها، وقال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، أي: أتمهن.

و«ال» في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعهد، ويحتمل أن تكون للعهد الذهني، أي: الصلوات الخمس المكتوبة، المعهودة لأنها هي التي يشرع الذكر بعدها.

ويحتمل أن تكون للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكر الصلاة في قوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: جواب الشرط «إذا»، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية أي: اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم(٢)؛ لأن الذكر يكون بالقلب، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

ويكون باللسان قال ﷺ: «**لا يزال لسانك رطبا بذكر الله**»(٣).

والمعنى اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم بعد فراغكم من صلاة الخوف بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وسائر الأذكار المشروعة.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٧).

(٢) قال الجصاص في «أحكام القرآن» (٢/ ٢٦٥): «الذكر بالقلب وهو الفكر في عظمة الله وجلاله وقدرته وفيما في خلقه من الدلائل عليه وعلى حكمه وجميل صنعه، والذكر باللسان بالتعظيم والتسبيح والتقديس».

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، عن عبد الله بن يسر- رضي الله عنه- أن رجلًا قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله» قال الترمذي: «حديث حسن غريب» وصححه الألباني.

وبخاصة الأذكار المشروعة دبر الصلوات المكتوبة، كما جاء في السنة، فالذكر باللسان بالنطق والتلفظ بهذه الأذكار، والذكر بالقلب بمواطأته للسان والتفكر في هذه الأذكار وفي عظمة الله عز وجل وآياته الشرعية والكونية.

﴿قِيَٰمًا﴾: حال من فاعل ﴿فَٱذۡكُرُواْ﴾، و﴿وَقُعُودًا﴾ معطوف على ﴿قِيَٰمًا﴾، والقعود ضد القيام، أي: جلوسًا.

﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾: جار ومجرور في موضع نصب على الحال عطفًا على ﴿قِيَٰمًا﴾.

أي: حال قيامكم، وحال قعودكم، وحال كونكم مضطجعين على جنوبكم. والمعنى: إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله على كل أحوالكم؛ وإنما خص القيام والقعود والاضطجاع على الجنب بالذكر؛ لأن هذه أغلب أحوال الإنسان.

كما قال تعالى في وصف المؤمنين أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قال الطبري[١] في كلامه على الآية: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾: «فاذكروا الله على كل أحوالكم قياما وقعودا ومضطجعين على جنوبكم بالتعظيم له والدعاء لأنفسكم بالظفر على عدوكم، لعل الله أن يظفركم وينصركم عليهم، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]».

﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾، الفاء عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير جازمة، ﴿ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾ فعل الشرط.

ومعنى ﴿ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾، أي: سكنت قلوبكم، وأمنتم وزال عنكم الخوف والقلق.

يقال: اطمأن القلب، أي: سكن[٢].

وقيل: معنى ﴿ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾ أقمتم بعد السفر[٣].

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ١٦٤).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «سكن».

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٦٥).

وقد يحتمل الأمرين؛ لأنه سبق قبل هذا ذكر قصر الصلاة في السفر، وقصر صلاة الخوف(١).

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: جواب الشرط ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية.

والمعنى: فأقيموا الصلاة إقامة تامة على الوجه الأكمل، ظاهرًا وباطنًا، بإقامة أركانها وواجباتها وخشوعها وجميع أفعالها وأقوالها من غير قصر، وبجماعة واحدة كما تؤدونها قبل الخوف.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾: هذه الجملة تعليل لما قبلها من الترخيص بقصر الصلاة حال السفر والخوف، والأمر بإقامتها تامة حال الأمن والإقامة.

والمراد بالصلاة في الموضعين هنا الصلوات الخمس، و«ال» فيها للعهد الذهني، أي: الصلوات الخمس المكتوبة المعهودة في الأذهان.

﴿كَانَتۡ﴾، «كان»: فعل ناسخ مسلوب الزمن، يفيد تحقيق الوصف، واسمها: ضمير مستتر يعود إلى الصلاة في محل رفع.

﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ«كتابًا»، و«المؤمنين» جمع مؤمن وهو من صدق ما جاء عن الله في الكتاب والسنة، وانقاد لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه.

﴿كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾، «كتابًا»: خبر كان منصوب، و«موقوتا» صفة لـ«كتابًا»، وجملة كان واسمها وخبرها في محل رفع خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ومعنى: ﴿كِتَٰبٗا﴾، أي: مكتوبا، مفروضًا، أي: إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضًا واجبًا.

﴿مَّوۡقُوتٗا﴾: محددًا بأوقات محددة معلومة، لا يجوز التقديم عنها ولا التأخير(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢٣).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٣٨)، «جامع البيان» (٩/ ١٦٧-١٧٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٦٥)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٩٤)، «الكشاف» (١/ ٢٩٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٧).

كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، فدلوك الشمس: زوالها، وهو وقت الظهر والعصر، وغسق الليل: ظلامه، وهو قت المغرب والعشاء، وقرآن الفجر: صلاة الصبح(١).

وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يعني صلاة المغرب والفجر، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ يعني صلاة العشاء، وقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يعني صلاة الظهر(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤].

فـ﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ أوله الفجر، وآخره الظهر والعصر، و﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ المغرب والعشاء(٣).

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

قبل طلوع الشمس الفجر، وقبل غروبها العصر، ومن آناء الليل إشارة إلى المغرب والعشاء(٤).

كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**أمّني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى الظهر في الأولى منهما حين كان الفيء مثل الشراك، ثم صلى العصر حين كان كل شيء مثل ظله، ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم. وصلى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شيء مثله، لوقت العصر بالأمس، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه، ثم صلى المغرب لوقته الأول، ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض، ثم**

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢٤)، «تفسير ابن كثير» (٥/ ٩٩)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧٩).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢٤)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣١٣-٣١٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٨٤)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣١٨-٣١٩).

التفت إلي جبريل فقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين»(١).

وجاء في حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- نحوه، وليس فيه «لوقت العصر بالأمس»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل الرخصة في قصر الصلاة عند الضرب في الأرض والخوف وكيفية صلاة الخوف ووجوب أخذ الحذر من الأعداء أتبع ذلك بالنهي عن أن يهن المسلمون أو يضعفوا في طلب عدوهم، وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠]، وكقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾، الواو استئنافية، و«لا» ناهية، و«تهنوا»: فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون. والوهن هو الضعف، قال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، أي: ضعف، والمعنى: لا تضعفوا وتتوانوا، بل أظهروا القوة والجلد.

﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾، ابتغاء بمعنى: طلب. والقوم: هم الجماعة من الناس. أي: في طلب القوم الكفار من أعدائكم المحاربين لكم وتتبعهم لقتالهم.

قال ابن كثير(٣): «لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد».

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٣٩٣)، والترمذي في الصلاة (١٤٩)، وقال: «حديث حسن صحيح» وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة (١٥٠)، وأحمد (٣/ ٣٣٠)، والحاكم (١/ ١٩٥-١٩٦) قال الترمذي: «وقال محمد: أصح شيء في المواقيت حديث جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ»، وقال الحاكم «صحيح، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٧).

و«القوم»: يطلق على جماعة الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ [هود: ٧٨].

ويطلق «القوم» غالبًا على ما يشمل الرجال والنساء، وهذا كثير.

﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾.

تعليل للنهي في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾، فيه بيان أنه لا مبرر للوهن في طلبهم.

﴿تَأۡلَمُونَ﴾، الألم: الوجع من الجراح والقتل وأخذ المال وغير ذلك.

قال ابن كثير(١): «كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وأنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام».

وفي هذا تقوية لقلوب المجاهدين، وحفز لهممهم؛ للتضحية والإقدام في سبيل الله.

﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، الرجاء معناه: الأمل(٢)، قال الزجاج: «وأجمع أهل اللغة الموثوق بعلمهم أن الرجاء هٰهنا على معنى الأمل».

أي: وتأملون من الله النصر على عدوكم في الدنيا، كما وعدكم عز وجل بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٧).

(٢) وقيل: معنى الرجاء الخوف، واستدل له بقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣].
أي: لا تخافون لله عظمة. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٧٨). وقد رد هذا الطبري والزجاج وانظر: «جامع البيان» (٩/ ١٧٤)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ١٠٩)، وانظر: «اللسان» مادة «رجا».

وتأملون منه عز وجل الثواب العظيم في الآخرة، الذي أعده سبحانه للمجاهدين في سبيله، كما قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

قوله: ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾، «ما» اسم موصول، أو نكرة موصوفة، أي: الذي لا يأملون؛ لأنهم كفرة لا يرجون من الله شيئًا، وإنما يعتمدون على جهودهم القاصرة وهدفهم الحياة الدنيا فقط.

وهذا مفترق الطرق بين المؤمنين والكفار في قتالهم، وفي كل أحوالهم، وفرق عظيم بين المؤمن الذي يرجو ثواب الله ونصره وتوفيقه، وبين الكافر الذي لا يرجو من الله شيئًا، فلا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابًا.

ولهذا لما نادى أبو سفيان يوم أحد قائلًا: «يوم بيوم بدر، والحرب سجال». رد عليه الصحابة- رضي الله عنهم- بقولهم: «لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار»(١).

وإذا كان المؤمنون يرجون من الله في قتالهم النصر في الدنيا والثواب في الآخرة، بينما الكفار لا يرجون من الله شيئًا، فإن الأولى بالمؤمنين أن يكونوا أشداء أقوياء في طلب عدوهم، وأكثر منهم إقدامًا، وأشد صبراً، وأقوى تحملًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ «كان» مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، أي: تحقيق اتصاف اسمها بخبرها، أي: وكان الله ولم يزل عليمًا حكيمًا(٢).

﴿ٱللَّهُ﴾ لفظ الجلالة علم على ذات الرب عز وجل، ومعناه: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

---

(١) أخرج الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٧٣) الأثر (١٠٤٠٧)- عن ابن عباس قال: «لما كان قتال أحد، وأصاب المسلمين ما أصاب، صعد النبي ﷺ الجبل، فجاء أبو سفيان، فقال: يا محمد ألا تخرج، ألا تخرج؟ الحرب سجال يوم لنا ويوم لكم. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه «**أجيبوه**» فقالوا: «**لا سواء، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**» فقال أبو سفيان «عزى لنا ولا عزى لكم» فقال ﷺ: «**قولوا له: الله مولانا ولا مولى لكم**» قال أبو سفيان: «اعل هبل. اعل هبل»، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أعلى وأجل**» فقال أبو سفيان موعدكم بدر الصغرى. ونام المسلمون وبهم الكلوم» والكلوم: الجروح.

(٢) انظر: «جامع البيان «(٩/ ١٧٥).

﴿عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع للأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

أي: فلا يعتري علمه- عز وجل- جهل سابق بالأشياء قبل وجودها، ولا نسيان لا حق لها حال وجودها، وبعد عدمها.

والعلم في الأصل إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمًا﴾، أي: ذا الحكم التام، والحكمة البالغة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قال ابن كثير[1]: «أي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية».

الفوائد والأحكام:

١- تيسير الله تعالى الأحكام في السفر؛ لأن السفر مظنة المشقة؛ ولهذا شرع فيه قصر الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفي هذا تقرير للقاعدة الشرعية أن المشقة تجلب التيسير، كما شرع في السفر الجمع بين الصلاتين والفطر في رمضان إلى غير ذلك من رخص السفر.

٢- أن السفر علة لقصر الصلاة؛ لأنه مظنة للمشقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

٣- أنه لا يشرع القصر إلا بعد الشروع في السفر والخروج من البلد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فإذا خرج عن البلد وجعل البناء خلفه شرع له القصر[2].

٤- أن قصر الصلاة في السفر رخصة وليس بواجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٧)، وانظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٦)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧١).

جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

فإن الله عز وجل نفى الجناح وهو الحرج والإثم في قصر الصلاة، وهذا يدل على أن القصر رخصة وليس بواجب(١)، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة: مالك(٢)، والشافعي(٣)، وأحمد في المشهور عنه(٤).

واستدلوا بأدلة عدة منها ما يلي:

أ- ما رواه يعلى بن أمية، قال: قلت لعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- إنما قال الله تعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، وقد أمن الناس؟ فقال عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**»(٥).

فقوله: «**صدقة تصدق الله بها عليكم**» يدل على أن القصر رخصة، وليس بواجب.

ب- أن الصحابة- رضي الله عنهم- أتموا الصلاة خلف عثمان رضي الله عنه، ولو كان القصر واجبًا لما تابعوه على الإتمام، ولم ينقل عنهم أنهم أعادوا صلاتهم خلفه حين أتم- وإن كان كثير منهم لا يرى الإتمام(٦).

ج- أن المسافر إذا اقتدى بمقيم لزمه الإتمام، حتى ولو لم يدرك معه إلا ركعتين أو أقل من ذلك، ولو كان القصر واجبًا لما جاز صلاة أربع خلف الإمام(٧).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٩٧).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٩٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٢) وعن مالك قال: «إن أتم في السفر فإنه يعيد ما دام في الوقت قال القرطبي: استحباب لا إيجاب».

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٧١)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٥).

(٤) انظر: «المغني» (٣/ ١٢٢).

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨٦)، وأبو داود في الصلاة (١١٩٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٣٧)، وابن ماجه في الصلاة (١٠٦٥)، وأحمد (١/ ٢٥، ٣٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٤٧١).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٠).

(٧) انظر: «المهذب» (١/ ١١٠)، «المغني» (٣/ ١٤٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣٥٢)، «أضواء البيان» (١/ ٣٦٣).

د- أن رخص السفر كلها شرعت على سبيل التجويز[١].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قصر الصلاة في السفر واجب، وقد روي هذا القول عن جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر وعلي وابن عباس وجابر بن عبدالله وابن عمر[٢] وابن مسعود[٣] رضي الله عنهم، وعمر بن عبد العزيز وحماد بن أبي سليمان[٤]، وبه قال أبو حنيفة[٥].

واستدلوا بأدلة كثيرة منها ما يلي[٦]:

أ- ما جاء عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر، وأتمت صلاة الحضر**».

قال الزهري لعروة وهما من رواة الحديث: «**ما بال عائشة تتم؟ قال: تأولت ما تأول عثمان**»[٧].

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٦).

مما استدل به الجمهور حديث عائشة الذي رواه النسائي في تقصير الصلاة في السفر (١٤٥٦)، والدارقطني في سننه في الصيام (٢/ ١٨٨)، وأنها قالت: اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، حتى إذا قدمت المدينة قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت، وأفطرت وصمت قال: «أحسنت يا عائشة» ولم يعب عليَّ. وقد حسن إسناده الدارقطني والنووي: وقال الإمام أحمد: «حديث منكر» وقال ابن تيمية: «هذا الحديث كذب على عائشة- رضي الله عنها». وقد ضعف ابن تيمية وغيره هذا الحديث من وجوه عدة، منها: أن في بعض رواياته أنها اعتمرت مع رسول الله ﷺ في رمضان، وهو ﷺ لم يعتمر في رمضان قط، بل كانت عمره في ذي القعدة، أن عائشة ما كانت لتصلي خلاف صلاة رسول الله ﷺ وأصحابه وهي تشاهدهم، أنها القائلة فرضت الصلاة ركعتين.. فكيف تزيد على الفرض.

وأيضًا فإنها تأولت في إتمامها بعد وفاته ﷺ ولو كان عندها رواية في هذا لاحتجت بها. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٩، ١٤٤-١٥٣)، «زاد المعاد» (١/ ٤٦٤-٤٦٥، ٤٧١-٤٧٣). وقال الألباني في «ضعيف النسائي»: «منكر».

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٧١).

(٣) سيأتي تخريجه عن ابن مسعود.

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٤).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٣)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٥١).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٧) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٩٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٨٥)، وأبو داود في الصلاة =

قالوا: فهذا يدل على أن فرض صلاة السفر ركعتان، لا تجوز الزيادة عليهما، كما أن فرض صلاة الحضر أربع لا تجوز الزيادة عليها(١).

ب- وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «**صلاة الجمعة ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة السفر ركعتان، تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ**»(٢).

جـ- وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعًا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة»(٣).

قال ابن كثير(٤): «اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان، وأنها تامة غير مقصورة، كما هو مصرح به في حديث عمر- رضي الله عنه».

د- وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه سئل عن الصلاة في السفر، فقال: «**ركعتين سنة رسول الله ﷺ**»(٥).

هـ- وعن يحيى بن أبي إسحاق قال: سمعت أنس بن مالك يقول: «**خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئًا؟ قال: أقمنا بها عشرا**»(٦).

=

(١١٩٨)، والنسائي في الصلاة (٤٥٣).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٩).

(٢) أخرجه النسائي في الجمعة (١٤٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٣)، وأحمد (١/ ٣٧، ٧٧) وإسناده صحيح.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٥٠) بعد أن ذكره من رواية أحمد: «وهذا إسناد على شرط مسلم» وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٤٦٧): «وهذا ثابت عن عمر- رضي الله عنه- » وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨٧) وأبو داود في الصلاة (١٢٤٧) والنسائي في الصلاة (٤٥٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٨)، وأحمد (١/ ٢٣٧).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٠).

(٥) أخرجه الترمذي في الجمعة (٥٥٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٧)، وأحمد (٢/ ٣١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٨١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٩٣)، وأبو داود في الصلاة (١٢٣٣)، والنسائي في تقصير الصلاة في السفر (١٤٣٨)، والترمذي في الجمعة (٥٤٨)، وابن ماجه في

=

و- وعن حارثة بن وهب الخزاعي قال: صليت مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين»(١).

ز- وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «صليت مع النبي ﷺ ركعتين، ومع أبي بكر وعمر ومع عثمان صدرا من إمارته ثم أتمها»(٢).

ح- وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون ركعتين ركعتين»(٣).

ط- وعن عمران بن حصين- رضي الله عنه- قال: «ما سافر رسول الله ﷺ سفرًا إلا صلى ركعتين ركعتين حتى يرجع، وإنه أقام بمكة زمان الفتح ثماني عشرة ليلة يصلي بالناس ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم يقول: يا أهل مكة قوموا فصلوا ركعتين فإنا سفر ثم غزا حنينا والطائف فصلى ركعتين ركعتين، ومع عمر- رضي الله عنه- فصلى ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم رجع إلى جعرانة فاعتمر منها في ذي القعدة، ثم غزوت مع أبي بكر- رضي الله تعالى عنه- وحججت واعتمرت فصلى ركعتين ركعتين، ومع عثمان- رضي الله عنه- صدر إمارته ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم إن عثمان- رضي الله عنه- صلى بعد ذلك أربعًا»(٤).

ي- وعن عبدالله بن يزيد قال: صلى بنا عثمان بن عفان- رضي الله عنه- بمنى أربع ركعات. فقيل ذلك لعبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- فاسترجع ثم قال:

=

إقامة الصلاة (١٠٧٧).

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (١٠٨٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٩٦)، وأبو داود في المناسك (١٩٦٥)، والنسائي في تقصير الصلاة (١٤٤٦)، والترمذي في الحج (٨٨٢)، وأحمد (٤/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (١٠٨٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٩٤)، وأبو داود في الصلاة (١٢٢٣)، والنسائي في تقصير الصلاة في السفر (١٤٥٠)، والترمذي في الجمعة (٥٤٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧١).

(٣) أخرجه النسائي في تقصير الصلاة (١٤٣٥)، والترمذي في أبواب السفر (٥٤٧) وقال: «حديث حسن صحيح» وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٢٩)، والترمذي في الجمعة (٥٤٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وضعفه الألباني.

صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «أما القصر في السفر فهو سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه الراشدين، فإن النبي ﷺ لم يصل في السفر قط إلا ركعتين، وكذلك أبو بكر وعمر، وكذلك عثمان في السنة الأولى من خلافته، لكنه في السنة الثانية أتمها بمنى لأعذار مذكورة في غير هذا الموضع..

وأيضًا فإن المسلمين قد نقلوا بالتواتر أن النبي ﷺ لم يصل في السفر إلا ركعتين، ولم ينقل عنه أحد أنه صلى أربعًا، وكل الصحابة كانوا يقصرون منهم أهل مكة، وغير أهل مكة بمنى وعرفة وغيرهما».

وقد أجاب أصحاب هذا القول عن استدلال الجمهور بالآية ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ على أن القصر ليس بواجب بأن الآية في صلاة الخوف، فلا دليل فيها على قصر الرباعية(٣) وأيضًا فإن نفي الجناح لا يدل على عدم الوجوب؛ لأنه قد ينفي الجناح خوفًا من توهمه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

فقد نفى الله الجناح عمن سعى بين الصفا والمروة علمًا أن السعي بينهما ركن أو واجب في الحج، لتوهم بعض الصحابة أن السعي بينهما فيه حرج وإثم؛ لأنه كان على الصفا والمروة صنمان كانت تهل لهما الأنصار.

ولأنهم ألفوا الإتمام، فقال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾؛ لئلا يظنوا أن عليهم نقصًا في القصر، فنفى عنهم الجناح في القصر؛ لتطمئن نفوسهم به(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٨٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٩٥)، وأبو داود في المناسك (١٩٦٠)، والنسائي في تقصير الصلاة (١٤٤٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٧-١٩، ٢٠)، وانظر: «زاد المعاد» (١/ ٤٦٤-٤٦٥، ٤٦٨).

(٣) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٦٣).

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٦)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٥٢).

وقالوا: إن قصر الرسول ﷺ الصلاة في جميع أسفاره حال الأمن والخوف: يدل على أن فرض المسافر ركعتان بفعل النبي ﷺ وبيانه لمراد الله- تعالى.

وقالوا عن الحديث: «**صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**» قالوا: صدقة الله علينا إسقاطه عنا، فدل ذلك على أن فرض المسافر ركعتان، وقوله: «فاقبلوا صدقته» يوجب ذلك؛ لأن الأمر للوجوب(١).

وقد أجاب الجمهور عن الأدلة التي استدل بها القائلون بوجوب القصر بما يلي:

قالوا قول عائشة: «**فأقرت في السفر**» معناه: أنها لم تزد، وهذا نفي للزيادة، لا تحريم للزيادة.

قالوا: والأحاديث الواردة بأن صلاة السفر ركعتان، أو بأنه لم يزد في السفر على ركعتين: محمولة على أنه ﷺ أخذ بالرخصة أو بالأفضل.

وقول عمر: «**تمام غير قصر**»، أي في الأجر(٢).

وإنكار الصحابة- رضي الله عنهم- على عثمان- رضي الله عنه- حين أتم الصلاة بمنى(٣)؛ لأنه ترك الأفضل، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر- رضي الله

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٣)، «أضواء البيان» (١/ ٣٦٣).

(٢) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٦٣).

(٣) اختلف في سبب إتمام عثمان. فقيل: لأنه نوى الإقامة بعد الحج، وقيل: لأنه يرى أنه لا يقصرها إلا من حل وارتحل، وكان شاخصا، أو بحضرة عدو ويحتاج إلى الزاد المزاد، وقيل: لأنه يرى التخيير بينهما.

واستبعد شيخ الإسلام ابن تيمية أن يتم لأنه يرى التخيير ويخالف ما داوم عليه رسول الله ﷺ. واختار ابن تيمية أن إتمام عثمان؛ لأنه يرى أنه لا يقصر الصلاة إلا من كان شاخصا، أي: مسافرًا، وهو الحامل للزاد والمزاد، أي: للطعام والماء، أما من كان في مكان فيه الطعام والشراب فلا يقصر؛ لأنه عنده بمنزلة المقيم، وقيل: أتم ليعلم الأعراب، أو لأنه إمام الناس فحيث نزل فهو في وطنه، وقيل لأن مني قد بنيت فصارت قرية، وقيل: لأنه قد تأهل أي: تزوج بمكة قال ابن القيم: «وهذا أحسن ما اعتذر به عن عثمان» ورد بقية الأقوال.

انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٤). «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٨)، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٨٥، ٩٣-٩٤، ١٦٠-١٦١)، «زاد المعاد» (١/ ٤٦٩-٤٧١)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧٧).

وأما إتمام عائشة رضي الله عنها بعد وفاة رسول الله ﷺ فقيل: إنها تأولت كما تأول عثمان رضي الله عنه، وأخبرت أن الإتمام لا يشق عليها، وقيل: لأنها أم المؤمنين فحيث نزلت فهي في وطنها، وقيل: تأولت أن =

عنهما- من الأخذ بالرخصة، لا أنه فعل أمرًا محرمًا لا يجوز.

ولهذا أتموا- رضي الله عنهم- وعنه وراءه وتابعوه، بل إن إتمامهم خلفه مع إنكارهم عليه، وقول عبد الله بن مسعود: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا من أقوى الأدلة على أن القصر ليس بواجب، إذ لو كان القصر واجبًا لم يتابعوه في زيادة محرمة في الصلاة، وإلا لبطلت صلاتهم؛ لأن الإمام، إنما يُتابع فيما هو مشروع، أما لم يكن مشروعًا فلا يجوز فيه متابعة الإمام، فلو قام الإمام ناسيا إلى ثالثة في الفجر أو رابعة في المغرب أو خامسة في الرباعية لم يجز للمأموم متابعته.

قال الشافعي(١): «لو كان فرض المسافر ركعتين لما أتمها عثمان ولا عائشة، ولا ابن مسعود، ولم يجز أن يتمها مسافر مع مقيم».

وقد اختلف الجمهور: أيهما أفضل القصر أو الإتمام؟ فذهب الجمهور منهم إلى أن القصر أفضل، فهو سنة، والإتمام مكروه، وهذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم، لملازمة الرسول ﷺ وخلفائه وصحابته لذلك في جميع أسفارهم- كما سبق بيانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وأظهر الأقوال قول من يقول: إنه سنة وإن الإتمام مكروه، ولهذا لا تجب نية القصر عند أكثر العلماء».

وقال أيضًا(٣): «وأما قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإن نفي الجناح لبيان الحكم وإزالة الشبهة لا يمنع أن يكون القصر هو السنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ نفى الجناح لأجل الشبهة التي عرضت لهم من الطواف

=

من لازم القصر الخوف.

قال ابن القيم: «وهذا غير صحيح، فإن النبي ﷺ سافر آمنا يقصر» وقيل غير ذلك انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٨)، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٤٥، ١٥٣، ١٥٥، ١٦١)، «زاد المعاد» (١/ ٤٧١)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧٧).

(١) في «الأم» (١/ ١٥٩)، وانظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٩)، وانظر (٢٤/ ١٠-١١، ١٩، ٢١-٢٢، ٩٣، ٩٦، ١٤٣-١٤٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٠) وانظر (٢٤/ ٩٧-١٠٠).

بينهما، لأجل ما كانوا عليه في الجاهلية من كراهة بعضهم الطواف بينهما، والطواف بينهما مأمور به باتفاق المسلمين، وهو ركن أو واجب أو سنة مؤكدة».

وقال أيضًا[١]: «ولهذا أنكر الصحابة على عثمان الإتمام، ولكنهم صلوا خلفه وأتموا معه، حتى كان ابن مسعود يصلي أربعًا إذا انفرد ويقول الخلاف شر.. وهذا يدل على أن صلاة السفر أربعًا مكروهة عندهم ومخالفة للسنة».

وأيضًا فإن القصر بلا شك أحوط؛ لأن من قصر الصلاة في السفر فصلاته صحيحة بالإجماع.

أما من أتم فصلاته غير صحيحة عند بعض أهل العلم.

قال السعدي رحمه الله[٢]: «ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره. والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد».

وبناء على الاختلاف: هل القصر واجب أو رخصة؟ اختلف أهل العلم هل يحتاج القصر إلى نية، أو لا يحتاج إلى نية؟

فأكثر أهل العلم أن القصر لا يحتاج إلى نية[٣]. وهو قول أبي حنيفة[٤]، ومالك[٥]. ورواية عن أحمد[٦]؛ لأن الأصل في صلاة السفر هو القصر.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يقصر إلا بنية، وبهذا قال الشافعي[٧]، وهو رواية عن أحمد[٨].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٠).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٤٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٩).

(٤) انظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٩٣-٩٤).

(٥) انظر: «حاشية الدسوقي مع الشرح الكبير» (١/ ٣٥٨-٣٦٧)، لكن فيه أنه لابد من نية القصر في أول صلاة يصليها في السفر. وقيل لابد من نية القصر عند كل صلاة ولو حكمًا.

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٠-٢١).

(٧) انظر: «المهذب» (١/ ١١٠)، «مغني المحتاج» (١/ ٢٦٦).

(٨) انظر: «المقنع مع الشرح» (٥/ ٥٣)، «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٠٤، ٢٤/ ٢٠-٢١).

٥- جواز قصر الصلاة في السفر مطلقًا، سواء طالت مسافته أو قصرت دون تحديد مسافة معينة للقصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: سافرتم فيها، وهذا مطلق في كل سفر، فكل ما أطلق عليه السفر في لغة العرب والعرف جاز القصر فيه؛ لأنه ظاهر النصوص(١).

ويشهد لهذا ما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان النبي ﷺ إذا خرج ثلاثة أميال، أو فراسخ صلى ركعتين»(٢).

قال ابن تيمية: «يحتمل أن من سافر هذه المسافة قصر، ويحتمل أن ذلك هو الذي قطعه من السفر، أي: لا يؤخر القصر حتى يقطع مسافة طويلة»(٣).

وعن جبير بن نفير قال: «خرجت مع أبي السمط إلى قرية على رأس سبعة عشر أو ثمانية عشر ميلا، فصلى ركعتين، فقلت له. فقال: رأيت عمر صلى بذي الحليفة ركعتين. فقلت له، فقال: إنما أفعل كما رأيت رسول الله ﷺ يفعل»(٤).

وروي عن ابن عمر- رضي الله عنه- قوله: «إني لأسفار ساعة من النهار فأقصر»(٥).

وأختار هذا طائفة من أهل العلم؛ منهم الموفق ابن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وبه قال داود الظاهري(٦). قالوا: فأدلة القصر مطلقة، والأدلة التي استدل بها القائلون بالتحديد ضعيفة(٧).

قال ابن قدامة(٨): «لا أرى لما صار إليه الأئمة حجة.. والحجة مع من أباح القصر لكل مسافر إلا أن ينعقد الإجماع على خلافه».

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٢)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٤)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٩١)، وأبو داود في الصلاة (١٢٠١).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٣١-١٣٤).

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٩٢)، والنسائي في تقصير الصلاة في السفر (١٤٣٧).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في الصلوات- في مسيرة كم يقصر الصلاة (٢/ ٤٤٥) وصحح الحافظ إسناده في «الفتح» (٢/ ٥٦٧)، وانظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٧٠).

(٦) انظر: «المحلى» (٣/ ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٠).

(٧) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٧).

(٨) في المغني» (٣/ ١٠٨-١٠٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١] بعد أن ذكر كلام ابن قدامة: «وهو كما قال رحمه الله، فإن التحديد بذلك ليس ثابتًا بنص ولا إجماع ولا قياس».

وقال أيضًا[٢]: «فإذا جد السير بالمسافر جمع، سواء كان سفره طويلًا أو قصيرًا، كما مضت سنة رسول الله ﷺ يجمع الناس بعرفة ومزدلفة المكي وغير المكي مع أن سفرهم قصير، وكذلك جمع ﷺ وخلفاؤه الراشدون بعرفة ومزدلفة، ومتى قصروا يقصر خلفهم أهل مكة وغير أهل مكة، وعرفة من مكة بريد، أربعة فراسخ، ولهذا قال مالك وبعض أصحاب أحمد كأبي الخطاب في «العبادات الخمس»: إن أهل مكة يقصرون بعرفة ومزدلفة، وهذا القول هو الصواب، وإن كان المنصوص عن الأئمة الثلاثة بخلافه: أحمد والشافعي وأبي حنيفة.

ولهذا قال طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم: إنه يقصر في السفر الطويل والقصير؛ لأن النبي ﷺ لم يوقت للقصر مسافة، ولا وقتًا، وقد قصر خلفه أهل مكة بعرفة ومزدلفة، وهذا قول كثير من السلف والخلف، وهو أصح الأقوال في الدليل، ولكن لابد أن يكون ذلك مما يعد في العرف سفرا مثل أن يتزود له، ويبرز للصحراء».

وقال أيضًا[٣]: «ولم يحد النبي ﷺ مسافة القصر بحد لا زماني ولا مكاني، والأقوال في ذلك متعارضة، ليس على شيء منها حجة، وهي متناقضة، ولا يمكن أن يحد ذلك بحد صحيح، فإن الأرض لا تذرع بذرع مضبوط في عامة، وحركة المسافر تختلف، والواجب أن يطلق ما أطلقه صاحب الشرع ﷺ، ويقيد ما قيده، فيقصر المسافر الصلاة في كل سفر، وكذلك جميع الأحكام المتعلقة بالسفر من القصر والصلاة على الراحلة والمسح على الخفين.. ومن قسَّم الأسفار إلى قصير وطويل، وخص بعض الأحكام بهذا وبعضها بهذا، وجعلها متعلقة بالسفر الطويل، فليس معه حجة يجب الرجوع إليها».

وقال أيضًا[٤]: «الفرق بين السفر الطويل والقصير لا أصل له في كتاب الله ولا في

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٨-٤١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٤-١٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٢-١٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٤-٣٥).

سنة رسول الله ﷺ، بل الأحكام التي علقها الله بالسفر علقها به مطلقًا كقوله تعالى في آية الطهارة: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦]». وذكر عددًا من الآيات والأحاديث فيها إطلاق السفر، ثم قال: «فهذه النصوص وغيرها من نصوص الكتاب والسنة ليس فيها تفريق بين سفر طويل وسفر قصير».

وقال ابن القيم(١): «ولم يحد النبي ﷺ لأمته مسافة محدودة للقصر والفطر، بل أطلق لهم ذلك في مطلق السفر والضرب في الأرض، كما أطلق لهم التيمم في كل سفر، وأما ما يروى عنه من التحديد باليوم أو اليومين أو الثلاثة فلم يصح عنه منها شيء البتة، والله أعلم».

وذهب جمهور أهل العلم، ومنهم الأئمة الأربعة: أبو حنيفة(٢)، ومالك(٣)، والشافعي(٤)، وأحمد(٥) وعامة الفقهاء. إلى أن هناك حدًا للسفر الذي تقصر فيه الصلاة، وأن الآية ذكر فيها السفر مطلقًا وقيدته السنة، وأنه لا يجوز القصر في السفر القصير.

وقد اختلف هؤلاء القائلون بأن للسفر الذي تقصر فيه الصلاة مسافة معينة، وأنه لا يجوز قصر الصلاة في السفر القصير في مقدار هذه المسافة.

فذهب الجمهور منهم إلى أن مسافة القصر مسيرة يومين سيرًا معتدلًا. أي: نحو أربعة برد(٦)، أي: ستة عشر فرسخا(٧)، أي: ثمانية وأربعين ميلا، أي: نحو ثمانين كيلومتر(٨).

وإلى هذا ذهب الأئمة الثلاثة: مالك(٩)، والشافعي(١٠)،... ... .

---

(١) في «زاد المعاد» (١/ ٤٨١)، وانظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٠٣)، «أضواء البيان» (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١/ ١٠٧).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٣-٣٥٥).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٢)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٧).

(٥) انظر: «المغني» (٣/ ١٠٦).

(٦) البرد: جمع بريد، والبريد أربعة فراسخ.

(٧) الفرسخ: ثلاثة أميال.

(٨) انظر: «فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» رقم (٣٥٣٤)، وتاريخ (١٨/ ٣/ ١٤٠١هـ. وانظر: «الممتع» شرح زاد المستقنع» للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٤/ ٤٩٧).

(٩) انظر: «المدونة» (١/ ١١٩، ١٢٠).

(١٠) انظر: «المهذب» (١/ ١٠٩)، «مغني المحتاج» (١/ ٢٦٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٨).

وأحمد[١]، وإسحاق[٢].

واستدلوا بما روي عن ابن عمر وابن عباس- رضي الله عنهما- في ذلك، فقد روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «**يا أهل مكة لا تقصروا في أقل من أربعة برد من مكة إلى عسفان**»[٣].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: «**قلت لابن عباس: أقصر إلى عرفة؟ قال: لا، ولكن إلى الطائف وعسفان**»[٤] وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- نحوه[٥].

قالوا: فذلك ثمانية وأربعون ميلا. قالوا: ولا مخالف لهما من الصحابة.

وذهب أبو حنيفة إلى أن مسافة القصر مسيرة ثلاثة أيام بلياليها[٦] واحتج بأن النبي ﷺ جعل مدة المسح للمسافر ثلاثة أيام بلياليهن[٧] وبحديث ابن عمر وأبي سعيد رضي الله عنهما: «**لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا معها ذو محرم**»[٨].

وقال الأوزاعي: مسافة القصر مسيرة يوم[٩].

---

(١) انظر: «المغني» (٣/ ١٠٥-١٠٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٢٦).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٢)، «المغني» (٣/ ١٠٦).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده بإسناد صحيح، وقد رواه ابن خزيمة في صحيحه مرفوعًا إلى النبي ﷺ وهو ضعيف؛ لأن في إسناده عبد الوهاب بن مجاهد وهو متروك» انظر: «التقريب» (١/ ٥٢٨) والصحيح وقفه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٨-٣٩): «ورواية ابن خزيمة في مختصر المختصر وغيره له مرفوعًا إلى النبي ﷺ باطل بلا شك عند أئمة الحديث» وانظر: «المغني» (٣/ ١٠٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٢٧)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٧)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧٠).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في الصلوات- في مسيرة كم يقصر الصلاة (٢/ ٤٤٥). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٢٤).

(٥) انظر: «المغني» (٣/ ١٠٦).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٧) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٧٦)، والنسائي في الطهارة (١٢٨)، وابن ماجه (٥٥٢)، والدارمي في الطهارة (٧١٤)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٨) سيأتي تخريجهما.

(٩) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٥)، وقال ابن حزم: مسافة ميل لما روي عن ابن عمر: «لو سافرت ميلًا لقصرت» ذكره الحافظ في «فتح الباري» (٢/ ٥٦٧) وقال: إسناده «صحيح» وانظر: «المحلى» (٣/ ١٩٢، ٢٠٠)، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٤١، ١٣٢).

وقد حمل الجمهور الأحاديث التي استدل بها القائلون بعدم التحديد كحديث أنس: «أنه ﷺ إذا خرج ثلاثة أميال أو فراسخ صلى ركعتين»[١] على أنه إذا تباعد عن البلد قصر، وهكذا حملوا حديث عمر[١]، وغيره على هذا، وقالوا: لم ينقل عن النبي ﷺ القصر صريحًا دون مرحلتين[٢].

وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية عن استدلال الجمهور بما روي عن ابن عباس وابن عمر بأن أكثر الروايات عنهما تخالف هذا، وأنه ثبت عن غيرهما من الصحابة ما يخالف ذلك[٣].

كما أجاب عن استدلال أبي حنيفة وغيره بحديث مسح المسافر ثلاثة أيام بقوله: «ليس في هذا الحديث دلالة على أن هذا أقل السفر، إنما فيه الرخصة لمن سافر أن يمسح هذه المدة، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لا يحل لامرأة أن تسافر ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم**»[٤] وثبت عنه: «**لا تسافر مسيرة يومين**»[٥] وفي رواية: «**مسيرة يوم**»[٦] وعنه «**لا تسافر بريدا**»[٧] قال ابن تيمية[٨]: «فدل على أن ذلك كله سفر».

كما أجاب عن سائر الاستدلالات التي استدل بها القائلون بتحديد المدة بيومين أو ثلاثة أو غير ذلك، إما ببيان عدم دلالتها على ما ذهبوا إليه، وإما ببيان ضعفها وعدم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٦٩).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٢٦-١٣٠).

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٣٤٠)، وأبو داود في المناسك (١٧٢٦)، والترمذي في الرضاع (١١٦٩)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٨). من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. و«المحرم» هو من لا يحل له نكاح المرأة على التأبيد.

(٥) أخرجه البخاري في الحج (١٨٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٢٧)، والنسائي في المواقيت (٥٦٦)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٩)، وأبو داود في المناسك (١٧٢)، والترمذي في الرضاع (١١٧٠)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو داود في المناسك (١٧٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٨).

الاحتجاج بها. كما رد القول بالتحديد بالمسافة بأنه لا دليل عليه، ثم قال[١]: «وإذا كان كذلك فنقول: كل اسم ليس له حد في اللغة ولا في الشرع فالمرجع فيه إلى العرف، فما كان سفرا في عرف الناس فهو السفر الذي علق به الشارع الحكم، وذلك مثل سفر أهل مكة إلى عرفة، فإن هذا مسافة بريد، وهذا سفر ثبت فيه جواز القصر والجمع بالسنة، والبريد هو نصف يوم بسير الإبل والأقدام.. وهو الذي يسمى مسافة قصر، وهو الذي يمكن الذاهب إليها أن يرجع من يومه».

الترجيح:

لا شك أن ما ذهب إليه القائلون بعدم تحديد مسافة القصر هو أقرب لظاهر النصوص وأقوى حجة[٢].

لكن يُكدِّر عليه أن إرجاع الناس- وخاصة في هذه المسألة المهمة- إلى العرف غير منضبط لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان ولا من حيث المسافة، ولا من حيث اختلاف أنظار الناس. فهناك من الناس مثلًا من يعد الذهاب من الرياض إلى سدير سفرا، وهناك من يقول بل السفر مثل الذهاب من الرياض إلى القصيم، وهناك من يقول بل السفر مثل السفر من الرياض إلى مكة المكرمة، وربما قال قائل بل السفر ما كان إلى خارج المملكة وهكذا.

ولهذا نجد بعض الناس إذا سئل عن قريب له غير حاضر مثلًا في القصيم قال وصل الرياض. بينما يقول بعضهم: سافر إلى الرياض، أو مسافر، أو وصل مكة، أو سافر إلى مكة. بينما يقولون لمن كان سفره خارج المملكة: سافر إلى الخارج أو مسافر. وهكذا.

فإرجاع الناس إلى العرف في هذه المسألة المهمة لا يمكن انضباطه فربما رأي بعضهم السفر في أقل من ثمانين كيلو متر، وربما رأى بعضهم أن السفر لا يكون في أقل من ثلاثمائة كيلو متر وهكذا.

ولا شك أن العرف أعني عرف المسلمين مما يعد مرجعا في تقدير بعض الأمور في

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٨-٤٩).

(٢) وقد اختارت هذا القول اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية في فتواها رقم (٣٥٣٤) وتاريخ (١٨/ ٣/ ١٤٠١هـ).

الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦]، أي: فليأكل قدر المعروف من أكل أمثاله، وهكذا.

لكن ترك الناس إلى العرف في مثل هذه المسألة الخطيرة وهي تحديد مسافة القصر، أو تحديد مسمى السفر أمر غير منضبط، ولا يمكن أن ينضبط أبدًا، ولهذا فإن من أخذ برأي الجمهور في تحديد مسافة القصر، فقصر فيما بلغت مسافته نحو ثمانين كيلو متر فصلاته صحيحة إن شاء الله، ولا يقصر في أقل من ذلك. وهذا ما أفتى به هيئة كبار العلماء في هذه البلاد، وعلى رأسهم سماحة شيخنا عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله وأسكنه فسيح جناته(١).

٦- أن كل سفر تقصر فيه الصلاة سواء كان مشروعًا كالسفر للحج والعمرة والجهاد وطلب العلم وطلب الرزق أو مباحًا كالسفر للسياحة والنزهة أو محرمًا كالسفر لقطع الطريق، ونحو ذالك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا مطلق في أي ضرب في الأرض، أي: في جنس السفر.

وهكذا كل نصوص الكتاب والسنة جاء فيها ذكر السفر مطلقًا دون تخصيص سفر دون سفر. قال تعالى في آية الصيام: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقال تعالى في آية التيمم: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦].

وهكذا أحاديث السفر كلها جاء فيها ذكر السفر مطلقًا(٢) وقد تقدم ذكر كثير منها.

وعن أنس بن مالك الكعبي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة**»(٣).

---

(١) انظر الفتوى المشار إليها في الحاشية السابقة.

ويقصر المسافر بعد مفارقته للبنيان وخروجه منه سواء كان السفر طويلًا أو في حدود ما يباح له فيه القصر وهو ثمانون كيلو متر فأكثر، وقال بعض أهل العلم إن كان السفر طويلًا قصر بعد مفارقته البنيان، وإن كان قصيرًا قصر بعد الثمانين، والأكثرون على أنه يقصر مطلقًا متى فارق البنيان. انظر: «المصنف» لعبد الرازق (٤/ ٥٢٨-٥٣٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٩-١١٠)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٨).

(٣) أخرجه أبوداود في الصوم (٢٠٤٨)، والترمذي في الصوم (٧١٥)، والنسائي في الصيام (٢٢٧٦، =

وإلى هذا القول وهو جواز قصر الصلاة في أي سفر كان ذهب طائفة من أهل العلم منهم: أبو حنيفة[١]، والثوري[٢]، والأوزاعي، وروي عن مالك[٣]، وبه قال ابن حزم[٤].

واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]. ويقوي هذا القول أن طائفة من أهل العلم كأبي حنيفة وغيره يرون وجوب القصر في السفر- كما تقدم.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أنه لا يجوز القصر في السفر المحرم- منهم الإمام مالك[٦]، والشافعي[٧]، وأحمد[٨]، وغيرهم[٩] واستدلوا بقوله تعالى في الميتة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، على قول من قال المعنى: غير باغ على الإمام ولا عاد على المسلمين وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

قالوا: فأباح الله الميتة ونحوها للضرورة بشرط عدم البغي والعدوان على الإمام في الآية الأولى، وبشرط عدم التجانف للإثم، كما في الآية الثانية[١٠] والمسافر سفر معصية هو باغ وعاد في سفره، ومتجانف لإثم، والقصر رخصة من الله- عز وجل- لعباده، والعاصي لا يناسبه التخفيف.

=

٢٣١٥)، وابن ماجه في الصوم (١٦٦٧) قال ابن تيمية: «رواه أنس بن مالك الكعبي، ورواه أحمد بإسناد جيد» «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٦). وقال الألباني: «حسن صحيح».

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٢) انظر: «المغني» (٣/ ١١٥).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٦).

(٤) انظر: «المحلي» (٥/ ٢٢).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٩).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٧)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٨٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٧).

(٨) انظر: «المغني» (٣/ ١١٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٨).

(٩) انظر: «المصنف» لعبد الرزاق (٤/ ٥٢١-٥٢٣).

(١٠) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٦).

وهذا التفسير مروي عن بعض السلف، والصحيح الذي عليه أكثر المفسرين أن المراد بقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: في الأكل من المحرم مع قدرته على الحلال، وقوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: ولا متعد القدر الذي يحتاج إليه(١).

كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، قالوا: فالرخصة للمسافر سفرًا محرمًا وسفر معصية أن يقصر الصلاة فيها عون له على معصية الله، وهذا لا يجوز(٢).

وقد ضعف شيخ الإسلام ابن تيمية حجج هذا القول(٣)، مبينا أن الصواب في معنى «الباغي» الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال «والعادي» الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه، قال: «لأن الله أنزل هذا في السور المكية؛ الأنعام والنحل، وفي المدينة ليبين ما يحل، وما يحرم من الأكل، والضرورة لا تختص بسفر، ولو كانت في سفر فليس السفر المحرم مختصًا بقطع الطريق والخروج على الإمام، ولم يكن على عهد النبي ﷺ إمام يخرج عليه، ولا من شرط الخارج أن يكون مسافرًا».

ثم قال: «وأما قولهم: إن هذا إعانة على المعصية فغلط؛ لأن المسافر مأمور بأن يصلي ركعتين، كما هو مأمور أن يصلي بالتيمم، وإذا عدم الماء في السفر المحرم كان عليه أن يتيمم ويصلي».

٧- استدل بعض أهل العلم بقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾. على أن الإنسان إذا سافر من بلده إلى بلد آخر، ونوى الإقامة فيه لغرض معين مقيدًا بزمن معين، فله أن يقصر الصالة، طالت هذه المدة أو قصرت؛ لأنه يسمى مسافرًا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٩٤).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١١٠-١١٣).

وهناك أقوال أخرى غير هذين القولين فقد قيل: لا يقصر إلا في سفر الطاعة، وقيل: إلا في سفر حج وعمرة وغزو، وقيل: لا يقصر في السفر المكروه ولا المحرم. وقيل: غير لك.

انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨).

حتى يرجع إلى وطنه، ما لم يُجمع الإقامة المطلقة؛ لأن الآية جاءت مطلقة لم تقيد.

وهكذا جميع النصوص من الكتاب والسنة في أحكام السفر كلها جاءت مطلقة(١).

واستدلوا أيضًا على عدم التقييد بأن النبي ﷺ أقام في أسفاره مددا طويلة ومتفاوتة وفي كلها يقصر الصلاة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ أقام بمكة عام الفتح تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ أقام في تبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة»(٣).

وفي حديث جابر وابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ قدم مكة في حجة الوداع في الرابع من ذي الحجة، ومكث فيها إلى أن انتهى الحج(٤).

وثبت في أكثر من حديث أنه في تلك المدة كلها يقصر الصلاة: فعن أنس- رضي الله عنه- قال: «**خرجنا مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجع إلى المدينة**».

قيل لأنس أقمتم بمكة شيئًا؟ قال: «**أقمنا بها عشرا**»(٥).

وعن موسى بن سلمة الهذلي قال: «سألت ابن عباس كيف أصلي إذا كنت لست بمكة إذ لم أصل مع الإمام؟ قال: ركعتين سنة أبي القاسم ﷺ»(٦).

وعن أبي حمزة نصر بن عمران قال: «قلت لابن عباس: إنا نطيل المقام بخراسان

---

(١) كالنصوص في إباحة الفطر والجمع للمسافر وفي حكم المسح على الخفين ونحو ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١٠٨٠)، وفي المغازي (٤٢٩٨)، وأبو داود في الصلاة (١٢٣٢)، والترمذي في أبواب الصلاة (٥٤٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف- الحديث (٤٣٣٥)، وأحمد (٣/ ٢٩٥)، والبيهقي في سننه (٢/ ١٥٢) ورجاله ثقات. وأخرجه من حديث جابر بن عبد الله أبو داود في الصلاة (١٢٣٥) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري في الشركة (٢٥٠٥، ٢٥٠٦)، من حديث جابر وابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٨)، والنسائي في تقصير الصلاة في السفر (١٤٤٣).

فكيف ترى؟ قال: صل ركعتين، وإن أقمت عشر سنين»(١).

وعن عبدالرحمن بن المسور بن مخرمة قال: «أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصرها سعد ونتمها»(٢).

وعن نافع قال: «أقام ابن عمر بأذربيجان(٣) ستة أشهر يصلي ركعتين، وكان يقول: «إذا أزمعت إقامة فأتم»(٤).

وعن حفص بن عبيد الله قال: «أقام أنس بن مالك بالشام شهرين مع عبد الملك بن مروان يصلي ركعتين ركعتين»(٥).

وعن الحسن: «أن أنس بن مالك أقام بنيسابور سنة أو سنتين يصلي ركعتين ثم يسلم ثم يصلي ركعتين»(٦).

وعن أنس بن مالك قال: «**أقام أصحاب رسول الله ﷺ برامُهْرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة**»(٧).

وعن الحسن قال: «أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة، ولا يجمع»(٨).

إلى غير ذلك من الآثار عن الصحابة والتابعين.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٤٥٣-٤٥٤) وإسناده صحيح، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» بمعناه (٤٣٥٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»- الأثر (٤٣٥٠) ورجاله ثقات.

(٣) أذربيجان: إقليم في إيران على حدودها الشمالية الغربية. انظر: «معجم البلدان».

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»- الأثر (٤٣٣٩)، والبيهقي في سننه (٣/ ١٥٢)، وإسناده صحيح. وصححه الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٢/ ٤٧).
وقد أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٨٣)، الحديث (٥٥٥٢) مطولًا من حديث ثمامة بن شراحيل عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٥٨)، «رواه أحمد ورجاله ثقات» وصحح إسناده أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»- الأثر (٤٣٥٤).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٥٤).

(٧) أخرجه البيهقي في سننه (٣/ ١٥٢).

(٨) أخرجه عبد الرزاق- الأثر (٤٣٥٢). وانظر ابن أبي شيبة (٢/ ٤٥٤).

قالوا: فهذه الأدلة تدل على أنه لا حد للإقامة، التي تقطع حكم السفر، ولم يرد دليل يحدد المدة التي تقطع السفر، لا في أربعة أيام، ولا عشرة، ولا خمسة عشر، ولا أكثر من ذلك ولا أقل، وهذا مما تتوافر الدواعي على نقله لحاجة الناس إليه.

وقد اختار هذا القول جمع من المحققين منهم شيخ الإسلام ابن تيمية[١] وابن القيم[٢]، وابن مفلح في «الفروع»[٣] والشيخ عبدالله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب[٤]، والشيخ رشيد رضا[٥]، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي[٦]، والشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهم جميعًا رحمة الله[٧].

وذهب أكثر أهل العلم من الفقهاء وغيرهم إلى أن هناك حدًا لمدة الإقامة التي تقطع حكم السفر، واختلفوا في تحديد هذه المدة على عدة أقوال[٨].

فذهب مالك[٩]، والشافعي[١٠] والليث بن سعد وأبو ثور[١١] إلى أن المسافر إذا نوى الإقامة أربعة أيام أتم. وهو رواية عن أحمد[١٢].

واستدلوا بحديث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ثلاث ليال يمكثهن المهاجر بمكة بعد الصدر**»، وفي رواية: «**يقيم المهاجر بعد**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٣٧-١٨٤)، «الاختيارات الفقهية» ص (٧٢، ٧٣).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٦١).

(٣) (٢/ ٦٤).

(٤) انظر: «الدرر السنية» (٤/ ٣٧٢، ٣٧٥).

(٥) انظر: «الفتاوى» لرشيد رضا جمع صلاح المنجد (٣/ ١١٨).

(٦) انظر: «المختارات الجلية» ص (٥٧، ٥٨).

(٧) وقد كتب رحمه الله في هذا رسالة قيمة.

(٨) ذكرها النووي في «المجموع» (٤/ ٢١٩-٢٢٠)، وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٦)، «زاد المعاد» (٣/ ٥٦٤-٥٦٥).

(٩) انظر: «المدونة» (١/ ١٩٩، ١٢٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٧).

(١٠) انظر: «المهذب» (١/ ١١٠)، «المجموع» (٤/ ٢١٩-٢٢٠).

(١١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٥٧).

(١٢) انظر: «المغني» (٣/ ١٤٨).

قضاء نسكه ثلاثًا»[١].

وبما روي: «أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أجلى اليهود من الحجاز، ثم أذن لمن قدم منهم متاجرًا أن يقيم ثلاثًا»[٢].

وذهب الإمام أحمد[٣] إلى انه إذا نوى الإقامة أكثر من أربعة أيام أتم، وروي هذا عن مالك والشافعي[٤].

واستدلوا بما روي عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ قدم مكة في حجة الوداع صبح رابعة فأقام النبي ﷺ اليوم الرابع والخامس والسادس والسابع، وصلى الفجر بالأبطح يوم الثامن، فكان يقصر الصلاة في هذه الأيام».

وقد أجمع على إقامتها وهي إحدى وعشرون صلاة؛ لأنها أربعة أيام كاملة وصلاة الصبح من الثامن.

وأما حديث أنس أن النبي ﷺ أقام بمكة في حجة الوداع عشرًا يقصر الصلاة[٥]. فقال الإمام أحمد: أراد أنس إقامته ﷺ بمكة ومنى ومزدلفة[٦].

وكذلك قالوا في الإجابة عن حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يصلي ركعتين»[٧] الحديث.

قالوا هذا محمول على أنه ﷺ لم يجمع الإقامة وهذا عام الفتح، وهكذا ما كان في معناه من الآثار أن الرسول ﷺ قصر في أكثر من أربعة أيام[٨].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٩٣٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٢)، وأبو داود في المناسك (٢٠٢٢)، والنسائي في تقصير الصلاة (١٤٥٥)، والترمذي في الحج (٩٤٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٣).

(٢) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٧٢).

(٣) انظر: «المغني» (٣/ ١٤٧-١٥٣)، «زاد المعاد» (٣/ ٥٦٣).

(٤) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٦٣).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «المغني» (٣/ ١٤٩-١٥١)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧٣).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٤٠)، «زاد المعاد» (٣/ ٥٦٣)، «أضواء البيان» (١/ ٣٧١).

وذهب أبو حنيفة وأصحابه[١] وسفيان الثوري إلى أنه إذا نوى الإقامة خمسة عشر يومًا أتم وإن كان أقل قصر.

واحتجوا بما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**أقام رسول الله ﷺ بمكة عام الفتح خمسة عشر يومًا يقصر الصلاة**»[٢].

وقدَّم أبوحنيفة خمسة عشر على رواية سبعة عشر وثمانية عشر وتسعة عشر. قال: لأنها الأقل، فيحمل غيرها على أنه وقع اتفاقًا[٣].

وقيل: إذا نوى إقامة تسعة عشر يومًا قصر، وإن زاد أتم؛ لما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: أقام ﷺ بمكة تسعة عشر يقصر الصلاة»[٤].

قالوا: فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا، وإن زدنا أتممنا.

وقيل: إذا نوى إقامة عشرين يومًا قصر، وإن زاد أتم؛ لما روي عن ابن عباس أيضًا أنه ﷺ: «**أقام بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة**»[٤].

وقيل غير ذلك[٥].

وعلى كل حال فالمسافر لا يخرج عن أحوال ثلاث: الأولى: أن ينوي الإقامة المطلقة، فهذا له حكم المقيم في جميع الأحكام.

والحالة الثانية: أن ينوي الإقامة لغرض معين وحاجة يريد قضاءها، متى ما انتهى ذلك الغرض وتلك الحاجة رجع، ولم يجمع الإقامة، فهذا له حكم المسافر في جميع الأحكام عند جمهور أهل العلم، بل حكي عليه الإجماع[٦].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٣١)، والنسائي في تقصير الصلاة (١٤٥٣)، والترمذي في الصلاة (٥٤٩)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وصححه الألباني.

(٣) لكن أصح الروايات تسعة عشر. لأنه رواها البخاري وغيره، كما سبق قريبًا. وقد جمع بينها البيهقي.

(٤) سبق تخريجه. وانظر: «المحلى» (٥/ ٢٢).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٦)، «المجموع للنووي» (٤/ ٢١٩-٢٢٠)، «زاد المعاد» (٣/ ٥٦٤-٥٦٥).

(٦) انظر: «المغني» (٣/ ١٥٣)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» =

والحالة الثالثة: أن ينوي الإقامة زمنا معينًا كشهر، أو سنة، أو أقل أو أكثر وهذا موضع الخلاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «إذا نوى أن يقيم بالبلد أربعة أيام فما دونها قصر الصلاة، كما فعل النبي ﷺ لما دخل مكة، فإنه أقام بها أربعة أيام يقصر الصلاة، وإن كان أكثر ففيه نزاع، والأحوط أن يتم الصلاة.

وأما إن قال غدًا أسافر، أو بعد غد أسافر، ولم ينو المقام فإنه يقصر أبدًا.

فإن النبي ﷺ أقام بمكة بضعة عشر يومًا يقصر الصلاة، وأقام بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة».

وقال أيضًا[٢]: «فمن كان عنده شك في جواز القصر فأراد الاحتياط فالإتمام أفضل، وأما من تبينت له السنة وعلم أن النبي ﷺ لم يشرع للمسافر أن يصلي إلا ركعتين، ولم يحد السفر بزمان أو بمكان ولا حد الإقامة أيضًا بزمن محدود، لا ثلاثة، ولا أربعة، ولا اثنا عشر، ولا خمسة عشر فإنه يقصر، كما كان غير واحد من السلف يفعل حتى كان مسروق قد ولوه ولاية لم يكن يختارها، فأقام سنين يقصر الصلاة، وقد أقام المسلمون بنهاوند ستة أشهر يقصرون الصلاة، وكانوا يقصرون الصلاة مع علمهم أن حاجتهم لا تنقضي في أربعة أيام ولا أكثر.

كما أقام النبي ﷺ وأصحابه بعد فتح مكة قريبًا من عشرين يومًا يقصرون الصلاة، وأقاموا بمكة عشرة أيام يفطرون في رمضان، وكان النبي ﷺ لما فتح مكة يعلم أنه يحتاج أن يقيم بها أكثر من أربعة أيام، وإذا كان التحديد لا أصل له، فما دام المسافر مسافرًا يقصر الصلاة، ولو أقام في مكان شهورا».

وقال أيضًا[٣]: «وأما الإقامة فهي خلاف السفر، فالناس رجلان: مقيم ومسافر، ولهذا كانت أحكام الناس في الكتاب والسنة أحد هذين الحكمين: إما حكم مقيم وإما

=

(٥/ ٣٥٧)، «زاد المعاد» (٣/ ٥٦).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٧)، وانظر: «الاختيارات الفقهية» ص (١٠٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٨)، وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٦٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٣٦-١٣٧).

حكم مسافر. قال تعالى: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠]، فجعل للناس يوم ظعن ويوم إقامة.

وقد أقام النبي ﷺ في حجته بمكة أربعة أيام ثم ستة أيام بمنى ومزدلفة وعرفة يقصر الصلاة هو وأصحابه، فدل على أنهم كانوا مسافرين، وأقام في غزوة الفتح تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة، وأقام بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة.

ومعلوم بالعادة أن ما كان يفعل بمكة وتبوك لم ينقض في ثلاثة أيام ولا أربعة، حتى يقال: إنه كان يقول: اليوم أسافر، غدًا أسافر.

وأيضًا فمن جعل للمقام حدًا من الأيام: إما ثلاثة وإما أربعة، وإما عشرة وإما اثني عشر وإما خمسة عشر، فإنه قال قولًا لا دليل عليه من جهة الشرع وهي تقديرات متقابلة.. وتقسيم المقيم إلى مستوطن. وغير مستوطن تقسيم لا دليل عليه من جهة الشرع».

وقال أيضًا[1]: «وقد بين في غير هذا الموضع أنه ليس في كتاب الله، ولا سنة رسوله إلا مقيم ومسافر، والمقيم هو المستوطن، ومن سوى هؤلاء فهو مسافر يقصر الصلاة».

وقال ابن القيم[2]: «أقام النبي ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، ولكن اتفقت إقامته هذه المدة. وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع».

وقال أيضًا: «الصواب عدم تحديد المدة التي تقطع السفر، ولا دليل على التحديد من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا عمل الصحابة»[3].

الترجيح:

الأحوط- والله أعلم- أنه إذا أقام أكثر من أربعة أيام فإنه يتم، وهو قول الجمهور، وأحد قولي شيخ الإسلام ابن تيمية- وإن كان يظهر ميله للقول الآخر- وهو عدم التحديد، وهو اختيار جمع من محققي علمائنا في هذا العصر منهم سماحة الشيخ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٨٤).

(٢) في «زاد المعاد» (٣/ ٥٦١).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٦٣-٥٦٤).

عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله[١] وكثير من هيئة كبار العلماء في هذه البلاد، وبه أفتت اللجنة الدائمة للإفتاء[٢].

وهم مجمعون على أن المسافر إذا أقام في بلد فعليه أن يصلي مع الناس جماعة في المساجد؛ لعموم الأدلة في وجوب صلاة الجماعة، ولمداومة الرسول ﷺ على أدائها جماعةً في السفر والخوف، وعليه الإتمام تبعًا لإمامه.

٨- ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أن من شرط قصر الصلاة في السفر وجود الخوف؛ ولهذا قال بعضهم: لا قصر إلا في خوف[٣].

وحمل بعض أهل العلم القصر في الآية على قصر الكيفية فقط. وقال: هذا الشرط في الآية معتبر، فلا يجوز قصر كيفية الصلاة إلا مع وجود الخوف.

واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقوله في سورة البقرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وبأن البخاري صدر باب صلاة الخوف بهذه الآية، وذكر تحته أحاديث قصر الكيفية قالوا: لينبه على أن المراد بقصر الصلاة في هذه الأحاديث هو المراد بالقصر في الآية، قالوا: ويؤيده أن قصر عددها لا يشترط فيه الخوف، كما كان يفعل ﷺ وأصحابه[٤].

وقد دلت السنة القولية والفعلية على جواز قصر الصلاة في السفر بدون خوف. فمن السنة القولية ما رواه يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-

---

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن باز» ١٠/ ٢٧٧، ١٢/ ٢٨٠، ٣٠/ ١٨٦.

(٢) انظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» ٨/ ٩٥، ٩٨-٩٩.

(٣) وممن ذهب إلى هذا الخوارج فقالوا: لا يصح القصر إلا مع الخوف. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وذكر هذا قولًا للشافعي، وما أظنه يصح عنه» انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٢) وانظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٨)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٥٢)، وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٧)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣٥).

(٤) انظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

عن قول الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس؟ فقال عمر رضي الله عنه: «عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**»(١).

فقوله: «**صدقة تصدق الله بها عليكم**» يدل على أن الله- عز وجل- جعل من شرط القصر وجود الخوف أول الأمر، ثم تصدق على عباده وسهل عليهم ورخص لهم في القصر بلا خوف. وهذا ما فهمه جمهور أهل العلم من قوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ من أن المراد به قصر الرباعية إلى الاثنتين في السفر(٢).

ومن السنة الفعلية ما رواه حارثة بن وهب الخزاعي- رضي الله عنه- قال: «صليت مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه- ركعتين»(٣).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون ركعتين ركعتين**»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): «قد ثبت بالسنة المتواترة أن النبي ﷺ كان يصلي بأصحابه بمنى ركعتين ركعتين آمن ما كان الناس، وكذلك بعده أبو بكر وكذلك بعده عمر».

وصح عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه لما قدم مكة صلى بالناس ركعتين وقال: «**يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر**»(٥).

فعلق- رضي الله عنه- قصرهم الصلاة بالسفر. ولم يعلقه بالخوف، فدل على أن قصر العدد لا يشترط له الخوف(٦).

وعلى هذا فيكون القرآن دل على اشتراط الخوف لقصر الصلاة في السفر، ثم

---

(١) سبق تخريجه. وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٠٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٤٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٢).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ في النداء للصلاة (٣٤٩)، وفي «المدونة» (١/ ١٢١).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ١٢٣).

تصدق الله على العباد، ورفع هذا الشرط، كما دلت على ذلك السنة[١].

وقال بعض أهل العلم: إن الشرط في قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ خرج مخرج الغالب؛ لأن غالب الأسفار آنذاك كانت مخوفة، وعلى هذا يكون هذا الشرط لا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ﴾ [النساء: ٢٣].

فالربيبة تحرم على زوج أمها، سواء كانت هذه الربيبة في حجره أولًا.

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]. فالأمة يحرم إكراهها على الزنا، سواء أرادت التحصن أم لم ترده.

قال ابن كثير[٢] بعد أن ساق عددًا من الأحاديث والآثار في أن صلاة السفر ركعتان.

قال: «فهذه الأحاديث دالة صريحًا على أن القصر ليس من شرطه الخوف، ولهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية»[٣].

وخلاصة القول: أن القصر في السفر دل عليه الكتاب والسنة، ولا يشترط له الخوف؛ لأن الله تصدق على العباد فرفع اشتراط الخوف.

كما قال ﷺ: «**صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته**» وهذا أقرب الأقوال.

قال ابن القيم[٤]: «والآية قد أشكلت على عمر وعلى غيره، فسأل عنها رسول الله ﷺ فأجابه بالشفاء، وأن هذه صدقة من الله، وشرع شرعه للأمة، وكأن هذا بيان أن حكم المفهوم غير مراد، وأن الجناح مرتفع في قصر الصلاة عن الآمن والخائف، وغايته أنه نوع تخصيص للمفهوم، أو رفع له».

ويحتمل أن القصر في الآية يتناول قصر الكيفية، وقصر العدد والكمية، فإذا وجد السفر والخوف أبيح القصران وإذا وجد الخوف وحده أبيح قصر الكيفية، وإذا وجد السفر وحده أبيح قصر الكمية.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٩، ٤٩٠).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٤٩).

(٣) سبق في تفسير الآية ذكر هذا القول، وكذا قول من قال المراد بالقصر في الآية قصر صلاة السفر من ركعتين إلى ركعة واحدة لكل طائفة وتكون للإمام ركعتان.

(٤) في «زاد المعاد» (١/ ٤٦٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «وهو سبحانه ذكر الخوف والسفر؛ لأن القصر يتناول قصر العدد وقصر الأركان. فالخوف يبيح قصر الأركان، والسفر يبيح قصر العدد، فإذا اجتمعا أبيح القصر بالوجهين، وإن انفرد السفر أبيح أحد نوعي القصر».

وقال ابن القيم بعد كلامه السابق[٢]: «وقد يقال: إن الآية اقتضت قصرًا يتناول قصر الأركان بالتخفيف وقصر العدد بنقصان الركعتين، وقيد ذلك بأمرين: الضرب في الأرض، والخوف، فإذا وجد الأمران أبيح القصران، فيصلون صلاة الخوف مقصورة عددها وأركانها، وإن انتفى الأمران فكانوا آمنين مقيمين انتفى القصران، فيصلون صلاة تامة كاملة، وإن وجد أحد السببين ترتب عليه قصره وحده، فإذا وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفي العدد، وهذا نوع قصر، وليس بالقصر المطلق في الآية، فإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفى الأركان وسميت صلاة أمن، وهذا نوع قصر، وليس بالقصر المطلق، وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة باعتبار نقصان العدد، وقد تسمى تامة باعتبار إتمام أركانها وأنها لم تدخل في قصر الآية.

والأول اصطلاح كثير من الفقهاء والمتأخرين، والثاني يدل عليه كلام الصحابة كعائشة وابن عباس وغيرهما».

ثم ذكر ابن القيم حديث عائشة: «**فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فلما هاجر رسول الله ﷺ زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر**»، ثم قال: «وهذا يدل على أن صلاة السفر عندها غير مقصورة من أربع، وأن فرض المسافر ركعتان».

ثم ذكر ما روي عن ابن عباس وعمر- رضي الله عنهما- «**أن صلاة السفر ركعتان**».

وقال ابن القيم أيضًا[٣]: «أباح الله- سبحانه وتعالى- قصر أركان الصلاة وعددها إذا اجتمع الخوف والسفر، وقصر العدد وحده إذا كان سفر لا خوف معه، وقصر الأركان وحدها إذا كان خوف لا سفر معه، وهذا كان هديه ﷺ، وبه تعلم الحكمة في تقييد القصر في الآية بالضرب في الأرض والخوف».

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٠).

(٢) في «زاد المعاد» (١/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٣) في «زاد المعاد» (١/ ٥٢٩).

٩- أن لكل من السفر والخوف أثرًا في تخفيف الأحكام؛ لأن الله شرع القصر في السفر، وفي الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

كما شرع سبحانه الجمع والفطر في السفر إلى غير ذلك.

١٠- أن الشرط قد يرد ويراد به بيان الواقع والغالب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا على قول طائفة من أهل العلم في هذه الآية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣].

١١- أن الكفار يريدون أن يفتنوا المسلمين بقتالهم لهم وصدهم عن دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٢- إثبات عداوة الكافرين على اختلاف نحلهم ومللهم للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

وسواء في ذلك أهل الإلحاد واليهود والنصارى وغيرهم؛ لأن الكفر ملة واحدة. وقد قال الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

١٣- أن عداوة الكافرين للمؤمنين عداوة ظاهرة ومستمرة أما كونها ظاهرة فلقوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾.

وأما كونها مستمرة؛ فلأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ جملة اسمية والجملة الاسمية تدل على الاستمرار والدوام؛ ولأن «كان» في هذه الجملة مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف مطلقًا.

وإذا كانت عداوة الكفار للمسلمين ظاهرة مستمرة فلا ينبغي الاغترار بمن أظهر منهم موالاة المسلمين، ولا الركون إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

١٤- مشروعية صلاة الخوف على الكيفية التي ذكر الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ الآية.

والخطاب في هذه الآية خطاب للنبي ﷺ ولأمته، فصلاة الخوف مشروعة له ولأمته في حياته ﷺ وبعد مماته[1]، وإنما خص ﷺ بالخطاب لأنه رسول الأمة وقائدها وزعيمها، أو لأن الأمة تتأسى به، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وما قيل من أن الخطاب خاص به ﷺ، وأن صلاة الخوف على هذه الكيفية لا تشرع إلا في حياته ﷺ وحال كونه مع الجيش[2]، فهذا في غاية الضعف.

قال الجصاص[3]: «وهذا ليس بصحيح، فقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ وإن كان خطابًا للنبي ﷺ فليس بموجب الاقتصار عليه في هذا الحكم دون غيره؛ لأن الذي قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ هو الذي قال: ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣، ١٥٥].

فإذا وجدنا النبي ﷺ فعل فعلًا فعلينا إتباعه على الوجه الذي فعله، ألا ترى أن قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، لم يوجب كون النبي ﷺ مخصوصا به دون غيره، وقد رُوِيَ جواز فعل الصلاة بعده ﷺ عن جمع من الصحابة والتابعين، من غير خلاف يحكى عن أحد منهم، ومثله يكون إجماعًا لا يسع خلافه».

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٢٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٩٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٦٤-٣٦٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٣).

(٢) روي هذا عن المزني وأبي يوسف وإسماعيل بن علية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ وقالوا: إن صلاة الخوف منسوخة بتأخيره عليه الصلاة والسلام الصلاة يوم الخندق.
قال ابن كثير: «وهذا غريب جدًا، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف. وحمل الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب، يعني أن تأخيره الصلاة يوم الخندق إنما هو لعدم القدرة على الصلاة على أي حال يوم الأحزاب». «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٣)، وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٦٢-٢٦٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٩٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٦٤-٣٦٥)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٥٢).

(٣) في «أحكام القرآن» (٢/ ٢٦٣).

وقال ابن كثير[١]: «وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة فإنه استدلال ضعيف، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. قالوا: فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد، بل نخرجها بأيدينا على ما نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته، أي: دعاؤه سكن لنا، ومع هذا رد عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة، وقاتلوا من منعها منهم».

١٥- ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أن صلاة الخوف لا تصلى إلا في السفر، وجمهور أهل العلم أنها تصلي في الحضر والسفر[٢].

١٦- أنه لا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها حتى ولا في حال الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ الآية.

وإلى هذا ذهب جمهور العلماء منهم مالك[٣]، والشافعي[٤]، وأحمد في المشهور عنه[٥] وقالوا: إن جواز تأخير الصلاة عن وقتها حال القتال منسوخ بهذه الآية.

وذهب بعض أهل العلم إلى جواز تأخير الصلاة حال القتال وتصلى بعد الوقت[٦]. واستدل من ذهب إلى هذا بتأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الأحزاب، وبقوله ﷺ للجيش الذي جهزه لبني قريظة: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**».

فمنهم من صلى العصر في وقتها قبل الوصول إلى بني قريظة، ومنهم من أخرها حتى وصل ولم يصلها إلا بعد الغروب، ولم يعنف النبي ﷺ أحدًا من الفريقين[٧].

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٤) وانظر: «أضواء البيان» (١/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٣٣٩).

(٣) انظر: «حاشية العدوي على كفاية الطالب» (٢/ ١٧٤).

(٤) انظر: «الحاوي» للماوردي (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٥) انظر: «المغني» (٣/ ٢٩٨)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٣).

(٧) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)، من حديث ابن عمر =

وبتأخير أبي موسى- رضي الله عنه- ومن معه من الصحابة الصلاة لما اشتد عليهم القتال إلى ارتفاع النهار(١).

وروي عن الإمام أحمد القول بالتخيير حال القتال بين الصلاة وبين التأخير(٢).

١٧- عظم منزلته ﷺ وكبير جهاده وتضحياته فكما أنه ﷺ رسول الأمة وإمامها ومعلمها الخير، فهو قائدها في كثير من المعارك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﷺ ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده.

قام ﷺ يصلي من الليل حتى تفطرت قدماه، وكان يقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورا**»(٣).

وحزم على بطنه يوم الخندق الحجر من شدة الجوع(٤)، وكان يقول مجيبًا لأصحابه:

اللهم إن الخير خير الآخرهْ فاغفر للأنصار والمهاجرهْ(٥)

وكان ﷺ يوم الخندق ينقل مع أصحابه التراب، وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

=

رضي الله عنهما.

(١) ذكره البخاري في صلاة الخوف عن أنس رضي الله عنه. انظر: «فتح الباري» (٢/ ٤٣٤)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٠)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٠)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٩)، والنسائي في قيام الليل (١٦٤٤)، والترمذي في الصلاة (٤١٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وأخرجه من حديث جابر- رضي الله عنه- البخاري في المغازي (٤١٠١)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٩)، والترمذي في الأدب (٢٨٤٢).

(٥) أخرجه البخاري في المناقب (٣٧٩٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٥)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٧)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٤٢) عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: كان الصحابة يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا

فأجابهم:

اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فـــأنزلن ســـكينة علينـــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
والمشـــركون قـــد بغـــوا علينـــا إذا أرادوا فتنـــة أبينـــا[١]

١٨- أن الدين الإسلامي دين ودولة، عبادة، وسياسة؛ لأنه ﷺ جمع الله له بين العبادة والرسالة وقيادة الأمة وسياستها في السلم والحرب.

١٩- أن الإمام مسئول عن إقامة الصلاة بالمأمومين، كما شرع الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولهذا قال ﷺ: «**الإمام ضامن**»[٢].

ومعنى ضامن، أي: متكفل بصحة صلاة المأمومين وإقامتها على الوجه الشرعي[٣].

وليت كثيرًا من الأئمة يفقهون هذا.

٢٠- أنه يجوز أن يحذف من الكلام ما يدل السياق عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ لأن المعنى: فاجعلهم طائفتين.

٢١- أن الطائفة تطلق على اثنين فأكثر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، والجماعة لا تحصل بأقل من اثنين.

٢٢- أن صلاة الجماعة واجبة وفرض على الأعيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾- إلى قوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ فدل هذا على وجوب الجماعة على الأعيان من وجوه ثلاثة هي:

الوجه الأول: أن الله أمر بإقامة الصلاة جماعة في حال الخوف، ولو كانت غير واجبة لما أمر الله بها في هذه الحال، وإذا كانت واجبة حالًا لخوف فوجوبها حال الأمن من باب أولى.

الوجه الثاني: أن الله اغتفر كثيرًا من أفعال الصلاة في هذه الحال؛ لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما صح ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٢٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٣)، والدارمي في السير (٢٤٥٥)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥١٧)، والترمذي في الصلاة (٢٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٣) انظر: «النهاية» «لسان العرب» مادة: «ضمن».

الوجه الثالث: أن الله أمر كلتا الطائفتين أن تصلي مع النبي ﷺ، فلو كانت الجماعة فرض كفاية لاكتفى بصلاة إحدى الطائفتين(١).

وإنني لأتعجب كيف يقول أناس بعدم وجوب صلاة الجماعة مع ما ورد في وجوبها من الأدلة الدامغة!

٢٣- تقدير التشريع الإسلامي للحالات قدرها رحمة بالأمة، حيث أباح القصر حال السفر والخوف.

٢٤- وجوب أخذ الأسلحة وحملها في الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ فالأمر في الموضع الأول للطائفة الأولى والأمر في الموضع الثاني للطائفة الثانية، وهو محمول على الأصل في الأمر وهو الوجوب يدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ فلم يرخص في وضع السلاح وعدم أخذه إلا لعذر التأذي من مطر، أو لمرض، فدل هذا على أن حمله مع عدم وجود العذر واجب، وهذا هو الصحيح(٢).

وقيل: إن الأمر للمصلين بأخذ السلاح في الصلاة في الآية للاستحباب والندب، وقيل للإباحة؛ لأن الأمر به لرفع ما يتوهم من عدم جوازه.

وقيل: بتحريم حمل السلاح في الصلاة؛ لأن ذلك يبطل الصلاة(٣).

وهذا القول باطل؛ لأنه خلاف ما دلت عليه الآية.

وأما القول بأنه للاستحباب والندب، وكذا القول بأنه للإباحة فهما قولان مرجوحان؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب، ولقوله في آخر الآية: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

---

(١) انظر: «المغني» (٣/ ٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢٢٢-٢٣٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٤)، «أضواء البيان» (١/ ٣٥٧).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ٢٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٤٠).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٩٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧١)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٥٢).

إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

٢٥- جواز حمل السلاح في الصلاة وإن كان نجسا؛ لأن الله أمر بحمل السلاح مطلقًا، والسلاح غالبًا بعد بدء القتال سيكون قد تلوث بالدم، والدم نجس عند جمهور أهل العلم.

ويتفرع على هذا جواز الصلاة في الثواب النجس إذا لم يجد غيره[1].

٢٦- فضل السجود وعظم منزلته من الصلاة حيث خصه من بين أركان الصلاة، وأنه قد يعبر به عن جميع الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾؛ لأن المعنى: فإذا أتموا صلاتهم بقيامها وركوعها وسجودها وجلوسها وتشهدها وجميع أركانها وواجباتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا يعبر عن الكل بالجزء إلا والجزء ركن فيه، لا يمكن أن يصح بدونه».

٢٧- أن الطائفة الأولى تنفرد في آخر صلاتها عن الإمام، وتتم لنفسها، أي: يتم كل واحد منهم لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾.

وأخذ من هذا بعض أهل العلم أن كل من طرأ عليه عذر لا يتمكن معه من إتمام الصلاة مع الإمام، فإنه ينفرد ويتم لنفسه.

٢٨- ينبغي للطائفة التي أتمت صلاتها أن تكون من وراء الطائفة الثانية حال صلاتها لحمايتها من إغارة العدو عليهم من الخلف، وهم في الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾.

٢٩- الإشارة إلى إبعاد المصلين عن كل ما يشوش عليهم؛ لأن الله أمر الطائفة التي تحرس أن تكون من وراء المصلين، لا من أمامهم.

٣٠- الإشارة إلى أن المصلين لا حاجة لهم في حراستهم من أمامهم؛ لأنهم يرون ما يأتيهم من أمامهم، وأن لهم النظر والتأمل فيما أمامهم، وترك النظر إلى موضع سجودهم في هذه الحال.

٣١- يشرع للإمام في صلاة الخوف بعد أن تنفرد الطائفة الأولى وتتم صلاتها أن

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٤٩ تفسير سورة النساء).

يستمر في صلاته ويطيل الوقوف في الركعة الثانية حتى تدخل معه الطائفة الثانية.

٣٢- بيان صفة صلاة الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ وهذه الصفة تنتظم جميع صفات صلاة الخوف الثابتة عن النبي ﷺ فيما إذا لم يكن العدو تجاه القبلة، وهي صفات كثيرة(١).

منها: أن يجعلهم الإمام طائفتين: طائفة تقوم معه في أول صلاته، فإذا صلى بهم ركعة ثبت قائمًا وأتموا لأنفسهم الركعة الثانية، ثم ينصرفون للحراسة وراء المصلين، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم الركعة الثانية من صلاته، ثم يثبت جالسًا للتشهد ويطيل هذا الجلوس، وتقوم هذه الطائفة وتأتي بركعة ثانية ثم يجلسون معه للتشهد ويسلم بهم، وهي الصفة التي صلاها رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع(٢) كما جاء في حديث صالح بن خوات عمن صلى مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: «**أن طائفة صفت معه وطائفة وجاه العدو فصلى بالتي معه ركعة، ثم ثبت قائمًا، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى، فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالسًا، وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم**»(٣).

ومنها: أن يصلي بإحدى الطائفتين ركعتين فتسلم قبله، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم الركعتين الأخيرتين، ويسلم بهم، فتكون له أربع ركعات ولهم ركعتان.

---

(١) انظر في ذكر هذه الصفات: «جامع البيان» (٩/ ١٣٠-١٥٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٥٧-٢٦٢)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٢-٤٧٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٩١-٤٩٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٦٥-٣٧٠)، «زاد المعاد» (١/ ٥٢٩-٥٣٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥٤-٣٥٦)، «أضواء البيان» (١/ ٣٤٥-٣٥٧).

(٢) ذات الرقاع: غزوة معروفة كانت بأرض غطفان من نجد، سميت بذلك لأن أقدام المسلمين نقبت من الحفاء فلفوا عليها الخرق.

كما في حديث أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- عند البخاري وغيره. انظر: «فتح الباري» (٧/ ٤١٧)، باب غزوة ذات الرقاع (٤١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٤٢)، وأبو داود في الصلاة (١٢٣٨)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٣٨).

لما رواه جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «**أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع، قال: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بشجرة، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فاخترطه، فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا»**، قال: فما يمنعك مني؟ قال: «**الله يمنعني منك**»، قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، فأغمد السيف وعلقه، قال: فنودي بالصلاة فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان»(١).

ومنها: أن يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم تنصرف في صلاتها إلى مكان الطائفة الأخرى، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم الركعة الثانية، ثم يسلم، وتقضي كل طائفة ركعة بعد سلام الإمام.

لما رواه ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «**صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو، وجاء أولئك ثم صلى بهم النبي ﷺ ركعة، ثم سلم النبي ﷺ، ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة**»(٢).

ومنها أن يصلي بإحدى الطائفتين ركعتين ويسلم بهم، وتأتي الطائفة الأخرى، فيصلي بهم ركعتين ويسلم، فيكون قد صلى بهم بكل طائفة صلاة، لما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه بطائفة ركعتين ثم سلم، ثم صلى بالآخرين ركعتين، ثم سلم هكذا**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في المغازي (٤١٣٥، ٤١٣٦)، وأخرجه مسلم موصولًا في صلاة المسافرين (٨٤٣) وأحمد (٣/ ٣٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٤)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٣٩)، وأبو داود في الصلاة (١٢٤٣)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٣٩)، والترمذي في الجمعة (٥٦٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٥٨).

(٣) أخرجه النسائي في صلاة الخوف (١٤٦١)، والدارقطني في سننه (١/ ١٨٦)، والبيهقي في سننه (٣/ ٢٥٩)، وصححه الألباني.

وقد رُويَ نحوه، عن أبي بكرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أخرجه البيهقي وغيره.

ومنها أن يصلي بإحدى الطائفتين ركعة واحدة، وتسلم ولا تقضي شيئًا، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم ركعة ثم يسلم بهم ولا يقضون شيئًا، فيكون له ركعتان، ولهم ركعة واحدة.

لما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**أن رسول الله ﷺ صلى بذي قرد وصف الناس خلفه صفين: صفًا خلفه وصفا موازي العدو، وصلى بالذين خلفه ركعة، ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة، ولم يقضوا**»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**قام النبي ﷺ وقام ناس معه فكبر وكبروا معه، وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام الثانية، فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأولى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم في الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضًا**»(٢).

أما إذا كان العدو بينهم وبين القبلة فإنهم يصفون جميعًا خلفه ويكبر ويكبرون جميعًا، ثم يركع فيركعون جميعًا، ثم يرفع ويرفعون جميعًا معه ثم يسجد هو والصف الذي يليه، ويقوم الصف الآخر في مواجهة العدو، فإذا فرغ من الركعة الأولى، ونهض إلى الثانية ونهض الصف الأول معه، سجد الصف المؤخر بعد قيامه سجدتين ثم قاموا وتقدموا إلى مكان الصف الأول وتأخر الصف الأول مكانهم لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين، وليدرك الصف الثاني مع النبي ﷺ السجدتين في الركعة الثانية، كما أدرك الصف الأول معه السجدتين في الركعة الأولى، فتستوي الطائفتان فيما أدركوا معه، وفيما قضوا لأنفسهم وذلك غاية العدل، فإذا ركع صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة، فإذا جلس للتشهد سجد الصف المؤخر سجدتين، ولحقوه في التشهد، فيسلم بهم جميعًا.

لما رواه أبو عياش الزرقي- رضي الله عنه- قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى

---

(١) أخرجه النسائي في صلاة الخوف (١٥٣٣)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٤٤)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٣٣)، وقد أخرجه أحمد وغيره من حديث حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- (٥/ ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠٤)، كما أخرجه أحمد وغيره أيضًا من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- (٣/ ٢٩٨)، وروي أيضًا من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وغيره.

المشركين خالد بن الوليد، فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة لو حملنا عليهم وهم في الصلاة، فنزلت آية القصر بين الظهر والعصر، فلما حضرت العصر، قام رسول الله ﷺ مستقبل القبلة والمشركون أمامه، فصف خلف رسول الله ﷺ صف، وصف بعد ذلك الصف صف آخر، فركع رسول الله ﷺ وركعوا جميعًا، ثم سجد وسجد الصف الذين يلونه، وقام الآخرون يحرسونهم، فلما صلى هؤلاء السجدتين وقاموا سجد الآخرون الذين كانوا خلفهم ثم تأخر الصف الذي يليه إلى مقام الآخرين، وتقدم الصف الأخير إلى مقام الصف الأول، ثم ركع رسول الله ﷺ وركعوا جميعًا، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه، وقام الآخرون يحرسونهم، فلما جلس رسول الله ﷺ والصف الذي يليه سجد الآخرون، ثم جلسوا جميعًا فسلم بهم جميعًا فصلاها بعسفان وصلاها يوم بني سليم»(١).

أما إذا اشتد الخوف، فيصلون رجالًا وركبانًا إلى القبلة وإلى غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

قال ابن القيم(٢) بعد أن ذكر الصفات السابقة: «وقد روي عنه ﷺ في صلاة الخوف صفات أخر، ترجع كلها إلى هذه، وهذه أصولها، وربما اختلف بعض ألفاظها، وقد ذكرها بعضهم عشر صفات، وذكرها أبو محمد بن حزم نحو خمس عشرة صفة، والصحيح ما ذكرناه أولًا، وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة في قصة، جعلوا ذلك وجوها من فعل النبي ﷺ، وإنما هو من اختلاف الرواة، والله أعلم».

وتصح صلاة الخوف على أي صفة من الصفات الثابتة عن النبي ﷺ. قال الإمام أحمد: «كل حديث يروى في أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز».

وقال أيضًا: «ستة أوجه أو سبعة تروى فيها كلها جائزة»(٣).

وقال الأثرم: «قلت لأبي عبدالله، تقول بالأحاديث كلها كل حديث في موضعه أو

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٣٦) والنسائي في صلاة الخوف (١٥٤٩).
وأخرجه مسلم في صلاة المسافرين- باب صلاة الخوف (٨٤٠)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٤٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٦٠)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) في «زاد المعاد» (١/ ٥٣٢).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٥٣١).

تختار واحدًا منها؟ قال: أنا أقول من ذهب إليها كلها فحسن»[١].

وقال الطبري[٢]: «فإنا نرى أن من صلاها من الأئمة فوافقت صلاته بعض الوجوه التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه صلاها فصلاته مجزئة عنه تامة لصحة الأخبار بكل ذلك عن رسول الله ﷺ، وأنه من الأمور التي علم رسول الله ﷺ أمته، ثم أباح لهم العمل بأي ذلك شاؤوا».

وقال ابن القيم[٣] بعد أن ذكر كلام الإمام أحمد السابق قال: «وظاهر هذا أنه جوز أن يصلي كل طائفة معه ركعة ركعة ولا تقضي شيئًا، وهذا مذهب ابن عباس وجابر بن عبدالله وطاوس ومجاهد والحسن وقتادة والحكم وإسحاق بن راهويه. قال صاحب «المغني»: وعموم كلام أحمد يقتضي جواز ذلك وأصحابنا ينكرونه».

٣٣- جواز إقامة جماعتين في مكان واحد للحاجة؛ لأن النبي ﷺ صلى بجماعتين لأجل الخوف، فكذلك يجوز إقامة جماعتين في مكان واحد للحاجة: كأن يكون المسجد ضيقًا ولو صلى بعضهم خارج المسجد لم يتمكنوا من المتابعة، فيجوز أن يصلوا جماعتين أو ثلاثًا أو أكثر بحسب الحاجة واحدة تلو الأخرى[٤].

٣٤- وجوب أخذ المؤمنين المقاتلين حذرهم من عدوهم الكافر، وخاصة بالنسبة للطائفة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ﴾، ولم يأمر بذلك الطائفة الأولى، وعلل العلماء لذلك- بما سبق- من أن أول الصلاة قد لا يشعر العدو أنهم يصلون، أو لا يتمكن من الاستعداد لمهاجمتهم.

أما وقت صلاة الطائفة الثانية فإن العدو قد يكون عرف أنهم منشغلون بالصلاة، فقد ينتهز الفرصة للإغارة عليهم.

ويتفرع عن هذا وجوب أخذ الحذر والحيطة في جميع الأحوال من العدو، ومن جميع الشرور.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٥٣١-٥٣٢).

(٢) في «جامع البيان» (٩/ ١٦١).

(٣) في «زاد المعاد» (١/ ٥٣٢).

(٤) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره.

٣٥- في قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾: الإشارة إلى الرخصة للمصلي إذا كان خائفا بأن يجعل بعض فكره في غير الصلاة[١]، وقد روي عن عمر- رضي الله عنه- أنه قال: «والله إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة»[٢]. قال ابن القيم[٣]: «فهذا جمع بين الجهاد والصلاة».

٣٦- أن الكافرين يتربصون الدوائر بالمسلمين ويتحينون الفرصة للوقيعة بهم، ويودون لو غفلوا عن أسلحتهم وأمتعتهم فيجهزون عليهم مرة واحدة، يستأصلونهم بها، ويقضون عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

٣٧- التحذير من الغفلة وترك الفرصة للأعداء؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾.

٣٨- الترخيص في وضع السلاح وعدم حمله في الصلاة بسبب التاذي بالمطر أو وجود مرض، ورفع الحرج والإثم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

ويؤخذ من هذا أن حمل السلاح في الصلاة في غير حالة العذر واجب، وأن الأمر في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ للوجوب- كما سبق بيان هذا.

٣٩- تقدير التشريع الإسلامي لكل ظرف قدره، فحيث حصل الخوف أباح الإسلام قصر الصلاة وأداءها على الصفة السابقة من حيث القصر والتجاوز فيها بما لا يتجاوز فيه في حال الأمن، بل لو فعل ذلك حال الأمن بطلت، وحيث رفع الحرج والإثم في عدم أخذ السلاح عند حصول التأذي بمطر أو مرض؛ رفعا للمشقة، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢١).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٣٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٦٠٩-٦١٠).

(٣) في «زاد المعاد» (١/ ٢٥٠).

٤٠- وجوب أخذ الحذر والاحتراز من الكفار في حال القتال، بل وفي جميع الأحوال، لقوله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾.

٤١- لا ينبغي أن يكون رفع الحرج في حمل السلاح في الصلاة عند التأذي بالمطر أو المرض مدعاة للتساهل في أخذ الحذر والاحتراز من الأعداء؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر رفع الحرج في وضع السلاح في هذه الحالة: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾.

٤٢- تبشير المؤمنين وتقوية عزائمهم بذكر ما أعد الله للكفار من العذاب المهين في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، بعد ما أمر بأخذ الحذر منهم ليجمع المؤمنون بين فعل السبب والاعتماد على الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤٣- التهديد والوعيد للكفار بما أعده الله لهم من العذاب المهين في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٤٤- أن الذل كل الذل والهوان كل الهوان بمعصية الله والكفر به؛ لقوله تعالى: ﴿مُّهِينًا﴾.

٤٥- أن المعذَّب يجمع له بين الألم الحسي لجسمه وجسده، والألم المعنوي لقلبه ونفسه وهو لا يقل عن الألم الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿مُّهِينًا﴾.

٤٦- أن القضاء يطلق ويراد به الفراغ من الشيء والانتهاء منه في وقته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

٤٧- مشروعية ذكر الله بعد الانتهاء من الصلاة، وبخاصة صلاة الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وعن ثوبان- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩١)، وأبو داود في الصلاة (١٥١٣)، والترمذي في الصلاة (٣٠٠).

وعن معاذ بن جبل- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك، والله إني لأحبك**»، فقال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١).

وعن عبد الله بن الزبير- رضي الله عنهما- أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**» قال ابن الزبير: «**وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة مكتوبة**»(٢).

وكان إذا فرغ من الصلاة يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(٣).

٤٨- الترغيب في الإكثار من ذكر الله بعد صلاة الخوف؛ لما وقع فيها من التخفيف كمية وكيفية؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

ولما للذكر من أثر عظيم في طمأنة القلب، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٢٢)، والنسائي في الصلاة (١٣٠٣)، وإسنادهما صحيح، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأذن (٨٤٤) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٣)، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٥)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» أخرجه مسلم (٥٩٧).

وعن كعب بن عجرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «معقبات لا يخيب قائلهن- أو فاعلهن- دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة» أخرجه مسلم (٥٩٦).

٤٩- مشروعية ذكر الله على كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وكان ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، أو أحواله عدا حال قضاء الحاجة فقد سلم عليه المهاجر بن قنفذ فلم يرد عليه حتى انتهى من قضاء حاجته وتوضأ(١).

٥٠- أن الإنسان يؤجر ويثاب على الذكر، سواء كان قائمًا أو قاعدًا أو على جنب أو على أي حال، وكلما كان الحال أنشط على الذكر من حيث التهيؤ والخشوع وحضور القلب وموطأته اللسان، فهو أولى وأفضل، وأجره أعظم، والغالب أن القاعد أخشع ما لم يكن في صلاة، فأفضل حالات الصلاة القيام والسجود.

٥١- أهمية الذكر وعظم منزلته؛ ولهذا أمر به في حال الخوف، ولم يرخص في تركه ولم يشرع التجوز به، كما شرع ذلك بالنسبة للصلاة(٢)؛ لأن الذكر أمره يسير يستطيع الإنسان أداءه على أي حال كان.

٥٢- أن ذكر الله تعالى مما يقوي القلب ويزيده إيمانًا وشجاعة وثباتا عند اللقاء، ومن أعظم أسباب النصر؛ لهذا أمر الله المقاتلين بملازمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٥٣- أن الذكر بعد صلاة الخوف لا يلزم أن يكون وهو جالس في مصلاه، بل له أن يقوله أو بعضه بعد أن ينصرف من الصلاة، قائمًا أو قاعدًا أو على أي حال؛ لقوله

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٥٠) وصححه الألباني.

(٢) أخرج الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٦٤)، الأثر (١٠٣٨٠) عن ابن عباس قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ يقول: «لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبا على عقله، فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال».

تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

وهكذا بالنسبة للصلاة في حال الأمن إلا أن الأولى أن يأتي بأذكارها وهو جالس في مصلاه بعد السلام؛ لأن الملائكة تصلي على العبد ما دام في مصلاه، تقول: اللهم صل عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يحدث»(١).

٥٤- إذا زال الخوف وجب إقامة الصلاة على ما كانت عليه حال الأمن، من حيث إقامة جميع ركعاتها وأفعالها وأقوالها تامة من غير قصر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

٥٥- عظم منزلة الصلاة في الإسلام؛ ولهذا لما ذكر الله قصر الصلاة والتجوز فيها حال الخوف ذَكَّر بوجوب إقامتها تامة إاذ زال الخوف، وهذا هو الأصل فيها إلا أنه ذَكَّر به؛ تعظيمًا لها وبيانا لأهميتها، إذ من المعلوم أن مشروعيتها كانت بمكة، وقبل نزول هذه الآيات.

٥٦- أن الصلاة فرض على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.

٥٧- أن الكفار لا تجب عليهم الصلاة، ولا يطالبون بفعلها حتى يؤمنوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾، وظاهر هذا أنها لا تجب على غير المؤمنين بمعنى ألا يطالب بها غير المؤمنين، غير أن الكفار معاقبون على ترك الصلاة وغيرها من فروع الشريعة لقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٧].

٥٨- أن الصلاة مؤقتة بأوقات محدودة معلومة يجب أداؤها فيها، لقوله تعالى: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. أي: لدلوك الشمس وهو زوالها إلى غسق الليل، وهو

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٤٩)، وأبو داود في الصلاة (٤٦٩)، والنسائي في المساجد (٧٣٣)، والترمذي في الصلاة (٢١٥)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شدة ظلامه، وهذا الوقت ينتظم وقت صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وجعله الله وقتًا واحدًا فقال: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾؛ لأن أوقات هذه الصلوات الأربع لا فاصل بينها، فإذا خرج وقت صلاة منهن دخل وقت التي بعدها.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾، أي: وقت صلاة الفجر وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وإنما أفرد الفجر لأن ما بين منتصف الليل وهو نهاية وقت العشاء إلى ما قبل طلوع الفجر ليس وقتًا للصلاة، وكذا ما بين طلوع الشمس إلى ما قبل الزوال ليس وقتًا للصلاة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس، ووقت صلاة المغرب ما لم يغب الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس**»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمني جبريل عليه السلام عند باب البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس، وكانت بقدر الشراك، وصلى بي العصر حين صار ظل كل شيء مثله، وصلى بي المغرب، حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان من الغد صلى بي الظهر حين صار ظل كل شيء مثله، وصلى بي العصر حين صار ظل كل شيء مثليه، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين ذهب ثلث الليل الأول، وصلى بي الفجر حين أسفر، ثم التفت إليَّ وقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين**»(٢).

٥٩- أنه لا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها حتى ولا للمشتغل بتحصيل شرطها كمن لم يجد الماء، فإنه يتيمم ويصلي في الوقت، وكمن لم يجد ثوبًا يصلي فيه، فإنه يصلي على حسب حاله؛ لأن الله أمر بإقامة الصلاة حال الخوف، ولم يجوز تأخيرها عن وقتها

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦١٢).

(٢) سبق تخريجه. وقد روى أبو داود معناه مطولًا من حديث أبي مسعود الأنصاري- رضي الله عنه- في الصلاة (٣٩٤).

ولا في هذه الحال، بل أوجب إقامتها في وقتها، كما في حال الأمن، وعلل لذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

وعلى هذا فمن أخرها عن وقتها متعمدًا لغير عذرفهو آثم، لكن هل يلزمه قضاؤها. اختلف أهل العلم في هذا على قولين:

فذهب الجمهور إلى أنه يقضيها.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يقضيها، واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، قال: «**لا يقضيها ولو قضاها ما صحت منه**»(١).

أما من أخرها عن وقتها لعذر من نوم ونحوه، فإنه يصليها إذا زال عذره؛ لقوله ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك**»(٢).

٦٠- أنه لا يجوز تقديم الصلاة عن وقتها بحال من الأحوال، حتى ولا حال الخوف؛ لأن الله أمر المقاتلين بقصر الصلاة، والتجوز فيها، ولم يجز لهم أن يصلوها قبل وقتها، بل أمرهم أن يصلوها في وقتها كما يجب ذلك في حال الأمن، وعلل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

فمن قدم الصلاة عن وقتها أو جزءا منها ولو كان يسيرًا كان يكبر تكبيرة الإحرام قبل غروب الشمس لم تصح صلاته(٣).

٦١- نهي المسلمين أن يلحقهم الوهن والضعف في طلب الكفار، وأنه يجب عليهم أن يكونوا أقوياء أشداء في مطاردتهم ومتابعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٧-٣٩)، «الاختيارات الفقهية» ص (٣٢، ٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٤)، وأبو داود في الصلاة (٤٤٢)، والنسائي في المواقيت (٦١٣)، والترمذي في الصلاة (١٧٨)، وابن ماجه في الصلاة (٦٩٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وليس معنى الحديث أن الإنسان ينام ولا يضع الأسباب الموقظة له، ويحتج بهذا الحديث، وإنما المراد من فاتته الصلاة فوات حرص كأن يغلبه النوم.

(٣) ينبغي أن ينتبه لهذا المؤذنون، فإن بعضًا منهم هداهم الله يؤذنون قبل دخول الوقت إما بخمس دقائق أو ثلاث أو أقل أو أكثر، مما يترتب عليه أن يصلي بعض الناس قبل دخول الوقت أو يكبر تكبيرة الإحرام قبل دخول الوقت وبخاصة النساء.

ٱبْتِغَآءَ ٱلْقَوْمِ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

٦٢- تشجيع المسلمين على جهاد الكفار، ورفع معنوياتهم وتثبيت عزائمهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

قال ابن عطية[1]: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾: هذا تشجيع لنفوس المؤمنين وتحقير لأمر الكفرة، ثم تأكد التشجيع بقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهذا برهان بين ينبغي بحسبه أن تقوى نفوس المؤمنين».

٦٣- أن البشر كلهم يتألمون بما يصيبهم من مصائب؛ المؤمنون منهم والكفار، بل خُلَّص المؤمنين يتألمون كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

قال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه**»[2].

وفي الحديث: «**إنك لتوعك**» قال: «**نعم أوعك كما يوعك الرجلان منكم**»[3].

لكن يختلف المؤمنون عن غيرهم بالصبر والتحمل.

٦٤- أن المصائب كلما عمت خفت؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي ليس الألم خاصًا بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم.

ولو أن الموت أو المرض أو الفقر أو غير ذلك من المصائب كتبت على أناس بأعيانهم لماتوا حسرة[4].

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال الترمذي «حسن صحيح» وكذا قال الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٦٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ذكر عن الإسكندر المقدوني أنه لما حضرته الوفاة طلب من أمه أن تعلن عند استقبال المعزين بعد وفاته على أن لا يحضر للتعزية من أصيب بمصيبة، فلما مات جلست في انتظار المعزين فلم يأت إليها أحد فقالت: لماذا؟ فقيل: إنك قلت لا يأتي للتعزية من أصيب بمصيبة. وما من أحد إلا وقد أصابته مصيبة.
=

وهكذا التكاليف فإنها كلما عمت خفت، ولهذا قال بعض المفسرين عند قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قالوا: إن قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ لتخفيف الأمر على هذه الأمة بأن الصوم كما كتب عليهم فقد كتب على من قبلهم.

٦٥- فرق ما بين المؤمنين في جهادهم في سبيل الله وبين الكفار: أن المؤمنين يرجون من الله النصر في الدنيا والثواب في الآخرة، والكفار لا يرجون من الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

٦٦- ينبغي للمؤمن أن يكون راجيا ثواب الله[1]، واثقا بوعده ونصره، محسنًا الظن بربه، غير مدل على الله بعمله، ولا قانط من رحمة ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾.

٦٧- أن الكافرين لا يرجون من الله شيئًا، لا نصرا في الدنيا، ولا ثوابا في الآخرة.

=

فقالت: يرحمك الله يا بني لقد عزيتني عن نفسك بنفسك. انظر: «العقد الفريد» (٣/ ٢٣٣) «المستطرف» (٢/ ٥٨٧)، «مروج الذهب» (١/ ٢٩٢)، «مختار الحكم» (٢٣٩).

(١) قال الإمام أحمد: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحدًا، فأيهما غلب صاحبه هلك». انظر: «الإنصاف» (٢/ ٤٦٣)، «الإقناع» (١/ ٢١١)، «شرح منتهى الإرادات» (١/ ٣٤٠)، «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٠).

وقال الروذباري: «الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت». انظر: «شرح الطحاوية» (ص٣١٢ طبعة الأوقاف السعودية)، «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧)، «الرسالة القشيرية» (١/ ٢٦٠).

وقال بعض أهل العلم: عند فعل الطاعة يغلب جانب الرجاء، وإذا هم بمعصية يغلب جانب الخوف، وفي حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف، أما عند الموت فيغلب جانب الرجاء، ويحسن الظن بربه عز وجل قال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»؛ أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٧)، وأبو داود في الجنائز (٣١١٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وإنما اعتمادهم على جهودهم القاصرة، وهدفهم الحياة الدنيا فقط، فإن كان منهم من له رجاء كالمشركين فهو فقط في وقت الشدة، كما قال الله عنهم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وهذا الرجاء ليس كرجاء المؤمنين الذين يثقون بوعد الله لهم بالنصر في الدنيا والثواب في الآخرة؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾(١).

٦٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

٦٩- إثبات صفة الحكم لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة لله- عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

٧٠- في وصفه تعالى بالعلم والحكم والحكمة مقرونا كل منها بالآخر دلالة على كمال علمه وكمال حكمه وحكمته، فإن من كمال العلم وتمامه أن يكون مقرونا بالحكمة، ومن كمال الحكم والحكمة وتمامهما أن يكونا مقرونين بالعلم، فكم من عالم لا يستفاد من علمه لعجلته وعدم حكمته، وكم من حكيم لا يستفاد من حكمه وحكمته بسبب جهله وعدم علمه.

وقد أحسن النابغة الجعدي حين قال(٢):

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

٧١- وجوب التفويض والتسليم التام لله عز وجل فيما شرع وقدر، سواء عرفنا الحكمة في ذلك أو لم نعرفها؛ لأن ما شرعه وقدره إنما هو عن علم تام وحكمة بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

* * *

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٦٦ تفسير سورة النساء).
(٢) انظر ديوانه ص (٦٩).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

سبب نزول هذه الآيات:

روى قتادة بن النعمان أن أهل بيت يقال لهم بنو أُبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلًا منافقًا، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله إلى بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا، وقال فلان كذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث، فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة أضموا[1] وقالوا ابن الأبيرق قالها

قال قتادة: فابتاع عمي رفاعة بن يزيد حملًا من الدرمك «وهو الدقيق الأبيض النقي الحواري» فجعله في مشربة له «وهي الغرفة أو الصفة أو العلية» وفي المشربة سلاح له؛ درعان وسيفاهما، وما يصلحهما، فَعُدي عليه من تحت الليل فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح. فتحسسوا في الدار وسألوا فقيل لهم: إنهم بنو أبيرق، وكان بنو أبيرق قالوا ما نرى صاحبكم- يعني الذي سرق- إلا لبيد بن سهل- رجل صالح، من بيت قتادة ورفاعة، فلما سمع بذلك اخترط سيفه، ثم أتى بني أبيرق، فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها. قال قتادة: فسألنا حتى لا نشك أن بني أبيرق هم أصحابها. فقال عمي

---

(١) الأضم، بمعنى: الحقد الحسد والغضب. انظر: «لسان العرب» مادة «أضم».

رفاعة: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ. فأتى قتادة رسول الله ﷺ وذكر له ذلك، فقال رسول الله ﷺ أنظر في ذلك، فلما سمع بذلك بنو أبيرق اجتمعوا في دار رجل منهم، وأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة، ولا ثبت. قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة، ولا ثبت. قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك فأنزل الله هذه الآيات: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ اهـ مختصرًا[1].

---

(١) أخرجه الطبري (١٠٤١١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٨٥-٣٨٦)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

وأخرجه الترمذي في تفسير سورة النساء (٣٠٥٩)، من حديث ابن عباس عن تميم الداري وقال: «حديث غريب، ليس إسناده بصحيح».

وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٥٩-٣٦١).

قال الألباني في ضعيف الترمذي «ضعيف الإسناد جدًا».

وقد أخرجه الطبري الأثر (١٠٤٠٩، ١٠٤١٠) عن مجاهد مختصرًا وفيه: «أن هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ نزلت في ابن أبيرق الذي سرق وقال قومه للنبي ﷺ: «اعذره من الناس بلسانك، ورموا بالدرع رجلًا من يهود بريئًا».

وأخرجه أيضًا عن قتادة بن دعامة مختصرًا- الأثر (١٠٤١٢) وفيه: أن اسم السارق طعمة بن أبيرق، واسم اليهودي الذي قذفت عليه زيد بن السمين، فجاء قومه للنبي ﷺ، وهَمَّ النبي ﷺ بعذره حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل فنافق طعمة، ولحق بالمشركين فأنزل الله فيهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية.

وروى الطبري بإسناد ضعيف عن ابن عباس- فيه عطية العوفي- أنهم في غزوة مع النبي ﷺ وأن طعمة غيبها عند رجل برئ، وذهب هو وقومه ليلًا إلى النبي ﷺ ليبرئ صاحبهم فبرأه وعذره.

وقد أخرج هذه القصة الطبري أيضًا عن ابن زيد والسدي وعكرمة والضحاك وفي سياق السدي وعكرمة والضحاك أن طعمة استودعه اليهودي درعه فجحدها طعمة ورمي بها رجلًا آخر. «جامع البيان» (٩/ ١٨٣-١٨٩) وذكرها الواحدي في «أسباب النزول» ص (١٢٠-١٢١).

قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٥٨-٣٥٩) بعد أن ذكره عن ابن عباس من رواية ابن مردويه:

«وهذا سياق غريب، وكذا ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف في سياقاتهم وهي متقاربة».

=

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾، «إنا» ضمير يعود على الله عز وجل، و«نا» فيه، وفي ﴿أَنزَلْنَآ﴾ للتعظيم، وقد تكلم عز وجل بضمير العظمة؛ تعظيمًا لنفسه؛ لأنه صاحب العظمة والكبرياء، وتعظيمًا للكتاب الذي أنزله.

﴿إِلَيْكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: أنزلنا إليك أيها النبي بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]، وهو منزل إلى الأمة بواسطته ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

=

وخلاصة هذه الآثار المروية في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

أن رجلًا يقال له طعمة بن أبيرق أو بشير بن أبيرق سرق درعًا واتهم بها رجلًا قيل إنه من اليهود اسمه يزيد بن السمين، وقيل من غيرهم، وجاء هذا السارق وقومه إلى النبي ﷺ ليبرئ صاحبهم فمال النبي ﷺ إلى تبرئته أو هَمَّ بذلك فأنزل الله هذه الآيات عتابًا للنبي ﷺ وبيانًا للحق في هذه القضية، وتهديدًا للخائنين.

وقيل: إن طعمة أستودعه رجل من اليهود وقيل من الأنصار درعًا فجحدها ورمى بها رجلًا آخر.

انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٧٦-١٩٨) الآثار (١٠٤١١-١٠٤١٧)، «الروض الأنف» (٢/ ٢٨)، «الدر المنثور» (٥/ ٦٧٠-٦٧٦)، «لباب النقول» ص (٨٢)، «روح المعاني» (٥/ ١٣٥).

وهذه الآثار في هذه القصة إن لم تثبت صحتها فإن مضمونها يشهد له ظاهر الآيات؛ لأن الآيات جاءت تحكي قصة وقعت، وفيها الإشارة لكثير من التفاصيل التي جاءت في هذه الروايات؛ ولهذا فإن أئمة التفسير من سلف هذه الأمة وخلفها إلى يومنا هذا نهجوا في تفسير هذه الآيات على نحو ما جاء في هذه الروايات، ولهذا وذاك ذكرتها في هذا الكتاب للاهتداء بها في تفسير هذه الآيات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «سبب ذلك أن قومًا يقال لهم بنو أبيرق سرقوا لبعض الأنصار طعامًا ودرعين، فجاء صاحب المال يشتكي إلى رسول الله ﷺ، فجاء قوم يزكون المتهمين بالباطل، فكأن النبي ﷺ ظن صدق المزكين، فلام صاحب المال، فأنزل الله هذه الآية، ولم يقل النبي ﷺ لصاحب المال: أقم البينة ولا حلّف المتهمين؛ لأن أولئك المتهمين كانوا معروفين بالشر وظهرت الريبة عليهم». انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٢٣٧-٢٣٨).

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، «ال» للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، و«كتاب»: فعال بمعنى مفعول، أي: مكتوب. والمراد به القرآن الكريم.

وأصل الكَتْب: الجمع. قال ابن فارس(١): «الكاف والتاء والباء أصل صحيح، يدل على جمع شيء إلى شيء».

وسمي الكتاب بذلك؛ لأنه جُمع بعضه إلى بعض، حروفه وكلماته، ومنه سميت الكتيبة؛ لاجتماع بعضها إلى بعض.

وسمي القرآن «الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣- ١٦].

ومكتوب بأيدي الناس في الصحف والرقاع واللخاف ثم بالمصاحف إلى يومنا هذا، وإلى أن يأذن الله برفعه.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾، الباء للمصاحبة، أو للتعدية، فعلى كونها للمصاحبة يكون المعنى: أنه نازل من عند الله حقًا، وليس مكذوبًا، أي: أنه لم يعرض له في طريق وصوله إلى النبي ﷺ كذب أو باطل، أو تغيير أو تحريف أو تبديل. وهذا حق وصدق، فقد نزل القرآن الكريم من عند الله- عز وجل- حقًا على النبي ﷺ بواسطة جبريل الأمين عليه السلام محفوظًا عن الكذب والباطل والتغيير والتحريف والتبديل، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وعلى كون الباء للتعدية، يكون المعنى: أنه نزل بالحق، أي: أن كل ما نزل به القرآن وما جاء به فهو حق ويهدي إلى الحق، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى:

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة»، «المفردات» للراغب الأصفهاني، «لسان العرب» مادة «كتب».

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وهو يهدي إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والآية تحتمل المعنيين معًا، فينبغي حملها عليهما جميعًا.

قال الحافظ ابن كثير(١): «أي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه».

ويجمع المعنيين قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

والحق: في الأصل بمعنى: الثابت، مأخوذ من الثبوت، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

وضد الحق: الباطل الزائل(٢) الزاهق.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿لِتَحْكُمَ﴾، اللام للتعليل، والخطاب للرسول ﷺ.

﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: لتحكم بين الناس في فصل الخصومات، وتبيين الأحكام الشرعية لهم، ببيان الحق من الباطل والحلال من الحرام، والواجب من غيره، كما جاء في القرآن.

﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، الباء حرف جر، و«ما» اسم موصول مبني في محل جر، أي: بالذي أراك الله، وهو متعلق بقوله: ﴿لِتَحْكُمَ﴾، و«أرى» ينصب مفعولين، الأول هنا: ضمير الكاف، والثاني محذوف، أي: أراك الله إياه.

ومعنى ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، أي: بما أعلمك(٣) في هذا القرآن مما تقرأه من الآيات

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ١٨).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢٧) قال الرازي: «وسمى العلم بالرؤية؛ لأن العلم اليقيني المبرأ من جهات الريب يكون جاريًا مجرى الرؤية في القوة والظهور».

البينات، ومما تستنبطه منه من الأحكام مما يحتاج إلى استنباط.

وعلى هذا فيحتمل أن تكون ﴿أَرَىٰكَ﴾: من (الرأي) بمعنى الفهم والاستنباط من القرآن، أي: بما أفهمك الله واستنبطته من القرآن، وهذا فيما ليس فيه نص صريح، ويحتاج إلى الاستنباط.

ويحتمل أن تكون من الرؤية البصرية، أي: بما أراك الله مما تقرأه وتراه من الآيات البينات في كتاب الله- تعالى.

كما يحتمل أيضًا أن يكون قوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ﴾ من الرؤية العلمية فيشمل المعنيين السابقين(١).

والمعنى لتحكم بين الناس في الفصل بينهم في الخصومات، وفي بيان الأحكام الشرعية لهم بما أراك الله من الآيات البينات في كتابه الكريم، وبما أفهمك من استنباط لبعض الأحكام من الآيات، مما ليس فيه نص صريح.

روي عن عمر- رضي الله عنه- قال: «**لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ، ولكن ليجتهد رأيه؛ لأن الرأي من رسول الله ﷺ مصيب؛ لأن الله يريه إياه، وهو منا الظن والتكلف**»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**إياكم والرأي قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل بما رأيت**»(٣).

﴿وَلَا تَكُن﴾، الواو: استئنافية، و«لا» ناهية.

﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿خَصِيمًا﴾.

والخائنين: جمع خائن، والخيانة: هي الغدر في موضع الأمانة وهي صفة ذم بكل حال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وهي من صفات المنافقين قال

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٩٨)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٥)، «التفسير الكبير» (١١/ ٢٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٥٩) الأثر (٥٩٢٩).

تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأنفال: ٧١](١).

وقال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب**»(٢).

والمؤمن حقًا لا يخون، وقد رُويَ أن النبي ﷺ سئل عن المؤمن هل يكون جبانًا أو بخيلًا؟ قال: «نعم». قيل: وهل يكون خائنا كذابًا؟ قال: «لا»(٣).

﴿خَصِيمًا﴾: خبر كان، وهو «فعيل» بمعنى: «فاعل».

والمعنى: ولا تكن مخاصما لهم، ومدافعا عنهم، بل كن عليهم خصيما.

قال الطبري(٤): «ولا تكن لمن خان مسلمًا ومعاهدًا في نفسه أو ماله خصيمًا تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه».

ولا يستلزم النهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾: أن يكون النبي ﷺ قد خاصم عن هؤلاء الخائنين؛ لأنه قد ينهى عن الشيء وإن لم يقع مخافة وقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

ويحتمل أنه ﷺ مال إلى تبرئة طعمة؛ لأنه مسلم في الظاهر، واتهام اليهودي لما شهدوا عليه، كما قاله بعض المفسرين(٥).

---

(١) قوله: ﴿فَأَمْكَنَ﴾ منهم ولم يقل: (فخانهم) يدل على أنه- عز وجل- لا يوصف بالخيانة، وأنه منزه عنها؛ لأنها صفة ذم بكل حال، فلا يوصف بها ولا على طريق المجازاة، بخلاف الخداع والاستهزاء والمكر، فقد وصف بها نفسه على سبيل المجازاة قال تعالى في الخداع: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢] وقال تعالى في الاستهزاء: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤،١٥] وقال في المكر: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] وأما الخيانة فإن الله- عز وجل- منزه عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٥٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، والترمذ في الإيمان (٢٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الكلام (٢/ ٩٩٠) عن شيخه صفوان بن سليم عن النبي ﷺ مرسلًا، قال ابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٢٥٣): «لا أحفظ هذا الحديث مسندًا بهذا اللفظ من وجه ثابت» وانظر: «كشف الخفاء» (٢/ ١٠٨).

(٤) في «جامع البيان» (٩/ ١٧٦).

(٥) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢٨)، «تفسير المنار» (٥/ ٣٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾.

قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾، الواو عاطفة، «استغفر الله» اطلب منه المغفرة، والمغفرة ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾: الجملة تعليل لما قبلها، أي: استغفر الله؛ لأن الله ﴿كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق اتصافه عز وجل بالمغفرة والرحمة أزلًا وأبدًا.

﴿غَفُورٗا﴾، أي: ذا المغفرة الواسعة التامة، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبته.

﴿رَّحِيمٗا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والمعنى: واطلب من الله المغفرة؛ فإن من صفته عز وجل المغفرة والرحمة لمن استغفره وتاب وأناب إليه.

وباجتماع المغفرة والرحمة تمام النعمة، إذ بالمغفرة يزول المرهوب وبالرحمة يحصل المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾، الواو عاطفة، و«لا» ناهية، ﴿تُجَٰدِلۡ﴾، المجادلة هي: المماراة والمخاصمة والمحاجة للخصم من أجل الظهور عليه، سميت بذلك إما من «الجَدْل» وهو فتل الحبل[1] وإحكامه؛ لأن المجادل يُحكم حجته؛ ليظهر على صاحبه، وإما من «الجدالة»، وهي الأرض.

قال البغوي[2]: «فكأن كل واحد من الخصمين يروم قهر صاحبه وصرعه على الجدالة».

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٨).

(٢) في «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٨) وانظر: «مادة» «جدل» في «القاموس المحيط» و«لسان العرب».

ومن ذلك قولهم: «تركته مجدلًا»، أي: مطروحا على الجدالة وهي الأرض.

﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: يوقعون أنفسهم بالخيانة، بالسرقة، والاتهام بها شخصًا بريئا منها، ويُعَرِّضونها بالمعصية للعقاب والحرمان من الثواب.

قال الطبري[1]: «يعني يخونون أنفسهم، يجعلونها خونة بخيانتهم ما خانوا من أموال من خانوه ماله، وهم بنو أبيرق، يقول: لا تخاصم عنهم من يطالبهم بحقوقهم وما خانوه من أموالهم».

ولا يستلزم قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يكون النبي ﷺ جادل عنهم؛ لأنه قد ينهى الإنسان عن الشيء وإن لم يقع مخافة أن يقع أو غير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: الجملة تعليل للنهي السابق عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم.

﴿مَن﴾: اسم موصول بمعنى الذي، و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، ﴿خَوَّانًا﴾ خبر كان، من الخيانة، ضد الأمانة.

وهي على وزن «فعّال» صفة مشبهة.

ويحتمل أن يكون «فعّال» للنسبة، أي: لا يحب من كان ذا خيانة.

ويحتمل أن تكون «فَعَّال» صيغة مبالغة[2]، أي: كثير الخيانة، والأول أولى؛ لأنه أعم؛ لأنه إذا كان- سبحانه وتعالى- لا يحب من كان ذا خيانة، فعدم محبته لكثير الخيانة من باب أولى.

﴿أَثِيمًا﴾: خبر ثان لكان، على وزن «فعيل»، نسبة للإثم بمعنى لا يحب من كان ذا إثم، أي: مكتسب الإثم.

ويحتمل أن يكون «فعيل» صيغة مبالغة، فالمعنى: لا يحب من كان كثير الإثم، والأول أولى.

وقدّم «خوانا» على «أثيما»؛ لأن الخيانة سبب الإثم، أو لأن المراد بالخيانة هنا السرقة،

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ١٩٠).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٨).

والإثم نسبة ذلك إلى اليهودي، كما روي ذلك عن ابن عباس- رضي الله عنهما[١].

وإذا كان الله لا يحب من كان خوانًا أثيمًا، فلا تجوز المجادلة عمن كانت هذه صفته؛ لأن المجادلة عنه محادة لله تعالى ومعاونة لمن لا يحبه الله على عمل لا يحبه الله، وهو الخيانة والإثم.

كما فعل هؤلاء الذين نزلت فيهم الآيات، جمعوا بين الخيانة والإثم، سرقوا واتهموا بالسرقة من كان بريئًا.

قوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾: هذا إنكار وتوبيخ للخائنين المختانين أنفسهم، والمراد بهم هنا: الذين سرقوا وألصقوا السرقة بشخص آخر برئ منها، ومن اتصف بصفتهم من المنافقين[٢].

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، الاستخفاء: الاستتار، وهو أبلغ من الاختفاء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ ﴾ [الرعد: ١٠]، أي: مستتر بالليل.

والمعنى: أنهم يستترون بفعلتهم الشنيعة من الناس؛ خوفًا أن يروهم أو يعلموا بحالهم، فيفتضحوا بين الناس.

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، أي: ولا يستترون من الله، وهو الأحق أن يراقبوه، ويستحيوا منه، ويخافوا من سطوته وعقوبته، وهم إن استتروا عن الناس فإن الله يراهم لا يخفى عليه منهم، ولا من أعمالهم خافية.

قال الطبري[٣]: «يستخفي هؤلاء الذين يختانون أنفسهم ما أتوا من الخيانة وركبوا من العار والمعصية ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الذين لا يقدرون لهم على شيء، إلا ذكرهم بقبيح ما أتوا من فعلهم، وشنيع ما ركبوا من جرمهم، إذا اطلعوا عليه حياءً منهم وحذرًا من

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢٨).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦١).

(٣) في «جامع البيان» (٩/ ١٩١).

قبيح الأحدوثة، ولا يستخفون من الله الذي هو مطلع عليهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وبيده العقاب والنكال، وتعجيل العذاب، وهو أحق أن يستحى منه من غيره وأولى أن يعظم أن لا يراهم حيث يكرهون أن يراهم أحد من خلقه».

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، الواو للحال، فالجملة حالية، أي: ولا يستخفون من الله والحال أنه معهم.

وأصل معنى «المعية»: المصاحبة، لكن يختلف مقتضاها ولازمها بحسب ما تضاف إليه، ولهذا قال أهل العلم المعية تنقسم إلى قسمين عامة خاصة.

فالمعية العامة، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤].

وكقوله تعالى في هذه الآية هنا: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، قال السلف، أي: معهم بعلمه وإحاطته وقدرته، يراهم ويسمع كلامهم(١).

والمعية الخاصة، كقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وكما في قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤١].

قال السلف: معهم بنصره وعونه وتأييده وحفظه لهم(٢).

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرفية بمعنى «حين»، ﴿يُبَيِّتُونَ﴾ التبييت والبيات: ما يكون ليلًا، أي يدبرون الأمر ليلًا(٣)، ويقضونه في الخفاء، يقال: أمر دُبر بليل، أو أمر قضي بليل، أي في الخفاء.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٩).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٨٩).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٩٢)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٩).

﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى «الذي» في محل نصب مفعول به لـ﴿يُبَيِّتُونَ﴾، و﴿لَا﴾ نافية، وعائد الموصول محذوف، والتقدير: ما لا يرضاه من القول.

والمعنى: أنهم يدبرون بينهم ليلًا قولًا لا يرضاه الله تعالى من تبرئة صاحبهم السارق حقيقة، واتهام شخص بريء بها، بل رُويَ أنهم جاؤوا إلى النبي ﷺ ليلًا بعدما أداروا ذلك بينهم- كما تقدم في روايات سبب النزول.

قال ابن القيم(١): «أخبر أنه لا يرضى ما يبيتون من القول المتضمن البهت، ورمي البريء، وشهادة الزور، وبراءة الجاني..».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ «كان» مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف.

﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، والتقدير: بالذي يعملون، أو مصدرية، والتقدير: بعملهم.

﴿مُحِيطًا﴾، أي: مطلعًا عليه محصيًا له، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

قال الطبري(٢): «محصيًا لا يخفى عليه شيء منه حافظًا لذلك عليهم، حتى يجازيهم عليه جزاءهم».

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾، «ها» حرف تنبيه، و«أنتم» ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ «ها» حرف تنبيه أيضًا، و«أولاء» اسم إشارة مبني في محل نصب منادى محذوف الأداة، والتقدير: يا هؤلاء، أو خبر في محل رفع.

والإشارة في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، لبني أبيرق الذين جادلوا عن صاحبهم السارق(٣)، قال القرطبي(٤): «هؤلاء بمعنى الذين».

---

(١) في مدارج السالكين» (١/ ٢٥٣).

(٢) في جامع البيان (٩/ ١٩٢-١٩٣).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٩٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ٣٠).

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٩).

﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾، ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾: خبر المبتدأ؛ إما خبر أول، أو خبر ثان، أي: خاصمتم ودافعتم وحاججتم عنهم.

والضمير في قوله: ﴿عَنْهُمْ﴾: يعود إلى السارق، وأمثاله من الخائنين(١)، ولهذا جمع، وكأن هذه القبيلة تتخذ هذا عادة في الدفاع عن كل خائن منها.

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، الحياة الدنيا: هي هذه الدار التي نحن فيها، فقد كان الإنسان قبل هذا عدمًا، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم أوجد الله عز وجل هذا الإنسان ونفخ فيه من روحه، فَسَرتْ فيه الحياة، ثم يموت وينقل إلى الدار البرزخية، ثم يعيد الله له الروح ويبعث للحساب والجزاء في الدار الآخرة، وسميت هذه الحياة دنيا من الدنو وهو القرب؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن.

ومن الدون لأنها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، والحديد: ٢٠]، وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(٢).

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«من» اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ، والاستفهام هنا معناه النفي، بل معناه أشد النفي؛ لأنه نفي فيه معنى التحدي، وهو أبلغ من النفي المجرد، أي: لا أحد ﴿يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ولا أحد يستطيع ذلك، فيدفع عنهم عذاب الله وعقوبته ونقمته؛ لأن ذلك ليس بمقدور أحد من الخلق.

ويوم القيامة سمي بهذا؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٩٣).

(٢) سبق تخريجه.

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه من الرسل والملائكة وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام العدل الحقيقي في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، ولقيام الحساب فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

والمعنى: هبوا أنكم خاصمتم عنهم[1] في الحياة الدنيا بالباطل، ولبَّسْتم في الأمر على الرسول ﷺ، أو على غيره ممن يتولى الحكم لكونكم ذوي لسن وفصاحة أو دهاء فحصل لكم بذلك شيء من الغلبة، كما قال ﷺ: «**ألا إنما أنا بشر. وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي. له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**»[2].

فمن يجادل الله ويخاصمه عنهم يوم القيامة، أي: لا يستطيع أحد أن يخاصم الله عز وجل عنهم يوم القيامة، فيدفع عنهم عذابه؛ لأنه عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، ويُنطق الله عز وجل جوارحهم فتشهد عليهم بما عملوا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

قال الطبري[3]: «فمن ذا يخاصم الله عنهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾... فيدافع عنهم ما الله فاعل بهم ومعاقبهم به، وإنما يَعني بذلك جلَّ ثناؤه: أنكم أيها المدافعون عن هؤلاء

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، وأبو داود في الأقضية (٣٥٨٣)، والنسائي في القضاة (٥٤٠٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٣٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧)، وأحمد (٦/ ٣٢٠)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) في «جامع البيان» (٩/ ١٩٣).

الخائنين أنفسهم، وإن دافعتم عنهم في عاجل الدنيا، فإنهم سيصيرون في آجل الآخرة إلى من لا يدافع عنهم عنده أحد فيما يحل بهم من أليم العذاب ونكال العقاب».

وقال ابن كثير[1]: «أي: هَبْ أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أُبديَ لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر- وهم متعبدون بذلك- فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى».

﴿أَمَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، الاستفهام كما سبق بمعنى: النفي، أي: لا أحد يكون عليهم وكيلًا، والوكيل: من وكِلَ إليه الأمر بالحفظ والحماية.

والمعنى: أم من يكون عليهم وكيلًا يتولى أمورهم ويدافع عنهم وينصرهم ويمنعهم من عذاب الله، والجواب: لا أحد يكون عليهم وكيلًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

بعد أن ذكر عز وجل الوعيد السابق بَيَّن عز وجل أن الفرصة ما زالت لمن أساء لغيره أو ظلم نفسه أن يعود فيستعتب ويستغفر الله.

كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾، الواو استئنافية، و«من» شرطية، و«يعمل» فعل الشرط وجوابه: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: ومن يعمل سوءً بغيره، أي: ما يسوء غيره كالسرقة، والاتهام بها شخصًا بريئًا منها، كما حصل من السارق وقومه في هذه القصة.

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾، أي: بفعل معصية بينه وبين ربه؛ لأن المعاصي ظلم للنفس، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أي: ظلومًا لنفسه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٦١).

ومن الظلم للنفس الشرك بالله، بل إن أظلم الظلم للنفس الإشراك بالله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي: بشرك، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فمن الأعمال ما يسوء الغير بأن يتعدى ضرره إليهم مباشرة، ومنها ما يكون ظلمًا للنفس، يقتصر ضرره على النفس وحدها.

إلا أن المعاصي على وجه العموم كلها ظلم للنفس وإساءة لها وكلها يتعدى ضررها إلى الآخرين ويسؤوهم، من حيث العموم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وإنما خُصَّ السوء هنا بما يسوء الغير، والظلم للنفس بما ذكر؛ لأن الله قابل بينهما فتفسير كل واحد منهما بمعنى يخصه أولى من تفسير كل منهما بمعنى الآخر فهما من الكلمات المترادفة كالإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، والبر والتقوى، ونحو ذلك فهذه إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت.

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، ثم عاطفة، و«يستغفر»: معطوف على فعل الشرط «يعملْ»، وإنما كسرت الراء لالتقاء الساكنين، أي: يطلب من الله المغفرة بقوله: أستغفر الله، اللهم اغفر لي، ونحو ذلك، مع صدق التوبة والإنابة إلى الله عز وجل.

وذلك بتوفر شروط التوبة من الإخلاص لله- تعالى، والإقلاع عن المعصية والندم على فعلها، والعزم على ألا يعود إليها، وكونها في وقتها المناسب؛ قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.

﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، «يجد» جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾، وهو في الأصل مجزوم وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

﴿غَفُورًا﴾،أي: ذا المغفرة الواسعة.

والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه، ومنه سُميَ «المِغْفَر»، وهو البيضة التي توضع على الرأس في الحرب تستره وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة لله، رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

والمعنى: يجد الله غفورًا ساترًا لذنبه متجاوزًا عن عقوبته، رحيمًا به وبعباده المؤمنين المستغفرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤].

وعن علي- رضي الله عنه- أنه قال: كنت أسمع حديثًا من رسول الله ﷺ نفعني الله به ما شاء الله، وإذا سمعته من غيره حلَّفته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: «ما من عبد يذنب ذنبًا ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وكقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦].

قوله: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ ﴾، الواو عاطفة، و«من» شرطية، و«يكسب» فعل الشرط.

والكسب: ما يجلب به الإنسان إلى نفسه نفعًا، أو يدفع عنها به ضررًا، أو ما يجر به الإنسان إلى نفسه ضررًا، أو يمنع بسببه عنها خيرًا.

فيطلق الكسب على طلب الخير والشر والسعي في تحصيل ذلك، كما يطلق أيضًا على نفس الشيء المكتسب من خير أو شرٍ(٢).

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]. و«ما» هنا موصولة أو مصدرية، والتقدير: بالذي كسبت، أو بكسبها.

﴿ءَاثِمًا﴾: ذنبًا وهو جامع للسوء وظلم النفس، المذكور بقوله قبل هذا: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾.

وهو نكرة في سياق الشرط فيعم كل إثم سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، باشره الإنسان بنفسه أو تسبب فيه أو أعان عليه.

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٠).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٠)، «لسان العرب» مادة «كسب».

فالسارق ومن أعانه على سرقته ودافع عنه واتهم بها غيره كل هؤلاء ممن اكتسب إثمًا.

﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه يشبه الجملة الأسمية؛ لاقترانه بـ«إنما»، و«إنما» مكونة من «إن»: وهي حرف توكيد، و«ما» الكافة، ولهذا يقال: «إنما» كافة مكفوفة، أي: أن «ما» دخلت على «إن» حرف التوكيد فكفتها عن العمل.

والمعنى: ومن يكتسب إثمًا فإنما يضر نفسه بكسبه لهذا الإثم، وضرره عليه هو لا على غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، وفاطر: ١٨، والزمر: ٧].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ الواو: استئنافية، و«كان» مسلوبة الزمن، أي: أنه لا يزال عز وجل عليمًا حكيمًا، أزلًا وأبدًا.

﴿عَلِيمًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، أي: ذا العلم الواسع لكل شيء.

﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان لـ﴿كَانَ﴾، أي: ذا الحكم الكوني والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذا الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ومن علمه- عز وجل- المحيط بكل شيء: أن أَعلم نبيه عليه الصلاة والسلام وجه الحق في قضية السارق ومجادلة قومه عنه واتهامهم بالسرقة من هو بريء منها.

ومن حكمه أن ما حصل من هؤلاء بحكمه عز وجل الكوني، فلا يقع في الكون إلا ما شاءه وحكم به بحكمته.

ومن علمه وحكمه وحكمته أن من كسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه.

قال الطبري(١): «وكان الله بما تفعلون أيها المجادلون عن الذين يختانون أنفسهم في جدالكم عنهم وغير ذلك من أفعالكم وأفعال غيركم وهو يحصيها عليكم وعليهم، حتى يجازي جميعكم بها ﴿حَكِيمًا﴾، يقول: وهو حكيم بسياستكم وتدبيركم وتدبير جميع خلقه».

وقال ابن كثير(٢): «أي: من علمه وحكمته وعدله ورحمته كان ذلك، يعني أن من كسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه».

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ١٩٦).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٦٣).

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

في قوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ الآية، وقوله بعد ذلك: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ الآية، وقوله هنا: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾، ما يوحي بأن هذه الآيات نزلت في قصة السارق وقومه، الذين أرادوا تبرئته واتهام شخص بريء منها، كما يدل هذا التكرار على خطورة هذا الفعل وشدته.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾، كالجملة السابقة ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا ﴾، فالواو عاطفة، و«من» شرطية، «يكسب» فعل الشرط، و«خطيئة» مفعول «يكسب» منصوب، و«أو» عاطفة «إثمًا» منصوب عطفًا على «خطيئة».

واختلف المفسرون في المراد بالخطيئة والإثم مع اتفاقهم على أنه إذا انفرد أحدهما شمل الآخر: كالإسلام والإيمان، وإنما اختلفوا في المراد بهما في الآية لأنه عطف أحدهما على الآخر، والأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة.

فقال بعضهم: الخطيئة ما كان عن غير عمد، والإثم ما كان عن عمد[١].

وقيل: الخطيئة ما تعدى إلى الغير، والإثم ما كان خاصاً بالإنسان، وقيل: العكس[٢].

وقيل الخطيئة: الصغيرة، والإثم: الكبيرة[٣].

وقيل: هما بمعنى واحد، وإنما عطف أحدهما على الآخر، وكرر لاختلاف اللفظين[٤].

والأظهر اختلافهما في المعنى؛ لأن الأصل أن العطف يقتضي المغايرة.

﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾، ثم: حرف عطف، ﴿ يَرْمِ ﴾: فعل مضارع مجزوم عطفًا على فعل الشرط «يكسب»، علامة جزمه حذف حرف العلة: «الياء»، ﴿ بِهِۦ ﴾، الضمير يعود إلى الكسب المأخوذ من قوله: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ ﴾، أي: ثم يرم بما كسبه من خطيئة أو إثم.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٩٧)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٢).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣١).

(٣) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٠-٣٨١).

أو يرجع إلى الخطيئة والإثم[١]، فيكون الضمير هنا بمعنى اسم الإشارة، أي: ثم يرم بذلك، أو بمعنى ثم يرم بالمذكور، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وذلك من حيث عود الضمير مفردًا في كل من هذه الآيات على اثنين.

﴿بَرِيٓـًٔا﴾، مفعول ﴿يَرْمِ﴾، أي: ثم يرم به شخصًا بريئًا.

والمعنى: ثم يتهم بهذه الخطيئة والإثم شخصًا بريئًا، ويضيفه إليه ويلصقه به، كما فعل السارق وقومه، حيث اتهموا بالسرقة اليهودي، أو رجلًا صالحًا غيره.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾: جملة جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لاقتران الجملة بـ«قد».

﴿بُهْتَٰنًا﴾ مفعول «احتمل»، والبهتان: الكذب، أي: احتمل كذبًا. وسُميَ الكذب بهتانًا؛ لأنه يَبْهت ويُتحيّر من عظمه، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: دهش وتحيَّر.

فالكذب يبهت ويُحيِّر من رُمِي به ويدهشه[٢].

قال ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**». قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[٣].

كما أن الكذب يَبهت ويُحيِّر من سمعه من الناس، وبالتالي يبهت قائله الذي قاله وتَفَوَّه به؛ لأن ضرره وعاقبته السيئة تعود على من تفوَّه به.

﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾، «إثمًا» معطوف على «بهتانًا»، والإثم: الذنب، «مبينًا»: صفة لـ«إثمًا»،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٩٧-١٩٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٩٧-١٩٩)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١١٢)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨١).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٩)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: بينًا واضحًا من «أبان» اللازم، كما يقال: أبان الفجر، أي: ظهر[١].

ويحتمل أن يكون من «أبان» المتعدي، كما يقال: أبان الله طريق الحق.

قال الطبري[٢]: «وإثمًا مبينًا، يعني أنه يبين عن أمر متحمله وجراءته على ربه وتقدمه على خلافه فيما نهاه عنه لمن يعرف أمره».

والمعنى: ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يرم به شخصًا بريئًا فقد احتمل كذبًا وذنبًا عظيمًا يبوء بحمله لشدة ثقله، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣][٣].

ويستحق عليه الوعيد الشديد؛ لأنه جمع بين فعل الخطيئة أو الإثم والكذب على الغير.

قال ابن كثير[٤]: «﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ الآية، يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح، وهو لبيد بن سهل، أو زيد بن السمين اليهودي، على ما قاله الآخرون، وقد كان بريئًا، وهم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، ثم هذا التقريع، وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم، ممن اتصف مثل صفتهم وارتكب مثل خطيئتهم فعليه عقوبتهم».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

في هذه الآية بيان فضل الله عز وجل على رسوله ﷺ في توفيقه له إلى وجه الصواب في هذه القصة، وعصمته له من الزلل والخطأ.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾، الواو استئنافية، و«لولا» شرطية، وهي حرف

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٠٤).

(٢) في «جامع البيان» (٩/ ١٩٩).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨١).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٣٦٣)، وانظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣١).

امتناع لوجود، فامتنع همهم أن يضلوه لوجود فضل الله تعالى عليه.

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، الفضل: التفضل والزيادة منه عز وجل.

﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، وهو من عطف العام على الخاص؛ لأن الرحمة أعم من الفضل، فبسببها يكون الفضل، وهو حصول المطلوب، وبسببها يكون زوال المرهوب.

والمعنى: ولولا تفضل الله عليك ورحمته بأن أراك وجه الصواب في هذه القصة.

﴿لَهَمَّت﴾: جواب «لولا»، أي: أضمرت وقصدت.

﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: فرقة وجماعة منهم، وهم قوم السارق الذين أرادوا تبرئة صاحبهم من السرقة وإلصاقها بغيره.

﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾، «أن»: حرف مصدري ونصب، «يضلوك»: فعل مضارع منصوب بها، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأن الأصل «يضلونك».

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، والتقدير: لهمت طائفة منهم بإضلالك، وأصل الضلال: التيه والبعد عن الحق وعن الطريق السوي.

ومعنى: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾، أي: يبعدوك عن إصابة الحق في الحكم في هذه القضية فتبرئ صاحبهم السارق حقًا، وتحكم بها على غيره، بسبب تلبيسهم عليك في الأمر والتظلم لصاحبهم واتهامهم بها غيره.

وإنما اعتبرت هذه الجملة ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾: جواب «لولا» وجوابها في الأصل ممتنع الوقوع مع أن في هذه القصة ما يدل على أنهم قد هموا، بل وفعلوا، فجاءوا إلى النبي ﷺ وأنكروا أن يكون صاحبهم هو السارق، ورموا بالسرقة شخصًا بريئًا منها، اليهودي أو غيره؛ لأنه لما لم يحصل مرادهم وهو تضليل الرسول ﷺ في الحكم بالتلبيس عليه في ذلك فكأنهم لم يهموا بذلك.

وعلى هذا فيكون المعنى: ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم هماً يحصل به مرادهم وهو إضلالك عن الحق في الحكم في هذه القضية، فتبرئ صاحبهم منها وتحكم بها على غيره، لكن بفضل الله عليك ورحمته بك لم يتحقق مرادهم من إضلالك، حيث أبان

لك سبحانه وأراك وجه الحق في هذه القضية وعصمك من الزلل والخطأ(١).

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: وما يضلون فيما حاولوا من التلبيس، والدفاع عن صاحبهم واتهامهم غيره إلا أنفسهم في الحال والمآل؛ لأن ضرر ذلك عائد إليهم، حيث سعوا في تبرئة السارق حقًا واتهام غيره، وكانوا عونًا للظالم على المظلوم، وضدًا للحق، وهذا عين الضلال كما قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾، الواو عاطفة، أو استئنافية، و«ما» نافية، ﴿يَضُرُّونَكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ.

﴿مِن شَىْءٍ﴾، «من» زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، ﴿شَىْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء، بل إنها في هذا الموضع نصٌّ في العموم؛ لأنها دخلت عليها «من».

والمعنى: أنهم ما يمكن أن يضروك بشيء أبدًا لفضل الله عليك ورحمته بك وعصمته لك وبيانه الحق لك، ولأنك إن حكمت بالظاهر لك من الأمر حسب شهادتهم لا ضرر عليك في ذلك؛ لأنه ليس لك إلا الظاهر، كما قال ﷺ: «**ألا إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فإنما أقضي له بجمرة من النار، فليأخذ أو ليدع**»(٢).

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، الواو للاستئناف، وقيل: هي «واو» الحال، فالكلام متصل، أي: وما يضرونك من شيء مع إنزال الله الكتاب عليك والحكمة، أو والحال أن الله أنزل عليك الكتاب والحكمة.

والخطاب للنبي ﷺ.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، (ال) للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود، وهو القرآن الكريم،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٩٩، ٢٠٠)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨١)، وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى، على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٢٠٦ تفسير سورة النساء).

(٢) سبق تخريجه.

ويحتمل أن تكون (ال) للعهد الذكري، أي الكتاب المذكور في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وهو القرآن الكريم[١].

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: السنة[٢]، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

أو معرفة حِكَم وأسرار التشريع[٣]، كمعرفة حكمة مشروعية الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك من أحكام الله- تعالى.

فكل ما شرعه الله تعالى إنما شرعه لحكم وأسرار عظيمة، سواء أدركنا هذه الحكمة أم لم ندركها، ولا شك أن معرفة الحكمة مما يزيد الإيمان ويقويه.

ولا مانع من حمل الحكمة في الآية على المعنيين كليهما؛ لأنهما لا يتنافيان في الواقع، فالرسول ﷺ أنزل الله- عز وجل- عليه الكتاب، وهو القرآن، وأنزل عليه السنة، وما فيهما من الأحكام والحكم.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، و«ما» موصولة، أي: الذي لم تكن تعلم، والمعنى: وعلمك ما لم تكن تعلم من ذي قبل بما أوحاه الله تعالى إليك من الكتاب والسنة وما فيهما من الأحكام والحكم والمواعظ، وأخبار الأولين والآخرين وما هو كائن، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٦٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦٢).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٤٠٢).

ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

قال ابن القيم(١): «﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

والحكمة في كتاب الله تعالى نوعان: مفردة ومقترنة بالكتاب، فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن... وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة. كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك، أنها معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية وعملية، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا.

والعملية كما قال صاحب المنازل(٢): «هي وضع الشيء في موضعه»، وهي على ثلاث درجات، الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه».

فالحكمة إذًا فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي..

وأكمل الخلق في هذا الرسل صلوات وسلامه عليهم، وأكملهم أولوا العزم، وأكملهم محمد ﷺ، ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٧٦-٧٨).

(٢) صاحب «منازل السائرين»، هو: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي م ٤٨١ هـ.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ولها ثلاثة أركان: «العلم، والحلم، والأناة. وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة، فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول».

وكونه ﷺ قبل النبوة والرسالة أميًّا لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان ليس نقصًا في حقه ﷺ؛ لأن هذه حالة غيره من البشر، وإنما ميَّزه الله تعالى وكمّله بالنبوة والرسالة، بما أنزل عليه من الكتاب والحكمة مما ليس بمقدور البشر الإتيان بمثله، بل بسورة من مثله مما يدل على أنه رسول الله تعالى حقًا.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ هذا كالتوكيد لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، ولقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾، أي: تفضله وعطاؤه وزيادته، ﴿عَلَيْكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ.

﴿عَظِيمًا﴾: خبر كان، أي: بالغًا غاية كبيرة جدًا في العظم؛ لأنه فضل وعطاء من العظيم، الذي لا أعظم منه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن صاحب الفضل العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥، آل عمران: ٧٤، الأنفال: ٢٩، الحديد: ٢١، ٢٩، الجمعة: ٤].

ولأن الله عز وجل- وهو العظيم- وصف هذا الفضل بالعظم، فعطاؤه عز وجل عظيم، وما استعظمه عز وجل فهو عظيم، ولا يستطيع أحد أن يقدر عظم هذا الفضل إلا الذي منحه ووصفه بالعظم وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله تعالى؛ لأنه سبحانه تكلم عن نفسه بضمير العظمة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾؛ لأنه عز وجل هو العظيم المستحق لكمال الكبرياء والعظمة والمجد.

٢- إثبات علو الله- عز وجل- بذاته على خلقه علوًا يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والإنزال لا يكون إلا من علوٍ، فله- عز وجل- علو الذات، كما أن له عز وجل علو الصفات.

٣- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى منزل غير مخلوق؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فهو كلام الله عز وجل وصفة من صفاته؛ لأن الكلام وصف للمتكلم، فإذا كان الله عز وجل أنزله لزم أن يكون تكلم به وأنه كلامه غير مخلوق.

وفي هذا إبطال لقول الجهمية والمعتزلة أن القرآن مخلوق، كما أن فيه إبطالًا لقول الأشاعرة أن هذا القرآن الذي بين أيدينا مخلوق وليس كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله؛ لأنهم يرون أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وهذا باطل لأن المعنى القائم بالنفس ليس كلامًا، وحقيقة قولهم أنهم فسروا الكلام بالعلم، وقولهم أشد بطلانًا من قول الجهمية والمعتزلة؛ لأن هؤلاء يقولون: إن القرآن كلام الله وهو مخلوق، أما الأشاعرة فيقولون: القرآن عبارة عن كلام الله وهو مخلوق(١).

٤- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ وتشريفه بإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهذه هي المعجزة الخالدة التي رفع الله- عز وجل- بها ذكره، وأعلى قدره، ودلت على صدق رسالته ﷺ.

٥- عظم منزلة القرآن الكريم؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

فهو عظيم؛ لأن مُنزله هو العظيم- سبحانه وتعالى، وهو عظيم؛ لأن الله سماه «الكتاب» كما سماه «العظيم». أي: الكتاب المعهود المعروف ذا المكانة الرفيعة والمنزلة العظيمة.

٦- جواز كتابة القرآن؛ لأن الله- عز وجل- سماه الكتاب، فهو «فعال» بمعنى «مفعول»، أي: مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨- ٧٩].

على الصحيح من أقوال المفسرين أن المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ.

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣- ١٦].

---

(١) انظر: كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ٢١٢-٢١٣ تفسير سورة النساء).

وهو مكتوب بالصحف التي بين أيدي المؤمنين.

والأولى أن يكتب بحرف ورسم المصحف العثماني(١).

٧- أن القرآن الكريم أنزل على النبي ﷺ من عند الله، لم يعترضه في طريق وصوله إلى النبي ﷺ شيء من التبديل أو التغيير أو التحريف؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، أنزله الله بواسطة جبريل الأمين عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤].

٨- أن القرآن الكريم مشتمل على كل ما هو حق في أوامره ونواهيه ومواعظه وأخباره؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلا في الأحكام.

٩- ينبغي اتباع القرآن والعمل بما فيه؛ لاشتماله على كل ما هو حق، وفي اتباع الحق سعادة الدنيا والآخرة.

١٠- أن الله جل وعلا أنزل القرآن على النبي ﷺ؛ ليحكم بين الناس بما فيه، وفوض إليه الأمر في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾(٢).

وذلك من خلال النص القرآني أو الفهم والاجتهاد المبني عليه، وأنه بعد الاجتهاد لا شيء عليه إن لم يوافق الصواب.

وعلى هذا دلت السنة المطهرة فعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ سمع جلبة بباب حجرته فخرج إليهم، فقال: «**ألا إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع فمن قضيت**

---

(١) انظر: «البرهان» (٣/ ٣٧٦)، «مناهل العرفان» (١/ ٣٧٠).

ولا يجوز كتابته على هيئة الصور والنقوش، ولا تعليقه على الجدران، وانظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٧٦ تفسير سورة النساء).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٥).

له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له بجمرة من النار، فليأخذ أو ليدع»(١).

قال ابن كثير(٢): «وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان عليه السلام له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في الصحيحين.. عن أم سلمة» ثم ذكر حديث أم سلمة المتقدم.

١١- إثبات التعليل والحكمة في أفعال الله وأحكامه الشرعية والكونية، وهذا من كمال صفاته، وأفعاله، وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ﴾؛ لأن اللام للتعليل، كما قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة وخلفها.

وقد ذهبت الجبرية إلى إنكار الحكمة والعلة في أفعال الله وأحكامه، وقالوا: إنه يفعل لمجرد المشيئة، وقولهم هذا باطل؛ لأن مقتضاه وصف أفعاله عز وجل وأحكامه بالعبث واللعب واللهو، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وصدق الله العظيم حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦- ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧](٣).

١٢- أن ما يحكم به الرسول ﷺ هو مما علمه الله إياه بالوحي بالكتاب والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

١٣- في قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٥٨).

(٣) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٧٧-١٧٨ تفسير سورة النساء).

يطلق حكم الله على ما لا يعلمه العبد؛ لأن النبي ﷺ يحكم بحكم الله بما أراه الله وأوحى إليه وأعلمه؛ ولهذا روي عن عمر- رضي الله عنه- أنه قال: «ألا لا يقولن أحدكم: حكمت بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ، ولكن ليجتهد رأيه»(١).

ويؤيد هذا قوله ﷺ لسعد بن معاذ: «**فإن سألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك**»(٢).

١٤- نهي النبي ﷺ أن يكون مخاصما ومدافعا عن الخائنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، وهو نهي له ولأمته.

١٥- أنه لا يجوز الدفاع والمخاصمة عن الخائنين أيًا كانوا، ضد أصحاب الحق أيًا كانوا، سواء كان صاحب الحق مؤمنًا أو كافرًا(٣)، كما قيل: إن قوم السارق اتهموا بالسرقة رجلًا من اليهود؛ لهذا جاءت الآية مطلقة ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، أي: لا تكن للخائنين أيًا كانوا خصيمًا، ضد البريئين أيًا كانوا.

١٦- أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ مع ما جاء في سبب نزول هذه الآيات، وأن قوم السارق أرادوا التلبيس على النبي ﷺ ونفي السرقة عن صاحبهم وإتهام اليهودي، وظن النبي ﷺ صدقهم في ذلك، لولا أن الله تفضل عليه ورحمه، وهداه إلى الحق، وكشف له الأمر(٤).

١٧- ثبوت نبوته ﷺ، وأن ما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل، لا كما قال المكذبون: تقوله وافتراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ففي هذه الآيات ما يشعر بشيء من العتاب والتنبيه له ﷺ(٥)، وهذا يدل على أنه رسول

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، من حديث بريدة رضي الله عنه، وانظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٣٢).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٧).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٨٧-١٨٨).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٥).

الله حقاً، وأن ما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل صدقًا.

١٨- الإشارة إلى أنه قد حصل منه ﷺ ما يوجب التوبة والاستغفار من كونه هَمَّ أو مال إلى تبرئة هؤلاء الذين سرقوا واتهموا غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾(١).

١٩- الإشارة إلى أنه يجب على الحاكم أن يتأنى في الحكم، ولا يتعجل بل يتريث.

٢٠- عدم عصمة النبي ﷺ من الذنب والخطأ وخاصة الصغائر؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقد اختلف أهل العلم في عصمة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب، فمنهم من يرى أنهم معصومون منها مطلقًا، كبائرها وصغائرها، إذ كيف تحصل منهم الذنوب وهم أنبياء، أُمر الناس باتباعهم، وقالوا: إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ ذنوب أمته، أو أن المراد تعليمه لتتعلم أمته الاستغفار من الذنوب(٢).

وقالوا: إن قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ليس لذنب حصل منه.

قال ابن عطية(٣): «هذا ليس بذنب؛ لأن النبي ﷺ إنما دافع على الظاهر، وهو يعتقد براءتهم، والمعنى: واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل».

ومن أهل العلم من يرى أنهم معصومون من الخطأ في تبليغ الرسالة، أو الخيانة فيها والكذب، مما ينافي مقتضى الرسالة، كما أنهم معصومون من كبائر الذنوب كالفواحش ونحوها(٤). أما الصغائر فإنهم غير معصومين منها، بل قد تقع منهم، إلا أنهم لا يُقرون عليها، بل يُوفقون للتوبة منها، فتكون حالهم بعد الذنب والتوبة أكمل، كما قال تعالى عن آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١- ١٢٢].

وفي الحديث: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغر**

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠١)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٤٥).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٧).

(٣) في «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٨٤)، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٨).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٩، ١٠/ ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٦)، «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٣٠٤).

لهم»(١).

وهذا يدل على أن حال المذنب بعد التوبة أكمل منها قبل الذنب والتوبة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، ولا يمكن أن يحمل قوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ على أن المراد ذنوب أمته، فيكون قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تكرارًا لا فائدة منه، وهذا ينزه القرآن عنه.

والقول بأنه تعليم له لتتعلم منه أمته حمل للآية على خلاف ما يدل عليه ظاهرها، وقصر لمعناها؛ لأنه ﷺ مأمور في الآية بالاستغفار من ذنبه وللمؤمنين والمؤمنات من أمته، فيكف يقال: إنها تعليم لأمته الاستغفار من ذنوبهم؟!.

ومن الأدلة على أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر ما ذكره الله- عز وجل- عن آدم عليه السلام من أكله من الشجرة التي نهاه الله عنها، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

ونوح دعا ربه بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فقال الله له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥- ٤٧].

وموسى عليه السلام أراد نصرة الذي من شيعته فوكز خصمه القبطي، فقضى عليه ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥- ١٦]

ونبينا محمد ﷺ عاتبه الله في أخذ الفداء من الأسرى، قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

ولما حرَّم ﷺ على نفسه العسل، أو مارية القبطية عاتبه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

ولما عبس ﷺ وتولى لما جاءه الأعمى عبدالله ابن أم مكتوم أنزل الله تعالى قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١-١٠](١).

٢١- أن السرقة واتهام البرئ وتبرئة المتهم خيانة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾ وقوله: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ مع ما ورد في سبب النزول.

٢٢- سعة فضل الله ورحمته حيث أمر نبيه ﷺ بالاستغفار، لما يحصل من تقصير، وهو أمر له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

٢٣- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾.

٢٤- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى رحمة ذاتية ورحمة فعلية، عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾.

وفي هذا الرد على الذين ينفون أن يوصف الله- عز وجل- بالرحمة، ويقولون: لأن الرحمة رقة ولين، ولا تليق بالله الخالق القوي. ويفسرون «الرحيم» بالمنعم أو مريد الإنعام، ويفسرون «الرحمة» بالإنعام والإحسان(٢).

٢٥- باجتماع المغفرة والرحمة تمام السعادة، فبالمغفرة زوال المرهوب وآثار الذنوب وعقوباتها، وبالرحمة حصول المطلوب.

٢٦- الإشارة إلى أنه ينبغي للمفتي والقاضي إذا انغلق أو التبس عليه الأمر أن يلجأ إلى الاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ بعد قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، في هذا دلالة على فضل الاستغفار وأثره، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل

---

(١) انظر: «الرسل والرسالات» ص (١٠٧-١٠٨).

(٢) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٨٤-١٨٥ تفسير سورة النساء).

لَكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

فإن من أسباب التوفيق لإصابة الحق في الحكم الاستغفار مع سؤال الله الهداية، كما قال ﷺ: «**اللهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

كما أن الذنوب والمعاصي سبب الخذلان، وعدم التوفيق للحق والصواب، وانطماس البصائر وعمى القلوب، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

٢٧- نهي النبي ﷺ عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ وهذا نهي له ﷺ ولأمته؛ لأنه من التعاون على الإثم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

٢٨- أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره أو يجادل عنه في إثبات حق أو نفيه وهو غير عالم بحقيقة أمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

فلا يجوز أن يدافع ويخاصم عن الخائنين وأهل الباطل وينتصر لهم، وهو يعلم أن الحق ليس لهم، كما يفعله كثير من المحامين وبعض الذين يتوكلون في بعض القضايا الشرعية، لدى المحاكم الشرعية ليس هدفهم الوصول إلى الحق، وإنما هدف الواحد منهم الانتصار لصاحبه، الذي وكله من أجل أن يغلب فيحصل المحامي أو الوكيل على ما خصص له من القسط الكبير، والمبلغ الوفير.

قال ابن العربي(٢): «ونهى الله- عز وجل- رسوله ﷺ عن عضد أهل التهم والدفاع عنهم بما يقوله خصمهم من الحجة، وفي ذلك دليل على أن النيابة عن المبطل في الخصومة لا تجوز بدليل قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾».

وقال القرطبي(٣) بعد أن ساق كلام ابن العربي: «فلا يجوز لأحد أن يخاصم عن

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في «أحكام القرآن» (١/ ٤٩٨).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٧).

أحد حتى يعلم أنه محق».

٢٩- أن خيانة الإنسان لغيره من الناس هي في الحقيقة خيانة لنفسه، حيث أوبقها وأوقعها في الخيانة والإثم، وفيما يعود عليها بالضرر في الحال والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

وكل المعاصي خيانة للنفس؛ لأن الأمانة كل الأمانة حمل النفس على طاعة الله، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩- ١٠]، وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها**»(١).

أي: معتقها بطاعة الله، أو موبقها بمعصية الله.

٣٠- إثبات محبة الله تعالى؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ فإنه لما نفاها عمن كان خوانا أثيما دل على ثبوتها لمن كان أمينًا برًا مطيعًا.

وهي محبة حقيقية تليق به- عز وجل- وصفة من صفاته، ولا يجوز تفسيرها بالثواب والرضى؛ لأن الثواب والرضى من آثارها ومستلزماتها(٢).

٣١- أن الخيانة من الكبائر المؤدية إلى سخط الله وغضبه؛ لأن الله نفى محبته عمن كان خوانا أثيما، وكل ذنب رُتِبَ عليه غضب الله وسخطه وعدم محبته فهو من الكبائر(٣).

٣٢- التحذير من الخيانة والإثم؛ لأن الله لا يحب من كان خوانا أثيما.

٣٣- الترغيب في الأمانة والسلامة من الإثم، يؤخذ هذا من مفهوم قوله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات (٢٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠) والدارمي في الطهارة (٦٥٣) عن أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

(٢) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسيره» (٢/ ١٨٥ تفسير سورة النساء).

(٣) راجع الكلام على قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الآية (٣١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾؛ لأن هذا يشعر بذم المتصف بهذا الوصف، وإذا وقع الذم على وصف لزم أن يكون المدح في ضده.

٣٤- الوعيد الشديد لمن يعلم من الظالم أنه ظالم ويعينه على ظلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾(١).

٣٥- أن هؤلاء القوم فيما دبروه من خيانة يسترون ويستخفون من الناس خوف أن يطلعوا عليهم فيفتضح أمرهم، وقد يستطيعون إخفاء ذلك؛ لأن الناس لا يعلمون الغيب.

٣٦- أن هؤلاء القوم لا يستخفون من الله ولا يستحيون من إطلاعه عليهم فيما ارتكبوه من خيانة، ولو أرادوا الاستخفاء منه ما استطاعوا؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣٧- جهل هؤلاء القوم حيث كانت خشيتهم من الناس أشد من خشيتهم من الله؛ لكونهم يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، كما قال تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

٣٨- إثبات المعية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهذه المعية العامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ فهو- عز وجل- مع هؤلاء، ومع الخلق كلهم بعلمه وإحاطته وقدرته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وذلك أن الله معنا حقيقة، هو فوق العرش حقيقة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته، وكذلك قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٢٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٠٣-١٠٤).

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ كان هذا أيضًا حقاً على ظاهره، ودلت الحالة على أن حكم هذه المعية هنا معية الإطلاع والنصر والتأييد.

كذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذا الموطن النصر والتأييد».

٣٩- شدة حرص هؤلاء القوم على الاستخفاء من الناس، حيث أداروا الأمر بينهم ليلًا، خوفًا من أن يُطلع عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ويقال في المثل: «هذا أمر دُبِّر بليل» أو «هذا أمر قُضِيَ بليل».

٤٠- أن هؤلاء القوم بَيَّتوا قولًا لا يرضاه الله تعالى قضوه، ودبروه وتدارسوه وصاغوه واجتمعوا عليه ليلا؛ لأن البيات لا يكون إلا بالليل.

٤١- إثبات الرضى لله تعالى على ما يليق بجلاله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إذ مفهوم هذا أن هناك قولًا يرضاه الله تعالى، وهو ما كان حقاً.

قال تعالى عن المؤمنين: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

٤٢- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لهؤلاء القوم الذين تمالؤوا على قول لا يرضاه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ويؤكد شدة هذا الوعيد والتهديد تقديم المتعلق ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ على المتعلق به وهو الخبر ﴿مُحِيطًا﴾.

٤٣- إحاطة الله عز وجل بعمل هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾، بل إنه عز وجل محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

٤٤- أن هؤلاء القوم وكذا غيرهم من الناس قد يجادل بعضهم عن بعض في الباطل وينتصر له في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٤٥- أن هؤلاء القوم وأمثالهم من المجادلين بالباطل للخائنين أمام الحكام في

الحياة الدنيا، لا يستطيعون المجادلة عنهم أمام أحكم الحاكمين يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ والمعنى: لا أحد يجادل الله عنهم يوم القيامة، ومن كان الله خصمه فهو مخصوم بكل حال.

٤٦- الإشارة إلى تمام العدل يوم القيامة، وتمام ملك الله- عز وجل- في ذلك اليوم، ونفوذ سلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٤٧- تحريم المجادلة والمخاصمة والمحاماة عن المبطلين، الذين يريدون قلب الحق، فمن جادل عنهم فهو معرض نفسه معهم للوعيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٤٨- أنه لا يجوز للإنسان الذي يعلم أن الحق ليس له أن يوكل شخصًا يحامي عنه، معتمدًا على قوة حجة هذا المحامي، وليعلم أنه وإن أعطي ما ليس له في الدنيا ظلمًا وتعديا، فإن الحق سيرد إلى صاحبه يوم القيامة، وسينتقم الله له في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٤٩- إثبات يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٥٠- أن العدل الحقيقي إنما يكون في اليوم الآخر؛ لأنه سُمي يوم القيامة لقيام العدل الحقيقي فيه، وقيام الحساب، والأشهاد، كما قال تعالى:﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

٥١- أنه لا وكيل يوم القيامة عن المخاصمين بالباطل، يتولاهم ويدافع عنهم وينصرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾، أي: لا وكيل عليهم.

٥٢- أن المعاصي تنقسم إلى قسمين منها ما يتعدى إلى الآخرين ويسوؤهم كالقتل والضرب والسب والشتم وأخذ المال ونحو ذلك.

ومنها ما يكون ظلمًا للنفس فقط لا يتعدى إلى الآخرين كالمعاصي التي تتعلق بحق الله تعالى على العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال

تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

إلا أنه ينبغي أن يُعلم أن المعصية التي تتعدى إلى الآخرين وتسوؤهم هي أيضًا ظلم للنفس، كما أن المعصية التي بين العبد وبين ربه لها أثر وضرر غير مباشر على البلاد والعباد كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وفي الحديث: «**ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا**»(١).

٥٣- أن من أساء إلى غيره، أو ظلم نفسه بمعصية لا تتعدى إلى غيره، ثم تاب واستغفر الله فإن الله يغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فمن تاب من أي ذنب كبيرًا كان أو صغيرًا واستغفر الله، فإن الله يتوب عليه ويغفر له.

وهذا يدل على سعة رحمة الله- عز وجل- ومغفرته، وعفوه وحلمه، وجوده وكرمه. إلا أن من لازم صحة التوبة- كما سبق- إن كان الحق الآدمي أن يرده إليه أو يستحله منه.

٥٤- أنه ليس من لازم قبول التوبة أن تكون عقب الذنب مباشرة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ وثم للتراخي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، أي: قبل حضور الموت بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

إلا أن الواجب المبادرة إلى التوبة، فإن الإنسان لا يدري ما يعرض له، كما أن ذلك أدعى لقبولها، وأسلم من تراكم الذنوب مما قد يحول بين المرء وبين التوبة، كما قال عز

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وحسنه الألباني.

وجل: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

٥٥- أن الله يقبل توبة العبد إذا استغفر وتاب وأناب إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

٥٦- الترغيب في التوبة والاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فهذا يُشعر بمحبة الله عز وجل للتوبة على عباده، وترغيبهم فيها وسرعة قبوله عز وجل توبة عبده إذا توفرت شروطها، وفي الحديث: «**لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم براحلته إذا وجدها بعد أن أيس منها وعليها طعامه وشرابه**»(١).

٥٧- أن التوبة تصح من الذنب وإن تكرر فعله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وهذا عام فيمن تكرر منه ذلك ومن لم يتكرر.

وفي الحديث: «**أن عبدًا أذنب ذنبا فاستغفر الله، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي.. الحديث**»(٢).

وعن أبي بكر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبدٍ يذنب ذنبًا فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له**، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ إلى آخر الآية»(٣).

فإذا استغفر العبد ربه وتاب إليه توبة صادقة نصوحا، عازمًا ألا يعود إلى الذنب فتوبته صحيحة، فإن عاد إلى الذنب مرة ثانية لم تَبطل توبته الأولى، لكن عليه تجديد التوبة مرة ثانية عن الذنب الثاني، وهكذا؛ لأن من شروط التوبة العزم على ألا يعود وليس من شرطها ألا يعود؛ لأن الإنسان ليس معصوما عن الذنب لا قبل التوبة ولا بعدها.

٥٨- أن التوبة قد تقبل من ذنب وإن كان الإنسان مقيما على غيره؛ لقوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٢١)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٩٥). وصححه الألباني.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وهذا مطلق، خلافًا للمعتزلة الذين يقولون لا يعتبر تائبا من أقام على ذنب(١).

٥٩- أن الإنسان قد يظلم نفسه، وذلك بأن يوقعها في المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ وقال تعالى عن امرأة العزيز أنها قالت: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

فكما يحذر الإنسان من ظلم الآخرين له، ينبغي أن يحذر من ظلمه هو لنفسه بقول أو عمل يضره، أو يضره ويضر الآخرين.

٦٠- أن من كسب إثما فإنما يكسبه على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ [فاطر: ١٨].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فالمعنى: أنهم يحملون أثقالهم، أي: أوزارهم وأوزارًا أخر بسبب من أضلوا من الناس، كما قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥].

كما قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**» الحديث(٢).

وسنّه إياها كونها من عمله؛ ولهذا قال ﷺ: «ما قتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧].

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)، من حديث المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنه.

آدم الأول كفل منها؛ لأنه أول من سن القتل»(١).

٦١- كمال عدل الله عز وجل، حيث يجازي كلًا بما عمل، ولا يُحَمِّل أحدًا إثم غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وأما قوله ﷺ: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فَطُرحت عليه ثم طُرح في النار**»(٢).

فهذا من باب المقاصة وأداء المظالم والحقوق إلى أصحابها، وليس في هذا تحميل للغير إثم غيره، بل هذه آثامه هو وظلمه لحقوق الغير.

وهذا أيضًا دليل آخر على عدله عز وجل، حتى إنه ليقتص في ذلك اليوم للشاة الجماء من الشاة القرناء(٣).

٦٢- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

٦٣- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل، بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وصفة الحكمة بنوعيها له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٦)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧)، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٨٥)، والترمذي في العلم (٢٦٧٣)، وابن ماجه في الديات (٢٦١٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠). عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». وانظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في دروس التفسير (٢/ ٢٠٢ تفسير سورة النساء).

٦٤- في الجمع بين وصفه عز وجل بكونه عليمًا حكيمًا ما يدل على كماله عز وجل، وكمال أسمائه وصفاته؛ لأن في اجتماع العلم والحكم والحكمة في حقه كمال إلى كمال.

ومن علمه عز وجل أن علم بما يكسبه العبد، ومن علمه وحكمه وحكمته أن جعل إثم كسب المرء عليه لا على غيره.

٦٥- تحريم رمي البرئ بخطيئة أو إثم غيره، والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

وسواء كان الذي رماه هو فاعل الخطيئة والإثم أو غيره.

٦٦- عظم رمي الإنسان بخطيئة أو إثم غيره، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾، حيث جمع بين البهتان والكذب على الغير والإثم البين الواضح.

والكبيرة في أظهر أقوال أهل العلم: ما رتب عليه وعيد ديني أو أخروي أو عقوبة دنيوية أو أخروية(١).

٦٧- سوء عاقبة الكذب في الحال والمآل، فكما أنه في الحال يبهت من رُميَ به ويحيره، كيف يقال عليه ما لم يقل، أو ما لم يفعل، فهو كذلك يبهت صاحبه الذي تَفَوَّه به، وهو الكذاب في الحال، لما يلاقيه في الغالب من مرارة الكذب، كما يبهته ويحيره أعظم وأشد عن اجتماع الخصوم لدى الحكم العدل- سبحانه وتعالى.

٦٨- فضل الله تعالى على رسوله ﷺ ورحمته له رحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾.

٦٩- حاجة الرسول ﷺ إلى فضل الله- عز وجل- ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ وهكذا غيره من الخلق حاجتهم إلى فضل الله ورحمته من

---

(١) هذا ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو أجمع الأقوال وأظهرها، راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١].

باب أولى؛ ولهذا قال ﷺ في دعاء المكروب: «**اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح شأني كله لا إله إلا أنت**»(١).

٧٠- الرد على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويرفعونه إلى مقام الألوهية، كما قال قائلهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن هناك آخذا بيدي ... وإلا فقل يازلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم(٢)

٧١- أن الحافظ من الوقوع في الخطأ والضلال هو الله- عز وجل- بفضله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ لهذا ينبغي أن يلجأ العبد إليه عز وجل.

٧٢- عدم أنفة هؤلاء القوم من الكذب وقلب الحقائق حتى على أفضل الخلق نبينا محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

٧٣- ينبغي للحاكم بين الناس الحذر من أهل الخيانة والسوء الذين يريدون قلب الحقائق، والاحتراس منهم، وعدم الاغترار بحالهم ومقالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

٧٤- أن من يعملون لإضلال الخلق عن الحق لا يضلون إلا أنفسهم، ولا يضرون في الحقيقة سواها في المقام الأول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ فهؤلاء الذين أرادوا نصرة الظالم والدفاع عنه عند رسول الله ﷺ ما أضلوا إلا أنفسهم، حيث أوقعوها في الظلم، وسعوا بها جاهدين ضد الحق.

٧٥- عصمة الله تعالى للرسول ﷺ من الحكم لهؤلاء الخائنين ومن إضرارهم له،

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٠)، من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه- رضي الله عنه- وحسَّنه الألباني.

(٢) هذه من قصيدة البوصيري المشهورة المعروفة بالبردة. انظر: «البردة» (ص٢٢).

ولو بأقل شيء من الضرر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

ولو أنه أخذهم بالظاهر له، وحكم لهم فإنهم في الحقيقة إنما أضلوا أنفسهم لتلبيسهم الأمر على النبي ﷺ، وضرر ذلك عليهم، ولا يضره ذلك شيئًا؛ لأنه حكم بما ظهر له، وقد قال ﷺ: «**إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما هي جمرة من النار، فليأخذها أو ليدعها**»(١).

٧٦- امتنان الله- عز وجل- على رسوله ﷺ باختصاصه بالرسالة وإنزال الكتاب والحكمة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٧٧- أن السنة وحي أنزله الله على رسوله ﷺ؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

وجمهور المفسرين على أن المراد بالحكمة هنا السنة، ولا خلاف أن السنة وحي من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].

٧٨- أن الحكمة وهي: بيان ما اشتملت عليه الشريعة من أسرار في القرآن الكريم والسنة النبوية وبيان العلة من مشروعية الأحكام من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهذا على التفسير الثاني أن المراد بالحكمة العلة من مشروعية الأحكام.

٧٩- امتنان الله على رسوله ﷺ بتعليمه له ما لم يكن يعلم، من علم الحق في هذه القضية خاصة(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

ومن علم النبوة والرسالة عامة كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠١).

ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٨٠- أن ما أوتيه الرسول ﷺ من علم فهو من تعليم الله له؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

وفي هذا رد على من يغلون بالرسول ﷺ، ويزعمون أنه يعلم الغيب، وقد قال الله- عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

فهو لا يعلم إلا ما أعلمه الله؛ ولهذا قال ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

وكان ﷺ يدخل على أهله فيقول: «**هل عندكم من شيء**»(١) فلو كان يعلم الغيب لم يحتج إلى سؤالهم.

٨١- شرف العلم وفضله؛ لأن الله- عز وجل- امتن على رسوله ﷺ به بعد امتنانه عليه بإنزال الكتاب والحكمة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وهذا يدل على شرف العلم وفضله، وأنه أفضل نعمة أنعم الله بها على رسوله ﷺ بعد نعمة الرسالة وإنزال الكتاب والحكمة عليه، وأنه أفضل نعمة يُنعم الله بها على العبد بعد نعمة الإسلام؛ لما للعلم من نفع لصاحبه وللأمة، في حياة صاحبه وبعد مماته.

٨٢- أن سبب عصمة الرسول ﷺ من الخطأ إنزال الكتاب والحكمة عليه وتعليمه ما لم يكن يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥٤) وأبو داود في الصوم (٢٤٥٥)، والنسائي في الصيام (٢٣٢٢- ٢٣٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ على اعتبار أن الواو حالية.

٨٣- فضل الله العظيم على رسوله ﷺ بإنزال الكتاب والحكمة عليه وتعليمه ما لم يكن يعلم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ فقد شرح الله صدره ووضع عنه وزره وغفر له ذنبه ورفع ذكره في الدنيا والآخرة فخصه بالرسالة وفضله على سائر الرسل.

قال حسان[1]:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وأعطاه الوسيلة والشفاعة والمقام المحمود والحوض المورود في الآخرة.

* * *

(١) «ديوان حسان» ص (٣٣٨).

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا خَيْرَ﴾، «لا» نافية للجنس، و«خير» اسمها مبني على الفتح في محل نصب.

والخير: ما يعود بالمنفعة على الشخص، إما في دينه أو دنياه أو فيهما معًا.

﴿فِي كَثِيرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر «لا»، والتقدير: لا خير كائن أو حاصل في كثير من نجواهم.

﴿مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«كثير»، والنجوى: هي المسارة بين اثنين فأكثر[1]، وهي: مصدر بمنزلة المناجاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

وقال ﷺ: «**إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث**»[2]. وفي بعض الروايات: «**فإن ذلك يحزنه**»[3]، والمعنى: لا يتسار اثنان دون الثالث.

ويحتمل أن تكون «النجوى»: مصدرًا بمعنى الجمع، أي: المتناجين، كما قال تعالى:

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للزجاج (٢/ ١١٤-١١٥)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٨٨)، ومسلم في السلام (٢١٨٣)، وأبوداود في الأدب (٤٨٥١)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٧٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) جاءت هذه الزيادة عند مسلم وأبي داود.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧][1]، أي: وإذ هم جماعة متناجون أو يتناجون.

وكما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، أي: ما يكون من متناجين ﴿ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية.

وسواء كانت «النجوى» مصدرًا، أو مصدرًا بمعنى الجمع فالمعنى متقارب، أي: لا خير في كثير من مناجاتهم، ولا في كثير من المتناجين من «بني أبيرق»، وغيرهم من الناس؛ لأن تناجيهم- غالبًا- فيما لا يعود عليهم بالنفع لا في دينهم، ولا في دنياهم.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، «إلا»: أداة استثناء، «من» اسم موصول مبني على السكون في محل جر، بدلًا من «نجواهم»، على اعتبار أن المراد بالنجوى المتناجين، أي: لا خير في كثير من المتناجين إلا الذي أمر منهم بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس.

وعلى اعتبار أن المراد بالنجوى المصدر تكون «من» في محل نصب على الاستثناء المنقطع[2]، والمعنى: إلا نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس[3].

ومعنى ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، أي: إلا من أمر غيره بصدقة، والأمر: طلب الفعل بأن يأمر غيره ويطلب منه أن يتصدق، سواء كان الآمر أعلى من المأمور، أو كان مساويا له، وأمره بذلك على سبيل الالتماس والنصح والمشورة.

﴿بِصَدَقَةٍ﴾ نكَّرت «صدقة»؛ لتشمل الصدقة القليلة والكثيرة، والواجب والمستحب منها.

والمراد بالصدقة هنا: الصدقة والإحسان بالمال؛ لأن الله ذكر «المعروف» بعدها، وهو يشمل جميع وجوه الإحسان- كما سيأتي بيانه.

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٨٨)، «جامع البيان» (٩/ ٢٠٤)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١١٥)، «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٨٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦٤).

وقد تطلق الصدقة على ما هو أعم من الإحسان المالي، ومن ذلك الأمر بالمعروف، كما في الحديث: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»(١).

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، التقدير: أو أمر بمعروف، والمعروف: ما عرف في الشرع، بأن أمر به الشرع وأقره وتعارف عليه المسلمون، وضده المنكر وهو ما أنكره الشرع، ونهى عنه وأنكره المسلمون.

فالمعروف: يشمل كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير والإحسان كلها(٢)، فهو أعم من الصدقة؛ ولهذا عطف عليها من باب عطف العام على الخاص.

عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله»(٣).

قيل لسفيان الثوري: «ما أشد هذا الحديث! فقال سفيان: ألم تسمع الله يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ فهو هذا بعينه، أما سمعت الله يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فهو هذا بعينه»(٤).

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، أي: أو أمر بإصلاح بين الناس.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٧)، وفي الجهاد (٢٩٨٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والسلامى: مفاصل العظام في الجسم.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٨٠)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٤). وقال الترمذي: «حديث حسن غريب». وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٦٤) بأخصر من هذا من رواية ابن مردويه، وضعفه الألباني.
ويشهد لبعض هذا الحديث قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم» أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٢) وابن ماجه في الزهد (٤١١٢)- وقال الترمذي «حسن غريب» وقال الألباني «حسن».

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣٤).

والإصلاح بين الناس: هو إزالة الفساد والقضاء على أسباب الفرقة والاختلاف بينهم، وفض خصوماتهم وإنهاؤها[١]، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، لعموم قوله: ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وهو داخل تحت عموم الأمر بمعروف، وإنما عطف عليه من باب عطف الخاص على العام لفضل الإصلاح بين الناس وعظيم نفعه وأجره[٢].

عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**» قالوا: بلى. قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**»[٣].

والمعنى: لا خير في كثير مما يتناجى فيه الناس إلا ما كان من أعمال الخير، وذكر الله ومنها هذه الأقسام الثلاثة؛ لأن عمل الخير إما بإيصال المنفعة، أو بدفع المضرة. والمنفعة إما منفعة مادية بذل وعطاء وأشار إليها بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، وإما منفعة دينية، أو ما يعم الأمرين، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، وإما دفع المضرة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، الواو عاطفة، و«من» شرطية، «يفعل» فعل الشرط.

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما ذكر، كقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي: بين ذلك المذكور.

والمعنى هنا: ومن يفعل الأمور المذكورة، أو يفعل ما ذكر من الأمر بالصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس[٥].

﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، ابتغاء: منصوب على أنه مفعول لأجله؛ أي: طلبًا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠١).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في القيامة (٢٥٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٤، ٤٤٥). وصححه الألباني.

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣٣).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠٢).

لرضى الله تعالى بفعله ذلك، مخلصًا لله، محتسبا ثواب ذلك عند الله- عز وجل- يقال: ابتغى الشيء وبغاه بمعنى: طلبه، والأول أبلغ في الدلالة على الطلب؛ لأنه يدل على الاجتهاد فيه؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

وهذا أحد شرطي صلاح العمل وقبوله وهو الإخلاص لله- تعالى.

والشرط الثاني أن يكون العمل موافقًا لشرع الله تعالى؛ لأن الصدقة لا تكون صدقة بالمعنى الشرعي إلا إذا كانت موافقة لشرع الله، وكذلك الأمر بالمعروف لا يكون أمرًا بالمعروف إلا إذا وافق شرع الله، ومثلهما الإصلاح بين الناس لا يكون إصلاحا إلا إذا وافق شرع الله.

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: جملة جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأن الجواب اقترن بـ«سوف».

قرأ أبو عمرو وحمزة وخلف: ﴿يُؤْتِيهِ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿نُؤْتِيهِ﴾، بالنون[1] والالتفات من الغيبة إلى التكلم للتنبيه، وتعظيما لنفسه عز وجل، وتعظيما لهذا المؤتى؛ لأنه من لدنه عز وجل.

﴿نُؤْتِيهِ﴾، أي: نعطيه، من الفعل «آتى» بمعنى أعطى ينصب مفعولين: الأول «الهاء» والثاني «أجرًا».

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: ثوابا جزيلًا كثيرًا واسعا[2].

قال الطبري[3]: «فسوف نعطيه جزاءً لما فعل من ذلك عظيمًا، ولا حد لمبلغ ما سمى الله «عظيمًا» يعلمه سواه».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، الواو عاطفة، و«من» شرطية، «يشاقق» بفك

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦٥).

(٣) في «جامع البيان» (٩/ ٢٠٢).

الإدغام، وقد يأتي بالإدغام كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

و﴿يُشَاقِقِ﴾: فعل الشرط مجزوم وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

والمشاقة: هي المخالفة والمحادة والمعاداة، مأخوذة من الشق، وهو الجانب؛ لأن المشاق يأخذ جانبا غير جانب صاحبه، أو يفعل ما يشق على صاحبه(١).

ومشاقة الرسول ﷺ: هي مخالفته ومعاداته ومحادته.

﴿ٱلرَّسُولَ﴾، «ال»: للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود نبينا محمد ﷺ.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُشَاقِقِ﴾، و﴿مَا﴾ مصدرية، ﴿تَبَيَّنَ﴾، أي: اتضح وظهر. ﴿لَهُ﴾ الضمير يعود إلى ﴿مِنۢ﴾ في قوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾، و﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: هو الحق والعلم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

فـ«الهدى» هو العلم النافع، و«دين الحق» هو العمل الصالح. والمعنى هنا: من بعد ما اتضح له الحق وظهر.

قال ابن كثير(٢): «أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق، والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له».

﴿وَيَتَّبِعْ﴾، الواو عاطفة، «يتبع» فعل مضارع مجزوم عطفًا على فعل الشرط ﴿يُشَاقِقِ﴾.

﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿غَيْرَ﴾: مفعول به منصوب لـ«يتبع»، أو صفة لموصوف محذوف، تقديره: ويتبع سبيلًا غير سبيل المؤمنين.

و﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: طريقهم ومنهجهم، وهو اتباع ما جاء به النبي ﷺ.

والمعنى: ويسلك في منهجه طريقًا مغايرا ومخالفا لطريق المؤمنين.

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٣٤).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٦٥).

قال أبو حيان[١]: «ويتبع غير سبيل المؤمنين معطوفة على ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾ على سبيل التوكيد والتشنيع والمبالغة، وإلا فمن يشاقق الرسول هو متبع غير سبيل المؤمنين ضرورة، لكنه بدأ بالأعظم في الإثم، ثم أتبعه بلازمه توكيدًا».

وقال ابن كثير[٢]: «وهذا ملازم للصفة الأولى، يعني لقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ قال: ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا..».

وإنما يحمل على ذلك اتباع هوى النفس لحسد أو بغي، أو حب رياسة، أو كبر أو شهوة غالبة على العقل أو عصبية لجنس أو نحو ذلك[٣].

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾، ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة «الياء»، وأصله «نوليه».

﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾، «ما» موصولة، أي: نوله الذي تولى.

والمعنى: نتخلى عنه ونتركه وشأنه، ونكله إلى ما تولى، فيهلك[٤]؛ لأن من تعلق شيئًا وكل إليه[٥].

وفي الحديث: «**فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[٦].

بل ونزين له اختياره الفاسد مجازاة له على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ

---

(١) في «البحر المحيط» (٣/ ٣٥٠).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٤١٦).

(٤) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١١٦)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٥٥).

(٥) أخرجه النسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في الطب (٢٠٧٢)، من حديث عبد الله بن عكيم رضي الله عنه.

قال الترمذي: «وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبي ﷺ وكان في زمن النبي ﷺ يقول: كتب إلينا رسول الله ﷺ». وصححه الألباني. وانظر: «صحيح سنن الترمذي» (١٦٩١).

(٦) سبق تخريجه.

﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قال ابن كثير[١]: «أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجا له، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾» [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، «نصله» مجزوم عطفًا على «نوله»، وعلامة جزمه حذف حرف العلة «الياء».

قرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة وأبو عمرو وأبو جعفر: ﴿نُوَلِّهْ﴾، ﴿وَنُصْلِهْ﴾ بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾، ﴿وَنُصْلِهِۦ﴾، وهما لغتان[٢].

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها، أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

ومعنى ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾، أي: ندخله ونغمره ونحرقه فيها.

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، ساء: من الأفعال التي يقصد بها إنشاء الذم، كبئس فهو لازم[٣]، أي: قبحت جهنم مصيرًا، أو ما أسوأها مصيرًا.

و«مصيرًا» تمييز، أي: مرجعًا ومآلًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

تكرر قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مرتين في هذه السورة؛ لتعظيم خطر الشرك؛ ولأن القرآن الكريم كتاب هداية ومنهج حياة، ومثاني

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٦٦).

(٢) انظر: «القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة» (ص٩٧).

(٣) وقد يأتي الفعل «ساء» متعديًا، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧٠] وتقول: ساءني تفرق المسلمين.

تثنى فيه المعاني والأحكام والمواعظ، وتكرر في كل موضع بحسبه، لتثبيت تلك المعاني والأحكام، والاعتبار بتلك المواعظ(١).

روي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه قال: «ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾»(٢).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها.

﴿لَا يَغۡفِرُ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، والجملة خبر «إن» في محل رفع، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر في المناجاة(٣).

﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ﴿أَن﴾ حرف مصدري ونصب ﴿يُشۡرَكَ﴾ فعل مضارع منصوب بها، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، تقديره: إن الله لا يغفر الشرك به.

والشرك بالله: دعوة غير الله، وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ﴿مَا﴾: موصولة، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: سوى ذلك والإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾: للشرك. أي: ويغفر الذي سوى الشرك.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، اللام حرف جر، و«من» اسم موصول في محل جر، أي: للذي يشاء.

أي: ويستر ويتجاوز عن الذي هو أقل من الشرك من المعاصي والذنوب للذي يشاء من عباده؛ لأن ما دون الشرك من الذنوب تحت مشيئة الله إن شاء الله غفره، وإن شاء عذب به(٤).

وقد أخبر عز وجل في هذه الآية عن نفسه بصيغة الغائب إشعارًا بعظمته عز

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٥/ ٤١٨).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النساء (٣٠٣٧). وقال: «حسن غريب». وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٦٦).

(٣) راجع الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠٦).

وجل، وأنه لا يغفر الشرك مطلقًا، ويغفر ما دونه لمن يشاء.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، الواو استئنافية و﴿وَمَن﴾: شرطية، ﴿يُشْرِكْ﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، وقرن بالفاء لاقتران الجملة بـ«قد».

و«قد» للتحقيق، أي: فقد تحقق ضلاله، ومعنى ﴿ضَلَّ﴾، أي: تاه وبعد عن طريق الحق، ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: مصدر مؤكد لـ﴿ضَلَّ﴾.

﴿بَعِيدًا﴾: صفة لـ﴿ضَلَٰلًۢا﴾، أي: بعيدًا عن الحق والصواب بعدًا شديدًا؛ لأن الشرك بالله غاية الكفر والضلال البعيد والخسران المبين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

بخلاف صاحب المعصية دون الشرك، فإن رجوعه إلى الحق قريب لما لديه من الإيمان.

وقد قال الله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ مما يدل على أن المشرك جمع بين الافتراء وهو الكذب العظيم بدعواه أن لله شريكًا وبين الضلال البعيد بالإشراك بالله فعلًا بعبادة غير الله.

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا خير مستفاد من كثير من كلام الناس، وتناجيهم ومسارتهم إلا فيما كان في أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٢- عدم جواز النجوى فيما لا خير فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

٣- الإشارة إلى أن كثيرًا من كلام الناس ومناجاتهم فيما لا يعود عليهم بالنفع، بل ربما تكون فيما يضرهم من الإثم والعدوان ومعصية الرسول والباطل والكذب والزور والغيبة والنميمة واللغو والتلاوم، والقيل والقال وما لا يعني ونحو ذلك، فيجب الحذر من ذلك، وفي الحديث: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(١).

٤- عدم الاغترار بالكثرة وما عليه حال كثير من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

٥- جواز المناجاة فيما فيه الخير، من الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

وأنها من خصال البر والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

٦- يفهم من الآية فضل السكوت إذا لم يكن الكلام والنجوى في الخير، قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(٢)، ونهى ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال(٣)، وقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، والدارمي في النكاح (٢٢٢٢) عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» وأخرجه البخاري أيضًا (٦٠١٩)، من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٨)، ومسلم في المساجد (٥٩٣)- عن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال قال النبي ﷺ: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٨)، مرسلًا من حديث علي بن الحسين رضي الله عنه. وأخرجه أحمد =

٧- الترغيب في الأمر بالصدقة، وأنه من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾.

٨- فضل الصدقة؛ لأن الله رغب في الأمر بها وجعله من الخير، فالتصدق من الخير من باب أولى، لكن للآمر بها مثل أجر المتصدق؛ لقوله ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»(١).

وقال ﷺ: «**الدال على الخير كفاعله**»(٢).

٩- الإشارة إلى فضل الإسرار بالصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(٣).

=

(١/ ٢٠١)- من طريق علي بن الحسين عن أبيه رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي أيضًا (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)، من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي عن حديث أبي هريرة «غريب» وقال عن حديث علي بن الحسين: «وهذا أصح عندنا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة».

وقد ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨)- عن الطبراني في المعاجم الثلاثة، وقال: «رجال أحمد والكبير ثقات».

وقال أحمد شاكر في تخريج المسند (١٧٣٧): «إسناد صحيح». وانظر: «جامع العلوم والحكم» ص (٧٩-٨٤). وصححه الألباني.

(١) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤)، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئًا**».

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٩٣)، وأبو داود في الأدب (٥١٢٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وسئل رسول الله ﷺ أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**جهد مقل، أوسر إلى فقير**»(١).

وقد يندب إظهار الصدقة وعدم إخفائها إذا كان يترتب على ذلك مصلحة، كأن يكون المتصدق قدوة في الخير، فإذا تصدق اقتدى به غيره، يدل على هذا حديث: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**»(٢).

١٠- الترغيب في الأمر بالمعروف وفضله، وأنه من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد قيل:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس(٣)

وقال الآخر:

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها كفور أو شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور(٤)

١١- يندب الإسرار بالأمر بالمعروف؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾.

وقد قيل: «لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره، فإذا عجلته هنأته، وإذا صغرته عظمته، وإذا سترته أتممته»(٥).

وقد يندب الجهر بالأمر بالمعروف إذا كان ثمة مصلحة، كما إذا كان الأمر لأناس

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٤٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٦)، والدارمي في الصلاة (١٤٢٤)، من حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي- رضي الله عنه- دون قوله: «أوسر إلى فقير». وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في العلم (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)، مطولًا من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) البيت للحطيئة. انظر: «ديوانه» (ص١٠٩).

(٤) البيتان لابن المبارك. انظر: «ديوانه» (ص١٣٩)، «بهجة المجالس» (ص٦٥).

(٥) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٤).

كثيرين يصعب مناجاتهم جماعات أو أفرادًا، وكما إذا كان المقصود إظهار هذا المعروف.

أما إذا كان الأمر لفرد أو أفراد معينين أو جماعة قليلة، فالأولى الإسرار معهم، وذلك أدعى للقبول، وأنجع في النصح.

١٢- الترغيب في الإصلاح بين الناس وفضله، وأنه من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وعن أم كلثوم بنت عقبة: «أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا أو يقول خيرًا**»(١).

وقالت: «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث؛ في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها». قال: وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ»(٢).

١٣- أن الصدقة والإصلاح بين الناس من أخص المعروف؛ لأن الله خصهما بالذكر مع أنهما داخلان فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٠-٤٩٢١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٨).

(٢) جاء في بعض الروايات أن هذا مدرج من كلام أم كلثوم، وفي بعضها أنه من كلام الزهري أحد رواة الحديث، ورجح النسائي أنه من كلام الزهري، ذكر ذلك عنه ابن حجر في «الفتح» (٥/ ٣٥٣).

وقد رُوي أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- كتب إلى أبي موسى رضي الله عنه: «رد الخصوم حتى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن» انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٤).

وهذا إن صح عن عمر- رضي الله عنه- فهو محمول على ما إذا لم يتبين صاحب الحق ونحو ذلك فأما إذا تبين صاحب الحق فإنه يجب إعطاء كل ذي حق حقه وهذا هو العدل. وأيضًا هو محمول على ما إذا أمكن الإصلاح بين المتخاصمين وتيسر، أما إذا تعسر الإصلاح بينهما فلا ينبغي إماتة القضية، بل يجب البت في الحكم فيها.

١٤- يندب الإسرار بالإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

١٥- إطلاق الفعل على القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إذ الإشارة ترجع إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ والأمر قول وليس بفعل، وقد يراد بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ فعل الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس.

١٦- ينبغي أن يكون الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس خالصًا لوجه الله، وابتغاء مرضاته، لا رياءً ولا سمعة ولا لغرض دنيوي ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ فمدار قبول الأعمال على الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

١٧- عظم ثواب الصدقة والأمر بالمعروف والإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وكيف يُقدر «أجرٌ» قال عنه العظيم: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فهذا لا يقدر قدره إلا العظيم سبحانه وتعالى، الذي خزائن السموات والأرض بيده.

١٨- أن الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس فيه خير مطلقًا، وإن لم يقصد به ابتغاء مرضاة الله؛ لأن الله ذكر أولًا: أن فيه خيرًا، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

١٩- إثبات صفة الرضى لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، صفة ذاتية وفعلية متعلقة بمشيئته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

وفي هذا رد على الذين أولوا الرضى بالثواب كالأشاعرة والجهمية وغيرهم.

٢٠- إثبات صفة الفعل لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ والإيتاء هو

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في تفسيره (٢/ ٢٢٠ تفسير سورة النساء).

الإعطاء، وهو من الصفات الفعلية.

٢١- أن ما عند الله من الثواب الآجل في الآخرة أعظم من الثواب العاجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ﴾، فإن «سوف» كما تفيد التحقيق، فهي أيضًا تدل على التسويف، وهو التأجيل البعيد، ولاشك أنه لا مقارنة بين نعيم الآخرة العظيم الباقي ومتاع الدنيا الزهيد الفاني.

٢٢- أنه لا ينبغي للعبد أن يستعجل الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ﴾؛ لأن الله قد يؤخر الثواب لحكمة؛ إما ليزداد العبد من عمل الخير، وإما لأن الله رد عنه مقابل ذلك من الشر ما لا يعلمه العبد، وإما لأن الله ادخره عنده في الآخرة ليوفيه إياه أوفر ما يكون، وأحوج ما يكون العبد إلى ذلك، أو لغير ذلك.

وفي الحديث: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل. يقول دعوت ودعوت فلم يستجب لي**»(١).

ولا يلام العبد على أن يريد من ثواب الدنيا ما تصلح به حاله مع كون جل مقصده الدار الآخرة وما عند الله. أما أن يريد ثواب الدنيا فقط فلا، قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠- ٢٠٢].

والأكمل أن يقصد العبد بعمله الآخرة، وسيأتيه نصيبه من الدنيا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وفي الحديث: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله،**

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥)، وأبو داود في الصلاة (١٤٨٤)، والترمذي في الدعوات (٣٣٨٧)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»(١).

٢٣- امتنان الله عز وجل على عباده بتسمية ثوابه لهم أجرًا في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا﴾، فكأنهم استحقوا ذلك عليه كما تجب أجرة الأجير على المستأجر، وهذا تفضل منه عز وجل وكرم وامتنان(٢).

٢٤- تحريم مشاقة الرسول ﷺ ومخالفته بعد تبين الهدى، والتحذير من ذلك ووجوب إتباعه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ الآية.

٢٥- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو العلم والحق، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

٢٦- العذر بالجهل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، فمن شاق الرسول ﷺ وخالفه عن جهل منه، أو تردد في معرفة الحق فلا إثم عليه، شريطة أن يكون ممن يعذر بالجهل.

٢٧- الاحتجاج بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣)، فهذا يدل على أن سبيل المؤمنين واحد، وأن الأمة لا تجمع إلا على الحق، ولا يمكن أن تجمع على ضلالة، فمن اتبع غير سبيلهم فقد خرج عن إجماعهم، وخرج بذلك عن الحق(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، والدارمي في المقدمة (٢٢٩)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) راجع الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧].

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣٩)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٤٩٩)، «التفسير الكبير» (١١/ ٣٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٦)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٥٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٤) هذا ما عليه جمهور أهل العلم من دلالة الآية على الإجماع، وقد ذهب بعضهم إلى عدم دلالاتها على ذلك، منهم الشوكاني في «إرشاد الفحول» ومحمد عبده ورشيد رضا في «تفسير المنار» (٥/ ٤١٧).

لكن ينبغي أن يعلم أنه ليس كل ما حكي عليه الإجماع يكون إجماعًا حقًا؛ لأن هناك كثيرًا من المسائل حُكي الإجماع عليها مع وجود الخلاف فيها.

٢٨- التحذير من أتباع غير سبيل المؤمنين والخروج عن إجماعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٩- أن سبيل المؤمنين هي طاعة الرسول ﷺ وإتباعه وعدم مشاقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وهذا أحد شروط قبول العمل وصلاحه، وهو أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

٣٠- أن من خالف الرسول ﷺ وشاقه بعد وضوح الحق له، وسلك غير طريق المؤمنين، فإن الله يكله إلى ما تولاه؛ لقوله تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ ومن وكله الله إلى غيره هلك، وفي الدعاء: «**اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١).

٣١- التهديد والوعيد الشديد لمن شاق الرسول ﷺ بعد تبين الهدى له، واتبع غير طريق المؤمنين، وأن ذلك من الكبائر؛ لأن الله توعد عليه بالنار، فقال: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

قال ابن كثير(٢): «وجعلنا النار مصيره في الآخرة؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة..».

٣٢- إثبات النار، وأنها أسوأ مرجع ومصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٦٦).

وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

٣٣- أن الله لا يغفر الشرك ولا يستره ولا يتجاوز عنه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ وفي تكرار هذا في السورة مرتين الدلالة على عظم الشرك بالله وخطورته والتحذير منه وتوكيد ذلك.

٣٤- أن ما دون الشرك من المعاصي فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذب به، وإن شاء عفا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

وفي هذا رد على الخوارج في قولهم إن مرتكب الكبيرة كافر(١).

وفي تكرار هذه الآية الدالة على مغفرته- عز وجل- ما دون الشرك لمن يشاء الدلالة على أن رحمته- عز وجل- سبقت غضبه، كما جاء في الحديث(٢).

٣٥- أن من أشرك بالله فقد ضل غاية الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

فالمشرك أبعد ما يكون عن الله، وعن الحق؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٤٦]، أي: الشرك.

وهو أعظم الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

٣٦- أن المشرك بالله جمع بين الافتراء والكذب العظيم، بقوله: إن لله شريكًا، وبين الضلال البعيد بإشراكه بالله فعلًا بعبادة غير الله؛ لقوله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وقوله في الآية الثانية: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

* * *

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٨٦).

(٢) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ هذا فيه معنى البيان أو التعليل لقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

﴿إِن يَدْعُونَ﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما يدعون ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: من دون الله، أي: سواه.

والدعاء بمعنى العبادة، أي: ما يعبدون من دون الله، وسواء كان ذلك دعاء مسألة، أو دعاء تنسك وعبادة، قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**، ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]»(١).

﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أوثانًا وأصنامًا سموها بأسماء إناث كاللات والعزى ومناة ونائلة وغير ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩ - ٢١].

وهذا دليل على نقص هذه المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال؛ لأن المؤنث دون المذكر في قوته ورتبته ومقامه وفي كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فهذه المعبودات من دون الله قد فقدت أدنى صفات الكمال فهي لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع ولا تنفع.

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾، الواو: عاطفة، و«إن»: نافية، أي: وما يعبدون وما يطيعون إلا شيطانًا مريدا؛ لأنه هو الذي زين لهم عبادة الأصنام فأطاعوه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فعبدوا الأصنام وأشركوها مع الله شرك عبادة، وعبدوا الشيطان وأشركوه مع الله شرك طاعة، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي أنه قال يا رسول الله: «إنا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: بلى. قال: فتلك عبادتهم»(١).

﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾، الشيطان مشتق من شطن بمعنى «بَعُدَ» عن رحمة الله تعالى وجنته وعن كل خير.

﴿مَّرِيدًا﴾ صفة كاشفة، وهذا على القول بأن الشياطين كلهم مردة، ويحتمل كونها صفة مقيدة على القول بأن الشياطين منهم مردة، ومنهم دون ذلك، وفي الحديث: «**إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن**»(٢) وفي لفظ: «**ويصفد فيه كل شيطان مريد**»(٣).

و«المريد»: الذي بلغ الغاية في التمرد والعتو والطغيان والعصيان والخروج عن طاعة الله تعالى والاستكبار والكفر؛ ولهذا زين لهؤلاء دعوة وعبادة الأوثان كما زين لهم دعوته وطاعته.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧-٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦).

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٦٨٢)، وابن ماجه في الصيام (١٦٤٢)، وأحمد (٢/ ٢٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الصيام (٢١٠٨)، من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾، الجملة استئنافية، أو صفة ثانية لـ «شيطان»، أي: طرده الله وأبعده عن رحمته، وأخرجه من جواره وجنته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٥].

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾، الوقف على قوله: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ متعين، والواو في قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾: للاستئناف، أي: وقال الشيطان، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ اللام لام قسم مقدر، أي: والله لأتخذن، أي: لأجعلن لي ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، ولام القسم، ونون التوكيد.

﴿مِنْ عِبَادِكَ ﴾، أي: من بني آدم، أو من الثقلين، والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة لجميع الخلق.

﴿نَصِيبًا ﴾: حظًا، وهم الذين جعل الله له قدرًا عليهم تسلطًا لإغوائهم.

﴿مَّفْرُوضًا ﴾: محتمًا معينًا مقدرًا معلومًا.

قال ابن القيم: «قال الفراء: «يعني ما جعل له عليه السبيل من الناس فهو كالمفروض» ثم قال ابن القيم: «قلت: حقيقة الفرض هو التقدير، والمعنى: أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله حزبه وخاصته»(١).

وقد جعل الله له تسطًا قدريًا على بعض بني آدم حكمة منه عز وجل، وابتلاءً واختبارًا لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦- ١٨].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٧٨).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢- ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢، ٦٤].

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله- عز وجل- يوم القيامة: يا آدم، يقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذٍ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد...**»(١).

وقد طلب الإنظار إلى يوم القيامة فأعطاه الله سؤله، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [ص٧٩- ٨١]، وقال في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الآيتان: ٣٦، ٣٧]، وقال في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥].

قوله: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾: معطوف على ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ ﴾، مع إعادة لام القسم، أي: والله لأضلنهم فالجملة مؤكدة باللام والقسم المقدر ونون التوكيد، أي: والله لأضلنهم عن الحق وعن الصراط المستقيم.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٢٧٤١)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢).

والضلال: التيه والبُعد عن الطريق السوي، والإضلال: الإبعاد عنه، أي: لأجعلنهم يتيهون ويبتعدون عن طريق الحق ضلالًا في العلم، وضلالًا في العمل بالتسويف والوسوسة لهم، فأقسم على إضلال بني آدم لشدة عداوته لهم؛ ليبعدهم عن رحمة الله تعالى، كما أُبعد عنها بسببهم، حيث امتنع من السجود لأبيهم آدم.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: معطوف كسابقه مع إعادة اللام توكيدًا، أي: والله لأمنيهم، أي: أعدهم وأغرهم بالأماني الباطلة من طول الأعمار وبلوغ الآمال، والمغفرة، ونيل ما نالة المهتدون وتزيين ما هم فيه من الضلال والتسويف وترك التوبة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وكما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال تعالى عن المنافقين أنهم يقولون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾: معطوف أيضًا على ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ مع إعادة اللام توكيدًا، أي: والله لآمرنهم، وذلك بالوسوسة والتزيين والتسويل لهم في أنفسهم، وليس أمرًا صريحا بالمقال؛ لأن الشيطان لا يُرى، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقد يتصور الشيطان بصورة إنسان فيأمر أمرًا صريحًا، قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾، الفاء عاطفة، واللام لام الأمر، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: «البتك» القطع والشق، «والتبتيك»: التقطيع، أي: فليقطعن ويشققن آذان الأنعام.

وهي الإبل والبقر والغنم كما كان يفعله أهل الجاهلية، ويجعلون ذلك علامة على أنها محررة لطواغيتهم وأصنامهم، وتحريمها، ويسمونها بأسماء من تلقاء أنفسهم، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، كما قال تعالى ردًا عليهم: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا

سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبه في النار، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة**»(١).

﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾: معطوف على ما عطف عليه ما قبله، مؤكد باللام والقسم المقدر، ونون التوكيد.

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾، إعرابه كقوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾، و«التغيير»: التبديل.

أي: والله لآمرنهم فليبدلن خلق الله، أي: فليغيرن دين الله وفطرته التي فطر الله الناس عليها، فيغيرون فطرة الله الباطنة التي فطر الله الناس عليها من التوحيد إلى الشرك، ومن الإيمان إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها**»(٢).

وأيضًا فليغيرن خلق الله، أي: خلقته الظاهرة بما لم يأذن به الله من تبتيك آذان الأنعام، والوشم والوشر والنمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك، مما ينطوي تحته محاذير عقدية وشرعية، وتسخط على خلق الله وقدح في حكمته وتقديره وتدبيره.

قال ﷺ: قال الله تعالى: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»(٣).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات، والمتلفجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل، ثم قال:

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب قصة خزاعة (٣٥٢١)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٦)، وأحمد (٢/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز- إذا أسلم الصبي ومات (١٣٥٨)، ومسلم في القدر- كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٧١٤).

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمه وأهلها (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله- عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾»(١).

قال ابن القيم(٢) بعد أن ذكر حديث كل مولود: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما، فطرة الله بالكفر، وهو تغير الخلقة التي خلقوا عليها، وغير الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والجدع، فهذا تغيير فطرة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة».

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، الواو: استئنافية، و«من»: اسم شرط جازم.

﴿يَتَّخِذِ﴾: فعل الشرط، أي: ومن يجعل الشيطان وليًا له يطيعه ويتبعه.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله.

﴿فَقَدْ خَسِرَ﴾: جملة جواب الشرط، وربط بالفاء؛ لاقترانه بـ «قد».

والخسارة ضد الربح، أو ضياع رأس المال أو بعضه.

﴿خُسْرَانًا﴾: مصدر ﴿خَسِرَ﴾، ﴿مُّبِينًا﴾: صفة لـ﴿خُسْرَانًا﴾، أي: بيِّنًا واضحًا أنه خسران، ومبيِّنًا أمر صاحبه أنه قد خسر الخسران البين الواضح، خسر دينه ودنياه، وأخراه، وخسر نفسه وأهله وولده وماله، فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وكيف لا يخسر الخسران المبين من عدل عن ولاية الرحمن إلى تولي الشيطان الذي لا يملك نفعًا ولا ضرًا، بل هو سبب الضرر، ويتخلى عن أوليائه في أصعب المواقف وأشدها ويوردهم النار، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير: (٤٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (١٢٥)، وأبو داود في الترجل (٤١٦٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٩).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٨٠).

ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾، أي: يعدهم الشيطان ويمنيهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وضمير الهاء في قوله: ﴿يَعِدُهُمْ﴾: يعود إلى الذين يسعى الشيطان في إضلالهم، والذين اتخذوه وليا من دون الله، وجمع الضمير «هم» باعتبار معنى «من» في قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ﴾، أي: يعدهم الوعود الكاذبة.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهكذا فعل مع أبينا آدم وزوجه، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

والوعد هنا يشمل حتى الوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فإنه يعدهم ويخوفهم أنهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، كما يعدهم ويخوفهم أنهم إذا جاهدوا قتلوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾، أي: ويمنيهم الأماني العاجلة المستحيلة الباطلة، التي هي عند التحقيق أشبه بالسراب، والتي هي رأس مال المفاليس.

والتمنى في الأصل: طلب ما يتعسر حصوله أو يستحيل، كما في قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب(١)

والفرق بين وعده وتمنيه أنه يعد الباطل والكذب، ويمني المحال.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، الواو: حالية، أو استئنافية، و«ما»: نافية.

---

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

وأظهر هنا في مقام الإضمار فقال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ولم يقل: «وما يعدهم إلا غرورًا»؛ لإظهار عداوة الشيطان والتأكيد على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾: «إلا»: أداة حصر.

أي: إلا خداعًا وباطلًا، كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

هذه الآية تفسير وبيان لخسران من اتخذ الشيطان وليًا من دون الله.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، الإشارة: للذين أطاعوا الشيطان واتخذوه وليًا من دون الله وانخدعوا بوعوده وأمانيه، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾، أي: مرجعهم ومصيرهم ومستقرهم.

﴿جَهَنَّمُ﴾، اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾، أي: ولا يجدون عنها مفرًا ولا مهربًا ولا مخلصًا ولا ملجأ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

ذكر عز وجل مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ثم ذكر مآل السعداء أولياءه- عز وجل- على طريقه القرآن الكريم في الجمع بين الإنذار والبشارة، والوعد والوعيد، ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، الواو استئنافية، أي: والذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بأركان الإيمان الستة وبكل ما أوجب الله تعالى الإيمان به.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارهم، وحذف

الموصوف، وهي «الأعمال» واكتفى بذكر الصفة، وهي «الصالحات»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

ومعنى «الصالحات» أي: الأعمال التي توافر فيها الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]. أي: أخلص العمل لله، وهو محسن بإتباع شرع الله؛ ولهذ قال بعده: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فلابد للإيمان من الجمع بين اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح وهي الأركان.

ولابد في العمل من شرطين: أن يكون خالصًا لله تعالى لم يشرك فيه أحد مع الله وأن يكون موافقًا لشرع الله تعالى لا ابتداع فيه، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

وأن يكون صوابًا على سنة رسول الله ﷺ كما قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢)، و«**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٣).

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: خبر المبتدأ «الذين» والسين للتحقيق والتقريب؛ لأن كل آت قريب، والدنيا بالنسبة للآخرة كلها قريب وقليل، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: صفة لـ «جنات» أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها ومنازلها وغرفها، كما قال تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وهي كما ذكر الله- عز وجل- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)- من حديث عائشة رضي الله عنها.

مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهي تجري في غير حدود يصرفها أهل الجنة كيف شاؤوا، قال ابن القيم(١):

أنهارهـــا في غـــير أخـــدود جـــرت سـبحان ممسـكها عـن الفيضـان

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: مقيمين في هذه الجنات إقامة أبدية لا تحول ولا تزول لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله.

أي: هذا الخبر وعد الله، ووعد الله واقع لا محالة، ولهذا قال: ﴿حَقًّا﴾، وهو مصدر مؤكد لمضمون الوعد، أي: ثابتًا واقعًا وحاصلًا لا يتخلف، وشتان بين وعد الرحمن، ووعد وغرور الشيطان.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، الواو: استئنافية، و«من»: اسم استفهام بمعنى النفي المشرب بالتحدي.

و﴿أَصْدَقُ﴾: اسم تفضيل، و﴿قِيلًا﴾: تمييز، أي: قولًا، والتقدير: ومن يكون أصدق من الله قولًا، أي: لا أحد أصدق من الله قولًا، وكان ﷺ يقول في خطبته: «**إن أصدق الحديث كتاب الله**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- بيان حقارة وضعف ما يعبد من دون الله من الأصنام والأوثان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾.

٢- أن دعاء الأصنام والأوثان سواء كان دعاء تنسك، أو دعاء مسألة كل ذلك عبادة لها، كما قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(٣).

---

(١) في «النونية» (ص٢٢٩).

(٢) أخرجه النسائي في صلاة العيدين (١٥٧٨)- من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير (٢٩٦٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

٣- أن طاعة الشيطان دعاء وعبادة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٤- تمرد الشيطان وعتوه وطغيانه؛ لقوله تعالى: ﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٥- أن الله لعن الشيطان وطرده عن رحمته وجنته، وعن كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وهذه الجملة صفة للشيطان أو خبر من الله تعالى.

٦- ذم الذين يدعون ويعبدون الأصنام، ويطيعون الشيطان ويتبعونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

٧- وجوب الحذر كل الحذر من دعاء وعبادة غير الله ومن دعاء الشيطان وطاعته؛ لأن الله ذم من يفعل ذلك.

٨- إثبات وجود الشيطان، وقوله، وتسلطه قدرًا على بعض العباد بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ الآية.

٩- إقسام الشيطان على أنه سيتخذ من العباد نصيبًا مقدرًا يضلهم في الدنيا ويحشرون معه في الآخرة إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ الآية.

١٠- إثبات تقدير الله لأعمال العباد، وأن نصيبا مقدرًا منهم أولياء للشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

١١- حرص الشيطان على إضلال بني آدم وإهلاكهم، وأنه لن يألو جهدًا في سبيل ذلك وشدة عداوته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

١٢- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾.

١٣- أن من وسائل إغراء الشيطان لبني آدم خداعهم بالأماني الباطلة؛ لقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، مما يورث الحرص الذي يؤدي بصاحبه إلى ارتكاب المحرمات، واقتحام الموبقات في سبيله، ويورث الأمل الذي يؤدي إلى الغفلة والغرق في

الدنيا ونسيان الآخرة وقسوة القلب فلا يؤثر فيه وعظ ولا يفكر في توبة.

١٤- أن من وسائل إضلال الشيطان لبني آدم أمره لهم بتحريم ما أحل الله؛ لقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: يحرمون ما يحرمون منها ويجعلون ذلك علامة على تحريمها وتحريرها لطواغيتهم وأصنامهم.

١٥- أن من وسائل إضلال الشيطان لبني آدم أمره لهم بتغيير خلق الله، بتغيير دينه وفطرته الباطنة فطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها إلى الشرك، وتغيير خلق الله بتغيير خلقته الظاهرة بقطع آذان الأنعام وتحريمها والوشم والوشر والنمص وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

١٦- تحريم تغيير خلق الله بتغيير دينه وفطرته الباطنة، وتغيير خلقته الظاهرة بقطع آذان الأنعام والوشم والوشر والنمص ونحو ذلك.

١٧- التحذير من اتخاذ الشيطان وليًا من دون الله، وخسران من فعل ذلك الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

١٨- وعد الشيطان لبني آدم بالوعود الكاذبة، وغروره لهم بالأماني المحالة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

١٩- ينبغي الحذر من الانسياق وراء الأماني؛ لأنها من الشيطان.

٢٠- أن مأوى ومرجع من أطاعوا الشيطان واتخذوه وليًا من دون الله إلى جهنم وبئس المصير؛ لقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٢١- إثبات جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٢٢- أن أهل جهنم الذين أطاعوا الشيطان واتخذوه وليا من دون الله خالدون فيها لا محيص ولا مخلص ولا مخرج لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

٢٣- جمع القرآن الكريم بين الترهيب والترغيب؛ لأن الله- عز وجل- ذكر أن مآل أولياء الشيطان إلى جهنم، ثم أتبع ذلك بذكر أن مآل أوليائه- عز وجل- إلى

الجنان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ الآية.

٢٤- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح، بين إيمان الباطن والانقياد في الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلا يكفي الإيمان المجرد من العمل، ولا العمل المجرد من الإيمان.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي مجرد الإيمان، كما أن فيه بيان كفر المنافقين الذين يعملون في الظاهر مع عدم الإيمان في الباطن.

٢٥- أن من شرط قبول العمل والأهم فيه أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل، صوابًا على سنة رسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٦- وعد الله- عز وجل- الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجزاء العظيم بدخول الجنات والتمتع بما فيها من النعيم من الظلال والثمار والأنهار وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

٢٧- خلود أهل الجنة فيها خلودًا أبديًا؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾.

٢٨- أن وعد الله حق لا يتخلف؛ لقوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾.

٢٩- لا أحد أصدق من الله في قوله وخبره ووعده ووعيده وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

٣٠- إثبات القول والكلام لله تعالى؛ لقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة أن الشيطان يعد أتباعه ويمنيهم غرورًا منه لهم، وتوعد عز وجل أولياء الشيطان بالخسران والمصير إلى جهنم، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم الجنات، ثم بيَّن في هذه الآية والتي بعدها أن الأمر ليس بالأماني، وإنما هو بالعمل، فمن عمل سوءًا جوزي به، ومن عمل صالحًا أثيب عليه.

قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾، «ليس»: فعل ماض ناقص، واسمه محذوف، تقديره: الأمر، أو المآل ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ليس، والتقدير: ليس الأمر متعلقًا بأمانيكم، والخطاب لهذه الأمة، و«الأماني»: جمع أمنية، وهي: حديث النفس المجرد عن العمل المقترن بها.

﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، الواو: عاطفة، و«لا»: زائدة إعرابًا، ومؤكدة من حيث المعنى للنفي.

و«أهل الكتاب»: اليهود والنصارى، أي: وليس الأمر بأماني أهل الكتاب.

أي: ليس الأمر أو المآل والعواقب والنتائج بأمانيكم، كما ادعى المشركون أنهم لن يبعثوا ولن يعذبوا.

وكما قيل عن بعض المؤمنين أنهم قالوا: نحن خير الأمم وكتابنا أعظم الكتب، ورسولنا أفضل الرسل وخاتمهم ونحو ذلك.

﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: وليس الأمر والمآل والنتائج ونحو ذلك بأماني أهل الكتاب؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟

بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

وكما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: ١٣٥]، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٠٨]، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٠٨].

فليس الأمر بأماني هذه الأمة ولا أماني أهل الكتاب، ولا بأماني غيرهم من باب أولى.

وليس الأمر بالأماني أيا كانت، كبرت أو صغرت، وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية.

وليس في قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: دلالة على وقوع الأماني من هذه الأمة، كما هو حال أهل الكتاب الذين قال الله عنهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

فيحتمل أن ذكر قوله ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ وتقديمه أيضًا للإشعار بتمام العدل والإنصاف بين الأمم في مجازاة كلٍّ بما عمل أيًّا كان.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، نفى عز وجل أن يكون الأمر بالأماني، ثم بيَّن أن الذي يكون عليه الحكم والأمر والمآل هو العمل فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

و«مَنْ» في قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ﴾: شرطية، و﴿يَعْمَلْ﴾: فعل الشرط.

﴿سُوٓءًا﴾: «عملًا سيئًا» يسوء صاحبه في الحال والمآل، ويسوء غيره مساءة مباشرة إن كان متعديا إلى الغير، وغير مباشرة إن كان غير متعدٍّ؛ لأن السيئات والمعاصي لها أثرها على البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، «يجز»: جواب الشرط، مجزوم بحذف حرف العلة، والباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾: للعوض أو البدل، والضمير: يعود إلى عمل السوء المأخوذ من قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾، و«من» تفيد العموم.

أي: كل من يعمل سوءًا يجز به، سواء كان من هذه الأمة أو من أهل الكتاب أو غيرهم، من الإنس أو الجن، وسواء كان هذا السوء صغيرًا أو كبيرًا قليلًا أو كثيرًا، فكلٌّ يجازى بما عمل من سوء بحسب عمله.

والمجازاة قد تكون في الدنيا، وقد تكون في الآخرة، وقد تكون في الدنيا والآخرة.

ومن المجازاة في الدنيا ما يصيب المسلم من المصائب التي يكفر الله بها السيئات، كما في حديث أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله تعالى عنهما- أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «**ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته**»(١).

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة، فرُويَ أن أبابكر الصديق- رضي الله عنه- قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي ﷺ: «**غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلى. قال: «فهو ما تجزون به»**(٢).

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، هذا فيه زيادة تأكيد لما قبله من نفي كون الأمور أو الأشياء بالأماني، أو تَوَهم أن أحدًا يغني عن أحد بنفعٍ أو دفع.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ﴾: معطوف على جواب الشرط، أي: ولا يجد من عمل سوءً عندما يجزى به.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله، ﴿وَلِيًّا﴾: يتولاه ويجلب له النفع، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٣)، والترمذي في الجنائز (٩٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١١)، والطبري في «جامع البيان» (٧/ ٥٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٧١). واللأوى: المشقة والشدة.

الواو: عاطفة، و«لا»: زائدة إعرابًا، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ولا يجد له سوى الله نصيرًا ينصره ويدفع عنه الضر وعذاب الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

ذكر عز وجل أن من يعمل سوءًا يجز به ولا ولي له من دونه ولا نصير، ثم أتبع ذلك ببيان أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فثوابه دخول الجنة جمعًا بين الإنذار والبشارة.

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾، الواو: عاطفة، و«من»: شرطية كالتي قبلها، تفيد العموم لكل من عمل الصالحات من ذكر أو أنثى من جميع الأمم، ومن الإنس والجن.

﴿يَعْمَلْ﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، «من»: تبعيضية، أي: بعض الأعمال الصالحات، وهي التي اجتمع فيها: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه من أعمال القلوب والأبدان.

وحذف الموصوف وهو «الأعمال» واكتفى بالصفة؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، «من»: بيانية فيها بيان الإبهام في «مَن» الشرطية في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وفي هذه الجملة تأكيد لعموم الجملة قبلها.

وقدَّم: «الذَّكر» لأنه من حيث العموم أفضل من الأنثى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنه مؤمن، وذلك أن العمل الصالح لا ينفع مع عدم الإيمان، كما لا ينفع الإيمان بلا عمل؛ إذ لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وروح عن يعقوب بضم الياء على البناء للمفعول: ﴿يُدْخَلُونَ﴾، وقرأ الباقون

بفتح الياء على البناء للفاعل: ﴿يَدْخُلُونَ﴾[1].

والفاء في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تنويها بعلو مرتبتهم ورفعة منزلتهم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، الواو: عاطفة، و«لا»: نافية، والواو في «يظلمون»: تعود إلى الصنفين: من عمل سوءًا وجوزي به، ومن عمل الصالحات وهو مؤمن وأدخل الجنة، أي: تعود لجميع الخلق، فلا يظلم أحد منهم نقيرًا، ولا يظلمون بمجموعهم نقيرًا، و«النقير»: هو «النقرة»، أي: الحفرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة.

والمراد لا يظلمون أي: شيء من الظلم مهما قل، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم، بل يجازى كل منهم بما عمل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩، والإسراء: ٧١]، والفتيل: الخيط الرقيق الذي في شق النواة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآيتين السابقتين: أن الأمر ليس بالأماني وأن من عمل سوءًا جوزي وعوقب به، ومن عمل صالحًا وهو مؤمن أثيب عليه بدخول الجنات، ثم أتبع ذلك ببيان أنه لا أحد أحسن دينًا ممن دان بدين الإسلام، فبيَّن أولًا عظم ثوابهم، ثم بيَّن فضل دينهم على سائر الأديان.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾، الواو: استئنافية، و«من»: اسم استفهام، ومعناه هنا الإنكار والنفي، أي: لا أحد أحسن دينًا ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، والنفي بصيغة الاستفهام أبلغ من النفي الصريح؛ لأن النفي بصيغة الاستفهام يكون مشربًا بالتحدي، فكأنه مع النفي القاطع يقول: ائتوني بأحد أحسن دينًا من هذا.

و﴿أَحْسَنُ﴾: اسم تفضيل، أي: أشد حسنًا، واسم التفضيل قد يستعمل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٢).

وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]، وليس في النار شيء من الخير أو الحسن ألبتة، بل هي شر محض.

وكذا قوله هنا: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ﴾ الآية، لا يفهم منه أن من لم يسلم وجهه لله ولم يحسن في اتباع شرع الله عنده شيء من الدين فضلًا أن يكون عنده فيه شيء من الحسن.

﴿دِينًا ﴾: تمييز منصوب، أي: عملًا وديانة، كما قال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣].

و«الدين»: العمل الذي يبغى به عامله مقابلًا.

﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾، أي: من الذي ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾، أي: أخلص العمل لله فعمل إيمانًا واحتسابًا، وأسلم قلبه وقالبه لله تعالى، وعبر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، الجملة: حالية، أي: وهو محسن العمل بكون عمله صوابًا وفق ما شرع الله، فجمعت هذه الآية شرطي صلاح العمل بكونه خالصًا لله تعالى، صوابًا موافقًا لشرع الله، بين السلامة من النفاق بصلاح الباطن، ومن الضلال والجهل بصلاح الظاهر.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾: الجملة معطوفة على «أحسن» وما بعدها، وهي توكيد معنوي لها؛ لأن ملة إبراهيم هي الإخلاص، واتباع شرع الله، وفيها تعظيم لملة إبراهيم، وثناء عليه- عليه الصلاة والسلام.

﴿حَنِيفًا ﴾: حال من إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقيل ﴿حَنِيفًا ﴾: حال من فاعل «اتبع»، وهو من حيث المعنى صحيح؛ لأن من اتبع ملة إبراهيم سيكون حنيفًا مثله، وإن لم يدرك منزلته.

فمن أسلم وجهه لله، وأحسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفًا فقد جمع بين الإيمان

والإسلام والإحسان، وأولى الناس بهذا محمد ﷺ وأمته، قال ابن كثير[١]: «وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾».

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، الواو: استئنافية، أي: جعل الله إبراهيم خليلًا له عز وجل، والخُلة: خالص المحبة وأكملها وأعلاها، فالخليل ذو المحبة الخالصة التامة.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، الواو: عاطفة، (لله): جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، والتقدير: وكائن لله، و«ما»: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، أي: الذي في السموات والذي في الأرض، وتقديم الخبر يفيد الحصر، أي: ولله وحده الذي في السموات والذي في الأرض، لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وجاء التعبير بـ «ما» في قوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ ليعم كل ما في السموات وما في الأرض من الأشخاص والأعيان والأوصاف العالِم وغيره، وغلب غير العالِم لكثرته أو لغير ذلك، أي: ولله جميع ما في السموات وما في الأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾، الواو: عاطفة و«كان»: مسلوبة الزمن تدل على ثبوت الحكم، أي: ثبوت اتصاف اسمها بخبرها على الدوام، أي: وكان الله وما زال بكل شيء محيطًا.

﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بالخبر ﴿مُّحِيطًا﴾، وقُدم عليه لإفادة عموم إحاطته- عز وجل- بكل شيء، أي: وكان الله بكل شيء، أيا كان ومهما كان صغيرًا كان أو كبيرًا قليلًا أو كثيرًا.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٧٤).

﴿مُّحِيطًا﴾: الإحاطة بالأشياء: شمولها من جميع جوانبها فهو- عز وجل- بكل شيء محيط من جميع جوانبه، وبكل معاني وأوجه الإحاطة؛ علمًا وسمعًا وبصرًا ورحمة وقدرة وتدبيرًا وقهرًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته عز وجل.

الفوائد والأحكام:

١- أن التمني لا ينفع ولا يجدي شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٢- ذم الأماني وأن الأحكام والنتائج لا تبنى عليها.

٣- أن حقيقة الأمر أن من عمل عملًا جوزي به سواء كان عمل سوء، أو عملًا صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٤- العدل بين العباد مؤمنهم وكافرهم فلا الأماني تنفع أحدًا منهم، ولا يجازى أيٌّ منهم إلا بما عمل.

ويؤخذ من هذا وجوب العدل بين الخصمين والحكم لكل منهما بما يستحق وإن كان أحدهما على حق والآخر على باطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٥- التحذير من عمل السوء؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ الآية.

٦- ظاهر الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أن كل من عمل سوءًا جوزيَ به، ويخص من هذا التائب؛ لقوله ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(١).

كما أن من عمل سوءًا دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الزهد (٤٢٥٠)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

شاء عذبه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

٧- أن من عمل سوءًا لا يجازى بأكثر منه؛ لقوله تعالى: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، وهذا عدل منه عز وجل، بخلاف من عمل حسنًا فإنه يضاعف له ويجازى بأكثر مما عمل فضلًا من الله عز وجل.

٨- أنه لا ولي ولا ناصر من دون الله لمن عمل سوءًا يتولاه أو ينصره ويدفع عنه عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

٩- أن من يعمل الأعمال الصالحات وهو مؤمن يدخل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

١٠- أن العمل لا بد أن يكون صالحًا جامعًا بين شرطي الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

١١- فضل الذَّكر على الأنثى من حيث العموم؛ لهذا قدم عليها في الذِّكر.

١٢- أنه لا فرق بين الذكر والأنثى في الجزاء، فمن عمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن دخل الجنة، وفي هذا رد على أهل الجاهلية وأهل الكتاب الذين يحرمون المرأة كثيرًا من الخير، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

١٣- أن من شرط قبول الأعمال الصالحات الإيمان، فهو الأصل والأساس والقاعدة التي تقوم عليها الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

١٤- لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل فلا يصح أحدهما دون الآخر.

١٥- عظم منزلة من عمل من الصالحات وهو مؤمن، وعظم ما أعد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

١٦- أنه لا يظلم عند الله أحد من الخلق أي: شيء من الظلم مهما قل ولو كان نقيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ ﴾ [النساء: ٤٠].

١٧- أنه لا أحد أحسن دينًا ممن أخلص عمله لله، واتبع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، وكما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [الآية:٢٢].

وفي هذا دلالة على أنه لا أفضل من الأخذ بالسنة والتمسك بها، حتى في الأمور المستحبة والمندوبة، كصيام النفل، وقيام الليل، وختم القرآن، ونحو ذلك؛ فصوم يوم وفطر يوم أفضل من صيام الدهر(١)، ونوم نصف الليل وقيام ثلثه ونوم سدسه أفضل من قيام الليل كله(٢)، وختم القرآن في ثلاث أولى من ختمه في أقل من ذلك(٣)، والخير كل الخير والفضل كل الفضل في اتباع السنة.

١٨- أن دين الإسلام أحسن الأديان؛ لأن من دان به لا أحد أحسن دينًا منه.

١٩- الحث على الإخلاص والإتباع، وأن العمل لا يقبل إلا بتوافر هذين الشرطين: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، فإن فقدا أو أحدهما بطل العمل.

٢٠- في تقديم قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ على قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ دليل على أهمية الإخلاص لله تعالى؛ لأن العمل إذا شابه أدنى شائبة من الشرك لم يقبل.

٢١- التنويه بشأن الحنيفية السمحة ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾.

٢٢- فضيلة إبراهيم عليه السلام بإخلاصه التوحيد لله وبراءته من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا ﴾.

٢٣- منقبة عظيمة لإبراهيم عليه السلام عند ربه حيث اتخذه الله خليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾؛ لأنه أخلص لله التوحيد، ووفَّى بما أمر به، وقام بما ابتلي به، وهذه منزلة عظيمة لم ينلها إلا هو وسيد الخلق نبينا محمد ﷺ، كما قال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٦، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٨٨، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم ٢٤٤٨، وابن ماجه في الصيام ١٧١٢، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣٩٠، وأحمد ٢/ ١٦٥، ١٨٨، ١٨٩، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

«فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلًا»(١).

وقال ﷺ: «وقد اتخذ الله- عز وجل- صاحبكم خليلًا»(٢).

٢٤- إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

٢٥- أن لله- عز وجل- وحده جميع ملك السموات والأرض وما فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢٦- الإشارة إلى أن السموات أعظم وأعلى من الأرض، ولهذا قدمت عليها في الذكر.

٢٧- إحاطة الله تعالى بكل شيء علمًا وسمعًا وبصرًا ورحمة وقدرة وتدبيرًا وقهرًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ حتى ما تكنه الصدور وما تنطوي عليه القلوب.

٢٨- في الإخبار بأن له- عز وجل- الملك كله وأنه محيط بكل شيء طمأنة ووعد لمن أطاع الله، وتحذير ووعيد لمن عصى الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه مسلم في المساجد، النهي عن بناء المساجد عند القبور (٥٣٢)، من حديث جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٣) والترمذي في المناقب (٣٦٥)، وابن ماجه في المقدمة (٩٣)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن عائشة- رضي الله عنها: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، قالت: «هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلًا فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها فنزلت هذه الآية»(١).

وفي رواية عنها بعد ما ذكرت سبب نزول الآية الأولى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٣] قالت: «ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ الآية»(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾، الخطاب للنبي ﷺ والاستفتاء: طلب الإفتاء ومنه قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ [يوسف: ٤٦] والإفتاء: هو بيان الحكم الشرعي.

أي: يسألك أصحابك يا محمد، ويطلبون منك أن تفتيهم في النساء.

أي: في أحكامهن أو في حكم يتعلق بهن، وهو حكم اليتيمة تكون عند وليها، فيرغب أن يتزوجها؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ولما رواه عروة بن الزبير عن عائشة- رضي الله عنها- في سبب نزول هذه الآية(٣).

---

(١) سيأتي تخريجه. وراجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣].

(٢) سيأتي بتمامه وتخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾: الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد: الله يفتيكم فيهن، أي: يبين لكم حكم ما سألتم عنه من أمرهن.

فالمستفتى رسول الله ﷺ، والمفتي هو الله عز وجل، بما ينزله على رسوله ﷺ من الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، الواو: عاطفة، و«ما»: اسم موصول بمعنى الذي في محل رفع عطفًا على لفظ الجلالة «الله»(١).

﴿يُتْلَىٰ﴾: يقص ويقرأ، ﴿عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: في القرآن، و«ال»: للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود «القرآن»، وهو: «فعال» بمعنى: مفعول، أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وكما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩] على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: ١٣-١٦].

وهو مكتوب في المصاحف التي بأيدي المؤمنين.

والمعنى: والذي يقرأ عليكم في القرآن يفتيكم فيهن(٢)، أي: الله يفتيكم فيهن، والقرآن يفتيكم فيهن، والعطف هنا لا يقتضي المغايرة التامة؛ لأن ما جاء في القرآن بيانه هو فتوّى الله عز وجل.

وقد يحتمل أن يكون المعنى قل الله يفتيكم فيهن فيما ينزِّل عليكم الآن في شأنهن من القرآن، وما يتلى عليكم في الكتاب مما أنزل قبل هذا في يتامى النساء في أول السورة

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٤). وقيل: «ما» في محل جر عطفًا على محل الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ والتقدير: قل الله يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في الكتاب. واختاره أبو حيان.
انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٩٠)، «جامع البيان» (٩/ ٢٥٩)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٦٠).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٢)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٦١).

في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ الآية.

ويدل على هذا قول عائشة بعد ما ذكرت سبب نزول هذه الآية التي في أول السورة قالت: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ في النساء، فأنزل قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ الآية قالت: «والذي يتلى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾».

﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾، ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾: من إضافة الخاص إلى العام أو الصفة إلى الموصوف، وهو متعلق بقوله: ﴿يُتْلَىٰ﴾ على القول بأن «ما» في محل رفع فاعل.

و﴿يَتَامَى﴾: جمع يتيمة، واليتيم واليتيمة: من مات أبوه وهو دون البلوغ؛ لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(١).

و﴿النِّسَاءِ﴾: جمع الإناث، يقال: نساء. ويقال: نسوة. قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]، ولا واحد له من لفظه، بل مفرده امرأة.

والمراد: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ في قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [الآية:٣] وفي هذه الآية: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

﴿اللَّاتِي﴾: اسم موصول في محل جر صفة لـ﴿النِّسَاءِ﴾.

﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تُؤْتُونَهُنَّ﴾: تعطونهن، ينصب مفعولين، الأول هنا: الضمير «هن»، والثاني: الاسم الموصول «ما»، فهو في محل نصب مفعول ثانٍ.

والمعنى: اللات جرت عادتكم أن لا تعطوهن الذي كتب لهن من المهور والحقوق(٢)، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ

---

(١) سبق تخريجه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢].

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٥٨)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٤)، «النكت والعيون» (١/ ٤٢٥-٤٢٦)، «تفسير المنار» (٥/ ٤١٨)، «أضواء البيان» (١/ ٤٢١).

لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣].

أو أن المعنى: ﴿ٱلَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من تزويجهن بمن يتقدم لخطبتهن من الرجال الأكفاء، فتمنعونهن لأجل أن تتزوجوا بهن أنتم، أو مخافة أن يشارككم الأزواج في أموالهن، وهو داخل تحت المعنى الأول(١).

﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بنزع الخافض أو في محل جر.

أي: وترغبون في أن تنكحوهن، أي: في نكاحهن لمالهن، أو لجمالهن، أو غير ذلك- مع عدم إيتائهن ما فرض لهن من المهور(٢).

عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة- رضي الله عنها- عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾؟ قالت: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط لها في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى في الكتاب: الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾»(٣).

---

(١) وقيل المعنى: ﴿ٱلَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، أي: ما فرض لهن في آيات الفرائض. انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٥٣-٢٦٢)، «التفسير الكبير» (١١/ ٥١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٦٤)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٢-٤٠٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧٧)؛ «أضواء البيان» (١/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٤)، ومسلم في التفسير (٣٠١٨)، وأبو داود في النكاح (٢٠٦٨)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٦)، والطبري في «جامع البيان» الأثر (١٠٥٥٤ و١٠٥٥٥).

وقد يكون المراد: وترغبون عن أن تنكحوهن لدمامتهن أو غير ذلك(١).

فعن عائشة- رضي الله عنها: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت: «هذا في اليتيمة، تكون عند الرجل لعلها تكون شريكته في ماله، وهو أولى بها من غيره، فيرغب عنها أن ينكحها ويعضلها لمالها، ولا ينكحها غيره كراهية أن يشركه أحد في مالها»(٢).

والآية محتملة للقولين، كما ثبت عن عائشة- رضي الله عنها، وكذا صح عن ابن عباس رضي الله عنها، أنه قال في قوله تعالى: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾: «فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة، فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل بها ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه»(٣).

قال ابن كثير(٤): «والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزوجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها فأمره الله عز وجل أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة.

وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها..».

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾: معطوف على قوله: ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾(٥).

التقدير: قل الله يفتيكم فيهن، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء وفي

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٥٤-٢٥٧، ٢٦٢-٢٦٤)، «النكت والعيون» (١/ ٤٢٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٢)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٠٠)، ومسلم في التفسير (٣٠١٨)، وأبو داود في النكاح (٢٠٦٨)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٦)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٥٤)- الأثر (١٠٥٤٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٦٤) الأثر (١٠٥٦٥).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٣٧٧).

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٥).

المستضعفين من الولدان.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: جمع مستضعف، وهو الذي استضعفه غيره، و﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ جمع وليد، وهم الأولاد الصغار.

والمعنى: الله يفتيكم، وما يتلى عليكم في الكتاب، في المستضعفين من الولدان بتوريثهم وإعطائهم حقوقهم، حيث كانوا لا يُورِثون الصغار والضعاف شيئًا(١).

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾: معطوف أيضًا على ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: ويفتيكم في أن تقوموا لليتامى بالقسط.

«أن»: مصدرية، ﴿تَقُومُواْ﴾: منصوب وعلامة نصبه حذف النون، الأصل: تقومون.

﴿وَأَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر معطوف على ما سبق(٢)، التقدير: قل الله يفتيكم فيهن، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء وفي المستضعفين، وفي قيامكم لليتامى بالقسط(٣).

ويحتمل أن يكون التقدير: ويأمركم بأن تقوموا لليتامى، فتكون جملة أن والفعل بعدها في محل جر بحرف جر مقدر، أي: بقيامكم(٤).

و﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم ذكرًا كان أو أنثى، و﴿ٱلْقِسْطِ﴾: العدل من «أقسط» الرباعي، بمعنى عدل، يقال: أقسط يُقسط قسطًا.

والمعنى: ويفتيكم ويوجب عليكم القيام لليتامى بالعدل. وذلك بأداء حقوقهم بتعليمهم وتوجيههم والعطف عليهم وحفظ أموالهم وإعطائهم حقوقهم من الميراث، ومن حقوق اليتيمات على الأزواج من المهور وغير ذلك، والعدل في مخالطتهم، وفي كل شأن من شؤونهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٥-٢٦٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧٧).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٥-٢٦٧)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٨٥).

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٥)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٦٢).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٣٦٢).

ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾، الواو: استئنافية، و«ما» شرطية، و﴿تَفْعَلُوا۟﴾: فعل الشرط.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، ﴿مِنْ﴾: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، و﴿خَيْرٍ﴾: مجرور لفظًا بـ«من»، منصوب محلًا مفعول به لـ﴿تَفْعَلُوا۟﴾.

والخير: كل ما فيه نفع وفائدة، وضده الشر.

أي: وما تفعلوا من أيِّ خير كان، قليلًا كان أو كثيرًا، خاصاً أو عاماً، متعديًا أو لازمًا، فعلًا كان أو قولًا، مباشرة أو تسببًا، مالياً أو بدنياً أو علمياً أو غير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾: جملة جواب الشرط واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية.

﴿كَانَ﴾: مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، أي: إنه عز وجل لم يزل عليمًا بالذي يفعلون(١).

﴿بِهِۦ﴾، الباء: حرف جر، والهاء: ضمير مبني على الكسر في محل جر يعود على ﴿خَيْرٍ﴾، والجار والمجرور: متعلق بالخبر ﴿عَلِيمًا﴾، وقدم عليه؛ لتوكيد إحاطة علم الله تعالى بذلك.

﴿عَلِيمًا﴾ خبر كان، أي: ذا العلم الواسع المحيط بكل شيء.

والعلم: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

وعلم الله عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم. قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

والمعنى: أنه عز وجل لم يزل عليمًا بالذي يفعلون من خير قبل فعله وبعده، وسيجازيهم عليه أوفر الجزاء، كما قال عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٧).

أي حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم بعد وقوع ذلك منكم، لنرتب عليها الجزاء، وإلا فهو سبحانه عالم قبل ابتلائهم ماذا سيحصل منهم.

وفي هذا حث وتهييج على فعل الخير وامتثال الأمر(١)، وأنه لا يضيع عند الله أيُّ خير فعلوه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية السؤال عما يعني الإنسان في أمر دينه، وقد يكون ذلك واجبًا، وقد يكون مندوبًا حسب حكم المسؤول عنه؛ لقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ فذكر الله عز وجل هذا على سبيل التقرير لهم، وأفتاهم عما سألوا، وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

٢- حرص الصحابة رضوان الله عليهم على السؤال عما أشكل عليهم من أمر دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء: ١٢٧].

وهكذا سألوا رسول الله ﷺ عن عدة أحكام مما يعنيهم في أمر دينهم في نحو بضع عشرة مسألة، بل الأسئلة الواردة في القرآن كلها لا تتجاوز بضع عشرة مسألة(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن»(٣).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧٧).

(٢) انظر: «الموافقات» (٤/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٣٣). ومن هذه الأسئلة: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

=

وهذا يدل على أنهم إنما سألوا عما يعني وتركوا السؤال عما لا يعني، وذلك استجابة منهم لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠١].

وقوله ﷺ: «**دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بكثرة أسئلتهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»(١).

وقوله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٢).

وقوله ﷺ: «**إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته**»(٣).

٣- أنه ينبغي أن يُتوجه بالاستفتاء إلى من هو أهل له؛ لأن الصحابة كانوا رضوان الله عليهم يرجعون في ذلك إلى رسول الله ﷺ فيجيبهم ﷺ بوحي الله إليه، وقد قال عز وجل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

=

ومنها قوله في هذه الآية: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ١٢٧]، وقوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡ ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴾، إلى قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِ ﴾ [الأنفال: ١]، وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ ﴾ [الكهف: ٨٣]، وقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ومن هذه الأسئلة ما هو من غير المسلمين كسؤال اليهود عن الروح وعن ذي القرنين وعن الجبال وكسؤال المشركين عن الساعة.

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٦١٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

٤- عناية الدين الإسلامي بالنساء، وبيان ما لهن وما عليهن وما يخصهن من أحكام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾.

٥- الدلالة على صدق رسالته ﷺ، وأن ما جاء به حقٌّ من عند الله؛ لأن الصحابة- رضي الله عنهم- استفتوه في أمر النساء، فجاء بيان الحكم من عند الله، فنزل: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾.

٦- أن القرآن الكريم نزل منجمًا حسب الوقائع والأحداث؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ الآية.

٧- يحسن أن يكون الجواب أشمل وأوفى من السؤال؛ لأنهم استفتوا عن أمر النساء، فقال الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ الآية.

ولما سأل أحد الصحابة النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قائلًا يا رسول الله: أنتوضأ بماء البحر؟ أجابه ﷺ بقوله: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»(١).

٨- أن ما نزل به القرآن الكريم من بيان الأحكام هو فتوى صادرة من عند الله عز وجل؛ لأن الله هو الذي تكلم بالقرآن، وأنزله على رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

٩- عناية الدين الإسلامي في يتامى النساء؛ لضعفهن؛ لأنه اجتمع في حقهن الأنوثة واليتم.

١٠- أن أهل الجاهلية كانوا يظلمون اليتيمات، فلا يؤتونهن ما كتب لهن من الحقوق، فإما أن يتزوجوا بهن دون إعطائهن ما يجب لهن من المهور والنفقات وحقوقهن من الأزواج، وإما أن يمنعوهن من الزواج لئلا يشاركهم أزواجهن في

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (٨٣)، والنسائي في المياه (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٨٦)، ومالك في الطهارة (٤٣)، والدارمي في الطهارة (٧٢٨) وقال الترمذي «حديث حسن صحيح» وصححه الألباني.

أموالهن، وإما أن يمنعوهن من الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

١١- أن الله أوجب ليتامى النساء على الأولياء حقوقًا، منها دفع المهور لهن كغيرهن إذا رغبوا الزواج منهن، ومنها تزويجهن بمن يتقدم لخطبتهن إذا لم يكن للأولياء رغبة فيهن وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لأن الولي قد يكون له رغبة بالزواج باليتيمة، لكنه لا يعطيها حقها من المهر أو من نفسه، أو يرغب عن الزواج بها لكنه يرد الخطاب ويمنعها من الزواج، لئلا يشاركه غيره في مالها.

١٢- أنه يجوز لولي اليتيمة الزواج بها إذا كانت تحل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ كما دل على هذا مفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

١٣- وجوب رعاية المستضعفين من الولدان والعناية بهم وأداء حقوقهم والرحمة بهم والإشفاق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾.

١٤- وجوب القيام لليتامى عمومًا ذكورًا وإناثًا بالقسط والعدل، كفالة لهم وتربية وتوجيهًا وأداء لحقوقهم، وحفظًا لأموالهم، ورحمة بهم، وعطفًا وإشفاقًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾.

قال ﷺ: «**كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة**» وأشار مالك بالسبابة والوسطى(١).

١٥- علم الله عز وجل بما يفعله العباد من خير، وأنه لا تخفى عليه من أعمالهم خافية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾.

١٦- الحث على فعل الخير والترغيب فيه والوعد من الله بالجزاء بالخير لمن عمل خيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾؛ لأنه- عز وجل- يعلم

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما يفعلون من خير وسيجازيهم عليه.

١٧- التحذير من التقصير في عمل الخير؛ لأنه- عز وجل- إذا كان يعلم ما نعمله من الخير فهو أيضًا يعلم ما لم نعمله من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

١٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

هذا من جملة ما أخبر الله أنه يفتيهم به في النساء.

سبب النزول:

عن عروة بن الزبير عن عائشة- رضي الله عنها- في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾: «أنزلت في سودة لما أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ، قالت: في ذلك أنزل الله وفي أشباهها أراه قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا تطلقني، وأجعل يومي لعائشة، ففعل فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الآية قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٣٥)- وقال الألباني: «حسن صحيح» وأخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٠)، ومسلم في التفسير (٣٠٢١)، دون ذكر سودة.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٤٠)، وقال: «حديث حسن غريب». وقد ضعفه الوادعي في «المسند المتصل من أسباب النزول».

وقد روي عن رافع بن خديج: «أنه كانت عنده بنت محمد بن مسلمة فكره منها أمرًا إما كبرًا أو غيره، فأراد طلاقها فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واقسم لي ما بدا لك فأنزل الله ﷻ ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ الآية». أخرجه الشافعي في «الأم» (٥/ ١٧١)، والبيهقي في سننه (٧/ ٢٩٦) وانظر: «مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٧٠).

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾، الواو: استئنافية، و﴿وَإِنِ﴾: حرف شرط جازم، ﴿ٱمْرَأَةٌ﴾ فاعل لفعل مضمر يفسره ما بعده، تقديره: وإن خافت امرأة خافت، وقيل: مرفوع على الابتداء[١] وقيل: فاعل مقدم.

و﴿ٱمْرَأَةٌ﴾: نكرة في سياق الشرط، فيعم كل امرأة، والمراد بها المرأة المتزوجة.

﴿خَافَتْ﴾، أي: علمت[٢]، كقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥]، أي: علمتم، وقيل: الخوف على بابه، وهو توقع ما يكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته[٣].

﴿مِنۢ بَعْلِهَا﴾، أي: من زوجها، ﴿نُشُوزًا﴾، النشوز: الارتفاع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ [المجادلة: ١١]، أي: ارتفعوا.

والمعنى: وإن امرأة خافت من زوجها ترفعًا بنفسه وتعاليًا عليها.

﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾: معطوف على ﴿نُشُوزًا﴾، أي: أو خافت من بعلها إعراضًا وانصرافًا عنها، كأن لا يكلِّمها، ولا يجلس إليها، ولا يأنس بها، ولا يعاشرها بالمعروف[٤].

والإعراض: أشد من النشوز.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾: جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، و«لا»: نافية للجنس.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾، أي: فلا حرج ولا إثم عليهما، أي: على الزوجين، المرأة وبعلها.

﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في محل جر، والتقدير: بأن يصلحا.

---

(١) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٩).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٨٦).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٥٢)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٦٣)، «تفسير المنار» (٥/ ٤٤٥).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٧، ٢٦٨)، «النكت والعيون» (١/ ٤٢٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٣).

وضمير التثنية في قوله: ﴿يُصْلِحَا﴾، وقوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يرجع إلى الزوجين.

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب «أن يصَّالحا» بفتح الياء وتشديد الصاد مع الألف وأصلها: «يتصالحا».

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿أَن يُصْلِحَا﴾ بضم الياء وتخفيف الصاد وبدون ألف(١)، بمعنى: أن يصلح الزوج والمرأة فيما بينهما فالقراءتان بمعنى واحد.

والصلح: أن يعمل كل من الزوجين على ما فيه اتفاقهما وصلاح حالهما واستدامة الصحبة بينهما، والقضاء على أسباب النشوز والإعراض، فإن لم يصطلحا بأنفسهما وطلبا طرفًا ثالثًا للإصلاح بينهما فلا حرج في ذلك، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [النساء: ٣٥].

وذلك بأن تتنازل المرأة عن بعض حقها من القسم أو من النفقة أو منهما معًا، كأن تهب يومها أو بعض أيامها للزوجة الأخرى، أو تعفيه من النفقة أو بعضها، أو تعفيه من جميع حقوقها، لتبقى في عصمته كأن تقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني(٢).

فيصطلحان على أن تتنازل هي عن حقها أو بعضه ويبقيها في عصمته وإن وجد من نفسه إعراضًا عنها.

عن عائشة- رضي الله عنها: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: «الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل. فنزلت هذه الآية في ذلك».

وفي رواية عنها قال: «أنزلت في المرأة تكون عند الرجل، فتطول صحبتها فيريد طلاقها، فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من النفقة عليَّ والقسم لي. فذلك قوله: ﴿فَلَا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٧٨)، «المبسوط» ص (١٥٨)، «الكشف» (١/ ٣٩٨)، «النشر» (٢/ ٢٥٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٨-٢٧٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٤-٤٠٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٧٠)، «تفسير ابن كثير» (٣٨٠-٣٨١).

جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وإذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من الحقوق، وله أن يقبل ذلك منها، فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾».

وإنما نفى الله الجناح في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ﴾ مع أن هذا الأمر مستحب بل واجب إشارة- والله أعلم- إلى أن اشتراط أحد الزوجين في المصالحة أن يتنازل الآخر عن بعض حقه، أو اشتراط كل منهما أن يتنازل الآخر عن شيء من حقه لا إثم فيه.

﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾ هذه الجملة اعتراضية للتوكيد.

أي: الصلح بين الزوجين خير من النشوز والإعراض والخصومة وسوء العشرة والفراق؛ لما فيه من استدامة عقد النكاح، وما يترتب على ذلك من فوائد عظيمة للزوجين والأولاد وغيرهما.

والصلح خير مطلقًا في كل شيء، إذ به تسكن النفوس، ويزول الخلاف، وبه يقضى على أسباب العداوة والبغضاء والشحناء التي هي أسباب الشر وفساد ذات البين، التي هي الحالقة، لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، كما قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة» قالوا بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب» (٢٤٥)، ومسلم في التفسير (٣٠٢١)، وأبو داود في النكاح (٢١٣٥)، والطبري (٩/ ٢٧١)- الأثران (١٠٥٨٥، ١٠٥٨٦) والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٢٣)، والحاكم (٢/ ١٨٦).

وروى عن عمر وعلي- رضي الله عنهما- وروي عن جماعة من التابعين. انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦٨-٢٧٨)- الآثار (١٠٥٧٥-١٠٦٠٨).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، من حديث أبي الدرداء- =

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: يقول لها: «يا هذه إن شئت أن تقيمي على ما ترين من الأثرة فأواسيك وأنفق عليك فأقيمي، وإن كرهت خليت سبيلك. فإن هي رضيت أن تقيم بعد أن يخيرها فلا جناح عليه، وهو قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ وهو التخيير»(١).

قال ابن كثير(٢): «والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة- رضي الله عنها، ولم يفارقها، بل تركها من جملة نسائه، وفعله ذلك لتتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾، بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى؛ ولهذا جاء في الحديث: «أبغض الحلال عند الله الطلاق»(٣).

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾، الواو عاطفة، ﴿وَأُحۡضِرَتِ﴾: فعل ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث، و﴿ٱلۡأَنفُسُ﴾: نائب فاعل مرفوع، وهي جمع «نفس»، و«الشح»: مفعول به ثانٍ منصوب: والشح أشد البخل، وهو البخل مع الحرص. قال البغوي(٤): «وحقيقته الحرص على منع الخير».

وهو من أمراض القلوب، ومن وقي منه فقد أفلح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦].

=

رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٧٢)- الأثر (١٠٥٨٧).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٢).

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق (٣١٧٨)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠١٨)، من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وضعفه كثير من أهل العلم منهم الألباني، وقد حسنه بعض أهل العلم. ويدل على صحة معناه ما جاء في حديث بعث الشيطان سراياه وفيه فيأتي الشيطان ويقول لم أزل بفلان بينه وبين زوجته حتى طلقها، فيدنيه ويقول له: أنت أنت» وهذا يدل على أن الطلاق عمل محبوب للشيطان وفي المقابل فهو مكروه عند الله.

انظر ما سبق في الكلام على قول الله: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ [النساء: ٢٠].

(٤) في «معالم التنزيل» (١/ ٤٨٧).

وقد روي أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كان يكثر في طوافه بالبيت، وفي الوقوف بعرفة أن يقول: «اللهم قني شح نفسي» فسئل عن ذلك، فقال: «إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة»(١).

والمعنى: وأحضرت نفس كل من الرجل والمرأة وكل من المتصالحين أياً كانوا الشح بحق صاحبه(٢)، فكل منهما يريد أن يكون الصلح في جانبه وفي مصلحته على حساب صاحبه ويريد حقه وافيًا على التمام، وقد يتصور أن في الصلح غضاضة عليه.

لكن لا شك أنه ينبغي التنازل عن شيء مما تريده النفس ليحصل الصلح.

قال الزمخشري(٣): «أي أن الشح جعل حاضرًا لها لا يغيب عنها أبدًا ولا تنفك عنه يعني أنها مطبوعة عليه».

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، الواو عاطفة، ﴿وَإِن﴾: شرطية ﴿تُحْسِنُوا۟﴾: فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية. قال الناظم:

اسمية طلبية وبجامد ... وبما وقد وبلن وبالتنفيس

﴿وَتَتَّقُوا۟﴾: معطوف على ﴿تُحْسِنُوا۟﴾، والإحسان والتقوى يشمل كل منهما فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، هذا إذا أفرد كل منهما، أما إذا اجتمعا كما في هذه الآية، فالمراد بالإحسان فعل ما أمر الله به، والمراد بالتقوى ترك ما نهى الله عنه، سواء كان ذلك في حقه تعالى أو في حق العباد، ومن ذلك اتقاء ظلم الأزواج، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. فالبر فعل المأمور والتقوى ترك المحظور.

والإحسان قسمان: الإحسان في عبادة الله، كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ٢٩٤)، وأخرجه الطبري بنحوه في «جامع البيان» (٢٢/ ٥٣٠)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٨٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٧٩-٢٨٢)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٦).

(٣) في «الكشاف» (١/ ٣٠٢).

كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وذلك بإخلاص العمل لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ كما قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٦].

والقسم الثاني: الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم، ومن ذلك أداء حقوق الأزواج والتسامح فيما بينهم».

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن: تفيد تحقيق الوصف.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، «ما»: اسم موصول بمعنى «الذي»، ويفيد العموم، أي: بكل الذي تعملون، ويحتمل أن تكون «ما»، مصدرية، أي: بعملكم.

﴿خَبِيرًا ﴾ خبر «كان»، أي ذا الخبرة الواسعة، والاطلاع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان مطلعًا على البواطن والدقائق والخفيات فعلمه بالظواهر والجلائل والجليّات من باب أولى.

والمعنى: أنه عز وجل مطلع على جميع أعمال العباد: دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، سرها وعلانيتها، خيرها وشرها.

فمن أحسن في عبادة الله وإلى عباد الله واتقى محارم الله فسيجازيه الله على إحسانه وتقواه، ومن أساء وخالف فسيجازى بما عمل، ولا يظلم ربك أحدًا، كما قال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨](٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم أيضًا في الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) ذكر أن عمران بن حطان الخارجي من أدمّ الناس وامرأته من أجمل النساء، فأجالت في وجهه نظرها، ثم قالت: الحمد لله، الحمد لله.. فقال مالك؟ قالت: حمدت على أني وإياك من أهل الجنة قال: كيف! قالت: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت. انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٥٤)، «البحر المحيط» (٣/ ٣٦٥).

قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ ﴾، الواو: استئنافية، و﴿ وَلَن ﴾ حرف نفي ونصب واستقبال، تنصب الفعل المضارع وتجعله خالصًا للاستقبال، تدل على مطلق النفي، ولا تفيد التأبيد. قال ابن مالك[1].

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا فقوله اردد وخلافه اعضدا

﴿تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾، الاستطاعة: الطاقة والقدرة على القيام بالشيء على الوجه المطلوب، والمعنى: لن يكون في طاقتكم وقدرتكم.

﴿ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، ﴿ أَن ﴾ حرف مصدري ونصب، ﴿تَعْدِلُواْ﴾: منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون، و«أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، لـ﴿تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾، والتقدير: ولن تستطيعوا العدل بين النساء. والعدل: ضده الميل.

والمعنى: ولن تستطيعوا أيها الأزواج العدل بين الزوجات من جميع الوجوه حتى في المحبة وميل القلب وداعي الجماع؛ لأن هذا أمر لا تملكونه ولا تقدرون عليه[2].

﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾، الواو: حالية، ﴿وَلَوْ ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿حَرَصْتُمْ ﴾: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف، دل عليه ما قبله.

والمعنى: ولو حرصتم على العدل بينهن بفعل ما تقدرون عليه فلن تستطيعوا تحقيقه[3].

عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»[4].

---

(١) انظر: «شرح الكافية الشافية» (٣/ ١٥١٥).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٠٦)، «جامع البيان» (٩/ ٢٨٤-٢٨٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٨٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٠٤-٥٠٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨٢).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٨٧).

(٤) سبق تخريجه وقد صحح بعض أهل العلم أنه مرسل.

قال ابن كثير[١]: «أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري ليلة وليلة، فلابد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع..».

﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾، الفاء: استئنافية، و«لا»: ناهية، «والميل»: ضد العدل، أي: فلا تميلوا الميل كله، وأما بعض الميل مما لا يستطيعه الإنسان فلا حرج فيه.

والمعنى: فلا تبالغوا في الميل إلى التي تحبونها فتضرون بالتي لا تحبونها بمنع حقها الواجب عليكم، مما تقدرون عليه من القسم والنفقة والكسوة والمسكن والعشرة بالمعروف قولًا وفعلًا.

﴿فَتَذَرُوهَا﴾، منصوب بحذف النون؛ لأنه جواب النهي في قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟﴾.

ومعنى ﴿فَتَذَرُوهَا﴾، أي: فتتركوها، والضمير يعود إلى المرأة التي مال الزوج عنها إلى غيرها.

﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾، الكاف: للتشبيه، وهي حرف جر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالًا أي: فتذروها كائنة كالمعلقة.

أي: فتذروا الزوجة التي ملتم عنها كل الميل كالمرأة المعلقة، لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة، أو لا هي إيّم ولا ذات زوج[٢] فتبقى أشبه شيء بالمعلق بين السماء والأرض لا يستقر لها قرار[٣].

ولا شك أن هذا من أعظم الظلم للمرأة أن يميل الرجل عنها ميلًا كلياً ويذرها على هذه الصفة.

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا ترغيب في الإصلاح

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٨٥، ٢٩٠-٢٩٢).

(٣) في حديث أم زرع قالت المرأة: «زوجي العشنق إن أنطق أطلق، أو أسكت أعلق» أخرجه البخاري في النكاح (٥١٨٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتقوى الله.

الواو عاطفة، و«إِنْ»: شرطية ﴿تُصْلِحُوا﴾: فعل الشرط ﴿وَتَتَّقُوا﴾: معطوف عليه، وجواب الشرط مقدر، دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: وإن تصلحوا أيها الأزواج بينكم وبين زوجاتكم، وتعدلوا بين نسائكم، وتتقوا الله بفعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه في جميع أحوالكم، ومن ذلك تقوى الله في حقوق النساء، وترك الميل لإحداهن والجور على الأخرى، ومنعها حقها[1].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف.

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا المغفرة الواسعة.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، ومنه سُمِّي «المغفر»، وهو البيضة التي توضع على الرأس، تستره وتقيه ضرب السهام.

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة؛ الرحمة الذاتية الثابتة له عز وجل، والرحمة الفعلية التي يوصلها لمن شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

والمعنى: وإن تصلحوا أيها الأزواج فيما بينكم وبين زوجاتكم بالعدل بينهن فيما تستطيعون، وتتقوا الله بعدم الميل لبعضهن، والجور على البعض الآخر، فإن الله يستر ويتجاوز عما حصل منكم من ميل لبعضهن دون بعض مما تستطيعون العدل فيه، ولا يكلفكم العدل فيما لا تستطيعون كالميل القلبي لأنه سبحانه غفور رحيم.

قال ابن كثير[2]: «أي: وإن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض».

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٣).

أي: إذا لم تصلح حال الزوجين، وقد يترتب على بقاء الزوجية تقصير كل منهما في حق الآخر مما هو معصية لله تعالى، فإن في الفرقة بينهما مخرجًا مما هما فيه ويغني الله كلًا من سعته.

قوله: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا ﴾، الواو: عاطفة، ﴿ وَإِن ﴾: شرطية. ﴿يَتَفَرَّقَا﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾.

والضمير في ﴿يَتَفَرَّقَا﴾: يعود على الزوجين المذكورين في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية، وفي قوله: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾.

والمعنى: وإن يتفرق الزوجان، بحصول الفرقة بينهما بطلاق أو فسخ[1].

﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾، أي: يعط الله، ﴿كُلًّا﴾، أي: كلًا من الزوجين. ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، أي: من واسع فضله عز وجل.

والمعنى: وإن لم يصطلح الزوجان، بل تفرقا، فإن الله- عز وجل- يغني كلًا منهما عن الآخر من واسع فضله، بأن يعوض الزوج بزوجة صالحة يستغني بها، ويعوض الزوجة بزوج صالح تستغني به، ويرزق كلًا منهما من واسع فضله، ويصلح حالهما، وهذا وعد منه عز وجل، وهو لا يخلف الميعاد.

وهذه هي الحالة الثالثة. فالحالة الأولى: الصلح مع الأثرة. والحالة الثانية: الصبر على تحري العدل في القسمة. والثالثة: هي الفراق[2].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ «كان» مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف.

﴿وَٰسِعًا﴾، أي: ذا سعة عظيمة في جميع صفاته، فهو واسع العلم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٩٨]، وهو واسع الرحمة قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وهو واسع المغفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٩٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٨)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨٣).

ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

وهو واسع في قدرته وفي سمعه وبصره وإحاطته قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وهو واسع الرزق والفضل والمن والعطاء خزائنه لا تفنى، وغير ذالك.

﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان لـ﴿كَانَ﴾، أي: ذا الحكم التام بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذا الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

والمعنى أنه- عز وجل- ذو سعة عظيمة في جميع صفاته، واسع الفضل عظيم المن في إغناء الزوجين وغيرهما من فضله، حكيم في كل ما شرعه وقدره، ومن ذلك ما أوجبه فيما بين الزوجين من حقوق، وما قدره بينهما من صلح أو فرقة(١).

الفوائد والأحكام:

١- عناية الإسلام بالحياة الزوجية وقيامها على الألفة، والقضاء على أسباب النشوز والإعراض والاختلاف بين الزوجين؛ لما في ذلك من آثار سيئة على الأولاد والأسرة والمجتمع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

٢- أن النشوز يكون من الزوج على زوجته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ كما يكون من الزوجة على زوجها؛ لقوله تعالى في أول السورة: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾.

٣- العمل بالقرائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾، أي: بوجود

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٩٤).

قرائن تدل على ذلك. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين(١): «والعمل بالقرائن ثابت بالقرآن والسنة، فقد عمل شاهد يوسف بالقرينة في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]، وعمل سليمان عليه الصلاة والسلام في قضائه بين المرأتين بالقرينة، حين دعا بالسكين ليشق الولد نصفين، والأمثلة على هذا كثيرة».

٤- أنه يجوز أن يصطلح الزوجان فيما بينهما على ما شاءا، ولا حرج عليهما في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ما لم يكن الصلح على محرم؛ كأن تصالح الزوجة زوجها على طلاق ضرتها، فهذا محرم لا يجوز؛ لقوله ﷺ: «**الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالًا أو أحل حرامًا**»(٢).

٥- يباح للزوجة إذا رأت من زوجها ارتفاعًا عنها أو إعراضًا عنها إلى غيرها أن تتنازل لزوجها عن حقها أو بعضه إذا هي أحبت بقاءها في عصمته، كأن تهب ليلتها، أو بعضًا من لياليها لزوجته الأخرى، أو تتنازل عن شيء من النفقة أو غير ذلك، وله أن يقبل ذلك منها ولا تبعة عليه في ذلك، وليس لها المطالبة في ذلك بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ ويؤكد هذا في الآية نفي الجناح، لئلا يتوهم عدم الجواز.

قال ابن القيم(٣): «إذا قضى الرجل وطرًا من امرأته وكرهتها نفسه أو عجز عن حقوقها فله أن يطلقها، وله أن يخيرها إن شاءت أقامت عنده ولا حق لها في القسم والوطء والنفقة أو في بعض ذلك بحسب ما يصطلحان عليه، فإذا رضيت بذلك لزم، وليس لها المطالبة بعد الرضى، هذا موجب السنة ومقتضاها، وهو الصواب الذي لا يسوغ غيره. وقول من قال: إن حقها يتجدد فلها الرجوع متى شاءت فاسد، فإن هذا

---

(١) في كلامه على هذه الآية في تفسيره (٢/ ٢٨٩-٢٩٠ تفسير سورة النساء).

(٢) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٥٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٥٣)، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». كما أخرجه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٤) مختصرًا من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٣) في «زاد المعاد» (٥/ ١٥٢-١٥٣).

خرج مخرج المعارضة، وقد سماه الله تعالى صلحًا فيلزم كما يلزم ما صالح عليه من الحقوق والأموال».

٦- أنه لو كان الصلح بين الزوجين على عوض مالي أو نحوه يدفعه الزوج لزوجته مقابل تنازلها عن حقها من القسم والمبيت جاز ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿صُلْحًا﴾ وهذا مطلق في أي صلح، سواء كان على عوض أم لا ما لم يكن على محرم، فلا يجوز كما سبق.

٧- أن تفضيل بعض الزوجات على بعض وترك التسوية بينهما لا يجوز إلا بإذن المفضولة ورضاها؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، والصلح ما كان برضى الطرفين.

٨- فضل الصلح وأنه خير مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وهذا شهادة منه عز وجل وإعلام بخيرية الصلح مطلقًا في جميع الأحوال، وضمان منه عز وجل للمتصالحين بالعاقبة الحميدة في الحال والمآل، حتى ولو ظن البعض أن في الصلح هضمًا لحقه.

كما حصل من عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وبعض الصحابة في صلح الحديبية، حيث ظنوا أن في بعض شروط الصلح هضمًا لحق المسلمين وغضاضة عليهم، حيث قال عمر رضي الله عنه: «كيف نعطي الدنية في ديننا»(١).

وبالتالي ظهر أن هذا الصلح بشروطه كلها في صالح المسلمين، وسماه الله في كتابه العزيز ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، على الصحيح من أقوال المفسرين: أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية.

قال الزهري: «لم يكن في الإسلام فتح أعظم منه، كانت الحرب قد حجزت بين الناس، فلا يتكلم أحد وإنما كان القتال، فلما كانت الحديبية والصلح وضعت الحرب، وأمن الناس، فتلاقوا، فلم يُكلَّم أحد بعقد الإسلام إلا دخل فيه، فلقد دخل في تلك السنين مثل من كان قبل ذلك أو أكثر»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)، من حديث سهل بن حنيف- رضي الله عنه- والدنية: النقيصة والهوان.

(٢) أخرجه أبو جعفر النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٣/ ١٧)- الأثر (٨١٥)، وانظر: «الأم» (٤/ ١٨٩)، =

٩- حرص الشرع المطهر على الإصلاح ولم الشمل والبعد عن أسباب الفرقة والاختلاف، والترغيب في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾.

١٠- أن الأنفس جبلت على الشح، فيشق عليها الصلح والتنازل عن حقها أو بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ إلا من وقي شح نفسه، فإنه يهون عليه أن يتنازل عن بعض حقه لإيمانه بأن الصلح خير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ﷺ: «**واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»(١).

١١- الحث على الإحسان عمومًا وإلى الزوجات خصوصًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ﴾ وذلك بمجاهدة النفس بالصبر على الزوجة إذا وجد الإنسان من نفسه ارتفاعًا عليها وإعراضًا عنها، وإعطائها حقها كاملًا، بل أزيد منه.

١٢- الحث على تقوى الله عمومًا، وفي حقوق الزوجات خصوصًا، لقوله تعالى هنا: ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ فلا يظلم الرجل زوجته إذا وجد من نفسه ارتفاعًا عليها وإعراضًا عنها.

١٣- إثبات صفة الخبرة الواسعة لله- عز وجل- وهي العلم ببواطن الأمور وظواهرها أزلًا وأبدًا، يعلم ما لم يعمله العباد وما عملوه قبل أن يعملوه وبعد أن عملوه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ فهو- سبحانه وتعالى- قدر أعمال العباد وعلم بها قبل كونها، وأنها ستكون وعلم بها بعد كونها علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب.

١٤- الوعد من الله بالثواب لمن أحسنوا في عبادته- عز وجل- وفي حق عباده من حقوق الأزواج وغيرها، ولمن اتقى ما نهى الله عنه في حقه عز وجل وفي حق عباده من حقوق الأزواج وغيرها. والوعيد لمن خالف ذلك فأساء وجانب التقوى؛ لقوله تعالى:

=

«السيرة النبوية» (٣/ ٣٣٦).

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ومقتضى هذا أنه سبحانه سيجازي كلًا بما عمل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فهو يتضمن وعدًا لمن أحسن ووعيدًا لمن أساء.

١٥- عدم استطاعة الأزواج العدل بين النساء في المحبة والميل القلبي والجماع[١]؛ لأن هذا مما لا يملكه الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وهو- عز وجل- أعلم بأحوال العباد الظاهرة والباطنة.

١٦- أن الله لا يكلف العبد ما لا يستطيع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

١٧- ينبغي أن يحرص الإنسان على العدل بين النساء فيما يملك قدر استطاعته؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فمفهوم هذا أنه يجب أن يعدلوا قدر استطاعتهم، وقد كان ﷺ يقسم ويعدل بين نسائه فيما يستطيع[٢]، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[٣].

١٨- إذا بذل الإنسان ما يستطيعه من العدل بين زوجاته فلا يكلف نفسه بما لا يستطيع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وهذا عام في كل التكاليف، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»[٤].

١٩- يحرم على الزوج إذا وجد من قلبه ميلًا إلى إحدى زوجاته ومحبة لها دون الأخرى أن يتبع هذا بالميل الكلي فيزيدها دون الأخرى في القسم والمبيت أو النفقة أو المسكن أو غير ذلك، فيترك الأخرى مظلومة مهضومة كالمعلقة التي لا هي ذات زوج، ولا هي مطلقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾.

---

(١) لكن قال الفقهاء: ليس للزوج أن يجمع نفسه للزوجة التي يحبها إذا كان الداعي عنده موجودًا لجماع الأخرى.

(٢) سبق ذكر الأحاديث في هذا عند الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣].

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة (١، ٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط»(١).

٢٠- أن الميل كل الميل في القسم بين الزوجات أن يتبع الزوج الميل القلبي الذي لا يملكه بالميل الفعلي الذي يملكه فيترك العدل بينهن في الحقوق التي يستطيعها.

٢١- أن المرأة بين الضرائر مع زوج لا يؤدي حقوقها أشبه شيء بالمعلق بين السماء والأرض، لا استقرار لها فلا هي المسكينة ذات زوج يؤدي حقوقها، ولا هي أيم تنتظر الخُطَّاب، ويُحسن الناس إليها.

٢٢- بلاغة القرآن الكريم في التنفير عن الميل الكلي إلى بعض الزوجات دون بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ فقد شبه المرأة التي مال عنها زوجها إلى غيرها بالمعلقة بين السماء والأرض تنفيرًا من الميل، وتحريكًا لعاطفة الأزواج؛ ليعدلوا ما استطاعوا.

٢٣- الترغيب في الإصلاح عمومًا، وفيما بين الزوجين خصوصًا، وأن يصلح الزوج ما حصل منه من إعراض عن إحدى زوجاته وميل للأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾.

٢٤- وجوب تقوى الله عمومًا، وفي حقوق الأزواج خصوصًا، وأنه ينبغي للزوج أن يعدل بين زوجاته، ولا يميل لإحداهن، ويظلم الأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَتَّقُوا﴾.

٢٥- الوعد بالمغفرة والرحمة من الله- عز وجل- لكل من أصلح واتقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فمن أصلح واتقى من الأزواج وغيرهم فإن الله يستر ما حصل منه من تقصير فيما مضى ويتجاوز عنه، ويشمله برحمته الواسعة.

وبالمغفرة زوال المكروه والمرهوب من المؤاخذة والعقاب ونحو ذلك، وبالرحمة

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٣٣)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٢)، والترمذي في النكاح (١١٤١)، وابن ماجه في النكاح (١٩٦٩)، وأحمد (٣/ ٣٤٧)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

حصول المطلوب والمحبوب من الإنعام والإكرام ونحو ذلك.

٢٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

فالمغفرة: صفة ثابتة لله- عز وجل- تقتضي ستر الذنب والتجاوز عن العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

٢٧- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- الرحمة الذاتية الثابتة له عز وجل، والرحمة الفعلية التي يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ﴾ [الكهف: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

٢٨- إباحة الفرقة بين الزوجين، سواء كان ذلك بفسخ أو طلاق أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾. وهذا مطلق في أي فرقة.

٢٩- إذا لم تصلح حال الزوجين وتفرقا، فإن الله يغني كلًا منهما عن الآخر، ويعوضه من واسع فضله زوجًا آخر، وسعة في الرزق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ رحمة بهما وجبرًا لكسرهما، وهذا وعد منه عز وجل لا يتخلف.

٣٠- يجب على المسلم حسن الظن بالله والثقة به وبما عنده، وعدم اليأس من روحه ورحمته، والتخوف مما سيحصل في المستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ فإذا قدر الله الفراق بين الزوجين فليثق كل منهما بأن الله سيخلف عليه خيرًا مما فاته ويرزقه من فضله.

٣١- إثبات سعة صفات الله عز وجل، وسعة فضله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾.

٣٢- إثبات أنه عز وجل ذو الحكم التام والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

٣٣- أن ما شرعه الله وأوجبه بين الزوجين من حقوق، وما قدره بينهما من صلح أو فرقة؛ لكونه واسعًا في علمه وفي فضله وسائر صفاته، حكيما في شرعه وقدره، فليرض كل من الزوجين وغيرهما بما قدره الله وحكم به كونًا، وبما قضاه وحكم به شرعًا وجزاءً.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، الجملة: استئنافية، وفيها تأييد وتدليل وتأكيد؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾، أي: فيها الدلالة على كمال سعته وعظم قدرته، وكيف لا يكون واسعًا وله ما في السموات وما في الأرض.

كما أن فيها دلالة على أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهيته؛ ولهذ قرن بذلك الوصية بتقواه فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾.

الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، فالجملة مؤكدة باللام، والقسم المقدر، و«قد»، أي: والله لقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم.

والوصية: الأمر والعهد المؤكد بأمر مهم، وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع تعظيمًا لنفسه؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، أي: الذين أعطوا الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم ممن أرسل الله إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، والمراد بـ «الكتاب» الجنس.

﴿مِن قَبْلِكُمْ ﴾: الخطاب لهذه الأمة، أي: من قبلكم يا أمة محمد.

﴿وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾، الواو: عاطفة، أي: ووصيناكم، أي: وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله.

وقدم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مع ما يترتب على تقديمه من انفصال الضمير فلم يقل: «ولقد وصيناكم والذين أوتوا الكتاب» مراعاة لسبق الذين أوتوا الكتاب زمنًا.

﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، «أن»: تفسيرية، أي: وصيناهم وإياكم بتقوى الله، ويجوز كونها مصدرية في محل جر، أي: بأن اتقوا الله، أي: بأن قلنا لهم ولكم: اتقوا الله.

والوصية بتقوى الله- هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين، والإيصاء بها متضمن لأساسها وهو الإيمان، لذا قابل الوصية بها بقوله:

﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: وقلنا لكم جميعًا: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾.

وغلب هنا جانب المخاطبين فجاء بضمير الخطاب ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ مراعاة لأن الكلام معهم، وأما من قبلهم فقد هلكوا، أي: وإن تكفروا أنتم كما كفر أكثر الذين من قبلكم.

وقد تكون الواو استئنافية.

والمعنى: وإن تكفروا وتنكروا ما وصاكم الله به من تقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه فإن الله غني عنكم أجمعين؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض، ولن تضروه شيئا، بل لا تضرون إلا أنفسكم.

وهذا كما قال موسى لقومه فيما أخبر الله عنه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

فلو كفر الخلق كلهم أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم، فإن الله غني عنهم ولن يضروه شيئًا، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

فكما قدم لذكر وصيته لهم بتقواه بذكر صفة ملكه وعموم ربوبيته، قرن تحذيرهم

---

(١) أخرجه مسلم من حديث طويل في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

من الكفر بتأكيد صفة ملكه وعموم ربوبيته، وبيان كمال غناه وكمال حمده، فبين لهم بذلك موجب تقواه، وبين لهم بذلك آخرًا كمال غناه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ «كان»: مسلوبة الزمن تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها أي: وكان الله وما زال غنيا حميدًا.

﴿غَنِيًّا﴾: خبر أول لـ«كان»، و«حميدًا»: خبر ثانٍ، أي: ذا الغنى الواسع عن جميع خلقه، وعن الصاحبة والولد والشريك والظهير، وغير ذلك، مالك الملك كله، خزائن السموات والأرض كلها بيده، غير محتاج لأحد من خلقه، وكل الخلق محتاجون ومفتقرون إليه.

﴿حَمِيدًا﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، أي: فهو- عز وجل- محمود على غناه وكرمه وإنعامه وفضله وإحسانه، وعلى جميع صفاته وأفعاله وعلى ما يقدره ويشرعه المستحق لكل حمد وثناء، لما له من صفات الكمال والجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال.

وهو عز وجل «حميد» بمعنى حامد لمن يستحق الحمد من عباده؛ من رسله وأوليائه بالثناء عليهم بالذكر الحسن.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ تعظيما لنفسه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾.

كرر قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لتأكيد سعة ملكه وعموم ربوبيته وتمهيدًا لما بعده من بيان كفايته- عز وجل- وكيلا ورقيبًا على ذلك كله وقدرته التامة على إذهاب الناس، وإلاتيان بغيرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، أي: وكفى الله وحسبه ﴿وَكِيلًا﴾ على الخلق رقيبا عليهم حفيظًا ومدبرا لهم متصرفًا فيهم، قائمًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.

أوصى عز وجل في الآيات السابقة بتقواه، وبيَّن عموم ربوبيته وغناه عن خلقه، ثم هدد وتوعد الناس إن هم أقاموا على الكفر بأنه إن يشأ يذهبهم ويأت بآخرين، مبينًا كمال قدرته على ذلك.

قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، «إن»: شرطية، و«يشأ»: فعل الشرط، و«يذهبكم»: جواب الشرط، أي: إن يرد إرادة كونية.

﴿يُذْهِبْكُمْ﴾، أي: يزيلكم ويعدمكم من الوجود إذا عصيتموه وخالفتم أمره.

﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾، أي: يا أيها الناس، مؤمنكم وكافركم، والناس: مشتق من النوس وهي الحركة، أو من الإنس، لأنه يأنس بعضهم ببعض، أو من الإيناس وهي الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩].

أي: رأى وأبصر وشاهد.

﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾، أي: ويجيء بناس آخرين غيركم يتقون الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩].

وفي هذا كله بيان هوان الخلق على الله إذا هم خالفوا أمره.

عن جبير بن نفير رضي الله عنه قال: «لما فتحت قبرص، فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، ورأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى»(١).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعود إلى قوله: ﴿يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ﴾، أي: وكان الله على إذهابكم والإتيان بآخرين قديرًا.

و﴿قَدِيرًا﴾ على وزن «فعيل»، أي: ذا قدرة تامة على ذلك وعلى كل شيء.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأوفياء)) ١/ ٢١٦ .

و«القدرة» التمكن من الفعل بلا عجز، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على المتعلَّق به ﴿قَدِيرًا﴾ لتأكيد تمام قدرته- عز وجل- على ذلك.

قال السعدي[1] في ختام كلامه على الآيتين السابقتين: «أي: هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم».

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

أمر عز وجل في الآيات السابقة ووصى بتقواه وحذر من الكفر، وبيَّن كمال غناه، وكفايته وكيلًا على كل شيء، وقدرته على إذهاب الناس والإتيان بآخرين، ثم رغب في طلب الثواب منه عز وجل، ثواب الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، «من»: شرطية، تفيد العموم، و«كان»: فعل الشرط، أي: من كان من أيِّ: الناس يقصد بعمله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: جزاءها العاجل وزهرتها الذابلة وزينتها الفانية ومتاعها الزائل، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥- ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

والمعنى: من كان يقصد بعمله ثواب الدنيا فليس له إلا ما كتب له منها؛ لأن الله تعالى المالك لكل شيء عنده ثواب الدنيا والآخرة، والدنيا هي هذه الدار التي نحن فيها سميت «دنيا»؛ لأنها قبل الآخرة زمنًا، ودونها قدرًا.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط.

وكان المتوقع أن يأتي الجواب بنحو قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ١٨٩).

[الشورى: ٢٠]، إلا أنه عدل عن هذ إلى الجواب بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ في إشارة واضحة إلى أن مريد ثواب الدنيا كمن لم ينل شيئًا حتى وإن نال شيئًا من ثوابها؛ لأنه كالعدم لأنه فاته ثواب الآخرة

وفي إشارة أيضًا إلى أن من أراد الآخرة نال ثواب الدنيا والآخرة معًا، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

لكن لا يلام المؤمن في طلب نصيبه من الدنيا مما لابد له منه في حياته، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

وقدم الخبر وهو قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ لإفادة الحصر، وتأكيد ذلك، أي: فعند الله وحده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبا منه وحده وليَستعن به عليهما، فثواب الدنيا عنده ومنه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشور: ٢٠].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**»(١).

وثواب الآخرة وهو الثواب حقًا عنده ومنه وحده، ولا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به والافتقار إليه على الدوام.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، أي: وكان الله وما زال ﴿سَمِيعًۢا﴾. أي: ذا سمعٍ واسع لجميع لأصوات.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿بَصِيرًا﴾، أي: ذا بصرٍ واطلاع على كل شيء، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن اتقى الله وأراد ثواب الدنيا والآخرة، ووعيد لمن خالف أمر الله وكان همه ثواب الدنيا فقط.

الفوائد والأحكام:

١- عموم ملك الله- عز وجل- وربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فله- عز وجل- وحده عموم ملك السموات والأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

٢- وصية الله تعالى للأولين والآخرين بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣- أهمية تقوى الله تعالى؛ لأنها وصيته- عز وجل- لجميع الناس، وأنعم بها من وصية.

٤- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَّيْنَا﴾ وقوله: ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ فتكلم في الموضع الأول بضمير العظمة، وأظهر في المواضع بعده مقام الإضمار تعظيمًا لنفسه.

٥- تقديم المفضول في الذكر لتقدمه في الزمن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، إذ من المعلوم أن هذه الأمة أفضل الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيام بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»(١)، وقال ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تبارك وتعالى**»(٢).

٦- غنى الله التام عمن كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فلو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا لم يضروا الله شيئًا.

٧- التحذير من الكفر؛ لأن من كفر لا يضر إلا نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة(٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٨٨)، من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه، وأخرجه الترمذي بنحوه في التفسير (٣٠٠١)- وقال: «حديث حسن».

٨- إثبات صفة الغنى الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى؛ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾.

٩- إثبات صفة الحمد الواسع لله عز وجل، فهو سبحانه المحمود لذاته، والمحمود على غناه وكرمه وجميع صفاته، والذي يحمد سبحانه من يستحق الحمد من رسله وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿حَمِيدًا﴾.

١٠- في اقتران سعة الغنى وسعة الحمد في حقه- عز وجل- زيادة كمال إلى كمال؛ إذ ليس كل غني يحمد على غناه، بل كثير من الأغنياء يذم على غناه بسبب بخله، ولعل هذا هو السبب في القرن بين هذين الوصفين، كثيرًا في القرآن الكريم.

١١- تأكيد عموم ملك الله- عز وجل- وربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

١٢- عظم كفاية الله تعالى في وكالته ورقابته على الخلق وحفظه لهم وتصرفه فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فكفى به وكيلا على كل شيء، وكفى به وكيلا لمن توكل عليه.

١٣- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

١٤- التهديد لمن كفروا ولم يتقوا الله بإذهابهم والإتيان بغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾.

١٥- قدرة الله تعالى التامة على إذهاب الناس والإتيان بآخرين، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، وقدم المتعلِّق لتأكيد تمام قدرته على ذلك، ولا شك أن الذي أوجدهم من العدم قادر على إذهابهم وإعدامهم من باب أولى.

وقد أهلك الله- عز وجل- في عهد نوح عليه السلام أهل الأرض قاطبة بالغرق لما كفروا بالله، ولم ينج منهم إلا نوح عليه السلام ومن معه في السفينة، وجعل الله ذلك آية، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

١٦- أن الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾، وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»، فمن قصد بعمله الدنيا فليس له إلا ما يأتيه منها.

١٧- التحذير من إرادة ثواب الدنيا فقط؛ لما يترتب على ذلك من فوات ثواب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾.

١٨- أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾.

١٩- أن من أراد بعمله ثواب الآخرة، أو ثواب الدنيا والآخرة، حصل له ثواب الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾.

٢٠- الترغيب في إرادة ثواب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾.

٢١- إثبات الدار الآخرة، دار الجزاء والثواب والعقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةِ ﴾.

٢٢- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي وسع كل شيء؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

٢٣- إثبات صفة البصر الواسع لله عز وجل، فهو- عز وجل- يبصر ويرى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَصِيرًا ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام على هذا من حيث الإعراب والمعنى في مواضع عدة(١).

﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ ﴿كُونُواْ﴾ فعل أمر، ومعناه الوجوب، ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ جمع «قوّام» وهي صيغة مبالغة، أو نسبة، أي: كونوا من ذوي القوامة.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل في جميع أموركم وأحوالكم، و«القِسط» بكسر القاف: العدل، و«القَسط» بفتح القاف: الجور والظلم، يقال: أقسط، بمعنى عدل وأنصف، وقسط، بمعنى جار وظلم، فالرباعي بمعنى العدل، والثلاثي بمعنى الجور(٢).

واسم الفاعل من الرباعي: «مقسط» على وزن «مفعل»، ومن الثلاثي: «قاسط» على وزن «فاعل».

فمن الرباعي بمعنى العدل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ومن الثلاثي بمعنى جار وظلم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

والمعنى: أنه يجب على المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل أتم قيام في جميع أمورهم وأحوالهم، في حق الله- تعالى، وفي حق رسوله ﷺ، وفي حق ولاتهم، وحق أنفسهم، وحق من تحت ولايتهم، وحق أقاربهم، وأزواجهم، وجيرانهم وسائر الناس، حتى مع الكفار غير المحاربين، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩].

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٠٥).

وراجع ما سبق عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣].

مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

قال ابن كثير(١): «يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه».

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، شهداء: منصوب على الحال من فاعل ﴿قَوَّٰمِينَ﴾.

أي: حال كونكم شهداء لله، وقيل: خبر ثان لـ﴿كُونُواْ﴾، وقيل: صفة لـ﴿قَوَّٰمِينَ﴾(٢).

و﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع شهيد، أو جمع شاهد، والشاهد هو المخبر.

والمعنى: ليكن أداؤكم الشهادة بالحق والعدل خالصًا لوجه الله عز وجل، ورجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه، من غير رياء ولا سمعة ولا محاباة، ومن غير كتمان، ولا تحريف ولا تبديل ولا غير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

قال ابن القيم: «الشاهد هو المخبر، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور.

وأمر تعالى أن يكون شهيدًا له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط، وأن تكون لله لا لغيره.

وقال في الآية الأخرى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾[المائدة: ٨] فتضمنت الآيتان أمورًا أربعة: أحدها: القيام بالقسط، الثاني: أن يكون لله، الثالث: الشهادة بالقسط، الرابع: أن تكون لله»(٣).

﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾: متعلق بقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، أي: ولو كانت الشهادة على أنفسكم(٤).

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٠٢)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٠٩-٢١٠)، «التفسير الكبير» (١١/ ٥٨).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٨٢).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٠٢)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٨).

والشهادة على النفس هي الإقرار على نفسه[١] بما قاله أو فعله، أو بما عليه، ونحو ذلك مما يتعلق به حقوق الخلق، أما ما يتعلق بحقوق الله خاصة فلا يشرع للإنسان إذا قصر في شيء منها أن يقر على نفسه بذلك أمام الناس، ولكن عليه الإقرار والاعتراف في ذلك والتوبة منه بينه وبين الله.

قال ابن العربي[٢]: «أمر الله سبحانه العبد بأن يشهد على نفسه بالحق، ويسمّى الإقرار على نفسه شهادة، كما تسمى الشهادة على غيره: الإقرار».

وفي حديث ماعز: «فلم يرجمه النبي ﷺ حتى أقر على نفسه أربع مرات»[٣].

قال ابن العربي[٤]: «ولا يبال المرء أن يقول الحق على نفسه لله- جل وعلا- فالله يفتح له قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، إلا أنه في باب الحدود ندب إلى أن يستر على نفسه، فيتوب حتى يحكم الله له، بل إنه يجوز أن يقر على نفسه بالحد إذا رأى غيره قد ابتلي به، وهو صاحبه فيشهد على نفسه ليخلصه ويبرئه».

وقال ابن كثير[٥]: «أي: اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه وإن كان مَضَرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه».

وكيفية الإقرار على النفس أن يقول الإنسان: فعلت كذا، أو قلت كذا، أو عليّ لفلان كذا، أو هذا الحق ليس لي ونحو ذلك، فلا ينكر ما فعله أو قاله، أو ما عليه، أو يدعي ما ليس له.

والإقرار على النفس بالحق هو عين الحكمة ومصلحة النفس قبل أن تشهد على

---

(١) الشهادة: إن كانت على النفس فهي إقرار واعتراف، وإن كانت للنفس فهي دعوى، وإن كانت للغير فهي شهادة فقط.

(٢) في «أحكام القرآن» (١/ ٥٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٢٥)، ومسلم في الحدود (١٦٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في «أحكام القرآن» (١/ ٥٠٦).

(٥) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٤).

المرء جوارحه، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾، ﴿أَوِ﴾ عاطفة، و﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾: مجرور عطفًا على ﴿أَنفُسِكُمْ ﴾ وعلامة جره: الياء لأنه مثنى.

و﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾: هما الأب والأم، أما الأم فلأنها والدة فعلا، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وأما الأب فقد سُمِّي والدًا بالكتاب والسنة(١)؛ لأن الولد- والله أعلم- يتكون منه ومن الأم.

فيشهد على والديه بالحق، ولو أدى ذلك إلى سخطهما؛ لأن رضى الله مقدم على رضى الوالدين.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾: معطوف على ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾، من عطف العام على الخاص؛ لأن ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ من الأقربين، وإنما خصهما بالذكر لفضلهما وعظم حقهما، و﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾: جمع «أقرب»: صيغة تفضيل.

والمعنى: أنه ينبغي أن يؤدي الإنسان الشهادة ويقيمها خالصة لله- عز وجل- حتى ولو على والديه والأقربين إليه كأولاده وإخوانه وأعمامه وأخواله وغيرهم، فلا يكتمها أو يحابي فيها أو يحرّف فيها أو يبدلها؛ لأجل أنها على والديه أو على الأقربين إليه، فكما يشهد على البعيد يشهد على القريب.

قال ابن كثير(٢): «أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد».

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ [النساء: ١١].
(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٤).

﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾، أي: إن يكن المشهود عليه غنيًّا أو فقيرًا، فلا تتركوا أداء الشهادة لله وإقامتها على الوجه الصحيح؛ لأن المشهود عليه غني مراعاة لغناه ومحاباة له، أو خوفًا منه.

ولا لأن المشهود عليه فقير مراعاة لفقره، ورحمة له، وشفقة عليه، ولا تشهدوا للغني لأجل غناه، وتتركوا الشهادة للفقير لأجل فقره وضعفه(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق، ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، ولا يحابوا غنياً لغناه، ولا يرحموا مسكينًا لمسكنته...»(٢).

﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾، الضمير في ﴿بِهِمَا﴾: يعود إلى قوله: ﴿غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾، أي: فالله أولى بالغني والفقير منكم، هو ربهما ومولاهما، وهما من عبيده، كما أنكم من عبيده، وهو متولي أمرهما، شهدتم عليهما أولهما أو لم تشهدوا، وولاية الله خير لهما.

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾، الفاء: استئنافية، و«لا»: ناهية، و﴿أَن﴾ حرف مصدري ونصب ﴿تَعۡدِلُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بحذف النون.

و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في محل نصب مفعول لأجله، التقدير: نهيناكم عن أتباع الهوى؛ لأجل أن تعدلوا، أو من أجل أن تعدلوا.

والمراد بالهوى هوى النفس المذموم المخالف لما جاء به الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، أي: ما تهوى الأنفس مما خالف الحق.

أما ما وافق الشرع من هوى النفس فإنه لا يذم؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٣).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٠٢-٣٠٥)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٨)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٨٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤١٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه الطبري الأثر (١٠٦٧٩).

(٣) أخرجه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب: «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد: «قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح» وقال في «فتح المجيد»: «رواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم =

﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾، أي: أن تحكموا بالعدل، والعدل ما وافق الكتاب والسنة.

والمعنى: فلا تتبعوا أهواء أنفسكم إن أردتم أن تعدلوا؛ لأن إتباع الهوى مُرْدٍ ومهلك، يحمل على ترك الحق والعدل، إما بأن يعمي الإنسان عن الحق أو يحمله على ترك الحق عنادًا بعد معرفته، قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

ويحتمل أن يكون المعنى: فلا تتبعوا الهوى كراهية أن تعدلوا، أو حذر أن تعدلوا فيكون إتباعهم للهوى كراهية العدل أو فرارًا منه، وقد حسن هذا القول، واستظهره ابن القيم.

وعلى هذا المعنى يكون قوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ من العدول عن الحق، لا من العدل الذي هو الحق(١).

قال ابن كثير(٢): «فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبَغْضَة الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل ألزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

قال ابن كثير: ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض».

﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ﴾، الواو: استئنافية، ﴿وَإِن﴾: حرف شرط جازم ﴿تَلۡوُۥٓاْ﴾: فعل الشرط، مجزوم بحذف النون، والخطاب للمؤمنين، وبخاصة من طلبت منهم الشهادة.

=

والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار..» انظر: «فتح المجيد» ص (٣٣١-٣٣٢).

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٠٦)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤١٣)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٦٦)، «بدائع التفسير» (٢/ ٨٢-٨٣).

(٢) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٥).

قرأ ابن عامر وحمزة: ﴿تَلُواْ﴾ بضم اللام وتسكين الواو، وقرأ الباقون: ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ بإسكان اللام وضم الواو[١] ومعنى القراءتين واحد؛ لأن قراءة «تَلُوْا» أصلها «تلْوُوا»[٢]، واللي: هو التحريف والتبديل وتعمد الكذب[٣]، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وهو أيضًا: بمعنى المماطلة في دفع الحق[٤]، ومنه الحديث: «**لي الواجد يحل عرضه وعقوبته**»[٥] أي مماطلة من عليه حق وهو غني لغريمه، ودفع الطالب عن حقه ظلم، يحل عرضه وعقوبته. قال وكيع: «عرضه: شكايته، وعقوبته: حبسه»[٦].

والمراد بقوله هنا ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾، أي: وإن تلووا أيها الشهداء في شهاداتكم، فتحرفوا فيها بالزيادة أو النقصان ولا تقيموها على الوجه الصحيح.

﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾، ﴿أَوْ﴾: عاطفة، و﴿تُعْرِضُواْ﴾: مجزوم عطفًا على ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾.

أي: أو تعرضوا عن الشهادة كلية فتكتموها ولا تؤدوها[٧].

قال ابن كثير[٨]: «والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بخير الشهداء**

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣١٠)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٩)، «المبسوط في القراءات» ص (٨٥)، «الكشف» (١/ ٣٩٩)، «النشر» (٢/ ٢٥٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٩)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢١٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٠٩).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨٥).

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٥٩).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٢، ٣٨٨)، والنسائي في البيوع (٤٦٨٦، ٦٦٨٧)، وحسنه الألباني، وأخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٤)، وأبو داود في البيوع (٣٣٤٥)، والنسائي في البيوع (٤٦٨٨)، والترمذي في البيوع (١٣٠٨)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٠٣)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- بلفظ «مطل الغني ظلم..».

(٦) جاء هذا في رواية أحمد والنسائي.

(٧) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٠٧-٣٠٩).

(٨) في «تفسيره» (٢/ ٣٨٥).

الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»(١).

قال ابن القيم(٢) عن الأمرين جميعًا: اللي، والإعراض: «ذكر الله سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق، محذرًا منهما ومتوعدًا عليهما: أحدهما: اللي، والآخر: الإعراض. فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقًا إلى دفعها أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطانًا أخرس، وتارة يلويها ويحرفها. اللي مثال الفتل، وهو التحريف، وهو نوعان: ليّ في اللفظ، ولي في المعنى، فاللي في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق، إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها، ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظًا وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ.

والنوع الثاني: لي المعنى وهو تحريفه، وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم وبجهالة ما لم يرده أو يسقط منه لبعض المراد به ونحو هذا من لي المعاني، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ولما كان الشاهد مطالبًا بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها، ولا يغيرها كان الإعراض نظير الكتمان، واللي نظير تغييرها وتبديلها».

وقال أيضًا: «والمقصود أن الواجب الذي لا يتم الإيمان، بل لا يحصل مسمى الإيمان إلا به مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها، ودعوة الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى».

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: جواب الشرط ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط، و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمن، تفيد تحقيق الوصف، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تعملون، أو بعملكم.

﴿خَبِيرًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾وهو على وزن فعيل يدل على سعة خبرته عز وجل واطلاعه

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٩)، وأبو داود في الأقضية (٣٥٩٦)، والترمذي في الشهادات (٢٢٩٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٤)، وأحمد (٤/ ١١٧، ٥/ ١٩٢، ١٩٣).- من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٢) في «الرسالة التبوكية» ص (٤٤-٤٥)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٨٤-٨٥).

على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

والمعنى: إن الله- عز وجل- كان بعملكم أو بالذي تعملون خبيرًا، أي: مطلعًا على باطنه وظاهره، دقيقه وجليله، خفيِّه وجليِّه؛ من إقامة الشهادة لله على كل أحد، أو تحريفها وتبديلها، أو الإعراض عنها وكتمانها، أو غير ذلك من أعمالكم، وسيجازي كلًا منكم بعمله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

الفوائد والأحكام:

١- العناية والتنبيه والاهتمام بهذا الخطاب في الآية لتصديره بالنداء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان.

٣- الحض على الاتصاف بهذا الوصف؛ لأن الله نادى المؤمنين به.

٤- الحض والحث على امتثال ما ذكر بعد هذا النداء بفعله إن كان أمرًا وتركه إن كان نهيًا، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك، فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(١).

٥- أن امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف يعد من مقتضيات الإيمان ومكملاته.

٦- أن عدم امتثال ما ذكر بعد هذا النداء يعد نقصًا في الإيمان.

٧- وجوب القيام بالقسط والعدل في كل حال ومع كل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، قال الجصاص(٢): «يجب التسوية بين الخصوم في المجلس والنظر والكلام وترك إسرار أحدهما والخلوة».

٨- وجوب إقامة الشهادة بالحق والعدل خالصة لوجه الله؛ لقوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢)- الأثر (٩٠٢٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤).

(٢) في «أحكام القرآن» (٢/ ٢٨٥).

لِلَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

٩- أنه يجب إقامة الشهادة لله بالحق والعدل حتى على النفس، وذلك بالإقرار بما عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾(١).

١٠- أنه يجب أداء الشهادة على كل أحد، حتى على الوالدين والأقربين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ والحق أحق أن يتبع، وليس شهادة الولد على والديه عقوقًا لهما، بل الشهادة عليهما وتخليصهما من الباطل هي عين البر بهما، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦](٢).

وقال ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، فقيل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا فكيف إذا كان ظالمًا؟ قال: «**ترده عن الظلم..**»(٣).

أما الشهادة للوالدين والأقربين فجمهور أهل العلم على أنه لا تجوز شهادة الولد لوالده ولا الوالد لولده، ولا الأخ لأخيه، ولا الزوج لزوجه(٤).

١١- عظم منزلة الوالدين بين الأقارب؛ لأن الله قدمهما وخصهما بالذكر، وهما داخلان في الأقربين.

١٢- وجوب إقامة الشهادة على كل أحد؛ لأنه إذا وجبت إقامتها على النفس والوالدين والأقربين فوجوب إقامتها على من دونهم من باب أولى.

قال ابن القيم: «الشهادة على كل أحد ولو كان أحب الناس إليه على نفسه ووالديه وأقاربه وصديقه وسائر الناس.. كما قال بعض السلف: «العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق»(٥).

١٣- يجب أداء الشهادة خالصة لله بالحق والعدل على الغني والفقير سواء، فلا

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٨٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٨٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٠٧).

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن (٢٢٥٥)، وأخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٣)- مختصرًا بلفظ «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٠٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤١١).

(٥) انظر: «بدائع التفسير» (٨٢-٨٣)

يحابا الغني بترك الشهادة عليه مراعاة لغناه، ولا تترك الشهادة على الفقير لفقره؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

١٤- أن الله أولى بالغني والفقير وهو متولي جميع عباده ولاية عامة لجميع الخلق، وولاية خاصة لعباده المؤمنين، كما ذكر الله- عز وجل- عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

فلا تترك الشهادة على الغني مراعاة لغناه، ولا على الفقير مراعاة لفقره ورحمة له.

ومن هنا يؤخذ أنه لا ينبغي محاباة أحد في أي عمل من الأعمال؛ لقرابته أو صداقته أو كثرة ماله أو غير ذلك، بل ينبغي مراعاة العدل والمصلحة العامة للمسلمين، وهذا خلاف ما عليه حال المسلمين اليوم من المحاباة في كثير من الأعمال والمعاملات مما يسمى بالواسطة على حساب المصلحة العامة للمسلمين وعلى حساب أصحاب الحقوق، بل قد يزيد الأمر عند البعض إلى أخذ الرشوة مقابل محاباته لبعض الأشخاص في عمل أو معاملة، فينبغي الحذر كل الحذر من هذا، وأنه من أعظم المحرمات إذ بهذا العمل فقدان العدل وظهور الظلم والجور مما يؤذن بفساد أحوال العباد وخراب البلاد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

١٥- الإشارة إلى الحكمة الكونية من جعله- عز وجل- بعض الناس غنياً وبعضهم فقيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

فإن لله عز وجل الحكمة التامة في ذلك كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] فهذا من الحكمة أن يسخر بعضهم بعضًا، ويستفيد بعضهم من بعض.

ومن الحكمة أن يشكر الغني بأداء حقوق المال من حق الفقراء وغيره فيؤجر، أو يمنع حقوق المال فيكفر، وأن يصبر الفقير فيؤجر، أو يتسخط فيؤزر، إلى غير ذلك من الحكم.

١٦- تحريم اتباع الهوى المخالف للعدل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾.

١٧- أن اتباع الهوى يحول بين الإنسان وبين الحق والعدل؛ لأن الهوى إما أن يُعمي

بصيرة الإنسان فيرى الحق باطلًا والباطل حقًّا، وإما أن يحمل الإنسان على ترك الحق والعدل بعد معرفته له، فكأنه لم ير الحق ولم يسمعه، وذلك؛ لأن الهوى يُعمي ويُصم.

١٨- وجوب العدل والحذر من الظلم والجور؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾.

العدل في القول كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والعدل في الحكم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

والعدل في كل شيء بالفعل والمعاملة وبين الأولاد والزوجات والخصوم وغير ذلك.

١٩- التحذير من اللي في الشهادة أو كتمانها والوعيد على ذلك، وعلى مخالفة أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

٢٠- إثبات صفة الخبرة التامة لله تعالى، والعلم العام ببواطن الأمور وظواهرها، دقائقها وجلائلها، خفيَّاتها وجليَّاتها، ومن ذلك ما يعمله العباد من خير أو شر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

٢١- إثبات محاسبة الله للعباد ومجازاتهم على أعمالهم؛ المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ومقتضى هذا أنه سيحاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم؛ ففيه وعد ووعيد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الإيمان بالله يتضمن أمورًا أربعة: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فمن أنكر واحدًا منها فليس بمؤمن بالله.

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: وآمنوا برسوله، أي: برسوله محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

والإيمان برسول الله ﷺ يتضمن: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع- وهو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

وعَطَف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم «الله» دون إعادة الفعل «آمنوا» ودون إعادة حرف الجر الباء، للدلالة على أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالرسول؛ كما أن الإيمان بالرسول يستلزم الإيمان بالله، فلا يصح أحدهما دون الآخر.

وأضاف وصف الرسول في قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ إليه عز وجل؛ لأنه هو الذي

أرسله، وفيه وتشريف وتكريم له ﷺ.

وأَمْر الله- عز وجل- المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله يدل على أن المؤمنين في حاجة دائمة إلى الإيمان والزيادة منه وتحقيقه وتصحيحه، وتحصيل ما لم يوجد منه، والثبات عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل كما قد يتوهمه من قصر فهمه، قال ابن كثير(١): «وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، أي: بصرنا فيه وزدنا هدى، وثبتنا عليه».

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وآمنوا بالكتاب الذي نزل على رسوله، و(ال) في «الكتاب»: للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود في الأذهان وهو القرآن الكريم، وهو «فعال» بمعنى: مفعول؛ لأنه مكتوب عند الله تعالى في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في المصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: الجملة في محل جر صفة لـ «الكتاب»، أي: الذي نزله على رسوله ﷺ.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿نُزِّلَ﴾ بالبناء للمفعول.

وقرأ الباقون بالبناء للفاعل: ﴿نَزَّلَ﴾.

والتنزيل يكون شيئًا فشيئًا؛ لأن القرآن نزل مفرقًا حسب الوقائع والحوادث، كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء:١٠٦].

والإيمان بالكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ وهو القرآن الكريم يكون بالتصديق بأنه كلام الله تعالى نزل من عنده- عز وجل- حقًّا، وأن ما جاء فيه من الأخبار فهو صدق، وما جاء فيه من الأحكام فهو عدل، وأن الله- عز وجل- أنزله لتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، والعمل به، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ

---

(١) في تفسيره (٢/ ٣٨٥).

لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿أُنزِلَ﴾ بالبناء للمفعول، وقرأ الباقون: «أَنزَلَ» بالبناء للفاعل. و﴿الكتاب﴾: معطوف على ما قبله أيضًا؛ أي: وآمنوا بالكتاب الذي أنزل من قبل. و(ال) في «الكتاب» هنا للاستغراق، و«الكتاب»: اسم جنس؛ أي: وآمنوا بجميع الكتب التي أنزل الله تعالى من قبل على أنبيائه ورسله، وجاء التعبير هنا بـ «أنزل»؛ لأن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة.

والإيمان بالكتب التي أنزل من قبل يكون بالتصديق بها على وجه الإجمال بأن الله تعالى أنزلها على رسله، وأنها حق وصدق من عند الله تعالى، وأن كل رسول أرسله الله تعالى قد أنزل عليه كتابًا.

ونؤمن بما ذكر لنا منها في القرآن والسنة على وجه التعيين كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وأنها جميعًا مشتملة على أصول الشرائع؛ من الدعوة إلى توحيد الله، ونفي الشرك والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وأما ما فيها من أحكام فلا يعمل بشيء منها إلا ما جاء في شرعنا الأمر بالعمل به، وما عدا ذلك فهو منسوخ بشرعنا.

وفي قوله: ﴿أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾: دلالة على أنه لا كتاب بعد القرآن فهو آخر كتب الله وخاتمها.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

هذه خمسة من أركان الإيمان التي أوجب الله تعالى الإيمان بها بجميع ما أنزل من الكتب وعلى ألسنة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

والواو في قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ﴾: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿يَكۡفُرۡ﴾: فعل الشرط، والكفر بالله ضد الإيمان به، أي: إنكار وجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، أو شيئًا من ذلك.

وقدّم الكفر بالله؛ لأن الإيمان بالله أساس الإيمان وأصله، والكفر به أشد وأعظم من غيره من أركان الإيمان.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾، أي: ويكفر بملائكته. والكفر بالملائكة إنكار وجودهم وما وكل إليهم من أعمال، وهو مناف للإيمان؛ لأن من أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل الذي جاء في كتب الله تعالى وعلى ألسنة رسله، وخصوصًا ما جاء في القرآن الكريم، وعلى لسان الرسول ﷺ؛ من أسمائهم وأعمالهم وصفاتهم وغير ذلك.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾، أي: ويكفر بكتبه التي أنزلها تعالى على رسله، والكفر بكتب الله منافٍ للإيمان؛ لأن الإيمان بكتب الله من أركان الإيمان الستة، يوجب الإيمان بما ذكر منها على وجه التعيين كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى والقرآن الكريم، ويوجب الإيمان بما عدا ذلك على وجه الإجمال، إذ ما من نبي بعثه الله إلا وأنزل عليه كتابًا.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: ويكفر برسله، والكفر برسل الله مناف للإيمان؛ لأن الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان يوجب الإيمان بمن ذكر منهم في كتب الله تعالى وعلى ألسنة رسله على وجه التعيين، منهم خمسة وعشرون ذكروا في القرآن الكريم، ويوجب الإيمان بمن لم يعين منهم على وجه الإجمال، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، أي: ويكفر باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وسمي بـ«اليوم الآخر» لأنه آخر الأيام لا يوم بعده، والكفر باليوم الآخر منافٍ للإيمان، لأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، يوجب الإيمان بهذا اليوم وما فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والجنة والنار وغير ذلك.

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ «قد».

والضلال: التيه والبعد والخروج عن طريق القصد وعن الطريق السوي، أي: فقد خرج عن طريق الهدى.

﴿ضَلَٰلًۢا﴾: مفعول مطلق، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، أي: ضلالًا بعيدًا كل البعد عن طريق الهدى والحق والصواب.

فمن كفر بهذه الأركان الخمسة فقد ضل ضلالا بعيدًا، وكذا من كفر بواحد منها؛ لأن من كفر بواحد منها كمن كفر بها جميعًا؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾.

حث عز وجل المؤمنين على الإيمان، وحذر من الكفر مبيِّنًا ضلال من كفر ضلالًا بعيدًا، ثم ذم المنافقين على تذبذبهم بين الإيمان والكفر، وازديادهم من الكفر، نافيًا أن يغفر الله لهم أو يهديهم سبيلًا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ وهم المنافقون.

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، أي: استمروا على الكفر وازدادوا منه وماتوا على ذلك.

﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾: الجملة في محل رفع خبر «إن»، واللام في قوله: ﴿لِيَغۡفِرَ﴾ وقوله: ﴿لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾: لام الجحود.

والنفي في قوله: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ أبلغ مما لو قال: «لا يغفر الله لهم».

وفي هذا تيئيس لهم من مغفرة الله تعالى، وإخبار بأنهم سيبقون على ما هم عليه من الكفر والنفاق ويموتون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٣٤].

﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾، الواو: عاطفة، و«لا»: نافية، و«سبيلا»: مفعول به منصوب لـ«يهدي».

والمعنى: ولم يكن ليهديهم طريقًا إلى الحق والخير، وإذا لم يهدهم الله طريقا إلى الخير، فليس لهم اهتداء إلا إلى طريق الشر، كما قال تعالى في الذين كفروا وظلموا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن

تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٠].

فبسبب كفرهم وتذبذبهم سد الله تعالى عنهم باب المغفرة، فحرموا من مغفرته، وسد عنهم باب الرحمة، فحرموا من هدايته.

قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

ذم عز وجل في الآية السابقة المنافقين المذبذبين بين الكفر والإيمان، وأخبر بحرمانهم من مغفرته- عز وجل- وهدايته، ثم أمر نبيه ﷺ أن يبشرهم بما لهم من العذاب الأليم.

قوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصح خطابه، والبشارة في الأصل: الإخبار بما يسر، واستعملت هنا بضد ذلك، أي: بالإخبار بما يسوء ولا يسر على سبيل التهكم بالمنافقين، مجازاة لهم على استهزائهم ومخادعتهم لله تعالى والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩].

و«المنافقين» جمع «منافق»، وهم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، ﴿بِأَنَّ ﴾: متعلق بـ﴿ بَشِّرِ﴾، و﴿لَهُمْ﴾: متعلق بمحذوف خبر «أن»، قدم للتأكيد والحصر، ﴿عَذَابًا﴾: اسمها مؤخر، والتقدير: بأن عذابًا أليمًا كائن لهم، واللام في ﴿لَهُمْ﴾: للاستحقاق، و﴿أَلِيمًا﴾: صفة، أي: مؤلما موجعًا، حسًا ومعنى، في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٤٥].

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ «الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب صفة لـ«المنافقين»، أي: المنافقين الذين من صفاتهم وعلاماتهم أنهم

يجعلون الكافرين من المشركين واليهود أولياء لهم يوالونهم من دون المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]، أي: يسارعون في موالاة الكافرين.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: من غير المؤمنين، أي: ويتركون موالاة المؤمنين، و«من» تدل على بعد الصلة بين المنافقين وبين المؤمنين.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾، الهمزة: للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ، أي: أيطلبون عند الكافرين العزة، أي: أيريدون أن يتعززوا ويتقووا ويمتنعوا بهم.

وفي هذا سوء ظن بالله ودلالة على ضعفهم وضعف إيمانهم بنصرة الله لأوليائه، وقصور نظرهم على ما عند الكفار من الأسباب الظاهرة دون تدبر فيما وراء ذلك، من أن الكفار هم بأنفسهم أذلاء، وغير ذلك، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، «جميعًا»: حال من العزة، أي: فإن لله تعالى وحده العزة بجميع أنواعها: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، فيجب طلب العزة وابتغاؤها منه سبحانه وتعالى وحده دون غيره، فبيده نواصي العباد، وأزمة الأمور.

وفي هذا بيان لخيبة رجائهم، وإبطال لطلبهم العزة من غير الله، كما أبطل دعواهم العزة في قولهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وكما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

بيَّن- عز وجل- في الآيات السابقة ضلال أهل الكفر ضلالًا بعيدًا، وحرمان أهل الكفر والنفاق من مغفرته وهداه، وتوعدهم بالعذاب الأليم، ثم حذر في هذه الآية

المؤمنين من القعود معهم إذا سمعوهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها.

قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ قرأ عاصم ويعقوب بفتح النون والزاي مشددة: ﴿نَزَّلَ﴾، وقرأ الباقون بضم النون وكسر الزاي مشددة: «نُزِّل».

والواو في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾: استئنافية، و«قد»: للتحقيق، والخطاب للمؤمنين.

و«ال» في الكتاب: للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود في الأذهان القرآن الكريم، أي: وقد نزل الله عليكم أيها المؤمنون، وبين لكم في القرآن: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ «أن»: هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الأمر والشأن، أي: أن الأمر والشأن إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله فلا تقعدوا، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ «نزَّل».

والآية التي أشار عز وجل إلى أنه نزلها بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ هي قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية: ٦٨].

وهذه الآية نزلت في مكة، فأمروا بالإعراض عن الخائضين في آيات الله من المشركين ونهوا عن القعود معهم، ثم ذكر الله تعالى بها المؤمنين في المدينة ونهاهم عن القعود مع من يكفر بآيات الله ويستهزىء بها من المنافقين واليهود وغيرهم من الكفار.

﴿إِذَا سَمِعْتُمْ﴾، «إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿سَمِعْتُمْ﴾: فعل الشرط.

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: آيات الله الشرعية التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه وأعظمها القرآن الكريم.

وقد يراد بالآيات هنا ما يشمل الآيات الشرعية والكونية.

﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾، الكفر بآيات الله الشرعية يكون بجحودها وتكذيبها وترك العمل بها، والكفر بالآيات الكونية: بجحودها والتكذيب بها، أي: التكذيب بأن الله هو مدبر هذا الكون وما يقع فيه من أحداث ونسبة ذلك إما إلى الخلق، وإما إلى الطبيعة؛ ونحو ذلك.

﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾، أي: يسخر بها، سواء بألفاظها أو معانيها، أو بما دلت عليه من أحكام أو أخبار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ جواب الشرط، «إذا»، والفاء رابطة لجواب الشرط.

والقعود في الأصل: يطلق على الجلوس ضد القيام، ويطلق على عدم الخروج للجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، وغير ذلك.

والمراد به هنا: النهي عن المكث معهم، ومخالطتهم على أي: حال كانوا من جلوس أو قيام أو مسير أو غير ذلك.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، «حتى»: للغاية، أي: إلى أن يخوضوا، أي: إلى أن يتكلموا في حديث غيره، والضمير في (غيره): يعود إلى ما سبق، أي: حتى يخوضوا في حديث غير الكفر والاستهزاء بآيات الله.

وأكثر ما يستعمل الخوض في الحديث والكلام في الباطل واللعب؛ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ١١- ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥].

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، أي: إنكم إن قعدتم معهم تسمعون كفرهم واستهزاءهم بآيات الله وخوضهم فيها ﴿إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، أي: مثلهم فيما هم فيه من الخوض، أي: تشاركونهم في المعصية والإثم، والرضى بذلك، والراضي كالفاعل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، هذا وعيد وتهديد للمنافقين والكافرين، وتحذير للمؤمنين من حالهم ومن القعود معهم حال خوضهم في الكفر والاستهزاء بآيات الله.

و«المنافقين»: هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، و«الكافرين»: هم الذين كفرهم ظاهر صريح.

وقدَّم المنافقين، لأنهم أشد كفرًا؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والنفاق والمخادعة؛ ولهذا

هم أشد عذابا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

و﴿جَهَنَّمَ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿جَمِيعًا﴾: حال، فالجزاء من جنس العمل، فكما اجتمعوا على الكفر والموالاة جمعهم الله في جهنم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

وصف عز وجل المنافقين أولًا بموالاتهم للكافرين من دون المؤمنين، ثم وصفهم ثانيًا بتربصهم الدوائر بالمؤمنين مما يدل ويؤكد تحقيق موالاتهم ومحبتهم للكافرين، وشدة عداوتهم للمؤمنين.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾، صفة لـ «المنافقين» في قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الآية: ١٣٨]، والتربص: الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: ينتظرن فلا يتزوجن، ومعنى ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾، أي: ينتظرون الدوائر بكم، علَّها أن تكون عليكم، لا لكم، ويترقبون زوال دولتكم، وظهور أهل الكفر عليكم.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، هذا وما بعده تفصيل لقوله: ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾، أي: فإن كان لكم فتح من الله من نصر وغنيمة.

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، أي: قال هؤلاء المنافقون للمؤمنين، توددًا إليهم، وليسلموا من القدح والطعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء، ولينتصروا بهم. ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، الاستفهام: للتقرير، أي: إنا كنا معكم، وذلك أنهم يظهرون أنهم مع المؤمنين، وهم في الباطن وفي الحقيقة ضدهم.

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ من مشركي مكة وغيرهم ﴿نَصِيبٌ﴾، أي: حظ من الغلبة في

القتال، كما حصل في أحد، ولم يقل: «وإن كان للكافرين فتح»؛ لأن ما يحصل للكافرين لا يعد فتحًا بل هو استدراج لهم وابتلاء ومحنة.

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال المنافقون للكافرين؛ موالاة لهم.

﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، الاستفهام كسابقه: للتقرير، والمعنى: أنا استحوذنا عليكم ومنعناكم من المؤمنين، والاستحواذ: التغلب على الشيء والاستيلاء عليه، أي: ألم نغلب ونستولي عليكم ونحميكم، ونحول بينكم وبين الإيمان وأهله، كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]، أي: غلب عليهم.

﴿وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾، بمساعدتنا لكم في الباطن، وتثبيط المؤمنين وتخذيلهم، عنكم فما آلونا هم خبالًا حتى انتصرتم عليهم.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، الفاء: للتفريع، أي: فالله يحكم ويفصل بينكم أيها المؤمنون، وبين هؤلاء المنافقين والكفار يوم القيامة، فيجازيكم أيها المؤمنون بجنته، ويعذب المنافقين والكافرين في النار، وفي هذا تهديد ووعيد لهم، ووعد وبشارة للمؤمنين.

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾، الواو: عاطفة، و«يجعل» بمعنى يصير، و«الجعل» نوعان: كوني وشرعي، والمراد به هنا ما يشمل النوعين. و﴿سَبِيلًا﴾: طريقًا.

هذا وعد من الله تعالى لا يتخلف بأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين طريقًا واستعلاء وتسلطًا للنيل منهم أو من دينهم، ولهذا قال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وفي هذا بشارة للمؤمنين وتثبيت لهم، فإن كان ثمة سبيل للكافرين على المؤمنين فهو بسبب المؤمنين أنفسهم بسبب ضعف إيمانهم ونقص طاعتهم ومخالفتهم أمر الله تعالى- كما حصل من الرماة يوم أحد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥].

وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى**

يأتي أمر الله»(١).

ولهذا- وبفضل الله تعالى- نجد الأقليات الإسلامية محترمة في كثير من البلاد التي لا تؤمن بالإسلام ما دامت تلك الأقليات محترمة لنفسها ولدينها ولأعراف تلك البلاد، وفي هذا رد على المنافقين الذين يتربصون بالمؤمنين ويترقبون زوال دولة الإسلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- صفات المنافقين في تعاملهم مع الخلق، فبين أنهم يوالون الكافرين، ويتربصون الدوائر بالمؤمنين، ثم ذكر في هذه الآية ما هو أشد وأعظم، وهو تعاملهم مع الخالق سبحانه وتعالى بالمخادعة وكسلهم عند القيام إلى الصلاة، ومراءاتهم للناس، وقلة ذكرهم لله تعالى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾، ﴿إِنَّ﴾: مؤكدة لهذه الجملة وجملة الحال بعدها، وقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾، أي: حسب ظنهم، وهم إنما يخادعون، بل ويخدعون أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، فهم؛ لجهلهم وقلة علمهم وضعف عقولهم يظنون أن أمرهم كما راج على الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرًا، فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم يروج عنده، كما قال تعالى عنهم: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وهكذا يفعل الجهل بأهله.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ مقابلة ومجازاة لهم على خداعهم بأن يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم؛ ليستمرئوا ما هم عليه من النفاق والمخادعة، ويستمروا على ذلك، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣- القلم: ٤٤، ٤٥].

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال ﷺ: «**وإن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(١).

ومن خداعه تعالى لهم يوم القيامة: ما ذكره في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: معطوف على قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

أي: وإذا قاموا لأداء الصلاة، أيَّ صلاة كانت، وفي الآية إشارة إلى قلة قيامهم إلى الصلاة.

﴿قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾، «كسالى»: حال، أي: حال كونهم كسالى، و«كسالى» جمع «كسلان»، و«الكسل» الفتور في القيام بالعمل لسآمة أو كراهية.

والمعنى: وإذا قاموا لأداء الصلاة التي هي عمود الإسلام وأعظم العبادات وأفضلها قاموا حال كونهم كسالى، لا رغبة عندهم ولا نشاط؛ لما انطوت عليه قلوبهم من الكفر وعدم الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤].

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾: حال ثانية، أي: حال كونهم يراؤون الناس، في صلاتهم، وفيما يقومون به من عمل، فظاهرهم الكسل وباطنهم الرياء وعدم الإخلاص، وإنما ليقال: إنهم مسلمون، ويأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يرون غالبًا فيها كصلاة العشاء وقت العتمة وصلاة الصبح وقت الغلس؛ ولهذا قال ﷺ: «**أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر**»(٢).

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾: معطوف على ﴿يُرَآءُونَ﴾، أي: ولا يذكرون الله في صلاتهم، وفي سائر أحوالهم، لا في قلوبهم ولا في ألسنتهم ولا في جوارحهم؛ لأن قلوبهم ساهية غافلة، وألسنتهم كاذبة لاغية، وجوارحهم فيما يضرهم ولا ينفعهم منشغلة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٣)، والترمذي في التفسير (٣١١٠)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٧)، ومسلم في المساجد (٦٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا ذكرًا قليلًا أو زمنًا قليلًا، وهذا القليل ظاهر فقط بألسنتهم وجوارحهم فلا يخشعون في صلاتهم بقلوبهم، ولا يعقلونها ولا يدرون ما يقولون فيها، بل هم في صلاتهم ساهون، وعنها لاهون، كما قال ﷺ: «**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلًا**»(١).

وفي المقابلة بين قوله ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وبين قوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما لا يخفى من التعريض بذمهم، إذ كيف يهتمون بأن يراهم الناس الخلق المساكين الضعاف على حال تعجبهم بينما ينسون خالقهم الذي لا تخفى عليه منهم خافيه فلا يذكرونه إلا قليلا بل ويجاهرونه بالمعصية.

قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يُرَآءُونَ﴾، والتذبذب: التردد في الأمر.

أي: مرددين محيرين بين الإيمان والكفر، وبين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، قد ذبذبهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء واتباع الهوى وحب الدنيا، وقد قيل:

إني بليت بأربع لم يُخلِفوا ... إلا شديد شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي(٢)

﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، «لا»: نافية، أي: لا هم إلى المؤمنين ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: ولا هم إلى الكافرين، وقد يكون التقدير العكس، لا هم إلى الكافرين ولا هم إلى المؤمنين.

والمعنى: لا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظاهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٦٢٢)، وأبو داود في الصلاة (٤١٣)، والنسائي في المواقيت (٥١١)، والترمذي في الصلاة (١٦٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) البيتان مجهولا النسبة. انظر: «كشف الخفاء للعجلوني» ١/ ٤٠.

خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال تعالى عن منافقي أهل الكتاب: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مثل المنافق كمثل الشاة العائرة**[١] **بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدري أيهما تتبع**»[٢].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، الواو: استئنافية، و«مَنْ»: شرطية، تفيد العموم، و﴿يُضْلِلِ﴾: فعل الشرط، وكسر لالتقاء الساكنين، أي: ومن يصرفه الله عن طريق الهدى كونًا وقدرًا.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لاتصاله بـ «لن»، والخطاب في ﴿تَجِدَ﴾: لكل من يصلح خطابه، ﴿سَبِيلًا﴾: طريقًا، وهي نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ: سبيل وكل طريق. أي: ومن يضلل الله قدرًا وكونًا، أي: يكتب ويقدر ضلاله فلن تجد له طريقًا إلى الهداية، كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣، ٣٦، غافر: ٣٣].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريمًا وتشريفًا لهم، وحثًا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده أمرًا كان أو نهيًا من مقتضى الإيمان، وعدم امتثال ذلك نقص في الإيمان.

٣- وجوب الثبات على الإيمان وتكميله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

---

(١) الشاة العائرة: المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع.

(٢) أخرجه مسلم في المنافقين (٢٧٨٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣٧).

٤- حاجة المؤمن إلى الإيمان كل لحظة والزيادة منه والثبات عليه.

٥- وجوب الإيمان بالله، بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأن ذلك هو أصل أركان الإيمان وأساسها، لأن الله قدَّمه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٦- وجوب الإيمان بالرسول ﷺ بشهادة أنه محمد رسول الله ﷺ وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه وتكريمه بإضافة اسمه أو وصفه إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

٨- وجوب الإيمان بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٩- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، وأنه نزل مفرقًا.

١٠- الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن، وعلى المشركين الذين يقولون: إن الرسول ﷺ اختلقه من تلقاء نفسه.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى.

١٢- وجوب الإيمان بالكتب السابقة وأنها منزلة من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.

١٣- أن القرآن الكريم هو آخر كتب الله تعالى المنزلة وخاتمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، ففيه إشارة إلا أنه لا كتاب بعد القرآن، كما أنه لا رسول بعد محمد ﷺ.

١٤- التحذير من الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن الكفر بذلك غاية الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

١٥- وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن

يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الآية.

١٦- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾.

١٧- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

١٨- أن الضلال يتفاوت بعدًا وقربًا وبعضه أشد من بعض، وأن الكفر يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، وهكذا الأعمال كلها تتفاوت، والإيمان يزيد وينقص.

١٩- تذبذب المنافقين بين الإيمان والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾.

٢٠- أن المتردد بين الإيمان والكفر أقرب وأحرى أن يزداد كفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

٢١- أن من كفر ثم آمن ثم كفر، ولم يزدد كفرًا بل رجع إلى الإيمان وترك ما هو عليه من الكفر فإن الله يغفر له ويهديه، ولو تكررت منه الردة، ومن باب أولى من تكررت منه المعصية؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، فهذا يدل على أنهم إن لم يزدادوا كفرًا بل رجعوا إلى الإيمان فهم أهل لمغفرة الله تعالى وهدايته.

٢٢- الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على فعله لا اختيار له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ فنسب فعل الإيمان والكفر والازدياد منه إليهم.

٢٣- التحذير من التردد بين الإيمان والكفر وبيان سوء عاقبته، فهو سبب لازدياد الكفر والحرمان من مغفرة الله وهدايته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾.

٢٤- ينبغي الأخذ بعزائم الأمور والحذر من التردد، قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا[1]

---

(١) البيت لأبي جعفر المنصور. انظر: «التذكرة الحمدونية» (١/ ٤١٩).

٢٥- إثبات صفة المغفرة لله عز وجل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فمفهوم هذا أنه- عز وجل- يغفر لمن آمنوا وازدادوا إيمانًا.

٢٦- أن الهدى بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

٢٧- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان يخلق فعل نفسه، وليس فعله تابعًا لمشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾، فالهداية بيد الله تعالى.

٢٨- إخبار المنافقين وإعلامهم، والبشارة لهم على سبيل التهكم بهم بما أعد لهم من عذاب أليم؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٩- استحقاق المنافقين للعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا معنويًا للقلوب، وحسيًا للأبدان.

٣٠- موالاة المنافقين للكافرين من دون المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣١- الإنكار على المنافقين، وبيان خطأ مسلكهم في موالاتهم الكافرين وطلبهم العزة ممن لا تزيدهم موالاتهم إلا ذلًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾.

٣٢- أن العزة لله وحده، يعز من يشاء بفضله، ويذل من يشاء بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

٣٣- التهييج على طلب العزة من الله والالتجاء إليه وحده.

٣٤- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣٥- تحريم القعود عند سماع آيات الله يكفر بها ويستهزئ بها مع من يفعلون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾، فلا يجوز القعود في مثل هذه الحال إلا إذا قدر الإنسان على الإنكار.

٣٦- أن الحكم يدور مع علته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، فنهى عن القعود معهم عند سماع كفرهم واستهزائهم بآيات الله، وأجاز القعود معهم إذا خاضوا في حديث غيره.

٣٧- أن القاعد مع فاعل المنكر حال ارتكابه للمنكر مثله وله حكمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، أي: حكمكم حكمهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

٣٨- التحذير من مجالسة أهل الشر والفساد، والترغيب في مجالسة أهل الخير والصلاح، وفي الحديث: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير**»(١).

٣٩- أن مآل المنافقين والكافرين إلى جهنم جميعا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

٤٠- أن المنافقين أشد جرمًا وأشد عذابًا من الكفار؛ لأن الله قدم المنافقين في الذكر على الكافرين.

٤١- إثبات النار، وشدة ظلمتها وبعد قعرها؛ لقوله تعالى: ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾.

٤٢- شدة عداوة المنافقين للمؤمنين لتربصهم بهم الدوائر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾.

٤٣- أن الفتح والنصر إنما يكون من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مما يوجب طلب النصر منه والتعلق به وحده.

٤٤- أن المنافقين مع المؤمنين من حيث الظاهر؛ لقولهم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

٤٥- طمع المنافقين حيث يريدون السلامة من الغرم والمشاركة في الغنم، لأيٍّ كان من الطائفتين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤٦- إظهار المنافقين ما في قلوبهم من موالاة الكافرين وعداوة المؤمنين عندما يكون للكافرين نصيب.

٤٧- خبث المنافقين وتلونهم فهم يعدون لكل حالة جوابًا، ويلبسون لكل حال لبوسها متقنعين بجلباب الكذب والنفاق.

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٤٨- أن المنافقين درء ودرع داخلي للكافرين يفشون إليهم أسرار المؤمنين وينقلون لهم أخبارهم، ويخذلون المؤمنين ويثبطونهم عن قتالهم؛ لقولهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤٩- في تسمية ما يحصل للمؤمنين بأنه فتح من الله، وتسمية ما يحصل للكافرين بأنه «نصيب» إشارة إلى البون الشاسع والفرق الواسع بين ما يعطيه الله تعالى للمؤمنين فهو فتح ونصر لهم في الدنيا والآخرة، وبين ما قد يحصل للكافرين من نصيب وغنم دنيوي قليل حقير.

٥٠- حكم الله تعالى العدل بين الخلائق، مؤمنهم وكافرهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٥١- أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، ولا سبيل للكافرين على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

٥٢- استدل كثير من العلماء بقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بعدم جواز بيع العبد المسلم للكافر لما في ابتياعه له من تسلط الكافر على المسلم وإذلاله.

٥٣- إثبات «الجعل» لله تعالى بقسميه؛ الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾.

٥٤- مخادعة المنافقين لله تعالى؛ وهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

٥٥- أن المنافقين أهل خداع وكذب ومكر، وأهل خيانة وفجور وغدر، وفي الحديث: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**» وفي رواية: «**وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

٥٦- أن الله خادع المخادعين له من المنافقين وغيرهم على سبيل المقابلة والمجازاة لهم، وهذا صفة مدح لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾؛ لأنه يدل على أنه- عز

---

(١) سبق تخريجه برواياته.

وجل- أقوى مخادعة ممن يخادعونه، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

٥٧- أن من أخص صفات المنافقين أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى؛ لضعف إيمانهم أو فقدانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

ولهذا لا تقبل نفقاتهم وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

٥٨- ينبغي للمؤمن إذا دعا داعي الله تعالى إلى الصلاة أن يقوم إليها نشيطًا راجيًا ثواب الله تعالى، خائفًا من عقابه، فرحًا مسرورًا بأن أحياه الله تعالى حتى أدرك هذه الصلاة، وليصليها صلاة مودع، ويحذر من التكاسل عند القيام لها كما هي حال المنافقين فإن ذلك دليل ضعف الإيمان.

٥٩- مراءة المنافقين للناس عند قيامهم إلى الصلاة وغيرها من الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

٦٠- ينبغي الحذر من الرياء؛ لأنه من صفات المنافقين، وقد قال ﷺ: «**من سمَّع سمَّع الله به، ومن رآى رآى الله به**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان به ربه عز وجل**»(٢).

٦١- قلة ذكر المنافقين لله تعالى حتى بجوارحهم؛ لأنهم إن ذكروا الله فإنما يذكرونه عند الناس فقط مرآءاة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٦٢- أن من علامات صدق الإيمان وقوته القيام إلى الصلاة بنشاط، والإخلاص لله

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٧)، من حديث جندب رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٩٠) ونسبه لأبي يعلى.

تعالى والإكثار من ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال ﷺ: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»(١).

٦٣- سوء حالة المنافقين وترددهم بين الكفر والإيمان، وبين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٦٤- وجوب الثبات على الحق والإيمان، والحذر من التذبذب بين الحق والباطل والكفر والإيمان.

٦٥- أن الثبات والأمان والطمأنينة في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال الشاعر:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينا(٢)

٦٦- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ فهو- عز وجل- يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

٦٧- إن الإضلال والهداية بيد الله مما يوجب التعلق به سبحانه وسؤاله وحده الهداية والسلامة من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، من حديث عبدالله بن بسر رضي الله عنه.

(٢) البيت لمحمد إقبال. انظر: «ديوانه» (ص١٠٣).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿لَا﴾ ناهية، ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون، والمعنى: لا تجعلوا الكافرين أولياء.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جمع كافر، والكفر لغة الستر والتغطية والجحود.

وهو: جحود وحدانية الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه، أو الاستكبار عن انقياد له، أو الإعراض عنه، أو الشك فيه.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع ولي، وهو الذي يتولى غيره بالنصرة والمعونة.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: من سوى المؤمنين، فمن والى الكافرين فقد عدل عن موالاة المؤمنين، إذ لا تجتمع موالاة المؤمنين، وموالاة الكافرين.

والمعنى: لا تجعلوا الكافرين بالله وشرعه أولياء، توالونهم وتؤازرونهم وتناصرونهم وتعتمدون عليهم وتركنون إليهم دون إخوانكم المؤمنين، كما هو شأن المنافقين، وضعاف الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

إذ الواجب على المؤمنين موالاة إخوانهم المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

والبراءة من الكافرين ومعاداتهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

﴿أَتُرِيدُونَ﴾، الاستفهام: للإنكار، وفيه من الوعيد ما فيه.

﴿أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿أَن﴾ حرف مصدري ونصب ﴿تَجْعَلُواْ﴾: منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون، أي: تصيرّوا.

﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول لـ﴿تَجْعَلُواْ﴾، أي: حجة. قال ابن عباس: «كل سلطان في القرآن حجة»(١).

﴿مُّبِينًا﴾ صفة لـ﴿سُلْطَٰنًا﴾، أي: بينا واضحًا. والمعنى: أتريدون أن تصيروا لله عليكم حجة بينة واضحة، تستوجبون بها سخطه ونقمته وعقوبته لكم(٢).

قال ابن كثير(٣): «ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي: يحذركم عقوبته في ارتكاب نهيه؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للعناية والتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٩٣) من رواية ابن أبي حاتم وقال: «وهذا إسناد صحيح».

(٢) انظر: «جامع البيان «(٩/ ٣٣٦-٣٣٧)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٩)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٩٢).

(٣) في «تفسيره» (٢/ ٣٩٢-٣٩٣).

الوصف. وأن امتثال ما ذكر بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٣- تحريم موالاة الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤- أنه لا تجتمع موالاة المؤمنين وموالاة الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمن والى الكافرين فقد عدل عن موالاة المؤمنين، ومن والى المؤمنين وجب عليه البراءة من موالاة الكافرين.

٥- وجوب موالاة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال ﷺ: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه(١).

٦- التحذير من موالاة الكافرين دون المؤمنين والوعيد الشديد على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

٧- أن الله لا يعذب أحدًا إلا بذنب، وأن الإنسان هو الذي يعرض نفسه لعقوبة الله بسبب المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

٨- أن لله- عز وجل- الحجة على من خالف أمره؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، أي: أنه- عز وجل- له الحجة البينة الواضحة في عقوبة من خالف أمره، حيث إنه- عز وجل- أرسل الرسول وأنزل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، وأبو داود في الأدب (٥١٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما عليه المنافقون من قبح الصفات من الكفر بعد الإيمان وموالاة الكافرين وتربصهم الدوائر بالمؤمنين ومخادعتهم لله وكسلهم عند القيام إلى الصلاة ومراءاتهم للناس وقلة ذكرهم لله تعالى وتذبذبهم بين المؤمنين والكافرين، ونهى المؤمنين عن التشبه بهم في موالاة الكافرين، ثم بيَّن أن مصير المنافقين الدرك الأسفل من النار وعيدًا وتهديدًا لهم، وتحذيرًا للمؤمنين من التشبه بهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ٱلدَّرْكِ﴾ بإسكان الراء، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ٱلدَّرَكِ﴾.

و﴿ٱلدَّرْكِ﴾: يقال باعتبار الهبوط، والدرج باعتبار الصعود، فالجنة درجات، والنار دركات، و﴿ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾: الطبق والمكان الأسفل الذي ليس تحته أو دونه شيء، والمعنى: أنهم في أسفل النار وقعرها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «في الدرك الأسفل من النار: يعني في أسفل النار»(١).

وإنما كانوا في أسفل النار وأبعدها قعرًا وأعظمها ظلمة وأشدها عذابًا؛ لأنهم أشد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٦٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٩٨) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الناس كفرًا جمعوا بين الكفر والمكر والمخادعة.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾: الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح توجيه الخطاب إليه.

أي: ولن تجد لهؤلاء المنافقين من ينصرهم ويدفع أو يمنع عنهم عذاب الله أو يرفعه عنهم، وفي هذا تأكيد للوعيد وقطع لرجائهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب على الاستثناء المنقطع.

والتوبة: الرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه، أي: إلا الذين تابوا إلى الله تعالى ورجعوا من الكفر والنفاق إلى الإيمان والإخلاص.

﴿وَأَصْلَحُواْ﴾، أي: وأصلحوا بواطنهم وظواهرهم وأعمالهم، وتركوا الإفساد في الارض الذي نهاهم الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: لجؤوا إلى الله تعالى، وتوكلوا عليه وحده دون سواه في جلب الخير ودفع الضر، ولم يتخذوا من دونه أولياء من الكافرين.

﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، أي: وأخلصوا عبادتهم لله تعالى وحده، وقصدوا وجه الله تعالى بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق والشرك، كما أمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وخص الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما في الإصلاح؛ لفضلهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، وشدة الحاجة إليهما للخلاص من النفاق.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾، الفاء: استئنافية، والإشارة: لمن اتصفوا بالصفات الأربع المذكورة، وهي: التوبة، والإصلاح، والاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، فمن أخذ بهذه الصفات فهو مع المؤمنين، أي: في زمرتهم في الدنيا وفي البرزخ ويوم القيامة،

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وأشار إليهم بإشارة البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تنبيهًا على تميزهم عمن بقوا على النفاق وأنهم أحرياء بما ذكر بعد اسم الإشارة.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، الواو: عاطفة، ﴿وَسَوْفَ﴾: حرف استقبال.

و﴿يُؤْتِ﴾، أي: يعطي، وهي تنصب مفعولين الأول هنا: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثاني: ﴿أَجْرًا﴾، أي: أجرًا في الدنيا من النصر وحسن العاقبة، وأجرًا في الآخرة، والأجر: الثواب، أي: وسوف يعطي الله المؤمنين ثوابًا عظيمًا، وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وسوف يؤتيهم»؛ ليشملهم وغيرهم من المؤمنين.

وسمى عز وجل الثواب «أجرًا»؛ تفضلًا منه وكرمًا؛ لتأكيد تكفله- عز وجل- بذلك، وضمانه لهم.

﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجْرًا﴾، أي: عظيمًا من كل وجه، من حيث كيفه وكمه، ونوعه، وغير ذلك، لا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بذلك وهو العظيم سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾، «ما»: للاستفهام، ومعناه: الإنكار والنفي على أبلغ وجه وآكده، أي: أي: شيء يصنع الله بعذابكم؟ أيتشفى به من الغيظ، أو يستجلب به نفعًا، أو يدفع ضرًا، والمعنى لا يفعل الله بعذابكم شيئًا، والخطاب لجميع الأمة بما فيهم المنافقين.

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ﴾، أي: إن شكرتم الله تعالى على نعمه بالاعتراف بها باطنًا بقلوبكم، والإقرار والثناء على الله تعالى بها في ألسنتكم، والاستعانة بها على القيام بطاعة الله تعالى بجوارحكم.

﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به- عز وجل- وبكل ما أوجب عليكم الإيمان به، أي: إن شكرتم

وآمنتم فلن يعذبكم؛ لأن العذاب موجبه الكفر، فإذا زال الكفر بالشكر والإيمان انتفى العذاب لا محالة.

وعلى هذا فالوعيد الذي توعد به المنافقون إنما هو على الكفر والنفاق، فإذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله غفر لهم؛ لأن الله لا ينتفع بعذاب ولا ثواب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾، الواو: استئنافية، و«كان»: مسلوبة الزمن، أي: وكان الله- عز وجل- ومازال شاكرًا عليمًا.

ومعنى ﴿شَاكِرًا﴾، أي: يشكر من يستحق الشكر من عباده وأوليائه المؤمنين به القائمين بأمره وطاعته، فالشكر صفة من صفاته عز وجل، والشاكر والشكور من أسمائه عز وجل.

و«الشكر»: مكافأة المحسن على إحسانه وزيادته، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال ﷺ: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه**»(١).

﴿عَلِيمًا﴾، أي: عليمًا بمن يستحق الشكر من عباده، وهم الذين قاموا بطاعته، ذا علم واسع لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

قال ابن القيم(٢): «وتأمل قوله سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ كيف تجد من هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيبه عباده بغير جرم، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلًا، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيئ».

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾، «لا»: نافية، والجملة خبرية.

يخبر فيها عز وجل أنه لا يحب الجهر بالسوء، أي: أنه- عز وجل- يكره ويبغض

---

(١) أخرجه أبو داود وفي الآدب (٥١٠٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٨٦-٨٧).

الجهر بالسوء من القول ويمقته ويعاقب عليه.

و﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾: الإعلان بالسوء وإظهاره، و«السوء من القول»: كل ما يسوء قوله من الشتم والسب، والدعاء على الغير، ونحو ذلك.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلومًا فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وإن صبر فهو خير له»(١).

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«من»: اسم موصول بمعنى الذي مبني في محل نصب على الاستثناء المتصل، والمستثنى منه فاعل المصدر المقدر الواقع في سياق النفي المفيد للعموم، والتقدير: لا يحب الله جهر أحد بالسوء إلا من ظلم، وقد يكون المستثنى مضافًا محذوفًا، أي: إلا جهر من ظلم.

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعًا، أي: لكن المظلوم له أن يجهر بظلامته، فلمن ظلم أن يجهر بالسوء من القول من أجل الشكاية لرفع الظلم عنه، فيقول: فلان ظلمني، فلان أخذ حقي، فلان اعتدى عليَّ، ونحو ذلك، من غير أن يكذب أو يزيد على مظلمته، أو ينال من غير ظالمه، وله أن يدعو على من ظلمه من غير اعتداء في الدعاء.

عن عائشة رضي الله عنها أنها: «سرق لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ لا تُسَبِّخِي عنه»(٢)، ولم ينهها عن الدعاء عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارًا يؤذيني؟ فقال له: أخرج متاعك فضعه في الطريق، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مرَّ به قال: مالك؟ قال: جاري يؤذيني. فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه. قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أوذيك أبدًا»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٦٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٥، ١٣٦) ومعنى «لا تُسَبِّخي عنه» أي: لا تخففي عنه بدعائك، أي: لا تضيِّعي إثم السرقة عن السارق بدعائك عليه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في حق الجوار (٥١٥٣)، والترمذي في البر- باب في حق الجوار (١٩٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**مطل الغني ظلم**»(١)، وفي لفظ: «**لي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته**»(٢).

كما أن لمن ظلم واعتدى عليه أن يقابل المسيئ بمثل إساءته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾، أي: ذا سمع يسع جميع الأقوال والأصوات.

﴿عَلِيمًا﴾، أي: ذا علم يسع كل شيء، يعلم المقاصد وما في البواطن والظواهر فيسمع عز وجل قول من جهر بالسوء ويعلم المظلوم من غيره، وفي هذا تحذير من الجهر بالسوء من غير ظلم، كما أن فيه تأكيدًا لجوازه ممن ظلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

بعد أن نهى عن الجهر بالسوء من القول، ورخص بذلك لمن ظلم ندب المرخص لهم إلى الخير والعفو عمن أساء، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾، «إن»: شرطية، ﴿تُبْدُواْ﴾: فعل الشرط، أي: إن تظهروا خيرا وتعلنوه، وهذا يشمل كل خير من قول أو فعل أو بذل واجب أو مستحب.

---

(١) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٧)، ومسلم في المساقاة (١٥٦٤)، وأبو داود في البيوع (٣٣٤٥)، والنسائي في البيوع (٤٨٨)، والترمذي في البيوع (١٣٠٨)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في الأقضية (٣٦٢٨)، والنسائي في البيوع (٤٦٨٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٢٧)، من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله عنه.

﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، أي: أو تسروه ولا تظهروه.

وجواب الشرط محذوف، تقديره: فسوف تؤجرون عليه، أو فلن تعدموا أجره، ونحو ذلك؛ لأن عمل الخير مطلوب سواء كان مبدى أو مخفى، وصاحبه مأجور في الحالين.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾، أو: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾.

والعفو: التجاوز والصفح وعدم المؤاخذة.

﴿عَن سُوٓءٍ﴾، أي: عن سوء حصل لكم من الغير قولًا أو فعلًا، أي: أو تعفو عمن أساء لكم في أبدانكم أو أموالكم أو أعراضكم فتتجاوزوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أو تعليلية، أي: فإن الله يعفو عنكم مع قدرته عليكم وعلى مؤاخذتكم.

﴿عَفُوًّا﴾، أي: ذا عفو واسع عظيم، والعفو: التجاوز عن العقوبة.

﴿قَدِيرًا﴾، أي: ذا قدرة تامة، والقدرة: التمكن من الفعل من غير عجز، فهو- عز وجل- القدير الذي لا يعجزه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وفي الجمع بين وصفه- عز وجل- بالعفو والقدرة في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ تنبيه إلى أن عفوه- عز وجل- مع القدرة على الانتقام، وهذا أكمل حالات العفو؛ لأن العفو إنما يحمد إذا كان مع القدرة على الانتقام، أما إذا كان عن عجز فلا يحمد، بل قد يدل على الضعف.

قال المتنبي:

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئٌ إليها اللئام(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾.

---

(١) انظر: «شرح ديوان المتنبي» (ص١٢٤)، «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (ص٢٩)، «آمال ابن الشجري» (٣/ ٢٥٢).

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾، «إنَّ»: حرف توكيد ونصب، والكفر بالله معناه: إنكار وجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، أو شيء من ذلك، والتعبير بالمضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على الكفر وتجدده منهم.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: ويكفرون برسله، والكفر برسله: تكذيبهم وإنكار ما جاؤوا به من عند الله من الوحي، وعدم طاعتهم.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: ويريدون أن يفرقوا في الإيمان بين الله ورسله، فيؤمنوا بالله ويكفروا برسله، أو ببعضهم، ولا فرق بين من كفر برسل الله جميعًا وبين من كفر ببعضهم؛ إذ الإيمان بالله يقتضي الإيمان بجميع الرسل.

﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾، أي: نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعضهم، كحال اليهود آمنوا بالرسل وكفروا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة السلام، وكحال النصارى آمنوا بالرسل وكفروا بمحمد ﷺ.

وبهذا فرقوا بين الله ورسله، فآمنوا بالله وكفروا برسله، وفرقوا كذلك بين رسله فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعض.

ولا سبيل إلى الله ولا إلى النجاة إلا بالإيمان بالله وجميع رسله، فمن آمن بالله وكفر برسله، أو بواحد منهم فليس بمؤمن بالله ولا برسله، ومن كفر بواحد من الرسل فقد كفر بهم جميعًا.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ الإشارة: للتفريق بين الله ورسله، والإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم.

أي: ويريدون ويحبون أن يجعلوا في التفريق بين الله ورسله والتفريق بين الرسل بالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعضهم طريقًا ومسلكًا إلى الضلال يدعون إليه أتباعهم من أهل الجهل، أو طريقًا ومسلكًا إلى الله وإلى النجاة حسب زعمهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾.

الإشارة: للذين يكفرون بالله ورسله، وهي في محل رفع مبتدأ، و«هم»: ضمير

فصل يفيد التوكيد والحصر، وجملة ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

والمبتدأ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وخبره في محل رفع خبر «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية.

﴿حَقًّا﴾: مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، أي: الذين كفرهم محقق، لعدم إيمانهم بالله وبجميع رسله.

فأكد الكفر فيهم وحصره بعدة مؤكدات منها: كون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم»، وبالمصدر المؤكد «حقا».

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: هيأنا وجهزنا وأعددنا، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، أي: يهينهم ويذلهم في الدنيا بما يلقون من القتل ونحوه على أيدي أولياء الله، وبما سلط الله عليهم من الذل، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

وهذا الذل الدنيوي موصول بالذل الأخروي في النار التي يجمع للمعذبين فيها بين العذاب المعنوي بالتوبيخ والإهانة والإذلال، والعذاب الحسي باصطلاء النار، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وفي قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾: إظهار مقام الاضمار فلم يقل: «وأعتدنا لهم» ليشملهم هذا الوعيد وغيرهم من الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

توعد الله- عز وجل- الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون التفريق بين الله ورسله، ويؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض بالعذاب المهين، ثم أتبع ذلك بالوعد للذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم بالأجور العظيمة جمعًا بين الترهيب والترغيب، ليجمع الإنسان في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرخاء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، الواو: عاطفة، أي: والذين صدقوا بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: وآمنوا برسله وصدقوهم وأطاعوهم.

﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: ولم يفرقوا في الإيمان بين الله ورسله، بل آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين رسل الله فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل آمنوا بجميع الرسل، وهؤلاء هم أمة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أي: لا نفرق بين أحد من رسله في أصل الإيمان، وإلا فإن شرائعهم مختلفة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: أشار إليهم بإشارة البعيد، تنبيهًا على علو مكانتهم ورفعة منزلتهم، و«سوف»: للتحقيق مع البعد، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]، ونحو ذلك مع أن السين تدل على التحقيق مع القرب؛ لأن الجزاء موصوف بهذا وهذا، فهو بعيد من حيث إنهم لا يعطون جزاءهم وهلة بل شيئًا فشيئًا في الدنيا إلى أن يوفوا جزاءهم كاملا يوم القيامة، فهو من حيث امتداده بعيد، وهو قريب من حيث تحقق وقوعه وكونه آت لا محالة، وكل آت قريب.

قرأ حفص: ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾ بياء الغيبة، وقرأ الباقون: ﴿نُؤْتِيهِمْ﴾ بنون العظمة.

﴿أُجُورَهُمْ﴾، أي: ثواب أعمالهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وسمى ثوابهم أجرًا؛ لأنه- عز وجل- تكفل به وضمنه لهم، وأوجبه على نفسه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: «كان»: مسلوبة الزمن، ﴿غَفُورًا﴾: ذا مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]

﴿رَّحِيمًا﴾: ذا رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الفوائد والأحكام:

١- أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: في أسفل النار وأشدها عذابًا، تحت سائر الكفار؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بالله ومعاداة رسله وبين المكر والمخادعة لله تعالى وللمؤمنين.

٢- إثبات النار وأنها دركات بعضها تحت بعض.

٣- أنه لا ناصر للمنافقين يدفع عنهم عقاب الله في الدنيا وعذابه في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

٤- أن المنافقين أشد عذابًا من أهل الكفر الظاهر، لأن الله إنما توعد أهل الكفر الظاهر بالنار بينما توعد المنافقين بالدرك الأسفل من النار، فهم أشد الناس عذابًا، كما أنهم أشدهم كفرًا؛ ولهذ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

٥- خطر النفاق ووجوب الحذر منه ومن أهله.

٦- أن من تاب من المنافقين قبلت توبته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآية.

٧- أن من تمام التوبة وتحقيقها إصلاح التائب ما كان عليه من الفساد والاعتصام بالله تعالى وإخلاص الدين لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

٨- أن من تاب من المنافقين واتصف بالصفات الأربع فهو مع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٩- فضل الله- عز وجل- ونعمه على عباده حيث يقبل توبة من تاب إليه حتى ولو كان من المنافقين المخادعين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

١٠- الترغيب في التوبة والإصلاح والاعتصام بالله تعالى وحده، والإخلاص لله تعالى وحده، وأنها من صفات المؤمنين.

١١- أن من لم يتب من النفاق ولم يصلح حاله وعمله ولم يعتصم بالله ولم يخلص دينه لله فليس مع المؤمنين؛ لمفهوم الآية.

١٢- وعد الله المؤمنين وبشارته لهم بالأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

١٣- تكفل الله- عز وجل- بهذا الثواب للمؤمنين وضمانه لهم، لهذا سماه «أجرًا».

١٤- عظم ما أعده الله للمؤمنين من الأجر، لأن الله وصفه بقوله: ﴿عَظِيمًا﴾، فهو عظيم من حيث كمه وكيفه ونوعه وغير ذلك، ولا يقدر قدر عظمته إلا من منحه لهم، ووصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

١٥- أن هذا الأجر العظيم يعطيه الله لكل مؤمن بدليل الإظهار مقام الإضمار فلم يقل: «وسوف يؤتيهم»، بل أظهر فقال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ليشمل

ذلك جميع المؤمنين.

١٦- أن الله سبحانه غني عن عذاب الخلق إذا شكروا وآمنوا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

١٧- تمام عدل الله- عز وجل- فلا يعذب إلا من كفر ولم يؤمن ولم يشكر.

١٨- أن الله- عز وجل- لم يخلق الخلق؛ ليعذبهم، وإنما خلقهم؛ ليعبدوه فيثيبهم ويرحمهم لكن من كفر ولم يشكر ولم يؤمن فهو الذي اختار لنفسه عذاب الله.

١٩- إثبات صفة الشكر لله تعالى، وأنه سبحانه يشكر من يستحق الشكر من عباده ممن شكروه وقاموا بطاعته وآمنوا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾، فيضاعف ثواب العاملين الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويحسن للمحسنين ويزيدهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

٢٠- أن الله- عز وجل- ذو علم واسع يسع كل شيء، فيعلم من يستحق الشكر من غيره، ويعلم المظلوم ممن جهر بالسوء من القول من غيره، ويعلم كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمًا﴾.

٢١- أن الله- عز وجل- لا يحب الجهر بالسوء من القول؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

٢٢- إثبات صفة المحبة لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾، فهو يحب عدم الجهر بالسوء، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

٢٣- كراهية الجهر بالسوء من القول وحرمته؛ لأن الله تعالى لا يحبه بل يبغضه.

٢٤- محبة الله تعالى للجهر بالحسن من القول؛ كالذكر والكلام الطيب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

٢٥- جواز الجهر بالسوء من القول ممن ظلم لرفع ظلامته، وأن محبة الله تعالى لا تنتفي عنه، ما لم يعتد؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وفي الحديث: «**المستبان ما قالا فعلى**

البادي منهما ما لم يعتد المظلوم»(١).

٢٦- سمو مبادئ الإسلام، فنهى عن الجهر بالسوء لتبقى الأخوة والصلة الطيبة بين المؤمنين، ورخص للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول لرفع ظلامته وإنصافه وإعطائه حقه.

٢٧- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي يسع جميع الأقوال والأصوات، والعلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

٢٨- في ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ وعيد لمن جهر بالسوء من غير ظلامة بأن الله يسمع جهره ويعلم اعتداءه، كما أن فيه طمأنة لمن جهر بالسوء لرفع ظلم وقع عليه بأن الله يسمع جهره ويعلم عذره وسينصره.

٢٩- الترغيب في الخير سواء أبدي أو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾، أي: إن تبدوا خيرًا أو تخفوه تثابوا عليه.

٣٠- جواز إبداء الخير وإظهاره، وقد يكون ذلك خيرًا من إخفائه؛ لأن الله تعالى قدمه فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾، وأيضًا فإن في إظهاره ترغيبًا فيه وتشجيعًا عليه، وفي الحديث: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**»(٢).

وقد يكون الإخفاء أولى؛ لأنه أقرب للإخلاص، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وفي حديث السبعة: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(٣).

ولا شك أن الاخفاء أفضل إلا إذا ترتب على الإظهار مصلحة واضحة(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب- النهي عن السباب (٢٥٨٧)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨١)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣)، ومسلم في الزكاة- فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) والناس في هذا على نقيضين: منهم من يكاد يحرم إظهار الصدقة، مهما ترتب على ذلك من مصالح، وقد يكون =

٣١- الترغيب في العفو عمن أساء، فمن عفا عفا الله عنه وآجره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾؛ وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال ﷺ: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا**»(١) وقال ﷺ لعقبة بن عامر: «**يا عقبة بن عامر صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك**»(٢).

٣٢- إثبات صفة العفو لله تعالى، وأنه سبحانه ذو العفو الواسع العظيم عن ذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾، فلا يستعظمه ذنب أن يعفو عنه ويعفره ما عدا الشرك.

٣٣- إثبات صفة القدرة التامة لله- عز وجل- فهو سبحانه ذو القدرة التامة فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

٣٤- كمال عفوه عز وجل؛ لأنه عفو مع القدرة على الانتقام؛ لقوله تعالى: ﴿عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

٣٥- أن العفو بسبب العجز عن الانتقام لا يعد عفوًا، لكن من عفا عمن أساء إليه مأجور وإن كان لا يستطيع الانتقام.

٣٦- الإرشاد إلى التدبر والتأمل في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، ففي هذه الآية رغب في العفو ثم علل ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، أي: فاعفوا يعفو الله عنكم لأنه كان عفوًا قديرًا.

٣٧- تأكيد وتحقيق كفر من كفروا بالله ورسله، وأرادوا التفريق بين الله ورسله وآمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ

ذلك منه وسوسة وبخلًا. ومنهم من يبالغ في إظهارها، فيتصدق في الملأ، ولا يتصدق في الخفاء. والوسط خير. ولا شك أنه ما قامت كثير من الأعمال الخيرية إلا بسبب التنافس وتشجيع الناس بعضهم بعضًا.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨، ١٥٨)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾.

٣٨- أن الكفر بالرسل كفر بالله، كما أن الكفر ببعض الرسل كفر بالله وكفر بجميعهم؛ ولهذا قال تعالى في قوم نوح لما كذبوه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، فجعل تكذيبهم له تكذيبًا لجميع الرسل ممن لم يأتوا بعد.

٣٩- أن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون التفريق بين الله ورسله ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا طريقًا بين الإيمان والكفر، وهيهات لهم ذلك، فمن لم يؤمن بالله وبجميع الرسل فهو كافر.

٤٠- الوعيد والتهديد للذين يكفرون بالله ورسله ويريدون التفريق بين الله ورسله، ويؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

٤١- أن عذاب الكافرين يهينهم ويذلهم، فهو عذاب معنوي ينصب على القلوب ويهينها، كما أنه عذاب حسي يقع على الأبدان وتصطلى به في النار.

٤٢- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد بذكر ما أعد للكافرين من العذاب، وما أعد للمؤمنين من الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ الآية بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ الآية.

٤٣- أن من شروط الإيمان: الإيمان بالله ورسله وعدم التفريق بين أحد منهم في أصل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾.

٤٤- لا فرق بين الرسل عليهم الصلاة والسلام في أصل الإيمان بهم.

٤٥- فضل أمة محمد ﷺ فهم الموصوفون بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ الآية.

٤٦- أن الإيمان بالله أعظم أركان الإيمان؛ لهذا قدمه على الإيمان بالرسل؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ كما أن الكفر بالله أشد من الكفر بغيره من أركان الإيمان؛ لهذا قدمه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾.

٤٧- وعد الله تعالى للذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم بالأجور العظيمة

وتكفله بذلك وضمانه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ﴾.

٤٨- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾.

٤٩- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٗا﴾.

٥٠- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، الخطاب للنبي ﷺ خاصة، وفيه تشريف وتكريم له، ودلالة على ثبوت نبوته ورسالته.

﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى، والمراد بهم هنا اليهود، لأنهم هم الموجودون في المدينة، حيث تجمعوا فيها انتظارًا للنبي الموعود ظنًا أنه سيكون منهم، فلما بعث وكان من العرب كذبوه، وأنكروا رسالته؛ حسدًا منهم.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ بالمضارع؛ لاستحضار حالتهم العجيبة في هذا السؤال، أو لتجدد هذا السؤال منهم.

﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون النون وتخفيف الزاي: ﴿تُنزِلَ﴾.

وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي: ﴿تُنَزِّلَ﴾، والإنزال والتنزيل معناهما

واحد، لكن التنزيل قد يدل على نزول الشيء مفرقًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: مكتوبًا من عند الله، كما جاء موسى بالتوراة مكتوبة من عند الله تعالى، أي: إن كنت تريد أن نصدقك فأنزل علينا كتابًا من السماء مكتوبًا جملة واحدة كالتوراة.

وهذا غاية الظلم والعناد، فإن الرسول ﷺ بشر وعبد لله عز وجل ليس إليه أمر إنزال الكتاب.

كما أن هذا السؤال أيضًا في غاية الفساد، إذ ليس الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقًا، بل إن نزول الكتاب مفرقًا بحسب الأحوال دليل عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وهذا السؤال منهم على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد؛ بدليل قوله تعالى بعده: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ الآية.

وهذا كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، الفاء: عاطفة، والجملة معطوفة على مقدر يدل عليه السياق، أي: فلا تعجب ولا تستكثر فليس بغريب من أمرهم هذا السؤال.

فإن هذه شنشنة قديمة لأسلافهم فقد سألوا رسولهم موسى عليه السلام الذي جاءهم بالتوراة من عند الله.

﴿أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، أي: أعظم مما سألوك ومما طلبوه منك من إنزال كتاب عليهم من السماء، وأعجب وأغرب، وأدل على جرأتهم على الله، وشدة عنادهم وكفرهم.

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ قرأ ابن كثير والسوسي ويعقوب بإسكان الراء: «أرْنا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿أَرِنَا﴾.

﴿جَهۡرَةً﴾، أي: عيانا نعاينه، وننظر إليه لكي نصدقك، قالوا هذا بعدما كلم الله- عز وجل- موسى عليه السلام، ومع ذلك لم يصدقوه، بل قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾، وهذا عدوان عظيم وجرأة على الله عز وجل، وهو سوء أدب مع موسى عليه السلام؛ إذ رؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة حتى الأنبياء- عليهم السلام- لا يمكن أن يروه؛ ولهذا لما قالت عائشة- رضي الله عنها- لرسول الله ﷺ بعد أن أسري به، هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»(١)؛ ولهذا قالت رضي الله عنها: «من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»(٢).

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، الفاء: للترتيب والتعقيب تدل على سرعة عقوبة الله لهم بعد سؤالهم، ﴿بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾، الباء: للسببية، أي: فصعقوا وأهلكوا وماتوا بسبب ظلمهم وبغيهم وعنادهم واعتدائهم في السؤال بقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

إلا أن موسى- عليه السلام- لما أخذتهم الصاعقة سأل الله تعالى أن يحييهم، قال تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فأحياهم الله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، «ثم»: للعطف والترتيب الذكري مع التراخي.

و﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ تنصب مفعولين؛ الأول هنا: «العجل»، والثاني محذوف، تقديره:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٨٢)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٤)، ومسلم في الإيمان (١٧٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٨).

«إلهًا» أي: ثم جعلوا العجل إلهًا معبودًا لهم، وذلك بعد ذهاب موسى لمناجاة ربه- عز وجل- ولم يردعهم أخذ الصاعقة لهم.

والعجل: ليس حيوانًا بل هو جماد صنعوه من حلي استعاروه وجمعوه وجعلوه على شكل العجل، وجعلوا داخله مجوَّفًا، وجعلوا له ثقبًا في رأسه وفتحة في دبره، فإذا استدبرته الريح دخلت هذا المجوف من ثقب واسع، وخرجت من ثقب ضيق، فكان له صوت كخوار الثور، وبهذا استغل السامري جهل بني إسرائيل، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى ولكن موسى قد ضل عنه.

قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَٰحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨- ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ

فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٣- ٩٨].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، «ما»: مصدرية، أي: من بعد ما جاءتهم الآيات البينات: الآيات الشرعية الدالة على وحدانية الله تعالى ونفي الشرك، والآيات الكونية التي أيد الله بها موسى عليه السلام، ومن هذه الآيات أخذ الصاعقة لهم وغير ذلك.

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾، الفاء: عاطفة، و«العفو»: التجاوز وعدم المؤاخذة على الذنب والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾: تعود إلى أقرب مذكور، وهو اتخاذهم العجل، أي: ثم تابوا عن عبادتهم العجل فعفونا عن ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ۚ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١- ٥٦].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ الواو: عاطفة، و«آتى» تنصب مفعولين؛ الأول هنا «موسى»، والثاني: «سلطانا» أي: حجة وبرهانًا.

﴿مُّبِينًا﴾: صفة لـ﴿سُلْطَٰنًا﴾، أي: بينا في نفسه، ومبينا للحق، والمعنى: وأعطينا موسى سلطانًا مبينًا شرعيًا بالآيات والبراهين الشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وسلطانًا كونيًا بالمعجزات والآيات الكونية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وبنصرة وتأييده على من خالفه.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ الواو: عاطفة، أي: ورفعنا فوق بني إسرائيل، أي: فوق رؤوسهم الطور، وهو جبل طور سيناء بين فلسطين ومصر.

وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، وهو الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وهو الذي أقسم الله تعالى به في مطلع سورة الطور، قال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١، ٢]، وأقسم به تعالى في مطلع سورة التين فقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ١، ٢].

هذا الجبل العظيم اجتثه الله تعالى من الأرض ورفعه فوق رؤوس بني إسرائيل تهديدًا وتخويفًا لهم، إن لم يأخذوا ما آتاهم الله تعالى في التوراة على لسان موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾، الباء: للمصاحبة، والميثاق: العهد المؤكد، أي: مصحوبًا بأخذ الميثاق عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، الواو: عاطفة، والمراد بـ «الباب» باب بيت المقدس.

﴿سُجَّدًا﴾: حال، أي: وقلنا لهم ادخلوا الباب؛ أي: باب بيت المقدس حال كونكم سجدًا، أي: ساجدين شكرًا لله تعالى على النعمة.

والمراد بالسجود: السجود الحقيقي على الأعضاء السبعة.

وقيل: المراد به الذل والخضوع، والأظهر أن المراد به الأمران معًا.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا

وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

وقال تعالى ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢].

ومعنى ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، أي: حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد والنكول عنه.

فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: معطوف على ما قبله، قرأ أبو جعفر: «تعْدُّوا» بإسكان العين وتشديد الدال، وقرأ ورش بفتح العين مع تشديد الدال: «تعَدُّوا»، وقرأ الباقون بإسكان العين وتخفيف الدال: ﴿تَعْدُوا۟﴾.

والعدوان والتعدي بمعنى واحد، وهو مجاوزة الحد المباح إلى ما لم يبح.

والمعنى: لا تعدوا ولا تعتدوا في السبت بصيد الحيتان وذلك أن الله حرم عليهم صيد السمك في يوم السبت فصارت الحيتان تأتي يوم السبت شرعًا، طافية على سطح البحر وبكثرة ابتلاءً لهم.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾: معطوف على ما قبله، والميثاق: العهد، أي: أخذنا منهم عهدًا.

﴿غَلِيظًا﴾، أي: شديدًا، مؤكدًا بأن يأخذوا ما آتاهم الله، ولا يعتدوا في السبت ولكنهم نقضوا الميثاق، ولم يقوموا بما أمروا به، واحتالوا على الصيد في السبت بوضع الشباك يوم الجمعة فتأتي الحيتان يوم السبت فتمسك بها هذه الشباك ويأخذونها يوم

الأحد، وبهذا يظهر الفرق بين أهل الكتاب وبين الأمة المحمدية، فإنهم لما نهاهم الله عن الصيد حال الإحرام امتثلوا واستجابوا.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، الفاء: عاطفة، والباء: للسببية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للتسبب.

ونقض الميثاق: نكثه وعدم الوفاء به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

ومتعلق ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ محذوف للتهويل، أي: فبما نقضهم ميثاقهم، وعدم أخذهم ما آتاهم الله واعتدائهم في السبت فعلنا بهم ما فعلنا أو لعناهم، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٤-٦٦].

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وبسبب كفرهم بآيات الله الشرعية والكونية، والمعجزات على أيدي الرسل، وتكذيبهم بها وجحودهم لها.

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وبسبب قتلهم الأنبياء بغير حق كزكريا ويحيى عليهما السلام وغيرهما؛ إمعانًا منهم في الصد عن دين الله، ولذا توعدهم بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

و«الأنبياء» جمع «نبي» مشتق من «النبأ» وهو الخبر الهام؛ لأنه مُنْبَأ ومخبَر من عند الله تعالى، ومنبِئ ومخبر لقومه.

ومشتق من النبوة، وهي: المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء- عليهم السلام- ذوو شرف ومكانة رفيعة عند الله وعند المؤمنين.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: هذا قيد لبيان الواقع، وليس للاحتراز، لأن قتل الأنبياء، لا يمكن أن يكون بحق.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وبسبب قولهم: قلوبنا غلف.

و«غلف»: جمع «أَغْلف»، والأغلف: هو الذي عليه غلاف، لا يصل إليه شيء، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، وكما قال تعالى عن مشركي مكة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

والمعنى: قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه ما تقول.

﴿بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: ليست قلوبهم غلفًا كما قالوا، بل طبع الله عليها، أي: ختم الله عليها بسبب كفرهم، فلا يصل إليها الخير والهدى، ولهذا قال:

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، الفاء: عاطفة، و«إلا»: أداة حصر، «قليلا» صفة لمصدر محذوف، أي: إلا إيمانًا قليلًا، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، أي: لا يؤمنون إلا عدما، أو إيمانًا قليلًا، ينقدح في القلب ثم سرعان ما ينطفئ.

ويحتمل كونه نعتًا لزمان محذوف، أي: زمانًا قليلًا، وقيل: إلا قليلًا منهم كعبدالله بن سلام وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾: معطوف على ما قبله، وكرر للتوكيد وتهويلًا لأمر الكفر، أي: وبسبب كفرهم.

﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾، أي: وبسبب قولهم على مريم بهتانًا عظيمًا.

وهي مريم ابنة عمران وأخت هارون أم نبي الله عيسى عليه السلام ولهذا ينسب إليها، فيقال: عيسى ابن مريم؛ لأن الله خلقه منها بلا أب. وأبوها عمران ليس هو أبا

موسى عليه السلام، وهارون أخوها ليس هو أخا موسى؛ لأن موسى وهارون- عليهما السلام- قبل مريم بسنين طويلة.

عن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «**إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**»(١).

﴿بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾، أي: كذبًا عظيمًا باتهامها بالزنا، وقولهم: «إنها كانت بغيًا»: أي: زانية، عياذًا بالله، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾.

فقولهم: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾، أي: جئت أمرًا عظيمًا ويقصدون بذلك أنها ارتكبت فاحشة الزنا؛ ولهذا قالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾، أي: ما كان أبوك معروفًا بالسوء والشر، ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾، أي: وما كانت أمك معروفة بالبغاء، أي: الزنا. فكيف وقع منك هذا، ومن أين جاءك فأبوك بعيد عن السوء، وأمك طاهرة.

وهكذا اتهم يوسف- عليه السلام- بالسوء، كما رمى المنافقون عائشة- رضي الله عنها- بالإفك.

قوله تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾.

قوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وبسبب قولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم.

و﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾: لقب عيسى عليه السلام؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، فيبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله عز وجل.

و﴿عِيسَى﴾: اسمه، ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾: كنيته، ونسب إلى أمه؛ لأنه خلق من غير أب.

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب- النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب (٢١٣٥)، والترمذي في التفسير (٣١٥٥).

وذكروه بلقبه واسمه وكنيته من باب التوكيد، أي: إنا قتلنا عيسى ابن مريم بنفسه وشخصه وعينه، لا غيره.

﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: هذا يحتمل أن يكون من قول الله تعالى تشريفًا وتكريمًا لعيسى عليه السلام وإثباتًا لرسالته، وأنه لا يستحق أن يقتل.

ويحتمل أن يكون من تتمة قولهم من باب الهتكم والاستهزاء به- يعني الذي يزعم أنه رسول الله، كما قال مشركوا مكة للنبي ﷺ: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، فهذا منهم من باب التهكم به ﷺ؛ إذ كيف ينادونه بالذي أنزل عليه الذكر، ثم يقولون: إنك لمجنون؟!

وكما في قول أهل مدين لشعيب عليه السلام: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، الواو: استئنافية، و«ما»: نافية، وهذا نفي لقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فنفى عز وجل ما ادعوه من قتلهم لعيسى عليه السلام وأكذبهم في ذلك.

﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: نفي لكونهم صلبوه؛ لأنهم يزعمون أن عيسى صلب ثم طعن برمح في قلبه. وقد طوى في الآيات ذكر دعواهم صلبه واكتفى بنفيه.

والصلب: أن يربط المصلوب قائمًا على خشبة، وتربط يداه على خشبة ممدودتان يمينًا وشمالًا، وقد يكون الصلب بعد القتل، وقد يكون قبله ويترك حتى يموت، أو يعجل بقتله فيطعن برمح ونحو ذلك.

﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾، الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك.

﴿شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾، أي: أُلقي شبهه على رجل غيره فتنة لهم فقتلوه وصلبوه ظنًا منهم أنه عيسى عليه السلام.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن عيسى عليه السلام خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلًا من الحواريين، فقال: أيكم يلقى عليه شبهي، فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا، فقال له:

اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنت هو ذاك، فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه وصلبوه»(١).

قال ابن كثير(٢): «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه، وكذا غير واحد من السلف أنه قال لهم: «أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، وهو رفيقي في الجنة».

فالثابت الذي لا شك فيه أن اليهود لم يتمكنوا من قتل عيسى عليه السلام وصلبه، وإنما شبه لهم رجل غيره فقتلوه وصلبوه، وأما عيسى- عليه السلام- فحفظه الله تعالى منهم ورفعه إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وهم اليهود اختلفوا فيه فيما بينهم، وتبعهم في هذا الاختلاف النصارى، حيث سلم أكثر النصارى لليهود في دعواهم قتل عيسى وصلبه، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾، و﴿مِّنْهُ﴾ يعود إلى شأن عيسى عليه السلام، فمنهم من يقول: إنه قتل وصلب، ومنهم من يقول: لم يقتل ولم يصلب، وإنما قتل وصلب شبهه.

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، اللام: للتوكيد، أي: وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى، فقال بعضهم: قتلناه، وقال بعضهم: لم نقتله، وإنما قتلنا شبهه ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، أي: من قتله وعدمه.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: ما لهم بقتله من علم.

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ الاستثناء: منقطع، و«إلا» بمعنى «لكن» أي: لكن يتبعون فيه الظن، والظن لا يغني من الحق شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١١٠).

(٢) في تفسيره (٢/ ٤٠١).

وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

والظن: الشك والوهم والحدس والتخمين، وهو ما يقابل العلم واليقين، بدليل قوله قبل هذا: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، وقوله بعده: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾: الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، والضمير الهاء يعود إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿يَقِينًۢا﴾: مصدر في موضع الحال، أي: وما قتلوه متيقنين قتله، ولكنهم في شك منه، وهذا يتناسب مع قوله قبل هذا: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾.

ويحتمل أن يكون ﴿يَقِينًۢا﴾: مؤكدًا للنفي، أي: وما قتلوه قتلًا يقينًا مؤكدًا، أي: أنفي قتله نفيًا يقينًا مقطوعًا به، وهذا أولى. و«اليقين»: العلم الجازم الذي لا يحتمل الشك.

وإنما أكد عز وجل نفي قتله فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾؛ لدحض ما يثبه اليهود وينشرونه من دعوى قتلهم له، ولئلا يكون ذلك ملتبسًا على المسلمين.

قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

«بل»، للإضراب: الإبطالي، فيها إبطال لقوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

أي: بل رفعه الله حيًا إليه في السماء، فهو في السماء الثانية كما جاء في حديث الإسراء أن النبي ﷺ حين عرج به إلى السماء وجد في السماء الثانية عيسى عليه السلام قال ﷺ: «**ثم مررت بعيسى فقال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح**»(١).

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ فالمعنى- والله أعلم- إني متوفيك بالنوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فعندما أراد الله رفعه ألقى عليه النوم.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩)، ومسلم في الإيمان (١٦٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك إليَّ، ويحتمل أن التقدير: إني رافعك إليَّ ومتوفيك؛ لأن عيسى ينزل في آخر الزمان ثم يتوفاه الله بعد ذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾، الواو: عاطفة، و«كان»: مسلوبة الزمن، أي: وكان الله وما زال عزيزًا حكيمًا.

﴿عَزِيزًا﴾، أي: ذا العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمًا﴾: خبرًا ثانيًا لـ«كان»، أي: ذا الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذا الحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

وفي اقتران هذين الوصفين كمال العزة، وكمال الحكم والحكمة في حقه- عز وجل- يزداد كمالًا إلى كمال.

ومن عزته- عز وجل- التامة، وحكمه التام النافذ، وحكمته البالغة أن حال بين اليهود وبين ما يريدون من قتل عيسى عليه السلام، ورفعه إليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، الواو: استئنافية، و«إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته.

و«إن»: تأتي نافية كثيرًا في القرآن الكريم، وغالبًا ما إذا كانت بعدها «إلا»، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٢]، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: اليهود والنصارى، ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾، «إلا»: أداة استثناء، والمستثنى منه محذوف، والتقدير: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، واللام في قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾: لام القسم، والفعل «يؤمنن»: مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ﴿بِهِۦ﴾، أي: بعيسى عليه السلام.

﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الضمير كالذي قبله يعود إلى عيسى عليه السلام، أي: وما من أحد

من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسى عليه السلام بعد نزوله في آخر الزمان وقبل موته عليه السلام، وذلك أن عيسى- عليه السلام- سوف ينزل في آخر الزمان، كما قال ﷺ فيما رواه أبوهريرة رضي الله عنه: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبوهريرة: واقرؤوا إن شئتم:** ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾»[1].

وفي رواية: «**يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، يقتل الدجال ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين**»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات»[2].

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ يعود إلى «أحد» المقدر، أي: ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضره الموت وعاين الملائكة وعرف الحق من الباطل آمن بعيسى عليه السلام.

وقيل: الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ يعود إلى محمد ﷺ.

قال الطبري[3] بعد ذكر هذه الأقوال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى».

وقال ابن كثير[4] بعد أن ذكر قول الطبري: «ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك».

وقال أيضًا: «وأما من فسر هذه الآية بأن المعنى: أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما السلام فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره يتجلى

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٨).

(٢) أخرجها مسلم في الإيمان (١٥٥).

(٣) في جامع البيان (٧/ ٦٧٢).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٤٠٥، ٤٠٦).

له ما كان جاهلًا به فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيمانًا نافعًا إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] إلى أن قال: لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى».

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، أي: ويوم القيامة يكون عيسى- عليه السلام- عليهم شهيدًا بإبلاغهم رسالة ربه، وعلى أعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض، كما قال عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: يوم البعث والحساب والجزاء على الأعمال، سمي بذلك لقيام الناس فيه من قبورهم وقيام الحساب والأشهاد فيه وقيام العدل الحقيقي فيه، وقيام الروح فيه والملائكة صفًا لا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾، الفاء: عاطفة، (بظلم): جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وقدَّم المتعلِّق؛ لإفادة الحصر، أي: ما حرمنا عليهم هذه الطيبات إلا بسبب ظلمهم، ونكر «ظلم» للتفخيم.

أي: فبسبب ظلم من الذين هادوا.

و«الظلم» في الأصل النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣].

وهو أيضًا وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، أي: من اليهود، وسمو الذين هادوا، وسموا اليهود من قولهم:

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: تبنا ورجعنا إليك من الكفر والشرك وعبادة العجل، واتبعوا دين «يهود» أحد أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولاد يعقوب عليه السلام.

﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، التحريم في اللغة: المنع والحظر.

والتحريم قسمان: تحريم كوني قدري، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

وتحريم شرعي، كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ومنه قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، أي: حرمنا عليهم تحريمًا شرعيًا.

﴿طَيِّبَٰتٍ﴾: صفة لموصوف محذوف، أي: أطعمة طيبات، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قيل: ويحتمل أن يكون التحريم قدريًا بمعنى أن الله تعالى سلطهم قدرًا على تحريم طيبات كانت لهم حلالًا والتشديد على أنفسهم.

والطيب في الأصل: ضد الخبيث، فيطلق الطيب على الحلال، وعلى الجيد، وعلى الطاهر، كما يطلق الخبيث على المحرم، وعلى الرديء، وعلى النجس.

ومعنى ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾، هنا أي: أطعمة طيبات، أي: جيدة طاهرة، فيحمل طيبات على معنى «الجيد» و«الطاهر» دون معنى «الحلال»؛ لقوله بعد ذلك: ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ فلو حمل على هذا المعنى لكان التقدير فبظلم الذين هادوا حرمنا عليهم أطعمة حلالًا أحلت لهم، فيكون فيه تكرار، والأولى عدمه.

﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، بني الفعل «أحلت» لما لم يسم فاعله؛ لأن المحلل معلوم وهو الله عز وجل، أي: كانت لهم حلًا، أي: أحلها الله لهم قبل ظلمهم.

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾: هذه الجملة وما بعدها معطوفة على «ظلم» في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: أشبه بعطف الخاص على العام؛ لأن الصد عن سبيل

الله وأخذ الربا، وأكل أموال الناس بالباطل كل ذلك من الظلم، والباء في قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾: للسببية، أي: وبسبب صدهم عن سبيل الله كثيرًا، وهذا هو السبب الثاني من أسباب تحريم طيبات أحلت لهم عليهم.

والفعل «صد»: يحتمل أن يكون لازمًا، بمعنى صد بنفسه عن الأمر، أي: أعرض عنه، ويحتمل أن يكون متعديًا بمعنى: صد غيره عن الأمر، أي: صرفه عنه، والأمران واقعان من اليهود فقد صدوا وأعرضوا بأنفسهم عن سبيل الله كثيرًا، وصدوا كثيرًا من الخلق وصرفوهم عن سبيل الله، بتحريفهم الكتب وتكذيبهم الرسل وقتلهم.

و«سبيل الله»: طريقه وشرعه ومنهجه الذي شرعه لعباده، كما قال تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهو السبيل والطريق الموصل إلى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

﴿كَثِيرًا﴾: صفة لمصدر محذوف، أي: صدودًا كثيرًا، وهذا على اعتبار «صد» لازمًا أو صفة لمفعول «صد» المحذوف، أي: وبصدهم عن سبيل الله خلقًا كثيرًا، وهذا على اعتبار «صد» متعديًا، وهذا الوصف لبيان الواقع فلا مفهوم له، فمن صد عن سبيل الله قليلًا، فله نصيبه من الذم، لكن غاية الذم لمن صد عن سبيل الله كثيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾: معطوف على ما سبق دون إعادة حرف الجر، وهذا هو السبب الثالث من أسباب تحريم بعض الطيبات عليهم.

ولم يقل: «وأكلهم الربا»- والله أعلم- لأن الأخذ أعم، فيعم الأكل وسائر الانتفاعات بالربا، فكل ذلك مما نهى الله عنه.

وأيضًا قد يكون من أسباب التعبير بالأخذ قوله بعد ذلك: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ للمغايرة بين التعبيرين، وليؤخذ منهما معًا النهي عن الأخذ وعن الأكل.

و«الربا» في اللغة: الزيادة، وفي الشرع: الزيادة في أشياء مخصوصة.

وهو ينقسم إلى قسمين: ربا الفضل وهو ربا التفاضل بين الأجناس الربوية، وربا النسيئة وهو بيع بعضها ببعض مؤجلًا(١).

﴿وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنهم قد نهوا عنه، وقد للتحقيق، والنهي في الأصل يقتضي التحريم، أي: وقد نهاهم الله عنه، وحرمه عليهم.

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: معطوف على ما سبق، وهذا هو السبب الرابع من أسباب تحريم بعض الطيبات عليهم أكلهم أموال الناس بالباطل وهو أعم من الربا.

ويأتي التعبير بالأكل؛ لأنه الهدف الأهم من جمع المال، وهو كما يقال: كسوة الباطن، وإلا فسائر الانتفاعات بالمال لا تجوز إذا أخذ بالباطل.

﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾، الأموال: جمع مال، وهو: اسم لكل ما يتمول، أي: لكل ما يملك من نقد أو عين، من عقار أو أثاث أو مراكب أو غير ذلك.

﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾، الباطل: ما ليس بحق، وأكل الأموال بالباطل: أخذها بغير حق، بالسحت والرشوة والربا والقمار وغير ذلك.

فهذه الجمل الثلاث وهي قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: معطوفة على «ظلم» في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ والعامل فيها جميعًا هو قوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾، أي: فبسبب ظلمهم حرمنا عليهم، وبسبب صدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل حرمنا عليهم تلك الطيبات.

وقيل: العامل محذوف، والتقدير: وعذبناهم بسبب صدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، الواو: عاطفة، أي: وأعددنا وهيأنا وجهزنا، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا

---

(١) سبق الكلام مستوفى على هذا في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

أَلِيمًا ﴾، أي: وأعددنا للكافرين من أهل الكتاب عذابا مؤلمًا موجعًا حسيًا للأبدان ومعنويًا للقلوب.

وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: «وأعتدنا لهم» بل قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وليشملهم هذا العذاب وغيرهم من الكافرين، ولبيان علة تعذيبهم وهي الكفر.

قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

ذم الله- عز وجل- أهل الكتاب في الآيات السابقة بسبب تعنتهم وعنادهم وظلمهم وكفرهم وما ارتكبوه من الموبقات وتوعدهم بالعذاب الأليم، ثم استدرك واستثنى منهم الراسخين في العلم والمؤمنين فمدحهم وأثنى عليهم ووعدهم بالأجر العظيم.

قوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ «لكن»: حرف استدراك، و«الراسخون»: جمع راسخ، والرسوخ: الثبات، والراسخ في العلم: الثابت فيه المتمكن منه، والمراد بالعلم علم معرفة الله تعالى وشرعه.

﴿مِنْهُمْ﴾، أي: من الذين هادوا كعبدالله بن سلام- رضي الله عنه- وغيره.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾، ويحتمل أن يكون من عطف الصفات، فيكون المعنى لكن الراسخون في العلم من الذين هادوا والمؤمنون منهم.

ويحتمل أن يكون العطف هنا من عطف الذوات فيكون المراد بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: والمؤمنون من هذه الأمة.

فيكون في الآية مدح للراسخين من الذين هادوا ومدح للذي آمنوا من هذه الأمة، وهذا أقرب وأظهر وأقوى.

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: يصدقون ويقرون بالذي أنزل إليك، والخطاب للنبي ﷺ، أي: بالذي أنزل الله إليك من الوحي في القرآن والسنة، وينقادون لذلك.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: ويؤمنون بالذي أنزل من قبلك من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، الواو: عاطفة، ونصب «المقيمين» على المدح، والتقدير وأمدح المقيمين الصلاة: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧].

أي: والمقيمين الصلاة فرضها ونفلها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله بأفعال وأقوال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواو: عاطفة أو للاستئناف، «المؤتون»: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: «هم»، وقد قطع عما قبله للمدح أيضًا.

أي: والمعطون الزكاة لمستحقيها، وهي النصيب المقدر في أموالهم.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، **وفي الشرع**: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص.

فجمعوا بهذا بين الإحسان في عبادة الله تعالى، والإحسان إلى عباد الله.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: معطوف على ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ والإيمان بالله يتضمن أمورًا أربعة: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: يوم القيامة، يوم البعث والحساب والجزاء على الأعمال، أي: والمؤمنون بالله واليوم الآخر؛ رجاء في وعد الله وثوابه وخوفًا من وعيده وعقابه، كما قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١، الممتحنة: ٦].

وسمي يوم القيامة باليوم الآخر، لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

وكثيرًا ما يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله في القرآن الكريم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحفز ويحمل على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قرأ حمزة وخلف بياء الغيبة «سيؤتيهم»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ على الالتفات من الغيبة إلى التكلم، وهي أبلغ؛ لأن فيها تكفلًا صريحًا من الله- عز وجل- بهذا الأجر، وإضافة الشيء إلى النفس أبلغ من إضافته إلى الغائب، والمعنى: سيعطيهم ربهم، أو سنعطيهم نحن.

﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثانٍ لـ«يؤتي» أو لـ«نؤتي»، والأول: الضمير «هم».

ومعنى: ﴿أَجْرًا﴾، أي: ثوابًا، وهي الجنة وما فيها من ألوان النعيم، وسُميَ الثواب أجرًا؛ لأن الله تكفل به وضمنه.

﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ﴿أَجْرًا﴾، أي: عظيمًا من حيث نوعه وكمه، وكيفه، وغير ذلك، لا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه- عز وجل- أنه قال: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- شدة تعنت أهل الكتاب وعنادهم ومحادتهم لله تعالى ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾.

فقد تعنتوا على موسى- عليه السلام- وأذوه وعلى كثير من رسلهم وقتلوا كثيرًا منهم كيحيى وزكريا، ووقفوا في وجه دعوة الرسول ﷺ وصدوا عنها وآذوه وهموا بقتله.

٢- تشريف الله تعالى وتكريمه للرسول ﷺ بخطابه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾.

٣- دفاع الله تعالى عن الرسول ﷺ، وتسليته، وتقوية عزيمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

٤- جرأة أهل الكتاب على الله تعالى وعدوانهم حيث سألوا أمرًا غير ممكن في الدنيا وهو رؤية الله تعالى.

٥- امتناع رؤية الله تعالى في الدنيا إذ لو كان ذلك ممكنًا لما شدد النكير على أهل الكتاب في سؤالهم ذلك، ولما أخذتهم الصاعقة ووصفوا بالظلم بسبب ذلك.

وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ قال تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ

---

(١) سبق تخريجه.

جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فرؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة، ولا يستطيع الخلق الثبات أمامها، فهذا الجبل لما تجلى له الرب عز وجل اندك، فكيف بابن آدم المخلوق الضعيف. وشتان بين سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه، فقد سأل ذلك شوقًا إلى الله تعالى ومحبة لرؤيته؛ ولهذا لم ينكر الله تعالى عليه، بل بيَّن له أن ذلك غير ممكن في الدنيا، ولا يستطيع الخلق الثبات أمامه.

بينما كان سؤال اليهود لموسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة من باب التعنت والعناد؛ ولهذا أنكر الله تعالى عليهم ذلك وعاقبهم بأخذ الصاعقة لهم بسبب ظلمهم.

٦- أنه كلما كان الذنب أعظم كان أسرع للعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، والفاء للترتيب والتعقيب، فأخذتهم الصاعقة في الحال عقب قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وفي الحديث: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(١).

٧- عظم قدرة الله تعالى ووجوب الحذر من شدة سطوته وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

٨- أن الظلم سبب لعقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾، أي: بسبب ظلمهم.

٩- إثبات الأسباب وتعليل الأحكام، وأن للأسباب أثرًا في حصول المسببات، وللحِكَم أثرًا في الأحكام الكونية والشرعية.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢١١)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

١٠- كمال عدل الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾، فلا يعاقِب أحدًا إلا بذنب.

١١- أن الله- عز وجل- أحيا بني إسرائيل بعد أن أخذتهم الصاعقة وماتوا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، أي: بعد أن أحياهم الله كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

١٢- ذم بني إسرائيل وتسفيههم حيث اتخذوا العجل إلهًا لهم من دون الله، من بعد ما جاءتهم الآيات البينات الكونية والشرعية الدالة على تحريم الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

١٣- قيام الحجة على الخلق بما جاءتهم به الرسل من الآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، فلا عذر لمن عصى وخالف رسل الله عن علم.

١٤- سعة عفو الله- عز وجل- وشموله، وعفوه عز وجل- عن بني إسرائيل بعد أن اتخذوا العجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾.

١٥- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه حيث تكلم عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه هو العظيم سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ والضمائر بعده

١٦- فضل الله- عز وجل- وامتنانه على موسى عليه السلام بما آتاه من السلطان والحجج والآيات البينات الكونية والشرعية، وتأييده ونصره على من خالفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

١٧- قوة الله- عز وجل- وعظم قدرته حيث اقتلع الطور ورفعه فوق رؤوس بني إسرائيل تخويفًا وتهديدًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾.

١٨- شدة عتو بني إسرائيل حيث لم يؤمنوا إلا بعد التخويف والتهديد، فلم يكن إيمانهم عن اختيار بل عن إكراه واضطرار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

١٩- قد يُستدل بقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ على مشروعية صلاة الفتح عند فتح البلاد، وشرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافه، بل قد جاء في شرعنا أنه

ﷺ لما فتح مكة صل ثماني ركعات ضحى في بيت أم هانئ[١].

فقال بعض أهل العلم: إن هذه صلاة الفتح؛ لأنه ليس من عادته ﷺ أن يصلي الضحى ثماني ركعات، وقال بعضهم: بل هي صلاة الضحى.

٢٠- ابتلاء الله تعالى لبني إسرائيل بتحريم صيد الحيتان عليهم يوم السبت؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾.

٢١- أخذ الله تعالى الميثاق والعهد المؤكد على بني إسرائيل على الأخذ بما آتاهم الله والقيام به؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

٢٢- نقض بني إسرائيل لما أخذ الله عليهم من الميثاق، وكفرهم بآيات الله واعتداؤهم في السبت، واحتيالهم على صيد الحيتان بوضع الشباك لها يوم الجمعة فإذا جاءت يوم السبت أمسكت بها الشباك وأخذوها يوم الأحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

٢٣- أن الله- عز وجل- لا يعاقب ولا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ الآيات، فعاقبهم ولعنهم بسبب نقضهم ميثاقهم وظلمهم وكفرهم وما ارتكبوه من الموبقات، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣]، وفي هذا- كما سبق- إثبات الأسباب وتعليل الأحكام.

٢٤- جرأة أهل الكتاب على قتل الأنبياء وشدة عداوتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٢٥- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وهذا قيد لبيان الواقع.

٢٦- إبطال دعوى اليهود أن قلوبهم غلف، وبيان أنه إنما طبع الله عليها بسبب كفرهم؛

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في الحيض (٣٣٦)، وأبوداود في الصلاة (١٢٩٠)، والنسائي في الطهارة (٢٢٥)، والترمذي في الصلاة (٤٧٤)، وابن ماجه (٦١٤)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

٢٧- أن الكفر سبب للطبع على القلوب؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٢٨- أن من طبع الله على قلبه قلّ أن يؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٢٩- فحش اليهود وخبثهم حيث رموا مريم عليها السلام بالزنا واعتبروا عيسى ولد زنا زورًا وبهتانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾، وقولهم: ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

٣٠- أن قذف المحصنات من أعظم البهتان؛ لقوله تعالى: ﴿بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾، بل إن قذف مريم عليها السلام يعتبر كفرًا؛ لأن فيه اعتبار نبي الله عيسى عليه السلام ولد زنا- والعياذ بالله، وأيضًا: فإن الله- عز وجل- برأها ومدحها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

فمن رماها بالزنا بعد أن برأها الله تعالى- كما يقول بعض اليهود- فهو كافر مكذب لله عز وجل.

٣١- زعم اليهود كذبًا وزورًا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

٣٢- أن عيسى عليه السلام لا أب له، لهذا ينسب إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وهكذا من لا أب له ينسب إلى أمه.

٣٣- في وصف عيسى- عليه السلام- وتلقيبه بالمسيح ثناء من الله تعالى ومنة عليه، لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برئ.

وفي نسبته عليه السلام كثيرًا في القرآن الكريم إلى أمه بينما لا ينسب غيره من الأنبياء ولا إلى آبائهم تذكير بعظيم قدرة الله تعالى حيث خلقه من أنثى بلا أب.

٣٤- يحتمل أن قوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ من كلام الله عز وجل، ففيه إثبات رسالة عيسى عليه السلام، وتشريفه وتكريمه بإضافته إلى الله تعالى.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ من كلام اليهود، فيكون هذا من باب التهكم به، أي: الذي يزعم أنه رسول الله؛ لأنهم ينكرون رسالته.

٣٥- إبطال دعوى اليهود أنهم قتلوا عيسى، وصلبوه وبيان أنه إنما شبه لهم رجل غيره فقتلوه وصلبوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

لكنهم قد باؤوا بإثم قتله؛ لقصدهم ذلك، بل ولإقرارهم على أنفسهم أنهم قتلوه، فهم في حكم من قتلوه، وإن كانوا لم يقتلوه واقعًا ويقينًا.

٣٦- حكمة الله تعالى وقدرته التامة حيث ألقى شبه عيسى على رجل غيره فظنه اليهود عيسى فقتلوه وصلبوه.

٣٧- اختلاف اليهود- هل قتلوا عيسى أم لا، خلافًا مَبْنيًا على الشك واتباع الظن بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾، وتبعهم في هذا النصارى فسلَّم أكثرهم لليهود بأنهم قتلوه.

٣٨- ذم تحكيم الشك واتباع الظن؛ لمنافاته للعلم، ولما يؤدي إليه من الوقوع في الخطأ والإثم؛ لقوله تعالى: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

٣٩- أن اليهود لم يكونوا متيقنين من قتل عيسى، ولم يقتلوه يقينًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

٤٠- إثبات رفع عيسى حيًا إلى السماء؛ لقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾.

٤١- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾.

٤٢- أن الله- عز وجل- ذو العزة التامة؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾.

٤٣- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة؛ الكوني والشرعي

والجزائي، وصفة الحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

٤٤- في اقتران تمام العزة والحكم والحكمة في حقه- عز وجل-- كمال إلى كمال.

٤٥- أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، أي: قبل موت عيسى عليه السلام، وذلك أنه ينزل في آخر الزمان ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويحكم بالإسلام.

ويحتمل أن المعنى: أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضره الموت آمن بعيسى، وهذا إيمان اضطرار لا اختيار فلا ينفع صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، والأحتمال الأول أولى وأظهر.

٤٦- أن الموت حق وهو سبيل كل حي من الخلق حتى الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

قال الشاعر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو عليّ طريقها

٤٧- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

٤٨- شهادة عيسى- عليه السلام- على قومه يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، وهكذا جميع الأنبياء يشهدون على أممهم، كما قال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

٤٩- تحريم بعض الطيبات على اليهود بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله كثيرًا وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ الآية.

٥٠- أن الظلم والصد عن سبيل الله وأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل والمعاصي سبب للحرمان من الخير والتضييق في الرزق، وفي الحديث: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

٥١- أن الأمر في التحليل والتحريم إليه سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا﴾.

٥٢- أن من أظلم الظلم الصد عن سبيل الله وأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وهذا معطوف على قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أشبه بعطف الخاص على العام.

٥٣- تحريم أخذ الربا وسواء كان للأكل أو للانتفاع به في غير ذلك، وأكل أموال الناس بالباطل وأن ذلك من أخص صفات اليهود مما يوجب الحذر من ذلك لما فيه من التشبه بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٥٤- قيام الحجة على اليهود وعلى غيرهم في تحريم الربا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾.

٥٥- أن المؤاخذة بالذنب لا تكون إلا بعد قيام الحجة، فمن ارتكب ذنبًا جاهلًا فلا مؤاخذة عليه، إذا كان ممن يعذر مثله بالجهل.

٥٦- شدة حرمة الربا للتنصيص عليه من بين طرق أكل أموال الناس بالباطل.

٥٧- التهديد الشديد والوعيد الأكيد لليهود المتصفين بهذه الصفات بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٥٨- التحذير من الاتصاف بالصفات المذكورة، وهي الظلم والصد عن سبيل الله، وأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وأنها من صفات الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٥٩- في الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون أن يقول: و«أعتدنا لهم» تسجيل على من اتصف بهذه الصفات جميعًا بالكفر، وأن العذاب يشملهم وغيرهم من الكافرين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

٦٠- أن النار مهيأة موجودة وعذابها معد الآن للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٦١- أن عذاب النار مؤلم موجع، حسيًا للأبدان، ومعنويًا للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿أَلِيمًا﴾.

٦٢- تمام عدل الله عز وجل. حيث أخرج الراسخين في العلم والمؤمنين من أهل الكتاب ممن وصفوا بالصفات المذكورة وتوعدوا بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

٦٣- ثناء الله تعالى على الراسخين في العلم والمؤمنين من أهل الكتاب، وعلى المؤمنين من هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

٦٤- أن من أركان الإيمان وواجباته الإيمان بجميع الرسل وما أنزل إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٦٥- الإشارة إلى أنه لا نبي بعد محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، ولم يقل: «من بعدك».

٦٦- أن من أعظم أركان الدين الظاهرة: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٦٧- وجوب الإيمان بالله، فهو أس الإيمان وأصل أركانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٦٨- أن المهم قد يقدم على الأهم؛ لأن الله قدَّم الإيمان بالكتب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على الإيمان بالله.

٦٩- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم أركان الإيمان؛ لهذا يقرن كثيرًا بالإيمان بالله؛ لأنه مما يحفز على العمل حيث فيه الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

٧٠- أن يوم القيامة آخر الأيام لا يوم بعده فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

٧١- وعد الله تعالى للمؤمنين من أهل الكتاب ومن هذه الأمة بالأجر العظيم؛ لقوله

تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

٧٢- رفعة شأن المؤمنين حيث أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

٧٣- تكفل الله- عز وجل- بثواب المؤمنين وضمانه لهم، لهذا سماه أجرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

٧٤- عظم ما أعد الله للمؤمنين من الأجر لتنكير «أجرًا» ووصفه بقوله: ﴿عَظِيمًا﴾، وإذا كان العظيم وصف هذا الأجر بالعظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا هو سبحانه وتعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة سؤال اليهود للنبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، كما جاء موسى بالتوراة تحديًا منهم وإنكارًا لرسالته ﷺ، فأخبر الله- عز وجل- في هذه الآية أنه أوحى إليه ﷺ كما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده وسائر الرسل، فلم يكن ﷺ بدعًا من الرسل، كما قال عز وجل: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، «إن»: مؤكدة لأهمية هذا الخبر، والرد على من ينكر رسالة النبي ﷺ، وتكلم- عز وجل- بضمير الجمع تعظيمًا لنفسه.

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، وهو في الشرع: إعلام الله تعالى أنبياءه، ورسله بشرعه الذي يتعبد به عباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]، وفي الحديث: «كيف يأتيك الوحي»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٣٣)، والنسائي في الافتتاح (٩٣٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: إنا أوحينا إليك يا محمد، وأعلمناك بما أرسلناك وتعبدناك به من الشرع.

﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، الكاف: للتشبيه، و«ما»: مصدرية، أي: كإيحائنا إلى نوحٍ والنبيين من بعده، ويحتمل كونها موصولة، أي: كالذي أوحيناه إلى نوح والنبيين من بعده.

و﴿نُوحٖ﴾: هو أول الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، كما في حديث الشفاعة: «**فيأتون إلى نوح فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض**»(١)؛ ولهذا قال:

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، أي: وكما أوحينا إلى النبيين من بعد نوح، وقد جعل الله تعالى النبيين بعد نوح كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، الواو: عاطفة، أي: وكما أوحينا إلى إبراهيم، وأعاد العامل «أوحينا»؛ لأن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء بعده، فكل من جاء بعده من الأنبياء هم من ذريته، وأيضًا تشريفًا له؛ لأنه أفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾، أي: وأوحينا إلى إسماعيل، وهو إسماعيل بن إبراهيم، الابن الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح، وهو أبو العرب، وإليه ينتهي نسب نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤].

﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾: هو ابن إبراهيم الثاني، ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾: هو يعقوب بن إسحاق، ولقب يعقوب: «إسرائيل»، ومعناه في اللغة العربية: «عبدالله»، وكل أنبياء بني إسرائيل من ذريته؛ ولهذا ذكرَ- والله أعلم- وهو ابن الابن، كما ذكر أبناؤه، وهم الأسباط؛ لأن أنبياء بني إسرائيل تناسلوا منهم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ قيل المراد بـ«الأسباط» قبائل بني إسرائيل، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وعلى هذا يكون المعنى: وأوحينا إلى أنبياء الأسباط، أو وأوحينا إلى الأسباط على ألسنة أنبيائهم.

وقيل المراد بـ: «الأسباط» أسباط إسحاق، أي: أحفاده، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر، يوسف وإخوته، كما قال عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

﴿وَعِيسَىٰ﴾: هو عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين نبينا محمد ﷺ نبي ولا رسول.

﴿وَأَيُّوبَ﴾: وهو الذي ابتلاه الله تعالى بالضر فصبر حتى صار يضرب به المثل بالصبر، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

﴿وَيُونُسَ﴾: هو يونس بن متى عليه السلام.

﴿وَهَٰرُونَ﴾: هو أخو موسى بن عمران عليهما السلام.

﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾: هو سليمان بن داود عليهما السلام.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: معطوف على ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، قرأ حمزة وخلف: «زُبورًا» بضم الزاي، وقرأ الباقون بفتحها ﴿زَبُورًا﴾.

أي: وأعطينا داود زبورًا. و(الزبور) الكتاب الذي أنزله الله تعالى على داود عليه السلام، فيه مواعظ مرققة للقلوب، وكان داود عليه السلام يترنم به، فتسمعه الطير، وتسبح معه، وكذلك الجبال.

وذُكر داود في الآية بعد سليمان مع أنه أبوه لأجل النص على الزبور الذي آتاه الله داود، وخصه بالذكر امتنانًا على داود وإشارة لفضله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية ثلاثة عشر نبيًا رسولًا.

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَرُسُلًا﴾، الواو: عاطفة «رسلا»: منصوب مفعول لفعل محذوف تقديره:

أرسلنا، أو قصصنا.

﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾، قد: للتحقيق، ﴿قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾، أي: أخبرناك بهم وبقصصهم، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل هذه الآية، أي: فيما نزل قبل ذلك؛ منهم آدم، وإدريس وهود، وصالح، ولوط، ويوسف، وشعيب، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وذو الكفل، وهؤلاء اثنا عشر نبيًا رسولًا، ويكملون مع من ذكروا في الآية السابقة- وهم ثلاثة عشر- خمسة وعشرين نبيًا رسولًا، وقد ذكر منهم ثمانية عشر في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الآيات: ٨٣- ٨٤ من سورة الأنعام].

قال الناظم:

في «تلك حجتنا» منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا[1]

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، أي: ورسلا كثيرين لم نقصصهم عليك في القرآن، فلم يخبره بأسمائهم ولا بأحوالهم وما جرى لهم مع أممهم اكتفاءً بمن قصهم عليه؛ لأنهم أعظم الرسل والأنبياء قصصًا وعبرًا، ممن كانوا في جزيرة العرب وحولها.

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا» قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير» قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا، ثم قال: يا أبا ذر أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح، وخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب، ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل: موسى، وآخرهم: عيسى. وأول النبيين: آدم وآخرهم: نبيك»[2].

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ الواو: استئنافية، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل، و﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول به.

---

(١) البيتان للبيجوري. انظر: «جوهرة التوحيد» ص١٨٥.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٢٢-٤٢٣) وفي إسناده متكلم فيه ومتهم بالوضع.

فالمتكلِّم هو الله عز وجل، والمكلَّم هو موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿تَكۡلِيمٗا﴾: مصدر مؤكد للفعل «كلم»، أي: كلم الله موسى وخاطبه مشافهة منه إليه، وفي هذا تشريف وتكريم لموسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ولهذا يقال له: «موسى كليم الرحمن»، وإنما أخر ذكر موسى في الآية- والله أعلم- لذكر ما خصه به من تكليمه- عز وجل- له.

قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾.

ذكر الله- عز وجل- أنه تعالى أوحى إليه ﷺ كما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده ممن قصهم الله تعالى في هذه الآية، وممن قصهم عليه من قبل، ورسلًا لم يقصصهم عليه، ثم ذكر في هذه الآية مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي: البشارة والإنذار وإقامة الحجة على الخلق.

قوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، و﴿رُّسُلٗا﴾: بدل من «رسلًا» الأول في قوله: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾.

أو حال، أي: حال كونهم رسلًا، أي: مرسلين مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿مُّبَشِّرِينَ﴾: صفة لـ﴿رُّسُلٗا﴾، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: معطوف على ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾ منصوب مثله.

و«البشارة»: الإخبار بما يسر، مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر استنار وجهه واتسعت بشرته، وفي حديث كعب بن مالك- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، قال: وكنا نعرف ذلك منه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

والإنذار: التحذير والتخويف مما يخاف منه، كما قال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله: «**مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قومًا، فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم**»(١).

وكما قال لقيط الإيادي في قصيدته «صرخة غيور» منذرًا قومه كسرى وجنوده(٢):

أبلغ إيادًا، وخلّل في سراتهم ... إني أرى الرأي إن لم يُعصَ قد نصعا
يا قومُ لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُرًا ... على نسائكم كسرى وما جمعا
هذا كتابي إليكم والنذير معًا ... لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل ... فاستيقظوا إن خيرَ العلم ما نفعا

والمعنى: مبشرين لمن آمن بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، ومنذرين لمن كفر بالنار والشقاء في الدنيا والآخرة، ومن لازم هذا تبليغ الرسالة، فالرسل مبشرون ومنذرون ومبلغون لرسالات الله ومكلفون بالعمل كغيرهم.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، ﴿لِئَلَّا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل ألا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، فلم يقل: «بعدهم»؛ للاهتمام، أي: بعد إرسال الرسل الذين بهم تقوم الحجة على الناس بتبليغهم رسالات ربهم وبيان ما نزل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

والمعنى: لإنذار الناس والإعذار منهم حتى لا يكون لهم على الله حجة إذا حرمهم الثواب وأخذهم بالعذاب؛ لأن من أنذر فقد أعذر، فلا يبقى عذر لمعتذر، ولا استعتاب لمستعتب، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- الانتهاء من المعاصي (٦٤٨٢)، ومسلم في الفضائل- شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٣)، ومعنى: «أنا النذير العريان» أي: الذي أعجله شدة ما يعاين من الشر عن لبس ثوبه؛ مبادرة في إنذار قومه فجاءهم عريانًا مسرعًا.

(٢) انظر: «ديوان لقيط» ص٤، «العبقريات» ٢/ ٢٢٢.

وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥].

وعن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين**»(١).

وفي حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل**»(٢).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ سبق الكلام عليه قريبًا.

ومناسبة تذييل الآيات بهذا بيان أنه سبحانه لعزته التامة، وحكمه العادل، وحكمته البالغة أرسل الرسل؛ لبيان الحق للناس وإقامة الحجة عليهم، والبشارة لمن أطاع منهم، والإنذار لمن خالف وعصى.

قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾.

أخبر عز وجل أنه أوحى إلى النبي ﷺ كما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده، وكما أوحى إلى إبراهيم والرسل من ذريته، وحيث كذب به من كذبه من أهل الكتاب والمشركين رد عليهم عز وجل في هذه الآية على طريق الاستدراك فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ ﴾، أي: إن كذبك هؤلاء وغيرهم فإن الله يشهد لك، وهو خير الشاهدين.

قوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ ﴾، «لكن»: حرف استدراك، أي: إن كذبك من كذبك وأنكر رسالتك، أو سيكذبك من يكذبك، وينكر رسالتك، لكن الله يشهد

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٦٠).

بالذي ﴿أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾، وهو القرآن الكريم، ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، أي: أنزله صادرًا عن علمه عز وجل، ومشتملًا على علمه الذي علم تعالى به عباده مما يصلح به أمر دينهم ودنياهم وأخراهم.

قال ابن القيم(١): «أي: أنزله وفيه علم لا يعلمه البشر».

أي: بعلمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من ذكر أسمائه وصفاته والأحكام الشرعية والكونية والجزائية والأخبار والغيوب السابقة واللاحقة وغير ذلك.

وشهادة الله- عز وجل- له ﷺ شهادة قولية بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، وشهادة فعلية بما أيده- عز وجل- به من الآيات الشرعية والكونية والنصر والتمكين.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾، أي: والملائكة يشهدون أيضًا بصدق ما جاءك وأنزل إليك، وأنه- عز وجل- أنزله بعلمه، وقد استشهدهم عز وجل هم وأهل العلم على وحدانيته، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ الواو: استئنافية، والباء: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للمعنى، ومحسنة للفظ، أي: كفى الله شهيدًا، و﴿وَكَفَىٰ﴾ بمعنى: حسب.

و﴿شَهِيدًا﴾: حال أو تمييز، أي: وكفى الله وحسبه شهيدًا على إنزاله القرآن إليك بعلمه، وحسبك شهادة الله- عز وجل- على صحة نبوتك وما أنزل إليك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، الكفر: الجحود والتكذيب، وهو ضد الإيمان، أي: إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بما شهد الله على إنزاله وبما أوجب الله الإيمان به.

﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: أعرضوا بأنفسهم عن طريق الله ودينه، وصدوا غيرهم عن ذلك، أي: حملوا غيرهم على الإعراض عن دين الله، بدعوتهم الناس

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٩٠).

للكفر، بأقوالهم وأفعالهم، وكونهم قدوة في الكفر.

﴿قَدْ ضَلُّوا﴾، الضلال: التيه عن الطريق السوي، وعن طريق الحق.

﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، ﴿ضَلَالًا﴾: مفعول مطلق، ﴿بَعِيدًا﴾: صفة لـ﴿ضَلَالًا﴾، وهي على وزن «فعيل» ضفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: بعيدًا بعدًا عظيمًا وشاسعًا عن الإيمان؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله، مع وضوح الحق وقوة دليله، وبهذا جمعوا بين الكفر والظلم؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة حال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وأنهم قد ضلوا ضلًا بعيدًا، ثم توعدهم في هاتين الآيتين بحرمانهم من مغفرته وهدايته وبتخليدهم في جهنم أبدًا.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾، أي: ظلموا بالكفر والاستمرار عليه، حيث تركوا عبادة الله تعالى وعبدوا غيره، وهذا أظلم الظلم، صرف العبادة لغير الله تعالى، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وظلموا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله تعالى وحرمانها من ثوابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

وظلموا غيرهم بصدهم لهم عن سبيل الله، وظلموا الرسول ﷺ والمؤمنين بأذيتهم لهم.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ﴾: لام الجحود والنفي، ومثلها اللام في قوله: ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾.

والمعنى: لم يكن الله ليوفقهم للتوبة حتى يغفر لهم بستر ذنوبهم والتجاوز عنهم، وليس المعنى: لم يكن الله ليغفر لهم إذا تابوا؛ لأن الله لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ولو كان ذلك الشرك أعظم الذنوب.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾، الواو: عاطفة، و«لا»: مؤكدة للنفي.

والمراد بالهداية هنا: هداية التوفيق، أي: ولا ليوفقهم، ﴿طَرِيقًا﴾: مسلكًا إلى الهدى في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، «إلا»: أداة استثناء، وهو استثناء: منقطع، أي: إلا سبيل جهنم، وفي هذا تهكم بهم، و﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعره وشدة حرها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، أي: ماكثين ومقيمين في جهنم، ﴿أَبَدًا﴾، أي: باستمرار، والأبد: الاستمرار في المستقبل.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما سبق من حرمان الذين كفروا وظلموا من مغفرة الله تعالى، وهدايته، وإدخالهم جهنم وتخليدهم فيها أبدًا.

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلًا هينًا على الله تعالى؛ لأنه- عز وجل- القوي العزيز القدير، الذي لا يعجزه شيء، ولا حسب ولا نسب بينه وبين أحد من الخلق، وإنما يجازي كلا بما عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، يا: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به، و«ها» للتنبيه، و«الناس»: صفة لـ«أي»، أو بدل منها.

﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، «قد»: للتحقيق، و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الذهن محمد ﷺ.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾، الباء: للمصاحبة، أي: مصاحبًا للحق، و«الحق»: الشيء الثابت ضد الباطل، أي: أن مجيئه ﷺ حق، وما جاء به حق، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي: من عند ربكم، خالقكم ومالككم ومدبركم ومربيكم بنعمه ربوبية عامة.

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾، الفاء: للتفريع، أي: فآمنوا بالرسول وبما جاء به من الحق، وانقادوا لذلك.

﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾، ﴿خَيْرًا﴾: منصوب على أنه خبر «يكن» المحذوفة، والتقدير: فآمنوا يكن خيرًا لكم، أي: يكن الإيمان خيرًا لكم من الكفر، خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم.

و﴿خَيْرًا﴾: اسم تفضيل، والكفر شر محض، لا خير فيه، والتفضيل قد يكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، أي: خير مستقرًا من أهل النار، والنار شر محض لا خير فيها.

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾، الكفر: ضد الإيمان، أي: وإن تكفروا بالرسول وبما جاءكم به من الحق.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وتقديره: فإن الله غني عنكم؛ لأن له ملك السموات والأرض، كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الآية: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وفي الآية أيضًا: تحذير وتهديد للمخاطبين بأنهم لن يفلتوا من عذاب الله.

وقدم الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ للدلالة على الاختصاص، أي: فإن لله تعالى خاصة ما في السموات والأرض، و«ما»: موصولة تفيد العموم، وغلب فيها غير العالم؛ لكثرته، أي: فإن لله جميع الذي في السموات والأرض.

والمعنى: وإن تكفروا فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم؛ لأن له ما في السموات

والأرض، أي: جميع ما في السموات والأرض.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ «كان»: مسلوبة الزمن أي: كان الله ومازال عليمًا حكيمًا، أي: ذا العلم الواسع المحيط بكل شيء، وذا الحكم العدل التام، الكوني والشرعي والجزائي، وذا الحكمة البالغة الغائية والصورية، في أقواله وأفعاله، في خلقه وشرعه وقدره، فهو- عز وجل- عليم بمن يستحق الهداية والغواية، حكيم في وضع كل منهما موضعها.

ومن علمه- عز وجل- الواسع وحكمه العدل وحكمته البالغة إرسال محمد ﷺ إلى الناس كافة بالحق من عنده عز وجل، وانقسام الناس تجاه دعوته إلى مؤمن به وكافر ليميز الله الخبيث من الطيب والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله عز وجل؛ لأنه تكلم عن نفسه بضمير الجمع في هذه الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطاب الله- عز وجل- له، وبيان أنه ليس بدعًا من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾.

٣- إثبات رسالة نوح عليه السلام، وأنه أول الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وأما أول نبي فهو آدم عليه السلام(١)، وأما ما قيل من أن إدريس كان قبل نوح فليس بصحيح، والأظهر أن إدريس من أنبياء بني إسرائيل.

٤- أن الوحي إلى جميع النبيين والرسل من جنس واحد؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾، فهو من حيث وصوله إلى الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الآية: ٢١٣].

وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٥١].

وهو من حيث الموحَى به يتفق من حيث الأصول في الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والتحذير من الشرك به، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

أما شرائع الأنبياء فتختلف حسب أحوال الأمم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أبناء علات ديننا واحد**»(١).

٥- إثبات رسالة إبراهيم عليه السلام ومن ذكر بعده في الآية من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾.

٦- إثبات رسالة داود عليه السلام، وأن الله آتاه الزبور؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

٧- كثرة الرسل عليهم السلام، وأن منهم من قصه الله على الرسول ﷺ، ومنهم من لم يقصصهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾، وأكثر من قصهم الله تعالى عليه من كانوا في جزيرة العرب وما حولها للاعتبار في أحوالهم وأحوال أممهم لقرب المكان والأخبار، فما من أمة إلا خلا فيها نذير، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل: ٣٦].

٨- إثبات الكلام لله تعالى وأنه كلم موسى عليه السلام، وإثبات رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾.

أي: كلم عز وجل موسى بحرف وصوت بكلام يُسمع سمعه موسى عليه

---

(١) سبق تخريجه.

السلام، خلافًا لما ذهب إليه أهل البدع الذين ينكرون وصف الله تعالى بالكلام؛ ممن أولوا وحرفوا لفظ الآية وجعلوا المتكلم موسى، وقالوا: صواب القراءة: «وكلم اللهَ موسى تكليمًا» بنصب لفظ الجلالة، وقد جاء رجل لأبي بكر بن عيَّاش فقال: «سمعت رجلًا يقرأ: (وكلم اللهَ موسى تكليما) يعني: بنصب الجلالة، فقال: ما قرأ هذا إلا كافر». قال ابن كثير وذلك أنه حرف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحدًا من خلقه... قال ابن كثير: كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: (وكلم اللهَ موسى تكليما)[1]، فقال له: يا ابن اللخناء[2]، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل»[3].

أو ممن حرفوا معنى الآية، فقالوا: ومعنى «كلم» مأخوذ من «الكَلْم» وهو الجرح، قالوا: فمعنى «كلم الله موسى تكليما» أي: جرحه بمخالب الحكمة، فحرفوا المعنى، وهذا باطل غاية البطلان، ولا يقبله ذو عقل وفطرة سليمة.

٩- تشريف موسى عليه السلام وتكريمه بتكليم الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

١٠- أن مهمة الرسل- عليهم الصلاة والسلام- تبليغ الرسالة والبشارة لمن آمن، والإنذار لمن كفر؛ لقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

١١- ينبغي احتذاء منهج الرسل- عليهم الصلاة والسلام- في الدعوة إلى الله تعالى في الجمع للمدعويين بين البشارة والإنذار؛ رجاء ثواب الله تعالى والخوف من عقابه.

١٢- أن الحكمة من إرسال الرسل إقامة الحجة على الخلق والإنذار والإعذار منهم؛

---

(١) بنصب لفظ الجلالة.

(٢) اللخن: النتن.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٦-٤٢٧).

لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

١٣- إثبات الحكمة والعلة لأحكام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

١٤- العذر بالجهل فمن لم تبلغه الرسالة، أو لم يعرف الحكم فإنه يعذر لجهله، ما لم يكن مفرطًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

١٥- أن الله- عز وجل- ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر الغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾.

١٦- أن الله- عز وجل- ذو الحكم العدل التام: الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة البالغة، الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

١٧- شهادة الله تعالى- وهو خير الشاهدين- على أنه أنزل على النبي ﷺ الوحي بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ وتثبيت له وتقوية لقلبه.

١٨- إثبات الشهادة لله تعالى، وهي شهادة على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣، الأحزاب: ٥٥].

١٩- الرد على المكذبين للرسول ﷺ المنكرين رسالته، ولإنزال الوحي عليه، بشهادة الله تعالى على أن ذلك حق، وكفى به- عز وجل- شهيدًا.

٢٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، والإنزال يكون من أعلى.

٢١- أن القرآن كلام الله تعالى منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾.

٢٢- أن الله- عز وجل- أنزل القرآن بعلمه، فلا يتطرق إليه أي: اختلاف أو زيادة أو نقص، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٢٣- إثبات الملائكة، وإثبات شهادتهم بأن الله أنزل على الرسول ﷺ القرآن بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾.

٢٤- أن شهادة الله تعالى كافية عن كل شهادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ ولهذا فإن ذكر شهادة الملائكة هنا من باب التأكيد.

٢٥- إغراق الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله في الضلال، لجمعهم بين الكفر والصد عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

٢٦- التحذير من الكفر والصد عن سبيل الله.

٢٧- أن الكفر وخصاله مراتب، وأن الضلال منه البعيد، ومنه القريب.

٢٨- نفي مغفرة الله تعالى عمن جمعوا بين الكفر والظلم وتيئيسهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، أي: لا يوفقهم للتوبة حتى يغفر لهم.

٢٩- حرمان من جمعوا بين الكفر والظلم من هداية الله وتوفيقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

٣٠- التحذير من الكفر والظلم، وأنه طريق جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾.

٣١- شدة ظلمة النار وبعد قعرها وشدة حرها؛ لهذا سميت «جهنم».

٣٢- خلود الكفار في النار خلودًا أبديًا؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥]، وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣].

٣٣- أن حرمان من كفروا وظلموا من مغفرة الله تعالى وهدايته وإدخالهم جهنم وتخليدهم فيها أبدًا أمر يسير على الله تعالى لكمال قوته وقدرته وسلطانه، ولأنه لا حسب ولا نسب بينه وبين الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

٣٤- عموم رسالة النبي ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٣٥- أن رسول الله ﷺ قد جاء بالحق من عند الله، فهو حق، وما جاء به حق؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾.

٣٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ ﴾.

٣٧- وجوب الإيمان بالرسول ﷺ وبما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾.

٣٨- أن الإيمان خير خيرية مطلقة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾.

٣٩- أن المفاضلة قد تكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، فالإيمان خير مطلقًا، والكفر شر محض لا خير فيه.

٤٠- عناية الله تعالى بالناس ودلالته لهم ودعوتهم إلى الإيمان والخير؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾.

٤١- التحذير من الكفر، وبيان غناه- عز وجل- عمن كفر وعن الخلق أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ ﴾ [الزمر: ٧].

٤٢- عموم ملك الله تعالى، وكمال عزته وعلمه وحكمه وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة النبي ﷺ أن ينادي الناس جميعًا بعموم رسالته لهم ومجيئه لهم بالحق من ربهم، ثم وجه- عز وجل- النداء لأهل الكتاب خاصة لكفرهم وغلوهم، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أهل الكتاب في الأصل هم اليهود والنصارى، وسموا أهل الكتاب- والله أعلم-؛ لأن كتبهم ما زالت موجودة حين بعثة النبي ﷺ، وإن كانت محرفة، أما من عداهم فقد اندثرت كتبهم.

ويخاطبون بأهل الكتاب تعريضًا بمخالفتهم لكتابهم وإقامة للحجة عليهم ونفيًا للعذر، فكأنه يقول: يا أهل الكتاب أنتم أهل المعرفة.

والمراد بأهل الكتاب في هذه الآية أهل الإنجيل خاصة وهم النصارى، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقد سبق الكلام عن اليهود في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ الآية [النساء: ١٥٣] وما بعدها.

وفي هذا دلالة على أن أهل الكتاب قد يطلق على إحدى الطائفتين من اليهود

والنصارى دون الأخرى؛ إذ لا شك أن المراد بهم هنا النصارى خاصة، وبهذا يزول ما يستشكل من مجيء كثير من الآيات بهذا الخطاب العام لأهل الكتاب والمراد بذلك اليهود خاصة، حيث كثر الكلام عنهم في القرآن الكريم لشدة عتوهم وعنادهم وبغيهم واحتيالهم ووجودهم في المدينة.

﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، «لا»: ناهية، ﴿تَغْلُوا﴾: مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون.

والغلو: الزيادة في الشيء والإفراط فيه، ومجاوزة الحد المشروع.

﴿فِي دِينِكُمْ﴾، أي: فيما تدينون لله به، أي: لا تجاوزوالحق في دينكم، وذلك أنهم تجاوزوا بعيسى عليه السلام حد التصديق والاتباع، ورفعوه فوق منزلة النبوة والرسالة إلى منزلة الألوهية والعبودية، فقالوا: هو الله، أو ثالث ثلاثة، أو ابن الله، وأنه وأمه إلهان من دون الله، بل وغلوا في أتباعه من الأحبار والرهبان واتخذوهم أربابًا من دون الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

قال ابن كثير[1]: «فالنصارى عليهم لعنة الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهًا، ومنهم من يعتقده

(١) في تفسيره (٢/ ٤٣٢).

شريكًا ولدًا، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولًا».

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، أي: لا تقولوا على الله إلا الشيء الثابت الذي يدل عليه الدليل والعقل والفطرة، ولا تفتروا على الله الباطل والكذب بجعل شريك له في الألوهية كقولكم: «عيسى هو الله أو ابن الله أو هو وأمه إلهان، ونسبة الصاحبة والولد لله»، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥].

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: مبتدأ، ﴿عِيسَى﴾: عطف بيان، ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: صفة لـ﴿عِيسَى﴾.

﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبر المبتدأ، كما قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

والمعنى: ما المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول الله، أي: إلا مرسل من الله عز وجل، وهذا هو قول الحق فيه أنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وما عدا ذلك فهو من الغلو في الدين، كزعمهم أنه الله، وثالث ثلاثة أو ابن الله، تعالى الله عن ذلك، ولهذا قال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، الواو: عاطفة، و﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾: معطوف على: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، والضمير في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾: يعود إلى الله عز وجل، أي: وكلمة الله.

والمعنى: الكائن بكلمة الله التي ألقاها، أي: أوصلها إلى مريم، أي: بكلمته وقوله: «كن»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فليس عيسى هو الكلمة، وليست الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣، ٢٤)، من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، «من»: لابتداء الغاية، أي: من خلقه ومن عنده، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وليست للتبعيض كما يقول النصارى أخزاهم الله، ويقولون: إن عيسى ابن الله وجزءٌ منه.

فمعنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أي: من الأرواح التي خلقها الله تعالى، أرسل عز وجل جبريل عليه السلام فنفخ في فرج مريم فحملت بعيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

وأضيفت الروح إلى الله- عز وجل- على وجه التشريف، كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦].

قال ابن كثير(١): «إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: «كن» فكان ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل- عليه السلام- إلى مريم، فنفخ فيها من روحه، بإذن ربه- عز وجل- بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها «كن» فكان؛ والروح التي أرسل بها جبريل».

يحكى أن طبيبًا نصرانيًا للرشيد نَاظَرَ علي بن حسين الواقدي ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى- عليه السلام- جزءٌ منه تعالى، وتلا هذه الآية، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فقرأ الواقدي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]. فقال: إذن يلزم أن تكون جميع الأشياء جزءًا منه، تعالى الله علوًا كبيرًا، فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيد فرحًا شديدًا ووصل الواقدي بصلة فاخرة».

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٤٣٠).

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الأمر لأهل الكتاب، الذين يراد بهم النصارى خاصة؛ لقوله تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ وهذا قول النصارى خاصة، أي: آمنوا بالله وصفوه بالألوهية وحده.

﴿وَرُسُلِهِۦۖ﴾، أي: وآمنوا برسله جميعًا من لدن نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ وصفوهم بالرسالة ولا تكذبوا أحدًا منهم أو تصفوا أحدًا منهم بالألوهية، ومن بينهم عيسى- عليه السلام- فهو عبدالله ورسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾.

والإيمان بالرسل: تصديقهم والإقرار بأن الله تعالى أرسلهم، واتباع خاتمهم محمد ﷺ بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، والتعبد لله تعالى بما شرع.

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾، ﴿ثَلَٰثَةٌۚ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الله ثلاثة، أو الآلهة ثلاثة؛ لأن النصارى يقولون: الله ثالث ثلاثة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣]، كما يقولون: الله ثلاثة: الله، وعيسى، وأمه، أو الأب والابن ومريم، أو الله ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، وروح القدس.

﴿ٱنتَهُواْ﴾، أي: انتهوا عن قول ثلاثة، فهو تأكيد للنهي السابق، فنهاهم أولًا عن هذا القول، ثم أمرهم بالانتهاء عنه.

﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، «خيرًا»: منصوبة على أنها خبر لـ «يكن» المحذوفة، والتقدير: انتهوا يكن الانتهاء خيرًا لكم، أي: خيرًا لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم.

ولا شك أن عدم الانتهاء عن هذا القول لا خير فيه البتة، بل هو شر محض، لكن المفاضلة- كما سبق بيانه قريبًا- قد تقع بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: حصر الألوهية بالله- عز وجل- وحده، أي: إنما المعبود إله واحد هو الله تعالى- وحده.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾، «سبحان»: منصوب على أنه مفعول مطلق، أي: تنزيهًا لله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين.

﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾، «أن» والفعل «يكون»: في تأويل مصدر في محل جر، أي: سبحانه وتنزيها له عن أن يكون له ولد، فحصر الألوهية فيه أولًا، ثم نزه نفسه أن يكون له ولد، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ

يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

وقال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، حصر عز وجل الألوهية فيه وحده، ونزَّه نفسه عن الولد، ثم استدل على ذلك بشمول ملكه وسعته، فهو تعليل؛ لتنزيهه عن الولد والصاحبة، فالكل عبيده.

قوله: ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف عليه، وقدم الخبر للدلالة على الحصر والاختصاص؛ أي: له وحده دون ما سواه ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

و«ما» في الموضعين: موصولة تفيد العموم، أي: له وحده جميع الذي في السموات وجميع الذي في الأرض. أي: له الملك كله.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، الواو: عاطفة، ﴿بِٱللَّهِ﴾، الباء: زائدة إعرابًا، ومؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: كفى الله وكيلًا، و«كفى»، بمعنى: حسب، ﴿وَكِيلًا﴾، أي: حفيظًا ورقيبًا وشهيدًا على كل شيء.

قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾.

رد عز وجل على أهل الكتاب النصارى تأليههم عيسى وزعمهم أنه ابن الله، وحصر عز وجل الألوهية فيه وحده، ونزه نفسه عن الولد، ثم بيَّن أن المسيح لن يستنكف أن يكون عبدًا الله، فهو يتشرف كغيره من الأنبياء في كونه عبدًا لله؛ لأن العبودية لله تعالى أشرف وأعظم وصف يوصف به البشر، فهو أشرف وأعظم من وصف الرسالة؛ ولهذا وصف الله نبيه بها في مقام الدعاء والعبادة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ولم يقل: «رسول الله»، كما وصفه بها في مقام القرب منه حين أَسرى به، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾: جملة مستأنفة لتقرير ما سبق من التنزيه، أي: لن يأنف ويستكبر المسيح، ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، أي: من أن يكون

عبدًا لله عبودية شرعية، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

أما العبودية الكونية القدرية فلا أحد يستنكف عنها، ولا أحد يستطيع ذلك، بل كل الخلق عبيد لله تعالى كونًا وقدرًا شاؤوا أو أبوا، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

ولم يقل: «عبد الله»، وإنما قال: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾؛ لأن التنكير هنا أظهر في العبودية، أي: عبدًا لله من جملة العبيد.

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: معطوف على «المسيح»، أي: ولن يستنكف الملائكة المقربون، أي: المقربون إلى الله- عز وجل- أن يكونوا عبادًا لله تعالى.

ومناسبة ذكر الملائكة عند ذكر المسيح- والله أعلم- أن من المشركين من زعم أن الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله كما جعل النصارى المسيح ابن الله، وعبدوه مع الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يحتمل أن تكون صفة كاشفة، أي: أن الملائكة كلهم مقربون إلى الله، ويحتمل أن تكون صفة مقيدة، فيكون الملائكة صنفين منهم مقربون وهم سادات الملائكة كالكروبيين الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومنهم دون ذلك، وعلى هذا فإذا كان المقربون منهم لا يستنكفون فمن دونهم من باب أولى.

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، الواو: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿يَسْتَنكِفْ﴾: فعل الشرط، أي: ومن يأنف بقلبه عن التذلل لله تعالى والخضوع له، ويأبى ويمتنع عن الانقياد لعبادة الله تعالى بجوارحه، ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾، أي: يتعالى ويترفع عن ذلك، و«يستكبر» أبلغ من «يتكبر»؛ لأن زيادة المبنى تدل غالبًا على زيادة المعنى.

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾: جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط، والسين للاستقبال.

و«يحشرهم» بالجمع مراعاة لمعنى «من»، والحشر: الجمع، أي: فسيجمعهم إليه

جميعًا يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه، ويجازيهم على أعمالهم، المستنكف المتكبر عن عبادة الله تعالى، والمتذلل المنقاد لعبادة الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الأعلى: ٢٥، ٢٦].

وفي الآية وعيد لمن استنكف واستكبر عن عبادة الله تعالى، ووعد لمن تذلل وتعبد لله تعالى وانقاد لشرعه.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

في هذه الآية تفصيل للوعد والوعيد في قوله في الآية السابقة: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة تفريعية، و«أما» في هذا الموضع والذي بعده: حرف شرط وتفصيل.

أي: فأما الذين صدقوا وأقروا بما جاء عن الله بقلوبهم وألسنتهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات، فانقادوا بجوارحهم فلم يستنكفوا ولم يستكبروا عن الخضوع لله بقلوبهم، ولا عن الانقياد لعبادته بجوارحهم. وحذف الموصوف، وهو «الأعمال»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا؛ خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: جواب الشرط، أي: فيعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا من غير نقصان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

﴿وَيَزِيدُهُم﴾، أي: ويعطيهم زيادة على أجورهم، ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾، أي: مما عنده من الفضل والزيادة والخير الكثير؛ تفضلا منه وإحسانًا، بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وفي الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة

ضعف»(١).

ومن النظر إلى وجهه الكريم كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، و«الحسنى»: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، أي: أنفوا واستكبروا بقلوبهم عن التذلل والعبودية لله تعالى وامتنعوا بجوارحهم عن عبادته.

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: جواب الشرط، والعذاب: العقوبة والنكال.

«أليمًا» أي: مؤلمًا موجعًا، حسيًا للأبدان، ومعنويا للقلوب، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله، ﴿وَلِيًّا﴾ يتولاهم ويجلب لهم الخير والنفع.

﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضر، فيمنع عنهم عذاب الله قبل وقوعه، أو يرفعه بعد وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: نداء وخطاب لجميع الناس من أهل الكتاب والعرب والعجم وغيرهم.

﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، «قد»: للتحقيق، ﴿بُرْهَٰنٌ﴾، أي: دليل قاطع للعذر وحجة واضحة مزيلة للشبهة ببعثته ﷺ، وما جاء به من الآيات والبراهين على صدقه وصدق ما جاء به، ومن البيان التام، كما قال تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: من عند ربكم خالقكم ومالككم ومدبركم ومربيكم بنعمه

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٤)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه (١٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التي لا تحصى؛ ربوبية عامة لجميع الناس، وربوبية خاصة للمؤمنين منكم.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، أي: نورًا بينًا واضحًا في نفسه، مبينًا مظهرًا للحق من الباطل، والهدى من الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

فالقرآن الكريم نور، فيه: الهدى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وفيه: العلم المبدد لظلمات الجهل والشرك والشك.

وفيه: الحق الذي يزهق الباطل ويزيله، نور في القلوب، ونور في الوجوه، ونور في القبور، ونور يوم النشور.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

هذا بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية أشبه بالتأكيد والتفسير لقوله تعالى قبله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الآية.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، الفاء: استئنافية، و«أما»: شرطية تفصيلية، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: صدقوا وأقروا بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وانقادوا لشرعه.

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: لجؤوا إليه واعتمدوا عليه، فجمعوا بين عبادة الله تعالى والتوكل عليه في جميع أمورهم.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾، الفاء: واقعة في جواب الشرط، والسين: للاستقبال، وتفيد هنا تحقيق الوقوع؛ لأن وعد الله محقق الوقوع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

[آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

كما تفيد قرب الوقوع؛ لأن وعد الله آت، وكل آت قريب، ومنه ما يتحقق في الدنيا، ومنه ما يتحقق في الآخرة وما أقربها؛ لأنها آتية، وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان في الدنيا قصير، بل الدنيا كلها متاع قليل بالنسبة للآخرة، ولأن نعيم القبر أو عذابه يبدأ بعد موت الإنسان، أي: في البرزخ، وهو أول أحوال اليوم الآخر، وأول منازل الآخرة.

﴿فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، أي: في رحمة كائنة منه، أي: يرحمهم ويدخلهم الجنة، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»(١).

﴿وَفَضْلٍ﴾، أي: وفضل منه عز وجل، زيادة على ما يستحقونه من الأجر والثواب، من مضاعفة أجورهم ورؤيته عز وجل.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: معطوف على قوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾، أي: ويدلهم ويوفقهم إليه عز وجل.

﴿صِرَٰطًا﴾، أي: طريقًا واسعًا ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾، «المستقيم»: أقصر خط يصل بين نقطتين. أي: عدلًا، لا اعوجاج فيه ولا انحناء ولا التواء يمنة ويسرة، ولا انحدار فيه ولا نشوز، وهو صراط الله تعالى وسبيله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

أي: ويدلهم ويوفقهم إليه- عز وجل- طريقًا مستقيمًا، بتوفيقهم للعلم النافع والعمل الصالح، ومعرفة الحق والعمل به، وهو صراط المنعم عليهم، غاية مطلب المؤمنين في صلاتهم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وقدّم الوعد بالرحمة والجنة على الوعد بالهداية للمسارعة في بشارتهم.

الفوائد والأحكام:

١- غلو النصارى في دينهم، وقولهم على الله الباطل في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الآية.

٢- تحريم الغلو في الدين؛ لأن الله نهى عنه أهل الكتاب، وهو نهي لهم ولغيرهم.

ولهذا قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله»(١).

ولما قال رجل: يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا. قال ﷺ: «**يا أيها الناس، عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل**»(٢).

والغلو في الدين كالنقص منه، بل أشد؛ لأن صاحبه يتعبد لله بما لم يشرعه الله، بل ويشرع مع الله.

٣- تحريم الكذب والقول على الله بلا علم، ووجوب قول الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾.

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

٤- أن الغلو في الدين قول على الله بالباطل؛ لمفهوم قوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾.

٥- تحريم ليِّ أعناق النصوص من الكتاب والسنة وتحريف ما جاء فيها من نصوص

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

الصفات وغير ذلك، وحملها على المعاني الفاسدة؛ لأن ذلك من قول الباطل على الله تعالى.

٦- الرد على النصارى في تأليههم عيسى وزعمهم أنه ابن الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

٧- ثناء الله تعالى على عيسى عليه السلام بوصفه وتلقيبه بـ «المسيح»؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برئ بإذن الله تعالى.

٨- التنبيه إلى قدرة الله تعالى في خلق عيسى من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ بذكره عليه السلام منسوبًا إلى أمه، بينما يذكر غيره من الأنبياء بلا نسبة حتى ولا لآبائهم.

٩- جواز نسبة الولد إلى أمه إذا لم يكن له أب؛ لقوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.
ولهذا ولد الزنا ينسب إلى أمه حقيقة وحكمًا، كما قال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[1]؛ ولهذا ترثه أمه فرضًا وتعصيبًا؛ لأن أمه بمنزلة أبيه وأمه.

١٠- إثبات رسالة عيسى- عليه السلام- وتشريفه وتكريمه؛ لأن الله أضافه إلى نفسه، وبيان أنه لا يستحق من أمر الربوبية شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

١١- أن الله- عز وجل- خلق عيسى بكلمته، أي: بقوله: «كن»؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

١٢- أن عيسى- عليه السلام- روح من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أي: روح من جملة الأرواح التي خلقها الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٣٥)، ومسلم في الرضاع (٤٥٨٨)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٧٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

١٣- وجوب الإيمان بالله ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

١٤- النهي عن قول: (ثلاثة)، أي: أن الله ثالث ثلاثة، وتحريم ذلك، ووجوب الانتهاء عن ذلك؛ لأنه كفر بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣].

١٥- أن من تاب من التثليث والإشراك بالله وانتهى عن ذلك تاب الله عليه، وذلك خير له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

١٦- انفراد الله تعالى وحده بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

١٧- تنزيه الله تعالى عن الولد؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

١٨- اختصاص الله تعالى بالملك وسعة ملكه وعمومه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٩- وجوب التوكل على الله تعالى، وصدق الاعتماد عليه وحده، وكفايته- عز وجل- التامة وكيلًا ورقيبًا وحفيظًا على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

٢٠- أن المسيح عيسى ابن مريم لا يستنكف أن يكون عبدًا لله تعالى، بل يقر ويعترف ويخضع ويتذلل لله تعالى ويتشرف بذلك كغيره من الرسل، ولا يرضى أن يؤلَّه أو يدعى أنه ابن الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

٢١- إثبات وجود الملائكة، وأنهم لا يستنكفون أن يكونوا عبادًا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

٢٢- أن الملائكة مقربون إلى الله تعالى، أو منهم المقربون إليه سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

وقد استدل بعضهم بالآية على تفضيل الملائكة على البشر، وردَّ هذا ابن كثير[١] بأنهم إنما عطفوا على المسيح؛ لأنهم أقدر منه على الاستنكاف والامتناع، ولا يلزم منه أن يكونوا أفضل، وقيل: إنما ذكروا لأنهم أُتُّخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح.

٢٣- الوعيد لمن استنكف عن عبادة الله واستكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

٢٤- إثبات البعث وحشر الخلائق للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

٢٥- جمع القرآن بين الترهيب والترغيب فبعد أن توعد المستنكفين عن عبادة الله المستكبرين وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بتوفيتهم أجورهم وزيادتهم من فضله ترغيبًا في الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٢٦- لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، بين إيمان الباطن، وانقياد الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي مجرد الإيمان، وبيان أنه لا يقبل الإيمان بلا عمل، ولا العمل بلا إيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

٢٧- أن المهم في العمل كونه صالحًا؛ ولهذا حذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهو الأعمال، دون الصفة.

٢٨- توفية الذين آمنوا وعملوا الصالحات أجورهم تامة كاملة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٢٩- تكفل الله- عز وجل- وضمانه لثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لهذا سماه أجرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٣).

٣٠- أن الله- عز وجل- يزيد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله على أجورهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

٣١- مجازاة الذين استنكفوا واستكبروا بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٣٢- أنه لا ولي ولا نصير لمن استنكف واستكبر، يجلب له النفع، ويدفع عنه الضر وعذاب الله، قبل وقوعه أو يرفعه بعد وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

٣٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لعظم ما أعد الله من الأجور والزيادة لمن آمن وعمل صالحًا، والتحذير من الاستنكاف والاستكبار؛ لعظم ما أُعد من العذاب الأليم لمن استنكفوا واستكبروا، ولا ولي لهم من دون الله ولا نصير.

٣٤- أن القرآن الكريم مخاطب به جميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

٣٥- أن في رسالته ﷺ، وما جاء به من الحق الدليل القاطع والبرهان الساطع والنور المبين للحق من الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

٣٦- إثبات ربوبية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ربوبية عامة لجميع الخلق، وربوبية خاصة للمؤمنين منهم.

٣٧- أن القرآن الكريم نور وهداية وسط دياجير ظلمات الجهل والشك والشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

٣٨- أن نور القرآن وهدايته وآياته واضحة بينة، فهو بيِّن في نفسه، بيَّنه الله- عز وجل- وفصله، وهو مبين للحق من الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾.

٣٩- وعد الله تعالى للذين آمنوا بالله وتوكلوا عليه بإدخالهم في رحمته وهدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

٤٠- فضل الإيمان والتوكل على الله والاعتصام به؛ لأن الله رتب على ذلك رحمته

وفضله وهدايته.

٤١- أن صراط الله تعالى عدل مستقيم لا اعوجاج فيه، وهو طريق واحد غير متعدد ولا متشعب، من سلكه سعد في دينه ودنياه وأخراه، ونجا من النار والعذاب، وفاز بالجنة والثواب؛ لقوله تعالى: ﴿صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «مرضت فأتاني النبي ﷺ يعودني هو وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني قد أغمي عليَّ فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم صب عليَّ من وضوئه، فأفقت، فقلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي، أو كيف أصنع في مالي؟ وكان له تسع أخوات، ولم يكن له والد ولا ولد. قال: فلم يجبني شيئًا حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ إلى آخر السورة. قال جابر: إنما أنزلت هذه الآية فيَّ»(١).

وقت نزول هذه الآية:

عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «آخر آية نزلت من القرآن ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وآخر سورة نزلت براءة»(٢).

وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: «**يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء**: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المرضى (٥٦٥١)، ومسلم في الفرائض (١٦١٦)، وأبو داود في الفرائض (٢٨٨٦)، والنسائي في الطهارة (١٣٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٦)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢٨)، وأحمد (٣/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٥٤)، ومسلم في الفرائض (١٦١٨)، وأبو داود في الفرائض (٢٨٨٩)، والنسائي في تفسير سورة النساء (١٥٦)، والترمذي في التفسير (٣٠٤١).

(٣) أخرجه مسلم في الفرائض (١٦١٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٢٧٢٦)، وأحمد (١/ ٢٦، ٣٨، ٨٩)، وعند أحمد: «ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة».

قال ابن كثير[١]: «وكأن المراد بآية الصيف: أنها نزلت في الصيف».

قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، الاستفتاء: طلب الإفتاء، والإفتاء هو الإخبار عن حكم من الأحكام وبيانه، سواء كان من أمور الشرع، أو من الأمور الدنيوية، والمراد هنا، طلب الإخبار عن حكم شرعي. وطالب الإفتاء في الآية هم الصحابة، والخطاب فيها للنبي ﷺ.

والمعنى: يطلب منك أصحابك يا محمد أن تفتيهم في أمر الكلالة[٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾: الأمر للرسول ﷺ، أي: قل مجيبًا لهم ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾، أي: يخبركم ويبين لكم والخطاب للصحابة- رضي الله عنهم، وهو جواب لهم ولجميع الأمة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُفْتِيكُمْ﴾، وقد يكون متعلقًا به وبـ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، على القول بأنه يجوز أن يتسلط عاملان على معمول واحد[٣].

والمعنى: قل الله يخبركم ويبين لكم ما هي الكلالة، وما حكمها.

وقد تضمن هذا الجواب ذكر المستفتى عنه، وهي الكلالة، فحذف المستفتى عنه من السؤال اعتمادًا على ذكره في الجواب.

قال ابن كثير[٤]: «كأن معنى الكلام- والله أعلم- يستفتونك عن الكلالة، قل الله يفتيكم فيها. فدل المذكور على المتروك».

والكلالة لغة: الإحاطة، مأخوذة من تكلله النسب، أي: أحاط به[٥]، ومنه سُمِّي «الإكليل» أحد منازل القمر؛ لأنه يحيط بالقمر إذا نزل فيه، وسُمِّي التاج الذي يوضع على الرأس «الإكليل»؛ لأنه يحيط بالرأس من جميع جوانبه.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٤٣٦). قيل: والآية الأولى أنزلت في الشتاء. انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٩٥).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٣٠).

(٣) وهو قول الكوفيين.

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٤٣٥).

(٥) وقيل إنها مأخوذة من الكَلّ وهو التعب والإعياء كأن الميراث في الكلالة يصل إلى الورثة عن بعد وإعياء والصحيح الأول.

والمراد بالكلالة: الورثة ليس فيهم ولد ولا والد ذكر وارث[١]، وهم الحواشي: الإخوة وبنوهم والأعمام وبنوهم.

لأن الأولاد شعبة من الميت وقطعة منه، والآباء هو شعبة وقطعة منهم، فلما فقد أصله وفرعه، أحاط به الحواشي من بعيد، بنو أبيه وهم الإخوة وبنوهم، وبنو أجداده، وهم أعمامه وبنوهم، فهؤلاء ليسوا شعبة منه ولا هو شعبة منهم، وإنما هم شعبة من آبائه وأجداده، لهذا سموا كلالة لإحاطتهم به من بعيد.

والقول بأن الكلالة: من لا ولد له ولا والد ذكر قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٢].

وهو القول الذي رجع إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، روي أنه قال: «إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر»[٣].

وبهذا قال جمهور المفسرين والفقهاء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

قال ابن كثير[٤]: «وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾».

وقيل: إن الكلالة من لا ولد له، لقوله بعد هذا ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وروي هذا عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه[٥].

---

(١)، أي: لا أب ولا جد من جهته وإن علا.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٥٣-٥٥)، الأثر (٨٧٤٥، ٨٧٤٩)، وانظر (٩/ ٤٣١)- الأثر (١٠٨٦٥)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٢٣)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٤٠).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٤٣٧)- الأثر (١٠٨٧٧) والدارمي في الفرائض (٢٩٧٢)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٤٠).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ٤٣٦).

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» الآثار (٨٧٤٥-٨٧٤٨، ٨٧٦٧)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٣٦)، «إسناده صحيح».

قال ابن كثير[١] في كلامه على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: «تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. ولكن الذي رجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق: أنه من لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئًا؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند المتأمل أيضًا؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية».

وتطلق الكلالة على الوارث، وعلى المورث، فيقال للميت الذي ليس له ولد ولا والد ذكر وارث: كلالة.

ويقال للورثة الذين ليس فيهم ولد ولا والد ذكر وارث: كلالة. ويقال للقرابة من غير جهة الولد والوالد: كلالة[٢].

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟﴾، ﴿إِنِ﴾: شرطية، ﴿ٱمْرُؤٌا۟﴾: فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور وتقديره، إن هلك امرؤ هلك[٣]، و﴿ٱمْرُؤٌا۟﴾ إنسان من الناس.

﴿هَلَكَ﴾، أي: مات، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، أي:

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٤٣٦)، وانظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٣٦-٤٤١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨).
قال ابن كثير: «وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدًا ننتهي إليه: الجد والكلالة وباب من أبواب الربا» أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٨٨)، ومسلم في التفسير (٣٠٣٢)، وأبو داود في الأشربة (٣٦٧٠)، والنسائي في الأشربة (٥٥٧٨)، والترمذي في الأشربة (١٨٧٢)- قال ابن كثير بعد ذكره الحديث في سؤال عمر عن الكلالة وقوله ﷺ: «تكفيك آية الصيف»: «ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها- فإن فيها كفاية- نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها» ولهذا قال: «فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إليَّ من أن يكون لي حمر النعم» أخرجه أحمد (١/ ٣٨)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٥-٤٣٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٢٥٤-٢٥٥)، «التفسير الكبير» (١١/ ٩٥).

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٤٩)، «الكشاف» (١/ ٣١٩).

كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

قال الشاعر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

وقال الآخر:

تعز فلا شيء على الأرض باقيا ... ولا وزر مما قضى الله واقيا[١]

﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾: الجملة في محل رفع صفة لـ﴿امْرُؤٌ﴾[٢]، وقيل: الجملة في محل نصب على الحال من ﴿امْرُؤٌ﴾، أي: حال كونه ليس له ولد.

﴿وَلَدٌ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم، والولد يشمل الذكر والأنثى بدليل قوله تعالى في أول السورة ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

كما يشمل أولاد الميت وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور.

وهذا أحد شروط ميراث الإخوة أن يكون الميت ليس له ولد.

والشرط الثاني أن لا يكون له والد- وهو الأصل من الذكور الوارث. قال بعض أهل العلم: وإنما لم يذكر هذا الشرط والله أعلم؛ لأنه مفهوم من قوله «كلالة» والكلالة من لا ولد له ولا والد.

وقال بعضهم: لأن سقوط الإخوة بالأب مذكور في السنة بقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر» والأب أولى من الإخوة[٣].

وقال بعضهم: لأن اشتراط عدم الوالد مفهوم من النص عند التأمل؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل لا يرث الإخوة كلية مع وجوده. وهذا أصح الأقوال، وهو اختيار ابن كثير رحمه الله[٤].

---

(١) هذا البيت مجهول القائل وهو بلا نسبة في «أوضح المسالك» (١/ ٢٨٩)، و«شرح الأشموني» (١/ ٢٤٧).

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٣١٩)، «البحر المحيط» (٣/ ٤٠٦).

(٣) انظر: «الكشاف» (١/ ٣١٩).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٥-٤٣٦).

﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ معطوف على ﴿لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾، أي: وللميت أخت شقيقة من أبيه وأمه أو من أبيه فقط، وعلى هذا أجمع أهل العلم.

أما الأخت لأم فقد سبق ذكر ميراثها في قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ [النساء: ١٢][1].

﴿فَلَهَا﴾، أي: فلأخته شقيقة كانت أو لأب إذا انفردت بدون معصب وهو أخوها، ولا مشارك وهي أختها.

﴿نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة تفيد العموم ﴿تَرَكَ﴾ بمعنى: خلّف وراءه بعد موته.

والمعنى: فلأخته شقيقة كانت أو لأب فرضًا نصف الذي ترك أخوها من أي شيء كان: نقدًا كان أو عقارًا أو أثاثًا، أو دَينًا أو أرش جناية أو حق شفعة أو غير ذلك بشرطين: الأول: أن لا يكون له ولد لا ذكر ولا أنثى؛ لقوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ لكن إن كان له ولد أنثى ورثت الأخت ما بقي تعصيبًا.

والشرط الثاني: أن لا يكون له والد ذكر؛ لأن الأخت لا ترث النصف مع وجود الوالد الذكر، بل لا ترث أصلًا معه بالإجماع إن كان أبًا[2] وعلى الصحيح من أقوال أهل العلم إن كان جداً وارثًا.

﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ﴾، أي: وأخوها شقيقًا كان أو لأب يرثها إن ماتت قبله، ولم يكن لها ولد لا ذكر ولا أنثى، فيرث جميع ما تركته إن لم يكن معه صاحب فرض، فإن كان معه صاحب فرض كزوج، أو أم، أو أخ لأم، فالأخ يرث تعصيبًا ما أبقت الفروض، وكذا إن كان للأخت ولد أنثى واحدة أو أكثر فلأخيها الباقي تعصيبًا.

فإن كان للأخت ولد ذكر لم يرث أخوها شيئًا، وكذا إن كان لها أب ذكر فلا يرث أخوها بالإجماع، وكذا إن كان لها جد وارث على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لقوله

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٩٥).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٦).

تعالى: ﴿فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ وهي من لا ولد لها ولا والد[١]، وقوله ﷺ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»[٢].

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، أي: فإن كانت الأختان اثنتين شقيقتين أو لأب فأكثر ليس معهما ذكر، فلهما فرضًا: الثلثان من الذي خلف أخوهما من أي شيء كان، إذا لم يكن له ولد ولا والد ذكر.

أما الولد فلقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وأما الوالد فلأن الأخوات لا يأخذن الثلثين مع الوالد الذكر الوارث، بل لا يرثن معه بالكلية.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾، أي: وإن كان ورثة الميت الذي يورث كلالة؛ ليس له ولد ولا والد إخوة مجتمعين ذكورًا وإناثًا، أشقاء أو لأب.

﴿فَلِلذَّكَرِ﴾، اللام: للتمليك، أي: أن الوارث يملك نصيبه من الميراث، والتقدير: فللذكر منهم.

﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، أي: مثل نصيب الأنثيين من الأخوات، بدون تقدير؛ لأنهم يرثون جميعًا بالتعصيب.

والمعنى: أنه إذا كان الورثة جمعًا من الإخوة أعطي الذكر منهم مثل نصيب الأنثيين تعصيبًا، كما هو الحال بالنسبة للأولاد، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: مفعول ﴿يُبَيِّنُ﴾ محذوف؛ لأجل العموم.

والمعنى: يبين الله لكم الحق وكل ما تحتاجون بيانًا واضحًا بينًا، ببيان الأحكام والشرائع وغيرها وتفصيل ذلك، من أحكام الفرائض وغيرها ومن ذلك ما أفتاكم به مما أشكل عليكم، وبينه لكم من ميراث الإخوة في هذه الآية، فإن كان الهالك خلف أختًا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٤٤)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠).

واحدة فلها النصف، وإن خلف أخًا أو أكثر ورثه بالتعصيب، وإن خلف أختين فأكثر فلهما الثلثان، وإن خلف إخوة ذكورًا وإناثًا فللذكر منهم مثل حظ الأنثيين تعصيبًا.

﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: خشية أن تضلوا، أو كراهة أن تضلوا[١]، أو في محل جر باللام، أي: لئلا تضلوا.

قال الطبري[٢]: « وموضع «أن» في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾: نصب[٣] في قول بعض أهل العربية لاتصالها بالفعل.

وفي قول بعضهم: خفض، بمعنى: يبين الله لكم بأن لا تضلوا، أو لئلا تضلوا، وأسقطت «لا» من اللفظ، وهي مطلوبة في المعنى؛ لدلالة الكلام عليها».

قال القطامي[٤]:

رأينا ما يرى البصراء فيها ... فآلينا عليها أن تباعا

يعني: ألا تباع.

والضلال: البعد والتيه عن الحق وعن قصد السبيل، والمعنى: لئلا تضلوا عن الحق في قسمة المواريث وغيرها.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة فيها تقرير للجملة السابقة، فقد بين- سبحانه وتعالى- للعباد الأحكام؛ لئلا يضلوا؛ لأنه عز وجل بكل شيء عليم.

و﴿شَيْءٍ﴾ نكرة، أي: أي شيء من الأشياء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، من الأمور الكونية أو الأمور الشرعية أو غير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء من أمور الكون والشرع، وأمور الدنيا والآخرة وغير ذلك، ومن ذلك مصالح عباده الدينية والدنيوية، وما يستحقه كل

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٤٩)، «الكشاف» (١/ ٣٢٠).

(٢) في «جامع البيان» (٩/ ٤٤٥).

(٣) بالفعل «يبين».

(٤) انظر: «ديوانه» (٤٣).

وارث بحسب قربه من المتوفى(١).

وقد اشتمل أول هذه السورة على بيان كمال قدرة الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ واشتمل آخرها على بيان كمال علمه عز وجل لقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وبكمال القدرة وكمال العلم كمال ربوبيته وألوهيته وكمال خلقه(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- حرص الصحابة- رضي الله عنهم- على معرفة الحق والسؤال عما أشكل عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

٢- ينبغي للإنسان أن يسأل عما يشكل عليه في أمر دينه؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ وهذا إقرار منه عز وجل لهم على ذلك؛ ولهذا أجابهم بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

٣- ينبغي للسائل عن أمر دينه أن يسأل أهل العلم والدين اقتداء بصحابة رسول الله ﷺ حيث كانوا يتوجهون في السؤال عما يشكل عليهم إلى رسول الله ﷺ(٣).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٤٥، ٤٤٦)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٨).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٩٦).

(٣) وقد كانت أسئلتهم رضي الله عنهم فيما تدعو الحاجة إليه.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «ما رأيت قومًا كانوا خيرًا من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض كلهن في القرآن، منهن ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ وشبهه، ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم».

انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٣٣).

وقد سبق ذكر هذه المسائل التي سألوا رسول الله ﷺ عنها ونزل القرآن في الإجابة عيها وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٧].

٤- علم الله عز وجل بما يقوله العباد، وبما يفعلونه، لقوله- عز وجل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

٥- أن الرسول ﷺ قد يخفى عليه الحكم فيفتي به الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ فالاستفتاء موجه إلى الرسول ﷺ والفتوى جاءت من عند الله عز وجل.

٦- أن من القرآن ما نزل لأسباب حسب الوقائع والأحداث، كإجابة على سؤال يوجه للنبي ﷺ أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

٧- أن الله- عز وجل- يجوز أن يوصف ويخبر عنه بأنه مفتٍ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾، لكن لا يشتق من هذا اسم، فلا يقال من أسمائه «المفتي».

٨- فضل علم الفرائض وعظم منزلته، حيث تولى الله قسمتها بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ الآية.

٩- أن ما جاء به رسول الله ﷺ من الوحي والشرع هو من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

١٠- أنه يجوز أن يحذف من السؤال ما كان في الجواب دلالة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ وما ذكر المستفتى عنه لذكره في الجواب بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ فعرف أن المستفتى عنه هو الكلالة.

١١- أن ترتيب آيات القرآن توقيفي من عند الله أو من عند الرسول ﷺ، وليس مما للرأي والاجتهاد فيه مجال، إذ لو كان مما للرأي والاجتهاد فيه مجال لكان مقتضى الاجتهاد أن تربط هذه الآية بآيتي المواريث أول السورة(١).

١٢- أن مصير الخلق كلهم إلى الهلاك والفناء، وأن البقاء لله سبحانه لقوله: تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾.

١٣- أن أقارب الميت لا يملكون شيئًا من ماله إلا بعد تحقق هلاكه؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسيره (٢/٥٤٠ تفسير سورة النساء).

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ الآية.

١٤- أن الأحق بالميراث هم الفروع والأصول، ولا ينتقل إلى الحواشي إلا بعد عدمهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

١٥- أن الأخت شقيقة كانت أو لأب إذا انفردت بلا معصب ولا مشارك ترث فرضًا النصف إذا كان الميت يورث كلالة، ليس له ولد لا ذكر ولا أنثى، وليس له والد ذكر وارث؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

فإن كان للميت ولد ذكر أو أب قريب سقطت الأخت بالإجماع، وإن كان له جد وارث سقطت أيضًا على الصحيح من قولي أهل العلم. وإن كان للميت ولد أنثى فللأخت الباقي تعصيبًا.

فلو هلك هالك عن أخت وعم فللأخت النصف والباقي للعم تعصيبًا.

وإن هلك هالك عن أخت وابن، أو أخت وأب فليس للأخت شيء والمال في المسألة الأولى للابن وفي الثانية للأب(١).

١٦- ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أن الأخت لا ترث شيئًا مع الولد الأنثى.

وإلى هذا ذهب عبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير(٢)- رضي الله عنهما، وداود الظاهري(٣).

قالوا: لأن الولد يشمل الذكر والأنثى، فلا ترث الأخوات مع البنات ما لم يكن مع الأخوات معصب، واستدلوا بحديث: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى

---

(١) وبهذا أصبحت شروط إرث الأخت الشقيقة النصف فرضًا أربعة شروط. عدم المعصب وهو أخوها، وعدم المشارك وهو أختها، وعدم الولد وإن نزل بمحض الذكور ذكرًا كان أو أنثى، وعدم الوالد الأب والجد الوارث وإن علا. وتزيد الأخت لأب شرطًا خامسًا وهو عدم الشقيق أو الشقيقة.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٩)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٧).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٩).

رجل ذكر»[١].

وذهب جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن الأخوات مع البنات عصبات، وإن لم يكن مع الأخوات معصب، فإذا خلف الميت بنتًا وأختًا، فللبنت النصف، وللأخت الباقي تعصيبًا[٢]، بدليل السنة لما رواه هزيل بن شراحيل قال: «سئل أبو موسى الأشعري عن بنت وابنة ابن وأخت، فقال للبنت النصف، وللأخت النصف، وائت ابن مسعود فسيتابعني، فسُئل ابن مسعود، وأُخبر بقول أبي موسى، فقال: لقد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى، فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم»[٣].

وعن الأسود بن يزيد: «أن معاذ بن جبل قضى في بنت وأخت، فأعطى البنت النصف والأخت النصف»[٤].

وحمل الجمهور قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

على أن المراد به إرث الأخت بالفرض، فلا يفرض لها النصف مع وجود الولد مطلقًا ذكرًا كان أو أنثى، وعلى هذا دلت السنة- كما تقدم.

قال الطبري[٥]: «إنما جعل الله جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ إذا لم يكن للميت ولد ذكر ولا أنثى، وكان موروثًا كلالة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٤٣)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٩٣)، «أحكام القرآن» للهراسي (١/ ٣٦٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٢٠)، «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٦-٣٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٦)، وأبو داود في الفرائض (٢٨٩٠)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٣)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢١).

(٤) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٤)، وأبو داود في الفرائض (٢٨٩٣).

(٥) في «جامع البيان» (٩/ ٤٤٣-٤٤٤).

النصف من تركته فريضة لها مسماة، فأما إن كان للميت ولد أنثى فهي معها عصبة، يصير لها ما كان يصير للعصبة غيرها لو لم تكن، وذلك غير محدود بحد، ولا مفروض لها فرض سهام أهل الميراث بميراثهم عن ميتهم، ولم يقل الله في كتابه: فإن كان له ولد فلا شيء لأخته معه...».

وأيضًا فيلزم على قول ابن عباس ومن معه أن الأخ لا يرث من أخته مع وجود الولد الأنثى وهو وغيره لا يقول بهذا(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها» الخ فهذا عام خص منه المعتقة والملاعنة والملتقطة، لقوله ﷺ: «تحوز المرأة ثلاثة مواريث: عتيقها ولقيطها وولدها الذي لاعنت عليه»(٣)، وإذا كان عامًا مخصوصًا خصت منه هذه الصورة بما ذكر من الأدلة».

١٧- أن الأخ شقيقًا كان أو لأب يرث تعصيبًا ما خلفته أخته إن لم يكن لها ولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾.

فإن كان لها ولد ذكر أو أب لم يرثها أخوها بالإجماع، وكذا إن كان لها جد وارث على الصحيح من قولي العلماء، فإن كان لها ولد أنثى واحدة أو أكثر فله الباقي تعصيبًا، وكذا إن كان هناك أصحاب فروض غيرهن فله الباقي بعدهم.

هذه أحوال الأخ في ميراثه من أخته ومثلها سواء أحواله في ميراثه من أخيه.

وأبناء الأخ وإن نزلوا كالأخ عند فقده، فلو هلك هالك عن أخ، أو عن أخ وعم فالمال كله للأخ، وإن هلك هالك عن أخ وابن، أو عن أخ وأب، أو عن أخ وجد لم يرث الأخ شيئًا، وإن هلك هالك عن أخ وبنت، أو عن أخ وزوج فللأخ الباقي بعد

---

(١) وقد روي عن ابن عباس رجوعه عن هذا القول لما ذكر له الأسود بن يزيد قضاء معاذ- رضي الله عنهما- انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٢٠).

(٢) في «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٦-٣٤٩)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود في الفرائض (٢٩٠٦)، والترمذي في الفرائض (٢١١٥)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٢)، من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه. وقال الترمذي «حسن غريب». وضعفه الألباني.

الفروض، وإن هلك هالك عن ابن أخ وبنت أخ شقيق أو لأب فالمال كله لابن الأخ تعصيبًا، ولا شيء لأخته؛ لأنها من ذوي الأرحام، وإن هلك هالك عن زوج وابن أخ شقيق أو لأب فلابن الأخ الباقي بعد فرض الزوج، وإن هلك هالك عن ابن أخ وابن أو أب، أو جد لم يرث ابن الأخ شيئًا. وهكذا.

١٨- أن الاثنتين من الأخوات فأكثر فرضهن الثلثان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ ومن هنا استدل أهل العلم على أن نصيب البنتين هو الثلثان؛ لأنه إذا كانت الأختان تأخذان الثلثين، فالبنتان من باب أولى.

كما استدلوا على أن نصيب الثلاث من الأخوات فأكثر هو الثلثان أيضًا بقوله في البنات: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾[1] [النساء: ١١].

وبأنه إذا كانت الأختان تأخذان الثلثين فالثلاث من باب أولى[2]. فإذا هلك هالك عن أختين شقيقتين أو لأب، وعم، فللأختين الثلثان، والباقي للعم تعصيبًا.

١٩- أن نصيب الأخوات لأب واحدة فأكثر مع الأخت الشقيقة هو السدس تكملة الثلثين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

وقد قضى بهذا رسول الله ﷺ في أخت شقيقة وأخت لأب، فأعطى الشقيقة النصف والأخت لأب السدس تكملة الثلثين[3].

فإذا استكملت الشقائق الثلثين سقطت الأخوات لأب[4].

٢٠- أن الفرض قد يزيد بزيادة المفروض له، فالأخت الواحدة لها النصف وللاثنتين الثلثان. وكذلك البنت الواحدة لها النصف والبنتان لهما الثلثان.

بخلاف الزوجات، والجدات، وكذلك بنات الابن مع البنت، والأخوات لأب

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥١).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٥).

(٤) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ [النساء: ١١].

مع الأخت الشقيقة، فإن فرضهن لا يزيد مع زيادتهن(١).

٢١- إذا كان الورثة إخوة رجالًا ونساء مجتمعين فإرثهم بالتعصيب، للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾.

٢٢- أن الوارث يملك نصيبه من الميراث ملكًا تامًا، بل وإلزاميًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾، ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ فاللام في قوله: ﴿فَلَهَا﴾ ﴿فَلَهُمَا﴾، ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾: للتمليك.

٢٣- أن الرقيق لا يرث؛ لأن الوارث يملك ميراثه- كما سبق- والرقيق لا يملك قال ﷺ: «**من باع عبدًا له مال فماله للذي باعه، إلا أن يشترط المبتاع**»(٢).

٢٤- تفضيل الذكر على الأنثى في الإرث تعصيبًا لقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾(٣)، وذلك لفضل الذكر على الأنثى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ولما على الذكر من النفقات والالتزامات المالية من المهور وغيرها مما ليس على الأنثى.

وكذلك ميراث الأبوين والزوجين موافق لهذه القاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين، فإذا أخذت الأم الثلث فرضًا أخذ الأب الباقي تعصيبًا وهو يساوي الثلثين، وكذلك الزوجان ترث الزوجة مقدار نصف ما يرثه الزوج.

٢٥- مراعاة التشريع الإسلامي في أحكامه الحكمة والمصالح، وإعطاؤه كل وارث ما يستحقه، يظهر ذلك من قسمته- عز وجل- المواريث على هذه الكيفية، وتخصيصه الذكر بالتفضيل لمكانته وما عليه من نفقات.

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ [النساء: ١١].

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كما أن في توريث الأخت أو البنت النصف حال انفرادها وتوريث الأخ أو الابن المال كله حال انفراده ما يدل على هذا التفضيل؛ لأنه على هذا يكون للذكر مثل حظ الأنثيين.

٢٦- تبيين الله- عز وجل- للعباد كل ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم؛ لئلا يضلوا عن الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾، وحذف مفعول ﴿يُبَيِّنُ﴾؛ لأجل العموم.

٢٧- إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٢٨- الرد على أهل التفويض في صفات الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾، أي: يبين الله لكم الحق وكل ما تحتاجون إليه؛ لئلا تضلوا.

ومن ذلك بيان معاني صفاته عز وجل؛ لأن الضلال في باب الصفات أعظم من الضلال في باب الأحكام؛ لأن الضلال في باب الصفات يتعلق بالخالق المعبود، والضلال في باب الأحكام يتعلق بالعبادة، وبينهما فرق(١).

٢٩- أن الهدى والبيان فيما بينه الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فمن ابتغى الهدى والبيان منهما حصل له بإذن الله الاهتداء وتمام العلم والمعرفة، ومن طلب الهدى من غيرهما ضل.

٣٠- عموم علم الله عز وجل لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

(١) انظر كلام فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله على هذه الآية في تفسيره (٢/ ٥٤٣ تفسير سورة النساء).

فهرس الموضوعات

تابع تفسير سورة النساء ٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ...﴾ الآيات [٥٠-٥٥] ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا...﴾ الآيتين [٥٦، ٥٧] ٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ الآية [٥٨] ٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ الآية [٥٩] ٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا...﴾ الآيات [٦٠-٧٠] ٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾ الآيات [٧١-٧٦] ٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآيات [٧٧-٨١] ١٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ...﴾ الآية [٨٢] ١٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ...﴾ الآيات [٨٣-٨٥] ١٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا...﴾ الآية [٨٦] ١٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ الآيات [٨٧-٩١] ١٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً...﴾ الآية [٩٢] ٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ...﴾ الآية [٩٣] ٢٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا...﴾ الآية [٩٤] ٢٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيتين [٩٥، ٩٦] ٢٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ...﴾ الآيات [٩٧-١٠٠] ٢٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...﴾ الآيات [١٠١-١٠٤] ٣١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾ الآيات [١٠٥-١١٣] ٣٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ...﴾ الآيات [١١٤-١١٦] ٤٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا...﴾ الآيات [١١٧-١٢٢] ٤٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآيات [١٢٣-١٢٦] ٤٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية [١٢٧] ٤٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا...﴾ الآيات [١٢٨-١٣٠] ٤٩٠

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيات [١٣١-١٣٤] ٥٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ...﴾ الآية [١٣٥] ٥١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآيات [١٣٦-١٤٣] ٥٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية [١٤٤] ٥٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ...﴾ الآيات [١٤٥-١٥٢] ٥٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾ الآيات [١٥٣-١٦٢] ٥٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ...﴾ الآيات [١٦٣-١٧٠] ... ٦٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ...﴾ الآيات [١٧١-١٧٥] ٦١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾ الآية [١٧٦] ٦٣٦
فهرس الموضوعات ٦٥٣

* * *

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد السابع

تفسير سورة المائدة

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٧

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٧٨٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ المَائِدَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة المائدة»؛ لذكر اسم المائدة في آخرها في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الآية: ١١٢]، وفي قوله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الآية: ١١٤].

ب- مكان نزولها وزمانه:

نزلت سورة المائدة في المدينة بالإجماع[١]، وهي من آخر ما نزل من القرآن.

عن جبير بن نفير قال: «حججت فدخلت على عائشة- رضي الله عنها- فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه»[٢].

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: «آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح»[٣].

ولهذا قال العلماء ليس فيها حكم منسوخ[٤].

وقد نزلت عليه ﷺ وهو راكب على راحلته.

فعن أسماء بنت يزيد- رضي الله عنها- قالت: «إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٠)، ولا ينتقض القول بأنها مدنية بكون الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية نزلت في عرفة؛ لأن هذه السورة نزلت كلها بعد الهجرة وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل بمكة أو غيرها، كما أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي وإن نزل بغير مكة.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٨)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٣٢)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٣١١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في النكاح (٧/ ١٧٢) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٦٣)، وقال: «حسن غريب»، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٣١١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٣٢).

الناقة»[١].

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: «أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «سورة المائدة أجمع سور القرآن لشرائع التحليل والتحريم والأمر والنهي؛ ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**هي آخر القرآن نزولًا فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها**»؛ ولهذا افتتحت بقوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ والعقود هي العهود، وذكر فيها من التحليل والتحريم والإيجاب ما لم يذكر في غيرها».

ج- موضوعاتها:

تناولت سورة المائدة من حيث الإجمال الموضوعين التاليين:

أ- تقرير وبيان كثير من الأحكام؛ من بيان وجوب الوفاء بالعقود، وبيان الحلال والحرام في الأطعمة والذبائح والصيد وحكم ذبائح ونساء أهل الكتاب وتقرير أحكام الطهارتين الصغرى والكبرى بالماء والتراب ونحو ذلك.

ب- مجادلة أهل الكتاب اليهود والنصارى وبخاصة النصارى ومحاجتهم.

وفيما يلي تفصيل لمجمل موضوعات هذه السورة:

١- افتتح الله سورة المائدة بنداء المؤمنين بوصف الإيمان والأمر بالوفاء بالعقود، والامتنان عليهم بإحلال بهيمة الأنعام لهم إلا ما يتلى عليهم تحريمه وإلا الصيد حال الإحرام.

٢- النهي عن إحلال شعائر الله والشهر الحرام والهدي والقلائد وقاصدي البيت الحرام لابتغاء الفضل والرضوان من ربهم، والنهي عن الاعتداء.

٣- الأمر بالتعاون على البر والتقوى، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان، ووجوب تقوى الله والحذر من عقابه فهو شديد العقاب.

٤- بيان حرمة الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكي من هذه المحرمات. وتحريم ما ذبح على النصب

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن مردويه بنحوه فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣).

(٣) في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٤٨).

وتحريم الاستقسام بالأزلام وأن ذلك من الفسق والخروج عن الطاعة.

٥- امتنان الله على المؤمنين، بإكمال الدين لهم، وإتمام النعمة عليهم، ورضاه لهم الإسلام دينًا، وتيئيس الكفار من رد المسلمين عن دينهم والتغلب عليهم.

٦- الرخصة لمن ألجأته الضرورة للأكل من هذه المحرمات فالله غفور رحيم؛ لهذا فالضرورات تبيح المحظورات.

٧- الإجابة عن سؤالهم للرسول ﷺ ماذا أحل لهم بأنه عز وجل أباح لهم عموم الطيبات، وصيد ما علَّموه من الجوارح مما علمهم الله وذكروا اسم الله عليه، وحل ذبائح أهل الكتاب والحرائر من نسائهم إذا آتوهن أجورهن طالبين الإحصان والزواج الشرعي بعيدًا عن السفاح واتخاذ الأخدان.

والأمر بتقوى الله وأنه سريع الحساب، والحذر من الكفر بالإيمان المحبط للأعمال، والمؤدي إلى الخسران.

٨- بيان وتفصيل أحكام الطهارتين الصغرى والكبرى بالماء والصعيد الطيب، وأنه عز وجل رفع الحرج عن هذه الأمة، وأراد تطهيرها وإتمام النعمة عليها؛ لأجل أن يشكروه.

٩- تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم وميثاقه الذي واثقهم به بدخولهم في الإيمان وإعلانهم السمع والطاعة والإذعان والاستسلام، مذكرًا لهم بوجوب تقواه وبعلمه المحيط بكل شيء مما تنطوي عليه الضمائر والصدور.

١٠- أمر المؤمنين بالقيام لله بما أوجب، والشهادة بالقسط، وتحذيرهم أن يحملهم بغضهم لقوم على ترك العدل معهم الذي هو أقرب للتقوى، وأمرهم بتقوى الله وأنه مطّلع على جميع أعمالهم.

١١- ذكره- عز وجل- ما وعد به الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الأجر العظيم، وما توعد به الذين كفروا من الجحيم والعذاب الأليم، جمعًا بين الترغيب والترهيب.

١٢- تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم إذ همَّ قوم أن يمدوا إليهم أيديهم لقتل الرسول ﷺ وأذية المؤمنين وصدهم عن دينهم فكف أيديهم عن المؤمنين وحثهم على تقوى الله والتوكل عليه الذي من توكل عليه كفاه والذي عليه يتوكل المؤمنون.

١٣- الإخبار بأنه عز وجل أخذ الميثاق على بني إسرائيل للإيمان به وبعث منهم اثني

عشر نقيبًا، وتكفله- عز وجل- بنصرهم إذ هم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا برسله وعزروهم وأقرضوا الله قرضًا حسنًا، ووعدهم على ذلك بتكفير السيئات وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وأوعد من كفر منهم ولعنهم وجعل قلوبهم قاسية، بسبب نقضهم ميثاقهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ونسيانهم نصيبًا مما ذُكِّروا به، وكثرة الخيانة فيهم إلا قليلًا منهم.

١٤- الإخبار بأنه عز وجل أخذ الميثاق على النصارى فنقضوه، ونسوا نصيبًا مما ذُكِّروا به، فأغرى- عز وجل- بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسيجازيهم يوم القيامة بما كانوا يعملون.

١٥- أمره- عز وجل- للطائفتين من اليهود والنصارى بالإيمان بمحمد ﷺ وبما جاءهم به من البشارة والإنذار بعد فترة من الرسل، ومن البيان والنور والكتاب المبين الذي يهدي به الله إلى سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

١٦- ذكر بعض أقوال أهل الكتابين الشنيعة ومزاعمهم الباطلة الموجبة لكفرهم كقول النصارى المسيح ابن الله، وزعمهم هم واليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه والرد عليهم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

١٧- الإخبار بأنه- عز وجل- ذكّر بني إسرائيل بنعمه على لسان موسى عليه السلام بأن جعل فيهم الأنبياء وجعلهم ملوكًا وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من عالمي زمانهم، حضًّا منه تعالى لهم على الجهاد والثبات فيه، ودخول الأرض المقدسة وعدم النكوص والارتداد على أدبارهم فينقلبوا خاسرين.

وعدم استجابتهم لموسى عليه السلام، وخورهم وجبنهم وإبائهم دخولها، وعدم استماعهم لنصح الناصحين لهم بدخولها والتوكل على الله، ودعاء موسى ربه بالمفارقة بينه هو وأخيه وبينهم، وأن ينزل الله فيهم ما اقتضته حكمته من العقوبة لفسقهم وعصيانهم، فعاقبهم بالتيه في الأرض أربعين سنة لا يهتدون إلى طريق.

١٨- ذكر خبر ابني آدم إذ قربا قربانًا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فحسد أخاه على ذلك وقتله فباء بإثمه وإثم قتله لأخيه، وظل يحمل جثة أخيه مدة طويلة

حتى بعث الله له غرابًا يبحث في الأرض؛ ليريه كيف يواري سوأة أخيه فأصبح من النادمين.

١٩- تعظيم حرمة النفس المعصومة، وما كتبه- عز وجل- على بني إسرائيل من أنَّ من قتل نفسًا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا، وما عليه كثير منهم من الإسراف في الإفساد في الأرض- مع إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل بالبينات.

٢٠- ذكر جزاء المحاربين وقطاع الطريق وعقوباتهم في الدنيا والآخرة والعفو عمن تاب منهم قبل القدرة عليه؛ لأنه- عز وجل- غفور رحيم.

٢١- حث المؤمنين على تقوى الله، والتقرب إليه بالأعمال الصالحة والجهاد في سبيله لعلهم يفلحون، والتحذير من الكفر بذكر حال الكفار في النار وإرادتهم الافتداء من العذاب والخروج من النار وهيهات فعذابهم مقيم.

٢٢- ذكر أحكام السرقة وقطع يد السارق والسارقة، مجازاة لهما وتنكيلًا لهما ولغيرهما، إلا مَن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم.

٢٣- تسلية الرسول ﷺ بأن لا يحزن على المسارعين إلى الكفر من المنافقين والمشركين واليهود، وتحكيم اليهود لأهوائهم والاستماع لداعي الضلال وأكلهم السحت.

٢٤- تخيير الرسول ﷺ في الحكم بين أهل الكتاب أو تركه، وأمره إن اختار الحكم بينهم أن يحكم بينهم بالقسط.

٢٥- امتنان الله على بني إسرائيل بإنزال التوراة والإنجيل وامتداحه لما فيهما من الهدى والنور وأحكام القصاص وغير ذلك، وإيجابه على بني إسرائيل الحكم بما فيهما آنذاك.

٢٦- وجوب الحكم بما أنزل الله، وأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق.

٢٧- الامتنان على رسول الله ﷺ وعلى أمته بإنزال القرآن الكريم المصدق لجميع الكتب السماوية السابقة والمهيمن عليها وامتداحه والثناء عليه.

٢٨- وجوب الحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله في القرآن، وتوكيد ذلك والتحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب والعدول عن الحق.

٢٩- بيان أن اختلاف الشرائع- كما أن فيه مراعاة مصالح العباد- ففيه ابتلاء واختبار.

٣٠- الأمر بالمسابقة والمسارعة إلى الخيرات، فمرد الخلق جميعًا إلى الله وسيجازي كلًا بما عمل.

٣١- توكيد وجوب الحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله، والتحذير من فتنتهم عن بعض ما أنزل الله مما لا يوافق أهواءهم، والوعيد لمن تولى منهم عن حكم الله.

٣٢- بيان أن كثيرًا من الناس فاسقون خارجون عن حكم الله الشرعي وعن طاعته فلا يغتر بالكثرة.

٣٣- أن ما عدا حكم الله فهو حكم الجاهلية، وأن حكم الله هو أحسن الأحكام، وأنه لا أحد أحسن من الله حكمًا لأهل الإيمان والتصديق الجازم.

٣٤- النهي عن موالاة اليهود والنصارى، وأن بعضهم أولياء بعض، وأن مَن تولاهم فهو منهم.

٣٥- فضح المنافقين بمسارعتهم إلى موالاة اليهود والنصارى، وتعجب المؤمنين من صنيعهم يدَّعون الإيمان ومع ذلك يسارعون إلى موالاة اليهود والنصارى، وما باؤوا به من الندم وحبوط الأعمال والخسران.

٣٦- بيان غناه- عز وجل- عن العالمين، وأن مَن ارتد عن دينه فلن يضر الله شيئًا، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم.

٣٧- بيان أنه- عز وجل- هو الولي للمؤمنين، وكذا رسوله، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، وأن مَن تولى الله ورسوله والمؤمنين هم حزب الله وأن حزب الله هم الغالبون.

٣٨- توكيد النهي عن موالاة المستهزئين بالدين من أهل الكتاب والكفار لخطر ذلك على الإيمان.

٣٩- أمر الله لرسوله ﷺ بمحاجتهم، وأنهم إنما نقموا على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين أنهم آمنوا بالله وبالقرآن وبكتبه السابقة، وأن ما هم عليه من الكفر وعبادة الطاغوت والصد عن دين الله والقدح فيه مما توعدهم الله عليه بالعقوبة باللعن والغضب ومسخهم قردة وخنازير لهو شر مما نقموه على المؤمنين وأضل عن سواء السبيل.

٤٠- الإخبار عما عليه اليهود من الكفر والنفاق والمسارعة بالإثم والعدوان وأكل السحت مع وجود العلماء فيهم، وذكر مقالتهم الشنيعة وعقيدتهم الفظيعة بأن يد الله مغلولة عن الخير والبر والإحسان، والدعاء عليهم ولعنهم بسبب هذه المقالة والرد عليهم، وذكر تماديهم في الكفر والطغيان والفساد في الأرض والعناد للحق، وما جازاهم الله به على ذلك من إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، وبيان ما لهم عند الله لو آمنوا من تكفير السيئات وإدخالهم جنات النعيم.

٤١- الأمر للرسول ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وأن مهمته البلاغ فقط وتقوية عزيمته بأن الله سيعصمه من الناس، وأمره بأن يبين لأهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل والقرآن، والإشارة إلى ما عليه كثير منهم من زيادة الطغيان والمعاندة للحق فلا يأسَ ﷺ على قوم كافرين.

٤٢- بيان ما أعده الله للذين آمنوا ولمن آمن من اليهود والصابئة والنصارى بالله واليوم الآخر من الأمن والسرور وانتفاء الخوف والحزن.

٤٣- الإخبار بأنه- عز وجل- أخذ ميثاق بني إسرائيل وأرسل إليهم الرسل وأنهم اتبعوا ما تهوى أنفسهم ففريقًا كذبوا من رسل الله وفريقًا يقتلون.

٤٤- الإخبار عن مقالات النصارى الشنيعة الموجبة للكفر وهي قولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة «الله وعيسى ومريم» والرد عليهم تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وتوعدهم إن لم ينتهوا عن الشرك وعن هذه المقالات بالنار والعذاب الأليم، مع حضهم على التوبة وفتح بابها لهم، وبيان أن عيسى إنما هو رسول من رسل الله وأمه صدِّيقة من خيار المؤمنين فلا يجوز دعوى الألوهية فيهما، ومن ثم توبيخهم على الشرك وعبادتهم من دون الله ما لا ينفع ولا يضر والله هو السميع العليم.

٤٥- أمر الله لرسوله محمد ﷺ بتحذير أهل الكتاب من الغلو في دينهم غير الحق، وبيان أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ونهيهم عن اتباع قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل.

٤٦- إخباره- عز وجل- بأنه لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود

وعيسى ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه وموالاتهم الكفار، فاستحقوا سخط الله عليهم والخلود في العذاب.

٤٧- بيان شدة عداوة اليهود والمشركين للذين آمنوا، وأن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى لما فيهم من العبّاد، وعدم الاستكبار ورقة قلوبهم عند سماع القرآن وإيمانهم بذلك، وما أعد لهم من الجنات والأجر العظيم، وما أعد للكفرة المكذبين من الجحيم.

٤٩- نهي المؤمنين عن تحريم طيبات ما أحل الله لهم، وعن الاعتداء، وأمرهم بالأكل مما رزقهم الله حلالًا طيبًا، وتقوى الله الذي هم به مؤمنون.

٥٠- ذكر أحكام الأيمان ووجوب حفظها، وأنه لا مؤاخذة بلغو اليمين وإنما المؤاخذة باليمين المنعقدة فيحرم الحنث فيها، وتجب فيها الكفارة إذا حنث من الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

٥١- تحريم الخمر والميسر، وذكر ما يترتب عليهما من العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتوكيد الانتهاء عنهما وطاعة الله ورسوله والحذر من معصيته والتولي، وبيان أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ المبين، وأن من مات من المؤمنين وهو يشرب الخمر قبل تحريمها فلا جناح عليه.

٥٢- تحريم الاعتداء على الصيد حال الإحرام وفي الحرم، وما يترتب على قتله من الجزاء والكفارة والامتنان بإحلال صيد البحر مطلقًا.

٥٣- امتنان الله على الناس بجعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس يحصل بسببه الأمن، وبه تقوم أمور الدين والدنيا وتحفظ به الحرمات، وجعل الأشهر الحرم والهدي والقلائد.

٥٤- إثبات علم الله ما في السموات والأرض وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم.

٥٥- بيان أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ، وعلم الله بما يبدي العباد وما يكتمون.

٥٦- نفي استواء الخبيث والطيب مهما كانت كثرة الخبيث وإعجابه.

٥٧- نهي المؤمنين عن السؤال عما لا يعنيهم مما لو أبدي لهم وأظهر ساءهم ذلك؛ لأنهم إن سألوا عنها حين نزول القرآن قد تبدى لهم، ويكلفون، بها فما عفا الله عنه فلم

يوجبه ولم يحرمه فليتركوه، وبيان أن مثل هذه الأسئلة قد سألها قوم ثم أصبحوا بها كافرين، كسؤال ثمود الناقة وسؤال أصحاب عيسى المائدة ونحو ذلك.

٥٨- الرد على أهل الجاهلية في تحريمهم ما لم يحرمه الله من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام بمحض افترائهم بعقولهم القاصرة، والبعد عما جاءهم به الرسول ﷺ واتباع ما عليه الآباء مع أن الآباء لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون.

٥٩- طمأنة المؤمنين بأن الذي عليهم هو إلزام أنفسهم باتباع الحق ولا يضرهم ضلال مَن ضل إذا هم اهتدوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وسيجازى كل بعمله.

٦٠- جواز شهادة أهل الذمة على الوصية في السفر إذا لم يوجد أحد من المسلمين.

٦١- جمع الله للرسل وسؤاله لهم بماذا أجيبوا- وهو أعلم بذلك- وردهم علم ذلك إليه سبحانه.

٦٢- تذكير نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام بنعمة الله عليه وعلى والدته، وتأييده بروح القدس، وتكليمه الناس في المهد وكهلًا وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وتأييده بالمعجزات وكف بني إسرائيل عنه وإلهامه- عز وجل- الحواريين الإيمان به عز وجل وبرسوله عيسى عليه السلام.

٦٣- طلب الحواريين من عيسى ابن مريم عليه السلام أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ووعيدهم بالعذاب الشديد إن لم يؤمنوا بعد إنزالها.

٦٤- توبيخ الله للنصارى على عبادتهم عيسى وأمه من دون الله مما لم يأذن به الله لهم، ولم يقله لهم عيسى عليه السلام.

٦٥- الوعد للصادقين بالجنات والرضوان والفوز العظيم.

٦٦- إثبات أن لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير.

وجه المناسبة بين هذه السورة وسورة النساء:

أ- اشتملت كل من السورتين على طائفة من الأحكام العملية في العبادات والحلال والحرام واشتركتا في كثير من ذلك، من ذلك الطهارة بالماء والتراب، وإحلال المحصنات المؤمنات، وأحكام النساء، وتوسعت في ذلك سورة النساء، فذكر فيها الصداق، والعدل بين النساء، وتوريثهن، وحسن معاشرتهن، وحفظ حقوقهن، وعدم الاعتداء عليهن، والمحرمات منهن وحرمة نكاح المتعة، وإباحة نكاح الإماء المؤمنات بشروط، وعلاج النشوز والصلح بين الزوجين، وغير ذلك.

وانفردت سورة المائدة بذكر حل المحصنات من أهل الكتاب، فكان ذلك متممًا لأحكام النساء في سورة النساء.

ب- اشتملت كل من السورتين على محاجة اليهود والنصارى والتنديد بهم وبالمنافقين والمشركين فكأن كلاً من السورتين متممة للأخرى في هذا.

جـ- جاء في سورة النساء تحريم السكر وقت الصلاة، وفي هذا تمهيد لتحريمه مطلقًا، وجاء التحريم المطلق في سورة المائدة.

د- اشتركت السورتان بعدد من الوصايا منها الأمر بتقوى الله، والأمر بالقيام بالقسط، والشهادة بالعدل، وانفردت سورة النساء بالكلام عن حقوق اليتامى، والمواريث، وكثير من أحكام النساء، وأحكام القتال، وانفردت سورة المائدة بذكر أحكام المحاربين، وأحكام السرقة، وأحكام الأيمان وكفارتها ونحو ذلك، كما انفردت كل منهما بأمور غير ذلك.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾.

سبق الكلام على البسملة من حيث إعرابها ومعناها وأحكامها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ جاء هذا النداء في هذه السورة في ستة عشر موضعًا؛ لأن هذه السورة من آخر ما نزل من القرآن بعدما آمن جل مَن بلغتهم الدعوة وصارت الدولة للإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

«يا» حرف نداء، و«أي» اسم منادي مبني على الضم في محل نصب وهو نكرة مقصودة و«ها» للتنبيه.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب صفة لـ«أي» أو بدل منها.

﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»(١).

وهذا النداء عام له ﷺ ولأمته قال الزهري: «إذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ افعلوا فالنبي ﷺ منهم».

ومعنى: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صدقوا بقلوبهم وانقادوا بجوارحهم.

والإيمان في اللغة التصديق، قال تعالى عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أي: بمصدق، وقال تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]، أي: يصدق.

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن معناه لغةً الإقرار، فمن صدق ولم يقر فليس بمؤمن(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٢) الأثر (٥٠٢٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٥٢٩- ٥٤٣).

وهو في الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان[١].

﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾؛ يقال: أوفى بالعهد، ووَفَى به، ووفَّى به[٢]:

من الأول: قوله: هنا: ﴿أَوۡفُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠].

ومن الثاني: «وَفَى» قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:١١١].

فـ﴿أَوۡفَىٰ﴾ هنا صيغة تفضيل على وزن «أفعل» من الفعل الثلاثي «وَفَى»، ولا يجوز أن تكون من الفعل «أوفى»، ولا من «وفَّى» لأنهما رباعيان لأن التفضيل لا يبنى من الرباعي على وزن «أفعل» مباشرة، وإنما يبنى من الفعل الثلاثي.

وقد جمعهما طفيل الغنوي[٣] في قوله:

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته ... كما وفى بقلاص النجم حاديها

ومن الثالث: «وفّى» قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧].

والعقود: جمع عقد، مأخوذ من عقد الشيء بغيره ووصله به، يقال عقدت الحبل أي: ربطته وشددته.

قال الشاعر:

قومٌ إذا عَقَدوا عقدًا لجارهمُ ... شَدُّوا العِناج وشدُّوا فوقه الكَرَبا[٤]

والعقود هي العهود التي يبرمها الإنسان مع غيره سميت بذلك لتوكيدها وإحكامها وتوثيقها كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ [المائدة:٨٩].

وقوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل:٩١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء:٣٤]، وقال تعالى عن نفسه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:١١١].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧٠- ٦٧٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٥٥)، «الكشاف» (١/ ٣٢٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٢٤).

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «وفى»، «الجامع لأحكام القرآن»، (٦/ ٣٢).

(٤) البيت للحطيئة وهو في ديوانه ص(١٥) والعِناج: هو حبل يشد به أسفل الدلو وعرقوته، والكرب: حبل يربطهما معًا. والبيت من قصيدة في مدح عامر بن الطفيل، وتفضيله على الزبرقان بن بدر.

فالوفاء بالعقود والعهود الإتيان بها وافية، وذلك بالقيام بموجبها على ما عُقِدت عليه من شروطها الجائزة الموافقة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وعدم نقضها، دون العقود والشروط المحرمة فهي باطلة، قال ﷺ: «**كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، ولو كان مائة شرط**»(١).

وهي تشمل ما أخذه الله على العباد من وجوب الإيمان به وطاعته بفعل ما أوجبه واجتناب ما نهى عنه، وإحلال ما أحل وتحريم ما حرّم، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

وفي حديث الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**» الحديث(٢).

كما تشمل أيضًا ما أوجبه الله من حقوق العباد، وفي مقدمتها حق الرسول ﷺ من محبته وطاعته واتباعه والصلاة عليه، وحق ولاة الأمر، وحق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران وحق المسلمين بعضهم على بعض.

كما تشمل عقود المعاملات بين المؤمنين بعضهم مع بعض ومع غيرهم من أهل الذمة وغيرهم، كعقد الأمان والذمة والحلف والنذر واليمين والنصرة وعقد النكاح والبيع والشركة والإجارة، وغير ذلك من العقود التي يجب على كل من المتعاقدين الوفاء والالتزام بموجبها.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء:٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٥]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٦٨)، ومسلم في العتق (١٥٠٤)، وأبوداود في العتق (٣٩٢٩)، والترمذي في البيوع (١٢٥٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٣)، والترمذي في الدعوات (٣٣٩٠)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. وأخرجه أيضًا أبوداود في الأدب (٥٠٧٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٢)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل:٩١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة:١٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون:٨، المعارج:٣٢].

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ هذا استئناف تشريع على قول بعض أهل العلم، وليس داخلًا في العقود المذكورة في قوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾، أو هو بداية تفصيل للإجمال في قوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾(١).

وقدم الله ذكر المباحات على المحرمات؛ لأن الأصل في الأطعمة الإباحة، وامتنانًا على العباد؛ ولأن الناس يتطلعون إلى المباحات؛ لأنها متطلبات النفس.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم ﴾، أي: جعلت حلالًا لكم، ولأجلكم. وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن الفاعل معلوم وهو الله- عز وجل- فهو المحلل والمحرم، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٥].

فمن أحل أو حرم من ذات نفسه فقد افترى على الله، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل:١١١].

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ البهيمة: مأخوذة من الإبهام وهو ضد البيان والوضوح، وهي كل ما لا ينطق من الحيوانات، سميت بذلك؛ لأن نطقها مبهم لا يعرف.

قال الزجاج(٢): «كل حي لا يميز فهو بهيمة، لأنه أبهم عن أن يميز».

وقد قيل:

بهيمـــة مســـكينٌ يشـــكو فـــلا يُبـــينُ

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ٩٨)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٨٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٤١٢).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ١٥٤)، وانظر: «اللسان» مادة «بهم».

لســـانه مقطـــوعُ ولا لـــه دمـــوعُ

ومن ذلك قولهم: باب مبهم، أي: مغلق ما يدرى ما بداخله، وليل بهيم، أي: أسود يحجب الرؤية ظلامه، ويقال: بهمة للشجاع الذي لا يدرى من أين يؤتى له، ويقال: حلقة مبهمة، أي: لا يدرى أين طرفاها(١).

و﴿بَهِيمَةُ﴾ مضاف و﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ مضاف إليه، وهي إضافة بيانية، من إضافة الشيء إلى جنسه، كما يقال خاتم فضة، وثوب خزٍ، أي: البهيمة من الأنعام(٢) أو البهيمة التي هي الأنعام(٣).

والمراد بـ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم، وهي الأزواج الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ...﴾ [الأنعام:١٤٢- ١٤٤].

وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

وفي قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:٨٠].

وسميت هذه الأزواج الثمانية ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لما في مشيها من النعومة واللين(٤).

و﴿بَهِيمَةُ﴾ اسم مفرد أضيف إلى معرفة، وهي ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فصار عامًا لكل

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٠٦، ٦/ ٣٤).

(٢) انظر: «غرائب التفسير» (١/ ٣١٥)، «الكشاف» (١/ ٣٢٠)، «التفسير الكبير» (١١/ ٩٩).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٩٧).

(٤) انظر: «لسان العرب» مادة «نعم».

بهيمة الأنعام.

وعلى هذا فيدخل تحت قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الأزواج الثمانية وغيرها من البهيمة من الحيوانات والطيور، سواء ما كان منها بريًّا أو بحريًّا.

ومن ذلك الأجنة التي تخرج ميتة بعد ذبح أمهاتها، وما كان وحشيًّا وغيرهما ولا وجه لتخصيصها بالأجنة، أو بالوحشي(١).

والمعنى: أحلت لأجلكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، أكلها وركوبها وصوفها ووبرها وشعرها ولبنها وسائر منافعها، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: هذا من تفصيل العقود التي أمر الله بالوفاء بها.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء. و﴿مَا﴾ موصولة في محل نصب على الاستثناء من قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لأنه بإضافة ﴿بَهِيمَةُ﴾ وهي اسم مفرد إلى ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي معرفة صار قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عامًّا في كل شيء من بهيمة الأنعام؛ لهذا استثنى منه. فقال: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

والمعنى: إلا ما يقرأ ويقص عليكم تحريمه فهو حرام، وذلك في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة:٣].

قال ابن كثير(٢) في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: «والظاهر- والله أعلم- أن المراد بذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض؛ ولهذا قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٥٥- ٤٥٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٢٩- ٥٣٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٦).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٦).

أي: إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال».

وكذا ما يتلى عليهم في السنة كما قال ﷺ: «**يحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير**»(١).

﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ﴿غَيْرَ﴾ منصوب على الحال من الواو في ﴿أَوْفُوا۟﴾ أو من الكاف والميم في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾، أي: حال كونكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، وهو استثناء من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: مما استثنى منه الاستثناء الأول.

والتقدير: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم حرم(٢).

والصيد: هو الحيوان المأكول المتوحش. و﴿مُحِلِّي﴾ مضاف إلى ﴿غَيْرَ﴾، وأصله «محلين» فحذفت منه النون لإضافته إلى ﴿ٱلصَّيْدِ﴾.

والمعنى: غير مستبيحي الصيد، أي: غير مستبيحي صيده وأكله.

والمراد بالصيد: صيد البر فهو الذي يحرم على المحرم دون صيد البحر كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾ [المائدة:٩٦].

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ الواو حالية، و«أنتم» مبتدأ و﴿حُرُمٌ﴾ خبره، والجملة في محل نصب على الحال من الضمير في «محلي» و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو المتلبس بالإحرام بحج أو عمرة، أو بهما معًا، أو دخل في الحرم وإن لم يكن محرمًا.

فبهيمة الأنعام حلال مطلقًا إلا ما حرَّم منها، والصيد حلال كله إلا صيد البر

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أما ما قيل من أنه مستثنى من قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فهو باطل؛ لأن مفاده أن الصيد حال الإحرام يكون حلالًا؛ لأن الاستثناء من المحرَّم يكون حلالًا فيكون المعنى عليه: إلا ما يتلى عليكم تحريمه فهو حرام إلا الصيد حال الإحرام فهو حلال، وهذا باطل. وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٥، ٣٦).

حال الإحرام أو داخل الحرم فهو حرام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ الجملة مستأنفة، ولهذا كسرت همزة ﴿إِنَّ﴾.

وهي أيضًا كالتعليل لما قبلها، أي: إن الله أحل ما أحل فيما سبق وحرّم ما حرّم؛ لأن الحكم له- عز وجل- يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ومعنى ﴿يَحۡكُمُ﴾ يفصل ويقضي، وحكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حكم شرعي كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الممتحنة:١٠].

وحكم كوني، كما في قول ابن يعقوب: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠]، وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء:١٢٢]، وحكم جزائي[١].

وقوله هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يشمل الأحكام الثلاثة: الحكم الشرعي، والحكم الكوني، والحكم الجزائي. فهو- عز وجل- يقضي ويحكم ما يريد من أحكام كونية فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ويحكم ما يريد من أحكام شرعية، يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويوجب ما يشاء[٢] ويرخص بما يشاء.

ويحكم بما يشاء من أحكام جزائية، كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام:٥٧، يوسف:٤٠، ٦٧]، أي: ما الحكم المطلق إلا لله، وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد:٤١].

﴿مَا يُرِيدُ﴾، ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم، أي: يحكم كل الذي يريده.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥)، «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ٩٩)

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٦٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٦)، وقد حمل ابن تيمية قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ على الحكم الديني الشرعي فقط؛ وذلك- والله أعلم- لأن السياق قبله في التشريع والتحليل والتحريم، ولكن ذلك لا يمنع أن يراد به الحكم الشرعي والكوني والجزائي. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥).

وإرادة الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية.

والفرق بين الإرادتين أن الإرادة الكونية بمعنى المشيئة، لابد فيها من تحقيق المراد، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وتتعلق بما يحبه الله وبما لا يحبه.

أما الإرادة الشرعية فهي بمعنى المحبة تتعلق بما يحبه الله فقط وقد يتحقق فيها وقوع المراد وقد لا يتحقق.

فكل ما يحصل في الكون من حوادث وحركات أو سكون فقد أراده الله كونًا، وكل ما يحصل من إيمان واستقامة وفعل خير فقد أراده الله شرعًا، وتجتمع الإرادتان في الحكم الشرعي إذا تحقق وقوعه فهو مراد لله تعالى كونًا وشرعًا.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ﴾ يشمل الإرادتين؛ الكونية والشرعية.

وختم- عز وجل- الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾؛ لبيان أن الحكم له- عز وجل- يحكم ما يريد، وأنه يجب التسليم له بما حكم ويحكم به من أحكام شرعية، والرضى بما حكم ويحكم به من أحكام كونية وأحكام جزائية فهو- عز وجل- يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٣- الترغيب في الاتصاف بهذا الوصف وهو الإيمان.

٤- الترغيب في امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف إن كان أمرًا بفعله وإن كان نهيًا بتركه، وإن كان خبرًا بتصديقه.

٥- أن امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف وهو الوفاء بالعقود يعد من مقتضيات الإيمان.

٦- أن عدم امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف يعد نقصًا في الإيمان.

٧- أن الذين يمتثلون أوامر الله وينتهون عن نواهيه هم المؤمنون لهذا وجّه الخطاب إليهم في هذه السورة وفي كثير من المواضع في القرآن الكريم، وهم الذين يوفون

بالعهد كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد:٢٠].

٨- وجوب الوفاء بالعقود والعهود؛ لقوله؛ تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾(١).

والأصل في الأمر: الوجوب، وهي إنما سميت عقودًا لشدتها وإحكامها وتعلقها بحقوق الآخرين، وكل ذلك مما يؤكد وجوب الوفاء بها وبأوصافها وشروطها، إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا؛ لقوله ﷺ: «**المسلمون على شروطهم إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا**»(٢).

وقوله: «**كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط**»(٣).

٩- الإشارة إلى أن الأصل في العقود الحل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾، وهذا عام ولكن يستثنى منه ما دل الدليل على تحريمه كعقود الربا والقمار وبيوع الغرر وبيع العينة والنجش، فهذه العقود ونحوها عقود باطلة يحرم عقدها والوفاء بها، وكالحلف على ترك مندوب أو واجب أو فعل محرم، قال ﷺ: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير**»(٤).

١٠- أن العقود تنعقد بما دلَّ عليها من قول أو فعل، بلفظ أو إشارة أو كتابة؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلۡعُقُودِ ﴾ وهذا مطلق فكل ما صار عقدًا بين الناس فهو من العقود.

١١- أن من الوفاء بالعقود إحلال ما أحل الله وتحريم ما حرم؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ ﴾.

---

(١) وليس في الأمر بالوفاء بالعقود ما يقتضي نفي خيار المجلس، كما قال بعضهم؛ لأن خيار المجلس ليس منافيًا لوجوب الوفاء بالعقد ولزومه وثبوته، بل هو من مقتضياته شرعًا، كما دلت على ذلك السنة فالتزامه من تمام العقد. انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في الإجارة- أجر السمسرة (٤/ ٤٥١)- قبل حديث (٢٢٧٤)- مختصرًا بلفظ: قال النبي ﷺ: «**المسلمون عند شروطهم**» وأخرجه الترمذي بلفظه في الأحكام (١٣٥٢)، من حديث كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده. وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في المكاتب (٢٥٦٠، ٢٥٦١)، ومسلم في العتق (١٥٠٤)، وأحمد (٦/ ٨١، ٨٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) سيأتي تخريجه.

١٢- أن الأصل في بهيمة الأنعام الحل؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾(١).

وهي تشمل الأزواج الثمانية؛ الإبل والبقر والضأن والمعز، وكل بهيمة الأنعام من الحيوانات والطيور، إلا ما ورد الدليل بتحريمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: إلا ما يتلى عليكم تحريمه فهو حرام كما في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣].

وقوله ﷺ: «**يحرم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**»(٢).

ومن ذلك ما نهى ﷺ عن أكله كما في حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية»(٣) إلى غير ذلك مما دل الدليل على تحريمه، ومن ذلك ما أمر بقتله لأذيته كالفواسق، وما نهى عن قتله لاحترامه كالنحلة والنملة، ومنها ما يأكل الجيف، ومنها ما تولد من مأكول وغيره كالبغل بين الحصان والحمار، تغليبًا لجانب الحظر ونحو ذلك مما له حكم هذه الأنواع.

وما عدا ذلك فهو حلال، وهكذا سائر الأطعمة والأشربة الأصل فيها الحل إلا

---

(١) استدل ابن عمر وابن عباس وغيرهما بهذه الآية ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على إباحة الجنين إذا وجد ميتًا في بطن أمه إذا ذبحت، ودلالة السنة على هذا أصرح فعن أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «**كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه**» أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨٢٧)، والترمذي في الأطعمة (١٤٧٦)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٩٩) وأحمد ٣/ ٣١، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**ذكاة الجنين ذكاة أمه**» أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨٢٨) وصححه الألباني، وعن ابن مسعود نحوه أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٦).

وعلى هذا جمهور أهل العلم أن ذكاة الجنين ذكاة أمه لهذه الأحاديث.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٢٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠٧). وأخرجه البخاري أيضًا من حديث ابن عمر، وجابر وابن أبي أوفى والبراء بن عازب وأبي ثعلبة- رضي الله عنهم- (٥٥٢١، ٥٥٢٤، ٥٥٢٥، ٥٥٢٦، ٥٥٢٧).

ما ورد الدليل بتحريمه قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

وفي الحديث: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**»(١).

١٣- تحريم الصيد على من أحرم بحج أو عمرة أو بهما أو دخل حدود الحرم بمكة أو المدينة(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

فيحرم صيد الصيد ويحرم أكله، والمراد بالصيد صيد البر؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

١٤- تعظيم حرمة الإحرام وحرمة الحرم؛ لأن الله حرم الصيد في هاتين الحالتين حالة الإحرام وحالة الدخول في الحرم؛ وذلك لئلا ينشغل من تلبس بالإحرام أو دخل الحرم بالصيد عن عبادة الله وتعظيمه.

١٥- إثبات الحكم لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة الحكم الكوني والشرعي والجزائي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، كما قال عز وجل: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧، يوسف:٤٠، ٦٧].

١٦- إثبات الإرادة لله تعالى بقسميها الإرادة الشرعية والإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

١٧- أن الله عز وجل يحكم ما يريد من الأحكام الشرعية والكونية والجزائية، يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، يجب الرضى بأحكامه الكونية، والعمل بأحكامه الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ ۖ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

١٨- بلاغة القرآن الكريم حيث اشتملت هذه الآية الكريمة مع قلة ألفاظها على كثير

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) حرم المدينة أقل حرمة من حرم مكة، وليس فيه جزاء على الصحيح، وقيل فيه الجزاء.

من المعاني والأحكام وقد ذكر المفسرون[١]: أن أصحاب الحكيم الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أيامًا ثم خرج فقال: «والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد إني فتحت المصحف، فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلًا عامًّا، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد».

* * *

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١- ٣٢).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾.

هذه الآية وما بعدها حتى نهاية السورة من تفصيل وبيان العقود المأمور بالوفاء بها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

سبب النزول:

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، قال: «كان المشركون يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون حرمة المشاعر ويتّجرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يُغَيِّروا عليهم فقال الله عز وجل: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾»(١).

---

(١) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٤١٥) الأثر (٣٥٣)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٦٣) الأثر (١٠٩٤١)، والجصاص في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٠٢)، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص(٢٩٩- ٣٠٠).

وقد أخرج الطبري وغيره أيضًا من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ فكان المؤمنون والمشركون يؤمون البيت جميعًا، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدًا أن يحج أو يعرضوا له من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة:٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٧]».

انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٧٧- ٤٧٨) الأثر (١٠٩٧٥). وقد أخرج الطبري هذا عن طائفة من السلف (٩/ ٤٧٥- ٤٧٧).

فابن عباس ومن قال بقوله من السلف: أن الآية في المشركين أو يَدخل فيها المشركون، وأن الآية تنهى عن منعهم من دخول البيت الحرام يرون أن الآية منسوخة بالآيات التي فيها الأمر بقتال المشركين ومنعهم من دخول المسجد الحرام، والظاهر من سياق الآية ومن أقوال المفسرين رحمهم الله أن الآية في المسلمين، أو أنها عامة، ويكون منع المشركين من دخول المسجد الحرام بالآيات المذكورة مخصصًا لهذا العموم. وانظر «تفسير الطبري» (٩/ ٤٧٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام على هذه الجملة من حيث الإعراب والمعنى والأحكام في الكلام على الآية السابقة.

﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَا﴾ ناهية، ﴿تُحِلُّواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون.

﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، «الشعائر» جمع شعيرة على وزن «فعيلة»[1]، وقيل: جمع «شعارة» قال ابن فارس[2]: «ويقال للواحدة شعارة، وهو أحسن».

والشعائر: المعالم التي وضعها الله علمًا على طاعته، مأخوذة من الإشعار، وهو الإعلام يقال: شعر فلان بهذا الأمر، أي: علم، ومن ذلك إشعار البدن، أي: إعلامها بطعن سنامها حتى يسيل منه الدم؛ ليعلم أنها هدي.

أي: لا تحلوا حرمات الله وحدوده وأوامره ونواهيه من مناسك الحج والعمرة وحرمات المشاعر، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٦].

ومعنى إحلال الشعائر: انتهاك المحرَّم منها، أو عدم القيام بالواجب منها، أو عدم إتمامه أو اعتقاد عدم حرمة المحرَّم منها، أو عدم وجوب الواجب منها، أو الحيلولة بينها وبين من أراد فعلها، أو عدم تعظيمها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠].

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تحلوا شعائر الله، ولا تحلوا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام وهذا من عطف الخاص على العام لأن هذه المذكورات كلها من ضمن شعائر الله.

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، «ال» في «الشهر» للجنس، لأن الشهر الحرام ليس شهرًا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٦٤)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٥٥)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٣٧).

(٢) في «مقاييس اللغة» مادة «شعر».

واحدًا، وإنما هي أربعة أشهر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦].

وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب فعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذوالحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان**»(١).

والمعنى: لا تحلوا الأشهر الحرم بالقتال والظلم فيها والمعاصي والنسيء ونحو ذلك، وعظموها ولا تنتهكوا فيها المحارم، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧].

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾، أي: ولا تحلوا الهدي، وهو ما يهدى لبيت الله الحرام من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم؛ تقربًا إلى الله تعالى، وطلبًا لثوابه، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة:١٩٦].

وإحلال الهدي له صور منها: أن يجب على الإنسان هدي تمتع أو قران أو نحوهما فيتركه ولا يذبحه، أو ينحره قبل وقت نحره، أو قبل وصوله إلى الحرم، أو يبيعه.

ومنها أن يغتصبه ويأخذه قهرًا من مهديه، أو يحول بينه وبين الوصول إلى الحرم.

ومنها أن التعرض له بأي نوع من أنواع الأذى، كأن يُحمّل ما لا يطيق، أو يمنع من

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٧)، وفي التفسير (٤٦٦٢)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، وأبوداود في المناسك (١٩٤٧)، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٣)، وأحمد (٥/ ٣٧). وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (١/ ٥٣٧).

الطعام والشراب.

ومنها أن يأكل منه المهدي، وهو مما لا يحل الأكل منه كالهدي الواجب بسبب الإحصار، أو جزاء الصيد.

أما هدي التمتع والقران وما يسوقه المعتمر والحاج من بلده من الهدي إلى الحرم فقد دلت السنة على استحباب الأكل منه(١).

﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، أي: ولا تحلوا القلائد. والقلائد: جمع قلادة، وهي في الأصل ما يوضع على الرقبة، والمراد بها هنا ما تقلد به أعناق الهدي من قلائد، علامة على أنها مهداة لفقراء الحرم فلا يعترضها أحد، وكذا لو ضلت عرف من يجدها أنها هدي.

وإحلال القلائد: إما باستحلال أخذها من أعناق الهدي مما يعد استحلالًا لحرمة الهدي وتفويت معرفة أنه هدي مما يعرضه للأذى.

أو أن المعنى: لا تحلوا الهدي ذوات القلائد، أي: المقلدات، فيكون من باب عطف الخاص على العام فالهدي عام لكل ما يهدى للحرم، و«القلائد» خاص فيما قلد من الهدي(٢)، أي: الهدي المقلدات.

ولا شك أن إحلال الهدي المقلد أشد لأن الهدي المقلد يكون معروفًا.

وإحلال «الهدي المقلدات» في صوره مثل إحلال الهدي كما سبق، أو بالرجوع في هدي قلده، ونحو ذلك.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، أي: ولا تحلوا آمين البيت الحرام.

و﴿ءَآمِّينَ﴾ جمع آم، أي: قاصدي البيت الحرام وعامديه للحج أو العمرة أو العبادة،

---

(١) فقد أهدى النبي ﷺ في حجته مائة ناقة نحر منها بيده الشريفة ثلاثًا وستين بدنة ونحر بقيتها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ من كل بدنة قطعة لحم وطبخها وأكل منها ﷺ وحسا من مرقها. أخرجه ابن ماجه في الأضاحي (٣١٨٥)، من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (١/ ٣١٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٦٧- ٤٧٠، ٤٧٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٣٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧).

يقال: أممت كذا، أي: قصدته وعمدته[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣، المائدة:٦] أي: اقصدوا صعيدًا طيبًا، ويقال: تيممت كذا، ويممته. قال الشاعر:

إني كذاك إذا ما ساءني بلد ... يممت صدر بعيري غيره بلدا[٢]

وقال الآخر:

وما أدري وإن يممت أرضًا ... أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني[٣]

والبيت الحرام: هو الكعبة، وسماه الله بيتًا؛ لأنه بناء ذو قواعد وسقف، وهو أول بيت وضع للناس، بناه إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما السلام، وجعله الله قبلة للمسلمين ومثابة للناس وأمنًا وقيامًا لهم ومباركًا وهدى للعالمين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤، ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٦- ٩٧].

ووصفه الله- عز وجل- بالحرام؛ لعظيم حرمته عند الله تعالى، ولهذا جعل الله ما حوله محترمًا، يحرم صيده، وقطع شجره، وتحرم لقطته إلا لمنشد، تضاعف فيه الحسنات، وتَعْظُمُ فيه السيئات.

قال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا يختلى**

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «يمم».

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٤٦)، «جامع البيان» (٩/ ٤٧١)، «الجليس الصالح الكافي» (ص٨٤).

(٣) البيتان للمثقب العبدي. انظر: «ديوانه» (ص٢١٣).

خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

والمعنى: لا تستحلوا قاصدي البيت الحرام والعامدين إليه لحج أو عمرة أو لغير ذلك من أنواع العبادة، لا في طريقهم إليه، ولا حال وجودهم في الحرم بالاعتداء عليهم أو إخافتهم أو منعهم منه أو من أداء مناسكهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ الجملة في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿ءَآمِّينَ﴾، أي: حال كونهم يبتغون فضلًا من ربهم ورضوانًا، وفي هذا ثناء عليهم، وإشارة إلى أهمية الإخلاص في حق من قصد هذا البيت، بل في كل عبادة.

﴿يَبْتَغُونَ﴾، أي: يطلبون ويلتمسون.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الفضل في الأصل: الزيادة، والمراد به هنا ما يشمل الفضل والأجر والثواب الأخروي في الجنة، والفضل الدنيوي كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] أي بالتجارة والربح الحلال.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: من خالقهم ومالكهم ومدبرهم، وهو الله عز وجل، لا من غيره.

﴿وَرِضْوَانًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم الراء: «ورُضوانًا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿وَرِضْوَانًا﴾.

أي: ويطلبون رضوانًا من ربهم- عز وجل- بأن يرضى عنهم فإذا رضي عنهم وأحبهم كتب لهم القبول في السماء والأرض فأحبهم الناس ورضوا عنهم، ولعل هذا هو السر في جمع «رضوانًا».

قال ابن كثير(٢): «أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمنًا، وكذا من قصده طالبًا فضل الله وراغبًا في رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٥)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٨).

ولا تهيجوه، أما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨] ولهذا بعث النبي ﷺ أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان»(١).

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ هذا تصريح بما فهم من قوله تعالى- في الآية الأولى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ظرفية شرطية غير جازمة ﴿حَلَلْتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ وقرن بالفاء لأنه جملة طلبية، والأمر هنا للإباحة لأنه أمر بعد حظر أي: إذا حللتم من الإحرام أو خرجتم من الحرم.

والأمر بعد الحظر يفيد الإباحة على قول طائفة من أهل العلم من الأصوليين وغيرهم قال الماوردي(٢): «هذا وإن خرج مخرج الأمر فهو بعد حظر فاقتضى إباحة الاصطياد بعد الإحلال دون الوجوب».

وذهب طائفة من الأصوليين إلى أن الحكم يُرَدُّ إلى ما كان عليه قبل النهي.

قال ابن كثير(٣): «إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرمًا عليكم في حال الإحرام من الصيد، وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السّبر أنه يُرَدُّ الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجبًا رده واجبًا وإن كان مستحبًا فمستحب، أو مباحًا فمباح، ومن قال إنه على الوجوب ينتقض بآيات كثيرة ومن قال إنه للإباحة يرد عليه آيات أخر، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول».

﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾، أي: فصيدوا الصيد، وإنما قال: ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾؛ لأن الصيد يحتاج إلى حركة وعمل وافتعال.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «النكت والعيون» (١/ ٤٤١)، وانظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٣٨٧).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٩).

عن زيد بن أسلم قال: «كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ نصد هؤلاء، كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية»(١).

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، أي: ولا يحملنكم(٢)، ومنه قول الشاعر(٣):

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة ... جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أي: حملت فزارة، فالمعنى: لا يحملنكم شنآن قوم أن تعتدوا عليهم.

وقال بعض أهل اللغة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يُحِقَّنَّ لكم، قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل:٦٢] فالمعنى: حقًّا أن لهم النار(٤).

وقال بعضهم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، أي: ولا يكسبنكم، يقال: فلان جارم أهله، أي: كاسبهم، أي: لا يكسبنكم شنآن قوم أن تعتدوا عليهم(٥).

قال الطبري(٦) بعد حكايته للأقوال الثلاثة عن السلف: «وهذه الأقوال التي حكيناها عمن حكيناها عنه متقاربة المعنى، وذلك أن من حمل رجلًا على بغض رجل فقد أكسبه بغضه، ومن أكسبه بغضه فقد أحقّهُ له، والذي هو الأحسن في معنى الحرف ما قاله ابن عباس وقتادة «أي: لا يحملنكم شنآن قوم على العدوان».

﴿شَنَـَٔانُ﴾ قرأ ابن عامر ونافع في رواية إسماعيل وعاصم في رواية أبي بكر: «شَنْآنُ» بسكون النون الأولى على وزن «فَعْلان» اسم فاعل.

وقرأ بقية العشرة: ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بفتح النون على وزن «فَعَلان» مصدر من شنأته

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٠)، ونسبه لابن أبي حاتم.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٩٨)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٥٦- ١٥٧).

(٣) البيت لأبي أسماء بن الغريبة، ويقال هو لعطية بن عفيف، انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٤٦٩)، «مجاز القرآن» (١/ ١٤٧)، «جامع البيان» (٩/ ٤٨٣).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٥٩- ٤٦٠).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٩٨)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٥٦- ١٥٧).

(٦) في «جامع البيان» (٩/ ٤٨٤).

أشنؤه شنآنًا(١).

والشنآن: هو البغض، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣] أي: إن مبغضك هو الأبتر.

أي: لا يحملنكم بغض قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا.

والمراد بالقوم هنا كفار مكة فهم الذين صدوا الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح:٢٥].

﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ قرأ أبوعمرو وابن كثير: «إن صدوكم» بكسر الألف من «إن» على الاستقبال، أي: لا يحملنكم بغض قوم إن صدوكم عن المسجد الحرام فيما يستقبل أن تعتدوا.

وقرأ بقية العشرة: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الألف من «أن» على المضي والتعليل، أي: لا يحملنكم بغض قوم أن صدوكم، أي: من أجل أن صدوكم فيما مضى عن المسجد الحرام يوم الحديبية(٢).

والقراءتان سبعيتان صحيحتان فقراءة فتح الهمزة محمولة على صدٍ وقع ومضى، وقراءة كسر الهمزة محمولة على ما يستقبل ويتوقع ولا تنافي بين المعنيين.

ومعنى ﴿صَدُّوكُمْ﴾: صرفوكم ومنعوكم.

﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾: هو مكان السجود والعبادة لله تعالى. والمراد بالمسجد الحرام مسجد الكعبة، أي ما جاورها مما جعل مسجدًا يطاف داخله على الكعبة، وما حوله من الحرم إلى نهاية حدود الحرم تابع له.

وقد صدت قريش النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام، وعن الحرم كله، فتحلل النبي ﷺ وأصحابه، ونحروا هديهم خارج الحرم.

ومعنى ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: ذي الحرمة العظيمة الذي حرمه الله يوم خلق السموات

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٨٦)، «المبسوط» ص(١٦١)، «الكشف» (١/ ٤٠٤)، «النشر» (٢/ ٢٥٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٨٧- ٤٨٨)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٥٧)، «المبسوط» ص(١٦١)، «الكشف» (١/ ٤٠٥)، «النشر» (٢/ ٢٥٤).

والأرض(١)، وجعله مباركًا وهدى للناس وقيامًا لهم ومثابةً وأمنًا وجعل حجه أحد أركان الإسلام(٢)، وأوجب زيارته(٣)، وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة(٤)، وتوعد من ألحد فيه بالعذاب الأليم(٥).

وقد انتهك كفار مكة هذه الحرمة العظيمة للمسجد الحرام، فصدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام، وأحلوا شعائر الله والشهر والحرام والهدي والقلائد وآمّي البيت الحرام، وهو ﷺ والذين آمنوا معه أولى الناس بهذا البيت، وبالذي بناه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران:٦٨].

﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾، ﴿أَن﴾ مصدرية، ﴿تَعْتَدُواْ﴾ منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون، و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ والتقدير: لا يكسبنكم بغض قوم الاعتداء عليهم، أو في تأويل مصدر في محل جر والتقدير: لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم.

ومعنى: ﴿تَعْتَدُواْ﴾، أي: تتجاوزوا الحد الذي حده الله لكم في أمرهم.

ومعنى الآية: لا يحملنكم بغض قوم بسبب صدهم لكم عن المسجد الحرام على أن تتجاوزوا حكم الله فيهم إلى ما نهاكم عنه، ولكن الزموا حكم الله فيهم فيما أحببتم، وفيما

---

(١) كما سبق في حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا**» أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الأيمان (١٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١).

(٣) قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦].

(٤) كما جاء في حديث جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه**» أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٠٦) وصححه الألباني.

(٥) قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

كرهتم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]. وقال ﷺ: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»(١).

وقال بعض السلف: «ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه»(٢).

كما لا يجوز أن تعتدوا على من لم يصدكم عن المسجد الحرام بسبب بغضكم لهؤلاء الذين صدوكم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤، الإسراء:١٥، فاطر:١٨، الزمر:٧].

قال ابن كثير(٣): «أي لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨] أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد، في كل حال».

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قال ابن القيم: «وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين؛ واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق..».

﴿وَتَعَاوَنُوا﴾، أي: ليعن بعضكم بعضًا فهو تفاعل من جانبين.

﴿عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي: على فعل أعمال البر وعلى التقوى.

والبر والتقوى من الأسماء التي إذا أفرد كل منهما تضمن معنى الآخر، وإذا اجتمعا حمل كل منهما على معنى يخصه، كالإسلام والإيمان والفقير والمسكين، ونحو

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، والدارمي في البيوع (٢٥٩٧)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٠).

ذلك من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت.

قال ابن القيم[١]: «إذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر، إما تضمنًا وإما لزومًا، ودخوله فيه تضمنًا أظهر؛ لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى، فإنه جزء مسمى البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر..».

والبر في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير، الظاهرة والباطنة.

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة:١٨٩].

وهو الذي تسكن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، قال ﷺ: «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون**»[٢].

وهو حسن الخلق كما قال ﷺ: «**البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[٣].

والمراد بالبر هنا في هذه الآية فعل ما أمر الله به من الواجبات والمستحبات من أنواع الطاعات.

والتقوى: هي أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر الله به وترك

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٩٤- ٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤)، والدارمي في الأضاحي (٢٥٣٣)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

ما نهى الله عنه.

والمراد بالتقوى هنا، ترك واجتناب ما نهى الله عنه من أنواع المعاصي لاقترانها بالبر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «البر: ما أُمرت به، والتقوى: ما نُهيت عنه»(١).

قال ابن رجب(٢): «وإذا قرن البر بالتقوى فقد يكون المراد بالبر معاملة الخلق بالإحسان، وبالتقوى معاملة الحق بفعل طاعته واجتناب محرماته، وقد يكون أريد بالبر فعل الواجبات، وبالتقوى اجتناب المحرمات».

فالمعنى: ليعن بعضكم بعضًا على فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، والتناصح، ومد يد العون والمساعدة بالبدن والمال والجاه وغير ذلك لمن يحتاج إلى ذلك في فعل طاعة، أو ترك معصية قال ﷺ: «**الدال على الخير كفاعله**»(٣).

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الجملة معطوفة على ما سبق.

و﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ كل منهما إذا أفرد تضمن معنى الآخر، وإذا اجتمعا صار لكل منهما معنى يخصه.

قال ابن القيم(٤): «و﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ في جانب النهي نظير ﴿ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ في جانب الأمر»، وقال أيضًا(٥): «كل منهما إذا أفرد تضمن الآخر، فكل إثم عدوان إذ هو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم فإنه يأثم به صاحبه، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما».

والإثم ما يوجب تأثيم صاحبه، من قول أو فعل، وهو الذنب، وفي الحديث:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٩١) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- الأثر (١١٠٠٠).

(٢) في «جامع العلوم والحكم» ص(٣٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٧٠)، من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث غريب». وأخرجه مسلم في الإمارة (١٨٩٣)، وأبوداود في الأدب (٢١٢٩)، من حديث أبي مسعود الأنصاري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**».

(٤) في الرسالة التبوكية ص(٢١).

(٥) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٨)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٩٣).

«**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[١].

والمراد به هنا: المعاصي المتعلقة بحق الله تعالى.

والعدوان هو التعدي على الناس بما فيه ظلم في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم.

وقيل: المراد بالإثم هنا ترك ما أمر الله بفعله في حق النفس والغير، والعدوان: هو تجاوز ما حده الله ونهى عنه في حق النفس أو الغير.

وقال ابن القيم[٢]: «والإثم ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك، والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه إما بأن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه، فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئًا أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها فهذا كله عدوان وتعد للعدل».

وقال أيضًا[٣]: «فنكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه عدوان، فالعدوان هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]».

والمعنى: ولا يُعن بعضكم بعضًا على الإثم والعدوان بترك ما أمركم الله به وارتكاب ما نهاكم الله عنه في حقه- عز وجل- وحق العباد، فالإثم لازم، والعدوان متعدٍ، وهو أشد لأن فيه التعدي على الغير.

ومن التعاون على الإثم والعدوان: التعاون على ترك العدل مع الغير، والاعتداء على من لم يعتد، والعدوان في الاقتصاص ممن ظَلم وغير ذلك.

وفي الحديث عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قيل: يا رسول الله هذا أنصره مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا، قال: «**تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه**»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٨)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٩٣، ٩٨).

(٣) في الرسالة التبوكية (ص(٢٢)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٩٨- ٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٤)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٩٩).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»(١).

والخلاصة أن في الأمر بالتعاون على البر والتقوى حثًّا على فعل جميع خصال الخير، وفي النهي عن الإثم والعدوان تحذيرًا من فعل جميع خصال الشر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أي: واتقوا الله فيما بينكم وبينه، واتقوه عمومًا بفعل ما أمركم الله به واجتناب ما نهاكم الله عنه، واتخذوا بذلك وقاية من عذاب الله عز وجل.

وتقوى الله هي ملاك الأمر، فعلينا أن نتقي الله ونأمر بتقوى الله وندعو لمن أمرنا بتقوى الله.

عن الحسن البصري: أن رجلًا قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتق الله يا عمر. وأكثر عليه، فقال له قائل: اسكت، فقد أكثرت على أمير المؤمنين. فقال له عمر: دعه، لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نقبل. وفي لفظ: إذا لم تقل لنا(٢).

ورضي الله عن الخليفة الراشد أبي بكر الصديق عندما قال له رجل: اتق الله. قال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم».

وكان بعض السلف إذا قيل له: اتق الله؛ ارتعد واضطرب وربما سقط من مخافة الله.

ولو قلت لبعض الناس اليوم اتق الله لغضب وادعى لنفسه ما ادعى، إلا من رحم ربك وهذا دليل ضعف الإيمان، والله المستعان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذا وعيد وتهديد لمن لم يتق الله، فلم يمتثل أمر الله وارتكب نهيه بأن الله شديد العقاب، أي شديد المعاقبة، وهي المؤاخذة على الذنب في الدنيا والآخرة لمن خالف أمره وعصاه.

ومن شديد عقابه في الدنيا ما عاقب به المكذبين للرسل من أنواع العقوبات كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗاۖ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ

---

(١) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأبوداود في السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤).

(٢) أخرجه أبو يوسف في الخراج (ص٢٢)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٧٣).

وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

وعقابه في الآخرة أشد وأبقى كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٧] وهو نار جهنم التي لا يموت ساكنها ولا يحيى نسأل الله السلامة، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٥- ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام لقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان يؤخذ منه كما سبق التشريف والتكريم لهم، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، والحث على امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف، وأن امتثاله من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان إلى غير ذلك.

٣- تحريم إحلال شعائر الله بترك ما أمر الله به وأوجبه أو انتهاك ما حرمه الله ونهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

٤- أن من دخل في عبادة وجب عليه إتمامها إن كانت هذه العبادة واجبة، أو كانت حجًا أو عمرة سواء كان الحج والعمرة الواجبين أو سنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٣]، وهذا عام في كل عبادة؛ ولقوله تعالى- في الحج والعمرة: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦].

٥- تعظيم الشعائر؛ لأن الله أضافها إلى نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

٦- مشروعية إشعار الهدي؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

٧- تحريم إحلال الأشهر الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ والمراد به جنس الأشهر الحرم وهي: ذوالقعدة وذوالحجة ومحرم ورجب، وذلك بإحلال القتال فيها، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧].

أو النسيء فيها كما كان المشركون يفعلون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة:٣٧].

أو إحلالها بظلم النفس فيها بالمعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

وقد اختلف أهل العلم في تحريم القتال في الأشهر الحرم هل هو باق أو منسوخ.

فذهب أكثر أهل العلم من المفسرين والفقهاء وغيرهم إلى أنه منسوخ بالأمر بقتل المشركين، بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]، وبقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:٢٩].

وقد قاتل النبي ﷺ هوازن وثقيف في ذي القعدة، وكانت غزوة تبوك في رجب وكلاهما من الأشهر الحرم.

قالوا: فهذا مما يدل على نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم(١).

وهذا القول مروي عن ابن عباس ومجاهد والشعبي وقتادة والضحاك وحبيب بن أبي ثابت وابن زيد والسدي وعطاء بن ميسرة والزهري(٢) وسفيان الثوري(٣)، وهو قول جمهور العلماء، منهم الأئمة الأربعة(٤). واختاره أبوعبيد والطبري والنحاس وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم(٥).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم باق لم ينسخ،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٧٩)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (١/ ٥٣٩، ٢/ ٢٣٥، ٢٣٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٣٢١- ٣٢٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧).

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣١٤- ٣١٥، ٩/ ٤٧٥- ٤٧٧)، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (١/ ٥٣٧).

(٣) أخرجه عن سفيان البيهقي في السنن (٩/ ١٢).

(٤) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (٢/ ٤٤٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ٣٢١- ٣٢٢، ٢/ ٢٩٩- ٣٠١)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ١٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٤٣، ٨/ ١٣٤)، «زاد المعاد» (١/ ٣٤١).

(٥) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (٢/ ٤٤٧)، «جامع البيان» (٣/ ٣١٤، ٩/ ٤٧٩)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (١/ ٥٣٥- ٥٣٩)، «نواسخ القرآن» لابن الجوزي ص(١٩٧، ٣٠١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٤٣، ٨/ ١٣٤).

وممن ذهب إلى هذا عطاء بن أبي رباح[١]؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ [البقرة:٢١٧].

ولما رواه جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ لا يقاتل في الشهر الحرام إلا أن يُغزى، أو يغزو فإذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ»[٢].

والصحيح أنه لم ينسخ وأنه لا يجوز القتال في الأشهر الحرم ابتداءً أما إذا كان القتال دفاعًا أو امتدادًا لغزو سابق فإن ذلك جائز لأنه لا تنافي بين هذه الآية وبين آيات القتال عامة؛ لأن آيات القتال كآية السيف وغيرها عامة بجواز قتال المشركين والأمر به في جميع الأمكنة والأزمنة، وهذه الآية خاصة بالمنع من القتال في الأشهر الحرم ما لم يكن هناك اعتداء ولا تعارض بين خاص وعام.

فإذا استحل المشركون القتال في الشهر الحرام وقاتلوا المسلمين فيه جاز للمسلمين قتالهم فيه، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٩٤].

وكذا إذا كان القتال امتدادًا لقتال قبل دخول الأشهر الحرم، وعلى هذا يحمل قتال النبي ﷺ هوازن في حنين، وثقيفًا في الطائف فإن النبي ﷺ قاتلهم في شوال واستمر في محاصرتهم حتى دخل عليه ذو القعدة، والقاعدة أنه يثبت تبعًا ما لا يثبت استقلالًا.

وقد اختار هذا القول السرخسي[٣] وابن القيم[٤]، والدكتور مصطفى زيد في كتابه «النسخ في القرآن الكريم»[٥]، والزرقاني في «مناهل العرفان»[٦].

---

(١) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٤٤٧) «الأثر» (٣٨٨)، والطبري في «جامع البيان» الأثر (٤٠٩٩)، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص(١٩٦)

(٢) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٤٤٧) الأثر (٣٨٩، ٣٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٤، ٣٤٥)، والطبري (٤٠٨١)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٤٣٥) الأثر (٩٣)، وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي من رواية أحمد (٦/ ٦٦)، وقال: «رجاله رجال الصحيح».

(٣) في «شرح السرخسي على السير الكبير» (١/ ٢٥٢).

(٤) في «زاد المعاد» (٣/ ٣٤١).

(٥) (٢/ ٦٦٤).

(٦) (٢/ ١٥٥).

٨- تحريم إحلال الهدي وهو ما يهدى للبيت من بهيمة الأنعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ وإحلاله بأن ينحر أو يذبح قبل أن يبلغ محله وهو الحرم، أو يحال بينه وبين الوصول للحرم، أو يغتصب من مهديه، أو يمنع عنه الطعام والشراب، أو يحمل ما لا يطيق، أو يؤكل منه إذا كان مما لا يحل الأكل منه، كالهدي الواجب بسبب الإحصار أو جزاء الصيد، أو بنذر ونحو ذلك.

٩- مشروعية تقليد الهدي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ فهذا يدل على أن تقليد الهدي قربة لله تعالى.

١٠- أن الهدي المقلد أشد حرمة؛ لأن الله عطفه على الهدي من باب عطف الخاص على العام فقال: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

١١- أن من حرمة الهدي المقلد أن يحترم ما عليه من قلادة فلا تحل؛ لأنها علامة على أنه هدي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وهذا يشمل القلادة والمقلد.

١٢- العمل بالقرائن؛ لأن القلادة قرينة على أنه هدي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، كما قال تعالى في قصة يوسف مع امرأة العزيز: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف:٢٦- ٢٧] وعلى هذا دلت السنة(١).

١٣- تحريم إحلال قاصدي البيت الحرام لحج أو عمرة أو لغير ذلك طلبًا للفضل من الله ورضوانه، بمنعهم من دخول البيت أو إخافتهم أو غير ذلك، ووجوب احترامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ فالاعتداء عليهم أشد من الاعتداء على غيرهم؛ لأن في ذلك إحلالًا لشعائر الله وحرماته، وليس في هذا دلالة على أنه لا يجوز دخول مكة إلا بالإحرام كما قال بعضهم(٢) وقد قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما لما ذكر المواقيت قال

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله على هذه الآية في «تفسير سورة المائدة» (١/ ٢٥).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٢).

ﷺ: «**هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج أو العمرة**»(١).

١٤- إثبات حرمة البيت الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾.

١٥- وجوب الإخلاص لله تعالى على من قصد البيت لحج أو عمرة أو غير ذلك من العبادات، وأن الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»(٢).

١٦- تشريف قاصدي البيت الحرام لطلب الفضل والرضوان من الله بإضافة ضميرهم إلى «الرب»؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الناس، وربوبيته الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٨- أن ما يحصل عليه قاصدو البيت الحرام والمؤمنون عمومًا من الفضل والرضوان، إنما هو بمنه- عز وجل- وفضله وإنعامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ لأن الله سماه فضلًا وأضافه إلى اسمه «الرب» بمعنى: المنعم.

١٩- أنه يجوز لمن قصد البيت الحرام لحج أو عمرة، أو غير ذلك من العبادات أن يجمع بين إرادة الفضل الدنيوي من الله من التجارة والكسب الحلال، وإرادة الفضل الأخروي ورضوان الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨].

٢٠- أن الرزق والفضل والخير كله من الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وأن اسمه عز وجل «الرب» أولى الأسماء بسؤاله- عز وجل- وطلب الحاجات منه؛ لأن من معانيه الخالق المالك المدبر الرازق... إلخ.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢٤)، ومسلم في الحج (١١٨٢)، وأبوداود في المناسك (١٧٣٧، ١٧٣٨)، وابن ماجه في الحج (٢٩١٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

٢١- أن في قصد البيت لحج أو عمرة أو عبادة رضوان الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾

٢٢- أن من أعلى مقامات العبادة أن يعبد العبد ربه ابتغاء الفضل منه والرضوان رجاء في ثوابه وخوفًا من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ كما قال تعالى في مدح محمد ﷺ وأصحابه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:٢٩].

وفي هذا الرد على الصوفية الذين يقولون نحن نعبد الله لله، لا طلبًا لثوابه ولا خوفًا من عقابه ويدعون أن هذا أعلى المقامات(١).

٢٣- أن الدين الإسلامي دين ودنيا، عبادة لله تعالى وسعي في التجارة والكسب وعمران هذا الكون؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

٢٤- ثبوت صفة الرضا لله، صفة فعلية على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانًا﴾ كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠، المجادلة:٢٢، البينة:٨].

وقال ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا**»(٢).

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة، ورضاه سبب للثواب وليس هو الثواب كما يقول أهل التعطيل.

٢٥- لا يجوز إحلال من قصد البيت الحرام لغرض مباح ولو كان مما لا يبتغى به الفضل والرضوان من الله؛ لأن قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ قيد لبيان الأغلب، فإن أغلب من يقصدون المسجد الحرام لهذا الغرض، وهو ابتغاء الفضل من ربهم والرضوان؛ ولهذا فإن هذا القيد لا مفهوم له(٣) فلا يجوز إحلال

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في «تفسير سورة المائدة» (١/ ٢٧-٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٥)، ومالك في الجامع (١٨٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء:٢٣] فإن الربيبة تحرم سواء كانت في الحجر أم لم تكن فيه، وإنما هذا قيد لبيان الأغلب فلا مفهوم له وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى
=

من دخل الحرم مطلقًا إلا من كان محدثًا أو دخله للإلحاد والإفساد فيه.

٢٦- إباحة الصيد وحله إذا حل المحرم من إحرامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ وهذا أمر بعد حظر فهو محمول على الإباحة، فالإنسان إذا حلّ، بأن خرج من الحرم، وتحلل من إحرامه التحلل الأول حل له الصيد، والأمر بعد النهي يحمل على الإباحة عند جمهور أهل العلم من الأصوليين وغيرهم.

وقال بعض أهل العلم معناه: رفع للنهي واختار هذا الحافظ ابن كثير(١).

والفرق بينهما أنه على القول بأن معناه الإباحة يصير حكم الشيء الذي أمر به مباحًا فقط، وعلى القول بأن معناه رفع للنهي يعود حكم الشيء الذي أمر به إلى ما كان عليه قبل النهي واجبًا كان أو مستحبًا أو مباحًا.

٢٧- التصريح بمفهوم المنطوق، قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ ومفهوم هذا حل الصيد لهم إذا لم يكونوا محرمين لكن جاء التصريح بهذا المفهوم بقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ للتنبيه والإشارة إلى أن تحريم الصيد حال الإحرام لا يوجب مشقة ولا عنتًا؛ لأن الله أباح الصيد في حال الحل.

٢٨- أهمية الصيد عند العرب آنذاك، إذ كان من أهم معايشهم، فإذا جاع الواحد منهم أخذ قوسه أو رمحه فاصطاد ما يسد به جوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ بخلاف ما عليه المولعون بالصيد في هذا الوقت، الذين جعلوا من الصيد لهوًا وإضاعة للأوقات، التي هي أغلى من كل شيء.

٢٩- بغض أهل الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ وجه ذلك أن الله لم ينه المؤمنين عن بغض هؤلاء، وإنما نهاهم أن يحملهم بغضهم لهم على الاعتداء عليهم.

=

الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣] فإن قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ قيد لبيان الواقع فهم كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التحصن والعفاف ولا مفهوم له يفيد أنهن إذا لم يردن التحصن جاز إكراههن على البغاء وجاز لهن أن يزنين.

(١) في «تفسيره» (٣/ ٩).

٣٠- أن المشركين صدوا المسلمين عن البيت الحرام، وذلك عام الحديبية؛ لقوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٣١- أن القراءتين بمثابة آيتين فمن قرأ بفتح الهمزة ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ فهو محمول على ما مضى، ومن قرأ بكسرها فهو محمول على ما يستقبل.

٣٢- النهي عن أن يحمل الإنسان بغضه لقوم على الاعتداء عليهم أو على غيرهم(١)؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾.

٣٣- وجوب العدل والحذر من الاعتداء والظلم في جميع الأحوال مع جميع الناس في حال الغضب والرضى مع القريب منهم والبعيد والعدو والصديق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾.

٣٤- أنه يجوز إذا اعتُديَ على الإنسان أن ينتقم ممن اعتدى عليه بقدر ما اعتدى عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾، فإذا كان الأمر ليس على سبيل الاعتداء فهو جائز؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

لكن الصبر أولى وأفضل، كما قال تعالى في ختام الآية السابقة: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

٣٥- إثبات الحرمة للمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وما حوله تبع له في الحرمة إلى نهاية حدود الحرم.

٣٦- وجوب التعاون على البر والتقوى، على فعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ والأمر للوجوب.

وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»(٢).

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤، الإسراء:١٥، فاطر:١٨، الزمر:٧].

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٥)، وأبوداود في الأدب =

وقال ﷺ: «**والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»(١).

٣٧- تحريم التعاون على الإثم والعدوان؛ على ترك ما أمر الله به وارتكاب ما نهى الله عنه في حق النفس أو الغير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

٣٨- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣٩- شدة عقاب الله والتهديد والوعيد بذلك لمن خرج عن طاعة الله وخالف أمره وارتكب نهيه، للتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾.

* * *

=

(٥١٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٩)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٦)، والترمذي في الحدود (١٤٢٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

هذه الآية وما ذكر فيها من المحرمات بيان وتفسير لقوله تعالى- في الآية الأولى من هذه السورة ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى- في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [الآية:١٧٣].

وقوله تعالى- في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الآية:١١٥].

وقوله تعالى- في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الآية:١٤٥].

قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، ﴿حُرِّمَتْ﴾، «حُرِّمَ» فعل ماضٍ مبني لما لم يسم فاعله والتاء للتأنيث، و﴿الْمَيْتَةُ﴾ نائب فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

وحذف الفاعل «المحرِّم» وهو الله عز وجل؛ لكونه معلومًا، ولأن التحريم يشق على النفس وتكرهه فناسب حذف الفاعل، والمعنى: حرم الله عليكم الميتة(١)،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٩٢).

يقال: ميتة، وميِّتة، كما يقال: ميْت، وميِّت لكل من خرجت روحه. وقد قيل: إن من مات يقال له «ميْت» أما من لم يمت بعد، فيقال له «ميِّت» وقد خطأ هذا الزجاج وقال: إنما «ميِّت» لما قد مات ولما سيموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]. قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنما الميتُ ميت الأحياء

والتحريم بمعنى الحظر والمنع، وهو في القرآن الكريم نوعان: تحريم كوني كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾[الأنبياء: ٩٥].

وتحريم شرعي كما في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣] وكما في هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾.

و«ال» في الميتة لبيان الحقيقة، تفيد العموم كالاسم الموصول أي: كل ميتة فهي حرام.

و﴿الْمَيْتَةُ ﴾: هي التي خرجت روحها حتف أنفها، بغير ذكاة شرعية[١] ولا اصطياد، وفي الحديث في ذكر أجر المجاهد في سبيل الله: «**أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله**»[٢].

قال الطبري[٣]: «الميتة كل ما له نفس سائلة من دواب البر وطيره مما أباح الله أكلها، وفارقتها روحها بغير ذكاة».

وقال ابن كثير[٤]: «هي ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة؛ لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين والبدن فلهذا حرمها الله عز وجل».

وهي أيضًا قد تكون ماتت بِعلّة كانت سببًا لهلاكها فتضر بآكلها.

والتحريم إنما يقع على الأفعال لا على الأعيان والذوات، فقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ

=

البيت لعدي بن الرعلاء الغساني والرعلاء: أمه. انظر: «جامع البيان» (٣/ ٣١٨)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٥٧)، وانظر: «لسان العرب» مادة «موت».

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦)، من حديث عبدالله بن عتيك رضي الله عنه.

(٣) في «جامع البيان» (٩/ ٤٩٢).

(٤) في «تفسيره» (٣/ ١١- ١٢).

ٱلْمَيْتَةُ﴾ المعنى: حرم عليكم أكل الميتة؛ لقوله ﷺ: «**إنما حرم من الميتة أكلها**»(١).

وهي نجسة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥].

وجملة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية جملة خبرية متضمنة للنهي عن تعاطي هذه المحرمات.

ويستثنى من الميتة ميتة البحر؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة:٩٦]. قال ابن عباس: «صيده طريه وما أخذ حيًّا، وطعامه ما أخذ ميتًا».

وهكذا روي عن كثير من المفسرين من الصحابة والتابعين(٢)، وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ قال: **طعامه: ما لفظه ميتًا**»(٣).

وقال ﷺ في البحر: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**»(٤).

وكذلك ميتة الجراد(٥) لقول ابن عمر رضي الله عنهما: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»(٦).

وهذا وإن كان قول صحابي إلا أنه بحكم المرفوع، وإنما أحلت ميتة الجراد، وهو من حيوانات البر لا من حيوانات البحر؛ لأن الجراد مما لا نفس له سائلة، أي: لا دم فيه يضر بقاؤه فيحتاج إلى استخراج، إضافة إلى مشقة تذكيته وهذا من سماحة الإسلام ويسر أحكامه ورفعه الآصار والأغلال عن أتباعه فلله الحمد والمنة.

﴿وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٧- ٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢١٠- ١٢١١) الآثار (٦٨٢٨، ٦٨٢٩، ٦٨٣٣، ٦٨٣٤).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٧٠) (١٢٧٢٩).

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٩٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٢- ٥٣).

(٦) سيأتي تخريجه.

ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾.

هذا معطوف كله على الميتة، أي: حرمت عليكم الميتة، وحرمت عليكم هذه المذكورات بعدها، وإذا كان العطف بالواو وتعددت المعطوفات فإنها كلها معطوفة على أول مذكور.

﴿وَٱلدَّمُ﴾، أي: وحرم عليكم الدم وهو هنا مطلق، و«ال» فيه لبيان الحقيقة لكنه مقيد بالدم المسفوح بالإجماع، فهو النجس المحرم(١)؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥].

والدم المسفوح هو الذي يخرج من البهيمة عند الذكاة أو بفصد العرق(٢)، أو من الصيد عند ضربه بسهم ونحوه، أي: الذي يخرج من البهيمة وهي حية، سمي مسفوحًا لأنه ينسكب وينصب.

فالمراد بالدم في الآية الدم المسفوح، دون الكبد والطحال؛ لما تقدم من حديث ابن عمر: «أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»(٣).

ودون ما بقي في العروق والقلب والكلى وما خالط اللحم، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لو لم يقل الله ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لتتبع الناس ما في العروق من الدم»(٤).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٩٢- ٤٩٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢).

(٢) كان أهل الجاهلية يأكلون الميتة، كما يأكلون الدم ويشربونه، وكان الواحد منهم يأخذ شيئًا حادًا من عظم ونحوه فيفصد به بعيره أو أي حيوان فيشرب من دمه، قال الأعشى:

فإياك والميتات لا تأكلنَّها ... ولا تأخذنْ سهمًا حديدًا لتفصدا

انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢- ١٣)، «شرح ديوان الأعشى» لإبراهيم جزيني ص(٤٨).

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) ذكره ابن العربي عن عائشة- رضي الله عنها- في «أحكام القرآن» (١/ ٥٣)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٢/ ١٩٣، ١٩٤)- الآثار (١٤٠٨٢، ١٤٠٨٣، ١٤٠٨٩)، عن عكرمة.

وعنها قالت: «كنا نطبخ البرمة من اللحم على عهد رسول الله ﷺ تعلوها الصفرة فنأكل ولا ننكره»(١).

﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾، أي: وحرم عليكم لحم الخنزير(٢)، ولحمه يشمل شحمه وجميع أجزائه، وإنما ذكر اللحم تغليبًا؛ لأنه أكثر ما يؤكل.

ويحرم الخنزير سواء كان إنسيًّا أو وحشيًّا.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، «ما» موصولة، أي: وحرم عليكم الذي أهل لغير الله به. والإهلال في الأصل مأخوذ من رفع الصوت عند رؤية الهلال، ومنه إهلال الصبي وهو رفع صوته بالصياح عند ولادته، ومنه إهلال الحاج والمعتمر، أي: رفع صوته بالتلبية(٣).

قال الشاعر(٤):

يُهِلّ بالفَرْقَدِ ركبانُها ... كما يُهِلّ الراكبُ المُعْتَمِر

ومعنى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، أي: ما ذكر عليه اسم غير الله مما ذبح للآلهة والأوثان ونحو ذلك، وسمي إهلالًا؛ لأن الذابح يسمي مقصوده عند الذبح ويرفع صوته بذلك، وقد كان المشركون يذبحون ويذكرون أسماء أصنامهم ويرفعون بذلك أصواتهم.

قال ابن كثير(٥): «﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، أي: ما ذبح، فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام، لأن الله أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات،

---

(١) ذكره القرطبي بهذا اللفظ في «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٢٢)، وأخرجه الطبري بمعناه في «جامع البيان» (١٢/ ١٩٤)- الأثران (١٤٠٩٠، ١٤٠٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٠٧)- الأثر (٨٠١١).

(٢) الخنزير حيوان معروف أمر الشرع بقتله؛ لأنه حيوان خبيث يأكل القاذورات والحشرات، والأكل منه سبب للدياثة وفقدان الغيرة على المحارم، كما أنه سبب لكثير من الأمراض. انظر: «تفسير المنار» (٦/ ١٣٤).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٤٩- ١٥٠)، «جامع البيان» (٩/ ٤٩٣).

(٤) هو ابن أحمر. انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٠)، «جامع البيان» (٩/ ٤٩٣)، «جمهرة أشعار العرب» (٢/ ٣٨٧)، «لسان العرب» مادة «هلل».

و«الفرقد» المراد به «الفرقدان» وهما نجمان لا يغربان، فإذا انجلى عنهما السحاب أهلوا بالتكبير في وسط هذه المفازة التي لا يُهتدى بها.

(٥) في «تفسيره» (٣/ ١٤).

فإنها حرام بالإجماع».

فكما أن اسم الله يطيِّب الذبيحة فذكر اسم غيره مما يضر بها ويفيدها خبثًا معنويًّا؛ لأنه شرك بالله تعالى.

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾، أي: وحرمت عليكم المنخنقة، وهي التي تموت بالخنق، وهو حبس النفس سواء بفعلها كأن تدخل رأسها في مكان ضيق فتعجز عن إخراجه، أو توثق فيخنقها وثاقها فتموت أو نحو ذلك.

أو المنخنقة بفعل فاعل بأن يخنقها آدمي أو غيره بحبس نفسها حتى تموت بيده أو بحبل أو نحو ذلك فهي منخنقة بمعنى: مخنوقة، وقد كان أهل الجاهلية يخنقون البهيمة حتى تموت فيأكلونها.

﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾، أي: وحرمت عليكم الموقوذة، وهي التي تموت بالوقذ، وهو الضرب الشديد بحجر أو خشبة أو عصا أو غير ذلك حتى تموت، وقد كان أهل الجاهلية يضربون البهيمة حتى تموت تقربًا لآلهتهم ثم يأكلونها.

عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب أفآكله؟ فقال: «**إن خرق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله**»(١).

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾، أي: وحرمت عليكم المتردية، وهي التي تسقط من أعلى إلى أسفل فتموت، مأخوذة من التردي وهو السقوط من شاهق؛ إما جبل، أو سطح، أو جدار، أو في بئر أو غير ذلك سواء تردت بنفسها أو فُعل بها ذلك.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾، أي: وحرمت عليكم النطيحة، وهي «فعيلة» بمعنى مفعولة، أي: منطوحة والأصل أن «الفعيلة» المصروفة عن «المفعول» لا تثبت فيها الهاء فيقال كف خضيب، وعين كحيل، ولحية دهين، ولا يقال كف خضيبة وعين كحيلة، ولحية دهينة، وذلك لأن الهاء إنما تحذف من «الفعيلة» إذا كانت صفة لموصوف منطوق به، أما إذا

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٤٧٦)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٢٩)، وأبوداود في الصيد (٢٨٤٧)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٦٥)، والترمذي في الصيد (١٤٦٥)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٣).

كانت صفة لموصوف محذوف فإن الهاء تثبت ليعلم بذلك أنها صفة لمؤنث[١].

ويحتمل أن الهاء أثبتت في «النطيحة» لأنها جعلت كالاسم مثل الطويلة والطريقة، ويحتمل أن تكون فعيلة بمعنى «فاعلة»، أي: ناطحة[٢].

والنطيحة: هي الدابة التي تنطحها أخرى فتموت بالنطح كالشاتين تتناطحان فتموتان أو فتموت إحداهما.

قال ابن كثير[٣]: «فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها».

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾، «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل رفع معطوف على ما سبق أي: وحرم عليكم الذي أكله السبع، أي: البهيمة التي افترسها، وقتلها السبع.

والسبع كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والفهد والكلب وغير ذلك.

والمعنى: وحرم عليكم البهيمة التي افترسها السبع فأكل منها فماتت بذلك حتى ولو سال الدم من مذبحها فلا تحل بالإجماع[٤] والعلة في تحريمها عدم ذكر اسم الله عليها.

وهذه الخمس وهي الميتة والمنخنقة، وما بعدها إنما حرمت لأنه لم يذكر اسم الله عليها، واحتبس فيها الدم، ونص على تحريمها؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يحلونها.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، و﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى «الذي» مبني في محل نصب على الاستثناء المتصل من الخمس المذكورة في قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾[٥].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٩٤- ٤٩٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٣٨)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢- ٢٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٩٩- ٥٠١)، وانظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٦٠- ٤٦١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٥)، «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (١/ ٣١٧).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٩).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٠١- ٥٠٢)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٠٥- ٥٠٦)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٥٩- ١٦٠).

فهذه الخمس هي التي تحلها الذكاة إذا أدركت وذكيت وهي حية، دون ما قبلها وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، لأن الميتة قد ماتت وانتهت فلا يمكن تذكيتها والخنزير لا تحله الذكاة، وكذا ما أهل لغير الله به لأنه ذبح على غير اسم الله.

والتذكية والذكاة في اللغة أصلها التمام قال الزجاج[١]: «التذكية تمام استعمال القوة، أي: ما أدركتم ذبحه على التمام».

وهي في الشرع: إنهار الدم وفري الأوداج بالذبح أو النحر مع ذكر اسم الله، قال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا**»[٢].

وتكون في اللبة والحلق، واللبة هي: الوهدة التي بين أصل العنق والصدر.

وفي حديث أبي العشراء الدارمي- رضي الله عنه- أنه سأل النبي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة أو الحلق؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك**»[٢]. فقول أبي العشراء: أما تكون الذكاة إلا من اللبة أو الحلق، يفهم منه أن هذا موضع الذكاة عندهم.

أما قوله ﷺ: «**لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك**» فهو في غير المقدور على تذكيته، كما سيأتي بيانه.

والمعنى: إلا ما أدركتموه حيًّا من هذه المذكورات التي انعقد سبب موتها فذكيتموه ذكاة شرعية فهو حلال وعلى هذا جمهور المفسرين والفقهاء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[٣].

وقيل: إن الاستثناء منقطع، لأنه استثناء من التحريم، وليس من المحرمات المذكورة في الآية. والتقدير: حرمت عليكم الميتة والدم وما ذكر من المحرمات في الآية

---

(١) في «معاني القرآن» (٢/ ١٥٩- ١٦٠).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٠٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٠)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٦- ٢٣٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩).

ومما ينبغي معرفته أنه لا يجوز ذبح البهيمة التي نزل فيها الموت، أو المريضة بقصد إراحتها فالله أرحم بها، وفي الحديث: «**من ذبح عصفورًا أو قتله بغير حقه سأل الله عنه يوم القيامة. قيل: يا رسول الله، وما حقه؟ قال: يذبحه ويأكله ولا يقطع رأسه فيرمي به**» الحديث. وسيأتي تخريجه.

لكن ما ذكيتم مما لم يذكر في الآية مما أحله الله لكم فهو حلال(١).

والصحيح الأول، لكن اختلفوا متى تدرك الذكاة، فقال بعض أهل العلم: أن تتحرك المذكاة بعد الذبح، وقيل: أن تتحرك أثناء الذبح، وقيل: علامة ذلك أن يسيل منها الدم المسفوح. وسيأتي بيان هذا في الأحكام.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، «ما» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل رفع عطفًا على ما سبق، أي: وحُرِّم عليكم الذي ذبح على النصب.

والذبح يكون للبقر والغنم، والنحر يكون للإبل.

قرأ أبوعمرو «النَّصْب» بفتح النون وتشديدها، وسكون الصاد، وقرأ بقية القراء بضم النون والصاد ﴿ٱلنُّصُبِ﴾.

و﴿ٱلنُّصُبِ﴾ جمع مفرده «نصاب» كما يقال: حمار وحمر، أو مفرده: «نَصْب» كما يقال: سَقْف وسُقُف، وقيل: «النُصُب» مفرد جمعه «أنصاب» قال الأعشى:

وذا النُصُب المنصوب لا تأتينَّه ... ولا تعبد الشيطان واللهَ فاعبدا(٢)

و«النُصُب» حجارة ونحوها يذبحون عليها وتصب عليها دماء الذبائح تقرُّبًا لمعبوداتهم من الأصنام والأوثان.

والمعنى على هذا: وحرم عليكم الذي ذبح على النصب، أي: على هذه الحجارة المنصوبة، وحتى لو ذكر عليها اسم الله فهي حرام؛ لأن الذبح عليها تقرب للصنم، والذبح مقصود به الصنم نفسه.

وقيل: المراد بالنصب: الأصنام التي تنصب وتعبد من دون الله من الحجارة وغيرها ومنها أنصاب حول البيت ثلاثمائة وستون كان أهل الجاهلية يعبدونها

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٠٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٣٩- ٥٤١).

(٢) هذا من قصيدة طويلة للأعشى حينما همَّ أن يسلم وجاء إلى المدينة، ومطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا

لكنه رجع ولم يسلم بتأثير من اليهود والمنافقين والمشركين وفي رجوعه إلى بلده سقط من دابته على رقبته فمات. انظر «ديوانه» ص(١٨٥)، «السيرة النبوية» (١/ ٣٨٦).

ويعظمونها ويذبحون لها وهذا قول أكثر المفسرين(١).

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصبًا فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩]»(٢).

والمعنى على هذا: وحرم عليكم الذي ذبح للنصب، وتكون «على» بمعنى اللام أي لأجلها فهو حرام حتى ولو ذكر عليه اسم الله؛ لأن الأعمال بالنيات فما ذبح لأجل هذه النصب فهو حرام.

والأظهر القول الأول: أن المعنى ما ذبح عليها لا لها لأن قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ معطوف على ما قبله ومن ذلك قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وإذا جعلنا «على» بمعنى اللام صار معنى الجملتين ما ذبح لغير الله، وهذا فيه شيء من التكرار والأصل عدمه لأن التأسيس أولى من التوكيد، والأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة، وأيضًا فإن الأولى حمل «على» على معناها وهو الاستعلاء.

كما أن هذا الفعل موجود إلى عصرنا الحاضر وهو الذبح على عتبة السيد أو الولي تقربًا إليهما، قال ابن كثير(٣) بعدما ذكر قول بعض السلف أن المراد بالنصب: حجارة كانوا يذبحون عليها.

قال: «وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذباح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله، فالذبح للنصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله وينبغي أن يحمل على هذا لأنه قد تقدم

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٢)، «جامع البيان» (٩/ ٥٠٨- ٥٠٩)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٩)، «لسان العرب» مادة: «نصب».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٤٣)، ومسلم في الجهاد (١٧٨١). وقد جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، وفي يد رسول الله ﷺ قوس فلما أتى على الصنم جعل يطعنه في عينه ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل**» أخرجه مسلم في الجهاد (١٧٨٠).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢٠- ٢١).

تحريم ما أهل به لغير الله»(١).

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾: ذكر الله هذا بعد أن ذكر المحرمات من الأطعمة؛ لأن هذا مما ابتدعه أهل الجاهلية وكان موافقًا لما فعلوه في بعض المطاعم المحرمة ومما يفعلونه عند البيت كالذبح على النصب(٢).

«أن» مصدرية وهي والفعل بعدها في محل رفع عطفًا على ما سبق، التقدير: وحرم عليكم الاستسقام بالأزلام.

والاستقسام: طلب القَسْم، أي طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم، وطلب خير الأمرين من المضي في أمر أو عدمه أو غير ذلك(٣).

والأزلام: جمع «زُلَم» بفتح الزاي، وضمها.

وهي عبارة عن أقداح ثلاثة مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني: «لا تفعل» والثالث خلو من الكتابة(٤) فإذا أراد أحدهم سفرًا أو غزوًا، أو تجارة، أو زواجًا ولم يتبين له وجه الصواب أجالها، أو وضعها في كيس ونحوه، ثم أخرج منها واحدًا فإذا خرج الذي عليه «افعل» مضى لشأنه، وإن خرج المكتوب عليه «لا تفعل» أحجم ولم يمض لشيء، وإن خرج الخلو الذي لا كتابة عليه أعادها مرة ثانية وهكذا(٥).

---

(١) وقد قيل: إن ذكر الذبح على النصب لئلا يعتقد جواز الذبح لها لأن منها أنصابًا عند البيت، فقد يعتقد أن هذا من تعظيم البيت؛ ولهذا خصها بالذكر؛ لشدة الأمر وتعظيم النفوس لها، وقال بعضهم: يحتمل أن المراد بـ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ما ذكر عليه اسم غيره سواء كان أمام هذا الصنم أو غائبًا عنه، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ ما ذبح أمام الصنم وبين يديه. انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦- ٢٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٧).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٠٧).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥١٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٤٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧- ٢٨)، «بدائع التفسير» (٢/ ١١٩). وقيل: الاستقسام بالأزلام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح كقسم اليمين. انظر: «إغاثة اللهفان» ص(٢٠٧- ٢١٠).

(٤) وقيل: مكتوب على أحدها: «أمرني ربي» وعلى الثاني: «نهاني ربي» والثالث: غفل ليس عليه كتابه.

(٥) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٢)، «جامع البيان» (٩/ ٥١٠- ٥١٥)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١).

والاستقسام موجود اليوم في هذا العصر لكنه بطرق أخرى كالحظ والنصيب والنجوم ونحو ذلك.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه لما دخل النبي ﷺ إلى الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين، وفي أيديهما الأزلام، فقال: «**قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدًا**»(١).

وقد روي عن مجاهد قال في قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: «هي كعاب العرب وكعاب فارس والروم كانوا يتقامرون بها»(٢).

قال ابن كثير(٣) بعد أن ذكر قول مجاهد: «وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم يستعملونها في الاستخارة وفي القمار أخرى».

ثم ذكر أن الله فرق بين الاستقسام بالأزلام وبين القمار وهو الميسر حيث ذكره في آخر السورة.

أي: أن الله ذكرهما معًا في آية واحدة في آخر السورة يعني في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:٩٠]، فلو كان الميسر وهو القمار هو المراد بالأزلام ما ذكرا معًا في آية واحدة(٤).

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الإشارة لأقرب مذكور وهو الاستقسام بالأزلام.

﴿فِسْقٌ﴾ الفسق هو الخروج عن الطاعة، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها(٥).

والمراد بالفسق هنا: الخروج عن طاعة الله. وهو يطلق على الكفر، وعلى ما دونه والاستقسام بالأزلام خروج عن طاعة الله من وجوه عدة لما فيه من ادعاء علم الغيب وعدم التوكل على الله، وعدم الإيمان بالقدر.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (٦١)، وأبوداود في المناسك (٢٠٢٧)، والنسائي في المناسك (٢٩٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥١٢).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢٢).

(٤) انظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (١/ ٣١٨).

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦١)، «لسان العرب» مادة: «فسق».

قال ابن كثير[١]: «أي تعاطيه فسق وغيٌّ وضلال وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه، بأن يعبدوه، ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه..» وذكر الحديث الوارد في الاستخارة[٢].

ويحتمل أن تكون الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إلى جميع المحرمات السابقة مما حرم أكله من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، وما أكل السبع وما ذبح على النصب، والاستقسام بالأزلام.

وعلى هذا فالأكل من المحرمات المذكورة فسق لنجاستها حسيًّا ومعنويًّا لاحتقان الدم في بعضها وفساده مع عدم ذكر اسم الله عليها، وللإشراك في ذبح بعض منها كالذي ذبح لغير الله وما ذبح على النصب، أما الاستقسام بالأزلام فإنه فسق من وجوه عدة كما سبق، وهذا الفسق قد يكون كفرًا إذا اعتقد حل هذه المحرمات أو ذبح لغير الله، أو اعتقد أن الأزلام هي التي تقدر الأقدار ونحو ذلك، وإن كان لا يعتقد ذلك فهو فسق دون الكفر لا يخرج من الملة.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ هو القطعة من الزمن من طلوع الشمس إلى غروبها.

و«ال» فيه هنا للعهد الحضوري، أي: اليوم الحاضر الذي نزلت فيه هذه الآية وذلك في حجة الوداع يوم عرفة يوم الجمعة.

ويحتمل أنه إشارة إلى هذا الزمن والوقت، أي: في هذا الأوان يئس الذين كفروا من دينكم، أي: أنه لا يراد به يوم بعينه.

﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ اليأس هو القنوط وانقطاع الطمع، أي يئسوا وانقطع طمعهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الذين كفروا بالله بإنكار وجوده أو ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته أو شيء من ذلك. والمراد به عموم الكفار من مشركي العرب والروم

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٢).

(٢) سيأتي تخريجه.

والفرس وغيرهم.

﴿مِن دِينِكُمْ﴾، أي: مما تدينون لله به، وهو الإسلام.

والمعنى: اليوم والآن انقطع طمع الكفار أن يبدلوا دينكم أو يغيروه أو يبطلوه أو يردوكم جميعًا عنه إلى الشرك؛ لأن الدين ولله الحمد قد كمل وتم وبان وظهر على سائر الأديان قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف:٨- ٩].

وعن جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»(١).

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ قرأ أبوعمرو ونافع في رواية إسماعيل، ويعقوب: «فلا تخشوهم واخشوني» بإثبات الياء، وقرأ بقية العشرة بحذفها: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾(٢) كما في قوله تعالى- في آية أخرى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥].

والخشية أخص وأشد من الخوف؛ لأن الخاء والشين والياء تدل على الشدة والصلابة والعظمة، يقال: شيخ للسيد الكبير، والخيش لما غلظ من الكتان(٣).

فالخشية تكون مع عظم المخشي وتكون عن علم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

بخلاف الخوف فلا يدل على عظم المخوف مطلقًا، بل قد يكون سببه ضعف الخائف؛ لأن الخاء والواو والفاء تدل على الضعف، كما أن الخوف لا يلزم أن يكون عن علم، قال الزركشي في «البرهان»(٤) في قاعدة ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه قال: «فمن ذلك: «الخوف» و«الخشية» لا يكاد اللغوي يفرق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف وهي أشد من الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: «شجرة خَشيّة» إذا كانت

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة (٢٨١٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٧).

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» ص(١٦٥).

(٣) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس مادة «خشي».

(٤) (٤/ ٧٨).

يابسة، وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء؛ إذا كان بها داء، وذلك نقص، وليس بفوات قال: ومن ثمة خصت الخشية بالله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١]».

والمعنى: فلا تخشوا أيها المؤمنون هؤلاء الكفار، مادام أن الله أيأسهم من دينكم وأظهر دينكم على سائر الأديان؛ إذ لا داعي ولا مبرر لخشيتهم واخشوني وحدي، فلا تخالفوا أمري، ولا ترتكبوا نهيي، فأنا الذي أيأستهم من دينكم، وأنا القادر على نصركم وقهرهم، وجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

﴿الْيَوْمَ﴾، «ال» فيه للعهد الحضوري، أي: يوم نزول هذه الآية، وذلك يوم عرفة يوم الجمعة في حجة الوداع، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة بعد العصر.

عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أن رجلًا من اليهود قال له: «إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدًا، فقال عمر: إني لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت. أنزلت يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾»(١).

وروي عن كعب الأحبار قال: «لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي نزلت فيه عليهم فاتخذوه عيدًا يجتمعون فيه، فقال عمر: أي آية يا كعب؟ فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فقال عمر: قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه، والمكان الذي أنزلت فيه؛ يوم جمعة، يوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قرأ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فقال يهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٥)، ومسلم في التفسير (٣٠١٧)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٠٢)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٣)، وأحمد (١/ ٢٨).

(٢) أخرجه الطبري- الأثر (١١١٠٠).

عيدًا. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيد يوم جمعة ويوم عرفة»(١).

وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو لا ينافي قول من قال المراد باليوم الوقت الحاضر وما بعده، أي: الآن يئس الذين كفروا من دينكم، والآن أكملت لكم دينكم.

ومعنى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، أي: جعلته كاملًا، وذلك بإظهار الدين، ونزول أعظم الفرائض، والتحليل والتحريم، وأحكام الحج، وغير ذلك، وبذلك كمل عظم الدين فلم يدخل في الحرم مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، واجتمع الناس على الدين الحق معه ﷺ في موقف عرفات.

وقد نزل بعدها آيات كثيرة؛ منها آية الربا، وآية الكلالة(٢) وغير ذلك في المدة التي عاشها النبي ﷺ بعد نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية، وهي إحدى وثمانون ليلة ولم ينقطع الوحي عنه ﷺ حتى قبض، بل كان الوحي قبل وفاته أكثر ما كان تتابعًا(٣).

قال الرازي(٤): «﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الدين ما كان ناقصًا ألبتة، بل كان كاملًا أبدًا، يعني أن الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت، على معنى أنه قد كمل فلا ينسخ منه شيء فالأول كمال إلى زمان مخصوص والثاني كمال إلى يوم القيامة».

وعن أبي وكيع عنترة بن عبدالرحمن قال: «لما نزلت ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «**ما يبكيك؟**» قال: أبكاني أنّا كنا

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٤٤)، وقال: «حديث حسن غريب»، والطيالسي في «مسنده» ص(٣٥٣)، والطبري- الأثر (١١٠٩٨- ١١٠٩٩).

(٢) عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- أن آخر آية نزلت من القرآن ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء:١٧٦]. أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٠٥)، ومسلم في الفرائض (١٦١٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٤١)

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥١٨- ٥٢٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٣).

(٤) في «التفسير الكبير» (١١/ ١٠٩).

في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال: «**صدقت**»(١).

وكما قيل:

إذا كنت تهوى العيش فاقنع توسطًا ... فعند التناهي يقصر المتطاول
تُوَقّى البُدورُ النقصَ وهْيَ أهِلَّةٌ ... ويُدركُها النّقْصانُ وهْيَ كوامل(٢)

وكأن عمر- رضي الله عنه- فهم من هذه الآية مثل ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] إلى آخر السورة من قرب وفاته ﷺ إذ لم يعش النبي بعد نزول هذه الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ سوى إحدى وثمانين ليلة.

وليس مراده بالنقص هنا نقص الدين نفسه وإنما مراده أن موته ﷺ نقص على أهل الإسلام كما قال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ [الرعد:٤١] أن المراد بنقصان الأرض موت العلماء وأهل الخير(٣).

كما يحتمل أنه أراد أيضًا النقص في أهل الإسلام ببعدهم عن دينهم وقسوة قلوبهم إذا تطاول عليهم الأمد(٤) ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا فطوبى للغرباء**»(٥).

﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ هذا تحقيق لوعد الله تعالى بقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٠].

و«النعمة»: نعمتان: النعمة المطلقة: وهي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام، والنعمة الثانية: نعمة مقيدة كنعمة الصحة والغنى، والولد ونحو ذلك.

والمعنى: أتممت عليكم نعمتي بلا نقص، وذلك بإكمال الدين وإظهاره على الأديان كلها، ومنع المشركين من البيت، وحصول الأمن وغير ذلك من النعم الظاهرة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥١٩)- الأثر (١١٠٨٣، ١١٠٨٤).

(٢) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «شرح منهاج البلاغة» تحقيق النمري (ص١٦٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٩٣).

(٤) انظر: «تعليق أحمد شاكر على قول عمر في تعليقه على تفسير الطبري» (٩/ ٥١٩).

(٥) أخرجه مسلم في الأيمان (١٤٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

والباطنة؛ لأن «نعمة» في قوله: ﴿نِعۡمَتِي﴾ مفرد مضاف يعم كل نعمة.

كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل:٥٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨]، ومن تمت له النعمتان كملت له السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، ﴿دِينٗاۚ﴾ تمييز، والإسلام معناه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. والمراد به هنا خاصة الدين الذي جاء به نبينا محمد ﷺ في الكتاب والسنة.

﴿دِينٗاۚ﴾، أي: دينًا تدينون وتتعبدون لله به عبادة وشريعة.

والمعنى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ تدينون به لربكم، وأرسلت به محمدًا ﷺ أفضل رسلي وأنزلت به القرآن أشرف كتبي واخترته لكم دينًا باقيًا إلى قيام الساعة، فارضوه لأنفسكم والزموه ولا تفارقوه ولا تتخذوا دينًا سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

لما ذكر تعالى المحرمات السابقة في هذه الآية، لما فيها من ضرر، إما على الدين، وإما على البدن وإما عليهما معًا استثنى حالة الضرورة كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ [الأنعام:١١٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:١٧٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ يعني إلى ما حرم مما سمي في صدر هذه الآية»(١).

وما بين ذلك اعتراض لتوكيد تحريم تلك المحرمات وأن تحريمها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة، والإسلام الذي رضيه الله لنا دينًا.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٣٦)- الأثر (١١١١٩).

قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾: الفاء استئنافية، و«من» شرطية، ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. و﴿ٱضۡطُرَّ﴾ أصلها: «اضتر» بالتاء فقلبت التاء طاءً لعلة تصريفية، والمعنى: أصابته ضرورة.

﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾، أي: في مجاعة، مأخوذ من «خمص البطن» وهو ضموره من شدة الجوع والسَّغب.

وفي الحديث: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١)، أي: تغدوا في الصباح جائعة ضامرة البطون، وتروح في المساء إلى أوكارها مليئة البطون(٢).

وقال الأعشى(٣):

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم ... وجاراتكم غرثى(٤) يبتن خمائصا

أي: يبتن جائعات ضوامر البطون من شدة الجوع والسغب.

والمعنى: فمن أصابته ضرورة ألجأته إلى أكل شيء من المحرمات السابقة في حال مجاعة أو بسبب مجاعة بأن خاف على نفسه الهلاك علمًا أو ظنًا.

﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾، ﴿غَيۡرَ﴾ حال، أي: حال كونه غير متجانف لإثم.

﴿مُتَجَانِفٖ﴾، أي: متمايل مأخوذ من الجنف، وهو الميل، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة:١٨٢] أي: ميلًا.

قال ابن عباس: «﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾: غير متعمد لإثم»(٥).

والإثم: الذنب والمحرم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠، ٥٢)، من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٢) انظر: مادة: «غدا»، «راح»، «بطن» في «النهاية»، «لسان العرب».

(٣) انظر: «ديوانه» (١٠٩).

(٤) غرثى: جائعات. وانظر مادة: «غرث» في «النهاية»، «لسان العرب».

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٣٦)- الأثر (١١١١٩).

أي: حال كونه غير متمايل ومتعمد الذنب بالأكل من هذه المحرمات، وإنما ألجأته الضرورة إلى ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جواب الشرط وهو خبر ﴿مِن﴾.

﴿غَفُورٌ﴾، أي: أنه- عز وجل- ذو المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت:٤٣].

والمغفرة هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته.

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال تستره، وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧] رحمة ذاتية ثابتة لله عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

وختم- عز وجل- الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ ليبين أن من صفته- عز وجل- المغفرة والرحمة لعباده، وأنه غفور لمن ألجأته الضرورة للأكل من المحرمات المذكورة، يستر عليه ويتجاوز عن ذنبه؛ رحيم به، حيث أباح له الأكل من هذه المحرمات عند الضرورة، كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣]، وفي سورة الأنعام: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية:١٤٥]، وفي سورة النحل: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية:١١٥].

الفوائد والأحكام:

١- جواز حذف الفاعل إذا كان معلومًا؛ لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ والمعنى: حرم الله عليكم الميتة، وإنما حذف المحرِّم وهو الله لكونه معلومًا أنه المشرِّع سبحانه.

٢- تحريم الميتة؛ لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ

﴿رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥].

وقال ﷺ: «**إنما حرم من الميتة أكلها**»(١) وهذا إجماع، كما يحرم بيعها وثمنها؛ لقوله ﷺ: «**إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال: «**هو حرام**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه**»(٣).

ويستثنى من الميتة ميتة البحر، وميتة الجراد؛ لقوله ﷺ لما سئل عن ماء البحر أنتوضأ به: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»(٤).

ولحديث جابر- رضي الله عنه- في قصة العنبر الذي ألقاه البحر، قال: «فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر فأكلنا منه نصف شهر وادهنا من ودكه» الحديث(٥).

ولقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة:٩٦] فإن المراد بطعامه ما ألقاه ميتًا.

ولقول ابن عمر رضي الله عنهما: «أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال»(٦).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨١)، وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٧، ٢٩٣)، وأبوداود في البيوع (٣٤٨٨) وصححه الألباني. وانظر: «زاد المعاد» (٥/ ٧٥٦، ٧٦١- ٧٦٢).

(٤) أخرجه أبوداود في الطهارة (٨٣)، والنسائي في المياه (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الطهارة (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٢٦٧)، ومالك في الطهارة (٤٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» (١/ ٩): «رواه مالك والشافعي عنه والأربعة وابن خزيمة وابن حبان وابن الجارود والحاكم والدارقطني والبيهقي وصححه البخاري فيما حكاه عنه الترمذي» قال الحافظ: «وصححه ابن منده وابن المنذر والبغوي..». وصححه الألباني.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٦١)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٥)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٤٠)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٥٩).

(٦) أخرجه الشافعي في «الأم» (٦/ ٢٥٧)، وأحمد (٢/ ٩٧) موقوفًا على ابن عمر، وأخرجه ابن ماجه في الأطعمة (٣٣١٤) مرفوعًا والصحيح وقفه. قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٢)- بعدما ذكر ضعف =

وجمهور العلماء على حل ميتة الجراد لهذا الحديث ولحديث: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد»(١).

وقد ذهب الإمام مالك إلى أنه لا يحل إلا بالذكاة(٢).

واختلف في حكم الانتفاع بأجزاء الميتة في غير الأكل، فذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز الانتفاع بشيء من أجزاء الميتة مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ قالوا: وهذا عام.

ولقوله ﷺ فيما رواه جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: **لا، هو حرام**، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: **قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه**»(٣).

وذهب كثير من أهل العلم إلى جواز الانتفاع ببعض أجزاء الميتة مع اختلاف بينهم في ذلك، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام:١٤٥].

وبقوله ﷺ: «**إنما حرم من الميتة أكلها**»(٤).

=

روايته مرفوعًا قال: «وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات عن زيد بن أسلم عن ابن عمر فوقفه عليه. قال الحافظ أبوزرعة: وهو أصح».

لكن هذا الموقوف له حكم المرفوع، لأن قول الصحابي أحل لنا، وحرم علينا، ونحو ذلك له حكم المرفوع. وانظر: «عمدة التفسير» (٤/ ٦٩).

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٤٩٥)، ومسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٥٢)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨١٢)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٦)، والترمذي في الأطعمة (١٨٢١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١٠)، «المهذب» (١/ ٢٥٨)، «بداية المجتهد» (١/ ٤٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨١)، وأبوداود في البيوع (٣٤٨٦)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٥٦)، والترمذي في البيوع (١٢٩٧)، وابن ماجه في التجارات (٢١٦٧).

(٤) سيأتي تخريجه.

فقد اختلفوا في جلد الميتة أيطهر بالدباغ أم لا؟

فذهب جمهور أهل العلم إلى أنه يطهر بالدباغ وممن ذهب إلى هذا أبوحنيفة[١]، ومالك في رواية عنه[٢]، والشافعي[٣] وأحمد في الرواية الأخيرة عنه[٤] واستدلوا على ذلك بما يلي: ما رواه ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ مر بشاة ميتة، فقال: «**هلا استمتعتم بإهابها؟**» قالوا: يا رسول الله إنها ميتة. قال: «**إنما حرم من الميتة أكلها**». وفي رواية: «**ألا أخذوا إهابها فدبغوه فانتفعوا به**»[٥].

وعن سودة بنت زمعة- رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ قالت: «ماتت لنا شاة فدبغنا مسكها، فمازلنا ننبذ فيه حتى صار شنًا»[٦].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا دبغ الإهاب فقد طهر**».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دباغه طهوره**»[٧].

وعن سلمة بن المحبق- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ مر ببيت بفنائه قربة معلقة فاستسقى، فقيل: إنها ميتة، فقال: «**ذكاة الأديم دباغه**»[٨].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن جلد الميتة لا يطهر بالدبغ منهم مالك في المشهور عنه[٩]، وأحمد في المشهور عنه واختارها أكثر أصحابه[١٠].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١٥).

(٢) انظر: «بداية المجتهد» (١/ ٧٨).

(٣) انظر: «المهذب» (١/ ١٧).

(٤) انظر: «المغني» (١/ ٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٠- ٩١- ١٠٢)، «زاد المعاد» (٥/ ٧٥٧- ٧٥٨).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٢)، ومسلم في الحيض (٣٦٣)، وأبوداود في اللباس (٤١٢٠)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٣٤)، وابن ماجه في اللباس (٣٦١٠)، وأحمد (١/ ٣٦٥).

(٦) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٨٦)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٤٠).

(٧) أخرجه مسلم في الحيض (٣٦٦)، وأبوداود في اللباس (٤١٢٣)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٤١)، والترمذي في اللباس (١٧٢٨)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٩).

(٨) أخرجه أبوداود في اللباس (٤١٢٥)، وأحمد (٣/ ٤٧٦، ٥/ ٦)، وصححه الألباني.

(٩) انظر: «بداية المجتهد» (١/ ٧٨).

(١٠) انظر: «المغني» (١/ ٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩١).

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ والجلد من الميتة وطعنوا في أحاديث طهارة الجلد بالدباغ.

وقالوا أيضًا على القول بصحة أحاديث الدباغ فهي منسوخة بقوله ﷺ في حديث عبدالله بن عكيم قال: «أتانا كتاب رسول الله ﷺ قبل أن يموت بشهر أو شهرين أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب»(١).

وقد حمل بعض أهل العلم هذا على النهي عنه قبل الدبغ وقالوا: إنما يسمى إهابًا قبل الدبغ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وتحقيق الجواب أن يقال: حديث عبدالله بن عكيم ليس فيه نهي عن استعمال المدبوغ».

واختلفوا في عظام الميتة وحافرها وقرنها وظفرها وشعرها وريشها على ثلاثة أقوال:

فذهب طائفة من أهل العلم، منهم: الشافعي في المشهور عنه(٣)، وأحمد في رواية عنه(٤) إلى أنها نجسة واستدلوا بعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الشعور ونحوها طاهرة، وأن العظام ونحوها نجسة، وهو المشهور من مذهب مالك(٥) وأحمد(٦).

واستدلوا على طهارة الشعور ونحوها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:٨٠].

كما استدلوا بأنه يجوز جز الشعر والوبر والريش ونحوه من الحيوان وهو حي وكان

---

(١) أخرجه أبوداود في اللباس (٤١٢٨)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٤٩)، والترمذي في اللباس (١٧٢٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦١٣)، وأحمد (٤/ ٣١٠)، وقال: «ما أصلح إسناده» وقال الترمذي: «حديث حسن». وصححه الألباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٣- ٩٤، ١٠١- ١٠٢).

(٣) انظر: «المهذب» (١/ ١٨).

(٤) انظر: «المغني» (١/ ٩٧، ١٠٧)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٧).

(٥) انظر: «بداية المجتهد» (١/ ٧٨).

(٦) انظر: «المغني» (١/ ٩٧، ١٠٦)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٧)، «زاد المعاد» (٥/ ٧٣٥).

ذلك يفعل في حياة النبي ﷺ، وقد قال ﷺ لما سئل عن قوم يجبون أسنام الإبل وأليات الغنم: «**ما أبين من حي فهو كميتة**»[١] فلو كان حكم الشعر حكم السنام والألية لما جاز قطعه في حال الحياة فلما اتفق العلماء على أن الشعر يجوز جزه في حال الحياة وأنه طاهر علم أنه ليس مثل اللحم[٢] واستدلوا على نجاسة العظام ونحوها بعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنها كلها طاهرة، وهو قول أبي حنيفة[٣] وقول لمالك[٤]، وأحمد في رواية عنه[٥]، واستدلوا بما استدل به أصحاب القول الثاني على طهارة الشعور ونحوها، كما استدلوا على طهارة العظام ونحوها بأن العظام ونحوها ليس فيها دم سائل فهي طاهرة، كما أن ما لا نفس له سائلة من الحيوانات طاهر؛ ولهذا حرم ما مات حتف أنفه، أو بسبب غير جارح محدد كالموقوذة والمتردية والنطيحة، وما صيد بعرض المعراض ونحو ذلك لاحتباس الدم فيه واحتقانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر استدلال أصحاب هذا القول[٦]: «فالعظم والظفر والقرن والظلف وغير ذلك ليس فيه دم مسفوح فلا وجه لتنجيسه وهذا قول جمهور السلف».

وقال أيضًا[٧]: «وهذا هو الصواب؛ وذلك لأن الأصل فيه الطهارة، ولا دليل على

---

(١) أخرجه أبوداود في الصيد (٢٨٥٨)، والترمذي في الأطعمة (١٤٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، والدارمي (٢/ ٩٣)، والدارقطني (٤/ ٢٩٢)- كلهم من حديث أبي واقد الليثي. وصححه الحاكم (٤/ ١٢٤) وله شاهد من حديث ابن عمر عند ابن ماجه (٣٢١٦). وصححه الألباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٨)، «زاد المعاد» (٥/ ٧٥٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٢١).

(٤) انظر: «المدونة» (١/ ١٨٣)، «المعونة على مذهب عالم المدينة» (ص٧٠٥)، «الكافي في فقه أهل المدينة» (١/ ٤٤٠)، «بداية المجتهد» (١/ ٨٥).

(٥) انظر: «المغني» (١/ ١٠٠، ١٠٦، ١٠٨)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٧).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٩- ١٠٠).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٩٧).

النجاسة».

واختلفوا في حكم لبن الميتة وإِنْفَحَتها:

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه نجس منهم مالك[١] والشافعي[٢] ورواية عن أحمد[٣] واستدلوا بعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه طاهر وهو قول أبي حنيفة[٤] ورواية عن أحمد[٥]، واختاره ابن تيمية قال[٦]: «والأظهر أن إِنْفحة الميتة ولبنها طاهر لأن الصحابة لما فتحوا بلاد العراق أكلوا من جبن المجوس وكان هذا ظاهرًا سائغًا بينهم، وأيضًا فاللبن والإِنْفحَة لم يموتا وإنما نجسها من نجسها لكونها في وعاء نجس، إلى أن قال: ولهذا يجوز حمل الصبي الصغير في الصلاة على ما في باطنه».

٣- تحريم الدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّمُ﴾ والمراد به الدم المسفوح بالإجماع؛ لقوله تعالى- في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الآية:١٤٥]. حملًا للمطلق على المقيد.

٤- تحريم لحم الخنزير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وهذا يشمل لحمه وشحمه وسائر أجزائه سواء كان الخنزير إنسيًّا أو وحشيًّا، كما أن الأكل من لحم الجزور ناقض للوضوء مطلقًا على الصحيح سواء كان من لحمه أو شحمه أو سائر أجزائه.

قال الحافظ ابن كثير[٧]: «والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطرد، ثم ذكر حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي-

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٠٣)، «المدونة» (١/ ١٨٣).

(٢) انظر: «المهذب» (١/ ١٨).

(٣) انظر: «المغني» (١/ ١٠٠)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٠٣).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١٩).

(٥) انظر: «المغني» (١/ ١٠٠)، انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٠٢).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٠٣- ١٠٤).

(٧) في «تفسيره» (٣/ ١٣- ١٤).

رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لعب بالنردشير**[١] **فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه**»[٢].

ثم قال ابن كثير بعد سياقه: «فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره».

واختلف في شعر الخنزير، فذهب الشافعي[٣] إلى أنه نجس وهو رواية عن أحمد[٤]، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه طاهر[٥]، وقال بعضهم: شعر ما هو نجس في الحياة نجس كالكلب والخنزير، وشعر الميتة إن كانت طاهرة الحياة فهو طاهر كالشاة[٦] وقد رجح شيخ الإسلام طهارة الشعور كلها شعر الكلب والخنزير وغيرهما[٧].

٥- تحريم ما ذكر عليه اسم غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ لأن هذا من الشرك، وسواء كان الذابح له مسلمًا أو كتابيًّا أو غيرهما.

٦- مشروعية ذكر اسم الله على الذبيحة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

وجه ذلك أنه إذا كان ما ذكر عليه اسم غير الله محرمًا فيفهم من هذا أن المشروع ذكر اسم الله على الذبيحة وعلى هذا دل الكتاب والسنة وأجمعت الأمة.

لكن اختلف أهل العلم في حكمها: فذهب طائفة من أهل العلم إلى أن التسمية واجبة لا تحل الذبيحة بدونها واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾

---

(١) النردشير: قال في «اللسان» مادة «نرد»: النرد معروف شيء يلعب به، فارسي معرب وليس بعربي وهو النردشير، وشير بمعنى: حلو».

(٢) أخرجه مسلم في الشعر (٢٢٦٠)، وأبوداود في الأدب (٤٩٣٩)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٦٢).

(٣) انظر: «المهذب» (١/ ١٨).

(٤) انظر: «المغني» (١/ ١٠٨، ١٠٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٦١٦).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٦١٦، ٦١٧).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١١٦٩).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٦١٧).

[الأنعام:١١٨]، وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤]، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١].

وقال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر عليه اسم الله فكلوا...**» الحديث(١).

وفي حديث عدي وأبي ثعلبة: «**إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك...**» الحديث(١).

وفي بعض روايات حديث عدي: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فقتل فكل، وإن خالط كلبك كلاب أخر فلا تأكل فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره»(٢).

وقال ﷺ لما سأله الجن الزاد لهم ولدوابهم: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم. قال ﷺ: فلا تستنجوا بها فإنها زاد إخوانكم من الجن**»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): «فهو ﷺ لم يبح للجن المؤمن إلا ما ذكر اسم الله عليه فكيف بالإنس، ولكن إذا وجد الإنسان لحمًا قد ذبحه غيره جاز له أن يأكل منه ويذكر اسم الله عليه لحمل أمر الناس على الصحة والسلامة، كما ثبت في الصحيح أن قومًا قالوا: يا رسول الله إن ناسًا حديثي عهد بالإسلام يأتوننا باللحم، ولا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لم يذكروا فقال: «**سموا أنتم وكلوا**»(٥).

وممن ذهب إلى هذا القول وهو وجوب التسمية على الذبيحة وحرمة ما لم يذكر

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢١).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٥٠)، والترمذي في السنن (٣٢٥٨)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٤٠).

(٥) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٠٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢٩)، والنسائي في الضحايا (٤٤٣٦)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

اسم الله عليه سواء ترك عمدًا أو سهوًا الإمام أحمد في رواية عنه، اختارها أبو الخطاب[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «وهو قول غير واحد من السلف وهذا أظهر الأقوال فإن الكتاب والسنة قد علقا الحل بذكر اسم الله في غير موضع».

ثم ذكر بعض الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن التسمية واجبة عند الذكر وتسقط عند النسيان فإن تعمد تركها لم تحل الذبيحة[٣]، وإن تركها نسيانًا فذبيحته حلال، وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة[٤]، ومالك في المشهور عنه[٥]، والشافعي في أحد قوليه[٦]، وأحمد في المشهور عنه[٧].

واستدلوا على وجوبها عند الذكر بالأدلة السابقة.

واستدلوا لسقوطها بالنسيان بعموم قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «قال الله: قد فعلت»[٨].

كما استدلوا بعموم قوله ﷺ: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٩].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن التسمية على الذبيحة مستحبة فقط وإلى هذا ذهب

---

(١) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٥٧- ٢٥٨، ٢٩٠)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٩).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٤، ٣١٠، ٣١٩).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٧٥).

(٦) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١١٥).

(٧) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٥٩- ٢٦٠، ٢٨٩- ٢٩٠).

(٨) أخرجه مسلم في الأيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢).

(٩) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٨٢).

الشافعي في أحد قوليه[١] وبعض المالكية[٢] واستدلوا بأحاديث ضعيفة كحديث: «إن في المسلم اسم الله، أو المسلم يكفيه اسمه»[٣] وحديث: «اسم الله على كل قلب كل مسلم»[٤]، وحديث: «المسلم يذبح على اسم الله سمى أو لم يسمِ»[٥].

والصحيح القول الأول أن التسمية واجبة ولا تسقط بالسهو والنسيان، ولا تحل الذبيحة إذا لم يذكر اسم الله عليها سواء تركت التسمية عمدًا أو نسيانًا لكن إن تركها سهوًا فهو غير آثم للأدلة السابقة ونحوها، وإن تركها عمدًا فهو آثم لمخالفته ما أمر الله به، وإضاعة المال بدون فائدة.

وأما الأحاديث التي استدل بها أصحاب القول الثاني فلا دلالة فيها على إباحة متروك التسمية وغاية ما فيها الدلالة على أن من تركها ناسيًا لا إثم عليه ولا مؤاخذة، وهذا حق. وأما الأحاديث التي استدل بها أصحاب القول الثالث فهي ضعيفة لا تقوم بها حجة.

٧- تحريم المنخنقة، وهي التي تموت بالخنق وهو حبس النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾.

٨- تحريم الموقوذة وهي التي تموت بالوقذ، وهو الضرب حتى الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾.

وفي حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- لما سأل النبي ﷺ عن الصيد

---

(١) انظر: «المهذب» (١/ ٢٥٩)، «التفسير الكبير» (١٣/ ١٣٨).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٧٥، ٧٦٧).

(٣) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٩٦)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- مرفوعًا، وأخرجه عبدالرزاق في «المصنف» في الحج (٤/ ٤٨١)- الأثر (٥٨٤٨) موقوفًا على ابن عباس وهو الصحيح. انظر: «التعليق المغني على الدارقطني»، وانظر: «ضعيف الجامع الصغير» (٣/ ١٧٦)- الحديث (٣٠٣٩).

(٤) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٣/ ٢٩٥) وضعفه. وانظر: «التعليق المغني على الدارقطني».

(٥) قال ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ١٣٧): «لم أره في حديث البراء. وزعم الغزالي في الإحياء أنه حديث صحيح. وقد روي معناه من حديث الصلت، وهو مرسل، وروي من حديث ابن عباس، وفي إسناده ضعف، وصححه ابن السكن، قال البيهقي: «والأصح وقفه على ابن عباس».

بالمعراض قال: «**إن خرق فكله، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله**»(١).
وهكذا بالنسبة للصيد بالسهم والحجر ونحو ذلك إن أصابه بحده فخرق فهو حلال، وإن أصابه بعرضه ولم يخرق فهو وقيذ لا يحل أكله ومثله ما سقط في الماء فمات.

٩- تحريم المتردية وهي التي تتردى، أي: تسقط من علو إلى أسفل فتموت بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾.

١٠- تحريم النطيحة، وهي التي تموت بالنطح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾.

١١- تحريم التي أكل منها السبع فماتت بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾.

١٢- أن ما أدركت ذكاته من هذه الخمس: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع- وفيه حياة فهو حلال سواء كان مما تُيُقِّن موته بدون الذكاة أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، وهذا استثناء متصل من المحرمات المذكورة، وهو مطلق، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من المفسرين والفقهاء ومنهم الأئمة الثلاثة أبو حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم(٢).

وذهب الإمام مالك إلى أن ما أدركت ذكاته مما تيقن موته لا يحل بناءً على أن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ استثناء منقطع، أي: حرمت عليكم هذه المذكورات لكن ما ذكيتم فهو حلال(٣). وهذا القول رواية عن الإمام أحمد(٤).

والصحيح القول الأول قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٥): «والصحيح أنه إذا كان حيًّا فذكي حل أكله، ولا يعتبر في ذلك حركة مذبوح، فإن حركات المذبوح لا تنضبط، بل فيها ما يطول زمانه وتعظم حركته، ومنها ما يقل زمانه وتضعف

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٠٥- ٥٠٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٦)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٨٨)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٦- ٢٣٧).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٣٩- ٥٤١)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٤- ٢٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٠).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٦- ٢٣٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٦- ٢٣٧).

حركته وقد قال النبي ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا**» فمتى جرى الدم الذي يجري من المذبوح الذي ذبح وهو حي حل أكله وإن تيقن أنه يموت فإن المقصود ذبح ما فيه حياة فهو حي، وإن تيقن أنه يموت بعد ساعة».

وقال الحافظ ابن كثير(١) بعدما ذكر قول مالك: «وظاهر الآية عام فما استثناه مالك- رحمه الله- من الصور التي بلغ فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية».

لكن لو شك هل هي ميتة أو حية حين تذكيتها فالواجب تركها احتياطًا.

وذكاة الجنين ذكاة أمه عند جمهور أهل العلم؛ لقوله ﷺ: «**ذكاة الجنين ذكاة أمه**»(٢).

وذهب أبوحنيفة إلى أنه لا يحل إلا أن يخرج حيًّا فيذكى، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ قال: فحرم الله الميتة مطلقًا، واستثنى المذكى منها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ وهذا لم يذك(٣).

وتحصل الذكاة الشرعية: بقطع الأوداج وإنهار الدم مع ذكر اسم الله تعالى على الذبيحة، لحديث رافع بن خديج- رضي الله عنه- أنه قال: قلت: يا رسول الله إنا لاقو العدو غدًا، وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب؟ فقال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة**»(٤).

وتكون الذكاة في الحلق واللبة، وتمامها بقطع الحلقوم والمريء والودجين، والحلقوم مجرى النفس، والمريء مجرى الطعام، والودجان هما عرقا الدم بين

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١١١)، «بدائع الصنائع» (٥/ ٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٠٣)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦٨)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢١)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٩٧)، والترمذي في الأحكام (١٤٩١)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٧).

الحلقوم والمريء: «الشريانان».

وتجزئ بقطع ثلاثة من هذه الأربعة، الحلقوم والودجين أو الحلقوم والمريء وأحد الودجين، أو المريء والودجين، بل تجزئ بقطع اثنين من هذه الثلاثة شريطة أن يكون من بينها الودجان أو أحدهما لأن بقطع الودجين أو أحدهما إنها رالدم[١].

أما ما ذهب إليه الشافعي[٢] وأحمد في المشهور عنه[٣] من أن الذكاة تجزئ بقطع الحلقوم والمريء دون الودجين فلا دليل عليه، بل الدليل على خلافه لقوله ﷺ: **«ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه»**.

وأما حديث أبي العشراء الدارمي عن أبيه قال: قلت يا رسول الله: أما تكون الذكاة إلا من اللبة أو الحلق، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك»**[٤].

فهذا كما قال الحافظ ابن كثير[٥]: «محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة».

وهكذا ما ندّ فلم يقدر على تذكيته فحكمه عقره كالصيد؛ لحديث رافع بن خديج- رضي الله عنه- قال: «أصبنا نهب إبل وغنم فند منها بعير فرماه رجل بسهم فحبسه، فقال رسول الله ﷺ: **«إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش فإذا غلبكم منها شيء فافعلوا به هكذا»**[٦].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٦- ٣٠٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٤٣)، «المغني» (١٣/ ٣٠١، ٣٠٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٤).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٩).

(٣) انظر: «المغني» (١٣/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه أبوداود في الضحايا (٢٨٢٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٨)، والترمذي في الصيد (١٤٨١)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٨٤)، وأحمد (٤/ ٣٣٤)، قال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٥٣٨): «وهو حديث صحيح أعجب أحمد بن حنبل ورواه عن أبي داود وأشار على من دخل عليه من الحفاظ أن يكتبه» وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٠).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ٢٠).

(٦) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٤٩٨)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦٨)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢١)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٩٧)، والترمذي في الأحكام (١٤٩١). واللبة: هي جزء =

قال أبوداود بعد روايته هذا الحديث: «لا يصلح هذا إلا في المتردية والمستوحش».
وهكذا ما في حكم المتردية كالتي تدخل في مكان ضيق فلا يقدر على تذكيتها.
وبهذا قال جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة أبوحنيفة[١] والشافعي[٢] وأحمد[٣] وغيرهم في حكم ما لا يقدر على تذكيته في الحلق واللبة. أن يطعن في أي مكان من بدنه، أو يرمى كالصيد.
وذهب مالك وبعض أصحابه وغيرهم إلى أن غير المقدور عليه كغيره لا يحل إلا بتذكيته في الحلق واللبة[٤].
قال الإمام أحمد: «لعل مالكًا لم يسمع حديث رافع بن خديج»[٥].
والصحيح القول الأول لحديث أبي العشراء وحديث رافع، وبه قال ابن حبيب ورجحه ابن عبدالبر وغيره من المالكية[٦].
وتجزئ التذكية بكل ما فرى الأوداج وأنهر الدم من الآلات الحادة ما خلا السن والعظم؛ لقوله ﷺ في حديث رافع بن خديج: «ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة»[٧].
وفي حديث شداد بن أوس- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»[٨].

=
الرقبة الذي يلي الصدر. والأوابد: النافرة والمستوحشة.
(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٠٩).
(٢) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٨١)، «سنن البيهقي» (٩/ ٢٣٥).
(٣) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٩١)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٦).
(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٣٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٦).
(٥) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٩٢).
(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٣٨).
(٧) سبق تخريجه.
(٨) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأبوداود في الضحايا (٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠).

وذهب أبوحنيفة إلى جواز التذكية بالسن والظفر إذا كانا منزوعين[١]، وإطلاق حديث رافع بن خديج يرد هذا.

وتصح الذكاة من كل من جاء بها على السنة من مسلم أو كتابي[٢]، ذكرًا كان أو أنثى[٣]، بالغًا أو غير بالغ، بشرط النية، فلا تصح الذكاة من مجنون لا يعقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وذكاة المرأة جائزة باتفاق المسلمين، وتجوز ذكاتها وإن كانت حائضًا فإن حيضتها ليست في يدها».

١٣- أن ما مات- مما يحل بالتذكية- بأي سبب غير الذكاة الشرعية فهو حرام.

١٤- صيانة التشريع الإسلامي للدين والبدن وهي من الضروريات الخمس التي جاء الشرع بالمحافظة عليها وصيانتها وهي الدين والبدن والعقل والعرض والمال، فتحريم الميتة وما بعدها؛ لاحتقان الدم فيها مما فيه ضرر على الأبدان وهذا ثابت طبًّا، ولأنها لم تُذكَّ الذكاة الشرعية، وهذا فيه ضرر في الدين.

وبالذكاة الشرعية في موضع الذكاة مع ذكر اسم الله يزول الضرر حسيًّا ومعنويًّا.

١٥- تحريم ما ذبح على النصب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾؛ لأن ذلك من الشرك[٤].

١٦- أن الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، أي: ما ذبح لأجلها فهو حرام؛ لأن النية في الذبح لها.

١٧- تحريم الاستقسام بالأزلام، ونحو ذلك مما يطلب به الشخص معرفة ما قسم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ وذلك لما فيه من الجهالة والشرك، وادعاء علم الغيب[٥]، والاعتماد على غير الله، ولأنه مبني على وهم لا على

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٤، ٣٠٧- ٣٠٨).

(٢) فالآية مخصِّصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥].

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٤).

(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» ص(٢٠٧- ٢١٠)، «بدائع التفسير» (٢/ ١١٩).

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦٠- ١٦١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٤٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٢).

حقيقة، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤].

قال ابن القيم(١): «فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهن وطلب علم ما استأثر الله به، هذه للعلم وتلك للعمل».

قال الشاعر:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع(٢)

وقد شرع الله للمسلم الاستخارة إذا همَّ بأمر، كما رواه جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: **إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر- ويسميه باسمه- خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي وبارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلمه شرًّا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به**»(٣).

كما نهى ﷺ عن الطيرة، وكان يعجبه الفأل(٤).

١٨- أن الأكل من المحرمات المذكورة، والاستقسام بالأزلام فسق، لأنه خروج عن طاعة الله وما أحله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

وهو محتمل رجوعه إلى المحرمات المذكورة والاستقسام بالأزلام ومحتمل رجوعه

---

(١) في «إغاثة اللهفان» ص(٢٠٧- ٢١٠).

(٢) البيت للبيد بن ربيعة. انظر: «ديوانه» (١/ ٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٢)، وأبوداود في الصلاة (١٥٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٨٣)، وأحمد (٣/ ٣٤٤).

(٤) أخرج البخاري في الطب (٥٧٥٦)، ومسلم في السلام (٢٢٢٤)، وأبوداود في الطب (٣٩١٦)، والترمذي في السير (١٦١٥)، وابن ماجه في الطب (٣٥٣٧)- عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح؛ الكلمة الطيبة**».

إلى الاستقسام بالأزلام وحده؛ لأنه أقرب مذكور فهو فسق بالاتفاق.
والفاسق تسقط عدالته، ولا تصح ولايته.

١٩- يأس الكفار وانقطاع طمعهم من تغيير دين المسلمين وإبطاله وإطفاء نور الله، ورد المسلمين إلى الشرك والتغلب على الدين الإسلامي وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم طامعين في ذلك فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره يئسوا.
وفي الحديث: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(١).

٢٠- البشارة للمؤمنين بأنهم لن يرجعوا جميعًا عن دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾، أي: من إخراجكم عن دينكم وردكم إلى الكفر جميعًا.

٢١- تحريم خشية الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾، وخاصة إذا أدى ذلك إلى المداهنة في دين الله.

٢٢- وجوب خشية الله وحده والتحذير من خشية من سواه من الكفرة وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

٢٣- أن من خشي الله واتقاه كفاه كل شر ووفقه لكل خير؛ لأنه سبحانه هو القادر على دفع كل مرهوب وجلب كل مرغوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.
كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

٢٤- أن من كانت خشيته من الخلق فلن يحصل على مطلوبه ولن ينجو من مرهوبه؛

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

لأن الخلق ضعاف مثله لا يستطيعون تحقيق ذلك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

وهذا إنما يحصل من ضعاف الإيمان والمنافقين، كما قال الله عنهم: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

٢٥- أن الأمانة في الحكم ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وترك خشية الناس؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة:٤٤].

٢٦- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين بإكمال دينهم وإتمام النعمة عليهم ورضاه لهم الإسلام دينًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

٢٧- كمال الدين الإسلامي وظهوره على الأديان كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

فهو أكمل الأديان وهو أشملها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

وهو الدين الخالد إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

٢٨- تشريف المؤمنين بإضافة الدين إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿دِينَكُمْ﴾ فإضافته إليهم إضافة تشريف؛ لأنهم القائمون به المستقيمون على هديه بتوفيق ربهم، وهذا كله مما يوجب على المسلمين التمسك بدينهم والاعتزاز به.

٢٩- أن الله- عز وجل- هو مولي النعم ومسديها لهذا أضاف النعمة إليه، فقال تعالى:

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

٣٠- أن إتمام النعمة على المؤمنين بإكمال دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وذلك تحقيق لوعده- عز وجل- بقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٠].

٣١- أن أعظم نعمة أنعم الله بها على المؤمنين نعمة الدين، فهي النعمة المطلقة، لهذا امتن الله عليهم بإكماله، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.
فمن حصل على هذه النعمة فهو المنعم عليه حقًّا، وما سواها من النعم الدنيوية فهو فضل، ومن فاتته هذه النعمة فاتته كل نعمة وإن تمتع بغيرها من نعم الدنيا الفانية. قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] أي: أنعمت عليهم بمعرفة الحق والعمل به، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء:٦٩].

٣٢- الإشارة لشرف اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ إذ أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، وكان يوم عرفة يوم جمعة كما قال عمر- رضي الله عنه- وكما قال ابن عباس- رضي الله عنهما(١).

٣٣- أن الله- عز وجل- يتحبب إلى عباده بنعمه عليهم ويذكرهم بها ليطيعوه ويشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة:٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].
وفي الحديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه**»(٢).

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٧٨٩) عن عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:
=

ولهذا رغب الإسلام في الهدية؛ لما تجلبه من المحبة والمودة، وفي الأثر: «تهادوا تحابوا»(١).

وكم يغفل الناس عن هذا المعنى ولو أخذوا به لذهب ما بين كثير منهم من الجفاء والأحقاد والضغائن والسخائم.

٣٤- أن الله قد رضي لنا الإسلام دينًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وهذا يشمل أصوله وفروعه فلا يقبل من أحد سواه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

٣٥- أنه يحل لمن أصابته ضرورة في مجاعة الأكل من المحرمات المذكورة(٢)؛ لقوله

=

«**أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي**» قال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(١) أخرجه مالك في الجامع (١٦٨٥) مرسلًا من حديث عطاء بن أبي مسلم الخراساني قال: قال رسول الله ﷺ: «**تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء**».

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٦): «وليس من شرط جواز الأكل منها أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعامًا كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم بل متى اضطر إلى ذلك جاز له».

وقد روى في تحديد حد الضرورة إلى الأكل من هذه المحرمات حديث حسان بن عطية عن أبي واقد الليثي- رضي الله عنه- قال: قلنا يا رسول الله إنا بأرض يصيبنا بها مخمصة فما يحل لنا من الميتة؟ قال: «إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا، ولم تحتفئوا بقلًا فشأنكم بها». وهذا الحديث أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨) بإسنادين قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٦) عن أحدهما: «تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين».

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٦٥): «رجال أحدهما رجال الصحيح إلا أن المزي قال: «لم يسمع حسان بن عطية من أبي واقد الليثي» وقال الهيثمي في موضع آخر (٥/ ١٦٥): «رواه الطبراني ورجاله ثقات»، وأخرجه الدارمي في الأضاحي (١٣٠٤) والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٣٨- ٥٤٢) الآثار (١١١٢٥- ١١١٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٢٥): وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» قال الذهبي: «وفيه انقطاع».

والصبوح: اللبن يحلب ويشرب في الصباح وهو الغداء، والغبوق: اللبن يحلب ويشرب في المساء وهو العشاء، والبقل: ما ينبت من العشب على وجه الأرض، واحتفاؤه: اقتلاعه. انظر: «لسان العرب» مادة:

=

تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩].

لكن لا يأكل حتى يضطر، وهذا معنى ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾، ولا يزيد على كفايته؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ فيأكل بقدر ما تندفع به الضرورة.

فإن كان في مكان يعلم أنه يكفيه فيه ما يسد الرمق لقربه من الوصول إلى الحصول على المأكول الحلال فلا يجوز له الزيادة على ما يسد الرمق، وإن كان يعلم أنه لن يجد ما يأكله وستدركه الضرورة مرة أخرى إن لم يشبع فإن له الأكل حتى الشبع؛ لأنه مضطر إلى ذلك، وإن خشي ألا يجد شيئًا في طريقه فله أن يشبع ويتزود.

ويدل على أن الأكل إنما هو بقدر الضرورة قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣] أي غير باغ في الأكل من الميتة لغير ضرورة، ولا متعد ما يسد الرمق عند الضرورة وإلى هذا ذهب أبوحنيفة وأصحابه(١) والشافعي(٢)، وأحمد(٣) وغيرهم وهو قول الجمهور.

وذهب بعض أهل العلم كالإمام مالك إلى أن من اضطر إلى الأكل من هذه المحرمات فإنه له أن يأكل حتى يشبع والضرورة ترفع التحريم(٤) وهو قول للشافعي(٥).

وفسر بعضهم الآية ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أي: غير باغ ولا عاد على الإمام(٦)،

=

«صبح»، «غبق» «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٧)، وانظر: تخريج أحمد شاكر وتعليقه على الحديث في تخريج مسند الإمام أحمد وفي تعليقه على «تفسير الطبري» الموضع السابق.

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٢٦، ١٣٠)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٩٠).

(٢) انظر: «مختصر المزني» (٥/ ٢١٦- ٢١٧)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٩٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦).

(٣) انظر: «المغني» (١٣/ ٣٣٠).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٥٥- ٥٦).

(٥) انظر: «مختصر المزني» (٥/ ٢١١- ٢١٦)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٩٢)، «المهذب» (١/ ٢٥٧).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٩٤).

وقال بعضهم غير مسافر سفر معصية؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾(١)، وقيل للمضطر مطلقًا أن يشبع ويتزود.

٣٦- تقدير الشرع للضرورات قدرها وأن الضرورات تبيح المحظورات؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فقد رخص سبحانه للمضطر بالأكل من هذه المحرمات(٢) بل رخص في المحرمات عمومًا عند الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩].

وفي الحديث عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته**»(٣).

وهذا من رحمة الله- عز وجل- بعباده وتيسيره عليهم؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦].

٣٧- وجوب الحذر من الأكل من المحرمات المذكورة من غير ضرورة، وأن ذلك محرم

---

(١) انظر: «الأم» (٢/ ٢٢٦)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٩٢).

(٢) واختلفوا هل يجب على المضطر الأكل من الميتة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم، وقيل: لا يلزمه ذلك، والصحيح الأول. قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٦): «وقد يكون الأكل واجبًا إذا خاف على نفسه الهلكة ولم يجد غيرها أو مندوبًا أو مباحًا حسب الحال».

وإن وجد ميتة ولحم خنزير أكل من الميتة.

واختلف فيما إذا اضطر ولم يجد إلا ميتة، أو صيدًا وهو محرم، أو طعام الغير من أيهما يجوز له الأكل منه على أقوال ثلاثة أظهرها أنه يأكل من الصيد وعليه الفدية لأنه أخف لأن المحظورات تباح بالضرورات لقوله ﷺ لكعب بن عجرة: «**لعله يؤذيك هوام رأسك**» قال: نعم يا رسول الله، قال: «**احلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك بشاة**» أخرجه البخاري في الحج (١٨١٤)، ومسلم في الحج (١٢٠١)، من حديث كعب رضي الله عنه. فإن لم يجد إلا الميتة وطعام الغير أكل من طعام الغير إن لم يترتب عليه ضرر، لأن طعام الغير ليس بنجس بخلاف الميتة، انظر: «الأم» (٢/ ٢١٦)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٩٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨) وصحح أحمد شاكر إسناده في تخريجه للمسند (٥٨٦٦، ٥٨٧٣).

وإثم وذنب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾.

٣٨- أثر النية في الحكم تحليلًا أو تحريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ فمن أكل من هذه المحرمات لأجل الضرورة فلا شيء عليه، ومن أكل منها بقصد الإثم حرم عليه ذلك.

٣٩- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- وأثرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾.

٤٠- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- وأثرها على الخلق، صفة ذاتية ثابتة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾، كما قال سبحانه: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وصفة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه كما قال سبحانه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

لما ذكر الله- عز وجل- في الآية المتقدمة ما حرمه من الخبائث لما فيها من الضرر لمتناولها إما في بدنه أو دينه أو فيهما معًا أتبع ذلك بذكر ما أحله لهم من الطيبات فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ﴾ الآية، كما قال في صفة النبي ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

سبب النزول:

عن أبي رافع رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقالوا: ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فأنزل الله هذه الآية»(١).

وعن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين- رضي الله عنهما- أنهما قالا: «يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ﴾ الآية»(٢).

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: الكاف في محل نصب مفعول أول لـ«يسألون»(٣).

والخطاب للنبي ﷺ، والسائل هم الصحابة رضي الله عنهم، أي: يسألك أصحابك يا محمد.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٨، ١٠، ٣٩١). والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٤٥)- الأثر (١١١٣، ١١١٣٤)، وابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٠)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٢٧)، وأخرجه البيهقي مختصرًا في «سننه» (٩/ ٢٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٤٣): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٨).

(٣)إذا كان السؤال سؤال استفهام فإنه ينصب مفعولًا واحدًا ويتعدى إلى الثاني بعن أما إذا كان المراد بالسؤال سؤال المال فإنه يتعدى إلى المفعولين بنفسه يقال: أسألك درهمًا.

وقد ورد لفظ: «يسألونك» في القرآن في نحو خمسة عشر موضعًا.

﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾، «ما» اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» في محل رفع خبر(١) أي يسألونك سؤال استفهام وعلم ما الذي أحل لهم أكله.

ويحتمل أن تكون «ماذا» بمجموعها اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وخبره جملة ﴿أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ والمعنى على هذا أي: شيء أحل لهم(٢).

وهو سؤال في محله لأنه بعد أن بين الله لهم ما حرم عليهم أكله سألوا ماذا أحل لهم.

﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، أي: قل لهم يا محمد أحل الله لكم الطيبات. وحذف الفاعل لكونه معلومًا، وهو الله عز وجل.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: جمع «طيب»، أو طيبة، وهي كل ما فيه نفع أو لذة من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، وكل ما أحله الله فهو طيب ومستطاب، وضدها الخبائث، وكل ما حرمه الله فهو خبيث من الخبائث الضارة بالبدن أو العقل كما قال سبحانه في وصف الرسول ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة:١٠٠].

والأصل في الطيبات كلها الحل من الأطعمة والأشربة وغيرها بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:٢٩] فاللام في قوله: ﴿لَكُم﴾ للإباحة.

وقد قيل: إن المراد بالطيبات في الآية الحلال فعليه يكون المعنى: قل أحل لكم الحلال وفي هذا تكرار، والأظهر القول الأول(٣).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٤٣)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢١٩).

(٢) لأن «ذا» جاءت بعد استفهام قال ابن مالك:

ومثل «ما» «ذا» بعد «ما» استفهام

أي: مثل «ما» الموصولة «ذا» إذا جاءت بعد «ما»، و«من» الاستفهاميتين. انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٦٤)، «جامع البيان» (٩/ ٥٤٣)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦٣)، «شرح ابن عقيل» (١/ ١٥٢).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٤٣)، «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٦٣)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٢)، «الكشاف» (١/ ٣٢٣).

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة بمعنى «الذي» في محل رفع عطفًا على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ والمعنى: وأحل لكم صيد الذي علمتم من الجوارح.

﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾، ﴿مِّنَ﴾ بيانية. و﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾ جمع جارحه، وهي الكواسب من السباع كالكلاب والفهود والنمور، ومن الطيور كالصقور والبزاة وغيرها، وسميت جوارح لجرحها لأربابها وكسبها لهم من الصيد.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي: ما كسبتم فيه. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية:٢١] أي: اكتسبوها، ومنه سميت اليد جارحة لأنه يكتسب بها، ويقال: فلان جارح أهله، أي: كاسبهم.

ويحتمل أن تسمية جوارح الصيد من السباع والطيور جوارح لأنها تجرح الصيد بأنيابها وأظفارها ومخالبها[1] فالسباع كالكلب والفهد تجرح بأنيابها، والطيور كالصقر والنسر تجرح بأظفارها ومخالبها.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿عَلَّمْتُم﴾ وهو جمع مكلِّب اسم فاعل، والتكليب هو التهييج والإضراء، أي حال كونكم مهيجين ومضرِّين للجوارح على الصيد من الكلاب وغيرها.

أو حال كونكم معلمين للكلاب أن تصيد لكم وخصت الكلاب- على هذا- من باب التغليب لأن التعليم أكثر ما يكون للكلاب، والصيد بها هو الغالب عند العرب.

وأيضًا فإن السبع يسمى كلبًا ومنه الحديث: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك فأكله الأسد»[2].

وقيل: إنها حال من الجوارح، أي: حال كونهن مكلِّبات للصيد أي: يقتنصنه ويجرحنه بأنيابهن وأظفارهن ومخالبهن[3].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٨٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧١).

(٢) أخرجه أبونعيم في «دلائل النبوة» (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق. من حديث هبّار بن الأسود رضي الله عنه، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٤٢١) مطولًا. وقال: «رواه ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب».

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٥١، ٥٥٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٣- ٣١٤)، «أحكام =

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿مِمَّا﴾ مكونة من حرف الجر «من» وهي هنا للتبعيض، و«ما» الموصولة، أي تُعلِّمون هذه الجوارح كيفية الصيد لكم من الذي أعطاكم الله من العلم والمعرفة بأن يسترسل الجارح إذا أرسل وينزجر إذا زجر ويمسك الصيد إذا أخذه ولا يأكل منه.

قال ابن كثير(١): «﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسل استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسك على نفسه».

﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، تقديره: إن صدتم فكلوا(٢).

والأمر: «كلوا» للإباحة و«مما» مكونة من «من» البيانية و«ما» الموصولة، أي: كلوا من الذي أمسكن عليكم.

﴿أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ الضمير في ﴿أَمۡسَكۡنَ﴾ يعود إلى الجوارح. و﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ هنا بمعنى «لكم».

والمعنى: فكلوا من الذي أمسكنه لكم من الصيد، ويفهم من هذا أنه إذا أمسك لنفسه فلا يؤكل.

وقد قيل: إن «من» تبعيضية، والمعنى: فكلوا بعض ما أمسكن عليكم وهو ما يحل أكله من الحيوانات والطيور دون ما يحرم أكله كالدم وذوات الأنياب والمخالب(٣).

والصحيح الأول، فالجوارح غالبًا تكون معلمة على صيد ما يحل أكله، وما صادته مما لا يحل أكله فهو خارج بأدلة أخرى.

قال ابن العربي(٤): «عام بمطلقه بكل ما أمسك الكلب عليه إلا أنه خاص بالدليل

= القرآن» للهراسي (٢/ ٢٥)، «الكشاف» (١/ ٣٢٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠).

(١) في «تفسيره» (٣/ ٣٠).

(٢) انظر: «الجدول في إعراب القرآن» (٣/ ٢٣٦).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٦٩- ٥٧١)، «البحر المحيط» (٣/ ٤٣٠).

(٤) في «أحكام القرآن» (٢/ ٥٥٠).

في كل ما أحله الله، من جنس كالظباء والبقر والحمر، أو من جزء كاللحم والجلد، دون الدم، وهذا عموم دخله التخصيص بدليل سابق له».

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾، أي: واذكروا اسم الله على الجارح عند إرساله لا على الصيد بعينه، كما في حديث عدي بن حاتم وأبي ثعلبة رضي الله عنهما: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل»(١).

قال ابن كثير(٢): «فمتى كان الجارحة معلمًا وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد وإن قتله بالإجماع».

ويحتمل أن المراد بالآية ذكر اسم الله على الصيد عند أكله ويكون الضمير في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ عائدًا على المصدر المفهوم من قوله: ﴿فَكُلُواْ﴾، أي: على الأكل كما دلت السنة أيضًا على مشروعية التسمية عند الأكل كما في حديث عمر بن أبي سلمة- رضي الله عنه- قال: كنت غلامًا في حجر النبي ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي: «**يا غلام سمِّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك**»(٣).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن قومًا قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله إن قومًا يأتوننا باللحم، لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «**سموا عليه أنتم وكلوه. قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر**»(٤).

ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿عَلَيۡهِۖ﴾ إلى «ما» في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيكون المراد ذكر اسم الله عليه عند ذبحه إذا أدرك حيًّا ولم يقتله الجارح كما قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام:١٢١].

---

(١) سيأتي تخريجهما قريبًا.

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، وأبوداود في الأطعمة (٣٧٧٧)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٧).

(٤) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٠٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢٩)، والنسائي في الضحايا (٤٤٣٦)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٤).

فالآية محتملة لهذه الأقوال كلها[١] ودلالتها على القول الأول أقرب، كما هو قول الجمهور. قال ابن كثير[٢]: «وهذا القول هو المشهور عن الجمهور: أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال».

وصفة التسمية عند الذبح وعند إرسال الجارح: بسم الله والله أكبر، وعند الأكل: بسم الله.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والأكل مما أباحه الله لكم من صيد الجوارح المعلمة التي ذُكر اسم الله عليها عند إرسالها، وأمسكت لكم دون ما أمسكته لنفسها فأكلت منه أو لم يذكر اسم الله عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذه الجملة خبرية مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾ متضمنة للوعد والوعيد؛ الوعد لمن اتقى الله، والوعيد لمن خالف أمر الله.

والمعنى: أنه سيحاسبكم على أعمالكم وحسابه سريع؛ لأن أجله آت وكل آت قريب.

ولأن العمر قصير والموت قريب، وهذا إيذان بسرعة انتهاء العمر وزوال الدنيا وقرب القيامة.

كما أن من سرعة حسابه- عز وجل- أن يجد الإنسان شيئًا من جزاء عمله في الدنيا من الطمأنينة وانشراح الصدر وتيسير الأمر لمن اتقى الله، ومن فقدان الطمأنينة ومن انقباض الصدر وتعسر الأمر لمن خالف أمر الله.

كما أنه- عز وجل- سريع المحاسبة لخلقه، فلا يحتاج إلى طويل مدة لحسابهم مع كثرتهم وكثرة ما يحاسبون عليه؛ لأنه- عز وجل- أعلم بهم، وهو أسرع الحاسبين كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢]،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٧١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٤- ٧٥)، «التفسير الكبير» (١١/ ١١٤، ١١٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٣٣).

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قال بعض أهل العلم: وحسابه للخلائق في نصف يوم، بدليل قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]. وجه ذلك أن المقيل يكون بعد انتصاف اليوم فهو- عز وجل- يحاسب أهل الجنة على كثرتهم أول النهار إلى منتصفه ويقيلون في الجنة(١).

الفوائد والأحكام:

١- حرص الصحابة- رضي الله عنهم- على تعلم أمر دينهم حيث كانوا يسألون رسول الله ﷺ عما أشكل عليهم مما يحتاجونه في أمر دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٢- علم الله- تعالى بما يقوله العباد، وما يفعلونه؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٣- حرص الصحابة- رضوان الله عليهم- على معرفة الحلال من الحرام؛ ليأكلوا مما أحل الله لهم ويجتنبوا ما حرم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾

٤- أدب الصحابة- رضي الله عنهم- حيث سألوا عما يعنيهم وسكتوا عما لا يعني؛ ولهذا لم تزد أسئلتهم عن بضعة عشر سؤالًا كل ذلك استجابة لقوله ﷺ: «**ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**».

وقوله ﷺ: «**إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته**».

ولقوله ﷺ لما سئل عن الحج أفي كل عام؟ قال ﷺ: «**لو قلتها لوجبت، الحج مرة فما زاد فهو تطوع**»(٢).

٥- أن سؤال البعض بحكم سؤال الجميع؛ لأن التشريع للجميع؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١١٢- ١١٣).

(٢) سيأتي تخريج هذه الأحاديث في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة:١٠١].

٦- ينبغي التوجه بالسؤال إلى من هو أهل لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فالصحابة- رضي الله عنهم- كانوا يتوجهون بأسئلتهم إلى رسول الله ﷺ فيجيبهم بما يوحيه الله إليه، وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣، الأنبياء:٧].

٧- أن التحليل والتحريم إلى الله- عز وجل- وليس إلى العباد، حتى ولا إلى الرسول ﷺ إلا بوحي من الله- عز وجل- لقوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

وقد يأتي التحريم بالسنة كما قال ﷺ: «**يحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير**»(١)، وقال ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة**»(٢).

فهذا ونحوه كله من وحي الله أيضًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣- ٤].

فليس لأحد أن يحل أو يحرم من دون الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦].

٨- إباحة الطيبات؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وهي كل ما ينفع ولا يضر فكل ما أحله الله فهو طيب.

٩- أن الأصل في الأشياء الحل(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ فكل طيب فهو حلال، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٢٩)، ومسلم في الحج (١٣٦٠)، من حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه.

(٣) ما عدا العبادات فالأصل فيها المنع والتحريم حتى يرد دليل المشروعية قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» أخرجه أحمد (٦/ ١٤٦، ١٨٠)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨).

وفي لفظ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

١٠- تحريم الخبائث، وأن كل ما حرمه الله فهو خبيث؛ لمفهوم قوله: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كما قال تعالى في صفة النبي ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

١١- حل صيد الجوارح المعلمة إذا أمسكت لأهلها، وذكر اسم الله عليها عند إرسالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وعن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله، فقال: «**إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك**»، قلت: وإن قتلن؟ قال: «**وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره**». قلت له: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «**إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرضه، فإنه وقيذ فلا تأكله**» وفي رواية: «**فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه**»(١).

وفي رواية(٢): «**وإن غاب عنك يومًا فلم تجد فيه إلا أثر سهمك فكل إن شئت وإن وجدته غريقًا في الماء فلا تأكل**».

وعن أبي ثعلبة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال له: «**وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله فكل، وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله فكل، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٤٧٥، ٥٤٧٦)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٢٩)، وأبوداود في الصيد والذبائح (٢٨٤٧، ٢٨٤٨، ٢٨٥٠)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٦٣، ٤٢٦٤)، والترمذي في الصيد (١٤٧٠)، وابن ماجه في الذبائح والصيد (٣١٧٧، ٣٢٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٥٧، ٢٥٨). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠)

(٢) كما جاء عند مسلم وأبي داود وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٤٧٨)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٠)، والنسائي في الذبائح (٤٢٦٦)، وأبوداود في الصيد (٢٨٥٢)، والترمذي في الصيد (٤٦٤)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٧).

١٢- أن من شرط حل صيد الجوارح أن تكون معلمة تسترسل إذا أرسلت، وتنزجر إذا زجرت ولا تأكل إذا أمسكت؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾.

وفي حديث عدي رضي الله عنه: «**إذا أرسلت كلبك المعلم**» وفي حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه: «**وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل**».

١٣- أن من شرط حل صيد الجوارح أن تجرح الصيد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾، أي: التي تجرح الصيد وتكلبه بأنيابها وأظفارها ومخالبها، فإن مات بصدمه لم يحل؛ لأنه مات خنقًا وما مات خنقًا فهو حرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ [المائدة:٣].

وقوله ﷺ في حديث عدي لما سأله عن حكم الصيد بالمعراض: «**فإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله**».

فما جرح من الجوارح والسهام كالمعراض والبندق حل صيده، وما لم يجرح فلا يحل صيده؛ لأنه وقيذ.

واستدل لهذا بعموم قوله ﷺ في حديث رافع بن خديج رضي الله عنه: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه**»(١).

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم، منهم أبوحنيفة(٢) ومالك(٣) والشافعي في أحد قوليه(٤) وأحمد في المشهور عنه(٥).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه يحل صيد الجارح وإن مات بصدمه ولم يجرحه مستدلين بعموم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله ﷺ في حديث عدي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٤، ٣٠٨- ٣٠٩، ٣١٣- ٣١٤).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٨، ٤٩، ٧١).

(٤) انظر: «المهذب» (١/ ٦٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠).

(٥) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٦٤).

وأبي ثعلبة رضي الله عنهما: «**فكل ما أمسك عليك**»[١]، وممن ذهب إلى هذا الشافعي في قوله الآخر[٢]، وبعض المالكية[٣].

والصحيح القول الأول؛ لحديث عدي وغيره.

قال ابن كثير[٤]: «وهذا القول أشبه بالصواب والله أعلم لأنه أجرى على القواعد الأصولية، وأمس بالأصول الشرعية».

١٤- أن عموم الجوارح المعلمة يحل صيدها من السباع والطيور كالكلاب والفهود والنمور والصقور وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾؛ لأن «ما» موصولة تفيد العموم، أي: أحل لكم صيد الذي علمتم من الجوارح كلها.

وبهذا القول وهو حل صيد عموم الجوارح من السباع والطيور قال جمهور أهل العلم، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[٥]، ومنهم الأئمة الأربعة؛ أبوحنيفة[٦] ومالك[٧] والشافعي[٨]، وأحمد[٩] وغيرهم.

قال الطبري[١٠]: «لأن الله عمم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ كل جارحة، ولم يخصص منها شيئًا، فكل جارحة كانت بالصفة التي وصف الله من كل طائر وسبع فحلال أكل صيدها».

وقد استدل الطبري لهذا بما أخرجه هو[١١] والبيهقي[١٢] من طريق عيسى بن

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) انظر: «المهذب» (١/ ٢٦٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧١).

(٤) في «تفسيره» (٣/ ١٦- ١٨).

(٥) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٤٧- ٥٤٩).

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٣٩٠).

(٧) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٦- ٦٧).

(٨) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٩).

(٩) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٦٥).

(١٠) في «جامع البيان» (٩/ ٥٤٩- ٥٥٠).

(١١) في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٠) (١١١٥٦).

(١٢) في «سننه» (٩/ ٢٣٨)، والحديث في الصحيحين كما سبق تخريجه. وليس فيه ذكر «البازي» ولهذا قال =

يونس عن مجالد عن الشعبي عن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي، فقال: «**ما أمسك عليك فكل**».

وقال البغوي[١]: «عامة أهل العلم على أن المراد من الجوارح الكواسب من سباع البهائم كالفهد والنمر والكلب ومن سباع الطير كالبازي والعقاب والصقر ونحوها مما يقبل التعلم فيحل صيد جميعها».

وقال ابن كثير[٢]: «والمحكي عن الجمهور أن صيد الطيور كصيد الكلاب لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق».

وقيل: لا يحل إلا صيد الكلاب فقط دون ما عداها من السباع والطيور؛ لقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ على أن المعنى معلمين للكلاب فقط[٣].

والصحيح القول الأول[٤]، وليس في قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ تخصيص الحل بصيد الكلاب، لأن ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ على الأصح من أقوال المفسرين بمعنى: مهيجين ومضرين للجوارح على الصيد. والتكليب هو: شدة التهييج والإضراء للجارح على الصيد.

وحتى على قول من قال: معنى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلمين للكلاب، فليس معنى ذلك تخصيص الحل بصيدها، وإنما خصت بالذكر- مع حل صيد كل جارح- لأن أكثر الصيد عند العرب كان بها، وهي من أسرع الجوارح تعلمًا.

=

البيهقي: «إلا أن ذكر البازي في هذه الرواية لم يأت به الحفاظ الذين قدمنا ذكرهم عن الشعبي وإنما أتى به مجالد». قال شاكر في «تخريج الطبري»: ورواية عيسى بن يونس عن مجالد تعد من رواية القدماء عن مجالد قبل أن يتغير حفظه، وعيسى بن يونس ثقة ثبت فكأن أبا جعفر صحح هذا الحديث واحتج به لأنه رواية ثقة عن ثقة قبل تغيره».

(١) في «معالم التنزيل» (٢/ ١٢).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٢٩).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٤٩- ٥٥٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٩).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٢٥).

لكن خص بالتحريم صيد الكلب الأسود لما رواه أبوذر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود**» فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر، قال: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم نهى عن قتلها وقال: عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان**»(٢).

وبهذا قال الإمام أحمد(٣) وإسحاق بن راهويه(٤) لحديث أبي ذر وحديث جابر، وما في معناهما.

وذهب جمهور العلماء، ومنهم الأئمة الثلاثة وغيرهم إلى حل صيد الكلاب كلها الأسود منها وغيره(٥).

١٥- جواز اتخاذ الكلاب وغيرها من الجوارح للصيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**من اقتنى كلبًا إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان**»(٦).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتنى كلبًا ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينقص من أجره قيراطان كل يوم**»(٧).

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٥١١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٥٢).

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٧٢)، وأبوداود في الصيد (٢٨٤٦)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، وأحمد (٣/ ٣٣٣)، والبهيم: الأسود الخالص. انظر: «لسان العرب» مادة: «بهم».

(٣) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٦٧).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤).

(٥) انظر: «المبسوط» للسرخسي (١١/ ٢٤٢)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٧)، «البحر المحيط» (٣/ ٤٢٩).

(٦) أخرجه مسلم في الذبائح والصيد (٥٤٨٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٧٤)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٨٤).

(٧) أخرجه البخاري في المزارعة (٢٣٢٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٧٥)، وأبوداود في الصيد (٢٨٤٤)، والنسائي في الصيد (٤٢٨٩)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٩)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٤).

=

١٦- فضل العلم وأنه يرفع صاحبه فبتعليم الكلب جاز اقتناؤه وحل صيده، وكذا غيره من الجوارح وصار لها فضل على غير المعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

فبالعلم ارتفع الكلب على غيره من الكلاب، وارتفاع الإنسان بالعلم من باب أولى، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**»(١).

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «لكل شيء قيمة وقيمة المرء ما يحسنه»(٢).

١٧- تسخير الله تعالى لهذه الحيوانات بجعلها تنقاد وتقبل التعليم.

١٨- فضل الله على الإنسان حيث علمه ما لم يكن يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥].

١٩- أن الأمر قد يطلق ويراد به الإباحة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

٢٠- أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ليس مذمومًا، ولا من العبث، بل هو أمر مقصود لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

٢١- أنه ينبغي أخذ العلم من أهله؛ لقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

=

وإنما حرم اقتناء الكلاب لأذيتها ونجاستها، ولمنعها دخول الملائكة، كما قال جبريل: «إننا لا ندخل بيتًا فيه كلب أو صورة» أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٢٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) أخرجه أبوداود في العلم (٣٦٤١)، والترمذي في العلم (٢٦٨٢)، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وصححه الألباني.

(٢) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٤).

٢٢- أن من شرط حل صيد الجارح أن يمسك لصاحبه، لا لنفسه ليأكله فإن أمسك لنفسه وأكل منه فهو حرام لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: لكم، ويدل لهذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ فإن من معنى كون الجارح معلمًا أن يمسك لصاحبه ولا يأكل.

وعن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: إنَّا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال: «**إذا أرسلت كلابك المعلمة، وذكرت اسم الله عليها فكل ما أمسكن عليك، وإن قتلن، إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما حبسه على نفسه**»(١).

وإلى هذا القول بتحريم ما أكل منه الجارح ذهب أكثر أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم(٢) وإليه ذهب أبوحنيفة(٣) وأحمد(٤) والشافعي في المشهور عنه بل في أصح القولين عنه(٥)، وعبدالله بن المبارك(٦)، وإسحاق بن راهويه وأبوثور(٧)، وغيرهم، واختاره الطبري(٨).

وذهب طائفة من أهل العلم من الصحابة(٩) والتابعين(١٠) ومن بعدهم إلى أنه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٦٤، ٥٦٧- ٥٦٨) عن جمع من الصحابة والتابعين، وانظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٨٢)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٤- ٣٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨- ٣١).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٤- ٣١٥)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٩١).

(٤) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٦٣).

(٥) انظر: «الأم» (٦/ ١٩١)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٨١)، «سنن البيهقي» (٩/ ٢٣٥)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٢٦)، «معالم التنزيل» (٢/ ١٢)، «المجموع» للنووي (٩/ ٩٨- ١٠٠).

(٦) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١٢).

(٧) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٩).

(٨) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٦٤).

(٩) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٦٠- ٥٦٤) عن ابن عمر وسعد وسلمان وأبي هريرة- رضي الله عنهم- الآثار (١١١٨٧- ١١٢٠٨)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣١، ٣٣).

(١٠) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٥٨- ٥٥٩).

يؤكل صيد الجوارح من السباع والطيور وإن أكلت منه وإلى هذا ذهب مالك[١] والشافعي في قوله القديم[٢].

واستدلوا على هذا بقولهم: إن الآية عامة في حل كل ما أمسكن علينا سواء أكلن منه أو لم يأكلن[٣].

كما استدلوا بما رُوي عن أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «**إذا أرسلت كلبك، وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يداك**»[٤].

وذهب بعض العلماء إلى أن أحاديث النهي عن الأكل من الصيد إذا أكل منه الجارح محمولة على ما إذا أكل الجارح من الصيد بعد صيده مباشرة ولأول وهلة، لأن هذا يدل على أنه أمسك لنفسه، بخلاف ما إذا أكل بعد طول انتظار لصاحبه فلم يجئ فأكل منه لجوعه فإنه لا يحرم، وعلى هذا تحمل أحاديث إباحته وإن أكل منه كحديث أبي ثعلبة عند أبي داود وغيره[٥].

قال ابن كثير[٦]: «وهذا تفريق حسن وجمع بين الحديثين صحيح».

والصحيح القول الأول وهو عدم حل الصيد إذا أكل منه الجارح بدليل الآية وحديث عدي بن حاتم وحديث أبي ثعلبة الذي فيه النهي عن ذلك.

وأما ما احتج به أصحاب القول الثاني من القول بأن الآية عامة فيما أكل منه الجارح وما لم يأكل منه فإن هذا ليس بصحيح، فإن قوله في الآية: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٩- ٧٠).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨، ٣١).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٦٦- ٥٦٧).

(٤) أخرجه ابوداود في الصيد (٢٨٥٢). قال الألباني: «منكر» وأخرجه أيضًا من حديث عمرو بن شعيب أن أعرابيًا يقال له ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن كان لك كلاب مكلبة فكل مما أمسكن عليك**» قال: ذكيًا أو غير ذكي؟ **قال**: «**نعم**». قال: فإن أكل منه؟ قال: «**وإن أكل منه**». الحديث (٢٨٥٧). قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٨، ٣٢): «إسناده جيد». وقال الألباني: «حسن- لكن قوله: «**وإن أكل منه**» منكر».

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨، ٣٣).

(٦) في «تفسيره» (٣/ ٣٣).

يدل على أن الذي يحل أكله ما أمسكن علينا، أي: لنا دون ما أمسكنه ليأكلنه.

وأما حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه: «**فكل وإن أكل منه**» كما جاء عند أبي داود، فهو حديث منكر ضعيف عند الجمهور وعلى القول بجودة إسناده كما قال ابن كثير فإن حديث عدي مقدم عليه لموافقته لظاهر الآية، ولأنه مخرج في الصحيحين[١].

بل إن حديث أبي ثعلبة أيضًا مخرج في الصحيحين دون هذه الزيادة المنكرة.

ولأن حديث عدي فيه حظر وأما حديث أبي ثعلبة فهو مبيح وإذا اجتمع خبران حاظر ومبيح قدم الحاظر.

وقد استثنى كثير من العلماء القائلين بتحريم الصيد إذا أكل منه الجارحة صيد الطيور فقالوا: يحل وإن أكلت منه[٢] وعللوا ذلك بأنه لا يمكن تعليمها إلا بأكلها من الصيد ولا يمكن تعليمها بالضرب كالكلاب ونحوها[٣] وإلى هذا ذهب أبوحنيفة[٤] وأحمد[٥] والمزني من أصحاب الشافعي[٦].

٢٣- أن ما أمسكته الجوارح لصاحبها فهو حلال ولو غابت عنه قليلًا أو كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهذا مطلق لم يقيد بزمن، وفي حديث عدي رضي الله عنه: «**فإن غاب عنك يومًا فلم تجد فيه إلا أثر سهمك فكل إن شئت وإن وجدته غريقًا في الماء فلا تأكل**»[٧].

وفي حديث أبي ثعلبة عن النبي ﷺ قال: «**إذا رميت بسهمك فغاب عنك**

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨).

فإن شرب الجارح دم الصيد لم يحرم؛ لأن الممنوع إذا أكل منه، وقيل: يحرم، وقيل: يكره. انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧)».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٧- ٥٥٨)- عن ابن عباس وجمع من التابعين.

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٩- ٧٠).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٥)، «مدارك التنزيل» (١/ ٣٩١).

(٥) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٦٦).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨).

(٧) سبق تخريجه.

فأدركته فكله ما لم ينتن»[١] وفي رواية[٢]: «**ولم يأكل منه**»[٣].

وذهب بعض العلماء إلى أنه إذا غاب فلا يؤكل صيده مخافة أن يكون قد أعان على قتله غير سهمك[٤].

واستدلوا بما روي: «**كل ما أصميت ودع ما أنميت**»[٥]. والإصماء: ما قتل مسرعًا وأنت تراه، والإنماء أن ترمي الصيد فيغيب عنك فيموت وأنت لا تراه[٦].

وقيل: بالتفريق بين السهم فيؤكل صيده، وإن غاب دون الكلب فلا يؤكل[٧] ولا دليل على هذا التفريق.

٢٤- أن المشقة تجلب التيسير؛ لأنه لما كان قد يشق على الإنسان أن يصطاد بنفسه كل وقت وحين رخص له أن يصيد بجارحة رحمة من الله لعباده وتيسيرًا عليهم وتوسعة لهم في أسباب الرزق.

٢٥- أنه لا يجب غسل ما أصاب الصيد من لعاب الكلب؛ لأن الله لم يأمر بذلك ولم يأمر به رسوله ﷺ بينما أمر ﷺ بغسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب فقال ﷺ: «**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا، إحداهن بالتراب، أو الثامنة بالتراب**»[٨].

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم الإمام أحمد في رواية عنه، واستظهره

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٣١)، وأبوداود في الصيد (٢٨٦١)، والنسائي في الصيد (٤٠١٤)، والترمذي في الصيد (١٤٦٤)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٧).

(٢) أخرجها النسائي في الصيد (٤٠١٣) وصححه الألباني.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٢٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٥٠).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٥٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧١- ٧٢).

(٥) ذكره ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ١٣٦)، من حديث ابن عباس. ورواه البيهقي موقوفًا من وجهين. قال ابن حجر: «وروي مرفوعًا وسنده ضعيف، فيه عبدالرحمن الوقاص وهو ضعيف، ورواه أبونعيم في المعرفة من حديث عمرو بن تميم عن أبيه عن جده مرفوعًا. وفيه محمد بن سليمان بن شمول، وقد ضعفوه. وقال الربيع: قال الشافعي: ما أصميت: ما قتلته الكلاب وأنت تراه، وما أنميت: ما غاب عنك مقتله».

(٦) انظر: «النهاية» مادة: «صما» ومادة: «نما».

(٧) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧١- ٧٢).

(٨) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٧٩)، وأبوداود في الطهارة (٧٣)، والنسائي في المياه (٣٣٥)، والترمذي في الطهارة (٩١)، وابن ماجه في «الطهارة وسننه» (٣٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شيخ الإسلام ابن تيمية[١].

قال ابن تيمية: «فقد عفي عن لعاب الكلب في موضع الحاجة وأمر بغسله في غير موضع الحاجة، فدل على أن الشرع راعى مصلحة الخلق وحاجتهم».

٢٦- وجوب ذكر اسم الله عند إرسال الجارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ ولقوله ﷺ في حديث عدي وحديث أبي ثعلبة رضي الله عنهما: «**إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل**»[٢].

وفي حديث عدي رضي الله عنه: «**إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فقتل فكل، فإن خالط كلبك كلاب أخر فلا تأكل، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره**»[٣].

كما استُدل لهذا أيضًا بالأدلة الدالة على وجوب التسمية من الكتاب والسنة والتي سبق ذكرها.

وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم منهم الإمام أحمد في المشهور عنه[٤] والظاهرية[٥]. واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية[٦].

وذهب جمهور أهل العلم[٧] إلى أن التسمية على الصيد واجبة عند الذكر ساقطة

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٦٢٠).

وقد اختلف أهل العلم في طهارة الكلب فذهب طائفة إلى أنه نجس كله حتى شعره وبهذا قال الشافعي وأحمد في رواية عنه، وذهب مالك في المشهور عنه إلى أنه كله طاهر، وذهب أبوحنيفة في المشهور عنه وأحمد في الرواية الثانية عنه إلى أن شعره طاهر، وريقه نجس لحديث: «**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم**» الحديث. قال ابن تيمية: «وهذا أرجح الأقوال». انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٦١٦- ٦١٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه. وهذا يدل على أنه إذا اشترك الحاظر والمبيح كأن يجرح الصيد ويسقط في الماء ونحو ذلك فإنه لايحل لعدم معرفة أي السببين قتله تغليبًا لجانب الحاظر. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٠٤- ٣٠٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٤).

(٤) انظر: «المغني» (١٣/ ٢٥٨- ٢٥٩، ٢٧٣- ٢٧٤، ٢٨٩- ٢٩٠).

(٥) انظر: «المحلى» (٧/ ٤١٢).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٩).

(٧) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٨، ٧/ ٧٥).

عند النسيان، فإن تعمد تركها لم يحل أكله وإن تركها نسيانًا جاز أكله.

أخرج الطبري[١] من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ قال: «إذا أرسلت جوارحك فقل: «بسم الله» وإن نسيت فلا حرج».

وإلى هذا ذهب أبوحنيفة[٢] ومالك في المشهور عنه[٣] والشافعي في أحد قوليه[٤] واستدلوا على الوجوب بالأدلة السابقة، واستدلوا على سقوط التسمية عند السهو والنسيان بعموم قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي الحديث: «**قال الله قد فعلت**»[٥].

وبعموم قوله ﷺ: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٦].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن التسمية مستحبة فيؤكل ما تركت التسمية عليه سهوًا أو عمدًا، وإلى هذا ذهب الشافعي في أحد قوليه[٧]. وبعض المالكية[٨].

والصحيح القول الأول وهو وجوب التسمية عند إرسال الجارح وأن ما تركت التسمية عليه عمدًا أو سهوًا فهو حرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ وقوله ﷺ في حديث عدي وأبي ثعلبة رضي الله عنهما: «**وذكرت اسم الله عليه**».

وقوله في حديث عدي رضي الله عنه: «**فإن خالط كلبك كلاب أخر فلا تأكل فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره**»[٩].

وأما ما استدل به أصحاب القول الثاني على سقوط التسمية عند السهو بقوله

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ٥٧١)- الأثر (١١٢١٨).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٠- ٣١٩).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٨، ٧/ ٧٥).

(٤) انظر: «المهذب» (١/ ٢٥٩).

(٥) أخرجه مسلم في الأيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٧) انظر: «المهذب» (١/ ٢٥٩).

(٨) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٧- ٦٨).

(٩) سبق تخريجها.

تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وقوله: «**قد فعلت**» وكذا حديث: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان**» الحديث. وما في معناه فإن هذه النصوص غاية ما فيها ارتفاع الإثم عن المخطئ والناسي فمن اصطاد وسها عن ذكر اسم الله فهو معذور، لا إثم عليه، ولكن لا دلالة فيها على حل ما تركت التسمية عليه سهوًا أو نسيانًا، أما من ترك التسمية عمدًا فصيده حرام وهو آثم[1] لما في ذلك من مخالفة أمر الله وإضاعة المال بدون فائدة.

وأما القول بأن التسمية مستحبة فهو ضعيف لضعف أدلته ومخالفته الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة.

٢٧- أنه يشترط أن ينوي الصيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ولقوله ﷺ: «**إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل**». فإرسال الكلب وذكر اسم الله عليه يستلزم نية الصيد فإذا استرسل الكلب بنفسه، أو لم يقصد الشخص الصيد أو التذكية. وإنما قصد اللهو بإرسال الجارح، أو بالذبح فهذا يحرم ولا يجوز؛ لأنه من باب الإفساد وإتلاف الحيوان بغير منفعة، وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الحيوان إلا لمأكله[2].

٢٨- بركة ذكر اسم الله- عز وجل- وأثر ذلك في حل الصيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

فقول المؤمن: «بسم الله» عند الذبح، أو عند الصيد، أو عند أي أمر من أموره،

---

(١) وهكذا لو أكل شخص من هذا الصيد أو الذبيحة الحرام وهو ناسٍ فلا إثم عليه، ولو أكل منه متعمدًا فهو آثم ما لم يضطر إلى ذلك.

(٢) كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**من ذبح عصفورًا، أو قتله في غير شيء، أو بغير حقه، سأل الله عنه يوم القيامة**» قيل: يا رسول الله، وماحقه؟ قال: «**يذبحه ويأكله، ولا يقطع رأسه فيرمي به**». أخرجه أحمد (٢/ ١٦٦). قال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» (٦٥٥٠، ٦٥٥١)، وأخرجه الطيالسي (٢٢٧٩)، والنسائي في «الصيد والضحايا» (٤٣٤٩، ٤٤٤٥، ٤٤٤٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٣)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.وأخرجه أيضًا البيهقي (٩/ ٢٧٩)، وقد ضعف هذا الحديث الألباني.

معناه: التبرك بالبداءة باسم الله، والاستعانة على ذلك كله.

٢٩- وجوب تقوى الله بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٣٠- أن من تقوى الله الأكل مما أحله الله واجتناب الأكل مما حرمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنه- عز وجل- بعدما ذكر إحلال الطيبات وما أمسكته الجوارح أمر بتقواه.

٣١- إثبات الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٣٢- أن الله- عز وجل- سريع الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فأجله آت وكل آت قريب وحسابه سريع، لأن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير والموت منه قريب، ومن مات فهو في قبره إما منعم وإما معذب.

كما أنه- عز وجل- يحاسب الخلائق ويفصل بينهم في أسرع وقت فلا يحتاج إلى طويل وقت لحسابهم، بل قيل: حسابه لهم في نصف يوم بدليل قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]. فهم يحاسبون أول النهار ويقيلون في آخره في الجنة.

٣٣- إثبات الصفات الفعلية لله- عز وجل؛ لأن سرعة الحساب من الصفات الفعلية، ولأن المحاسبة تتعلق بالمشية(١).

٣٤- أن الذي يحل صيده هو المسلم؛ لأن الآية من أولها إلى آخرها مع المسلمين، ومثله الكتابي بدليل قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥]، فإن كان الجارح لمجوسيّ أو وثنيّ وصاد به مسلم حل صيده عند أكثر أهل العلم(٢).

* * *

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسير سورة المائدة» (١/ ٦٥).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣١٠، ٣١٩).

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة أنه أحل لعباده الطيبات، ومن ذلك صيد الجوارح، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ الآية؛ تأكيدًا لحل الطيبات وامتنانًا منه- عز وجل- بإحلالها لهم ومن ذلك طعام أهل الكتاب والمحصنات من نسائهم.

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في الأصل هو القطعة من الزمن من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويحتمل أن المراد باليوم هنا ما سوى الزمان الماضي، أي: من هذا الزمن والأوان أحل لكم الطيبات، أو من هذا العهد أي عهد محمد ﷺ أحل لكم الطيبات كما قال تعالى في وصفه ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ويحتمل أن المراد به يوم معين وهو يوم نزول الآية، وهو اليوم الذي نزل فيه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣][1] يوم عرفة يوم الجمعة في حجة الوداع. وكرره للتوكيد والامتنان.

﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾، ﴿أُحِلَّ﴾ مبنيّ لما لم يسم فاعله؛ لأن الفاعل معلوم وهو الله- عز وجل- الذي له التحليل والتحريم.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ جمع طيبة وهي كل ما فيه منفعة أو لذة، من غير ضرر لا بالبدن ولا بالعقل من الأطعمة والأشربة وغيرها، وكل ما أحله الله فهو طيب، وضدها الخبائث، وكل ما حرمه الله مما يضر بالبدن والعقل فهو خبيث.

وكرر عز وجل ذكر إحلال الطيبات توكيدًا وامتنانًا على عباده وليستغنوا بها عن المحرمات، وليعطف عليها ما ذكر في هذه الآية من حل طعام أهل الكتاب ونسائهم.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٢٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٥١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٥).

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾: الطعام اسم لما يطعم ويؤكل، وقد يطلق على ما يشرب كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٤٩].

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صلة له، أي: الذين أعطوا الكتاب، والفعل «آتى» ينصب مفعولين، الأول: الواو الثانية فهي ضمير جمع مبني على السكون في محل رفع نائب فاعل، و«الكتاب» مفعول ثانٍ.

و ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود والنصارى، اليهود أوتوا التوراة على لسان موسى بن عمران عليه السلام، والنصارى أوتوا الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم- عليه السلام.

والمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم، فإضافة الطعام إليهم يقتضي أنه صار طعامًا بفعلهم وهذا إنما هو في الذبائح التي صارت لحمًا بذكاتهم (١).

وليس المراد به كل ما يطعمونه مما ليس له ذكاة كالحبوب والثمار والفواكه أو مما لا يشترط له ذكاة كالسمك ونحوه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال: «ذبائحهم» (٢).

أي: وذبائح أهل الكتاب حل لكم أكلها، وبهذا قال جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو الصحيح إذ لا شبهة في سائر طعامهم.

وإنما خص الله ذبائح أهل الكتاب دون غيرهم؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ويذكرون اسم الله على ذبائحهم (٣).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢١٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٧٨)- الأثر (١١٢٤٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦).

قال الطبري[١]: «وذبائح أهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم الذين أوتوا التوراة والإنجيل وأنزل عليهم فدانوا بهما أو بأحدهما ﴿حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يقول: حلال لكم أكله دون ذبائح سائر أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وعبدة الأوثان والأصنام».

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، أي: وذبائحكم أيها المؤمنون حلال لهم الأكل منها وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، أي: هذا بهذا.

فما ذبحه أهل الكتاب فهو حل للمؤمنين وما ذبحه المؤمنون فهو حل لأهل الكتاب[٢].

أما ما عدا ذلك من الأطعمة مما لا يتوقف حله على فعل آدمي فهو حلال للجميع وليس مرادًا في الآية.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

لما ذكر تعالى الحلال من شهوة الطعام ذكر بعده الحلال من شهوة الفرج فقال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ الواو عاطفة، والمحصنات معطوفة على ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾، أي: وأحل لكم المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم[٣].

قرأ الكسائي: «المحصِنات» بكسر الصاد في الموضعين على أنها اسم فاعل، وقرأها بقية العشرة بفتح الصاد على أنها اسم مفعول ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾[٤].

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ٥٧٢- ٥٧٣).

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٨)- بعد أن بين أن هذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة قال: «كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبدالله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه، قال: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك. وأما الحديث الذي فيه: «لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي» فمحمول على الندب والاستحباب.

وهذا الحديث الذي أشار إليه ابن كثير أخرجه أحمد (٣/ ٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) ويجوز أن يكون «والمحصنات» مبتدأ، وخبره محذوف دل عليه ما قبله، أي: والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حل لكم.

(٤) انظر: «العنوان» ص(٨٧).

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: جمع محصنة، والإحصان في اللغة المنع؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾[الأنبياء: ٨٠]؛ أي: لتمنعكم من بأسكم.

ومنه سمي «الحصن» حصنًا لأنه يتحصن به ويمتنع من العدو، وسمي «الحصان» حصانًا؛ لأن صاحبه يركبه ويمتنع به من العدو.

والحَصَان بفتح الحاء والصاد المرأة العفيفة قال حسان بن ثابت(١)- رضي الله عنه- يمدح عائشة- رضي الله عنها:

حَصَان رزان ما تُزَنُّ بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

والإحصان يطلق في القرآن الكريم ويراد به العفة عن الزنا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم:١٢] أي: حفظته وصانته وتعففت.

ويطلق ويراد به التزوج كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

ويطلق ويراد به الحرية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: من اللاتي آمن وانقدن للدين ظاهرًا وباطنًا، والمراد بالمحصنات من المؤمنات هنا الحرائر من المؤمنات فيخرج بهذا الإماء المؤمنات، لأن الزواج بهن لا يباح إلا بشروط.

ويحتمل أن يكون المراد بالمحصنات من المؤمنات: العفيفات(٢) فيخرج بهذا الزانيات المسافحات، لأن الزواج بالزانية لا يجوز حتى تتوب، لكن يقوي القول بأن

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٢٢٩)، وقوله رزان: أي ذات ثبات ووقار وسكون، ما تُزن بريبة، أي: ما تتهم بريبة، وتصبح غرثى، أي: جائعة، من لحوم الغوافل، أي: أنها تصبح جائعة من لحوم النساء الغوافل؛ لأنها لا تتكلم فيهن، وانظر: «النهاية» مادة: «رزن» و«زنن» و«غرث». «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٢٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٨١، ٥٨٧).

المراد بالمحصنات من المؤمنات «الحرائر» أن الأمة المؤمنة مع كونها عفيفة لا تباح إلا بشروط بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء:٢٥].

ويمكن حمل المحصنات المؤمنات على الحرائر والعفائف(١).

وإنما ذكر الله المحصنات من المؤمنات توطئة وتمهيدًا لذكر المحصنات من أهل الكتاب.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: وأحل لكم الحرائر من الذين أوتوا الكتاب(٢).

ويحتمل أن المراد بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب العفائف من أهل الكتاب وقد رجح هذا ابن القيم(٣) وابن كثير، قال ابن كثير في «تفسيره»(٤): «وهو قول الجمهور ههنا، وهو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية، والظاهر من هذه الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا كما قال في الآية الأخرى ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:١٢٥]».

ويقوي أن المراد بالمحصنات من أهل الكتاب الحرائر، قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ والمهر إنما يؤتى الحرة أما الأمة فمهرها لسيدها. وأيضًا فإن الله لم يبح من الإماء إلا المؤمنات بدليل قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

ويمكن حمل المحصنات من أهل الكتاب على الحرائر العفائف(٥).

وعلى القول بأن المراد بالمحصنات في الموضعين هنا: «الحرائر من المؤمنات،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٨)، «تفسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٤٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٨١- ٥٨٧)، «العدة في أصول الفقه» (٥/ ١٤٢٥).

(٣) انظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٣٠٢).

(٤) (٣/ ٣٨).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٨).

والحرائر من أهل الكتاب»، فإن العفة مشروطة في المؤمنة وفي الكتابية من باب أولى، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «ولفظ المحصنات» إن أريد به الحرائر فالعفة داخلة في الإحصان بطريق الأولى فإن أصل المحصنة هي العفيفة التي أحصن فرجها، قال الله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم:١٢].

إلى أن قال: ثم عادة العرب أن الحرة عندهم لا تعرف بالزنا، وإنما تعرف بالزنا الإماء، ولهذا لما بايع النبي ﷺ هند امرأة أبي سفيان على ألا تزني، قالت: «أوتزني الحرة؟»(٢) فصار في عرف العامة أن الحرة هي العفيفة، وصار لفظ الإحصان يتناول الحرية مع العفة؛ لأن الإماء لمن تكنَّ عفائف».

والمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهود والنصارى ومن دان دينهم.

﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ قيد لبيان الواقع لا يدل على أن هناك من أوتي الكتاب بعدنا إذ لا نبي بعد محمد ﷺ ولا كتاب بعد القرآن.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إذا ظرفية شرطية، ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: أعطيتموهن، وهو ينصب مفعولين الأول: الضمير «هن» والثاني: «أجورهن».

﴿أُجُورَهُنَّ﴾ جمع أجر، والأجر ما يؤخذ في مقابلة عوض، والمراد بالأجر هنا المهر وسمى المهر أجرًا لأنه في مقابل منفعة البضع، أي: إذا أعطيتموهن مهورهن.

والمعنى: وأحل لكم المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب بشرط إعطائهن مهورهن.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، ﴿مُحْصِنِينَ﴾: جمع محصن، و ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾ جمع مسافح وكل منهما اسم فاعل وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ حالان من الواو في قوله:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٢١- ١٢٢).

(٢) أخرجه ابن سعد مرسلًا في «الطبقات» (٨/ ٩) بإسناد صحيح، وأخرجه أبويعلى في «مسنده» (٨/ ١٩٤). وانظر: «تلخيص الحبير» (٤/ ٥٩).

﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾، أي: حال كونكم ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وقد تكون ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ صفة لـ﴿مُحْصِنِينَ﴾.

ومعنى ﴿مُحْصِنِينَ﴾، أي: طالبين تحصين فروجكم وفروج زوجاتكم وإعفافها بالنكاح الشرعي الحلال.

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، أي: غير مجاهرين بالزنا ومعلنين به مع كل فاجرة.

﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا جاعلي أخدان: و﴿أَخْدَانٍ﴾ جمع خدن، والخدن: هو الصديق والعشيق للزنا في السر[1] من رجل أو امرأة.

ولهذا قال هنا: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾، أي: صديقات، وقال في آية النساء: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، أي: أصدقاء. فالمسافح من يزني بأي امرأة، ومتخذ الخدن من يتخذ امرأة واحدة يزني بها.

والمعنى: حال كونكم محصنين أي: متعففين بالزواج الشرعي الحلال غير مجاهرين بالزنا ولا مسرين به.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ تنكحوهن بالمهر والبينة، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ متعالنين بالزنا، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ يعني يسرون بالزنا»[2].

وهذه الآية في شرط العفة وطلب النكاح الشرعي في حق الرجال كما شرط عز وجل ذلك في حق النساء في قوله في سورة النساء: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥] فهذه كهذه إلا أن آية النساء في حق النساء وآية المائدة في حق الرجال.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

بعدما ذكر الله- عز وجل- إباحة طعام أهل الكتاب ونسائهم من بين أهل الملل، أتبع ذلك ببيان أنه وإن حصلت لهم هذه الخصوصية إلا أن ذلك لا ينفعهم في الآخرة

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٩٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٩).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٩١)- الأثر (١١٢٨٧).

ما لم يؤمنوا، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الواو استئنافية و«من» شرطية، و﴿يَكْفُرْ﴾ فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه السكون.

والكفر في اللغة الستر والتغطية والجحود، وهو ضد الإيمان الذي هو التصديق والإقرار والانقياد والإذعان.

ومعنى قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، أي: ومن يجحد ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، والإيمان بكل ما أوجب الله الإيمان به، وبشرائع الإسلام، وتكاليفه وشعائره، الظاهرة والباطنة.

ويحتمل أن يكون المراد بالكفر بالإيمان هنا- الكفر بما يقتضيه الإيمان- من إحلال ما أحل الله وتحريم ما حرم؛ لأن السياق في ذكر الحلال والحرام.

﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ جملة جواب الشرط وقرن بالفاء لوجود «قد.

والمعنى: فقد بطل عمله وذهب هباءً فلا يثاب عليه، و«عمل» مفرد مضاف فيشمل كل أعماله؛ لأن الكفر والردة إذا مات عليها العبد من غير توبة تحبط جميع الأعمال. قال تعالى في الكفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا وعيد لمن كفر بالإيمان وخالف أحكام الله، والضمير في قوله: ﴿وَهُوَ﴾ يرجع لمن كفر بالإيمان.

﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: في الدار الآخرة، وسميت الآخرة لأنها متأخرة بعد دار الدنيا فهي آخر الدور، وآخر المنازل.

﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: جمع خاسر، وهم الذين فاتهم الربح، بل خسروا رأس المال فخسروا أنفسهم وأهليهم وحياتهم، خسروا الدنيا والآخرة وفاتهم النعيم والثواب واستحقوا العقوبة والعذاب، وإنما ذكر خسرانهم في الآخرة فقط؛ لأن ظهور الخسران إنما يكون في الآخرة يوم التغابن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر:١٥].

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله على عباده المؤمنين بإحلال الطيبات كلها لهم في هذا الشرع المطهر وتحريم الخبائث؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾.

كما قال الله- عز وجل- في وصف النبي ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فكل ما أحله الله فهو وطيب، وكل ما حرمه الله فهو خبيث وفي هذا إشارة إلى أن الأصل في الأشياء الحل.

٢- أن التحليل والتحريم إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ الآية.

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل:١١٦].

٣- أن ذبائح اليهود والنصارى حلال للمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾، أي: ذبائحهم حل لكم.

وعموم الآية وإطلاقها يدل على أنه لا فرق بين أن يكونوا التزموا بشرائعهم أو بدلوا فيها وحرفوا، بل إن الله ذكر في هذه السورة التي أحل فيها ذبائحهم أنهم حرفوا وبدلوا، وقالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم(١) وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة(٢).

ويدل على ذلك أيضًا ما ثبت في الحديث: «أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مَصْلِيَّة، وقد سموا ذراعها، وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهش منه، فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه، وأثَّر ذلك السم في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أبهره(٣)

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧، ٧٢].

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣].

(٣) الأبهر: وريد في العنق إذا انقطع هلك الإنسان. قال ﷺ في مرض موته: «**مازالت أكلة خيبر تعاودني وهذا أوان انقطاع أبهري**» أخرجه أبوداود في الديات (٤٥١٠)، والدارمي في المقدمة (٦٧)، من حديث جابر بن عبدالله وضعَّفه الألباني.

وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب فقتلت ببشر بن البراء»(١).

وعن عبدالله بن مغفل- رضي الله عنه- قال: «أصبت جرابًا من شحم يوم خيبر، قال: فالتزمته، فقلت: لا أعطي اليوم أحدًا من هذا شيئًا، قال: فالتفت فإذا رسول الله ﷺ متبسمًا»(٢).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير وإهالة سنخة(٣)»(٤).

ولما فتح الصحابة- رضوان الله عليهم- الشام والعراق ومصر كانوا يأكلون من ذبائح أهل الكتاب اليهود والنصارى، وقد استفاض هذا عنهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٥): «ليس لأحد أن ينكر على أحد أكل من ذبيحة اليهود والنصارى في هذا الزمان، ولا يحرم ذبحهم للمسلمين، ومن أنكر ذلك فهو جاهل مخطئ مخالف لإجماع المسلمين، والقول بتحريم ذلك في هذا الزمان وقبله قول ضعيف جدًّا مخالف لما علم من سنة رسول الله ﷺ ولما علم من حال أصحابه والتابعين لهم بإحسان».

وقال ابن كثير(٦): «وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين(٧)؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦١٧)، ومسلم في السلام (٢١٩٠)، وأبوداود في الديات (٤٥٠٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه أيضًا البخاري في الهبة معلقًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه عنه موصولًا: أحمد (٢/ ٤٥١)، وأبوداود في الديات (٤٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الخمس (٣١٥٣)، ومسلم في الجهاد (١٧٧٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٧٠٢)، والنسائي في الضحايا (٤٤٣٥).

(٣) الإهالة السنخة: هي الدهن والشحم المتغير الرائحة.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٣، ١٨٠).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢١٢- ٢١٣).

(٦) في «تفسيره» (٣/ ٣٦، ٣٧).

(٧) خالف إجماع المسلمين الرافضة، فذهبوا إلى تحريم ذبائح أهل الكتاب، وقولهم مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة، فلا يعتد به. انظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٩٠- ١٩١).

إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عن قولهم- تعالى وتقدس».
وسواء كانوا حربيين أو معاهدين لعموم ظاهر الآية[١].
وهذا التحليل لذبائح أهل الكتاب عام لكل ما يحل للمسلمين أكله سواء كان مما يأكله اليهود أو مما يعتقدون حرمته كالشحوم ونحوها لعموم الآية ودلالة الأحاديث السابقة على حل الشحم.
وبهذا قال جمهور أهل العلم منهم الحنفية والشافعية والحنابلة.
وذهب المالكية إلى أنه لا يحل من طعامهم إلا ما كانوا يعتقدون حله مستدلين بقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قالوا: فليس الشحم ونحوه من طعامهم[٢].
وهكذا حكم من دان دينهم من أي أجناس الأمم فهذا الذي يدل عليه عموم الآية والأحاديث السابقة؛ لأن مَن دان دينهم فهو منهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة:٥١]، وعلى هذا جمهور المفسرين والفقهاء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[٣].
وذهب بعض أهل العلم منهم الإمام الشافعي[٤] وبعض أصحاب الإمام أحمد[٥] إلى أن المراد بأهل الكتاب، اليهود والنصارى، الذين أنزلت عليهم التوراة والإنجيل من بني إسرائيل وأبنائهم دون مَن دخل في دينهم ممن ليس منهم فلا تحل ذبيحته كنصارى بني تغلب واحتجوا بما روي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب، فإنهم إنما تمسكوا من النصرانية

---

(١) انظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٩١).
(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٩)، «المهذب» (١/ ٢٥٨)، «المغني» (١٣/ ٢٩٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٧)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٩٦- ٢٠٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦)، «البناية شرح الهداية» (١١/ ٥٢٩).
(٣) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٧٣- ٥٧٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٢٢- ٣٢٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٥٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٨)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢١٩- ٢٢٠)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٩٠- ١٩١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧).
(٤) انظر: «الأم» (٢/ ١٩٦)، و«المهذب» (١/ ٢٥٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧).
(٥) انظر: «المغني»، (١٣/ ٢٩٤)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢١٩)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ١٩٠- ١٩١).

بشرب الخمر»(١).

والصحيح القول الأول وهو الذي تؤيده الأدلة، قال ابن عباس- رضي الله عنهما- بعد أن ذكر الآية ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ قال: «فلو لم يكن بنو تغلب من النصارى إلا بتوليهم إياهم لأكلت ذبائحهم»(٢).

قال الحسن البصري رضي الله عنه: «ما علمت أحدًا من أصحاب النبي ﷺ حرّم ذبائح بني تغلب إلا علي بن أبي طالب- رضي الله عنه»(٣).

وقال الطبري(٤) بعدما ذكر ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «وهذه الأخبار عن علي رضوان الله عليه إنما تدل على أنه كان ينهى عن ذبائح نصارى بني تغلب من أجل أنهم ليسوا على النصرانية لتركهم تحليل ما تحلل النصارى، وتحريم ما تحرم غير الخمر، ومن كان منتحلًا ملة هو غير متمسك منها بشيء فهو إلى البراءة منها أقرب منه إلى اللحاق بها وبأهلها، فلذلك نهى عن أكل ذبائح نصارى بني تغلب لا من أجل أنهم ليسوا من بني إسرائيل، وإذا كان ذلك كذلك وكان إجماعًا من الحجة أن لا بأس بذبيحة كل نصراني ويهودي دان دين النصراني أو اليهودي فأحل ما أحلوا وحرم ما حرموا من بني إسرائيل وغيرهم فتبين خطأ ما قال الشافعي في ذلك وتأويله الذي تأوله في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أنه ذبائح الذين أوتوا الكتاب، التوراة والإنجيل من بني إسرائيل، وصواب ما خالف تأويله ذلك، وقول من قال إن كل يهودي ونصراني فحلال ذبيحته من أي أجناس بني آدم كان».

وهكذا صيدهم حلال للمسلمين لأنهم يذكرون اسم الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» (٢/ ٢٣٢)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٦/ ٧٣)، والطبري (٥/ ٥٧٥)- الأثر (١١٢٣٠- ١١٢٣٤)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٤٥)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ٢١٧، ٢٨٤) وأشار إليه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٩/ ٥٤٩) وقال: «أخرجه الشافعي وعبدالرزاق بأسانيد صحيحة».

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» كتاب أهل الكتاب (٦/ ٧٣)- الأثر (١٠٠٣٧)، والطبري (٩/ ٥٧٣)- الأثر (١١٢٢٠- ١١٢٢١، ١١٢٢٨)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ٢١٧)، وانظر: «الأم» (٢/ ٢٣٢).

(٣) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٤٤)- الأثر (٤١٢).

(٤) في «جامع البيان» (٩/ ٥٧٦- ٥٧٧)، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٤٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٢٣)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٢٠- ٢٣٢).

أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾.

قال ابن العربي(١): «قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ دليل قاطع على أن- الصيد وطعام أهل الكتاب من الطيبات التي أباحها الله- عز وجل- وهو الحلال المطلق».

وجمهور العلماء على هذا أن صيد أهل الكتاب حلال لنا عدا مالك فإنه قال: «لا يحل صيدهم»(٢).

لكن ما ذكر عليه أهل الكتاب اسم غير الله، أو تركوا التسمية عليه عمدًا أو قتلوه خنقًا ونحو ذلك فلا يحل، لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [المائدة:٣، النحل:١١٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾ [المائدة:٣].

وقوله ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا**»(٣).

وقال طائفة من العلماء: تؤكل ذبائح أهل الكتاب وإن ذكروا عليها اسم غير الله كالمسيح وعزيز وغيرهم لعموم الآية.

والصحيح أن ذلك لا يحل فكما أن المسلم إذا ذكر غير اسم الله على الذبيحة، أو ترك التسمية عليها عمدًا لا تحل ذبيحته فالكتابي من باب أولى.

قال ابن كثير(٤): «فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة ما لم يذكر اسم الله عليه؛ لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم، وهم متعبدون بذلك، ولهذا لم

---

(١) في «أحكام القرآن» (٢/ ٥٥٦).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٢، ٣٠١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في «تفسيره» (٣/ ٣٧).

يبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم؛ لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة»(١).

٤- أن من عدا اليهود والنصارى من الكفرة؛ من المجوس والمشركين والملحدين لا تحل ذبائحهم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم، بل يذكرون أسماء معبوداتهم.

وقد اتفق الصحابة على هذا وأنكر الإمام أحمد وغيره على أبي ثور طرده القياس وإفتاءه بحل ذبائح المجوس وجواز مناكحتهم(٢).

قال النحاس(٣): «فأما المجوس فالعلماء مجمعون إلا من شذّ منهم على أن ذبائحهم لا تؤكل ولا يتزوج منهم، لأنهم ليسوا أهل كتاب، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في كتابه إلى كسرى فلم يخاطبهم بأنهم أهل كتاب».

٥- حل ذبائح المسلمين وطعامهم لأهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

٦- سموا آداب الإسلام فحيث أباح للمسلمين ذبائح أهل الكتاب وطعامهم أباح لأهل الكتاب ذبائح المسلمين وطعامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

٧- الإشارة إلى جواز المهاداة بين المسلمين وأهل الكتاب؛ لأن الله أباح لكل منهما طعام الآخر وقد قبل النبي ﷺ هدية أهل خيبر(٤).

٨- أن من حسن التعبير القرآني وبلاغته التوطئة والتمهيد للأشياء؛ لقوله تعالى:

---

(١) أما ما لا يحتاج إلى ذكاة من أطعمة أهل الكتاب فهو حلال للمسلمين إلا ما كان محرمًا على المسلمين كالخمر ونحوه كما يباح استعمال آنيتهم إذا لم يوجد غيرها بعد غسلها لحديث أبي ثعلبة أنه قال: «إنا بأرض قوم من أهل الكتاب فهل نأكل في آنيتهم؟ فقال: إن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها فإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها». أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٤٧٨)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٠)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٣٩)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٦٦)، والترمذي في الصيد (١٤٦٤)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٧).

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (١/ ٢٦٣)، «الأم» (٤/ ١٧٣، ٥/ ٧)، «الإيضاح» لمكي (ص٢٢٦)، «التمهيد» (٢/ ١١٦)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧).

(٣) انظر: «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٤٥- ٢٤٩).

(٤) كما في الحديث: «**أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مصلية**» وقد سبق تخريجه.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فهذا توطئة وتمهيد لذكر المحصنات من أهل الكتاب والشيء بالشيء يذكر، وإلا فإن حل نكاح الحرائر العفائف من المؤمنات أمر معلوم من ذي قبل، بل ربما يكون حل نكاح الإماء المؤمنات لمن لم يستطع الطول وخاف على نفسه العنت معلومًا لهم كما جاء في سورة النساء؛ لأن المائدة من آخر ما نزل من القرآن، أو هي آخر ما نزل من القرآن كما قالت عائشة- رضي الله عنها(١).

٩- الإشارة إلى أن الزواج بالمحصنات المؤمنات أولى وأفضل من الزواج بالمحصنات من أهل الكتاب؛ لأن الله قدم المؤمنات على الكتابيات، فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

١٠- جواز نكاح الحرائر من أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم من المفسرين والفقهاء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم(٢).

وقد روي عن ابن عمر أنه كره نكاح النصرانية وقال: «لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى ابن مريم»(٣).

قال ابن تيمية(٤): «وهو اليوم مذهب طائفة من أهل البدع، وقد احتجوا بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة::٢٢١]، وبقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠]».

والصحيح القول الأول.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٨٢- ٥٨٩)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٩٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٢٤- ٣٢٥)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٢٩)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٩)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ٣٠٢- ٣٠٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٣٩٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٢٤- ٣٢٥)، «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٩١- ٩٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٨).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٩١).

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فحَجَزَ الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، فنكح الناس نساء أهل الكتاب»(١).

وقد اتفق الصحابة على إباحة الكتابيات سوى ابن عمر، وتزوج بعضهم من نساء أهل الكتاب فتزوج عثمان نصرانية، وتزوج طلحة بن عبيد الله نصرانية(٢)، وتزوج حذيفة يهودية(٣).

قال الجصاص(٤): «وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ إما خاص بعبدة الأوثان غير الكتابيات أو يكون عامًّا خص منه الكتابيات بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٥): «فإن قيل هذه الآية معارضة بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وبقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قيل: الجواب من ثلاثة أوجه: أحدهما أن الشرك المطلق في القرآن لا يدخل فيه أهل الكتاب، وإنما يدخلون في الشرك المقيد، قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة:١] فجعل المشركين قسمًا غير أهل الكتاب، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ [الحج:١٧] فجعلهم قسمًا غيرهم وأما دخولهم في المقيد ففي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٩).

(٢) انظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٣٠٣).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٢٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢١٦).

(٤) في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٢٥).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢١٣- ٢١٦).

[التوبة:٣١] فوصفهم بأنهم مشركون. وأصل دينهم ليس فيه شرك لكنهم بدلوا وغيروا، وابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به الله سلطانًا فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا لا باعتبار أصل الدين.

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ في الكوافر اللاتي كن في عصم المسلمين، وأولئك مشركات لا كتابيات.

الوجه الثاني: إذا قدر أن لفظ المشركات ولفظ الكوافر يعني الكتابيات(١) فآية المائدة خاصة وهي متأخرة نزلت بعد سورة البقرة والممتحنة باتفاق العلماء كما في الحديث: «المائدة من آخر القرآن نزولًا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها» والخاص المتأخر يقضي على العام المتقدم باتفاق علماء المسلمين، لكن الجمهور يقولون إنه مفسر له مبين أن صورة التخصيص لم ترد باللفظ العام، وطائفة يقولون إن ذلك نسخ بعد أن شرع.

الوجه الثالث: إذا فرضنا النصين خاصين فأحد النصين حرم ذبائحهم ونكاحهم والآخر أحلهما، فالنص المحلل لهما هنا يجب تقديمه لوجهين:

أحدهما أن سورة المائدة هي المتأخرة باتفاق العلماء فتكون ناسخة للنص المتقدم.

الوجه الثاني: أنه قد ثبت حل طعام أهل الكتاب، بالكتاب والسنة والإجماع، والكلام في نسائهم كالكلام في ذبائحهم، فإذا ثبت حل أحدهما ثبت حل الآخر، وحل أطعمتهم ليس له معارض أصلًا...».

وقال ابن كثير(٢): «وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى، ولم يروا بذلك بأسًا أخذًا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه الآية مخصصة للآية التي في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ إن قيل بدخول أهل الكتاب في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل

---

(١) وعلى هذا يكون لفظ المشركين إذا أفرد دخل فيهم أهل الكتاب، وإذا قرنوا مع أهل الكتاب لم يدخلوا كما يقال في اسم الفقير والمسكين، والإسلام والإيمان ونحو ذلك. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٩٣، ٣٢/ ١٨٠).

(٢) في «تفسره» (٣/ ٣٩).

الكتاب قد يفصل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:١] وكقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران:٢٠]»(١).

لكن ينبغي أن يعلم الفرق بين حكم النكاحين نكاح المؤمنات ونكاح الكتابيات فالأول مشروع مندوب أو واجب والثاني وهو نكاح الكتابيات جائز وليس مرغبًا فيه، لأن الزوجة الكتابية قد تؤثر على الأولاد فتضلهم بل قد تؤثر على الزوج نفسه.

ولهذا كره الزواج بالكتابيات بعض السلف، وروي هذا عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه(٢)، وإذا كان عمر- رضي الله عنه- كرهه في أيام الخلافة الراشدة في أوج عز الإسلام فكراهته اليوم من باب أولى لما عليه النصارى اليوم من الفساد، ولظهورهم وغلبتهم وشدة تأثيرهم.

وهذا الحكم عام لأهل الكتاب من بني إسرائيل ولمن دان دينهم من سائر الأمم كما سبق في بيان حل ذبائحهم، خلافًا للشافعي- رحمه الله- فقد ذهب إلى أنه إنما يباح نكاح الحرائر من أهل الكتاب من بني إسرائيل خاصة دون من دان دينهم من سائر الأمم وغيرهم(٣) والصحيح القول الأول(٤).

---

(١) وتباح الكتابيات سواء كن معاهدات أو حربيات عند جمهور السلف والفقهاء وهو ظاهر إطلاق الآية. وقيل تباح الذميات منهن دون الحربيات لقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].
انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٨٧- ٥٨٨)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٥٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٤/ ٣٦٦).

(٣) انظر: «الأم» (٥/ ٦)، «جامع البيان» (٩/ ٥٨٧- ٥٨٨)، «سنن البيهقي» (٧/ ١٧٣) لكن لو كانت الكتابية مسلمة ثم ارتدت عن الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية فإنه لا يحل الزواج بها، بل تقتل.

(٤) وقد ذهب أبوثور كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفائدة رقم (٤) إلى أن المجوس تحل ذبائحهم ونساؤهم وقد استدل بعموم ما روي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أدري كيف أعمل في أمر المجوس؟ فشهد عنده عبدالرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ﷺ =

١١- عدم إباحة الزواج بإماء أهل الكتاب؛ لأن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الحرائر أو الحرائر العفائف، ويدل على هذا قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لأن المهر إنما يؤتى للحرة، أما الأمة فمهرها لسيدها، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

فلم يبح الله من الإماء إلا المؤمنات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١].

وعلى هذا جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، ومنهم الأئمة الثلاثة مالك، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه(١).

=

يقول: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**» وهذا حديث منقطع أخرجه مالك في الزكاة ص(١٨٨) حديث (٦١٨)، والشافعي في «مسنده» ص(٢٠٩)، وعبدالرزاق في «المصنف» في كتاب أهل الكتاب (٦/ ٦٨)- الأثر (١٠٠٢٥)، وأبوعبيد في «الأموال» ص(٤٠)، والبيهقي في الجزية (٩/ ١٨٩- ١٩٠).

قال ابن كثير: «ولو سلم صحة هذا الحديث فمفهومه مخصوص بمفهوم هذه الآية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ فدل بمفهومه- مفهوم المخالفة- على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل» «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧).

والذي صح عن النبي ﷺ في المجوس هو ما جاء في حديث عبدالرحمن بن عوف: «أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر» أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٧)، وأبوداود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٥٨٦)، عن بجالة: «أن عمر بن الخطاب لم يكن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر».

قال الجصاص: «ويدل على أنهم ليسوا أهل كتاب أن النبي ﷺ كتب إلى صاحب الروم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟﴾ [آل عمران:٦٤] بينما كتب إلى كسرى بغير ذلك ولم ينسبه إلى كتاب».

وقد أنكر الفقهاء على أبي ثور هذا القول حتى قال عنه الإمام أحمد: «أبوثور كاسمه» يعني في هذه المسألة.

انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧).

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٨٢، ٥٨٧- ٥٨٩)، (٨/ ١٨٨- ١٩٠)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٢٩)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٧٩)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٨١)، «أحكام أهل الذمة» (١/ ٣٠٤- ٣٠٦).

وذهب أبو حنيفة إلى إباحة نكاح الأمة الكتابية مستدلًا بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وجعل «المحصنات» هنا بمعنى العفائف فيشمل الحرة والأمة(١).

والصحيح أن المراد بالمحصنات من أهل الكتاب الحرائر.

١٢- الإشارة إلى أن أهل الكتاب إنما كان لهم سبق تقدم إيتاء الكتاب فقط؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ فهذا قيد لبيان الواقع التاريخي، لا أن هناك من أوتي الكتاب بعدنا، ولا أن لأهل الكتاب مزية في هذه القبْليَّة، وإلا فإن هذه الأمة أسبق منهم بالفضل قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وقال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»(٢).

١٣- في التفرقة بين أهل الكتاب وأهل الأوثان في التسمية، وفي إباحة ذبائح أهل الكتاب ونسائهم وغير ذلك دون أهل الأوثان إقامة الحجة على مشركي قريش وغيرهم من منكري النبوات والمعاد والتوحيد، ومن أقوى الحجج على صدق رسالته ﷺ فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام نبوته ﷺ(٣) كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤].

١٤- وجوب دفع المهر في النكاح، وأنه حق للمرأة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: مهورهن، وسمى عز وجل المهور أجورًا تأكيدًا لوجوب دفعها؛ لأن المهر في مقابل الانتفاع بمنفعة البضع كما ينتفع المستأجر بمنافع الأجير عنده، وقد قال ﷺ: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**»(٤).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٥- ٢٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٣) – من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما، =

وفي الحديث القدسي: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»(١).

١٥- الإنصاف والعدل في الدين الإسلامي، حتى مع غير المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فكما أوجب عز وجل المهور للمؤمنات أوجبه للكتابيات.

١٦- يجب أن يكون النكاح بقصد الإحصان والتعفف والزواج الشرعي، لا الزنا والسفاح، واتخاذ الأخدان؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ فلا يجوز تزويج غير العفيف، كما لا يجوز تزوج غير العفيفة؛ لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [الآية:٢٥].

وفي الحديث: «**لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله**»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «فشرط الحل أن يكون الرجل غير مسافح ولا متخذ خدن، أي: محصنًا لزوجته. والله إنما أباح النكاح إذا كان الرجال محصنين غير مسافحين».

١٧- تحريم الزنا سرًّا كان أو جهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾.

١٨- بطلان نكاح المتعة؛ لأنه لا يقصد به إلا الاستمتاع والسفاح واتخاذ الأخدان دون الإحصان والزواج الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾.

١٩- الإشارة إلى أن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه كما جاء في الحديث(٤)؛

=

وصححه الألباني.

(١) أخرج البخاري في البيوع (٢٢٢٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٥٢)، وأحمد (٢/ ٣٢٤)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في الأشربة (٥٧١٠)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما**

=

لقوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ﴾ وجه ذلك أن الله جعل اتخاذ الأخدان مقابل السفاح وهو المجاهرة بالزنا، فدل على أن المراد باتخاذ الأخدان الزنا سرًّا، وبضدها تتميز الأشياء، وفي هذا الرد على الذين يزعمون من الغربيين وغيرهم أن الرجل يتخذ صديقة والمرأة تتخذ صديقًا ولا يقعان في الفاحشة والمحذور، وكأنهما معصومان، وما هذا إلا كما قيل:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وفي الحديث: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(١)، وعن خالد بن دينار عن أبيه، قال- يعني: عمر بن عبد العزيز- لميمون بن مهران: «يا ميمون، لا تدخل على هؤلاء الأمراء، وإن قلت: آمرهم بالمعروف، ولا تخولن بامرأة وإن قلت: أقرئها القرآن، ولا تصلنّ عاقًّا فإنه لن يصلك وقد قطع أباه»(٢).

وفي هذا بيان حرمة ما يفعله كثير من الناس من استقدام الخادمات والخلوة بهن، أو استقدام السائقين وتركهم يخلون بمحارمهم، وأن في ذلك من الخطورة ما فيه فليتنبه لهذا العاقل اللبيب، والسعيد من وعظ بغيره، فكم من مصائب ومحاذير وقعت بسبب ذلك.

٢٠- الإشارة إلى أنه ينبغي إعلان النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ﴾.

٢١- أن الأعمال داخلة في الإيمان كما هو معتقد أهل السنة والجماعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ والمذكور في الآية هي الأعمال من تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم(٣).

=

مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» الحديث.

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٥)، وأحمد (١/ ١٨، ٢٦)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخرجه أحمد أيضًا (٣/ ٣٣٩)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، و(٣/ ٤٤٦)، من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣٤٥)، وأخرجه صاحب كتاب «ذم الهوى» (ص١٤٨).

(٣) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسير سورة المائدة» (١/ ٨٣).

٢٢- أن الكفر بالإيمان وبما شرعه الله من الأحكام يحبط الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾.

لكن ذلك مقيد بالموت على الكفر بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد:٣٤].

٢٣- إثبات الآخرة، وأنها دار الجزاء على الأعمال، وأن الناس فيها بين رابح وخاسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٢٤- أن الخسارة كل الخسارة بالكفر بالإيمان، الذي يحبط الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

أي: الذين خسروا حياتهم وآخرتهم، خسروا الجنة ونعيمها وتبوؤوا النار وجحيمها، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥].

وفي هذا أعظم الوعيد لمن كفر بالله وخالف أحكامه فإن الخسارة العظمى والمصيبة الكبرى، والكسر الذي لا ينجبر، والجرح الذي لا يندمل أن يصاب الإنسان بالخسارة في دينه، أما ما دون ذلك من المصائب، كالمصيبة في النفس والأهل والمال ونحو ذلك فإنها تهون أمام ذلك، وفي الله والإيمان به خلف عن كل تلف ومصيبة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

* * *

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

سبب النزول:

عن عائشة- رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبوبكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء. قالت عائشة: فعاتبني أبوبكر وقال: ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فإذا العقد تحته».

وفي رواية عنها قالت: «سقطت قلادة لي بالبيداء، ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ﷺ ونزل فثنى رأسه في حجري راقدًا، فأقبل أبوبكر فلكزني لكزة شديدة وقال: حبست الناس في قلادة، فبيَ الموت لمكان رسول الله ﷺ وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استقيظ، وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ هذه الآية فقال أسيد بن الحضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٤)، وفي تفسير سورة المائدة (٤٦٠٧، ٤٦٠٨)، ومسلم في الحيض (٣٦٧)، وأبوداود في الطهارة (٣١٧)، والنسائي في الطهارة (٣١٠)، وابن ماجه في الطهارة (٥٦٨).

وهكذا جاء في رواية عمرو بن الحارث التصريح بأن آية التيمم في رواية غيره هي آية المائدة؛ لأن أكثر الرواة قالوا: آية التيمم ولم يبينوها.

وهكذا ذكر طائفة من المفسرين أن سبب نزول آية الوضوء هذه هو قصة انقطاع عقد عائشة- رضي الله عنها- منهم القشيري[١] وابن العربي وابن عطية[٢].

قال ابن العربي[٣]: «لا خلاف بين العلماء أنها نزلت في قصة عائشة».

وقد أورد الواحدي هذا الحديث في «أسباب النزول» عند آية النساء[٤].

ومال الحافظ ابن كثير إلى ذلك[٥].

قال السيوطي[٦]: «ولا شك أن الذي مال إليه البخاري من أنها آية المائدة هو الصواب للتصريح بها في الطريق المذكور».

وهذه الآية فيها تقرير حكم الوضوء وصفته مما كان معلومًا لهم بالسنة قبل نزول هذه الآية إذ لم يعهد في الإسلام أن هناك صلاة بلا وضوء ويدل على هذا قول عائشة رضي الله عنها: «فأقام رسول الله ﷺ بالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء».

وهذا يدل على أن الوضوء واجب عليهم قبل نزول هذه الآية ولهذا استعظموا نزولهم على غير ماء[٧].

قال السيوطي[٨] قال ابن عبدالبر: «معلوم عند جميع أهل المغازي أنه ﷺ لم يصل منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء ولا يدفع ذلك إلا جاحد أو معاند. قال: والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به؛ ليكون فرضه متلوًّا بالتنزيل».

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٠).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤١).

(٣) في «أحكام القرآن» (٢/ ٥٥٨).

(٤) انظر: «أسباب النزول» للواحدي ص(١٠٢).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٢).

(٦) في «لباب النقول» ص(٨٨)، وانظر: «فتح الباري» (١/ ٤٣).

(٧) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤١)، «لباب النقول» ص(٨٩).

(٨) في «لباب النقول» ص(٨٩).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام على هذا من حيث الإعراب والمعنى والفوائد في الكلام على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١].

أي: يا أيها الذين صدقوا وأقروا بالإيمان وانقادوا بقلوبهم وألسنتهم وسائر جوارحهم، وإنما خص المؤمنين بالنداء؛ لأنهم هم الذين يمتثلون ما أمر الله به ويجتنبون ما نهى الله عنه.

﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إذا ظرفية شرطية غير جازمة ﴿قُمۡتُمۡ﴾ فعل الشرط، وجوابه قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾، أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨] أي: إذا أردت قراءة القرآن.

وسواء صلى الإنسان قائمًا أو قاعدًا أو على أي حال فإنه يلزمه قبل الصلاة فعل ما أمر الله به في الآية.

والصلاة في اللغة الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم.

وهي في الشرع: التعبد لله بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

وهي هنا تشمل كل صلاة سواء كانت صلاة مكتوبة أو صلاة نفل أو صلاة عيد، أو صلاة كسوف، أو صلاة استسقاء أو صلاة جنازة.

والمعنى: إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم على غير طهارة؛ لأن الوضوء لا يجب إلا على المحدث؛ لقوله ﷺ: «**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ**»(١) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول**»(٢).

وقال بعضهم: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٥٤)، ومسلم في الطهارة (٢٢٥)، وأبوداود في الطهارة (٦٠)، والترمذي في الطهارة (٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٤)، وابن ماجه في الطهارة (٢٧٢).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ١١- ١٢).

والصحيح القول الأول وهو يشمل هذا القول؛ لأن النوم ناقض للوضوء كالبول والغائط كما في حديث صفوان بن عسّال قال: «كان رسول الله يأمرنا إذا كنا سفرًا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لكن من غائط وبول ونوم»(١).

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط لأنه جملة طلبية.

والغسل: هو إمرار الماء وجريانه على العضو أو غيره، وليس من لازمه دلك الشيء أو فركه(٢)؛ لأن ذلك لا يدخل تحت مسمى الغسل على الصحيح، ويخرج بالجريان المسح.

﴿وُجُوهَكُمۡ﴾ الوجوه: جمع وجه، والوجه مأخوذ من المواجهة؛ لأن المواجهة تحصل به، ولأنه أيضًا وجه للقلب إذ يعرف ما في قلب الإنسان بما يظهر على وجهه فإن سُرَّ الإنسان استنار وجهه، وإن غُمَّ وحزن انقبض وجهه.

وحد الوجه الذي يجب غسله طولًا من منحنى الجبهة إلى أسفل اللحيين والذقن، وعرضًا من الأذن إلى الأذن.

ومن الوجه الأنف والفم فيجب غسلهما بالاستنشاق في الأنف والمضمضة في الفم كما دلت على ذلك السنة.

ومنه الشعر المواجه، النابت على الوجه على العارضين والذقن، والمسترسل منه، فيجب غسله مع البشرة تحته إن كان خفيفًا ترى من ورائه البشرة، وإن كان كثيفًا بحيث يغطي البشرة ويصعب إيصال الماء إليها كفى غسل ظاهر الشعر بإمرار الماء عليه دون باطنه(٣).

﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ الواو عاطفة، و«أيديكم» معطوف على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾، أي: واغسلوا أيديكم إلى المرافق.

---

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة (٩٦)، وأبوداود في اللباس (٤٠٢٣)، والنسائي في الطهارة (١٢٧)، وابن ماجه في الطهارة (٤٧٨)، وحسّنه الألباني.

(٢) لكن يجب إزالة ما يمنع وصول الماء إلى البشرة من الأصباغ ونحوها، وقد يقتضي الأمر الدلك والفرك كما إذا كان على العضو ما يحتاج إلى ذلك من نجاسة أو مانع من وصول الماء إلى البشرة ونحو ذلك.

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٥- ٢٩)، «المغني» (١/ ١٦١- ١٦٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٣).

والأيدي: جمع يدٍ، واليد عند الإطلاق: الكف من مفصل الكوع[١]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].

وقد ثبت عن الرسول ﷺ وخلفائه قطع يد السارق من مفصل الكوع.

﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، ﴿إِلَى﴾ بمعنى «مع»، أي: مع المرافق.

و﴿ٱلْمَرَافِقِ﴾: جمع مرفق وهو العظم الناتئ في المفصل بين العضد والذراع، وسمي مرفقًا لأن الإنسان يرتفق به، أي: يتكئ عليه.

فيجب غسل اليدين من أطراف الأصابع إلى المرفقين كما دلت عليه الآية وكما جاء في السنة في صفة وضوئه ﷺ.

﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ معطوف على ما سبق.

والمسح هو إمرار اليد على العضو، والمراد به هنا إمرار اليد مبلولة بالماء على العضو[٢] بدلالة السنة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «والمسح اسم جنس يدل على إلصاق الممسوح به بالممسوح».

قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء للإلصاق[٤]، وعليه فلابد من استيعاب جميع الرأس بالمسح[٥]، وقيل: إنها للتبعيض[٦].

---

(١) الكوع هو العظم الذي يلي الإبهام، والكرسوع هو الذي يقابله وهو ما يلي الخنصر وهما مفصل الكف من الذراع. وما بين الكوع والكرسوع يسمى الرسغ، قال الناظم:

وعظم يلي الإبهام كوع وما يلي ... لخنصره الكرسوع والرسغ ما وسط
وعظم يلي إبهام رجل ملقب ... ببوع فخذ بالعلم واحذر من الغلط

انظر: «حاشية الشبراملسي على نهاية المحتاج» (١/ ٥٤٩).

(٢) والفرق بينه وبين الغسل أنه في الغسل لابد من جريان الماء على العضو.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٢).

(٤) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٢٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٧)، «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٧٤، ٢١/ ١٢٣)، «البرهان» للزركشي (٤/ ٢٥٢).

(٥) انظر: «شرح آية الطهارة» للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص(٩).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٤١)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٣٩- ٤٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٥).

وقيل: زائدة[١].

والصحيح أنها للإلصاق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «ومن ظن أن من قال بإجزاء البعض، لأن الباء للتبعيض أو دالة على القدر المشترك، فهو خطأ أخطأه على الأئمة، وعلى اللغة، وعلى دلالة القرآن. والباء للإلصاق، وهي لا تدخل إلا لفائدة... وليست بزائدة كما يقوله بعض الناس- فإذا دخلت على فعل يتعدى بنفسه أفادت قدرًا زائدًا... فلو قال: فامسحوا رؤوسكم أو وجوهكم لم تدل على ما يلتصق بالمسح فإنك تقول: مسحت رأس فلان، وإن لم يكن بيدك بلل، فإذا قيل: فامسحوا برؤوسكم وبوجوهكم ضمن المسح معنى الإلصاق، فأفاد أنكم تلصقون برؤوسكم وبوجوهكم شيئًا بهذا المسح، وهذا يفيد في آية التيمم أنه لابد أن يلتصق الصعيد بالوجه واليد، ولهذا قال: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾».

وقال أبوحيان[٣]: «الباء للإلصاق وقيل للتبعيض وكونها للتبعيض ينكره أكثر النحاة حتى قال بعضهم: وقال من لا خبرة له بالعربية الباء في مثل هذا للتبعيض، وليس بشيء يعرفه أهل العلم».

و«**رُؤوسِكم**»جمع رأس سمي رأسًا لترأسه وعلوه على البدن[٤].

وحده من جهة الأمام حد الوجه وهو منحني الجبهة وحده من جهة الخلف منابت الشعر فالرقبة ليست منه، ومنه الأذنان؛ لأن الرسول ﷺ كان يمسحهما مع الرأس وفي الحديث: «**الأذنان من الرأس**»[٥].

والمسح هنا مطلق وقد بينت السنة صفته وهو أن يمسح بيديه ابتداءً من مقدمة

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٣- ١٢٤، ١٢٩) بتصرف، وانظر: «المغني» (١/ ١٧٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٥)، «البرهان» للزركشي (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) في «البحر المحيط» (٣/ ٤٣٦).

(٤) انظر: «لسان العرب» مادة: «رأس».

(٥) سيأتي تخريجه. كما أن الرأس يشمل الوجه أيضًا، لكن الله جعل فرض الوجه الغسل، كما تقدم، وجعل فرض الرأس، ومنه الأذنان المسح، وعلى هذا دلت السنة المتواترة في صفة وضوئه ﷺ.

رأسه إلى قفاه، ثم يعود بهما إلى مقدمته مرة واحدة.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الواو عاطفة، قرأ عاصم في رواية حفص، ونافع وابن عامر والكسائي ويعقوب: «وأرجلَكم» بنصب اللام عطفًا على «وجوهَكم» وهكذا قرأها جمع من السلف من الصحابة والتابعين وقالوا: «عاد الأمر إلى الغسل»(١) أي: أن فرض الأرجل الغسل كالوجوه والأيدي، فالمعنى: واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين.

وقرأ بقية العشرة: «وأرجلِكم» بخفض اللام(٢) وهكذا قرأ بعض التابعين.

قال بعض أهل العلم: قوله: «وأرجلِكم» في هذه القراءة معطوف على «وجوهكم» كما في قراءة النصب فهي بمعناها وإنما جُرّت لمجاورتها للمجرور وهو «رؤوسكم».

فعلى هذا تكون «وأرجلِكم» منصوبة بفتحة مقدرة على آخرها منع من ظهورها جر المجاورة، كما في قولهم: «هذا جحر ضبٍ خربٍ»(٣) فخرب صفة لـ«جحر» محلها الرفع وإنما جرت لمجاورتها المخفوض وهو «ضبٍ».

وكقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ [الإنسان:٢١] على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي «خضرٍ» بالخفض(٤).

قال ابن كثير(٥): «وهذا سائغ ذائع في لغة العرب شائع».

وعلى هذا التوجيه لهذه القراءة، يكون معناها معنى قراءة النصب، وهو أن فرض الأرجل هو الغسل، قال الشنقيطي(٦): «قراءة الخفض إنما هي لمجاورة المخفوض مع أنها في الأصل منصوبة بدليل قراءة النصب، والعرب تخفض الكلمة لمجاورتها

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٥- ٥٥)، «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٦٢- ٢٦٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٨)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٧).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٢، ٦٠- ٦١)، «المبسوط» ص(١٦١)، «الكشف» (١/ ٤٠٦)، «النشر» (٢/ ٢٥٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٦٦)، «مجاز القرآن» (١/ ١٥٥)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٥٧- ٢٥٨)، «سنن البيهقي» (١/ ٧٠)، «المغني» (١/ ١٨٧- ١٨٨)، «أضواء البيان» (٢/ ٨، ١٣).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٩٦).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ٤٩).

(٦) في «أضواء البيان» (٢/ ٨- ١٣).

للمخفوض، مع أن إعرابها النصب، أو الرفع، ومن رد المجاورة، وقال لحن فقوله مردود، لأن أئمة اللغة العربية صرحوا بجوازه، منهم الأخفش، وأبوالبقاء وغير واحد، ولم ينكره إلا الزجاج، وإنكاره له مع ثبوته في كلام العرب وفي القرآن يدل على أنه لم يتتبع المسألة تتبعًا كافيًا.. والتحقيق أن الخفض بالمجاورة أسلوب من أساليب اللغة العربية، وأنه جاء في القرآن لأنه بلسان عربي مبين.. وممن جزم به ابن قدامة في المغني.. ومن الخفض بالمجاورة في العطف قول زهير(١):

لعب الزمان بها وغيّرها ... بعدي سواقي المورِ والقطرِ

بجر «القطر» لمجاورته للمخفوض مع أنه معطوف على «سواقي» المرفوع فاعل «غيَّر».

ومنه في القرآن العظيم في العطف كالآية هنا قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الواقعة:٢٢] على قراءة حمزة والكسائي ورواية المفضل عن عاصم بالجر: «وَحُورٍ عِينٍ»؛ لمجاورته لـ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:١٨-٢١]، مع أن «حورٍ عينٍ» حكمه الرفع.

ومنه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:٨٤] و﴿عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف:٦٥]، بخفض «محيط» و«أليم»؛ وهما نعتٌ للعذاب؛ لكثرة ورود الألم في القرآن نعتًا للعذاب».

وقد أطال الشنقيطي في تقرير القول بالمجاورة، وذكر الشواهد على ذلك من القرآن وكلام العرب، ثم قال: «فدعوى كون الخفض بالمجاورة لحنًا دعوى باطلة».

لكن بعض أهل العلم- كما أشار الشنقيطي- رد هذا التوجيه؛ قال مكي بن أبي طالب لما ذكر حمل بعضهم الجر في هذه القراءة على المجاورة، قال(٢): «وهو بعيد لا يحمل القرآن عليه».

وكذا أبطل الحمل على المجاورة الرازي من وجوه ثلاثة(٣).

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٨٧).

(٢) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢١٩).

(٣) في «التفسير الكبير» (١٠/ ١٢٧).

وقال أبو حيان[١]: «وهو تأويل ضعيف جدًّا».

ووجه بعض أهل العلم جر «الأرجل» في هذه القراءة بأنه عطف على الرؤوس في قوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد روي هذا عن جماعة من السلف[٢].

وحملوا مسح الأرجل على أن المراد به الغسل[٣] أو الغسل الخفيف[٤]، أو إمرار اليد أو ما يقوم مقامها مع الماء على الأرجل فمن فعل ذلك فهو غاسل ماسح وهذا اختيار الطبري[٥].

قال الشنقيطي[٦]: «ولا مانع من كون المراد بالمسح في الأرجل هو الغسل والمراد به في الرأس المسح الذي ليس بغسل، وليس من حمل المشترك على معنييه ولا من حمل اللفظ على حقيقته ومجازه، لأنهما مسألتان كل منهما منفردة عن الأخرى مع أن التحقيق جواز حمل المشترك على معنييه، كما حققه الشيخ تقي الدين أبو العباس ابن تيمية- رحمه الله- في رسالته في علوم القرآن وحرر أنه هو الصحيح في مذاهب الأئمة الأربعة- رحمهم الله»[٧].

فهذه القراءة محمولة على معنى قراءة النصب، وهو أن فرض الأرجل هو الغسل[٨] ويدل على هذا ما تواتر في السنة قولًا وفعلًا من أن فرض الرجلين هو الغسل كقوله ﷺ: «**ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار**».

وكفعله ﷺ في صفة وضوئه الذي نقله عنه أصحابه في غسله رجليه في كل وضوئه[٩].

---

(١) في «البحر المحيط» (٣/ ٤٣٧).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٨- ٦١)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢١٩- ٢٢٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٦٣)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٦٤)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٢٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٢)، «دقائق التفسير» (٣/ ٢٥)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٢- ١٣٤).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٩).

(٥) في «جامع البيان» (١٠/ ٦٢- ٦٣).

(٦) في «أضواء البيان» (٢/ ١٤- ١٥).

(٧) انظر: «مقدمة التفسير» ص(٥٠).

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٤).

(٩) سيأتي تخريج هذه الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالمسح على قراءة الجر المسح على الخفين، ونحوهما من الحوائل[١] وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]، كما دلت السنة المتواترة على جوازه، وعلى هذا التوجيه يكون فرض الرجلين إما الغسل، وإما المسح؛ الغسل على قراءة النصب إذا لم يكن على الأرجل خفاف أو نحوها، والمسح على قراءة الجر إذا كان على الأرجل خفاف أو نحوها.

وقد ذهب الرافضة إلى أن المراد بالمسح مسح الأرجل كما يمسح الرأس، ولهذا قالوا: إن فرض الرجلين هو المسح[٣] وقولهم هذا باطل بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة وسيأتي تفصيل القول في هذا كله في الكلام على الأحكام.

﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، ﴿إِلَى﴾ بمعنى «مع»، أي: مع الكعبين.

والكعبان: هما العظمان الناتئان في أسفل الساق، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، أخرج الطبري[٤] عن الشافعي قال: «لم أعلم مخالفًا أن ﴿ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتئان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم».

وليس هو معقد الشراك- كما يقوله من يرى المسح على الرجلين من الرافضة وغيرهم؛ لأنه قال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ ولم يقل: «إلى الكعاب» ولو كان المراد بالكعب معقد الشراك لقال: «إلى الكعاب» لأن في كل رجل معقدًا واحدًا، كما قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ لمّا كان في كل يد مرفق واحد. فلما جاء الكعبان بالتثنية ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ علم أن في كل رجل «كعبين» وهما العظمان البارزان في جانبي الساق[٥] قال الإمام مالك: «الكعب الذي يجب الوضوء إليه هو الكعب

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٤٧)، «معالم التنزيل» (٢/ ١٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٦، ١٠٠- ١٠١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٨- ١٣٤)، «دقائق التفسير» (٣/ ٢٧).

(٣) انظر: «مجمع البيان» للطبرسي (٢/ ٣٨) وما بعدها، «تفسير الصافي» (٢/ ١٦).

(٤) في «جامع البيان» (٩/ ٨١)- الأثر (١١٥٣٩).

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٤٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٤، ٥٥).

الملتصق بالساق المحاذي العقب، وليس بالظاهر في ظاهر القدم»[١].

ويدل على هذا حديث النعمان بن بشير في تسوية الصفوف وفيه: «فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه»[٢].

قال ابن كثير[٣]: «فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق حتى يحاذي كعب الآخر».

وفي حديث حمران عن عثمان رضي الله عنه: «أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين» الحديث[٤] وهذا يدل على ما دلت عليه الآية أن في الرجل الواحدة كعبين.

فقوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، أي: اغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، أي: من أطراف الأصابع إلى الكعبين.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ بعد أن ذكر- عز وجل- الطهارة من الحدث الأصغر، وذكر فروض الوضوء التي يجب غسلها في الطهارة الصغرى أتبع ذلك بذكر الطهارة الكبرى من الحدث الأكبر.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ الواو عاطفة، و«إن» حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط و﴿جُنُبًا﴾ خبر «كان» واسمها ضمير المخاطبين.

و«جنب» بهذا اللفظ يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث[٥] فيقال: رجل جنب ورجلان جنب ورجال جنب، كما يقال امرأة جنب وامرأتان جنب ونساء جنب. والجنب: هو الذي حصلت منه الجنابة. والجنابة في اللغة: مأخوذة من المجانبة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٨٠- ٨١)- الأثر (١١٥٣٨).

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة (٦٦٢) عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: «أقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «أقيموا صفوفكم» ثلاثًا. «والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم» قال: فرأيت الرجل يلزق منكبه بمنكب صاحبه وركبته بركبة صاحبه وكعبه بكعبه» وأخرجه النسائي في الإمارة (٨١٠)، والترمذي في الصلاة (٢٢٧)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٩٤)، وأخرج أوله مسلم في الصلاة (٤٣٦) دون قوله: «فرأيت» إلى آخره.

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٥٥).

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٥)، «جامع البيان» (١٠/ ٨٢)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦٩).

وهي البعد والمفارقة.

والجنب في الشرع مَن حصل منه إنزال المني بشهوة. وسمي جنبًا؛ لأن ماء الرجل جانب مكانه أي انتقل عنه(١).

وبحكمه من جامع وإن لم ينزل؛ لقوله ﷺ: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل**»(٢) وقوله ﷺ: «**إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل**»(٣).

وقيل: سمي جنبًا لأنه يجتنب الصلاة وقراءة القرآن ومس المصحف والطواف واللبث في المسجد(٤).

﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة طلبية.

أي: فاطهروا بالاغتسال، وأصل ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾: «فتطهروا» فأدغمت التاء في الطاء والمعنى: فإن كنتم عند إرادتكم القيام إلى الصلاة جنبًا عليكم الغسل من حدث أكبر فتطهروا بالاغتسال لجميع البدن(٥).

ولم يذكر الوضوء فدل على دخول الطهارة الصغرى في الطهارة الكبرى فلا يجب عليه الوضوء ولا أن ينوي رفع الحدثين.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً

---

(١) لكن لا يكون جنبًا حتى يخرج المني من الجسد، فإن انتقل من الصلب ولم يخرج فلا يعد الإنسان جنبًا على الصحيح من أقوال العلماء.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل (٢٩١)، ومسلم في الحيض (٣٤٨)، وأبوداود في الطهارة (٢١٦)، والنسائي في الطهارة (١٩١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحيض (٣٤٩)، والترمذي في الطهارة (١٠٨)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٠٨)، من حديث أبي موسى عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٤)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٤٥).

(٥) ومن موجبات الغسل انقطاع الحيض؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ولقوله ﷺ لفاطمة بنت أبي حبيش: «**إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة فإذا أدبرت فاغتسلي وصلي**» أخرجه البخاري في الحيض (٣٣١)، ومسلم في الحيض (٣٣٣)، وأبوداود في الطهارة (٢٨٢)، وغيرهم من حديث عائشة- رضي الله عنها- وقد أجمع المسلمون على أن النفاس كالحيض.

فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾.

لما ذكر الله- عز وجل- الطهارة الصغرى والطهارة الكبرى بالماء، أتبع ذلك بذكر التيمم بالصعيد في الطهارتين عند عدم الماء أو تعذر استعماله.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ الواو عاطفة، و«إن» شرطية ﴿كُنتُم﴾ فعل الشرط و﴿مَّرْضَىٰٓ﴾ جمع مريض والمرض: هو اعتلال الصحة وهو على درجات.

وقد قالوا في تعريف المرض: هو عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ.

والمراد بالمرض هنا المرض الذي يشق معه استعمال الماء، أو يتضرر باستعماله كمن به جروح ونحو ذلك أو الذي لا يتمكن معه من استعمال الماء كمن به مرض أقعده لا يستطيع معه الوضوء أو الذي يخاف التضرر باستعماله لشدة البرد ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «والذي عليه الجمهور أنه لا يشترط خوف الهلاك، بل من كان الوضوء يزيد مرضه أو يؤخر برأه يتيمم، ومن يتضرر بالماء البارد فهو كالمريض عند الجمهور، لكن الله ذكر الضرر العام وهو المرض بخلاف البرد فإنه إنما يكون في بعض البلاد لبعض الناس الذين لا يقدرون على الماء الحار».

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، أي: وإن كنتم في سفر[2] ولم تجدوا ماءً فتيمموا.

والسفر: الخروج عن محل الإقامة، سمي بذلك؛ لأن الإنسان بالسفر يسفر ويخرج من بلده، وقيل سمي السفر سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو، فالتقدير: وإن كنتم مرضى أو على سفر وجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء؛ لأن المريض والمسافر لا يلزمهما التيمم إلا إذا كانا محدثين.

﴿أَحَدٌ مِّنكُم﴾، أي: أحد منكم ممن يقوم للصلاة ذكرًا كان أو أنثى كبيرًا كان أو صغيرًا.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٩).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٥).

﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾ في الأصل هو المكان المطمئن المنخفض الهابط من الأرض؛ لأنهم كانوا يقصدون هذا المكان لقضاء الحاجة من بول وعذرة ليستتروا به عن أعين الناس وأطلق على الخارج من الإنسان «غائط» من تسمية الشيء باسم مكانه(١).

والمعنى: وجاء أحد منكم من الغائط وهو قضاء حاجته فصار بذلك محدثًا حدثًا أصغر يجب على من أراد القيام إلى الصلاة الطهارة منه.

ومثله في الحكم بقية نواقض الوضوء كالنوم وخروج الريح ونحو ذلك، وإنما اقتصر على ذكر حكم المجيء من الغائط فقط من باب التمثيل للحدث الأصغر.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «أو لمستم» بغير ألف، وقرأ بقية العشرة ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ﴾ بالألف(٢).

وقراءة «لامستم» من الملامسة وهي المفاعلة من الطرفين: الرجل والمرأة، والمراد بها الجماع(٣).

وقراءة «لمستم النساء» من اللمس، وأصله: جس الشيء باليد، لكن المراد باللمس هنا الجماع على الصحيح لقراءة «أو لامستم» فهي مفسرة لقراءة «لمستم»؛ ولأن القرآن الكريم يكني باللمس والمس عن الجماع، قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة:٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة:٣].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «اللمس والمس والغشيان: الجماع ولكنه- عز وجل- يكني»(٤).

فاللمس والمس وإن كان حقيقة بالمس والجس باليد فإذا أضيف إلى النساء فالمراد

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٨٣)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦٩).

(٢) انظر: «العنوان» ص(٨٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٣٣، ٢٣٧، ٤٠١).

(٤) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٠٤)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ١١٨)- الأثر (٥١٩٠- ٥١٩١) عن ابن عباس- رضي الله عنهما- بلفظ: «المس النكاح، وفي رواية: الجماع ولكن الله يكني ما شاء بما شاء».

به الجماع[١].

ويقوي أن المراد باللمس الجماع من حيث المعنى أن الله ذكر في طهارة الماء موجبين للطهارة لمن أراد القيام إلى الصلاة أحدهما موجب للطهارة الصغرى وهو الحدث الأصغر، والثاني موجب للطهارة الكبرى وهو الحدث الأكبر الجنابة، ثم أتبع ذلك على نفس النسق في طهارة التراب بذكر موجبين للطهارة أحدهما للطهارة الصغرى وهو الحدث الأصغر «المجيء من الغائط» والثاني للطهارة الكبرى وهو الحدث الأكبر وهو ملامسة النساء «الجماع»؛ لبيان أن التراب يقوم مقام الماء في الطهارتين.

قال الجصاص[٢]: «فآخر الآية بيان لحكم الحدث والجنابة في حال عدم الماء كما كان في أول الآية بيان لحكمهما حال وجوده».

وعلى هذا فالمعنى: أو جامعتم النساء وهذا ما عليه جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[٣].

وقيل: المراد بالملامسة واللمس الجس باليد ونحو ذلك مما دون الجماع كالقبلة ونحوها واستدلوا بقراءة ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ﴾[٤].

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ الفاء عاطفة والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لكنها تتعلق بقوله: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لا بقوله: ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾، لأن المريض يتيمم وإن وجد الماء، والمسافر إنما يتيمم إذا لم يجد الماء. وقد ذكر الله النوعين الغالبين: الذي يتضرر باستعمال الماء، والذي لا يجده[٥].

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾، أي: وبحثتم عن الماء عند قيامكم إلى الصلاة، ودخول وقتها، فلم تجدوا ماء تتطهرون به طهارة صغرى أو كبرى.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٧٢).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٥)، «جامع البيان» (١٠/ ٣٨)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣، ٥٠).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٩٦٣)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٩٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٠١).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٨).

﴿مَآءً﴾ مطلق في أي ماء، فما سمي ماءً جاز التطهر به ما لم يتغير أحد أوصافه الثلاثة: طعمه أو ريحه أو لونه بنجاسة.

﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ جملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ وقرن بالفاء لأنه جملة طلبية.

ومعنى «تيمموا»، أي: اقصدوا[١] ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧] أي: ولا تقصدوا الخبيث منه تنفقون، وقوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢] أي: قاصدي البيت الحرام.

وفي حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا قال كعب: «فيممت بها التنور فسجرته بها»[٢] أي: قصدت بها التنور.

يقال: يممت مكة، أي: قصدتها، ومنه قول الأعشى[٣]:

تيممت قيسًا وكم دونه ... من الأرض من مهمة ذي شزن

فالتيمم في اللغة: القصد، أي: اقصدوا صعيدًا طيبًا[٤].

والتيمم في الشرع: مسح الوجه واليدين بالتراب بقصد الطهارة[٥].

﴿صَعِيدًا﴾ مأخوذ من الصعود وهو الارتفاع، والمراد به وجه الأرض[٦].

وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني...**» الحديث[٧].

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٦٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠٢)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٣١٧)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «شرح ديوان الأعشى» لإبراهيم جزيني ص(٢٠٨).

(٤) انظر: «لسان العرب» مادة: «أمم».

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٤٧).

(٦) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٥)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٢٠).

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وسواء كان من التراب، أو الرمل، أو السبخة، أو الطين الأحمر، أو الزرنيخ والنورة[١]، أو الجص، أو الحجارة والصخر الأملس، أو غير ذلك، وسمي صعيدًا لصعوده فوق الأرض فكل ما كان من الأرض فهو صعيد[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ نكرة في سياق الإثبات... وهذه تسمى مطلقة وهي تفيد العموم على سبيل البدل، لا على سبيل الجمع، فيدل ذلك على أنه يتيمم أي صعيد اتفق- والتراب الذي ينبعث مراد من النص بالإجماع».

﴿طَيِّبًا﴾ صفة لـ﴿صَعِيدًا﴾، أي: طاهرًا[٤]، وضده النجس، والطيب في الأصل وصف لكل ما يمكن أن يوصف به من الأعيان والأعمال والأشخاص وغيرها كل شيء بحسبه وهو ضد الخبيث كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة:١٠٠].

ومعنى: ﴿طَيِّبًا﴾، أي: طيبًا بذاته وهو الطاهر وضده ما كان خبيثًا بذاته وهو النجس، وطيبًا أيضًا بوصفه غير مغصوب ولا مسروق ونحو ذلك، وهو ما كان خبيثًا بوصفه.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ والمسح إمرار اليد على العضو الممسوح[٥].

﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ الباء للإلصاق، وقيل: للتبعيض[٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٧]: «الباء هنا للإلصاق.. فلابد من إلصاق الممسوح به».

والوجوه: جمع وجه مأخوذ من المواجهة كما سبق تحديده والمراد بالوجوه هنا ما

---

(١) الزرنيخ والنورة من المعادن. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٦٦).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٦٤- ٣٦٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٤٨).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٥٥)، «جامع البيان» (١٠/ ٨٤)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٦٦).

(٥) انظر: «لسان العرب» مادة: «مسح».

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٥).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٤٩).

ظهر منها دون ما بطن داخل الأنف والفم وتحت الشعور كما ثبت في صفة التيمم في السنة القولية والفعلية، كما سيأتي بيانه في الأحكام.

والمعنى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ﴾ بإمرار اليدين على الوجه.

﴿وَأَيۡدِيكُم﴾ الأيدي: جمع يد، واليد إذا أطلقت فالمراد بها الكف من مفصل الكوع، والمعنى: فاقصدوا وجه الأرض واضربوه بأيديكم فامسحوا بذلك وجوهكم بإمرار اليدين عليها، وامسحوا أيديكم بإمرار إحداهما على الأخرى كما في حديث عمار: «فضرب بيديه الأرض ومسح بهما وجهه وكفيه»(١).

﴿مِّنۡهُۚ﴾، «من» قال بعض أهل العلم: للتبعيض أي: فامسحوا بوجوهكم وأيديكم بشيء من تراب وغبار هذا الصعيد، قالوا: فيشترط أن يكون في هذا الصعيد تراب وغبار ينقل إلى الوجه والكفين(٢).

وقال بعض أهل العلم: «من» لابتداء الغاية، أي: أن المسح يكون ابتداؤه من الصعيد، أو أنها بيانية، وعلى هذا فلا يشترط أن يكون الصعيد ترابًا له غبار، وهذا هو الأظهر؛ لقوله تعالى: ﴿صَعِيدًا﴾ وهذا مطلق فيعم كل ما صعد من وجه الأرض؛ ولقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ وهذا عام في نفي كل حرج وتخصيص الصعيد بما له غبار يعلق باليد لا يخلو من حرج(٣).

ولحديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**» الحديث(٤) فقوله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**» عام في الأرض كلها.

قال القاضي زكريا الأنصاري في «فتح الرحمن»(٥) في كلامه على آية النساء

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٨٤)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٨٤)، «أضواء البيان» (٢/ ٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢).

(٥) ص(١١٤).

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ [النساء:٤٣]: «زاد في المائدة عليه ﴿مِّنۡهُۚ﴾؛ لأن المذكور ثم جميع واجبات الوضوء والتيمم فحسن البيان والزيادة بخلاف ما هنا فحسن الترك».

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

لما ذكر عز وجل وجوب الطهارة بالماء من الحدثين الأصغر والأكبر عند القيام إلى الصلاة وذكر عز وجل الرخصة في التيمم للحدثين عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله بين أنه- عز وجل- لم يرد أن يجعل على المؤمنين حرجًا فيما شرعه وإنما أراد سبحانه تطهيرهم وإتمام النعمة عليهم مع رفع الحرج والضيق عنهم؛ ليشكروه.

قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾، ﴿مَا﴾ نافية و﴿يُرِيدُ﴾ إرادة شرعية بمعنى المحبة، أي: ما يحب الله ﴿لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾.

﴿لِيَجۡعَلَ﴾ اللام زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى والتقدير: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج.

والجعل: ينقسم إلى قسمين: جعل كوني، وهو كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦١، ٦٢].

وجعل شرعي ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧]. ومنه هذه الآية: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾، أي: فيما شرعه لكم.

﴿مِّنۡ حَرَجٖ﴾، ﴿مِّنۡ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى. للتنصيص على عموم النفي، ﴿حَرَجٖ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم(١).

قال الشنقيطي(٢): «فقوله: ﴿مِّنۡ حَرَجٖ﴾ نكرة في سياق النفي، زيدت قبلها

---

(١) انظر: «البرهان» للزركشي (٤/ ٤٢١).

(٢) في «أضواء البيان» (٢/ ٣٩).

﴿مِّنْ﴾ والنكرة إذا كانت كذلك فهي نص في العموم».

والحرج: الضيق، والمعنى: ما يريد الله ليصير عليكم فيما شرعه لكم من الوضوء والغسل من ضيق وعسر ومشقة بل سهل عليكم ويسر كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ ولهذا أباح التيمم عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله، وجعله يقوم مقام الماء توسعة على العباد ورحمة بهم، فلو كلفهم البحث عن الماء حتى يجدوه لشق ذلك عليهم، ولو طلب منهم تأخير الصلاة حتى يجدوا الماء لشق ذلك أيضًا خاصة إذا طالت المدة.

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، «لكن» حرف استدراك ﴿يُرِيدُ﴾ إرادة شرعية[١]، أي: يحب.

﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ اللازم زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى وهي في الأصل لام التعليل، ولام التعليل إذا جاءت متعلقة بفعل الإرادة فإنها تعرب زائدة[٢]، وتكون بمعنى «أن»، أي: يريد أن يطهركم[٣].

والمعنى: ولكن يريد بما شرع من إيجاب الطهارة بالماء عن الحدثين: الأصغر والأكبر عند القيام إلى الصلاة، ومن التيمم عنهما عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله، وبما شرعه لكم من أحكام أن يطهركم طهارة حسية من الحدثين وطهارة معنوية من الذنوب، ففي الوضوء والغسل طهارة حسية ونظافة للبدن، وفيهما طهارة معنوية بحط الخطايا والذنوب.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قَطْر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٦٢- ٦٣).

(٢) انظر: «شرح آية الطهارة» للشيخ العثيمين ص(٢٣).

(٣) انظر: «البرهان» للزركشي (٤/ ٣٤٣).

قَطْر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قَطْر الماء، حتى يخرج نقيًّا من الذنوب»(١).

وعن حمران مولى عثمان بن عفان- رضي الله عنه- قال: «أتيت عثمان بن عفان بوضوء، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة»(٢).

كما أن في التيمم طهارة معنوية تعبدية لله تعالى وهكذا كل ما شرعه الله تعالى من الأحكام فيه طهارة معنوية من الذنوب والخطايا والآثام كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ويريد ليتم نعمته عليكم بما شرعه لكم من الشرع الميسر الذي لا ضيق فيه ولا حرج، والذي فيه تطهيركم حسيًّا من الأحداث والنجاسات، ومعنويًّا من الذنوب والآثام، كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:٢].

فإن أعظم النعم الهداية للحق ومعرفته واتباعه، ومن أُعطوا هذه النعمة فهم المنعم عليهم حقًّا. قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، «لعل» هنا للتعليل وليست للترجي(٣).

أي: لأجل أن تشكروا، أو لكي تشكروا الله على نعمه عليكم، والخطاب للمؤمنين والشكر يكون في القلب، ويكون في اللسان، ويكون في الجوارح كما قال الشاعر:

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٠٣).

وأخرج مسلم أيضًا نحوه من حديث عمرو بن عبسة- رضي الله عنه- في صلاة المسافرين (٨٣٢)، وأحمد (٤/ ١١٢، ١١٣، ٣٨٥، ٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٩، ١٦٠)، ومسلم في الطهارة (٢٢٩)، وأبوداود في الطهارة (١٠٦)، والنسائي في الطهارة (٨٤)، وابن ماجه في الطهارة (٢٨٥).

(٣) انظر: «البرهان» للزركشي (٤/ ٣٩٤).

أفـــادتكم الـــنعماءُ منـــي ثلاثـــة يـدي ولسـاني والضـمير المحجبـا[١]

أي: إنكم ملكتم بنعمائكم وإفضالكم عليَّ يدي ولساني وقلبي.

ومعنى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: لأجل أن تشكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم فالشكر بالقلب يكون بالاعتراف باطنًا بنعم الله تعالى.

والشكر باللسان يكون بالاعتراف بها ظاهرًا وحمده والثناء عليه والتحدث بنعمته كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

والشكر بالجوارح كلها بما فيها أيضًا القلب واللسان باستعمالها في طاعة الله وفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه قولًا وعملًا، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] وقام ﷺ حتى تفطرت قدماه، وقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[٢].

وكل نعمة تتجدد على العبد تحتاج إلى شكر، وتوفيق الله العبد للشكر هو أيضًا نعمة تحتاج إلى شكر، وهكذا؛ ولهذا يقر العبد ويعترف أنه لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره، ويقول كما قال المصطفى ﷺ: «**سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[٣].

وقد قيل:

إذا كـــان شـــكري نعمـــة الله نعمـــةً عـــليّ لـــه في مثلهـــا يجـــب الشـــكر
فكيـــف بلـــوغ الشـــكر إلا بفضـــله وإن طالـــت الأيـــام واتصـــل العمـــر

وبين الشكر والحمد عموم وخصوص، فالحمد أعم من حيث ما يقع عليه فهو يقع على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وشجاعته، وحمدته لكرمه وهو أخص من حيث الأداة التي يقع بها فهو يقع باللسان فقط، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٧)، «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣- ١٣٤)، «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٦)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، و(٤٨٣٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١] وليس معنى ذلك أنه بدون مواطأة القلب للِّسان، بل لابد من المواطأة بين القلب واللسان.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «الحمد يكون بالقلب واللسان».

والشكر أخص من حيث ما يقع عليه فهو لا يقع إلا على الصفات المتعدية، تقول: شكرته لكرمه، ولا تقول شكرته لفروسيته وشجاعته، فهو لا يكون إلا جزاء على نعمة بينما الحمد يكون جزاء على نعمة ويكون ابتداءً.

وهو، أي: الشكر أعم من حيث الأداة التي يقع بها، فهو يقع بالقلب واللسان والجوارح كما سبق بيانه.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- في نداء المؤمنين بوصف الإيمان بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تشريف للمؤمنين وتكريم لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن ما بعده يعد من مقتضيات الإيمان يجب امتثاله بفعله إن كان أمرًا وتركه إن كان نهيًّا، وأن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٣- اشتراط النية في الطهارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: إذا أردتم القيام للصلاة. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]

وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»(٢).

قال البخاري: «فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام».

وعلى هذا جمهور أهل العلم، ومنهم الأئمة الثلاثة؛ مالك، والشافعي، وأحمد(٣).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)- كلاهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٥٩)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٠)، «المغني» (١/ ١٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٥)، «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٥٧- =

وذهب أبوحنيفة إلى عدم وجوب النية في الطهارة بالماء، لا في الوضوء ولا في الغسل، وإلى وجوبها في طهارة التيمم فقط[١].

والصحيح الأول؛ لأن في الآية ما يدل على وجوب النية إضافة إلى عموم حديث عمر رضي الله عنه.

٤- وجوب الوضوء عند القيام إلى الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية.

والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهارة، كما دلت على ذلك السنة في أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث- كما سبق- في حديث أبي هريرة، وحديث ابن عمر- رضي الله عنهما[٢]، وفي حديث بريدة: «أن النبي ﷺ صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد ومسح على خفيه، فقال له عمر: لقد صنعت اليوم شيئًا لم تكن تصنعه؟! قال: عمدًا صنعته يا عمر»[٣].

وفعله ﷺ لهذا؛ لبيان أن الوضوء لا يجب على من كان طاهرًا، وقد انعقد الإجماع على أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث.

وأيضًا: فإن التيمم وهو بدل من الوضوء قيد وجوبه بوجود الحدث، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فالوضوء أولى أن يكون مقيدًا وجوبه بوجود الحدث؛ ليتأتى أن يقوم البدل مقام الأصل.

كما أن الأمر بالوضوء نظير الأمر بالاغتسال وقد قيد الأمر بالاغتسال بوجود الحدث الأكبر، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ فنظيره وهو الوضوء ينبغي

=

٢٥٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣).

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٣٣- ٣٣٤).

(٢) سبق تخريجهما.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة- باب المسح على الخفين (٢٧٧)، وأبوداود في الطهارة (١٧٢)، والنسائي في الطهارة (١٣٣)، والترمذي في الطهارة (٦١)، وابن ماجه في الطهارة (٥١٠)، وأحمد (٥/ ٣٥٠).

أن يكون مقيدًا بالحدث الأصغر.

وما روي أن الرسول ﷺ كان يتوضأ لكل صلاة[١]، وكذا الخلفاء[٢]، وبعض الصحابة كابن عمر[٣]، وجابر بن عبدالله[٤] وغيرهم فهو محمول على تجديد الوضوء استحبابًا[٥].

ولهذا صلى عليه الصلاة والسلام يوم الفتح- كما في حديث بريدة- الصلوات الخمس بوضوء واحد ليبين لأصحابه أن الوضوء لا يجب لكل صلاة ما لم يحدث، ولم يأمر أحدًا بالوضوء لكل صلاة إلا المستحاضة[٦]، وكان عامة الصحابة يصلون الصلوات بوضوء واحد[٧].

وما قيل من وجوب الوضوء لكل صلاة ولو كان على طهارة فهو ضعيف مخالف

---

(١) عن أنس- رضي الله عنه- قال: «كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة» قلت: كيف كنتم تصنعون؟ قال: «يجزئ أحدنا الوضوء ما لم يحدث». أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٤)، وأبوداود في الطهارة (١٧١)، والنسائي في الطهارة (١٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٠)، وابن ماجه في الطهارة (٥٠٩)، وأحمد (٣/ ٨٤).
وعن عبدالله بن حنظلة: «أن رسول الله ﷺ أُمر بالوضوء لكل صلاة طاهرًا أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أُمر بالسواك لكل صلاة، ووضع عنه الوضوء إلا من حدث». قال: «فكان عبدالله بن عمر- رضي الله عنه- يرى أن به قوة فكان لا يدع الوضوء لكل صلاة» أخرجه أبوداود في الطهارة (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٢٥). قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤١): «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الطبري عن محمد بن سيرين قال: كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، وذكره ابن كثير عن عمر بن الخطاب ثم قال: «وهذا إسناد صحيح».
وأخرجه عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ابن أبي شيبة في الطهارات (١/ ٢٩)، والطبري (١٠/ ١٢)- الأثران (١١٣٢٢- ١١٣٢٣) والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٥٢)- الأثر (٤١٩)، وذكر طرقه ابن كثير وقال: «وهذه طرق جيدة يقوي بعضها بعضًا»، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤١)

(٣) كما تقدم في حديث عبدالله بن حنظلة قريبًا.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٠).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ١٩- ٢٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٣٠)، «المغني» (١/ ١٩٧- ١٩٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤١).

(٦) كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- الذي أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٨)، ومسلم في الحيض (٣٣٣).

(٧) كما في حديث أنس المتقدم.

للسنة المتواترة ولإجماع الصحابة[١].

٥- أن الطهارة شرط لصحة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية وهذا عام في كل صلاة فرضًا كانت أو نفلًا، أو غير ذلك فمن صلى بدون طهارة مع قدرته لم تصح صلاته بل ذهب بعض أهل العلم إلى أنه يكفر لأنه مستهزئ بآيات الله وجمهور العلماء على أنه لا يكفر لكن صلاته باطلة.

٦- عظم أمر الصلاة ومكانتها من بين سائر العبادات لأن الله أوجب الطهارة عند القيام إليها، ولم يجمع العلماء على أن شيئًا من العبادات تجب له الطهارة إلا الصلاة وما عداها ففيه خلاف كالطواف[٢].

٧- أنه لا يجب الوضوء إلا بعد دخول الوقت وإرادة القيام إلى الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٨- أنه لا يجب الوضوء عند أي قيام، لأكل كان أو غيره إلا القيام إلى الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كنا عند النبي ﷺ فجاء من الغائط وأتى بطعام فقيل له: ألا تتوضأ؟ فقال: لِمَ؟ أأصلي فأتوضأ»[٣].

واختلف أهل العلم في حكم الوضوء لمس المصحف، والطواف على قولين؛ الجمهور على وجوب ذلك.

٩- أنه لا يجب غسل الكفين في مقدمة الوضوء قبل غسل الوجه؛ لأنه لم يذكر في الآية، لكنه مستحب بدليل السنة[٤] وقيل إنه واجب[٥].

١٠- أنه لا يجب الاستنجاء بالماء؛ لأنه لم يذكر في الآية ولكن يستحب؛ لقوله تعالى في

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٦٧- ٣٧٨).

(٢) اختلف أهل العلم في سجود التلاوة والشكر هل تشترط لهما الطهارة أو لا، والأولى كونهما على طهارة.

(٣) أخرجه مسلم في الحيض (٢٧٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٧٦٠)، والنسائي في الطهارة (١٣٢)، والترمذي في الأطعمة (١٨٤٧). وانظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤١).

(٤) سيأتي في صفة وضوئه ﷺ من حديث عبدالله بن زيد وحديث علي والمقدام بن معديكرب وغيرهم.

(٥) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٤).

سورة التوبة: ﴿فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [الآية:١٠٨] فهذا ثناء على أهل قباء حيث كانوا يتبعون الحجارة بالماء(١).

١١- وجوب غسل الوجه في الوضوء، وأنه فرض من فروض الوضوء، بل هو أول فروض الوضوء؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، ومن الوجه البياض بين العارض والأذنين(٢) وكذا المسترسل من اللحية(٣).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٠٥- ٤٠٦)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥١- ١٥٤).
والمعنى: أن الاستنجاء، وهو غسل الفرجين بالماء ليس من فروض الوضوء؛ وإلا فإن إزالة ما خرج من السبيلين واجب سواء بالماء أو الحجارة. انظر: «المغني» (١/ ٢٠٦- ٢٠٩).

(٢) وعلى هذا عامة أهل العلم، وقال مالك: إنه ليس من الوجه فلا يلزم غسله، وقيل: يستحب غسله. انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٦٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٦٤)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٠٨).

(٣) وقيل بعدم وجوب غسل المسترسل من اللحية. انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١٥)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣).
والصحيح أن الشعر النابت على الوجه منه كشعر اللحية والعارضين يجب غسله فإن كان كثيفًا كفى غسل ظاهره، وإن كان خفيفًا حيث ترى البشرة من ورائه وجب إيصال الماء إلى البشرة.
ويستحب تخليل اللحية الكثيفة وذلك بإدخال الماء بحيث يصل إلى منابت الشعر لما روى أبووائل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يخلل لحيته»، أخرجه الترمذي في الطهارة (٣١)، وقال: «حديث حسن صحيح» وابن ماجه في الطهارة (٤٣٠) وصححه الألباني، ونسبه ابن كثير لأحمد وقال: «حسنه البخاري». انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤).
وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفًا من ماء فأدخله تحت حنكه فخلل به لحيته. وقال: «**هكذا أمرني به ربي- عز وجل**» أخرجه أبودود في الطهارة (١٤٥)، وابن ماجه في الطهارة (٤٣١)، قال ابن كثير: «تفرد به أبوداود، وقد روي هذا من غير وجه عن أنس»، وقال القرطبي: «الأحاديث في تخليل لحيته ﷺ من وجوه ضعيفة» وصححه الألباني.
وقد روى الطبري في تخليلها عن جمع من الصحابة والتابعين. وقال البيهقي: «وروينا في تخليل اللحية عن عمار بن ياسر وعائشة وأم سلمة عن النبي ﷺ ثم عن علي وغيره، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر والحسن بن علي، ثم عن النخعي وجماعة من التابعين» قال القرطبي: «باتفاق الفقهاء غير واجب، وقيل: واجب».
انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٠- ٣٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢م٣٦)، «سنن البيهقي» (١/ ٥٤)، «المغني» (١/ ١٤٨- ١٤٩)، «الجامع لأحكام القرآن الكريم» (٦/ ٨٣- ٨٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤).

١٢- شرف الوجه لأن الله بدأ به وقدمه[١].

١٣- وجوب المضمضة والاستنشاق؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾؛ لأن الفم

---

(١) وتستحب التسمية عند البدء في الوضوء لما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- وغيره عن النبي ﷺ قال: «**لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**».

وهذا الحديث أخرجه أبوداود في الطهارة (١٠١)، وابن ماجه في الطهارة (٣٩٩)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وأخرجه ابن ماجه في الطهارة (٣٩٧)، وأحمد (٢/ ٤١٨)، والدارمي في الطهارة (٦٩١)، من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه.

قال ابن كثير: «وتستحب التسمية عند البدء بالوضوء لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ قال: «**لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**» «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣). وقد صحح هذا الحديث الألباني.

وإلى هذا القول وهو أن التسمية سنة ذهب جمهور أهل العلم منهم أبوحنيفة والشافعي وأحمد في رواية عنه اختارها الخرقي والموفّق، وابن المنذر وقالوا: معنى الحديث على القول بصحته: لا وضوء كامل لمن لم يذكر اسم الله عليه. واستدلوا على عدم وجوبها بعدم ذكرها في الآية.

ومن أهل العلم من ذهب إلى وجوب التسمية لهذا الحديث وما في معناه منهم الإمام أحمد في المشهور عنه وإسحاق، ومنهم من قال واجبة عند الذكر تسقط عند النسيان. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٥٧- ٣٥٨، ٣٩٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٨١)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٤)، «المغني» (١/ ١٤٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٠٠).

كما يستحب أن يغسل كفيه ثلاثًا قبل إدخالها في الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم لحديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثًا، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده**» أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٢)، ومسلم في الطهارة (٢٧٨)، وأبوداود في الطهارة (١١٣)، والنسائي في الطهارة (١٦١)، والترمذي في الطهارة (٢٤)، وابن ماجه في الطهارة (٣٩٣).

وليس في الآية دليل لمن ذهب إلى أن إزالة النجاسة غير واجبة حيث لم يذكر الاستنجاء في الآية وذكر الوضوء ولو كانت واجبة لذكرها قبله كما هو قول بعض أهل العلم.

والصحيح أن إزالة النجاسة واجبة، وهو قول جمهور أهل العلم، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: مرَّ النبي ﷺ بقبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين فغرز في كل قبر واحدة. قالوا: يا رسول الله لم فعلت هذا؟ قال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**» أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٨)، ومسلم في الطهارة (٢٩٢)، وأبوداود في الطهارة (٢٠)، والنسائي في الطهارة (٣١)، والترمذي في الطهارة (٧٠)، وابن ماجه في الطهارة (٣٤٧).

والأنف من الوجه، وقد دلت السنة أيضًا القولية والفعلية على وجوب غسل الوجه والمضمضة والاستنشاق، قال ﷺ: «**إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء، ثم لينتثر**»(١).

وفي رواية: «**إذا توضأ أحدكم فليستنشق بمنخريه من الماء، ثم لينتثر**»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه توضأ فغسل وجهه ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة من ماء وغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء ثم غسل بها رجله اليمنى، ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ»(٣).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى عدم وجوب المضمضة والاستنشاق في الوضوء، وإنما تستحبان، وإلى هذا ذهب الحنفية والشافعية.

قال ابن كثير(٤): «وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق فاختلف أهل العلم هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب الإمام أحمد- رحمه الله، أو مستحبان فيهما كما هو مذهب الشافعي ومالك لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصححه ابن خزيمة عن رفاعة بن رافع الزرقي- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال للمسيء في صلاته: «**توضأ كما أمرك الله**» أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد...».

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٠)، ومسلم في الطهارة (٢٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جاء هذا في بعض روايات مسلم.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤٠)، وفي حديث عثمان- رضي الله عنه- في صفة وضوء النبي ﷺ: «ثم مضمض واستنشق».

(٤) في «تفسيره» (٣/ ٤٤)، وانظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابن هانئ (١/ ١٦)، «جامع البيان» (١٠/ ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٤٢، ٤٤- ٤٥»، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٣٧- ٣٣٨، ٣٩٣)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٣٦)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٤)، «المغني» (١/ ١١٨)، «الشرح الكبير» (١/ ١٢٦- ١٢٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٤).

١٤- أنه يكفي إجراء الماء على الوجه وكذا ما بعده ولا يشترط لذلك الدلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ والغسل هو إجراء الماء على العضو، وليس من مسماه الدلك فلو انغمس في ماء ثم خرج منه كفاه ذلك وقيل: يشترط الدلك(١).

١٥- وجوب غسل اليدين إلى المرفقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، أي: مع المرافق(٢).

وفي الحديث أنه ﷺ «كان يغسل ذراعه حتى يشرع في العضد ويغسل رجليه حتى يشرع في الساق»(٣).

١٦- أن السنة في غسل اليدين الابتداء من الأصابع إلى المرافق لا العكس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾(٤).

١٧- أن اليد عند الإطلاق هي الكف فقط؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ ولو كانت اليد عند الإطلاق إلى المرفق لم يكن لهذا القيد فائدة.

ومما يدل على أن اليد إذا أطلقت هي الكف: أن يد السارق تقطع من مفصل الكف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]. وكذلك التيمم يمسح فيه الكف فقط؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ [النساء:٤٣، المائدة:٦](٥).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٦٣)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٣٣- ٣٩٣)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٣١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٦٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٣).

(٢) ويستحب تخليل أصابع اليدين والرجلين، كما دلت السنة على ذلك. انظر ما يأتي في الفائدة الحادية والعشرين، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٨٠)، «المغني» (١/ ١٥٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٧).

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء، ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد، ثم يده اليسرى حتى أشرع في العضد، ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ».

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ١٢٦).

(٥) انظر: «المغني» (١/ ١٤٢).

١٨- وجوب مسح جميع الرأس مرة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ والباء هنا للإلصاق، والمعنى: وامسحوا بجميع رؤوسكم.

وعلى هذا دلت السنة في صفة وضوئه ﷺ وأنه ﷺ مسح رأسه كله مرة واحدة، فعن حمران مولى عثمان، عن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ فأفرغ على يديه ثلاثًا، فغسلهما، ثم مضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثًا ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثًا، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى ثلاثًا، ثم اليسرى مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا»(١).

وقال رجل لعبدالله بن زيد بن عاصم- وكان من أصحاب النبي ﷺ: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبدالله بن زيد: نعم، فدعا بماء فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين ثم مضمض واستنشق ثلاثًا ثم غسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر(٢)، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه»(٣).

وعن عبد خير عن علي- رضي الله عنه- في صفة وضوء النبي ﷺ نحو هذا(٤).

وعن المقدام بن معد يكرب في صفة وضوئه ﷺ مثله(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) وفي رواية للبخاري: «أدبر بهما وأقبل» في الطهارة (١٩٩)- وقد دل هذا الحديث على صفة المسح وأنه يكون باليدين، ويبدأ بمقدم رأسه إلى قفاه، ثم يردهما إلى حيث بدأ، لكن لو اكتفى بالمسح بأحدى يديه أجزأه ذلك وهل يجب رد اليدين في مسح الرأس؟ اختلف في هذا، قال القرطبي: «الإجماع منعقد على استحسان المسح باليدين معًا، وعلى الإجزاء إن مسح بيد واحدة» «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٨٥- ١٨٦، ١٩٩)، ومسلم في الطهارة (٢٣٥)، وأبوداود في الطهارة (١١٨)، والنسائي في الطهارة (٩٧)، والترمذي في الطهارة (٣٢)، وابن ماجه في الطهارة (٤٣٤).

(٤) أخرجه أبوداود في الطهارة (١١١، ١١٢)، والنسائي في الطهارة (٩٣، ٩٤، ٩٥)، والترمذي في الطهارة (٤٨، ٤٠٤). وصححه الألباني.

(٥) أخرجه أبوداود في الطهارة (١٢١، ١٢٢)، وابن ماجه في الطهارة (٤٤٢) وصححه الألباني.

وإلى هذا القول بوجوب مسح جميع الرأس ذهب طائفة من أهل العلم، وهو مذهب مالك[١] وأحمد بن حنبل[٢] في المشهور عنهما.

قال ابن كثير[٣] بعد ذكره لحديث عبدالله بن زيد بن عاصم، وإشارته لحديث عبد خير عن علي وحديث المقدام بن معد يكرب في صفة وضوئه ﷺ قال: «ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لاسيما على قول من قال: إنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن».

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا يجب مسح جميع الرأس، بل يكفي مسح بعضه واستدلوا بقوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقالوا: «الباء للتبعيض» فالمعنى: وامسحوا بعض رؤوسكم[٤].

واحتجوا بحديث المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: «تخلف النبي ﷺ، فتخلفت معه فلما قضى حاجته، قال: أمعك ماء؟ فأتيته بمطهرة، فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر ذراعيه، فضاق كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبيه فغسل ذراعيه ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه»[٥].

واختلفوا في تحديد هذا البعض فذهب الحنفية إلى أن الواجب مسح ربع الرأس، أو مقدار ثلاثة أصابع أو مقدار الناصية[٦].

وذهب الشافعية إلى أن الواجب ما يطلق عليه اسم المسح ولا يتقدر ذلك بحد،

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٦٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٧).

(٢) انظر: «المغني» (١/ ١٧٥).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٤٦).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٨- ٥٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٤١، ٣٩٣).

(٥) أخرجه البخاري في الوضوء (١٨٢)، وفي اللباس (٥٧٩٩)، ومسلم في الطهارة (٢٧٤)، وأبوداود في الطهارة (١٤٩)، والنسائي في الطهارة (٨٢)، والترمذي في الطهارة (٩٧)، وابن ماجه في الطهارة (٣٨٩).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٤١).

بل لو مسح ثلاث شعرات أو بعضها، أو شعرة أو بعضها[١] أجزأه. وحكي عن أحمد أنه لا يجزئ إلا مسح أكثره[٢].

وقد أجاب القائلون بوجوب مسح جميع الرأس عن القول بأنه يكفي مسح بعض الرأس، وأن الباء في قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ للتبعيض بأن هذا ليس بصحيح؛ لأن الباء لا تأتي في اللغة للتبعيض.

وأجابوا عن احتجاج هؤلاء بحديث المسح على الناصية بأنه ﷺ لم يكتف بمسح الناصية بل كمل مسح بقية الرأس على العمامة[٣]، ومسح العمامة في الأصل كاف بذاته كما وردت الأحاديث بأنه كان يمسح على العمامة[٤] وعلى الخفين[٥].

والراجح القول الأول وهو وجوب مسح جميع الرأس؛ لأنه ظاهر القرآن الكريم، مع دلالة السنة عليه، وهي بيان للقرآن، فكل الذين نقلوا صفة وضوئه ﷺ نقلوا أنه مسح رأسه كله[٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٧]: «اتفق الأئمة كلهم على أن السنة مسح جميع الرأس كما ثبت في الأحاديث الصحيحة والحسنة عن النبي ﷺ فإن الذين نقلوا وضوءه لم ينقل عنه أحد منهم أنه اقتصر على مسح بعض رأسه، وما يذكره بعض

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥١)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٣٩- ٤٠)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٤٣٦).

(٢) انظر: «المغني» (١/ ١٧٧).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٨)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٥).

(٤) كما في حديث ثوبان- رضي الله عنه- قال: «بعث النبي ﷺ سرية فأصابهم البرد، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم النبي ﷺ أن يمسحوا على العصائب والتساخين» أخرجه أبوداود في الطهارة (١٤٦)، وصححه الألباني. والعصائب: العمائم، والتساخين: الخفاف.

(٥) كما في حديث المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- عند البخاري في الوضوء (١٨٢)، ومسلم في الطهارة (٢٧٤)، وأبوداود في الطهارة (١٤٩- ١٥٢)، والنسائي في الطهارة (١٢٣- ١٢٥)، والترمذي في الطهارة (٩٧)، وابن ماجه في الطهارة (٥٤٥)، والأحاديث في المسح على الخفين متواترة.

(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٠- ٥٧١).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٢- ١٢٣)، وانظر: (٢١/ ٤٠٨).

الفقهاء أنه توضأ ومسح على ناصيته إنما هو بعض الحديث الذي في الصحيح من حديث المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ توضأ عام تبوك ومسح على ناصيته... وهذا القول هو الصحيح فإن القرآن ليس فيه ما يدل على جواز مسح بعض الرأس فإن قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ نظير قوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ لفظ المسح في الآيتين وحرف الباء في الآيتين فإذا كانت آية التيمم لا تدل على مسح البعض مع أنه بدل عن الوضوء، وهو مسح بالتراب لا يشرع فيه تكرار فكيف تدل على ذلك آية الوضوء مع أن الوضوء هو الأصل والمسح فيه بالماء المشروع فيه التكرار، هذا لا يقوله من يعقل ما يقول. ومن ظن أن من قال بإجزاء البعض؛ لأن الباء للتبعيض، أو دالة على القدر المشترك فهو خطأ أخطأه على الأئمة، وعلى اللغة وعلى دلالة القرآن...».

وقال أيضًا[1]: «وإذا سلم لهم منازعو وجوب الاستيعاب في مسح التيمم كان في مسح الوضوء أولى وأحرى لفظًا ومعنى، ولا يقال: التيمم وجب فيه الاستيعاب؛ لأنه بدل عن غسل الوجه، واستيعابه واجب لأن البدل إنما يقوم مقام المبدل في حكمه لا في وصفه، ولهذا المسح على الخفين بدل من غسل الرجلين، ولا يجب فيه الاستيعاب مع وجوبه في الرجلين».

والواجب في مسح الرأس مرة واحدة إقبالًا وإدبارًا، كما هو ظاهر الآية، وكما دلت عليه الأحاديث السابقة حديث عثمان، وحديث عبدالله بن زيد، وحديث علي، وحديث المقدام بن معد يكرب- رضي الله عنهم، وغيرها من الأحاديث في صفة وضوئه ﷺ.

وكما جاء مصرحًا به في بعض روايات حديث عثمان: «ومسح رأسه مرة واحدة»[2] وكذا في حديث علي رضي الله عنه.

وقد ذهب الشافعي في المشهور عنه إلى تكرار المسح ثلاث مرات، وهو رواية عن

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٥).

(٢) كما في لفظ أبي داود في الطهارة (١٠٨).

أحمد[١] مستدلًا بما جاء في حديث عثمان رضي الله عنه: «فتوضأ ثلاثًا ثلاثًا»[٢] وفي رواية أبي داود: «ثم مسح رأسه ثلاثًا، ثم غسل رجليه ثلاثًا ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ هكذا، قال: ومن توضأ دون هذا كفاه»[٣].

قال القرطبي[٤]: «والصحيح الذي تدل عليه الأدلة مرة واحدة».

وعامة أهل العلم على أنه يكفي مسح الرأس مرة واحدة، وجمهورهم على أنه لا يستحب مسحه ثلاثًا؛ لأن مسحه مرة واحدة هو الثابت من فعله ﷺ وهو الموافق لصفة الممسوحات كلها كالمسح على الخفين وعلى الجبيرة والعمامة، وكالمسح في التيمم، ولأن المسح إذا كرر صار كالغسل.

قال ابن تيمية[٥]: «وما يفعله بعض الناس من أنه يمسح بعض رأسه، بل بعض شعره ثلاث مرات؛ خطأ مخالف للسنة المجمع عليها من وجهين: من جهة مسحه بعض رأسه فإنه خلاف السنة باتفاق الأئمة، ومن جهة تكراره، فإنه خلاف السنة على الصحيح، ولا خلاف بين الأئمة أن مسح جميع الرأس مرة واحدة أولى من مسح بعضه ثلاثًا».

١٩- وجوب مسح الأذنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾؛ لأن الأذنين من الرأس، وعلى هذا دلت السنة في صفة وضوئه ﷺ، وكما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «**الأذنان من الرأس**»[٦].

---

(١) انظر: «المغني» (٢/ ١٧٨).

(٢) كما جاء عند مسلم في الطهارة (٢٣٠).

(٣) أخرجه أبوداود في الطهارة (١٠٧، ١١٠)، وقال: «الأحاديث عن عثمان الصحاح كلها تدل على مسح الرأس أنه مرة، فإنهم ذكروا الوضوء ثلاثًا، وقالوا فيها: ومسح رأسه، ولم يذكروا عددًا كما ذكروا في غيره» «سنن أبي داود» (١/ ٨٠).

وقال ابن كثير بعد سياقه الحديث: «تفرد به أبوداود» ثم قال: «وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح مرة واحدة» «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٦- ٤٧). وانظر: «البحر المحيط» (٣/ ٤٣٧).

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٨- ٨٩)، وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٤).

(٥) في «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٦- ١٢٧).

(٦) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٤٥)- وصححه الألباني.

فيمسح بفضل ماء رأسه باطنهما بسبابته وظاهرهما بإبهاميه. وعلى هذا عامة أهل العلم منهم أبو حنيفة[١] ومالك[٢] وأحمد[٣].

وقيل: يمسحهما بماء جديد، وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم منهم الشافعي[٤].

٢٠- أخذ بعضهم من قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ أنه لا يجوز غسل الرأس بدلًا من مسحه، وأكثر أهل العلم أنه يجزئه الغسل قالوا: لأن الغاسل أتى بما أمر به، وزيادة عليه[٥].

لكن لا شك أن الأولى أن يكتفي المتوضئ بمسح الرأس دون غسله إذ إن فرضه المسح، وما كان فرضه المسح لا ينبغي أن يجعل مغسولًا؛ لأن هذا من الغلو، كما أن ما فرضه الغسل لا يجوز، بل ولا يجزئ بحال أن يجعل ممسوحًا، لأن هذا من التفريط.

٢١- وجوب غسل الرجلين مع الكعبين[٦]؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ على قراءة نصب اللام في قوله: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ بالاتفاق، وعلى قراءة من قرأ «وأرجلِكم» بجر اللام باعتبار الجر على المجاورة لقوله: ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾ وإلا فهو معطوف على قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ أو أنه معطوف على قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ والمراد بمسح الأرجل الغسل الخفيف، أو الغسل مع إمرار اليد.

فقراءة النصب نص في وجوب غسل الرجلين، وقراءة الخفض محمولة عليها[٧].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٥- ٥٧٦)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٨٧، ٩٠).

(٣) انظر: «المغني» (١/ ١٨٣).

(٤) انظر: «المهذب» (١/ ٢٥).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٣)، «المغني» (١/ ١٨٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٠).

(٦) سبق في الحديث: «أن النبي ﷺ كان يغسل رجليه حتى يشرع في الساق».

(٧) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٧، ٥٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨).

قال الجصاص بعد أن ذكر القراءتين[١]: «لا خلاف بين فقهاء الأمصار أن المراد الغسل».

وعلى هذا وهو أن فرض الرجلين هو الغسل دلت السنة؛ وهي تفسر القرآن، وذلك في الأحاديث القولية والفعلية التي رواها جمع من الصحابة- رضي الله عنهم- في صفة وضوئه ﷺ، كحديث عثمان بن عفان وعبدالله بن زيد وعلي بن أبي طالب والمقدام بن معد يكرب- رضي الله عنهم[٢]- ومن السنة القولية ما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ويل للأعقاب من النار**» وفي رواية: «**ويل للعراقيب من النار**» وفي رواية: «**ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار**»[٣].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن رجلًا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ فقال: «**ارجع فأحسن وضوءك**» فرجع ثم صلى»[٤].

---

(١) في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٤٥)، وانظر: (٢/ ٣٩٣).

(٢) سبق تخريجها.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٥)، ومسلم في الطهارة (٢٤٢)، والنسائي في الطهارة (١١٠)، والترمذي في الطهارة (٤١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٥٣)، وأحمد (٢/ ٢٨٢، ٢٨٤).

وأخرجه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه البخاري في العلم (٩٦)، وفي الوضوء (١٦٣)، ومسلم في الطهارة (٢٤١)، وأبوداود في الطهارة (٩٧)، والنسائي في الطهارة (١١١)، وابن ماجه (٤٥٠)، وأحمد (٢/ ١٩٣، ٢٠١)، وأخرجه من حديث عائشة- رضي الله عنها- مسلم (٢٤٠)، وابن ماجه (٤٥١، ٤٥٢)، وأحمد (٦/ ٨١، ٩٩)، وغيرهم.

وأخرجه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، ابن ماجه (٤٥٤)، وأحمد (٣/ ٣١٦، ٣٦٩، ٣٩٠).

وأخرجه من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء- رضي الله عنه- أحمد (٤/ ١٩١)، والدارقطني في الطهارة (١/ ٩٥)، والبيهقي في «سننه» (١/ ٧٠)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٠): «إسناده صحيح».

وأخرجه من حديث معيقيب- رضي الله عنه- أحمد (٣/ ٤٢٦، ٥/ ٤٢٥)، والطبري (١٠/ ٧١)- الأثر (١١٥١٩).

وأخرجه من حديث أبي أمامة- رضي الله عنه- الطبري (١٠/ ٧٣- ٧٤) الأثر (١١٥٢٥- ١١٥٢٦).

وأخرجه ابن ماجه في الباب السابق (٤٥٥)، من حديث خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص رضي الله عنهم.

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٤٣)، وأبوداود في الطهارة (١٧٣)، وابن ماجه في الطهارة (٦٦٦).

إلى غير ذلك من الأحاديث[١].

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ونحوها ظاهرة على أن فرض الرجلين هو الغسل، ولو كان فرضهما هو المسح لما توعد على ترك الاستيعاب؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل كما في المسح على الخفين.

وقد أمر ﷺ بتخليل الأصابع كما في حديث لقيط بن صبرة[٢]، والمستورد بن شداد[٣] وابن عباس[٤] وأبي أيوب[٥] مطولًا ومختصرًا، وفي حديث أبي هريرة وغيره: «**إذا غسل قدميه خرجت الخطايا من قدميه**»[٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٧]: «غسل القدمين في الوضوء منقول عن النبي ﷺ نقلًا متواترًا؛ منقول عمله بذلك، وأمره به...».

وقد ذهب الرافضة إلى أن فرض الرجلين هو المسح مستدلين بقراءة من قرأ بخفض «وأرجلِكم»[٨].

وقولهم هذا باطل[٩] مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب غسل

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٠- ٥٤).

(٢) أخرجه من حديث لقيط أبوداود في الطهارة (١٤٢)، والترمذي في الطهارة (٣٨) وقال: «حديث حسن صحيح» وابن ماجه في الطهارة (٤٤٨)، وأحمد (٤/ ٣٣)، والحاكم في الطهارة (١/ ١٤٧)، والبيهقي في الطهارة (١/ ٧٦) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه من حديث المستورد بن شداد أبوداود في الطهارة (١٤٨)، والترمذي في الطهارة (٤٠)، وابن ماجه في الطهارة (٤٤٦)، وأحمد (٤/ ٢٢٩)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- الترمذي في الطهارة (٣٩)، وابن ماجه (٤٤٧) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في الطهارات (١/ ١٢).

(٦) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٤٤)، وأخرجه أيضًا في صلاة المسافرين (٦٣٢)، من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه.

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٨).

(٨) انظر: «مجمع البيان» للطبرسي (٢/ ٣٨)، «تفسير الصافي» (١/ ١٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٨).

(٩) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٣)، «المغني» (١/ ١٨٤- ١٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٧٤)، «الرد على الرافضة» لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ص(٥١- ٥٢).

الرجلين. فأما مخالفته للكتاب فلأن القرآن دل على وجوب غسل الرجلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فعلى قراءة نصب «أرجلَكم» هي معطوفة على الوجوه والأيدي، والمعنى: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم وامسحوا برؤوسكم، ودلالة الآية على هذه القراءة على أن فرض الرجلين هو الغسل ظاهرة لا إشكال فيها، ولهذا قال جمع من السلف من الصحابة والتابعين «عاد الأمر إلى الغسل».

كما أن القراءة بجر «وأرجلِكم» توافق قراءة النصب في الدلالة على أن فرض الرجلين هو الغسل، وذلك على قول من قال: «أن المراد بمسح الأرجل: الغسل، أو الغسل الخفيف، أو أن العطف في هذه القراءة على قوله: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ وإنما جرت «وأرجلِكم» على هذه القراءة لمجاورتها المجرور وهو قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾».

كما أن في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ دلالة على أن فرض الرجلين هو الغسل، دون المسح، ووجه ذلك أن الله حدده إلى الكعبين، كما حدد غسل اليدين إلى المرافق، ولم يجئ في شيء من المسح تحديد، قال تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾، ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ﴾.

كما أن في تثنية الكعبين دلالة على أن المراد بالكعبين: العظمان الناتئنان في جانبي الساق لا معقد الشراك، كما يقوله الرافضة، ولو كان المراد بالكعب معقد الشراك لقال إلى الكعاب؛ لأنه ليس في الرجل الواحدة إلا معقد واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ لأنه ليس في اليد إلا مرفق واحد.

وأيضًا فإن العظم المستدير الذي تحت الساق حيث يكون مفصل الكعب والقدم خفي، وليس بظاهر، بخلاف العظمين الناتئين فهما معلومان لكل أحد[1].

وأما مخالفة قولهم للسنة فإن السنة المتواترة دلت على أن فرض الرجلين هو

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٨).

الغسل ولم ينقل عنه ﷺ أنه اكتفى بمسح رجليه، ولو مرة واحدة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «ومن مسح على الرجلين فهو مبتدع مخالف للسنة المتواترة، وللقرآن، ولا يجوز لأحد أن يعمل بذلك مع إمكان الغسل. و«الرجل» إذا كانت ظاهرة وجب غسلها، وإذا كانت في الخف كان حكمها كما بينته السنة».

وقال ابن كثير[٢]: «ومن أوجب من الشيعة مسحهما- يعني القدمين- كما يمسح الخف فقد ضل وأضل، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضًا».

وما روي عن بعض السلف مما يوهم القول بالمسح كقول أنس رضي الله عنه: «نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل»[٣] وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الوضوء غسلتان ومسحتان»[٤] وما روي عن ابن عمر، وبعض التابعين من أن المراد بقوله: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلِكم إلى الكعبين» هو المسح[٥]- فكل ذلك- والله أعلم- محمول على أن مرادهم بالمسح الغسل الخفيف.

قال ابن كثير[٦] بعد أن ذكر بعض هذه الآثار: «فهذه آثار غريبة جدًا وهي محمولة

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٤).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٤٩).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٨) الأثر (١١٤٧٥)- قال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح» «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٨).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٨) عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «ما أجد في كتاب الله إلا مسحتين وغسلتين» وأخرجه الطبري الأثر (١١٤٧٤) عن ابن عباس بلفظ: «الوضوء غسلتان ومسحتان» وعن ابن أبي حاتم عن ابن عباس (وأرجلِكم إلى الكعبين) قال: «هو المسح» أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير، انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٨).

(٥) ذكر ذلك عنهم ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير، انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٩).

(٦) في «تفسيره» (٣/ ٤٩) وقال ابن كثير أيضًا: «ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي حيث قال عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتي بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن ناسًا يكرهون الشرب قائمًا وإن رسول الله صنع ما صنعت، وقال: هذا وضوء من لم يحدث» أخرجه البيهقي في «سننه» في الطهارة (١/ ٧٥) قال ابن كثير: «رواه البخاري في الصحيح عن آدم ببعض معناه».

على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين».

٢٢- أن حد تطهير الرجلين إلى الكعبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، وهما العظمان الناتئان في أسفل الساق، خلافًا للرافضة القائلين بأن تطهيرهما إلى حد العظم الناتئ في ظهر القدم.

٢٣- أن السنة في غسل الأرجل الابتداء بالأصابع إلى الكعبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

٢٤- جواز المسح على الخفين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ على قراءة الجر، على القول بأن الأرجل معطوفة على الرؤوس وأن المراد المسح على الأرجل إذا كان عليهما خفان أو نحوهما من الحوائل[1]، كما ثبت بالتواتر عن النبي ﷺ مشروعية المسح على الخفين، قولًا منه وفعلًا، وأجمع عليه المسلمون[2].

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٦٦- ٢٧٢)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٤٨، ٣٩٣)، «معالم التنزيل» (٢/ ١٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٨).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٠٠- ١٠٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٩، ٥٤).

وقد خالف الرافضة إجماع الأمة وما دلت عليه السنة المتواترة في جواز المسح على الخفين، مع أنه ثابت من رواية علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- وغيره، وليس لهم في ذلك مستند ولا دليل صحيح. انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٤).

وقد توهم بعض السلف أن هذه الآية الموجبة لغسل الرجلين ناسخة لرخصة المسح على الخفين. والصحيح أنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على خفيه بعد نزول هذه الآية كما في حديث همام عن جرير بن عبدالله البجلي قال همام: «بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم رأيت رسول الله ﷺ بال، ثم توضأ، ومسح على خفيه» قال الأعمش: «قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة»، أخرجه البخاري في الصلاة (٣٨٧)، ومسلم في الطهارة (٢٧٢)، وأبوداود في الطهارة (١٥٤)، والنسائي في الطهارة (١١٨)، والترمذي في الطهارة (١٣)، وابن ماجه في الطهارة (٥٤٣).

وعن جرير قال: «أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت»، أخرجه أبوداود في الطهارة (١٥٤)، وأحمد (٤/ ٣٦٣)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٦٩)، الحديث (٤٣٥).

٢٥- أن «الرِّجل» عند الإطلاق تطلق على ما دون الكعبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ إذ لو كانت تطلق إلى الكعبين لم يكن لهذا التقييد بقوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فائدة، فالرجل عند الإطلاق حدها مفصل العقب ولهذا تقطع الرجل في حد الحرابة من مفصل العقب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [المائدة:٣٣] وهذا مطلق.

٢٦- أن الواجب غسل الأعضاء مرة واحدة؛ لأن الله لم يذكر فيها العدد وقد رُوي أن النبي ﷺ توضأ مرة مرة(١) وكان الأكثر من فعله ﷺ غسل الأعضاء ثلاثًا ثلاثًا(٢) أما مسح الرأس فالثابت عنه ﷺ مسحه مرة واحدة من مقدمة الرأس إلى قفاه ثم يعود إلى مقدمته(٣)، وهذا ما عليه جمهور أهل العلم خلافًا للشافعي(٤).

٢٧- وجوب الترتيب بين فروض الوضوء، وهو قول جمهور أهل العلم، منهم الشافعي(٥) أحمد(٦) وبعض المالكية(٧) وغيرهم.

وقد استدلوا عليه بالآية من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: من قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية فقوله: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ هو جواب للشرط: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ وجواب الشرط كما أنه مرتب على فعل الشرط ينبغي أن يكون في نفسه مرتبًا.

---

(١) كما في حديث عبدالله بن عمر، الذي أخرجه ابن ماجه في الطهارة قال: «رأيت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك توضأ واحدة واحدة» حديث (٤١٢). وحسّنه الألباني.

(٢) كما في حديث عثمان وغيره وقد سبق تخريجه.

(٣) كما في حديث عبدالله بن زيد وغيره وقد سبق.

(٤) راجع الفائدة الثامنة عشرة.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٤٤)، «معالم التنزيل» (٢/ ١٧)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢١).

(٦) انظر: «مسائل الإمام أحمد» لابنه صالح (١/ ١٤٢، ٣/ ٢٠٧- ٢٠٨)، «المغني» (١/ ١٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٠٧).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٦١٥٦٢).

قال الرازي[١]: «قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يقتضي وجوب الابتداء بغسل الوجه لأن الفاء للتعقيب، وإذا وجب الترتيب في هذا العضو وجب في غيره؛ لأنه لا قائل بالفرق..».

وقال ابن القيم[٢]: «إن هذه الأفعال هي جزاء فعل واحد مأمور به، وهو الوضوء، فدخلت الواو عاطفة لأجزاء بعضها على بعض لفعل واحد يحصل به ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب إذ هو الربط المذكور في الآية».

الوجه الثاني: أن الله أدخل الممسوح وهو: «الرأس» بين المغسولات فقطع النظير عن نظيره، ولا يعلم لهذا فائدة إلا الترتيب[٣].

الوجه الثالث: قالوا: إن الله ذكرها مرتبة على هذه الكيفية، فيجب البداءة بما بدأ الله به، كما قرأ ﷺ لما صعد الصفا: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] ثم قال: «**أبدأ بما بدأ الله به**»[٤] وفي رواية: «**ابدؤوا بما بدأ الله به**»[٥]. فهذا لفظ أمر وإسناده صحيح فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به[٦].

وقد ذهب بعض أهل العلم- منهم أبوحنيفة[٧] ومالك[٨]- إلى عدم وجوب الترتيب قالوا: فإذا أتى بغسل الأعضاء على أي وجه أجزأه ذلك.

---

(١) في «التفسير الكبير» (١١/ ١٢١).

(٢) في «بدائع الفوائد» (١/ ٦٩- ٧٠).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٤٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٧٨)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣١)، «بدائع الفوائد» (١/ ٦٩- ٧٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٨).

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في المناسك (٢٩٦٢)، والترمذي في الحج (٨٦٢)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٥) أخرجها النسائي في المناسك (٢٩٦٢).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٨).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٩٤).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٦١)، «بداية المجتهد» (١/ ١٦- ١٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٨- ٩٩).

والصحيح القول بوجوب الترتيب لدلالة الآية على ذلك والسنة الفعلية المنقولة في صفة وضوئه ﷺ حيث جاءت كلها على نحو ما دلت عليه الآية من غسل الوجه ثم اليدين ثم مسح الرأس ثم غسل الرجلين(١).

وعلى هذا فلو أخل الترتيب بأن توضأ منكسًا أو قدم عضوًا على الآخر لم يصح وضوؤه(٢).

٢٨- أن الترتيب مخصوص بين الأعضاء الأربعة المذكورة في الآية. أما ما عداها فلا يجب فيه الترتيب، فلو قدم الاستنشاق على المضمضة، أو العكس، أو قدمهما على غسل الوجه، أو العكس. أو قدم مسح الرأس على مسح الأذنين أو العكس صح وضوءه، وكذا إن قدم اليسرى على اليمنى في غسل اليدين والرجلين صح ذلك(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ وقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فلم يأمر بتقديم اليمنى على اليسرى، ولكن الأولى تقديم اليمنى على اليسرى؛ لأن التيامن أفضل «لأنه ﷺ كان يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله»(٤).

٢٩- وجوب الموالاة في غسل أعضاء الوضوء- وهي أن لا يؤخر غسل عضو حتى ينشف الذي قبله بزمن معتدل(٥)؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية وجه ذلك أن الشرط يعقبه المشروط؛ لأن هذه الأعضاء ذكرت في الآية معطوفة على جواب الشرط ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾، والشرط يعقبه

---

(١) سبق ذكر طائفة من هذه الأحاديث.

(٢) وقيل: يسقط الترتيب بالنسيان. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٢١- ٤٢٣).

(٣) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه هانئ (١/ ١٤)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٦)، «المغني» (١/ ١٥٣، ١٧١)، «صحيح مسلم» بشرح النووي (٣/ ١٦).

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٦، ١٦٨)، ومسلم في الطهارة (٢٦٨)، وأبوداود في اللباس (٤١٤٠)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٢١)، والترمذي في الطهارة (٦٠٨)، وابن ماجه في الطهارة (٤٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) انظر: «المغني» (١/ ١٩٢).

المشروط، ويترتب عليه، وكذلك ما عطف على المشروط، من قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾، وما بعده، فله حكم المعطوف عليه، وهو المشروط من حيث كونه يعقب ما قبله ويترتب عليه.

وهو قول أحمد(١) ورواية عن مالك(٢) واختاره ابن العربي(٣) والقرطبي(٤).

وذهب بعض أهل العلم إلى عدم وجوب الموالاة، منهم أبوحنيفة(٥)، والشافعي(٦) ومالك في رواية عنه(٧).

والصحيح وجوب الموالاة لدلالة الآية، وما كان عليه العمل في السنة من ترتيب غسل هذه الأعضاء والموالاة بينها، ومن حيث النظر فإن الوضوء عبادة واحدة فإذا لم يوال بين غسل أعضائه وفصل بينها بوقت طويل كساعة أو ساعات لم يظهر كونها عبادة واحدة، وعلى هذا فإذا لم تحصل الموالاة بين هذه الأعضاء في الغسل بطل الوضوء، ووجبت إعادته من جديد ففي الحديث: «أن النبي ﷺ رأى رجلًا يصلي وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة»(٨).

وعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أن رجلًا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ فقال: «**ارجع فأحسن وضوءك**»(٩).

---

(١) انظر: «المغني» (١/ ١٩٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٨١)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٨).

(٣) في «أحكام القرآن» (٢/ ٥٨١).

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٨).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٥٦).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٤٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٢).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٨١)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٨).

(٨) أخرجه أبوداود في الطهارة (١٧٥)، وابن ماجه في الطهارة (١٣٨)، وأحمد (١/ ٢٤٣، ٣/ ٤٢٤)، من حديث سعد بن خالد عن بعض أصحاب النبي ﷺ. وصححه الألباني.

(٩) سبق تخريجه.

وقد اختار شيخ الإسلام ابن تيمية القول بوجوب الموالاة إلا إذا تركها لعذر مثل عدم تمام الماء قال: «هذا القول هو الأظهر والأشبه بأصول الشريعة، وبأصول مذهب أحمد وغيره، وذلك أن أدلة الوجوب لا تتناول إلا المفرط- يعني حديث صاحب اللمعة ونحوه»(١).

٣٠- وجوب تطهير البدن من الجنابة وذلك بغسله كله عند القيام إلى الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ وهذا عام لجميع البدن ومن ذلك المضمضة والاستنشاق عند طائفة من أهل العلم منهم أبوحنيفة(٢) وأحمد(٣)، قالوا: لأن قوله: ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ يشمل جميع البدن بما في ذلك الفم والأنف.

وقد ذهب طائفة من أهل العلم منهم مالك(٤) والشافعي(٥) إلى عدم وجوب المضمضة والاستنشاق في الغسل.

٣١- أنه لا يجب الترتيب في الغسل، فبأي جهة من بدنه بدأ أجزأه ذلك؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٥- ١٣٩).

هذه هي فروض الوضوء مجملها ستة فروض: غسل الوجه واليدين ومسح الرأس وغسل الرجلين، وهذه الأربعة بنص القرآن، والخامس: الترتيب، وقد دلت عليه الآية بأكثر من وجه. والسادس: الموالاة، وقد استدل لها أيضًا من الآية.

أما شرط الطهارة فهو «النية» وقد دلت عليه الآية وعلى ذلك كله دلت السنة النبوية.

وأما سنن الوضوء فمنها: التسمية، ومن أهل العلم من يرى وجوبها- كما سبق، ومنها: تكرار غسل الأعضاء أكثر من مرة إلى ثلاث مرات، ومنها: تقديم اليمين على اليسار، ومنها: تخليل اللحية والأصابع، ومنها: السواك وغير ذلك من السنن وكلها دلت عليه السنة.

ومنها: الدعاء عقب الوضوء لحديث عقبة بن عامر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ، فيبلغ الوضوء أو يسبغ الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» أخرجه مسلم في الطهارة (٢٣٤)، وأبوداود في الطهارة (١٦٩)، والنسائي في الطهارة (١٤٨)، والترمذي في الطهارة (٥٥)، وابن ماجه في الطهارة (٤٧٠).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٦٦، ٣٩٤).

(٣) انظر: «المغني» (١/ ٢٨٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٩٩).

(٤) انظر: «بداية المجتهد» (١/ ٤٥).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٤٦- ٤٧)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٠- ١٣١).

﴿فَاطَّهَّرُواْ﴾، ولقوله في آية سورة النساء: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ [الآية:٤٣]، وهذا كله مطلق. وقال ﷺ للرجل الذي أصابته جنابة كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: «**خذ هذا فأفرغه على نفسك**»(١) ولم يفصل له ﷺ كيف يغتسل فلو انغمس الجنب ببدنه كله بالماء ناويًا رفع الحدث أجزأه ذلك بشرط المضمضة والاستنشاق.

لكن الأولى الأخذ بصفة غسله ﷺ كما في حديث عائشة- رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء فيخلل بها أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاث حثيات ثم يفيض الماء على جلده كله»(٢).

٣٢- أنه لا يجب على الجنب إذا أراد الصلاة إلا الاغتسال فقط ولا يلزمه الوضوء، بل يغتسل ويصلي وإن لم يتوضأ، ولا يلزمه أن ينوي رفع الحدثين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ والتقدير: إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم جنبًا فتطهروا بالغُسل، فدل هذا على دخول الطهارة الصغرى في الطهارة الكبرى، وأن الاغتسال كاف وحده في الطهارة لأداء الصلاة.

فإن نوى رفع الحدثين الأكبر والأصغر فلا إشكال وكذا إن نوى استباحة الصلاة؛ لأن الصلاة لا تستباح إلا بارتفاع الحدثين، وإن نوى رفع الحدث الأكبر فقط فمن أهل العلم من قال: لا يجزئ عن الحدث الأصغر.

قال ابن تيمية(٣): «وهو المشهور في مذهب أحمد، وظاهر مذهبه أن ذلك يجزئه كما

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل (٢٤٨)، ومسلم في الحيض (٣١٦)، وأبوداود في الطهارة (٢٤٣)، والنسائي في الطهارة (٢٤٤)، والترمذي في الطهارة (١٣٢)، وابن ماجه في الطهارة (٣٧٦).

وفي حديث أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: يا رسول الله إني امرأة أشد ضفر رأسي أفأنقضه لغسل الجنابة؟ قال: «لا إنما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات، ثم تفيضين الماء عليك فتطهرين» أخرجه مسلم في الحيض (٣٣٠)، وغيره. وفي حديث جابر- رضي الله عنه- أن وفد ثقيف قالوا: يا رسول الله إن أرضنا باردة فكيف بالغسل؟ فقال: أما أنا فأفرغ على رأسي ثلاثًا» أخرجه مسلم في الحيض (٣٢٨) وغيره.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٦).

هو قول الجمهور».

والجمهور على أنه يجزئه[١] وهو الراجح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «والقرآن يدل على أنه لا يجب على الجنب إلا الاغتسال، وأنه إذا اغتسل جاز له أن يقرب الصلاة، والمغتسل من الجنابة ليس عليه نية رفع الحدث الأصغر.. والقرآن يقتضي أن الاغتسال كاف، وأنه ليس عليه بعد الغسل من الجنابة حدث، بل صار الأصغر جزءًا من الأكبر، كما أن الواجب في الأصغر جزء من الأكبر، فإن الأكبر يتضمن غسل الأعضاء الأربعة».

واستدل ابن تيمية على هذا من السنة بقوله ﷺ لأم عطية واللواتي غسّلن ابنته: «**ابدأن بميامنها، ومواضع الوضوء منها**»[٣] قال: «فجعل غسل مواضع الوضوء جزءًا من الغسل لكنه يقدم كما تقدم الميامن».

كما استدل بما نقله الصحابة من صفة وضوئه ﷺ، كما في حديث عائشة- رضي الله عنها: «أنه ﷺ كان يتوضأ ثم يفيض الماء على شعره ثم على سائر بدنه»[٤].

قال ابن تيمية[٥]: «ولا يقصد غسل مواضع الوضوء مرتين، وكان لا يتوضأ بعد الغسل، فقد دل الكتاب والسنة على أن الجنب والحائض، لا يغسلان أعضاء الوضوء، ولا ينويان وضوءًا، بل يتطهران ويغتسلان كما أمر الله تعالى».

٣٣- جواز التيمم للمريض الذي يتضرر باستعمال الماء، أو يشق عليه استعماله، أو يخاف الضرر باستعماله لبرد ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾ وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ فهذا يدل

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٤)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٠)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٩٩، ٣٩٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٧)، ومسلم في الجنائز (٩٣٩)، وأبوداود في الجنائز (٣١٤٥)، والنسائي في الجنائز (١٨٨٤)، والترمذي في الجنائز (٩٩٠)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٥٩)، من حديث أم عطية رضي الله عنها.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٧).

على أن المراد بالمريض الذي يتحرج من استعمال الماء وليس أي مريض، فمن به صداع في رأسه لا يضره استعمال الماء ويتمكن معه من استعمال الماء لا يجوز له بحال أن يتيمم(١)، خلافًا لما ذهب إليه بعض أهل العلم من جواز التيمم للمريض مطلقًا، حتى ولو كان لا يضره استعمال الماء(٢).

٣٤- جواز التيمم عند عدم الماء للمسافر وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ والتيمم عند عدم الماء جائز للمسافر وغيره وإنما خص المسافر بالذكر؛ لأن السفر مظنة لعدم الماء غالبًا.

٣٥- جواز الترخص برخص السفر بأي سفر، طويلًا كان أو قصيرًا، ما دام يطلق عليه سفر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وهذا مطلق يشمل كل ما يسمى سفرًا(٣).

٣٦- أن ﴿أَوْ﴾ تأتي بمعنى «الواو»؛ لقوله تعالى- هنا: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ إذ المعنى: وجاء أحد منكم من الغائط.

٣٧- أن من نواقض الوضوء الخارج من السبيلين من بول أو عذرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وهو عام في الخارج من السبيلين(٤).

٣٨- أن القرآن الكريم يكني عن الأشياء المستقبحة ولا يصرح بها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «المس:

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٦٧- ٣٦٨، ٣٩٤) للهراسي (٢/ ٤٧)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٩٩)، «إعلام الموقعين» (١/ ٢٦٨)، «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٥).

(٢) إذا كان العضو بعضه صحيحًا وبعضه جريحًا وجب غسل الصحيح والمسح على الجريح إن أمكن، فإن لم يمكن غسل الصحيح وتيمم عن الجريح على القول الصحيح، وإن كان على الجرح جبيرة مسح عليها بلا تحديد، سواء لبسها على طهارة أو على غير طهارة على الصحيح.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٨- ٣٩٩).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٦٨- ٣٩٥)، «التفسير الكبير» (١/ ١٣٣)، «إعلام الموقعين» (١/ ٢٦٨).

الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»[١].

وهكذا ينبغي للمسلم في جميع مخاطباته وكلامه أن يتأدب بآداب القرآن، وأن يبتعد عن التصريح بذكر ما يستقبح، وما تنفر منه النفوس[٢].

٣٩- ينبغي لمن أراد قضاء الحاجة أن يستتر عن أعين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

والغائط في الأصل هو المكان المنخفض من الأرض الذي يواري من فيه، وهذا من الأدب الذي كان عليه الناس ورغب فيه الإسلام.

ولا بأس إذا ستر الإنسان عورته أن يبول وحوله من يراه؛ لأن النبي ﷺ بال وحوله حذيفة رضي الله عنه، قال حذيفة «أتى النبي ﷺ سباطة[٣] قوم فبال قائمًا ثم دعا بماء فجئته بماء فتوضأ»[٤].

٤٠- أن من موجبات الغسل ملامسة النساء «الجماع»؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفي القراءة الثانية: «أو لَـمَسْتم النساء» والمراد بالقراءتين الجماع، لأن الله ذكر ناقضًا للوضوء، وهو الغائط، ثم أتبعه بذكر موجب للغسل وهو ملامسة النساء، يعني «الجماع».

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالملامسة في الآية الجس باليد ونحو ذلك، وأن ذلك ناقض للوضوء واستدلوا بقراءة «أو لَـمَسْتم» وبناء على هذا قالوا: إن مس المرأة ينقض الوضوء مطلقًا سواء كان بشهوة أو بدونها وممن ذهب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ما اعتاده كثير من الناس عند ذكر الغائط أو البول أو نحو ذلك من قولهم: «لكم الكرامة» أو «الله يكرمكم» هذا لم يرد فيه دليل من كتاب أو سنة، وقد كان النبي ﷺ يذكر هذه الأشياء بيانًا لأمته ولم يحفظ عنه ﷺ أنه كان يقول شيئًا من ذلك، ولو كان ذلك مشروعًا لكان ﷺ أولى الناس به. لكن لا ينكر على من قال ذلك، ولا على من تركه.

(٣) السباطة: المكان الذي يرمى فيه التراب والأوساخ. انظر: «النهاية» مادة: «سبط».

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٤)، ومسلم في الطهارة (٢٧٣)، وأبوداود في الطهارة (٢٣)، والنسائي في الطهارة (١٨٠)، والترمذي في الطهارة (١١)، وابن ماجه في الطهارة (٣٠٥).

إلى هذا الشافعي[١] وأحمد في رواية عنه[٢].

وذهب كثير من أهل العلم إلى أن مس المرأة لا ينقض الوضوء؛ لأن المراد بالملامسة واللمس في الآية الجماع، كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما[٣]- وغيره، ولأنه ثبت من حديث عائشة- رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ»[٤].

وعنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[٥].

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم أبوحنيفة[٦]، وأحمد في رواية عنه[٧]

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه إن كان المس بشهوة فإنه ينقض الوضوء وإن كان بغير شهوة فلا ينقض جمعًا بين الأدلة، وممن ذهب إلى هذا مالك[٨] وأحمد في

---

(١) انظر: «الأم» (١/ ١٢- ١٣)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٤٦)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٣٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) انظر: «العدة في أصول الفقه» (٣/ ١٠٤٥، ٤/ ١٤٢٠)، «المغني» (١/ ٢٥٧)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٢٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أبوداود في الطهارة (١٧٨)، والنسائي في الطهارة (١٧٠)، والترمذي في الطهارة (٨٦)، وابن ماجه في الطهارة (٥٠٢)، وأحمد (٦/ ٢١٠)، وقد ضعف هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان والبخاري والترمذي، وقال أبوداود: «مرسل إبراهيم التميمي لم يسمع من عائشة». وقال في «نصب الراية»: «سنده جيد». وصححه أحمد شاكر في شرحه للترمذي. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وابوداود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٧٣).

(٧) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٢٠)، «مرويات الإمام أحمد في التفسير» (١/ ٣٦٢)، «المغني» (١/ ٢٥٧)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٢٢، ٢٣٢).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٤٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٠).

المشهور عنه[١].

وأضعف هذه الأقوال: القول بأن اللمس ينقض الوضوء مطلقًا لمخالفته للصحيح من معنى الآية، ومخالفة ما جاء في السنة، ولما فيه من الحرج على الأمة، وأما القول بأنه لا ينقض فهو أقوى الأقوال من حيث دلالة الآية والسنة.

وأما القول بأن ما كان من اللمس بشهوة فهو ينقض وما كان بدونها فلا ينقض ففيه قوة من وجهين: الأول أن فيه جمعًا بين أدلة أصحاب القولين الأولين، والثاني أنه أحوط.

ولهذا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يذكر أن أضعف الأقوال قول من قال بأنه ينقض مطلقًا بينما نجده بالنسبة للقولين الأخيرين يقوي كلًا منهما.

ففي أحد المواضع قال[٢]: «والأظهر أنه لا ينقض، ولكن يستحب الوضوء منها» وفي موضع آخر[٣] ذكر أن أضعف الأقوال قول من قال ينقض مطلقًا ثم قال: «وليس في المسألة قول متوجه إلا هذا القول أو الذي قبله» يعني قول من قال ينقض إذا كان بشهوة، وقول من قال لا ينقض مطلقًا.

وقال في معرض تضعيف القول بالنقض مطلقًا[٤]: «فأما تعليق النقض بمجرد اللمس، فهذا خلاف الأصول، وخلاف إجماع الصحابة، وخلاف الآثار، وليس مع قائله نص ولا قياس. فمن زعم أن قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ يتناول اللمس وإن لم يكن بشهوة فقد خرج عن اللغة التي جاء بها القرآن، بل وعن لغة الناس في عرفهم، فإنه إذا ذكر اللمس، الذي يقرن فيه بين الرجل والمرأة علم أنه مس الشهوة.

وأيضًا فمن المعلوم أن مس الناس نساءهم مما تعم به البلوى، ولايزال الرجل يمس امرأته، فلو كان هذا مما ينقض الوضوء لكان النبي ﷺ بيَّنه لأمته، ولكان

---

(١) انظر: «المغني» (١/ ٢٥٦- ٢٥٧)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٢٢، ٢٣٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٢٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٣٢).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٣٣- ٢٣٦).

مشهورًا بين الصحابة، ولم ينقل أحد أن أحدًا من الصحابة كان يتوضأ بمجرد ملاقاة يده لامرأته، أو غيرها، ولا نقل أحد في ذلك حديثًا عن النبي ﷺ، فعلم أن ذلك قول باطل.

قال: والصحيح في المسألة أحد قولين إما الأول وهو عدم النقض مطلقًا، وإما القول الثاني: وهو النقض إذا كان بشهوة، وأما وجوب الوضوء من مجرد مس المرأة فهو أضعف الأقوال».

وقال أيضًا[١]: «وليس في نقض الوضوء من مس النساء لا كتاب ولا سنة، وقد كان المسلمون دائمًا يمسّون نساءهم، وما نقل مسلم واحد عن النبي ﷺ أنه أمر أحدًا بالوضوء من مس النساء، والمس بشهوة والوضوء منه حسن مستحب لإطفاء الشهوة، كما يستحب الوضوء من الغضب لإطفائه، وأما وجوبه فلا».

٤١- أن أعظم ما يوجب الوضوء هو قضاء الحاجة، وأغلظ ما يوجب الغسل هو ملامسة النساء؛ لأن الله خصهما بالذكر دون بقية نواقض الوضوء وموجبات الغسل[٢].

٤٢- ظاهر الآية أنه لا ينقض الوضوء إلا الخارج من السبيلين من بول أو عذرة، أي: ما خرج من القبل والدبر، وأن ما يخرج من البدن من غيرهما كالدم من رعاف وغيره وكالقيء، وغير ذلك لا ينقض الوضوء[٣].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٠١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٩- ٤٠٠).

(٣) اتفق أهل العلم على أن من نواقض الوضوء الخارج من السبيلين من بول أو غائط، بدليل الآية وبدليل السنة كما أن من نواقض الوضوء على الصحيح النوم المستغرق، بدليل السنة؛ لقوله ﷺ في حديث علي رضي الله عنه: «العين وكاء السه فمن نام فليتوضأ» أخرجه أبوداود في الطهارة (١٧٥)، وابن ماجه في الطهارة (٤٧٧) وحسنه الألباني. ولقوله ﷺ في حديث صفوان بن عسال: «**أمرنا ألا نخلع خفافنا ثلاثًا إلا من جنابة، ولكن من غائط وبول ونوم**» أخرجه النسائي في الطهارة (١٢٦، ١٥٨)، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٩)، وابن ماجه في الطهارة (٤٧٨) وحسنه الألباني.

ومن نواقض الوضوء خروج الريح؛ لقوله ﷺ: «**لا ينصرف أحدكم من صلاته حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا**»، أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٧)، ومسلم في الحيض (٣٦١)، وأبوداود في الطهارة (١٧٦)، والنسائي في الطهارة (١٦٠)، وابن ماجه في الطهارة (٥١٣)، من حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه.

واختلف في بقية النواقض، منها مس المرأة بشهوة، وقد سبق ذكر الخلاف في ذلك قريبًا.

=

٤٣- أن للمسافر أن يجامع أهله، وإن لم يجد الماء، ولا يكره ذلك بدلالة الآية[١] وحديث أبي ذر رضي الله عنه.

٤٤- وجوب طلب الماء والبحث عنه قبل التيمم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ ولا يقال: «لم يجد» إلا لمن طلب الشيء فلم يجده، ولأن التيمم بدل من الماء فلا يجوز الأخذ بالبدل إلا إذا لم يوجد المبدل منه، أو تعذر الأخذ به[٢] ويكون طلب الماء

=

ومنها مس الفرج باليد، قال ﷺ: «**ومن مس ذكره فليتوضأ**»، أخرجه أبوداود في الطهارة (١٨١)، والنسائي في الطهارة (١٦٣)، والترمذي في الطهارة (٨٢)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٧٩)، من حديث بسرة بنت صفوان رضي الله عنها. وصححه الألباني.

وفي حديث قيس بن طلق عن أبيه قال: «قدمنا على نبي الله ﷺ فجاء رجل كأنه بدوي فقال: يا نبي الله ما ترى في مس الرجل ذكره بعدما يتوضأ؟ فقال: «هل هو إلا مضغة منه، أو قال بضعة منه»، أخرجه أبوداود في الطهارة (١٨٢)، والنسائي في الطهارة (١٦٥)، والترمذي في الطهارة (٨٥)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٨٣). وصححه الألباني.

ولهذا اختلف العلماء؛ فمنهم من قال: ينتقض الوضوء بمس الذكر؛ لحديث بسرة. ومنهم من قال: لا ينتقض الوضوء؛ لحديث قيس بن طلق عن أبيه. ومنهم من قال: إذا كان مس الذكر بشهوة نقض الوضوء، وإذا كان بغير شهوة لم ينقض الوضوء جمعًا بين الأدلة.

ومنها: أكل لحم الجزور، والقول بنقضه للوضوء مما انفرد به الإمام أحمد؛ لحديث: «**توضؤوا من لحوم الإبل**»، أخرجه من حديث جابر بن سمرة مسلم في الحيض (٣٦٠)، وابن ماجه في الطهارة (٤٩٥) وأخرجه من حديث البراء بن عازب: أبوداود في الطهارة (١٨٤)، والترمذي في الطهارة (٨١)، وابن ماجه في الطهارة (٤٩٤). وصححه الألباني.

ومنها: الخارج الفاحش من البدن كالدم من رعاف وغيره، وكذا الصديد ونحو ذلك.

ومنها: تغسيل الميت، والردة عن الإسلام. وفي ذلك كله خلاف بين أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأظهر أنه لا يجب الوضوء من مس الذكر، ولا النساء، ولا النجاسات من غير السبيلين، ولا القهقهة، ولا غسل الميت، فإنه ليس مع الموجبين دليل صحيح، بل الأدلة الراجحة تدل على عدم الوجوب، لكن الاستحباب متوجه ظاهر، فيستحب أن يتوضأ من مس النساء لشهوة، ويستحب أن يتوضأ من الحجامة والقيء ونحوهما». «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٥٢٦- ٥٢٧)، وانظر: «المغني» (١/ ٢٣٠) وما بعدها، «التفسير الكبير» (١١/ ١٢٣).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٠٢).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٩، ٢٣٣).

في الأماكن القريبة منه بحيث لا يشق على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾.

وإذا طلب الماء فلم يجده حوله لم يلزمه الطلب مرة أخرى مادام في ذلك المكان.

أما لو صلى بالتيمم بدون طلب للماء فإن عليه الإعادة لتفريطه في الطلب.

٤٥- أنه لا يجب طلب الماء والبحث عنه إلا بعد دخول الوقت؛ لقوله تعالى- في أول الآية: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: بعد دخول وقتها، ثم قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾، أي: بعد البحث عنه وطلبه بعد دخول الوقت، لكن لو طلبه قبل دخول الوقت وتيقن من عدم وجوده حوله فلا يلزمه الطلب مرة أخرى، وقيل: يلزمه(١).

٤٦- أنه لا يشترط تأخير التيمم إلى أن يضيق الوقت بحثًا عن الماء فإذا طلب الماء ولم يجده حوله وبدون مشقة فإنه يتيمم ويصلي، ولو كان ذلك في أول وقت الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ وهذا مطلق بل إذا تيقن أنه لن يجد الماء جاز له التيمم حتى ولو قبل دخول الوقت(٢).

٤٧- إذا كان الاشتغال بالوضوء أو الغسل يخشى منه فوات الوقت فإنه لا يتيمم؛ لأنه واجد للماء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ وعلى هذا أكثر العلماء.

وقال مالك(٣) وبعض أهل العلم: يتيمم.

والأظهر القول الأول. هذا بالنسبة للصلوات الخمس بخلاف ما لو خاف فوات صلاة الجمعة أو صلاة الاستسقاء أو صلاة كسوف أو خسوف أو صلاة جنازة فإنه يتيمم(٤).

٤٨- أن كل ما يسمى «ماءً» يجوز التطهر به ويرفع الحدث ولو تغيَّر بشيء من

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٠/ ٩١، ١١/ ١٣٧).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٧٩، ٣٩٤)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٦- ١٣٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٣).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٩٩).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٤).

الطاهرات مادام يطلق عليه «ماء»؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾[١] وهذا عام؛ لأن «ماءً» نكرة في سياق النفي، فتعم كل ماء، فإن غلب عليه التغيّر فخرج عن مسمى الماء لم يصح التطهر به كاللبن والشاي والزعفران، ونحو ذلك.

وكذا إن تغير أحد أوصافه الثلاثة: طعمه، أو لونه، أو ريحه بنجاسة، كما دلت على ذلك السنة.

٤٩- أنه يشترط لصحة التيمم عدم وجود الماء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ فإن وجد الماء ولو بيعًا وعنده ثمنه لم يصح أن يتيمم[٢] ووجب عليه شراء الماء إذا كان بثمن المثل، فإن زاد عن ثمن المثل زيادة فاحشة لم يلزمه شراؤه[٣].

فإن كان عنده ما يكفي لشربه، ودوابه فقط، فهو بحكم عادم الماء[٤].

وكذا لو نسي الماء في رحله وتيمم، وصلى؛ لأنه بحكم من لم يجد الماء، عند طائفة من أهل العلم، منهم أبوحنيفة ومالك والشافعي في أحد قوليه، وقال بعضهم: تلزمه الإعادة، منهم أحمد والشافعي في القول الآخر[٥].

٥٠- أن من وجد ماءً قليلًا يكفي لغسل بعض الأعضاء، وجب عليه استعماله، وتيمم لما بقي من الأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ وهذا مذهب طائفة من أهل العلم، منهم أحمد وغيره، وقيل: إذا لم يكف الماء لجميع الأعضاء تيمم

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٥).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٢٦٨)، «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٤).

(٣) فإن تيمم ثم وجد الماء قبل الدخول في الصلاة بطل تيممه، وإن وجد الماء أثناء الصلاة توضأ، واستأنف الصلاة من جديد عند طائفة من أهل العلم، منهم أبوحنيفة، وغيره، وهذا هو الأحوط، وقال بعض أهل العلم: يمضي فيها، ولا يعيدها؛ لأنه دخلها قبل وجود الماء، وممن ذهب إلى هذا مالك والشافعي، فإن وجد بعد فراغه من الصلاة فلا إعادة عليه. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٤، ٣٩٥)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٤- ٢٣٥).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٩٩)، «إعلام الموقعين» (١/ ٢٦٨).

(٥) انظر: «المدونة» (١/ ١٤٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٤)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٨)، «المهذب» (١/ ٤١)، «المغني» (١/ ٣١٨).

وتركه، وإلى هذا ذهب أبوحنيفة والشافعي(١).

٥١- أن من مبطلات التيمم القدرة على استعمال الماء، إما بزوال المانع من استعماله من مرض ونحوه، وإما بوجود الماء بعد عدمه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾.

٥٢- أن التيمم يشرع للحدث، الأصغر والأكبر؛ لأن الله ذكر في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ذكر الطهارتين من الحدث الأصغر والحدث الأكبر بالماء ثم أتبع ذلك بذكر الطهارة من الحدثين بالتيمم فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الآية.

وفي حديث عمار- رضي الله عنه- أنه لما أصابته جنابة ولم يجد الماء تمرغ كما تتمرغ الدابة فقال له النبي ﷺ: «**إنما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض ومسح بهما وجهه وكفيه**»(٢).

وعن عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا معتزلًا لم يصل في القوم، فقال: «**يا فلان ما منعك أن تصلي في القوم؟ فقال: يا رسول الله أصابتني جنابة ولا ماء. قال: عليك بالصعيد فإنه يكفيك**»(٣).

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٧٤)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٠- ٥١)، «التفسير الكبير» (١٠/ ٩٢)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٣٧).

وإن حبس في مكان لا يقدر على ماء ولا على صعيد صلى حسب حاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

وقيل: يصلي ويعيد قاله الشافعي، وقال أبوحنيفة: لا يصلي حتى يقدر على الماء أو التراب. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٤). «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٤)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٩٥- ٤٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٨، ٣٤٧)، ومسلم في الحيض (٣٦٨)، وأبوداود في الحيض (٣٢١)، والنسائي في الطهارة (٣١٢)، وابن ماجه في الطهارة (٥٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في التيمم (٣٤٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٤٤٣).

فالجنب يتيمم كما يتيمم من عليه حدث أصغر، وهذا ما عليه جهور السلف والخلف، خلافًا لمن قال: لا يتيمم الجنب(١).

٥٣- أن التيمم لا يشرع لإزالة النجاسة على البدن أو الثوب أو البقعة؛ لأن الله لم يذكره، كما أنه لم يرد في السنة، خلافًا لمن قال من أهل العلم: إنه يتيمم عن النجاسة(٢).

٥٤- أن النية شرط لصحة التيمم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾، أي: اقصدوه، وقد قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»(٣).

٥٥- الإشارة إلى أن التيمم ضربة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾، أي: اقصدوه مرة واحدة وهذا ما تدل عليه الأحاديث الصحيحة كحديث عمار وغيره وإليه ذهب طائفة من أهل العلم، منهم الإمام أحمد(٤) وغيره.

وذهب الأئمة الثلاثة(٥) وغيرهم إلى أن التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة للذراعين مستدلين بحديث جابر رضي الله عنه: «التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة للذراعين إلى المرفقين» وما في معناه من أحاديث وآثار(٦).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٥١، ٣٩٩- ٤٠٠، ٤٠٣- ٤٠٥)، وما روي عن عمر وابن مسعود- رضي الله عنهما- من أن الجنب لا يتيمم فقد روي رجوعهما عنه.

انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٠٣- ١٠٤)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٥٠- ٣٥١).

وانظر الكلام على هذه المسألة مبسوطًا في فوائد ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣].

(٢) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ٥٦- ٥٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه صالح (٣/ ٢٤)، ورواية ابن هانئ (١/ ١٢).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٧-٣٨٨)، «التفريع في فقه الإمام مالك» ١/ ٣٣، «موطأ مالك، رواية محمد بن الحسن الشيباني» ص٤٩، «بداية المجتهد» ١/ ٧٦، «التوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب» ١/ ٢١١، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٧)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٠).

(٦) وكل هذه الأحاديث والآثار ضعيفة كما سيأتي بيان ذلك قريبًا، وانظر: «أضواء البيان» (٢/ ٤٢- ٤٣).

٥٦- جواز التيمم بكل ما صعد على وجه الأرض من تراب أو رمل أو حجر أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿صَعِيدًا﴾، والصعيد كل ما صعد على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف:٨]، وقال تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠]، وقال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل**». وفي رواية: «**فعنده مسجده وطهوره**»(١).

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم أبوحنيفة(٢) ومالك(٣)، والثوري والطبري(٤) قال الجصاص(٥): «يجزئ التيمم بكل ما كان من الأرض، التراب والرمل والحجارة والزرنيخ والنورة والسبخة والطين الأحمر، وما أشبه ذلك، وإن ضرب يده على صخرة أو حائط لا صعيد عليهما أجزأه في قول أبي حنيفة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا ﴾» والصعيد الأرض، وكل ما كان من الأرض فهو صعيدًا».

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا يصح التيمم إلا بتراب له غبار؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُ ﴾، و«من» للتبعيض، أي: أنه لابد من أن يعلق بالوجه واليدين شيء من الغبار وهذا لا يكون إلا في التراب، أما الرمل والحجر فلا، ولقوله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وتربتها طهورًا**» وإلى هذا ذهب الشافعي(٦)، وأحمد في رواية عنه(٧).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٩، ٣٩٤).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٦).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤١٠).

(٥) في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٨٩).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٧- ٥٨)، «معالم التنزيل» (٢/ ١٧)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٦).

(٧) وذهب أحمد في الرواية الثانية إلى أنه يجزئ التيمم بالتراب والرمل. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٦٤، ٣٦٥).

وذهب بعض أهل العلم إلى جواز التيمم بكل ما صعد على وجه الأرض سواء كان متصلًا بها أو غير متصل من حجر وشجر وغير ذلك(١).

ولا شك أن الأولى أن يكون التيمم بتراب له غبار فهذا أفضل وأحوط، لكن التيمم بغير ذلك من الأرض جائز؛ لقوله تعالى: ﴿صَعِيدًا﴾ وهو عام لوجه الأرض.

وأيضًا فإن «من» في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ يحتمل كونها لابتداء الغاية أو بيانية، أو أنها للإرشاد للأفضل، ولأن النبي ﷺ في أسفاره يمر بالأرض الرملية والأرض الجبلية والترابية، كما يمر بالأرض الممطورة، وما عهد عنه ﷺ أنه نقل التراب معه للتيمم فهذا هو الأيسر، والأرفق بالأمة.

ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ و﴿حَرَجٍ﴾ نكرة في سياق النفي، وزيدت قبلها ﴿مِّنْ﴾ فدل هذا على عموم نفي أي حرج، وتخصيص الصعيد بالتراب الذي له غبار لا يخلو من حرج؛ لأن كثيرًا من البلاد رملية وجبلية، ويؤيد ذلك أيضًا قوله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل**» وفي رواية: «**فعنده مسجده وطهوره**»(٢).

وأيضًا فإن قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ لم يذكر في سورة النساء وهي أقدم نزولًا من سورة المائدة، فلو كان الغبار شرطًا لذكرت ﴿مِّنْهُ﴾ في سورة النساء.

وفي حديث عمار رضي الله عنه: «فضرب بيديه الأرض ونفخ فيهما»(٢)، والنفخ يلزم منه أن يطير الغبار فكيف يقال إن ذلك شرط.

وفي حديث أبي الجهيم بن الحارث بن الصمة- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ أقبل من نحو بئر جمل، فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه، ثم رد السلام»(٣)، والجدار قد لا

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٣٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٣٦- ٢٣٨)، «أضواء البيان» (٢/ ٣٦- ٤١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٧)، ومسلم في الحيض (٣٦٩)، وأبوداود في الطهارة (٣٢٩).

يكون عليه غبار[١].

٥٧- يشترط في الصعيد الذي يتيمم به أن يكون طاهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾، والمراد به الطاهر ضد النجس فلو تيمم بتراب نجس لم يصح تيممه[٢].

٥٨- وجوب مسح الوجه في التيمم، واستيعابه؛ لقوله تعالى: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾[٣].

٥٩- وجوب مسح اليدين في التيمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيكُم﴾، وفي حديث عمار رضي الله عنه: «فمسح وجهه وكفيه».

٦٠- أن الأعضاء التي تمسح في التيمم هي الوجه واليدان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾، ولحديث عمار، وحديث جهيم بن الحارث بن الصمة- رضي الله عنهما، ففي كل منهما «ومسح وجهه ويديه»[٤].

٦١- مشروعية الترتيب والموالاة في التيمم بين الوجه واليدين؛ لقوله تعالى: ﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾، وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما صعد الصفا قال: «**أبدأ بما بدأ الله به**»[٥].

ولهذا ذهب الشافعي وجماعة إلى وجوبه.

---

(١) وقد أجاز طائفة من أهل العلم منهم الشافعي وأحمد والثوري التيمم على الفرش والوسائد إذا كان عليها غبار. انظر: «أضواء البيان» (٢/ ٣٦)، «شرح آية الطهارة» ص(٤٠).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٩٥).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥١).

(٤) سبق تخريجهما قريبًا، وبناءً على هذا إذا تيمم الإنسان، ولبس خفيه، ثم وجد الماء، فلا يمسح عليهما، لأن التيمم ليس من فروضه طهارة القدمين، ولهذا يتيمم الإنسان ولو كان عليه خفان، وسواء لبسهما على طهارة أو على غير طهارة، ولا يلزمه خلعهما، ولو دام عشر سنين، بخلاف الوضوء فإن من فروضه غسل القدمين، ومن شروط المسح على الخفين فيه أن يلبسهما على طهارة كاملة، كما في حديث المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: «فأهويت لأنزع خفيه فقال: **دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين**، فمسح عليهما» أخرجه البخاري في الوضوء (٢٠٦)، ومسلم في الطهارة (٢٧٤)، وأبوداود في الطهارة (١٥١)، والنسائي في الطهارة (٧٩)، والترمذي في الطهارة (٩٧)، وابن ماجه في الطهارة (٥٤٥).

(٥) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في المناسك (٢٩٧٤)، والترمذي في الحج (٨٦٢)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى عدم وجوب الترتيب[١]، بل ذهب بعض أهل العلم إلى تقديم مسح اليدين على الوجه في التيمم، لما جاء في إحدى روايات البخاري في حديث عمار رضي الله عنه: «فضرب بكفيه ضربة على الأرض، ثم نفضهما ثم مسح بهما ظهر كفه بشماله أو ظهر شماله بكفه ثم مسح بهما وجهه» الحديث[٢].

٦٢- أن اليد عند الإطلاق هي الكف فقط دون الذراع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].

فالتيمم بمسح اليدين فقط- أي: الكفين- ولهذا قال ﷺ لعمار: «**إنما يكفيك هكذا، وضرب بيديه الأرض ومسح بهما وجهه وكفيه**».

والقطع في السرقة من مفصل الكف لإطلاق قوله: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾.

ويؤيد هذا كله أنه لما كان فرض اليدين في الغسل يتعدى الكفين قيده- عز وجل- بقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾.

وإلى القول بأن المسح في اليدين للكفين فقط ذهب جمهور أهل العلم منهم مالك[٣] وأحمد[٤].

وذهب أبوحنيفة[٥] والشافعي[٦] إلى أن حد التيمم في اليدين إلى المرفقين للحديث: «التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين»[٧] قالوا:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٤٢٢- ٤٢٦)، «أضواء البيان» (٢/ ٤٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «بداية المجتهد» (١/ ٦٨- ٦٩)، «أضواء البيان» (٢/ ٤٢- ٤٤).

(٤) انظر: «زاد المسير» (٢/ ٩٥)، «المغني» (١/ ٣٣١).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٧- ٣٨٨).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٧)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٥)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٠)

(٧) أخرجه الدارقطني في «سننه» (١/ ١٧٩- ١٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٩- ١٨٠)، والبيهقي في «سننه» (١/ ٢٠٦- ٢٠٧)، من حديث جابر بن عبدالله، ومن حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: وقد صحح الدارقطني وقفه على ابن عمر، وجابر، وصحح الحاكم رفع حديث جابر، ووافقه الذهبي. وقد رواه أبوداود وغيره من حديث عمار رضي الله عنه، وفي إسناده: مجهول، وقد روي هذا الحديث من =

ولأنه بدل من الوضوء.

٦٣- أن صفة التيمم عن الحدث الأصغر والحدث الأكبر واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ وذلك؛ لأن طهارة التيمم طهارة تعبدية معنوية روعي فيها التخفيف.

٦٤- تيسير الله- عز وجل- على هذه الأمة في الشرع المطهر ونفي الحرج عنها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾.

ومن ذلك أن الله رخص للمريض، ولمن عدم الماء أن يتيمم عن الحدث الأصغر والحدث الأكبر، وجعل طهارة التيمم طهارة معنوية مخففة.

قال الجصاص[1]: «دل قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ على نفي كل ما أوجب الحرج، والاحتجاج به عند وقوع الخلاف على منتحلي مذهب التضييق».

وقال الشنقيطي[2]: «فالآية تدل على عموم النفي في كل أنواع الحرج، والمناسب لذلك كون «من» لابتداء الغاية؛ لأن كثيرًا من البلاد ليس فيه إلا الرمال أو الجبال، فالتكليف بخصوص ما فيه غبار يعلق باليد، لا يخلو من حرج في الجملة».

٦٥- أن المشقة تجلب التيسير؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ فحيث شق استعمال الماء إما للتضرر باستعماله، أو لعدمه رخص سبحانه بالانتقال إلى بدله، وهو التيمم، فإن لم يجد الماء ولا التراب، فإنه يصلي

=

حديث الأسلع وأبي أمامة وعائشة- رضي الله عنهم- وكلها أحاديث ضعيفة، بيّن الحافظ ابن حجر عللها وضعفها في «تلخيص الحبير» (١/ ١٥١- ١٥٣). قال الشنقيطي: «كل ما روي في هذا المعنى فهو بين ضعيف وموقوف لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين من حديث عمار في صفة التيمم» «أضواء البيان» (٢/ ٤٢- ٤٨). كما ضعف هذه الأحاديث الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ١٨٥).

(١) في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٩٦).

(٢) في «أضواء البيان» (٢/ ٣٦- ٣٧).

حسب حاله[١].

٦٦- إثبات الإرادة الشرعية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ والإرادة من الصفات الذاتية الثابتة لله عز وجل.

٦٧- فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة ورحمته بها حيث نفى عنها الحرج؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

وقال تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه: «**صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[٢]، فكلما وجدت المشقة وجد التيسير.

٦٨- أن التيمم مطهر رافع للحدث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، وفي الحديث قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[٣].

فمن تيمم عن الحدث الأصغر، أو عن الحدث الأكبر، ارتفع حدثه، وله أن يصلي ما شاء من الصلوات فرضًا أو نفلًا، ويقرأ القرآن ونحو ذلك، ما لم يحدث، أو يجد الماء. قال ﷺ: «**الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجد الماء فليتق الله وليمسه بشرته**»[٤].

وقال ﷺ للرجل الذي تنحى ولم يصلِّ لأنه جنب قال: «**عليك بالصعيد فإنه**

---

(١) ومثل هذا الترخيص للعاجز عن الصيام لكبر أو مرض لا يرجى برؤه بالانتقال إلى الإطعام وقد يكون الترخيص بتخفيف العبادة كما في صلاة المريض قال ﷺ: «**صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب**» أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧)، وابن ماجه (١٢٢٣)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١١٧)، وأبوداود في الصلاة (٩٥٢)، والنسائي في قيام الليل (١٦٦٠)، والترمذي في الصلاة (٣٧١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٣١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أبوداود في الطهارة (٣٣٢)، والنسائي في الطهارة (٣٢٢)، والترمذي في الطهارة (١٢٤)، من حديث أبي ذر- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وصححه الألباني.

يكفيك» فتيمم الرجل وصلى ثم جاء الماء فأمره النبي ﷺ أن يغتسل فقال: «**خذ هذا فأفرغه على نفسك**»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وقد اتفق المسلمون على أنه إذا لم يجد الماء في السفر تيمم وصلى إلى أن يجد الماء، فإذا وجد الماء فعليه استعماله».

وإلى هذا القول وهو أن التيمم مطهر رافع للحدث ذهب طائفة من أهل العلم، منهم أبوحنيفة(٣) وأحمد في رواية عنه(٤).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن التيمم مبيح فقط لفعل العبادة وليس رافعًا للحدث فإذا تيمم لفريضة وخرج وقتها لم يصلِّ به أخرى، وإذا تيمم لنفل لم يصلِّ به فريضة، وهكذا، وممن ذهب إلى هذا مالك(٥) والشافعي(٦) وأحمد في رواية عنه(٧).

والصحيح: أن التيمم مطهر، ورافع للحدث؛ لأن الله ذكر الطهارة بالماء ثم عطف على ذلك بذكر الطهارة بالتيمم بالتراب، عند تعذر استعمال الماء، إما للتضرر به أو لعدمه، فالتيمم بدل من الماء، والبدل يقوم مقام المبدل منه، وقد دل الكتاب والسنة على أن التيمم مطهر، وأنه طهور(٨)، ومعنى هذا أنه رافع للحدث كالماء، فكيف يقال: إنه مبيح لفعل العبادة فقط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٩): «ولنا أنه قد ثبت بالكتاب والسنة أن التراب طهور، كما أن الماء طهور» ثم ذكر ابن تيمية قوله ﷺ: «**الصعيد طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء فأمسَّه بشرتك**» الحديث. ثم قال: فجعله مطهرًا عند

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٥٠).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٨٢- ٣٨٣، ٣٩٥).

(٤) انظر: «المغني» (١/ ٣٤١)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٥٢، ٣٧٧).

(٥) انظر: «بداية المجتهد» (١/ ٧٢- ٧٣).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٥٥)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٣٧).

(٧) انظر: «المغني» (١/ ٣٢٩)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٥٢).

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٥١)، «أضواء البيان» (٢/ ٤٩- ٥٦).

(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٣٥٢- ٣٥٤).

عدم الماء مطلقًا، فدل على أنه مطهر للمتيمم ولم يقيد ذلك بوقت، ولم يقل إن خروج الوقت يبطله، كما ذكر أنه يبطله القدرة على استعمال الماء دل ذلك على أنه بمنزلة الماء عند عدم الماء، وهو موجب الأصول، فإن التيمم بدل عن الماء والبدل يقوم مقام المبدل في أحكامه، وإن لم يكن مماثلًا له في صفته كصيام الشهرين فإنه بدل عن الإعتاق، وصيام الثلاث والسبع فإنه بدل عن الهدي في التمتع، وكصيام الثلاثة الأيام في كفارة اليمين فإنه بدل عن التكفير بالمال والبدل يقوم مقام المبدل».

٦٩- فضل الوضوء والغسل والتيمم عند عدم الماء لما في ذلك من الطهارة الحسية والمعنوية من الأدران والأحداث ومن الخطايا والآثام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

قال ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**»[1] وقال ﷺ: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة...**» الحديث[2]، إلى غير ذلك من الأحاديث في هذا المعنى.

٧٠- إثبات الحكمة لله- عز وجل- فيما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ فاللام في الموضعين للتعليل فكل ما شرعه- عز وجل- لحكمة، وكل ما خلقه لحكمة، وعلى العبد أن يرضى ويسلم لما قدر الله وقضاه كونًا وشرعًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وفي هذا الرد على القائلين بأن أفعال الله- عز وجل- الكونية والشرعية ليست لحكمة وإنما هي لمجرد المشيئة.

٧١- أن ما شرعه الله- عز وجل- من الطهارة عن الحدثين الأصغر والأكبر بالماء أو بالتيمم من تمام نعمة الله- عز وجل- على العباد، وكذا كل ما شرعه من الأحكام

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، وابن ماجه في الطهارة (٢٨٠)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

لما في ذلك من تطهير الأبدان حسيًّا من الأدران والنجاسات ومعنويًّا من الخطايا والآثام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

٧٢- أن الله- سبحانه وتعالى- شرع الطهارة لعباده لتطهيرهم، ولإتمام نعمته عليهم لأجل أن يشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وذلك بطاعته بالعمل الصالح، بفعل ما أمرهم الله به واجتناب ما نهاهم عنه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]، وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣]، وقال ﷺ: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [المؤمنون:٥١]»(١).

* * *

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٩)، والدارمي في الرقاق (٢٧١٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الأمر للمؤمنين والأصل في الأمر الوجوب و﴿نِعْمَةَ﴾ اسم جنس لكل ما يتنعم به وهي هنا أيضًا مفرد مضاف فيعم كل نعمة من نعمة الإسلام والإيمان والقرآن وبعث محمد رسولًا عليه أفضل الصلاة والسلام وغير ذلك من النعم كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤ والنحل:١٨].

والمعنى: اذكروا نعم الله عليكم وتذكّروها؛ لتعرفوا عظيم فضله عليكم، وما حباكم به من النعم؛ ليسهل عليكم الانقياد لطاعته والقيام بما أوجب عليكم ومحبته، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وفي الحديث: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه**»(١).

أي: اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها؛ بالاعتراف بها بقلوبكم، والثناء على الله بها، والتحدث بها بألسنتكم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١١]، واستعمالها في طاعة الله تعالى بجوارحكم، والاستعانة بها على مرضاته.

﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾ معطوف على ما قبله، أي: اذكروا نعمته عليكم واذكروا ميثاقه الذي واثقكم به.

والميثاق: هو العهد المؤكد، أي: واذكروا عهده الذي عاهدكم به. ثم بينه بقوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أي: حين قلتم: سمعنا وأطعنا، والسماع يكون لما يقال، والطاعة تكون بامتثال الأمر واجتناب النهي.

والمعنى: سمعنا لقول الله تعالى وقول رسوله ﷺ وصدقنا بذلك، وأطعنا الله ورسوله بفعل ما يأمرنا الله به ورسوله، وترك ما ينهانا الله عنه ورسوله(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٧٨٩)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما، والحاكم فيما ذكر صاحب «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٦٦).

(٢) وقيل: المراد بالميثاق ما أخذه الله على اليهود في متابعة محمد ﷺ والإيمان بما جاء به، وقيل: ما أخذه الله =

وهذا يتضمن تصديق الخبر وامتثال الأمر واجتناب النهي والإيمان قولًا وعملًا واعتقادًا، وهو مقتضى الإيمان. عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره وترك نواهيه باطنًا وظاهرًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الجملة تعليلية، أي: اتقوا الله باطنًا وظاهرًا بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم فإنه عليم بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور(٢)، وهي القلوب؛ لأنها في الصدور، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

والمعنى: اتقوا الله باطنًا وظاهرًا، فإن الله- عز وجل- عليم بالقلوب التي في الصدور وما فيها من المكنونات والخفيات؛ لأن القلوب عليها مدار التقوى والصلاح قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**التقوى ههنا**» ويشير ﷺ إلى صدره(٣). وقال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(٤).

=

على بني آدم حين أخرجهم من ظهور آبائهم. والصحيح القول الأول. انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٩٢، ٩٣) «معالم التنزيل» (٢/ ١٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٧).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٨٦٦).

(٢) وتطلق «ذات» بمعنى الجهة والصلة، قال تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ [الأنفال:١] أي: جهة وصلة ما بينكم.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٣، ٥١٤٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأبوداود في البيوع (٣٤٣٨)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٩)، والترمذي في النكاح (١١٣٤)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي

=

وإذا كان سبحانه عالمًا بما في القلوب والبواطن فعلمه بالظواهر من باب أولى وفي هذا وعد ووعيد؛ وعد لمن اتقى الله ظاهرًا وباطنًا بالمثوبة والأجر العظيم، ووعيد لمن عصى الله بالعقوبة والعذاب الأليم.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب ذكر نعمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأن ذلك من أعظم الأسباب المؤدية إلى محبة الله تعالى، والتي تسهل الانقياد لطاعته، والقيام بأمره واجتناب نهيه، أي: اذكروا نعمة الله تعالى عليكم واشكروها.

٢- أن كل ما يتمتع به الخلق من النعم فهو من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ و﴿نِعۡمَةَ﴾ مفرد مضاف يعم كل نعمة، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

فما يتمتع به الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم حتى البهائم فهو من نعم الله تعالى العامة، ويختص المؤمنون بالنعمة الخاصة نعمة الإيمان ومعرفة الحق واتباعه وهي النعمة العظمى، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [النساء:٦٩]، وقال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧].

٣- أنه يجب على المؤمن أن يتذكر الميثاق، وهو العهد الذي واثق الله عليه حين دخل في الإيمان، والتزم بالسمع والطاعة، وتطبيق شرائع الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾.

٤- وجوب السمع والطاعة لله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾، أي: سمعنا سماع تدبر وتفهم وأطعنا طاعة امتثال وانقياد.

٥- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ومن ذلك تذكر نعمته وميثاقه؛

=

في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ بعد أن أمر بذكر نعمته وميثاقه.

٦- علم الله الشامل للباطن والظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: عليم بما تنطوي عليه القلوب التي في الصدور من الأسرار والخفيات وإذا كان عليمًا بأسرار القلوب فعلمه بالظواهر من باب أولى.

٧- أن مدار التقوى على القلب؛ لأن الله أمر بالتقوى، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وفي الحديث: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

٨- التهديد والوعيد لمن خرج عن تقوى الله، والوعد لمن اتقى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: فيثيب من اتقى الله بقلبه وجوارحه ويعاقب من خرج عن التقوى بقلبه وجوارحه.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٣٥].

﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أمر للمؤمنين، وهو أمر شرعي: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ جمع «قوام» على وزن «فعَّال» صيغة مبالغة أو صفة مشبهة، ويحتمل أن تكون نسبة للقيام، أي: ذوي قيام، أي: أهل قيام لله عز وجل، ويحتمل أن تكون للكثرة، أي: كثيري القيام لله.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾، أي: لله وحده، لا لغيره، أي: قوموا لله بما أوجبه عليكم بالحق والعدل مخلصين لله- عز وجل- في ذلك، رجاء في ثوابه وخوفًا من عقابه، لا لأجل الناس والسمعة، أو الانتقام من عدو، أو محاباة قريب، أو صديق، أو نحو ذلك.

﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ شهداء: حال من فاعل ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، أي: حال كونكم شهداء بالقسط.

أو: هو خبر ثان لـ«كان»، أي: كونوا قوامين لله وكونوا شهداء بالقسط، وشهداء: جمع شهيد، أو جمع شاهد.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل.

والمعنى: إذا شهدتم فاشهدوا بالعدل مع كل أحد، مع القريب والبعيد، والعدو والصديق حتى على النفس كما قال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥].

وعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: نحلني أبي نحلًا، فقالت أمي عمرة بن

رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي. فقال: «أكل ولدك نحلت مثله؟ قال: لا. قال: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، وقال: إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة»(١).

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، أي: لا يحملنكم، أو لا يكسبنكم.

﴿شَنَـَٔانُ﴾ قرأ ابن عامر ونافع في رواية إسماعيل وعاصم في رواية أبي بكر: «شَنْئان» بسكون النون الأولى. وقرأ بقية العشرة: ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بفتح النون(٢).

والشنآن: هو البغض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣] أي: إن مبغضك هو الأبتر.

والقوم: هم الجماعة من الناس ذكورًا وإناثًا، وقد يطلق ويراد به الذكور خاصة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١].

وإنما حمل هنا على الرجال خاصة لذكر النساء في الآية بمفردهن.

﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾، ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر، و«أن» حرف مصدري ونصب، و«لا» نافية، ﴿تَعْدِلُواْ﴾ فعل مضارع منصوب بـ«أن» وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، و«أن» وما دخلت عليه في محل جر والتقدير: على عدم العدل، أو على ترك العدل.

والمعنى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل والخروج إلى ضده وهو الجور.

أي لا يكسبنكم ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل اعدلوا مع كل أحد. قال بعض السلف: «ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه»(٣). والعدل قامت به السموات والأرض، فكما تشهدون لوليكم فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له حتى ولو كان كافرًا أو مبتدعًا، فإنه يجب العدل فيه،

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٨٧)، ومسلم في الهبات (١٦٢٣)، وأبوداود في البيوع (٣٥٤٢)، والنسائي (٣٦٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٧٥).

(٢) انظر: «المبسوط» ص(١٦١)، «الكشف» (١/ ٤٠٤)، «النشر» (٢/ ٢٥٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٢).

وقبول ما يأتي به من الحق، لا لأنه قاله، بل اتباعًا للحق والعدل.

قال ابن كثير[١]: «أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقًا كان أو عدوًا».

﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، أي: قوموا بالعدل، بإعطاء كل ذي حق حقه، حتى ولو كان ممن تبغضون.

﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، ﴿هُوَ﴾ ضمير يعود إلى مصدر الفعل ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، أي: العدل أقرب للتقوى. كقوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة:٢٣٧]، أي: فالعفو أقرب للتقوى.

قال ابن كثير[١]: «وقوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان:٢٤] وكقول بعض الصحابيات لعمر أنت أفظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ».

﴿أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ ولم يقل هو التقوى إشارة- والله أعلم- إلى أنه لا ينبغي أن يُدل الإنسان أو يَمُنَّ على الله بعمل عمله، ولأنه قد يكون هناك بعض القواطع والعوائق، التي قد تحول بين العامل أن يكون في عداد المتقين، وأن يكون عمله هو التقوى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، أي: واتقوا الله في جميع أموركم، وأحوالكم، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك القيام لله، والشهادة بالقسط والعدل وغير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ الجملة تعليلية، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾، أي: اتقوا الله باطنًا وظاهرًا؛ لأنه خبير بما تعملون.

﴿خَبِيرُۢ﴾، أي: ذو خبرة واسعة بما تعملون، والخبرة: هي العلم ببواطن الأمور وخفياتها ودقائقها، وإذا كان سبحانه وتعالى عالمًا بالبواطن والخفيات والدقائق، فعلمه بالظواهر والجليات والجلائل من باب أولى.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٥٨).

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي بالذي تعملونه، أو بعملكم، وهذا فيه وعد ووعيد، وعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمر الله وارتكب نهيه، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة:٩، ١٠].

قال الطبري(١): ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: «إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه من عمل به، أو خلاف له، محصٍ ذلك عليكم كله حتى يجازيكم به جزاءكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا الله أن تسيئوا».

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

بعدما أمر- عز وجل- بالقيام له وحده، والشهادة بالقسط والعدل وختم ذلك بالأمر بتقواه بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وعلل لذلك بأنه ذو خبرة بما يعمل العباد محصٍ عليهم جميع أعمالهم، أتبع ذلك ببيان ما أعده للذين اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، من المغفرة والأجر العظيم، وما أعده للذين جانبوا التقوى فكفروا وكذبوا من العذاب في الجحيم.

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾، ﴿وَعَدَ﴾ يكون في الخير- غالبًا- كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:٧٢].

وقد يكون في الشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:٦٨].

و﴿وَعَدَ﴾ هنا مستعملة في المعنيين؛ لأن المعنى: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بكذا، ووعد الله الذين كفروا وكذبوا بكذا.

---

(١) في «جامع البيان» (١٠/ ٩٧).

أما «أوعد» فيقال في الشر فقط قال الشاعر:

وإني إن أوعدتـــــه أو وعدتـــــه لأخلـف إيعـادي وأنجـز موعـدي(١)

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول أول لـ﴿وَعَدَ﴾، أي: وعد الله الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بما يجب الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها مما جاء في الكتاب والسنة.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، وحذف الموصوف وهو الأعمال وأبقى الصفة وهي ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن المهم في العمل أن يكون صالحًا. والعمل لا يكون صالحًا، إلا إذا توفر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص لله تعالى، والثاني: اتباع ما جاء عن الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥] فقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: أخلص العمل لله، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: متبع ما جاء عن الله، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الجملة في محل نصب مفعول ثانٍ لـ﴿وَعَدَ﴾، والتقدير: وعدهم أن لهم مغفرة، أو وعدهم مغفرة، والجملة هنا وقعت موقع المفرد، كما قال الشاعر:

وجـــدنا الصـــالحين لهـــم جـــزاءٌ وجنـــاتٍ وعينًـــا سلســـبيلا(٢)

والجملة: بيان وتفسير للوعد.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، أي: لذنوبهم، وذلك بسترها عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليها(٣) كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه**(٤) **فيقرره بذنوبه وفيه: «فيقول الله: أنا سترتها**

---

(١) البيت لعامر بن الطفيل. انظر: «لسان العرب» مادة: «وعد».

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١١٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٩٨).

(٤) قال في «النهاية» مادة: «كنف»: «حتى يضع عليه كنفه»، أي: يستره، وقيل: يرحمه ويلطف به.

عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته»(١).

ومنه سمي المغفر، وهو «البيضة» التي توضع على الرأس في القتال تستره وتقيه السهام(٢).

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أي: ولهم ثواب عظيم، لا يقدر قدره إلا الله العظيم، وهو الجنة، وما فيها من ألوان النعيم، وأعلى ذلك النظر إلى وجه الله الكريم كما قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. فالحسنى: المثوبة الحسنى، والجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم(٣).

فالسيئات تقابل بالمغفرة، والحسنات سبب للحصول على الأجر العظيم في الجنات.

وسمى الله جزاء المؤمنين أجرًا- وإن كان لا يجب على الله شيء لخلقه؛ لأنه عز وجل تكفل لهم بهذا الأجر، كما ألزم المستأجر بأجرة الأجير وإلا فإنه- عز وجل- لا يلزمه شيء لخلقه؛ لأن أعمالهم ليست عوضًا لحصول الأجر ودخول الجنة، وإنما هي سبب لذلك قال ﷺ: «**سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل أحدًا عملُه الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بمغفرة ورحمة**»(٤).

وقدم- عز وجل- المغفرة على الأجر العظيم؛ لأن التخلية قبل التحلية، فغفر لهم وطهرهم من الذنوب أولًا ثم آتاهم الأجر العظيم.

وبعد أن ذكر- عز وجل- ما أعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر العظيم، أتبع ذلك بذكر ما أعده للذين كفروا وكذبوا بآيات الله من العذاب في الجحيم فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الكفر معناه في اللغة: الستر والجحود والتغطية، ومنه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «غفر».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٩٨- ١٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

سمى الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر في الأرض وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد:٢٠]، أي: أعجب الزراع.

وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا لأنه يستر الأشياء بظلامه وهكذا(١).

والكفر جحود وإنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، أو شيء من ذلك، فهو ضد الإيمان لكن المراد بقوله هنا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الذين كفروا بما يجب العمل به من الأعمال الصالحة؛ لقوله بعده:

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: لم يصدقوا بآيات الله الشرعية التي جاءت بها الرسل الدالة على أن الشرع من عند الله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. ولم يصدقوا بآيات الله الكونية وهي خلق السموات والأرض وما بينهما وجميع ما في الكون وتدبير كل ما فيه من حركة أو سكون الدالة على أن لهذا الكون خالقًا ومالكًا ومدبرًا عظيمًا فكفروا بما يجب العمل به من التكاليف الشرعية، وكذبوا بما يجب التصديق والإيمان به من الأخبار الغيبية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والإشارة للذين كفروا وكذبوا بآيات الله.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ خبره. والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع، خبر للمبتدأ الأول وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: أهلها وسموا أصحابها لملازمتهم لها لا ينفكون عنها وعن صحبتها.

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ اسم من أسماء النار سميت به؛ لظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة توقدها وحرها(٢).

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «كفر».

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «جحم».

الفوائد والأحكام:

١- وجوب القيام لله بأداء ما أوجب والإخلاص له في الشهادة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق:٢].

٢- وجوب الشهادة بالعدل أيًّا كان المشهود عليه قريبًا أو بعيدًا عدوًّا أو صديقًا؛ لقوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥].

وقال ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل- وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(١).

٣- أن الحقوق الواجبة على المؤمن تنقسم إلى قسمين: حقوق لله تعالى بطاعته والقيام بأمره، وحقوق لعباد الله بالإحسان إليهم والشفقة عليهم فقوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ بأداء حقه وتعظيمه، شهداء بالقسط على عباد الله، وفي الآية الأخرى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٣٥] وهذا معنى الإحسان الذي يحبه الله ويأمر به إحسان في عبادة الله وإحسان إلى عباد الله.

٤- أن الدين الإسلامي دين العدل لهذا أوجب الشهادة بالعدل والقيام به على كل أحد ومع كل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل هو إعطاء كل ذي حق حقه وتنزيل كلٍّ منزلته التي يستحقها.

٥- أن البغض قد يوجد عند المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ لكن ينبغي أن يكون ذلك في الله.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض**

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٧)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٧٩)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، ولن يجد أحد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك»(١).

٦- لا يجوز أن يكون بغض الإنسان لقوم حاملًا له على عدم العدل معهم، وترك الحق حتى ولو كانوا كفارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ ولهذا قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: «حبي له- يعني: النبي ﷺ- وبغضي لكم لا يمنعني من أن أعدل فيكم»(٢).

قال الهراسي(٣): «أبان الله بأن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليهم، وأن يقتصر فيهم على المستحق من القتل والأسر، وأن المثلة بهم غير جائزة».

وإذا كان العدل واجبًا مع الكفار فالعدل مع غيرهم واجب من باب أولى.

قال ابن القيم(٤): «فإذا كان الله قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه ألا يعدلوا عليهم، مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم».

٧- الإشارة إلى أن من طبيعة النفس البشرية أنها قد تحملها الكراهة والبغض على ترك العدل، مع من تبغض، وربما حملها ذلك على ظلمهم لهذا ينبغي كبح جماح النفس، وإلجامها بلجام التقوى، والعدل في كل آن، ومع كل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾.

٨- نفوذ حكم العدو وشهادته على عدوه؛ لأن الله أمر بالعدل حتى مع من نبغض،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري فيما ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في «كتاب التوحيد». وأخرجه الطبراني، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم بعضه. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٤٧٩- ٤٨١)، «فتح المجيد» ص(٢٧٧- ٧٨). وفي حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله»** أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٦٠)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨٥).

(٣) في «أحكام القرآن» (٢/ ٦٠).

(٤) في «بدائع الفوائد» (٢/ ١٦٥- ١٦٦).

فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ فدل هذا على نفوذ حكم وشهادة العدو على عدوه(١).

٩- توكيد وجوب الأمر بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾.

١٠- أن العدل أقرب للتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

١١- أن الأعمال تتفاضل، منها ما يقرب من التقوى، ومنها ما يبعد عنها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة أن الأعمال تتفاضل، وكذا العمال يتفاضلون، وأن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، خلافًا لما عليه بعض أهل البدع كالمرجئة وغيرهم(٢).

١٢- الترغيب في التقوى والحث عليها، وأنها الغاية التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان وبها شرفه وكماله وكرامته؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

١٣- ينبغي على الإنسان مع قيامه بالعدل وبما أوجب الله أن يحذر من العوارض ومبطلات الأعمال كالرياء في العمل، أو أن يُدلّ على الله بعمله أو يُعجب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وجه ذلك أن الله قال: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ولم يقل: «هو التقوى» وفي الحديث: «**لن يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(٣).

١٤- توكيد الأمر بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٥- الوعد لمن اتقى الله والوعيد والتهديد لمن خالف تقوى الله؛ لقوله تعالى بعد الأمر بالتقوى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٦- علم الله- عز وجل- المحيط بالبواطن والظواهر، والدقائق والجلائل، والخفيات والجليات، من الأعمال وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٨٥).

(٢) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسير سورة المائدة» (١/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) سبق تخريجه.

١٧- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح وذلك ببيان ما وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩﴾.

١٨- أنه لابد من الإيمان والعمل الصالح معًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالإيمان بدون عمل لا ينفع، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون إن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان.

كما أن العمل وحده بدون إيمان لا ينفع، وما نفع المنافقين صلاتهم وجهادهم، بل وصحبتهم للرسول ﷺ لما كانوا فاقدي الإيمان، فهم كما ذكر الله في الدرك الأسفل من النار.

ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه.

١٩- أن المغفرة بيد الله- عز وجل- وهي صفة من صفاته؛ لقوله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].

٢٠- أن من جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات أن الله يغفر ذنوبهم ويطهرهم منها ولا يؤاخذهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾.

٢١- تفضل الله- عز وجل- وامتنانه على عباده حيث جعل ثوابهم بمنزلة الأجر فسماه «أجرًا» والتزم به لهم مع أنه سبحانه لا يلزمه شيء لهم، بل هو صاحب المنة عليهم أولًا وآخرًا.

٢٢- أن الله أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات الثواب العظيم الذي لا يقدر قدره إلا الله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

٢٣- أن التخلية قبل التحلية؛ لأن الله قدم المغفرة على الأجر العظيم؛ لأن بالمغفرة تخليتهم وتطهيرهم من الذنوب أولًا، ومن ثم تأتي التحلية بمنحهم الأجر، وهو ما أعده لهم من الثواب العظيم في جنات النعيم.

٢٤- بلاغة القرآن الكريم في جمعه بين الترغيب والترهيب، وذلك في المقابلة بين أهل

الإيمان والعمل الصالح، وما وعدوا به من المغفرة والأجر العظيم، وبين أهل الكفر والتكذيب وما أعد لهم من العذاب في الجحيم؛ وذلك ليجمع المؤمن بين الخوف والرجاء، فلا يأمن مكر الله، ولا ييأس ويقنط من رحمة الله.

٢٥- التحذير من الكفر والتكذيب بآيات الله، والتهديد والوعيد للذين كفروا وكذبوا بآيات الله بالجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

٢٦- أن الكفار والمكذبين بآيات الله مخلدون في النار؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: الملازمون لها.

٢٧- وجوب الإيمان بآيات الله، عملًا بأحكامها وتصديقًا بأخبارها؛ لأن الله توعد من كفر وكذب بها بالجحيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ نزل منزلًا، وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها، فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ، وأخذه، فسلَّه، ثم أقبل على النبي ﷺ، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله» قال ذلك الأعرابي مرتين أو ثلاثًا، والنبي ﷺ يقول: «الله». فشام الأعرابي السيف[1] فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه».

قال معمر: وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قومًا من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ، فأرسلوا هذا الأعرابي وتأول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾[2].

---

(١) سل السيف، واخترطه كما في بعض الروايات: أخرجه من غمده، شام الأعرابي السيف: بمعنى أغمده، أي أدخله في غمده- كما جاء أيضًا في بعض روايات الحديث عند مسلم وغيره.
وانظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة: «شيم».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٤٣)، وليس عندهما قوله: «قال معمر» إلى آخره. وأخرجه أحمد بألفاظ مختلفة ومطولة (٣/ ٣١١، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٩٠)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ١٠٦)- الأثر (١١٥٦٦)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٢٨، ١٢٩)، وأبونعيم في «دلائل النبوة» ص(٩٠).
قال ابن كثير: «وقصة هذا الأعرابي، وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح». وقد روى ابن إسحاق والطبري عن قتادة وعبدالله بن أبي بكر قالا: خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم على دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا محمدًا أقرب منه الآن، فمن رجل يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسول الله الخبر، وانصرف عنهم، فأنزل الله فيهم، وفيما أراد هو وقومه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ الآية».
«تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٩)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٠- ٢١٢)، «جامع البيان» (١٠/ ١٠٧- ١٠٨)- الأثر (١١٥٥٧). وقد روى الطبري معناه عن مجاهد ويزيد بن أبي زياد وغيرهم في «جامع
=

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾، سبق الكلام على هذا.

قوله: ﴿إِذۡ هَمَّ﴾، ﴿إِذۡ﴾ ظرف للزمان الماضي مبني في محل نصب على الظرفية، متعلق بقوله: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿هَمَّ﴾، أي: أراد.

﴿قَوۡمٌ﴾ القوم هم الجماعة من الناس، وهم الذين هموا بقتل الرسول ﷺ كما ورد في سبب النزول إن صح شيء من هذه الأسباب، والآية أعم من ذلك فيدخل تحتها الذين هَمّوا بقتل الرسول ﷺ وقتاله هو وأصحابه، من الكفرة والمشركين وغيرهم منذ أن صدع بأمر الله تعالى في مكة وبعد أن هاجر في وقائع عدة، يهم المشركون بقتل الرسول ﷺ وأصحابه والنيل منهم والقضاء عليهم وعلى دينهم، فيكف الله أيديهم عن المؤمنين.

﴿أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾، ﴿أَن﴾ مصدرية، و﴿يَبۡسُطُوٓاْ﴾ منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون، و﴿أَن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل جر التقدير: ببسط.

ومعنى ﴿أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾، أي: يمدوا إليكم أيديهم بالسوء، بالقتال والقتل وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة:٢].

﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۚ﴾، أي: فمنع أيديهم أن تمتد إليكم، وصرفهم عنكم. فلم يستطيعوا أن ينالوكم بسوء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح:٢٤].

وفي يوم الخندق أرسل الله الريح والملائكة على الأحزاب ففروا هاربين لا يلوي أحد منهم على شيء، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب:٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ [النساء:٩٠]. ولم يزل- عز وجل- يكف عن الرسول ﷺ وعن أصحابه يد من أرادهم بسوء حتى أكمل الله- عز وجل-

---

=

البيان» (١٠/ ١٠٢- ١٠٦).

لهم الدين وأتم عليهم النعمة وأيأس أهل الكفر والشرك من دينهم كما قال عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٣].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الواو عاطفة، «على الله» جار ومجرور متعلق بـ«يتوكل» وقدم عليه لإفادة الحصر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي: وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون.

والفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، زائدة؛ لتحسين اللفظ، واللام لام الأمر، وهي في الأصل مكسورة، لكنها تسكن إذا سبقها الفاء والواو وثم.

والتوكل على الله: التفويض والاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر مع تمام الثقة به عز وجل.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين صدقوا ما جاء عن الله ورسوله فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبكل ما يجب الإيمان به مما جاء في الكتاب والسنة من الغيوب السابقة واللاحقة وعلموا أن الله كاف من توكل عليه كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

قال الطبري(١): «وإلى الله فليلق أَزِمّة أمورهم ويستسلم لقضائه، ويثق بنصرته وعونه المؤمنون، فإن ذلك من كمال دينهم، وتمام إيمانهم، وأنهم إذا فعلوا ذلك كلأهم الله ورعاهم، وحفظهم مما أرادهم بسوء».

وقال ابن كثير(٢): «من توكل على الله كفاه ما أهمّه، وحفظه من شر الناس وعصمه».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان فيه حث على الاتصاف بهذا الوصف، وتكريم

---

(١) في «جامع البيان» (١٠/ ١٠٨).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٥٨).

وتشريف للمؤمنين وحث على امتثال ما ذكر بعده وأن ذلك من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٣- وجوب ذكر نعم الله تعالى ومنها كف أيدي الأعداء عنا، وذلك على سبيل التحدث بها وشكر الله تعالى عليها بطاعته، واجتناب معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

٤- أن النعمة كما تكون جلب نفع قد تكون دفعًا لضر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

٥- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وبخاصة عند ذكر النعم حتى لا يطغى الإنسان، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦، ٧].

٦- وجوب إخلاص التوكل على الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لا ينافي فعل الأسباب، بل على المرء أن يفعل الأسباب مع التوكل على الله تعالى كما في الحديث: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١).

فالطيور ما حصل لها الشبع والري وملء البطون إلا بعد أن غدت تبحث عن الرزق.

ففعل الأسباب من تمام التوكل، أما ترك الأسباب فإنه ليس توكلًا وإنما هو تواكل وعجز وكسل، قال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤)، من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٨)، من حديث أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه.

٧- أن التوكل على الله من الإيمان، ومن صفات المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بل هو شرط لصحة الإيمان كما قال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. فجعل من شرط صحة الإيمان التوكل على الله.

وخصهم بالأمر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم هم الممتثلون لأمره، المنقادون لشرعه، وفي هذا تشريف لهم وتنويه بشأنهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

ذكَّر الله تعالى المؤمنين في الآيات السابقة بنعمته عليهم وميثاقه الذي واثقهم به، وقولهم سمعنا وأطعنا، آمرًا لهم بتقواه، والشهادة بالقسط، والعدل، وواعدًا لهم بالمغفرة والأجر العظيم.

ثم ذكر في هذه الآيات أخذه الميثاق على بني إسرائيل من اليهود والنصارى وما حصل منهم من نقض الميثاق والخيانة في إشارةٍ واضحة إلى فضل هذه الأمة عليهم، وتحذيرًا من صفاتهم، وتسجيلًا عليهم أن ما حصل من بعضهم من هم بقتل النبي ﷺ وأصحابه ليس بدعًا من صفاتهم وأخلاقهم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الواو: استئنافية، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد أخذنا، فالجملة مؤكدة باللام والقسم و«قد».

﴿مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «الميثاق» العهد المؤكد الغليظ، والمراد ببني إسرائيل هنا اليهود خاصة؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ [المائدة:١٤].

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم.

وقد أظهر في مقام الإضمار وتكلم- عز وجل- بالغيبة في قوله: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ فلم يقل: «أخذت، أو أخذنا»، وتكلم- عزوجل- في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾ بضمير الجمع؛ كل ذلك تعظيمًا لنفسه؛ لأنه- عز وجل- العظيم حقًّا.

أي: جعلنا منهم ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، و﴿نَقِيبًا﴾: تميز، وهو «فعيل» بمعنى «فاعل»، أي: منقِّب، من «نقَّب» إذا بحث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [سورة ق:٣٦]، أي: بحثوا.

و«النقيب»: العريف، والنقباء: العرفاء، فأمر الله تعالى موسى- عليه السلام- أن يبعث ويرسل إلى أرض الجبارين الأرض المقدسة اثني عشر نقيبًا، أي: على كل سبط من أسباط بني إسرائيل رجلًا يكون عريفًا ورائدًا وأمينًا عليهم بالوفاء بما واثقوا الله تعالى عليه، ومرجعًا يستشيرونه في أمورهم وعند اختلافهم.

وسمي «نقيبًا» لأنه يُنقِّب ويبحث في أحوالهم ويتفقدهم.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ عاد الكلام من التكلم إلى الغيبة.

أي: إني معكم بالنصر والتأييد والعون، وهذه المعية الخاصة لأوليائه- عز وجل- وهذا وعد منه تعالى لهم.

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا ما واثقهم الله تعالى عليه، واللام في قوله ﴿لَئِنْ﴾ موطئة للقسم.

﴿أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أقمتموها إقامة تامة كما شرعها الله تعالى.

﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: وأعطيتم الزكاة لمستحقيها.

﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾، أي: صدقتم برسلي جميعًا، وأقررتم بما جاؤوا به من الوحي بقلوبكم وانقدتم لذلك بجوارحكم.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، أي: نصرتموهم وقويتموهم وأيدتموهم، كما قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] أي: تعزروا الرسول ﷺ، أي: تنصروه.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض في الأصل ما يعطيه الإنسان من المال ليُقضاه ويرد إليه، والمراد بالإقراض في الآية بذل المال وإنفاقه في سبيل الله وابتغاء مرضاته وثوابه، وسمي قرضًا لله تعالى ترغيبًا فيه.

﴿حَسَنًا﴾: صفة لـ﴿قَرْضًا﴾، أي: قرضًا حسنًا بكونه خالصًا لله تعالى ، موافقًا لشرعه؛ بكونه من حلال، ومن غير نقص عن الواجب، ومن غير إسراف، وبلا مَنٍّ ولا أذى، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يحتمل أن يكون من ذكر العام بعد الخاص وهو قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ويحتمل أن يراد بالقرض ما عدا الزكاة من النفقات والصدقات.

وأظهر مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ وتكلم بالغيبة تعظيمًا لنفسه عز وجل.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والنون للتوكيد، أي: لأتجاوزن عن ذنوبكم وأمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها؛ فرتب عز وجل على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان برسله وتعزيرهم، وإقراضه- عز وجل- قرضًا حسنًا التجاوز عن سيئاتهم ومحوها وسترها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ

ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١).

وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(٢).

﴿وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ داخل ضمن جواب القسم، وكرر اللام والنون للتوكيد.

فجمع لهم بين السلامة والنجاة من المرهوب بتكفير سيئاتهم وبين حصول المطلوب والمحبوب بإدخالهم الجنات، وقدَّم تكفير السيئات، على دخول الجنات، ليتم لهم التنعم، ولأن التخلية قبل التحلية، وجمع ﴿جَنَّٰتٖ﴾؛ لأن لكل منهم جنة، بل أكثر من جنة، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢].

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الزمر:٢٠].

وهذه الأنهار تجري بغير أخدود يصرفها أهل الجنة كيف شاؤوا، قال ابن القيم(٣):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ﴾ الفاء: استئنافية، و«من»: اسم شرط، وفعل الشرط ﴿كَفَرَ﴾.

﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما أخذ على بني إسرائيل من الميثاق، أي: فمن كفر بعد ما أخذ عليهم الميثاق بالقيام بهذه الأعمال، فجحد ذلك ولم يقم بها واثق الله تعالى عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «النونية» ص٢٢٩.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«قد» للتحقيق. ﴿ضَلَّ﴾: حاد وأخطأ.

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: السبيل السواء، أي: الوسط، أي: فقد ضل وسط السبيل وأخطأ قصد الطريق الواضح، وعدل عن عمد عن طريق الحق والهدى إلى الضلال، وفي هذا وعيد وتهديد لمن فعل ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

أخبر عز وجل في الآية السابقة بأنه أخذ ميثاق بني إسرائيل؛ ووعدهم على القيام به بتكفير سيئاتهم وإدخالهم الجنات، وحذرهم من الكفر ونقض الميثاق والضلال، ثم بيّن في هذه الآية نقضهم ميثاقهم وما أحل بهم بسبب ذلك من العقوبة.

قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ الفاء: عاطفة، أو استئنافية، والباء للسببية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى.

والنقض: ضد العقد، أي: حل الميثاق وعدم الوفاء به، أي: فبسبب نقضهم وعدم وفائهم بميثاقهم الذي أخذه الله تعالى عليهم بقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾، أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا وعن الهدى.

وهذه هي العقوبة الأولى. ومن لعنه الله وطرده من رحمته وهُداه فقد حرم كل خير وباء بكل شر، ولعنه اللاعنون وسائر الخلق، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران:٨٧].

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ معطوف على ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾.

وهذه هي العقوبة الثانية، و«جعل» هنا من الجعل الكوني، وهي بمعنى «صيَّر» تنصب مفعولين، أي: صيرنا قلوبهم قاسية، فمفعولها الأول: ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ والثاني: ﴿قَٰسِيَةً﴾.

قرأ حمزة والكسائي بتشديد الياء من غير ألف: «قسيَّة» على وزن «فعيلة» صفة مشبهة تدل على ملازمة القسوة لقلوبهم.

وقرأ الباقون بالألف وتخفيف الباء: ﴿قَٰسِيَةً﴾ اسم فاعل، يدل على أن قلوبهم قاسية فعلًا، أي: تقسو عند وجود ما يوجب لين القلوب، فهم قساة القلوب وصفًا وفعلًا.

والقسوة في الأصل: الشدة والصلابة في كل شيء، يقال: حجر قاس، وأرض قاسية لا تنبت.

أي: جعلنا قلوبهم قاسية غليظة، لا تلين لذكر الله، ولا تؤثر فيها المواعظ، ولا تنتفع بالآيات والنذر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وهذه العقوبة من أعظم العقوبات إن لم تكن أعظمها؛ لأن القلب القاسي- عياذًا بالله- لا يزداد بدعائه إلى الهدى والحق إلا ضلالًا وتماديًا في الباطل، ولهذا قال ﷺ: «**أبعد القلوب من الله القلب القاسي**»(١).

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، ويجوز كونها مستأنفة لا محل لها.

وهذه هي العقوبة الثالثة، وهي وما بعدها من العقوبات من آثار لعنة الله تعالى لهم، وجعله قلوبهم قاسية.

و«التحريف»: التغيير، وأصله: الميل بالشيء إلى الحرف، وهو الجانب و﴿يُحَرِّفُونَ﴾ بالمضارع؛ للدلالة على استمرارهم على ذلك، ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ اسم جمع «كلمة» والجمع «كلمات».

أي: يحرفون كلام الله- عز وجل- عن مواضعه تحريفًا لفظيًّا كما في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨، الأعراف:١٦١]، حرفوا وقالوا: «حنطة، أو حبة في شعرة»(١). كما

---

(١) سبق تخريجه.

بدَّلوا وغيَّروا في التوراة بأيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

وتحريفًا معنويًّا للنصوص حسب أهوائهم كرجمهم الوضيع دون الشريف في الزنا.

﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، أي: عن المواضع والدلالات التي أراد الله به، كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء:٤٦].

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ معطوف على ﴿يُحَرِّفُونَ﴾.

وهذه هي العقوبة الرابعة.

والنسيان يطلق على النسيان العملي، وهو ترك العمل، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] أي: تركوا العمل لوجه الله فتركهم الله.

ويطلق على النسيان العلمي، وهو الذهول عن الشيء وعدم ذكره بعد العلم به، كما في قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله ﷺ: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان**»(١).

﴿حَظًّا﴾، أي: نصيبًا عظيمًا، و«ما» في قوله: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ موصولة، أي: من الذي ذكروا ووعظوا به في التوراة.

والمعنى: ﴿وَنَسُوا۟﴾، أي: تركوا نصيبًا من الذي وعظوا به، فلم يعملوا به عمدًا، ورغبوا عنه.

ونسوا أيضًا نصيبًا من الذي وعظوا به ونبهوا إليه، فلم يذكروه بل غفلوا عنه فعوقبوا بسبب نقضهم ميثاقهم بكلا الأمرين، بترك العمل بالتوراة عمدًا، ونسيان ما

---

(١) سبق تخريجه.

علموه منها وعدم تذكره؛ ولهذا لم يبق منها إلا أسفار مليئة بالتحريف والتبديل والتغيير والأغاليط.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ ذكر نقضهم لعهد الله، ثم انتقل لذكر نقضهم لعهدهم مع الرسول ﷺ.

﴿وَلَا تَزَالُ﴾ الواو: عاطفة، وقوله: «لا تزال» يفيد الاستمرار، ﴿تَطَّلِعُ﴾ ترى وتكتشف وتقع، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، ﴿خَآئِنَةٍ﴾ يحتمل أن تكون مصدرًا، أي: على خيانة منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩].

ويحتمل أن تكون ﴿خَآئِنَةٍ﴾ اسم فاعل، أي: ولا تزال تطلع على طائفة خائنة، أو نفس خائنة منهم، فتكون صفة لموصوف محذوف.

أي: ولا تزال باستمرار تطلع على خيانة من اليهود وكذب وفجور وغدر ونقض عهد، ومن ذلك ما روي من همهم بقتله ﷺ، لما جاء إليهم يستعينهم في دية القتيلين، وغير ذلك؛ لأن هذا دأبهم.

والخيانة ضد الأمانة، وهي الغدر، وعدم الوفاء بالعهد، وإظهار خلاف الباطن ونحو ذلك.

وهذه هي العقوبة الخامسة التي ابتلوا بها، وهي الخيانة المستمرة من نقض العهود وكتمان الحق والغدر وغير ذلك.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء المتصل، أي: إلا قليلًا من بني إسرائيل، فإنهم سالمون من هذه الأوصاف السيئة والذميمة؛ لأنهم وفّوا بما عاهدوا الله عليه، فوفقهم الله وهداهم صراطه المستقيم، كعبدالله بن سلام رضي الله عنه.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾، «العفو» التجاوز وترك المؤاخذة على الذنب، و«الصفح»: الإعراض عنه وترك اللوم والتثريب، كما قال يوسف- عليه السلام- لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

والضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ قيل: يعود إلى أقرب مذكور وهم المستثنون بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين سلموا من الصفات الذميمة المذكورة، أي: اعف واصفح عما سلف منهم، أو عما قد يقع منهم مما قد لا يسلم منه أحد.

والظاهر الذي يدل عليه السياق أن الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ يعود إلى الأكثرية المتصفين بالصفات المذكورة؛ ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]. وغيرها من آيات القتال كقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

والصحيح أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وذلك لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن.

وأيضًا فإن الجمع بين آيات الأمر بالعفو والصفح وآيات القتال أمر ممكن؛ لأن كلًّا منها يستعمل في وقته المناسب، ففي حال رجحان مصلحة العفو والصفح طمعًا في تأليف المعفو عنه، أو بسبب ضعف الأمة، ونحو ذلك يؤخذ بالعفو والصفح، وفي حال قوة الأمة وكون المصلحة في القتال يؤخذ به.

وقد عفا ﷺ عن بعضهم وصفح عنهم، وخفف العقوبة عن بعض، وقتل من قتل منهم، وأجلى من أجلى منهم.

وذلك أنه ﷺ لما قدم المدينة وكان فيها من اليهود ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ عاهدهم كلهم فنقضوا العهد قبيلة تلو الأخرى.

وأول مَن نقض العهد منهم بنو قينقاع فغزاهم ﷺ وحاصرهم في حصونهم فنزلوا على حكم الله ورسوله.

ثم مَنَّ عليهم وأمرهم أن يخرجوا من المدينة فخرجوا منها إلى أذرعات الشام، ثم تلاهم بنو النضير فنقضوا العهد فغزاهم ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، وأجلاهم إلى الشام.

ثم تبعهم بنو قريظة فنقضوا العهد، لما خرج رسول الله ﷺ لغزوة الخندق «غزوة الأحزاب»، فحاصرهم النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب، وحكّم فيهم سعد بن معاذ- رضي الله عنه(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا كالتعليل للأمر بالعفو والصفح، أي: فاعف عنهم واصفح؛ لأن ذلك من الإحسان منك إليهم والله يحب المحسنين. وقد أكدت الجملة بـ«إنَّ».

وأظهر في مقام الإضمار وتكلم بالغيبة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل. والمحبة ضد البغض والكراهية.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جمع «محسن»، **والإحسان نوعان**: الإحسان في عبادة الله تعالى، بكونها خالصة لله تعالى موافقة لشرعه؛ كما قال ﷺ لما سأله جبريل- عليه السلام- عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٢).

والنوع الثاني: الإحسان إلى عباد الله، ببذل النفع الديني والدنيوي لهم، والعفو والتجاوز والصفح عنهم.

وفي الآية ترغيب بالإحسان؛ لأن مَن أحبه الله أكرمه وأثابه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ذكر الله تعالى في الآيتين السابقتين أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل- يعني اليهود، ونقضهم له وما عاقبهم به، ثم ذكر في هذه الآية أنه أخذ ميثاق النصارى فسلكوا مسلك اليهود في نقض الميثاق ونسيان حظ مما ذكروا به، وذكر عقابه لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، أي: ومن الذين ادعوا أنهم نصارى، وليسوا كذلك.

---

(١) انظر مطلع تفسير سورة الحشر.

(٢) سبق تخريجه.

والنصارى هم أتباع عيسى- عليه السلام- سموا نصارى؛ لمناصرتهم عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف:١٤].

وقد سماهم الله تعالى النصارى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [المائدة:٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة:٣٠].

ولهذا ينبغي تسميتهم «النصارى» كما سماهم الله تعالى، ولا يقال «المسيحيون»؛ لأن المسيح منهم براء.

﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾، أي: أخذنا ميثاقهم بعبادة الله تعالى وحده، واتباع عيسى- عليه السلام- ونصرته.

﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فنسوا نصيبًا عظيمًا من الذي ذكروا به ووعظوا به في الإنجيل، أي: تركوا العمل به عمدًا، وأهملوه وغفلوا عنه، فنسوا ما علموه مما ذكروا به، ولهذا حصل التحريف والتبديل في كتابهم الإنجيل، وعلى أيدي علمائهم.

فجمعوا كاليهود بين نسيان العلم ونسيان العمل بما أنزل إليهم، وصدق فيهم أنهم يدعون أنهم نصارى وليسوا كذلك، كما وصفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ الفاء: عاطفة، أي: وألقينا بينهم العداوة والبغضاء في الدنيا إلى يوم القيامة عقوبة لهم.

والإغراء في الأصل: التحضيض على فعل الشيء، وسمي إلقاء العداوة والبغضاء بينهم إغراءً تأكيدًا لشدة العداوة والبغضاء بينهم، فكان كل واحد منهم قد أغري بعداوة وبغض الآخر وسلط عليه.

﴿ٱلْعَدَاوَةَ﴾، «العداوة»: ضد الموالاة والصداقة، أي: العداوة بالقول والفعل، أو التي يظهر أثرها بالقول والفعل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، أي: صديق حميم.

﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، «البغضاء»: ضد المودة والمحبة، وتكون في القلب، أي: ألقينا بينهم العداوة بالأقوال والأفعال، والبغضاء في القلوب.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: إلى نهاية هذه الدنيا وقيام الناس من قبورهم وبعثهم للحساب والجزاء؛ ولهذا صار النصارى فرقًا وطوائف متعددة متعادية متباغضة متناحرة، يكفر ويضلل بعضها بعضًا بسبب تعدد النحل وكثرة الأهواء واختلافها، والتحاسد على السلطة ومتاع الدنيا، يعرف هذا من قرأ في مللهم ونحلهم ومذاهبهم.

وسيبقى هذا فيهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لكنهم يجتمعون كلهم، بل ومعهم اليهود وسائر ملل الكفر على عداوة المسلمين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

وقد قيل: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، أي: بين اليهود والنصارى، وهذا- وإن كان هو الواقع- إلا أن الأول أقرب، ولا تنافي بين القولين، فالعداوة متأصلة بين اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣].

كما أن العداوة والبغضاء متأصلة بين النصارى فيما بينهم، وبين اليهود فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤].

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ الواو: استئنافية، و«سوف» للتحقيق مع التراخي، و«النبأ»: الخبر الهام، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: وسوف يخبرهم الله في الآخرة بالذي كانوا يصنعون أو بصنيعهم وعملهم، من نسيان حظ مما ذكروا به، وكذبهم على الله تعالى، وعلى رسوله، وإشراكهم بالله، بتأليههم عيسى عليه

السلام، ونسبة الصاحبة والولد لله تعالى ونحو ذلك، وسوف يحاسبهم ويجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وتكلم بالغيبة؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾.

أخبر عز وجل في الآيات السابقة أنه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى، ونقضهم له، ونسيان حظ مما ذكروا به، وما عوقب به كل منهم، ثم أمرهم جميعًا بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صدق نبوته، وهي بيانه لهم كثيرًا مما كانوا يخفونه عن الناس، بل حتى عن عوامهم، مع ما في هذا من توبيخ لهم على كتمانهم الكتاب.

قوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، «يا»: حرف نداء، وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه، والعناية والاهتمام، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بهم الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، والمراد بالكتاب هنا الجنس، أي: التوراة والإنجيل.

﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾، ﴿قَدۡ﴾: للتحقيق ﴿جَآءَكُمۡ﴾ وجه الخطاب لهم بهذا؛ لأن السياق معهم، وهم الذين كانوا يكذبونه ﷺ وينكرون رسالته، وإلا فهو قد جاء رسولًا لجميع الناس.

﴿رَسُولُنَا﴾، أي: رسولنا محمد ﷺ، وفي إضافته إليه- عز وجل- إثبات لرسالته ﷺ وتشريف وتكريم.

﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه يبين لكم، أي: يظهر لكم.

﴿كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: كثيرًا من الذي كنتم تخفون، أي: تكتمون.

﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: من التوراة والإنجيل، مما تدعوا الحاجة إلى بيانه وبيان حكمه مما تقوم به الحجة عليكم ومن ذلك ما أخفوه وكتموه من أمر رجم الزانيين،

ومن أمر بعثته ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾، أي: ويعفو عن كثير مما كنتم تخفون من الكتاب، أي: يتركه فلا يبينه، بل يسكت عنه مما لا فائدة في بيانه ولا مصلحة تتعلق به، مع ما في تركه وعدم توبيخهم عليه من تأليف لقلوبهم.

وسمى ذلك عفوًا، لما فيه من ستر فضائحهم في كتمانهم ما أنزل إليهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾، ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، ﴿جَآءَكُم﴾ الخطاب يشمل جميع الناس أهل الكتاب وغيرهم؛ لأن ما جاء من الله من نور وكتاب مبين هو للناس عامة.

والمراد بالنور في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ نور الهدى والعلم والإيمان المستمد من الكتاب والسنة، فهما نور يستضاء في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقيل: النور محمد ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥- ٤٦].

قال الشاعر:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول(١)

وهو ﷺ نور بما جاء به من الوحي الذي أنار الله وأوضح به طريق الهدى والحق،

---

(١) البيت لكعب بن زهير. انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص٦٤٠).

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

قال النابغة الجعدي:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابه كالمجرة نيرا(١)

﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ معطوف على قوله ﴿نُورٌ﴾ من باب عطف المقتضي على المقتضى أي: عطف السبب على المسبب؛ لأن الكتاب هو سبب النور.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن الكريم، وهو «فعال» بمعنى «مفعول»؛ لأن القرآن مكتوب باللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٨- ٧٩]، ومكتوب بالصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٣- ١٦].

ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: مبين للحق من الباطل والهدى من الضلال، ولكل ما يحتاجه الخلق في أمور دينهم ودنياهم من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأحكامه الشرعية والجزائية، وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور:٤٦] على قراءة كسر الياء وتشديدها، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

وإذا كان هذا الكتاب مبينًا لغيره فمن لازم ذلك أن يكون بيِّنًا في نفسه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ الباء في ﴿بِهِ﴾ للسببية، والضمير يعود إلى الكتاب المبين وما اشتمل عليه من الهدى والنور، أي: يدل ويوفق الله بسبب هذا الكتاب، أي: بسبب الاسترشاد بهذا الكتاب واتباعه.

---

(١) انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص٦١٩).

﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول أول لـ﴿يَهْدِى﴾، أي: يهدي به الله الذي اتبع رضوانه وتطلّبها وابتغاها وعمل على مقتضاها.

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، ﴿سُبُلَ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿يَهْدِى﴾، و﴿سُبُلَ﴾ مضاف، و﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾: مضاف إليه، من إضافة الشيء إلى مُسَبِّبه، أي: السبل التي يحصل بها السلام، أي: التي بها سلامة الإنسان في دينه ودنياه وأخراه، ونجاته من عذاب الله وسلامته من شرور الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]، وهي سبل الإسلام.

وجمع ﴿سُبُلَ﴾ مع أن الغالب ذكر طريق الإسلام والهدى والحق بالإفراد، وذكر طرق الكفر والضلال والباطل بالجمع؛ لأن المراد بـ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ شرائع الإسلام، ويتعين هذا لقوله قبله ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ فهذا يحمل على سلوك طريق السلام والإسلام، و﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ تحمل على شرائع الإسلام.

قال ابن القيم(١): «هي سبل تجمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي سبل شعب الإيمان، وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبيل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره».

﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ معطوف على ﴿يَهْدِى﴾، وجمع الضمير في «يخرجهم» مراعاة لمعنى ﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، أي: ويخرج- عز وجل- الذين اتبعوا رضوانه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: من ظلمات الكفر والشرك والجهل والضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: إلى نور الإسلام والإيمان والعلم والهدى.

وجمع الظلمات وأفرد النور؛ لأن طرق الباطل كثيرة ومتشعبة وطريق الحق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٦).

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: بأمره- عز وجل- القدري. وإذن الله- عز وجل- وأمره ينقسم إلى قسمين: قدري بمعنى المشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥] أي: بإذنه وأمره القدري الكوني.

وإذن شرعي بمعنى الإرادة الشرعية، كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج:٣٩]، أي: أذن لهم شرعًا بالقتال.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: ويدلهم ويوفقهم إلى طريق مستقيم عدل لا اعوجاج فيه، وهو صراطه- عز وجل- وطريقه، كما قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بما أخذ الله على بني إسرائيل من الميثاق وهو تذكير لخَلَفهم، ولهذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

كما قال تعالى مخاطبًا هذه الأمة: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧].

٢- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه، ويتجلى ذلك في الآيات في الإظهار مقام الإضمار، والتكلم بالغيبة، وفي ضمير الجمع في مواضع عدة من الآيات، فمن الإضمار في مقام الإظهار قوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾، ومن التكلم بالغيبة قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾، وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾، ومن التكلم بضمير الجمع قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا﴾، وقوله: ﴿لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، وقوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾، وقوله: ﴿رَسُولُنَا﴾.

٣- أن الإظهار مقام الإضمار، والالتفات في الخطاب من أساليب البلاغة التي حفل بها القرآن الكريم؛ لما لها من الأثر في نفس القارئ والمستمع.

٤- في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، وقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ

ٱللَّهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إثبات خلق الله لأفعال العباد، والرد على القدرية في زعمهم أن العبد يخلق فعل نفسه.

كما أن في قوله:﴿نَقِيبًا﴾ ردًّا في المقابل على الجبرية الذين يزعمون أن العبد مجبر على فعله؛ لأن النقيب هو الذي ينقب ويبحث بنفسه.

٥- ينبغي لولاة أمور الأمة أن يولوا نقباء على من يبعثون بهم في المهمات كالسرايا ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

ولهذا لما بايع النبي ﷺ الأنصار ليلة العقبة جعل منهم اثني عشر نقيبًا عرفاء على قومهم، ولوا المبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة، كما قال ﷺ: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»(١).

٦- وعد الله تعالى لبني إسرائيل بأنه معهم بنصره وتأييده، إن هم وفوا بعهده؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

وفي هذا إثبات معية الله تعالى الخاصة لأوليائه.

٧- أخذ الميثاق على بني إسرائيل، بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان برسله ومناصرتهم وإقراضه- عز وجل- قرضًا حسنًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

٨- عظم أمر الصلاة والزكاة والإيمان بالرسل ومناصرتهم والقرض الحسن؛ لأن الله- عز وجل- أخذ الميثاق على بني إسرائيل بهذه الأعمال، وهي مما فرض على غيرهم من الأمم وبخاصة أمة محمد ﷺ.

٩- فرض الصلاة والزكاة على بني إسرائيل، أي: جنس الصلاة والزكاة، إذ ليس بلازم أن تكون مماثلة لما فرض على هذه الأمة كيفية ووقتًا وعددًا وقدرًا.

كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد- باب في القوم مسافرون يؤمرون أحدهم (٢٦٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣]. فليس الصيام المفروض على من قبلنا هو صيام رمضان، وإن قيل ذلك.

وقد قيل: إنه فرض عليهم الزكاة عشر محصولات ثمارهم وزروعهم.

١٠- أنه يجب على بني إسرائيل الإيمان بجميع الرسل ومناصرتهم وفي مقدمتهم محمد ﷺ، كما هو الواجب على غيرهم من الأمم.

١١- التعريض بكفر بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ به وبرسالته وأذيتهم له، كما كفر أسلافهم برسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

١٢- الترغيب في الإنفاق والصدقة وأداء ما في المال من الحقوق؛ لأن الله تعالى سمى ذلك قرضًا فقال: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ وهو- سبحانه وتعالى- الغني عن خلقه.

١٣- ضمانه- عز وجل- لإعطاء المنفق حقه؛ لهذا سماه قرضًا والقرض ما يعطيه الإنسان ليُقضاه.

١٤- أن الذي يُثاب عليه من الإنفاق والقرض ما كان حسنًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا للشرع وبلا مَنّ ولا أذى؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَنًا﴾.

١٥- تكفير السيئات بالأعمال الصالحة والإيمان بالرسل ومناصرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

١٦- وعد الله تعالى لبني إسرائيل بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار إن هم وفوا بميثاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

١٧- أن التمتع بالمطلوب لا يتم بل لا يحصل إلا بعد زوال المرهوب؛ ولهذا قدم تكفير السيئات على دخول الجنات، والتخلية قبل التحلية.

١٨- أن من نعيم الجنات ما فيها من الأنهار الجارية تحت أشجارها وغرفها وقصورها، يشرب منها أهل الجنة ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

١٩- تحذير بني إسرائيل من نقض الميثاق والكفر، والوعيد لمن فعل ذلك، والحكم عليه بالضلال؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢٠- أن من آمن وأوفى بما عاهد الله تعالى عليه، فقد اهتدى إلى سواء السبيل ووسطه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الآية.

٢١- أن الطريق والمنهج الوسط هو طريق الحق، فهو وسط بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢٢- نقض بني إسرائيل ميثاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾.

٢٣- أن الله تعالى لعن بني إسرائيل، وجعل قلوبهم قاسية بسبب نقضهم العهد؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾.

٢٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، فنقضهم الميثاق سبب للعنة الله- عز وجل- لهم وجعل قلوبهم قاسية.

٢٥- أن نقض العهد والكفر والمعاصي سبب لقسوة القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، وبالمقابل فإن الإيمان والطاعة سبب للين القلوب كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

٢٦- أن قسوة القلوب سبب للمعاصي من تحريف الكلم عن مواضعه، ونسيان الذكر، والوقوع في الخيانة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾.

٢٧- أن قسوة القلوب من أخص صفات اليهود، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ الآية [البقرة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦].

٢٨- أن المعاصي سبب لقلة الفهم، ونسيان ما ذكر به الإنسان علمًا وعملًا، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

قال الشافعي[١]:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

٢٩- فضح بني إسرائيل ببيان ما هم عليه من الصفات الذميمة من نقض العهود والكفر وقسوة القلوب وتحريف الكلم عن مواضعه، ونسيان نصيب مما ذكروا به، والخيانة.

٣٠- التحذير من صفات اليهود، وهو تحذير لخَلَفهم المعاصرين للنبي ﷺ، ولهذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦].

٣١- استمرار الخيانة في اليهود وبقاؤها فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾.

٣٢- أن من اليهود من أوفى بميثاقه وآمن، وسلم من الصفات المذكورة وهم قليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ومنهم عبدالله بن سلام رضي الله عنه.

٣٣- الأمر بالعفو والصفح، إذا كانت المصلحة في ذلك- حتى ولو كان ذلك مع العدو، وأن ذلك من الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولا يعد ذلك ضعفًا.

قال ابن كثير[٢]: «وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: «ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني الصفح عمن أساء إليك».

٣٤- أن من تمام العفو اتباعه بالصفح، ومن تمامهما اتباعهما بالإحسان؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٧٩.

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٦٢).

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٣٥- إثبات المحبة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٣٦- الترغيب في الإحسان؛ لأن الله يحب المحسنين.

٣٧- أخذ الله ميثاق النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾.

٣٨- الإشارة إلى عدم تحقيق النصارى ما ادعوه من نصرة عيسى ودين الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، أي: قالوا ادعاء وزعمًا منهم.

٣٩- نسيان النصارى نصيبًا مما ذكروا به في الإنجيل علمًا وعملًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

٤٠- إقامة الحجة على الخصم بما يدعيه؛ لأن هؤلاء قالوا إنهم نصارى ومع ذلك نسوا حظًا مما ذكروا به؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ ولم يقل: ومن النصارى.

٤١- عقوبة النصارى بسبب نسيانهم ما ذكروا به بإغراء العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

٤٢- شدة العداوة والبغضاء بين النصارى، فهم أعداء فيما بينهم في أقوالهم وأفعالهم، ومتباغضون فيما بينهم بقلوبهم، وإن أظهروا خلاف ذلك، لكنهم يجتمعون وغيرهم من أهل الكفر كاليهود على عداوة الإسلام والمسلمين.

٤٣- أن نسيان المكلفين نصيبًا مما ذكروا به علمًا وعملًا قد يكون كافيًا في ذمهم وإيقاع العقوبة عليهم وفي كفرهم؛ ولهذا لم يذكر في ذم النصارى غيره.

٤٤- أن اليهود أشد كفرًا من النصارى؛ لأن الله ذم كلًا منهم بنسيانهم حظًا مما ذكروا به، وزاد في ذم اليهود بصفات عديدة.

٤٥- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

٤٦- الوعيد والتهديد للنصارى لنسيانهم حظًا مما ذكروا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

٤٧- علم الله الواسع المحيط بكل شيء من أعمال العباد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

٤٨- الرد على الجبرية في زعمهم أن العبد يجبر على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿يَصْنَعُونَ﴾، وقوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

٤٩- تصدير خطاب أهل الكتاب بالنداء تنبيهًا لهم لأمر خطير عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٥٠- نداء بني إسرائيل باسم ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، إقامة للحجة عليهم؛ لأن كونهم أهل كتاب يوجب عليهم أن يكونوا أول عامل به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١].

٥١- أن اسم ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يطلق على اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ كما يطلق في بعض المواضع، ويراد به اليهود خاصة وكتابهم التوراة، أو النصارى وكتابهم الإنجيل.

٥٢- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه وتكريمه بإضافته إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولُنَا﴾.

٥٣- أن محمدًا ﷺ رسول الله إلى أهل الكتاب- كما أنه رسول الله إلى جميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾.

ولهذا قال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١).

٥٤- بيان الرسول ﷺ بما جاء به من الرسالة من عند الله كثيرًا مما كان أهل الكتاب يخفونه ويكتمونه؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٥٥- فضح أهل الكتاب ببيان كثير مما كانوا يخفونه ويكتمونه من كتبهم من خبر بعثته ﷺ والرجم، وغير ذلك.

٥٦- عفوه ﷺ وسكوته عن كثير مما كانوا يخفونه من كتبهم، مما لا تدعو الحاجة إليه، ولا مصلحة في بيانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

٥٧- ينبغي الاكتفاء بما تدعو الحاجة إليه والمصلحة في البيان والتوبيخ والإنكار ونحو ذلك، فمن الحكمة التغافل عن بعض الأشياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم:٣].

وفي حديث أبي ثعلبة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء عفوًا غير نسيان فلا تسألوا عنها**»(١).

٥٨- أن ما جاء به النبي ﷺ من الوحي نور من الله تعالى لجميع الناس، ينير لمن يهتدي به طريق السعادة في الدين والدنيا والآخرة، به يُعرف الإيمان من الكفر، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، والخيرمن الشر، نور في القلوب والأسماع والأبصار، والوجوه، ونور في القبور ويوم النشور؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾، قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء

٥٩- أن القرآن الكريم بيِّن في نفسه، مبين لغيره؛ أي: مبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والإيمان من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

٦٠- أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى، وما جاء به الرسول ﷺ هو سبب للهداية؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن

---

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٩٧- ٢٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٢٩) وصححه، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١٣)، وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٥٢). وقد أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٤)- موقوفًا على أبي ثعلبة رضي الله عنه.

الخلق يخلقون أفعالهم.

٦١- أن من اتبع رضوان الله تعالى وطلبها، وفقه الله تعالى سبل السلام، وأخرجه من الظلمات إلى النور، ودلّه إلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وفي هذا ترغيب في اتباع رضوان الله تعالى.

٦٢- إثبات الرضا لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ وهو من الصفات الفعلية التابعة لمشيئة الله تعالى.

٦٣- أن سبل السلام وطرقه كثيرة متعددة، وهي شرائع الإسلام، لهذا جمعت في قوله تعالى: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾.

٦٤- أن السلام في اتباع شريعة الإسلام، ففيها السلامة في الدين والدنيا والآخرة، سلامة العقيدة والعمل والجزاء، سلامة الفرد والمجتمع والدول.

٦٥- أن الكفر والشرك والمعاصي والجهل ظلمات؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

٦٦- أن الإيمان والعلم واتباع سبل السلام نور يهتدي به الإنسان أمام ظلمات الكفر والشرك والجهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢].

٦٧- أن طريق الحق والهدى والإيمان واحد، وطرق الباطل والضلال والكفر كثيرة ومتشعبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ بجمع الظلمات وإفراد النور.

٦٨- إثبات إذن الله تعالى الكوني القدري؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ ﴾ وهناك إذن الله الشرعي، كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج:٣٩]، أي: أذن لهم بالقتال والجهاد للكفار.

٦٩- أن طريق الحق عدل مستقيم لا اعوجاج فيه يؤدي إلى الغاية المنشودة والسعادة في الدنيا والآخرة بأقل وقت وأخصر طريق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بخلاف سائر الطرق فهي معوجة مائلة عن سبيل القصد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أخذه ميثاق الذين قالوا إنا نصارى، ونسيانهم حظًّا مما ذكروا به، ثم ذكر- عز وجل- في هذه الآيات وفي آيات لاحقة كفرهم وشركهم بالله بعبادتهم المسيح ابن مريم وتأليههم له، وهذا أعظم ضروب عدم الوفاء بميثاقهم، وهو أعظم ضلال النصارى.

قوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم المقدر، و«قد»، أي: والله لقد كفر.

فأقسم عز وجل على كفرهم، وأكّد هذا الخبر وهذا الحكم بعدة مؤكدات- وهو سبحانه أصدق القائلين، وخبره أصدق الأخبار- وذلك وفق ما كان معروفًا عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم من تأكيدهم الأخبار بالقسم ونحوه.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ اسم موصول في محل رفع فاعل ﴿كَفَرَ﴾، ﴿قَالُوٓاْ ﴾ صلة الموصول، ﴿إِنَّ ﴾: حرف توكيد، و﴿هُوَ ﴾: ضمير فصل للتوكيد، ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾: هو عيسى ابن مريم- عليه

السلام- سمي المسيح؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة من عمى أو برص أو غير ذلك إلا برأ بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠].

وفي تعريفهم المسند إليه والمسند بالعلمية في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ دلالة على أنهم أرادوا أن الله اتحد بذات المسيح وأنهما اسمان لمسمى واحد. تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

فبين الله- عز وجل- أن هذه المقالة كفر، ومن قالها فهو كافر.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء، أو له ولمن يصلح خطابه، والفاء: عاطفة، «من»: اسم استفهام، ومعناه الإنكار والنفي.

والتنكير في ﴿شَيْـًٔا﴾ للتقليل والتحقير، أي: لا أحد يملك من الله أي شيء مهما قل ومهما كان.

و﴿يَمْلِكُ﴾ بمعنى يمنع، أو يقدر على شيء من الله، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٦٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح:١١].

وقال ﷺ لعيينة بن حصين: «**أوأملك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»(١).

﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: إن أراد كونًا أي: إن شاء ﴿أَن يُهْلِكَ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿أَرَادَ﴾، و«من»: اسم موصول بمعنى الذي، و﴿جَمِيعًا﴾: حال من المسيح وأمه ومن في الأرض.

أي: لا أحد يملك من الله شيئًا، أي: يمنعه ويصرفه إن أراد إهلاك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا، فكيف تقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ مع أن المسيح كغيره من الخلق مربوب لله تعالى لا يستطيع منع الهلاك عن نفسه إن أراد

---

(١) سبق تخريجه.

الله أن يهلكه، ومن باب أولى لا يستطيع منع ذلك عن غيره.

وكذا أمه مريم لا تستطيع ذلك، والتي ألّهوها مع الله بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] أي: الله، وعيسى، وأمه.

وكذا من في الأرض، كلهم لا يستطيعون منع الهلاك عنهم إن أراد الله أن يهلكهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

وتعميم إرادة الإهلاك للجميع مع حصول المطلوب بقصرها على المسيح؛ لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز، وبيان أن الكل تحت قهره وملكوته، ولبيان أن المسيح أسوة بسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك والعجز عن الدفع عن نفسه، وعدم استحقاق الألوهية.

وهذا دليل عقلي على بطلان تأليه المسيح وأمه أو غيرهما من الخلق، وهو الدليل الأول على بطلان تأليه النصارى للمسيح.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هذا تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى، بعد بيان انتفائها عن غيره؛ ولهذا قدم الخبر للدلالة على الاختصاص أي: ولله وحده ملك السموات والأرض وما بينهما، فهو- عز وجل- وحده المالك لذلك كله، والمتصرف فيه بحكمه الكوني والشرعي والجزائي.

قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: وله- عز وجل- ملك ما بين السموات والأرض من الرياح والسحاب والأمطار وغير ذلك.

وهذا هو الدليل الثاني على إبطال تأليههم للمسيح- عليه السلام- إذ كيف يكون إلهًا وهو مملوكًا لله تعالى، وكيف يكون المملوك مالكًا فهذا لا يصح لا عقلًا ولا فطرة.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول يفيد العموم، أي: يخلق الذي يشاء، أي: الذي يريد على أي وجه وكيفية شاء سبحانه، فجميع الموجودات خلقه.

وهذا هو الدليل الثالث لإبطال تأليههم للمسيح- عليه السلام- حيث قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم؛ لأنه خُلق من أم بلا أب، فبيَّن- عز وجل- أنه يخلق ما يشاء على أي كيفية شاء، فكيف يؤلِّهون المسيح ويعبدونه ويقولون هو ابن الله وثالث ثلاثة

بحجة أنه خلق من أم بلا أب، فقد خلق- عز وجل- آدم بلا أم ولا أب، كما خلق حواء من أب بلا أم، كما خلق سائر البشر من أم وأب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فلا وجه لاستغراب خلق عيسى من أم بلا أب، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بالخبر ﴿قَدِيرٌ﴾ وقُدِّمَ عليه؛ لتأكيد عموم قدرته- عز وجل- على كل شيء، ومن ذلك خلقه.

و﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة يدل على كمال وتمام قدرته عز وجل. والقدرة: فعل الشيء بدون عجز، فهو القدير على إهلاك من شاء وإبقاء شاء، وعلى خلق ما شاء، وعلى كل شيء.

وهذا هو الدليل الرابع على إبطال تأليههم لعيسى- عليه السلام- بشبهة أنه خلق من أم بلا أب؛ لأن الله على كل شيء قدير.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

أخبر الله- عز وجل- في الآيات السابقة نقض كل من اليهود والنصارى ميثاقهم وكفرهم، ثم ذكر في هذه الآية قولهم- مع ما هم عليه من الكفر والضلال كذبًا وافتراءً- : نحن أبناء الله وأحباؤه، مفنِّدًا قولهم، ومبطلًا له، ورادًا عليهم.

روى ابن عباس أن أناسًا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته. فقالوا: ما تخوفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ الآية[1].

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ﴾، قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾ لا يقصدون بنوة الولادة، فإنهم لم يدّعوها لأنفسهم، وإنما ادعاها اليهود لعزير

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٦٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٣٣- ٥٣٦).

وادعاها النصارى للمسيح، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وإنما يقصدون أننا كأبنائه في محبته ومودته لنا وشفقته علينا وعنايته بنا وإكرامنا.

﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ معطوف على قولهم: ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾ من عطف الصفة الأعم على الصفة الأخص، فالأبناء غالبًا أخص محبة من غيرهم، أي: نحن أبناء الله المحبون.

وهذه المقالة منهم كذب وافتراء على الله تعالى، وتعاظم على خلقه، ولهذا أبطل قولهم ورده.

قال ابن كثير[1] في كلامه على قوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾: «أي: نحن المنتسبون إلى أبنائه، وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا.. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها لعيسى- عليه السلام، وإنما أرادوا معزتهم لديه وحظوتهم عنده؛ ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾».

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، ﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، وقد يكون له ولكل مَن يصلح خطابه، ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إذا كنتم أبناء الله وأحباءه فلم يعذبكم بذنوبكم. واللام في قوله: «لم»: حرف جر، و«ما»: اسم استفهام.

وعبر بالمضارع ﴿يُعَذِّبُكُم﴾ للدلالة على استمرار تعذيبهم، والباء للسببية، أي: بسبب ذنوبكم.

أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه، فلم يعذبكم بسبب ذنوبكم سواء بالعقوبات في الدنيا أو بالعذاب في النار، وهم لا ينكرون هذا لكنهم يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

أي: لو كنتم أبناءه وأحباءه لم يعذبكم بذنوبكم؛ لأن شأن الأب ألا يعذب أبناءه، وشأن الحبيب ألا يعذب حبيبه، وفي الحديث قوله ﷺ: «**والله لا يلقي الله**

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٦٤).

حبيبه في النار»[١]؟!

وأيضًا لو كنتم أبناءه وأحباءه لِمَ تخالفونه وتذنبون؛ لأن الشأن في الابن ألا يذنب في حق والده، وألا يذنب في حق حبيبه، وفي هذا إبطال لحجتهم بما يناقض قولهم من الشرع.

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، ﴿بَلْ﴾: للإضراب الإبطالي، وفي هذا رد عليهم واحتجاج عليهم بعد إبطال حجتهم، أي: لستم أبناء الله وأحباءه بل ﴿أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ ينالكم ما ينال سائر البشر، ولا مزية لكم على غيركم من البشر.

و«البشر» هم بنو آدم. وسمو بشرًا لأن أبشارهم ظاهرة بادية بخلاف غالب المخلوقات من الحيوانات فإن أبشارها مستورة بالصوف أو الشعر أو الوبر أو غير ذلك.

ولهذا فبنو آدم في حاجة إلى ستر أجسادهم وعوراتهم باللباس، وهم- بما منحهم الله من عقول جعلهم بها محل التكليف- أحوج لستر بواطنهم وظواهرهم بلباس التقوى الذي هو خير لباس، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦].

﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ اللام في قوله: ﴿لِمَن﴾: حرف جر، و«من»: اسم موصول، أي: يغفر بفضله للذين اقتضت مشيئته وحكمته المغفرة لهم منكم ومن غيركم من البشر، بتوفيقهم للتوبة أو بمنّه عليهم بالمغفرة من ذنوبهم دون الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

و«المغفرة»: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عنه وعدم المؤاخذة به؛ كما في حديث ابن عمر: «فيقول الله عز وجل: **أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[٢].

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: ويعذب بعدله الذين اقتضت مشيئته وحكمته تعذيبهم بسبب ذنوبهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ سبق الكلام على هذا في الآية التي قبل هذه الآية.. وختمت به هذه الآية- والله أعلم- للاستدلال على أن أمر المغفرة والعذاب إليه- عز وجل- يغفر لمن يشاء بفضله ويعذب من يشاء بعدله وفق ما اقتضته حكمته؛ لأن الجميع ملكه وتحت تصرفه.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وإليه وحده المرجع والمآل والمآب وعليه الجزاء والحساب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥- ٢٦].

وقدَّم الخبر وهو قوله: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ للحصر والاختصاص، أي: وإليه وحده المصير، لا إلى غيره، فيجازي كلًا بما عمل. وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء.

وختم الله تعالى به هذه الآية؛ لأن المقام مقام وعد ووعيد. بينما ختم الآية السابقة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأن المقام مقام بيان تمام وعموم قدرة الله تعالى على خلق ما يشاء، وعلى كل شيء، والرد على من ألّهوا المسيح ابن مريم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

في الآية السابقة وهي قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة:١٥] تبيين ما أخفوه وكتموه، وفي هذه الآية تبيين ما ينبغي أن يكونوا عليه.

روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن بعض الصحابة قالوا لليهود: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله. لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال أناس من اليهود: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الآية(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب جميعًا اليهود والنصارى

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٧٣- ٢٧٤).

الموجودين في عهد النبي ﷺ، ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني: محمدًا ﷺ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه يبين لكم، أي: يوضح ويُفصِّل لكم، وحذف مفعول ﴿يُبَيِّنُ﴾ ليفيد العموم، أي: يبين لكم كل ما يحتاج الناس إلى بيانه. يبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وغير ذلك، بما جاء به من الفرقان، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الجملة في نصب على الحال، و«الفترة» هنا الانقطاع، ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، ﴿مِّنَ﴾ للابتداء، أي: فترة من الزمن ابتداؤها مدة وجود الرسل، أي: أيام إرسال الرسل.

وفي هذا تذكير لهم بأن كتبهم مصرحة بمجيء رسول عقب رسلهم، وأن مجيئه لم يكن بدعًا من الرسل، وكانوا يجيئون على فترات بينهم.

والمعنى على مدة من الزمن لم يأت فيها رسول، وهي المدة التي بين عيسى- عليه السلام- ونبينا محمد ﷺ، وهي مدة طويلة نحو ستمائه سنة على المشهور، لأن آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى- عليه السلام- وليس بين نبينا محمد ﷺ وبين عيسى- عليه السلام- نبي، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**إن أولى الناس بابن مريم لأنا؛ لأنه لا نبي بيني وبينه**»(١).

وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ للدلالة على شدة حاجة الناس إلى بعثة الرسول، حيث انطمست معالم التوحيد والدين والرسالات وفشي الشرك والجهل والخرافات، ولم يبق على الحنيفية إلا بقايا من أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل- فضائل عيسى- عليه السلام- (٢٣٦٥)، وأبوداود في السنة (٤٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[هود:١١٦].

وفي حديث عياض بن حمار- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الله- عز وجل- قال: خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»(١).

قال ابن كثير(٢): «والمقصود أن الله بعث محمدًا ﷺ على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد قد عم جميع البلاد، والطغيان قد ظهر في سائر العباد إلا قليلًا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقومين من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى والصابئين- ثم ذكر حديث عياض بن حمار المجاشعي- رضي الله عنه- مطولًا عن النبي ﷺ».

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ الجملة تعليلية، أي: لئلا تحتجوا وتقولوا ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، ﴿مِنۢ﴾ زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: ما جاءنا أيُّ بشير، وأيُّ نذير.

و«البشير» الذي يبشر بالخير، ويخبر بما يسر.

و«النذير» الذي يخوف ويحذر من الشر.

أي: ما جاء بعد موسى وعيسى من رسول، يبشرنا بالخير وينذرنا من الشر.

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ الفاء: عاطفة، و«قد»: حرف تحقيق، والجملة في محل نصب مقول القول.

أي: فالآن لا حجة لكم ولا عذر، قد جاءكم بشير ونذير، وهو رسول الله محمد ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سبق الكلام عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢، ٢٦٦).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٦٦).

وختمت به هذه الآية للدلالة على تمام قدرة الله- عز وجل- على بعث الرسل حسب ما تقتضيه حكمته، وعلى تحقيق ما بشروا به لمن أطاعهم، وإيقاع ما أنذروا به على من خالفهم.

الفوائد والأحكام:

١- إخبار الله- عز وجل- وحكمه بكفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وهم النصارى، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، فهذه المقالة كفر ومن قالها فهو كافر.

٢- تأكيد الأخبار في القرآن الكريم بالقسم وغيره من المؤكدات- مع أنه عز وجل أصدق القائلين- كما كان عليه العرب في تأكيد ما يروونه من أخبار؛ لأن القرآن نزل بلغتهم.

٣- في إطلاق وصف «المسيح» على عيسى- عليه السلام- وجعله لقبًا له إشارة إلى منة الله تعالى عليه من كونه إذا مسح ذا عاهة برأ بإذن الله عز وجل، وثناء من الله تعالى عليه .

٤- في نسبة المسيح- عليه السلام- إلى أمه تذكير بقدرة الله تعالى التامة حيث خلقه من أنثى بلا ذكر. وبيان جواز نسبة الابن إلى أمه إذ لم يعرف أبوه، ما لم يؤذ بسبب ذلك، فإن ترتب على نسبته لأمه أذى نسب إلى اسم يصح لكل إنسان كعبدالله وعبدالرحمن ونحو ذلك.

٥- الرد على مَن ألَّهوا المسيح، بأنه وأمه ومن في الأرض جميعًا لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم ولا أحد منهم يملك من الله شيئًا لو أراد إهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وهذا هو الدليل الأول على بطلان قول من قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

٦- قوة سلطان الله عز وجل، وكمال قدرته ونفوذ إرادته، فلا أحد من الخلق يستطيع أن يدفع عن نفسه أو يملك من الله شيئًا لو أراد إهلاكهم حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام بما فيهم أولو العزم، فعيسى- عليه السلام- من أولي العزم، بل

قد قال أفضلهم وسيدهم وخاتمهم: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨].

٧- سعة وعموم ملك الله تعالى، وأن له وحده ملك السموات والأرض وما بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾.

وهذا هو الدليل الثاني في الرد على من قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾؛ إذ كيف يكون المسيح إلهًا وهو مربوب مملوك لله تعالى.

٨- في جعل ما بين السموات والأرض قسيمًا أو عديلًا لهما إشارةً إلى عظم ما بين السموات والأرض من المخلوقات(١).

٩- أن الله- عز وجل- يخلق ما يشاء، على أي وجه وكيفية شاء، فخلق آدم- عليه السلام- من تراب، بلا أب ولا أم، وخلق حواء من أب بلا أم، وخلق عيسى- عليه السلام من أم بلا أب، وخلق سائر البشر من أب وأم، قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾.

١٠- أنه ليس في خلق عيسى- عليه السلام- من أم بلا أب ما يبيح عبادته من دون الله، وادعاء أنه ابن الله؛ لأن الله- عز وجل- يخلق ما يشاء، وقد خلق آدم- عليه السلام- من غير أم ولا أب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

وهذا هو الدليل الثالث من الآية ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ في الرد على مَن ألّهوا المسيح عليه السلام.

١١- إثبات المشيئة المطلقة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾.

وهي مقرونة بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان:٣٠].

---

(١) انظر: «تفسير سورة المائدة» لشيخ محمد بن صالح العثيمين (١/ ٢٤٣).

١٢- عموم قدرة الله تعالى، وأنه- عز وجل- على كل شيء قدير؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذا هو الدليل الرابع في الرد على النصارى في تأليه المسيح بشبهة أنه خلق بلا أب، فالله على كل شيء قدير.

١٣- جُرأة اليهود والنصارى على الكذب والافتراء على الله تعالى وتعاظمهم على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

١٤- تقديم اليهود على النصارى في الذكر؛ لأن اليهود أقدم زمنًا، وأشد كفرًا مع ما عندهم من العلم والمعرفة.

١٥- إثبات المحبة لله تعالى؛ لأن الله تعالى لم ينكر على اليهود والنصارى وصفه بالمحبة إنما أنكر دعواهم أنهم أبناؤه وأحباؤه.

١٦- أن اليهود والنصارى- على ما هم عليه من الكفر والشرك- يثبتون المحبة لله تعالى وقد أنكرها طوائف ممن ينتسبون إلى الإسلام كالمعطلة والجهمية، وأوَّلها آخرون كالأشاعرة، فقالوا: هي الثواب أو إرادة الثواب(١).

١٧- تعاظم اليهود والنصارى وتعاليهم على غيرهم؛ لقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، فهم يرون أنهم أفضل من العرب وأنهم أحق بالرسالة منهم، وأن الجنة لهم، وأن النار لغيرهم.

١٨- الإنكار على اليهود والنصارى دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، بإبطال مقالتهم، والرد عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾.

١٩- أن كل دعوى لابد لها من دليل أو تعليل مقبول، فليس كل مَن ادعى شيئًا يكون محقًّا. وقد قيل:

والـــدعاوى إذا لم يقيمـــوا عليـــ ـــها بينـــات أصـــحابها أدعيـــاء

---

(١) انظر: «تفسير سورة المائدة» لشيخ محمد بن صالح العثيمين (١/ ٢٤٠).

وقال الآخر:

وكـــل يـــدعي وصـــلًا بلـــيلى ولـــيلى لا تقـــر لهـــم بـــذاك

٢٠- أن اليهود والنصارى يعذبون بذنوبهم، وتعذيبهم مستمر؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾.

٢١- أن الذنوب سبب للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِكُم﴾، وفي هذا إثبات الأسباب.

٢٢- أن اليهود والنصارى بشر كغيرهم ممن خلق الله من البشر، لا فضل لهم على غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، وأفضل الخلق عند الله أتقاهم، وأفضل الأمم أمة محمد ﷺ.

٢٣- إثبات خلق الله عز وجل للبشر؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ وفي هذا إثبات صفة الخلق لله عز وجل.

٢٤- إثبات صفة المغفرة لله عز وجل وأنه عز وجل يغفر لمن يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

٢٥- أن الله- عز وجل- يعذب من يشاء بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

٢٦- أن مصير الخلائق ومرجعهم إلى الله تعالى وحده، وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٢٧- خطاب اليهود والنصارى بما علّه أن يوقظ ضمائرهم لاتباع الحق بندائهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مع ما فيه من اللوم والتأنيب لهم على المخالفة.

٢٨- أن محمدًا ﷺ رسول الله مرسل إلى أهل الكتاب كما أنه مرسل إلى غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾.

٢٩- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريف الله تعالى له وتكريمه بإضافته إليه؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولُنَا﴾.

٣٠- أن من لم يؤمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ وأنكر رسالته أو زعم أنه خاص بالعرب فهو كافر وكذا من لم يؤمن به من غير أهل الكتاب كافر أيضًا؛ لأن محمدًا ﷺ رسول الله إلى الناس جميعًا.

٣١- أن الرسول ﷺ مبين لكل ما يحتاج الناس إلى بيانه من أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، مبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ وهو مبين لأهل الكتاب ولغيرهم.

٣٢- أن ما جاء به الرسول ﷺ من الشرع بيِّن واضح لا لبس فيه ولا غموض.

٣٣- أن بعثة النبي ﷺ كانت على فترة من الرسل، أي: مدة طويلة فبينه ﷺ وبين عيسى- عليه السلام- نحو ستمائة سنة، وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بين نبينا محمد ﷺ وبين عيسى نبي.

٣٤- في كون بعثته ﷺ على فترة من الرسل حكمة لله تعالى؛ لأن مجيء الرسول ﷺ بعد فترة من الرسل، واشتداد حاجة الناس إلى الرسول وتشوقهم إليه أقرب وأدعى للقبول، كما أن في ذلك منة عظمى من الله تعالى على أهل الكتاب وعلى غيرهم حيث جاءهم الرسول يبين لهم ما يحتاجونه على فترة من الرسل.

٣٥- إثبات الرسالات السابقة قبل بعثته ﷺ، والإشارة إلى كونه خاتمهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٣٦- إقامة الحجة على أهل الكتاب وغيرهم، والإعذار منهم ببعثته ﷺ على فترة من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

٣٧- العذر بالجهل وأن من لم تبلغه الرسالة فهو معذور.

٣٨- أن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعًا من لدن نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ التبشير لمن آمن وأطاع الله، والإنذار لمن كفر وخالف أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

ومن لازم هذا بيان ما يحصل به الإيمان والطاعة، وما يحصل به الكفر والمخالفة. إضافة إلى أنهم مكلفون بالعبادة كغيرهم من البشر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

امتنّ الله- عز وجل- على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون وقومه القبط، ومن أسرهم واستعبادهم، وسار بهم موسى- عليه السلام- إلى موطن آبائهم أرض كنعان ومسكنهم بيت المقدس وما حواليه، ولما قاربوا وصول بيت المقدس وعظهم موسى- عليه السلام- وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم الدينية والدنيوية، وأمرهم بدخول هذه الأرض وقتال عدوهم، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، أي: واذكر حين قال موسى لقومه، والخطاب للنبي ﷺ، أي: واذكر يا محمد إذ قال موسى لقومه، وذكّر بذلك أمتك عامة، وبني إسرائيل في عهدك خاصة. وقوم موسى هم بنو إسرائيل. والقوم يطلق على الجماعة من الناس ذكورًا وإناثًا.

وقد يطلق على الذكور فقط كما في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٨].

ومعلوم أن الفاحشة في قوم لوط هي اللواط، وهو بين الذكور، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ لقوله بعده: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾

[الحجرات:١١].

﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، «يا»: حرف نداء، لنداء البعيد، وفي مناداته- عليه السلام- لهم بنداء البعيد دلالة على بعد الشقة بينه وبينهم بسبب مخالفتهم له وعتوهم وعنادهم، كما أن في مناداته لهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ استعطافًا لهم.

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، ﴿نِعۡمَةَ﴾ اسم جنس يقع على القليل والكثير، وهي الإفضال والإحسان.

وإذا أضيفت إلى معرفة دلت على الإنعام المطلق التام، أي: على عموم النعم الدينية والدنيوية والأخروية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة:٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل: ١٨].

والمعنى: اذكروا نعم الله تعالى عليكم واشكروها باطنًا بالإقرار والاعتراف بها بقلوبكم، وظاهرًا بالاستعانة بها على طاعة الله تعالى بجوارحكم، والثناء على الله تعالى بها بألسنتكم، ونسبتها إليه لا إلى غيره.

والتحدث بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١].

وظهور أثرها عليكم، كما قال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(١).

﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هذا بيان وتفصيل للنعمة، وبيان أنها نعم كثيرة

﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾، ﴿إِذۡ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ«نعمة»؛ لأنها بمعنى «إنعام»، أي: اذكروا إنعام الله عليكم.

و﴿جَعَلَ﴾ في الموضعين بمعنى «صيَّر» تنصب مفعولين، الأول هنا الظرف ﴿فِيكُمۡ﴾ والثاني ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾، وهي في الموضعين من «الجعل الكوني».

﴿فِيكُمۡ﴾، «في» للظرفية؛ لأن الأنبياء يكونون من وسط وأشراف قومهم، وهذه

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنهما- وقال: «حديث حسن».

الآية كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ قرأ نافع بالهمز: «أنبئاء»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾، وهي جمع «نبي» أو«نبيء» ويدخل فيهم الرسل من باب أولى؛ لأن كل رسول نبي، ولا يلزم أن يكون كل نبي رسولًا.

والمعنى: اذكروا نعمة الله عليكم حين جعل فيكم أنبياء، فكلما هلك نبي قام فيهم نبي من لدن أبيهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم- عليهم السلام- إلى آخر أنبيائهم، ولم يبعث في أمة من الأمم ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، فأبوهم يعقوب- عليه السلام نبي، وأولاده الأسباط الاثني عشر كلهم أنبياء، وكل من جاء من أنبياء بني إسرائيل فهو من نسلهم، وآخرهم عيسى- عليه السلام، إلى أن ختم الأنبياء كلهم بمحمد ﷺ وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم- عليهما السلام.

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، أي: وصيركم ملوكًا، وكاف الخطاب مفعول أول لـ«جعل» و﴿مُّلُوكًا﴾ مفعولها الثاني، أي: وصيركم أحرارًا تملكون أمركم وأزال عنكم استعباد عدوكم فرعون وقومه القبط لكم، ولم يقل: «وجعل فيكم ملوكًا»، كما قال: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾؛ لأن النبوة من عند الله لمن يصطفيهم ممن هم أهل للنبوة، أمَّا الملك فإن كل واحد منهم يمكن أن يكون ملكًا، وكل من يملك نفسه وأهله وخدمه ومسكنه فهو ملك.

وقد سأل رجل عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقال: ألسنا من الفقراء المهاجرين؟ فقال له عبدالله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: فإن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك»(١).

وقال ﷺ: «من **أصبح آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(٢).

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معطوف على ما قبله.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٩)، والطبري في «جامع البيان» (٨/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، من حديث سلمة بن عبيدالله بن محصن الخطمي عن أبيه- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

و«آتى» تنصب مفعولين؛ الأول هنا: كاف الخطاب، والثاني «ما» الموصولة، والعائد محذوف، أي: وآتاكم الذي لم يؤته أحدًا من العالمين، ومفعولا «يؤت» الأول: ضمير الهاء العائد على الموصول، والثاني: «أحدًا»، أي: واحدًا.

والمعنى: وأعطاكم من النعم الدينية والدنيوية الذي لم يعطه ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: من عالمي زمانكم وممن سبقوكم؛ وذلك لأنهم آنذاك خيرة الأمم وأشرف الناس في زمانهم، من اليونان والقبط وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:١٦].

وقال تعالى إخبارًا عن موسى- عليه السلام- أنه قال لهم: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٠].

ولهذا لم يقل: «ما لن يؤت أحدًا من العالمين»؛ لأن بني إسرائيل وإن جعل فيهم أنبياء وجعلوا ملوكًا، وكان من أنبيائهم موسى وعيسى- عليهما السلام- من أولي العزم من الرسل، ومن كتبهم التوراة أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن- فليسوا بأفضل من أمة محمد ﷺ التي هي أفضل وخير الأمم على الإطلاق، بعث الله إليهم أفضل رسله وسيدهم، وأنزل عليهم أعظم كتبه القرآن الكريم، وجعلهم وسطًا عدولًا خيارًا بين الأمم، شهداء على الناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣].

و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع «عالَم»، كعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وعالم الملائكة، وعالم الجمادات، وغير ذلك.

وسموا عالمًا؛ لأنهم علامة على وجود الخالق، وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

كما قيل:

فواعجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كـــل شيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد[١]

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾.

ذكر موسى- عليه السلام- في الآية السابقة نعم الله تعالى عليهم الدينية والدنيوية، ثم أمرهم في هذه الآية بدخول الأرض المقدسة مجاهدين في سبيل الله، وكان في تذكيره لهم بنعم الله تعالى عليهم تحفيزًا لهم على ذلك؛ شكرًا لله تعالى واستجابة لأمره، كما حذرهم من الخسران بالارتداد على الأدبار.

وأعاد النداء بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لطول الفصل، وتأكيدًا لاستعطافهم؛ ولأن المقصود من تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم في الآية السابقة هو القيام بأمره من الجهاد في سبيله وغير ذلك؛ لهذا أعاد النداء مع أمرهم بذلك إضافة إلى ما يشعر به إعادة النداء لهم من شعوره- عليه السلام- بتبلد أحاسيسهم، وكونهم إلى التمرد أقرب؛ ولهذا حذرهم فقال: ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾، أي: قاتلوا حتى تدخلوا الأرض المقدسة أي: المطهرة من الشرك، المباركة، وهي أرض بيت المقدس وما حولها؛ لأنها أرض النبوات، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

وفي قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بشارة لهم من وجهين، الأول: البشارة لهم أنهم سيدخلونها، والوجه الثاني: الإشارة إلى تيسير دخولها عليهم حيث جاء التعبير بالدخول دون القتال، مع أن كلًا من القتال والدخول مراد منهم.

كما أن في وصفها بالمقدسة ترغيبًا وإغراءً لهم بدخولها، فهي أقدس أرض وأطهرها قبل بعثة محمد ﷺ، وأما بعدمبعثه ﷺ فالمسجد الحرام، والمسجد النبوي أعظم قداسة منها؛ ولهذا قال ﷺ: «**صلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فيما سواه، وصلاة**

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه»[١].

﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، «الكتابة» نوعان: كتابة شرعية، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىٰ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣].

وكتابة قدرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]. والكتابة في الآية هنا: كتابة قدرية، أي: التي كتب الله كونًا وقدرًا.

وهذه بشارة ثانية لهم بأن الغلبة ستكون لهم؛ لأن الله كتب هذه الأرض لهم قدرًا، ووعد عز وجل إبراهيم- عليه السلام- بأن يورثها ذريته، وما كتبه الله فهو حاصل لا محالة، وما وعد به لن يتخلف.

قال ابن كثير في كلامه على هذه الآية[٢]: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ الآية: «ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى- عليه السلام- لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف- عليه السلام، لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قومًا من العمالقة الجبارين، قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى- عليه السلام- بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين، لايدرون كيف يتوجهون إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله».

﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ الجملة معطوف على قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، والارتداد: الرجوع إلى الخلف والوراء، و«الأدبار» جمع «دبر»، أي: لا تولوا عدوكم أدباركم وظهوركم وأقفيتكم، بمخالفة أمر الله تعالى، والنكوص عن القتال والانهزام، قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٤٠٦)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.
(٢) في «تفسيره» (٣/ ٦٩).

ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥].

ووصفه بالارتداد على الأدبار تنفيرًا منه.

﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ الفاء: عاطفة، وتفيد السببية، أي: فيتسبب عن ارتدادكم رجوعكم خاسرين، و«الانقلاب» الرجوع.

﴿خَٰسِرِينَ﴾: حال، أي: حال كونكم خاسرين، أي: خاسرين دنياكم بما فاتكم من النصر على عدوكم وفتح بلادكم وما حصل لكم من الهزيمة والذل، وخاسرين أخراكم بما فاتكم من الثواب وما استحققتم من العقاب بسبب مخالفتكم أمر الله تعالى وترك الجهاد.

وقد نهى ﷺ عن الفرار من الزحف وعده من الموبقات كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات، والتولي يوم الزحف**»(١).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

بهذا أجابوا قول موسى عليه السلام لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لم ينادوه باسم النبوة والرسالة جفاء منهم في مخاطبتهم له، وكان الواجب عليهم أن يوقروه وينادوه باسم النبوة والرسالة، فيقولوا: يا نبي الله، أو يا رسول الله.

وقد قال الله تعالى مخاطبًا أمة محمد ﷺ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣] أي: بأن تدعوه باسمه مجردًا عن وصف النبوة والرسالة فتقولون: يا محمد يا أبا القاسم، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١).

أو بألا تجيبوه إذا دعاكم، فإجابة دعائه واجبة ليست كإجابة دعاء بعضكم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾، ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الأرض المقدسة، و﴿جَبَّارِينَ﴾ جمع جبار، وهو الرجل العاتي القوي الشديد الطويل.

يقال: رجل جبار إذا كان طويلًا عظيمًا قويًّا شديدًا، تشبيهًا بالجبار من النخل، أو اشتقاقًا من الجبر، وهو الإلزام؛ لأن القوي يجبر الناس على ما يريد.

أي: إن فيها قومًا عتاة أقوياء الأجسام لا طاقة لنا بقتالهم، يعنون بذلك العمالقة والكنعانيين.

وهذه المقالة تدل على جبنهم وخورهم وعدم عزيمتهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله تعالى ورسوله، ونسيانهم قدرة جبار السموات والأرض، وخوفهم من هؤلاء الجبارين أعظم من خوفهم من الله تعالى.

قال ابن القيم(١): «ونسوا قدرة جبار السموات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارين- الذين نواصيهم بيد الله- أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم من الله».

﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾، أي: وإنا لن ندخل هذه الأرض إلى غاية خروج هؤلاء الجبارين منها.

﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، أي: فإن يخرج منها هؤلاء الجبارون فإنا داخلون.

وفي هذا تصريح بمعصية موسى ومخالفة أمره، وقد أكدوا ذلك بعدة مؤكدات،

الأول: تمهيدهم عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾.

والثاني: تصديرهم الجملة بـ﴿إِنَّ﴾.

والثالث: تحقيقهم النفي بـ«لن» الدالة على نفي المستقبل، أي: لا ندخلها الآن، ولا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٧).

في المستقبل.

والرابع: تعليقهم دخولها بشرط خروج الجبارين منها.

والخامس: تأكيد دخولها إذا خرج منها الجبارون بقولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ وهذا مما لا يحتاج إلى تأكيد.

وفي قوله: ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ بـ«إن» الشرط إشارة إلى استبعادهم ذلك مع أن موسى أخبرهم بأن الله تعالى كتبها لهم، ولو تيقنوا ذلك لقالوا: «فإذا خرجوا».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ تشجيعًا لقومهم وتنهيضًا لهم. ولم يذكر من هما هذان الرجلان لعدم الحاجة إلى ذلك، وقد قيل إنهما: «يوشع بن نون» و«كلاب بن لوقا»، وقيل غير ذلك.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ صفة لـ﴿رَجُلَانِ﴾، أي: من الذين يخافون الله ويخشون عقابه.

﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ صفة ثانية لـ﴿رَجُلَانِ﴾ أو حال منهما، أي: أنعم الله عليهما إنعامًا عامًّا، بنعم كثيرة:

منها: توفيقهما لطاعته والانقياد لأمره، والخوف منه عز وجل، الذي يحمل على فعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

ومنها: توفيقهما لقوة الرأي والعزيمة والشجاعة، والثقة بوعد الله تعالى بالغلبة والنصر؛ لقول موسى عليه السلام لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

ومنها: توفيقهما للتوكل على الله تعالى، ولهذا قالا: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ومنها: توفيقهما إلى مناصحة قومهما والصدع بالحق بأمرهم بأن يدخلوا على هؤلاء

الجبابرة الباب، فإذا دخلوه فإنهم غالبون، وأمرهم بالتوكل على الله تحقيقًا لإيمانهم إلى غير ذلك من النعم(١).

ومعنى قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾، أي: ادخلوا عليهم باب القرية، أي: اهجموا عليهم وباغتوهم فلا يعلموا بكم حتى تدخلوا الباب.

وفي هذا إشارة إلى تعمية الأخبار عن الأعداء عند إرادة غزوهم.

﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾، أي: فإذا دخلتم الباب فإنكم غالبون بمجرد دخولكم، أي: أنه ليس بينكم وبين غلبتكم لهم ونصركم عليهم إلا أن تدخلوا عليهم الباب فينهزمون ويغلبون، وفي هذا بشارة لتيسير الفتح عليهم، كما في قول موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ الواو عاطفة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، وقدم عليه للحصر، أي: فتوكلوا واعتمدوا على الله تعالى وحده، والفاء في قوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ رابطة لجواب شرط مقدر، أو زائدة لتحسين اللفظ.

فأمر هذان الرجلان قومهما بفعل الأسباب بدخول الباب على هؤلاء الجبابرة، وأرشدوهم- مع ذلك لعدة هي أقوى العدد للنصر والغلبة، وهو التوكل والاعتماد على الله تعالى وحده، لا على أنفسهم أو على تلك الأسباب.

والتوكل على الله معناه: صدق الاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر- مع تمام الثقة بالله عز وجل، وحسن الظن به، وفعل الأسباب.

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ الجملة شرطية، وجواب الشرط معلوم من السياق، أي: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا على الله، فمن شرط صحة الإيمان التوكل على الله تعالى؛ لأن المؤمن حقًّا هو من يتوكل على الله ويعلم أن من توكل على الله كفاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق:٣]، أي: كافيه.

---

(١) انظر: «تفسير سورة المائدة» للشيخ محمد بن عثيمين (١/ ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾.

لم يصغوا لهذه المشورة الثمينة القيّمة من هذين الرجلين، بل استمروا في رفضهم الدخول وأكدوا ذلك وأبدوه.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ بهذا التعبير الجافي أعادوا خطابهم لنبي الله عليه السلام: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ﴾، أي: إنا لا يمكن أن ندخلها ﴿أَبَدٗا﴾، أي: مهما طال الوقت ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ﴾، أي: مادام هؤلاء الجبارون فيها.

والديمومة في المكان: ملازمته وعدم مفارقته.

ومنطوق هذه الجملة تأكيد لنفيهم السابق دخول هذه الأرض وتأبيد له، ومفهومها تأكيد لما سبق بأنهم سيدخلونها إذا خرج الجبارون منها.

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ لم يقتصر جفاؤهم على مخاطبتهم نبي الله وكليمه موسى- عليه السلام- باسمه «موسى» مجردًا عن النبوة والرسالة، كما يخاطب بعضهم بعضًا، بل زاد جفاؤهم وتضاعف، بقولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ وذلك من وجوه عدة:

منها: إصدارهم الأمر لموسى ولربه بقولهم: «اذهب أنت وربك» وقولهم: «قاتلا». وهذا يدل على تعاظمهم وتعاليهم ليس فقط على موسى، بل على رب موسى، رب العالمين؛ لأن الأمر إنما يكون من أعلى إلى من هو دونه- تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ومنها- ما هو أعظم وأشد- وهو قولهم: ﴿وَرَبُّكَ﴾ فكأن ربه ليس ربًّا لهم- عياذًا بالله من هذا القول.

ولشدة نكارة هذا القول قال مَن قال مِن المفسرين: المراد بقولهم: ﴿وَرَبُّكَ﴾، أي: وسيدك، ويعنون بذلك هارون أخاه؛ لأنه على ما قيل أكبر من موسى. والرب يطلق على السيد، والأكبر من الأخوين يكون سيدًا للأصغر منهما.

وحَمْل قولهم: ﴿وَرَبُّكَ﴾ على أن مرادهم به: أخاه هارون بعيد جدًّا، بل الظاهر أنهم

أرادوا بقولهم: ﴿وَرَبُّكَ﴾ رب العالمين، الذي يدعوهم موسى- عليه السلام- لعبادته وطاعته، ولا عجب ولا غرابة أن يصدر هذا من اليهود لما جبلوا عليه من قبيح الصفات.

وقد صدر مثله من النصارى حيث قالوا لعيسى عليه السلام: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة:١١٢].

ومنها ما يشعر به قولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ من الاستخفاف والسخرية بموسى- عليه السلام- بل وبرب موسى- عليه السلام- رب العالمين- سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، أي: إنا هاهنا، أي: في هذا المكان القريب قاعدون، أي: لن نبرح مكاننا هذا ولن نتعداه.

والقعود يحمل على الجلوس ضد القيام، ويحمل على القعود عن الجهاد والقتال، وهو المراد هنا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة:٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾.

لما أيس موسى- عليه السلام- منهم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ الآية، على طريق البث والحزن والشكوى إلى الله عز وجل.

قوله: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، وحذف حرف النداء للإيجاز، وللتبرك بالبداءة باسم الله عز وجل.

﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾، أي: إني لا أملك أمرًا إلا أمر نفسي، وأمر أخي- يعني: أخاه هارون- عليه السلام، وكان هارون وزيرًا لأخيه موسى تحت إمرته.

فالمعنى: إني لا أمر لي إلا على نفسي وأخي هارون ولا يد لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء.

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا﴾، أي: فاحكم وافصل بيننا أنا وأخي هارون ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله بأن تنزل بهم من العقوبة الخاصة ما اقتضته حكمتك ولا تؤاخذنا بجرمهم.

ودل دعاء موسى- عليه السلام- بهذا الدعاء ووصفه لهم بالفاسقين بأن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق من ترك الجهاد والنكوص عنه وغير ذلك.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «فافرق بيننا وبينهم» أو «فافرق بيننا وبين هؤلاء القوم» ونحو ذلك، بل قال: ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ لإظهار فسقهم، وانه السبب في دعائه عليهم، وإخراج من لم يكن فاسقًا منهم كالرجلين المذكورين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

بهذا أجاب الله دعوة موسى عليه السلام لما قال: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾، أي: فإن عقوبتهم أن هذه الأرض محرمة تحريمًا قدريًّا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: على بني إسرائيل الذين نكصوا عن القتال.

والتحريم معناه الحظر والمنع، وهو نوعان: قدري، وشرعي، أي: فإنهم ممنوعون قدرًا من دخولها أربعين سنة.

و﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ العامل فيه ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقيل: منصوب بقوله: ﴿يَتِيهُونَ﴾، فالوقف تام على ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ هلالية؛ لأن التوقيت بالهلال، كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٨٩].

﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يحارون فيها ويضلّون ويترددون فيها، يسيرون على الدوام لكنهم يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا. ولله في ذلك حكمة. فالمسافة بين مصر والشام تقدر بمسيرة شهر، ومع ذلك بقوا أربعين سنة لم يهتدوا للطريق؛ لأن الله حرمها عليهم، فأعماهم بسبب عتوهم وعنادهم.

قال مجاهد: «تاهت بنو إسرائيل أربعين سنة، يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا»(١).

وقال السعدي(٢): «وهذه عقوبة دنيوية لعل الله تعالى كفّر بها عنهم ودفع عقوبة أعظم منها».

وقد قيل: إن من حكمة تحديد هذه المدة بأربعين سنة لينشأ جيل جديد في هذه المدة على غير ما كان عليه هؤلاء المعاندون يكونون أهلًا لدخول الأرض المقدسة وفتحها وهكذا حصل فقد نشأ هذا الجيل وسار بهم يوشع بن نون بعد أن مات موسى وهارون ففتحها على أيديهم. وقيل: إن الذي فتحها هو موسى- عليه السلام- والله أعلم.

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- : «قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: فتاهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون وكل من جاوز الأربعين سنة. فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم «يوشع بن نون» وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها...»(٣).

قال ابن كثير(٤): «لما دعا عليهم موسى- عليه السلام- حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدرًا أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسيرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه، انفجرت من ذلك اثنتا عشرة عينًا، تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيّد الله بها موسى بن عمران، وهناك أنزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام».

إلى أن قال ابن كثير: «ثم كانت وفاة هارون- عليه السلام، ثم بعده بمدة ثلاث

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٣١٥).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٧٤)، وقال: «وهذا السياق له شاهد في «الصحيح».

(٤) في «تفسيره» (٣/ ٧٣- ٧٤)، وانظر (١/ ١٢٦- ١٥٠).

سنين مات موسى الكليم- عليه السلام، وأقام الله فيهم «يوشع بن نون»- عليه السلام- نبيًا خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بني إسرائيل في تلك المدة. فلما انقضت المدة خرج بهم «يوشع بن نون»- عليه السلام، أو بمن بقي منهم، وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تضيفت الشمس للغروب، وخشي دخول السبت عليهم قال: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها عليَّ فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر الله «يوشع بن نون» أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخلوا بابها سجدًا، وهم يقولون: حطة، أي: حط عنا ذنوبنا، فبدَّلوا ما أُمِرُوا به، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حبة في شعرة».

وقد ذكر الطبري أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى- عليه السلام- ومعه يوشع، فقال: «حتى انقضت السنون التي حرم الله- عز وجل- عليهم فيها دخولهم، ثم أذن لمن بقي منهم وذراريهم بدخولها مع نبي الله موسى والرجلين الذين أنعم الله عليهما، وافتتح قرية الجبارين إن شاء الله نبي الله موسى ﷺ، وعلى مقدمته يوشع[1].

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر.

والأسى: الحزن والأسف، أي: فلا تحزن، ولا تأسف. قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد:٢٣]، أي: لكيلا تحزنوا. قال امرؤ القيس[2]:

وقوفًا بها صحبي عليَّ مطيَّهم ... يقولون لا تهلك أسى، وتجمَّلِ

والمعنى: فلا تحزن على القوم الفاسقين، ولا تأسف عليهم، فإنهم لا يستأهلون الحزن لأجلهم؛ لأنهم قد استحقوا ما نزل بهم بسبب فسقهم، وفي هذا تسلية لموسى- عليه السلام.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير موسى- عليه السلام- لبني إسرائيل بإنعام الله تعالى عليهم ليشكروه؛ لقوله

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٣١٤).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٩)، «جامع البيان» (٨/ ٣١٩).

تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية.

٢- تذكير هذه الأمة بما فيهم من يوجد من بني إسرائيل حين بعثهة نبينا محمد ﷺ بأخبار موسى- عليه السلام- مع بني إسرائيل ومعالجته لهم وعتوهم وعنادهم وعقوبة الله تعالى لهم، لأخذ العظة والعبرة من ذلك، والسعيد مَن وُعِظ بغيره، كما أن في ذلك تسلية للنبي ﷺ تجاه المكذبين له، وبخاصة اليهود، وبيان عناد أسلافهم لنبي الله موسى- عليه السلام.

٣- وجوب ذكر نعم الله تعالى وشكرها بالقلب واللسان والجوارح، والاعتراف بها باطنًا وظاهرًا، والثناء على الله تعالى بها، ونسبتها إليه، واستعمالها في طاعة الله تعالى.

٤- عظم النعمة التي آتاها الله لبني إسرائيل، حيث جعل فيهم الأنبياء، وجعلهم ملوكًا وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين ممن سبقوهم ومن أهل زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم ينجع ذلك فيهم.

٥- أن بعث الأنبياء في الأمم من أعظم النعم وأكبرها لهذا قُدِّم في الآية على الملك وغيره، وذلك لأن الأنبياء يجمعون بين سياسة الناس في دينهم ودنياهم، وفي هذا إشارة لفضل العلماء على الأمراء؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء- عليهم السلام.

٦- أنه كلما كانت النعمة على العبد أتم كان الشكر عليه أوجب وألزم.

٧- في تذكير موسى- عليه السلام- لبني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم قبل أمرهم بدخول الأرض المقدسة تحفيز لهم على امتثال أمر الله تعالى وتنشيط لهم على الطاعة والجهاد في سبيله.

٨- أن القتال كان مفروضًا على بني إسرائيل؛ لقول موسى- عليه السلام- لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾، ويدل على هذا قول موسى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾.

٩- فضيلة أرض الشام؛ لأن الله- عز وجل- وصفها بـ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾، أي: المطهرة من الشرك، وبارك فيها، لأنها أرض النبوات ومسرى نبينا محمد ﷺ، كما قال تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

١٠- أن هذه الأرض المقدسة قد كتبها الله- عز وجل- لبني إسرائيل وهم أحق الناس بها في زمانهم، لا لأنهم بنو إسرائيل، بل لإيمانهم وكونهم أصلح الناس آنذاك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٧- ٥٩]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥- ٢٨].

أما بعد بعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن الكريم، ونسخ الإسلام لجميع الأديان السابقة فالأحق بها شرعًا هم المسلمون.

١١- إثبات الكتابة القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: كتبها لكم قدرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وهناك الكتابة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥].

١٢- نهي موسى- عليه السلام- لبني إسرائيل عن الارتداد على أدبارهم والنكوص عن القتال، وبيان أن عاقبة ذلك هي الخسران في الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

١٣- التنفير من مخالفة أمر الله تعالى والنكوص عن الجهاد في سبيله بوصف ذلك بالارتداد على الأدبار تنفيرًا منه.

١٤- أن التقدم حقًّا باتباع الرسل- عليهم الصلاة والسلام- وما جاؤوا به من الشرع من عند الله عز وجل، وأن مخالفة ذلك هي التأخر حقًّا، ولا ينافي ذلك الأخذ بأسباب التقدم الحضاري شريطة المحافظة على الثوابت، كما جاء في الكتاب والسنة ودرج عليه سلف الأمة.

١٥- أن الارتداد على الأعقاب ومخالفة أمر الله تعالى ورسله وترك الجهاد في سبيله سبب للخسران في الدين والدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

١٦- أن على الداعية إلى الله تعالى أن يُحذر من يدعوهم من عقوبات المخالفة لأمر الله، كما هو شأن الرسل عليهم السلام.

١٧- فضيلة نبي الله موسى- عليه السلام- وما جُبِل عليه من حُسن الخلق وشفقته على قومه، يظهر ذلك في تلطفه معهم، وحُسن خطابه لهم، واستعطافهم بقوله: «يا قوم» «يا قوم»، وفي تذكيره لهم بنعم الله تعالى عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم، ونهيهم عن معصيته، وتحذيرهم من عاقبة ذلك وهي الخسران.

١٨- جفاء بني إسرائيل وغلظتهم في تعاملهم مع نبي الله وكليمه موسى عليه السلام، وعدم توقيرهم له، يفصح عن ذلك نداؤهم له باسمه: «ياموسى» «ياموسى» دون أن يقولوا: يا نبي الله، أو يارسول الله- وكأنهم لا يقرون بنبوته ورسالته.

١٩- عدم ثقة بني إسرائيل بوعد الله تعالى لهم بالغلبة والنصر، وما أخبرهم به موسى- عليه السلام- من أن الله كتب الأرض المقدسة لهم.

٢٠- شدة جبن بني إسرائيل وخورهم، ومعصيتهم وعنادهم، لقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾.

فمن شدة جبنهم وإصرارهم على المعصية أكدوا مرة بعد أخرى عدم دخولهم إليها وأبدوه مادام هؤلاء الجبارون فيها، بل أكدوا ما لا يحتاج إلى توكيد وهو دخولهم إذا خرج هؤلاء منها.

٢١- فضل الله تعالى على من يشاء حيث أنعم على هذين الرجلين بالخوف منه- عز وجل- وقوة الرأي والعزيمة والشجاعة، والثقة بوعد الله، والتوكل عليه-

وذلك كله دليل قوة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

٢٢- أن الحق لا يعدم من قائل به، وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وقد قال ﷺ: **«لاتزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم مَن خذلهم ولا مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»**(١).

٢٣- أن الخوف من الله من نعم الله تعالى على العبد، لأنه يحمل على طاعة الله، وعدم مخالفة أمره أو ارتكاب نهيه، وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله خوفًا من عقابه، أو رجاء في ثوابه، وإنما نعبد الله، لله.

٢٤- في التعبير في الآيات بقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ وقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ﴾ دون ذكر القتال أو المقاتلة ما ينبغي أن يكون حافزًا لبني إسرائيل على الاستجابة؛ لما فيه من الإشارة إلى تيسير دخولهم.

٢٥- أن من أساليب الحرب تعمية الأخبار عن العدو لمفاجأته وأخذه على غرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾، أي: لا يعلمون بكم حتى تدخلوا عليهم الباب. ولهذا لما أراد ﷺ فتح مكة سأل الله عز وجل أن يعمي الأخبار عنهم(٢).

٢٦- أن من غزي في عقر داره فهو ذليل ومغلوب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ﴾، أي: وهم مغلوبون، وفي المثل: «وما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا»(٣)، حتى وإن كانت لهم الغلبة، فإن جرأة العدو على غزوهم في بلادهم إذلال لهم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» (٩/ ٢٣٣)، وانظر: «السيرة النبوية» (٥/ ٥٢)، «تاريخ الأمم والملوك» للطبري (٢/ ١٥٥).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٩).

٢٧- وجوب التوكل على الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

٢٨- أن أقوى العدد وأعظم أسباب الغلبة والنصر على الأعداء التوكل على الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

٢٩- ينبغي الجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

وفي الحديث: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»، أي: احرص على ما ينفعك بفعل الأسباب، «**واستعن بالله**»، أي: توكل عليه، واطلب العون منه.

٣٠- أن النصر ليس بالقوة الظاهرة، وإنما بها وبقوة الإيمان والتوكل على الله تعالى قبل ذلك، فميزان القوى ليس فقط للقوة المادية، بل وللقوة المعنوية.

٣١- أن من شرط الإيمان التوكل على الله تعالى وحده، وبحسب إيمان العبد يكون توكله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مؤمنين حقًا فتوكلوا على الله دون سواه.

قال ابن القيم[1]: «فجعل التوكل شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل».

٣٢- تعالي بني إسرائيل وتعاظمهم؛ لقولهم لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

٣٣- جفاء بني إسرائيل في حق الله- عز وجل؛ لقولهم: ﴿وَرَبُّكَ﴾ فكأن رب موسى- عليه السلام- ليس ربًّا لهم.

٣٤- فضيلة أصحاب النبي ﷺ ومدى التفاوت بينهم وبين بني إسرائيل وسائر الأمم في الطاعة والامتثال وتوقير نبيهم- عليه الصلاة والسلام- فعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٩).

كما قال موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك. فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره- يعني: قوله»(١).

وقال سعد بن معاذ- رضي الله عنه- لما استشار النبي ﷺ أصحابه يوم بدر: «فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدًا، إنا لصُبُر في الحرب، صُدق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله»(٢).

٣٥- أن موسى- عليه السلام- قد أيس من امتثال بني إسرائيل أمره، وتيقن خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٣٦- أن موسى- عليه السلام- له الإمرة على أخيه هارون؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ يعني: هارون. وقد سأل الله أن يجعله وزيرًا له فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه:٢٩- ٣٢]، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:٤٢].

٣٧- دعاء موسى- عليه السلام- ربه أن يفرق بينه هو وأخوه ﴿وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني: قومه لمخالفتهم له وخروجهم عن طاعة الله تعالى وترك الجهاد والنكوص عنه.

٣٨- أن ترك الجهاد في سبيل الله والنكوص عنه من الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- باب قصة غزوة بدر (٣٩٥٢)، وأحمد (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠)، والآية ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ إنما نزلت بعد بدر بسنتين؛ لأن سورة المائدة من آخر ما نزل، بل هي آخر ما نزل من القرآن. وإنما علم الصحابة- رضي الله عنهم- ما حصل من بني إسرائيل بإخبار الرسول ﷺ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٥).

٣٩- استجابة الله تعالى دعاء موسى- عليه السلام، وعقابه لبني إسرائيل بتحريم الأرض المقدسة عليهم قدرًا أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

٤٠- إثبات التحريم القدري، كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:١٢].

وهناك التحريم الشرعي كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣].

٤١- شؤم المعاصي والفسوق؛ لأن عقوباتها تعم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: عليهم جميعًا، وكما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

٤٢- أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخيرها إلى وقت آخر.

٤٣- تسلية الله- عز وجل- لموسى- عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

٤٤- لا ينبغي الحزن على من لحقه عذاب الله تعالى؛ لأن ذلك حكم الله تعالى، وهو الحَكَم العَدْل سبحانه وتعالى.

٤٥- ينبغي على المسلم بذل الجهد في الدعوة إلى الله تعالى، ويعلم أن هداية القلوب بيد علام الغيوب، فلا يحزن على ضلال من ضل، قال تعالى مخاطبًا نبينا محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: واقرأ يا محمد وقص على الناس وعلى اليهود خاصة أهل البغي والحسد وأمثالهم ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾.

وأمره ﷺ أن يتلو عليهم هذا النبأ لأهميته. وإلا فهو ﷺ مأمور بتبليغ القرآن كله وبيانه للناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾، أي: خبر ابني آدم، والنبأ الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧- ٦٨]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر:٤٩- ٥١].

﴿ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾، أي: ابناه لصلبه، وهما: «هابيل» و«قابيل»، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، وهو في محل نصب على الحال من فاعل، «اتل»، أي: حال كونك متلبسًا

بالحق، أو من مفعوله وهو ﴿نَبَأَ﴾، أي: واتل نبأهما حال كونه متلبسًا بالحق، أو صفة لمصدر محذوف، أي: تلاوة متلبسة بالحق.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران:٦٢]، وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:١٣]، ومعنى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالصدق الثابت الذي لا كذب فيه ولا باطل؛ لأنه خبر أصدق القائلين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين» متعلق بـ﴿نَبَأَ﴾، أي: حين قربا قربانًا. و«القربان» ما يتقرب به إلى الله- عز وجل- من نسيكة أو صدقة، وأبهم هذا القربان ولم يبين ما هو؛ لأنه لا حاجة إلى ذلك ولا يترتب عليه مصلحة.

وقد قيل: إن هابيل قدّم كبشًا أو شاة من خيار ماله، وكان صاحب ماشية، وقدم قابيل طعامًا من رديء ماله وكان صاحب حرث وزرع.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ الفاء: عاطفة، وبني الفعل «تُقُبِّلَ» لما لم يسم فاعله؛ لأن المتَقَبِّل معلوم وهو الله عز وجل، أي: فتقبل الله من أحدهما قربانه، بسبب تقواه.

قيل: إن علامة قبول القربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه، فإن لم تنزل فهو لم يقبل.

كما جاء أن الغنائم في الأمم السابقة تنزل نار فتحرقها إذا جمعوها، فإن كان فيها غلول لم تنزل النار(١).

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾، أي: ولم يتقبل من الآخر قربانه؛ لعدم تقواه.

و«تُقبل» أبلغ من «قُبل»، و«يُتقبل» أبلغ من «يُقبل»؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالبًا-

---

(١) أخرج الحديث في هذا البخاري في فرض الخمس (٣١٢٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على زيادة المعنى.

ودلالة الآية ظاهرة على أنهما علما بقبول قربان أحدهما دون الآخر، وقد يكون ذلك بما ذكر من نزول نار تحرقه أو عدمه، وقد يكون بوحي إلى آدم، وقد يكون برؤيا، أو غير ذلك من الأمارات.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الآخر الذي لم يتقبل منه قربانه، حسدًا لأخيه وبغيًا عليه.

﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأقتلنك؛ لأن الله تقبل منك قربانك ولم يتقبل مني.

وقد أكد وعيده لأخيه بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد.

وما ذنب أخيه في هذا؛ ولكنه الحسد أول جريمة ظهرت في الأرض.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الذي تقبل منه قربانه- مترفقًا مبينًا- من غير فخر- سبب تقبل الله قربانه، وعدم قبول تقبل قربان أخيه، وحاثًا لأخيه على الأخذ بسبب القبول وهو تقوى الله تعالى، فقال:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: لا يتقبل الله إلا من المتقين، أي: ممن اتقى الله في عمله، بالإخلاص لله تعالى، وموافقة شرعه، إذ ليس المهم العمل، وإنما المهم كونه صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

فتقبل الله من أحدهما قربانه بسبب تقواه، وصلاح عمله، إخلاصًا لله تعالى واتباعًا لشرعه، ولم يتقبل من الآخر قربانه لعدم تقواه، ولكون عمله غير صالح.

عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: «لأن أستيقن أن الله تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن بسطت إليَّ يدك،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٧٩).

أي: مددتها مدًّا تصل به إليَّ.

﴿لِتَقْتُلَنِى﴾: اللام للتعليل، أي: لأجل أن تقتلني.

﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ جملة جواب القسم، ﴿مَآ﴾: نافية، أي: ما أنا بباد يدي مدًّا أصل به إليك ﴿لِأَقْتُلَكَ﴾ اللام للتعليل كسابقتها، أي: لأجل أن أقتلك، أي: قاصدًا قتلك. وهذا يحتمل أنه لن يدافع عن نفسه، بل سيستسلم ويصبر ويحتسب، ويحتمل أنه لن يقصد قتله، ولكن سيدافع عن نفسه، ويقوي هذا قوله بعده: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجملة تعليل؛ لقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، أي: لأني ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلن أقصد قتلك بسبب خوفي من الله رب العالمين أن يعاقبني، لا عجزًا عن قتلك، ولا جبنًا.

وتعظيمًا لله عز وجل، وبيانًا لشدة خوفه منه جمع بين اسميه عز وجل، ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الدالين على أن له- عز وجل- كمال الألوهية، وكمال الربوبية، خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ هذه الجملة تعليل ثان لقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ﴾، أي: إني أحب بعدم بسط يدي إليك.

﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿أُرِيدُ﴾ ومعنى ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾، أي: أن ترجع ﴿بِإِثْمِى﴾، أي: بإثم قتلي.

﴿وَإِثْمِكَ﴾، أي: وتبوء بإثمك، أي: وترجع بذنبك الذي كان عليك قبل ذلك وهو عدم تقواك.

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ الجملة معطوفة على ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾، أي: إني أريد رجوعك بإثمي وإثمك، وكونك من أصحاب النار، أي: من أهلها؛ لأنك قتلت نفسًا بغير حق.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواو: استئنافية، «ذلك»، أي: كونك من أصحاب النار.

﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: عقاب الظالمين وعذابهم، وقد ظلمت بقتلك نفسًا بغير حق.

وفي الحديث: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه**»(١).

والظلم قسمان: ظلم للنفس بالشرك والمعاصي، وظلم للغير بالتعدي على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وهو أيضًا من ظلم النفس.

وأظلم الظلم الشرك بالله تعالى، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

فما كان من ظلم للنفس بين العبد وبين ربه فهو محل لعفو الله إلا الشرك بالله.

وأما ظلم العباد فلابد من المؤاخذة فيه؛ لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحة.

ولا يخلد في النار ويكون من أصحابها الملازمين لها إلا من مات على الشرك والكفر.

قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ الفاء: استئنافية، أي: سهلت وحسنت وسولت للقاتل نفسه الأمارة بالسوء ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾.

﴿فَقَتَلَهُۥ﴾، أي: فقتل أخاه، أي: أزهق روحه.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فصار من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

قيل: ولما قتل أخاه لم يدر ما يصنع به؛ لأنه أول ميت من بني آدم، وقد قيل: إنه مكث مدة طويلة يحمله في جراب على عاتقه، وقيل: ألقاه في العراء.

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأرسل الله غرابًا وألهمه، و«الغراب»

---

(١) أخرجه مسلم في الرقاق (٦٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هو الطائر المعروف.

﴿يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يحفر فيها بمنقاره ورجله.

﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يريه، والضمير المستتر في ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ يعود إلى الله عز وجل، أي: ليريه الله- عز وجل- ويحتمل عوده إلى الغراب.

وضمير الهاء في ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ في محل نصب مفعول به، يعود إلى القاتل، أي: ليجعله يرى ويشاهد بعينه.

﴿كَيْفَ يُوَٰرِي﴾، أي: كيف يستر ويغطي.

﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، أي: عورة أخيه المقتول؛ لأن بدن الميت كله عورة؛ ولهذا أمر النبي ﷺ أن يكفن بدن الميت كله، ولا يخرج منه شيء، ما عدا المحرم بحج أو عمرة من الرجال فيجب كشف رأسه، لقوله ﷺ: «**ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا**»(١).

قيل: بعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له، ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ الآية. هكذا قيل.

وظاهر الآية يدل فقط على أن الغراب يبحث في الأرض ليريه أن الشأن في أمر أخيه أن يحفر له ويدفنه.

﴿قَالَ﴾، أي: القاتل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أصلها: «ويلتي»، أو «ويلي» فقلبت الياء ألفًا من أجل المد، وهي كلمة تحسر وتحزن، و«يا» في قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ حرف نداء، فكأنه يقول: يا هلاكي ويا عذابي احضر.

﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه هنا الإنكار والتعجب، أي: كيف عجزت، أي: كيف ضعفت أن أكون مثل هذا الغراب في بحثه في الأرض، أو في بحثه في الأرض ومواراة أخيه الغراب الميت.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- الكفن في ثوبين (١٢٦٥)، ومسلم في الحج- ما يفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦)، وابوداود في الجنائز (٣٢٣٨)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٥٤)، والترمذي في الحج (٩٥١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ الفاء: عاطفة، و«أواريَ» منصوب عطفًا على «أكون».

والمواراة: الستر والتغطية، أي: فأستر وأغطي عورة أخي، بأن أحفر له في الأرض وأدفنه فيها.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، أي: فصار من النادمين، والندم: أسف الفاعل على فعل صدر منه عليه فيه ملامة.

أي: فصار نادمًا أشد الندم على عجزه أن يكون مثل الغراب في مواراة أخيه. وليس نادمًا على قتله لأخيه، إذ لو ندم على قتل أخيه لعد تائبًا.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

خص عز وجل بني إسرائيل بهذا؛ لأنهم أكثر الناس قتلًا للأنبياء وللذين يأمرون بالقسط من الناس فضلًا عن قتلهم من دونهم.

قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا للتعليل، ﴿أَجْلِ﴾ بمعنى سبب، أي: بسبب ذلك.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى قتل ابن آدم لأخيه حسدًا وظلمًا وعدوانًا، وسنه القتل لمن بعده وعاقبة ذلك الوخيمة في الدنيا والآخرة من الخسران والندامة.

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: كتبنا عليهم كتابة شرعية، أي: فرضنا، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، ﴿أَنَّهُۥ﴾، «أنَّ» حرف توكيد ونصب، والهاء: ضمير الشأن. و﴿مَن﴾: اسم شرط، ﴿قَتَلَ﴾: فعل الشرط، والمعنى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغير قتل نفس يوجب القصاص.

﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على «غير» في قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: أو بغير فساد في الأرض يوجب قتلها، مما يعظم ضرره وتعم مفسدته، كما يفعل قطّاع الطريق، وعصابات اللصوص، والسطو على الناس، وكالزنا والردة عن الإسلام.

والمعنى: أن من قتل نفسًا بغير حق، أي: بغير سبب يوجب قتلها، كقتل نفس معصومة، أو فساد في الأرض كقطع الطريق، وزنا المحصن، والردة عن الإسلام.

ولهذا قال ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(١).

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، «كأنما» للتشبيه.

والمعنى: أن مَن قتل نفسًا معصومة عمدًا من غير ما يوجب قتلها من قصاص منها، أو بسبب فساد في الأرض، واستحل قتلها، فكأنما قتل الناس جميعًا واستحل قتلهم، كما أن مَن كذَّب رسولًا من الرسل يكون مكذبًا لجميع الرسل.

قال ابن كثير(٢): «أي: ومن قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها، بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعًا؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس».

فهو كمن قتل الناس جميعًا؛ من حيث استحلاله للقتل، وهتكه لحرمة الدماء، ومن حيث أن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في وجوب القصاص، وفي استجلاب غضب الله تعالى، والعذاب العظيم، والوعيد في الخلود في النار- وإن كان من قتل أكثر من واحد أشد جرمًا وأعظم عقوبة.

قال ابن القيم(٣): «وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقال: معلوم أن إثم مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه».

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ»: موصولة، والضمير الهاء يعود إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٨٦).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٠٩).

النفس، أي: ومن كان سببًا في بقاء حياتها وإنقاذها من الموت أو القتل، بإنقاذها من هلكة، من غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك، أو بعفو عن القاتل ابتغاء وجه الله، أو دفع صائل ونحو ذلك.

﴿فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾، أي: فيكون كالذي أحيا الناس جميعًا، أي: أن من أنقذ نفسًا معصومة من قتل أو موت فكأنما أنقذ الناس جميعًا باعتبار الجنس، وعمله جليل، وثوابه عظيم جزيل.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا﴾، أي: كف عن قتلها وحرمه إلا بحق.

قال ابن كثير[1]: «أي: من حرم قتلها، واعتقد ذلك، فقد سلم منه الناس بهذا الاعتبار».

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب: «رسْلنا» بإسكان السين، وقرأ الباقون بضمها: ﴿رُسُلُنَا﴾.

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾ لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد أرسلنا. و«قد» للتحقيق.

وأضاف عز وجل الرسل إليه؛ لأنه هو الذي أرسلهم، وفي ذلك تشريف وتكريم لهم، وتكلم عز وجل بضمير العظمة، لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، أي: المفصلات الواضحات؛ الآيات الشرعية التي أنزلها على رسله في كتبه كالتوراة والإنجيل.

والآيات الكونية التي أيّدهم بها كالايات التسع التي أيّد الله تعالى بها موسى- عليه السلام، من العصا واليد، والتي أبطل بها سحر السحرة، وغيرها. وكالآيات التي أيّد الله بها عيسى عليه السلام، من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وغير ذلك.

وقد فاق ذلك كله ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات في القرآن العظيم

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٨٦).

المصدق لجميع الكتب السماوية والمهيمن عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للعطف مع التراخي، و﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، أي: ثم إن كثيرًا من بني إسرائيل، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد مجيء الرسل إليهم بالبينات.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾، واللام فيه لام المزحلقة وتفيد التوكيد، وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتصوير هذا الإسراف عند السامع وتفظيعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

والإسراف: تجاوز الحد بتعدي حدود الله- عز وجل- أي: ثم إن كثيرًا من بني إسرائيل بعد مجيء الرسل إليهم بالبينات وما فيها من بيان الحق والتشديد في أمر القتل لم يزالوا يسرفون في الأرض بالمعاصي والفساد، من الشرك بالله، وقتل الأنبياء بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وغير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- أن القرآن كلام الله تعالى، والرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، وفي هذا رد على مَن يزعمون أن الرسول ﷺ افترى القرآن واختلقه من عند نفسه.

٢- أهمية هذه القصة؛ لأن الله تعالى أمر النبي ﷺ أن يتلوها على الأمة أمرًا خاصًّا فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ الآيات، وذلك لما فيها من الفوائد والعِبر.

٣- أن ما أخبر الله تعالى به فهو حق وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، فطريق وصوله حق، وهو حق، ومشتمل على الحق.

٤- الفرق الشاسع والبون الواسع بين الناس في الأعمال- وإن كان ظاهرها واحد- وذلك من حيث الإخلاص وعدمه، ومن حيث القبول وعدمه، ومن حيث قدر الثواب عليها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾.

٥- أن التقرب إلى الله- عز وجل- بتقديم القرابين كان مشروعًا في شريعة آدم وأبنائه.

٦- أن المهم في العمل كونه مقبولًا عند الله تعالى.

٧- أن ثمة علامات ظاهرة تدل على قبول ما يُقدم من القرابين أو عدم قبولها في تلك الفترة، سواء كان ذلك بنزول نار فتحرق ما قُبل منها، أو غير ذلك.

٨- أن تقوى الله تعالى هي سبب قبول الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وكون أعمالهم خالصة لله- عز وجل- موافقة لشرعه.

٩- أن قبول قربان أحد ابني آدم لكونه من المتقين، أي: قد اتقى الله فيما قدمه من قربان بكونه خالصًا لله تعالى، وموافقًا لشرعه.

١٠- أن عدم قبول قربان الآخر من بني آدم أنه لم يكن من المتقين، فيما قدمه من قربان؛ لكونه عملًا غير صالح؛ لفقده شرطي الصلاح، وهما: الإخلاص لله تعالى، والموافقة لشرعه، أو لفقد أحدهما.

١١- أن الله- عز وجل- يقبل لحكمة ويمنع لحكمة.

١٢- الترغيب بتقوى الله تعالى والبشارة للمتقين بقبول أعمالهم.

١٣- جواز أن يقول الإنسان: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إذا كان قصده الحث على ما يكون سببًا لقبول الأعمال وهو التقوى، لا الافتخار بنفسه وعمله.

١٤- ينبغي ألا يحمل الإنسان الآخرين تبعات ذنبه وخطئه ويلومهم ويعاتبهم أو يعاقبهم، بل ينبغي ألا يلوم إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. وقد قيل:

فنفسك لم ولا تلم المطايا ومت كمدًا فليس لك اعتذار(١)

١٥- عظم أمر قتل النفس؛ لقول ابن آدم: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهذا يحتمل أنه سيستسلم لأخيه إن أراد قتله، ويصبر ويحتسب، ويحتمل أنه سيدافعه دون اعتداء.

والذي جاء في شريعتنا المطهرة الناسخة لجميع الشرائع السابقة، أن الصائل

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «الزهرة» (ص٨٥).

ينبغي أن يدافع ما أمكن ولو أدى ذلك إلى قتله، كما قال ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد**»(١).

عن قهيد بن مطرف الغفاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سأله سائل: إن عدا عليَّ عاد. فأمره أن ينهاه ثلاث مرار. قال: فإن أبى، فأمره بقتاله. قال: فكيف بنا؟ قال: «**إن قتلك فأنت في الجنة، وإن قتلته فهو في النار**»(٢).

ويستثنى من هذا إذا خيف حدوث فتنة بسبب المدافعة فيجب الاستسلام والصبر والاحتساب، وكذا حال الفتن التي يكثر فيها القتل، فعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك. قال: فإن لم أُتْرَك؟ قال: فأت من أنت منهم فكن فيهم. قال: فآخذ سلاحي؟ قال: إذًا تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إذا خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك**»(٣).

وعن بشر بن سعيد: أن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «**إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي. قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي فبسط يده إليَّ ليقتلني؟ قال: كن كابن آدم**»(٤).

ولهذا لما حاصر الثوار الخليفة الراشد ذا النورين عثمان بن عفان- رضي الله عنه- استسلم، وأبى أن يُدافع عنه الصحابة- رضي الله عنهم، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «دخلت على عثمان يوم الدار، فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعًا وإياي معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلًا واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٣)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٩).

(٣) أخرجه أبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٦١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٨)، وأحمد (٥/ ١٤٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٨٥).

فانصرف مأذونًا لك، مأجورًا غير مأزور، قال: فانصرفت ولم أقاتل»(١).

قال الشاعر في رثاء عثمان رضي الله عنه:

فكف يديه وأغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار لا تقتلوهم ... عفا الله عن ذنب امرئ لم يقاتل

أما لو التقى المسلمان كل منهما يريد قتل الآخر عدوانًا فقد قال ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»(٢).

١٦- ينبغي إذا امتنع الإنسان عن شيء لكون هذا الشيء محرّمًا أن يبين لصاحبه سبب امتناعه، حتى لا يظن به سوى ذلك، فابن آدم لما امتنع من قتل أخيه قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حتى لا يظن أخوه أنه امتنع من ذلك لعجز أو خوف منه، ومثل هذا قوله ﷺ: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، فإن سابه أحدًا أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم**»(٣).

وقوله ﷺ لما دعي إلى الأكل من الصيد قال: «**إنَّا لم نردُّه عليك إلا أنَّا حرم**»(٤)، وامتنع ﷺ من أكل الصدقة وأن يولي عليها من آله معللًا ومبينًا «**أنها أوساخ الناس، وأنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد**»(٥).

١٧- أن الخوف من الله تعالى أعظم ما يردع عن المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، وأبوداود في الفتن (٤٢٦٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٢٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٤)، ومسلم في الصيام (١١٥)، وأبوداود في الصوم (٢٣٦٣)، والنسائي في الصيام (٢٢١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٨٢٥)، ومسلم في الحج (١١٩٣)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨١٩)، والترمذي في الحج (٨٤٩)، وابن ماجه في مناسك الحج (٣٠٩٠)، من حديث الصعب بن جثامة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٦٠٩)، وأبوداود في الخراج والإمارة (٢٩٨٥)، والنسائي في الزكاة (٢٦٠٩)، من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث رضي الله عنه.

رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما أن الرجاء أعظم ما يحمل على الطاعة. وهما للمؤمن كجناحي الطائر في طريقه إلى الله تعالى يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه. وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبده رجاءً في ثوابه ولا خوفًا من عقابه بل نعبده لذاته.

١٨- ينبغي الخوف من الله تعالى وحده، وتقواه، والحذر من القتل بغير حق وغيره من كبائر الذنوب.

١٩- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٠- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مسلوب الإرادة لا اختيار له.

٢١- أن القاتل عمدًا يبوء ويرجع بإثم ما ارتكبه من القتل؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾، أي: بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك.

٢٢- عظم أمر القتل عمدًا، وأنه من أكبر الكبائر، ومن أسباب دخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

وقد سبق الكلام على هذه الآية في تفسير سورة النساء، وبيان أن قتل العمد من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله عند جمهور العلماء. وبيان أن الوعيد بتخليد القاتل عمدًا في النار محمول- على الصحيح- فيما إذا وجد المقتضي للخلود، وانتفى المانع منه، فإن وجد المانع من الخلود كالإيمان والتوبة والأعمال الصالحة ونحو ذلك فلا يخلد. بل إن القاتل عمدًا- على الصحيح- كغيره من أصحاب الكبائر داخل تحت المشيئة إن شاء الله أدخله النار وطهره من ذنبه وأخرجه منها، وإن شاء عفا عنه فلم يدخله النار، فلا يقطع بدخوله النار ويقطع بخروجه منها إن دخلها، ولا يقطع بدخول النار والخلود فيها إلا لمن مات على الكفر والشرك.

٢٣- أن جزاء الظالمين النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٤- التحذير من الظلم سواء كان ظلمًا للنفس فيما بين العبد وبين ربه بالشرك والمعاصي أو ظلمًا للغير بالاعتداء عليهم، وهو من ظلم النفس أيضًا.

٢٥- وجوب الحذر من النفس الأمّارة بالسوء وتسويلها وتزيينها المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾.

إني بليت بأربع لم يخلفوا ... إلا زيادة شقوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي[1]

٢٦- أن قتل النفس عمدًا لا يُخرج من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الحجرات:٩].

وفي هذا رد على الخوارج الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة يخرج من الإيمان.

كما أن فيه ردًّا على المعتزلة الذين يقولون: هو بمنزلة بين المنزلتين، بمعنى أنه يخرج من الإيمان ولكن لا يدخل في الكفر- مع أنه في الآخرة مخلد في النار.

٢٧- خطر الحسد ووجوب الحذر منه؛ لأنه قد يحمل على ارتكاب الكبائر والموبقات، فقد حمل ابن آدم على قتل أخيه، لا لشيء إلا أن قربان أخيه تُقبل دون قربانه هو. كما حمل الحسد والكبر إبليس على عدم السجود لآدم، وحمل الحسد اليهود على تكذيب رسالة نبينا محمد ﷺ، وحمل إخوة يوسف على ما فعلوا به.

٢٨- خسارة ابن آدم الذي أقدم على قتل أخيه حسدًا منه له على تقبل الله تعالى منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، وبهذا تحمل كفلًا من دم كل من قتل ظلمًا بعد ذلك؛ لأنه أول من سنّ القتل كما قال ﷺ: «**لا تقتل**

---

(١) البيتان لا يعرف قائلهما، وفيهما اختلاف. انظر: «كشف الخفاء» ١/ ٤٠، «مجمع الحكم والأمثال» ٧/ ١٨.

نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل»(١). ولهذا قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(٢).

٢٩- سوء عاقبة البغي والحسد والظلم والقتل بغير حق، وأن عاقبة ذلك الخسران، وأشد ذلك وأعظمه ما كان بسبب توفيق الله تعالى لمن يشاء من عباده في دينه.

٣٠- حكمة الله تعالى في بعث هذا الغراب يبحث في الأرض؛ ليرشد ابن آدم إلى أن يحفر لأخيه ويدفنه.

وفي ذلك آية من آيات الله، وتيسير وفرج لابن آدم بعد أن ضاق ذرعًا ماذا يصنع بأخيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ وصار دفن الموتى سنة في بني آدم بعد ذلك.

٣١- أن العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الفرج، فبعد أن ضاقت الحيل في ابن آدم ماذا يصنع بجثة أخيه- حتى قيل إنه حمله مدة طويلة في جراب على ظهره- أرسل الله هذا الغراب يبحث في الأرض؛ ليرشده كيف يواري سوأة أخيه.

٣٢- لا عجب ولا غرابة أن يكون إرشاد ابن آدم كيف يصنع بأخيه بواسطة هذا الغراب، فإن الله تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، أي: هدى كل مخلوق لما خلق له، فهدى الحيوانات لأسباب عيشها وحياتها وتوالدها ونحو ذلك.

وهي باقية على الفطرة التي فطرها الله عليها، بينما ضل كثير من البشر عن الفطرة التي فطرهم الله عليها.

ولهذا يقال في الإلغاز: «من الذي بعثه الله وليس من الإنس وليس من الجن؟»؛

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٦)، ومسلم في القسامة (١٦٦٧)، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٨٥)، والترمذي في العلم (٢٦٧٣)، وابن ماجه في الديات (٢٦١٦)، وأحمد (١/ ٣٨٣)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)، من حديث جرير رضي الله عنه.

يعنون: الغراب.

٣٣- أن بدن الميت كله عورة يجب ستره جميعًا بالكفن ومواراته ودفنه في الأرض؛ ولهذا ينبغي أن يعمق له في القبر حتى لا تصل إليه السباع.

٣٤- تحسر ابن آدم وندمه، واعترافه بعجزه أن يكون مثل هذا الغراب فيهتدي إلى دفن أخيه؛ لقوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۚ﴾.

٣٥- ما أسرع عقوبات المعاصي والذنوب فابن آدم منذ حصل منه الحسد لأخيه وقتله حل به الخسران والحزن والندامة، بل رُوي أنه عوجل بالعقوبة، فمات أو أصابه ما أصابه.

وفي الحديث: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(١).

وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا. نسأل الله العافية.

٣٦- أن عاقبة المعاصي الخسران والحسرة والندامة.

٣٧- إثبات الحكمة والعلة للأحكام الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الآية. فكل ما حكم الله به وما يحكم به من الأحكام الشرعية والقدرية كل ذلك لحكمة بالغة، سواءً علمناها أو لم نعلمها.

٣٨- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لأن له سبحانه كمال العظمة، كما قال ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**»(٢).

٣٩- أن الله كتب شرعًا على بني إسرائيل أن من قتل نفسًا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا، لقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في النهي عن البغي (٢/ ٦٩٣) برقم (٤٩٠٢)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم (٥٧) (٤/ ٦٦٤) برقم (٢٥١١) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الزهد، باب البغي برقم (١٤٠٨) ورقم (٤٢١١).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠)، وأبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

٤٠- أن من موجبات القتل أن تقتل النفس بالنفس قصاصًا؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾، فمفهوم الآية أن النفس تقتل قصاصًا بالنفس.

وقد دل على هذا منطوق قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء:٣٣].

ويخص من قتل النفس بالنفس ما دل الدليل على تخصيصه كقتل المسلم بالكافر- كما سيأتي بيانه في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائد:٤٥].

٤١- أن من موجبات القتل الفساد في الأرض الذي يعظم ضرره وتعم مفسدته كقطع الطريق والردة وزنا المحصن ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة:٣٣].

٤٢- تعظيم قتل النفس بغير الحق وفظاعته؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

٤٣- أن من كان سببًا في حياة نفس معصومة وإنقاذها كمن أحيا جميع الناس باعتبار الجنس، أو باعتبار أن عمله جليل وثوابه عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

٤٤- إقامة الحجة على بني إسرائيل بما جاءهم من الآيات البينات الشرعية والكونية على أيدي الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

٤٥- تأكيد الأخبار بالقرآن بالقسم ونحوه، وفق ما كان عليه العرب في تأكيد الأخبار؛

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ الآية، ولقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾، فأكد هذا الخبر بـ«إنَّ» و«اللام».

٤٦- تشريف الرسل وتكريمهم بإضافتهم إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾.

٤٧- أن من لم تبلغه الرسالة فهو معذور، ومن لم يبلغه الحكم قد يعذر لجهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٤٨- أن ما جاءت به الرسل من الآيات الشرعية والكونية في غاية البيان والوضوح لا لبس فيها ولا غموض ولا خفاء؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٤٩- أن كثيرًا من بني إسرائيل مع مجيء الرسل إليهم بالآيات البينات لم يهتدوا، بل هم في الأرض مسرفون، متجاوزون للحد، بالإشراك بالله وقتل الأنبياء وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس وأذيتهم، والصد عن دين الله، وعن اتباع رسله- عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

٥٠- شدة عتوّ بني إسرائيل واستكبارهم وعنادهم وتكذيبهم لرسل الله، وما جاؤوا به من الآيات البينات.

٥١- لا عبرة بما عليه الكثير من الناس، فأكثرهم للحق كارهون، وعن الصراط ناكبون، وللحد متجاوزون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

٥٢- أن ما جاءت به الرسل من البينات لا يغني شيئًا عمن كتب عليه الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠١]،

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

٥٣- التحذير من الإسراف ومجاوزة الحد في كل شيء وذمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾.

سبب النزول:

جمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت في العرنيين لما رواه أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «قدم على النبي ﷺ نفر من عُكْلٍ فأسلموا، فاجتووا المدينة فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا، فارتدوا وقتلوا رعاتها، واستاقوا الإبل، فبعث في آثارهم فأتي بهم فقَطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم[1] ثم لم يحسمهم حتى ماتوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾[2] الآية».

قال أنس رضي الله عنه: «إنما سمل رسول الله ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سملوا أعين الرعاء»[3].

---

(١) قوله: «وسمل أعينهم» وفي رواية: «وسمر أعينهم» ومعنى ذلك أن تفقأ العين بحديدة محماة كالمخيط أو المسمار، أو بغير ذلك. قال أبوذؤيب في القصيدة التي رثى بها أبناءه الخمسة الذين أصيبوا بالطاعون في عام واحد، والتي مطلعها:

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال: فالعين بعدهمُ كأن حداقها ... سملت بشوك فهي عور تدمع

انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (١/ ١٧٣- ١٧٤)، «النهاية»، «لسان العرب» مادة: «سمل»، «ديوان الهذليين» (١/ ٣).

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٠٢)، ومسلم في القسامة والمحاربين (١٦٧١) وليس عندهما ذكر نزول الآية، وأخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٦٤- ٤٣٦٥)، والنسائي في الطهارة (٣٠٥)، والترمذي في الطهارة (٧٢، ٧٣)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٧٨)، وأحمد (٣/ ١٠٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٣٠).

(٣) جاء هذا في رواية مسلم، والنسائي والترمذي- وعلى هذا فما فعله بهم ﷺ لا يعد مثلة وإنما هو من باب القصاص الواجب، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [الآية:١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل:١٢٦]. وانظر: «جامع البيان» =

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر وهي كافة ومكفوفة، تفيد حصر عقوبة المحاربين في العقوبات المذكورة؛ لأن معنى الحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما سواه؛ أي: ما جزاؤهم إلا ما ذكر.

﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾ مبتدأ، أي: عقوبة الذين يحاربون الله ورسوله.

قال الطبري[1]: «ما للذي حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادًا من أهل ملة الإسلام أو ذمتهم إلا بعض هذه الخلال التي ذكر الله».

﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه.

والمحاربة: مفاعلة، وهي ما يكون فيه مشاركة من طرفين غالبًا كالمقاتلة والمناظرة؛ لأن وزن «فاعَلَ» يدل على المشاركة غالبًا، وقد لا يدل عليها كما في «عاقب» و«سافر» يقال: عاقبت اللص، وسافر زيد، وهكذا.

والحرب والمحاربة: ضد السلم والمسالمة، وهي المقاتلة وسلب المال[2]، والله سبحانه لا يحارب ولا يُغالب بهذا المعنى؛ لما له من صفات الكمال والتنزه عن الأنداد والأضداد فهو القوي المتين الجبار العزيز الغالب غير المغلوب، فمعنى محاربته: مضادته ومخالفته بالكفر والمعاصي والفساد في الأرض عنادًا واستكبارًا، ومن ذلك قطع الطريق وأذية المؤمنين ومحاربتهم.

ومحاربة الرسول ﷺ حال حياته بالمعنيين معًا، بمخالفته ومضادته، وبمقاتلته

(١٠/ ٢٥٢-٢٥٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٩٥)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٧-٨٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٩-١٥٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٢-٩٣)، «أضواء البيان» (٢/ ٩٦).

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٥٧).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٩٦).

بالسلاح ومقاتلة أصحابه وأتباعه على دينه. أما بعد وفاته فمحاربته بمخالفة ما جاء به ومحاربة أتباعه.

والمراد بالمحاربين هنا الذين يعرضون للناس بالسلاح في الصحراء أو البنيان، للقتل وأخذ المال، وانتهاك الأعراض، وإخافة السبيل(١).

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ معطوف على قوله: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو وصف كاشف ومفسر لمعنى محاربة الله ورسوله، أي: أنها بالسعي في الأرض فسادًا.

والسعي في الأرض هو السير فيها، وطلب الشيء والبحث عنه والمسارعة في ذلك، أي: أنهم يطلبون الفساد في الأرض، بل ويفعلون ذلك على وجه الإسراع(٢).

﴿فَسَادًا﴾ منصوب على المفعول لأجله، أي: يسعون في الأرض لأجل الفساد والإفساد. ويمكن أن يكون منصوبًا على الحال أي: مفسدين. أو يكون منصوبًا على المصدرية.

والإفساد والفساد: ضد الإصلاح والصلاح.

أي: ويسعون في الأرض؛ لأجل الإفساد فيها بقطع الطريق بالقتل والنهب وإخافة السبيل ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، ﴿أَن﴾ حرف مصدري ونصب، ﴿يُقَتَّلُوٓا۟﴾ منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون و﴿أَن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل رفع خبر المبتدأ ﴿جَزَٰٓؤُا۟﴾، والتقدير: إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا التقتيل.

وقوله: ﴿يُقَتَّلُوٓا۟﴾ بتشديد القاف، والتقتيل المبالغة في القتل شدة في إيقاع القتل،

---

(١) انظر: «المدونة» (٦/ ٢٩٨)، «الأم» (٦/ ١٥٢)، «جامع البيان» (١٠/ ٢٨٨)، «مختصر الطحاوي» ص(٢٧٥)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٨٠- ٢٨٢)، «معالم التنزيل» (٦/ ٢٠٥)، «المحلى» (١٠/ ٣٠٥)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٨)، «المغني» (٨/ ٢٨٦- ٢٨٧).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «سعى».

وكثرة في عدد القتلى بحيث يكون قتلهم جميعًا حتمًا لا هوادة فيه، ولا عفو من ولي الدم[١].

﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾، ﴿أَوۡ﴾ عاطفة وهي تفيد التخيير المقيّد بحسب نوع الجريمة التي ارتكبها المحارب؛ لأن المحارب قد يقتل، وقد يأخذ المال، وقد يجمع بين الأمرين وقد يخيف السبيل فقط.

وقيل: إنها للتخيير المطلق، أي: أن الإمام مخير في إيقاع أي هذه العقوبات على المحاربين.

﴿يُصَلَّبُوٓاْ﴾ معطوف على ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾ فمحله الرفع وكذا قوله: ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

و﴿يُصَلَّبُوٓاْ﴾ بتشديد اللام، وهو من حيث الصيغة مثل: ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾ فالتصليب المبالغة في الصلب، شدة في إيقاع الصلب، وكثرة في عدد المصلوبين بحيث يكون صلبهم جميعًا حتمًا لا هوادة فيه ولا عفو.

والصلب هو أن يربط على خشبة ونحوها في مكان عال ليراه الناس ويشهّر أمره، بعد أن يقتل، أو قبل القتل، ويترك حتى يموت[٢].

﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾، ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ حال، ومعناه: من المخالفة بأن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى[٣].

وتقطع اليد من الكوع، مفصل الكف من الذراع.

وكيفية القطع: أن تُشدّ يده شدًّا شديدًا حتى يتبين المفصل ثم تقطع من مفصل الكوع.

وتقطع الرجل من مفصل القدم من العقب، فتقطع القدم فقط، وأما العقب المسمى بالعرقوب فلا يقطع.

وتحسم اليد والرجل بعد القطع بالزيت المغلي، أو بغير ذلك حتى يتوقف خروج الدم.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٤).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٦٤)، «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٨)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٠).

﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ النفي بمعنى الطرد والإبعاد، ومنه سميت النفاية، لأنها تبعد، أي: يطردون من الأرض ويبعدون عنها، و«ال» في الأرض للعهد، أي: الأرض التي سعوا فيها فسادًا.

واختلفوا في المراد بالنفي من الأرض هنا(١):

فمن أهل العلم من قال: المراد بالنفي من الأرض أن يخرجوا من البلد الذي سعوا فيه فسادًا إلى بلد آخر.

وقال بعض أهل العلم المراد بالنفي من الأرض هنا الحبس، قالوا: فالحبس نفي لهم من الأرض إلا من مكان حبسهم، وإخراج لهم من سعة الدنيا إلى ضيقها، كما قال أحد السجناء:

خرجنا من الدنيا وعن وصل أهلها ... فلسنا من الأحيا ولسنا من الموتى
إذا جاءنا السجان يومًا لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا(٢)

وقال بعضهم: يخرجون من البلد الذي أحدثوا فيه إلى بلد آخر ويسجنون فيه، وقيل: نفيهم مطاردتهم من بلد إلى بلد فلا يتركون يقر لهم قرار.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ الإشارة إلى الجزاء بالعقوبات الأربع المذكورة ﴿لَهُمۡ﴾، أي: للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، لا يتعدى أثره إلى أهلهم وعشيرتهم.

﴿خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أي: ذل وعار وفضيحة وهوان في الحياة الدنيا وسميت هذه الحياة ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ من الدنو؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن.

ومن الدناءة والحقارة؛ لأنها دنيئة حقيرة لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥، الحديد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٨- ٢٧٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٠٩، ٤١٢)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٢- ٣٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٠- ٩١)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٧١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٤)، «أضواء البيان» (٢/ ٩٠).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٧١).

مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد:٢٦].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

وقال ﷺ: «**ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم**»(٢).

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: ولهؤلاء المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فسادًا في الدار الآخرة.

وسميت ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد انتهاء الحياة الدنيا، وإلا فهي الحياة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: عذاب النار، أي: إن لم يتوبوا؛ لأن كل وعيد مشروط بعدم التوبة، فمن تاب من أي ذنب كان، حتى ولو كان تاب من الشرك فإنه لا يؤاخذ بما سلف منه؛ لأن التوبة تجب ما قبلها.

فيجمع لهم بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، هذا هو ظاهر الآية؛ وذلك- والله أعلم- لعظم جرمهم، وشدة أذيتهم، وخطرهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استثناء مما سبق.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعًا، فتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني.

«لكن»، أي: لكن الذين تابوا من قبل أن تقدر عليهم.

ويحتمل أن يكون الاستثناء متصلًا، أي: جزاء المحاربين ما ذكر إلا التائبين(١).

أي: إلا الذين رجعوا وأنابوا إلى الله مع ظهور علامات الصدق في التوبة منهم، من الإقلاع عن هذه المعصية العظيمة، والندم على ما حصل منهم، والعزم على عدم العودة إليها، إخلاصًا لله عز وجل، في وقت تقبل فيه منهم التوبة، قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾، أي: من قبل أن يمسك بهم ويقعون في قبضة الإمام.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فاعلموا أيها المؤمنون أن الله غفور لمن تاب وأناب إليه من المذنبين رحيم بهم، فكذا من تاب من المحاربين لله ورسوله وصدقت توبته، فإن الله يتوب عليه، ويشمله برحمته، فلا ينبغي أن يطلب لإقامة الحد عليه.

لأنه بالتوبة قبل القدرة عليه يسقط عنه حق الله تعالى وهو تحتم إقامة الحد عليه، لكنه يطالب بحقوق الآدميين، من دم أو مال ونحو ذلك إن لم يُعف عنها، ويفهم من الآية أن من تاب بعد القدرة عليه لا يسقط عنه الحد.

و﴿غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة للتائبين؛ يستر ذنوبهم، ويتجاوز عنهم.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

الفوائد والأحكام:

١- أن عقوبة المحاربين لله ورسوله والساعين في الأرض فسادًا محصورة في العقوبات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية.

٢- عظم محاربة الله ورسوله؛ لأن الله جعلها من الفساد في الأرض ورتب عليها ما رتب من العقوبات العظيمة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٨٦- ١٨٧)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٢٥).

يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية.

٣- عظم جرم قطاع الطريق؛ لأن الله سمى عملهم هذا محاربة لله ورسوله، وفسادًا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

ورتب على فعلهم هذه العقوبات العظيمة في الدنيا مع الوعيد لهم في الآخرة بالعذاب العظيم، مما يدل على عظم الجرائم التي يرتكبونها من قطع الطرق، وسفك الدماء، ونهب الأموال، وإخافة السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

٤- أن المحاربة لله تعالى محاربة لرسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه- عز وجل- بالواو.

٥- خسارة من ارتكب هذه الجريمة؛ لأن الله سماها محاربة لله ورسوله ومن حارب الله ورسوله فمآله إلى الهزيمة والخسران المبين.

٦- بلوغ القرآن الغاية في البلاغة في التنفير عما يريد التنفير عنه، حيث سمى هذه الأعمال محاربة لله ورسوله، وهذه التسمية فيها من إظهار شناعة هذه الأعمال وبشاعتها ما فيها- مع العقوبات المذكورة، كما قال تعالى في أكلة الربا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨- ٢٧٩].

٧- أنه لا فرق بين كون المحاربة لله ورسوله والسعي في الأرض فسادًا في الأمصار، أو في الطرقات، فرادى أو جماعات؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وهذا ما عليه جمهور أهل العلم.

وقد خص بعض أهل العلم المحارب لله ورسوله بمن يقطع الطريق في الصحراء دون من شهر السلاح في البنيان، قالوا: لأن المطلوب في البنيان يدركه الغوث إذا

استغاث بالناس وإلى هذا ذهب أبو حنيفة[١].

وخصه بعضهم بمن يكابر في اللصوصية في الأمصار وغيرها.

والصحيح الأول؛ لعموم الآية[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «بل هم في البنيان أحق بالعقوبة منهم في الصحراء؛ لأن البنيان محل الأمن والطمأنينة، ولأنه محل تناصر الناس وتعاونهم فإقدامهم عليه يقتضي شدة المحاربة والمغالبة؛ ولأنهم يسلبون الرجل في داره جميع ماله، والمسافر لا يكون معه غالبًا إلا بعض ماله وهذا هو الصواب».

٨- أن كل من ارتكب هذه الصفات فهو محارب لله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية وهذا عام في كل محارب لله ورسوله من المسلمين أو أهل الكتاب أو أهل الذمة أو المشركين[٤].

٩- حرص الدين الإسلامي على تطهير الأرض من الفساد والمفسدين فقد ذم القرآن الفساد وجعله من محاربة الله ورسوله ورتب عليه ما رتب من العقوبات في هذه الآية ونهى عنه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٥٤- ٢٥٦)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٧٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥١)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٣).

(٣) في «السياسة الشرعية» ص(٩٢). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٥- ٣١٦).

واختلفوا فيمن يقتل الرجل غيلة أي: سرًّا، كأن يدعوه لبيته، لعمل أو نحو ذلك، ثم يقتله ويأخذ ما معه، فقال بعض أهل العلم: حكمه حكم المحاربين؛ لأنه كالقتل مكابرة، لا يمكن التحرز منه، بل قد يكون ضرر هذا أشد؛ لأنه لا يدرى به، وقيل: المحارب المجاهر بالقتال أما المغتال فأمره إلى ولي الدم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر القولين: «والأول أشبه بأصول الشريعة» «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٦- ٣١٧).

كما اختلفوا فيمن يقتل السلطان كقتلة عثمان وقاتل علي- رضي الله عنهما- فمنهم من قال: حكمهم حكم المحاربين يقتلون حدًّا، ومنهم من قال: أمرهم إلى أولياء الدم. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٥١- ٢٥٢)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٠٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٨)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٦٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٩- ١٥٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٩).

١٠- ظاهر الآية أن الإمام مخير في إيقاع أي العقوبات المذكورة على المحاربين؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لكنه تخيير مصلحة، فيوقع عليهم من العقوبات المذكورة ما يراه زاجرًا ورادعًا لهم ولأمثالهم، فإذا كان الأصلح قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أوقعه عليهم دون ما فوقه من القتل أو الصلب، ودون ما دونه من النفي من الأرض وهكذا. وبهذا قال طائفة من السلف منهم ابن عباس- رضي الله عنهما[١] وجماعة من التابعين[٢] وبه قال الإمام مالك[٣]. قالوا: لأن ﴿أَوۡ﴾ تفيد التخيير[٤]، كقوله تعالى: ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ [البقرة:١٩٦].

وكقوله: ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ [المائدة:٩٥]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ [المائدة:٨٩].

ويؤيد هذا القول أن الحدود إنما شرعت لتقويم الناس، فإذا أمكن التقويم بما هو أقل وجب الاقتصار عليه[٥].

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن عقوبة المحاربين على قدر جرمهم، وأن لكل رتبة من الحرابة درجة من العقوبة:

فمن قَتَل منهم وأخذ المال قُتل وصلب؛ لأنه ارتكب جريمتين.

ومن قتل ولم يأخذ المال قتل بضرب رقبته بالسيف ولم يصلب.

---

(١) أخرجه عن ابن عباس أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٣٤٠)- الأثر (٢٥٨)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٣)- الأثر (١١٨٥٠)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢٨٧)- الأثر (٤٤٩) من طريق علي بن أبي طلحة.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٣).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٩٩- ٦٠٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٨، ٨٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٢).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٢- ٢٦٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٣).

(٥) انظر كلام الشيخ محمد العثيمين على هذه الآية في «تفسير سورة المائدة» (١/ ٣٢٥).

ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف وحسمتا.

ومن أخاف السبيل فقط نفي من الأرض.

وقد روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالًا نفوا من الأرض»(١).

وإليه ذهب كثير من التابعين(٢) وأبوحنيفة(٣) والشافعي(٤) وأحمد(٥) وأكثر العلماء، لكن أبا حنيفة قال: إذا قتل المحاربون ولم يعدوا ذلك قتلوا، وإن أخذوا المال ولم يعدوا ذلك قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، فإن قتلوا وأخذوا المال خير الإمام فإن شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وقتلهم، وإن شاء صلبهم، وإن شاء قتلهم وترك القطع، وإن أخافوا السبيل فقط نفوا من الأرض بالحبس(٦).

---

(١) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٣٤٢)- الأثر (٢٦٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ١٤٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٥٧، ٢٦٠)- الأثر (١١٨٤٢)- كلهم من طريق الحجاج عن عطية العوفي وحجاج «صدوق كثير الخطأ والتدليس» أخرج له مسلم، وعطية العوفي ضعفه أكثر الأئمة، وقال ابن حجر: «صدوق يخطئ كثيرًا كان شيعيًا مدلسًا».

وأخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٠٩)- الأثر (١٨٥٤٤)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٨٤) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه الشافعي في «الأم» (٦/ ١٥١)، والبيهقي في الموضع السابق، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣)- من طريق صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٥٧- ٢٦١).

(٣) انظر: «مختصر الطحاوي» ص(٢٧٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٠٩)، «فتح القدير» لابن الهمام (٥/ ٤٢٥- ٤٢٧)، «تبيين الحقائق» (٣/ ٢٣٥- ٢٣٧)، «حاشية ابن عابدين» (٤/ ١٣- ١٥).

(٤) انظر: «الأم» (٦/ ١٣٩- ١٤٠)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣١٣- ٣١٥)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٨٤)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٦٦)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٧٠).

(٥) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبدالله ص(٤٢٩)، «المسائل الفقهية» (٢/ ٣٣٨)، «الإفصاح» (٢/ ٢٦٣)، «نواسخ القرآن» ص(٣١٠)، «المغني» (٨/ ٢٨٨)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٠، ٣١٣).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٠٩)، «مدارك التنزيل» (١/ ٤٠٨).

وقد احتج الجمهور لقولهم[١] بأن لكل رتبة من الحرابة درجة من العقوبة بقول النبي ﷺ: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٢].

وبأن الله أوجب القطع على السارق فقال تعالى: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا**﴾ [المائدة:٣٨] وقال ﷺ: «**تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً**»[٣].

والراجح من القولين هو القول الثاني؛ لأنه أقرب للانضباط والعدل وهو أن يكون لكل رتبة من الحرابة درجة من العقوبة، وقد رجح هذا جمع من المحققين.

قال الطبري[٤]: «وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا تأويل من أوجب على المحارب من العقوبة على قدر استحقاقه، وجعل الحكم على المحاربين مختلفًا باختلاف أفعالهم، وأما ما اعتل به القائلون: إن الإمام فيه بالخيار من أن ﴿أَوْ﴾ في العطف تأتي بمعنى التخيير في الفرض، فقول لا معنى له؛ لأن ﴿أَوْ﴾ في كلام العرب قد تأتي بضروب من المعاني، فأما في هذا الوضع فإن معناها التعقيب فتأويله: أن الذي يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادًا لن يخلو من أن يستحق الجزاء بإحدى هذه الخلال الأربع التي ذكر الله عز ذكره...».

١١- أن إيقاع العقوبات المذكورة على المحاربين حتم لا هوادة فيه، ولا يجوز العفو عنهم، وليس أمرهم إلى المجني عليهم، بل إلى الإمام ويجب عليه إقامة الحد عليهم، يدل على هذا المبالغة في قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٨٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٩)، ومسلم في الحدود (١٦٨٤)، وأبوداود في الحدود (٤٣٨٣)، والنسائي في قطع السارق (٤٩١٤)، والترمذي في الحدود (١٤٤٥)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٨٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) في «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٤- ٢٦٦).

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «فمن كان من المحاربين قد قتل فإنه يقتله الإمام حدًّا لا يجوز العفو عنه بحال بإجماع العلماء ذكره ابن المنذر، ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول فيقتل حدًّا لله، وهذا متفق عليه بين الفقهاء، حتى ولو كان المقتول غير مكافئ للقاتل مثل أن يكون القاتل حرًّا والمقتول عبدًا، أو القاتل مسلمًا والمقتول ذميًّا أو مستأمنًا فقد اختلف الفقهاء هل يقتل في المحاربة، والأقوى أنه يقتل؛ لأنه قتل للفساد العام حدًّا، كما يقطع إذا أخذ أموالهم وكما يحبس بحقوقهم»[٣].

١٢- أن من عقوبة المحاربين الصلب، وذلك إذا قتلوا وأخذوا المال؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ ﴾ وذلك بأن يربط حيًّا على خشبة في الطريق العام، أو على مكان عالٍ ليراه الناس ويشهر به؛ لأن هذا أنكى في النكال به وأشد فضيحة، وأنكل لغيره وأردع للمجرمين، ويترك مصلوبًا حتى يموت، أو يصلب حيًّا مدة حتى يشتهر أمره ويفتضح، ثم يقتل[٤].

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٦).

(٢) في «السياسة الشرعية» ص(٩٧).

(٣) وجمهور العلماء على أنه يقتل المباشر للقتل ومن كان عونًا له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والجمهور على أن الجميع يقتلون ولو كانوا مائة، وأن الردء والمباشر سواء، وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين فإن عمر ابن الخطاب- رضي الله عنه- قتل ربيئة المحاربين و«الربيئة» هو الناظر الذي يجلس على مكان عال ينظر منه لهم من يجيء؛ ولأن المباشر إنما تمكن من قتله بقوة الردء ومعونته». «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١١).

ويجوز لمن اعتدى عليه المحاربون لأخذ ماله أو قتله أو انتهاك محارمه قتلهم لكن عليه دفع من صال عليه منهم بالأسهل فالأسهل، فإن لم يندفع إلا بالقتل فله قتله لما رواه أبوهريرة- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «لا تعطه»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «فقاتله». قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: فإن قتلته قال: «هو في النار» أخرجه مسلم في الأيمان (١٤٠). وعلى هذا عامة أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة وغيرهم وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٩٩- ٦٠٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٦- ١٥٧)، «السياسة الشرعية» ص(٨٧).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٢)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٤).

وذهب جمهور العلماء إلى أنه يقتل ثم يصلب[١] وبهذا قال أبو حنيفة[٢] والشافعي[٣] وأحمد[٤] وغيرهم قالوا: لئلا يحال بينه وبين الصلاة وبين الأكل والشرب[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٦]: «الصلب رفعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشهر أمرهم وهو بعد القتل عند جمهور العلماء».

والراجح القول الأول وهو صلبهم أحياء وهو ظاهر الآية؛ ولأنه أنكى لهم، وأنكل لغيرهم؛ ولهذا لما قيل لأسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنها- أن الحجاج صلب ابنها عبدالله بن الزبير بعد قتله قالت: «وهل يضر الشاة السلخ بعد ذبحها»[٧].

قال ابن العربي[٨]: «والصلب حيًّا أصح؛ لأنه أنكى وأفضح وهو مقتضى معنى الردع الأصلح».

١٣- أن من عقوبة المحاربين أن تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وذلك إذا أخذوا المال ولم يقتلوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ فتقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى عند أكثر أهل العلم إذا بلغ ما أخذوه نصاب السرقة، وقيل: يقطعون مطلقًا وإن لم يبلغ ما أخذوه نصابًا.

فتقطع اليد اليمنى بعد أن تشد من مفصل الكف من الذراع، وتقطع الرجل

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٠)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٢).

(٣) انظر: «الأم» (٦/ ١٥٢)، «المهذب» (٢/ ٢٨٥)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٧١).

(٤) انظر: «المغني» (٨/ ٢٩٠).

(٥) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٩٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٢).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٤).

(٧) انظر: «شرف المصطفى» لأبي سعيد الخركوشي (٢/ ٣٣٠).

(٨) في «أحكام القرآن» (٢/ ٦٠٢).

ولا يجوز التمثيل بهم إلا على وجه القصاص وتركه أفضل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وفي حديث بريدة بن الحصيب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**اغزوا باسم الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا**»، أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٣)، والترمذي في الديات (١٤٠٨)، وابن ماجه (٢٦١٣).

اليسرى من مفصل العقب من القدم وتحسم كل منهما بالزيت[١] المغلي.

١٤- أن من عقوبة المحاربين النفي من الأرض، إذا لم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا وإنما أخافوا السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وقد اختلف أهل العلم في المراد بذلك:

فذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالنفي من الأرض مطاردتهم من بلد إلى بلد حتى لا يقر لهم قرار، وبهذا قال جماعة من السلف منهم ابن عباس- رضي الله عنهما[٢]- وطائفة من التابعين[٣] والشافعي[٤] وهو رواية عن أحمد[٥].

وقال بعضهم: ينفى من بلده إلى بلد أخرى غيرها وهو مروي عن طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير وعمر بن عبدالعزيز[٦].

وقال بعضهم: المراد بالنفي في هذا الموضع هو الحبس، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه[٧] ورواية عن أحمد[٨].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠١- ٦٠٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٣- ١٥٤)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٣)، «أضواء البيان» (٢/ ٩١).

ومع إقامة هذه الحدود على المحاربين فإنهم يُغرّمون ما أخذوه من الأموال بغير حق، ويلزمون بدفعها إلى أربابها، كالسارق إلا أن يعفو عنها أربابها. وهو قول أكثر أهل العلم، وقال بعضهم: لا يجتمع الغرم والقطع، وفيه نظر؛ لأن القطع حق الله والغرم حق المخلوق، وقيل يضمنونها مع اليسار فقط فإن كانوا معسرين سقطت. انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٠- ٣٢١).

(٢) أخرجه عن ابن عباس الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٦٨- ٢٧٠)، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٩١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٤).

(٤) انظر: «الأم» (٤/ ٢٠٣)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣١٥)، «النكت والعيون» (١/ ٤٦٢)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٣).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣١٠).

(٦) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٧٠- ٢٧٣).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٠٩، ٤١٢).

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣١٠).

وقال بعضهم: ينفى من البلد الذي أحدث فيه إلى بلد آخر، ويحبس فيه حتى تظهر توبته وهذا هو المشهور من مذهب مالك[١]، ورجحه الطبري[٢].

وقال بعضهم: يفعل به ما يراه الإمام أصلح من نفي أو حبس أو نحو ذلك وهو رواية عن أحمد[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] بعد ذكر قول من قال نفيه مطاردته، ومن قال نفيه حبسه ومن قال بحسب ما يراه الإمام من هذا أو هذا قال: «ففي مذهب أحمد ثلاث روايات الثالثة أعدل وأحسن، فإن نفيه بحيث لا يأوي في بلد لا يمكن لتفرق الرعية واختلاف هممهم، بل قد يكون بطرده يقطع الطريق، وحبسه قد لا يمكن؛ لأنه قد يحتاج إلى مؤنة إلى طعام وشراب وحارس، ولا ريب أن النفي أسهل إن أمكن ومعلوم أن قوله: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾ لا يتضمن نفيه من جميع الأرض، وإنما هو نفيه من بين الناس، وهذا حاصل بطرده وحبسه».

والأضبط لتنفيذ هذا الحكم والأسهل نفيه من البلد الذي أحدث فيه إلى بلد آخر وحبسه هناك حتى يتوب، أو بقدر ما يراه الإمام رادعًا له، وذلك لأن مطاردتهم أبدًا، أو نفيهم من بلد الحدث إلى بلد آخر أمر يتعذر تنفيذه في الوقت الحاضر

---

(١) انظر: «المدونة» (٦/ ٢٩٨- ٢٩٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٥٩٩- ٦٠٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٢- ١٥٣).

(٢) في «جامع البيان» (١٠/ ٢٧٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣١٠، ٢٨/ ٣١٣).

وإذا لم يقدر عليهم لإقامة الحد عليهم إلا بقتال وجب على المسلمين قتالهم باتفاق العلماء، حتى لو أفضى ذلك إلى قتلهم كلهم كيفما أمكن القتل في العنق وغيره، وسواء كانوا قد قتلوا أو لم يقتلوا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقتال هؤلاء أوكد من قتال الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسلام فإن هؤلاء قد تحزبوا لفساد النفوس والأموال وهلاك الحرث والنسل، ليس مقصودهم إقامة دين ولا ملك، ولكن قتالهم ليس بمنزلة قتال الكفار إذا لم يكونوا كفارًا، ولا تؤخذ أموالهم، إلا أن يكونوا أخذوا أموال الناس بغير حق، فإن عليهم ضمانها فيؤخذ منهم بقدر ما أخذوا، وإذا جرح الرجل منهم جرحًا مثخنًا لم يجهز عليه حتى يموت إلا أن يكون قد وجب عليه القتل، وإذا هرب وكفانا شره لم نتبعه إلا أن يكون عليه حد أو نخاف عاقبته، ومن أُسر منهم أقيم عليه الحد الذي يقام على غيره» «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٧- ٣١٩).

(٤) في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣١٠).

لكثرة الناس وتداخلهم وتوفر وسائل الاتصال والنقل السريعة والمختلفة، فربما طرد من هذا البلد في الصباح فيعود إليه في المساء وهكذا.

١٥- ظاهر الآية أنه يجمع للمحاربين العقوبة الدنيوية بإيقاع العقوبة المذكورة عليهم في الدنيا مع العذاب في الآخرة بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ وذلك إن لم يعف الله عنهم ويغفر لهم؛ لأن ما دون الشرك من المعاصي فهو تحت مشيئة الله إن شاء الله عذب صاحبه وإن شاء عفا عنه وغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

وفي حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا يعضه[1] بعضنا بعضًا، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أتى منكم حدًّا فأقيم عليه فهو كفارته، ومن ستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[2].

وعن علي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من أصاب حدًّا فعجل له عقوبته في الدنيا، فالله أعدل من أن يثني على عبده العقوبة في الآخرة، ومن أصاب حدًّا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود إلى شيء قد عفا عنه**»[3].

وقد اختلف أهل العلم في التوفيق بين الآية وحديث عبادة بن الصامت، وحديث علي رضي الله عنهما، وما في معناهما فذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المحاربة خارجة ومستثناة من عموم حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- وما في معناه من الأدلة الدالة على أن الحدود كفارات، إضافة إلى أنها زواجر.

---

(١) يعضه: يرمي بالعضه وهو البهتان والكذب، انظر: «النهاية» «لسان العرب» مادة: «عضه».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٥٤)، ومسلم في الحدود (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٦٢)، والترمذي في الحدود (١٤٣٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٦٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٦)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه في الحدود (٢٦٠٤)، وأحمد (١/ ٩٩، ١٥٩)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٩٥): «وقد سئل الدارقطني عن هذا الحديث فقال: روي مرفوعًا وموقوفًا. قال: ورفعه صحيح» وصححه الألباني.

وعلى هذا فيجمع للمحاربين بين عقوبة الدنيا بإقامة الحد عليهم مع عقوبتهم في الآخرة بالعذاب العظيم؛ لقوله تعالى بعد ذكر عقوبتهم الدنيوية: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ذلك لعظم جرمهم وشدة خطرهم(١).

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن المحاربة كغيرها إذا أقيم الحد على مرتكبيها في الدنيا لم يؤخذوا به في الآخرة لحديث عبادة وحديث علي وما في معناهما ولهم في الإجابة عن ظاهر الآية أجوبة عدة.

قال بعضهم: هذه عقوبة انعقد ووجد سببها، وقد لا يلحقهم العذاب العظيم لمانع إما لمغفرة الله لهم وتوبته عليهم، وإما لإقامة الحد في الدنيا عليهم، وإما لتوبتهم، وإما لوجود الحسنات الكثيرة الماحية، أو المصائب المكفرة، أو غير ذلك.

وقيل: الآية نزلت في المشركين خاصة، وقيل غير ذلك(٢).

١٦- التشديد في عقوبة المحاربين الدنيوية والأخروية لما يترتب على فعلهم من أذية للناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وسد سبل التكسب وقطع الطرق.

١٧- أنه ليس لأولياء من قتله قطاع الطريق عفو؛ لأن الله ذكر هذه العقوبات بصيغة التشديد والمبالغة، ولم يذكر العفو كما ذكره في القصاص في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾ [البقرة:١٧٨](٣).

١٨- إثبات القيامة وما فيها من الجزاء والعذاب العظيم للمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٩- شدة عذاب الآخرة وجه ذلك أن الله ذكر هذه العقوبات للمحاربين وهي أشد

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٦٨)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٧).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٤).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣١٥- ٣١٦).

العقوبات الدنيوية، ثم قال: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: أعظم من هذا العذاب الدنيوي، بل لا مقارنة بينهما كما قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧].

٢٠- أن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم تحتم إيقاع العقوبات المذكورة عليهم وهو الحد وهو حق الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فاغفروا لهم وارحموهم؛ لأن الله بمغفرته ورحمته لم يوجب العقوبة على التائبين، أما حقوق الآدميين من دم أو مال ونحو ذلك فلا تسقط(١).

٢١- ترغيب المحاربين بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ﴾.

٢٢- أن توبة المحاربين بعد القدرة عليهم لا تسقط عنهم الحد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ﴾.

وهذا باتفاق العلماء بالنسبة للمحاربين إذا ثبتت عليهم المحاربة بالبينة(٢).

فأما إذا كان بإقرار منهم بأن جاؤوا مقرين بالذنب تائبين فقد اختلف أهل العلم في هذا: قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «وظاهر مذهب أحمد أنه لا تجب إقامة الحد في مثل هذه الصورة، بل إن طلب إقامة الحد عليه أقيم، وإن ذهب لم يقم عليه حد، وعلى هذا حمل حديث ماعز بن مالك، لما قال: «**فهلا تركتموه**» وحديث الذي قال: «**أصبت حدًّا فأقمه**»، وحديث عبدالله بن عمر: «**تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب**».

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣١٤-٣١٥)، «جامع البيان» (١٠/ ٢٨٠-٢٨١، ٢٨٧، ٢٩١)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٠٩، ٤١٣)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٥-٩٦).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠٠، ٣٠١).

أما بالنسبة للمحارب إذا كان كافرًا ثم أسلم وتاب، فلا يطالب بشيء لا بحق الله ولا بحقوق الآدميين، لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، وقال ﷺ: «**لعن الله مَن قتل بِذَحْلٍ في الجاهلية**»(١).

٢٣- أن من تاب قبل القدرة عليه من العصاة؛ من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، فإن توبته تسقط عنه الحد، وهو حق الله تعالى، لأنه إذا كانت توبة المحاربين تسقط عنهم الحد فمن دونهم من العصاة من باب أولى(٢).

وقد قال تعالى فيمن ارتكب الفاحشة: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ [النساء:١٦]. وقال تعالى فيمن سرق: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٩].

وقال ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(٣).

وقال عن ماعز لما أذلقته الحجارة وهرب: «**هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه**»(٤).

وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم الإمام أحمد في رواية له، واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية(٥).

وذهب أكثر أهل العلم ومنهم الأئمة الثلاثة أبوحنيفة(٦) ومالك والشافعي(٧) إلى أن التوبة قبل القدرة لا تسقط هذه الحدود مستدلين بعموم قوله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩، ١٨٧)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ومن حديث أبي شريح الخزاعي الكعبي (٤/ ٣١- ٣٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٧٧- ١٧٨) «رواه الطبراني ورجاله ثقات» وصححه أحمد شاكر في «شرح المسند» (٦٦٨١، ٦٧٥٧).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠)، من حديث أبي عبيدة بن عبدالله عن أبيه- رضي الله عنه- وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤١٩)، من حديث هزّال وصححه الألباني.

(٥) انظر: «المغني» (١٢/ ٤٨٤- ٤٨٥)، «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣١- ٣٢).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٣).

(٧) انظر: «الفروق» للقرافي (٤/ ١٨١)، «حاشية الصاوي» (٤/ ٤٩٧)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤).

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور:٢] وكذا عموم قوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨] وبأن النبي ﷺ أقام الحد على ماعز[١] والغامدية[٢] وقد جاءا تائبين.

* * *

(١) كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عند البخاري في الطلاق (٥٢٧٢)، ومسلم في الحدود (١٦٩١)، وأبي داود في الحدود (٤٤٢٨).

(٢) كما في حديث بريدة- رضي الله عنه- عند مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأبي داود في الحدود (٤٤٣٤، ٤٤٤٢).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

والأولى حمل الأمر بتقوى الله هنا على تقواه بترك المحظورات؛ لقوله بعده: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، أي: بفعل المأمورات

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ معطوف على ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: واطلبوا ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلق بـ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ﴾ أو متعلق بـ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، قُدِّم عليها للاهتمام والحصر، أي: لا تتوسلوا إلا إليه، لا إلى غيره، وفيه تعريض بالمشركين.

و﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: القربة، أو التقرب، قال الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافي بيننا والوسائل(١)

والمعنى: واطلبوا إليه القربة، أي: القرب منه، والحظوة لديه بطاعته والعمل بما يرضيه باطنًا، بمحبته والإخلاص له وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتوكل عليه ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وبالعمل بما يرضيه ظاهرًا بأداء فرائضه الظاهرة، من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك، قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(٢).

---

(١) نظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٦٤)، «جامع البيان» (٨/ ٤٠٣). والبيت بلا نسبة.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١٣٧)، من =

وفي الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**» الحديث(١).

وليس المراد بالوسيلة جعل وسائط بين العبد وبين ربه من الأنبياء أو الأولياء والأصنام والأوثان، كما يقول المشركون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وإنما الوسيلة التقرب إلى الله تعالى بما شرعه على لسان رسوله ﷺ من الطاعات الواجب منها والمندوب، واتباع هدي الرسول ﷺ في ذلك، فلا وسيلة لأحد إلى الله تعالى إلا بذلك.

وتطلق الوسيلة على أعلى درجة في الجنة، وليست مرادة هنا، قال ﷺ: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو**»(٢).

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ المجاهدة: بذل الجهد والطاقة والسعة، بالنفس والمال وغير ذلك، أي: ابذلوا جهدكم وطاقتكم، ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾، أي: في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ودينه، إخلاصًا لله تعالى ووفق شرعه، كما قال ﷺ: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٣).

وهذا من ذكر الخاص بعد العام؛ لأن الجهاد في سبيل الله من أجل الطاعات، وأفضل القربات، ولأن من قام به فهو على القيام بغيره أحرى وأولى.

وأيضاً لكونه إنما يكون عندما تدعو الحاجة إليه، وليس كغيره من الطاعات والقربات التي تفعل على الدوام.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وأعلى ذلك وأجله السعادة الأبدية، والنعيم المقيم في

=

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٤)، وأبوداود في الصلاة (٥٢٣)، والنسائي في الأذان (٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦١٤)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) سبق تخريجه.

الجنة، والنجاة من النار، ورؤية العزيز الغفار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة المؤمنين بتقواه وطلب التقرب إليه؛ ليفلحوا ويفوزوا، ثم حذر من الكفر ببيان سوء حال الكافرين يوم القيامة وما لهم من العذاب الأليم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب، وخبرها جملة الشرط وجوابه: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية.

والكفر معناه: الجحود والتكذيب والإنكار لما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره وغير ذلك مما يجب الإيمان به.

﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، ﴿لَوۡ﴾: شرطية، وفعل الشرط محذوف، والتقدير: لو ثبت أن لهم ما في الأرض، و﴿مَّا﴾: اسم موصول يفيد العموم، أي: جميع ما في الأرض، أي: كل شيء فيها، ﴿جَمِيعٗا﴾: حال منصوبة من ﴿مَّا﴾.

﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ معطوف على ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: ومثل الذي في الأرض، أي: كثره معه.

﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل الافتداء به، والفداء والفدية: مال أو عرض يدفع نظير ومقابل الخلاص.

والمعنى: ليبذلوه ويقدموه فدية مقابل الخلاص والسلامة من عذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: ٥٤].

﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾ جواب الشرط «لو» و﴿تُقُبِّلَ﴾ أبلغ من «قبل»، أي: ما قبل

منهم ذلك مقابل خلاصهم من العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب.

وذلك لأن محل الافتداء قد فات ولم يبق إلا العذاب الأليم.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك: أن لا تشرك بي. فيؤمر به إلى النار**»(١).

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾، أي: يريد أهل النار من الكفار ويحبون أن يخرجوا من النار.

﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ الواو: حالية، والباء في قوله: ﴿بِخَارِجِينَ﴾ زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، أي: والحال أنهم ليسوا بخارجين منها، بل هم باقون مخلدون فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

قال ابن كثير(٢): «كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [السجدة: ٢٠]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعالي جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردوهم إلى أسفلها».

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، أي: ولهم عذاب دائم مستمر، لا انقطاع فيه، ولا نهاية له، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٨)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٥).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٩٨- ٩٩).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٣- في نداء المؤمنين بوصف الإيمان حث على الاتصاف بهذا الوصف وأن امتثال ما بعده من الطلب من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك نقص في الإيمان.

٤- أن نداء الإنسان بالوصف الحسن والمحبب له مما يكون سببًا في استجابته، وامتثال ما يُطلب منه.

٥- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٦- وجوب طلب القربة إلى الله تعالى بتقواه وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾.

٧- وجوب الجهاد في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمته ودينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

وذلك مشروط بقدرة الأمة على الجهاد، وكونه تحت راية إمام المسلمين أو من ينيبه.

٨- في تسمية القتال لإعلاء كلمة الله ودينه بالجهاد إشارة إلى ما يحتاج إليه من بذل الجهد في المال والنفس.

٩- فضل القتال لإعلاء كلمة الله تعالى ودينه؛ لأن الله سمّاه جهادًا في سبيله.

١٠- يجب أن يكون القتال خالصًا لوجه الله لإعلاء كلمته، وأن يكون وفق شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

١١- أن من اتقى الله تعالى، وتقرب إليه بالأعمال الصالحة، وجاهد في سبيله فهو من المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، أي: لأجل أن تفلحوا وتفوزوا في الدنيا والآخرة بالحصول على المطلوب والنجاة من المرهوب، بدخول الجنة والنجاة من النار. وهذا وعد من الله وهو لا يخلف الميعاد.

١٢- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فبعد أن وعد الله-

عز وجل- المتقين المتقربين إليه المجاهدين في سبيله بالفلاح، توعّد الذين كفروا بالعذاب الأليم.

١٣- شدة عذاب الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ الآية.

١٤- لزوم العذاب للكفار، وأنه لا مناص لهم عنه، ولا خلاص لهم منه، ولو ملكوا ما في الأرض جميعًا ومثله معه وقدموه فدية لم يقبل منهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران: ٩١].

١٥- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

١٦- الوعيد للكافرين بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

١٧- محبة الكفار وإرادتهم الخروج من النار، لو أمكنهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

١٨- أن الكفار باقون في النار مخلدون فيها، لا خروج لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾.

عن يزيد الفقير عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة**» قال: فقلت لجابر بن عبدالله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا»(١).

---

(١) أخرجه ابن مردويه فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٩٩).

١٩- أن عذاب الكفار في النار عذاب مقيم دائم مستمر لا انقطاع فيه، ولا نهاية له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

٢٠- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، وأهلها لا يموتون ولا يخرجون منها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- قبل هذه الآية حكم المحاربين وهم الذين يعتدون على الناس جهارًا، ويأخذون أموالهم وغير ذلك، ثم أتبعه بذكر حكم السارق: وهو من يأخذ المال خفية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ الواو استئنافية و«ال» في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ للجنس، وهي أيضًا اسم موصول، فيفيد العموم في كل سارق وسارقة(١).

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ مبتدأ خبره: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، وقال سيبويه: المعنى: وفيما فرض عليكم السارق والسارقة(٢).

وقدم السارق على السارقة؛ لأن الرجل أجرأ على السرقة من المرأة لما هو عليه غالبًا من الجلد والقوة والنشاط؛ ولهذا فالسراق من الرجال أكثر.

بينما قدم ذكر الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ﴾ [النور:٢]؛ لأن سبب الزنا غالبًا هي المرأة فلو قرّت في بيتها وحفظت نفسها وامتنعت، وابتعدت عن مخالطة الرجال، لانقطع دابر هذه الفاحشة، إضافة إلى أن شهوة النساء أشد.

والسرقة في اللغة: أخذ الشيء خفية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الحجر:١٨]، أي: إلا من استمع خفية، ومنه قولهم: «سارقه النظر»: إذا نظر إليه

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٨٧- ١٨٨)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٢٥)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٤).

بخفية[١].

والسرقة في الشرع: أخذ مبلغ مخصوص، من المال المحترم، من مالكه أو نائبه، خفية، من حرز معلوم، من غير حق ولا شبهة[٢].

فقولهم: أخذ مبلغ مخصوص من المال، أي: نصاب فأكثر، فلا يقطع فيما دون النصاب.

وقولهم: المحترم، أي: الذي يصح تموله شرعًا، دون ما لا يصح تموله شرعًا كالخمر وآلات اللهو فلا قطع فيها[٣].

وقولهم: من مالكه أو نائبه، أي: فلو أخذه من غاصب لم يقطع؛ لأنه أخذه من شخص لا حرمة له.

وقولهم: خفية، أي: على وجه الاختفاء، فمن أخذ ذلك قهرًا فهو غاصب، وليس بسارق، وكذا لو انتهب الشيء أو اختلسه، وفي الحديث: «ليس على المنتهب، ولا على المختلس، ولا الخائن قطع»[٤].

وقولهم: من حرز معلوم، أي: بكون المال المأخوذ في حرز مثله فالدراهم حرزها الصناديق المقفلة، والأثاث والأمتعة حرزها البيوت والأفنية، والماشية حرزها الحظائر، أو كون الراعي معها ونحو ذلك.

وهو يختلف باختلاف أحوال الأمة، من حيث قوة الوازع الديني فيها وضعفه، ومن حيث قوة الأمن فيها والاستقرار وضعفهما[٥].

وقولهم: من غير حق ولا شبهة، فلا يقطع الولد فيما أخذ من مال أبيه، لأنه ربما

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «سرق»، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٤)، «المغني» (١٢/ ٤١٦).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤).

(٣) انظر: «المغني» (١٢/ ٤٥٧).

(٤) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٩١- ٤٣٩٣)، والترمذي في الحدود (١٤٤٨)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩١)، وأحمد (٣/ ٣٨٠)، من حديث جابر رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح» وصححه الألباني.

(٥) بمعنى أن ما يعد حرزًا في حال الأمن قد لا يكفي في حال الخوف، بل ينبغي في حال الخوف الاحتياط أكثر في إحراز الأموال، كما أن من سرق في حال الأمن أعظم جرمًا ممن سرق حال الخوف.

أخذه من النفقة، ولا يقطع أحد الشريكين بما أخذ من مال الشركة.

﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ خبر قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾، وقرن بالفاء لمشابهة الاسم الموصول لاسم الشرط في الإبهام، واسم الشرط إذا كان جوابه جملة طلبية وجب اقترانه بالفاء.

والخطاب موجه للأمة كلها، والمراد بذلك حكامها الشرعيون خاصة.

والقطع معناه: الإبانة والإزالة، أي: إبانة عضو من الآخر.

﴿أَيْدِيَهُمَا﴾، أي: يد كل واحد منهما. واليد إذا أطلقت تنصرف إلى الكف من مفصل الكوع[1]، ويدل على هذا قوله تعالى في صفة التيمم: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ الآية [النساء:٤٣، المائدة:٦].

وفي حديث عمار: «فضرب بيديه الأرض ومسح بهما وجهه وكفيه»[2].

والمراد باليد اليد: اليمنى، بالإجماع. وقد روي عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أنه قرأ: «فاقطعوا أيمانهما».

قال ابن كثير[3]: «وهي قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقًا لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر»[4].

وهذه القراءة إن كانت غير صحيحة أو شاذة كما قال ابن كثير فلا أقل من أن تكون تفسيرًا من ابن مسعود- رضي الله عنه[5]، وهو من أعلم الصحابة بالتفسير، ولا يمكن أن يقول هذا برأيه.

وجمعت الأيدي، مع أن المقصود: قطع يد كل واحد منهما؛ لأن الأفصح إذا أضيف المثنى إلى ما يفيد التعدد فإنه يجمع كراهة أن يجتمع تثنيتان فيما هو كالكلمة

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٢١).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٠٠).

(٤) وهو فعل الرسول ﷺ وخلفائه. وهذا يدل على عدالة الإسلام، فاليد التي تقطع هي اليد التي سرقت وكل يؤخذ بكسبه.

(٥) انظر: «المغني» (١٢/ ٤٤٠).

الواحدة كما قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الآية [التحريم:٤][١].

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾، ﴿جَزَآءًۢ﴾ منصوب مفعول لأجله، أي: لأجل مجازاتهما، وقيل: مصدر، أي: جازوهما جزاءً[٢].

﴿بِمَا كَسَبَا﴾ الباء سببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كسباه، أو بسبب كسبهما من العدوان والظلم وأخذ المال بغير الحق.

وهذا يدل على أن اليد التي تقطع هي اليمنى؛ لأن الكسب والأخذ والعطاء غالبًا يكون بها، وفي الحديث: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[٣].

قال ابن كثير[٤]: «مجازاة لهما على صنيعهما السيئ، في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك».

﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿نَكَٰلًا﴾: منصوب مفعول لأجله، أي: جازوهما لأجل التنكيل بهما أو مصدر، أي: نكلوا بهما نكالًا[٥].

أي: تنكيلًا من الله لهما أن يعودا إلى مثل هذه الجريمة، ونكالًا لغيرهما أن يفعل مثل فعلهما.

والنِّكل والنكال: القيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل:١٢]، أي: إن لدينا قيودًا، ومنه القيد الذي تقيد به الدواب فيمنعها عن الهرب.

والنكال والتنكيل: أن يفعل بالشخص ما ينكل به هو وغيره، أي: ما يرتدع به، وينزجر، ويمتنع عن مثل ذلك الفعل، هو وغيره[٦].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٠٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٧-٩٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٩٠)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في «تفسيره» (٣/ ١٠٣).

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٩٠)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٢٥).

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٨- ٩٩)، «لسان العرب» مادة: «نكل»، «الجامع لأحكام القرآن» =

فشرع الله- عز وجل- قطع يد السارق والسارقة مجازاة وعقوبة لهما، ومنعًا لهما من العود إلى السرقة ولغيرهما من الوقوع فيها، كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ [البقرة:٦٦].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة بجميع معانيها، كما قال عز وجل: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

وعزته- عز وجل- أنواع: عزة الامتناع: فهو- عز وجل- ممتنع عن كل نقص وعيب، ومن ذلك يقال للأرض الصلبة: «عزاز» لقوتها، وامتناعها ممن أراد حفرها إلا بمشقة.

والثاني: عزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١].

الثالث: عزة القوة(١)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود:٦٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٤٠، ٧٤].

قال ابن القيم(٢):

وهو العزيز فلا يرام جنابه	أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذٍ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه	من كل وجه عادم النقصان

=

(٦/ ١٧٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٣).

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «عزز».

(٢) في «النونية» ص(١٤٧).

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي[١]، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة التامة، بنوعيها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ حكيم في خلقه، وأمره ونهيه، وأقواله وأفعاله، حكيم في شرعه، وقدره، وجزائه، يضع الأمور مواضعها.

والمناسبة في ختم الآية بهذين الوصفين العظيمين ظاهرة، لأن إقامة الحد على السارق وعقوبة المجرمين يناسبها العزة والقهر والغلبة والقوة، وهي ما دل عليها وصف «عزيز».

كما يناسبها الحكمة بكون العقوبة مناسبة لهذه الجريمة من حيث ردع المجرمين، وقطع دابر هذه الجريمة، ومن حيث كون القطع لليد، واليد اليمنى خاصة؛ لأنها غالبًا هي المباشرة للسرقة؛ لأن الأخذ والعطاء يكون بها غالبًا، وعلى هذا دل وصف «حكيم».

وكثيرًا ما يقرن الله- عز وجل- بين هذين الوصفين؛ لأن باجتماع العزة والحكمة كمال الموصوف وكمال صفاته وأفعاله، وفي العزة كمال القدرة، وفي الحكمة كمال العلم.

ونحن نشاهد- ولله المثل الأعلى- أن من كان من الخلق لديه القوة بلا حكمة قد تغره هذه القوة وتحمله على الطيش، كما أن من كان منهم لديه الحكمة بلا قوة قد يهان ويغلب، وهكذا.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾.

روي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن امرأة سرقت على عهد النبي ﷺ فقطعت يدها اليمنى، فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله، فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ إلى آخر الآية»[٢].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، وذكره السيوطي في «لباب النقول» ص(٩١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٦): «رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات». وصححه أحمد شاكر في تخريجه للمسند (٦٦٥٧).

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية ﴿تَابَ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ﴾.

﴿فَمَن تَابَ﴾، أي: فمن رجع وأناب إلى الله وأقلع عن السرقة، أو عن أيّ معصية؛ لأن «من» تفيد العموم، نادمًا عليها، عازمًا على عدم العودة إليها، مخلصًا لله في ذلك، في وقت تقبل فيه التوبة وهو ما قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

ولا يكفي لتوبته إقامة الحد عليه؛ لأن إقامة الحد- على القول بأن الحدود كفارات- إنما تكفر ما حصل قبل إقامة الحد، أما بعده فلا.

ولهذا فمن شروط التوبة العزم على عدم العودة إلى المعصية، فمن سرق وأقيم عليه الحد ولم يندم على ما حصل منه ويعزم على عدم العودة إليه، بل أضمر أنه سيعاود ذلك متى ما تمكن منه فليس بتائب.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تَابَ﴾، أي: فمن تاب من بعد ظلمه لنفسه ولغيره بارتكاب معصية تضره بنفسه وتتعدى إلى غيره كالسرقة ونحوها أو بعد ظلمه لنفسه فقط بفعل معصية تضره بنفسه ولا تتعدى مباشرة إلى غيره.

والظلم: هو العدوان على الغير، وهو النقص، قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف:٣٣].

﴿وَأَصۡلَحَ﴾، أي: أصلح ما أفسده بظلمه من حاله وعمله ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الظلم والمعاصي بها فساد الباطن والظاهر، قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، والإصلاح في كل شيء بحسبه، فمن الإصلاح بالنسبة للسارق أن يرد السرقة والظلامة إلى أهلها(١).

وقيل: أصلح حاله كلها وسائر أعماله، وترك المعاصي كلها(٢).

---

(١) إن أمكنه ذلك فإن لم يمكنه ردها إلى أهلها ولا إلى ورثتهم تصدق بها وأجرها لهم.

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٧٥).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، والجملة مؤكدة بـ«إن»، وبكونها جملة اسمية.

قال ابن كثير(١): «أي: من تاب بعد سرقته، وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه، فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلابد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور».

وتوبة الله على العبد نوعان، أحدهما: توفيق من الله للعبد للتوبة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة:١١٨].

والنوع الثاني: قبول توبة عبده(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

والمعنى: فمن تاب بتوفيق الله له للتوبة من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يقبل توبته- لكن ذلك مشروط كما تقدم بيانه بتوفر شروط التوبة فيه، ومنها: الندم على فعل المعصية، والعزم على عدم العودة إليها حتى ولو أقيم عليه الحد، وغير ذلك من شروط التوبة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عنه وعدم العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة أن النبي ﷺ قال: «**يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ويقرره بذنوبه، وفيه: فيقول الله- عز وجل- أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك**»(٣).

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، والرحمة صفة من صفات الله الذاتية الثابتة له، والفعلية، التي يوصلها إلى من يشاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت:٢١].

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٠٣).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٧٥)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

فهو سبحانه رحيم رحمة عامة بجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣ والحج:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وكثيرًا ما يقرن- عز وجل- بين هذين الوصفين المغفرة والرحمة؛ لأن بالأول زوال المرهوب، وبالثاني حصول المطلوب، ويقدم غالبًا المغفرة على الرحمة تقديمًا للتخلية على التحلية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

لما ذكر وجوب قطع يد السارق والسارقة، وقبول توبة من تاب من بعد ظلمه من سارق أو غيره أتبع ذلك ببيان أن له ملك السموات والأرض، يحكم في ذلك كله بما شاء، من الأحكام الشرعية والكونية، ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء.

قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير. والخطاب في قوله: ﴿تَعْلَمْ﴾ للنبي ﷺ، ولكل من يصح خطابه من أفراد الأمة، أي: ألم تعلم أيها المخاطب.

وقيل الخطاب للمتجرئ على السرقة وهو تخصيص بلا دليل، فالصحيح الأول لعمومه ويدخل فيه دخولًا أوليًا من يجترئ على السرقة وعلى قطع الطريق.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿أَنَّ﴾ حرف توكيد ونصب ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها منصوب، ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل رفع خبر «أن».

وقدم الخبر للدلالة على أن ملك السموات والأرض له- عز وجل- خاصة؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص.

قال ابن كثير(١): «أي هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد».

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٠٥).

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ «من»: موصولة، أي: يعذب الذي يشاء بعدله ممن خالفوا أمر الله وارتكبوا نهيه.

وقد قيل: إن هذه الآية رد على من زعم من اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه كما ذكر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾(١) [البقرة:٨٠] والآية أعم من هذا.

﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: ويغفر للذي يشاء برحمته، ممن امتثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه.

وقدم هنا قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ على قوله: ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: قدم التعذيب على المغفرة؛ لأن سياق الآيات في الحدود فالآيات السابقة في حد الحرابة، وهذه الآيات في حد السرقة، والحدود لابد لإقامتها من الشدة والغلظة، فناسب هنا أن يقدم التعذيب على المغفرة(٢).

وقال الزمخشري(٣): «قدم التعذيب على المغفرة، لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة».

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: أنه- عز وجل- على كل شيء قدير مهما كان ذلك الشيء كبيرًا أو صغيرًا جليًّا كان أو خفيًّا كثيرًا أو قليلًا، فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

و﴿قَدِيرٌ﴾: على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على أنه- عز وجل- ذو القدرة التامة فلا يعجزه شيء- سبحانه وتعالى- إذا أراده، قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

والمعنى: ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، فهو المالك لهما، والمتصرف

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٠٠- ٣٠١).

(٢) انظر: «البرهان» (٤/ ٦).

(٣) في «الكشاف» (١/ ٣٣٨).

فيهما، وبما فيهما قدرًا، وشرعًا، وجزاءً، يعذب بعدله من يشاء ممن خالف أمره وارتكب نهيه، ويغفر بفضله وبرحمته لمن يشاء ممن امتثل أمره واجتنب نهيه.

وهو على كل شيء قدير، يحكم بما شاء قدرًا وشرعًا وجزاءً؛ لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، لا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الفوائد والأحكام:

١- صيانة الدين الإسلامي للأموال وهي من الضروريات التي جاء الإسلام للمحافظة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ الآية حيث رتب حد القطع على السرقة.

٢- الإشارة إلى أن الرجل أجرأ على السرقة من المرأة؛ لأن الله قدّمه في الذكر عليها، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾.

٣- أن الأصل تقديم الذكور على الإناث في أي أمر يشتركون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ إلا ما اقتضت الحكمة تقديم الإناث فيه كما في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ [النور:٢].

٤- وجوب قطع يد السارق، ذَكرًا كان أو أنثى حرًّا كان أو عبدًا شريفًا كان أو وضيعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾.

وهذا عام في كل سارق وسارقة من البالغين العقلاء.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاص أم عام؟ فقال: بل عام»(١).

وإذا ثبتت السرقة بشهادة رجلين(٢) مسلمين مكلفين عدلين، أو بإقرار السارق على نفسه(٣) قطعت يد السارق اليمنى، كما في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٦) الأثر (١١٩١٤).

(٢) الحدود لا تقبل فيها شهادة النساء مطلقًا.

(٣) اختلف أهل العلم هل يكفي لإقامة حد القطع إقراره على نفسه مرة واحدة، أو لابد أن يقر على نفسه مرتين قياسًا على الشهادة إذ لابد فيها من شاهدين. كما اختلفوا هل له النكوص والرجوع عن إقراره أو =

وكما روي عن عمر رضي الله عنه[١]. وعلى هذا أجمع أهل العلم[٢].

والقطع حق لله تعالى لا يجوز العفو عنه، بعد رفعه إلى الإمام كما في حديث صفوان- رضي الله عنه- قال: «كنت نائمًا على خميصة[٣] لي، فجاء رجل فاستلها مني، فأتيت به النبي ﷺ فأمر بقطعه فقلت: يا رسول الله أتقطعه من أجل ثلاثين درهمًا؟ أنا أبيعه وأنسئه ثمنها، فقال ﷺ: هلا كان ذلك قبل أن تأتيني به لا عفا الله عني إن عفوت»[٤].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن قريشًا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة. فقال: «**أتشفع في حد من حدود الله؟**» ثم قام، فاختطب ثم قال: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٥].

=

لا؟ وأكثر أهل العلم أن له ذلك، فإذا رجع عن إقراره وكذب نفسه لم يقطع. وقال بعض أهل العلم ليس له الرجوع بعد الإقرار، ولعل هذا هو الأقرب وخاصة مع وجود قرائن كأن يوجد المسروق عنده ونحو ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لو قبل رجوع المقر في الحد ما أقيم حد في الدنيا».

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) فإن لم يكن له يد يمنى فهل تقطع اليد اليسرى؟ اختلف العلماء في هذا على قولين.
ويضمن المسروق وإن قطع، وقد جاء في بعض روايات حديث صفوان أنه رد رداءه عليه بعد قطع السارق، وقيل: لا يجتمع القطع والضمان. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٣١)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤)، «المغني» (١٢/ ٤٣٩- ٤٤٠، ٤٥٣- ٤٥٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٥٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٠- ٣٢١).

(٣) الخميصة: ثوب معلم مخطط من صوف ونحوه. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة: «خمص».

(٤) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٩٤)، والنسائي في قطع السارق (٨٨٣)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٥)، ومالك في الحدود (١٥٧٩)، وصححه الألباني وصححه الأرنؤوط في تخريجه «زاد المعاد» (٥/ ٤٩- ٥٠).

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، وأبوداود في الحدود (٤٣٧)، والنسائي في قطع السارق (٨٩٩)، والترمذي في الحدود (١٤٣٠)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «وأما السارق فيجب قطع يده بالكتاب والسنة والإجماع. ولا يجوز بعد ثبوت الحد بالبينة أو بالإقرار تأخيره، لا بحبس ولا مال يفتدي به ولا غيره، بل تقطع يده في الأوقات المعظمة وغيرها، فإن إقامة الحد من العبادات، وإذا قطعت يده حسمت[٢] واستحب أن تعلق في عنقه».

لكن وجوب القطع مقيد بما جاء في السنة من اشتراط بلوغ المسروق نصاباً وكونه من حرز معلوم.

أما اشتراط النصاب فلحديث عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**تقطع اليد في ربع دينار فصاعدًا**»[٣]، وفي لفظ: «**لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدًا**»[٤].

وعنها قالت: «لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن. قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار»[٥].

وفي لفظ: «لم تقطع يد سارق في عهد رسول الله ﷺ في أدنى من ثمن المجن ترس أو جحفة، وكان كل واحد منهما ذا ثمن»[٦].

وهذا ما عليه أكثر أهل العلم أن نصاب القطع في السرقة هو ربع دينار فصاعدًا أو ما يساويه من الأثمان والعروض لحديث عائشة- رضي الله عنها.

وإليه ذهب الخلفاء الأربعة- رضي الله عنهم، وعمر بن عبدالعزيز- رضي الله عنه[٧]، والليث بن سعد[٨]، .....

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٩).

(٢) أي: حسمت بالزيت المغلي، ونحو ذلك مما يمنع نزيف الدم بأفضل وأسهل طريقة.

(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٩)، ومسلم في الحدود (١٦٨٤).

(٤) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٨٤).

(٥) أخرجه النسائي في قطع السارق (٤٩٣١) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٦) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٩٤)، ومسلم في الحدود (١٦٨٥)، وأبوداود في الحدود (٤٣٨٣)، والنسائي في قطع السارق (٤٩١٤)، والترمذي في الحدود (١٤٤٥)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٨٥).

(٧) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠١).

(٨) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠١).

والأوزاعي[١] والشافعي[٢] وأحمد في رواية عنه، وأبوثور والفقهاء السبعة[٣].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن نصاب القطع في السرقة ثلاثة دراهم وممن ذهب إلى هذا الإمام مالك[٤]، لما رواه ابن عمر «أن رسول الله ﷺ قطع في مجن قيمته ثلاثة دراهم». وفي لفظ: «قطع سارقًا في مجن قيمته ثلاثة دراهم»[٥].

وعن عمرة بنت عبدالرحمن «أن سارقًا سرق في زمن عثمان- رضي الله عنه- أترجة فأمر بها عثمان أن تقوم فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهمًا بدينار فقطع عثمان يده»[٦].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن نصاب القطع هو ربع دينار[٧]، أو ثلاثة دراهم فكل من ربع الدينار وثلاثة الدراهم مرد شرعي، فمن سرق أحد هذين المقدارين أو ما يساوي أحدهما قطع عملًا بحديث عائشة وحديث ابن عمر[٨] وإلى هذا ذهب الإمام أحمد[٩] وإسحاق في رواية عنه[١٠] وصار إليه مالك في قوله الآخر[١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١٢]: «وإنما تقطع يده إذا سرق نصابًا، وهو: ربع دينار

---

(١) ذكره عن الأوزاعي- الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «الأم» (٥/ ٢٤، ٧/ ٢٠)، «الرسالة» ص(١١٢، ٣٢٣، ٣٢٤)، «اختلاف الحديث» ص(٤٤، ٥٠)، «السنن الكبرى» للبيهقي (٨/ ٢٥٤، ٢٥٦)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠١)، «فتح الباري» (١٢/ ٧٩- ٨٩).

(٣) انظر: «المغني» (١٢/ ٤١٨).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٦٠).

(٥) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٩٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٨٥)، والنسائي في قطع السارق (٤٩٠٦)، والترمذي في الحدود (١٤٤٦)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٨٤).

(٦) أخرجه مالك في الحدود باب ما يجب فيه القطع (١٥٧٤).

(٧) الدينار المقصود به دينار الذهب كالجنيه ونحوه.

(٨) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠١، ١٠٢).

(٩) انظر: «المغني» (١٢/ ٤١٨)، «السياسة الشرعية» ص(١٠٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣١).

(١٠) انظر: «المغني» (١٢/ ٤١٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠١).

(١١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٦٠).

(١٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣١).

أو ثلاثة دراهم عند جمهور العلماء وأهل الحجاز، وأهل الحديث وغيرهم».

وقيل: نصاب القطع في السرقة: دينار أو عشرة دراهم، وإلى هذا ذهب أبوحنيفة وأصحابه(١).

واحتجوا بما روي عن بعض السلف أن ثمن المجن كان عشرة دراهم، من ذلك: ما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قطع رسول الله ﷺ يد رجل في مجن قيمته دينار أو عشرة دراهم»(٢).

وما روي عن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: «قال رسول الله ﷺ: «**لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن**» وكان ثمن المجن عشرة دراهم»(٣).

قالوا: فهذا عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات(٤).

كما احتجوا بما روي عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**لا تقطع اليد إلا في ربع دينار أو عشرة دراهم**»(٥).

وقيل: لا حد لنصاب السرقة، بل يقطع في القليل والكثير، وإلى هذا ذهب الظاهرية(٦)؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾،

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٤، ٤١٦).

(٢) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٨٧)، والنسائي في قطع السارق (٤٩٥١)، والطحاوي في «معاني الآثار» (٢/ ٩٣)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٠٢)، ونسبه لابن أبي شيبة وإسناده ضعيف. وقال الألباني: «شاذ».

(٣) أخرجه النسائي في قطع السارق (٤٥٩٢- ٤٥٩٤) دون قوله: «وكان ثمن المجن عشرة دراهم» وحسنه الألباني. وأخرجه أحمد (٢/ ٢٠٤)- عن عبدالله بن عمرو بلفظ: «لا قطع فيما دون عشرة دراهم» وقال الهيثمي: «رواه أحمد، وفيه: نصر بن باب ضعفه الجمهور وقال أحمد: لا بأس به».

(٤) أخرج ابن ماجه في الحدود (٢٥٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعًا» وإسناده ضعيف.

(٥) ذكره الترمذي في الحدود (١٤٤٦) قال: «وهو حديث مرسل»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٤)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سليمان بن داود الشاذكوني وهو ضعيف».

(٦) انظر: «المحلى» (١١/ ٣٥١).

ولحديث: «**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده**»(١).

والراجح أن الأصل المعتبر في نصاب القطع هو ربع الدينار، لحديث عائشة- رضي الله عنها، فإذا بلغ قدر المسروق ربع دينار، أو ما يساويه من الأثمان والعروض وجب القطع(٢).

ولا ينافي هذا ما روي أن رسول الله ﷺ قطع في مجن قيمته ثلاثة دراهم ونحو ذلك لأن الدينار آنذاك كانت قيمته اثني عشر درهمًا، وربعه ثلاثة دراهم.

فعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك**» قالت: «وكان ربع الدينار يومئذٍ ثلاثة دراهم والدينار اثنا عشر درهمًا»(٣).

وبهذا تجتمع الأقوال الثلاثة قول من حدد مقدار النصاب بربع دينار وقول من حدده بثلاثة دراهم وقول من حدده بهذا أو بهذا.

أما القول بأن النصاب عشرة دراهم فهذا ضعيف، لضعف الأحاديث الواردة في أن الرسول ﷺ قطع في مجن قيمته عشرة دراهم ولحديث عائشة وابن عمر المتفق على صحتهما(٤).

أما القول بأنه يقطع في القليل والكثير فهذا أضعف الأقوال؛ لأن الآية- وإن كان ظاهرها العموم إلا أن السنة حددت مقدار النصاب الذي تقطع به يد السارق كما في حديث عائشة وابن عمر وغيرهما.

أما حديث: «**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده**» فقد اختلفت أجوبة الجمهور عنه(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٣)، ومسلم في الحدود (١٦٨٧)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٧٣)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٨٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٨٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠١).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٧- ٤١٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٨)، «زاد المعاد» (٥/ ٤٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٣).

فمن أهل العلم من قال المراد بالبيضة بيضة الحديد، والحبل ما يساوي دراهم كما قال الأعمش فيما رواه عنه البخاري[١]: «قال: كانوا يرون أنه بيض الحديد، والحبل كانوا يرون أنه منها ما يساوي دراهم».

وقيل: لأن ذلك وسيلة للتدرج لسرقة القدر الذي تقطع به يد السارق. وقيل: خرج مخرج التحذير بالقليل عن الكثير، كما جاء الترغيب بالقليل عن الكثير في قوله ﷺ: «**من بنى لله بيتًا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتًا في الجنة**»[٢].

وقيل: هذا على سبيل الإخبار عما كان عليه أهل الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، وقيل غير ذلك.

ومجمل القول أن هذا الحديث قصد به التنفير من السرقة مهما قل المسروق، لكن حديث عائشة مقدم عليه في تحديد مقدار النصاب لأنه أنص وأصرح في التحديد كما هو ظاهر: «**تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا**»، «**لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدًا**»[٣].

---

(١) في الحدود (٦٧٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٠)، ومسلم في المساجد (٥٣٣)، والترمذي في الصلاة (٣١٨)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٣٦)، عن عثمان- رضي الله عنه- سمعت الرسول ﷺ يقول: «**من بنى لله مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة**».

وأخرجه أحمد (١/ ٢٤١)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: «**من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتًا في الجنة**».

وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٣٨)، من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «**من بنى مسجدًا لله كمفحص قطاة أو أصغر، بنى الله له بيتًا في الجنة**» وصححه الألباني.

(٣) وثمة أقوال أخرى في مقدار نصاب القطع في السرقة كلها ضعيفة لا دليل عليها، بل هي مخالفة للأدلة الصحيحة كحديث عائشة وحديث ابن عمر رضي الله عنهما. فقد قيل: إن نصاب القطع في السرقة دينار أو عشرة دراهم أو ما يبلغ قيمته أحدهما، وقيل: خمسة دنانير أو خمسين درهمًا، وقيل: أربعة دراهم، وقيل: كل ما له قيمة. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٦٠- ١٦١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٢)، «فتح الباري» (١٢/ ٨٢- ٨٣).

واختلفوا فيما إذا اشترك جماعة في سرقة مقدار نصار فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا يقطع المشتركون في السرقة ما لم يكن في حصة كل واحد منهم نصاب السرقة، وقيل: يقطعون وإن لم يكن في نصيب كل واحد منهم مقدار نصاب مادام أن المسروق بجملته يبلغ مقدار نصاب. انظر: «أحكام =

أما اشتراط كون المسروق من حرز فلحديث: «**لا قطع في ثمر معلق، ولا في حريسة جبل، فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن**»(١).

وعن رافع بن خديج- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا قطع في ثمر ولا كثر**». والكثر: جمار النخل(٢).

على أن الأحاديث في هذا لا تخلو من مقال. قال ابن المنذر: «ليس في هذا خبر ثابت لا مقال فيه لأهل العلم، وإنما ذلك كالإجماع من أهل العلم»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): ولا يكون السارق سارقًا حتى يأخذ المال من حرز، فأما المال الضائع من صاحبه، والثمر الذي يكون في الشجر في الصحراء، بلا حائط، والماشية التي لا راعي عندها، ونحو وذلك، فلا قطع فيه لكن يعزر الآخذ، ويضاعف عليه الغرم، كما جاء به الحديث»(٥).

=

القرآن» لابن العربي (٢/ ٦١٠- ٦١١)، «المغني» (١٢/ ٤٦٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٦٣).

(١) أخرجه أبوداود في اللقطة الحديث (١٧١٠- ١٧١٣، ٤٣٩٠)، والنسائي في قطع السارق (٤٩٥٧) والترمذي في البيوع (١٢٨٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٦)، وأحمد (٢/ ١٨٠)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وحسنه الألباني، وقال الأرنؤوط في تخريجه «زاد المعاد» (٥/ ٥١): «سنده حسن».

والجرين: موضع الثمر الذي يجفف فيه، مثل البيدر للحبوب. انظر: «النهاية»، وانظر: «لسان العرب» مادة: «جرن».

(٢) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٨٨)، والنسائي في قطع السارق (٤٩٦٠)، والترمذي في الحدود (١٤٤٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٣)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: «المغني» (١٢/ ٤٢٦، ٤٣٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٦٢)، وانظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣١٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦١٠).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣١- ٣٣٢).

(٥) استدل ابن تيمية هنا بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا من مزينة سأل رسول الله ﷺ عن الضالة من الإبل؟ قال: معها حذاؤها وسقاؤها تأكل الشجر وترد الماء، فدعها حتى يأتيها باغيها، قال: الضالة من الغنم؟ قال: لك أو لأخيك، أو للذئب، تجمعها حتى يأتيها باغيها.

قال: الحريسة التي توجد في مراتعها؟ قال: فيها ثمنها مرتين وضرب نكال، وما أخذ من عطنه ففيه القطع إذا بلغ ثمن المجن.

قال: فالثمار وما أخذ منها في أكمامها قال: من أخذ بفيه ولم يتخذ خبنة فليس عليه شيء، ومن احتمل فعليه ثمنه مرتين، وضربًا ونكالًا، وما أخذ من أجرانه ففيه القطع إذا بلغ ثمن المجن.

=

والإنسان حرز لثيابه وما في جيبه لحديث صفوان- رضي الله عنه- قال: «كنت نائمًا على خميصة لي، فجاء رجل فاستلها مني، فأتيت به النبي ﷺ فأمر بقطعه» الحديث(١).

وجحد العارية سرقة بدليل أن النبي ﷺ قطع يد التي تستعير المتاع وتجحده، ولما كلموه في شأنها قال ﷺ: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(١).

وإلى هذا ذهب الإمام أحمد(٢)، وإسحاق(٣)، وطائفة من أهل العلم، واختاره ابن القيم(٤).

كما أن من شروط القطع في السرقة كون المسروق مالًا محترمًا لا محرمًا كالخمر ونحوه، وأن تنتفي الشبهة، فمن أخذ من مال أبيه فإنه لا يقطع على الصحيح، لأنه ربما أخذ من النفقة، واختلفوا في بقية القرابة. وكذا رجلان شريكان لا يقطع من أخذ منهما لوجود الشبهة(٥).

=

قال: واللقطة تجدها في سبيل العامرة قال: عرفها حولًا، فإن وجد باغيها فأدها إليه، وإلا فهي لك.

قال: ما يوجد في الخرب العادي؟ قال: فيه، وفي الركاز الخمس».

والحريسة هي التي لها ما يحرسها ويحفظها، والمراتع: المراعي، والعطن: الموضع الذي تساق إليه الإبل بعد شربها، والخبنة: الخفية، والعامرة: المسكونة بالحيات. أخرجه أبوداود في اللقطة (١٧١٠- ١٧١٣)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٦)، وأحمد (٢/ ١٨٠). وحسنه الألباني، والأرنؤوط في تخريجه لزاد المعاد.

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٠).

(٣) انظر: «شرح السنة» (١٠/ ٣٢٢).

(٤) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٠، ٥٣).

(٥) وقد اختلفوا في قطع من أخذ من بيت المال، أو من الغنيمة على قولين، كما اختلفوا فيمن سرق من المسجد من فرشه أو أثاثه ونحو ذلك فذهب بعض أهل العلم إلى أنه يقطع لحديث: «أن النبي ﷺ قطع سارقًا سرق من صفة النساء في المسجد» أخرجه أبوداود في الحدود (٤٣٨٦)، وأحمد (٢/ ١٤٥) وإسناده صحيح وصححه الأرنؤوط في تخريجه «زاد المعاد» (٥/ ٥١)، والألباني في «صحيح أبي داود».

واختلفوا في قطع نباش القبور فالجمهور على أنه يقطع، وقال بعضهم: لا يقطع.

كما اختلفوا في قطع يد السارق من السارق فقال بعضهم: لا يقطع؛ لأنه سرق من غير مالك ومن غير حرز، وقيل: يقطع. كما اختلفوا فيمن سرق مصحفًا وبلغت قيمته نصابًا على قولين. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٨، ٤٢٦- ٤٣٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٠٧- ٦١٤)، «المغني» (١٢/ ٤٢٥، ٤٥٥- ٤٢٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٦٢- ١٧١)،

=

٥- أن الأمة كلها مسؤولة عن إقامة حدود الله في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ﴾

«زاد المعاد» (٥/ ٥٤- ٥٥).

فإن سرق عدة مرات قبل القطع لم يقطع سوى يده اليمنى. وإن عاد إلى السرقة بعد القطع قطعت في المرة الثانية رجله اليسرى لقوله تعالى- في المحاربين: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [المائدة:٣٣] وهذا والله أعلم لئلا يتعطل منه جانب كامل، وعن علي- رضي الله عنه- قال: «إذا سرق السارق قطعت يده اليمنى، فإن عاد قطعت رجله اليسرى». وفي رواية أنه أتي بسارق فقطع يده اليمنى، ثم أتي به قد سرق مرة ثانية فقطع رجله اليسرى، ثم أتي به في الثالثة قد سرق، فأخرجه إلى السجن وقال: دعوا له رجلًا يمشي عليها، ويدًا يأكل بها ويستنجي بها». أخرجه الدارقطني موقوفًا على علي- رضي الله عنه- «سنن الدارقطني» (٣/ ١٨٠) حديث (٢٨٧، ٢٨٨). وانظر: «المغني» (١٢/ ٤٣٩- ٤٤٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣١).

واختلفوا فيما إذا عاد إلى السرقة مرة ثالثة ورابعة وخامسة. فذهب طائفة من أهل العلم منهم مالك والشافعي وأحمد في رواية عنه إلى أنه في الثالثة تقطع يده اليسرى وفي الرابعة تقطع رجله اليمنى وفي الخامسة يحبس ويعزر واستدلوا بحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سرق السارق فاقطعوا يده ثم رجله ثم يده ثم رجله» أخرجه الدارقطني في «سننه» (٣/ ١٨١) حديث (٢٩٢) وفيه محمد بن عمرو الواقدي ضعفه أكثر الأئمة.

واستدلوا بحديث جابر رضي الله عنه، وفيه: «ثم أتي به الخامسة، قال: «اقتلوه» أخرجه أبوداود في الحدود، قال الخطابي: «قلت: هذا في بعض إسناده مقال». وحسنه الألباني.

واستدلوا بما روى ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «شهدت عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قطع بعد يد ورجلٍ يدًا» وقال ابن المنذر: «ثبت عن أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- أنهما قطعا اليد بعد اليد، والرجل بعد الرجل».

وذهب طائفة من أهل العلم منهم؛ أبوحنيفة وأحمد في الرواية الأخرى إلى أنه إذا عاد إلى السرقة ثالثة فإنه يحبس ويعزر، وكذا ما بعدها، وهو قول علي- رضي الله عنه- كما سبق ذكر المروي عنه في هذا.

بل ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا قطع بعد قطع اليد اليمنى وإن عاد إلى السرقة مرارًا وتكرارًا لأن الله أمر بقطع يده فقط. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله- في كلامه على هذه الآية في «تفسيره»: «والذي يظهر أننا لا نتعدى حد المحاربين، يعني: نقطع يده اليمنى فإن عاد فرجله اليسرى» انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٢٢- ٤٢٤، ٤٣٠)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٧٣- ٧٤)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٧٩)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٥- ٣٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦١٦- ٦١٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٨)، «المغني» (١٢/ ٤٤٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣١)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٧)، «تفسير سورة المائدة» للشيخ محمد بن عثيمين (١/ ٣٦٢).

فالخطاب للأمة جميعًا، وإن كان المعنيّ بذلك الحكام الشرعيين على وجه الخصوص.

٦- أن القطع يكون من مفصل الكف؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ واليد إذا أطلقت فالمراد بها الكف؛ أي: من مفصل الكوع[١]. كما قال تعالى في التيمم: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

وبينت السنة الفعلية أن المراد بذلك الكفان وذلك في قوله ﷺ لعمار: «إنما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض ومسح بهما وجهه وكفيه»[٢].

وقد روي عن عمر- رضي الله عنه- وعلى هذا عامة السلف[٣].

قال الجصاص[٤]: «لا خلاف بين السلف من الصدر الأول أن القطع من المفصل، يعني: من مفصل الكوع»[٥].

٧- الإشارة إلى أن اليد التي تقطع هي اليمنى؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾؛ لأن الكسب غالبًا يكون باليد اليمنى هي التي يكون بها الأخذ كما يكون بها العطاء.

وفي قراءة ابن مسعود- رضي الله عنه- (فاقطعوا أيمانهما) وروي عن علي-

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٩٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٢١)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٤)، «المغني» (١٢/ ٤٣٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه عن عمر- رضي الله عنه- عبدالرزاق في اللقطة «المصنف» (١٠/ ١٨٥)، وابن أبي شيبة في الحدود باب الرجل يقطع «المصنف» (١٠/ ٢٩)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٧١). وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٢١).

وقد قيل: تقطع اليد من المرفق، وقيل: من المنكب، وقيل: من الأصابع، ولا دليل على شيء من هذه الأقوال.

وأما الرِّجل فتقطع من نصف القدم، ويترك له عقب يمشي عليه، وهو فعل علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- وإليه ذهب طائفة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأبوثور. وذهب كثير من أهل العلم إلى أنها تقطع من مفصل الكعب. وقيل: من المفصل ظاهر القدم. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٢١، ٤٢٢)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٨)، «المغني» (١٢/ ٤٣٩، ٤٤١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٧١).

(٤) في «أحكام القرآن» (٢/ ٤٢١).

(٥) ينبغي بعد القطع حسم مكان القطع إما بالكي بالنار، أو بالزيت المغلي، أو بأي علاج يحول دون نزيف الدم. انظر: «المغني» (١٢/ ٤٤١)، «تفسير المنار» (٦/ ٣٦٠).

رضي الله عنه- قطع اليد اليمنى وعلى ذلك أجمع أهل العلم[١].

٨- عدل الدين الإسلامي في المجازاة بقطع اليد التي سرقت؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ واليد اليمنى بالأخص؛ لأن السرقة تكون غالبًا بها.

٩- أن السرقة من كبائر الذنوب؛ لأن الله رتب عليها حد القطع، وقد اتفق أهل العلم من المفسرين والأصوليين والفقهاء وغيرهم على أن ما رتب عليه حد في الدنيا فهو من كبائر الذنوب.

١٠- أن الإنسان إنما يجازى ويعاقب بكسبه؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾.

١١- الرد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان لا اختيار له وأنه مجبور في جميع تصرفاته أشبه بالريشة والسعفة في مهب الريح؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ فهذا يدل على أن الإنسان له كسب وله اختيار.

١٢- أن في قطع يد السارق تنكيلًا له حتى لا يعود إلى السرقة مرة ثانية ونكالًا لغيره حتى لا يقع في السرقة؛ لقوله تعالى: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وكم من أيد سلمت وحفظت بسبب قطع يد واحدة وصدق الله العظيم: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩]، والسعيد مَن وُعظ بغيره.

١٣- تعليل أحكام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا الرد على الجبرية والأشاعرة الذين ينفون العلة والحكمة في أفعال الله تعالى ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة لا لحكمة، بينما يغالي المعتزلة في إثبات الحكمة ويقولون يجب على الله فعل الأصلح.

١٤- أن الحكم بقطع يد السارق صادر من عند الله لا يجوز الاعتراض عليه، أو تعطيله؛ لقوله تعالى: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

١٥- صيانة الدين الإسلامي للمجتمع من الجرائم بما شرعه من الحدود الرادعة عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وفي الأثر «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع

---

(١) انظر: «المغني» (١٢/ ٤٤٠).

بالقرآن»[١].

١٦- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، وأنه- عز وجل- ذو العزة في الانتقام ممن عصاه من سارق أو غيره.

١٧- إثبات أنه عز وجل ذو الحكم الكوني والشرعي والجزائي وذو الحكمة الغائية والصورية فيما شرع من الأحكام وفيما قدر من العقوبات الدنيوية والأخروية لمن عصاه؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ فبحكمه وحكمته جعل عقوبة السارق القطع.

عن قتادة- رضي الله عنه- في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال: «لا ترثوا لهم أن تقيموا فيهم الحدود فإنه والله ما أمر الله بأمر قط إلا وهو صلاح، ولا نهى عن أمر قط إلا وهو فساد»[٢].

وروي أن الأصمعي قرأ الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ فقال سهوًا: (والله غفور رحيم) وعنده أعرابي فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قال الأصمعي: هو كلام الله. قال الأعرابي: ليس هذا كلام الله. فأعادها الأصمعي ثلاث مرات (والله غفور رحيم) والأعرابي يقول له: ليس هذا كلام الله، ثم انتبه الأصمعي، فقرأها: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال الأعرابي: نعم هذا كلام الله. قال الأصمعي للأعرابي: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قال الأصمعي: من أين علمت أنني أخطأت؟ قال الأعرابي: يا هذا، عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[٣].

قال ابن كثير[٤]: ذكروا أن أبا العلاء المعرِّي لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد

---

(١) أخرجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهالخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٥١/ ١٧٢.
وانظر: «كنز العمال» (١٤٢٨٤). وأخرجه عن عثمان رضي الله عنه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٨٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١١٨).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٧)- الأثر (١١٩١٥).

(٣) انظر: «خزانة الأدب»، للحموي (١/ ١٧٦)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٨١)، «تفسير المنار» (٦/ ٣٨٤).

(٤) في «تفسيره» (٣/ ١٠٢).

إشكالًا على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم ذلك شعرًا دل على جهله، وقلة عقله. قال:

يد بخمس مئين عسجد[١] وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار

قال ابن كثير: فلما قال ذلك تطلبه الفقهاء فهرب منهم».

وقد أجابه القاضي عبدالوهاب المالكي- رحمه الله- بقوله: «لما كانت أمينه كانت ثمينة فلما خانت هانت»، وبقوله:

قل للمعرِّي عار أيما عار ... جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عاري
يد بخمس مئين عسجد وديت ... لكنها قطعت من ربع دينار
صيانة النفس أغلاها وأرخصها ... صيانة المال فافهم حكمة الباري[٢]

ورواه بعضهم بقوله:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذل الخيانة فافهم حكمة الباري[٣]

فهذا عين تمام الحكمة وكمالها أن تكون اليد ثمينة، وديتها غالية صيانة لها ما لم تعتد وتسرق، وأن تكون رخيصة، وقيمتها زهيدة، بعد الخيانة والسرقة، فتقطع في ربع دينار مجازاة لها ونكالًا، وصيانة للأموال[٤].

قال ابن كثير[٥]: «وقد كان القطع معمولًا به في الجاهلية فقرر في الإسلام، وزيدت شروط أخر، ويقال: إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش، قطعوا رجلًا يقال له «دريك» مولى لبني مليح بن عمرو، من خزاعة، كان قد سرق كنز الكعبة. ويقال سرقه قوم فوضعوه عنده».

١٨- الرد على دعاة الضلال الذين يطعنون في الإسلام ويقولون إن قطع يد السارق يعد

---

(١) العسجد: الذهب. انظر: «لسان العرب» مادة: «عسجد».

(٢) انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٨٣، ٩٨).

(٣) ذكره بهذا النص الألوسي في «روح المعاني» (٣/ ٣٠٤)، ونسبه لعلم الدين السخاوي.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٢).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ١٠٠).

وحشية؛ لأن الحكيم هو الذي يضع الأمور مواضعها المناسبة فما شرعه- عز وجل- من قطع يد السارق هو عين الحكمة للحفاظ على الأموال وردع المجرمين، فإن اليد التي تمتد إلى أموال الناس، وتجعلهم لا يأمنون على أموالهم هي يد شلاء يجب بترها، وبهذا تصان وتحفظ الأموال وهي إحدى الضروريات الخمس التي يجب الحفاظ عليها كما أوجب سبحانه القصاص حفاظًا على النفوس، فقال سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩].

١٩- الترغيب في التوبة من السرقة وغيرها من المظالم والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾.

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- أن امرأة سرقت حليًّا فقال النبي ﷺ: «اقطعوا يدها» فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

وفي حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- في قصة الجهنية أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»(٢).

٢٠- أن السرقة ظلم للمسروق منه، وظلم من السارق لنفسه، وظلم للناس حيث يخافون على أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾.

وهكذا جميع المعاصي من الكفر وما دونه كلها ظلم للنفس وللعباد والبلاد.

٢١- أن من تاب من أي ذنب كان وأصلح، شركًا كان أو دونه فإن الله يتوب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾.

و«من» تفيد العموم، أي: فمن تاب من أي ظلم، وأظلم الظلم الشرك بالله كما

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧- ١٧٨)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٩) (١١٩١٧). قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٠٤): «وهذه هي المرأة المخزومية التي سرقت وحديثها ثابت في الصحيحين عن عائشة».

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٦)، وأبوداود في الحدود (٤٤٤٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٥٧)، والترمذي في الحدود (١٤٣٥)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٥)، وأحمد (٤٣٠، ٤٣٥).

قال عز وجل فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وذلك لأن حق الله أعظم الحقوق وأوضحها.

٢٢- أن من شرط التوبة من السرقة أن يصلح السارق حاله وذلك برد المسروق إلى صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾.

وسواء أقيم عليه الحد أو لم يقم عليه فإنه يغرم ما سرق عند أكثر أهل العلم؛ لأن القطع حق الله، والغرم حق العبد فلا يكفي أحدهما عن الآخر.

وقيل: إن كان المسروق قائمًا بعينه غرمه وإلا فلا، وقيل: لا غرم عليه مطلقًا، وقال بعضهم: إن كان له مال ضمنها بعد القطع، وإن لم يكن له مال فلا ضمان عليه، واستحسن هذا ابن القيم(١).

٢٣- أخذ بعض أهل العلم من قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أن من شروط التوبة إصلاح العمل مطلقًا، والصحيح أن إصلاح العمل مطلقًا لا يعتبر شرطًا للتوبة، وإنما الإصلاح شرط فقط للتوبة من ذلك الذنب الذي تاب منه؛ لهذا قال هنا: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ وقال في توبة من فعلا الفاحشة: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ [النساء:١٦].

٢٤- توكيد توبة الله على من تاب من بعد ظلمه وأصلح، من السرقة أو غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ولا يكفي للتوبة إقامة الحد عليه- حتى على القول بأن الحدود كفارات إذا أضمر عدم التوبة لأن إقامة الحد قد يكفر ما قبله، لكن لابد من الندم على ما حصل منه، والعزم على عدم العودة إليه.

٢٥- إثبات صفة التوبة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ وتوبة الله على العبد نوعان توفيق منه- عز وجل- للتوبة، وقبول لها.

٢٦- أن التوبة ليست واجبة على الله بطريق العقل كما تقول المعتزلة؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٣١)، «معالم التنزيل» (٢/ ٣٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦١٢- ٦١٣)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٨٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٦٥)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٠- ٣٢١)، «مدارج السالكين» (١/ ٤٠٧- ٤١٠).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ﴾ وهذا تمدح منه- عز وجل- بقبول التوبة والتمدح إنما يكون بفعل التفضل والإحسان لا بأداء الواجبات(١).

٢٧- إثبات أنه عز وجل ذو المغفرة والرحمة الواسعتين أزلًا وأبدًا، ويظهر أثر مغفرته سبحانه في ستره لذنوب عباده مما لا يحصى كثرة وتجاوزه عنها، ويظهر أثر رحمته في نعمه التي يدرها على عباده، ومن ذلك توفيقه لمن شاء منهم للتوبة من سارق أو غيره قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل:٥٣].

٢٨- الرد على منكري صفات الله تعالى من الجهمية والمعطلة وغيرهم، وعلى من يؤولها أو بعضها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ففي هذه الآية إثبات صفة التوبة والمغفرة والرحمة له عز وجل.

٢٩- أن من تاب من السرقة قبل القدرة عليه فإنه يسقط عنه حد القطع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

ويدل على هذا قوله تعالى- في المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣٤].

لأنه إذا كانت التوبة قبل القدرة تسقط حد قطاع الطريق المحاربين، مع عظم الجرائم التي يرتكبونها، وعظم العقوبة التي رتبها الله على فعلهم فسقوط حد القطع في السرقة، وكذا حد الزنا ونحوه في التوبة قبل القدرة من باب أولى.

قال تعالى بعدما ذكر حكم اللاتي يرتكبن فاحشة الزنا: ﴿وَٱلَّذَٰنِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ [النساء:١٦].

وفي قصة ماعز بن مالك رضي الله عنه: أنه لما أذلقته الحجارة هرب. فقال النبي ﷺ: «**هلا تركتموه، لعله يتوب فيتوب الله عليه**»(٢) وروي عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٨١).

(٢) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤١٩)، من حديث يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه. وصححه الألباني دون قوله: «لعله يتوب» إلخ.

«**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[١].

وإلى هذا- وهو أن الحد يسقط بالتوبة قبل القدرة، ذهب بعض أهل العلم[٢] منهم الإمام أحمد في رواية عنه[٣]، وبعض الشافعية، وروي عن الشافعي[٤] وذهب أكثر أهل العلم[٥]، منهم الأئمة الثلاثة أبوحنيفة ومالك[٦] والشافعي[٧] إلى أن التوبة قبل القدرة لا تسقط الحد، واستدلوا بعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ وبعموم قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

وبأن الرسول ﷺ أقام الحد على ماعز والغامدية، وقد جاءا تائبين حتى قال ﷺ في الغامدية: «**لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم**»[٨].

وقالوا: ولأن الحد كفارة ككفارة اليمين، وكفارة القتل، فلا يسقط بالتوبة، والراجح- والله أعلم- القول الأول وهو أن التوبة قبل القدرة تسقط حد السرقة ونحوه للأدلة السابقة.

وأما استدلالهم بعموم الآيتين في السرقة وفي الزنا فيجاب عنه بأنه يخص من ذلك التائب قبل القدرة عليه.

وأما إقامة الرسول ﷺ الحد على ماعز والغامدية وقد جاءا تائبين فإنهما هما اللذان

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠)، من حديث أبي عبيدة بن عبدالله عن أبيه عن رسول الله ﷺ وحسنه الألباني.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦١٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٧، ٩٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٧٤).

(٣) انظر: «المغني» (١٢/ ٤٨٤- ٤٨٥)، «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣١- ٣٢).

(٤) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٨١).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٦)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٧، ٩٩).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤١٣)، «بدائع الصنائع» (٧/ ٩٦)، «فتح القدير» لابن الهمام (٥/ ٤٢٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦١٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٩٧، ٩٩).

(٧) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٣٦)، «التفسير الكبير» (١١/ ١٨١).

(٨) سبق تخريجه.

أتيا إلى النبي ﷺ وألحا عليه بإقامة الحد عليهما حتى إنه ﷺ ردد ماعزًا عدة مرات. وقالت الغامدية أتريد أن ترددني كما رددت ماعزًا[١].

ولهذا قال ﷺ عن ماعز لما هرب حين أذلقته الحجارة: «**هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه**»[٢]، أي: لعله يتوب فيما بينه وبين الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «إذا جاء الزاني أو السارق هو بنفسه فاعترف وجاء تائبًا فهذا لا يجب عليه الحد في ظاهر مذهب أحمد، نص عليه في غير موضع. وحديث الذي قال: «أصبت حدًّا فأقمه عليَّ فأقيمت الصلاة»[٤] يدخل في هذا لأنه جاء تائبًا، وإن شهد على نفسه كما شهد به ماعز والغامدية واختار إقامة الحد أقيم عليه، وإلا فلا، كما في حديث ماعز: «**فهلا تركتموه**» والغامدية ردها مرة بعد مرة.

والإمام والناس ليس لهم إقامة الحد على مثل هذا، ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه، كالذي يذنب سرًّا وليس على أحد أن يقيم عليه حدًّا لكن إذا اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم، وإن لم يكن تائبًا، وهذا كقتل الذي ينغمس في العدو هو مما يرفع الله به درجته.

كما قال النبي ﷺ: «**لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس**[٥] **لغفر له، وهل**

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، وأبوداود في الحدود (٤٤٣٤، ٤٤٤٢)، والدارمي في الحدود (٢٣٢٠، ٢٣٢٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٨)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣١- ٣٣).

(٤) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٦٥)، وأبوداود في الحدود (٤٣٨١) عن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: «بينما رسول الله ﷺ في المسجد، ونحن قعود معه إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فسكت عنه رسول الله ﷺ ثم أعاد فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبي الله ﷺ قال: فاتبع الرجل رسول الله ﷺ حين انصرف واتبعت رسول الله أنظر ما يرد على الرجل فلحق الرجل رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ. قال أبوأمامة: فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت حين خرجت من بيتك أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء. قال: بلى يا رسول الله. قال: ثم شهدت الصلاة معنا؟ فقال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: فإن الله قد غفر لك حدك أو قال: ذنبك».

(٥) المكس: الضريبة التي يأخذها الماكس، وهو العشار. والمكس: الرشوة، انظر: مادة «مكس» في «النهاية» =

وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله»(١).

وقد قيل في ماعز إنه رجع عن الإقرار، وهو أحد القولين فيه في مذهب أحمد وغيره وهو ضعيف.

وأصحاب هذا القول يقولون سقط الحد لرجوعه عن الإقرار، ويقولون رجوعه عن الإقرار مقبول وهو ضعيف أيضًا. وسقوط العقوبة بالتوبة- كما دلت عليه النصوص- أولى من إسقاطها بالرجوع عن الإقرار ولو قُبِل الرجوع لما قام حد بإقرار».

٣٠- تقرير أن الله له وحده ملك السموات والأرض يتصرف فيه بما يشاء من الأحكام الكونية الشرعية والجزائية لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، وقد استدل الطبري بهذه الآية على تفنيد قول اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾(٢) [المائدة:١٨].

٣١- التهديد والوعيد لمن خالف أمر الله، والوعد والتبشير لمن أطاع الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ فهو سبحانه يعذب من خالف أمره بعدله سبحانه، ويغفر لمن امتثل أمره بفضله ورحمته.

٣٢- إثبات المشيئة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾.

ولا يخرج الخلق عن مشيئته- عز وجل- فما شاء كان وما لم يشأن لم يكن، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ

=

و«لسان العرب».

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٠٠- ٣٠١).

شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام:١٣٧].

٣٣- أنه ينبغي للمؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء في طريقه إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت:٢١].

ويكون الخوف والرجاء عنده كجناحي الطائر لا يُغلِّب أحدهما على الآخر، وقيل يُغلِّب جانب الخوف وخاصة في حال الصحة، أو عند الإقدام على المعصية؛ ولهذا قدم الله- عز وجل- التعذيب في هذه الآية على الرحمة زجرًا وترهيبًا.

قال الزركشي في «البرهان»(١): «رحمة الله- عز وجل- تسبق غضبه وغالبًا ما يقدم في القرآن ذكر الرحمة على العذاب ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة:١٨]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت:٤٣]. قال: وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيبًا وزجرًا، منها قوله في سورة المائدة: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ لأنها وردت في ذكر قطاع الطريق والمحاربين والسراق، فكان المناسب تقديم ذكر العذاب؛ ولهذا ختم آية السرقة بـ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، وختمها بالقدرة مبالغة في الترهيب؛ لأن من توعده قادر على إنفاذ الوعيد».

٣٤- الرد على القدرية الموجبين الرحمة للمطيع والعذاب للعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت:٢١]. فعلق سبحانه وتعالى ذلك على مشيئته، ولو كان ذلك واجبًا عليه قطعًا لما علقه على المشيئة(٢).

٣٥- إثبات قدرة الله- عز وجل- على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو- عز وجل- تام القدرة لا يعجزه شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ

---

(١) (٤/ ٦٤).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١١/ ١٨٢).

إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

٣٦- عظم قدرة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على عظمة قدرته- عز وجل- وتمامها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

سبب النزول:

عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محممًا[1] مجلودًا. فدعاهم النبي ﷺ، فقال: «هكذا تجدون حد الزنا في كتابكم»؟ قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم»؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا

(١) محممًا: أي مُسَوّد الوجه.

أماتوه» فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمدًا، فإن أمركم بالتحميم والجلد فحدوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، في الكفار كلها»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب، و«ها»: للتنبيه، ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، «ال» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ.

﴿لَا يَحۡزُنكَ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي: «لا يُحزِنك»، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي: ﴿لَا يَحۡزُنكَ﴾، أي: لا يَجْعلك تحزن، أو لا تجعلهم يحزنونك، أي: لا تهتم بما يفعلونه مما شأنه أن يدخل الحزن في نفسك.

﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾، أي: الذين يسابقون في الكفر، أي: في التوغل فيه وإظهار شعائره كيدًا للإسلام وأهله وموالاة للكافرين.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، ﴿مِنَ﴾ بيانية، فهي بيان للاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾، أي: بيان للذين يسارعون في الكفر.

﴿ءَامَنَّا﴾: صدقنا، ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قالوا صدقنا بألسنتهم ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: ولم تصدق قلوبهم، وهؤلاء هم المنافقون، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

وهم أشد كفرًا من الأعداء الظاهرين؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والنفاق والمخادعة.

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود- رجم اليهود (١٧٠٠)، وأبوداود في الحدود- رجم اليهوديين (٤٤٤٨)، وأحمد (٤/ ٢٨٦)، والبيهقي (٨/ ٢٤٦).

قال السعدي[١]: «كان الرسول محمد ﷺ- من شدة حرصه على الخلق- يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء، فإن هؤلاء، لا في العير، ولا في النفير، إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا».

وذِكْر المنافقين، بل وتقديم ذِكْرهم مع أن سبب النزول في اليهود والله أعلم؛ لأن المنافقين معهم في الباطن في الكفر وتكذيب الرسول ﷺ، بل هم أشد على الإسلام من سائر أعدائه الظاهرين.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، والوقف على هذا على قوله: ﴿هَادُواْ﴾، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم سماعون، والضمير المقدر يعود إلى الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، ويحتمل عوده إلى أقرب مذكور وهم ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهو أولى؛ لأن الصفات المذكورة أخص بهم.

ويجوز كون جملة ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مستأنفة، وتكون خبرًا مقدمًا، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾ صفة لموصوف محذوف هو المبتدأ، والتقدير: ومن الذين هادوا قوم سماعون للكذب.

ومعنى ﴿هَادُواْ﴾ رجعوا، والمراد بهم اليهود؛ لقولهم: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: رجعنا إليك من المعصية إلى الطاعة. وقيل: سموا «اليهود» نسبة إلى أبيهم «يهوذا بن يعقوب».

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، ﴿سَمَّٰعُونَ﴾: جمع «سمَّاع» على وزن «فعَّال» صفة مشبهة، واللام في قوله: ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ لتقوية عمل اسم الفاعل ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، أو لتضمين السماع معنى القبول، أو للتعليل، أي: سماعون لأخباركم لأجل الكذب فيها.

والمعنى: مبالغون في الاستماع للكذب والباطل والإصغاء له، قابلوه، ناقلون له،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٨٩).

مما يفتريه أحبارهم، كقولهم: إن محمدًا ليس بنبي، وإن حكم الزنى في التوراة التحميم، ونحو ذلك.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ الجملة خبر ثان للمبتدأ المحذوف، أي: هم سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، واللام في قوله: ﴿لِقَوۡمٍ﴾ لام التعليل، فهو متعلق بنفس «الكذب»، أي: سماعون؛ ليكذبوا؛ لأجل قوم آخرين، أو متعلق بـ«سماعون»، أي: سماعون؛ لأجل قوم آخرين.

﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾: صفة ثانية لـ«قوم»، أي: سماعون للكذب مطلقًا ممن أتوك، ولقوم آخرين لم يأتوك من أحبارهم ورؤسائهم لشدة عداوتهم له ﷺ واستكبارهم، مستجيبون لما يأمرونهم به، ناقلون لهم ما يسمعون من النبي ﷺ.

وقيل: المنافقون سماعون لقوم آخرين هم اليهود.﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ الجملة في محل جر صفة ثالثة ﴿لِقَوۡمٍ﴾، أو في محل نصب على الحال.

والتحريف في الأصل: الميل إلى الحرف، وهو الطرف والجانب، وهو التغيير والتبديل ونقل الكلام من طرف إلى طرف آخر، وهو قسمان: تحريف لفظي، وتحريف معنوي. و﴿ٱلۡكَلِمَ﴾: الكلام.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾: من بعد استقراره وثباته في التوراة أو غيرها من كتب الله تعالى، ومعرفتهم أنه حق.

والمعنى: أنهم يغيرون كلام الله في التوراة وغيرها، ويتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

وتحريف الكلم من بعد مواضعه كما في هذه الآية أشد وأعظم من تحريفه عن مواضعه، كما في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦، المائدة:١٣]؛ لأن لفظ «بعد» يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة، وأنه أبطل العمل بها مع ثباتها قائمة في التوراة، أو غيرها.

﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والإشارة إلى هذا الكلام المحرّف، أي: يقول هؤلاء المحرفون من الأحبار

لأتباعهم من السامعين لهم: إن أعطيتم هذا الحكم من محمد، أي: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق هواكم ﴿فَخُذُوهُ﴾، أي: فاقبلوه. والإيتاء والأخذ أظهر في المحسوسات والمنقولات لكنهما يستعملان في المعاني أيضًا كما في هذه الآية.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾، أي: وإن لم تؤتوا هذا الحكم من محمد، أي: إن لم يحكم لكم محمد بهذا الحكم وحكم لكم بغيره فاحذروا أن تقبلوه؛ لأنه لا قصد لهم إلا اتباع الهوى. ولشدة عداوتهم للحق إذا خالف أهواءهم لم يقولوا: وإن لم تؤتوه فلا تأخذوه، بل قالوا: فاحذروا؛ وذلك لأنه يفتح عليهم باب الطعن في أحكامهم وفي حكّامهم الحاكمين بها.

قال ابن كثير[1] في معرض ذكر ما روي من سبب النزول: «والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مئة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم، فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك».

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، ﴿يُرِدِ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: ومن يرد الله كونًا، أي: ومن يشأ الله ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾، أي: إضلاله وجعله متبعًا لهواه.

والفتنة: الضلال والكفر، قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧]، أي: الفتنة بالكفر.

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]، قال الإمام أحمد: «الفتنة: الشرك»[2].

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٠٥).

(٢) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص(٥٤٥).

﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا.

والخطاب للنبي ﷺ، وقد يكون له ولكل من يصح خطابه، أي: فلن تستطيع أنت ولا أحد من الخلق هدايته، ودفع ما أراد الله به من فتنة، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨، ١٤٣].

فهو عز وجل يهدي من يشاء ممن كان أهلًا للهداية بفضله، ويضل من يشاء ممن كان أهلًا للإضلال بعدله، وكل ذلك لحكمة بالغة، وله في ذلك الحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ولكل داع إلى الحق من بعده.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾، الإشارة إلى اليهود الذين لا يقبلون من الحق إلا ما وافق أهواءهم، أو لهم وللمنافقين قبلهم. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: الذين لم يرد الله كونًا، أي: لم يشأ.

﴿أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿يُرِدِ﴾، أي: الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من رجس الشرك والكفر والشك، فيجعلها تقبل الإيمان.

وإذا لم تطهر القلوب التي عليها مدار الصلاح، لم تطهر الأجساد، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

قال ابن القيم(٢): قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ عقيب قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١١٠).

ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه».

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾، أي: للمسارعين في الكفر من المنافقين واليهود في الدنيا ذل وفضيحة وعار وهوان، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، وذلك بظهور نفاق المنافقين وكشف عوارهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠].

وكان النبي ﷺ يعرف أناسًا من المنافقين بأسمائهم، وقد أخبر بهم حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- وكان يقال له صاحب السر.

وبظهور كذب اليهود وكتمانهم لحكم الله في التوراة، وبقتالهم والغلبة عليهم، فمنهم من قتل، ومنهم من أجلي.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: ولهم في الآخرة عذاب عظيم وهو في النار وسخط الجبار؛ مما لا يعلم كنهه وكيفه وكمه إلا الله عز وجل، الذي وصفه بأنه عظيم، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

وقال تعالى في اليهود: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠]، وقال تعالى فيهم: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:٩٠].

قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرر هذا تأكيدًا لما سبق، وتمهيدًا وتوطئة لقوله:

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾، والجملة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم سماعون للكذب أكالون للسحت.

قوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾، ﴿أَكَّٰلُونَ﴾ جمع «أكَّال» على وزن «فعَّال» صفة مشبهة وصيغة مبالغة تدل على كثرة أكلهم للسحت.

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبوجعفر: ﴿لِلسُّحۡتِ﴾ بإسكان الحاء، وقرأ الباقون: «للسحُت» بضم الحاء.

و«السحت»: الحرام، وكل ما لا يحل كسبه، من ربا ورشوة وغش وخيانة وغصب وسرقة وأكل مال يتيم، وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك، من سحته، أي: استأصله وأهلكه.

وسمي الحرام سحتاً لأنه مسحوت، أي: ممحوق البركة في نفسه، كما قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٦]، ولأنه يسحت المال الحلال إذا خالطه ويُذهبه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم:٣٩]، وفي الحديث: «**وإن أنفقه لم يبارك له فيه، وإن تصدق به لم يقبل منه، وإن خلفه كان زاده إلى النار**»(١).

وخص الأكل في قوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾؛ للتشنيع عليهم، ولأن الأكل هو الهدف الأهم من جمع المال، وهو كما يقال: كسوة الباطن، وإلا فهم أخَّاذون السحت للأكل ولغيره من الانتفاعات، وكل ذلك في التحريم سواء.

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ الفاء: استئنافية، أي: فإن جاؤوك يتحاكمون إليك.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن جاءك اليهود يا محمد لتحكم بينهم، أي: اتخذوك حكمًا.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾، ﴿أَوۡ﴾ للتخيير، أي: إن شئت فاحكم بينهم، وإن شئت فأعرض عنهم- حسب المصلحة ولا حرج عليك؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٣٤٥) (٥٥٢٤).

إليك اتباع الحق، بل يطلبون ما وافق هواهم.

قيل: وقدّم الحكم بينهم؛ لأنه أولى. قالوا: ويؤيده ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾، ﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم، ونكر للتحقير، أي: وإن تعرض عنهم وتترك الحكم بينهم فلن يضروك أي شيء من الضرر، لا قليل ولا كثير، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا حجة لهم عليك فلا تبالهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، أي: وإن اخترت الحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، كما تحكم بين المسلمين، سواء كان الحكم لكافر على كافر، أو لكافر على مسلم.

كما فعل عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، لما بعثه النبي ﷺ ليخرص ثمار اليهود حيث جمعهم ثم قال: «إني جئتكم من أحب الناس إليَّ- يعني: رسول الله ﷺ- وإنكم لأبغض إليَّ من عِدَّتِكُمْ من القردة والخنازير، وما حبي له وبغضي لكم بموجب أن لا أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض فعدل فيهم»(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، أي: يحب العادلين، الذين يعدلون في كل ما يحكمون به، كما قال ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن- عز وجل- وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ الواو: استئنافية، و﴿وَكَيْفَ﴾: اسم استفهام أي: تعجب من تحكيمهم لك في بعض الأحكام كحكم الزاني المحصن، وهم يكذبونك،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٧)، من حديث جابر رضي الله عنه، وابن حبان (١١/ ٦٠٧) (٥١٩٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، والطبراني في «الأوسط» (٧/ ٣٠٣) (٧٥٦٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١١٥) (١١٤٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة- فضيلة الإمام العادل (١٨٢٧)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

ولا يؤمنون برسالتك.

وتعجب من تحكيمهم لك ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ التي يدعون أنهم يؤمنون بها ﴿فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ وهو رجم الزاني المحصن.

فهذا فيه تناقض من وجهين: الأول: كيف يحكمونك وهم يكذبونك ولا يؤمنون برسالتك. والوجه الثاني: كيف يدعون الإيمان بالتوراة التي بين أيديهم ويتحاكمون إلى غيرها، فهذا وذاك يوجب الشبهة في تحكيمهم له ﷺ، وأنهم ما أرادوا الحق؛ إذ لو أرادوا الحق لرجعوا لكتابهم.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾، أي: ثم يتولون بأبدانهم ويعرضون بقلوبهم عن حكمك. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من بعد تحكيمهم إياك وحكمك لهم بالرجم.

فجمعوا بين نبذ حكم الله لهم في التوراة وهو الرجم والتولي عن حكم الرسول ﷺ لهم بذلك.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الواو حالية، و«ما» نافية، والباء في قوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة لدنو منزلتهم وتحقيرًا لشأنهم، أي: وليس هؤلاء بالمؤمنين فلا هم آمنوا بالتوراة، ولا آمنوا بالرسول ﷺ.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

٢- في نداء الله- عز وجل- للرسول ﷺ تكريم وتشريف له.

٣- دفاع الله- عز وجل- عن النبي ﷺ وتقوية قلبه وتسليته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ الآية، وفيه إشارة إلى أن ذلك يحزنه ﷺ.

٤- تهوين أمر المسارعين في الكفر، وهو أن أمر من دونهم في الكفر من باب أولى.

٥- ذم المنافقين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأنهم من المسارعين في الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾.

٦- أن دعوى الإيمان بالألسن المجردة عن مواطأة القلب لا يدخل بها الشخص في

الإيمان؛ لأن مدار الإيمان ومحله القلب، كما قال ﷺ: «**ألا إن في القلب مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

٧- ذم اليهود وأنهم من المسارعين في الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

٨- أن من صفات اليهود الذميمة سماع الكذب وتقبله ونقله؛ لقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾.

٩- أن من اليهود من لا يأتون إلى النبي وبخاصة أحبارهم وعلماؤهم؛ استكبارًا وتعاظمًا منهم، واكتفاءً منهم بما ينقله إليهم السماعون من عامتهم.

١٠- تحريف اليهود كلام الله تعالى ووحيه من بعد مواضعه، في التوراة والقرآن وغيرهما من كتبه؛ لقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾.

١١- أن التحريف المذموم هو ما كان بعد معرفة الحق؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ بهدف طمس الحق وإبطاله.

١٢- تحكيم اليهود لأهوائهم؛ لأنهم لا يقبلون من الحق إلا ما وافق أهواءهم، لا لأنه حق، ولكن لأنه وافق أهواءهم، ويردون ما عدا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾.

١٣- وجوب الحذر من صفات اليهود الذميمة؛ من سماع الكذب وتقبله ونقله، وتحريف الكلم من بعد مواضعه، وعدم قبولهم الحق إلا إذا وافق أهواءهم؛ لأن مَن تشبه بقوم فهو منهم.

١٤- شدة بغض أحبار اليهود للحق وتنفيرهم منه؛ لقولهم: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾.

١٥- إثبات الإرادة الكونية لله- عز وجل- والتي هي بمعنى المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ وقوله: ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾.

١٦- أن ما أراده الله تعالى كونًا لابد أن يقع ولا أحد يملك رد مراده- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١٧- أن المدار في الطهارة على طهارة القلوب، وعليها مدار الصلاح والفساد؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ وفي الحديث: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

١٨- أن هؤلاء اليهود الموصوفين بهذه الصفات ممن أراد الله تعالى كونًا فتنتهم، ولم يرد أن يطهر قلوبهم، وهكذا كل من اتصف بصفاتهم وسلك طريق الضلال.

١٩- الإخبار بما أُعد لهؤلاء المذكورين من الخزي والذل والفضيحة في الدنيا، ومن العذاب العظيم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وبشارة للرسول ﷺ والمؤمنين.

٢٠- إثبات الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

٢١- تأكيد كون اليهود سماعين للكذب قابليه وناقلين له، وفي هذا تأكيد لذمهم، وتأكيد لوجوب الحذر من الاتصاف بصفاتهم القبيحة؛ لقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾.

٢٢- أن من صفات اليهود القبيحة أكل السحت والحرام؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ وذلك بأكلهم الربا وأخذهم أموال الناس بالباطل، والغش والرشوة وغير ذلك. فجمعوا بين الكذب وأكل الحرام.

٢٣- وجوب تطييب المأكل والحذر من أكل الحرام، بأي وجه من وجوه التحريم؛ لأن ذلك مسلك اليهود ومن تشبه بهم فهو منهم.

٢٤- تخيير الرسول ﷺ في الحكم بين اليهود إذا جاؤوا إليه أو الإعراض عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ وذلك حسب المصلحة، وأمته ﷺ تبع له في ذلك، وليس مطالبًا بالذهاب إليهم إذا لم يأتوا إليه.

---

(١) سبق تخريجه.

قال السعدي[1]: «وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم».

٢٥- أن الرسول ﷺ لو اختار الإعراض عن اليهود، وترك الحكم بينهم، فإنهم لن يضروه شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾، وهذا أيضًا له ﷺ ولأمته.

٢٦- وجوب العدل في الحكم بين الناس، حتى ولو كانوا غير مسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، وهو حكم الإسلام.

٢٧- عدل الإسلام وإنصافه لجميع الناس على اختلاف أديانهم.

٢٨- إثبات المحبة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥، المائدة:١٣].

ومن آثار محبته- عز وجل- إثابته لمن يحب، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٨].

٢٩- الحث على العدل والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٣٠- الإنكار والتعجب من تحكيم اليهود للرسول ﷺ، وهم لا يؤمنون به ولا بما جاء به، وعندهم التوراة فيها حكم الله طلبًا للرخصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾.

٣١- أن اليهود لا يريدون الحق في مجيئهم إلى الرسول ﷺ، وإنما يريدون التحلل من رجم الزناة الثابت في التوراة الذي يعتقدون أنه حكم الله.

٣٢- أن من عرف الحكم من الكتاب أو السنة بنفسه أو ببيان من يثق به من أهل العلم، ثم ذهب ليسأل ليترخص ففيه شبه من اليهود.

٣٣- أن ما جاء في التوراة فهو حكم الله، وذلك قبل أن تحرّف وتغيّر وتبدّل، ومن

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٩٢).

ذلك: رجم الزاني المحصن، فهو ثابت في التوراة، كما أنه ثابت في القرآن والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾.

وليس في قوله: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ اعتبار العمل بالتوراة بعد نزول القرآن فإنها منسوخة به، وإنما لأجل الرد عليهم من كتابهم التوراة الذين يؤمنون به؛ لإفحامهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالقرآن.

كما أنه ليس في الآية دلالة على أن التوراة آنذاك لم تحرف وتبدل بل قد حرفت وبدلت كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام:٩١].

٣٤- تولي اليهود وإعراضهم عن حكم الرسول ﷺ بينهم، إذا لم يوافق أهواءهم، وإن كان موافقًا لما جاء في كتابهم التوراة، مما يؤكد أنهم يريدون الترخيص والتحلل من حكم التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾.

٣٥- أن من تولى عن حكم الله ورسوله فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٣٦- وجوب القبول والتسليم لحكم الله تعالى ورسوله، والرضا به، والحذر من التولي عنه أو طلب الرخص، اتباعًا للهوى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

هاتان الآيتان فيهما ثناء من الله- عز وجل- وامتداح للتوراة التي أنزلها الله تعالى على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وفيها إفحام اليهود المنكرين لبعض أحكام التوراة كرجم الزاني ووجوب المساواة في القصاص وغير ذلك.

سبب النزول:

عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محممًا مجلودًا فدعاهم ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم[1] والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، قال: فأمر به فرجم**».

فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة:٤١]. يقولون: ائتوا محمدًا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قال في «اليهود»: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قال في اليهود: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قال في الكفار كلها»[2].

وقد روي أن سبب نزول هذه الآيات قصة القتيلين من اليهود. فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «إن الله- عز وجل- أنزل: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ و﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن دية القتيل من الذليلة خمسون وسقًا، ودية القتيل من العزيزة مئة وسق، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا، فقالت العزيزة: ابعثوا لنا بمئة وسق. فأبت الذليلة وقالت: إنما أعطيناكم مئة وسق على القتيل ضيمًا منكم لنا، أما وقد قدم

---

(١) التحميم: تسويد الوجه بالحمم، وهو الفحم.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٧٠٠)، وأبوداود في الحدود (٤٤٤٧، ٤٤٤٨)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٨٦).

محمد فلا نعطيكم ذلك. فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، فأرسلوا إليه أناسًا من المنافقين، ليروا رأيه قبل ذلك، فأخبره الله بأمرهم، وأنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، ففيهم والله أنزلت، وإياهم عنى الله عز وجل»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾ تكلم الله- عز وجل- عن نفسه بضمير العظمة؛ لأن له- عز وجل- كمال العظمة والكبرياء سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**الكبرياء إزاري، والعظمة ردائي**»(٢).

﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران عليه السلام كتبها الله عز وجل بيده، قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وفي الحديث: «**قال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده**»(٣).

وفي الحديث الآخر: «**أن الله غرس جنة عدن بيده وخلق آدم بيده وكتب التوراة بيده**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٦). وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٠٩): «رواه أبوداود من حديث أبي الزناد بنحوه».

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه (٤٧٣٦)، ومسلم في القدر (٢٦٥٢)، والترمذي في القدر (٢١٣٥)، وابن ماجه في المقدمة (٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٦٨، ٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٩٧)، «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٧٤).

أنزلها الله جملة واحدة على موسى عليه السلام مكتوبة بألواح كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ الجملة في محل نصب حال من التوراة، أي: أنزلنا التوراة حال كونها فيها هدى ونور. والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

فالهدى: العلم النافع، الذي يهدي للإيمان والحق والعدل، ويعصم بإذن الله من الضلالة، وفيه بيان العقائد والأحكام والشرائع والتبشير بمحمد ﷺ وإيجاب اتباعه.

والنور: آثار هذا العلم على عمل الإنسان وسلوكه وأخلاقه؛ لأن الإنسان كلما ازداد علمًا ازداد نورًا وبصيرة في دين الله عز وجل.

أي: وفيها نور يستضيء به قلب الإنسان في طريقه إلى الله من ظلمات الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨].

وهذه الآية: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]. أي بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الجملة الحالية، أو مستأنفة، أي: يحكم بالتوراة.

﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ قرأ نافع: «النبيئون» بالهمز جمع «نبيء» وقرأ الباقون: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ بغير همز، جمع نبي[1]. وهو على القراءتين مأخوذ من النبأ، أو من النبوة أو منهما وهو الأظهر فهو مأخوذ من النبأ لأن النبي مُنْبَأ، أي: مخبر من عند الله، وهو مُنْبِئ، أي مُخْبِر من بُعث إليهم.

وهو مأخوذ من النبوة، وهي المكان المرتفع من الأرض؛ لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية رفيعة، بل هم أعلى الخلق مرتبة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ

---

(١) انظر: «النشر» (١/ ٤٠٦).

ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

وأعلاهم مرتبة وأفضلهم منزلة نبينا محمد ﷺ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١).

﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ صفة مدح للنبيين، والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

أي: الذين استسلموا لله ظاهرًا وباطنًا وأخلصوا له وانقادوا لحكمه وأمره بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وقال تعالى عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقال تعالى عن يعقوب وبنيه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقال تعالى في هذه الأمة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج:٧٨].

والمراد بالنبيين في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى حتى بعثة نبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وقيل: المراد بهم نبينا محمد ﷺ؛ لأن النبي ﷺ حكم بينهم بحكم التوراة في قصة الزانيين، وحكم بتساوي الديات في قتلاهم(٢).

﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ متعلق بـ﴿يَحْكُمُ﴾ و﴿هَادُواْ﴾ صفة مدح، أي: رجعوا وتابوا من الكفر والشرك وعبادة العجل واتبعوا دين يهوذا، أحد أنبياء بني إسرائيل وأحد أولاد يعقوب عليه السلام.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٣٨)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٣٨).

والمعنى: يحكم بها النبيون الذين أسلموا لليهود، أي: لهم وعليهم كما في حكمه ﷺ بينهم في رجم الزانيين، وفي التسوية في القود في القتل عمدًا بين قتلى بني النضير وبني قريظة(١).

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ معطوف على ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾، أي: ويحكم بها الربانيون والأحبار، و«الأحبار» معطوف على «الربانيون» قال بعضهم: هذا من عطف الصفات، فالربانيون هم الأحبار، وهم العلماء العباد.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن «الربانيون» غير «الأحبار»؛ لأن العطف في الأصل يقتضي المغايرة فـ«الربانيون» جمع رباني وهم العباد، مأخوذ- والله أعلم- من الرب وعبوديته والعمل على إتمام العبودية له وتربية الناس على ذلك(٢)، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:١٤٦].

قال ابن عباس: «الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»(٣).

وقال الطبري(٤): «الربانيون: هم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم».

وقال ابن كثير(٥): «الربانيون: وهم العباد العلماء».

والأحبار: جمع «حَبْر» بفتح الحاء، ويقال بكسرها، بل قيل: إنه الأكثر والأفصح(٦)، مأخوذ من التحبير، وهو التحسين والتزيين، وهم العلماء؛ وسمي العلماء بذلك، لأنهم يحبرون العلم، أي يبينونه ويحسنونه ويزينونه للناس وهو محبر في صدورهم، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٣٨)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٠).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١١١)، «لسان العرب» مادة: «ربب».

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٨٩).

(٤) في «جامع البيان» (١٠/ ٣٤١).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ١٠٩).

(٦) انظر: «الصحاح» للجوهري مادة: «حبر».

وقيل: مأخوذ من الحِبر الذي يكتب به[١].

و«الحِبَر»: واسع العلم، كثير المعرفة بالأحكام، الذي وصل إلى غاية كبيرة في العلم؛ لأن الباء والحاء والراء تدل على الكثرة، ومنه سمي الماء الكثير بحرًا، وسمي العالم واسع العلم حبرًا لاجتماعهما في الاشتقاق العام.

قال ابن عباس[٢]: «الأحبار: الفقهاء».

وقال الطبري[٣]: «الحبر: العالم المحكم للشيء».

وعلى هذا فالربانيون هم العباد العلماء، الذين يربون الناس على عبادة الله تعالى، والأحبار هم العلماء الكبار وأهل الفتوى، ويدل على اشتراكهما في العلم قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة:٦٣].

وقال بعض أهل العلم بل «الربانيون هم الأكثر علمًا» قال مجاهد[٤]: «الربانيون فوق العلماء».

قال الرازي[٥]: «دلت الآية على أن الربانيين أعلى حالًا من الأحبار كالمجتهدين، والأحبار كآحاد العلماء».

ويؤيد هذا القول تقديم «الربانيون» في الذكر على «الأحبار» فقد ذكر في الآية النبيون ثم الربانيون ثم الأحبار.

ولا شك أن التقديم له دلالته غالبًا على التفضيل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

ولو لم يكن الربانيون سبقوا في العلم إضافة إلى العبادة ما استحقوا التقديم على الأحبار، الذين لا خلاف أنهم العلماء.

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٢/ ٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٨٩).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٨٩).

(٣) في «جامع البيان» (١٠/ ٣٤١).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٨٩).

(٥) في «التفسير الكبير» (١٢/ ٤).

وأيضًا فإن «الربانيون» لا يمكن أن يقال: إنهم العباد أو الزهاد فقط، كما قال بعضهم؛ وذلك لأن الله جعلهم ممن يحكم بالتوراة، ولو كانوا عبادًا أو زهادًا فقط لم يجعل لهم الحكم كالنبيين والأحبار.

وأيضًا فإن اسم الربانيين مأخوذ من الرب وطاعته والاجتهاد في عبادته فأضافهم- عز وجل- إلى نفسه، وهذا يدل على عظم منزلتهم.

وأيضًا فإن حقيقة الربانية والعبودية لله أن يكون ذلك عن علم ومعرفة بالله تعالى وبدينه وأحكامه فكل هذه الأمور مما يقوي قول مجاهد أن «الربانيين» فوق العلماء- والله أعلم.

﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يَحۡكُمُ﴾، أي: يحكم بها الربانيون والأحبار بما استحفظوا. والباء للسببية، وما موصولة، أي: ويحكم بها الربانيون والأحبار بسبب الذي استحفظوا من كتاب الله تعالى، أي: بسبب الذي طُلب منهم حفظُه واستُودِعوه من كتاب الله، بأخذ العهد عليهم بالقيام بحفظه وحفظ أحكامه والعمل به وتطبيقه.

و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ بيانية، والمراد بكتاب الله تعالى هنا التوراة، وأضيف إلى الله تعالى، لأنه سبحانه وتعالى كتبه بيده، وأنزله.

قال أبوحيان[1]: «وفي بناء الفعل للمفعول، وكون الفعل للطلب ما يدل على أنه تعالى لم يتكفل بحفظ التوراة، بل طلب منهم حفظها، وكلفهم بذلك، فغيروا وبدلوا، وخالفوا أحكام الله، بخلاف كتابنا فإن الله قد تكفل بحفظه فلا يمكن أن يقع فيه تبديل ولا تغيير، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾، أي: وكان هؤلاء الربانيون والأحبار على الذي استحفظوا من كتاب الله التوراة شهداء أنه من عند الله وأنه حق وصدق آنذاك[2]؛ لأن

---

(١) في «البحر المحيط» (٣/ ٤٩٢).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٢/ ٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٨٩). وقيل: ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾، أي: على حكم الأنبياء عليهم بالتوراة وحكم النبي ﷺ وقضائه عليهم بما في كتاب الله التوراة المنزل على موسى عليه السلام. انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٤٣- ٣٤٤).

العلماء هم الذين يشهدون بصحة الشرائع من عند الله ويبينونها للناس، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، لكنهم ضيعوا ذلك كله فلم يحفظوه ولم يعملوا به، ولم يطبقوا أحكامه ولم يشهدوا بصحته بل حرفوه وبدلوه- كما وصفهم القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة:١٣]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١].

﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ خطاب لعلماء اليهود، وهو عام لهم ولغيرهم من علماء هذه الأمة وغيرهم.

والخشية بمعنى الخوف، بل هي أخص وأشد منه، والخشية من الله من صفات العلماء العارفين بالله كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨].

والمعنى: لا تخشوا الناس وتخافوهم، فتكتموا لأجل ذلك ما أنزلت من الحكم وتحكموا بغيره[1]، كما فعل اليهود في حكم الزنا يقيمون حد الرجم على الضعيف دون الشريف؛ فيكتفون بتسويد وجهه، وكما فعلوا في حكم القصاص يقتلون القرظي بالنضيري، ولا يقتلون النضيري بالقرظي إلى غير ذلك.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾، أي: ولا تعتاضوا وتستبدلوا بآياتي والحكم بها ثمنًا قليلًا زهيدًا من المكاسب الخبيثة والسحت والرشوة، أو من طلب السيادة والجاه أو الشرف وغير ذلك، وذلك مقابل كتمان ما أنزل الله في كتبه وتحريفه والحكم بغير ما أنزل الله.

قال الحسن[2]: «أخذ الله- عز وجل- على الحكام ثلاثة أشياء: ألا يتبعوا الهوى،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٤٤)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٣٨).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٩١).

وألا يخشوا الناس ويخشوه، وألا يشتروا بآياته ثمنًا قليلًا».

ووصف هذا الثمن بأنه قليل؛ لأن جميع ما في الدنيا قليل مهما بلغ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

ولأن هذا الثمن مهما بلغ فهو قليل حقير زهيد؛ لأنه جعل عوضًا عن آيات الله والحكم بها الذي لا يساويه شيء مهما بلغ.

وقدم النهي عن خشية الناس وخوفهم على النهي عن الاشتراء بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ لأن الخوف من الناس أقوى تأثيرًا في الإقدام على تغيير أحكام الله(١).

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، وتفيد العموم أي: ومن لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والنصارى وغيرهم، فالآية- وإن كان سياقها في اليهود فظاهرها العموم.

و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و﴿يَحْكُم﴾ فعل مضارع مجزوم بـ«لم» وأسند الفعل للمفرد مراعاة للفظ «من».

﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، «ما» موصولة، أي: بالذي أنزل الله من الأحكام في كتبه كالرجم للزاني المحصن، والقصاص من القاتل، في التوراة وفي القرآن الكريم وغير ذلك.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مبتدأ، و﴿هُمُ﴾ ضمير منفصل لا محل له من الإعراب جيء به للتوكيد، وإفادة الحصر، وبيان أن ما بعده خبر، لا صفة. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ.

وجاءت الإشارة والضمير والخبر بالجمع مراعاة لمعنى «من»، فإنها من صيغ العموم.

والإشارة لمن لم يحكم بما أنزل الله كأحبار اليهود الذين كتموا حكم الله في الزنا وفي القصاص من القاتل عمدًا وحكموا على الزانيين بالتجبيه والتحميم(٢)، وفاضلوا بين

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» (١٢/ ٥)، «البحر المحيط» (٣/ ٤٩٢).

(٢) التجبيه: أن يحمل الزانيان على حمار، ويقابل بين أقفيتهما، ويطاف بهما، والتحميم أن يحمموا وجه الزاني بالسواد. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة: «جبه» ومادة: «حمم».

القتلى من بني النضير وبني قريظة في القصاص والدية(١).

والكفر في اللغة: الستر، ومنه سمي الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه ويدفنه في الأرض، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد:٢٠] أي: أعجب الزراع. ومنه سمي «الكَفْر» وهو طلع النخل سمي بذلك لأنه يستر الطلع الذي في داخله(٢).

والكفر بالله ينقسم إلى قسمين، أحدهما: كفر استكبار وعناد وإصرار، ومنه كفر إبليس كما قال عز وجل: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص:٧٤].

والقسم الثاني: كفر جحود وتكذيب وإنكار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧].

ومنه كفر قريش حيث قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

ويطلق الكفر على المعصية، قال ﷺ لما سألته المرأة عن كون النساء أكثر أهل النار قال: «**لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير وتكفرن الإحسان**»(٣)، وقال ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت**»(٤).

ويطلق على ما يخرج من الملة قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١- ٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٣٤٥- ٣٤٦).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «كفر».

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٩)، ومسلم في الكسوف (٩٠٧)، والنسائي في الكسوف (١٤٩٣)، ومالك في النداء للصلاة (٤٤٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في الأيمان (٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فاسق»[١].

قال ابن كثير[٢]: «لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا».

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآية.

قال ابن كثير[٣]: «وهذا أيضًا مما وبخت به اليهود وقرّعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون حكم ذلك عمدًا وعنادًا ويقيدون النضري من القرظي، ولا يقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار».

وقد كان من سبب نزول هذه الآية والآيات قبلها ما رواه ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: كانت قريظة والنضير، وكانت النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلًا من النضير قتل به وإذا قتل رجل من النضير رجلًا من بني قريظة ودي مائة وسق فلما بعث رسول الله ﷺ قتل رجل من النضير رجلًا من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا، فقالوا بيننا وبينكم رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾»[٤].

وقال ابن كثير[٥]: بعدما أشار إلى ما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، قال: «وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٣٥٧) من طريق علي بن أبي طلحة الأثر (١٢٠٦٣).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١١٢).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١١٢).

(٤) أخرجه أبوداود في الديات (٤٤٩٤)، والنسائي في القسامة (٤٧٣٦)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٣٢٦- ٣٢٧) الأثر (١١٩٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٦٦- ٣٦٧) وصححه الألباني.

(٥) في «تفسيره» (٣/ ١١٠).

فنزلت هذه الآيات في ذلك كله.. ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إلى آخرها وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص والله سبحانه وتعالى أعلم».

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: كتبنا شرعًا، أي: فرضنا وأوجبنا.

والكتابة على نوعين؛ منها: الكتابة الشرعية؛ وهي المتعلقة بالأوامر والنواهي والأحكام التكليفية، كما في هذه الآية، وكما قال جل وعز: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣].

والنوع الثاني الكتابة القدرية الكونية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

والفرق بين الكتابتين أن الكتابة الشرعية مكتوبها قد يقع من المكلف، وقد لا يقع، كالإرادة الشرعية، قد يقع المراد بها وقد لا يقع.

والكتابة القدرية الكونية لابد من وقوع مكتوبها كالإرادة الكونية لابد من وقوع المراد بها.

﴿عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾، أي: على اليهود في التوراة.

﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، أي: أن النفس القاتلة تقتل قصاصًا بالنفس المقتولة وهذا هو الثابت في الشريعة الإسلامية المطهرة، كما قال ﷺ: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**»(١).

وهذا عام في كل نفس أيًّا كانت إلا ما دل الدليل على تخصيصه، كما في قوله ﷺ:

---

(١) سيأتي تخريجه.

«لا يقتل مسلم بكافر»(١).

وقد خالف هذا اليهود فكانوا يفاضلون بين الأنفس، ويَقِيدون لبني النضير من بني قريظة، ولا يقيدون لبني قريظة من بني النضير(٢).

﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

قرأ أبوعمرو وابن كثير وابن عامر بنصب: ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ وما بعدها عطفًا على ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾، عدا «والجروحُ» فبالرفع على الاستئناف.

وقرأ الكسائي برفع الجميع على الابتداء، أو الخبر، أو على مضمر في النفس تقديره: أن النفس هي مأخوذة بالنفس ونحو ذلك.

وقرأ الباقون بنصب الجميع عطفًا على قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾(٣).

وقرأ نافع: «والأذْن» بسكون الذال، وقرأ الباقون بضمها(٤).

وذكرت هذه الأعضاء الأربعة العين والأنف والأذن والسن من باب التمثيل فقط، وخصت بالذكر؛ لأن أكثر الجنايات تكون فيها، أو لأنهم اختلفوا في حكمها، أو سألوا عنها دون غيرها من الأعضاء، أو لغير ذلك.

﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ الجروح: جمع جرح ﴿قِصَاصٌ﴾، أي: والجروح يقتص منها.

والمعنى: أن العين تفقأ قصاصًا بالعين، والأنف يجدع قصاصًا بالأنف، والأذن تقطع قصاصًا بالأذن، والسن تقلع قصاصًا بالسن وتؤخذ الجروح قصاصًا بمثلها.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ قال: «يقول: تقتل النفس بالنفس، وتفقأ العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وينزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح، يستوي فيها أحرار المسلمين رجالهم ونساؤهم إذا كان عمدًا

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٢٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٠- ١١٢).

(٣) انظر: «المبسوط» ص(١٦٢)، «الكشف» (١/ ٤٠٩)، «التبصرة» ص(٤٨٥)، «النشر» (٢/ ٢٥٤).

(٤) انظر: «المبسوط» ص(١٦٢)، «التبصرة» ص(٤٨٥).

في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس»(١).

﴿قِصَاصٌ﴾ مأخوذ من قصِّ الأثر وهو اتباعه فكأن الجاني يُقص أثره فيفعل به مثل ما فعل(٢).

والمعنى أن الجروح تؤخذ بالمقاصة بأن يجرح الجاني العامد جرحًا مثل الذي بالمجني عليه، من حيث مكان الجناية، ومن حيث نسبة مساحتها في العضو، هذا إذا كان مما يمكن أن يقتص منه، بأن لا يخشى منه التلف على النفس، فإن كان مما يخشى منه التلف على النفس، فلا قصاص فيه، بل فيه أرش وحكومة.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ الفاء استئنافية، و«من» شرطية ﴿تَصَدَّقَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية.

﴿تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾، أي: عفا عمّا له من حق قود أو قصاص في النفس وما دونها، وسمي العفو تصدقًا ترغيبًا فيه.

﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ الضمير ﴿فَهُوَ﴾ يعود إلى مصدر الفعل السابق، أي: فتصدقه كفارة له.

والكفارة: مأخوذة من الكفر وهو الستر والتغطية؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، ككفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة القتل ونحو ذلك.

أي: فتصدقه بما له من حق على الجاني، بعفوه عنه كفارة له، أي: للمتصدق، وهو المجني عليه، أو وليه، يكفر الله عنه بسبب عفوه ذنوبه وخطاياه كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

وعلى هذا أكثر المفسرين، وهو الأظهر؛ لأن الضمير على هذا يرجع إلى مذكور وهو «من».

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٣٦١) من طريق علي بن أبي طلحة- الأثر (١٢٠٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٤٤- ١١٤٥).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤٥).

ويحتمل أن الضمير في قوله ﴿لَّهُۥ﴾ يراد به الجاني فيكون المعنى فمن تصدق بحقه فعفا عن الجاني فذلك كفارة له، أي: للجاني فلا يؤخذ بجنايته في الآخرة لأن العفو عنه يقوم مقام أخذ الحق منه، والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه وأجر المتصدق على الله قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال: «كفارة للمتصدق عليه»(١) وقال رضي الله عنه: «فالكفارة للجارح، وأجر المتصدق على الله»(٢).

قال الفراء(٣): «﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾؛ يعني: للجارح والجاني، وأجر للمجروح»، والقول الأول أظهر من حيث إن الضمير في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾ يعود على مذكور وهو «من» وعليه أكثر المفسرين(٤).

على أنه لا مانع من حمله على هذا وهذا لأن العفو كفارة للجاني وللمتصدق(٥).

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

القول فيه إعرابًا ومعنى كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: جمع ظالم، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه على وجه العدوان، وهو النقص كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

والظلم يطلق على المعصية، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر:٣٢].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٣٦٧)- من طريق علي بن أبي طلحة- الأثر (١٢٠٩٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٣٦٧- ٣٦٨)- الآثار (١٢٠٩٦- ١٢٠٩٨).

(٣) في «معاني القرآن» (١/ ٣١٢). وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٩٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٦٢- ٣٦٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٤١- ٤٤٢)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٣١- ٦٣٢)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٥- ١١٦).

(٥) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٩٧).

ويطلق على الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

قال ابن تيمية(١): «الكفر المطلق هو الظلم المطلق»، أي: ومن لم يحكم بما أنزل الله من القصاص في النفس، وما دونها وغير ذلك من أحكام الله- عز وجل- فأولئك هم الظالمون، حيث لم ينصفوا المظلوم من الظالم، ولم يعدلوا في الحكم، ولم يسووا بين الناس في الحكم كما أمر الله».

وقال أبو حيان(٢): «﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جاء عقيب قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ فمن لم يحكم بها وتركها جميعًا، فناسب الكافرون، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة:٤٤].

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جاء بعد أشياء مخصوصة من أمر القتل والجراح فناسب ذكر الظلم المنافي للقصاص وعدم التسوية وإشارة إلى ما كانوا قرروه من عدم التساوي بين بني النضير وبني قريظة».

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

بعدما أثنى الله- عز وجل- على التوراة، وذكر ما فرضه على بني إسرائيل فيها من وجوب المساواة في القصاص، ووجوب الحكم بما أنزل الله فيها أتبع ذلك ببيان أنه ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم وأنزل عليه الإنجيل فيه هدى ونور وموعظة، ووجوب الحكم بما أنزل الله تعالى.

قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ الواو استئنافية، ﴿وَقَفَّيْنَا﴾، أي: أتبعنا.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: بعدهم، والضمير يرجع إلى ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾، أي: أتبعنا النبيين الذين أسلموا، وختمنا أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فجعلناه

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٧٤).

(٢) في «البحر المحيط» (٣/ ٤٩٨).

بعدهم يتبعهم ويقفو آثارهم.

وعيسى بن مريم- عليه الصلاة والسلام- هو آخر أنبياء بني إسرائيل وبينه وبين موسى- عليه السلام- عدد كبير من الأنبياء فيما ذكر أهل العلم(١)، وليس بينه وبين نبينا محمد ﷺ رسول.

وهو أحد أولي العزم كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

وغالبًا ما يذكر في القرآن الكريم منسوبًا إلى أمه، بينما لم ينسب غيره من الأنبياء والرسل في القرآن ولا إلى آبائهم، وذلك- والله أعلم- للإشارة والتنبيه على قدرة الله تعالى في خلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، حيث نفخ الله فيه من روحه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ﴾، ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من عيسى عليه السلام.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ اللام حرف جر، و«ما» موصولة في محل جر بمعنى «الذي»، أي: مصدقًا للذي بين يديه أي: للذي تقدمه وسبقه من كتابنا التوراة، الذي أنزلناه على موسى عليه السلام من قبله أنها حق وصدق مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها(٢) كما أنه أيضًا مصداق ما أخبرت به التوراة.

كما أخبر عز وجل عنه عليه السلام أنه قال: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف:٦].

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، أي: آتينا عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنزلنا عليه الإنجيل الكتاب العظيم، وهو متمم للتوراة؛ لقوله- بعد هذا عن الإنجيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

---

(١) وقد قيل: إن بين موسى وعيسى عليهما السلام ألف نبي، وقيل: أربعة آلاف نبي كلهم كانوا يحكمون بالتوراة. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٨٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٧٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٨).

يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ولقوله- عز وجل- فيما حكاه عن عيسى- عليه السلام- أنه قال لقومه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

ويؤيد ذلك أن أكثر ما في الإنجيل مواعظ وقصص وليس أحكامًا مستقلة- كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وكما ذكر ذلك أهل العلم عن الإنجيل.

﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر مقدم، والضمير يعود إلى الإنجيل.

﴿هُدًى وَنُورٌ﴾، ﴿هُدًى﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَنُورٌ﴾ معطوف عليه، والجملة في محل نصب على الحال من الإنجيل.

والكلام في قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ من حيث المعنى كالكلام في قوله عن التوراة: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ معطوف على قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، فهو حال من الإنجيل، أي: حال كون الإنجيل فيه هدى ونور، وحال كونه مصدقًا لما تقدمه من كتابنا التوراة.

قال ابن كثير(١): «أي متبعًا لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة».

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ معطوف على «مصدقًا» فهو أيضًا حال من الإنجيل.

﴿هُدًى﴾ الهدى- كما سبق- هو العلم النافع الذي يهدي للإيمان والحق والعدل، وفيه بيان العقائد والأحكام.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ الموعظة تطلق على ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، وتطلق

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١١٨).

على ما يلين ويرقق القلوب من الأخبار والقصص المقرونة بالترغيب والترهيب، وهو المراد هنا- والله أعلم؛ لقوله قبل هذا: ﴿وَهُدًى﴾، والهدى فيه بيان الأحكام، ولأن أكثر ما في الإنجيل المواعظ والقصص.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين يتقون الله، فيجعلون بينهم وبين عذابه وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وخصهم هنا بالذكر؛ لأنهم هم الذين يستفيدون من كتب الله، ويتقون الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتؤثر فيهم الموعظة، وكلما ازداد العبد تقوى ازداد اتعاظًا بكتب الله، بخلاف غير المتقين فلا يستفيدون منها، فلا يهتدون بهدي الله، ولا تؤثر فيهم الموعظة، لكنهم داخلون في العموم، فهم من أمة الدعوة؛ لهذا قال في الموضع الأول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ دون تخصيص، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤- ١٢٥]، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة:١٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قرأ حمزة «وَلِيَحْكُمَ» بكسر اللام ونصب الفعل على أن اللام لام التعليل التي تسمى لام كي، أي: وآتيناه الإنجيل لأجل أن يحكم به أهل ملته، أو لكي يحكم به أهل ملته.

وقرأ بقية العشرة: «ولْيحكمْ» بسكون اللام وجزم الفعل[1] على أن اللام لام الأمر، فتكون الجملة مستأنفة، فيها أمر من الله لأهل الإنجيل أن يحكموا بما فيه، وذلك قبل البعثة المحمدية وقبل نسخه.

والحكم هو القضاء، وهو بيان الحكم والإلزام به، و«ما» في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) انظر: «المبسوط» ص(١٦٢)، «الكشف» (١/ ٤١٠)، «التبصرة» ص(٤٨٦)، «النشر» (٢/ ٢٥٤).

فِيهِۚ﴾ موصولة أي: بالذي أنزل الله فيه من الأحكام، والله- عز وجل- لم ينزل كتابًا إلا أمر بالعمل به، ولأجل العمل به.

ومما في الإنجيل البشارة بمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

قال ابن كثير[1]: «ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧]. ولهذا قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾».

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ القول فيه من حيث الإعراب والمعنى كالقول في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤].

و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: جمع فاسق، والفسق: هو العصيان والخروج عن الطاعة، ومنه سميت الفأرة فويسقة؛ لأنها تخرج للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة؛ إذا خرجت من قشرتها.

و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هم الخارجون عن طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، أي: خرج عن أمر ربه وطاعته.

وقد يكون الفسق كفرًا مخرجًا من الملة، وقد يكون دون ذلك، كما هو الحال بالنسبة للكفر والظلم.

فمن الفسق دون المخرج من الملة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤].

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١١٨).

ومن الفسق بمعنى الكفر المخرج من الملة، قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة:٢٠].

واختلف في الذين عنوا بهذه الآيات الثلاث: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية الأولى والثانية في اليهود، والآية الثالثة في النصارى ويؤيد هذا ظاهر السياق.

وقال بعضهم: الآيات الثلاث كلها في الكفار من اليهود وغيرهم.

كما روى عن ابن عباس- رضي الله عنهما- وغيره في سبب نزول الآيات.

وقال بعضهم: قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ في المسلمين، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ في اليهود، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ في النصارى، وقيل غير ذلك.

والظاهر أن الآيات عامة لكل من حكم بغير ما أنزل الله من أهل الكتاب أو غيرهم، وإن كان ظاهر السياق أن الآيتين الأوليين في اليهود، وأن الآية الثالثة في النصارى، إذ العبرة بعموم اللفظ(١)، وسيأتي لهذا زيادة بيان إن شاء الله في الكلام على الأحكام.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة التوراة والإنجيل وما فيها من الهدى والنور ثم أتبعها بذكر القرآن الكريم الذي هو آخر كتبه، والمصدق لما سبقه من كتب الله- عز وجل- والمهيمن عليها، والذي هو أفضل كتب الله- عز جل- فترتيبها على هذا النحو إنما هو مراعاة للتاريخ والسبق الزمني، فذكر القرآن بعد ذكر الإنجيل؛ لأن نبينا محمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٥٣- ٣٥٨)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٤- ٦٢٥)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٩٠)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٠)، «أضواء البيان» (٢/ ١٠٣- ١٠٤، ١٠٨).

قال ﷺ: «**أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي**».

وفي لفظ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة. قالوا: كيف يا رسول الله، قال: الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد، فليس بيننا نبي**».

وفي لفظ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي**»(١).

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ. و«ال» في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود المعروف، الكامل الذي أكملنا به الدين، وهو القرآن الكريم والذي ينصرف إليه اسم الكتاب عند الإطلاق(٢).

وهذه هي الحكمة من التعبير عنه بالكتاب، بينما جاء التعبير قبل هذا عن المنزل على موسى- عليه السلام- باسمه الخاص «التوراة» وعن المنزل على عيسى- عليه السلام- باسمه الخاص «الإنجيل».

وسمى القرآن الكريم بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب، فهو «فعال» بمعنى «مفعول»، أي: مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة:٧٨].

ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١٣- ١٦].

ومكتوب في المصاحف بأيدي المؤمنين.

وأصل «الكتب» الجمع، ومنه تسمى «الكتيبة» وهي الجماعة من الجيش.

وسمي القرآن بالكتاب؛ لأن الله جمع فيه الأحكام العادلة، والأخبار الصادقة، والقصص والمواعظ النافعة.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالًا، والباء للملابسة، أي: متلبسًا بالحق فهو حق وصدق في نفسه، وما جاء به هو الحق من الأخبار والأحكام وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، وقال عز وجل:

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، وأبوداود في السنة (٤٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٤٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٩)، «تفسير المنار» (٦/ ٤١٠).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وهو حق من حيث طريق وصوله إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل الأمين محفوظًا عن التبديل والتغيير، كما قال عز وجل: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الإسراء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال عز وجل: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وقد وصف قبل هذا عيسى بكونه مصدقًا لما بين يديه من التوراة، ووصف الإنجيل بذلك أيضًا ثم وصف به القرآن هنا.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: لما سبقه.

﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، «ال» في الكتاب هنا للجنس، أي: من كتب الله التي سبقت كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [محمد:٢٥].

والمعنى: ومصدقًا لما سبقه وتقدمه من كتب الله تعالى كلها التي أنزلها على أنبيائه والتي تتضمن كلها ذكر القرآن الكريم وأنه أفضل كتب الله تعالى منزل من عند الله تعالى على أفضل رسله محمد ﷺ ولا كتاب بعده.

فهو مصدق للكتب قبله، حاكم بصدقها، وأنها منزلة من عند الله.

ومصدق لها بما أخبرت به من نزول القرآن، فهو مصداق ما أخبرت به الكتب السابقة كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧].

قال ابن كثير(١): «وكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله وصدقوا رسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ

(١) في «تفسيره» (٣/ ١١٩).

رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧- ١٠٨]، أي: إن كان ما وعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدمين من مجيء محمد عليه السلام لمفعولا، أي: لكائنًا لا محالة ولابد».

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الواو عاطفة، و«مهيمنًا» معطوف على «مصدقًا»، أي: أنزلنا إليك الكتاب حال كونه مصدقًا لما بين يديه من الكتاب وحال كونه مهيمنًا عليه.

﴿عَلَيْهِ﴾، «على» تفيد الاستعلاء، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على الكتاب في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ والذي يراد به جنس الكتب المتقدمة.

والمهيمن: مأخوذ من الهيمنة، وهي السيطرة والاستعلاء، فالقرآن الكريم مستعلٍ ومسيطر على الكتب السماوية السابقة قبله، ناسخ لها حاكم عليها، مؤتمن في ذكره ما اشتملت عليه من أصول الدعوة وبعض فروع التشريع مما لم ينسخ.

وفي التنبيه على ما وقع فيها من تحريف أو تبديل، وهو كالخاتم عليها، لا كتاب بعده(١).

قال ابن كثير(٢): «وهذه الأقوال متقاربة فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾»(٣).

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ كما قال تعالى- مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٦٨)، «جامع البيان» (١٠/ ٣٧٧- ٣٨٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٢)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٨- ١١٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١٠)، «دقائق التفسير» (٢/ ٥٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٩).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١١٩).

(٣) وقد قيل إن معنى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: أن الرسول ﷺ مهيمن على القرآن بمعنى مؤتمن عليه. وهذا- وإن كان من حيث المعنى صحيحًا فالرسول ﷺ مؤتمن على القرآن- لكن حمل الآية على هذا المعنى فيه بعد. والصحيح الأول. انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٨٠- ٣٨١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٩- ١٢٠).

فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن سئلت فاحكم بين أهل الكتاب وغيرهم من أهل الملل وسائر الناس بالذي أنزل الله إليك من الحكم الشرعي في هذا القرآن العظيم من الحدود والقصاص في النفس وما دونها وغير ذلك من الأحكام سواء كان موافقًا لما في الكتب المتقدمة، أو مخالفًا لها فمرد الجميع في الأحكام إلى هذا الكتاب العظيم.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

قال الزمخشري(١): «﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ لا تنحرف؛ ولذلك عُدي بعن، كأنه قيل: ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعًا أهواءهم».

والمراد أهل الكتاب، وإنما نهاه عن اتباع أهوائهم؛ لأنهم ليسوا على هدى في مخالفتهم للحق لا من شرع، ولا من عقل.

أي: ولا تتبع في حكمك بينهم وغير ذلك ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، أي: ما تهواه قلوبهم؛ من التساهل في تطبيق أحكام الله، ومن الآراء والأحكام الباطلة التي اصطلحوا عليها كجلد الزاني المحصن دون رجمه، وعدم المساواة بين بني النضير وبني قريظة في القود والدية وغير ذلك، كما قال الله عنهم: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة:٤١].

﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾، ﴿عَمَّا﴾ مكونة من حرف الجر «عن» و«ما» الموصولة، أي: عن الذي جاءك من الحق؛ والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالًا، أي: عما جاءك من الحق الذي يجب اتباعه، ولا يجوز العدول عنه وهو القرآن.

أو متعلق بـ«تتبع» على تضمينه معنى: «لا تعدل أو لا تنحرف» بسبب تلك الأهواء والآراء الباطلة عن الذي جاءك من الحق وهو القرآن(٢).

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٣٤٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٨٢- ٣٨٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٠)، «البحر المحيط» (٣/ ٥٠٢).

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ﴿لِكُلٍّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، بمعنى: صيرنا.

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي. و«جعل» هنا تحتمل القسمين، أي: جعلنا شرعًا وكونًا لكل منكم شرعة ومنهاجًا.

﴿مِنكُمْ﴾، أي: أيها الأنبياء والأمم؛ محمد ﷺ وأمته ومن سبقه من الأنبياء وأممهم، من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿شِرْعَةً﴾ الشرعة والشريعة في الأصل الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى الماء وما يبتدأ فيه إلى الشيء ويتوصل به إليه يقال: «شرع في كذا»، أي: ابتدأ فيه ومنه شريعة الماء وهي ما يتوصل به إلى الماء.

قال الطبري(١): «ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع؛ لشروع أهله فيه، فالشرعة والشريعة هي السنة، وما شرعه الله من الدين لعباده».

وقال الجصاص: «الشرعة والشريعة واحدة، معناها الطريق إلى الماء الذي فيه الحياة، فسمى الله ما شرعه شريعة؛ لإيصالها العاملين بها إلى الحياة الدائمة في النعيم الباقي»(٢).

﴿وَمِنْهَاجًا﴾ المنهاج هو: ما يُنهج ويُسلك، وهو الطريق البين الواضح المستمر(٣)، والسبيل، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

والمعنى: لكل أمة من الأمم جعلنا شرعة تناسب زمانها ومكانها وحالها كما جاء في حديث الإسراء والمعراج، أن الله افترض على الرسول ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ولما مرّ ﷺ في طريقه على موسى عليه السلام سأله عما افترض الله عليه وعلى

---

(١) في «جامع البيان» (١٠/ ٣٤٨)، وانظر: «لسان العرب» مادة: «شرع».

(٢) في «أحكام القرآن» (٢/ ٤٤٢).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٦٨)، «جامع البيان» (١٠/ ٣٨٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٢)، «شفاء العليل» ص(٨١- ٨٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٠)، وانظر: «لسان العرب» مادة: «نهج».

أمته فقال: «**خمسون صلاة في اليوم والليلة فقال موسى عليه السلام: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد عالجت بني إسرائيل على أقل من ذلك، وإن أمتك أضعف أجسامًا وأسماعًا وأبصارًا**»(١).

وأيضًا: لكل أمة جعلنا منهاجًا، أي: طريقًا ومسلكًا يسلكونه فسالك ذات اليمين بالإيمان وسالك ذات الشمال بالكفر، وكل ميسر لما خُلِق له. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:٥- ١٠].

فلمحمد ﷺ وأمته شرعة ومنهاج، ولموسىٰ عليه الصلاة والسلام وقومه شرعة ومنهاج، ولعيسى عليه الصلاة والسلام وقومه شرعة ومنهاج ولكل نبي وأمته شرعة ومنهاج.

وهذا الاختلاف في الشرائع والتفريعات، أما أصول الشرائع من الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك ونحو ذلك فهي واحدة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(٢) يعني: التوحيد(٣).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، أي: ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة بشريعة واحدة ومنهاج واحد.

أو ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة دينكم واحد، ونبيكم واحد، وشريعتكم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩)، وفي التوحيد (٧٥١٧)، من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه في بدء الخلق (٣٢٠٧)، وأحمد (٦/ ٢٠٧- ٢٠٨)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢١)، «البحر المحيط» (٣/ ٥٠٢).

واحدة، ومنهجكم واحد.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ اللام لام التعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، أي: يختبركم ويمتحنكم.

﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، ﴿مَآ﴾ موصولة أي: في الذي أتاكم من الشرائع والمناهج المختلفة.

والمعنى: ولكن لم يشأ سبحانه أن يجعلكم أمة واحدة بشرعة واحدة ومنهاج واحد، بل شاء سبحانه الاختلاف بين الأمم في ذلك فجعل لكل أمة شرعة ومنهاجًا ليختبركم فيما آتاكم من هذه الشرائع المختلفة شدة وثقلًا وتيسيرًا وتخفيفًا وغير ذلك، ليتميز من يطيعه فيشكر عند التخفيف والتيسير، ويصبر عند التثقيل والتشديد، ممن يعصيه فلا يشكر ولا يصبر فيثيب- عز وجل- من أطاعه ويعاقب من عصاه.

وله في ذلك كله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والمشيئة النافذة ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله في الحديث القدسي: «**قد فعلت**»(١).

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، أي: بادروها، وسارعوا وتسابقوا إليها. و﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ جمع خير، وخيرة، والخير: ضد الشر(٢).

والخيرات كل ما أمر به الشرع الإسلامي المطهر في الكتاب والسنة.

والمعنى: سارعوا إلى فعل الأعمال الصالحات مما شرعه الله لكم في هذا الشرع المطهر وبادروا إلى ذلك، وتسابقوا وتنافسوا، كما قال عز وجل: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

---

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «خير».

رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠- ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

فالحياة ميدان مسابقة ومسارعة ومنافسة في الخيرات. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه- كما قال ﷺ(١).

قال ابن هانئ(٢):

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
فلم يتأخر من أراد تقدما ... ولم يتقدم من أراد تأخرا

وقال الآخر:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وشاهدت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا(٣)

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ جملة مستأنفة فيها معنى التعليل للأمر باستباق الخيرات.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم، ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر لإفادة الحصر، أي: إلى الله وحده مرجعكم لا إلى غيره.

أي: إلى الله رجوعكم ومردكم ومصيركم ومعادكم جميعًا الأمم السابقة واللاحقة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص(١٤٠).

(٣) البيتان للأعشى. انظر: «ديوانه» ص(١٨٥- ١٨٦).

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾، أي: فيخبركم، والنبأ أخص من الخبر؛ لأنه لا يكون إلا في الأمور المهمة، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١- ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ [ص:٦٧]، بخلاف الخبر فيكون في المهم وغيره.

﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية والتقدير: فيخبركم بالذي كنتم فيه تختلفون أو باختلافكم.

والمعنى: أن الله- عز وجل- إليه مردكم جميعًا يوم القيامة فيخبركم بالذي كنتم فيه تختلفون من الحق، فيتبين لكم عيانًا المحق من المبطل والمحسن من المسيء، ويجازي كلًا منكم بما عمل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

كما أن إليه- عز وجل- مرد الخلائق في هذه الدار، حكمه فيهم تام ومشيئته فيهم نافذة كما قال عز وجل: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧].

وهذا يشمل الحكم بجميع أقسامه: الكوني والشرعي والجزائي في الدنيا والآخرة، وقال عز وجل: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾.

قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه.

قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾ بكسر النون على الأصل؛ لأن بعدها همزة الوصل. وقرأ الباقون: «وأنُ احْكُم» بضم النون، مراعاة لحركة الكاف بعدها. وهو معطوف على قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وتأكيد له، وهذا الذي يدل عليه السياق، ويتضح عليه المعنى والخطاب فيه للنبي ﷺ.

والمعنى: وأن احكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليك بحكم الله الذي أنزله إليك في كتابه.

أو: وأن احكم بينهم إذا تحاكموا إليك إن شئت بما أنزل الله إليك في كتابه؛ لقوله تعالى قبل هذا: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾(١) [المائدة:٤٢].

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ وكرر النهي عن اتباع أهوائهم توكيدًا وتحذيرًا.

والمعنى: ولا تتبع أهواء أهل الكتاب في حكمك بينهم كما أرادوا في القتيل والزانيين، بل الزم الحكم بينهم بما أنزل الله.

﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ معطوف على ما قبله، أي: واحذر يا محمد هؤلاء اليهود.

والحذر: التحرز وأخذ الحيطة، وفيه لغتان: حِذْر وحَذَر، والمعنى: كن منهم على حذر وتخوف واحتراز.

﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾، ﴿أَن﴾ حرف مصدري ونصب ﴿يَفۡتِنُوكَ﴾ منصوب بها وعلامة نصبه حذف النون إذ الأصل يفتنونك.

وجملة ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ في محل نصب بدل من الضمير في قوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾، بدل اشتمال، أي: واحذر فتنتهم، أو مفعول لأجله تقديره: لئلا يفتنوك.

أو مصدر منصوب بنزع الخافض، والتقدير: واحذرهم من أن يفتنوك.

والفتنة في الأصل الابتلاء والاختبار والامتحان، وتكون في الخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء:٣٥].

والفعل ﴿يَفۡتِنُوكَ﴾ مضمن معنى فعل آخر، أي: واحذرهم أن يصدوك ويضلوك(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة:٢١٧].

أي: الفتنة بالكفر والشرك، والصد عن دين الله أكبر من القتل؛ ولهذا كان ﷺ

---

(١) انظر: «المدونة» (٦/ ٢٥٥- ٢٥٦، ٣٩٧)، «الأم» (٤/ ٢١٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٣٥- ٤٣٦)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٩٣)، «الإيضاح» لمكي ص(٢٣٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٠).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٦٨)، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ١٢٤).

يستعيذ في صلاته من فتنة المحيا والممات(١).

﴿عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ من الأحكام، مما لا يوافق أهواءهم، كالمساواة في القصاص، ورجم الزاني المحصن وغير ذلك.

ومن باب أولى ينبغي الحذر عن فتنتهم له عن كل ما أنزل الله إليه، فإنهم كما قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٢٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أحبار يهود قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وإنا إن تبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك؛ فأبىٰ رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ إلى ﴿يُوقِنُونَ ٥٠﴾»(٢).

قال ابن كثير(٣): «أي: احذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما يُنهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة».

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ الفاء: استئنافية و«إن» شرطية ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾.

والتولي: الإعراض عن الشيء.

والمعنى: فإن أعرضوا عن الإيمان، واتباع الحق، وعن حكمك بينهم بما أنزل الله، وخالفوا شرع الله.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٨٠)، عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ كان يدعو في صلاته: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم**» وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- بأخصر من هذا حديث (٢٧٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٣٩٣)- الأثر (١٢١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥٤)، الأثر (٦٤٩٨).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٢٢).

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: فاعلم يا محمد، ﴿أَنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إرادة كونية قدرية وهي التي بمعنى المشيئة، والتي لا يتخلف مراد الله فيها.

﴿أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في محل نصب مفعول ﴿يُرِيدُ﴾ والتقدير: أنما يريد الله إصابتهم ببعض ذنوبهم.

ومعنى ﴿يُصِيبَهُم﴾ يوقع ويلحق بهم المصيبة، وهي الشر، وما يؤدي إليه.

﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب بعض ذنوبهم لا بكلها، ومن ذلك ذنب التولي عن حكم الله. كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم:٤١].

والذنب كل ما خالف أمر الله أو نهيه.

أي: أن توليهم عن الإيمان، وعن الحكم بالقرآن عقوبة لهم، بسبب بعض ذنوبهم، وهي ما سلف منها؛ لأن المعصية تكون سببًا للمعصية بعدها، وهكذا كما قال عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الأنفال:٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال:٧٠].

قال ابن كثير[1]: «فاعلم أن ذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى؛ لما عليهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم».

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ في هذه تسلية للرسول ﷺ لئلا يحزن أو تذهب نفسه حسرات بسبب إعراض هؤلاء وغيرهم، وهي تسلية للدعاة إلى الله من أمته ﷺ.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٢٢).

وقيل: معنى ﴿أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾، أي: بجزاء بعضها في الدنيا بالقتل لبعضهم والجلاء لبعضهم. انظر: «التفسير الكبير» (١٢/ ١٤)، «البحر المحيط» (٣/ ٥٠٤).

﴿لَفَٰسِقُونَ﴾ اللام للتوكيد، والفاسقون: جمع فاسق والفسق هو الخروج عن طاعة الله تعالى، وما حده، يقال للفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها(١).

والمعنى: أن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم متمردون عن قبول الحق مناوئون له، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ [المائدة:١٠٠]، وفي الأثر: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٢).

وقد أحسن القائل:

والنـــاس ألـــف مـــنهم كواحـــد ... وواحـــد كـــالألف إن أمـــر عنـــى(٣)

قوله تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾.

قوله: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ والتعجب ممن عدل عن حكم الله وابتغى حكم الجاهلية(٤).

و«حكم» منصوب بـ﴿يَبۡغُونَۚ﴾، وقدم لإرادة الحصر، كأن هؤلاء لا يريدون إلا حكم الجاهلية(٥).

و﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ من الجهل، ضد العلم، وهي ما عدا الإسلام، سواء كانت الجاهلية

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «فسق».

(٢) انظر: «الزهد الكبير» للبيهقي (ص١٣١، رقم ٢٣٨، ٢٣٩)، «الأذكار» للنووي (ص١٩٦)، «الآداب الشرعية» (١/ ٢٦٣)، مدارج السالكين» (١/ ٤٦). وقد نسب بعضهم نحوه للفضيل بن عياض، ولسفيان بن عيينة.

(٣) البيت لابن دريد ضمن مقصورته التي مطلعها:

يـا ظبيـــة أشـــبـه شـــيء بالمهـــا ... ترعـى الخزامـى بين أشـجار النقـا

انظر ديوانه ص(١٣٢).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٩٤).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٤١٧).

الأولى أو ما بعدها من الجاهليات على تتابع الدهور، ومر العصور؛ ولهذا قيل جاهلية القرن العشرين، وكل ما خالف حكم الله فهو حكم الجاهلية(١).

قال الحسن: «من حكم بغير ما أنزل الله فحكم الجاهلية»(٢).

﴿يَبْغُونَ﴾ قرأ ابن عامر: «تبغون» بالتاء، وقرأ الباقون: ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء(٣).

أي: يطلبون ويريدون. والمراد بذلك اليهود ومن على شاكلتهم ممن لم يرض الحكم بما أنزل الله.

والمعنى: أيتركون حكم الله ويطلبون حكم الجاهلية في ترك العدل، والتفريق بين الأولاد في العطية وغير ذلك، كما فعل اليهود في ترك المساواة في القصاص وفي تبديل حكم الزنا.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبغض الناس إلى الله- عز وجل- ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومُطَّلِبِ دم امرئٍ بغير حق ليهريق دمه**»(٤).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«من» اسم استفهام، ومعناه هنا: النفي أي: لا أحد أحسن من الله حكمًا(٥).

ومجيء النفي بصيغة الاستفهام؛ ليكون أبلغ بالنفي؛ لأنه يكون نفيًا مشربًا بالتحدي، وكأنه يقول: أروني أحدًا أحسن من الله حكمًا، أو أروني حكمًا أحسن من حكم الله.

﴿حُكْمًا﴾ تمييز، وهو يشمل الأحكام الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي فهو- عز وجل- أحكم الحاكمين وهو العليم الحكيم فحكمه- عز وجل- عن علم تام وحكمة بالغة ورحمة واسعة.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٥٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥٥)، الأثر (٦٥٠٤).

(٣) انظر: «المبسوط» ص(١٦٢)، «الكشف» (١/ ٤١١)، «التبصرة» ص(٤٨٦)، «النشر» (٢/ ٢٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٨٢).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٦).

﴿لِقَوْمٍ﴾، القوم: هم الجمع من الناس، ذكورًا وإناثًا.

﴿يُوقِنُونَ﴾، اليقين هو الإيمان والتصديق الجازم بالله- عز وجل- وأسمائه وصفاته، وكل ما يجب الإيمان به، والعلم التام الموجب للعمل.

والمعنى: لا أحد أحسن من الله حكمًا لقوم يؤمنون بما جاء عن الله ويصدقون بذلك تصديقًا جازمًا فهم الذين يعرفون فرق ما بين الحكمين، وأن حكم الله- عز وجل- أعدل حكم وأحسنه.

قال ابن كثير(١): «ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله عز وجل، لأنه تكلم عن نفسه بضمير العظمة فقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥، والشورى:٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، وفي الحديث: «**الكبرياء إزاري، والعظمة ردائي**»(٢).

٢- إثبات العلو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والإنزال لا يكون إلا من الأعلى، فله- عز وجل- علو الذات وعلو الصفات وعلو القدر، وعلو القهر.

٣- أن التوراة منزلة من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٣- ٤].

والمراد بالتوراة التي لم تغير ولم تبدل، والتي لا وجود لها الآن، وليس المراد التوراة المحرفة المبدلة التي بين أيدي اليهود اليوم.

٤- تعظيم الله لكتابه ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾، وثناؤه عليها بأنها منزلة من عنده عز وجل، فيها

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٢٣).

(٢) سيأتي تخريجه.

هدى ونور؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾.

وقوله عنها في ذكر عيسى ابن مريم والإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [المائدة:٤٦]،

وامتداحه- عز وجل- للتوراة، وثناؤه عليها أبلغ من امتداحه وثنائه على الإنجيل؛ لأنه سبحانه قال عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ بينما قال عن الإنجيل: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ ﴾.

وختم الآية في الكلام عن التوراة بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا أعظم من قوله في ختام الآية في الكلام عن الإنجيل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «فهو سبحانه مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل».

٥- ثناء الله تعالى على أنبيائه بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾؛ لأن هذا وصف للنبيين ليس المراد به الإخبار عنهم؛ لأن النبيين كلهم مسلمون وإنما المراد مدحهم والثناء عليهم بهذا الوصف.

٦- أن الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى- عليه السلام- يحكمون بالتوراة؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾، وهذا يدل على أن الكتب التي جاءت بعد موسى متممة ومكملة للتوراة والعمل بها، ومن ذلك «الإنجيل» الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم- عليه السلام.

ولهذا قال عيسى ابن مريم- عليه السلام- لقومه فيما حكى الله عنه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [آل عمران:٥٠].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ٦١- ٦٢).

٧- أن دين الأنبياء السابقين هو الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ ومعناه: الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا.

٨- إقامة الحجة على اليهود في إنزال الله- عز وجل- التوراة عليهم فيها هدى ونور، وفيها الحكم بينهم ومع ذلك خالفوا وعاندوا.

٩- التعريض بالإنكار على اليهود الذين لم يسلموا؛ لقوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾(١).

وجه ذلك أن الأنبياء الكرام وسادة الأنام أسلموا وحكموا بها في كتاب الله التوراة فكيف يستنكف هؤلاء اليهود عن الحكم بها وتصديق ما فيها من وجوب الإيمان بمحمد ﷺ.

١٠- أن الله استحفظ علماء اليهود من الربانيين والأحبار على كتابه «التوراة» وجعلهم شهداء عليه، وذلك بأن يقوموا بها فيه ولا يحرفوه، ولا يبدلوه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾، لكنهم حرفوا وبدلوا كما قال الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة:١٣].

١١- عظم مسؤولية العلماء، وأنهم ورثة الأنبياء في حفظ الشرع والدعوة إليه وبيانه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

فعلى أهل العلم القيام بما أوجب الله عليهم من تعليم كتاب الله تعالى والدعوة إلى الله تعالى.

١٢- عظم منزلة العلماء حيث جعلهم الله ورثة الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس أمر دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾، كما قال عز وجل: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت:٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٤١٢).

ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

١٣- النهي والتحذير من خشية الناس والخوف منهم ومداهنتهم، وترك الحكم بما أنزل الله لأجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

١٤- وجوب إخلاص الخشية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾.

١٥- تحريم تعطيل أحكام الله وحدوده بالرشوة(١)، والاشتراء بآيات الله والحكم بما فيها، والعمل بما فيها ثمنًا قليلًا، من العرض الدنيوي الزهيد الحقير، كما كان يفعله علماء وأحبار اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

وأي ثمن يُعتاض به عن آيات الله فهو قليل مهما كثر.

١٦- أن من أهم الأسباب التي تحمل على ترك الحكم بما أنزل الله تعالى هي الخشية من الناس أو الطمع الدنيوي؛ لأن الله لم يذكر في هذا المقام سواهما.

١٧- يجب على العالم وغيره الحذر من خشية الناس وتقديمها على خشية الله، والحذر من آفات حب متاع الدنيا الزائل التي قد تحمل على ترك الحق واتباع الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

قال أبوحيان(٢): «وهذا نهي عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم والتحيّل للدنيا بالدين».

١٨- وجوب الحكم بما أنزل الله، وأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وهذا قد يكون كفرًا مخرجًا من الملة كما إذا اعتقد أنه يجوز ترك حكم الله والحكم

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٣٩)، «السياسة الشرعية» ص(٧٧- ٧٩) وفي الأثر: «إذا دخلت الرشوة من الباب خرجت الأمانة من الكوة» «السياسة الشرعية» ص(٧٩).

(٢) في «البحر المحيط» (٣/ ٤٩٢).

بغير ما أنزل الله، أو اعتقد أن حكم غير الله أحسن وأفضل من حكم الله أو مساوٍ له ونحو ذلك.

وقد يكون كفرًا دون كفر وكبيرة من كبائر الذنوب، كما إذا ترك حكم الله وحكم بغيره محاباة لقريب أو صديق أو لرشوة ونحو ذلك.

١٩- أن الله كتب على اليهود في التوراة المساواة في القصاص في النفس وما دونها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥].

ومع ذلك فقد خالف ذلك اليهود فكانوا يفاضلون بين الأنفس، ويقيدون لبني النضير من بني قريظة، ولا يقيدون لبني قريظة من بني النضير.

٢٠- وجوب المساواة في القصاص في النفس وما دونها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

وشرع من قبلنا إذا ذكر في شرعنا فهو شرع لنا من حيث إنه وارد في شرعنا؛ لأنه ما قص علينا إلا لنعتبر به ونعمل بمضمونه قال الحسن: «هي عليهم وعلى الناس عامة» وفي لفظ: «نزلت في اليهود، وهي علينا واجبة»(١).

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣].

فالأمر في الآيتين يشمل الاقتداء والاتباع في الأصول والفروع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «مذهب جماهير السلف والأئمة أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله».

وعلى هذا جمهور العلماء من الأصوليين وغيرهم، بل حكي الإجماع على

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٣٥٧)، الأثر (١٢٠٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٤٤)، الأثر (٦٤٣٦).

(٢) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٥٥).

الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه[١].

ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٢].

وما رواه أنس بن مالك أن الرُّبيِّع عمة أنس بن النضر كسرت ثنية جارية فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، فقال: القصاص. قال أنس بن النضر: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع، فرضي القوم، فعفوا، وتركوا القصاص فقال رسول الله ﷺ: «**إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبره**»[٣].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٤].

قالوا: فمشاركتنا لهم في شرعهم تنفي أن يكون خاصًا بهم، وقالوا: وقد أنكر النبي ﷺ على عمر لما رأى معه قطعة من التوراة[٥].

والصحيح أنه إذا ثبت في شرعنا أن هذا شرع من كان قبلنا، وبيّن في شرعنا أنه شرع لنا فهذا شرع لنا بالإجماع، كالقصاص في النفس وما دونها.

وما ثبت في شرعنا أنه شرع لمن كان قبلنا، لكن بيّن شرعنا أنه ليس شرعًا لنا، فهذا ليس من شرعنا إجماعًا.

وما ثبت في شرعنا أنه شرع لمن كان قبلنا، ولم يبين شرعنا أنه شرع لنا ولا أنه ليس بشرع لنا فالجمهور والراجح أنه شرع لنا[٦].

٢١- أن الحر يقتل بالحر والمرأة بالمرأة والعبد بالعبد؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٢- ١١٣).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٥)، وأبوداود في الديات (٤٥٩٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٥٦)، وابن ماجه في الديات (٢٦٤٩)، وأحمد (٣/ ١٢٨).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٨٠)، «البحر المحيط» (٣/ ٥٠٣).

(٥) أخرجه الدارمي في المقدمة (٤٣٥)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٧٠- ٤٧١)، من حديث عبدالله بن ثابت رضي الله عنه.

(٦) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ٦٧- ٦٨).

بِٱلنَّفۡسِ ﴾ وهذا بالإجماع[١].

٢٢- أن الرجل يقتل بالمرأة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ ﴾.

قال ابن كثير[٢]: «وقد استدل الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة».

ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ [البقرة:١٧٨].

ويدل على هذا أيضًا ما ثبت أن يهوديًّا رض رأس جارية بين حجرين فاعترف فأمر النبي ﷺ فرض رأسه بين حجرين[٣].

وفي حديث عمرو بن حزم أن النبي ﷺ كتب في كتابه إلى أهل اليمن أن الذكر يقتل بالأنثى[٤].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٥].

---

(١) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ٥٩، ٧١- ٧٢).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١١٣).

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٢)، وأبوداود في الديات (٤٥٢٩)، والنسائي في القسامة (٤٧٤٢)، والترمذي في الديات (١٣٩٤)، وابن ماجه في الديات (٢٦٦٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في القسامة (٤٨٥): «وفيه: أن من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بيِّنة فإنه قود إلا أن يرضى أولياء المقتول، وأن في النفس الدية مائة من الإبل، وفي الأنف إذا أوعب جدعه الدية، وفي اللسان الدية، وفي الشفتين الدية وفي البيضتين الدية، وفي الذكر الدية، وفي الصلب الدية وفي العينين الدية وفي الرجل الواحدة نصف الدية، وفي المأمومة ثلث الدية، وفي الجائفة ثلث الدية، وفي المنقلة خمس عشرة من الإبل، وفي كل أصبع من أصابع اليد والرجل عشر من الإبل، وفي السن خمس من الإبل، وأن الرجل يقتل بالمرأة وعلى أهل الذهب ألف دينار» وهو حديث مرسل تلقته الأمة بالقبول وانظر: «تفسر ابن كثير» (٣/ ١١٣). وقد ضعفه الألباني. وقال: «أكثر فقراته لها شواهد فيه» انظر: «إرواء الغليل» حديث (٢٢١٢)، «ضعيف سنن النسائي» (٣٣٩).

(٥) سيأتي تخريجه.

وعنه ﷺ قال: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم**»(١) وهذا يعم الذكر والأنثى.

وقيل: لا يقتل الرجل بالمرأة وإنما تجب الدية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة:١٧٨].

وقيل: لا يقتل الرجل بالمرأة إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل(٢).

والصحيح القول الأول وعليه دل الكتاب والسنة، فالواجب إما القصاص فقط، وإما الدية فقط.

٢٣- أن المرأة تقتل بالرجل، وأن العبد يقتل بالحر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وما في معنى هذه الآية، وإذا كانت المرأة تقتل بالمرأة فقتلها بالرجل من باب أولى وكذلك إذا كان العبد يقتل بالعبد فقتله بالحر من باب أولى.

٢٤- ظاهر قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أن المسلم يقتل بالكافر وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم منهم أبوحنيفة وأصحابه(٣) مستدلين بهذه الآية، قالوا: فالنفس القاتلة أيًّا كانت تؤخذ قصاصًا بالنفس المقتولة أيًّا كانت كما استدلوا بأدلة أخرى:

منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة:١٧٨]، قالوا: فقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ يعم المسلم والكافر.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣].

وعن عبدالرحمن بن البيلماني: أن رسول الله ﷺ قتل مسلمًا بمعاهد وقال: «**أنا أكرم من وفى بذمته**»(٤).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٣).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٣٥- ١٣٦، ١٤٠- ١٤١).

(٤) أخرجه الدارقطني في الحدود (٣/ ٣٤)، من طريق إبراهيم بن محمد الأسلمي. قال الدارقطني: «لم يسنده غير إبراهيم بن أبي يحيى- يعني- الأسلمي. قال: وهو متروك الحديث. والصواب: عن ابن ربيعة عن ابن البيلماني مرسلًا عن النبي ﷺ. وابن البيلماني ضعيف، لا تقوم به حجة، إذا وصل الحديث، فكيف =

وقالوا: إن المسلم إذا سرق من الذمي فإنه يقطع فوجب أن يقاد به إذا قتله؛ لأن حرمة الدم أعظم من حرمة المال.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، منهم الأئمة الثلاثة مالك(١)، والشافعي(٢)، وأحمد(٣) وغيرهم لما رواه علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه قيل له: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: لا إلا ما في هذه الصحيفة، وأخرج كتابًا من قراب سيفه. وإذا فيه: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، لا يقتل مسلم بكافر».

وفي لفظ: «هل عندكم كتاب، قال: لا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»(٤).

فهذا الحديث نص صريح في أن المسلم لا يقتل بالكافر، وهذا مخصص لعموم الآية ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ ولغيرها من الآيات والنصوص العامة.

وأيضًا فقوله: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم» يفهم منه أن غير المسلمين لا يساويهم وأن دماء غير المسلمين لا تكافئ دماء المسلمين.

وأيضًا فإن قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يدل على عدم دخول الكافر في هذا لأنه ليس من المتصدقين شرعًا الذين تكون صدقتهم كفارة لهم(٥).

=

بما يرسله». وهكذا ضعف هذا الحديث جمع من أهل العلم انظر: «المغني على الدارقطني» (٣/ ١٣٥-١٣٦). وأخرجه البيهقي وعقد بابًا في بيان ضعفه. انظر: «سنن البيهقي» (٨/ ٣٠).

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤٧).

(٢) انظر: «الأم» (٦/ ٢١)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٧٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٧٥، ٢٨/ ٣٧٨).

(٤) أخرجه البخاري في العلم (١١١)، ومسلم في الحج (١٣٧٠)، وأبوداود في المناسك (٢٠٣٤)، والنسائي في القسامة (٤٧٣٥)، والترمذي في الديات (١٤١٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٥٨، ٢٦٨٣)، وأحمد (١/ ١١٩، ١٢٢). وأخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أبوداود في الجهاد (٢٦٨٥، ٢٧٥١)، وصححه الألباني.

(٥) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ١٠٤).

وأيضًا فإن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وكذا قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، يقتضي المساواة في القصاص ولا مساواة بين المسلم والكافر(١).

وأيضًا فإن المسلم طاهر مكرم عند الله تعالى والكافر نجس ومن شر الدواب عند الله، والمسلم من أولياء الله، والكافر من أعداء الله، فكيف يساوى بالمسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:٥٥].

وأيضًا فإنه لو كان للكافر أن يقتص من المسلم لكان له سبيل على المسلم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

قالوا: وأما حديث ابن البيلماني أن رسول الله ﷺ قتل مسلمًا بمعاهد وقال: «**أنا أولى من وفى بذمته**» فهو حديث مرسل. وفيه عبدالرحمن بن البيلماني وهو ضعيف.

والصحيح أنه لا يقتل المسلم بالكافر. وحديث عليٍّ نص صريح في هذا مخصص لعموم الآيات وغيرها من النصوص.

قال ابن كثير(٢): «ولا يصح حديث أو تأويل يخالف هذا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): «لا قصاص على المسلم في قتله للذمي عند أئمة المسلمين».

٢٥- ظاهر قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أن الحر يقتل بالعبد وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم، منهم؛ أبوحنيفة وأصحابه(٤) مستدلين بهذه الآية، وبالآيات التي فيها إيجاب القصاص، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء:٣٣]،

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٦).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١١٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٤٦).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٣٣- ١٣٥).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

قالوا: فهذه النصوص تدل على جواز قتل الحر بالعبد، كما استدلوا بالحديث: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم**»(١) قالوا: فهذا يعم الحر والعبد.

وبما رواه الحسن عن سمرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل عبده قتلناه ومن جدع أنفه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه**»(٢)

قالوا: فإذا كان الإنسان يقتل بعبده وهو ملكه، فقتله بعبد غيره من باب أولى.

واستدلوا بقوله ﷺ: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٣).

قالوا: فقوله: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعم الحر والعبد.

وذهب أكثر السلف وأهل العلم إلى أنه لا يقتل الحر بالعبد(٤) وإليه ذهب مالك(٥) والشافعي(٦) وأحمد(٧).

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة:١٧٨].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الديات (٤٥١٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٤١، ٤٧٤٢)، والترمذي في الديات (١٤١٤)، وأحمد (٥/ ١٨)، من حديث الحسن عن سمرة. وقال الترمذي: «حسن غريب».
وسماع الحسن من سمرة مختلف فيه. وقد ضعف هذا الحديث الألباني. انظر: «مشكاة المصابيح» (٣٤٧٣).

(٣) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٤)، «نيل الأوطار» (٨/ ١٣٨).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٦- ٦٢٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٩١).

(٦) انظر: «الأم» (٦/ ٢١)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٧٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٣).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٧٤).

قالوا: فبيَّن في أول الآية وجوب القصاص، ثم بيَّن وجوب المساواة فيه بقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾.

وبما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن أبا بكر وعمر كانا لا يقتلان الحر بالعبد»(١).

قالوا: وأيضًا فإن العبد كالسلعة والمتاع يباع ويشترى فكيف يساوى بالحر وأيضًا قد أجمع العلماء على عدم القصاص من الحر للعبد فيما دون النفس فعدم القصاص بالنفس من باب أولى(٢).

وأجابوا عن الآية ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وما في معناها أنها مخصوصة في المتماثلين(٣).

وأجابوا عن حديث «**المسلمون تتكافأ دماؤهم**» بأنه في الأحرار دون العبيد(٤)؛ لأن دخول العبيد تحت الخطاب العام مختلف فيه، فأكثر أهل العلم أنه يشملهم، ومن أهل العلم من قال لا يشملهم، فلابد من دليل منفصل لعدم دخولهم مثلًا في الجهاد والحج ونحو ذلك، وقيل يدخلون في العام من العبادات دون المعاملات.

وأجابوا عن حديث الحسن عن سمرة بأن سماع الحسن عن سمرة مختلف فيه. وقد أفتى الحسن بأن الحر لا يقتل بالعبد، فخالف ما روى فدل على ضعفه عنده.

وقد أجاب أصحاب القول الأول عن استدلال هؤلاء بالآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ بأن أول هذه الآية وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ عام في وجوب القصاص من كل قاتل حرًّا كان أو عبدًا.

أما آخرها وهو قوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾، فهذا لإبطال ما كان عليه أهل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» في الديات (٩/ ٣٠٥)- الأثر (٧٥٦٥)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٣٧).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٤)، «أضواء البيان» (٢/ ٧٨).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٥).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٤).

الجاهلية من الظلم والعدوان حيث يقتلون بالحر أحرارًا وبالعبد حرًّا وبالمرأة رجلًا تعديًا وطغيانًا، فأبطل الله ما كان من الظلم، وأكد القصاص على القاتل دون غيره- كما جاء في سبب النزول[١]. قالوا: ولهذا يقتل العبد بالحر والرجل بالمرأة مع أن في الآية: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾[٢].

وقد مال شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ترجيح القول الأول في أن الحر يقتل بالعبد[٣].

وقال ابن كثير[٤]: «وأما العبد فعن السلف فيه آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حرًّا بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة»[٥].

وقد استثنى بعض أهل العلم المحارب إذا قتل وإن لم يكن مكافئًا للمقتول. قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٦]: «إلا في المحاربة فإن القتل فيها حد لعموم المصلحة فلا تتعين فيه المكافأة، بل يقتل فيه الحر وإن كان المقتول عبدًا، والمسلم وإن كان المقتول ذميًّا، وهذا قول أهل المدينة والقول الآخر لأحمد، وهو أعدل الأقوال، وفيه جمع بين الآثار المنقولة في هذا الباب أيضًا».

- وقد اختلف أهل العلم في القصاص من الأحرار للعبيد فيما دون النفس:

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه يقتص من الحر للعبد فيما دون النفس في كل

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٩٩- ٣٠٠).

(٢) وعلى مقتضى استدلال الجمهور ينبغي ألا يقتل العبد بالحر ولا الرجل بالمرأة لكنهم أجابوا عن قتل العبد بالحر بأنه لما كان العبد يقتل بالعبد فلأن يقتل بالحر من باب أولى. وأما قتل الرجل بالمرأة فهو ثابت بالإجماع وهو مخصص للآية.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٧٤- ٨٧).

(٤) في «تفسيره» (٣/ ١١٣).

(٥) هذا الخلاف في قتل الحر بعبد غيره، أما السيد فلا يقتل بعبده، وحكي الإجماع على هذا. انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٧٥)، «نيل الأوطار» (٨/ ١٣٨).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٨٢).

ما يمكن القصاص فيه من الأعضاء[١].

واستدلوا بقوله في الآية: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

وبقوله ﷺ: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم**».

وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه لا قصاص للعبيد من الأحرار فيما دون النفس، بل حكي الإجماع على هذا[٢]، وممن ذهب إلى هذا الأئمة الأربعة أبوحنيفة[٣] ومالك[٤] والشافعي[٥] وأحمد[٦] وغيرهم.

٢٦- ظاهر الآية أن الوالد يقتل بولده لقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وبهذا قال بعض أهل العلم منهم مالك في قول له[٧].

وجمهور أهل العلم على أنه لا يقتل الوالد بولده منهم الأئمة الثلاثة أبوحنيفة[٨] والشافعي[٩] وأحمد [١٠]؛ لما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**لا يقتل والد بولده**»[١١].

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٤، ٦/ ١٩١).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣١٤).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٣٥).

(٤) والرواية الثانية عن مالك أنه يقتص لهم من الأحرار فيما دون النفس. انظر: «بداية المجتهد» (٢/ ٤٠٦).

(٥) انظر: «المهذب» (٢/ ١٧٨).

(٦) انظر: «المغني» (١١/ ٤٣٨).

(٧) قال ابن رشد في «بداية المجتهد» (٢/ ٤٠٠): «قال مالك: لا يقاد الأب بالابن إلا أن يضجعه فيذبحه، فأما إن حذفه بسيف أو عصا فقتله لم يقتل».

(٨) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٤٤).

(٩) انظر: «الأم» (٦/ ٢١)، «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٧٥).

(١٠) انظر: «المغني» (١١/ ٤٨٣)، «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٩، ١٤٢).

(١١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- الترمذي في الديات (١٤٠٠)، وابن ماجه في الديات (٢٦٦٢)، وصححه الألباني.

وأخرجه من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- الترمذي في الديات (١٤٠١)، وابن ماجه في الديات (٢٦٦١)، والدارمي في الديات (٢٣٥٧)، وصححه الألباني.

وقد حكى بعضهم الإجماع على هذا[١].

ولا خلاف في قتل الولد بوالده، بل هذا إجماع.

٢٧- ظاهر الآية أن الصغير والمجنون يقتل كل منهما بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، وهذا مخصص بقوله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث: الصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق، والنائم حتى يستيقظ**»[٢]؛ فلا يقتل الصغير ولا المجنون قصاصًا؛ لأن الله رفع القلم والتكليف عنهما، لأنهما ليس لهما قصد صحيح.

٢٨- ظاهر الآية أن الجماعة لا تقتل بالواحد؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وعامة أهل العلم على أن الجماعة تقتل بالواحد وإلى هذا ذهب الأئمة الأربعة أبو حنيفة[٣] ومالك[٤] والشافعي وأحمد[٥] وغيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٦]: «المشتركون في القتل يجب عليهم القود فإنه متفق عليه من مذهب الأئمة كما قال عمر رضي الله عنهما: «لو تمالأ أهل صنعاء لقتلتهم به»[٧].

٢٩- أن العين تؤخذ قصاصًا بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ وهكذا غيرها من الأعضاء تؤخذ قصاصًا بمثلها قياسًا عليها.

وتؤخذ العين والأذن اليمنى باليمنى واليسرى باليسرى، ويؤخذ السن الثنية بالثنية والضرس بالضرس وهكذا[٨].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٠٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٢)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٤٧).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٣٩- ١٤٢).

(٦) انظر: «الحاوي الكبير» للماوردي (١٢/ ٢٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٨٢).

(٧) أخرجه مالك في «الموطأ»- في «العقول» (١٦٢٣).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٤١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٣١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٩٣، ١٩٤).

عن أنس بن النضر أن أخت الربيع لطمت جارية فكسرت سنها فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال: «**كتاب الله القصاص...**»(١).

ولا تؤخذ العين الصحيحة بالعين العوراء، ولا اليد الصحيحة بالشلاء ونحو ذلك(٢).

٣٠- أن الجروح يقتص منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وذلك بين كل شخصين يجري بينهما القصاص بالنفس كالحر بالحر والعبد بالعبد، والأنثى بالذكر والذكر بالأنثى، والعبد بالحر، والكافر بالمسلم وهكذا، دون من لا يجري بينهما القصاص كالمسلم بالكافر(٣)،

فيقتص من كل عضو وجرح يمكن أن يقتص منه، بأن ينضبط القصاص منه، وتمكن فيه المساواة، ولم يكن مخوفًا، ولم تخش سرايته، وذلك كما إذا كانت الجناية من مفصل كاليد والرجل، والكف والقدم، فهذا يقتص منه.

وكمارن الأنف وهو ما لان منه، ونحو ذلك، وسواء انتهى إلى عظم أو لم ينته إلى عظم؛ فالعبرة بإمكان المساواة، ولا قصاص فيما لا تمكن فيه المساواة، أو كان مخوفًا أو تخشى سرايته، بل فيه الدية(٤) المحددة(٥)، أو الأرش، لعدم إمكانية

=

واختلفوا فيما إذا فقأ الأعور عين الصحيح: فذهب بعض أهل العلم إلى أنه تؤخذ بذلك عين الأعور الصحيحة وهو ظاهر، وذهب بعضهم إلى أنه لا يقتص منه، بل تلزمه الدية كاملة، وقال بعضهم: نصف الدية، كدية العين الواحدة من الصحيح في الخطأ. انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٢٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٩٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ٨١، ٨٢).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٢٨١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٧، ٦٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٩٣)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٤).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٤١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٤٤)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٩)، «تفسير ابن كثير» (٣٠/ ١١٤)، «أضواء البيان» (٢/ ٨٢).

(٥) ففي كل عضو ظاهر ليس في الجسم من جنسه دية كاملة كالأنف واللسان والذكر، ونحو ذلك وفيما في الجسم منه عضوان نصف الدية كالعين والأذن واليد والرجل ونحو ذلك، وفيما فيه منه ثلاثة ثلث الدية

=

المقاصة وقد قال عز وجل: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ كما قال عز وجل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

وإذا لم يمكن القصاص من منتهى حد الجناية، ورضي المجني عليه بالقصاص مما دونه مما يمكن القصاص منه فله ذلك على الصحيح من أقوال أهل العلم سواء عفا عن الزيادة، أو طلب أرش الزيادة، لأنه لم يزد على حقه، وهذا هو مقتضى العدل.

ويقتص مما دون الجراح كالضرب بيده أو بسوط أو عصا وكاللطمة واللكمة ونحو ذلك عند عامة السلف كالخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين، وهو قول كثير من الفقهاء منهم الإمام أحمد وغيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «وبذلك جاءت سنة رسول الله ﷺ وهو الصواب».

قال: ولما قال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين: إن كان رجل من المسلمين أُمِّر على رعية فأدب رعيته أئنك لتقصنه منه؟ قال: «إي، والذي نفس محمد بيده إذًا لأقصنه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم»(٢).

ولو مات المقتص منه بها دون النفس بسبب القصاص فلا شيء على المقتص، وهذا قول جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الفقهاء وغيرهم.

=

كمارن الأنف، وفيها فيه أربعة ربع الدية كالجفن، وفيها فيه عشرة عشر الدية كالأصابع، وفي الأنامل في كل أنملة ثلث عشر الدية، إلا الإبهام ففي الأنملة منه نصف عشر الدية لأنه مفصل فقط. وفي الشعور الأربعة في كل واحد منها الدية كاملة، وهي شعر الرأس وشعر الوجه، وشعر الحاجبين، وشعر أهداب العين، وقيل جميع الشعور لا مقدر فيها بل حكومة، وفي كل سن خمس من الإبل، إلى غير ذلك.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٩).

(٢) أخرجه أبوداود في الديات (٤٥٣٧)، وأحمد (١/ ٤١)، وفي سنده أبوفراس النهدي قال في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٥٦١): «لا يعرف». وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (٢/ ٤٦٢): «مقبول».
وقال أحمد شاكر في تخريجه للمسند (٢٨٦): «إسناده حسن» وقال الألباني: «ضعيف».

وقيل: تجب الدية في مال المقتص، وقيل: يسقط عن المقتص قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله، وقيل: تجب الدية على عاقلة المقتص.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال، ثم زاد جرحه فلا شيء له[١]؛ لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه»[٢].

٣١- أنه يقتل العربي بالعجمي والعجمي بالعربي والنسيب بمن دونه والشريف بالوضيع والحر الأصلي بالمولى العتيق والعالم بالأمي والأمير بالمأمور وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، ولقوله ﷺ: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم**»[٣].

٣٢- أن مما شرع لبني إسرائيل في التوراة العفو عن القصاص؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[٤].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٥)، «أضواء البيان» (٢/ ٨٤- ٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٧).

(٣) سبق تخريجه. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٦- ٣٧٧).

(٤) وكان في شرع بني إسرائيل القصاص أو العفو. ولم يكن فيه الدية كما رواه البخاري عن ابن عباس في كتاب التفسير- تفسير سورة المائدة- (٤٤٩٨) قال: «كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾» الحديث.

أما في شرعنا فإن الولي له القصاص أو أخذ الدية أو العفو بدليل الآية، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾.

وقوله ﷺ: «**ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يقتل وإما أن يأخذ الدية**»؛ أخرجه البخاري في العلم (١١٢)، ومسلم في الحج (١٣٥٥)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى أن الولي مخير بين القصاص وأخذ الدية، وهي على ما يصطلحان عليه، وقيل: كدية شبه العمد، وهي على القاتل على الصحيح.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه ليس للولي أن يختار الدية إلا برضى القاتل والراجح القول الأول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- بعد أن ذكر صور القتل العمد: «فهذا إذا فعله وجب فيه القود وهو أن =

٣٣- الترغيب في العفو عن الجاني، والتصدق بالقصاص؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فسماه عز وجل تصدقًا، ووعد عليه بتكفير ذنوب المتصدق به؛ وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «ما رُفع إلى رسول الله ﷺ أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**»(٢).

وعلى الاحتمال الثاني في معنى الآية وهو أن الضمير في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾ يعود إلى الجاني يدل ذلك على أن العفو عن الجاني يكفر عنه جنايته فلا يؤاخذ بها في الآخرة.

٣٤- أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٣٥- أن عيسى ابن مريم- عليه السلام- هو آخر أنبياء بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، أي: جعلناه يقفو آثارهم ويأتي بعدهم.

٣٦- التنبيه على الآية العظيمة في خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

وقد أخذ الفقهاء من نسبة عيسى إلى أمه أن من لا أب له شرعًا فإنه ينسب إلى

= يمكن أولياء المقتول من القاتل، فإن أحبوا قتلوا، وإن أحبوا عفوا، وإن أحبوا أخذوا الدية». انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٤٩، ١٥٧- ١٥٨)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٧٤، ٣٤/ ١٣٩)، «زاد المعاد» (٣/ ٤٥٤- ٤٥٥).

(١) أخرجه أبوداود في الديات (٤٤٩٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٩٢)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٣٠)، وأحمد (٢/ ٢٣٥)، والدارمي في الزكاة (١٦٧٦).

أمه، وأن أمه ترثه فرضًا وتعصيبًا، أي: ميراث أب وأم، فترث الثلث بكونها أمًا، والباقي بكونها أبًا فهي أمه وأبوه، نسبًا وميراثًا.

٣٧- أن عيسى- عليه السلام- جاء مصدقًا للتوراة التي أنزلت على موسى؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

٣٨- ثناء الله- عز وجل- على كتابه «الإنجيل» وامتداحه له، وأنه من عند الله، أي: منزل من عند الله وكلامه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٣- ٤].

وأن فيه هدى ونورًا، ومصدقًا لما سبقه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين.

ومن ذلك البشارة بالنبي ﷺ، والأمر باتباعه، وذكر وصفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ - إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وليس المراد بالإنجيل ما يوجد الآن في أيدي النصارى؛ لأن الموجود الآن في أيديهم قد اعتراه التحريف والتبديل والتغيير(١).

٣٩- أن الذين ينتفعون بما في كتب الله تعالى من العلم والهدى والنور والمواعظ هم المتقون فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٤٠- أن الله أوجب على أهل الإنجيل الذين بعث الله إليهم عيسى- عليه السلام- أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ فأنزله لأجل أن يحكموا به وأوجب عليهم أن يحكموا بما فيه.

وهكذا الحكم بالنسبة لجميع الكتب السماوية.

٤١- أن على أهل الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأن مما جاء في الإنجيل البشارة

---

(١) وثناء الله على الإنجيل دون ثنائه على التوراة- كما سبق بيانه. وليس في مدح القرآن لموسى- عليه السلام- والتوراة، ولعيسى- عليه السلام- والإنجيل مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا نبينا محمدًا ﷺ، وليس في ذلك مدح لدينهم المبدل قبل بعثته ﷺ، وليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل منسوخ. انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٦٢).

بمحمد ﷺ وذكر صفته والأمر باتباعه، كما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

٤٢- أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٤٣- توكيد تحريم الحكم بغير ما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

قال ابن القيم(١): «فأكد هذا التأكيد وقرر هذا التقرير في موضع واحد؛ لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزل الله، وعموم مضرته وبلية الأمة به».

وقد اختلف أهل العلم في حكم من حكم بغير ما أنزل الله على ضوء الآيات الثلاث، فمن أهل العلم من قال: يختلف ذلك باختلاف حال الحاكم فمن حكم بغير ما أنزل الله معتقدًا أن حكم الله لا يصلح، أو أن حكمه أحسن من حكم الله، أو مساو له، أو أنه يجوز له الحكم بغير ما أنزل الله فهذا كافر كفرًا يخرج من الملة حتى وإن اعتقد ذلك اعتقادًا فقط، ولم يحكم به فهو كافر.

ومن حكم بغير ما أنزل الله؛ لعدوان على المحكوم عليه، أو على غيره، فهو ظالم.

ومن حكم بغير ما أنزل الله؛ لهوى في نفسه، كمحاباة قريب أو صديق، أو لرشوة ونحو ذلك، فهو فاسق.

ويقوي هذا القول أن الأصل التأسيس لا التوكيد. لكن يعكر عليه أن ظاهر هذه الآيات الثلاث كلها العموم، ولا دليل على هذا التخصيص.

ومنهم من حمل الآيات على عمومها في كل من حكم بغير ما أنزل الله وأنه

---

(١) في «أعلام الموقعين» (١/ ٣٨٨).

كافر ظالم فاسق.

لكن إن كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه من محاباة لقريب أو صديق أو لعدوان على المحكوم عليه أو لرشوة ونحو ذلك مع اعتقاده وجوب الحكم بما أنزل الله فهذا لا يخرج من الملة فهو كافر كفرًا دون كفر وظالم ظلمًا دون ظلم وفاسق فسقًا دون فسق.

وعلى هذا يحمل ما روي عن ابن عباس وعطاء بن أبي رباح وطاوس من قولهم: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وإن حكم بغير ما أنزل الله معتقدًا أن حكم الله لا يصلح، أو أن حكمه أحسن من حكم الله أو مساو له، أو أنه يجوز له الحكم بغير ما أنزل الله فكفره وظلمه وفسقه مخرج من الملة(١).

قال ابن القيم(٢): «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفر الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانًا، مع اعترافه أنه مستحق للعقوبة، فهو كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخيّر مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن جهله، فأخطأ فهذا مخطئ له حكم المخطئين».

وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله(٣): «من حكم بغير ما أنزل الله- وهو يعلم أنه يجب عليه الحكم بما أنزل الله، وأنه خالف الشرع، ولكن استباح هذا الأمر، ورأى أنه لا حرج عليه في ذلك، وأنه يجوز له أن يحكم بغير شريعة الله فهو كافر، كفرًا أكبر، عند جميع العلماء، كالحكم بالقوانين الوضعية،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٥٧)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٢٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٩٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٧)، «أضواء البيان» (٢/ ١٠٣- ١٠٤، ١٠٨- ١٠٩).

(٢) في «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٦- ٣٣٧، ١/ ٣٤٦).

(٣) انظر: «مجلة البحوث الإسلامية» العدد (٤٢) ص(١٤٠- ١٤١). وانظر أيضًا: «مجلة الدعوة» العدد (٩٦٣) في ٥/ ٢/ ١٤٠٥هـ، «مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة» للشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله (٤/ ٤١٦). وانظر ما كتبه الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في رسالة بعنوان: «تحكيم القوانين الوضعية».

التي وضعها الرجال من النصارى، أو اليهود أو غيرهم، ممن زعم أنه يجوز الحكم بها، أو زعم أنها أفضل من حكم الله، أو زعم أنها تساوي حكم الله، وأن الإنسان مخير إن شاء حكم بالقرآن والسنة، وإن شاء حكم بالقوانين الوضعية... من اعتقد هذا كفر بإجماع العلماء كما تقدم.

أما من حكم بغير ما نزل الله لهوى، أو لحظ عاجل، وهو يعلم أنه عاص لله ولرسوله، وأنه فعل منكرًا عظيمًا، وأن الواجب عليه الحكم بشرع الله فإنه لا يكفر بذلك الكفر الأكبر، لكنه قد أتى منكرًا عظيمًا، ومعصية كبيرة، وكفرًا أصغر، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أهل العلم، وقد ارتكب بذلك كفرًا دون كفر، وظلمًا دون ظلم، وفسقًا دون فسق، وليس هو الكفر الأكبر. وهذا قول أهل السنة والجماعة. وقد قال الله سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، وقال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥]، وقال عز وجل: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

فحكم الله هو أحسن الأحكام، وهو الواجب الاتباع وبه صلاح الأمة وسعادتها في العاجل والآجل، وصلاح العالم كله، ولكن أكثر الخلق في غفلة عن هذا. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

٤٤- أن القرآن الكريم منزل من عند الله غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فهو كلام الله عز وجل، وفي هذا الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤٥- إثبات علو الله بذاته على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ﴾ والإنزال لا يكون إلا من علو كما أن له عز وجل علو القدر وعلو الصفات.

٤٦- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وتكريمه وبيان عظم فضله تعالى

عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣].

٤٧- تعظيم القرآن الكريم والثناء عليه بأنه حق ونزل بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ فهو حق وصدق في نفسه واشتمل على الحق، فأخباره وقصصه صدق، وأحكامه عدل، كما قال عز وجل: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴾ [الأنعام:١١٥].

والواسطة التي جاء بها حق، كما قال عز وجل: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣- ١٩٤].

٤٨- أن القرآن الكريم جاء مصدقًا لما تقدمه من كتب الله تعالى كلها؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

٤٩- أن القرآن الكريم جاء مهيمنًا على الكتب قبله مسيطرًا عليها، ناسخًا لها، حاكمًا عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾.

٥٠- وجوب الحكم بما أنزل الله من الأحكام في القرآن الكريم فيما بين المسلمين، وفيما بين غيرهم من أهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾(١).

٥١- النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، والعدول عن الحق الذي أنزل الله في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾.

٥٢- التوكيد على وجوب الحذر عن اتباع أهواء أهل الكتاب؛ لأنه إذا كان الله نهى نبيه ﷺ عن ذلك فغيره أولى بالنهي عن ذلك.

٥٣- ذم أهل الكتاب، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم بلا هدى من الشرع، أو العقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ واتباع الهوى مُرْدٍ ومهلك. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [القصص:٥٠].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٣٥- ٣٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «ذمهم على ترك اتباع ما أنزله في التوراة والإنجيل، وعلى ترك اتباع ما أنزله في القرآن، وبين كفرهم بالكتاب الأول وبالكتاب الثاني».

٥٤- أن العدل والاستقامة في اتباع ما جاء في القرآن الكريم، والانحراف والميل في اتباع الأهواء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: عادلًا ومائلًا عما جاءك من الحق.

٥٥- أن الله جعل لكل أمة شرعة يعملون ويحكمون بها، ومنهاجًا يسلكونه؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

٥٦- الحكمة في اختلاف الشرائع بحسب اختلاف الأمم واختلاف الأزمان والأماكن والأحوال، فلكل أمة شريعة تناسبها؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

بل إن الاختلاف قد يوجد في الشريعة الواحدة من حيث الزمان والمكان والأحوال وبخاصة الشريعة المحمدية التي بنيت أحاكمها على التيسير والتخفيف ولله الحمد والمنة.

كان في أول الإسلام قيام الليل واجبًا ثم نسخ إلى الاستحباب والندب فقط[٢]، وكان الواجب في أول الأمر أن يقاوم الواحد من المسلمين عشرة من الكفار في الجهاد في سبيل الله ثم نسخ بمقاومة الواحد للاثنين[٣].

ومن كان في مكان لا تطلع عليه الشمس فإنه يقدر الليل والنهار ويصلي ويصوم حسب حاله، بخلاف من كان في مكان تطلع عليه الشمس- وهكذا.

٥٧- أن الله عز وجل لو شاء أن يجعل الناس على شرعة واحدة ومنهاج واحد لجعلهم كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٥٩).

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس (٣/ ١٢٦- ١٢٩).

(٣) المصدر السابق.

٥٨- أنه- عز وجل- شاء ألا يكون الناس أمة واحدة، بل اقتضت مشيئته أن يكونوا أُممًا بشرائع ومناهج مختلفة، ابتلاء منه عز وجل، واختبارًا لهم فيما آتاهم من الشرائع، والمناهج المختلفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي: ولكن لم يشأ أن تكونوا أمة واحدة، بل شاء أن تكونوا أكثر من أمة، ذوي شرائع ومناهج مختلفة، ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع والمناهج المختلفة، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

٥٩- الرد على القدرية القائلين بأن العبد يخلق فعل نفسه ويخرج عن مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لأنه- عز وجل- أخبر أن اختلافهم بمشيئته، فمن آمن منهم فبمشيئة الله تعالى ومن كفر منهم فهو أيضًا بمشيئة الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

٦٠- الترغيب في المسابقة إلى الخيرات والمنافسة فيها والمبادرة إليها والاجتهاد في أدائها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

٦١- الحث على المسابقة إلى الخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

٦٢- أن فعل العبادات في أول وقتها كالصلاة وغيرها أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾(١).

٦٣- الترغيب والحث على فعل النوافل، زيادة على فعل الفرائض؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

٦٤- أن مرجع الخلق ومردهم جميعًا إلى الله- عز وجل- فيخبرهم بأعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٤٣)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٨١- ٨٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١١- ٢١٢).

تَخْتَلِفُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]، فيجازي كلًا بعمله.

٦٥- أن علم الله- عز وجل- محيط بأعمال العباد كلها خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

٦٦- الوعد بالعقبى الحسنة والوعيد والتهديد بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أي: فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

٦٧- أن الاختلاف من طبيعة البشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

٦٨- تأكيد وجوب الحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلينا بما أنزل الله في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

لكن اختلف أهل العلم هل الحكم بينهم واجب أم على التخيير؟

فذهب بعض أهل العلم إلى أنه يجب علينا الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا؛ لقوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ﴾ وقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قالوا: فهذا ناسخ للتخيير في قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ﴾[1] [المائدة:٤٢].

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن التخيير باق لم ينسخ، وأن الأمر في قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ﴾ وقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أمر بصفة الحكم لا بأصله كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ﴾، فالمعنى: وأن أحكم بينهم بما أنزل الله إن اخترت أن تحكم بينهم[2].

---

(١) انظر: «الأم» (٤/ ٢١٠)، «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٤٣)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٩٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٣٥- ٤٣٦).

(٢) انظر: «المدونة» (٦/ ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٩٧)، «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» ص(٢٣٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٠).

وقد اختار هذا جمع من المفسرين منهم الطبري[١] وابن العربي[٢] وابن عطية[٣] وغيرهم وهو الراجح- والله أعلم- قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «وهذا أصوب فإن النسخ لا يكون بمحتمل فكيف بمرجوح».

ثم ذكر ابن تيمية قول من قال بوجوب الحكم بينهم خاصة في مظالم العباد، وبيّن أنه إنما يجب الحكم فيما إذا كان طالب الحكم مظلومًا يطلب نصره من ظالمه، وليس له من ينصره من أهل دينه، ولا مندوحة له عن حكم الله ورسوله قال: «فهذا ليس في الآية تخيير، وإذا كان عقد الذمة قد أوجب نصره من أهل الحرب، فنصره ممن يظلمه من أهل الذمة أولى أن يوجب ذلك»[٥].

٦٩- نهى النبي ﷺ وأمته عن اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، وبخاصة في مقام الفتوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

٧٠- تحذير النبي ﷺ وأمته عن أن يصدهم أهل الكتاب وغيرهم من الكفار عن بعض ما أنزل الله إليهم مما لا يوافق أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن من أهم ما يسعى إليه أهل الكتاب من اليهود والنصارى صد المسلمين عن دينهم وهذا ديدنهم على الدوام، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

٧١- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

٧٢- أن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، فالآجلة العذاب الأخروي في النار،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٨٢- ٣٨٣).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» (٢/ ٦٢٠- ٦٢١، ٦٣٤).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٠- ١٢٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٩٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٩٧- ١٩٨).

والعاجلة أنها سبب لرد الحق والإعراض عنه، فإن من عقوبة السيئة أن تجر إلى فعل السيئة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

٧٣- أن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم متمردون على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ﴾ وهذا عام لأهل الكتاب وغيرهم.

ومن هنا ينبغي عدم الاغترار بالكثرة، وما عليه الأكثرون فالعبرة باتباع الحق، وبالكيف لا بالكم، فمن اتبع الكتاب والسنة فهم أهل الحق، وإن كانوا قلة، ولا عبرة بالكثرة الضالة، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

وقال ﷺ: «**إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»(١).

وأمر الله- عز وجل- آدم كما جاء في الحديث أن يخرج بعث النار من أمته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وواحد إلى الجنة(٢).

قال ابن القيم في «النونية»(٣):

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧)، والترمذي في الأمثال (٧٢٢٨)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٠)، من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الأيمان (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) ص(٢٤٨).

يـا سـلعة الـرحمن لـيس ينالهـا ... بـالألف إلا واحـد لا اثنـان

وفي الأثـر: «لا تسـتوحش مـن الحـق لقلـة السـالكين ولا تغـتر بالباطـل لكثـرة الهالكين»(١).

قال ابن دريد(٢):

والنـاس ألـف مـنهمُ كواحـدٍ ... وواحـد كـالألف إن أمـر عنـى

٧٤- ذم أهل الكتاب في ابتغائهم حكم الجاهلية من المفاضلة بين الأنفس وأخذ القود من القرظي للنضيري دون العكس، وإنكار حد الرجم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

٧٥- تحريم التحاكم إلى غير حكم الله من أحكام الجاهلية، والإنكار على من يبتغي حكم الجاهلية ويدع حكم الله من اليهود وغيرهم، والتعجب من حالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

٧٦- أن حكم الجاهلية مبني على الجهل والظلم والغي؛ لهذا أضافه الله إلى الجاهلية، بينما حكم الله مبني على العلم والعدل والهدى؛ لهذا أضافه الله إليه.

٧٧- أن كل حكم خالف حكم الله الذي أنزله على رسوله ﷺ فهو من حكم الهوى لا من حكم العقل والهدى، وهو من حكم الجاهلية، لا من حكم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ولقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(٣).

وعلى هذا فكل من حكَّم غير شرع الله من القوانين الوضعية وغيرها من أحكام البشر القاصرة فهو جاهل وحكمه جهالة.

٧٨- أنه لا أحد أحسن من الله حكمًا، ولا حكم أحسن من حكم الله- عز وجل- لأهل الإيمان واليقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٧٩- أنه يجب على كل مؤمن الرضى والتسليم لأحكام الله الشرعية والكونية والجزائية؛

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «مقصورته». انظر: «ديوانه» ص(١٣٢).

(٣) انظر: «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٤٦).

لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

والأحكام الشرعية تتضمن الأحكام الفقهية، والأحكام العقائدية، التي منها أحكام صفات الله، ووجوب الإيمان بها وإثباتها لله- عز وجل- كما يليق بجلال الله وعظمته.

٨٠- أن أهل الإيمان واليقين بالله، وبما جاء في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ هم الذين يحكمون بحكم الله، ويعتقدون بأنه أحسن حكم وأفضله، بخلاف أهل الأهواء وأتباع الشهوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فكلما ازداد يقين العبد كلما ازداد معرفة بحسن أحكام الله وأنه لا أحسن منها.

٨١- توكيد وجوب الحكم بما أنزل الله في الكتاب والسنة في هذه الآيات بمؤكدات عدة، والتحذير من اتباع أهواء المضللين، من ذلك ما يلي:

أ- أن الله حكم على من لم يحكم بما أنزل الله ووصفه بالكفر، والظلم، والفسق، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ب- أن الله أمر بالحكم بما أنزل الله ونهى عن اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم وترك الحق في موضعين من الآية، قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

جـ- أن الله حذَّر رسوله ﷺ من أن يفتنه ويصده أهل الأهواء من أهل الكتاب وغيرهم عن بعض ما أنزل الله إليه، فقال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ وهذا يدل على وجوب الحكم بما أنزل الله في كل شيء وتحريم ترك تحكيم شرع الله في القليل والكثير والصغير والكبير؛ لقوله تعالى: ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾، أي: لا تتنازل عن شيء من أحكام الله.

د- أن ترك الحكم بما أنزل الله والتولي عنه موجب للعقاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

هـ- التحذير من الاغترار بكثرة الخارجين عن طاعة الله المعرضين عن حكمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

و- وصف الحكم بغير ما أنزل الله بأنه حكم الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

ز- تقرير المعنى العظيم بأن حكم الله أحسن الأحكام وأعدلها؛ لقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾.

ح- بيان أن مقتضى اليقين هو العلم بأن حكم الله هو خير الأحكام، وأكملها وأتمها وأعدلها وأحسنها، وأن الواجب الانقياد له، مع الرضى والتسليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

* * *

(١) انظر: «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (١/ ٨١) التوحيد وما يلحق به.

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

سبب النزول:

روي أن هذه الآيات نزلت في أناس من المنافقين كعبدالله بن أبي وغيره كانوا يوالون اليهود خوفًا على أنفسهم، وهي عامة لجميع المؤمنين(١).

قال ابن كثير(٢): «ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله».

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿لَا﴾: ناهية، و﴿تَتَّخِذُواْ﴾ مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون، و﴿تَتَّخِذُواْ﴾ بمعنى: تجعلوا وتصيروا، ينصب مفعولين، الأول قوله: ﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾، والثاني: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١].

و﴿ٱلْيَهُودَ﴾ هم الذين يزعمون أنهم أتباع نبي الله موسى بن عمران عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وسموا باليهود: إما نسبة لأبيهم يهوذا بن يعقوب، وإما لقولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: تبنا إليك ورجعنا وأنبنا إليك(٣).

و﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾ هم الذين يزعمون أنهم أتباع نبي الله عيسى بن مريم- عليه

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٣٩٥- ٣٩٩)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٥- ١٢٦).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١٢٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٧٩).

السلام. وسموا نصارى لنصرتهم عيسى- عليه السلام- لما قال لهم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤]، أو أنهم سموا نصارى نسبة لبلدهم «الناصرة» في فلسطين(١).

وهم في الحقيقة ليسوا أتباعًا لموسى ولا لعيسى، ولو كانوا أتباعًا لهما حقًّا لآمنوا بالنبي ﷺ بعد بعثته؛ لأن موسى وعيسى وجميع الرسل أمروا أقوامهم بالإيمان بمحمد ﷺ، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

ولهذا قال ﷺ لعمر لما رأى معه صحيفة من التوراة: «**أفي شك يا ابن الخطاب؟ والله لو كان موسى حيًّا لما وسعه إلا اتباعي**»(٢).

وأيضًا فإن مَن آمن برسول وجب عليه الإيمان بجميع الرسل السابقين منهم واللاحقين، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]؛ لأن المراد تكذيب جنس الرسالة.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جمع ولي، والمراد به ولي النصرة والمعونة لهم، أي: لا تجعلوا اليهود والنصارى أولياء، توالونهم وتناصرونهم وتوادونهم(٣) قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢].

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ هذه الجملة استئنافية، وهي كالتعليل لما قبلها، ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ خبره.

والمعنى: أن اليهود والنصارى- وإن اتخذتموهم أيها المؤمنون أولياء- إنما بعضهم في الحقيقة أولياء بعض يناصر بعضهم بعضًا، فاليهود يوالي بعضهم بعضًا والنصارى

---

(١) ولا ينبغي تسمية النصارى بالمسيحيين، لأن المسيح منهم بريء، بل هم النصارى، وهذا يختلط على كثير من الكُتَّاب وبخاصة مَن تأثَّروا بالمستشرقين وبالكُتَّاب الغربيين.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢)، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٤٢)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وروي أيضًا من حديث عبدالله بن ثابت- رضي الله عنه- وروي أيضًا عن غيرهما. وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٤) (١٥٨٩).

(٣) لا يدخل في هذا المحبة الطبيعية بين الزوجين، فلو تزوج مسلم كتابية وأحبها فلا بأس، لأن الله أباح نساءهم، والحياة بين الزوجين تبنى غالبًا على المحبة.

يوالي بعضهم بعضًا.

كما يوالي اليهود النصارى، ويوالي النصارى اليهود ضد المسلمين[١] كما هو مشاهد في المحافل الدولية، والمؤتمرات العالمية، بل وعلى أرض الواقع.

فلا يليق بالمسلمين موالاتهم، ولا ينبغي أن ننخدع بما قد يزعمون من موادة للمسلمين، بل هم في هذا كذبة، لأن الكفر ملة واحدة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾ [الجاثية:١٩].

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة:١٢٠].

ولا يلزم من هذا أن يكونوا سواء في عداوتهم للمسلمين، بل بيَّن الله- عز وجل- أن اليهود أشد عداوة، قال تعالى: ﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة:٨٢].

كما لا يلزم أيضًا من اجتماعهم على عداوة المسلمين أن يكونوا فيما بينهم متوادين؛ لأن الله بيَّن أن بعضهم يُكَفِّر بعضًا كما قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ [البقرة:١١٣].

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ هذا تحذير شديد وتهديد ووعيد، والواو عاطفة، و«من» شرطية، ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة «الألف».

أي: ومن يتولهم بأن يكون لهم وليًّا ونصيرًا منكم أيها المؤمنون.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فإنه منهم في الظاهر، بسبب المعاونة والمناصرة لهم، وقد يؤدي به ذلك إلى محبتهم واتباع ملتهم فيكون منهم ظاهرًا وباطنًا[٢].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٩٩).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٠- ٤٠١)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٨)، «تفسير المنار» (٦/ ٤٣٠).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من دخل دين قوم فهو منهم، وقال: لو لم يكونوا منهم إلا بالولاية لكانوا منهم»(١).

قال الطبري(٢): «ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، يقول: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍ أحدًا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راضٍ، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه الجملة استئنافية، وهي تعليل لما قبلها، بمعنى: ومن يتولهم منكم فإنه ظالم مثلهم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

وهداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

وهداية توفيق، وقبول، خاصة بالله عز وجل.

والهداية المنفية هنا هي هداية التوفيق، أي: إن الله لا يوفق القوم الظالمين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص:٥٦].

أما هداية الدلالة والإرشاد فهي عامة لهم ولغيرهم من الخلق كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

و﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ هم الجماعة من الناس ذكورًا، أو ذكورًا وإناثًا.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جمع ظالم، و«ال» فيه اسم موصول تفيد العموم، فيعم هذا الوعيد كل ظالم.

والظلم هو: العدوان، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي والجور ومجاوزة الحد(٣)، وهو النقص، قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٤٠١) (١٢١٦٢- ١٢١٦٣).

(٢) في «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٠).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٢)، «لسان العرب» مادة: «ظلم».

[الكهف:٣٣].

فالظالم هو الذي نقص نفسه وبخسها حقها وأوبقها بالمعاصي، من ترك الواجبات وارتكاب المنهيات وتعدى في حق الله وحقوق العباد، ومن ذلك موالاة اليهود والنصارى.

قال الطبري[١]: «إن الله لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها، فوالى اليهود والنصارى مع عداوتهم لله ورسوله والمؤمنين على المؤمنين».

قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

لما نهى الله- عز وجل- المؤمنين في الآية السابقة أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء بيّن أن من بين ظهراني المؤمنين من في قلوبهم مرض يسارعون في هؤلاء اليهود والنصارى.

روي أنها نزلت في عبدالله بن أبي بن سلول؛ لأنه حالف يهود، وقال: أخشى دائرة تصيبني، يعني إذا أنا تخليت عن موالاتهم[٢].

قوله: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الفاء: عاطفة، و«ترى» يحتمل أن تكون من الرؤية البصرية، ويحتمل أن تكون من الرؤية العلمية، والفاعل ضمير مستتر، تقديره: «أنت» و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به لـ«ترى» على اعتبار أن الرؤية بصرية، أو مفعول أول لـ«ترى» على اعتبار أنها من الرؤية العلمية، فتنصب مفعولين، والآية تحتمل المعنيين معًا، أي: فتعلم وتشاهد.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ الجملة في محل نصب إما على أنها مفعول ثانٍ لـ«ترى» على اعتبار أنها من الرؤية العلمية، وإما على الحال باعتبار أن الرؤية بصرية، ﴿يَقُولُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾[٣].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٢- ٤٠٣) (١٢١٦٦)، وهو ضعيف، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٧- ٥٠).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٨)، «الدر المصون» (٢/ ٥٤٣).

والخطاب في قوله: ﴿فَتَرَى﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، ممن يسبر أحوال هؤلاء المنافقين ويتأمل في تصرفاتهم، وفي الجملة ما يفيد التعجب من حالهم، أي: اعجب من أحوال هؤلاء.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: في قلوبهم شك وريب ونفاق[1] والمراد بهم المنافقون، أمثال عبدالله بن أبي وأصحابه[2]، ومن شاكلهم من المنافقين في كل عصر ومصر.

وأمراض القلوب قسمان: مرض حسي يصيب البدن كله، ومرض معنوي يصيب القلوب والعقول، وهو قسمان: مرض شبهة وشك ونفاق، ومرض شهوة، وهو ثلاثة أنواع: مرض شهوة فرج، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]. ومرض شهوة بطن يحمل صاحبه على أكل الحرام وما يضره، ومرض شهوة اتباع الهوى.

وأشدها مرض اتباع الهوى والشبهة والشك والنفاق، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، أي: يبادرون ويسابقون فيهم ولم يقل في موالاتهم أو في مناصرتهم؛ ليكون أعم، أي يسارعون فيهم، أي في كل ما من شأنه موالاة اليهود والنصارى ونصرتهم وقوتهم وعزتهم وموادتهم في الظاهر والباطن وغير ذلك.

﴿يَقُولُونَ﴾، أي: يقول هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، بألسنتهم وقلوبهم ﴿نَخْشَىٰٓ أَن

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٢- ٤٠٤)، «التفسير الكبير» (١٢/ ١٥).

﴿تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ الخشية بمعنى الخوف، بل هي أخص منه وأشد أي: نخاف خوفًا شديدًا.

﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، أي: أن تقع علينا أو تنزل بنا دائرة.

والدائرة: أن يدور الأمر عن حاله التي هو عليها، وهي الدولة لأنها تدول وتدور من قوم إلى قوم، ومن حال إلى حال، وهي الشيء المهلك والداهية التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، قال تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة:٩٨]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[1] [التوبة:٩٨، الفتح:٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

قال الراجز:

تـــرد عنـــك القـــدر المقـــدورا ... ودائـــرات الـــدهر أن تـــدورا[2]

وقال الشاعر:

إذا مـــا المـــوت جـــر عـــلى أنـــاس ... كـــلا كلـــه أنـــاخ بآخرينـــا

فقـــل للشـــامتين بنـــا أفيقـــوا ... ســـيلقى الشـــامتون كـــما لقينـــا[3]

والمعنى: يقول هؤلاء المنافقون، الذين يبادرون إلى موالاة اليهود والنصارى- معللين لفعلهم هذا أو مبررين له- نخشى أن يدور الأمر عن حاله التي هو عليها وأن تدول للدهر دولته، وتدور دائرته فتنزل بنا نازلة أو حادثة أو نائبة من نوائب الدهر، فنحتاج إلى مناصرتهم إيانا، أو نخاف أن تكون الدائرة والدولة لهم، أي: لليهود والنصارى، فنحن نواليهم لأجل ذلك ليكون لنا يد عندهم[4].

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ الفاء استئنافية، و«عسى» فعل ماض ناقص جامد، وهي في الأصل من أفعال الترجي، وهو طلب ما يرجى وقوعه، أو ما قد يتعسر وقوعه،

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «دور».

(٢) انظر: «مجاز القرآن» ص(١٦٩)، «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٤)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٩٩).

(٣) البيتان لذي الأصبع العَدواني. وقيل: لعروة المرادي. وقيل: للفرزدق. وقيل: للعلاء بن قرظة الضبي خال الفرزدق. انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٤٦٨).

(٤) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٦٩)، «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٤- ٤٠٥)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٩٩)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٤).

لكنه لا يمتنع.

قال بعض المفسرين: «عسى» من الله واجبة[١] بمعنى أن هذا خبر من الله سيقع، ووعد منه- عز وجل- سيتحقق.

وإنما جاء التعبير بـ«عسى» دون الإخبار بأن هذا الموعود به سيقع فعلًا ليتعلق القلب بالله- عز وجل- ولا يترك التعلق به ورجاءه اعتمادًا على الإخبار بأن هذا الوعد سيتحقق.

﴿أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾، ﴿أَن﴾ في موضع نصب بـ«عسى»[٢]. والفتح بمعنى الحكم والقضاء والفصل، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩].

والمراد بالفتح في قوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ النصر بظهور الرسول ﷺ والمسلمين، وعلو كلمة الحق، وإذلال اليهود والمشركين وغيرهم من أعداء الإسلام وقد حصل ذلك كله بفتح مكة، وفتح قرى اليهود، وغيرها، وقتل مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم وإجلاء بني النضير[٣].

ولهذا روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «أتى الله بالفتح فقتلت مقاتلة بني قريظة وسبيت ذراريهم، وأجلي بنو النضير»[٤].

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾، أي: أو يأتي بأمر من عنده، والأمر هو الشأن والمعنى: أو يأتي بأمر من عنده، أيِّ أمر يكون فيه إدالة المؤمنين على أهل الكفر.

فيحتمل أن يكون هذا الأمر إظهار أمر النبي ﷺ والمؤمنين، أو فضيحة المنافقين، أو إجلاء بني النضير أو غير ذلك[٥].

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء:٩٩]، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٩٩)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩).

(٢) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٢٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٥- ٤٠٦)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ١٩٩)، «الكشاف» (١/ ٣٤٤)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩- ١٣٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٤).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١٨).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٦)، «الكشاف» (١/ ٣٤٤)، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٤)، «التفسير الكبير» =

وقد حصل ذلك كله بحمد الله تعالى، فأظهر الله- عز وجل- أمر النبي ﷺ والمؤمنين، وفضح المنافقين أيّما فضيحة في سور من القرآن الكريم منها سورة التوبة، وسورة الحشر، وسورة المنافقون وغيرها، وتم إجلاء بني النضير، وضرب الجزية على من بقي من اليهود وغيرهم.

﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ الفاء عاطفة سببية، «يُصْبِحُوا» فعل مضارع ناقص منصوب، وعلامة نصبه حذف النون، معطوف على ﴿يَأْتِيَ﴾، داخل تحت خبر «عسى»، والواو اسم «يصبح».

﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ﴾، ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر، و﴿مَآ﴾ موصولة أو مصدرية في محل جر، أي: على الذي أسروه، أو على إسرارهم، متعلق بـ«يصبحوا»، ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خبر «يصبحوا».

ومعنى ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾، أي: فيصبح هؤلاء المنافقون الذين يسارعون إلى موالاة اليهود والنصارى بمعنى: يؤول أمرهم وينتهي إلى هذه الحالة وسواء أدركوا ذلك في الصباح أو في المساء أو ما بين ذلك، وكثيرًا ما يطلق الإصباح في القرآن الكريم على هذا المعنى قال تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، أي: آل أمركم إلى هذا، وقال تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥٣]، أي آل أمرهم على الخسران.

وأصل الإصباح الدخول في الصباح كما في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات:١٣٧- ١٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومعنى قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: على الذي أخفوه في أنفسهم من النفاق والشك في أمر الرسول ﷺ، وأن الغلبة ستكون لأعدائه، ومن مسارعتهم في اليهود والنصارى، وموالاتهم لهم ومخادعتهم لله وللمؤمنين كما قال تعالى عنهم: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٩][1].

=

(١٢/ ١٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١٨).

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٦- ٤٠٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٣٠)، «التفسير الكبير» (١٢/ ١٦).

﴿نَٰدِمِينَ﴾ جمع نادم، والندم: التأسف على ما حصل من الشخص فيما مضى، أي: مما يجعل المنافقين على ما أسروا في أنفسهم نادمين متأسفين.

قال ابن كثير: «﴿نَٰدِمِينَ﴾ على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم محذورًا، بل كان عين المفسدة، فإنهم فُضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين يحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾».

قال محمد رشيد[1]: «وقد صدق الله وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فخذل الله الكافرين، وفضح المنافقين، وأظهر تأويل الآيتين، وما في معناهما، وفقًا لقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٩]».

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالرفع وتكون الواو للاستئناف، والجملة مستأنفة.

وقرأ أبوعمرو ويعقوب «ويقولَ» بالنصب، عطفًا على قوله: ﴿يَأۡتِيَ﴾، أي: فعسى الله أن يأتي بالفتح، وعسى أن يقول الذين آمنوا.

وقرأ الباقون: «يقولُ» بغير واو، وبالرفع على الاستئناف[2].

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ هذه الجملة مقول القول السابق[3] والهمزة في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ للاستفهام، ومعناه: التعجب، والإشارة فيه للذين في

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٢٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١٣)، «جامع البيان» (١٠/ ٤٠٧- ٤٠٨)، «المبسوط» ص(١٦٢)، «الكشف» (١/ ٤١١)، «الدر المصون» (٢/ ٥٤٤)، «النشر» (٢٥٤).

(٣) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٣٠).

قلوبهم مرض المسارعين في اليهود والنصارى.

﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ﴾، أي: الذين حلفوا، والقسم: هو الحلف بالله أو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته- عز وجل- بأحد حروف القسم الثلاثة: الواو، والباء، والتاء.

﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، ﴿جَهۡدَ﴾ مصدر مؤكد، وهو مضاف، و﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ مضاف إليه، و«أيمان» جمع يمين، وهو الحلف، ومعنى ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، أي: آكد أيمانهم وأبلغها، وذلك بأن يُقرن اليمين بما يؤكده، إما بقرنه بشيء من أدوات التوكيد مثل «إن»، واللام، كأن يقول قائلهم: والله إني لمعكم، أو بقرنه بالشهادة، كأن يقول قائلهم: أشهد بالله وأقسم به أني معكم، أو بتكرار اليمين، كأن يقول: والله، وبالله وتالله إني معكم ونحو ذلك.

﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ جواب القسم، أي: لمعكم في الإيمان والموالاة وغير ذلك.

ومعنى الآية: ويقول الذين آمنوا تعجبًا من حال مرضى القلوب من المنافقين وغيرهم في دعواهم الإيمان مع إظهارهم المسارعة والميل والموالاة لليهود والنصارى: أهؤلاء الذين أقسموا وحلفوا بالله آكد الأيمان وأبلغها وأغلظها ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ أيها المؤمنون في الإيمان والموالاة والمناصرة وغير ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦]، وقال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة:٩٥]، وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة:٩٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ هذه الجملة يحتمل أن تكون من جملة قول المؤمنين، أي: هؤلاء ليسوا معكم، بل هم قوم حبطت أعمالهم، أو أن هذا دعاء عليهم من المؤمنين.

ويحتمل أن تكون مستأنفة، إخبارًا من الله- عز وجل- للمؤمنين أن هؤلاء- وإن تظاهروا أنهم معكم- فأعمالهم حابطة.

ومعنى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، أي: بطلت أعمالهم، وذهبت سدى لا تنفعهم، ولا يعتد بها، فلم يدركوا بها مرادهم في الدنيا، ولن يثابوا عليها في الآخرة بسبب نفاقهم

وفقدانهم أصل الإيمان.

وهذا شامل لأعمالهم التي يكيدون بها للإسلام وأهله، وأعمالهم التي يثاب على مثلها من كان مؤمنًا.

كما أن قوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ هنا شامل لقول اللسان واعتقاد القلب وفعل الجوارح، لأن العمل إذا أطلق شمل ذلك كله.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ الفاء عاطفة، و«أصبحوا خاسرين» معطوف على ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وهو نتيجة له، أي حبطت أعمالهم وبطلت، فصارت النتيجة والعاقبة الخسران.

أي: صاروا وتحولت حالهم إلى الخسران- بعد أن كانوا يعتقدون أنهم سيربحون، وأيًّا كان وقت هذا التحول في الصباح أو في غيره من الأوقات، أي: فصار هؤلاء المنافقون ومرضى القلوب بعد مجيء الفتح وإظهار أمر الرسول ﷺ وأصحابه ونصر الحق وأهله، ودحض الباطل وأهله ﴿خَٰسِرِينَ﴾ خسروا دينهم ودنياهم، وخسروا الدنيا والآخرة.

خسروا الدنيا؛ لظهور الحق وأهله على الكفر وأهله من المشركين واليهود ومَن والاهم وحالفهم من هؤلاء المنافقين وغيرهم، إذا افتضح أمر المنافقين، وكانت الدائرة عليهم وعلى مواليهم.

وخسروا دينهم وآخرتهم لنفاقهم وكفرهم، بفوات الثواب وحصول العقاب وبهذا تحققت خسارتهم العظمى كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للعناية والتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٣- أن ترك موالاة اليهود والنصارى من مقتضيات الإيمان، وأن موالاتهم تعد نقصًا في الإيمان، وقد يؤدي إلى زوال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥١].

٤- النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وتحريم ذلك، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣].

فلا تجوز موالاتهم ولا موادتهم، ولا مناصرتهم، ولا التشبه بهم، ولا مشاركتهم أو تقليدهم في احتفالاتهم وأعيادهم وعاداتهم الدينية، وأنماط حياتهم المختلفة، بل يجب أن يكون للأمة الإسلامية شخصيتها المتميزة المستقلة المستقاة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

ولا يرخص في موالاة الكفار عمومًا إلا إذا كان ذلك على سبيل التقاة عند خوف شرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران:١٢٨].

بشرط أن يكون ذلك بقدر ما يتقى به شرهم مع سلامة الباطن من تلك الموالاة.

٥- أن اليهود والنصارى في الحقيقة إنما بعضهم أولياء بعض، فاليهود يوالي بعضهم بعضًا، والنصارى يوالي بعضهم بعضًا، كما أن اليهود يوالون النصارى، والنصارى يوالون اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

بل أهل الكفر كلهم ملة واحدة، بعضهم أولياء بعض ضد المسلمين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣].

ومهما كان بينهم من خلافات أو عداوات، ومهما ادعوه من موالاة للمسلمين، فهم فيما بينهم يد واحدة ضد الإسلام والمسلمين، مما يوجب على المسلمين الحذر منهم جميعًا، وأن يكونوا يدًا واحدة ضد أهل الكفر جميعًا.

٦- أخذ بعض أهل العلم من الآية أن اليهودي يرث النصراني، والنصراني يرث اليهودي؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

قال الهراسي[١]: «حتى في التوارث بينهم» قالوا: لأنهم جميعًا أهل كتاب، أو لأن الكفار يرث بعضهم بعضًا.

والصحيح أن اليهودي لا يرث النصراني ولا العكس، لقوله ﷺ: «**لا توارث بين أهل ملتين شتىٰ**»[٢] وهذا الحديث نص في عدم التوارث بينهم.

٧- أن من تولى اليهود والنصارى فهو منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ وفي هذا أبلغ التحذير، وأشد التهديد والوعيد لمن تولاهم فمن تولاهم بالنصرة والمعاونة فهو منهم ظاهرًا وفي الحديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[٣].

وقد تؤدي موالاتهم إلى محبتهم واتباعهم ظاهرًا وباطنًا.

قال القرطبي في كلامه على الآية[٤]: «بيَّن تعالى أن حكمه كحكمهم... ثم هذا الحكم باق إلى يوم القيامة في قطع الموالاة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود:١١٣]، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٨]».

---

(١) في «أحكام القرآن» (٢/ ٨٢).

(٢) أخرجه أبوداود في الفرائض (٢٩١١)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٣١)، وأحمد (٢/ ١٩٥)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده. وحسنه الألباني وأخرجه الترمذي في الفرائض (٢١٠٩)، من حديث جابر- رضي الله عنه- وقال: «حديث غريب».

(٣) أخرجه أبوداود في اللباس (٤٠٣١)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٧)، وأحمد (٢/ ٥٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال محيي الدين عبدالحميد في «التعليق على أبي داود»: «قال السخاوي عن هذا الحديث: فيه ضعف ولكن له شواهد». وقال ابن تيمية: «سنده جيد» وقال ابن حجر في «الفتح»: «سنده حسن».

وقال الهيثمي في «مجمع الزائد» (٦/ ٤٩): «رواه أحمد، وفيه عبدالرحمن بن ثابت وثقه ابن المديني وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات». وقال الألباني: «حسن صحيح». وقال أحمد شاكر في «تخريجه للمسند» حديث رقم (٥١١٤، ٥١١٥، ٥٦٦٧): «إسناده صحيح».

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢١٧).

قال الزمخشري[١]: «﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾: من جملتهم، وحكمه حكمهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين، واعتزاله، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا تراءى ناراهما**»[٢].

وقد روي عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: «قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي كاتبًا نصرانيًا، فقال: مالك؟ ألا اتخذت حنيفيًا، أما سمعت قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ قلت: له دينه، ولي كتابته. فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله. قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به. فقال: مات النصراني والسلام»[٣].

يعني هب أن النصراني قد مات فما تصنع بعده[٤].

قال ابن العربي[٥]: «وذلك لأنه لا ينبغي لأحد من المسلمين ولي ولاية أن يتخذ من أهل الذمة وليًّا فيها لنهي الله عن ذلك، لأنهم لا يخلصون النصيحة، ولا يؤدون الأمانة بعضهم أولياء بعض، وليس من موالاتهم التعامل معهم في البيع والشراء ونحو ذلك؛ لأن النبي ﷺ تعامل معهم، واشترى منهم، وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير»[٦].

وقال ابن عطية[٧]: «نهى الله تعالى بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة وحكم هذه الآية باق، وكل من أكثر من مخالطة هذين الصنفين فله حظ من هذا المقت الذي تضمنه قوله تعالى:

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٧٨٧)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٣) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٤٤).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٣٤)، «التفسير الكبير» (١٢/ ١٥).

(٥) في «أحكام القرآن» (٢/ ٦٣٤).

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩١٦)، من حديث عائشة- رضي الله عنها- والترمذي في البيوع (١٢١٥)، من حديث أنس رضي الله عنه. وابن ماجه في الرهون (٢٤٣٨، ٢٤٣٩)، وأحمد (١/ ٢٣٦)، من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها.

(٧) في «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٦).

﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

وأما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملابسة فلا تدخل في النهي، وقد عامل النبي ﷺ يهوديًّا ورهنه درعه».

وليس من موالاتهم الإحسان إليه إذا لم يكونوا محاربين للمسلمين، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وقال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»(١).

وهذا عام في- كل ضيف وفي كل جار مؤمنًا كان أو كافرًا.

وليس من موالاتهم أن يناصرهم المسلمون على من هو أشد منهم عداوة وأذية للمسلمين، من باب دفع أشد الضررين بأخفهما، لأن هذا مراعاة فيه مصلحة المسلمين، لا مصلحة اليهود والنصارى، وإن كانوا سينتفعون بهذه النصرة، لكن لو روعيت في مناصرتهم منفعتهم هم فإنها لا تجوز.

وليس من موالاتهم الاستعانة بهم واستخدامهم كأجراء في بعض الأعمال الخاصة إذا أمنت خيانتهم كالتطبيب والهندسة والعمران ونحو ذلك، دون الأعمال والمصالح العامة فلا يجوز توليتهم إياها، والاستغناء عنهم مطلقًا أولى.

٨- أخذ بعضهم من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أن المسلم لا يرث المرتد؛ لأن هذا يدل على أن من ترك دين قوم فليس منهم، ومن دان دينهم فهو منهم، والأظهر من أقوال أهل العلم أن المسلم يرث المرتد، دون العكس وليس في إرثه له موالاة له(٢).

٩- التحذير من الظلم والمعاصي وأنها سبب لعمى القلوب والحيرة وعدم معرفة الحق،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في الأيمان (٤٨)، وأبوداود في الأطعمة (٣٧٤٨)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٢)، من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٨٣)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٤٤).

وعدم قبوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

١٠- أن مَنْ حَكَم الله تعالى وقضى كونًا بضلاله فلا سبيل لهدايته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦- ٩٧].

١١- أن موالاة اليهود والنصارى ظلم؛ لأن الله بعد أن نهى عن موالاتهم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

١٢- الرد على القدرية القائلين بأن العبد يخلق فعل نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهذا يدل على أن أمر العباد وهدايتهم بيد الله عز وجل، وأن العبد لا يستقل بفعل نفسه هداية أو إضلالًا، بل كل ذلك مربوط بمشيئة الله- عز وجل- كما قال عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

١٣- مسارعة مرضى القلوب من المنافقين إلى موالاة اليهود والنصارى خوفًا على أنفسهم من دوائر الدهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ [المائدة:٥٢].

١٤- التحذير الشديد من المسارعة في اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، مناصرة لهم ومودة، وأن ذلك إنما يصدر من المنافقين والذين في قلوبهم مرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾.

١٥- اتكال ضعاف الإيمان ومرضى القلوب من المنافقين وغيرهم على الأسباب المادية؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾.

١٦- البشارة للمؤمنين بالفتح لهم وإظهار أمرهم على من سواهم وفضيحة المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾، وعسى من الله واجبة كما قال المفسرون.

وقد روي عن الحسن البصري- رحمه الله- أنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه إلا أن يتوب».

١٧- التحذير من النفاق والكفر والمعاصي، وأن مآل أهل هذه الأعمال وعاقبتهم إلى الندم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾.

١٨- ندم المنافقين على ما أسروا في أنفسهم من موالاة اليهود والنصارى والنفاق والمخادعة للمؤمنين، حيث لا ينفعهم الندم، وذلك بعد ظهور الحق وعلو كلمته وافتضاح أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾.

١٩- الدلالة على صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾، وقد حصل ذلك كله.

٢٠- تعجب المؤمنين من أحوال المنافقين وإقسامهم بالله الأيمان المؤكدة والمغلظة أنهم مع المؤمنين، إيمانًا، وموالاة، ونصرة، وهم بخلاف ذلك يبطنون في قلوبهم النفاق، ويوالون غير المؤمنين من اليهود وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ﴾.

٢١- جواز التعجب ممّن يثير حاله العجب؛ لأن الله ذكر هذا عن المؤمنين وأقرهم عليه، ولا يكون هذا من باب الغيبة- ولكن هذا- والله أعلم- فيما إذا كان التعجب بمسوغ كالإشارة إلى ما آل إليه حال هؤلاء المنافقين وسوء عاقبتهم[1] والتحذير منهم والتذكير بأن العاقبة للتقوى ونحو ذلك.

٢٢- إقسام المنافقين وحلفهم الأيمان المغلظة أنهم مع المؤمنين، وهم كذبة؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٤١٨).

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون:١- ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦]،

وقال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(١).

٢٣- أن أعمال المنافقين كلها حابطة باطلة، سواء منها ما أرادوا به الكيد للإسلام وأهله، أو حماية أنفسهم، كموالاة اليهود وغيرهم من أهل الكفر.

وكذا ما عملوه من أعمال صالحة في الظاهر مع خراب بواطنهم وفقدان أصل الإيمان عندهم، فلا يثابون عليها في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

٢٤- تحقق خسارة المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم وخسروا الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣)، ومسلم في الأيمان (٥٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

نهى الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، وبيَّن أن موالاتهم مستدعية للردة بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: ٥١].

وفضح المنافقين في مسارعتهم إلى موالاتهم وتبريرهم لأنفسهم وبيّن حبوط أعمالهم وخسارتهم، ثم أكّد ذلك بتحذير المؤمنين من الردة، وبيان غناه عمن ارتد.

وفي هذا عَلَم من أعلام نبوته، ودلالة على إعجاز القرآن، فقد وقع ما حذر منه حيث ارتد بعض طوائف العرب في حياته ﷺ، وكثير منهم بعد وفاته.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾ صدَّر- عز وجل- خطاب المؤمنين بالنداء تنبيهًا على خطر الردة، وناداهم بوصف الإيمان تحذيرًا من الردة وبيانًا لمنافاتها ومناقضتها للإيمان.

والخطاب عام لجميع المؤمنين، وأول من يدخل فيه من ارتدوا في عهد النبي ﷺ وبعد وفاته.

﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر: «يرتدد» بدالين، الأولى

مكسورة والثانية مجزومة، وقرأ الباقون بدال واحدة مشددة: ﴿يَرْتَدَّ﴾، و﴿مَن﴾: شرطية.

﴿يَرْتَدَّ﴾: فعل الشرط، أي: من يرجع منكم عن دينه، أي: يعود إلى الكفر بعد الإيمان، إما جحودًا وتكذيبًا بالدين، وإما استكبارًا عن الامتثال والانقياد، والمراد: فلن يضر الله شيئًا؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ جملة جواب الشرط، وربط بالفاء لاقترانه بـ«سوف».

و«سوف» للتحقيق والتأكيد مع التراخي.

﴿يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾، أي: يجيء بقوم غير المرتدين، أي: بقوم يؤمنون ولا يرتدون عن دينهم. والقوم: الجماعة والطائفة من الناس.

ومن أول من يدخل في هؤلاء القوم أبوبكر وأصحابه- رضوان الله عليهم- الذين قاتلوا المرتدين، وكل من اتصف بالصفات المذكورة منذ عهد النبوة وإلى قيام الساعة، وليس ذلك خاصًّا بأناس بعينهم من أهل اليمن أو الأنصار أو غيرهم.

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

هذه جمل كلها في محل جر صفات لـ«قوم» لأن الجمل بعد النكرات صفات.

أي: إن ارتددتم عن دينكم فلن تضروا الله شيئًا، ولن تضروا الدين شيئًا، بل سيأتي الله بقوم هذه صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

﴿يُحِبُّهُمْ﴾، أي: يحبهم سبحانه وتعالى، لإيمانهم واتباعهم رسوله ﷺ، وصفاتهم المذكورة.

وقدَّم محبة الله تعالى لهم؛ لأنها أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم وهي أجل صفاتهم.

﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ معطوف على ﴿يُحِبُّهُمْ﴾، أي: ويحبونه لعظم فضله- عز وجل- عليهم؛ خلقهم وهداهم للإيمان، ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه، وفي الحديث: «**أحبوا الله لما**

يغذوكم من نعمه»[١]؛ ولهذا يجب تقديم محبة الله- عز وجل- على كل محبة.

ومن آثار محبته- عز وجل- لهم توفيقه لهم، وإلقاء محبتهم في قلوب العباد، ومغفرته لهم وإكرامهم.

ومن لازم محبتهم له اتباع رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: متذللين مشفقين على المؤمنين، عاطفين عليهم، متضامنين معهم، ومتواضعين لهم، رحماء بهم.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وإن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغ أحد على أحد**»[٢].

قال ابن القيم[٣]: لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدَّاه بأداة «على» تضمينًا لمعاني هذه الأفعال. فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذلك اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول، كما في الحديث: «**المؤمن كالجمل الذلول، والمنافق والفاسق ذليل**»[٤].

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: أعزاء على الكافرين، يُرُونهم القوة والمنعة والغلبة، والاعتزاز بما هم عليه من الدين.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٧٨٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الجنة- الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، وأبوداود في الأدب (٤٨٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٩)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١١٥).

(٤) لم أجده بهذا اللفظ وقد أخرج الإمام أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه في المقدمة- اتباع سنة الخلفاء الراشدين، والحاكم (١/ ٩٦)، من حديث العرباض بن سارية- رضي الله عنه- بعضه بمعناه، وأوله: «**تركتكم على البيضاء... فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد**».

فجمعوا بين اللين والرحمة والعطف والشفقة على إخوانهم المؤمنين وبين القوة والشدة والغلظة على الكافرين كما قيل:

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين العداة مهيب(١)

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يبذلون جهدهم ووسعهم وطاقتهم بأموالهم وأنفسهم وأقوالهم وأفعالهم.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في طريقه ودينه، وإعلاء كلمته، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: فهو في سبيل الله**»(٢).

والجهاد في سبيل الله من أعظم العلامات الدالة على صدق الإيمان؛ لما فيه من المشقة وبذل النفس والنفيس.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، «لا»: نافية، تفيد عموم النفي في الفعل وفي المفعول وفي المضاف إليه.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، ﴿لَوْمَةَ﴾ فعلة من «اللوم» وهو العذل، أي: لا يخافون مطلقًا أيَّ لوم قل أو كثر، من أي لائم كان، من قريب أو بعيد، أي: لا يخافون لوم لائم، ولا عذل عاذل على ما هم عليه من محبتهم لله تعالى وذلتهم على المؤمنين وعزتهم على الكافرين، وجهادهم في سبيل الله؛ لأنهم يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين؛ لقوة هممهم وعزائمهم.

عن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع.. وذكر منهم: «**وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًّا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرًا لله فيه مقال فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس، فيقول: إياي أحق أن تخاف**»(٤).

---

(١) البيت لمحمد بن كعب الغنوي. انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص٥٦٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٩، ١٧٣).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٧٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٨).

قال الشاعر:

لا كـان مـن لسـواك فيـه بقيـة ... يجـد السـبيل بهـا إليـه اللّـوم[١]

قال ابن القيم[٢]: «فالأقسام ثلاثة: أحدها من يصده اللوم عن محاب الله، والثاني: من لا تأخذه في الله لومة لائم، والثالث: من يظهر ما يلام عليه إخفاء لقيامه بمحاب الله، فالأول مفرط، والثالث مؤمن ضعيف، والوسط هو الخيار، وهو المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وأعلى ما يحبه الله ورسوله الجهاد في سبيل الله، واللائمون عليه كثير، إذ أكثر النفوس تكرهه، واللائمون عليه ثلاثة أقسام: منافق، ومخذل مفتر للهمة، ومرجف مضعف للقوة والقدرة»

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى الاتصاف بالصفات الست المذكورة، ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ عطاؤه وزيادته، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، «من»: موصولة، أي: يعطيه الذي يشاء من عباده- بحكمته عز وجل. فمن اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله تعالى عليه، وتوفيقه له.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾، أي: ذو سعة في فضله، ورحمته ومغفرته وعفوه، وفي جميع صفاته.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠]، وقال حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

فهو- عز وجل- عليم بمن يستحق هذا الفضل ممن لا يستحقه، عليم بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى وبيَّن أن بعضهم أولياء بعض، وأنهم ليسوا بأولياء للمؤمنين، ثم حصر في هذه الآية ولاية المؤمنين فيه- عز وجل- وفي رسوله والذين آمنوا، فهي كالتعليل للنهي السابق.

قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: ما وليكم إلا الله ورسوله والذين آمنوا؛ لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كما قال تعالى:

---

(١) البيت بلا نسبة كما في «مدارج السالكين» (٣/ ٢٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١١٤).

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١]، وليس اليهود والنصارى بأوليائكم، وإنما بعضهم أولياء بعض.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، «الذين»: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة للموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الجملة لا محل لها من الإعراب صلة الموصول، هي وجملة ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المعطوفة عليها، وجملة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ كلها صفات للذين آمنوا.

فجمعوا بين الإيمان والعمل بين إيمان الباطن وعمل الجوارح.

ومعنى ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: يقيمونها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها- كما شرعها الله تعالى؛ ولهذا لم يقل: «يصلون» بل قال: ﴿يُقِيمُونَ﴾.

والصلاة في اللغة: الدعاء. **وفي الشرع**: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطون الزكاة الواجبة في أموالهم لمستحقيها.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة. **وفي الشرع**: حق مالي مخصوص في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص.

﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، أي: وهم خاضعون لله- عز وجل- منقادون له ولشرعه، مديمون لطاعته، يتقربون إليه بالنوافل بعد الفرائض.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

حصر- عز وجل- في الآية السابقة ولاية المؤمنين فيه- عز وجل- وفي رسوله والذين آمنوا، ثم بيَّن في هذه الآية ثمرة موالاة الله ورسوله والمؤمنين، وهي كون من والاهم هم حزب الله الغالبون.

قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية. ﴿يَتَوَلَّ﴾: فعل الشرط، أي: ومن يجعل وليه الله ورسوله والمؤمنين، أي: يتخذ الله ورسوله والمؤمنين أولياء يحبهم ويناصرهم.

وموالاة الله- عز وجل- بمحبته واتباع شرعه ونصرة دينه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ﴾ [الحج:٤٠].

وموالاة رسوله ﷺ تكون أيضًا بمحبته واتباع سنته، ومناصرته ﷺ في حياته، ومناصرة سنته واتباعها بعد وفاته.

وموالاة الذين آمنوا بمحبة بعضهم بعضًا ومناصرة بعضهم بعضًا على الحق.

﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ دليل جواب الشرط، بذكر علة الجواب، كأنه قيل: فهم الغالبون؛ لأنهم حزب الله، والفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنَّ»: للتوكيد.

و﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾: أنصاره وأتباع دينه، وهم من تولى الله ورسوله والذين آمنوا.

﴿هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل للتوكيد، ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ خبر «إنَّ».

وقدَّم قوله: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على أن غلبهم بسبب كونهم حزب الله.

و﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ جمع «غالب»، أي: الغالبون لغيرهم، أي: الذين لهم الغلبة والعاقبة في الدنيا والآخرة، بنصر الله تعالى لهم في الدنيا على أعدائهم وتمكينهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النور:٥٥].

وإن فاتهم شيء من النصر الظاهر لحكمة يعلمها الله فإن العاقبة لهم؛ لأنهم على الحق، كما أنهم الغالبون في الآخرة مطلقًا؛ لأن مآلهم إلى الجنات والنعيم ومآل عدوهم إلى النار والجحيم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾.

نهى الله- عز وجل- في الآيات السابقة عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ثم أكد ذلك بالنهي عن اتخاذهم وغيرهم من الكفار أولياء، مبينًا موجب هذا النهي وموجب هذا التأكيد وهو اتخاذهم دين المسلمين هزوًا ولعبًا.

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ قرأ حفص بضم الزاي وإبدال الهمزة

واوًا: ﴿هُزُوًا﴾. وقرأ خلف بالهمزة وسكمون الزاي: «هُزْءًا». وقرأ الباقون بضم الزاء وبالهمز: «هُزُؤًا».

﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، أي: لا تجعلوا وتصيروا، وهي تنصب مفعولين، الأول: الاسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ والثاني قوله: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، أي: الذين جعلوا وصيروا ﴿دِينَكُمْ﴾ مفعول أول لـ﴿اتَّخَذُوا﴾، أي: جعلوا دينكم، أي: عملكم الذي تدينون الله به، أي: تعملونه وترجون ثوابه من الله تعالى، من صلاة وغير ذلك؛ لقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [الآية:٥٨].

﴿هُزُوًا﴾ المفعول الثاني لـ: ﴿اتَّخَذُوا﴾، أي: محل استهزاء وسخرية بألسنتهم.

﴿وَلَعِبًا﴾ معطوف على ﴿هُزُوًا﴾، أي: واتخذوا دينكم (لعبًا)، واللعب: ما ليس له فائدة ولا ثمرة، أي: اعتقدوا واعتبروا دينكم، أي: عملكم من صلاة ونحوها (لعبًا) أي: ليس له فائدة.

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾، ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠]، فيها بيان الموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، أي: بيان للذين اتخذوا دين المؤمنين هزوًا ولعبًا، وأنهم أهل الكتاب والكفار. وقدم وصفهم باتخاذهم دين المؤمنين هزوًا ولعبًا للتنفير منهم ومن موالاتهم.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هم اليهود والنصارى، وقوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ لبيان الواقع، فهم قبلنا زمنًا، وأعطوا الكتاب من قبلنا.

﴿وَالْكُفَّارَ﴾ قرأ أبوعمرو والكسائي ويعقوب: «والكفارِ» بالجر عطفًا على ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ﴾، أي: ولا تتخذوا الكفار أولياء، أي: لا تتخذوا هؤلاء وهؤلاء، والمراد بالكفار المشركون.

فعلى قراءة الجر يكون التقدير: لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من الذين

أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار أولياء. فتفيد هذه القراءة أن كلًا من أهل الكتاب ومن الكفار نُهي المؤمنين عن اتخاذهما أولياء، وكلًا منهما اتخذ دين المؤمنين هزوًا ولعبًا.

والتقدير على قراءة النصب: لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب ولا تتخذوا الكفار أولياء- وتفيد هذه القراءة النهي عن اتخاذ الكفار أولياء مطلقًا سواء اتخذوا ديننا هزواً ولعبًا أو لم يتخذوه.

و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جمع «ولي» وهو النصير والمعين، أي: لا تجعلوهم أولياء توادونهم وتناصرونهم وتستنصرون بهم وتستعينون.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اتخذوا وقاية من عذاب الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك عدم موالاة أهل الكتاب والكفار. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿كُنتُم﴾: فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما قبله، أي: إن كنتم مؤمنين حقًا صادقين في إيمانكم فاتقوا الله، ولا توالوا أهل الكتاب والكفار.

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران:٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

نهى- عز وجل- في الآية السابقة عن اتخاذ الذين اتخذوا ديننا هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب والكفار أولياء ثم بيّن ذلك في هذه الآية بذكر حالهم عند نداء المؤمنين إلى الصلاة، لأنها أعظم وأظهر شعائر الدين ويغيظهم إقامة المسلمين لها.

قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿نَادَيْتُمْ﴾: فعل الشرط، وجوابه ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تفسير لـ«الدين» في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، وبيان أن المراد به العمل بالدين بإقامة الصلاة ونحو ذلك.

أي: إذا ناديتم ودعوتم إلى الصلاة بالأذان لها: الله أكبر، الله أكبر... إلخ.

والمراد بـ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الصلاة التي يشرع لها الأذان، وهي الصلوات الخمس وصلاة

الجمعة.

﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، أي: جعلوها محل استهزاء وسخرية، واعتبروها لعبًا ليس لها فائدة لثقلها عليهم، كما هو حال الشيطان: «**إذا سمع الأذان أدبر وله ضراط**» كما قال ﷺ(١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الإشارة إلى المصدر المأخوذ من قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، أي: إلى اتخاذهم الصلاة هزوًا ولعبًا.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾، أي: ليس لهم عقول راشدة تهديهم إلى الحق وتحجزهم عن الباطل، كما قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، أي: لذي لب وعقل يحجر صاحبه عما لا ينبغي.

فهم- وإن كانت لهم عقول وأفهام يدركون بها، وهي التي عليها مناط التكليف، كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستقيظ، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق**»(٢). فليس لديهم عقول راشدة تهديهم إلى الحق.

والعقل عقلان: عقل هو مناط المدح والذم، وهو عقل الرشد في الدين، يمدح المرء بوجوده، ويذم بفقدانه.

وعقل هو مناط التكليف، وهو عقل الإدراك لا يكلف المرء إلا بوجوده.

فمن استهزأ بالصلاة واعتبرها لعبًا فهو غير عاقل بل سفيه جاهل، ولو ادعى العقل والرشد، وأي عقل لمن استهزأ بالصلاة أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين وعمود الإسلام التي يدور عليها رحاه، والتي هي صلة بين العبد وبين ربه يقف فيها المسلم يناجي ربه- عز وجل- بلا حجاب، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- فضل التأذين (٦٠٨)، ومسلم في الصلاة- فضل الأذان (٣٨٩)، وأبوداود في الصلاة- رفع الصوت بالأذان (٥١٦)، والنسائي في الأذان- فضل التأذين (٦٧٠)، وأحمد (٢/ ١١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

قال المتنبي[١]:

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين اتخذوا دينكم وصلاتكم هزوًا ولعبًا- مجادلًا ومناظرًا لهم.

﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾، ﴿هَلْ﴾ للاستفهام، ومعناه هنا النفي لمجيء الاستثناء بعده وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾، أي: ما تنقمون منا إلا أن آمنا، كما قال تعالى في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].

ومجيء النفي بصيغة الاستفهام يشعر بالتحدي، أي: ما تعيبون منا شيئًا من الأشياء، ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾وهذا ليس بعيب، بل هو كمال، وليس بذم، بل هو مدح، فلا مطعن لكم علينا.

وهذا الأسلوب يسمى في البلاغة بـ«تأكيد المدح بما يشبه الذم»، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة:٧٤]، وقوله ﷺ: «**ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرًا فأغناه الله**»[٢].

وقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[٣]

بهن فلول: أي: قد تثلمت سيوفهم من قراع الكتائب لشجاعتهم.

أي: لا عيب فيهم إلا شجاعتهم، أي: إلا أنهم شجعان، وهذا كمال لا عيب، ومدح لا قدح.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٨)، ومسلم في الزكاة (٩٨٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٢٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت للنابغة. انظر: «ديوانه» ص٤٥.

﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، و﴿أَنۡ﴾ والفعل ﴿ءَامَنَّا﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿تَنقِمُونَ﴾، والتقدير: ما تنقمون منا إلا إيماننا بالله.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، «ما»: موصولة في الموضعين، أي: وآمنا بالذي أنزل إلينا، وهو القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾، أي: وآمنا بالذي أنزل على الرسل وأممهم من قبلنا كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وغيرها من الكتب التي أنزل الله تعالى على رسله على وجه الإجمال.

وهذا لعمر الله عين الكمال، وإنما العيب والنقمة ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ومن كفر ببعض الكتب لم ينفعه إيمانه ببعضها بل هو كافر بها كلها وبكتابه.

ويظهر أن هؤلاء في نقمتهم من المؤمنين يرون أنهم وما هم عليه من الدين شر، وأنهم على ضلال بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٦٠].

﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة في محل جر عطفًا على لفظ الجلالة في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ والتقدير: هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله، وآمنا بأن أكثركم فاسقون، وقيل: الواو للمعية، والتقدير: مع أن أكثركم فاسقون، أي: فكيف تقدحون بالمؤمنين مع أن أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله تعالى، ولم يقل: «ولكنكم فاسقون»؛ لأن منهم من آمن كالنجاشي من النصارى وعبدالله بن سلام من اليهود وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة نقمة أهل الكتاب والكفار على المؤمنين إيمانهم بالله

وما أنزل إليهم وما أنزل من قبل وعيبهم لهم في ذلك، وفحوى ذلك ومضمونه- حسب زعمهم الباطل- أن هذا شر وضلال وقع فيه المسلمون، فبيَّن عز وجل في هذه الآية- على سبيل المثال والتنزل معهم- أن ما هم فيه وما هم عليه أشر وأشد مثوبة عند الله تعالى باؤوا به بلعنة الله وغضبه ومسخه لهم قردة وخنازير وعبد الطاغوت فذلك أشر مكانًا وأضل عن سواء السبيل.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾، أي: قل يا محمد هل أخبركم، والنبأ: الخبر الهام، والخطاب لأهل الكتاب، اليهود والنصارى، وجاء بصيغة الاستفهام؛ ليكون أمكن للنفس وأحضر للقلب.

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾، الإشارة إلى الإيمان في قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية، باعتبار أنه منقوم على سبيل الفرض والتنزل معهم، أي: بشر من ذلك الذي نقموه منا؛ وهو إيماننا بالله... إلخ.

و«شر»: اسم تفضيل، وأصلها «أشر»، أي: بما هو أشر، أي: أشد شرًّا من ذلك.

﴿مَثُوبَةً﴾: منصوبة على التمييز؛ لأنها مفسرة لما أبهم في اسم التفضيل «شر».

ومعنى ﴿مَثُوبَةً﴾، أي: عاقبة وجزاء ومنزلة.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكمه وجزائه ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، أي: وهم أنتم أيها الناقمون منا.

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو من لعنه الله، أي: هو الذي لعنه.

والمعنى: قل هل أنبئكم بأشر مما نقمتم منا عاقبة وجزاء ومنزلة عند الله: من لعنه الله، وهم أنتم أيها الناقمون منا.

ومعنى ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: طرده وأبعده عن رحمته وجنته، وهم اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨].

وقال ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١).

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: ومن غضب عليه الله، وهم كل من عرف الحق وتركه، وفي مقدمتهم اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧].

وفي حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**المغضوب عليهم اليهود الضالون والنصارى**»(٢).

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، أي: «وسخط عليه»، وغضب الله وسخطه أشد من لعنته؛ لأنه سبب للانتقام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ جمع الضمير ﴿مِنْهُمُ﴾ مراعاة لمعنى ﴿مَن﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ فمعناها الجمع، أي: وصيَّر منهم، أي: من بني إسرائيل.

﴿ٱلْقِرَدَةَ﴾ جمع «قرد»، وهو الحيوان المعروف، وهو أشبه شيء بالإنسان وذلك بسبب أنهم لما حرم الله عليهم صيد الحيتان في يوم السبت، وابتلاهم بكثرتها في هذا اليوم تحيلوا على صيدها في هذا اليوم بوضع الشباك لها يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت أمسكتها الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها تحايلًا منهم على المحرم بما يشبه ظاهره الحلال؛ ولهذا مسخهم الله قردة، وهي أشبه شيء بالإنسان والجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣١)، والنسائي في المساجد (٧٠٣)، من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وأحمد (٤/ ٣٧٨- ٣٧٩)، وإسناده صحيح.

نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

وظاهر القرآن أنهم مسخوا قردة حقيقةً وحسًّا، وعليه جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم؛ لأن الأصل هو الحقيقة- وذلك على الله يسير، وهو على كل شيء قدير.

وقيل: إنهم مسخوا قردة معنىً لا حسًّا، فصاروا كالقرود في عقولهم وأفكارهم.

﴿وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡقِرَدَةَ﴾، أي: وجعل منهم الخنازير، و«الخنزير» هو الحيوان المعروف عديم الغيرة.

فجعل الله من بني إسرائيل خنازير بسبب عصيانهم وعنادهم، ولهذا صاروا معدومي الغيرة، يُهدون نساءهم في سبيل إفساد أخلاق الأمم.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ قرأ حمزة: «وعَبُدَ» بضم الباء اسم مفرد منصوب عطفًا على ﴿ٱلۡقِرَدَةَ﴾ وكسر التاء من «الطَّاغُوتِ»؛ لإضافته إلى «عَبُدَ»، أي: وجعل منهم القردة، وجعل منهم الخنازير، وجعل منهم عَبُدَ الطاغوتِ.

وقرأ الباقون: ﴿وَعَبَدَ﴾ فعلًا ماضٍ فيه ضمير مستتر يعود على الموصول ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ فتكون «عَبَدَ» معطوفة على صلة الموصول ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: من لعنه الله، ومن غضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت.

و﴿ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ مفعول به منصوب لـ«عَبَدَ» و﴿ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ من الطغيان والتجاوز، وهو عام في كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله. والقراءتان مؤداهما واحد، وهو أن أهل الكتاب عبدوا الطاغوت باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم.

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة:٣١].

وفي حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] فقلت له: إنا لسنا نعبدهم قال: «**أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله**

فتحلونه؟» قال: نعم، قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ الإشارة إلى المذكورين في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾، أي: الموصوفون بالصفات الأربع: اللعنة، والغضب، والمسخ قردة وخنازير، وعبادة الطاغوت.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لحقارتهم ودنو منزلتهم؛ لوجود هذه الصفات الحقيرة فيهم، أي: أولئك شر مكانًا من المؤمنين في الدنيا والآخرة.

و﴿شَرّٞ﴾: اسم تفضيل وأصله «أشر».

﴿مَّكَانٗا﴾: تمييز، وهو يشمل المكان الحسي، وهو مكان النزول، والمكان المعنوي، وهو المكانة والمنزلة.

أي: هؤلاء الموصوفون بما ذكر أشر مكانًا، أي: أشر منزلًا؛ لأن مكان نزولهم النار وبئس القرار، وأشر منزلة؛ لأنهم الأرذلون الأذلون.

أما المؤمنون فمكان نزولهم خير منزل، وهي الجنة دار المقربين والأبرار، ومنزلتهم أشرف المنازل؛ لأنهم الأعلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ معطوف على ﴿شَرّٞ﴾، أي: أولئك شر.. وأولئك أضل.

﴿وَأَضَلُّ﴾ اسم تفضيل، أي: أولئك الموصوفون بما ذكر أشد ضلالًا من المؤمنين عن سواء السبيل.

﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: عن السبيل السواء، أي: عن الطريق الوسط السوي المستقيم.

والمفاضلة في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾ لا تدل على أن ما عليه المؤمنون من الإيمان فيه شر، كما أن المفاضلة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ لا تدل

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير بنحوه (٣٠٩٥)- وقال: «حديث غريب»- وذكره في «تيسير العزيز الحميد» ص(٥٥١).

على أن مكان المؤمنين وهي الجنة والمنزلة العالية فيه شر، كما لا يدل قوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ على أن المؤمنين فيهم وفي مسلكهم شيئًا من الضلال؛ لأن المفاضلة قد تكون بين أمرين أو طرفين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، أي: خير مستقرًا وأحسن مقيلًا من أهل النار، ومعلوم أن النار لا خير فيها ولا حسن البتة، بل هي شر محض. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] أي: وهو هين عليه. وليس معنى ذلك أن هناك ما هو هين عليه، وما هو غير هين. بل كل شيء هين عليه عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

إضافة إلى أنه قد يكون إجراء المفاضلة على هذا النحو من باب التنزل مع الخصم؛ لأن أهل الكتاب والكفار يزعمون أن ما عليه المؤمنون من الإيمان شر، وأنهم أشر مكانًا وأضل عن سواء السبيل.

الفوائد والأحكام:

١- التحذير من الردة والرجوع من الإيمان إلى الكفر، ومن الحق إلى الباطل، والوعيد للمرتد؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِى۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وهذا من دلائل إعجاز القرآن حيث ارتد من ارتد في حياته ﷺ، وارتد كثيرون بعد وفاته.

وحكم المرتد في الدنيا أنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ومن تاب قبلت توبته بأي موجب كانت ردته، سواء كانت برجوعه إلى الكفر كلية، أو بالابتداع، أو النفاق، أو سب الله تعالى، أو سب الرسول ﷺ، أو سب كتاب الله، أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ

مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

فبيَّن عز وجل في هذه الآية أن سب الله تعالى وآياته ورسوله كفر. وأنه إن يعف عن طائفة- أي: يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم- يعذب طائفة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

فتوعَّد- عز وجل- المنافقين في هذه الآية بما يدل على شدة كفرهم واستثنى مَن تاب منهم وأصلح واعتصم بالله وأخلص دينه لله.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

والردة من الذنوب التي يغفرها الله إذا أناب صاحبها إلى ربه وأسلم له.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

فوعد الله تعالى بالتوبة على من تابوا من أعظم الذنوب الشرك، وكذا من تاب من القتل العمد والزنا.

ولا يُقتل ممن تابوا عن الردة، إلا من سب الرسول ﷺ فإنه يُقتل وإن تاب من ذلك؛ لأن هذا حق آدمي لا تسقطه التوبة، فلابد أن يثأر له ﷺ بقتل من سبه بعد وفاته.

أما في حياته ﷺ فالأمر إليه ﷺ، وقد روي أن أناسًا سبوه في حياته فعفا عنهم.

أما من سب الله تعالى فقد أخبر- عز وجل- أنه يتوب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦].

٢- أنه لا أحد من البشر في عصمة من الردة فيما عدا الرسل- عليهم الصلاة والسلام-

حتى الرعيل الأول الذين بعث فيهم الرسول ﷺ؛ لهذا جاء التحذير لهم من ذلك، وهو تحذير لغيرهم من باب أولى؛ ولهذا نقول كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكان ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»(١).

٣- غنى الله تعالى عن الخلق، فلا ينفعه إيمان من آمن منهم، ولا يضره كفر من كفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وفي حديث أبي ذر- رضي الله عنه- فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(٢).

٤- قدرة الله تعالى العظيمة وقوته، فمن تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإنه يستبدله بغيره ممن هو خير منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٦، ١٧].

٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى، وأنه- سبحانه- يحب من آمن واتبع رسوله ﷺ، واتصف بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الآية.

وفي هذا رد على المعتزلة والجهمية وغيرهم ممن ينفون المحبة عن الله، أو يؤولونها كالأشاعرة.

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧).

٦- أن المرتدين مبغضون عند الله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

٧- أن من علامات الإيمان محبة الله تعالى والاتصاف بالصفات المذكورة في الآية.

٨- الثناء على أهل هذه الصفات المذكورة والترغيب في الاتصاف بها، وهي محبة الله تعالى لهم، ومحبتهم له، وذلتهم على المؤمنين، وعزتهم على الكافرين، وجهادهم في سبيل الله، وعدم خوفهم في الله لومة أيِّ لائم من الخلق، على ما هم عليه من الحق.

٩- إثبات أفعال الله تعالى الاختيارية المرتبطة بمشيئته، وأنه سبحانه فعّال لما يريد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾، وفي هذا رد على الذين ينكرون ذلك من أهل البدع كالأشاعرة وغيرهم.

١٠- ينبغي أن يكون المؤمن ذليلًا على إخوانه المؤمنين متواضعًا لهم رحيمًا بهم شفيقًا عليهم، وقويًّا عزيزًا على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فامتدحهم- عز وجل- بكونهم أذلة على المؤمنين، وكونهم أعزة على الكافرين.

١١- فضيلة الجهاد في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يبذلون جهدهم بأنفسهم وأموالهم في القتال؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، ووفق شرعه.

١٢- ينبغي للمؤمن ألا يخاف في الله لومة لائم؛ في إقامة شرع الله، والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

شريطة أن يكون ذلك موافقًا لشرع الله؛ بأن تكون الدعوة والأمر والنهي بالتي هي أحسن وبالحكمة، والجهاد بتوفر أدواته من كونه تحت راية إمام المسلمين، مع القدرة عليه، وعدم الاعتداء على من لم يقاتل ونحو ذلك مع وجود أسبابه الداعية إليه.

مع الحذر كل الحذر من التهور والحماس الأجوف الذي قد يجر الأمة إلى ما لا تحمد عقباه، ويحصل به من المفاسد والشرور على الإسلام والمسلمين ما لا يعلمه إلا الله.

١٣- أن التوفيق للاتصاف بالصفات المذكورة من فضل الله تعالى الذي يعطيه من يشاء بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

ولهذا ينبغي ألا يعجب من آتاه الله ذلك أو يغتر؛ بل ينبغي أن يشكر الله على ما منَّ به عليه ويسأله الثبات.

كما ينبغي لمن أراد أن يشمله هذا الفضل أن يتقدم وينافس في الأخذ بهذه الصفات وغيرها مما يقرب إلى الله تعالى فإن فضله- عز وجل- واسع.

١٤- إثبات المشيئة لله تعالى فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٥- أن الله- عز وجل- ذو سعة في جميع صفاته، في فضله وغناه وعلمه وقدرته ومغفرته ورحمته، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾.

١٦- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

١٧- أن ولي المؤمنين حقًّا وحصرًا هو الله- عز وجل- ورسوله، وإخوانهم الذين آمنوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٨- فضل الإيمان وأهله لاختصاصهم بولاية الله ورسوله ﷺ.

١٩- أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]،

وفي هذا رد على الرافضة في تخصيصهم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ بعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه- بناءً على آثار ضعيفة وردت أن قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ نزل في علي- رضي الله عنه- تصدق بخاتمه وهو راكع[1].

قال ابن كثير[2]: «أما قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فقد توهَّم بعضهم أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: في حال ركوعهم ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى. وحتى أن بعضهم

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٥٣٠- ٥٣١)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١١٦٢).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١٢٩، ١٣٠).

ذكر في هذا أثرًا عن علي بن أبي طالب: أن هذه الآية نزلت فيه: أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه». وساق ابن كثير الآثار في هذا ثم قال: «وليس يصح شيء منها بالكلية؛ لضعف أسانيدها وجهالة رجالها»، ثم ساق الآثار الدالة على أنها في عموم المؤمنين.

وأيضًا فإن الحركة والعمل حال الصلاة لا يمدح به صاحبه، وحاشا عليًّا- رضي الله عنه- عن ذلك.

والخلاصة: أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، فأبوبكر وعمر وعثمان وعلي- رضي الله عنهم- وجميع الصحابة والمؤمنين بعضهم أولياء بعض، وعلى هذا دل الكتاب والسنة وعليه أجمعت الأمة.

وما قيل من تخصيص الولاية في الآية بعلي- رضي الله عنه- فهو من تكلف الرافضة- أخزاهم الله، ووقى المسلمين شرورهم وغلوهم بعلي- رضي الله عنه- وأهل البيت- رضوان الله عليهم أجمعين. وليس هذا بغريب ولا عجيب من الرافضة- عليهم من الله ما يستحقون- فقد قدحوا في توحيد الربوبية، فقالوا: إن عليًّا والأئمة يدبرون الكون مع الله، مما لم يقله المشركون ولا اليهود ولا النصارى! وزعموا أن جبريل خان الرسالة فقد كان مرسلًا إلى علي وأعطاها لمحمد! كما يزعمون أن هذا القرآن الذي بأيدي المسلمين محرف، وأن القرآن الصحيح عند إمامهم المنتظر خروجه من سرداب سامراء، كما أنهم يرون أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا ثلاثة، ويلعنون الصحابة ويكفرونهم كأبي بكر وعمر وعثمان وجميع الصحابة- رضي الله عنهم، ويتهمون عائشة- رضي الله عنها- ويرون أنها في النار إلى غير ذلك من كفرياتهم وأباطيلهم التي لا يقصدون منها سوى هدم الإسلام والقضاء على شريعة محمد ﷺ- وهيهات لهم ذلك.

٢٠- امتداح المؤمنين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخضوع لله- عز وجل- والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

٢١- فضيلة الصلاة والزكاة؛ لأن الله خصهما من بين العبادات، فالصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية.

٢٢- أن الواجب أن تقام الصلاة كما شرعها الله- عز وجل- بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقل: «يصلون».

٢٣- أن الواجب أن تعطى الزكاة لأهلها، ولا يكلفون البحث عنها وطلبها بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢٤- أن الصلاة أفضل من الزكاة لهذا قدمت عليها في الآية.

٢٥- أن أساس العبادات مبني على الخضوع والتذلل لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، أي: خاضعون لله تعالى متذللون له- سبحانه.

٢٦- الحث والإغراء على تولي الله ورسوله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية.

٢٧- أن من تولى الله ورسوله والمؤمنين هم حزب الله وهم الغالبون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

٢٨- الرد على ما ابتدعه المتأخرون من الانتماء إلى أحزاب تحت شعارات بعينها وتصنيف الناس جماعات تنضوي كل جماعة تحت مسمى بعينه، ولا ترى في الساحة غيرها مما فرق المسلمين شيعًا وأحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون، جماعات يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وفي هذا من الوعيد ما لا يخفى. فكل من والى الله ورسوله والمؤمنين فهو من حزب الله وأتباع دينه وأنصاره المؤمنين وهم حزب واحد، فمن انفصل عنهم تحت أي شعار فليس منهم. وكل من عادى الله ورسوله والمؤمنين فهو من حزب الشيطان، فهما حزبان: حزب الله، وحزب الشيطان، ولا ثالث لهما.

ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتعادى المسلمون بناءً على هذه التحزبات والتصنيفات التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل يجب العمل بكل وسيلة على

وحدة المسلمين والحذر كل الحذر مما يوجب تفرقهم تحت شعارات وحزبيات فإن هذا منذر بتفكك الأمة وفشلها وذهاب ريحها.

٢٩- البشارة بأن الغلبة والنصر لحزب الله المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣].

فقد أخبر عز وجل وبشَّر ووعد وكتب بأن الغلبة للمؤمنين فلهم الغلبة المعنوية؛ لأنهم على الحق والعاقبة لهم، ولهم الغلبة الحسية والظهور في الميادين على أعدائهم؛ لأنهم حزب الله وجنده وأنصاره، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣].

وهذا لا ينافي أن تكون الغلبة في بعض الأحيان لغير المسلمين إذا كان السبب في ذلك هم المسلمون أنفسهم كما حصل في أُحُد بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ، وكما حصل في حنين بسبب إعجاب المسلمين بكثرتهم.

وأخطر من ذلك وأعظم وأطم بُعد المسلمين عن دينهم وعدم تمسكهم به، وتفرقهم بل وتسلط بعضهم على بعض مما كان سببًا في كثير من الفترات لظهور أعدائهم عليهم، كما هو حال المسلمين اليوم، وما ربك بظلام للعبيد، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد:١١].

٣٠- نهي المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾.

٣١- تحريض المؤمنين وتهييجهم على عدم اتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء بذكر وتقديم الموجب لذلك وهو اتخاذهم دين المؤمنين هزوًا ولعبًا، وفي هذا ما فيه من إثارة الحمية والغيرة لدى المؤمنين حقًّا.

٣٢- عداوة أهل الكتاب والكفار الظاهرة للمؤمنين ودينهم وكفرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، والهزء بالدين كفر.

٣٣- إظهار المذمة لليهود والنصارى وتبكيتهم بوصفهم أهل الكتاب، أي: أنهم ولديهم العلم بما أنزل إليهم من الكتاب لم ينفعهم ذلك بل جحدوا دينكم واتخذوه هزوًا ولعبًا، بل كفروا بكتابهم وبغيره.

وفي هذا دلالة على أن العلم قد يكون وبالًا على صاحبه إذا لم يوفق للعمل به، وما أكثر هذا في علماء هذه الأمة، الذين جعلوا العلم مطية لجمع المال بشتى الطرق، وانطبق عليهم قول الشاعر:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما(١)

٣٤- وجوب تقوى الله عمومًا، وعدم اتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء خصوصًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٣٥- أن من شرط الإيمان تقوى الله- عز وجل- وعدم موالاة أهل الكتاب والكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨].

٣٦- أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ هذا تفسير وبيان لقوله قبل ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

فالمراد بالدين هنا العمل وهو الصلاة ونحوها.

٣٧- أن الصلاة من أعظم أمور الدين وأركانه وواجباته، وهي أشد وقعًا على أهل الكتاب والكفار؛ لأنها أظهر شعائر الإسلام، ولهذا وذاك خصها الله تعالى بالذكر في الآية.

٣٨- مشروعية النداء والأذان للصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وهو مشروع قبل نزول الآية.

٣٩- عظم مكانة الصلاة في الإسلام حيث شرع النداء لها.

---

(١) البيتان للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٥٢، «ربيع الأبرار» ٤/ ٣٥، «المستطرف» ١/ ٥٠.

٤٠- ذم أهل الكتاب والكفار بكونهم لا يعقلون لاتخاذهم دين المسلمين وصلاتهم هزوًا ولعبًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

لأنه ليس في دين المسلمين وصلاتهم ما يوجب استهزاء، وإنما حصل منهم ذلك لسفاهة عقولهم. وهكذا كل من استهزأ وسخر بشيء من أحكام الدين، واعتبرها لعبًا لا فائدة فيها فهو غير عاقل.

٤١- أن العقل كل العقل بالقيام بما شرع الله تعالى من الدين عمومًا، وإقامة الصلاة كما أمر الله تعالى خصوصًا.

٤٢- أن النبي ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾.

٤٣- تحدي أهل الكتاب أن يجدوا شيئًا ينقمون به على المسلمين سوى إيمانهم بالله وما أنزل إليهم وما أنزل من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ وهذا ليس مما ينقم عليهم.

٤٤- الإنكار على أهل الكتاب نقمتهم من المؤمنين بلا مبرر، بل حسدًا منهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

٤٥- فضيلة هذه الأمة ومزيتها على سائر الأمم حيث جمعت بين الإيمان بالله وما أنزل إليها وما أنزل من قبل، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤].

٤٦- أن كل صاحب نعمة محسود، فأهل الكتاب لا ينقمون من المؤمنين شيئًا في الحقيقة، وإنما يحسدونهم على ما خصهم الله به من الفضل. وقد قيل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدًا وبغيًا إنه لذميم[١]

وقال الآخر:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم من قبلي أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا همًا بما يجد[٢]

٤٧- أن من أركان الإيمان وواجباته: الإيمان بالله تعالى، وهو أصل وأساس أركان الإيمان، ومنها الإيمان بالقرآن وغيره من الكتب قبله.

٤٨- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق، وكذا سائر كتب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾.

٤٩- أن أكثر أهل الكتاب فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

٥٠- ينبغي عدم الاغترار بما عليه الأكثرون، فالعبرة بالكيف لا بالكم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

٥١- أن الفسق كما يطلق على ما دون الكفر فإنه يطلق على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ والمراد به هنا: فسق الكفر المخرج عن الملة، لتكذيبهم النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن واستهزائهم بالدين.

٥٢- أن أهل الكتاب وما هم عليه من قبيح الصفات، وما عوقبوا به من العقوبات أشد جزاء وعقوبة عند الله، وأشر مكانًا وأضل عن سواء السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

---

(١) البيتان لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» (ص٤٥).

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (ص٦٢٨).

٥٣- في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أن أهل الكتاب في نقمتهم من المؤمنين وعيبهم لهم يعتبرون أنهم وما هم عليه من الدين شر. والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

٥٤- أن العبرة بالمنزلة والثواب والجزاء ما كان عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٥٥- ذم أهل الكتاب ووصفهم بأقبح الصفات وعقوبة الله لهم بأعظم العقوبات؛ لعنهم، وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وهو ذم لهم بما كان عليه أسلافهم، ووقع في كثير منه أخلافهم.

٥٦- شدة عذاب أهل الكتاب؛ لأن الله جمع لهم بين لعنته لهم وطردهم وإبعادهم عن رحمته وجنته، وبين غضبه عليهم الموجب لنقمته عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥].

٥٧- إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

٥٨- أن الجزاء من جنس العمل فقد عاقب الله بني إسرائيل لما تحايلوا على الحرام بما يشبه الحلال بجعلهم قردة أشبه شيء بالإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

٥٩- عبادة بني إسرائيل للطاغوت، وهو كل ما عبد من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

٦٠- أن أشر الناس مكانًا ومنزلة، وأضلهم عن سواء السبيل من وصفوا بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما أنهم أشرهم مثوبة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها استمرار في ذم أهل الكتاب، وذكر صفاتهم السيئة، من النفاق والمسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت، ووصف الله بالبخل، وغير ذلك مما يدل على أنه لا أشر ولا أقبح حالًا منهم.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ﴾ [المائدة:٥٨]. و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿جَآءُوكُمْ﴾: فعل الشرط، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، أي: وإذا جاءكم منافقو اليهود.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: جواب الشرط، أي: قالوا بأفواههم وألسنتهم: آمنا أي: صدقنا بنبيكم وانقدنا ظاهرًا وباطنًا واتبعناكم.

﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق في الموضعين.

﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ الباء للملابسة والمصاحبة، أي: والحال أنهم قد دخلوا عليكم متلبسين بالكفر مصاحبين له.

والكفر: الجحود والإنكار وعدم الإيمان.

﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ الجملة في محل نصب حال، معطوفة على جملة ﴿وَقَد دَّخَلُواْ﴾.

﴿بِهِۦۚ﴾ الضمير يعود إلى الكفر، أي: والحال أنهم قد خرجوا من عندكم متلبسين بالكفر مصاحبين له، فلم ينتفعوا بما سمعوا من المواعظ لشدة قسوة قلوبهم، أي: فهم متلبسون بالكفر مصاحبون له في دخولهم وخروجهم، أي: أن قلوبهم لم تؤمن، وإن قالوا آمنا بألسنتهم، فذلك كذب ونفاق، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٢، ٧٣].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿أَعْلَمُ﴾: اسم تفضيل، و«ما»: موصولة، أي: والله أعلم منكم ومن كل أحد بالذي كانوا يكتمون، أي: بالذي كانوا يخفون في قلوبهم من الكفر والنفاق والكيد للإسلام وأهله، ويجوز كون «ما» مصدرية، أي: والله أعلم بكتمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

هذه من أوصاف اليهود المذمومة.

قوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ الواو: استئنافية، والخطاب للنبي ﷺ، وقد يشمل كل من يصلح له، ﴿وَتَرَىٰ﴾، أي: تبصر، ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول «ترى».

والمعنى: أي: وتبصر وتشاهد كثيرًا منهم.

والضمير ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعود إلى أهل الكتاب، وبخاصة اليهود، والذين يأتون إلى النبي ﷺ، ويقولون: آمنا.

﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ المسارعة: المسابقة، أي: يتسابقون ﴿فِي ٱلْإِثْمِ﴾، أي: في ارتكاب الإثم من قول أو فعل، والإثم: الذنب، وسمي الذنب «إثمًا» لأنه يؤثم مرتكبه ويعرضه لعقاب الله تعالى.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، أي: ويسارعون في «العدوان»، أي: في مجاوزة الحد والتعدي على الآخرين وظلمهم.

والإثم والعدوان من الأسماء المترادفة، يدل كل منهما في حال انفراده على معنى الآخر، فإذا اجتمعا حمل الإثم على ما يتعلق بحق الله تعالى وحمل العدوان على ما يتعلق بحق الآدميين. وقد تقدم الكلام عليهما بأوسع من هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢].

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويسارعون في أكلهم السحت، و«السحت» الحرام، أي: كل كسب محرم، من الربا والرشوة والغش، وغير ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، ووصف الحرام أو سمي بـ﴿ٱلسُّحْتَ﴾ تنفيرًا منه؛ لأنه لا بركة فيه، بل ينسحت بنفسه، أي: يذهب ويضمحل، كما يسحت ويذهب غيره من المال إذا خالطه ويذهب بركته، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٦].

ويبتلى صاحبه بالشح والحرص، فيكون كالذي يأكل ولا يشبع، ويشرب ولا يروى.

كما أنه أيضًا سبب للعذاب والهلاك كما قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١].

وعبَّر بالأكل في قوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾؛ لأن الأكل هو الهدف الأهم من جمع المال، وهو كما يقال كسوة الباطن، فالتعبير به لا يعني أنهم لا يصرفون هذا السحت في غيره من وجوه الانتفاعات، بل إنهم إذا صرفوه في الأكل وملء بطونهم فصرفهم له في سائر الانتفاعات من باب أولى.

وخص أكل السحت بالذكر مع أنه داخل في الإثم تنفيرًا منه لعظم أثره، فهو من أعظم أسباب خراب البلاد وفساد العباد.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله لبئس ما كانوا يعملون.

و«بئس»: فعل لإنشاء الذم، بمعنى: قبح وساء، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: لبئس الذي كانوا يعملون، أو عملهم من المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾، ﴿لَوْلَا﴾: تحضيض أريد منه التوبيخ، أي: هلا ينهاهم أو هلا نهاهم الربانيون والأحبار، و﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ جمع «رباني». وهم العلماء العباد الذين يربون الناس على عبادة الله- والله أعلم- من الرب والعبودية له، وتربية الناس على ذلك، ومن هذا قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل

عمران:١٤٦]، وقيل غير ذلك.

﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ جمع «حِبر» بفتح الحاء وكسرها، وهم العلماء الكبار. سموا «أحبارًا» لأنهم يحبرون العلم، أي: يبينونه ويحسنونه ويزينونه للناس، كما قال أبوموسى- رضي الله عنه- لما أخبره الرسول ﷺ أنه استمع لقراءته قال: «يا رسول الله لو علمت أنك تسمعني لحبرته لك تحبيرًا»(١)، أي: لحسنته لك تحسينًا.

﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾، أي: عن قولهم الكذب والزور والافتراء.

كقولهم: عزير ابن الله والمسيح ابن الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠].

وكقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة:٦٤]، وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة:٨٠]، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ [البقرة:١١١]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة:١٨]، وقولهم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [البقرة:١٣٥].

وتكذيبهم وإنكارهم رسالة النبي ﷺ وصفاته في كتبهم، إلى غير ذلك.

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وعن أكلهم السحت من الرشوة والربا وغير ذلك من المكاسب المحرمة.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ كقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

والواو في ﴿كَانُوا۟﴾ وفي ﴿يَصْنَعُونَ﴾ تعود إلى الربانيين والأحبار، أي: والله لبئس الذي كان الربانيون والأحبار يصنعونه، أو لبئس صنعهم في عدم نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت.

وفي الآية الأولى ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وفي هذه الآية: ﴿يَصْنَعُونَ﴾، وبين «العمل» و«الصنع» عموم وخصوص، فـ«العمل» أعم لأنه يطلق على كل فعل، حتى ولو كان عن غير قصد.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حسن الصوت بالقرآن (٥٠٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين، استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

أما «الصنع» فهو أخص؛ لأنه يطلق غالبًا- على ما كان عن تدبير وإحكام قصد.

فالكثير من أهل الكتاب يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت بما فيهم عوامهم وجهالهم الذين ربما فعلوا ذلك تقليدًا لغيرهم؛ ولهذا قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أما الربانيون والأحبار فتركوا النهي عن قول الإثم وأكل السحت عن قصد وتعمد وتدبير خبيث؛ خوفًا أن ينفضّ الناس عنهم بسبب أمرهم ونهيهم لهم، فيفقدون ما كانوا عليه من الرئاسة، وما يتلقونه من الرشا.

الفوائد والأحكام:

١- فضح أحوال المنافقين من اليهود وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَدْ دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾.

٢- إظهار المنافقين خلاف ما يبطنون، فيظهرون بأقوالهم وأفعالهم الإيمان، ويبطنون الكفر.

٣- خوف المنافقين وخشيتهم من الناس أشد من خوفهم وخشيتهم من الله.

٤- علم الله- عز وجل- بما في القلوب وما تكتمه وتخفيه الضمائر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾.

٥- الوعيد للمنافقين والتحذير منهم ومن صفاتهم السيئة، ومن كيدهم.

٦- مسارعة اليهود للإثم والعدوان وأكل السحت؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾.

٧- ذم هذه الأعمال والتحذير منها والوعيد لمرتكبيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٨- أن الكسب المحرم لا بركة فيه، بل هو سبب لسحت المال؛ لأن الله سماه «السحت».

٩- ذم الربانيين والأحبار من اليهود في تركهم النهي عن قول الإثم وأكل السحت وتوبيخهم على ذلك الترك؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾.

١٠- ذم ما عليه الربانيون والأحبار من ترك النهي عن قول الإثم وأكل السحت

والوعيد لهم، والتحذير من صنعهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

١١- عظم مسؤولية المربين والعلماء وما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما من آية أشد توبيخًا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾»(١).

* * *

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٥٥١).

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قال رجل من اليهود يقال له: شاس بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾»(١).

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾، أي: وقالت اليهود الخلص، لا المنافقون منهم، وهذا من أعظم الإثم الذي قاله اليهود، مما يدل على جرأتهم على الله عز وجل.

و«غل اليد» في الأصل ربطها وإيثاقها إلى العنق يكنى به عن البخل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩]، أي: ولا تجعل يدك محبوسة ممنوعة من الإنفاق.

واليهود- أخزاهم الله- يعنون بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ أنه بخيل، يده ممنوعة ومحبوسة عن الإنفاق، كما وصفوه بأنه فقير، فقالوا- تعالى الله وتقدس عن قولهم-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ قال: ليس

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٨٣)، من رواية ابن إسحاق.

يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون: بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا»(١).

وقد نقض الله تعالى كلامهم ورد عليهم ما قالوه، وقابلهم بما افتروه فقال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ الآية.

ومعنى ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أي: حبست ومنعت من الإنفاق، وهذا خبر من الله- عز وجل- عنهم، وتعليم للدعاء عليهم؛ ولهذا كان اليهود أعظم الناس حرصًا وطمعًا وأخذًا للربا، وأكلًا لأموال الناس بالباطل، وأشد الناس شحًا وبخلًا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء:٥٣].

﴿وَلُعِنُوا﴾، أي: وطردوا عن رحمة الله تعالى وجنته.

﴿بِمَا قَالُوا﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي قالوا، أو بسبب قولهم.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطالي، فيها إبطال لقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

أي: بل يداه مبسوطتان ممتدان كلتاهما بالإنفاق، وهو واسع الفضل، جزيل العطاء، عظيم المن، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١، الجمعة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده**»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٥٥٣- ٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣)، والترمذي في «التفسير» (٣٠٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبسط اليد والكف كناية عن الكرم والجود، كما قال الشاعر في مدح النبي ﷺ:

هو البحر من أي الجهات أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه ... نواها لقبض لم تعطه أنامله(١)

﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ بيان وتوكيد، لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، أي: يداه مبسوطتان بالإنفاق يمنح المال والخير والعطاء على أي كيفية شاء، إن شاء بسط الرزق والعطاء لمن يشاء، وإن شاء قدره وضيقه على من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:٢٦].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ الواو: استئنافية، واللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله ليزيدين كثيرًا منهم، و﴿كَثِيرًا﴾: مفعول أول لـ«يزيد» والضمير في ﴿مِّنْهُم﴾ يعود إلى أهل الكتاب.

﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ﴿مَّآ﴾: اسم موصول في محل رفع فاعل لـ«يزيدن»، أي: ليزيدن كثيرًا منهم الذي أنزل إليك- يعني القرآن الكريم.

﴿طُغْيَٰنًا﴾: مفعول ثان لـ«يزيدن».

و«الطغيان»: الزيادة والمبالغة في تجاوز الحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

ومنه سُمي «الطاغوت» وهو ما تجاوز به العبد حده، ﴿وَكُفْرًا﴾: معطوف على ﴿طُغْيَٰنًا﴾، والكفر: التكذيب والجحود، أي: وليزيدن كثيرًا من اليهود الذي أنزل إليك من القرآن ﴿طُغْيَٰنًا﴾ تجاوزًا للحد في حق الله تعالى وفي حق عباده، وتكذيبًا وجحودًا له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ

(١) البيتان لأبي تمام. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ٣٢٠، «نهاية الأرب في فنون الأدب» ٣/ ١٨٤، «ديوان المعاني» ١/ ٢٤.

رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤- ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ [فصلت:٤٤].

فهم لا ينتفعون بما أنزل إليك من الهدى حسدًا منهم بل يلجون في طغيانهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١].

وفي الآية تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه، وتنبيه له لأخذ الحذر منهم.

وأقسم- عز وجل- على ذلك وهو أصدق القائلين؛ لأنه قد يستغرب أن يزدادوا بالقرآن الذي هو هدى طغيانًا وكفرًا، وفيه أيضًا محاكاة لما كان عليه العرب من توكيد صدق الأخبار بالقسم.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ الواو: استئنافية، أي: وضعنا بين اليهود فيما بينهم العداوة والبغضاء فكانوا فرقًا وأحزابًا يعادي ويكفر بعضها بعضًا، وكذا بينهم وبين النصارى، وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ﴾ [المائدة:١٤].

و﴿ٱلْعَدَاوَةَ﴾ ضد الولاية، وتظهر على الأبدان في الأقوال والأفعال، والعدو ضد الولي والصديق.

﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ ضد المحبة، وتكون في القلوب، والبغيض: ضد الحبيب، فهم- وإن أظهروا الولاية والمحبة فيما بينهم- فهم أعداء متباغضون، كما قال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ﴾ [الحشر:١٤].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ﴾، أي: وألقينا بينهم العداوة والبغضاء في الدنيا إلى يوم القيامة، يوم قيام الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وفي هذا أيضًا تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، فاليهود ليسوا فقط أعداء للمسلمين، بل هم أعداء متباغضون فيما بينهم، وفِرَقُهم على كثرتها يبغض بعضهم بعضًا، وهذه سجيتهم.

﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ﴾، ﴿كُلَّمَآ﴾ أداة شرط تفيد التكرار والكثرة، ﴿أَوۡقَدُواْ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾، أي: كلما أشعلوا نارًا للحرب، للكيد للرسول ﷺ وللإسلام وأهله ﴿أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ بخروجهم مخذولين وكفاية المسلمين شرهم وخيبتهم وعدم تحقيق مرادهم، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ [آل عمران:١١٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾ [الحشر:١٤].

﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾أي: يسيرون في الأرض ويعملون فيها ﴿فَسَادٗاۚ﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل إفساد عقائد الناس بالشرك والكفر، وإفساد أخلاقهم بالدعوة إلى الإباحية، والتحلل من الأخلاق، وارتكاب المعاصي، وإفساد معاملاتهم بالربا والرشوة، وأكل أموال الناس بالباطل، مما يكون سببًا لهلاك الحرث والنسل وخراب البلاد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «والله لا يحبهم»؛ لتحقيق وصفهم بالمفسدين، ولبيان العلة في عدم محبته لهم، وليعم هذا الحكم كل مفسد هم وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الواو: استئنافية، و«لو»: شرطية، وفعل الشرط مقدر، تقديره: ولو ثبت أن أهل الكتاب آمنوا، و﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى، و﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: التوراة والإنجيل، وهذه التسمية لهم لتذكيرهم بما منَّ الله به عليهم من إنزال الكتاب والمعرفة به وإقامة الحجة عليهم ونفي العذر عنهم.

﴿ءَامَنُواْ﴾، أي: ولوأن أهل الكتاب مع ما ارتكبوه من المعاصي والكفر-

﴿ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بمحمد ﷺ، وبكل ما أوجب الله الإيمان به. ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ بجوارحهم، بفعل ما أمرهم الله به وترك ما نهى الله عنه.

﴿لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ جواب «لو»، واللام للتأكيد واقعة في جواب «لو» كما هو الأكثر إذا كان جوابها مثبتًا، كما في قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ [الواقعة:٦٥]. ومعنى: ﴿لَكَفَّرۡنَا﴾، أي: تجاوزنا ومحونا ﴿عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، أي: ذنوبهم ومعاصيهم من ترك للواجبات أو انتهاك للمحرمات، بسبب إيمانهم وتقواهم.

وسميت الذنوب والمعاصي سيئات؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره إذا كانت متعدية، بل إن الذنوب والمعاصي لها آثارها السيئة على العباد والبلاد، حتى لو لم تكن متعدية مباشرة، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

﴿وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ معطوف على ما قبله، وقدم تكفير سيئاتهم على هذا لأن التخلية قبل التحلية وزوال المرهوب مقدم على حصول المطلوب.

أي: ولأدخلناهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: جنات النعيم التام؛ نعيم القلب، ونعيم البدن، النعيم المعنوي، والنعيم الحسي.

وبهذا أزلنا عنهم المرهوب بتكفير السيئات، وأعطيناهم المطلوب بدخول الجنات، وفي الحديث: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك، إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٤)، والترمذي في النكاح (١١١٦)، وابن ماجه في النكاح (١٩٥٦)، من حديث أبي بردة عن أبيه رضي الله عنه.

ذكر عز وجل في الآية السابقة ما لأهل الكتاب لو آمنوا واتقوا في الآخرة من تكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات النعيم، ثم أتبع ذلك بما لهم في الدنيا من الرزق لو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية، وفعل الشرط مقدر، أي: ولو ثبت أنهم. والضمير في قوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾ يعود إلى أهل الكتاب.

﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، أي: ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل من غير تحريف ولا تغيير، وعملوا بما فيها من أحكام لم تنسخ، وصدقوا ما فيهما من أخبار ومن ذلك الإخبار والبشارة ببعثته ﷺ، ووجوب الإيمان به واتباعه؛ لأن اليهود لو أقاموا التوراة لآمنوا بعيسى عليه السلام، ولو أقام اليهود والنصارى التوراة والإنجيل لآمنوا بمحمد ﷺ.

عن زياد بن لبيد- رضي الله عنه- قال: «ذكر النبي ﷺ شيئًا، فقال: «**ذاك عند ذهاب العلم**» قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «**ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء**»(١).

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: وأقاموا الذي أنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٣، ٤].

وإقامة القرآن إنما تكون بتصديق أخباره، والعمل بأحكامه، وجعله حاكمًا على التوراة والإنجيل وجميع ما سبقه من الكتب السماوية، فما وافقه منها عمل به، ومانسخه منها ترك العمل به؛ لأن الله جعله مهيمنًا على جميع الكتب قبله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن- ذهاب القرآن والعلم (٤٠٤٨)، وأحمد (٤/ ١٦٠، ٢١٨، ٢١٩). قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٤٠): «إسناده صحيح».

وفي تخصيص القرآن بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ تعظيم وتشريف للقرآن؛ لأن التوراة والإنجيل كلٌّ منهما منزل من عنده عز وجل، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران:٣، ٤].

وفيه تأكيد مخاطبتهم بالقرآن وتكليفهم الإيمان به؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِم﴾ لأنهم من أمة الدعوة.

﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ جواب الشرط «لو»، واللام للتأكيد كالتي قبلها، والمعنى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ بكثرة الرزق النازل عليهم من السماء من المطر وغيره مما يقدره الله لهم من الخير والرزق، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ مما يخرج من الأرض من النبات، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ من ثمار أعالي الأشجار.

﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ من أسفل الأشجار، ومن الزروع والنباتات التي ليس لها ساق، وأسافل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام:١٤١].

ويحتمل أن المعنى لأكلوا من كل وجه، ورزقوا من كل سبيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم:٣٤].

ولا مانع من حمل الآية على هذه المعاني كلها؛ لأنه لا منافاة بينها.

﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾، أي: من أهل الكتاب طائفة وجماعة ﴿مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾، أي: معتدلة، والمقتصد: المعتدل في الأمر مأخوذ من الاقتصاد وهو الاعتدال وعدم الإسراف، أي: منهم طائفة معتدلة، قائمة بما أوجب الله، لا تزيد ولا تنقص، مجتنبة لما

حرم الله، وفي هذا إنصاف لهم.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، أي: وكثير من أهل الكتاب ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿مَا﴾: موصولة، أو مصدرية، أي: ساء الذي يعملونه، أو ساء عملهم، أي: وكثير منهم أعمالهم سيئة قبيحة، مفرطون فيما أوجب الله، مرتكبون لما حرم.

كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] أي: أمة يهتدون بالحق، وأمة يعدلون به غيره. فقسم الله- عز وجل- أهل الكتاب إلى قسمين: طائفة مقتصدة، وكثير منهم ساء الذي يعملون. فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بقسم ثالث سابق في الخيرات، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر:٣٢].

الفوائد والأحكام:

١- شدة عدوان اليهود وجرأتهم على الله تعالى، وتطاولهم في حقه عز وجل، لقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ يعنون: أنه بخيل- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

٢- إقرار اليهود بإثبات صفة اليد لله- عز وجل- والحق يقبل من كل من قال به بغض النظر عن دينه ومعتقده. وفي حديث قتيلة- رضي الله عنها- أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون، وإنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا، أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولوا: «ما شاء الله ثم شئت»(١).

٣- حرص اليهود على المال وشدة بخلهم وجشعهم؛ لأن ذلك هو الذي حملهم على هذا القول الشنيع؛ ولقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فهذا إخبار من الله- عز وجل- بصفتهم وما جبلوا عليه.

٤- لعن اليهود وطردهم من رحمة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُعِنُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣).

٥- إثبات الأسباب، وأن سبب طبع اليهود على البخل ولعنهم قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾؛ لقوله تعالى بعده: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾؛ ولهذا كانوا من أشد الناس بخلًا وشحًّا، ومن أبعدهم عن رحمة الله تعالى.

٦- أن الجزاء من جنس العمل فحيث قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾ عوقبوا بجعل أيديهم مغلولة حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٧- إثبات اليدين لله عز وجل، وأنهما مبسوطتان ينفق بهما جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

٨- كرم الله- عز وجل- وجوده وكثرة عطائه وإمداده؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

وفي الحديث: «**يد الله ملأى سحاء الليل والنهار، لا يغيضها نفقة**»(١).

٩- أن عطاء الله- عز وجل- ومنعه تابع لمشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾.

١٠- إثبات المشيئة لله تعالى، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومشيئته- عز وجل- مقرونة بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

١١- شدة عناد كثير من اليهود واستكبارهم، فلا يزيدهم ما أنزل إلى الرسول ﷺ من القرآن إلا تجاوزًا للحد في حق الله تعالى، وفي حق عباده، وكفرًا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ﴾.

١٢- الإقسام في القرآن الكريم عند ذكر بعض الأحبار؛ تأكيدًا لصحتها وصدقها وفق ما كان عليه العرب في تأكيد روايتهم للأخبار بالقسم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١٣- أن من الناس من لا تزيدهم الآيات والمواعظ إلا طغيانًا وكفرًا ونفورًا عن الحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤١]، وقال عز وجل مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿رَّبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٥- ٧].

١٤- إخبار الله- عز وجل- لرسوله ﷺ بحال اليهود وما سيقابلونه به من العتو والتمرد والطغيان والكفر تسلية له ﷺ فلا يأسى عليهم، وتقوية لقلبه ليستعد لهم.

١٥- إثبات نبوته ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وربوبية الله تعالى الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، والعامة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٨- إثبات العلو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فله- عز وجل- العلو المطلق، علو الذات، وعلو الصفات.

١٩- عقوبة الله تعالى لأهل الكتاب بإلقاء العداوة والبغضاء بينهم مدى الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٢٠- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٢١- أن دأب اليهود العمل على إيقاد نار الحروب، لكن دون تحقيق مآربهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.

٢٢- البشارة للمسلمين بأن العاقبة لهم، وأن اليهود- وإن نالوا ما نالوا من النصر فإن الدائرة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ نصرة لأوليائه

وقهرًا لأعدائه.

٢٣- إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

٢٤- سعي اليهود للإفساد في الأرض معنويًّا بإفساد عقائد الناس وأديانهم وأخلاقهم، وإيقاعهم بالشرك والمعاصي، مما يؤدي إلى الفساد الحسي بهلاك الحرث والنسل وخراب البلاد وهلاك العباد.

٢٥- تحريم الفساد في الأرض؛ لأن الله تعالى لا يحبه، ولا يحب أهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٢٦- إثبات المحبة لله تعالى لأنه إذا كان لا يحب المفسدين فمفهوم ذلك أنه يحب المصلحين؛ ولهذا امتدح الصلح ورغب فيه، فقال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء:١١٤].

٢٧- سعة رحمة الله تعالى ومغفرته وعدله، وقبوله التوبة من كل من تاب ولو طغى وتماد في الكفر والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الآية.

٢٨- أنه لابد من الجمع بين الإيمان والعمل بفعل المأمور وترك المحظور؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾.

٢٩- وعد الله- عز وجل- لمن آمن واتقى بتكفير سيئاته، وإدخاله جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

٣٠- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا﴾ بضمير الجمع لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

٣١- أن تمام الجزاء بزوال المرهوب وحصول المطلوب، وأن التخلية والتطهير قبل

التحلية؛ لتقديم تكفير السيئات على إدخال الجنات.

٣٢- أن المعاصي والذنوب تسوء مرتكبيها في الحال والمآل وقد تسوء غيرهم؛ لهذا سميت سيئات.

٣٣- عظم ما في الجنات من ألوان النعيم، المعنوي والحسي، نعيم القلوب ونعيم الأبدان؛ لهذا سميت جنات النعيم.

٣٤- أن إقامة شرع الله- عز وجل- في كل زمان سبب لسعة الرزق وكثرة الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، وهذا وعد لأهل الكتاب ولغيرهم.

٣٥- أن من آمن واتقى وأقام الشريعة جمع الله له بين خيري الدنيا والآخرة.

٣٦- أن إقامة التوراة والإنجيل بعد بعثة النبي ﷺ لا تكون إلا بإقامة القرآن الكريم، لبشارتهما به وتصديقهما له، وتصديقه لهما، وتوافقه معهما على أصول الشرائع، ونسخه لكثير من أحكامهما.

٣٧- أن أهل الكتاب مخاطبون بالقرآن؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وفي هذا رد على من يقول منهم بأن رسالته ﷺ خاصة بالعرب.

٣٨- في تقديم التوراة في الذكر على الإنجيل وتقديمهما على القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ مراعاة للترتيب الزمني.

٣٩- أن من أهل الكتاب أمة مقتصدة قائمة بفعل ما أوجب الله، منتهية عما نهى الله عنه، وأكثرهم ساء الذي يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

٤٠- الإنصاف في بيان أن من أهل الكتاب أمة مقتصدة معتدلة.

٤١- ينبغي عدم الاغترار بالكثرة وما هم عليه، فالعبرة بالكيف لا بالكم، وأكثر الناس ليسوا على الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

٤٢- فضل أمة محمد ﷺ على أهل الكتاب؛ لأن الله تعالى قسم أهل الكتاب إلى قسمين: أمة مقتصدة، وكثير منهم ساء ما يعملون. بينما قال في هذه الأمة: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢].

فزاد فيهم قسمًا ثالثًا سابقًا بالخيرات بإذن الله، وأيضًا لما ذكر القسم الظالم لنفسه بالمعاصي لم يصفه بالكثرة، بل جعله قسمًا ثالثًا فقط.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة ما عليه أهل الكتاب من العناد والكيد للإسلام، والطغيان والكفر، ثم أتبع ذلك بأمره ﷺ بالبلاغ وبيان أن ذلك هو مهمته في رسالته، ووعده بدوام عصمته من الناس وحفظه منهم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادي مبني على الضم في محل نصب، و«ها» للتنبيه.

و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للعهد الذهني، فالخطاب لنبينا محمد ﷺ، وخاطبه- عز وجل- بوصف الرسالة؛ لأن مقتضى الرسالة ومهمة الرسول أن يبلغ- وإن لم يؤمر بالبلاغ.

﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ البلاغ والإبلاغ والتبليغ بمعنى الإيصال، و﴿مَآ﴾: موصولة تفيد العموم، أي: أوصل جميع الذي أنزل إليك من ربك من الوحي إلى الذين أرسلت إليهم، وفي حديث الأبرص والأقرع والأعمى قول الملك لكل منهم: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»[1]، أي: لا شيء أبلغ وأصل به إلى أهلي إلا بالله ثم بك.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمعنى: أوصل جميع الذي أنزل إليك من ربك من القرآن والسنة إلى الثقلين الإنس والجن، أي: اجعله واصلًا وبالغًا إليهم، ولهذا كان رسول الله ﷺ يبادر بإبلاغ القرآن عند نزوله، فإذا نزلت الآيات قرأها على الناس، وأمر بحفظها عن ظهر قلب وبكتابتها، وإذا نزل عليه ليلًا أخبر به عند صلاة الصبح.

وفي حديث عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾** [الفتح:١]»(١).

وفي حديث كعب بن مالك- رضي الله عنه- في تخلفه عن غزوة تبوك، فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الآخر من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة... حتى إذا صلى رسول الله ﷺ الفجر أذن بتوبة الله علينا»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ نزلت عليه سورة الأنعام بمكة ليلًا جملة واحدة فدعا رسول الله ﷺ الكُتّاب فكتبوها من ليلتهم»(٣).

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾، أي: وإن لم تفعل البلاغ، أي: وإن لم تبلغ جميع الذي أنزل إليك من ربك.

﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر ويعقوب وأبوبكر عن عاصم «رسالاته» بالألف على الجمع، باعتبار ما اشتملت عليه الرسالة من الشرائع والأوامر والنواهي، وقرأ الباقون: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ بالإفراد، والمراد الجنس.

وفي هذا الكلام من الشدة ما لا يخفى، أي: وإن لم تبلغ جميع الذي أنزل إليك من ربك وتركت شيئًا منه أو كتمته، فما بلغت رسالة ربك، وما امتثلت أمره- حتى فيما بلغته؛ لأن ترك بعض ما أنزل أو كتمانه كترك الكل أو كتمانه. قال ابن عباس رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- فضل سورة الفتح (٤١٧٧)، والترمذي في تفسير سورة الفتح (٣٢٦٢)، وأحمد (١/ ٣١).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٧٧).

(٣) أخرجه الطبراني، فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٣٣)، دون قوله: «فدعا رسول الله ﷺ» إلى آخره.

عنهما: «﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالتي»(١).

وقد بلغ صلوات الله وسلامه عليه البلاغ المبين، ولم يترك شيئًا مما أنزل عليه إلا بلغه حتى الآيات التي فيها شيء من اللوم أو العتاب له، كقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾»(٢).

وكقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١- ١٠].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧- ٦٨].

وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال له: إن ناسًا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئًا لم يبده رسول الله ﷺ. فقال: «ألم تعلم أن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، والله ما وَرَّثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء»(٣).

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: بلغ كل ما أنزل إليك من ربك، ولا تخش في سبيل ذلك أحد، ومعنى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: يمنعك من الناس- يعني الكفار، من اليهود والمنافقين والمشركين؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٥٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٧٣)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٤٢) وقال: «هذا إسناد جيد».

وافتتح باسم الجلالة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ للاهتمام وتطمينه ﷺ بذكر اسم الله، وتأكيدًا لهذا الوعد ودوامه، أي: والله يمنعك ويحفظك من أعدائك الكفار على اختلاف طوائفهم أن يقتلوك؛ بأنوع الحفظ كلها؛ من عدم تسليط بعضهم عليك، أو بكف شر من تسلط منهم، وعدم نيله مراده، أو بتمكينك منهم، أو بحراسة أصحابك ودفاعهم عنك، أو غير ذلك، وكل ذلك من عصمته- عز وجل- له قبل نزول الآية وبعدها، فهي وعد بدوام عصمته- عز وجل- له.

وقد عصمه الله- عز وجل- طيلة دعوته ﷺ وحتى لحق بالرفيق الأعلى.

وما أكثر الذين كانوا يتربصون بقتله من أعدائه.

فقد اجتمع المشركون في دار الندوة للكيد له ﷺ واتفقوا على قتله، فخرج من بين أظهرهم وحفظه الله تعالى منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

ولما لحقه الطلب هو وأبوبكر في الغار، ووقفوا على الغار قال أبوبكر: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»(١).

ولما لحقهم سراقة بن مالك، قال أبوبكر: يا رسول الله، هذا سراقة. قال ﷺ: «**اللهم اكفنا سراقة**» فساخت قوائم فرسه في الأرض وعجزت عن السير(٢).

وهمَّ يهود بني النضير لما جاءهم ﷺ يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر بإلقاء الرحى عليه فأعلمه الله فخرج من بينهم(٣).

وعلق النبي ﷺ سيفه على شجرة ونام، فجاءه أعرابي فاخترط سيفه، فقال: من يمنعك مني؟ قال ﷺ: «قلت: الله، فشامه»(٤).

وأهدت إليه امرأة يهودية يوم خيبر شاة مسمومة، فأكل منها وأثرت في لهواته..

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٦)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٨٥- ٥٨٧)، «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٦٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» (٢/ ١٩٠).

(٤) سبق تخريجه. ومعنى «فشامه»، أي: فأغمد سيفه.

ولكن وقاه الله شرها، حتى إنه في مرض موته ﷺ قال: «**مازالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع أبهري**»(١).

قال ابن كثير(٢): «ومن عصمة الله لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيرًا، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم- وهي المدينة، فلما صار إليهم حموه من الأحمر والأسود، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله، ورد كيده عليه، لما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ولما سم اليهود ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به، وحماه منه..».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، وفي ذكر هذه الجملة بعد قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ إشارة إلى أن المراد بالناس أعداؤه وأعداء الدين من الكافرين الذين كذبوه وأنكروا رسالته.

والمعنى: إن الله لا يوفق القوم الكافرين بسبب كفرهم وهذا في الذين حكم الله كونًا بموتهم على الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦- ٩٧].

وأيضًا لا يهديهم ولا يدلهم إلى ما يريدون من الكيد لك وإطفاء نور الله، فهو وعد لرسوله ﷺ بأن أعداءه لايزالون مخذولين؛ لأن الله يعصمه منهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الطب- ما يذكر في اسم النبي ﷺ (٥٤٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأبوداود في الديات (٤٥١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وعد الله- عز وجل- في الآيات السابقة أهل الكتاب بخيري الدنيا والآخرة لو أنهم آمنوا واتقوا، وأقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، ثم أمر في هذه الآية النبي ﷺ أن يبين لهم أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا شرع الله- كما أمر في كتبه تأكيدًا لذلك.

قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ. والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى.

﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾، أي: لستم على شيء من الدين، أي: ما أنتم عليه عدم وباطل محض لأنكم لم تؤمنوا حقيقة بكتبكم ولم تؤمنوا بالقرآن، ولهذا يكفر بعضهم بعضًا.

كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة:١١٣].

﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، ﴿حَتَّىٰ ﴾ للغاية، أي: إلى أن تقيموا التوراة والإنجيل بالعمل بما فيهما وتصديق أخبارهما، ومن ذلك ما فيهما من الإخبار ببعثته ﷺ، والأمر بالإيمان به واتباعه، والأخذ بما أنزل عليه من القرآن، واعتباره الحاكم على التوراة والإنجيل فيما وافقه منهما، وفيما زاد عليهما، وترك العمل بما نسخه منهما لأنه المهيمن عليهما، وعلى جميع كتب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ سبق الكلام على هذا وكرر هنا؛ تأكيدًا لبيان حال أهل الكتاب، وشدة طغيانهم وكفرهم للحذر منهم، وتأكيدًا لتسليته ﷺ وتقوية قلبه.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن حصل منهم ذلك فلا تأس، و«لا»: ناهية، والأسى: الحزن، أي: فلا تحزن على القوم الكافرين ولا تأسف عليهم ماداموا اختاروا الكفر بك وأنكروا رسالتك.

وفي هذا تسلية له ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: استئناف فيه من حيث المعنى توكيد لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: الذين آمنوا بالله- عز وجل- وبالنبي ﷺ، أي: المسلمون. وذكرهم وقدمهم للاهتمام بهم، وأنهم بمثابة القدوة والمثال الصالح، والمقصود بيان حكم من بعدهم وهم الذين هادوا والصابئون والنصارى.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الواو عاطفة، و﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ معطوف على: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ معطوف عليه.

والمراد بـ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: اليهود؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: رجعنا إليك.

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ جمع «صابئ» وهو الذي خالف دين آبائه وأجداده. قيل: إنهم فرقة من اليهود، وقيل: فرقة من النصارى. وظاهر القرآن أنهم فرقة مستقلة؛ لأن الله ذكرهم على سبيل الاستقلال.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ هم الذين ناصروا عيسى- عليه السلام، سمو بذلك لنصرتهم له، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول، مبني في محل نصب بدل من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما عطف عليه، بدل بعض من كل، أي: من آمن منهم بالله ودام على ذلك ولم يغيروا دينهم بالشرك وإنكار البعث ونحو ذلك.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته. وهو يستلزم الإيمان بشرعه وببقية أركان الإيمان.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: يوم القيامة، سمي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده. فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

ويقرن الإيمان باليوم الآخر كثيرًا بالإيمان بالله؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحفز على العمل لما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾، أي: وعمل عملًا صالحًا، وحذف الموصوف وهو «عملًا»، وأبقى الصفة ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الجملة في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما عطف عليه، أو خبر ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وما عطف عليه، وقرن بالفاء لشبه الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بالشرط.

و«لا»: نافية، و﴿خَوْفٌ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ليس عليهم أي خوف مما أمامهم في المستقبل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا هم يحزنون على ما مضى من حياتهم وأعمارهم؛ لأنهم عمروه واستغلوه بطاعة الله تعالى، وفيما ينفعهم.

ولا هم يحزنون على ما خلفهم من أهل وولد ومال؛ لأنهم قد وكلوا أمر ذلك كله إلى الله تعالى، ويعلمون أن فيه- عز وجل- عوضًا عن كل خلف، وأن من توكل عليه كفاه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ

رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اللام: للقسم، والتقدير: والله لقد أخذنا، و«قد»: للتحقيق. والجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام و«قد»، وتكلم- عز وجل- بضمير الجمع في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾، ﴿وَأَرْسَلْنَآ﴾؛ تعظيمًا لنفسه، لأنه العظيم حقًّا، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»(١).

﴿مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الميثاق: العهد الغليظ المؤكد، وقد بيَّن الله- عز وجل- هذا العهد الذي أخذه عليهم، والعهد الذي لهم عنده إن هم وفوا بعهده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:١٢].

﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ﴾ معطوف على ما قبله، ونُكّر ﴿رُسُلًا ۖ﴾ للدلالة على كثرتهم، أي: وأرسلنا إليهم رسلًا كثيرين، منهم موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى- عليهم السلام، وغيرهم، منهم من هم من أولي العزم، وهما موسى وعيسى- عليهما السلام، وقد قيل إن بينهما ألف نبي.

ومع توالي الرسل عليهم بالدعوة إلى الله تعالى لم يفد فيهم ذلك، فنقضوا العهود والمواثيق.

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

﴿كُلَّمَا﴾: ظرف بمعنى «حين»، متضمن معنى الشرط، يدل على استمرار صنعهم ذلك مع جميع الرسل في جميع الأوقات، وأن ذلك سجية لهم.

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة، أي: بالحق الذي لا تهواه أنفسهم، أي: لا تحبه

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠)، وأبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا تميل إليه، ردوه ولم يقبلوه، واتبعوا ما تهواه أنفسهم. وهذا أشد من حال مشركي العرب الذين ردوا الحق لمخالفته ما عليه آباؤهم.

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾، ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول به مقدم منصوب، أي: كذبوا فريقًا، فردوا رسالتهم.

﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، أي: ويقتلون فريقًا من الرسل.

وقدم المفعول في الموضعين للاهتمام بالتفصيل لأحوال رسل بني إسرائيل باعتبار ما لاقوه من قومهم، كما أن في تقديم مفعول ﴿يَقْتُلُونَ﴾ مراعاة فواصل الآي.

فكلما جاءهم رسول من رسل الله تعالى بما لا تهوى أنفسهم عاندوا وكابروا، فكذبوا فريقًا من الرسل، ونجوا من قتلهم، وقتلوا فريقًا منهم بعد أن كذبوهم.

والتعبير بالمضارع ﴿يَقْتُلُونَ﴾ لاستحضار تلك الحالة الفظيعة وإشارة إلى استمرارهم على هذا النهج حتى إنهم هموا بقتل خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ.

ولم يذكر عز وجل فريقًا ثالثًا من الرسل يؤمن به بنو إسرائيل، لقلتهم وقلة المؤمن بهم من بني إسرائيل، كما قال ﷺ في الحديث: «**عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُوا﴾ و﴿يَقْتُلُونَ﴾، ومعنى ﴿وَحَسِبُوا﴾، أي: ظنوا، والمراد بنو إسرائيل.

﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف برفع النون: «ألا تكونُ» على اعتبار «أن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، وجملة تكون في محل رفع خبرها. وقرأ الباقون بنصب النون: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ على اعتبار «أن»

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٢)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مصدرية و«تكون» منصوب بها، مع الفصل بينهما بـ«لا» النافية.

والفتنة الابتلاء والعقوبة والعذاب.

أي: وظنوا أن لا تقع عقوبة وعذاب في الدنيا بسبب تكذيبهم للرسل وقتلهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾، أي: فعموا كلهم عن رؤية الحق فلا يرونه رؤية ينتفعون بها. وصموا كلهم عن سماع الحق فلا يسمعونه سماع انتفاع منهم.

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بعد أن أصابتهم فتنة وعقوبة، وتابوا وأنابوا إليه عما حصل منهم من تكذيب وقتل للأنبياء، ومن تجاهل للحق فلا يرونه ولا يسمعونه، فرفع الله عنهم الفتنة.

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: ثم بعد أن تاب الله عليهم لم يستمروا على ذلك، بل عموا وصموا وعادوا إلى ضلالهم القديم وفعلهم الذميم، فلا يرون الحق ولا يسمعونه.

﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بدل من الواو في قوله: ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾، ويؤخذ من هذا أن قليلًا منهم ثبت على التوبة.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: والله مطلع عالم بالذي يعملون، أو بعملهم، يراه عز وجل، ويعلم به، ولا يخفى عليه منه شيء عملًا كان أو قولًا.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

٢- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بنداء الله تعالى وخطابه له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣- أن الواجب على الرسول تبليغ كل ما أنزل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

وقد فعل ﷺ فبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله، أتم البلاغ، بلغ الرسالة وأدى

الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، وما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه ولا شرًّا إلا حذرها منه. قال ﷺ: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»(١)، وقال ﷺ: «**تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله**»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم، أو: إلا ذكّرنا منه علمًا»(٣).

ولهذا لما نادى ﷺ في حجة الوداع في أكبر مجمع للمسلمين: «**ألا هل بلغت**» قالوا: نعم. قال: «**اللهم اشهد**»ثلاثًا»(٤).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال:في خطبته يوم حجة الوداع: «**أيها الناس، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد إنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم، ويقول: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت**»(٥).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «من حدثك أن محمدًا كتم شيئًا مما أنزل إليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ الآية»(٦).

وأمته شاهدة على ذلك جيلًا بعد جيل وقرنًا بعد قرن إلى قيام الساعة.

وفي هذا رد على الرافضة- أخزاهم الله- في زعمهم أن القرآن الذي بين أيدينا ليس هو جميع القرآن، وأن النبي ﷺ قد استبقى شيئًا منه فلم يبلغه، وأنه ﷺ قد اختص علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- بكثير من القرآن وأنه أورثه أبناءه، وأنه يبلغ وقر بعير، وأنه مختزن الآن عند الإمام المعصوم المنتظر الذي سيخرج

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٤٤)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨)، من حديث جابر- رضي الله عنه- الطويل في صفة حجة رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٦٧)، والطبري في جامع البيان (٩/ ٢٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٠٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مسلم في الحج- حجة الوداع (١٢١٨).

(٦) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٦١٢).

من سرداب سامراء- كما يقولون في تخريفاتهم التي يضلل بها أصحاب العمائم منهم عامة الشيعة المساكين، فويل لهم، ثم ويل لهم، ثم ويل لهم.

عن أبي جحيفة وهب بن عبدالله السوائي، قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»(١).

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق، وإثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٥- إثبات العلو لله تعالى لأن الإنزال يكون من أعلى.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٧- أن الرسول لو لم يبلغ كل ما أنزل إليه وترك شيئًا منه أو كتمه فهو لم يبلغ رسالة ربه؛ لأن ترك البعض أو كتمانه كترك الكل أو كتمانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وحاشاه ﷺ، فقد بلغ البلاغ المبين. قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كان ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧]»(٢).

٨- إثبات أن القرآن من عند الله تعالى والرد على القائلين بأن الرسول ﷺ تقوّله وافتراه من عند نفسه إذ كيف يلوم ويعاتب نفسه، كما في هذه الآية؟!

٩- أنه يجب على العلماء تبليغ ما علموا من شرع الله تعالى، لأنهم ورثة الأنبياء فيجب عليهم تبليغ ما ورثوه من العلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١١)، ومسلم في الحج (١٣٧٠)، وأبوداود في المناسك (٢٠٣٤)، والنسائي في القسامة (٤٧٣٥)، والترمذي في الديات (١٤١٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٥٨)، وأحمد (١/ ١١٩، ١٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي في «التفسير» (٣٢٠٧).

ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقال ﷺ: «**من كتم علمًا مما ينفع الله به في أمر الناس؛ أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»(١).

فمن كتم شيئًا مما علمه من شرع الله- فكأنما كتم كل ما علمه من ذلك.

١٠- وعد الله تعالى لرسوله ﷺ ووتكفله له بعصمته من الناس وحفظه، وتقوية قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهكذا حصل، فقد عصمه الله تعالى وحفظه حتى بلغ رسالة ربه أتم البلاغ، وإن أصابه ما أصابه من الأذى من قومه، فإن ذلك لم يثنه ولم يقطعه عن مواصلة دعوته وتبليغ رسالته ولم يلحق بالرفيق الأعلى حتى أتم رسالته ﷺ، وأدى أمانته، فجاءه النعي بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١- ٣].

١١- لا ينبغي أن يكون الخوف من الناس مانعًا من البيان وتبليغ الحق؛ لأن من توكل على الله كفاه وعصمه.

١٢- نفي هداية الله للكافرين، فلا يوفقهم للخير بسبب كفرهم، وهذا فيمن كتب الله موتهم على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وأيضًا: لا يدلهم على ما يريدون من الأذى به ﷺ، والكيد للدعوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥- ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

١٣- وجوب البراءة من أهل الكتاب، وإظهار أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل والقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وفي هذا من التحقير والتصغير لهم ما لا يخفى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٢٦٥).

١٤- أن أهل الكتاب لو أقاموا التوراة والإنجيل بالعمل بما لم ينسخ منهما مما وافقهما فيه القرآن وتصديق أخبارهما، ومن ذلك الإخبار ببعثته ﷺ ووجوب اتباعه مع العمل بما جاء في القرآن وتصديق أخباره لكانوا على الدين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾.

١٥- أن إقامة التوراة والإنجيل بعد نزول القرآن لا تكون إلا بإقامة القرآن، بتصديق ما فيهما من الأخبار ببعثته ﷺ ووجوب اتباعه، والأخذ بما جاء فيه، مما وافقهما فيه، ومما زاد عليهما، واطراح ما خالفه منهما، واعتباره الحاكم عليهما.

١٦- تفنيد مزاعم أهل الكتاب أنهم يتمسكون بكتبهم، فلو كانوا يتمسكون بها حقًا لآمنوا بالقرآن وأخذوا به لأنه مصداق ما أخبرت وهو مصدق لها.

١٧- أن أهل الكتاب مخاطبون في القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾.
وفي هذا رد على من يزعم منهم أن رسالته ﷺ خاصة بالعرب.

١٨- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾.

١٩- شدة عناد أهل الكتاب وعتوهم، وأن كثيرًا منهم لا يزدادون بالقرآن إلا طغيانًا وكفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾.

٢٠- أن الكفر يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾، وكذلك ضده الإيمان يزيد وينقص.

٢١- تسلية النبي ﷺ بألا يأسى ولا يحزن على القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

٢٢- فضيلة هذه الأمة على سائر الأمم؛ لأن الله قدمهم في الآية ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾.

٢٣- أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من هذه الأمة أو من اليهود والنصارى والصابئين فلا خوف عليه فيما يستقبل، ولا يحزن على ما مضى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ

ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

٢٤- كمال عدل الله- عز وجل- في مجازاته للعباد، فمن آمن وعمل صالحًا أثابه كائنًا من كان.

٢٥- أن أصل أركان الإيمان وأساسها الإيمان بالله تعالى لتقديمه في الذكر في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٢٦- إثبات اليوم الآخر والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٧- أهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الله- يقرنه كثيرًا بالإيمان به- عز وجل؛ لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم ما يحفز على العمل.

٢٨- لابد من الجمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر وأركان الإيمان كلها وبين العمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي مجرد الإيمان بلا عمل

٢٩- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا جامعًا بين الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه.

٣٠- أن المهم في العمل كونه صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فحذف الموصوف وأبقى الصفة لهذا الغرض.

٣١- أن من آمن وعمل صالحًا فلا خوف عليه فيما يستقبل، ولا هو يحزن على ما مضى من عمره ولا على ما فاته من الدنيا وما خلفه منها.

وانتفاء الخوف والحزن من أعظم نعيم الجنة، كما قال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[فاطر:٣٤].

٣٢- أخذ الله الميثاق والعهد على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٣٣- تأكيد الخبر في القرآن بالقسم وغيره من المؤكدات جريًا على ما كان عليه العرب في تأكيد الأخبار بالقسم ونحوه.

٣٤- إقامة الحجة على بني إسرائيل بإرسل الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾.

٣٥- نقض بني إسرائيل للعهد واتباعهم ما تهوى أنفسهم وتكذيبهم وقتلهم للرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

٣٦- التحذير من مسلك بني إسرائيل في اتباع الهوى وتكذيب الحق.

٣٧- شدة عدوان بني إسرائيل وجرأتهم حيث كذبوا فريقًا من رسل الله تعالى وقتلوا فريقًا منهم بعد أن كذبوهم.

٣٨- تساهل بني إسرائيل واستخفافهم بما هم عليه من تكذيب الرسل وقتلهم وظنهم أنه لا يحصل لهم بسبب ذلك فتنة وعقوبة واستمرارهم على ما هم عليه من التعامي عن الحق فلا يرونه والتصامم عنه فلا يسمعونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾.

٣٩- فتنة بني إسرائيل وعقوبة الله لهم، وتوبتهم وتوبة الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: بعد أن عاقبهم وتابوا.

٤٠- الترغيب بالتوبة وأن الله يتوب على من تاب ولو اقترف ما اقترف وعمي وصم عن الحق إذا تاب إلى الله تعالى.

٤١- التحذير من الأمن من مكر الله، والتعامي والتصامم عن الحق وعدم التوبة.

٤٢- عدم شكر كثير من بني إسرائيل لنعمة الله تعالى بتوبته عليهم، ورجوعهم إلى العمى والصمم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٤٣- أن من بني إسرائيل من شكر واستمر على توبته وهم قليل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٤٤- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد واطلاعه عليها، ومحاسبته لهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

٤٥- التحذير من الحور بعد الكور والرجوع إلى الكفر والمعاصي بعد التوبة منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، ففي هذا تهديد ووعيد لهم ولغيرهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ ﴾ سبق الكلام على هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ﴾ [المائدة:١٧].

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن المسيح قد قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ناداهم تنبيهًا إلى أهمية الأمر وعظمه ولم يقل: يا قوم- في إشارة- والله أعلم- إلى بُعد الفجوة بينه وبينهم، كما أن فيه تذكيرًا لهم بأبيهم نبي الله يعقوب عليه السلام لعل ذلك ينجع فيهم، ولكن هيهات.

﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾، أي: اعبدوا الله وحده.

﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ ﴾، بدأ عليه السلام بنفسه؛ اعترافًا بأنه عبد مربوب لله تعالى، كما

أنهم عبيد مربوبون لله، فكيف يعبدونه وهو مثلهم في ربوبية الله لهم.

وذكر الربوبية بعد قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأن الربوبية تستلزم العبودية أي:اعبدو الله وحده ربي وربكم، فهو الذي يستحق العبادة دون سواه؛ لأنه ربي وربكم.

وكان أول كلمة نطق بها- عليه السلام- وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [مريم:٣٠] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [مريم:٣٦].

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ الجملة استئنافية فيها تحذير من الشرك وتقرير وتأكيد لمقالة المسيح، أي: أنه من يشرك بالله فيعبد معه غيره، ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: فقد حرم الله عليه تحريمًا قدريًا دخول الجنة، أي: جعله ممنوعًا من دخولها.

﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾، أي: ومرجعه ومصيره الذي يأوي إليه ويسكنه في الآخرة النار.

ويحتمل أن تكون جملة ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ تعليلية من تتمة كلام المسيح، أي: لأنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة... إلخ.

فما ثمة بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار، قال تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران:١٨٥].

قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله	يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما	يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما	فاختر لنفسك ماذا أنت تختار[1]

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ هذه الجملة استئنافية، فيها تقرير وتأكيد لقول المسيح. ويحتمل أن تكون من تتمة كلام المسيح فتكون معطوفة على ما قبلها وتكون ضمن الجملة التعليلية.

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

وأنصار: جمع «ناصر»، والناصر: هو الذي يدفع الضر قبل وقوعه أو يرفعه بعد وقوعه.

والمعنى: وما للظالمين من أنصار ينصرونهم ويدفعون عنهم عذاب النار ويخلصونهم منه.

فحرم الله عليهم الجنة، وجعل مأواهم النار، بسبب شركهم وظلمهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وما لهم من أنصار» أو «وما له من أنصار» بل قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ لبيان أنهم ظالمون بسبب شركهم، وأن سبب تحريم الجنة عليهم وجعل النار مأواهم هو ظلمهم بالشرك بالله، وليشملهم هذا الحكم وغيرهم من الظالمين المشركين بالله، فكلهم الجنة عليهم حرام ومأواهم النار، وما لهم من أنصار.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة كفر الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهؤلاء طائفة من النصارى.

ثم ذكر كفر طائفة أخرى منهم وهم الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وعلى هذا أكثر النصارى. وهذا كسابقه خبر من الله وحكم منه بكفرهم.

قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، أي: اعتقدوا وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة آلهة، ويعنون بالثلاثة: الله، وعيسى، وأمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] أي: إلهين مع الله.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ﴾ أو حال، أي: والحال أنه ما من إله إلا إله واحد، فيكون كالتعليل لكفرهم بقولهم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بداية كلام الله للرد عليهم، والوقف على قوله:

﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ واجب، لئلا يفهم أن قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية من قولهم.

و﴿وَمَا﴾ نافية، و﴿مِنْ﴾: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى تفيد تحقيق النفي وعمومه، ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر. فالجملة مؤكدة بـ﴿مِنْ﴾ الزائدة إعرابًا، وبالحصر الذي طريقه النفي والإثبات، أي: نفى أن يكون أكثر من إله، فإذا ثبتت الوحدانية تعين أن يكون هذا الواحد هو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [ص:٦٥]، وكما في كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»، أي: وما من معبود حق إلا معبود واحد هو الله عز وجل، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، وفي هذا دحض وإبطال لقول الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ الانتهاء عن الشيء تركه والتوقف عنه.

﴿عَمَّا﴾ مكونة من حرف الجر «عن» و«ما» الموصولة أو المصدرية، والتقدير: وإن لم ينتهوا عن الذي يقولون أو عن قولهم.

والمعنى: وإن لم ينتهوا عن قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ ونحو ذلك من الإشراك بالله، ودعوى تعدد الآلهة، واستمروا على ذلك.

﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم، أي: ليصيبن الذي استمروا منهم على الكفر عذاب أليم.

و﴿أَلِيمٌ﴾، «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًا للقلوب.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

بعد ما بين عز وجل وأخبر بكفر النصارى بشركهم بالله وقولهم إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن الله ثالث ثلاثة، وتوعدهم بالحرمان من الجنة وبدخول النار، والعذاب الأليم عرض عليهم التوبة ليتوب عليهم لو تابوا.

قوله: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الاستفهام للعرض والاستمالة لهم لعلهم أن يتوبوا.

والجملة معطوفة على ما قبلها، والتقدير: فألا يتوبون.

ومعنى ﴿يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، أي: يرجعون إلى الله مما قالوه ووقعوا فيه من الشرك والمعاصي إلى توحيد الله تعالى وطاعته، فيقلعون عما وقع منهم، مع الندم على ذلك، والعزم على عدم العودة إليه، والإخلاص لله تعالى، مادامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥٓ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويسألونه مغفرة ذنوبهم، بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها فيها ترغيب بالتوبة، ووعد بمغفرته ورحمته لمن تاب إليه.

﴿غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده يستر الذنب ويتجاوز عن العقوبة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

﴿رَّحِيمٌ ﴾: ذو الرحمة الواسعة كما قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية، فبالمغفرة زوال المرهوب وبالرحمة حصول المطلوب، وزوال المرهوب أهم من حصول المطلوب.

قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أخبر عز وجل في الآيات السابقة بإشراك النصارى عيسى مع الله، بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، أي: الله، والمسيح، وأمه.

ثم ذكر في هذه الآية حقيقة المسيح عليه السلام وأمه، وفي ذلك تأكيد لإبطال دعوى أنهما إلهان.

قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾، ﴿مَّا﴾: نافية، أي: ما المسيح ابن مريم بما جاء به من المعجزات، من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى.

﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رسول من عند الله، وليس إلهًا كما زعم النصارى، وهذا من قصر الموصوف على الصفة، وهو قصر إضافي، أي: المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوز إلى غيرها، أي: لا يتجاوزها إلى الإلهية.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الجملة صفة لـ«رسول»، أي: قد مضت الرسل من قبله بالمعجزات، فهو مثلهم رسول من رسل الله، وليس بدعًا من الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩].

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾، أي: وما أمه إلا صديقة، فليس لها أعلى من هذا الوصف.

و﴿صِدِّيقَةٌ﴾ من المبالغة بالصدق والتصديق، فهي صادقة في قولها وعملها وعقيدتها وفي وعد ربها، مصدقة بكلماته كما قال تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، وقال تعالى في وصف إسماعيل- عليه السلام- بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤].

والصديق الذي قوله صدق، ويصدق الخبر الصدق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

ولقب أبوبكر- رضي الله عنه- بالصديق؛ لصدقه، وسبقه إلى تصديق النبي ﷺ في رسالته، وفي خبر الإسراء وغير ذلك.

ولقب يوسف- عليه السلام- بـ«الصديق»؛ لأنه صدق وعد الله بالكف عن المحرمات مع توفر أسبابها.

فمريم- عليها السلام- صديقة من أكمل النساء، كما قال ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة**

على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(١).

والصديقون في المرتبة الثانية بعد الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

ولهذا قال السعدي(٢): «الصديقية: العلم النافع المثمر لليقين والعمل الصالح».

﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ الجملة مستأنفة فيها التدليل على مفهوم القصر الذي هو نفي إلهية المسيح وأمه، أي: كان المسيح وأمه كغيرهما من البشر يحتاجان إلى أكل الطعام، ويفتقران إلى ما يقيمهما من الغذاء والشراب، فلا يجوز أن يجعلا إلهين، لعجزهما عن القيام بأنفسهما؛ لأن الإله قائم بنفسه مستغنٍ عن غيره، كما قال تعالى في وصف نفسه: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ [الأنعام:١٤].

وأيضًا فإن الذي يأكل الطعام محتاج لإخراج الفضلات وقضاء الحاجة، ولهذا- والله أعلم- كنى الله عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزم منه من قضاء الحاجة، وإنما اختيرت هذه الصفة- وهي أكل الطعام من بين صفات البشر الكثيرة؛ لأنها واضحة ظاهرة للناس.

﴿ٱنظُرۡ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصح خطابه، أي: انظر نظر تدبر وإقرار.

﴿كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، ﴿كَيۡفَ﴾ اسم استفهام فيه معنى التعجيب، أي: كيف نوضح لهم الآيات، أي: انظر وتعجب من كيفية تبيننا الآيات وإيضاحها لهم إيضاحًا تامًا.

والضمير في ﴿لَهُمُ﴾ للنصارى الذين اتخذوا المسيح وأمه إلهين، ولكل من عبد غير الله.

و﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ العلامات والحجج والبراهين الدالة على أن الألوهية لله وحده، وأن

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤١١)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٣٢٦).

المسيح ابن مريم ما هو إلا رسول كغيره من الرسل، وأمه صديقة، وأنهما معًا كغيرهما من البشر يأكلان الطعام.

﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: للترتيب، يقتضي الانتقال من النظر والتعجب من وضوح البيان إلى النظر إلى ما هو أعجب منه، وهو انصرافهم عن الحق مع وضوحه.

﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام يفيد التعجب والإنكار، ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾، أي: يصرفون، أي: ﴿كَيۡفَ﴾ يصرفون عن الحق أو «من أين» يتطرق لهم الصرف عن الحق بعد تبين الآيات وإيضاحها لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾.

توعد- عز وجل- النصارى في تأليههم المسيح وأمه من دون الله، وبين أنهما لا يصلحان إلهين.

ثم أمر الرسول ﷺ بالإنكار عليهم والتوبيخ لهم ولغيرهم ممن عبد غير الله في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع.

قوله: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿أَتَعۡبُدُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار، والخطاب عام لكل من عبد غير الله، من النصارى وغيرهم.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، وسواه، والمعنى: أتعبدون مع الله.

﴿مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة، ولم يقل: «من لا يملك» لأن أغلب ما يعبد من غير العالم، أو لأن «ما» تتناوب مع «من».

والمعنى: أتعبدون الذي لا يملك لكم ضرًا إن عصيتموه، ولا نفعًا إن أطعتموهم.

وقيل: الذي لا يستطيع دفع الضر عنكم، ولا جلب النفع لكم، أو لا يستطيع إيصال الضر إليكم ولا جلب النفع لكم، كالمسيح وأمه وكل من عبد من دون الله.

وقدَّم الضّر؛ لأن النفوس أشد تطلعًا إلى دفعه من جلب النفع؛ لأن النفع لا يقع موقعه مع وجود الضر.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن الله هو السميع العليم، الذي يملك الضر والنفع؛ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقولون ولجميع الأصوات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تعملون وبكل شيء، والجملة مؤكدة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُوَ﴾.

و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ اسم من اسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» يدل على أنه- عز وجل- ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة- رضي الله عنها: «الحمد لله وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية [المجادلة:١]»(١).

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى على وزن «فعيل» يدل على أنه عز وجل ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأهل الكتاب اليهود والنصارى الحاضرين، والأظهر أن المراد بهم هنا النصارى خاصة؛ لأن السياق معهم وهم أقرب إلى الغلو، أما اليهود فهم إلى الجفاء أقرب، وإن كانوا لم يسلموا من الغلو.

﴿لَا تَغْلُواْ﴾ الغلو: الزيادة وتجاوز الحد ﴿فِي دِينِكُمْ﴾، أي: في عبادتكم أي: لا تجاوزوا الحد في عبادتكم وتعظيم أنبيائكم، ورفعهم إلى منزلة الإلهية، كما قال النصارى: المسيح ابن الله، أو هو الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وألَّهوا مريم، وكذبوا محمدًا ﷺ. وكما قال اليهود: عزير ابن الله، وكذبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه البخاري- معلقًا- في كتاب التوحيد- باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢). وأخرجه موصولًا النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة- فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، ﴿غَيْرَ﴾ منصوب على النيابة عن مفعول مطلق، أي: غلوًا غير الحق، أي: غلوًا باطلًا، وغير الحق هو الباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء:١٧١].

والغلو كله ليس بحق، بل كله باطل؛ لمخالفته الشرع، فالمعنى: لا تغلوا في دينكم بتجاوز الحق إلى الباطل.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ الجملة معطوفة على ما سبق. و﴿أَهْوَآءَ﴾ جمع «هوى» وهو هوى النفس المخالف للشرع، فما وافق الشرع فهو هدى وما خالفه فهو هوى، وهو مذموم، وما ذكره الله تعالى في القرآن إلا ذمه.

والمراد بقوله: ﴿قَوْمٍ﴾: أحبارهم ورهبانهم.

﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾، ﴿قَدْ﴾: للتحقيق، ﴿ضَلُّواْ﴾: تاهوا وبعدوا عن طريق الحق وعدلوا عنه بأنفسهم، ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبلكم.

فنهى الله أهل الكتاب عن اتباع أئمة الضلال قبلهم من أحبارهم ورهبانهم على ما كانوا عليه من الغلو والضلال والإضلال.

وقيل: نهى الله النصارى عن اتباع ما كان عليه اليهود من الافتراء على مريم وابنها وتكذيب عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾، أي: وأضلوا كثيرًا من الناس بتحريفهم كتب الله وتغيير دينه، فكانوا أئمة في الضلال والإضلال، ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ تأكيد وإيضاح لقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ وبيان لاستمرارهم على ذلك، أي: وضلوا عن مستقيم السبيل، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: وضلوا عن السبيل السواء، أي: عن الطريق المستقيم قبل مجيء الإسلام وبعده.

الفوائد والأحكام:

١- حكم الله- عز وجل- بكفر الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وتوكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾

وهذا خبر منه عز وجل وحكم بكفرهم مؤكد.

٢- استعمال القرآن الكريم غالبًا التعميم في الأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فلم يقل: لقد كفر النصارى، ليشمل هذا الحكم كل من قال ذلك، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يعمم ولا يعين، كما في قوله ﷺ: «**ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا**»(١).

٣- صحة نسبة الرجل إلى أمه إذا لم يكن له أب؛ لقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

٤- إقامة المسيح- عليه السلام- الحجة على بني إسرائيل في وجوب عبادة الله تعالى وحده، وتحذيرهم من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

٥- براءة المسيح- عليه السلام- من تأليه بني إسرائيل له، واعترافه بأنه مربوب لله تعالى مثلهم، لا يصح أن يؤلهوه من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

٦- وجوب عبادة الله تعالى وحده دون شريك.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى، بقسميها: الربوبية الخاصة لأنبيائه وأوليائه، والربوبية العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

٩- التحذير من الشرك وخطره؛ لأن الله حرّم الجنة على من أشرك تحريمًا قدريًا، وجعل

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

مأواه النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠].

١٠- أن الشرك بالله من الظلم بل هو أعظم الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

وفي الحديث: «**إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة**»، وفي لفظ: «**مؤمنة**»(١).

١١- أن من وحد الله تعالى ولم يشرك به شيئًا فله الجنة والنجاة من النار؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية.

١٢- إثبات الجنة والنار، وأنه ليس ثمة دار في الآخرة إلا الجنة أو النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾.

١٣- أنه لا أنصار للظالمين يدفعون عنهم عذاب النار أو يرفعونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

١٤- كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وهذا حكم من الله- عز وجل- وخبر مؤكد، عام يشمل من قال ذلك من النصارى أو غيرهم.

١٥- إثبات أنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود حق أو بحق إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

١٦- فتح باب التوبة حتى لمن حصل منهم الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٢)، ومسلم في الإيمان (١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَقُولُونَ ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾، فلو انتهوا عما هم عليه من الكفر وتابوا إلى الله واستغفروه لغفر لهم ورحمهم، عدلًا منه عز وجل، وتفضلًا منه وجودًا وكرمًا. وهذا لمن حصل منهم الكفر، فمن دونهم من باب أولى.

١٧- الوعيد الشديد لمن قالوا: إن الله ثالث ثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

١٨- التحذير من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

١٩- شدة عذاب الكفار حيث يجمع لهم بين العذاب الحسي المؤلم للأبدان، والعذاب المعنوي المؤلم للقلوب.

٢٠- التحضيض والحث على التوبة إلى الله وتوبيخ من لم يتب؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

٢١- إثبات صفة المغفرة لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾.

٢٢- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة عامة وخاصة، في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ ﴾.

٢٣- أن المسيح عيسى ابن مريم- عليه السلام- ما هو إلا رسول من عند الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾.

٢٤- نفي وإبطال أن يكون المسيح- عليه السلام- إلهًا، إذ كيف يكون إلهًا، وهو مرسل من عند الله مكلف مستعبد له.

٢٥- أن المسيح- عليه السلام- كغيره من الرسل قبله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾؟!

٢٦- أن الرسل- عليهم السلام- يموتون، وعيسى- عليه السلام- مثلهم سيموت

كما ماتوا، فكيف يتخذ إلهًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

٢٧- فضيلة مريم- عليها السلام؛ لأن الله وصفها بأنها ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ صادقة في قولها وفعلها ومعتقدها، مصدقة لخبر الله تعالى ورسله.

وفي هذا الثناء من الله تعالى عليها- إبطال لفرية اليهود- قاتلهم الله- برميها بالبغاء، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧، ٢٨].

٢٨- أن مريم- عليها السلام- ليست إلهًا بل هي ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ مصدقة لخبر الله- عز وجل- ووعده، مصدقة لرسله، صادقة في قولها وعملها وعقيدتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾.

٢٩- أن المسيح وأمه بشران يأكلان الطعام كغيرهما من البشر، لا يصح أن يكونا إلهين؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

٣٠- أن الإله الحق قائم بنفسه مستغن عن غيره؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

٣١- الحث على النظر والاعتبار في كيفية بيان الآيات لهؤلاء الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ بما لا مزيد عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٣٢- الحث على النظر والتعجب والإنكار على هؤلاء كيف يصرفون عن الحق مع بيان الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٣٣- إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم؛ ببيان الآيات وإيضاحها وتفصيلها، وفي هذا الرد على أهل التفويض الذين يقولون: إن نصوص الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته مجهولة المعنى[1] يجب تفويض معانيها إلى الله، وهذا باطل؛ لأن الله-

---

(١) انظر: «تفسير سورة المائدة» للشيخ محمد العثيمين (٢/ ٢٢١).

عز وجل- بيّن الآيات أتم بيان باللسان العربي؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

٣٤- ينبغي النظر والتأمل في آيات الله تعالى الشرعية والكونية، والاعتبار بذلك وعدم الاغترار بإعراض مَن أعرض، فإن من كتب عليه الضلال لا سبيل لهدايته، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

٣٥- الإنكار على مَن عبدوا غير الله، كيف يعبدون ما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾.

٣٦- أن الذي يملك الضر والنفع ويستحق العبادة وحده- هو الله عز وجل، لمفهوم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾.

أما سائر المعبودات من دونه فلا تملك شيئًا من ذلك.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»(١).

٣٧- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ وصفة السمع الواسع له- عز وجل- فهو يسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٣٨- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وصفة العلم الواسع له- عز وجل- الذي يسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣٩- أن المستحق للعبادة وحده هو الله- عز وجل- ذو السمع الواسع لكل الأقوال والأصوات، وذو العلم الواسع لكل شيء، يسمع الدعاء ويستجيب لمن دعاه،

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣).

ويعلم حال الداعي وعمله وما يستحقه ويجازي كلًا بما عمل وبما يستحق.

٤٠- في اقتران اسميه عز وجل: السميع والعليم، وصفة السمع الواسع، وصفة العلم الواسع في حقه- عز وجل- كمال إلى كمال.

٤١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وفي هذا رد على من يزعمون أنه افترى القرآن واختلقه من عند نفسه، وهو ﷺ مأمور بتبليغ القرآن كله.

٤٢- غلو أهل الكتاب في دينهم حيث قال النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧، ٧٢]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، وكذبوا محمدًا ﷺ.

كما غلا اليهود بدينهم، وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وكذبوا عيسى ومحمدًا- عليهما الصلاة والسلام.

٤٣- نهي أهل الكتاب عن الغلو في دينهم وعن اتباع الضالين المضلين من أحبارهم ورهبانهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ﴾ الآية.

٤٤- أن الغلو في الدين كله باطل وغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا قيد لبيان الواقع.

٤٥- وجوب الحذر من الغلو، فإنه مفسد للدين، قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبدالله ورسوله**»(٢).

وقال بعض السلف: «ما أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين، لا يبالي

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي في مناسك الحج- التقاط الحصى (٣٠٥٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥).

بأيهما ظفر: غلو أو تقصير»[١].

٤٦- وجوب الحذر من اتباع الهوى؛ لأنه يُعمي ويُصم عن الحق، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

٤٧- ذم علماء ورهبان أهل الكتاب، حيث ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم عن الحق والطريق المستقيم.

٤٨- وجوب الحذر من علماء السوء وأئمة الضلال، وعدم الاغترار بهم، ولو كانوا يظهرون الانتساب إلى الدين، فما ضل أكثر الخلق إلا بسببهم.

٤٩- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٥٠- أن أحبار أهل الكتاب ورهبانهم كما ضلوا عن الحق الذي جاء في كتبهم أضلوا عنه، ضلوا عما جاء في القرآن وأضلوا عنه.

٥١- أن الدين الحق وسط بين الغلو والتقصير؛ وبين الغالي فيه، والجافي عنه؛ لقوله تعالى: ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن مستقيم السبيل ووسطه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

* * *

(١) «دقائق التفسير» ٢/ ٥٩.

قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فمن لعنه الله فقد طرده وأبعده من رحمته وجنته.

وإذا كان اللعن صادرًا من الملائكة أو من الناس فمعناه؛ الدعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الذين أنكروا وجود الله أو ربوبيّته أو ألوهيته أو أسماءه وصفاته، أو جحدوا شريعة الله وكذبوا بما جاء عن الله تعالى على ألسنة رسله، وفي كتبه، وحرفوها وبدلوها، وخالفوها. أو استكبروا عن الانقياد لما جاء عن الله، أو أعرضوا عنه أو شكوا فيه.

﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، إسرائيل: هو نبي الله يعقوب- عليه السلام، أي من بني يعقوب- عليه السلام- وذريته.

﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾، أي: على لسان نبي الله داود- عليه السلام- في «الزبور».

﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، أي: وعلى لسان نبي الله عيسى بن مريم- عليه السلام- في «الإنجيل».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لعنوا في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم ولعنوا في الزبور على لسان داود»(١).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٤٨٩)- من طريق علي بن أبي طلحة (١٢٢٩٩).
وذكر القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «الذين لعنوا على لسان داود أصحاب السبت، وعلى لسان =

ومعنى قوله: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾، أي: بكتب الله المنزلة عليهما، وبلغتهما، وبصريح نطقهما بذلك[١].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ الإشارة لمصدر الفعل ﴿لُعِنَ﴾، أي: ذلك اللعن.

﴿بِمَا عَصَواْ﴾، الباء سببية، و«ما»: مصدرية، أي: ذلك بسبب عصيانهم أي: بسبب مخالفتهم أمر الله.

قال أبو حيان[٢]: «ذلك اللعن بسبب عصيانهم، وذكر هذا على سبيل التوكيد، وإلا فقد فهم سبب اللعنة بإسنادها إلى ما تعلق به الوصف الدال على العلة وهو الذين كفروا فاللعن سببه الكفر، لكن أكد بذكره ثانية في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾».

﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ معطوف على ما قبله، والتقدير: ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم أي: وكانوا يتجاوزون حدود الله.

أو: ﴿بِمَا عَصَواْ﴾: بفعل المعاصي التي تضرهم في أنفسهم، ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ بإلحاق الضرر بغيرهم.

أو العصيان بترك المأمورات، والاعتداء بارتكاب المحظورات.

قال ابن كثير[٣]: «يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزل على داود نبيه- عليه السلام- بسبب عصيانهم الله واعتدائهم على خلقه».

قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾.

قوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ هذا من البيان والشرح لما

=

عيسى أصحاب المائدة». انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٩٠) (١٢٣٠١، ١٢٣٠٣).

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٥٤٠).

(٢) في «البحر المحيط» (٣/ ٥٤٠).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٥١).

قبله[١]، أي: أن من عصيانهم واعتدائهم أنهم يفعلون المنكر، ولا يتناهون عنه.

﴿كَانُوا﴾، أي: هؤلاء الكفرة من بني إسرائيل.

﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾، لا ينهى بعضهم بعضًا، والتناهي: مفاعلة من جانبين: ناهٍ عن المنكر، ومنهي عنه.

﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ المنكر: ما أنكره الشرع.

والمعنى: كان هؤلاء الكفرة من بني إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضًا عن منكر شرعي ارتكبوه، كقتل الأنبياء، والتعامل بالربا، وأكل أموال الناس بالباطل، بل كانوا يجاهرون بهذه المعاصي وغيرها.

وقيل: كانوا لا ينتهون عن منكر أتوه[٢].

والصحيح الأول؛ لأن التناهي مفاعلة من جانبين، ولا مانع من حمل الآية على الأمرين؛ إذ لا تنافي بينهما فهم لا ينهى بعضهم بعضًا عن المنكر، ولا ينتهون من فعله، بل يصرون عليه.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك، أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض**، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثم قال: **كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطرًا، أو لتقصرنّه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم**»[٣].

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٥٤٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وأبوداود في الملاحم (٤٣٣٦، ٤٣٣٧)، والترمذي في تفسير المائدة (٣٠٤٧)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في الفتن (١٣٢٨)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٥٥- ٥٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٥٢) برواياته وطرقه، وضعفه أحمد شاكر في «تخريج المسند» لانقطاعه (٣٧١٣)، وضعفه الألباني.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ اللام: لام القسم، والتقدير: والله لبئس[١].
و«بئس»: فعل ماض جامد من أفعال الذم، بمعنى: قبح.

و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة في موضع نصب على التمييز، والتقدير: لبئس الشيء شيئًا كانوا يفعلون، أو اسم موصول مبني في محل رفع فاعل «بئس» والتقدير: لبئس الذي كانوا يفعلون[٢] من عدم التناهي عما يفعلونه من المنكرات من قتل الأنبياء، وأنواع المعاصي، وفي هذا ذم لفعلهم، وتحذير منه.

قال ابن كثير[٣]: «بيّن حالهم فيما كانوا يتعمدونه في زمانهم فقال: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾، أي: كانوا لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك، ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾».

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾، ﴿تَرَىٰ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: ترى أنت يا محمد، يحتمل أن تكون من الرؤية البصرية، ويحتمل أن تكون من الرؤية العلمية أي تعلم بما أعلمناك وأخبرناك عنهم، أو من أحوال المعاصرين منهم.

والمعنى: تعلم وتشاهد كثيرًا منهم.

﴿كَثِيرًا﴾ مفعول لـ﴿تَرَىٰ﴾، و﴿مِّنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَىٰ﴾.

﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ في محل نصب مفعول ثانٍ لـ﴿تَرَىٰ﴾ باعتبار كونها علمية، أو في محل نصب على الحال باعتبار ﴿تَرَىٰ﴾ بصرية.

﴿مِّنْهُمْ﴾، أي: من الذين كفروا من بني إسرائيل، مثل كعب بن الأشرف

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٢٥٣).
(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٦)، «البيان في غريب القرآن» (١/ ٣٠٢).
(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٥١).

وأصحابه، وقيل: الضمير يرجع إلى المنافقين(١).

﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: يوالون الذين كفروا من المشركين وعبدة الأوثان، ويعادون المؤمنين.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ اللام: لام القسم، أي: والله لبئس ما قدمت لهم أنفسهم، و«بئس»: فعل ذم جامد، و«ما»: موصولة بمعنى «الذي» والتقدير لبئس الذي قدمت لهم أنفسهم.

أو «ما» نكرة موصوفة في محل نصب على التمييز، والتقدير: لبئس الشيء شيئًا قدمت لهم أنفسهم(٢).

والمراد: موالاتهم للكافرين، التي تسبب عنها سخط الله عليهم.

والمعنى: والله لبئس العمل الذي قدمت لهم أنفسهم أمامهم في الآخرة.

قال الطبري(٣): «يقول تعالى ذكره: أقسم لبئس الذي قدمت لهم أنفسهم أمامهم إلى معادهم في الآخرة».

﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في محل رفع بدل من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ على اعتبار ﴿مَا﴾ اسم موصول معرفة.

أو في محل نصب أيضًا على البدل من ﴿مَا﴾ على اعتبارها نكرة موصوفة، أو على حذف اللام، والتقدير: لأن سخط الله عليهم(٤).

وهذا تفسير لقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ﴾، أي: لبئس ما قدمت لهم أنفسهم: وهو سخط الله عليهم.

قال ابن كثير(٥): «﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني بذلك: موالاتهم للكافرين،

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٥٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٥٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٤٩٧)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٣٥).

(٣) في «جامع البيان» (١٠/ ٤٩٧).

(٤) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٦)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٣٥)، «البيان في غريب القرآن» (١/ ٣٠٢- ٣٠٣)، «الدر المصون» (٢/ ٥٨٨).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ١٥٦).

وتركهم موالاة المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقًا في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطًا مستمرًا إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فسر بذلك ما ذمهم به».

﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: في عذاب النار، ﴿هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ الضمير يعود للذين يوالون الذين كفروا.

﴿خَٰلِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيه إقامة أبدية، وهذا خبر من الله صدق؛ ولهذا أكده بكون الجملة الإسمية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ﴾، أي: الكفرة من بني إسرائيل في عهده ﷺ.

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: يصدقون بالله؛ بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَٱلنَّبِيِّ﴾، أي: ويؤمنون بالنبي محمد ﷺ بأنه نبي الله تعالى حقًّا تجب طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾، الواو عاطفة كالتي قبلها، و«ما» موصولة، أي: ويؤمنون بالذي أنزل إليه، أي: وبالذي أنزل إلى النبي ﷺ، وهو القرآن الكريم، وأنه من عند الله وكلامه- عز وجل- ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويصدقون أخباره، ويطبقون أحكامه.

﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، ﴿مَا﴾ نافية، أي: لو كانوا يؤمنون بذلك كله ما اتخذوا هؤلاء الكفرة من المشركين وعبدة الأوثان ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: أحبة وأنصارًا أو أصحابًا من دون المؤمنين.

قال ابن كثير[1]: «أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسل والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه».

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، «لكن»: حرف استدراك.

﴿مِّنۡهُمۡ﴾، أي: من بني إسرائيل.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٥٦).

﴿فَٰسِقُونَ﴾، أي: خارجون عن طاعة الله تعالى.

والفسق في الأصل: الخروج للفساد، ومنه سميت الفأرة فويسيقة لخروجها من جحرها للإفساد.

والمعنى: ولكن كثيرًا من هؤلاء الذين يوالون الكفار وعبدة الأوثان خارجون عن طاعة الله تعالى إلى معصيته.

الفوائد والأحكام:

١- لَعْن الذين كفروا من بني إسرائيل في «الزبور» على لسان داود- عليه السلام، وفي «الإنجيل» على لسان عيسى ابن مريم- عليه السلام- بسبب عصيانهم واعتدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾.

٢- في بناء الفعل ﴿لُعِنَ﴾ هنا لما لم يسم فاعله تعلم لحسن الأدب مع الله- عز وجل- كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(١) أي: إن الشر في مفعولات الله، لا في فعله.

٣- الإشارة إلى استحقاق هؤلاء الكفرة اللعن من الله ومن خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة:١٦١]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [آل عمران:٨٧].

٤- جواز لعن الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية. قال القرطبي(٢): «حتى ولو كانوا من أولاد الأنبياء، وإن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة في حقهم».

٥- التحذير والتنفير من الكفر والمعاصي والاعتداء وترك التناهي عن المنكر، وأن

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، والدارمي في الصلاة (١٢٣٨)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٥٢).

ذلك سبب للعنة الله تعالى لمن فعل ذلك، لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾.

٦- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]، وأن من أعظم المعاصي والاعتداء الموجبة للعنة الله تعالى عدم التناهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال:٢٥].

وعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»[٢].

وعن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»[٣].

وعن زينب بنت جحش- رضي الله عنها- قالت: «**دخل عليَّ رسول الله ﷺ فزعًا مرعوبًا يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث**»[٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا**

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، وفي الشهادات (٢٦٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣).

فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١].

قال ابن عطية[٢]: «الإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر لمن أطاقه، وأمن الضرر على نفسه والمؤمنين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه».

والإنكار بالقلب لا يسقط بحال، لأنه بمقدور كل أحد. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويجب بكل حال إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس بمؤمن» كما قال ﷺ: «وذلك أضعف الإيمان»، وقال: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[٣]. وقيل لابن مسعود: من ميّت الأحياء؟ فقال: «الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»[٤].

وأما الإنكار باليد واللسان فلا يجبان إلا على القادر عليهما، ومن لديه الفقه والحلم والصبر والنظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وعدم حصول مفسدة أكبر ونحو ذلك.

فإن كان إنكار المنكر يحصل به تفويت المصلحة أو حصول مفسدة، ومنكر أكبر، فإنه يحرم في هذه الحال[٥].

قال عمر بن عبدالعزيز- رحمه الله: «من عبدالله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[٦].

وهذا وإن كان عامًّا في العبادة إلا أنه يدخل تحته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دخولًا أوليًّا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولابد من العلم بحال المأمور والمنهي، ولابد في ذلك من الرفق، كما قال النبي ﷺ: **«ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلا شانه»**[٧].

---

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥).

(٢) في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٦).

(٣) أخرجه مسلم في الأيمان (٥٠)، من حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- مطولًا.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٧).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٨- ١٢٩).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٣٥).

(٧) أخرجه مسلم في البر (٢٥٩٤)، وأحمد (٦/ ٥٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»(١).

ولابد أيضًا من الحلم والصبر على الأذى، قال تعالى- عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

قال بعض السلف: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه، فلابد من هذه الأمور الثلاثة: العلم والرفق والصبر. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبًا في هذه الأحوال»(٢).

٧- أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

٨- أنه لا يعذر بترك الإنكار من كان يرتكب المنكر بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ فهذا يقتضي اشتراكهم في الفعل، وذمهم على ترك التناهي، فليس من شرط التناهي عن المنكر أن يكون سليمًا من المعاصي(٣). وقد قيل:

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

٩- ذم ما كان عليه بنو إسرائيل من الكفر والمعاصي، والاعتداء، وترك التناهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

١٠- تولي كثير من بني إسرائيل للكفرة من المشركين وعبدة الأوثان وموالاتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٣٥٦)، وفي استتابة المرتدين (٦٩٢٧)، ومسلم في البر (٢٥٩٣)، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وأخرجه أبوداود في الأدب (٤٨٠٧)، وأحمد (٤/ ٨٧)، من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٣٥- ١٣٧).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٦٦).

١١- ذم ما كان عليه كثير من بني إسرائيل من موالاة الكفرة والمشركين والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

قال القرطبي[1]: «وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين، وأمر بتركهم وهجرانهم، وأكد ذلك بقوله في الإنكار على اليهود: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾».

١٢- أن هؤلاء بموالاتهم أهل الكفر بئس ما قدمت لهم أنفسهم من عمل سيئ، عقابه سخط الله، والخلود في النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

١٣- إثبات صفة السخط والغضب لله، على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

١٤- أن الكفر والمعاصي والاعتداء، وعدم التناهي عن المنكر، وموالاة أهل الكفر سبب لسخط الله، والخلود في النار؛ لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية إلى قوله: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

١٥- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها وأن أهلها مخلدون فيها ولا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

وهذا هو القول الصحيح كما دل على ذلك القرآن الكريم في عدة مواضع[2].

١٦- نفي الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه عمن يتولى الذين كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال القرطبي[3]: «ويدل بهذا أن من اتخذ كافرًا وليًّا فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده، ورضي فعاله».

١٧- أن الإيمان يمنع صاحبه من موالاة أهل الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٥٤).

(٢) انظر: «تفسير» قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:١٤].

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٥٤).

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

وهكذا فالإيمان كلما ازداد وتحقق وكمل حال بين صاحبه وبين المعاصي كلها.

١٨- أن كثيرًا من بني إسرائيل فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

١٩- عدم الاغترار بالكثرة، وما عليه أكثر الناس، وأن العبرة بالكيف لا بالكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

وفي حديث إخراج آدم لبعث النار من ذريته من الألف واحدًا إلى الجنة والبقية إلى النار(١).

وقد قيل: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»(٢). وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى(٣)

٢٠- الرد على اليهود في زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار؛ لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الأيمان (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البيت لابن دريد. انظر: «ديوانه» ص(١٣٢).

قال الله تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة ما عليه أهل الكتاب من نقض المواثيق والكفر والشرك، والغلو في الدين وتولي الذين كفروا، والفسق، وغير ذلك. ثم أتبع ذلك ببيان علاقتهم مع المؤمنين عداوة أو مودة.

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، أي: والله لتجدن، والخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصح خطابه.

﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول أول ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ وهو اسم تفضيل، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه.

﴿عَدَٰوَةً﴾ تمييز، والعداوة ضد الولاية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

والمعنى: لتجدن شدة هذه العداوة ظاهرة في أقوالهم وأفعالهم.

﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾، ﴿ٱلْيَهُودَ﴾: مفعول ثانٍ ﴿لَتَجِدَنَّ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾: معطوف على ما قبله، والذين أشركوا بالله، وهم عبدة الأوثان ونحوها.

والمعنى: والله لتجدن أشد الناس وأعظمهم عداوة للمؤمنين: اليهود والمشركين. وقدم اليهود في الذكر؛ لأن عداوتهم للمؤمنين أشد.

وعداوة اليهود للمؤمنين بسبب إيمانهم بعيسى ومحمد- عليهما الصلاة والسلام، وعداوة المشركين لهم بسبب توحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء- عليهم السلام.

فاليهود والمشركون أشد عداوة للمؤمنين من حيث العموم، ولا يلزم أن تكون هذه العداوة حاصلة لكل مؤمن بعينه، ولا من كل يهودي أو مشرك بعينه. فهذا أبوطالب كان يود الرسول ﷺ ويدافع عنه بكل ما يملك.

وسبب شدة عداوة اليهود بغيهم وحسدهم للعرب ببعثة الرسول ﷺ فيهم ومنهم، وشدة طغيانهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة:٩٠].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩] أي: كانوا يستفتحون على المشركين، ويقولون: سيبعث نبي منا نقاتلكم معه وننتصر عليكم.

وقال تعالى في شدة طغيانهم وعنادهم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤، ٦٨].

قال ابن كثير[1]: «فقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود: عناد وجحود ومباهتة للحق، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم؛ ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء حتى هموا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسحروه».

أما سبب شدة عداوة المشركين للمؤمنين فللمنافاة التامة بين الشرك والتوحيد،

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٥٧).

والكفر والإيمان. والفريقان يجتمعان على عداوة المؤمنين لإيمانهم بمحمد ﷺ وعيسى- عليهما الصلاة والسلام- وسائر النبيين؛ ولهذا ولي بعضهم بعضًا، كما قال تعالى في اليهود: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [المائدة:٨٠].

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾.

﴿أَقْرَبَهُم﴾، «أقرب»: مفعول أول لـ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ وهو مضاف، والضمير «هم»: مضاف إليه يعود إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، ﴿مَّوَدَّةً﴾ تمييز، أي: محبة ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، ﴿نَصَٰرَىٰ﴾، أي: أنصار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف:١٤] والموصول يفيد العموم، فيحمل هذا على عموم النصارى.

ولم يقل: أشدهم مودة، بل قال: ﴿أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾، أي: أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، والقرب لا يعني الوصول، فالنصارى ليس لديهم مودة للمؤمنين، لكنهم أقرب الناس من مودتهم، لهذا أسلم منهم أناس كثيرون، كالنجاشي ملك الحبشة، وغيره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى كون النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا، وقد ذكر الله لهذا عدة أسباب أولها:

﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، الباء للسببية، أي: بسبب أن ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: من النصارى ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾.

﴿قِسِّيسِينَ﴾ جمع، مفرده: قِسيس، وقَسّ، أي: علماء كبار، ﴿وَرُهْبَانًا﴾، أي: عبادًا متجردين، جمع «راهب» وهو العابد مشتق من الرهبة، وهي الخوف، كما قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] أي: فخافون.

فهذان الصنفان من أقرب الناس مودة للذين آمنوا؛ القسيسين بسبب العلم ومعرفة الحق، والرهبان بسبب العبادة وما في قلوبهم من الرأفة والرحمة وطلب رضوان الله، ولهم تأثيرهم على غيرهم من أهل ملتهم في قرب مودتهم للذين آمنوا.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ معطوف على ما قبله، والضمير يعود إلى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، وقيل: يعودعلى ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾.

وهذا هو السبب الثاني في كون النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين، وهو كونهم لا يستكبرون، أي: لا يتكبرون، والسين والتاء للمبالغة، أي: لا يستكبرون عن قبول الحق والإذعان له واتباعه، ولا يستكبرون على غيرهم من الناس، كاليهود، بل هم متواضعون منصفون. والتواضع من أعظم أسباب قبول الحق، كما أن الكبر من أعظم أسباب رد الحق.

قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١) أي: رد الحق وانتقاص الناس.

فتضمنت هذه الآية وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم عز وجل بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

عن عبدالله بن الزبير- رضي الله عنه- قال: «نزلت في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾»(٢).

وهذا إن صح محمول على أن الآية تنطبق عليهم، لا أنهم سبب نزولها؛ لأن الهجرة إلى الحبشة وقصة النجاشي وأصحابه لما كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة، وسورة المائدة مدنية، بل هي من آخر ما نزل.

قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

هذا هو السبب الثالث لكونهم أقرب لمودة المؤمنين ﴿وَإِذَا﴾ الواو: عاطفة،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، وأبوداود في اللباس (٤٠٩١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٦٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨٥)، وقد روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- نحوه.

و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿سَمِعُواْ﴾ فعل الشرط، و﴿مَآ﴾: موصولة، أي: وإذا سمعوا الذي أنزل إلى الرسول- يعني- القرآن، و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ﴾: جواب الشرط، و«أعين»: مفعول به منصوب لـ﴿تَرَىٰٓ﴾، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: تشاهد أعينهم ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾: حال، أي: حال كونها تفيض من الدمع، أي: تمتلئ من الدمع وتذرف الدمع، بسبب بكائهم.

﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾، ﴿مِمَّا﴾ مكونة من ﴿مِنَ﴾ السببية، و﴿مَآ﴾ الموصولة، و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾: بيانية، أي: بسبب الذي عرفوه من الحق، وهو ما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ.

وفي بدء الوحي إلى النبي ﷺ ذهبت به خديجة- رضي الله عنها- إلى ورقة بن نوفل فعرف أنه حق وقال: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى»(١).

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الجملة حالية، وهذا هو السبب الرابع، أي: قائلين: يا ربنا، وهذا إقرار منهم بالربوبية.

﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا بما أنزلت بقلوبنا وألسنتنا وانقدنا له بجوارحنا، وهذا إقرار منهم بالدين والألوهية.

﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، الفاء: للسببية، أي: فبسبب إيماننا يا ربنا اكتبنا مع الشاهدين، أي: اجعلنا منهم، و﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:جمع شاهد وهو الذي يشهد على غيره، والمراد بالشاهدين محمد ﷺ وأمته، الذين يشهدون على الأمم قبلهم، كما قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣]، وذلك لأنهم آخر الأمم وخيرها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران:١١٠].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٤)، ومسلم في الإيمان- بدء الوحي إلى الرسول ﷺ (١٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيام، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»(١).

أي: فاكتبنا مع محمد ﷺ وأمته الذين يشهدون على الأمم قبلهم.

وأيضًا ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الذين يشهدون بصدق رسول الله ﷺ، وصدق ما أنزلته عليه ويؤمنون به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ معطوف على ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: يقولون ربنا آمنا. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، و«ما»: اسم استفهام بمعنى: أي شيء، أي: وأي شيء يمنعنا ألا نؤمن بالله.

والإيمان بالله؛ الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ معطوف على لفظ الجلالة (الله)، و«ما»: موصولة، أي: وأي شيء يمنعنا من الإيمان بالذي جاءنا من الحق في القرآن الذي سمعناه مما أنزل على الرسول.

﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ﴾، أي: وما لنا لا نؤمن بالله.. وما لنا لا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، ﴿وَنَطۡمَعُ﴾، أي: ونرجوا، و«الطمع»: الرجاء، أو قريب منه؛ ولهذا قابل بينه وبين الخوف في قوله تعالى: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة:١٦].

﴿أَن يُدۡخِلَنَا﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف. والتقدير: ونطمع في أن يدخلنا ربنا.

فجمعوا بين الإيمان والرجاء، أي: ونرجوا أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، أي: مصاحبين لهم وفي عدادهم في الإيمان والعمل، والإخلاص والمتابعة، ودخول الجنة معهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٧- ٣٠].

و﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين صلحت أعمالهم، فجمعوا بين الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لشرعه، وهم الرسل والمؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ [النساء:١٢٥].

وما جاء في هذه الآية ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ظاهر الآية أن هذا مما يقولونه بألسنتهم، ربما ردًا على من يلومهم على إيمانهم أو يشككهم من أهل ملتهم أو من اليهود، أو غير ذلك، فيقولون: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ويحتمل أن هذا منهم من حديث النفس، أي: وما لنا لا نؤمن مع أن الحق واضح، واتباعه مغنم.

ويحتمل أنه من هذا وهذا، فبعضهم قال هذا صراحة، وبعضهم حدث نفسه بذلك وبعضهم حدث نفسه به وقاله.

قال ابن كثير[1]: «وهذ الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٢- ٥٥]».

قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فأعطاهم الثواب وجازاهم وكافأهم. والثواب: الجزاء والمكافأة على العمل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٥٩).

مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦].

﴿بِمَا قَالُوا۟﴾، الباء للسببية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي قالوا، أو مصدرية، أي: بسبب قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿جَنَّٰتٍ﴾ جمع «جنة»، وهي المنازل التي أعدها الله تعالى لأوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ كما قال ﷺ(١).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر:٢٠].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: حال، أي: حال كونهم خالدين فيها، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، والخلود في الأصل البقاء الدائم الأبدي، وهو كذلك في القرآن.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإشارة إلى ما أثابهم الله به، أي: ذلك الثواب ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: المحسنين في اتباعهم الحق وانقيادهم له قولًا وعملًا واعتقادًا؛ المحسنين في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

قال ﷺ: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٢).

والمحسنين إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وكف الأذى عنهم،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلق أخاك بوجه طلق**»(١).

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وذلك جزاؤهم» بل قال: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ للثناء عليهم، وأنهم بلغوا مرتبة الإحسان التي هي أعلى مراتب الإيمان، وأن ذلك بسبب إحسانهم، وليبين أن هذا الثواب لهم ولغيرهم من المحسنين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

لما ذكر عز وجل ثواب المحسنين أتبعه بذكر عقاب الكافرين جمعًا بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الرجاء والخوف.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: كفروا بالأمر فلم يقوموا بطاعة الله تعالى، بفعل ما أمر الله تعالى به من الواجبات كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك. ولم ينتهوا عن معصية الله تعالى بترك المحرمات كالشرك والفجور وشرب الخمور ونحو ذلك.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: وكذبوا بالخبر فلم يصدقوا ما أخبر الله تعالى به بالآيات الشرعية والكونية من وحدانيته عز وجل وتفرده بالألوهية، وما أخبر به من البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار، وغير ذلك.

والكفر والتكذيب إذا انفرد أحدهما دل على معنى الآخر، وإذا اجتمعا- كما في هذه الآية- حمل الكفر على تكذيب الأمر، وحمل التكذيب على تكذيب الخبر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تحقيرًا لهم، وإشارة إلى بعد منزلتهم في السفول.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: مصاحبوها وملازموها، من النصارى وغيرهم. و﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: اسم من أسماء النار سميت به لشدة لهبها وحرها.

الفوائد والأحكام:

١- أن أشد الناس عداوة للمؤمنين اليهود والمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب- استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ فعداوتهم للمؤمنين ظاهرة في أقوالهم وأفعالهم، فاليهود بسبب بغيهم وحسدهم للمؤمنين، وشدة طغيانهم وعنادهم، والمشركون بسبب شركهم.

وفي مقدمة المشركين: الرافضة، الذين جمعوا بين كل أنواع الشرك والكفر، من الطعن في ربوبية الله تعالى وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وتخوين جبريل عليه السلام، والطعن في النبي ﷺ ورسالته وفي القرآن، وتكفير الصحابة رضي الله عنهم، وتكفير من خالفهم في باطلهم من المسلمين، فعليهم من الله ما يستحقون، وقد صدق فيهم قول القحطاني رحمه الله(١):

إن الروافض شر من وطئ الحصا ... من كل إنس ناطق أو جان

٢- اختلاف درجات عداوة غير المسلمين للمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ فمنهم الأشد عداوة، ومنهم الشديد، ومنهم دون ذلك.

٣- أن أقرب الناس مودة للذين آمنوا النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ وهذا أيضًا: يدل على اختلاف درجات من لم يعاد المسلمين في قربهم من مودة المسلمين.

٤- تأكيد الخبر بالقسم ونون التوكيد- مع أن خبر الله- عز وجل- هو أصدق الأخبار، وذلك لما كان عليه العرب من تأكيد الأخبار بالقسم ونحو ذلك، والقرآن الكريم نزل بلغتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾.

٥- إذا كان اليهود والمشركون أشد الناس عداوة للمؤمنين، فإن النصارى لم يصلوا إلى مودة المؤمنين، وإنما هم أقرب الناس إلى ذلك، فليسوا أهل مودة للمؤمنين.

٦- كمال عدل الله- عز وجل- حيث أنزل كل طائفة من هذه الطوائف منزلتها في علاقتها بالمؤمنين عداوة أو مودة، فهذا غاية العدل وتمام الإنصاف.

٧- أن سبب كون النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين أن منهم علماء كبارًا ورهبان

---

(١) في «النونية» ص٢٢.

عبادًا، وعدم استكبارهم، ورقة قلوبهم وإيمانهم وإقرارهم بربوبية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

٨- فضل العلم والعبادة حتى على غير المسلمين؛ لهذا كان القسيسون والرهبان من أقرب الناس إلى مودة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾.

٩- فضل التواضع حتى على غير المسلمين؛ لأنه من أسباب القرب من مودة المؤمنين، وربما اللحاق بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

١٠- أن الكبر من أسباب رد الحق والبعد عنه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

١١- أن من بلاغة القرآن وحسن تعليمه التعليل للأحكام، وذكر الحكمة إذا كانت تستحق الذكر، وإغفالها إذا كانت لا تستحق الذكر، فقد ذكر الله- عز وجل- حكمة كون النصارى أقرب مودة بينما أغفل علة كون اليهود والمشركين أشد عداوة، وهما الحسد والشرك، لأنهما لا تستحقان الذكر، ولا يحسن ذكرها.

١٢- الثناء على المذكورين بإيمانهم بالرسول ﷺ واستماعهم لما أنزل إليه، وبكائهم وخشوعهم عند سماعهم، وإيمانهم، وسؤالهم ربهم أن يكتبهم مع الشاهدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

١٣- إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾.

١٤- إثبات العلو لله تعالى؛ لأن الإنزال يكون من أعلى؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾ فله- عز وجل- علو الذات وعلو الصفات.

١٥- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾، أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

١٦- الترغيب في استماع القرآن وقراءته؛ لأن له أثره على القلوب والنفوس، وهو

سبب معرفة الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

١٧-أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ وما جاء به حق؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وشهادة الأمم السابقة مقبولة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

١٨- أن البكاء عند سماع القرآن وقراءته أمر محمود؛ لأن الله أثنى على المذكورين بذلك. لكن لا ينبغي رفع الصوت به، وقد كان ﷺ يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من شدة البكاء[١]، لكن إن كان البكاء متكلفًا أو بصوت مرتفع فليس بمحمود.

١٩- شهادة هذه الأمة على الأمم قبلها، واعتراف الأمم السابقة بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

٢٠- ينبغي للمؤمن العمل على تقوية إيمانه والثبات عليه وتقوية عزيمته أمام لوم النفس اللوامة، ولوم المخذلين عن الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٢١- ينبغي أن ينظر الإنسان إلى معالي الأمور، ويطمع باللحاق بركب الصالحين، ولا يرضى بالدون. وكما قيل:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب[٢]

وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانًا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكنٌ ... عليك بها دور لنفسك مسكنًا

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة (٩٤٠)، والنسائي في السهو (١٢١٣)، من حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٥.

وإيـــاك والســـكن بـــدار مذلـــة ... تعـد مسيئًا بعـدما كنـت محسنًا[١]

وقال الآخر:

ومـــن يتهيـــب صـــعود الجبـــال ... يعـش أبـد الـدهر بـين الحفـر[٢]

وقال الآخر:

فـدرب الصـاعدين كـما علمـتم ... بـه الأشـواك تكثـر لا الـورود

وقال الآخر:

وآمـرة بالبخـل قلـت لهـا اقصـري ... فلـيس إلى مـا تـأمرين سـبيل
أرى الناس خلان الكريم ولا أرى ... بخـيلًا لـه في العـالمين خليـل[٣]

وقال الآخر:

ذرينـــي للغنـــى أســـعى فـــإني ... رأيـت النـاس شرهـم الفقـير[٤]

وقال الآخر:

إذا المـرء لم يطلـب معاشًـا لنفسـه ... شكا الفقـر أو لام الصـديق فـأكثرا
وصار على الأدنين كلًا وأوشكت ... صـلات ذوي القربـى لـه أن تنكـرا
فسـر في بـلاد الله والـتمس الغنـى ... تعش ذا يسـار أو تمـوت فتعـذرا[٥]

٢٢- ينبغي مع الإيمان بالله أن يكون المؤمن راجيًا ثواب الله لا معجبًا أو مغترًا بعمله، بل ينبغي أن يخاف من ذنوبه ويخشى عقاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: نرجو ونؤمل من الله ذلك.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن حتى يلقى الله عز وجل، يرجو ثواب الله ويخاف عقابه، ويخشى من سوء الخاتمة، ولهذا لا يجوز الشهادة لأحد بجنة أو نار إلا من شهد له الرسول ﷺ- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

---

(١) الأبيات بلا نسبة. انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي ص٣٢٠، «الدر الفريد» ٢/ ٣٦٧.

(٢) البيت لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص٧٠.

(٣) البيتان بلا نسبة، كما في «البخلاء» للبغدادي ص٧٥.

(٤) البيت لعروة بن الورد. انظر: «ديوانه» ص٩١.

(٥) الأبيات لعروة بن الورد. انظر: «ديوانه» ص٣٥.

٢٣- عظم فضل الله- عز وجل- حيث أثاب هؤلاء المؤمنين بهذا الثواب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

٢٤- أن الإيمان والأعمال سبب للثواب ودخول الجنات؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ الآية.

وفي هذا إثبات الأسباب، والرد على نفاتها، وفيه الرد أيضًا: على المعتزلة الذين يقولون: إن الإيمان والأعمال عوض عن دخول الجنة.

٢٥- إثبات الجنات وما فيها من الأنهار المختلفة.

٢٦- خلود أهل الجنة فيها خلودًا أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ والخلود في الأصل البقاء الدائم.

٢٧- الإشارة إلى عظمة هذا الجزاء، والثناء على أهله بكونهم محسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٢٨- فضل الإحسان والترغيب فيه، لما رتب عليه من الجزاء العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: المحسنين في عبادة الله تعالى والمحسنين إلى عباد الله.

٢٩- أن هذا الجزاء العظيم للمذكورين ولغيرهم من المحسنين بدليل الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٣٠- أن الذين كفروا وكذبوا بآيات الله هم أصحاب النار خالدون فيها بسبب كفرهم وتكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

٣١- التحذير من الكفر والتكذيب بآيات الله.

٣٢- إثبات النار، وأن من أسمائها الجحيم؛ لشدة لهبها وحرها.

٣٣- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد فذكر أولًا جزاء المحسنين ثم أتبعه بذكر عذاب الكفار والمكذبين؛ ليجمع المؤمن في سيره إلى الله بين الرجاء والخوف.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

سبب النزول:

عن أبي مالك- رضي الله عنه- في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. قال: «كان عثمان بن مظعون وأناس من المسلمين حرموا عليهم النساء، وامتنعوا من الطعام الطيب، وأراد بعضهم أن يقطع ذكره، فنزلت هذه الآية»(١).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: هم رهط من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض، كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك. فقالوا: نعم. فقال النبي ﷺ: «**لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني**»(٢).

وفي رواية من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت عليّ اللحم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥١٤) (١٢٣٣٦)، وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١١٨٧)، «دقائق التفسير» (٢/ ٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥١٨) (١٢٣٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨٧) (٦٦٨٩).

(٣) أخرجه الترمذي في تفسر سورة المائدة (٣٠٥٤)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٢٠) (١٢٣٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٨٦) (٦٦٨٧). وقال الترمذي: «حسن غريب» قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٦٠): «وقد روي من وجه آخر مرسلًا، وروي موقوفًا على ابن عباس».

وأصل الحديث في «الصحيحين» كما في حديث أنس رضي الله عنه: أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «**ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**» أخرجه مسلم في النكاح =

إلى غير ذلك من الآثار في أن هذه الآية نزلت في رهط من الصحابة حرموا على أنفسهم المطاعم ونكاح النساء، والنوم والفطر ونحو ذلك(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١].

﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ﴿لَا﴾ ناهية، والتحريم معناه: الحظر، والمنع(٢).

والمعنى: لا تجعلوا طيبات ما أحل الله لكم حرامًا إما بالامتناع عن تناولها كحال الذين حرموا على أنفسهم النساء واللحم ونحو ذلك كما جاء في سبب نزول الآية، وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم:١]، وهذا النوع من التحريم لا يقصد به أن هذا محرم شرعًا، وإنما يقصد به منع النفس من ذلك.

والنوع الثاني: الإخبار عن شيء من الحلال أنه حرام، من باب نقل الأخبار الكاذبة وهذا من الكذب على الله عز وجل.

والنوع الثالث: تحريم الإنشاء، كتحريم أهل الجاهلية من عند أنفسهم لما أحل الله عن قصد منهم، وهذا شرك بالله كما قال عز وجل عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ

=

(١٤٠١)، وأحمد (٣/ ٢٥٩)، وأخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥١٤- ٥٢١)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١١٨٦- ١١٨٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٠)، «دقائق التفسير» (٢/ ٦).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «حرم».

لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦].

وهذه الأنواع كلها داخلة تحت النهي في الآية وإن كان ما روي في سبب نزولها يدل على القول الأول، فهذا لا يمنع من دخول غيره. بل دخول النوعين الآخرين آكد لأنهما أشد تحريمًا، وبخاصة تحريم الإنشاء؛ لما فيه من الشرك بالله الذي جاءت كثير من الآيات بالنهي عنه والتحذير منه.

﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ طيبات: جمع طيب وطيبة، والطيب: وصف يطلق على كل ما يمكن وصفه به من الأعمال والأقوال، والأشخاص والأعيان، فيقال: هذا عمل طيب، وهذا قول طيب، وهذا شخص طيب وهذا ثمر طيب، وهكذا.

وضد الطيب: الخبيث، كما قال عز وجل: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة:١٠٠].

والمراد بالطيبات هنا ما لذ وطاب أكله مما لا ضرر فيه على الجسم والعقل.

﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ﴿مَآ﴾ اسم موصول مبني في محل جر مضاف إليه، أي: طيبات الذي أحله الله لكم، أي: جعله حلالًا لكم، والخطاب للمؤمنين.

والمعنى: لا تحرموا وتحظروا على أنفسكم وتمنعوها من تناول الطيبات وتعاطيها من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغير ذلك[1]، مما يستلذ ويستطاب، وينتفع به الجسم، ولا ضرر به على الجسم والعقل، والذي أحله الله.

ولا تقولوا إخبارًا عن شيء من الحلال إنه حرام، ولا تحرموا ما أحل الله عن قصد منكم.

والطيبات- وإن كانت تطلق على الحلال- إلا أنه في هذا الموضع يتعين حملها على المعنى المذكور؛ لقوله تعالى بعدها: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لئلا يكون المعنى: «لا تحرموا حلال ما أحل الله لكم»؛ ولأن التأسيس وحمل الكلام على معنى جديد أولى من التوكيد، ومن حمل الكلام على الترادف.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥١٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٠- ١٦٢).

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، الاعتداء: تجاوز الحد. قال الطبري[١]: «الاعتداء: تجاوز المرء ما له، إلى ما ليس له في كل شيء».

ويكون في حق العباد بأذيتهم والعدوان عليهم.

ويكون في حق الله بتحريم الحلال كما نهى الله- عز وجل- عنه في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وكما جاء في الروايات في سبب نزولها.

كما يكون الاعتداء بتجاوز الحلال إلى الحرام وتحليله[٢].

كما يكون بالزيادة والإفراط في تناول الحلال، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، هذا في المطاعم ونحوها.

وقال تعالى- في الدعاء والعبادة: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥].

قال ابن تيمية[٣]: «وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ فيمن قال: أقوم لا أنام، وقال: أصوم لا أفطر؛ لأن الاعتداء مجاوزة الحد، فهذا مجاوز للحد في العبادة المشروعة، كالاعتداء في الدعاء في قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وقال النبي ﷺ: **«سيكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور»**[٤].

فالاعتداء في العبادات وفي الورع، كالذين تحرجوا من أشياء ترخص فيها النبي ﷺ، وفي الزهد، كالذين حرموا الطيبات، وهذان القسمان ترك. فقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾

---

(١) في «جامع البيان» (١٠/ ٥٢٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥١٤، ٥٢١- ٥٢٢)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١١٨٨- ١١٨٩).

(٣) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٦- ٧).

(٤) أخرجه أبوداود في الطهارة (٩٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٤) دون ذكر الطهور- كلاهما من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه، وصححه الألباني.

وأخرجه أبوداود أيضًا: في الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١/ ١٧٢)، من حديث سعد بن أبي وقاص دون ذكر الطهور. وضعف إسناده أحمد شاكر في تخريجه للمسند. وقال الألباني: «حسن صحيح».

إما أن يكون مختصًّا بجانب الأفعال العبادية، وإما أن يكون العدوان يشمل العدوان في الصلاة والتحريم، وهذان النوعان هما اللذان ذم الله المشركين بهما في غير موضع، حيث عبدوا عبادة لم يأذن الله بها، وحرموا ما لم يأذن الله به، فقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ يتناول القسمين- ثم ذكر ابن تيمية أن العدوان يكون في مجاوزة حدود المأمور، واجبها ومستحبها، ومجاوزة حد المباح، ومجاوزة حد التحريم، أي في ثلاثة أمور، مأمور به، ومنهي عنه، ومباح».

وقال ابن كثير[1]: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم كما قاله من قاله من السلف.

ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه. فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط، ولا تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها.

أي: إن الله لا يحب المعتدين في حقه- عز وجل- أو حق خلقه. بل يحب- سبحانه وتعالى- أهل العدل في كل شيء؛ لأنه- عز وجل- أهل العدل، وأحكم الحاكمين. وإذا كان الله- عز وجل- لا يحب المعتدين فمفهوم هذا أنه يحب من لم يكونوا معتدين، وفي هذا إثبات صفة المحبة لله- عز وجل- كما يليق بجلاله وعظمته.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

لما نهى عز وجل عن تحريم الطيبات من الحلال، وعن الاعتداء في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، أو في تناول المباح، أمر عز وجل بالأكل من رزق الله الحلال الطيب على سبيل الامتنان، والتذكير بنعم الله- عز وجل- الموجبة لشكره وتقواه.

قوله: ﴿وَكُلُوا﴾ الأمر بالأكل على وجه العموم للإباحة، ويكون للاستحباب في حق المحتاج إلى الأكل، وللوجوب في حق المضطر إلى الأكل، حفاظًا على النفس.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٦٣).

وخص الأكل بالذكر، لأنه أعظم المقصود، وأخص الانتفاعات بالإنسان، وهو كما يقال: كسوة الباطن، لا يستغني عنه الإنسان بحال. والمقصود في الآية أعم من ذلك وهو الانتفاع بكل ما أباح الله عز وجل.

﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿مِمَّا﴾ مكونة من حرف الجر: «من»، و«ما» الموصولة، وهي في محل جر، أي: وكلوا من الذي رزقكم الله، والرزق معناه: العطاء والإمداد بالنعم، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

﴿حَلَٰلٗا﴾ حال، أي حال كونه حلالًا، أي: محللًا، ومباحًا لكم، وهو ضد الحرام.

﴿طَيِّبٗاۚ﴾ صفة لـ﴿حَلَٰلٗا﴾، أي طيبًا في كسبه ولذيذًا مستساغًا ينتفع به الجسم، ولا يضر، لا بالبدن ولا بالعقل.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: واتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، في جميع أموركم وأحوالكم، فيما تأتون، وفيما تذرون، فيما تتناولون وفيما تتركون.

﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ نعت للفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، أي: الذي أنتم به مؤمنون، أي: مصدقون بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للعناية والتنبيه والاهتمام لما سيذكر بعد هذا النداء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- يؤخذ من نداء الله- عز وجل- للمؤمنين بوصف الإيمان شرف هذا الوصف وشرف المتصف به والحض على الاتصاف به، وأن امتثال ما بعده من أمر، وترك ما بعده من نهي يعد من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفة ذلك تعد نقصًا في الإيمان.

٣- النهي عن تحريم ما أحل الله من الطيبات، وأن ذلك محرم لا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

فإن كان عن قصد لتحريم ما أحل الله شرعًا فهذا شرك بالله، وإن كان إخبارًا عن شيء من الحلال أنه محرم فهذا كذب وافتراء على الله، وإن كان من باب منع النفس عن شيء من الحلال وتحريم ذلك عليها فهذا منهي عنه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ

لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١].

٤- أن ما أحله الله من الطيبات لا يُحْرم بمجرد تحريم الإنسان له على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

ولما جاء في حديث عائشة وأنس- رضي الله عنهما[١]- وغيره، وكما روي عن أبي مالك وعلي وابن عباس- رضي الله عنهم- في سبب نزول الآية لكن اختلف أهل العلم هل تجب على من فعل ذلك كفارة، أو لا كفارة عليه على قولين:

والصحيح وجوب الكفارة على من فعل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢].

ولهذا لما نهى عز وجل عن تحريم ما أحل الله من الطيبات أتبع ذلك بالآية المبينة لتكفير الأيمان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه على آية الأيمان[٢]: «ذكر هذا بعد النهي عن التحريم ليبين المخرج من تحريم الحلال إذا عقد عليه يمينًا بالله، أو يمينًا أخرى، وبهذا يستدل على أن تحريم الحلال يمين».

وقال ابن كثير[٣]: «لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير».

وهكذا الحكم في الظهار وهو قول الرجل لزوجته أنت عليّ كظهر أمي، لا تكون به الزوجة حرامًا، وإنما يجب عليه كفارة الظهار قبل أن يتماسا، كما ذكر الله- عز وجل- في سورة المجادلة[٤] وهذا بالإجماع.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن من حرم على نفسه شيئًا من الحلال غير النساء فإنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضًا مستدلين بالآية هنا: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٧).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٦١).

(٤) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [الآية:٣].

أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قالوا فليس فيها ذكر الكفارة، كما أن النبي ﷺ لم يأمر بها الذين حرموا على أنفسهم شيئًا من الحلال كما في حديث عائشة وأنس- رضي الله عنهما- وغيره(١).

٥- النهي عن الاعتداء وتجاوز الحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ وهذا يشمل الاعتداء في حق الله، في التحريم والتحليل، والعبادة والدعاء، والاعتداء في حق الخلق بالعدوان عليهم وأذيتهم.

٦- أن تحريم ما أحل الله من الطيبات يعد من الاعتداء في الدين؛ لقوله بعد أن نهى عن تحريم الحلال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ كما أن تحليل الحرام، أو الزيادة والإفراط في تناول الحلال من الاعتداء، إلا أن أشدها تحريم ما أحل الله لما فيه من التضييق على عباد الله.

٧- الرد على دعاة الزهد والتصوف، الذين يدعون التقرب إلى الله بترك بعض ما أحله الله تعالى، ويجعلون هذا من الدين، وهذا باطل، فإن من التقرب إلى الله تعالى حقًّا التمتع بما أحله الله على الوجه المشروع من غير إسراف ولا تقتير كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

وفي الحديث: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

٨- إثبات محبة الله لغير المعتدين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

فحيث نفاها عز وجل عن المعتدين، فهي ثابتة لغيرهم، وفي هذا رد على منكريها ومحرفيها من طوائف الضلال.

٩- الأمر بالأكل من رزق الله وعطائه الحلال الطيب، وهو للوجوب عند الضرورة،

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٨٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٣٩، ٦٤٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦١).

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨٢٠)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الترمذي: «وفي الباب عن أبي الأحوص عن أبيه وعمران بن حصين وابن مسعود»، ثم قال الترمذي: «حديث حسن». وأخرج حديث أبي الأحوص عن أبيه أبوداود في اللباس (٤٠٦٣)، والنسائي (٤٨١٩) قال: «أتيت النبي ﷺ في ثوب دون، فقال: «لك مال؟ قال: نعم. قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: إذا آتاك الله مالًا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وصححه الألباني.

ويحرم تركه حفاظًا على النفس، وللاستحباب عند الحاجة، ويكره تركه إبقاءً على قوة الجسم وحيويته، لأداء رسالته في هذه الحياة، وللإباحة فيما سوى ذلك.

١٠- امتنان الله على المؤمنين بما أولاهم من الرزق الحلال الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ بينما حرم عز وجل على اليهود طيبات بسبب ظلمهم وعصيانهم، كما قال عز وجل: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء:١٦٠].

١١- أن الرزق والعطاء كله من الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

١٢- وجوب الأكل من الحلال الطيب دون الحرام الخبيث مكسبًا كالذي يكتسب بطريق محرم، بالربا والرشوة ونحو ذلك، ودون الحرام الخبيث جنسًا كالخمر والنجاسات.

فإن أكل من مال الغير المكتسب بطريق حرام بعد إذنه أو ورثه عنه جاز؛ لأن النبي ﷺ أكل من طعام اليهود، وقد قال الله عنهم: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾ [النساء:١٦١]، فقد أهدت إليه امرأة منهم شاة مصلية فأكل منها(١).

وكذا لو أكل للضرورة من المحرم الخبيث جاز؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات.

١٣- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه عمومًا، وفيما يتناوله الإنسان من المطاعم والمناكح ومشتهيات النفس ونحو ذلك خصوصًا؛ لقوله تعالى بعد أن نهى عن تحريم الحلال وأمر بالأكل من الحلال الطيب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١٤- أن من شرط الإيمان بالله تعالى، ولازمه، ومن الواجب على المؤمن تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾(٢).

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٦١)، «تفسير الكريم الرحمن» (٢/ ٣٣٥).

قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

لما ذكر عز وجل تحريم طيبات ما أحل الله أتبع ذلك بذكر الأيمان وكفارة اليمين، مما يدل على أن تحريم الحلال له حكم اليمين تجب فيه الكفارة.

قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾ المؤاخذة المعاقبة، أي: لا يحاسبكم الله ولا يعاقبكم.

﴿بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، اللغو: هو الشيء الذاهب الباطل، وما لا خير فيه، وما لا يعتد به، ولا يعقد عليه أمر.

والأيمان: جمع يمين وهي الحلف بالله تعالى أو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته.

ولغو اليمين: ما جرى من الأيمان على اللسان من غير قصد، وذلك نحو قول الإنسان بلا قصد: لا والله، وبلى والله ونحو ذلك، بدليل قوله تعالى- بعد هذا: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «نزلت ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ في قول الرجل: لا والله، وبلى والله»(١).

وعنها قالت: «لغو اليمين: ما لم يعقد عليه الحالف قلبه»(٢).

قال الفرزدق(٣):

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ... إذا لم تَعَمَّدْ عاقدات العزائم

وجعل بعض أهل العلم من لغو اليمين أن يحلف على الشيء يرى أنه كما حلف

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦١٣)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٥٤)، والنسائي في التفسير (١٦٩).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٢٦)- الأثر (١٢٣٦٣)، والجصاص في «أحكام القرآن» (٢/ ٤٥٣).

(٣) انظر: «ديوانه» (٢/ ٣٠٧).

فيتبين بخلافه. قال الحسن: «أن تحلف على الشيء، وأنت يخيل إليك أنه كما حلفت، وليس كذلك، فلا يؤاخذكم الله، فلا كفارة، ولكن المؤاخذة والكفارة فيما حلفت عليه على علم»(١).

وقال أبومالك: «وأما اليمين التي لا يؤاخذ بها فالرجل يحلف على الأمر يرى أنه كما حلف فلا يكون كذلك، فليس عليه فيه كفارة، وهو اللغو»(٢).

وقد حمل بعض أهل العلم لغو اليمين على نحو ما جاء في قول عائشة- رضي الله عنها، وقال ابن كثير(٣) مرجحًا هذا القول: «الصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، أي: بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموه».

وحمله جمع من أهل العلم على هذا وهذا(٤).

قال الشنقيطي(٥) بعد أن ذكر القولين: «والقولان متقاربان، واللغو يشملهما؛ لأنه في الأول لم يقصد عقد اليمين أصلًا، وفي الثاني لم يقصد إلا الحق والصواب»(٦).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٢٦)- الأثر (١٢٣٦٠).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٦٣)، وانظر: «الأم» (٧/ ٢٢٥- ٢٢٦)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٠٩- ١١٠)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٨٩- ١١٠)، وانظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٧٥).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٤/ ٤٣٢- ٤٣٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ١٧٦)، «المغني» (١٣/ ٤٤٩- ٥٥١)، «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٢١٠).

(٥) في «أضواء البيان» (٢/ ١٢٠).

(٦) وقد قيل: إن المراد بلغو اليمين اليمين في التحليل والتحريم؛ لأن هذه اليمين لا يتعلق بها تحليل ولا تحريم؛ لقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٨٧].

وليس هذا بصحيح لأن اليمين في التحليل والتحريم- وإن كان لا يترتب عليها تحليل ولا تحريم- إلا أن صاحبها يجب عليه أن يكفر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:١- ٢]. وهذا بخلاف قول الرجل من غير قصد: لا والله، وبلى والله ونحو ذلك فهذا ونحوه لا مؤاخذة فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما كان مباحًا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليه لم يصر حرامًا، بل له أن يفعله، ويكفر عن يمينه، وما لم يكن واجبًا فعله، إذا حلف عليه لم يصر واجبًا عليه، بل له أن يكفر عن =

﴿يُؤَاخِذُكُم﴾ يحاسبكم، ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، «ما»: موصولة، أي: بالذي عقدتم، أو مصدرية أي: بعقدكم الأيمان.

قرأ عاصم برواية حفص، ونافع وابن كثير وأبوعمرو وأبوجعفر ويعقوب ﴿عَقَّدتُّمُ﴾ بتشديد القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر، وخلف: «عَقَدْتم» بتخفيف القاف.

وقرأ ابن عامر بزيادة ألف « عاقَدْتُم»(١)، ومعنى القراءات الثلاث واحد.

والعقد: بمعنى الربط والشد، كعقد الحبل، وهذا في العقود الحسية، ويطلق على العقود الحكمية المعنوية كعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين، ونحو ذلك، للدلالة على شدة العقد، وإحكامه وتوثيقه.

قال الشاعر:

قـــوم إذا عقـــدوا عقـــدًا لجـــارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا(٢)

ومعنى ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، أي: بما قصدتم وتعمدتم عقده من الأيمان بقلوبكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

واليمين المنعقدة: هي الحلف بالله تعالى، أو اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته قاصدًا مختارًا، من شخص مكلف، على أمر مستقبل ممكن.

فالحلف: أن يتلفظ باليمين بلسانه، فإن لم يتلفظ به لم يكن يمينًا، بل من حديث النفس، وقد قال ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا، أو**

=

يمينه ولا يفعله، ولو غلظ في اليمين بأي شيء غلظها فأيمان الحالفين لا تغير شرائع الدين، وليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله، ولا يوجب بيمينه ما لم يوجبه الله».

وقد قيل في لغو اليمين أقوال غير ما ذكر كلها لا دليل عليها. انظر: «جامع البيان» (٤/ ٤٣٧- ٤٤٦)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٤٠- ٦٤١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٤٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٣).

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٢٤- ٥٢٥)، «المبسوط» ص(١٦٣)، «الكشف» (١/ ٤١٧)، «التبصرة» (٤٨٧)، «العنوان» ص(٨٨)، «النشر» (٢/ ٢٥٥).

(٢) البيت للحطيئة. انظر: «ديوانه» ص(١٥).

يعملوا به»(١).

وكون الحلف بالله أو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، فإن حلف بغير الله فهذا شرك بالله، ولا ينعقد به اليمين.

وكونه قاصدًا، أي: قاصدًا اليمين، فإن لم يقصد اليمين فهذا لغو- كما سبق بيانه.

وكونه مختارًا، أي: غير مكره، فإن أكره على الحلف لم تنعقد اليمين، فلا يحنث؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦].

وكونه من مكلف، أي: من بالغ عاقل، فإن حلف غير المكلف كالصغير والمجنون لم تنعقد يمينه.

وكونه على أمر مستقبل، فإن حلف على أمر ماض فلا يخلو من ثلاث حالات:

أن يحلف على أمر ماض وهو صادق في ذلك فهذا لا شيء عليه لكن ينبغي أن يكون ذلك عند الحاجة؛ لأن الإكثار من الحلف منهي عنه حتى ولو كان صادقًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾.

وفي الحديث: «**ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه**»(٢).

الحالة الثانية: أن يحلف على أمر ماض، وهو كاذب، وهذا محرم لا يجوز، اجتمع فيه الكذب والاستهانة باليمين بالله. وقد عد هذا بعض أهل العلم من اليمين الغموس، وخص بعض أهل العلم اليمين الغموس بالتي يقتطع بها مال امرئ مسلم كما جاء في الحديث(٢).

والحالة الثالثة: أن يحلف على أمر ماض يظنه كما حلف فيتبين الأمر بخلاف ذلك.

وقد قيل- كما سبق- إن هذا من لغو اليمين، والأظهر أنه ليس من لغو اليمين لوجود القصد فيه، لكنه لا يؤاخذ فيه؛ لأنه لم يقصد الكذب، وإنما حلف على ظنه، والأولى ترك مثل هذا؛ لأن الأولى ترك الحلف، فكيف إذا كان على الظن.

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤)، ومسلم في الأيمان (١٢٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠٩)، والترمذي في الطلاق (١١٨٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سيأتي تخريجه.

وإن حلف على أمر غير ممكن، بل مستحيل بأن يفعله، فهذا يحنث في الحال وعليه الكفارة، وهو آثم، وإن حلف ألا يفعله فهو لغو لا كفارة فيه، وقال بعض أهل العلم: بل الحلف على المستحيل لا ينعقد، بل كله من لغو اليمين، فلا كفارة فيه.

قال القرطبي[١]: «فاليمين المنعقدة مفتعلة من العقد، وهي عقد القلب، لا يفعل ففعل، أو ليفعلن فلا يفعل، فهذه التي يحللها الاستثناء والكفارة».

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «الأيمان أربعة: يمينان يكفران، ويمينان لا يكفران، فاليمينان اللذان يكفران: فالرجل الذي يحلف: والله لا أفعل كذا وكذا، فيفعل، والرجل يقول: والله لأفعلن كذا وكذا، فلا يفعل.

واليمينان اللذان لا يكفران: فالرجل يحلف: والله ما فعلت كذا وكذا، وقد فعل، والرجل يحلف: لقد فعلت كذا وكذا ولم يفعله»[٢].

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن حنثتم فكفارته، و«كفارته» مبتدأ، وخبره ما بعده، والضمير في قوله: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ يرجع إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾.

والآية على تقدير محذوف يدل عليه السياق، تقديره: «فإن حنثتم فكفارته إطعام» فالكفارة معلقة بالحنث، والحنث: أن يترك ما حلف على فعله، أو يفعل ما حلف على تركه.

والمعنى: فكفارة اليمين التي حنثتم فيه إطعام عشرة مساكين.

والكفارة: هي الجزاء الذي يلزم مقابل الحنث باليمين، مأخوذ من الكفر، وهو: الستر؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وتمحوه، فلا يقع عليه مؤاخذة، قال تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩] أي: يسترها ويمحوها.

فالكفارة والتكفير من هذا المعنى، ومنه سُمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويواريه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد:٢٠] أي: أعجب الزارع.

ويُسمى الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، ويُسمى وعاء طلع النخل كَفْرًا؛

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٦).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٥).

لأنه يستر الطلع بداخله. وهكذا.

فكفارة اليمين المنعقدة إذا حنث فيها إطعام عشرة مساكين.

عن أبي مالك قال: «الأيمان ثلاث يمين تكفر، ويمين لا تكفر، ويمين لا يؤاخذ بها صاحبها فأما اليمين التي تكفر: فالرجل يحلف على الأمر لا يفعله ثم يفعله، فعليه الكفارة، وأما اليمين التي لا تكفر: فالرجل يحلف على الأمر يتعمد فيه الكذب، فليس فيه كفارة، وأما اليمين التي لا يؤاخذ بها: فالرجل يحلف على الأمر يرى أنه كما حلف فلا يكون كذلك، فليس عليه فيه كفارة، وهو اللغو»(١).

﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، أي: فكفارته أن يطعم عشرة مساكين، من أي أنواع المطعومات التي تعارف الناس على أنها طعام، ولابد أن يكون عدد الذين يطعمهم عشرة، ولابد من كونهم مساكين.

﴿مَسَٰكِينَ﴾: جمع «مسكين»، مأخوذ من السكون، وعدم الحركة، والمراد به: من لا يجد ما يكفيه، لفقره وحاجته، وسُمي مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأذله.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾، ﴿أَوْسَطِ﴾ بمعنى: أعدل.

أي: من أعدل ما تطعمون به أهليكم ومتوسطه؛ لا من أعلاه، ولا من أدناه، وذلك من حيث جنس الطعام، من البر، أو الشعير، أو التمر، أو غير ذلك من المطعومات، ومن حيث صفته وجودته.

وتكون «ما» في قوله: ﴿مَا تُطْعِمُونَ﴾: اسم موصول أي: من أوسط الذي تطعمون أهليكم، من حيث الجنس والجودة وعدمها(٢).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من حيث القلة والكثرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن كنت تشبع أهلك فأشبع المساكين، وإلا فعلى ما تطعم أهلك بقدره»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٢٦) الأثر (١٢٣٦٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٣١- ٥٣٤).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٥٤١)- الأثر (١٢٤٣٠).

واختار هذا الطبري[١] وقال: «فأعدل أقوات الموسع على أهله: «مدّان»، وذلك نصف صاع، في ربعه إدامه، وذلك أعلى ما حكم به النبي ﷺ في كفارة في إطعام مساكين، وأعدل أقوات المقتر على أهله «مد» وذلك ربع صاع، وهو أدنى ما حكم به في كفارة في إطعام مساكين».

وتكون «ما» في قوله: ﴿مَا تُطْعِمُونَ﴾ مصدرية، فالتقدير: من أوسط إطعام أهليكم[٢].

واختار بعض أهل العلم: أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ما يشمل ذلك كله: التوسط في الجنس والجودة، والتوسط في القدر.

قال الزجاج[٣]: «وأوسط ما تطعمون أهليكم على ضربين، أحدهما: أوسطه في القدر والقيمة، والآخر: أوسطه في الشبع».

وقال ابن عطية[٤]: «والوجه أن يعم بلفظ الوسط: القدر والصنف».

وعلى هذا فإن كان في حال ضيق عيش أطعم مدًا وإن كان في حال أوسع أطعم مدًا ونصفًا أو مدًا وثلثًا. هذا على أن المعنى: الوسط القدر.

وعلى أن المعنى: الوسط الصنف: يتجنب المكفر أدنى ما يأكل الناس، ولا يلزمه الأعلى، بل يكفر بالوسط، فإذا كان أعلى الناس يأكل برًّا، وأدناهم يأكل شعيرًا، وأوسطهم أرزًا أخرج أرزًا وهكذا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]: «لفظ الإطعام لعشرة مساكين لم يقدره الشرع، بل كما

---

(١) في «جامع البيان» (١٠/ ٥٤٣- ٥٤٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٤٣).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٢٢٢).

(٤) في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٧).

وقد قيل: إن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من أمثله كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: عدولًا خيارًا والصحيح: أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ المتوسط لا من الأعلى ولا من الأدنى.

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٥٢).

قال الله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وكل بلد يطعمون من أوسط ما يأكلون كفاية».

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، ﴿أَوْ﴾ عاطفة تفيد التخيير، والمعنى: إما أن تطعموهم، أو تكسوهم.

وحد الكسوة ما يكسو البدن ويطلق عليه أنه كسوة(١)، وذلك راجع إلى العرف وهو يختلف باختلاف الأزمان والبلدان والأحوال.

وقد قيل في تحديدها: إنها ثوب واحد لكل مسكين، وقيل: ثوبان لكل مسكين، وقيل: إزار ور داء وقميص، وقيل: ما تصح الصلاة فيه، وقيل غير ذلك(٢).

والصحيح الأول: أن المعتبر في الكسوة ما تعارف الناس على أنه كسوة، بدون تحديد، بل وبدون تحري الوسط؛ لأن الله قال: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ وهذا مطلق، بينما قال في الإطعام: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

لكن لا ينبغي قصد الرديء من الكسوة كما هو الحال بالنسبة للنفقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢٦٧]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ﴿أَوْ﴾ كسابقتها للعطف والتخيير.

والتحرير بمعنى: التخليص والعتق كما أخبر تعالى عن مريم أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران:٣٥]، أي: مخلصًا لك.

ومعنى ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، أي: تخليص نفس مملوكة وإخراجها وإعتاقها من الرق، بحيث يملك الرقيق منافعه، بعد أن كانت ملكًا لسيده.

ولهذا يشترط أن تكون الرقبة سليمة من العيوب المؤدية إلى انتفاء منافعها؛ لأنه لا معنى لتحريرها، وتخليصها، إذا لم تكن ذات منافع.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾، الفاء: استئنافية و«من»: شرطية، و﴿لَمْ﴾: حرف

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١١٣)، «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٠- ٥٥١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٥٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٤٥- ٥٥٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٠- ٦١)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٨- ١٧٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٦).

نفي وجزم وقلب، ﴿يَجِدْ﴾ فعل الشرط.

وجوابه جملة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فعليه صيام ثلاثة أيام.

والمعنى: فمن لم يجد أحد الأشياء الثلاثة التي هو فيها مخير، وهي: الإطعام والكسوة وتحرير رقبة، إما لعدمها، وإما لعدم المال الفاضل عن حاجته الذي يشتري به إحدى هذه الخصال، وإما لعدم وجود من يطعمهم أو يكسوهم، ونحو ذلك، فالواجب عليه صيام ثلاثة أيام.

وظاهر الآية أنه سواء صامها متتابعة، أو غير متتابعة؛ لأن الله ذكرها مطلقة، ولم يقيدها بالتتابع، كما قيد بذلك كفارة القتل والظهار.

وقد قرأ أبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»(١).

وقد استدل بها من قال بوجوب التتابع في صيام الأيام الثلاثة.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى أنواع الكفارة المذكورة، والتي فيها تخيير بين الإطعام والكسوة والتحرير، وترتيب بين هذه الأمور الثلاثة، وبين صيام ثلاثة أيام.

أي: ذلك المذكور من أنواع الكفارة الأربعة، وما بينها من تخيير وترتيب كفارة أيمانكم، إذا عقدتموها، وحنثتم فيها كما قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢].

أما من حلف على أمر، ولم يحنث في حلفه، بل وفَّى بيمينه، وبرّ بها، وأتمها فلا شيء عليه.

﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ بعدم الكذب فيها، وعدم الإكثار منها، وترك الحلف إلا لحاجة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤].

وقال ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زانٍ، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا**

---

(١) أخرجها الطبري عن أبي بن كعب بإسناد صحيح، وذكرها عن ابن مسعود وانظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٩- ٥٦١) الأثران (١٢٤٩٧- ١٢٤٩٨).

بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»[١].

فكثرة الأيمان تدل على الاستهانة باليمين بالله، وقد قيل:

قليل الألا يا حافظ ليمينه إذا بدرت منه الألية برت[٢]

وحفظها أيضًا: بالوفاء بها إذا عقدها، وعدم الحنث فيها، ما لم تكن على ترك بر أو فعل إثم.

وحفظها أيضًا: بالاستثناء فيها حتى لا يتعرض للحنث فيها وذلك بقول: إن شاء الله، متصلًا باليمين، مع التلفظ بذلك فيقول: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف:٢٣- ٢٤].

وحفظها أيضًا بالتكفير عنها إذا حنث فيها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، الإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل ﴿يُبَيِّنُ﴾ والتقدير: كذلك البيان، أي: مثل ذلك البيان الذي بينه الله لكم في كفارة أيمانكم، وما فيها من تخيير وترتيب ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الشرعية المشتملة على بيان الأحكام، بمعنى يوضحها ويفصلها، كما قال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

كما بين عز وجل آياته الكونية الدالة على وجوده وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته، وكمال ربوبيته وألوهيته، كما قال عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٧- ٣٩].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٦).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، لعل: للتعليل، أي: لأجل أن تشكروا الله- عز وجل- على بيانه الآيات لكم وهدايته إياكم وتوفيقه لكم.

والشكر: أداء حق المنعم والقيام بطاعته. ويكون بالقلب واللسان والجوارح، كما قال الشاعر:

وما كان شكري وافيًا بنوالكم ... ولكنني حاولت في الجهد مذهبا
أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا[1]

الفوائد والأحكام:

١- أن اليمين اللغو كقول الرجل: لا والله، وبلى والله- من غير قصد، ونحو ذلك لا مؤاخذة فيها، فلا تنعقد ولا حنث فيها ولا كفارة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

٢- فضل الله- عز وجل- على عباده، وعفوه عنهم، حيث لا يؤاخذهم بما يصدر عنهم من أيمان اللغو؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

وذلك نحو قول الرجل: لا والله، وبلى والله- من غير قصد لليمين، وذلك لأنها يكثر ويتكرر جريانها على اللسان من غير قصد، ويصعب التحرز منها.

وقد خص بعض أهل العلم لغو اليمين بهذا وجعل بعض أهل العلم من هذا: أن يحلف الرجل على أمر حسب ظنه ثم يتبين بخلافه، كأن يقول: والله لقد غربت الشمس ظنًّا أنها قد غربت لوجود السحاب ثم يتبين أنها لم تغرب.

ولا شك أن هذا يختلف عن الأول بوجود القصد لليمين، لكنه لا حنث فيه، ولا مؤاخذة عليه، سواء قلنا: إنه من لغو اليمين أو ليس منه، وسواء كان على أمر ماض أو مستقبل، لأن الحالف فيه حلف على حسب ما يظن أنه واقع، وهو- وإن قصد اليمين- لم يقصد الكذب فيها قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: «إذا حلف على شيء يعتقده كما حلف عليه فتبين بخلافه فهذا أولى بعدم التحنيث من مسألة

---

(١) البيتان بلا نسبة. انظر: «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» ٥/ ٢٧٧.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٢١٠).

المحلوف عليه ناسيًا أو جاهلًا».

٣- أن الأيمان التي يحصل فيها الحنث، والتي يؤاخذ فيها هي الأيمان المنعقدة، وهي التي عزم عليها القلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾.

وقوله في سورة البقرة: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

وهي الحلف بالله أو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته[١] على أمر مستقبل أن يفعله، أو أن لا يفعله[٢] فهذه اليمين يجب الوفاء بها فإن حنث فيها فعليه الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ الآية[٣]، إلا إذا كان استثنى، كأن

---

(١) أما الحلف بغير الله فهو محرم وشرك، ولا ينعقد، ولا كفارة فيه.

(٢) وقد اختلف أهل العلم في الحلف بالطلاق والعتاق والصيام والنذور ونحو ذلك، كقول الرجل لامرأته عليَّ الطلاق إن فعلت كذا. فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه يمين يكفر بكفارة اليمين، وقيل: يلزمه الوفاء، وإذا حنث لزمه ما حلف به، وقيل: هذه يمين منعقدة لا كفارة لها ولا وقوع، ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية القول الأول مستدلًا له بهذه الآية ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ الآية وبقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [الآية:٢]. قال: «هذا عام في كل يمين» وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة:٢٢٤] وبقوله ﷺ: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير**» قال: «وهذا يتناول جميع أيمان المسلمين». انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٤٩- ٥٥، ٣٣/ ١٢٥) وما بعدها. وانظر: (٣٥/ ٢٥٣) وما بعدها.

(٣) أما اليمين الغموس وهي الحلف كاذبًا متعمدًا على أمر قد مضى بأنه فعله، ولم يفعله، أو بأنه لم يفعله، وقد فعله، ونحو هذا فهذه لا تنعقد ولا تكفر، لعدم ذكر الكفارة معها، وهي أعظم من أن تكفر، وسميت غموسًا لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، وقد خصها بعض أهل العلم بالتي يقتطع بها مال مسلم، لما رواه عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «**الإشراك بالله**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**عقوق الوالدين**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**اليمين الغموس**». قلت: ما اليمين الغموس؟ قال: «**التي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب**». أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١١)، والترمذي في التفسير (٣٠٢١).

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتطع حق امرئٍ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**». قال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله، قال: «**وإن كان قضيبًا من أراك**» أخرجه مسلم في الأيمان (١٣٧)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤١٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٤)، ومالك في الأقضية (١٤٣٥)، والدارمي في البيوع (٢٦٠٣).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال**
=

يقول: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، فإن فعل ذلك فلا كفارة عليه(١).

لما رواه ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**من حلف فاستثنى فإن شاء مضى وإن شاء ترك، من غير حنث**»(٢).

٤- أن مدار المؤاخذة والمجازاة على ما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا

=

امرئٍ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان» فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:٧٧]» أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٥٧)، ومسلم في الأيمان (١٣٨)، وأبوداود في الإيمان (٣٢٤٣)، والترمذي في البيوع (١٢٦٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٣).

وقيل: تنعقد اليمين الغموس وتكفر، وهو قول الشافعي ورواية عن أحمد، والصحيح الأول وهو قول الجمهور.

والإثم لا يسقط بالكفارة باتفاق العلماء. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٣- ٤٥٤)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٩٠- ٩٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٤٢)، «المغني» (١٣/ ٤٤٨)، «المجموع» (١٩/ ٢٢٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٦٨)، «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٢٨، ٣٤/ ١٧٩).

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٤٢)، «المغني» (١٣/ ٤٨٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٢- ٢٧٤)، «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٩٦- ١٩٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الإيمان (٣٢٦٢) والترمذي في النذور (١٥٣١)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٠٥)، وصححه الألباني.

واختلفوا فيما إذا فعل المحلوف عليه ناسيًا ليمينه، أو جاهلًا أنه المحلوف عليه: فذهبت طائفة من السلف إلى أنه لا يحنث في جميع الأيمان وإليه ذهب إسحاق والشافعي في أحد قوليه وأحمد في رواية عنه، وذهبت طائفة من السلف إلى أنه يحنث في جميع الأيمان وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية عنه. وصحح ابن تيمية القول الأول قال: «من فعل المنهي عنه ناسيًا أو مخطئًا فلا إثم عليه ولا يكون عاصيًا مخالفًا». وقد قيل: يحنث في الطلاق والعتاق فقط. انظر: «المغني» (١٣/ ٤٤٦)، «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٠٩، ٢٠٨)، «أضواء البيان» (٢/ ١٢٥- ١٢٦).

واليمين على نية المستحلف لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**اليمين على نية المستحلف**»، وفي رواية: «يمينك على ما يصدقك به صاحبك» أخرجه مسلم في الأيمان (١٦٥٣)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٥٥)، والترمذي في الأحكام (١٣٥٤)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٠)، والدارمي في النذور والأيمان (٢٣٤٩).

فمن وجبت عليه يمين في حق وجب عليه فحلف وهو ينوي غيره لم تنفعه نيته، ولا يخرج بها عن إثم تلك اليمين، انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٢).

عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ كما قال في سورة البقرة: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الآية:٢٢٥].

٥- أن من أعاد اليمين على شيء واحد لا يلزمه إلا كفارة واحد؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ وهو قول طائفة من أهل العلم، وقيل: يلزمه كفارات بعدد الأيمان(١).

٦- أن الواجب الوفاء باليمين وعدم الحنث فيها، ما لم يكن غيرها خيرًا منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾، والكفارة إنما تكون لمقابلة ذنب ونحو ذلك.

٧- أن كفارة اليمين المنعقدة إذا حنث فيها التخيير بين إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم(٢)، أو تحرير رقبة(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فمن لم يجد هذه الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾.

٨- أن المجزئ في الإطعام في كفارة اليمين: أعدل ومتوسط ما يطعم المرء به أهله، فلا يلزمه الأعلى، ولا يجزئه الأدنى، وذلك من حيث جنس الطعام ومقدار الإطعام؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

وقد اختلف في الإطعام هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف.

فذهبت طائفة من أهل العلم إلى أنه مقدر بالشرع، لكنهم اختلفوا في تقديره.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٢١٩).

(٢) ولا تجزي القيمة عن الإطعام، والكسوة عند أكثر أهل العلم، وذهب أبوحنيفة إلى أنها تجزئ.
ولا تدفع إلى ذمي ولا إلى مملوك، وقال أبوحنيفة تدفع له لأنه مسكين، ولا تدفع لمن تلزمه نفقته.
وإن مات من هي عليه أخرجت من تركته؛ لأنها حق لله، وقال أبوحنيفة تخرج من الثلث. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٩)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٩٨)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٥٢- ٦٥٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٧٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٧).

(٣) هذا بالنسبة للحر، وقد اختلفوا بالنسبة للرقيق، فقيل: هو كالحر في ذلك كله، وقيل: يكفر بالإطعام أو الكسوة فقط، دون التحرير، وقيل: يكفر بالصوم وبهذا قال أكثر أهل العلم، قالوا: لأن ماله ملك لسيده. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٣)، «البحر المحيط» (٤/ ١٢).

فذهب كثير من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أنه نصف صاع من البر أو التمر أو غيرها من الطعام يعطى لكل مسكين(١).

ويدل على هذا ما جاء في حديث كعب بن عجرة- رضي الله عنه- في كفارة فدية الأذى وأن النبي ﷺ قال له: «هل عندك نسك؟ قال: ما أقدر عليه، فأمره ﷺ أن يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين لكل مسكينين صاع»(٢).

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أنه يجزئ مد من الطعام وهو ربع الصاع(٣) وإلى هذا ذهب مالك(٤) والشافعي(٥).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المجزئ فيها نصف صاع من البر وصاع من غيره(٦) وإلى هذا ذهب أبو حنيفة(٧).

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن المجزئ مد من البر ومدان من غيره يعني ربع صاع من البر ونصف صاع من غيره وإلى هذا ذهب الإمام أحمد(٨).

والقول الثاني: أن ذلك مقدر بالعرف لا بالشرع، فيطعم أهل كل بلد من أوسط ما يطعمون أهليهم قدرًا ونوعًا، ولهذا كان مالك يقول: يجزئ المد بالمدينة، قال: وأما البلدان فإن لهم عيشًا غير عيشنا، فأرى أن يكفروا بالوسط من عيشهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾(٩).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٣٤- ٥٤٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٤- ١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٨١٦)، ومسلم في الحج (١٢٠١)، وأبوداود في المناسك (١٨٥٨)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٥١)، والترمذي في الحج (٩٥٣)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٩).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٣٤- ٥٤٠)، «زاد المعاد» (٥/ ٤٩٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٤- ١٦٥).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٦).

(٥) انظر: «الأم» (٧/ ٥٨)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١١٣)، «النكت والعيون» (١/ ٤٨٢)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٩٦).

(٦) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٣٤)، «زاد المعاد» (٥/ ٤٩٦).

(٧) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٧)، «مدارك التنزيل» (٢/ ٧).

(٨) انظر: «المغني» (١٣/ ٥٠٩)، «دقائق التفسير» (٢/ ٨٤).

(٩) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٨٥).

وهذا قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين[١] وعلى هذا فلو جمع المساكين فأطعمهم غداءً أو عشاءً أجزأ ذلك، بل إن هذا هو ظاهر المقصود بقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، لا ما قيل في التقديرات السابقة في القول الأول.

وليس من شرط ذلك تمليك المساكين، بل يكفي مجرد إطعامهم؛ لأنه لم يقل «فللمساكين» بلام التمليك كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٦٠].

وإلى هذا ذهب كثير من الفقهاء، منهم أبوحنيفة[٢] ومالك[٣] وأحمد في رواية عنه[٤]، وذهب الشافعي إلى أنه لابد من تمليكهم[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٦] بعد أن ذكر القولين: «والمنقول عن أكثر الصحابة والتابعين هذا القول- يعني القول- بتقديره بالعرف ولهذا يقولون: الأوسط: خبز ولبن، خبز وسمن، خبز وتمر، والأعلى: خبز ولحم. وقد بسطنا الآثار عنهم، في غير هذا الموضع، وبينا أن هذا القول هو الصواب، الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار، وهو قياس مذهب أحمد وأصوله، فإن أصله أن ما لم يقدره الشارع فإنه يرجع فيه إلى العرف، وهذا لم يقدره الشارع فيرجع فيه إلى العرف، لاسيما مع قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.. إلى أن قال: والمختار أن يرجع في ذلك إلى عرف الناس وعاداتهم، فقد يجزئ في بلد ما أوجبه أبوحنيفة، وفي بلد ما أوجبه أحمد، وفي بلد آخر ما بين هذا وهذا حسب عادته عملًا بقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾... فهذا أظهر القولين في الدليل فإن الله تعالى أمر بالإطعام، ولم يوجب التمليك وهذا إطعام حقيقة».

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٨)، «دقائق التفسير» (٢/ ٨٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٧)، «مدارك التنزيل» (٢/ ٧).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٧).

(٤) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٨٥)، «زاد المعاد» (٥/ ٤٩٥).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٩٧)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٦٤).

(٦) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٨٤- ٨٥).

واستحب كثير من العلماء أن يخرج مع الطعام أدم، وقال بعضهم بوجوبه[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] «والصحيح أنه إذا كان يطعم أهله بأدم أطعم المساكين بأدم، وإن كان إنما يطعمهم بلا أدم لم يكن له أن يفضل المساكين على أهله، بل يطعم المساكين من أوسط ما يطعم أهله».

٩- ظاهر قوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ أنه لابد من استيعاب العشرة كلهم فلو أطعم واحدًا عشر مرات لم يجزئه، وكذا لو أطعم خمسة مرتين، وبهذا قال جمهور أهل العلم منهم مالك والشافعي وغيرهم[٣].

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يجزئه منهم أبوحنيفة[٤].

والأول أقرب، لكن إذا لم يجد إلا بعضهم، كأن وجد خمسة مساكين فقط فهل له أن يطعمهم مرتين أو يقال: إنه لم يجد فينتقل إلى الصيام، يحتمل هذا وهذا والأقرب- والله أعلم- أنه يطعمهم مرتين، ومن هنا يظهر أن ما ذهب إليه أبوحنيفة ومن معه أوسع للناس وأرفع للمشقة.

١٠- أنه لا يحتسب في عدد المساكين من لا يأكل الطعام كالصغير الذي يتغذى الحليب، أو المريض الذي يتغذى بالإبر، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ فمن لا يأكل الطعام لا يدخل في هذا.

١١- رحمته تعالى وعدله في إيجاب الأوسط من الطعام مراعاة لمصلحة المكفِّر، والمسكين المُطَعم، فلو أوجب الأعلى لكان فيه مشقة على المكفِّر، ولو أوجب الأدنى لكان فيه ضرر على المُطَعم.

١٢- أن المجزئ في الكسوة ما يكسو البدن، ويطلق عليه اسم كسوة على اختلاف الأحوال والأزمان والبلدان والأمم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ وهذا مطلق

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٥٥)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٧).

(٢) انظر: «دقائق التفسير» (٢/ ٨٥).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ٩٧)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٠)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٥٢).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٨).

لم يقيد بعدد معين، ولا بنوع معين، وما قيل في تحديد ذلك لا دليل عليه، لكن لا شك أن الأولى أن لا ينزل عن الوسط من الكسوة، فإن أخرج من الأعلى فقد أحسن، ولا يجوز قصد الأدنى، كما هو الحال بالنسبة لسائر النفقات الواجبة والمستحبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧].

١٣- حرص الإسلام على سد حاجة المسكين وخلته؛ لهذا جعل الإطعام والكسوة للمساكين؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَـٰمُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾.

١٤- وجوب إطعام الأهل وكسوتهم، والنفقة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾.

وقال ﷺ لما سئل عن حق الزوجة: «**أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت...**» الحديث(١).

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع مَن يقوت**»(٢).

١٥- أن المجزئ في تحرير الرقبة أيُّ رقبة، صغيرة كانت أو كبيرة، ذكرًا أو أنثى، بشرط سلامتها من العيوب المؤثرة، التي تجعلها معدومة المنافع أو أكثرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ لأن معنى تحريرها: تخليصها من الرق، بجعلها تملك منافعها، بعد أن كانت منافعها ملكًا لسيدها.

وعلى هذا فلا يجزئ في الكفارة تحرير الأشل، ومقطوع اليدين والرجلين، والمجنون ونحو ذلك.

وقيل: تجزئ في الكفارة الرقبة ولو كانت معيبة بعيب مؤثر؛ لقوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾

---

(١) أخرجه أبوداود في النكاح (٢١٤٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٠)، وأحمد (٤/ ٤٤٦)، من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٩٢). وحسنه الألباني. وأخرجه أحمد (٢/ ١٦٠- ١٩٤) وصححه أحمد شاكر في تخريجه للمسند حديث (٦٤٩٥)، وأخرجه الحاكم (١/ ٤٥) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه مسلم في الزكاة (٩٩٦)، بلفظ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته**».

قالوا: وهذا مطلق(١)، وإلى هذا ذهب ابن حزم الظاهري(٢).

١٦- أن الرقبة الصغيرة المولودة بين أبوين مسلمين، أو أحدهما مسلم تجزئ في الكفارة؛ لقوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾ وهذا مطلق.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجزي إلا الرقبة الكبيرة التي صلت وصامت وعقلت الإيمان. والصحيح الأول(٣).

١٧- ظاهر إطلاق الرقبة في قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أنها تجزي الرقبة حتى ولو كانت كافرة، وقد قيل بهذا، لكن الصحيح أنه يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة قياسًا على كفارة القتل الخطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾(٤) [النساء:٩٢].

حملًا للمطلق على المقيد وهذا ما عليه أكثر أهل العلم، لاتفاق الحكم وهو تحرير الرقبة، وإن اختلف السبب والموجب فسبب أحدهما وموجبه القتل الخطأ وسبب الآخر الحنث في اليمين(٥).

وفي حديث معاوية بن الحكم السلمي- رضي الله عنه- أنه جاء إلى النبي ﷺ وذكر أن عليه عتق رقبة وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة»(٦).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦١)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦١)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٥٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨١).

(٢) انظر «المحلي» (٦/ ٣٣٨)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٦٤).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٤- ٥٥٥).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١١٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٠)، «أضواء البيان» (٢/ ١٢٧).

(٥) إذا اتفق الحكم والسبب وجب حمل المطلق على المقيد، وإن اختلف الحكم فلا يحمل المطلق على المقيد بالاتفاق، وإن اتفق السبب. وإن اتفق الحكم واختلف السبب فأكثر أهل العلم على أنه يحمل المطلق على المقيد وقال بعضهم: لا يحمل المطلق في هذا على المقيد.

(٦) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧)، وأبوداود في الصلاة (٩٣٠)، والنسائي في السهو (١٢١٨).

وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة مالك[١] والشافعي[٢] وأحمد[٣].

وقيل: لا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة؛ لإطلاقها في الآية، وعلى هذا فيجوز عتق الكافر[٤] وإلى هذا ذهب أبو حنيفة[٥].

١٨- حرص الدين الإسلامي على تحرير الرقاب، حيث جعل من خصال كفارة اليمين تحرير الرقاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ كما جعلها من ضمن خصال كفارة القتل وكفارة الظهار.

١٩- تعظيم أمر الحنث في اليمين؛ لأن الله جعل من كفارة ذلك عتق الرقاب الذي هو من أفضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وكما دل عليه قوله ﷺ: «**لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيعتقه**»[٦]، وقوله ﷺ: «**من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار**»[٧].

٢٠- أن من لم يجد ما يكفر به عن يمينه[٨] من إحدى الخصال الثلاث التي فيها التخيير

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٠- ٢٨١).

(٢) انظر: «الأم» (٧/ ٥٩- ٦٠)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١١٤)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٧).

(٣) انظر: «المغني» (١٣/ ٥١٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٣).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٧).

(٦) أخرجه مسلم في العتق (١٥١٠)، وأبوداود في الأدب (٥١٣٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري في الكفارات (٦٧١٥)، ومسلم في العتق (١٥٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) اختلف في صفة غير الواجد فقيل: هو من لم يكن له إلا قوت يومه وليلته وعياله وليس عنده فضل يطعمه، فإن كان عنده فضل عن قوت يومه وليلته وجب عليه إخراجه ولم يجزه الصيام.

وقيل: الواجد من كان عنده نصاب فأكثر، وقيل: هو من كان عنده فضل عن رأس ماله الذي يعيش به، وقيل غير ذلك.

والأظهر أن الواجد من كان عنده فضل عن حاجته ومن يعول بحيث لا يحتاج إلى هذا الفضل، قال البغوي: «والعجز أن لا يفضل من ماله عن قوته وقوت عياله وحاجته ما يطعم أو يكسو أو يعتق فإنه =

وهي الإطعام أو الكسوة أو التحرير؛ لعدمها أو لعدم المال الذي يشتريها به أو نحو ذلك فالواجب عليه صيام ثلاثة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾.

وبهذا اشتملت كفارة اليمين على تخيير وترتيب؛ تخيير بين الخصال الثلاث: الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة، وترتيب بينها وبين الصيام، فإذا لم يتمكن من الإطعام أو الكسوة أو التحرير انتقل إلى صيام ثلاثة أيام.

ومن هنا يعلم خطأ كثير من الناس ممن إذا حنث سارع إلى الصيام وهو لا يجزيه مع قدرته على أحد الخصال الثلاث قبله.

وقد اختلف أهل العلم هل يجب التتابع بين هذه الأيام الثلاثة أو لا؛ فذهب الجمهور من أهل العلم إلى وجوب التتابع مستدلين بما يلي:

أولًا: قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»(١).

ثانيًا: القياس على الصيام في كفارة القتل الخطأ والظهار(٢).

وإلى هذا القول بوجوب التتابع، ذهب ابن عباس(٣) وطائفة من التابعين(٤) وبه قال أبوحنيفة(٥) والثوري والشافعي في أحد قوليه، واختاره المزني(٦) وهو رواية عن أحمد(٧).

وذهب بعض أهل العلم إلى عدم وجوب التتابع؛ لعدم ذكره في الآية، وممن ذهب

= يصوم ثلاثة أيام». انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٧- ٥٥٨)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦١)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال تعالى في كفارة القتل الخطأ وكفارة الظهار: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:٩٢، والمجادلة:٤].

(٣) أخرجه عن ابن عباس- رضي الله عنهما- من طريق علي بن أبي طلحة الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٦١)- الأثر (١٢٥٠٨).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٥٩- ٥٦١).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦١)، «مدارك التنزيل» (٢/ ٧).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٧).

(٧) انظر: «المغني» (١٣/ ٥٢٨).

إلى هذا مالك[١] والشافعي في أصح قوليه[٢].

وممن مال إلى القول بوجوب التتابع ابن كثير، حيث قال بعد أن ذكر قراءة ابن مسعود «متتابعات» قال[٣]: «وهذه إذا لم يثبت كونها قرآنًا متواترًا، فلا أقل من أن يكون خبر واحد، أو تفسيرًا من الصحابي، وهو في حكم المرفوع».

وقد أجمع العلماء على جواز تأخير الكفارة عن الحنث، وأكثرهم على جواز تقديمها على الحنث؛ لأن الله أضافها في موضعين إلى الحلف لا إلى الحنث وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾.

وعن عبدالرحمن بن سمرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال له: «**إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها، فكفّر عن يمينك، وائت الذي هو خير**»[٤].

وقال ﷺ: «**إذا حلف أحدكم على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه، وليأت الذي هو خير**»[٥].

وقالوا: كما يجوز تعجيل الزكاة قبل الحول فكذلك الكفارة يجوز إخراجها قبل الحنث.

وإلى هذا ذهب مالك في المشهور عنه[٦] والشافعي[٧] وأحمد[٨].

وذهب بعض أهل العلم إلى عدم جواز التكفير قبل الحنث، وقالوا: إن في الآية

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٥٤).

(٢) انظر: «الأم» (٧/ ٦٠)، «التفسير الكبير» (٢/ ٦٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٨).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٦٨).

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٢)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٢)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٧٨)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٤)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٢٩).

(٥) أخرجه مسلم في الأيمان (١٦٥١)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٨٥)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٠٨)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٤٨- ٦٤٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٧٥).

(٧) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٦١- ٦٢)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٦٦).

(٨) انظر: «المغني» (١٣/ ٤٨١)، «زاد المعاد» (٥/ ٥٦٥/ ٥٦٦).

إضمار الحنث والتقدير: فكفارته إذا حنثتم، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾، أي: إذا حلفتم وحنثتم.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه**»(١).

وقال ﷺ في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «**إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها**»(٢).

وقالوا إن الكفارة شُرعت لرفع الإثم، وقبل الحنث ليس هناك إثم.

وأيضًا: فإن أي عبادة فعلت قبل وقتها فإنها لا تصح، كالصلاة، وسائر العبادات.

وإلى هذا ذهب أبوحنيفة وأصحابه(٣).

والراجح القول الأول، وقد استثنى بعضهم، كالشافعي الصوم بأنه لا يجوز قبل الحنث، والراجح جواز ذلك كله(٤). فإن الروايات منها ما فيه تقديم الحنث ومنها ما فيه تقديم الكفارة، وجلها صحيحة، بل إن أكثر من روي عنهم من الصحابة هذا الحديث روي عنهم هذا وهذا، كعبدالرحمن بن سمرة وعدي بن حاتم وأبي هريرة وأبي موسى وغيرهم- رضي الله عنهم.

٢١- أن ما يتعدى نفعه من أعمال البر والخير أولى مما يكون نفعه مقصورًا على صاحبه- وجه ذلك: أن الله جعل كفارة اليمين التخيير بين الإطعام أو الكسوة أو التحرير، وهذه كلها مما يتعدى نفعه، فإن لم يتمكن منها انتقل إلى الصيام، ولا يجزئ الصيام وهو يجد إحدى الخصال الثلاث؛ لأن نفعه مقصور على صاحبه.

٢٢- حرص الدين الإسلامي على تطهير المسلم وإبعاده عن الإثم- وجه ذلك: أن الله أوجب الكفارة لليمين المنعقدة، فقال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ الآية،

---

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (١٦٥٠)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٠)، ومالك في النذور (١٠٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥١٨)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٩)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٦)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٠٧).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٥٥- ٤٥٦)، «مدارك التنزيل» (٢/ ٧).

(٤) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٥٦٥- ٥٦٦).

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ ثم زاد ذلك توكيدًا بالأمر بحفظ الأيمان بقوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾.

٢٣- التيسير في الكفارة من وجوه عدة؛

أولًا: أن الله- عز وجل- جعل المكفر مخيرًا بين الخصال الثلاث.

ثانيًا: أنه- عز وجل- لما ذكرها قدم منها الأسهل فالأسهل؛ فالإطعام غالبًا أسهل من الكسوة، والكسوة أسهل من العتق.

ثالثًا: أنه جعل لمن لم يتمكن من إحدى هذه الخصال الثلاث أن ينتقل إلى صيام ثلاثة أيام. وهذا في منتهى اليسر، فإنه قلما يوجد أحد يعجز عن صيام ثلاثة أيام.

٢٤- تقديم الأهم فالأهم- وجه ذلك أن الله قدم في الذكر الإطعام؛ لأنه أفضل؛ لأن الطعام كسوة الباطن لا حياة بدونه، وذكر بعده الكسوة لشدة الحاجة إليها فهي كسوة الظاهر، وذكر بعدها العتق لتعدي منفعته للمعتَق، وقدم الثلاثة على الصيام في الذكر والإجزاء؛ لأن نفعها متعدٍ بخلاف الصوم.

٢٥- وجوب حفظ الأيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ والأمر للوجوب.

وحفظها من وجوه عدة:

منها عدم الكذب فيها، وألا يحلف إلا لحاجة، وعدم الإكثار منها؛ لأن ذلك يعرض الحالف للحنث فيها، ولأن في ذلك استهانة باليمين بالله تعالى.

عن سلمان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**»(١).

ومن حفظها البر بها، وعدم الحنث فيها، وأن يفعل ما حلف عليه، قال ﷺ: «**من**

---

(١) أخرجه الطبراني بسند صحيح فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد. وقال حفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: «وسلمان لعله سلمان الفارسي، ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي» انظر: «فتح المجيد» ص(٤١٦- ٤١٨). وأخرجه مسلم في الأيمان (١٠٧)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وليس فيه قوله: «ورجل جعل الله بضاعته- إلى آخره» وفيه بدل ذلك: «وملك كذاب».

نذر أن يطيع الله فليطعه»(١).

ونذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة فقال له النبي ﷺ: «**أوف بنذرك**»(٢).

فالبر بها واجب، والحنث فيها محرم، ما لم تكن على إثم أو قطيعة رحم، وما لم يكن غيرها خيرًا منها.

ومن حفظها إذا حلف على أمر فرأى غيره خيرًا أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾ [التحريم:١- ٢].

ولما حلف أبوبكر- رضي الله عنه- ألا ينفق على مسطح أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور:٢٢]، فكفر أبوبكر عن يمينه، وأعاد النفقة على مسطح(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [البقرة:٢٢٤]، أي: لا ينبغي أن تكون الأيمان سببًا في ترك البر والتقوى، والإصلاح بين الناس.

وفي حديث عبدالرحمن بن سمرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فائت الذي هو خير وكفر عن يمينك**»

وكذا ما جاء من الأحاديث بمعناه كحديث عدي بن حاتم وأبي هريرة وحديث

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان (٦٦٩٦)، وأبوداود في الأيمان والنذور (٣٢٨٩)، والترمذي في النذور (١٥٢٦)، والنسائي في النذور (٣٨٣٩)، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٦)، وأحمد (٦/ ٣٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في الأيمان والنذور (٣٣١٣)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه. وأخرجه مختصرًا من حديث ابن عمر عن عمر- رضي الله عنهما، البخاري في «الاعتكاف» (٢٠٣٢، ٢٠٤٢، ٢٠٤٣)، ومسلم في الأيمان (١٦٥٦)، وأحمد (٢/ ٢٠). وأخرجه أبوداود أيضًا مختصرًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- (٣٣١٢).

(٣) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أبي موسى- رضي الله عنهم[١].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف في قطيعة رحم، أو فيما لا يصلح فبره ألا يتم على ذلك**»[٢] يعني مع الكفارة.

وقال ﷺ: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[٣].

فإن كان الحلف على ترك واجب أو على فعل محرم فالحنث واجب، وإن كان الحلف على ترك مستحب فالحنث مستحب، وهكذا.

ومن حفظ الأيمان أن يكفر عنها إذا حنث فيها، فهذا كله داخل تحت قوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾.

٢٦- أن الله- عز وجل- كما بيَّن لنا في هذه الآيات أحكام الأيمان وكفارتها بيَّن لنا جميع آياته الشرعية، وما فيها من الأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

٢٧- أن الله بيَّن لنا آياته وأحكامه الشرعية والكونية لكي نشكره، وذلك بطاعته وترك معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

٢٨- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله عز وجل، وأن أحكامه الكونية والشرعية والجزائية لحكم، سواء علمنا تلك الحكم، أو لم نعلمها.

وفي هذا رد على نفاة الحكمة والعلة في أفعاله عز وجل، الذين يقولون: إنه يفعل لا لحكمة، بل لمجرد المشيئة تعالى الله عن قولهم.

* * *

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الكفارات (٢١١٠) وصححه الألباني.

ومن حلف على أمر يشق عليه مشقة شديدة كمن حلف أن يمشي إلى مكة أجزأته الكفارة عند أكثر أهل العلم، وقال أبو حنيفة ومالك يلزمه الوفاء. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٤).

(٣) هذا جزء من الحديث: «من نذر أن **يطيع الله فليطعه**» وقد سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

سبب النزول:

عن أبي ميسرة قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، قال: فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩]، قال: فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، قال: وكان منادي النبي ﷺ ينادي إذا حضرت الصلاة: لا يقربن الصلاة سكران. قال: فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، قال: فنزلت التي في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا»(١).

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٦٧٠)، والنسائي في الأشربة وتحريم الخمر (٥٥٤٠)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٩)، وقال: «حديث صحيح».

وأخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥١٦)- الأثر (٤٥٢)، وأحمد (١/ ٥٣)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٦٦)- الأثران (١٢٥١٢، ١٢٥١٦)، والحاكم (٢/ ٢٧٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وأخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٥٧٦)، الأثر (١٢٧)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٨٥)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٣٨- ١٣٩).

وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٧٢)، وذكر أن عددًا من الأئمة رووه عن أبي ميسرة قال: «واسمه: عمرو بن شرحبيل الكوفي عن عمر، وليس له عنه سواه. ولكن قال أبوزرعة: لم يسمع منه- والله أعلم».

وقال علي بن المديني: «هذا إسناد صحيح». وصححه أحمد شاكر في تحقيقه «مسند الإمام أحمد» حديث =

وعن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «صنع رجل من الأنصار طعامًا فدعانا قال: فشربنا الخمر، حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش، فقالت الأنصار: نحن أفضل منكم. قال: فأخذ رجل من الأنصار لحْيَي جمل، فضرب به أنف سعد، ففزره، وكان سعد مفزور الأنف، قال: فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى آخر الآية»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم على بعض، فلما أن صحوا، جعل الرجل منهم، يرى الأثر بوجهه ولحيته، فيقول: فعل بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فأنزل الله ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: رجس في بطن فلان قتل يوم بدر، وقتل فلان يوم أحد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾(٢)».

وعن بريدة- رضي الله عنه- قال: بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن على رملة، ونحن ثلاثة، أو أربعة، وعندنا باطية(٣) لنا، ونحن نشرب الخمر حلًا، إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه، وقد نزل تحريم الخمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ

=

(٣٧٨)، وقال محمد شاكر في تعليقه على «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٦٧): «أقول: ولم يذكر أحد غير أبي زرعة فيما بحثت أن أبا ميسرة لم يسمع من عمر، بل كلهم ذكر سماعه منه».
وصححه الألباني، وانظر: «لباب النقول» ص(٩٧).

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٧٤٨)، وأحمد (١/ ١٨١، ١٨٦)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٦٩)- الآثار (١٢٥١٨- ١٢٥٢١)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٥٧٨)- الأثر (١٢٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (١٥٤)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه الطبري- الأثر (١٢٥٢٢)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٨٥- ٢٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٤١)، قال الذهبي: «صحيح على شرط مسلم»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٨)، وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح»، وذكره ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٣١) من رواية النسائي والبيهقي وقال: «إسناده صحيح».

(٣) الباطية هي: إناء من الزجاج أو غيره. انظر: «لسان العرب» مادة: «بطا».

وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إلى آخر الآيتين ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضًا، وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته، كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطياتهم، فقالوا: انتهينا ربنا انتهينا ربنا»(١).

قال الطبري(٢): «جائز أن يكون نزولها كان بسبب دعاء عمر- رضي الله عنه- في أمر الخمر، وجائز أن يكون ذلك كان بسبب ما نال سعدًا من الأنصار عند انتشائهما من الشراب، وجائز أن يكون من أجل ما كان يلحق أحدهم عند ذهاب ماله بالقمار، من عداوة من يسره، وبغضه...».

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٧٢)- الأثر (١٢٥٢٣)، والنسائي في تفسير سورة المائدة في «السنن الكبرى» (١٢٤٥٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٤١- ١٤٢)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٨٥- ٢٨٦) والسيوطي في «لباب النقول» ص(٩٨).

(٢) في «جامع البيان» (١٠/ ٥٧٤).

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ قد أعطاني شارفًا من الخمس، ولما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدت رجلًا صواغًا من بني قينقاع، أن يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين، فأستعين به في وليمة عرس، فبينما أجمع لشارفيَّ من الأقتاب، والضرائر والحبال، وشارفيَّ مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، فإذا أنا بشارفيَّ قد أجبت أسنمتهما، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأت ذلك المنظر. قلت: من فعل هذا؟ فقالوا: فعله حمزة، وهو في البيت في شرب من الأنصار، عنده قينة وأصحابه- فغنته أبياتًا هيجته فيها: ألا يا حمز للشرف النواء.

فوثب إلى السيف، فأجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما. قال علي- عليه السلام- فانطلقت حتى أدخل على النبي ﷺ، وعنده زيد بن حارثة. قال: فعرف رسول الله ﷺ الذي لقيت فقال مالك؛ فقلت: يا رسول الله، ما رأيت كاليوم عدا حمزة على ناقتيَّ فجب أسنمتهما وبقر خواصرهما هو ذا في بيت معه شرب شرّب قال: فدعا رسول الله ﷺ بردائه ثم انطلق يمشي، فاتبعت أثره أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي هو فيه، فاستأذن فأذن له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال: وهل أنتم إلا عبيد أبي فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى وخرج وخرجنا معه» أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٧٥)، ومسلم في الأشربة (١٩٧٩)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٨٦). قال الواحدي في «أسباب النزول» ص(١٣٩- ١٤٠): «وكانت هذه القصة من الأسباب الموجبة لتحريم الخمر».

وقال أبو جعفر النحاس[١]: «وفي الأحاديث عن سبب نزول الخمر أسباب، يقول القائل: كيف يتفق بعضها مع بعض؟ وعمر- رضي الله عنه- يقول شيئًا، وسعد يقول غيره، وابن عباس قد أتى بسواهما. قال أبو جعفر: والجواب: أن الأحاديث متفقة، لأن عمر- رضي الله عنه- سأل بيانًا شافيًا في تحريم الخمر، ولم يقل نزلت في ذلك، لا في غيره، فيجوز أن يكون سؤال عمر وافق ما كان من سعد بن أبي وقاص، ومن الحيين الذين من قبائل الأنصار فتتفق الأحاديث، ولا تتضاد».

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداء للمؤمنين الذين صدَّقوا بما جاء من عند الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وانقادوا لذلك بجوارحهم اعتقادًا وقولًا وعملًا.

﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الجملة خبرية، و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، وتسمى كافة ومكفوفة؛ لأن «ما» دخلت على «إن» فكفتها عن العمل، فـ«ما»: كافة، و«إن»: مكفوفة، وصدر الخطاب بها؛ لتوكيد تحريم الأشياء المذكورة.

و﴿ٱلۡخَمۡرُ﴾ اسم لكل ما أسكر العقل، أي: خامره وخالطه وستره وغطاه[٢]، على سبيل اللذة والنشوة، فلا يسمى البنج خمرًا. قال ﷺ: «**كل مسكر خمر**»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «والصواب الذي عليه الأئمة الكبار: أن الخمر المذكور في القرآن تناولت كل مسكر فصار تحريم كل مسكر بالنص العام والكلمة الجامعة لا بالقياس وحده».

وقال أيضًا[٥]: «واسم الخمر في لغة العرب الذين خوطبوا بالقرآن كان يتناول

---

(١) في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٥٨٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٢٤)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٦٦)، «لسان العرب» مادة خمر.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٨١- ٢٨٢).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٨٧- ١٨٨). وانظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ١٠٨- ١٠٩)، «إعلام الموقعين» (١/ ٢٨٢)، «بدائع التفسير» (٢/ ٩٧- ٩٨، ١٢١).

المسكر من التمر وغيره، ولا يختص بالمسكر من العنب، فإنه قد ثبت بالنقول الصحيحة أن الخمر لما حرمت بالمدينة النبوية، وكان تحريمها بعد غزوة أُحد في السنة الثالثة من الهجرة لم يكن من عصير العنب شيء، فإن المدينة ليس فيها شجر عنب، وإنما كانت خمرهم من التمر، فلما حرمها الله عليهم أراقوها بأمر النبي ﷺ؛ بل وكسروا أوعيتها، وشقوا ظروفها، وكانوا يسمونها خمرًا، فعلم أن اسم «الخمر» في كتاب الله عام، لا يختص بعصير العنب».

﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾، هو: أخذ المال على وجه المغالبة والمراهنة والقمار[1]، وسمي ميسرًا لحصول الغالب فيه على المال بيسر وسهولة، من غير كد، ولا تعب.

قال الجصاص[2]: «وأصله على ما قيل من التجزئة، وكل شيء جزأته فقد يسرته يقال: للجازر: ياسر، لأنه يجزئ الجزور، التي يتقامرون عليها بالقداح، ويقال: تيسر أمر الجزور بالاجتماع على القمار فيه، وهو السهام التي يجيلونها، فمن خرج سهمه استحق منه ما توجبه علامة السهم، فربما أخفق بعضهم...».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أحدهم يقامر بأهله وماله، فإذا قمر أخذ أهله وماله»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[4]: «والميسر عند أكثر العلماء يتناول اللعب بالنرد والشطرنج، ويتناول بيوع الغرر، التي نهى عنها النبي ﷺ، فإن فيها معنى القمار الذي هو ميسر؛ إذ القمار معناه: أن يؤخذ مال الإنسان، وهو على مخاطرة، هل يحصل له عوضه، أو لا يحصل...».

وقال ابن القيم[5]: «وإخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمها تقصير أيضًا

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١٩)، «جامع البيان» (٤/ ٣٢١- ٣٢٥)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٢٤).

(٢) في «أحكام القرآن» (١/ ٣٢٩)، وانظر: (٢/ ٤٦٥).

(٣) أخرجه أبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤٥١)، والطبري في «جامع البيان» (٤/ ٣٢٤)- الأثر (٤١٢١)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٦٢٨)- الأثر (١٧٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٨٣).

(٥) في «إعلام الموقعين» (١/ ٢٨٢).

به، وهضم لمعناه، فما الذي جعل النرد الخالي من العوض من الميسر، وأخرج الشطرنج عنه، مع أنه من أظهر أنواع الميسر، كما قال غير واحد من السلف: إنه ميسر، وقال علي- رضي الله عنه- هو ميسر العجم».

﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾: جمع «نُصُب» بضم النون والصاد. قال ابن القيم(١): «وهي جمع، واحدها: نُصُب، كطُنُب وأطناب».

وعلى هذا فيكون «أنصاب» جمع الجمع، ومفرد «نُصُب»: «نَصْب» بفتح النون وسكون الصاد، أو «نِصاب».

وقال بعضهم: «أنصاب» جمع «نَصْب»، أو «نُصْب»، بفتح النون وضمها وسكون الصاد(٢).

والمراد بالأنصاب: الأوثان التي تعبد من دون الله، سميت أنصابًا؛ لأنهم ينصبونها من الأحجار أو من غير ذلك، ومنها أحجار منصوبة عند البيت، فيذبحون عليها ولها(٣) كما قال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣].

قال ابن القيم(٤): «الأنصاب: كل ما نصب يعبد من دون الله؛ من حجر أو شجر أو وثن أو قبر أو خشبة أو عَلَم».

﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾: جمع: «زلَـم» بفتح الزاي، أو ضمها، وهي القداح التي يستقسمون بها(٥)، يطلبون بها معرفة ما قسم لهم، وهي أقداح ثلاثة، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني: «لا تفعل» والثالث: خِلْوٌ لم يكتب عليه شيء. ثم يجيلونها، أو يضعونها داخل كيس أو نحوه، ثم يدخل الواحد منهم يده ويخرج منها واحدًا فإن خرج المكتوب عليه: «افعل» مضى لشأنه، وإن خرج المكتوب عليه: «لا تفعل» أحجم، ولم

---

(١) في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٢٤)، وراجع الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣].

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٦٢).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١٩)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٧٠).

(٤) في «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١٩)، «جامع البيان» (٩/ ٥١٠- ٥١٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٧٠)، وراجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [المائدة:٣].

يفعل، وإن خرج الخلو من الكتابة، أعادها مرة ثانية، وهكذا، وهي مبنية على أوهام لا حقيقة لها، وقد حرمها الإسلام؛ لهذا، ولما فيها من الاعتماد على غير الله، وادعاء علم الغيب.

﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، ﴿رِجْسٌ﴾: خبر المبتدأ ﴿ٱلْخَمْرُ﴾، وما عطف عليه.

وقوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رِجْسٌ﴾، التقدير: كائن من عمل الشيطان.

والرجس: هو النجس المستقذر؛ حسًّا، أو معنى، أو حسًا ومعنى(١).

فالنجس المستقذر حسًّا كالعذرة، والبول، والميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥].

وكل نجس حسًّا فهو نجس معنىً.

وأما النجس المستقذر معنى فقط فكالميسر والأنصاب والأزلام- كما في هذه الآية، وكما قال تعالى في الأوثان: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠].

والخمر: نجس مستقذر؛ لأن الله أخبر عنه في هذه الآية أنه رجس.

لكن اختلف أهل العلم هل هو من الرجس النجس المستقذر حسًّا، ومعنىً؛ لقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾، أو من الرجس النجس المستقذر معنى فقط؛ لأن الله وصفه بقوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فهو رجس معنوي فقط، ولأن الله قرنه بالميسر والأنصاب والأزلام، وهذه نجاستها نجاسة معنوية فقط.

﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: من تحسينه وتزيينه، وتسويله ووسوسته، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل:٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف:٢٠].

والشيطان: كل متمرد عات، خارج عن طاعة الله من الإنس والجن والحيوانات.

---

(١) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٥٧).

ورأس الشياطين إبليس لعنه الله.

والشيطان: مأخوذ من شطن بمعنى: بَعُد؛ لأنه أُبعد، ولُعن، وطرد عن رحمة الله، وجنته وعن كل خير.

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ الضمير الهاء يعود إلى ﴿رِجۡسٞ﴾.

واجتناب الشيء: أن يكون هذا الشيء في جانب، والشخص في جانب آخر، والمعنى: ابتعدوا عنه كل البعد واتركوه، ولا تقربوا منه، والأمر: للوجوب.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، «لعل» هنا: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا، أو لكي تفلحوا.

والفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالمثوبة، والنجاة من العقوبة، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾.

قال الزمخشري[1]: «وذكر الخمر والميسر دون الأنصاب والأزلام مرة ثانية؛ لأن المقصود- والله أعلم- ذكر الخمر والميسر، وإنما ذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر حيث قرنت بهذه الأشياء».

وقال صاحب تفسير المنار[2]: «وخصهما بالذكر دون الأنصاب والأزلام لذكرهما أول السورة».

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: ما يريد الشيطان إلا أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله.

﴿يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، أي: يحب ذلك، وهو يعمل ويسول ويوسوس ويزين ما يؤدي إلى ارتكاب ما يريده ويحبه.

﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾، ﴿أَن﴾ حرف مصدري ونصب، و﴿يُوقِعَ﴾ منصوب بها. و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل نصب مفعول لـ﴿يُرِيدُ﴾،

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٢٦٣).

(٢) في «تفسير المنار» (٧/ ٥٩).

والتقدير: إنما يريد الشيطان إيقاع العداوة والبغضاء بينكم.

والعداوة: ضد الولاية، والبغضاء ضد المحبة[١]، فبالبغضاء تنقسم القلوب، وبالعداوة تنفر الأبدان بعضها من بعض[٢].

وقدم العداوة على البغضاء- والله أعلم- مع أن البغضاء هي سبب العداوة تقديمًا للنتيجة والمؤدَّى السيئ الخطير، للتحذير منه.

والمعنى: أن الشيطان إنما يحب تشتيت القلوب والأبدان، وتفريقها، والقضاء على المحبة والموالاة بين المؤمنين.

﴿فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، أي: بسبب الخمر والميسر، وتعاطيهما.

وحصول العداوة والبغضاء بسبب الخمر؛ لأنهم إذا سكروا تشاجروا أو تقاتلوا[٣] وحصل بينهم ما لا تحمد عقباه، من الجرائم والفواحش، وإفشاء الأسرار، ونحو ذلك، فإذا صحوا، ورأى بعضهم ما فعل به الآخر تعادوا، وتباغضوا؛ لأجل ذلك، وهم قد اجتمعوا للمؤانسة فانقلب عليهم قصدهم بسببها.

قال أبوحيان[٤]: «فإنها تثير الشرور والحقود، وتؤول بصاحبها إلى التقاطع، وأكثر ما تستعمل في جماعة يقصدون به التآنس باجتماعهم عليها، والتودد والتحبب، فتعكس عليهم الأمر، ويصيرون إلى التباغض؛ لأنها مزيلة للعقل، الذي هو ملاك الأشياء، قد يكون في نفس الرجل الشيء الذي يكتمه بالعقل، فيبوح به عند السكر، فيؤدي إلى التلف، ألا ترى إلى ما جر إلى سعد وحمزة، وما أحسن ما قال قاضي الجماعة أبوالقاسم أحمد بن يزيد بن بقي:

ألا إنما الدنيا كراحٍ عتيقة ... أراد مديروها بها جَلَبَ الأنس
فلما أداروها أثارت حقودهم ... فعاد الذي راموا من الأنس بالعكس[٥]

وحصول العداوة والبغضاء بسبب الميسر، وهو القمار؛ لأنهم يتقامرون على المال

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «عدا» و«بغض»، «تفسير المنار» (٧/ ٥٩).

(٢) انظر: كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في تفسير «سورة المائدة» (٢/ ٣٣٠).

(٣) كما حصل بين المهاجرين والأنصار فيما رواه سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- في سبب نزول الآيات.

(٤) في «البحر المحيط» (٤/ ١٤).

(٥) انظر: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٣/ ٢٢٨).

والأهل، وإذا غلب أحدهم، بقي حزينًا على ماله وأهله، وعادى الذي غلبه وأبغضه، بسبب ذلك.

بل إن الخمر والميسر سبب للعداوة والبغضاء بين متعاطيها وبين أخص الناس به وهم أقاربه؛ والداه، وزوجه وأولاده وسائر قرابته، لما ينتج عن تعاطيه للخمر والميسر من تقصير وتفريط في حق هؤلاء الأقارب، أو أذية لهم.

قال ابن عطية(١): «بالبغضاء والعداوة تنتقض عرى الدين».

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: ويصرفكم بالخمر والميسر عن ذكر الله، وعن الصلاة؛ لأن الخمر تسكر، فتذهب العقول، ولأن الميسر تشغل وتلهي، وتذهب الأوقات.

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ذكر الله عام في كل ذكر، من قول أو فعل أو اعتقاد، ويكون باللسان، كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وقراءة القرآن، والدعاء، ويكون بالجوارح، من عمل الطاعات والقربات، من صلاة وصوم، وحج وزكاة، وجهاد، وبر وصلة رحم، ونحو ذلك، ويكون بالقلب، بحضور القلب، ومواطأته لقول اللسان، وفعل الجوارح والتأمل والتفكر في آيات الله الشرعية والكونية. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨].

﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ هذا من عطف الخاص على العام؛ لأن الصلاة من ذكر الله- عز وجل- وخصها بالذكر، وعطفها على ذكر الله، مع إعادة حرف الجر إشارة لأهميتها وشرفها وفضلها ومزيتها.

والصلاة هنا عامة للفرائض والنوافل، وكل صلاة، فكل ما صد عن ذكر الله عمومًا، وعن الصلاة خصوصًا فهو من إرادة الشيطان، وأمره وتسويله وتزيينه ووسوسته وهمزاته أعاذنا الله منه.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ استفهام معناه الأمر، أي: انتهوا وفيه وعيد وتهديد.

قال الزمخشري(٢): «﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به».

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٥).

(٢) في «الكشاف» (١/ ٣٦٣).

ولهذا قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لما قرئت عليه هذه الآية: «انتهينا انتهينا».

أي: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ عن تعاطي الخمر والميسر بعد ذكر ما فيهما من المفاسد، الدينية والدنيوية؛ من إضاعة العقل والوقت والمال وغير ذلك، والمعنى: انتهوا.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

لما أمر عز وجل باجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وأكد على ذلك بمؤكدات عدة، وزاد في توكيد حرمة الخمر والميسر، ببيان أنهما سبب للعداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وأمر بالانتهاء عنهما وتوعد عليها عطف على ذلك بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية، توكيدًا للتحريم وتشديدًا للوعيد.

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، الواو عاطفة، والجملة معطوفة على ما قبلها، أي: انتهوا وأطيعوا، والطاعة: امتثال الأمر واجتناب النهي.

و«ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود والمعلوم؛ محمد ﷺ، رسول هذه الأمة، الذي أنزل عليه القرآن الكريم.

وأعاد الفعل «أطيعوا» مع الرسول ﷺ، فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ مع أن طاعة الرسول ﷺ هي من طاعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]؛ لبيان أن طاعته ﷺ واجبة، حتى فيما استقلت به السنة النبوية، مما لم يرد في القرآن الكريم؛ لأن ذلك كله وحي من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣- ٤].

﴿وَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾ معطوف على ما قبله، والحذر: الحيطة والاحتراز.

وحذف المفعول، أو المتعلق، فلم يقل: احذروا كذا، أو احذروا من كذا؛ ليكون أعم في التحذير من كل مخالفة ومعصية.

أي: واحذروا من المخالفة، والمعصية لله ورسوله، فيما أمرتم به، أو نهيتم عنه، في هذه الآيات وغيرها، فكل ما أمرنا الله به ورسوله في الكتاب والسنة فهو خير، وكل ما نهينا عنه فيهما فهو شر. قال تعالى- في صفة الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: فإن أعرضتم عن الطاعة، وخالفتم.

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وقوله: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة:٩٩].

والمعنى: فاعلموا أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للناس هي البلاغ المبين، أي: إبلاغ الرسالة وإيصالها من الحق إلى الخلق.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾ من «أبان» الرباعي المتعدي، أي: البلاغ البيِّن في نفسه، والذي أبان الحق وأوضحه وأظهره.

وقد بلّغ ﷺ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، ولا ضرر عليه بعد هذا من توليكم وإعراضكم، ولا لوم، كما قال عز وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات:٥٤].

وليس عليه إلزامكم بالطاعة والامتثال؛ لأن هداية القلوب بيد الله عز وجل، كما قال عز وجل- لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وحسابكم على الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

وإنما ضرر توليكم على أنفسكم كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ [النساء:١١٣]، والله غني عنكم، كما قال عز وجل: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥)، وابن ماجه في الزهد =

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزل تحريم الخمر قالوا: يا رسول الله، فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ الآية»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبي دجانة، حيث مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعنا مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب(٢) وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، وإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

فقال رجل: يا رسول الله، فما منزلة من مات منا وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ الآية»(٣).

=

(٤٢٥٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٥)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٧٧) الأثر (١٢٥٢٥، ١٢٥٢٦)- بأسانيد صحيحة، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٤٣) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وقد أخرج الترمذي في التفسير (٣٠٥١)، والطبري- الأثر (١٢٥٢٨- ١٢٥٢٩) نحوه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأخرج الإمام أحمد (٢/ ٣٥١- ٣٥٢) نحوه أيضًا: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر: «أسباب النزول» للواحدي ص(٤١).

(٢) جاء في بعض روايات البخاري وغيره: «قال: فجرت في سكك المدينة».

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٦٤)، وفي الأشربة (٥٥٨٠، ٥٥٨٢- ٥٥٨٤)، ومسلم في

=

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ، ثم قتلوا شهداء يوم أُحد، فقالت اليهود: فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾»(١).

قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ هذا جواب سؤالهم عن حكم من شرب الخمر قبل تحريمها، كما قال تعالى في جوابهم حينما سألوا عن حكم من صلى إلى القبلة الأولى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض جامد يفيد النفي.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الذين صدقوا بالله وبكل ما يجب الإيمان به، وأقروا بذلك بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الصالحات: صفة لموصوف محذوف تقديره: الأعمال الصالحات، أي: وانقادوا بجوارحهم، فعملوا الأعمال الصالحات، التي يتحقق فيها الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول ﷺ كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو محسن. أي متبع ما جاء في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسول الله ﷺ.

﴿جُنَاحٌ﴾، أي: حرج، وإثم.

﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، «ما» موصولة، أي: في الذي طعموا، والطعم والمطعوم يشمل المأكول والمشروب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة:٢٤٩]، فالمراد: من لم يطعمه بالشرب منه وقال تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾[المائدة:٨٩]، أي: إطعامهم أكلًا.

=

الأشربة (١٩٨٠)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٧٣)، والنسائي في الأشربة (٥٥٤٢).

(١) أخرجه البزار في «مسنده». وقال: «هذا إسناد صحيح» قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٧٧): «وهو كما قال، ولكن في سياقه غرابة».

وأصل الحديث عند البخاري وسيأتي. ومعنى قول جابر: «اصطبح ناس الخمر»، أي: شربوه في الصباح.

واستعمال الطعم في المأكول أكثر. والخمر منه ما هو مشروب، ومنه ما هو مأكول، ومنه ما هو مشموم، أي: ليس عليهم حرج ولا إثم في الذي طعموه من الخمر قبل تحريمها(١).

فمن شرب الخمر قبل تحريمها فلا جناح عليه، سواء مات قبل نزول الآية، أو أدرك نزول الآية والتحريم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: «صبح ناس من أصحاب النبي ﷺ غداة أحد الخمر، فقتلوا من يومهم جميعًا، شهداء، وذلك قبل تحريمها»(٢).

وكذلك الحكم فيمن تعاطى الميسر قبل تحريمه.

وقيل: إن الآية ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ فيمن تركوا الأكل من طيبات ما أحل الله- عز وجل- وآثروا التقشف، ورعًا وخوفًا من الوقوع في الإثم- بزعمهم- فبيَّن الله- عز وجل- أنه ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات إثم، فيما طعموه من الحلال، إذا توفرت فيهم الشروط المذكورة في الآية بعد هذا.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لما نزلت: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**قيل لي أنت منهم**»(٣).

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير جازمة، وما بعدها من الأفعال هي شروط وقيود لنفي الجناح عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيما طعموه من الخمر قبل تحريمها.

﴿مَا ٱتَّقَواْ﴾، ﴿مَا﴾: زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى، أي: إذا ما اتقوا ما حرم عليهم من المطعومات.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٦٧- ٥٨٢).

(٢) أخرج البخاري في الجهاد (٢٨١)، وفي المغازي (٤٠٤٤)، وفي التفسير (١٦١٨).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٩)، والترمذي في تفسير سورة المائدة (٣٠٥٣)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٥٨٠)- حديث (١٢٥٣١).

﴿وَءَامَنُواْ﴾، أي: تركوا هذه المحرمات من المطعومات، إيمانًا بحرمتها، وعدم جواز تعاطيها، لعلمهم أن الإيمان شرط في قبول الأعمال والمجازاة عليها.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: استعانوا بما طعموه، مما ليس عليهم فيه جناح على الأعمال الصالحات التي يجتمع فيها الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ، فإن استعانوا بذلك على معاصي الله صارت زيادة في الإثم والجناح عليهم.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، يفيد التراخي والترتيب، والأصل في العطف المغايرة، وهذا يدل على أن الثاني غير الأول. فيكون معنى ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾، أي: ثبتوا على تقواهم لهذه المحرمات من المطعومات، وعلى تركها إيمانًا بحرمتها، واستمروا على ذلك، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦] أي: اثبتوا على الإيمان بالله واستمروا عليه وازدادوا منه.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ﴾ وهذا أيضًا كسابقه من حيث العطف أي: اتقوا الله عمومًا بترك جميع المحرمات واجتنابها، وأحسنوا بفعل جميع الطاعات من الواجبات والمستحبات مع الإخلاص لله تعالى، واتباع سنة رسول الله ﷺ.

والإحسان أخص من الإيمان وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وقيل: المعنى: اتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله، ثم اتقوا الكبائر وازدادوا إيمانًا، ثم اتقوا الصغائر، ﴿وَّأَحۡسَنُواْۗ﴾، أي: تنفلوا.

وقيل: اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات في ماضي الزمن ثم اتقوا وآمنوا في الحال، ثم اتقوا وأحسنوا في الاستقبال.

وقيل: الغرض من التكرار: هو التوكيد فقط(٢).

ولا شك أن التأسيس أولى من التوكيد، والآية محتملة لذلك كله- والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١/ ٥٧٦)، «الكشاف» (١/ ٣٦٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٦).

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان ينقسم إلى قسمين: الإحسان في عبادة الله تعالى، بالإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم، والبر والصلة، وأنواع المعروف كلها.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء، للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- في نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف.

٣- أن اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من مقتضيات الإيمان.

٤- أن تعاطي الخمر والميسر والأنصاب والأزلام يُعَدُّ نقصًا في الإيمان.

٥- أن الخمر اسم لكل ما خامر العقل وأسكر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ وهذا مطلق. وهكذا جاء في الأحاديث عن النبي ﷺ: «أن كل مسكر خمر وكل مسكر حرام» من حديث عائشة[١] وأبي موسى[٢] وابن عمر[٣] وأبي هريرة[٤]، رضي الله عنهم، وغيرهم.

وهذا ما عليه جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم؛ منهم الأئمة الثلاثة: مالك[٥]، والشافعي[٦]، وأحمد، وأصحابهم، وعامة علماء المسلمين، وأئمة

---

(١) أخرجه من حديث عائشة- رضي الله عنها، البخاري في الوضوء (٢٤٢)، ومسلم في الأشربة (٢٠٠١)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٨٢)، والترمذي في الأشربة (١٨٦٣)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٦)، وأحمد (٦/ ٣٦، ٩٦).

(٢) أخرجه من حديث أبي موسى رضي الله عنه، البخاري في المغازي (٤٣٤٣- ٤٣٤٥)، ومسلم في الأشربة (١٧٣٣)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٨٤)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٩١).

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، مسلم في الأشربة (٢٠٠٣)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٧٩)، والنسائي في الأشربة (٥٦٧١)، والترمذي في الأشربة (١٨٦١)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٩٠).

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أحمد (٢/ ٤٢٩)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٥٨٦)- الحديث (١٣٧).

(٥) انظر: «بداية المجتهد» (٢/ ٤٤٤).

(٦) انظر: «الأم» (٦/ ١٤٤)، «المهذب» (٢/ ٢٨٧).

الدين[١].

وقد ذهب طائفة من أهل العلم؛ منهم الإمام أبوحنيفة وأصحابه[٢] إلى أن اسم «الخمر» خاص بالعنب، إذا غلى، واشتد، وقذف بالزبد، قالوا: فهذا هو الذي يحرم قليله وكثيره، وأما ما عدا ذلك مما يسكر، فإنما يحرم منه القدر الذي يسكر، وأما القليل الذي لا يسكر فلا يحرم.

والصحيح أن الخمر اسم لكل مسكر من أي شيء كان، وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام، من أي شيء كان. وقد ثبت في الصحيحين أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال على منبر النبي ﷺ: «أما بعد أيها الناس: إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة، من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل»[٣].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «نزل تحريم الخمر، وإن بالمدينة يومئذٍ لخمسة أشربة، ما فيها شراب العنب»[٤].

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «لقد أنزل الله هذه الآية التي حرم فيها الخمر، وما بالمدينة شراب إلا من تمر أو بسر»[٥].

وقال ﷺ: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[٦].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٨٦).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦١).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦١٩)، ومسلم في التفسير (٣٠٣٢)، وأبوداود في الأشربة (١٨٧٢)، والنسائي في الأشربة (٥٥٧٩)، والترمذي في الأشربة (١٨٧٣، ١٨٧٤).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦١٦)، ومسلم في التفسير (٣٠٣٢)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٧٠)، والنسائي في الأشربة (٥٥٧٨).

(٥) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٨٠، ٥٥٨٢- ٥٥٨٤)، ومسلم في الأشربة (١٩٨٠)، وأحمد (٣/ ٢١٧).

(٦) أخرجه من حديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أبوداود في الأشربة (٣٦٨١)، والترمذي في الأشربة (١٨٦٥)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٩٣).

وأخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- الدارقطني (٤/ ٢٥١)، والبيهقي في الأشربة (٨/ ٢٩٦)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٦٠١) حديث (١٥٤).

وأخرجه من حديث عائشة- رضي الله عنها- أبوداود في الأشربة (٣٦٨٧)، والترمذي في الأشربة (١٨٦٦)، وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٦/ ٧١).

=

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «والقول الأول الذي عليه جمهور المسلمين هو الصحيح الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار».

٦- أن ما لم يخامر العقل، ولم يسكر من أي أنواع الأشربة والأطعمة فهو حلال؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ ومن ذلك النبيذ، وهو الماء الذي ينبذ فيه العنب والتمر مدة لا يصل فيها إلى حد الإسكار، كيوم أو يومين، ونحو ذلك.

٧- تحريم الخمر والميسر وتشديد ذلك؛ لأن الله قرنهما بالأنصاب والأزلام وهما من وسائل الشرك فالأنصاب هي: الأصنام، التي تعبد من دون الله، والأزلام هي التي يستقسم بها، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠] وفي الحديث: «**مدمن الخمر كعابد وثن**»[٢].

وروي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «قرنت بالميسر والأنصاب والأزلام بعدًا لك وسحقًا»[٣] يعني الخمر.

٨- أن الخمر نجسة؛ لقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾، والرجس: النجس، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥].

قالوا: فالمراد بالرجس في الآيتين النجس نجاسة حسية. وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم، ومنهم الأئمة الأربعة: أبو حنيفة[٤]، ومالك[٥]،

=

وأخرجه من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- عبدالرزاق في «المصنف» في الأشربة (٩/ ٢٢١) حديث (١٧٠٠٦)، وأحمد (٢/ ٩١، ١٦٧)، والبيهقي في الأشربة (٨/ ٢٩٦).

وأخرجه من حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- ابن ماجه في الأشربة (٣٣٩٤)، وعبدالرزاق في الأثر (١٧٠٠٧)، والبيهقي في الأشربة (٨/ ٢٩٦)، وقال ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٤٣) «وسنده صحيح».

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ١٨٦- ١٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأشربة (٣٣٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما، وقال أحمد شاكر في «تخريج المسند»: «إسناده ضعيف». وحسّنه الألباني.

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ٥٩).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦١).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٥٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٨- ٢٨٩)، «أضواء

=

والشافعي[١]، وأحمد[٢]- رحمهم الله. قال ابن تيمية: «بل هي- يعني الحشيشة- في أصح قولي العلماء نجسة كالخمر، فالخمر كالبول، والحشيشة كالعذرة»[٣].

وعلى هذا فيكون ما فيه نسبة كبيرة من الكحول نجسًا مثل الطيب المعروف بـ«الكلونيا»[٤].

وذهب بعض أهل العلم، منهم ربيعة بن عبدالرحمن والليث بن سعد[٥] والمزني[٦] إلى أنها طاهرة؛ لأن المراد بقوله: ﴿رِجْسٌ﴾: الرجس المعنوي، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠].

ولأن الله أخبر عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام جميعًا بأنها «رجس» والثلاثة الأخيرة وهي: الميسر والأنصاب والأزلام ليست رجسًا حسيًّا بالاتفاق، ولأن الله جعلها من عمل الشيطان فهي رجس معنوي.

ولأنه لما نزل تحريمها أهرقها الصحابة في سكك المدينة، ولو كانت نجسة ما أهرقوها في السكك. كما في حديث أنس- رضي الله عنه[٧].

وأهدى رجل للنبي ﷺ راوية خمر، فأخبره بأنها حرمت، ففتح فم الراوية، وأراقها، أمام الرسول ﷺ[٧]، ولم يأمره بغسلها قالوا: فلو كانت الخمر نجسة ما أهريقت في سكك المدينة لتنجسها.

وقالوا: لا يلزم من تحريمها نجاستها، فكم من محرم، وليس بنجس[٨]، فالسم والمأكولات الضارة محرمة، وليست بنجسة، فكل نجس محرم، وليس كل محرم نجسًا.

=
البيان» (٢/ ١٢٧- ١٢٩).

(١) انظر: «البحر المحيط» (٤/ ١٥).

(٢) انظر: «المغني» (١٢/ ٥١٤).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوي» (٣٤/ ٢٠٤، ٢٠٦).

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ١٢٧- ١٢٩).

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٨- ٢٨٩)، «البحر المحيط» (٤/ ١٥).

(٦) انظر: «البحر المحيط» (٤/ ١٥).

(٧) سيأتي تخريجه.

(٨) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٩).

وعلى هذا القول بطهارة الخمر يكون ما فيه نسبة من الكحول كالكلونيا ونحوه طاهرًا من باب أولى سواء كانت نسبة الكحول فيه كثيرة أو قليلة.

والأولى- والله أعلم- التورع من استعمال ما فيه نسبة كبيرة منها، فإن كانت نسبة الكحول قليلة بحيث لم تغير طعمه، أو لونه، أو ريحه، فهو طاهر، مثل الماء إذا لم تغيره النجاسة.

٩- حرمة الخمر مطلقًا، قليلًا كان أو كثيرًا، من أي شيء كان، لإطلاق لفظ الخمر في الآية، فهو يعم القليل والكثير منه، من أي شيء كان، حتى ولو كان القليل منه غير مسكر. وفي الحديث: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»(١) خلافًا لمن قال: لا يحرم القليل إذا كان غير مسكر، مما يسكر كثيره، إلا إذا كان من عصير العنب، إذا غلى، واشتد، وقذف بالزبد.

١٠- حرمة الميسر مطلقًا من أي شيء كان، وبأي شيء كان؛ لإطلاق لفظ «الميسر» في الآية، وليس من الميسر السباق في الرماية وعلى الإبل والخيل؛ لقوله ﷺ: «**لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر**»(٢).

وإنما استثنيت هذه الثلاثة من بين أنواع السباق؛ لأنها من أدوات الجهاد في سبيل الله، والسباق فيها فيه تقوية أساليب الجهاد في سبيل الله.

أما سائر المغالبات المشتملة على القمار فهي من الميسر، كالنرد، والشطرنج، ونحو ذلك.

عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لعب النرد فقد عصى الله ورسوله**»(٣).

وعن بريدة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من لعب النردشير، فكأنما غمس**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥٧٤)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٥٦، ٣٥٨)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبوداود في الأدب (٣٧٦٢)، ومالك في الجامع (١٧٨٦)، من حديث أبي موسى- رضي الله عنه- وحسّنه الألباني.

يده في لحم خنزير ودمه»[١].

وروي عن علي- رضي الله عنه- أنه مر بقوم يلعبون الشطرنج فقال: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون» إي، والله لغير هذا خلقتم»[٢].

فإن كان اللعب بهذه الأشياء على عوض فهي محرمة بالإجماع[٣] للآية والأحاديث. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الله تعالى حرم الميسر في كتابه، واتفق المسلمون على تحريم الميسر، واتفقوا على أن المغالبات المشتملة على القمار من الميسر، سواء كان بالشطرنج، أو بالنرد، أو بالجوز، أو بالكعاب، أو البيض».

وإن كان ذلك بدون عوض فجمهور العلماء على تحريمها[٤]، وذهب بعض أهل العلم إلى عدم حرمة الشطرنج، إذا كان بغير عوض، منهم بعض أصحاب الشافعي، وروي عن الشافعي أنه كرهه ولم يحرمه[٥].

وقد رجح شيخ الإسلام القول الأول: وهو أنها تحرم كلها بما في ذلك الشطرنج، مستدلًا بالآية، والأحاديث التي فيها النهي عن هذه الأمور، وذلك من وجوه ثلاثة[٦]:

الأول: أن النهي عن هذه الأمور ليس مختصًّا بصورة المقامرة، أي: أكل المال بالباطل.

والوجه الثاني: أن من لعبها بدون عوض قد تجره إلى العوض، وأكل المال بالباطل.

والوجه الثالث: أن ظاهر الكتاب والسنة والاعتبار يدل على أن تحريمها بسبب حصول المفسدة، وهو وقوع العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة... إلى أن قال: «والشطرنج إذا كان بعوض، أو تضمن ترك واجب، مثل تأخير الصلاة عن وقتها، أو ترك ما يجب من مصالح العيال، ونحو ذلك، فإنه

---

(١) أخرجه مسلم في الشعر (٢٦٦٠)، وأبوداود في الأدب (٤٩٣٩)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٦٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه»، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٤١- ٢٤٢).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦٥)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢١٦، ٢٤٠).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٩١)، «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٤٠).

(٥) انظر: «الأم»، (٦/ ٢٢٤)، «المهذب» (٣/ ٤٣٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٣٠)، «تفسير المنار» (٧/ ٥٩).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٢٣- ٢٢٧، ٢٤٠- ٢٤٦).

حرام بإجماع المسلمين، وكذلك إذا تضمن كذبًا وظلمًا، أو غير ذلك من المحرمات، فإنه حرام بالإجماع... والشطرنج شر من النرد؛ لأن الشطرنج يشغل القلب، ويصد عن ذكر الله، وعن الصلاة أكثر من النرد».

١١- تحريم اتخاذ الأنصاب، وهي الأصنام التي تنصب وتعبد من دون الله، من حجر، أو شجر، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

١٢- تحريم اتخاذ الأزلام والاستقسام بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

وذلك لما في الأزلام من التعلق بغير الله، وادعاء علم الغيب، والوهم والتخريف، والحدس والتخمين، وهذا كله محرم وشرك، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، وقد شرع الله- عز وجل- ما يغني عن هذا وهو دعاء الاستخارة، كما جاء في الحديث(١).

١٣- أن كل ما يعمله الشيطان، ويوسوس به، ويزينه، ويسوله فهو رجس؛ لقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

١٤- أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كلها من عمل الشيطان وتزيينه وتسويله؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

١٥- وجوب اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، والبعد عنها، وعما يؤدي إليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

١٦- أنه لا يجوز الانتفاع بشيء من الخمر مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ فهذا يقتضي الاجتناب المطلق، الذي لا يجوز معه الانتفاع منها بشيء، بأي وجه من الوجوه، لا بشرب، ولا أكل، ولا بيع، ولا تخليل، ولا مداواة، كما دلت على ذلك السنة: فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا أهدى الرسول ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله ﷺ: «**وهل علمت أن الله حرمها؟**» قال: لا، فسارّ رجلًا، فقال رسول

---

(١) سبق ذكره وتخريجه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [المائدة:٣].

الله ﷺ: «**بم سارتته؟**» قال: أمرته ببيعها. فقال: «**إن الله حرم شربها وحرم بيعها**». قال: ففتح المزادة، حتى ذهب ما فيها»(١).

قال القرطبي(٢): «فلو كان فيها منفعة من المنافع الجائزة لبيَّنه رسول الله ﷺ، كما قال في الشاة الميتة: «**هلا أخذتم إهابها فدبغتموه**»(٣).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقيها، وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها**»(٤).

ولا يجوز تخليلها وأكلها؛ لأنه لو جاز تخليلها لم تجز إراقتها وإتلافها؛ لأنها مال، وقد استؤذن النبي ﷺ في تخليلها، فقال: «لا».

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام في حجره، ورثوا خمرًا، فقال: «**أهرقها**». قال: أفلا نجعلها خلًا؟ قال: «**لا**»(٥).

خلافًا لمن ذهب إلى جواز تخليلها(٦)، وفي الحديث: «**تداووا، ولا تداووا بحرام**»(٧)، وفي الأثر: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»(٨).

١٧- أن في اجتناب هذه المحرمات، والبعد عنها الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب،

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٧٩)، والنسائي في البيوع (٤٦٦٤)، ومالك في الأشربة (١٥٩٨)، وأحمد (١/ ٢٣٠، ٢٤٤).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في «الذبائح والصيد» (٥٥٣١)، ومسلم في الحيض (٣٦٣)، وأبوداود في اللباس (٤١٢٠)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٣٨)، والترمذي في اللباس (١٧٢٧)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه ابوداود في الأشربة (٣٦٧٤)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٧١)، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم في الأشربة (١٩٨٣)، وأبوداود في الأشربة (٢٦٧٥)، والترمذي في البيوع (١٢٩٤)، وأحمد (٣/ ١١٩، ٢٦٠).

(٦) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٩٠).

(٧) أخرجه أبوداود في الطب (٣٨٧٤)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وأخرجه من حديث أنس- رضي الله عنه- الترمذي في الطب (٢٠٣٨)، وابن ماجه في الطب (٣٤٣٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، وضعفه الألباني.

(٨) ذكره البخاري في الأشربة معلقًا من قول ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٧٨).

والنجاة من المرهوب؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٨- أن ما حكم الله به من أحكام كونية أو شرعية فهو لحكمة، علمناها أو لم نعلمها؛ لقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعاله عز وجل، الذين يقولون إنه يفعل لا لحكمة، بل لمجرد المشيئة- تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

١٩- توكيد حرمة الخمر والميسر والأنصاب والأزلام؛ لأن الله- عز وجل- صدر تحريمها بـ﴿إِنَّمَا﴾ الدالة على الحصر، وأخبر عنها أنها رجس، ووصفها بأنها من عمل الشيطان، وأمرنا باجتنابها، ورتب عليه الفلاح.

٢٠- أن الشيطان يحب في تزيينه الخمر والميسر أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدهم عن ذكر الله، وعن الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

وهذا خلاف ما يحبه الله- عز وجل- ويأمر به عباده، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣].

٢١- وجوب الحذر من إيقاع الشيطان العداوة والبغضاء بيننا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ والعداوة والبغضاء هي الحالقة، كما قال ﷺ: «**لا تحلق الشعر، وإنما تحلق الدين**»(١).

وقال ﷺ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٢١)، والترمذي في البر (١٩٣٧)، وأحمد (٣/ ٣١٣)، =

٢٢- إثبات الإرادة للشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٢٣- أن الخمر والميسر من أعظم أسباب العداوة والبغضاء، وتشتيت القلوب، والأبدان؛ لما في الخمر من ذهاب العقول، وما يترتب على ذلك من الشجار، والتقاتل، وغير ذلك؛ ولما في الميسر والقمار من أكل الأموال بغير حق، مما يوغر الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾.

٢٤- إثبات الأسباب، وتأثيرها بإذن الله تعالى الذي هو مسبب الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، أي: بسببهما.

٢٥- أن الخمر والميسر من أعظم أسباب الصد عن ذكر الله، وعن الصلاة؛ لأن الخمر يذهب العقل، وبذهاب العقل لا ذكر ولا صلاة.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١).

قال ابن القيم(٢): «وحرم الله تعالى السكر لشيئين، ذكرهما في كتابه، من قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل، ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل».

ولأن الميسر فيه انشغال عن ذكر الله، وعن الصلاة، وإضاعة للوقت سدى، بدون فائدة.

٢٦- عظم أمر الصلاة وشرفها وعلو مكانتها، وأنها من أفضل ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ﴾ فعطفها على ذكر الله، من باب عطف الخاص على

=

من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٩)، والنسائي في قطع السارق (٥٦٦٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٦).

(٢) في «روضة المحبين» ص(١٥٢)، وانظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٢٢).

العام، عناية بها وتعظيمًا لها؛ لأنها عمود الإسلام.

٢٧- وجوب الحذر من صد الشيطان لنا عن ذكر الله عمومًا، وعن الصلاة خصوصًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٢٨- التوكيد على حرمة الخمر والميسر، ووجوب الانتهاء عنهما، والتحذير من المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، أي: انتهوا. قال عمر رضي الله عنه: «انتهينا انتهينا».

٢٩- التهديد والوعيد لمن تعاطى الخمر والميسر؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

٣٠- الإطناب في ذكر علل وأسباب تحريم الخمر والميسر، زيادة على ما تقدم في ذكر علل تحريمهما مع الأنصاب والأزلام توكيدًا لحرمة الخمر والميسر؛ لما فيهما من الضرر على العقل والمال والدين، ولافتتان الناس بهما.

فقد أكد تحريمهما زيادة على ما تقدم ببيان أن الشيطان يريد أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء، بسبب الخمر والميسر، ويصدهم عن ذكر الله، وعن الصلاة، وأمرهم بالانتهاء عنهما، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

فهذه خمسة مؤكدات لتحريم الخمر والميسر.

وقد سبق في الآية قبلها ذكر ستة مؤكدات، منها خمسة مؤكدات مشتركة بين الخمر والميسر والأنصاب والأزلام- كما سبق ذكرها[1] والسادس من مؤكدات تحريم الخمر والميسر في الآية السابقة: كونهما قرنا مع الأنصاب والأزلام اللذين هما من وسائل الشرك، الذي هو أعظم الذنوب. فصارت مؤكدات تحريم الخمر والميسر في هاتين الآيتين أحد عشر مؤكدًا[2]، بينما أكد تحريم الأنصاب والأزلام بخمسة مؤكدات في الآية الأولى، ومعلوم أنه ليس بعد الشرك ذنب.

وإنما أطنب في ذكر علل تحريم الخمر والميسر خاصة- والله أعلم- لأن المقصود

---

(١) في الفائدة التاسعة عشرة.

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٦٢)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٦٨- ٦٩)، «تفسير المنار» (٧/ ٦٣- ٦٥).

في هاتين الآيتين الكلام عن حكم الخمر والميسر[١] وإنما ذكر معهما الأنصاب والأزلام، وقد سبق النهي عنهما في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [الآية:٣] للتوكيد والتشديد في حرمة الخمر والميسر حيث قرنا بالأنصاب والأزلام.

٣١- وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ والأصل في الأمر الوجوب، ولهذا قال بعده: ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾، والتحذير إنما يكون عن ترك واجب أو انتهاك محرم.

وقال أيضًا: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: خذوا بما بلغكم به واعلموه، واعملوا به.

٣٢- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فلولا أنه رسول الله حقًّا وصدقًا، لما أمر الله بطاعته، ووصفه بوصف الرسالة.

٣٣- أن طاعة الرسول ﷺ مستقلة عن طاعة الله تعالى، لهذا كرر الفعل فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وهي من طاعة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣- ٤].

٣٤- الرد على الذين يقولون يجب الأخذ بما في القرآن، دون السنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وكل ذلك من وحي الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣- ٤].

وفي الحديث: «رب رجل جالس على أريكته[٢] يقول: عليكم هذا القرآن، فما

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٦٣)، «تفسير المنار» (٧/ ٥٩).

(٢) الأريكة: ما يتكأ عليه من سرير، أو فراش ونحوه.

وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»(١).

فالتشريع هو مجموع الكتاب والسنة، وهما بحمد الله متفقان، فلا يمكن أن يوجد تعارض بين الكتاب والسنة الصحيحة، كما لا يوجد تعارض بين آي الكتاب فيما بينها، ولا بين نصوص السنة الصحيحة فيما بينها؛ لأن الكل وحي من عند الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

٣٥- التحذير من معصية الله ورسوله، والمخالفة في ارتكاب المنهيات السابقة من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وغيرهما، والحذر من عقوبة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾.

وهذا عام في التحذير عن كل مخالفة كما قال عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

٣٦- أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للناس هي البلاغ، الموضح للحق، أما هدايتهم وحسابهم فهو ليس إليه، بل إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾، كما قال عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٥٢].

٣٧- الرد على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويعطونه شيئًا من خصائص الألوهية(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فوصفه الله- عز وجل- بالرسالة كما وصفه بالنبوة، فقال

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (١٢)، والدارمي في المقدمة (٥٨٦)، من حديث المقدام بن معديكرب الكندي رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٢) كما قال البوصيري في قصيدته المشهورة بـ«البردة» والتي كلها غلو وإطراء للرسول ﷺ وشرك وكفر بالله، والتي يخاطب فيها الرسول ﷺ بقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وإذا كان من جود النبي ﷺ الدنيا وضرتها الآخرة ومن علومه علم اللوح المحفوظ وعلم القلم فماذا بقي لله- عز وجل- تعالى الله عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١]، وكما وصفه بالعبودية حتى في أشرف المقامات، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، والوصف بالعبودية أجل وأشرف وأفضل ما يوصف به ﷺ، قال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله**»(١).

٣٨- الرد على الذين يجعلون مرتبة الولي فوق مرتبة الرسول والنبي(٢)؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فلو كان هناك منزلة أرفع من مرتبة الرسالة لوصف بها ﷺ، فهو ﷺ رسول ونبي وعبد وولي، وهو باجتماع هذه الأوصاف له ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق، وسيد ولد آدم ولا فخر كما قال ﷺ(٣).

٣٩- أن من تولى عن طاعة الله تعالى، فإنما ضرر توليه وإعراضه على نفسه، لا على الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٤٠- تسلية الرسول ﷺ تجاه إعراض من أعرض من قومه وتولى، وأن ذلك لا يضره؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وهكذا حكم من دعا بدعوته إلى يوم الدين.

٤١- أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، وأقام الحجة على الخلق، وترك الناس على

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣، ٢٤)، من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٢) كما قال قائلهم:

مقام النبوة في برزخ ... فويق الرسول ودون الولي

انظر: «شرح الطحاوية» (٢/ ٧٤١- ٧٤٣)، «درء تعارض العقل والنقل» (١٠/ ٢٠٤)، «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢١٩- ٢٧٤، ١١/ ٢٢٥- ٢٢٩)

(٣) أخرج الإمام أحمد (١/ ٥) عن أبي بكر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**أي: ربي خلقتني سيد ولد آدم ولا فخر**» وأخرجه الترمذي في المناقب عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال ﷺ: «**أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر**» (٣٦١٠)، وأخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، وأحمد (٣/ ٢)- كلاهما من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وصححه الألباني. وأخرجه أحمد أيضًا (٥/ ١٣٧) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وقد أدى ذلك كله صلوات الله وسلامه عليه.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله-: «ففيه إبطال لقول أهل التفويض، فيما يختص بأسماء الله وصفاته، الذين قالوا إن الرسول ﷺ لم يبلغ البلاغ المبين، ولا يعرف ما قال، وإنما ألقى كلامًا للناس كأنه حروف هجائية، أو ألغاز»(١).

٤٢- الوعيد والتهديد لمن تولىٰ وأعرض عن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: أن عقابكم إذا توليتم على المرسِل وهو الله- عز وجل- لا على الرسول ﷺ.

٤٣- أن من لم تبلغه الرسالة فهو معذور؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وقد اختلف أهل العلم في حكم من لم تبلغه الرسالة، وفي أهل الفترة، وفي أولاد الكفار، فأكثر أهل العلم على أنهم يمتحنون في عرصات القيامة- والله أعلم.

٤٤- توكيد تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام زيادة على ما سبق في الآيتين السابقتين، وذلك بالأمر بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ، والتحذير من المخالفة والتولي والتهديد لمن فعل ذلك.

٤٥- وقاية الإسلام لأتباعه، وحمايته لهم من كل ما فيه ضرر عليهم في دينهم ودنياهم؛ لهذا حرم عليهم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، ورتب على اجتنابها الفلاح، وأمر بطاعة الله، وطاعة الرسول ﷺ وحذر من المخالفة والتولي وتوعد على ذلك.

٤٦- نفي الجناح والحرج والإثم عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيما طعموه من المطاعم والمشارب، إذا وفوا بالشروط المذكورة في قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ﴾.

٤٧- أنه ليس على الذين شربوا الخمر، ولا على الذين أكلوا الميسر، قبل تحريمهما جناح

---

(١) «تفسير سورة المائدة» للشيخ محمد العثيمين (٢/ ٣٦١).

ولا إثم؛ لأنه قبل التحريم لا مؤاخذة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ الآية.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

وسواء من مات منهم قبل نزول الآية وقبل التحريم ومن أدرك ذلك إذا وفّى بالشروط المذكورة فيها بقي، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٥].

٤٨- الاحتراز والتنبيه عن الفهم غير الصحيح؛ لأن الله بعدما بيَّن تحريم الخمر والميسر، أتبع ذلك ببيان أن من طعم ذلك قبل تحريمه فلا جناح عليه.

٤٩- إطلاق المطعوم على المشروب؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ على احتمال أن المراد بقوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾، أي: فيما شربوه من الخمر قبل تحريمها كما جاء في سبب النزول ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٤٩].

٥٠- أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا بقلوبهم وألسنتهم وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

وفي هذا الرد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان بدون عمل.

٥١- أنه لابد لقبول العمل أن يكون صالحًا، جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ومتابعة الرسول ﷺ: موافقة ما جاء في سنته بأمور ستة، وهي **أولًا**: السبب، فمثلًا صلاة الكسوف سببها كسوف الشمس وخسوف القمر، فلا تصلى لغير ذلك السبب.

ثانيًا: الجنس، فمثلًا الأضاحي من بهيمة الأنعام، فلا يضحى من غيرها، وزكاة الفطر من الطعام فلا تخرج من غيره.

ثالثًا: القدر، فمثلًا الصلوات لها ركعات محددة، منها الرباعية والثنائية والثلاثية، فلو زاد فيها أو نقص لم تصح صلاته.

رابعًا: الكيفية، فلو أن رجلًا صلى، لكنه قدم السجود على الركوع لم تصح صلاته.

خامسًا: الزمان، فلو أن إنسانًا صلى الصلاة قبل دخول وقتها لم تصح.

سادسًا: المكان، فلو أن إنسانًا صلى الصلاة المفروضة، أو النافلة في المقبرة لم تصح صلاته، وهكذا(١).

٥٢- أنه يشترط لنفي الجناح عن المؤمنين فيما يطعمونه أن يتقوا المحرمات إيمانًا بحرمتها، ويستمروا على ذلك، وأن يستعينوا بما يطعمونه مما لا جناح فيه على الأعمال الصالحة، وأن يتقوا الله بترك كل ما نهى الله عنه، وأن يحسنوا بفعل ما أمر الله به؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾.

٥٣- وجوب الحرص التام على أن يكون ما يطعمه الإنسان من مأكول أو مشروب سالمًا من الجناح أو الإثم من جميع الوجوه؛ لأن الله- عز وجل- شدد في شروط نفي الجناح عن الذين آمنوا فيما طعموه، فقال عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾.

فذكر عز وجل التقوى ثلاث مرات، والإيمان مرتين، إضافة إلى مافي أول الآية.

وذكر عمل الصالحات مرة واحدة، إضافة إلى ما في أول الآية، وذكر الإحسان مرة واحدة. وهذا كله يوجب على الإنسان أن يكون مطعمه حلالًا، ومن كسب حلال وأن يجتهد بالوفاء بالشروط المذكورة في الآية أداءً لحقه عز وجل، وشكرًا له على هذه النعمة.

٥٤- الترغيب في التقوى والإيمان والعمل الصالح والإحسان، والحث على الازدياد

---

(١) انظر كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذه الآية في «تفسير سورة المائدة» (٢/ ٣٦٦- ٣٦٨).

من ذلك والثبات عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأن ذلك من أسباب طيب المطعم وحله، كما أنه من أسباب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

٥٥- أن على الكفار جناح فيما طعموه، وكذا العصاة عليهم جناح في ذلك بقدر معاصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

فمفهوم هذا أن الكفار، وكل من لم يقم بهذه الشروط عليه جناح في مطعمه، وذلك لعدم قيامه بحق المنعم، ومن لم يقم بحقه- عز وجل- فهو ليس أهلًا لذلك شرعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف:٣٢].

كما أنهم ليسوا أهلًا للاستخلاف في الأرض شرعًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

٥٦- إثبات صفة المحبة لله عز وجل، كما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وفي هذا الرد على الذين ينفون صفة المحبة عنه عز وجل، أو يؤولونها بالثواب. والثواب إنما هو من لازم المحبة، وليس هو المحبة.

٥٧- محبة الله- عز وجل- للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٥٨- نفي محبة الله- عز وجل- عن غير المحسنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٥٩- فضل المحسنين على غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم المحسنون في عبادة الله إخلاصًا لله- عز وجل- ومتابعة للرسول ﷺ، والمحسنون إلى عباد الله بأداء حقوق العباد، والإحسان إليهم.

* * *

الحكمة التشريعية من التدرج في تحريم الخمر

كان العرب مولعين بشرب الخمر يشربونها كما يشربون الماء الزلال، وكان من المتعسر أن يقلعوا عنها مرة واحدة.

قالت عائشة رضي الله عنها: «لو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا»(١).

لهذا راعى الشرع الحكيم التدرج في تشريع تحريم الخمر على مراحل لكي ينقلهم عنها شيئًا فشيئًا على النحو التالي:

أولًا: امتن عليهم بثمرات النخيل والأعناب، التي يتخذون منها السكر والرزق الحسن، فقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧].

ثانيًا: بيَّن لهم أن في الخمر والميسر إثمًا كبيرًا ومنافع للناس، وأن إثمهما أكبر من نفعهما، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، وفي هذا تعريض بتحريمه.

ثالثًا: نهاهم عن قرب الصلاة حال السكر، فضيق عليهم وقت شربه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣].

رابعًا: حرمه بالكلية، وأمر باجتنابه وشدد في ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠- ٩١].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «حرمت الخمر ثلاث مرات: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنها فأنزل

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٧٦).

الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية، فقال الناس: ما حُرِّمَ علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام، صلى رجل من المهاجرين، أمّ أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، ثم أنزلت آيةٌ أغلظ من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ قالوا: انتهينا ربنا»[1].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥١- ٣٥٢) وروى الطيالسي معناه من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٧٠).

حد شارب الخمر

حدُّ الخمر ثابت بسنة الرسول ﷺ، وفعل الخلفاء من بعده، وإجماع المسلمين فقد روى عنه ﷺ جمع من الصحابة أنه قال: «**من شرب الخمر فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب الرابعة فا قتلوه**»(١).

وثبت أنه ﷺ جلد الشارب غير مرة، وجلد كذلك خلفاؤه من بعده.

فقد جلد النبي ﷺ في الخمر أربعين جلدة، وهكذا جلد أبوبكر وعمر أول خلافته- رضي الله عنهما، ثم لما كثر شربها جعلها عمر ثمانين جلدة(٢).

وكان علي- رضي الله عنه- يجلد مرة أربعين، ومرة ثمانين، ويقول: «جلد رسول الله ﷺ أربعين، وأبوبكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلٌّ سنة»(٣).

---

(١) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٨٢)، والترمذي في الحدود (١٤٤٤)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٧٣)، وأحمد (٤/ ٩٥)- كلهم من حديث عاصم بن أبي النجود، عن ذكوان عن أبي صالح السمان عن معاوية بن أبي سفيان. وفيه: عاصم بن أبي النجود: «صدوق له أوهام» انظر: «التقريب» (١/ ٣٨٣).

وقد أخرجه أحمد (٤/ ٩٣)- من طريق المغيرة بن مقسم عن معبد القاص عن عبدالرحمن بن عبد عن معاوية.

وقد روي من حديث أبي هريرة وابن عمر، والشريد، وشرحبيل بن أوس، وجرير بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهم. فهذا الحديث له روايات كثيرة، من طرق عدة، يصير بمجموعها صحيحًا.. وقد جمعها أحمد شاكر رحمه الله- في رسالة سماها: «كلمة الفصل في قتل مدمني الخمر» وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٧٠٦).

(٣) أخرجه مسلم في الحدود (١٧٠٧)، وأبوداود في الحدود (٤٤٨٠)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٧١)، والدارمي في الحدود (٢٣١٢) عن حصين بن المنذر أبوساسان قال: شهدت عثمان بن عفان وأُتي بالوليد، قد صلى الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدكم، فيشهد عليه رجلان أحدهما حمران، أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان إنه لم يتقيأ حتى شربها. فقال: يا علي، قم فاجلده، فقال علي: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: «ولّ حارها من تولى قارها، فكأنه وجد عليه». فقال: يا عبدالله بن جعفر قم فاجلده فجلده، وعليّ يعد، حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جَلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبوبكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلٌّ سنة، وهذا أحب إلي».

وقد قال ﷺ في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**»(١).

لكن اختلف أهل العلم هل يجلد شارب الخمر أربعين أو يجلد ثمانين، فذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الواجب ثمانون جلدة؛ لفعل عمر رضي الله عنه؛ ولأنه أقوى ردعًا.

وذهب طائفة منهم إلى أن الواجب أربعون جلدة. والزيادة يفعلها الإمام عند الحاجة، إذا أدمن الناس على شرب الخمر، أو كان الشارب ممن لا يرتدع بدونها، ونحو ذلك. فأما مع قلة الشاربين، وقرب أمر الشارب فتكفي الأربعون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا أوجه القولين».

وقال أيضًا(٢): «وقد كان عمر- رضي الله عنه- لما كثر الشرب، زاد فيه النفي، وحلق الرأس، مبالغة في الزجر عنه، فلو غرب الشارب مع الأربعين، لينقطع خبره، أو عزله عن ولايته كان حسنًا».

وأما قتله في الرابعة أو الخامسة كما جاء في حديث معاوية وغيره، فقد أخرج الترمذي(٣) عن جابر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ أتى بعد ذلك برجل قد شرب الخمر في الرابعة فضربه ولم يقتله» قال الترمذي: «وكذلك روى الزهري عن قبيصة بن ذؤيب عن النبي ﷺ نحو هذا، قال: فرفع القتل وكانت رخصة- قال الترمذي: «والعمل على هذا الحديث عند عامة أهل العلم، لا نعلم بينهم اختلافًا، في ذلك في القديم والحديث، ومما يقوي هذا ما روي عن النبي ﷺ من أوجه كثيرة: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث»(٤).

وقيل للإمام قتله تعزيرًا بحسب المصلحة إذا كثر منه الشرب، ولم ينهه الحد، واستهان به(٥).

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وصححه الألباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٣٧).

(٣) في الحدود (١٤٤٤).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «زاد المعاد» (٥/ ٤٦- ٤٧).

قال ابن القيم[١]: «ومن تأمل الأحاديث رآها تدل على أن الأربعين حد، والأربعون الزائدة عليها تعزير، اتفق عليها الصحابة- رضي الله عنهم.

والقتل إما منسوخ، وإما أنه إلى رأي الإمام، بحسب تهالك الناس فيها واستهانتهم بحدها، فإذا رأى قتل واحد، لينزجر الباقون، فله ذلك، وقد حلق فيها عمر- رضي الله عنه- وغرَّب، وهذا من الأحكام المتعلقة بالأئمة».

* * *

(١) في «زاد المعاد» (٥/ ٤٨)، وانظر: «تهذيب السنن» (٦/ ٢٣٨)، وانظر ما ذكره أحمد شاكر في رسالته «كلمة الفصل في قتل مدمني الخمر».

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تقدم الكلام على هذا.

﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ﴾، اللام: لام القسم، والتقدير: والله ليبلونكم. والجملة هنا خبرية، مؤكدة بمؤكدات ثلاثة: القسم المقدر، ولام القسم، ونون التوكيد.

ومعنى ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ﴾: ليختبرنكم. والابتلاء الاختبار ويكون في الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

﴿بِشَيۡءٖ ﴾ جار ومجرور متعلق بـ«يبلونكم».

﴿مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ﴾، ﴿مِّنَ ﴾ لبيان الجنس، ويجوز كونها للتبعيض، أي: ببعض الصيد، لأن المحرم صيد البر خاصة.

والصيد: مصدر عومل معاملة الأسماء فأوقع على الحيوان(١).

والصيد: كل ما يصاد، من حيوان البحر مطلقًا، ومن حيوانات البر الوحشية المأكولة، وقيل المأكولة وغيرها(٢).

والمراد به هنا: صيد البر خاصة، المحرّم حال الإحرام بحج أو عمرة، أو داخل الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٩).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٣)، «تفسير المنار» (٧/ ١٠٠).

﴿دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: تأخذه أيديكم لسهولة أخذه، كالفراخ والبيض.

﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ معطوف على ما سبق، أي: وتناله رماحكم كالظباء، والوحشي من الطيور والحمر والبقر(١). والرماح: جمع رمح وهو النّبل.

قال ابن عطية(٢): «خص الأيدي؛ لأنها أعظم ما يتصرف في الاصطياد، وخص الرماح لأنها أعظم ما يجرح به الصيد».

وقال محمد رشيد رضا(٣): «ووجه الابتلاء به أن الصيد ألذّ الطعام وأطيبه وناهيك باستطابته، وبشدة الحاجة إليه في السفر الطويل، كالسفر بين الحرمين، وقد قيل: إن من العصمة أن لا تجد».

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾، اللام: للتعليل، أي: لكي، أو لأجل أن يعلم الله.

﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣].

و﴿مَن﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول «يعلم»، أي: ليعلم الله الذي يخافه بالغيب، أي: يخافه فيتقيه.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الغيب: ما غاب عن الحواس، فلم تدركه، قال عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

والمعنى: يخافه فيتقيه، وإن لم يره؛ لأن الإيمان به سبحانه وتعالى هو أول أركان الإيمان، التي لا يتم الإيمان إلا بها، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام، لما جاء إلى النبي ﷺ، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، وعن الساعة وأماراتها، وفيه قال جبريل: «**ما الإيمان؟**» قال ﷺ: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» وسأله عن الإحسان، فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم**

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٨٣- ٥٨٤).

(٢) في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٨).

(٣) في «تفسير المنار» (٧/ ١٠١).

تكن تراه فإنه يراك»(١).

قال ابن كثير(٢): «يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد، يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه، بالأيدي والرماح، سرًّا وجهرًا، ليظهر طاعة من يطيع منهم، في سره وجهره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك:١٢].

ولا يمتنع أيضًا أن يكون من معنى الآية: ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾، أي: وهو غائب عن نظر الناس وأعينهم، لا يخاف أن يروه فينكروا عليه؛ لأن هذا لا ينافي الأول، بل ينبغي حمل الآيتين عليهما معًا فيكون المعنى: ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾، أي: وإن لم يره، وإن كان في غيبة عن نظر الناس.

وذلك لأن من الناس من يخاف من نظر الناس، ويجاهر الله بالمعصية، كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النساء:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ [النساء:٧٧].

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾، الفاء: عاطفة، و«من» اسم شرط جازم، و﴿ٱعۡتَدَىٰ﴾ فعل الشرط، والاعتداء تجاوز الحد المباح.

﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى مصدر مفهوم من سياق الآية قبل هذا، أي: فمن تجاوز الحد المباح إلى الحرام، بعد بيان الحكم، فَقَتَلَ الصيد بعد تحريمه أو ارتكب أمرًا محرمًا بعد بيان تحريمه.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ جواب الشرط، واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، أي: فلهذا المعتدي على الصيد ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ و﴿أَلِيمٞ﴾، «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع، حسًّا ومعنى، في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما معًا؛ لمخالفته أمر الله- تعالى وشرعه، واستحلاله ما حرم الله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١٨٢).

مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة أنه سيبتلي المؤمنين المُحْرِمين بشيء من الصيد ليعلم من يخافه بالغيب، فيحذر من ارتكاب هذا المحظور في الإحرام وذكر الوعيد المجمل لمن اعتدى فقتل الصيد، ثم أتبع ذلك بالتصريح بالنهي عن قتل الصيد حال الإحرام، وذكر ما يترتب على قتله من الجزاء الدنيوي والأخروي.

أو يقال: أخبرهم في الآية الأولى أنه سيبتليهم بشيء من الصيد حال إحرامهم، ثم نهاهم في الآية الثانية أن يقتلوه، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ الآية. والمراد بالصيد هنا صيد البر خاصة، دون صيد البحر؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

والمراد بصيد البر عند العلماء: كل حيوان بري مأكول مستوحش طبعًا، فإن كان الصيد بحريًا أو غير مأكول، أو إنسيًّا غير مستوحش جاز للمحرم قتله.

والمعتبر في ذلك الأصل، فما كان أصله بريًّا مستوحشًا حرم قتله في الإحرام، وما كان أصله بحريًّا، أو إنسيًّا جاز قتله. فإن استوحش الإنسي لم يحرم قتله، وإن استأنس الوحشي حرم قتله.

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ الواو حالية، و«أنتم» مبتدأ، و﴿حُرُمٌ﴾ خبره، والجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنكم حرم.

و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام، ويشمل الحُرُم في الحال، أي: من كان محرمًا بحج أو عمرة، أو بهما معًا، ويشمل الحُرُم في المكان، وهو من كان داخل الحرم ولو لم يكن محرمًا؛ لأنه يقال: أحرم إذا دخل الحرم، كما يقال: أنجد إذا دخل نجدًا.

وإنما نهى الله المحرم عن قتل الصيد؛ لئلا يلهو وينشغل قلبه وبدنه عن نسكه، وعن ذكر الله تعالى. وفي الحديث: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن

أتى السلطان افتتن»[١].

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾، الواو عاطفة و«من» اسم شرط جازم، ﴿قَتَلَهُۥ﴾ فعل الشرط وجوابه: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾.

والضمير في ﴿قَتَلَهُۥ﴾ يعود إلى الصيد، أي: فمن قتل الصيد ﴿مِنكُم﴾ أيها المؤمنون المحرمون.

﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ حال، أي: قاصدًا للقتل، مع العلم بالتحريم، وذكر الإحرام.

بخلاف المخطئ: وهو الذي يقصد شيئًا فيصيب صيدًا، والناسي: وهو الذي يتعمد الصيد، ولا يذكر إحرامه[٢].

﴿فَجَزَآءٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فعليه جزاء.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿فَجَزَآءُ مِّثْلُ﴾ بتنوين «جزاءٌ» ورفع ﴿مِّثْلُ﴾، على أنه عطف بيان لـ«جزاء» أو بدل منه، أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو ﴿مِّثْلُ﴾، وقيل على أنه صفة لجزاء، وفيه نظر؛ لأن ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ معرفة، و«جزاءٌ» نكرة، ولا تأتي المعرفة صفة لنكرة، ولا العكس.

وقرأ بقية العشرة: «فجزاءُ مثلِ» بترك التنوين في «جزاء»، وإضافتها إلى «مثل»، وجر «مثلِ» بالإضافة[٣].

أي: فعليه جزاء، يجزي به، مقابل وبدل ما قتل من النعم.

﴿مِّثْلُ﴾، أي: مماثل ومشابه ﴿مَا قَتَلَ﴾، ﴿مَا﴾: موصولة، أي: مثل الذي قتل من

---

(١) أخرجه أبوداود في الصيد (٢٨٥٩)، والنسائي في الصيد (٤٣١٤)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٦)، وأحمد (١/ ٣٥٧)، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وصحح إسناده أحمد شاكر وصححه الألباني.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١١- ١٢)، «النكت والعيون» (١/ ٤٨٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٦٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٣)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٢٧)، «المبسوط» ص(١٦٣- ١٦٤)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٣٦)، «الكشف» (١/ ٤١٨)، «التبصرة» ص(٤٨٨)، «العنوان» ص(٨٨)، «النشر» (٢/ ٢٥٥).

الصيد.

﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«جزاء»، أي: كائن من النعم. و﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس و﴿ٱلنَّعَمِ﴾: هي بهيمة الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم.

والمعنى: أن من قتل الصيد متعمدًا فيجب عليه جزاء من بهيمة الأنعام، مماثل ومقارب ومشابه، من حيث الخلقة للصيد الذي قتله، يذبحه ويهديه لمساكين الحرم. ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وهذا قول جمهور المفسرين، والفقهاء من الصحابة والتابعين[١]، وبه قال مالك[٢] والشافعي[٣] وأحمد[٤].

وقد حكم جمع من الصحابة بأن في الضبع كبشًا، بل روي ذلك عن النبي ﷺ[٥] وفي النعامة بدنة، وفي حمار الوحش بقرة، وفي الغزالة عنزًا، وفي الأرنب عناقًا، وفي الحمامة شاة[٦].

وقيل: المعنى عليه جزاء مماثل للصيد الذي قتله من حيث القيمة[٧].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٤- ٢٩، ٣٧)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧١)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ١٠٩)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩١- ١٩٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٠).

(٣) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤).

(٤) انظر: «المغني» (٥/ ١٧٩- ١٨٠، ٣٩٥- ٤٠٩).

(٥) أخرجه أبوداود في الأطعمة (٣٨٠١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٣٦)، «والترمذي في الحج (٨٥١)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٨٥)، والدارمي في المناسك (١٩٤١) – من طريق عبدالرحمن بن أبي عمار عن جابر- رضي الله عنه- بلفظ: سألت النبي ﷺ عن الضبع، فقال: «هو صيد، ويجعل فيه كبش إذا أصابه المحرم» قال الترمذي: «سألت البخاري عنه فصححه» وقال ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٢/ ٢٧٨): «وكذا صححه عبدالحق في التعليق المغني على الدارقطني، وقد أعل بالوقف، وقال البيهقي: «هو حديث جيد تقوم به الحجة» وقد صحح الدارقطني وقفه». وصحح هذا الحديث الألباني.

(٦) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٦- ١٧، ٢٣- ٢٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٢)، «المغني» (٥/ ٣٩٥- ٤١٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤- ١٨٦)، «أضواء البيان» (٢/ ١٥٢- ١٥٣).

(٧) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٩- ٢٠، ٢٩).

وبه قال أبوحنيفة، قال: المثل هو القيمة، ويشتري بالقيمة هدايا إن شاء، وإن شاء اشترى طعامًا، وأعطى كل مسكين نصف صاع، وإن شاء صام عن كل نصف صاع يومًا(١).

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ الضمير الهاء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ يعود على ﴿فَجَزَآءٌ﴾ أو على ﴿مِّثْلُ﴾، أي: يحكم بالجزاء من النعم، المماثل للصيد المقتول، فيما له مثل، وبالقيمة فيما ليس له مثل(٢).

﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: صاحبا عدل منكم، أي: شخصان عدلان مستقيمان، دينًا ومروءة، منكم أيها المؤمنون.

﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، ﴿هَدْيًا﴾ حال من الهاء في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾، و﴿بَٰلِغَ﴾ صفة لـ﴿هَدْيًا﴾، وهو مضاف، و﴿ٱلْكَعْبَةِ﴾ مضاف إليه، أي: واصلًا إلى الكعبة.

والكعبة: سميت كعبة؛ لتربعها وارتفاعها، والمراد بها هنا الحرم كله(٣)، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣].

والمعنى: أن هذا الجزاء من بهيمة الأنعام، المماثل لما قتله من الصيد، يُهدى إلى الحرم، فينحر فيه، ويوزع على مساكين الحرم، لا أنه يصل إلى جوف الكعبة.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾، ﴿أَوْ﴾ عاطفة، تفيد التخيير كقوله تعالى- في سورة البقرة: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، وهذا في كفارة حلق الرأس حال الإحرام.

وقال تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٢)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٣- ٤٧٤)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٤)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٨٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٩- ٣٠، ٤١)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٨). قال الطبري: «وإنما جاز أن ينعت به، وهو مضاف إلى معرفة، لأنه في معنى النكرة ذلك أن معنى قوله: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: يبلغ الكعبة. فهو- وإن كان مضافًا، فمعناه التنوين، لأنه بمعنى الاستقبال...» «جامع البيان» (١١/ ٢٩- ٣٠).

و﴿كَفَّٰرَةٌ﴾ معطوفة على «جزاء»، والكفارة: مأخوذة من الكَفْر، وهو الستر؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، فيسلم المرء من تبعته في الحال والمآل.

قرأ نافع وابن عمر وأبوجعفر «أو كفارةُ طعامِ» بترك التنوين في «كفارة» وإضافتها إلى «طعامِ»، إضافة تخصيص.

وقرأ الباقون: ﴿كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ﴾ بتنوين «كفارةٌ»، ورفع «طعامُ»[1] على أنه عطف بيان.

﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ تفسير وبيان لـ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾، أي: هي طعام مساكين.

و﴿مَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين، وهو الذي لا يجد ما يكفيه، سمي مسكينًا من السكون، وهو عدم الحركة؛ لأن الفقر أذله وأسكنه.

والمعنى: أو عليه كفارة لما حصل منه من قتل الصيد، وهي: طعام مساكين، فيُقَوَّم ما يماثل الصيد الذي قتله، أو يُقَوَّم الصيد نفسه بدراهم، يشتري بها طعامًا، يتصدق به على المساكين[2] لكل مسكين نصف صاع، أو مد من الطعام.

﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، ﴿أَوۡ﴾ عاطفة، تفيد التخيير كسابقتها، و﴿عَدۡلُ﴾ معطوف على «جزاء»، أو على ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ﴿طَعَامُ﴾، ﴿صِيَامًا﴾ تمييز، والتقدير: أو عليه عدل ذلك الطعام صيامًا، فيصوم يومًا مقابل كل نصف صاع من الطعام، أو مقابل كل مد من الطعام.

وعَدْل الشيء بفتح العين هو مثله ومعادله، أي: ما يعادله ويماثله، وهو كذلك بكسر العين، ويقال: عِدل الشيء بالكسر: مثله من جنسه، وبالفتح: مثله من غير جنسه[3].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «إذا أصاب المُحرم الصيد وجب عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به، فإن لم يجد جزاءه قوّم الجزاء

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٠)، «المبسوط» ص(١٦٤)، «الكشف» (١/ ٤١٨)، «التبصرة» ص(٤٨٨)، «العنوان» ص(٨٨)، «النشر» (٢/ ٢٥٥).

(٢) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨٨).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٢٠)، «مجاز القرآن» (١/ ٥٣، ١٧٥- ١٧٦)، «جامع البيان» (١١/ ٤٣)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٢٩).

دراهم، ثم قوّم الدراهم حنطة، ثم صام مكان كل نصف صاع يومًا. قال: إنما أريد بالطعام الصوم، فإذا وجد طعامًا وجد جزاءً»(١).

قال الطبري(٢): «وذلك أن يقوم الصيد حيًّا غير مقتول، قيمته من الطعام، بالموضع الذي قتله فيه المحرم، ثم يصوم مكان كل مد يومًا، وذلك أن النبي ﷺ عَدَل المدّ من الطعام بصوم يوم في كفارة المواقع في شهر رمضان».

وقال البغوي(٣): «أراد به أنه في جزاء الصيد مخير بين أن يذبح المثل من النعم فيتصدق بلحمه على مساكين الحرم، وبين أن يقوّم المثل دراهم، والدراهم طعامًا، فيتصدق بالطعام على مساكين الحرم، أو يصوم عن كل مد من الطعام يومًا، وله أن يصوم حيث شاء، لأنه لا نفع فيه للمساكين».

وقال ابن كثير(٤): «وقوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام».

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لكي يذوق، أو لأجل أن يذوق وبال أمره، و«يذوق» فعل مضارع منصوب، وفاعله ضمير مستتر، تقديره: هو، يعود على «من» في قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾.

أي: ليذوق عاقبة أمره الثقيلة، كما قال عز وجل: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦]، أي: أخذًا ثقيلًا شديدًا.

قال ابن كثير(٥): «أوجبنا عليه الكفارة، ليذوق عقوبة فعله، الذي ارتكب فيه

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١٥- ١٦) الآثار (١٢٥٧٠- ١٢٥٧٢، ١٢٦٠٢)، وقد أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما قال: «من قتل ظبيًا فعليه شاة، فإن لم يجد أطعم ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام»، «جامع البيان» (١١/ ١٨، ٣١)- الأثر (١٢٥٧٨، ١٢٦٠٠).

(٢) في «جامع البيان» (١١/ ٤٢)، وانظر (١١/ ٤٥- ٤٦)، «سنن البيهقي» (٤/ ٢٢١- ٢٢٥).

(٣) في «معالم التنزيل» (٢/ ٦٥)، وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٦- ٦٧٧).

(٤) في «تفسيره» (٣/ ١٨٦).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ١٨٨).

المخالفة».

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، العفو بمعنى التجاوز، وعدم المؤاخذة على الذنب.

أي: عفا الله وتجاوز عما سلف ومضى منكم أيها المؤمنون من قتل الصيد وأنتم حرم، قبل تحريم ذلك، فلا يؤاخذكم به، ولا يلزمكم فيه كفارة.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾، أي: ومن عاد إلى قتل الصيد بعد تحريمه حال الإحرام، ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾، الانتقام: الأخذ بالعقوبة، أي: فينتقم الله منه بإيجاب الكفارة عليه، أو بالعقوبة في الآخرة مع وجوب الكفارة(١).

قال الجصاص(٢): «وذلك يختص بالعمد، دون الخطأ، لأن المخطئ لا يجوز أن يلحقه الوعيد، وخص العمد في الذكر- يعني في قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ وإن كان الخطأ أو النسيان مثله(٣) ليصح رجوع الوعيد إليه».

واختار هذا جمع من المفسرين منهم الطبري(٤)، والجصاص وابن كثير وغيرهم.

قال الجصاص(٥): «وهو قول فقهاء الأمصار وهو الصحيح؛ لأن قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ﴾ يوجب الجزاء في كل مرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٩٢].

وذكره الوعيد للعائد لا ينافي وجوب الجزاء، ألا ترى أن الله تعالى قد جعل حد المحارب جزاء له بقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة:٣٣]، ثم عقبه بذكر الجزاء بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣]، فليس إذًا في ذكر الانتقام من العائد نفي لإيجاب الجزاء».

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٤٨- ٥٠، ٥٤)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٨)، تفسير سورة المائدة، للشيخ محمد العثيمين (٢/ ٣٩٠، ٤٠٩).

(٢) في «أحكام القرآن» (٢/ ٤٦٩).

(٣) يعني: في وجوب الكفارة عليهما كالمتعمد.

(٤) في «جامع البيان» (١١/ ٥٤).

(٥) في «أحكام القرآن» (٢/ ٤٧٥، ٤٧٦).

وقال أيضًا: «وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ لا دلالة فيه على أن المراد العائد إلى قتل الصيد، بعد قتله لصيد آخر قبله؛ لأن قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يحتمل أن يريد به عما سلف قبل التحريم، ومن عاد يعني بعد التحريم، وإن كان أول صيد بعد نزول الآية، وإذا كان فيه احتمال، لم تدل الآية على أن قتل الصيد بعد قتله مرة أخرى ليس عليه إلا الانتقام».

وقال ابن كثير(١): «ثم الجمهور من السلف والخلف أنه متى قتل المحرم الصيد وجب عليه الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية، وإن تكرر ما تكرر، سواء في ذلك الخطأ والعمد».

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:٦٥]، وقال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**العزة إزاري والكبرياء ردائي**»(٢).

قال الطبري(٣): «منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٨٨)، وقد قيل: المعنى: فمن عاد إلى قتل الصيد، مستحلًا لقتله بعد تحريمه. وقيل: فمن عاد إلى قتل الصيد، عامدًا، عالمًا بالتحريم، ذاكرًا لإحرامه فينتقم الله منه، وإنما الكفارة فقط على الجاهل والناسي، وقيل غير ذلك.

وقيل: نزلت الآية في شخص بعينه، عاد إلى قتل الصيد أكثر من مرة، فنزلت نار فأحرقته.

وكل هذه الأقوال ضعيفة، أما القول الأول: فلأن من استحل محرمًا فهو كافر خارج عن الإسلام، حتى ولو لم يفعله. وأما القول بأن المراد بالآية المتعمد، وأن الكفارة لا تجب إلا على الجاهل والناسي فهذا خلاف ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ وأما القول بأن الآية نزلت في شخص بعينه فلا دليل عليه، ولو صح ذلك فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو معلوم.

انظر في ذكر هذه الأقوال «جامع البيان» (١١/ ٤٨، ٥٣- ٥٦)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- (٢/ ٢٤٨)، ومن حديث فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- (٦/ ١٩). وأخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٠)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله ﷺ: «**والعزة إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**».

(٣) في «جامع البيان» (١١/ ٥٦- ٥٧). وراجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].

منه ولا عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة».

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: خبر ثانٍ للفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿ذُو﴾ بمعنى صاحب، و«الانتقام» هو أخذ المذنب والجاني بما فعل.

قال ابن كثير(١): «يعني: أنه ذو معاقبة، لمن عصاه، على معصيته إياه».

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

لما بين الله- سبحانه وتعالى- في الآيتين السابقتين حرمة صيد البر على المحرمين، ذكر حل صيد البحر لهم، ممتًا بذلك عليهم، فقال تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾.

هذه الآية بيان واستثناء من قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ﴾ [المائدة:١]، ومن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ﴾ [المائدة:٩٤- ٩٥].

ففي هذه الآية بيان حل صيد البحر للمحرمين، وأن المحرّم عليهم هو صيد البر.

﴿أُحِلَّ﴾ بُني الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ لما لم يسم فاعله؛ لأن المُحِلَّ معلوم وهو الله عز وجل لأنه سبحانه هو الذي يحل ويحرم.

﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين المقيمين المحرمين بحج أو عمرة؛ لقوله بعده: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾.

﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾، أي: مصيده، وهو كل ما أخذ منه حيًّا من السمك والحيتان وغير ذلك.

و﴿ٱلْبَحْرِ﴾: الماء الكثير، سواء في ذلك النهر والوادي والبركة والعين وغير ذلك.

﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ معطوف على ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ والضمير في «طعامه» راجع إلى البحر، أي: وأحل لكم طعام البحر، وهو كل ما يطعم منه بدون صيد مما قذفه البحر وألقاه

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٨٨).

ميتًا، أو مما مات فيه وطفا عليه وغير ذلك.

وذلك؛ لأن الله قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ فعطف «طعامه» على ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾، فدل على أن «طعامه» ما عدا «صيده».

وهذا قول جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم(١).

بل رُوي مرفوعًا، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ قال: «(طعامه) ما لفظه ميتًا فهو طعامه»(٢).

قال أبوبكر رضي الله عنه: «طعامه كل ما فيه» وروي نحوه عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه(٣)- وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «طعامه مالحه، وما قذفه البحر منه، يتزوده المسافر»(٤).

وروي أيضًا عن جمع من الصحابة وغيرهم وعن جمع من التابعين- رضي الله عنهم أجمعين(٥).

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، ﴿مَتَٰعًا﴾: منصوب مفعوله لأجله، أي: لأجل أن تتمتعوا به، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل:١٤].

ويجوز إعرابه مصدرًا مؤكدًا.

والمتاع: ما يُتمتع به، ويُتبلغ به، ويُتزود به.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ٨٩)، «جامع البيان» (١١/ ٦١- ٧٠)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٣٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٧٠)- الأثر (١٢٧٢٩)، وقد أخرجه أيضًا موقوفًا على أبي هريرة الأثر (١٢٧٣٠)- قال أحمد شاكر: «فإسناد المرفوع والموقوف كلاهما إسناد صحيح، ورجالهما ثقات حفاظ».

(٣) أخرجه عن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- وعن جابر- رضي الله عنه- الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٠- ٦٣)- الآثار (١٢٦٨٤، ١٢٦٨٥، ١٢٦٩٥).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٧٢) – الأثر (١٢٧٣٦).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٦١- ٦٨، ٧٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٩).

﴿لَّكُمْ﴾ لمن كان منكم في حضرة البحر، أو كان مقيمًا.

﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ السيارة: جمع سيار، وهم المسافرون، يحملونه معهم في سفرهم، زادًا ومتاعًا لهم وبلغة.

والمعنى: أن الله- عز وجل- أحل صيد البحر وطعامه متعة لكم وبلغة في حال إقامتكم، وحال سفركم، وركوبكم البحر.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾، الواو: عاطفة، و«حُرم» معطوف على ﴿أُحِلَّ﴾ وهو مثله، مبني لما لم يسم فاعله؛ لأنه معلوم أن المحرم هو الله عز وجل، أي: وحرم الله عليكم أيها المؤمنون صيد البر، وهو كل ما يعيش في البر، دون البحر، مما يصاد من الحيوانات والطيور المتوحشة المأكولة.

﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، أي: حال كونكم محرمين بحج، أو عمرة، أو داخل حدود الحرم، حتى تحلوا، بالخروج من الحرم، وإتمام نسك العمرة، لمن أحرم بها بالطواف والسعي والحلق أو التقصير، والتحلل الأول من الإحرام بالحج لمن أحرم به، وذلك بفعل اثنين من ثلاثة، وهي: رمي جمرة العقبة، والحلق أو التقصير، وطواف الإفاضة، حيث يحل للمحرم كل شيء بهذا التحلل، إلا النساء، بما في ذلك قتل الصيد، ما لم يكن داخل الحرم، وقيل: لا يحل ذلك إلا بالتحلل الثاني، بفعل الثلاثة كلها. والأول أصح.

والمراد بـ﴿صَيْدُ الْبَرِّ﴾ مصيده، أي ما صيد فيه.

أو المعنى: وحرم عليكم أن تصيدوا صيد البر مادمتم حرمًا، كما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والأول أظهر وأعم، وهو يشمل الثاني، فيحرم على المحرم كل ما صيد في البر سواء صاده المحرم أو غيره، إلا ما دل الدليل على استثنائه، كما سيأتي بيانه في الأحكام.

وإنما حرم على المحرم صيد البر- والله أعلم- دون صيد البحر؛ لسهولة تناول صيد البحر، وشدة حاجة الناس إليه، بخلاف صيد البر، فإن من تبعه وأولع به لها وانشغل حتى عن أهم ما عليه من الحقوق؛ حق الله، وحق النفس، وحقوق الخلق، من الوالدين والأهل والأولاد، وغيرهم- كما هو واقع ومشاهد.

وأيضًا فإن الحاجة لصيد البر أقل، ولهذا نجد الذين يشتغلون بصيد البحر،

يحترفون ذلك تجارة ومطلبًا للرزق، بينما نجد الذين ينشغلون بصيد البر يفعلون ذلك لهوًا ولعبًا وتزجية للأوقات- غالبًا.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك اجتناب صيد البر حال الإحرام وفي الحرم الذي نهى الله عنه في هذه الآية.

﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة للفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿إِلَيۡهِ﴾ جار ومجرور متعلق بالفعل ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ قدم عليه- والله أعلم؛ لتناسب رؤوس الآيات، ولإفادة الحصر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، أي: واتقوا الله الذي إليه وحده تحشرون، لا إلى غيره.

﴿تُحۡشَرُونَ﴾، أي تجمعون، والحشر معناه: الجمع، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن:٩]، وقال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [الشورى:٧].

والمعنى: واتقوا الله الذي إليه مصيركم ومرجعكم وجمعكم.

وفي تذكير الخلق أن محشرهم إليه سبحانه وعيد وتهديد لمن خالف تقوى الله، ووعد لمن اتقى الله، فإنه إذا كان المحشر إليه والمنقلب والمصير إليه، فإنه سيجازي كلًا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، كما قال عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث والترغيب على الاتصاف بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾.

٣- أن ترك المُحْرِم لقتل الصيد وأكله من مقتضيات الإيمان، وأن اعتداءه على الصيد بقتله، أو أكله يعد نقصًا في الإيمان.

٤- ابتلاء الله للمؤمنين بجعل الصيد يعرض لهم حال إحرامهم، وفي الحرم مما يُنال بالأيدي ويُصاد بالرماح؛ ليظهر من يخافه فيمتنع عن قتل الصيد خوفًا من الله- عز وجل- وإن لم يره؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

وقد خلق عز وجل الموت والحياة ابتلاءً للعباد، قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

وفي الحديث قوله ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**»(١).

٥- عظم فضل من ابتلي فصبر، سواء ابتلي بما يفتنه في دينه بتيسير أسباب المعصية له، فصبر عنها، أو ابتلي بالمصائب فصبر عليها؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فهذا ثناء على من كانت هذه صفته.

وفي الحديث: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**»(٢) وفيه: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**»(٣).

وكم من أناس يُحسبون أتقياء في المجتمعات المحافظة، فإذا خرجوا عنها وتيسرت لهم أسباب الفواحش لم يصبروا عنها.

٦- فرق ما بين هذه الأمة المحمدية، وبين اليهود، فإن الله- عز وجل- ابتلى صحابة رسول الله ﷺ بهذا الصيد وهم محرمون فلم يعرض له أحد؛ تعظيمًا منهم لحرمات الله، بينما حرم الله على اليهود صيد السمك يوم السبت، فاحتالوا عليه، فوضعوا له الشباك يوم السبت، وأخذوه يوم الأحد، تحايلًا على أحكام الله، واستهانة بها، وصدق الله العظيم،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤١، ١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٦)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)، وفي الفتن (٤٠٣١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن غريب».

حيث قال عز وجل عن هذه الأمة المحمدية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

٧- الإشارة إلى أهمية الصيد، حال نزول الآيات، وأنه من أهم معايشهم آنذاك، لهذا جعل الله عروضه لهم في الإحرام من الابتلاء والاختبار لهم.

٨- أن الثواب والعقاب إنما يترتب على علم الله بالشيء بعد وقوعه؛ لقوله عز وجل: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، أي: علمًا يترتب عليه الجزاء، وإلا فعلمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها، قبل وجودها وبعده وبعد عدمها، فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، بل علمه- عز وجل- يتعلق بما هو مستحيل الوقوع، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

٩- أن الإيمان بالله من أركان الإيمان بالغيب؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

١٠- وجوب خوف الله ومراقبته وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

١١- التنويه بشأن من يخاف الله بالغيب، والثناء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ومفهوم هذا ذم من لا يخافه عز وجل، وفيه تعريض بذم من يخاف الناس، كما قال عز وجل: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧].

١٢- تحريم الصيد في حال الإحرام، والوعيد والتهديد لمن اعتدى، فقتل الصيد بعد تحريمه حال الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهكذا من اعتدى على أي مُحَرَّم، بعد بيان حكمه، فهو متوعد بهذا.

١٣- أن المعذَّب يحس بالعذاب، ويؤلمه ويوجعه حسًّا ومعنى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٤- أن من ارتكب المحرم جاهلًا بتحريمه فلا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد بيان الحكم، أما من ارتكبه قبل ذلك، أو عن جهل فلا شيء عليه.

١٥- النهي عن قتل الصيد حال الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، أي:

وأنتم محرمون بحج أو عمرة، أو داخل حدود الحرم(١)، كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة:٩٦]، فمفهومها تحريم الصيد حال الإحرام، وقال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

١٦- تعظيم حرمة الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وذلك تعظيمًا واحترامًا للنسك، لئلا ينشغل المحرم، ويلهو عن هذا النسك العظيم، حجًا كان أو عمرة، قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧].

١٧- تعظيم حرمة الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ

---

(١) وليس من الصيد المنهي عن قتله ما كان مؤذيًا بعادته، كالفواسق، فإنها تقتل في الحل والحرم، لقوله ﷺ: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور**». أخرجه من حديث عائشة: البخاري- في بدء الخلق (٣٣١٤)، ومسلم في الحج (١١٩٨)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٢٩)، والترمذي في الحج (٧٣٨)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٨٧).

واختلف أهل العلم فيما يجوز قتله، والصحيح جواز قتل الفواسق كلها وكل مؤذٍ للناس بعادته، وله دفع كل ما صال عليه من بهيمة أو آدمي وإن لم يندفع إلا بقتاله فله قتاله انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦٨)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ١٠٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٦٦- ٦٦٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٨٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٠٣- ٣٠٤)، «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١١٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٢- ١٨٣)، «أضواء البيان» (٢/ ١٣٧- ١٤١)، «تفسير المنار» (٧/ ١٠٣).

وحرم المدينة يحرم صيده، فعن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قدم من خيبر، وبدا له أُحُد، قال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»، ثم أشار بيده إلى المدينة. قال: «**اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا**» أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٨٩، ٢٨٩٣)، ومسلم في الحج (١٣٧٤)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وعن علي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**المدينة حرام ما بين عير إلى ثور**» أخرجه البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٠)، وفي الجزية (٣١٧٩)، ومسلم في الحج (١٣٧٠)، والترمذي في المناقب (٣٩١٤)، وغيرهم.

لكن اختلف أهل العلم في وجوب الجزاء على من قتل الصيد في المدينة فذهب الجمهور إلى أنه لا جزاء عليه، وقال بعضهم عليه الجزاء، وهو أخذ سلب القاتل. انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٠٥- ٣٠٧)، «أضواء البيان» (٢/ ١٦٠- ١٦٦).

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة:١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧]، أي يجب على الناس أن يؤمنوا من دخل الحرم.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣].

وقال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**» الحديث(١).

١٨- أن من قتل الصيد متعمدًا وهو محرم في نسك حج أو عمرة، أو داخل الحرم، فعليه جزاء مماثل لما قتله(٢) يجزيه من بهيمة الأنعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾(٣).

وهكذا عند أكثر أهل العلم حكم من قتل الصيد مخطئًا أو ناسيًا أو جاهلًا، وإلى هذا ذهب طائفة من السلف، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما(٤)، والأئمة الثلاثة؛ أبو حنيفة(٥) ومالك(٦)،

---

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهكذا لو قتل الصيد، فأكله، عليه جزاء قتله، وعليه في أكله التوبة والاستغفار عند جمهور أهل العلم، وقيل عليه قيمة ما أكل. انظر: «أضواء البيان» (٢/ ١٤٤).

(٣) فإن اشترك في قتله جماعة محرمون فعلى كل واحد منهم جزاء بنفسه عند طائفة من أهل العلم، منهم أبوحنيفة ومالك، وذهبت طائفة من أهل العلم، منهم الشافعي وأحمد إلى أن عليهم جزاءً واحدًا. وهكذا قال أبوحنيفة إن كانوا محلين داخل الحرم فعليهم جزاء واحد. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٧)، «المبسوط» للسرخسي (٤/ ٨٠)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ١١٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٧- ٦٧٩)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٥)، «المغني» لابن قدامه (٣/ ٤٥١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٣- ٣١٤)، «بدائع الصنائع» (٢/ ٢٠٢).

(٤) أخرجه عن عمر وابن عباس ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٠٤- ١٢٠٥)- الأثران (٦٧٩٥- ٦٧٩٦). وأخرجه الطبري عن ابن عباس في «جامع البيان» (١١/ ١١)- الأثر (١٢٥٦٢).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦٩)، «مدارك التنزيل» (٢/ ١٠).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٦٩)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٠٨).

والشافعي[١]، وأحمد في رواية عنه[٢].

لكن المخطئ والناسي لا إثم عليه لدلالة الكتاب والسنة، على العفو في النسيان والخطأ، ومثلهما الجاهل المعذور.

واستدلوا بالأدلة في وجوب الجزاء، وقالوا: لا فرق في غرم المتلفات بين العامد وغيره، ولا مفهوم مخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾؛ لأنه جرى مجرى الغالب[٣].

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا جزاء على المخطئ، والناسي، وبه قال طاوس[٤]، واختاره الطبري[٥]، وابن حزم الظاهري[٦]، وهو رواية عن الإمام أحمد[٧]، ورجحه الشيخ محمد العثيمين في تفسيره[٨].

قالوا: مفهوم قوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ يدل على أن غير المتعمد ليس كذلك.

قال الشنقيطي[٩]: «وهذا قوي جدًا من جهة الدليل».

ومما استدل به لهذا أيضًا: أن عمومات الكتاب والسنة تدل على أن الجاهل والناسي والمخطئ، والمكره لا إثم عليهم، ولا فدية، ولا كفارة، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال تعالى في الحديث القدسي: «**قد فعلت**»[١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨٧)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٣).

(٢) انظر: «المغني» (٥/ ٣٩٥).

(٣) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ١٤٢- ١٤٤).

(٤) أخرجه الطبري- الأثر (١٢٥٦٥)، وابن أبي حاتم- الأثر (٦٧٩٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٨٣).

(٥) في «جامع البيان» (١١/ ١٢).

(٦) انظر: «المحلي» (٥/ ٢٣٤).

(٧) انظر: «المغني» (٥/ ٣٩٥).

(٨) انظر: «تفسير سورة المائدة» (٢/ ٣٩٤- ٣٩٥).

(٩) في «أضواء البيان» (٢/ ١٤٤).

(١٠) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[الأحزاب:٥].

وفي الحديث: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»(١).

وهذا كله في حق الله- عز وجل؛ لأن حقه- عز وجل- مبني على المسامحة، بخلاف حقوق العباد فهي مبنية على المشاحة، ولا يمكن قياس حقوق الله عليها.

قال ابن كثير(٢)، والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. قال الزهري: «دل الكتاب على العامد وجرت السنة على الناسي».

ومعنى هذا: أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد، وعلى تأثيمه، بقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام الصحابة بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضًا فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد والنسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم».

وقال أيضًا(٣) «الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد».

وإذا دل المحرم شخصًا حلالًا على صيد فقتله، فذهب بعض أهل العلم إلى أن عليه الجزاء؛ لقوله في الحديث: «**هل أشرتم أو أعنتم**»(٤).

وبهذا قال جمع من الصحابة والتابعين والفقهاء(٥).

وقال بعضهم: لا شيء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ فعلق الجزاء بالقتل.

وإذا دلّ المحرم شخصًا محرمًا على صيد فقتله فالجزاء واحد بينهما عند بعض أهل

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١٨٣).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ١٨٨) وانظر: (٣/ ١٩٣).

(٤) سيأتي ذكره وتخريجه.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٩٠)، «التفسير الكبير» (١٤/ ٧٥- ٧٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٢٤).

العلم، وقال بعضهم: على كل منهما جزاء بنفسه، وقال بعضهم: الجزاء فقط على المباشر(١).

١٩- أن الواجب في جزاء الصيد مثل ما قتل من بهيمة الأنعام، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ وهذا ما عليه جمهور أهل العلم(٢)؛ منهم الأئمة الثلاثة؛ مالك(٣) والشافعي(٤) وأحمد(٥).

وذهب أبوحنيفة إلى أن الواجب فيه القيمة، سواء كان له مثل من الحيوان الإنسي، أو ليس له مثل. قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه، وإن شاء اشترى به هديًا(٦).

قال ابن كثير(٧): «والذي حكم به الصحابة في المِثْل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز. أما إذا لم يكن الصيد مثليًا فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة»(٨).

٢٠- أنه لا يشترط لجزاء الصيد سن معينة، بل الصغير بالصغير والكبير بالكبير؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ وهذا قول جمهور أهل العلم(٩).

وقيل: لا يجزئ فيه إلا ما يجزئ في الأضحية(١٠).

٢١- ينبغي أن يحكم في الجزاء المماثل للصيد المقتول شخصان عدلان من المسلمين، ممن لهم معرفة بأنواع الصيد وأشباهها؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فإن

---

(١) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ١٤٥- ١٤٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٠).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ١٠٩)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤).

(٥) انظر: «المغني» (٥/ ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥).

(٦) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٣- ٤٧٤)، «مدارك التنزيل» (٢/ ١٠).

(٧) في «تفسيره» (٣/ ١٨٤).

(٨) أخرجه البيهقي في «سننه» (٥/ ١٨٧).

(٩) انظر: «أضواء البيان» (٢/ ١٥٤).

(١٠) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٢).

اتفق الحكمان، لزم ما حكما به، وإن اختلفا، رجع إلى غيرهما[١].

واختلفوا هل يكون القاتل أحد الحكمين، فذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يكون قاتل الصيد أحد الحكمين؛ لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه- وإلى هذا ذهب طائفة من أهل العلم[٢].

وذهب بعض أهل العلم إلى جواز كون القاتل أحد الحكمين؛ لعموم الآية[٣].

وهل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيحكم به ذوا عدل، وإن كان قد حكم به الصحابة؟ قال بهذا طائفة من أهل العلم[٤]؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن ما حكمت به الصحابة يجب الأخذ به، ولا يجوز العدول عنه، وهو قول الجمهور[٥]، وهو الراجح؛ لأن الصحابة- رضي الله عنهم- أقرب إلى فهم القرآن من غيرهم، وأعلم وأفهم وأقرب إلى معرفة المماثلة من غيرهم، وأولى منه ما حكم به رسول الله ﷺ، فقد حكم في الضبع: بشاة[٦].

وما لم يحكم به رسول الله ﷺ، ولا الصحابة، فإن كان الصيد مماثلًا لما حكموا به، ففيه مثل ما حكموا به قياسًا عليه، وإن لم يكن مماثلًا لما حكموا به رجع إلى الحكمين.

٢٢- أن جزاء الصيد يجب أن يذبح في الحرم، ويوزع على مساكين الحرم؛ لقوله تعالى: ؛ لقوله تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وسواء نحره قبل يوم النحر أو بعده، بخلاف غيره من محظورات الإحرام فيفدي عنها بمكانه أو في مكة.

٢٣- أن قاتل الصيد مخير في الجزاء بين مثله من بهيمة الأنعام، أو التكفير بإطعام

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٣).

(٣) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٨٧)، «المغني» (٥/ ٤٠٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٣).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٢).

(٥) انظر: «المغني» (٥/ ٤٠٢- ٤٠٣)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٦).

(٦) سبق تخريجه وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٨)، «أضواء البيان» (٢/ ١٥٢).

مساكين، أو يصوم عدل الطعام أيامًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾.

وما لا مثل له فقاتله مخير بين الصيام والإطعام، كالتخيير في كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]، وكقوله تعالى- في كفارة من فعل محظورًا غير قاتل الصيد: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

فقاتل الصيد مخير في الجزاء بين الكفارات الثلاث: المثل، والإطعام، والصيام، وإلى هذا ذهب ابن عباس- رضي الله عنهما[١]، وجماعة من التابعين[٢]، وإليه ذهب مالك[٣] وأبوحنيفة[٤] والشافعي في أحد قوليه[٥]، وأحمد في المشهور عنه[٦]، واختاره الطبري[٧] وجمهور أهل العلم[٨].

وذهب طائفة من أهل العلم، منهم ابن عباس في رواية عنه[٩]، وجماعة من التابعين[١٠] وأحمد في رواية عنه[١١] إلى أن الكفارات المذكورة على الترتيب، فالواجب التكفير بالهدي، فإن لم يجد انتقل إلى الإطعام، فإن لم يستطع انتقل

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في «جامع البيان» (١١/ ٣٥)- الأثر (١٢٦١٧).

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٤- ٣٥)- الآثار (١٢٦١٠- ١٢٦١٦).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٤- ١٩٥).

(٤) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٥).

(٥) انظر: «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٦).

(٦) انظر: «المغني» (٥/ ٤١٥).

(٧) في «جامع البيان» (١١/ ٣٧، ٣٨).

(٨) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٥)، «أضواء البيان» (٢/ ١٥٠).

(٩) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣١)- الأثر (١٢٦٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٠٨)- الأثر (٦٨١٤).

(١٠) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٢- ٣٣)- الآثار (١٢٦٠٣- ١٢٦٠٦).

(١١) انظر: «المغني» (٥/ ٤١٥).

إلى الصيام.

واختلفوا في مقدار الطعام والصيام، ومكان كل منهما: فذهب بعض أهل العلم إلى أنه يقوّم المثل من النَّعم بطعام، أو بدراهم يُشترى بها طعام.

وقال بعضهم: يقوّم الصيد المقتول(١).

والمعتبر في التقويم يوم الإتلاف(٢)، ومكانه(٣). ويعطى لكل مسكين نصف صاع عند أكثر أهل العلم، ومد عند بعضهم، وقيل صاع(٤). ولا دليل على هذا التحديد.

لكن ينبغي أن يكون المساكين ثلاثة فأكثر؛ لأن أقل الجمع ثلاثة، وقد قال تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ بالجمع. ويُطْعِم في الحرم، وقيل في المكان الذي أصاب به الصيد، أو أقرب الأماكن إليه، وقيل: يطعم حيث شاء. والأظهر الأول(٥).

واختلفوا في تقدير الصوم: فذهب بعض أهل العلم أنه يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا، وقال بعضهم عن كل نصف صاع يومًا، وقال بعضهم عن كل مد يومًا، وقيل عن كل صاع يومًا. والأظهر الأول؛ لعدم الدليل على التقدير(٦)

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٠، ٣٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٦).

(٢) وقيل: يوم القضاء، وقيل: أكثر القيمتين. انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٩- ٦٨٠)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٥).

(٣) وقيل: يقوم حيث يُكَفّر، انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٩).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧١، ٤٧٥)، «النكت والعيون» (١/ ٤٨٨).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٩، ٤٠)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٠)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣١٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٧)، «أضواء البيان» (٢/ ١٥٠).

(٦) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٠، ٣٦)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧١، ٤٧٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٧٣، ٦٨٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٦).

ويكون الصوم حيث شاء[١].

ويذبح الهدي، أو ينحره، متى شاء قبل يوم النحر أو بعده، ويطعم ويصوم متى شاء[٢].

٢٤- أن الله أوجب الكفارة على مَن قتل الصيد متعمدًا، وهو محرم؛ لأجل أن يذوق عقوبة فعله، وشؤم ذنبه، مع أنها كفارة للذنب؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾.

٢٥- جواز التعزير بالمال؛ لأن الله خيّر قاتل الصيد عمدًا بين الفدية بمثله، أو بالإطعام، أو بالصيام، والمثل والإطعام من التعزيرات المالية.

٢٦- فضل الله سبحانه على عباده ورحمته لهم، حيث جعل مخرجًا لمن قتل الصيد متعمدًا بالجزاء بالمثل، أو الكفارة؛ طعام مساكين، أو عدل ذلك صيامًا، تكفيرًا لذنبه، وسترًا له في الدنيا والآخرة، وهكذا سائر المحظورات جعل فيها الفدية لذلك، وهكذا القتل الخطأ والظهار، والأيمان، وغير ذلك.

٢٧- سعة رحمة الله عز وجل، وتجاوزه وعفوه عما سلف ومضى من قتل الصيد، حال الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

٢٨- أن من صفته تعالى العفو والتجاوز وعدم المؤاخذة على الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:٦٠].

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إنك عفوّ تحب العفو فاعف عني**»[٣].

٢٩- أن من فعل محظورًا جاهلًا فلا إثم عليه، ولا كفارة؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، أي: قبل نزول الآيات، وقبل بيان الحكم والعلم بالتحريم.

٣٠- الوعيد والتهديد لمن عاد إلى قتل الصيد بعد بيان تحريمه، بأن الله ينتقم منه في

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٠)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٧٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٤١- ٤٢).

(٣) أخرج الترمذي في الدعوات (٣٥١٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٠) وصححه الألباني.

بوجوب الكفارة عليه، أو بالكفارة مع العقوبة في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾.

٣١- إثبات صفة العزة له بأنواعها الثلاثة؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

٣٢- إثبات صفة الانتقام لله ممن عصاه، وخالف أمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

وفي هذا وعيد وتهديد لمن خالف أمر الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

لكنه- عز وجل- لا يوصف بالانتقام مطلقًا، وإنما ممن خالف أمره وعصاه؛ ولهذا لا يقال: المنتقم. وليس هذا من أسمائه.

٣٣- حل صيد البحر من السمك والحيتان وغيرها، وحل طعامه وهو كل ما يؤخذ منه بدون صيد، مما يطعم، مما قذفه على ساحله أو مات فيه وطفا أو غير ذلك للمحرمين وغيرهم، يتمتعون به حال إقامتهم، وحال سفرهم، حتى لو كان هذا البحر داخل حدود الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

وهذا عام في كل حيوانات البحر؛ لأن الإضافة في قوله: ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ تقتضي العموم فكل ما في البحر من السمك والحيتان فهو حلال صغيرها وكبيرها، سواء ما كان منها شبيهًا بالخنزير، أو بالمحرَّم من حيوانات البر، أو شبيهًا بالإنسان، أو غير ذلك.

وقيل: لا يحل منها إلا السمك فقط فيحرم خنزير الماء، ويحرم ما كان شبيهًا بالمحرَّم من حيوانات البر، وكذا الضفادع(١)،

---

(١) عن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفادع، وقال: نقيقها تسبيح» أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٣، ٤٩٩)، وأبوداود في الأدب (٥٢٦٩)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٥)، والدارمي في الأضاحي (١٩٩٨)، وصححه الألباني.

ونحو ذلك[١].

٣٤- حل ميتة البحر مطلقًا وكل ما فيه من نبات وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ويدل على حل ميتته حديث جابر بن عبدالله في قصة العنبر الذي وجده أبوعبيدة، وأصحابه- رضي الله عنهم، وهم ثلاثمائة، وجدوه ميتًا على ساحل البحر، مثل الكثيب الضخم، فأكلوا منه شهرًا حتى سمنوا، فلما قدموا المدينة، أخبروا رسول الله ﷺ فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم وأعطوه منه فأكله»[٢].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سئل أنتوضأ بماء البحر، فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»[٣].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»[٤].

وكل هذه النصوص وغيرها تدل على خلاف ما ذهب إليه أبوحنيفة[٥]- رحمه الله- من أن ما مات حتف أنفه، أو طفا على البحر فليس بحلال، مستدلًا لما ذهب إليه بعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣].

وبما روي عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ألقى البحر، وجزر عنه فكلوه، وما مات فيه، وطفا فلا تأكلوه»[٦].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٨- ٤٧٩)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٦- ٦٧)، «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩٩)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٢٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٣)، وأبوداود في الأطعمة (٢٨٤٠)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦١)، وأبوداود في الطهارة (٨٣)، والنسائي في الطهارة (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الطهارة (٣٨٦). قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٩١): «وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه».

(٤) سبق تخريجه في الكلام على قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٠- ١٩١) وهو حديث صحيح أخرجه الترمذي في الأطعمة (٣٣١٤)، وصححه الألباني وغيره.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (١/ ١٠٩، ٢/ ٣٠٦)، «مدارك التنزيل» (٢/ ١٢).

(٦) أخرجه أبوداود في الأطعمة (٣٨١٥)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٤٧). وصحح أبوداود وقفه على جابر.
=

ولا حجة له في الآية لأنه مخصوص منها ميتة البحر للأدلة السابقة[١].

وأما حديث جابر فضعيف. والصحيح وقفه على جابر، كما قال أبوداود[٢].

وقد خالف جابر في هذا غيره من الصحابة منهم أبوبكر رضي الله عنه وغيره.

٣٥- تحريم صيد البر على المحرمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وهو كل ما يعيش في البر دون البحر[٣].

فلا يجوز للمحرم بحج أو عمرة ومن كان داخل الحرم اصطياد صيد البر، ولا الإعانة على صيده، ولا أكله، فإن صاده وأكله فعليه الجزاء في صيده، وهو آثم أيضًا بأكله[٤].

قال ابن كثير[٥]: «أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك، فإذا اصطاد الصيد متعمدًا أثم وغرم أو مخطئًا غرم، وحرم عليه أكله؛ لأنه في حقه كالميتة».

وقال الشنقيطي[٦]: «وقد أجمع جميع العلماء على أن ما صاده محرم لا يجوز أكله للمحرم الذي صاده ولا لمحرم غيره، ولا لحلال غير محرم؛ لأنه ميتة».

فيحرم صيد البر على المحرم، فإن صاده حرم عليه وعلى غيره من محرم وغيره

=

وكذا أخرجه الدارقطني في الصيد (٤/ ٢٦٨- ٢٦٩) وضعف رفعه من وجوه عدة وصحح وقفه. وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٩٣): «منكر» وضعفه الألباني.

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٥- ٦٨٦)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٠- ١٩١).

(٢) راجع تخريج الحديث.

(٣) واختلفوا فيما يعيش في البر والبحر معًا، فذهبت طائفة من أهل العلم إلى أنه يحرم صيده، تغليبًا لجانب الحظر، وقال بعضهم: يعتبر الأكثر في البر، أو البحر، وحيث يفرخ. انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٩٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠١- ٢٠٢)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٨٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٢٠)، «مدارك التنزيل» (٢/ ١٢).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٧٤- ٧٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٧٦)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٦- ٦٨٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٣).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ١٩٣).

(٦) في «أضواء البيان» (٢/ ١٣٢).

أكله، أو تملكه ببيع أو إهداء.

واختلفوا فيما إذا صاده حلال، فذهب طائفة من أهل العلم أنه لا يجوز للمحرم أكله، ولا تملكه، وإن صاده حلال، وقد روي هذا عن علي- رضي الله عنه[١]- وابن عباس[٢] وابن عمر[٣]- رضي الله عنهما، وجماعة من التابعين[٤].

واحتجوا بعموم الآية[٥] وحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى إلى النبي ﷺ حمارًا وحشيًّا، وهو بالأبواء، أو بودان، فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم»[٦].

وحديث زيد بن أرقم- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ أهدي له عضو من لحم صيد، فرده، وقال: «**إنا لا نأكله إنا حرم**»[٧].

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يجوز للمحرم أكله إذا صاده غير المحرم، وقالوا: إن النهي إنما هو عن قتل الصيد، لا عن أكله.

واستدلوا بحديث عبدالرحمن بن عثمان، قال: «كنا مع طلحة بن عبدالله فأهدي لنا طير، فمنا من أكل، ومنا من تورع، فلم يأكل، فلما استيقظ طلحة وفق من أكل، وقال: أكلنا مع رسول الله ﷺ»[٨].

وبحديث أبي قتادة لما صاد حمارًا وحشيًّا، وهو حلال لم يحرم فتوقف أصحابه

---

(١) أخرجه عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٧٤)- الأثر (١٢٧٤٠) وما بعده.

(٢) أخرجه عن ابن عباس- رضي الله عنهما- الطبري (١١/ ٧٧)- الأثر (١٢٧٤٨).

(٣) أخرجه عن ابن عمر- رضي الله عنهما- الطبري (١١/ ٧٨)- الأثرين (١٢٧٤٩، ١٢٧٥٠).

(٤) أخرجه عنهم الطبري (١١/ ٧٨). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٤).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٧٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٦- ٦٨٧)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٢١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٤).

(٦) أخرجه البخاري في الحج (١٨٢٥)، ومسلم في الحج (١١٩٣- ١١٩٤)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨١٩)، والترمذي في الحج (٨٤٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٩٠).

(٧) أخرجه مسلم في الحج (١١٩٥)، وأبوداود في المناسك (١٨٥٠).

(٨) أخرجه مسلم في الحج (١١٩٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٥)- الأثر (١٢٧٧)، والبيهقي في «سننه» (٥/ ١٨٨). ومعنى وفق من أكل: أي صوّبه.

المحرمون في أكله، فسألوا رسول الله ﷺ فقال: «**هل كان أحد أشار إليها أو أعان في قتلها؟**» قالوا: لا. قال: «**فكلوا**» وأكل منها رسول الله ﷺ[١].

وذهب كثير من السلف إلى أنه إنما يجوز للمحرم الأكل مما صاده الحلال إذا لم يصده لأجله[٢]، وروي هذا عن عمر[٣]، وعثمان[٤]- رضي الله عنهما، وعن ابن عمر[٥] وأبي هريرة[٦] والزبير بن العوام، رضي الله عنهم[٧]، وجماعة من التابعين[٨].

وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم والفقهاء كالأئمة الأربعة وغيرهم[٩].

واختاره الطبري[١٠]. وقالوا: إنما رد النبي ﷺ حمار الوحش- كما في حديث الصعب بن جثامة، لأنه يجوز أن يكون صاده من أجل الرسول ﷺ[١١].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٧٩)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٨٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٣).

(٣) أخرجه عن عمر الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٧٩- ٨٠)، الآثار (١٢٧٥٤، ١٢٧٥٦، ١٢٧٥٨، ١٢٧٥٩، ١٢٧٦٠)، والبيهقي في «سننه» (٥/ ١٨٨- ١٨٩) قال شاكر في تخريج الطبري: «إسناده صحيح».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٧٤، ٧٩، ٨٣)- الآثار (١٢٧٤٠، ١٢٧٥٥، ١٢٧٦٤)، والبيهقي في «سننه» (٥/ ١٩١).

(٥) أخرجه عن ابن عمر الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٠- ٨١)، الأثر (١٢٧٥٨، ١٢٧٥٩).

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٧٩)- الأثر (١٢٧٥٤، ١٢٧٥٦)، والبيهقي في «سننه» (٥/ ١٨٨).

(٧) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٣)- الأثر (١٢٧٦٥)، قال شاكر في تخريج الطبري: «إسناده صحيح». وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٣).

(٨) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٨٤)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٢٢- ٣٢٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٣).

(٩) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٨٥)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٨٠- ٤٨١)، «أحكام القرآن» للهراسي (٢/ ١١٤- ١١٥)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٨٧- ٦٨٨)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٢١- ٣٢٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٤).

(١٠) في «جامع البيان» (١١/ ٨٥).

(١١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٨٥)، «معالم التنزيل» (٢/ ٦٥)، «زاد المعاد» (٢/ ١٦٥)، «تفسير ابن =

لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش، وكان حلالًا لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله، ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «**هل كان منكم أحد أشار إليها، أو أعان في قتلها؟**» قالوا: لا. قال: «**فكلوا**» وأكل منها رسول الله ﷺ»(١).

بل جاء في بعض روايات حديث أبي قتادة: «أنه لما رأى حمارًا وحشيًّا طلب من أصحابه أن يناولوه الرمح، فأبوا عليه».

وهذا يؤخذ منه أنهم لم يساعدوه، ولم يصده لأجلهم.

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه، أو يصد لكم»(٢).

وهذا القول- والله أعلم- هو الأظهر، وهو الذي يجمع بين الأدلة(٣).

٣٦- أن ما قتله المحرم من الصيد فهو حرام كالميتة، لا يجوز للمحرم، ولا للحلال أكله، لنهيه تعالى عن قتل الصيد حال الإحرام، في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(٤).

فما قتله المحرم من الصيد حرم أكله مطلقًا؛ لأن الله نهى المحرم عن قتل الصيد وحرم صيده، وسماه الله «قتلًا»، ولم يسمه «ذكاةً»، وذلك في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾.

=

كثير» (٣/ ١٩٤).

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٢١)، ومسلم في الحج (١١٩٦)، وأبوداود في المناسك (١٨٥٢)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٢٦)، والترمذي في الحج (٨٤٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٩٣).

(٢) أخرجه الشافعي في «الأم» (٢/ ٢٦)، وقال: «هذا أحسن حديث وأقيس»، وأحمد (٣/ ٣٦٢، ٣٨٧)، وأبوداود في المناسك (١٨٥١)، والنسائي في المناسك (٢٨٢٧)، والترمذي في الحج (٨٤٧)، وقال: «المطلب بن حنطب لا يعرف له سماع من جابر».

وأخرجه البيهقي في «سننه» (٥/ ١٩٠)، والحاكم (١/ ٤٥٢).

وقال البغوي: «حديث غريب»، وضعفه الألباني.

(٣) انظر: «تفسير المنار» (٧/ ١٠٢- ١٠٣)، «أضواء البيان» (٢/ ١٣٣- ١٣٦).

(٤) انظر: «مسائل الإمام أحمد» رواية ابن هانئ (١/ ١٦٤)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٦٧- ٤٦٨)، «المغني» (٣/ ٣١٤، ٣١٥)، «أضواء البيان» (٢/ ١٣٦- ١٣٧).

٣٧- الإشارة إلى أن تحريم صيد البر حال الإحرام لا يوجب عنتًا ولا مشقة؛ لأن التحريم في وقت ومكان محدد، وقت الإحرام وفي الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿مَادُمْتُمْ حُرُمًا﴾(١).

٣٨- وجوب تقوى الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك عدم قتل الصيد حال الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٣٩- بيان أن مرد الخلق، ومرجعهم ومصيرهم، وحشرهم إلى الله عز وجل، وفي هذا وعد لمن أطاع الله واتقاه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أي: فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥، ٢٦].

٤٠- إثبات اليوم الآخر يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

* * *

(١) فإذا خرج الإنسان من الحرم وتحلل من الإحرام بالعمرة بالطواف والسعي والحلق أو التقصير، ومن الإحرام بالحج بفعل اثنين من ثلاثة: الرمي والحلق أو التقصير وطواف الإفاضة حل له قتل الصيد وأكله.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

﴿جَعَلَ﴾ بمعنى «صيَّر» تنصب مفعولين، و«الجعل» ينقسم إلى قسمين: جعل شرعي، وجعل كوني، و«الجعل» في هذه الآية يشمل القسمين، أي: جعل الله شرعًا وكونًا الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس.

﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾: علم على البيت الذي بناه إبراهيم- عليه السلام- بمكة بأمر الله تعالى ليكون آية للتوحيد، وقبلة للمسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]. وسميت الكعبة من «التكعيب» وهو التربيع؛ لأنها مربعة البناء، وقيل: من الكعب وهو النشوء والبروز.

﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: عطف بيان قصد به التنويه والتعظيم والمدح، كما تجيء الصفة كذلك.

و﴿ٱلْبَيْتَ﴾: ما يقوم على أركان وأعمدة، ﴿ٱلْحَرَامَ﴾، أي: ذا الحرمة العظيمة؛ لأن الله حرم القتال فيه، وقتل الصيد، وأن تختلى خلاه أو يعضد شجره أو تلتقط لقطته إلا لمنشد.

﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، ﴿قِيَـٰمًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلَ﴾، وإذا كان ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى خلق، فـ﴿قِيَـٰمًا﴾: حال. قرأ ابن عامر «قيمًا»، وقرأ الباقون ﴿قِيَـٰمًا﴾، أي: تقوم به

مصالح الناس الدينية والدنيوية، حيث جعله الله مثابة للناس وأمنًا، وآية للتوحيد، وقبلة للمسلمين، إليه يحجون ويعتمرون، وفيه يعتكفون ويتعبدون، يحجز عن الاعتداء، ويأمن من يدخله لحرمة القتال والظلم فيه، تجلب إليه الأرزاق من كل حدب وصوب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٢٦- ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

وقال تعالى مخاطبًا قريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش:٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧].

وذلك بفضل الله- عز وجل- ثم بدعوة إبراهيم- عليه السلام- حين قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾، أي: وجعل الشهر الحرام قيامًا للناس، و«ال»: فيه للجنس، والمراد الأشهر الحرم الأربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. فجعل الله هذه الأشهر الحرم قيامًا للناس؛ لحرمة القتال فيها، فيأمن الناس فيها على دمائهم وأموالهم وأعراضهم في أسفارهم للحج والعمرة والتجارة وغير ذلك، وفي إقامتهم، وبهذا تقوم مصالح دينهم ودنياهم.

﴿وَٱلْهَدْىَ﴾، أي: وجعل الله الهدي قيامًا للناس، و«الهدي» ما يُهدى للبيت الحرام من بهيمة الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم، سواء كان هديًا مندوبًا كالذي يسوقه الحاج أو المعتمر من بلده، أو كان واجبًا كهدي التمتع والقران، وهدي ارتكاب محظور أو

ترك واجب في الحج أو العمرة، أو هدي إحصار. فجعل الله الهدي قيامًا للناس، يقوم به أمر دينهم؛ لأنه من شعائر الدين التي يقومون بها ويثابون عليها ويقوم به أمر دنياهم بيعًا وشراءً للهدي، وأكلًا له، وانتفاعًا بجلده وأجزائه.

﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع «قلادة» وهي ما يوضع على رقبة الهدي علامة على أنه هدي، فلا يُمنع من الحرم ولا يعرض له أحد ونحو ذلك.

وقيل: المراد بالقلائد «الهدي المقلد»، أي: ذوات القلائد من الهدي فيكون ذكرها بعد «الهدي» من ذكر الخاص بعد العام[1]، فالقلائد والمقلدات مما جعله الله قيامًا للناس في دينهم ودنياهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾الإشارة تعود إلى جعل الكعبة وما عطف عليها قيامًا للناس.

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن تعلموا.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «تعلموا».

أي: لتعلموا علم الله ما في السموات وما في الأرض، و﴿مَا﴾ في الموضعين موصولة، تفيد العموم.

والمعنى: جعلنا هذه الأربعة قيامًا للناس، ومن حكمة ذلك أن تعلموا علم الله- عز وجل- كل الذي في السموات وكل الذي في الأرض، أي: وأنه- عز وجل- جعل ذلك عن علم منه بما في هذه الأربعة من المصالح، وبما يصلح أمر دينكم ودنياكم وأخراكم، فسلموا له وامتثلوا أمره.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا تأكيد للعموم السابق بما هو أعم منه. وقدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ ولم يقل: «عليم بكل شيء»؛ لتأكيد عموم علمه- عز وجل- بكل شيء.

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في أول السورة: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [الآية: ٢].

و﴿شَيْءٍ﴾ نكرة أيضًا تفيد العموم، أي: لتعلموا عموم علمه- عز وجل- بكل شيء ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما فوقهما، وما يكون بعد فنائهما، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

علل عز وجل جعله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس وما عطف عليه بأن ذلك لأجل أن يعلموا عموم علم الله- عز وجل- فيما شرع وقدر، ثم أتبع ذلك بأمرهم بالعلم بأحكامه الجزائية.

قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ افتتاح الجملة بـ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ للاهتمام بمضمونها، و﴿شَدِيدُ﴾ بمعنى «قوي»، و﴿ٱلْعِقَابِ﴾ المؤاخذة بالذنب، وسميت المؤاخذة بالذنب عقابًا؛ لأنها تعقبه، أي: تأتي بعده عاجلًا أو آجلًا.

والمعنى: اعلموا أن الله قوي العقاب والمؤاخذة لمن عصاه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: واعلموا أن الله غفور رحيم، أي: غفور لذنوب عباده بسترها والتجاوز عنها، رحيم بهم، رحمة عامة واخاصة.

والمراد اعلموا علمًا يحصل به الامتثال، بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، والجمع بين الخوف والرجاء، الخوف من عقاب الله ورجاء ثوابه كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠].

قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾، ﴿مَّا﴾: نافية و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿ٱلْبَلَٰغُۗ﴾، أي: تبليغ وإيصال رسالة ربه، وما أوحاه إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٣٩].

والحصر هنا إضافي، أي: ما عليه فيما يجب لكم إلا البلاغ، فهذه مهمته أما هداية القلوب فهي بيد الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي

مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

وليس عليه إجبار الناس على الإيمان، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] أي: ليس ذلك إليك.

لكن عليه ﷺ بالنسبة له الامتثال كغيره من الخلق؛ ولهذا قام ﷺ حتى تفطرت قدماه، ولما قالت له عائشة- رضي الله عنها: لم تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، ﴿مَا﴾ في الموضعين: موصولة تفيد العموم، ويجوز كونها مصدرية، ﴿تُبْدُونَ﴾ تظهرون، و﴿تَكْتُمُونَ﴾: تخفون، أي: يعلم كل الذي تظهرونه من الأقوال والأعمال وغير ذلك، وكل الذي تخفونه حتى ما في الصدور من الوساوس والمضمرات وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤، التغابن:٤] أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب وما فيها من السرائر والمضمرات.

والمعنى: والله يعلم كل الذي تظهرون وكل الذي تخفون، وأمر حسابكم إليه عز وجل، وليس إلى الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُل﴾، الخطاب: للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية.

أي: أن الخبيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال، من أي شيء كانا، فالفرق

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٣٠)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٩)، والنسائي في قيام الليل (١٦٤٤)، والترمذي في الصلاة (٤١٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

بينهما واسع والبون بينهما بعيد شاسع.

فالخبيث خبيث، والطيب طيب، وشتان بين الثرى والثريا، والأرض والسماء.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

والمقصود من نفي المساواة وهي المماثلة والمقارنة والمشابهة بين الخبيث والطيب تمييز الخبيث عن الطيب، وهذا تقعيد عام في كل شيء، لأن ﴿ٱلْخَبِيثُ﴾، ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾ وصفان يوصف بهما الأشخاص والأعمال والأقوال والأعيان وغير ذلك.

فالأشخاص فيهم الخبيث والطيب، فالكافر خبيث، والمؤمن طيب، فلا يستوي المؤمن والكافر، فالمؤمن طاهر أطاع ربه فمأواه الجنة دار الأبرار، والكافر نجس عصى ربه فمصيره إلى النار وبئس القرار، فأنى يستوي هذا وهذا، شتان بين مشرِّق ومغرِّب، قال تعالى بعد ما ذكر شدة كفر أهل الكتاب وقتلهم الأنبياء بغير حق: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٣- ١١٤].

والأعمال فيها الخبيث والطيب، فالكفر خبيث، وأكل الربا خبيث، والزنا خبيث، والإيمان طيب، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج عمل طيب.

ولا يستوي العمل الخبيث والعمل الطيب، فالعمل الطيب يسعد به صا حبه في الدنيا والآخرة، والعمل الخبيث يشقى به صاحبه في الدنيا والآخرة.

والأقوال فيها الخبيث والطيب، فكلمة التوحيد طيبة، وكلمة الشرك خبيثة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٤- ٢٦].

وقول الزور خبيث، والغيبة والنميمة قول خبيث، وهكذا.

---

(١) البيت لابن القيم انظر: «النونية» ص(١١).

وقول الحق وذكر الله طيب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسلام ورده كل ذلك قول طيب.

والأعيان فيها الخبيث والطيب فالحرام من المطعومات والمشروبات كالميتة ولحم الخنزير والخمر كله خبيث، والحلال منها كالمذكاة من بهيمة الأنعام وكالتمر والماء واللبن والعسل كله طيب.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾، الواو للحال، ﴿وَلَوْ﴾: شرطية، ومعنى ﴿أَعْجَبَكَ﴾، أي: وقع منك موقع الإعجاب، كما هو حال أكثر الناس يعجبون بالكثرة؛ ولهذا يقولون في المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة» ويقول شاعرهم:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر(١)

والخطاب في قوله: ﴿أَعْجَبَكَ﴾ عام لكل مخاطب وليس للرسول ﷺ.

والمعنى: ولو أعجبك أيها المخاطب كثرة الخبيث- كما هو الغالب.

أي: فلا ينبغي أن يغتر بالكثرة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وفي الحديث: «**أن الله- عز وجل- يقول لآدم: أخرج بعث النار من أمتك من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين**»(٢).

قال السموأل:

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل(٣)

---

(١) البيتللأعشى. انظر: «ديوانه» (١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «المقاصد النحوية» (٢/ ٦٢٦).

أي: لا تغتر بالخبيث ولو أعجبتك كثرته، أي: ولو رأيته الكثرة الكاثرة، أو الأقوى، أو الأجمل والأحسن، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٢١].

فالعبرة بالكيف لا بالكم، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وقد قيل: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(١).

وقال ابن دريد(٢):

والنـاس ألـف مـنهم كواحـد ... وواحـد كـالألف إن أمـر عنـى

وقال العنبري يذم قومه بما يشبه المدح بأن كثرتهم لم تنفعهم:

لكـن قـومي وإن كـانوا ذووي عـدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانـا(٣)

وفي الحديث: «**لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن**»(٤).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: الفاء للتقريع؛ أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وعدم الاغترار بالخبيث ولو أعجبتكم كثرته.

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: يا أصحاب العقول. و﴿الْأَلْبَابِ﴾ جمع لب وهو العقل، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا.

والفلاح: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وأعلى ذلك وأجله الفوز بالجنة وما فيها من النعيم ورؤية الرب الكريم، والنجاة من النار وما فيها من العذاب الأليم.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف وتعظيم الكعبة والبيت الحرام حيث جعله الله قيامًا للناس؛ لقوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص(١٣٢).

(٣) البيت للشاعر قريط بن أنيف. انظر: «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي ١/ ٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

٢- وجوب تعظيم البيت الحرام بعدم القتال فيه أو قتل صيده أو تنفيره أو قطع شجره أو الإلحاد فيه.

٣- فضل الله- عز وجل- وامتنانه على الناس بجعله الكعبة البيت الحرام قيامًا ومثابة للناس وأمنًا، بسبب تحريم القتال فيه، تقوم به مصالحهم الدينية من الحج والعمرة والصلاة والاعتكاف. وغير ذلك من أنواع العبادة.

وتقوم به مصالحهم الدنيوية بما يجلب إليه من الخيرات وطلب الرزق بالبيع والشراء ونحو ذلك في ظل أمنه الوارف بفضل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ ولهذا قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله الحرام فرض كفاية في كل سنة فلو ترك الناس كلهم حجه في سنة لأثموا وزال ما به قوامهم وقامت القيامة.

٤- تعظيم الأشهر الحرم؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، ووجوب تعظيمها، واحترامها بعدم القتال والظلم فيها؛ لأن الله تعالى حرمها، وجعلها قيامًا للناس وحرم القتال والظلم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢].

وقد اختلف أهل العلم في تحريم القتال في الأشهر الحرم هل هو باق أو منسوخ على قولين، الراجح منها أنه باق. وقد سبق الكلام على هذا في تفسير آية البقرة وآية المائدة المذكورتين.

٥- تفضيل الله- عز وجل- بعض الأمكنة والأزمنة على غيرها؛ لتفضيله عز وجل الكعبة والبيت الحرام على غيره من الأمكنة، كما فضل الأشهر الحرم على غيرها من الشهور.

٦- تعظيم الهدي والقلائد ووجوب احترامها؛ لأن الله جعلها قيامًا للناس، فيها

مصالح دينية ودنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

٧- الترغيب في الإهداء للبيت الحرام ومشروعية تقليده والحث على ذلك.

٨- أن الله- عز وجل- جعل هذه الأشياء الأربعة قيامًا للناس لنعلم إحاطة علمه- عز وجل- بما في السموات وما في الأرض وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٩- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله- عز وجل- الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾.

١٠- الترغيب والحث على معرفة صفات الله- عز وجل- وعظمتها من خلال النظر في آياته وأحكامه الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾.

١١- عموم علم الله- عز وجل- وإحاطته بما في السموات والأرض وبكل شيء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، حتى ما كان مستحيلًا كونه؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [المائدة:٢٢].

١٢- وجوب العلم بشدة عقاب الله لمن عصاه، ومغفرته ورحمته لمن أطاعه وسعة مغفرته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٣- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٤- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، ورحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة.

أما رحمته عز وجل العامه لجميع خلقه في الدنيا فهي رزقه لهم وما يتمتعون به فيها من نعمه، وأما رحمته لهم في الآخرة فهي العدل في حسابهم، حتى أنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء- كما جاء في الحديث(١).

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أما رحمته الخاصة للمؤمنين فهي هدايتهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وهدايتهم في الآخرة إلى جنات النعيم- نسأل الله تعالى من فضله.

١٥- وجوب الجمع بين الخوف من عقاب الله تعالى، ورجاء مغفرته ورحمته، وامتثال أمره واجتناب نهيه؛ لأن هذا هو المراد من الأمر بالعلم بشدة عقابه، وبمغفرته ورحمته، وهو ثمرة ذلك.

١٦- في اقتران مغفرته- عز وجل- ورحمته- زيادة كماله إلى كمال وإفضاله إلى إفضال؛ إذ بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

١٧- أن التخلية قبل التحلية، وأن زوال المرهوب مقدم على حصول المطلوب.

١٨- أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للمرسل إليهم هو تبليغهم رسالة ربه وما أوحاه الله إليه، وليس عليه إلزام الناس الإيمان، فهداية القلوب بيد علام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾.

١٩- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾.

٢٠- أنه ليس على العلماء والدعاة إلى الله تعالى إلا تعليم الناس ودعوتهم وبيان الحق لهم- وهذا واجب عليهم فهم ورثة الأنبياء- وهداية الخلق إلى الله عز وجل.

٢١- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل ما يظهره الخلق أو يخفونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

٢٢- أن حساب الخلائق ومجازاتهم على أعمالهم إلى الله- عز وجل- وحده، لا إلى الرسول ﷺ، ولا إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾، أي: فيحاسبكم ويجازيكم على ذلك.

٢٣- الترغيب في طاعة الله تعالى، والتحذير من مخالفة أمره.

٢٤- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ وفي هذا رد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان مجبور وليس له إرادة ولا اختيار.

٢٥- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾.

٢٦- أنه لا يستوي الخبيث والطيب بحال من الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾.

٢٧- الترغيب في الطيب قولًا كان أو فعلًا، أو عينًا، أو شخصًا، والتنفير من الخبيث قولًا كان أو فعلًا، أو عينًا، أو شخصًا.

٢٨- أن العبرة بالكيف لا بالكم فلا ينبغي الاغترار بالخبيث ولو أعجبت كثرته فهو ليس بشيء بالنسبة للطيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٩].

ولهذا لا ينبغي الاغترار بقوة الخبيث أو حسنه وجماله ونحو ذلك.

٢٩- أن المظاهر قد تغري وتعجب الناظر، ولكن العبرة بالمخابر، فلا يغتر بالجميل لجماله، ولا بالقوي لقوته، ولا بالكثير لكثرته، ونحو ذلك. وفي المثل: «إياكم وخضراء الدمن» وهي المرأة الحسناء تنبت في منبت السوء. وقد قيل:

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم ... إذا كانت الأخلاق غير حسان(١)

وقال الآخر:

جمال الوجه مع خبث النفوس ... كقنديل على قبر المجوسي

٣٠- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وعدم الاغترار بكثرة الخبيث؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣١- أن الذين يتقون الله ويمتثلون أمره هم أصحاب العقول الرشيدة التي تهدي أصحابها إلى الحق، لا العقول التي مناط التكليف فقط؛ لهذا خصهم الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣٢- أن تقوى الله تعالى سبب للفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

* * *

(١) انظر: «نفح الأزهار» ص٦٠، «السحر الحلال» ص١٠٦.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**»، فقام رجل فقال[1]: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «**أما إني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت، ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما أُهلك من كان قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ إلى آخر الآية»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال لأعرابي من بني سُليم: هل تدري فيما أنزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ حتى فرغ من الآية؟ فقال: «كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: «من أَبي؟» والرجل تضل ناقته، فيقول: «أين ناقتي؟» فأنزل الله فيهم هذه الآية[3].

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «قال رجل: يا رسول الله، من أبي؟ قال: أبوك

---

(١) جاء في بعض الروايات تسميته، فجاء في بعض روايات الطبري تسميته: محصن الأسدي، وفي رواية أخرى: عكاشة بن محصن الأسدي، وجاء في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- عند الإمام أحمد والدارقطني والبيهقي تسميته: الأقرع بن حابس.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (١، ٢)، وأحمد ٢/ ٥٠٨، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٠٥)- الحديث (١٢٨٠٥- ١٢٨٠٦)، والبيهقي في سننه (٤/ ٣٢٥- ٣٢٦). وأخرجه الطبري (١٢٨٠٩)، والبيهقي (٤/ ٣٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه الطبري (١١/ ١٠٧)- الأثر (١٢٨٠٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٢٢)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٩٨) الحديث (١٢٧٩٤)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٤١).

فلان. قال: فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾»(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنها نزلت في سؤالهم عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام».

وروي عن عكرمة: «أنهم كانوا يسألونه الآيات، فنهوا عن ذلك، ثم قال: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾»(٢).

قال ابن كثير(٣): «يعني عكرمة بهذا: النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش: أن يجعل لهم أنهارًا، وأن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وغير ذلك، وكما سألت اليهود: أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩].

وكل هذه الأحداث جاء أنها من أسباب نزول هذه الآية، ولا إشكال في هذا، إذ قد ترد عدة أسباب لنزول الآية كما في آية تحريم الخمر، وغيرها.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام على هذا إعرابًا ومعنى.

﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ ﴾، ﴿لَا﴾ ناهية، ﴿أَشۡيَآءَ ﴾ اسم جمع، أو جمع شيء، وهي ممنوعة من الصرف، وهي أعم الألفاظ مطلقًا، من أي شيء كانت هذه الأشياء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص:٨٨].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٢١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٩)، والنسائي في تفسير سورة المائدة (١٧٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٦)، وأحمد (٣/ ١٧٧).

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١١)- الأثر (١٢٨١١).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢٠٢- ٢٠٣).

والمعنى: لا تسألوا عن أشياء مما لا يعنيكم في أمر دينكم، ولا دنياكم، من أحكام قدرية لم تظهر لكم، أو أحكام شرعية لم تكلفوا بها(١).

﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية ﴿تُبْدَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿تَسُؤْكُمْ﴾، والجملة في محل جر صفة لأشياء.

ومعنى: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾، أي: إن تظهر لكم أو تكلفوا بها.

﴿تَسُؤْكُمْ﴾، أي: تسؤكم الإجابة عنها، وإظهارها لكم وإخباركم بها، أو تكليفكم بها والمساءة ضد المسرة.

فإن كانت في الأحكام القدرية، ساءهم ما يخبرون به مما يكرهون، وإن كانت في الأحكام الشرعية، ساءهم التكليف بها إيجابًا أو تحريمًا، وشق عليهم ذلك.

والمعنى: لا تسألوا عن أشياء مما لا يعنيكم في أمر دينكم ولا دنياكم، بل مما قد يضر السؤال عنه، مما لم يظهر لكم، ولم يوجب، أو يحرم عليكم، لأنكم إن سألتم عنها أظهرت لكم، أو كلفتم بها فساءكم ذلك.

قال ابن كثير(٢): «هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين، ونهي لهم، عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور، ربما ساءتهم، وشق عليهم سماعها. وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يبلغني أحد عن أحد شيئًا، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»(٣).

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، الواو: عاطفة، و«إن» شرطية، ﴿تَسْـَٔلُواْ﴾ فعل الشرط، مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، وجوابه: ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾.

والضمير في ﴿عَنْهَا﴾ يعود إلى الأشياء، التي إن سألوا عنها ساءتهم.

ومعنى ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾، أي: وقت نزول القرآن، وذلك في حياته ﷺ ونزول الوحي عليه.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١١٣)، «إعلام الموقعين» (١/ ١٠٩- ١١١).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١٩٨).

(٣) أخرجه من حديث ابن مسعود: أبوداود في الأدب (٤٨٦٠) وضعّفه الألباني.

والقرآن: مشتق من قريت الماء في الحوض؛ إذا جمعته مكانه؛ لأن الله قد جمع في هذا الكتاب السور والآيات، والحكم والمواعظ والآداب، والقصص والفروض، وكملت فيه جميع الفوائد الهادية إلى طريق الرشاد.

قوله: ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾، أي: تظهر لكم، أو تكلفوا بها.

والمعنى: أنكم إن سألتم عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها- وقت نزول القرآن، وذلك في حياته ﷺ تظهر لكم، أو تكلفوا بها بطريق الوحي، وهذا تهديد وتحذير.

قال ابن كثير[١]: «أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها- حين ينزل الوحي على الرسول ﷺ تبين لكم، وذلك يسير».

وقيل المعنى: أن القرآن إذا نزل بها ابتداءً، فسألتم عن تفصيلها وعملها أبدي لكم، وبين لكم، فكأن في هذا إذنًا لهم في السؤال عن تفصيل المنزل، ومعرفته بعد إنزاله، ففيه رفع لتوهم المنع عن السؤال عن الأشياء مطلقًا[٢].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾، أي: تجاوز الله عنها، أي: عن الأشياء التي سألتم عنها، والتي لو أبديت لكم ساءتكم فلم يؤاخذكم بذلك، ويدل عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ويحتمل أن المعنى: عفا الله عن بيانها خبرًا وأمرًا، وطوى بيانها عنكم رحمة منه ومغفرة وحلمًا.

وهذا أظهر وأنسب لسياق الآيات، فإن كانت هذه الأشياء أحكامًا شرعية فالمعنى عفا الله عنها أي: سكت عنها، فلم يكلفكم بها، فيوجبها، أو يحرمها عليكم، رحمة بكم وتوسعة عليكم[٣]، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الله فرض فرائض، فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**»[٤].

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٠١).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١٠٩- ١١١)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٣٤).

(٣) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٩٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٠٩)، «إعلام الموقعين» (١/ ١٠٩- ١١١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٠١- ٢٠٢).

(٤) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٩٧- ٢٩٨)، والحاكم (٤/ ١٢٩) وصححه، كما صححه ابن كثير، =

وقال ﷺ: «**وما سكت عنه فهو عفو**»(١).

وإن كانت أحكامًا قدرية: فالمعنى أن الله طوى علمها عنده، لئلا يسوءكم بيانها.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»(٢).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عن العقوبة كما في حديث ابن عمر في المناجاة، وفيه: «**فيقول الله: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك**»(٣).

﴿حَلِيمٌ﴾، أي: ذو الحلم الواسع، فلا يعاجل من عصاه بالعقوبة.

قال الطبري(٤): «أي أنه- عز وجل- ذو أناة، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة».

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر:٤٥].

قال ابن القيم(٥):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

فهو- عز وجل- ذو حلم وأناة لا يعاجل من عصاه بالعقوبة مع عزته- عز وجل- وقوته، وفي الحديث: «**لا حليم إلا ذو عزة، ولا حكيم إلا ذو تجربة**»(٦).

=

فقال: «وفي الحديث الصحيح» «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٢).

وقد أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٤)- الأثر (١٢٨١٣) موقوفًا على أبي ثعلبة.

(١) أخرجه أبوداود في الأطعمة (٣٨٠٠)، من حديث ابن عباس، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢).

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

(٤) في «جامع البيان» (١١/ ١١٤).

(٥) في النونية» ص(١٤٨).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾، ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، ﴿سَأَلَهَا﴾، أي: سأل عن نوع تلك المسائل، التي نُهي عن السؤال عنها، والتي إذا أبديت ساءت.

﴿قَوْمٌ﴾ القوم: هم الجماعة من الناس، ذكورًا وإناثًا، أي: قد سألها أناس.

﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾، أي: من الأمم السابقة قبلكم، كقوم صالح لما سألوا الناقة، والنصارى حين سألوا إنزال المائدة، وقوم موسى من بني إسرائيل حين سألوا عن ماهية البقرة، وسنها، ولونها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو ذبحوا أدنى بقرة لأجزأتهم، ولكن شددوا، فشدد الله عليهم، حتى ذبحوها، وما كادوا يفعلون»(١).

﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، أي: ثم لما أظهرت، وكلفوا بها ﴿أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، أي: جاحدين منكرين لها، فلم ينتفعوا بها، بل صارت نقمة عليهم، أو أصبحوا بها أي: بسببها كافرين وهذا أشد وأعظم.

﴿أَصْبَحُوا﴾ من «أصبح» بمعنى «صار» وليست مقيدة بزمن الصباح ولا غيره، بل هي مجردة عن الزمن، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣].

قال الطبري(٢): «قد سأل الآيات قوم من قبلكم، فلما جاءتهم من عند الله أصبحوا بها جاحدين منكرين، أن تكون دلالة حقيقة، على ما احتج بها عليهم، كقوم صالح الذين سألوا الآية، فلما جاءتهم الناقة آية عقروها، وكالذين سألوا عيسى مائدة تنزل من السماء، فلما أعطوها كفروا بها، وما أشبه ذلك، فحذر الله المؤمنين أن يسلكوا سبل من قبلهم من الأمم التي هلكت، بكفرهم بآيات الله، لما جاءتهم عند سؤالهم إياها».

وقال ابن كثير(٣): «أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم، فأجيبوا

---

(١) وكسؤال قريش الرسول ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يجعل لهم القمر فلقتين. وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٦٩٩)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٠)، «الموافقات» (٤/ ٣١٦).

(٢) في «جامع البيان» (١١/ ١١٥- ١١٦).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢٠٢).

عنها، ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بينت لهم ولم ينتفعوا بها، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما على وجه التعنت والعناد».

قال الأوزاعي: «إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف وأن امتثال ما ذكر بعده من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٣- النهي عن السؤال عما لا يعني، أو عما قد يضر السؤال عنه، مما لو أُبدي للإنسان وأُظهر، وكلف به ساءه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

٤- أن المسلم مع رضاه بحكم الله الشرعي والكوني وتسليمه لذلك قد يسوؤه شيء مما حكم الله به ويكره ذلك لمشقته عليه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَسُؤْكُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(٢)، ولما قال ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**» قالت عائشة- رضي الله عنها: يا رسول الله، كلنا يكره الموت. قال ﷺ: «**ليس ذاك يا عائشة**»(٣) ولم ينكر عليها.

٥- أن السؤال عن شيء لم يظهر، أو لم يتناوله الشرع إيجابًا أو تحريمًا قد يكون سببًا في إظهاره أو إيجابه، أو تحريمه، وذلك في حياة النبي ﷺ، ونزول القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ ولما سئل ﷺ عن الحج: أفي كل

---

(١) انظر: «الموافقات» (٤/ ٣١٧).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة، والدارمي في الرقاق (٢٨٤٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر (٢٦٨٥)، ومالك في الجنائز (٥٦٩)، وأحمد (٢/ ٣٤٦، ٤١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عام؟ قال ﷺ: «**لو قلت: نعم، لوجبت**»(١).

٦- إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وإنما حذف الفاعل للعلم به، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٧- إثبات علو الله على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ والإنزال إنما يكون من أعلى.

٨- تنزل القرآن الكريم في الإجابة على الأسئلة التي توجه إلى الرسول ﷺ.

وقد ذكر في القرآن منها بضعة عشر سؤالًا، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢١٥]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾(٢) [البقرة:٢١٧].

٩- أن السؤال عن ذلك بعد وفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي لا يترتب عليه ما ذكر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

لكن لا ينبغي السؤال تعنتًا، ولا السؤال عما لا يعني، قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٣).

أما السؤال عما يعني الإنسان فلا بأس به، بل قد يجب السؤال عنه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣، الأنبياء:٧].

١٠- عفو الله وتجاوزه عما حصل من السؤال عن أشياء مما لا يعني، مما قد يضر السؤال عنه، وذلك قبل النهي عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾.

١١- أن ما لم يُبد ولم يُظهر هو مما عفا الله عنه، فلا يجوز السؤال عنه؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾، أي: سكت عنها، فلم يظهرها، ولم يكلفكم بها لا إيجابًا ولا تحريمًا، فلا تسألوا عنها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤].

(٣) سيأتي تخريجه.

عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا مَن سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته**»(١).

وعن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم ثلاثًا؛ قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(٢).

قال ابن القيم(٣): «ولم ينقطع حكم هذه الآية، بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه بل يستعفي ما أمكنه، ويأخذ بعفو الله ومن هنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا صاحب الميزاب لا تخبرنا» لما سأله رفيقه عن مائه أطاهر أم لا؟ وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه، أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره، فلعله يسوؤه إن أبدي له، فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله، فإنه سبحانه يكره إبداءها، ولذلك سكت عنها».

١٢- أن الأصل هو براءة الذمة؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ فما لم يدل الدليل على مشروعيته، إيجابًا أو تحريمًا، فالذمة منه بريئة، كما قال ﷺ: «**وما سكت الله عنه فهو عفو**»(٤).

١٣- إثبات صفتين من صفات الله- عز وجل- وهما: المغفرةالواسعة، والعلم الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

١٤- ضرب الأمثال بالمكذبين من الأمم السابقة، للتحذير من الوقوع فيما وقع فيه كثير منهم، ومن ذلك السؤال عن أشياء، تعنتًا وعنادًا، ثم الكفر بها لما أبديت، كما في سؤال قوم صالح الناقة، وسؤال النصارى المائدة، وسؤال قريش أن يجعل لهم

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨)، وأبوداود في السنة (٤٦١٠)، وأحمد (١/ ١٧٦، ١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض وأداء الديون (٢٤٠٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٣)، وأبوداود في الصلاة (١٥٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٤١).

(٣) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١٠٩- ١١١).

(٤) سبق تخريجه.

الصفا ذهبًا، أو يشق لهم القمر، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»(١).

١٥- أن على الإنسان أن يعلم أن السلامة والعافية لا يعدلها شيء، فلا يسأل عما لا يعنيه، ولا عما قد يضره؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، أي: كفروا بها وجحدوها، أو كفروا وجحدوا بسببها، والثاني أعظم. وفي الحديث: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٢).

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)، ومالك في كتاب الجامع (١٦٧٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، و﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى «شرع»، أي: ما شرع الله ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ﴾، وهذه أسماء لأنواع من بهيمة الأنعام اصطلح المشركون في الجاهلية على تسميتها بهذه الأسماء، وجعلها لآلهتهم، أو تحريم ركوبها وأكلها ولبنها والانتفاع بصوفها ووبرها، وغير ذلك(١).

﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾، ﴿مِنۢ﴾: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للنفي، أي: ما جعل الله أيّ بحيرة..

و«البحيرة»: مأخوذة من البحر، وهو شق الأذن، يقال: هي الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن، فكان آخرها ذكرًا بحروا أذنها، أي: شقوها، وأغفلوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تمنع من ماء ترده ولا من مرعى. وقيل: غير ذلك.

﴿وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ الواو في المواضع الثلاثة: عاطفة، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ولا جعل الله من سائبة، ولا من وصيلة، ولا من حام.

و«السائبة»: مأخوذة من التسيّب، وهو الترك، وهي: الناقة كانت تسيب في الجاهلية؛ لنذر، أو إذا برئ أحدهم من مرض ونحو ذلك، أو لطواغيتهم، أو إذا ولدت عدة أبطن اصطحلوا عليها، فلا تركب ولا يحمل عليها، ولا تؤكل، ولا يشرب لبنها،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٦)- وما بعدها، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٢٢٠)- وما بعدها، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦).

ولا ينتفع بشيء منها. وقيل غير ذلك.

و«الوصيلة»: مأخوذة من الوصل، وهي: الناقة تبتكر بأنثى ثم تثني بأنثى فيسمونها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، وجعلوها لآلهتهم، وقيل غير ذلك.

و﴿حَامٍ﴾ اسم منقوص، حذفت منه الياء، وأصله «حامي»، مأخوذ من الحماية، وهو الفحل، إذا بلغ فترة معينة قالوا: حمى ظهره، فلا يركب ولا يؤكل ولا يحمل عليه؛ قيل: إذا لقح عشرًا، وقيل: إذا ولد لولده.

وقيل: إذا انقضى ضرابه، وقيل: غير ذلك.

وكل هذا من تخريفات الجاهلية وسفاهات العقول إذا لم تهتد بهدي الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾، الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: حرف استدراك.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الذين كفروا بالله وجحدوا شرعه وأشركوا معه غيره في العبادة وفي التشريع.

﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾، أي: يقولون ويختلقون على الله الكذب في التحليل والتحريم من تلقاء أنفسهم، ومن ذلك تسميتهم هذه الأنعام بهذه الأسماء وتحريمها وجعلهم ذلك شرعًا لهم يدينون ويتقربون به.

وهؤلاء الكفرة المفترون هم سادات أهل الضلال وكبراؤهم، كعمرو بن لحي الخزاعي وأمثاله، كما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يَجُرُّ قُصْبه**[1] **في النار، وكان أول من سيَّب السوائب**».

وفي رواية: «**أنه أول من غير دين إسماعيل، وبحر البحيرة، وسيّب السائبة وحمى الحامي**»[2].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن أول من سيب**

---

(١) قُصْبَه: أي: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٢١)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٦)، وأحمد (٢/ ٢٧٥، ٣٦٦).

السوائب وعبد الأصنام أبوخزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيته يجر أمعاءه في النار»(١).

والقول على الله تعالى بغير علم من أعظم الذنوب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

فرتبها بدءًا من الأخف إلى الأثقل والأعظم، وهو القول على الله تعالى بلا علم.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: وأكثر هؤلاء الذين كفروا، وهم الأتباع الرعاع.

﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: لا يسترشدون بعقولهم، بل يعيرون عقولهم لغيرهم، أو يقلدون تقليدًا أعمى لساداتهم دعاة الضلال، ولو استعملوا عقولهم؛ لعلموا أن ما هم عليه باطل وكذب وضلال؛ ولهذا فهم جميعًا المتبوع منهم والتابع لا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

كما أن لديهم جميعًا عقول الإدراك التي هي مناط التكليف لكنهم لم ينتفعوا بها فصاروا كمن لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

نفى عز وجل أن يكون مما شرع حرمته البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وبين أن هذا مما افتراه الذين كفروا من الكذب عليه سبحانه، فضلوا به وأضلوا، ثم بين في هذه الآية أنهم إذا دعوا إلى الحق لم يقبلوه اكتفاءً بتقليد آبائهم.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾، الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿قِيلَ﴾: فعل الشرط، ﴿تَعَالَوْا۟﴾، أي: هلموا وأقبلوا وأْتوا.

﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَآ﴾: موصولة، أي: إلى الذي أنزل الله، أي: إلى القرآن

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٦).

لنتحاكم إليه، ونحكم بما فيه من الحلال والحرام وغيره.

﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، «ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان أي: وإلى الرسول محمد ﷺ لنتحاكم إليه، وهذا في حياته ﷺ، أما بعد وفاته فالتحاكم إلى سنته.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال هؤلاء الذين يحرمون ويحللون من دون الله من أهل الكفر.

﴿حَسْبُنَا﴾، أي: كافينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، ﴿مَا﴾: موصولة، أي: الذي وجدنا عليه آباءنا من الاعتقاد والتحليل والتحريم؛ لمغالاتهم في التعصب والتقليد الأعمى أي: أننا في غنى عما أنزل الله وعن حكم الرسول.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو للحال، أي: أحسبهم ذلك ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء وإن قل، أي: لا يعلمون أيَّ شيء من العلم الشرعي، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق فيعملون به.

فنفى عنهم العلم بأنفسهم، والاهتداء إلى العمل، ولو بدلالة غيرهم لهم، فهم لا علم ولا عمل، فكيف يقلدونهم. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [الآية: ١٧٠].

الفوائد والأحكام:

١- نفي أن يكون الله جعل شرعًا هذه المذكورات، أي: أن يكون سماها وحرمها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

٢- بطلان تحريم هذه المذكورات؛ لأن الله لم يحرمها، وإنما حرمها الكفار والمشركون افتراءً على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

٣- الإنكار على الذين كفروا وذمهم بافترائهم الكذب على الله تعالى، وتشريعهم في الدين ما لم يأذن به الله، وتحريمهم ما أحله.

٤- تخبط العقل البشري ما لم يربط بوحي السماء.

٥- وجوب التحري بالفتوى؛ لأنها توقيع عن الله تعالى والحذر من القول على الله تعالى بلا علم.

٦- أن أكثر هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب لا عقول رشيدة تهديهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٧- أن أكثر الخلق خلو من العقول الراشدة التي تهدي إلى الحق- حقًا.

٨- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، وإثبات علوه تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٩- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾.

١٠- تقديم هؤلاء الكفار المفترين الكذب على الله ما عليه آباؤهم على حكم الله تعالى ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

١١- أن هؤلاء المذكورين قد قامت عليه الحجة بدعوتهم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، وهكذا ينبغي دعوة كل ضال إلى الحق، إعذارًا وإنذارًا.

١٢- ينبغي الحذر من التعصب للآباء أو لغيرهم فإنه قد يعمي ويصم عن الحق.

١٣- وجوب الرجوع إلى القرآن والسنة؛ لأن الله تعالى أنكر على هؤلاء فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

١٤- الإعذار من هؤلاء المذكورين مرة بعد أخرى ببيان أن آباءهم ضالون في علمهم وعملهم- مع حسن المجادلة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: أيكتفون بما وجدوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا علم عندهم ولا هدى، أي: ليسوا على شيء.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام على هذا مرارًا، أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وبكل ما يجب الإيمان به، من الغيوب السابقة واللاحقة، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾، ﴿أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ منصوب على الإغراء.

والمعنى: عليكم أنفسكم، ألزموها بطاعة الله تعالى، وأصلحوها، واعملوا في خلاصها من عذاب الله تعالى.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ [البقرة:٢٧٢].

و﴿مَّن﴾ موصولة، أي: لا يضركم الذي ضل.

﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، الاهتداء: هو سلوك الطريق المستقيم، وذلك بمعرفة الحق والعمل به.

والمعنى: لا يضركم من ضل عن الحق، فسلك غير سبيله، إذا اهتديتم أنتم، فعرفتم الحق، وسلكتم طريقه بالقيام بأوامر الله واجتناب نواهيه، ومن ذلك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

عن أبي أمية الشعباني، قال: سألت أبا ثعلبة الخشني كيف نصنع بهذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾؟ فقال أبو ثعلبة: لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوىً متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أيامًا، الصبر فيهن كالقبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين، قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلًا منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين رجلًا منكم**»(١).

---

(١) أخرجه أبوداود في الملاحم (٤٣٤١)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤١)، والترمذي في تفسير سورة المائدة (٣٠٦٠) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤)، والطبري في «جامع البيان» =

وعن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: «إنكم تقرؤون هذه الآية، وتتأولونها على غير تأويلها، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»(١).

قال القرطبي(٢): «وقال عبدالله بن المبارك: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ خطاب لجميع المؤمنين، أي: عليكم أهل دينكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء:٢٩]، فكأنه قال: ليأمر بعضكم بعضًا، ولينه بعضكم بعضًا، فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين، وأهل الكتاب».

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿جَمِيعٗا﴾: حال.

والمعنى: إلى الله مرجعكم، لا إلى غيره؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، أي: إلى الله مردكم ومصيركم ومآلكم ورجوعكم، كما قال عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥، يونس:٥٦، هود:٣٤، القصص:٧٠، ٨٨، يس:٢٢، ٨٣، فصلت:٢١، الزخرف:٨٥].

﴿جَمِيعٗا﴾، أي: جميعكم، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ

=

(١١/ ١٤٥- ١٤٦) الحديث (١٢٨٦٢- ١٢٨٦٣)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٧٢) وضعفه الألباني.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥، ١٦، ٢٩، ٣٠، ٥٣) وأبوداود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن، وفي التفسير (٢١٦٨، ٣٠٥٩). وقال: «حديث حسن صحيح» وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٤٨) الحديث (١٢٨٧١، ١٢٨٧٣)، وصحح أسانيده أحمد شاكر، قال ابن كثير في «تفسيره (٣/ ٢٥٨): «وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن حبان في صحيحه، وغيرهم، من طرق كثيرة، عن جماعة، عن إسماعيل بن أبي خالد به، متصلًا مرفوعًا، ومنهم من رواه عنه به موقوفًا على الصديق».

وقد رجح رفعه الدارقطني، انظر: «العلل» للدارقطني (٤٧)، وصححه الألباني في «الأحاديث الصحيحة» (١٥٦٤).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٤٤).

ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٤- ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧].

فإليه- عز وجل- رجوع جميع الخلائق، وإليه تحاكمهم في جميع أمورهم في الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾، أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو: مصدرية، أي: بالذي كنتم تعملون، أو بعملكم، فيجازي كلًا بعمله: المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته- ما لم يعف الله عنه- كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، وقال تعال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾[الغاشية:٢٥، ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إلزام النفس بطاعة الله تعالى، وإصلاحها، وإبعادها عن معصية الله تعالى، ومحاسبتها، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٢- أن على الإنسان القيام بإصلاح نفسه أولًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٣- أن من ألزم نفسه بطاعة الله تعالى، واهتدى بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، ومن ذلك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يضره ضلال مَن ضل من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

وليس في الآية ما قد يُستدل به لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان ذلك ممكنًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إذ المعنى: إذا اهتديتم فعرفتم الحق وعملتم به فعلًا للواجبات واجتنابًا للمنهيات، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذا قال أبوبكر رضي الله عنه- كما تقدم-: «إنكم تقرؤون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها، وتضعونها على غير مواضعها» الحديث.

وهذا بيان منه- رضي الله عنه- أن الآية لا متمسك فيها، لمن أراد ترك ما أوجب الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا نهيًا ولا إذنًا، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: الزموها، وأقبلوا عليها، ومن مصالح النفس فعل ما أمرت به، من الأمر والنهي، وقال: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله، وأدي الواجب من الأمر والنهي وغيرهما».

٤- أن كل إنسان مؤاخذ بعمله وكسبه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]؛ لأن معنى هذه الآية أن آثار الفتنة قد تمتد إلى غير الظالمين، لكن ذلك لا يضرهم في دينهم، فيبعثون على نياتهم ولهذا قال ﷺ لعائشة لما قالت: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **نعم إذا كثر الخبث**»(٣).

٥- ينبغي للمؤمن مع الإقبال على استصلاح نفسه، علمًا وعملًا أن يعرض عما لا يعنيه، فيترك التعرض لمعائب الناس، والبحث عن أحوالهم، وعليه الاشتغال بخاصة نفسه وفي الحديث: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٤).

٦- أن من ضل عن الحق، وتركه، فإنما ضرره على نفسه، لا على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٧٩- ٤٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (٢١١٨)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه مسلم من حديث أم سلمة- رضي الله عنها- (٢٨٨٢).

(٤) سبق تخريجه.

٧- ينبغي للمؤمن ألا يحزن، ولا يجزع بضلال من ضل من المنافقين والكفار وغيرهم، فإنهم لن يضروه إذا كان مهتديًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.
كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

٨- الإشارة إلى أنه لا ينبغي للمؤمن، أن يغتر بكثرة من ضل، ولا يركن إليهم.

٩- الإشارة إلى أنه لا ينبغي الاعتداء على أهل الضلال والمعاصي بزيادة عن المشروع في بغضهم، أو ذمهم، أو أمرهم أو نهيهم، أو هجرهم أو عقوبتهم- بعد دعوتهم والقيام بواجب الأمر والنهي نحوهم، بل يقال لمن اعتدى عليهم: عليك نفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن كثيرًا من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله، إما بجهل، وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين».

١٠- أن من إصلاح النفس والاهتداء أن يقوم المؤمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على الوجه المشروع، مع العلم والرفق، والصبر وحسن النية وسلوك سبيل القصد؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ وهنا يحصل إصلاح النفس والاهتداء والسلامة من ضرر أهل الضلال.

١١- أن المؤمنين إذا لم يهتدوا ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ضرهم ضلال من ضل من أهل الكفر والفسوق والعصيان في دينهم ودنياهم؛ لمفهوم قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.
وفي الحديث: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث**

عليكم عقابًا منه»(١).

١٢- أن مرد الخلق ومصيرهم ومآلهم ومآبهم إلى الله- تعالى في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾.

١٣- إثبات القيامة، وبعث الناس جميعًا ورجوعهم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾.

١٤- إحصاء الله- عز وجل- لأعمال العباد، وإخباره لهم بما عملوه ومجازاتهم على ذلك، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن اهتدى وألزم نفسه بطاعة الله، ووعيد لمن ضل عن الحق وتركه.

١٥- إحاطة علم الله- عز وجل- بالخلق وجميع أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ و«ما» تفيد العموم.

١٦- أن الإنسان إنما يحاسب على عمل نفسه، دون عمل غيره، ودون الخواطر النفسية العارضة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وأحمد (٥/ ٣٩٠)، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن» وأخرجه بمعناه من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أبوداود في الملاحم (٤٣٣٦)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٦) وقال الترمذي: «حسن غريب» وضعفه الألباني.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «خرج رجل من بني سهم، مع تميم الداري، وعدي بن بدّاء[1]، فمات السهمي في أرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاما[2]، من فضة، مخوَّصًا بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجدوا الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم الداري، وعدي بن بداء. فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما. وأن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم أنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ﴾»[3].

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا

---

(١) وكانا نصرانيين آنذاك، ولم يكونا أسلما. انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٨٦- ١٩٠).

(٢) الجام: إناء من فضة، مخوّص بالذهب، أي: عليه صفائح من ذهب على هيئة خوص النخل.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٨٠) عن شيخه علي بن عبدالله تعليقًا، بلفظ: «قال لي علي بن عبدالله»، وأبوداود في الأقضية (٣٦٠٦)، والترمذي في تفسير سورة المائدة (٣٠٦٠)، وقال: «حديث حسن غريب» والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٨٥- ١٨٦) الحديث (١٢٩٦٦- ١٢٩٦٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣٠٧)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١٦٥).

وأخرجه الترمذي في تفسير سورة المائدة مطولًا من حديث ابن عباس عن تميم الداري- رضي الله عنهما- (٣٠٥٩) وقال الترمذي: «حديث غريب، وليس إسناده بصحيح».

وكذا أخرجه النحاس بإسناد ضعيف في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣٠٨)، والطبري (١١/ ١٨٦)- الأثر (١٢٩٦٧). وضعفه ابن حجر في «الإصابة» (١/ ١٤٠).

مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

قال مكي[1]: «هذه الآية من أشكل ما في القرآن في إعرابها ومعناها وتفسيرها وأحكامها».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾، ﴿شَهَٰدَةُ﴾ مبتدأ، و﴿شَهَٰدَةُ﴾ مضاف، و﴿بَيۡنِكُمۡ﴾ مضاف إليه.

والمراد بالشهادة هنا: الشهادة على الحقوق، التي تحفظ وتؤدى؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾[2] [الطلاق:٢].

وقد قيل: إن المراد بالشهادة هنا: الحضور للوصية، وقيل: المراد بها اليمين.

والصحيح أن المراد بالشهادة هنا: الشهادة على الحقوق وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن- كما سبق بيانه.

وقد صحح هذا ابن القيم[3]، ورد القول بأن المراد بالشهادة اليمين من ثلاثة عشر وجهًا.

منها: اثنا عشر وجهًا في الآية، والوجه الثالث عشر: من حكم الرسول ﷺ وحكم الصحابة بعده. قال: «هو تفسير للآية قطعًا، وما عداه باطل».

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير عاملة، والعامل فيها ﴿شَهَٰدَةُ﴾.

---

(١) في «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٤٣). وما قاله مكي صحيح، وإن حاول رده ابن عطية قال ابن كثير: «اشتملت هذه الآية على حكم عزيز» انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٠)،

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٨٩- ٤٩٠)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٠).

(٣) انظر: «الطرق الحكمية» ص(١٩٣- ١٩٧)، «بدائع التفسير» (٢/ ١٢٩- ١٣١). وانظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٥٢)، «جامع البيان» (١١/ ١٥٧)، «النكت والعيون» (١/ ٤٩٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٧١٨)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٤٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٢).

و﴿ٱلْمَوْتُ﴾: هو خروج الروح من الجسد ومفارقتها له.

والمعنى: إذا قرب حضور الموت، لأنه إذا حضر الموت، وذلك بحضور علاماته لم تعتبر إقرارات المحتضر بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾، ﴿حِينَ﴾ ظرف زمان، والعامل فيه ﴿حَضَرَ﴾، أي: وقت وحال الوصية.

و﴿ٱلْوَصِيَّةِ﴾ هي العهد بالأمر الهام، وهي تنقسم إلى قسمين: إذن بالتصرف، بعد الموت؛ كأن يوصي المحتضر على أولاده القصار.

والقسم الثاني: تبرع بالمال بعد الموت، وهي جائزة، في حدود الثلث، لغير وارث.

﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ﴿ٱثْنَانِ﴾ خبر للمبتدأ: ﴿شَهَٰدَةُ﴾، والتقدير: شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

أو أنه فاعل، والتقدير: شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت، حين الوصية: أن يشهد اثنان، قال الفراء[1]: «رفع اثنان بالشهادة، أي ليشهد اثنان من المسلمين».

﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ نعت لـ«اثنان»، أي: صاحبا عدل، أي شخصان متصفان بالعدالة، ومعروفان بها.

﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون كما قال تعالى- خطابًا للنبي ﷺ والمؤمنين: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢].

وقيل: ﴿مِّنكُمْ﴾، أي: من قبيلة الموصي وقومه وعشيرته[2].

ويرد هذا القول ويعارضه أول الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهو خطاب للمؤمنين عمومًا، كما يرده قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن شهادة المسلم جائزة حضرًا وسفرًا،

---

(١) في «معاني القرآن» (١/ ٣٢٣). وانظر: «جامع البيان» (١١/ ١٥٤، ١٥٩- ١٦٠)، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٣٧)، «الكشاف» (١/ ٣٦٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٥٦- ١٥٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١١).

وقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ والشاهد المسلم لا يحلف إجماعًا.

وكذلك يرده ما جاء في قصة سبب نزول الآيات، وما روي عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- في معناها، وغير ذلك.

فالمعنى: اثنان معروفان بالعدالة، منكم أيها المؤمنون يشهدان على وصية الموصي فهما شاهدان، وقيل: وصيان والصحيح الأول.

قال ابن كثير[١]- بعد أن ذكر القول بأنهما وصيان: «والقول الثاني أنهما يكونان شاهدين، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن معهما وصي ثالث اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء، وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأنا لا نعلم حكمًا يحلف فيه الشاهد. وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جاريًا على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة، في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور، ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرائن الريبة، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة».

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، ﴿أَوْ﴾ هنا ليست للتخيير، وإنما هي للتنويع[٢]، فالمعنى: فإن لم يوجد اثنان منكم: فآخران من غيركم أي: من غير المسلمين، سواء كانا من أهل الكتاب أو من غيرهم، وبهذا قال جمهور المفسرين.

وقيل: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير قبيلة الموصي، وقومه وعشيرته[٣].

والصحيح الأول. وقد رد هذا القول طائفة من أهل العلم، منهم ابن القيم- رحمه الله، فقال[٤]: «وأما من قال: المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير قبيلتكم، فلا يخفى بطلانه، وفساده، فإنه ليس في أول الآية خطاب لقبيلة دون قبيلة، بل هو خطاب عام

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢١٢).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٠- ١٧٢).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٤٥)، «جامع البيان» (١١/ ١٦٠- ١٧٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٧٢٢).

(٤) انظر: «الطرق الحكمية» ص(١٩٣- ١٩٧).

لجميع المؤمنين، فلا يكون غير المؤمنين إلا من الكفار وهذا مما لا شك فيه، والذي قال من غير قبيلتكم زلة عالم غفل عن تدبر الآية».

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الضرب في الأرض هو السفر والسير فيها لغزو، أو حج، أو تجارة، أو سياحة، ونحو ذلك، وسمي ضربًا في الأرض، قيل: من ضرب الأقدام على الأرض، وقيل: من ضرب المسافر دابته، وقيل غير ذلك.

﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، أي: فنزل بكم الموت، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء:١٨].

والمصيبة: كل ما يصيب الإنسان من الأقدار المؤلمة، من الموت وما دونه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]. وهذا يشمل مصيبة الموت وغيرها.

وفي الحديث: «**ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا هم ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر به من خطاياه**»(١).

قال ابن كثير(٢): «وهذان شرطان، لجواز استشهاد الذميين، عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية».

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الخطاب للورثة، أو لولاة الأمر، والضمير في ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ يعود إلى «آخران» في قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، والجملة: مستأنفة، وقيل: صفة لآخران(٣).

والمعنى: تستوقفونهما من بعد الصلاة(٤).

والمراد بالصلاة: صلاة العصر عند جمهور المفسرين.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضىٰ (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما. وأخرجه الترمذي في الجنائز (٩٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أيضًا مختصرًا من حديث عائشة- رضي الله عنها- البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٢١١).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢١)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٩٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٢).

وقيل: صلاة الظهر، وقيل: أيُّ صلاة، وقيل: صلاة أهل دينهما[١].

والراجح: أن المراد صلاة العصر؛ لعظم هذه الصلاة وفضلها، وعظم وقتها، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨].

والمراد بالصلاة الوسطى على الصحيح: صلاة العصر.

وقد رُوي في حديث عبدالله بن جعفر: «أن رسول الله ﷺ لاعن بين العجلانيين بعد صلاة العصر»[٢].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم، ورجل منع فضل ماء..**» الحديث [٣]، كما أن آخر النهار أرجى لإجابة الدعاء؛ ولهذا فإن أكثر أقوال أهل العلم على أن ساعة الاستجابة يوم الجمعة هي آخر ساعة منها بعد العصر.

كما أن هذا الوقت كان معظمًا عند أهل الكتاب، لأنهم يصلون عند طلوع الشمس، وعند غروبها.

بل إنه معظّم عند أكثر أهل الأديان يذكرون الله فيها، ويَتَوَقَّون فيه الحلف الكاذب وقول الزور[٤]، بل إن من أهل الكفر من يعظم هذا الوقت.

وقال ابن كثير[٥]: «والمقصود أن يقام هذان الشاهدان، بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم».

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، الفاء عاطفة، أو واقعة في جواب الأمر، و«يقسمان»: معطوف على ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾؛ لأن المعنى: احبسوهما للقسم فهو جواب الأمر.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٥).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (٧/ ٣٩٨)- وضعفه، لأن في سنده الواقدي وهو ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٩)، ومسلم في الإيمان (١٠٨)، وأبوداود في البيوع (٣٤٧٤).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٦- ١٧٧)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣١١- ٣١٢)، «تأويل مشكل القرآن» ص(٣٧٨)، «التفسير الكبير» (١٢/ ٩٧).

(٥) في «تفسيره» (٣/ ٢١٢).

والضمير في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ يعود للشاهدين المذكورين بقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ متعلق بـ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾، والخطاب للورثة، أو للحكام، والجملة اعتراض بين القسم والمقسم عليه.

والمعنى: إن شككتم في شهادتهما، وفي أمرهما واتهمتموهما وظهر لكل منهما ريبة، أنهما خانا فيما اؤتمنا عليه من الوصية فيحلفان بالله حينئذٍ.

وإنما حُلِّفَ الشاهدان، لأنهما صارا مدّعىً عليهما، حيث ادعى عليهما الورثة أنهما خانا في المال.

﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ جواب قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى القسم المأخوذ من قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾[1]، أي: لا نشتري بقسمنا ثمنًا.

وقال ابن تيمية[2]: «﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾، أي: «بقولنا» والمعنى واحد.

وقال أيضًا: «أو لا نشتري بعهد الله ثمنًا؛ لأنهما كانا مؤتمنين فعليهما عهد بتسليم المال إلى مستحقه، فإن الوصية عهد من العهود».

والثمن: هو العرض الدنيوي الفاني.

والمعنى: لا نعتاض بحلفنا كذبًا عرضًا قليلًا من الدنيا الفانية الزائلة.

عن ابن عباس- رض الله عنهما: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: فهذا لمن مات، وليس عنده أحد من المسلمين، فأمره الله بشهادة رجلين، من غير المسلمين، فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا، بعد الصلاة بالله، لم نشتر بشهادتنا ثمنًا قليلًا»[3].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٢- ١٧٧)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٤٢)، «الكشاف» (١/ ٣٦٩)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢١- ٢٢٢)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٥٥)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٤).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٧٣)- الأثر (١٢٩٤٧).

﴿وَلَوْ كَانَ﴾، أي: ولو كان المشهود له أو عليه، أو المقسم من أجله(١).

﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: صاحب قرابة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

قال ابن كثير(٢): «ولو كان المشهود عليه قريبًا إلينا لا نحابيه».

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ قرأ يعقوب: (شهادةً الله) بالألف الممدودة، وقرأ الباقون: ﴿شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ على الإضافة(٣).

وكتمان الشهادة: إخفاؤها وعدم أدائها، أي: ولا نكتم الشهادة، التي حملنا الله إياها، من شأن هذه الوصية، وأضاف الشهادة لنفسه سبحانه؛ لأنه- عز وجل- هو الآمر بإقامتها، الناهي عن كتمانها، وتعظيمًا لها.

﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ هذا منهما زيادة في التوكيد، أنهما شهدا بالحق، وما كتما.

﴿إِذًا﴾ ظرف بمعنى «حين»، أي: إن كتمناها وأخفيناها، أو حرّفناها، أو بدّلناها.

﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، اللام في قوله: ﴿لَمِنَ﴾ لام التوكيد، ﴿الْآثِمِينَ﴾ الذين وقعوا في الإثم، وهو الذنب، بسبب الكتمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أصل العثور: الوقوع على الشيء.

والمعنى هنا: فإن ظهر، وتبين منهما، واطلع ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف:٢١]، أي: أطلعنا عليهم.

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٦٩)، «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٤).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٢١٢).

(٣) انظر: «المبسوط» ص(١٦٤).

والضمير في ﴿أَنَّهُمَا﴾ يعود على الشاهدين الوصيين.

﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾، أي: استوجبا إثمًا، والإثم: الذنب، وذلك بالكذب وشهادة الزور.

قال الزمخشري[١]: «أي: فعلا ما يوجب إثمًا، واستوجبا أن يقال: إنهما لمن الآثمين».

والمعنى: فإن ظهر، وتبين، وتحقق أن الشاهدين الوصيين استوجبا ذنبًا، وذلك بخيانتهما في الشهادة والوصية، وحلفهما كذبًا وزورًا وغير ذلك[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «فإن عثر على أنهما استحقا إثمًا أعم من أن يكون في الشهادة، أو الأمانة، وسبب نزول الآية يقتضي أنه كان في الأمانة، فإنهما استشهدا واؤتمنا، لكن ائتمانهما ليس خارجًا عن القياس، بل حكمه ظاهر، فلم يحتج فيه إلى تنزيل، بخلاف استشهادهما.

والعثور على استحقاق الإثم: ظهور بعض الوصية عند من اشتراها منهما، بعد أن وجد ذكرها في الوصية وسئلا عنها فأنكراها».

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، أي: فشاهدان آخران من أولياء الميت، يقومان مقام الشاهدين الأولين، أي: يقومان مقامهما في الشهادة، ليردا شهادتهما الكاذبة.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء والحاء، وقرأ الباقون: «استُحِق» بضم التاء وكسر الحاء[٤].

والمعنى: فآخران يقومان مقام الشاهدين الأولين ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾، أي: استحق أن تؤخذ منهما الوصية وهم الورثة[٥] لأن ما شهد به الشاهدان

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٣٦٩- ٣٧٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٨٠)، «النكت والعيون» (١/ ٤٩٥)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٤- ٧٥)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٣)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٥٦- ٣٥٨)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٤- ٤٨٥).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٩٤- ١٩٦)، «المبسوط» ص(١٦٤)، «الكشف» (١/ ٤١٩- ٤٢٠)، «النشر» (٢/ ٢٥٦).

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٣٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٧٢٩)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٣).

الأولان من الوصية مستحق على الورثة للموصى له، فتخرج الوصية أولًا وما بقي بعدها هو الميراث.

وقال الفراء والطبري: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ معناه: فيهم، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[1] [البقرة:١٠٢].

وقال البغوي[2]: «بضم التاء على المجهول هذا قراءة العامة، يعني ﴿الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ﴾، أي: فيهم ولأجلهم الإثم، وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم الإثم».

وقال الزمخشري[3]: «أي: استحق عليهم الإثم، ومعناه: جني عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[4]: «يحتمل أن يكون مضمنًا معنى «بُغيَ عليهم» وعُديَ «عليهم» كما يقال في الغصب: غصبت عليَّ مالي».

والأظهر القول الأول: أي: استحق عليهم دفع الوصية مما أخذوه من الميراث، فيما لو ثبتت الوصية.

﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر، ويعقوب وخلف «الْأَوَّلِينَ» جمع «الأوَّل» بدل من الاسم الموصول «الذين» في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أو صفة له[5].

أي: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني ورثة الموصي.

وقرأ الباقون: ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ تثنية «الأَوْلى»[6] نائب فاعل على قراءة «استُحق» بضم

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٢٤)، «جامع البيان» (١١/ ١٩٤).

(٢) في «معالم التنزيل» (٢/ ٧٥).

(٣) في «الكشاف» (١/ ٣٧٠).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٥).

(٥) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٧٠).

(٦) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ١٨١)، «جامع البيان» (١١/ ١٩٧)، «المبسوط» ص(١٦٤)، «التبصرة» ص(٤٨٨)، «العنوان» ص(٨٨)، «الإقناع» (٢/ ٦٣٦)، «النشر» (٢/ ٢٥٦).

التاء وكسر الحاء، أو بدل من «آخران»، أو من الضمير في «يقومان»[١].

وقيل: نعت لـ«آخران» في قوله: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هما الأوليان.

والمعنى: أي: الذين هم أولى الناس بإرث هذا الذي شُهد على وصيته[٢].

قال ابن كثير[٣]: «﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال».

وقيل: الأوليان بالشهادة، وقيل: الأوليان باليمين[٤] والصحيح الأول.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، أي: فيقسم الشاهدان اللذان هما من ورثة الموصي بالله ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لشهادتنا.

والمعنى: فيقسم الآخران اللذان هما أولى بالموصي لشهادتنا في نفي هذه الوصية أحق وأصدق من شهادتهما بإثباتها[٥].

قال ابن عباس: «فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة»[٦].

قال ابن كثير[٧]: «أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما، فليقم اثنان من الورثة، المستحقين للتركة، وليكونا من أولى من يرث المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾، أي: لقولنا: أنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة».

وبهذا تبطل شهادة الشاهدين الأولين الذين هما من غير المسلمين، وتثبت شهادة

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٣٩)، «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٢٤٣)، «الكشاف» (١/ ٣٧٠)، «التفسير الكبير» (١٢/ ١٠٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٩٤- ١٩٥، ٢٠٣- ٢٠٥)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٥).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢١٣).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٩٤- ١٩٥، ٢٠٣).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٢٤)، «جامع البيان» (١١/ ٢٠٣)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣١٣)، «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٩٠)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٥).

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٨١)- الأثر (١٢٩٦١- ١٢٩٧٩).

(٧) في «تفسيره» (٣/ ٢١٣).

الآخرين الذين هما من ورثة الموصي.

﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾، «ما» نافية، ﴿ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ الاعتداء: مجاوزة الحد، والمعنى: وما تجاوزنا الحد والحق في قَسَمنا: أن شهادتنا أحق من شهادتهما[1]، وفي سعينا في إبطال شهادتهما وإحقاق شهادتنا.

﴿إِنَّآ إِذٗا﴾، إذًا: ظرف بمعنى «حين»، والمعنى: إنا إذًا إن اعتدينا في قَسَمنا، وفي شهادتنا، وتجاوزنا الحد في ذلك، وسعينا في إبطال الحق وإحقاق الباطل.

﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اللام: للتوكيد، و«الظالمين» جمع ظالم، والظلم هو العدوان، وهو النقص، قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا[2].

والظلم يكون للنفس، ويكون للنفس والغير.

والمعنى: إنا إذًا إن اعتدينا في قَسَمنا وشهادتنا لمن الظالمين، لأنفسنا أولًا، ولغيرنا ثانيًا، وهما الشاهدان الأولان، اللذان أبطلنا شهادتهما واتهمناهما بالخيانة والكذب، وهذا ظلم لهما، كما أن في ذلك أيضًا ظلمًا للموصىٰ له وظلمًا للموصي أيضًا.

قال الطبري[3]: «أي: لمن عداد من يأخذ ما ليس له أخذه، ويقتطع بأيمانه الفاجرة أموال الناس».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما حكم الله به من رد أيمان الذميين، وقيل إلى ما ذكره من حبس الشاهدين من بعد الصلاة لليمين، ثم رد أيمانهما وتغريمهما[4]. أو إلى المذكور فيشمل ذلك كله وهذا أعم وأولى.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٠٣)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٥).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة: «ظلم».

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٠٤).

(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٠٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٧)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٥).

﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب، وأجدر، وأحرى.

﴿أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، ﴿أَن يَأْتُواْ﴾ في محل نصب بنزع الخافض، والتقدير: ذلك أدنى بأن يأتوا أي: بأن يأتي الكافرون بالشهادة على وجهها، أي: أقرب، إذا فعل بهم هذا الفعل، أن يأتوا بالشهادة على الوصية وغيرها، ويؤدوها على الوجه الصحيح تعظيمًا لله تعالى من غير كتمان، ولا تبديل، ولا تحريف(١).

قال ابن كثير(٢): «أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي، من تحليف الشاهدين الذميين، وقد استريب فيهما، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي».

﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، ﴿أَوْ﴾: عاطفة، وهي بمعنى: الواو، أي: ويخافوا، أي: وأدنى أن يخافوا(٣).

والمعنى: وأقرب أن يخاف هؤلاء الشهود رد الأيمان إلى الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدّعون، ويفتضح هؤلاء الشهود(٤).

قال ابن عباس: «فترد شهادة الكافرين وتجوّز شهادة الأولياء»(٥).

وقال ابن كثير(٦): «أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة على وجهها هو تعظيم الحلف بالله، ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس، إذا ردت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدعون».

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وفي الشهادة والأيمان، وما اؤتمنتم عليه، وفي جميع أموركم.

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾، أي: واسمعوا أمر الله، وما يتلى عليكم، وما يقال لكم، من الأمر بتقوى الله، والمواعظ والأحكام، سماع من ينتفع بما يسمع، ويعمل به، ويستجيب له.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٠٤- ٢٠٥)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٧).
(٢) في «تفسيره» (٣/ ٢١٦).
(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٢٢٨).
(٤) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٠٤- ٢٠٥)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٦).
(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٠٥)- الأثر (١٢٩٦١، ١٢٩٧٩).
(٦) في «تفسيره» (٣/ ٢١٧).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، الهداية المنفية عن الفاسقين هي هداية التوفيق، بمعنى: والله لا يوفق القوم الفاسقين.

أما هداية الدلالة والإرشاد: فإن الله دل وأرشد جميع الخلق، بما أنزل من كتبه، وبمن أرسله من الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥].

و﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ هم الجماعة من الناس، ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ جمع فاسق، والفسق: هو الخروج عن الطاعة، ومنه سميت الفأرة فويسقة، لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرتها.

فالفاسقون: هم الخارجون عن طاعة الله تعالى، المرتكبون لمعاصيه.

وفي هذا وعيد شديد لهم، فإن عدم التوفيق للهداية أعظم العقوبات، كما أن التوفيق للهداية هي أكبر النعم.

قال ابن عطية(١): «أما معنى الآية من أولها إلى آخرها: فهو أن الله تعالى أخبر المؤمنين أن حكمه في الشهادة على الموصي، إذا حضره الموت، أن تكون شهادة عدلين، فإن كان في سفر، وهو الضرب في الأرض، ولم يكن معه من المؤمنين أحد، فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة: أنهما ما كذبا، ولا بدّلا وأن ما شهدا به حق، ما كتما فيه شهادة الله، وحكم بشهادتهما، فإن عثر بعد ذلك على أنهما كذبا، أو خانا، ونحو هذا، مما هو إثم، حلف رجلان من أولياء الموصي في السفر، وغُرِّم الشاهدان ما ظهر عليهما..».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان فيه تشريف وتكريم لهم وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

---

(١) في «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٨).

٣- مشروعية الإشهاد على الوصية، بشاهدين عدلين من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾.

٤- جواز الوصية عند حضور الموت؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

لكن هذا مشروط بأن يكون الموصي، في حال تكون فيه إقراراته على نفسه، وعلى ماله معتبرة، أي: حالة الاختيار، لا حالة الاضطرار، فإن وصل إلى حالة الاضطرار، لم تقبل إقراراته كما لا تقبل توبته، قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

٥- جواز استشهاد غير المسلمين، إذا لم يوجد أحد من المسلمين، في السفر، في الوصية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ الآية.

قال ابن كثير[1]: «فهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين، عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية»[2].

وهذا هو ما دل عليه ظاهر الآية.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «خرج رجل من بني سهم، مع تميم الداري، وعدي بن بدّاء، فمات السهمي في أرض، ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته، فقدوا جامًا من فضة...» الحديث[3].

وعن ابن عباس قال: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، فأمره الله بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد الصلاة، بالله: لم نشتر بشهادتنا

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢١١).

(٢) استدل أبوحنيفة بقوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ على جواز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض. انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٩١- ٤٩٣).

(٣) سبق تخريجه.

ثمنًا قليلًا»[١].

وهذا قول جمع من الصحابة، منهم ابن عباس[٢]، وأبوموسى الأشعري[٣]، وعبدالله بن مسعود[٤]- رضي الله عنهم، وطائفة من التابعين، ومن بعدهم[٥] منهم الثوري وأبوعبيد القاسم بن سلام[٦]، والإمام أحمد[٧] وغيرهم، فأجازوا شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر، إذا لم يوجد أحد من المسلمين[٨].

ومن هؤلاء من جعل ذلك عامًّا لغير المسلمين سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم، ومنهم من خصه بأهل الكتاب، كما جاء في سبب النزول، والصحيح العموم؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يدخل فيه كل من كان من غير المسلمين.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٧٣)- الأثر (١٢٩٤٧).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٧١، ١٧٣، ١٨١، ٢٠٥)- الآثار (١٢٩٤٦، ١٢٩٤٧، ١٢٩٦١، ١٢٩٧٩)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣٠٢)- الأثر (٤٥٩) مطولًا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف»- الشهادات (٨/ ٣٦٠) الأثر (١٥٥٣٩)، وأبوعبيد في «الناسخ والمنسوخ» (١/ ٣٦٥) الأثر (٢٩٠، ٢٩١)، والطبري (١١/ ١٦٥، ١٧٤) الأثر (١٢٩٢٦، ١٢٩٤٨)، والحاكم في التفسير (٢/ ٣١٤)- عن أبي موسى الأشعري: «أن رجلًا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا [مدينة بين إربل وبغداد] ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدما الكوفة، فأتيا أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، فأخبراه، وقدما بتركته، ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ قال: «فأحلفهما بعد العصر بالله، ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا، ولا كتما، ولا غيّرا، وأنها لوصية الرجل وتركته، قال: فأمضى شهادتهما» قال الحاكم: «على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير- بعد أن ذكر هذا بطريقين من رواية الطبري عن الشعبي عن أبي موسى: «وهذان إسنادان صحيحان» «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١٣- ٢١٥).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٥) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (١/ ٣٧٤، ٣٧٦)، «جامع البيان» (١١/ ١٦٠- ١٧١)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣٠٣)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٨)، «الطرق الحكمية» ص(١٨٢- ١٨٦، ١٩٣- ١٩٧)، «تهذيب السنن» (٥/ ٢٢٢- ٢٢٣)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١١).

(٦) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد ص(١٥٥، ١٦٤).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٩٩)، «الطرق الحكمية» ص(١٢٨).

(٨) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣٠٦).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى عدم جواز شهادة غير المسلمين، على المسلمين مطلقًا؛ فمنهم من قال: إن المراد بقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير عشيرتكم من المسلمين، ومنهم من قال: المراد بالشهادة اليمين، ومنهم من قال: هذا الحكم منسوخ(١).

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

قالوا: والكفار ليسوا بعدول، ولا مرضيين في الشهادة على المسلمين(٢)، وقد أجمع المسلمون على أن شهادة الفساق لا تجوز(٣)، والكفار من باب أولى.

وقالوا أيضًا: ومما يدل على نسخها أن اليمين لا تجب على الشاهد؛ لأنه إن ارتيب به، لم تجز شهادته، وإن لم تكن هناك ريبة، لم يحتج إلى اليمين.

وروي هذا عن ابن عباس(٤).

وممن ذهب إلى أن الآية منسوخة، وأنه لا تجوز شهادة غير المسلمين على المسلمين مطلقًا، ولا يحلف الشاهد: أبو حنيفة(٥)، ومالك(٦)، والشافعي(٧)، وجمهور الفقهاء(٨).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٦٦، ١٦٨، ٢٠٧)، «الطرق الحكمية» ص(١٨٢- ١٨٦)، «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٥٠)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١١- ٢١٢).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٩١- ٤٩٢)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٧٣١).

(٣) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس٢/ ٣٠٤- ٣٠٥ (الجامع لأحكام القرآن)، «٦/ ٣٥٠).

(٤) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٩٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٧٣١)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٩).

(٥) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٤٩١- ٤٩٢).

(٦) انظر: «المدونة» (٥/ ١٥٦)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٩).

(٧) انظر: «الأم» (٧/ ١٦)، «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٤٤- ١٤٧)، «معالم التنزيل» (٢/ ٧٤)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢١١).

(٨) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ٧٤)، «المحرر الوجيز» (٥/ ٢١٩).

والراجح جواز شهادة غير المسلمين من أهل الكتاب أو غيرهم على المسلمين في الوصية، في السفر، إذا لم يوجد أحد من المسلمين، وأن هذا الحكم باق لم ينسخ.

وممن رجح أن الآية محكمة غير منسوخة: الطبري[١] قال: «ولا دليل على النسخ».

وقال أبوجعفر النحاس في نهاية كلامه على الآية[٢]: «وصح من هذا كله: أن الآية غير منسوخة، ودل الحديث على ذلك لأنه إذا أوصى رجل إلى آخر، فاتهم الورثة الموصى إليه، حلف الموصى إليه وبرئ، فإذا اطلع على أن الموصى إليه خان، وذلك أن يشهد شاهد، أو يوجد شيء يعلم أنه للميت، فيقول الموصى إليه قد اشتريته منه فيحلف الوارث ويستحقه».

وقال القرطبي[٣]: «اختلف العلماء على ثلاثة أقوال: الأول ﴿مِّنكُمْ﴾ ضمير للمسلمين و﴿ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ للكافرين، فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة في السفر، إذا كانت وصية، وهو الأشبه بسياق الآية، مع ما تقرر من الأحاديث، وهو قول ثلاثة من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل: أبوموسى الأشعري، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس».

ورجح القرطبي هذا، وذكر أن دعوى النسخ لا دليل عليها لأن سورة المائدة من آخر ما نزل حتى قال بعض السلف لا منسوخ فيها[٤].

بل نُقل عن ابن تيمية أن قول الإمام أحمد في قبول شهادة أهل الذمة ضرورة يقتضي التعليل قبولها، في كل ضرورة حضرًا وسفرًا[٥].

وممن رد القول بنسخ الآية الهراسي[٦] كما رده ابن القيم، وأبطل قول من قال المعنى: من غير قبيلتكم، وقول من قال: المراد بالشهادة أيمان الأوصياء من وجوه

---

(١) في «جامع البيان» (١١/ ١٦٨- ١٦٩).

(٢) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣١٣- ٣١٤).

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٥) انظر: «الطرق الحكمية» ص(١٩٢).

(٦) في «أحكام القرآن» (٢/ ١٢٠).

عدة[١]، ورجح صحة قبول شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر إذا لم يوجد غيرهم[٢].

وقال ابن كثير[٣]- بعد أن ذكر الأثر المروي عن أبي موسى: أنه حكم بشهادة الذميين، إذا لم يوجد أحد من المسلمين قال ابن كثير: «وقوله- يعني أبا موسى الأشعري ـ: «هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ». والظاهر- والله أعلم- أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم ابن أوس الداري- رضي الله عنه- كان في سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرًا، يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام».

وبعد أن ذكر ابن كثير[٤] ما روي عن ابن عباس وبعض التابعين مما يشهد لصحة هذه القصة- قال: «وهكذا قرر هذا الحكم على معنى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين، والسلف- رضي الله عنهم..».

٦- العناية بالوصية، والاهتمام بها، وبالإشهاد عليها؛ لقوله تعالى: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾.

فأمر بها، والإشهاد عليها، ولو من غير المسلمين عند فقد المسلمين عناية بها واهتمامًا.

٧- إيقاف الشاهدين من غير المسلمين بعد الصلاة، وتحليفهما، أنهما ما خانا، ولا كتما، وذلك إذا ارتيب في شهادتهما؛ لقوله تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾[٥].

---

(١) انظر: «تهذيب السنن» (٥/ ٢٢٢- ٢٢٣)، «الطرق الحكمية» (١٨٦- ١٩٢).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٤٨).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢١٥).

(٤) في «تفسيره» (٣/ ٢١٦).

(٥) قال ابن العربي: «هذه الآية أصل في حبس من وجب عليه حق من الحقوق حتى تتبين عسرته».
«أحكام القرآن» (٢/ ٧٢٣).
وقال القرطبي: «هذه الآية أصل في التغليظ في الأيمان ويكون بأربعة أشياء: الزمان والمكان والمسجد والمنبر، =

وإنما أُلزم الشاهدان باليمين؛ لاتهام الورثة إياهما بالخيانة[١]، وإلا فالأصل أن الشاهد لا يحلف، ولكن للحاكم والقاضي أن يحلف الشاهدين عند الارتياب في شهادتهما.

٨- الحذر من كتمان الشهادة، والكذب في الأيمان، لأجل عرض زهيد من الدنيا، أو محاباة لقريب، أو مداراة لأحد من الناس، وأن من فعل ذلك فهو من الآثمين المستحقين للعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «لأن العادة أن الشهادة المزورة يعتاض عليها، وإلا فليس أحد يشهد شهادة مزورة بلا عوض، ولو مدحًا أو اتخاذ يد، وآفة الشهادة: إما اللي، وإما الإعراض: الكذب، والكتمان».

٩- تعظيم أمر الشهادة بإضافتها إلى الله في قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، مما يوجب أداءها خالصة لوجه الله؛ لأنه سبحانه هو الذي أمر بأدائها، ونهى عن كتمانها، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ﴾ [الطلاق:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٣].

١٠- أن كتمان الشهادة، أو الكذب فيها، لأجل عرض دنيوي، أو محاباة قريب، أو نحو ذلك إثم ومحرم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾؛ لما في ذلك من إبطال الحق وإحقاق الباطل.

١١- إذا تبين أن الشاهدين من غير المسلمين استحقا إثمًا، بأن خانا وكتما في الشهادة، وكذبا بأيمانهما، قام مقامهما اثنان من أولياء الميت فحلفا على خيانة الشاهدين

=

واختلف في التحليف فيهما، والثالث: الحال، بأن يحلف قائمًا مستقبل القبلة لأنه أبلغ في الردع والزجر واختلف فيه، والرابع التغليظ باللفظ» «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٣٥٣- ٣٥٤).

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٥٢)، «جامع البيان» (١١/ ١٨٣- ١٨٤، ١٩٢)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٤١٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٤).

وكذبهما في أيمانهما، فيستحق الأولياء ما حلفوا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

قال الشافعي[١]: «وليس في هذا رد اليمين إنما كانت يمين الداريين على ما ادعى الورثة من الخيانة، ويمين ورثة الميت على ما ادعى الداريان أنه صار لهما من قبله».

وقال الطبري[٢]: «إنما ألزم الورثة باليمين؛ لأن الوصيين وجد معهما الجام، وادعيا أنهما اشترياه، فصارا مدعيين، والورثة منكرين».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «وحديث ابن عباس في البخاري صريح في أن النبي ﷺ حكم بمعنى ما في القرآن، فرد اليمين على المدعيين، بعد أن استحلف المدعى عليهم، لما عثر على أنهما استحقا إثمًا، وهو إخبار المشترين أنهم اشتروا الجام منهما بعد قولهما ما رأيناه. فحلف النبي ﷺ اثنين من المدعيين «الأوليان» وأخذ الجام من المشتري وسلمه إلى المدعي، وبطل البيع. وهذا لا يكون مع إقرارهما بأنهما باعا الجام، فإنه لم يكن يحتاج إلى يمين المدعيين لو اعترفا بأنه جام الموصي وأنهما غصباه وباعاه، بل بقوا على إنكار قبضه مع بيعه، أو ادعوا مع ذلك أنه أوصى لهما به، وهذا بعيد.

فظاهر الآية: أن المدعى عليه المتهم بخيانة ونحوها- كما اتهم هؤلاء- إذا ظهر كذبه وخيانته، كان ذلك لوثًا يوجب رجحان جانب المدعي فيحلف، ويأخذ، كما قلنا في الدماء سواء، والحكمة فيهما واحدة».

وقال ابن كثير[٤]: «وهذا التحليف للورثة، والرجوع إلى قولهما، والحالة هذه، كما

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي (٢/ ١٥٢- ١٥٣)، وانظر: «التفسير الكبير» (١٢/ ١٠٠).

(٢) في «جامع البيان» (١١/ ٢٠٧- ٢٠٨).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٨٥- ٤٨٧).

(٤) في «تفسيره» (٣/ ٢١٣). والأصل أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو يعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه**» أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٥٢)، ومسلم في الأقضية (١٧١١)، وأبوداود =

يحلف أولياء المقتول، إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل، فيدفع برمته إليهم».

١٢- أنه لا لوم على صاحب الحق المعتدى عليه في التنقيب عن حقه لاستخلاصه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾.

١٣- حفظ التشريع الإسلامي للحقوق؛ لأنه لما استحق الشاهدان أو الوصيان الإثم بكونهما خانا في الشهادة والوصية، وكتما، وكذبا في أيمانهما ردت الأيمان إلى الورثة أصحاب الحق، فيحلف اثنان منهم، ويستحقون ما حلفوا عليه.

١٤- أن الأحق بالميراث الأولى فالأولى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧].

١٥- الحذر من الاعتداء في الشهادة والأيمان وغير ذلك؛ لأن ذلك كله ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

١٦- وجوب أداء الشهادة على وجهها الصحيح، خالصة لله، من غير كتمان، أو تبديل أو تحريف؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق:٢].

١٧- إنما أمر بحبس الشاهدين من غير المسلمين للأيمان إذا ارتيب في شهادتهما، وردت

=

في الأقضية (٣٦١٩)، وفي القضاة (٥٤٢٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٢٥)، والترمذي في الأحكام (١٣٤٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢١).

وروي في الحديث: «**لو يعطى الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر**» ذكره ابن تيمية وقال: «ليس إسناده بالصحة والشهرة مثل غيره، ولا رواه عامة أهل السنة المشهورة»، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٩٠- ٣٩١).

قال ابن تيمية: «إذا كان المدعي ليس لديه إلا الدعوى، لم يعط بها شيئًا، ويحلف المدعى عليه، أما إذا أقام المدعي شاهدًا بالمال فإن النبي ﷺ قد حكم بالمال بشاهد ويمين».

وحديث: «**البينة على المدعي واليمين على من أنكر**» أخرجه الدارقطني وغيره من حديث أبي هريرة وعبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- وضعفهما في «المغني على الدارقطني» (٣/ ١١٠- ١١١) الأحاديث (٩٨- ١٠٠). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٢٣٨).

الأيمان إلى الورثة، بعد تبين خيانتهما، عقوبة لهما؛ لأجل أن يأتوا بالشهادة على وجهها، أو يخافوا رد الأيمان إلى الورثة، فيحكم عليهما بما حلف عليه الورثة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

١٨- وجوب تقوى الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٩- وجوب سماع ما أمر الله به ورسوله؛ سماع اتباع وانتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾.

٢٠- أن الله لا يوفق الفاسقين الخارجين عن طاعته سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وفي هذا وعيد لمن خالف حكم الله وخرج عن طاعته وأمره.

٢١- أن المعصية سبب للمعصية بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

فمن حرم توفيق الله، فإنه سينتقل من معصية إلى أخرى. كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف:٥].

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر يوم يجمع الله الرسل، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: اذكر هذا اليوم العظيم يوم القيامة، وما فيه من الأهوال يوم يجمع الله الرسل كلهم، من أولهم نوح إلى آخرهم محمد- عليه وعليهم الصلاة والسلام- فيسألهم:

﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ معطوف على ﴿يَجْمَعُ﴾.

﴿مَاذَآ﴾، «ما»: اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ، «ذا»: اسم موصول مبني في محل رفع خبر.

ويجوز أن تكون ﴿مَاذَآ﴾ كلمة واحدة، اسم استفهام في محل جر بباء محذوفة، أي: بماذا، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أُجِبْتُمْ ۖ﴾، وجملة ﴿أُجِبْتُمْ ۖ﴾ مقول القول.

﴿أُجِبْتُمْ ۖ﴾ مبني للمجهول، أي: ماذا أجابتكم أممكم، وبماذا تلقوا دعواتكم، كما

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، أي: إلا أن أجابوه بهذا القول.

وكما يسأل عز وجل الرسل يسأل المرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦].

وسؤال الرسل والمرسل إليهم إنما هو لتوبيخ المرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢- ٩٣].

ومنه سؤال الموؤدة توبيخًا لمن وأدها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨- ٩].

وفي توجيه السؤال إلى الرسل ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، والعدول عن إسناد الجواب إلى أقوامهم، بأن يقال: «ماذا أجابوا» ما ينبئ بشدة غضبه- عز وجل- كما جاء في الحديث: «**ربي غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله**»(١).

﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ جواب الاستفهام ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، وجملة ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ في محل نصب مقول القول، و﴿لَا﴾ نافية للجنس، و﴿عِلْمَ﴾ اسم ﴿لَا﴾ مبني على الفتح في محل نصب، ﴿لَنَآ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَا﴾.

وعبر بـ﴿قَالُوا۟﴾ المفيد للمضي للدلالة على تحقق وقوعه في المستقبل.

وقول الرسل- عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ يحتمل- والله أعلم- أنهم قالوا هذا تأدبًا مع الله تعالى؛ لأنهم يعلمون أنه- عز وجل- لم يسألهم استعلامًا، وأنه أعلم بذلك منهم، أي: لا علم لنا وإنما العلم لك، فأنت أعلم منا بماذا أجبنا وبكل شيء.

ويحتمل أن المعنى: لا علم لنا بما حدث بعدنا، كما قال عيسى عليه السلام:

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

وفي الحديث: «**وإنه يجاء من أمتي برجال فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربي، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(١).

ويحتمل أن المعنى ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بما في بواطن الذين أجابوا، فظواهرهم الاستجابة والقبول وبواطنهم لا نعلمها، أي: أن علمها إليك يا ربنا، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

ولا مانع من حمل الآية على ذلك كله، وأظهرها الأول وعليه جمهور المفسرين.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إلا علم أنت أعلم به منا»(٢).

قال ابن كثير(٣)- بعد أن ذكر اختيار الطبري لهذا القول: «ولا شك أنه قول حسن، هو من باب التأدب مع الرب عز وجل، أي: لا علم لنا بالنسبة لعلمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن قد أُجبنا وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك أنت علام الغيوب».

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بكسر «الغين» وقرأ الباقون بضمها.

وجملة ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مستأنفة، تبين أنهم وكلوا العلم إلى عالمه- وهو الله عز وجل، كما تدل على أنه لا يمكن أن يحمل قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ على أنه لا علم لهم

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» (٤٦٢٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب فناء الدنيا (٢٨٦٠)، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣)، وأحمد (١/ ٢٣٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١١١).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢١٧- ٢١٨).

البتة، بما أجاب أقوامهم، كيف وهم شهود عليهم، كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

و﴿أَنتَ﴾ ضمير فصل؛ للتأكيد والحصر، فالجملة مؤكدة بأن، وصيغة الحصر، وجمع الغيوب.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾، ﴿عَلَّٰمُ﴾ على وزن «فعَّال»: صيغة مبالغة، أي: أنه- عز وجل- ذو علم بالغ بالغيوب.

و﴿ٱلْغُيُوبِ ﴾ جمع «غيب» وهو كل ما غاب وخفي عن الخلق، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:٧٥]. والمراد: أنك عالم بما أجبنا، وبكل ما صدر من أقوامنا، وبجميع الغيوب.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في هذه الآية والتي بعدها ما امتن به سبحانه على عيسى ابن مريم- عليه السلام- مما أجراه على يديه من الآيات والمعجزات وخوارق العادات.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف بمعنى «حين»، متعلق بفعل محذوف تقديره: اذكر، وهو بدل من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾، أي: اذكر حين يقول الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ وذلك يوم القيامة.

﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، «يا»: أداة نداء، (عيسى): منادى، ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: صفة لـ«عيسى».

﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ الجملة في محل نصب مقول القول، و«نعمة» مفرد

مضاف إلى معرفة فيعم، أي: اذكر النعم التي أنعمت بها عليك، مما لم أنعم به على غيرك. والذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، معطوف على ما قبله، أي: واذكر نعمتي على والدتك، باصطفائها وتطهيرها والثناء عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢].

ونعم الله على عيسى- عليه السلام- نعم على والدته من نبوته وتكليمه في المهد وشهادته ببراءتها وما أعطي من الآيات الكونية والشرعية.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ«نعمة» في قوله: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾، فهو وما بعده تفصيل لهذه النعمة وبيان لها.

﴿أَيَّدتُّكَ﴾، التأييد: التقوية والتثبيت، أي: حين قويتك وثبتك.

﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، روح القدس هو جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤].

أي: حين ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل- عليه السلام- يقويك ويثبتك.

وقال السعدي[1]: «إذ قويتك بالروح والوحي الذي طهرك وزكاك وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله».

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، الجملة استئنافية بيانية، ويجوز كونها حالية. ومعنى ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، أي: تدعوهم إلى الله وتفصح لهم في الكلام.

﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾، أي: حال كونك صغيرًا في المهد، والعادة أن الصغير لا يتكلم، ولو تكلم لم يفصح في الكلام، فضلًا أن يدعو إلى الله تعالى. ﴿وَكَهْلًا﴾، أي: وحال

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٣٦٠).

كونك كهلًا، أي: كبيرًا.

و«الكهل» ما بين الثلاثين إلى الخمسين، وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

والحكمة في ذكر تكليمه وهو كهل، لبيان أن تكليمه ودعوته وهو صغير كتكليمه ودعوته وهو كبير، كما قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٢٩- ٣٣].

قال ابن كثير[1] في كلامه على قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾: «أي: جعلتك نبيًّا داعيًا إلى الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيرًا فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوتك إلى عبادتي؛ لهذا قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، وضمن ﴿تُكَلِّمُ﴾ تدعو، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب».

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ الجملة معطوفة على ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، أي: واذكر نعمتي عليك إذ أيدتك وإذ علمتك ﴿الْكِتَابَ﴾، أي: الكتابة والخط، أو جنس الكتب السماوية.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: العلم والفهم، ومعرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾: وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام.

﴿وَالْإِنجِيلَ﴾: وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام، وهو مكمل للتوراة، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، أي: وإذ تصنع وتصور من

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢١٨).

الطين، ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ الكاف اسم بمعنى: «مثل»، أي: مثل شكل الطير وصورته. ﴿بِإِذْنِى﴾ متعلق بـ﴿تَخْلُقُ﴾، أي: بإذني الكوني لك بذلك.

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ معطوف على ﴿تَخْلُقُ﴾، أي: فتنفخ في هذه المخلوقة التي خلقتها من الطين كهيئة الطير، ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ﴾ معطوفة على ﴿فَتَنفُخُ﴾.

قرأ نافع «طائرًا»، أي: فتصير طائرًا يطير، وقرأ الباقون: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾، أي: فتصير طيرًا حيًّا ذا روح، ﴿بِإِذْنِىۖ﴾، أي: بإذني الكوني.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ﴾ معطوف على ﴿تَخْلُقُ﴾، أي: وإذ تبرئ أي: تشفي ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأعمى الذي يولد مطموس البصر، ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ من به داء البرص، وهو مرض جلدي مستكره، ﴿بِإِذْنِىۖ﴾، أي: بإذني الكوني.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ﴾ معطوف على ﴿تَخْلُقُ﴾، أي: وإذ تخرج الموتى بأن تدعوهم فيقومون من قبورهم أحياء بإذني، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ﴾ [الآية:٤٩]، والإحياء والإخراج بمعنى واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:١١]، وقال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥].

فجمع الله له في هذا بين إحياء الموتى قبل الدفن، وبعد الدفن- بإذنه عز وجل.

والمراد بالإذن- كما سبق- إذن الله الكوني؛ لأن إذن الله ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي. وكرر قوله: ﴿بِإِذْنِىۖ﴾؛ لبيان أن هذه الآيات والمعجزات لم تكن إلا بإذن الله تعالى الكوني وقدرته ومشيئته؛ امتنانًا على عيسى عليه السلام؛ ولئلا يغتر أحد بكونه يحيي الموتى، فيرفعه إلى مقام الألوهية، كما فعل جهلة النصارى.

وحيث كان مبعثه في عصر اشتهر فيه الطب وتقدم أعطاه الله من المعجزات في هذا الفن ما يعجز عنه الأطباء من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، أي: واذكر نعمتي عليك إذ كففت بني إسرائيل عنك، أي: منعت بني إسرائيل، وصرفتهم

عنك مع شدة حقدهم وعداوتهم، وقلة أنصارك حتى أديت رسالة ربك، وعصمتك منهم حين هموا بقتلك وصلبك، وأجمعوا على ذلك، فرفعتك إليَّ وكفيتك شرهم.

﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: حين جئتهم بالآيات البينات، وتبين لهم الأمر، وقامت عليهم الحجة بنبوتك ورسالتك.

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جواب: ﴿إِذْ﴾، ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: من بني إسرائيل.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «ساحر» والإشارة في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ إلى عيسى المفهوم من قوله: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: ما هذا- يعنون «عيسى» إلا ساحر مبين.

وقرأ الباقون بكسر السين وإسكان الحاء من غير ألف ﴿سِحْرٌ﴾، والإشارة على هذا إلى ما جاءهم به عيسى من الآيات البينات الكونية والشرعية.

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن واضح في نفسه أنه ساحر، وهذا على قراءة «إلا ساحر مبين» أو بيِّن في نفسه أنه سحر، ومبين عمن جاء به أنه ساحر، وهذا على قراءة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: قالوا: إن هذا سحر بيّن، ومن جاء به ساحر يجب قتله- كما جاء في التوراة.

وهكذا قيل لجميع الرسل- عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾، الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾، فهي ضمن النعم التي أنعم الله بها على عيسى ووالدته، والتقدير: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾... ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾... ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾... ﴿وَإِذْ

كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾... ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾.. فهذه خمس نعم عظيمة في طي كل منها عدد من النعم.

و«الحواريون»: جمع «حواري»، وهم الأنصار والخلّص من الأصحاب، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف:١٤].

وقال ﷺ: «**لكل نبي حواريٌّ، وحواريَّ الزبير بن العوام**»(١).

ومعنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾، أي: أوحيت إليهم وحيًا شرعيًّا على لسانك بما أوحيته إليك بأمرهم بذلك، ووحيًا إلهاميًّا بأن ألهمتهم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨].

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾، ﴿أَنْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿أَوْحَيْتُ﴾، أي: الإيمان بي.

أو في محل جر بحرف جر مقدر، أي: بأن آمنوا، و﴿أَنْ﴾ تفسيرية، فيها تفسير لما أوحاه الله إلى الحواريين، ﴿ءَامِنُوا۟ بِى﴾، الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَبِرَسُولِى﴾، أي: وآمنوا برسولي عيسى- عليه السلام- بتصديقه وطاعته، وذلك موجب الإيمان بجميع الرسل قبله، وبخاتمهم وسيدهم محمد ﷺ.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟﴾، أي: قالوا صدقنا بقلوبنا وألسنتنا.

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، أي: واشهد يا ربنا، بأننا مستسلمون لك منقادون بجوارحنا. ويحتمل كون الخطاب لعيسى، أي: واشهد يا عيسى بأننا مسلمون لله،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٧)، ومسلم في فضائل الصحابة- من فضائل طلحة والزبير (٢٤١٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (١٢٢)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

فجمعوا بين الإيمان والإسلام، بين الإيمان باطنًا وظاهرًا.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾، أي: اذكر إذ قال الحواريون.

﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، لم يقولوا يا نبي الله، أو يا رسول الله، بل نادوه باسمه، وقد يكون هذا سائغًا في شرعهم، أما في شرعنا فقد نهى الله- عز وجل- هذه الأمة عن ذلك، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣] أي: بأن تدعوه بقولكم: يا محمد، يا أبا القاسم، بل نادوه باسم ووصف النبوة والرسالة: يا نبي الله، يا رسول الله.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قرأ الكسائي: «هل تستطيعُ» بالخطاب، «ربَّك» بالنصب، أي: هل تستطيع أن تسأل ربك وفاعل «تستطيع» ضمير مستتر يعود إلى عيسى، أي: هل تستطيع أنت أن تسأل ربك. وقرأ الباقون: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالغيب، و﴿رَبُّكَ﴾ بالرفع فاعل.

وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾.

قال الطبري[1]: «بمعنى: هل يستجيب لك إن سألته ذلك ويطيعك فيه».

فهو من باب العرض والدعاء في لغتهم والتلطف والتأدب في السؤال، وليس شكًّا منهم في قدرة الله تعالى- واستطاعته، فهم صفوة أصحاب عيسى- عليه السلام- وأنصاره، كما قالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

وقد أثنى الله تعالى عليهم، وأمر المؤمنين بالتشبه بهم في مناصرته- عز وجل- بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

---

(١) في «جامع البيان» (٩/ ١١٨).

﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول، ﴿يَسْتَطِيعُ﴾، أي: هل يستطيع ربك إنزال مائدة.

﴿مَآئِدَةً﴾ المائدة: هي الخوان عليه طعام.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ﴿مَآئِدَةً﴾، أي: من العلو، أو من السماء التي هي السقف المحفوظ.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولا تسألوا أو تقترحوا من الآيات ما هو خارج عن العادة، مما قد يكون فتنة لكم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مؤمنين بالله وبما أوجب الإيمان به، وبكمال قدرته على كل شيء، فاتقوا الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا في بيان سبب سؤالهم هذا السؤال العجيب.

﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب، أي: نريد الأكل منها.

وجملة ﴿نُرِيدُ﴾ وما عطف عليها في محل نصب مقول القول، أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها.

﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ هذه الجملة والجملتان بعدها معطوفة على ﴿نُرِيدُ﴾، أي: ونريد أن تطمئن قلوبنا، ونعلم أن صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين.

ومعنى ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، أي: تزداد إيمانًا ويقينًا وطمأنينة، بأن يجتمع عندنا مع علم اليقين عين اليقين، ومع الدليل العقلي الدليل الحسي، كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، أي: ونعلم علم ضرورة، أن قد أخبرتنا بالصدق فيما

جئتنا به من الرسالة ولم تكْذِبْنا، بل جئت بالحق.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي: ونكون على هذه المائدة من الشاهدين، وقدم المتعلق ﴿عَلَيْهَا﴾ مراعاة للفواصل.

أي: ونكون على هذه المائدة من الشاهدين، بأن نشهدها بأعيننا، وليس الخبر كالعيان، كما قال ﷺ: «**ليس الخبر كالعيان**»(١).

ونشهد بنزولها لمن بعدنا، ونبلغها من لم يشهدها، فتكون آية لنا ولهم على كمال قدرتك ووحدانيتك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ سائلًا ربه عز وجل؛ استجابة لطلب الحواريين: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾، أي: تكون لنا عيدًا وموسمًا نتذكر به هذه الآية العظيمة ولا ننساها، والعيد اسم لما يعود كل سنة ومنه الأعياد الشرعية في الإسلام: عيد الفطر، وعيد الأضحى. قال ﷺ: «**إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا**»(٢).

﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل بعض من قوله: ﴿لَنَا﴾، وتفصيل له، أي: لأولنا وهم الذين كانوا على عهد عيسى- عليه السلام، ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ وهم الذين يأتون بعده إلى الذين ختمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ معطوف على ﴿عِيدًا﴾، أي: وتكون آية منك، أي: علامة منك على كمال قدرتك وسعة سمعك وعلمك وعلى إجابتك دعوتي، فيصدقوني فيما أبلغهم عنك.

﴿وَٱرْزُقْنَا﴾، أي: اجعلها رزقًا لنا وأعطنا من فضلك، والرزق العطاء.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والحاكم (٢/ ٣٥١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٥٢)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٩٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ثناء من عيسى- عليه السلام- على ربه عز وجل، أي: وأنت خير الرازقين وأجودهم وأكرمهم- فلا أحد أجود ولا أكرم منه- سبحانه وتعالى- وكل ما بيد الخلق فهو من رزقه.

وإضافة الرزق إلى غيره إنما هي إضافة نسبية.

فسأل عليه السلام نزولها لمصلحتين: مصلحة الدين، بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقًا لهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ استجابة لدعاء عيسى- عليه السلام.

﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ﴾ قرأ أبوجعفر ونافع وابن عامر وعاصم: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بتشديد الزاي، وقرأ الباقون بالتخفيف «مُنْزِلها»، أي: منزلها عليكم في الحال أو في المستقبل.

وهذا وعد من الله- عز وجل- بإنزالها عليهم أُعقب بوعيد من يكفر بعد إنزالها منهم بالعذاب الشديد؛ لأنه تعاضد لديهم العقل والحس فلم يبق لهم عذر، وأيضًا عقوبة لهم؛ لأنهم هم الذين طلبوها واقترحوها.

ولهذا اختلف العلماء هل أنزلها الله، أو لم ينزلها؟ على قولين.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل الشرط. وجوابه: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر: «فإنيَ» بفتح الياء، وقرأ الباقون: ﴿فَإِنِّيٓ﴾ بتسكينها، أي: فمن يكفر ويكذب بعد إنزالها ﴿مِنكُمْ﴾ أيها النصارى.

﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق، أي: عذابًا عظيمًا ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجملة صفة لـ﴿عَذَابًا﴾.

وضمير الهاء في قوله: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ يعود إلى ﴿عَذَابًا﴾، أي: لا أعذب مثل هذا العذاب أحدًا من العالمين؛ لأنه كَفَر بعد ما اجتمع لديه دليل العقل والحس، وعلم اليقين مع عين اليقين فلا عذر له.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة وهوله، وجمع الرسل والخلائق فيه، ووجوب تذكّره؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: اذكر يوم يجمع الله الرسل، كما يجمع بقية الخلق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود:١٠٣].

٢- سؤال الرسل يوم القيامة ماذا أجيبوا، تشريفًا لهم، وتصديقًا وتأييدًا، وتوبيخًا لأممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾.

٣- إشعار الرسل عليهم السلام بخروجهم من عهدة الرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، أي: ماذا أجابكم من أرسلتم إليه، ولم يقل «هل بلغتم رسالاتي».

٤- إثبات كمال قدرة الله تعالى وعظمته ووجوب خوفه وخشيته، حيث يجمع الرسل وغيرهم من الخلائق كلهم في هذا اليوم العظيم ويسألهم ويحاسبهم.

٥- إثبات القول والكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

٦- تأدب الرسل عليهم الصلاة والسلام مع الله تعالى؛ لقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ فهم لا يعلمون ما حدث بعدهم، ولا يعلمون ما تنطوي عليه القلوب، ويعلمون قبل ذلك أن الله- عز وجل- أعلم منهم.

٧- اختصاص الله- عز وجل- بعلم الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

٨- أن من ادعى علم الغيب فهو كافر؛ لأنه نازع في خصوصية من خصائص الله تعالى وهو علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل.

٩- تذكير هذه الأمة بما قاله الله- عز وجل- لعيسى- عليه السلام- من تذكيره بنعمة الله تعالى عليه وعلى والدته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ الآية.

١٠- تذكير عيسى- عليه السلام، يوم القيامة بنعمة الله تعالى عليه وعلى أمه امتنانًا عليه وعلى أمه، وتبكيتًا لليهود الذين أنكروا رسالته وزعموا أنه ساحر، وتنقصوا

أمه ورموها بالفاحشة.

١١- التذكير بقدرة الله تعالى على خلق عيسى من أم بلا أب؛ لهذا يذكر منسوبًا إلى أمه (عيسى ابن مريم) بينما يذكر غيره من الأنبياء من غير نسبة ولا لآبائهم. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون:٥٠].

كما أن في هذا الرد على النصارى على تأليههم له وزعمهم أنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة- تعالى الله- عن ذلك.

١٢- جواز نسبة الابن إلى أمه، إذا لم يكن له أب، كما إذا نفى الزوج الولد عن نفسه، وكما في ولد الزنا قال ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»(١).

١٣- إثبات رسالة عيسى- عليه السلام، وتشريف الله تعالى له وتكريمه بندائه له وتذكيره بنعمه والامتنان عليه بذلك.

١٤- أن شكر الله تعالى واجب على الرسل- كغيرهم من الخلق، بل الشكر على الرسل أوجب؛ لأن النعمة عليهم أعظم؛ ولهذا كان نبينا ﷺ يقوم حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة- رضي الله عنها: لم تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(٢).

١٥- عظم نعم الله تعالى على عيسى- عليه السلام- وعلى والدته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ الآية.

١٦- نعمة الله تعالى على مريم- عليها السلام- بأن جعل ابنها عيسى- عليه السلام- نبيًا يكلم في المهد ويشهد ببراءتها، ووفقها لإحصان فرجها، والتصديق بكلمات ربها وكتبه والقنوت له، وأثنى عليها.

١٧- أن من أعظم نعم الله تعالى على عيسى- عليه السلام- تأييد الله له بجبريل- عليه

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥٣)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٧)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٧٣)، والنسائي في الطلاق (٣٤٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

السلام، وتمكينه من تكليم الناس وهو صغير، وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ﴾.

١٨- إثبات وجود الملائكة، وفضل جبريل- عليه السلام- بينهم؛ لأن الله يؤيد به رسله وهذا منقبة عظيمة له، وسماه «روح القدس»، والقدس: الطهر.

١٩- تكليم عيسى- عليه السلام- للناس، ودعوته لقومه وهو صغير في المهد، مما لم يكن لغيره من الأنبياء؛ ولهذا امتن الله تعالى عليه وعلى أمه بذلك.

٢٠- أن الشيء بالشيء يذكر وبضدها تتميز الأشياء، فقوله: ﴿وَكَهْلًا ۖ﴾ ليس مقصودًا لذاته، وإنما لبيان أن كلامه في المهد مثل كلامه وهو كهل سواء.

٢١- أن من أعظم النعم نعمة العلم الشرعي والكتاب والحكمة وهي معرفة أسرار الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ﴾.

٢٢- في الامتنان على عيسى- عليه السلام- بتعليمه التوراة والإنجيل دلالة على أن عيسى يحكم بالتوراة والإنجيل، وأن الإنجيل مكمل للتوراة.

٢٣- أن من أعظم الآيات التي أعطاها الله- عز وجل- لعيسى- عليه السلام- أن جعله يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، ويشفي المرضى بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٩].

وكان قد اشتهر الطب في زمانه فأعطاه الله من الآيات ما يتفوق به على أهل هذا الفن في زمانه.

٢٤- إثبات إذن الله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾، كما أن له- عز وجل- الإذن الشرعي، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى:٢١] أي: ما لم يأذن به الله شرعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾ [الحج:٣٩] أي: أذن لهم شرعًا.

٢٥- أن من نعم الله تعالى على عيسى- عليه السلام- كف بني إسرائيل عنه، ومنعهم من قتله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾.

٢٦- أن الله يدافع عن رسله وأوليائه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج:٣٨].

٢٧- إقامة عيسى- عليه السلام- الحجة على بني إسرائيل بما جاء به من الآيات البينات الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٢٨- تمرد بني إسرائيل وعتوهم وعنادهم، حيث زعموا أن ما جاءهم به عيسى من الآيات ما هو إلا سحر مبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢٩- جرأة بني إسرائيل وتوافقهم مع غيرهم من المكذبين للرسل في رميهم بالسحر، كما قال في المكذبين من هذه الأمة: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢، ٥٣].

٣٠- إثبات وحي الله عز وجل إلى الحواريين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهو قسمان: وحي شرعي بما بلغه إياهم عيسى عليه السلام، ووحي كوني إلهامي بالهامهم الإيمان وتوفيقهم له، والآية محتملة للقسمين.

٣١- أن عيسى- عليه السلام- كان له حواريون، أي: أصحاب ذوو صفاء في مودتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾، وكما قال تعالى في سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف:١٤].

٣٢- وجوب الإيمان بالله ورسله، وأنهما متلازمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾.

٣٣- استجابة الحواريين لما أوحي إليهم به بقولهم: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ فأعلنوا انقيادهم باطنًا بالإيمان وظاهرًا بالإسلام.

٣٤- أن شهادة الخلق إنما تكون على الظاهر دون الباطن؛ لقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، ولم يقولوا: «بأننا مؤمنون»، وأما الخالق سبحانه فالظاهر والباطن عنده سواء.

٣٥- جفاء الحواريين في خطابهم الحواريين لعيسى- عليه السلام- بقولهم: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وذلك من وجوب:

أولًا: من حيث نداؤهم له باسمه دون وصف النبوة والرسالة، وقد نهى الله تعالى هذه الأمة عن ذلك، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣].

ثانيًا: من حيث ما قد يوهمه قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ من شك في قدرته- عز وجل- واستطاعته.

ثالثًا: من حيث قولهم: ﴿رَبُّكَ﴾، والأولى أن يقولوا: ﴿رَبَّنَآ﴾ تعظيمًا لله- عز وجل؛ لأن ربه وربهم واحد هو الله- سبحانه وتعالى.

٣٦- وجوب تقوى الله، وأن ذلك من شرط الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣٧- أن من شرط الإيمان، وتقوى الله: عدم سؤال أو اقتراح ما هو خارج عن العادة.

٣٨- جمع الحواريين في سؤالهم إنزال المائدة بين المطلب الدنيوي والديني؛ لقولهم: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

٣٩- أن رؤية الآيات عيانًا أقوى في اليقين والطمأنينة من الخبر، وأشد تصديقًا له؛ لقولهم: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

٤٠- شهادة الأمم لرسلهم وما جاؤوا به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وذلك في الدنيا والآخرة.

٤١- حرص عيسى- عليه السلام- على تأليف الحواريين وغيرهم من بني إسرائيل على الهدى والإيمان؛ ولهذا سأل الله تعالى أن ينزل عليهم مائدة من السماء استجابة لطلبهم وإلحاحهم، وخوفًا أن يدخلهم الشك إن لم يستجب لهم بعد أن خوفهم وأمرهم بتقوى الله، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا﴾.

٤٢- فضيلة الدعاء بهذين الاسمين «الله»، و«الرب»: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ لما فيه من الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، والتوسل إليه بألوهيته وربوبيته؛ ولهذا دعا به عيسى- عليه السلام

قال ابن القيم[1]: «وجاء دعاء المسيح: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فذكر الأمرين ولم يجيء في القرآن سواه، ولا رأيت أحدًا تعرض لهذا، ولا نبه عليه، وتحته سر عجيب دال على كمال معرفة المسيح بربه وتعظيمه له... إلى أن قال: فأتى بالاسمين اسم «الله» الذي يُثنى عليه به، واسم «الرب» الذي يُدعى ويسأل به لما كان المقام مقام الأمرين».

٤٣- أن هذه الآية تكون عيدًا للنصارى- كما أنها آية من آيات الله على صدق عيسى- عليه السلام- فيما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾ على خلاف فيها هل نزلت أو لم تنزل.

٤٤- ينبغي طلب الرزق من الله وحده فهو خير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٣١- ١٣٢).

٤٥- أن عيسى- عليه السلام- مفتقر إلى الله تعالى، ودعائه وسؤاله- كغيره من الرسل، وغيرهم من البشر، وفي هذا إبطال لتأليه النصارى له، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧].

٤٦- وعد الله تعالى لبني إسرائيل بإنزال المائدة عليهم مع الوعيد الشديد لهم إن هم كفروا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقد اختلف أهل العلم: هل أنزل الله هذه المائدة أو لم ينزلها، فمنهم من قال: إن الله أنزلها؛ لأنه وعد بذلك ووعده حق وصدق، فكانت سببًا لكفرهم وتحقيق وعيد الله فيهم، وهو قول جمهور المفسرين واختاره الطبري(١) وصوّبه ابن كثير(٢). وقالوا: كونها لم تذكر في كتب النصارى، ولا يذكرونها لا يدل على عدم نزولها فقد تكون من الحظ الذي نسوه، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]. وخاصة إذا كانت لم تذكر في الإنجيل، وإنما توارثوها بينهم بنقل الخلف عن السلف، كما يشير إلى هذا قولهم: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

ومنهم من قال: إن الله لم ينزلها؛ لأنه شرط لإنزالها أن لا يكفروا، ورتب هذا الوعيد الشديد لمن كفر منهم بعد إنزالها، ولم يقبلوا بهذا الشرط الثقيل، بل تراجعوا عن طلبهم- والله أعلم.

٤٧- أن طلب الآيات من الرسل مما هو خلاف ما جرت به العادة قد يكون سببًا للعذاب.

٤٨- تفاوت عذاب المعذبين، فمنهم من يعذب أشد العذاب، ومنهم من يعذب أخف العذاب، ومنهم بين ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ١٣١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٢٦).

٤٩- أن كفر من طلبوا الآيات ورأوها وعذابهم أشد من كفر وعذاب من رأوها ولم يطلبوها، كما أن كفر من رأوا الآيات وعذابهم أشد من كفر وعذاب من سمعوا بها ولم يروها، لأنه ليس الخبر كالمعاينة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

قدم عز وجل في الآية السابقة تذكير نبيه عيسى- عليه السلام- بنعمته عليه وعلى والدته، وما أيده به وأعطاه من الآيات الكونية والمعجزات للإشعار بكمال عبوديته لله، وطمأنة له بين يدي هذا السؤال في هذه الآية، والذي فيه توبيخ وتقريع النصارى في اتخاذه وأمه إلهين من دون الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، أي: واذكر إذ قال الله: يا عيسى ابن مريم، أي: حين يقول الله ذلك لعيسى يوم القيامة، وذلك؛ لقوله بعده: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، ولأن عبادة عيسى إنما حدثت بعد رفعه.

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ الاستفهام: لتوبيخ النصارى وتقريعهم على رؤوس الأشهاد؛ لاتخاذهم عيسى وأمه إلهين من دون الله؛ لأن الله يعلم أن عيسى- عليه السلام- لم يقل ذلك. وإنما هذا ترهيب لهم ووعيد وتهديد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، أي: سئلت؛ لتوبيخ الذي وأدها.

قال ابن كثير[1]: «هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٢٦- ٢٢٧).

مريم- عليه السلام- قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد».

﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وأبوعمرو وابن عامر وحفص: ﴿وَأُمِّيَۖ﴾ بفتح الياء، وقرأ الباقون «أميْ» بإسكانها.

والمعنى: أأنت قلت للناس اجعلوني وأمي معبودين سوى الله. فالمطلوب تعيين الفاعل، ولو كان المراد تعيين الفعل، لقال: أقلت للناس.

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾، «سبحان»: مفعول مطلق، أي: تنزيهًا لك أن يكون لك شريك، وعن كل عيب ونقص.

وهذا توفيق الله لعيسى- عليه السلام- وأدبه مع ربه بادر لما هو أهم وهو تنزيه ربه عز وجل، وقدم ذلك على تبرئته لنفسه.

﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير وأبوعمرو «ليَ» بفتح الياء، وقرأ الباقون: ﴿لِيٓ﴾ بإسكانها، أي: ما ينبغي لي وما يمكن.

﴿أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، ﴿أَنۡ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم ﴿يَكُونُ﴾ مؤخر، أي: ما يكون لي قولُ ما ليس لي بحق، و﴿مَا﴾: موصولة.

﴿بِحَقٍّۚ﴾، الباء زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي من حيث المعنى.

أي: ما ينبغي لي ولا يمكن أن أقول للناس في حق نفسي: (الذي ليس لي بحق)، أي: الذي ليس من حقي، فليس من حقي أن أقول للناس ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، وليس من حقي أن أُعبد من دون الله.

﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ الجملة مستأنفة، وهي دليل وحجة لمضمون الجملة التي قبلها، و﴿إِن﴾: شرطية، و﴿كُنتُ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾.

والضمير في ﴿قُلۡتُهُۥ﴾ و﴿عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ يعود إلى ما جاء في السؤال وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، ولم يقل عليه السلام: لم أقله، بل

قال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، وقدم هذا على النفي في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ لأنه أبلغ، ويدل على غاية الأدب منه- عليه السلام- مع ربه، فاستدل على انتفاء أن يقوله بأن الله يعلم أنه لم يقله، لتحققه أنه لم يقله، ولذلك أحال على علم الله تعالى، كما تقول العرب: «يعلم الله أني لم أفعل» كما قال الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صال(١)

﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ بيان لجملة الشرط قبلها، و﴿مَا﴾: موصولة، أي: تعلم الذي أضمر في نفسي مما لم أقله ولم أفعله، فعلمك بما قلته من باب أولى، وفي هذا بيان من عيسى أنه لم يقله، ولم يضمره في نفسه.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، أي: ولا أعلم الذي في نفسك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الجملة تعليل لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾، و«إنَّ» فيها تفيد التعليل، أي: لأنك أنت علام الغيوب، و﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل يفيد الحصر وقد أكدت الجملة بأربع مؤكدات: إنَّ، وصيغة الحصر، وجمع الغيوب، وأداة الاستغراب، أي: إنك أنت وحدك علام الغيوب، أي: ذو العلم البالغ في الغيوب كلها، والغيوب كل ما غاب عن الخلق وخفي عليهم.

قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾.

بعد أن تبرأ عيسى- عليه السلام- من أن يكون أمر بني إسرائيل بما اختلقوه عليه، أتبع ذلك بيان أنه أمرهم بعكس ذلك حسب ما أمره الله تعالى به، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، و﴿مَآ﴾ الثانية: موصولة، أي: ما قلت للناس إلا الذي أمرتني بقوله، أي: إلا الذي كلفتني

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٥).

بإبلاغه وقوله بأمرك لي، وذكر هذا وقدمه على قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾؛ لبيان أنه رسول مبلغ ملتزم بما أمره الله بقوله.

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، ﴿أَنِ﴾: تفسيرية، فجملة ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ تفسير للذي أمره الله به وهو أن يقول لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

وقوله: ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ بدل من لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، أو صفة له، أي: اعبدوا الله وحده؛ ربي وربكم المستحق للعبادة دون سواه، والربوبية تستلزم الألوهية، وفيه تعريض بنهيهم عن إشراكه وأمه مع الله.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أشهد عليهم وعلى أعمالهم وأقوالهم، من قام بأمرك ومن لم يقم، وآمرهم وأنهاهم.

﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، أي: مدة دوامي وبقائي فيهم، وبين أظهرهم.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾، أي: فلما قبضتني ورفعتني إليك، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٨٥].

﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: كنت أنت المطلع الحفيظ عليهم، علمك محيط بهم وبأعمالهم تحاسبهم وتجازيهم.

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعميم بعد تخصيص، أي: وأنت على كل شيء شهيد، أي: مطلع، علمًا وسمعًاوبصرًا، لا يخفى عليك شيء، فشهادتك أعلى وأعم من كل شهادة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «**يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله- عز وجل- حفاة عراة غرلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وإن أول الخلائق يُكسى إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ**

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، فيقال: **إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»**(١).

قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

عن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: «صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

فلما أصبح قلت: يا رسول الله، مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: **إني سألت ربي- عز وجل- الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئًا»**(٢).

قال ابن كثير(٣): «هذه الآية لها شأن عظيم، ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددها» وذكر حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ﴿إِن﴾: شرطية، ﴿تُعَذِّبْهُمْ ﴾: فعل الشرط، أي: إن تعذبهم بما اقترفوا من ذنوب استحقوا بها العذاب، فذلك غاية العدل.

﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾: جواب الشرط، والمراد بالعبودية هنا العبودية الكونية، لا العبودية الشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]؛ لأن من كان من أهل العبودية الشرعية لا يستحق العذاب.

أي: فإنهم عبادك كونًا خلقتهم ورزقتهم وأنعمت عليهم سائر نعم الربوبية العامة، وشأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، فإن عذبتهم مع كونهم عبيدك، فهذا دليل على أنهم عبيد سوء، ومن أشد العبيد إباقًا وخروجًا عن طاعة سيدهم، فهو- عز وجل- أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إلى عبيده، فلا يعذبهم إلا لفرط عتوهم وعنادهم وخروجهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، أي: وإن تتجاوز عنهم فلا تعذبهم، وتعفو عن ذنوبهم

---

(١) سبق تخريجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٩).

(٣) في «تفسيره».

وتسترها، وذلك فيما هو دون الشرك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنَّ»: للتوكيد، وضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾ للحصر والتوكيد أيضًا.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» يدل على أنه- عز وجل- ذو العزة التامة، عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع، فهو القاهر الغالب، وهو القوي المتين، وهو الممتنع عن كل عيب ونقص، ومن أن يناله سوء.

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعيل» يدل على أنه- عز وجل- ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

والمعنى: وإن تغفر لهم فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، وحكمة وعلم لا، كمن يعفو ويغفر عن عجز وعدم قدرة.

كما أن تعذيبه من يستحق العذاب منهم صادر عن عزته وحكمته وكمال علمه وعدله.

قال ابن القيم[1]: «﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل: «الغفور الرحيم»، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قال في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم.

فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم»؛ لأشعر باستعطاف ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم. والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٣٣).

بمقدار جرائمهم. وهذا؛ لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب».

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩ ﴾.

قوله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ ﴾ قرأ نافع: «يومَ»، بنصب الميم على الظرفية، وقرأ الباقون: ﴿يَوۡمُ﴾ بالرفع على أنه خبر المبتدأ ﴿هَٰذَا﴾، والإشارة إلى يوم القيامة.

﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾، ﴿يَنفَعُ﴾، أي: يثمر ويفيد ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جمع «صادق»، أي: الذين صدقوا مع الله في محبته وطاعته وطلب مرضاته وجنته، وصدقوا مع أنفسهم في طلب النجاة والسعادة والفلاح لها في الدنيا والآخرة.

﴿صِدۡقُهُمۡۚ﴾، الصدق: ضد الكذب، ويكون بالاعتقاد والقول والفعل، فيكون الصدق في الاعتقاد وهو ما في القلب والباطن بموافقته للقول والعمل الظاهر، ويكون الصدق في القول بمطابقة الخبر والقول للواقع كونًا وشرعًا، ويكون الصدق في الفعل بمطابقة الفعل للشرع والاعتقاد والقول.

والصديقية أعلى المراتب بعد النبوة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩].

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ مبنية لجملة ﴿يَنفَعُ﴾، باعتبار أنها أكمل أحوال النفع.

﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، للدلالة على الاختصاص، أي: لهم دون غيرهم ﴿جَنَّٰتٞ﴾، وهي: جمع «جنة»، وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، وما في داخلها من الجنان والغرف، وما فيها ألوان النعيم.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الجملة صفة لـ﴿جَنَّٰتٞ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وغرفها وقصورها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر:٢٠].

وهي أصناف أربعة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

يُصرِّفونها ويُجْرونها حيث شاؤوا بلا أخدود، قال ابن القيم(١):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان
من تحتهم تجري كما شاؤوا مفجـ ... ـرة وما للنهر من نقصان

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: مقيمين وماكثين فيها إقامة ومكثًا أبديًّا، لا يحول ولا يزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها ولا يخرجون منها.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ لإيمانهم وعملهم الصالحات، وخشيتهم ربهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٧-٨].

وفي الحديث قوله- عز وجل- لأهل الجنة: «**أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم**»(٢).

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما وفقهم له من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وبما أثابهم عليه في الآخرة من الجنات وما فيها من النعيم المقيم، وأعلى ذلك وأجله النظر إلى وجهه الكريم.

يجد أثر هذا الرضا المؤمن في الدنيا فتجده مغتبطًا مسرورًا بتوفيقه للإيمان والعبودية لله تعالى والانقياد لطاعته، لسان حاله كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»(٣). وقوله: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»(٤).

---

(١) في «النونية» ص(٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) «الوابل الصيب» (١/ ٦٩).

(٤) انظر «مدارج السالكين» ١/ ٤٢٩.

ويجد المؤمن أثر هذا الرضا في الآخرة بالمسرة الكاملة بما جازاهم الله به من الجنة ورضوانه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشار إلى ما أعده الله تعالى للصادقين من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والخلود فيها، ورضى الله عنهم ورضاهم عنه.

وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لعلو شأنه ومرتبته، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: الفلاح والسعادة بالنجاة من المرهوب وحصول المطلوب، بالنجاة من النار ودخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، أي: ذو العظمة البالغة المتناهية، الذي لا أعظم منه ولا أكبر، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]. ولا يقدر قدر عظمة هذا الفوز إلا الذي وصفه بذلك وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

أنكر الله- عز وجل- على النصارى تأليههم عيسى- عليه السلام- وأمه وأثبت براءة عيسى- عليه السلام- من ذلك، ثم أتبع ذلك بما ختم به هذه السورة العظيمة، وهو بيان أن له- عز وجل- وحده ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير، فلا يشاركه في ملكه ولا في قدرته أحد من خلقه.

قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم للدلالة على اختصاصه- عز وجل- بذلك، أي: لله وحده ملك السموات والأرض وما فيهن، فهو المالك لذلك كله ملكًا عامًّا، وهو المتصرف فيه تصرفًا مطلقًا.

﴿وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾، «ما»: موصولة، أي: والذي فيهن، أي: والذي في السموات والأرض من المخلوقات من العالِم، وغير العالِم، وعبر بـ«ما» وهي لغير العالِم، إما باعتبار أن أكثر المخلوقات في السموات والأرض من غير العالِم، أو باعتبار أحوال المخلوقات كلها وصفاتها كلها من غير العالِم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، الواو: عاطفة، و«هو»: مبتدأ، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبر. وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء.

و«القدير» الذي يفعل الشيء بلا عجز، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القول والكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ الآية.

٢- إثبات سؤال الله تعالى لعيسى عليه السلام، وكذا غيره من الرسل- عليهم السلام.

٣- التنبيه على كمال قدرة الله تعالى في خلق عيسى من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

٤- توبيخ النصارى والإنكار عليهم في اتخاذهم عيسى وأمه إلهين من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾، فالاستفهام- وإن كان موجهًا إلى عيسى- عليه السلام- فالمراد منه توبيخ بني إسرائيل على اتخاذه وأمه إلهين من دون الله.

٥- أن الاستفهام قد يوجه للشخص والمقصود توبيخ غيره كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨، ٩]، فسؤال الموؤودة إنما هو لتوبيخ الذي وأدها، إذ لا ذنب لها.

٦- تعظيم عيسى- عليه السلام- لربه وتنزيهه له من الشرك والعيب والنقص؛ لقوله عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾.

٧- أن عيسى- عليه السلام- لا يمكن أن يقول ما ليس له بحق، وكذا غيره من الرسل؛ لأنهم معصومون في تبليغ رسالات ربهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿مَا يَكُونُ

لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾.

٨- اعتراف عيسى- عليه السلام- أن العبادة حق خاص لله تعالى وحده، وأنه ليس من حقه أن يعبد من دون الله، ولا أن يقول للناس: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾.

وهكذا فعل نبينا محمد ﷺ لما قال له رجل: «ما شاء الله وشئت» قال: «أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده»(١)، وقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»(٢).

٩- إثبات علم الله تعالى بما يقول العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾.

وإثبات علم الله تعالى بما في النفوس وما تكنه القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤، التغابن:٤].

١٠- أن الخلق لا يعلمون ما عند الله، ولا يعلمون ما في نفسه وغيبه وما يختص به سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾.

١١- إطلاق النفس على الذات؛ لقوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**وأنا مع عبدي حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**»(٢).

١٢- إثبات وتأكيد علم الله التام بالغيوب كلها، وتفرده وحده بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

١٣- أدب عيسى- عليه السلام- مع ربه وثناؤه عليه؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، فهذا فيه غاية الأدب، فلم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

يقل: «لم أقله»، بل استدل على نفيه بعلمه تعالى له لو كان قاله. ويزيده أدبًا تقديمه على قوله: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ الآية.

١٤- أن من ادعى علم الغيب فقد ادعى أنه شريك لله تعالى؛ لأن علم الغيب خاص بالله تعالى؛ وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

١٥- نفي عيسى- عليه السلام- أن يكون قال للناس غير ما أمره الله به، وهو محض التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾.

وفيه إثبات وحصر قوله لهم إنه في أمرهم بعبادة الله تعالى وحده، ربه وربهم.

١٦- أن وظيفة الرسل- عليهم السلام- تبليغ ما أمرهم الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾.

١٧- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾.

١٨- أنه لا حقَّ لعيسى عليه السلام في الربوبية، ومن باب أولى لا حق له في الألوهية.

١٩- أن عيسى- عليه السلام- وكذا غيره من الرسل- عليهم السلام- شهداء على أممهم ماداموا فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾.

٢٠- أن الله- عز وجل- قد توفى عيسى- عليه السلام، أي: قبضه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾، أي: قبضتني، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران:٥٥]، فالمراد بالتوفي: القبض، يقال: توفَّى الرجل حقَّه أي: قبضه.

فالمعنى على هذا أن الله قبضه بلا نوم ولا موت، ورفعه إليه.

وقيل: المراد بالتوفي: النوم، وهو أن الله ألقى عليه النوم، ثم رفعه إليه.

٢١- رقابة الله تعالى على العباد وإحاطته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾.

٢٢- إثبات شهادة الله تعالى واطلاعه على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

٢٣- وجوب مراقبة الله تعالى في جميع الأعمال والأقوال والأحوال؛ لأنه- سبحانه وتعالى- على كل شيء شهيد.

٢٤- أن منهج الرسل- عليهم الصلاة والسلام- تفويض الأمر إلى الله- عز وجل- في التعذيب والمغفرة، وأنه- عز وجل- يعذب من يستحق العذاب بعدله، ويغفر لمن هو أهل للمغفرة بفضله؛ لأن الخلق كلهم عباده خاضعون لعبوديته الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

٢٥- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية كونية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

٢٦- إثبات العذاب، وأن الله- عز وجل- يعذب من يشاء ممن يستحق العذاب بعدله.

٢٧- إثبات صفة المغفرة لله عز وجل، وأنه سبحانه يغفر لمن يشاء بفضله.

٢٨- أن الوعيد قد يقدم في الذكر على الوعد، والعذاب قد يقدم على المغفرة، حسب مقتضى السياق والحال والمقام.

٢٩- إثبات اسم الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ وأنه- عز وجل- ذو العزة التامة؛ عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.

٣٠- إثبات اسم الله ﴿الْحَكِيمُ﴾ وأنه- عز وجل- ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

٣١- بُعد عيسى- عليه السلام- عن الإدلاء على ربه؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فقدَّم قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ على قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وختم بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فبيَّن أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة، ولم يقل: «إنك أنت الغفور الرحيم».

٣٢- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

٣٣- فضيلة الصدق، ونفعه العظيم، وثوابه الجسيم، والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإنَّ البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١).

٣٤- إثبات الجنات وما فيها من الأنهار الجارية والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٣٥- أن هذه الجنة يختص بها الصادقون الذين صدقوا مع ربهم، وصدقوا مع أنفسهم في طلب النجاة والفوز بهذه الجنات؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ بتقديم الخبر، أي: لهم خاصة.

٣٦- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

٣٧- إثبات صفة الرضا لله تعالى وهي من الصفات الفعلية الاختيارية المرتبطة بالمشيئة والحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

٣٨- أن من أعظم ثواب الصادقين- رضا الله تعالى عنهم لإيمانهم وطاعتهم، ورضاهم عنه لتوفيقه لهم وإثابتهم؛ لقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.
كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

٣٩- يؤخذ من مفهوم الآية: سخط الله على الكاذبين والكافرين، وعدم رضاه عنهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:١٦٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب- قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧)، وأبوداود في الأدب (٤٩٨٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

٤٠- أن الفوز العظيم حقًّا بتوفيق العبد أن يكون من الصادقين، ويفوز بالجنات وما فيها من النعيم المقيم، مع رضا رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.
ولا يقدر قدر هذا الفوز إلا من وصفه بأنه عظيم وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

٤١- أن ملك السموات والأرض وما فيهن لله تعالى وحده لا شريك له في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

٤٢- سعة ملك الله تعالى وعمومه؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾.

٤٣- عموم قدرة الله تعالى وشمولها لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

٤٤- في بيان سعة ملكه وعموم قدرته ردٌّ على من ألَّهوا غيره من النصارى وغيرهم، وبيان أن له وحده كمال الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

انتهى تفسير سورة المائدة في يوم الأحد ٩/ ٧/ ١٤٣٤هـ
فلله الحمد والمنة الذي بمنه وفضله تتم الصالحات.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة المائدة ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة ٧
ب- مكان نزولها وزمانه ٧
ج- موضوعاتها ٨
وجه المناسبة بين هذه السورة وسورة النساء ١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ...﴾ الآية [١] ١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ الآية [٢] ٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ...﴾ الآية [٣] ٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ ...﴾ الآية [٤] ٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ ...﴾ الآية [٥] ١١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ...﴾ الآية [٦] ١٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ...﴾ الآية [٧] ٢٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ...﴾ الآيات [٨-١٠] ٢١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ ...﴾ الآية [١١] ٢٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ

نَقِيبًا ...﴾ الآيات [١٢-١٦] ٢٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ...﴾ الآيات [١٧-١٩] ٢٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآيات [٢٠-٢٦] ٢٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ الآيات [٢٧-٣٢] ٢٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ ...﴾ الآيتين [٣٣، ٣٤] ٣١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ...﴾ الآيات [٣٥-٣٧] ٣٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ...﴾ الآيات [٣٨-٤٠] ٣٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ...﴾ الآيات [٤١-٤٣] ٣٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ...﴾ الآيات [٤٤-٥٠] ... ٣٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ...﴾ الآيات [٥١-٥٣] ٤٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...﴾ الآيات [٥٤-٦٠] ٤٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَدْ دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ...﴾

الآيات [٦١-٦٣]..... ٥٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ...﴾ الآيات [٦٤-٦٦] ٥٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ...﴾ الآيات [٦٧-٧١] ٥٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ...﴾ الآيات [٧٢-٧٧]..... ٥٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ...﴾ الآيات [٧٨-٨١] ٥٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ...﴾ الآيات [٨٢-٨٦]..... ٥٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ...﴾ الآيتين [٨٧، ٨٨]..... ٥٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ...﴾ الآية [٨٩] ٥٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ...﴾ الآيات [٩٠-٩٣] ٦١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ ...﴾ الآيات [٩٤-٩٦] ٦٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ...﴾ الآيات [٩٧-١٠٠] ٦٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...﴾

الآيتين [١٠١، ١٠٢] ٧٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ...﴾ الآيتين [١٠٣، ١٠٤] ٧١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ...﴾ الآية [١٠٥] ٧١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ...﴾ الآيات [١٠٦-١٠٨] ٧٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ...﴾ الآيات [١٠٩-١١٥] ٧٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات [١١٦-١٢٠] ٧٦٥
فهرس الموضوعات ٧٨١

* * *

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثامن

تفسير سورة الأنعام

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٨

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٤٧٣ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْأَنْعَامِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الأنعام»؛ لأنها فصلت الكلام على الأنعام، وهي: الإبل والبقر والضأن والمعز، وتكرر فيها اسم «الأنعام» ست مرات في أربع آيات، فيها بيان تصرف المشركين فيها بالتحليل والتحريم ونحو ذلك، بالباطل وعلى غير هدى من الله، وبيان حكم الله فيها.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الأنعام بمكة في قول جمهور المفسرين، مستدلين بما يلي:

أ- الآثار الواردة عن السلف في ذلك، منها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لقد نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلت عليّ سورة الأنعام جملةً واحدةً، وشيّعها سبعون ألفًا من الملائكة، لهم زجلٌ بالتّسبيح والتّحميد**»(٢).

ب- أن آيات سورة الأنعام فيها سمات آيات السور المكية واضحة جلية، فهي تتكلم عن وحدانية الله تعالى وعظمته ومظاهر قدرته في الكون، وعن صدق النبي ﷺ في دعوته، وعن إثبات البعث، إلى غير ذلك من المقاصد التي تركز عليها السور المكية.

وكان نزولها- والله أعلم- بعد سورة الحجر، أي بعد الجهر بالدعوة، وكانت الدعوة سرًّا خلال ثلاث سنوات من البعثة، حتى نزل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر: ٩٤]، فجهر ﷺ بالدعوة، وعلى هذا فيحتمل أن نزول سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة، والله أعلم.

وقد قيل: إن منها آيات مدنية. واختلفوا في تحديدها. والأظهر- والله أعلم- أن

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ١٤٥ رقم ٢٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٤٤).

السورة كلها مكية.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله- في مقدمة تفسيره سورة «يس»[١]: «الأصل أن السورة المكية مكية كلها، وأن السورة المدنية مدنية كلها، فمن ادعى استثناء آية أو آيتين أو أكثر، فعليه الدليل. أما مجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة في آية مثلًا، فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأن الله تعالى يذكر معنى يليق بأهل المدينة توطئة وتمهيدًا، حتى يكون الناس على بصيرة؛ ولهذا يذكر الله في الآيات المكية قصص موسى عليه الصلاة والسلام، مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أولى؛ لأن فيها اليهود، أما مكة فليس فيها يهود. فبعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسور المدينة أو بالأحكام المدنية ذهب يستثني، ويقول: إلا آية كذا، إلا آية كذا. وهذا غير مسلَّم».

ج- موضوعاتها:

عنيت سورة الأنعام كغيرها من السور المكية بتثبيت العقيدة الصحيحة، والاحتجاج لأصول الدين، وتفنيد شبه الملحدين والمكذبين، وإبطال العقائد الفاسدة، وتقرير وإثبات مبادئ الدعوة الإسلامية الفاضلة؛ ولهذا ركزت على الحقائق التالية:

أ) إثبات ربوبية الله تعالى وإلهيته وأسمائه وصفاته وعظمته، وكمال قدرته، وتمام نعمته، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وذم الشرك وأهله، وبيان سوء اختيارهم وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

ب) إثبات صدق رسالة النبي ﷺ، وما جاء به من الوحي من عند الله تعالى.

ج) إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

وقد حشدت السورة لهذا الكثير من الأدلة الكونية والبراهين العقلية والحجج، مما لا يدع مجالا للشك في ثبوت هذه الحقائق، وفندت الشبهات التي أثارها المشركون والمكذبون حولها، ولعل هذا هو الحكمة في نزولها جملة واحدة؛ كما قال المفسرون.

ولهذا فهي أجمع سور القرآن في ذكر أحوال العرب، وأشدها مجادلة ومقارعة لهم ودلالة على سفاهة عقولهم، من قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] والآيات بعدها.

---

(١) (ص٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾»(١).

أما موضوعاتها على التفصيل، فهي كما يلي:

١- حمد الله تعالى والثناء عليه، لكونه الخالق العظيم الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وخلق البشر من طين وقضى أجلا مسمى عنده، وهو إله أهل السموات وأهل الأرض. يعلم سر الخلق وجهرهم ويعلم ما يكسبون.

٢- بيان شدة عتو المكذبين وعنادهم وإعراضهم مع وضوح الدلائل على وحدانيته عز وجل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، ثم توعدهم بما حل بالمكذبين قبلهم ممن مكنوا في الأرض أكثر منهم، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

وضرب صورة تبين شدة عتوهم ومكابرتهم في عدم قبولهم للحق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

وذكر اقتراحهم أن لو أنزل على الرسول ملك، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم ذكر ما حصل من المكذبين من الاستهزاء بالرسل قبله ﷺ، وإهلاكهم بسبب ذلك، وفي هذا تسلية له ﷺ وتخويف للمكذبين من قومه وتحذير لهم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٢٤).

٣- ثم ساقت السورة عددا من الأدلة والبراهين على وحدانية الله عز وجل وقدرته التامة على بعث الناس وجمعهم ليوم القيامة، منها: بيان سعة ملكه، واختصاصه بما في السموات والأرض، وأن له ما سكن في الليل والنهار، والإنكار على من يتخذ من دون الله وليا، والترغيب في الإسلام، والنهي عن الشرك، والتحذير من عذاب يوم عظيم، والوعد بالرحمة والفوز المبين، وبيان اختصاصه عز وجل بكشف الضر وجلب الخير، وقدرته على كل شيء، وقهره فوق عباده، وشهادته عز وجل- وهي أكبر شهادة- على تفرده بالإلهية، وعلى صدق رسوله ﷺ فيما جاء به من القرآن، وشهادته ﷺ أن الله عز وجل إله واحد، وبراءته مما يشركون، وبيان معرفة أهل الكتاب بذلك كما يعرفون أبناءهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾، وبيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾.

٤- ثم ذكرت السورة حال المشركين يوم القيامة حين يسألون عن شركائهم فينكرون أنهم كانوا مشركين، فيكذبون على أنفسهم ويضل عنهم ما كانوا يفترون.

وذكرت حالهم حين يوقفون على النار، وشدة حسرتهم وندمهم، وتمنيهم الرد ليؤمنوا، حين يظهر لهم ما كانوا يخفون، وبيان أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

ثم أتبعت ذلك بذكر حالهم حين يوقفون على ربهم فيقول لهم: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ فيقولون: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ فيقول عز وجل: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾.

وقد تخلل ذلك ذكر الأمر الذي أدى بهم إلى ذلك، وهو كون قلوبهم في أكنة عن فهم القرآن، وفي أسماعهم وقر، وتكذيبهم لكل آية، ومجادلتهم بالباطل، وقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾، ونهيهم عن اتباع الحق، ونأيهم بأنفسهم عنه، وإنكارهم البعث.

ثم بين عز وجل خسارة من كذبوا بلقائه، وحسرتهم وندامتهم على تفريطهم، وحملهم أوزارهم على ظهورهم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾.

ثم بين حقارة الدنيا وأنها مجرد لعب ولهو: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾.

٥- ثم أخذت السورة في تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه تكذيب قومه وعنادهم،

وحزنه على ذلك. وبيان أنهم في الحقيقة لا يكذبونه، ولكنهم لظلمهم بآيات الله يجحدون، وإخباره بما حصل من التكذيب للرسل من قبله، وصبرهم على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله الذي وعد به رسله والمؤمنين.

وحثه على الصبر، وألا يشق عليه إعراض قومه مشقة تجعل نفسه تذهب عليهم حسرات، فليس بيده هدايتهم، وإنما ذلك إلى الله تعالى.

ثم بينت السورة أنه إنما يستجيب للآيات الذين يسمعون وينتفعون بما يسمعون، وما عداهم موتى مردهم إلى الله تعالى، فيخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها.

وذكرت اقتراحهم أن ينزل عليه آية من ربه، ولله القدرة التامة على ذلك، وله الحكمة فيما ينزل، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

٦- بيان سعة علمه عز وجل واطلاعه وإحاطته بجميع المخلوقات؛ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٧- تلا ذلك ذم المكذبين وبيان سوء اختيارهم، وما هم فيه من التخبط والجهل، وإخبارهم بتغير نظرتهم عند ظهور الحقيقة بمشاهدة العذاب وقيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٨- ثم بين أخذه عز وجل للمكذبين من الأمم السابقة بالبأساء والضراء؛ لعلهم يتضرعون، وقسوة قلوبهم مع ذلك، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم، ونسيانهم ما ذكروا به، ومن ثم استدراجهم بفتح أبواب كل شيء عليهم، وفرحهم بما أوتوا، ثم أخذهم بغتة فإذا هم مبلسون، وقطع دابرهم.

٩- تخويف المكذبين بسلب ما أعطاهم الله من نعمة السمع والبصر والقلوب، فمن إله غير الله يأتيهم بذلك؟ وتخويفهم من إتيان عذاب الله بغتة أو جهرة وإهلاكهم.

١٠- بيان أن مهمة الرسل- عليهم الصلاة والسلام- البشارة للمؤمنين، والإنذار للمكذبين، والوعد لمن آمنوا بأنْ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والوعيد لمن كذبوا

بالعذاب بما كانوا يفسقون، وأمره ﷺ أن يبين لهم ما ليس من شأنه، ويبين مهمته، وكيف يتعامل مع من يدعوهم، فلا يقول لهم: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

وأن ينذر بهذا الوحي ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الآية: ٥١]، ولا يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون وجهه، وبيان أنه ليس عليه من حسابهم من شيء، وما من حسابه عليهم من شيء.

وبيان افتتان المكذبين بمن آمنوا، حيث يقول المكذبون- حسدًا وكبرًا- للمؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

وأمره ﷺ إذا جاءه الذين يؤمنون بآيات الله بالسلام عليهم، والبشارة لهم بقوله: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

وبيان تفصيل الآيات؛ لتتضح طريق المجرمين؛ لتقوم عليهم الحجة، وليحذرها من يحذرها.

وأمره ﷺ أن يقول: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، أي: إن اتبعت أهواءكم.

وأن يقول: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: فيما جئتكم به، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، أي: من العذاب، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

١١- ثم ذكر اختصاصه عز وجل بعلم مفاتح الغيب، وإحاطة علمه بكل ما في البر والبحر؛ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

وذكر دلائل قدرته، وعموم إحاطته، وسعة علمه، وتمام تدبيره لخلقه، يتوفاهم بالليل، ويعلم ما جرحوا في النهار، ثم إليه مرجعهم فينبئهم بأعمالهم.

وهو القاهر فوقهم، ويرسل عليهم ملائكته يحفظونهم، ويرسلهم عند الموت يتوفونهم، وهم لا يفرطون ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الآية ٦٢]، وهو الذي ينجيهم من ظلمات البر والبحر، ويلجؤون إليه بالتضرع عند الشدة والكرب، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾، قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وهو القادر سبحانه على أن يبعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم، أو يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض؛ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

١٢- ثم تعود الآيات لتسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه تجاه تكذيب قومه بما جاءهم به من الحق، وبيان أنه ليس عليهم بوكيل، ووعيدهم، وأمره بالإعراض عمن يخوضون في آيات الله، وبيان أنه ليس على الذين يتقون من حساب أولئك من شيء ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وأمره بترك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا، وتذكيرهم بأخذ كل نفس ﴿بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وأمره بالإنكار على الذين يدعون من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، ويأمرون الناس بذلك؛ ليردوهم على أعقابهم بعد هداية الله تعالى لهم؛ ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

١٣- ثم سلكت السورة لتثبيت العقيدة السليمة طريقة القصة في ذكر دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر إلى عبادة الله تعالى وحده، وإنكاره عليه اتخاذه أصناما آلهة، وبيان أنه وقومه في ضلال مبين، وذكر ما كان عليه إبراهيم من قوة التأمل والنظر في ملكوت السموات والأرض، وما كان عليه من اليقين، وما جرى بينه وبين قومه من المناظرة في إثبات

ربوبية الله تعالى وحده، ومحاجتهم في الله، وإعلانه عليه السلام براءته مما هم عليه من الشرك، وإخلاصه التوحيد لله تعالى؛ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾.

١٤- ثم أشارت السورة لما سبق على سبيل التنويه والتعظيم لما أعطاه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام من قوة الحجة على قومه في دعوته لهم إلى توحيد الله ونبذ الشرك، ورفع الله له بذلك بحكمته وعلمه عز وجل، وما وهبه الله عز وجل له من جعل الأنبياء من بعده كلهم من ذريته، وهداية الله تعالى لهم وتفضيله إياهم على العالمين، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتبائهم وهدايتهم إلى صراط مستقيم، والثناء عليهم والإغراء بالاقتداء بهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾.

١٥- ثم ذمت السورة المكذبين للرسول ﷺ ولغيره من الرسل، وأنهم ما قدروا الله تعالى حق قدره ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾، وإفحامهم بقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾.

ثم بينت لهم ولغيرهم أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو قال سأنزل مثل ما أنزل الله، فكيف يزعمون أن الله ما أنزل على بشر من شيء؟ فيتهمون الرسول ﷺ والرسل قبله بالافتراء والكذب على الله تعالى، ثم توعد عز وجل هؤلاء المكذبين الظالمين بما سيلاقون من الأهوال فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

١٦- ثم عادت السورة لذكر دلائل عظمته عز وجل، وتأكيد كمال قدرته في خلقه، وتمام نعمه على عباده، وتفرده بكمال الربوبية والإلهية، والأسماء والصفات، فقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

١٧- ثم ذمت السورة المشركين في جعلهم لله شركاء الجن، ونسبتهم له البنين والبنات، مع خلقه لهم، وتمام نعمته عليهم، وكمال عظمته، وتمام قدرته، وتفرده بالربوبية، واستحقاقه العبادة دون غيره؛ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

ثم بين ﷺ أن الله قد أقام الحجة عليهم بما جاءهم من البصائر والآيات، وأنه ﷺ ليس عليهم بحفيظ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

١٨- ثم عادت الآيات لتسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه، فقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الآيتان: ١٠٦، ١٠٧].

١٩- تلا ذلك نهي المؤمنين عن سب آلهة المشركين؛ لئلا يكون ذلك سببا إلى سب الله تعالى عَدْوًا بغير علم، من باب سد الذرائع الموصلة إلى الشر، وبيان أنه زين لكل أمة عملهم، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بأعمالهم، وذكر إقسامهم بالله غاية أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهم كاذبون، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الآيات: ١٠٩-١١١].

٢٠- بيان أنه عز وجل جعل لكل نبي عدوا من شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، لحكم يعلمها عز وجل؛ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ثم بين أن من الحكمة في هذا: لتميل إلى هذا الزخرف قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليرضوه، وليقترفوا ما هم مقترفون من الآثام.

ثم أنكر عليهم ابتغاء حَكَمٍ غير الله، وهو الذي أنزل إليهم الكتاب مفصلا، وبين أن الذين أوتو الكتاب يعلمون أنه منزل من عنده عز وجل بالحق لا امتراء فيه، أخباره صدق، وأحكامه عدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

وختم هذا ببيان ضلال كثير من الخلق، والتحذير من طاعتهم، وبيان علمه عز وجل بمن يضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الآيتان: ١١٦، ١١٧].

٢١- الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، والنهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله

عليه، والتعريض بما عليه المشركون من عدم أكلهم مما ذكر اسم الله عليه وأكلهم مما لم يذكر اسم الله عليه، وبيان أنه عز وجل فصل لهم ما حرم عليهم إلا ما اضطروا إليه؛ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ .

والأمر بترك ظاهر الإثم وباطنه، والوعيد للذين يكسبون الإثم بمجازاتهم بما كانوا يقترفون، وبيان أن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق؛ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

٢٢- بيان الفرق الشاسع والبون الواسع بين المؤمن والكافر؛ فالمؤمن كمن كان ميتا فأحياه الله وجعل له نورا يمشي به في الناس، والكافر مثل الذي في الظلمات ليس بخارج منها، وشتان بين الحالين.

٢٣- حكمة الله تعالى أن جعل في كل قرية أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها ابتلاء وامتحانا للناس، وهم في الحقيقة إنما يمكرون في المقام الأول بأنفسهم وما يشعرون، وبيان شدة مكر هؤلاء المجرمين ومكابرتهم بقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ .

٢٤- بيان نفوذ إرادة الله تعالى الكونية ومشيئته في خلقه، وهدايته بفضله من يشاء منهم، بشرح صدره للإسلام، وإضلاله بعدله من يشاء بجعل صدره ضيقًا حرجًا فلا يقبل الإسلام، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾، وامتداحه عز وجل لصراطه باستقامته، وبيان آياته؛ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

٢٥- ثم ذكرت السورة مشهدا من مشاهد حشر الجن والإنس جميعا ومناقشتهم ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾ [الآية: ١٢٨]، وتوعدهم بالنار.

وبيان تولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون من الظلم، وتقريرهم بإتيان الرسل إليهم بالآيات، والإنذار من يوم القيامة، وتقريعهم على مخالفتهم وتكذيبهم، وإقرارهم على أنفسهم بذلك، واغترارهم بالحياة الدنيا، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وبيان أنه عز وجل لا يهلك القرى بظلم حتى يقيم على أهلها الحجة، فلا يهلكها وأهلها غافلون، وأن لكل منهم درجات من عملهم، وما الله بغافل عما يعملون.

وأنه عز وجل الغني ذو الرحمة، لو شاء أذهبهم واستخلف من بعدهم قوما آخرين، وبيان أن وعده آت وأنهم لا يعجزونه، وأمره ﷺ أن يقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾.

٢٦- ثم تعود السورة لذكر بعض الأباطيل التي كانوا عليها من تقسيم الحرث والأنعام بينهم وبين الله- تعالى الله عن ذلك- وقتلهم أولادهم، وتحريمهم من الأنعام والحرث ما لم يحرمه الله عليهم، وتحريمهم ركوب بعض الأنعام، وعدم ذكر اسم الله على بعض منها افتراء على الله، وجعلهم ما في بطون بعض الأنعام حلالًا لذكورهم ومحرمًا على أزواجهم، وإن كان ميتة فهم فيه شركاء، وتهديدهم ووعيدهم بسبب افترائهم ووصفهم الباطل، وبيان خسارتهم وضلالهم، وبعدهم عن الاهتداء.

٢٧- ثم ذكر عز وجل نعمته على العباد فيما أنشأ لهم من الجنات، وفيما أباح لهم من الطيبات، وأمرهم بالأكل من ثمره امتنانًا عليهم، وأداء حقه يوم حصاده، ونهاهم عن الإسراف.

كما ذكر نعمته في إباحة الأزواج الثمانية من بهيمة الأنعام، ورد على من حرموا بعضها بلا دليل أو وصية من الله لهم بذلك: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾.

ثم أمره ﷺ ببيان ما حرمه الله حقيقة عليه وعلى أمته، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الآية: ١٤٥].

وبين عز وجل ما حرمه على اليهود بسبب بغيهم؛ فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الآية: ١٤٦، ١٤٧].

٢٨- ثم ذكر احتجاج المشركين على ما هم عليه من الشرك والتحريم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا ولا آباؤهم ولا حرموا من شيء، بمعنى أن الله شاء ذلك ورضيه منهم، دأبهم دأب المكذبين قبلهم حتى ذاقوا بأس الله، والرد عليهم بأنه لا علم عندهم، وإنما يتبعون مجرد الظن والتخمين، فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداهم أجمعين.

ثم طالبهم بالإتيان بشهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما حرموه، وهيهات من يشهد لهم بذلك إلا شهود زور وباطل أمثالهم.

٢٩- ثم جاء- وقبيل ختام السورة- ذكر الوصايا العشر العظيمة في بيان ما حرمه الله تعالى، في قوله تعالى مخاطبا الذين أحلوا وحرموا من تلقاء أنفسهم، والأمة أجمع: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ [الآيات: ١٥١- ١٥٣]، فبدأها عز وجل بتحريم الشرك، ثم بالأمر بالإحسان إلى الوالدين وتحريم عقوقهما، وتحريم قتل الأولاد من إملاق؛ فرزق الجميع على الله، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وتحريم قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، والأمر بالوفاء بالكيل والميزان بالقسط، وتحريم التطفيف في الكيل والوزن، ووجوب العدل في القول حتى مع القريب، وتحريم المحاباة، ووجوب الوفاء بعهد الله، وتحريم نقضه، واتباع صراط الله المستقيم، وتحريم اتباع ما عداه من السبل ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الآية: ١٥٢، ١٥٣].

٣٠- ثم ذكَّر عز وجل بمنته تعالى بإيتاء موسى عليه السلام التوراة أفضل الكتب السابقة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ

شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وثنى بالامتنان بإنزال القرآن الكريم أفضل كتب الله تعالى على الإطلاق، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الآيات ١٥٥- ١٥٧].

٣١- ثم هدد المكذبين الذين يصدفون عن آياته بقرب وقوع العذاب عليهم، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ثم بين أنه ﷺ ليس في شيء من أمر الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، إنما أمرهم إلى الله تعالى وحده هم وغيرهم، وأن ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

٣٢- وختمت السورة بأمر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يقول ويعلن بعظيم نعمة الله تعالى عليه، بهدايته صراطه المستقيم ودينه القويم ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، ويعلن إخلاصه لله تعالى في صلاته ونسكه ومحياه ومماته لا شريك له، وأنه لن يبتغ ربا سواه؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾:

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الجملة خبر لفظًا ومعنًى، و«أل» في «الحمد» للاستغراق، أي: جميع الحمد من كل وجه ثابت لله عز وجل.

واللام في قوله: «لله» للاستحقاق والاختصاص، أي: جميع أنواع الحمد والمحامد مستحقة واجبة لله تعالى وحده، خاصة به، لا يستحق الحمد على جميعها سواه.

و«الحمد» وصف المحمود بصفات الكمال، مع المحبة والتعظيم[1].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، «الذي» اسم موصول مبني في محل جر صفة لاسم الجلالة، أي: الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات الكثيرة، على غير مثال سابق.

وأصل الخلق: التقدير، ثم الإنشاء والإيجاد؛ قال زهير:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

«تفري»، أي: تفعل، «ما خلقت»، أي: ما قدرت.

وقدَّم السموات؛ لشرفها وعلو مكانها.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، «جعل» بمعنى «خلق»، والخلق أعم في الإطلاق، أي: وخلق الظلمات والنور.

وعبَّر عن الخلق هنا بـ«الجعل»: إما من باب التفنن في العبارة وإن كان المعنى واحدًا؛ أو لأن «خلق» أليق بإيجاد الذوات، و«جعل» أليق بإيجاد أعراض الذوات

(١) وقد سبق في الكلام على الفاتحة تفصيل الكلام في معنى الحمد، والفرق بينه وبين الشكر وغير ذلك.

وأحوالها ونظامه؛ أو لأن الظلمات والنور تكون حسية ومعنوية؛ فظلمة الليل ونور النهار كل منهما حسي، وظلمة الكفر ونور العلم والإيمان كل منهما معنوي.

وأيضًا فإن من النور ما هو غير مخلوق؛ وهو القرآن الكريم؛ فهو نور كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

وقدَّم الظلمات؛ لأن الظلمة سابقة في الوجود قبل النور.

والمراد بـ«الجعل» هنا: الجعل الكوني؛ كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١﴾ [الفرقان: ٦١].

و«الظلمات»: جمع «ظلمة»، والمراد بـ«الظلمات والنور»: المحسوسان؛ كظلمة الليل، وظلمة البحر والأمواج، والسحاب، وكنور النهار، والشمس، والقمر، ونحو ذلك. ويقوي ذلك اقترانهما بالسموات والأرض.

ويجوز حملهما على ما يشمل أيضًا الظلمات المعنوية؛ كظلمة الجهل، والضلال، والكفر، والشرك، والشك، والنفاق، والمعاصي، والغفلة، وغير ذلك. والنور المعنوي؛ كنور العلم، والقرآن، والإيمان، واليقين، والطاعات.

ويقوي هذا جمع «الظلمات» وإفراد «النور»؛ لأن طرق الجهل والضلال والباطل كثيرة متعددة متشعبة، وطريق الحق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولأن النور أشرف، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

وفي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور؛ دلالة قاطعة على كمال ربوبيته عز وجل وعظمته، وتمام قدرته وحكمته، وسعة علمه ورحمته، واستحقاقه جميع أنواع الحمد، والعبادة وحده لا شريك له؛ فله عز وجل الحمد على خلق السموات والأرض، وله الحمد على جعل الظلمات والنور؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح للعباد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛

لتمام قدرته وعظمته، وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ تعريض بإبطال قول المجوس: إن للكون خالقين هما الظلمة والنور، فالظلمة تخلق الشر، والنور يخلق الخير؛ ولهذا قال بعده: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: ثم مع هذه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة؛ من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، الدالة على كمال قدرة الله تعالى وعظمته وربوبيته ووحدانيته، وتمام نعمته ووجوب عبادته وحده دون سواه؛ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يعدلون به غيره، كما قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠].

وفي الآية إنكار عليهم، وتوبيخ لهم، وتعجيب من حالهم.

وقوله: «بربهم» متعلق بـ«يعدلون»، وقُدِّم عليه مراعاة لفواصل الآيات، وأظهر في مقام الإضمار؛ فلم يقل: به يعدلون، بل قال: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ لزيادة التشنيع عليهم.

ومعنى «يعدلون»، أي: يجعلون له عِدلًا وشريكًا، يسوُّون بينه وبينه في الإلهية والعبادة والمحبة والتعظيم، كما حكى تعالى عن المشركين قولهم عند معاينة العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾:

لما ذكر خلق السموات والأرض، ثنَّى بخلق بني آدم الذين خَلَقَ لأجلهم ما في السموات والأرض.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ استئناف لبيان بطلان كفرهم بالبعث، واستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني؛ كما بين في الآية الأولى بطلان إشراكهم به تعالى؛ مع مشاهدتهم موجبات توحيده، ودلائل قدرته في خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

والخطاب موجه إلى الذين كفروا، وفيه التفات من الغَيبة إلى الخطاب لقصد

التوبيخ، أي: هو وحده الذي أوجدكم ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ بإيجاد أبيكم آدم- الذي هو أصلكم- من طين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧].

والطين: هو التراب المخلوط بالماء.

وهذا استدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢].

وفي قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ إظهار فساد استدلالهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢، الصافات: ١٦، الواقعة: ٤٧]، وهم يقرون أنهم خلقوا من تراب، فاستدلوا على إنكار البعث بما ينبغي أن يستدلوا به على إثباته.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾، أي: قضى قضاءً كونيًّا، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤].

وهناك القضاء الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿أَجَلًا﴾ الأجل: المدة والزمن، أي: ثم قضى- كونًا- أجل كل إنسان وعمره في هذه الحياة وحتى يموت.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، أي: معين معلوم محدد عنده، لا يعلمه غيره؛ وهو يوم القيامة والبعث والحساب، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ

رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾؛ يعني: أجل الموت، والأجل المسمى: أجل الساعة والوقوف عند الله»(١).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

والمعنى: ثم قضى أجلًا خاصًّا؛ وهو عُمر كل إنسان في هذه الدار إلى حين موته، وأجلًا عامًّا لهذه الحياة إلى انتهائها؛ فالأجل الأول غير الثاني؛ لأن إعادة النكرة بعد النكرة نفسها يدل على أن الثانيَ غير الأول.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: الجملة معطوفة على قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، أي: ثم أنتم مع أنه عز وجل خلقكم من طين، ومعرفتكم بذلك ﴿تَمْتَرُونَ﴾، أي: تشكُّون في البعث والحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة.

وفيه إنكار وتوبيخ لهم، وتعجيب من إنكارهم للبعث مع علمهم بالخلق الأول من الطين والموت بعده، فكيف يشكُّون في الخلق الثاني بعد أن يكونوا ترابًا، مع أنهم خلقوا من تراب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود محبة وتعظيمًا.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يدعوه ويعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السموات والأرض، إلا من كفر من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٥٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٦١، ١٢٦٢).

إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض.

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، الجملة في محل رفع خبر لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، أو في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يعلم سركم وجهركم، أي: يعلم الذي تسرونه والذي تعلنونه؛ من اعتقاد، أو قول، أو عمل؛ ما أسره الإنسان في نفسه وحدثها به، وما حدث به غيره سرًّا، وما جهر به وأعلنه.

وقدَّم قوله: ﴿سِرَّكُمْ﴾؛ للدلالة على أن علمه عز وجل السر كعلمه الجهر على حد سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: ويعلم الذي تكسبون؛ من قول وعمل واعتقاد، باطن أو ظاهر، خيرًا كان أو شرًّا، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

وفي هذا وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر.

الفوائد والأحكام:

١- حمد الله عز وجل نفسه أن خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

٢- أن الحمد بأنواع المحامد كلها، والوصف بجميع صفات الكمال؛ مستحق لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٣- أن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن هو أهل له، ولمقتضٍ لذلك؛ وإلا فهو زور وباطل؛ لأن الله لما ذكر استحقاقه للحمد ذكر ما يدل على ذلك؛ من كونه خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ مما يدل على كمال قدرته وعظمته وتمام نعمته؛ فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

٤- إثبات توحيد الأسماء والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وحمد الله تعالى: وصْفُه بصفات الكمال.

٥- إثبات توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأن معنى اسم «الله»: المألوه المعبود محبة وتعظيمًا، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة، وخلقه السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾؛ فله الخلق والأمر.

٧- أن من أعظم المخلوقات الدالة على كمال قدرته تعالى وعظمته، وتمام نعمته، واستحقاقه للحمد وإخلاص العبادة؛ السموات والأرض، والظلمات والنور.

٨- جمع السموات وتقديمها؛ لشرفها وعلوها وعظمتها بالنسبة للأرض، وتقديمها على الظلمات والنور؛ لعظمها وكونها أدل وأظهر على كمال قدرة الله تعالى وتمام نعمته.

٩- إفراد الأرض وعدم جمعها؛ مع أنها سبع أرضين؛ لما في جمعها- والله أعلم- من الثقل.

١٠- في جمع الظلمات إشارة إلى كثرة الظلمات- حسية كانت أو معنوية- وتعددها وتشعبها؛ كظلمة الجهل، والضلال، والشرك، والشك، والمعاصي، وغير ذلك.

وفي إفراد النور إشارة إلى شرفه، وإلى أن طريق الحق واحد غير متعدد.

١١- الإنكار على الكافرين، والتوبيخ لهم، والتعجيب من حالهم، وتسفيههم في إشراكهم بالله وكفرهم؛ مع وضوح الأدلة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته، وتمام نعمته، ووجوب عبادته وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾.

١٢- أن من كُتب عليه الضلال لا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

١٣- التشنيع على الكافرين في شركهم بربهم الذي خلقهم ورباهم بنعمه، وكان الواجب عليهم أن يشكروه ولا يكفروه؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ بالإظهار بدل الإضمار.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، والاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

١٥- أن بني آدم حادثون، خُلقوا بعد العدم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١].

١٦- أن أصل خلق بني آدم من طين بخلق أبيهم آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: ٢٠].

وفي هذا دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى وجوب الخضوع له، والتذلل، والتواضع؛ كما قال الشاعر:

أَلنَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثِيلِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَمٌ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ

فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالمَاءُ(١)

ولا ينافي قولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ قولَه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقولَه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: ٢٦]؛ فأصل بني آدم من تراب صُب عليه الماء فصار طينًا، ثم بقي مدة حتى صار صلصالًا له صوت.

١٧- قضاء الله عز وجل وتقديره أجل كل إنسان وعمره ومدة بقائه في هذه الحياة وحتى يموت، ومدة عمر الدنيا كلها حتى تنتهي؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾.

١٨- تقدير الله عز وجل وقضاؤه أجلًا مسمًّى عنده معينًا محددًا معلومًا للبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لا يعلمه سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾.

١٩- الاستدلال بالخلق الأول من طين على الخلق الثاني والبعث بعد الموت بعد صيرورة الموتى ترابًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧).

عِندَهُۥ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢٠- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وتقدير الآجال والأعمار وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾.

٢١- دِقة نظام هذا الكون؛ خلقًا، وبدءًا، ونهاية؛ وذلك دليل عظمة الخالق سبحانه وتمام قدرته.

٢٢- الإنكار على المشركين، وتوبيخهم، والتعجيب من إنكارهم البعث؛ مع علمهم بالخلق الأول من طين، فكيف يشكون في بعثهم بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا؛ وهم يعلمون أن أصل خلقهم من طين وتراب؟ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾؛ كما ذكر تعالى قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢، الصافات: ١٦، الواقعة: ٤٧].

٢٣- إثبات أنه عز وجل إله أهل السماء وأهل الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فهو إله في السموات وإله في الأرض.

٢٤- علم الله عز وجل سر الخلائق وجهرهم، وأن الجهر والسر عنده سواء؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

٢٥- علم الله تعالى التام بما يكسب الخلق من الاعتقادات، والأعمال القلبية، والأقوال، والأفعال، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾.

٢٦- وجوب تقوى الله تعالى ومراقبته؛ لعلمه عز وجل التام بالسر، والجهر، والكسب؛ قولًا، أو فعلًا، أو اعتقادًا.

٢٧- الوعد لمن أحسن، والوعيد لمن أساء؛ لعلمه عز وجل بالسر والجهر والكسب، ومقتضى ذلك محاسبة الخلق ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، الواو استئنافية، و«ما» نافية، والضمير في «تأتيهم» يعود إلى «الذين كفروا» في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾، فأخبر أولًا عن إشراكهم بالله وإنكارهم البعث، ثم أخبر ثانيًا عن سبب ذلك؛ وهو إعراضهم عن الآيات، وتكذيبهم الرسول ﷺ.

﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة- من حيث المعنى- لعموم النفي، أي: وما تأتيهم من أيِّ آية من آيات ربهم.

و«الآية» في اللغة: العلامة والدلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: علامة ملكه.

وهي نوعان: آيات كونية، وآيات شرعية:

أما الآيات الشرعية: فقد انتهت بانقطاع الوحي بوفاته ﷺ.

وأما الآيات الكونية: فهي باقية إلى قيام الساعة.

أي: وما تأتيهم من آيةٍ- أي: آية كونية أو شرعية- فيها الدلالة على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته، وصدق الرسول ﷺ، ووجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده؛ من

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٣٣).

خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ومن الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني.

ومن ذلك: انشقاق القمر، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القمر: ١- ٣].

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه؛ فقال رسول الله ﷺ: «**اشْهَدُوا**»(١).

والتعبير بالمضارع في قوله: «تأتيهم»؛ للدلالة على تجدد الإعراض منهم مع كل آية تأتيهم.

﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، «من» تبعيضية، أي: من بعض آيات ربهم الكونية والشرعية، أي: من عنده عز وجل.

وأضاف اسم «الرب» إلى الضمير «هم»؛ للتسجيل عليهم بعدم الشكر لربهم الذي يجب أن يشكروه؛ فهو خالقهم، ومالكهم، والمنعم عليهم.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كانوا عن هذه الآيات معرضين بقلوبهم وأبدانهم؛ تكذيبًا بها واستهزاء، فلا يلقون لها بالًا، ولا يصغون لها سمعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

والإعراض إذا أُفرد دل على الإعراض بالقلب والتولي بالبدن، ومن جمع بينهما فلا فائدة فيه ولا حيلة، وكذا من أعرض بقلبه غالبًا، أما المتولي بالبدن فقد يُرجى رجوعه.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، الفاء تعليلية، و«قد» للتحقيق، أي: فقد كذب هؤلاء العادلون بربهم، المعرضون عن آياته؛ بالحق الذي جاءهم على لسان الرسول ﷺ، فأنكروا رسالته، وكذبوا ما جاء به من القرآن والسنة، والدعوة إلى الإيمان، وتقرير البعث، والحساب، والجزاء على الأعمال.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٦٤)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٠)، والترمذي في التفسير (٣٢٨٥).

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، «لما»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين أتاهم على لسان النبي محمد ﷺ.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾، الفاء سببية، و«سوف» للتأكيد والاستقبال.

«أنباء»: أخبار، و«النبأ»: الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ: ١-٣].

و«ما» موصولة، أي: أنباء الذي كانوا به يستهزئون؛ وهو القرآن الكريم، وما فيه من الأمر بالإيمان، وإخلاص العبادة لله تعالى، وتقرير البعث والحساب، وما فيه من الوعيد والتهديد للمكذبين والمستهزئين بالعذاب في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٣٥].

والمعنى: فسوف يأتيهم مصداق أنباء الحق الذي كانوا به يكذبون ويستهزئون، أي: بتحقيق مضمون هذه الأنباء، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾ [ص: ٨٨]، أي: ولتعلمن تحقق نبئه بعد حين.

وكما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطور: ١٤]؛ وهو وعيد لهم وتهديد على تكذيبهم واستهزائهم، وأنه سوف يأتيهم ما توعدوا به من العقوبات والعذاب في الدنيا والآخرة، وقد لقوا من ذلك ما لقوه يوم بدر وغيره على أيدي المسلمين، مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة؛ وهو أشد وأبقى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾:

توعد عز وجل المكذبين بالحق لما جاءهم، وأنهم سيجدون مغبة تكذيبهم واستهزائهم، ثم أكد هذا الوعيد بذكر سنته عز وجل الكونية بإهلاك المكذبين قبلهم بذنوبهم؛ مع ما هم عليه من التمكن، وكثرة الأمطار والأنهار والخيرات؛ مما لم يمكن به هؤلاء ولم يعط لهم مثله، ومع ذلك لم ينفع أولئك القرون ذلك لما كذبوا بالحق وعصوا

رسله، بل أُخذوا بذنوبهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾، الاستفهام للتقرير أو للإنكار، أي: أولم ير هؤلاء المكذبون بالحق؟

والرؤية يجوز أن تكون علمية، أي: أولم يعلموا كم أهلكنا قبلهم من قرن بما نقل إليهم من أخبارهم؟

ويجوز أن تكون بصرية، أي: أولم يروا آثار القرون الذين أهلكناهم بالسير والنظر في ديارهم؟ كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، «كم» استفهامية، أو خبرية تفيد التكثير.

﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أفنينا ودمرنا وأتلفنا.

﴿مِن قَبْلِهِم﴾، أي: من قبل كفار مكة.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾، أي: من أمة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم.

و«القرن» يطلق على الأمة، وعلى الجيل من الأمة؛ قال ﷺ: «**خير النّاس قرني، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم**»(١).

ولهذا حدده بعضهم بالمدة التي يهلك فيها الموجودون ويخلفهم غيرهم؛ قالوا: وهي نحو مئة سنة.

﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، «مكناهم» صفة لـ«قرن»، وروعي في الضمير معنى القرن؛ لأنه بمعنى: الأمة والجيل.

﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ثبتناهم، وملّكناهم في الأرض، وقوّيناهم؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، «ما» اسم موصول، نعت لمصدر محذوف، أي: مكناهم في

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الأرض التمكين الذي لم نمكنه لكم، أو نائبة عن مصدر، أي: تمكينًا لم نمكنه لكم، أي: هو أشد من تمكينكم في الأرض.

وفي الكلام التفات من الغَيبة إلى الخطاب؛ لأن المخاطب بقوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ هو المخبر عنه بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، وهم كفار مكة، ولكن في الخبر معنى القول، ومعناه: قل- يا محمد- لهؤلاء القوم الذين كذبوا بالحق لما جاءهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾؛ لأن الكفار هم الممكَّنون في الأرض وقت نزول الآية، وليس للمسلمين يومئذٍ تمكين.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم﴾، أي: وأنزلنا المطر، وعبر عنه بـ«السماء»؛ لنزوله من السماء.

﴿مِّدْرَارًا﴾، أي: كثيرًا غزيرًا.

﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾، أي: وجعلنا الأنهار تجري من تحت أشجارهم وقصورهم، وتحت تصرفهم، يصرفونها حيث شاؤوا؛ مما يكون سببًا لخصب أرضهم وديارهم، وكثرة الخيرات لهم ولأنعامهم.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، الفاء عاطفة.

والإهلاك: الإتلاف والإفناء.

والباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ للسببية، أي: فأتلفناهم وأفنيناهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

فمع ما كانوا عليه من التمكين في الأرض مما لم يكن لكم، ومن القوة، ووفرة الأمطار والأنهار، وكثرة الخيرات والزروع والثمار؛ لم يغنهم ذلك شيئًا؛ فيدفع أو يرفع عنهم عذاب الله تعالى لما كفروا به وخالفوه ولم يشكروه، بل كان ذلك استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ

ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: ٢١- ٢٢].

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: وأنشأنا من بعد القرن المهلَكِ قرنًا آخرين. وجَمَعَ «آخرين» مراعاة لمعنى «القرن»، أي: وأوجدنا من بعدهم قرنًا آخرين، كما هي سنة الله تعالى بالمكذبين؛ يهلك قرنًا، وينشئ بعدهم قرنًا آخرين؛ فكان الواجب على كفار مكة الاعتبار بأحوال من سبقهم من المكذبين، وماذا كانت عاقبتهم؛ فليسوا بأعز على الله تعالى منهم، كيف وقد كذبوا أفضل رسله محمدًا ﷺ؟!

وفي الآية تعريض للمشركين بأن الله مهلكهم، ومنشئ من بعدهم قرن المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

ذكر عز وجل قبل هذا إعراض المشركين عن الآيات، وتكذيبهم بالحق، واستهزاءهم به، ثم بين شدة عنادهم ومكابرتهم ومغالطتهم في الحق؛ بغيًا منهم، لا لخفاء الحق عليهم، ولا لجهل منهم بذلك.

قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾، الواو استئنافية، و«لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، ﴿نَزَّلْنَا﴾ فعل الشرط، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿كِتَٰبًا﴾، أي: مكتوبًا.

﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ القرطاس: الصحيفة والورق التي يكتب عليها.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ اللمس وضع اليد على الشيء؛ لمعرفة وجوده أو لمعرفة وصف ظاهرة فيه، من لين أو خشونة، أو برودة أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لمعنى اللمس. فيه بيان شدة مكابرتهم، أي: فلمسوه حقيقة بأيديهم.

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جواب الشرط «لو»، أي: لقال الذين كفروا منهم؛ ظلمًا وعدوانًا، وتعنتًا ومكابرة.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا الكتاب.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما هذا الكتاب إلا سحر بيِّن ظاهر أنه سحر، فـ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى «بان»، أي: ظهر. ويجوز كونه أيضًا بمعنى «أبان» المتعدي، أي: ومبين أن من جاء به ساحر كما يزعمون.

والمعنى: أنهم من شدة كفرهم وعنادهم يكابرون حتى في المحسوسات التي لا يمكن إنكارها؛ لوضوحها كالشمس في وسط النهار. فلو لمسوا هذا المكتوب بقرطاس بأيديهم ورأوه بأعينهم وتيقنوه؛ لقال الذين كفروا مغالطة لأنفسهم وسترًا لمكابرتهم: ما هذا إلا سحر مبين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور: ٤٤].

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقل: «لقالوا» لتسجيل الكفر عليهم، وأن دافعهم إلى هذا التعنت هو الكفر، وأن من قال بهذا القول فهو كافر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، أي: وقال هؤلاء الكفار المعاندون المكابرون.

﴿لَوْلَآ﴾ للتحضيض بمعنى «هلا».

﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على النبي ﷺ.

﴿مَلَكٌ﴾، أي: ملك من الملائكة نعاينه ونراه ويخبرنا بصدقه؛ كما في الآية الأخرى ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وكما في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧]، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

وهذا تعنت منهم مبني على الجهل وعدم العلم بالمعقول، فبيَّن عز وجل الحكمة التي لأجلها لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، اللام واقعة في جواب «لو» والمعنى: لفرغ وتمم الأمر بتعذيبهم.

﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، أي: ثم لا يمهلون إن لم يؤمنوا بعد نزول الملائكة، بل يعاجلون بالعقوبة، كما هي سنة الله تعالى الكونية.

وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ الآيات [الحجر: ٦-٨]، والحق هنا: العذاب. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

ولهذا لما جادل إبراهيم عليه السلام الملائكة الذين أرسلهم الله لقوم لوط فيهم بعد أن بشروه واستأنس بهم؛ قالوا: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٧٦] وهو نزول الملائكة ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: ٧٦].

فمن رحمة الله تعالى بالناس وعنايته بهم أن جعل الرسل بشرًا مثلهم، يتكلمون بلسانهم؛ ليسهل الأخذ والتلقي عنهم والرجوع إليهم؛ ولهذا قال تعالى ممتنًا على العباد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ليبين لهم﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى ممتنًا على العرب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾:

قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾، أي: ولو جعلنا الرسول إلى البشر ملكًا من الملائكة، أي: رسولًا ملكيًّا.

﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لجعلنا هذا الرسول الملكي ﴿رَجُلًا﴾، أي: على هيئة رجل من البشر؛ لِتُفْهم مخاطبته والأخذ عنه.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ الواو: عاطفة، واللام كسابقتها، واللبس: الخلط، و«ما» موصولة، أي: وللبسنا عليهم الذي يلبسون، ويجوز كونها مصدرية، أي: للبسنا عليهم لبسهم.

والمعنى: وللبسنا عليهم في جعل الرسول إليهم ملكًا، وجعل هذا الملك على هيئة رجل من البشر، فيلتبس ويختلط عليهم الأمر أهو ملك أو بشر.

﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾، أي: ما يلبسون على أنفسهم أو على غيرهم في التشكيك برسالة

النبي ﷺ، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

قال ابن كثير[١]: «أي: ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكًا- أي: لو بعثنا إلى البشر رسولًا ملكيًّا- لكان على هيئة رجل؛ لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]».

وهذا كله منظور فيه إلى حمل قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ على أن مرادهم الاستدلال؛ ولذا أجيبوا عن ذلك إرخاءً للعنان، وإلا فإنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز والاستهزاء؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

لما ذكر شدة عناد الكفار ومكابرتهم؛ أتبع ذلك بتسلية النبي ﷺ، والوعد له وللمؤمنين بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، والوعيد والتحذير للمكذبين. وفيه بيان أنهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ قصدوا التعنت والاستهزاء معًا.

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، الواو استئنافية، واللام لام قسم مقدر، و«قد» للتحقيق، فالخبر مؤكد بالقسم المقدر، ولام القسم، و«قد».

والخطاب للنبي ﷺ، أي: والله لقد استهزئ برسل كثيرين من قبلك زمنًا؛ فكانت العاقبة لهم. وفي هذا تثبيت له ﷺ وتقوية لقلبه.

والاستهزاء: السخرية؛ بدليل قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، أي: سخر منهم أقوامهم لما جاؤوهم بالبينات، كما قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨].

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ١٢٧).

وهكذا قال المشركون من قومه ﷺ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، الفاء: عاطفة لربط المسبب بالسبب، أي: وأحاط، ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، أي: بالذين سخروا من الرسل واستهزؤوا بهم، أي: أحاط ونزل بهم جميعًا بحيث لم يفلت منهم أحد.

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: فأحاط بالذين سخروا من الرسل، ونزل بهم الذي كانوا به يستهزئون، وهو ما أنذرهم به الرسل من سوء العاقبة وحلول العذاب بهم جميعًا. وقدم الجار والمجرور «به» على الفعل؛ لمراعاة الفاصلة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، وهو أمر من الله له، وهذا أمر بإبلاغ خاص للاهتمام، وإلا فهو ﷺ مأمور أن يبلغ القرآن كله ويبينه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد جاء افتتاح الآيات بـ«قل» في هذه السورة في مواضع كثيرة.

﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، الأمر للمكذبين أو لعموم الأمة، أي: سيروا في الأرض وسافروا فيها بأبدانكم، و«في» بمعنى «على»، أي: على الأرض.

﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾ بأبصاركم، وتأملوا وتفكروا بعقولكم، واعتبروا ببصائركم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، «كيف» اسم استفهام في محل نصب خبر «كان»؛ وقُدِّم لأن اسم الاستفهام له الصدارة، أي: كيف كانت نهاية ومآل المكذبين لرسل الله قبلكم، وما حل بهم من أنواع العقوبات مع ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، واحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، ولا تغتروا بما أنتم فيه من النعيم مع ما أنتم عليه من الاستهزاء والتكذيب، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى

ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ويلحظ في الآيات الربط بين السير في الأرض والنظر، وهو التأمل والتفكر والاعتبار؛ لأن السير في الأرض من غير اعتبار مضيعة للوقت وخسارة للعمر، كما هو حال الكثيرين.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو هؤلاء المكذبين العادلين بربهم، وإعراضهم عن آيات الله تعالى الكونية والشرعية؛ مما أوقعهم في الشرك وإنكار البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وفي هذا دلالة على خطورة الإعراض عن آيات الله.

٢- إقامة الحجة على الكفار بما جاءهم من الآيات الكثيرة من آيات ربهم، لكن ذلك لم ينجع فيهم.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٤- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

٥- تكذيب الكفار بالحق الذي جاءهم، واستهزاؤهم به؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فجمعوا بين الإعراض عن الآيات والتكذيب بالحق والاستهزاء به.

٦- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، وما سواه باطل.

٧- الوعيد لهؤلاء المكذبين بأنه سوف يأتيهم تحقيق مضمون الذي كانوا به

يكذبون ويستهزئون، مما توعدوا به من العقوبات والعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٨- الإنكار على هؤلاء المكذبين عدم الاعتبار بمن أهلك الله قبلهم من القرون ممن مكنهم الله في الأرض أكثر منهم، وأمدهم ومتعهم، فلم ينفعهم ذلك لما كذبوا رسل الله عليهم السلام، بل أهلكهم الله بذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾.

٩- أن الكثرة الكاثرة من الخلق أعداء للحق ولمن جاء به من الرسل وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، فأكثر الأمم كذبوا رسلهم، وقد قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «فرأيت النّبيّ ومعه الرّجل والرّجلان، والنّبيّ وليس معه أحدٌ»(١).

وبناء على هذا لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على ضلال.

١٠- قدرة الله تعالى التامة وقوته ونفوذ أمره؛ فما يحصل من تمكين وإمداد بالخيرات والنعم فمنه وحده، وما يحصل من نقم وإهلاك للمكذبين فبتقديره وتدبيره.

١١- أن الله أعطى للأمم السابقة من التمكين والقوة والشدة وكثرة الخيرات ما لم يعطه لهذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ الآية.

ولا تنافيَ بين هذا وقوله في سورة الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ لأن المعنى أن الله أعطى الأمم السابقة مثل ما أعطى هذه الأمة وأكثر.

١٢- أن التمكين في الأرض وكثرة الخيرات قد يكون استدراجًا؛ فلا ينبغي أن

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٢)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يغتر بذلك.

١٣- أن الذنوب والمعاصي سبب لهلاك العباد وخراب البلاد؛ أي للهلاك الحسي والمعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٤- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٥- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالأمم السابقة.

١٦- سنة الله تعالى الكونية في إهلاك المكذبين، وإنشاء قرن آخرين بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

١٧- إثبات علو الله تعالى وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا﴾، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

١٨- شدة عناد كفار مكة ومكابرتهم في التكذيب والإنكار حتى للمحسوس، وبعدهم عن الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٩- تأكيد المعلوم والمعقول وتقويته بالمحسوس؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

٢٠- سلوك المكذبين من هذه الأمة مسلك من سبقوهم في رمي الرسل وما جاؤوا به بالسحر، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

٢١- أن من وصف الحق ومن جاء به بالسحر فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ووجه ذلك الإظهار مقام الإضمار.

٢٢- تعمد أهل الكفر والباطل وصف الحق والدعاة إليه من الرسل وغيرهم بأقبح الأوصاف؛ تنفيرًا منه ومن الدعاة إليه.

٢٣- لجوء المكذبين والكفار عندما لا يستطيعون إبطال الحق إلى الاقتراح؛ لقوله

تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، فهذا منهم ليس لطلب الاستدلال، وإنما هو من باب التعنت والتعجيز، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

٢٤- إيمان هؤلاء المكذبين بالملائكة وأنهم في السماء؛ لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

٢٥- تهديد المكذبين وتحذيرهم من اقتراح الآيات وطلبها، وبيان أنه لو أنزل الله ملكًا استجابة لاقتراحهم لقضي الأمر بتعذيبهم ولم يمهلوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

٢٦- الإشارة إلى أن من سنن الله الكونية إهلاك المكذبين إذا اقترحوا آية معينة ثم لم يؤمنوا بها.

٢٧- أنه عز وجل لو جعل الرسول «ملكًا» لجعله «رجلًا»؛ أي على هيئة رجل من البشر؛ ليتمكن الناس من مخاطبته ويفهموا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾؛ ولهذا فحكمته عز وجل اقتضت أن يكون الرسل من البشر، وأن يكون الرسول من قومه وبلسانهم؛ رحمة منه وإعذارًا.

٢٨- أنه لو جعل الرسول ملكًا حسب اقتراح هؤلاء المكذبين، وجعل على هيئة رجل؛ لالتبس واختلط عليهم الأمر: أهو ملك أو رجل، كما لبّسوا على أنفسهم في تشكيكهم برسالة محمد ﷺ واقتراحهم إنزال ملك عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

٢٩- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه الكفار المستهزئين من قومه بأن هذا وقع لمن قبله من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٣٠- توافق أعداء الرسل من الكفرة والمكذبين على الاستهزاء بالرسل، كما قال

تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر: ١١].

٣١- أن المصائب والابتلاءات إذا عمت خفت؛ لهذا ذكر الله عز وجل لنبيه ﷺ ما حصل من الأمم السابقة من استهزاء برسلهم؛ تسلية له ﷺ.

٣٢- التحذير والتهديد للمستهزئين بالنبي ﷺ بأن يحل بهم ما حل بالمستهزئين بالرسل من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنبياء:٤١].

٣٣- أن الاستهزاء بالرسل سبب للعقوبة، موجب لعذاب الله تعالى.

٣٤- الحث على السير في الأرض والنظر والتأمل والتفكر في عاقبة المكذبين من الأمم السابقة، والاعتبار بما جرى لهم وما حل بهم من العقوبات، والحذر من التكذيب ومن مسالكهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، ﴿لِّمَن﴾ اللام حرف جر و«من» اسم استفهام، ومعناه هنا التوبيخ، و«ما» موصولة، أي: قل يا محمد موبخًا لهؤلاء العادلين بربهم المشركين به، ومقررًا وملزمًا لهم بالتوحيد: لمن الذي في السموات والأرض من المخلوقات والعوالم؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؟

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أمره عز وجل أن يسألهم، وأمره أن يجيبهم مبادرًا ومقررًا بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾؛ لتعيُّن هذا الجواب اتفاقًا، أي: هو لله لا خلاف بيني وبينكم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد يأتي الجواب في مثل هذا منهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، واللام فيه للتمليك، والخبر مؤخر، والتقدير: قل لله ما في السموات والأرض، والجملة في محل نصب مقول القول.

وقدم الخبر للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: لله تعالى وحده ذلك كله؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

وذلك يوجب إخلاص العبودية والألوهية له وحده، وفيه تقرير البعث وأن مرد الخلائق إليه وحده، وفيه إنكار على من عدلوا به غيره.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾، أي: أوجب على نفسه الرحمة؛ تفضلًا منه وكرمًا، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال ﷺ: «**إنّ الله لما خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش: إنّ رحمتي تغلب غضبي**»، وفي رواية: «**سبقت غضبي**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**لما قضى الله كتب بيده على نفسه في كتاب، فهو عنده موضوع فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**»، وفي لفظ: «**سبقت غضبي**»(٢).

قال ابن القيم بعد ذكر هذا الحديث(٣): «فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب؛ بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش؛ فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسه».

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بدل من «الرحمة»، بدل بعض من كل، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة- سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٤)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٢-١٤٣).

وقد أكد هذا الوعيد بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد، فأقسم عز وجل بنفسه الكريمة؛ تعظيمًا لها على جمعه الخلائق إلى يوم القيامة، وهو سبحانه أصدق القائلين، وخبره أصدق الأخبار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، «إلى» بمعنى اللام؛ كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

و«يوم القيامة» سمي بذلك؛ لقيام الناس فيه من قبورهم لربهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الروح فيه والملائكة صفًّا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، ولقيام الحساب فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١]، ولقيام الأشهاد فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام العدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقد سمى الله تعالى ذلك اليوم «يوم الجمع»؛ لجمع الخلائق فيه، قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه، أي: لا شك في وقوعه ومجيئه، ولا شك فيما يحصل فيه من الحساب والجزاء على الأعمال، ولا يجوز أن يشك فيه، وذلك عند أهل الإيمان؛ وأما أهل الجحود والتكذيب فهم في ريبهم يترددون.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، «الذين» مبتدأ، وخبره: ﴿فَهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ﴾، وقرن بالفاء؛ لتضمن الموصول معنى الشرط.

ويحتمل كون «الذين» خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون، أي: لا يصدقون بالمعاد والقيامة وما يجب التصديق والإيمان به.

والخسارة والخسران: ضد الربح، وهو: ضياع رأس المال أو بعضه.

ومعنى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: أضاعوها، ومن خسر نفسه وأضاعها فقد خسر وأضاع كل شيء، وماذا عساه أن يبقى بعد خسارة النفس؛ فقد خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، خسروا أنفسهم وأهليهم وكل شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود: ٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وقال ﷺ: «**كلّ النّاس يغدو؛ فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ من قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾، و﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم؛ للدلالة على اختصاصه عز وجل بذلك، و«ما» اسم موصول، مبتدأ مؤخر، يفيد العموم، أي: وله عز وجل خاصة الذي سكن في الليل والنهار، أي: كل الذي استقر في الليل والنهار، أي: وله كل شيء؛ لأنه لا شيء من خلق الله تعالى إلا وهو ساكن في الليل والنهار ومستقر فيهما.

وقدم الجار والمجرور «له» للدلالة على الحصر، أي: وله وحده كل الذي سكن في الليل والنهار.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، «السميع» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة سمعه عز وجل لجميع الأقوال والأصوات؛ سرها وجهرها، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء.

قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى علي كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية [المجادلة: ١]»(١).

فهو عز وجل «السميع»؛ سمع الصوت، وسمع الإجابة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة علمه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم؛ يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢]، أي: لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق سبحانه وتعالى.

فهو عز وجل السميع لأقوال عباده ولجميع الأقوال والحركات، وهو العليم بهم وبأعمالهم وبكل شيء، وهذا من تمام وكمال ملكه لما في السموات والأرض، ولما سكن في الليل والنهار.

وفي هذا وعد ووعيد؛ وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه؛ لأن مقتضى سمعه وعلمه بكل شيء محاسبته للعباد ومجازاته لهم بأعمالهم خيرها وشرها.

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾.

لما قرر عز وجل في الآيتين السابقتين أن له ما في السموات والأرض وما سكن في الليل والنهار؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ أتبع ذلك بتقرير وجوب إفراده بالعبودية والألوهية، مؤكدًا أيضًا تفرده بالربوبية، في إشارة إلى أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والهمزة للاستفهام، وهو هنا للإنكار والنفي، أي: قل للمشركين منكرًا عليهم إشراكهم بالله، ودعوتهم لك إلى اتخاذ معبود غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤]، وكما قال تعالى عن موسى عليه السلام وقومه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ قدم المفعول الأول؛ وهو قوله: «غيرَ الله»؛ ليكون مواليًا للاستفهام؛ للاهتمام به؛ لأنه المقصود بالإنكار.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، أي: أغير الله من هذه المخلوقات العاجزة أجعل ﴿وَلِيًّا﴾، أي: معبودًا أرجوه لجلب النفع ودفع الضر، أي: لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده، والمقصود من هذا: الإنكار عليهم في إشراكهم بالله واتخاذهم أولياء غيره.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الجملة في محل جر صفة للجلالة، مؤكدة للإنكار، أي: خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثال سبق.

عن مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: «كنت لا أدري ما: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها»(١).

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنه يُطعِم ولا يُطعَم، أي: أنه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٧٥).

سبحانه يطعم جميع الخلق، أي: يرزقهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾، أي: ولا يُطعَم لغناه بنفسه عن الخلق، وعن الطعام، فهو عز وجل الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وفي الحديث: «**الحمد لله الّذي يُطعِم ولا يُطعَم، ومنَّ علينا وهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكلّ بلاءٍ حسنٍ أبلانا، الحمد لله غير مودّعٍ، ولا مكافأٍ، ولا مكفورٍ، ولا مستغنًى عنه، الحمد لله الّذي أطعمنا من الطّعام، وسقانا من الشّراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضّلال، وبصّرنا من العمى، وفضّلنا على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلًا، الحمد لله ربّ العالمين**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الّذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا؛ فكم ممّن لا كافي له ولا مؤوي**»(٢).

وفي الآية احتجاج على المشركين بما هو مسلم عندهم من كونه عز وجل الرب الخالق المالك الرازق؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤] فكيف يعبدون غيره؟!

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ بعد أن ذكر الأمر بتحقيق الربوبية بقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أتبعه بالأمر بتحقيق العبودية، فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: قل معلنًا للناس جميعًا: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم في الدعاء (١/ ٥٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٥)، وأبو داود في الأدب (٥٠٥٣)، والترمذي في الدعوات (٣٣٩٦).

وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن الآمر معلوم، وهو الله عز وجل، أي: أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: من هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي: أمرت أن أكون أول من استسلم لله بالتوحيد، وأخلص له الإيمان باطنًا، وانقاد لطاعته ظاهرًا؛ من هذه الأمة، بالإسلام الخاص الذي بعثت به بالقرآن الكريم.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾، أي: قل هذا ولا تكونن من المشركين، أي: وقيل لي: ولا تكونن من المشركين.

وهكذا كان ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وفي الآية ترغيب وحث على الامتثال، وإرشاد إلى أنه ينبغي أن يكون الآمر بالخير عاملًا به، وأن يكون الناهي عن الشر مبتعدًا عنه.

والأمر والنهي له ﷺ أمر ونهي لأمته، كما أن فيها تيئيسًا للمشركين من عودته إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالإشراك به، وعدم الاستسلام له، ومخالفة أمره، وارتكاب نهيه.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤-٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ١].

وفي إضافة العذاب إلى ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعظيم وتهويل للعذاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩]؛ فعظمة اليوم تستلزم عظمة العذاب، وعظمة العذاب تستلزم عظمة اليوم الذي يقع فيه.

وفي الآية تعريض بأن المشركين مستوجبون للعذاب العظيم في ذلك اليوم العظيم.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب، وخلف: «يَصرِف» بفتح الياء وكسر الراء، وقرأ الباقون: ﴿يُصْرَفْ﴾ بضم الياء وفتح الراء.

و﴿مَّن﴾ شرطية. و﴿يُصْرَفْ﴾ فعل الشرط، ومعنى ﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾، أي: يصد ويبعد عنه عذاب ذلك اليوم. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: في ذلك اليوم.

﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد» التي للتحقيق، أي: فقد رحمه ربي، ونجاه من العذاب، وأنعم عليه بدخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨].

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، الإشارة بـ«ذلك» إلى صرف العذاب عنه ورحمته إياه.

و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الفلاح والظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ الفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ كما قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ٱلْمُبِينُ﴾ اسم فاعل من «أبان» اللازم، بمعنى «بان»، أي: ظهر، أي: الفوز البين الظاهر. ويجوز أن يكون من «أبان» المتعدي، بمعنى «أظهر»، أي: المُظْهِر لمن حصل له ذلك بأنه فائز.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

هذا دليل آخر على تفرده عز وجل بالربوبية، المستلزم إفراده بالعبودية والألوهية.

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، الخطاب عام للنبي ﷺ ولغيره، أي: وإن يصبك الله بضر.

و«ضر» نكرة في سياق الشرط؛ فيعم كل ضر مهما كان، والضر: ما يتضرر به الإنسان؛ في البدن، والعقل، والمال؛ من مرض، وفقر، وشدة، وغير ذلك.

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، الفاء واقعة في جواب الشرط «إن»؛ أي فلا رافع لهذا

الضر ولا مزيل له إلا هو عز وجل؛ لأنه عز وجل مالك الضر والنفع، بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ معطوفة على الشرطية السابقة، أي: وإن يصبك الله بخير، و«خير» نكرة في سياق الشرط تعم كل خير، وهي هنا في مقابل «ضر»، أي: وإن يصبك بخير من صحة، وغنى، ورخاء، وأمن، وغير ذلك.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو ذو القدرة التامة على كل شيء، مالك الضر والنفع، بيده الخلق والملك والتدبير، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

وقال ﷺ: «**اللّهمّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطي لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدُّ**»(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(٢).

وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جعل جوابًا للشرط ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ لأنه علة للجواب المحذوف والجواب المذكور في الشرطية الأولى، والتقدير: وإن يمسسك الله بخير فلا مانع له؛ لأنه على كل شيء قدير؛ من الضر والنفع وغير ذلك، الذي يستحق وحده أن يفرد بالعبودية والألوهية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ تعريف المبتدأ والخبر؛ للدلالة على الحصر، أي: وهو القاهر وحده، فلا قاهر بالمعنى العام إلا هو.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٣)، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٥)، والنسائي في السهو (١٣٤١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح».

و«القاهر»: ذو الغلبة والقوة والسلطان التام؛ فلا يفلت من قدرته، ولا من قبضته، ولا من قدره وتدبيره- أحد.

﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، «فوق» ظرف متعلق بالقاهر، أي: القاهر فوق عباده بذاته، فهو سبحانه وتعالى عال على خلقه وفوقهم، وهو القاهر فوق عباده بصفاته ونفوذ أمره فيهم، فله عز وجل العلو المطلق؛ علو الذات، وعلو الصفات.

والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، «الحكيم» اسم من أسماء الله عز وجل، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ في خلقه وقضائه وأمره الكوني، وفي قضائه وأمره ونهيه الشرعي، وفي كل ما يفعل؛ له الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي؛ وله الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ محكم متقن لكل ما خلق وقدر وشرع.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، أي: ذو الخبرة التامة والعلم الواسع بكل شيء، وهو أخص من «العليم».

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفيَّاتها؛ وعلى هذا فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجليّاتها من باب أولى.

فهو عز وجل الخبير فيما خلق وقدر وشرع، وفيما أعطى ومنع، المطلع على العباد وأعمالهم، المحاسب والمجازي لهم؛ وفي هذا وعد لمن أطاع ووعيد لمن عصى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة ما يدل على كمال ربوبيته وإلهيته، وصدق رسوله ﷺ فيما جاء به من الآيات، والدعوة إلى إخلاص العبادة لله تعالى، وتقرير البعث، وغير ذلك؛ ثم أتبع ذلك ببيان أن أكبر شهادة على صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله هي شهادة الله عز وجل.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث، المكذبين لما جئت به من الآيات والحق.

﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾، ﴿أَيُّ﴾ اسم استفهام للتقرير؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤].

﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، أي: أعظم وأقوى وأعدل شهادة على صدق رسالتي وما جئت به من الحق وعلى كل شيء؛ لأنها مبنية على علم ويقين وعدل.

﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: قل الله أكبر شهادة، وهو شهيد بيني وبينكم على صدق رسالتي وما جئتكم به من الحق، وما أنتم قائلون لي، وكفى به عز وجل شهيدًا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ [هود: ٥٤].

وقد أمر عز وجل نبيه ﷺ بالسؤال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، وبالجواب بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ لأن المراد بذلك التقرير، وهو مما لا يصح إنكاره.

كما ذكر في الآية الأخرى شهادته وشهادة الملائكة، فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

وفي الآية الثالثة ذكر شهادته عز وجل وشهادة علماء أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء النحّام بن زيد، وقردم بن كعب، وبحري بن عمرو، فقالوا: يا محمد، ما تعلم مع الله إلهًا غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو**»، فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾»(١).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٨٥).

قال ابن القيم[1] في كلامه على الآية: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، «المراد شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته؛ فإن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: من يشهد على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات شهادته له، وشهادة ملائكته، وشهادة علماء أهل الكتاب به».

فهو عز وجل شهيد له ﷺ قولًا، وهو شهيد له بما أقام من الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه، وبتأييده له ﷺ وتقريره له، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾؛ بُني الفعل «أوحي» لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي هو الله عز وجل، أوحى هذا القرآن إلى النبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

وفي الشرع: وحي الله لأحد من البشر بشريعة ليبلغها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

و«القرآن» مصدر بمعنى الفاعل، مأخوذ من «القرء» وهو الجمع؛ لأنه يجمع سورًا وآيات كثيرة.

وهو أيضًا بمعنى اسم المفعول، بمعنى: مقروء، وفي الإشارة إليه بقوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ تعظيم له.

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن أنذركم، أي: أحذركم وأخوفكم به، أي: بالقرآن، وما فيه من الوعيد والتهديد لمن خالف أمر الله. واقتصر على الإنذار دون البشارة؛ لأن الخطاب مع الكفار.

﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الواو عاطفة، و«من» موصولة، أي: والذي بلغه، أي: ولأنذر به من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٣).

بلغه، فكل من بلغه القرآن وفهم خطابه فهو مُنْذَر به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والنون للتوكيد، واللام في قوله: ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ للابتداء وتفيد التوكيد، فأكد هذا الإنكار بمؤكدين: نون التوكيد، واللام؛ لتسفيه عقولهم، حيث خالفوا بشهادتهم الباطلة ما اتفق عليه العقلاء، وما دلت عليه العقول السليمة والفطر المستقيمة.

والمعنى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ بفعلكم، بإشراككم بالله وعبادتكم غيره، وبقولكم؛ كما في قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٥-٧].

﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ جواب الاستفهام في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾، أي: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون، بل أتقي شهادتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بيان لجملة: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾.

وكرر الأمر بالقول لأهمية الموضوع؛ فأمره أولًا بنفي شهادتهم، ثم أمره ثانيًا بإثبات شهادته أن الله إله واحد، و«إنما» أداة حصر، والضمير يعود إلى «الله»، أي: ما الله إلا إله واحد، لا يستحق الألوهية والعبودية سواه، وبهذا أشهد، وهو الحق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦].

﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: وإنني بريء من الذي تشركون به مع الله، أو من شرككم أو إشراككم مع الله الأصنام والأوثان وغير ذلك. فأكد وحدانية الله عز وجل بأداة الحصر «إنما»، وبالتصريح بوحدانيته والبراءة من الشركاء ونبذ الشرك وإنكاره.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾.

ذكر الله عز وجل أن أكبر شهادة وأعظم شاهد هو الله عز وجل؛ بينه ﷺ وبين قومه، على صدق ما جاء به من الحق، ثم أتبع ذلك ببيان أن أهل الكتاب يعرفونه ﷺ ويعرفون الحق الذي جاء به كما يعرفون أبناءهم لو شهدوا بالحق.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهود والنصارى؛ فاليهود أوتوا التوراة، والنصارى أوتوا الإنجيل.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، أي: يعرفون النبي ﷺ وأنه حق وما جاء به حق؛ معرفة تامة كما يعرفون أبناءهم.

وخص الأبناء؛ لأن تعلق الأب بالأبناء ومجالستهم له أكثر- غالبًا- فمعرفته بهم أكثر من معرفته بالبنات. ومن وجه آخر خص الأبناء؛ لأن النبي ﷺ ذَكر فهو من الأبناء.

فهم يعرفونه ﷺ بصفاته، وأن ما جاء به هو الحق؛ لما في كتبهم من نعته والبشارة والتصديق به؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فكتبهم مخبرة ومبشرة به، وهو مصداق ما أخبرت وبشرت به؛ وإن كان أكثرهم كتموا ذلك وأنكروه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧].

وقد شهد بصدقه وصدق ما جاء به بعض منهم؛ كعبد الله بن سلام وغيره.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، «الذين» مبتدأ، وخبره جملة: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ودخلت الفاء عليه؛ لشبه الموصول بالشرط. ويحتمل كون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعتًا لـ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: الذين خسروا أنفسهم من أهل الكتاب والمشركين بتكذيبه ﷺ وما جاء به من الحق، أي: الذين خسروا كل الخسارة؛ لأن من خسر نفسه فقد فاته الربح، وخسر رأس المال من باب أولى؛ وأي ربح يرتجى بعد خسران المرء نفسه؟!

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: فهم لا يؤمنون برسالته ﷺ وما جاء به من الحق.

وهذا هو سبب خسرانهم؛ فخسروا أنفسهم بحرمانها السعادة في الدنيا بالإيمان والتوحيد، وحرمانها السعادة في الأخرى بالجنات والنعيم، وأوبقوها بالكفر في الشقاء في الدنيا والآخرة، والمصير إلى النار والعذاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة عن الكفار إشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم بآياته، ثم بيَّن أنه لا أظلم ممن فعل هذا.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الواو استئنافية، و«من» اسم استفهام، ومعناه النفي، و«من» في قوله: ﴿مِمَّنِ﴾ موصولة.

والمعنى: لا أحد أظلم من الذي افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢].

والنفي إذا جاء بصيغة الاستفهام يكون أبلغ؛ لأنه يكون مشربًا بالتحدي.

و«الظلم» معناه النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

و«الافتراء»: الاختلاق، فمعنى ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: اختلق الكذب وتقوَّله على الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٢].

فادعى أن لله شريكًا أو ولدًا، أو ادعى أنه مرسل من عنده وهو كاذب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

و«كذبًا» نكرة؛ فيعم أي كذب؛ قليلًا كان أو كثيرًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، أي: أو كذب بآياته الكونية أو الشرعية، وجحدها وأنكرها.

و«أو» عاطفة تدل على التقسيم والتنويع، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨].

ولا أحد أظلم ممن كذب بآياته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧].

فكيف بمن جمع بين الأمرين: الافتراء على الله كذبًا، والتكذيب بآياته؛ كما هو حال هؤلاء المذكورين؛ افتروا على الله الكذب بدعوى أن له شريكًا، وكذبوا بآيات القرآن الكريم؛ فهم أشد وأعظم ظلمًا.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجملة مستأنفة، فيها معنى التعليل، أي: لأنه لا يفلح الظالمون الذين ظلموا بافتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته.

أي: لا يفوزون بالمطلوب ولا ينجون من المرهوب، بل يحرمون في الدنيا السعادة والتوفيق للإيمان والعمل الصالح، ويحرمون في الآخرة السعادة والتوفيق لدخول الجنة والنجاة من النار.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «إنهم لا يفلحون»؛ للتسجيل عليهم ببلوغهم غاية الظلم؛ لقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالتعريف.

وليشملهم هذا الوعيد وغيرهم من الظالمين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وقال ﷺ: «**إنّ الله ليملي للظّالم حتى إذا أخذه لم يفلته**». ثم قرأ: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تقرير أن لله عز وجل ما في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، والترمذي في التفسير (٣١١٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٢- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ الآية.

٣- سعة ملك الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ مما يوجب التعلق به وحده وعبادته دون سواه.

٥- أن الله عز وجل كتب وأوجب على نفسه الرحمة؛ تفضلًا منه وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٦- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

٧- أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه عقلًا؛ كما تقول المعتزلة، وإنما يوجب على نفسه ما شاء؛ تفضلًا منه وكرمًا، ولا مكره له، ولا موجب عليه.

٨- جواز إطلاق لفظ النفس عليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، والمراد ذاته عز وجل.

٩- إثبات المعاد، وجمع العباد وحشرهم، ويوم القيامة، والحساب والجزاء، وأن ذلك حق لا شك فيه، ولا يجوز أن يرتاب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

١٠- تأكيد الخبر بالقسم وبغير ذلك من المؤكدات في القرآن الكريم؛ جريًا على ما كان عليه العرب من تأكيد الأخبار بذلك.

١١- أن الذين خسروا أنفسهم حقًّا هم الذين لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

١٢- أن الربح كل الربح في الإيمان والتصديق برسالة النبي ﷺ وما جاء به من القرآن، والخسران كل الخسران في عدم الإيمان بذلك.

١٣- أن لله عز وجل وحده كل الذي سكن في الليل والنهار، أي: له كل شيء سبحانه؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

١٤- إثبات اسم الله عز وجل «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع لجميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٥- إثبات اسم الله عز وجل «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه: ٩٨].

١٦- الإنكار على المشركين دعوتهم له ﷺ إلى اتخاذ وليٍّ غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾.

١٧- أمر الله عز وجل له ﷺ بأن يعلن تحقيق الربوبية، وأنه لا يتخذ غير الله وليًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ وتقرير وبيان أن له عز وجل ما في السموات والأرض، وما سكن في الليل والنهار؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وأن له كمال الربوبية، وذلك يستلزم أن يكون له كمال الإلهية.

١٨- يجب على كل مؤمن الحذر من اتخاذ ولي غير الله عز وجل؛ أسوة به ﷺ.

١٩- أن من أعظم دلائل ربوبيته عز وجل وتمام قدرته: خلق السموات والأرض وإبداع خلقهما على غير مثال سبق، وكونه المطعم الرازق لخلقه، الغني عنهم وعن الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾.

٢٠- أن المطعم الرازق للخلق كلهم هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ﴾،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]؛ مما يوجب التعلق به عز وجل وحده، مع فعل الأسباب.

٢١- غنى الله عز وجل التام عن الخلق وعن الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾.

٢٢- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يكون أول من أسلم من هذه الأمة، وانقاد لدين الإسلام بمعناه الخاص الذي بعث به ﷺ، ونهيه عن الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهكذا فعل؛ قال ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وقال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي هذا رد على الذين يغلون به ﷺ، ويجعلون له حقًّا في الربوبية، ويصرفون له شيئًا من العبادة كالدعاء وغيره.

٢٣- ينبغي أن يكون الداعي إلى الخير والناهي عن الشر أول من يعمل بما يدعو إليه، ويحذر مما ينهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢٤- وجوب إخلاص الدين لله والاستسلام له، والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

والأمر والنهي له ﷺ أمر ونهي لأمته.

٢٥- عظم أمر التوحيد ووجوب إخلاصه؛ استسلامًا لله تعالى، وبراءة من الشرك.

٢٦- أن الرسول ﷺ يخاف شؤم المعاصي وعذاب يوم القيامة، ومن باب أولى غيره من الرسل؛ لأنهم بشر مأمورون منهيون كغيرهم، وليس بين الله وبين أحد من الخلق نسب؛ لقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

٢٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وفي التعبير باسم أو وصف الربوبية إشارة إلى وجوب شكره على ربوبيته ونعمه، والبعد عن معصيته.

٢٨- وجوب البعد عن معصية الله، والخوف من عذاب يوم القيامة.

٢٩- عظم يوم القيامة وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٣٠- أن من صُرف عنه عذاب ذلك اليوم العظيم فقد رحمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، ومفهوم هذا أن من لم يصرف عنه عذاب هذا اليوم فقد عذبه.

٣١- إثبات الرحمة الفعلية لله تعالى التي يوصلها إلى من شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾.

٣٢- أن الفوز البين الظاهر لمن صُرف عنه عذاب ذلك اليوم العظيم ورحمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٣٣- أن ما يصيب الإنسان من ضر هو بتقدير الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

٣٤- أنه لا كاشف للضر إلا الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠].

مما يوجب اللجوء إليه وحده ورجاءه، مع فعل الأسباب.

وهذا بخلاف ما عليه كثير من الناس اليوم؛ يعتمدون على الأسباب، ويغفلون عن التوجه إلى من بيده كشف الضر، وهو مسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

٣٥- أن ما يحصل للإنسان من خير فهو من الله عز وجل وبتقديره، ولا مانع له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]؛ فيجب طلب الخير منه، والتعلق به وحده، مع فعل الأسباب.

٣٦- قدرة الله تعالى التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو عز وجل ذو قدرة تامة على كل شيء؛ من تقدير الضر، وكشفه، وجلب الخير، وغير ذلك. وهذا دليل آخر على كمال ربوبيته، يستلزم إخلاص العبادة له وحده.

٣٧- إثبات اسم الله تعالى «القاهر»؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾، وإثبات ما يدل

عليه من أنه عز وجل ذو القهر والقوة والغلبة والسلطان التام والحكم النافذ.

٣٨- إثبات الفوقية والعلو لله تعالى على خلقه؛ فله عز وجل علو الذات؛ فهو عال فوق خلقه بذاته، وله علو الصفات؛ فهو عال فوق خلقه بصفاته، ونفوذ أمره فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

٣٩- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

٤٠- إثبات اسم الله عز وجل «الحكيم»، وأنه سبحانه ذو الحكم التام؛ الكوني، والشرعي، والجزائي، وذو الحكمة البالغة؛ الغائية، والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، ومقتضى هذا الرضا والتسليم بكل ما قدر وشرع وحكم وأمر.

٤١- إثبات اسم الله عز وجل «الخبير»، وأنه سبحانه ذو الخبرة والعلم الواسع والاطلاع التام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾، فهو عز وجل الخبير المطلع على كل شيء، ومن ذلك أحوال العباد وأعمالهم. وفي هذا وعد بالجزاء الحسن لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

٤٢- جواز إطلاق لفظ «شيء» على الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ وكما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

٤٣- أن شهادة الله أكبر شهادة وأعظمها وأعدلها، وهو سبحانه أكبر شهيد، وأعظم شهيد، وأعدل شهيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؛ وكما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

٤٤- أن الله أكبر شهيد بين النبي ﷺ وبين أمته؛ على صدق رسالته، وما جاء به من الحق، وعلى ما هم قائلون له، وحاكم بينه وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

٤٥- إثبات رسالته ﷺ، وأن الله عز وجل أوحى إليه هذا القرآن لينذر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

٤٦- عظمة القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، أي: هذا القرآن العظيم، ويكفي في عظمته أن الله تعالى أوحاه إلى نبيه ﷺ.

٤٧- أن الله عز وجل أوحى القرآن إلى النبي ﷺ لينذر به؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم

بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، كما أن فيه البشارة؛ فهو نذير للكافرين، وبشير للمؤمنين. وإنما اقتصر على النذارة هنا لأن الكلام مع المكذبين والمشركين.

٤٨- عموم رسالته ﷺ، وأن كل من بلغه القرآن فهو منذر به؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

٤٩- أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة إذا كان يفهم خطابه؛ ولو بالمعنى، أما من بلغه القرآن لكنه لا يفهم خطابه ولم يبين له ذلك فقد يعذر.

وما أكثر الخلق الذين هم بهذه الصفة؛ مما يوجب على المسلمين- وبخاصة علماؤهم وحكامهم- بذل ما يستطيعون في تبليغ القرآن، وبيان معانيه وأحكامه، وترجمتها لمن لا يعرف اللغة العربية؛ إبراءً للذمة، وإقامةً للحجة.

٥٠- الإنكار على المشركين إشراكهم بالله تعالى في أقوالهم وأفعالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾.

٥١- براءته ﷺ مما شهد به المشركون من أن مع الله آلهة أخرى، ومما هم عليه من الشرك، وإعلانه ألوهية الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وهكذا يجب على أتباعه المؤمنين البراءة من الشرك وأهله.

٥٢- توبيخ أهل الكتاب في إنكارهم رسالته ﷺ، مع قيام الحجة عليهم بكونهم يعرفونه معرفة تامة كما يعرفون أبناءهم، وأن ما جاء به حق؛ لما في كتبهم من نعته والبشارة به؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾.

قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لكنهم يكتمون الحق فلا يشهدون به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

٥٣- أن من لم يؤمن ويصدق الرسول ﷺ وما جاء به من الحق من أهل الكتاب

والمشركين وغيرهم؛ فقد خسر نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وهذا غاية الخسران، فماذا بعد خسران النفس؟! ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

٥٤- أن غاية الربح في الإيمان برسالته ﷺ وبما جاء به من الحق؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

٥٥- أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا بالإشراك به أو بادعاء أن الله أرسله وهو كاذب، أو كذب بآياته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾.

٥٦- أن الظلم بعضه أشد من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾.

٥٧- أن الظالمين لا يفلحون أبدًا؛ فلا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب، بل يحرمون في الدنيا التوفيق للإيمان والعمل الصالح، ويحرمون في الآخرة الجنة ونعيمها، ويبوؤون النار وجحيمها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٥٨- التحذير من الظلم بافتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته أو غير ذلك؛ لأن عاقبة ذلك الخسران. ووجوب الصدق، والتصديق بآيات الله، والعدل؛ لأن عاقبة ذلك الربح والفلاح.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢].

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾؛ قرأ يعقوب بالياء في «يحشرهم» و«يقول»، وقرأ الباقون بالنون فيهما: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و﴿نَقُولُ﴾.

و«يوم» منصوب بفعل محذوف للتهويل، تقديره: اذكر، و«الحشر»: الجمع، أي: ويوم نحشر الخلائق إنسهم وجنهم، ونجمعهم كلهم.

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: هم وشركاؤهم من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أي: للذين أشركوا بالله.

﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، «أين» اسم استفهام، ومعناه هنا التقريع والتوبيخ والتبكيت والتنديم، أي: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون كذبًا أنهم شركاء مع الله؟

و«الزعم»: الادعاء الكاذب- غالبًا- الذي ليس عليه دليل، أي: الذين تدّعون كذبًا أنهم شركاء مع الله، وأنهم يشفعون لكم وينصرونكم. وفي هذا تيئيس لهم من نفع هؤلاء الشركاء لهم، أي: أنهم لن ينفعوكم، ولن يدفعوا عنكم عذاب هذا اليوم.

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

وليس معنى الآية أن شركاءهم لم يحشروا معهم، بل هم محشورون معهم؛ كما دل عليه قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقوله: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: ٢٢]، وغير ذلك من الآيات.

ولكن معنى الآية أن وجود هؤلاء الشركاء وعدمه سواء؛ لأنهم لا يملكون شفعًا ولا نصرًا، ولا نفعًا ولا ضرًّا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالياء على التذكير: «يكن»، وقرأ الباقون على التأنيث: ﴿تَكُن﴾.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص برفع التاء: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ على أنه اسم (كان)، وخبره: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾، وقرأ الباقون بالنصب: «فتنتَهم» على أنه خبر (كان)، وقدم للحصر.

والمعنى: ثم لم تكن حجتهم ومعذرتهم وجوابهم عند امتحانهم بهذا السؤال.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بنصب الباء «ربَّنا» على النداء، أي: يا ربنا. وقرأ الباقون بالخفض: ﴿رَبِّنَا﴾ على أنه صفة للفظ الجلالة.

و«إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، أي: إلا قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، و«ما» نافية.

أي: ما كان قولهم إلا أن أقسموا بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين، أي: إلا إنكار ما كانوا عليه من الشرك؛ ففتنوا في الدنيا بالشرك، وفتنوا في الآخرة بالكذب.

فأقسموا بالله تعالى، وبذكر صفة الرب مضافة إلى ضميرهم؛ مبالغة منهم في التنصل

من الشرك، أي: لا رب لنا غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: ٧٣-٧٤]، ومن مات على شيء بعث عليه؛ فماتوا مفتونين، وبعثوا مفتونين.

عن سعيد بن جبير قال: أتى رجل ابن عباس فقال: قال الله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢]. قال ابن عباس: «أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ فإنه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام؛ فقالوا: تعالوا نجحد. قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢]»(١).

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾، أي: انظر أيها الرسول، أو أيها السامع، أي: انظر بقلبك وتأمل متعجبًا منهم ومن حالهم.

﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ عبر بالماضي في قوله: ﴿كَذَبُوا۟﴾، وفي قوله: «ضل»؛ لتحقق وقوعه، أي: كيف أخبروا عن أنفسهم بخلاف الواقع، وبالكذب الذي يعود عليها بالضرر والخسران!

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، «ضل» زال وغاب، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠].

أي: غُيبنا فيها ودفنا، و«ما» مصدرية أو موصولة. ﴿يَفْتَرُونَ﴾، أي: يختلقون ويكذبون.

والمعنى: وزال وغاب عنهم افتراؤهم واختلاقهم الشرك ورجاؤهم شفاعة الشركاء ونصرهم لهم، كما غاب عنهم أولئك الشركاء الذين كانوا يشركونهم مع الله

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة حم السجدة، معلقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما، والطبري في «جامع البيان» (٧/ ٤٢، ٩/ ١٩٤).

تعالى فلم يقدموا لهم نفعًا أو دفعًا- وإن كانوا معهم في الحشر سواء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة حالهم يوم حشرهم ومآلهم، وما يحصل لهم من التبكيت والتقريع والتنديم، ثم أتبع ذلك بذكر سبب ما آلوا إليه من سوء الحال، وهو ما كانوا عليه في الدنيا من الإعراض والكفر والتكذيب.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، الواو استئنافية، و«من» في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ تبعيضية، ﴿مَّن يَسْتَمِعُ﴾، «من» موصولة، وأفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾؛ مراعاة لمعنى «من». والخطاب للنبي ﷺ، أي: وبعض من هؤلاء المشركين الذي يستمع ويصغي إليك عند قراءتك القرآن وفي دعوتك، لكن من غير تدبر، ومن غير قصد للحق واتباعه؛ ولهذا لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الواو عاطفة أو حالية، أي: وجعلنا كونًا وقدرًا، أي: صيرنا أو خلقنا على قلوب هؤلاء المشركين والكفرة ﴿أَكِنَّةً﴾، أي: أغطية وأغشية.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، «أن» تعليلية، أي: لئلا يفقهوه، والضمير يعود إلى القرآن المفهوم من قوله: ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

أي: حتى لا يفهموا القرآن؛ لأنهم لا خير فيهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: وجعلنا في آذانهم وقرًا، و«الوقر»: الثقل والصمم، أي: وجعلنا في آذانهم ثقلًا وصممًا، فلا يسمعون سماع استفادة وانتفاع، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ

لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

فجعل الله عز وجل على قلوبهم أغطية؛ فلا يفهمون القرآن فَهْم تَدَبُّرٍ، وجعل في آذانهم صممًا؛ فلا يسمعونه سماع انتفاع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾، أي: وإن يشاهدوا كل آية شرعية أو كونية لا يصدقوا بها، مهما شاهدوا من الآيات؛ لشدة ظلمهم وعنادهم، أي: أنهم قد تعطلت لديهم جميع وسائل وصول الخير إلى أنفسهم؛ فقلوبهم عليها أكنة فلا يفقهون، وآذانهم فيها صمم فلا يسمعون، ومهما رأوا من الآيات فهم بها لا يؤمنون، فكأنهم لا يبصرون، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾، «حتى» للغاية، أي: حتى إذا جاؤوك جادلوك، و«إذا» ظرفية شرطية، وجملة ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم يجادلونك، أي: يحاجونك بالباطل.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جواب «إذا»، أي: يقول الذين كفروا بآيات الله وكذبوها في مجادلتهم ومحاجتهم لك.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقل: «يقولون»؛ لزيادة التسجيل عليهم بالكفر، وأن من تفوّه بهذه المقالة فهو كافر مثلهم.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا، يعنون القرآن الكريم.

﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما هذا القرآن الذي جئت به يا محمد ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

و«الأساطير» جمع «أسطورة»، وهي الحكايات والقصص التي سطرها الأولون في كتبهم ونقلها بعضهم عن بعض، مما لا حقيقة له، بل أكثرها خرافات.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، الضمير «وهم» يعود إلى المشركين والكفار من أهل مكة، والضميران في ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ يعودان إلى القرآن المشار إليه في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أو يعودان إلى الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ يعني: ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ يعني: يتباعدون»(١).

أي: وهم ينهون الناس عن استماع القرآن وتصديق الرسول واتباع ما جاء به من الحق، ويحذرونهم من ذلك بشتى الوسائل، بل ويمنعونهم من الدخول في الإسلام، ويعذبون من أسلم ليرجع عن دينه.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، أي: ويتباعدون عنه، والنأي: البعد. قال الشاعر:

أَلَا حَبَّذَا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدُ ... وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ بَعْدِهَا النَّأْيُ وَالبُعْدُ

وبين «ينهون» و«ينأون» جناس قريب من التام.

والمعنى: ويتباعدون بأنفسهم عن الانقياد للقرآن، وتصديق الرسول ﷺ، واتباع ما جاء به من الحق؛ فيجمعون بين الضلال والإضلال. وقدم نهيهم عنه على ابتعادهم عنه؛ إشارة إلى شدة كراهتهم له.

وروي أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، كان ينهى عن النبي ﷺ أن يؤذى، وينأى عنه، أي: ويبتعد عن اتباعه(٢).

والصحيح الأول؛ لأن الآية في سياق الذم للنهي عنه والنأي عنه؛ لقوله بعده: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، فهذا وما بعده أدل على القول الأول، أي: وإن يهلكون بهذا المسلك- وهو نهيهم عن اتباع الحق، ونأيهم بأنفسهم عنه- إلا أنفسهم.

والجملة في محل نصب على الحال، و«إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم، فضرر ذلك عائد على أنفسهم لا إلى الرسول ﷺ وما

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٧٧، ١٢٧٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٢٠٣-٢٠٥)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٢٧٦-١٢٧٨).

جاء به من الحق؛ فهو ﷺ منصور، ودينه مؤيد محفوظ بإذن الله، وفي هذا تسلية له ﷺ.

وليس المراد بالهلاك في الآية الهلاك الحسي بالموت؛ فهذا وإن كان مصيبة فأمره يهون، وكل الناس صائرون إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

قال الشاعر:

فَهُنَّ المَنَايَا أيَّ وَادٍ سَلَكْتُهُ ... عَلَيْهَا طَرِيقِي أوْ عَلَيَّ طَرِيقُهَا

ولكن المراد بالهلاك في الآية الهلاك المعنوي بالكفر، الذي هو المصيبة العظمى، والخسارة الكبرى، والكسر الذي لا ينجبر؛ كما قيل:

وَكُلّ كَسْرٍ فَإِنَّ اللهَ جَابِرُهُ ... وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ(١)

فكل مصيبة تهون دون المصيبة في الدين بالكفر؛ لأنه سبب للشقاء في الدنيا، وربما القتل على أيدي المؤمنين، وموجب للخلود في النار في الآخرة، وهذا أشد وأعظم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وما يشعرون أنهم بهذا الصنيع يهلكون أنفسهم أشد الهلاك، ويوبقونها في النار والخلود فيها. وهذا من أعظم المصائب؛ أن يظن الإنسان أنه على الحق وهو على الباطل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وحشر الخلائق جميعًا والمشركين ومعبوداتهم، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٢- التقريع والتبكيت والتنديم للمشركين في ذلك اليوم على شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٣- تخلي الشركاء وتبرؤهم ممن أشرك بهم وعبدهم مع الله؛ لأنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

٤- أن اتخاذ المشركين شركاء مع الله زعم باطل لا دليل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، والزعم: الادعاء الباطل غالبًا.

وفي الحديث: «**بئس مطية الرجل: "زعموا"**»(١).

٥- فتنة المشركين في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا بالشرك بالله، وفي الآخرة بالكذب على الله وإنكار شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، أي: لم تكن حجتهم ومعذرتهم وإجابتهم على امتحانهم وسؤالهم إلا أن قالوا هذا القول.

٦- أن من مات مفتونًا بعث مفتونًا، ومن مات على شيء بعث عليه.

٧- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق، وإيمان المشركين بربوبية الله تعالى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾.

٨- أن القسم لا يكون إلا بالله أو بصفة من صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾.

٩- انقطاع أمل المشركين ورجائهم في شركائهم في ذلك اليوم؛ لهذا بادروا إلى الإنكار، وهيهات أن ينفعهم ذلك.

١٠- التعجب من حال المشركين ومقالهم، وكيف كذبوا على أنفسهم وأنكروا ما هو واقع منهم، وأضروا بها وأوبقوها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

١١- غياب وزوال ما كان المشركون يفترونه من الشرك وشفاعة الشركاء ونصرهم، فغاب الشركاء، وغاب ما يؤمل فيهم من الشفع والنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

١٢- أن من المشركين من يستمع إلى قراءة النبي ﷺ القرآن، لكن بلا تدبر ولا تفهم ولا مقصد حسن؛ ولهذا لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

١٣- معاقبة الله لهم بسبب كفرهم بجعل الأكنة على قلوبهم، والوقر في آذانهم.

١٤- أن من لم ينتفع بما يستمع من القرآن والذكر فهو كمن على قلبه غطاء وفي سمعه صمم؛ فلا يعي ولا يسمع.

١٥- ينبغي لمن يستمع القرآن والذكر أو يقرؤه حضور القلب، والتدبر والتفهم، والحرص على الانتفاع، والحذر من الغفلة؛ كما هو شأن المعرضين المخذولين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

١٦- أن المشركين مهما رأوا من الآيات الشرعية أو الكونية لا يؤمنون بها؛ لشدة عنادهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾.

١٧- مجادلة المشركين بالباطل لرد الحق، وتكذيبهم القرآن، ومكابرتهم وزعمهم أنه أساطير الأولين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٨- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الآية.

١٩- أن من قال عن القرآن بأنه أساطير الأولين فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٠- نهي المشركين والكفار الناس عن استماع القرآن، وعن تصديق رسول الله ﷺ واتباع ما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

٢١- ابتعاد هؤلاء المشركين والكفار بأنفسهم عن اتباع ما جاء به ﷺ من القرآن والحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، وهكذا شأن أعداء الرسل وأعداء الحق، لا يكفيهم- بعد أن ضلوا بأنفسهم- إلا أن يضلوا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

٢٢- أن هؤلاء المشركين والكفار ما يهلكون بهذا الفعل- من النهي عن اتباع الحق، والنأي عنه- إلا أنفسهم؛ لأنهم لا يضرون إلا أنفسهم، بحملهم أوزارهم

وأوزار من أضلوهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢٣- أن كل داع إلى الباطل فإنه إنما يجني على نفسه؛ لأن ضرر ذلك راجع إليه.

٢٤- أن الهلاك كل الهلاك هو الهلاك المعنوي بالكفر الموجب للشقاء في الدنيا والآخرة، والخلود في النار.

٢٥- أن المشركين بصدهم عن الحق، وانصرافهم وابتعادهم عنه؛ لا يشعرون بأنهم إنما يهلكون بهذا الصنيع أنفسهم؛ ذلك لانطماس بصائرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٦- ينبغي الحذر من أن يسلك الإنسان سبيل الهلاك وهو لا يشعر، بل يظن أنه على الحق، وهذا من أعظم المصائب؛ فعلى المسلم أن يلزم منهج الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، ويدعو ربه أن يثبته على الحق؛ كما كان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[1]، وكما في الأثر: «**اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل**»[2].

* * *

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٧)، والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٥٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «شرح مذهب أهل السنة والجماعة» لابن شاهين (ص٣٥)، وكان من دعاء أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما نحو من هذا. انظر: «قوت القلوب في معاملة المحبوب» (١/ ١٤٢)، و«شرح منتهى الإرادات» (٣/ ٤٩٧).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، الواو استئنافية، و«لو» شرطية، وهي حرف امتناع الامتناع.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصح خطابه، و«ترى» يحتمل أن تكون بصرية، أو قلبية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين».

﴿وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: أوقفتهم الملائكة بأمر الله عز وجل على النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، أي: تدفعهم الملائكة إليها دفعًا.

وجاء «وقفوا» بصيغة الماضي تأكيدًا لتحققه، أي: ولو ترى حين وُقِفَ هؤلاء المشركون، أي: أبلغوا إليها وحبسوا. قال ذو الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي ... فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ[1]

أي: بلغت إليه وحبست ناقتي عن السير.

والمعنى: ولو ترى حين حبس هؤلاء المشركون يوم القيامة على النار، واطلعوا عليها وعاينوها، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، والفظائع والأهوال.

وحذف جواب «لو» للتفخيم والتعظيم؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا جسيمًا، وهولًا فظيعًا، من سوء حالهم وغير ذلك. وهذا أبلغ وأشد

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٣).

في التخويف.

ومثل هذا في حذف جواب «لو» قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ معطوف على ﴿وُقِفُوا۟﴾، أي: فقالوا- لما يرون من الأهوال العظام-: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، أي: يا ليتنا نرجع إلى الدنيا، وفي هذا تحسر شديد منهم، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. ومحال أن يردوا.

والتمني- غالبًا- ضرب من طلب المستحيل، وهو كما يقال: «رأس مال المفاليس»، وكما قال أبو العتاهية[1]:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾؛ قرأ حمزة ويعقوب وحفص بنصب الباء: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾، وقرأ الباقون برفعها: «ولا نكذبُ».

وهذا مشعر بإقرارهم بتكذيبهم بآيات ربهم في الدنيا، ومشعر بندمهم، أي: ونصدق- بعد ردنا إلى الدنيا- بآيات ربنا الشرعية والكونية، ولا نكذب بها، كما كان حالنا فيما سبق.

وفي إضافة اسم الرب أو صفته إلى ضميرهم في قولهم: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ ما يشبه التأكيد منهم على ندمهم، وأنهم لن يعودوا إلى التكذيب بآياته.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ قرأ حمزة ويعقوب وحفص وابن عامر بنصب ﴿وَنَكُونَ﴾؛ عطفًا على ﴿نُكَذِّبَ﴾. وقرأ الباقون: «ونكونُ» بالرفع، وهو على القراءتين معطوف على قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾.

أي: ونكون من المصدقين باطنًا بقلوبنا، وظاهرًا بجوارحنا، بأن نعمل صالحًا؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوْ نُرَدُّ

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤٦).

فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾، «بل» للإضراب الإبطالي، فيها إبطال لقولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بل سيكذبون بآيات ربهم ولن يؤمنوا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿بَدَا لَهُم﴾، أي: ظهر لهم. قال زهير[1]:

بَـدَا لِيَ أَنِّي لَسْـتُ مُـدْرِكَ مَـا مَضَـى ... وَلَا سَـابِقًا شَـيْئًا إِذَا كَـانَ جَائِيَـا

﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: بل ظهر لهم الذي كانوا يخفون في أنفسهم ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: في الدنيا، من علمهم بصدق ما جاءت به الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من هذه السورة ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وكما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قال ابن القيم: «فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم، بل تواصوا بكتمانه؛ فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل؛ فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكذب والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٤٠).

لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوه لما عاينوا من العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله».

إلى أن قال: «وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي: ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه. فلم يظهر لكم شيء جديد لتكونوا عالمين به لتعذروا به، بل ظهر لكم ما كان معلومًا وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه»(١).

وقيل: المعنى: وبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل من الكفر الذي كانوا يكتمونه؛ لأنهم كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. وفي هذا قوة من حيث المعنى، لكن يشكل على هذا أن السياق في الكفار، وأن سورة الأنعام كلها مكية نزلت جملة واحدة، والنفاق إنما ظهر في المدينة، وإن أشير إليه في بعض السور المكية؛ كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: ١١].

والأقرب القول الأول: أنها في الكفار، وقد تحمل على الطائفتين.

﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، الواو عاطفة، و«لو» شرطية، أي: ولو أرجعوا إلى الدنيا.

﴿لَعَادُواْ﴾، اللام واقعة في جواب «لو».

﴿لِمَا﴾، «ما» موصولة، أي: ولو ردوا إلى الدنيا لرجعوا للذي نهوا عنه من التكذيب بآيات الله والكفر.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، الواو عاطفة، و«إن» حرف توكيد ونصب. ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ خبر «إن». واللام للتوكيد «لام المزحلقة»، أي: وإنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: في أنهم إذا ردوا لا يكذّبون بآيات ربهم ويكونون من المؤمنين، وليس كذبهم في تمنيهم الرد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: وقال هؤلاء المكذبون منكرين للبعث:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٦-١٤٧).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما الحياة فقط إلا هذه الحياة الدنيا، ولا معاد، ولا حياة بعدها؛ ولهذا قالوا:

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، أي: وما نحن بمبعوثين أحياء بعد الموت، وما نحن بمخرجين من قبورنا؛ كما قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

لما ذكر إنكارهم البعث أعقبه بوصف حالهم حين يحشرون إلى ربهم، وهو حال البعث الذي أنكروه.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، الكلام عليه إعرابًا كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وحذف جواب «لو» - كما سبق - للتعظيم والتفخيم.

ومعنى ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وقفوا بين يدي ربهم عز وجل. وعبر عن المستقبل بالماضي في قوله: ﴿وُقِفُواْ﴾؛ لتحقق وقوعه، وتصويرًا للحال المستقبلة كأنها شيء حاضر ماض.

ومعنى ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وقفوا وأقيموا بين يدي ربهم عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم ربهم موبخًا لهم ومقرعًا:

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾، الاستفهام للتقرير والتقريع. والإشارة لبعثهم ووقوفهم على ربهم، أي: أليس هذا المعاد وما ترون من العذاب والأهوال؛ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالصدق الثابت الذي لا شك فيه، أي: أليس هذا حقًّا؟ والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، «بلى» حرف جواب، أي: بلى هو حق. فأقروا بذلك؛ إذ لا مجال للإنكار، بل أكدوا ذلك بالقسم بقولهم:

﴿وَرَبِّنَا﴾، الواو للقسم، أي: ونقسم بربنا على أنه حق. وأنى ينفعهم ذلك في هذا اليوم؛ ولهذا ﴿قَالَ﴾ مبكتًا لهم:

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر.

﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ الباء سببية، و«ما» مصدرية، أي: فذوقوا وأحسوا ألم العذاب ومسه؛ بسبب كونكم تكفرون، أي: بسبب كفركم وجحودكم وتكذيبكم.

ويجوز كون «ما» موصولة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة ندم الكفار- عند وقوفهم على النار- على ما حصل منهم من التكذيب، وإقرارهم بأن المعاد حق عند إيقافهم على ربهم، وتوعدهم بالعذاب لكفرهم، ثم أتبع ذلك ببيان خسارة من كذب بلقاء الله وقيام الساعة، وتحسرهم على تفريطهم، وما باؤوا به من الأوزار.

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد تحقق خسران الذين كذبوا بلقاء الله، أي: خسروا كل شيء؛ لأنهم قد خسروا دينهم؛ فخسروا أنفسهم ودنياهم وأخراهم.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «قد خسروا»؛ ليكون الكلام مستقلًّا، وليبنى عليه ما بعده.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، «حتى» حرف ابتداء، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة.

﴿جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ الساعة: القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ١].

وسميت القيامة بـ«الساعة»؛ لأن لها زمنًا مؤقتًا، وأجلًا محدودًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

والساعة لا تأتي إلا بغتة، كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي الحديث: «**ولتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومنّ السّاعة وقد انصرف الرّجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ السّاعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ السّاعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»(١).

﴿بَغْتَةً﴾ مصدر في موضع الحال، أي: مباغتة، ومعنى ﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة، وعلى غرة، ومن غير استعداد. وكل من مات فقد جاءت ساعته، وقامت قيامته؛ لانقطاع عمله بموته.

﴿قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا﴾ جواب «إذا»، و«يا» للتنبيه، أي: ما أعظم حسرتنا، وقيل: إنها للنداء، أي: يا حسرتنا احضري.

و«الحسرة»: الندم الشديد والتلهف على الشيء الفائت.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، «ما» مصدرية أو موصولة، أي: على تفريطنا فيها، أو: على الذي فرطنا فيها. والتفريط: التضييع.

والضمير «فيها» يعود إلى «الساعة»، أي: يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها بترك الاستعداد للدار الآخرة بالإيمان وصالح الأعمال، والسلامة من التكذيب بها وسيئ الفعال.

وقيل: إن الضمير «فيها» يعود على الحياة الدنيا، أي: يا ندامتنا على ما ضيعنا في الحياة الدنيا بترك الإيمان والعمل الصالح.

والأول أصح؛ لأن «الحياة الدنيا» لم تذكر في الآية، لكن المؤدى واحد؛ فهو ندم حيث لا ينفع الندم.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ الجملة حالية، و«الأوزار» جمع «وِزر»، وهي الذنوب والخطايا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، أي: وهم يحملون ذنوبهم وخطاياهم على

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم مختصرًا في الفتن (٢٩٥٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ظهورهم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ مؤذن بثقل هذا الحمل، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، «ألا» حرف استفتاح وتنبيه، و«ساء» فعل لإنشاء الذم بمعنى «بئس».

و«ما» موصولة، أو نكرة موصوفة، أو مصدرية، في محل رفع فاعل لـ«ساء»، أي: ألا ساء الذي يزرونه، أو: ألا ساء شيء يزرونه، أو: ألا ساء وزرهم.

والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: حملهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ذكر عز وجل قول المشركين المنكرين للبعث: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ثم أتبعه بالجواب لهذا القول؛ ببيان حقيقة الدنيا، وإثبات الآخرة وبيان مكانتها.

قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، «الدنيا»، أي: القربى زمنًا؛ لأنها قبل الآخرة من حيث الزمن. والدنيا رتبة ومنزلة؛ لأنها دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة. وفي الحديث: «**لو كانت الدّنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ**»(١).

﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، لا يقرب إلى الله، ولا يرجى أن يكون سببًا لدفع العذاب في الآخرة وجلب الثواب، و«اللعب» ما ليس بجد ولا فائدة منه، و«اللعب» ما يتلهى به.

ولا ينافي هذا قوله: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]؛ لأن التفاخر والتكاثر من اللعب واللهو.

---

(١) سبق تخريجه.

وفي الحديث: «**الدّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالمٌ أو متعلّمٌ**»(١).

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾؛ قرأ ابن عامر: «ولدار» بلام واحدة فقط، هي لام الابتداء، وإضافة دار إلى «الآخرة» من إضافة الموصوف إلى صفته.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَلدَّارُ﴾ بلامين؛ الأولى لام الابتداء، والثانية لام التعريف، و﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ بالرفع على أنها صفة «للدار».

وسميت الآخرة؛ لأنها آخر المراحل والدور، ولا دار بعدها.

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: خير للذين يتقون الله. واللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ للتخصيص، أي: خير لهم خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

وإنما كانت خيرًا للمتقين؛ لما فيها من ألوان النعيم الذي ينسي الدنيا وآلامها.

ولهذا قال ﷺ: «**الدّنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر**»(٢).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على طريقة الالتفات. وقرأ الباقون بياء الغيبة على نسق الضمائر السابقة: «يعقلون».

والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة، والأصل: فألا تعقلون. والعقل المنفي هنا هو عقل الرشد.

والاستفهام على قراءة الخطاب لتوبيخ المشركين، وعلى قراءة الغيبة للتعجيب من صنيعهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات المعاد والحساب والنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢٣٢٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- إثبات النار وهي الدار التي أعدت لتعذيب الكافرين.

٣- سوء حال المكذبين والكفار إذا أوقفوا على النار، وشدة الهول آنذاك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا، وهولًا فظيعًا، وخطبًا جسيمًا.

٤- شدة ندم المكذبين إذا وقفوا على النار؛ لهذا يتمنون الرد والاستعتاب، وهيهات؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآية.

٥- إقرار المكذبين بآيات الله إذا أوقفوا على النار؛ لقولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

٦- إقرارهم بتكذيبهم بآيات الله فيما سبق، وعدم إيمانهم؛ لمفهوم قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وإقرار المشركين بربوبية الله تعالى لهم، لكن ذلك لا ينفعهم؛ لإنكارهم لألوهيته.

٨- ظهور الحقائق يوم القيامة، فيظهر للمكذبين ما كانوا يخفون من قبل؛ من علمهم بصدق ما جاءت به الرسل، وعدم انقيادهم عنادًا واستكبارًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾.

٩- كذبهم في قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الله كذبهم فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

١٠- إثبات علم الله تعالى بالمستحيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

١١- إنكار الكفار والمكذبين للبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

١٢- إثبات الوقوف بين يدي الله عز وجل ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

١٣- توبيخ الكفار المنكرين للبعث وتقريعهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾.

١٤- اعتراف المكذبين وإقرارهم بالمعاد والحساب والعذاب آنذاك، وتأكيدهم ذلك بالقسم؛ إذ لا مجال للإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، وهذا مشعر بندمهم، لكن أنى ينفعهم ذلك.

١٥- إثبات القول لله تعالى، فهو يتكلم بحروف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٦- تبكيت الكفرة المكذبين وتهديدهم وتيئيسهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

١٧- أن الكفر سبب للعذاب، والعمل سبب للجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وفي هذا إثبات الأسباب.

١٨- تحقق خسارة من كذبوا بلقاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ خسروا دينهم؛ فخسروا أنفسهم ودنياهم وأخراهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

١٩- إثبات لقاء الله تعالى ووجوب الإيمان به؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

٢٠- إثبات الساعة والقيامة، وأنها تأتي بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ الساعة الكبرى وهي القيامة، والساعة الصغرى بالموت، فإن من مات فقد جاءت ساعته وقامت قيامته.

٢١- شدة ندامة الكافرين على تفريطهم في الدنيا وعدم استعدادهم للقيامة بالإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

٢٢- حمل المكذبين أوزارهم الثقيلة على ظهورهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

٢٣- ذم الأوزار والذنوب، وأنها بئس الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

٢٤- التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

٢٥- حقارة الحياة الدنيا، فما هي إلا لعب ولهو؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

٢٦- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

٢٧- أن الدار الآخرة خير من الدنيا، لكن خيريّتها خاصة بمن اتقى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ومفهوم هذا أنها ليست خيرًا لغير المتقين، بل هي شر لهم.

٢٨- وجوب الحذر من الدنيا وما فيها من اللعب واللهو، وعدم الاغترار بها، ووجوب الاستعداد للآخرة بتقوى الله.

٢٩- أن من لا يعرف مكانة الدنيا بالنسبة للآخرة، والبون الشاسع بينهما والفرق الواسع، وأن الدنيا مجرد لعب ولهو، وأن الدار الآخرة هي الحياة حقًّا؛ فهو غير عاقل عقل الرشد؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة تكذيب المشركين للنبي ﷺ لما جاء به من الآيات، ثم أخذ في تسليته ﷺ تجاه ذلك بقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ الآية، والآيتين بعدها.

سبب النـزول:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: «إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به. فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾»(١).

قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، «قد» حرف تحقيق.

﴿نَعْلَمُ﴾ بمعنى: علمنا. وجاء بصيغة المضارع؛ للدلالة على استمرار علمه عز وجل بذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «ليُحزِنك» بضم الياء وكسر الزاي. وقرأ الباقون ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي. الأولى من الرباعي: «أحزنه يُحزِنه»، والثانية من الثلاثي: «حَزِنَه يحزُنه».

﴿إِنَّهُۥ﴾، «إن» حرف توكيد ونصب. والهاء ضمير الشأن اسمها، ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ اللام لام الابتداء للتوكيد، وكسرت همزة «إن» مع أنها بعد العلم يجب فتحها؛ وذلك لوجود

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٦٤)، والحاكم في التفسير (٢/ ٣١٥)، ورواه الترمذي من حديث ناجية بن كعب، دون ذكر علي رضي الله عنه، قال الترمذي: «وهذا أصح».

لام التوكيد.

﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، «الذي» اسم موصول مبني في محل رفع فاعل لـ«يحزنك»، و«الحزن» ضد السرور.

والمعنى: لَيَحْزُنك قولهم، أي: يسوؤك ويؤسفك الذي يقولون من الكفر، ونسبة الشركاء إلى الله والصاحبة والولد، ورميهم لك بالسحر والكهانة والجنون.

كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ قرأ نافع والكسائي: «لا يُكذِبونك» بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ للتعليل؛ لأن المعنى: لا تحزن لأنهم لا يكذبونك، أي: لا يكذبونك بقلوبهم؛ لأنهم يعلمون أنك صادق.

وقد كانوا يسمونه قبل بعثته ﷺ بـ«الأمين»، ويحكِّمونه بينهم ويرضونه؛ لكنهم لما بعث كذبوه بألسنتهم، فقالوا: ساحر كذاب. وهم يعلمون صدقه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، الواو عاطفة. وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «ولكنهم»، بل قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وذم الظالمين، وأن شأنهم جحود آيات الله، وأن كل من جحد آيات الله فهو ظالم مثلهم.

أي: ولكن الظالمين بشركهم وكفرهم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ لأن أظلم الظلم الشرك بالله والكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، «بآيات الله» متعلق بـ«يجحدون»، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر، ولتناسب رؤوس الآيات، أي: ينكرونها مع علمهم بثبوتها، فهو جحود وإنكار مكابرة وعناد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا

وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذا- كما سبق- من تسليته ﷺ وتعزيته فيمن كذبه من قومه؛ فإن عموم البلية يهونها.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الواو عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد كذبت رسل كثيرون من قبلك.

وأكد الكلام بالقسم و«قد» في الموضعين؛ لتأكيد تسليته ﷺ.

فالتكذيب للرسل كان ديدن الأمم، وليس بدعًا، كما قال تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠] إلى غير ذلك.

وقد قال ﷺ: «**عرضت عليّ الأمم، فرأيت النّبيّ ومعه الرّجل والرّجلان، والنّبيّ وليس معه أحدٌ...**» الحديث(١).

﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾، الفاء عاطفة، و«ما» مصدرية، أي: فصبروا على التكذيب، أي: فصبروا على تكذيب من كذبهم من أقوامهم، فاصبر فلك فيهم أسوة، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

﴿وَأُوذُوا۟﴾ معطوف على ﴿كُذِّبُوا۟﴾، أي: وصبروا على التكذيب والإيذاء.

وقد يكون معطوفًا على ﴿كُذِّبَتْ﴾، أي: كذبوا وأوذوا. والأول أقرب.

﴿وَأُوذُوا۟﴾ بالقول والفعل، أذى معنويًّا؛ باتهامهم بالسحر، والشعر، والكهانة، والجنون، والسخرية منهم، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

ولهذا لما قال ذو الخويصرة معترضًا على قسمته ﷺ الغنائم: «اعدل يا محمد» قال

---

(١) سبق تخريجه.

ﷺ: «رحمه الله؛ أخي موسى، لقد ابتلي بأكثر من هذا فصبر»(١).

وذلك أنهم رموه بأنه آدر، أي منتفخ الخصيتين(٢)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

كما أوذوا حسيًّا بأبدانهم؛ بالتشريد، والضرب، والجراح، و القتل، وغير ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن جاءهم نصرنا؛ بإظهار صدقهم، ودفع الأذى عنهم، وتمكينهم، وخذلان أعدائهم.

وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه؛ فإن المصائب إذا عمت خفت، وكما قالت الخنساء(٣):

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا مغير لكلمات الله.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «لكلماتنا»؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل، أي: ولا مبدل لكلمات الله تعالى الكونية وقضائه ووعده بنصر رسله وأتباعهم، وخذلان أعدائهم وإهلاكهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾، كما سبق في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ﴾.

و«من» في قوله: ﴿مِن نَّبَإِي﴾ صفة لموصوف محذوف، تقديره: ولقد جاءك نبأ من

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل (٢٧٨)، ومسلم في الحيض (٣٣٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانها» (ص٧٢).

نبأ المرسلين. أو تبعيضية، أي: بعض من نبأهم.

والتقدير: والله لقد جاءك من نبأ المرسلين، أي: من خبرهم الهام، وكيف نصروا وأيدوا، وصارت العاقبة لهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة؛ كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ويحتمل أن المعنى: ولقد جاءك من النبأ الذي يأتي المرسلين، وهو الوحي من عند الله تعالى. وكلاهما حق.

ففي هذه الآية تسلية له ﷺ، وأمر له بالصبر كما صبر الرسل قبله، ووعد له بالنصر كما نصر الرسل قبله، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ؛ فكانت العاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وفقًا لسنن الله تعالى الكونية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا من تسليته ﷺ وتعزيته فيمن ضل من قومه، فلا يحزن ولا يأسف عليهم؛ لأن من كتب عليه الضلال فلا سبيل إلى هدايته.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾. واسم «كان» ضمير الشأن، أي: وإن كان الشأن في هذا الأمر أنه ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: شق عليك وعظم.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: وإن كان شق وعظم عليك إعراض هؤلاء المشركين بقلوبهم وتوليهم بأبدانهم عنك وعما جئت به من الآيات؛ حرصًا منك على هدايتهم، وشفقة عليهم.

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: إن قدرت أن تطلب نفقًا في الأرض، و«النفق»: السّرْب، أي: إن استطعت أن تطلب وتتخذ سربًا في الأرض تنفذ فيه إلى أعماقها وما تحتها.

﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أو تبتغي، أي: تطلب مصعدًا في السماء تعرج به فيها.

﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، أي: فتجيئهم بآية هي أفضل وأعظم مما أتيتهم به، أو بآية مما اقترحوه؛ فافعل.

أي: أنه ليس باستطاعتك ذلك، فلا تستطيع أن تدخل إلى نفق في الأرض فتستخرج الآيات، ولا أن تصعد إلى السماء فتنزل بالآيات، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وفي الآية إشارة إلى أنه ليس هناك ثمة آية أعظم مما جئتهم به، ولا مطمع في هدايتهم؛ لأن الله كتب عليهم الضلال، فلا يشق عليك إعراضهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، «لو» شرطية. ﴿شَآءَ﴾ فعل الشرط. وجوابه «لجمعهم». ومفعول «شاء» محذوف، تقديره: ولو شاء الله جمعهم على الهدى لجمعهم على الهدى.

والمشيئة: هي الإرادة الكونية، أي: لو أراد الله- كونًا وقدرًا- ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: لجمع هؤلاء المكذبين، أو لجمع الناس كلهم على الهدى، أي: لهداهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

لكنه عز وجل لم يشأ جمع الناس على الهدى، بل شاء أن يكون منهم المهتدي وأن يكون منهم الضال، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، أي: ولذلك خلقهم كونًا وقدرًا.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: فلا تكونن من ذوي الجهل الذين لا يعرفون سنن الله تعالى الكونية في خلقه.

وليس في نهيه ﷺ أن يكون من الجاهلين ما يدل على تلبسه بذلك؛ ولهذا لم يسند الجهل إليه، فلم يقل: فلا تكن جاهلًا. لكن في هذا بيان أنه ينبغي أن يعلم أن لله تعالى الحكمة في إضلال من ضل من هؤلاء وغيرهم، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى، كما ينبغي ألا يضيق صدرًا بإعراضهم، وأن يعلم أن من كتب عليه الضلال فلا سبيل إلى هدايته.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة أن الأمر له في الهداية، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى، ثم أتبع ذلك بما يدل على أن مشيئته مقرونة بالحكمة؛ فهو عز وجل إنما يهدي بفضله من كان أهلًا للهداية، وهم الذين يستجيبون لدعاء النبي ﷺ ويسمعونه سماع تدبر وتفكر وتفهم وانقياد، كما يضل بعدله من لم يكن أهلًا للهداية. وفي هذا تيئيس من هداية هؤلاء المعرضين.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ تعليل لما أفاده قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية.

«إنما» أداة حصر، أي: ما يستجيب إلا الذين يسمعون، أي: إنما يستجيب لدعوتك- يا محمد- وينقاد لها ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ قراءتَك القرآن ودعوتك سماعَ تدبرٍ وتفهم وانقياد، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧٠].

ومفهوم هذا أن الذين لا يسمعون سماع تدبر لا يستجيبون، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، ولهذا قال بعده:

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، هذا مقابل لـ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ ولهذا حسن عطفه على قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: والموتى الذين لا يسمعون، وهم الكفار المعرضون، فهم موتى لا

يسمعون لموت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٨٠-٨١]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠].

وقال الشاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
وَلَو نَارًا نَفَخْتَ بِها أَضاءتْ ... وَلَكِن أَنتَ تَنفُخُ فِي رَمادِ[1]

ولكونهم لا يسمعون كالموتى فلا ترجى استجابتهم؛ خلص إلى وعيدهم بقوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. ويحتمل أن ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة، أي: يخرجهم من قبورهم. ويحتمل أن يراد بالموتى موتى الأجساد؛ ردًّا على منكري البعث، ولا منافاة بين المعنيين.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، «إليه» متعلق بـ«يرجعون»، وقدم عليه لإفادة الحصر مع مراعاة الفواصل، أي: ثم إليه وحده يردون؛ من استجاب منهم وسمع وهم المؤمنون، ومن كانوا موتى القلوب وهم الكفار المعرضون؛ فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تحقيق وإثبات علم الله عز وجل بما في القلوب والنفوس، وبكل ما يقوله هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٢- إثبات عظمته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، وقوله: ﴿نَصْرُنَا﴾ بضمير الجمع، ولقوله: ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالإظهار دون الإضمار.

---

(١) البيت لكثير عزة. انظر: «ديوانه» (ص٢٢٢).

٣- حرص النبي ﷺ على هداية قومه وشفقته عليهم، وحزنه على ما يصدر منهم من التكذيب له ولما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

٤- أنه ﷺ كغيره من البشر يصيبه ما يصيبهم من الحزن والهم ونحو ذلك.

وفي هذا رد على من يغلون فيه ويرفعونه إلى منزلة الرب جل وعلا؛ كما قال البوصيري في إطرائه وغلوه في النبي ﷺ:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

٥- التعريض بسوء ما يقوله له كفار قومه وذمه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، أي: الذي يقولون من المقالات الكاذبة الخاطئة من تكذيبك وتكذيب ما جئت به.

٦- تسليته ﷺ تجاه ما يقول كفار قومه، ببيان أنهم لا يكذبونه بقلوبهم، بل بألسنتهم فقط، وهم يعلمون صدقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٧- أن المشركين وكفار قريش يعلمون صدق النبي ﷺ، وكانوا يسمونه «الأمين»، فلما بعث إليهم بهذه الرسالة والوحي من عند الله تنكروا له؛ عنادًا وظلمًا وعلوًّا، وإن كانوا في دخيلة أنفسهم يعلمون صدقه وصدق ما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

٨- أن من كذب ما جاءت به الرسل فهو من الظالمين؛ لأن ديدنهم جحود آيات الله تعالى.

٩- الإخبار بما جرى لكثير من الرسل من التكذيب والأذى، والثناء عليهم بصبرهم حتى كانت العاقبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

١٠- تسليته ﷺ أيضًا وتقوية قلبه بذكر ما جرى للرسل قبله من التكذيب والأذى، وما كان منهم من الصبر حتى جاءهم نصر الله، وتأكيد ذلك والإقسام عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا

مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وكما قال شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣].

١١- التنبيه إلى أنه ﷺ ينبغي أن يكون له أسوة بالرسل من قبله في الصبر على التكذيب والأذى ليظفر بنصر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾، أي: فاصبر كما صبروا لتظفر كما ظفروا، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

١٢- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾.

١٣- أن سنن الله تعالى الكونية القدرية في نصرة رسله وأوليائه وخذلان أعدائهم ثابتة لا تتغير، وأن ما قدره الله وقضاه كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- إثبات أن الله يتكلم؛ لقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. وكلماته قسمان: كونية وشرعية.

١٥- إثبات رسالته ﷺ، وتأكيد تسليته وتأسيه بمن قبله من الرسل، وأخذ العبرة والأسوة منهم ومما جرى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

١٦- تأثره ﷺ بسبب إعراض من أعرض من قومه، ومشقة ذلك عليه مشقة عظيمة؛ شفقة على أمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾.

١٧- أن من كتب عليهم الضلال فلا سبيل إلى هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ الآية، ولا تنجع فيهم الآيات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾ [يس: ٤٦].

١٨- أنه لا أعظم ولا أشد تأثيرًا على القلوب من آيات الله تعالى، وأنه ليس بمقدور الرسول ﷺ ولا غيره أن يأتي بشيء من ذلك، فمن لم يؤمن بها فلن يؤمن بغيرها؛ لقوله

تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

١٩- بلاغة القرآن في ضرب المثل للمستحيل كونًا بقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، فكما أن هذا ليس مستطاعًا له ﷺ؛ فكذلك من كتب عليه الضلال لا سبيل لهدايته.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢١- أن الهداية والضلال بيد الله عز وجل، وله الحكمة البالغة في هداية من اهتدى وإضلال من ضل، وأنه لو شاء لهدى الناس جميعًا، لكنه لم يشأ ذلك، بل شاء أن يكون منهم مهتد وضال؛ لحكمة يعلمها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٢- ينبغي معرفة سنن الله تعالى في خلقه، والعلم بأن له عز وجل الحكمة البالغة في إضلال من ضل من الخلق بعدله سبحانه، فلا يضيق الإنسان صدرًا وتذهب نفسه حسرات لإعراض من أعرض من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٢٣- أن على الدعاة إلى الله تعالى والمربين من الوالدين والمعلمين والموجهين والمصلحين وغيرهم؛ أخذ الدرس مما ربى الله عز وجل به رسله وأنبياءه؛ وبخاصة خاتمهم وسيدهم عليه وعليهم الصلاة والسلام، بالصبر على الأذى، وعدم اليأس أو استعجال النتائج، ومعرفة أن الله عز وجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

فلا تذهب نفس المرء حسرات لإعراض من أعرض بعد القيام بواجب الدعوة؛ فلله عز وجل الحكمة البالغة في ذلك كله؛ فلم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه، ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع محمد ﷺ هداية عمه أبي طالب.

٢٤- أن الذين يستجيبون لدعائه ﷺ ولأمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ؛ هم الذين يسمعون لقراءته ﷺ ودعوته سماع تدبر وتفهم وحسن قصد، دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

٢٥- بلاغة القرآن في التنفير مما يراد التنفير منه، في تمثيله الذين لم يستجيبوا للرسول ﷺ ولم يسمعوا له- بل أعرضوا عنه وكذبوه- بالموتى؛ لموت قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٦- أن الكفار والمكذبين كالموتى؛ لموت قلوبهم، والأمل في هدايتهم ضئيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: فيجازون على كفرهم وتكذيبهم.

٢٧- الفرق الشاسع والبون الواسع بين المؤمن والكافر؛ فالمؤمن حي بقلبه وبدنه، والكافر ميت بقلبه، وإن كان ما زال حيًّا ببدنه لكنه كالميت؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

وقد أحسن القائل:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

٢٨- إثبات البعث بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٩- أن مرد الخلائق كلهم إلى الله عز وجل؛ من استجاب وسمع وآمن منهم، ومن أعرض وكذب وكفر؛ فيحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: وقال المكذبون للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق؛ تعنتًا وعنادًا.

﴿لَوْلَا﴾ بمعنى «هلا» للتحضيض، والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه.

﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على محمد.

﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: علامة من ربه تدل على صدقه. وهم يريدون بهذا خارقًا وآية على مقتضى ما يقترحون بعقولهم الفاسدة؛ كما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وهؤلاء حالهم، كما قال تعالى في أول السورة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٤-٥]، وقال تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقد جاءهم من الآيات ما لا مزيد عليه، ومما لا يقاس به ما اقترحوه، فلم ينجع

ذلك فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾ [الدخان: ٣٣].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، الخطاب للنبي ﷺ.

قرأ ابن كثير: «يُنْزِل» بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد: ﴿يُنَزِّلَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: إن الله قادر على تنزيل آية؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء، ولكن حكمته عز وجل تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السابقة. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: ٤].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أكثر هؤلاء المكذبين لا يعلمون، وقال: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾؛ لأن بعضهم قد يعلم ويكابر ويعاند.

أي: فهم- لجهلهم وعدم علمهم- يقترحون من الآيات ما قد يكون فيه هلاكهم، ولا يعلمون أن هذا هو السبب في عدم نزولها؛ لأنها لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقوبة، كما هي سنة الله تعالى الكونية.

كما لا يعلمون أنه ﷺ لا يمكن أن يأتي بالآيات، وإنما الذي يأتي بها هو الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾.

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، «ما» نافية، و«من» لإفادة العموم؛ لأنها في سياق النفي.

﴿دَآبَّةٍ﴾ اسم لكل ما يدب على الأرض بأرجل متعددة أكثر من أربع، أو أربع، أو

اثنتين، أو غير ذلك، أو يزحف على بطنه. مشتقة من «دب» إذا مشى. وأصلها «داب» فزيدت التاء للمبالغة، وقيل: الهاء للواحدة، كبقرة وشاة.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ«دابة»، أي: كائنة في الأرض؛ لإفادة التعميم والشمول لكل دابة في الأرض؛ برها وبحرها.

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر»(١).

﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ذكر أولًا ما يدب على الأرض، ثم ذكر ما يطير في الهواء، و«لا» زائدة لتأكيد النفي، أي: وما من طائر يطير بجناحيه. ووصف «طائر» بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾؛ للمبالغة، وتأكيد الشمول والإحاطة لكل طائر.

وأيضًا هذه الدواب والطيور أمم أمثالكم، قدر الله أرزاقها، وكفلها، وحدد آجالها، لها صفاتها وخصائصها، واختلاف أنواعها وأجناسها وألوانها ولغاتها، وغير ذلك؛ كالأمم من البشر؛ ولهذا قال ﷺ: «**لولا أنّ الكلاب أمّةٌ من الأمم لأمرت بقتلها**»(٢).

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، «أمم» جمع «أمة»، وهي الجماعة الكثيرة العظيمة.

والمعنى: إلا أمم أمثالكم في كونها مخلوقة لله تعالى، مربوبة معبدة له، لم تخلق سدى، تسبح الله وتحمده،وتسجد له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٦١)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٥)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الصيد واتخاذ الكلاب للصيد وغيره (٢٨٤٥)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٨١)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وابن ماجه في الصيد (٢٨٤٥) من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾؛ ما تركنا وما أغفلنا وما أهملنا.

﴿مِن شَيْءٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما فرطنا في الكتاب أيّ شيء من الأشياء.

والمراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ، أي: أن جميع الأشياء؛ كبيرها وصغيرها، قليلها وكثيرها؛ مثبتة في هذا الكتاب.

وهذا هو الأظهر في معنى الآية الذي يدل عليه السياق قبله، وهو قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، ثم قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾؛ ما تركنا شيئًا إلا كتبناه في أم الكتاب»(١).

واللوح المحفوظ كتب الله تعالى فيه كل شيء؛ مما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة، كما جاء في الحديث: «**لما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: ربّي، ماذا أكتب؟ قال: اكتب كلّ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة**»(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خلق الله عز وجل ألف أمّةٍ؛ منها ستّ مئةٍ في البحر، وأربع مئةٍ في البرّ، وأوّل شيءٍ يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلكت تتابع مثل النّظام انقطع سلكه**»(٣).

ويؤيد هذا القول- وهو أن المراد بالكتاب «اللوح المحفوظ»- أنهم لما سألوا آية

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٢٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى فيما ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٤٩).

وأخبرهم عز وجل بقدرته على ذلك ذكر ما يدل على كمال قدرته؛ بخلق الأمم العظيمة، وعموم خلقه وملكه وتدبيره لكل شيء، فكيف يعجز عن إنزال آية.

ويحتمل أن المراد بالكتاب القرآن الكريم، فيكون المعنى: ما فرطنا في القرآن من شيء مما يحتاج إلى ذكره وبيانه، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال من نصر هذا القول بأن ما دلت عليه السنة، وكذا ما دل عليه الاجتهاد والقياس؛ فذلك كله موجود في القرآن؛ ولهذا لما لعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الواصلة والمستوصلة، وقال: «ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه. فقالت: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ولعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة»(١).

وقال الشافعي: «ما نزل بالمسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها»(٢).

ويقوي هذا القول أن قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ففيه تنبيههم على أن أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله ﷺ هو هذا الكتاب، الذي هو بيان لكل شيء، ولم يفرط فيه من شيء.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، أي: يموتون ثم يبعثون يوم القيامة ويجمعون للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٥].

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذرٍّ،

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٤)، ومسلم في اللباس، تحريم فعل الواصلة والمستوصلة (٢١٢٣)، والنسائي في الزينة (٥٠٩٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٤٨).

هل تدري فيم تنتطحان؟» قال: لا. قال: «**لكنّ الله يدري، وسيقضي بينهما**».

قال أبو ذر: «ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علمًا»(١).

وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الجلحاء لتقتصّ من القرناء يوم القيامة**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ ﴿صُمّٞ﴾ جمع «أصم»، وهو الذي لا يسمع. ﴿وَبُكۡمٞ﴾ جمع «أبكم»، وهو الذي لا يتكلم. ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: لا يبصرون، كالعمي.

أي: أنهم صم عن سماع الحق، بكم عن النطق به، في ظلمات الجهل والشك والحيرة والكفر، لا يبصرون الحق. فالصمم يمنعهم من تلقي الهدى ممن يدعوهم، والبكم يمنعهم من الاسترشاد عن الحق، والظلام يمنعهم من التبصر ومعرفة الطريق المستقيم.

فمثل عز وجل المكذبين بآياته بالصم البكم الذين لا يبصرون، بعد أن مثلهم في الآيات السابقة بالموتى؛ في تعطل حواسهم، وانسداد طرق وصول الخير إلى قلوبهم، كما قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

وهذه الحواس موجودة لديهم، ولكنهم لما لم يستفيدوا منها في معرفة الحق صارت

---

(١) جاء هذا في إحدى روايات الطبري (٩/ ٢٣٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٧٢).

كالمعدومة، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾، «من» شرطية. والمشيئة هي الإرادة الكونية، أي: من يرد الله تعالى- كونًا- إضلاله يضلله، فيعمى عن الحق.

﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: ومن يرد هدايته كونًا وشرعًا يصيره على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، فيرى الحق ويسلك طريقه.

وفي هذا إخبار بأن الآيات لا تستقل بالهدى، ولو أنزلت على وفق اقتراح البشر، بل الأمر كله لله؛ يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ذم عز وجل في الآيات السابقة المشركين المكذبين، ومثَّلهم بالموتى وبالصم البكم الذين لا يبصرون، ثم وبخهم كيف يشركون بالله ما لا يدفع أو يرفع عنهم عذاب الدنيا أو الآخرة إذا حل بهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والاستفهام للتقرير والتوبيخ.

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني، وهو أبلغ وآكد في التوبيخ والتهديد من قوله: «أرأيتم».

﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، أي: إن حل بكم عقاب الله الدنيوي، كما حل بالمكذبين من الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، «أو» عاطفة، وهي هنا مانعة خلو، أي: لا يخلو الحال من أن يأتيهم الأمران أو أحدهما، وبخاصة الساعة؛ فأمرها محقق.

والمعنى: أو أتتكم القيامة وعذاب الله الأخروي. وأعاد الفعل «أتى» للاهتمام.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ الجملة في محل نصب مفعول ثاني لـ«رأى»، وجملة ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ معترضة بين مفعولي «رأي»، وهي جملة شرطية حذف جوابها لدلالة جملة المفعول الثاني عليه.

وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ مفعول لـ«تدعون»، قُدّم عليه للحصر، والاستفهام للنفي، أي: لا تدعون إلا هو لدفع ذلك عنكم أو كشفه ورفعه، أي: لا تدعون غيره؛ لعلمكم أنه لا يقدر على دفع ذلك أو رفعه سوى الله تعالى.

فهم في وقت الشدة لا يدعون إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الجملة مستأنفة، جوابها محذوف دل عليه قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الذي هو بمعنى التقرير، أي: إن كنتم صادقين فأنتم تقرون بأنكم لا تدعون آنذاك غير الله، فما بالكم في الرخاء تشركون به غيره، فأين عقولكم؟!

وقيل المعنى: إن كنتم صادقين بأن آلهتكم التي تدعون من دون الله تنجيكم وتشفع لكم، فكونكم عند الشدة تدعون الله يدل على أنكم غير صادقين في ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، «بل» للإضراب الإبطالي، أي: لإبطال أنهم يدعون غير الله تعالى عند إتيان عذاب الله أو الساعة، و«إياه» مفعول لـ«تدعون» قدم عليه لإفادة الحصر، أي: بل لا تدعون إلا إياه.

وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك.

وصح أن يتولى الجواب عنهم؛ لأن هذا الجواب مما لا يسعهم إلا الإقرار به، ولا يمكنهم إنكاره، أي: بل إياه وحده تدعون وقت الشدة، لا تدعون سواه؛ ولهذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿تَدْعُونَ﴾. ومعنى «يكشف»: يزيل

ويرفع، و«ما» موصولة، أي: فيجيب دعاءكم، ويزيل ويرفع الذي تدعونه إليه، أي: فيزيل ويرفع بلواكم وما حل بكم.

وهذا الكشف والرفع إنما يكون لعذاب الدنيا إذا شاء الله عز وجل ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥].

ولهذا قدم هذه الجملة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾، وجعلها معترضة بين قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ والمعطوف عليه، وهو جملة ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؛ ترغيبًا لهم في الرجوع إلى الله، وإطماعًا لهم في رحمته.

﴿إِن شَآءَ﴾، أي: إن أراد كونًا، ومشيئته مقرونة بحكمته، فإن اقتضت حكمته كشفه ذلك كشفه، وإلا فلا.

أما بعد إتيان الساعة فإن الدعاء لا ينفع، والعذاب لا يكشف ولا يرفع.

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، أي: وتتركون أصنامكم ومعبوداتكم التي كنتم تشركون بها مع الله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: ٧٣-٧٤].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، وفي افتتاح الكلام بهذا مزيد من العناية والاهتمام.

٢- شدة تعنت المشركين وعنادهم وتحديهم للرسول ﷺ في اقتراحهم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، مع أنه قد جاءهم ما فيه بلاء مبين.

٣- تكبر المشركين وجفاؤهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وذلك من وجهين:

الأول: تعبيرهم عنه ﷺ بضمير الغائب دون الخطاب، فلم يقولوا: لولا أنزل عليك.

والثاني: قولهم: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فلم يقولوا: من ربنا. مع أنهم يقرون بأن ربه وربهم

واحد، هو الله.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٥- دفاع الله عز وجل عن نبيه ﷺ وإجابته عنه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

٦- قدرة الله تعالى التامة على تنزيل الآيات مما اقترحوه وغير ذلك، وعلى كل شيء؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

٧- أن تنزيل الآيات مرتبط بمشيئة الله عز وجل، بل وكل أفعاله مرتبطة بمشيئته، ومشيئته مقرونة بحكمته، وحكمته تقتضي تأخير نزول الآيات؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا وما اقترحوا، ثم لم يؤمنوا بها؛ لعوجلوا بالعقوبة كما هي سنن الله في الأمم السابقة.

٨- أن أكثر هؤلاء المكذبين لا يعلمون عموم قدرة الله تعالى، وما يترتب على ما اقترحوه من الآيات، وحكمة الله في تأخير نزولها، وأن الآيات لا يأتي بها إلا الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- أن كل ما يدب على الأرض وما يطير في الهواء أمم كالإنس، مربوبة لله تعالى؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وتذللًا لله تعالى وتعبدًا له، كفل الله أرزاقها، وأحاط بها، وعلم أحوالها وأحاط بها، لها حياتها الحيوانية ونظامها الخاص بها، كالأمم من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

١٠- علم الله تعالى وتقديره وكتابته في الكتاب- أي: في اللوح المحفوظ- كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

١١- إثبات البعث، وأن مرد كل ما يدب على الأرض أو يطير بين السماء والأرض من حيوان إلى الله تعالى بالموت، ثم البعث يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

١٣- أن المكذبين بآيات الله تعالى كالصم البكم الذين في الظلمات لا يبصرون؛ لما هم فيه من الجهل والشرك والشك والحيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ

وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

١٤- بلاغة القرآن الكريم في بيان وتقريب الأمور المعنوية بتمثيلها بالأمور الحسية، والتنفير مما يريد التنفير منه.

١٥- أن لله عز وجل التصرف التام في خلقه، يضل من يشاء بعدله من كان أهلًا للضلال، ويهدي من يشاء بفضله من كان أهلًا للهداية، ولا يسأل عما يفعل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٧- التنفير والتحذير من التكذيب بآيات الله تعالى، ومن الضلال وأسبابه.

١٨- الترغيب والحث على اللجوء إلى الله تعالى، وسؤاله الهداية والسلامة من الغواية.

١٩- أن طريق الإسلام والحق عدل مستقيم لا اعوجاج فيه.

٢٠- تسفيه عقول المشركين، وتقريرهم في أنهم يعلمون أن ما يعبدون غير الله لا يدفع عنهم ولا ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٢١- أن المشركين غير صادقين في اتخاذهم آلهة غير الله، أنها تنفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في أنها تنفعكم وتدفع عنكم.

٢٢- أن المشركين عند الشدائد لا يدعون إلا الله تعالى، ويتركون ما يعبدونه من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢٣- أن الذي يكشف الضر، ويرفع العذاب، ويدفع البلوى؛ هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾.

٢٤- أن الله قد يجيب دعاء المضطر؛ ولو كان كافرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا

تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، وهذا في الدنيا.

٢٥- نسيان المشركين لمعبوداتهم من دون الله، وتركهم لها في ذلك اليوم؛ لعلمهم أنها لا تدفع ولا تنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

أنذر عز وجل في الآيتين السابقتين المكذبين والمشركين بالعذاب الدنيوي أو الأخروي، ثم بين سنته الكونية في أخذ المكذبين قبلهم وتعجيل عقوبتهم في الدنيا، وفي ذلك تهديد وتحذير لهم من التمادي في الضلال فيحل بهم ما حل بمن قبلهم، وفيه تسلية له ﷺ، وبشارة بأن العاقبة له.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، الواو استئنافية، واللام للقسم، أي: والله لقد بعثنا رسلًا كثيرين إلى أمم من قبلك، أي: إلى كل الأمم من قبلك؛ لأنه ﷺ خاتم الرسل، وأمته آخر الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

و«الإرسال»: تحميل الغير إبلاغ رسالة ممن أرسله.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾، أي: فكذبوا رسلهم كما كذبك قومك؛ فأخذناهم، كما قال تعالى- فيما سبق-: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

والمعنى: فعاقبناهم وابتليناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ زجرًا لهم، وانتصارًا لرسلنا، وقد كانوا قبل ذلك في رخاء وعافية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

و«البأساء»: الشدة والفقر والقحط وضيق العيش. و﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: التضرر في الأجسام بالأمراض والأسقام والآلام. وهذا من العذاب الأدنى؛ رحمة بهم لعلهم يتوبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]؛ ولهذا قال:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتضرعوا، والضراعة: الذلة والاستكانة، أي: لأجل أن يتذللوا لله تعالى، ويخضعوا له، ويلجؤوا إليه؛ لكشف ما حل بهم.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾، الفاء عاطفة، و«لولا» للتوبيخ والتنديم، بمعنى «هلا»، وقيل: يجوز كونها للتمني، أي: ليتهم إذ جاءهم بأسنا تضرعوا.

و«إذ» ظرف بمعنى «حين»، أي: فهلا حين ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾- أي: عذابنا- تضرعوا إلى الله ودعوه؛ لكشف ما حل بهم من بأس الله وعقابه، لكنهم لم يفعلوا.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦]؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، «لكن» حرف استدراك، ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: صلبت وغلظت، فلم تخشع ولم تخضع، ولم تلن لذكر الله تعالى وقبول الحق، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى مخاطبًا هذه الأمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: وحسّن لهم الشيطان.

﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، والتقدير: وحسن لهم الشيطان الذي كانوا يعملون، أو عملهم؛ من الشرك والتكذيب بالحق، كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤].

فلم يقتصر على تهوين الأمر عليهم، بل زينه وحسنه في نفوسهم، فاستحسنوا ما هم عليه من الكفر والشرك والمعاصي، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ

فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وهذه- والله- المصيبة التي لا مصيبة أعظم منها، أن يزين للمرء ما هو عليه من الكفر والشرك والمعاصي، فيرى أنه على الحق، بل يرى الحق باطلًا والباطل حقًّا. وقد قيل:

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ (١)

وهكذا دأب الشيطان يترقى بالإنسان حتى يصل به إلى نهاية دركات الكفر؛ فلا يقنع منه بما دون ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ يتدرج به من المعصية إلى البدعة ثم إلى الكفر، ومن ارتكاب المنهي إلى ترك الواجب، ومن تهوين ذلك إلى تزيينه في نفسه، وهكذا. فلينتبه لهذا العاقل اللبيب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، الفاء عاطفة، و«لما» شرطية. ﴿نَسُوا۟﴾ فعل الشرط، و«ما» موصولة في محل نصب مفعول ﴿نَسُوا۟﴾. ﴿ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: وعظوا به.

والمعنى: فلما تركوا الذي وعظوا به مما جاءتهم به الرسل، ومما أخذهم الله به من البأساء والضراء، وما أحل بهم من بأسه، وأعرضوا عنه وتناسوه.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جواب الشرط «لما».

قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب: «فتَّحنا» بالتشديد؛ للمبالغة في الفتح بكثرته، كما أفاده ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾. وقرأ الباقون ﴿فَتَحْنَا﴾ بالتخفيف.

أي: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الخير؛ لأنه في مقابل قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ ولقوله بعده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، أي: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الدنيا وأرزاقها ولذاتها وغفلاتها؛ استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «روح المعاني» (١/ ١٥٦).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾، «حتى» للغاية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، و«ما» في قوله: ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ موصولة، أي: حتى إذا فرحوا بالذي أوتوه مما فتحه الله عليهم من الأموال والأولاد والأرزاق والأمن والنعم، فرح بطر ومرح واختيال، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، أي: عاقبناهم وأهلكناهم. ﴿بَغْتَةً﴾ مصدر، أي: أخذ بغتة، أي: فجأة، وعلى غرة وغفلة، ومن غير توقع منهم؛ ليكون أشد لوقع العذاب عليهم.

﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ جواب «إذا». الفاء رابطة للجواب، و«إذا» هي الفجائية. ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: آيسون منقطعون من كل خير.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدّنيا على معاصيه ما يحبّ؛ فإنما هو استدراجٌ**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: «﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾»(١).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، «قطع» بمعنى: استؤصل. ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾: آخرهم، ودابر الشيء: آخره، مشتق من الدبر، وهو الوراء، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥].

والمعنى: فأهلكوا عن آخرهم فلم يبق منهم أحد؛ لأنه إذا هلك الدابر وهو الآخر فما قبله من باب أولى.

قال الشاعر:

فَاسْتُؤْصِلُوا بِعَذَابٍ حَصَّ دَابِرَهُمْ ... فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفًا وَلَا انْتَصَرُوا(٢)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٠).

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص٦٣). ومعنى «حص دابرهم»: أذهبهم عن آخرهم.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ بتكذيب الرسل والكفر والشرك، وذلك أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ وهو الشرك.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل: «فقطع دابرهم»؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وأنه سبب إهلاكهم واستئصالهم، وللتحذير من الظلم، وأن هذه هي نهاية الظالمين.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: والحمد لله رب العالمين على ما قضاه وقدره من قطع دابر الظالمين، ونصرة رسله وأوليائه، وجعله ذلك سنة من سننه الكونية؛ ليترقب أولياؤه النصر، ويحذر أعداؤه من الأخذ والقهر، وكل ذلك نعمة منه تستوجب الحمد والشكر.

ومعنى ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: أن الوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم مستحق لله تعالى؛ لكمال ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وبلوغ حكمته، وتمام نعمته.

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على الخلق كلهم بإرسال الرسل؛ رحمة بهم وإعذارًا وإنذارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وهذا عام لجميع الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

٢- تأكيد الخبر في القرآن بالقسم وغير ذلك من المؤكدات، على نحو ما كان عليه العرب في تأكيد أخبارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾.

٣- إثبات رسالته ﷺ وأنه خاتم النبيين وأمته آخر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وكل الرسل وأممهم قبله ﷺ.

٤- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٥- تكذيب كثير من الأمم لرسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم﴾، والمعنى: فكذبوا فأخذناهم؛ إذ لو صدقوا لما أخذوا؛ لأن الله لا يؤاخذ

أحدًا إلا بذنب؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

٦- أن من سنن الله تعالى الكونية ابتلاء الأمم بالسراء والضراء؛ امتحانًا لهم؛ لكي يتضرعوا إلى الله تعالى ويخضعوا له وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، فابتلوا وأمهلوا لعلهم يتوبوا ويلجؤوا إلى الله.

٧- محبة الله تعالى وإرادته شرعًا هداية الخلق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

٨- أن الابتلاء بالمصائب والسراء والضراء قد يكون من أسباب الرجوع إلى الحق والأخذ به لمن وفقه الله تعالى، وقد يكون سببًا لضد ذلك لمن لم يوفق وضجر وجزع.

٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم ممن يقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة بلا حكمة- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

١٠- وجوب التضرع إلى الله تعالى، واللجوء والإنابة إليه، والتذلل والانقياد له وحده.

١١- قسوة قلوب المذكورين؛ فلم ينجع فيهم ما ابتلوا به من البأساء والضراء، في تليين قلوبهم وتضرعهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٢- أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد، فإذا قسا وصلب عن قبول الحق تبعه الجسد كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٣- تزيين الشيطان لبني آدم الأعمال السيئة؛ من تكذيب الرسل، ورد الحق، ونحو ذلك؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

١٤- أن الشيطان ينتقل بمن اتبعه ويتدرج به إلى ما هو أسوأ وأشد وأعظم، فلا

يقف عند تهوين الشرك والكفر والمعاصي، بل يزينها ويحسنها.

١٥- عقوبة المعرضين المكذبين بفتح أبواب النعم والخيرات عليهم؛ استدراجًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

١٦- ينبغي عدم الاغترار بكثرة النعم من الأموال والأولاد، وغير ذلك؛ لأنها قد تكون استدراجًا وفتنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

١٧- أن كل ما يحصل من بأساء وضراء وشدة ورخاء، فكل ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ ولهذا ينبغي اللجوء إليه وحده في دفع الضر وجلب الخير.

١٨- أن العقوبة قد تأتي بغتة؛ سواء كانت عقوبة عامة، أو خاصة بالأنفس أو الأموال أو الأولاد، وغير ذلك؛ مما يوجب محاسبة النفس، والحذر من المعاصي، والغفلة، والركون إلى الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.

١٩- شدة أخذ الله عز وجل وعقابه، وعظم وقعه على النفوس والقلوب، وتحطيمه للمعنويات؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير.

٢٠- استئصال العذاب للمكذبين عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

٢١- أن سبب عقوبة الله تعالى وأخذه للأمم السابقة ظلمهم بالتكذيب والكفر والشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال: ٧].

٢٢- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله عز وجل، فأهلك عز وجل المذكورين بسبب ظلمهم.

٢٣- التحذير من الظلم؛ لأنه سبب لأخذ الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

٢٤- حمد الله على قطع دابر الظالمين؛ لأن ذلك نعمة تستوجب الحمد والشكر؛ لما فيه من خذلان الباطل وأهله، ونصرة الحق وأهله، وإقامة العدل.

٢٥- أن الله عز وجل محمود على كل حال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

خوَّف الله عز وجل المشركين المكذبين في الآيات السابقة بالعذاب الدنيوي أو الأخروي، ثم خوَّفهم هنا بسلبهم نعمة الله تعالى عليهم بهذه الحواس؛ السمع، والبصر، والقلوب. فكما لا يستطيع أحد رد العذاب عنهم سوى الله تعالى؛ فكذلك لا أحد يستطيع رد هذه الحواس بعد سلبها إلا الله تعالى، وفي ذلك كله استدلال على تفرده عز وجل بالربوبية والألوهية.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني، والهمزة للاستفهام، وهو للتوبيخ والتهديد، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين المكذبين: أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ بحيث لا تسمعون، ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بحيث لا تبصرون، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، أي: وطبع على قلوبكم فلا تفقهون ولا تعقلون، أي: سلب هذه الحواس منكم بالكلية، كما أعطاكموها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، «من» اسم استفهام، وهو هنا للإنكار والنفي، أي: لا أحد غير الله يأتيكم به، أي: يرجعه.

والضمير في قوله: «به» بمعنى اسم الإشارة، أي: بذلك، أو بالمذكور، وهو عائد إلى السمع والأبصار والقلوب، أي: من إله غير الله ممن تشركون بهم من دونه يأتيكم بما سلبه الله منكم من السمع والبصر والقلوب، أي: لا أحد غير الله يأتي به؛ لأنهم يقرون ويعترفون بربوبية الله عز وجل، وأنه الخالق المالك المدبر.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: انظر وتأمل بقلبك وتعجب كيف نبين لهم الآيات الكونية والشرعية وننوعها، ونوضح دلالتها على أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾، «ثم» للترتيب والتراخي، والضمير «هم» يعود إلى المكذبين. وانتقل من الخطاب إلى الغيبة؛ لتقليل شأنهم واحتقارهم.

﴿يَصۡدِفُونَ﴾؛ يعرضون عن الآيات، أي: ثم هم- بعد هذا البيان التام- يعرضون عن الآيات بأنفسهم، ويصدون غيرهم عنها، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾.

خوَّف عز وجل فيما سبق المكذبين بأخذهم بالعذاب بغتة، كما هي سنته عز وجل في المكذبين قبلهم، ثم بين في هذه الآية أنهم أهل للعذاب بغتة أو جهرة؛ لأنهم ظالمون.

قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾، أي: أخبروني. والهمزة للاستفهام. وكاف الخطاب؛ لتأكيد التوبيخ والتهديد والوعيد.

﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً﴾، أي: إن جاءكم عقاب الله مباغتًا وفجأةً، كما لو أتاكم وأنتم نيام.

﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾، أي: ظاهرًا عيانًا، كما لو أتاكم وأنتم أيقاظ، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠﴾ [يونس: ٥٠].

﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، «هل» اسم استفهام بمعنى «ما» يفيد النفي والاستفهام، وهو أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي. «إلا» أداة حصر، أي: أنه لا يهلك ويعاقب إلا من يستحق الهلاك، وهم القوم الظالمون، أي: الظالمون بالشرك بالله وعبادة غيره، وهم أنتم وأمثالكم.

وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وبيان أنه سبب هلاكهم، وليشملهم هذا الوعيد وغيرهم من الظالمين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، الواو استئنافية، و«ما» نافية، و«إلا» أداة حصر، ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم مبشرين لمن آمن وأطاعهم بالسعادة والجنة. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن كذبهم وخالفهم بالعقوبة والنار.

و«البشارة»: الإخبار بما يسر، و«الإنذار»: التحذير مما يسوء.

فمهمة الرسل عليهم السلام ووظيفتهم بالنسبة للمرسل إليهم هي إبلاغهم رسالات الله، والبشارة لمن أطاعهم بالجنة، والتحذير لمن عصاهم من النار.

ولهذا حصر عز وجل وظيفتهم بالبشارة والإنذار؛ لئلا يُظن أن لهم نصيبًا من الربوبية؛ كجلب الخير، أو دفع الضر، ونحو ذلك. وهم أيضًا- كغيرهم من البشر- مكلفون بفعل المأمورات وترك المحظورات.

ومن لازم البشارة والإنذار تبليغ رسالات ربهم، وبيان الأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة أو النذارة؛ ولهذا قال:

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الفاء عاطفة، وهذا مع ما جاء في الآية بعده ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بيان وتفصيل لقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

﴿ءَامَنَ﴾ صدق بقلبه ولسانه بكل ما أوجب الله تعالى الإيمان به، من أركان الإيمان الستة؛ وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أوجب الله تعالى الإيمان به.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ بأن عمل الأعمال الصالحة بجوارحه؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا، ولا

على ما مضى منها؛ لأنهم قضوه في طاعة الله تعالى، ولا على ما خلفوا فيها من أولاد وأهل وأموال؛ لتوكلهم على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾.

ذكر في الآية السابقة المؤمنين المتبعين للرسل وثوابهم، ثم أتبع ذلك بذكر المكذبين لهم وعذابهم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: جحدوا وأنكروا آياتنا الشرعية والكونية.

﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، أي: ينالهم ويصيبهم العذاب إصابة مباشرة في أجسامهم؛ حسيًّا ومعنويًّا، في الدنيا والآخرة.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، الباء سببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كونهم يفسقون، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى وكفرهم به.

والفسق يطلق على ما دون الكفر، وعلى الكفر، وهو المراد هنا؛ لأن التكذيب بآيات الله كفر.

الفوائد والأحكام:

١- توبيخ المشركين وتهديدهم، وتقريرهم بأنه إن أخذ الله سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم فلا أحد يأتيهم بذلك غير الله، وهم يقرون بهذا ويعترفون به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾، أي: لا أحد.

٢- أن توحيد الربوبية- وهم يقرون به- يستلزم توحيد الألوهية، فلماذا يعبدون مع الله ما لا يملك لهم شيئًا؟!

٣- لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه؛ فيجب اللجوء إليه في السراء والضراء.

٤- أن من أعظم نعم الله على الإنسان نعمة السمع والبصر والقلب؛ ولهذا خوَّف الله تعالى المكذبين بسلبها منهم، كما يمتن بها على عباده؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: ٢٣]؛ فالسمع والبصر هما الطريقان لوصول الخير إلى القلب، والقلب عليه مدار صلاح الجسد، وبه كرم الله بني آدم.

٥- أن ما بالخلق من نعم فكلها من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن

نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٦- تصريف الآيات وتنويعها وبيانها رحمة من الله عز وجل بالعباد، وإقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

٧- الاعتبار بحال المعرضين عن الآيات؛ مع تصريفها وتنويعها وبيانها، والتعجيب منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾.

٨- من يضلل الله فلا سبيل إلى هدايته، مهما رأى من الآيات.

٩- التحذير للمكذبين من أن يأتيهم العذاب بغتة أو جهرة وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٠- أن الله عز وجل لا يعذب ولا يهلك إلا القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: الظالمون بالكفر والشرك والمعاصي، ومفهوم هذا الوعد بنجاة المؤمنين العادلين.

١١- أن الله عز وجل لا يعذب إلا بذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: ١١٧].

١٢- رحمة الله تعالى لعباده ومنته عليهم بإرسال الرسل لهدايتهم وبيان الحق لهم، وتبشيرهم وإنذارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

١٣- أن وظيفة الرسل بالنسبة للناس البشارة لمن آمن منهم واتبع الرسل بالجنة، والإنذار لمن خالف وعصى الرسل بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

ومن لازم ذلك تبليغ رسالاتهم والدعوة إلى الله تعالى، قال تعالى مخاطبًا سيد الرسل وخاتمهم نبينا محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨].

١٤- انقسام الناس في قبول دعوة الرسل وعدمها إلى قسمين؛ مؤمن بها، ومكذب لها، ولله الحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ

بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية.

١٥- بيان ما أعده لمن آمن واتبع الرسول من الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٦- لا بد في الإيمان من الجمع بين التصديق بالقلب والعمل الصالح بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.

١٧- لا بد لقبول العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾.

١٨- أن من أعظم ألوان النعيم- النعيم المعنوي- للقلب السلامة من الخوف والحزن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

١٩- إثبات الأسباب، وأن الإيمان والعمل الصالح سبب للنعيم، كما أن التكذيب بآيات الله سبب للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

٢٠- الوعيد لمن كذب بآيات الله بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

٢١- أن الفسق يطلق على الكفر؛ لأن التكذيب بآيات الله كفر.

٢٢- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب والتحذير من التكذيب والفسق.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُل﴾، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين المكذبين المقترحين للآيات وغيرهم: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أقول لكم: إني أملك خزائن الله، أي: مفاتيح خزائن رزقه ورحمته، فأتصرف فيها وأعطيكم منها ما تريدون، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب. والغيب: ما غاب عن الناس، وهو نوعان: غيب نسبي، وغيب مطلق حقيقي، وكل منهما لا يعلمه الرسول ﷺ ولا غيره.

فالغيب المطلق ما سيحصل في المستقبل؛ كقيام الساعة، ونزول العذاب، ونحو ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

والغيب النسبي- كذلك- لا يعلمه الرسول؛ ولهذا لما انخنس أبو هريرة رضي الله عنه قال له ﷺ: «**أين كنت؟**» قال: يا رسول الله أصابتني جنابة، وكرهت أن أقابلك

وأنا جنب[١].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

وكرر الخطاب بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ للمبالغة.

و«الملَك» مفرد الملائكة، أي: لا أقول لكم: إني ملك من جنس الملائكة؛ فتطلبوا مني ما هو خارق للعادة؛ كالرقي في السماء ونحو ذلك، إنما أنا بشر مثلكم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ بعد أن نفى أن يدعي فوق منزلته التي أنزله الله فيها، فنفى أن يقول: عندي خزائن الله، أو أعلم الغيب، أو يقول إني ملك؛ بيَّن أن وظيفته محصورة باتباع ما يوحى إليه؛ عملًا به ودعوة إليه، فقال: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: هذا غاية أمري ومنتهاه وأعلاه، وهو اتباع ما يوحى إلي.

و«إن» في قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ﴾ نافية بمعنى «ما»، أي: ما أتبع.

﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، «إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي يوحى إليّ. وبُني الفعل «يوحى» لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

أي: إن أتبع إلا الذي يوحيه الله عز وجل إلي من القرآن والشرع، فيما أدعو إليه وآمر به وأنهى، وفيما أتعبد به.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، «هل» اسم استفهام بمعنى «ما» النافية.

وجاء الاستفهام بمعنى النفي؛ ليفيد النفي والاستفهام معًا. وهو أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي، أي: قل لهم مبينًا الفرق الشاسع والبون الواسع بين من آمن وانقاد لوحي الله، وبين من كفر وخالف أمر الله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل ٢٨٣، ومسلم في الحيض ٣٧١، وأبو داود ٢٣١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَٱلْبَصِيرُ﴾، أي: لا يمكن أن يستوي الأعمى والبصير بحال من الأحوال.

و«الأعمى» صفة مشبهة، وهو الذي لا يبصر، و«البصير» الذي يُبصر، فالأعمى حسيًّا- وهو فاقد البصر- لا يستوي مع البصير الذي يبصر ويرى.

والمراد: لا يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، وهو المؤمن، ومن جانب الحق وضل عنه، وهو الكافر؛ فالأول يسير على هدى ونور من ربه، والآخر يتخبط في ظلمات الجهل والشك والكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، الهمزة للاستفهام، ومعناه التوبيخ، والفاء عاطفة، وقدمت الهمزة؛ لأن لها الصدارة، والتقدير: فألا تتفكرون.

والمعنى: لماذا لا تتفكرون بعقولكم في آيات الله ووحيه، وفي الفرق الشاسع بين الإيمان والكفر، وحال من آمن وحال من كفر، أي: تفكروا في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

سبب النـزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقاص (٢٤١٣)، والنسائي في «الكبرى» في التفسير، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ (١١١٦٣)، وابن ماجه في الزهد، مجالسة الفقراء (٤١٢٨)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٨).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده: خباب، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾»(١).

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه: «مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا، ونحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك؛ فلعلك إن طردتهم أن نتبعك. فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية»(٢).

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، والضمير الهاء يعود إلى القرآن الكريم، وهو الوحي المذكور بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ يعني القرآن الكريم وما فيه من التشريع، و«الإنذار»: الإعلام على وجه التخويف.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يخافون»، أي: الذين يخافون الحشر إلى ربهم، أي: الجمع عنده، وهم الذين يؤمنون بالبعث يوم القيامة، وجمع الناس فيه والحساب والجزاء على الأعمال، ويعملون لذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميرهم تشريف وتكريم لهم؛ لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ ولهذا خصهم بالإنذار؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك ويتعظون. وفيه تعريض بالمشركين المنكرين للبعث؛ إذ لا فائدة من إنذارهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠).

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٩٩).

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: ليس لهم من دون ربهم ﴿وَلِيٌّ﴾، أي: لا أحد يتولاهم من قريب أو غيره؛ بجلب النفع لهم، أو كشف الضر أو دفعه عنهم.

﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: وليس لهم من دون ربهم شفيع يشفع لهم؛ بجلب النفع لهم، أو دفع الضر.

و«الشفيع»: الوسيط، و«الشفاعة»: الوساطة للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، أي: ويعلمون ويعتقدون أن ليس لهم من دون ربهم وليّ ينصرهم؛ بجلب الرحمة لهم، ودفع العذاب عنهم، ولا شفيع لهم من دونه يشفع لهم في ذلك، أي: ليس لهم إلا الله تعالى وحده.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يتخذون من دونه أولياء وشفعاء، ويزعمون أنهم ينفعونهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ويتقوا عذاب يوم القيامة الذي فيه يحشرون إلى الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، الواو عاطفة، و«لا» ناهية. والخطاب للنبي ﷺ، أي: ولا تطرد عنك ولا عن مجلسك ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، أي: المؤمنون الذين يعبدون ربهم ويسألونه؛ لأن الدعاء قسمان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وكل منهما مراد هنا، أي: الذين يعبدون ربهم، أي: يقومون بفعل العبادات؛ من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج وغير ذلك، ويسألونه ويطلبون منه المغفرة والرحمة، وتيسير أمور دينهم ودنياهم ونحو ذلك.

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾؛ قرأ ابن عامر بضم الغين وإسكان الدال وواو بعدها:

«بالغُدْوة». وقرأ الباقون بفتح الغين والدال وألف بعدها: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾.

«الغداة»: أول النهار، و«العشي»: آخر النهار مع الليل.

وهذا ينتظم أوقات الصلوات الخمس؛ فصلاة الفجر والظهر في الغداة، وصلاة العصر والمغرب والعشاء في العشي، وينتظم أوقات أذكار الصباح والمساء، بل ينتظم اليوم كله، وجميع الأوقات.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يريدون وجهه، وهذه الآية كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ومعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، أي: أنهم مخلصون لربهم، لا يريدون بدعائهم رياء ولا سمعة. وهذا شرط في صلاح العمل؛ لأن العمل لا يكون صالحًا إلا بالإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الجملة تعليل للنهي عن طردهم، و«ما» في الموضعين نافية، والخطاب للنبي ﷺ، و«من» في قوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: ما عليك من حسابهم أي شيء مهما قل، وما من حسابك عليهم أي شيء مهما قل. وقدم خطابه ﷺ في الموضعين تشريفًا له ﷺ.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية. والفاء للسببية، أي: ليس عليك من حسابهم أيُّ شيء، وليس من حسابك عليهم أيُّ شيء، فيتسبب ذلك بأن تطردهم.

وقد أكد هذا الكلام بخمسة مؤكدات؛ للتنصيص على البراءة من هذه الدعوة لطرد المؤمنين، وهي:

الأول: «مِن» البيانية في قوله: ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾.

والثاني: «مِن» الزائدة في قوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾.

والثالث: تقديم المعمول في قوله: ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، فقوله: ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ متعلق بـ«شيء»، وقدم عليه للتأكيد.

والمؤكد الرابع: صيغة الحصر في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

والمؤكد الخامس نفي المقابل في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ معطوف على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، وقيل: يجوز أن يكون جوابًا للنهي في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، ولم يقل: فتكون ظالمًا؛ تلطفًا في مخاطبته ﷺ، أي: فتكون من الظالمين بطردهم.

وهذا منتف عنه بانتفاء سببه؛ لأنه ﷺ لم يطردهم، بل كان ﷺ يجيبهم ويرحب بهم استجابة لأمر ربه عز وجل له، بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

قال السعدي[1]: «وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد الامتثال، وكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم».

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

اقترح السادات والأشراف من قريش- كما في سبب نزول الآية السابقة- طرد الذين آمنوا من مجلسه ﷺ، تعاظمًا منهم وتكبرًا، كيف يكون هؤلاء الأرذلون- كما يزعمون- هم أتباعه وأهل مجلسه؟ فبين الله عز وجل أنه افتتن هؤلاء السادات وابتلاهم بهؤلاء الضعفاء، فصاروا بسبقهم إلى الإيمان وسبقهم إلى مجلس الرسول ﷺ فتنة لهؤلاء السادة وسببًا في إعراضهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، الواو استئنافية.

﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، الفتنة: الابتلاء والاختبار، ويكون في الخير والشر، كما قال

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٠٤).

تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: ابتلينا وامتحنا ﴿بَعْضَهُم﴾ وهم السادات والأشراف ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم العبيد والمستضعفون، بما مننا عليهم من الإيمان ومجالسة الرسول ﷺ.

فأنف السادات والأشراف أن يسلموا معهم، أو بعدهم، أو يحضروا مجلسه ﷺ وفيه هؤلاء المستضعفون، فكان هؤلاء المستضعفون فتنة وابتلاء لهؤلاء السادات والأشراف، وسببًا في ضلالهم.

وكان من حكمة الله تعالى البالغة أن يكون أتباع الرسل- غالبًا- وخاصة في بداية دعوتهم هم الضعفاء والمساكين؛ ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ: هل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل[1].

﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، اللام لام العاقبة. والمعنى: وكذلك فتنا بعضهم ببعض لتكون العاقبة أن يقولوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا.

أو هي لام التعليل، أي: لأجل أن يقولوا.

والاستفهام في قولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ للإنكار والتعجيب والاحتقار؛ كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، وكما قال المشركون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، أي: أنعم الله عليهم وتفضل، ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، أي: من دوننا.

وهذا منهم على سبيل التهكم بالمؤمنين، ومجاراتهم في اعتقادهم أن الله منَّ عليهم بمعرفة الحق، أي: كيف يُظن أن الله يمن على هؤلاء الضعفاء ويتركنا ونحن السادة والأشراف؛ كما قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

والمعنى: أهؤلاء أنعم الله عليهم دوننا بالإيمان، أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

الخير- لو كان ما صاروا إليه خيرًا- ويدعنا؛ كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم: ٧٣].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه: أن الأقرع بن حابس رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ وقبل إسلامه، فقال: إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة. فقال له رسول الله ﷺ: «**أرأيت إن كانت أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرًا من بني تميمٍ وبني عامرٍ وأسدٍ وغطفان، أخابوا وخسروا؟**». فقال: نعم. قال: «**والّذي نفسي بيده إنّهم لخيرٌ منهم**»[1].

قال ابن القيم[2]: «امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيرًا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه».

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: أن الله سبحانه أعلم بالشاكرين، والباء في قوله: ﴿بِأَعْلَمَ﴾ زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى.

و«الشاكرين» جمع «شاكر»، أي: الشاكرين من عباده له عز وجل، الذين يعرفون قدر نعمته عليهم بالهدى؛ فيشكرونه عليها بالاعتراف بها باطنًا بقلوبهم، والإقرار بها بألسنتهم، والانقياد له ظاهرًا بجوارحهم.

والجواب: بلى هو سبحانه أعلم بالشاكرين، والذين هم أهل للتوفيق والهداية والإيمان، فيوفقهم ويهديهم بفضله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

كما أنه سبحانه أعلم بالكافرين فيضلهم بعدله.

فلا الشريف يقربه شرفه عند الله، ولا الضعيف يبعده ضعفه عن الله، قال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨١٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٢).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٥٠).

«إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾.

نهى عز وجل في الآيات السابقة نبيه ﷺ عن طرد الذين يدعون ربهم، وهم المؤمنون، ثم أمره في هذه الآية إذا جاؤوه أن يقابلهم بالتحية والإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: يصدقون بآياتنا الكونية والشرعية، وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، كما في الآية السابقة.

﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ جواب الشرط «إذا»، أي: فحيهم بتحية الإسلام: سلام عليكم، وبشرهم بسعة رحمة الله ومغفرته قائلًا لهم: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾، أي: أوجب ربكم على نفسه الرحمة؛ تفضلًا منه وكرمًا، وإحسانًا وامتنانًا.

﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾؛ قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، ويعقوب، وأبو جعفر بفتح الهمزة ﴿أَنَّهُۥ﴾. وقرأ الباقون بكسرها: «إنه».

والهاء في «أنه» في محل نصب بـ«أن»، وهو ضمير الشأن. ﴿سُوٓءَۢا﴾، أي: عملًا سيئًا. ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ الباء للملابسة، أي: متلبسًا بجهالة، أي: بسفه، وكل ما عمل من سوء وكل ما عصي الله به فهو بجهالة، أي: بسفه.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، أي: ثم رجع وأناب إلى الله تعالى بالإقلاع عن عمله السيئ، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وأن تكون توبته خالصة لوجه الله، وفي وقتها المناسب.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد، القناعة (٤١٤٣)، وأحمد (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَأَصْلَحَ﴾، أي: وأصلح حاله وعمله، بالإخلاص لله، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ قرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب بفتح الهمزة ﴿فَأَنَّهُۥ﴾. وقرأ الباقون بكسرها: «فإنه».

أي: فإن الله ذو مغفرة واسعة، يستر ويتجاوز، وذو رحمة واسعة شاملة، فبمغفرته ورحمته يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، الواو استئنافية. والكاف للتشبيه، بمعنى: «مثل». والإشارة لما سبق في الآيات من تفصيل وبيان، أي: ومثل ما سبق من تفصيل وبيان وإيضاح تام للآيات الشرعية والكونية والحجج والدلائل، مما لا تفصيل فوقه، مثل هذا تفصيل الآيات كلها؛ ليتبين طريق الحق والرشاد، وسبيل المهتدين؛ ترغيبًا في سلوكه.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، الواو عاطفة. واللام للتعليل.

قرأ نافع، وأبو جعفر: «ولتستبين» بالتاء؛ خطابًا له ﷺ، «سبيلَ المجرمين» بنصب سبيل على أنه مفعول به، أي: ولتستبين أنت يا محمد، أي: لتعرف بما فصلنا لك من الآيات سبيل المجرمين.

وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالتاء على التأنيث، ورفع ﴿سَبِيلُ﴾ على أنه فاعل ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾، أي: ولتضح وتتبين سبيلُ المجرمين وطريقُهم.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بالياء على التذكير ورفع «سبيلُ»: «وليَستبين سبيلُ المجرمين».

ومعنى القراءتين واحد، لكن على القراءة الأولى أُنّث السبيل، وعلى القراءة الثانية ذُكِّر.

والمعنى: ولتظهر وتتضح طريق المجرمين وسيرتهم في التكذيب والكفر، والظلم والحسد، والكبر واحتقار الناس ونحو ذلك؛ للحذر منها.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾، وهو ﷺ مأمور بتبليغ القرآن كله، وإنما يؤمر أحيانًا أمرًا خاصًّا للاهتمام.

٢- أن الرسول ﷺ لا يملك من أمر الرزق شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، فالأرزاق كلها بيد الله تعالى.

٣- أنه ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ لأن علم الغيب خاص بالله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

فما يخبر به ﷺ من الغيب هو مما أوحاه الله تعالى إليه.

٤- الرد على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويصرفون له بعض صفات الربوبية، فيطلبون منه قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ويزعمون أنه يعلم الغيب، وهو بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يعلم الغيب، وليس بملك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٥- أن الملَك قد يتصور بصورة إنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وقد كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ بصورة بشر، فقد جاءه في صورة دحية الكلبي وغيره.

٦- إثبات الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وهو أنواع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٥١].

٧- كمال عبودية النبي ﷺ لربه، واتباعه لوحي الله تعالى إليه، وتبليغه له على أكمل وجه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ

رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وبراءته ﷺ من أن يدعي شيئًا فوق منزلته التي أنزله الله تعالى فيها.

فنفى ﷺ أن يقول لهم: عندي خزائن الله، أو أعلم الغيب، أو أقول إني ملك؛ كما قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام: ٨].

كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ [هود: ٣١].

٨- أن الشرائع توقيفية، وأن الرسول ﷺ لا ينطق بما أتى به من الشرع عن الهوى، بل عن وحي يوحى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، كما قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤].

٩- لا يستوي الكافر والمؤمن، كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الكافر والمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، وشتان بين من اتبع هدى الله فهو على نور من ربه، وبين من صدف وأعرض فهو على جهل وضلال وفي حالك الظلمات.

١٠- توبيخ وذم من لم يتفكر في آيات الله الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ومفهوم هذا الحث على التفكر.

١١- وجوب الإنذار بالقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾.

١٢- أن أعظم ما ينذر ويخوف به القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾، فهو أبلغ المواعظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٥٨].

١٣- أنه لا ينتفع بالقرآن إلا المؤمنون الذين يؤمنون باليوم الآخر؛ لهذا خصهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، وإلا فهو نذارة للخلق كلهم.

١٤- إثبات الحشر إلى الله تعالى والقيامة والبعث، والحساب والجزاء على الأعمال.

١٥- أن الإيمان باليوم الآخر، والبعث، وحشر الناس للحساب والجزاء؛ من أعظم ما يحمل الناس على الإيمان والعمل الصالح؛ لهذا يخوف الله تعالى به كثيرًا في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، كما

يقرن عز وجل بين الإيمان به سبحانه والإيمان باليوم الآخر- غالبًا- لأجل ذلك.

١٦- أنه لا ولي ولا شفيع للمؤمنين ولا لأحد من الخلق يجلب له النفع أو يدفع عنه الضر من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

١٧- أن الله ولي من خافه واتقاه، وخاف الحشر إليه، والمقام بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، ومفهوم هذا أنه عز وجل هو وليهم.

١٨- إثبات الشفاعة بإذن الله تعالى، وهي أنواع؛ وأعظمها شفاعته ﷺ لأهل الموقف ليقضى بينهم، وهي خاصة به ﷺ بعد أن يعتذر عنها غيره من أولي العزم.

ومنها شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض لرفع درجات بعضهم، وفي العصاة ممن دخلوا النار ليخرجوا منها.

١٩- أن الإنذار بالقرآن والوعظ به لأجل التقوى، وهو لهذا أنزل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٢٠- تحريم طرد المؤمنين الصالحين من مجالس الذكر والخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.

٢١- أن المتبع للحق والحريص على الخير والهدى ينبغي أن تتاح له مجالس الذكر، وهو أولى من غيره، من غير تمييز بين غني وفقير، وذي جاه وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

٢٢- عناية الله عز وجل بأهل عبادته ودعائه والإخلاص له، والثناء عليهم، والدفاع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

٢٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

٢٤- الترغيب في دعاء الله تعالى وعبادته في الغداة والعشي وفي جميع الأوقات، والإخلاص له.

٢٥- إثبات الإرادة للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٢٦- إثبات وجه الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، أي: يريدون الإخلاص له عز وجل بذاته وصفاته.

٢٧- أن كل إنسان لا يحاسب عن غيره، وإنما يحاسب عن نفسه فقط، وحساب الجميع على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

كما قال نوح عليه السلام لما قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾؛ قال: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء: ١١١-١١٤].

٢٨- كمال عدل الله عز وجل، حيث جعل كل إنسان محاسبًا عن نفسه، لا عن غيره.

٢٩- في خطاب الله عز وجل لنبيه ﷺ بهذا الخطاب القوي بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ دلالة على قيام هذا الدين على العدل بلا محاباة، وعلى أنه ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى، كما سبق ذكره.

٣٠- أن طرد المؤمنين من مجالس الذكر والخير ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي هذا تعريض بظلم من سعى إلى طردهم من أشراف قريش وغيرهم، فمن طردهم أو سعى في طردهم فهو ظالم.

٣١- أن للراغب في الجلوس في مجالس الذكر والخير حقًّا فيها، وهو أولى من غيره، فلا ينبغي منعه؛ لأن ذلك من الظلم.

٣٢- ابتلاء سادات وأشراف قريش بضعفائهم، حيث سبق هؤلاء الضعفاء إلى الإيمان وإلى الجلوس إلى النبي ﷺ، مما جعل أولئك السادة يأنفون من اتباع النبي ﷺ ومن مجالسته؛ كبرًا منهم وغرورًا وإعجابًا بأنفسهم، وحسدًا واحتقارًا لهؤلاء الضعفاء وظلمًا لهم، واعتراضًا على الله في هدايته من شاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

وهذا يدل على عدم زكائهم؛ إذ لو كانوا زاكين ويريدون الحق صادقين ما تعللوا بهذا وجعلوه عقبة تمنعهم- كما يزعمون- من اتباع الحق.

٣٣- أن الله جعل بعض الناس فتنة وابتلاء لبعض، فيترك أحدهم الحق لأن فلانًا أخذ به أو قاله، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، وكم من إنسان يترك الصلاة في المسجد المجاور له، أو يترك ميامن الصفوف، لأجل فلان وفلان. وهذا محض الفتنة.

وقد جاء يهود إلى النبي ﷺ فقال لهم: «**إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، ما شاء الله وشاء محمد**». فنهى النبي ﷺ عن هذا[1].

٣٤- إقرار الكفار بأن الإيمان منة من الله تعالى ونعمة؛ لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٣٥- شؤم الكبر وخطره على صاحبه؛ فقد يحمل صاحبه على ترك الحق ومجانبة أهله.

٣٦- أن الله عز وجل يمن على من يشاء فيوفقه للحق بفضله، ويخذل من يشاء فيضله بعدله.

٣٧- تحقير الكفار لشأن المؤمنين، والتنفير عما هم عليه؛ لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٣٨- تقرير علم الله عز وجل بمن يشكر ومن يكفر، ومن هو أهل لهذا أو لهذا؛ لقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فيوفق من هو أهل للشكر، ويخذل من هو أهل للكفر.

٣٩- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾.

٤٠- أمر الله له ﷺ بالسلام ورده على من جاءه من المؤمنين والبشارة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الآية، وهكذا ينبغي إشاعة السلام ورده بين المسلمين والتبشير بالخير.

٤١- البشارة للمؤمنين برحمة الله تعالى الواسعة الشاملة، التي أوجبها عز وجل على نفسه؛ تفضلًا منه وكرمًا، وإحسانًا وامتنانًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱلرَّحۡمَةَ﴾.

وفي حديث معاذ رضي الله عنه: «**حقّ العباد على الله ألّا يعذّب من لا يشرك به شيئًا**»(١). وهو سبحانه الذي أحق هذا وأوجبه على نفسه.

٤٢- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾.

وفي الحديث: «**إنّ رحمتي سبقت غضبي**» أو: «**غلبت غضبي**»(٢).

٤٣- أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، إلا أنه عز وجل أوجب على نفسه الرحمة وإثابة المؤمنين، فلا يجب عليه شيء بطريق العقل كما تقول المعتزلة. وإنما أوجب عز وجل ذلك على نفسه بطريق الشرع؛ تفضلًا منه وإحسانًا.

٤٤- أن من عمل سوءًا بسفه ثم تاب ورجع وأناب إلى الله تعالى، مقلعًا عن عمله السيئ، نادمًا عليه، عازمًا على عدم العودة إليه، مخلصًا لله تعالى في توبته، قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم؛ وأصلح حاله وعمله؛ فإن الله يتوب عليه ويغفر له ويرحمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

٤٥- التحذير من عمل السوء، والترغيب في التوبة ممن حصل منه ذلك.

٤٦- إثبات صفة المغفرة لله تعالى، وأنه ذو المغفرة الواسعة، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ﴾.

٤٧- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٞ﴾.

٤٨- أنه كما فصل عز وجل في هذه الآيات يفصل آياته كلها؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، وأبو داود في الزهد (٤٢٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣).

(٢) سبق تخريجه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ وذلك إيضاحًا وبيانًا للحق، وإقامة للحجة على الخلق.

٤٩- فضل الله عز وجل ومنته على العباد بتفصيل الآيات وبيانها رحمة بهم.

٥٠- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فإن من حكمة الله تعالى في تفصيل الآيات بيان طريق المجرمين لاجتنابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ في الآيات الثلاث خطاب للنبي ﷺ؛ للتأكيد والاهتمام الخاص، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾، أي: نهاني ربي، ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: عن عبادة الذين تدعون غير الله، من الأنداد والأوثان، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦].

وأجرى هذه المعبودات مجرى العقلاء في إطلاق اسم الموصول «الذين» عليهم، لأنهم عاملوهم معاملة من يعقل باعتقادهم فيهم النفع والضر، أو لأن من بين معبوداتهم من يعقل كالملائكة والإنس والجن.

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: تعبدونهم وتسألونهم قضاء الحاجات، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: «مع الله» مع أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]؛ لأن من أشرك مع الله غيره فهو لم يعبد الله، وعبادته له كالعدم، كما قال عز وجل في

الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشِركه**»(١).

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾؛ كرر الأمر ﴿قُل﴾؛ لتأكيد قطع أطماعهم، و«الأهواء»: ما تهواه النفوس من غير تحكيم العقل والشرع.

أي: قل: لا أتبع أهواءكم فيما تدعونني إليه من عبادة غير الله، وطرد المؤمنين وغير ذلك.

ولم يقل: «لا أتبعكم»؛ للإشارة إلى أنهم في دينهم تابعون للهوى، نابذون لدليل العقل، كما نبذوا دليل الشرع، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وقد أحسن القائل:

وَآفَةُ العَقْلِ الهَوَى فَمَنْ عَلَا ... عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا(٢)

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾؛ جواب لشرط مقدر، أي: إن اتبعت أهواءكم إذَنْ قد ضللت؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، أي: لو كان معه من إله إذَنْ لذهب كل إله بما خلق.

وقدم جواب «إذن» على «إذن» في قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾؛ للاهتمام بالجواب؛ ولهذا أكد بـ«قد» مع كونه مفترضًا، وليس بواقع؛ للإشارة إلى أن وقوعه محقق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه «إذَن».

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ مؤكد لها، أي: إن اتبعت أهواءكم إذن قد ضللت وخرجت عن عداد المهتدين، وهذا من تأكيد الشيء بنفي ضده؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١٣٣.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أشد من لو قال: وما أنا مهتد؛ لأن مفارقة المرء فئته بعد أن كان منها أشد عليه من اتصافه بما يخالف صفاتهم قبل الاتصال بهم. وفيه تعريض بالمشركين وعدم هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾.

قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾، وأكد الجملة بحرف التأكيد «إن»؛ لأنهم ينكرون أن يكون على بينة من ربه.

﴿مِّن رَّبِّي﴾ صفة لـ«بينة»، أي: إني على يقين من معرفة ربي وتوحيده، وأنه عز وجل أحد فرد صمد، دلت على وجوده ووحدانيته وتمام وقدرته، آياته ومخلوقاته.

وفي هذا قطع لطمعهم في صرفه ﷺ عما هو عليه من التوحيد، كما أن فيه تعريضًا بالمشركين وما هم عليه من اضطراب في آلهتهم.

ويحتمل أن تكون «من» ابتدائية، فيفيد قوله: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ تعظيم هذه البينة وكمالها، أي: إني فيما جئتكم به على بينة جاءت من ربي بما أوحاه الله إلي في الكتاب والسنة، أي: على يقين بيِّن وبصيرة بصحة ما أدعوكم إليه.

﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦ﴾ الجملة حالية، وفيها معنى التعجب، أي: والحال أنكم كذبتم به مع وضوح البينة، والضمير في «به» يعود إلى المفهوم من قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، أي: وكذبتم بهذا البيان، أي: بما دعوتكم إليه من توحيد الله تعالى، وبما أوحاه إليّ من القرآن والسنة.

بل إنهم إمعانًا منهم بالتكذيب والعناد طلبوا تعجيل العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ

صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨]؛ ولهذا قال هنا:

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، «ما» الأولى نافية، و«ما» الثانية موصولة، و«عند» ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ للدلالة على الحصر، أي: ما عندي الذي تستعجلون به من العذاب، أي: ليس ذلك بيدي ولا في مقدرتي، و«الاستعجال»: طلب التعجيل.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ تصريح بمفهوم القصر السابق وتأكيد له، و«إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما الحكم إلا لله، أي: ما الحكم في تعجيل العذاب لكم أو تأجيله وتأخيره، وفي غير ذلك من الأحكام الكونية والشرعية؛ إلا لله عز وجل وحده، له في ذلك الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ فإن شاء عجّل عذابكم، وإن شاء أجله وأنظركم.

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾؛ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وعاصم: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بالصاد من القصص، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. ومعنى ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾، أي: يخبر بالحق ويبينه ويقوله، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤].

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: «يَقْض الحق» بالضاد من القضاء، بمعنى الحكم والفصل، أي: يقضي بالحق ويحكم به.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾، «خير» اسم تفضيل، و«الفاصلين» جمع «فاصل»، و«الفصل» يكون بالحكم ويكون بالقول، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

والله عز وجل خير الفاصلين في قوله وحكمه؛ فهو خير الفاصلين في قوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ [الطارق: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وهو خير الفاصلين في حكمه وقضائه بين عباده في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [السجدة: ٢٥].

فقوله فصل، وخبره صدق، وحكمه وقضاؤه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأقوال والأخبار، وعدلًا في الأحكام.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾، «لو» شرطية، و«ما» موصولة، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المكذبين المتعجلين بالعذاب؛ جهلًا وعنادًا: لو أن عندي الذي تستعجلون به من العذاب.

﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، اللام واقعة في جواب «لو». وبني الفعل «قضي» لما لم يسم فاعله؛ لأن الذي يقضي بذلك معلوم، وهو الله وحده.

ومعنى «قضي»: تم وانتهى، كما قال تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩].

والأمر: الخلاف والنزاع، أي: قل: لو أن عندي أمر الذي تستعجلون به من العذاب؛ لانتهى الأمر بيني وبينكم وتم بإيقاع الله العذابَ عليكم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أظهر في مقام الإضمار؛ لإشعارهم بأنهم ظالمون بشركهم وتكذيبهم الله ورسوله واستعجالهم العذاب، وتهديدهم بالعذاب عاجلًا أو آجلًا، وكذا غيرهم من الظالمين ممن سلك مسلكهم.

والمعنى: والله أعلم بالظالمين منكم ومن غيركم، لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يهملهم.

وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليكم يوم كان أشد من يوم أُحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردتّ،**

فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثّعالب[١]، فرفعت رأسي؛ فإذا بسحابةٍ قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال، وسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد، إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربّك إليك؛ لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين[٢]»، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئًا»[٣].

ولا تنافي بين هذا وبين الآية؛ لأنه في هذا الحديث عرض عليه تعجيل عذابهم من غير طلب منهم، فسأل تأخير عذابهم؛ لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئًا.

وأما قوله تعالى في الآية: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، ففيه أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

دلت الآيات السابقة على أن هناك من يرفع الرسول ﷺ فوق منزلته، ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله؛ لقوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، ثم بين في هذه الآية أن ذلك كله عند الله عز وجل.

قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، «مفاتح» جمع «مِفْتَح»، كما أن «مفاتيح» جمع

---

(١) قرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد «قرن المنازل».

(٢) الأخشبان: هما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبًا وشمالًا.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد، ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

«مِفْتاح»، و«مفاتح الغيب» جمع مضاف يعم كل المغيبات، أي: كل مفاتح الغيب وخزائنه، و«الغيب» ما غاب عن الناس؛ عن علمهم، وعن أعينهم وحواسهم. وقدم الظرف «عنده»؛ لإفادة الاختصاص، أي: وعنده وحده مفاتح الغيب.

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة حالية، وفيها توكيد وبيان لقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، و«إلا» أداة حصر، أي: لا يعلم مفاتح الغيب إلا هو وحده دون غيره، فهو المختص المستأثر بها؛ لأنه طوى علمها عن الخلق أجمعين؛ من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وسائر الخلق أجمعين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

عن سالم بن عبد الله، عن أبيه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]»[1].

وفي حديث عمر رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل، وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان؛ قال ﷺ: «**خمسٌ لا يعلمهنّ إلا الله**»، ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية[2].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

و«ما» اسم موصول يفيد العموم، أي: ويعلم جميع الذي في البر والبحر من الذوات؛ من حيوان ونبات وجماد، ومن المعاني، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا هو.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، أو معطوف على قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ لقصد زيادة تعميم علمه

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤).

عز وجل بالجزئيات، وهو مؤذن بأن إحاطة علمه عز وجل بما هو أعظم من باب أولى.

و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما تسقط من ورقة من ورق الأشجار في البر والبحر، ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ يعلمها، ويعلم سقوطها، وسببه، ووقته، وغير ذلك، ويعلم حركات جميع المخلوقات؛ من الجمادات والنباتات والحيوانات، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ الواو عاطفة، و«لا» زائدة في المواضع الثلاثة؛ لتأكيد النفي.

و«حبة» مجرورة لفظًا، وكذا «رطب» و«يابس»، عطفًا على «ورقة».

﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لـ«حبة»، أي: ولا حبة مظروفة في طبقات الأرض إلى أبعد عمق ممكن.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ من عطف العام على الخاص.

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، «إلا» أداة حصر. ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، كتبت فيه هذه الأشياء، وكتب فيه كل شيء وما يتعلق به؛ علمًا وتقديرًا وخلقًا، فعلمه عز وجل وكتابه محيط بجميع الأشياء والحوادث.

﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن واضح.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، وقوله: ﴿نُهِيتُ﴾.

٢- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن عبادة غير الله وما عليه المشركون من الشرك والدعوة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣- أن من أشرك مع الله غيره فهو لم يعبد الله وإن زعم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث قوله عز وجل: «أنا أغنى الشّركاء عن

الشّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[١].

٤- إعلان ثباته ﷺ على التوحيد، وتأكيد براءته من الشرك ومن اتباع أهواء المشركين فيما يدعونه إليه من الشرك وطرد المؤمنين ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾.

٥- أن المشركين فيما هم عليه من الضلال- من دعاء غير الله وغير ذلك- إنما يتبعون أهواءهم بلا عقل ولا نقل.

٦- ينبغي الحذر من اتباع الهوى؛ لأنه يعمي صاحبه عن رؤية الحق، ويصم أذنيه عن سماعه.

٧- أن من اتبع أهواء الكفرة والمشركين فقد ضل وخرج من عداد المهتدين؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

٨- إثبات أنه ﷺ على بينة من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، أي: على بينة من توحيد ربي وتفرده بالإلهية؛ لعظيم آياته ومخلوقاته، وعلى بينة فيما أدعو إليه من وحي الله تعالى إليّ في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّى﴾.

١٠- شدة عناد المشركين وتكذيبهم بما جاءهم به الرسول ﷺ من توحيد الله تعالى وشرعه، مع بيان الآيات ووضوح الأدلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾.

١١- الإشارة إلى استعجال المكذبين العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، وهذا يدل على سفه عقولهم.

١٢- أن الرسول ﷺ ليس بيده ولا في مقدوره الإتيان بالعذاب وتعجيله أو تأجيله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

١٣- أن الحكم في إيقاع العذاب وتعجيله أو تأجيله وفي غير ذلك من الأحكام

---

(١) سبق تخريجه.

الكونية والشرعية لله تعالى وحده، ومقرون بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

١٤- الثناء على الله عز وجل أنه يقص الحق ويقوله ويبينه، ويقضي ويحكم به؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.

١٥- أنه عز وجل خير الفاصلين؛ بقوله، وبقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾. فقوله عز وجل فصل، كما قال تعالى في وصف القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ [الطارق: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣]. وحكمه عز وجل وقضاؤه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

١٦- أنه لو كان عنده ﷺ ما يستعجلون به من العذاب لقضي الأمر بينه وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: لقضى الله الأمر بينه وبينهم بإنزال عذابه عليهم.

١٧- التهديد للمشركين المكذبين المستعجلين للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٨- أن الله عز وجل أعلم بالظالمين المستحقين للعذاب بسبب ظلمهم وشركهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٩- ظلم هؤلاء المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالإظهار بدل الإضمار، فلم يقل: «والله أعلم بكم» للتسجيل عليهم بالظلم، والتهديد لهم ولغيرهم من الظالمين.

٢٠- سعة علم الله عز وجل، وإحاطته واختصاصه بجميع مفاتح الغيب وخزائنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

٢١- أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وفي هذا إبطال

لقول الرافضة الإمامية الجهلة الخرافيين: إن الإمام يعلم الغيب- أخزاهم الله-.

٢٢- إحاطة علم الله تعالى بكل ما في البر والبحر من المخلوقات من الذوات والمعاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

٢٣- علم الله تعالى التام بجميع الجزئيات والحركات والسكنات؛ من الحيوانات والنباتات والجمادات، وبكل ورقة تسقط من الأغصان والأشجار، وبكل حبة من الحبوب والبذور وغيرها، وبكل رطب ويابس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

٢٤- أن كل ما في هذا الكون وما يجري فيه؛ كل ذلك معلوم لله تعالى، مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ذكر عز وجل سعة علمه واختصاصه بعلم الغيب، وإحاطته بكل شيء، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، ثم أتبع ذلك ببيان عظيم قدرته وتفرده بتدبير عباده؛ منامًا ويقظة وغير ذلك، ونفوذ سلطانه فيهم، وحفظه لأعمالهم، ومن ثم قبض أرواحهم، وردهم إليه، وحسابه لهم؛ على طريقة القرآن الكريم في ذكر دلائل وحدانيته في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق. وفي ذلك تقرير إلهيته، وتقرير البعث والحساب.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾، الواو عاطفة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ صيغة قصر لتعريف جزأي الجملة، أي: وهو وحده عز وجل الذي يتوفاكم بالنوم بالليل، أي: ينيمكم فيه فترتاح أبدانكم بعد التعب والعناء؛ ولهذا قال تعالى ممتنًا على العباد: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ [النبأ: ٩]، أي: قاطعًا للتعب وراحة لأبدانكم.

وهذا هو التوفي الأصغر؛ لأن الوفاة نوعان:

النوع الأول: وفاة صغرى تكون بالنوم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، أي: متوفيك بالنوم، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وسمي النوم وفاة؛ لانقطاع الإدراك والتمييز والإحساس عند النائم.

والنوع الثاني: الوفاة الكبرى بالموت ومفارقة الروح والبدن.

والخطاب يحتمل أن يكون عامًّا لجميع الناس؛ المؤمن وغيره، ويحتمل أن يكون

موجهًا للمشركين؛ لقوله فيما سبق: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨]، وقوله فيما يأتي: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٤].

ولما كان هذا الحال غير خاص بالمشركين علم منه أن الناس فيه سواء.

وتخصيص النوم بالليل؛ لأنه وقت النوم المعتاد الموافق للفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، أي: ساترًا بسواده ووقتًا للسكون والنوم؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧]، كما قال تعالى في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ٩-١١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ الجملة معطوفة على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وهي أيضًا معترضة من حيث المعنى بين قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ للدلالة على إحاطة علم الله عز وجل بخلقه، في ليلهم ونهارهم، وفي سكونهم وحركتهم، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

و«ما» موصولة. ومعنى ﴿جَرَحْتُم﴾، أي: ويعلم الذي كسبتم وعملتم من طاعة ومعصية وخير أو شر؛ ولهذا سميت «اليد» جارحة؛ لأنه يكتسب بها، وسميت الجوارح، وهي الكواسب من السباع والطيور؛ لأنه يصاد ويكتسب بها، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤].

وإذا كان الخطاب مع المشركين فالمعنى: ويعلم ما كسبتم من الإثم خاصة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿بِٱلنَّهَارِ﴾؛ خص النهار؛ لأنه وقت الكسب والمعاش والعمل المعتاد، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١]، وقد يكون العمل في الليل، والله عز وجل يعلم ذلك كله.

وفي الآية تحذير من اكتساب الشر، وحث على اكتساب الخير.

والنوم وجعل الليل وقتًا له، والنهار وقتًا للعمل؛ كل ذلك آية من آيات الله تعالى، ونعمة من نعمه، ورحمة لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: في النهار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١٠-١١].

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ معطوفة على قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾. والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى النهار، أي: ثم يبعثكم في النهار، وقيل: ثم يبعثكم في المنام. «والبعث»: اليقظة والإفاقة من النوم، أي: ثم يوقظكم في النهار.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يقضى أجل مسمى. وبني الفعل «يقضى» لما لم يسم فاعله؛ لأن الذي يقضي ذلك معلوم، وهو الله عز وجل. ومعنى «يقضى» يُتم ويُنهى. ﴿أَجَلٌ﴾: وقت. ﴿مُّسَمًّى﴾: معلوم معين محدود معدود بالسنين والشهور، والأيام والليالي، وهو زمان النوم واليقظة.

والمعنى: ليقضى أجل مسمى لكل واحد من الناس، وهو مدة ومقدار حياته وعمره الذي كتبه الله له إلى أن يموت، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**فيرسل إليه ملك، فيكتب رزقه وأجله وعمله**»(١).

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ قدم الخبر «إليه» للدلالة على الحصر، أي: ثم إليه عز وجل وحده رجوعكم، أي: مصيركم ومردكم ومعادكم يوم القيامة بالبعث بعد الموت.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧).

وهذه الآية كقوله تعالى في أول السورة: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢]؛ فالأجل الأول أجل الموت، والأجل الثاني أجل البعث.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾، أي: يخبركم. والنبأ: الخبر الهام، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ١-٢].

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة تفيد العموم، أي: ثم يخبركم بجميع عملكم، أو بجميع الذي كنتم تعملون في ليلكم ونهاركم، ويحاسبكم ويجازيكم عليه خيرًا كان أو شرًّا.

وفي هذا وعد لمن آمن وعمل صالحًا، ووعيد لمن كفر وعمل السوء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ تعريف المبتدأ والخبر للدلالة على الحصر، أي: وهو وحده القاهر، ذو الغلبة والقوة والسلطان، الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته كل شيء.

﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بذاته، وصفاته، ونفوذ أمره تعالى فيهم. والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، أي: ويرسل عليكم أيها الناس من الملائكة حفظة يحفظون أبدانكم؛ رعاية لكم، وعناية بكم، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ويحفظون أعمالكم ويحصونها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾ [ق: ٤].

وفي الحديث: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل**» الحديث(١).

قال قتادة في معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الآية، «يقول: حفظة يا ابن آدم، يحفظون عليك عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيت ذلك قبضت إلى ربك»(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، «حتى» للغاية، أي: ويرسل عليكم حفظة يحفظونكم ويحفظون أعمالكم، إلى غاية حضور أجل أحدكم واحتضاره، فإذا جاء أحدكم الموت:

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ قرأ حمزة: «توفاه» بألف ممالة بعد الفاء. وقرأ الباقون بتاء ساكنة بعد الفاء: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾.

أي: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ بقبض روحه وإخراجها من بدنه ﴿رُسُلُنَا﴾؛ وهم: ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الجملة حالية. والتفريط: التقصير في العمل، والإضاعة في الذوات، أي: وهم لا يقصرون في فعل ما أمروا به، ولا يضيعون ما وكل إليهم، كما قال تعالى في وصف ملائكته: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]، فلا يفرطون في قبض روح من حان أجله، وحفظها وتسليمها لملائكة الرحمة إن كانت من المؤمنين، أو تسليمها لملائكة العذاب إن كانت من الكافرين، وينتهي بأرواح الأبرار إلى الجنة في عليين، وبأرواح الكفار إلى النار في سجين أسفل سافلين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾، أي: ثم- بعد توفيهم وانتهاء الحياة البرزخية- أرجعوا إلى الله

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥)، ومسلم في المساجد (٦٣٢)، والنسائي في الصلاة (٤٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٢٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٠٦).

بالبعث يوم القيامة؛ ليحاسبهم ويجازيهم، فيحكم فيهم بعدله، ويمن على من يشاء منهم بفضله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ الذي يتولى أمورهم ويحاسبهم ويجازيهم في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفة لـ«مولاهم»، أي: مولاهم العدل الذي لا يحكم إلا بالحق.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، «ألا» أداة استفتاح وتنبيه لأهمية الأمر، وقدم الخبر «له»؛ للدلالة على الاختصاص، أي: ألا له وحده الحكم في مجازاتهم، كما أن له وحده الحكم فيما شرع لهم، وفيما قدر عليهم؛ فله عز وجل الحكم الجزائي، والحكم الشرعي، والحكم الكوني.

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾؛ لكمال علمه عز وجل بخلقه، وحفظه لأعمالهم وأعدادهم وأحوالهم وآجالهم وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

ولقدرته التامة على حساب الخلائق بأسرع وقت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ولأن حسابه آت وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان في هذه الدنيا قصير؛ فما أسرع ما يرتحل منها ويلقى ربه فيحاسبه.

وهو أسرع الحاسبين- أيضًا- حيث يجد الإنسان شيئًا من جزاء عمله في الدنيا؛ فإن عمل خيرًا ظهر أثر ذلك في سعادته وتيسر أموره، وإن عمل شرًّا ظهر عليه ضد ذلك، وهذا أمر معلوم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى وتمام قدرته وتفرده بالتدبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ الآية.

٢- نعمة الله تعالى على عباده، ورحمته لهم، وآياته العظيمة؛ في جعل النوم، وخلق الليل والنهار، وجعل الليل وقتًا للنوم والنهار وقتًا للعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى

يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾.

٣- أن النوم أخو الموت، لكنه وفاة صغرى دون الموت.

٤- أن وقت النوم المعتاد والمناسب للفطرة التي فطر الله الناس عليها هو الليل؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾.

٥- علم الله تعالى التام بما يعمله العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، وهو سبحانه يعلم ما يعملون بالليل والنهار، والسر والجهار، وإنما خص النهار؛ لأنه الوقت المعتاد للعمل.

٦- التحذير من ارتكاب المعاصي، ووجوب مراقبة الله تعالى ليلًا ونهارًا.

٧- أن الوقت المعتاد والمناسب للعمل هو النهار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

٨- أن ما خرج عن المعتاد من جعل الليل وقتًا للعمل، والنهار وقتًا للنوم؛ إنما هو انتكاس ومخالفة للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتشبه بأخس المخلوقات، وهي الكلاب، فهي التي تنام في النهار وتبحث عن الطعام في الليل.

ولا يخفى ما في هذا من اضطراب لحياة الناس؛ وبخاصة المسلمين. والمصيبة أن غير المسلمين بقوا على الفطرة في النوم ليلًا والعمل نهارًا، بينما عكس كثير من المسلمين هذا فجعلوا الليل وقتًا للسهر والنهار وقتًا للنوم.

وفي الحديث: «**يكره النّوم قبل العشاء، والحديث بعدها**»[(١)]، أي: بعد العشاء؛ لأنه وقت النوم.

وفي الحديث الآخر: «**بورك لأمّتي في بكورها**»[(٢)]. والبكور: القيام مبكرًا في الصباح للعمل، وبركة هذا الوقت أمر معلوم وملحوظ لمن وفقه الله للاستفادة من هذا الوقت وعدم تضييعه بالنوم، كما هو حال الكثيرين.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٨)، ومسلم في المساجد (٦٤٧)، وأبو داود في الصلاة (٣٩٨)، والنسائي في المواقيت (٤٩٥) من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٦)، والترمذي في البيوع (١٢١٢)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٣٦) من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن».

٩- أن الإفاقة من النوم والاستيقاظ منه نوع من البعث؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

١٠- أن لكل إنسان أجلًا مسمى ومدة محدودة في بقائه في هذه الحياة تنتهي بالموت، لا يتقدم عنها ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

١١- مرد الخلائق كلهم ورجوعهم إلى الله تعالى بالبعث بعد الموت يوم القيامة، ومحاسبته لهم ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

١٢- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا، والوعيد لمن كفر وعمل السيئات.

١٣- إثبات اسم الله تعالى «القاهر»، وأنه عز وجل ذو القهر والغلبة والسلطان التام والحكم النافذ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾.

١٤- إثبات الفوقية والعلو لله تعالى على خلقه، فهو عال عليهم بذاته، وصفاته، ونفوذ أمره فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

١٥- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِهِۦ﴾.

١٦- رعاية الله تعالى لخلقه وعنايته بهم، وحفظهم وحفظ أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

١٧- وجوب مراقبة الله تعالى فيما نقول ونفعل؛ لأن الله أرسل علينا حفظة يحفظون أعمالنا.

١٨- أن الموت غاية كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

١٩- أن الله عز وجل وكل رسلًا من ملائكته بقبض أرواح بني آدم، وهم ملك الموت وأعوانه؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

٢٠- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لأنه ذو العظمة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾ بضمير الجمع.

٢١- ثناء الله تعالى على رسله من الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، وأنهم لا يفرطون فيما وكل إليهم القيام به؛ من قبض الأرواح حين أجلها، وفي حفظها وجعلها حيث شاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

٢٢- إثبات ولاية الله تعالى العامة لجميع العباد؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، فهو يتولى حسابهم وجزاءهم وغير ذلك.

٢٣- أن الله عز وجل هو الحق والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦، ٦٢، لقمان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

٢٤- اختصاصه وحده عز وجل بالحكم؛ الحكم الجزائي، والحكم الشرعي، والحكم الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

٢٥- أن الله عز وجل أسرع الحاسبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾؛ قرأ يعقوب بالتخفيف «يُنجِيكم». وقرأ الباقون بالتشديد ﴿يُنَجِّيكُم﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى؛ ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية:

﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، «من» اسم استفهام للتقرير، أي: من الذي ينجيكم؛ أي يخلصكم وينقذكم.

﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾؛ كظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة الرياح والعواصف التي يلتبس فيها الطريق، ويخشى فيها من العدو وضلال الطريق.

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: ومن ظلمات البحر التي فيها زيادة على ظلمات البر ظلمة لجة البحر وأمواجه؛ مما يخشى معه من الغرق، والعدو، وضلال الطريق، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣].

أي: من ينجيكم من ظلمات البر والبحر وشدائدها ومخاوفها غير الله تعالى وحده.

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الجملة حالية، أي: تفزعون إليه بالدعاء، أي: تدعونه دعاء مسألة وطلب.

﴿تَضَرُّعًا﴾ جهرًا، مظهرين الضراعة والتذلل له والاستكانة.

﴿وَخُفْيَةً﴾؛ قرأ أبو بكر عن عاصم بكسر الخاء: «وخِفية». وقرأ الباقون بضمها

﴿وَخُفْيَةً﴾.

أي: مسرِّين بالدعاء، أي: تدعونه في حال الشدة متضرعين إليه ظاهرًا وباطنًا؛ استجابة لمحض الفطرة السليمة.

﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾؛ هكذا قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف بألف بعد الجيم. وقرأ الباقون: «أنجيتنا» بياء بعد الجيم ثم تاء.

والجملة في محل نصب بقول محذوف، أي: قائلين: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾، واللام موطئة للقسم، أي: والله لئن أنجانا، أو لئن أنجيتنا.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾، أي: من هذه الظلمات والشدة والضائقة.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لنكونن من الشاكرين، أي: لنكونن بعدها من الشاكرين لك بالتوحيد وإخلاص العبادة لك. ومبالغة منهم لم يقولوا: «لنكونن شاكرين»، بل قالوا: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: من الشاكرين الشكر المطلق الكامل، لا مطلق الشكر.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ﴾؛ أمره تعالى بالجواب؛ تنبيهًا على ظهوره وتعينه عندهم، وعدم إنكارهم ذلك.

﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾، أي: ينقذكم ويخلصكم منها، أي: من هذه الشدة الخاصة.

﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، أي: ويخلصكم من كل كرب، أي: من جميع الكروب العامة، و«الكرب»: الشدة والضيق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؛ ثم للعطف الرتبي، أي: ثم أنتم بعد ذلك تشركون، أي: ثم أنتم بعد اعترافكم أنه لا ملجأ إلا إلى الله، ودعائكم إياه تضرعًا وخفية، وإقسامكم أن تكونوا من الشاكرين إن أنجاكم؛ تشركون بالله تعالى وتدعون معه غيره لما كشف الشدة عنكم؛ فتشركون به من قبل ومن بعد، وتنكثون أيمانكم وتكفرون نعمته ولا تشكرون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ

فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالمضارع؛ لإفادة تجدد شركهم، وأن ذلك التجدد والدوام عليه أعجب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ذكر في الآية السابقة قدرته التامة وحده على الإنعام عليهم بالنجاة، لكنهم بعد ذلك يشركون، ثم ذكر قدرته على الانتقام منهم؛ تهديدًا لهم وتخويفًا.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين إذا أنجاهم الله عادوا إلى الشرك؛ مخوفًا لهم ومحذرًا من عذاب الله:

﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾؛ تعريف طرفي الجملة يفيد القصر، أي: هو الله وحده القادر على أن يرسل عليكم عذابًا بعد إنجائه إياكم وشرككم به، وعدم شكركم، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩].

﴿ٱلْقَادِرُ﴾، أي: ذو القدرة على فعل الشيء من غير عجز، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، والتقدير: على بعث.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾، أي: من السماء؛ بإرسال حجارة، أو حاصب، أو بالصواعق، أو الرياح الشديدة والعواصف والغرق.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، أي: من الأرض؛ بالخسف والزلازل والطوفان والبراكين، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾، أي: يجعلكم ملتبسين مختلطين مختلفين.

﴿شِيَعًا﴾ فرقًا وأحزابًا متناحرة، كما هو حال المسلمين اليوم؛ صاروا فرقًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضهم لبعض على حساب الإسلام، ولمصلحة أعدائهم، كما قال الشاعر:

فَتَفَرَّقُوا شِيَعًا فَكُلّ جزيرةٍ ... فِيهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْبَرُ[1]

وقال الآخر:

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ[2]

قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، وافترقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمّة على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلّها في النّار إلا واحدةً**»[3].

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل، و«البأس»: القتل، كما قال تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله

---

(١) البيت بلا نسبة؛ كما في «ديوان الحماسة» (١/ ١٧٦). ورواه بعضهم: «...فكل مدينة».

(٢) البيتان لابن رشيق القيرواني. انظر: «ديوانه» (ص٥٩).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

ﷺ: «**هذا أهون**» أو قال: «**هذا أيسر**»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله زوى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين؛ الأحمر والأبيض، وإنّي سألت ربّي لأمّتي ألّا يهلكها بسنةٍ عامّةٍ، وألّا يسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها- أو قال: من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا**»(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلًا، قال: «**سألت ربّي ثلاثًا: سألته ألّا يهلك أمّتي بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته ألّا يهلك أمّتي بالسَّنَة**(٣)**؛ فأعطانيها، وسألته ألّا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها**»(٤).

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: انظر وتأمل بقلبك كيف ننوع الآيات الكونية والشرعية، ونأتي بها على أوجه كثيرة ونبينها؛ بالترغيب تارة، والترهيب تارة، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يفقهوا، أي: يفقهوا هذه الآيات وما تدل عليه من وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

الفوائد والأحكام:

١- افتتاح الكلام بقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتمام.

٢- أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية، ويلجؤون في الشدة إلى الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾ الآيتين.

٣- تقرير أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وفي هذا إفحام للمشركين؛

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام (٤٦٢٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، هلاك الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦).

(٣) السَّنة: الجدب والقحط.

(٤) أخرجه مسلم في الفتن، هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٩٠)، وأحمد (١/ ١٧٥).

كيف يقرون بربوبيته ويشركون معه غيره؟!

٤- ينبغي أن يكون دعاء الله تعالى على وجه التضرع والخضوع والاستكانة، وأن يكون خفية؛ لقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

٥- أن المخلص والمنقذ من ظلمات البر والبحر، ومن الشدائد والكروب كلها؛ هو الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾.

٦- أن المشركين يلجؤون إلى الله تعالى ويخلصون له في الشدة، ويشركون به في الرخاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٧- كذب المشركين في وعدهم بالشكر وإقسامهم عليه إن أنجاهم الله، فلما أنجاهم أشركوا وكفروا ولم يشكروا.

٨- قدرة الله تعالى التامة على إرسال العذاب على المكذبين والمشركين؛ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومن كل جهة، وأن يلبسهم شيعًا، ويذيق بعضهم بأس بعض؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

٩- التهديد للمشركين الذين بدلوا نعمة الله عليهم بالكفر والشرك.

١٠- أن ما حصل في الأمة من اختلاف وتفرق، وحروب وتقاتل، ومن اختلاف حتى بين المسلمين؛ مصداق لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

١١- ذم الاختلاف والتفرق شيعًا وأحزابًا وجماعات، ووجوب الحذر من ذلك، والاعتصام بحبل الله جميعًا، ونبذ الاختلاف والفرقة؛ امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

تَأْبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا ... وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ آحَادَا

١٢- إقامة الحجة على الخلق بتصريف الآيات وتنويعها وبيانها؛ لأجل أن يفهموا ويعتبروا ويهتدوا بها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

١٣- ينبغي النظر والتأمل في كيفية تصريف الآيات وبيانها للناس.

١٤- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾، الواو استئنافية.

﴿بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن الكريم؛ وهو معلوم، وقد سبق في قوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، أي: وكذبتم بالقرآن.

﴿قَوْمُكَ﴾؛ قريش وأهل مكة، والخطاب للنبي ﷺ، وكان الواجب أن يكونوا أولى الناس بتصديقه؛ لأنهم قومه ﷺ وقرابته.

ولهذا قال الله تعالى له: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، أي: إلا أن تودوني وتحبوني لقرابتي.

ولهذا أمره الله تعالى بإنذار الناس عامة، وإنذار الأقربين منه خاصة، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وتكذيب قومه له- وبخاصة الأقربين منهم- أشد عليه وأعظم. وكما قال الشاعر:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ(١)

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الجملة مستأنفة أو حالية، أي: وهو الحق الذي لا ريب فيه؛ فهو حق في نفسه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. وطريق وصوله حق، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-

---

(١) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» (ص٢٧).

١٩٤]. وهو مشتمل على الحق؛ فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال بعضهم: الضمير في «به» يعود للعذاب، أي: وكذب قومك بالعذاب الموعود به، وهو الواقع لا محالة.

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ الوكيل: الحفيظ، أي: قل لست عليكم بحفيظ أمنعكم من التكذيب وأحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

بيَّن في الآية السابقة تكذيب قومه ﷺ بالقرآن، وأنه ليس وكيلًا عليهم يمنعهم من التكذيب، ثم توعدهم في هذه الآية وهددهم.

قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، «النبأ» الخبر الهام العظيم، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١-٢].

﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾، «المستقر» وقت الاستقرار والحصول، أي: لكل نبأ مما أخبر الله تعالى به وقت للوقوع، ولو بعد حين؛ سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، أي: وسوف تعلمون في المستقبل ما توعدون به من العذاب عند حلوله بكم؛ في الدنيا، أو في الآخرة، وهذا وعيد وتهديد لهم. وقد عد بعض المفسرين من هذا ما حصل للمشركين في بدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: وإذا رأيت الذين يتكلمون بالطعن والاستهزاء في آياتنا، ويتكلمون بالباطل والمنكر وما يخالف الحق، من هؤلاء المكذبين، وهم أشدهم عنادًا وتكذيبًا. ولم يقل: وإذا رأيتهم؛ لأنه ليس كل المكذبين ممن يخوضون بالآيات، و«الخوض»: الكلام بالباطل، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾، أي: فلا تجالسهم في حال خوضهم واترك الجلوس معهم.

وفي التعبير بالموصول «الذين» تعليل للأمر بالإعراض، أي: فأعرض عنهم؛ لأنهم يخوضون في آياتنا.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾، «حتى» للغاية، أي: حتى يأخذوا في حديث غير الخوض بآيات الله؛ لزجرهم وقطع الجدال معهم، ولعلهم يرجعون عن عنادهم. وعبر عن انتقالهم إلى حديث آخر بالخوض؛ إما من باب المشاكلة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، أو لأنهم لا يتكلمون إلا فيما لا فائدة فيه.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ هذا تأكيد للأمر بالإعراض عنهم.

قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين «ينَسّينك»، من التنسية مبالغة من النسيان، وقرأ الباقون: ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾ بسكون النون وتخفيف السين، أي: فإن أنساك الشيطان الإعراض عنهم، فتقعد معهم، أو فقعدت معهم ناسيًا.

﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، «القعود» هنا: ضد الإعراض، و«الذكرى» اسم «للتذكر»، ضد النسيان، أي: فلا تقعد بعد تذكر الأمر بالإعراض.

﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بخوضهم بالطعن والاستهزاء بآيات الله. والنهي للتحريم.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «فلا تقعد معهم»؛ للتسجيل عليهم بالظلم، وليشملهم هذا النهي وغيرهم من الظالمين، فلا يجوز الجلوس معهم.

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي

حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أمر عز وجل بالإعراض عن الذين يخوضون في آياته واجتنابهم وعدم القعود معهم، ثم بين في هذه الآية أنه ما على من اتقى الله وأعرض عنهم واجتنبهم؛ من حسابهم من شيء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدًا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾؛ يعني إذا قمتم عنهم فما عليكم تبعة ما يقولون في حال مجانبتكم إياهم؛ إذ ليس عليكم جري ذلك، وما عليهم أن يمنعوهم»(١).

قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: وما على الذين يتقون الله بالإعراض عن هؤلاء الخائضين بآيات الله، أو بالإنكار عليهم إذا جالسوهم؛ من حسابهم من شيء، فلا هم مسؤولون عنهم، ولا يتحملون من آثامهم شيئًا؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] إذا أنكرتم عليهم.

﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾، أي: من حساب الخائضين في آيات الله.

﴿مِّن شَىْءٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾، الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: ولكن عليهم ذكرى.

ويجوز كون «ذكرى» منصوبًا على المفعول المطلق، أي: ولكن يُذكَّرون ذكرى.

والمعنى: ولكن عليهم إذا رأوهم يطعنون في آيات الله ويستهزئون بها؛ أن يذكروهم ويعظوهم ويخوفوهم غضب الله وعقابه.

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ١٠٥).

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، الضمير يعود إلى الخائضين، أي: لعل هؤلاء الخائضين في آيات الله يتقون الله بترك الخوض في آياته بسبب إعراض المتقين عنهم وإنكارهم عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة تكذيب قومه ﷺ بالقرآن، وتوعدهم وهددهم، وأمره بالإعراض عن الخائضين بآيات الله وعدم الجلوس معهم، ثم أمره في هذه الآية بترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا وغرتهم الحياة الدنيا، وعدم المبالاة بهم، والاستمرار بالتذكير بالقرآن.

قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ الواو استئنافية، والخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، أي: واترك الذين جعلوا دينهم الذي أمروا أن يدينوا به لله تعالى لعبًا في الأبدان، ولهوًا في القلوب، بالتكذيب والطعن به والاستهزاء.

أو جعلوا ما يتدينون به وينتحلونه ويتقربون به إلى الله لعبًا ولهوًا وعبثًا، واتخذوا ذلك عادة ودأبًا لهم وديدنًا، أي: دعهم، ولا تبالهم ولا تهتم بهم، ولا تكترث باستهزائهم؛ فأمر عقابهم إلي، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخارفها ومتاعها الزائل، وظنوا أنْ لا حياة بعدها، وأن نعيمها دائم لهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وذكر تعالى قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وقولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾، أي: وذكرهم وغيرهم بالقرآن، و«التذكير»: الوعظ به بذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب؛ ففي التذكير بالقرآن التذكير بالله عز وجل وعظمته، وبأحكامه الشرعية وحدوده ووعده ووعيده، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله على حذف مضاف، أي: مخافة أن تبسل نفس، أي: لئلا تبسل نفس؛ كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا.

ومعنى ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾، أي: أن تحبس وترتهن، و«نفس» عام لكل نفس؛ كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤، الانفطار: ٥].

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، الباء للسببية، و«ما» موصولة، أي: بالذي كسبت، أي: بالذي جنت من شر؛ لقوله: ﴿تُبْسَلَ﴾، أي: تحبس وترتهن وتؤخذ بالذي عملت من التكذيب بالقرآن، والخوض بآيات الله، واتخاذ الدين لعبًا ولهوًا، والاغترار بالدنيا، وغير ذلك من الأعمال السيئة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩].

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس لها سوى الله وغيره.

﴿وَلِىٌّ﴾؛ قريب أو صديق أو غيرهما؛ يتولاها وينصرها، أو يرفع عنها عذاب الله.

﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: وليس لها من دون الله شفيع يشفع لها بمنع العذاب عنها أو رفعه، كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾، الواو عاطفة، أي: وإن تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبًا، وهذا على سبيل الفرض؛ لأن هذا محال وغير ممكن.

﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾، أي: لا يقبل منها ولا يفيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم

مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤].

وحيث انتفت أسباب التخلص من القهر والغلب- المتعارف عليها- فلا ولي لهم من دون الله، ولا شفيع ولا فدية تقبل منهم، فلم يبق سوى العذاب؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، الإشارة للذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا وغرتهم الحياة الدنيا.

﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ﴾، أي: أخذوا وحبسوا وارتهنوا وأُسلموا للهلاك.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كسبوه، أو بكسبهم، أي: ارتهنوا وأخذوا بذنوبهم.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، هذا بيان لما أبسلوا وأخذوا به.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، أي: من ماء بالغ الحرارة يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء، قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع؛ حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٤].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب قومه ﷺ بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾، وهو محمول على الغالب؛ فأكثر قومه ﷺ كذبوه، وخاصة في أول دعوته.

٢- في قوله: ﴿قَوْمُكَ﴾ ما يشير إلى أنه كان الأجدر بهم أن يكونوا هم أول من يصدقه.

٣- أن القرآن الكريم هو الحق؛ فهو حق، وطريق وصوله حق، ومشتمل على الحق في أخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

٤- أنه ﷺ ليس وكيلًا على الناس يلزمهم الهداية ويمنعهم من الغواية، وإنما هو منذر ومبلغ؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

٥- تسليته ﷺ وتقوية قلبه تجاه تكذيب قومه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، فلا يظنوا أنه ملزم بهدايتهم ويضارونه بتكذيبهم.

٦- الوعيد والتهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٧- أن لكل خبر أخبر الله تعالى به- من وعد ووعيد وغير ذلك- وقت لوقوعه وحصوله؛ سواء كان في الدنيا، أو في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

٨- وجوب الإعراض عن الخائضين بالطعن والاستهزاء بآيات الله، وعن مجالسهم ومجالس الباطل كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

٩- تحريم الجلوس في مجالس الطعن بآيات الله والاستهزاء بها، ومجالس الباطل والمنكر والظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٠- أن من نسي فجلس في هذه المجالس فعليه القيام عنها بعد التذكر وعدم القعود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي الحديث قوله: «﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ **قال الله: قد فعلت**»(١).

١١- أن الرسول ﷺ عرضة للنسيان كغيره من البشر، وأن النسيان سببه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

١٢- أن الذين يخوضون بآيات الله ظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «فلا تقعد معهم»؛ بهدف وصفهم بالظلم، وليشملهم النهي وغيرهم من الظالمين.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

١٣- أنه ليس على من اتقى الله فأعرض عن هؤلاء الخائضين وعن مجالسهم، أو جالسهم وأنكر عليهم، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؛ شيء من حسابهم، فليس عليه إلزامهم بالتقوى، ولا يتحمل شيئًا من آثامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

١٤- أن كل إنسان إنما يحاسب عن نفسه، فليس عليه هداية غيره، ولا يتحمل إثم غيره.

١٥- أن على من رأى الذين يخوضون بآيات الله بالطعن والاستهزاء فيها والكلام بالباطل؛ أن يذكروهم ويعظوهم ويخوفوهم عذاب الله، لعلهم يتقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٦- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

١٧- ينبغي ترك من جعلوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا، وعدم الاكتراث والاهتمام بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٨- ذم الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا، والتحذير من مسلكهم.

١٩- الحذر من الاغترار بالحياة الدنيا وزينتها وزخارفها، وأنها متاع غرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥].

٢٠- أن الدين الحق جد إيمان بالله وعبادة له عز وجل؛ رجاء ثوابه، وخوفًا من عقابه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ١١].

وفي الحديث: «إن العقبة كؤود، لا يجوزها المثقلون»(١).

فالأمر جد وليس بهزل، وكما قيل:

أَلأَمْـرُ جِـدٌّ وَهْـوَ غَـيْرُ مِـزَاحِ فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا يَا صَاحِ(٢)

وقال الآخر:

قَدْ رَشَّحُوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَلِ(٣)

٢١- وجوب التذكير بالقرآن والتحذير من شؤم الذنوب والمعاصي وعقابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٢٢- أن القرآن أعظم واعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾.

٢٣- أن مما يوعظ به: التخويف من الأخذ بالذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، كما أن مما يُرَجَّى به: الثواب على الطاعة.

٢٤- في الاقتصار على التذكير بالأخذ والعقوبة على كسب السوء؛ دلالة على أنه يجوز الاقتصار أحيانًا على ذكر الترهيب أو الترغيب، حسب السياق ومناسبة الخطاب.

٢٥- أن كل نفس بما كسبت رهينة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

٢٦- لا ولي ولا شفيع لأحد من الخلق يدفع عنه العذاب أو يرفعه سوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

٢٧- الإشارة إلى حال الناس في الدنيا بالانتفاع بينهم بالموالاة والشفاعة، لكن في الآخرة هيهات إلا بعد إذن الله ورضاه.

٢٨- أن من ارتُهن بكسبه لو بذل كل فداء لم يؤخذ منه، ولم يدفع عنه عذاب الله أو

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٦١٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٣) البيت للطغرائي. انظر: «لامية العجم» ص١٢٢.

يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾.

٢٩- أن كل واحد من أهل النار مستعد- لما يرى من شدة الهول والعذاب- أن يفتدي من ذلك بكل شيء لو ملك ذلك وأمكنه الافتداء به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١-١٤].

٣٠- تأكيد أخذ الذين جعلوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا بما كسبوا من الأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

٣١- شدة ما أعد الله للذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا واغتروا بالحياة الدنيا واستمروا على الكفر من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

٣٢- التحذير من الكفر؛ لأنه سبب لأخذ الله عز وجل وعذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل- يا محمد- للمشركين الداعين لكم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام: ﴿أَنَدْعُواْ﴾، أي: أنعبد، و«الدعاء»: العبادة؛ سواء كان دعاء تعبُّد، أو دعاء مسألة. وفي الحديث: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

والاستفهام للإنكار والنفي والتيئيس، أي: لا يمكن أن نفعل ذلك.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله الذي بيده النفع والضر.

﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، «ما» اسم موصول، أو نكرة موصوفة، وهي في محل نصب، أي: أنعبد من دون الله شيئًا لا ينفعنا ولا يضرنا، أو الذي لا ينفعنا ولا يضرنا، أي: الذي لا يقدر على نفعنا إن دعوناه، ولا على ضرنا إن تركناه، من الأصنام والأنداد.

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾ معطوف على «ندعو»، داخل في حيز الإنكار والنفي.

و«الرد» الإرجاع إلى المكان الذي يؤتى منه، و«الأعقاب» جمع «عقب»، وهو مؤخر القدم؛ يقال: رجع على عقبه، أو على عقبيه، أو نكص على عقبيه، أي: رجع إلى المكان الذي جاء منه. وفي الحديث قوله ﷺ: «**اللّهمّ أمض لأصحابي هجرتهم، ولا**

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٧٩، والترمذي في الدعوات ٧٢٣٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٢٨؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

تردّهم على أعقابهم»[١].

والمعنى: ونُرجع إلى الوراء على أدبارنا في الشرك بالله. وهذا أبلغ من لو قال: ونرجع إلى الكفر بعد الإيمان.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، «إذ» مراد به الزمان، أي: بعد الزمان الذي هدانا الله فيه، أي: بعد هداية الله تعالى لنا إلى التوحيد والإيمان والإسلام، كما قال أولو الألباب: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ قرأ حمزة: «استهواه» بألف ممالة بعد الواو. وقرأ الباقون ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ بتاء ساكنة بعد الواو.

والكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، أي: فيكون مثلنا وحالنا ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: هوت به وأضلته الشياطين في الأرض القفر المهلكة عن الجادة والطريق الواضح، أي: فيكون مثلنا إن دعونا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا، ورددنا على أعقابنا في الشرك بعد هداية الله لنا؛ كمثل رجل أضلته الشياطين في الأرض عن الطريق.

﴿حَيْرَانَ﴾ حال، وهو على وزن «فعلان» ممنوع من الصرف، أي: استهوته الشياطين حال كونه حيران في الأرض، لا يدري أين الطريق الأسلم.

﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ صفة لـ«حيران»، أو حال منه؛ أي حال كونه له أصحاب، أي: رفقة معه ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ صفة لـ«أصحاب»، أي: ينادونه إلى الطريق الواضح ﴿ٱئْتِنَا﴾، أي: يقولون له: ﴿ٱئْتِنَا﴾، أي: هلم إلينا، فنحن على الطريق الواضح والجادة المستقيمة، ولكنه يأبى أن يستمع لهم؛ بسبب حيرته وإضلال الشياطين له.

وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن عبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، ورجع بعد الإيمان والهدى إلى الشرك والضلال، واستجاب لداعي الباطل، وأعرض عن داعي الحق. وهو مشتمل على مثلين:

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٤)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الأول: تمثيل حال من رجع إلى الشرك والضلال بعد الإيمان والهدى؛ بمن خرج قاصدًا أمرًا، ثم رد على عقبيه دون تحقيقه.

والثاني: من استجاب لدعاة الباطل والضلال، وأعرض عن دعاة الحق والهدى؛ بمن كان يسير في طريق فأضلته الشياطين، ومعه رفقة على الطريق الواضح يدعونه للحاق بهم فيأبى.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ يزعم المشركون أن ما هم عليه وما يدعون إليه من عبادة غير الله هدى؛ ولهذا خاطبهم بصيغة القصر ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ بتعريف طرفي الجملة، وأكد ذلك بـ«إن»، وضمير الفصل «هم»، أي: ليس الهدى إلا هدى الله، وما عداه فهو ضلال وهلاك وردى.

وهدى الله هو وحيه ودينه الذي بعث به رسوله محمد ﷺ، وهو الإسلام؛ بقرينة قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

وقد وصف الله عز وجل ما بعث به ﷺ من الدين وهو الإسلام بأنه «هدى الله»، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أي: القرآن هو الهدى، لا ما أنتم عليه.

وأيضًا: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: أن المهتدي حقًّا هو من هداه الله ووفقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ٣٧].

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: وأمرنا- نحن الأمة المحمدية- كما أمر غيرنا من الأمم، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١].

واللام في قوله: ﴿لِنُسْلِمَ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن نسلم، أي: أمرنا بالإسلام.

أو بمعنى «أن»، أي: أن أسلموا، أو بأن أسلموا، أي: وأمرنا أن نستسلم لرب العالمين باطنًا بتوحيده، ونتخلص من الشرك، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: «لله»؛ إشارة إلى تعليل الأمر وأحقيته؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية. وهو في مقابل قوله: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقوله فيما سبق: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِنُسْلِمَ﴾، أي: وأمرنا أن أقيموا الصلاة.

ويحتمل عطفه على قوله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ فيكون من جملة القول، و«أن» مصدرية أو تفسيرية.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ معطوف على «أقيموا» من عطف العام على الخاص؛ فخص الأمر بإقام الصلاة لأهميتها، ثم عطف عليه الأمر بتقوى الله عمومًا.

والمعنى: وأمرنا ظاهرًا بإقام الصلاة إقامة تامة؛ بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وبتقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، الواو استئنافية. وفي الجملة قصر حقيقي بتعريف طرفي الجملة، وتقديم معمول «تحشرون»، أي: وهو وحده الذي إليه تحشرون.

وفي هذا إثبات الحشر وتحقيقه، ووعد ووعيد، أي: وهو وحده الذي إليه تجمعون يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وفيه قصر حقيقي، بتعريف طرفي الجملة، المقصود منه الاستدلال على أنه المستحق للعبادة دون غيره، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

أي: وهو وحده الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما على غير مثال سبق.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾، الباء للملابسة، أي: بالعدل، أي: لإحقاق الحق، وإقامة العدل، وإبطال الباطل، وأن يعبد الله وحده، ويطاع، ويجازي كلًّا بما عمل؛ ولهذا قال:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأيضًا خلق السموات والأرض بقوله الحق؛ كما قال سبحانه: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، «يوم» منصوب عطفًا على قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، والتقدير: واتقوا يوم يقول كن فيكون، أي: يوم البعث يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

ويجوز كونه معطوفًا على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: وخلق يوم يقول كن فيكون. أو منصوبًا بفعل مقدر، أي: اذكر يوم.

فأعقب قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ للدلالة على قدرته التامة على بعثهم وحشرهم بخلقه السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وعلى كون أمره نافذًا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨١-٨٢].

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: قوله الحق الثابت؛ فخبره تعالى صدق، وحكمه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام. وفي الحديث: «**قولك حق ووعدك حق**»(١).

وفي ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ صيغة قصر، بتعريف طرفي الجملة، أي: أنه سبحانه وحده الذي قوله كله حق.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ قدم الخبر؛ لإفادة الاختصاص، أي: وله وحده الملك كله، فهو المالك لكل شيء.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾.

ويحتمل أن يكون ظرفًا لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، أي: يوم القيامة.

وخصه بالذكر، مع أنه عز وجل له الملك من قبل ومن بعد، له مُلك الدنيا والآخرة؛ لأنه في ذلك اليوم تنقطع جميع الأملاك، وينتهي الملوك وما ملكوا، فلا يبقى ملك إلا لله الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

والمراد بالصور: «القَرْن» الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: «**قرن ينفخ فيه**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «**كيف أنعم وصاحب الصّور قد التقم الصّور، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر؟!**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٢٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩)، وأبو داود في الصلاة (٧٧١)، وابن ماجه في الصلاة (١٣٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٧٤٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٠)، وأحمد (٢/ ١٢٦، ١٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٧٣).

وفي رواية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟!**»(١).

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦-٧]، والمراد بالراجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؛ بيَّن عز وجل في الآيات السابقة أنه إليه حشر الخلائق وحسابهم، ثم أتبع ذلك بما يدل على أن محاسبته لهم عن علم تام، وحكمة، وخبرة واسعة بهم وبأعمالهم وبكل شيء.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عالم الغيب والشهادة.

و«الغيب»: ما هو غائب، و«الشهادة» ضد «الغيب»، وهي الأمور التي يشاهدها الناس. والتعريف في «الغيب» و«الشهادة» للاستغراق، أي: عالم كل غيب وكل شهادة، فهو سبحانه عالم الغيب كله، والشهادة كلها، بل الغيب عنده كالشهادة والعلانية، ولا تخرج الأشياء عن هذين الوصفين، فهو العالم بكل شيء.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ عطف على قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، و«الحكيم» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» مشتق من الحكم والحكمة، يدل على أن له الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين الذين يدعون إلى عبادة غير الله من الأصنام ونحوها مما لا ينفع ولا يضر؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

---

(١) أخرجها الترمذي في «التفسير» (٣٢٤٣)، وقال: «حديث حسن».

٢- تيئيس المشركين من ارتداد المسلمين عن دينهم وعبادتهم غير الله.

٣- أن الدعاء هو العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَدْعُواْ﴾، أي: أنعبد. وسواء كان الدعاء دعاء عبادة أو دعاء مسألة فكل ذلك عبادة.

٤- أن كل ما عبد من دون الله لا ينفع ولا يضر؛ فلا يجلب لعابده نفعًا، ولا يدفع عنه ضرًّا؛ ولا ينفع من عبده، ولا يضر من تركه.

٥- أن كل من عبد مع الله غيره فهو لم يعبد الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله، وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

٦- أن من رجع بعد الإيمان والهدى إلى الشرك والضلال كمن رجع على عقبيه وخاب مسعاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٧- أن الهادي والموفق هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٨- أن الخير من الله والشر ليس إليه؛ ولهذا بني الفعل «ونرد» لما لم يسم فاعله، بينما أسند الهدى إلى الله فقال: ﴿هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

٩- أن من استجاب لدعاة الباطل والضلال، وأعرض عن دعاة الحق والهدى؛ كمن سار في طريق فأضلته الشياطين في ذلك الطريق، وله رفقة على الطريق الواضح يدعونه للحاق بهم، ويأبى ذلك بسبب حيرته وإضلال الشياطين له عن قصد الطريق؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾.

١١- ضرب الأمثال في القرآن لتقريب الأمور المعنوية بتشبيهها بالأشياء الحسية.

١٢- بلاغة القرآن في التنفير مما يراد التنفير منه، فقد شبه من رجع إلى الشرك بعد الهدى بمن خرج قاصدًا لأمر فرد على عقبيه وخاب مسعاه. كما شبه من عدل عن الهدى، وأعرض عن الدعاة إليه، وسلك طريق الضلال واستجاب لدعاته؛ بمن كان يسير في الأرض في طريق فأضلته الشياطين، وكان له رفقة على الطريق الواضح يدعونه إليه، ولكنه لا يستجيب لهم؛ لحيرته وإضلال الشياطين له.

---

(١) سبق تخريجه.

١٣- يجب الحذر من الشيطان وجنوده وأتباعه دعاة الضلال.

١٤- ينبغي الاسترشاد بدعاة الحق والهدى.

١٥- أن هدى الله هو الهدى وحده، وهو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه، وأعظم ذلك وأجله ما جاء في القرآن الكريم، كما أن المهتدي حقًّا هو من وفقه الله تعالى وهداه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

١٦- أن ما سوى هدى الله فهو ضلال وعمى.

١٧- وجوب الاستسلام لله باطنًا بتوحيده والإخلاص له، والبراءة من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وهذا أمر لجميع الأمة، كما أمر بذلك من قبلها.

١٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: «لله» للإشارة إلى هذا المعنى.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٠- وجوب الاستسلام لله ظاهرًا بإقامة الصلاة وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

٢١- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لهذا خصها بالذكر، وأن الواجب إقامتها إقامة تامة؛ بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٢- إثبات الحشر وجمع الخلائق إليه عز وجل وحده، وحسابه لهم ومجازاتهم بأعمالهم. وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٢٣- إثبات تمام قدرة الله تعالى وعظمة خلقه، فهو الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما على غير مثال سبق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٢٤- أن السموات والأرض من أعظم مخلوقات الله تعالى؛ لأن الله كثيرًا ما يستدل على قدرته وعظمة خلقه بخلقهما، ويقدم السموات؛ لأنها أعظم.

٢٥- أن الله عز وجل خلق السموات والأرض وهذا الكون كله بالحق، أي: بالعدل وبقوله الحق؛ لإحقاق الحق، وإقامة العدل، وإبطال الباطل، وأن يعبد وحده ويطاع، وليجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٦- الاستدلال على إثبات الحشر وقدرة الله التامة على ذلك بخلقه عز وجل السموات والأرض بالحق، ونفوذ أمره؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر حشر الناس إليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ...﴾ الآية.

٢٧- نفوذ أمره عز وجل، وأن قوله حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾.

٢٨- أن الملك كله لله خاصة، ويظهر ذلك تمام الظهور يوم القيامة عندما تنقطع جميع الأملاك ويتبين تمام تفرده بالملك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٢٩- إثبات النفخ في الصور؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٣٠- إثبات سعة علم الله تعالى وشموله للغيب والشهادة ولكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٣١- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم»، وأنه ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «الخبير»، وأنه ذو الخبرة الواسعة والاطلاع على كل شيء، مهما دق وخفي وبطن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾، «إذ» ظرف بمعنى «حين»، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر.

و«إبراهيم» هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام نبي الله، ثاني أولي العزم بعد محمد ﷺ.

﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قرأ يعقوب: «آزرُ» بضم الراء على النداء. وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ءَازَرَ﴾، على أنه عطف بيان أو بدل من «أبيه» مجرور وعلامة جره الفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

و«آزر» اسم أبي إبراهيم، هذا ما يدل عليه ظاهر الآية، وعليه دلت السنة؛ كما في حديث: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة**»[1].

وفي كتب بني إسرائيل وعند علماء النسب اسمه «تارح»، وكذا رُوي عن بعض السلف أن اسمه «تارح»، وآزر اسم للصنم[2].

قال ابن كثير[3]: «كأنه غلب عليه آزر؛ لخدمته ذلك الصنم».

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٤٢-٣٤٤)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٢٤-١٣٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٨٢).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٢٨٢).

وقال الطبري[١] بعد أن صوب أن اسمه «آزر» وذَكر ما رُوي أن اسمه «تارح»: «بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقبًا».

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أتجعل وتصير.

﴿أَصْنَامًا﴾ مفعول أول لـ«تتخذ»، والأصنام: جمع صنم، والصنم: الصورة التي تمثل على شكل إنسان أو حيوان أو غير ذلك، وتعبد من دون الله، وهو الوثن.

﴿ءَالِهَةً﴾ مفعول ثان لـ«تتخذ»، وهي جمع «إله»، أي: معبودات تعبدها من دون الله.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾، أي: إني أراك في اتخاذك الأصنام آلهة ﴿وَقَوْمَكَ﴾ الذين اتخذوها آلهة معك، و«إن» لتوكيد الخبر.

﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، أي: في تيه وبعد عن الحق بيِّن واضح؛ حيث عبدتم من لا يستحق العبادة ولا يملك من الأمر شيئًا، وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم.

وهذا من إبراهيم عليه السلام من النصيحة والموعظة لأبيه، ونهيه عن عبادة الأصنام.

وقد سلك عليه السلام سبلًا ووسائل شتى في دعوته لأبيه؛ ترغيبًا وترهيبًا؛ تارة بالشدة كما في هذه الآية، وتارة باللين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا ربّ إنّك وعدتّني ألّا تخزيني يوم يبعثون، وأيّ خزيٍ أخزى**

(١) في «جامع البيان» (٩/ ٣٤٦).

من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إنّي حرّمت الجنّة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا بذِيخ ملتطخ[1]، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النّار»[2].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، الواو عاطفة، والكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، أي: ومثل ما أرينا إبراهيم وأعلمناه بوجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والبراءة من الشرك، وأن ما يتخذ من دونه آلهة من الأصنام فهو ضلال مبين؛ كذلك نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: نبين له ونطلعه على عظمة ملك السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات العظيمة؛ كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، ودلالة ذلك على عظمة الله تعالى ووحدانيته في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وقد تكون الإشارة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر الفعل بعده: ﴿نُرِيٓ﴾، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾، الواو عاطفة، أي: نريه ملكوت السموات والأرض؛ ليكون على بصيرة وعلم.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾، اللام للتعليل، أي: ولأجل أن يكون من المتصفين باليقين المطلق، لا بمطلق اليقين؛ ولهذا كان إمام الحنفاء في إخلاص التوحيد، والدعوة إليه، والبراءة من الشرك وأهله واجتنابه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾.

---

(١) الذِّيخ- بكسر الذال وسكون الياء-: ذكر الضباع. ملتطخ: أي ملتطخ برجيعه أو بالطين.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ (٣٣٥٠).

قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، الفاء عاطفة، و«لما» ظرف بمعنى «حين». ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، الضمير في «عليه» يعود إلى إبراهيم عليه السلام.

والمعنى: فلما أظلم عليه الليل وتغشاه وستره. ومنه سمي الجنان، وهو العقل؛ لاستتاره، وسمي الجنين والجن لذلك، وسمي المجن؛ لأنه يستتر به في الحرب.

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾، أي: نجمًا، ويظهر- والله أعلم- أنه من الكواكب المضيئة؛ لتخصيصه بالذكر، وللتدرج منه إلى القمر ثم إلى الشمس؛ ولهذا قيل: إنه الزهرة، وقيل: المشترى.

وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريقة النظر والاستدلال، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها مربوبة لله تعالى؛ فلا يصح أن تعبد من دون الله.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، أي: قال هذا ربي على وجه التنزل وإرخاء العنان معهم- من غير اعتقاد لذلك- أي: هذا ربي كما تزعمون أنه ربكم، فهلم ننظر هل يستحق الربوبية، وهل يقوم لنا دليل على ذلك.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، أي: فلما غاب واختفى ذلك الكوكب.

﴿قَالَ﴾، أي: قال إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، أي: لا أحب الذي يغيب ويختفي عمن عبده؛ لعلمه أن ربه عز وجل دائم لا يزول، رقيب على خلقه على الدوام. وفي هذا تلميح إلى أن مثل هذا الكوكب لا ينبغي أن يعبد.

وجمع «الآفلين» جمع من يعقل بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة، وأنها تتصرف في الكون.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾، البزوغ: ابتداء الشروق، أي: لما رأى القمر شارقًا طالعًا، ورأى زيادة نوره على نور الكوكب، ومخالفته له.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾؛ تنزلًا كما سبق.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾؛ أي غاب.

﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذا حق؛ فهو في أشد الافتقار والحاجة إلى هداية الله تعالى، ومن لم يهده الله سيكون من الضالين.

واللام في قوله: ﴿لَئِن﴾ موطئة للقسم، وفي قوله: ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن لم يهدني ربي، أي: يرشدني ويوفقني، لأكونن من القوم الضالين، أي: في عدادهم. وفي هذا تعريض بضلال أبيه وقومه.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾، أي: طالعة.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ تذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر «ربي».

﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، أي: هذا الطالع أكبر وأعظم إضاءة. وجملة ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ جارية مجرى العلة لجملة ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مقتضية نقض ربوبية الكوكب والقمر؛ ونفي الربوبية عنهما، وحصرها في الشمس؛ ولذلك حذف المفضل عليه لظهوره، أي: هي أكبر منهما.

وفي هذا تعريض بفساد ما هم عليه؛ إذ كيف يعبدون المخلوق الأصغر، ويتركون عبادة الكبير المتعال سبحانه.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾، أي: فلما غابت ظهر الحق وبان، فأعلن عليه السلام براءته من معبوداتهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، «ما» موصولة. والعائد محذوف لأجل الفاصلة، أي: إني بريء من الذي تشركون به.

ومعنى «بريء»، أي: لا صلة بيني وبين الذي تشركون به من الأصنام، أي: لا أعبد هذه الأصنام التي تشركون بها مع الله، بل أتبرأ منها.

ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: بريء من إشراككم. وكونها موصولة أولى؛ لقوله بعد ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كما سيأتي بيانه.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ الجملة بدل من قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. أو استئنافية، أي: أخلصت قصدي وديني وأفردت عبادتي.

﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: للذي خلق السموات والأرض وابتدعهما على غير مثال سبق.

وفي هذا إيماء لعلة عبادته له عز وجل، وهي كونه فطر السموات والأرض بما فيهما من هذه الكواكب والآلهة التي يعبدونها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿حَنِيفًا﴾ حال، أي: حال كوني حنيفًا، والحنف: الميل، أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، أي: موحدًا؛ ولهذا أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والجملة معطوفة على الحال، فأعلن أولًا إخلاصه التوحيد وميله عن الشرك، ثم نفى صلته بالمشركين.

وفي هذا براءة من الشرك أيضًا، فتبرأ أولًا من معبوداتهم بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ثم أعلن إخلاصه التوحيد وميله عن الشرك والبراءة منه ومن أهله بقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ كما قال في سورة الممتحنة هو والذين معه لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذا إنما هو من إبراهيم عليه السلام في مقام المناظرة لقومه؛ ليبين لهم خطأ ما هم عليه من عبادة الأصنام والكواكب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

قال ابن القيم[1] رابطًا بين قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣] وبين هذه الآيات في مناظرة إبراهيم عليه السلام؛ قال: «لكن شكر الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات؛ ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه في بطلان إلهيتها بما حكاه الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام؛ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩]؛ أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته، ودحضت حجتهم، فقال بعد أن بيَّن بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها، وأن الإله الحق لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبًا قاهرًا غير مغلوب ولا مقهور، نافعًا

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٥١-١٥٢).

لعباده، يملك لعابده الضر والنفع، فيسمع كلامه، ويرى مكانه، ويهديه ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه، وذلك ليس إلا لله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة؛ صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها، والمحتاج المخلوق المربوب لا يكون إلهًا».

وقال ابن كثير[1]: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام؛ فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة؛ وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل. وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم: الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة.

فبيَّن أولًا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تملك لنفسها تصرفًا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية.

ثم انتقل إلى القمر فبيَّن فيه مثل ما بيَّن في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع؛ قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعًا ثم لا تنظرون».

وقال السعدي[2]: «وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٢٥).

المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال: إنه مقام نظر في طفوليته؛ فليس عليه دليل».

ويؤيد هذا ويدل عليه- وهو أنه عليه السلام كان في هذا في مقام المناظرة لقومه فيما كانوا فيه من الشرك- قوله تعالى بعد هذه الآيات: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما مما يقتضي أن هذا من إبراهيم عليه السلام كان في مقام النظر لا المناظرة[1]، واختار هذا الطبري مستدلًّا له بقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]؛ فهذا غير صحيح، وكيف يكون هذا من إبراهيم عليه السلام من باب النظر، وهو الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقال تعالى عنه أنه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

وقال تعالى عنه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦].

وقال تعالى مخاطبًا نبينا محمدا ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٣٥٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٦١).

وقال تعالى مخاطبًا هذه الأمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]؟!

الفوائد والأحكام:

١- التذكير والتنويه بذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه وقومه، والثناء عليه في دعوته لهم إلى التوحيد، ونهيهم عن الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

٢- وجوب النصيحة في الدين، لا سيما للأقربين، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷺ: «**يا عبّاس عم رسول الله، ويا فاطمة بنت محمدٍ، ويا صفيّة عمّة رسول الله ﷺ، أنقذوا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئًا**»(١). وقال ﷺ: «**وابدأ بمن تعول**»(٢).

٣- أن الإنكار والتوبيخ والذم إذا كان على وجه النصيحة في الدين فليس من العقوق.

٤- الرد على من زعم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرًا، كما تقول الشيعة الإمامية، ويزعمون أن آزر عم إبراهيم لا أبوه، وهذا باطل.

٥- أن اتخاذ الأصنام آلهة ضلال في غاية البيان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأن هذه الأصنام لا تملك نفعًا ولا ضرًّا.

٦- امتنان الله تعالى على إبراهيم عليه السلام في إطلاعه على عظمة ملكوت السموات والأرض، ودلالة ذلك على عظمة الله عز وجل، ووحدانيته في ملكه وخلقه، وربوبيته، وإلهيته، ومنحه اليقين المطلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧)، وفي التفسير (٤٧٧١)، ومسلم، في الإيمان (٢٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(١٤٢٧) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه، وأخرجه مسلم، في الزكاة (١٠٣٤)، من حديث حكيم أيضًا.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾.

٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾.

٨- مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه في عبادتهم الكواكب؛ لإثبات بطلان عبادتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٩- أن قوم إبراهيم عليه السلام- وهم الكلدانيون- كانوا يعبدون الكواكب؛ لهذا ناظرهم عليه السلام ليلًا في عبادة هذه الكواكب، وكانوا على دين الصابئة، يعبدون الكواكب ويصورونها.

١٠- في قول إبراهيم عليه السلام لما رأى الكوكب والقمر: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ إرخاء العنان مع قومه؛ بإظهار موافقته لهم- من غير اعتقاد لذلك- لإفحامهم وإبطال قولهم بالاستدلال، وقد يكون هذا سائغًا في مقام المناظرة؛ لبيان الحق وإبطال الباطل، وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وإذا كان هذا سائغًا لإنقاذ نفس واحدة من الهلاك، فقد يكون جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى.

١١- في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ إشارة إلى أن الإله الحق الذي ينبغي أن يتأله له العبد، ويحبه ويرضى به إلهًا؛ هو من له البقاء الدائم، لا الذي يأفل ويغيب عن عابده، وفي هذا ما لا يخفى من تشكيكهم في عبادة الكواكب.

١٢- الإشارة إلى تمام رقابة الله تعالى وقيومته على الخلق.

١٣- في قول إبراهيم عليه السلام لما أفل القمر: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إعلان شدة افتقاره إلى هداية الله، وأنه إن لم يهده الله كان من القوم الضالين، وفي هذا تعريض بضلالهم، وحاجتهم وغيرهم إلى هداية الله تعالى.

١٤- أن الهداية بيد الله عز وجل، فمن لم يهده الله تعالى ويوفقه للطريق المستقيم ضل؛ مما يوجب صدق الإنابة والتضرع إليه، وسؤاله الهداية.

١٥- في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ تنبيه إلى استحقاق الله عز وجل وحده للعبادة؛ لأنه أكبر من كل شيء.

١٦- إعلان إبراهيم عليه السلام براءته من الشرك، وإخلاصه التوحيد لله تعالى، والبراءة من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

١٧- تَدَرجُ إبراهيم عليه السلام في مناظرة قومه من الكوكب إلى القمر إلى الشمس، فتدرج من الأقل إلى ما هو فوقه، إلى ما هو أكبر منهما، وتدرج من قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ إلى أن أعلن البراءة مما هم عليه من الشرك، وصدع بإخلاص التوحيد لمن فطر السموات والأرض وما فيهما من الكواكب والمخلوقات، وتبرأ من المشركين فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وبهذا أقام الدليل القاطع والبرهان الساطع على أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده، لا شريك له، وأن كل ما يعبد من دونه من الأصنام والكواكب وغير ذلك فهو باطل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

هذه الآية وما بعدها فيها الدلالة الواضحة- كما سبقت الإشارة- إلى أن ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ الآيات الثلاث إنما هو من قبيل المناظرة من إبراهيم عليه السلام، وليس من باب النظر.

قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ الواو استئنافية، والضمير يعود إلى إبراهيم عليه السلام، والمحاجة: مفاعلة من الحجة، وهي الدليل المؤيد للدعوى، أي: وجادله قومه عليه السلام، وناظروه في الله عز وجل، أي: في وحدانيته؛ لقوله بعده: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ الآية.

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: «أتحاجوني» بنون واحدة خفيفة، وأصله: «أتحاجونني» بنونين، فحذفت إحداهما للتخفيف، وقرأ الباقون بتشديد النون: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾، بإدغام نون الرفع في نون الوقاية؛ للتخفيف أيضًا.

والاستفهام للإنكار والتعجيب، وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقدهم، أي: أتجادلونني وتخاصمونني في توحيد الله تعالى وعبادته وحده، وإخلاص العمل له، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وتطمعون أن تستنزلوني عن توحيده.

﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِ﴾ حال مؤكدة للإنكار، أي: والحال أنه قد هداني، وحذفت الياء من ﴿هَدَىٰنِ﴾ للتخفيف؛ منهم من حذفها وقفًا فقط، ومنهم من حذفها وقفًا ووصلًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والمعنى: وقد أرشدني ووفقني إلى الحق، وهو معرفة وحدانيته، فكنت على بينة

وعلى يقين أنه لا شيء يستحق العبادة سواه.

وفي هذا إشارة لغلق باب المجادلة وختم لها، أي: فلا تحاجوني في الله وقد هداني، فلا جدوى لمحاجتكم إياي، فهي عبث؛ كالمحاجة في طلوع الشمس في رابعة النهار، ولأنها محاجة للرجوع من الحق إلى الباطل، ومن العلم إلى الجهل، ومن الهدى إلى الضلال، ومن الإبصار إلى العمى.

ومجمل ما احتجوا به فيما هم عليه من الشرك التقليد الأعمى لآبائهم، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٦].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٤] وما بعدها من الآيات.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ الجملة استئنافية، والظاهر- والله أعلم- أنهم خوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء؛ كما قال قوم هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] فقال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، و«ما» موصولة، والضمير «به» يعود على اسم الجلالة، أي: ولا أخاف الذي تشركون بالله من الأصنام أن تنالني بسوء أو مكروه؛ لأنها لا تضر، ولا تنفع.

ويجوز كون الضمير في «به» يعود إلى «ما» الموصولة، فتكون الباء للسببية، أي: الأصنام التي بسببها أشركتم.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن إن شاء ربي شيئًا نالني وأصابني، فهو الذي أخافه وأرجوه، وله المشيئة النافذة، والقدرة التامة، وبيده

النفع والضر.

وفي هذا تعريض بحقارة آلهتهم وضعفها؛ لأنها لا مشيئة لها ولا قدرة لها على شيء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥].

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ هذه الجملة تعليلية؛ للاستثناء قبلها، فيها ظهور أدبه عليه السلام مع الله، أي: إلا أن يشاء ربي أن ينالني شيء من السوء فهو أعلم وأحكم؛ لأنه أحاط بكل شيء علمًا، وهذا غاية التفويض والتبرؤ من الحول والقوة وأسباب النجاة، وأنها بيد الله تعالى وحده.

وهكذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، وقدمت على فاء العطف؛ لأن لها الصدارة، والأصل: فألا تذكرون، أي: تتعظون وتعتبرون.

والاستفهام للإنكار عليهم؛ لعدم تذكرهم، مع وضوح دلائل التذكر في صفات الله تعالى الموجبة لعبادته وحده، وفي صفات معبوداتهم المنافية لمقام الألوهية؛ فيعلمون ما هم عليه من الباطل في إشراكهم مع الله من لا مشيئة له ولا علم، ولا قدرة له على النفع والضر.

وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص الله عنهم في كتابه، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الآية [هود: ٥٣-٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا

تُشْرِكُونَ بِهِۦ﴾ و«كيف» اسم استفهام، والاستفهام هنا للإنكار والتعجيب، و«ما» موصولة في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: وكيف أخاف الذي أشركتم به، أي: وكيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا لغيرها.

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ الواو حالية، أي: والحال أنكم لا تخافون أنكم أشركتم.

ويجوز كونها معطوفة على جملة «أخاف» والتقدير: وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله.

والمصدر المؤول «أنكم أشركتم» في محل نصب مفعول «تخافون»، أي: وأنتم لا تخافون إشراككم، و«ما» موصولة، أي: الذي لم ينزل به عليكم ﴿سُلْطَٰنًا﴾، أي: حجة وبرهانًا، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: ولا تخافون أنكم أشركتم بالله الذي لم ينزل به عليكم حجة ولا برهانًا، وهو سبحانه وتعالى المستحق للعبادة، الذي بيده النفع والضر، ويجب الخوف منه وحده.

فعدم خوفي من آلهتكم أقل عجبًا من عدم خوفكم من الله، وكيف تخوفونني وأنا في موضع الأمن، وتؤمنون أنفسكم وأنتم في موضع الخوف؟!

قال ابن القيم[1]: «وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بنفسها دالة على فساد قوله وبطلان مذهبه؛ فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطانًا بعبادتها، وقد تبين بطلان إلهيتها، ومضرة عبادتها، ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى».

﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن أدركتم قولي فأي الفريقين، و«أي»: اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، والاستفهام هنا للتقرير، و«الفريق» الطائفة، أي: فأي الفريقين والطائفتين أولى وأجدر بالأمن من عذاب الله؟ من عبد الله تعالى وخافه وحده، أو من عبد غيره مما لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟، أي:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٥٣).

أهو فريق الموحدين أنا ومن معي، أو فريق المشركين، وهم أنتم؟

و«أل» في «الأمن» للجنس، وهو ضد الخوف.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم. وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم تعلمون أي الفريق أحق بالأمن فأخبروني، أي: لا شك أن الأحق بالأمن والأولى به هو من عبد الله تعالى وخافه وحده؛ لأن له عز وجل المشيئة النافذة، والقدرة التامة، وبيده النفع والضر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

هذا جواب على الاستفهام في قوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾، أي: هم الذين آمنوا، وهذا من حكاية كلام إبراهيم عليه السلام، أجاب عن استفهامه بنفسه؛ تبكيتًا لهم؛ لأن هذا مما لا يسع المسؤول إنكاره، ويحتمل أن يكون هذا مستأنفًا من كلام الله تعالى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم لما أوجب الله الإيمان به؛ من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا بجوارحهم لفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا لأبيهم يعقوب عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: ويصدق للمؤمنين.

وفي الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان وهو «القلب» وعمل بالأركان، وهي «الجوارح».

والمراد: الذين آمنوا، أي: أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، أي: ولم يخلطوا إيمانهم بظلم، أي: بشرك. ولبس الشيء بالشيء: خلطه وتغطيته به، وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الشرك، فهو أظلم الظلم، كما قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

فجمعوا بين الإخلاص لله تعالى في العبادة والسلامة من الشرك، بخلاف المشركين الذين خلطوا إيمانهم بالشرك، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٠] فحبطت أعمالهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الّذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصّالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟ إنما هو الشّرك**»، وفي رواية: «لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد؛ لرفعتهم وعظيم منزلتهم، وقدم الخبر ﴿لَهُمُ﴾ للحصر والاختصاص، أي: لهم الأمن خاصة، أي: لهم الأمن من جميع المخاوف في الدنيا والآخرة، على حسب إيمانهم ويقينهم وإخلاصهم، وبعدهم عن المعاصي، فلهم في الدنيا الأمن النفسي والاجتماعي؛ لقوة إيمانهم ويقينهم؛ فهم لا يخافون إلا الله، ولا يرجون إلا الله، ولا يعتمدون إلا على الله، يعلمون أن من حفظ الله حفظه الله، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه يتولى الصالحين، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وأنهم مأجورون على ما يصيبهم، كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(٢).

وقد أحسن القائل:

سَأَعِيشُ رَغْمَ الدَّاءِ وَالأَعْدَاءِ ... كَالنَّسْرِ فَوْقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ
أَلنُّورُ فِي جَنْبِي وَبَيْنَ جَوَانِحِي ... فَعَلَامَ أَخْشَى السَّيْرَ فِي الظَّلْمَاءِ(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٩)، وفي تفسير سورة الأنعام (٦٩٣٧)، ومسلم في الإيمان (١٢٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٧)، وأحمد (١/ ٣٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

ولهم الأمن في الآخرة من مخاوف القيامة وأهوالها، ومن عذاب النار.

﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الجملة في محل رفع معطوفة على قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ أو في محل نصب على الحال، أي: لهم الأمن خاصة، وهم مهتدون، أو حال كونهم مهتدين بإيمانهم ونبذهم الشرك. ومفهوم هذا أن من لم يؤمنوا، وخلطوا إيمانهم بشرك فلا أمن لهم، وليسوا بمهتدين.

الفوائد والأحكام:

١- محاجة قوم إبراهيم عليه السلام له في توحيده وإفراده الله بالإلهية، وإخلاصه العبودية له، وبراءته من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾.

٢- إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه محاجتهم له في الله، وتعجبه من ذلك، وقد هداه الله تعالى فأرشده إلى الحق، وبيَّنه له، ووفقه إليه، وفي هذا غلق لباب المحاجة، وختم لها، وأنه لا جدوى لها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾.

٣- من يهده الله فلا مضل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾.

٤- قوة إيمان إبراهيم عليه السلام ويقينه، وعدم خوفه إلا من الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

٥- أن كل ما يعبد من دون الله لا يضر ولا ينفع، فلا ينبغي أن يخاف أو يرجى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾.

٦- أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه؛ لاستدراكه بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾، أي: لكن إن شاء ربي أن ينالني شيء ويصيبني فمشيئته نافذة.

٧- إثبات المشيئة النافذة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بإبراهيم عليه السلام وبأنبيائه عز وجل وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

٩- سعة علم الله عز وجل، وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾.

١٠- ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه بنفوذ مشيئته، وسعته كل شيء علمًا، وأن

له المشيئة النافذة، والقدرة التامة، والعلم الواسع لكل شيء، والحكمة البالغة فيما يقدره أو يحكم به، من أحكام كونية أو شرعية.

١١- الإنكار على المشركين الذين لا يتذكرون ولا يعتبرون فيعبدون من ليس أهلًا للعبادة من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ويعدلون عن عبادة خالقهم ومالكهم ومدبرهم، الذي بيده النفع والضر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٢- أن الأولى بالخوف هو من أشرك بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ لأنه أشرك بالله غيره، والأولى بعدم الخوف هو من لم يشرك بالله؛ لأنه عبد الله وحده؛ فلا يخاف ما سواه من المعبودات؛ لأنها لا تضر ولا تنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾.

١٣- أن عدم خوف المشركين من الله مع شركهم أعجب من عدم خوف إبراهيم عليه السلام من معبوداتهم التي يشركون بها مع الله.

١٤- أن كل ما يعبده المشركون من دون الله لا حجة عليه، ولا دليل، وإنما لمحض اتباع الهوى، وتقليد آبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾.

١٥- يجب أن يكون التعبد لله تعالى بما ثبت بالدليل القاطع من الكتاب والسنة.

١٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات. وفي هذا أيضًا إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق.

١٧- تقرير أن الأحق بالأمن هم الموحدون دون المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٨- اختصاص المؤمنين الموحدين بالأمن في الدنيا والآخرة؛ الأمن النفسي، والأمن الاجتماعي، والأمن من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾.

١٩- التحذير من الشرك، وأنه ظلم، بل هو أظلم الظلم، وهو سبب المخاوف كلها.

٢٠- أن من آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك هم المهتدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم

مُّهۡتَدُونَ﴾.

٢١- أن من لم يؤمنوا، أو خلطوا إيمانهم بشرك؛ فلا أمن لهم، وهم ضالون؛ لمفهوم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

ذكر عز وجل محاجة قوم إبراهيم عليه السلام له في توحيده لربه وبراءته من الشرك، وما أجابهم به من الحجج الدامغة، ثم نوّه عز وجل بتلك الحجة، وأشاد بها، وبما منّ به على إبراهيم من رفعة الدرجات والعلم.

قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ الإشارة بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ إلى ما أراه الله إبراهيم من الحجج على وجوب توحيد الله، والبراءة من الشرك في محاجته لقومه، ومنها قوله عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾، «هي قول إبراهيم حين سألهم ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾»(١). وفي رواية عنه: «صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٣٦٧، ٣٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٣٢).
(٢) ذكره ابن كثير (٣/ ٢٨٩-٢٩٠).

وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك» تنويهًا بها، وأضافها عز وجل إليه؛ تعظيمًا لها، وأنها لا يمكن نقضها.

﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أعطيناها إبراهيم، وألهمناها إياه، وعلمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فحججهم بها، وعلا عليهم، وغلبهم بالعلم والحكم.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون: «درجاتِ مَن» بالإضافة إلى «مَن».

و«درجات» جمع «درجة»، أي: منازل ومقامات رفيعة، و«من» موصولة، أي: نرفع ونعلي درجات ومنازل ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾، أي: من نريد من عبادنا، ونعلي شأنهم؛ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة بالعلم والحكم والنبوة، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي محمد ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله، وقدره وشرعه، وأمره ونهيه، ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

﴿عَلِيمٌ﴾ ذو العلم التام، الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

فله عز وجل تمام الحكم والحكمة والعلم في هداية من شاء، وإضلال من شاء، وفي رفع من شاء، ووضع من شاء وفي كل شيء، يضع الأمور مواضعها، ويعطي كلًّا ما يستحقه، وباجتماع الحكم التام، والحكمة البالغة، والعلم الواسع في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ

وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ الآية.

ذكر عز وجل امتنانه على عبده وخليله إبراهيم عليه السلام في إتيانه الحجة على قومه، وتعليمه إياها، ورفع درجته بالعلم والحكم والنبوة، ثم أتبع ذلك بذكر امتنانه عليه مرة أخرى؛ بهبته له إسحاق ويعقوب، وهدايتهما، وجعل النبوة في ذريته.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، «الهبة» العطية بلا عوض، أي: ووهبنا لإبراهيم «إسحاق» ابنًا له لصُلبه، و«يعقوب» ابنًا لابنه «إسحاق».

وذلك مجازاة له عليه السلام في إخلاصه التوحيد لربه، والبراءة من الشرك وأهله، والهجرة إلى ربه، واعتزال قومه وعشيرته لما هم عليه من الشرك بالله، فعوضه الله ورزقه أولادًا صالحين على دينه، واصطفاهم للنبوة، وهداهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فولد له «إسحاق» من امرأته سارة، بعد أن طعنا في السن، وأيسا من الولد، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

وولد له «يعقوب» من ابنه إسحاق في حياته وحياة زوجه سارة، والنعمة بولد الولد والفرحة به كالنعمة بالولد والفرحة به؛ وذلك لما فيه من بقاء النسل والعقب؛ ولهذا قال تعالى مبشرًا سارة بالولد وولده: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

و«يعقوب» هو إسرائيل، وذريته هم المعروفون بـ«بني إسرائيل».

ولم يذكر «إسماعيل»، وهو أكبر ولد إبراهيم، قيل: لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل.

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، «كلًّا» مفعول لـ«هدينا» قدم عليه للاهتمام، أي: كل هؤلاء هدينا- يعني: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب- أرشدناهم ووفقناهم إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم؛ امتنانًا من الله تعالى عليهم، وتنويهًا بإسحاق ويعقوب، وأنهما نبيان نالا هدى الله كإبراهيم، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩].

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ الواو عاطفة، «نوحًا» مفعول لـ«هدينا» قدم عليه للاهتمام، أي: ونوحًا هديناه من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وذكر نوحًا هنا مع إبراهيم؛ لأن لكل منهما خصوصية عظيمة، فأما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به- وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل ذريته هم الباقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]، فالناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام.

وأما إبراهيم عليه السلام فإن الله لم يبعث نبيًّا بعده إلا من ذريته، فأنبياء بني إسرائيل كلهم من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وخاتم الرسل وسيدهم محمد ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ والضمير في قوله: «ذريته» يحتمل عوده إلى «نوحًا» لأنه أقرب مذكور، وهذا ظاهر، وهو صحيح من حيث المعنى؛ لأن الله جعل ذريته هم الباقين، فكل من جاء بعده فهم من ذريته.

ويحتمل عود الضمير المذكور إلى إبراهيم؛ لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ويقوي القول الأول: أن من بين الأنبياء المذكورين «لوطًا» وهو ليس من ذرية

إبراهيم[١].

قال ابن كثير[٢]: «وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط» فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه «ماران بن آزر» اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣] فإسماعيل عمه ودخل في آبائه تغليبًا».

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ﴿وَمُوسَىٰ﴾ ابن عمران ﴿وَهَٰرُونَ﴾ أخو موسى.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الجملة معترضة بين المتعاطفات، والكاف للتشبيه بمعنى «مثل»، والإشارة إلى ما سبق من هداية إبراهيم ونوح والأنبياء من ذريتهما، أي: مثل جزائنا لهؤلاء الأنبياء بهدايتنا لهم كذلك نجزي كل محسن بالهداية والتوفيق، والذكر الحسن، والذرية الصالحة.

أو أن هؤلاء المهديين- إبراهيم ونوح وذريتهما- أحسنوا فكان جزاء إحسانهم أن جعلناهم أنبياء، ورفعنا ذكرهم، وأعلينا قدرهم.

والجزاء: مكافأة العامل على عمله، ويستعمل في المجازاة بالثواب على العمل الصالح، والمجازاة بالعقاب على العمل السيئ.

فمعنى ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نثيبهم، ونكافئهم على إحسانهم بالأجر العظيم؛ لأن الله عز وجل يعطي العطاء الجزيل على العمل القليل.

و«المحسنين» جمع «محسن» وهم الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى بالإخلاص له والمتابعة لشرعه، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٨١-٣٨٢).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٢٩١).

قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ معطوف على (داود)، أي: وهدينا من ذريته «زكريا» ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم ﴿وَإِلْيَاسَ﴾.

وذكر عيسى عليه السلام في ذرية «نوح» أو «إبراهيم» على القولين مع أن عيسى عليه السلام- ولد بنت- علمًا أن الذرية على الصحيح من أقوال أهل العلم لا يدخل فيهم أولاد البنات؛ لأن عيسى عليه السلام لا أب له فأمه أبوه.

وقيل بأن الذرية يدخل فيهم أولاد البنات استدلالًا بهذه الآية.

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجملة معترضة بين المتعاطفات كالتي قبلها، أي: كل من هؤلاء المذكورين- زكريا ويحيى وعيسى وإلياس- من الصالحين الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ معطوف كالذي قبله على ﴿دَاوُۥدَ﴾، أي: وهدينا من ذريته ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو «إسماعيل بن إبراهيم» أبو العرب، ومن ذريته نبينا محمد ﷺ، وليس من ذرية إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين.

﴿وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ﴾ ابن متى ﴿وَلُوطًا﴾، وهو من ذرية نوح، وليس من ذرية إبراهيم.

وقد ذكر في هذه الآيات ثمانية عشر نبيًّا ورسولًا من مجموعة من ذكر في القرآن من الأنبياء والرسل، وهم خمسة وعشرون نبيًّا ورسولًا.

قال البيجوري:

في ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ- وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُ
إِدْرِيسُ هُودٌ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذَا ... ذُو الكِفْلِ آدَمُ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا[1]

واقتصر- والله أعلم- في هذه الآيات على تسمية هؤلاء الثمانية عشر من بين سائر الأنبياء من ذرية إبراهيم ونوح؛ إما لكونهم معروفين لأهل الكتاب، وللمشركين الذين

(١) انظر: «جوهرة التوحيد» ص١٨٥.

يقتبسون معرفة الأنبياء من أهل الكتاب، أو لغير ذلك.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الجملة معترضة بين المعطوفات كالجملتين قبلها، و«كلًّا» مفعول لـ«فضلنا» قدم عليه للاهتمام، أي: وكلًّا من الأنبياء المذكورين الثمانية عشر، إبراهيم ونوح ومن ذكر من ذريتهما فضلناهم على العالمين؛ لأن الأنبياء والمرسلين في المرتبة الأولى في الفضل، فهم أفضل من الصديقين والشهداء والصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

ذكر عز وجل منته على من سمى من الأنبياء بالهداية في الآيات السابقة، ثم أتبع ذلك بذكر منته على أصولهم وفروعهم وإخوانهم بالهداية.

قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ الواو عاطفة، و«من» تبعيضية، أي: وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم بأن جعلنا منهم أنبياء؛ كآدم وإدريس من آباء نوح، وهود وصالح من ذريته، وشعيب من ذرية إبراهيم، والأسباط إخوة يوسف، وغيرهم، وجعلنا أيضًا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم أناسًا صالحين، وإن لم يكونوا أنبياء.

﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ الضمير يعود إلى كل من ذكر من الأنبياء تفصيلًا، وإلى آبائهم وذرياتهم وإخوانهم إجمالًا ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾، أي: واصطفيناهم واخترناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أرشدناهم ووفقناهم.

﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾، أي: إلى طريق. ونكِّر للتعظيم ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: عدل، لا اعوجاج فيه، بتوحيد الله، والبراءة من الشرك، وإخلاص العبادة لله، والإيمان بالأصول التي اتفقت عليها الشرائع، وهو صراط الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم

مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة هدايته لمن ذكر من أنبيائه، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتباءهم وهدايتهم الصراط المستقيم، ثم أتبع ذلك بامتداح هداه، وأنه يهدي به من يشاء من عباده، ولا هادي سواه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر في الآيات السابقة من هدايته أنبياءه ورسله، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتبائهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وأشار عز وجل إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا لهداه وامتداحًا له، ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ إرشاده وتوفيقه الذي لا هدى إلا هداه.

﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾، أي: يهدي ويوفق بهداه ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، «من» موصولة، والمشيئة بمعنى الإرادة الكونية، أي: الذي يريد من عباده.

وفي هذا امتنان من الله تعالى عليهم، وتوجيه لطلب الهدى منه وحده، فلا هادي سواه.

كما أن في هذا تعريضًا بالشرك وأهله الذين يزعمون أنهم على هدى؛ ولهذا قال بعده تنبيهًا على خطر الشرك:

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر امتنانه بهداية أنبيائه ومن ذكر معهم أتبع ذلك ببيان ما يدل على أنه لا نسب ولا حسب بينه وبين أحد من الخلق، فمن كان أهلًا للهداية هداه، ومن كان أهلًا للضلالة أضله، وأن من أشرك بالله حبط عمله أيًّا كان، حتى ولو كان من الأنبياء، وحاشاهم عن ذلك.

قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ الواو عاطفة، و«لو» شرطية ﴿أَشْرَكُوا۟﴾ فعل الشرط، أي: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء بأن عبدوا غير الله. وحاشاهم عن ذلك.

﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾ جواب الشرط «لو» واللام واقعة في جواب «لو» و«حبط»، أي: بطل، و«ما» موصولة تفيد العموم، أو مصدرية، أي: لبطل كل الذي كانوا يعملونه، أو عملهم. وإذا كان هؤلاء الصفوة لو أشركوا لحبط عملهم فغيرهم من باب أولى.

وفي هذا ما لا يخفى من الوعيد والتشديد في أمر الشرك وتغليظ شأنه، كما قال

تعـــالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

امتدح الله تعالى هداه الذي منّ به على أنبيائه، ويهدي به من يشاء من عباده، ثم أتبع ذلك بالثناء على هؤلاء الأنبياء في إشارة أنهم أهل لهدايته، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الإشارة للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة ومن ذكر معهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تنويهًا بعلو مكانتهم وشرفهم.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، أي: أعطيناهم الكتاب، وأنزلناه عليهم نعمة منا عليهم، ورحمة للعباد و«ال» في «الكتاب» للجنس، أي: الكتب، فما من نبي من أنبياء الله إلا أنزل الله عليه كتابًا؛ من ذلك صحف إبراهيم، والتوراة التي أنزلها الله على موسى، والزبور الذي آتاه الله داود، والإنجيل الذي آتاه الله عيسى عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَالْحُكْمَ﴾، أي: وآتيناهم الحكم بشرع الله، والحكمة، والفصل بين العباد، والفهم بالكتاب، ومعرفة ما فيه من أحكام، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾، أي: وآتيناهم النبوة، أي: جعلناهم أنبياء بما أنزلنا عليهم من الكتب والوحي.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾، أي: فإن يكفر بما آتى الله أنبياءه من الكتاب والحكم والنبوة، وبنبوة محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من الآيات ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾

يقول: ومن يكفر بالقرآن»(١).

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني المشركين من أهل مكة، كما قال الله عنهم: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

أي: فإن يجحد المشركون من قومك نبوتك، ونبوة من قبلك من الأنبياء، وما آتاهم الله من الكتاب والحكم والنبوة، وذلك أن الكفر به ﷺ كفر بجميع الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط «إن» لاقترانه بـ«قد» التي للتحقيق، أي: فقد هيأنا ووفقنا للإيمان بها والقيام بحقها؛ علمًا وعملًا وجهادًا لأعدائها ودفاعًا عنها، ﴿قَوْمًا﴾ وهم الأنبياء وأتباعهم المؤمنون، وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم إلى يوم الدين، أي: كل من وفقه الله للإيمان بها والقيام بحقها إلى قيام الساعة.

وفي التعبير بقوله: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ دون أن يقول: «وفقنا للإيمان بها» ونحو ذلك إشارة لعظم مسؤولية القيام بها، مما يوجب العناية والاهتمام بها، كما أن فيه دلالة على أنه سينصر نبيه ﷺ، ويظهر دينه، وهكذا وقع.

وهذا التوكيل توكيل رحمة من الله وإحسان، وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة، كما يوكل الإنسان من يتصرف عنه لحاجته إليه؛ لأن الله عز وجل ليس بحاجة إلى الخلق، بل هو الغني الحميد، وإنما هم الفقراء إليه المحتاجون لتوفيقه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

﴿لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، «بها» متعلق بقوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾، قُدِّم عليه لرعاية الفاصلة، أو للاهتمام بما عاد إليه الضمير، وهو الكتاب والحكم والنبوة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٣٨٨).

والباء في قوله: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ لتوكيد النفي.

والجملة صفة لـ«قومًا»؛ للدلالة على مسارعتهم للإيمان بها بمجرد دعوتهم إلى ذلك، ودوام نفي الكفر عنهم.

وفي هذا تسلية له ﷺ، أي: وإن يكفر هؤلاء المشركون بنبوتك ونبوة من قبلك فلا يضيرك ذلك؛ لأنا قد وفقنا قومًا للإيمان بك وبهم.

كما أن فيه أيضًا إغراءً للمؤمنين وتحريضًا لهم على المبادرة إليها، وإظهار محبته عز وجل لمن قاموا بها، وإيثارهم بهذه النعمة، وازدراءً لمن كذبها، وعدم مبالاة بهم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الإشارة للمشار إليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، أي: للأنبياء المذكورين وآبائهم وذرياتهم وإخوانهم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» لعلو منزلتهم، ورفعة شأنهم، وتعريف طرفي الجملة للدلالة على القصر، أي: أولئك الذين هداهم الله ووفقهم إلى صراط مستقيم هم أهل الهداية لا غيرهم.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ الهاء في قوله: ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾ للسكت. قرأ حمزة والكسائي وخلف بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل، وقرأ الباقون بإثباتها وصلًا ووقفًا، وقدم المتعلَّق وهو قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ على عامله؛ للاهتمام بذلك الهدى.

والمعنى: فبهداهم اقتد واتبع، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشورى: ١٣] والأمر له ﷺ بالاقتداء بهم أمر له ولأمته؛ لأنهم تبع له.

وفيه دلالة على أنه ليس بدعًا من الرسل، وأن الله جمع له فضائلهم، مع ما خصه الله تعالى به من الفضائل؛ لأنه ﷺ اقتدى بهم، واتبع ما يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩].

عن مجاهد أنه سأل ابن عباس، أفي «ص» سجدة؟ فقال: «نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبۡنَا

لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ إلى قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ ثم قال: هو منهم» وفي رواية عن مجاهد قال: قلت لابن عباس، فقال: «نبيكم ﷺ ممن أُمر أن يقتدي بهم»(١).

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجرة وعوضًا، فيكون ذلك من أسباب إعراضكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾ [الفرقان: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

كما قال كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وقال نوح أيضًا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقال هود: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ [هود: ٥١].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هو، أي: القرآن. ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: تذكرة وعظة لجميع الناس، يتذكرون به، ويعرفون ما ينفعهم وما يضرهم، فيسترشدون به من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشد، ومن الكفر إلى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: ٤٥] وبهذا صار أكبر نعمة أنعم الله بها عليهم يجب عليهم قبولها وشكرها.

فأُشعروا بانتفاء الأجر؛ ليتبين أنه ذكر لهم ونصح لنفعهم، وغنم لهم لا غرم فيه، وأنه ذكرى لغيرهم من الناس، وليس خاصًّا بهم.

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بما أعطاه الله عز وجل لإبراهيم من الحجة على قومه، والتعظيم لها،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام (٤٦٣٢).

والامتنان عليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فأشار إليها بإشارة البعيد تنويهًا بها، وأضافها إلى نفسه تعظيمًا لها.

٢- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه بضمير الجمع؛ كما في قوله تعالى: ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ﴾، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، ﴿وَوَهَبْنَا﴾، ﴿هَدَيْنَا﴾، ﴿فَضَّلْنَا﴾، ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾.

وبالإظهار مقام الإضمار؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾.

٣- الامتنان على إبراهيم عليه السلام بما منحه الله عز وجل من رفعة الدرجات بالعلم والحكم والنبوة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأنه عز وجل يرفع من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة به ﷺ وبأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٦- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ في قوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

٧- إثبات صفة الحكم والحكمة لله عز وجل في خلقه وقدره وشرعه، وأمره ونهيه، فهو حاكم، له الحكم الكوني والشرعي والجزائي، ومحكم متقن، له الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾.

٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٩- في اقتران وصفه عز وجل بأنه «حكيم» مع وصفه بأنه «عليم» كمال إلى كمال.

١٠- امتنان الله تعالى على إبراهيم بما وهبه له من الولد والذرية، وهدايته عز وجل لهم، وجعل النبوة والكتاب فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾، وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ

وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

١١- أن النعمة بابن الابن كالنعمة بالابن؛ لما في ذلك من بقاء النسل والعقب؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ و«يعقوب» ابن «إسحاق».

١٢- أن النعمة بالولد والذرية إنما تكون إذا هداهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أما إذا ضلوا فهم نقمة، نسأل الله العافية.

١٣- التذكير بنعمة الله تعالى على نوح بهدايته، وهداية من ذكر في الآيات من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فكل الأنبياء المذكورين في الآيات من ذرية نوح، كما أنهم من ذرية إبراهيم، عدا لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم.

١٤- أنه مثل ما جزى الله هؤلاء الأنبياء على إحسانهم بهدايته لهم واصطفائهم للنبوة يجزي كل من أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: فهؤلاء الأنبياء أحسنوا فجوزوا بما ذكر، وكذلك يجزي الله المحسنين.

١٥- أن عيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم، كما أنه من ذرية نوح عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وإنما عُدّ من ذريتهما مع أنه «ولد بنت» لأنه لا أب له؛ ولهذا الولد من الزنا ترثه أمه فرضًا وتعصيبًا، وقيل: إن الذرية يدخل فيهم أولاد البنات استدلالًا بالآية، وبقوله ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيّدٌ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»(١). قالوا: فسمى الحسن ابنًا له، وهو ابن ابنته فاطمة رضي الله عنهما.

والأظهر- والله أعلم- أن ابن البنت لا يدخل في الذرية، وإنما عد عيسى من ذرية إبراهيم ونوح؛ لما تقدم من أنه لا أب له، فصارت أمه بمنزلة أبيه وأمه.

---

(١) أخرجه البخاري، في الصلح (٢٧٠٤)، وفي الفتن (٧١٠٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وأما قوله ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيّد**» فهذا على سبيل التجوز والتحبب، وقد كان ﷺ يقول لأنس رضي الله عنه: «**يا بني**».

قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا ... بنوهنّ أبناءُ الرّجال الأباعدِ(١)

وعلى هذا فلو أوقف الإنسان وقفًا على ذريته لم يدخل فيهم أولاد البنات على الصحيح من أقوال أهل العلم، لكن لو أدخلهم بالنص عليهم، بأن قال هذا وقف على ذريتي بما فيهم أولاد البنات، فلا إشكال في دخولهم.

١٦- ثناء الله عز وجل على زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، بكونهم من الصالحين؛ لقوله تعالى بعد ذكرهم: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٧- تفضيل الأنبياء والرسل على من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهم أفضل من سائر الخلق؛ أفضل من غيرهم من المؤمنين، وأفضل من الملائكة.

١٨- امتنان الله عز وجل على من ذكر من الأنبياء بهدايتهم، وهداية بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واصطفائهم، وهدايتهم إلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٩- امتداح الله تعالى لهداه، وأنه سبحانه يهدي به من يشاء، ولا هادي سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٠- أنه لا حسب ولا نسب بين الله تعالى وبين أحد من الخلق، فلو أشرك هؤلاء الأنبياء- وحاشاهم من ذلك- لبطلت أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٢١- ثناء الله تعالى على أنبيائه ورسله الذين هداهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف» ١/ ٥٦، «التذييل والتكميل» ٣/ ٣٣٧.

٢٢- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالاقتداء بهدى الأنبياء قبله؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وهذا إنما هو في أصول الدين من توحيد الله تعالى، واجتناب الشرك مما اتفقت عليه الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكذا ما اتفقت عليه الرسالات من أصول الشرائع؛ كالدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والمثل الحميدة، والنهي عن ضدها.

٢٣- فضل نبينا محمد ﷺ؛ لأن الله جمع له فضائل الأنبياء، وأمره بالاقتداء بهم.

٢٤- أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وعلى هذا جمهور العلماء من الأصوليين وغيرهم.

وقيل: إن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

٢٥- الإعذار ممن أعرضوا عن دعوته ﷺ، بأنه لم يطلب منهم عوضًا على إبلاغهم دعوته فيستثقلوا ذلك ويحتجوا به؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

٢٦- أن القرآن الكريم إنما هو تذكرة وعظة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٧- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ الواو استئنافية، و«ما» نافية، والضمير الواو في قوله: ﴿قَدَرُوا۟﴾ يعود إلى المشركين والمكذبين، أي: إلى ما عاد إليه اسم الإشارة في قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وإلى المخاطبين بقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

وذهب بعضهم إلى أن الضمير في قوله: ﴿قَدَرُوا۟﴾ عام لكل من لا يؤمنون بجميع كتب الله المنزلة؛ من المشركين واليهود وغيرهم(١).

﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، «حق» منصوب على المصدرية، وهو في الأصل صفة للمصدر «قدره»، أي: قدر الحق، فأضيف إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى: وما عظموا الله حق تعظيمه.

قال ابن القيم(٢): «وأخبر سبحانه أن من جحد أن يكون قد أرسل رسله، وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به، بل يتعالى ويتنزه عنه، فإن في ذلك إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته، والظن السيئ به، وأنه خلق خلقه عبثًا باطلًا، وأنه خلاهم سدى وهملًا، وهذا ينافي كماله المقدس، وهو متعال عن كل ما ينافي كماله، فمن أنكر كلامه وتكليمه وإرساله الرسل إلى خلقه فما قدره حق قدره، ولا عرفه

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٢).
(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٥).

حق معرفته، ولا عظمه حق عظمته».

﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، «إذ» ظرف بمعنى «حين»، أي: حين قالوا مبالغة منهم في إنكار نزول القرآن على رسول الله ﷺ.

﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، «ما» نافية. ﴿بَشَرٍ﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: ما أنزل الله على أيٍّ من البشر، أو على أحد من البشر ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، «من» للاستغراق في عموم النفي، أي: ما أنزل الله على أحد من البشر أيّ شيء من الكتب والوحي؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١].

وقد كان المشركون والعرب قاطبة؛ لجهلهم يستبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ الاستفهام في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ﴾ للتقرير، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المنكرين أن يكون الله أنزل على أحد من البشر شيئًا، ملزمًا لهم بفساد قولهم، ومقررًا لهم بما به يقرون: من الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟ وهو التوراة، وهذا على قاعدة نقض السالبة الكلية بموجبة جزئيّة؛ لأنهم لا يستطيعون إنكار رسالة موسى عليه السلام ومجيئه بالتوراة، فهذا أمر مشهور معلوم لهم ولغيرهم متواتر في بلاد العرب، وهم يعرفون ذلك من خلال علاقتهم باليهود الذين يترددون للتجارة بين مكة والمدينة، وبهذا انتقض قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ حال من «الكتاب»، أو من ضميره، أي: حال كونه نورًا وهدى للناس، أي: نورًا يستضاء به من ظلمات الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات.

﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الهدى: العلم النافع الذي يهدي للإيمان والحق والعدل، ويعصم بإذن الله من الضلالة، وبه يعرف الحق من الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً

وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ عام أريد به الخصوص، أي: الناس الذين هم قومه- بنو إسرائيل في زمانه- إلى أن بعث محمد ﷺ، وأنزل عليه القرآن المهيمن والناسخ لجميع الكتب قبله.

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب بياء الغيبة: «يجعلونه»، «يبدونها» «ويخفون» وقرأ الباقون بتاء الخطاب فيها كلها.

فعلى قراءة الغيبة أن أهل الكتاب يجعلون هذا الكتاب الذي أنزل على موسى قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا. وعلى قراءة الخطاب هو أيضًا خطاب لمن فعلوا ذلك.

قال ابن القيم[1]: «فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك، أي: تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك» وقال أيضًا: «وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس، وأبدوا بعضه، وأخفوا كثيرًا منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله، ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ خطابًا لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾».

﴿قَرَاطِيسَ﴾ جمع «قرطاس»، وهي الصحيفة من ورق أو غيره، أي: تجعلونه قراطيس قطعًا وأجزاء وأوراقًا متفرقة، تكتبونها من الكتاب الأصل الذي بأيديكم بقصد إظهار بعضها وإخفاء كثير منها.

﴿تُبْدُونَهَا﴾ صفة لـ«قراطيس»، أي: تظهرونها، أي: تظهرون بعضها؛ لقوله بعده: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ فيظهرون منها ما وافق أهواءهم.

﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، أي: وتخفون كثيرًا منها وتكتمونه، وهو ما خالف أهواءهم وأغراضهم. وهذا ذم لهم؛ لأن الله أنزل كتبه للهدى، فيجب إظهارها، ويحرم كتمانها.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ الواو حالية، و«ما» موصولة، أي: والحال أنكم علمتم بهذا الكتاب، أي: علمكم الله بهذا الكتاب الذي أنزله إليكم- وهو القرآن- على لسان محمد ﷺ الذي لم تعلموه أنتم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٢).

﴿وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾، أي: ولم يعلمه آباؤكم من الأخبار السابقة واللاحقة، والأحكام والآداب وغير ذلك. والخطاب على هذا للمؤمنين، ومن بعث فيهم النبي ﷺ.

أو: وعلمتم يا أهل الكتاب الذي أنزل على موسى، أي: وعلمكم الله بهذا الكتاب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾، أي: الذي لم تعلموه ﴿أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

فما حصل عليه أهل الكتاب من علوم فهو من تعليم الله لهم في التوراة، وما حصل عليه المؤمنون فهو من تعليم الله لهم في القرآن الكريم.

وكل ما حصلوا عليه من العلوم هم وآباؤهم لا ينال إلا من جهة الرسل، وهذا دليل على صحة النبوة والرسالة، فكيف يقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى.

وأمره بالإجابة عنهم؛ لوضوح الجواب وتعينه؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير الله أنزله، ولا يمكن إنكار ذلك وتجاهله.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: ثم بعد تبليغهم وإقامة الحجة عليهم وتبكيتهم وقطع معاذيرهم اتركهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ الخوض: الحديث في الباطل، قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩]، أي: ثم ذرهم في حديثهم بالباطل وكفرهم وضلالهم.

﴿يَلْعَبُونَ﴾، أي: يُضيِّعون أعمارهم وحياتهم بما لا فائدة فيه، ولا نفع، بل بما يضر، وفي هذا ما لا يخفى من الوعيد والتهديد، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [المعارج: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

في الآية السابقة رد على المكذبين للرسل المنكرين للنبوات والرسالات، وإنزال الكتب على البشر، وقرر ذلك وأثبته، ثم أتبع ذلك بالثناء على القرآن وعلى الذين يؤمنون به.

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ الواو استئنافية والإشارة للقرآن الكريم، أي: وهذا القرآن، وهو وإن لم يكن مصرحًا به في الآية السابقة، فهو معلوم من السياق، وهو

أيضًا معهود معلوم؛ ولهذا أشار إليه بإشارة القريب «هذا».

﴿كِتَٰبٌ﴾ نُكِّر للتعظيم، أي: وهذا كتاب عظيم. والقرآن أعظم وأفضل كتب الله على الإطلاق.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع تعظيمًا لنفسه؛ لأنه العظيم سبحانه، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة لـ«كتاب»، والبركة: كثرة الخير ونماؤه، ومنه سميت بركة الماء؛ لكثرة مائها. فهذا الكتاب كثير الخير، جم المنافع والفوائد، فيه الهدى لكل خير، والتحذير من كل شر. مشتمل على مصالح الدارين، وعلوم الأولين والآخرين، مبارك في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، يحصل لقارئه، والمعلم له، والعامل بأحكامه الخير الكثير، من استنارة العقل والفكر، وزكاء النفس وطهارتها، وصفاء العقيدة، وسلامة النهج، والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1] [طه: ١٢٣].

﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، «مصدق» صفة ثانية لـ«كتاب»، أي: مصدق الذي سبقه من كتب الله إجمالًا، وتفصيلًا لما ذكر منها فيه، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى. وهو مصدق لما سبقه من الكتب من وجوه عدة:

منها: شهادته بصدقها، وأنها حق من عند الله تعالى فيها الهدى والنور.

ومنها: أنه مصداق ما أخبرت به هذه الكتب؛ لأنه جاء فيها البشارة بالنبي ﷺ ومبعثه ونزول القرآن عليه، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٥].

ومنها: أنه مصدق لها بموافقته لها في الدعوة إلى توحيد الله تعالى والنهي عن الشرك، والدعوة إلى محاسن الأخلاق والآداب، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ١٩١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧١).

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم «ولينذر» بالغيبة، وقرأ الباقون بالخطاب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ والواو في قوله ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن تنذر به أم القرى ومن حولها.

والإنذار: التخويف والتحذير بما يتوقع من ضرر، وضده البشارة، كما قال ﷺ: «**أنا النذير العريان**»(١)، أي: الذي أذهله عن لبس ثيابه ما يخافه على قومه من الشر، فبادر إلى إنذارهم، فجاءهم عريانًا مسرعًا.

كما قال لقيط الإيادي منذرًا ومحذرًا قومه كسرى وجموعه من قصيدة بعنوان «صرخة غيور»:

أبلغ إيادًا وخلّل في سراتهمُ ... إني أرى الرّأي إن لم يعص قد نصعَا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غُيُرًا ... على نسائكم كسرى وما جمعَا
هذا كتابي إليكم والنّذير معًا ... لمن رأى رأيه منكم ومن سمعَا
وقد بذلتُ لكم نصحي بلا دخلٍ ... فاستيقظوا إنّ خير العلم ما نفعَا(٢)

والمراد بالإنذار في الآية التخويف والتحذير من عذاب الله تعالى، واقتصر عليه؛ لأن المقصود تخويف المشركين: ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة المكرمة، سميت بذلك؛ لأنها أقدم القرى وأشهرها وأعظمها، فيها أول بيت وضع للناس وقبلة أهل القرى، ومقصد حجهم وعمرتهم.

والمراد: لتنذر أهلها؛ كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: واسأل أهل القرية.

و«القرى» جمع «قرية»، وهي «البلد» و«المدينة» التي تجمع أناسًا كثيرين، سميت «قرية» أخذًا من «القري»، وهو «الجمع»، ومنه سمي «القرآن الكريم»؛ لأنه يجمع

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢)، ومسلم في الفضائل، شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان لقيط» ص٤٠. وانظر: «المطالب العالية» ١٦/ ٣٨٣، «أحاديث الشعر» ص١٠٩، «الحماسة البصرية» ١/ ٨٩، «الذخائر والعبقريات» ٢/ ٢٢٢.

سورًا وآيات كثيرة، ومنه سمي «قرو الماء»؛ لأنه يجمع ماءً كثيرًا.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: وتنذر من حولها من أحياء العرب والقبائل، وسائر البلدان.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني بـ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من القرى إلى المشرق والمغرب»(١).

ووجه الاقتصار على أم القرى ومن حولها في هذه الآية- والله أعلم- لأنهم الذين جرى معهم الكلام والجدال في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦].

ولأنهم أقرب الناس إليه مكانًا ونسبًا، فهم أولى من ينبغي البدء بإنذارهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. والأقربون أولى بالمعروف.

وهذا لا ينافي عموم رسالته ﷺ لجميع الناس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال ﷺ: «**وبعثت إلى النّاس عامّةً**»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الواو عاطفة، و«الذين» اسم موصول يفيد العموم، أي: والذين يصدقون بالدار الآخرة، أي: بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: يصدقون بهذا القرآن، أي: وكل الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذا القرآن؛ لأن من لازم الإيمان بالآخرة الإيمان بالقرآن، كما أن من لازم الإيمان بالقرآن الإيمان بالآخرة.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ هذا زيادة ثناء على المؤمنين، مؤذن بكمال إيمانهم وصدقه.

﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ متعلق بـ«يحافظون» قدِّم عليه للعناية والاهتمام بالصلاة، أي: يحافظون على صلاتهم في أوقاتها ويداومون عليها، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في التيمم (٤٣٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وخصها بالذكر من بين سائر العبادات؛ لعظم مكانتها في الإسلام، فهي عمود الإسلام وقاعدته ورحاه التي يدور عليها، من حفظها حفظه الله، ووفقه في دينه ودنياه وأخراه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، وخسر دينه ودنياه وأخراه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى، ووجوب تقديره حق قدره، وتعظيمه حق تعظيمه؛ لإنكاره عز وجل على المشركين والمكذبين بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

٢- الإنكار على المشركين والمكذبين عدم تقديرهم لله تعالى حق قدره، حين نفوا أن يكون الله أنزل على بشر كتابًا ووحيًا، مما فيه إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته والظن السيئ به، وأنه خلق الخلق عبثًا، وتركهم سُدى، مما ينافي كماله المقدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

٣- جرأة هؤلاء المكذبين على الله تعالى؛ حيث نفوا إرساله الرسل وإنزاله الكتب.

٤- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ﴾ وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٥- أن الرسل إنما يكونون من البشر، لا من الملائكة، ولا من الجن؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

٦- إفحام المشركين، وإثبات ما نفوه من إنزال الله الكتب على البشر، بما لا يستطيعون دفعه، لا هم ولا غيرهم، وهو رسالة موسى عليه السلام، ومجيؤه بالتوراة، فهذا معلوم مشهور لديهم ولدى غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ الآية.

ولهذا أمره الله عز وجل أن يجيب عنهم؛ لِتَعَيُّن الجواب، وعدم إمكانية إنكاره فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

٧- أن التوراة منزلة من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

٨- إثبات رسالة موسى عليه السلام ونزول الكتاب عليه.

٩- دفاع الله تعالى عن نبيه، وتلقينه الحجة على المكابرين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

١٠- ثناء الله تعالى على كتاب موسى «التوراة»، وأن فيه النور والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وهو أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

١١- ذم أهل الكتاب والتنديد بهم؛ لجعلهم كتاب الله «التوراة» قراطيس وأجزاء متفرقة، وإظهار بعضها مما لا يخالف أهواءهم وإخفاء الكثير منها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

١٢- أن من بلاغة القرآن الكريم وإيجازه الاستدلال بما ذكر على ما لم يذكر؛ لقوله تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فدل قوله: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ على أن المراد بـ﴿تُبْدُونَهَا﴾، أي: تبدون بعضًا منها. كما دلت الهاء في قوله: ﴿تُبْدُونَهَا﴾ على المحذوف من قوله: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، أي: وتخفون كثيرًا منها.

١٣- أن كل ما عُلِّمه أهل الكتاب من العلوم فهو مما علمهم الله إياه في «التوراة»، وكل ما عُلِّمه المؤمنون ومن بُعث فيهم ﷺ فهو مما علمهم الله إياه في القرآن الكريم، وكل ما عُلِّمه الناس فهو مما علمهم الله إياه فيما أنزل من كتبه.

١٤- جواز أن يتولى السائل الجواب عن السؤال، بل قد يحسن ذلك؛ للدلالة على تعيُّن الجواب، وأنه لا يمكن تجاهله أو إنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ الآية، ثم أمره عز وجل أن يجيب عن ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل: الله أنزله.

١٥- أن مهمة الرسول ﷺ هي تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة على الخلق، وليس عليه هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ.

١٦- الوعيد والتهديد للمكذبين المنكرين لرسالته ﷺ وإنزال الكتاب عليه؛ لقوله

تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

١٧- أن كل ما لا ينفع الإنسان في دينه ويسعده في أخراه فهو خوض بالباطل ولعب لا فائدة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

١٨- أن الحياة جد وليست بهزل، فهي مزرعة للآخرة لمن وفقه الله، وفرصة للعمل بما يسعد الإنسان في دينه ودنياه وأخراه.

١٩- امتداح الله للقرآن الكريم وتعظيمه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

٢٠- أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وهو كلامه تكلم به بحرف وصوت، وليس بمخلوق كما يقول المعتزلة.

٢١- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بضمير الجمع والعظمة.

٢٢- بركة القرآن الكريم وكثرة خيره؛ لما فيه من الهدى والدعوة إلى كل خير، والتحذير من كل شر، والاشتمال على مصالح الدارين وعلوم الأولين والآخرين، والنفع لمن قرأه وتعلمه وعمل به، وكونه سبب السعادة لمن تمسك به في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ﴾.

٢٣- تصديق القرآن الكريم للكتب السماوية السابقة، بشهادته بصدقها، وكونه مصداق ما أخبرت به وبشرت، وموافقته لها في أصول الشرائع من الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والنهي عن الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والنهي عن مساوئها، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٢٤- أن القرآن أنزل لأجل الإنذار والتحذير من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وهو لإنذار جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وتخصيص الإنذار في الآية هنا بأم القرى ومن حولها لا ينافي ما دلت عليه هذه النصوص وغيرها

من عموم رسالته ﷺ.

٢٥- أن مكة المكرمة هي أم القرى؛ لقوله تعالى: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي مدينة وأم المدن.

٢٦- أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بالقرآن ويصدقون به؛ لأن الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالقرآن، كما أن الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٢٧- إثبات الدار الآخرة، ووجوب الإيمان بها.

٢٨- الثناء على المؤمنين بالآخرة بإيمانهم بالقرآن، ومحافظتهم على صلاتهم؛ مما يدل على كمال إيمانهم وصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وفيه تعريض بذم الذين يكذبون بالقرآن.

٢٩- فضل الصلاة، وعظم مكانتها في الإسلام؛ لهذا خصها بالذكر من بين سائر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٣٠- الترغيب بالمحافظة على الصلاة بأوقاتها، والمحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أبطل عز وجل في الآيات السابقة قول المشركين تكذيبًا منهم لرسالته ﷺ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ثم أتبع ذلك ببيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا، أو ادعى أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، وأنه سينزل مثل ما أنزل الله تعالى.

وفي هذا إبطال لما عليه المشركون من الشرائع الضالة من عبادة الأصنام، وزعمهم أنها تشفع لهم عند الله، ومن تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ونحو ذلك، وبيان محض تناقضهم، فهم ينفون الرسالة عن البشر، وفي المقابل يزعمون أن الله أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا.

كما أن في الآية تأكيدًا لصدق رسله، ولا سيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام، فلا يمكن أن يتجرأ أحد منهم على الكذب على الله تعالى، وهم صفوة خلق الله وأفضلهم؛ ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ قائلًا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله[1].

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الواو استئنافية، و«من» اسم استفهام للإنكار والنفي، و«أظلم» اسم تفضيل، أي: ومن أشد ظلمًا، أي: لا أحد أشد ظلمًا، ولا أعظم جرمًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

وفي هذا تعريض بأنهم الكاذبون بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، وإبطال لما هم عليه من الشرك والشرائع الضالة، وتأكيد لصدق رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، «ممن» «مِن» حرف جر، و«من» موصولة، أي: من الذي افترى على الله، أي: اختلق على الله كذبًا، فهو عام لكل من كذب على الله، فنسب له قولًا أو حكمًا، وهو تعالى بريء منه، أو جعل له شريكًا أو ولدًا، ونحو ذلك مما عليه أهل الظلم والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، «أو» عاطفة تفيد التقسيم، والجملة معطوفة على صلة «من»، أي: والذي قال: أوحي إلي، أي: وكل من ادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله؛ لأن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. والوحي الشرعي لا يكون إلا من الله.

﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه لم يوح إليه شيء.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، و«من» موصولة، وكذا «ما» في قوله: ﴿مِثْلَ مَآ﴾، أي: وكل من قال: سأنزل مثل الذي أنزل الله، أي: ومن ادعى أنه يستطيع أن يعارض القرآن، وأن يأتي بمثله، بما يفتريه من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وكما فعل مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار بن عبيد الثقفي فلا أظلم ممن اختلق الكذب على الله، ولا أظلم ممن قال: أوحي إلي، ولم يوح إليه شيء، ولا أظلم ممن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية.

لما ذم الظالمين المفترين على الله الكذب، والمدعين للنبوة، والمعارضين لكلام الله؛ ذكر ما أعد لهم من العقاب في حال الاحتضار وبعده، وهو وعيد لهم ولغيرهم من الظالمين.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، و«لو» شرطية ﴿تَرَىٰٓ﴾ فعل الشرط.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له. والرؤية هنا يجوز كونها بصرية أو علمية.

«إذ» ظرف بمعنى «حين» و«الظالمون» جمع «ظالم» والظلم: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم الشرك بالله؛ كما قال لقمان عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

والتعريف في «الظالمون» للجنس المفيد للاستغراق، فيشمل جميع الظالمين المشركين.

﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، «غمرات» جمع «غمرة» وهي: ما يَغمرُ، أي: يعم، وغمرات الموت: سكراته وكرباته وشدائده وأهواله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ [الذاريات: ١١] وجواب «لو» محذوف للتهويل، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا فظيعًا.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ الواو حالية، فالجملة في محل نصب على الحال وبسط اليد: مدّها.

والمعنى: والملائكة مادّوا أيديهم إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، ولقبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٧-٢٨].

﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: تقول لهم الملائكة، أو قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم، أي: هاتوا أرواحكم.

والأمر للإهانة والتغليظ والتشديد عليهم في قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ [النازعات: ١-٢].

قال ابن القيم[1]: «وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة- وهم الصادقون- أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٦).

أن يقال لهم: اليوم تجزون».

وقال ابن كثير[١]: «وذلك أن الكافر إذا احتضر بشّرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية».

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ اليوم: يوم قبض أرواحهم، أو يوم القيامة.

﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، أي: تجزون على ظلمكم وشرككم ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، «الهون» الهوان الشديد والذل، أي: العذاب الشديد الذي يهينكم غاية الإهانة ويذلكم غاية الإذلال، والجزاء من جنس العمل.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تقولون على الله، أو بسبب قولكم على الله.

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: ما ليس بحق، بل هو باطل، وهذا يشمل الأقوال الثلاثة المتقدمة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وغير ذلك من القول الباطل، والكذب على الله، ورد الحق، وتكذيب الرسل.

﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾، أي: تستكبرون عن اتباع آياته، وتترفعون عن الانقياد لها والعمل بها، وتعرضون عنها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

لما ذكر حالهم عند الموت وفي البرزخ أتبع ذلك بذكر حالهم عند ورودهم يوم القيامة.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٩٥).

قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جئتمونا فرادى، أي: يقول الله لهم هذا القول يوم معادهم.

ويبعد أن يكون هذا القول من قول الملائكة؛ لقوله بعده: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

وتكلم عز وجل بضمير الجمع في قوله: ﴿جِئْتُمُونَا﴾ وما بعده من ضمائر الجمع تعظيمًا لنفسه.

﴿فُرَادَىٰ﴾ حال، أي: حال كونكم فرادى.

و«فرادى» جمع «فردان»، مثل «سكارى» جمع «سكران»، و«فردان» بمعنى «المنفرد»، أي: كل واحد منهم جاء منفردًا بلا أهل ولا مال ولا أولاد، ولا شركاء ولا أنصار، ولا زاد ولا استعداد، أي: مفلسين منعزلين عن كل ما كنتم تتباهون به في الدنيا.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه بمعنى «مثل» و«ما» مصدرية، أي: مثل خلقنا إياكم أول مرة، أي: كما بدأناكم أعدناكم، حفاة عراة غرلًا بهما، كما ولدتكم أمهاتكم، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وهو البعث الذي كانوا ينكرونه، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

وفي قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فُرَادَىٰ﴾، أي: صفر اليدين، عارين من كل شيء.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾، «ما» موصولة، أي: وتركتم وخلفتم الذي خولناكم، أي: الذي أعطيناكم وملكناكم في الدنيا من النعم، من الأموال والأولاد والخدم والحشم وغير ذلك.

﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، أي: خلفكم في الدنيا، فلم تحملوا منه شيئًا، ولم يغن عنكم شيئًا، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان**

ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»(١).

وعن مطرف عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي**»؛ قال: «**وهل لك يا ابن آدم من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للنّاس**»(٢).

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟...﴾ الآية.

تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوه في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم وتدفع عنهم، وفيه بيان وتقرير لقوله: ﴿فُرَٰدَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ الواو حالية، أي: والحال أننا لا نشاهد معكم شفعاءكم، أي: شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله، وتقولون: إنهم شفعاءكم، أي: يشفعون لكم عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وفي قوله: ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾ تهكم بهم؛ لأنهم لا شفعاء لهم؛ كقوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧].

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ الزعم: القول الباطل، أي: الذين تزعمون باطلًا وكذبًا ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، أي: أن لهم نصيبًا من أنفسكم، وشركة في عبادتكم، فتشركونهم في العبادة مع الله، وتصرفون لهم جزءًا منها.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر والكسائي وحفص: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بنصب النون على الظرفية، أي: لقد تقطع ما بينكم من وصل، وقرأ الباقون: «بينُكم» بضم

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٣٧)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٥٨)، (٤/ ٢٤، ٢٦)، وأخرجه أحمد أيضًا (٢/ ٣٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النون على أنه فاعل، أي: لقد تقطع وصلكم.

واللام في قوله: ﴿لَقَد﴾ لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد تقطع بينكم، و«قد» للتحقيق.

والمعنى: لقد زال ما بينكم من وصل، أو لقد زال تواصلكم، أي: الذي كان بينكم في الدنيا من العلاقات والأسباب، وفي هذا بيان لقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ وزيادة تيئيس لهم.

والضمير في قوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ عائد إلى المخاطبين وشفعائهم، أي: فلا تواصل بينكم ولا تواد ولا تناصر، وقد كانوا في الدنيا يتواصلون ويتناصرون، ويقول قائلهم:

أخاك أخاك إنّ من لا أخًا له ... كساعٍ إلى الهيجا بدون سلاحِ(١)

لكن يوم القيامة ينقطع ذلك كله ويضمحل، ولا يبقى سبب للنجاة إلا العمل الصالح.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ معطوف على ﴿تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وهو من تمام التهكم والتيئيس، أي: وزال عنكم وغاب.

﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: وضل عنكم الذين كنتم تزعمون أنهم لكم شفعاء وفيكم شركاء.

أو: وضل عنكم زعمكم شفاعة هؤلاء الشركاء فيكم، وجلب الخير لكم، ودفع الضر عنكم.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قرر عز وجل الرسالة والبعث، وأبطل شفاعة الشركاء ونفعهم، ثم أتبع ذلك ببيان كمال قدرته، وبديع صنعه، وسعة علمه ورحمته، وبلوغ حكمته، وعظم سلطانه الدال على استحقاقه وحده للعبادة وإبطال الشرك والإلحاد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، «إن» حرف توكيد، ولفظ الجلالة اسمها، و﴿فَالِقُ﴾ خبرها، والفلق: بمعنى الشق، و«الحب» اسم جمع لما يثمره النّبت واحده حبة، و«ال» فيه للجنس، أي: يشق أنواع الحبوب، فتخرج منها الزروع والنباتات على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها وطعومها.

﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾، أي: وفالق النوى، و«النوى» اسم جمع «نواة» وهي قلب الثمرة، ويطلق على ما في الثمار من القلوب التي منها ينبت شجرها؛ كالعنب والزيتون، ويسمى «العَجَم» بالتحريك اسم جمع «عَجَمة».

والمعنى: الذي يفلق النوى، أي: يشقه، فيخرج منه الغرس والشجر؛ من النخيل والزيتون والعنب والرمان، وغير ذلك من أشجار الفواكه، المثمرة لأنواع الثمار المختلفة الطعوم والألوان والأشكال والمنافع.

وفي الإظهار مقام الإضمار، فلم يقل: «إني فالق»، بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ﴾- تعظيم لنفسه عز وجل.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الجملة في محل رفع خبر ثان عن اسم «إن»، وقد تكون استئنافًا بيانيًّا، فيها بيان المقصود من «الفلق» في الجملة قبلها.

و«الحي» كل ما فيه روح وهو الإنسان والحيوان، وكل ما ينمو وهو النبات، فهو عام في كل جسم به حياة، من حيوان أو نبات.

فيدخل في عموم قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كل جسم حي أخرجه الله من جسم ميت، ويدخل في عموم قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كل جسم ميت أخرجه الله من جسم حي.

فيخرج الزرع والنبات الحي من الحب اليابس الميت، ويخرج الشجر والثمر الحي من النوى اليابس الميت، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٣٣].

ويخرج الحيوان الحي- كالدجاجة ونحوها من الطيور- من الميت وهي البيضة؛ كما يخرج المولود الحي من الإنسان والحيوان الميت.

ويخرج الحي معنويًّا، وهو المؤمن، من الميت معنويًّا، وهو الكافر، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ معطوف على ما قبله، وهو عام في كل جسم ميت أخرجه الله تعالى من جسم حي، فهو مخرج الحب والنوى اليابس الميت من الزرع والنبات الحي، ومخرج الشيء الميت؛ كالبيضة من الدجاجة، وغيرها من أنواع الطيور، كما أنه مخرج المولود الميت من الإنسان والحيوان الحي، ومخرج الميت معنويًّا وهو الكافر من الحي معنويًّا وهو المؤمن.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يخرج النطفة الميتة من الحي، ثم يخرج من النطفة بشرًا حيًّا»(١).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ تعظيم لنفسه عز وجل، أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له، ذو القدرة التامة، والنعمة العظيمة.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ استفهام تعجب وإنكار، أي: فكيف تصرفون وتصدون عن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٢).

عبادة من هذا شأنه، وتعدلون إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

وبُني «تؤفكون» للمجهول؛ لعدم تعين صارفهم، ولكثرة الصوارف؛ من وساوس الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، واتباع الهوى، ودعاة الضلال، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

استدل عز وجل في الآية السابقة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وبلوغ حكمته بأحوال النبات والحيوان، ثم أتبع ذلك بالاستدلال على ذلك بما هو أعظم وهو الأحوال الفلكية؛ من خلق الصبح، وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، وكل ذلك دال على عنايته بخلقه وكرمه وعظيم منته، وعلى تفرده بالإلهية وبطلان الشرك.

قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، أي: شاق الإصباح شيئًا فشيئًا بضوء الشمس بالنهار عن ظلمة الليل وسواده، و«الإصباح»: الصباح، والصبح، قال امرؤ القيس[1]:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَجَعَلَ﴾ بصيغة الماضي ونصب ﴿ٱلَّيْلَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَجَاعِلُ﴾ على أنه اسم فاعل مرفوع عطفًا على ﴿فَالِقُ﴾، وخفض ﴿ٱلَّيْلِ﴾ على إضافة «جاعل» إليه.

أي: وجعل كونًا ﴿ٱلَّيْلَ﴾، أي: صيره ﴿سَكَنًا﴾، أي: ساجيًا مظلمًا، قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: ٤].

وجعله وقتًا للسكون والنوم والراحة من التعب والعمل في النهار، يسكن فيه كل متحرك بالنهار، ويهدأ فيه، ويستقر في مسكنه ومأواه، الناس في دورهم والأنعام في مُرُحِها، والطيور في أوكارها.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٧).

ذكر أن امرأة صهيب الرومي عاتبته في كثرة سهره وقيامه، فقال لها: «إن الله جعل الليل سكنًا إلا لصهيب، إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه»(١).

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ معطوف على «الليل» على قراءة نصبه، وعلى موضعه على قراءة خفضه.

أي: وجعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾، أي: يجريان في أفلاكهما بحساب مقدر متقن دقيق، لا يضطرب، ولا يتغير، ولا يتبدل، إلى أن يأذن الله بانتهاء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٤٠] وذلك تسخير من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو نعمة عظيمة من الله تعالى، ومنة منه على العباد؛ إذ بحركتهما وجريانهما، يعرف الليل والنهار، ويعلم عدد الأيام والشهور والفصول والسنين والحساب، وأوقات العبادات، وآجال المعاملات، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وكثير من الأمم يحسبون الشهور والفصول والأعوام بحساب سير الشمس بحلولها في البروج وتمام دورتها فيها.

والعرب يحسبون بسير القمر في منازله، وهو الذي جاء به القرآن وسار عليه المسلمون.

وعلى ذلك يترتب اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، واختلاف الفصول حرًّا وبردًا واعتدالًا، وما في ذلك من المنافع العظيمة التي لا تحصى للإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ الإشارة لما سبق من كونه عز وجل فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تنبيهًا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٣٥٤) لكن ليس فيه «إلا» ويظهر أنها ساقطة سهوًا؛ لأن المعنى لا يستقيم بدونها. وقد أثبتها بعض المفسرين نقلًا عن ابن أبي حاتم.

على عظمة تقديره عز وجل الدال على عظمته سبحانه، أي: ذلك التقدير العظيم تقدير العزيز العليم.

و«التقدير»: وضع الأشياء على قدر معلوم، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اسم من أسماء الله تعالى يدل على أنه ذو العزة التامة؛ عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ اسم من أسماء الله تعالى يدل على أنه عز وجل ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

أي: ذلك التقدير العظيم تقدير ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ذي العزة التامة، فلا يغالب، ولا يخالف، ولا يمانع؛ ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ ذي العلم الواسع بما قدر وخلق، وبمصالح خلقه، وبكل شيء؛ ولهذا جاء تقدير هذه المخلوقات، وجريان هذه الأفلاك على أدق نظام، وأعظمه وأتقنه وأحكمه.

وباقتران اسميه «العزيز» و«العليم» وصفة العزة التامة، والعلم الواسع في حقه عز وجل يزداد كمالًا إلى كمال؛ ولهذا كثيرًا ما يختم عز وجل الكلام في خلق السموات والأرض والشمس والقمر بهذين الاسمين، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت: ١٢]، وقال تعالى في سورة يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: ٣٧-٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله، أو ادعى النبوة، أو قال إنه يستطيع أن يعارض كلام الله وأن يأتي بمثله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٢- شدة حرمة هذه الأعمال الثلاثة، وكفر مرتكبها؛ لأن الله وصف مرتكبها بأنه لا أظلم منه، أي: أنه ارتكب أظلم الظلم وهو الشرك والكفر، مما يوجب الحذر منها.

٣- إبطال ما عليه المشركون من الشرك والشرائع الضالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٤- الإشارة لصدق رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ولا سيما خاتمهم عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فمن قال: أوحي إلي، وقد أوحى الله تعالى إليه حقًّا فهو صادق.

وأيضًا فإن الرسل هم صفوة الخلق، فيبعد كل البعد أن يقع أحد منهم في مثل هذه الأعمال المذكورة.

وفي هذا رد على الذين كذبوهم وقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

٥- أنه لا يستطيع أحد من الخلق معارضة القرآن بالإتيان بمثله؛ لأن الله عد من قال إنه يستطيع هذا من أظلم الخلق، وقد تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله.

٦- أن الوحي الحق لا يكون إلا من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل.

٧- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٨- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، وكذا غيره من كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٩- شدة ما يلاقيه الظالمون من غمرات الموت وسكراته وأهواله وشدائده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

وهذا الوعيد الشديد شامل لمن ارتكبوا الأعمال المذكورة وغيرهم من الظالمين؛ لأن التعريف في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للجنس، فيشمل جميع الظالمين والمشركين.

١٠- إثبات غمرات الموت وشدائده وسكراته؛ لقوله تعالى: ﴿غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق:١٩].

١١- ضرب الملائكة للظالمين عند الموت؛ لانتزاع أرواحهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾.

١٢- إثبات وجود الملائكة الموكلين بانتزاع الأرواح وقبضها.

١٣- أن أرواح الظالمين والكافرين تتأبى عن الخروج، فتنزعها الملائكة بقوة بعد الضرب والتعذيب لهم والتشديد في القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١﴾ [النازعات:١].

١٤- أن النفس تطلق على الروح؛ لقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾.

١٥- الوعيد للظالمين بالعذاب المهين عند احتضارهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وفي هذا إثبات عذاب البرزخ ونعيمه؛ فإن هذا الوعيد لهم إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

١٦- أن سبب مجازاة الظالمين بعذاب الهون هو قولهم على الله غير الحق، واستكبارهم عن اتباع آياته والعمل بها؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

١٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾.

١٨- التحذير من الاستكبار عن اتباع الحق، وأن الجزاء من جنس العمل، فمن استهان بأمر الله، وتكبر عن اتباع الحق؛ جوزي بعذاب الهون الذي يذله ويهينه.

١٩- الإقسام لتأكيد الأخبار في القرآن؛ كما كان عليه العرب في تأكيد أخبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

٢٠- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ بضمير الجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ بالإظهار مقام الإضمار، فلم يقل: إني فالق الحب والنوى. ولم يقل: ذلك تقديري.

٢١- مجيء الناس القيامة فرادى عارين من كل شيء، كما خلقهم الله أول مرة، بلا أهل، ولا مال، ولا أولاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٢٢- قدرة الله تعالى التامة على بعث الخلق، وإعادة خلقهم كما بدأهم؛ لقوله

تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٢٣- مجيء الظالمين والمشركين يوم القيامة مفلسين منعزلين عن كل ما كانوا يتباهون به في الدنيا من أموال وأولاد وشركاء وأنصار، بلا زاد ولا استعداد، ولا مهاد ولا وساد.

٢٤- أن كل ما خوله الناس في الدنيا من النعم هو من الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿خَوَّلْنَكُمْ﴾.

٢٥- أن كل ما خُوِّله الله للناس في الدنيا من الأموال والأولاد وسائر النعم لا يغنيهم من الله شيئًا، بل هم تاركوه خلف ظهورهم، وقادمون على الله عارين من ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

٢٦- يجب الحذر من فتنة الدنيا والاغترار بزينتها ومتاعها الزائل؛ فإنها متاع الغرور. وقد قال ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

٢٧- تخلي الشركاء عن المشركين في أشد المواقف عند مجيئهم إلى الله تعالى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

٢٨- اعتقاد المشركين أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾، أي: حسب زعمكم أنهم يشفعون لكم.

٢٩- زعم المشركين الكاذب أن لمعبوداتهم- التي يعتقدون شفاعتها لهم- شرك في أنفسهم وفي عبادتهم مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

٣٠- انقطاع ما بين المشركين وشركائهم من صلات وأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

٣١- زوال ما كان يزعمه المشركون من شفاعة الشركاء لهم، وضلال هؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

الشركاء، وغيابهم عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

ولهذا يناديهم الله تعالى على رؤوس الخلائق تبكيتًا لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

٣٢- تأنيب المشركين، وتبكيتهم، والتهكم بهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٣٣- بيان كمال قدرة الله تعالى، وبديع صنعه، وسعة علمه ورحمته، وبلوغ حكمته، وعظيم سلطانه، وتمام نعمته على عباده، بفلق الحب والنوى عن النبات، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وفلق الإصباح، وجعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾.

٣٤- الإنكار والتعجب من حال المشركين في انصرافهم عن عبادة الله تعالى، الذي له تمام الخلق والملك والتدبير والسلطان والعظمة والقدرة والنعمة، إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

٣٥- فيما ذكر عز وجل من الدلائل على بديع صنعه، وتمام قدرته ونعمته، وغير ذلك استدلال على كمال ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، وتفرده بالإلهية، وبطلان الشرك.

٣٦- التذكير بنعمة الله عز وجل ومنته العظيمة على الخلق في إخراج النباتات والزروع والثمار، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وفي فلق الصبح، وجعل النهار وقتًا للمعاش، والليل سكنًا ووقتًا للراحة، وفي جعل الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق؛ لنعرف بهما الأزمنة، وأوقات العبادات، وآجال المعاملات، وعدد الأيام والشهور والأعوام، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، واختلاف الفصول بين حر وبرد واعتدال؛ لما في ذلك من مصالح عظيمة للإنسان

والحيوان والنبات.

٣٧- تعظيم الله عز وجل؛ لتقديره ودلائل قدرته في خلقه، وتعظيمه سبحانه لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

٣٨- إثبات اسم الله «العزيز» وأنه عز وجل ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾.

٤٠- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«العليم» كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

ذكر عز وجل دلائل قدرته في فلق الصبح، وجعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا، ونعمته على الخلق بذلك، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته ونعمته بجعل النجوم للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، أو على قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وتعريف المسند والمسند إليه في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ في هذه الآية والآيتين بعدها؛ لإفادة القصر، أي: وهو وحده، وتكلم عن نفسه بضمير الغيبة فيها كلها تعظيمًا لشأنه عز وجل.

و«جعل» هنا من الجعل الكوني، وهي بمعنى «خلق» تنصب مفعولًا واحدًا، وهو هنا «النجوم».

﴿لَكُمُ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجلكم، وامتنانًا عليكم، والخطاب عام لجميع الناس و﴿ٱلنُّجُومَ﴾ جمع «نجم» وهي الكواكب المدورة المضيئة ليلًا في السماء، منها نجوم ثوابت، ومنها نجوم سيارة.

﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ اللام للتعليل وبيان الحكمة في هذا الجعل، وهو الاهتداء بها، أي: لأجل أن تستدلوا بها على معرفة الجهات والمسالك؛ إذا ضللتم الطريق أو تحيرتم فيها ليلًا، وتعرفوا بها الأوقات، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: في السير في ظلمات البر والبحر، و«ظلمات» جمع

«ظلمة» وصيغة الجمع مستعملة في القوة، أي: في ظلمات البر الشديدة التي تكون بسبب ظلمة الليل والسحاب والعواصف والرياح الشديدة والأعاصير.

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ معطوف على «البر»، أي: وفي ظلمات البحر، وهي أشد؛ لأنه يجتمع فيها مع ظلمات البر ظلمات لجة البحر وأمواجه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

وقدّم ظلمات البر مع أن البحر ظلماته أشد؛ لأن ركوب البحر وأسفاره- والله أعلم- أقل بكثير من أسفار البر.

قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»(١).

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾، «قد» للتحقيق، ﴿فَصَّلْنَا﴾ بيّنا ووضحنا. وتكلم عز وجل بضمير الجمع في قوله: ﴿فَصَّلْنَا﴾ وفي قوله بعد ذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وقوله: ﴿نُّخْرِجُ﴾ تعظيمًا لنفسه عز وجل.

﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ جمع «آية»، و«ال» فيها للاستغراق، فيشمل آية خلق النجوم وغيرها من الآيات الكونية. وقد يشمل الآيات الشرعية.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل قوم يعلمون، أي: لأهل العلم والمعرفة بالله، الذين ينتفعون بالآيات ويستدلون بها على تمام قدرة الله، وبديع صنعه، وعظيم منته، وسعة علمه، وبالغ حكمته، واستحقاقه للعبادة وحده، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا؛ قال النابغة الذبياني(٢):

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في بدء الخلق، باب في النجوم.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٧٧).

يُنبِئْكَ ذو عرضِهم عنِّي وعالِـمُهم وَلَـيْسَ جَاهِـلُ شَيْءٍ مِثْـلَ مَـنْ عَلِمَـا

وقال الآخر:

سَلِي إِنْ جَهِلْـتِ النَّاسَ عَنَّا وَعَـنْهُمُ فَلَـيْسَ سَـوَاءً عَالِـمٌ وَجَهُـولُ(١)

وفي الآية تعريض بمن لم ينتفعوا بتفصيل الآيات بأنهم قوم لا يعلمون.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

ذكر عز وجل دلائل قدرته ومنته في إخراج النبات، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، وفي الأحوال الفلكية، ثم انتقل إلى ذكر دلائل قدرته ونعمته في إنشاء البشر من نفس واحدة وأحوالهم، وإثبات عظمته ووحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده، وقدرته التامة على بعثهم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: وهو وحده الذي أوجدكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: من آدم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وهم أيضًا من جنس نفس واحدة، أي: من جنس واحد، وفي هذا أيضًا زيادة منة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب «فمستقِر» بكسر القاف، اسم فاعل، وقرأ الباقون: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بفتحها، فيكون مصدرًا ميميًّا، أو اسم مكان، والفاء للتفريع، و«مستقر» مبتدأ خبره محذوف متقدم عليه، أي: فلكم مستقر، و«مستقر» اسم مكان، أي: مكان استقرار، والاستقرار هو القرار، فالسين والتاء فيه للتأكيد، يقال: استقر في المكان، أي: قرّ فيه. ويجوز كون «مستقر» مصدرًا ميميًّا.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، «مستودع» اسم مكان، على وزن اسم المفعول، أي: مكان استيداع،

---

(١) البيت يقال للسموأل بن عادياء. انظر: «ديوانه» ص٩٢.

ويجوز كونه مصدرًا ميميًّا بمعنى الاستيداع، والاستيداع: كون الشيء وديعة ثم يسترجع، يقال: استودعه مالًا إذا جعله عنده وديعة، ثم يسترجعه، فالاستقرار مؤذن بوضع دائم، والاستيداع مؤذن بوضع مؤقت. قال الشاعر:

وَمَا المَالُ وَالأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

وقد اختلف المفسرون على أقوال عدة في المراد بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾:

فقال كثير من المفسرين: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾، أي: في الأرحام، كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، أي: فمستقر، أي: رحم المرأة تستقر فيه النطفة.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، أي: في أصلاب الرجال، تحفظ فيه النطفة.

وقيل بالعكس: فمستقر في أصلاب الرجال ومستودع في الأرحام.

وأكثر المفسرين على القول الأول، واستظهره ابن كثير(١).

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال: «مستقر في الرحم، ومستودع في صلب لم يخلق سيخلق».

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال: «المستقر: الرحم، والمستودع: في أصلاب الرجال والدواب»(٢).

وعن سعيد بن جبير قال: قال لي ابن عباس: «تزوجت؟ قلت: لا. قال: فضرب على ظهري، وقال: ما كان من مستودع في ظهرك سيخرج»(٣).

وقيل: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾، أي: فوق الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦].

ومستودع في القبور حتى البعث(٤).

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٢٩٩).

(٢) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٣٦، ٤٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٥٥، ١٣٥٧).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٣٧).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٢).

وقال السعدي[١]: «وجعل الله لهم مستقرًّا، أي: منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار، التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا؛ ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها، وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة التي لا تستقر ولا تثبت، بل يُنتقل منها، حتى يُوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وممر».

وهذا من أجمع ما قيل في معنى الآية.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، أي: لقوم يفهمون الآيات ويعونها، أي: يفقهون عن الله آياته، ويفهمون حججه وبيناته، وينتفعون بها وهم المؤمنون؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه تعريض بالمشركين المعرضين عن آيات الله بأنهم قوم لا يفقهون.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

ذكر عز وجل منته، وكمال قدرته في خلق البشر من نفس واحدة، وما هيأ لها من مستقر ومستودع، ثم أتبع ذلك بذكر نعمته، ودلائل قدرته في إنزال المطر وإخراج النبات والخضروات والحبوب، وأنواع الأشجار والثمار وما في ذلك من الدلالة على عظيم خلقه، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: وهو وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، «من» ابتدائية، والسماء أعلى طبقات الجو؛ حيث يتكون السحاب والأمطار، والعرب تسمي كل ما علا سماء. وإنزال الماء من السماء من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وكمال عظمته، ودلائل قدرته؛ ولهذا يمتن الله تعالى به كثيرًا على عباده،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٤١-٤٤٢)، وانظر: «التحرير والتنوير» (٤/ ٣٩٧).

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩-١١].

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ﴿بِهِۦ﴾ الباء للسببية، والضمير المجرور عائد إلى الماء، أي: فأخرجنا بهذا الماء- أي: بسببه- نبات كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: ٥٣].

والنبات: اسم لما ينبت ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: كل شيء مما ينبت، أي: فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شيء، أي: كل صنف من أصناف النبت كلها، من النباتات والزروع والأشجار المختلفة الثمار والطعوم والألوان، مع أنها تسقى بماء واحد، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وقوله: ﴿نُّخْرِجُ﴾ إظهارًا لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ الجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿أَنزَلَ﴾ وهي تفصيل لمضمون جملة: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿مِنْهُ﴾، «من» ابتدائية، أو تبعيضية، والضمير المجرور عائد إلى النبات، أي: فأخرجنا من هذا النبات ﴿خَضِرًا﴾.

و«الخضر»: الذي لونه أخضر، أي: فأخرجنا من هذا النبات ﴿خَضِرًا﴾، أي: زرعًا وشجرًا أخضر رطبًا.

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ صفة لـ«خضرًا». «منه»، «من» ابتدائية، والضمير المجرور عائد إلى «خضرًا» ﴿حَبًّا﴾، الحب: هو ثمر الزروع كلها ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ صفة لـ«حبًّا»، أي: نخرج من الخضر حبًّا يركب بعضه فوق بعض، ويلتصق بعضه ببعض؛ كما في سنبل الحنطة والشعير والأرز والذرة ونحو ذلك.

وقد جعل الله عز وجل فوق كل حبة من الحبوب المتراكبة في السنبلة ما يشبه الإبرة. قيل: الحكمة في ذلك- والله أعلم- لمنع الطيور من التقاط هذه الحبوب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ معطوف على جملة الصلة ﴿أَنزَلَ﴾ أو على جملة ﴿نُّخْرِجُ﴾، أو على جملة ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾.

و«ال» في ﴿ٱلنَّخْلِ﴾ للجنس؛ لأن النخل أنواع وأجناس كثيرة، وهو أيضًا معهود عند العرب، وفي ذكره وما بعده من أنواع الأشجار بيان لما يخرج من النوى من الشجر، إثر بيان ما يخرج عن الحب من النباتات.

﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل من قوله: «من النخل»، و«طلعها» هو «الكفرى» قبل خروج القنو منه، أي: فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، «قنوان» جمع «قِنْو» بكسر القاف وضمها، وهو عرجون وعذق التمر والرطب، كالعنقود للعنب، قال امرؤ القيس:

فَأَثَّتْ أَعَالِيهِ وَآدَتْ أُصُولُهُ ... وَمَالَ بِقِنْوَانٍ مِنَ البُسْرِ أَحْمَرَا[1]

﴿دَانِيَةٌ﴾ صفة لـ«قنوان»، أي: قريبة التناول، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يعني بالقنوان الدانية قصار النخل لاصقة عذوقها بالأرض»[2].

وحتى لو طالت النخل فإن الله أوجد فيها كربًا ومراقي يسهل صعودها وجني رطبها من قنوانها المتدلية.

وقدم الزرع على النخل؛ لأن الزرع أعظم وأهم غذاء، وقدم الزرع والنخل على سائر الشجر؛ لأهميتهما، ولأن كلا منهما غذاء، وغيرهما من الأشجار فواكه، والغذاء

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٤٦) «اللسان» مادة «أيد» وهو في ديوان امرئ القيس (ص٥٧). وروايته هكذا:

سوامق جبَّار أثيث فروعه ... وعالين قنوانًا من البسر أحمرَا

فأَثَّت أعاليه: يقال: أثّ النبات: إذا كثر والتف. وآدت أصوله: قويت.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٤٦).

مقدم على الفاكهة.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ معطوف على «نبات»، أي: وأخرجنا به جناتٍ من أعناب، و«جنات» جمع «جنة»، وهي البساتين؛ سميت بذلك لأنها تجن، أي: تستر من بداخلها بكثرة أشجارها الملتفة وثمارها.

﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾، أي: مكونة من أعناب، و«أعناب» جمع «عنب» وهي جمع «عنبة»، وهو في الأصل ثمر العنب، ويطلق على الشجر نفسه.

وذكر الأعناب بعد النخل؛ لأن العنب من أفضل أنواع الفواكه؛ لكثرة منافعه، وقدمهما على غيرهما من الأشجار؛ لأن النخل والعنب من أفضل الأشجار، وثمرهما أطيب الثمار وخيارها.

ولهذا امتن الله بهما على عباده بقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] وذلك قبل التحريم. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [يس: ٣٤].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ معطوف على «نبات»، أي: وأخرجنا به الزيتون والرمان، والتعريف فيهما للجنس، وهما في الأصل اسم للثمرتين، ويطلقان على شجرتيهما.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ حالان من الزيتون والرمان معًا.

والاشتباه والتشابه مترادفان كالاستواء والتساوي؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، أي: يشبه الزيتون والرمان بعضه بعضًا في شجره وورقه، وغير متشابه في ثمره، شكلًا وطعمًا ولونًا وطبعًا.

ويجوز جعل الحال في قوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ من جميع ما تقدم من قوله: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فإن ذلك كله مشتبه وغير متشابه.

﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ثُمُره» بضم الثاء والميم، جمع «ثمار»، وقرأ الباقون: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ بفتحهما، جمع «ثمرة» والثمر: الجني الذي يخرجه الشجر.

أي: انظروا نظر اعتبار إلى ثمره ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، أي: حين ابتداء إثماره، وتفكروا في أطواره ومراحل نموه، وانتقاله من حال إلى حال ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ معطوف على «ثمره»، أي: وانظروا إلى ينعه.

و«الينع» الطّيْب والنضج، أي: وانظروا إلى إيناعه ونضجه وبلوغه حين يبلغ، فأمر عز وجل بالنظر إلى ثمره حين يثمر، أي: وقت طلعه ومراحل نموه، وإلى ينعه حين ينضج ويطيب ويبلغ؛ لما في ذلك من دلائل كمال قدرته وبديع صنعه، وعنايته بخلقه، ورحمته لهم ومنته عليهم، في تنوع الثمار واختلاف أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: ٤].

والضمير في قوله: «ثمره» «وينعه» يعود إلى أقرب مذكور وهو الزيتون والرمان، أي: انظروا إلى ثمر المذكور من الزيتون والعنب، أو يعود إلى كل ما ذكر من النخل والأعناب والزيتون والرمان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ﴾ الجملة تعليل للأمر بالنظر، والإشارة في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى المذكور كله من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ وتأويل اسم الإشارة بتأويل المذكور.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اللام للتوكيد، أي: إن في ذلك المذكور لعلامات ودلالات على كمال قدرة الله عز وجل وحكمته، ورحمته بعباده وعنايته بهم، واستحقاقه للعبادة وحده، وقدرته على إحياء الموتى وبعثهم.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لقوم يصدقون الله ويتبعون رسله، وخصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين يعتبرون ويتفكرون بالآيات وينتفعون منها؛ لأن إيمانهم يحملهم على التفكر والتدبر، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥].

وفي قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ دلالة على أنهم هم المقصودون بقوله تعالى في الآيتين قبلها: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿لِّقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾.

كما أن فيه تعريضًا بأن الذين لا يعلمون ولا يفقهون هم المشركون.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بنعمة الله تعالى بجعل النجوم للاهتداء بها في الظلمات، وما في ذلك من دلائل كمال قدرته، وبديع صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

٢- مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى «علم التسيير»، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا به.

٣- منة الله تعالى على العباد بتفصيل الآيات وبيانها، الآيات الكونية والآيات الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٤- أن الذين ينتفعون من تفصيل الآيات ويستفيدون منها هم ذوو العلم والفقه والمعرفة بالله تعالى، وما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وفي هذا تعريض بجهل الذين لا ينتفعون منها وعدم فقههم.

٥- فضل العلم والفقه في الدين؛ لأن ذلك سبب للانتفاع بالآيات وتدبرها.

٦- تذكير الناس بإيجادهم من نفس واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ لما في ذلك من دلائل كمال قدرته؛ إذ كيف وجد هذا الخلق العظيم من البشر مما لا يكاد يحصى من نفس واحدة.

ولما في ذلك من عنايته عز وجل بخلقهم، فجعل لهم مستقرًّا يستقرون فيه، ومستودعًا أودعهم فيه، وأحكم خلقهم وأطواره ومراحله.

ولما في ذلك من المنة عليهم في كونهم من جنس واحد؛ ليتعارفوا ويتعايشوا، ويسكن بعضهم إلى بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض إلى غير ذلك.

٧- امتنان الله تعالى، وبيان كمال قدرته بإنزال المطر، وإخراجه به نبات كل شيء، وإخراج الخضر من النبات، وإخراج الحب المتراكب من الخضر، والقنوان الدانية من النخل، وجنات الأعناب والزيتون والرمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾.

٩- أن من أعظم نعم الله تعالى على الخلق إنزال الماء من السماء، والذي به حياة كل شيء؛ النبات، والإنسان، والحيوان؛ ولهذا يمتن الله تعالى بذلك على العباد في آيات كثيرة.

١٠- أن كل ما علا يسمى سماء؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، والمطر لا ينزل من أجرام السموات، وإنما ينزل من طبقات الجو العليا.

١١- أن جميع أنواع النبات تحتاج إلى الماء؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

١٢- إثبات الأسباب؛ لأن إنزال الماء سبب خروج النبات.

١٣- أن الزرع والحبوب أهم النباتات؛ لأنه الغذاء الأول للناس؛ لهذا قدم في الآية.

١٤- أن من تمام نعمة الله تعالى كون قنوان النخل دانية التناول لا يتعسر جني ثمرها، سواء كانت من قصار النخل أو من طوالها؛ لما جعل الله فيها من المراقي التي تُسَهِّل صعودها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

١٥- أن ثمر النخل من أفضل وأهم الثمار، بل هو الغذاء الثاني بعد الحبوب؛ لهذا ذكر في الآية بعدها.

١٦- أن العنب من أفضل وأهم أنواع الفواكه؛ لهذا ذكر بعد النخل لكثرة منافعه.

١٧- أن من أفضل الأشجار وأعظمها نفعًا الزيتون، وكذا الرمان؛ لهذا ذكرهما الله عز وجل بعد النخل والعنب.

١٨- حكمة الله عز وجل في كون هذه النباتات والأشجار وثمارها متشابهة وغير متشابهة؛ لقوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

١٩- ينبغي النظر بتفكر واعتبار في ثمر هذه النباتات والأشجار وأطواره ومراحل نموه حتى نضجه وينعه، والتأمل في بديع صنع الله تعالى، وعظيم خلقه، وكمال قدرته.

٢٠- أن في إنزال الماء من السماء، وإخراج أصناف النبات من الحبوب وثمار النخيل والأعناب والزيتون والرمان وغير ذلك؛ دلالات على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ورحمته بعباده، وعنايته بهم، واستحقاقه وحده للعبادة دون سواه، وقدرته التامة على إحياء الناس وبعثهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢١- أن الذين يستفيدون من الآيات وينتفعون بها هم المؤمنون دون غيرهم لأن إيمانهم يحملهم على التفكر والاعتبار بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٢- التعريض بغير المؤمنين بأنهم لا يستفيدون من الآيات؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ الآية؛ هذا ذم للمشركين، ورد عليهم في إشراكهم مع الله في العبادة، والضمير في «جعلوا» يعود إلى المشركين المكذبين للنبي ﷺ من قريش وغيرهم، والذين سبق الكلام عنهم في مواضع عدة من السورة.

و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين، ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ«جعلوا» وقدم على مفعوليها؛ للاهتمام والاستفظاع والتشديد في الذم والإنكار عليهم.

و«شركاء» مفعول ثان لـ«جعل» قُدِّم؛ لأنه محل التعجيب والإنكار.

و«الجن» مفعول أول، أي: صيروا لله الجن شركاء، أي: عبدوهم مع الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وإشراكهم لله الجن من وجهين:

الأول: طاعتهم الشياطين والجن في أمرهم إياهم بالشرك بالله، وعبادة الأصنام، واتخاذ الأنداد والشركاء، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي

هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠-٦١]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤].

والوجه الثاني: جعلهم الجن شركاء لله في عبادتهم باعتقادهم سلطة الجن والشياطين، وتعوذهم بهم، وتقديمهم لهم القرابين، وترك التسمية على بعض الذبائح تقربًا لهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

بل إن بعضًا من المشركين تأثر بما عليه المجوس من عبادة الشياطين فعبدوها.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه قد خلقهم، والضمير المنصوب في «خلقهم» يحتمل أن يعود إلى ضمير «جعلوا»، أي: إلى المشركين، أي: كيف يجعلون له شركاء وهو خالقهم؟! وكيف يعبدون غيره وهو المستحق وحده للعبادة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

ويحتمل أن يكون الضمير في «خلقهم» عائدًا إلى الجن، أي: كيف يشركون الجن في العبادة مع الله وهم خلق من خلقه عز وجل؟!

ولا مانع من كون الضمير يعود إلى الجميع؛ العابدين وهم المشركون، وإلى المعبودين وهم الجن، فكلهم خلق لله تعالى، فيكون المعنى: والحال أنه قد خلقهم، وخلق شركاءهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «وخرّقوا» بتشديد الراء، وقرأ الباقون ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ بتخفيفها.

والمعنى: واختلقوا وافتعلوا وائتفكوا ونسبوا له بنين وبنات، فجعل المشركون الملائكة إناثًا، وقالوا: هم بنات الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

كما قال اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقال النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ«خرقوا» والباء للملابسة، أي: بغير علم استندوا عليه، بل عن جهل وضلال وكذب وتخرص، وبغير علم بحقيقة ما يقولون، وعن جهل بالله تعالى وعظمته.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل عما يصفه به الجهلة المشركون من الشركاء والأنداد والأولاد، و«سبحان» مصدر منصوب على أنه بدل من فعله، والتقدير: سبح لله سبحانًا.

و«سبحان» مضاف، وضمير الهاء مضاف إليه.

ومعنى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي: تنزه وتقدس، ﴿وَتَعَالَىٰ﴾، أي: ارتفع وتعاظم.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: عن الذي يصفونه به، أو عن وصفهم.

والمعنى: تنزه وتقدس وتعاظم عما يصفه به هؤلاء الجهلة الضالون المشركون؛ من الشركاء، والأنداد، والنظراء، والأولاد.

وفي هذا نفي لما وصفوه به، وإبطال لما زعموه، أي: أنه لا يتطرق إليه ذلك، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

نزه عز وجل نفسه وعظمها عما يصفه به الجهلة والمشركون؛ من الشركاء، والأنداد، والأولاد، ونفى ذلك وأبطله، ثم استدل على نفي ذلك وإبطاله، وعلل له بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، «بديع» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو بديع السموات والأرض، أي: مبدعها وخالقها ومنشئها على غير مثال سبق.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، «أنى» اسم استفهام بمعنى: كيف، ومن أين؛ لتقرير تنزهه عن الولد، أي: كيف يكون له ولد، و«ولد» يشمل الذكر والأنثى.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه لم تكن له صاحبة، و«الصاحبة»:

الزوجة؛ لأنها تصحب الزوج في معظم أحواله، أي: فيستحيل وجود الولد بلا زوجة، أي: بلا والدة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، من عطف العام على الخاص، أي: وخلق كل موجود، فيشمل ذوات السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، ومن ذلك: الملائكة والجن، ممن عبدهم المشركون مع الله، فكيف يسوون المخلوق بخالقه؟! وكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدًا لخالقه؟! تعالى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ذكر عز وجل تمام قدرته بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر بعد ذلك عموم خلقه لكل شيء، ثم أتبع ذلك بذكر عموم علمه لكل شيء، في إشارة إلى الدليل العقلي في ثبوت تمام قدرته وكمال علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام البديع، والخلق الباهر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «عليم»، وقدم عليه؛ لتأكيد شمول علمه لكل شيء.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: «بكل شيء» دون أن يقول: «به»؛ للتأكيد، ولتكون الجملة مستقلة الدلالة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المشار إليه هو الموصوف بالصفات المضمنة بالأخبار السابقة، والمعنى: ذلكم المبدع للسموات والأرض، الذي لا يمكن أن يكون له ولد، الخالق لكل شيء، العليم بكل شيء؛ هو الله الذي تعلمونه.

وأشار إلى نفسه عز وجل بإشارة البعيد «ذلك»؛ تعظيمًا لنفسه، واسم الإشارة في محل رفع مبتدأ.

ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر، أي: الله المألوه المعبود بحقٍّ؛ محبة وتعظيمًا. ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان، أي: خالقكم ومالككم ومدبركم ومربيكم بنعمه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة في محل رفع خبر ثالث للإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، و«لا» نافية، و«إلا» أداة حصر، أي: لا معبود بحق إلا هو. وهذا تكذيب للمشركين في جعلهم الجن شركاء لله.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، «خالق» خبر رابع لـ«ذلكم»، وهو اسم فاعل، أي: خالق كل موجود.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كانت هذه صفات الله تعالى فاعبدوه وحده؛ لأن الربوبية تستلزم الإلهية.

والمعنى: فأخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، بالتذلل والخضوع له، وطاعته والانقياد لشرعه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «وكيل» وقدم عليه؛ لتأكيد عموم وكالته سبحانه على كل شيء.

ومعنى: ﴿وَكِيلٌ﴾، أي: حفيظ ورقيب على كل شيء، ومدبر له، فكل شيء تحت وكالته عز وجل، خلقًا وملكًا، وتدبيرًا، ورزقًا وكلاءة وحفظًا.

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

تأكيد لتنزهه وتعاليه عن إفكهم أعظم تأكيد، ولوكالته ورقابته على كل شيء.

قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، «لا» نافية، و«الإدراك» هنا بمعنى الإحاطة، أي: لا تحيط به الأبصار، أي: أنه يُرى ولا تحيط به الأبصار؛ لعظمة جلاله وكماله.

قال ابن القيم: «وقد قرر شيخنا- يعني ابن تيمية رحمهما الله- وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها، فإن الله سبحانه وتعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال، ولا يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم، إلا إذا تضمن أمرًا وجوديًّا؛ كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة.. إلى أن قال: فلو كان المراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أنه لا يرى بحال، لم يكن في ذلك مدح ولا كمال؛ لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار.

والرب جل جلاله يتعالى أن يُمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإن المعنى أنه يرى ولا يدرك، ولا يحاط به.

فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية... فالرب تبارك وتعالى يرى ولا يدرك، ويعلم ولا يحاط به. وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية»[1].

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ بين هذه الجملة والتي قبلها طباق، أي: وهو يحيط بالأبصار ويعلمها؛ لأن علمه عز وجل أحاط بالظواهر والبواطن، وسمعه وسع جميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره أحاط بجميع المبصرات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قال ابن القيم[2]: «وتأمل حسن هذه المقابلة لفظًا ومعنى بين قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٧).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٦٩-١٧٠).

ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفى عليه؛ فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير».

وقال أيضًا: «ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل، وكشف عنه الحجاب شيئًا يسيرًا ساخ الجبل في الأرض وتدكدك، ولم يقم لربه تبارك وتعالى. وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال: ذلك الله عز وجل، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء. وهذا من بديع فهمه رضي الله عنه، ودقيق فطنته...

فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانًا، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له، وإن رأته، فالإدراك أمر وراء الرؤية. وهذه الشمس- ولله المثل الأعلى- نراها ولا ندركها كما هي، ولا قريبًا من ذلك؛ ولذلك قال ابن عباس لمن سأله وأورد عليه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أفتدركها؟ قال: لا. قال: فالله تعالى أعظم وأجل».

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

و«اللطيف» و«الخبير» اسمان من أسماء الله عز وجل، يدل «اللطيف» على دقة لطفه عز وجل، ويدل «الخبير» على دقة خبرته وسعة علمه، و«اللطيف» الذي يدرك الدقيق، و«الخبير» الذي يدرك الخفي.

و«اللطيف» أيضًا: المحسن إلى عباده، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قال ابن القيم(١):

وَهُـوَ اللَّطِيـفُ بِعَبْـدِهِ وَلِعَبْـدِهِ ... وَاللَّطْـفُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ

إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُـورِ بِحِكْمَـةٍ ... وَاللَّطْـفُ عِنْـدَ مَوَاقِـعِ الإِحْسَـانِ

و«الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهر

(١) في «النونية» (ص١٤٩).

الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى، فهو أخص من «العليم».

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين، والرد عليهم في جعلهم الجن شركاء لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾، أي: وقد خلقهم وآباءهم، فكيف يتركون عبادة خالقهم المستحق للعبادة وحده؟! وكيف يعبدون من دونه مخلوقًا مثلهم لا يملك نفعًا ولا ضرًّا؟!

٢- إشراك المشركين الجن مع الله في العبادة في طاعتهم لهم بعبادة الأصنام ونحو ذلك، وبتعظيمهم للجن، والاستعاذة بهم، وتقديم القرابين لهم، ونحو ذلك.

٣- إثبات وجود الجن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

٤- كذب المشركين، وافتراؤهم على الله في نسبة البنين والبنات له بغير علم، بل عن جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٥- تنزيه الله تعالى نفسه وتعظيمها عما وصفه به المشركون من شركاء الجن، ومن البنين والبنات، ونفي ما زعموه وإبطاله؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

٦- تأكيد نفي ما نسبه المشركون الجهلة لله من الشركاء والأنداد والأولاد، والاستدلال والتعليل لبطلان ذلك وإثبات كماله عز وجل وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٧- إثبات تمام قدرة الله تعالى بإيجاده السموات والأرض على غير مثال سبق؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٨- الإنكار والتعجيب ممن يزعمون نسبة الولد له، والتكذيب لهم إذ يستحيل أن يوجد ولد من غير زوجة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾.

٩- تنزيه الله تعالى نفسه عن الصاحبة، كما نزه نفسه عن الولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ٣].

١٠- ارتباط المسببات بأسبابها الكونية، فوجود الولد جعله الله كونًا بسبب اقتران الزوجين، إلا ما كان من معجزة خلق الله تعالى لعيسى عليه السلام؛ حيث خلق من أم بلا أب، كما خلق تعالى آدم من تراب.

١١- إثبات خلق الله عز وجل لكل شيء، وكمال قدرته وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

١٢- إثبات سعة علم الله عز وجل وإحاطته بكل شيء؛ لقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٣- أن الدليل العقلي في إثبات تمام قدرة الله تعالى وكمال علمه هو هذه المخلوقات العظيمة، والسموات والأرض، وغيرها من جميع المخلوقات؛ لأن الله تعالى ذكر بديع صنعه السموات والأرض الدال على كمال قدرته، ثم ذكر عموم خلقه لكل شيء، ثم أتبع ذلك بذكر عموم علمه لكل شيء.

١٤- تعظيم الله تعالى لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٥- أن المستحق للعبادة وحده هو الموصوف بالصفات المذكورة بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٦- إثبات الإلهية لله عز وجل وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

١٧- إثبات تفرده عز وجل بالإلهية، كما تفرد بالربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وفي هذا تكذيب للمشركين في جعلهم الجن شركاء لله.

١٨- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾.

١٩- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية؛ لأن الله ذكر إبداعه خلق السموات والأرض، وخلقه لكل شيء، وعموم ربوبيته لهم، ثم أتبع ذلك بأمرهم بعبادته.

٢٠- إثبات وكالته عز وجل ورقابته على كل شيء، مما يوجب الالتجاء إليه وحده ومراقبته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

٢١- نفي إحاطة الأبصار به عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي: أنه سبحانه يُرى ولكن لا تحيط به الأبصار.

٢٢- دلت الآية بمفهومها على إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة،؛ لأن نفي الإدراك- الذي هو أخص أوصاف الرؤية- يدل على أن الرؤية ثابتة، فلو أراد نفي

الرؤية لقال: «لا تراه الأبصار».

وعلى هذا فليس في الآية حجة لمذهب المعطلة والمعتزلة، الذين ينفون رؤية الله عز وجل في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى في الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، وقال ﷺ: **«إنكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر، لا تُضامُون في رؤيته»**(١).

أما في الدنيا فالإجماع على أنه تعالى لا يرى في الدنيا، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: **«نورٌ أنّى أراه؟»**(٣).

٢٣- إحاطة الله تعالى بالأبصار، وعلمه بها، وإحاطته بكل شيء علمًا وسمعًا وبصرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

٢٤- إثبات اسم الله تعالى «اللطيف»، وما يدل عليه من صفة اللطف بعباده، والإحسان إليهم، ومن صفة اللطف بإدراك دقائق الأمور.

٢٥- إثبات اسم الله «الخبير» وما يدل عليه من سعة خبرته عز وجل بإدراك بواطن الأمور وخفياتها.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤)، ومسلم في المساجد (٦٣٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٢٩)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥١)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٧)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٥)، ومسلم في الإيمان (١٧٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٨).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٨٢).

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾، «قد» حرف تحقيق، والخطاب عام لجميع الناس، أي: قل يا محمد: قد جاءكم بصائر من ربكم، و«بصائر» جمع «بصيرة»، و«البصيرة» العقل الذي تدرك به المعاني والحقائق، كما أن البصر إدراك العين الذي تتجلى به الأجسام.

وتطلق «البصيرة» على ما هو سبب فيها، وهو المراد هنا، أي: قد جاءكم آيات بينات، ودلائل ظاهرة، وبراهين ساطعات، وحجج واضحات، فيها بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والإيمان من الكفر، وإقامة الحجة، فلا عذر لمن استمر منكم على الضلال.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ«بصائر»، أي: نازلة من ربكم، فيما أوحاه إلى رسوله ﷺ في الكتاب والسنة.

وفي هذا تعظيم لها؛ لأنها من عند ربهم العظيم، وحث على التفكر فيها، والانتفاع بها؛ لأنها من عند ربهم ذي الإنعام عليهم والعناية بهم.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء عاطفة، و«من» شرطية، ﴿أَبْصَرَ﴾ فعل الشرط ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، أي: فلنفسه أبصر، لا لغيره؛ لأن نفع ذلك عائد إليه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

والمعنى: فمن تفكر في هذه البصائر، وأبصر الحق وعرفه، واتبعه وعمل به؛ فمنفعة ذلك لنفسه.

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ جملة شرطية كالتي قبلها معطوفة عليها، أي: ومن عمي قلبه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦] والمعنى: ومن عمي قلبه عن التفكر والاعتبار بهذه البصائر، وعمي عن الحق، وكابر واستمر على الضلال، فضرر ذلك عائد على نفسه لا على غيره، كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

وبين «بصائر» و«أبصر» جناس اشتقاق، وبين «أبصر» و﴿عَمِيَ﴾، وبين «اللام» و«على»؛ طباق.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق ﴿بِحَفِيظٍ﴾ وقدم للاهتمام ومراعاة الفاصلة.

والمعنى: وما أنا عليكم برقيب أحفظ أعمالكم وأقوالكم، وأحصيها عليكم، أو ألزمكم اتباعي، وإنما أنا مبلغ عن الله تعالى رسالته إليكم، وهو سبحانه الحفيظ عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، «الكاف» للتشبيه بمعنى «مثل» والإشارة لما سبق في الآيات، أو في السورة كلها، أو في القرآن كله.

أي: مثل تصريفنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد، وإبطال الشرك، ونفي الشركاء والأنداد، والصاحبة والأولاد، وبيان الحق، مثل ذلك نصرف غيرها من الآيات، أو مثل تصريفنا للآيات كلها نصرف الآيات في هذه السورة.

ومعنى: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: نبينها وننوعها. والمراد بالآيات هنا الآيات الشرعية المنزلة من عند الله تعالى، والتي فيها البيان والتنبيه للآيات الكونية.

﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دارسْت» بألف بعد الدال، وإسكان السين، أي: قارأت يا محمد أهل الكتاب، أي: قرأت عليهم وقرؤوا عليك، أو قارأتهم وخاصمتهم وجادلتهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب «دَرَسَتْ» بغير ألف، وفتح السين، وإسكان التاء، أي: انمحت وتقادمت وتكررت، أي: هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديمًا وتطاولت مدته.

وقرأ الباقون: ﴿دَرَسْتَ﴾ بغير ألف، مع إسكان السين، وفتح التاء، أي: قرأت وتعلمت يا محمد على أهل الكتاب أو غيرهم.

ومرادهم على القراءات الثلاث أن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من كلام البشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤-٥]، كما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥].

واللام في ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ للتعليل، أي: ولأجل أن يقولوا: درست، أي: لأجل الابتلاء والامتحان لهم؛ ليقولوا هذا.

ويحتمل كون اللام لام العاقبة والصيرورة، أي: لتكون العاقبة أن يقولوا كذا؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي: لتكون العاقبة أن يكون لهم عدوًا وحزنًا.

و«الدراسة»: القراءة بتمهل للحفظ أو للفهم.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ الواو عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن نبينه ونوضحه ونفصله. والضمير يعود إلى القرآن؛ لأنه معلوم من السياق.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لقوم ينتفعون بعلمهم، ويستفيدون من تصريف الآيات وبيان القرآن معرفة الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه، وهم المؤمنون، كما قال تعالى قبل هذا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ولله تعالى الحكمة البالغة، والحجة الدامغة في تصريف الآيات وبيان القرآن؛ إقامة للحجة، وإعذارًا وإنذارًا، وابتلاءً واختبارًا، قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]،

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة طعن من طعن في رسالته ونبوته بقولهم: ﴿دَرَسْتَ﴾ ثم أتبع ذلك بأمره باتباع ما أوحي إليه من ربه، والثبات على ذلك، والإعراض عن المشركين، وعدم المبالاة بهم وبما هم عليه من الشرك والكيد له ﷺ ولدعوته، وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه.

قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و«ما» موصولة، أي: اتبع الذي أوحي إليك من ربك في القرآن والسنة، أي: اقتد به، واتبع أثره، واعمل به، فهو الحق الذي لا مرية فيه؛ لأنه من ربك عز وجل.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فيه إشعار له ﷺ بعناية الله تعالى به، وإشارة إلى ربوبيته عز وجل له الربوبية الخاصة بأوليائه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة معترضة بين قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لتأكيد أن ما أوحي إليه من ربه هو الحق الذي لا مرية فيه، وتقرير كمال ألوهيته ووحدانيته عز وجل، وإغاظة المشركين.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ٱتَّبِعْ﴾، أي: أعرض عن مكابرتهم وعنادهم، ولا تبال بهم وبأقاويلهم الباطلة، واحتمل أذاهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وليس المراد الإعراض عن دعوتهم وموعظتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالإعراض عن المشركين، ثم بين له أن لله تعالى الحكمة في إضلالهم، فلو شاء ما أشركوا، وأنه لا تبعة عليه ﷺ في إعراضهم؛ لأن الله لم يجعله عليهم حفيظًا، وما هو ﷺ عليهم بوكيل. وفي هذا تسلية له ﷺ، وطمأنة لقلبه، وتقوية له.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ مفعول «شاء» محذوف، تقديره: ولو شاء الله إيمانهم.

والمعنى: ولو أراد الله تعالى كونًا إيمانهم وعدم إشراكهم ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، أي: ما وقع منهم الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولله الحكمة البالغة في ذلك كله يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ الواو عاطفة، و«ما» نافية، و«جعل» بمعنى «صير» تنصب مفعولين: الأول: كاف الخطاب، والثاني: «حفيظًا»، والخطاب للنبي ﷺ، أي: وما صيرناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيبًا تحفظ أعمالهم وأقوالهم، وتحصيها عليهم، أو تكرههم على الإسلام، وإنما أنت مبلغ عن الله تعالى، وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تكترث بهم.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الواو عاطفة، «ما» نافية، ﴿عَلَيْهِم﴾ متعلق بـ«وكيل» وقدم عليه؛ لتأكيد نفي وكالته عليهم، و«الوكيل» الذي يعتمد عليه في تدبير الأمور التي وكل فيها.

والمعنى: ولست عليهم بوكيل تتولاهم، وتدبر أمورهم، وتلزمهم اتباعك. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، وطمأنة له، أي: لا تحزن، ولا تكن في ضيق؛ لضلال من ضل منهم، فلم يجعلك الله على أعمالهم حفيظًا، ولست عليهم بوكيل تدبر أمورهم، أو تلزمهم اتباع الحق.

وفيه إشارة إلى أن مهمته ﷺ البلاغ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢١]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على الخلق، والامتنان عليهم بما جاءهم من بصائر وآيات

وبراهين من ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٣- أن من أبصر وتفكر في آيات الله الشرعية والكونية، وعرف الحق واتبعه؛ فلنفسه أبصر، ومنفعة ذلك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

٤- أن من عمي عن التفكر والاعتبار في آيات الله وما فيها من البصائر والبراهين وعمي عن الحق وكابر بالاستمرار على الضلال فلا يضر إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

٥- الترغيب في التفكر في آيات الله، والتحذير من العمى والإعراض عنها.

٦- العدل في مجازاة الناس، فكل يجزى بعمله، ولا تزر وازرة وزر أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

٧- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى وليس برقيب على الناس، يحفظ أعمالهم وأقوالهم، ويحصيها عليهم، أو يلزمهم اتباعه، ولم يجعله الله كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

٨- تكذيب المشركين للنبي ﷺ، ولما جاء به من عند الله؛ لقولهم: ﴿دَرَسْتَ﴾، أي: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب.

٩- أن في تصريف الآيات ابتلاءً واختبارًا للمكذبين؛ لقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾.

١٠- امتنان الله تعالى على العباد بتصريف الآيات وتنويعها، وبيان القرآن؛ لما في ذلك من إظهار الحق وبيانه، وإبطال الباطل وإزهاقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، وقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾.

١١- تماثل تصريف الآيات وبيانها وتنويعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: مثل ما صرفنا الآيات في هذه السورة نصرف غيرها من الآيات، أو مثل ما صرفنا الآيات كلها نصرف الآيات في هذه السورة.

١٢- أنه إنما ينتفع بتصريف الآيات وبيان القرآن أهل العلم الذين ينتفعون

بعلمهم، فيعرفون بذلك الحق ويتبعونه؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفي هذا تعريض بأهل الجهل؛ لأن جهلهم لا يزيدهم إلا ضلالًا، كما أن فيه تعريضًا بالمشركين بأنهم لا يعلمون.

١٣- تقوية قلب النبي ﷺ بأمره باتباع الذي أوحي إليه من ربه، والثبات عليه؛ لأنه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٤- أن ما جاء به ﷺ من الشرع هو مما أوحاه الله تعالى إليه في القرآن والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤].

١٥- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وخطابه له، وربوبية الله تعالى له الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿جَعَلْنَاكَ﴾، ﴿وَمَا أَنتَ﴾.

١٦- تقرير تفرده عز وجل بالألوهية والوحدانية وتأكيد أن ما أوحاه إلى رسوله ﷺ هو الحق، وإغاظة المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٧- تسليته ﷺ بأمره بالإعراض عن المشركين، وعدم المبالاة بهم، وما هم عليه من الكيد له ﷺ ولدعوته، وأنه تعالى لو شاء ما أشركوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾.

١٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾.

١٩- لا شيء يحصل في الكون؛ من شرك، أو إيمان، أو غير ذلك من الأمور الحسية والمعنوية إلا بمشيئة الله تعالى وتقديره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

٢٠- أن الرسول ﷺ ليس بوكيل على المشركين يتولاهم ويدبر أمورهم، أو يلزمهم اتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وإنما هو مبلغ عن الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

سبب النـزول:

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك؛ فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾».

وعن قتادة قال: «كان المسلمون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يستسبوا لربهم»(١).

قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية. والخطاب للمؤمنين.

والسب: الشتم والذم والتعيير، والتحقير والتنقص للمسبوب، بحق أو بباطل.

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: الآلهة التي يدعوها المشركون من دون الله، أي: غير الله، دعاء عبادة، أو دعاء مسألة.

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وفي ضمير الواو في ﴿يَدْعُونَ﴾ تغليب لجانب العالم؛ إما نظرًا لاعتقادهم في هذه المعبودات النفع والضر، فأجريت مجرى العالم، أو لأن مِن بينها مَن يوصف بالعلم؛ كالملائكة والمسيح وعزير.

﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جواب النهي. والفاء للسببية. قرأ ابن كثير في رواية: ﴿عَدُوًّا﴾ بضم الدال وتشديد الواو، وقرأ يعقوب ﴿عُدُوًّا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، وقرأ الباقون بفتح العين وإسكان الدال وتخفيف الواو ﴿عَدْوًۢا﴾.

و﴿عَدْوًۢا﴾ حال مؤكدة، أو مفعول مطلق نائب عن المصدر، أو مفعول لأجله، أي: فيسبوا الله عدوانًا وظلمًا. وفي هذا تعريض بأن سب المؤمنين لآلهة المشركين ليس من الاعتداء.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بغير علم منهم بما ينبغي له عز وجل من التعظيم والإجلال،

---

(١) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٦).

وعن جهل منهم بعظم جرم سبه عز وجل.

فنهى الله عز وجل المؤمنين عن سب آلهة المشركين حتى لا يؤدي ذلك إلى سب المشركين الله عدوًا بغير علم. وهذا من باب سد الذرائع.

قال السعدي رحمه الله(١): «وفي هذه الآية دليل للقاعدة الشرعية، وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر».

ولهذا قال ﷺ كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**»(٢).

وفي رواية: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه**»(٣).

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ الكاف: للتشبيه، بمعنى «مثل».

والإشارة إلى ما سبق من دعائهم غير الله، وسبهم لله عدوًا بغير علم، أي: مثل تزييننا لهؤلاء دعاءهم من دون الله، وسبهم لله عدوًا بغير علم، زينا لكل أمة عملهم.

والتزيين: التحسين، فمعنى زيّنا لكل أمة عملهم، أي: حسَّنا لكل أمة من الأمم، وكل جماعة من الناس عملهم، طاعة كان أو معصية، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «زينا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر»(٤).

فالتزيين منه ما هو كوني، ومنه ما هو شرعي، فمن آمن وأطاع الله عز وجل فهو ممن زُين له الإيمان والطاعة شرعًا كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

---

(١) في «تيسر الكريم الرحمن» (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٢).

(٣) أخرجها البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، وأبوداود في الأدب (٥١٤١).

(٤) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٦١).

ومن كفر وعصى الله عز وجل فهو ممن زُين له الكفر والمعصية كونًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾، أي: مردهم ومعادهم ومصيرهم بالبعث بعد الموت.

وقدّم الخبر وهو قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾؛ لإفادة الحصر، أي: إلى ربهم وحده مرجعهم ومصيرهم، لا إلى سواه.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيخبرهم، والنبأ: الخبر الهام العظيم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فيخبرهم بالذي كانوا يعملون أو بعملهم في الدنيا، ويحاسبهم ويجازيهم عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن سب آلهة المشركين التي يدعونها من دون الله؛ لما يتسبب عن ذلك من مسبة المشركين لله، عدوانًا بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢- سد الذرائع المؤدية إلى الشر، وأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، فإذا ترتب على فعل ما فيه مصلحة أو ما هو جائز مفسدة أكبر أو فعل ما لا يجوز؛ وجب ترك ذلك الفعل.

٣- التعريض بذم آلهة المشركين، وأن سبها في الأصل جائز؛ لأنها لا حرمة لها، ولا تنفع ولا تضر، بل ضرها أقرب من نفعها، لكن نُهي عن سبها؛ لئلا يؤدي إلى سب المشركين لله عز وجل.

٤- تحريم سب الله عز وجل وأنه كفر، لا يجترئ عليه إلا أهل الكفر والشرك والعدوان والظلم، والجهل بما ينبغي لله عز وجل من التذلل والخضوع والتعظيم

والإجلال.

٥- إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا﴾ بضمير العظمة وهو العظيم سبحانه وتعالى.

٦- كما زين عز وجل كونًا وقدرًا لهؤلاء المشركين دعاء غير الله، وسب الله، زين لكل أمة من الأمم وكل جماعة من الناس عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، أي: زينا شرعًا الإيمان والطاعة للمؤمنين، وزينا كونًا الكفر والمعصية للكافرين والعاصين.

٧- إثبات تقدير الله عز وجل للأعمال كلها، خيرها وشرها، وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون تقدير الله عز وجل لأعمال العباد.

٨- إثبات البعث والمعاد وتأكيد مرجع جميع الخلائق ومصيرهم إلى ربهم وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾.

٩- إخبار الله عز وجل للخلائق بجميع أعمالهم خيرها وشرها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وخالف أمر الله عز وجل.

١٠- علم الله عز وجل المحيط بالخلق وأعمالهم؛ لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١١- إثبات قاعدة من القواعد الشرعية، وهي قاعدة «سد الذرائع»، فإذا كان سب آلهة المشركين- وهو في الأصل جائز، بل مشروع للتحذير منها- إذا كان يؤدي إلى سب المشركين لله تعالى حرم سب آلهتهم؛ لأنه يفضي إلى مفسدة أكبر من المصلحة في سب آلهتهم، وهذه المفسدة هي سب المشركين لله، تعالى الله وتقدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قال ابن القيم[1]: «فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين- مع كون السب غيظًا، وحمية لله تعالى، وإهانة لآلهتهم- لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبَّته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه، بل كالتصريح على المنع من

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٧٠).

الجائز؛ لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز».

فإذا كان فعل المأمور- كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- يؤدي إلى مفسدة أكبر من مصلحة فعل ذلك المأمور؛ وجب ترك المأمور سدًّا للذريعة؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح خاصة إذا كانت المفسدة المترتبة على فعل المأمور تفوق المصلحة المترتبة على تركه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾، أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول ﷺ بالله، أي: حلفوا بالله.

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، «جهد» مفعول مطلق، أو مصدر في موضع الحال، أي: مجتهدين أو جاهدين، و«الجهد» بذل الجهد والوسع والطاقة، «أيمانهم» جمع «يمين»، أي: وحلفوا بالله غاية أيمانهم ونهايتها، أي: الأيمان المؤكدة المغلظة.

﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن جاءتهم آية، أي: خارق للعادة ومعجزة تدل على صدق النبي ﷺ غير القرآن، بل مما اقترحوه من الآيات؛ كقولهم: اجعل لنا الصفا ذهبًا، وغير ذلك، مثل آية صالح، وآية عيسى عليهما السلام.

ونكرت «آية» للتعميم، أي: أي آية كانت ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله ليؤمنن بها، أي: ليصدقنها. وهذا من تعليلاتهم؛ للتمادي على الكفر بعدما جاءهم في القرآن الكريم من الآيات الظاهرة، والدلائل الواضحة، والحجج الدامغة الدالة على صدق رسالته ﷺ، وأن ما جاء به حق لا مرية فيه مما لا مزيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك آية، تعنتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الاسترشاد.

﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: إنما الآيات عند الله تعالى وحده،

فهو القادر وحده على الإتيان بها، يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، إن شاء أجابكم، وإن شاء تركَكم.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف وأبو بكر في رواية عن عاصم بكسر همزة: ﴿إِنَّهَآ﴾ على الاستئناف، وقرأ الباقون بفتحها ﴿أَنَّهَآ﴾ على أنها مفعول ثان لـ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾.

كما قرأ ابن عامر وحمزة وخلف: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بتاء الخطاب على أن الخطاب في قوله: ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ للمشركين، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ على أن الخطاب في ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ للرسول ﷺ والمؤمنين.

وعلى كون الخطاب في الآية للرسول والمؤمنين- وهو المناسب لقراءة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بياء الغيبة- يكون الاستفهام؛ لتحقيق ذلك عند المؤمنين، ويترجح كون جملة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ كلامًا مستقلًّا وَجّهه الله عز وجل إلى المؤمنين، وليس مما أمر الرسول ﷺ أن يقوله بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، والتقدير على قراءة كسر همزة «إنها»، أي: وما يشعركم أيها المؤمنون ما يكون منهم، أي: وما يدريكم، وما يعلمكم.

ثم أخبر عن علمه فيهم فقال: «إنها إذا جاءت» يعني الآية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يصدقون، ولا يحصل منهم ما أقسموا عليه من الإيمان بالآية إذا جاءتهم، فهي استئناف إخبار بعدم إيمان من طبع على قلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

أما على قراءة فتح الهمزة «أنها» فيحتمل أن تكون «أن» بمعنى «لعل»، أي: وما يشعركم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءت لا يؤمنون؛ كما في قول عدي بن زيد العبادي[1]:

أَعَاذِلَ مَا يُدْرِيكَ أَنَّ مَنِيَّتِي ... إِلَى سَاعَةٍ فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الغَدِ

أي: لعل منيتي.

وقول دريد بن الصمة:

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٠٣).

ذَرِينِـي أَطَـوِّفْ فِي الـبِلَادِ لِأَنَّنِـي أَرَى مَـا تَـرَيْنَ أَوْ بَخِـيلًا مُخَلَّـدًا(١)

أي: لعلي.

ويحتمل أن المعنى: وما يشعركم، وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، أي: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وأنتم أيها المؤمنون لا تدرون ذلك.

وقال بعضهم: «لا» صلة، أي: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، ويكون التقدير: وما يشعركم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت يؤمنون. والمعنى على هذا: أنها لو جاءت لم يؤمنوا؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥]، أي: أن تسجد، وقيل غير ذلك.

وعلى كون الخطاب في «يشعركم» للمشركين- وهو المناسب لقراءة «تؤمنون» بتاء الخطاب- يكون المعنى: وما يدريكم بصدقكم بهذه الأيمان التي تقسمون بها، ثم استأنف فقال: «إنها إذا جاءت لا تؤمنون» وعلى هذا يترجح أن تكون جملة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ مما أمر الرسول ﷺ أن يقوله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، أي: من جملة مقول القول، والاستفهام على هذا للإنكار والتوبيخ للمشركين.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

في هذه الآية تأكيد لعدم إيمانهم في الآيات في ثاني الحال عقوبة لهم على كفرهم بها أول مرة.

قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ الواو استئنافية، وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع ضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى، و«التقليب» تحويل الشيء.

﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾، «أفئدة» جمع «فؤاد» وهي القلوب، وتقليب الأفئدة والقلوب وتحويلها عن وجهها الذي فيه تعي وتعقل، وتتفكر وتتدبر الآيات إلى كونها لا تعي ولا تعقل، ولا تتفكر ولا تتدبر، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٤٨٨)، «الأصمعيات» (ص١١٣).

[الحج: ٤٦].

﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾، أي: ونقلب أبصارهم ونزيغها عن وجهها الذي فيه تبصر الآيات وتشاهدها وتنتفع بها، إلى كونها لا تبصر ولا تشاهد ولا تنتفع بما أبصرت وشاهدت، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والمعنى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾، أي: نحول بين قلوبهم وبين معرفة الحق والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

ونحول بين أبصارهم وبين رؤية الآيات والنظر فيها والاستفادة منها، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

أي: نقلب قلوبهم وأبصارهم- وهما أعظم وسيلتين لوصول الهدى إليهم- فلا يهتدون، ولا يؤمنون. وقدّم الأفئدة على الأبصار؛ لأن القلب هو محل الصلاح، وهو أمير الجوارح.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه، و«ما» مصدرية، والضمير في «به» يعود إلى القرآن، وهو معلوم من السياق، أي: تقليبًا مثل ما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة جاءهم.

والمعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، ونحول بينهم وبين الإيمان؛ عقوبة لهم؛ لعدم إيمانهم بالقرآن أول مرة جاءهم، فتضمنت كاف التشبيه نوعًا من التعليل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقد استحسن هذا ابن القيم فقال: «وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل».

وقال أيضًا: «فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم، فلم يهتدوا له».

وقال أيضًا: «فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك».

وقال أيضًا: «والذي حسّن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر»(١).

وهذا هو الأظهر في معنى الآية، فحيل بينهم وبين الإيمان في ثاني الحال؛ لعدم إيمانهم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

وقيل: المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينهم وبين الإيمان بالآيات، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية؛ ولهذا كان النبي ﷺ يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»، قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، دعوة كثيرًا ما تدعو بها، قال: «**إنّه ليس من عبدٍ إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرّحمن كقلبٍ واحدٍ، يصرّفه كيف يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللّهمّ يا مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك**»(٤).

﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نتركهم وندعهم.

﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد، أي: في كفرهم وتماديهم في الغي والضلال والمكابرة والعناد.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويترددون ويتمادون، ولا يهتدون إلى الحق.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٧١-١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٩١).

(٣) أخرجه الترمذي في القدر، ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه مسلم في القدر، تصريف الله القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

نفى عز وجل في الآيتين السابقتين إيمان هؤلاء المكذبين المعاندين، ثم بين في هذه الآية استحالة إيمانهم مهما جاءهم من الآيات، إلا أن يشاء الله ذلك.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الواو استئنافية، أي: ولو أننا نزلنا إلى هؤلاء المقسمين بقولهم: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ الملائكة حتى رأوهم عيانًا وأخبروهم بالرسالة من الله بصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله كما اقترحوا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٢].

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بإحياء الله لهم، وتكليمهم لهؤلاء المكذبين بصدقه ﷺ فيما جاء به من الوحي وتقرير البعث، كما قالوا: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: ٣٦].

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾، «الحشر» الجمع، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٧]، أي: جمعوا له، ومعنى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾، أي: وجمعنا عليهم، وسقنا إليهم كل شيء من الحيوانات والنباتات والجمادات وغير ذلك، أو مما سألوه، أو من خوارق العادات والآيات.

﴿قُبُلًا﴾ حال، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «قِبَلًا» بكسر القاف وفتح الباء، أي: مقابلة ومواجهة ومعاينة، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ: أنبيًّا كان آدم؟ فقال: «**نعم كان نبيًّا كلّمه الله قِبَلًا**»(١).

وقرأ الباقون: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباء، أي: مقابلة ومواجهة ومعاينة، أو هي

---

(١) أخرجه أحمد من حديث طويل عن أبي أمامة رضي الله عنه (٥/ ٢٦٥-٢٦٦) وهو حديث ضعيف عند عامة أهل العلم.

جمع «قبيل»، أي: وحشرنا عليهم كل شيء قبيلًا قبيلًا، وصنفًا صنفًا، وأفواجًا أفواجًا.

أي: وجمعنا عليهم كل شيء قبلا، فأخبروهم بصدقه ﷺ.

وقال بعضهم معنى «قبلًا»، أي: ضمناء وكفلاء يضمنون ويكفلون لهم ما وعدوا به على ألسن الرسل إن هم آمنوا، وما تُوعِّدوا به إن هم كفروا.

﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾، «ما» نافية، واللام في ﴿لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ للتوكيد، وهذا أبلغ من لو قال: «لا يؤمنون»، أي: ما كانوا ليؤمنوا؛ لغلوهم في التمرد والطغيان وأسباب الشقاء.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: إلا أن يشاء الله إيمانهم، أي: إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته أن يؤمنوا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، أي: ولكن أكثر هؤلاء المكذبين يجهلون أنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا إلا أن يشاء الله، وأن الإيمان بمشيئة الله تعالى، لا بخوارق العادات، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام المشركين المكذبين الأيمان المؤكدة؛ تعليلًا لتماديهم في الكفر لئن جاءتهم آية ليؤمنون بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا﴾.

٢- أن المشركين يقسمون بالله ويعظمونه، لكن ذلك لا ينفعهم مع شركهم بالله تعالى.

٣- تعنت المشركين وعنادهم في اقتراحهم وطلبهم الآيات، مع ما جاءهم في القرآن الكريم من الآيات الواضحة، والدلائل الظاهرة، والحجج الدامغة الدالة على صدق النبي ﷺ.

٤- أن القادر على إرسال الآيات أو منعها هو الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٥- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾.

٦- نفي إيمان هؤلاء المكذبين المقترحين للآيات، حتى ولو جاءتهم كل آية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٧- أن المؤمنين لا يدرون، ولا يعلمون بعدم إيمان هؤلاء المعاندين، ولو جاءتهم كل آية، بل هؤلاء المعاندون أنفسهم لا يعلمون أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أو. «لا تؤمنون»

٨- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه عن نفسه بضمير الجمع ﴿وَنُقَلِّبُ﴾، ﴿نَزَّلْنَآ﴾، ﴿وَحَشَرْنَا﴾ وبالإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٩- أن الله قد يحول بين المرء وقلبه، فيحول بينه وبين الإيمان، فلا يعي قلبه، ولا يتفكر، ولا يتدبر الحق ولا الآيات، ولا يرى بصره الآيات، ولا ينتفع بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾.

١٠- ينبغي سؤال الله ثبات القلب على الدين والحق، ورؤية البصر ومشاهدته للآيات، والانتفاع بذلك، وقد كان ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»(١).

١١- أن القلب هو أمير الأعضاء وأفضلها؛ لهذا قدم على البصر في قوله: ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾.

١٢- أن الأفئدة والأبصار هي أهم وسائل معرفة الإنسان للحق ووصوله إليه.

١٣- أن الكفر سبب للكفر بعده، والمعصية سبب للمعصية بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١٤- إمهال الله للكافرين، وتركهم يتمادون في طغيانهم، ويترددون في عماهم وحيرتهم؛ عقوبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

١٥- استحالة إيمان هؤلاء المذكورين مهما جاءهم من الآيات التي اقترحوها؛ من تنزيل الملائكة عليهم، وإحياء الموتى لهم، وحشر كل شيء عليهم قبلًا، إلا أن يشاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا

---

(١) سبق تخريجه.

كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٦- أن كل شيء إنما يكون بمشيئة الله تعالى، حتى الإيمان والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا رد على المعتزلة.

١٧- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَآ﴾.

١٨- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

١٩- قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وجعلهم يتكلمون، وحشر كل شيء من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾.

٢٠- جهل هؤلاء المكذبين أنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا إلا أن يشاء الله، وجهلهم أن الإيمان بمشيئة الله تعالى لا بخوارق العادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

٢١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فتح باب الأمل للمسلمين بأنه قد يؤمن هؤلاء أو بعضهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة تكذيب المشركين له ﷺ، وتمردهم، وطغيانهم، وشدة مخالفتهم له، ثم أتبع ذلك ببيان أنه كما ابتلاه بأن جعل له أعداءً يخالفونه فقد جعل لكل نبي من الأنبياء قبله أعداء، وفي هذا تسلية له ﷺ؛ لأن الابتلاء والمصائب كلما عمت خفت.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الواو عاطفة، و«الكاف» للتشبيه بمعنى «مثل»، والإشارة إلى «الجعل» المأخوذ من «جعلنا»، و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين: الأول: ﴿عَدُوًّا﴾ والثاني: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾، وقدم للاهتمام به؛ لأنه الغرض المقصود من السياق، وهو بيان أن هذه سنة الله في أنبيائه كلهم، فيحصل بهذا له ﷺ القدوة والتسلية، أي: مثلما جعلنا كونًا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك؛ جعلنا لكل نبي من الأنبياء قبلك ﴿عَدُوًّا﴾، أي: أعداء يخالفونهم ويكذبونهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن ورقة بن نوفل قال للنبي ﷺ: «**لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي**»(١).

وفي هذا تثبيت له ﷺ وتسلية، وتقوية لقلبه، وحثٌّ له على الصبر على ما يناله، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿عَدُوًّا﴾ يقع على الواحد والمتعدد؛ قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٩٢].

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، «شياطين» منصوب بدلًا من «عدوًّا».

والمعنى: وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا من شياطين الإنس والجن، أو هم شياطين الإنس والجن.

و«شياطين» جمع «شيطان» وهو كل متمرد عات، خارج عن الطاعة من الإنس والجن والحيوان.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا أبا ذرٍّ، تعوّذ بالله من شرّ شياطين الإنس والجن**»، قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «**نعم، هم شرّ من شياطين الجن**»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكلب الأسود شيطانٌ**»(٣).

و«الشيطان» مشتق من «شطن» بمعنى: بَعُد عن رحمة الله تعالى وعن كل خير.

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: يلقى بعضهم ويوسوس إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٤)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، وأحمد (٦/ ٢٢٣، ٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة، قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٠٢)، والنسائي في القبلة (٧٥٠)، والترمذي في الصلاة (٣٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٥٢).

[الناس: ١-٦] فالموسوس في صدور الناس صنفان: شياطين جن، وشياطين إنس.

﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾، أي: القول المزخرف المموَّه المزيَّن بالألسنة في الظاهر، الذي يغتر سامعه من الجهلة به، وهو باطل في الباطن، والزخرف في الأصل الذهب.

﴿غُرُورًا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل الغرور، أي: الخداع بالباطل للناس.

قال ابن القيم: «وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات، وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك، حتى إن الفجار يسمون أعظم الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل لها الطبع، فيسمون أم الخبائث: أم الأفراح، ويسمون مجالس الفجور والفسوق: مجالس الطيبة، حتى إن بعضهم لما عزل عن شيء من ذلك قال لعازله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته. فانظر ماذا تعمل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة»(١).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ المشيئة: هي الإرادة الكونية، والخطاب للنبي ﷺ و«ما» نافية، والضمير في «فعلوه» يعود إلى المفهوم مما قبله، أي: ولو شاء ربك ما فعلوا إيحاء الزخرف والعداوة للأنبياء. وضمير الواو في «فعلوه» يعود إلى شياطين الإنس والجن والمعنى: ولو أراد ربك يا محمد كونًا ما فعل هؤلاء الشياطين هذا العداء للأنبياء، ولما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، أي: أن هذا مما قدره الله تعالى ابتلاء للأنبياء عليهم السلام.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فدع هؤلاء الشياطين واتركهم، ولا تبال بهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: فذرهم والذي يفترون، أو وافتراءهم، والافتراء: الكذب والاختلاق، أي: فدعهم وما يختلقون من الكذب والزور والقول المزخرف، ولا تبال بهم، فأنا كافيك وناصرك، وأمرهم إليّ، وحسابهم عليّ، كما قال تعالى في الكافرين والمنافقين: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٧٣-١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

الواو عاطفة في المواضع الثلاثة، واللام فيها للتعليل، والضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، وقوله: «وليرضوه» يعود إلى زخرف القول الذي يوحيه هؤلاء الشياطين بعضهم إلى بعض.

ومعنى ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾، أي: ولتميل إلى هذا الزخرف من القول وتستحسنه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: قلوب الذين لا يصدقون بالدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وهم الكفار؛ لأن قلوبهم خواء من الإيمان، فتتقبل كل زخرف ودخيل.

وخص الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ لأن الإيمان بالآخرة من أعظم أركان الإيمان، وعدمه من أعظم دلائل الكفر.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، أي: وليحبوه ويريدوه بعد تزيينه في قلوبهم، فيكون عقيدة راسخة عندهم.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ الاقتراف: الاكتساب، وأكثر ما يكون في اكتساب الشر والذنب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ويطلق في الخير، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

و«ما» موصولة، أي: وليكتسبوا الذي هم مكتسبون من الذنوب؛ لأجل ذلك القول المزخرف بعد أن اغتروا به، ومالت إليه قلبوهم ورضوه واعتقدوه، فصار سببًا لاقترافهم ما لا حصر له من الباطل والآثام.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة، وقدمت الهمزة؛ لأن لها الصدارة، «غير الله»، أي: سوى الله «أبتغي» أطلب. «حكمًا»

الحكم الذي يحكم ويفصل ويقضي بين الناس.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ويُحَكّمون سواه: كيف أطلب غير الله حكمًا بيني وبينكم، أي: لا أحد غير الله أطلب حكمًا بيني وبينكم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنه هو الذي أنزل إليكم الكتاب، والضمير في قوله: ﴿إِلَيْكُمُ﴾ للمشركين؛ للتسجيل عليهم بأنه قد بلغهم، فلا يستطيعون تجاهله، وهو للناس كافة، و«ال» في «الكتاب» للعهد، أي: الكتاب المعهود، وهو القرآن الكريم.

﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيَّنًا موضحًا فيه الحكم والفصل في كل شيء، ففيه الحكم بيني وبينكم بدلالته على صدقي، وأنه من عند الله، وفيه حكمه عليكم بأنكم أعداء مفترون، وفيه بيان وتفصيل الأحكام العقدية والشرعية، والفصل بين الحق والباطل؛ لأنه من الحكم العدل الذي لا أحد أحس منه حكمًا، وهو الحكم وإليه الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: والذين أعطيناهم الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قرأ ابن عامر وحفص: ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ الباقون: «منْزَل» بإسكان النون وتخفيف الزاي.

أي: يعلمون أن القرآن منزل من ربك بالحق. وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ تشريف وتكريم له ﷺ بإضافة ضميره ﷺ إلى اسم «الرب» وربوبية الله تعالى له ربوبية خاصة.

والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسة، فهو متلبس بالحق في طريق وصوله إلى النبي

ﷺ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وهو بنفسه حق وصدق، ومشتمل على الحق.

والمعنى: فإن أنكر المكذبون من قومك أن يكون القرآن منزلًا من ربك حقًّا فالذين آتيناهم الكتاب يعلمون أن هذا القرآن منزل من ربك حقًّا وصدقًا، وذلك لما في كتبهم من تصديقه والبشارة به ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وأيضًا لما في القرآن من التصديق لكتبهم وما جاء فيها من أصول الدين مما اتفقت عليه الأديان السماوية.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«لا» ناهية، والامتراء: الشك، أي: فلا تكونن من الشاكين فيما جاءك من عند الله؛ بسبب تكذيب قومك به، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤].

وهو ﷺ لم يشك، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

هذا تقرير وتأكيد أن ما أنزل عليه ﷺ حق وصدق وعدل.

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالإفراد ﴿كَلِمَتُ﴾، وقرأ الباقون: «كلمات» بالجمع.

و«كلمة» مفرد مضاف، فيعم، أي: تمت كل كلمات ربك، كما جاء في القراءة الثانية «كلمات».

و«كلمات الله» نوعان:

كلمات شرعية، وهي وحيه إلى أنبيائه عليهم السلام ومن أعظم ذلك «القرآن الكريم» وأوامره عز وجل ونواهيه الشرعية، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: كتبه وكلماته الشرعية.

وكلمات كونية قدرية، وهي كل ما يتعلق بالخلق والتدبير لهذا الكون؛ من خلق، ورزق، ونصر وعدمه، وعز وذل، وإيمان وكفر، وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦﴾ [يونس: ٩٦].

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ منصوبان على الحال، أو التمييز، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، أي: صدقًا فيما أخبر به سبحانه، وعدلًا فيما حكم به وأمر ونهى، فأخباره عز وجل صدق، وهو أصدق القائلين، وأحكامه عدل وهو أعدل الحاكمين.

و«الصدق» مطابقة الخبر للواقع، و«العدل» إعطاء من يستحق ما يستحقه، ودفع الظلم عن المظلوم.

﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: لا مبدل ولا مغير لكلماته الشرعية، وهي القرآن الكريم؛ لأنه محفوظ بحفظ الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

ولهذا حاول من حاول عبثًا تبديل بعض الكلمات في القرآن الكريم فلم يستطع، وافتضح أمره؛ تصديقًا لوعده عز وجل في حفظ كتابه.

وإنما حصل التبديل والتحريف في كتب أهل الكتاب؛ لأن الله وكل أمر حفظها إليهم، كما قال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤] لكنهم لم يحفظوها، بل ضيعوها، بل هم الذين حرفوها وبدلوها.

وأيضًا لا تبديل لكلمات الله تعالى الكونية، فما قدره تعالى وقضاه كونًا لا بد من وقوعه، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾

[الرعد: ٤١]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، «السميع» و«العليم» اسمان من أسماء الله عز وجل، يدل «السميع» على إثبات صفة السمع لله عز وجل، وأنه ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، ويدل «العليم» على أنه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

و«العلم»: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

و«العليم» أعم من «السميع»؛ لأن العلم يشمل المسموع وغيره، فهو سبحانه السميع لجميع الأقوال والأصوات، العليم بكل شيء، مما يوحيه بعض الشياطين إلى بعض من الزخرف، وبما يفترونه، وبمن يميل إلى ذلك ويرضاه، ويقترف الآثام بسببه، وبغيره، وسيحاسب ويجازي كلًّا بما عمل.

وفي هذا وعد لمن امتثل أوامر الله، ووعيد لمن خالفه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، «إن» شرطية، «تطع» فعل الشرط مجزوم بها، وعلامة جزمه السكون، وحذف منه حرف العلة؛ لالتقاء الساكنين، وأصله «تطيع»، والخطاب لكل من يصلح له. والطاعة: الامتثال بفعل الأمر وترك النهي، والمراد بها هنا ما هو أعم، فتشمل طاعتهم في فعل ما يأمرون به، وترك ما ينهون عنه، وتشمل اتباعهم على ما هم عليه، وإن لم يأمروا بذلك.

و ﴿مَن﴾ موصولة، أي: وإن تطع أكثر الذين في الأرض، أي: وإن تطع أكثر الناس، أو تتبعهم على ما هم عليه، ﴿يُضِلُّوكَ﴾ جواب الشرط، مجزوم بحذف النون، أي: يجعلونك تضل وتتيه وتبتعد ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: عن دين الله وصراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الجملتان تعليل لقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ

أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لأن أكثر من في الأرض من الناس على ضلال، فمن أطاعهم أو اتبعهم ضل.

و«إن» في الموضعين نافية بمعنى «ما»، أي: ما يتبعون إلا الظن، وما هم إلا يخرصون، و«إلا» فيهما أداة حصر، و«الظن» الاعتقاد المخطئ الذي يحسبه صاحبه حقًّا صحيحًا بلا دليل، أي: ما يتّبعون فيما هم عليه إلا الظن الذي لا يفي من الحق شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

ومن ذلك تقليدهم لآبائهم وأسلافهم تقليدًا أعمى؛ لظنهم أنهم على هدى، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، «إن» نافية، و«الخرص» التخمين والحَدْس والحَزْر من غير علم، أي: وما هم فيما هم عليه إلا يخرصون ويخمنون في القول على الله بلا علم، كما قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهكذا أكثر الخلق، فلا ينبغي أن يغتر المرء بما عليه أكثر الناس، فإن أكثرهم على ضلال، فمن أطاعهم أو قلدهم أضلوه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وفي الحديث القدسي: «**أن الله تعالى يقول لآدم: أخرج بعث النّار من ذرّيّتك؛ من**

كل ألفٍ تسع مئةٍ وتسعةً وتسعين، وواحدًا إلى الجنّة»(١).

قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»(٢)؛ قال الشاعر:

والنّـاس ألـفٌ مـنهمُ كواحـدٍ ... وواحـدٌ كـالألف إن أمـرٌ عنـى(٣)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

تعليل لقوله قبله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ووعد ووعيد، وعد لمن اهتدى وأطاع الله عز وجل، ووعيد لمن ضل وأطاع غير الله. وبيان أن ضلال من ضل، واهتداء من اهتدى، إنما هو بقدر الله تعالى ومشيئته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، «هو» ضمير فصل؛ لإفادة القصر، أي: هو وحده أعلم من يضل عن سبيله، وهو وحده أعلم بالمهتدين، و«أعلم» اسم تفضيل، و«من» اسم موصول في محل نصب بنزع الخافض، وهو الباء بدليل: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: هو وحده أعلم من جميع الخلق بالذي ﴿يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي: عن دينه وصراطه المستقيم، فييسره لما اختار لنفسه، ويجازيه على ذلك؛ كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨-١١].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو وحده أعلم بالمهتدين إلى سبيله ودينه، فييسرهم لليسرى، ويثيبهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦)، وقد ذُكر نحو من هذا عن الفضيل بن عياض رحمه الله. انظر: «الأذكار» للنووي (ص١٩٦)، و«الآداب الشرعية» (١/ ٢٦٣)، وذكر نحوه عن سفيان بن عيينة. انظر: «الزهد الكبير» للبيهقي ص١٣١ (٢٣٨-٢٣٩).

(٣) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «ديوانه» (ص١٣٢).

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء الله عز وجل للنبي ﷺ، وجميع الأنبياء قبله، بجعله كونًا لهم أعداء من شياطين الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

٢- حكمة الله تعالى البالغة في جعله للأنبياء أعداءً وللباطل أنصارًا؛ ليحصل الابتلاء، ويميز الله الخبيث من الطيب، ويظهر الحق بأدلته، ويزهق الباطل بزخرفه.

٣- تسلية النبي ﷺ وتثبيته، وتقوية قلبه، وحثه على الصبر في إخباره أنه كما جعل له أعداء جعل للأنبياء قبله أعداء، وأنه ليس بدعًا من الرسل.

٤- إثبات الجعل الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾.

٥- أن في الإنس شياطين؛ لقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾.

٦- تظاهر شياطين الإنس والجن على عداوة الرسل، والصد عن دين الله، وإضلال الناس، والتغرير بهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

٧- ينبغي الحذر ممن يزينون الباطل ويزخرفونه من شياطين الإنس والجن، ومن تمويههم وزخرفهم.

٨- أن ما يقع من شياطين الإنس والجن من عداوة للرسل عليهم السلام، وإيحاء بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، كل ذلك بمشيئة الله تعالى، وهكذا كل ما يقع من كفر أو إيمان أو معصية أو طاعة، كل ذلك بتقدير الله تعالى ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١١- دفاع الله عز وجل عن نبيه ﷺ وتشجيعه وتثبيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، أي: اتركهم وافتراءهم، ولا تبالهم فأمرهم إليَّ، وحسابهم عليَّ، كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

١٢- أن ما يفعله هؤلاء الشياطين من إلقاء بعضهم إلى بعض زخرف القول؛ لأجل تغرير السذج من الناس، ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ويرضوه، ويكتسبوا بسببه الذنوب والآثام؛ لقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

١٣- إنه إنما تميل إلى زخرف القول قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة- وهم الكفار- ويرضونه؛ لخواء قلوبهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

١٤- أن ميل القلوب إلى زخرف القول ورضاه سبب لاقتراف الكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

١٥- أن الإيمان سياج يحفظ صاحبه من الميل إلى زخرف القول ورضاه واقتراف الذنوب بسببه.

١٦- إنكاره ﷺ أن يطلب غير الله حكمًا يحتكم إليه، فيما بينه وبين قومه، وفي غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾.

١٧- أن الله عز وجل هو الحكم العدل، الذي يجب التحاكم إليه وحده فيما أنزله في القرآن مفصلًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

١٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ وقوله: ﴿مُنَزَّلٌ﴾.

١٩- أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وكلامه غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾، وقوله: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ وفي هذا رد على المعتزلة في زعمهم أن القرآن مخلوق.

٢٠- امتنان الله عز وجل على العباد بإنزال القرآن الكريم وتفصيله، وبيانه فيه الحق

من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، ودلالته على أنه حق منزل من عند الله تعالى، وعلى صدق النبي ﷺ، وعلى بيان كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وفي هذا رد على من يزعمون أنه لا يفهم، أو أن بعضه يخالف بعضًا، أو لا يتفق مع العقل الصحيح، أو أن له تأويلات باطلة، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

٢١- تأكيد إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى بدلالة علم أهل الكتاب بذلك؛ لما في كتبهم من تصديق ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- التنويه بشأن أهل الكتاب، وما أنزل عليهم في التوراة والإنجيل، وبخاصة من آمن منهم.

٢٣- أن القرآن الكريم نزل بالحق، فطريق وصوله وسنده حق، وهو حق، ومشتمل على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٤- نهي الله عز وجل له ﷺ عن الشك فيما جاءه من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وهذا لا يقتضي حصول الشك منه؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

٢٥- تمام كلمات الله تعالى الكونية والشرعية، ونفوذ كلماته الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٢٦- صدق كلماته عز وجل وأقواله وأخباره، وعدل أحكامه، وأمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

٢٧- لا مبدل لكلمات الله تعالى الكونية فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما حكم به كونًا واقع لا محالة، ولا مبدل لكلماته الشرعية في القرآن الكريم، ولا مبدل لأمره ونهيه، فما أمر به فهو حق، وما نهى عنه فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله «السميع» وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل، الذي يسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله «العليم» وما يدل عليه من أنه عز وجل ذو العلم الواسع، الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣٠- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم» زيادة كمال إلى كمال.

٣١- في ختام الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالف أمر الله؛ لأن مقتضى سمعه وعلمه أن يحاسب العباد، ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

٣٢- أن أكثر الخلق ليسوا على هدى، بل هم على ضلال، فمن أطاعهم أو قلّدهم أضلوه عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣٣- ينبغي عدم الاغترار بالكثرة، وما هم عليه؛ لأن العبرة بالكيف لا بالكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

٣٤- أن أكثر الناس لا تحقيق عندهم، ولا تمييز، ولا تثبت في كثير مما هم عليه، بل هم أتباع ظن، وأهل تخرص؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

٣٥- ذم الظن والتخرص والتخمين، ووجوب التثبت في الأمور كلها، وبخاصة أمر الدين قال ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»(١).

٣٦- أن الله أعلم من يضل عن سبيله، وهو أعلم بمن يهتدي، وكل ذلك بتقديره عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وفي هذا- كما سبق- وعد لمن اهتدى، ووعيد للضالين.

***

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٤)، ومسلم في النكاح (١٤١٣)، وأبو داود في النكاح (٢٠٨٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٩-٣٢٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٨)، وابن ماجه في النكاح (١٧٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أتى ناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الفاء عاطفة، والخطاب للمؤمنين، والأمر للإباحة، و«ما» موصولة، أي: فكلوا من الذي ذكر اسم الله عليه؛ بأن يكون المذكي له مسلمًا أو كتابيًّا، ويذكر اسم الله عليه عند تذكيته بقوله: «بسم الله» فبهذا تحل الذبيحة.

ويفهم من الأمر في قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾: النهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، كالميتة، وما ذكر اسم غير الله عليه، مما يذبح للأصنام ونحوها، ومتروك التسمية، كما جاء مصرحًا بالنهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، «إن» شرطية، و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم بآياته مؤمنين فكلوا مما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه.

فمن شرط الإيمان بآيات الله إحلال ما أحله الله، وتحريم ما حرمه الله؛ ومن ذلك

---

(١) أخرجه أبوداود في الأضاحي ـ ذبائح أهل الكتاب (٢٨١٩)، والترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٦٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وعدم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

والآيات: جمع آية، وهي العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: علامة ملكه.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية.

فالآيات الكونية كل ما خلقه الله عز وجل وبثه في هذا الكون من المخلوقات؛ الليل والنهار، والشمس والقمر، والسموات والأرض، والجبال والشجر والدواب، والبراري والبحار، وغير ذلك.

وسميت المخلوقات آيات الله؛ لدلالتها على وجوده عز وجل وأنه الخالق المالك المدبر، ذو الكمال المطلق في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، المستحق للعبادة وحده دون سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

فكل ما في الكون من المخلوقات هو من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وكماله في ذاته وصفاته واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه. وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحدُ(١)

والقسم الثاني: الآيات الشرعية التي أنزلها الله عز وجل على أنبيائه، وأعظمها القرآن الكريم الذي أنزله على أفضل أنبيائه نبينا محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩].

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

وسمي القرآن الكريم «آيات الله»؛ لما فيه من الدلالة على أنه من عند الله عز وجل في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه، وصلاحيته لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ولما فيه أيضًا من الدلالة على صدق من جاء به من عند الله عز وجل نبينا محمد ﷺ.

ومعنى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم بآياته الكونية والشرعية والتي من جملتها الآيات الواردة في هذا الشأن فكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وأحلوا ما أحله الله وحرِّموا ما حرَّمه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» للاستفهام الإنكاري.

و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا﴾ اسم موصول.

أي: وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا من الذي ذكر اسم الله عليه، وفيه تأكيد للأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر ﴿وقد فُصِّل﴾ بالبناء للمجهول، وقرأ الباقون: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ بالبناء للفاعل.

كما قرأ نافع وحفص عن عاصم وأبوجعفر ﴿مَّا حَرَّمَ﴾ بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون ﴿ما حُرِّم﴾ بالبناء للمجهول. والمعنى في القراءات واحد.

والواو في قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ حالية، و«قد» للتحقيق، و«ما» موصولة. والجملة في محل نصب على الحال، أي: وما لكم ألا تأكلوا مما أحل الله لكم، وهو ما ذُكر اسم الله عليه، والحال أنه قد فصّل وبيّن لكم الذي حرمه عليكم، ومنه ما لم يُذكر اسم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ

بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

لكن يشكل على هذا أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة في قول أكثر أهل العلم، وهذه الآية متأخرة في الترتيب عن الآية: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**يحرم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**»(١).

أما قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]. فإن سورة المائدة كلها نزلت بالمدينة وسورة الأنعام نزلت بمكة.

﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، والاستثناء من عائد الاسم الموصول، المنصوب بـ«حرم» في قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

ويجوز كونه منقطعًا أو متصلًا، أي: لكن الذي ألجأتكم الضرورة إلى أكله، أو إلا الذي ألجأتكم الضرورة إلى أكله مما حرم عليكم فحلال لكم أكله حال الضرورة، أو لأجل الضرورة، كما قال تعالى في سورة المائدة بعدما ذكر تحريم الميتة ونحوها؛ قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وهذا من رحمة الله عز وجل بعباده والتوسعة عليهم، ورفع الحرج عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢].

وفي حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (٤٣٤٨)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤٠)، وأخرجه ابن ماجه أيضًا (٢٣٤١)، وأحمد (١/ ٣١٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

أمر الله عز وجل المؤمنين بالأكل مما ذُكر اسم الله عليه من الذبائح، ممتنًّا عليهم بأنه قد فصل وبيّن لهم ما حرمه عليهم، ثم أتبع ذلك بالتحذير ممن يضلون الناس بأهوائهم، بالتحريم والتحليل اعتداءً منهم بغير علم، متوعدًا لهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَيُضِلُّونَ﴾. بضم الياء، أي: يُضلون غيرهم من الناس، وقرأ الباقون: «ليَضِلون» بفتح الياء، أي: يَضلون بأنفسهم عن الحق.

والمعنى: وإن كثيرًا من الناس ليَضلون ويتيهون بأنفسهم عن الحق، ويُضلون غيرهم عنه، بالتحليل والتحريم وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أهوائهم، أي: ما تهواه أنفسهم وتشتهيه، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾ [النجم: ٢٣].

والهوى يُعمي ويُصمّ، وهو مُرْدٍ ومُهلِك، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا[1]

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ الباء للملابسة، أي: ملابسين لعدم العلم، أي: بغير علم يهديهم، من كتاب أو سُنَّة، كما قال تعالى في المجادلين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ومَن عدم العلم تخبط بالجهل، وحكم بالظن والحدس، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦، يونس: ٦٦].

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

كما في تسمية المشركين البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحريمها، وفي تحليلهم الميتة، وقولهم للمؤمنين: «تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله».

والجهل داء عضال، ومرض قاتل، وموت قبل الموت، وكما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأً لم يحيَ بالعلم ميِّت ... فليس له قبل النشور نشور(١)

وقال علي رضي الله عنه(٢):

فقم بعلم ولا تطلب به بدلا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وكثير من الخلق، أو أكثرهم أتباع هوى ودعاة ضلال، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، وضمير الفصل «هو» للتوكيد، و«أعلم» اسم تفضيل، أي: إن ربك يا محمد أعلم من كل أحد ﴿بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

والاعتداء: الظلم وتجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، أي: المعتدين بتحريم الحلال وتحليل الحرام، وغير ذلك.

وفي إخباره عز وجل لنبيه ﷺ بعلمه- سبحانه- بالمعتدين تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه، ووعيد وتهديد لهم، وأنه سبحانه أعلم بهم وسيحاسبهم ويجازيهم على اعتدائهم في الدنيا والآخرة، وإلا فعلمه عز وجل محيط بهم وبغيرهم، وبكل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (٢/ ١٦٣).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٧).

كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

هذه الجملة مستأنفة اعتراضية بين ما قبلها وبين قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فيها توكيد للأمر قبلها وللنهي بعدها.

قوله: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾، «وذروا»، أي: واتركوا، و«الإثم» الذنب، الذي يُؤثم ويوقع في الحرج، ويُعرِّض للعقوبة. قال ﷺ: «**الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»(١)، وهو ضد البر، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

و«ظاهر الإثم» ما ظهر من سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح، «وباطنه»، أي: باطن الإثم، وهو ما أُسر وأُضمر في القلوب من العقائد الفاسدة أو النوايا السيئة، وأيضًا ظاهر الإثم ما يُعلن من الذنوب، وباطنه ما يُسر ويُستر منها.

و«ال» في «الإثم» للاستغراق، أي: اتركوا جميع الذنوب والمعاصي، ظاهرها وباطنها، علانيتها وسرّها، كتحريم الحلال، وتحليل الحرام، والزنا سرًّا وعلنًا، وغير ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

والإثم الظاهر أعظم، ولهذا قُدِّم، وفي الحديث: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**»(٢).

ولا يتم للعبد ترك المعاصي ظاهرها وباطنها إلا بعد معرفتها، وذلك واجب عليه لكي يتجنبها، قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني» الحديث(٣).

وقد قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ـ تفسير البر والإثم (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٧)، وأبوداود في الملاحم (٤٢٤٤).

عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر ... من الخير يقع فيه(١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾، «إن» مؤكدة تفيد هنا معنى التعليل للأمر قبلها، أي: اتركوا ظاهر الإثم وباطنه؛ لأن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾، أي: إن الذين يعملون الذنب ظاهرًا كان أو باطنًا.

وأظهر «الإثم» في مقام الإضمار، فلم يقل: «إن الذين يكسبونه» لزيادة التحذير من الإثم.

﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ السين في قوله: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ﴾ لتأكيد تحقق مجازاتهم في المستقبل، والجزاء والمجازاة تكون بالخير والشر، والثواب والعقاب، والمراد بها هنا المجازاة بالعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة، ﴿يَقۡتَرِفُونَ﴾ يكتسبون الإثم، قال تعالى: ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

والمعنى: سيجزون بالذي يكتسبونه من الإثم في الدنيا والآخرة.

و«الاقتراف» أكثر ما يكون في الشر والذنب، ولذا قالوا: «الاعتراف يزيل الاقتراف»، وقد يرد في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾.

سبب النزول:

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المشركين قالوا للمسلمين: ما قتل ربكم، فلا تأكلون، وما قتلتم أنتم تأكلونه، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني. انظر: «ديوانه» (ص٣٥٢).

لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾»(١).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام: ١١٨]. قال: قالوا: يا محمد، أما ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه، وأما ما قتل ربكم فتحرمونه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]»(٢).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خاصمت اليهود، أو جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل ما قتلنا، ولا نأكل ما قتل الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ﴾»(٣).

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ و«لا» ناهية، والنهي للتحريم، و«ما» في قوله: «مما» موصولة، أي: ولا تأكلوا من الذي لم يذكر اسم الله عليه، وهو تصريح بما فهم من قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ففيه بيان وتأكيد لحرمة ما لم يذكر اسم الله عليه.

أي: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه، بأن ذكر اسم غير الله عليه، أي: ذبح لغير الله؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ﴾ والفسق: ما أُهِلَّ لغير الله به كما في الآية الأخرى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ويشمل النهي في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند بعض أهل العلم الميتة التي ماتت بغير ذكاة، كما جاء في سبب نزول الآية.

---

(١) أخرجه النسائي (٤٤٤٩)، وابن ماجه (٣١٧٣)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٢-٥٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٩-١٣٨٠)، والحاكم (٤/ ١١٣، ٢٣١). وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٢١): «وهذا إسناد صحيح».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٠).

(٣) أخرجه أبوداود (٢٨١٩)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٢٦)، والطبراني (١٢٢٩٥)، والبيهقي في «سننه» (٩/ ٢٤٠).

وكذا متروك التسمية عمدًا على الصحيح، وقول جمهور أهل العلم، وكذا متروك التسمية نسيانًا على الراجح من قولي أهل العلم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ الجملة حال من مصدر الفعل ﴿تَأۡكُلُواْ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، أي: وإن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لفسق.

ويحتمل كون الجملة ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ﴾ من عطف الخبر على الإنشاء.

والضمير في «إنه» يعود إلى المصدر المأخوذ من قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ﴾، أي: إلى الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، أو إلى نفس ما لم يذكر اسم الله عليه.

واللام في قوله: ﴿لَفِسۡقٌۗ﴾ للتوكيد.

والفسق: الخروج عن الإيمان، أو عن طاعة الله تعالى، فيطلق على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السجدة: ٢٠].

ويطلق الفسق- غالبًا- على ما دون الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧]. فالفسوق هنا غير الكفر، وهو دونه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(١).

والمراد بالفسق في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ الكفر والشرك؛ لأن ذكر اسم غير الله على الذبيحة كفر وشرك، وكذا استحلال أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، مما ذبح على اسم غير الله، أو كان ميتة أو تركت التسمية عليه عمدًا.

ويقوي هذا قوله في آخر الآية: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾، أي: وإن أطعتموهم في تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد يحمل الفسق في الآية على ما دون الكفر إذ كان المراد بذلك مجرد الأكل مما لم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٠٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

يذكر اسم الله عليه دون اعتقاد حله، ودون الذبح لغير الله.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية.

و﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ جمع شيطان. مشتق من «شطن» بمعنى: بَعُد عن رحمة الله عز وجل وعن كل خير. وهو كل متمرد عاتٍ خارج عن طاعة الله تعالى، والمراد إبليس وجنوده.

﴿لَيُوحُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: ليوسوسون ويزينون.

﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾، أي: إلى أعوانهم وأنصارهم من اليهود والمشركين، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٥].

﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجادلوكم، أي: ينازعوكم ويخاصموكم لإبطال الحق، وإظهار الباطل، وتشكيك المسلمين في دينهم، وما أحله الله لهم، وما حرمه عليهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾، يقولون: «ما قتل ربكم فلا تأكلونه، وما قتلتم أنتم تأكلونه. فأنزل الله هذه الآية. ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾»[1].

قال السعدي[2] رحمه الله: «ودلَّت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدل بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله، فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك توقف فيها، ولم تصدق ولم تكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الشيطان، فلابد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا الله».

﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٧).

والطاعة: الامتثال بفعل الأمر وترك النهي، أي: وإن أطعتموهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرمه الله، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ جملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾، واللام للتوكيد.

أي: إنكم لمشركون لهم مع الله، فيما يختص به من التحليل والتحريم، ومشركون مثلهم لطاعتكم لهم في تحريم ما أحل الله، مما ذكر اسم الله عليه، وتحليل ما حرم الله مما لم يذكر اسم الله عليه، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، لسنا نعبدهم، قال: **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟** قلت: بلى. قال: **فتلك عبادتهم**»(١).

قال القرطبي(٢): «قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾، أي: في تحليل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فدلت الآية على أن من استحل شيئًا مما حرَّم الله تعالى صار به مشركًا، وقد حرَّم الله- سبحانه- الميتة نصًّا، فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك».

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

بيَّن الله عز وجل في الآيات السابقة ضلال كثيرين وإضلالهم لغيرهم بغير علم، وإيحاء الشياطين لأوليائهم المشركين ليجادلوا المؤمنين، لإبطال ما هم عليه من الحق، وإظهار الباطل، وحذر المؤمنين من طاعتهم، ثم أتبع ذلك بضرب مثلين لبيان فضل حال المؤمن على المشرك.

قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والنفي، أي: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ موتًا معنويًّا؛ بسبب الجهل والكفر، ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ حياة معنوية بالعلم

---

(١) أخرجه الترمذي في «التفسير» (٣٠٩٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٠٦)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤) ـ وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٧٧).

والإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، أي: وجعلنا له شرعًا نورًا وهو نور الإيمان والقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الباء للسببية، أي: يمشي بسببه على الطريق المستقيم، وعلى بصيرة من أمر دينه ودنياه بين الناس في هذه الحياة، ويهتدي به إلى طريق الجنة بعد الممات، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولهذا كان ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا**»(١).

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الكاف للتشبيه، و«من» موصولة، أي: كالذي «مثله»، أي: شبهه ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: في الظلمات المعنوية، ظلمات الجهل والضلال والكفر.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه ليس بخارج منها، أي: لا مخرج ولا مخلص له من هذه الظلمات.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٦)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣)، وأبوداود في الصلاة (١٣٥٣)، والنسائي في التطبيق (١١٢١)، والترمذي في الصلاة (٢٣٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كما قال تعالى في وصف أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

فهذا مَثَل ضربه الله عز وجل لبيان الفرق الشاسع والبون الواسع بين حال المؤمن وحال الكافر.

فشبّه عز وجل في هذه الآية حال المؤمن قبل إيمانه وبعدها بحال من كان ميتًا موتًا حسيًّا لا حراك به ولا حياة، فأحياه الله بأن نفخ فيه الروح وأوجد فيه الحياة، وجعل له كونًا، أي: صير له نورًا حسيًّا يستضئ بسببه في مشيه بين الناس فيبصر به الطريق ليصل إلى بلده ومقصده ونحو ذلك.

والموت المعنوي بالجهل والكفر والشرك أشد وأعظم من الموت الحسي بخروج الروح من البدن؛ لأن الموت الحسي غايته فقدان الحياة، أما الموت المعنوي بالكفر فنهايته إذا مات الإنسان عليه الخلود في النار.

وشبّه عز وجل حال الكافر بمن هو باق في ظلمات القبور والموت لم تدب فيه الحياة بعد، أو بمن هو في ظلمات الليل وظلم البحار والغيوم ونحو ذلك، لا مخرج ولا مخلص له منها، فهو حائر لا يدري أين يقع، ولا أين يتوجه، وأي طريق يسلك.

والمقصود إنكار ونفي المشابهة والمساواة بين حال من آمن، وحال من بقي على الشرك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

فالمؤمن مَن جمع الله له بين الحياة والنور، يمشي بين الناس في هذه الحياة على نور من الله، على بصيرة من أمره؛ يعرف الخير من الشر، والحق من الباطل، والهدى من

الضلال، والنافع من الضار، معظمًا لربه، متبعًا لشرعه؛ فعلًا للواجبات وبُعدًا عن المنهيات، أداءً لحقوق الله، وحقوق الخلق، لسان حاله، كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء[1]

والكافر مَن جُمع له بين الموت والظلمات يتخبط في ظلمات الجهل والضلال والكفر، وشتان بين هذا وهذا، شتان بين الثرى والثريا.

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان[2]

قال السعدي[3]: «فنبّه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات».

وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وصدق رسوله المصطفى ﷺ إذ يقول: «كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها»[4].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجملة مستأنفة، والكاف للتشبيه بمعنى مثل، والإشارة للتزيين المأخوذ من قوله: ﴿زُيِّنَ﴾، أي: مثل ذلك التزيين لهؤلاء ما هم عليه من تحريم الحلال، وتحليل الحرام والجهل والضلال والكفر، زين لغيرهم من الكافرين ما كانوا يعملون، وأشار إلى ما هم عليه بإشارة البعيد تحقيرًا له.

وفي قوله: ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ تسجيل على المذكورين بالكفر؛ لأنه وُصِف به المشبهين بهم في التزيين.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: زين للكافرين الذي كانوا يعملون، أو زين لهم

---

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

(٢) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٨).

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة ـ فضل الوضوء (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

عملهم، أي: زَين وحسن لهم الشيطان أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

قال السعدي[1]: «فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل أن يكون بهذه الحالة وأن يبقى في الظلمات متحيرًا، فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنونها ورأوها حقًّا وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح».

ويحتمل أن المعنى كذلك زين لهم قدرًا ما كانوا يعملون. ولا تنافي بينهما.

الفوائد والأحكام:

١- إباحة الأكل مما ذكر اسم الله عليه عند تذكيته مما أحل الله من بهيمة الأنعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٢- أن من شرط الإيمان اعتقاد حل ما ذكر اسم الله عليه من الذبائح والأكل منه، وتحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ فالأمر بالنسبة للأكل للإباحة، وبالنسبة لاعتقاد حله واجب.

٣- وجوب الإيمان بآيات الله الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

٤- أن من شرط الإيمان بآيات الله تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم.

٥- الندب والحض على الأكل مما ذكر اسم الله عليه، لأنه مما أحله الله، ولمخالفة المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٦- امتنان الله عز وجل على العباد بتفصيل وبيان ما حرمه عليهم، وإقامة الحجة

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٦٨).

عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

٧- أن الأصل في الأطعمة والمأكولات الإباحة، فما لم يرد الدليل على تحريمه منها فهو حلال.

٨- أن الضرورة ترفع التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ومن قواعد الشريعة: «أن المشقة تجلب التيسير، وأن الضرورات تبيح المحظورات».

٩- رحمة الله عز وجل بهذه الأمة المحمدية، ورفع الحرج عنها والتيسير عليها.

١٠- كما لا يجوز تحليل ما حرم الله، كذلك لا يجوز تحريم ما أحل الله؛ مأكولًا أو غيره، بل إن تحريم ما أحل الله أشد؛ لما فيه من التضييق على الناس، ومخالفة مقاصد الشريعة من التيسير ورفع الحرج، ووصمها بالشدة والحرج الذي نفاه الله عنها.

١١- أن كثيرًا من الخلق دعاة ضلال، وأتباع هوى بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٢- عدم الاغترار بما عليه كثير من الخلق، بل بما عليه أكثرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

١٣- الحذر من اتباع الهوى؛ لأنه يعمي ويصم، ويضل ويهلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾.

١٤- أن الجهل داء قاتل يحمل صاحبه على اتباع الهوى والتخبط والوقوع في الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٥- تحريم الفتوى تبعًا للهوى، والقول على الله بغير علم، ووجوب الحذر من ذلك، وأن ذلك من الاعتداء ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

١٦- فضل العلم وشدة حاجة الناس إليه، وبخاصة علم الشريعة، ليهتدوا به إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٧- تشريف الله عز وجل لنبيه ﷺ وتكريمه بخطابه له، وإضافة اسم الرب إلى

ضميره ﷺ، وإثبات ربوبيته الخاصة له ﷺ، تقوية لقلبه ﷺ وتسلية له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٨- تأكيد علم الله عز وجل بالمعتدين والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩- إثبات علم الله عز وجل الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهو سبحانه أعلم بهم وبغيرهم وبكل شيء.

٢٠- وجوب ترك الإثم والذنب ظاهرًا وباطنًا، سرًا وعلنًا، والتحذير من إضمار الشر ونيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾.

٢١- أن الذنب الظاهر المعلن جهرًا أعظم من الذنب سرا، ولهذا قدم قوله: ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ على قوله ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾.

٢٢- التهديد الأكيد والوعيد الشديد لمن يكسبون الإثم بمجازاتهم بما كانوا يقترفون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾.

٢٣- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾.

٢٤- تحريم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، مما ذكر اسم غير الله عليه وأهل لغير الله به، أو مات حتف أنفه، أو ما تركت التسمية عليه عمدًا على الصحيح، أو سهوًا على الراجح من أقوال أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ وعليه يدل مفهوم قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ فمفهومها عدم جواز الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، وأن ذلك ينافي الإيمان بآيات الله(١).

٢٥- أن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق وخروج عن طاعة الله تعالى، وهو فسق دون الكفر، فإن صحبه استحلال لذلك فهو كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾.

---

(١) سبق تفصيل الكلام في حكم التسمية عند الذبح وعلى الصيد في الكلام على قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [الآيتان: ٣، ٤].

٢٦- أن عدم ذكر اسم الله عند التذكية فسق، فإن ذكر اسم غير الله عندها فهو كفر، وإن تعمد ترك التسمية عندها فهو فسق دون الكفر.

٢٧- إيحاء الشياطين إلى أوليائهم من اليهود والمشركين وغيرهم بالمجادلة للمؤمنين بالباطل؛ لتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾.

٢٨- التحذير من طاعة الشياطين وأوليائهم فيما يأمرون به وينهون عنه، وفيما يحرمون ويحللون ويجادلون به، وأن ذلك شرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾.

وذلك شرك في الطاعة وشرك في العبادة كما قال ﷺ لعدي بن حاتم: «**أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه**»؟ قال عدي: فقلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

٢٩- ذم المجادلة بالباطل؛ لأنها من إيحاء الشياطين لأوليائهم، ومن صفات أولياء الشياطين من اليهود والمشركين وغيرهم.

٣٠- شتان بين من كان ميتًا فأحياه الله بالإيمان والقرآن، وجعل له نورًا يمشي به في الناس على بصيرة من أمر دينه ودنياه وأخراه، وهو المؤمن، وبين من بقي في ظلمات الجهل والضلال والكفر، وهو الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾.

٣١- ضرب الأمثلة في القرآن الكريم لتقريب المعاني، فقد شبه الله عز وجل حال المؤمن بمن كان ميتًا حسيًّا، فأحياه الله ونفخ فيه الروح فدبت الحياة في جسده، وجعل الله له نورًا حسيًّا يمشي به في الناس ويبصر به الطريق في حياته، كما شبه حال الكافر بالميت في ظلمات القبور، أو بمن هو في الظلمات الشديدة التي لا مخرج له منها كظلم الليل والبحار والغيوم ونحو ذلك.

٣٢- أن الإنسان بلا إيمان، كالميت جسد بلا روح؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣٣- أن الإيمان والقرآن كالروح للجسد، والنور في الظلمات، وأن الجهل والضلال والكفر كالموت، والظلمات المستحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

٣٤- الإغراء والحث على الإيمان واتباع القرآن؛ لبيان أن في ذلك الحياة والنور، والتحذير من الكفر وذمه؛ لأن فيه الموت والظلمات.

٣٥- أن انطماس البصيرة واستبدال نور الإيمان والقرآن بظلمات الجهل والضلال والكفر كل ذلك من تزيين الشيطان وتحسينه للكافرين، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٦- إثبات تقدير الله للأعمال، خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا الرد على القدرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الواو عاطفة، و«الكاف» للتشبيه، والإشارة إلى «الجعل» المأخوذ من ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: كما جعلنا كونًا في قريتك- يا محمد- مكة أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها، كذلك جعلنا في كل قرية من قرى الأمم الماضية، كقرية الحِجْر، وسبأ، والرس، ونحوها: أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، وتثبيت له، وتقوية لقلبه، وأنه ليس ببدع من الرسل في تكذيب قومه إياه.

و﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى «صيرنا»، تنصب مفعولين، ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ في محل المفعول الثاني لـ«جعل» مقدم، ﴿أَكَٰبِرَ﴾ مفعول أول، وقُدِّم قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾؛ للاهتمام ببيان أن هذا هو شأن جميع القرى؛ لأنه الأهم في هذا الخبر.

و«القرية»: اسم للمكان الذي يسكن فيه أناس كثيرون، مأخوذة من «القري»: وهو الجمع، وتُطلق على «المدينة» مهما كبرت؛ لأن الله سمَّى بها «مكة»، وهي أكبر المدن آنذاك.

﴿أَكَٰبِرَ﴾ جمع «أكبر»: اسم لعظيم القوم وسيدهم؛ كما في قوله تعالى عن

الكافرين: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

﴿مُجْرِمِيهَا﴾، «مجرمي» مضاف إلى ﴿أَكَٰبِرَ﴾، و«ها» ضمير يعود إلى القرية، مضاف إلى «مجرمي»، و﴿مُجْرِمِيهَا﴾: مرتكبي الجرائم فيها؛ من الشرك بالله، والصد عن دين الله، أي: جعلنا في كل قرية أكابر أهلها، وساداتهم، وأعظمهم في الإجرام والشرك والكفر بالله، والصد عن دينه.

أي: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يمكروا فيها؛ ابتلاءً واختبارًا؛ ليظهر الحق من الباطل، ويميز الله الخبيث من الطيب.

و«المكر»: الخداع، وإيقاع الضرر بالغير خفية وتحيلًا.

أي: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾: بتضليل دهماء الناس، وصدهم عن دين الله وعن متابعة الرسول ﷺ، وتزيين الكفر والشرك لهم بأقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الواو استئنافية، أو حالية، و«ما» نافية، و«إلا» أداة حصر، أي: والحال أنهم إنما يمكرون بأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]؛ لأن ضرر مكرهم عائد إليهم فقط، والله تعالى غني عنهم، والرسول ﷺ لا يضره مكرهم، ومن أراد الله هدايته فلن يستطيعوا إضلاله، وإنما وبال مكرهم على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥]. وفيه إشارة إلى أن العاقبة له ﷺ وللمؤمنين، ووعدهم بالغلبة والنصر على عدوهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنهم ما يشعرون، أي: ما يعلمون وما يدرون أن مكرهم يعود عليهم وحدهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾، أي: إذا جاءت هؤلاء الأكابر المجرمين آية من آيات القرآن الكريم، أي: تليت عليهم آية فيها دعوتهم إلى الإيمان.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أي: لن نصدق بمحمد، وبما جاء به حتى نُعطى مثل الذي أُعطي رسل الله من المعجزات الحسية العينية؛ كفلق البحر لموسى، وإحياء الموتى لعيسى؛ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وذلك لجهلهم بالحكمة الإلهية في تصريف الآيات والمعجزات بما يناسب حال المرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

ولجهلهم عظم الآيات التي أنزلها الله عليهم في القرآن الكريم الذي يفوق جميع آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وهو المعجزة الكبرى الباقية إلى قيام الساعة؛ قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقال ﷺ: «**ما من نبيٍّ إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الّذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ؛ وأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي قولهم: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ما يشير إلى اعتراضهم حتى على إرساله ﷺ؛ بدليل قوله تعالى بعده: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وقيل معنى: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أي: يأتينا نحن مثل ما يأتي الرسل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٔ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾: قرأ ابن كثير وحفص: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ بحذف الألف بعد اللام ونصب التاء على التوحيد، وقرأ الباقون بالألف وكسر التاء على الجمع: «رسالاته».

أي: هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه، وكيف يؤيدهم بالآيات والمعجزات؛ فهو أعلم بمن يصلح للرسالة، وهو أعلم بالآيات والمعجزات المؤيدة لهم، المناسبة للمرسل إليهم.

وفي هذا- كما سبقت الإشارة- ما يدل على اعتراضهم على إرساله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقد كان ﷺ خيارًا من خيار من خيار، وكانوا يعرفون ذلك عنه ﷺ، ويلقبونه بالأمين.

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت من خير قرون بني**

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، فضل نسب النبي ﷺ (٢٢٧٦)، والترمذي في المناقب (٣٦٠٥)، وأحمد (٤/ ١٠٧).

آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»(١).

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، أي: سينال الذين ارتكبوا الجرائم بالشرك بالله والمكر والصد عن دين الله، ويمسهم ﴿صَغَارٌ﴾، أي: ذل وهوان.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: مقدر عند الله ثابت محقق في الدنيا والآخرة. وقال بعضهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: من عند الله.

والجزاء من جنس العمل؛ فإنهم لما استكبروا عن الانقياد للرسول ﷺ وكابروا في الإجرام بالكفر، والتصدي لدعوته، وصد الناس عنها عاقبهم الله بالصغار، وهو الذل والهوان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وأظهر في مقام الإضمار؛ فلم يقل: «سيصيبهم»، بل قال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ لبيان علة هذا الوعيد، وهو إجرامهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من المجرمين.

﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ الباء سببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي يمكرون، أو بسبب مكرهم؛ فجعل الله عقابهم ذلًّا وعذابًا؛ ليناسب كبرهم وعتوهم وعصيانهم؛ فأصيبوا في الدنيا بالهزيمة والذل، وزوال السيادة، وعذاب القتل، والأسر والخوف، كما قال تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]، وقد حصل هذا يوم بدر؛ فهلك سادات المشركين، وأهين وأذل من بقي منهم.

ولهم في الآخرة الإهانة في المحشر بين الخلائق؛ كما قال ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة؛ يُقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٣، ٤١٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٧)، من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٣١٨٦)، ومسلم (١٧٣٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولهم أيضًا في جهنم الإهانة بالعذاب المعنوي بالتقريع والتوبيخ والتبكيت، ولهم فيها العذاب الحسي في اصطلاء النار؛ كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة تعلل أكابر المجرمين من مشركي مكة، وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ثم بين عز وجل في هذه الآية أن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، وأنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا ما لم يرد الله هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ الفاء استئنافية، و«من» شرطية، ﴿يُرِدِ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿يَشْرَحْ﴾ والمراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية التي معناها المشيئة، أي: فمن يرد الله كونًا ويشأ أن يهديه، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿أَن يَهْدِيَهُۥ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿يُرِدِ﴾، أي: من يرد الله هدايته، والمراد بالهداية هنا ما يشمل هداية الإرشاد العامة، وهداية التوفيق الخاصة بالله عز وجل.

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، أي: يفسح صدره ويوسعه للإسلام، وينور قلبه بنور الإيمان والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:

١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧-٨].

ولهذا كان ﷺ يقول: «**اللّهمّ اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعل لي نورًا**» أو قال: «**واجعلني نورًا**»(١).

فمن شرح الله صدره للإسلام، ومنحه نور الإيمان سعد في دينه ودنياه وأخراه.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾، أي: ومن يرد كونًا إضلاله، أي: جعله يضل ويتيه عن طريق الحق ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، أي: يجعل صدره غير منشرح، وغير منفسح ولا متسع لقبول الإسلام؛ بقرينة مقابلته ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

قرأ ابن كثير «ضَيْقًا» بإسكان الياء مخففة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقرأ الباقون بكسر الياء مع تشديدها: ﴿ضَيِّقًا﴾ وهو مفعول ثان لـ﴿يَجْعَلْ﴾.

﴿حَرَجًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو بكر عن عاصم بكسر الراء ﴿حَرِجًا﴾ صفة لـ«ضيقا»، أو مفعول ثالث لـ ﴿يَجْعَلْ﴾، أي: شديد الضيق، أو آثمًا.

وقرأ الباقون بفتح الراء: ﴿حَرَجًا﴾؛ فيكون نصبه على أنه مصدر، أو صفة لـ﴿ضَيِّقًا﴾، أو مفعولًا ثالثًا لـ﴿يَجْعَلْ﴾، ومعناه أيضًا: شديد الضيق؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، أي: من ضيق.

و«الحَرَج» بفتح الراء، جمع حَرَجة: وهي الشجرة الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيء ولا يمكن الوصول إليها؛ لشدة التفاف الأشجار عليها؛ فالصدر

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣)، وأبو داود في الطهارة (١٣٥٣)، والنسائي في التطبيق (١١٢١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الضيق الحرج الذي لا ينفذ إليه- من شدة ضيقه- الإيمان، ولا تصل إليه الموعظة؛ لرين الكفر والشرك عليه وخذلانه.

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحرجة؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر رضي الله عنه: «كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير»(١).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الياء والصاد مشددة، وألف بعدها، وتخفيف العين: «يَصَّاعَدُ»، وقرأ ابن كثير بإسكان الصاد، وتخفيف العين من غير ألف: «يَصْعَدُ»، وقرأ الباقون بتشديد الصاد والعين من غير ألف ﴿يَصَّعَّدُ﴾، وهي متقاربة في المعنى.

و«الكاف» في قوله: ﴿كَأَنَّمَا﴾ للتشبيه، والمعنى: كأنه حين يُدعى إلى الإسلام من شدة ضيق صدره وحرجه ﴿يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: يُكلف الصعود في السماء؛ فإن الصاعد في السماء يضيق نفسه في الصعود.

وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن أراد إضلاله، وغلبت شقوته؛ فإنه حينما يُدعى إلى الإسلام يضيق ذرعًا بذلك، وتنغلق عنده أسباب وصول الإيمان والموعظة إلى قلبه، ويعاني من ذلك أعظم المشقة، كحال الذي يصَّعَّد في السماء.

عن الحكم بن أبان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: «فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله قلبه»(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، «الكاف» للتشبيه والإشارة إلى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، أي: كما جعل الله تعالى صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا؛ ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيشمل كل من يعرض عن الإيمان من المشركين وأهل الكتاب؛ فتزداد قلوبهم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٤٤-٥٤٥).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٢٩).

قساوة إلى قساوة.

والمضارع في «يجعل»؛ لإفادة التجدد في المستقبل، وأن هذه سنة الله في كل من ينصرف عن الإيمان ويعرض عنه.

وأظهر مقام الإضمار، فلم يقل: «كذلك أجعل»، بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ للتعظيم والتهويل.

و«الرجس» يطلق على ما يستخبث حسًّا كالقاذورات، ويُطلق على ما يستخبث معنى كالشرك وجميع المعاصي والذنوب، وهو المراد هنا؛ قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، أي: مرضًا في قلوبهم زاد على مرضها السابق، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال بعض المفسرين: الرجس: الشيطان؛ فعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «الرجس الشيطان»(١).

وقال بعضهم: الرجس: عذاب الله(٢)؛ قال تعالى: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

لما ذكر حال من أراد إضلالهم وما هم فيه من ضيق الصدر والحرج نوَّه بصراطه المستقيم؛ ترغيبًا فيه، وإغراء باتِّباعه.

قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾، أي: طريقه ودينه؛ وهو الإسلام، وأشار إليه إشارة الحاضر؛ لأنه معلوم معهود، ولقوله قبله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾. وأضاف عز وجل

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٢)؛ عن ابن زيد.

الصراط إليه في قوله: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]؛ لأنه هو الذي وضعه وارتضاه، ويؤدي إليه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

وأظهر في مقام الإضمار؛ فقال: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: «صراطي»؛ لتعظيم هذا الصراط.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال، أي: عدلًا لا اعوجاج فيه، وسطًا لا إفراط فيه ولا تفريط، يؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، بأقل مسافة وأخطر طريق.

وأضافه عز وجل أولًا إليه، ووصفه بالاستقامة ثانيًا؛ ترغيبًا فيه وإغراءً به، أي: فاثبت عليه وادع إليه.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، «قد» حرف تحقيق، أي: قد بينا ووضحنا الآيات؛ والمراد بها الآيات الشرعية آيات القرآن الكريم.

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل قوم يذكرون، أي: يتعظون ويعتبرون، وخصهم لأنهم هم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها؛ فيتدبرونها، ويوقنون بما دلت عليه من توحيد الله وشرعه القويم، ويعملون بها.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، «لهم» جار ومجرور، خبر مقدم، أي: للقوم الذين يذَّكرون، وقدم للدلالة على الاختصاص، أي: لهم خاصة ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

«الدار» مكان الحلول والإقامة، و«دار» مضاف، و«السلام» مضاف إليه؛ من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«دار السلام» الجنة، وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل آفة وعيب ونقص، ومن كل كدر وهمٍّ وغم وخوف وغير ذلك.

ويلزم من هذا أن تكون في غاية الكمال ونهاية التمام؛ من نعيم الروح والبدن وأمان القلب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة بجواره وقربه.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾، أي: وهو وحده وليهم الذي يتولى تدبيرهم، وجلب الخير لهم، ونصرهم، ودفع الضر عنهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الباء سببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، أي: جزاء أعمالهم الصالحة أثابهم الجنة دار السلام، وتولاهم؛ نسأل الله تعالى من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء الرسول ﷺ في أول دعوته بأكابر مجرمي قريته مكة؛ يؤذونه ﷺ وأصحابه، ويكيدون لدعوته، ويصدون الناس عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

٢- تسليته ﷺ وتثبيته ببيان أن ما ابتلي به من مكر أكابر مجرمي قريته فيها ليس بدعًا فقد جعل الله في كل قرية مضت أكابر مجرميها؛ ليمكروا فيها.

٣- إثبات الجعل الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾.

٤- تعظيم الله عز وجل لنفسه بتكلمه بضمير الجمع بقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿فَصَّلْنَا﴾. وفي الإظهار مقام الإضمار بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾.

٥- أن ما يحصل في الكون من خير أو شر إنما هو بتقدير الله عز وجل ولعلة وحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

٦- أن القرية تطلق على المكان الذي يسكنه أناس كثيرون، وتطلق على المدينة؛ لأن الله أطلقها على مكة، وهي أم القرى وأكبرها.

٧- أن أهل المكر والخداع إنما يمكرون بأنفسهم؛ لأن ضرر مكرهم يعود عليهم وحدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٨- عدم إدراك هؤلاء الأكابر المجرمين أن مكرهم إنما يعود عليهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

٩- إقامة الحجة على الناس بالقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، أي: من آيات القرآن الكريم، وهو أكبر آية، وأعظم معجزة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

١٠- شدة عناد هؤلاء الأكابر المجرمين، واقتراحهم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

١١- إيمان هؤلاء الأكابر المجرمين بالرسل السابقين؛ لقولهم: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

١٢- أن الله عز وجل أعلم بمن هو أهل للرسالة، وما يحتاجه رسله من الآيات المناسبة للمرسل إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

١٣- الرد على المعترضين على رسالته ﷺ، وعلى ما أيده الله به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

١٤- الوعيد والتهديد للذين أجرموا بالمكر، والشرك بالله، والصد عن دينه؛ بالذل والهوان عند الله والعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

وهكذا حصل لأكابر المجرمين من أهل مكة، فأهينوا وعذِّبوا في الدنيا بالقتل والأسر، وزوال عزهم ومنعتهم، ولهم في الآخرة عذاب النار.

١٥- أنه يجمع للمجرمين بين العذاب المعنوي للقلوب؛ بالإذلال والإهانة لهم، والعذاب الحسي للأبدان.

١٦- إثبات الأسباب، وأن ما يحصل للمجرمين مما توعدوا به بسبب إجرامهم ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾، كما أن توليه عز وجل للذين يذَّكرون بسبب عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

١٧- أن الهداية والإضلال بيد الله تعالى وتدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

يَهْدِيَهُۥ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ الآية؛ فهو عز وجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله، ولا يسأل عما يفعل، وهم يُسألون.

١٨- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، والتي معناها المشيئة.

١٩- أن من أراد الله هدايته شرح صدره للإسلام، فجعله منبسطًا، وأناره بنور الإيمان واليقين والتوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

٢٠- أن من أراد الله إضلاله جعل صدره ضيقًا شديد الضيق، لا ينفذ إليه شيء من الإيمان، ولا تصل إليه الموعظة؛ لخذلانه تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

٢١- شدة ما يعانيه من الضيق من كُتب عليه الضلال، فهو من شدة ضيق صدره كالذي يكلف الصعود في السماء في ضيق نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢٢- إثبات الجعل الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾.

٢٣- عقوبة الله تعالى للذين لا يؤمنون بجعل الرجس عليهم بتسلط الشيطان عليهم، وإيقاعهم بالشرك والموبقات الموجبة لأشد العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ١٠٠].

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل، وأن المعصية سبب للمعصية بعدها، وأن عدم الإيمان سبب لجعل الرجس على المرء وتراكم الذنوب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

٢٥- امتداح الله تعالى لصراطه وطريقه ودينه الإسلام، وتشريفه وتعظيمه بإضافته إليه عز وجل، والإغراء بسلوكه واتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾.

٢٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إلى اسم الرب

عز وجل وربوبيته له ربوبية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٧- إثبات ربوبية الله الخاصة برسله وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢٨- أن صراط الله تعالى عدل مستقيم لا اعوجاج فيه، يؤدي إلى الغاية المنشودة؛ وهي السعادة في الدنيا والآخرة بأقصر طريق، وأخصر وقت؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾.

٢٩- تفصيل الله عز وجل الآيات وبيانها لإقامة الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾.

٣٠- أن الذين ينتفعون من تفصيل الآيات هم الذين يتذكرون ويتعظون بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣١- تخصيص الذين يتذكرون بدار السلام عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: لهم خاصة.

٣٢- أن نعيم الجنة في غاية الكمال، ونهاية التمام؛ لأن الله تعالى سمَّاها دار السلام، أي: دار الأمن والسلامة من كل عيب ونقص وكدر وغير ذلك، ولأنها عنده عز وجل؛ فهي منه سبحانه وبقربه وجواره.

٣٣- ولاية الله عز وجل للذين يذَّكَّرون، يدبرهم، ويجلب الخير لهم، وينصرهم، ويدفع الضر عنهم؛ بسبب عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

لما ذكر أن للذين يتذكرون بالآيات عند ربهم دار السلام أتبع ذلك بذكر مثوى الذين لا يتذكرون، وهي النار دار الهوان خالدين فيها.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ حفص وروح ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «نَحْشُرُهُمْ» بالنون؛ وفي كل من القراءتين تعظيم لنفسه عز وجل.

و«يوم» منصوب بفعل محذوف تقديره: «اذكر»، أي: اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، أي: جميع الثقلين الإنس والجن.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أي: ثم يقول موبخًا للجن الذين أضلوا كثيرًا من الإنس، ومنكرًا عليهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، «المعشر» الجماعة الذين أمرهم وشأنهم واحد؛ بحيث تجمعهم صفة، مشتق من المعاشرة: وهي المخالطة، وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه، ويجمع على «معاشر»؛ وهو بمعناه.

و«الجن» هم الجنس الذين خلقوا من نار؛ كما قال تعال: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥]، وهم الشياطين وإخوانهم من بني جنسهم الجن.

﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، «قد» حرف تحقيق، و«الاستكثار»: شدة الإكثار، والسين والتاء فيه للمبالغة، أي: قد استكثرتم من إضلال الإنس، وإغوائهم، وصدهم عن سبيل الله، أي: أضللتم منهم خلقًا كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾، «يعني: أضللتم منهم كثيرًا»(١).

والآية، وإن كان ظاهرها في توبيخ الجن والإنكار عليهم، إلا أن فيها تعريضًا بتوبيخ الإنس أيضًا في اتباعهم الجن وطاعتهم له؛ ولهذا بادر الإنس معتذرين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾، أي: وقال أولياء الجن، أي: الذين والوا الجن وأطاعوهم ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ مجيبين لله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وفي هذا ما يشير إلى أن الجن قد أُفحموا بالمرة وأُلجموا، فلم يقدروا على التكلم أصلًا؛ إذا لا عذر لهم؛ ولهذا تولى أولياؤهم من الإنس الاعتذار عنهم بما لا يدفع ولا ينفع؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ في الدنيا، أي: انتفع بعضنا ببعض، أي: استمتع وانتفع كل نوع بالآخر.

قال الحسن: «وما كان استمتاع بعضهم ببعض، إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس»(٢).

فاستمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والفسوق والعصيان، والتقرب إليهم، وتعظيمهم، والتعوذ بهم، وإعانتهم على إضلال الناس، والصد عن دين الله؛ فإذا أطاعوهم فقد أعطوهم مناهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٨).

واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى والشرك به بكل ما يقدرون عليه من التحسين والتزيين والدعاء وغير ذلك، فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم من الشرك والفواحش والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم من معونتهم على ذلك؛ فانتفع كل منهم بالآخر.

والفاسق يستمتع بالشيطان بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع منه في قبوله منه وطاعته له، فيسره ذلك، ويفرح به. والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له، ويستمتع بالشيطان بكون الشيطان عونًا له على ذلك.

وفي قول هؤلاء الأولياء: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ ما يشبه الاعتذار عن أوليائهم من الجن، ودفع التوبيخ عنهم؛ بأنهم لم يكونوا مستأثرين بالانتفاع، أو بمعنى آخر لم يكونوا مستأثرين بالاستكثار من إضلالنا، بل كل منا استمتع وانتفع بصاحبه، وأعانه على الكفر.

وهذا أيضًا يحتمل أنهم أرادوا مشاطرة أوليائهم من الجن الذنب؛ إقرارًا بالحق، وإخلاصًا لأوليائهم، أو أنهم أرادوا الاعتذار عن أنفسهم وعن أوليائهم من الجن بأن ما فعلوه لم يكن من باب المخالفة، أو الاستخفاف بأمر الله، لكنه من الاستمتاع والانتفاع من الجانبين.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، أي: أجل الموت، وأجل البعث، أي: متنا وبعثنا، وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

والمعنى: وصلنا الوقت الذي نجازى فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، قد انقطعت حجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك، وكأن في هذا منهم نوع استعطاف وتضرع وترقق، ولكن في غير أوانه؛ ولهذا حكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه؛ فقال:

﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ الخطاب للصنفين الجن وأوليائهم من الإنس، أي: النار مأواكم ومنزلكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال، أي: حال كونكم خالدين فيها، أي: ماكثين مقيمين فيها أبدًا.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، «إلا» حرف استثناء، «وما» اسم موصول مبني في محل نصب

على الاستثناء المتصل، أي: إلا الذي شاء الله وأراده كونًا.

وحيث تضافرت النصوص من الكتاب والسنة على خلود الكفار في النار خلودًا مؤبدًا؛ فقد اختلف في معنى هذا الاستثناء:

فقيل: يرجع إلى مدة بقائهم في الدنيا. وقيل: إلى مدة بقائهم في البرزخ. وقيل: من بعثهم إلى دخولهم النار. وقيل: إلى مدة تنقلهم بين الجحيم والزمهرير. وقيل: إلا ما شاء الله من زيادة العذاب لو شاء ذلك. وقيل: الاستثناء راجع إلى قدرة الله على رفع العذاب عنهم لو شاء ذلك، أي: إلا ما شاء الله لو أراد رفع العذاب عنهم، فإنه قادر على ذلك، ولكنه عز وجل شاء تخليدهم في النار، وقيل غير ذلك(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، «إن» حرف توكيد ونصب، والخطاب للنبي ﷺ وفي خطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل وربوبية الله تعالى له ربوبية خاصة؛ تشريف وتكريم له، وعناية به ﷺ.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام؛ بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة؛ بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ فهو سبحانه حكيم، أي: حاكم، له الحكم التام، وحكيم محكم، له الحكمة البالغة.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

وفي ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ما يشبه التعليل والبيان أن ما حكمه الله عز وجل فيهم هو مقتضى حكمه وحكمته وعلمه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾، «الواو» استئنافية، و«الكاف» للتشبيه، والإشارة إلى ما تقدم في الآية السابقة من استكثار الجن من إضلال الإنس وإغوائهم لهم.

و«الباء» في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي

---

(١) سيأتي لهذا زيادة بيان- إن شاء الله- عند تفسير قوله تعالى في سورة هود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٧].

يكسبونه، أو بسبب كسبهم.

والمعنى: كما ولينا شياطين الجن وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس؛ بسبب كسبهم وسعيهم بذلك؛ كذلك نولي بعض الظالمين بعضًا، ونسلط بعضهم على بعض؛ بسبب كسبهم وأعمالهم السيئة، وإعراضهم عن ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «من أعان ظالمًا سلَّطه الله عليه»(١).

قال السعدي في كلامه على الآية: «كذلك سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله، يؤزه إلى الشر، ويحثه عليه، ويزهده في الخير، وينفره منه، وذلك من عقوبات الله العظيمة، الشنيع أثرها، البليغ خطرها، والذنب ذنب الظالم؛ فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة؛ ولي عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين»(٢).

وقد قيل:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُبْلَى بِظَالِمِ(٣)

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٣٢).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٧٥).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٣٩).

قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، «يا» حرف نداء، و«معشر» منادى، وهو مضاف، و«الجن» مضاف إليه، و«الإنس» معطوف عليه.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتقريع للكفار من الجن والإنس يوم القيامة.

﴿رُسُلٞ﴾، أي: رسل كثيرون من الله إليكم، ﴿مِّنكُمۡ﴾، أي: من جنسكم، ومن أنفسكم أيها الإنس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

والرسل إنما هم من الإنس فقط، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]؛ ولهذا حصر عز وجل النبوة بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام في ذريتهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد:٢٦]، كما حصر عز وجل النبوة بعد إبراهيم في ذريته، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ولم يقل أحد أن من الجن رسلًا، لا قبل نوح وإبراهيم ولا بعدهما.

ومما يدل على أن الجن تبع للإنس في هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر»(١).

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أي: يقصون ويتلون عليكم آياتي الشرعية التي فيها بيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، والخير من الشر، والوعد والوعيد.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ معطوف على قوله: ﴿يَقُصُّونَ﴾، أي: يخوفونكم ويحذرونكم لقاء يومكم هذا، يوم القيامة وعذابه لمن عصى الله وخالف أمره، و«هذا» للتعظيم؛ فأقروا بذلك واعترفوا، فقالوا:

﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾، أي: أقررنا على أنفسنا بأن الرسل قد أتتنا بآياتك وأنذرونا لقاء يومنا هذا، وأنه كائن لا محالة، فكذبنا رسلك، وجحدنا آياتك، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨-٩].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وهذا كله لا ينافي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ وذلك لاختلاف الأحوال والمواقف يوم القيامة؛ ففي مواقف وأحوال يقرون ويعترفون، وفي أخرى يكتمون؛ وذلك لشدة خوفهم واضطرابهم؛ كما أنهم في مواقف وأحوال تنطق ألسنتهم، وفي أخرى يختم عليها وتنطق جوارحهم.

واستعملت الشهادة في معنى الإقرار؛ لأن أصل الشهادة الإخبار عن أمر تحققه المخبر وتبيَّنه، يُقال: شهد عليه، أي: أخبر عنه خبر المثبت المتحقق.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ معطوف على ما قبله، أي: وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها وزهرتها وزخرفها، وما فيها من اللهو واللعب، والتكاثر والتفاخر؛ فاطمأنوا إليها، ورضوا بها، وألهتهم عن الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٣٢).

ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وشهدوا على أنفسهم وأقروا يوم القيامة ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾، أي: كافرين بالله، مكذبين لرسله وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠-١١].

فأما الجن فكفرهم بنصبهم أنفسهم شركاء لله وإضلالهم الإنس، وأما الإنس فكفرهم بضلالهم باتِّباعهم الجن، وتعظيمهم لهم، وعبادتهم من دون الله.

وهذا الخبر بشهادتهم على أنفسهم بالكفر مستعمل في التعجيب من حالهم وسوء نظرهم لأنفسهم؛ بالأمس أوقعوها بالكفر واليوم شهدوا عليها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما ذكر عز وجل من إرسال الرسل يقصون آيات الله تعالى، وينذرون لقاء يوم القيامة وعذابه، أي: إرسالنا الرسل يقصون الآيات وينذرون لقاء يوم القيامة؛ من أجل أن ربك- يا محمد- لم يكن مهلك القرى بظلم.

و«أن» في قوله: ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ﴾ تفيد معنى التعليل، أي: لأنه لم يكن ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، الإهلاك: إعدام الموجود وإماتة الحي؛ فإهلاك القرى: إبادة أهلها وتخريبها وتدميرها.

وقوله: ﴿بِظُلۡمٖ﴾ يحتمل أن المعنى: بظلم منه، أي: لم يكن ليهلكهم قبل تذكيرهم، وإقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الآيات؛ فيكون قد ظلمهم؛ فإنه سبحانه لا يأخذ أحدًا إلا بذنب، ولا يعاقبه إلا بمخالفة أمر الله تعالى ونهيه، وهو ما جاءت به رسله؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١، الحج: ١٠].

ويحتمل أن المعنى: ﴿لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾، أي: بظلم منهم، يعني: بشرك كانوا عليه قبل البعثة، حتى يقيم عليهم الحجة بإرسال الرسل والتذكير بالآيات؛

فالمراد بالظلم: الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ فهو سبحانه لا يظلم أحدًا من خلقه، فلا يعذب أحدًا منهم إلا بذنب حصل منه بعد إقامة الحجة عليه، ولا يعذب أحدًا منهم ظلم نفسه بارتكاب الشرك قبل إقامة الحجة عليه.

﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أن أهلها غافلون، وفي هذا دلالة على أن إهلاك القرى بسبب ظلم أهلها، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢]، أي: لم يكن ربك مهلك القرى بظلم والحال أن أهلها غافلون قبل إرسال الرسل إليهم، وإنزال الآيات عليهم، وتذكيرهم وإنذارهم وتحذيرهم وإقامة الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤]؛ فقوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: من قبل إرسال الرسول وإنزال الكتاب.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

ذكر عز وجل أنه لم يكن مهلكًا أحدًا إلا بعد الإعذار والإنذار لهم، ثم أتبع ذلك بما يشبه الاحتراس والتنبيه أن كلًّا منهم يجازى حسب عمله؛ فكما أنهم ليسوا سواء في الأعمال، فهم كذلك ليسوا سواء في المجازاة.

قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾، أي: ولكل من أهل القرى، أو لكل عامل طاعة وعامل معصية، أو لكل من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأحقاف: ١٨-١٩].

﴿دَرَجَٰتٌ﴾ جمع «درجة»، وهي: ما يُرتقى به من أسفل إلى أعلى، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وإن قصد بها النزول إلى أسفل فهي دركات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

واستعمال «درجات» هنا فيه إشارة لبشارة المؤمنين بعد نذارة الكافرين؛ لتغليب الدرجات على الدركات.

﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: من الذي عملوه، أو من عملهم، فهم في أعمالهم مختلفون؛ منهم المؤمن ومنهم الكافر، وهم متفاوتون درجات ومراتب في إيمانهم وفي كفرهم.

فالمؤمنون منهم قوي الإيمان، ومنهم ضعيف الإيمان، ومنهم من هو وسط، ومنهم ما بين ذلك، قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣، يوسف: ٧٦]، والكافرون منهم من هو موغل في الكفر، ومنهم من هو دونه، ومنهم ما بين ذلك، ومنهم رؤوس في الكفر، ومنهم أتباع مقلدون، وغير ذلك.

وثواب المؤمنين منهم على حسب أعمالهم وقوة إيمانهم وضعفه؛ فهم في الجنة درجات، كل واحدة أعلى من التي قبلها، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وعذاب الكافرين على حسب مراتب كفرهم وشدته؛ فهم في النار دركات، كل واحدة منها أسفل من التي قبلها؛ قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالخطاب «تعملون»، والخطاب فيها للكافرين من الجن والإنس؛ وفيه تهديد ووعيد لهم، ويجوز كونه خطابًا للثقلين؛ الجن والإنس؛ فيكون فيه وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر، أو خطابًا للرسول ﷺ والمؤمنين؛ فيكون فيه تعريض بالوعيد للكافرين، ووعد للمؤمنين، أي: وما ربك بغافل عما تعملون أنتم وإياهم.

وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فيعود إلى الكافرين من الجن والإنس.

وفيه تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين، وطمأنة ووعد لهم بأن الله ناصرهم وسيكفيهم شر أعدائهم الكافرين.

ويجوز عود الضمير في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على الثقلين؛ الجن والإنس؛ فيكون فيه وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر.

وكون الضمير على القراءتين- بالخطاب والغيبة- يعود إلى عموم الجن والإنس، هو الموافق لعموم قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾.

والمعنى: وما ربك- يا محمد- بغافل عن أعمالهم، بل هو عالم ومحيط بها، لا تخفى عليه منها خافية، وسيجازي كلًّا بعمله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ الواو عاطفة، أي: وربك- يا محمد-. وفي خطابه عز وجل له، وإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له، وإشارة إلى عنايته به بربوبيته الخاصة له؛ ولعل هذا هو الغرض من الإظهار بدل الإضمار؛ فلم يقل: وهو الغني.

﴿الْغَنِيُّ﴾ اسم من أسماء الله تعالى يدل على إثبات صفة الغنى التام له عز وجل، وأنه سبحانه ذو الغنى التام بذاته عن جميع خلقه من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إليهم بحال، وهم الفقراء المحتاجون إليه في جميع الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أي: صاحب الرحمة، التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل، وصفة من صفاته الفعلية؛ يوصلها إلى من شاء من خلقه ويرحمهم بها رحمة عامة وخاصة، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

فأمر عز وجل عباده بطاعته، ونهاهم عن معصيته، ووعدهم بالثواب على الطاعة، وتوعدهم بالعذاب على المعصية؛ رحمة بهم، لا لحاجته إليهم؛ فهو الغني بذاته عن جميع خلقه وعن أعمالهم، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، كما قال تعالى:

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

ومن رحمته إمهاله لهم مع ما هم عليه من الكفر والمخالفة، كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف: ٥٨].

وفي قرن غناه برحمته إشارة إلى فضل غناه، وأنه يحمد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]؛ فهو سبحانه محمود في غناه؛ لأنه يرحم به عباده، ويتفضل عليهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣﴾.

ذكر عز وجل أنه ذو الرحمة؛ لهذا أمر عباده بطاعته، ونهاهم عن معصيته، ثم أتبع ذلك بالوعيد والتهديد لمن خالف أمره، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ الآية.

قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾، أي: إن يرد كونًا إذا خالفتم أمره ﴿يُذْهِبْكُمْ ﴾ بإهلاككم.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، والسين والتاء في «يستخلف» للتأكيد. والاستخلاف جعل الناس يخلف بعضهم بعضًا في الأرض.

﴿مِنۢ بَعْدِكُم ﴾، أي: من بعد إذهابكم وإهلاككم لمخالفتكم أمره، وعدم أهليّتكم للخلافة في الأرض.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿مَّا يَشَآءُ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي يشاء من الأقوام، ممن يؤمنون به ويعملون بطاعته، والذين هم أهل للخلافة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، «الكاف» للتشبيه، و«ما» مصدرية، أي: مثل إنشائه لكم، أي: كما أوجدكم بعد أن كنتم عدمًا، ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، أي: من نسل قوم آخرين، وجعلكم خلفًا لقوم كانوا قبلكم.

قال ابن القيم: «فهذا قياس جلي بقوله سبحانه: إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم، كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم»(١).

أي: هو قادر تمام القدرة على إذهابكم واستخلاف من يشاء بعدكم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

وفي الآية تنبيه وإشارة إلى أنهم لا بد أن ينتقلوا من هذه الدار، أي: اعلموا أنكم ستنتقلون من هذه الدار؛ كما انتقل غيركم، وترحلون عنها، وتتركونها لمن بعدكم؛ كما رحل عنها من قبلكم وتركوها لكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

قوله: ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ**﴾، «إن» حرف توكيد، و«ما» موصولة، أي: إن الذي توعدونه لآت، واللام في قوله ﴿لَءَاتٍ﴾ للتوكيد أيضًا، فأكد هذا الخبر بمؤكدين؛ لأن المشركين موغلون في الإنكار، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

والمعنى: إن الذي توعدون به من البعث والحساب والعذاب لآت وواقع بكم لا محالة.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٨٤).

وقوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ من وعد يعد وعدًا، وقيل: من أوعد يوعد وعيدًا. والأول أقرب، و«الوعد» قد يستعمل أحيانًا في الشر، أي: في معنى «الوعيد»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» نافية، أي: وما أنتم بمعجزين الله تعالى هربًا منه، فتفوتونه وتفلتون من عذابه، أو تخرجون عن قدرته وقبضته؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء.

ومجيء الجملة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ اسمية للدلالة على الثبات والدوام، أي: وما أنتم بمعجزين في أي وقت، وفي أي حال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

في هذه الآية وعيد أكيد، وتهديد شديد للمكذبين.

قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «مكاناتكم» بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد.

أي: قل يا محمد لقومك، بعد أن دعوتهم فكذبوك: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: اعملوا على طريقتكم وحالتكم، وما أنتم عليه، وما أنتم عاملون؛ وفي هذا تهديد لهم؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾، أي: إني عامل على ما أنا عليه، وثابت على طريقي ومنهجي في الإيمان بالله والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١٢١-١٢٢].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الفاء تعليلية، و«سوف» حرف تنفيس؛ لتأكيد الوقوع في المستقبل، أي: فسوف تعلمون في المستقبل- أيها الكفار المكذبون- عند معاينة العذاب وحلول نقمة الله تعالى فيكم.

﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف «يكون» بالياء على

التذكير، وقرأ الباقون: ﴿تَكُونُ﴾ بالتاء على التأنيث، و«من» موصولة في محل نصب مفعولين «تعملون» ويجوز أن تكون استفهامية في محل رفع مبتدأ، والجملة بعدها خبر.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، «العاقبة»: آخر الأمر، وأثر عمل العامل؛ فعاقبة الدار: ما يظهر في آخرها من أثر ونتيجة، أي: فسوف تعلمون من تكون له عقبى الدار ونهايتها ونتيجتها، أهي لي أو لكم؟

والمراد بـ«الدار» الدار الدنيا، أي: فسوف تعلمون عند معاينة العذاب وحلوله بكم أينا الذي هو على الحق؛ فتكون له عقبى هذه الدار الدنيا ونهايتها، وينتفع بثمرة عمله فيها؛ أهو نحن أم أنتم؟

وهذا من التنزل معهم في المقال؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤].

وإلا فهو عليه الصلاة والسلام يعلم علم اليقين أن العاقبة له وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٢].

ويعلم أن عقبى المتقين الجنة وعقبى الكافرين النار، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تأكيد للوعيد، فيه معنى التعليل، أي: لأنه لا يفلح، أي: لا يفوز الظالمون، أي: ستكون لنا عاقبة الدار لا لكم؛ لأنكم ظالمون، ولا يفلح الظالمون، والتعريف في «الظالمون» للاستغراق، يشملهم وغيرهم.

وهكذا كانت العاقبة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ

لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم: ١٣-١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الثقلين- الجن والإنس- بيوم حشرهم جميعا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٢- إثبات المعاد، وحشر العباد يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

٣- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: «نحشرهم»، وقوله: ﴿نُوَلِّي﴾ بنون الجمع والعظمة، وفي الإظهار مقام الإضمار؛ كما في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٤- إثبات الجن، وأنهم مكلفون ومجزيون بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية.

٥- توبيخ الجن وتقريعهم، والإنكار عليهم في إضلالهم كثيرًا من الإنس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾.

٦- شدة أثر شياطين الجن على الإنس، وضعف الإنس أمامهم، إلا الذين آمنوا وتوكلوا على الله؛ فلا سلطان للشيطان عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

٧- اعتذار أولياء الجن من الإنس عنهم بأنهم لم يستأثروا وحدهم بإضلال

الإنس، وإنما استمتع وانتفع بعضهم ببعض، حتى بلغوا أجلهم بالموت، ثم البعث والوقوف بين يدي الله عز وجل، واستسلموا لأمر الله؛ ليفعل بهم ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

٨- عجز الجن عن الاعتذار عن استكثارهم من إضلال الإنس؛ لأنه لا عذر لهم؛ ولهذا ألجموا بالمرة، واعتذر عنهم أولياؤهم من الإنس بما لا يكفي ولا يشفي.

٩- موالاة شياطين الإنس والجن بعضهم بعضًا، وانتفاع بعضهم ببعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.

١١- أن الله تعالى قضى أجلًا لجميع الخلق؛ أجلًا لموتهم، وأجلًا لبعثهم ووقوفهم بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

١٢- أن النار مثوى ومأوى جميع الكافرين من الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾.

١٣- خلود أهل النار من الكفار فيها؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه ﷺ، وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

١٥- إثبات صفة الحكم والحكمة لله عز وجل؛ فهو حاكم محكم متقن لما خلق وقدر وشرع؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١٦- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١٧- في اقتران تمام الحكم والحكمة والعلم في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٨- أنه كما ولى عز وجل شياطين الجن، وسلطهم على شياطين الإنس يولي بعض الظالمين بعضًا؛ بسبب كسبهم السيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا

كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

١٩- تولي بعض الظالمين، وتسليط بعضهم على بعض؛ ابتلاء وامتحانًا من الله عز وجل لهم بسبب ظلمهم.

٢٠- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٢١- عناية الله عز وجل بخطاب الجن والإنس؛ لتكرار النداء لهم؛ بقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾.

٢٢- توبيخ الجن والإنس، وتقريعهم، وتقريرهم بإتيان الرسل إليهم يقصون عليهم آيات الله، وينذرونهم لقاء يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، ومع هذا لم ينجع ذلك فيهم.

٢٣- منة الله تعالى على الإنس؛ بكون الرسل منهم، يفهمون عنهم ويأخذون منهم؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: منكم أيها الإنس، أما الجن فليس منهم رسل، وهم تبع للإنس في أمر الرسالات.

٢٤- أن من أعظم مهمات الرسل عليهم السلام تبليغ آيات الله تعالى ووحيه، والإنذار من لقاء يوم القيامة وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

٢٥- وجوب التفكر والتدبر في آيات الله تعالى، والاستعداد ليوم القيامة، والحذر من عذابه.

٢٦- شهادة الجن والإنس على أنفسهم بإتيان الرسل إليهم بالآيات وإنذارهم يوم القيامة، وإقرارهم على أنفسهم بالكفر بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

٢٧- اغترار كثير من الجن والإنس بالحياة الدنيا وزينتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢٨- التحذير من الحياة الدنيا وغرورها؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، قال

تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٣].

٢٩- كمال العدل في محاسبة الخلائق؛ فإن الله لا يعذب أحدًا منهم حتى يشهد على نفسه، وتشهد عليه جوارحه بما اقترف؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾؛ وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

٣٠- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل بالآيات وتبليغهم وإنذارهم يوم القيامة وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

٣١- أن الله تعالى لا يهلك القرى بسبب ما هم عليه من الظلم والشرك وهم غافلون فيظلمهم، بل لا يهلكهم حتى يعذر إليهم بإرسال الرسل والآيات والإنذار.

٣٢- أن لكل العاملين درجات من أعمالهم؛ فهم مختلفون بين مؤمن وكافر، والمؤمنون منهم متفاوتون في درجات إيمانهم، والكافرون منهم متفاوتون في مراتب كفرهم، وثواب من آمن منهم درجات حسب إيمانهم وأعمالهم، وعذاب من كفر منهم دركات حسب شدة كفرهم وسوء أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

٣٣- أن الله مطلع على أعمال الخلق، وشاهد عليها، ليس بغافل عنها، ولا يخفى عليه منها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

٣٤- إثبات اسم الله تعالى «الغني»، وأنه سبحانه ذو الغنى التام بذاته عن جميع خلقه، وهم الفقراء إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

٣٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٣٦- أن الله عز وجل أمر الخلق بطاعته، ونهاهم عن معصيته؛ رحمة بهم؛ ليثيبهم وينجيهم من العذاب، لا لحاجته إليهم فهو الغني بذاته عن جميع خلقه.

٣٧- قدرة الله تعالى التامة على إذهاب الخلق، واستخلاف غيرهم ممن يؤمنون به ويطيعونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، وفي هذا تهديد للمكذبين.

٣٨- أن ما وعد به الناس من البعث والحساب والجزاء على الأعمال آت وواقع بهم لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾.

٣٩- أن الخلق لا يستطيعون الإفلات من قبضة الله تعالى، ولا الهروب من عذابه، ولا يعجزونه؛ لقدرته التامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٤٠- إمهال المكذبين، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٤١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى له: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾.

٤٢- إعلانه ﷺ ثباته على الإيمان والعمل والدعوة إلى الله تعالى، وإن خالفه من خالفه، وكذبه وما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾، وفي هذا ما لا يخفى من التحدي للمكذبين الذين يريدون صرفه عن أداء رسالته.

٤٣- تنزله ﷺ في المقال معهم؛ لقوله ﷺ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وهو ﷺ يعلم يقينا أن العاقبة له وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

٤٤- خسران الظالمين وخيبتهم، وأنهم لا يمكن أن يفلحوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وفيه إشارة إلى أن قومه ﷺ كانوا ظالمين، ولن يفلحوا ولن تكون لهم عاقبة الدار.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في الآية السابقة بتهديد المشركين بعد مكابرتهم بالكفر والتكذيب له ﷺ بقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، ثم ذمهم ووبخهم في هذه الآيات، مبينًا قبح ما هم عليه من الكفر والشرك، والخرافات، والابتداع في التحليل والتحريم، والافتراء على الله تعالى؛ مما يدل على سفاهة عقولهم وخفة أحلامهم وجهلهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الواو استئنافية، و«جعل» هنا بمعنى: صيَّر، مفعولها الأول قوله: ﴿نَصِيبًا﴾ والثاني قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، وقدم على المفعول الأول؛ للدلالة على الاختصاص، أي: نصيبًا خاصًّا لله.

﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾ متعلق بـ«جعلوا»، وفصل به بين المفعولين للتشنيع عليهم، والدلالة على سفاهة آرائهم؛ إذ ملَّكوا الله بعض ملكه؛ لأن ما ذرأه هو ملكه، وهو حقيق به بلا جعل منهم؛ ولهذا لم يقل: «وجعلوا لله من الحرث والأنعام».

و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ موصولة، أي: من الذي خلق وبرأ وأنشأ.

﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾، «من» بيانية، أي: من الزروع والثمار.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم، أي: صيَّروا وخصصوا لله وصرفوا له مما خلقه من الحرث والأنعام.

وفي حديث أبي طلحة رضي الله عنه، قال ﷺ: «**وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»(١)، أي: تصيرها وتصرفها فيهم.

﴿نَصِيبًا﴾، أي: حظًّا وجزءًا وقسمًا، والتقدير: وجعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا؛ بدليل قوله: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الآية.

قيل: وكانوا يصرفون ما جعلوه لله إلى الضيفان والمساكين، ويصرفون ما جعلوه للشركاء للتنسك والسدنة.

﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ﴾ الفاء عاطفة، والإشارة للنصيب الذي جعلوه لله من الحرث والأنعام، أي: هذا النصيب خاص لله.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ قرأ الكسائي بضم الزاي: ﴿بِزُعْمِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾. والزعم: الاعتقاد الفاسد والكذب، وفي الحديث: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٢).

والباء في قوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ قيل: بمعنى «من»، وقيل: للسببية.

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الإشارة للنصيب والقِسم الآخر من الحرث والأنعام، أي: هذا النصيب منها لله، وهذا النصيب منها لشركائنا، يعنون شركاءهم من الجن، وآلهتهم من دون الله من الأصنام ونحوها.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم، و«كان» فعل الشرط، وجوابه ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والفاء رابطة لجواب الشرط.

والمعنى: فما كان من النصيب خاصًّا لشركائهم- حسب قسمتهم- فلا يصل إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

الله، أي: أنهم يحفظون ما خصصوه من نصيب لشركائهم ويعتنون فيه، فلا يسمحون أن يصل منه شيء إلى النصيب الذي جعلوه لله، ولو وصل إلى ما جعلوه لله شيء مما جعلوه لشركائهم ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقيرة لا بد من رد نصيبها.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾، أي: وما كان من النصيب خاصًّا لله- حسب قسمتهم- فهو يصل إلى شركائهم، أي: لا مانع لديهم من وصوله إلى نصيب شركائهم، ولا يبالون به، ولا يهتمون له؛ فإن وصل شيء منه إلى نصيب شركائهم لم يردوه، وقالوا: الله غني عنه.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، قال: «كانوا إذا أدخلوا الطعام جعلوه حزمًا؛ جعلوا لله منها سهمًا، وسهمًا لآلهتهم؛ وكان إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه؛ فذلك قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾»[1].

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أنهم كانوا لا يأكلون ما ذبحوا لله حتى يسموا الآلهة، وما ذبحوه للآلهة يأكلونه ولا يسمون الله عليه[2].

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: ساء الذي يحكمون، أو ساء حكمهم.

فقد أخطؤوا أولًا في جعل هذه القسمة؛ إذ كيف يجعلون لله نصيبًا من الحرث والأنعام وهو مالكهم وإياها؟!، أي: كيف يجعلون لله نصيبًا من ملكه، وهو المالك المتصرف وحده في كل شيء؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٦٩)، وأخرجه بمعناه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مجاهد وقتادة. انظر: (٩/ ٥٦٩-٥٧١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٧٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٩٢).

وأخطؤوا ثانيًا فيما زعموا من هذه القسمة الفاسدة فلم يحفظوها، بل جاروا فيها؛ فجعلوا ما كان لشركائهم لا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم.

كما أخطؤوا في نسبة الولد إليه عز وجل، وجاروا بجعل الذكر لهم وله الأنثى، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

قال السعدي: «ويُحتمل أن تأويل الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**[1]»[2].

أي: أن معنى الآية: أن ما جعلوه لله- على زعمهم- فإنه لا يصل إليه؛ لكونه شركًا، بل يكون حظ الشركاء والأنداد؛ لأن الله غني عنه لا يقبل العمل الذي أُشرك به معه أحد من الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

بعد أن ذكر عز وجل سوء تصرفهم في نتاج أموالهم ذكر سوء تصرفهم في أولادهم.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾.

قرأ ابن عامر: ﴿زُيِّنَ﴾ بضم الزاي وكسر الياء، و﴿قَتْلُ﴾ بالرفع على أنه نائب فاعل، و﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾ بنصب الدال؛ على أنه مفعول للمصدر ﴿قَتْلُ﴾، وكسر همزة ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ بإضافة ﴿قَتْلُ﴾ إليه، مع الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾، و﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾- على هذا- فاعل في المعنى.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤٨١).

وقرأ الباقون: ﴿زَيَّنَ﴾ بفتح الزاي والياء، و﴿قَتْلَ﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿زَيَّنَ﴾، و﴿أَوْلَادِهِمْ﴾ بكسر الدال بإضافته إلى ﴿قَتْلَ﴾، ورفع ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ على أنه فاعلُ ﴿زَيَّنَ﴾.

والمعنى: وكما زين لهؤلاء المشركين شركاؤهم وشياطينهم أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا؛ كذلك زينوا لهم قتل أولادهم.

والتزيين: التحسين، أي: وكذلك حسَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم؛ فكانوا يقتلون الإناث مخافة العار والفقر، ويقتلون الذكور مخافة الفقر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يردوهم، أي: يهلكوهم الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي.

﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، أي: ولأجل أن يلبسوا، أي: يخلطوا عليهم دينهم؛ فيوهمون الضلال رشدًا، وأن الأصنام تقربهم إلى الله تعالى، وأن قتل الأولاد مصلحة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وضمير الرفع في «فعلوه» يعود إلى المشركين وشركائهم، وضمير النصب يعود إلى التزيين والقتل، أي: ولو شاء الله- أي: ولو أراد الله كونًا- ما فعل أولئك المشركون والشركاء ما ذكر من التزيين، والقتل، وإرادة الإهلاك، والتلبيس في الدين، أي: أن ذلك كله بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية، وله في ذلك الحكمة البالغة، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والواو عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فذرهم، أي: اتركهم ودعهم والذي يفترونه، أو وافتراءهم.

والافتراء: اختلاق الكذب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النحل: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: ١٠٣].

والمعنى: ودعهم واتركهم وما يختلقون ويتقولون على الله من الكذب، كما قال تعالى: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقال تعالى في آخر السورة: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وفيه تسلية له ﷺ، ووعيد لهم، أي: فلا تبالهم؛ فإني لهم بالمرصاد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾.

وهذا أيضًا مما زينه لهم شركاؤهم؛ من التحجير في أموالهم، والتحريم لظهور بعضها، وتحريم ذكر اسم الله على بعضها.

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾، أي: وقال هؤلاء المشركون: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾؛ فقسموها ثلاثة أقسام: منها ما هو حجر لا يطعمه إلا من شاؤوا بزعمهم، ومنها محرمة الظهور، ومنها ما لا يذكرون اسم الله عليه وأجمل في ذكرها ولم يعينها؛ لأنه لا فائدة في تعيينها.

وقال بعضهم قوله: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾، أي: ما جعلوه لله ولآلهتهم في الآية السابقة.

وقال بعضهم: المراد بـ«الأنعام» في الآية: البحيرة والسائبة والوصيلة التي سموا.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «الحجر: الحرام، بما حرموا من الوصيلة، وتحريم ما حرموا»(١)، وبهذا قال جمع من السلف(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٩٣).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

ومعنى ﴿حِجْرٌ﴾، أي: ممنوع؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، أي: هذه أنعام وحرث محرمة، أو حرام؛ ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾، أي: لا يأكل لحمها.

﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾، «إلا» أداة حصر، و«من» موصولة، أي: لا يأكل لحمها إلا الذي نشاء، أي: إلا الذي نُعيِّن ونريد أن يطعمها، قيل: احتجروها لآلهتهم، وقيل: للرجال دون النساء.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الباء قيل: بمعنى «عن»، وقيل: للملابسة، أي: يقولون ذلك باعتقادهم الباطل.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، أي: حرم ركوبها والحمل عليها، وهي ما يسمونه بـ«الحام».

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، أي: لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها أو نحرها، وإنما يذكرون عليها أسماء أصنامهم وآلهتهم ومعبوداتهم من دون الله، ويزعمون أن ما أُهدي للجن أو للأصنام يذكر عليه اسم ما قرب له؛ لتكون هذه القرابين خالصة لما عينت له، وهم في كل ما ذكر يزعمون أن الله أمرهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾، أي: افتراء على الله وكذبًا عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: سيجزيهم بافترائهم، أو بالذي كانوا يفترونه عليه، ويسندونه إليه؛ من إحلال الشرك، وتحريم الحلال. وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

قولـــــه: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، أي: وقال المشركون من ضمن افترائهم على الله في التحليل والتحريم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، «ما» موصولة، أي: الأجنة التي في بطون هذه الأنعام، أو الأجنة واللبن.

قيل: الإشارة إلى أنعام بيِّنَةٍ عندهم بصفاتها، أو الأنعام المذكورة قبل، أو البحائر والسوائب ونحوها؛ وليس لتحديدها فائدة.

﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾، أي: حلال لهم خاصة أكله، وقولهم: «خالصة» للمبالغة في تحقيق خلوص ما في هذه الأنعام التي عينوها لذكورهم فقط.

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، أي: ومحرم أكله على أزواجنا، هذا إذا ولد حيًّا.

﴿وَإِن يَكُن﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «تكن» بالتاء على التأنيث، وقرأ الباقون: ﴿يَكُن﴾ بالياء على التذكير.

وقرأ ابن عامر: «مَيِّتةٌ» بتشديد الياء ورفع التاء، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بتخفيف الياء مع رفع التاء: «ميْتةٌ»، وقرأ الباقون أيضًا بتخفيف الياء لكن مع نصب التاء: ﴿مَّيْتَةً﴾.

والمعنى: وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام من الأجنة ميتة بأن يولد ميتًا.

﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، أي: الذكور والإناث، أي: فهو حلال أكله للذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ وعيد وتهديد لهم، و«السين» للاستقبال، ﴿وَصْفَهُمْ﴾، أي: كذبهم على الله بالتحليل والتحريم؛ حيث وصفوا ما أحل الله بأنه حرام، ووصفوا ما حرمه بأنه حلال؛ فخالفوا شرع الله، ونسبوا ذلك إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملة مستأنفة فيها معنى التعليل، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه، يضع الأشياء مواضعها، له الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم

الكوني، والشرعي، والجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو الذي قدر وحكم كونًا بما وقع من المشركين من تحليل وتحريم مما يخالف حكمه الشرعي، وسيجازيهم بحكمه الجزائي، وله الحكمة البالغة في ذلك كله، وفي إمهالهم، وتمكينهم مما هم فيه من الضلال.

﴿عَلِيمٌ﴾ ذو العلم الواسع؛ فهو عليم بالمشركين، وبما يعملونه، وبما يقولونه ويفترونه، وبجميع أعمال عباده، وبكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة ما هم عليه من الافتراء والكذب على الله تعالى، ثم ذكر في هذه الآية تحقق خسرانهم وضلالهم، وبعدهم عن الهدى.

قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، «قد» حرف تحقيق. والخسران في الأصل: عدم الربح مع ضياع بعض رأس المال أو كله، وهو ما حصل لهؤلاء بشركهم، وقتل أولادهم، وتحريم ما رزقهم الله.

فخسروا أولادهم في الدنيا، وضيَّقوا على أنفسهم وعلى الناس في تحريم ما رزقهم الله، بل خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد: «قَتَّلوا»، والباقون بالتخفيف.

﴿سَفَهًا﴾ حال أو مصدر، أي: جهلًا ونقصًا في عقولهم.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في محل نصب حال مؤكدة لمعنى السفه، والباء للملابسة.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ

سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»[١].

يعني- والله أعلم- من قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] فقوله: «ما فوق الثلاثين ومئة»، أي: تقريبًا.

وعن قتادة قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فقال: هذا صنيع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة، ويغذو كلبه.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وهم أهل الجاهلية، جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاميًا تحكمًا من الشياطين في أموالهم»[٢].

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾، «ما» موصولة، أي: وحرموا الذي رزقهم الله، أي: الذي أعطاهم الله من الحرث والأنعام؛ كما ذكر الله عنهم في الآيات السابقة؛ فحرموا الانتفاع به، وحرموا الناس ذلك.

﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾، «افتراء» مفعول مطلق، أي: كذبًا على الله، وتقوُّلًا عليه.

﴿قَدْ ضَلُّوا﴾، أي: قد تاهوا وبعدوا عن الحق والصواب، وتحقق ضلالهم.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تأكيدًا لشدة ضلالهم، ومبالغة في نفي الهداية عنهم، أي: قد ضلوا ضلالًا بعيدًا، وما كانوا مهتدين فيما فعلوه، ولا موفقين للصواب.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين، وتوبيخهم، وبيان عوار وقبح ما هم عليه من الكفر والشرك والابتداع في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾.

٢- جهل المشركين وخطؤهم؛ حيث جعلوا لله من الحرث والأنعام نصيبًا، وهو الذي ذرأها، وهو مالكها ومالكهم ومالك الملك كله؛ فكيف يجعلون له نصيبًا من ملكه؟! لقوله تعالى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ﴾.

٣- أن كل ما في الكون هو مخلوق لله تعالى ذرأه وبرأه، لا شريك له في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٢٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٩٢).

٤- الامتنان بإيجاد الحرث والزروع والأنعام رزقًا للعباد.

٥- تراكم جهل المشركين وخطئهم، فأخطؤوا أولًا في جعلهم لله نصيبًا من ملكه، وهو مالك الملك كله، وجهلوا وأخطؤوا ثانيًا حين حكموا بأن ما لشركائهم- حسب قسمتهم- لا يصل إلى الله، وما كان لله- حسب قسمتهم- فهو يصل إلى شركائهم؛ فأخطؤوا في القسمة من حيث الأصل، وجاروا فيها لما قسموا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾.

٦- سوء حكم المشركين في هذه القسمة؛ لقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٧- تعظيم المشركين لشركائهم أكثر من تعظيمهم لله تعالى؛ لهذا اعتنوا بحفظ ما جعلوه من نصيب لشركائهم، وربما جعلوا لها النصيب الأكبر، بينما فرطوا فيما جعلوه من نصيب لله- حسب قسمتهم- الباطلة الجائرة.

٨- تزيين الشركاء من شياطين الجن والإنس لكثير من المشركين قتل أولادهم مخافة الفقر والعار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾.

٩- أنه كما زين لهؤلاء المشركين شركاؤهم وشياطينهم أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا؛ كذلك زينوا وحسنوا لهم قتل أولادهم.

١٠- حرص الشركاء من شياطين الجن والإنس على إهلاك الناس، وبخاصة أتباعهم، وتلبيس أمر دينهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٢- أن ما يحصل من تزيين الشركاء للمشركين قتل أولادهم، ومن قتل المشركين أولادهم، كل ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلو شاء ما فعلوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، وكذلك كل ما يجري في الكون من خير أو شر هو بتقدير الله ومشيئته.

١٣- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المشركين وشركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

١٤- أن الرسول ﷺ ليس إليه هداية الخلق ولا حسابهم، فذلك كله إلى الله، كما

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

١٥- تزيين الشركاء والشياطين للمشركين التحجير في أنعامهم وحرثهم بتحريم أكلها إلا على من شاؤوا، وتحريم ركوب بعضها، وعدم ذكر اسم الله على بعضها، ونسبة ذلك إلى الله تعالى افتراء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾.

١٦- الوعيد للمشركين؛ لافترائهم على الله في التحليل والتحريم وإشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

١٧- تحريم المشركين ما في بطون بعض الأنعام من ألبان أو أجنة تولد حية على نسائهم، وتحليلها خالصة لذكورهم، وتحليلهم ما يولد من الأجنة ميتًا للذكور والإناث، ونسبتهم ذلك إلى الله كذبًا وافتراءً على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾.

١٨- ظلم أهل الجاهلية للمرأة في تحريمهم عليها أكل ما في بطون بعض الأنعام دون الذكور.

١٩- التهديد للمشركين بكذبهم على الله تعالى في تحريم ما في بطون بعض الأنعام على إناثهم دون ذكورهم، وإباحة ما ولد من الأجنة ميتًا للذكور والإناث؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

٢٠- أن الله عز وجل ذو الحكم التام كونًا وشرعًا وجزاءً وذو الحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ له الحكمة فيما قدر من افتراءات هؤلاء المشركين، وله الحكمة في مجازاتهم على وصفهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾.

٢١- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ فهو عليم بكل شيء، عليم بالمشركين وافترائهم، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون؛ ولهذا قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

٢٢- إثبات وتحقيق خسارة الذين قتلوا أولادهم مخافة الفقر والعار، وحرموا ما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٣- سفاهة عقول الذين قتلوا أولادهم وجهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢٤- تحقق ضلال من قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم، وحرموا ما رزقهم الله تعالى، وعدم اهتدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة تصرف المشركين بآرائهم الفاسدة بما رزقهم الله من الحرث والأنعام، وجعلهم- جهلًا منهم وسفهًا- لله نصيبًا منها ولشركائهم نصيبًا، وجعلهم منها حرامًا وحلالًا، ثم بين في هذه الآيات- ممتنًّا على العباد- أنه هو وحده الذي أنشأ تلك الحروث والأنعام، وأنها ملكه وحده، وهو ما أشار إليه قبل هذا بقوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾؛ فكيف يجعل هؤلاء المشركون له نصيبًا مما خلق، وكيف يتصرفون بتحجير وتحريم ما أباحه الله لعباده ورزقهم؟! وفي هذا إبطال لما ابتدعوه كله من تقسيم وتحريم، مع بيان وجوب إعطاء حق الله تعالى فيه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: وهو وحده لا غيره ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾، أي: أوجد وخلق. والإنشاء: الإيجاد والخلق؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ [الواقعة: ٣٥].

﴿جَنَّٰتٍ﴾، أي: بساتين كثيرة الأشجار، متنوعة الثمار، أي: أنبت جنات، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٤].

﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ صفة لـ«جنات»، أي: مما يجعل لها عريشًا، أي: سقفًا يرفع على أعمدة؛

لتنتشر عليه أغصانها وعناقيدها وثمارها، فلا تكون على وجه الأرض، مما يساعد على نموها وصلاح ثمارها، كأشجار العنب.

﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾، أي: قائمة بنفسها على ساقها، أو منبسطة على وجه الأرض، لا تحتاج إلى عرش.

وفي هذا كله إشارة لكثرتها، وكثرة ثمارها، وتنوع منافعها.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾، «مختلفًا» حال، أي: وأنشأ النخل والزرع حال كونه مختلفًا أكله.

قرأ نافع وابن كثير بضم الهمزة وسكون الكاف: ﴿أُكْلُهُۥ﴾، وقرأ الباقون: ﴿أُكُلُهُۥ﴾ بضمهما.

أي: مختلفًا ما يخرج منه ويؤكل- من الثمر والحب- في الطعم، والشكل، واللون، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩-١١].

ونص على النخل والزرع لكثرة منافعهما وكونهما قوتًا لأكثر الخلق.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، «متشابهًا» حال، أي: وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، أي: متشابهًا في منظره وشكله ولونه في شجره وورقه، وغير متشابه في ثمره وطعمه.

وقال فيما سبق ﴿مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال هنا: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ والمعنى واحد؛ فالاشتباه والتشابه هو ما يحصل من جانبين.

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الثاء والميم: «ثُمُرِهِ»، وقرأ الباقون: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ بفتحهما، أي: كلوا من ثمر ما أنشأه الله لكم من النخل والزرع وغيرهما.

﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾، «إذا» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين يثمر.

والأمر للإباحة، وفيه امتنان على المؤمنين، وتعريض بذم المشركين، وتسفيه عقولهم؛ لتحريمهم على أنفسهم ما أحله الله عز وجل، وتضييقهم على أنفسهم.

وقال هنا: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾؛ لأن هذه الآية سيقت في معرض الامتنان.

بينما قال في الآية السابقة: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩]؛ لأنها سيقت في معرض بيان كمال قدرة الله تعالى على الخلق وإعادة الأجسام.

فحصل من مجموع الآيتين النفع الأخروي والدنيوي، وقدَّم النظر؛ لأنه أهم.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن عامر وعاصم: ﴿حَصَادِهِۦ﴾ بفتح الحاء؛ وقرأ الباقون: «حِصاده» بكسرها.

والأمر للمؤمنين، وهو للوجوب؛ بقرينه قوله: ﴿حَقَّهُۥ﴾، أي: حقه الواجب فيه، وهي الزكاة المفروضة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، أي: يوم حصاد الزرع، وجذاذ النخل.

أي: وأعطوا حق الزرع والثمر الواجب فيه، وهي الزكاة؛ كما حددتها السنة العشر أو نصف العشر، يوم حصاده وجذاذه من غير تأخير؛ لتشوف نفوس الفقراء إليه في هذا الوقت، وليكون الأمر ظاهرًا؛ ليتبين من أخرجها ممن لم يخرجها؛ لأنها أموال ظاهرة.

والمقصود من قوله: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ يوم حصاده وتصفيته.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ يعني بـ﴿حَقَّهُۥ﴾: زكاته المفروضة يوم يُكال ويُعلم كيله»(١).

وكذا جاء عن أنس وجمع من التابعين: أن المراد بـ«حقه» الزكاة(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المساجد للمساكين(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٥٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٣٩٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٥٩٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٣٩٨).

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب في حقوق المال (١٦٦٢)، وأحمد (٣/ ٣٥٩، ٣٦٠).

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين يصرمون ويمنعون حق المساكين؛ كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة ﴿نٓ﴾؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾...﴾ الآيات [القلم: ١٧-٣٣].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿كُلُوا۟﴾، أي: كلوا من ثمره، ولا تسرفوا في الأكل مما يضر بالزكاة، ويضر بالعقول والأبدان والأموال. والإسراف: مجاوزة الحد المباح والتبذير؛ قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال ﷺ: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير إسرافٍ ولا مخيلةٍ**»(١).

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾؛ فيكون المنهي عنه الزيادة عن الواجب إخراجه في الزكاة بحيث يضر نفسه، أو أهل بيته، أو غرماءه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تعليل للنهي عن الإسراف، أي: لأن الله لا يحب المسرفين، وهو استئناف يراد به تعميم حكم النهي عن الإسراف، وأكدَّ بـ«إن» لزيادة تقرير الحكم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، أي: وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشًا.

و«الأنعام»: الإبل والبقر والضأن والمعز، و«الحمولة»: ما يحمل عليه المتاع ويركب منها؛ وهي الإبل، و«الفرش» الإبل الصغيرة والبقر والضأن والمعز.

وقيل: الحمولة كل ما يركب من الإبل والخيل والبغال والحمير وغير ذلك.

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

والفرش: البقر والغنم، وما يؤكل، ويحلب، ويتخذ من صوفه لحافًا وفرشًا.

والمعنى: وأنشأ لكم وخلق وأوجد من الأنعام ما تحملون عليه متاعكم وتركبونه، وفرشًا تأكلونه، وتشربون لبنه، وتنتفعون بصوفه وشعره ووبره، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٧١-٧٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الأمر للإباحة، وهو هنا متضمن النهي عن ضده وهو عدم الأكل، واقتصر على الأمر بالأكل؛ لأنه المقصود من السياق؛ إبطالًا لتحريم ما حرموه على أنفسهم؛ ولهذا قال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، ولم يقل: (كلوا منها).

و«ما» موصولة، أي: من الذي رزقكم الله، أو مصدرية، أي: من رزق الله لكم، أي: من عطاء الله تعالى لكم، أي: كلوا من الذي رزقكم الله، أي: أعطاكم من الثمار والزرع والأنعام؛ فكلها أنشأها الله، وجعلها رزقًا لكم؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، أي: لأجلكم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر عن عاصم «خُطْوات» بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿خُطُوَاتِ﴾.

وخطوات الشيطان: طرقه ومسالكه، وعمله، وتزيينه، وهمزاته، ووساوسه، أي: ولا تتبعوا خطوات الشيطان وتزيينه في تحريم ما أحل الله لكم ورزقكم من الحرث والأنعام، أو في تحليل ما حرم عليكم، وفي الإسراف في الأكل والإنفاق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي.

﴿إِنَّهُ﴾، أي: الشيطان، ﴿لَكُمْ﴾ يا بني آدم، ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: عدو ظاهر العداوة؛ كما أخرج أبويكم من الجنة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾.

امتن الله عز وجل في الآية السابقة على عباده بما أنشأه وخلقه لهم من الأنعام يحملون عليها، ويركبونها، ويأكلون لحمها، ويشربون لبنها، وينتفعون بها أنواع المنافع، ثمَّ فصَّلها في هاتين الآيتين.

قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾، «ثمانية» منصوب بدل من قوله «حمولة»، و«أزواج» مضاف إلى «ثمانية»، وهو جمع «زوج».

﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، أي: زوجين، ذكر وأنثى، وهما (الكبش) و(الشاة)؛ فالذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النجم: ٤٥].

﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر من غير طريق الداجوني بفتح العين: «المَعَز»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلۡمَعۡزِ﴾ بإسكانها.

أي: ومن المعز زوجين: ذكر؛ وهو (التيس)، وأنثى؛ وهي (العنز)؛ فيُقال للذكر من الحيوان: زوج، ويُقال للأنثى: زوج، ناطقًا كان أو بهيمًا.

وهكذا خلق الله عز وجل من كل شيء زوجين، أي: صنفين، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩].

فذكر وأنثى، وأرض وسماء، وشمس وقمر، وليل ونهار، وضوء وظلام، وبياض وسواد، وحلو ومر، وحر وبرد، وصيف وشتاء، ونوم ويقظة، وحياة وموت، إلى غير ذلك.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ الاستفهام للإنكار والتقرير، والتعريف في «الذكرين» للجنس، و«أم» هنا وفي الموضعين بعده عاطفة، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء

المشركين الذين حرموا ما أحل الله: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز حرَّم الله عليكم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما.

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، أي: أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز؛ ذكرًا كان أو أنثى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الباء في قوله ﴿بِعِلْمٍ﴾ للملابسة، أي: إنباءً ملابسًا للعلم، أي: إنباء عالمٍ.

والمعنى: أخبروني بعلم، أي: بدليلٍ نقلي عن الله ورسله، أو عقلي، في أن الله حرَّم ما حرَّمتموه، وهذا تهكم بهم في تحريمهم ما حرَّموا بلا دليل ولا تعليل صحيح.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إن الله حرم ما ذكرتم أنه محرم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾. والكلام عليه كالذي قبله، أي: ومن الإبل زوجين ذكر وأنثى، ومن البقر زوجين؛ ذكر وأنثى؛ ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الإبل والبقر ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما؛ أم حرَّم ما ﴿ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أكنتم ﴿شُهَدَآءَ﴾، أي: حضورًا ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: حين وصاكم الله، أي: أمركم أمرًا مؤكَّدًا ﴿بِهَٰذَا﴾، أي: بهذا التحريم الذي حرَّمتموه.

وهذا تهكم ثان بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما لم ينزل به سلطانًا، أي: لم يبق إلا أن تدَّعوا هذه الدعوى؛ بأن الله وصاكم بهذا، وكنتم شهداء حين وصاكم الله به.

والمقصود من هذا كله تقرير إباحة هذه الأزواج الثمانية: ذكور الضأن وإناثها، وذكور المعز وإناثها، وذكور الإبل وإناثها، وذكور البقر وإناثها، وما اشتملت عليه أرحام إناث هذه الأصناف، وتأكيد أن الله لم يحرم شيئًا منها، والإنكار عليهم كيف يحرِّمون منها شيئًا دون شيء، ويحرمون ما في بطون بعضها على إناثهم دون ذكورهم

مع عدم وجود الفرق بين ما أباحوه منها وما حرموه؛ مما يدل دلالة قاطعة أن مصدر هذا هو الجهل المركب، والعقول المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن الله لم ينزل بذلك من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان، بل هي كلها حلال لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

ففي هذا إبطال لما هم عليه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحريم ما في بطون بعض الأنعام على إناثهم، كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاء استئنائية، و«من» اسم استفهام، ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، أي: ممن اختلق، وتقوَّل على الله كذبًا؛ فنسب إلى الله تحريم ما لم يحرِّم، أو تحليل ما لم يحلل.

﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل إضلال الناس وصدهم عن سبيل الله

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بلا دليل ولا برهان من نقل أو عقل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الجملة يجوز كونها تعليلية، أي: إن الله لا يوفق القوم الظالمين؛ لافترائهم على الله تعالى كذبًا، وإضلالهم للناس بغير علم.

ويجوز كونها تهديدًا ووعيدًا لهم بحرمان الله لهم من التوفيق بسبب ظلمهم.

وأول من يدخل في هذا الوعيد عمرو بن لُحي الخزاعي، أول من غيَّر دين الأنبياء، وأول من سيب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن لُحيٍّ الخزاعيّ يجرّ قُصْبَه**[1] **في النّار؛ كان أوّل من سيَّب السّوائب**»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جهنّم يحطم بعضها بعضًا، ورأيت عمرًا يجرّ قُصبه؛ فهو أوّل من سيَّب السّوائب**»[3].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير العباد بما امتن الله به عليهم، وأخرج لهم من الأرض من الأرزاق والخيرات، وأنه المنعم بذلك وحده؛ مما يوجب شكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

٢- تفرد الله تعالى وحده بالخلق والإيجاد والملك لما هو موجود وما سيوجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ الآيات.

٣- إبطال أن يكون لغير الله تعالى حظ فيما أنشأه من الحرث والأنعام، كما زعم المشركون؛ حيث جعلوا لشركائهم من الجن والأصنام نصيبًا.

٤- أن من تمام نعمة الله تعالى فيما أخرجه للعباد من الأرض أن جعل ذلك مختلفًا في أكله وطعمه، وفي منافعه الكثيرة؛ فمنه ما هو غذاء؛ كثمر النخيل والزروع، ومنه ما يُتفكَّه به؛ كالعنب والرمان، ومنه ما هو أدم؛ كالزيتون، مع ما في ذلك كله من منافع لا تحصى.

كما أن من تمام نعمة الله تعالى في ذلك أن بعضه متشابه في الشكل ومختلف في الثمر والأكل والطعم؛ مما يدل على عظيم قدرة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ

---

(١)، أي: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة المائدة (٤٦٢٣)، ومسلم في الجنة، النار يدخلها الجبارون (٢٨٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة المائدة (٤٦٢٤).

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤]، ومن تمام نعمة الله تعالى في ذلك أن الله علَّم العباد كيف ينمُّون ما يحتاج إلى عرش وما لا يحتاج، فسبحان العليم الخبير!

٥- الأمر بالأكل مما أخرج الله من الزروع والثمار، ومما خلق من الأنعام؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

والأكل في الأصل مباح، لكنه قد يجب؛ كما إذا كان لبيان اعتقاد حلها في مقابل من حرَّم بعضها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

ومثل هذا إذا خاف الإنسان على نفسه الهلاك وجب عليه الأكل.

٦- جواز الأكل من الثمر إذا أثمر قبل إخراج الحق الواجب فيه، ولا يحسب ذلك من الزكاة، بل يُزكى ما تبقى؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾؛ ولهذا كان ﷺ يأمر من يرسلهم لخرص الثمار أن يبقوا لأصحاب الحروث والزروع الثلث أو الربع؛ كما في حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خرصتم فخذوا ودعوا الثّلث، فإن لم تأخذوا وتدعوا الثّلث فدعوا الرّبع**»(١).

٧- وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصاد الزروع وجذاذ النخيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

وقد فرضت الزكاة بمكة؛ حيث جاء ذكرها في عدد من السور المكية؛ كسورة المزمل والبينة، وهما من أوائل السور التي نزلت بمكة، ثم بُيِّنت أنصبتها ومقاديرها في المدينة بعد نزول قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

٨- أن الزكاة لا تتكرر في الخارج من الأرض؛ فإذا أخرجت منه وقت الحصاد فلا زكاة فيه بعد ذلك ولو حال عليه أكثر من حول، ما لم يعد للتجارة؛ لأن الله لم يأمر بإخراجها منه إلا وقت الحصاد.

٩- أنه لو أصاب الزروع والنخيل آفة قبل الحصاد والجذاذ من غير تفريط من أصحابها؛ فلا ضمان عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٠٥)، والنسائي في الزكاة (٢٤٩١)، والترمذي في الزكاة (٦٤٣).

١٠- تحريم الإسراف في الأكل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾، وذلك لما في الإسراف من تجاوز لما حدَّه الله تعالى وضرر في المال والبدن.

١١- عدم محبة الله تعالى للمسرفين؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

١٢- إثبات المحبة لله تعالى؛ لأن مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ إثبات محبته لغيرهم من المعتدلين.

١٣- تذكير العباد والامتنان عليهم بما خلق الله لهم من الأنعام مما يحملون عليه، ويركبونه، ويأكلون لحمه، ويشربون لبنه، وينتفعون به منافع كثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٤- التحذير من اتباع خطوات الشيطان وطرقه ومسالكه في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

١٥- أن الشيطان عدو ظاهر العداوة لبني آدم، لا يأمرهم بخير أبدًا، بل لا يأمرهم إلا بما فيه هلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٦- تفصيل الله تعالى ما أباح للعباد من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية، إظهارًا لمنته تعالى وتوسيعه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الآيتين.

١٧- تقرير حل هذه الأزواج الثمانية، والإنكار على من حرَّموا أشياء منها، وإفحامهم، والإبانة عن جهلهم المركب وتخبطهم، والتهكم بهم؛ إذ لا فرق بين ما حرموه منها وبين ما حللوه، ولا مستند لهم في ذلك من دليل نقلي أو عقلي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، وقوله: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾.

١٨- أنه لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبًا؛ لأجل أن يضل الناس بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ حيث جمع بين افتراء الكذب على الله، وقصد إضلال الناس بلا علم.

١٩- سوء قصد الذين يفترون على الله الكذب، وهو إضلال الناس عن دينهم

الحق؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾.

٢٠- جهل هؤلاء المفترين على الله الكذب، فلا علم عندهم فيما يتقولونه ويكذبونه على الله، ولا علم عندهم يحجزهم عن الافتراء على الله؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢١- حرمان الظالمين من هداية الله تعالى وتوفيقه، وتأكيد ذلك؛ بسبب ظلمهم، والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

ذم الله عز وجل في الآيات السابقة المشركين في تشريعاتهم الباطلة، والتحريم والتحليل بلا علم ونسبتهم ذلك إلى الله تعالى وبيَّن بطلان ذلك، ثم أمر رسوله ﷺ أن يبيِّن للناس ما حرَّمه الله عليهم، وفي ذلك تأكيد لبطلان تحريم ما زعم المشركون تحريمه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين الذين اجترؤوا على تحريم ما أحل الله، وقل للناس عامة؛ وفي هذا دلالة على أنه ﷺ مبلغ عن الله عز وجل، لا كما يزعمون: أنه اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ [يونس: ٣٨، ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين فقال: «قيل لي، فقلت»، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»(١).

﴿لَّآ أَجِدُ﴾، «لا» نافية، و«أجد» بمعنى أظفر، ينصب مفعولًا واحدًا وهو هنا قوله: «محرمًا».

﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، «ما» موصولة، أي: في الذي أوحاه الله إلي.

وبُني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل، أي: ليس في

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الناس (٤٩٧٦، ٤٩٧٧).

الذي أوحاه الله إليَّ في القرآن والسُّنَّة، اللذين هما مصدر التشريع، والتحليل والتحريم ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ وفي هذا تأكيد لبطلان تحريم ما زعموا تحريمه.

والوحي لغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

وفي الشرع: كلام الله عز وجل المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ويدخل في الوحي أيضًا السنة فإنها مما أوحاه الله عز وجل إلى نبيه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وفي قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ إيذان بأن طريق التحريم والتحليل هو الوحي فقط، وأن الأصل في الأطعمة الحل.

﴿مُحَرَّمًا﴾، أي: طعامًا محرمًا من المطاعم التي حرمتموها وغيرها.

و﴿مُحَرَّمًا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم أي طعام.

﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾، أي: على أيِّ طاعم كان من ذكر أو أنثى، وفي هذا رد على قولهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾ صفة لـ«طاعم»، لزيادة التقرير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد استدل ﷺ بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ على أن المحرم من الميتة أكلها(١).

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبوجعفر وابن عامر وحمزة بالتاء على التأنيث: (إلا أن تكون)، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾.

وقرأ أبوجعفر وابن عامر: (ميتةٌ) بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب.

﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء، والاستثناء متصل مستثنى من عموم الأكوان، أي: إلا أن يكون الطعام ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير.

والميتة هي التي تموت من غير ذكاة شرعية كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة،

---

(١) سيأتي قريبًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣].

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الدم المسفوح هو المصبوب المهراق، الذي يسيل ويخرج عند التذكية من المذبح أو المنحر، أو من فصد بعض العروق.

ويفهم من قوله: ﴿مَّسْفُوحًا﴾ أن الدم الذي يبقى في العروق واللحم بعد التذكية حلال طاهر، وكذا ما في الكبد والطحال، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد والكبد والطحال**»(١).

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وهو الحيوان المعروف، والمراد بلحمه ما يشمل لحمه وشحمه. وأطلق اللحم من باب تغليب اللحم على الشحم.

﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ هذه الجملة معترضة بين المعطوفات لتقرير وتأكيد الحرمة.

والضمير في قوله: «فإنه» يحتمل عوده إلى المحرمات المذكورة وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، أي: فإن المذكور رجس.

ويحتمل عوده الضمير إلى أقرب مذكور وهو لحم الخنزير.

واختار هذا ابن القيم حيث قال: «فالضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه، والثاني: تذكيره دون قوله: «فإنها رجس»، والثالث: أنه أتى بالفاء، و«إن» تنبيهًا على علة التحريم، لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفى عنه ذلك، وأخبر أنه رجس، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجسًا أمر مستقر معلوم عندهم»(٢).

وقوله: ﴿رِجْسٌ﴾، أي: قذر وخبث ونجس، حسًّا ومعنىً، مضرٌ بآكله.

وذلك لما في الميتة من احتقان الدم الفاسد الضار وهو الدم الذي يسفح وينصبُّ عند التذكية، فحرمت الميتة لاحتباس هذا الدم الفاسد الضار فيها، وحرم هو بفساده وضرره،

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٨٥).

كما حرم الخنزير لأكله القاذورات، ولما فيه من الطباع السيئة التي تؤثر على آكله.

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ معطوف على: ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وما بينهما اعتراض، أي: إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير أو فسقًا أهل لغير الله به.

والفسق: الخروج عن الإيمان أو عن طاعة الله تعالى.

والمعنى: إلا أن يكون المحرم فسقًا ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ووصف المحرم بكونه فسقًا لأنه سبب لفسق فاعله وخروجه عن طاعة الله تعالى.

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة، أو عطف بيان لـ﴿فِسْقًا﴾.

أي: ذبح على غير اسم الله، ولغير الله، من الأصنام والأوثان ونحوها.

والإهلال: رفع الصوت. والمراد به هنا رفع الصوت بذكر غير اسم الله عند الذبح، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال السعدي[1]: «أو إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته».

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ الفاء استئنافية، و«من» شرطية ﴿ٱضْطُرَّ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فلا مؤاخذة عليه.

ومعنى ﴿ٱضْطُرَّ﴾، أي: أصابته ضرورة ألجأته إلى أكل شيء من هذه المحرمات، بأن لم يجد غيرها، وخاف على نفسه التلف.

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ حال، أي: حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير مريد الأكل من غير اضطرار، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: ولا متجاوز للحد بأن يأكل زيادة عن حاجته.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن ربك يا محمد غفور رحيم لا يؤاخذه.

﴿غَفُورٌ﴾ ذو مغفرة واسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٤).

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله يُدْنِي المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم رب، حتى إذا قَرَّرَه بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(١).

ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال تستره، وتقيه السهام.

﴿رَّحِيمٞ﴾ ذو رحمة واسعة، وسعت كل شيء وعمَّت كل حي، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فهو عز وجل ذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته الفعلية التي يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وفي ختم الآية: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، دلالة على رفع الحرج عنه، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الآية: ١١٥]، أي: فلا إثم عليه، فإن الله غفور له، رحيم به، كما جاء مصرحًا به في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الآية: ١٧٣].

قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيات السابقة ما حرَّمه على هذه الأمة المحمدية، ثم أتبع ذلك ببيان ما حرمه على اليهود قبلهم، وما فيه من التشديد عليهم، بسبب تشديدهم على أنفسهم، ليُظهر لهذه الأمة عظم منة الله تعالى عليهم في التخفيف فيما حرَّمه عليهم، وليُظهر بطلان ما حرمه المشركون، وأنه ليس مما حرمه الله على هذه الأمة ولا على من قبلها.

قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾، قُدِّم عليه؛ لإفادة الاختصاص، أي: حرمنا عليهم خاصة.

و﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود، سموا بذلك لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: رجعنا إليك، ولأنهم اتبعوا دين «يهوذا» أحد أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولاد يعقوب عليه السلام.

﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ﴾ الظفر: العظم الذي تحت الجلد في منتهى أصابع الإنسان والحيوان والمخالب، وهو يقابل الحافر والظلف، أي: حرمنا عليهم كل ما كان من البهائم والطير غير منفرج الأصابع ولا مشقوقها كالإبل والأرنب والأوز والبط، ونحو ذلك[1].

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾ متعلق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ بعده، وقدّم عليه للتنبيه والاهتمام.

﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الشحوم هي ما يكون في جسم الحيوان من الدهون.

أي: حرمنا عليهم جميع شحومهما كالشحم الذي يحيط بالكليتين والشحم الرقيق الذي يحيط بالكرش، ويسمى «الثَّرب» ونحو ذلك.

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء: متصل من قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾، و«ما» موصولة، أي: إلا

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٦٣٨-٦٤١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤٨).

الذي حملته ظهورهما من الشحوم.

﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ «أو» عاطفة، و«الحوايا» معطوفة على «ظهورُهما»، و«الحوايا»: جمع حوية، أو حاوياء، أو حاوية، وهي الأمعاء والمصارين والمباعر، والمعنى: وما حوته الأمعاء من الشحوم.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، «أو» عاطفة، و«ما» موصولة، أي: أو الذي اختلط من الشحوم بعظم، وهو الشحم الذي يلتف على العظام من السمن.

فأباح الله عز وجل لليهود لحوم البقر والغنم، وحرم عليهم جميع شحومهما، إلا ما حملته ظهورهما، أو الحوايا من الشحوم، أو ما اختلط من شحومهما بعظم فهو حلال.

وفي الحديث قال ﷺ: «**لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فجملوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها**»(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «**إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنه يدهن بها الجلود، ويطلى بها السفن، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «**لا هو حرام**». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه، وأكلوا ثمنه**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ قاعدًا في المسجد مستقبلًا الحجر، فنظر إلى السماء، فضحك، ثم قال: «**لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه**»(٣).

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ الإشارة لما سبق من التحريم على اليهود، والتشديد

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨٢)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٥٧)، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٣)، من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١٥٨١)، وأبوداود في البيوع ـ ثمن الخمر والميتة (٣٤٨٦)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٥٦)، والترمذي في البيوع ـ بيع جلود الميتة والأصنام (١٢٩٧)، وابن ماجه في التجارات ـ ما لا يحل بيعه (٢١٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٢٤، ٣٢٦).

(٣) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٤٨٨)، وأحمد (١/ ٢٤٧، ٢٩٣، ٣٢٢).

عليهم فيه، واسم الإشارة في محل نصب مفعول ثان «لجزينا» قدم عليه وعلى المفعول الأول، والمفعول الأول الضمير في ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾.

أي: عاقبناهم، فشددنا عليهم في التحريم.

﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب ظلمهم واعتدائهم ومخالفتهم أمر الله عز وجل، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وأكلهم الربا وأموال الناس بالباطل، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: وإنا لصادقون فيما أخبرنا به من تحريمنا ذلك عليهم، وفي جميع أخبارنا، عادلون فيما جازيناهم به، وفي جميع أحكامنا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الفاء للتفريع، والخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن كذبك يا محمد واستمر على تكذيبك هؤلاء المشركون فيما جئت به من الشرع مما فيه بيان وحصر ما حرمه الله، وإبطال ما حرموه، وكذبك اليهود فيما أخبرت به مما حرمه الله عليهم.

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، أي: فقل لهم: ربكم خالقكم ومالككم ومدبركم، وفي هذا تذكير لهم بعظمته عز وجل، وبنعمة ربوبيته لهم.

﴿ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، أي: صاحب رحمة واسعة، وفي هذا إشارة إلى أن من رحمته عز وجل إمهاله لهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة فلا يغتروا بذلك.

وبدأ بتذكيرهم بسعة رحمته عز وجل ترغيبًا لهم في ابتغاء رحمته واتباع رسوله ﷺ، وترك ما هم عليه من التكذيب.

وفيه دلالة على أن رحمته عز وجل سبقت غضبه، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا ترهيب لهم وتحذير من الاستمرار على تكذيبه ﷺ.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾، أي: ولا يرد ويمنع ﴿بَأْسُهُۥ﴾، أي: عذابه وعقابه الدنيوي والأخروي إذا أراده.

﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لم يقل: (عنكم)، بل قال: ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لتسجيل ذلك عليهم ووصفهم بالإجرام، وليعمهم وغيرهم ممن كذب مثلهم بهذا الوصف والوعيد.

و﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مرتكبي الجرائم من الشرك بالله والكفر والتكذيب والآثام.

وفي الآية جمع بين الترغيب والترهيب، كما هي طريقة القرآن الكريم؛ ليجمع الإنسان في سيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله، ولا يأمن مكر الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٢-١٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله عز وجل يأتيه الوحي من الله فيبلغه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ الآية. وفي هذا رد على المشركين في زعمهم الباطل أنه تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- أن مصدر التشريع، والتحليل والتحريم هو الوحي من عند الله عز وجل إلى رسوله ﷺ بالقرآن الكريم، والسنة النبوية؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

٣- أن الأصل في الأطعمة الحل حتى يرد دليل التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾الآية.

٤- الرد على المشركين فيما زعموا تحريمه مما لم يحرمه الله عز وجل.

٥- فضل الله عز وجل ومنته على هذه الأمة ونعمته العظيمة عليها في حصر المحرم عليها وتقليله، وفي توسيع دائرة الحلال لها.

٦- ظاهر الحصر في الآية أنه لا محرم وقت نزول الآية سوى الميتة والدم المسفوح، ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

وقد جاء هذا في معرض الرد على المشركين فيما حرموه من دون الله وفي نقض ذلك، وسورة الأنعام مكية وقد أنزل الله عز وجل تأكيد تحريم هذه الأربع في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٧٣].

وأكد ذلك وفصله وزاد عليه في سورة المائدة- وهي من آخر ما نزل-في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ [الآية: ٣]،

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٢٢٠٨)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «**نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية**»(١).

وعن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لُقَطَةُ معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوهُ، فإن لم يَقْرُوهُ فله أن يُعْقِبَهُمْ بمِثلِ قِرَاهُ»(٢).

٧- أن المحرم من هذه الأشياء هو أكلها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾.

ولهذا يجوز الانتفاع بشعر الميتة وصوفها ووبرها وجلدها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بشاة ميتة، فقال: «**هلا استمتعتم بإهابها؟**» قالوا: يا رسول الله، إنها ميتة. قال: «**إنما حرم من الميتة أكلها**» وفي رواية: «**ألا أخذوا إِهَابَهَا فدبغوه**»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة- تعني الشاة- قال: «**فلم، لا أخذتم مسكها؟**» قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنما قال الله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ وإنكم لا تطعمونه، أن تدبغوه فتنتفعوا به**» فأرسلت، فسلخت مسكها، فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تخرقت عندها»(٤).

ويستثنى من الميتة ميتة السمك والجراد فهي حلال؛ لقوله ﷺ في البحر: «**هو**

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٢٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠٧).

(٢) أخرجه أبوداود في السنة ـ لزوم السنة (٤٦٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٢)، ومسلم في الحيض (٣٦٣)، وأبوداود في اللباس (٤١٢٠)، والنسائي في الفرع والعتيرة (٤٢٣٤)، وابن ماجه في اللباس (٣٦١٠)، وأحمد (١/ ٣٦٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧-٣٢٨).

الطهور ماؤه، الحل ميتته»(١). وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال**»(٢).

٨- تحريم لحم الخنزير وشحمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ والمراد بذلك ما يشمل لحمه وشحمه.

٩- أن العلة في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، أنها رجس، أي: قذر ونجس وخبث، حسًّا ومعنىً، مضر أكلها.

١٠- صيانة الإسلام وحفظه لأهله عما يضرهم في دينهم ودنياهم وأبدانهم، لهذا حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله.

١١- حل الدم غير المسفوح وهو ما يبقى في العروق واللحم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾.

١٢- تحريم ذكر اسم غير الله على الذبيحة، والذبح لغير الله، وأن ذلك فسق وخروج عن طاعة الله تعالى وشرك بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

١٣- إباحة الأكل من هذه المحرمات عند الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

١٤- أن إباحة الأكل من هذه المحرمات عند الضرورة مشروط بعدم البغي لأكل الحرام من غير اضطرار، ولا تعد لقدر الحاجة عند الأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾(٣).

---

(١) أخرجه أبوداود في الطهارة (٨٣)، والنسائي في المياه (٣٣٢)، والترمذي في الطهارة (٦٩)، وابن ماجه في الطهارة (٣٨٦)، وأحمد (٢/ ٢٣٧، ٢٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه الشافعي في «الأم» (٦/ ٢٥٧)، وأحمد (٢/ ٩٧) ـ وله حكم المرفوع.

(٣) انظر تفصيل الكلام على هذه المحرمات وغيرها وقدر المباح منها عند الضرورة في تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

١٥- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطابه وإضافة اسم الرب عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل وأنه عز وجل يستر الذنوب، ويتجاوز عن العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾.

١٧- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

١٨- أن من مغفرة الله عز وجل ورحمته إباحة الأكل من هذه المحرمات لمن اضطر إلى ذلك.

١٩- في اجتماع صفتي المغفرة والرحمة لله عز وجل زيادة كمال إلى كمال، وزيادة إفضال إلى إفضال؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

٢٠- تحريم الله عز وجل على اليهود كل ذي ظفر، من البهائم والطير، كالإبل والنعام والإوَزّ والبط ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾.

٢١- تحريم شحوم البقر والغنم على اليهود كشحم الكليتين، و«الثَّرب» شحم البطن ونحو ذلك إلا ما حملته ظهورهما من الشحم أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

٢٢- أن سبب التشديد على اليهود في التحريم هو بغيهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

٢٣- أن ما أخبر الله به عما حرمه على اليهود هو عين الصدق، وما جازاهم به هو العدل من التشديد عليهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

٢٤- تكذيب المشركين واليهود للنبي ﷺ فيما جاء به من الشرع وبيان ما أحله الله

لهذه الأمة وما حرمه على اليهود قبلهم واستمرارهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى استمرارهم على التكذيب.

٢٥- تشريف الله عز وجل لنبيه ﷺ وتكريمه له بخطابه، وتهيئته لما سيلقى من المكذبين، وتأييده له، ودفاعه عنه.

٢٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ الآية.

٢٧- إثبات سعة رحمة الله عز وجل وأنها سبقت غضبه، ولهذا أمهل هؤلاء المكذبين ولم يعاجلهم بالعقوبة، بل ودعاهم إلى الدخول في رحمته الواسعة باتباع الرسول ﷺ، وترك ما هم عليه من التكذيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

٢٨- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ﴾.

٢٩- الوعيد والتهديد للمكذبين إن استمروا على ما هم عليه من التكذيب ببأسه الشديد وعقابه الأليم الذي لا يستطيع أحد دفعه أو منعه عن القوم المجرمين أمثالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٣٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

أمر الله عز وجل في الآيات السابقة نبيه ﷺ بحصر ما أوحي إليه تحريمه من المطعومات، وبيان ما حرمه الله تعالى على اليهود، وبذلك قطع حجج المشركين في تحريم ما حرَّموه، وقسمة ما قسموه، ثم أتبع ذلك بذكر آخر حجة تشبثوا بها هي أوهى من نسج العنكبوت؛ وهي الاحتجاج بالقضاء والقدر.

قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ السين للاستقبال، أي: سيقولون هذا في المستقبل؛ فالآية على هذا إخبار بما سيقولونه مستقبلًا، وهو ما ذكره الله عنهم في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

وسورة النحل نزلت على الأرجح بعد سورة الأنعام؛ فكان هذا من الغيب الذي أخبر به القرآن الكريم قبل وقوعه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤].

وعلى احتمال أن يكون نزول هذه الآية بعد نزول آية سورة النحل؛ فالإخبار بأنهم سيقولونه معناه أنهم سيعيدون حجتهم المألوفة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ فلم يقل: (سيقولون) لزيادة تفظيع قولهم.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، «لو» شرطية غير عاملة، و«ما» نافية، أي: لو شاء الله ما أشركنا معه غيره في العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، الواو عاطفة، و«لا» زائدة؛ لتأكيد النفي، أي: ولا أشرك آباؤنا.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ معطوف على ﴿أَشْرَكْنَا﴾، أي: لو شاء الله ما أشركنا ولا أشرك آباؤنا ، ولو شاء ما حرمنا من شيء، و«من» للتنصيص في العموم، أي: ما حرَّمنا أيَّ شيء.

والمعنى: لو شاء الله ما أشركنا معه غيره في العبادة نحن ولا آباؤنا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، أي: ولا حرمنا نحن ولا آباؤنا أي شيء مما حرَّمناه من الحرث والأنعام.

وهذا منهم ظاهره حق؛ لما فيه من إثبات القدر؛ لأن كل ما يجري في الكون، من خير أو شر؛ فهو بمشيئة الله تعالى وتقديره الكوني، وعلى هذا دلت نصوص الكتاب والسنة؛ لكنهم لا يريدون هذا، وإنما يريدون الاحتجاج بالقضاء والقدر، والتبرير لما هم فيه من الشرك والتحريم، ويقولون: إن الله لما شاء ذلك وقدره فقد أحبه ورضيه منا، ولو لم يرضه لمنعنا منه وحال بيننا وبينه. وهذا ليس بصحيح؛ فإن الله لا يحب الكفر، ولا يرضاه، ويحب الإيمان ويرضاه، وحصول كل منهما، أو عدم حصوله، كل ذلك بمشيئة الله وقدره؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، ولا يلزم إذا كان الأمر مقدَّرًا أن يكون محبوبًا مرضيًا لله.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما كذبك- يا محمد- هؤلاء المشركون، وكذبوا ما جئت به من الوحي، محتجين بأن ما هم عليه من الشرك والتحريم مما شاءه الله ورضيه، كذلك كذب الذين من قبلهم أنبياءهم مستندين إلى هذه الشبهة، وهي حجة داحضة باطلة.

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥].

﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، «حتى» للغاية، أي: استمروا على تكذيبهم إلى غاية أن ذاقوا بأسنا، أي: قاسوا عذابنا بإهلاكهم، وأحسوا به وشعروا.

وهذا دليل على بطلان حجتهم؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه وعذبهم وأهلكهم، وأضاف «بأس» إلى ضميره عز وجل لتعظيمه وتهويله.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، أي: قل لهؤلاء المشركين الذين يحتجون لما هم فيه من الشرك وتحريم ما أحل الله بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ بمعنى أن الله شاء ذلك، أي: أحبه ورضيه منهم.

﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾، «هل» للاستفهام والإفحام والتهكم بهم في قولهم هذا، أي: هل عندكم من حجة ودليل على أن الله راض عنكم فيما أنتم فيه؛ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، أي: فتظهروه لنا وتبينوه.

والمقصود: أنه لا علم عندكم، ولا حجة، ولا برهان على أن الله رضي ما أنتم عليه من الشرك والتحريم فتبينوه لنا.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما» في الموضعين، و«إلا» أداة حصر في الموضعين، أي: ما تتبعون فيما أنتم فيه من الشرك والتحريم وزعمكم رضا الله عنكم في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: قصارى ما عندكم اتباع الظن الباطل والاعتقاد الفاسد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، أي: وما أنتم إلا تخرصون، أي: تخمنون وتكذبون على الله، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦، يونس: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل لهؤلاء المشركين الذين ليس عندهم حجة فيما هم عليه إلا اتباع الظن والخرص والتخمين:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة البالغة، و«لله» خبر مقدم؛ للدلالة على الاختصاص، أي: فلله وحده دونكم الحجة البالغة البينة الواضحة المؤكدة التامة الغالبة؛ فيما أوجب من توحيده، وفيما نهى عنه من الشرك، وفيما أحل وحرم.

وله الحجة البالغة والحكمة التامة في هدايته من هدى، وإضلال من أضل، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الفاء عاطفة، أي: فلو شاء، أي: أراد كونًا ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لوفقكم أجمعين إلى توحيده، والبراءة من الشرك، وتحليل ما أحل، وتحريم ما حرَّم، واتباع دينه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنه عز وجل لم يشأ هدايتهم جميعًا، بل شاء وقدَّر أن يكون منهم مهتد وضال، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله تعالى، ونسبوا ذلك إليه: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾، أي: هاتوا وأحضروا شهداءكم.

﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾، أي: يشهدون أن الله حرم هذا الذي حرَّمتموه من الحرث والأنعام ونسبتموه إلى الله، وأنى لهم من يشهد لهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾، أي: فإن أحضروا شهداء- على الفرض المستبعد- فشهدوا أن الله حرَّم هذا، فهم شهود كذب وزور وبهتان.

﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، أي: فكذبهم؛ لأن شهادتهم باطلة، وعلى هذا فدعواهم باطلة؛ لأنهم لن يجدوا من يشهد لهم بها، وإن وجدوا على سبيل الفرض فهم شهود زور وكذب وبهتان؛ فشهادتهم باطلة.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: (فلا تتبع أهواءهم)، بل قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تذكيرًا بأنهم يكذِّبون بآيات الله، أي: ينكرونها، ويجحدونها، ولا يؤمنون بها.

و«أهواؤهم» ما تهواه نفوسهم مما جعلوه دينًا لهم. ولم يقل: (ولا تتبع الذين كذبوا بآياتنا)، بل قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ للتنبيه على أنهم إنما يتبعون أهواءهم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: والذين لا يصدقون بالدار الآخرة والمعاد، وبعث الأجساد، والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ﴾ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم. وأظهر مقام الإضمار؛ فلم يقل: (وهم بي يعدلون) تعظيمًا لنفسه عز وجل.

﴿يَعْدِلُونَ﴾، أي: يشركون به، ويسوون به غيره من الأنداد والأوثان؛ كما سيعترفون بذلك غدًا ويقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

الفوائد والأحكام:

١- علم الله تعالى بما تنطوي عليه الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية.

٢- اعتراف المشركين وإقرارهم بمشيئة الله تعالى وقضائه وقدره؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، وهذا حق.

٣- اعتقاد المشركين أن ما شاءه الله وقدره أحبه ورضيه؛ ولهذا احتجوا على ما هم فيه من الشرك والتحريم بالقضاء والقدر، وأن الله لو لم يشأ ذلك ويحبه ويرضاه ما حصل ذلك منهم؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾،

والاحتجاج بالقدر لا يجوز.

وقد ضل كثير من الخلق في باب القدر، وانقسم الناس فيه إلى ثلاث طوائف: طائفة غلوا في إثبات القدر والاحتجاج به، كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، وهم الجبرية، وطائفة غلوا في نفيه، وهم القدرية، وطائفة توسطوا في ذلك، وهم أهل السنة والجماعة.

قال ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين)[1] بعد أن سرد كثيرًا من الأحاديث والآثار في باب القدر: «فالجواب: أن هاهنا مقامين: مقام إيمان وهدى ونجاة، ومقام ضلال وردى وهلاك.

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة؛ فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأن ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس، وهذه الآثار التي ذُكرت كلها تحقق هذا المقام، وتُبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه.

وأما المقام الثاني؛ وهو مقام الضلال والردى والهلاك، فهو الاحتجاج به على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء...».

ثم قال ابن القيم: «... وسمعته- يعني شيخ الإسلام ابن تيمية- يقول: القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: نفاته؛ وهم (القدرية المجوسية)، والمعارضون به للشريعة، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ وهم (القدرية الشركية)، والمخاصمون به للرب، وهم أعداء الله وخصومه؛ وهم (القدرية الإبليسية)، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر؛ فقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]، ولم يعترف بالذنب ويبوء به، كما اعترف به آدم.

فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس، ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والشركية شر من القدرية النفاة؛ لأن النفاة إنما نفوه؛ تنزيهًا للرب وتعظيمًا له أن يقدر

---

(١) (ص١٦٢، ١٦٧-١٦٩).

الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب...

وأما القدرية الإبليسية والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله، لا يُقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة من شيوخهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٧]؛ فهذه أربعة مواضع في القرآن بيَّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل».

٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإثبات القدر، وبيان عدم جواز الاحتجاج به؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فلم ينكر عليهم إثبات المشيئة والقدر، وإنما أنكر عليهم الاحتجاج بالقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧].

٥- اعتراف المشركين بما هم عليه من الشرك بالله، والتحريم لما أحل الله هم وآباؤهم.

٦- مشابهة المشركين من هذه الأمة في تكذيبهم النبي ﷺ وما جاء به لمن قبلهم في تكذيب رسلهم، وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»(١).

٧- تحذير المشركين المكذبين للنبي ﷺ من الاستمرار على تكذيبهم، فيحل بهم عذاب الله تعالى؛ كما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾.

٨- شدة عذاب المكذبين وعقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، فأضافه عز

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وجل إلى نفسه؛ تعظيمًا وتهويلًا له.

٩- تعظيم الله تعالى لنفسه بتكلمه عز وجل بضمير الجمع؛ لأنه سبحانه ذو العظمة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَأْسَنَا﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وبالإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، ولم يقل: (بي يعدلون)، أي: بربهم العظيم خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

١٠- تولي الله عز وجل المحاجة عن نبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ والآيات بعدها.

١١- التهكم بالمشركين فيما هم فيه من الشرك والتحريم بلا حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾.

١٢- أن هؤلاء المشركين لا دليل عندهم، ولا حجة لهم إلا اتباع الظن الباطل والخرص والتخمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

١٣- أن لله عز وجل وحده الحجة البالغة التامة الغالبة على هؤلاء المشركين، وعلى جميع خلقه في إيجابه ما أوجب، وتحريمه ما حرم، وهدايته من هَدَى، وإضلاله من أَضَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

١٤- أن الله عز وجل لو شاء لهدى الناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لكنه عز وجل لم يشأ ذلك، بل شاء هداية من شاء بفضله، وإضلال من شاء بعدله.

١٥- إفحام المشركين؛ بمطالبتهم بإحضار شهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما حرموه، وأنى لهم ذلك؟ اللهم إلا شهود زور وبهتان وكذب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟﴾.

١٦- نهي النبي ﷺ والمؤمنين عن الشهادة مع هؤلاء المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، والمراد: فكذبهم ولا تصدقهم؛ فإن شهادتهم باطلة.

١٧- التحذير من اتباع أهواء المشركين، وذمهم من وجوه عدة؛ منها: أنهم إنما يتبعون أهواءهم، ومنها: تكذيبهم بآيات الله، ومنها: عدم إيمانهم بالآخرة، ومنها: أنهم بربهم يعدلون، أي: يسوون به غيره من الأوثان والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾. وكل واحدة من صفاتهم هذه كفر، وكافية في ذمهم، فكيف إذا اجتمعت؟!

١٨- ذم اتباع الهوى؛ لأنه مردٍ ومهلك، والتحذير منه.

١٩- وجوب الإيمان بآيات الله تعالى، والإيمان بالآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن الله ذم المشركين بتكذيبهم بذلك.

٢٠- وجوب توحيد الله تعالى، وإفراده وحده بالعبادة، والحذر من الشرك.

٢١- أن الله عز وجل واحد أحد فرد صمد، لا عدل له، ولا شريك، ولا نظير، لا في ربوبيته، ولا في أولهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

هذه الآيات الثلاث تسمى (آيات الوصايا العشر).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية... إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب»، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات(٢).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيّكم يبايعني على ثلاثٍ؟**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات... «**فمن وفَّى فأجره على الله، ومن انتقص منهنّ شيئًا فأدركه الله به في الدّنيا كانت عقوبته، ومن أخّر إلى الآخرة فأمره إلى الله؛ إن شاء عذّبه، وإن شاء عفا عنه**»(٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٧٠)، وقال: «حديث حسن غريب»، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه الحاكم في تفسير سورة الأنعام (٢/ ٣١٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وذكره ابن كثير (٣/ ٣٥٣).

(٣) أخرجه الحاكم في الموضع السابق (٢/ ٣١٨)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وذكره ابن كثير (٣/ ٣٥٣، ٣٦٢، ٣٦٣).

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

أبطل عز وجل في الآيات السابقة ما عليه المشركون من الشرك بالله، وقتل أولادهم، وتحريم ما رزقهم الله من الحرث والأنعام، وبيَّن ما حرَّمه من المطعومات، ثم دعاهم لمعرفة عموم ما حرَّمه ربهم عليهم حقًّا؛ في الاعتقاد والأقوال والأعمال، مما يشمل ما ذكر وغيره في هذه الآية والآيتين بعدها، وفي ذلك تأكيد لبطلان ما هم عليه من الشرك، والافتراء على الله بغير علم، وإقامة الحجة عليهم.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ.

﴿تَعَالَوْا﴾ الخطاب للمشركين، أي: هلمُّوا وأقبلوا، أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وقتلوا أولادهم سفهًا بغير علم، وحرَّموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿تَعَالَوْا﴾، أي: هلموا وأقبلوا واحضروا.

﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، «أتل» جواب الأمر، والتلاوة: القراءة، أي: أقرأ، و«ما» موصولة في محل نصب مفعول: «أتل»، أي: أقرأ وأقص الذي حرَّمه ربكم عليكم بما أوحاه إلي حقًّا.

ووجه الخطاب إلى المشركين؛ للتسجيل عليهم بما هم عليه من مخالفة شرع الله تعالى، وهو بيان للأمة أجمع.

وإسناد التحريم إليه عز وجل في قوله: ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ لبيان أن التحريم والتحليل إليه عز وجل وحده، مع تذكيرهم بربوبيته التامة لهم؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ مما يوجب عليهم إفراده وحده بالعبادة، واتباع شرعه.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، «أن» تفسيرية لفعل ﴿أَتْلُ﴾؛ لأن التلاوة في معنى القول، و«لا» ناهية، ﴿تُشْرِكُوا۟﴾ مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون، ﴿بِهِۦ﴾، أي: بربكم، و«الشرك»: دعوة غير الله، وعبادته مع الله، وتسويته بالله؛ كما في قول المشركين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة؛ تعم أي شيء، أي: لا تشركوا به أيَّ شيء من الشرك، لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر، ولا شركًا خفيًّا ولا جليًّا، ولا تشركوا به أيَّ شيء من الأشياء؛ لا شجرًا ولا حجرًا، ولا وليًّا ولا ملكًا، ولا غير ذلك، أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له.

وابتدأ هذه المحرمات بالنهي عن الشرك بالله، تعظيمًا لحق الله عز وجل، وهو وجوب إفراده بالعبادة، والذي هو أعظم الحقوق وأوجبها على العباد؛ كما في حديث معاذ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتدري ما حقّ الله على العباد، وما حقّ العباد على الله؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقّ العباد على الله ألّا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(١).

ولهذا قال ﷺ كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه: «**أتاني جبريل فبشّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمّتك دخل الجنّة**»(٢).

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة**»(٣).

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ معطوفة على ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾، أي: وأوصاكم بالوالدين إحسانًا؛ لقوله في ختام الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. و﴿إِحْسَـٰنًا﴾ مصدر ناب مناب فعله.

والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، والأمر بالإحسان إليهما نهي عن ضده، وهو ترك الإحسان إليهما، أو الإساءة إليهما. وفي هذا إيجاب للإحسان إليهما وتحريم لعقوقهما، وبهذا الاعتبار وقع في عداد ما حرَّم الله تعالى.

و«الوالدان»: هما الأب والأم، وإن عليا من أي جهة كانا.

أي: أحسنوا إلى الوالدين إحسانًا؛ بإكرامهما وتوقيرهما واحترامهما وأداء حقوقهما؛ قولًا وفعلًا وبذلًا.

وبدأ عز وجل، بعد النهي عن الشرك، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين؛ لأن حقهما

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان، من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)، وأحمد (٥/ ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٨)، ومسلم في الإيمان (٩٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٤).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٢)، وأخرجه أيضًا (٩٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

آكد الحقوق بعد حقه عز وجل؛ ولهذا قرن الله عز وجل حقهما بحقه في آيات عدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصّلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**برّ الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»(١).

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وحرم عليكم أن تقتلوا أولادكم من إملاق؛ فبعد أن أوصى بالإحسان إلى الوالدين أتبع ذلك بالعناية بالأولاد، و«الأولاد» يشمل الذكور والإناث.

﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ تعليلية، أي: بسبب إملاق، و«الإملاق»: الفقر، أي: بسبب فقركم الحاصل.

وقد كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم بسبب الفقر أو مخافة الفقر، ويئدون البنات مخافة العار أو الفقر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩].

عن عبد الله بن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي: الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وقد خلقك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، والنسائي في المواقيت ٦١٠).
وقد سبق الكلام على هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وسيأتي بأوسع في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨][1].

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الجملة معترضة بين قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ علة للنهي عن قتلهم، وإبطالًا لتبريرهم؛ لأنهم قد جعلوا الفقر مبررًا لقتل أولادهم، مع أنه لا يبرر لهم قتلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، أي: نحن نتكفل برزقكم ورزقهم.

وبدأ هنا برزق الآباء؛ لأنه الأهم؛ بسبب أن الفقر حاصل وواقع، فقال: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بينما بدأ في آية سورة الإسراء برزق الأولاد؛ لأنه الأهم؛ بسبب أن الفقر لم يكن واقعًا فعلًا، وإنما كان مخشيًّا في المستقبل؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

وعدل عن طريق الغيبة الذي جرى عليه الكلام من قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى طريق التكلم؛ فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ لتأكيد ضمانه ذلك لهم، وتكفله به، وأنه الرزاق وحده، ولم يجعل بينه وبين عباده في رزقه لهم واسطة.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ معطوف على ما قبله، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ أبلغ في التحذير، وآكد من النهي عن ملابستها ومباشرتها، أي: من لو قال: (لا تفعلوا الفواحش)؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ نهي عما يؤدي إليها ويكون سببًا لفعلها، ونهي عن فعلها من باب أولى، أي: ابتعدوا عنها كل البعد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

و«الفواحش»: جمع فاحشة، وهي: ما فحش في الشرع وعُرف المسلمين، وهي الذنوب العظام والآثام الكبار؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١)، ومسلم في الإيمان، كون الشرك أعظم الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٣).

سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢].

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ في محل نصب بدلًا من ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، و«ما» موصولة تفيد العموم، أي: الذي ظهر منها والذي بطن، أي: لا تقربوا الفواحش؛ الظاهر منها والباطن، أي: الذي أُظهر منها وأُعلن وجُهر به؛ كالزنا علانية والقذف والغصب، وغير ذلك من الآثام الظاهرة، والذي بطن منها وأُخفي؛ كاتخاذ الأخدان، والزنا سرًّا، وأمراض القلوب.

وقد كانوا لا يرون بأسًا بالزنا سرًّا، ويُستقبحونه علانية؛ فنهى الله عن ذلك كله؛ ما ظهر منها وما بطن، وما يتعلق بالظاهر، وما يتعلق بالقلب والباطن.

والمعنى: أن الله حرَّم الفواحش؛ الظاهر منها والباطن، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله؛ من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(١).

وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال: لو رأيت مع امرأتي رجلًا لضربته بالسيف غير مُصْفِح؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد؟! والله لأنا أغير منه، والله أغير منّي؛ لهذا حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(٢).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ معطوف على ما قبله، وهو داخل في الفواحش، وخُصَّ بالذكر؛ استفظاعًا له وتهويلًا، أي: وحرَّم عليكم قتل النفس التي حرَّم الله قتلها، وهي النفس المعصومة: نفس المسلم، والمُعاهَد، والمُستأمَن.

قال ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلا بحقّ**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٣٤)، ومسلم في التوبة، غيرة الله وتحريم الفواحش (٢٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩).

الإسلام، وحسابهم على الله»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**ألَا من قتل نفسًا معاهدًا له ذمَّة الله وذمّة رسوله فقد أخفر بذمّة الله؛ فلا يُرَح رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا**»(٢).

وقال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرْتِ، يا أمَّ هانئٍ**»(٣).

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقتلوها بأي حال من الأحوال إلا بالحق، والباء للملابسة، وهو متعلق بحال من فاعل: «تقتلوا»، أو بمحذوف نعت لمفعول مطلق مقدر، أي: إلا حال كونكم متلبسين بالحق، أو إلا قتلًا متلبسًا بالحق.

والمعنى: إلا بما يحق ويوجب قتلها بسببه؛ كالزنا بعد الإحصان، وقتل العمد، والردة عن الإسلام، ونحو ذلك.

قال ﷺ: «**لا يحلّ دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاثٍ: الثّيّب الزّاني، والنّفس بالنّفس، والتّارك لدينه المفارق للجماعة**»(٤).

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الإشارة لما حرَّمه الله وأوصى به بقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: ذلكم المذكور.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥)، ومسلم في الإيمان (٢٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في الديات، ما جاء فيمن يقتل نفسًا معاهدًا (١٤٠٣)، وابن ماجه في الديات، من قتل معاهدًا (٢٦٨٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٣٦)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الديات، قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة والقصاص، ما يُباح من دم المسلم (١٦٧٦)، وأبو داود في الحدود (٤٣٨٢)، والنسائي في القسامة (٤٧٢١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك»؛ تعظيمًا له، أي: ذلكم ما وصَّاكم به من الوصايا العظيمة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تعقلوا، أي: تتأملوا بعقولكم، وتنتفعوا بما أوصاكم به من هذه الوصايا، وتحفظوها، وتقوموا بها.

ودلت الآية على أنه بحسب عقل الإنسان يكون قيامه بأمر الله.

وقد اشتملت هذه الآية على خمس وصايا؛ منها ما هو نهي يتضمن الأمر بضده، ومنها ما هو أمر يتضمن النهي عن ضده؛ وهي النهي عن الشرك بالله وتحريمه وإيجاب توحيده، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتحريم عقوقهما والإساءة إليهما، والنهي عن قتل الأولاد مخافة الفقر، وتحريم ذلك، والنهي عن قرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم ذلك، والنهي عن قتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وتحريم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ فهذا من ضمن ما حرَّمه الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ كما سبق في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾؛ فهو أبلغ في التحذير، وآكد في النهي، أي: ابتعدوا عن مال اليتيم وعن التعرض له بأي وجه من الوجوه؛ بأكل، أو أخذ منه، أو تصرُّف لمصلحتكم، أو مخاطرة فيه، ونحو ذلك.

﴿مَالَ الْيَتِيمِ﴾، «المال»: كل ما يُتموَّل ويُملك؛ من نقد، وعقار، وأعيان، وغير ذلك، و«اليتيم»: من فقد أباه دون البلوغ، ذكرًا كان أو أنثى، فإذا بلغ زال عنه اليتم؛ لقوله ﷺ: «**لا يُتم بعد حلم**»(١).

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، «إلا» أداة حصر، والباء للملابسة، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقربوا مال اليتيم بحال من الأحوال إلا بالخصلة التي هي

---

(١) سبق تخريجه.

أحسن، مما فيه حفظه وصلاحه وتنميته، والإنفاق عليه منه وإخراج الحقوق الواجبة فيه؛ كالزكاة والنفقة على من تلزمه نفقته، أو أكل لولي الفقير منه بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾، «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن يبلغ أشده، ببلوغه سن النكاح، وإيناس الرشد منه، أي: حسن التصرف في ماله، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

والمعنى: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده فتردون إليه ماله، وليس المعنى أنه إذا بلغ أشده جاز أن تقربوا ماله بغير التي هي أحسن.

وإنما خُصَّ مال اليتيم بهذه العناية؛ لضعف اليتيم، وكون ماله مظنة الاعتداء عليه من الولي، حتى ولو كان من أقرب الناس إليه.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ معطوف على ما قبله، والباء في قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ للملابسة، أي: وأوفوا الكيل والوزن بالعدل والتمام، وهو نهي عن ضده؛ وهو البخس والنقص، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١-٣].

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ احتراس من أن يظنوا أنهم يُطالبون من الوفاء والعدل في الكيل والوزن ما لا يستطيعونه؛ فـ«لا» نافية، و«نفسًا» نكرة في سياق النفي، أي: لا نحمل أيَّ نفس ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر ﴿وُسْعَهَا﴾ طاقتها وقدرتها وما تستطيعه.

فمن اجتهد وبذل وسعه وطاقته في الوفاء بالكيل والوزن، وفي أداء الحق وأخذه، وحرص على ذلك؛ فقد أدَّى ما عليه، وبرئت ذمته، فإن فاته شيء مما لا يستطيع التحرز منه من نقص أو زيادة يسيرة؛ فلا شيء عليه؛ لأن الله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها؛ كما قل تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وعدل في هذا الاحتراس عن الغيبة إلى التكلم؛ لزيادة الامتنان، وتكلم عز وجل

بضمير الجمع؛ إظهارًا لعظمته.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، أمر بالوفاء بالكيل والوزن والعدل فيهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بالعدل بالقول؛ وهو نهي عن ضد ذلك، وهو الظلم والجور.

«إذا» ظرفية شرطية، ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل الشرط، ﴿فَاعْدِلُوا﴾ جواب الشرط، ورُبط بالفاء؛ لأنه جملة طلبية، أي: وإذا قلتم وتكلمتم فاعدلوا وأنصفوا مع كل أحد، وفي كل قول؛ في الشهادات والقضاء، والتعديل والتجريح، والوصايا والصلح، والمطالبة بالحقوق، وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

وفي التعليق بالشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ إشارة إلى أن في السكوت سعة إذا خشي عدم العدل في القول، وفي الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(١).

وفي الأثر: الصمت حكمة، وقليل فاعله(٢).

وقد أحسن القائل:

ولئن ندمت على سكوتك مرّةً ... فلتندمنّ على الكلام مرارًا(٣)

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ الواو حالية، أي: ولو كان الحال أن الذي تعلق به القول ذا قربى، أي: صاحب قرابة؛ فيجب العدل في القول معه سواء كان الحق عليه أو له، ولا يجوز ترك العدل معه محاباة لقرابته لنفعه أو الدفع عنه، وغيره من باب أولى.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧١).

(٢) روي نحو هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الصمت حكمة، وقليل فاعله».

وقد روي هذا عن لقمان. انظر: «الجامع» لابن وهب (ص٥٠٧ رقم ٣٩٤)، «الزهد والرقائق» لابن المبارك و«الزهد» لنعيم بن حماد (١/ ٢٨٩).

(٣) انظر: «الموشى؛ الظرف والظرفاء» (ص٨).

أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ معطوف على ما قبله، «بعهد الله» متعلق بـ«أوفوا»، وقُدِّم عليه للعناية والاهتمام بعهد الله.

و«عهد الله» يصح أن يكون من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: أوفوا بما عاهدكم الله عليه، أي: بما عهد إليكم من الشرائع، ويصح أن يكون من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: أوفوا بما عاهدتم الله عليه أن تفعلوه؛ فيما بينكم وبينه، وفيما بينكم مع بعضكم بعضًا من عهود وعقود، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

أي: أوفوا بما عهد الله إليكم وما عاهدتموه عليه، من القيام بحقوقه والوفاء بها؛ مما بينكم وبينه، ومما بين بعضكم مع بعض.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. والإشارة للأحكام المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾. وأشار إليها بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا لها، أي: ذلكم الأحكام العظيمة وصاكم وأمركم بها أمرًا مؤكدًا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بتخفيف الذال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ حيث جاء في القرآن، وقرأ الباقون: «تذَّكَّرون» بتشديدها، وأصلها «تتذكرون»، فمن خفف: حذف إحدى التاءين، ومن ثقَّل أدغم التاء في الذال.

و«لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تذَّكروا، أي: تتعظوا وتعتبروا.

وقد اشتملت هذه الآية على أربع وصايا، وهي: النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، والوفاء بالكيل والوزن بالقسط، والعدل في القول مع كل أحد، والوفاء بعهد الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

ختم عز وجل هذه الوصايا بهذه الوصية العامة الجامعة المانعة؛ وهي الأمر والإغراء باتباع سبيله ودينه المستقيم دين الإسلام، والتنويه بالوصايا المذكورة، وأنها لباب هذا الدين، والتحذير من اتباع السبل المتفرقة المفرقة عن سبيله، وهي الوصية العاشرة.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة «وإن» على الاستئناف، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّ﴾، إلا أن يعقوب وابن عامر خففا النون، وشددها الباقون.

فتكون الجملة على قراءة الفتح معطوفة على ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، والتقدير: قل: تعالوا أتل ما حرَّم ربكم عليكم، وأتل عليكم استقامة صراطي.

والإشارة إلى دين الإسلام وما اشتمل عليه من الوصايا العظيمة النافعة المذكورة وغيرها، كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، أي: وأن هذا سبيلي وديني «دين الإسلام».

وأضاف عز وجل الصراط إليه؛ تعظيمًا له، ولأنه سبحانه هو الذي جعله ونصبه طريقًا لمن وفقه تعالى من عباده، ولأنه يؤدي إليه عز وجل وإلى مرضاته؛ قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

وأفرد الصراط ووحده؛ لأن صراط الله وسبيله واحد؛ وهو سبيل الحق. وعدل عن الغيبة التي جرى عليها الكلام في قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى التكلم للإيماء إلى عظمة هذا الصراط؛ لكونه صراط الله.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال، و«المستقيم» في الأصل: أقرب خط يصل بين نقطتين، ومعنى ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، أي: عدلًا لا اعوجاج فيه ولا التواء، أيسر سلوكًا، وأقرب إيصالًا إلى السعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدَّر، أو عاطفة، أي: فاسلكوه وخذوا به والزموه، لتسعدوا في دينكم ودنياكم وأُخراكم، وتفوزوا بحصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، أي: ولا تسلكوا الطرق الأخرى غير المستقيمة، وجمعها؛ لكثرتها وتفرقها وتشعبها؛ فطريق الحق واحد، وطرق الباطل متعددة.

ولهذا يُذكر الصراط المستقيم مفردًا- كما سبق- ويذكر ما عداه من السبل جمعًا؛ كما يُذكر النور مفردًا وتجمع الظلمات، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الفاء للسببية، والباء للمصاحبة.

والمعنى: فتفرقكم عن سبيله ودينه يمينًا وشمالًا، وتضلكم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الإشارة لقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتقوا الله بفعل ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه.

وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث على عشر وصايا:

في الآية الأولى ذكر خمس وصايا، وختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وذكر في الثانية أربع وصايا، وختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وذكر في الثالثة واحدة، وختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وتدرج فيها من الأمر بالتعقل والتأمل، ثم التذكر والاتعاظ، ثم التقوى بفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «**هذه السّبل؛ ليس منها سبيلٌ إلّا عليه شيطانٌ يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١].

وعن أبان أن رجلًا قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: «تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وثَمَّ رجال يدعون من مر بهم؛ فمن أخذ بتلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة»، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآية[٢].

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»[٣].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن ربه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٢- إقامة الحجة على المشركين وعلى غيرهم في بيان ما حرمه الله تعالى عليهم حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٣- أن التحريم والتحليل إنما أمره إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٥- تحريم الشرك بالله تعالى، ووجوب توحيده عز وجل وإفراده بالعبادة؛ لأنه حق الله تعالى على العباد، وهو أوجب حق عليهم وأعظمه؛ ولهذا بدأ به؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والحاكم في تفسير سورة الأنعام (٢/ ٣١٨)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٦٧١)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٦٢)؛ من رواية ابن مردويه

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ ٦٧٠).

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

٦- وجوب الإحسان إلى الوالدين، وتحريم عقوقهما، والإساءة إليهما، أو ترك الإحسان لهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾.

٧- عظم حق الوالدين؛ لأن الله قرنه بحقه عز وجل في الآية، وفي آيات عدة في القرآن الكريم.

٨- تحريم قتل الأولاد بسبب الفقر، وعناية الله تعالى بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

٩- أن رزق الوالدين والأولاد كله إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

١٠- أن الأرزاق بيد الله تعالى، فهو الرازق والرزاق وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

١١- بلاغة القرآن الكريم؛ فحيث كان قتلهم الأولاد بسبب الفقر الحاصل قدَّم رزق الآباء في الآية، بينما قدَّم رزق الأولاد في سورة الإسراء لما كان قتلهم خشية الفقر؛ فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

١٢- تحريم الفواحش؛ الظاهر منها والباطن، ووجوب الابتعاد عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

١٣- تحريم قتل النفس المعصومة التي حرَّم الله قتلها إلا بالحق، وهي نفس المؤمن والمعاهد والمستأمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

١٤- صيانة الإسلام للنفوس والدماء.

١٥- وجوب قتل من استحق القتل؛ كالزاني المحصن، والقاتل عمدًا، والمرتد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

١٦- تعظيم هذه الوصايا الخمس المذكورة في الآية، وتأكيد وجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾.

١٧- أن الله عز وجل أوصى بهذه الوصايا للتعقل والتأمل فيها، والانتفاع والعمل

بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٨- فضل العقل لمن انتفع به فقاده إلى التدبر والتأمل في آيات الله والعمل بشرعه.

١٩- تحريم الاعتداء على مال اليتيم، والتصرف فيه بأي وجه من الوجوه، إلا بما هو أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٢٠- وجوب تصرف الولي بمال اليتيم لصالح اليتيم، وما هو أحسن له في الحفظ والتنمية، والإنفاق عليه منه، وإخراج الحق الواجب فيه من الزكاة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٢١- عناية الشرع المطهر باليتامى، وأموالهم، وحقوقهم.

٢٢- وجوب الحجر على اليتيم في ماله، وعدم تسليمه له حتى يبلغ أشده؛ ببلوغ سن النكاح، وإيناس الرشد منه، فإذا بلغ ذلك وجب رد المال إليه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

٢٣- وجوب الوفاء بالكيل والوزن بالعدل، وتحريم بخس المكيال والميزان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٢٤- الاحتراس من أن يفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ تكليف ما لا يطيقه الإنسان مما قد يصعب الاحتراز منه؛ من نقص، أو زيادة طفيفة في الكيل والوزن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٢٥- وجوب العدل في كل قول، ومع كل أحد؛ في الشهادات والقضاء والوصايا، والتعديل والتجريح، وغير ذلك، مع القريب والبعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

وكثير من الناس قد يعدل وينصف بالكيل والوزن الحسي، لكنهم لا يعدلون ولا ينصفون بالقول والكلام المعنوي، وقد يكون أشد من عدم العدل في الكيل والوزن الحسي.

٢٦- الإشارة إلى أن السكوت خير من الكلام إذا خيف عدم العدل؛ يؤخذ هذا من التعليق بالشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾.

٢٧- أن مما قد يحمل على عدم العدل في القول محاباة القريب؛ لهذا خص بالذكر،

وغيره من باب أولى.

٢٨- وجوب الوفاء بعهد الله؛ بالقيام بما أوجب الله على العباد فيما بينه وبينهم، وفيما بينهم مع بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾.

٢٩- تعظيم هذه الوصايا الأربع في هذه الآية، وتأكيد وجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣٠- أن الله تعالى أوصى بهذه الوصايا للتذكر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣١- تعظيم الله عز وجل لصراطه ودينه دين الإسلام، بإضافته إليه ووصفه بالاستقامة؛ إغراء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾.

٣٢- وجوب اتباع صراط الله ودينه دين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

٣٣- النهي عن اتباع ما عدا سبيل الله من السبل الكثيرة المتشعبة المتفرقة؛ لأنها تفرق وتضل من اتبعها عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٣٤- أن سبيل الله وطريق الحق واحد، وسبل الباطل وطرقه كثيرة متشعبة؛ لأن الله أفرد صراطه وسبيله، وجمع ما عداه من السبل.

٣٥- تعظيم هذه الوصية باتباع دين الإسلام، وتأكيد وجوب الأخذ بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٣٦- أن الله تعالى أوصى بهذه الوصية؛لأجل تقواه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٣٧- في ختام الآيات الثلاث بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بهذا الترتيب؛ إشارة إلى أن التعقل سبب للتذكر، وأنهما سببان لتقوى الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، «ثم» هنا ليس المراد منها الزمان؛ ولهذا قال بعضهم إنها هنا للاستئناف.

والمقصود- والله أعلم- بذكر إيتاء موسى عليه السلام الكتاب التمهيد لقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ ليرتب عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ الآية، وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ الآية.

وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين ذكر القرآن والتوراة؛ لأن أعظم كتب الله تعالى القرآن الكريم ثم التوراة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقوله في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩١-٩٢].

وقوله تعالى مخبرًا عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص: ٤٨].

وقوله تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ

مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطيناه وأنزلنا عليه الكتاب، و(ال) في «الكتاب» للعهد، أي: الكتاب المعهود «التوراة».

﴿تَمَامًا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل تمام نعمتنا، أو هو حال من الكتاب، أي: حال كونه تمامًا، أي: تامًّا جامعًا، أو حال من الفاعل، أي: متمِّين، أو نصب على المصدرية، والتقدير: آتيناه إيتاء تمام لا نقصان.

﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ﴾ متعلق بـ«تمامًا».

﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود إلى موسى، أو يعود الضمير إليه وإلى من أحسن من قومه.

و«الذي»- على هذا- بمعنى «من»، والمعنى: وآتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمتنا وكرامتنا على موسى عليه السلام، الذي أحسن بتبليغ ما آتاه الله والقيام بأمر الله، وعلى من اتبعه من بني إسرائيل الذين أحسنوا بالإيمان والانقياد لأمر الله؛ فقد أنعم الله عليهم بنعم لا تُحصى، من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم، مما يوجب عليهم شكره.

وقال بعضهم: «الذي» بمعنى «ما» الموصولة، والتقدير: تماما على ما أحسنه، أي: على الذي أحسنه، أو مصدرية، والتقدير: تمامًا على إحسانه.

والمعنى: وآتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمتنا عليه وإكرامنا له على الذي أحسنه، أو على إحسانه بتبليغ رسالة ربه والقيام بأمره، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ الواو عاطفة، أي: وتبيينًا لكل شيء يُحتاج إلى بيانه في شريعته؛ من العقائد والأحكام، والحلال والحرام، والأمر والنهي، والأصول والفروع، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٥].

﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة.

﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل لهم بسببها السعادة والخير، ويندفع بها الشر- بإذن الله- في الدنيا والآخرة.

﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يؤمنوا بلقاء ربهم، أي: يُصدِّقوا بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال والعرض على الله تعالى، ويستعدوا لهذا اللقاء، ويعملوا له صالحًا؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦].

وقدم المتعلق، وهو قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ على ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وهو متعلق به؛ للاهتمام بلقاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾.

قوله: ﴿وَهَٰذَا﴾ الإشارة للقرآن الكريم، وفي افتتاح الجملة بها تنويه به.

﴿كِتَٰبٌ﴾ نُكِّر للتعظيم، أي: كتاب عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: ٨٧].

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ صفة لـ«كتاب».

﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة ثانية لـ«كتاب»، أي: فيه الخير الكثير، والعلم الغزير.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الفاء للتفريع، والخطاب للمشركين؛ لقوله بعد ذلك: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ الآية.

والمعنى: فاتبعوه فيما يأمر به وينهى عنه، واعملوا بما فيه.

وقدَّم قبل الأمر باتباعه الثناء عليه وتعظيمه ووصفه بكونه منزلًا من عند الله مباركًا؛ للإغراء باتباعه.

﴿وَٱتَّقُوا۟﴾، أي: واتقوا الله أن تُخالفوا ما أمركم به أو نهاكم عنه في هذا الكتاب.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لأجل أن يرحمكم الله؛لأن أكبر سبب لنيل رحمة الله تعالى اتباع هذا الكتاب العظيم علمًا به وعملًا.

وفي هذا وعد على اتباعه، وتعريض بالوعيد على الإعراض عنه.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن

دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾، «أن» تعليلية، أي: لئلا تقولوا، والخطاب للمشركين.

﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أُنزل الكتاب إلا على طائفتين من قبلنا.

ويعنون بـ«الكتاب» جنس الكتاب المنحصر في التوراة والإنجيل، ويعنون بالطائفتين من قبلهم: اليهود والنصارى.

والمعنى: وهذا كتاب أنزلناه؛ لئلا تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، أي: قطعًا لحجتكم وعذركم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧].

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ الواو عاطفة، أي: وإن كنا عن قراءة كتبهم وتلاوتها، كما قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [سبأ: ٤٤].

﴿لَغَٰفِلِينَ﴾، «الغفلة»: السهو وعدم التفطن والاهتمام، أي: لم نهتم بما حوت عليه كتبهم، وليس لنا في كتبهم ودراستها، ولا بلسانهم علم ولا معرفة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، أي: وأنزلنا هذا الكتاب؛ لئلا تقولوا: لو أنا أُنزل علينا الكتاب كما أُنزل على هاتين الطائفتين من قبلنا لكنا أهدى منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٤٨].

﴿لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لكنا أهدى منهم للحق، وأسرع اتباعًا للكتاب، وأشد استقامة منهم. وفي هذا إشارة لما عليه العرب من الاعتداد بفصاحتهم وفطنتهم، وحدة أذهانهم، وسرعة تلقيهم، وأنَّى ينفعهم ذلك إن عدِموا التوفيق من الله؟

﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾ الفاء تعليلية، أو رابطة لشرط مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: فقد جاءكم كتاب من ربكم، فيه بيان كل شيء وهدى ورحمة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البينة: ١-٣].

لم ينزل من السماء كتاب أجمع منه، ولا أوضح منه، ولا أبين، وفي هذا قطع لعذركم وتعللكم، أن تقولوا: لو أنا أُنزل علينا ما أُنزل عليهم لكنا أهدى منهم.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تذكير لهم بربوبيته لهم وعنايته بهم؛ خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم بسائر النعم؛ ليشكروه ولا يكفروه.

﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة، وبيان للحق من الباطل، والحلال من الحرام؛ لما اشتمل عليه من الإرشاد والتعليم والبيان، كما قال تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣].

﴿وَرَحۡمَةٞ﴾، أي: ورحمة من الله بعباده الذين يؤمنون بهذا الكتاب ويتبعونه، فيسعدون بذلك في دينهم ودنياهم وأُخراهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾

[الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان:٣].

وفي وصف القرآن بهذه الأوصاف العظيمة ما يوجب أن يغتبطوا به؛ لما فيه من فضل وتشريف لهم، لو كانوا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]. وما يوجب تصديقه واتباعه والدعوة إليه، لا تكذيبه والإعراض عنه؛ ولهذا قال:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ الفاء استئنافية، «من» اسم استفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم.

و«من» في قوله: ﴿مِمَّن﴾ اسم موصول، أي: فمن أظلم من الذي كذَّب بآيات الله، ولم يقل: فمن أظلم منكم؛ لبيان علة الحكم، وليشملهم هذا الوصف، وكل من كذَّب بآيات الله وصدف عنها.

و«أظلم» أفعل تفضيل، أي: لا أحد أشد ظلمًا من الذي كذَّب بآيات الله، أي: جحد وأنكر بقلبه آيات الله الشرعية التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ فلم يؤمن بها باطنًا.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أي: وصد وانصرف وأعرض عنها؛ فلم يعمل بها بجوارحه، ولم يؤمن بها ظاهرًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١-٣٢]، وصد الناس أيضًا وصرفهم عنها، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنعام: ٢٦].

ويجوز أن يكون معنى ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: جحدها وأنكرها، ولم يؤمن بها وأعرض عنها، ومعنى ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، أي: صد الناس وصرفهم عنها.

والمعنى: أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن جمع بين التكذيب بآيات الله وعدم الإيمان بها، وبين صد الناس عنها؛ بين الظلم بتكذيب آيات الله والظلم للنفس، والظلم للناس بصدهم عن آيات الله. وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ ولهذا قال:

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾، أي: سنجازي ونثيب الذين يصدفون عن آياتنا بالإعراض عنها بأنفسهم، وصرف غيرهم وصدهم عنها.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب السيء الذي

يسوؤهم ويشق عليهم، و«سوء العذاب»: أشده وأقواه وأعظمه؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ الباء سببية، و«ما» مصدرية، أي: جزاء لهم؛ بسبب كونهم يصدفون عن آيات الله ويُعرضون عنها، ويصدون غيرهم من الناس ويصرفونهم عنها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه الصلاة والسلام، وإنزال التوراة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- فضيلة التوراة، وأنه أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾؛ فأطلق عليه اسم «الكتاب» بالتعريف، ووصفه بالتمام.

٣- تمام نعمة الله تعالى وكرامته على موسى عليه السلام؛ بإيتائه الكتاب تمامًا جامعًا لإحسانه وقيامه بأمر الله تعالى، وذلك نعمة أيضًا على من أحسن من بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾.

٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن أحسن العمل فله حسن الثواب والجزاء.

٥- تفصيل التوراة، وبيانها لكل ما يحتاج إلى بيانه في شريعة موسى عليه السلام؛ من العقائد والأحكام، والحلال والحرام، والأمر والنهي، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

٦- اشتمال التوراة على الهداية من الضلالة وبيان الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

٧- أن في إيتاء موسى عليه السلام التوراة رحمة من الله تعالى له ولقومه؛ لما فيها من الهدى إلى الحق، والتبصير من الضلالة والغواية، والإرشاد إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة، ومرضاة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾.

٨- بيان الحكمة من إيتاء موسى عليه السلام الكتاب تامًّا جامعًا مفصلًا لكل

شيء، مشتملًا على الهدى والرحمة؛ وهي أن يؤمن قومه بلقاء الله، ويستعدوا لذلك اللقاء بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، وهذه هي الغاية من بعث الرسل جميعًا وإنزال الكتب.

٩- إثبات البعث والحساب ولقاء الله تعالى، وعرض الخلائق عليه، ووجوب الإيمان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١١- التنويه بشأن القرآن الكريم وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ الآية.

١٢- إثبات نزول القرآن من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

١٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل العلو المطلق؛ علو الذات وعلو الصفات.

١٤- بركة القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ ففيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والنفع العظيم.

١٥- وجوب اتباع القرآن والعمل بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

١٦- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾.

١٧- أن اتباع القرآن وتقوى الله تعالى، كل ذلك سبب لرحمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

١٨- أن في إنزال هذا القرآن العظيم المبارك قطع لاعتذار المشركين واحتجاجهم؛ لئلا يقولوا: إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ولم يُنزل علينا كتاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

١٩- إثبات نزول التوراة والإنجيل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾.

٢٠- معرفة المشركين والعرب بنزول هذين الكتابين على اليهود والنصارى.

٢١- غفلة المشركين والعرب عن دراسة كتب بني إسرائيل وعلومهم، وعدم اهتمامهم بذلك؛ لقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

٢٢- أن في إنزال القرآن الكريم قطع تعلل المشركين أنه لو أُنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدى ممن قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

٢٣- أن الدعاوى إذا لم يكن لها حقيقة ولا رصيد من الواقع؛ فلا قيمة لها ولا اعتبار؛ فقول المشركين: ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ كذب وباطل، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

وقد قيل:

وَالدَّعَاوَى إِذَا لَمْ يُقِيمُوا عَلَيْهَا ... بَيِّنَاتٌ أَصْحَابُهَا أَدْعِيَاءُ[1]

٢٤- بيان القرآن الكريم للحق من الباطل، والخير من الشر، والحلال من الحرام، وكل ما يُحتاج إليه في أمر الدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- أن القرآن الكريم هدى من الضلالة، وتبصير وإرشاد من العمى والغواية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾.

٢٦- أن القرآن الكريم رحمة من الله تعالى لعباده، يهتدون به في الدنيا إلى الطريق المستقيم، وفي الآخرة إلى جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

٢٧- أنه لا أشد ظلمًا ممن كذَّب بآيات الله بقلبه، وانصرف عن العمل بها

---

(١) البيت ينسب للبوصيري. انظر: «موسوعة الشعر العربي» ص١٤.

بجوارحه، وعمل على صد الناس عنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ لأنه جمع بين الظلم بالتكذيب بآيات الله وظلم نفسه وظلم غيره.

٢٨- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن أعرض عن آيات الله، وصد الناس عنها بسوء العذاب وأشده؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

٢٩- أن العذاب دركات؛ منه سيئ، وأسوأ، وبين ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٣٠- إثبات الأسباب، وما يتسبب عنها؛ فإن التكذيب بآيات الله والصدف عنها سبب لسوء العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

توعد عز وجل في الآية السابقة المشركين المكذبين بآيات الله، المعرضين عنها، الصادِّين للناس عنها بسوء العذاب، ثم هددهم في هذه الآية بقرب هذا العذاب.

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، «هل» اسم استفهام، وهو هنا بمعنى الإنكار والنفي، أي: ما ينظرون، و«ينظرون» بمعنى: ينتظرون، والضمير عائد إلى الذين يكذبون بآيات الله ويصدفون عنها.

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير «يأتيهم»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾.

و«إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾.

والتقدير: ما ينظرون إلا إتيان الملائكة.

والمعنى: ما ينتظر هؤلاء المكذبون بآيات الله الصادفون عنها إلا مجيء الملائكة- ملك الموت وأعوانه- لقبض أرواحهم، وملائكة العذاب لأخذ أرواحهم إلى النار، وفي هذه الحال لا ينفع الإيمان ولا صالح الأعمال.

﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾، «أو» عاطفة، أي: أو يأتي ربك- يا محمد- لفصل القضاء والحكم بين عباده، ومجازاتهم في موقف القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، أي: أو يأتي بعض آيات ربك الدالة على قرب الساعة، وهي أماراتها وأشراطها، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد: ١٨].

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: اطَّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذاكرون؟**»، قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنّها لن تقوم حتّى تروا قبلها عشر آياتٍ**»؛ فذكر: «**الدّخان، والدّجّال، والدّابّة، وطلوع الشّمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوفٍ: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم**»(١).

وأول هذه الآيات طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة؛ لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ أوّل الآيات خروجًا طلوع الشّمس من مغربها، وخروج الدّابّة على النّاس ضحًى، وأيّهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا**»(٢).

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، أي: حين يأتي بعض آيات ربك الدالة على قرب القيامة، وهو طلوع الشمس من مغربها.

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، «لا» نافية، و«نفسًا» مفعول، قدَّم على الفاعل «إيمانها»، وهي نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل نفس.

والمعنى: حين يأتي بعض آيات ربك بطلوع الشمس من مغربها لا ينفع نفسًا إيمانها بعد ذلك، إذا لم تكن آمنت قبله.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١)، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة (٤٣١١)، والترمذي في أبواب الفتن ٢١٨٣)، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات (٤٠٥٥)، وأحمد (٤/ ٧).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١)، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة (٤٣١٠)، وابن ماجه في الفتن، طلوع الشمس من مغربها (٤٠٦٩).

﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ معطوف على ﴿ءَامَنَتْ﴾، أي: أو لم تكن كسبت في إيمانها خيرًا، و«في» للظرفية.

أي: ولا ينفع نفسًا مؤمنة ما عملته بعد ذلك إن لم تكن كسبت في إيمانها قبل ذلك وعملت خيرًا، أي: فلا يقبل بعد طلوع الشمس من مغربها إيمان كافر، ولا توبة فاسق، ولا يزداد مقصر خيرًا؛ فمن آمن بعد طلوع الشمس من مغربها من الكفار لم ينفعه إيمانه، ومن عمل صالحًا من المؤمنين بعد طلوع الشمس من مغربها لم ينفعه ذلك العمل، وإنما ينتفع بإيمانه وعمله قبل ذلك.

وذلك أن الإيمان بعد طلوع الشمس من مغربها ليس إيمانًا بالغيب؛ لأن الأمر قد صار شهادة، وهو وقت اضطرار لا اختيار؛ كحال من حضره الموت، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقال ﷺ: «**إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

قال ابن كثير: «أي: إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذٍ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك، فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مُخلِّطًا فأحدث توبة حينئذٍ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، أي: لا يُقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك»(٢).

وعلى هذا المعنى وهو أن المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ الآية: طلوع الشمس من مغربها دلت الأحاديث الصحيحة المتواترة، وأن الناس إذا طلعت الشمس من مغربها ورأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم؛ لغلق باب التوبة.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، فضل التوبة والاستغفار (٣٥٣٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «**لا تقوم السّاعة حتى تطلع الشّمس من مغربها؛ فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون، وذلك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»(١).

وفي رواية عنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ إذا خرجن** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾: **طلوع الشّمس من مغربها، والدّجّال، ودابّة الأرض**»(٢).

وعن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه، أنه ﷺ قال يومًا: «**أتدرون أين تذهب هذه الشّمس؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إنّها تجري حتّى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش؛ فتخرّ ساجدةً، فلا تزال كذلك حتى يُقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت؛ فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها، ثم تجري حتّى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش؛ فتخرّ ساجدةً، ولا تزال كذلك حتّى يُقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر النّاس منها شيئًا حتّى تنتهي إلى مستقرّها ذاك تحت العرش، فيُقال لها: ارتفعي أصبحي طالعةً من مغربك؛ فتصبح طالعةً من مغربها**»، فقال رسول الله ﷺ: «**أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»(٣).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إنّ الله عز وجل يبسط يده باللّيل؛ ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار؛ ليتوب مسيء اللّيل؛ حتّى تطلع الشّمس من مغربها**»(٤).

وعن معاوية رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تنقطع الهجرة**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام (٤٦٣٦)، ومسلم في الإيمان، بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٨)، والترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٧٢).

(٣) خرجه مسلم في الإيمان (١٥٩).

(٤) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٩).

حتّى تنقطع التّوبة، ولا تنقطع التّوبة حتى تطلع الشّمس من مغربها»(١).

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، أي: قل لهم- يا محمد- انتظروا هذا الوعيد بإتيان الملائكة بالموت لقبض أرواحكم، أو إتيان ربك لفصل القضاء والحكم بين الخلائق، وذلك يوم القيامة، أو إتيان بعض آياته، التي إذا جاءت لم يُقبل منهم الإيمان، ولا الزيادة في العمل ممن كان مؤمنًا قبل ذلك، أو انتظروا ما كنتم تنتظرون بنا من قوارع الدهر ومصائب الأمور.

﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وعد الله بنصره ومثوبته لنا، ونزول وعيده فيكم، وفصله بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فارقوا» بالألف مع تخفيف الراء، وقرأ الباقون بغير ألف مع التشديد: ﴿فَرَّقُواْ﴾.

ومعنى: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾، أي: شتتوه وتفرقوا فيه على ملل ونحل شتى.

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، أي: فرقًا وأحزابًا وجماعات، يكفر بعضهم بعضًا، أو يبدع بعضهم بعضًا، أو يفسق بعضهم بعضًا، وقد يقاتل بعضهم بعضًا.

وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية؛ فمنهم من قال: المراد بها اليهود والنصارى. ومنهم من قال: المراد بها المشركون. ومنهم من قال: هي في أهل البدع والشبه والضلالات. ومنهم من قال: هي في الخوارج، إلى غير ذلك.

والظاهر: أن الآية عامة في كل من فرَّقوا دينهم وفارقوه وخالفوه، وكانوا شيعًا وأحزابًا، وأول من يدخل في هذا الوصف اليهود والنصارى؛ ولهذا حذَّر الله هذه الأمة من مشابهتهم في ذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٧٩).

كما يدخل في هذا الوصف كل من فرقوا دينهم وفارقوه وخالفوه من هذه الأمة، وقد قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، وافترقت النّصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمّة على ثلاثٍ وسبعين فرقةً؛ كلّها في النّار إلا واحدةً**»(١).

ولهذا أمر الله عز وجل هذه الأمة بالاجتماع، ونهاهم عن التفرق؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فكل من خالف دين الله وخرج عن المحجة التي ترك عليها محمد ﷺ أصحابه، وما عليه سلف الأمة؛ فهو داخل تحت هذا الوصف؛ من أهل الملل والنحل، والأهواء والضلالات والبدع، والفرق والأحزاب والجماعات؛ ولهذا يجب العمل على صيانة وحدة الأمة، والحذر كل الحذر من التفرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فإن قوة الأمة وعزتها في اجتماع كلمتها ووحدتها؛ كما قيل:

تَأْبَى الرِّمَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا ... وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ آحَادًا(٢)

وما أضر بالمسلمين اليوم أشد من تفككهم وتفرقهم شيعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، وكل يدعي أن الحق معه؛ حالهم كما قيل:

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا بِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا(٣)

وكما قال شاعر الأندلس:

فَتَفَرَّقُوا شِيَعًا فَكُلِّ مَدِينَةٍ ... فِيهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْبَرُ(٤)

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، شرح السنة (٤٥٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأغاني» ٤/ ١١٢، «مجمع الزوائد» ٨/ ١٢٦، «كنز العمال» ١٣/ ٦٠٠ (٣٧٥٥٢).

(٣) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

(٤) البيت بلا نسبة. انظر: «ديوان الحماسة» ١/ ١٧٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٦/ ٣٤٥.

وقال الآخر:

مِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، أي: أنت براء منهم، لست منهم في شيء، وليسوا منك، وليس عليك هداهم، ولا إليك عقابهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا إنذار وتهديد شديد، «إنما» أداة حصر، أي: إنما أمرهم فيما هم فيه من التفرق في دينهم وحسابهم، وجزاؤهم على ذلك إلى الله تعالى وحده، لا إليك، ولا إلى غيرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، «ثم» للعطف مع التراخي، ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كانوا يفعلون، أو بفعلهم.

والمعنى: ثم يخبرهم بأفعالهم، ويحاسبهم، فيفصل بينهم بحكمه، ويجازيهم عليها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧].

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

هذه الآية تفصيل لما أُجمل في الآية قبلها من الجزاء؛ فيها بيان صفة الجزاء وكيفيته يوم القيامة، وبيان فضل الله عز وجل في حكمه وعدله.

قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، «من» اسم شرط جازم، و«جاء» فعل الشرط.

﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الباء للمصاحبة، و«الحسنة»: كل ما استحسنه الشرع من قول أو فعل، ظاهر أو باطن، أو تركٍ أو بذلٍ.

فذكر الله حسنة، وقراءة القرآن حسنة بل حسنات؛ كما قال ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ، ولكن (ألفٌ)**

حرفٌ، و(لامٌ) حرفٌ، و(ميمٌ) حرفٌ»(١).

وبذل الزكاة والصدقة حسنة، وترك المنكر حسنة، وحسن الظن حسنة، ومحبة المؤمنين حسنة، وهكذا.

ومعنى ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، أي: من عملها، ووافى ربه بها يوم القيامة.

﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط.

قرأ يعقوب «عشرٌ» بالتنوين، و«أمثالُها» بالرفع على أنه صفة لـ«عشر».

وقرأ الباقون: ﴿عَشۡرُ﴾ بغير تنوين، و﴿أَمۡثَالِهَا﴾ بالخفض على الإضافة، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

و«الأمثال» جمع «مثل»: وهو المماثل والمساوي، وجيء له باسم عدد المؤنث: «عشر» اعتبارًا بأن ﴿أَمۡثَالِهَا﴾ صفة لموصوف محذوف دل عليه الحسنة، أي: فله عشر حسنات أمثالها، فروعي في اسم العدد معنى مميزه دون لفظه.

والمعنى: من جاء بالحسنة فله ثواب عشر حسنات أمثالها؛ ولهذا قال ﷺ: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوّالٍ؛ فكأنّما صام الدّهر كلّه**»(٢).

فرمضان في مقابل عشرة أشهر، وستة أيام في مقابل شهرين؛ فصار اليوم بعشرة أيام فضلًا من الله تعالى.

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صام ثلاثة أيام من كلّ شهر فقد صام الدّهر كلّه**»، ثم قال: «**صدق الله في كتابه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾**»(٣).

وهذا أقل ما يكون من التضعيف، وليس لأكثره حد، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١١٦٤)، وأبو داود في الصوم (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم (٧٥٩)، وابن ماجه (١٧١٦)، من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي في الصيام (٢٤٠٩)، والترمذي في الصوم ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر (٧٦٣)، وابن ماجه في، ما جاء في صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١٧٠٨)، وأحمد (٥/ ١٤٥-١٤٦).

وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ﷺ: «**كلّ عمل ابن آدم يُضاعف له الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعفٍ، إلا الصّوم؛ فإنّه لي وأنا أجزي به**»(١).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ كالشرطية قبلها.

والمعنى: ومن عمل السيئة، فلا يُعاقب إلا مثلها، وهذا من تمام عدل الله تعالى، وأنه لا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ فلا يزاد في عقاب المسيئين، ولا ينقص من ثواب المحسنين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: «**إنّ الله كتب الحسنات والسّيّئات، ثم بيّن ذلك؛ فمن همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتب الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسناتٍ، إلى سبع مئة ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، وإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئةً واحدةً**»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسّيّئة فجزاؤه سيّئةٌ مثلها أو أغفر، ومن تقرّب منّي شبرًا تقرّبت منه ذراعًا، ومن تقرّب منّي ذراعًا تقرّبت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرةً**»(٣).

قال ابن كثير- بعد أن ذكر حديث ابن عباس وحديث أبي ذر رضي الله عنهما-: «واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام:

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه (١٦٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، من هم بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١)، ومسلم في الإيمان، إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٣١).

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧)، وابن ماجه في الأدب، فضل العمل (٣٨٢١).

تارة يتركها لله؛ فهذا تكتب له حسنة على كفِّه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية؛ ولهذ جاء أنه يُكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: «**فإنما تركها من جرائي**»(١)، أي: من أجلي.

وتارة يتركها نسيانًا وذهولًا عنها؛ فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيرًا، ولا فَعَل شرًّا.

وتارة يتركها عجزًا عنها وكسلًا، بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يُقرِّب منها؛ فهذا ينزل منزلة فاعلها؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار**»، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنّه كان حريصًا على قتل صاحبه**»(٢)».

الفوائد والأحكام:

١- تهديد المكذبين بآيات الله، الصادفين عنها بقرب العذاب، والإنكار عليهم ما هم فيه من الاستمرار على التكذيب، والكفر، والصد عن دين الله، وأنهم ما ينتظرون بما هم عليه إلا إتيان الملائكة بالموت، أو إتيان الله لفصل القضاء، أو إتيان بعض آياته التي لا ينفع الإيمان بعدها ولا العمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية.

٢- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والمراد بهم الموكلون بقبض الأرواح.

٣- أن الموت حق لا بد منه؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: لقبض أرواحهم، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وفي الحديث أن جبريل قال للنبي ﷺ: «**عش ما شئت فإنّك ميّتٌ، وأحبب من شئت فإنّك**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ (٣١)، ومسلم في الفتن، إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٦٨)، والنسائي في تحريم الدم، (٢١٢٠)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٤).

مفارقه»[1]، وكفى بالموت واعظًا.

٤- إثبات إتيان الله عز وجل يوم القيامة؛ لفصل القضاء والحكم بين الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وفي هذا إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل؛ كالنزول، والضحك، والرضا، والغضب، ونحو ذلك.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه، وتكريمه بإضافة ضميره ﷺ إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٦- التحذير من قرب القيامة، وظهور علاماتها وأشراطها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

٧- أنه بظهور بعض علامات الساعة وأشراطها بطلوع الشمس من مغربها، لا ينفع كافرًا إيمانه بعد ذلك، ولا ينفع مؤمنًا عمل صالح بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

٨- أن كلًّا منتظر لعاقبة ونهاية أمره؛ فالمكذبون بآيات الله، الصادُّون عنها ينتظرون حلول نقمة الله والخسران والعذاب الأليم، والمؤمنون ينتظرون ما وعدوا به من الفوز والنصر والنعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

٩- تأكيد براءته ﷺ من الذين فرقوا دينهم وفارقوه وكانوا شيعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

١٠- التحذير الشديد من التفرق في الدين شيعًا وأحزابًا وجماعات؛ لأنه معول هدم في الأمة، بل سبب لكل بلية وفتنة، وجالب لكل رزية ومحنة، وما وصل المسلمون إلى ما هم عليه اليوم من الضعف والهوان إلا بسبب ذلك.

١١- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن فرقوا دينهم وكانوا شيعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، فهو عز وجل متوليهم، وإليه إيابهم وعليه حسابهم.

١٢- أن من أعظم الواجبات على المسلمين الاجتماع على دين الله وحكمه وأمره،

---

(١) سبق تخريجه.

وصيانة وحدة الأمة من أن تتفرق أيدي سبا، فتكون لقمة سائغة لأعدائها، والله غالب على أمره.

١٣- عظيم فضل الله عز وجل في مجازاته المحسنين الحسنة بعشر أمثالها؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وهذا أقل حد للتضعيف، فقد يجازي عز وجل الحسنة بسبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

١٤- كمال عدل الله عز وجل في مجازاة المسيئين السيئة بمثلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، وفي الآية: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٨٤].

١٥- أنه لا أحد يظلم من الخلق في نقص من حسناته، أو زيادة في سيئاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٖۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعلن ويقول شاكرًا لما أنعم الله به عليه، ومعتزًّا بما هداه الله تعالى إليه: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ الآية.

وافتتح الخطاب بحرف التوكيد؛ لأن الخطاب للمشركين المكذبين، أي: أرشدني ربي ووفقني ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، أي: إلى طريق عدل لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، ﴿دِينٗا﴾ منصوب على البدل من محل «صراط»؛ لأن محله النصب، كما قال تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطٗا مُّسْتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

﴿قِيَمٗا﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم وخلف: ﴿قِيَمٗا﴾ بكسر القاف وفتح الياء مخففة، وقرأ الباقون بفتح القاف وكسر الياء مشددة: «قيِّمًا».

و﴿قِيَمٗا﴾ صفة لـ«دينا»، أي: دينًا قائمًا ثابتًا مستقيمًا، لا يتبدل، ولا يتغير، ولا ينسخ.

﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، «ملة» بدل من «دينًا»، أي: دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿حَنِيفٗا﴾ حال من إبراهيم، أي: مائلًا عن الشرك، مستقيمًا على التوحيد تمامًا؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، الصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لإثبات كمال توحيده وإخلاصه، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وفي هذا ثناء على إبراهيم عليه السلام، وامتداح لما كان عليه من إخلاص التوحيد، والبراءة من الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفيّة السّمحة**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة(٢)، قالت: حتى كنت التي مللت، فانصرفت عنه، قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذٍ: «**لتعلم يهود أنّ في ديننا فسحةً، إنّي أُرسلت بحنيفيّةٍ سمحةٍ**»(٣).

قال ابن كثير: «وليس يلزم من كونه أُمِر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قيامًا عظيمًا، وأُكملت له إكمالًا تامًّا، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام»(٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٣).

(٢) زفن الحبشة: لعبهم.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١١٦).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٦).

لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعلن الشكر والامتنان لربه أن هداه إلى صراط مستقيم ودين قويم، ملة إبراهيم عليه السلام، وما كان من المشركين، ثم أمره في هذه الآية وما بعدها بالإخبار بالتزامه هذا الصراط، ومخالفة المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون على غير اسمه، والإنكار عليهم، وأن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله وحده لا شريك له؛ كما أمره الله تعالى، وأنه أول المسلمين.

ففي الآية الأولى شكر الله على هدايته له صراطه المستقيم، وفي الثانية شكر الله على إلهامه الإخلاص والتزام هذا الطريق.

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، أي: قل- يا محمد- للمشركين الذي يعبدون غير الله، ويذبحون لغيره، وقل للأمة كلها: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ كلها؛ فرضها ونفلها، وخصَّ الصلاة بالذكر من بين العبادات وبدأ بها؛ لأنها أعظم العبادات البدنية، فبها تمام الذل والخضوع لله تعالى، وفيها الدعاء وأعظم الذكر، القرآن الكريم. وافتتحت الجملة بحرف التوكيد؛ للاهتمام بالخبر وتحقيقه.

﴿وَنُسُكِي﴾، أي: وذبحي، أو: وذبحي وحجي وعمرتي، ويُطلق «النسك»: على ما هو أعم من ذلك، وهي العبادة.

﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ فله محياي وعملي في حياتي، وله مماتي، أي: ما أموت عليه، وما يقدره عليَّ عند مماتي وبعده؛ فله أسلمت نفسي، ووجهت وجهي، كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ فحياته ﷺ ومماته كل ذلك لله تعالى وفي سبيله.

ولهذا كانت حياته ﷺ كلها دعوة، وجهادًا، وتضحية، وتعليمًا للأمة، وعبادة لربه، ومناجاة له، وقيامًا بين يديه؛ حتى تفطرت قدماه صلوات الله وسلامه عليه، إلى أن لقي ربه ولحق بالرفيق الأعلى.

وهكذا ينبغي أن تكون حياة كل مؤمن؛ لأن هذه الحياة دار عبور وممر، وكل منا فيها على سفر.

﴿لِلَّهِ﴾، أي: كل ذلك خالصًا لله تعالى وحده، فله صلاتي، وله نسكي، أي: له ذبحي، أي: باسمه وله أذبح، وله حجي وعمرتي وعبادتي، وله محياي ومماتي.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾، فيها بيان العلة في كون العبادة كلها له وحده، أي: لأنه رب العالمين، خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم؛ له كمال الربوبية عليهم، مما يوجب إفراده وحده بالعبادة دون سواه.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، أي: لا شريك له في ألوهيته؛ كما أنه لا شريك له في ربوبيته.

في هذا زيادة تأكيد لما قبله، وتعريض بالمشركين الذين يقرون لله بالربوبية، لكنهم يشركون معه في الألوهية؛ فيسجدون للأصنام، ويذبحون لها، ويستغيثون بها، إلى غير ذلك.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ الإشارة تعود إلى المذكور من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾.

أي: وبذلك أمرني ربي، أي: فكما هداني ربي إلى صراط مستقيم أمرني بما هو شكر على تلك الهداية؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١-١٢].

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبَّر استفتح، ثم قال: «**وجهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين،** ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾»(١).

وعن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: ضحَّى رسول الله ﷺ في العيد كبشين، وقال حين وجههما: «**وجهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين،** ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾» إلى

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢١)، وأحمد (١/ ٩٤).

آخر الآيتين(١).

والمعنى: وأنا أول المسلمين مطلقًا مكانة في الإسلام، وأنا أول المسلمين من هذه الأمة زمنًا، وذلك لأن دين الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام هو الإسلام.

وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولهذا قال نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [يونس: ٨٤-٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: ١١١].

فهو ﷺ أول المسلمين من هذه الآمة، أي: أسبقهم زمانًا، وهو أول المسلمين كلهم وأعلاهم منزلة في إسلامه؛ كما قال ﷺ: «**نحن الآخِرُون السّابقون يوم القيامة بيد أنّهم**

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٣٤).

أوتوا الكتاب قبلنا»(١).

وفي هذا تيئيس للمشركين من الطمع في التنازل لهم في دينهم، أو الرجوع عن دينه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ كرر «قل» ثلاث مرات؛ تنويهًا بالمقول.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: أغير الله من المخلوقات.

﴿أَبْغِى رَبًّا﴾، أي: أطلب ربًّا أعبده؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

أي: قل- يا محمد- لهؤلاء المشركين، منكرًا عليهم ما هم عليه من الشرك بالله، واتخاذ أرباب من دون الله: أغير الله أطلب ربًّا. وقدم المفعول: «أغير الله» على الفعل؛ لأن محل الإنكار أن يكون غير الله يبتغى له ربًّا؛ لأن المشركين دعوه إلى أن يعبد آلهتهم، ويتخذها أربابًا من دون الله.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، وفيها تعليل للإنكار، أي: والحال أنه رب كل شيء، كما تعترفون بذلك، أي: خالق كل شيء ومالكه ومدبره، أي: وهو ربي وربكم ورب معبوداتكم، المستحق للعبادة وحده دون سواه.

والمعنى: لا أطلب سوى الله ربًّا، بل هو وحده ربي، أعبده وحده؛ وأتوكل عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]، وكما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

قال ابن القيم: «فكيف أطلب ربًّا غيره وهو رب كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وملجًا، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام؛ فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزل مفصلًا مبينًا كافيًا شافيًا؟! وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا(١)»(٢).

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

هذا من القول الذي أمر ﷺ أن يقوله؛ فبعد أن أعلن امتنانه بهداية الله له، وأعلن شكره له بالإخلاص له في عبادته، وتوكله، والبراءة من المشركين وما هم عليه من الشرك؛ أتبع ذلك بالترغيب والترهيب، بأن كلًّا سيجازى بعمله، وأنه لن يضره ما هم عليه من الشرك والعناد.

قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، أي: ولا تعمل نفس شرًّا إلا عليها، ولا خيرًا إلا لها، أي: تجازى بما عملت، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَا تَزِرُ﴾، أي: ولا تحمل، والوزر: الحمل، وهو ما يحمله الإنسان على ظهره، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧].

---

(١) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا غفر له ذنبه». أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٥)، والنسائي في الأذان (٦٧٩)، والترمذي في الصلاة (٢١٠)، وابن ماجه في الأذان (٧٢١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ١٨٦).

والوزر: الإثم، ومنه قوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾، أي: نفس آثمة، بدليل قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: إثم نفس أخرى وخطيئتها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

والمعنى: كل سيجازى بعمله، له ثواب ما عمل من خير، وعليه عقاب ما عمل من شر، ولا أحد يحمل إثم غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾، أي: مصيركم ومنقلبكم يوم القيامة.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم فيه تختلفون من أمر الدين وغيره، ويحاسبكم ويجازيكم على ذلك، وعلى أعمالكم خيرها وشرها، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾، أي: وهو الله عز وجل ﴿الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾، الخطاب عام، أي: جعلكم كونًا- أيها الناس- خلائف الأرض، و«خلائف» جمع «خليفة»: يُقال في جمعه: «خلفاء» و«خلائف»، أي: تخلفون في الأرض من سبقكم، ويخلفكم فيها من بعدكم، أي: جعل بعضكم يخلف بعضًا في الأرض؛ لتعمروها جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وخلفًا بعد سلف، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]،

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الخَلق والخُلُق، والقوة والعافية، والرزق، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

ففاوت عز وجل بينهم في الصفات والأخلاق، والأحوال والأرزاق، وله الحكمة في ذلك.

جَلَّ مَنْ قَسَّمَ الحَظُوظَ فَهَذَا ... يَتَغَنَّى وَذَاكَ يَبْكِي الدِّيَارَا[1]

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم فيما آتاكم، أي: يختبركم ويمتحنكم في الذي أعطاكم من الدرجات المتفاوتة؛ ليظهر الشاكر منكم من غيره على السراء، والصابر منكم من غيره على الضراء.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إنّ الدّنيا حلوةٌ خضرةٌ، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون؛ فاتّقوا الدّنيا، واتّقوا النّساء؛ فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء**»[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: إن ربك- يا محمد- سريع العقاب لمن عصاه، وكذب بآياته، وخالف رسله؛ لأنه إذا أراد شيئًا إنما يقول له: كن؛ فيكون، فلا يحتاج

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢)، والترمذي في الفتن (٢١٩١).

لطول وقت أو استعداد، ولأن عقابه لمن عصاه آت، وكل آت قريب.

ولأن العاصي يجد شيئًا من عقاب معصيته بعدها مباشرة في نفسه وأحواله، ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، بل والدنيا كلها متاع قليل بالنسبة للآخرة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن به، وأطاعه، وصدق بآياته، واتبع رسله؛ يستر ذنوبه، ويتجاوز عنه، ويشمله برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جمع بين الترهيب والترغيب، والوعيد والوعد؛ كما هي طريقة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرّحمة ما قنط من جنّته أحدٌ**»(١).

وقدم الترهيب والوعيد- والله أعلم- لأن السياق مع المشركين الداعين إلى اتخاذ أرباب وآلهة من دون الله.

واقتصر على مؤكِّد واحد لقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ وهو «إن»، بينما أكد قوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾ بثلاثة مؤكِّدات «إن» ولام الابتداء، والمؤكد اللفظي ﴿رَّحِيمٌ﴾ فهو مؤكد لمعنى «غفور»؛ في إشارة إلى أن رحمته تسبق وتغلب غضبه، وبشارة للمؤمنين، وتأكيد لتحقق مغفرته ورحمته لهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن النبي ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، وكرر الأمر بالقول للاهتمام.

٢- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالإعلان بهداية الله تعالى له صراطه المستقيم،

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة، سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٢)، وأحمد (٢/ ٤٨٤).

والتزامه هذا الصراط في جميع عباداته، وفي حياته ومماته، وبراءته من الشرك وأهله؛ إخلاصًا لله تعالى، وشكرًا له على هدايته له، وإغاظة وإرغامًا لأنوف المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الآية.

٣- أن الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل.

٤- تشريف النبي ﷺ، وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل، وربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ﴾ وفي هذا إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه.

٥- تعظيم صراط الله، ودينه دين الإسلام، وملة إبراهيم عليه السلام؛ لاستقامته وكماله وثباته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وفي هذا تعريض بذم ما عداه من الملل والنحل؛ لاعوجاجها ونقصها، وعدم ثباتها.

٦- امتداح ملة إبراهيم عليه السلام، والثناء عليه بإخلاصه التوحيد لله تعالى، والبراءة من المشركين وما هم عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٧- إخلاص نبينا ﷺ صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله تعالى لا شريك له؛ كما أمره الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾.

٨- أنه ﷺ أول المسلمين مطلقًا مكانة في الإسلام، وأول المسلمين من هذه الأمة زمنًا؛ لقوله ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

٩- وجوب إخلاص العبادة كلها لله تعالى؛ الصلاة، والحج، والعمرة، والذبح، وغير ذلك، وإخلاص المحيا والممات له لا شريك له، والاستسلام له بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك؛ اقتداء به ﷺ.

١٠- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لهذا نص عليها وقُدِّمت على غيرها، ولا غرو في هذا؛ فهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، وعمود الإسلام التي يقوم عليها ويدور عليها رحاه.

١١- أهمية إخلاص النسك لله تعالى من ذبح وحج وعمرة؛ لما في ذلك من تعظيم الله تعالى، والبذل في سبيله.

١٢- ينبغي للمسلم أن يجعل حياته كلها لله تعالى حتى يلقى الله تعالى، يحيا على الإسلام، ويموت على الإيمان، صلاته وزكاته وصيامه وجميع عباداته لله، وأكله وشربه ونومه ونزهته وراحته كلها لله وفي سبيله، حتى جماعه لزوجته[1]؛ ليؤجر على ذلك كله، وليحذر كل الحذر من الغفلة؛ فإن الموفقين عاداتهم عبادات، والمخذولين عباداتهم عادات.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للعالمين؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٤- الإنكار على المشركين دعوتهم له ﷺ أن يتخذ أصنامًا أربابًا من دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾.

١٥- ربوبية الله تعالى لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ فهو ربه ﷺ، ورب المشركين، ورب معبوداتهم، ورب كل شيء.

١٦- أن الذي ينبغي أن يتخذ ربًّا ويعبد وحده هو الله عز وجل رب كل شيء، أي: خالق كل شيء ومالكه ومدبره.

١٧- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، وأن الإلهية لا يستحقها إلا الله المنفرد بالربوبية.

١٨- أن على كل نفس ما كسبت وعملت من شر، ولها ما كسبت وعملت من خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

١٩- أنه لا يحمل أحد وزر وإثم غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٢٠- كمال عدل الله عز وجل؛ حيث يُجازي كلًّا بما عمل، ولا يُحمِّل أحدًا إثم غيره.

٢١- إثبات البعث والمعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، وإخباره لهم بما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، ومحاسبته، ومجازاته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ

---

(١) كما جاء في الحديث: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «نعم، أرأيتم لو وضعها في حرام؛ أيكون عليه وزر؟» قالوا: نعم، قال: «كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر». أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

٢٢- منة الله على العباد، وحكمته في جعلهم خلائف الأرض يعمرونها، ويخلف بعضهم بعضًا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

٢٣- حكمة الله تعالى في رفع بعض الناس فوق بعض درجات، والمفاوتة بينهم في الخَلق والخُلُق والرزق، وكثير من الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾.

٢٤- ابتلاء العباد، وامتحانهم في رفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليظهر الشاكر للنعمة من غيره، والصابر على الضراء من غيره؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾.

٢٥- سرعة عقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾، وفي هذا تحذير من عقابه.

٢٦- إثبات صفتي المغفرة والرحمة لله تعالى وسعتهما، وتأكيد مغفرته لعباده المؤمنين ورحمته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الأنعام..... ٥
المقدمة..... ٧
أ- اسم السورة:..... ٧
ب- مكان نزولها:..... ٧
جـ- موضوعاتها:..... ٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ...﴾ الآيات [١-٣]..... ٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾...﴾ الآيات [٤-١١]..... ٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ...﴾ الآيات [١٢-٢١] ٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾...﴾ الآيات [٢٢-٢٦]..... ٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا...﴾ الآيات [٢٧-٣٢]..... ٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ...﴾ الآيات [٣٣-٣٦]..... ٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ...﴾ الآيات [٣٧-٤١]..... ١٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ...﴾ الآيات [٤٢-٤٥]..... ١١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ...﴾ الآيات [٤٦-٤٩] ١٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ...﴾ الآيات [٥٠-٥٥]..... ١٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات [٥٦-٥٩]..... ١٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ...﴾ الآيات

[٦٠-٦٢] ١٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآيات [٦٣-٦٥].. ١٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾...﴾ الآيات [٦٦-٧٠] ١٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا...﴾ الآيات [٧١-٧٣] ١٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً...﴾ الآيات [٧٤-٧٩] ١٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ...﴾ الآيتين [٨٠، ٨١] ٢٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ...﴾ الآيات [٨٣-٩٠] ٢١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ...﴾ الآيتين [٩١، ٩٢] ٢٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ...﴾ الآيات [٩٣-٩٦] ٢٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآيات [٩٧-٩٩] ٢٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ الآيات [١٠٠-١٠٣] ٢٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ...﴾ الآيات [١٠٤-١٠٧] ٢٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ الآية [١٠٨] ٢٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ...﴾ الآيات [١٠٩-١١١] ٢٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ...﴾ الآيات

[١١٢-١١٧] ٣٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾...﴾ الآيات [١١٨-١٢٢] ٣١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا...﴾ الآيات [١٢٣-١٢٧] ٣٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ...﴾ الآيات [١٢٨-١٣٥] ٣٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾ الآيات [١٣٦-١٤٠] ٣٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ...﴾ الآيات [١٤١-١٤٤] ٣٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ...﴾ الآيات [١٤٥-١٤٧] ٣٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...﴾ الآيات [١٤٨-١٥٠] ٤٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات [١٥١-١٥٣] ٤١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...﴾ الآيات [١٥٤-١٥٧] ٤٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ...﴾ الآيات [١٥٨-١٦٠] ٤٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ الآيات [١٦١-١٦٥] ٤٥٧
فهرس الموضوعات ٤٧١

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد التاسع

تفسير سورة الأعراف

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٩

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٤٠٢ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلأَعْرَافِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الأعراف»؛ لذكر الأعراف فيها في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾.

ويقال لها: أطول الطوليين؛ فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال لمروان ابن الحكم: «ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور، وقد رأيت رسول الله- عليه الصلاة والسلام- يقرأ فيها بأطول الطوليين؟».

قال مروان: «قلت: يا أبا عبدالله، ما أطول الطوليين؟ قال: الأعراف»(١).

والمراد بالطوليين سورة الأنعام وسورة الأعراف؛ فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام باعتبار عدد الآيات.

ويفسر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرقها في ركعتين»(٢).

وهي إحدى السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الأعراف كلها بمكة؛ على القول الراجح من أقوال المفسرين.

وقيل: فيها بعض الآيات مدنية؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ...﴾ الآية، إلى قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

وكان نزولها بعد سورة «ص» فيما قيل.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٤، وأبو داود في الصلاة ٨١٢، والنسائي في الافتتاح ٩٩٠، وأخرجه مختصرًا عن مروان بن الحكم قال: «قال لي زيد بن ثابت: ما لك تقرأ في المغرب بقصار السور، وقد سمعت النبي ﷺ يقرأ بطولى الطوليين؟».

(٢) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٩١.

جـ- مناسبتها لسورة الأنعام:

تعتبر سورة الأعراف كالتفصيل والشرح لما جاء في سورة الأنعام من إجمال في الكلام عن العقيدة وأصول الدين، خصوصًا فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم، وبعثة النبي ﷺ.

د- موضوعاتها:

تدور جل موضوعات سورة الأعراف- كما هو الحال في سورة الأنعام- على المقاصد الإجمالية للسور المكية، والتي من أهمها: إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وإثبات صدق الرسول ﷺ والرسل قبله- عليهم السلام- وإثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ بإقامة الأدلة على ذلك كله.

وقد عرضت السورة هذه الحقائق وأدلتها بأسلوب مؤثر، جمع بين التذكير بنعم الله تعالى على الناس؛ من نعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم، وتمكينهم في الأرض وتمتيعهم بما سخر الله لهم من الخيرات، وبين أسلوب التحذير من العذاب والنقم؛ المتمثل في ذكر قصص الأنبياء الذي استغرق أكثر من نصف السورة في ذكر ما دار بين الأنبياء وأقوامهم، وما آل إليه أمر المكذبين منهم.

١- افتُتحت سورة الأعراف بتعظيم القرآن والامتنان بتنزيله على النبي ﷺ، والأمر باتباعه، والنهي عن اتباع أولياء من دون الله تعالى.

٢- التذكير بإهلاك كثير من القرى الظالمة، وإقرارهم بظلمهم، لما جاءهم بأس الله تعالى، وعدم تمكنهم من دفعه عن أنفسهم.

٣- إثبات سؤال الناس ومحاسبتهم جميعًا: المرسل إليهم، والمرسلين، وقص أعمالهم عليهم بعلم، ووزنها: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

٤- الامتنان على بني آدم بتمكينهم في الأرض، وجعلِ المعايش لهم فيها، وخلقهم وتصويرهم، وأمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم، وسجودهم إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وإسكان آدم وزوجه الجنة، ووسوسة الشيطان لهما بالأكل من الشجرة، وإهباطهم جميعًا: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ

حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، والامتنان على بني آدم بإنزال لباس يواري عوراتهم وريشًا، ولباس التقوى خير لباس، وتحذيرهم أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة.

٥- ذم المشركين بارتكابهم الفواحش وتبريرهم لذلك بقولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، وكذبهم بقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، والرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٦- الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد وفي الصلاة، والأكل والشرب من غير إسراف، والإنكار على من حرموا ما أباح الله من الطيبات، وبيان أن الله إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والإشراك به، والقول على الله بلا علم.

٧- بيان أن الآجال محدودةْ، والأنفاس معدودةْ، وأن لكل أمة أجلًا، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

٨- حث بني آدم على تقوى الله واتباع رسله، والوعد لمن اتقى وأصلح بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والوعيد لمن كذبوا بالآيات واستكبروا عنها بالنار هم فيها خالدون، وبيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته، وضلال شركائهم عنهم، وشهادتهم على أنفسهم، بالكفر، وإدخالهم في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس في النار؛ كلما دخلت أمة لعنت أختها، وعداوة بعضهم لبعض، ودعاء بعضهم على بعض بمضاعفة العذاب، وحرمانهم وتيئيسهم من فتح أبواب السماء لهم ودخول الجنة، وبيان ما أعد لهم من العذاب: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

وبيان ما أعده عز وجل للذين آمنوا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴿٤٣﴾﴾.

٩- بيان ما يجري بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من نداء بعضهم بعضًا،

وسؤال بعضهم لبعض، ونداء أصحاب الأعراف لهم، ومن ثم استغاثة أهل النار بقولهم لأصحاب الجنة: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

١٠- بيان أنه عز وجل أقام الحجة على الناس بالقرآن الكريم، الذي فصله عز وجل على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون، لكنهم كذبوا به ونسوه، حتى إذا جاء تأويله أقروا بأن رسله عز وجل جاءت بالحق، وندموا، وأنى ينفعهم ذلك؟ وقد: ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

١١- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق، وخلقه السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وخلق جميع المخلوقات وتسخيرها: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

والأمر بدعائه عز وجل تضرعًا وخفية، وخوفًا وطمعًا، من غير اعتداء في الدعاء، وبيان: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

١٢- الاستدلال على تمام قدرته تعالى على إحياء الموتى؛ بإرساله الرياح بشرًا بين يدي رحمته، فتُقل سحابًا ثقالًا يسوقه سبحانه لبلد ميت، فينزل به الماء، ويخرج به من كل الثمرات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

١٣- ثم شرعت السورة في قصص الأنبياء، ودعوتهم أقوامهم إلى التوحيد، ونهيهم عن الشرك، وتخويف عقاب الله وعذابه، وما أيدهم الله به من الآيات البينات، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وما في ذلك من العبر والدروس والعظات، وإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين المعاندين بأنواع العقوبات.

فبدأت بقصة نوح عليه السلام وقومه، التي انتهت بإنجائه والذين معه، وإغراق المكذبين من قومه.

ثم قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام، التي انتهت بإنجاء هود والذين معه برحمة من الله، وقطع دابر المكذبين من قومه.

ثم قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام، التي انتهت بأخذ الرجفة للمكذبين من قومه، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

ثم قصة لوط عليه السلام وقومه، التي انتهت بإنجائه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وإهلاك المكذبين المجرمين من قومه بإمطارهم بالحجارة.

ثم قصة مدين ونبيهم شعيب عليه السلام، التي انتهت بأخذهم بالرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

١٤- ثم أتبع عز وجل ذلك ببيان أنه ما أرسل في قرية من نبي إلا أخذ أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، وراوح لهم بين البأساء والضراء، وبين الرخاء والنعماء، فلم ينجع ذلك فيهم، بل اعتبروا ذلك مجرد عادة: ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

وبيَّن عز وجل أنهم لو آمنوا واتقوا لفتح عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذهم بما كانوا يكسبون.

ثم حذر أهل القرى أن يأتيهم بأسه عز وجل وهم غافلون نائمون، أو يلعبون، وحذرهم أن يأمنوا مكر الله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وحذر الذين يرثون الأرض من بعد أهلها المهلَكين؛ أن لو يشاء أصابهم بذنوبهم، وطبع على قلوبهم؛ فهم لا يسمعون.

ثم ختم هذا البيان بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

١٥- ثم أتبع عز وجل ذلك بذكر قصة بعث موسى عليه السلام بآياته إلى فرعون وملئه، وظلمهم وتكذيبهم بها، وما هم عليه من الإفساد، وبيان ما دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون من محاورات ومجادلات، وما جرى بينه وبين السحرة من مناقشات انتهت بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، وما انتهى إليه أمر فرعون بإغراقه وجنوده، وتوريث الأرض بني إسرائيل بعد أن أنجاهم الله من الغرق وأهلك عدوهم فرعون، وما حصل منهم من التمرد والطغيان، والكفر

والعصيان، وعبادتهم العجل، وعقابهم بأخذهم بالرجفة.

١٦- تلا ذلك وعده عز وجل برحمته للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالآيات: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

١٧- أمره عز وجل للنبي ﷺ بإعلان عموم رسالته للناس جميعًا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

١٨- ثم عادت السورة لبيان أن من قوم موسى أمةً يهدون بالحق وبه يعدلون، فليسوا كلهم سواء، وبيان أن الله جعلهم اثنتي عشرة أسباطًا، ومنَّ عليهم لما استسقوا بتفجير الماء من الحجر، قد علم كل أناس مشربهم، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، وكفرهم نعم الله بتبديل القول الذي قيل لهم، وعتوهم، واحتيالهم على صيد السمك يوم السبت، وإهلاكهم وإنجاء الذين ينهون عن السوء، وأخذ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

وقد أطالت الآيات في شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل؛ حتى استغرق ذلك نصف السورة؛ لِما في ذلك من المواقف والدروس والعظات.

١٩- ثم ذكرت السورة ما أخذه عز وجل على بني آدم حين أخرجهم من ظهور آبائهم؛ من الإيمان بربوبيته وإلهيته، وعبادته وحده لا شريك له: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴿١٧٢﴾﴾.

٢٠- تلا ذلك ذكر قصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، وإخلاده إلى الأرض: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ

تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

٢١- بيان ضلال كثير من الخلق؛ من الجن والإنس، وعدم انتفاعهم بقلوبهم وأبصارهم وأسماعهم، وغفلتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ ﴿١٧٩﴾﴾.

٢٢- إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

٢٣- بيان أن ممن خلق الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، ومنهم بعض من هذه الأمة، فليس كل الخلق على ضلال؛ قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

٢٤- استدراجه عز وجل للمكذبين بالآيات، وإملاؤه لهم، وتوبيخهم وتقريعهم على عدم التفكر في صدق النبي ﷺ وإنذاره لهم، وفي عظمة ملك الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

٢٥- ذكر سؤال الناس عن الساعة: أيان مرساها؟ ومتى قيامها؟ وأمره ﷺ برد علمها إلى الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىِ ۖ﴾ [الآية: ١٨٧].

٢٦- تذكير الخلق بأن الله هو الذي خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وتقريعهم على جعلهم الشركاء له، والتحذير من الشرك، وبيان أن الشركاء لا يملكون لمن أشرك بهم شيئًا: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾، والآيات بعدها، وذكر براءته ﷺ من الشرك، وإعلانه ﷺ أن وليه الله وحده؛ وهو يتولى الصالحين، وأن الذين يدعوهم المشركون من دونه لا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون، ولا يسمعون ولا يبصرون.

٢٧- أمره عز وجل له ﷺ بمكارم الأخلاق بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، وأمره بالاستعاذة من نزغ الشيطان، واتباع ما يوحى إليه من ربه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

٢٨- ثم خُتمت السورة بمثل ما بُدئت به؛ من الأمر بالعناية بالقرآن الكريم وتعظيمه، وذكر الله عز وجل، وإفراده بالعبادة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾:

تقدم في مطلع سورة البقرة الكلام مستوفى على مثل هذه الحروف المقطعة أوائل السور، والتي منها ما كان على أربعة حروف؛ كقوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] في مطلع هذه السورة، وقوله: ﴿الٓمٓرۚ﴾ في مطلع سورة الرعد.

وبيان اختيار جمع من المحققين أن هذه الحروف افتتح بها عدد من السور للتحدي بالقرآن الكريم وإعجازه، مع أنه مُكَوَّن من هذه الحروف التي ينطق بها العرب، ولهذا يأتي بعدها غالبًا ذكر القرآن وتعظيمه، كما قال تعالى هنا: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾:

قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، «كتاب»: خبر لمبدأ محذوف، أي: هذا كتاب، أو: هو كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، أي: أنزل إليك يا محمد من ربك؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ونُكِّر «كتاب» للتعظيم، أي: هذا كتاب عظيم جليل ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، وفيه امتنان عليه وعلى أمته بإنزال هذا الكتاب.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: فلا يكن في صدرك شك منه، أو ضيق من بتبليغه والإنذار به؛ بسبب تكذيب من كذبك من قومك،

كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

ونهيه ﷺ أن يكون في نفسه حرج منه- وحاشاه ﷺ من ذلك- نهي لأمته من باب أولى وأحرى.

قال ابن القيم: «فالله تعالى قد رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه ارتفع عنها الحرج، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا.

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٥]».

وقال أيضًا: «وكذلك الحرج الذي في الصدور؛ فإنه تارة يكون حرجًا من إنزاله وكونه حقًّا من عند الله.

وتارة يكون من جهة المتكلم به، أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن يتكلم به.

وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة، أو الآراء والسياسات.

وتارة يكون من جهة دلالته، وما أريد به حقائقه المفهومة من عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدونه في صدورهم، ولا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى، ثم ارض لنفسك ما شئت»(١).

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]؛ اللام: للتعليل، أي: أنزل إليك الكتاب؛ لأجل أن تنذر به الكافرين؛ بدليل قوله:

---

(١) انظر: بدائع التفسير (٢/ ١٩١-١٩٢).

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وليكن ذكرى للمؤمنين، أي: عظة وعبرة لهم.

وتخصيص الذكرى بالمؤمنين؛ لأنهم هم الذين يتذكرون بالقرآن ويتعظون به وينتفعون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

ودل قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنه إنذار للكافرين، وقدم الإنذار؛ لأنه الأهم بحسب المقام.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾:

بعدما بين الحكمة من إنزال الكتاب- وهي الإنذار للكافرين والتذكير للمؤمنين- أمر الناس كلهم باتباعه.

قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، الأمر: للوجوب؛ وهو أمر عام لجميع الناس.

و«ما»: موصولة، تفيد العموم، أي: اتبعوا- أيها الناس- الكتاب الذي أنزل إليكم من ربكم، والسنة التي أنزلت بيانًا له، بطاعته ﷺ، وامتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه تذكير بربوبيته عز وجل لهم؛ مما يوجب عليهم شكره وطاعته واتباع ما أنزله عليهم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تأكيد للأمر باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وإعلام لهم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء، أي: ولا تتبعوا من دون ربكم، أي: غيره، «أولياء»، أي: معبودين وآلهة توالونهم وتعبدونهم من شياطين الجن والإنس، أو الأصنام والأوثان.

وهذا مع قوله بعده: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يدل على دخول الكفار دخولًا أوليًّا في الأمر بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ ابن عامر بياء الغيبة قبل التاء: «يتذكرون».

وقرأ الباقون بتاء الخطاب، لكن قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف

بتخفيف الذال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على حذف إحدى التائين اختصارًا، وأصلها: «تتذكرون».

وقرأ الباقون بتشديد الذال: «تَذَّكَّرُونَ» على أن أصلها: «تتذكرون»، فقلبت التاء الثانية ذالًا، وأدغمت في الذال الأخرى.

«قليلًا»: نعت لمصدر محذوف، أي: تذكرون تذكرًا قليلًا. أو نعت ظرف زمان محذوف، أي: تذكرون زمانًا قليلًا، و«ما» على هذا مزيدة للتوكيد.

ويحتمل كون «ما»: مصدرية موصولة بالفعل بعدها، أي: زمنًا قليلًا تذكركم.

و«التذكر»: الاعتبار والاتعاظ، أي: قليلًا اعتباركم واتعاظكم بما أنزل إليكم، وقد تحمل القلة هنا على معناها، أي: أنكم تتذكرون قليلًا، وتغفلون وتعرضون كثيرًا. وقد تحمل القلة هنا على النفي وعلى العدم، أي: أنكم لا تتذكرون.

فتذكرهم قليل أو معدوم، والمتذكر منهم قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾:

بعدما امتن عز وجل على النبي ﷺ وعلى أمته بإنزال الكتاب، وأمرهم باتباعه، ونهاهم أن يتبعوا من دونه أولياء؛ أخبرهم محذرًا لهم بما أوقعه بالمكذبين من الأمم السابقة من بأسه وعذابه.

قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾، «كم»: هي الخبرية الدالة على التكثير، أي: وكثير من القرى.

و«القرية»: مأخوذة من «القَرْي»، وهو: الجمع؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين، وتطلق على المدينة.

﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾، أي: أهلكنا أهلها، بقرينة قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، والمعنى: أردنا إهلاكها، فجاءها بأسنا؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨].

ويحتمل أن قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ إخبار عن إهلاكها، ثم عطف عليه الإخبار بكيفية إهلاكها، فيكون من التفصيل بعد الإجمال.

وقيل: معنى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾: خذلناها عن اتباع الحق، وزينا لها الباطل، فجاءها بأسنا.

والإهلاك: الإفناء والاستئصال.

﴿بَأْسُنَا﴾، أي: عذابنا الشديد في الدنيا.

والمعنى: وكثير من القرى أهلكناها، فجاءها عذابنا الشديد بسبب مخالفة رسلنا وتكذيبهم.

وفي هذا تحذير وتهديد لكفار مكة «أم القرى»، فلا يغتروا بما هم فيه من الأمن والراحة، كما قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام:١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص:٥٨].

﴿بَيَاتًا﴾ حال، أي: وهم نائمون ليلًا؛ كقوم لوط.

﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ معطوف على الحال السابقة، أي: أو حال كونهم داخلين في القيلولة، وقت الراحة والدعة والنوم، أي: أو هم نائمون في وقت القيلولة والظهيرة: منتصف النهار؛ كقوم شعيب.

والمراد: أن منهم من أتاه بأسنا بياتًا، ومنهم من أتاه بأسنا وهم قائلون، أي: وهم في غفلة، وعلى غرة غير متوقعين له، ليلًا وهم نائمون، أو نهارًا وهم قائلون.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾:

«ما»: نافية، ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: دعاؤهم واعتذارهم، ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾، أي: حين جاءهم عذابنا، «إلا»: أداة حصر. ﴿أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، أي: إنا كنا بإشراكنا بالله تعالى وتكذيب كتبه ورسله «ظالمين».

والمعنى: فما كان اعتذارهم- حين جاءهم عذابنا ولم يستطيعوا له دفعًا ولا منعًا ولا رفعًا- إلا أن انقطعت كل دعواهم، وأقروا واعترفوا على أنفسهم بظلمهم واستحقاقهم العذاب بشركهم بالله الذي هو أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما هلك قومٌ حتّى يعذروا من أنفسهم**». قال: قلت لعبدالملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[1]».

وقيل: «دعواهم»: اسم بمعنى الدعاء؛ كقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾ [يونس: ١٠].

ومعنى الحصر على هذا: أنهم لم يستغيثوا ولا توجهوا إليه بالدعاء، ولكنهم وضعوا الاعتراف بالظلم موضع الاستغاثة، ولذلك استثنى من الدعوى، فيكون في هذا إقرار واعتراف منهم على أنفسهم بالظلم، وتحسر وندامة؛ بعلمهم أنهم كانوا ظالمين، وأن الله لا يهلك إلا الظالمين.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾:

قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، الفاء استئنافية، واللام: لام القسم لقسم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٦٢- ٦٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٣٨ - ١٤٣٩.

مقدر، أي: فوالله لنسألن الذين أرسل إلهم.

وقد أكد هذا الخبر: بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك، أي: فوالله لنسألن الأمم الذين أرسل إليهم الرسل عن بلوغ الرسالة إليهم، وعما أجابوا به الرسل، وبما قابلوهم، وماذا عملوا، سؤال تقريع وتوبيخ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ معطوف على ما قبله من جملة المقسم عليه، أي: والله لنسألن المرسلين، أي: عن تبليغهم رسالات الله، وعما أجابتهم أممهم؛ ترهيبًا وتخويفًا لأممهم بإشهاد رسلهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا»(١).

وقدم سؤال المرسل إليهم؛ لأن المقصود من السؤال هو سؤال الأمم؛ لإقامة الحجة عليهم، ولأن شهادتهم على أنفسهم أهم وأعظم وأكفى، كما قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

ولم يذكر المسؤول عنه من الجانبين، وهو إثبات التبليغ والبلاغ؛ لدلالة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾:

لَمَّا ذكر عز وجل أنه سيسأل الذين أرسل إليهم وسيسأل المرسلين، فربما توهم أحد أن السؤال سؤال استرشاد، فبين في هذه الآية إحاطة علمه بهم وبأحوالهم، واطلاعه على الخلق كلهم.

قوله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾، الفاء عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٦٤ من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فوالله لنقص «عليهم»، أي: على الخلق جميعًا؛ المرسل إليهم والمرسلين، أي: لنخبرنهم بتفاصيل أحوالهم وبأعمالهم الظاهرة والباطنة؛ لنحاسبهم ونجازيهم عليها.

«بعلم»: متعلق بحال من فاعل «نقصن»، والباء للمصاحبة والملابسة، أي: متلبسين بعلم، أي: بعلم تام منا بذلك كله، ولهذا نكَّره وقال بعده: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ لأن علمه عز وجل واسع محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، الواو عاطفة، والجملة في محل نصب معطوفة على الحال المحذوفة، أي: متلبسين بعلم، والحال أننا ما كنا غائبين.

والمعنى: وما كنا غائبين عنهم وعن أعمالهم وأحوالهم، ولا عن شيء من الخلق في وقت من الأوقات، ولا في حال من الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾:

أخبر عز وجل أنه سيقص على الخلق بعلم، أي: ما هو أعلم به منهم من أحوالهم وأعمالهم، أي: ليحاسبهم ويجازيهم.

ثم بيَّن كيفية حسابه لهم، وأنه بالحق والعدل.

قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، أي: والوزن لأعمال العباد «يومئذٍ»؛ يوم سؤالهم وقص أعمالهم عليهم يوم القيامة، «الحق»: العدل السوي، الذي لا ظلم فيه ولا جور.

كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [النساء: ٤٠].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: فمن ثقلت موازينه الصالحات، بأن رجحت حسناته بسيئاته.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: فأولئك هم الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك»؛ لرفعة شأنهم ومنزلتهم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: خفت موازين حسناته، بأن رجحت سيئاته بحسناته.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾، أي: غبنوا أنفسهم نصيبها من الله تعالى، فحرموها جنته وما فيها من النعيم المقيم، وأبقوها في النار وما فيها من العذاب الأليم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك»؛ تحقيرًا لهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كونهم بآياتنا يظلمون. و«الظلم»: ضد العدل.

وعدَّى الفعل «يظلمون» بالباء؛ لتضمنه معنى: «يكذبون»؛ فالمعنى: بما كانوا يظلمون فيكذبون بآياتنا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وصيغة المضارع في قوله: «يظلمون» لحكاية حالهم في تجدد الظلم فيما مضى.

وهاتان الآيتان، كقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢- ١٠٣].

وقوله تعالى في سورة القارعة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦- ١١].

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى إعجاز القرآن وتحدي العرب أرباب الفصاحة والبلاغة فيه؛ مع أنه بلغتهم والحروف التي ينطقون بها؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فهو كلام الله تعالى، تكلم به بحرف وصوت مسموع. وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل؛ فله عز وجل العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٥- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، بقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٦- نهيه ﷺ أن يكون في صدره حرج من القرآن ومن تبليغه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، وهو نهي له ﷺ ولأمته، فلا ينبغي لمؤمن أن يكون في شك من القرآن، وفي ضيق من تبليغه والدعوة إليه.

٧- أن الحكمة من إنزال القرآن الإنذار والتذكير: الإنذار للكافرين، والتذكير للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨- الإشارة إلى ما سيلقاه ﷺ من الأذى والتكذيب في تبليغه ما أنزل إليه، وكذا أتباعه.

٩- أنه إنما يستفيد من القرآن ويتذكر به المؤمنون؛ لهذا خصهم بقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠- وجوب اتباع ما أنزل الله تعالى من الوحي في الكتاب والسنة؛ لقوله تعالى:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١١- ثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٢- النهي والتحذير من اتخاذ أولياء من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

١٣- ذم الكفار بقلة تذكرهم وعدم اتعاظهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٤- تحذير الكافرين والمكذبين من إهلاكهم وحلول بأس الله فيهم؛ كما حصل لكثير من المكذبين من أهل القرى قبلهم؛ لقولهم تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

١٥- أن سنن الله تعالى الكونية في إهلاك المكذبين والكفار ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

١٦- أن عذاب الله وبأسه قد يأتي على حين غفلة، وعلى غرة؛ لقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

١٧- انقطاع حجج المكذبين وأعذارهم عند مباغتة عذاب الله لهم، وإقرارهم واعترافهم بما كانوا عليه من الظلم الموجب لعقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

١٨- إثبات وتأكيد سؤال الأمم عن بلوغ الرسالات إليهم، وعما أجابوا به رسلهم؛ سؤال تقريع وتوبيخ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، وهذا لا ينافي ما جاء في نفي سؤالهم وما في معناه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

١٩- سؤال الرسل- عليهم الصلاة والسلام- عن إبلاغهم رسالات ربهم، وعما أجابهم به أقوامهم، واستشهادهم عليهم ترهيبًا وتخويفًا للمكذبين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢٠- إخبار الله للخلق كلهم؛ المرسل إليهم والمرسلين، بأعمالهم وأحوالهم، عن

علم واسع بهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾.

٢١- إحاطة الله تعالى واطلاعه على جميع الخلق، ومعيته لهم معية عامة بعلمه وإحاطته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾.

٢٢- إثبات العدل في محاسبة الخلائق، ومجازاتهم بالوزن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ الآية.

وظاهر الآية وما في معناها من الآيات؛ أن الوزن يكون للأعمال، كما قال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرّحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**»(١).

وقال ﷺ: «**ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق**»(٢).

وقد يكون الوزن لكتاب الأعمال؛ كما في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًّا، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «**لا إله إلا الله**» فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «**فطاشت السّجلّات، وثقلت البطاقة**»(٣).

وقد يكون الوزن لصاحب الأعمال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وقال ﷺ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ السَّمِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**» ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾(٤).

وفي مناقب عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتعجبون من**

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٨٠٦ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة ٢٠٠٣ من حديث أبي الدرداء، رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان، فيمن يموت وهو شهيد أن لا إله إلا الله ٢٦٣٩، وابن ماجه في الزهد ٤٣٠٠ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٩، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٥ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

دقّة ساقيه؟! فوالّذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحدٍ»[١].

قال ابن كثير[٢] بعد ذكر الأقوال في هذا وأكثر هذه الآثار: «وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار؛ بأن يكون ذلك كله صحيحًا؛ فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم».

والحقيقة أن ذلك كله لا يخرج عن كون الوزن إنما هو للأعمال، حتى ولو كان الوزن لكتاب الأعمال، أو للعامل؛ لأن كتاب الأعمال إنما يثقل بما سُجِّل به من أعمال الخير، ولأن العامل إنما يثقل وزنه بما عمل من خير؛ فعاد الأمر إلى وزن الأعمال.

٢٣- بشارة من ثقلت موازينه بالفلاح والفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، بالفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٢٤- خسارة من خفت موازينهم بسبب ظلمهم وتكذيبهم بآيات الله؛ لقوله وتعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

وإذا خسر الإنسان نفسه فماذا ربح؟! قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

* * *

(١) أخرجه أحمد ١/ ٤٢٠- ٤٢١.

(٢) في «تفسيره» ٣/ ٣٨٦.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾:

امتن الله عز وجل على العباد في الآيات السابقة بإنزال القرآن الكريم، وأمر باتباعه، ونهى عن اتباع أولياء من دون الله، وحذر من ذلك بذكر ما حل بالمكذبين الظالمين من الأمم السابقة، وبذكر السؤال والحساب والجزاء يوم القيامة، ثم أتبع ذلك بالاستثناء بتمكينهم في الأرض وجعل المعايش لهم فيها، وخلْق أبيهم آدم وتصويره، وتكريمه بأمر الملائكة بالسجود له، وامتثالهم وسجودهم له إلا إبليس؛ فإنه امتنع عن السجود تكبرًا على آدم، وإظهارًا لعداوته له ولذريته؛ مما يوجب الحذر منه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله، لقد مكناكم في الأرض.

و«قد»: حرف تحقيق.

والخطاب لجميع بني آدم، وبخاصة من اتبعوا من دون الله أولياء.

أي: والله، لقد مكناكم- كونًا- في الأرض، أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، وملكناكم فيها، أو مكناكم من التصرف فيها من البناء عليها، واستخراج خيراتها وسائر منافعها؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ﴾، أي: وجعلنا- كونًا- لكم فيها مما يخرج من أشجارها ونباتها ومعادنها: ﴿مَعَٰيِشَ ۗ﴾: جمع «معيشة»، وهي: ما يعيش به الحي من الطعام والشراب. مشتقة من «العيش» وهو: الحياة، من تسمية الشيء باسم سببه.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، كقوله فيما سبق: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

والخطاب للمشركين الذين اتبعوا من دون الله أولياء، أي: قليلًا شكركم على هذه النعم التي أنعمنا بها عليكم.

وقد يراد بالقلة العدم، وهو الأقرب؛ لأنهم أبعد ما يكونون عن الشكر؛ لشركهم بالله، واتخاذ أولياء من دونه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾:

امتن عز وجل عليهم في الآية السابقة بما هيأ لهم من التمكين في الأرض، وما جعل لهم فيها من معايش، ثم أتبع ذلك بتذكيرهم في هذه الآية وما بعدها بنعمته عليهم بخلق أبيهم آدم، وتصويره، وتكريمه، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وبيان عداوة إبليس له ولذريته، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم؛ حيث امتنع من السجود له؛ ليحذروه ويتخذوه عدوًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾، أي: والله لقد خلقناكم.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي: بخلق أبيكم وأصلكم آدم وتصويره، ولهذا قال بعده:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وفي هذا تذكير لهم بنعمة إيجاد أصلهم الذي منه تناسلوا؛ وهو آدم، وتصويره، فتلك نعمة أنعم الله تعالى بها على آدم، وهي نعمة على ذريته؛ ولهذا جمع الضمير في قوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وقوله: ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾.

ومثل هذا قوله تعالى ممتنًّا على الخلق جميعًا: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: حملنا أصولكم وأجدادكم الذين كانوا مع نوح عليه السلام.

وقوله ممتنًّا على بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد بهذا آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام.

والخلق: الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وأصله: التقدير.

والتصوير: جعل الشيء صورة.

والصورة: الشكل الذي يشكل الجسم.

وعطف جملة: «صورناكم» بـ«ثم» الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق؛ لأن التصوير حالة كمال في الخلق، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقد جعل الله عز وجل صورة آدم وذريته على أكمل وأحسن صورة، كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦، التغابن: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧- ٨].

وقد أكد الله عز وجل هذين الخبرين في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بالقسم و«قد» تنزيلًا للمخاطبين منزلة المنكرين لمضمونها؛ لأنهم وإن كانوا يقرون بتوحيد الربوبية فكأنهم غير مقرين به؛ لأنه لا ينفعهم مع شركهم مع الله تعالى بالإلهية.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨- ٢٩].

«والملائكة»: جمع «ملك»، وهم: عالم غيبي، خلقهم الله تعالى من نور، كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نورٍ، وخلق الجانّ من مارجٍ من نارٍ، وخلق آدم ممّا وصف لكم**»(١). وآدم هو: أبو البشر.

أي: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تشريفا وتكريمًا له واحترامًا، وإظهارًا لفضله، وعبوديةً وطاعةً لله عز وجل.

كما أن فيه امتحانًا واختبارًا للملائكة؛ ليظهر المطيع منهم من العاصي، ولهذا قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، باب في أحاديث متفرقة ٢٩٩٦، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، والفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾: عاطفة، أي: فسجد الملائكة كلهم أجمعون؛ امتثالًا لأمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣].

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ إلا: حرف استثناء، والاستثناء يحتمل أن يكون متصلًا، وأن يكون منقطعًا؛ لأن إبليس مع الملائكة بصورته، وليس منهم بمادته وأصله.

وقد سبق ذكر الخلاف في هذا في تفسير سورة البقرة.

﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حال من «إبليس»، مؤكدة لمضمون ما قبلها، أي: لم يكن من الساجدين لآدم تكبرًا عليه، وإعجابًا بنفسه، وكفرًا بالله، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الآيات: ٢٨- ٣١].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦].

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧١- ٧٤].

ونفيُ كونه من الساجدين في قوله: ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبلغ من لو قال: لم يسجد.

قال ابن القيم: «فإن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه؛ لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد؛ فهو أبلغ في الذم من أن يقال: لم يسجد»(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أي: قال الله لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾، «ما»: استفهامية، والاستفهام للتوبيخ له، وإظهار معاندته وكفره وكبره.

﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أي: أن تسجد، و«لا»: مزيدة للتوكيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩].

والمعنى: ما الذي صدك وكفك عن السجود؟ كما قال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

وقال بعضهم: لا: نافية.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، أي: حين أمرتك بالسجود له.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهكذا ذكر الله تعالى عنه في سورة ص في الآية «٧٦»، أي: قال إبليس معارضًا لربه، معللًا لامتناعه من السجود، ومعلنًا تكبره على آدم وإعجابه بنفسه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، أي: أنا أفضل منه.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ هذا بيان منه وبرهان لقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وهو الافتخار بأصله، وأنه خلق من نار، وتحقير لأصل آدم وهو الطين، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٢- ٣٣].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ١٩٢.

قال ابن كثير[١]: «قول إبليس، لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب؛ كأنه امتنع من الطاعة؛ لأنه لا يؤمَر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني- لعنه الله-: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟!

ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم؛ وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه.

وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نصِّ قوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، فشذ من بين الملائكة بترك السجود، فلهذا أُبلس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة.

فأخطأ- قبحه الله- في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا؛ فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليسَ عنصرُه، ونفع آدمَ عنصرُه في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة».

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾:

قوله: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، أي: قال الله بأمر قدري كوني لإبليس- بعدما امتنع من السجود لآدم وعصى أمر الله تكبرًا وإعجابًا بنفسه-: «اهبط منها»، أي: اهبط من الجنة ومن السماء والملكوت الأعلى، أي: اهبط منها إلى الأرض، وإلى دار المصائب والآلام والأحزان.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، الفاء: تعليلية، و«ما»: نافية، والنفي بصيغة: «ما يكون لك» أشد من النفي بصيغة: «ليس لك»، أي: فما يصح ولا يستقيم ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «يكون»، أي: ما يكون لك التكبر فيها، أي: في الجنة.

﴿فَٱخۡرُجۡ﴾: تأكيد للأمر بالهبوط، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية؛ لزيادة تأكيد

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٣٨٧- ٣٨٨.

تسبب الكبر في إخراجه.

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، «إن»: لتوكيد الخبر.

﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، أي: من الذليلين الحقيرين، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤- ٣٥].

فحكم الله عليه بالصغار والذل والهوان والحقارة والغواية، معاملة له بتقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده؛ لتكبره وإعجابه بنفسه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ﴾، أي: قال إبليس- لما أمره الله تعالى بالهبوط والخروج من الجنة، وحكم عليه بالصغار والذل والحقارة، وأبلس وأيس من رحمة الله، قال؛ حرصًا منه على إغراء بني آدم وإهلاكهم معه؛ لشدة عداوته لهم-: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: إلى غاية يوم يبعثون، أي: إلى يوم يبعث آدم وذريته من القبور؛ لأتمكن من إهلاك أكبر قدر منهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، أي: من الممهلين، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦- ٣٨، ص: ٧٩- ٨١].

أي: إلى يوم ينفخ في الصور فيصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله. وذلك ابتلاء واختبار للعباد؛ ليتميز الصادق من الكاذب، ومن يطيع ربه ومولاه ومن يطيع عدوه.

ولله عز وجل في ذلك الحكمة البالغة؛ قال ابن كثير[1]: «أجابه تعالى إلى ما سأل؛ لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تُخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب».

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٣٨٩.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾:

كقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]، أي: قال إبليس مخاطبًا ربه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم.

وقد تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك إياي لأقعدن لهم.

والمعنى: فبما أضللتني وحكمت علي بالغواية والضلال ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ اللام: للقسم، أي: والله لأقعدن لهم، أي: لأترصدن لهم.

فالمراد بالقعود هنا: الترصد والملازمة، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

﴿لَهُمْ﴾، أي: لآدم وذريته. ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، «صراط» منصوب على أنه مفعول «لأقعدن» على تضمينه معنى: «لألزمن» ونحوه.

أو منصوب على الظرفية، أو بنزع الخافض، أي: لألزمن لأجلهم ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: طريقك العدل السوي، طريق الإسلام، أي: لأعترضن لهم على طريق الإسلام، كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: معطوف على قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر

دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: أشهي لهم المعاصي».

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: يعني من الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: من الآخرة، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: من قبل حسناتهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: من قبل سيئاتهم»(١).

وقال قتادة: «قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: من أمر الدنيا فزينها لهم، ودعاهم إليها، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: من قبل حسناتهم بطَّأهم عنها، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك الشيطان- يا ابن آدم- من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»(٢).

وهذا القول أعم، وهو لا يناقض قول ابن عباس وما جاء في معناه؛ لأن ذلك منهم إنما هو على جهة التمثيل لا التعيين؛ ولهذا فقول قتادة- مع عمومه- أشبه بالبيان لقول ابن عباس رضي الله عنهما ومن معه.

وعلى هذا يكون ذكر هذه الجهات الأربع للمبالغة والتوكيد؛ لأنها التي يأتي منها العدو غالبًا.

والمعنى: لأجتهدن في السعي لإضلالهم من جميع جهاتهم وجوانبهم؛ لصدهم عن طريق دينك.

وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله لهم ما أمكنه وقدر عليه؛ كقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

وعن سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٩٧-٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٩٦- ٩٧، وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٤٤-١٤٤٥.

الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقه؛ فقعد له بطريق الإسلام؛ فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم». قال: «**ثمّ قعد له بطريق الهجرة؛ فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطّول؟**[1]**، فعصاه فهاجر. ثمّ قعد له بطريق الجهاد؛ فقال له: هو جهد النّفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد**». قال رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة، أو قتل كان حقًّا على اللهّ أن يدخله الجنّة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة، أو وقصته دابّةٌ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنّة**»[2].

قال ابن القيم بعد أن أشار إلى هذا الحديث: «فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك»[3].

ولهذا جاء في الدعاء؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللّهمّ إنّي أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللّهمّ استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يديّ ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللّهمّ أن أغتال من تحتي**»[4].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «**اللّهمّ إنّي أسألك العافية في الدّنيا والآخرة، اللّهمّ إنّي أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللّهمّ استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللّهمّ احفظني من بين يديّ ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي**»[5].

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾، أي: ولا تجد أكثرهم شاكرين لك، مؤمنين موحدين، أي:

---

(١) «الطِّوَل» بكسر الطاء وفتح الواو: الحبل.

(٢) أخرجه النسائي في الجهاد- ما لمن أسلم وهاجر ٣١٣٤، وأحمد ٣/ ٤٨٣، وابن حبان ٧/ ٥٧، وصححه، وأخرجه الطبري مختصرًا في «جامع البيان» ١٠/ ٩٣، وحسنه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٤/ ١٢٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ١٩٦.

(٤) أخرجه البزار وحسنه فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٣٩١.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٧٤، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ٣٨٧١، وأحمد ٥/ ١١٢، ١١٣.

بل ستجد أكثرهم كافرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

هكذا ظن إبليس- لعنه الله- بأنه سيغوي أكثر الخلق بما علم من غلبة الغفلة على كثير منهم وضعفهم، ولما يبذله من جهد لإغوائهم، وقد صدق عليهم ظنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾ تأكيد ثانٍ لقوله: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾.

وقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فيه بيان أن خروجه خروج ذم وطرد واحتقار.

﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ حالان، أي: حال كونك مذؤوما مدحورًا، ومعنى ﴿مَذْءُومًا﴾: مذمومًا ممقوتًا، ﴿مَّدْحُورًا﴾: مبعدًا مطرودًا.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام موطئة للقسم، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، و«جهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة حرها.

﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: منك وممن اتبعك، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، والتأكيد بـ«أجمعين» للتنصيص على العموم.

فأقسم عز وجل بأنه سيملأ جهنم دار الظالمين والمكذبين من إبليس وأتباعه على الكفر والتكذيب من الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٣- ٦٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤١- ٤٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤- ٨٥].

وغلب ضمير الخطاب؛ لأن الكلام مع إبليس، وهو المقصود ابتداء من هذا الوعيد؛ لأنه وعيد على فعله وعلى تسببه في إغواء أتباعه، وهو وعيد لهم في التبع له.

ولأنه لو غلب ضمير الغيبة؛ فقال: «منهم» لما شمله معهم.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد الخبر في القرآن الكريم بالقسم وغيره من المؤكدات، مع أنه قطعي الدلالة والثبوت؛ وفق ما كان عليه العرب من تأكيد الأخبار بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

٢- امتنان الله تعالى على العباد بتمكينهم في الأرض، وجعل المعايش لهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾.

٣- وجوب شكر نعم الله تعالى بنسبتها إليه، وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٤- قلة شكر العباد لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٥- الامتنان على بني آدم بخلق أصلهم وأبيهم آدم وتصويره في أحسن صورة وخلقهم وتصويرهم كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾.

٦- تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فعطف «صورناكم» على «خلقناكم» بـ«ثم» الدالة على تراخي الرتبة. وذلك- والله أعلم- لأن التصوير حالة كمال في الخلق.

٧- أن النعمة على الآباء والأجداد والأسلاف؛ نعمة على الأولاد والأحفاد والأخلاف.

٨- تشريف آدم وتكريمه بأمر الملائكة بالسجود له؛ إظهارًا لفضله، وعبودية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

٩- سجود الملائكة كلهم لآدم؛ امتثالًا لأمر الله تعالى لهم بذلك؛ لقوله تعالى:

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾.

١٠- معصية إبليس لربه، ومخالفته أمره، وعدم سجوده لآدم استكبارًا وإعجابًا بنفسه، وكفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

١١- أن إبليس معدود في الملائكة؛ لهذا استثني منهم، لكنه معهم في صورته، وليس منهم في عنصره وأصله؛ فهم خلقوا من نور، وهو مخلوق من مارج من نار.

١٢- توبيخ إبليس في امتناعه من السجود لآدم، وإظهار ما انطوى عليه من الاستكبار والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾.

١٣- تكبر إبليس على آدم وتعاظمه بعنصره الذي خلق منه وهو النار؛ لقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

١٤- أن آدم خلق من طين؛ لقوله: ﴿وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

١٥- إهباط إبليس من الجنة والملأ الأعلى في السماء؛ بسبب استكباره وعصيانه لأمر الله، وتكبره على آدم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

١٦- ذم الكبر، وأنه من صفات إبليس، وسبب امتناعه من السجود، وكفره بالله، وإهباطه من الجنة؛ مما يوجب الحذر منه.

١٧- أن الجنة لا مقام فيها للمتكبرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

١٨- تأكيد تسبب الكبر في إهباط آدم من الجنة وإخراجه منها، وحكم الله تعالى عليه بالصغار والذل؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

١٩- طلب إبليس- لعنه الله- الإنظار إلى يوم البعث؛ ليغوي معه بني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

٢٠- إثبات البعث؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

٢١- حكمة الله تعالى البالغة في إجابة طلب إبليس النظرة؛ ابتلاء من الله عز وجل للعباد؛ ليميز الخبيث من الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾.

٢٢- شدة عداوة إبليس لبني آدم وأبيهم، وحسده لهم؛ لهذا أقسم على إغوائهم وإضلالهم عن صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٢٣- بيان فساد قول القدرية: إن العبد يخلق فعل نفسه؛ لقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾.

٢٤- أن صراط الله تعالى عدل مستقيم، ودينه قويم؛ لقوله: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٢٥- أنه ما من طريق إلى الخير والهدى إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالكين؛ لقوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾.

٢٦- أن هدف إبليس اللعين إيقاع بني آدم في الكفر، وحرمانهم من الشكر؛ لقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

٢٧- صدق ظن إبليس وحدسه في كثرة الكافرين، وقلة الشاكرين؛ لما علمه من غلبة الغفلة والجهل على كثير من بني آدم، ولشدة تسلطه عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١].

٢٨- تأكيد إهباط إبليس وإخراجه من الجنة، وأن إخراجه منها إخراج ذم وطرد واحتقار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، فجمع له بين الإذلال والإهانة بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وبين الذم والطرد والاحتقار بقوله: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

٢٩- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، لإبليس ومن تبعه من بني آدم بجهنم التي وعدها الله بملئها منه ومن أتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٣٠- شدة ظلمة النار، وبعد قعرها، وشدة حرها؛ لهذا سميت بـ«جهنم».

٣١- وجوب الحذر من اتباع إبليس ومن مكائده؛ لأنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب جهنم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾:

بعد أن أهبط عز وجل إبليس من الجنة، وأخرجه منها صاغرًا ذليلًا مذمومًا مدحورًا، أمر آدم وزوجه حواء بسكنى الجنة، والأكل من ثمارها؛ إكرامًا لهما، وحذرهما من الأكل من شجرة بعينها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾، أي: وقلنا: يا آدم. وآدم: هو أبو البشر؛ قال ﷺ: «**كلّكم لآدم، وآدم من ترابٍ، لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلّا بالتّقوى**»(١).

﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، «أنت»: ضمير منفصل للتوكيد، «وزوجك»: هي حواء عليها السلام، «الجنة»: جنة عدن ودار السلام، التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين. أي: اتخذا الجنة سكنا ودار إقامة لكما.

وفي النداء والأمر والخطاب في قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ تشريف وتكريم لآدم وزوجه، وفيه ما لا يخفى من الإهانة لعدوهما إبليس بعد طرده.

﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أمر عز وجل آدم وزوجه بسكنى الجنة، وأعقب ذلك بالإذن لهما بالأكل من حيث أرادا منها، أي: فكلا من حيث أردتما من أي مكان منها،

---

(١) سبق تخريجه.

ومن جميع خيراتها وثمارها.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، أي: ولا تقربا هذه الشجرة بالأكل، والمراد بذلك شجرة بعينها.

والنهي عن قربانها أشد من النهي عن الأكل منها؛ لأن النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي، والفاء: للسببية، أي: فيتسبب عن قربانكما لها بالأكل منها كونكما من الظالمين لأنفسهم، بإيقاعها بالإثم، وتعريضها لعذاب الله، والظالمين بارتكاب ما نهى الله عنه ومخالفة أمره.

وهذا يدل على تحريم الأكل من الشجرة عليهما، وأن النهي للتحريم.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، الفاء: للتعقيب، أي: زين لهما الشيطان الأكل من الشجرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦].

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، اللام: للتعليل، و«ما» موصولة، أي: لأجل أن يظهر ويكشف لآدم وحواء الذي سُتر وأخفيَ ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

والمُواراة: الستر، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

وقيل: اللام في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يبدي لهما ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، «سوءات»: جمع «سوأة»، وهي العورة، أي: من عوراتهما.

وسميت العورة: سوأة؛ لأنه يسوء كشفها ويُستهجن في الطباع السليمة، وكذا النظر إليها.

واستعمل صيغة الجمع في الاثنين؛ للتخفيف؛ كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

فوسوس لهما ليوقعهما في المعصية ابتداء، ولأجل ما يترتب عليها من الأذى والإضرار بهما بكشف سوءاتهما، حسدًا لهما؛ ليسلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

هذا مما وسوس به الشيطان لهما به، مع قوله بعده: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ويدل على هذا قوله في سورة طه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

أي: وقال لهما الشيطان؛ كذبًا وافتراءً، مزينًا لهما المعصية بارتكاب ما نهاهما الله عنه والأكل من الشجرة: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، أي: عن قربان هذه الشجرة والأكل منها.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، «إلا»: أدة حصر، و«أن»: تعليلية، والمعنى: إلا لئلا تكونا ملكين؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا.

و «ملكين» بفتح اللام: تثنية «ملك».

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، «أو» عاطفة، وهي مانعة خلو، أي: لا يخلو حالكما أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين في الجنة، أو يحصل لكما الأمران: الملكية، والخلود في الجنة، أي: المكث فيها أبدًا.

أي: فلو أنكما أكلتما من هذه الشجرة لحصل لكما ذلكما، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾:

هذا من وسوسته لهما، أي: أقسم وحلف لهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: تحالفا بالله.

﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: أقسم وحلف لهما كاذبًا: إني لكما ممن ينصح في مشورته لكما، وأمره إياكما بالأكل من هذه الشجرة؛ لتكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وقد أكد قوله هذا لهما بثلاثة مؤكدات: القسم، و«إن»، ولام التوكيد.

عن قتادة في قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، «فحلف لهما بالله حتى خدعهما. وقد يخدع المؤمن بالله. فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أنه إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلبًا للعتق، فقيل له: إنهم يخدعونك. فقال: «من خدعنا بالله انخدعنا له»(٢).

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي: جرأهما وأقدمهما على الأكل بغرور منه وخداع، وإطماع لهما، وأنزلهما عن رتبتهما العالية- وهي البعد عن الذنوب- إلى الوقوع فيها.

ودل هذا على أنهما فعلا ما وسوس به لهما الشيطان، فأكلا من الشجرة.

قال ابن القيم: «خروج آدم من الجنة إنما كان بسبب التأويل، وإلا فهو ﷺ لم يقصد بالأكل معصية الرب، والتجرؤ على مخالفة نهيه، وأن يكون ظالمًا مستحقًّا بخروجه من الجنة، هذا لم يقصده أبو البشر قطعًا. ثم اختلف الناس في وجه تأويله».

وبعد أن ذكر ابن القيم عددًا من هذه التأويلات وأبطلها؛ قال: «والصواب في ذلك أن يقال: إن آدم- صلوات الله وسلامه عليه- لما قاسمه عدو الله أنه ناصح، وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ١٠٩- ١١٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٥١.

(٢) ذكره القاسمي في «محاسن التأويل» ٥/ ٢٥.

أحدها: القسم.

الثاني: الإتيان بالجملة اسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل، لا فعلًا دالًّا على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل فيه.

ولم يكن آدم يظن أن أحدًا يقسم بالله كاذبًا يمين غموس، يتجرأ فيها هذه الجرأة على الله، فغره عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل- وإن كان فيه مفسدة- لمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مسألة النهي أثناء ذلك، إما باعتذار، وإما بتوبة، وإما بغير ذلك.

كما تجد هذا التأويل قائمًا في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر، إيمانًا لا شك فيه، إذا أقدم على المعصية»[1].

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، الفاء: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى «حين»، أي: فلما طعما الشجرة، أي: أكلا منها، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الآية: ١٢١].

﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ جواب الشرط «لما»، أي: ظهرت وانكشفت لهما عوارتهما بسبب شؤم المعصية؛ عقوبة لهما.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: وجعلا يضعان على عوراتهما من ورق الجنة، يستتران به حياءً وخجلًا.

و«من» تبعيضية أو بيانية.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ قائلًا لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، الاستفهام: للتقرير والتوبيخ، أي: ألم أنهكما عن قرب تلكما الشجرة والأكل منها.

ومجيء التوبيخ بعد أن بدت لهما سوءاتهما، وتحيَّلا لستر عوراتهما؛ أشد وقعًا في

نفوسهما؛ بظهور أثر معصيتهما لهما، بخلاف ما لو جاء التوبيخ بعد الأكل مباشرة.

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: معطوف على قوله: ﴿أَنۡهَكُمَا﴾: للمبالغة في التوبيخ.

وهذا يدل على أن النهي عن قربان الشجرة كان مشفوعًا بالتحذير من الشيطان، الذي تسبب لهما بالأكل منها.

ومعنى ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، أي: عدو بيِّن العداوة ومظهرها بترك السجود لآدم، وتكبره عليه، وحسده له، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓءَادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ [الآية: ١١٧].

وفي هذا تذكير للأمة بعداوة الشيطان لأبيهم، وتحذير لهم منه.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾:

هذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٣٧].

قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾، أي: قال آدم وحواء: يا ربنا؛ اعترافًا منهما بالمعصية، ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾، أي: نقصنا أنفسنا حقها، وأضررنا بها بالأكل من الشجرة، وفعل ما نهيتنا عنه. فانكشفت بسبب ذلك عوراتنا، وعرضنا أنفسنا لغضبك يا ربنا.

﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ﴾، الواو عاطفة، و«إن»: شرطية، وقبلها لام: التوطئة للقسم مقدرة، والتقدير: والله، لئن لم تغفر لنا وترحمنا، أي: وإن لم تغفر بستر ما فعلنا من المعصية والظلم لأنفسنا، وتتجاوز عنا.

﴿وَتَرۡحَمۡنَا ﴾ بقبول توبتنا، وحفظنا من المعاصي، وتوفيقنا للعمل الصالح، وإثابتنا عليه.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم المقدر، أي: لنكونن من الهالكين بارتكاب سبب الخسران، والهلاك بالعصيان.

والخسار والخسران: عدم الربح، أو: عدم الربح مع ضياع رأس المال.

قال ابن القيم: «والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم

يغفر للإنسان فيَقِهِ السيئات، ويرحمْه فيؤتِهِ الحسنات، وإلا هلك ولا بد؛ إذ كان ظالمًا لنفسه، ظلومًا بنفسه»(١).

وقد غفر الله لهما، ورحمهما، وتابا عليهما؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١- ١٢٢].

قال قتادة: «قال آدم: يا رب، أرأيت إن تبت واستغفرت؟ قال: إذن أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأل التوبة، وسأل النظرة، فأعطيَ كل واحد منهما الذي سأل»(٢).

يقال: سعد آدم بخمسة أشياء: اعترف بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وسارع إلى التوبة، ولم يقنط من الرحمة.

وشقى إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، بل أضافه إلى ربه، ولم يتب، وقنط من الرحمة(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾، أي: قال الله عز وجل مخاطبًا لآدم وحواء وإبليس، وآمرًا لهم أمرًا كونيًّا: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾.

والهبوط: النزول من أعلى لأسفل.

أي: انزلوا من الجنة ومن السماء إلى الأرض، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [الآية: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقد يأتي الخطاب بالتثنية، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٠٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ١١٦.

(٣) ذكره القاسمي في «محاسن التأويل» ٥/ ٢٦ عن الجشمي.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الآية: ١٢٣] خطابًا لآدم وإبليس؛ لأن حواء تبع لآدم.

وفي هذا إشارة إلى أن العمدة في العداوة آدم وإبليس.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الجملة حالية، أي: حال كون بعضكم لبعض عدو؛ فإبليس عدو لآدم وحواء، وعدو لذريتهما، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي: استقرار، أو موضع استقرار، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولكم فيها متاع إلى حين.

و«المتاع»: ما يتمتع به، وينتفع به.

و«الحين»: المدة من الزمن طويلة أو قصيرة.

والمعنى: ولكم في الأرض متاع تتمتعون به وتنتفعون به؛ من مسكن، ومأكل، ومشرب، وملبس، وغير ذلك، إلى وقت انقضاء آجالكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، أي: قال الله عز وجل: «فيها»، أي: في الأرض، «تحيون»، أي: تعيشون على ظهرها. والمراد: آدم، وزوجه، وذريتهما.

﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾، أي: وفي باطنها تدفنون بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٦].

﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وابن ذكوان؛ بفتح حرف المضارعة، وضم الراء: «تَخْرُجُونَ»، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء: ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

أي: ومنها تخرجون وتبعثون يوم القيامة؛ للحشر والحساب، والجزاء على الأعمال.

الفوائد والأحكام:

١- تكريم الله عز وجل لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة، وإباحته لهما الأكل مما شاءا من ثمارها وخيراتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾.

٢- تشريف آدم بخطاب الله تعالى له.

٣- امتحان الله تعالى لآدم وزوجه؛ بنهيهما عن قربان شجرة بعينها، وتحذيرهما من الأكل منها، فيكونان من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤- أن النهي يقتضي التحريم، وأن الوقوع فيما نهى الله عنه ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥- وسوسة الشيطان لآدم وزوجه، وتزيينه لهما الأكل من الشجرة، وإيقاعهما في معصية الله؛ ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾.

٦- خداع الشيطان لآدم وزوجه، وكذبه عليهما، واستدراجه لهما؛ للأكل من الشجرة، بإطماعه لهما بالملكية أو الخلود إن أكلا منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لآدم وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمَا﴾، وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾، وقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾.

٨- زعم الشيطان- كذبًا وزورًا- لآدم وزوجه أنه لهما من الناصحين، وإقسامه على ذلك، وتأكيده لهما إمعانًا منه في خداعهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

٩- إيقاع الشيطان بغروره آدم وزوجه بالأكل من الشجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾.

١٠- انكشاف عورة آدم وزوجه لهما بذوقهما الشجرة وأكلهما منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ

لَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [طه: ١٢١].

١١- أن كشف العورة أمر مستهجن في الطباع السليمة، والفطر المستقيمة، لهذا سارع آدم وزوجه للتحيُّل لستر عوراتهما لما ظهرت؛ بخصف أوراق الجنة عليهما؛ حياء وخجلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

١٢- توبيخ الله لآدم وزوجه في أكلهما من الشجرة، وطاعتهما للشيطان في أمره لهما بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٣- إثبات نداء الله تعالى لآدم وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾، وفي هذا إثبات الكلام لله عز وجل.

١٤- عدواة الشيطان لآدم وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٥- ينبغي لبني آدم الحذر من الشيطان ووساوسه وخداعه وغروره؛ فهو عدو لهم؛ لعداوته المتأصلة لأبويهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

١٦- اعتراف آدم وزوجه بظلمهما لأنفسهما؛ بمخالفتهما أمر الله، وأكلهما من الشجرة، وتعريض أنفسهما لغضب الله وعقابه، وإلحاق الضرر بهما بظهور عوراتهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

١٧- انكسار آدم وزوجه لربهما، وابتهالهما إليه أن يغفر لهما زلتهما ويرحمهما فلا يكونا من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١٨- أن المعاصي ظلم للنفس، وتعريض لها للخسران، مما يوجب البعد عنها، واستغفار الله وطلب المغفرة والرحمة لما فرط منها.

١٩- أمر الله تعالى وحكمه كونًا بهبوط آدم وزوجة وإبليس من الجنة ومن السماء إلى

الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٣٨].

٢٠- ثبوت العداوة كونًا بين آدم وزوجه وبين إبليس؛ لقوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾.

٢١- حكم الله تعالى كونًا بأن الأرض مستقر لآدم وزوجه، ولإبليس وذريته، فيها استقرارهم، وفيها متاعهم إلى انقضاء آجالهم وانقضاء الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

٢٢- أن في الأرض حياة آدم وزوجه وذريتها، ومعاشهم على ظهرها، وفيها مماتهم ودفنهم في بطنها، ومنها إخراجهم وبعثهم أحياء يوم القيامة للحشر والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾.

٢٣- مشروعية دفن الميت في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، «يا»: حرف نداء، و«بني»: منادى، «وبني»: مضاف و«آدم»: مضاف إليه.

و«آدم»: هو أبو البشر، وبنوه: هم البشر، وبنوَّتهم لآدم تعتبر أعم رابطة تربطهم على اختلاف أشكالهم وألوانهم، ودياناتهم، ومللهم ونِحَلهم، فكلهم لآدم وآدم من تراب، لا يجوز لأحد أن يفخر على أحد، ولا جنس على جنس، ولا أبيض على أسود، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد أحسن القائل:

النـاس مـن جهـة التمثيـل أكفـاء ... أبـــوهم آدم والأم حـــواء
فـإن يكـن لهـم مـن أصـلهم نسـب ... يفـاخرون بـه فـالطين والمـاء[1]

وأفضلهم وأكرمهم عند الله أتقاهم له، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى**»[2].

﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، «قد» حرف تحقيق، أي: قد خلقنا وأوجدنا لكم ورزقناكم لباسًا، والرزق كله منزل من عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧)، وانظر: «شمس العلوم» (٩/ ٥٨٥٨).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١)، من حديث طويل عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ.

واللباس: ما يلبس من الثياب بأنواعها كالقميص والإزار، والرداء والعباءة وغير ذلك.

﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ صفة لـ﴿لِبَاسٗا﴾، ومعنى ﴿يُوَٰرِي﴾ يستر. والسوءات: جمع سوأة، وهي العورة.

والمعنى: قد أنزلنا عليكم لباسًا يستر عوراتكم. وسميت العورات سوءات؛ لأنه يسوء كشفها في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، كما يحرم شرعًا كشفها والنظر إليها.

واللباس يستر العورات وسائر الأبدان، كما يتقى به البرد والحر، وإنما وصف بأنه يواري السوءات، دون غيرها؛ لأن من أعظم فوائده ستر العورات التي يجب سترها.

﴿وَرِيشٗاۖ﴾ معطوف على: ﴿لِبَاسٗا﴾، فيكون من عطف الذوات، أي: أنزلنا عليكم لباسًا، وأنزلنا عليكم ريشًا.

وقد يكون ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ فيكون من عطف الصفات، أي: فيكون صفة ثانية لـ ﴿لِبَاسٗا﴾.

والريش والرياش: المال والزينة والجمال في الأثاث والمتاع والثياب والفرش والمراكب وغير ذلك.

عن علي- رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «**الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي**»(١).

ولا يعرف قدر نعمة اللباس إلا من فقده، فلم يجد ما يستر به عورته، وما يقيه البرد والحر.

ولك أخي أن تتصور حال الإنسان عريانًا، رجلًا كان أو امرأة، لتحمد الله- عز وجل- وتشكره على نعمة اللباس- فإن الله عز وجل جعل جمال الإنسان بعد تقوى الله باللباس وستر عورته.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر والكسائي: «ولباسَ» بالنصب معطوف على ﴿لِبَاسٗا﴾، فيكون لباس التقوى مما أُنزل عليهم، وتكون جملة ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ مستأنفة. وقرأ الباقون: ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرفع، مبتدأ وخبره ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٧، ١٥٨).

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو اللباس المعنوي، بالإيمان بالله وخشيته، وتقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ظاهرًا وباطنًا.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على قراءة الرفع، أي: ولباس التقوى المعنوي خير من اللباس الحسي بالثياب والرياش والجمال الظاهر، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا له أي: للباس التقوى، فهو خير لباس.

وعلى قراءة النصب تكون الإشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي: إلى اللباس، والريش ولباس التقوى أي: إلى الثلاثة، وأشار إليها بإشارة المفرد «ذلك» بتأويل «المذكور» وبإشارة البعيد تعظيمًا لهذه النعم.

والمعنى على هذا: ذلك خير أعطاه الله بني آدم، وفيه امتنان على بني آدم بالجمع لهم بين السِّترين والزينتين، ستر وزينة البدن الظاهر باللباس والرياش، وستر وزينة القلب والباطن بتقوى الله، وبذلك كمال الظاهر والباطن.

قال السعدي[1]: «﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهري فغايته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو أن يكون جمالًا للإنسان، وليس وراء ذلك نفع، وأيضًا فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة».

وقد أحسن القائل:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تقلب عريانًا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا[2]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة مستأنفة، والإشارة فيها إلى ما أنزله الله من اللباس الذي يواري السوءات والريش ولباس التقوى، وما أنزل من الآيات الشرعية.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٠).

أي: ذلك المذكور من آيات الله العظيمة الكونية والشرعية، ونعمه الجسيمة، الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وتمام قدرته، وكمال فضله، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه، وأشار إليها بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيمًا لها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ للتنبيه والحض على التذكُّر والتعريض بمن لم يتذكر.

والجملة تعليلية، أي: لأجل أن يذَّكَّروا. والتذكر: هو الاعتبار والاتعاظ.

أي: لعلهم يعتبرون ويتعظون، ويذكرون عظيم قدرة الله- عز وجل- وجزيل فضله ونعمه، فيشكروه ويعبدوه وحده دون سواه.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾.

بعدما امتنَّ الله- عز وجل- على بني آدم بما أنزل عليهم من اللباس الذي يواري سوءاتهم والريش ولباس التقوى، ورغبهم بالتقوى التي هي خير لباس نهاهم وحذرهم من أن يفتنهم الشيطان بنزع هذا اللباس الظاهر والباطن، كما فعل مع الأبوين عليهما السلام، حيث أوقعهما في المعصية فبدت لهما سوءاتهما.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، «لا»: ناهية، و﴿يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ مبني على الفتح في محل جزم؛ لاتصاله بنون التوكيد.

والفتنة: الابتلاء والامتحان.

والمعنى: لا يخدعنكم الشيطان بوسوسته وتزيينه المعصية لكم، والمراد النهي والتحذير من طاعته، والتخلي عما امتنَّ الله به عليهم من اللباس، ولباس التقوى.

والشيطان: إبليس وجنوده وقبيله، وأعوانه من شياطين الإنس والجن. مأخوذ من «شطن» بمعنى بَعُد عن رحمة الله تعالى وعن كل خير.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، الكاف: للتشبيه، بمعنى: «مثل»، أي: لا يفتننّكم فتنة مثل إخراج أبويكم آدم وحواء من الجنة.

وغلب الأب على الأم، وأطلق عليهما أبوين من إطلاق الأب على الجد الأعلى.

وفي هذا: تأكيد للنهي والتحذير من فتنة الشيطان بتذكيرهم بعظيم فتنته، وشدة عداوته لهم ولأبويهم، وأنه عدو مضل مبين، وأن عداوته لهم قديمة متأصلة، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨. الأنعام: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ [يس: ٦٠].

﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: من الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، فيها ما لا يعلمه إلا الله من أنواع النعيم كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ﷺ: «**قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**»(١).

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: في حال كونه ينزع عنهما لباسهما، حيث تسبب في معصيتهما وأكلهما من الشجرة، ومن ثم نَزْعِ وخلع لباسهما الظاهر، وظهور سوءاتهما، كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

أي: انكشفت لهما عوراتهما بعد أن كانت مستورة، والتعبير بالمضارع ﴿يَنزِعُ﴾ لاستحضار الصورة.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يريهما عوراتهما.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل والتأكيد للنهي والتحذير عن فتنة الشيطان.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: الشيطان.

﴿يَرَىٰكُمْ﴾، أي: يشاهدكم، والخطاب لبني آدم.

﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾، ﴿هُوَ﴾ ضمير منفصل للتوكيد، أي: هو وذريته وجنوده من الشياطين.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، أي: من حيث لا تشاهدونهم، فيأتي الإنسان من حيث لا يدري كما قال ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(١).

ولهذا أمر الله عز وجل بالاستعاذة بالله منه، وسمَّاه الوسواس الخناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس].

وهذا لا ينفي أن يُمكِّن الله البشر من رؤية بعض الشياطين أو الجن في بعض الحالات على صورة البشر أو غير ذلك، معجزة لنبي، أو كرامة لولي ونحو ذلك.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عفريتًا من الجن تفلت عليَّ البارحة**- أو كلمة نحوها- **ليقطع عليَّ الصلاة فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، قلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة**»؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٩)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبوداود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩)، من حديث صفية- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦١)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٤١).

وعيالًا، فرحمته فخليت سبيله. قال: «**أما إنه كذبك وسيعود**»- وفي آخره قال ﷺ: «**تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟** قال: لا. قال: **ذاك شيطان**»(١).

كما روي تمثل الشيطان للمشركين في دار الندوة برجل من أهل نجد(٢).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: الجملة مستأنفة، فيها تأكيد للنهي والتحذير السابق من فتنة الشيطان، بتوكيد جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يتبعونهم ويطيعونهم، وفي هذا ذم لهم وتحذير للمؤمنين من مسلكهم.

وفيه طمأنة للمؤمنين بحفظهم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: صيرنا، تنصب مفعولين، الأول قوله: ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، والثاني: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي. والمراد به هنا الجعل الكوني. أي: جعلنا كونًا وقدرًا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون يتولونهم ويضلونهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن البشر كلهم بنو آدم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ وآدم من تراب، فأكرمهم عند الله أتقاهم له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٢- تكريم الله- عز وجل- لبني آدم بخطابه لهم.

٣- امتنان الله- عز وجل- على بني آدم بما أنزل عليهم وأوجد لهم من الخير؛ من اللباس الذي يستر عوراتهم والريش الذي ينتفعون به ويتجملون، ولباس التقوى؛

---

(١) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١).

(٢) سيأتي تخريجه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية ٣٠ من سورة الأنفال].

لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

٤- وجوب ستر العورات؛ لأنه يسوء ويحرم كشفها والنظر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾.

٥- جواز التجمل والتمتع والانتفاع بما أباح الله من المال والأثاث، والمتاع وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾.

٦- الترغيب بلباس التقوى، وأنه خير لباس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

٧- أن اللباس منه ما هو حسي يستر العورات والأبدان ويتجمل به في الظاهر، ومنه ما هو معنوي وهو أعظم وأجل، وهو لباس التقوى، به ستر العيوب، ومغفرة الذنوب، وتيسير الأمور والمخرج من جميع الكروب.

٨- أن ما أنزل الله تعالى من اللباس والريش، ولباس التقوى كل ذلك من آيات الله- عز وجل- الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته، وعظيم نعمه على عباده مما يستوجب عليهم تعظيمه وشكره؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

٩- أن الحكمة فيما أنزل الله تعالى على بني آدم من اللباس والرياش، ولباس التقوى، لأجل أن يتذكروا ويتعظوا ويذكروه ويشكروه ويعبدوه وحده دون من سواه؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١٠- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله عز وجل.

١١- تحذير بني آدم من فتنة الشيطان ووسوسته وتزيينه وطاعته، والتخلي عما امتن الله به عليهم من اللباس ولباس التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾.

١٢- شدة عداوة الشيطان لآدم وذريته، وتأصلها منذ القدم، بفتنته لآدم وزوجه بتزيينه المعصية لهما بالأكل من الشجرة، وإخراجهما من الجنة، ونزع لباسهما ليريهما سوءاتهما؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾.

١٣- إطلاق الأب على الجد الأعلى، وإطلاق الأب على الأم تغليبًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَبَوَيْكُم﴾.

١٤- حرص الشيطان على إهلاك بني آدم وإبعادهم من الخير وإذلالهم وكشف عوراتهم.

١٥- رؤية الشيطان وقبيله لبني آدم من حيث لا يراهم بنو آدم حكمة لله عز وجل وابتلاءً وامتحانًا لبني آدم مما يوجب الحذر منهم ومن كيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

١٦- تولي الشياطين للذين لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يزينون لهم الباطل، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تدفعهم إلى الباطل والشر دفعًا.

١٧- لا ولاية للشيطان على الذين آمنوا، لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولهذا قال تعالى في الآيات بعد هذه الآية: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

بيَّن عز وجل في الآية السابقة أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، ثم أتبع ذلك ببيان ما ترتب على ذلك وهو إصرارهم على فعل الفواحش، ومن ثم زعمهم أنهم وجدوا عليها آباءهم وأن الله أمرهم بها، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾، الواو استئنافية و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة، و﴿فَعَلُوا۟﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿قَالُوا۟﴾.

والفاحشة: كل ما يستفحش ويستقبح في الشرع وعرف المسلمين وعند أهل الفطر المستقيمة والعقول السليمة، كالشرك بالله، وكشف العورات في الطواف، والزنا والسرقة ونحو ذلك.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾، أي: قالوا؛ تعليلًا، وتبريرًا لفعلهم الفاحشة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، أي: أدركنا آباءنا ورأيناهم يفعلونها، فنحن نفعل مثلهم.

كما قال تعالى عنهم: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

وكونهم وجدوا عليها آباءهم لا يبرر لهم فعلها وتقليد آبائهم على جهل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا

يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، أي: والله أمرنا بفعلها.

والمعنى: أن ديدنهم وعادتهم فعل الفواحش والتبرير لذلك بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، والله أمرهم بها، وهذا كذب وافتراء على الله، كما كانوا يحرمون أشياء ويزعمون أن الله حرمها، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وسواء كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها أو أمر بها آباءهم فهم يفعلون ما أُمر به آباؤهم فهم بهذا كله كذبة مبطلون.

ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فنفى أن يأمر الله بالفحشاء، وأنكر عليهم القول على الله بلا علم.

والأمر في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ للنبي ﷺ، أي: قل لهم يا محمد ردًّا عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، أي: لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر بفعل الفحشاء مما تفعلون ولا غيره.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، و«ما»: موصولة، بمعنى الذي، أي: أتقولون على الله القول الذي لا تعلمون أن الله أمر به، ولا تعلمون أن الله لا يليق بجلاله وكماله الأمر به أو بمثله. ومن ذلك قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعنون ما يفعلونه من الفواحش.

وفي الآية إنكار شديد، وتهديد أكيد لمن يقول على الله بلا علم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

رد الله- عز وجل- على المشركين في زعمهم أن الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش، وأبطله إبطالًا عامًّا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ووبخهم على ذلك بقوله:

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم أكد بطلان زعمهم ببيان حقيقة ما أمر الله تعالى به فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية.

قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: قل لهم يا محمد ولغيرهم ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

أي: قل أمر ربي بالعدل في كل شيء، وهو الوسط في الأمور كلها؛ في العبادات والمعاملات وغير ذلك، وأساس ذلك كله وقوامه التوحيد؛ ولهذا قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «القسط: لا إله إلا الله».

ومنه العدل في الأقوال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والعدل في الإنفاق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أقسطوا وأقيموا، أو بأن أقسطوا وأقيموا. كما قيل:

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إليَّ من لبس الشفوف(١)

وهو أشبه بعطف الخاص على العام، فإن من أعظم القسط والعدل إقامة الوجوه عند المساجد ودعاء الله- عز وجل- وإخلاص الدين له.

أي: وأقيموا وجوهكم بالاستقامة على دين الله عز وجل، والإخلاص له، والتوجه إلى القبلة في الصلاة في أوقاتها، في المساجد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟

---

(١) البيت لميسون بنت بحدل. انظر: «درة الغواص» (ص٤٩).

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، أي: عند كل صلاة وموضع سجود.

﴿وَٱدْعُوهُ﴾، أي: واعبدوه. والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهما متلازمان وكلاهما عبادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وفي الحديث: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: مخلصين له العبادة والطاعة وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الحديث: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٢).

فهذا الذي أمر الله- عز وجل- به: القسط، والتوجه إليه، وتعظيمه بإقامة الصلاة في المساجد وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له. وليس من ذلك ما يفعلونه من الفواحش ويزعمون أن الله أمرهم به من الشرك بالله، والطواف وهم عُراة، ونحو ذلك.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، الكاف: للتشبيه، و«ما»: مصدرية، فشبه عود خلقهم ببدئه تقريرًا وتوكيدًا لكمال قدرته على ذلك.

أي: كما بدأ خلقكم أول مرة ترجعون إليه خلقًا آخر بعد موتكم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «الزهد والرقائق» (٢٩٨٥)، وابن ماجه في «الزهد» (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٥-٩].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «**يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾**»(١).

وقيل: معنى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أي: كما كتب وقدّر عليكم تكونون، فمن كتب له السعادة فنهايته إلى السعادة، ومن كتب عليه الشقاء فنهايته إلى الشقاء.

كما جاء في حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(٢).

قال ابن القيم بعدما ذكر هذا القول: «وهذا المعنى صحيح في نفسه، دل عليه القرآن والسُّنَّة والآثار السلفية، وإجماع أهل السنة، وأما كونه هو المراد بالآية ففيه ما فيه، والذي يظهر من الآية أن معناها معنى نظائرها وأمثالها من الآيات التي يحتج الله- سبحانه- فيها على النشأة الثانية بالأولى، وعلى المعاد بالمبدأ، فجاء باحتجاج في غاية

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٧)، ومسلم في الجنة- فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣)، وأحمد (١/ ٢٣٥، ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

الاختصار والبيان ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أي: كما بدأكم ترجعون إليه حال كونكم فريقين، فريقًا هدى، وفريقًا حق عليهم الضلالة، والفريق: الطائفة والجماعة من الناس.

أي: فريقًا: وفقهم الله إلى الإيمان به وتوحيده وإخلاص الدين له.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾، أي: ثبتت ووجبت عليهم الضلالة قدرًا وكونًا، فلازموا الضلال والشرك واستمروا على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

وقدم في الذكر فريق الهداية تشريفًا وتعظيمًا لهم.

ونسب الهداية إليه، فقال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، بينما قال: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾، ولم يقل: «وفريقًا أضل» تعليمًا لحسن الأدب معه عز وجل، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(٢).

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾، أي: لأنهم ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: جعلوا الشياطين أولياء لهم وأنصارًا يوالونهم ويتبعونهم ويحبونهم من دون الله. فحقت عليهم الضلالة

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٧٧١)، وأبوداود في الصلاة (٧٦٠)، والنسائي في الافتتاح (٨٩٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، من حديث علي رضي الله عنه.

بسبب ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أي: ويظنون أنهم بهذا الضلال على هدى لانطماس بصائرهم، فضلالهم ضلال مركب، ضالون، ولا يدرون أنهم ضالون، بل يظنون أنهم مهتدون، وهذه مصيبة لا تقل عن مصيبة ضلالهم، بل هي أشد؛ لأنها تمنعهم من التفكر والنظر في آيات الله وفي الأدلة والبراهين، وهذا كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقد قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

الفوائد والأحكام:

١- أن ديدن المشركين فعل الفواحش والاحتجاج والتعليل لذلك بأنهم وجدوا عليها آباءهم، وأن الله أمرهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾.

٢- أن من أسباب ضلال كثير من الناس التقليد الأعمى لآبائهم أو غيرهم، واتباعهم لهم على جهل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ مما يوجب الحذر من ذلك.

٣- جرأة المشركين على الكذب على الله بأنه أمرهم بفعل الفواحش أو أمر آباءهم بفعلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ فجمعوا بين فعل الفاحشة، والكذب على الله بأنه أمرهم بها.

٤- إبطال قول المشركين أن الله أمرهم بفعل الفواحش، وبيان أنه عز وجل يتقدس ويتعالى عن ذلك، ولا يليق ذلك بجلاله وكماله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾، أي: لا يأمر بها شرعًا، وإن كان قدرها وأمر بها كونًا.

٥- الإنكار والتوبيخ للمشركين والتهديد لهم في قولهم على الله بلا علم، بل بمحض الجهل والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦- أن الله- عز وجل- إنما أمر بالقسط، وإقامة الوجوه عند كل مسجد ودعائه والإخلاص له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾.

٧- إثبات أنه ﷺ رسول مبلغ عن الله وحيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى ۖ﴾.

٨- وجوب القسط والعدل في كل شيء في العبادات والمعاملات وغير ذلك، في أداء حقوق الخالق وحقوق الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾.

٩- وجوب الاستقامة على دين الله- عز وجل- وعبادته، والإخلاص له، والتوجه إلى القبلة في الصلاة في أوقاتها، وإقامتها في المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾.

١٠- عظم منزلة الصلاة في الإسلام فهي عموده، وعظم مكانة المساجد ووجوب تعظيمها وإعلاء شأنها حسيًّا ببنائها للمصلين، ومعنويًّا بالعبادة والصلاة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

١١- أن من شرط صلاح العمل وقبوله كونه خالصًا لله عز وجل، موافقًا للشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: أخلص العمل لله وهو متبع للرسول ﷺ.

١٢- إثبات المعاد والبعث، وقدرة الله- عز وجل- التامة على ذلك، وأنه عز وجل كما بدأ الخلق أول مرة يعيدهم مرة أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

١٣- إثبات قدر الله السابق، وهدايته كل مخلوق لما قدر له؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ١٥٠).

١٤- الإشارة للفرق الشاسع، والبون الواسع بين من هداهم الله، ووفقهم بفضله؛ لهذا قدمهم في الذكر بالآية تشريفًا وتعظيمًا لهم. وبين من حقت عليهم الضلالة- بعدله- فضلوا وكفروا؛ لقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.

١٥- من كتب الله له الهداية فلا مضل له، ومن كتبت عليه الضلالة فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾. كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال ﷺ: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»(١).

فهو عز وجل يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

١٦- في نسبة الهداية إليه عز وجل في قوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ دون الضلالة تعليم لحسن الأدب مع الله عز وجل، كما قال ﷺ: «**والشر ليس إليك**».

١٧- أن العلة في ضلال المشركين وغيرهم من أهل الضلال اتخاذهم الشياطين أولياء واتباعهم لهم من دون الله، مما يوجب الحذر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

١٨- وجوب موالاة الله- عز وجل- وحده؛ لقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

١٩- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، أي: هم اختاروا هذا الطريق بأنفسهم وفي هذا رد على الجبرية.

٢٠- انطماس بصائر المشركين ومن كتب عليهم الضلال، حتى إنهم ليظنون أنهم مهتدون، وهم في دركات الجهل والكفر والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وهذه مصيبة أعظم من ضلالهم؛ لأنها تحول بينهم وبين النظر والتفكر في آيات الله وفي الأدلة والبراهين.

---

(١) أخرجه مسلم في «الجمعة» (٨٦٨)، والنسائي في «النكاح» (٣٢٧٨)، وابن ماجه في «النكاح» (١٨٩٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢١- أن الهداية مطلب لكل إنسان، لكن لا يوفق لها إلا من هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كانوا يطوفون بالبيت عراة- الرجال والنساء- الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تِطوافًا تجعله على فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾»(١).

قال ابن القيم: «جمعت هذه الآية أصول أحكام الشريعة كلها؛ الأمر والنهي والإباحة والخبر»(٢).

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، ﴿مَسۡجِدٖ﴾ اسم مكان، وهو البيت الذي بني لعبادة الله عز وجل، أو هو مصدر بمعنى السجود والصلاة، أي: عند كل صلاة.

أي: تزينوا عند جميع المساجد، وجميع الصلوات فرضها ونفلها. والأمر في الأصل للوجوب، وهو محمول على الوجوب في حدود ستر العورة بالإجماع، وهو للاستحباب فيما زاد على ذلك من الزينة، باللباس والطيب والسواك، ويتأكد هذا في صلاة الجمعة،

---

(١) أخرجه مسلم في التفسير- قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ (٣٠٢٨)، والنسائي في الحج- باب قول الله عز وجل: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ (٢٩٥٦)، والطبري في «جامع البيان» (١٠/ ١٤٩-١٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٦٤)، والبيهقي في «سننه» (٢/ ٢٢٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٧).

وصلاة العيدين، كما دلت السنة على ذلك.

وفي الآية إبطال لما كان يفعله المشركون من الطواف بالبيت وهم عراة.

وقد أمر ﷺ أبا بكر في حجته بالناس سنة تسع من الهجرة أن ينادي: «أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»(١).

وأفضل لباس الزينة للرجال البياض، كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر، وينبت الشعر**»(٢).

وقد رُوي أن تميمًا الداري- رضي الله عنه- اشترى رداءً بألف فكان يصلي فيه(٣).

وأين هذا ممن يصلون بقميص ولباس النوم، وبخاصة في الحرم، بينما إذا ذهب أحدهم لأقل مناسبة أو لمقابلة أي شخص، أو خرج إلى السوق لبس أجمل ثيابه.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾، أي: كلوا واشربوا مما رزقكم الله من الطيبات.

والأمر للإباحة، وفيه امتنان عليهم، وإبطال للتحريم الذي ابتدعه المشركون.

وقد يجب الأكل والشرب فيما إذا خاف الإنسان على نفسه من الهلاك جوعًا أو عطشًا.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ الإسراف: تجاوز الحد، إما بتعدي الحلال إلى الحرام، وإما بالزيادة على القدر الكافي، مما قد يضر بالصحة من المآكل والمشارب، أو مما قد يضر بالمال من الملابس والمراكب والمساكن والأثاث وغير ذلك، وكل ذلك لا يجوز، والواجب الاعتدال والتوسط في ذلك كله.

قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال ﷺ: «**كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان؛ سرف ومخيلة**»(١).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الطب (٣٨٧٨)، وفي اللباس (٤٠٦١)، وأحمد (١/ ٢٤٧).

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٠٢)- بعد أن ساقه بإسناده عن أحمد: «وهذا حديث جيد الإسناد على شرط مسلم». وأخرجه أحمد أيضًا (٥/ ٧، ١٢)- مختصرًا دون ذكر الإثمد، من حديث سمرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٠٢) من رواية الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

وفي رواية: «**كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة**»(٣).

وعن المقدام بن معد يكرب- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان فاعلًا لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٤).

قال الشاعر(٥):

وإنك مهما تعط بطنك سُؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تعليل للنهي عن الإسراف، أي: إنه عز وجل لا يحب المسرفين في الأكل والشرب، وغير ذلك.

قال الطبري(٦): «يقول: إن الله لا يحب المعتدين حده، في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل الله أو حرم، بإحلال الحرام وتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يُحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به».

وإذا كان عز وجل لا يحب المسرفين فإنه يحب المقتصدين المعتدلين، وفي هذا إثبات المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس- قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ١٥٥) بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥).

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد- كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٥) البيت لحاتم الطائي. انظر: «ديوانه» (ص٢٦٨).

(٦) في «جامع البيان» (١٠/ ١٥٦).

قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

أمر عز وجل بأخذ الزينة عند كل مسجد، وأمر بالأكل والشرب ونهى عن الإسراف، ثم أتبع ذلك بالرد على من حرم شيئًا من زينة الله التي أخرجها لعباده من الملابس والطيبات من الرزق من المآكل والمشارب وغير ذلك بلا دليل.

﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرّموا أشياء بمجرد آرائهم الفاسدة وأهوائهم.

﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

﴿مَنْ﴾ اسم استفهام، وهو هنا: للإنكار، أي: من الذي حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

وفيه تهكم بالمشركين الذين حرموا ما أحله الله بلا علم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وقوله: ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، أي: ما يُتزين ويُتجمل به من أنواع الملابس، ونحو ذلك من المساكن والمراكب، وغير ذلك التي أخرجها الله من الأرض وأوجدها لعباده.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة لجميع الخلق، وهي عبودية الانقياد لأمره عز وجل الكوني القدري، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

فهذه الزينة والطيبات يتمتع بها المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وهناك العبودية الخاصة: عبودية أوليائه المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ معطوف على ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: ومن حرم الطيبات من الرزق من المآكل والمشارب وغير ذلك التي أخرجها الله وأوجدها لعباده، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى

ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

كما في تحريمهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

والطيبات: اسم عام لما طاب كسبًا وطعمًا.

فأنكر عز وجل في هذه الآية على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق تأكيدًا لحلها، ولهذا قال بعده:

﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ الضمير ﴿هِيَ﴾ يعود إلى الزينة والطيبات من الرزق. واللام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تدل على الاختصاص وعلى الإباحة.

قرأ نافع: «خالصةٌ» بالرفع على أنها خبر ثان لـ﴿هِيَ﴾، أي: هي لهم حلال في الدنيا، وهي لهم خالصة يوم القيامة.

وقرأ الباقون: ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب على الحال من المبتدأ، أي: هي لهم حلال في الدنيا حال كونها خالصة لهم يوم القيامة.

والمعنى: أن هذه الزينة والطيبات مباحة للذين آمنوا في الحياة الدنيا؛ لأنهم يستعينون بها على طاعة الله تعالى وشكره، بخلاف الكفار فإنهم يعاقبون عليها؛ لأنهم كفروها واستعانوا بها على معصية الله عز وجل. ولهذا فإنهم في الآخرة يُحرمون منها، وتكون خالصة للذين آمنوا لا يشاركهم فيها سواهم في ذلك اليوم بخلاف الحال في الدنيا فإن الله تعالى قال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

وفرق بين العطاءين، فعطاء الله عز وجل، للمؤمنين ترغيب لهم وحض وتكريم وإنعام، وعطاؤه للكافرين إملاء لهم وإمهال واستدراج وانتقام.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» أي: مثل هذا التفصيل في هذه الآيات ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: نوضحها ونبينها.

﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لقوم ذوي علم بالله وما يجب له عز وجل، ينتفعون بعلمهم،

وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال تعالى في ذكر الساعة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أمر عز وجل النبي ﷺ أن ينكر على المشركين تحريم الزينة والطيبات مما لم يحرمه الله، ثم أمره في هذه الآيات أن يبين لهم ما حرمه ربه عليهم- فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: إنما حرم ربي الفواحش، وما ذكر معها في هذه الآية، لا ما حرمتموه من الزينة والطيبات.

وفي إسناد التحريم إلى الرب عز وجل في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ﴾ تنبيه وإرشاد إلى أن التحريم والتحليل والتشريع إلى الرب عز وجل الخالق المالك المدبر، لا إلى غيره.

والتحريم: هو الحظر والمنع.

والفواحش: جمع فاحشة، وهي كل ما يستفحش ويستقبح لشناعته وقبحه، كالزنا واللواط، والطواف بالبيت عراة ونحو ذلك.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة في الموضعين، أي: الذي ظهر منها وأُعلن وجُهر به، كالزنا علانية والطواف بالبيت عراة، ونحو ذلك، والذي بطن وأُخفي وأُسر كاتخاذ الأخدان وأمراض القلوب، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(١).

وعن المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، لهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(١).

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾، «الإثم» الذنب، وهو كما قال ﷺ: «**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»(٢).

وسمي الذنب إثمًا؛ لأنه يؤثم صاحبه ويوجب له العقوبة.

و«الإثم»: اسم جنس يعم جميع الآثام والذنوب، وهو أعم من الفواحش، وعطفه عليها من عطف العام على الخاص، وخصت الفواحش وقدمت لقبحها وشناعتها.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾، أي: الاستطالة على الناس وظلمهم والاعتداء على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وهو من «الإثم» وعطفه عليه من عطف الخاص على العام؛ لعظمه وتعدي ضرره إلى الغير، فكل بغي إثم، وليس كل إثم بغيًا.

وقد يحمل الإثم على الذنب الذي ضرره المباشر على فاعله، ويحمل البغي على الذي يتعدى ضرره المباشر إلى الآخرين، وهو في ثاني الحال ضرر على صاحبه.

أما الضرر غير المباشر فإن للذنوب كلها ضررها وأثرها العام على البلاد والعباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفة لـ«البغي»، وهي صفة كاشفة؛ لأن البغي لا يكون إلا بغير حق.

وفي الحديث: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٣).

والترمذي في الدعوات (٣٥٣٠).

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وأبوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، من

﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، الواو: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب معطوف على «الفواحش» أي: وحرم عليكم الإشراك بالله، أو الشرك بالله.

والشرك دعوة غير الله وعبادته مع الله، وتسويته بالله، كما ذكر تعالى- عن المشركين قولهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قال ابن القيم: «كل شرك بالله، وإن دق، في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عدلًا بغيره في اللفظ، أو القصد، أو الاعتقاد»(١).

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، «ما» موصولة تفيد العموم، أي: الذي لم ينزل الله به سلطانًا، والباء في قوله: ﴿بِهِ﴾ للمصاحبة، أو بمعنى: «على»، ﴿سُلْطَانًا﴾، أي: حجة وبرهانًا على مشاركته لله، بل أنزل الله السلطان والحجة والبرهان على نفيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب معطوفة كسابقتها على ﴿الْفَوَاحِشَ﴾، أي: وحرم عليكم القول على الله ما لا تعلمون.

و«ما»: موصولة، أي: الذي لا تعلمون.

والمعنى: وحرم عليكم القول والافتراء والكذب على الله، بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، والزعم بأن له شريكًا وولدًا، وأنه أمركم بفعل الفواحش وحرم الزينة والطيبات ونحو ذلك.

وهذا أعظم وأعم من الشرك، والشرك أعظم من البغي بغير حق، والبغي أعظم من الإثم، والإثم أعظم وأعم من الفواحش. فترتيبها بدءًا من الأدنى إلى الأعلى والأشد في الحرمة.

الفوائد والأحكام:

١- تكريم الله- عز وجل- وتشريفه لبني آدم وعنايته بهم، لخطابه وندائه لهم

حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٠٧).

وتوجيههم بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾.

٢- وجوب ستر العورة في الصلاة والطواف، واستحباب التزين للصلاة والطواف وعند المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

٣- إباحة الأكل والشرب، والامتنان على بني آدم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ وقد يجب الأكل والشرب، كما إذا خاف على نفسه الهلاك.

٤- تحريم الإسراف في الزينة والأكل والشرب، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾.

٥- نفي محبة الله- عز وجل- للمسرفين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

٦- إثبات العلة والحكمة في أحكام الله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

٧- إثبات محبة الله- عز وجل- لغير المسرفين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ فمفهوم هذا أنه يحب من لم يكن مسرفًا.

٨- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾ وفي هذا رد على الذين يزعمون أنه افترى القرآن واختلقه.

٩- الإنكار والتوبيخ للذين حرموا زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾.

وفي هذا رد على الذين يرون الزهد في ترك الطيبات، وإيثار الخشن من الطعام واللباس.

١٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله عز وجل عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

١١- إباحة الزينة والطيبات من الرزق، وامتنان الله- عز وجل- على العباد بإخراجها وإباحتها لهم.

١٢- أن ما أخرجه الله من الزينة والطيبات هي للذين آمنوا حلال في الحياة الدنيا، الذين يشكرون الله عليها ويستعينون بها على طاعته.

بخلاف الكفار فإنهم يحاسبون ويعاقبون عليها؛ لأنهم كفروها واستعانوا بها على

معصية الله تعالى، ولهذا فإنها تكون في الآخرة خالصة للمؤمنين خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١٣- الترغيب في الإيمان ببيان إباحة الزينة والطيبات من الرزق للمؤمنين في الحياة الدنيا وتخصيصهم بها في الآخرة دون غيرهم.

١٤- أن الإيمان إنما يقبل ويثمر في الحياة الدنيا، بل وقبل غلق باب التوبة ببلوغ الغرغرة أو طلوع الشمس من مغربها، أما الآخرة فليس فيها إلا الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

١٥- إثبات القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾.

١٦- تفصيل الله- عز وجل- وبيانه للآيات الشرعية والكونية، كما فصل هذه الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾.

١٧- أن الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها هم أهل العلم بالله وشرعه دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٨- مدح أهل العلم الذين ينتفعون بعلمهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، والتعريض بذم أهل الجهل الذين لا ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٩- أن التحليل والتحريم والتشريع للرب عز وجل الذي له الخلق والملك والتدبير والأمر كله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ﴾ الآية.

٢٠- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة له ﷺ، وتشريفه وتكريمه بذلك، وبإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّىَ﴾.

٢١- أن الله إنما حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله، والقول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٢- حرمة الفواحش مطلقًا ما ظهر منها وما بطن، وجميع الآثام والذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾.

٢٣- أن ما ظهر من الفواحش أشد؛ لأن له أثره المتعدي على الناس؛ لهذا قدم في الآية.

٢٤- أن الفواحش من أعظم الإثم، لهذا خصت بالذكر وعطف عليها الإثم من عطف العام على الخاص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾.

٢٥- أن البغي والتعدي على الناس وظلمهم من أعظم الإثم؛ لهذا عطف على الإثم من عطف الخاص على العام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٢٦- تحريم الشرك بالله؛ صغيره وكبيره، خفيه وجليه، قليله وكثيره، مما لا حجة عليه ولا برهان، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

٢٧- تحريم القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٨- أن المقبول من الاعتقاد والقول والعمل ما أنزل الله به حجة، ودل على صحته العلم الشرعي.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما عليه المشركون من الكذب على الله تعالى، وتحريم ما لم يحرم من الزينة والطيبات، واتخاذ الشياطين أولياء من دون الله، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله، والقول عليه بغير علم، ثم أتبع ذلك بإنذارهم ووعيدهم.

وفيه وعد للنبي ﷺ بالنصر عليهم؛ كما هي سنته عز وجل في المكذبين للرسل.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: ولكل أمة من الأمم المكذبين للرسل.

والأمة: الجماعة والقرن والجيل، أي: ولكل جماعة أرسل إليهم رسول فكذبوه.

أي: ولكل أمة مدة ووقت محدد، أي: إمهال مدة وفترة زمنية إلى وقت أخذهم بالعذاب.

﴿أَجَلٌ﴾، «الأجل»: يطلق على مدة الإمهال، ويطلق على الوقت المحدد به انتهاء الإمهال.

فعلى الأول يقال: قضى الأجل، كما قال تعالى: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩].

وعلى الثاني يقال: دنا أجل فلان، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والمراد بالأجل في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: ما يشمل الأمرين.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: فإذا جاء وحضر وقت هلاكهم، أي: الوقت المحدد لهلاكهم.

﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط «إذا»، أي: فلا يتأخرون ساعة ولا يتقدمون.

والسين فيهما؛ للتأكيد.

والساعة: مَثَل في غاية القلة من الزمان.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ تأكيد لعدم تأخرهم، أي: فإذا حان وقت هلاكهم فلا يتأخرون عنه أقل زمان، بل يهلكون حال انتهاء مدتهم وحلول أجلهم؛ كما أنهم لا يتقدمون عليه، بل لا بد من استيفائهم مدة إنظارهم وإمهالهم.

وقدم انتفاء الاستئخار؛ لأن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب.

وأسند الفعلين إليهم، وذكرهما بصيغة الاستفعال؛ للإشعار بأنهم يريدون التأخر، ولكن هيهات لهم ذلك.

والمقصود بهذا إنذار ووعيد المشركين والمكذبين من هذه الأمة، فلا يغتروا.

أي: ما أنتم إلا أمة من الأمم، ولكل أمة أجل، فلكم أجل سيحين حينه، فلا تغتروا بالإمهال.

كما قال بعضهم غرورًا منهم؛ فيما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وليعلموا أن ما هم فيه استدراج لهم، وليترقبوا كل لحظة حلول العقاب فيهم وأخذهم، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧].

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الخطاب: لجميع الأمم قديمها وحديثها.

و«إما»: مركبة من: «إن»: الشرطية، و«ما»: الزائدة إعرابًا، المؤكدة لمعنى الشرطية وعمومها.

﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: من أنفسكم يا بني آدم، ومن جنسكم، وبلسانكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال تعالى ممتنًا على الأمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وكون الرسول من نفس الأمة نعمة من الله تعالى عليهم، ولهذا امتن الله تعالى على الأمم بذلك، وهو عين الحكمة وتمامها، وهذا يعكس مدى جهل الذين أنكروا أن يكون الرسل من البشر، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أي: يتلون عليكم آياتي، ويبينون لكم ما فيها من أحكام.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط «إن».

أي: فمن اتقى الله بترك الشرك والكبائر والصغائر، وأصلح أعماله الظاهرة والباطنة؛ بكونها خالصة لله تعالى، موافقة لشرعه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

أي: فلا خوف عليهم فيما يُستقبل؛ لتأمين الله تعالى وحفظه لهم، كما قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى ولا على ما خلفوا في الدنيا، ولا يصيبهم الحزن على شيء؛ لاكتمال ما هم فيه من النعيم، ولهذا يقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤- ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

وعد عز وجل في الآية السابقة من اتقى وأصلح بانتفاء الخوف والحزن عنهم، ثم توعد الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها بالخلود في النار وبئس القرار.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: جحدوها وأنكروها بقلوبهم.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾، أي: واستكبروا عن العمل بها، والانقياد لها بجوارحهم. والسين والتاء للمبالغة.

وضمَّن «الاستكبار» معنى «الإعراض»؛ فعلق به ضمير الآيات «عنها»، أي: واستكبروا وأعرضوا عنها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: صائرون إليها، وملازمون لها، وماكثون فيها مكثًا مخلدًا.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم، وأكد ملازمتهم لها، وخلودهم فيها؛ بكون الجملتين اسميتين.

الفوائد والأحكام:

١- أن لكل أمة من الأمم المكذبة للرسل مدة لإمهالهم، ووقتًا محددًا لإهلاكهم؛ كما أن لكل أمة وجيل وقرن نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞ﴾.

٢- أن كل أمة إذا حان أجلها حل بها عذاب الله؛ فلا يمكن أن تتأخر عنه ساعة، ولا أن تتقدم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

٣- عدم إفلات المكذبين من العذاب، وخلاصهم منه؛ يدل على هذا تقديم

الاستئخار في الآية.

٤- الإنذار والتحذير للمشركين والمكذبين من هذه الأمة بأن لهم أجلًا لعذابهم؛ كما هي سنة الله تعالى في المكذبين من الأمم قبلهم، فلا يغتروا بإمهال الله لهم؛ فإن أخذه أليم شديد.

٥- عناية الله تعالى ببني آدم، وتكريمه لهم؛ بندائه لهم، وإرسال الرسل إليهم بالآيات لدعوتهم ودلالتهم إلى الخير، ونهيهم عن الشر وتحذيرهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾.

٦- الامتنان على الأمم ببعث الرسل وكونهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾.

٧- أن مهمة الرسل- عليهم الصلاة والسلام- تبليغ رسالات الله تعالى وآياته المنزلة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾.

٨- الإغراء بالتقوى والإصلاح، والترغيب فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

٩- انتفاء الخوف والحزن يوم القيامة عمن اتقى وأصلح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وإذا انتفى الخوف والحزن عنهم كمل لهم الأمن والسرور. نسأل الله تعالى من فضله.

١٠- الوعيد والتهديد للمكذبين بآيات الله بقلوبهم، المستكبرين عن الانقياد لها والعمل بما فيها بجوارحهم؛ بملازمة النار والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١١- أن الكفر بآيات الله وعدم الإيمان بها يكون بأمرين: إما بالتكذيب بها وجحودها وإنكارها، وإما بالاستكبار عنها.

١٢- وجوب الحذر من التكذيب بآيات الله تعالى؛ مع ما تشتمل عليه من الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، أنها من عند الله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

١٣- وجوب الحذر من الكبر؛ فإنه من أعظم أسباب رد الحق وعدم قبوله وترك العمل به، إن لم يكن أعظمها، وهو سبب طرد إبليس من ملكوت السموات، وحرمانه من رحمة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

١٤- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، وأهلها مخلدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، والمراد بالخلود هنا: المكث الأبدي؛ كما دلت على ذلك النصوص الأخرى من الكتاب والسنة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«مَن» اسم استفهام، ومعناه هنا: الإنكار والنفي، و﴿أَظْلَمُ﴾: أفعل تفضيل، أي: أشد ظلمًا.

و«مِن» في قوله: ﴿مِمَّنِ﴾: موصولة، أي: لا أحد أشد ظلمًا من الذي «افترى على الله كذبًا»، أي: اختلق على الله كذبًا بنسبة الشريك له والصاحبة والولد، وتحريم ما أحله الله، وتحليل ما حرمه، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ﴾، «أو»: عاطفة، تفيد معنى التقسيم، أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن فعل هذا، أو فعل هذا.

ومن جمع بين الأمرين بأن افترى على الله الكذب، وكذب بآياته فهو أشد ظلمًا.

وقد تكون «أو» بمعنى الواو، أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن فعل هذا وهذا، أي: ممن جمع بينهما.

قال ابن القيم: «وقوله تعالى: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ﴾ ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها، وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني: كفره بجحود الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فلما كفروا وصدوا عن سبيل الله عذبهم عذابين: عذابًا بكفرهم، وعذابًا بصدهم عن سبيله.

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]»(١).

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية: ٢١].

وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الآية: ١٧].

وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ [الآية: ٦٨].

وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الآية: ٣٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة لمن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يصيبهم حظهم من الكتاب.

والمراد بـ«الكتاب»: اللوح المحفوظ، أي: يصيبهم ما قدر وكتب لهم في اللوح المحفوظ في هذه الحياة الدنيا؛ من الأرزاق والأعمار والأعمال، والشقاوة وأسبابها.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٠- ٢١١.

فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩- ٧٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٣- ٢٤].

قال ابن القيم بعد أن ذكر القول بأن نصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها، وقول من قال: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال:

«والصحيح أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين؛ فهو نصيبهم من الشقاوة، ونصيبهم من الأعمال التي هي من أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك؛ فعمت الآية هذا النصيب كله. وذكر هؤلاء بعضه، وهؤلاء بعضه، هذا على القول الصحيح، وأن المراد ما سبق لهم في أم الكتاب».

وقيل: المراد بـ«الكتاب»: القرآن، أي: ينالهم ويصيبهم حظهم مما جاء فيه من الوعيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

قال ابن القيم- بعد أن ذكر هذا القول: «والصحيح القول الأول، وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا.

ولهذا القول وجه حسن، وهو أن نصيب المؤمنين من الرحمة والسعادة، ونصيب هؤلاء من العذاب والشقاء، فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم»(١).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ للغاية، و﴿إِذَا﴾ ظرف بمعنى «حين»، أي: إلى حين جاءتهم رسلنا من

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٠٩-٢١٠.

الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، أي: يقبضون أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وسمي قبض الروح بالموت وفاة؛ لأن الميت قد استوفى رزقه وأجله وعمله.

﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: الرسل- من الملائكة- الموكلون بقبض أرواح هؤلاء المشركين إلى النار: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام للتوبيخ والتبكيت والتأييس والتهكم.

و«ما» موصولة، أي: أين آلهتكم الذين كنتم تعبدونهم غير الله، وتزعمون أنهم ينفعونكم عند الشدائد، ويدفعون عنكم العذاب؟ ادعوهم ليخلصوكم مما أنتم فيه من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾، أي: قال هؤلاء المشركون المكذبون: «ضلوا عنا»، أي: ذهبوا وغابوا عنا وزالوا؛ فلا نرجوهم ولا نعول عليهم بشيء، وبطلت دعوتنا إياهم.

﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾، أي: وأقروا واعترفوا على أنفسهم بكفرهم واستحقاقهم للعذاب؛ إذ لا مجال للإنكار، ولا مناص من العذاب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾، أي: قال الله لهؤلاء المشركين والمكذبين، أو قالت لهم

ملائكته: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾، أي: في جملة وعداد أمم كافرة مكذبة مثلكم.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾، أي: قد سلفت ومضت من قبلكم؛ على مثل ما أنتم عليه من التكذيب والكفر والاستكبار؛ فاستحقوا جميعًا الخزي والبوار، والخلود في النار.

وفي هذا إخبار للمكذبين من هذه الأمة بأن حالهم كحال الأمم المكذبين قبلهم، وتذكير لهم بأن ما حاق بأولئك من العذاب في الدنيا سيحيق بهم، وهم في الآخرة في عذاب النار سواء، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ بدل من قوله: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾، ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾، «كلما»: ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط، أي: كلما دخلت أمة متأخرة من هذه الأمم في النار.

و«أمة»: نكرة وقعت في حيِّز عموم الأزمنة؛ فتفيد العموم.

﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾، أي: لعنت نظيرتها التي أضلتها ودخلت النار قبلها، أو لعنت من سبقها من الأمم المماثلة لها في الكفر الذي أوجب لها دخول النار.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ للغاية، و﴿إِذَا﴾: ظرف بمعنى «حين»، ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾، أي: تلاحقوا واجتمعوا فيها، والمعنى: حتى إذا اجتمعت أمم الضلال كلها في النار.

﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾، أي: أخراهم زمنًا؛ وهم الخلف من كل أمة، وأخراهم دخولًا النار.

﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾، أي: لأولاهم زمنًا؛ وهم السلف من كل أمة، وأولاهم دخولًا النار.

ويحتمل أن يكون المراد بـ«أخراهم»: أخراهم مرتبة؛ وهم الأتباع والرعاع.

والمراد بـ«أولاهم»: أولاهم مرتبة؛ وهم القادة والرؤساء والمتبوعين.

والقولان متقاربان؛ فـ«أخراهم» هم الأتباع، وهم الآخرون مرتبة في كفرهم، وهم المتأخرون زمنًا، وهم الآخرون في دخول النار.

و«أولاهم» هم الأولون رتبة في كفرهم وإضلالهم لمن بعدهم، وهم السابقون زمنًا، والسابقون في دخول النار؛ لضلالهم وإضلالهم.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون الطائفة الأولى؛ وهم القادة والرؤساء، والمتبوعون، وأئمة الضلال.

﴿أَضَلُّونَا﴾، أي: أضلونا عن سبيلك.

﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾، ﴿ضِعْفًا﴾ صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، أي: فأعطهم عذابًا مضاعفًا من النار، أي: ضاعف العذاب عليهم؛ لأنهم ضلوا وأضلونا عن سبيلك، وصدونا عن طاعتك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧- ٦٨].

وضعف الشيء: مثليه؛ قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، أي: يكون عذابها أكثر من عذاب غيرها مرتين؛ بدليل قوله بعده: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، والغنم بقدر الغرم.

وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: ٣٧] وهذا لم يرد به- فقط- مثله مرتين أو ثلاثة أمثاله؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال ﷺ: «**كلّ عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعفٍ، إلى**

أضعافٍ كثيرةٍ»[١].

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم ربهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، أي: لكل طائفة منكما؛ الأتباع والمتبوعين ﴿ضِعْفٌ﴾، أي: ضعف من النار، بحسب ضلاله وكفره؛ فأئمة الضلال والمتبوعين يضاعف عليهم العذاب أشد؛ لكفرهم بأنفسهم وإضلالهم لغيرهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

والأتباع يضاعف لهم العذاب دون ذلك؛ لضلالهم وتقليدهم أهل الضلال؛ مع وجود الأدلة والبراهين ووضوح الحق.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة: «لَا يَعْلَمُونَ»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿لَّا تَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون ما لهم من العذاب المضاعف، ولا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾، أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«ما» نافية، و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، تفيد التنصيص في عموم النفي.

أي: فما كان لكم علينا من أيِّ فضل تفضلوننا به؛ حتى يكون عذابنا مضاعفًا دونكم، فقد كفرتم كما كفرنا، وضللتم كما ضللنا، فنحن وإياكم متساوون في الكفر والضلال واستحقاق العذاب، ولا فضل لكم علينا باتباعكم وتقليدكم لنا، فاتباعكم لنا وعدمه عندنا سواء.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ خطاب من الله تعالى للطائفتين على وجه التقريع والإهانة لهم جميعًا، أي: فتجرعوا العذاب وأحسوا به.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تكسبون، أو بسبب كسبكم من الكفر والتكذيب والمعاصي.

ويجوز كون قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من تتمة كلام «أولاهم» للتشفي من «أخراهم»، أي: فذوقوا العذاب بسبب كسبكم، لا بأنا أضللناكم فيكون معطوفًا على قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فتكون كما قال الله تعالى عنهم في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الآيات: ٣١- ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧- ٤٨].

وبهذا تقطعت حجة الفريقين؛ فلكل منهما ضعف من النار لكفرهم وضلالهم، وليس لأحدهما فضل على الآخر؛ فقد اشتركا في الكفر والضلال، ومضاعفة العذاب.

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا بنسبة الشريك والولد إليه، أو تحريم ما أحل، أو تحليل ما حرم، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، أو كذب بآياته وأنكرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾.

٢- إثبات تقدير الله تعالى لكل شيء؛ من الأرزاق، والأعمار، والأعمال، والشقاوة،

والسعادة وأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٣- أن ما قدره الله تعالى وكتبه على العبد سيصيبه لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٤- الرد على القدرية الذين ينفون تقدير الله تعالى للأعمال، ويزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه.

٥- التهديد والوعيد للمفترين على الله، المكذبين بآياته بما يلقونه عند الموت؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

٦- إثبات ملائكة الموت؛ لقوله: ﴿رُسُلُنَا﴾.

٧- أن من مات فقد استوفى رزقه وعمله وأجله؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾.

٨- توبيخ ملائكة الموت للمكذبين، وتبكيتهم، وتأييسهم، والتهكم بهم، بقولهم لهم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٩- أن كل ما عبد من دون الله لا يغني عمن عبدوه شيئًا، فلا يدفع عنهم ضرًّا، ولا يجلب لهم نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

١٠- وجوب إخلاص الدعاء والعبادة لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

١١- شهادة المفترين على الله والمكذبين بآياته على أنفسهم بالكفر، وإقرارهم عليها بذلك؛ لافترائهم وتكذيبهم وعبادتهم غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

١٢- إدخال المكذبين من هذه الأمة في جملة وعداد الأمم المكذبة قبلهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾.

١٣- الإشارة لكثرة الأمم المكذبة للرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾، أي: في أمم كثيرة.

١٤- إثبات الجن، وأنهم مكلفون، ومن كفر منهم فهو في النار؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ

ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

١٥- أن ما بين أهل الكفر والضلال والبدع والمعاصي من تفاخر على ما هم عليه من الباطل وتواد في الدنيا؛ ينقلب يوم القيامة عداوة ومقاطعة وملاعنة، فيلعن آخرهم أولهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

١٦- حشر الأمم المكذبة الكافرة جميعًا في النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾.

١٧- تبرؤ الأتباع من الكفار يوم القيامة من المتبوعين الذين أضلوهم، وسؤالهم ربهم مضاعفة عذاب النار لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

١٨- بطلان قول الجبرية: إن العبد مجبور على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.

٢٠- مضاعفة العذاب على جميع الكفار وأهل الضلال، المتبوعين والأتباع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾.

٢١- أن أهل الكفر والضلال لا يعلمون ما أعد لهم من العذاب المضاعف، ولا يعلم بعضهم عما فيه البعض الآخر من العذاب المضاعف، زيادة في التنكيل بهم؛ حتى إن الواحد منهم يعتقد أنه لا أحد أشد عذابًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد عذاباً منه، وإنه لأهونهم عذابا»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٢١٣.

٢٢- تبرؤ المتبوعين وأئمة الضلال من أتباعهم، وتشفيهم منهم بكونهم اجتمعوا معهم على الكفر وفي النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وهذا لا يلزم منه تساويهم، بل أئمة الضلال منهم أشد كفرًا؛ لأنهم ضالون ومضلون، وهم أشد عذابًا.

٢٣- لا عذر ولا حجة للمرء في إضلال غيره إياه.

٢٤- أن اشتراك المعذبين يوم القيامة في العذاب لا ينفعهم، ولا يوجب لهم راحة، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

٢٥- وجوب الحذر من دعاة الضلال، ومن تقليدهم على غير هدى، أو الاغترار بهم؛ فما ضل من ضل من الخلق إلا بسبب التقليد الأعمى لأئمة الضلال وعلماء السوء.

٢٧- تبكيت أهل الكفر، وتقريعهم، وإهانتهم؛ بسبب كفرهم وضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

٢٨- إثبات الأسباب، وأن اكتساب الكفر والضلال والمعاصي سبب للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

توعد عز وجل في الآيات السابقة المكذبين بالآيات، المستكبرين عنها، بمصاحبة النار والخلود فيها، ثم أكد ذلك بذكر عدم فتح أبواب السماء لهم، وحرمانهم من دخول الجنة؛ ليدل على أن خلودهم في النار أبدي سرمدي.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾، أي: كذبوا بآياتنا وأنكروها وجحدوها بقلوبهم فلم يصدقوا بها. واستكبروا عن الانقياد لها، والعمل بها بجوارحهم.

والسين والتاء: للمبالغة.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتذكير وتخفيف التاء: «لَا يُفْتَحُ»، وقرأ أبو عمرو بالتأنيث وتخفيف التاء: «لَا تُفْتَحُ»، وقرأ الباقون بالتأنيث وتشديد التاء: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾.

والتشديد: نفي لفتحها بابًا بعد باب، والتخفيف: نفي لفتحها مرة واحدة.

والمعنى: نفي فتحها مطلقًا على أي حال كان ذلك.

أي: لا تفتح لأعمالهم، ولا لدعائهم، ولا لأرواحهم أبواب السماء؛ قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ومفهوم هذا أن الكلم

غير الطيب والعمل غير الصالح- وهو كلم الكفار وعملهم- لا يرفع.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللّعنة إلى السّماء، فتغلق أبواب السّماء دونها، ثمّ تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثمّ تأخذ يمينًا وشمالًا، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الّذي لعن؛ فإن كان لذلك أهلًا؛ وإلّا رجعت إلى قائلها**»(١).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: «**وإنّ العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدّنيا، وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السّماء ملائكةٌ سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت حتّى يجلس عند رأسه، فيقول: أيّتها النّفس الخبيثة، اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب. قال: فتفرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السّفّود من الصّوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتّى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملإٍ من الملائكة إلّا قالوا: ما هذا الرّوح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلانٍ. بأقبح أسمائه الّتي كان يسمّى بها في الدّنيا؛ حتّى ينتهى به إلى السّماء الدّنيا، فيستفتح له فلا يفتح له**»- ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾- «**فيقول الله عزّ وجلّ: اكتبوا كتابه في سجّينٍ في الأرض السّفلى، فتطرح روحه طرحًا**»، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾»(٢).

وقد رواه بعضهم مختصرًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «**فإذا كان الرّجل السّوء قالوا: اخرجي أيّتها النّفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمةً، وأبشري بحميمٍ وغسّاقٍ، وآخر من شكله أزواجٌ. فلا تزال تخرج، ثمّ يعرج بها إلى السّماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلانٌ. فيقال: لا مرحبًا بالنّفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمةً؛ فإنّه لا يفتح لك أبواب السّماء**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٠٥.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٦٤- ٣٦٥، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت ٤٢٦٢، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)

قال ابن القيم: «فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم؛ بل أغلقت عنها- لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة؛ بل أغلقت، وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم؛ حتى وصلت إلى الله سبحانه، فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه، وقامت بين يديه، فرحمها، وأمر بكتابة اسمها في عليين»(١).

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، ﴿يَلِجَ﴾، أي: يدخل، ﴿ٱلْجَمَلُ﴾: البعير المعروف الذي هو أكبر الحيوانات جسمًا.

﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، أي: في ثقب إبرة الخياطة، وهو أضيق الأشياء، أي: ولا يدخل هؤلاء المكذبون المستكبرون الجنة إلى غاية أن يدخل الجمل في ثقب إبرة المخيط، وهذا أمر في غاية الاستحالة.

أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك دخول هؤلاء المكذبين المستكبرين الجنة محال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مثل الجزاء بهذا الحرمان من الخير ومن دخول الجنة، ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مرتكبي الجرائم؛ من التكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

بعد أن ذكر حرمانهم من الخير، واستحالة دخولهم الجنة، ذكر ما لهم من سوء العذاب في جهنم.

قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ أي من النار، ﴿مِهَادٌ﴾، أي: فرش من تحتهم.

وسميت النار بـ«جهنم»: لجهمتها، وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

وابن خزيمة في التوحيد ١/ ٢٧٦- ٢٧٧.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٢.

﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، أي: لحف وأغطية من جهنم تغشاهم وتغطيهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: مثل الجزاء بهذا العذاب الأليم، ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك بالله، والتكذيب بآياته، والاستكبار عن الانقياد لها والعمل بها.

ووصفهم أولًا بالمجرمين، ثم بالظالمين؛ لإجرامهم وظلمهم. وأظهر في مقام الإضمار في الموضعين فلم يقل: «وكذلك نجزيهم»؛ لوصفهم بالإجرام والظلم، وأن ذلك سبب حرمانهم من فتح أبواب السماء لهم من دخول الجنة، وليشملهم هذا الوعيد وغيرهم من المجرمين الظالمين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

لما ذكر ما أعد للمكذبين من العذاب؛ أتبع ذلك بذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا بجوارحهم الأعمال الصالحات التي بها تمام الإيمان؛ لأن الإيمان في اللغة التصديق، وفي الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

واكتفى بذكر الصفة في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وحذف الموصوف- وهو «الأعمال»- لأن المهم في العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، وموافقًا لشرعه.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ هذا اعتراض بين المبتدأ؛ وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وبين خبره؛ وهو قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، والغرض من هذا الاعتراضِ الاحتراز من أن يتوهم تكليف النفس ما لا تستطيعه من عمل الصالحات.

أي: لا نكلف من العمل «نفسًا إلا وسعها».

«إلا»: أداة حصر، أي: إلا ما في طاقتها وما تستطيعه، وفي هذا إشارة إلى أن الإيمان والعمل به سهل.

فنفى عز وجل بهذا أن يكلف نفسًا فوق وسعها وطاقتها، كما قال تعالى: ﴿لَا

يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبر الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنويهًا بعلو مرتبتهم ورفعة شأنهم، أي: أولئك أهل الجنة وملازموها وسكانها.

وفي الآية قصر ملازمة الجنة عليهم دون غيرهم.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: هم فيها ماكثون ومقيمون إقامة أبدية لا تحول ولا تزول.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

ذكر في الآية السابقة خلود أهل الجنة فيها، وأمنهم من الخروج منها، ثم ذكر ما هم فيه من النعيم المعنوي؛ وهو سلامة صدورهم من الغل الذي لا يسلم منه أحد إلا أهل الجنة. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿وَنَزَعْنَا﴾، أي: اقتلعنا وأخرجنا، وعبر بالماضي عن المستقبل؛ للتنبيه على تحقيق وقوعه.

﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة.

﴿مِّنْ غِلٍّ﴾، «من» لبيان جنس «ما»، أو حالية، فتتعلق بمحذوف، أي: كائنًا من غل.

و«غل»: نكرة في سياق النفي، تفيد العموم، أي: ونزعنا الذي في صدورهم من كل غل. والغل: الحقد والعداوة والضغينة.

والمعنى: وأزلنا الذي في صدورهم من أي غل كان مما يحصل بين الناس في الدنيا، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الآية: ٤٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النّار؛ حبسوا بقنطرةٍ بين الجنّة والنّار فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدّنيا، حتّى إذا نقّوا وهذّبوا أذن لهم بدخول الجنّة، فوالّذي نفس محمّدٍ ﷺ بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنّة أدلّ بمنزله كان في الدّنيا**»(١).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسيل من تحتهم في روضات الجنان، ومن تحت أشجارها، ومن خلال قصورها، وتحت غرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهي تجري في غير أخدود، يفجرونها كما شاؤوا وأين شاؤوا.

قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان(٢)

وهي أنواع، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]».

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، أي: يقولون هذا في خاصتهم ونفوسهم وفي مجامعهم.

والتعبير عن المستقبل بالماضي؛ للتنبيه على تحقق وقوعه؛ كما في: ﴿وَنَزَعْنَا﴾.

والإشارة في قوله: ﴿لِهَٰذَا﴾ إلى جميع ما هم فيه من النعيم، وإلى أسبابه؛ وهي إرشادهم، وتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

أي: الحمد لله الذي منَّ علينا بالإيمان والعمل الصالح، وبوأنا بسبب ذلك ما نحن فيه من النعيم في هذه الجنان.

قال ابن القيم: «يحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- قصاص المظالم ٢٤٤٠.

(٢) انظر: «النونية» (ص٢٢٩).

الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم.

ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلى طريق الجنة؛ كان أحسن وأبلغ»(١).

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: قرأ ابن عامر: «مَا كُنَّا» بدون واو، وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَمَا كُنَّا﴾.

وجملة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ في محل نصب، معطوفة على جملة مقول القول، واللام: لام الجحود والتوكيد.

﴿لَوْلَآ﴾: حرف امتناع لوجود، فيه معنى الشرط.

﴿أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، أي: لولا هداية الله لنا موجودة.

وهذا يؤذن بعظم نعمة الله تعالى عليهم، وإكبارهم لهذه النعمة؛ كما كان نبينا ﷺ يردد وأصحابه في حفر الخندق:

وَاللهِ لَـــوْلَا اللهُ مَـــا اهْتَـــدَيْنَا وَلَا تَصَـــدَّقْنَا وَلَا صَـــلَّيْنَا(٢)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلّ أهل الجنّة يرى مقعده من النّار؛ فيقول: لولا أنّ الله هداني! فيكون له شكرًا، وكلّ أهل النّار يرى مقعده من الجنّة؛ فيقول: لو أنّ الله هداني! فيكون له حسرةً**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلّ أهل النّار يرى منزله من الجنّة؛ فيقولون: لو هدانا الله! فتكون عليهم حسرةً، وكلّ أهل الجنّة يرى منزله من النّار؛ فيقولون: لولا أن هدانا الله! فهذا شكرهم**»(٤).

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٣

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٠٤، ومسلم في الجهاد والسير ١٨٠٣ من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٢، ٥٤١، وابن مردويه. فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤١٢.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٠٠، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٥٤)، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٤٣٥- ٤٣٦

وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه استذكار وثناء منهم على الرسل وما جاؤوا به، واللام في قوله: ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لقد، «قد»: حرف تحقيق.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والحال، أي: متلبسين بالحق، أي: والله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالأمر الثابت، والصدق فيما يدعون إليه من الإيمان والعمل الصالح، وفيما وعدونا على ذلك من الجنان وما فيها من النعيم.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: في هذا تهنئة وتكريم لهم.

وأبهم المنادِي، ليعم كل مناد لهم بذلك، فيحتمل أن المنادي لهم بذلك هو الله عز وجل، أو ملائكته، أو نداء من بعضهم لبعض، أو ذلك كله.

﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾، «أن» تفسير لـ«نودوا»، أي: نودوا بأن قيل لهم: «تلكم الجنة أورثتموها»، أي: أورثكم الله إياها، وأقطعها لكم دون غيركم، وخصكم بها دون منازع.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملونه، أو بسبب عملكم، أي: بسبب إيمانكم وعملكم الصالح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**واعلموا أنّ أحدكم لن يدخله عمله الجنّة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا؛ إلّا أن يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ**»(١).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: قال: «**ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى- تمني المريض الموت. ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٧.

وأشار إلى الجنة بإشارة البعيد «تلكم»؛ لتعظيم شأن الجنة، وتعظيم المنة بها.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾:

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، أي: ونادى أهل الجنة وسكانها أهل النار وسكانها.

﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾، «أن»: مفسرة لـ«نادى»، و«قد» للتحقيق، «وجدنا»: لقينا وألفينا، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: قائلين لهم قد وجدنا ولقينا الذي وعدنا ربنا من الجنة وما فيها من النعيم «حقًّا»، أي: ثابتًا وصدقًا وحقيقة.

وفي هذا اغتباط منهم بحالهم، وتحسير وتنديم لأصحاب النار.

﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾، الفاء عاطفة، و«هل» للاستفهام؛ وهو هنا للتقريع والتوبيخ. وحذف مفعول «وعد» للإيجاز؛ لدلالة مقابله عليه في قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾.

أي: فهل وجدتم ولقيتم الذي وعدكم ربكم من النار وما فيها من العذاب الأليم على ما أنتم فيه من الكفر والتكذيب «حقًّا»، أي: ثابتًا وصدقًا وحقيقة؟

و«الوعد» في الغالب يطلق على الوعد بالخير، و«الوعيد» يطلق على الشر.

قال عامر بن الطفيل:

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ العَمِّ مَا عِشْتُ صَوْلَتِي ... وَيَأْمَنُ مِنِّي صَوْلَةَ المُتَوَعِّدِ
وَإِنِّي وإِنْ أَوْعَدتُّهُ أَوْ وَعَدتُّهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي(١)

وقد يطلق «الوعد» بمعنى «الوعيد» بالشر؛ كما في قوله: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

والمقصود من الآية- كما سبق- التقريع والتوبيخ لهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٥- ٥٩].

---

(١) انظر «الصحاح» للجوهري، مادة: «وعد».

وكما تقول الملائكة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦].

وكما قرَّع ﷺ قتلى بدر وهم في القليب فنادى: «**يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة**»- وسمى رؤوسهم- «**هل وجدتّم ما وعد ربّكم حقًّا؟ فإنّي وجدتّ ما وعدني ربّي حقًّا**». فقال عمر رضي الله عنه: تخاطب قومًا قد جيّفوا؟!. فقال: «**والّذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا**»(١).

﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾ قرأ الكسائي: «نَعِمْ» بكسر العين، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿نَعَمْ﴾، أي: وجدنا ما وعدنا ربنا على الكفر حقًّا.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾، أي: أعلم معلم ونادى مناد بين الفريقين: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب وعاصم: بإسكان نون ﴿أَن﴾ على أنها تفسيرية، ورفع لعنة ﴿أَن لَّعْنَةُ﴾، أي: بأن قال: أن لعنة الله على الظالمين.

وقرأ الباقون بتشديد نون «أنَّ» على أنها مؤكدة، ونصب لعنة: «أنَّ لعنةَ».

والمعنى: أن لعنة الله واقعة ومستقرة «على الظالمين» بالشرك والصد عن دينه.

ولعنة الله لهم: إبعاد عن رحمته وعن كل خير، وعن جنته.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

هذه الآية تفسير وبيان للمراد بالظالمين.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يصدون ويعرضون بأنفسهم عن دين الله، ويصدون غيرهم عنه، ويصرفونهم عن الدخول فيه.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الضمير يعود إلى «سبيل الله»، والسبيل يؤنث ويذكر؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- قتل أبي جهل ٣٩٧٦، ومسلم في الجنة- عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ٢٨٧٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وانظر: «سيرة ابن هشام» ١٨/ ٦٣٨ – ٦٣٩.

سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، أي: ويبغون سبيل الله «عوجًا»، والعوج: ضد الاستقامة، أي: يطلبون ويحاولون وصم «سبيل الله» بالعوج، ويلتمسون لها النقائص- وهيهات لهم ذلك- ليصرفوا الناس عن دين الله.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٧- ٨].

ويريدون تغيير دين الله وشرعه عما هو عليه من الاستقامة؛ حتى يدين الناس بالباطل ويتركوا الدين الحق.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، أي: وهم بالدار الآخرة والقيامة والحساب والجزاء «كافرون»، أي: جاحدون لذلك، لا يؤمنون بلقاء الله، ولا بالبعث والجزاء على الأعمال، ولا بالجنة والنار؛ ولهذا صدوا عن سبيل الله وابتغوا لها العوج؛ لأنهم لا يخافون عقابًا، ولا يرجون ثوابًا، وبهذا استحقوا النار والطرد عن رحمة الله وجنته، ووصفهم بالظلم.

والتعبير بالجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات الكفر فيهم، وتمكنه منهم.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦﴾:

قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، أي: وبين أهل الجنة وأهل النار «حجاب»، أي: سور حاجز ومانع يمنع وصول أهل النار إلى الجنة؛ وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

أي: باطنه مما يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره مما يلي الكفار من قبله العذاب، وهو المسمى بالأعراف في قوله:

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ الأعراف: جمع «عرف»؛ وهو أعلى الشيء منه، ومنه سمي عرف الفرس الشعر الذي على رقبته، وعرف الديك الذي في أعلى رأسه.

والمراد بالأعراف: الحجاب والسور المرتفع بين الجنة والنار ويشرف على الدارين، ويُنظر منه حال الفريقين.

﴿رِجَالٌ﴾، أي: رجال من بني آدم.

وقد اختلف في المراد بهم، والثابت عن الصحابة وأكثر المفسرين أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار، ومنعتهم سيئاتهم المساوية من دخول الجنة(١).

قال ابن القيم بعد أن ذكر هذا القول وذكر بعده بقية الأقوال: «والثابت عن الصحابة هو القول الأول، وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة، ولا تكاد تثبت أسانيدها، وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة»(٢).

وقال ابن كثير(٣): «واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف: مَن هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد؛ وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله».

وقال السعدي(٤): «والصحيح أنهم قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة».

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، أي: يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾، أي: بعلاماتهم التي بها يُعرفون ويُميزون.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يعرفون أهل النار بسواد الوجوه، وأهل الجنة ببياض الوجوه»(٥).

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، أي: ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة: ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، «أن»: تفسيرية للنداء، أي: قائلين: ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يحيونهم بتحية الإسلام تحية أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

---

(١) انظر «جامع البيان» ١٠/ ٢١٢ وما بعدها، و«الزهد لابن المبارك» زيادة نعيم بن حماد ص١٢٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٤- ٢١٦.

(٣) في «تفسيره» ٣/ ٤١٤.

(٤) في «تفسير الكريم الرحمن» ٣/ ٣٤.

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٢٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٧٨

دعاء لهم بالسلامة، وبشارة لهم بذلك.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الضمير في الجملتين يعود إلى أصحاب الأعراف، أي: لم يدخلوا الجنة بعد ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، أي: وهم يطمعون في دخولها، أي: يرجون دخولها.

أي: إذا رأوا أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في دخول الجنة معهم.

وقيل: الضمير في الجملتين يعود إلى أهل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف من غير اختيارهم ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أي: جهة أصحاب النار، ورأوا سواد وجوههم وسوء حالهم، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾، أي: قالوا مستجيرين بالله مما فيه أهل النار: يا ربنا ﴿لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا تجعلنا معهم في النار.

قال ابن القيم: «هذا دليل على أنه مكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله ألا يجعلهم معهم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أن أبواب السماء لا تفتح لأعمال المكذبين بآيات الله، المستكبرين عنها، ولا لأرواحهم، عقابًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾. ومفهوم هذا أن أبواب السماء تفتح للمؤمنين المصدقين، ولأعمالهم وأرواحهم. وهذا ثابت.

٢- استحالة دخول المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

٣- التحذير من التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها؛ لأن ذلك سبب للحرمان

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٧.

من رحمة الله تعالى وجنته.

٤- أن المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها من المجرمين ومن الظالمين؛ لهذا استحقوا هذا الحرمان من فتح أبواب السماء لهم، ومن دخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥- عقوبة كل من كان من المجرمين الظالمين بالحرمان من فتح أبواب السماء لهم ولأعمالهم، ومن دخول الجنة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦- إحاطة عذاب جهنم بالمجرمين الظالمين من فوقهم ومن تحتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ [الزمر: ١٦].

٧- شدة ظلمة النار وبعد قعرها؛ لهذا سميت «جهنم».

٨- جمع القرآن الكريم بين الترهيب والترغيب، والوعيد والوعد؛ لذكره ما أعد للمؤمنين بعد أن ذكر ما أعد للظالمين المجرمين.

٩- لا بد في الإيمان من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح؛ أي بين الإيمان الباطن والظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: يكفي مجرد إيمان الباطن.

١٠- أن المهم في الإيمان هو إيمان القلب والباطن؛ لهذا قدم على العمل.

١١- لا بد في العمل أن يكون صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: أن يكون خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١٢- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا؛ لهذا اكتفى بذكر الصفة في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وحذف الموصوف؛ وهي الأعمال.

١٣- أن الله لا يكلف نفسًا فوق طاقتها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾.

ويفهم من هذا يسر الإيمان والعمل على من وفقه الله.

١٤- الاحتراز من توهم تكليف ما لا يطاق؛ لقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ اعتراضًا بين المبتدأ: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وخبره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

١٥- وعد المؤمنين سكنى الجنة والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٦- سلامة قلوب أهل الجنة من الغل والحقد والضغينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وهذا من أعظم النعيم المعنوي لأهل الجنة. نسأل الله تعالى من فضله.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾»(١).

وسلامة الصدور في الدنيا أمر بعيد المنال غالبًا؛ ولهذا رُويَ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلّغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئًا؛ فإنّي أحبّ أن أخرج إليهم وأنا سليم الصّدر**»(٢).

١٧- اغتباط أهل الجنة وحمدهم الله عز وجل على هدايته لهم، وتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، الذي بوأهم به الجنة وما فيها من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

١٨- أن الهادي إلى الإيمان وإلى خيري الدنيا والآخرة هو الله تعالى وحده؛ لقول أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾.

١٩- أن من أعظم شكر الله تعالى: الاعتراف بنعمة الهداية وغيرها من نعمه المعنوية والحسية، ونسبتها إليه وحده.

٢٠- إثبات صدق الرسل- عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾، وشهادة المؤمنين لهم بالصدق في الدنيا ويوم القيامة.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين، لقولهم: ﴿رَبِّنَا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٩٩ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٦٠، والترمذي في المناقب ٢٨٩٦ وقال: «حديث غريب».

٢٢- تهنئة المؤمنين بدخولهم الجنة وتوريثها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾.

٢٣- أن الإيمان والأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة ووراثتها؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

٢٤- تقريع أهل الجنة لأهل النار، وتوبيخهم لهم على تكذيبهم وعد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾.

٢٥- إثبات مناداة وتكليم أهل الجنة لأهل النار، وتكليم أهل النار لأهل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾، أي: قال أصحاب النار: نعم.

٢٦- إثبات ربوبية الله لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾.

٢٧- إقرار المكذبين والمستكبرين بصدق ما توعدوا به من العذاب في النار بعدما دخلوها وأحاطت بهم من فوقهم ومن تحتهم، وأنى لهم الإنكار حينئذٍ؟ وأنى ينفعهم الإقرار؟

٢٨- الأذان والإعلان بين أهل الجنة وأهل النار: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: واقعة ومستقرة عليهم، وهم مستحقون لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٩- أن سبب لعنة المذكورين، وطردهم عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار؛ هو صدهم عن سبيل الله، وكونهم يبغونها عوجًا، وكفرهم بالآخرة ولقاء الله والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

٣٠- التحذير من أسباب دخول النار والطرد عن رحمة الله؛ من الظلم، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجًا، والكفر بالآخرة.

٣١- وجود حجاب وسور بين أهل الجنة وأهل النار؛ وهو الأعراف؛ لقوله

تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾.

٣٢- أن على الأعراف بين الجنة والنار رجالًا يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾.

٣٣- أن لكل من أهل الخير وأهل الشر علامات يعرفون بها.

٣٤- تحية أصحاب الأعراف لأهل الجنة دعاء وبشارة لهم بدوام السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾، أي: ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة.

٣٥- طمع ورجاء أهل الأعراف- حال حبسهم على الأعراف، وقبل دخولهم الجنة- أن يدخلوها؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾، ويحتمل أن هذا الطمع من أهل الجنة قبل دخولهم لها.

٣٦- استجارة أهل الأعراف إذا صرفت أبصارهم جهة أهل النار من غير قصد بربهم، وسؤالهم له ألا يجعلهم مع القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وذلك لما يرون من سواد وجوههم وسوء حالهم.

٣٧- أن أهل النار هم الظالمون، وسبب دخولهم النار هو ظلمهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

ذكر في الآيات السابقة مناداة أهل الأعراف لأصحاب الجنة وسلامهم عليهم، ثم ذكر مناداتهم لأهل النار.

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾، أي: يعرفونهم بعلاماتهم وصفاتهم الذاتية وأشخاصهم؛ قائلين لهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾، «ما»: استفهامية للتوبيخ، أي: ماذا أغنى عنكم جمعكم المال وكثرتكم؟ أي: ماذا دفع عنكم جمعكم؟ وماذا نفعكم؟

ويجوز كونها نافية، أي: ما دفع عنكم جمعكم وما نفعكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [آل عمران: ١٠].

قال ابن القيم في كلامه على قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾؛ قال: «وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم»(١).

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، الواو عاطفة، و«ما» مصدرية، أي: ما أغنى عنكم ولا دفع عنكم العذاب جمعكم واستكباركم عن الحق وعلى الخلق، بل صرتم إلى ما صرتم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٧.

إليه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: أهؤلاء الذين أدخلهم الله الجنة ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾؟ هذا من كلام أصحاب الأعراف للرجال الذين يعرفونهم بسيماهم من أهل النار.

والاستفهام: للتوبيخ والتقريع، والإشارة إلى أناس من المؤمنين من أهل الجنة ممن كان يستضعفهم المشركون في الدنيا ويحتقرونهم، مثل: سلمان، وبلال، وخباب، وصهيب.

﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾، أي: حلفتم أيها المشركون ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾، أي: لا يصيبهم الله برحمة، أي: انظروا لهؤلاء الذين حلفتم لا يصيبهم الله برحمة كيف نالتهم رحمته، فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون فيها.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، أي: قالوا لهم، أو قيل لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، أي: لا خوف عليكم فيما تستقبلون، ولا أنتم تحزنون على ما مضى ولا على ما خلفتم، كما قال تعالى في سورة المطففين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [الآيات: ٢٩- ٣٦].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ تهنئة ودعاء لهم بالبقاء والديمومة في الجنة بعدما دخلوها، وتبكيتًا لأهل النار؛ لأن السياق يدل على أن أهل الجنة قد دخلوا الجنة، وأن أهل النار قد دخلوا النار.

وقيل: إن قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ من كلام الملائكة خطابًا للمشركين.

والإشارة في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ لأصحاب الأعراف، والخطاب لهم في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾:

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾:

هذا نداء استجداء واستغاثة من أهل النار- بعدما بلغ منهم العذاب كل مبلغ، وأحسوا بشدة الظمأ المفرط، والجوع المؤلم- بأهل الجنة قائلين لهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

و«أن»: تفسيرية، أي: أن أعطونا من الماء، ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، أي: أو من الذي أعطاكم الله من الطعام والفواكه وغير ذلك.

و«الفيض»: يطلق على فيض الماء وفيض المال، وفي الحديث: «**ويفيض المال حتّى لا يقبله أحدٌ**»(١).

وفي قوله: ﴿أَفِيضُواْ﴾ إشارة لعلو مكان أهل الجنة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: أجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾، أي: حرم ماء الجنة وطعامها كونًا على الكافرين بسبب كفرهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾، «الذين»: نعت للكافرين، أي: الذين جعلوا دينهم لهوًا ولعبًا، واتخذوه سخريًّا، واعتاضوا عنه اللهو واللعب.

واللهو: ما يُتلهى به، واللعب: ما لا فائدة به.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٢٢، ومسلم في الإيمان ١٥٥، والترمذي في الفتن ٢٢٣٣، وابن ماجه ٤٠٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها، وتنافس الخلق فيها، فأنستهم دينهم وما خلقوا له، وأعرضوا عن الآخرة وغفلوا عنها.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾، أي: نتركهم. ومن تركه الله حرمه رحمته؛ فهو هالك لا محالة ومصيره إلى العذاب في النار.

﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾، أي: كما نسوا وتركوا لقاء يومهم هذا، أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا»(١).

وقال ابن كثير(٢): «أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أكرمك، وأسوّدك، وأزوّجك، وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنّك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإنّي أنساك كما نسيتني**»(٣).

﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، الواو عاطفة، أي: وكما كانوا بآياتنا يجحدون، أي: يكذبون.

والكاف في الموضعين فيها معنى التعليل، أي: لأجل نسيان لقاء يومهم هذا، ولأجل جحدهم آياتنا.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٣٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٤٩٢.

(٢) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٠.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨. وروى الترمذي في صفة القيامة نحوه ٢٤٢٨ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

والتعليل في الموضع الأخير واضح.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾:

لما ذكر ما صار إليه، المكذبون من الخسارة في الآخرة بدخول النار، والحرمان من الجنة؛ ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدار الدنيا بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتاب؛ مما لا عذر لهم بعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾، الواو استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لقد جئناهم بكتاب، و«قد»: حرف تحقيق.

والضمير في قوله: ﴿جِئْنَٰهُم﴾ يعود إلى الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، واغتروا بالحياة الدنيا، وكذبوا بآيات الله وجحدوها.

﴿بِكِتَٰبٍ﴾، وهو القرآن الكريم، ونكِّر للتعظيم، أي: بكتاب عظيم هو أعظم الكتب كلها، وأفضل كتب الله عز وجل على الإطلاق.

﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيناه ووضحنا ما فيه من الآيات، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]؛ وذلك ببيان معانيه وأحكامه ومواعظه وقصصه وأخباره وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم منا، ونكر «علم» للتعظيم، أي: عالمين أعظم العلم بما فصلناه به، وبما يحتاجه الخلق في كل زمان ومكان، وبكل شيء، تفصيل من أحاط بكل شيء خبرًا، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وأيضًا: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: مشتملًا على علم.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: حال كونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون، أي: هداية لهم من الضلال؛ ببيانه الحق من الباطل، والغي من الرشاد، ورحمة لهم يحصل لهم به الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، «هل»: حرف استفهام بمعنى النفي، أي: ما ينظرون، و«إلا»: أداة حصر؛ كما في قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

ومعنى ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، أي: إلا وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [الآية: ١٠٠].

أي: إن هؤلاء الذين كذبوا بهذا القرآن العظيم ولم ينقادوا له ما ينتظرون إلا أن يقع ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد، فيحل بهم النكال والعذاب، ويحرمون النعيم والثواب. وفي هذا تهديد للكافرين.

قال ابن القيم: «فمجيء تأويله: نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، والمعاد وتفاصيله، والجنة والنار.

ويسمى تعبير الرؤيا: تأويلًا بالاعتبارين؛ فإنه تفسير لها، وهو عاقبتها وما تؤول إليه»(١).

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: يوم القيامة.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: الذين تركوا العمل به وتناسوه؛ وهم المشركون والكفار.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل ذلك اليوم، أو من قبل إتيان تأويله، أي: في الدنيا، أي: يقول بعضهم لبعض متندمين متأسفين، متحسرين متحيرين: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

أي: قد جاءت رسل ربنا، أي: بالأمر الحق الثابت والصدق فيما دعوا إليه من

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢١٧، ٢١٨.

الدين والشرع، وفيما أخبروا به من الوعد والوعيد.

وهذا اعتراف بخطئهم في تكذيبهم الرسول ﷺ وما أخبر به عن الرسل قبله، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، ولهذا جمع الرسل في قوله: ﴿رُسُلُ رَبِّنَا﴾.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«هل»: حرف استفهام يحتمل أن يكون بمعنى التمني.

﴿مِن شُفَعَاءَ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة- من حيث المعنى- للعموم، أي: فهل لنا من أي شفعاء يشفعوا لنا أيًّا كان أولئك الشفعاء.

وهذا بعد يأسهم وتخلي شركائهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وذكر تعالى عنهم قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

و«الشفعاء»: جمع «شفيع»؛ وهو: من يتوسط في جلب الخير، أو دفع الضر.

﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ معطوف على ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾، أي: أو نرجع إلى الدنيا.

﴿فَنَعْمَلَ﴾ معطوف على ﴿نُرَدُّ﴾، ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي: فنؤمن ونعمل عملًا صالحًا ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ سابقًا في الدنيا؛ من الكفر، والتكذيب بآيات ربنا، وارتكاب الموبقات والمعاصي.

وهم في هذا كاذبون، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بإدخالها النار والخلود فيها، وتفويتها الربح بالجنة دار القرار. وماذا ربح من خسر نفسه؟! قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ الزمر﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـًٔاۚ﴾ [غافر: ٧٣ – ٧٤].

والمعنى: وذهب عنهم وزال الذي كانوا ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، أي: الذي كانوا يكذبون ويختلقون من الآلهة من دون الله تعالى، ويزعمون أنهم شركاء لله تعالى، وأنهم يشفعون لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ١٣].

الفوائد والأحكام:

١- مناداة أصحاب الأعراف رجالًا من أهل النار يعرفونهم بسيماهم، وتوبيخهم لهم بقولهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

٢- أن كثرة العدد والعدة وكثرة المال لا تغني يوم القيامة عن أهلها شيئًا؛ فلا تدفع عنهم عذابًا، ولا تجلب لهم ثوابًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾.

٣- أن الاستكبار عن اتباع الحق، وعلى الخلق؛ لا يغني عن أهله شيئًا، بل هو سبب لهلاكهم.

٤- لا أحد يستطيع منع رحمة الله تعالى عن عباده، وحرمانهم من جنته؛ لقوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

٥- خيبة ظنون الكفار والمستكبرين، وكذبهم، وحنثهم في أيمانهم الفاجرة؛ بأن المؤمنين لا ينالهم الله برحمة.

٦- أن مآل المؤمنين إلى الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ تكريمًا وتهنئة لهم.

٧- انتفاء الخوف والحزن عن أهل الجنة- نسأل الله تعالى من فضله- لقوله تعالى:

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فلا هم يخافون مما يستقبلهم، ولا يحزنون على ما مضى وما فاتهم وما خلفوا.

٨- استغاثة أهل النار بعد أن يشتد بهم الظمأ والجوع بأهل الجنة؛ بأن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٩- أن الرزق كله من الله تعالى؛ فلا رازق سواه في الدنيا، وفي الآخرة بالجنة.

١٠- تحريم ماء الجنة وطعامها على الكافرين؛ لقول أهل الجنة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١١- أن سبب حرمان الكافرين من الجنة ونعيمها هو كفرهم، واتخاذهم دينهم لهوًا ولعبًا، واغترارهم بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٢- يجب الحذر من اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا، والاغترار بالحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وكما قيل:

مَتَاعُ غُرُورٍ لَا يَدُومُ سُرُورُهَا ... وَأَضْغَاثُ حُلْمٍ خَادِعٍ بِبَهَائِهِ
فَمَنْ أَكْرَمَتْ يَوْمًا أَهَانَتْ ضُحَى غَدٍ ... وَمَنْ أَضْحَكَتْ قَدْ آذَنَتْ بِبُكَائِهِ
فَلَذَّاتُهَا مَسْمُومَةٌ وَوُعُودُهَا ... سَرَابٌ فَمَا الظَّامِي يَرْوَى مِنْ عَنَائِهِ
وَكَمْ فِي كِتَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ ذَمِّهَا ... وَكَمْ ذَمَّهَا الأَخْيَارُ مِنْ أَصْفِيَائِهِ(١)

١٣- عقوبة الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا واغتروا بالحياة الدنيا؛ بنسيان الله، أي: تركه لهم؛ لنسيانهم لقاء القيامة، وجحدهم بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ

(١) الأبيات لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص٣٨.

نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ومن نسيه الله وتركه فهو لا محالة هالك.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾.

١٥- إثبات القيامة ولقاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾.

١٦- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

١٧- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسول ﷺ، وإنزال القرآن العظيم الذي فيه تفصيل وعلم كل شيء مما يحتاجه الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

١٨- علم الله تعالى التام الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

١٩- أن القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يتبعونه وينتفعون به؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٠- تهديد الكافرين بوقوع ما أخبر به القرآن من الوعيد لهم بعذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾.

٢١- اعتراف المكذبين الذين نسوا القرآن عند معاينة تأويله يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل حق، حين لا ينفعهم الاعتراف؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- أن الإيمان بالرسول ﷺ موجب للإيمان بما سبقه من الرسل، وأن ما جاؤوا به حق؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّنَا﴾.

٢٤- ندم الكافرين بالله ولقائه، الجاحدين لآياته، وحسرتهم، وطلبهم وتمنيهم الشفعاء لهم أو الرد إلى الدنيا ليعملوا صالحًا؛ لقولهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، وهيهات لهم ذلك.

٢٥- تحقق خسارة الكافرين لأنفسهم يوم القيامة بإيرادها النار وبئس القرار، وحرمانها من رحمة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، وماذا ربح من خسر نفسه؟ نسأل الله العافية والسلامة.

٢٦- ذهاب وزوال ما كان يفتريه الكفار من الشفعاء ممن أشركوا بهم مع الله، وعبدوهم من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

٢٧- لا شافع للكفار يوم القيامة، ولا سبيل إلى الرد إلى الدنيا ليعملوا غير الذي كانوا يعملون، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه كما ذكر الله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: إن خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم، والخطاب لجميع الخلق، ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود وحده لا شريك له.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ صفة لاسم الجلالة. وهي صفة كاشفة لبعض معاني الربوبية؛ وهو الخلق، وليست صفة مقيدة؛ لأنه ليس هناك رب خلق ورب لم يخلق، بل الرب الخالق واحد هو الله عز وجل وحده.

والمعنى: الذي أوجد السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما فيهما- على عظمها وسعتها وبديع خلقها وإتقانها- على غير مثال سبق.

وابتدأ بذكرهما؛ لما في عظيم خلقهما من الدلالة على تفرده بالربوبية والإلهية، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وأكد الخبر بـ«إن»؛ للعناية والاهتمام، وللرد على من ينكر ربوبية الله تعالى، أو ألوهيته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ

أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ٩- ١١].

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا، قال المفسرون وغيرهم من أهل العلم:

وهي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة؛ وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام.

وقال ابن كثير[1]: «فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت وهو القطع.

وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده- ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه- قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «**خلق الله عزّ وجلّ التّربة يوم السّبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشّجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثّلاثاء، وخلق النّور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدّوابّ يوم الخميس، وخلق آدم عليه السّلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وفي آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى اللّيل**»[2].

قال ابن كثير: «فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه، عن حجاج- وهو ابن محمد الأعور- عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3]، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعًا، والله أعلم».

وهو سبحانه وتعالى ذو قدرة تامة على خلقها في أقل من ذلك، بل بلمح بصر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ذكر الله عز وجل هذا تأكيدًا له في سبع سور من القرآن: في هذه السورة، وفي سورة يونس، والرعد، وطه، والفرقان، والسجدة، والحديد.

و«ثم» للعطف مع التراخي الرتبي، و«استوى» بمعنى: «علا وارتفع»، أي: ثم

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، وأحمد ٢/ ٣٢٧.

(٣) وقد ذكر الله عز وجل هذا في سبع سور من القرآن الكريم: الأعراف، ويونس، وهود، والفرقان، والسجدة، و«ق»، والحديد.

استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

عن وهب بن منبه، قال: كنت عند مالك، فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ و«كيف» عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة».

وفي رواية قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(١).

وعن سفيان بن عيينة، قال: سأل رجل مالكًا، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى يا أبا عبدالله؟ فسكت مالك مليًّا حتى علاه الرحضاء، ثم سري عنه؛ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وإني لأظنك ضالًّا».

وفي بعضها: «وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني»(٢).

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، وعاصم في رواية أبي بكر: «يُغَشِّي» بضم الياء، وفتح الغين، وتشديد الشين. وقرأ الباقون: ﴿يُغْشِى﴾ بضم الياء، وسكون الغين، وتخفيف الشين.

والجملة في محل نصب على الحالية من اسم الجلالة، أي: يجعل الليل يغطي النهار ويخفيه ويذهبه ويزيله بظلامه، ويجعل النهار يغطي الليل ويخفيه ويذهبه ويزيله بضيائه.

أي: يُذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، ويدخل الليل في النهار،

---

(١) أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (رقم ٦٦٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (رقم ٨٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (رقم ١٠٤)، وانظر: «محاسن التأويل» (٥/ ٧٠).

(٢) انظر: «الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي (ص٣٨)، «الملل والنحل» (١/ ٩٣)، «العرش» للذهبي (١/ ١١٧-١١٨).

ويدخل النهار في الليل، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، الحديد: ٦].

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ الجملة في محل نصب على الحال من الليل والنهار.

و«حثيثًا»: صفة لمصدر محذوف، أي: حال كون كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا مجدًّا في السرعة؛ لأنه لا يلبث أن يُعفي أثره.

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧- ٤٠].

قال الشاعر:

إِنَّ الشَّبَابَ الَّذِي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ ... فِيهِ نَلَذُّ وَلَا لَذَّاتِ لِلشِّيبِ
وَلَّى حَثِيثًا وَهَذَا الشَّيْبُ يَتْبَعُهُ ... لَوْ كَانَ يُدْرِكُهُ رَكْضُ اليَعَافِيبِ(١)

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قرأ ابن عامر برفع «الشمسُ» وما عطف عليها، ورفع: «مسخراتٌ»؛ على أن الجملة في محل نصب على الحال من اسم الجلالة؛ كقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

وعلى هذا فـ«الشمسُ» وما عطف عليها في محل رفع مبتدأ، و«مسخراتٌ» خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب على الحال.

والتقدير: حال كونه يغشي الليل النهار، وحال كون الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره.

وقرأ الباقون بنصب: ﴿وَٱلشَّمْسَ﴾ وما عطف عليها عطفًا على السموات والأرض، و﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ بالنصب على الحال من المذكورات، وكسرت التاء من «مسخرات»؛ لأنها جمع مؤنث سالم.

---

(١) البيتان لسلامة بن جندل. انظر: «المفضليات» (ص١١٩-١٢٠).

والتقدير: الذي خلق السموات والأرض.. وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات بأمره.

و«الشمس والقمر والنجوم» من أعظم المخلوقات التي اشتملت عليها السموات.

﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، أي: مسيَّرات بأمر الله تعالى الكوني، ومذللات تحت قهره وتدبيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾، «ألا»: أداة تنبيه، «له»، أي: له خاصة الخلق، يخلق ما يشاء ويختار، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وهو موجد جميع المخلوقات، والمالك لها.

﴿وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾، أي: وله خاصة الأمر، أي: الأمر الكوني والتدبير والتصرف في ملكوت السموات والأرض، وله الأمر الشرعي، فالشرع ما شرعه سبحانه وتعالى، فله الخلق كله، وله الأمر كله.

قال السعدي: «فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وأحكامه الجزائية يوم القيامة».

وفي الدعاء: «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»(١).

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «تبارك»، أي: تعالى وتعاظم وتنزه في نفسه؛ لعظمة أوصافه وكمالها، وكَثُر خيره وإحسانه، وبارك في غيره، أي: كثرت بركته على غيره وظهرت، والبركة: كثرة الخير.

فبارك عز وجل في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤٢٣.

وبارك عز وجل في البيت الحرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وبارك عز وجل في الأرض؛ فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

وبارك في الماء النازل من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وأمر عز وجل بطلب البركة منه؛ فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وكل بركة في الكون فهي من آثار بركته عز وجل ورحمته.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: رب جميع أنواع العوالم والمخلوقات: عالم الملائكة، وعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجماد، وغير ذلك.

وفي هذا بيان لاستحقاقه البركة والمجد؛ لأنه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبر أحوال الموجودات.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾، أي: ادعو- أيها المؤمنون- ﴿رَبَّكُمْ﴾ وحده، وهذا ينتظم دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وهما متلازمان؛ فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

قال ابن القيم: «فقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة؛ ولهذا أمر بإخفائه»(١).

وإنما كان دعاء المسألة متضمنًا لدعاء العبادة؛ لأن دعاء المسألة طلب ما ينفع الداعي، وكشف ما يضره أو دفعه، ومن يملك ذلك فإنه هو المعبود حقًّا؛ لهذا أنكر عز وجل على الذين يعبدون من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٢٤.

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦- ٦٧].

وقال: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل: ادعوه، أو: ادعوني؛ للتذكير بنعمة ربوبيته لهم، ولتشريف المؤمنين بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم.

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «خِفْيَةً» بكسر الخاء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿وَخُفْيَةً﴾.

وانتصاب ﴿تَضَرُّعًا﴾ على الحال، أي: متضرعين ومخفين، أو: على المصدرية، أي: دعاء تضرع وإخفاء.

ومعنى ﴿تَضَرُّعًا﴾، أي: تذللًا واستكانة وإلحاحًا في الدعاء.

﴿وَخُفْيَةً﴾، أي: سرًّا، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى مثنيًا على عبده زكريا في ندائه ربه نداءً خفيًّا؛ قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢- ٣].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في غزاة، فأشرفوا على واد، فجعل الناس يكبرون ويهللون ويرفعون أصواتهم، فقال رسول الله ﷺ: «**أيّها النّاس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّ الّذي تدعون سميعٌ قريبٌ**»(١).

وقال هنا: ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ لحاجة الدعاء إلى الإخفاء والإسرار.

بينما قال في آخر السورة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ لحاجة الذكر إلى أن يكون مقترنًا بالخوف.

مع حاجة الدعاء أيضًا إلى الخوف؛ ولهذا قال في الآية الأولى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. وحاجة الذكر أيضًا إلى الخفية؛ ولهذا قال في الآية في آخر السورة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أمر عز وجل بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أتبع ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير: ٢٩٩٢، ومسلم في الذكر، استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٧٠٤.

بالتحذير من ضد ذلك وهو الاعتداء في الدعاء.

﴿إِنَّهُۥ﴾، «إن»: حرف توكيد فيه معنى التعليل؛ للأمر بدعائه تضرعًا وخفية.

والاعتداء: تجاوز الحد، أي: لا يحب المجاوزين للحد في مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب ما نهى عنه، وهو عام في كل اعتداء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره»(١).

وهو يعم كل اعتداء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فمن الاعتداء: الشرك، بل هو أعظم الاعتداء، وأهله هم المعتدون؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير الله؛ لهذا كان أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ وهو الشرك.

ومن الاعتداء: الاعتداء في الدعاء، وهو أنواع؛ منها: أن يسأل الإنسان ما لا يجوز له أن يسأله؛ كأن يسأل منازل الأنبياء، أو التخليد في الدنيا إلى يوم القيامة، أو أن يكون من المعصومين، أو أن يهبه الله ولدًا من غير زوجة، أو أن يسأل تحقيق أمر محرم، ونحو ذلك مما ينافي حكمة الله أو شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّه سيكون قومٌ يعتدون في الدّعاء**»، وقرأ هذه الآية: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾، «**وإنّ بحسبك أن تقول: اللّهمّ إنّي أسألك الجنّة وما قرّب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قولٍ أو عملٍ**»(٢).

وعن عبدالله بن مغفل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون قومٌ يعتدون في الدّعاء والطّهور**»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٢، ١٨٣، وأخرجه بمعناه أبو داود في الصلاة- باب الدعاء ١٤٨٠.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٥٥، وابن ماجه في الدعاء- كراهية الاعتداء في الدعاء ١٦٤/ ٣. قال ابن كثير في «تفسيره»

ومن أنواع الاعتداء في الدعاء: رفع الصوت به، والمبالغة في ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾.

وكما سبق في حديث أبي موسى رضي الله عنه؛ أنه لما رفع الناس أصواتهم في الدعاء، قال لهم النبي ﷺ: «**اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا**» الحديث(١).

ومن الاعتداء في الدعاء أن يدعو ربه دعاء غير متضرع، بل دعاء مُدِلٍّ على ربه بدعائه، مستغنٍ عما عنده.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾:

قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ في النهي عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها بعد قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ دلالة على أن الاعتداء بأنواعه، كل ذلك من الإفساد في الأرض.

قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: بالاعتداء بالشرك، ودعاء غير الله، والاعتداء بالدعاء، وارتكاب المعاصي، ونحو ذلك من الفساد المعنوي الذي هو سبب للفساد الحسي بهلاك الحرث والنسل، وحصول الجدب والقحط، ومحق البركة، وقلة الخيرات، وكثرة الأمراض والآفات، وخراب البلاد، وهلاك العباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

وفي الأثر: «أن البهائم إذا قحط المطر وأجدبت الأرض تلعن عصاة بني آدم؛ تقول: اللهم العنهم؛ فبسببهم منع القطر»(٢).

﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾، أي: بعد إصلاح الله إياها؛ بإرسال الرسل، وإنزال الكتب،

٣/ ٤٢٥: «إسناده حسن».

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) روي نحو هذا عن مجاهد؛ أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٩٠ رقم ١١٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٧٠).

والدعوة إلى إخلاص العبادة له تعالى وتوحيده وطاعته، وبيان الشريعة، وما أودع فيها من الخيرات والبركات.

وفي قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ إشارة إلى فظاعة الإفساد وعظم ضرره بعد الإصلاح؛ فإن أضر ما يكون على العباد والبلاد أن يكون الناس في نعمة وخير وعافية؛ ثم سرعان ما يسلب منهم ذلك بسبب الفساد.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ كرر الأمر بالدعاء بقصد تعليم الباعث على الدعاء- وهو الخوف والطمع- بعد أن بين لهم كيفيته بقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

و﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ منصوب على الحال، أي: خائفين وطامعين، أو على المفعول لأجله، أي: لأجل الخوف والطمع، أي: ﴿خَوْفًا﴾ من عقابه، ﴿وَطَمَعًا﴾، أي: رجاء في ثوابه، أي: دعاء بالمغفرة خوفًا من عقابه، ودعاء بالرحمة رجاءً في ثوابه.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل لقوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، والدلالة على أن من دعا الله خوفًا وطمعًا فهو من المحسنين.

قال ابن كثير[1]: «ولم يقل: قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إليه؛ ولهذا قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾».

وقال بعض أهل اللغة: إن «قريبًا» و«بعيدًا» إذا أطلق أحدهما على قرابة النسب أو بعد النسب فهو من المؤنث بتاء ولا بد.

وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفه، وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان؛ قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وفي حذف التاء من ﴿قَرِيبٌ﴾ تنبيه على قربه عز وجل من المحسنين؛ لأنه إذا كانت رحمته قريبة من المحسنين فهو قريب منهم؛ لأن قرب رحمته تبع لقربه، وقربه يستلزم قرب

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٥.

رحمته لهم؛ لمحبته لهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ فمن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

ولهذا حصرها في المتقين؛ فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وهم المحسنون. والمراد: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى وإجلالًا له، ومحبة وخشية، كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه**»(١)، ومتابعة الرسول ﷺ.

و«المحسنين» إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا. وهذا في الحقيقة إحسان إلى أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كما يدل بمنطوقه على قرب رحمته منهم، يدل أيضًا بإيمائه وتعليله على أن إحسانهم هو سبب قرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسان من أرحم الراحمين، والجزاء من جنس العمل؛ فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن الله تعالى إليهم برحمته، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ كما يدل بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

لما ذكر عز وجل قرب رحمته من المحسنين؛ ذكر بعضًا من رحمته وهو المطر.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف: «الرِّيحَ» بالإفراد باعتبار الجنس، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

و«الرياح» حيثما ذكرت فهي مقترنة بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

وأما «الريح» فتأتي كثيرًا مقترنة بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الروم: ٥١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وتأتي تارة مقترنة بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣].

والتعبير بصيغة الجمع «رياح» قد يراد به تعدد المهابِّ وحصول الفترات بين الهبوب.

وإن الإفراد قد يراد به أنها مدفوعة دفعة واحدة قوية لا فترة بين هباتها.

﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «نَشْرًا» بالنون المفتوحة وسكون الشين، وقرأ ابن عامر: «نُشْرًا» بضم النون وسكون الشين، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: «نُشُرًا» بضم النون والشين.

والنشر والنشور: الريح الطيبة اللينة الهبوب، التي تنشئ السحاب وتنشره.

قال امرؤ القيس(١):

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الغَمَامِ ... وَرِيحَ الخَزَامَى وَنَشْرَ القُطُرْ(٢)

وقرأ حفص وأبو بكر عن عاصم: ﴿بُشْرًۢا﴾ بالباء المضمومة وسكون الشين، أي: تبشر بالرحمة والمطر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: قدام رحمته وأمامها.

والمراد بـ«الرحمة» هنا: المطر؛ من إطلاق المصدر على المفعول، أي: قُبيل المطر وأمامه، وبالقرب منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ

---

(١) انظر «ديوانه» ص ١٥٧.

(٢) نَشْرُ القُطُر: رائحة العود. انظر «لسان العرب» مادة «قطر».

ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾، حتى للغاية، «أقلت»: حملت، أي: حتى إذا حملت الرياح سحابًا ثقالًا، أي: محملة بالماء، بطيئة ثقيلة، قريبة من الأرض، مدلهمة، كما قال عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المَزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا(١)

وقال أبو الطيب(٢):

وَمِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي ... أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي المَسِيرِ الجَهَامُ

﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]، أي: يسوقه.

والمعنى: أوصلناه وأبلغناه لبلد ميت، قد مات نباته وثمره، وأجدبت أرضه، كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣].

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾، الباء للظرفية، والضمير يعود إلى «بلد ميت»، أي: فأنزلنا في ذلك البلد الميت الماء الغزير من ذلك السحاب.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، الضمير في «به»: يجوز أن يعود إلى البلد، فتكون الباء بمعنى «في» الظرفية، أي: فأخرجنا في ذلك البلد.

ويجوز أن يعود إلى الماء، وتكون الباء: للسببية، أي: فأخرجنا بسببه، أي: فأخرجنا بسبب المطر من كل الثمرات على اختلاف أنواعها وأشكالها وطعومها.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، الكاف للتشبيه بمعنى: «مثل»، أي: مثل إحيائنا هذا البلد بالمطر، وإخراجنا به الثمرات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم أحياء بعد فنائهم.

قال ابن كثير(٣): «أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٣١، «وتفسير ابن كثير» ٣/ ٤٢٦.

(٢) انظر: «ديوانه» (٤/ ٢٨٦).

(٣) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٦.

بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة؛ ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يومًا، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض».

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال، وقرأ الباقون: «تَذَّكَّرُونَ» بتشديدها، وأصلها: «تتذكرون»، فأدغمت التاء في الذال.

واللام في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ للتعليل، أي: ضربنا لكم هذا المثل؛ من إحياء البلد الميت بالمطر لأجل أن تتذكروا أو تعتبروا وتتعظوا، وتعلموا قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾، أي: ذو الأرض الطيبة النقية، والتربة والمادة الملائمة للنبات والزرع والغرس.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ في حينه ووقته طيبًا حسنًا، كما قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٧].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ في موضع الحال من ﴿نَبَاتُهُۥ﴾، أي: بإذن ربه وأمره الكوني، وعنايته سبحانه، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك كونًا.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾، أي: والبلد الذي خبث، أي: خبث أرضه وتربته كالسبخة المالحة.

﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قرأ أبو جعفر: «نَكَدًا» بفتح الكاف، والباقون بكسرها.

ومعنى ﴿نَكِدًا﴾، أي: عسرًا رديئًا، خاسًّا قليلًا، لا نفع فيه ولا بركة.

فشبه عز وجل الوحي الذي أنزله على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض؛ لحصول الحياة بهذا وهذا.

وشبه القلوب بالأرض؛ إذ هي محل الإيمان؛ كما أن الأرض محل النبات.

وشبه القلب الذي ينتفع بالوحي ويؤمن به ويعمل بما فيه بالأرض الطيبة التي تخرج نباتها بالمطر وتنتفع به.

وشبه القلب الذي لا ينتفع بالوحي ولا يؤمن به بالأرض السبخة التي لا تخرج نباتها بالمطر ولا تنتفع به.

وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، كما قال ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنّما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الّذي أرسلت به**»(١).

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾، أي: مثل تصريف هذه الآيات، أي: تنويعها وتبيينها، ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾، أي: ننوع ونبين الآيات بضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، اللام للتعليل، كالتي قبلها، أي: لأجل قوم يشكرون؛ وهم المؤمنون الذي ينتفعون بالآيات، ويرونها أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، ويشكرون الله بالاعتراف والإقرار بها، وصرفها في مرضاته وطاعته؛ بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: هذا مثل ضربه الله للمؤمن، يقول: هو طيب وعمله طيب؛ كما البلد الطيب ثمره طيب. ثم ضرب مثل الكافر

---

(١) أخرجه البخاري في العلم- فضل من علم وعلم ٧٩، ومسلم في الفضائل- بيان مثل ما بعث النبي ﷺ به من الهدى والعلم ٢٢٨٢.

كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ربكم هو الإله المعبود وحده.

٣- إثبات عظمة الرب عز وجل بذاته وصفاته وخلقه وملكه وأمره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

٤- عظمة خلق السموات والأرض، ودلالتهما على تفرده عز وجل بالربوبية؛ لهذا ابتدأ بذكر خلقها؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٥- أن الله عز وجل خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال أهل العلم: من يوم الأحد إلى يوم الجمعة.

٦- قدرة الله تعالى التامة في خلق السموات والأرض، وحكمته البالغة في جعل خلقهما في ستة أيام؛ مع قدرته عز وجل أن يخلقهما في أقل من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

٧- إثبات استواء الله عز وجل على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

٨- قدرة الله وحكمته ومنته في خلق الليل والنهار، وجعل كل منهما يغشى الآخر ويداخله، وما يترتب على تعاقبهما من المصالح للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٠/ ٢٥٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٥٠٤.

يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

٩- سرعة طلب كل من الليل والنهار الآخر، وعدم إدراكه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

١٠- قدرة الله تعالى وحكمته ونعمته في خلق الشمس والقمر والنجوم، وتسخيرها بأمره تجري في بروجها، وما يترتب على ذلك من المصالح والفوائد للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١١- إثبات أمر الله تعالى الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١٢- أن لله عز وجل خاصة الخلق كله؛ فهو الخالق يخلق ما يشاء ويختار، وهو المالك لجميع المخلوقات، وله الأمر الكوني خاصة، أي: التقدير والتدبير؛ كما أن له الأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

١٣- عظمة الله عز وجل، وتعاليه، وتنزهه، وبركته، وكثرة خيره وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى للعالمين- أي: لجميع الخلق- ربوبية عامة؛ فهو خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولهذا استحق التعظيم، والتقديس، والإفراد بالعبادة دون سواه.

١٥- وجوب دعاء الله تعالى، والتذلل له، والاستكانة بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾.

١٦- الترغيب بالإسرار بالدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ وذلك لما في الدعاء خفية وسرًّا من الفوائد العظيمة:

منها: أنه أعظم إيمانًا، وأبلغ في الإخلاص.

ومنها: أنه أدل على الأدب والتعظيم لله تعالى.

ومنها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع والذل والانكسار، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده.

ومنها: أنه أجمع للقلب في التوجه إلى الله تعالى من رفع الصوت الذي يشتت القلب.

ومنها: أنه أدل على استحضار الداعي قربه من ربه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية(١).

ولما رفع الصحابة رضوان الله عليهم أصواتهم في الدعاء والتكبير قال ﷺ: «**اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّ الّذي تدعون سميعٌ قريبٌ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا الدّعاء**»(٢).

وفي الحديث القدسي قوله عز وجل: «**من تقرّب إليّ شبرًا تقرّبت منه ذراعًا، ومن تقرّب منّي ذراعًا تقرّبت منه باعًا**»(٣).

وأخيرًا؛ فإن إخفاء الدعاء وإسراره أدعى لدوام الطلب وعدم التعب والملل، بخلاف رفع الصوت، وهو أبعد عن القواطع والمشوشات والمضعفات التي تعرض له برفع الصوت؛ لأنه إذا أسر لا يعلم به أحد، إلى غير ذلك من فوائد الإسرار بالدعاء.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾.

١٨- التحذير من الاعتداء بمخالفة أمر الله أو ارتكاب نهيه؛ بالشرك بالله، أو الاعتداء بالدعاء، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

١٩- نفي محبة الله تعالى عن المعتدين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ٧٥٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٠- إثبات صفة المحبة لله عز وجل، وأنه يحب غير المعتدين؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

٢١- النهي عن الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي والاعتداء في الدعاء وغير ذلك، بعد إصلاحها بالإيمان والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

٢٢- أن الفساد في الأرض بعد إصلاحها أشد وأعظم؛ لهذا نص عليه.

٢٣- ينبغي أن يكون الداعي خائفًا من عقاب الله تعالى، راجيا لثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

٢٤- قرب رحمة الله تعالى من المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

٢٦- الترغيب بالإحسان، وأن من الإحسان دعاء الله تعالى خوفًا وطمعًا؛ لقوله تعالى بعد أن أمر بدعائه خوفًا وطمعًا: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٧- التذكير بقدرة الله تعالى ونعمته بإرسال الرياح للبشرى بين يدي رحمته، ولنشر السحاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

٢٨- إطلاق رحمة الله تعالى على المطر؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: بين يدي المطر؛ وهو رحمة مخلوقة لله تعالى.

٢٩- قدرة الله تعالى العظيمة في جعل الرياح- هذا المخلوق اللطيف- تحمل السحاب الثقال المحمل بالماء الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾.

٣٠- امتنان الله تعالى على العباد بسوق السحاب إلى البلاد الميتة، وإنزال الماء، وإخراج الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٣١- أن المطر سبب لحياة الأرض والبلاد؛ لقوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٣٢- في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج ثمرتها؛ دليل على قدرة الله تعالى التامة على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣٣- في بيان أنه عز وجل كما أحيا الأرض بعد موتها بالماء، قادر على إخراج الموتى من قبورهم؛ تذكير للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣٤- إخراج البلد الطيب نباته سريعًا بإذن ربه عند نزول المطر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

٣٥- أن الأسباب ليست مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله تعالى بها؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

٣٦- أن البلد خبيث الأرض والتربة لا يخرج نباته عند نزول المطر عليه إلا نكدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

٣٧- أن القلب الذي ينتفع بالوحي ويؤمن به ويعمل بما فيه كالبلد الطيب الذي يخرج نباته بنزول المطر عليه، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي كالبلد الذي خبث لا يخرج إلا نكدًا.

٣٨- أن نزول الوحي حياة للقلوب؛ كنزول الغيث حياة للأرض.

٣٩- تصريف الآيات وتنويعها؛ للتأمل فيها والانتفاع بها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

٤٠- أنه لا ينتفع بتصريف الآيات وتنويعها إلا من يعتبر نزولها نعمة من الله تعالى ويشكره بالإيمان بها، والعمل بما فيها، وطاعته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ذكر عز وجل في أول هذه السورة قصة آدم عليه السلام، وذكر قبيل هذه الآيات جملة من دلائل توحيده، ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام؛ الأول فالأول، والذين اتفقت دعوتهم على توحيد الله تعالى، وكيف أيدهم الله، وأهلك من عاندهم.

وفي ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وما حصل لهم من أممهم من التكذيب والعناد أعظم التسلية للنبي ﷺ؛ لأن المصائب إذا عمت خفت.

وفي ذلك بيان أن العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة للرسل وأتباعهم، وأن عاقبة المكذبين الخيبة والحزن المبين في الدنيا والآخرة.

وفي ذلك بشارة له ﷺ ولأتباعه، ونذارة للمكذبين لدعوته المخالفين له.

كما أن في ذلك تنبيهًا على أن الله عز وجل يمهل المكذبين ولا يهملهم، بل ينتقم منهم، إضافة إلى دلالة هذه القصص على صدق نبوته ﷺ؛ لأنه كان أميًّا لا يقرأ كتابًا، وأنه إنما علم ذلك من الوحي.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾:

قوله: ﴿لَقَدْ﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، والتقدير: والله لقد أرسلنا.

وقوله: ﴿لَقَدْ﴾ هنا بلا عطف، وفي سورة «هود» و«المؤمنون»[1] بالعطف: «ولقد».

و«قد»: حرف تحقيق. فأكد هذا الخبر بلام القسم، والقسم المقدر، وحرف التحقيق.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: بعثناه برسالة منا إلى قومه الذين كانوا يعبدون

---

(١) انظر الآية [٢٥] من سورة هود، والآية [٢٣] من سورة المؤمنون.

الأوثان؛ ليبلغها إليهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، كما قال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، وقال تعالى عن الرسل: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

و﴿نُوحًا﴾ هو أول رسول إلى أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وهو أحد أولي العزم من الرسل الخمسة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وكان قومه يعبدون الأصنام التي صوَّرَها من قبلهم على قبور أناس من صالحيهم، وبنوا عليها مساجد؛ ليذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن آلهة قوم نوح كانوا أسماء جماعة من صالحيهم، فلما ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا في مجالسهم أنصابًا. فاتخذوها وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»(١).

وقد ذكر المفسرون أنهم كانوا خلقًا كثيرًا، ملؤا السهل والجبل، ولم يكن هناك أرض إلا ملكوها.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ناداهم بهذا؛ لتذكيرهم بآصرة القرابة، والتودد إليهم، والترقيق والتلطف معهم؛ ليتحققوا أنه لهم ناصح، مريد الخير لهم، مشفق عليهم.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده، أي: تذللوا لله تعالى، واخضعوا له وحده، وانقادوا لطاعته، ولا تشركوا به غيره.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع لله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «**إنا أرسلنا**» ٤٩٢٠.

وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي: «غَيْرِهِ» بالجر على النعت لـ«إله»، وقرأ الباقون: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع على النعت من موضع «إله»، أي: ما لكم إله غيرُهُ.

و«ما»: نافية، و«من» في قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، تفيد استغراق العموم في النفي، أي: ما لكم من أي إله غيره؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر، وما سواه مربوب مخلوق مملوك مُدَبَّر ليس له من الأمر شيء.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون في موضع التعليل، أي: إني نصحًا لكم وشفقة عليكم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: عذاب القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به.

وفي هذا دلالة أنهم كانوا على الشرك.

و﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لـ«يوم»، ووصف بهذا ؛ لعظم ما فيه من الأهوال، والعذاب والنكال، فهو عظيم وثقيل وعسير، وعبوس قمطرير؛ كما وصفه الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الملأ: السادة والكبراء والأشراف والرؤساء، وذوو الغنى والجاه منهم، ولم يصف «الملأ» هنا بقوله: «الذين كفروا» قيل: لأنهم في أول دعوته كلهم كفار، أو لقلة من آمن منهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

أو أنه: لم يصفهم بـ«الذين كفروا» استغناء بدلالة المقام على أنهم كذبوا وكفروا.

ولهذا قد وصفهم بذلك في سورة هود فقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الآية: ٢٧].

والمعنى: قال الملأ من قومه نيابة عن بقيتهم ردًّا على دعوته لهم بعبادة الله وحده، ونفيه أن يكون لهم إله غيره: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يكتفوا بالاستكبار عن دعوته وعدم الانقياد له، بل قدحوا فيه ورموه بالضلال، بل بالضلال المبين.

واللام في قولهم: ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ لام التوكيد، والرؤية هنا بمعنى العلم، أي: إنا لنعلم

أنك في دعوتك إيانا لعبادة الله وحده، ونفي أن يكون لنا آلهة غيره، وتخويفنا العذاب ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: في بعد وتيه عن الحق ومجانبة للصواب.

والظرفية في قولهم: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ للتعبير عن تمكن الضلال منه؛ كأنه محيط به من جميع جوانبه إحاطة الظرف بالمظروف، وقد أكدوا هذا بـ«إن» واللام في خبرها.

﴿مُّبِينٍ﴾ اسم فاعل، من «أبان» اللازم، أي: في ضلال واضح بيِّن في نفسه، بالغ الغاية في البعد عن طريق الحق.

ويحتمل أيضًا أن يكون اسم فاعل من «أبان» المتعدي، فيكون المعنى: أي: في ضلال واضح بيِّن في نفسه، ومبين أنك ضال.

وهكذا يعمد أهل الباطل والفجار إلى رمي أهل الحق من الرسل وأتباعهم بأقبح الأوصاف؛ لتنفير الناس منهم ومن دعوتهم؛ فقد رمى قوم نوح نوحًا عليه السلام في هذه الآية بالضلال المبين؛ كما رموه بالجنون فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، وقالوا: ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

كما ذكر الله تعالى عنهم وعن غيرهم من الأمم رميهم الرسل بالسحر والجنون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣].

قال ابن كثير[1]: «وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]».

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: قال نوح عليه السلام ردًّا على الملأ من قومه في رميهم له بأنه في ضلال مبين: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾، وهكذا خُلُق الأنبياء عليهم السلام، فلم يعنفهم، ولم يقابلهم

(١) في تفسيره» ٣/ ٤٢٧-٤٢٨.

بوصفهم بما رموه من الضلال فيقول: بل أنتم الضالون، ونحو ذلك، بل حاول أن يستعطفهم بإعادة ندائهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تحببًا إليهم، وإشفاقًا عليهم.

واكتفى بنفي الضلالة عنه مبينًا أنه رسول من رب العالمين، فلله ما أروع هذا الخلق! ولم يخص خطابه بالملأ الذين قالوا له تلك المقالة، بل أعاده إلى قومه كلهم؛ لأنه مع كونه مجادلة للملأ من قومه هو دعوة عامة.

وقوله: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ من أحسن الرد وأبلغه؛ لأنه نفى أن يلتبس به ضلالة واحدة.

و«ضلالة» أيضًا: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ليس بي أي ضلالة. والباء للمصاحبة والملامسة؛ فنفى أن يكون متلبسًا بأي ضلالة.

وبهذا نقض ما رموه به من إحاطة الضلال به بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، «لكن»: حرف استدراك، أي: ما أنا ضال ولست بضال كما تقولون ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والرسالة لا تجامع الضلالة.

﴿رَسُولٞ﴾، أي: مرسل إليكم، ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ربي وربكم ورب جميع الخلق.

وفيه إشارة لأهمية رسالته؛ لعظم شأن المرسِل وهو رب العالمين: خالقهم، ومالكهم، ومدبرهم.

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾:

هذا بيان لقوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب في هذا الموضع والذي بعده: «أُبْلِغُكُمْ» بإسكان الباء، وتخفيف اللام؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾ [هود: ٥٧].

وقرأ الباقون: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾ بفتح الباء وتشديد اللام في الموضعين؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومعنى ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾، أي: أوصل إليكم رسالات ربي.

والتبليغ والإبلاغ: الإيصال، ومنه ما جاء في حديث الثلاثة: الأقرع، والأبرص،

والأعمى: «أعطني ناقة، أو بقرة، أو شاة أتبلغ بها في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»(١).

والمعنى: إن مهمتي أن أوصل إليكم رسالات ربي، وأبلغكم إياها أتم بلاغ، إيصالًا وبيانًا تقوم به الحجة عليكم.

﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، أي: ما أرسلني به ربي إليكم من الأوامر، والنواهي، والمواعظ، والبشائر، والنذائر، والأخبار، وما يوحيه إلي؛ ولهذا جمع «رسالات».

والإظهار في مقام الإضمار؛ فلم يقل: أبلغكم رسالاته، بل قال: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ إشارة إلى عظم المسؤولية، وأنه لا يسعه إلا تبليغ ما أمر بتبليغه وإن كره قومه.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ معطوف على ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، أي: وأرشدكم وأبين لكم بصدق وإخلاص ما فيه الخير والصلاح لكم من قول وعمل، في أمر دينكم ودنياكم وآخرتكم.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**الدّين النّصيحة**»(٢).

وهكذا شأن الرسل عليهم الصلاة أنصح الخلق للخلق؛ لأن الله اختارهم واصطفاهم من بين سائر الخلق أمانة وفصاحة وبيانًا ونصحًا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال ﷺ حين خطب الناس بعرفات في أكبر جمع: «**وأنتم تسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟**». قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللّهمّ اشهد**» ثلاث مرات(٣).

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: مما علمني الله.

﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي لا تعلمونه من الأمور الغيبية التي لا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه في الإيمان ٥٥، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٤، والنسائي في البيعة ٤١٩٧، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحج ١٢١٨، من حديث جابر رضي الله عنه.

تُعلم إلا من طريق الوحي، من الأخبار السابقة واللاحقة، وما أعد الله من الثواب لأوليائه، وما أعد من العذاب لأعدائه وأعداء رسله، وغير ذلك.

ففي قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جمع لمعانٍ كثيرة مما تتضمنه الرسالة، وتأكيد لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم مهما كرهوا ذلك وآذوه، وتنبيه وحث لهم على التأمل فيما جاءهم به؛ ليعلموا صدقه فينقادوا له، فينجوا من عذاب الله.

مع تهديدهم بحلول العذاب العاجل أو الآجل إن استمروا على تكذيبه.

كما أن فيه تأكيدًا لرد زعمهم أنه في ضلال مبين، وتجهيلًا لهم وتسفيهًا.

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو: عاطفة، أي: كيف تعجبون؟ أي: لا تعجبوا من هذا؛ فإنه ليس بعجب أن يأتيكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم.

وقوله: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: تذكير وموعظة من ربكم ذي العناية بكم.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: من أنفسكم وقبيلتكم وبشر مثلكم، وقد ضمن قوله: ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾ معنى «نزل»، أي: نزل ذكر من ربكم على رجل منكم.

فاستبعدوا وتعجبوا أن يكون نوح رسولًا وهو رجل منهم، وبشر مثلهم؛ كما ذكر الله قولهم في الآية الأخرى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وذلك من منة الله تعالى عليهم لو كانوا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اللام في المواضع الثلاثة: للتعليل، أي: لأجل أن ينذركم، أي: يحذركم ويخوفكم نقمة الله وعذابه إن لم تؤمنوا.

﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾، أي: ولأجل أن تتقوا الله وتتقوا عذابه بعبادة الله تعالى وحده، وترك ما أنتم عليه من عبادة الأصنام.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: ولأجل أن يرحمكم الله. فالرحمة سببها التقوى، والتقوى

سببها الإنذار، والثلاثة من أجلها أرسلت النذر، وبعثت الرسل.

قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾:

ذكر عز وجل منته على قوم نوح بإرساله إليهم، ومعالجته لهم، وتخويفه ونصحه لهم ترغيبًا وترهيبًا، وما لقي منهم من العناد، ثم ختم الآيات بذكر ما انتهى إليه الأمر بإنجائه ومن معه في الفلك، وإغراق المكذبين، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾، أي: فكذبوه فيما جاءهم به من الدعوة إلى عبادة الله وحده، وأنه لا إله لهم غيره، وأنه مرسل من عنده عز وجل، وناصح لهم، ويعلم من الله ما لا يعلمون. وتمادوا في التكذيب.

وضمير الواو في قوله ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعود إلى القوم كلهم؛ الملأ منهم، ودهماؤهم.

وأطلق التكذيب على الكل؛ لقلة من آمن منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] قيل: كانوا عشرة سوى نسائهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾، الفاء عاطفة، أي: فخلصناه من الغرق.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ﴾، أي: في السفينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٦].

وقدم الإنجاء؛ للاهتمام بإنجاء المؤمنين.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ لم يقل: وأغرقنا سائرهم أو بقيتهم، كما قال في سورة الشعراء: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الآية: ١٢٠]؛ بل أتى بالموصول؛ ﴿ٱلَّذِينَ ﴾ لِمَا تؤذن به الصلة من وجه تعليل الخبر، أي: وأغرقناهم بسبب تكذيبهم، كما قال تعالى:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾، «إن» تفيد معنى التعليل، أي: لأنهم كانوا قومًا عمين.

و﴿عَمِينَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، وهي: جمع «عَمٍ» مشتق من العمى، وأصله: فقدان البصر. ويطلق على العمى المعنوي؛ وهو عمى القلب وفقدان الرأي والعلم النافع، قال زهير(١):

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

ومعنى «عمين»، أي: عُمْي القلوب عن رؤية الحق فلا يبصرونه ولا يعقلونه ولا يهتدون إليه، أي: عميًا عمًى معنويًّا، لا أمل في هداية صاحبه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وهذه سنة الله تعالى: أن العاقبة والنجاة والنصر للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، وأن الخسران والهلاك لأعدائهم الكافرين في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر الله عز وجل قصة نوح مع قومه بأطول من هذا في سورة هود، وخصها بسورة كاملة؛ «سورة نوح».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

٢- عناية الله تعالى ببني آدم؛ بإرسال الرسل إليهم واحدًا تلو الآخر.

٣- تقوية قلب النبي ﷺ وتسليته تجاه ما يلقى من قومه؛ بذكر الرسل قبله وما حصل لهم من التكذيب والأذى من أممهم؛ لهذا قص الله تعالى عليه قصصهم وما جرى لهم.

٤- تأكيد الأخبار في القرآن الكريم بالقسم وغيره على ما كان عليه العرب الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم؛ من تأكيدهم الأخبار بذلك.

٥- أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض؛ لهذا ابْتُدِئ بذكر قصته.

٦- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بضمير الجمع.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٠).

٧- نعمة الله تعالى على قوم نوح عليه السلام بكونه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، وهكذا غيرهم من الأمم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وكون رسول القوم منهم منة من الله على جميع الأمم؛ ليفهموا عنه، ولأنه أنصح لهم وأشفق عليهم من غيره.

٨- أن أصل دعوة الرسل وأساسها التوحيد، أي: الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك؛ لهذا ابتدأ نوح عليه السلام قومه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٩- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، وأنه لا إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

١٠- أن التوحيد لا يجتمع مع الشرك؛ فمن عبد مع الله غيره فهو مشرك وغير موحد.

١١- تحذير نوح عليه السلام قومه عذاب يوم القيامة، وخوفه وشفقته عليهم عذاب ذلك اليوم العظيم؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

١٢- رمي الملأ من قوم نوح وساداتهم وكبرائهم له عليه السلام بأنه في ضلال مبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٣- جرأة المكذبين من عِليَة الأقوام على اتهام الرسل ووصفهم بأقبح الأوصاف؛ لينفروا الناس منهم ومن دعوتهم.

وهكذا يعمد أهل الباطل في كل عصر ومصر بوصف أهل الخير والصلاح ودعاة الحق بما ينفر الناس منهم؛ كيدًا للحق وأهله.

١٤- سمو خلق نوح عليه السلام؛ فمع تكذيب قومه له ووصفهم له بالضلال المبين لم يعنفهم، بل أعاد نداءه لهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تحببًا إليهم، وإظهارًا للشفقة عليهم، واكتفى بنفي ما وصفوه به بقوله: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾.

١٥- تعظيم نوح عليه السلام لرسالته ومهمته؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَلَٰكِنِّى

رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة: ربوبية الخلق والملك والتدبير لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٧- بيان نوح عليه السلام لمهمته؛ وهي إبلاغ رسالات ربه؛ لقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، وهي مهمة جميع الرسل عليهم السلام، مع تكليفهم بالعمل كغيرهم من أفراد أممهم.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾.

١٩- نصح نوح عليه السلام لقومه، وحرصه على هدايتهم، وشفقته عليهم؛ لقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾.

وهكذا حال جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الله اصطفاهم من خيرة خلقه، فهم أنصح الخلق للخلق.

٢٠- إثبات علم نوح عليه السلام مما علمه الله ما لا يعلمه قومه من الأخبار السابقة واللاحقة، وما أعد الله من الثواب لمن أطاعه، وما أعد من العقاب لمن عصاه، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام يعلمون بما أوحاه الله إليهم ما لا يعلمه غيرهم من الخلق؛ مما يكون عونًا على تبليغ رسالات ربهم.

٢١- تعجب قوم نوح مما ليس بعجب؛ وهو أن يأتيهم ذكر من ربهم على رجل منهم لينذرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وهكذا تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد؛ فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥٠].

٢٢- إنكار نوح عليه السلام على قومه تعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن يأتيهم تذكير من ربهم على لسانه عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن

رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

٢٣- أن من مهمة الرسل عليهم السلام الأمر بتقوى الله، والإنذار من عذاب الله، والتبشير برحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

٢٤- أن الوحي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام عظة وتذكير لأقوامهم من ربهم؛ لقولهم تعالى: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- نعمة الله تعالى في كون الرسل عليهم السلام للبشر من جنسهم؛ بل كل رسول يبعث في قومه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾.

٢٦- أن الرسل إنما يكونون من الرجال الذكور؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ فلم يكن في الإناث ولا في الجن نبوة.

٢٧- الوعد بالرحمة لمن خاف عذاب الله واتقى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

٢٨- تكذيب قوم نوح عليه السلام له، وإصرارهم على ذلك؛ لقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ﴾.

٢٩- إنجاء الله عز وجل لنوح عليه السلام والذين آمنوا معه من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾.

٣٠- إغراق المكذبين بآيات الله من قوم نوح؛ لتكذيبهم وعمى قلوبهم عن رؤية الحق واتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾.

٣١- في الإخبار بما انتهى إليه أمر نوح عليه السلام وقومه- من إنجاء الله عز وجل له والذين آمنوا معه من الغرق، وإغراق المكذبين- بشارة للرسل بعده وأتباعهم، وإنذار للمكذبين للرسل، وإغراء بالإيمان بالرسل واتباعهم، وتحذير من تكذيب الرسل ومخالفتهم.

٣٢- أن عمى القلوب أشد وأعظم من عمى الأبصار؛ لأن عمى القلوب سبب لتكذيب الحق ورده، والكفر، وعدم الإيمان.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام أول الرسل وقومه، أتبع ذلك بذكر قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد، أو وأرسلنا إلى عاد.

و«عاد» اسم الأب الكبير لهم، وهو: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح؛ فسمِّيَت به القبيلة أو الحي.

فإن جعلته اسمًا لمذكر صرفته، وإن جعلته اسمًا لمؤنَّث منعته من الصرف، وكذا ما أشبهه نحو «ثمود»(١).

وقال بعضهم: إنما صرف «عاد»؛ لأنه ثلاثي ساكن الوسط.

وهم عاد إرم؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ ٨]، وهم عاد الأولى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥].

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٩٠).

و«عاد»: أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وهم عشر قبائل، وقيل: ثلاث عشرة قبيلة؛ منازلهم بالأحقاف باليمن، وهي الرمال التي بين حضرموت وعُمان؛ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وكانوا ذوي شدة وقوة وبأس، كما قال تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٨٧].

﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: «أرسلنا»، و﴿هُودًا﴾ بدل أو عطف بيان من ﴿أَخَاهُمْ﴾، وهو أخوهم في النسب والقرابة، وكان من أشرفهم نسبًا.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ هذا كقوله تعالى عن نوح عليه السلام فيما سبق: ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: فنادى هود عليه السلام قومه بقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ مذكرًا لهم بآصرة القرابة، ومتوددًا لهم؛ كما فعل نوح عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، ونفى أن يكون لهم إله غيره؛ كما هي دعوة نوح وغيره من الرسل عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال ﷺ: «**الأنبياء إخوةٌ لعلّاتٍ؛ أمّهاتهم شتّى ودينهم واحدٌ**»(١)؛ وهو الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة، أي: أفلا تتقون الله وتحذرونه وتخافون عقابه بعبادتكم غيره؟! أي: اتقوا الله، واحذروه، وخافوا عقابه، واعبدوه وحده، واتركوا ما أنتم عليه من الشرك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل (٣٦٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، أي: قال السادة والكبراء؛ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وصف كاشف، لمجرد ذمهم لشدة كفرهم.

وقيل: يحتمل أن يكون للتقييد؛ لأن منهم من آمن.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لم يكتفوا بعدم الانقياد لهود عليه السلام؛ بل ذمُّوه وقدحوا في دعوته؛ كما فعل قوم نوح قبلهم، وأكَّدوا مقالتهم في الموضعين بـ«إن» ولام الابتداء؛ كما جاء في مقالة الملأ من قوم نوح عليه السلام؛ فكأنه لقَّن بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

والرؤية في قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ رؤية قلبية، أي: إنا لنعلم أنك في سفاهة.

والسفاهة: خفة العقل، وسوء التصرُّف، وعدم الرشد، أي: إنا لنراك سفيهًا في دعوتك لنا إلى عبادة الله وترك آلهتنا ودين آبائنا.

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أطلقوا الظن على اليقين، وهو استعمال كثير في القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

أي: وإنا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة، وأمرك لنا بعبادة الله وحده، وقولك: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

ولم يقولوا: وإنا لنظنك كاذبًا، بل قالوا: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي: في عداد الكاذبين الذين صفتهم وديدنهم الكذب وبلغوا الغاية فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ هكذا قال هود عليه السلام، كما قال نوح عليه السلام؛ فلم يعنف هؤلاء الملأ من قومه على ما رموه به من السفاهة والكذب، بل استعطفهم بإعادة ندائه لهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، ولم يقابلهم بما وصفوه به؛ فلم يقل: بل أنتم السفهاء الكاذبون،

ونحو ذلك؛ بل اكتفى بنفي ما رموه به من السفه بقوله: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾، أي: لست بسفيه. أو: ما أنا بسفيه كما تقولون.

و﴿سَفَاهَةٌ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ليس بي أي سفاهة بوجه من الوجوه.

ثم بيَّن حقيقة أمره بقوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

وهذا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾. وقد سبق الكلام عليه.

﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ قدَّم قوله: ﴿لَكُمْ﴾ على عامله؛ للإيذان باهتمامه بما ينفعهم.

والمعنى: وأنا لكم مخلص في إرادة الخير والنفع لكم، وتحذيركم من الشر والضرر فيما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده دون سواه من الآلهة، وبيان أنه ما لكم من إله غيره.

﴿أَمِينٌ﴾، أي: أمين على رسالات ربي حتى أؤديها إليكم من غير زيادة ولا نقصان، ولا تبدل ولا تغيير. كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ﴿أَمِينٌ﴾ في نصحي لكم فلا أغشكم، صدوق فيما قلت لكم فلا أكذب عليكم، كما قال لهم في سورة الشعراء: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٢٥].

وفي هذا رد لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

والنصح والأمانة من أخص أوصاف الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن صفات أتباعهم المؤمنين؛ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»(١).

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ بنحو هذه

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٤).

المقالة قال نوح عليه السلام لقومه، وقد سبق الكلام عليه.

والمعنى: لا تعجبوا أن جاءكم تذكير وموعظة من ربكم على رسول من أنفسكم يخوفكم بأس الله ويخوفكم عقابه.

وليس- والله- بعجيب أن يتفق نوح وهود- بل وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام- على حسن المحاجة، وعلى هذا الخلق العظيم من الحلم والإغضاء والأدب الحسن، وعدم الانتصار للنفس، أو المقابلة للسوء بالمثل.

ولكن العجب كل العجب أن تجمع الأمم على عداوة رسل الله تعالى وتكذيبهم، ورد دعوتهم إلى التوحيد، والتشبث بما عليه الآباء من عبادة الأوثان، ورمي الرسل بالضلال والسفه والسحر والجنون ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡطَةٗۖ﴾.

بعد أن أمرهم بتوحيد العبادة لله تعالى وحده ذكَّرهم نعمة الله عليهم في جعلهم يخلفون قوم نوح، وما أمدهم به من القوة وسائر النعم التي يقرون بها؛ ليشكروه ويخلصوا له العبادة؛ لأن الإقرار بربوبيته ونعمه يوجب توحيده في إلهيته.

أي: واذكروا بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم نعمة الله عليكم؛ شكرًا له.

﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين جعلكم.

و«جعل» هنا من الجعل الكوني، وهي بمعنى: «صيَّر» تنصب مفعولين؛ الأول: كاف الخطاب، والثاني: ﴿خُلَفَآءَ﴾.

و«خلفاء»: جمع «خليفة»، وهو: الذي يخلف غيره، أي: ينوب عنه بعد موته، أو في حال حياته؛ إما لغيابه أو مرضه أو عدم صلاحيته، ونحو ذلك.

أي: واذكروا نعمة الله عليكم واشكروه؛ إذ مكَّن لكم بعد قوم نوح بعد أن أهلكهم، وجعلكم ممن بقي من ذرِّيَّته؛ لينظر كيف تعملون، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

واحذروا من التكذيب فيصيبكم ما أصابهم ويُستبدل قوم غيركم.

ففي هذا التذكير تصريح بنعمة الله عليهم، وتعريض بالإنذار والتحذير لهم.

﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ البسطة: السعة والوفرة في أمر من الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

أي: وزادكم في خلقكم بسطة، أي: سعة بكبر أجسامكم وضخامتها، وطول قاماتكم وقوتكم، كما قال تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٧٨].

ولهذا اغتروا بقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، أي: نعمه الواسعة، ومننه العظيمة، وأياديه المتتابعة عليكم؛ بشكرها بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لأجل أن تُفلحوا فتفوزوا بالمطلوب، وتنجوا من المرهوب، إذا ذكرتم آلاء الله وشكرتموها، فأفردتموه بالعبادة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧٠﴾:

هذه الآية كقوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: قال قوم هود له منكرين لدعوته ورسالته: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجب، واللام في قوله: ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾: لام التعليل، أي: لأجل أن نعبد الله وحده.

وفي إسنادهم الضمير له في قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ تعريض بأن ما جاءهم به هو من تلقاء نفسه، وليس من عند الله.

﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ معطوف على جملة التعليل قبله، أي: ولأجل أن نذر، أي: نترك ما كان يعبد آباؤنا.

و«ما»: موصولة، أي: الذي كان يعبد آباؤنا من الآلهة.

وفي هذا إشارة إلى قدم عبادتهم لها وتجددها واستمرارهم عليها.

أي: إننا لن نقبل ما جئتنا به؛ فلن نعبد الله وحده ونترك الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا.

ولم يكتفوا بالإنكار عليه والامتناع عن قبول ما يدعوهم إليه، بل قالوا تحديًا وتعجيزًا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، «ما»: موصولة، أي: فائتنا بالذي تعدنا، أي: عجِّل لنا الذي كنت تنذرنا وتتوعدنا به من العذاب على ما نحن فيه من عبادة ما يعبد آباؤنا.

يشيرون بهذا إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وهذا استفتاح منهم على أنفسهم، يدل على شدة غرورهم وطغيانهم وعنادهم، كما قال كفار قريش: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: فيما تدعونا إليه وتخوِّفنا به.

وجواب الشرط دل عليه ما قبله، أي: إن كنت من الصادقين فائتنا بما تعدنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾، أي: قال هود عليه السلام إجابة لطلب قومه تعجيل العذاب: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قد وجب وحقَّ عليكم من ربكم.

﴿رِجْسٌ﴾، أي: عذاب، وانعقدت أسبابه وحان وقته.

﴿وَغَضَبٌ﴾، أي: وغضب من ربكم، وغضبه عز وجل موجب لانتقامه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الشورى: ٥٥].

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أتحاجونني، ﴿فِيٓ أَسْمَآءٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ صفة

لـ﴿أَسْمَآءٍ﴾.

والمعنى: أتحاجونني وتخاصمونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآبائكم آلهة وعبدتموها من دون الله؛ وهي لا تضر ولا تنفع؟!

﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ صفة ثانية لـ﴿أَسْمَآءٍ﴾.

و«مِن» في قوله: ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: ما أنزل الله بها أيَّ سلطان، أي: أي حجة وبرهان أو دليل.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ هذا تهديد ووعيد من هود عليه السلام لقومه.

والانتظار: الترقب والتحرِّي للشيء، أي: انتظروا وترقبوا ما حذَّرتكم منه، وما سيحلّ بكم من عقاب الله وعذابه الذي استعجلتموه بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما وعدني الله من النصر والثواب، ولما توعدكم به من العقاب والعذاب، يدل على هذا **قوله تعالى** بعده:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

فكما ختم عز وجل قصة نوح وقومه بذكر إنجائه ومن معه من الغرق وإغراق المكذبين؛ ختم قصة هود وقومه عاد بذكر إنجائه والذين معه من المؤمنين وإهلاك المكذبين؛ كما هي سنة الله تعالى الكونية.

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾، أي: فأنجينا هودًا والذين آمنوا معه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: ٥٨].

وقُدِّم ذكر إنجاء هود والمؤمنين معه؛ للاهتمام بذلك.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، الباء للسببية، ونكَّر «رحمة»؛ تعظيمًا لها، أي: بسبب رحمة عظيمة منا.

وأضافها عز وجل إلى نفسه للدلالة على سعتها وكمالها، أي: ونجينا هودًا والذين معه برحمة منا؛ بها هديناهم إلى الحق، وبها أنجيناهم من الهلاك.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: وأهلكنا الذين كذبوا بآياتنا جميعًا عن

آخرهم واستأصلناهم، فلم نُبق منهم أحدًا؛ حيث سلطنا عليهم الريح العقيم، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

وقال ﷺ: «**نصرت بالصّبا، وأهلكت عادٌ بالدّبور**»(١).

وقد سمَّى الله تعالى ما أصابهم صاعقة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

كما سمَّى ذلك بالصيحة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وهذا على أحد القولين في الآية؛ لأن من المفسرين من قال: هذه الآية والآيات قبلها في عاد. ومنهم من قال: هي في ثمود.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بتكذيبهم هودًا عليه السلام، وما جاءهم به من الآيات، وقولهم له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه؛ حيث لم يؤمن بدعوة هود إلا نفر قليل يكتمون إيمانهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إشارة إلى أن سبب النجاة لمن نجا هو الإيمان؛ كما أن سبب هلاك هؤلاء هو الكفر والتكذيب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه «عاد»؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٣٥)، ومسلم، في الاستسقاء (٩٠٠)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أَخَاهُمْ هُودًا ﴾.

٢- أن هودًا عليه السلام من قبيلة «عاد»، ومن أشرفهم نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾، وهذا من رحمة الله تعالى، ونعمته عليهم، وعنايته بهم.

٣- استهلال هود عليه السلام دعوته لقومه بالدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك؛ لأن ذلك هو حق الله على العباد، وهو أساس دعوة الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٤- لا إله للخلق بحق سوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

٥- إنكار هود عليه السلام على قومه ما هم عليه من الشرك، وحثهم على تقوى الله والخوف من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٦- رمي الملأ من قود هود له بالسفاهة والكذب، وجرأتهم على ذلك؛ لينفروا الناس منه ومن دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

وهذا ديدن أهل الباطل في مقابلة الحق وأهله من الرسل وأتباعهم في كل عصر ومصر؛ ابتلاء من الله تعالى، وامتحانًا وتمحيصًا؛ وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

٧- سمو خُلُق هود عليه السلام؛ فلم يُعنِّف قومه فيما رموه به من السفه والكذب، بل تودد إليهم بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ﴾، من غير انتصار لنفسه أو مقابلتهم بالمثل؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾، وهكذا فعل نوح مع قومه، وهذا خُلُق جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٨- بيان هود عليه السلام لقومه حقيقة أمره، وأنه رسول من ربهم مبلغ لهم رسالاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآية؛ وفي هذا تعظيم لرسالته ومهمته.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٠- إخبار هود عليه السلام لقومه أن مهمته إبلاغ رسالات ربه إليهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة برسله وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

١٤- نصح هود عليه السلام لقومه، وحرصه على مصلحتهم، وأمانته في أداء رسالة ربه إليهم، والنصح لهم، وهكذا جميع الرسل عليهم السلام؛ هم أنصح الخلق وأعظمهم أمانة.

١٣- تعجب قوم هود عليه السلام من أنه يأتيهم ذكر من ربهم على رجل منهم، وإنكاره عليه السلام ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

١٤- أن الرسل إنما هم من بني جنسهم من البشر، بل من أقوامهم خاصة؛ نعمة من الله تعالى عليهم، وهم من الذكور فقط؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

١٥- تذكير العباد وإنذارهم بما أنزله الله من الذكر على رسله؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

١٦- تذكير هود عليه السلام لقومه بجعلهم من ذرية نوح، وخلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وما زادهم الله من بسطة في الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

١٧- أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

١٨- تذكير هود عليه السلام قومه بجميع نعم الله تعالى عليهم؛ ليشكروها ليفلحوا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٩- أن تذكر نعم الله تعالى وآلائه وشكرها سبب للفلاح والفوز؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٢٠- إنكار قوم هود عليه دعوتهم لعبادة الله تعالى وحده وترك معبودات آبائهم، وتعجبهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

٢١- خطر التقليد للآباء أو لغيرهم على عمى وعلى غير هدى؛ فقد كان ضلال كثير

من الأمم بسبب التقليد لآبائهم على ما هم عليه من الشرك والضلال تقليدًا أعمى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

٢٢- تحدي الذين كفروا من قوم هود وتعجيزهم له؛ باستعجالهم العذاب الذي توعدهم به؛ إمعانًا منهم في التكذيب له؛ لقولهم له: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٢٣- إخبار هود عليه السلام لقومه بأنه قد حق ووجب عليهم رجس وغضب من ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾.

٢٤- إنكار هود عليه السلام على قومه مجادلتهم في أصنام سموها وآباؤهم، وعبدوها من دون الله من غير حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾.

٢٥- بطلان جميع ما يُعبد من دون الله؛ لأن الله لم ينزل بذلك حجة ولا برهانًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾.

٢٦- تهديد هود عليه السلام لقومه بعقاب الله تعالى، وبشارته لنفسه ولمن آمن معه بالعقبى الحسنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، أي: من المنتظرين عاقبة كل منا.

٢٧- إنجاء الله تعالى لهود عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، أي: بسبب إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [هود: ٥٨].

٢٨- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل رحمة ذاتية، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه.

٢٩- إهلاك المكذبين بآيات الله من قوم هود، واستئصالهم عن آخرهم؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله وعدم إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ

كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩- ٦٠].

٣٠- الترغيب بالإيمان وتصديق الرسل واتِّباعهم، وأن عاقبة ذلك النجاة في الدنيا والآخرة. والترهيب من الكفر والتكذيب وعدم الإيمان، وأن عاقبة ذلك الهلاك في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾:

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة نوح عليه السلام وقومه، وقصة عاد ونبيهم هود عليه السلام، ذكر قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥].

والمعنى: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا.

و«ثمود»: أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وهم أبناء ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح؛ فهم بعد عاد، ويلتقون معهم في «إرم»، وكلاهما قبل إبراهيم الخليل عليه السلام.

و«ثمود» ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث؛ لأن المراد اسم القبيلة، لا جدها.

ومساكنهم: «الحجْر» بوادي القرى شمال الجزيرة في «العلا» بين المدينة وتبوك، وتُعرف الآن بـ«مدائن صالح».

وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك؛ نزل بهم «الحجر» عند بيوت «ثمود»، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها «ثمود»، فعجنوا منها ونصبوا منها القدور باللحم، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذّبوا، وقال: «**إنّي أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم؛ فلا تدخلوا عليهم**»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه، قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «**لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح؛ فكانت- يعني الناقة- ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ؛ فعتوا عن أمر ربّهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا؛ فعقروها فأخذتهم صيحةٌ أهمد الله بها من تحت أديم السّماء منهم، إلّا رجلًا واحدًا في حرم الله. فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغالٍ؛ فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**»(٣).

و«صالح»: اسم عربي، وهو من ثمود؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، وخاطبهم عليه السلام بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ توددًا إليهم، وتذكيرًا لهم بآصرة القرابة.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، أي: اعبدوا الله وحده ما لكم من معبود غيره، كما قال نوح وهود عليهما السلام قبله، وكما هي دعوة جميع الرسل؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١١٧).

(٢) أخرجه البخاري، في الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف (٤٣٣)، ومسلم في الزهد والرقائق، لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٢٩٨٠)، وأحمد (٢/ ٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٦)؛ قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٣٦): «وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم». وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ٢٩٦)، والحاكم (٢/ ٣٢٠) بإسناده.

٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دلالة على أنهم كانوا مشركين، كما قالوا في سورة هود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعليل لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: اعبدوه وحده؛ لأنه جعل لكم آية على وحدانيته تفرده بالخلق والتدبير واستحقاقه للعبادة وحده.

«قد»: حرف تحقيق وتأكيد.

﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: حجة واضحة، وخارق من خوارق العادات التي لا يقدر على مثلها البشر، أي: قد جاءتكم آية كونية ظاهرة على صدق رسالتي وما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، ثم فسَّرها بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١٣].

﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ بيان وتفسير لـ«بينة»، والإشارة في ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى الناقة التي جعل الله لهم.

وفي إضافة «الناقة» إلى الله: تشريف لها وتعظيم لشأنها، كما قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]؛ لأن الله هو الذي خلقها وجعلها آية على صدق صالح عليه السلام فيما جاءهم به من الرسالة والدعوة إلى توحيد إلى الله تعالى.

﴿لَكُمْ آيَةً﴾، أي: لكم علامة ودلالة على صدقي فيما جئتكم به ودعوتكم إليه.

وقدَّم قوله: ﴿لَكُمْ﴾، لإفادة الحصر، أي: لكم خاصة، وللاهتمام والإشارة إلى أنها كافية لهم؛ لظهورها، كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي: بينة ظاهرة دالة على وحدانية خالقها.

ووجه كونها آية قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وهم قد كانوا سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٥]؛ فأرسلها الله فتنة وابتلاءً لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ [القمر: ٢٧- ٢٨].

﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾، أي: فاتركوها تأكل العشب والحشائش وأوراق الأشجار.

﴿فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ التي لا يملكها أحد سواه، أي: فلا عليكم من مؤونتها شيء.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾، أي: ولا تصيبوها ولا تتعرضوا لها، ﴿بِسُوٓءٖ﴾ الباء: للملابسة، و«سوء»: نكرة في سياق النفي فتعمّ، أي: فلا تتعرضوا لها بأي سوء؛ من عقر، أو منع لها من الأكل في أرض الله، أو أي نوع من الأذى.

﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، الفاء للسببية، أي: إن تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم، أي: عذاب مؤلم موجع في العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾:

أمر صالح عليه السلام قومه بعبادة الله وحده، ونفى أن يكون لهم إله غيره؛ معللًا ومذكرًا لهم بالبينة والآية على صدق رسالته وما جاء به من عند الله؛ وهي الناقة، ثم أكّد ذلك بتذكيرهم بنعمة الله عليهم بأن جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوّأهم في الأرض يتخذون منها قصورًا وبيوتًا، إلى غير ذلك من نعمه.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ هذا كقول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقد سبق

الكلام عليه.

وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾: دلالة على أن ثمود جاءوا بعد عاد؛ فأمر صالح عليه السلام قومه ثمود بذكر نعمة الله تعالى عليهم بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وشكره عليها؛ حيث جعلهم خلفاء من بعد عاد الذي أهلكهم الله قبلهم.

﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفة على قوله: ﴿جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾، أي: وإذ بوأكم، أي: واذكروا إذ بوأكم في الأرض، أي: أنزلكم وأسكنكم في الأرض، ومكَّن لكم فيها، وهيأ لكم أسباب الحياة والعيش عليها واستخراج خيراتها.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا﴾، أي: تجعلون من سهولها، أي: من الأرض السهلة اللينة، من الطين واللبن والآجر، ﴿قُصُورٗا﴾: جمع «قصر»، وهو: البيت المنيف؛ سمِّي بذلك؛ لقصور الناس عن الارتقاء إليه، أو لأن عامة الناس يقصرون عن بناء مثله.

﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا﴾ النَحت: بَرْيُ الحجر والخشب على تقدير مخصوص. والجبال: ضد السهول.

﴿بُيُوتٗا﴾: حال من الجبال، وهي جمع «بيت»، وهو: المكان المتَّخذ للسكنى، أي: وتنحتون الجبال بيوتًا تسكنونها، كما قال تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن عرفتم فضل الله عليكم فاذكروا آلاء الله، أي: نعمه كلها، وما خوَّلكم من الفضل والرزق والقوة.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: ولا تسعوا في الأرض.

﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حال، أي: حال كونكم مفسدين فيها بالكفر والمعاصي التي تذر الديار العامرة بلاقع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ قرأ ابن عامر: «وَقَالَ» بزيادة واو قبل ﴿قَالَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿قَالَ﴾ بغير واو.

ولم يتوجه هؤلاء الملأ المستكبرون بمجادلتهم إلى صالح عليه السلام؛ لعلمهم أن بضاعتهم مزجاة، وإنما توجهوا بذلك إلى أتباعه المستضعفين؛ لمحاولة إلقاء الشك في نفوسهم، واختبار مدى قوة إيمانهم، وهي كالمحاجة لـ«صالح»؛ لأن المقصود منها إفساد دعوة صالح عليه السلام وصد الناس عنها.

والمعنى: قال الرؤساء والأشراف ونحوهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بما جاءهم به صالح عليه السلام وعن اتِّباعه، واستكبروا على الضعفاء من قومهم واستذلوهم.

وفيه إشارة إلى أن الكبر واحتقار الضعفاء من المؤمنين هو الذي منعهم من الإيمان؛ إذ لا يمكن في تقديرهم سبق هؤلاء المستضعفين إياهم إلى الخير والهدى، كما قال قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وحكى الله عن كفار قريش قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، أي: للذين استضعفهم المستكبرون، وهم عامة الناس.

﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل بعض من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ فالضمير في «منهم» يعود إلى المستضعفين، أي: لمن آمن من المستضعفين.

وعلى هذا فيكون المستضعفون مؤمنين وكافرين.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل كل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، والضمير «منهم» يعود إلى ﴿قَوْمِهِۦ﴾، فيكون المعنى: لمن آمن من قومه. ويكون الاستضعاف مقصورًا على المؤمنين.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الاستفهام للإنكار والتشكيك والسخرية والاستهزاء بمن آمن، أي: أعلمتم أن صالحًا مرسل من ربه حقًّا حين آمنتم به؟ أي: إنكم لم تعلموا أنه مرسل من ربه حقًّا وصدقًا، فكيف آمنتم به؟!

وحيث إن استفهامهم هذا ليس بحثًا عن الحق، وإنما للإنكار والتشكيك والاستهزاء؛ لم يجبهم المؤمنون على مقتضى سؤالهم، فلم يقولوا: «نعم» ونحو ذلك، بل أجابوهم بما يُخرسهم.

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، أي: قال المؤمنون المستضعفون: إنا بكل الذي أرسل به مصدقون؛ من الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك، وإثبات البعث، وغير ذلك.

وقوله: ﴿بِمَآ﴾ متعلق بالخبر ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾، وقدم عليه للاهتمام بمدلول الموصول.

وقد تضمن جوابهم بهذه الجملة الاسمية المفتتحة بحرف التوكيد «إن» المسارعة إلى تأكيد إيمانهم برسالة صالح عليه السلام، وثباتهم واستمرارهم على ذلك، وأن أمر إرساله عليه السلام من الوضوح بحيث لا ينبغي السؤال عنه، وأن الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لم يقولوا: «إنا بالذي أرسل به كافرون»، وهو المقصود، بل قالوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إظهارًا لمخالفتهم للمؤمنين، وردًّا لمقالتهم.

وقد أكدوا مراجعتهم هذه بمثل ما أكد به المؤمنون جوابهم السابق بحرف التوكيد «إن» والإتيان بالجملة الاسمية، محاكاة لجواب المؤمنين؛ للدلالة على شدة تصلبهم وتشبثهم في كفرهم وثباتهم عليه، وشتان بين متمسك بالحق معتز بالثبات عليه، وبين متشبث بالباطل مفتخر بالثبات عليه.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾:

قوله: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾، أي: فقتلوا الناقة، و«العقر»: يطلق على القتل، ويطلق على النحر.

قال امرؤ القيس(١):

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٢).

وَيَــوْمَ عَقَــرْتُ لِلْعَــذَارَى مَطِيَّتِــي

والمعنى: فعقروا الناقة؛ استخفافًا منهم بوعيد الله لهم، بقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وكيدًا لصالح عليه السلام ولدعوته؛ ليزيلوا الآية التي جعلها الله علامة على صدقه يهتدي بسببها المهتدون، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤-١٥].

والضمير في قوله: ﴿فَعَقَرُواْ﴾ يعود إلى جميع الذين استكبروا؛ لأنهم تمالؤوا على قتلها، وإن كان الذي باشر قتلها واحدًا منهم، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالى في سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١١- ١٤].

وقال ﷺ: «**انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ**[١] **منيعٌ في رهطه مثل أبي زمعة**[٢]»»[٣].

وقد ذكر المفسرون أن اسم هذا الرجل الذي عقرها: قُدار بن سالف، بضم القاف.

﴿وَعَتَوۡاْ﴾، أي: تجبروا وتجاوزوا الحد في الكبر والإعراض.

وعدِّي الفعل «عتوا» بـ«عن»؛ لتضمنه معنى «أعرضوا».

﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: عن أمر ربهم لهم على لسان صالح عليه السلام بعبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك، وعدم التعرض للناقة بسوء.

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جمعوا بين سوء الفعل، وسوء القول، وسوء المعتقد، فتجرؤوا على عقر الناقة مخالفة لأمر الله واستخفافًا بوعيده، وكيدًا لصالح عليه السلام ولدعوته، وافتخروا بما فعلوا، وتحدوا صالحًا بأن يأتيهم بما

---

(١) عارم: جبار.

(٢) أبو زمعة: هو الأسود بن المطلب القرشي؛ مات كافرًا.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٥)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٣)؛ من حديث عبدالله بن زمعة رضي الله عنه.

توعدهم به من العذاب، ظنًّا منهم أنهم يعجزون الله، وإمعانًا منهم في تكذيب صالح عليه السلام؛ فقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

ولم ينادوه باسم الرسالة، بل نادوه باسمه مجردًا «صالح» مبالغة في تكذيبه، واحتقارًا له.

﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: ائتنا بالذي تتوعدنا به من العذاب، أي: عجِّل لنا ما كنت تتوعدنا به من العذاب بقولك: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أتوا بحرف «إن» الدالة على الشك في حصول الشرط، أي: إن كنت من المرسلين فرضًا وتقديرًا فائتنا بما تتوعدنا به من العذاب.

وفحوى كلامهم هذا التحدي والتعجيز، أي: إنك لا تستطيع أن تأتينا بذلك؛ لأنك لست صادقًا في زعمك أنك من المرسلين، كما قال قوم نوح وقوم هود عليهما السلام: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢، الأحقاف: ٢٢].

وكما قال مشركو مكة: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾:

قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، الفاء عاطفة، فلم يكن بين عقرهم الناقة وأخذ الرجفة لهم سوى ثلاثة أيام فقط، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٤- ٦٥].

والرجفة: صيحة وصاعقة شديدة من السماء زلزلت الأرض من تحتهم زلزلة شديدة؛ ولهذا جاء في عدة آيات أنهم أخذتهم الصيحة، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]، وقال تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ

صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وجاء في آيات أخرى أنهم أخذتهم الصاعقة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]؛ فأطلق على عذابهم: الرجفة، والصيحة، والصاعقة.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ و«الدار»: المكان الذي يقيم فيه القوم ويسكنونه، يُفرد ويُجمع؛ ففي سورة هود: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، والمراد: بلادهم ومساكنهم.

﴿جَٰثِمِينَ﴾، أي: ميتين هامدين لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم في أبشع منظر لميت، ولم يبق منهم سوى صالح عليه السلام ومن آمن معه، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الآيتان: ١٥٧-١٥٨].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: انصرف وأعرض عنهم بعدما أحل الله بهم العذاب، وقال مخاطبًا لهم إعذاراً وتقريعاً لهم بعد هلاكهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾.

وهذا كما فعل نبينا ﷺ عندما وقف على قليب بدر بعد ثلاث، وقال مخاطبًا لهم مقرّعًا وموبخًا: «**يا أبا جهل بن هشام، يا أميّة بن خلفٍ، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتّم ما وعد ربّكم حقًّا؟ فإنّي قد وجدتّ ما وعدني ربّي حقًّا**»».

فسمع عمر قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيّفوا؟

قال: «**والّذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنّهم لا يقدرون أن يجيبوا**». ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر»(١).

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد أبلغتكم، أي: أوصلت وأديت إليكم ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾، أي: ما أرسلني به إليكم.

وأفرد «رسالة» باعتبار مجمل ما أُرسل به عليه السلام، ولأنه قال هذا بعدما أتمَّ إبلاغهم رسالته، بل بعدما أهلكهم الله.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي: وأخلصت في أمركم بالخير ودلالتكم عليه، ونهيكم عن الشر وتحذيركم منه.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، «لكن»: حرف استدراك، أي: ولكنكم لا تحبُّون من ينصحكم، بل تكرهونه، فلا تطيعونه، أي: إنكم لا تحبون النصح ولا تقبلونه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

٢- أن صالحًا عليه السلام من قبيلة ثمود، وأشرفهم نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٣- أن الدعوة إلى توحيده وإفراده بالعبادة وحده وترك الشرك هي أصل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لهذا بدأ بها صالح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ كما بدأ بها نوح وهود عليهما السلام قبله.

٤- لا إله للخلق بحق سوى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

٥- إقامة الحجة على ثمود بصدق نبيهم صالح عليه السلام بما جاءهم به من الآية

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة، عرض مقعد الميت من الجنة أو النار وإثبات عذاب القبر والتعوُّذ منه (٢٨٧٥)، والنسائي (٢٠٧٥)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه البخاري مختصرًا في المغازي، قتل أبي جهل، (٢٩٨١)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

البينة على ذلك، وهي الناقة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٧- تمام قدرة الله تعالى؛ حيث خلق هذه الناقة وجعلها بينة على صدق صالح عليه السلام، وآية على عظمته عز وجل وتفرُّده بالخلق، واستحقاقه العبادة وحده.

٨- تشريف هذه الناقة بإضافتها إلى الله تعالى؛ لأنه هو الذي خلقها وجعلها آية من آياته الكونية ومن خوارق العادات.

٩- أمر صالح عليه السلام لقومه بترك الناقة تأكل في أرض الله، فلا عليهم من مؤونتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- أن الأرض لله تعالى لا يجوز أن يمنع من الرعي فيها أحد؛ إلا ما كان منها مملوكًا ملكًا خاصًّا بإحياء شرعي؛ لقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث: «**ثلاثٌ لا يمنعن: الماء، والنّار، والكلأ**»(١).

١١- نهي صالح عليه السلام لقومه من مس الناقة بسوء، وتحذيرهم وتهديدهم بالعذاب الأليم إن فعلوا ذلك، إعذارًا وإنذارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٢- تذكير صالح عليه السلام لقومه بنعم الله تعالى عليهم، بجعلهم خلفاء من بعد عاد، وتمكينهم في الأرض يتَّخذون من سهولها قصورًا وينحتون من جبالها بيوتًا؛ ليشكروه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

١٣- تأكيد صالح عليه السلام لقومه الأمر بذكر نعم الله عمومًا، ونهيهم عن الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

١٤- محاجة المستكبرين من قوم صالح لمن آمن من المستضعفين؛ لتشكيكهم في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٤٧٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صدق صالح في رسالته، والإنكار عليهم، والسخرية منهم كيف آمنوا به؛ كيدًا من هؤلاء المستكبرين لصالح عليه السلام ولدعوته، وصدًّا للناس عنها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

١٥- أن الكبر سبب لرد الحق واحتقار أهله والدعاة إليه؛ لهذا كان المستكبرون هم ألدّ أعداء الرسل عليهم السلام.

١٦- أن من أقرب الناس قبولًا للحق: الضعفاء والفقراء، ولله الحكمة في ذلك؛ وصدق الله العظيم: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦٧].

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

١٨- إعلان المؤمنين بصالح عليه السلام باعتزازٍ وافتخارٍ وثباتٍ إيمانهم بما أرسل به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

وهكذا ينبغي أن يعتزّ المؤمن بإيمانه بلا تكبّر، وقد قال ﷺ: «**أنا سيّد ولد آدم ولا فخر**»»(١).

١٩- إعلان هؤلاء المستكبرين وتأكيدهم كفرهم بما آمن به المستضعفون بقولهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ إظهارًا لشدة مخالفتهم لهم، وتصلبهم في كفرهم بما أُرسل به صالح عليه السلام.

٢٠- جرأة قوم صالح عليه السلام على عقر الناقة، وتكذيبهم له، وعتوهم عن أمر ربهم، واستخفافهم بوعيده، واستعجالهم العذاب؛ جهلًا منهم وتحدّيًا وتعجيزًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢١- تعجيل العذاب لثمود بعد عقر الناقة؛ بأخذ الرجفة لهم وهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٤٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن».

٢٢- تولي صالح- عليه السلام- وإعراضه عن قومه بعد هلاكهم، وخطابه تقريعًا لهم وإقسامه على أنه قد أبلغهم رسالة ربه ونصح لهم لكنهم لم يقبلوا نصحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

٢٣- إعذار صالح- عليه السلام- من قومه غاية الإعذار في إبلاغهم رسالة ربه والنصح لهم؛ لقوله: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

٢٤- حرص صالح- عليه السلام- وكذا غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، على هداية أقوامهم، وشفقتهم عليهم، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: واذكر لوطًا حين قال لقومه.

و«لوط» هو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام.

قال ابن كثير: «وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام»(١).

وقومه: هم أهل «سدوم» وما حولها من القرى؛ بعثه الله إليهم في حياة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولم يكن لوط من نسبهم، وإنما كان نزيلًا فيهم؛ لأنهم كانوا من أهل فلسطين من الكنعانيين، وكان لوط عبرانيًّا، وإنما جُعل في سورة الشعراء «أخاهم» في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠- ١٦١]، وجُعلوا «إخوانه» في قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣]؛ لأنه استوطن بلادهم وعاشر فيهم وحالفهم وظاهرهم، كما قال سحيم بن عبد بني الحسحاس:

أَخُوكُمْ وَمَوْلَى خَيْرِكُمْ وَحَلِيفُكُمْ ... وَمَنْ قَدْ ثَوَى فِيكُمْ وَعَاشَرَكُمْ دَهْرَا(٢)

وابتدأ قصة لوط عليه السلام بقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كما ابتدأ قصة نوح بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ لأنه ليس لقوم كل منهما اسم يعرفون به مثل: «عاد» و«ثمود» و«مدين» الذين افتتح قصصهم بقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، وبقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤١).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (٩/ ٢٣٤).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ؛ كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤].

والفاحشة: الفعلة القبيحة الشنيعة المتناهية في الشناعة والقبح؛ وهي اللواط: إتيان الذكر الذكر في الدبر؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾، أي: إتيان الرجل رجلًا مثله ينكحه كما تُنكح الأنثى.

ولم تُذكر هذه الفاحشة لشناعتها وقبحها في القرآن إلا مُعرَّفة بـ«أل»، بينما ذُكر الزنا بأنه «فاحشة» بالتنكير، أي: أنه فاحشة من الفواحش.

قال ابن القيم: «ومن تأمل في قول الله تعالى في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]؛ تبيّن له تفاوُت ما بينهما، وأنه سبحانه نكّر الفاحشة في الزنا، أي: هو فاحشة من الفواحش، وعرَّفها في اللواط، وذلك يُفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، أي: الخصلة التي استقرَّ فُحشُها عند كل أحد؛ فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها»(١).

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «ما» نافية، أي: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة «اللواط»، ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكِّدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما سبقكم بفعلها أيُّ أحد من العالمين.

﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «من» تبعيضية، أي: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحد من بني آدم ولا غيرهم، أي: إنكم أول من فعل هذه الفاحشة، فلم يفعلها قبلكم أحد من العالمين، وكانت هذه الفعلة متأصِّلة فيهم من ذي قبل، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٨٧].

قال عمرو بن دينار: «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط»(٢).

وقال الوليد بن عبدالملك: «لولا أن الله عز وجل قصَّ علينا خبر قوم لوط ما

---

(١) انظر: بدائع التفسير (٢/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٠٥).

ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا»(١).

فاجتمع فيهم خصلتان من أعظم الخصال وأشنعها؛ الأولى: فعل هذه الفاحشة الشنيعة التي هي أشنع الفواحش. والثانية: كونهم ابتدعوها وسنُّوها لمن بعدهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**من سنّ في الإسلام سنّةً سيّئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده؛ من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ**»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ تفسير وبيان للفاحشة التي أنكرها عليهم؛ كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

قرأ الكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بهمزة واحدة مكسورة؛ بصيغة الخبر، وقرأ الباقون: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بهمزتين؛ على صيغة الاستفهام الإنكاري والتقريعي.

﴿لَتَأْتُونَ﴾ اللام للتأكيد؛ فالجملة مُؤكَّدة بـ«إن» واللام؛ تأكيدًا للإنكار عليهم.

والمعنى: إنكم لتأتون الرجال، أي: تنكحونهم في أدبارهم.

﴿شَهْوَةً﴾ مفعول لأجله، أي: شهوة منكم ورغبة فيما ينبغي أن يُكره ويستفظع؛ لما فيه من القذر والخبث ومخالفة الفطرة، أي: إن إتيانكم الرجال لمجرد الشهوة البهيمية، لا الحاجة التي مال لأجلها الذكر إلى الأنثى وشُرِع لأجلها النكاح؛ من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وتحصين الزوجين أنفسهما، وحصول المودة، وحصول النسل الذي به حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: وترغبون عن النساء اللاتي أباح الله لكم وطأهن

---

(١) ذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة، (٢٥٥٤)، وابن ماجه في المقدمة، (٢٠٣)؛ من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

بالزواج، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦].

وفي هذا زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس هذا قيدًا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقل فظاعة، بل هو أشد.

والمعنى: مع وجود ما فيه الكفاية لكم من الحلال؛ ولهذا قال لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، وقال أيضًا: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

أي: هؤلاء النساء المؤمنات، انكحوهن بالحلال؛ فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي من غرض الإنكار إلى غرض الذم لهم بأنهم قوم مسرفون، أي: متجاوزون الحد في فعل الفاحشة واستحلالها، والعدوان، والكفر، والفسق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وقد بدأت قصة لوط عليه السلام بذكر إنكاره على قومه هذه الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

وسبب ذلك- والله أعلم-: شدة شناعة هذه الفاحشة، وشذوذها، وخطورتها على النوع الإنساني.

وذلك لا ينفي أن يكون لوط عليه السلام دعاهم إلى التوحيد؛ كما هو منهج الرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد حكى الله عز وجل قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء بما يدلُّ على هذا؛ فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠- ١٦٤]، ثم قال: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وأيضًا فإن لوطًا عليه السلام كان معاصرًا لإبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء، وكانت دعوة إبراهيم بالتوحيد قد ظهرت كل الظهور في أرضه وأرض لوط عليهما السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ الواو استئنافية، و«ما» نافية، أي: وما كان جواب قومه لإنكاره عليهم فعل هذه الفاحشة الشنيعة وتقريعهم وتوبيخهم عليها وذمه لهم بكونهم قومًا مسرفين.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾، «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع خبر «كان»، أي: وما كان جواب قومه له لما أنكر عليهم هذه الفاحشة إلا قولهم: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾.

و«جواب» خبر «كان» قُدِّم على اسمها الواقع بعد أداة الاستثناء المفرغ.

والمعنى: وما كان جواب قومه إلا أن قال بعضهم لبعض: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾، أي: أخرجوا آل لوط، وهم لوط وأهله، ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾، أي: من بلدكم ومن بين أظهركم، كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾، «إنَّ» تعليلية، أي: لأنهم أناس يتطهرون، أي: يتكلَّفون الطهارة، أي: يتطهرون ويتنزهون عن الفاحشة ومن أدبار الرجال والنساء.

قال قتادة: «عابوهم بغير عيب، وذمُّوهم بغير ذمٍّ»(١).

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١/ ٣٠٧).

وذلك لأن الطهارة تزكية النفس وحملها على فعل الفضائل وإبعادها عن الرذائل، وهي صفة مدح وكمال، لكن قوم لوط لما انتكست فطرهم صاروا يرون الحق باطلًا والباطل حقًّا.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

قال الشاعر:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ(١)

وقد أحسن القائل:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي(٢)

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الآية: ٥٧].

وذلك بعد أن سأل ربه النجاة من عملهم، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٩- ١٧١].

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، أي: فأنجينا لوطًا عليه السلام وأهله لما تمادى قومه في كفرهم وغيِّهم وارتكابهم الفواحش، وسأل لوط عليه السلام ربه النجاة من عملهم؛ فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩].

أي: وأنجيناه، أي: وخلَّصناه، وأهله، أي: هو وبناته؛ لأنه لم يؤمن به من قومه أحد؛ لا رجل ولا امرأة، حتى ولا امرأته، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠- ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

---

(١) انظر: «الدر المصون» (٩/ ٤٥٨)، والبيت بلا نسبة.

(٢) البيت يُنسب للشافعي. انظر: «تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٩٥).

وكان ذلك آخر الليل وقت السحر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾، «إلا» حرف استثناء، «امرأة» منصوب على الاستثناء، والضمير مضاف إليه.

﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: الهالكين الباقين في العذاب؛ لأنها لم تؤمن، بل كانت على دين قومها؛ تمالئهم عليه، وتعلمهم بقدوم أضيافه؛ لخبثها وكفرها وخيانتها، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]؛ ولهذا أصابها ما أصابهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

قال ابن كثير[1]: «ولهذا لما أُمِر لوط عليه السلام بأن يسري بأهله؛ أُمر ألا يُعلم امرأته ولا يُخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾».

وقدم الخبر بإنجاء لوط وأهله على إهلاك قومه؛ للاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام وأهله، وتقديمًا لذكر حسن عواقب الرسل وأتباعهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، «أمطر» غالبًا ما يكون في العذاب، ولهذا وصفه الله في آيات أخرى بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨]، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

وأما «مَطَر» فغالبًا ما يكون للرحمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٤٢.

مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقد يأتي للعذاب؛ كما في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

ونكَّر «مطرًا» للتعظيم، أي: وأمطرنا عليهم مطرًا من حجارة من سجِّيل منضود مسوَّمة شديدة الحرارة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣- ٧٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٢- ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤].

فوصف الله عز وجل عذابهم بأنه أمطر عليهم حجارة من سجيل، وأخذتهم الصيحة، وجعل عالي ديارهم سافلها، وأُرسل عليهم حاصبًا.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح خطابه.

والأمر للإرشاد والاعتبار، أي: فانظر وتأمل واعتبر: كيف كانت عاقبة المجرمين بالكفر وفعل الفاحشة الشنيعة وارتكاب محارم الله تعالى؟ أي: انظر ببصرك في ديارهم وآثارهم، وتأمل بفكرك وعقلك في أحوالهم وكيف كانت نهايتهم الهلاك والدمار والخزي والبوار وخراب الدار.

وفي هذا تحذير من الكفر، والتكذيب، وفعل الفواحش، والإجرام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

٢- إنكار لوط عليه السلام على قومه إتيان الفاحشة الشنيعة القبيحة «اللواط»، وهي: إتيان الرجال في أدبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٣- أنه لم يسبق قوم لوط عليه السلام في فعل هذه الفاحشة الشنيعة أحد من العالمين، بل هم أوَّل من ابتدعها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعليهم وزر فعلهم لها، ووزر ابتداعها.

٤- انتكاس فطرة قوم لوط؛ حيث يأتون الرجال في أدبارهم شهوة ورغبة في هذه الفعلة الشنيعة وفي الحرام، ويرغبون عن الزواج بالنساء ووطئهن بالحلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهكذا من سلك مسلكهم فإنه يعاقب بالرغبة في الحرام والرغبة عن الحلال. نسأل الله العافية.

٥- بلوغ قوم لوط عليه السلام الغاية في الإسراف في ارتكابهم لهذه الفاحشة الشنيعة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

٦- تمادي قوم لوط عليه السلام في غيهم وإسرافهم وتمالئهم على إخراجه وأهله من بين أظهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

وهكذا يفعل أهل الباطل من أعداء الرسل وأتباعهم؛ يهددون من دعاهم إلى الله بالإخراج والنفي، أو القتل أو الحبس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

مما يوجب على الدعاة إلى الله الصبر والاحتساب؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وفي الحديث: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٤٥٥٩)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد أحسن القائل:

وَدَرْبُ الصَّـــاعِدِينَ كَـــمَا عَلِمْـــتُمْ بِـــهِ الأَشْـــوَاكُ تَكْثُـــرُ لَا الـــوُرُودُ

٧- أن قوم لوط عليه السلام لم ينقموا منه وأهله إلا كونهم يتطهرون من هذه الفاحشة وغيرها من المحارم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وهكذا أهل الباطل لا ينقمون من أهل الحق إلا أنهم على الحق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

٨- إنجاء الله عز وجل للوط عليه السلام وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾.

٩- هلاك امرأة لوط عليه السلام مع قومها؛ لخبثها، وخيانتها للوط، وكفرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

١٠- أنه لا ينجي من عذاب الله تعالى حسب ولا نسب؛ فلم يغن عن امرأة لوط عليه السلام أو يدفع عنها عذاب الله تعالى لما كفرت وخانت، كونها تحت لوط عليه السلام؛ كما لم يغن نوح عليه السلام عن ابنه وامرأته شيئًا، ولم يغن إبراهيم عليه السلام عن أبيه شيئًا، ولم يغن محمد ﷺ عن عمه شيئًا.

١١- إهلاك قوم لوط عليه السلام بإمطارهم بحجارة من سجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

١٢- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه وقلوب المؤمنين بذكر إنجاء الله تعالى للوط وأهله، وإهلاك قومه المجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

١٣- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بقوم لوط عليه السلام، والتحذير من مسلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ولقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣].

١٤- عظم فاحشة اللواط وشناعتها؛ لهذا أطلق عليها القرآن الكريم «الفاحشة» بالتعريف، وعاقب عز وجل قوم لوط بسبب هذه الفاحشة أعظم العقوبات؛ فجعل

عالي ديارهم سافلها؛ لأنهم عكسوا الفطرة التي فطر الله الرجال عليها، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وأمطرهم حجارة من سجيل منضود، وحكم عليهم بالإسراف، وذمهم بأقبح الصفات في آيات عدة؛ فوصفهم بعمل الخبائث، والفاسقين، والمفسدين، والظالمين؛ وذلك لشناعة هذه الفاحشة وخطورتها؛ لما فيها من انتكاس الفطرة، والعدول عما أحله الله إلى ما حرّمه، ومنافاة الحِكَم التي من أجلها شرع النكاح؛ من تكثير النسل، وعمارة الكون، وغير ذلك.

ولهذا جاء في الحديث: «**من وجدتّموه يعمل عمل قوم لوطٍ؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١).

وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم على قتل اللوطي؛ لكنهم اختلفوا وغيرهم من أهل العلم بعدهم في كيفية قتله؛ فمنهم من قال: يحرق بالنار.

ومنهم من قال: يلقى من أعلى شاهق.

ومنهم من قال: يرجم كما يُرجم الزاني المحصن.

ومنهم من قال: يُقتل بالسيف.

كما أجمع العلماء على حرمة إتيان النساء في أدبارهن، وسمَّاه بعضهم: اللوطية الصغرى.

وإنما كان اللواط أشد فحشًا وأعظم جرمًا وأشد عقوبة من الزنا؛ لأن إتيان الذكر للذكر لا يحل بحال من الأحوال، بخلاف إتيان الذكر للأنثى فهو يحل بطريق الزواج الشرعي وطريق الملك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥- ٧، المعارج: ٢٩- ٣١]، وأيضًا فإن اللواط يصعب التحرز منه؛ لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر، بخلاف ما إذا وجد رجل وامرأة فإن ذلك يستنكر ما لم تكن من محارمه.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٦٢)، والترمذي في الحدود (١٤٥٦) وقال: «حديث حسن». وابن ماجه في الحدود (٢٥٦١)، والحاكم في (المستدرك) (٤م٣٥٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وأحمد (١/ ٣٠٠)، وقال ابن القيم في (زاد المعاد) (٥/ ٤٠٤١): «إسناده صحيح».

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

بعدما ذكر الله عز وجل قصة لوط وقومه؛ أتبع ذلك بذكر قصة مدين ونبيهم شعيب عليه السلام؛ لأنهم جاؤوا بعد لوط وقومه.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤- ٨٥]

قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾، أي: وأرسلنا إلى قبيلة مدين؛ وهم قبيلة من سلالة مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، من العرب العاربة.

وتُطلق «مدين» على القبيلة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]؛ كما تُطلق على قريتهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥].

و«مدين» ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، أو للعلمية والعُجمة.

وتسمى بلادهم: «الأيكة»، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ [الحجر: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]؛ وهي بين الحجاز ومعان من بلاد الشام حول تبوك، ولهذا يقال: إن الأيكة هي تبوك.

﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول لـ«أرسلنا» لفعل محذوف تقديره: أرسلنا.

و﴿شُعَيْبًا﴾ بدل من ﴿أَخَاهُمْ﴾، أي: أخاهم في النسب؛ لأنه منهم، فـ«مدين» جده الرابع؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ﴾.

وخاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ كما خاطب قومه بذلك كل من هود وصالح عليهما السلام.

و«شعيب» عربي فصيح، ولهذا يُقال له: «خطيب الأنبياء»؛ لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، أي: فناداهم بهذه المقالة؛ كما فعل نوح وهود وصالح عليهم السلام، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما يُشركون به من الآلهة.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذا كقول صالح عليه السلام لقومه:

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقول شعيب عليه السلام: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ محمول على ما أقامه عليهم من حجة على وجوب عبادة الله تعالى وحده، أي: قد جاءتكم آية واضحة من ربكم على وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأنه لا إله لكم غيره، ولا رب سواه، وبينة على صدقي فيما دعوتكم إليه من توحيد الله والإيمان به.

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ مصدر، ويطلق على ما يُكال به، وهو المكيال؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، وهو المراد هنا؛ لمقابلته بالميزان، ولقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

والمعنى: فأتموا المكيال والميزان، أي: فأتمُّوا الكيل والوزن.

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، «البخس»: النقص، ويكون في نقص وتطفيف الميكال والميزان خفية وتدليسًا، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١٣].

ويكون في بخس ونقص المعدود وقيم الأشياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، أي: باعوه بثمن قليل زهيد ناقص.

قال الشاعر:

أَفِي كُلِّ أَسْوَاقِ العِرَاقِ إِتَاوَةٌ وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ؟(١)

يُقال: بخسه حقه، أي: نقصه حقه وظلمه.

والبخس والنقص كما يكون في الأشياء الحسية من الكيل والوزن والعدد؛ يكون في الأشياء المعنوية كالاحتقار وعدم الإنصاف؛ وهذا أعظم.

و«أشياء» تعم كل شيء، قليل أو كثير، أو جليل أو حقير، أي: ولا تنقصوا الناس

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وقيل: لجابر بن حيي التغلبي. انظر: «شواهد الكشاف» (ص١١٦)، «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ٢٥٥).

أشياءهم، أي: حقوقهم؛ سواء كانت مما يُكال أو يُوزن أو غير ذلك، أي: أعطوا الناس حقوقهم أيًّا كانت.

وقد توعَّد عز وجل المطففين بأشد العذاب؛ فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١- ٦].

وإذا كان هذا الوعيد الشديد في التطفيف والبخس الحسي؛ فالبخس المعنوي أشد وأعظم؛ لما فيه من الاستكبار وعدم الإنصاف؛ ولهذا قال ﷺ: «**الكِبر: بَطَر الحقِّ وغمطُ النّاس**»(١).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، أي: ولا تُفسدوا في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي، بعد إصلاحها على يد الرسل وأتباعهم الصالحين بإقامة الشرع والعدل.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ يدل على أن الإفساد بعد الإصلاح أشد وأعظم مما كان قبل الإصلاح.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الإشارة إلى ما سبق في الآية، أي: ذلك المذكور- وهو ما أُمرتم به من عبادة الله تعالى وحده، وإيفاء المكيال والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، أي: امتثال ما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه- ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأُخراكم، أي: به صلاح أمر دينكم ودنياكم وأُخراكم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مصدِّقين بالله وحده وما جئتكم به، ممتثلين لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)؛ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

أمرهم فيما سبق بتوحيد الله، والوفاء بالكيل والوزن، ونهاهم عن بخس الناس حقوقهم، وعن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، هذا في ذات أنفسهم، ثم نهاهم عن صد غيرهم عن ذلك.

قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ معطوف على ما قبله. و«القعود»: الجلوس.

﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، «الصراط»: الطريق، أي: ولا تجلسوا بكل طريق في الأرض.

﴿تُوعِدُونَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: تتوعدون من يؤمن وتهددونه بالقتل وأنواع الأذى بالبدن أو المال أو العرض.

و«التوعد» الوعيد بالشر؛ قال الشاعر:

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ العَمِّ مَا عِشْتُ صَوْلَتِي ... وَيَأْمَنُ مِنِّي صَوْلَةَ المُتَعَمِّدِ
وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدتُّهُ أَوْ وَعَدتُّهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي(١)

وقد يُحمل «القعود» على القعود المعنوي، وهو: التصدي والمخالفة لكل ما جاء به شعيب عليه السلام، والطعن فيه.

ويُحمل «الصراط» على الصراط والطريق المعنوي، وهو ما جاء به شعيب عليه السلام من الدعوة إلى توحيد الله والشرائع والأحكام.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ فهو نهي عن قطع الطريق الحسِّي، وعن قطع الطريق المعنوي.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ معطوف على ﴿تُوعِدُونَ﴾، أي: وتصرفون عن طريق الله تعالى ودينه وعن اتِّباعه، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ مفعول ﴿وَتَصُدُّونَ﴾.

يحتمل أن يكون هذا من عطف العلة على المعلول، أي: ولا تقعدوا بكل طريق تتوعدون؛ لتصدوا عن سبيل الله من آمن به.

---

(١) البيتان لعامر بن الطفيل. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: وعد).

ويُحتمل أن يكون المعنى: توعدون المؤمنين، وتصدون عن سبيل الله من أراد الإيمان أو آمن حديثًا، أو توعدون الناس عمومًا، وتصدون عن سبيل الله من آمن.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، «العِوَج» بكسر العين: عدم الاستقامة في المعاني. و«العَوَج» بفتح العين: عدم استقامة الذات.

والمعنى: وتبغون لسبيل الله عوجًا، أي: تطلبون وتودون وتريدون لها عوجًا، أي: ميلًا عن سبيل القصد والحق تبعًا لأهوائكم. وقد كانوا يزعمون أن ما يدعو إليه شعيب عليه السلام باطل وضلال.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، أي: واذكروا نعمة الله عليكم بقلوبكم وألسنتكم، واشكروها بجوارحكم.

﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، أي: وقت كنتم قليلًا عددكم.

﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾، أي: فكثَّر عددكم ونمَّاكم بما أنعم به عليكم من نعمة الزوجات والنسل، والأرزاق والصحة، والسلامة من أسباب الهلاك والافتراق.

والناس منذ القدم يعتزُّن بالكثرة ويتغنون بها، كما قال الشاعر:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ[1]

ولهذا يقولون: «الكثرة تغلب الشجاعة».

وقد قابل قوم شعيب عليه السلام نعمة الله عليهم بتكثيرهم بكفرانها؛ بسعيهم جاهدين إلى تقليل حزب الله والمؤمنين به.

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

أي: وانظروا بأبصاركم، وتأمَّلوا ببصائركم؛ كيف كانت نهاية المفسدين بالشرك بالله، وتكذيب رسله، ومخالفة شرعه، وصدِّ الناس عن دينه، وما حل بهم من العذاب والنكال والعقوبات والمَثُلات، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وصارت حالهم كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ وهم القلة من قومه عليه السلام، وقدَّم ذكرهم اهتمامًا بهم.

﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾، أي: لم يؤمنوا بما أُرسلت به فكذَّبوه وأنكروا رسالته؛ وهم الأكثرون من قومه.

﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾، أي: إن كنتم اختلفتم عليَّ؛ بين مؤمن بما أُرسلت به وكافر بذلك، فانتظروا إلى غاية أن يحكم الله بيننا حكمًا كونيًّا، أي: يفصل بيننا بإظهار المُحِقِّ منا ونصره، وعقوبة المُبطل وخذلانه، وبهذا يظهر لكم صدقي فيما جئتكم به من رسالة ربي.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، أي: وهو خير من يفصل، وأعدل من يقضي في أحكامه الكونية، وفي أحكامه الشرعية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾، أي: سادتهم وكبراؤهم وأشرافهم الذين استكبروا عن قبول دعوته، واغتروا بقوَّتهم وجبروتهم، وحملهم ذلك على الكفر، كما قال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٩٠].

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدَّر، أي: والله لنخرجنّك يا شُعيب والذين آمنوا معك من قريتنا.

وهكذا لجؤوا مباشرة إلى لغة التهديد والوعيد بالإخراج؛ لغة العاجز عن المقارعة بالحجة، وأقسموا على ذلك اغترارًا منهم بقوتهم، وذلك خشية منهم لظهور دعوته وكثرة أتباعه وأنصاره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ولشدة استكبارهم وجبروتهم واغترارهم بقوتهم أكَّدوا هذا الوعيد بالقسم ونون التوكيد؛ إخافة لشعيب عليه السلام ومن آمن معه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾، أي: ولنخرجن الذين آمنوا معك وصدَّقوك وآمنوا بك.

﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾، أي: من بلدنا ومدينتنا، والمراد بها: «الأيكة»، ويُقال: هي المعروفة الآن بـ«تبوك».

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، «أو» للتخيير، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: أو والله لتعودن في ملتنا، أي: لترجعُنَّ ولتصيرُنَّ إلى ديننا، أي: إلى الكفر.

وقد جعلوا شعيبًا والمؤمنين معه بين أمرين أحلاهما مُرٌّ: إخراجهم من بلادهم، أو إعادتهم إلى ملتهم.

وأكَّدوا كلًّا منهما بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد؛ في إشارة منهم إلى إجبارهم بالقوة إلى العودة إلى ملتهم أو إخراجهم بالقوة، أي: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا، أو لنخرجنكم من قريتنا، وقدَّموا الإخراج مبالغة منهم في التهديد والوعيد له ولأتباعه عليه السلام.

والخطاب في قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لشعيب عليه السلام ولمن آمن به من قومهم الذين قد يكونون معهم سابقًا على الضلال، لكن لا يلزم من هذا أن يكون شعيب عليه السلام كان على دينهم؛ لأن الأنبياء عليهم السلام يصطفيهم الله من خيار الناس الذين لم يُشاركوا أقوامهم فيما هم عليه من الشرك والضلال، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، ومقول القول محذوف؛ والتقدير: قال: أنعود فيها ولو كنا كارهين؟ أو أتُعيدوننا فيها ولو كنا كارهين؟ والواو للحال.

وجُملة: ﴿كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾: حال من الضمير في الفعل المقدّر «نعود».

قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾، ﴿قَدِ﴾ حرف تحقيق، ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾ اختلقنا.

﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ «كذبا» مفعول مطلق مؤكِّد لـ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾، أي: قد اختلقنا على الله كذبًا وباطلًا وأعظمنا الفرية على الله تعالى.

وهو خبر فيه معنى التعجب، أي: ما أكذبنا على الله إن عُدنا في ملتكم! وقيل: جواب قسم محذوف، أي: والله قد افترينا.

﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، أي: إن رجعنا وصرنا إلى دينكم بالكفر والشرك بالله، وتكذيب ما جاءنا من بينة على وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له واتباع شرعه.

﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾، أي: بعد أن أنقذنا الله وخلَّصنا منها، أي: بعد أن هدانا للدين الحق وخلَّصنا من الكفر.

قال السعدي: «أي: اشهدوا علينا أننا إن عُدنا إليها بعدما نجّانا الله منها وأنقذنا من شرها؛ أننا كاذبون مفترون على الله الكذب؛ فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكًا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتَّخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك»(١).

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾، أي: يمتنع أن نعود فيها؛ لأنها باطل محض، فيكف نعود إلى الباطل ونترك ما نحن عليه من الحق؟ هذا لا يمكن أن يكون.

وهذا كما قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**ثلاثٌ من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النّار**»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، «إلا» حرف استثناء.

﴿أَن يَشَآءَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء من عموم الأحوال، أي: وما يكون لنا أن نعود فيها في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله ذلك، أي: إلا أن يكون قد سبق في علم الله أنا نعود فيها، فيمضي فينا حينئذٍ قضاء الله، وتنفذ فينا مشيئته.

وفي هذا تمام الأدب مع الله تعالى، والتفويض لمشيئته، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩].

وكان نبينا ﷺ يُكثر من قوله: «**يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**».

وعن أنس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**». فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلّبها كيف يشاء**»(١).

قال ابن القيم في كلامه على الآية: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، «وهذا يُبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى: الأمر؛ فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء»(٢).

قال ابن القيم: «فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه؛ فإن له سبحانه في خلقه علمًا مُحيطًا، ومشيئة نافذة، وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا؛ فلذلك رد الأمر إليه»(٢).

وفي إعادة وصف الربوبية إظهار في مقام الإضمار؛ تعظيمًا لربوبية الله عز وجل، وتأكيدًا لتفويض الأمر إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦١).

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أي: علم ربنا كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء؛ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ومشيئته عز وجل تبع لعلمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قدَّم قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ لإفادة الاختصاص تحقيقًا لمعنى التوحيد، أي: على الله تعالى وحده اعتمدنا في أمور ديننا ودنيانا وكفايتنا أمر أعدائنا؛ فهو سبحانه الكافي لمن توكَّل عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: احكم وافصل بيننا وبين قومنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بحكمك الحق؛ ببيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والمُحق من المُبطل، ونصر المؤمنين وإنجائهم، وخذلان الكافرين وإهلاكهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما كنت أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ حتى سمعت بنت ذي يزن تقول: تعال أُفاتحك، أي: أُقاضيك»(١).

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، أي: وأنت خير الحاكمين؛ كقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

بعد أن هددوا شعيبًا وأتباعه بالإخراج إن لم يعودوا إلى ملتهم؛ أخذوا يخوِّفون من اتَّبعه بالخسران.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾، أي: قالوا لعامة قومهم الباقين على الكفر؛ تحذيرًا لهم وخشية عليهم من تصديق شعيب عليه السلام واتباعه، لما رأوا من وضوح حجته وعجزهم عن إبطالها، ووصفهم أولًا بالاستكبار، ثم وصفهم هنا بالكفر؛ لأنه نتيجة الاستكبار.

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٢٠)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٢٣).

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن اتبعتم شعيبًا فيما يدعو إليه.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جواب القسم، و﴿إِذًا﴾ تفيد التوكيد، واللام في قوله: ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ تفيد ربط الجواب بالقسم.

و«الخسران»: حصول الضرر من حيث أريد النفع، وهو ضد الربح.

فأقسموا لشدة كفرهم وعتوهم ومخالفتهم على خسارة من اتبع شعيبًا عليه السلام.

وهذا ما سولت لهم أنفسهم، وهدتهم إليه عقولهم القاصرة؛ بأن الخسارة في ترك ما هم عليه من الضلال واتباع ما جاء على لسان شعيب عليه السلام من الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في رد الحق ولزوم ما هم عليه من الضلال، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

وكما قيل:

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ ... حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

تقدم تفسير نظير هذه الآية في قصة ثمود، أي: فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم جاثمين على ركبهم هالكين هامدين.

وقد ذكر الله عز وجل هنا أنهم أخذتهم الرجفة، وهي: الزلزلة الشديدة، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]؛ فأطلق على عذابهم الصيحة، وجمع «ديارهم».

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال ابن كثير: «وما ذاك إلا لأنهم قالوا في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]؛ فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وهي: سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم؛ فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد؛ فأصبحوا في دارهم جاثمين»(١).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢]:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ ذكر هذا- والله أعلم- لزيادة التنديد بهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾، أي: كأنهم بعد أخذ الرجفة لهم واستئصالهم وانمحاء آثارهم، ﴿لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨].

ومعنى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾، أي: كأنهم لم تسبق لهم حياة، ولم يعيشوا ويقيموا في مرابع تلك الديار، ولم يتمتعوا في عرصاتها، ولم يتغنوا في مسارح أنهارها، ولم يتفيؤوا ظلال أشجارها، ولم يتنعموا بما فيها من الخيرات والثمار.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا في مقابل قولهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ونقض له.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ مستأنفة للتوكيد، وللتعريض بمشركي العرب؛ ليتقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب؛ كما صرَّح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ضمير الفصل «هم» لإفادة القصر، وهو قصر إضافي، أي: كانوا هم الخاسرين دون الذين اتبعوا شعيبًا.

وفي هذا إظهار سفه قول الملأ منهم لعامتهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، قال عز وجل: الذين كذبوا شعيبًا هم الخاسرون حقًّا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٥).

ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: فأعرض عنهم بقلبه وقالبه، بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال.

﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي: وقال مناديًا لهم نداء إعذار وتقريع وتوبيخ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي: والله لقد أوصلت إليكم رسالات ربي وأبلغتكم إياها أتمَّ البلاغ، ونصحت لكم بما ينفعكم، ونهيتكم عمَّا يضرُّكم.

وهكذا فعل نبينا ﷺ يوم بدر حين وقف على أهل القليب وناداهم بأسمائهم، ثم قال: «**لقد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا، فهل وجدتّم ما وعد ربّكم حقًّا؟**»(١).

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ استفهام إنكاري ونفي، أي: فلا يمكن أن آسى.

و«الأسى»: شدة الحزن، أي: كيف أحزن وأتحسر وأتوجَّع ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؟ أي: على قوم جاحدين لوحدانية الله تعالى، مكذبين لرسله.

أبلغتكم رسالات ربي فكذَّبتموني، ونصحت لكم فلم تقبلوا نصحي، وجاءكم الخبر فرددتموه؛ فمثلكم لا يستحقون أن يُحزن عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨].

وأظهر في مقام الإضمار بقوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فلم يقُل: «عليكم»؛ ليتأتى وصفهم بالكفر، وزيادة في تعزية نفسه وترك الحزن عليهم، وليعمهم هذا الحكم ويعم غيرهم من الكافرين.

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة شعيب عليه السلام إلى قومه مدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢- أن شعيبًا عليه السلام من قبيلة مدين، ومن أشرفهم نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾، ولخطابه عليه السلام لهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٣- اجتماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك؛ لقول شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، كما قال ذلك نوح وهود وصالح وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٤- أنه لا معبود بحق سوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

٥- إقامة شعيب عليه السلام الحجة على قومه بوجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٧- دعوة شعيب عليه السلام قومه، وأمره لهم بإيفاء الكيل والوزن، ونهيهم عن بخس الناس أشياءهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، وفي هذا وما قبله دلالة على أنهم كانوا على الشرك، ولا يفون بالكيل والوزن، ويبخسون الناس أشياءهم.

٨- وجوب إيفاء الكيل والوزن، وتحريم بخس الناس حقوقهم المادية والمعنوية، وهذا مما لا تختلف فيه الشرائع؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣].

٩- أن الشرك بالله، وارتكاب المعاصي؛ من نقص الكيل والوزن وبخس الناس حقوقهم، ونحو ذلك؛ من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، وهذا أيضًا منهي عنه في جميع الشرائع.

١٠- أن صلاح الأرض حقًّا يكون بعبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك، وإقامة

شرع الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

١١- أن الخير كل الخير في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وإقامة شرع الله؛ من الوفاء في الكيل والوزن، وإعطاء الناس حقوقهم، وترك الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

١٢ أن من شرط الإيمان تصديق رسل الله وطاعتهم فيما يأمرون به من عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٣- نهي شعيب عليه السلام، وتحذيره لقومه من محاربة دعوته عليه السلام بالترصُّد في طرقات الناس، وتوعُّدهم بالقتل وأنواع الأذى، والصد عن سبيل الله من آمن به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾.

١٤- دأب المكذبين من قوم شعيب عليه السلام- كما هي حال المكذبين- على الكيد له ولدعوته، وصد الناس عن سبيل الله بشتى الوسائل من الوعيد والتهديد، وابتغاء العوج والنقص لها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

١٥- تذكير شعيب عليه السلام لهم بنعمة الله تعالى عليهم إذ كثَّرهم بعد القلة؛ بما أنعم عليهم من نعمة الأزواج والنسل، والصحة والأرزاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

١٦- أن الكثرة في العدد منة ونعمة؛ لأنها من أسباب القوة والتمكين؛ لهذا ذكَّر شعيب عليه السلام قومه بهذه النعمة.

١٧- وجوب النظر والتأمل في عواقب المفسدين؛ لأخذ العظة والعبرة مما حل بهم، والحذر من مسالكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٨- انقسام قوم شعيب عليه السلام بين مؤمن بما أُرسل به؛ وهم الأقلون، وإلى كافر بذلك؛ وهم الأكثرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾.

١٩- تنزُّل شعيب عليه السلام في الخطاب مع قومه، وبخاصَّة من لم يؤمنوا برسالته؛ لقوله عليه السلام: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ فلم يتوعَّدهم أو يهددهم صراحة بسوء العاقبة؛ مع علمه بمآلهم إلى ذلك.

٢٠- الوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ والمقصود: حتى يفصل الله بيننا بنصر أوليائه، وخذلان أعدائه.

٢١- أن لله تعالى وحده الحكم الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ كما أن له وحده الحكم الشرعي.

٢٢- ينبغي للمؤمن الصبر، وتسليم أمره لله عز وجل، والتفويض لحكمه وقضائه بعد فعل الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾.

٢٣- أن الله عز وجل هو خير الحاكمين وأعدلهم، وحكمه أعدل الأحكام وأحسنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧، يونس: ١٠٩، يوسف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٢٤- تهديد المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام له وللذين آمنوا معه بإخراجهم من بين أظهرهم إن لم يعودوا في الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

وهكذا شأن المستكبرين في كل زمان ومكان مع الرسل ودعاة الحق؛ إذا لم يستطيعوا المقابلة بالحجة لجؤوا إلى التهديد بالقوة؛ أسلوب العاجز المنهزم.

٢٥- إنكار شعيب عليه السلام وتعجُّبه من لجوء المستكبرين من قومه إلى محاولة إعادتهم إلى دينهم ولو بطريق الإكراه؛ بقوله عليه السلام: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

٢٦- تصميم شعيب عليه السلام ومن معه على عدم العود إلى ملة الكفر، وبيان أن عودهم إلى ذلك يعني الافتراء على الله كذبًا بالشرك به وجحد الرسالة؛ لقوله عليه السلام: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾.

٢٧- إظهار شعيب عليه السلام والمؤمنين معه الامتنان والشكر لله على إنجائهم من ملة الكافرين؛ لقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾.

٢٨- نفي شعيب عليه السلام إمكانية عودهم إلى الكفر، وبيان استحالة ذلك؛ تأكيدًا لعزمهم وتصميمهم على التمسك بدينهم، وتيئيسًا للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾.

٢٩- أدب شعيب عليه السلام مع الله عز وجل واستثناؤه بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، أي: إلا أن يكون سبق ذلك في علم الله وتقديره ومشيئته.

٣٠- إثبات سعة علم الله عز وجل لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة برسله وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا﴾، ﴿رَبِّى﴾.

٣٢- إعلان شعيب عليه السلام والمؤمنين معه اعتمادهم على الله تعالى وحده، وتفويض أمورهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، وهكذا يجب على كل مؤمن.

٣٣- دعاء شعيب عليه السلام والمؤمنين معه وتضرعهم إلى ربهم الذي بيده التدبير؛ أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق بنصر أوليائه، وخذلان أعدائه؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٣٤- ثناء شعيب عليه السلام على ربه، وتعظيمه له؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

٣٥- تخويف الملأ الذين كفروا من قوم شعيب عليه السلام لعامة قومه من الخسران باتباعهم لشعيب، وتحذيرهم من ذلك وتزهيدهم في الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، وهكذا يفعل دعاة الضلال في كل عصر ومصر، مما يوجب الحذر منهم.

٣٦- عقوبة المكذبين من قوم شعيب عليه السلام بأخذهم بالرجفة وإهلاكهم؛

لقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

٣٧- التنديد بالذين كذبوا شعيبًا عليه السلام، وكونهم كأنهم لم يعيشوا على وجه الأرض ولم يتنعموا بخيراتها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾.

٣٨- بيان أن الذين كذَّبوا شعيبًا هم الخاسرون حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

٣٩- تولي شعيب عليه السلام وإعراضه عن قومه بعدما حل بهم العذاب، ومخاطبته لهم خطاب من أنذر فأعذر غير آس على هلاكهم لكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

٤٠- أن غاية ما يملكه الرسل عليهم الصلاة والسلام هو إبلاغ رسالات الله والنصح لأممهم، وما سوى ذلك من الهداية أو الإضلال والثواب والعقاب فأمره إلى الله تعالى، وهكذا شأن الدعاة إلى الله تعالى بعد الرسل.

٤١- لا ينبغي الحزن والأسى على هلاك الكفرة والمجرمين والمكذبين والظالمين، بل ينبغي أن يحمد الله ويشكر، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾:

ذكر الله عز وجل فيما سبق قصة عدد من الرسل، وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وما جرى بينهم وبين أممهم، وإنجاءهم ومن آمن معهم، وإهلاك المكذبين من أقوامهم، ثم أتبع ذلك بيان أن هذه سنته في المكذبين لرسله؛ تحذيرًا وإنذارًا للمكذبين لمحمد عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ الواو استئنافية، و«ما» نافية، و«قرية» نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل قرية أُرسل إليها نبي.

و«من» في قوله: ﴿مِّن نَّبِىٍّ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكِّدة من حيث المعنى للعموم، أي: وما أرسلنا في قرية من القرى أيَّ نبي من الأنبياء؛ لدعوتهم وإنذارهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، و﴿أَخَذْنَآ ﴾ في محل نصب على الحال، أي: إلا قد أخذنا أهلها.

والمعنى: وما أرسلنا في قرية من القرى نبيًّا من الأنبياء؛ فكذَّبه أهلها إلا أخذناهم، أي: إلا ابتليناهم وعاقبناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾

و«البأساء»: البؤس، وشدة الفقر والحاجة، وضيق الحال.

و«الضراء»: الضر والمرض، وأنواع المصائب والبلايا في الأنفس.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، «لعل» للتعليل، ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾، أصلها: «يتضرعون»؛ فأُدغمت التاء في الضاد، أي: لعلهم يتذللون ويستكينون، أي: ليتذللوا لله ويدعوه لكشف ما نزل بهم ويستكينوا للحق، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، ولكنهم لم يفعلوا.

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾، أي: ثم لما لم يتضرَّعوا عوَّضنا وأحللنا ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: مكان البأساء والضراء، والحالة السيئة، ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾، أي: الحالة الحسنة؛ حالة الرخاء والسراء؛ ليعرفوا قدر نعمة الله تعالى عليهم، والنعمة إنما يَعرِف قدرَها مع توفيق الله من ابْتُلِيَ بضدها.

وقد قيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى. **وبضدّها تتميّز الأشياءُ.**

فابتلاهم عز وجل أولًا بما يسوؤهم، فلما لم يتضرَّعوا ولم ينجع بهم ذلك، ابتلاهم بضده، أي: بما يسرّهم ويستحسنونه، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وكما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنّعمِ(١)

﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، أي: حتى كثُروا وكثُرت أموالهم وأولادهم ونسوا ما مر عليهم من الشدة والضراء، كما قال شعيب عليه السلام مذكِّرًا قومه بنعمة الله تعالى عليهم بتكثيرهم بعد القلة: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، أي: لم ينجع فيهم ابتلاؤنا لهم بالبأساء

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٣١).

والضراء فيتضرَّعوا، ولم ينجع فيهم ابتلاؤنا لهم بالرخاء والسرَّاء فيشكروا، أي: لم ينجع فيهم لا هذا ولا هذا، بل قالوا بلسان الحال والمقال فيما بينهم وفي مجادلتهم لرسلهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، أي: قد أصاب آباءنا قبلنا الشدة والرخاء؛ فالذي أصابنا مثل الذي أصابهم، أي: إنه أمر عادي، والدهر تارات وتارات.

وقد نسوا أن الذي أصابهم ابتلاء من الله تعالى لهم في الحالين، وتنبيه وتذكير لهم؛ للنظر والاستدلال بعقولهم بالمسببات على الأسباب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

وذلك ليتضرّعوا إليه عز وجل في حال الشدة والضّرّاء، ويشكروه في حال الرخاء والسّرّاء، كما قال ﷺ في صفة المؤمن: «**عجبًا لأمر المؤمن؛ إنّ أمره كلّه خيرٌ، وليس ذلك إلّا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له**»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله إذا أحبّ قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السّخط**»(٢).

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(٣).

﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾، أي: فأخذناهم بالعقاب والعذاب، أو فعاقبناهم وأهلكناهم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أي: فكلًّا عاقبنا وأهلكنا بسبب ذنبه.

﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة وعلى غِرَّة، ومن حيث لا يخطر لهم الهلاك على بال.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مؤكِّدة لمعنى ﴿بَغْتَةً﴾، أي: من غير شعور منهم ولا علم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وفي الحديث: «**مَوْتُ الفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذَةُ أَسَفٍ لِلْكَافِرِ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)؛ من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في عيادة المرضى (٥٦٤٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤، ٤/ ٢١٩)؛ من حديث عبيد بن خالد السلمي رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في الجنائز، موت الفجأة (٣١١٠) مختصرا بلفظ: «**موت الفجأة أخذة للكافر**».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

ذكر عز وجل ابتلاء أهل القرى بالبأساء والضراء؛ والرخاء والسراء؛ تذكيرًا وموعظة لهم؛ ليتضرّعوا ويشكروا، وإهلاكهم لما لم ينجع ذلك فيهم عدلًا منه عز وجل، ثم ذكر أنهم لو آمنوا واتقوا لأغدق عليهم الخير فضلًا منه سبحانه. وفي هذا إنذار للمكذبين للنبي ﷺ، وبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، الواو عاطفة، و«لو»: شرطية غير جازمة.

﴿أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الذين أرسل الله إليهم الرسل وكذَّبوهم فأُهلكوا.

﴿ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله ورسله ورسالاته، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ بجوارحهم بفعل ما أُمروا به، وترك ما نُهوا عنه على ألسنة الرسل.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لأنزلنا عليهم بركات من السماء، وأخرجنا لهم بركات من الأرض.

و«البركات»: جمع «بركة»، وهي كثرة الخير وسعته وتتابعه.

والمعنى: لأغدقنا عليهم الخير ووسعناه عليهم، ويسَّرناه لهم بإنزال بركات من السماء عليهم؛ من الماء والرزق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ٩-١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢، إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

فمن بركات السماء: إنزال المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وتقدير الرزق، وخير الدنيا والآخرة فيها. ومن بركاتها: ما فيها من منافع شعاع الشمس، وضوء القمر، والنجوم، والهواء، والرياح الطيبة، وغير ذلك.

ومن بركات الأرض: ما أودع الله فيها من الأنهار والعيون والبحار، وما يخرج منها من النبات والمعادن، وغير ذلك من خيراتها وبركاتها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

فتكفَّل الله عز وجل لأهل القرى لو آمنوا بتوالي البركات عليهم من السماء

والأرض، وترادف الخيرات، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

ولكن قلَّ من أهل القرى من يحصل لهم ذلك؛ بسبب كفرهم وعدم إيمانهم؛ ولهذا قال تعالى عن قوم يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾، أي: ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا، بل كذَّبوا.

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، الفاء عاطفة، وفيها معنى السببية، أي: فتسبب عن تكذيبهم أخذنا لهم، أي: عاقبناهم بنزع البركات، وكثرة الآفات، والشدة والبأساء، وأهلكناهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يكسبون، أو بسبب كسبهم، أي: عملهم الباطل؛ من تكذيب الرسل ومخالفتهم، والشرك بالله والكفر، وارتكاب المعاصي والمحارم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

والمراد: أخذناهم ببعض كسبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

ذكر عز وجل إهلاك أهل القرى من الأمم الماضية بسبب تكذيبهم، ثم أخذ في تحذير وتهديد عامة أهل القرى بعدهم من الكفر ومخالفة أوامره وارتكاب نواهيه.

قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجيب في المواضع الثلاثة، أي: أفأمن أهل القرى الذين يسلكون مسالك المكذبين قبلهم.

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾، «أن» والفعل بعدها في الموضعين في تأويل مصدر في محل نصب

مفعول «أمن»، أي: أفأمن أهل القرى إتيان بأسنا؟

والمعنى: أفأمن أهل القرى الكافرة أن يأتيهم بأسنا، أي: عقوبتنا وعذابنا ونكالنا؛ كما هي سننا في المكذبين قبلهم؟

﴿بَيَٰتًا﴾ ظرف زمان، أي: ليلًا، أو حال، أي: غافلين ليلًا وقت البيتوتة والنوم والراحة.

﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنهم نائمون.

قال الشاعر:

يا نائم اللّيل مسرورًا بأوّله ... إنّ الحوادث قد يطرقْن أسحارًا

وقال الآخر:

هي اللّيالي وقاك الله صولتها ... تصول حتّى على الآساد في الأَجمِ

كنّا ملوكًا لنا في أهلنا دولٌ ... نمنا بها تحت أفنانٍ من النِّعمِ

فأيقظتنا سهامٌ للرّدى صُبَبٌ ... يُرمى بأفجع حتفٍ مَن بهنَّ رُمِي[1]

﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى﴾.

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر: «أَوْ أَمِنَ» بإسكان الواو، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَوَأَمِنَ﴾.

أي: أوأمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا ونكالنَا ﴿ضُحًى﴾ ظرف زمان، أي: نهارًا، أو أول النهار، أو حال، أي: حال كونهم غافلين ضحًى.

﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ حال أيضًا، أي: حال كونهم لاهين غافلين منشغلين في اللعب واللهو.

وخصَّ هذين الوقتين؛ لأنهما وقتان للدعة والراحة؛ فالبيات للنوم، والضحى للعب؛ فهما جديران بالحذر من حلول العذاب فيهما؛ لأن العذاب إنما يأتي بغتة وعلى غرة، ومن حيث لا يخطر على البال.

وفي هذا الإنكار والتعجيب تعريض بالمشركين المكذبين للنبي ﷺ، كيف يأمنون

---

(١) الأبيات لمحمد بن عبد الهادي العقيلي. انظر: «نفح الطيب» (٤/ ٥٢٩).

أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم، وهم في غفلة ساهون، وعن الحق معرضون؟

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾، كرر الاستفهام؛ لتأكيد الإنكار والتعجيب، ولزيادة التقرير، أي: أفأمنوا مكر الله حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويُملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟

وفي هذا كله تعريض بالسامعين من المشركين، وإنذار وتحذير لهم.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، الفاء عاطفة، و«إلا» أداة حصر، أي: فلا يأمن استدراج الله عز وجل للعباد بالنعم مع مقامهم على الكفر والمعاصي إلا القوم الذين بلغوا غاية الخسران. والخسران: ضد الربح.

ولم يقل: «فهم خاسرون»، بل قال: ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ليشملهم هذا الوصف وغيرهم ممن أمن مكر الله، وللدلالة على أنهم خسروا الخسران المطلق، لا مطلق الخسران، أي: خسروا الخسران المبين؛ كما يُقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

والأمن من مكر الله من أعظم الذنوب؛ لأنه يدل على التكذيب بالجزاء على الأعمال، ولهذا توعد الله تعالى أهله بالخسران المطلق.

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]: إنما هو في حق الفجَّار والكفَّار، ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون»(١).

وقال السعدي(٢): «فإن من أمن من عذاب الله فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، وألا يزال داعيًا بقوله: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن؛ فإن العبد ولو بلغت

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦١).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٦١).

به الحال ما بلغت؛ فليس على يقين من السلامة».

ولهذا لـمّـا قالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: إنك تكثر من قول: «**يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك وطاعتك**»؟ قال: «**وما يؤمّنني، وإنّما قلوب العباد بين إصبعي الرّحمن؛ إذا أراد أن يقلب قلب عبدٍ قلبه**»(١).

قال الحسن رحمه الله: «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن»(٢).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

تعجب في الآيات السابقة من أمن أهل القرى من بأس الله ومكره، وأنكر عليهم ذلك وحذَّرهم، ثم أتبع ذلك بتحذير من يرثون الأرض من بعدهم ويخلفونهم ممن جاؤوا بعدهم، خصوصًا هذه الأمة، التي هي الوارثة بعد جميع الأمم.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي: أولم يتبين للذين يرثون الأرض ويسكنونها؟

﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ تأكيد لمعنى ﴿يَرِثُونَ﴾ فيه تذكير لهؤلاء الوارثين بما كان عليه أولئك المورثون من التمكين في الأرض ورغد العيش، وما صاروا إليه من الهلاك بسبب ذنوبهم؛ ليحذروا مسالكهم، والسعيد من وُعظ بغيره؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، «أن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، و﴿أَن﴾ والفعل ﴿نَشَآءُ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿يَهْدِ﴾.

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾، الباء للسببية، أي: أولم يتبين ويتَّضح للذين يرثون الأرض من بعد أهلها المُهلَكين، وقد ساروا سيرتهم في الكفر والتكذيب، وسلكوا مسالكهم في العتو والعناد؛ أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن كان قبلهم؛ فأهلكناهم بسبب ذنوبهم؛ كما

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥١).

(٢) ذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٤٧).

هي سنتنا في المكذبين، فليسوا بأشد ولا أقوى ممن أُهلكوا قبلهم.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وفي الآية: تهديد لهم بأن الله قد يصيبهم بذنوبهم؛ فلا يغتروا بتأخير العذاب عنهم مع تكذيبهم ويحسبون أنفسهم في منعة من العذاب؛ كما اغترَّ من قبلهم، فما بينهم وبينه إلا أن يشاء الله ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال تعالى في ذكره هلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا

كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٥- ٢٧].

﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، أي: ونختم على قلوبهم عقوبة لهم بسبب ذنوبهم وكفرهم، وعدم تذكُّرهم واعتبارهم بمن قبلهم؛ فيعلو قلوبهم الران، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، كما قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الأنعام: ٢٥، والإسراء:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، أي: فهم لا يسمعون سماع انتفاع، وإنما يسمعون فقط ما تقوم به الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

قص الله عز وجل في الآيات السابقة أخبار الأمم الماضية، منها ما ذكره على جهة التعيين؛ كقصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام. ومنها ما ذكره على جهة التعميم، وذكر ما كان من إنجائه لرسله والمؤمنين، وإهلاكه المكذبين لهم بعد الإنذار والإعذار، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠- ١٠٢].

قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الإشارة إلى ما ذكره الله تعالى في الآيات السابقة من القرى التي أرسل الله إليها الرسل على جهة التعيين والتعميم.

وأشار إليها بإشارة القريب: ﴿تِلۡكَ﴾، لتكرر ذكرها في الآيات، ولاستحضار ذكرها في الأذهان.

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: نقصُّ عليك يا محمد وعلى أُمَّتك من أخبارها؛ لتكون عظة وعبرة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدَّر، أي: والله لقد جاءتهم رسلهم بالبينات، أي: بالآيات والحجج والبراهين الواضحات على صدقهم فيما جاؤوا به؛ من وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، واتباع رسله، والبشارة للمؤمنين، وتحذير الكافرين، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، الفاء عاطفة، واللام في ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ لام الجحود، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي كذبوا من قبل، أو بسبب تكذيبهم من قبل، أي: فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم بالحق وردهم له أول وروده عليهم، أي: ما كان الله ليهديهم للإيمان؛ عقوبة لهم على ردهم الحق أول مرة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩- ١١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولهذا قال بعد ذلك:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، الكاف: للتشبيه، بمعنى: «مثل»، أي: مثل هذا الطبع على قلوب المذكورين والحيلولة بينهم وبين الإيمان؛ يطبع الله على قلوب الكافرين.

وفي إظهار المسند إليه في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون الإضمار؛ ترهيب وتنبيه إلى شدة هذا الطبع.

وفي الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون أن يقول: «على قلوبهم» التسجيل عليهم بوصفهم بالكفر، وأنه سبب الطبع على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، ويشملهم هذا الطبع

وغيرهم من الكافرين.

قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾، أي: وما وجدنا لأكثر أهل القرى التي قصصنا عليك نبأها ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾، أي: من التزام ووفاء بما عهدنا إليهم ووصيناهم به؛ من تقوى الله تعالى بتوحيده، وترك الشرك، واتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾، الواو عاطفة، و«إن»: مخففة من الثقيلة.

واللام في قوله: ﴿لَفَـٰسِقِينَ﴾ هي الفارقة، أي: لخارجين عن الطاعة والامتثال، ناقضين لعهد الله ووصيته؛ وذلك بارتكابهم ما نهى الله عنه من الشرك والمعاصي، ومخالفتهم الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم حين أخرجهم من ظهور آبائهم وأشهدهم على أنفسهم، ومخالفتهم ما أوصاهم الله به على ألسنة رسله؛ من تقواه وعبادته وحده لا شريك له؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «**ما من مولودٍ إلّا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟**». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] (١).

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء المكذبين للرسل من أهل القرى بالبأساء والضراء؛ ليتضرَّعوا إلى الله تعالى، ويؤمنوا به وبرسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

٢- الإشارة إلى كثرة القرى التي أُرسل إليها الرسل، وعموم النُّذُر لكل الأمم، وكثرة

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٩)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرسل؛ منهم من قصَّه الله في القرآن، ومنهم من لم يقصصه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨].

٣- تبديل حال المكذبين من أهل القرى، ونقلهم من الشدة والضراء إلى الرخاء والسراء؛ ليعرفوا قدر نعمة الله تعالى عليهم فيشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾.

٤- شدة عناد المكذبين للرسل من أهل القرى، وعدم اهتدائهم لوجه الحكمة في المراوحة لهم بين البأساء والضراء، وبين الرخاء والسرَّاء، واعتبارهم ذلك مجرَّد عادة مضت في آبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾.

٥- أن الابتلاء بالخير والشر مما يتميَّز به الشاكر من الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٦- عقاب الله تعالى للمكذبين من أهل القرى فجأة على غرة، وأخذه لهم من حيث لم يخطر لهم ذلك على بال؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

٧- أن أهل القرى لو صدَّقوا الرسل وآمنوا واتقوا لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وأغدق عليهم الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

٨- تكذيب عامة أهل القرى، وأخذهم وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

٩- إثبات الأسباب، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

١٠- تحذير وتهديد أهل القرى اللاحقة بعد أولئك المُهلَكين- وقد سلكوا مسالكهم في التكذيب والكفر- من أن يأتيهم عذاب الله ليلًا وهم نائمون، أو ضحى وهم يلعبون؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ

أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وفي هذا إنكار عليهم وتعجب من غفلتهم وقد استوجبوا العذاب.

١١- أن العذاب إنما يأتي على غرة، وفي وقت الدّعة والغفلة؛ ليكون وقعه أشد وأعظم، مما يوجب الحذر من الغفلة.

١٢- الإنكار على من يأمن مكر الله تعالى واستدراجه، والتحذير من ذلك، وبيان أن أهله الخاسرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

١٣- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالسابقين؛ من أخذهم بذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٤- تذكير اللاحقين بنعمة الله عليهم؛ بتوريث الأرض بعد إهلاك أهلها، وتحذيرهم من أخذهم بذنوبهم كما أُخذ من قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٥- أن سنن الله تعالى في أخذ المكذبين ثابتة لا تتغير.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١٧- أن من أعظم عقوبات الذنوب والمعاصي الطبع على القلوب، فلا تفقه موعظة ولا تذكيرًا، ولا تسمع ذلك ولا تقبله، فلا يلج إليها خير، ولا يصلها حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٨- أن السماع الحقيقي هو سماع الانتفاع بالمسموع، لا مجرد سماع الآذان فقط؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٩- ذكر أخبار القرى وقصصها في القرآن الكريم، وما حصل منهم من التكذيب وعدم الإيمان، وما حل بهم من العقوبات؛ للاتعاظ والاعتبار بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾.

٢٠- إقامة الحجج على أولئك بما جاءهم من البينات على ألسنة الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٢١- أن من أعظم أسباب عدم التوفيق للإيمان والطبع على القلب بحيث لا يقبل

الحق؛ التكذيب به عند وروده أول مرة؛ عقوبة من الله تعالى على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٢- من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٣- أن أكثر أهل القرى الذين بعث الله فيهم الرسل لا عهد لهم؛ فلا يلتزمون بما عهد الله إليهم ووصاهم به؛ من تقواه، وعبادته وحده، وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

٢٤- أن أكثر أهل القرى فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى، ناقضون لعهد الله ووصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

٢٥- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم لا عهد لهم ولا ذمة، فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى، فلا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين؛ فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال ابن دريد(١):

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدٍ ... وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى

* * *

(١) انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة قصص عدد من الرسل الذين بعثهم إلى كثير من القرى وأهلها، منهم من ذكره على التعيين؛ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، ومنهم من ذكره على التعميم، وعاقبة كل منهم؛ بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين؛ منبِّهًا إلى أن هذه سنته في الرسل وأممهم، بشارة لمن جاء بعدهم من المؤمنين، وتحذيرًا للكافرين.

ثم أتبع ذلك كله بذكر رسالة عظيمة من أعظم الرسالات؛ رسالة موسى عليه الصلاة والسلام، كليم الرحمن، وثالث أولي العزم من الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وكتابه «التوراة» أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ خطَّها الله تعالى بيده(١)، وآياته الكونية من أعظم الآيات، وأمته بنو إسرائيل من أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ، وخصمه فرعون وملؤه من ألد الخصوم وأعتى الجبابرة، وقومه بنو إسرائيل من أشد الناس عنادًا واستكبارًا وتعاظمًا وتشددًا وتحايُلًا.

لهذا وغيره خُصَّت قصَّته عليه الصلاة والسلام بالتفصيل في القرآن الكريم أكثر من غيرها من قصص الأنبياء السابقين، فجاءت مبسوطة في عدد من سور القرآن الكريم؛ منها سورة الأعراف التي خصص ثلثها في نحو سبعين آية لهذه القصة، ومنها

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده!». أخرجه مسلم، في القدر (٢٦٥٢).

سورة يونس وطه والشعراء والنمل والقصص وغيرها؛ لما فيها من الآيات والعبر والعظات والدروس؛ فهي سجل حافل للرسل بعده، وللدعاة إلى الله تعالى.

ولهذا قال ﷺ لما اعترض رجل على قسمته الغنائم يوم حنين، وقال: والله إن هذه قسمة ما عُدل فيها وما أُريد بها وجه الله! قال ﷺ: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟! رحم الله أخي موسى؛ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١).

ولما مر ﷺ ليلة أسري به على موسى بعد فرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة؛ قال له موسى عليه السلام: «**إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرَّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة؛ فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك**»(٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾، ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة، أي: ثم أرسلنا من بعد الرسل الذين سبق ذكرهم على التعيين؛ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام والقرى التي أشير وإلى رسلهم على التعميم؛ كما في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤].

أي: أرسلنا بعدهم موسى بن عمران عليه السلام.

والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التراخي؛ لأن بين موسى عليه السلام وبين نوح وهود وصالح ولوط عليه السلام مددًا طويلة تقدر بالقرون؛ كما أن بينه وبين شعيب عليه السلام زمنًا طويلًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، الباء للملابسة والمصاحبة، أي: بحججنا ودلالاتنا؛ فقد أوتي موسى

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢)؛ من حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٨٨٧)، والنسائي في الصلاة (٤٤٨)؛ من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

عليه السلام من الآيات البينات والدلائل والحجج ما لم يؤته أحد من الرسل.

منها: العصا، واليد، وفلق البحر والحجر، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم؛ وغير ذلك.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: ملك مصر في عهد موسى عليه السلام.

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: وقومه من القبط، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠- ١١].

وقد بعث عز وجل معه أخاه هارون، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

وقد سأل موسى عليه السلام ربه أن يجعل هارون أخاه وزيرًا له ويرسل إليه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٩- ٣٠]، فاستجاب الله له؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٢- ٤٣].

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾، الفاء للتعقيب، أي: فبادروا بالتكذيب بها.

وعُدي الفعل «ظلموا» بالباء؛ لتضمنه معنى «كفروا»، أي: فجحدوا وكفروا بها ظلمًا وعدوانًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وأظلم الظلم: الكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويجوز كون «الباء»: للسببية، أي: فظلموا بسببها، ظلموا أنفسهم إذ كابروا ولم يؤمنوا، وظلموا غيرهم بمنعهم من الانتفاع بالآيات وصدِّهم لهم عن الهدى.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣- ١٢٤]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أي: فانظر وتأمل بعقلك وفكرك. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ﴿كَيۡفَ﴾ للاستفهام والتعجب، أي: كيف كان عاقبة المفسدين فرعون وقومه؛ حيث عاقبهم الله أسوأ عاقبة؛ فأغرقه الله وقومه، كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤٠- ٤٢].

وفي قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: «عاقبتهم»، والغرض من ذلك: التسجيل عليهم بوصف الفساد، وبيان أنهم إنما أُخذوا بسوء العاقبة لإفسادهم وكفرهم؛ وليشملهم ذلك وغيرهم من المفسدين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

هذا بمنزلة البيان لقوله: ﴿بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾ ناداه بالذي اشتهر به.

﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: إني رسولُ مرسِلٍ عظيم، وهو رب العالمين، الذي له الخلق والملك والتدبير الذي لا يتجرأ عليه أحد ويدعي أنه أرسله وهو لم يرسله، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦].

وفي هذا إبطال لدعوى فرعون وزعمه أنه رب مصر وأهلها، كما قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وفيه إبطال بطريق اللزوم لدعواه الألوهية، كما قال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾:

قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ قرأ نافع بتشديد الياء وفتحها على

أنها ياء الإضافة: «حَقِيقٌ عَلَيَّ»، وقرأ الباقون: ﴿عَلَىٰٓ﴾ على أنها حرف جر.

والمعنى: جدير وحريص على ألا أقول على الله إلا الحق، و﴿على﴾ بمعنى الباء، أي: بألا أقول على الله إلا الحق.

وعلى قراءة التشديد: ﴿عَلَيَّ﴾ «فعيل» بمعنى «فاعل» مِن حقَّ بمعنى: «وجب وثبت»، أي: وحق عليَّ ألا أقول على الله إلا الحق، أي: متعين عليَّ قول الحق والصدق على الله تعالى.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، أي: قد جئتكم بآية بينة ومعجزة ظاهرة على صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، وبحجة عقلية ظاهرة وبرهان قاطع على وجوب توحيد الله والاهتداء بهداه؛ لهذا لما قال له فرعون كما جاء في سورة الشعراء: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٠- ٣٢].

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أطلق سراحهم من أسرك وقهرك.

وكان فرعون قد عبَّد بني إسرائيل لخدمته واستذلهم وسامهم صنوف العذاب؛ ولهذا قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٧- ١٨].

ولما أظهر فرعون منته على موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، أجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

قال ابن كثير في كلامه على الآية: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم «إسرائيل» وهو

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن»[١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١٠٦﴾:

قوله: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: بعلامة وحجة على صدقك؛ كما في قولك: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿فَأْتِ بِهَآ﴾، أي: فأظهرها لنا.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما ادَّعيت من أن الله أرسلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧﴾:

قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾، أي: فألقى موسى عصاه التي كان يتوكّأ عليها ويهش بها على غنمه، أي: ألقاها على الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨ قَالَ أَلْقِهَا﴾ [طه: ١٧- ١٩].

﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الفاء عاطفة تفيد السببية، و«إذا»: هي الفجائية.

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن ظاهر لا شك فيه ولا تخيل، أي: فإذا هي حية عظيمة ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩- ٢٠].

ثم أمره تعالى بأخذها، فعادت كما كانت من ذي قبل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ١٠٨﴾:

هذه آية ومعجزة ثانية لموسى عليه السلام.

قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، أي: أخرج يده من جيب قميصه بعد أن أدخلها فيه، كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

أي: من غير برص.

﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ الفاء كالتي قبلها، وكذا «إذا».

---

(١) في (تفسيره) (٣/ ٤٥٠).

﴿بَيْضَآءُ﴾، أي: بيضاء تتلألأ من شدة البياض والنور، وكان موسى عليه السلام آدم اللون.

﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ تأكيد وتتميم لمعنى ﴿بَيْضَآءُ﴾، أي: تعجب الناظرين من شدة بياضها، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢]، أي: آية أخرى بعد العصا.

فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى عليه السلام وعلى صدقه، وأنه رسول من رب العالمين، كما قال تعال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: قال السادة والكبراء من قوم فرعون وأهل مجلسه ومشورته- لمَّا بهرهم ما رأوا من الآيات- موافقين لفرعون فيما حكى الله عنه في سورة الشعراء بقوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥].

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعنون موسى عليه السلام، ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، اللام: للتوكيد، ﴿عَلِيمٌ﴾ صفة لـ«ساحر».

أي: ساحر عليم بالسحر ماهر فيه، يؤثِّر بالناس، ويأخذ بأعينهم حتى يُخيَّل إليهم أن العصا حية، وأن اللون الآدم أبيض.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، أي: يريد هذا الساحر العليم أن يخرجكم من «أرضكم»: أرض مصر ويجليكم عن أوطانكم بسحره، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [الآية: ٥٧]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [الآية: ٦٣]، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ

لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية: ٧٨].

فخافوا أن يؤثِّر على الناس ويستميلهم بما جاء به، وخوَّفوهم أن يخرجهم من أرضهم إذا ظهر وصار له الملك.

والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ هذا من قول الملأ من قوم فرعون، ويحتمل أن يكون مستأنفًا من قول فرعون، تقديره: «فقال: ماذا تأمرون؟»، ويدل عليه قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾.

والمعنى: فماذا تطلبون أن نفعل في أمره؟ وما الذي تشيرون فيه؟ وكيف نتخلص منه؟

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾، أي: قال الملأ من قوم فرعون بعد أن تشاوروا وائتمروا فيه: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾.

قرأ عاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أَرْجِهْ ﴾ بجيم ثم هاء ساكنة، وقرأ نافع في رواية ورش والكسائي: ﴿أَرْجِهِ﴾ بجيم ثم هاء مكسورة، وقرأ الباقون: ﴿أَرْجِئْهُ﴾ بهمزة وهاء ساكنتين.

أي: أخِّره وأجِّله وأخاه، وأخِّر المجادلة معهما أو البت في أمرهما حتى إحضار السحرة الذين يدافعون سحره. وقيل: احبسهما.

﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ فهي ضمن مقول القول، أي: افعل هذا وهذا.

و«المدائن»: جمع «مدينة».

والمعنى: وأرسل في مدائن مصر وأقاليمها، وهي في ذلك الزمن كثيرة.

﴿حَـٰشِرِينَ ﴾ جمع «حاشر»، أي: أرسل في مدائن مصر شُرَطًا يحشرون ويجمعون لك السحرة.

قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾:

قرأ جمهور القراء: ﴿سَٰحِرٍ﴾ اسم فاعل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿سَحَّارٍ﴾ على وزن «فعَّال» صيغة مبالغة؛ كما قرأ به الجميع في آية الشعراء: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].

أي: يجيؤوك بكل ساحر عامل في السحر ماهر به، ﴿عَلِيمٍ﴾ ذي علم تام بالسحر؛ وذلك ليعارضوا ما جاء به موسى عليه السلام من البينات، كما قال فرعون: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٧- ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: وجاء السحرة فرعون بعد أن جمعهم لمعارضة موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨- ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر: ﴿إِنَّ﴾ دون همزة الاستفهام، وقرأ الباقون: «أَئِنَّ» بهمزة الاستفهام قبل «إِنَّ»؛ كما جاء في سورة الشعراء: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١- ٤٢].

أي: قالوا لفرعون على وجه الاستفهام أو التقرير: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: لجزاءً وثوابًا، أي: أتعطينا أجرًا؟ أي: جزاءً وثوابًا.

والتنكير في: «أجراً»؛ للتعظيم، أي: أجرًا عظيمًا.

﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لموسى في هذه المناظرة والمغالبة.

وضمير ﴿نَحْنُ﴾ تأكيد لضمير ﴿كُنَّا﴾؛ إشعارًا بجدارتهم بالغلب، وثقتهم أنهم أعلم الناس بالسحر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

قوله: ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾، أي: قال فرعون للسحرة إجابة لقولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾: نعم، أي: لكم أجر إن كنتم أنتم الغالبين. وزادهم بقوله:

﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي: وإنكم لمن المقربين عندي، أي: أقرِّبكم وأجعلكم من جلسائي.

فوعدهم بأن يعطيهم ما أرادوا من الأجر، وزادهم التقريب وعلو المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾:

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام؛ كقوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه: ٦٥].

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾، أي: قال السحرة لموسى عليه السلام: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾.

﴿إِمَّآ ﴾: حرف تخيير، أي: إما أن تُلقي عصاك وما معك من السحر قبلنا.

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾، أي: وإما أن نُلقي نحن عُصِيَّنا وحبالنا وما معنا من السحر قبلك؛ كما في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه: ٦٥].

وفي تخييرهم له إظهار لمدى غرورهم وثقتهم بمقدرتهم، وأنهم هم الغالبون سواء ابتدأ هو بالإلقاء أو كانوا هم المبتدئين، وليسبروا مدى ثقة موسى بما معه؛ يشير إلى هذا قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤].

قال ابن القيم: «وفي قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ تخيير منهم له، وحسن أدب راعوه معه، وإنما قالوا: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾ ولم يقولوا: «وإما أن نُلقي» كما قالوا: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ لرغبتهم في أن يُلقوا قبله، وتشوفهم إلى التقدم عليه، وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل»(١).

---

(١) انظر: بدائع التفسير (٢/ ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾، أي: قال لهم موسى: ألقوا، أي: ألقوا ما أنتم ملقون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠، الشعراء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٦].

فاختار عليه السلام أن يبتدؤوا هم بالإلقاء؛ ليرى الناس ضعف كيدهم، وليبطل بعدهم ما معه من الحق كلَّ ما ألقوه، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

قال ابن كثير: «والحكمة في هذا- والله أعلم- ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلُّب له وانتظار منهم لمجيئه؛ فيكون أوقع في النفوس»(١).

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ معطوف على محذوف، والتقدير: فألقوا، أي: فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وسحرهم.

﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: خيّلوا إلى أعين الناس وأبصارهم بسحرهم أن ما ألقوه من حبالهم وعصيِّهم حيات حقيقية تسعى.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ السين والتاء للتأكيد والمبالغة، أي: وأرهبوهم رهبًا شديدًا، أي: خوفوهم خوفًا شديدًا؛ لتخييلهم وخداعهم للناس حتى توهَّموا أن هذه الحبال والعصي حيات حقيقية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦- ٦٩].

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، أي: لم يوجد له نظير من السحر والتخييل والخداع والتمويه

---

(١) في (تفسيره) (٣/ ٤٥٢).

على الناس؛ حيث ألقى كل منهم- مع كثرتهم الكاثرة- ما معه من حبال وعصي، وصارت كلها ثعابين في أعين الناس.

الفوائد الأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

٢- تأييد موسى عليه السلام بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

٣- أن موسى عليه السلام مرسل إلى فرعون وملئه من القبط، وإلى بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- جحود فرعون وملئه، وكفرهم بآيات الله، وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾.

٥- الحث على النظر والتأمل في عاقبة المفسدين؛ كفرعون وملئه وغيرهم، وما حل بهم من العقوبات بالغرق وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٦- أن الظلم والجحود والكفر بآيات الله من أعظم الفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١].

٧- مناظرة موسى عليه السلام، ومحاجته لفرعون، وإلجامه إياه بالحجة وإظهار الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الآيات.

٨- أن عظمة الرسالة من عظمة المُرسِل؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٠- إبطال دعوى فرعون الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَّبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١١- أن موسى عليه السلام حقيق على ألا يقول على الله إلا الحق، جدير بذلك، وذلك واجبه، وكذا غيره من الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

١٢- جواز ثناء الإنسان على نفسه إذا كان ذلك في مقام بيان الحق والدعوة إليه، وأنه مُحِقٌّ بما دعا إليه ونحو ذلك؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

١٣- لا يجوز أن يُقال على الله إلا الحق؛ لقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، على قراءة من قرأ: «عَلَيَّ» بتشديد الياء وفتحها، على أن الياء ياء الإضافة، أي: واجب عليَّ.

١٤- تأييد موسى عليه السلام في دعوته بالبينات والمعجزات الظاهرة، والآيات والحجج العقلية؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٥- أن موسى عليه السلام أُرسل لإخراج بني إسرائيل وتخليصهم من اضطهاد فرعون وملئه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٦- تحدي فرعون لموسى عليه السلام، واتهامه له بعدم الصدق فيما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

١٧- أن من أعظم البينات والمعجزات الكونية الظاهرة الدالة على صدق موسى عليه السلام في رسالته: العصا واليد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

١٨- اتهام فرعون وملئه لموسى عليه السلام بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥].

١٩- تخويف فرعون وملئه لعامة قومه؛ بأن موسى عليه السلام يريد أن يخرجهم من أرضهم وبلادهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾.

٢٠- أن من أعظم أسباب رد الحق وعدم قبوله؛ التمسك بالرياسات والجاه والديار والمال.

٢١- تشاور فرعون وملئه وائتمارهم؛ ماذا يفعلون في أمر موسى؟ وكيف يتخلصون منه؟ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

٢٢- إجماع الملأ من قوم فرعون على المشورة عليه بتأخير البت في أمر موسى وأخيه حتى يجمع السحرة لمعارضته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

٢٣- أهمية المشورة والتأني في الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، ولهذا امتدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

٢٤- الإشارة إلى كثرة السحر والسحرة مبعث موسى عليه السلام.

٢٥- مجيء السحرة إلى فرعون- بعد أن جمعهم لمعارضة موسى بسحرهم- يُطالبون بالجزاء إن غلبوا، ظنًّا منهم أنهم سيغلبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

٢٦- وعد فرعون للسحرة وتكفله لهم بالأجر، وزيادة تقريبهم عنده، غرورًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

٢٧- تخيير السحرة في ظاهر قولهم لموسى عليه السلام أن يبدأ هو فيُلقي ما معه، أو أن يبدؤوا هم؛ لقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾.

٢٨- توفيق الله تعالى لموسى عليه السلام؛ حيث اختار أن يبدأ السحرة؛ فقال: ﴿أَلْقُواْ﴾ ليظهر للناس ضعف كيدهم وسحرهم مهما عظُم أمام ما أيده الله تعالى به من البينات والمعجزات.

٢٩- تأثير السحرة على أعين الناس بما ألقوه من السحر، وإرهابهم وإخافتهم لهم بما جاؤوا به من سحر عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

٣٠- أن السحر له تأثير على الأعين والقلوب والأبدان، بإذن الله تعالى الكوني،

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٣١- عظم جهل فرعون وقومه؛ حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية لا يقدر عليه إلا الله تعالى حتى نسبوه إلى السحر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

بعدما ألقى السحرة سحرهم العظيم الذي خوَّفوا به الناس واسترهبوهم؛ أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن يُلقي عصاه، وهي أعظم الآيات الكونية على صدقه.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ الإيحاء والوحي: الإعلام بسرعة وخفاء، ويكون بطريق الإلهام، أو التكليم من وراء حجاب، أو بواسطة المَلَك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، ﴿أَنْ﴾ تفسيرية؛ فالجملة تفسير وبيان للوحي الذي أوحاه الله تعالى في هذا المقام إلى موسى، وهو أمره له أن يُلقي عصاه.

والمعنى: أن ألق عصاك على الأرض، وهي التي كانت بيمين موسى عليه السلام يتوكّأ عليها ويهش بها على غنمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧-١٩].

﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

قرأ حفص عن عاصم بتخفيف القاف: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «تَلَقَّفُ».

والفاء: عاطفة، تفيد التعقيب، و«إذا»؛ هي الفجائية، أي: فإذا هي فجأة تلقف ما يأفكون؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

ومعنى ﴿تَلْقَفُ﴾ على قراءة التخفيف: تبتلع وتزدرد وتأكل.

ومعناه على قراءة التشديد «تَلَقَّفُ»: المبالغة في اللَّقف، أي: في الابتلاع والازدراد والأكل.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة، تفيد العموم، أي: تلقف جميع الذي يأفكون، أي: جميع الذي يكذبون ويصطنعون ويموهون من السحر والتخييلات الباطلة التي لا حقيقة لها.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «فألقى عصاه فإذا هي حية؛ فجعلت تلقف ما يأفكون، لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر؛ فخروا سُجَّدًا، وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١- ١٢٢]»(١).

والتعبير بالمضارع في ﴿تَلْقَفُ﴾، و﴿يَأْفِكُونَ﴾ للدلالة على التجديد والتكرير مع استحضار الصورة العجيبة.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾، الفاء: للتفريع، أي: فظهر الحق وتبين.

و«الحق»: الأمر الثابت الموافق للبرهان، وضده: الباطل، أي: ظهر صدق موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين، أيده الله عز وجل بهذه الآية والمعجزة العظيمة الدالة على أنها من تأييد الله تعالى له؛ لما فيها من دلائل كمال قدرة الله تعالى.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: وبطل: الذي كانوا يعملونه، أو: وبطل عملهم، أي: وزال واضمحل الذي كانوا يعملون من السحر ومقصودهم منه، وخاب سعيهم.

وفي هذا تقرير لقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾، وتسجيل لذمهم، ونداء بخيبتهم، وتأنيس

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٥٨).

للمؤمنين، وتهديد للمشركين.

قوله تعالى: ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾:

قوله: ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فغُلب السحرة.

﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة للمكان، أي: غُلبوا في ذلك المكان الذي اجتمع فيه أهل مصر بدعوة من فرعون؛ لظنه غلبة السحرة.

﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾، أي: رجعوا وصاروا ذليلين حقيرين مقهورين.

قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ بني الفعل «أُلقي» للمجهول لظهور الفاعل، وهو أنفسهم، أي: ألقى السحرة أنفسهم ساجدين.

﴿سَٰجِدِينَ ﴾ حال، أي: ساجدين لله تعالى؛ لما رأوا من عظيم قدرته تعالى، فلم يتمالكوا أن سجدوا لربهم دون تريث أو تردد؛ تعظيمًا وعبادة له عز وجل، وخضوعًا له، وانقيادًا لأمره.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

وفي سورة طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]؛ فقدم ذكر هارون في سورة طه من أجل تناسب الآيات والفواصل.

أي: صدقنا برب العالمين عامة، خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، رب موسى وهارون خاصة، أي: صدقنا به بقلوبنا، وانقدنا له بجوارحنا.

قال الشيخ محمد بن عثيمين: «فكل ما يحكيه الله عن السابقين فهو بالمعنى؛ لأننا نعلم أنهم ما تكلموا بالعربية؛ فلغتهم غير العربية، وترتيبهم ليس كترتيب القرآن فيما نعلم، والله أعلم. وقد يُقال: إن الله حكى قولهم، ولكن صاغه عز وجل وتحدث به على ما يريد»(١).

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ استئناف بياني، أو حال ثانية.

---

(١) «تفسير سورة المائدة» (٢/ ٢٦٨-٢٦٩).

والمقصود منه: الإعلان بإيمانهم بالله؛ فجمعوا بين الإيمان بالفعل بالسجود، وبالقول بهذا الإعلان، أي: جمعوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ وهو ما دعاهم إليه موسى عليه السلام، وكفروا بروبية فرعون وإلهيته في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بدل من ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لزيادة الإيضاح والبيان والتأكيد، أي: آمنا بربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وبربوبيته الخاصة لموسى وهارون وأوليائه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُوا۟ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾:

قوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ قرأ حفص عن عاصم: ﴿ءَامَنتُم﴾ بهمزة واحدة؛ على الإخبار، وهو مستعمل للإنكار والتهديد؛ لظهور أنه لا يقصد حقيقة الإخبار.

وقرأ الباقون: «أَآمَنتُمْ» بهمزتين؛ على الاستفهام، منهم من حقق الهمزة؛ وهم: حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وخلف، ومنهم من سهل الهمزة الثانية؛ وهم: نافع وأبو عمرو وابن عامر.

والمعنى: قال فرعون للسحرة لما سجدوا وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون؛ متوعدًا ومهددًا لهم: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أي: صدقتم به، أي: بالله رب العالمين، رب موسى وهارون.

ويجوز عود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ على موسى، أي: صدقتم بموسى وأنه رسول من رب العالمين.

والمؤدَّى واحد؛ لأن الإيمان بموسى إيمان برب العالمين؛ كما أن الإيمان برب العالمين إيمان بموسى وما جاء به، وفي ذلك كله كفر بربوبية فرعون وإلهيته.

﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، ﴿أَنۡ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى ﴿قَبۡلَ﴾، أي: قبل إذني لكم، أي: قبل أن آذن لكم بالإيمان برب موسى، أو بموسى، أي: إن هذا سوء أدب منكم، وكان يعتقد ويزعم أنه ربهم وإلههم؛ لا يجوز لهم التصرف إلا

بإذنه؛ فوبَّخهم وأنكر عليهم أمرين: الإيمان برب العالمين، وكون ذلك بغير إذنه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ يشير إلى ما حصل من إيمان السحرة برب العالمين، وبما جاء به موسى عليه السلام.

واللام في قوله: ﴿لَمَكْرٌ﴾ للتأكيد، و«المكر»: الكيد والتدبير الخفي والخداع.

ونكّر «مكر»: للتعظيم، أي: لمكر عظيم، ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾، أي: دبرتموه أنتم وموسى وتواطأتم عليه.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: في مصر قبل الخروج للميعاد، أي: إن غلبته لكم في يومكم هذا وإيمانكم به إنما كان عن تشاور منكم ورضا؛ كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تُخرجوا منها أهلها.

أو للعاقبة، أي: لتكون العاقبة أن تُخرجوا منها أهلها، بعد أن تكون لكم أنتم وموسى الدولة والنصرة.

وهذا محض الكذب والافتراء من فرعون؛ قاله لمَّا أُسقط في يده ورأى السحرة قد آمنوا بالله رب العالمين، فلم يبق أمامه إلا أن يتهمهم بالتواطؤ مع موسى.

وهذا من أبطل الباطل، أراد به فرعون التدليس والتلبيس على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وهذا موافق لقول الملإ من قومه: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠].

فبالأمس كان خوفه وملئه من موسى عليه السلام أن يُخرجهم من أرضهم، واليوم كان خوفه من السحرة من بني جلدته أن يُخرجوهم لما آمنوا؛ فجاءه الخوف من مأمنه.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد وتهديد منه للسحرة، أي: فسوف تعلمون في المستقبل ما أصنع بكم وما أُحِل بكم من العقوبة.

وحذف المفعول لقصد التهويل في الوعيد؛ لإدخال الرعب في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

هذا تفسير وتفصيل للوعيد المجمل بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

واللام في قوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ﴾ لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأقطعن.

و«التقطيع»: المبالغة والتشديد في القطع، وكونه حتميًّا لا هوادة فيه ولا رحمة.

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ﴾ داخل في حيز المقسم عليه، أي: لأصلبنكم في جذوع النخل؛ كما في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: ثم لأصلبنكم بعد التقطيع؛ لفضيحتكم، والتنكيل بكم، والتحذير من فعلكم.

و«التصليب»: المبالغة في الصلب والتشديد فيه، وكونه حتميًّا لا هوادة فيه ولا رحمة.

والصلب: أن يُربط الرجل قائمًا على خشبة مدة، أو حتى يموت. وقد يكون الصلب بعد القتل.

والمعنى: ثم لأصلبنكم بعد تقطيع أيديكم وأرجلكم من خلاف؛ فضيحة وخزيًا لكم، ونكاية وتنكيلًا بكم، ونكالًا لغيركم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء»(١).

﴿أَجْمَعِينَ ﴾، أي: كلكم لا أستثني منكم أحدًا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾:

بهذا أجابوا عن وعيد فرعون، أي: أن هذا الوعيد لا يضيرنا ولا يفزعنا؛ لأنا إلى ربنا راجعون، وما عنده من الأجر والثواب خير لنا مما عندك، ومن الدنيا وما فيها، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٢- ٧٦].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٣٦٤)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٣٧١٥٣٨).

قوله: ﴿ وَمَا نَنقِمُ مِنَّآ ﴾، أي: وما تعيب منا، ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ﴿إِلَّآ ﴾ أداة حصر.

﴿أَنْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿نَنقِمُ﴾، أي: وما تنقم منا إلا إيماننا بآيات ربنا، أي: إلا تصديقنا بآيات ربنا التي أيَّد بها رسوله موسى عليه السلام؛ ومنها: انقلاب العصا حية تسعى وتلقف ما يأفكون، ﴿لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، أي: حين جاءتنا على يدي موسى عليه السلام.

أي: أن ما نقمته منا ليس مما يُنقم منه ويُعاب عليه، بل هو أفضل ما يُمتدح به، وأعظم المناقب، وخير الأعمال، وأوجب الواجبات علينا.

﴿رَبَّنَآ ﴾، أي: يا ربنا، ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾، أي: أفض علينا صبرًا.

ونكَّر ﴿صَبْرًا ﴾ للتعظيم، أي: أفض علينا صبرًا واسعًا عظيمًا؛ لعظم ما نحن فيه من المحنة؛ تُطَمْئِن به قلوبنا، وتُثَبِّتنا به على الإيمان، وتعيننا به على ما نلقى من عذاب فرعون وأذاه.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، أي: واقبض أرواحنا حال كوننا ثابتين على الإسلام.

وهذا مطلب كل مؤمن، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾، الاستفهام: للإنكار، أي: أتترك موسى وقومه وتدعهم؟ وفيه معنى الإغراء، أي: لا تتركهم ولا تدعهم.

﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أي: ليفسدوا رعيتك .

والمراد بقولهم: ﴿وَقَوْمَهُۥ﴾: كل من آمن بموسى من بني إسرائيل ومن القبط كالسحرة.

﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، اللام لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يُفسدوا في الأرض بالدعوة إلى الإيمان بربوبية الله تعالى وحده وإلهيته؛ ولهذا قالوا بعده: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾،

أي: يدعك وعبادتك، فيكفر بربوبيتك وإلهيتك.

فاعتقدوا أن ما يدعو إليه موسى من الإيمان بربوبية الله تعالى وإلهيته وحده وترك تأليه فرعون، فساد، كما قال فرعون في الآية الأخرى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد أحسن القائل:

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ ... حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

وقال الآخر:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا[1]

وقوله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾.

بهذا أجاب فرعون المحرضين من ملئه على موسى وقومه، وقد تكلم عن نفسه بضمير الجمع اغترارًا بقوته وعظمته وسلطانه.

قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير: «سَنَقْتُلُ» بفتح النون وإسكان القاف وضم التاء من غير تشديد، وقرأ الباقون بضم النون وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها للمبالغة في القتل: ﴿سَنُقَتِّلُ﴾.

والسين للمبالغةوالتحقيق والتأكيد، أي: سنقتل أبناءهم، أي: مواليدهم الذكور، فلا نترك منهم أحدًا.

﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾، أي: ونستبقي نساءهم، أي: مواليدهم من الإناث؛ فلا يقتلن، بل نستبقيهن سراري وخدمًا.

﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾، أي: وإنا عالون عليهم، غالبون لهم، متمكنون منهم،

---

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٣/ ٢٢١).

قادرون عليهم، لا خروج لهم عن ملكنا وسلطاننا وحكمنا وقبضتنا.

وقد فعل هذا ببني إسرائيل قبل ولادة موسى خوفًا من وجوده؛ فكان يستبقي المواليد الإناث ويقتل الذكور؛ خشية من ولادة مولود يكون هلاكه وزوال ملكه على يديه، حين أظله زمان موسى عليه السلام، وقد خاب سعيه، وأُتي من مأمنه، وتربَّى موسى عليه السلام في بيته؛ حكمة بالغة.

وهكذا لما أعاد الكرة وتوعد بني إسرائيل بهذا الصنيع ليقهرهم ويذلهم؛ جاء الأمر على خلاف ما أراد، فخاب مسعاه، ونصرهم الله عليه، وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾:

لما توعد فرعون موسى وقومه وصمم على أذيتهم وقهرهم، وأقسم على ذلك؛ مُغترًّا بقوته وجبروته، أمرهم موسى عليه السلام بالاستعانة بالله شديد المحال، وأوصاهم بالصبر، وبشَّرهم بوراثة الأرض والعقبى الحسنة.

قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: الجؤوا إلى الله تعالى واطلبوا منه العون وتوكَّلوا عليه؛ فهو الملجأ في المحن والشدائد، الذي لا يُقهر من لاذ بجنابه، واستعان به، وتوكل عليه، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾، أي: واصبروا على ما ينالكم من أذى فرعون وقومه، واثبتوا على دينكم وانتظروا الفرج؛ ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾، أي: إن الأرض ملك لله تعالى وحده، لا لفرعون وقومه حتى يتحكموا فيها، ولا لأحد من الخلق.

﴿يُورِثُهَا﴾، أي: يُمَلِّكها ويُسكنها، ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ﴿مَن﴾ موصولة، أي: الذي يشاء.

﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿مِنْ﴾ تبعيضية، أي: بعض عباده، وهم الصالحون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن

تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: والعاقبة الحسنى للمتقين، الذين اتقوا الله؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فلهم العاقبة الحسنى في الدنيا؛ بالنصر والتمكين، ولهم العاقبة الحسنى في الآخرة؛ في جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾:

قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال قوم موسى بنو إسرائيل.

﴿أُوذِينَا﴾، أي: آذانا فرعون وقومه.

والأذى: ما يؤلم ويُحزن من قول أو فعل، أي: أوذينا أذى شديدًا؛ بقتل أبنائنا، واستحياء نسائنا، واستعبادنا واضطهادنا.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى ﴿قَبْلِ﴾، أي: من قبل إتيانك إلينا، أي: من قبل بعثتك فينا رسولًا؛ يعنون ما حصل لهم من فرعون؛ من اضطهاد قبل مبعث موسى عليه السلام، حيث كان فرعون يسومهم سوء العذاب؛ يُذبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويهينهم ويُذلهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠- ٣١].

﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، ﴿مَا﴾ مصدرية، أي: ومن بعد مجيئك إلينا بالرسالة؛ يعنون ما حصل لهم بعد إيمان السحرة بموسى عليه السلام؛ من تعذيب فرعون لهم، وتحريض الملإ من قومه له على بني إسرائيل وتهديده لهم بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، أي: قال موسى مخاطبًا قومه، بعد أن شكوا ما لقوه من أذى فرعون وما يلقونه منه؛ مُرجِّيًا لهم بالفرج والخلاص من عدوهم:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾.

و﴿عَسَىٰ﴾ هنا للرجاء، وقرن الرجاء بوصف الربوبية؛ لأنه أنجع، فكأنه يقول: عسى من له الخلق والملك والتدبير أن يُهلك عدوكم.

وفي هذا الخبر نوع من بث الشكوى رجاء أن يدعو لهم موسى ربه أن يُفرِّج كربهم، وإلا فشكوى الحال إنما هي إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

وقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنّما ... تشكو الرّحيم إلى الّذي لا يرحم(١)

وقال الآخر:

لا تشكونّ لمخلوقٍ فتشمته ... شكوى الجريح إلى الغربان والرّخم(٢)

وجملة ﴿أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ في محل نصب خبر ﴿عَسَىٰ﴾، أي: أن يُهلك عدوكم فرعون وملأه.

و«عدو»: يُطلق على المفرد وعلى الجمع، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، الواو عاطفة، والسين والتاء في «يستخلفكم» للمبالغة والتأكيد، أي: يجعلكم خلفاء في الأرض، ويمكنكم فيها ويملككم إياها.

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، الفاء عاطفة، أي: فينظر ويرى كيف يكون عملكم؛ هل تشكرون ربكم على ما أزال عنكم من النقم، وعلى ما وهبكم من النعم، فتعملون بطاعته، وتجتنبون معصيته؟ أو تكفرون بذلك؟

وفي هذا حض وحث لهم على طاعة الله، وتحذير من معصيته؛ ولهذا ذكَّرهم بربوبية الله تعالى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾.

---

(١) البيت بلا نسبة كما في «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٨١)، وفي «الكشكول» (١/ ٥٧) منسوب لزين العابدين.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٦٢).

الفوائد والأحكام:

١- إيحاء الله عز وجل إلى موسى عليه السلام بإلقاء عصاه؛ لإبطال مكر السحرة وكيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

٢- عظمة قدرة الله تعالى؛ حيث جعل عصا موسى حية تسعى تلتقم وتبتلع كل ما ألقاه السحرة من السحر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

٣- أن ما جاء به موسى عليه السلام من العصا واليد، وما في ذلك من الآيات، كل ذلك من وحي الله تعالى وتأييده له.

٤- أن ما جاء به السحرة وألقوه كله إفك وكذب؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾.

٥- ظهور الحق بصدق موسى عليه السلام فيما دعا إليه من الإيمان برب العالمين وفيما جاء به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾.

٦- بطلان ما عمله السحرة وألقوه من السحر، وما عليه فرعون من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٧- غلبة موسى عليه السلام بما معه من البينة والمعجزة للسحرة، وانقلابهم صاغرين ذليلين؛ لقوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾.

٨- أن الغلبة للحق وأهله مهما طغى الباطل وتجبر أهله وتكبروا.

٩- سجود السحرة عبادة لله تعالى وطاعة له وانقيادًا؛ لما رأوا من عظيم ما جاء به موسى عليه السلام من البينة مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾.

١٠- إعلان السحرة إيمانهم بالله رب العالمين، رب موسى وهارون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وبهذا جمعوا بين توحيد الإلهية بالسجود لله تعالى، وتوحيد الربوبية بإعلانهم هذا، وبهذا كفروا بفرعون ودعواه الربوبية والألوهية.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى وهارون، وللمؤمنين؛ لقوله تعالى:

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، وقول السحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

١٣- تسلط فرعون على قومه، وتدخله حتى في خصوصياتهم، واعتقاده أنه لا يجوز لهم التصرف إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾.

١٤- اتهام فرعون للسحرة- لما غلبهم موسى وآمنوا به- بالمكر والتواطؤ مع موسى كذبًا وزورًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾.

١٥- تهويل فرعون لأمر موسى عليه السلام، وتخويف قومه منه، وأنه سيخرجهم من بلادهم؛ لقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، وهكذا يعمد أهل الباطل للتخويف من الحق وأهله.

١٦- تهديد فرعون للسحرة، وتوعده لهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

١٧- عدم اكتراث السحرة بوعيد وتهديد فرعون لهم بالتقطيع والتصليب؛ لتيقنهم بأنهم إلى الله راجعون وما عند الله خير لهم وأبقى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

١٨- إثبات البعث ورجوع الخلائق إلى الله تعالى.

١٩- أن فرعون لا ينقم ولا يعيب من السحرة سوى أنهم آمنوا بآيات ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾.

٢٠- سؤال السحرة لربهم أن يفرغ عليهم صبرًا ويعينهم على أذى فرعون؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾، وهكذا ينبغي سؤال الله تعالى العون والصبر على كل ملمة.

٢١- سؤال سحرة فرعون ربهم حسن الخاتمة والوفاة على الإسلام؛ لقولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾، وهكذا يجب على كل مسلم سؤال الله حسن الختام.

٢٢- أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يعدل به المرء شيئًا، ويهون كل أمر في سبيله.

٢٣- أن الإسلام والإيمان إذا أطلق أحدهما دخل معه الآخر؛ لأن السحرة قالوا

أولًا: ﴿ءَامَنَّا﴾، ثم قالوا آخرًا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- تحريض الملأ من قوم فرعون له على موسى وقومه بعدم تركهم، واتهامهم لهم بالفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢٥- أن الهوى وانطماس البصائر وانتكاس الفطرة يؤدي إلى قلب الحق باطلًا، والباطل حقًّا، واعتبار الصلاح فسادًا، والفساد صلاحًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ فاعتبروا الفساد في الأرض الدعوة إلى الإيمان بربوبية الله تعالى وإلهيته، وترك تأليه فرعون وعبادته. وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

٢٦- أن فرعون قد سخَّر قومه لعبادته، وأوهمهم أنه ربهم وإلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، أي: يدعك وعبادتك، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

٢٧- تهديد فرعون لموسى وقومه باستئصال أبنائهم، واستحياء نسائهم، وقهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

٢٨- دعوة موسى عليه السلام لقومه في هذه المحنة العظيمة للجوء إلى الله تعالى وحده، والاستعانة به، والتوكل عليه، والصبر على أذى فرعون، والثبات على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

٢٩- وجوب الاستعانة بالله تعالى والصبر عند المحن والثبات على الحق؛ فإن الفرج مع الكرب، والنصر مع الصبر، ولن يغلب عسر يسرين.

٣٠- بشارة موسى لقومه بالفرج من الله تعالى، وتوريثهم الأرض، وأن العاقبة الحسنى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٣١- أن من سنن الله تعالى الكونية الثابتة؛ أن العاقبة في الدنيا للمتقين؛ كما أن لهم العاقبة في الأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٢- يجب على المؤمن التفاؤل، وحسن الظن بالله، ورجاؤه، والثقة بوعده مهما ادلهمت الخطوب.

٣٣- إخبار بني إسرائيل لموسى بما عانوه من أذى فرعون قبل مبعثه عليه السلام وبعده؛ حيث كان فرعون يسومهم سوء العذاب يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، رجاء أن يدعو لهم موسى بالخلاص من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾.

٣٤- دعوة موسى عليه السلام ورجاؤه لقومه الفرج من ربهم؛ بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض؛ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣٥- حث موسى عليه السلام لقومه على شكر الله تعالى عند إهلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض بالعمل بطاعته واجتناب معصيته؛ لقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، ولهذا قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ تذكيرًا لهم بربوبية الله عز وجل لهم؛ ليشكروه.

٣٦- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾.

٣٧- أن العبرة بكيفية العمل وكونه صالحًا خالصًا لله، موافقًا للشرع، لا بكميته؛ لقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾.

٣٨- أن الله عز وجل لا يُحاسب الخلائق على ما علمه منهم في الأزل وقدّره عليهم، إنما يُحاسبهم بعد أن يقع ذلك منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾.

٣٩- وجوب شكر الله تعالى على ما يوليه من النعم، وما يدفعه من النقم، وبذلك تستقر النعم وتزيد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة ما أيد الله به نبيه موسى عليه السلام في دعوته فرعون وقومه من الآيات والمعجزات، وكفرهم بها، وعتوهم وتجبرهم، ثم ذكر في هذه الآيات ما ابتلاهم به من الشدائد والمصائب والعقوبات لعلهم يتذكرون، لكن هذا وذاك لم ينجع فيه، بل استكبروا وازداد كفرهم وعنادهم؛ فانتقم الله منهم وأغرقهم، وأنجى موسى وبني إسرائيل، وأورثهم الأرض من بعدهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾، الواو استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدّر، أي: والله لقد أخذنا آل فرعون، أي: ابتليناهم وأصبناهم واختبرناهم.

﴿بِٱلسِّنِينَ ﴾، أي: بالنسين الشداد؛ سني الجدب والقحط والجوع؛ كما في دعائه ﷺ على مضر: «**اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(١).

قال الشاعر:

دَعَانِيَ مِنْ نَجْدٍ فَإِنَّ سِنِينَهُ ... لَعِبْنَ بِنَا شِيبًا وَشَيَّبْنَنَا مُرْدَا(٢)

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ معطوف على «السنين»، وتنوين «نقص» وتنكيره للتكثير،

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٠٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧٥)، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٤٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت للصمة القشيري. انظر: «ديوانه» (ص٦٠).

أي: ونقص كثير من الثمرات، أي: من ثمرات الزروع والحقول والجنات، فيقل إنتاجها بسبب انعدام البركات، وكثرة الجوائح والآفات.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، أي: أخذناهم؛ لأجل أن يذَّكروا.

و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أصلها: «يتذكرون»؛ فأدغم التاء في الذال، أي: لعلهم يتَّعظون ويعتبرون وتلين قلوبهم، فيرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد، ويعلموا أن ذلك هو سبب ما أصابهم من السنين والنقص.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الفاء عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية، أي: فإذا حصلت لهم الحسنة.

و﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾: ما يستحسنونه ويحبونه ويرغبونه؛ من صحة وخصب ورزق، ونحو ذلك.

﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، اللام في ﴿لَنَا﴾ لام الاستحقاق، أي: هذه الحسنة حق لنا، أي: نحن مستحقون لها، فكفروا نعمة الله تعالى ولم يشكروه عليها، ولم يتذكروا بذلك، بل ازدادوا كفرًا.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، الواو عاطفة، و«إن»: شرطية، و﴿سَيِّئَةٌ﴾ هنا مقابل ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾.

والمراد بها: ما يسوؤهم من جدب وقحط ونقص الثمرات ونحو ذلك.

فالمراد بالحسنة: الحالة الحسنة، والمراد بالسيئة: الحالة السيئة.

والابتلاء قد يكون بالحسنات، وقد يكون بالسيئات، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال الشاعر:

قَـد يُـنْعِمُ اللهُ بِـالبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَـتْ ... وَيَبْـتَلِي اللهُ بَعْـضَ القَـوْمِ بِـالنِّعَمِ

وعبَّر في جانب الحسنة بالمجيء؛ لأن حصولها مرغوب مترقب كما يُترقَّب الجائي، وعبر في جانب السيئة بالإصابة؛ لأنها تحصل فجأة من غير رغبة ولا ترقُّبٍ.

وفي التعبير بـ«إذا» التي للمُحَقق في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وتعريف «الحسنة» إشارة وتعريض بتكاثر الحسنات- أي: النعم- عليهم من الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

كما أن في التعبير بـ«إن» التي للمشكوك فيه في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وتنكير «سيئة» إشارة إلى قلة حصول السيئات، أي: المكروهات بالنسبة إلى الحسنات؛ ففضل الله أعم وأكثر، وعفوه أوسع.

﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾، أصلها: «يتطيروا»؛ فأُدغمت التاء في الطاء.

و«التطيُّر»: التشاؤم، وسُمِّي التشاؤم تطيُّرًا أخذًا من التشاؤم بالطيور، وقد كان هذا موجودًا في العرب حتى جاء الإسلام؛ فقد كانوا إذا خرجوا في سفر نظروا ما يلاقيهم أول سفرهم من طائر، فإن طار من جهة اليمين رأوه علامة يُمنٍ، ويسمونه: السانح، وإن طار من جهة اليسار رأوه علامة شُؤمٍ، وتشاءموا به، ويسمونه: البارح.

والتشاؤم: عدُّ الشيء واعتباره مشؤومًا، أي: اعتقاد أن وجوده يكون سببًا في حصول ما يُحزن ويضرّ.

والمعنى: وإن تصبهم سيئة تشاءموا بموسى ومن معه، وقالوا: ما أصابتنا هذه السيئة، أي: ما أصابنا هذا الشر؛ إلا بشؤم موسى وأتباعه، أي: إلا بسببهم وما جاؤوا به، كما قال تعالى عن أعداء الرسول ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه واستفتاح، و﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، وهي أداة حصر، أي: ما طائرهم إلا عند الله.

وفي قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إظهار مقام الإضمار، فلم يقل: «عندي»؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل.

والمعنى: إنما أصابهم بقدر الله وقضائه؛ عقوبة لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، لا بسبب موسى ومن معه وشؤمهم.

كما قال صالح عليه السلام لقومه لما قالوا: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، قال:

﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

وكما قال المرسلون لما قال لهم أصحاب القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، قالوا: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ [يس: ١٨- ١٩].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وهو أن ما أصابهم وما يصيبهم بقدر الله تعالى عقوبة لهم على كفرهم وتكذيبهم، لا بسبب موسى ومن معه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾:

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾، أي: وقال فرعون وقومه لموسى عليه السلام: ﴿مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾، ﴿مَهۡمَا﴾: اسم شرط جازم، أي: أيًّا ما تأتينا به من آية، أي: من علامة ودلالة.

﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ اللام للتعليل، أي: لتؤثر بها على أبصارنا وعقولنا، وتلفتنا عما نحن عليه من تأليه فرعون وعبادته.

وفي هذا إعلان منهم بأنه قد تقرر عندنا أنك ساحر.

﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، و«ما»: نافية، والباء: للتوكيد، أي: فما نحن لك بمصدقين فيما تدعونا إليه.

فأكدوا نفي إيمانهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام، وبالباء الدالة على التوكيد، وبتقديم ﴿لَكَ﴾ على متعلقه ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

فقابلوا ما جاءهم به موسى، وما ابتلاهم الله به من الحسنات والسيئات، وما أيَّد الله تعالى به موسى من الآيات؛ بنفي الإيمان لموسى مهما جاءهم به من الآيات.

وهذا غاية الكفر، والغرور، والمكابرة، والإصرار على الباطل، والعتو، والتمرد، والعناد.

قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾:

ذكر عز وجل مكابرة آل فرعون وعتوهم وعنادهم مع ما جاء به موسى من الآيات والمعجزات، وما ابتلاهم الله به من الحسنات والسيئات، ثم أتبع ذلك بذكر ما

أرسل عليهم من الآفات والعقوبات؛ لعل ذلك ينجع فيهم.

قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾، أي: فأرسلنا على آل فرعون عقوبات لهم.

﴿ٱلطُّوفَانَ ﴾: السيل الجارف العظيم الذي أغرق زروعهم وأشجارهم.

﴿وَٱلْجَرَادَ ﴾ الذي أكل زروعهم ونباتهم وثمارهم، وهو الحيوان المعروف المباح أكله.

كما قال عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد»(١).

وقال ابن عمر رضي الله عنه: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»(١).

﴿وَٱلْقُمَّلَ ﴾ اختلف المفسرون في المراد به؛ فذهب بعضهم إلى أنه السوس الذي يخرج من الحنطة، وقال كثير منهم: المراد به: «الدبا»: أولاد الجراد الذي لا أجنحة له.

وقال بعضهم: المراد به: الحمنان؛ نوع من القردان عظيم يمتص دم الإنسان والحيوان، وقيل: المراد به القمل المعروف. وقيل غير ذلك.

والمهم في هذا أنه مما سلَّطه الله عليهم وعاقبهم به.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ ﴾: جمع «ضفدع»: وهو حيوان يمشي على أربع أرجل ويسحب بطنه على الأرض، يسبح في المياه، ويكون في الغدران ومناقع المياه؛ سلط الله عليهم منه جندًا كثيرًا، فكان يقع في مياههم وأسقيتهم وطعامهم وأثاثهم وفرشهم، وآذاهم أذى شديدًا.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ اختلف في المراد به، فقال جمع من المفسرين: المراد به: نزيف الدم من الأنف، وهو رعاف كثير تفشّى فيهم، وقال آخرون: المراد به دم خالط مياههم.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال من الألفاظ الخمسة، أي: علامات ودلالات على ظلمهم وعلى غضب الله تعالى عليهم، وعلى صدق موسى عليه السلام، وأن ماء جاء به حق وصدق.

﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ صفة لآيات، أي: آيات مبيَّنات موضَّحات، لا شك في كونها آيات، ومفرَّقات، أي: لم تحدث في وقت واحد، بل فُصل بينها، وجُعل بعضها إثر بعض.

فالطوفان أغرق ما بذروه، والجراد أكل ما ظهر من الزروع، والقمل أفسد ما

---

(١) سبق تخريجه.

ادخروه من الحبوب والطعام، والضفادع أفسدت المياه، والدم استنزف ما حصل من الغذاء والطعام الذي أكلوه.

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾، الفاء عاطفة، والسين والتاء للمبالغة، أي: فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات استكبارًا شديدًا.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معطوف على «استكبروا»، أي: فاستكبروا وأجرموا.

والإجرام: فعل الجرم، أي: وارتكبوا الجرائم؛ من الشرك بالله والكفر، والاستكبار.

وصِيغَ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم وتمكنه منهم، وأنه علة استكبارهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾:

قوله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، الواو استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى: حين، فيه معنى الشرط.

﴿ٱلرِّجْزُ﴾: العذاب. يحتمل أن يكون المراد به الطاعون، كما قال جمع من المفسرين، ويحتمل أن يكون المراد به المذكور بقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ ولهذا عرّف ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ باللام، أي: الرجز المذكور المعهود.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي: قالوا متوسلين إلى موسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي: ادع لنا ربك يكشف هذا الرجز عنا.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي عهد عندك، أو بسبب عهده عندك.

والمعنى: بما عهد عندك من النبوة وأوحى إليك.

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن كشفت عنا الرجز، أي: والله لئن رفعت عنا هذا العذاب وأزلته ودفعته عنا.

﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾، اللام واقعة في جواب القسم، أي: لنصدقنك بما جئت به ودعوت إليه، ونُقر بذلك.

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معطوف على «نؤمنن»، داخل ضمن جواب القسم، وإعادة اللام: للتأكيد، أي: ولنتركن معك بني إسرائيل، أي: نتركهم يذهبون حيث شاؤوا ولا نمنعهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾، أي: فحين رفعنا وأزلنا عنهم العذاب.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، أي: إلى زمن مسمى هم بالغوه، وهو بقية حياتهم، ومن ثم إهلاكهم بالغرق.

وفي هذا إشارة إلى أن موسى عليه السلام دعا ربه بكشف الرجز، فكشفه الله عز وجل.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب الشرط: «لمَّا»، و«إذا»: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية تفيد معنى المفاجأة.

﴿يَنكُثُونَ﴾، «النكث»: النقض، وأصله نقض المغزول، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

فمعنى «ينكثون»: ينقضون.

والمعنى: إذا هم يفاجئون بنقض عهدهم الذي عاهدوا عليه موسى عليه السلام بالإيمان به وإرسال بني إسرائيل، فلا هم آمنوا به، ولا أرسلوا معه بني إسرائيل؛ بل اتَّبعوهم ليردوهم لما خرجوا ليلًا، فخيَّب الله مسعاهم، وكان في ذلك هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، الفاء في الموضعين: عاطفة، أي: فعاقبناهم عقوبة شديدة؛ لكفرهم وعنادهم ونكثهم العهد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ بيان وتفصيل للانتقام، أي: فأغرقناهم في البحر، في بحر القُلْزُم، المعروف اليوم بـ«البحر الأحمر».

و«القُلْزُم»: بلد كان في شرقي مصر قرب جبل الطور، أُضيف البحر إليه؛ لأنه على طرفه، وهو المعروف الآن بـ«السويس».

والإغراق: الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر ويحبس النفس.

والمعنى: فأغرقناهم في البحر، وذلك لما حان أجل هلاكهم؛ حيث أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل ليلًا، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢- ٦٦]، وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٢- ٢٨].

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب تكذيبهم بآياتنا، وكونهم ﴿عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: معرضين عنها، وعما دلت عليه من الحق، وعن التفكر فيها ودلالاتها.

وفي هذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التدبر في آيات القرآن الكريم وما فيها من الدلالة على صدق الرسول ﷺ، وعلى أنها حق من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾، أي: وملَّكنا القوم الذين كانو يُستضعفون، وهم بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:

٥٩]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾، السين والتاء: للمبالغة، أي: يستضعفهم فرعون وقومه ويسومونهم سوء العذاب؛ يذبِّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويستعبدونهم، ويُذلُّونهم، ويُسخِّرونهم في خدمتهم.

﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ جوانبها الشرقية والغربية، أي: كلها.

والمراد: أرض الشام، الأرض المقدسة.

﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، أي: التي جعلنا فيها البركة، وهي: الخير الكثير الدائم الثابت؛ حيث جعلها الله مهدًا لأكثر النبوات، وبارك في أرضها بالخصب وسعة الرزق وكثرة ثمارها وخيراتها، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وقال السعدي: «والمراد بالأرض ههنا: أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين أذلين، أي: ملكهم الله جميعًا ومكَّنهم فيها»(١).

ولو قال قائل: المراد بمشارق الأرض: أرض الشام، ومغاربها: أرض مصر؛ لكان محتملًا.

﴿وَتَمَّتْ﴾، الواو عاطفة، أي: وتحققت.

﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتكريم له ،ﷺ وبشارة له ﷺ بأن ربك الذي حقق نصر موسى وقومه على عدوهم سينصرك وأمتك على عدوكم.

وفي قوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ فلم يقل: كلمتي؛ تعظيمًا لنفسه

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) (٣/ ٨٤).

عز وجل، وتشريفًا وتكريمًا لنبينا ﷺ بخطابه له، وإضافة اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ وربوبيته الخاصة له.

وكلمات الله تعالى قسمان:

كلمات كونية؛ وهي: ما قدَّره وقضاه كونًا، ولا بد من تحققها ووقوعها.

وكلمات شرعية؛ وهي: ما أمر به أو نهى عنه شرعًا، ولا يلزم تحققها ووقوعها.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة لـ﴿كَلِمَتُ﴾، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: على وزن «الفُعْلى»، أي: البالغة منتهى الحسن.

وهي: ما وعده بني إسرائيل من التمكين في الأرض، ونصرهم على عدوهم فرعون على لسان موسى- عليه السلام- كما في قوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

ومن ذلك توريثهم الأرض المقدسة والمباركة، كما قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، أي: قدَّرها لكم.

﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكلماته عز وجل كلها حسنى؛ كونية أو شرعية، وما قدَّره وقضاه على بني إسرائيل منها إحسان منه تعالى عليهم.

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، أي: ودمَّرنا الذي شاده من المصانع فرعون وقومه، و«التدمير»: التخريب الشديد.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الراء: ﴿يَعْرُشُونَ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَعْرِشُونَ﴾.

والجملة معطوفة على قوله: ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، أي: ودمَّرنا الذي

كانوا يرفعونه ويشيدونه من البناء، من القصور والمساكن والبيوت، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء آل فرعون بالشدائد والجدب والقحط ونقص الثمرات؛ ليتذكروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٢- تأكيد أخبار القرآن بالقسم؛ كما هي عادة العرب في الإقسام على الأخبار تأكيدًا لها.

٣- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه عن نفسه بضمير الجمع في مواضع كثيرة من هذه الآيات؛ منها قوله: ﴿أَخَذْنَآ﴾، ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾، ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، ﴿وَدَمَّرْنَا﴾.

وأيضًا: في الإظهار مقام الإضمار؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: «عندي»، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يقل: «تمت كلمتي»؛ لأنه العظيم حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائِي**»(١).

٤- كفر آل فرعون بنعم الله وعدم شكرها، ونكرانهم لفضله عز وجل، وزعمهم استحقاقهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾.

٥- تشاؤم آل فرعون بموسى عليه السلام ومن معه، وزعمهم أنه ومن معه سبب ما يصيبهم من السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

٦- في الإتيان بـ«إذا» الدالة على المحقق في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ مع تعريف ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾، والإتيان بـ«إن» التي للمشكوك فيه في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مع تنكير ﴿سَيِّئَةٌ﴾ إشارة واضحة إلى كثرة نعم الله تعالى على العباد، في مقابلة قلة ما يقع عليهم من المصائب؛ فنعمه عز وجل أضعاف أضعاف ما يؤاخذ به من العقوبات، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب (٢٦٢٠)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهذا ختم الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] في إشارة لكثرة نعمه تعالى على العباد، وختم آية إبراهيم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] في إشارة لقلة الشاكرين.

٧- أن الابتلاء كما يكون بالشدة والضراء، يكون أيضًا بالرخاء والنعماء؛ ولهذا ابتلى الله آل فرعون بالحالين، لكن ذلك لم ينجع فيهم.

٨- الرد على آل فرعون في تطيرهم بموسى ومن معه، وبيان أن ما يصيبهم من سيئة إنما هو بقدر الله تعالى؛ عقوبة لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، لا بسبب موسى ومن معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٩- فساد فطر آل فرعون وإغراقهم في الضلال؛ حيث اعتقدوا الشؤم في موسى وما جاءهم به من البينات والهدى؛ فعكسوا الأمر واعتبروا الخير شرًّا؛ لفساد فطرهم وخذلانهم. وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

١٠- أن أكثر آل فرعون لا يعلمون أن ما يحصل لهم من المصائب إنما هو بقضاء الله وقدره؛ عقوبة لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١١- في نفي العلم عن أكثرهم دون أن يقول: «ولكنهم لا يعلمون»؛ إشارة إلى أن بعضهم قد يعلمون، لكنهم يسايرون الأكثرين فيما يقولون ويفعلون.

كما أن في ذلك إرشادًا إلى أن الأولى ألا تُحمل الأحكام على الكل، وبخاصة الأحكام التي تتعلق بالأمم أو الأقوام والطوائف الكثيرة؛ فقد يكون من بينهم من لا يرى رأيهم.

١٢- شدة تمرد آل فرعون، وعتوهم واستكبارهم، وإصرارهم على الكفر، وجهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

١٣- إعلان آل فرعون لموسى عليه السلام أنه تقرر عندهم أنه ساحر.

١٤- تتابع إرسال العقوبات والنُّذُر والآيات المفصَّلات على آل فرعون ليتوبوا، لكن ذلك أيضًا لم ينجع فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

١٥- أن آل فرعون لم يزدادوا بما أرسل عليهم من العقوبات والآيات إلا استكبارًا وإجرامًا على إجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

١٦- توسل آل فرعون إلى موسى عليه السلام ليدعو ربه لكشف الرجز عنهم، ووعْدُهم بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل معه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٧- أن آل فرعون يعلمون أن موسى مرسل من ربه، وإن كانوا لا يؤمنون به ولا بربه؛ كما يعلمون أن ما وقع عليهم من الرجز بسبب عدم إيمانهم به وعدم إرسال بني إسرائيل معه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١٨- كشف الله عز وجل الرجز عن آل فرعون إلى وقت حدده لهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾.

١٩- نكث آل فرعون ما قطعوه على أنفسهم من العهد بالإيمان بموسى وإرسال بني إسرائيل معه إن كشف الرجز عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

٢٠- مشابهة ما حصل من آل فرعون من العهد والنكث لحال كثير من المشركين؛ من الإيمان وقت الشدة، والكفر في الرخاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢١- انتقام الله عز وجل من آل فرعون وإغراقهم في البحر؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

٢٢- إثبات الاختيار للإنسان؛ لأن النكث والتكذيب والإعراض فعلهم؛ لهذا انتقم الله منهم وعاقبهم على ذلك بإغراقهم. وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان لا اختيار له.

٢٣- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأن ما يقع من الانتقام والعقوبات بسبب

التكذيب بآيات الله والغفلة عنها والذنوب والمعاصي، وذلك عدل من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

٢٤- التحذير من التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، وأن ذلك سبب لغضب الله تعالى وانتقامه.

٢٥- توريث بني إسرائيل- بعد أن كانوا مستضعفين- أرض الشام الأرض المقدسة المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

٢٦- أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٢٧- لطف الله تعالى ببني إسرائيل، وإنقاذه لهم من استعباد وإذلال آل فرعون لهم، وإحسانه تعالى إليهم.

٢٨- أن وراثة الأرض وراثةً شرعية إنما هي لعباد الله المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٢٩- أن الله بارك في أرض الشام الأرض المقدسة؛ حيث جعلها مهدًا لكثير من الرسالات والنبوات السماوية، وبارك في ثمارها وخيراتها؛ لقوله تعالى: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

٣٠- أن بعض الأرض أكثر بركة من بعض؛ كما أن بعضها أفضل من بعض.

٣١- إثبات كلمات الله تعالى التي هي في غاية الحسن؛ وهي قسمان: كلمات كونية، وكلمات شرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافته اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٣٣- تحقق ما وعد الله تعالى به بني إسرائيل من الوعد الحسن بتمكينهم في الأرض، ونصرهم على فرعون وقومه؛ بسبب صبرهم على أذاه وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾.

٣٤- فضيلة الصبر، وحسن عاقبته، والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال ﷺ: «**وَإِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**»(١).

٣٥- تدمير ما كان يشيد فرعون وقومه من المصانع، وما كانوا يبنون ويرفعون من القصور والمساكن والبيوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.

٣٦- البشارة للرسول ﷺ والمؤمنين الصابرين، والنذارة للمكذبين، وأن العاقبة للمتقين، والعقوبات والبوار والدمار للكافرين؛ وتلك سنة الله تعالى في الأولين والآخرين: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة بعثَهُ موسى عليه السلام بالآيات إلى فرعون وملئه، وظلمهم وتكذيبهم بها، واتهامهم موسى عليه السلام بالسحر، وما جعل الله تعالى على يديه من الآيات البينات، وأخذهم بالسنين ونقص الثمرات، وبالحسنات والسيئات، ومكابرتهم وعنادهم، وما عاقبهم الله به من أنواع العقوبات، إلى أن انتقم سبحانه منهم وأغرقهم.

ثم أتبع ذلك بذكر قصص بني إسرائيل وما أحدثوه بعد تخليصهم من فرعون ومشاهدتهم الآيات ومجاوزتهم البحر؛ من عبادة العجل، وأنواع الكفر والمعاصي، والتبديل والتحايل على أمر الله، مع ما ابتلاهم الله به من الحسنات والسيئات، وأنواع العقوبات.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾، أي: جعلناهم يجاوزن البحر، أي: يمرون به ويقطعونه ويبتعدون عنه.

و«البحر»: هو بحر القُلْزُم، البحر الأحمر، وهو المراد بـ«اليم» في قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٦]؛ ولهذا جاء هنا مُعرَّفًا بـ«أل»، أي: البحر المذكور بـ«اليم» الذي أغرقنا فيه فرعون وقومه.

وفي قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ امتنان من الله تعالى عليهم بإنجائهم وإغراق عدوهم فرعون.

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: فمروا على قوم، قيل: إنهم من الكنعانيين والعمالقة.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي والوراق عن خلف: «يَعْكِفُونَ» بكسر القاف، وقرأ الباقون بضمها: ﴿يَعْكُفُونَ﴾.

والمعنى: يقيمون على عبادة أصنام لهم، ويلازمونها، ويتبركون بها، قيل: كانت على صور البقر.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾، أي: اصنع لنا معبودًا نعبده ونلازمه ونتبرك به.

﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، أي: كما لهؤلاء القوم ﴿ءَالِهَةٌ﴾، أي: أصنام يعبدونها.

والمعنى: اجعل لنا إلهًا مماثلًا لآلهتهم.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أي: قال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أي: تجهلون عظمة الله تعالى وجلاله، وما ينبغي أن ينزَّه عنه من الشريك والمثيل، وأنه لا تجوز العبادة إلا له عز وجل.

وفي قوله: ﴿قَوْمٌ﴾ دلالة على عموم جهلهم وتأكيده، والعجب من ذلك.

وأكَّد وصفهم بالجهل بـ«إن»، وكون الجملة اسمية؛ للدلالة على عظيم جهلهم ورسوخه.

وأي جهل أعظم من جهل الإنسان بربه وخالقه، وأن يشرك به غيره مما لا ينفع ولا يضر؟! هذا مع ما رأوا من الآيات العظيمة والعبر والبينات على يدي نبي الله موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ الإشارة للقوم الذين يعكفون على أصنام لهم.

والجملة بمعنى التعليل لمضمون قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

و«التبار»: الخسران والهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، أي: هلاكًا ودمارًا وخسارًا.

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية.

و«البطلان»: الضياع والزوال، أي: وضائع زائل الذي كانوا يعملونه، أو عملهم، أي: أنهم لا يثابون عليه ولا ينفعهم.

عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «**قُلْتُمْ- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨]، **إِنَّهَا السُّنَنُ؛ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام ردًّا على بني إسرائيل.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾، الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتعجب، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به لـ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ قُدِّم عليه: للاختصاص والمبالغة في الإنكار، و﴿إِلَٰهًا﴾ تمييز، والمعنى: أسوى الله أجعل لكم إلهًا؟ أي: معبودًا.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الجملة حالية، أي: والحال أنه فضلكم على العالمين، أي: وهو قد جعلكم أفضل عالمي زمانكم؛ بأن خصَّكم من الفضائل بما لم يعطه لأحد من عالمي زمانكم ولا لمن سبقوكم؛ حيث جعل منكم الرسل والأنبياء، وخلَّصكم من فرعون وعذابه واستعباده، وأورثكم الأرض وأيَّدكم، وبعث فيكم رسولًا يقيم فيكم الشريعة، إلى غير ذلك من عظيم نعمه تعالى ومننه عليكم؛ مما يوجب

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٤١٠-٤١١)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٥٣).

عليكم شكره تعالى وإفراده وحده بالعبادة دون سواه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

هذا أيضًا من أعظم نعم الله تعالى على بني إسرائيل، ولهذا ذكَّره في هذه النعمة عنا، وفي سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

وفي سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦].

قوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قرأ ابن عامر: «وَإِذْ أَنْجَاكُمْ» فيكون هذا من تتمة كلام موسى عليه السلام، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

وقرأ الباقون: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾، ومقتضى السياق قبله وبعده أن يكون من كلام موسى أيضًا، ويعضده قراءة ابن عامر وآية سورة إبراهيم.

ويحتمل أن يكون الكلام مستأنفًا من كلام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه: ٨٠].

قوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾، الواو عاطفة، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين» يتعلق بمحذوف، أي: واذكروا حين أنجيناكم من آل فرعون، أي: خلَّصناكم وأنقذناكم من فرعون وقومه.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: يوقعون فيكم أسوأ العذاب وأقبحه، ويهينونكم.

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ هذا بيان وتفسير؛ لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

قرأ ابن عامر بفتح الياء وإسكان القاف وضم التاء من غير تشديد: ﴿يَقْتُلُونَ﴾،

وقرأ الباقون بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾.

و«التقتيل»: المبالغة في القتل، أي: ويقتلون مواليدكم الذكور ويستأصلونهم.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، أي: ويستبقون المواليد الإناث؛ للخدمة والعمل عندهم ونحو ذلك.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: وفي إنجائنا لكم من آل فرعون وعذابهم ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أي: نعمة من ربكم عظيمة جليلة، ومنحة جزيلة.

ويحتمل أن تكون الإشارة لقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، أي: وفيما تلقونه من سوء العذاب من آل فرعون بقتل أبنائكم واستحياء نسائكم.

﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ من حيث كيفه وكمُّه ونوعه؛ لما فيه من الإهانة والإذلال والتسلط عليكم، والاستئصال لكم.

والمعنى: وفي ذلكم اختبار وامتحان من ربكم عظيم.

والابتلاء يكون بالشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال الشاعر:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بِالبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ القَوْمِ بِالنِّعَمِ

قال السعدي: «فلما ذكَّرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك»(١).

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾:

قال السعدي: «ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم وتمكينهم في الأرض؛

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) (٣/ ٨٦).

أراد تبارك وتعالى أن يُتمَّ نعمته عليهم بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة أتمها بعشر فصارت أربعين ليلة؛ ليستعد موسى ويتهيأ لوعد الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوّق إلى نزولها»(١).

قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ قرأ أبو عمرو: «وَوَعَدْنَا» بدون ألف بين الواو والعين، وقرأ الباقون: ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ بالألف.

وهذا من النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وامتن بها عليهم، بل هي أعظمها، وهي النعمة الكبرى، نعمة وعد الله تعالى موسى عليه السلام لميقات ربه ومناجاته وهدايتهم، أي: وواعدنا موسى ثلاثين ليلة لمناجاة ربه.

﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، أي: وأتممنا الليالي الثلاثين بعشر ليال.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ أضاف ﴿مِيقَٰتُ﴾ إلى ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ للتشريف. والمعنى: فبلغ ميقات ربه الذي وقَّته لمناجاته أربعين ليلة، أي: أربعين ليلة بأيامها؛ لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة.

والمعنى: صار أكمل وأفضل؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾، أي: وقال موسى لما عزم على الذهاب إلى ميقات ربه لمناجاته.

﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ موصيًا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته.

﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾، أي: كن خلفًا عني فيهم بما كنت أعمل إلى أن أرجع.

﴿وَأَصۡلِحۡ﴾، أي: واسلك طريق الإصلاح، بحملهم على الإخلاص لله واتباع الحق.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أي: ولا تتبع طريق المفسدين بمخالفة الحق، واتباع الباطل، وفعل المعاصي.

وفي هذا النهي عن اتباع سبيل المفسدين تأكيد للأمر بالإصلاح.

وقد جمع موسى في هذه الوصية ملاك السياسة؛ فإن سياسة الأمم تقوم على محورين: الإصلاح، ومحاربة الفساد، أي: إبعاد الناس عن الشر بالبيان والتحذير منه،

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) (٣/ ٨٦).

وإبعاد الشر عنهم.

وفي قول موسى لهارون- عليهما السلام-: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ما قد يشير إلى وجود مفسدين في القوم، وإلى تخوُّف موسى عليه السلام من ضعف هارون أمامهم، كما قال هارون: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وكما قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٢- ٩٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾، الواو عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: حين، أي: ولما حضر موسى لوقتنا الذي وقَّتنا له وحددناه للمناجاة.

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، أي: وكلمه ربه وخاطبه من غير واسطة ملك، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وهذا مما خص الله تعالى به موسى من بين سائر الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ جواب «لَمَّا»، أي: لما أتى موسى لميقات ربه وكلّمه ربه من وحيه وأمره ونهيه؛ اشتاق عليه السلام إلى رؤية ربه محبة له؛ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، أي: يا رب، أرني أنظر إليك.

وفرق بين سؤاله عليه السلام رؤية ربه محبة له واشتياقًا، وبين سؤال بني إسرائيل الرؤية مكابرة وعنادًا لما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿قَالَ﴾، أي: قال عز وجل لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، أي: لن تراني في الدنيا؛ لأنك لا تقدر على الثبات لرؤيتي في هذه الدار.

و«لن» لا تدل على دوام النفي وتأبيده، قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾، الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، أي: ولكن انظر إلى الجبل؛ فإن ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يندك ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، أي: تثبت لرؤيتي، وإلا فلا طاقة لك بذلك.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، أي: ظهر عز وجل للجبل مع شدته وصلابته.

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «دَكَّاءَ» بالمد والهمز مفتوحًا من غير تنوين، وقرأ الباقون بالتنوين وغير مد ولا همز: ﴿دَكًّا﴾.

أي: جعله منهالًا متفتتًا منهدًّا مستويًا في الأرض، فلم يستقر مكانه.

قال ابن القيم: «إن الله سبحانه أراد أن يُريَ موسى ﷺ من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عيانًا؛ لصيرورة الجبل دكًّا عند تجلي ربه سبحانه أدنى تجلٍّ»(١).

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، أي: وقع مغشيًّا عليه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من الغشي، والإفاقة: رجوع الإدراك بعد زواله بغشي أو نوم أو سكر أو جنون.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا لك وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، أي: رجعت وأنبت إليك من جميع الذنوب، ومن أن أسألك الرؤية وما لا يليق سؤاله، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أول المؤمنين من بني إسرائيل، أو أقوى المؤمنين إيمانًا، وبأنه لا يراك أحد من خلقك في هذه الدار. وعلى هذا المعنى يستثنى محمد وإبراهيم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٢٦٦).

عليهما الصلاة والسلام، فمحمد ﷺ أفضل الخلق وأقواهم إيماناً، وبعده إبراهيم عليه السلام، ثم موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾، أي: اخترتك واجتبيتك وفضلتك.

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: الموجودين في عهده، أو على الناس عمومًا، لكن يُخص من هذا العموم نبينا محمد ﷺ؛ فهو أفضل الرسل- عليهم الصلاة والسلام- وسيد الأولين والآخرين؛ كما يُخص من هذا إبراهيم الخليل عليه السلام؛ فهو أفضل من موسى عليه السلام.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين؛ فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله؛ فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تخيّروني على موسى؛ فإنّ النّاس يصعقون يوم القيامة فأكون أوّل من يفيق؛ فأجد موسى ممسكًا بجانب العرش؛ فلا أدري: أكان ممّن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممّن استثناه الله عزّ وجلّ**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**لا تخيّروني من بين الأنبياء؛ فإنّ النّاس يصعقون يوم القيامة فأكون أوّل من يفيق؛ فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش؛ فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطّور**»(٢).

وهذا- والله أعلم- محمول على النهي عن التفضيل بينهم على وجه التعصب أو لمجرد الهوى والتشهي، ومثل هذا قوله ﷺ: «**ولا أقول: إنّ أحدًا أفضل من يونس بن**

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٣)، وأبو داود في السنة (٤٦٧١)، وأحمد (٢/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في الديات، إذا لطم المسلم اليهودي (٦٩١٧).

متّى»(١).

﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر وروح عن يعقوب: «بِرِسَالَتِي» بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ بالجمع؛ باعتبار ما اشتملت عليه الرسالة من التكاليف والأوامر والنواهي ونحو ذلك.

﴿وَبِكَلَٰمِي﴾، أي: وبكلامي إياك من غير واسطة.

وهذه فضيلة اختص الله تعالى بها موسى من بين سائر الأنبياء والمرسلين؛ ولهذا يقال له: موسى الكليم.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾، «ما» موصولة، أي: فخذ الذي أعطيتك من الرسالة والكلام والشريعة ومن النعم؛ بالقبول وانشراح الصدر.

وفي هذا امتنان بنعمته عز وجل على موسى عليه السلام، ولهذا قال بعده.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: لله تعالى بطاعته والمسارعة إلى مرضاته على ما خصك به وفضَّلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ تعظيمًا لنفسه؛ لأنه العظيم حقًّا؛ فهو عز وجل الذي كتب التوراة بيده، كما قال ﷺ: «**وكتب لك التّوراة بيده**»(٢).

﴿فِي ٱلْأَلْوَاحِ﴾، ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ جمع «لوح»: وهو في الأصل القطعة من الخشب مربعة أو مستطيلة.

قيل: وكانت الألواح التي كتبت فيها التوراة من حجارة نقشت عليها الكتابة نقشًا.

﴿مِن كُلِّ﴾، ﴿مِن﴾ تبعيضية، أي: بعضًا من كل شيء، مما تحتاجة الأمة؛ كقوله

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٥)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

﴿مَّوْعِظَةً﴾ حال، أي: حال كون ذلك موعظة، والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ معطوف على ﴿مَّوْعِظَةً﴾، أي: وحال كون ذلك تفصيلًا لكل شيء، أي: بيانًا لكل شيء مما تحتاجه الأمة، من بيان الحلال والحرام، والأمر والنهي، وتبصير الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ الجملة في موضع نصب بفعل مقدر، أي: قلنا له: خذها بقوة، والفاء: عاطفة، والضمير يعود إلى الألواح، والباء: للملابسة، أي: فخذ هذه الألواح بالعمل بما فيها بعزم وجد واجتهاد.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾، أي: وأمر قومك يعملوا ويتمسكوا ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾.

وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ وصف مسلوب المفاضلة، مقصود به المبالغة في حسنها كلها، لا أن بعضها حسن وبعضها أحسن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

فالمعنى: وأمر قومك يأخذوا بما فيها لحسنها.

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخطاب لموسى ومن معه، و«الإراءة» هنا بصرية.

﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: مسكنهم ومكان نزولهم وإقامتهم، كما قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

يحتمل أن معنى قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: الوعد لهم بدخول الأرض المقدسة وفتحها، ونصرهم على الجبابرة الذين كانوا فيها.

ويحتمل أن المراد: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله تعالى، المخالفين

لأمره، وأن مصيرهم إلى النار دار البوار.

وفي هذا تهديد ووعيد للفاسقين، أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، وهي المصير إلى النار.

قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾:

أي: سأصرف عن الإيمان بآياتي الكونية والشرعية، وعن التفكر والاعتبار بها ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: سأصدهم عن ذلك وأحول بينهم وبينها كونًا وقدرًا؛ بسبب تكبرهم في الأرض بغير الحق، أي: تكبرهم عن قبول الحق، وتكبرهم على الخلق، كما قال ﷺ: «**الكبر: بطر الحقّ، وغمط النّاس**»(١).

فلا ينتفعون بالآيات ولا يعتبرون بها، بل ربما انقلبت عندهم الحقائق؛ فرأوا الحق باطلًا، والباطل حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

والتعبير بالموصول في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ ليشملهم هذا الوصف وما عُطف عليه، ويشمل غيرهم ممن اتصف بهذه الصفات؛ كمشركي مكة.

وفي قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة لشيوع تكبرهم وأثره، وانتشار ضرره؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، وقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لمصدر محذوف، [البقرة: ٢٧، الرعد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: تكبراً بغير الحق، وهو: وصف كاشف؛ لأن التكبر في الأرض لا يكون بحق، وفي هذا زيادة التشنيع عليهم.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾، ﴿كُلَّ﴾ بمعنى: الكثرة، أي: وإن يروا ويشاهدوا كثيرًا من الآيات كونية أو شرعية.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، أي: لا يصدقوا بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. ولله الحكمة في ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤].

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: «الرَّشَدِ» بفتح الراء والشين، وقرأ الباقون: ﴿الرُّشْدِ﴾ بضم الراء وإسكان الشين.

أي: وإن يظهر لهم طريق الهدى والاستقامة والصلاح والنجاة الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهو طريق الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح.

﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أي: لا يسلكوه ولا يجعلوه لهم طريقًا.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أي: وإن يظهر لهم طريق الفساد والضلال والهلاك يجعلوه لهم طريقًا ومسلكًا.

وهذه- والله- غاية الجهل والحمق وانطماس البصيرة، وغاية الخذلان.

وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ تعليل لما قبله، والإشارة إلى ما تضمنه قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

الباء: للسببية؛ أي صرفهم عن آيات الله، وعن الإيمان بها والتفكر والاعتبار فيها، وجعلهم يتكبرون في الأرض بغير الحق، ويعرضون عن الآيات وعن سلوك طريق الرشد، ويتخذون سبيل الغي سبيلاً بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها.

أي: ذلك بسبب أنهم كذبوا بقلوبهم وألسنتهم بآياتنا، أي: جحدوها وأنكروها.

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُوا﴾، أي: وبسبب أنهم كانوا عنها غافلين، أي: غافلين عن التفكر فيها، والتدبر لها، والعمل بها بجوارحهم عن قصد

منهم وإصرار واستمرار.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧ ﴾:

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾، أي: وكذبوا بلقاء الله تعالى في الآخرة، وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، أي: بطلت أعمالهم فلا تنفعهم لفقدان شرط قبولها؛ وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بلقائه وجزائه، فهم لا يرجون ثوابًا، ولا يخشون عقابًا.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ الاستفهام مشرب بمعنى النفي، أي: لا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: إلا عملهم أو إلا الذي كانوا يعملونه، أي: لا يجزون إلا الذي كانوا يعملونه من الأعمال الباطلة الظاهرة والباطنة، وهو: الخلود في النار وبئس القرار.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بمنة الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من الغرق ومجاوزتهم البحر، وما أحدثوه بعد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

٢- وجود عبادة الأصنام في ذلك العهد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾.

٣- جهل بني إسرائيل عظمة الله تعالى، وما يجب أن يُنزه عنه من الشريك والمثيل، وأنه لا تجوز العبادة إلا له، وبطلان ما عليه أهل الشرك؛ لقولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾، ولهذا أجابهم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾.

٤- خطر التقليد الأعمى ووجوب الحذر منه، وأنه أمر موجود في الناس منذ القدم.

٥- خسران المشركين وبطلان عملهم؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

٦- إنكار موسى عليه السلام على بني إسرائيل قولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا ﴾، وتعجبه من سؤالهم هذا مع ما أولاهم الله من النعم؛ بتفضيلهم على العالمين، وإنجائهم من آل

فرعون وعذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

٧- أنه لا إله للخلق ولا معبود لهم بحق إلا الله تعالى.

٨- وجوب شكر نعم الله تعالى؛ بعبادته وحده لا شريك له، وطاعته.

٩- تفضيل بني إسرائيل على عالمي زمانهم؛ لقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٠- نعمة الله تعالى ومنته على بني إسرائيل بإنجائه إياهم من آل فرعون وتعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

١١- عظم ما لقيه بنو إسرائيل من الابتلاء والعذاب والإهانة على يدي آل فرعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٢- أن إنجاء بني إسرائيل من تعذيب آل فرعون نعمة من الله تعالى عليهم عظيمة، ومنحة جليلة؛ تستوجب منهم شكرًا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٤- التذكير بوعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة لمناجاته، وإتمامها بعشر، وتمام ميقاته ربه أربعين ليلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

١٦- استخلاف موسى لأخيه هارون عند ذهابه لمناجاة ربه؛ شفقة منه على بني إسرائيل، وحرصًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾.

١٧- وصية موسى لأخيه هارون بما هو ملاك السياسة، وهو: الإصلاح، والحذر من اتباع سبيل المفسدين؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٨- إثبات تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

١٩- اشتياق موسى عليه السلام إلى رؤية ربه محبة له، وسؤاله ذلك؛ لقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

وفرق بين هذا وبين سؤال بني إسرائيل الرؤية مكابرة وعنادًا وتكذيبًا حين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

٢٠- أن رؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾.

أما رؤيته عز وجل في الآخرة فإنها ثابتة للمؤمنين، ومحجوبة عن الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣].

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «**إنّكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر لا تضامّون في رؤيته**»(١).

وقال تعالى في حق الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقد استدل ابن القيم رحمه الله بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة يوم القيامة من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بموسى كليم الرحمن أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو أبطل الباطل، وأعظم المحال.

الوجه الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكره عليه.

الوجه الثالث: أنه أجاب بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: «لا تراني»، ولا: «إني لست بمرئي»، ولا: «لا تجوز رؤيتي»، وهذا يدل على أنه تبارك وتعالى يُرى، لكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤)، ومسلم في المساجد (٦٣٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٧).

يوضحه **الوجه الرابع**: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار؛ فكيف بالبشر الضعيف الذي خُلق من ضعف.

الوجه الخامس: أن الله تعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته.

الوجه السادس: قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ فإذا جاز أن يتجلى للجبل- الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب- فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟!

الوجه السابع: أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم أن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز؛ ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم»[1].

٢١- أن رؤية الله تعالى في الدنيا مما لا يستطيعه البشر ولا يثبتون أمامه، لا هم ولا غيرهم من المخلوقات في الدنيا مهما كانت قوتها كالجبال ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

٢٢- ثبوت تجلي الله عز وجل للجبل، وعدم استقرار الجبل أمام ذلك، واندكاكه وتفتته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

٢٣- سقوط موسى عليه السلام على الأرض مغشيًّا عليه؛ لِمَا رأى من اندكاك الجبل وتدهدهه أمام عظمة الله عز وجل؛ بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾.

٢٤- تنزيه موسى عليه السلام لربه عما لا يليق بجلاله؛ لقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

٢٥- إعلان موسى عليه السلام توبته عن الذنوب، وعن سؤال الرؤية، أو سؤال ما لا يليق سؤاله؛ لقوله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾.

٢٦- إعلان موسى عليه السلام أنه أول المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾،

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

أي: من بني إسرائيل، أو: من أقوى المؤمنين إيمانًا، أو: من أول المؤمنين بأن رؤية الله تعالى في الدنيا غير ممكنة.

٢٧- اصطفاء الله عز وجل لموسى عليه السلام وعلى الناس برسالاته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾.

والمراد بالناس: أهل زمانه.

وإن حمل ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على عموم الناس؛ فيخص من هذا نبينا محمد ﷺ؛ فهو أفضل الرسل وسيد الأولين والآخرين؛ كما يخص منه إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن؛ فهو أفضل من موسى عليه السلام.

٢٨- جواز التفضيل بين الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ فموسى عليه السلام أفضل الناس وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ وإبراهيم الخليل عليه السلام.

وفي هذا دلالة على أن ما جاء من نهي النبي ﷺ عن التخيير بين الأنبياء، أو النهي عن تفضيله ﷺ على الأنبياء، أو على موسى، أو على يونس بن متى؛ إنما هو محمول على ما كان على وجه التعصب، أو بمجرد الرأي والتشهي.

٢٩- اصطفاء الله تعالى موسى وتخصيصه بكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، ولهذا يقال له: «كليم الرحمن»، «موسى الكليم».

٣٠- أن الفضل لله تعالى يؤتيه من يشاء؛ فقد خص نبينا محمدًا ﷺ بأن جعله أفضل الرسل وخاتمهم، وسيد الأولين والآخرين؛ كما خص إبراهيم عليه السلام بأن اتخذه خليلًا، وخص موسى عليه السلام بتكليمه عز وجل له؛ كما خص بني إسرائيل بتفضيلهم على عالمي زمانهم، وخص أمة محمد ﷺ بجعلها خير الأمم.

وصدق الله العظيم: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

٣١- امتنان الله عز وجل على نبيه موسى عليه السلام بما آتاه من الرسالة والكلام والشريعة، وأمره تعالى له بأخذ ذلك وشكره؛ لقوله تعالى: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٣٢- أن الله عز وجل كتب التوراة التي أنزلها على موسى في الألواح بيده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ»(١).

٣٣- امتداح الله عز وجل لما كتبه في الألواح؛ لعمومه لكل شيء مما يُحتاج إليه، مما فيه الترغيب والترهيب، وتفصيل الأحكام، وبيان الحلال والحرام، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾.

٣٤- أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بأخذ الألواح، والعمل بما فيها بعزم وجد واجتهاد، وأمر قومه بالأخذ بأحسنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾.

٣٥- أن ما كتبه الله تعالى في الألواح كله حسن؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾، أي: يأخذوا بها.

٣٦- وعد الله تعالى لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وفتحها، ونصرهم على الجبابرة الذين فيها، وأن يريهم دار الفاسقين الخارجين عن طاعته، وأن عاقبة هؤلاء ومصيرهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ على الاحتمالين للآية.

٣٧- وعيد الله عز وجل بالصرف عن الإيمان بآياته والتفكر فيها للمتكبرين في الأرض بغير الحق، المكذبين بالآيات، المعرضين عن طريق الرشد، السالكين سبيل الغي؛ لقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾.

٣٨- أن سبب صرف هؤلاء عن الإيمان بالآيات والتفكر فيها، ووقوعهم فيما وقعوا فيه من الكبر وعدم الإيمان بالآيات، وترك طريق الرشد وسلوك طريق الغي؛ كل ذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وغفلتهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣٩- حبوط وبطلان أعمال المكذبين بالآيات ولقاء الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾.

٤٠- أن كل إنسان إنما يُجزى بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾:

ذكر عز وجل في الآيات السابقة مجيء موسى لميقاته عز وجل ومناجاته وتكليمه عز وجل له، وما في ذلك من الآيات والعبر، ثم أتبع ذلك بذكر ما حصل من قومه في مدة مغيبه للمناجاة؛ من اتخاذهم العجل والإشراك بالله.

قوله: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾، ﴿مِنۢ﴾ لابتداء الغاية، أي: من بعد ذهابه ومغيبه عنهم لميقات ربه ومناجاته؛ كما هو معلوم من قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ قرأ يعقوب بفتحِ الحاءِ وإسكانِ اللامِ وتخفيفِ الياءِ: «حَلْيِهِمْ»، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الحاء وكسر اللام وتشديد الياء مكسورة: «حِلِيِّهِمْ»، وقرأ الباقون بذلك مع ضم الحاء: ﴿حُلِيِّهِمْ﴾.

و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ تبعيضية، أي: من بعض حليهم، أي: ذهبهم الذي جمعوه أو استعاروه.

﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: ﴿عِجْلًا﴾ مفعول أول لـ«اتخذ» و«العجل» هو: ولد البقر قبل أن يصير ثورًا.

والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهًا.

﴿جَسَدًا﴾ صفة لـ﴿عِجْلًا﴾، ويقوي هذا قوله: ﴿لَهُۥ خُوَارٌ﴾، أو بدل من ﴿عِجْلًا﴾.

و«الجسد»: الجسم الذي لا روح فيه ولا حياة، أي: جسداً على هيئة وصورة العجل.

﴿لَهُۥ خُوَارٌ﴾ في محل نصب: صفة لـ﴿عِجْلًا﴾.

و«الخوار»: صوت البقر، بحيث يدخل الهواء في تجويف هذا الجسد ويخرج من ثقب فيه فيحصل هذا الصوت؛ كما في صنعة الصفارة والمزمار.

والمعنى: وجعل قوم موسى- من بعد ذهابه لميقات ربه ومغيبه عنهم- عجلًا جسدًا له خوار إلهًا ومعبودًا لهم، وعكفوا على عبادته من دون الله، كما قالوا: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

وكان الذي صاغه وصنعه لهم السامري، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٧- ٨٨].

وقال تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦- ٩٧].

وقد أخبره الله عز وجل بذلك وهو على الطور بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، الاستفهام: للإنكار والتقرير والتعجب.

والرؤية علمية، وقيل: بصرية.

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، أي: ولا يدلهم طريقًا.

والمعنى: ألم يروا أن هذا العجل- الذي اتخذوه إلهًا ومعبودًا- لا يكلمهم فيأمرهم بالخير أو ينهاهم عن الشر، ولا يدلهم طريقًا رشادًا يسعدون بسلوكه، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وعدم الكلام من أعظم النقص؛ فكيف يتخذون معبودًا لا يتكلم ولا يهديهم طريقًا، ولا ينفع ولا يضر، ولا يملك لهم موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

ولهذا فإن من أنكر كلام الله تعالى فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى الذي يكلم أنبياءه

ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير والهدى، ويحذرهم من سبل الشرور والردى.

قال ابن القيم: «نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهًا»(١).

﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾؛ لتأكيد ذمهم والتعجب منهم؛ كما يُقال: نعم اتخذوه. ولتُبنى عليه جملة: ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، الواو: استئنافية، أي: وكانوا في السابق ظالمين.

ويجوز أن تكون عاطفة على قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾، أي: اتخذوه وظلموا.

ويجوز أن تكون حالية، أي: اتخذوه والحال أنهم كانوا ظالمين بهذا العمل.

و«الظلم»: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم: الشرك بالله تعالى، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

أي: وكانوا ظالمين في الشرك بالله ووضع العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، الواو: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: وحين سُقط في أيديهم، أي: ندموا على عبادتهم العجل.

يُقال لكل نادم على أمر فات أو عاجز عن شيء: أسقط في يده.

وخصت الأيدي؛ لأن العمل يُضاف إليها؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾، أي: وتبين لهم وعلموا وتيقنوا.

﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾: ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، أي: أنهم قد تاهوا عن الحق والهدى فيما اتخذوه من عبادة العجل، تبين لهم ذلك بعد أن رجع موسى وأنكر عليهم ذلك ورأوا شدة غضبه عليهم.

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) (٢/ ٢٦٧).

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب ونصب «رَبَّنَا» على النداء: «لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا».

وقرأ الباقون بالغيب ورفع ﴿رَبُّنَا﴾ على أنه فاعل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾.

واللام في قوله: ﴿لَئِن﴾: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا.

والمعنى: أنهم لما علموا وتحققوا ضلالهم فيما حصل منهم من عبادة العجل؛ تابوا وتضرعوا إلى الله تعالى، وأقسموا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول توبتنا من الشرك وعبادة العجل، وتوفيقنا للإيمان والعمل الصالح، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: ويستر ذلك علينا، ويتجاوز عن عقوبتنا على ذلك؛ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقُدِّمت الرحمة على المغفرة؛ لأنها سببها.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، و﴿مِنَ﴾ تبعيضية، وهذا أبلغ وأقوى في إثبات عظم خسارتهم من لو قال: «لنكونن خاسرين».

والمعنى: لنكونن في عداد الخاسرين كل الخسران الذين خسروا الدنيا والآخرة، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: وحين رجع موسى إلى قومه بعد مناجاة ربه.

﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حالان، أي: حال كونه غضبان أسفًا على قومه لما أحدثوه بعده من عبادة العجل؛ لأن الله تعالى أخبره أنه قد فتنهم من بعده؛ قال تعالى في سورة طه: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٣- ٨٥].

و﴿غَضْبَٰنَ﴾: على وزن «فعلان» صيغة مبالغة، أي: ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم؛ غضبًا لله تعالى، وغيرة لدينه عز وجل، ونصحًا لقومه، وشفقة عليهم.

﴿أَسِفًا﴾ على وزن «فَعِل»: صيغة مبالغة، أي: شديد الغضب. و«الأسف»: شدة الغضب؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويجوز أن يكون معنى ﴿أَسِفًا﴾: حزينًا على ما آل إليه حال قومه.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾، ﴿بِئْسَمَا﴾، «بئس»: فعل لإنشاء الذم، و«ما»: نكرة موصوفة، أي: بئس خلافة خلفتمونيها خلافتكم.

وهذا منه خطاب لهارون ووجوه القوم، أو لجميعهم؛ لما أحدثوه من بعده من عبادة العجل.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ للتذكير بالبون الشاسع بين الحال التي كانوا عليها معه، وحالهم بعد مغيبه.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، الاستفهام: للإنكار، أي: أستعجلتم وبادرتم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟ أي: وعده وميقاته لي أربعين يومًا، فلم تصبروا إلى تمامها.

أو استعجلتم أسباب غضبه، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ويدل على هذين المعنيين قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦].

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾، أي: وألقى الألواح على الأرض؛ إظهارًا للغضب على قومه.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر؛ أخبره الله عز وجل أنّ قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلمّا رآهم وعاينهم ألقى الألواح**»(١).

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، أي: وأمسك بشعر أخيه هارون يجره إليه موجدة منه عليه؛ لظنه أنه قصَّر في نهيهم والإنكار عليهم، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٥/ ١٥٧٠)، والحاكم (٢/ ٣٢١)، وذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٧٥).

إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢- ٩٤]، أي: ولم ترقب قولي لك: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم في رواية أبي بكر بكسر الميم: «ابْنَ أُمِّ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾، أي: يا ابن أمي.

وإنما قال هارون لموسى عليهما السلام: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ليكون ذلك أرأف وأنجع عنده، واستعطافًا له برحم الأم وحقها العظيم؛ وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾، أي: احتقروني وعدُّوني ضعيفًا، ولم يُصغوا لنهيي لهم عن الشرك وأمري لهم بعبادة الله تعالى وحده، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]؛ حيث قالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾، أي: وقاربوا يقتلونني، أي: إني أنكرت عليهم ولم أقصر؛ حتى إنهم من شدة إنكاري عليهم كادوا يقتلونني ليتخلصوا مني.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾، الفاء: للتفريع.

و«الشماتة»: سرور الأعداء والحُسَّاد بما يصيب المرء، وهي من أشد الأمور وأقساها وقعًا على النفس؛ ولهذا قيل:

كُلّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى ... وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ(١)

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وَتَجَلّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ(٢)

وقال آخر:

إِذَا مَا المَوْتُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ ... كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِآخَرِينَا

---

(١) البيت أنشده ابن الاعرابي، كما في «الكشف والبيان» (٢/ ٣٠٩)، وينسب لابن أبي عيينة، كما في «محاضرات الأدباء» (١/ ٣١٤).

(٢) البيت بلا نسبة، كما في «الكشاف» (٢/ ٥٢٥).

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا[١]

وفي الحديث: «**لا تظهر الشّماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك**»[٢].

والمعنى: فلا تُفرح عليَّ الأعداء بعتابك وتأنيبك لي، مع تحذيري للقوم وإنذاري لهم وإعذاري منهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: ولا تصيرني في عداد القوم الظالمين؛ ظانًّا أني منهم، أو تظهرني منهم؛ فتؤنبني وتعاقبني معهم مع براءتي منهم ومما ارتكبوه من الشرك وعبادة العجل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾، أي: قال موسى عليه السلام داعيًا ربه، بعد أن تحقق براءة ساحة أخيه هارون مما وقع فيه بنو إسرائيل، وإنذاره وإعذاره منهم.

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾، أي: استر علينا وتجاوز عنا.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾، أي: عُمنا واشملنا برحمتك، واجعلها تحيط بنا من كل جانب؛ لنحصل على كل خير، وننجو من كل شر.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: ﴿أَرْحَمُ﴾ على وزن «أفعل»: صيغة تفضيل، أي: لا أحد أرحم منك؛ لأنه عز وجل أرحم بالخلق من أمهاتهم ومن آبائهم ومن أنفسهم.

وفي الحديث: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾، أي: إن الذين جعلوا العجل إلهًا من دون الله.

﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ السين حرف استقبال، أي: سيصيبهم غضب، كما

---

(١) البيتان لذي الأصبع العدواني. انظر: «ديوانه» (ص٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي، في صفة القيامة، (٢٥٠٦) وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٤)؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧]. ونكّر ﴿غَضَبٌ﴾ للتعظيم.

﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ صفة لـ﴿غَضَبٌ﴾، أي: كائن من ربهم ذي العزة والجبروت عظيم الانتقام، أي: سيصيبهم غضب عظيم من ربهم؛ كما أغضبوه بعبادة العجل واستهانوا بأمره، وغضبه عز وجل سبب لانتقامه، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: هوان وصغار في الحياة الدنيا.

وقد نال عبدة العجل ما نالهم من غضبه عز وجل؛ حيث جعل من شرط قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾، الكاف: للتشبيه، أي: وكما جازينا من عبدوا العجل بالغضب والإذلال في الحياة الدنيا؛ فمثل ذلك نجزي المفترين، أي: نجزي الكاذبين على الله تعالى بجعل الشريك والصاحبة والولد وغير ذلك.

وفي هذا دلالة على أن عبدة العجل مفترون، وأن من عمل عملهم فهو مفترٍ، وأن الجزاء بالغضب والذلة عام لكل مفتر على الله الكذب مشرك بالله؛ لأن الله عز وجل أبى أن تكون العزة إلا له ولأوليائه، فالعز كل العز في طاعة الله تعالى، والذل كل الذل في معصية الله تعالى.

قال سفيان بن عيينة: «كل صاحب بدعة ذليل»(١).

وقال الحسن البصري: «إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾:

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) (١٠/ ٤٦٥).

(٢) ذكره ابن كثير في (تفسيره) (٣/ ٤٧٥). **والهملجة**: حسن سير الدابة في سرعة. **والطقطقة**: صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة.

بعد أن توعد عز وجل الذين اتخذوا العجل بغضبه وبالذلة في الحياة الدنيا، وبيَّن أن هذا جزاء المفترين، نبه تعالى عباده على قبوله التوبة ممن عملوا السيئات؛ ترغيبًا لهم في التوبة والإنابة إليه؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: والذين عملوا الأعمال السيئة من شرك وكبائر وصغائر.

وسميت هذه الأعمال سيئات؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره.

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للعطف مع التراخي، أي: ثم تابوا من بعد السيئات، أي: رجعوا وأنابوا إلى الله تعالى من بعد أن عملوا السيئات.

﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾، أي: وجددوا الإيمان وثبتوا عليه وأخلصوا؛ لأن الإنسان في كل لحظة يحتاج إلى الإيمان وتجديده والثبات عليه والإخلاص فيه؛ لهذا قال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد توبتهم.

﴿لَغَفُورٞ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لغفور لهم ولغيرهم من التائبين، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم؛ يستر سيئاتهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم ويرحمهم.

فمن تاب من عمل السيئات فتوبته مقبولة- بإذن الله تعالى- وإن تأخرت، ما دامت بوقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾، أي: وحين سكت عن موسى الغضب، أي: سكن غضبه.

﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ التي كان ألقاها من شدة الغضب على قومه.

﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾، أي: وفيما نُسخ فيها، أي: كُتب فيها، ﴿هُدٗى﴾

إرشاد وبيان للحق، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، كائنة ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أو لأجل الذين ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أي: يخافون، وعُدِّي الفعل ﴿يَرْهَبُونَ﴾ باللام؛ لأنه ضمن معنى «يخضعون».

أي: وكتب في هذه الألواح إرشاد وبيان للحق ورحمة من الله عز وجل ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أي: يخضعون له ويخافونه ويخشونه.

وخصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين يقبلون هدى الله وينقادون له.

الفوائد والأحكام:

١- اتخاذ بني إسرائيل العجل وعبادتهم له بعد مغيب موسى وذهابه لميقات ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

٢- جهل بني إسرائيل وعنادهم؛ فهم مع ما رأوا من الآيات العظيمة الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته؛ لم ينجع فيهم ذلك؛ ولهذا سرعان ما وقعوا في الشرك.

٣- حاجة الناس إلى من يرعى أحوالهم ويقوِّمهم على الحق ممن يجمع بين العلم والقوة؛ فإن بني إسرائيل إنما وقعوا فيما وقعوا فيه حين غاب عنهم موسى عليه السلام، واستضعفوا هارون عليه السلام.

٤- أن اتخاذ التصاوير والتماثيل كانت من أعظم أسباب ضلال كثير من الخلق ووقوعهم في الشرك.

٥- الإنكار على عبَّاد العجل؛ كيف يعبدون ما لا يكلمهم ولا يدلهم على خير ولا ينفعهم ولا يضرهم؟! لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

٦- أنه إنما يستحق العبادة من له صفات الكمال وحده، الذي يكلِّم رسله وأنبياءه، ويهدي إلى كل خير، وبيده النفع والضر؛ وهو الله عز وجل وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

٧- إثبات الكلام لله عز وجل، وأنه سبحانه يكلم رسله وأنبياءه، ويكلم أولياءه في الجنة. وأن من أنكر كلام الله عز وجل فقد أنكر خصائص إلهيته عز وجل.

٨- ظلم بني إسرائيل بإشراكهم بالله وعبادتهم العجل؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

٩- أن مِن أظلم الظلم الشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾، كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

١٠- ندم بني إسرائيل بعد أن تبين لهم ضلالهم في عبادتهم العجل، وذلك بعد رجوع موسى إليهم وغضبه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾.

١١- توجُّه بني إسرائيل بطلب الرحمة والمغفرة من ربهم لما فرط منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى لخلقه- ربوبية خاصة وعامة- لقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾، وقوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

١٣- أن التوسل والدعاء بصفة الربوبية من أنجع الأدعية وأقربها إجابة؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾، وبذلك كان يدعو الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

١٤- أن الرحمة سبب للمغفرة؛ لهذا قدمت عليها في الآية.

١٥- إقرار بني إسرائيل وإقسامهم على كونهم من الخاسرين إن لم يرحمهم ربهم ويغفر لهم؛ لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١٦- أن الخسران كل الخسران في ضياع نصيب الإنسان من رحمة ربه ومغفرته، وموته على الشرك.

١٧- رجوع موسى عليه السلام غضبان أسفًا على قومه؛ غيرة لربه؛ لما أحدثوه بعده من الشرك وعبادة العجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

١٨- أن الغضب لانتهاك حرمات الله تعالى أمر مشروع؛ لأن الله عز وجل لم يُعاتب موسى على ذلك، لكن ذلك مشروط بأن يكون في حدود الشرع.

وقد كان نبينا ﷺ لا ينتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تُنتهك حرمات الله

فينتقم لله[١].

١٩- تقبيح موسى عليه السلام لصنع قومه وما خلفوه به بعد مغيبه، وإنكاره عليهم استعجال أمر ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

٢٠- إلقاؤه عليه السلام الألواح من شدة الغضب على قومه.

٢١- إمساك موسى عليه السلام بشعر رأس أخيه وجره إليه موجدة عليه؛ لظنه أنه قصَّر في نهي بني إسرائيل عن عبادة العجل وفي الإنكار عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

٢٢- مناداة هارون عليه السلام لأخيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ استعطافًا له برحم الأم وحقها العظيم.

٢٣- اعتذار هارون عليه السلام مما فعله بنو إسرائيل، وأنه لم يأل جهدًا في نصحهم، لكنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه لما أنكر عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾.

٢٤- التماس هارون وطلبه من أخيه موسى عليهما السلام ألا يُشمت به الأعداء بعتابه وتأنيبه له، وألا يجعله ويظهره أمام الناس من القوم الظالمين؛ لقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٥- ابتهال موسى عليه السلام إلى ربه، بعد أن تبين له إعذار أخيه هارون من بني إسرائيل وبراءته مما أحدثوه من الشرك، وسؤاله لنفسه ولأخيه المغفرة والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾.

٢٦- أن الله عز وجل هو أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٢٧- غضب الله عز وجل على عبدة العجل، وإذلاله لهم في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غضب وذل لا يفارقهم إلى يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨٥)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

٢٨- إثبات صفة الغضب لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ فهو عز وجل يغضب على من أغضبه بانتهاك حدوده وحرماته، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٢٩- أن اتخاذ شريك مع الله هو أعظم الافتراء على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

٣٠- الوعيد لجميع المفترين على الله تعالى باتخاذ شريك معه ونحو ذلك بالغضب والذلة في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

٣١- ذل أصحاب البدع والمعاصي مهما ادعوا لأنفسهم العزة؛ لأن الله عز وجل قضى عليهم بالذلة، وكتب العزة له ولأوليائه.

٣٢- جمع القرآن بين الترهيب والترغيب؛ لأن الله لما ذكر غضبه على المفترين وإذلالهم؛ أتبع ذلك بقبول توبة التائبين؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾.

٣٣- سعة عفو الله تعالى وفضله، وقبوله التوبة ممن تاب ولو تراخت، ما دامت في وقتها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٣٤- الترغيب في التوبة، والحث عليها، والإغراء بها.

٣٥- لا بد من تحقق شروط التوبة وكونها خالصة لله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ ﴾.

٣٦- حاجة المؤمن كل لحظة إلى الإيمان وتجديده والثبات عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ ﴾.

٣٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله تعالى، وصفة الرحمة الواسعة له سبحانه، وأنه يغفر لمن تاب من عباده ويرحمهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله تعالى قبل هذا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

٣٨- أخذ موسى عليه السلام الألواح لما سكن غضبه؛ عناية بها واشتغالًا بالأهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

٣٩- أن الغضب- وإن كان لذات الله ولأجل انتهاك حرماته- إذا زاد عن حد الشرع قد يؤدي إلى مفسدة أكبر؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: أوصني. قال له: «**لا تغضب**». ردد ذلك(١).

٤٠- اشتمال هذه الألواح على الهدى والرحمة وأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

٤١- أنه إنما يستفيد من كتب الله تعالى وينتفع بها أهل الخوف منه عز وجل دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

٤٢- الترغيب في الخوف من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ الواو استئنافية، ﴿قَوْمَهُۥ﴾ منصوب على نزع الخافض، أي: من قومه.

﴿سَبْعِينَ﴾ مفعول لـ«اختار» منصوب بالياء، ﴿رَجُلًا﴾ تمييز.

والمعنى: واختار موسى من خيار قومه سبعين رجلًا للوقت والأجل الذي وعده الله أن يلقاه فيه بهم؛ للتوبة والاعتذار لقومهم مما فعل سفهاؤهم من عبادة العجل.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة والصاعقة، وهلكوا.

واختلف في سبب أخذهم بالرجفة، فقال جمع من المفسرين: لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم، ويدل على هذا قول موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

وقيل: لقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقيل غير ذلك(١).

---

(١) انظر: (جامع البيان) (١٠/ ٤٦٩-٤٧٣)، (تفسير ابن أبي حاتم) (٥/ ١٥٧٤).

﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: قال موسى: يا رب ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾، ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي: حين عبد قومهم العجل، ولم ينكروا عليهم، ومن قبل هذا الوقت الذي جاءوا فيه للتوبة والاعتذار عن قومهم، والله أعلم.

يقول موسى: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا قد وسعهم عفوك ومغفرتك ولم تهلكهم؛ فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل.

﴿وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، الاستفهام: للاستعطاف، والباء: للسببية، و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: بسبب فعل السفهاء منا، أو بسبب الذي فعله السفهاء منا؛ من عبادة العجل.

ومفاد قول موسى هذا: أنك يا رب لا تهلكنا بما فعل السفهاء؛ لأنك لا تأخذ أحدًا بذنب غيره.

و«السفهاء»: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف، والمراد به هنا: السفيه في الدين.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هي إلا فتنتك، والضمير ﴿هِيَ﴾ يعود إلى ما فعله السفهاء من عبادة العجل.

و«الفتنة»: الابتلاء والامتحان، وتكون بالشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: ما هي إلا ابتلاؤك وامتحانك وتقديرك؛ فما الأمر إلا أمرك، وما الحكم إلا حكمك.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾، الباء: للسببية، و«مَن»: موصولة، أي: ﴿تُضِلُّ﴾ بسبب فتنتك ﴿مَن تَشَاءُ﴾ بعدلك، ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ بفضلك.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، أي: متولي أمورنا، القائم بجلب المنافع لنا ودفع الضر عنا.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾، أي: فاستر ذنوبنا، وتجاوز عنا.

﴿وَارْحَمْنَا﴾، أي: واشملنا برحمتك الواسعة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ رحمة تحفظنا بها من الذنوب والشرور، وتولي بها علينا النعم؛ فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

وقدِّمت المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية، ولا يتم التنعم بالمطلوب إلا

إذا زال المرهوب.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، أي: وأنت خير من ستر وتجاوز، لا يغفر الذنوب إلا أنت، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

تغفر الذنوب جميعًا مهما كثرت وعظمت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السّماء ثمّ لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرةً**»(١).

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

والمعنى: وأوجب لنا وأعطنا في هذه الدنيا حسنة؛ بتوفيقنا للعلم النافع، والعمل الصالح، والرزق الواسع.

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: واكتب لنا وأعطنا في الآخرة حسنة بالمثوبة الحسنى والجنة.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله تعالى مجيبًا موسى في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ...﴾ الآية.

﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾، أي: عذابي أصيب به الذي أشاء بعدلي؛ كما أن رحمتي: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

هذا في مقابل قول موسى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾، وفي هذا وعد وتعريض بحصول الرحمة له ولهم.

أي: ورحمتي وسعت كل شيء تفضلًا مني، وهذا كما قال حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

---

(١) سبق تخريجه.

وعن جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عنانها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا تشرك في رحمتنا أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: «**أتقولون: هذا أضلّ أم بعيره؟! ألم تسمعوا إلى ما قال؟!»؟!**» قالوا: بلى. قال: «**لقد حظرت رحمةً واسعةً، إنّ الله عز وجل خلق مئة رحمةٍ، فأنزل رحمةً واحدةً يتعاطف بها الخلق؛ جنّها وإنسها وبهائمها، وأخّر عنده تسعًا وتسعين رحمةً، أتقولون: أضلّ هو أم بعيره**»(١).

وعن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إنّ لله عز وجل مئة رحمةٍ؛ فمنها رحمةٌ يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**إنّ لله مئة رحمةٍ، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامّ؛ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعًا وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة**»(٣).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله عز وجل مئة رحمةٍ؛ فقسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق، فبه يتراحم النّاس والوحوش والطّير**»(٤).

هذه رحمته عز وجل العامة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

أما رحمته الخاصة؛ فهي ما ذكره تعالى بقوله:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الفاء: عاطفة، والسين: للاستقبال والتحقيق، أي: فسأوجبها تفضلًا مني ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٩)، وأبو داود في الأدب مختصرًا (٤٨٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٥٥)، وابن ماجه في الزهد، ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٤).

والمعنى: فسأوجبها وأخص بها المتصفين بهذه الصفات.

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والشرك والمعاصي.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطون زكاة أموالهم للمستحقين لها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: والذين هم بآياتنا الكونية والشرعية يصدِّقون، وينقادون للعمل بها ظاهرًا وباطنًا.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الجملة في محل جر بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم الذين يتبعون. وقد قُطع عن النعت؛ للمدح.

و«أل» في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان؛ محمد ﷺ.

﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ صفة لـ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ فهو ﷺ نبي رسول، وقدم وصف الرسول؛ لأنه الوصف الأخص والأهم.

﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ نعت لـ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ لأنه من أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

وهو وصف خُصَّ به النبي محمد ﷺ من بين الأنبياء؛ إظهارًا لكمال وتمام إعجاز ما جاء به من الوحي.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾، ﴿مَكْتُوبًا﴾ حال.

﴿عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، أي: يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل باسمه وصفاته ونعوته التي لا يشبهه فيها غيره، والتي من أعظمها وأجلها أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾، ولم يقل: يجدون وصفه؛ للدلالة على أنهم يجدون وصفًا لا يقبل الالتباس ولا يتطرق إليه الشك بحال.

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: بالإيمان بالله وتوحيده، والعمل بشرعه، والأخذ بمكارم الأخلاق، وكل ما هو معروف في الشرع والعقل والفطرة السليمة.

﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما أُنكر في الشرع والعقل والفطر السليمة؛ من الكفر والشرك والظلم والمعاصي ومساوئ الأخلاق وغير ذلك.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: ويحل لهم كل ما هو طيب، أي: كل ما يُستلذ ويُستطاب من الذبائح والمآكل والمشارب وغير ذلك.

ومن ذلك إحلال ما حرَّموه على أنفسهم مما لم ينزل الله به سلطانًا؛ من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك. وكل ما أحله الله تعالى فهو طيب.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، أي: ويحرم عليهم كل ما هو خبيث ضار بالبدن والعقل والدين والعرض والمال؛ من الذبائح والمآكل والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال؛ كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه. وكل ما حرم الله فهو خبيث.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ ابن عامر ﴿آصَارَهُمْ﴾ بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ بالإفراد.

«الإصر»: الثقل أو الميثاق الثقيل.

و«الأغلال»: جمع غُل؛ وهو القيد الشديد يكون في الرقبة أو اليد؛ قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

والمعنى: يزيل ويحط عنهم الآصار والأغلال، أي: المواثيق الشديدة التي أخذت عليهم، فيما حرم عليهم، وفيما كلِّفوا به من التكاليف الشاقة والثقيلة.

أي: إنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ورفع الحرج في الدين، كما قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفيّة السّمحة**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦)؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأخرجه (٦/ ١١٦، ٢٣٣)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ**»(١).

وقال ﷺ: «**إنّ الله تجاوز لي عن أمّتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تتكلّم أو تعمل**»(١).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: فالذين صدَّقوا بهذا الرسول النبي الأمي محمد ﷺ واتبعوه ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، أي: وقروه وعظموه، وأيدوه وقووه.

ومن ذلك إظهار أهل الكتاب ما في كتبهم من البشارة به ﷺ وتصديقه والدعوة إلى اتباعه.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أعانوه بأموالهم وأنفسهم على جهاد أعدائه ونشر دينه، ومنعوه منهم.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، أي: واتبعوا القرآن الذي أنزل ببعثته ﷺ؛ بتصديق أخباره، والعمل بأحكامه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات العظيمة.

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة لعلو شأنهم، ورفعة منزلتهم.

وأكد الفلاح وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، أي: أولئك هم المفلحون دون غيرهم.

وفي هذا تنويه بفضيلة أصحاب رسول الله ﷺ، وبكل من اتبع النبي ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

لما دعا أهل التوراة والإنجيل من بني إسرائيل إلى اتباعه ﷺ، وكان ربما يتوهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم؛ أتبع ذلك ببيان عموم رسالته ﷺ.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ. وفي هذا دلالة على أنه مبلغ عن الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ نداء لجميع بني آدم على اختلاف لغاتهم وألوانهم؛ العربي والعجمي، الأحمر والأسود، الموجودين منهم حال نزول الآية، ومن سيوجد إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في ذكر ما حصل بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من مغاضبة، فقال رسول الله ﷺ: «**هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إنّي قلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فقلتم: كذبت، وقال أبو بكرٍ: صدقت**»(١).

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وكان النّبيّ يبعث إلى قومه، وبعثت إلى النّاس عامّةً**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**والّذي نفس محمّدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمّ يموت ولم يؤمن بالّذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النّار**»(٣).

بل إن هذا العموم يشمل الجن؛ للأدلة على أنه ﷺ رسول للثقلين، وأن الجن مكلفون بالإيمان بأصول الدين كالإنس.

﴿جَمِيعًا﴾ حال، وقد أُكِّد هذا الخبر بـ«إن» في قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأعراف (٤٦٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣٥٠).

وبقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ لأن في المخاطبين من ينكر رسالته ﷺ، وفيهم من ينكر عمومها؛ كبعض أهل الكتاب، ولأن الرسل قبله ﷺ كان الرسول منهم يُبعث إلى قومه خاصة.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي له ملك السموات والأرض.

أو في محل نصب لفعل محذوف على المدح، أي: أعني الذي له ملك السموات والأرض.

وعلى التقديرين؛ فالجملة دالة على الثناء عليه عز وجل، وكذلك قوله بعدها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

وقُدِّم الخبر: ﴿لَهُۥ﴾ للدلالة على الحصر والاختصاص، أي: له وحده.

﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو وحده لا شريك له.

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: بيده الإحياء والإماتة، وكامل الحكم والتدبير.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم بالإيمان به.

أي: فصدقوا بقلوبكم وألسنتكم بالله ورسوله، وانقادوا بجوارحكم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان برسوله: شهادة أن محمدًا رسول الله، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

والإيمان بالله يستلزم الإيمان بالرسول؛ كما أن الإيمان بالرسول يستلزم الإيمان بالله؛ ولهذا قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أعاد وصفه بهذا؛ تأكيدًا للثناء عليه وبيان فضله، ولاختلاف المقام؛ فالمقام الأول: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ في وصف أتباعه.

وهذا المقام: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ في وصفه ﷺ والثناء عليه، والأمر بالإيمان به.

﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: الذي يؤمن ويصدق بالله وكلماته

الشرعية، وهي كتبه ووحيه إلى رسله، وكلماته الكونية القدرية في الكون، ومن ذلك خلق عيسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤١].

﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾، أي: واقتدوا به، واقتفوا أثره، واسلكوا طريقه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم، وتصلح أمور دينكم ودنياكم وأخراكم.

الفوائد والأحكام:

١- اختيار موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه للتوبة والاعتذار عن قومهم في عبادة العجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾.

٢- أخذهم بالرجفة وإهلاكهم، قيل: بسبب عدم مزايلتهم لقومهم وعدم إنكارهم عليهم عبادة العجل، وقيل: بسبب قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، أو لغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

٣- توسل موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل أن يسع قومه بعفوه ومغفرته؛ كما وسعهم من قبل؛ لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

٥- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾، وقوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَن أَشَآءُ﴾.

٦- فضيلة موسى عليه السلام، وقوة يقينه وإيمانه بربه وبنفوذ مشيئته في خلقه؛ لقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾.

٧- أن الله لا يأخذ أحدًا بجريرة غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ فهذا استعطاف من موسى عليه السلام مفاده: إنك يا رب لا تهلك أحدًا بذنب غيره.

٨- أن مخالفة أمر الله تعالى ورسله- بارتكاب الشرك والمعاصي- من السفه المؤدي

إلى الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا﴾.

٩- ابتلاء الله تعالى للعباد وامتحانه لهم بالشر والخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾.

١٠- أن لله عز وجل كمال التدبير في خلقه؛ يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله، وله الحكمة البالغة في ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾.

١١- تفويض موسى عليه السلام أمره إلى الله تعالى هو وقومه، واعتمادهم على الله عز وجل؛ لقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

١٢- دعاء موسى عليه السلام ربه بالمغفرة والرحمة له ولقومه؛ لقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

١٣- ثناء موسى عليه السلام على ربه وتعظيمه له بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

١٤- في تفويض موسى عليه السلام أمره إلى ربه عز وجل، واعتماده عليه، ودعائه إياه أن يغفر له ويرحمه- وهو كليم الرحمن، وثالث أولي العزم من الرسل- دلالة على حاجة جميع الخلق إلى الله تعالى، ووجوب توكلهم على الله تعالى وحده، والتضرع إليه بطلب المغفرة والرحمة.

١٥- مشروعية الدعاء بطلب خير الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

١٦- توبة بني إسرائيل ورجوعهم إلى الله وإنابتهم إليه؛ لقول موسى عليه السلام معتذرًا لهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

١٧- الترهيب من عذابه عز وجل، والترغيب في طلب رحمته، وتأكيد أن له إتمام التدبير، وله الحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

١٨- سعة رحمة الله تعالى لكل شيء، وعمومها لكل حي؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

١٩- كتابة الله عز وجل رحمته الخاصة للذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات

الله ويتبعون رسوله، وإيجابها لهم تفضلًا منه وكرما؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

٢٠- فضيلة تقوى الله، وإيتاء الزكاة، والإيمان بآيات الله، واتباع الرسول ﷺ، والحث على الاتصاف بهذه الصفات، والثناء على أهلها.

٢١- امتداح الذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله باتباعهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

٢٢- فضيلة نبينا ﷺ، وعظم منزلته عند ربه؛ حيث جمع له بين وصف الرسالة والنبوة، وامتدحه بقوله: ﴿الْأُمِّيَّ﴾، وكرر ذلك؛ إظهارًا لكمال صدقه، وتمام إعجاز ما جاء به من الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

٢٣- بشارة التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ وتصديقهما له؛ باشتمالهما على صفاته ونعوته ودعوته، وما يأمر به وما ينهي عنه، وما يحله لهم وما يحرمه عليهم، وما يضعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٤- التنويه بما تضمنته دعوته ﷺ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الآصار والأغلال، ورفع الحرج في الدين.

٢٥- الإشارة لما اشتملت عليه كتب بني إسرائيل من الآصار والأغلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٦- فضل صحابة رسول الله ﷺ وجميع المؤمنين الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ووعدهم بالفلاح، بل وحصر الفلاح وتأكيده فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ومفهوم هذا أن من عداهم هم الخاسرون.

٢٧- الترغيب في الإيمان به ﷺ وتوقيره ومناصرته، واتباع النور الذي أنزل معه.

٢٨- إثبات علو الله تعالى بذاته على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٢٩- أن القرآن منزل من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٣٠- أن القرآن نور يهدي من اتبعه إلى الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

٣١- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

٣٢- اختصاص الله عز وجل بملك السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣٣- تفرده عز وجل بالإلهية وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣٤- إثبات قدرته عز وجل التامة على الإحياء والإماتة، وأن ذلك بيده وحده؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

٣٥- وجوب الإيمان بالله تعالى ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٣٦- ثناء الله عز وجل على النبي ﷺ بإيمانه بالله تعالى وكلماته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾.

٣٧- وجوب اتباعه ﷺ والتأسي به بالإيمان بالله وكلماته، وأن بذلك الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

لما ذكر في الآيات السابقة جملة من معائب بني إسرائيل من عبادة العجل وغير ذلك، فربما توهم متوهم أن هذا يعمهم جميعًا، فاحترز بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾، أي: ومن أتباع موسى عليه السلام على دينه قبل بعثة محمد ﷺ؛ لأنهم بعد بعثته ﷺ لا يسمون قوم موسى، فمن آمن منهم به ﷺ فهو من أمة محمد ﷺ، ومن لم يؤمن به منهم فهو من سائر بني إسرائيل واليهود.

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يهتدون بالحق ويتبعونه، ويهدون الناس إليه، ويدلونهم عليه.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، أي: وبالحق يعدلون في حكمهم بين الناس، فيحكمون بينهم على بصيرة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ

أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾، أي: وفرقناهم وقسمناهم، وهو هنا محمود؛ لتكثيرهم ونمائهم، وتوسعة عليهم.

﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾، أي: ثنتي عشرة فرقة، ﴿أَسْبَاطًا﴾ حال أو بدل من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾، أو من تمييز محذوف تقديره: فرقة.

والمعنى: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة متعارفة، متوالية بعدد أبناء يعقوب عليه السلام الاثني عشر، كل واحد من أبناء يعقوب قبيلة.

﴿أُمَمًا﴾ بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾، أو نعت له، ونكِّرت للتكثير والتعظيم، أي: أممًا كثيرة عظيمة، وفي هذا امتنان عليهم بكثرتهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

كقوله في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[الآية: ٦٠].

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، أي: حين طلب منه قومه في التيه أن يدعو الله أن يسقيهم ما يشربون منه وتشرب منه مواشيهم.

﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، «أن» تفسيرية. فالجملة لا محل لها من الإعراب تفسير لـ«أوحينا».

ويجوز كون «أن» حرفًا مصدريًّا، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول لـ«أوحينا».

والمراد بقوله: ﴿بِّعَصَاكَ﴾: عصا موسى عليه السلام المعروفة، والتي هي من الآيات التي أعطيها موسى عليه السلام.

﴿ٱلْحَجَرَ﴾، «أل» للجنس، أي: أيَّ حجر، وقيل: المراد حجر معين.

والأول أولى؛ لأنه أبلغ، ولا دليل على تعيّنه.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، أي: فضربه، فانفجرت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾

جارية سارحة، و﴿عَيْنًا﴾ تمييز.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، أي: قد علم أناس من هذه الأسباط والقبائل الاثني عشر مشربهم الخاص بهم، فلكل سبط وقبيلة منهم عينٌ يشربون منها، لا يزاحمهم عليها غيرهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

كقوله في سورة البقرة مخاطبًا لهم: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ٥٧].

قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾، أي: وظللنا عليهم السحاب يقيهم من حر الشمس.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو شيء يشبه الصمغ، طعمه كالعسل والحلوى.

﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ طائر من أحسن الطيور وألذها طعمًا، يشبه السماني.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الأمر: للامتنان والإباحة، أي: كلوا من طيبات الذي رزقناكم، أي: أعطيناكم من الحلال والمستلذات.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: وما ظلمونا حين لم يشكروا الله ويقوموا بما أوجب عليهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ولكن ظلموا أنفسهم؛ حيث حرموها من الخير والمثوبة، وعرضوها للشر والعقوبة، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾:

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٥٨].

قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، أي: واذكر لبني إسرائيل حين قيل لآبائهم وسلفهم: اسكنوا هذه القرية، أي: ادخلوها واجعلوها لكم سكنًا وموطنًا.

والمراد بالقرية: بيت المقدس؛ كما في قوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة:

٢١]، وكانت كثيرة الأشجار وغزيرة الثمار، رغيدة العيش؛ ولهذا قيل لهم:

﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، وفي آية البقرة: ﴿رَغَدًا﴾؛ لزيادة الامتنان عليهم، أي: كلوا منها من أي مكان شئتم؛ من وسطها، أو أطرافها، أو غير ذلك.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، أي: وقولوا: حط عنا ذنوبنا.

﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي: وادخلوا باب القرية حال كونكم ساجدين لله تعالى خاضعين له؛ شكرًا لله تعالى على نصره لكم وفتحه.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾، ﴿نَّغْفِرْ﴾ مجزوم جواب الطلب.

قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: «تُغْفَرْ» بالتاء والبناء للمجهول، ورفع ﴿خَطِيٓـَٰٔتُكُمْ﴾ على أنه نائب فاعل.

وقرأ ابن عامر كذلك مع إفراد «خَطِيئَتُكُمْ».

وقرأ أبو عمرو: «نَغْفِرْ» بالنون والبناء للفاعل، و«خَطَايَاكُمْ» بجمع التكسير.

وقرأ الباقون: ﴿نَّغْفِرْ﴾ بالنون والبناء للفاعل كذلك، ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ بجمع المؤنث السالم.

والمعنى: نستر خطيئاتكم وذنوبكم، ونتجاوز عنكم.

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعد أن وعدهم بمغفرة الخطايا وزوال المرهوب، وعدهم بالزيادة وحصول المطلوب.

والسين في قوله: ﴿سَنَزِيدُ﴾ للاستقبال، أي: وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى ومتابعة لشرعه، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، أي: سنزيدهم على مغفرة الخطايا والذنوب بمضاعفة الأجور.

وفي هذا ترغيب بالإحسان بنوعيه، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الآية: ٥٩].

قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ فقالوا: «حبة في شعيرة» استهانة منهم بأمر الله تعالى، ولم يقولوا: «حطة» كما أمرهم الله بذلك بقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾.

وإذا بدلوا القول مع يسره وسهولته؛ فتبديلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا الباب يزحفون على أستاههم، ولم يدخلوه سجدًا كما أمرهم الله تعالى بذلك.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: فأرسلنا عليهم عذابًا شديدًا من السماء، إما تقديرًا وواقعًا بحيث جاءهم العذاب من فوقهم، أو تقديرًا فقط؛ لأن تقدير كل شيء عنده عز وجل في السماء.

﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب ظلمهم بتبديلهم قولًا غير الذي قيل لهم، ومخالفتهم أمر الله، كما قال تعالى في البقرة: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ولهذا ختم آية البقرة بقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، فجمع لهم بين وصف الظلم والفسق بسبب تبديلهم قول الله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- شهادة القرآن الكريم أن من قوم موسى عليه السلام وأتباعه على دينه؛ أمة يهتدون بالحق ويتبعونه، ويهدون به ويرشدون إليه، وبه يعدلون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

٢- إنصاف القرآن الكريم بهذه الشهادة لقوم موسى عليه السلام، والاحتراز من أن يُظن أنهم كلهم على ضلال.

٣- تفريق قوم موسى عليه السلام وتقسيمهم إلى اثنتي عشرة سبطًا وقبيلة وإلى أمم كثيرة عظيمة، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾.

٤- الامتنان على قوم موسى عليه السلام بالأمن المائي؛ بوحيه عز وجل إليه حين استسقاه قومه بضرب الحجر وانفجار اثنتي عشرة عينًا لكل سبط وقبيلة عين معلومة لهم، لا يزاحمهم عليها غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ﴾.

٥- في انفجار هذه العيون من الحجر آية من آيات الله العظيمة، ودلالة على تمام قدرته عز وجل، ومعجزة لموسى عليه السلام.

٦- الامتنان عليهم بتظليلهم بالغمام والسحاب يقيهم الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾.

٧- الامتنان عليهم بإنزال المن والسلوى مأكولًا لهم من أفضل وألذ أنواع الأطعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

٨- تمام نعم الله تعالى على قوم موسى؛ بحصول الأمن النفسي بتكثيرهم وجعلهم قبائل متآلفة، والأمن المائي بتفجير العيون لهم، والأمن الغذائي بإنزال المن والسلوى عليهم، وهذه من أعظم النعم على الخلق؛ ولهذا امتن عليهم بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

٩- إباحة الطيبات؛ وهي: كل ما يُستلذ مما أحله الله تعالى.

١٠- أن الرزق كله من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وهذا يوجب شكره عز وجل على ذلك.

١١- كفر قوم موسى لنعم الله تعالى، وظلمهم لأنفسهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٢- أن الله عز وجل لا تضره معصية العاصي؛ كما لا تنفعه طاعة المطيع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾.

١٣- التذكير بقوله تعالى وأمره لقوم موسى بسكنى بيت المقدس، والأكل منها حيث شاؤوا، وطلب حط ذنوبهم، ودخول الباب سجدًا؛ لمغفرة ذنوبهم وزيادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤- تبديل الذين ظلموا من قوم موسى قولًا غير الذي قيل لهم؛ فبدل أن يقولوا: «حطة» قالوا: «حنطة، حبة في شعيرة»، وبدل أن يدخلوا الباب سجدًا دخلوا يزحفون على أستاههم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

١٥- عقوبة الله تعالى لهم بإرسال رجز من السماء عليهم بسبب ظلمهم؛ لقوله

تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

هذا السياق بسط وبيان لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ [الآية: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾، أي: واسأل- يا محمد- هؤلاء اليهود الذين بحضرتك والمجاورين لك.

ووجه السؤال إليهم- والله أعلم- لأن هذه القصة- فيما ذُكر- ليست في كتبهم، وإنما مما يرويه أحبارهم، وكانت مما يحاولون كتمانه، أي: واسألهم سؤال تقرير وتقريع وتوبيخ.

﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾، أي: عن أهل القرية من آبائهم وأسلافهم من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: واسأل أهل القرية.

ولهذا قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ ﴾، والمراد بالقرية: «أيلة»، وهي بين «مدين» و«الطور»، وقيل غير ذلك.

﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾، أي: بقرب البحر الأحمر على ساحله ومتصلة به.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾، أي: حين يعتدون في صيد السمك يوم السبت مع تحريم العمل والصيد فيه.

والمراد بـ«السبت»: يوم السبت، وهو ما بين الجمعة والأحد.

والعدوان: الظلم، ومخالفة الحق، ومجاوزة الحد.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، أي: حين يعدون في السبت، وهذا هو المقصود بالسؤال، أي: واسألهم عن عدوانهم في السبت.

والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَعْدُونَ﴾ لدلالة تكرر ذلك منهم.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾، أي: حين تأتيهم حيتانهم، و«الحيتان» جمع: «حوت»؛ وهي السمك.

﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، ﴿شُرَّعًا﴾ حال، أي: ظاهرة على وجه الماء كثيرة، آمنة من أن تصاد.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، أي: وفي غير يوم السبت لا تأتيهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾، أي: نختبرهم ونمتحنهم في إتيان السمك شرعًا يوم السبت الذي يحرم العمل والصيد فيه دون غيره من الأيام؛ ليظهر مدى طاعتهم لله تعالى.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى، واحتيالهم على محارم الله تعالى؛ حيث احتالوا للصيد في يوم السبت بوضع الشباك والحبائل يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت علقت بتلك الشباك والحبائل، ثم أخذوها يوم الأحد، فجمعوا بين ارتكاب المحرم والاحتيال والمخادعة.

ولهذا قال ﷺ: «**لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: وحين قالت طائفة وجماعة منهم:

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: لماذا تذكّرون وتأمرون وتنهون قومًا، ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا، ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة؟

و«أو» قد تكون على معناها للتقسيم، وقد تكون بمعنى الواو، أي: مهلكهم ومعذبهم.

وكأن هؤلاء الطائفة يقولون: لا فائدة في وعظ هؤلاء؛ لإصرارهم على الاعتداء، وعدم قبولهم النصح، واستحقاقهم عقاب الله وعذابه.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤٩٢ عن أبي عبدالله بن بطة بإسناده. وقال: «إسناده جيد».

وفي هذا ما يدل على كراهتهم فعلهم، وإنكارهم له في قلوبهم.

﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ قرأ حفص: ﴿مَعۡذِرَةً﴾ بالنصب على المفعول لأجله، أي: إعذارًا.

وقرأ الباقون: «مَعْذِرَةٌ» بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي: موعظتنا معذرة.

والمعنى: قالت الطائفة المنكرة: نعظهم وننكر عليهم؛ لنعذر أمام الله تعالى فيهم؛ بقيامنا بما أوجب الله علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ معطوف على ﴿مَعۡذِرَةً﴾، فهي علة ثانية، أي: نعظهم لنعذر أمام الله، ورجاء أن يتقوا بترك ما هم عليه من الاعتداء والمخالفة ويتوبوا إلى الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾، الفاء عاطفة، و«لَمَّا»: ظرف بمعنى: «حين» متضمن معنى الشرط، والضمير في «نسوا» يعود إلى «قومًا»، أي: إلى الطائفة المعتدية في السبت، و«ما»: موصولة.

أي: فلما نسي الذين اعتدوا في السبت ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾- أي: الذي وعظوا به- وأعرضوا عنه، وتركوه، وأبوا قبول النصيحة.

﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، أي: أنجينا الذين ينهون عن العمل السيئ والمنكر، وسلمناهم ووقيناهم من العقوبة.

﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالاعتداء في السبت، فظلموا بارتكابهم المعصية ومخالفة أمر الله، وظلموا أنفسهم بتعريضها لعقاب الله تعالى.

﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «بِيْسٍ» بكسر الباء وياء ساكنة بغير همز.

وقرأ الباقون: ﴿بَـِٔيسِۭ﴾ على وزن «فَعِيل» من البؤس، أي: بعذاب شديد.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى.

وقد قسمهم القرآن في فعلهم إلى ثلاث طوائف: طائفة اعتدت في السبت وفعلت

المنكر، وطائفة أنكرت عليهم، وطائفة قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

بينما قسمهم في مجازاتهم إلى قسمين فقط: قسم أنجاهم الله؛ وهم الذين ينهون عن السوء والمنكر، وقسم أخذهم بالعذاب البئيس؛ وهم الذين ظلموا بفعل المنكر وفسقوا.

وسكت عن الطائفة الثالثة، وهم الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

وفي هذا دلالة على أنهم قد نجوا؛ وهذا هو الأظهر- والله أعلم- لما يأتي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ فهذا يدل على أن الذين عذبوا هم الذين ظلموا وفسقوا فقط بفعل المنكر، ومفهوم هذا أن من عداهم قد نجوا.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فهذا يدل على أن هذه الطائفة قد كرهوا بقلوبهم ما ارتكبته الطائفة المعتدية من المنكر وخالفوهم.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الآية: ١٦٦]؛ فهذا يدل على أن الذين عذبوا هم الذين اعتدوا ونُهوا فلم ينتهوا فقط.

رابعًا: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية؛ إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

وقيل: إن هذه الطائفة عذبت ولم تنج؛ لقوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ فمفهوم هذا أن الذين لم ينهوا عن السوء لم ينجوا.

والأظهر- كما سبق- القول الأول؛ لأن مفاد جل أدلته أن هذه الطائفة قد كرهت هذا المنكر وأنكروه بقلوبهم، بل إن قولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ يوحي أنهم قد أعذروا منهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، أي: فلما استكبروا وعصوا وتمردوا عن الذي نهوا عنه، أي: عن ترك الذي نهوا عنه؛ وهو اعتداؤهم في صيد السمك في السبت.

﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولًا قدريًّا، ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ فانقلبوا بإذن الله قردة.

﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾، أي: ذليلين حقيرين مهانين مبعدين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، أي: واذكر- يا محمد- إذ آذن ربك، أي: اعلم إعلامًا صريحًا، أي: أعلمهم وتوعدهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، اللام لام القسم، أي: والله ليبعثن عليهم، أي: ليرسلن على اليهود ويقيضن لهم إلى يوم القيامة ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، «مَن» موصولة، أي: الذي يهينهم ويذلهم ويفرض عليهم سوء العذاب، أي: أشد العذاب؛ لأن العذاب كله سيئ.

وسوء العذاب: أشده.

وهكذا كانت حال اليهود: فكانوا في قهر وإذلال الأمم السابقة، وأول من سلط عليهم «بُختنصَّر» ملك بابل؛ حيث خرب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم ونساءهم، وضرب الجزية على من بقي منهم، وجلاَّ كثيرًا منهم إلى بابل.

ثم تسلطت عليهم ملوك شتى، وتواترت الحروب زمنًا طويلًا على بلادهم إلى أن صاروا جميعًا تحت سلطة الرومان، واستؤصلوا من أرضهم، وتفرقوا في البلاد شذر مذر، صاغرين مقهورين.

ولما جاء الإسلام كانوا تحت صغاره وذمته، يؤدون الجزية للمسلمين.

وهم- وإن كان لهم أحيانًا شيء من القوة والظهور- فحكم الله الكوني عليهم بالذلة يلاحقهم، كما قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وآخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٩٧، و«محاسن التأويل» ٥/ ٢١٣.

﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، اللام في الموضعين: للتوكيد، أي: لسريع العقاب لمن عصاه وخالف أمره وارتكب نهيه، فعقابه سريع متحقق وغير متأخر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب إليه، ورجع إلى الحق وعمل صالحًا، يستر ذنبه ويتجاوز عنه، وفي هذا زوال المرهوب، ويرحمه فيثيبه بالمثوبة الحسنى والجنة، وفي هذا حصول المطلوب.

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

وقرن بين كونه «سريع العقاب» وكونه «غفورًا رحيمًا»؛ جمعًا بين الترهيب والترغيب.

الفوائد والأحكام:

١- أمره عز وجل له ﷺ بسؤال اليهود والمعاصرين له لتقريرهم وتقريعهم، والإبانة عما كان عليه أسلافهم من المخالفة والعصيان والاحتيال على محارم الله، وأخذهم بالعذاب والمسخ، وفي هذا تحذير أن يحل بهم من العذاب والعقوبة ما حل بأسلافهم.

كما أن فيه تسلية للنبي ﷺ بأن عصيان هؤلاء إياك امتداد لمنهج سلفهم؛ قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

٢- اعتداء بني إسرائيل بالصيد يوم السبت- الذي حرم عليهم فيه الصيد والعمل مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

٣- ابتلاء بني إسرائيل بإتيان الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام، وتعريضهم لداعي العصيان؛ وهو وجود المشتهى الممنوع، بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

٤- أن في الابتلاء والامتحان تمييزًا للخبيث من الطيب، وللكافر من المؤمن، ولضعيف الإيمان من قوي الإيمان، فلا يمكن أن يعصي من لم تتوافر لديه أسباب المعصية.

٥- أن الفسق والمعصية سبب للابتلاء بما هو أعظم، والمعصية سبب للمعصية بعدها.

٦- أن انتهاك محارم الله تعالى والاحتيال على حرماته من أسباب الهلاك والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٧- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

٨- أن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو استجابة لأمر الله تعالى وإيجابه لذلك، ورجاء أن يتقي المأمور أو المنهي؛ لقوله تعالى: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

١٠- إنجاء الذين ينهون عن السوء والمنكر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾.

١١- أخذ المعتدين الظالمين- لما نسوا وتركوا ما ذكروا به- بعذاب شديد بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

١٢- مسخهم قردة خاسئين لما عتو عما نهوا عنه واستكبروا وتمردوا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾، وظاهر هذا بعد قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أنهم عذبوا عذابًا شديدًا، ثم لما لم يردعهم ذلك- بل عتوا وتمردوا- مسخوا قردة خاسئين.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ تأكيدًا وبيانًا لما قبله.

قال ابن القيم: «أخبر تعالى عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرم الله من الصيد؛ بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيه الصيد أخذوه يوم الأحد. قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقهاء وهو غير فقيه؛ إذ الفقيه هو من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، ليس المتحيل على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه،

فمسخوا قردة؛ لأن عملهم ظاهره الاتقاء، وباطنه الاعتداء؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان في الظاهر، وهو مخالف له في الحقيقة»(١).

١٣- إعلام الله بني إسرائيل وتوعدهم بأن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب؛ عقابًا لهم على اعتدائهم وانتهاكهم حرمات الله تعالى، وعتوهم وتمردهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

١٥- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١٦- أن الله عز وجل سريع العقاب لمن عصاه وخالف أمره وارتكب نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لمن خالف أمر الله وانتهك محارمه.

١٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة والرحمة الواسعة لله عز وجل، وأنه غفور رحيم لمن تاب وأناب إليه وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٨- تمام إنعام الله تعالى على عباده؛ حيث يجمع لهم بين المغفرة وإزالة المرهوب، وبين الرحمة وحصول المطلوب.

١٩- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدم المغفرة على الرحمة.

* * *

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٢٧٠.

قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَٰقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: مزقناهم وفرقناهم في الأرض جماعات؛ فبعد أن كانوا مجتمعين تفرقوا أيدي سبأ، فقل أن تجد بلدًا إلا وفيه قوم من اليهود، حكمة بالغة.

وفرق بين قوله في الآيات السابقة: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الآية: ١٦٠]، وبين قوله في هذه الآية: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فالأول فيه امتنان وتوسعة عليهم، ونماء وتكثير لهم، بينما الثاني فيه تعذيب وعقاب لهم، وإخراجهم من أرضهم، وتشتيتهم في بلاد أعدائهم.

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المؤمنون، الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، وتصديق رسله.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: دون الصالحين، أي: غير الصالحين، كما قال الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الحسنات: ما يستحسن. والسيئات: ما يسوء.

والمعنى: اختبرناهم وامتحناهم بالرخاء والشدة، واليسر والعسر، والعافية والبلاء، والرغبة والرهبة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا ويتوبوا إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾، أي: فجاء من بعد ذلك الجيل الذين منهم الصالحون ومنهم دون ذلك.

﴿خَلۡفٞ﴾، أي: بدل سوء لا خير فيهم، ومنهم الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ.

﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: أخذوه عن أسلافهم، فعلموه وضيعوا العمل به، وخالفوا حكمه، وحكموا بغيره كالرشوة وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ العرض: ما يعرض ثم يزول من متاع الدنيا ومنافعها، والدنيا كلها عرض.

و﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ مأخوذ من «الدنو» بمعنى: القرب الزماني، أي: عرض الدنيا الزائل.

ومأخوذ من الدناءة والحقارة، أي: ما يعرض لهم من حقير المنافع والشهوات، ودنيء المكاسب؛ كالرشوة ونحوها، واستعاضوا بذلك عن اتباع الحق وقوله وبذله ونشره، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، أي: يقولون بألسنتهم وبأنفسهم: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ يسوِّفون أنفسهم ويعدونها بالمغفرة، ولا يقلعون عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

ويتمنون على الله الأماني، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: ٨٠].

﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾، أي: وإن يأتهم عرض مثل الأول دنيوي حقير يأخذوه، أي: كلما لاح لهم شيء من ذلك أخذوه، حلالًا كان أو حرامًا، فالحلال ما حل بأيديهم.

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ والتقرير.

«الميثاق»: العهد، أي: ألم يؤخذ عليهم العهد في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾.

«أن»: حرف مصدري ونصب، و«لا» نافية. والمصدر المؤول ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ﴾ في محل رفع بدل ﴿مِّيثَٰقُ﴾، أو عطف بيان.

«إلا»: أداة حصر، أي: ألا يقولوا على الله إلا القول الحق الثابت الصدق، فلا يدّعوا أنه سيغفر لهم وهم على باطلهم، ولا يحكموا بغيره ويقولوا: هذا حكم الله، وأن يبينوه للناس ولا يكتموه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾، أي: وعلموا ما في الكتاب من العهد عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾، أي: وعلموا ما في الكتاب، فخالفوه عن علم وضيعوه.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ﴾، الواو استئنافية، أي: والدار الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها خير من الدنيا وعرضها الزائل الحقير.

﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أي: للذين يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ويتقون عذابه.

وخصهم بالذكر؛ لأن خير الآخرة لهم خاصة لا يستحقه غيرهم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وابن ذكوان وحفص عن عاصم ويعقوب وأبو جعفر بتاء الخطاب: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، وقرأ الباقون بياء الغيبة: «يَعْقِلُونَ».

والاستفهام: للإنكار، أي: أفلا يكون لكم عقول تهديكم إلى إيثار الدار الآخرة التي هي خير، والعمل لها، وعدم الاغترار بعرض الدنيا الحقير الزائل؟!

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «يُمْسِكُونَ» بإسكان الميم وتخفيف السين، من: أمسك يمسك.

وقرأ الباقون: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بفتح الميم وتشديد السين من: مسَّك.

ومعنى ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يتمسكون به علمًا وعملًا، فيعلمون ما فيه، ويعملون به، فجمعوا بين العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: وأقاموا الصلاة كما شرعها الله تعالى.

وخصها بالذكر؛ لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وأعظم أركان الإسلام

بعد الشهادتين وأعظم العبادات، ومعينة على إقامة غيرها من العبادات، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، أي: لا نضيع أجر المصلحين في أقوالهم وأفعالهم؛ لأنفسهم ولغيرهم، بل نحفظه ونزيده ونضاعفه لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، أي: واذكر- يا محمد- إذ قلعنا الجبل ورفعناه فوق بني إسرائيل الذين كانوا مع موسى عليه السلام، لما امتنعوا من أخذ التوراة والعمل بأحكامها.

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، أي: كأنه سحابة أظلتهم.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، أي: وأيقنوا أنه واقع بهم وساقط عليهم.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: وقلنا لهم، أو قائلين لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، «ما»: موصولة، أي: خذوا الذي أعطيناكم من التوراة، واعملوا بأحكامها بعزيمة وجد من غير تقصير ولا توان.

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، أي: واذكروا الذي فيه، أي: الذي في كتاب التوراة؛ من العهود والمواثيق التي أخذت عليكم بالعمل بما فيه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن تتقوا ربكم، وتنجوا من عقابه.

الفوائد والأحكام:

١- تفريق بني إسرائيل وبخاصة اليهود، وتمزيقهم في الأرض شذر مذر؛ بسبب ظلمهم واعتدائهم وانتهاكهم حرمات الله تعالى وعتوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾.

٢- أن الذنوب والمعاصي من أعظم أسباب سلب النعم؛ فقد منَّ الله عز وجل على بني إسرائيل بجعلهم أممًا مجتمعة متآلفة متحابة، وأغدق عليهم النعم، ثم لما لم يشكروا، وخالفوا أمر الله، وانتهكوا حرماته، وعتوا وتمردوا سلبهم الله تلك النعم وفرقهم في الأرض عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد أحسن القائل:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ

وَحَافِظْ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الإِلَهِ ... فَإِنَّ الإِلَهَ سَرِيعُ النِّقَمْ(١)

٣- أن بني إسرائيل منهم الصالحون ومنهم دون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

٤- ابتلاء بني إسرائيل بالرخاء والشدة، واليسر والعسر، والرغبة والرهبة؛ لأجل أن يرجعوا ويتوبوا إلى الله تعالى، ولكن هيهات؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٥- ذم خلف بني إسرائيل، وأنهم بعد أن كان فيهم الصالح ودونه؛ جاء بعدهم خلف سوء ورثوا الكتاب، وضيعوا العمل والحكم به واعتاضوا عن ذلك بعرض الدنيا الزائل الحقير، ويطمعون مع ذلك بالمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

٦- فضل السلف على الخلف في كل أمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

وفي الحديث: «**خيركم قرني ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم...**» الحديث(٢)، وفيه: «**لا يأتيكم عامٌ إلّا الّذي بعده شرٌّ منه حتّى تلقوا ربّكم**»، سمعته من نبيكم ﷺ»(٣).

٧- الإنكار على خلف بني إسرائيل وتقريعهم في قولهم على الله تعالى غير الحق، مع أخذ ميثاق الكتاب عليهم وعلمهم بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾.

٨- الترغيب في الدار الآخرة والعمل لها، وأنها خير من الدنيا وعرضها الزائل

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥)، والنسائي في الأيمان والنذور، والترمذي في الفتن (٢٢٢١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٦٨)، ومسلم في الفتن (٢٢٠٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الحقير لمن اتقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

٩- فضل التقوى وأهلها؛ لأن الله خصهم بخير الآخرة دون سواهم.

١٠- امتداح الذين يمسكون بالكتاب قولًا وعملًا، ويقيمون الصلاة، ووعدهم بالأجر، ووصفهم بالمصلحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

١١- الترغيب بالتمسك بكتاب الله تعالى، وإقام الصلاة، لأن الله وعد أهله بحفظ أجرهم ووصفهم بالمصلحين.

١٢- فضل الصلاة؛ لأن الله خصها بالذكر من بين سائر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٣- تكفل الله عز وجل بثواب الذين يتمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة؛ لأنه سمى ثوابهم أجرًا.

١٤- التذكير برفع الجبل فوق بني إسرائيل كأنه ظلة؛ تخويفًا لهم لما أبو أخذ التوراة والعمل بأحكامها، وإلزامهم بالأخذ بما آتاهم الله بقوة، وذكر ما فيه لأجل أن يتقوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

١٥- شدة عتو بني إسرائيل وتمردهم وعنادهم؛ لهذا خوفهم الله برفع الجبل فوقهم ليؤمنوا ويتقوا.

١٦- عظم قدرة الله تعالى؛ حيث اقتلع جبل الطور ورفعه فوق رؤوسهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

بعد الحديث المستفيض الذي بلغ نحو سبعين آية عن بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه وإلى قومه بني إسرائيل، ومعالجته لهم، وما لقي من فرعون وملئه من الكفر والتكذيب، ومن بني إسرائيل من العتو والعناد، وما انتهى إليه الأمر بإغراق فرعون وملئه، وأخذ بني إسرائيل بأنواع العقوبات؛ انتقلت السورة فيما بقي منها إلى محاجة المشركين من العرب، والذي هو المقصود الأهم من السورة ابتداءً وانتهاءً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، أي: واذكر- يا محمد- إذ أخذ ربك من بني آدم.

﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وعاصم بالإفراد: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

وقرأ الباقون بالجمع: «ذُرِّيَّاتِهِمْ».

وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بدل بعض من كل، أي: وإذ أخرج ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، أي: حين خلقهم وأخرجهم من أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الضمير يعود إلى الذرية.

والإشهاد بمعنى: الإقرار، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي حديث ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع شهادات»(١)، أي: أقر على نفسه أربع مرات.

أي: وأوجدهم شاهدين على أنفسهم، مقرين بربوبيته ووحدانيته، بلسان حالهم

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨١٥)، ومسلم في الحدود (١٣٩١)، وأبو داود في الحدود (٤٤٣٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٥٦)، والترمذي في الحدود (١٤٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومقالهم.

والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون بالحال، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أي: حالهم شاهد عليهم بذلك.

والمعنى: وأشهدهم على أنفسهم بما أودع في فطرتهم من توحيده، أي: أشهد كل واحد من تلك الذرية على نفسه بما أودع في فطرته من الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيده.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، الاستفهام: تقريري، أي: أليس أنا خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جواب الاستفهام، ﴿شَهِدْنَآ﴾ تأكيد لمضمون ﴿بَلَىٰ﴾.

أي: أقررنا بأنك ربنا، لا رب لنا غيرك، ولا معبود لنا سواك؛ كما فطرتنا على ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه؛ كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟**»(١).

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»(٢).

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: «**يا حصين، كم تعبد اليوم إلهًا؟**» قال أبي: سبعة، ستًّا في الأرض، وواحدًا في السماء. قال: «**فأيّهم تعدّ لرغبك ورهبك؟**» قال: الذي في السماء(٣).

قال ابن القيم: «فهو سبحانه يقول: اذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا، حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق، شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم، فهذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب».

الإقرار حجة الله عليهم يوم القيامة»(١).

وقد رويت آثار كثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين في تفسير هذه الآية؛ مفادها أن الله عز وجل أخرج من ظهر آدم ذريته أمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم، وشهدوا بذلك على أنفسهم، ثم أعادهم إلى صلبه(٢).

ولا يصح رفع شيء منها وإن كان روي ذلك، بل إن جل هذه الآثار لا ترقى أسانيدها لدرجة الصحيح ولا الحسن.

قال ابن القيم: «وأحسن ما فسرت به الآية قوله ﷺ: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه**». فالميثاق الذي أخذه سبحانه عليهم، والإشهاد الذي أشهدهم على أنفسهم، والإقرار الذي أقروا به؛ هو الفطرة التي فطروا عليها؛ لأنه سبحانه احتج عليهم بذلك، وهو لا يحتج عليهم بما لا يعرفه أحد منهم ولا يذكره.

وهذا إنما هو الإقرار الذي احتج به عليهم على ألسنة رسله؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونظائر ذلك كثيرة.

يحتج عليهم بما فطروا عليه من الإقرار بربهم وفاطرهم، ويدعوهم بهذا الإقرار إلى عبادته وحده، وألا يشركوا به شيئًا؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ فاحتج عليهم بما أقروا به من ربوبيته على بطلان شركهم وعبادة غيره، وألا يعتذروا إما بالغفلة عن الحق، وإما بالتقليد في الباطل؛ فإن الضلال له سببان: إما غفلة عن الحق، وإما تقليد أهل الباطل، فيتطابق الحديث مع الآية، ويبين معنى كل منهما بالآخر»(٣).

﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ قرأ أبو عمر بياء الغيبة في الموضعين: «أن يقولوا»، «أو يقولوا».

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٣٠٢.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٠/ ٥٤٧ وما بعدها، و«تفسير ابن أبي حاتم» ٥/ ١٦١٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٢٧٥- ٢٧٦، بتصرف.

وقرأ الباقون بتاء الخطاب فيهما.

ومعنى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، أي: كراهية أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾، أي: عن هذا الإقرار لله بالربوبية والوحدانية، وعلى أنفسنا بالعبودية.

﴿غَـٰفِلِينَ﴾، أي: لم ننتبه لذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أو كراهية أن تقولوا، أو: لئلا تقولوا.

﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: سنوا الشرك واخترعوه من قبل زماننا.

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وكنا ذرية، أي: صغارًا من بعدهم؛ فنشأنا على طريقتهم وعلى دينهم تبعًا لهم.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾، الاستفهام للإنكار، أي: أفتؤاخذنا وتعذبنا؟

﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: بالذي فعل المبطلون، أو بفعلهم الباطل وهو الشرك.

أي: انك أنت الحكيم، لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء، ولا تأخذ أحدًا بجريرة غيره، وحكمتك تأبى ذلك.

قال ابن القيم: «فذكر سبحانه لهم حجتين يدفعهما هذا الإشهاد، إحداهما: أن يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ فبين أن هذا علم فطري ضروري لا بد لكل بشر من معرفته. والثانية: أن يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وهم آباؤنا المشركون، أي: أفتعاقبنا بذنوب غيرنا؟»[1].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾، أي: ومثل هذا التفصيل في هذه الآيات والبيان فيها نفصل ونبين غيرها من الآيات.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣٠٣.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: ولأجل أن يرجعوا عما هم عليه من الكفر والشرك ويتوبوا إلى الله تعالى وينيبوا إليه.

الفوائد والأحكام:

١- إشهاد الله عز وجل بني آدم وفطرته لهم على الإقرار بربوبيته ووحدانيته، وإقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

٢- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

٣- أن الإنسان لو خلي بينه وبين نفسه وسلم من المؤثرات الخارجية؛ ما حاد عن الإيمان المستقر في فطرته.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

٦- أن الشهادة تطلق بمعنى الإقرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

٧- أن في إشهاد الإنسان على نفسه وقبول إقراره عليها أعظم إنصاف له؛ ففي الحديث أنّ العبد يقول: «**يا ربّ، ألم تجرني من الظّلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهدًا منّي. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي. قال: فتنطق بأعماله، ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بعدًا لكنّ وسحقًا، فعنكنّ كنت أناضل**»(١).

٨- في جعله عز وجل بني آدم شاهدين مقرين بما أودع في فطرهم بربوبيته ووحدانيته، إبطالٌ لحجة من أشرك به مدعيًا الغفلة، وتقليد آبائه المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

٩- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا ﴾ الآية.

١٠- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

١١- أن الإنسان لا يعذر بدعوى الغفلة مع وضوح الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾.

١٢- ذم التقليد الباطل مع قيام الأدلة على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾.

١٣- أن من حكمة الله تعالى وعدله ألا يؤاخذ أحدًا بجريرة غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾، أي: إن حكمتك تأبى ذلك.

١٤- أن المشركين هم المبطلون، والشرك هو أبطل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

١٥- تأثر الأولاد بما عليه الآباء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾.

١٦- إقامة الحجة على الناس؛ ليرجعوا ويتوبوا إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾:

ذكر عز وجل في الآيات السابقة أنه فطر بني آدم على الإقرار بربوبيته ووحدانيته، ثم أتبع ذلك ببيان أن من لم يقدر له الله التوفيق للحق والثبات عليه لا ينفعه ما فطر عليه، ولا ما آتاه الله من الآيات والعلم، لمَّا لم يقدر الله له الثبات على الهدى، حكمة بالغة.

قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ الخطاب في قوله: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ للنبي ﷺ.

﴿عَلَيْهِمْ ﴾، أي: على المشركين الذين وجهت لهم المواعظ من أول هذه السورة، وقصت عليهم قصص الأمم مع رسلهم؛ ليعتبروا ويتعظوا.

﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾، النبأ: الخبر الهام، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص: ٦٧- ٦٨]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [النبأ: ١ – ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر: ٤].

والمعنى: واقرأ وقص عليهم خبر الذي أعطيناه آياتنا، أي: علمناه علم الكتاب. وفي هذا امتنان عليه لو عرف قدر نعمة الله تعالى عليه.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾، أي: من الآيات، كما تنسلخ الحية من جلدها، وكما يسلخ الجلد عن اللحم، أي: فخرج منها بكفره، ونبذها وترك العمل بها، فضلَّ بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا، وفارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا.

ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي سعى في انسلاخه منها باتباع هواه، واختار ذلك.

وقد اختلف في المراد بذلك؛ فقيل: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: «بلعام» أو «بلعم» كان مجاب الدعوة، ولكنه لم ينتفع بعلمه.

وقيل: إنه أمية بن أبي الصلت، كان عنده علم بالشرائع المتقدمة وأدرك زمان النبي ﷺ وبلغته دعوته ومعجزاته وآياته، واجتمع به ﷺ ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم.

وقيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لمن عرض عليه الإيمان وعرفه وأبى أن يقبله، ولا يراد به شخص بعينه.

وهذا كما قال تعالى عن فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦].

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: فلحقه الشيطان وأدركه، وصار قرينه، واستحوذ عليه، وغلبه على أمره، وتسلط عليه فأطاعه.

«و«أتبعه» أبلغ من «تبعه» لفظًا ومعنى.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ بعد الرشد، و﴿ٱلْغَاوِينَ﴾: المتصفين بالغي.

والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل؛ كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر»(١).

فـ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾ يعني: العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه؛ كعلماء السوء.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ ممّا أتخوّف على أمّتي رجل قرأ القرآن حتّى إذا رئيت بهجته عليه، وكان ردْء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسّيف، ورماه بالشّرك**». قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: «**بل الرّامي**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣١٢- ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٥٠٩، وقال: «هذا إسناده جيد».

﴿ وَلَوْ شِئْنَا﴾، أي: ولو أردنا كونًا وقدرًا، ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ أي لرفعنا هذا الذي آتيناه آياتنا، ﴿بِهَا﴾، أي: بالآيات التي آتيناه إياها.

والمعنى: لو شئنا لرفعنا قدره ومنزلته، وفضلناه وشرفناه في الدنيا والآخرة بالآيات والعلم الذي آتيناه إياه؛ بأن نوفقه للإيمان والعمل بما علم، والثبات على ذلك.

أي: أنه سبحانه لم يشأ رفعه بالعلم؛ فكان سبب هلاكه ووبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

فالرفعة ليست بمجرد العلم، وإنما هي باتباع الحق والعمل به، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

فهذا كان من أعلم أهل زمانه، فلم ينفعه ولم يرفعه علمه، بل ضره ووضعه، نعوذ بالله من علم لا ينفع.

وفي الحديث أن من أول من يقضى عليهم ثلاثة: منهم رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

وعالـــم بعلمـــه لـــم يعملَـــنْ ... معـذّبٌ مـن قبـل عبّـاد الـوثَنْ(١)

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، الواو عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، أي: ولكن لم نرفعه بالآيات؛ لأنه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ركن ومال إلى الدنيا ورضي بها، وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة، واستبدل الأدنى بالذي هو خير.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي: جعل ما تهواه نفسه وما تشتهيه إمامًا له يتبعه ويحكِّمه ويقتدي به بعد أن انسلخ من هدى الله.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾، المثل: الشبه، أي: فمثله في تكذيبه بآيات الله واستمراره على الضلال، وعدم انتفاعه بالآيات والمواعظ، وفي حرصه على الدنيا.

---

(١) انظر: «صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال» (١/ ٣٤). والبيت فيه بلا نسبة.

﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأضعفها نفسًا وهمة، وأشدها حرصًا وشرهًا وكَلَبًا؛ لهذا سمي «الكلب».

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾، أي: إن تطرده وتهاجمه ﴿يَلْهَثْ﴾، أي: يخرج لسانه لاهثًا.

واللهث: سرعة النفس مع امتداد اللسان لضيق النفس.

﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾، أي: يلهث في الحالين، حملت عليه أو تركته، أي: لا يزال لاهثًا في كل حال.

فهذا الذي انسلخ من آيات الله أشبه في إخلاده وركونه إلى الدنيا وركضه وراءها وانهماكه فيها، وحرصه عليها وعدم شبعه منها، وفي عدم انتفاعه بالموعظة، وعظ أو لم يوعظ؛ أشبه الكلب في شدة حرصه وشرهه ودنو همته ولهثانه، حمل عليه أو ترك.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الإشارة إلى «المثل» في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ فهذا المثل السيئ مثل لكل من كذب بآيات الله.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تحقيرًا له.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾، أي: فاقصص يا محمد القصص؛ لما فيها من العظة والتذكير؛ من قصة هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، وغيرها من قصص المكذبين، مما قصصناه عليك في هذه السورة وفي غيرها، وما حل بهم من العقوبات.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون بقصص من سبقهم.

قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾:

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾، أي: ساء مثلُ القومِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾، أي: بئس المثل مثلهم أن شبهوا بالكلب الذي هو من أخس المخلوقات، وحاله من أسوأ الأحوال، فكان مثلهم مثل السوء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس لنا مثل السّوء، الّذي يعود في هبته كالكلب يعود في قيئه**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة، لا يحل لأحد أن يرجع في هبته أو صدقته ٢٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨، والترمذي في البيوع ١٢٩٨، وأحمد ١/ ٤٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ قَدَّم المفعول: ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾، للاختصاص، أي: ما ظلموا إلا أنفسهم؛ بتكذيبهم بآيات الله، والإعراض عن اتباع الحق، والهوى، فحرموها ثواب الله وأوقعوها في عذابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾:

لما ذكر عز وجل قصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؛ بين أن ذلك بتقديره عز وجل، وأنه المتفرد بالهداية والإضلال.

قوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾، «مَن»: شرطية، أي: من يهده الله؛ بأن يوفقه للعلم النافع والعمل الصالح، أي: للإيمان وسلوك الطريق المستقيم؛ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فهو المهتدي حقًّا.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، «مَن»: شرطية كسابقتها، أي: ومن يضلله؛ بأن يخذله ولا يوفقه.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة للجواب.

وأكد الخسران وقصره فيهم بكون الجملة اسمية معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: فأولئك الذين خسروا دينهم ودنياهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

والإفراد في قوله: ﴿يُضْلِلْ﴾ مراعاة للفظ ﴿وَمَن﴾، والجمع في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ مراعاة لمعناها وللفواصل.

والخسران: حصول ضد المقصود من العمل، وهو ضد الربح الذي معناه: حصول المقصود من العمل.

فهو سبحانه تعالى يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، كما قال ﷺ: «**من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٨٦٨)، وأبو داود في الصلاة (١٩٠٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٨٩٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد أيضًا (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ﴾، الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد ذرأنا، أي: خلقنا وأنشأنا.

﴿لِجَهَنَّمَ﴾، أي: لدخولها وسكناها والخلود فيها.

و«جهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ﴾ هيأهم الله لها، وبعمل أهلها يعملون؛ لأن الله تعالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون قبل خلقهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السّموات والأرض بخمسين ألف سنةٍ**»- قال: «**وعرشه على الماء**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله خلق للجنّة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنّار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»(٢).

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، أي: لا يعقلون ولا يفهمون بها ما ينفعهم، ولا يتفكرون ويتدبرون بها آيات الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، أي: لا يبصرون بها الهدى، وآيات الله الكونية والشرعية، ولا ينتفعون بها.

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ﴾، أي: لا يسمعون بها الحق وما ينفعهم، كما قال تعالى:

من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في القدر، حجاج آدم موسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في القدر، معنى «**كل مولود يولد على الفطرة**» (٢٦٦٢)، وأبو داود في السنة (٤٧١٣)، والنسائي في الجنائز (١٩٤٧)، وابن ماجه في المقدمة (٨٢).

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١]، أي: لا يسمعون ما ينفعهم، وقال تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨].

فهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح، التي هي وسائل وصول الهدى والنور إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾، «إن» حرف نفي بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هم إلا كالأنعام السارحة؛ وهي البهائم التي ليس لها عقول.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي؛ للترقي في التشبيه في الضلال، أي: بل أهم أشد ضلالًا من الأنعام؛ لأن الأنعام لها إلهام تهتدي به لما خُلقت له، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى كل مخلوق لما خلق له، فتراها تهتدي إلى العناية بأولادها، وتهتدي إلى مراعيها ومراحها ومواضع حلبها، وتجتنب التردي من الجبال، والسقوط في لآبار، وتجتنب كل ما يضرها، ونحو ذلك، واسأل أهل الإبل عن عجيب أحوالها، سبحان الخالق البصير.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الغفلة: عدم الشعور بحق ينبغي الشعور به.

وقد أكدت الجملة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»؛ لتوكيد غفلتهم وقصر الغفلة فيهم، وأنهم بلغوا الغاية في الغفلة، فترقى من ذكر عدم انتفاعهم بحواسهم، إلى تشبيههم بالأنعام، إلى كونهم أضل من الأنعام، إلى قصر الغفلة وتأكيدها فيهم.

الفوائد والأحكام:

١- أمره ﷺ أن يتلو ويقرأ على المشركين نبأ الذي آتاه الله تعالى آياته فانسلخ منها؛ ليتعظوا ويعتبروا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا...﴾ الآية.

٢- خطر ترك العمل بالآيات بعد العلم بها والانسلاخ منها، وأنه سبب لاستحواذ الشيطان وتسلطه ، والغواية والضلال، ووجوب الحذر من ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ الآية.

٣- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٤- أن من ضل وتنكب طريق الهدى بعد العلم أشد ممن ضل على جهل، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٥- أن العلم إذا لم يقارنه العمل صار وبالًا على صاحبه، وسببًا لتسلط الشيطان عليه وغوايته، وما أكثر الذين هم على هذه الصفة.

٦- مشروعية التذكير بأحوال الضالين والغاوين ونهايتهم السيئة؛ لأخذ العظة والعبرة من ذلك.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى، ونفي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾.

٨- أن انسلاخ المذكور من آيات الله- بعد العلم بها- بمشيئة الله وتقديره، ولو شاء الله لرفعه بها وأعلى شأنه؛ إذ لا شيء يقع في الكون إلا بمشيئة الله وتقديره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾.

٩- فضل العلم إذا قارنه العمل، وأنه سبب للرفعة والعصمة من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

١٠- أن سبب عدم رفعة الله تعالى للمذكور إخلاده إلى الأرض، وركونه إلى الدنيا، واتباعه لهواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾.

١١- التحذير من الركون إلى الدنيا وشهواتها وزينتها، وتقديمها على الآخرة، واتباع الهوى، وأن ذلك سبب للخذلان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾.

١٢- سوء مثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؛ لأن الله شبهه بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات في أخس حالاته؛ وهو كونه يلهث حمل عليه أو ترك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ وذلك في شدة حرصه وشرهه، وعدم انتفاعه بالموعظة وُعظ أو لم يوعظ.

١٣- أن هذا المثل السيئ لكل من كذب بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ

ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

١٤- أمره ﷺ بذكر قصص وأخبار السابقين؛ تذكيرًا للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٥- إثبات العلة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٦- شدة قبح وسوء مثل الذين كذبوا بآيات الله تعالى؛ حيث شبهوا بالكلب في أسوأ أحواله؛ لقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

١٧- أن الذين يكذبون بآيات الله تعالى لا يظلمون إلا أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

١٨- إثبات تقدير الله تعالى للأعمال كلها خيرها وشرها، وأن الهداية والإضلال بيد الله عز وجل، وأن من هداه الله تعالى فهو الموفق المهتدي حقًّا، ومن أضله فهو الضال الذي تحقق وتأكد أنه من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

١٩- أن الله عز وجل خلق وأنشأ لسكنى النار والخلود فيها كثيرًا من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾.

٢٠- أن سبب دخول كثير من الجن والإنس النار وخلودهم فيها كفرهم بالله، وعدم انتفاعهم بحواسهم: القلب، والبصر، والسمع؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾.

٢١- إثبات وجود جهنم؛ وهي النار أعاذنا الله منها وجميع المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾.

٢٢- أن الجن مكلفون ومجزيون بأعمالهم كالإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾.

٢٣- نعمة الله تعالى على الإنس والجن بما وهبهم من الحواس؛ من السمع والبصر والعقول التي عليها مدار التكليف لمن عرف قدرها وانتفع بها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ

أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

٢٤- أن من منحهم الله تعالى العقول والأبصار والأسماع فلم ينتفعوا بها؛ فهم أشبه شيء بالأنعام، بل هم أضل منها؛ لأن الأنعام تهتدي لما خلقت له، وهم ضلوا عما خلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾.

٢٥- بلوغ المذكورين الغاية في الغفلة، وتأكيدها فيهم، وقصرها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾:

ذكر الله عز وجل هذه الآية في سياق الآيات التي فيها ذكر مذام المشركين، ووجه فيها الخطاب للمؤمنين بقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ للإشارة إلى أن أفظع أحوال المشركين الإلحاد في أسماء الله تعالى والشرك به، ذمًّا لهم، وتحذيرًا للمؤمنين من الإلحاد والشرك وأهله.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، الواو استئنافية، واللام: للاستحقاق والاختصاص، وقدم الجار والمجرور؛ للاهتمام والتأكيد.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الكاملة الحسن في ألفاظها ومعانيها؛ لدلالتها على أوصاف الكمال، أي: له كل اسم حسن بلغ الغاية في الحسن في لفظه ومعناه، بدلالته على صفة كمال عظيمة، وبذلك صارت أسماؤه عز وجل كلها حسنى؛ لأن كل اسم من أسمائه عز وجل دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مئةً إلّا واحدًا، من أحصاها دخل الجنّة، وهو وترٌ يحبّ الوتر**»(١).

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ خطاب للمؤمنين، أي: فادعوا الله بهذه الأسماء الحسنى.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ٢٦٧٧، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٦، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

وإنْ دعا لكل مطلوب بالاسم الذي يناسبه فحسن؛ كأن يقول: اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف.

وكان جل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين باسم الرب؛ لأن معناه: الخالق المالك المدبر، فكأن الداعي يقول: يا من له الخلق والتدبير، اغفر لي، وارحمني، وارزقني.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أصاب أحدًا قطّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللّهمّ إنّي عبدك، ابن عبدك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسمٍ هو لك، سمّيت به نفسك، أو علّمته أحدًا من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي؛ إلّا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا**». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها**»(١).

وفي هذا دلالة على أن أسماءه عز وجل ليست محصورة في تسعة وتسعين.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ قرأ حمزة بفتح الياء والحاء: «يَلْحَدُونَ».

وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾.

أي: واتركوا الذين يلحدون في أسمائه ولا تبالوهم.

والإلحاد: الميل والانحراف، والعدول عن القصد.

ومنه سمي «اللحد»؛ وهو: الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط.

ومنه سمي «الملحد» في الدين؛ وهو المائل عن الحق إلى الباطل. وهو الميل والانحراف بأسماء الله تعالى ومعانيها عن الحق المراد بها، أو نفي معانيها، أو تمثيلها بغيرها، ونحو ذلك.

قال ابن القيم: «والإلحاد في أسماء الله تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها؛ كتسمية «اللاة» من «الإله»، و«العزى» من «العزيز»، وتسمية الصنم إلهًا، وهذا الإلحاد حقيقة؛ فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، ٤٥٢.

وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق لجلاله؛ كتسمية النصارى له أبًا.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص؛ كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه.

وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني. فيطلقون عليه اسم: السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به.

وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا، ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ بأن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه- تعالى عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا- فهذا الإلحاد في مقابل إلحاد المعطلة؛ فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه»(١).

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ السين للاستقبال والتوكيد، و«ما»: موصولة، أي: سيعاقبون بجميع الذي يعملونه من إلحاد وغيره.

والجملة فيها معنى التعليل للأمر بترك الملحدين، أي: لا تهتموا بإلحادهم ولا تحزنوا له؛ لأن الله سيجازيهم ويعاقبهم على ذلك.

وعبر بـ«المضارع» في «يعملون» للدلالة على تجدد ذلك منهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾:

هذه الآية في مقابل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الآية:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣١٤.

١٧٩]، أي: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ للجنة ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ ﴾، أي: ومن الذين خلقنا من الأمم.

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾، أي: يهتدون بالحق قولًا وعملًا، ويدعون إليه، أي: يعلمون الحق، ويعملون به، ويعلمونه.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾، أي: وبه يقضون ويحكمون بين الناس.

ومنهم، بل وفي مقدمتهم هذه الأمة المحمدية.

عن قتادة في تفسير هذه الآية قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «**هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها:** ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]»(١).

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال من أمّتي أمّةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم؛ حتّى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**»(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾، أي: والذين كذبوا بالقرآن، يعني المشركين.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ نأخذهم قليلًا قليلًا، يستدرجون في الطغيان والعصيان بفتح الأرزاق لهم وإدرارها عليهم؛ ليغتروا، ثم نباغتهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤- ٤٥].

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: من حيث لا يعلمون أن ما فتح عليهم من الأرزاق والنعم استدراج لهم؛ كما يظنون أن ذلك رضا الله عنهم، أو لقوتهم وحذقهم ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ ﴾، أي: أمهلهم، والإملاء والإملال: الإمهال.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٦٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٦٤١، ومسلم في الإمارة ١٠٣٧.

أي: أمهلهم مع ما هم عليه من التكذيب والكفر، ولا أهملهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ الجملة في موضع التعليل لما قبلها، أي: لأن كيدي متين، أي: قوي شديد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾:

كان المشركون يصفون النبي ﷺ بالجنون، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]؛ فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، الاستفهام: للإنكار والتقريع والتعجيب، أي: أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآياتنا، أي: يُعْمِلوا أفكارهم وعقولهم.

﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ الذي أرسلناه إليهم.

﴿مِّن جِنَّةٍ﴾، أي: من جنون كما يدَّعون؛ قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا نذير مبين، أي: محذر مخوف عذاب الله، بيِّن النذارة ظاهرها.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

أنكر عليهم ووبخهم في إعراضهم عن النظر في رسولهم وأنه ليس به جنة، ثم ترقي في الإنكار عليهم والتعجيب من حالهم في عدم نظرهم فيما هو أعظم وأعم وأوضح من ذلك؛ وهو سعة ملكه عز وجل.

والمناسبة بين الأمرين أن دعوة الرسول ﷺ لهم إلى التوحيد وإبطال الشرك هي من أكبر بواعثهم على تكذيبه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام- كسابقه- للإنكار والتعجيب، أي: أولم ينظروا نظر تأمل وتفكر وتدبر واستدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضِ ﴾؟ ولهذا عدي الفعل بـ«في»، كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

والملكوت: الملك العظيم؛ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

أي: أولم ينظروا في واسع ملك الله تعالى وعظيم سلطانه في السموات؛ من الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك، وفي الأرض؛ من البحار والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ معطوف على: ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، و«ما»: موصولة، تفيد العموم، و«شيء» نكرة تعم، أي: أولم ينظروا في كل ما خلق الله من الأشياء جميعها في السموات والأرض وما بينهما؟

فعطْف قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ على: ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن كل ما في الكون من المخلوقات لله تعالى.

فقسّم النظر إلى نظر إلى عظيم ملك الله تعالى وسعته، وإلى نظرٍ في مخلوقاته ودقائق أحوالهم الدالة على عظيم قدرة الله تعالى.

والمعنى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون للآيات في عظيم وواسع ملك الله تعالى في السموات والأرض، وفيما خلقه من الأشياء، مما لا يحصره عدد، ولا يحيط به وصف، ويتفكروا في ذلك ويتدبروا، ويستدلوا بذلك على أنه عز وجل المستحق للعبادة وحده دون سواه، فيؤمنوا به ويخلصوا له العبادة، ويصدقوا رسوله ﷺ، ويخلعوا ما هم عليه من عبادة الأوثان؟!

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أولم ينظروا في احتمال قرب أجلهم وتوقعه، وموتهم على كفرهم، فيصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه؟

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام للتعجيب والاستبعاد والإنكار.

أي: فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون ويصدقون؟ قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور: ٣٤]، أي: مثل القرآن.

أي: إذا لم يؤمنوا بالقرآن فلن يؤمنوا بشيء من الحديث بعده، كما قال تعالى في سورة المرسلات: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

أنكر عز وجل على المشركين عدم النظر في ملكوت السموات والأرض، وسعة ملكه، وعظيم خلقه، وصدق نبيه ﷺ، وعدم إيمانهم بالقرآن، ثم بين في هذه الآية أن من كتب الله عليه الضلالة فلا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته.

قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، أي: من يُقدِّر الله تعالى عليه الضلالة ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، أي: فلا أحد يهديه من بعد الله، ولا يغنيه النظر ولا النذر، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «وَنَذَرُهُمْ» بالنون والرفع عطفًا على جملة: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلم.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء التحتية: «وَيَذَرْهُمْ» والجزم على أنه عطف على موضع ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ وهو جواب الشرط.

وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء التحتية وبالرفع على الاستئناف: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ أي: ويتركهم في طغيانهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويترددون، فلا يخرجون من طغيانهم ولا يهتدون إلى الحق.

الفوائد والأحكام:

١- أن لله عز وجل الأسماء الحسنى البالغة في الحسن في ألفاظها ومعانيها، ودلالتها الدالة على أوصاف كماله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٢- وجوب دعاء الله عز وجل بأسمائه الحسنى دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ودعاء

ثناء؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾.

٣- ترك الذين يلحدون في أسمائه عز وجل، وعدم المبالاة بهم وما هم عليه من الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾.

٤- الوعيد والتهديد للذين يلحدون في أسماء الله تعالى، وأنهم سيجازون بعملهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٥- أن ممن خلق الله تعالى أمة قائمة بأمر الله، يهدون بالحق قولًا وعملًا وحكمًا، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

٦- استدراج المكذبين بآيات الله تعالى من حيث لا يعلمون؛ بفتح الأرزاق لهم، وإغداق النعم عليهم؛ ليغتروا ويزدادوا كفرًا وعصيانًا، فيضاعف عليهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٧- أن الله يملي للظالمين المكذبين ويمهلهم؛ ليتمادوا في طغيانهم، ولا يهملهم بل يأخذهم بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾.

٨- أن كيد الله تعالى للكائدين، ومكره بالماكرين قوي شديد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾.

٩- الإنكار على المشركين، وتقريعهم، والتعجيب منهم في رميهم النبي ﷺ بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

١٠- إثبات أنه ﷺ نذير بيِّن النذارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾.

١١- الإنكار عليهم، وتقريعهم، والتعجيب من حالهم في عدم النظر والتأمل في سعة ملك الله تعالى وتمام قدرته وعظيم سلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾.

١٢- الإنكار على المشركين، والتعجيب من حالهم في عدم نظرهم في احتمال قرب أجلهم وموتهم على الكفر فيصيروا إلى عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ﴾.

١٣- أن من لم يؤمن بالقرآن لا يمكن أن يؤمن بأي حديث بعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٤- أن من قدر الله عز وجل عليه الضلالة فلا حيلة فيه ولا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾.

١٥- خذلان الله تعالى لمن اختاروا الضلالة، وتركهم في طغيانهم يترددون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٣].

والسائلون عن الساعة هم المشركون الذين كذبوا بآيات الله، أي: يسألك يا محمد المشركون المكذبون عن القيامة سؤال تشكيك وتكذيب بها، واستبعاد لوقوعها، كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨].

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى وقوعها وقيامها ومنتهاها؟

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، أي: قل لهم: إنما علم الساعة وقيامها عند ربي وحده مختص به، فإذا سألوك عنها فرد علمها إلى الله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٣- ٤٤]، أي: منتهى علمها.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: لا يظهرها جلية ظاهرة لوقتها إلا هو، ولا يعلم جلية أمرها، ومتى تكون على التحديد إلا هو وحده؛ لهذا قال:

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ثقل علمها وخفي على أهل السماء والأرض، واشتد أمرها عليهم؛ فهم من الساعة مشفقون.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا فجأة وعلى حين غفلة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾** [الأنعام: ١٥٨]، **ولتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ السّاعة وقد انصرف الرّجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ السّاعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ السّاعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»(١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ كرر للتأكيد.

﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾، «حفي» «فعيل» بمعنى «فاعل»، أي: كأنك عنيٌّ بالسؤال عنها، مكثر السؤال عنها وعن وقتها حتى علمته، كما قال الشاعر:

فلـمّا التقينـا بـيّن السّـيف بيننـا ... لسـائلةٍ عنّـا حفـيٍّ سـؤالها(٢)

فالمعنى: كأنك حريص في المسألة عنها، عالم بها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مؤكدة لجملة: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ وللحصر فيها، وأنه عز وجل وحده مختص بعلم الساعة لا يعلمها أحد سواه، ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السّائل**»، أي: لست أعلم بها منك، ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾»(٣).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بشهر قال: «**تسألوني عن السّاعة، وإنّما علمها عند الله**»(٤).

وأما ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخّر هذا الغلام فلن يدركه الهرم حتّى تقوم السّاعة**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، طلوع الشمس من مغربها ٦٥٠٦.

(٢) البيت لأنيف بن زبان. انظر: «ديوان الحماسة» (١/ ٤٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، قوله ﷺ: «لا تأتي مئة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة» ٢٥٣٨.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٧

فهذا محمول على ساعة الشخص نفسه أو القرن الذي هو فيه، وكذا ما في معنى هذا الحديث؛ كحديث: «**إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتّى تقوم عليكم ساعتكم**»(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله، لا يعلمه أحد سواه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

لما ذكر سؤالهم له ﷺ عن الساعة توهمًا أنه يعلم الغيب، بيَّن أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يعلم الغيب.

قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: قل لمن يسألونك عن الساعة ولغيرهم: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا أستطيع أن أجلب لنفسي نفعًا أو أدفع عنها ضرًّا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۗ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ﴾ [يونس: ٤٨- ٤٩].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾، «إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي شاءه الله، أي: قدره الله تعالى لي من ذلك.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الغيب: ما غاب عن الناس، أي: عن أعينهم وحواسهم.

أي: ولو كنت أعلم الغيب؛ كما يتوهم من يسألني عن الساعة وهي غيب.

﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: لعملت على الاستكثار من الخير من المال والربح والمنافع الدنيوية بفعل أسباب ذلك؛ لعلمي غيبًا بالنتائج قبل وقوعها.

ولا يجوز أن تحمل الآية على الاستكثار من الخير الأخروي؛ لأنه ﷺ لم يدخر في ذلك وسعًا، بل جاهد في الله حق جهاده، وقام حتى تفطرت قدماه ﷺ، ولما قالت له عائشة رضي الله عنها: لم تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكان عمله ﷺ ديمة[١]، وكان ﷺ إذا عمل عملًا أثبته[٢].

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وما أصابني السوء، أي: ولو كنت أعلم الغيب؛ لعملت الأسباب لاتقاء ما يسوء من فقر، وخسارة في البيع، ونحو ذلك؛ فلم يصبني شيء من ذلك.

ومفهوم هذا أني قد حصل لي ما حصل من عدم الاستكثار من الخير، ومسني ما مسني من السوء؛ لعدم علمي الغيب.

وهذا صحيح؛ فقد حصل له ما حصل من قلة ذات اليد؛ حتى إنه ليمر عليه الهلال ثم الهلال ثم الهلال؛ ثلاثة أهلة في شهرين ما أوقدت في أبياته نار[٣].

وحتى إن أزواجه ﷺ اشتكين من قلة النفقة وطالبنه بزيادتها وهو لا يملك شيئًا، فخيرهن؛ كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة الأحزاب[٤].

وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير[٥]، ومسه ﷺ من ألوان الأذى من قومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير وبشير، أي: منذر من النار والعذاب، ومبشر بالجنة والثواب العاجل والآجل.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص المؤمنين بالنذارة مع أنه نذير لهم ولغيرهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالإنذار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وهو نذير لهم ولغيرهم.

وأما البشارة فهي خاصة للمؤمنين، وهم أهلها دون غيرهم، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٨٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٤٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٢٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

الفوائد والأحكام:

١- سؤال المشركين المكذبين بالآيات عن الساعة تكذيبًا بها واستبعادًا لقيامها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

٢- أن علم الساعة وقيامها لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٣- أنه لا يجلي الساعة ويظهرها لوقتها إلا الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

٤- ثقل الساعة، وخفاء علمها على أهل السموات والأرض، وشدة أمرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٥- أن الساعة لا تأتي إلا بغتة وفجأة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

٦- توهم الذين يسألون عن الساعة وقيامها أنه ﷺ حفي عنها عالم بها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾.

٧- أن أكثر الناس لا يعلمون أن علم الساعة عند الله تعالى وحده، لم يطَّلع عليه أحد من الخلق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- أنه ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

وفي هذا رد على الذين يغلون فيه ﷺ ويطلبون منه قضاء الحاجات فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٩- أنه ﷺ يملك لنفسه ما شاء الله وقدر له أن يملكه من النفع والضر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٠- أنه ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

١١- أنه ﷺ ما هو إلا نذير يحذر من النار والعذاب والعقاب في الدنيا والآخرة من كفر بالله وعصاه، وبشير يبشر بالجنة والثواب في الدنيا والآخرة من آمن وأطاع الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٢- أنه إنما ينتفع بالإنذار والتبشير أهل الإيمان فقط؛ لهذا خصهم بقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾:

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، أي: هو سبحانه الذي أوجدكم أيها الناس وأنشأكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، أي: من آدم عليه السلام.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، أي: وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها، وهي حواء عليها السلام، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١].

خلقها عز وجل من آدم وجعلها من جنسه، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾، أي: ليطمئن إليها ويأنس بها ويألفها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

فلو كان كل واحد من الزوجين من فصيلة خاصة لم يأنس بالآخر ولم يسكن إليه؛ فهذه من نعمة الله تعالى على آدم وزوجه، ورحمته لهما ولذريتهما.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، أي: وطئها وجامعها.

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك أول الحمل، لا تجد له المرأة ألمًا ولا ثقلًا، وذلك في مراحله الأولى: النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، أي: استمرت به خفيفًا فقامت وقعدت، وكأنها لخفته لم تتفطن له ولم تفكر في شأنه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾، أي: صارت ثقيلة، أي: ذات ثقل بحملها لما كبر في بطنها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، أي: دعا الزوجان الله ربهما.

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ الجملة بيان وتفسير للدعاء، واللام: موطئة للقسم، أي: والله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، أي: ولدًا صالحًا، بشرًا سويًّا، تام الخلقة لا نقص فيه.

﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لنكونن من الشاكرين على ما وهبتنا من الولد الصالح.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾، أي: فلما أعطاهما الله ولدًا صالحًا سويًّا كما طلبا، وأنعم عليهما بذلك.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم: «شِرْكًا» بكسر الشين.

وقرأ الباقون: ﴿شُرَكَآءَ﴾ بضم الشين، جمع «شريك».

أي: فلما آتاهما ولدًا صالحًا لم يشكرا الله تعالى على ذلك، وجعلا له عز وجل شركاء فيما أعطاهما من الولد الصالح؛ فعبَّداه لغير الله بتسميتهما له «عبد الحارث»، أو بشركهما مع الله في العبادة بعدما من عليهما بإجابة طلبهما.

واختلف في المراد بقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾:

فقيل: المراد بهما آدم وحواء، روي في هذا آثار عدة عن السلف، وروي أنهما

زوجان من ذريتهما من أهل الملل السابقة(١).

وقيل: لا يقصد بذلك زوجان بعينهما.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، أي: تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم، وعن الذي يشركون به من الشركاء والأنداد، هم وغيرهم من المشركين.

قوله تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾:

قوله: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾، الاستفهام: للتعجب والإنكار على المشركين، و«ما»: موصولة، و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي، أي: أيشركون ويعبدون مع الله الشركاء والأنداد الذين لا يخلقون أي شيء مهما كانت قلته ولو كان مثقال ذرة، ومهما كانت حقارته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣- ٧٤].

والمضارع في قوله: ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ يدل على تجدد ذلك منهم، وهو كذلك في قوله: ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ لتجديد نفي الخالقية عنهم.

﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنهم يُخلقون، أي: أنهم مخلوقون لله تعالى، مربوبون له، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦].

وبُني الفعل ﴿يُخۡلَقُونَ﴾ لما لم يسم فاعله؛ لأن الخالق معلوم؛ وهو الله تعالى المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾:

قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾، أي: لا يستطيع هؤلاء الشركاء من دون الله لعابديهم نصرًا؛ بدفع الضر عنهم.

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، أي: ولا هؤلاء الشركاء ﴿أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ بدفع الضر

---

(١) انظر «جامع البيان» ١٠/ ٦٢٢- ٦٢٩ «تفسير ابن أبي حاتم» ٥/ ١٦٣١- ١٦٣٤، «تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٣٠- ٥٣١.

عنها؛ فهم عاجزون عن نصر أنفسهم، وعجزهم عن نصر عابديهم من باب أولى، فكيف يُشركون مع الله تعالى؟!

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾، أي: وإن تدعو أيها المشركون هؤلاء المعبودين ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: إلى أن يهتدوا، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ﴾، أي: لا يهتدون. فصار الإنسان أحسن حالًا من هذه المعبودات؛ لأنها لا تهدي ولا تهتدي؛ لأنها لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

وقيل: المعنى: وإن تدعو أيها المسلمون المشركين لا يتبعوكم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ هذه الجملة مؤكدة لقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ﴾، أي: يستوي في عدم اتباعهم لكم دعوتكم لهم وعدمها.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى: «عندكم».

وإنما جعل الأمران سواء على المخاطبين ولم يجعلا على المدعوين، فلم يقل: سواء عليهم، وإن كان ذلك أيضًا سواء عليهم؛ لأن المقصود تأييس المخاطبين من استجابة المدعوين. ولم يقل: أم صمتم؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت، مع مراعاة الفواصل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، أي: إن الذين تدعون وتعبدون من دون الله أيها المشركون من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾، أي: عبيد لله تعالى أمثالكم ومخلوقون له تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ

وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ الأمر للتبكيت، أي: فادعوهم لجلب نفع أو كشف ضر، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ هذا الأمر للتحدي والتعجيز، أي: فليستجيبوا لكم دعاءكم وينصروكم.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم ودعواكم أنهم شركاء مع الله تعالى، وأنهم ينفعون ويضرون ويستحقون العبادة.

قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، الاستفهام: للإنكار والتبكيت؛ فالجملة تبكيت بعد تبكيت، وتأكيد لما قبلها من التعجيز، وبيان أنهم لا يستطيعون الاستجابة؛ لفقدان آلتها بالكلية.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾، أي: ألهم أرجل يمشون عليها كالأناسي؟

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾، «أم» في المواضع الثلاثة هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل ألهم أيد يبطشون بها؟ أي: يأخذون بها، و«البطش»: الأخذ بقوة.

قرأ أبو جعفر «يَبْطُشُونَ» بضم الطاء.

وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَبْطِشُونَ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾، أي: بل ألهم أعين يبصرون بها؟

﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أي: بل ألهم آذان يسمعون بها؟

وكرر الإنكار والتبكيت مع كل واحدة من هذه الجوارح؛ للتأكيد.

والمعنى: ليست لهم هذه الجوارح؛ فهم لا يمشون، ولا يبطشون، ولا يبصرون، ولا يسمعون، والأناسي أكمل منهم.

وفي قوله: ﴿يَمْشُونَ بِهَآ﴾، ﴿يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾، ﴿يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾، ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ زيادة

تسجيل العجز عليهم؛ لأنها هي الوسائل التي يحتاج إليها الناصر، وخصها؛ لأنها هي آلات العلم والسعي والدفع والنصر.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾، أي: نادوا شركاءكم واجمعوهم.

﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وإياهم، أي: استنصروا بهم على الكيد لي، وإيقاع السوء والمكروه بي.

و«الكيد»: التدبير لإلحاق الأذى، وأكثر ما يكون بخفية.

﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: فلا تمهلون ولا تؤخرون.

والأمر والنهي هنا للتعجيز، أي: أنكم غير قادرين على ذلك، وقد كانوا يخوفونه بآلهتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

تعليل لعدم المبالاة بكيدهم هم وشركاؤهم، وهو من جملة ما أمر أن يقوله ﷺ.

قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾، أي: إن الذي يتولاني هو الله عز وجل، توكلت عليه، وفوضت أمري إليه، وهو حسبي وكافيني، وحافظي وناصري ومعيني.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ﴾ وصف تعظيم لله عز وجل.

و«أل» في «الكتاب» للعهد، أي: الذي نزل الكتاب العظيم المعهود «القرآن الكريم»، وإنزاله الكتاب عليَّ من ولايته الخاصة بي، وفيه بيان أن الله عز وجل وليي وناصري.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهذا كما قال هود عليه السلام لقومه لما قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ﴾ [الآيات: ٥٤- ٥٦].

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه، من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم، وذلك بحفظم ونصرهم، وجلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم.

والتعبير بالمضارع «يتولى»؛ للدلالة على تجدد ذلك واستمراره، وفيه بشارة

للصالحين، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقد روي أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما حضرته الوفاة قيل له: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شيء لهم! فقال: أدخلوهم عليَّ. فأدخلوهم عليه وكانوا بضعة عشر ذكرًا، وليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: «يا بني، والله ما منعتكم حقًّا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني».

وقد تمثل رحمه الله هذه الآية: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قال راوي القصة: «ولقد رأيت بعض ولده حمل على مئة فرس في سبيل الله»؛ يعني: أعطاها لمن يغزو عليها، أي: أن الله أغناهم من فضله(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾:

مؤكد لما تقدم؛ إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة، وما سبق ظاهر أنه من كلام الله تعالى، وهذا يحتمل أنه مما أمر ﷺ أن يقوله، والكل من كلام الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ﴾ الخطاب للمشركين، أي: وإن تدعو أيها المشركون آلهتكم إلى الهدى لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنهم مجرد صور لا حياة فيها ولا حواس، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقيل: الخطاب للرسول ﷺ، أي: وإن تدعُ يا محمد هؤلاء المشركين ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ...﴾ الآية.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الخطاب في «تراهم» لغير معين، أي: وترى

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الآية: ٩].

أيها الناظر هذه الآلهة ينظرون إليك في ظاهر صورهم.

﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يبصرون؛ لفقدانهم الحياة والبصر وسائر الحواس.

وقيل المراد بقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: المشركون المكذبون ينظرون إلى النبي ﷺ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب من خلال أقواله وأفعاله.

الفوائد والأحكام:

١- أن الله عز وجل هو الخالق وحده؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾.

٢- أن الناس خلقوا من نفس واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

٣- أن حواء خلقت من آدم عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فهي مخلوقة منه، وهي من جنسه.

٤- امتنان الله تعالى على الناس بأن خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها، خلقًا وجنسًا ليسكن إليها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

٥- إباحة جماع الرجل لزوجته، بل هو أمر مندوب، بل هو حق للزوجة على الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾.

٦- أن سلالة الإنسان من النطفة التي تحصل بالجماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾.

٧- أن الحمل يبدو أول مرة خفيفًا على المرأة، ثم يثقل شيئًا فشيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾.

٨- مشروعية الدعاء بصلاح الولد وسلامته منذ كان حملًا؛ لقوله ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.

١٠- وجوب شكر الله تعالى على نعمة صلاح الولد حملًا وبعد ذلك، وعلى كل نعمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

١١- كفر كثير من الناس نعمة الله تعالى عليهم بصلاح الأولاد وغيرها من النعم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾.

١٢- تنزيه الله تعالى نفسه عن الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٣- الإنكار على المشركين وتقريعهم والتعجيب من حالهم في إشراكهم مع الله ما لا يخلق شيئًا، بل هو مخلوق مربوب لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

١٤- ضعف الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله؛ فهي لا تستطيع نصرًا لعابديها، ولا لنفسها، ولا تتبع من دعاها إلى الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، فكيف يشرك هؤلاء مع الله؟!

١٥- أن المعبودين والآلهة الذين يعبدهم المشركون من دون الله هم عبيد لله تعالى ومربوبون له، أمثالهم لا يستطيعون الاستجابة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٦- تسفيه المشركين بعد الإنكار عليهم في عبادتهم الأصنام، وتحديهم أن تسجيب لهم هذه المعبودات كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٧- بيان فقدان هؤلاء المعبودين الجوارح والأدوات التي تمكنهم من الاستجابة لعابديهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

فهذه الجوارح التي عند الأناسي ليست موجودة عند هؤلاء المعبودين، فكيف يطلب المشركون منهم النصر؟

١٨- أمره ﷺ بأن يتحدى المشركين بأن يدعو شركاءهم ثم يكيدونه فلا ينظرونه؛

لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

١٩- تفويضه ﷺ أمره إلى الله تعالى، وتوكله عليه، وثقته بولاية الله عز وجل له وحفظه له ونصره؛ لقوله- ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٢٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢١- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وغير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢٢- الترغيب في الصلاح؛ لأن الله تعالى يتولى الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٢٣- تأكيد أن هؤلاء المدعوين من دون الله لا يستطيعون نصر عابدهم ولا نصر أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

٢٤- أن هؤلاء المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من دعاهم إلى الهدى، ولا يبصرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو خطاب لكل من يصلح خطابه.

والعفو: الصفح والتجاوز؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥].

ويأتي بمعنى: «الكثرة»؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي: كثروا.

ويأتي بمعنى «الفضل»؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والمعنى هنا: خذ ما عفا لك وتيسر من أخلاق الناس وبذلهم، وهو الفضل، وعاملهم بالمسامحة، وقبول العذر، وترك الاستقصاء والتفتيش عن البواطن، ولا تكلفهم ما يشق عليهم، وهكذا كان ﷺ في تعامله مع أصحابه، بل ومع المخالفين له، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

عن أنس رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا»(١).

وعنه رضي الله عنه، قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أُفًّا قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا!»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب: «هي يابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ

(١) أخرجه البخاري في الأدب، الكنية للصبي ٦٢٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٠٩، وأبو داود في الأدب ٤٧٧٤، والترمذي في الصلة ٢٠١٤.

وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله»(١).

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾، «العرف»: المعروف؛ كمثل «النكر» هو: المنكر، قال النابغة(٢):

فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا العُرْفُ ضَائِعُ

فقابل النكر بالمعروف.

والعرف: المعروف، وهو: ما عرف في الشرع وعرف المسلمين ولم ينكر. وهو: كل قول حسن، وعمل طيب، وخلق جميل.

والأمر بالمعروف يشمل النهي عن المنكر؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

وأعرف المعروف: توحيد الله بلا شرك، وأداء حقوقه وحقوق العباد.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الإعراض: إدارة الوجه عن النظر إلى الشيء. مشتق من «العارض» وهو «الخد»؛ فإن الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء، كما قال تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣].

والمراد هنا: لا تؤاخذهم، ولا تعاتبهم وتقابلهم بجهلهم، بل أعرض عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

والمراد بالجهل في الآية: السفه، ضد الحلم.

والمراد بالجاهلين: السفهاء.

وليس معنى الآية: الإعراض عن الجاهل بترك تعليمه وإرشاده.

فأمر الله عز وجل في هذه الآية بثلاثة أمور هي ملاك الخير كله:

الأول: أن يأخذ من أخلاق الناس وبذلهم ما تيسر من غير مشقة عليهم.

والثاني: أن يأمر بالمعروف من قول وفعل وخلق.

والثالث: أن يعرض عن الجاهلين؛ فلا يقابلهم بجهلهم؛ لأن من يأمر بالمعروف لا يسلم من أذية الجاهلين، بل إن من يخالط الناس فقط لا يسلم من أذاهم ولو لم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأعراف ٤٦٤٢.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٥٣).

يأمرهم، فكيف إن أمرهم ونهاهم؟

وقد جمع الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأمته مكارم الأخلاق في هذه الآية.

قال ابن القيم: «فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم؛ فإن العفو ما عفى من أخلاقهم، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾:

بعدما ذكر ما يعامل به الجاهل- وهو الإعراض عنه- ذكر بعده ما يعامل به الشيطان من الجن- وهو الاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يندفع شره إلا بالاستعاذة بالله منه، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الآيات: ٣٤- ٣٦].

قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، «وإما»، أي: في أي وقت، وفي أي حال.

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ النزغ: النخس والغرز، والمراد به: الوسوسة بتزيين ترك الخير أو فعل الشر، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: زين لهم الشيطان الحسد له عليه السلام والكيد له.

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]، أي: بإيقاع العداوة بينهم.

والمعنى: وإما يصيبنك من الشيطان وسوسة بتزيين عدم الأخذ بالعفو، أو عدم الأمر بالعرف، أو عدم الإعراض عن الجاهلين، أو تثبيط عن الخير، أو ترغيب في الشر؛ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط «إما»، والسين والتاء للطلب، أي: التجئ إلى الله تعالى، واعتصم به، ولذ بحماه، واستجر به.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١- ٦].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ ، أي: سميع مجيب لاستعاذتك ودعائك، ولجميع الدعاء، وسميع لجميع الأصوات.

﴿عَلِيمٌ﴾ بك وبنيتك وقوة التجائك، وعليم بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

هذا تأكيد وتقرير لما قبله من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي: «طَيْفٌ»، وقرأ الباقون: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، أي: إن الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾، أي: إذا أصابهم، ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: نزغ ووسوسة وعارض من خواطر الشيطان من غضب، أو هم بمعصية، أو اقتراف لها، أو غير ذلك.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾، «التذكُّر» تفعُّل من الذكر، وهو: استحضار المذكور وشهوده في القلب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والمعنى: تذكروا أوامر الله تعالى ونواهيه، ووعده ووعيده فتابوا، واستعاذوا بالله وأنابوا إليه من قريب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، الفاء للتعقيب، و«إذا» هي الفجائية، أي: فإذا هم سرعان ما تبين لهم الحق وأبصروه، واهتدوا إليه، ورجعوا إليه.

والهدى مداره على هذين الأمرين: التذكر، والتبصر.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «يُمِدُّونَهُمْ» بضم الياء وكسر الميم.

وقرأ الباقون: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الميم.

و«الإمداد»: الزيادة، وتقوية الشيء بالمدد ونجدته.

«والغي»: الغواية والجهل والضلال.

والضمير في «إخوانهم» يعود على الشياطين؛ بدلالة لفظ «الشيطان»؛ لأن المراد به الجنس، والضمير في ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يعود على الجاهلين غير المتقين، أي: يعود على الكفار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] والتقدير: وإخوان الشياطين من الكفار تمدهم الشياطين في الغي وتزيدهم.

ويجوز أن يعود الضمير في «إخوانهم» وفي «يمدونهم» على الكفار، والتقدير: وإخوان الكفار وأولياؤهم من الشياطين يمدونهم في الغي، أي: يزيدونهم في الغي. والمعنى واحد.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، أي: ثم لا يقصر الشياطين في إمداد إخوانهم الكفار بالغي، أي: لا يألون جهدًا في إغوائهم وإضلالهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

أو لا يقصر الكفار، أي: لا يدخرون وسعًا في فعل الغي والضلال والشرور؛ فالشياطين تمدهم ولا تقصر في إغوائهم، وهم لا يقصرون في فعل الغي والضلال والشرور.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾، أي: حسب اقتراحهم، إما خارق للعادة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وإما بقرآن غير هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾، «لولا» للتخصيص، أي: هلا اجتبيتها، أي: هلا اخترتها واختلقتها وجئت بها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾، أي: قل لهم: إنما أتبع الذي يوحى إلي من ربي، وليس إليَّ ولا من مقدوري الإتيان بالآيات؛ فأمرها إلى الله.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تنويه بشأن القرآن المشتمل على أعظم الآيات، أي: هذا الكتاب العظيم ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لخطاب جميع الناس.

أي: هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الحجج والدلالات، وأوضح البراهين والبينات، على مر العصور وتعاقب الأوقات.

قال ﷺ: «**ما من نبيٍّ من الأنبياء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما الّذي أوتيته وحيٌ أوحاه الله تعالى إليّ، وأرجوا أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

﴿وَهُدًى﴾، أي: هداية، وبيان، وإرشاد.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهي سبب هداية من هداه.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: هدى ورحمة لهم خاصة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن، ويهتدون بهديه، ويتبعونه، ويعملون به.

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله عز وجل لنبيه ﷺ بأخذ العفو، وما تيسر من أخلاق الناس وبذلهم، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين؛ لقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وهذا أمر له ﷺ ولأمته.

٢- ينبغي معاملة الناس بالتسامح، وأخذ ما تيسر من أخلاقهم وبذلهم، وعدم المشقة عليهم، وبخاصة ممن ولي من أمر المسلمين شيئًا.

٣- وجوب الأمر بالمعروف؛ لأن الأمر في الآية أمر له ﷺ ولأمته.

٤- ينبغي الإعراض عن الجاهلين، وعدم مقابلتهم بجهلهم؛ لأن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بذلك، وهو ﷺ الأسوة والقدوة لأمته.

٥- سمو مبادئ الإسلام، وبلاغة القرآن؛ فقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق:

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٧٤، ومسلم في الإيمان ١٥٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهي: الأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين.

٦- الأمر بالاستعاذة بالله من نزغ الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

٧- أن الإنسان عرضة لنزغ الشيطان ووسوسته مهما كان عليه من قوة الإيمان؛ لأن الله خاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فغيره من المؤمنين من باب أولى.

٨- أن شر الشيطان وأذاه لا يدفعه إلا الله وحده؛ لهذا أمر الله عز وجل بالاستعاذة به سبحانه منه ومن نزغاته.

٩- إثبات صفة السمع الواسع لله تعالى، الذي وسع جميع الأصوات من الاستعاذة والدعاء وغير ذلك، وأنه سبحانه يعيذ من استعاذ به، ويجيب من دعاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾.

١٠- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١١- ثناء الله تعالى على المتقين بأنهم إذا أصابهم نزغ ووسوسة من الشيطان تذكروا فاستعاذوا بالله منه، وذكروا وعد الله ووعيده وأنابوا إليه، وأبصروا الحق ورجعوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

١٢- الإشارة إلى أن المسلم قد لا يسلم من نزغات الشيطان، بل إنه قل من يسلم من ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فينبغي للمسلم أن يستحضر هذا الأمر حتى لا يوقعه الشيطان فيما لا تحمد عقباه ولا يمكن تلافيه.

وقال ﷺ وقد رأى رجلًا قد اشتد به الغضب: «**إنّي أعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١).

ولقى رجل أحدَ السلف فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم

---

(١) سبق تخريجه.

أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه. ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي»(١).

١٣- أن الشياطين يمدون إخوانهم من شياطين الإنس في الغي وتزيين الشر والباطل لهم، ولا يألون جهدًا في إغوائهم وإضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

١٤- أن شياطين الإنس من المشركين وغيرهم لا يدخرون وسعًا في فعل الشر والضلال، ولا يرعوون عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ على الاحتمال الثاني لمعنى الآية.

١٥- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ وللقرآن الكريم، واقتراحهم الآيات عنادًا منهم وتعجيزًا له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾.

١٦- أن الرسول ﷺ إنما هو متبع لما يوحيه الله تعالى إليه، وليس إليه أمر الإتيان بالآيات، وليس ذلك من مقدوره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

١٧- أن ما جاء به ﷺ من القرآن الكريم فيه أعظم الآيات، والبراهين والحجج والبينات؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم بصائر لجميع الناس وعامتهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ والخطاب لجميع الناس.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٠- أن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون به ويتبعونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢١- امتداح المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يهتدون بالقرآن، والترغيب في الإيمان؛ لأن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٢).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾:

ذكر عز وجل أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، ثم أتبع ذلك بالأمر بالاستماع والإنصات عند تلاوته؛ تعظيمًا له، وتدبرًا لمعانيه؛ ليحصل الاهتداء به.

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾، أي: ألقوا له أسماعكم، وأصغوا له، وأحضروا له قلوبكم، وتدبروه.

﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ الإنصات يكون في الظاهر بترك التحدث وما يشغل عن الاستماع، أي: اتركوا التحدث وما يشغلكم عن استماعه؛ فهو مؤكد لقوله ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾، أي: استمعوا وأنصتوا، وتدبروا ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومواعظه.

والخطاب عام لجميع الناس، وبخاصة المؤمنين؛ لقوله قبل هذا: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لأجل أن ترحموا، أي: لأجل أن يرحمكم الله.

فمن ألقى سمعه وأحضر قلبه وتدبر القرآن، وأنصت عند سماعه؛ رحمه الله، ونفعه بالقرآن وما فيه من الذكر والهدى والعلم الغزير، والخير الكثير، ما يزيد الإيمان واليقين والبصيرة في الدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ويتأكد بل ويجب الإنصات لقراءة القرآن في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام في القراءة؛ لقوله ﷺ: «**إنّما جعل الإمام ليؤتمّ به، فإذا كبّر فكبّروا، وإذا قرأ فأنصتوا**»(١).

واستثنى بعض أهل العلم قراءة المأموم الفاتحة كما سبق في الكلام على الفاتحة.

كما يجب الإنصات حال خطبة الإمام يوم الجمعة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ

---

(١) سبق تخريجه.

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

والذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، وأكمل الذكر وأتمه ما واطأ فيه القلب اللسان والجوارح.

﴿فِى نَفْسِكَ﴾، أي: في وحدتك وانفرادك بقلبك ولسانك؛ بقراءة القرآن، وأنواع الذكر من التهليل والتسبيح والتحميد والدعاء وغير ذلك.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «**أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم**»(١).

﴿تَضَرُّعًا﴾ حال، أي: تخشعًا وتذللًا له عز وجل، ورغبة ورجاء.

﴿وَخِيفَةً﴾، أي: وخوفًا وخشية منه عز وجل، ورهبة ووجلًا.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾، أي: أقل من الجهر، أي: لا يكون الذكر والدعاء نداء وجهرًا بليغًا، بل وسطًا بين الجهر والمخافتة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وروي أنهم لما سألوا رسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ أنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦](٢).

ولما رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار قال ﷺ: «**يأيّها النّاس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّه معكم سميعٌ قريبٌ، تبارك اسمه، وتعالى جدّه**»(٣).

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أول النهار، ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ آخر النهار.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٥، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٣، وابن ماجه في الأدب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ٣١٤

(٣) أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» ٢٩٩٢، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٢٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٤، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٤ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وهذان الوقتان أفضل الأوقات، ولهذا أمر الله عز وجل بتسبيحه وعبادته فيهما في آيات كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وقد يراد بهما: ما يشمل الوقت كله؛ فأول النهار «غدو»، وآخره مع الليل «آصال»، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، ومعلوم أن رزق أهل الجنة وطعامهم لا ينقطع في أي وقت.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، أي: ولا تكن من الغافلين الساهين عن ذكر ربك.

وهذا نهي له ﷺ ولأمته، وحاشاه ﷺ أن يكون من الغافلين عن ذكر ربه، فقد قام ﷺ من الليل حتى تفطرت قدماه(١)، وكان ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة(٢).

وكان يقول في المجلس الواحد مئة مرة قبل أن يقوم «**ربّ اغفر لي وتب عليّ؛ إنّك أنت التّوّاب الغفور**»(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾:

لما أمر عز وجل نبيه ﷺ بذكر الله تعالى، وهو أمر له ﷺ ولأمته، ونهى عن الغفلة؛ أتبع ذلك بذكر حال الملائكة المنقطعين لعبادة الله تعالى وتسبيحه والسجود له؛ ترغيبًا بالإكثار من ذكره وعبادته، وبيان أنه لا يريد أن يستكثر بعبادتهم من قله، ولا ليتعزز بها من ذله، وإنما يريد النفع والخير لهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين وحملة العرش والكروبيين.

والتعبير عنهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دون أن يقول: إن الملائكة؛ لبيان رفعة منزلتهم، والإغراء بالتشبه بهم في عبادتهم وطاعتهم لله عز وجل.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ كما هي حال المشركين، بل يعبدونه، ويخضعون له،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣٤، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٤ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وينقادون لأمره.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾، أي: ينزهونه قولاً بألسنتهم، واعتقادًا بقلوبهم عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ قدم المعمول لإفادة الاختصاص، أي: وله وحده يسجدون، أي: يخضعون ويصلون ويتعبدون بجوارحهم.

وهذه أول سجدة في القرآن الكريم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: «سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرئيل، ومريم، والحج، وسجدة الفرقان، وسليمان سورة النحل، والسجدة، وفي ص، وسجدة الحواميم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- الحث على الاستماع لقراءة القرآن والإنصات، وإحضار القلب له، وتدبره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

٢- أن الاستماع لقراءة القرآن والإنصات له سبب لرحمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

٣- التعريض بالمشركين الذين يعرضون عن الاستماع للقرآن والإنصات له، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

٤- الحث على ذكر الله تعالى، والترغيب فيه؛ لأن الله أمر رسوله ﷺ بذلك، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾.

٥- ينبغي أن يتواطأ القلب مع اللسان والجوارح في الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾.

٦- ينبغي أن يكون الذاكر لله تعالى متضرعًا متذللًا لله تعالى، راجيًا لثوابه، خائفًا وجلًا من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

٧- ينبغي أن يكون الذكر والدعاء دون الجهر وفوق المخافتة، أي: وسطًا بين ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، عدد السجود ١٠٥٦.

٨- ينبغي المداومة على ذكر الله تعالى في الغدو والآصال، بل في جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

٩- الحذر من الغفلة عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

١٠- أن النبي ﷺ كغيره قد تعرض له الغفلة والنسيان، ولكن سرعان ما يذكره الله عز وجل.

١١- ثناء الله عز وجل على ملائكته المقربين بعبادتهم له وتسبيحه وسجودهم له وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

١٢- فضل الملائكة؛ لتشريف الله تعالى لهم بكونهم عنده.

١٣- الإغراء بالتشبه بالملائكة في دوام عبادتهم لله تعالى وتسبيحه والسجود له.

١٤- التعريض بذم المشركين في استكبارهم عن عبادة الله تعالى وعن السجود له، وسجودهم لغيره.

١٥- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الأعراف ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
ج- مناسبتها لسورة الأنعام: ٨
د- موضوعاتها: ٨
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ الآيات [١ - ٩] ١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ ...﴾ الآيات [١٠ - ١٨] ٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ...﴾ الآيات [١٩ - ٢٥] ٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ...﴾ الآيتين [٢٦، ٢٧] ٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ...﴾ الآيات [٢٨-٣٠] ٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ...﴾ الآيات [٣١- ٣٣] .. ٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ ...﴾ الآيات [٣٤- ٣٦] ٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ ...﴾ الآيات [٣٧- ٣٩] ٨٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ الآيات [٤٠ - ٤٧] ١٠٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ ...﴾ الآيات [٤٨ - ٥٣] ١١٧

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ...﴾ الآيات [٥٤ - ٥٨] ١٢٨

تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ...﴾ الآيات [٥٩ - ٦٤] ١٤٨

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ ...﴾ الآيات [٦٥ - ٧٢] ١٦٠

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ ...﴾ الآيات [٧٣ - ٧٩] ١٧٣

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ...﴾ الآيات [٨٠ - ٨٤] ١٨٧

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ ...﴾ الآيات [٨٥ - ٩٣] ... ١٩٨

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ...﴾ الآيات [٩٤-١٠٢] ٢١٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ ...﴾ الآيات [١٠٣-١١٦] ٢٣٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ ...﴾ الآيات [١١٧ - ١٢٩] ٢٤٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ

يَذَّكَّرُونَ ...﴾ الآيات [١٣٠-١٣٧] ٢٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ...﴾ الآيات [١٣٨-١٤٧]..... ٢٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ...﴾ الآيات [١٤٨-١٥٤]..... ٢٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ ...﴾ الآيات [١٥٥-١٥٨]..... ٣١١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ...﴾ الآيات [١٥٩-١٦٢]..... ٣٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ ...﴾ الآيات [١٦٣-١٦٧]..... ٣٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ ...﴾ الآيات [١٦٨-١٧١].... ٣٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ ...﴾ الآيات [١٧٢-١٧٤]..... ٣٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا...﴾ الآيات [١٧٥-١٧٩]..... ٣٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ...﴾ الآيات [١٨٠-١٨٦] . ٣٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ ...﴾ الآيتين [١٨٧، ١٨٨] . ٣٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ ...﴾ الآيات [١٨٩-١٩٨]..... ٣٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ...﴾ الآيات

[١٩٩-٢٠٣]..... ٣٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ...﴾ الآيات [٢٠٤-٢٠٦]..... ٣٩٤
فهرس الموضوعات..... ٣٩٩

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146

9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد العاشر

تفسير سورة الأنفال والتوبة

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٠

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٥٣٢ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْأَنْفَالِ

المقدمة

أ-اسم السورة:

سميت سورة الأنفال بهذا الاسم لذكر الأنفال في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وبيان لمن تكون الأنفال وكيفية تقسيمها.

وتسمى سورة «بدر»؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سورة الأنفال سورة بدر»(١).

ب-مكان نزولها:

نزلت سورة الأنفال بالمدينة، فهي مدنية كلها. وقيل: نزلت بعض آياتها في مكة. والأظهر أنها كلها مدنية، وما جاء في بعض آياتها من ذكر أفعال بعض المشركين كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الآية: ٣٠] ونحو ذلك فهذا- والله أعلم- إنما هو من باب تذكير النبي ﷺ بأفعال المشركين ومواقفهم المخزية، والامتنان عليه بما آل إليه أمره وأصحابه من النصر والتمكين؛ ولهذا صح عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن هذه الآية مدنية(٢).

جـ-موضوعاتها:

تحدثت سورة الأنفال بمجموع آياتها عن غزوة بدر الكبرى فذكرت أحداثها ووقائعها الظاهرة وتمام قدرة الله تعالى ونعمته فيما هيأ من بشارات النصر وأسبابه، وكيفية قسمة الغنائم، وملابسات ما قبل هذه الغزوة وما بعدها.

١- ابتدأت السورة بذكر سؤالهم عن الأنفال لمن تكون وكيف تقسم، وإجابتهم بأن حكمها لله والرسول فعليهم التسليم لذلك، وأمرهم بتقوى الله، وإصلاح ذات بينهم وطاعة الله ورسوله، ووصف المؤمنين حقاً بأنبل الصفات، والترغيب بالاتصاف بها ببيان ما لهم من درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم.

٢- تشبيه حالهم في اختلافهم في قسمة الأنفال والغنائم بحالهم عند خروجهم لاعتراض العير، وكراهية بعضهم للقتال أول الأمر؛ لأنهم لم يستعدوا له ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٦٤٥)، ومسلم في التفسير (٣٠٣١).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٤-١٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٦).

بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الآيتان: ٥، ٦].

٣- وعد الله تعالى لهم إحدى الطائفتين: العير، أو النفير، ومودتهم أن تكون لهم غير ذات الشوكة وهي العير، ويريد الله أن يكون لهم النفير ويحصل القتال، والخيرة فيما اختاره الله؛ ليحق الله ﴿ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الآيتان: ٧، ٨].

٤- ذكر استغاثتهم ربهم واستجابته لهم بوعدهم بإمدادهم بألف من الملائكة مردفين، وبيان أن هذا إنما هو بشرى لهم، وأن النصر من عنده عز وجل، والامتنان عليهم بما أعطاهم من أسباب النصر: من تغشية النعاس لهم أماناً لهم، وإنزال المطر عليهم من السماء؛ ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجز الشيطان، وليربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام، وأمره- عز وجل- الملائكة بتثبيتهم، ووعده بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، والحض على ضرب أعناقهم وقتلهم لمشاقتهم الله ورسوله، ولهم في الآخرة عذاب النار.

٥- نهي المؤمنين عن الفرار من الزحف عند ملاقاة الذين كفروا، ووعيد من فعل ذلك ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الآية: ١٦].

٦- التوجيه إلى الاعتماد على الله تعالى مع فعل الأسباب، وبيان أن ما حصل من هزيمة وقتل للكفار في بدر ليس بحول المؤمنين وقوتهم وإنما ذلك بحول الله تعالى ونصره ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الآية: ١٧].

٧- وعيد الكافرين وتحذيرهم من العودة لقتال المؤمنين والاغترار بكثرتهم، وتهديدهم بالهزيمة وبيان أن الله مع المؤمنين.

٨- حث المؤمنين على لزوم طاعة الله ورسوله وعدم التولي عنه وهم يسمعون، ونهيهم أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، الذين هم شر الدواب عند الله، الصم عن سماع الحق، البكم عن النطق به، الذين لا يعقلون، الذين لا خير فيهم البتة،

المعرضون عن كلام الله تعالى. والمقصود من هذا النهي: التعريض بذم الكافرين.

٩- أمر المؤمنين بالاستجابة لله والرسول إذا دعاهم لما يحييهم من الإيمان بالله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، والجهاد في سبيل الله، والعلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه يحشرون، وتحذيرهم من فتنة تعم الظالم وغيره، والطالح والصالح، بسبب ترك الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٠- تذكيرهم نعمة الله عليهم إذ كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات ليشكروه.

١١- تحذيرهم من خيانة الله والرسول، وخيانة أماناتهم وهم يعلمون، وتحذيرهم من فتنة الأموال والأولاد، وبيان أنهم إن يتقوا الله يجعل لهم ما يفرقون به بين الحق والباطل، ويكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم والله ذو الفضل العظيم.

١٢- تذكير النبي ﷺ بما وقع له من مكر المشركين به وكيدهم له ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، والامتنان عليه بذكر مكر الله تعالى بهم، وإنجائه منهم، وذكر مكابرتهم في أنهم لو شاؤوا لقالوا مثل هذا القرآن، وزعمهم أنما هو أساطير الأولين، ودعائهم على أنفسهم بالهلاك إن كان هذا هو الحق من عند الله، وبيانه- عز وجل- الحكمة في عدم تعذيبهم وهم أهل للعذاب، لصدهم عن المسجد الحرام واستهزائهم بالمكاء والتصدية عنده، وبيان أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الآية: ٣٦].

١٣- بيان أن الله شرع القتال، ليميز الخبيث من الطيب والمؤمن من الكافر والصادق من الكاذب ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الآية: ٣٧]، وبيان فتح باب التوبة لمن تاب من الكافرين: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ٣٨].

١٤- التحضيض على قتال الكافرين ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الآيتان: ٣٩، ٤٠].

١٥- ثم عادت السورة للتفصيل في قسمة الغنائم بعد التمهيد لذلك في أول السورة بالبيان الإجمالي أنها لله والرسول، فبينت أن خمسها يقسم أخماساً، لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وسكت عن الأربعة الأخماس منها في دلالة واضحة أنها للمجاهدين.

١٦- ثم ذكرهم الله- عز وجل- بوقائع المعركة وأحداثها وما لله تعالى من حكم في ذلك: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الآية: ٤٢]، ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ ﴾ [الآيتان: ٤٣، ٤٤]. وأمرهم بالثبات عند لقاء العدو وذكر الله تعالى كثيراً؛ ليفلحوا، وبطاعته تعالى وطاعة رسوله، وعدم التنازع، فيفشلوا وتذهب ريحهم، وأمرهم بالصبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الآية: ٤٦].

١٧- التعريض بذم الكفار بنهي المؤمنين أن يكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس للصد عن سبيل الله: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ ﴾ [الآية: ٤٨].

١٨- تظاهر المنافقين ومرضى القلوب مع الكفار في الكيد للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الآية: ٤٩].

١٩- بيان سوء حال الذين كفروا حين تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ

لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الآيتان: ٥٠، ٥١]، ثم بين أن حال هؤلاء المكذبين كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا وكذبوا بآيات الله فأخذهم الله وأهلكهم بذنوبهم، وأغرق آل فرعون وكلٌّ كانوا ظالمين.

٢٠- بيان أنهم شر الدواب عند الله فهم لا يؤمنون و﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الآية: ٥٦]، وحضه ﷺ على التنكيل بهم في الحرب، ليكونوا عبرة لمن خلفهم لعلهم يذكرون، وأمره إذا خاف من قوم خيانة أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء؛ لأن الله لا يحب الخائنين، وبيان أنهم لن يعجزوا الله، وأمر المؤمنين أن يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة لإرهاب عدو الله وعدوهم وآخرين من دونهم لا يعلمهم ﷺ، والله يعلمهم، وحضهم على الإنفاق في سبيل الله.

٢١- ثم رغبه في السلم إذا جنح إليه العدو: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الآية: ٦١].

وبيَّن له أنهم إن إرادوا أن يخدعوه في طلب السلم فإن حسبه الله، وذكَّره بمنته عليه بتأييده بنصره وبالمؤمنين، وتأليفه عز وجل بين قلوبهم، وبيَّن أنه سبحانه كافيه ومن اتبعه من المؤمنين.

٢٢- حثه ﷺ على تحريض المؤمنين على القتال، وأن يصابر الواحد منهم عشرة من الكفار؛ لأنهم قوم لا يفقهون، ثم خفف- عز وجل- عنهم وعلم أن فيهم ضعفاً ونسخ ذلك بمصابرة الواحد منهم لاثنين من الكفار، والله مع الصابرين.

٢٣- ثم عاتبه- عز وجل- في شأن الإبقاء على الأسرى، وأخذ الفداء منهم، فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ ﴾ [الآيتان: ٦٧، ٦٨].

وأمرهم بالأكل من الغنائم ممتناً عليهم بإباحتها لهم، وحاثًّا لهم على تقوى الله، وأمره أن يقول لمن في أيديهم من الأسرى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الآية: ٧٠].

والإشارة إلى أنه لا تؤمن خيانتهم بقوله: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الآية: ٧١].

٢٤- ثم ختمت السورة بالثناء على المؤمنين كما أثنت عليهم في أولها بعد أن بينت أن المهاجرين الذين هاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والأنصار الذين آووا ونصروا بعضهم أولياء بعض، وأن الذين آمنوا ولم يهاجروا ما على المؤمنين المهاجرين والأنصار من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، ويجب على المؤمنين نصرهم إذا استنصروهم ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الآية: ٧٢].

ثم بينت أن الذين كفروا بعضهم أولياء بعض، يجب على المؤمنين معاداتهم، والحذر من موالاتهم.

وختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ﴾ [الآيتان: ٧٤، ٧٥].

٢٥- ثم ختمت الآية الأخيرة بما يشبه الاحتراز من أن الموالاة بين المؤمنين المهاجرين والأنصار تقضي على الموالاة بالأرحام، فبين عز وجل أن الموالاة بالأرحام باقية وبخاصة في الميراث بينهم فهم أولى به من غيرهم: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٧٥].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

سبب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «نزلت فيَّ أربع آيات: أصبت سيفاً فأتى به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نفلنيه، فقال: «ضعه» ثم قام. فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» ثم قام، فقال: نفلنيه يا رسول الله. فقال: «ضعه» فقام، فقال: يا رسول الله، نفلنيه، أأجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾»[١].

وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «لما كان يوم بدر، وقتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة[٢]، فأتيت به النبي ﷺ. فقال: «اذهب فاطرحه في القَبَض»[٣]، قال: فرجعت، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي، وأخذ سلبي. قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك»[٤].

وفي رواية عن سعد- رضي الله عنه- قال: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف ليس لك ولا لي، ضعه»، فوضعته ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لم يبل بلائي، قال: إذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً؟ قال: «كنت سألتني السيف،

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٤٨)، وأبوداود في الجهاد- باب في النفل (٢٧٤٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٧٩)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٨).

(٢) ذا الكتيفة: السيف العريض.

(٣) القَبَض: بفتح القاف والباء، بمعنى المقبوض، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٨٠)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٦-١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٥).

وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾»[1].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا**». قال: فتقدم الفتيان، ولزم المشيخة الرايات، فلم يبرحوها، فلما فتح الله عليهم، قال المشيخة: كنا ردءاً لكم[2] لو انهزمتم لفئتم إلينا، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى، فأبى الفتيان، وقالوا: جعله رسول الله ﷺ لنا، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ يقول: فكان ذلك خيراً لهم، فكذلك أيضاً فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم»[3].

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بصيغة المضارع دال على تكرار السؤال وكثرة السائلين.

والسؤال معناه الطلب، فإن عُديَ بنفسه فمعناه طلب إعطاء الشيء كما يقال: أسألك درهماً، أي: أعطني درهماً.

وإن عُديَ بـ«عن» كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ فمعناه طلب معرفة الشيء وحكمه ونحو ذلك.

فقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ معناه: يسألونك عن حكم الأنفال من يستحقها؟ وكيف تقسم؟ وعلى مَن تقسم؟ ونحو ذلك.

و«الأنفال» جمع «نَفَل» والنَّفَل والنافلة: الزيادة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، أي: زيادة وخصوصية لك.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٨)، وأبوداود في الجهاد- باب في النفل (٢٧٤٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٧٤)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٥-١٦) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أي: نصراً وعوناً لكم.

(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد- باب في النفل (٢٧٣٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٢-١٣)، والحاكم (٢/ ١٣١-١٣٢) وصححه، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٢٩١، ٢٩٢).

قال لبيد[١]:

إن تقـــوى ربنـــا خـــير نَفَـــلْ وبـــإذن الله ريثـــي والعَجَـــلْ

فالأنفال: الزيادات في العطاء.

وتطلق أيضاً عند العرب على الغنائم في الحرب، كأنهم يرون أنها زيادة على المقصود من الحرب، وهو هزيمة الأعداء والقضاء عليهم وإضعافهم، كما قال أوس بن حجر[٢]:

نكصتم على أعقابكم ثم جئتمُ تُرَجِّـون أنفال الخميس العرمرم

وقال عنترة بن شداد[٣]:

إنـا إذا احمـر الـوغى نـرْوي القنـا ونَعِـفّ عنـد مقاسـم الأنفـال

وهو يريد بالأنفال المغانم؛ ولهذا قال في معلقته[٤]:

يُخـبركِ مـن شـهد الوقيعـة أنني أغشى الـوغى وأعـف عنـد المغنم

ولهذا فسر بعض السلف الأنفال بالزيادات التي يُنفل بها بعض المجاهدين زيادة على نصيبه من الغنيمة قبل المعركة أو بعدها كالسلب والفرس وغير ذلك لبلاء أبلاه.

وفسرها بعض السلف وأكثر أهل العلم بعدهم بالغنائم[٥]. وهذا أقرب وأعم؛ لأن ما يُنفل به بعض المجاهدين هو أيضاً من الغنائم، ولأن الغنائم زيادة في أموال المسلمين، نفلها الله- عز وجل- لهذه الأمة، أي: أباحها لهم دون غيرهم كما في حديث جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**- وذكر منهن: **وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي**»[٦].

---

(١) انظر: «ديوانه» (٢/ ١١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٢٤).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص١٩٣).

(٤) انظر: «ديوانه» (ص١٦١).

(٥) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٥-١٩)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٥٣-١٥٦١)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٤٥).

(٦) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

قال أبوعبيد[١]: «أما الأنفال فهي المغانم وكل نَيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب».

وقال السعدي[٢]: «الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات قد نزلت في قصة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ كيف تقسم؟ وعلى مَن تقسم؟».

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

أي: قل: الأنفال ملك لله والرسول، والحكم فيها لله ورسوله، يضعانها حيث شاءا، فعليكم الرضا والتسليم لما حكم الله ورسوله فيها، ولهذا قال بعده: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ﴾ ولم يقل: «قل هي» لمزيد العناية والاهتمام، كما أظهر اسم الرسول ﷺ فقال: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل: «ولي» تعظيماً له ﷺ.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الفاء للتفريع، أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الرضا والتسليم لحكم الله ورسوله في الأنفال وغير ذلك.

﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ معطوف على ما قبله.

وإصلاح الشيء: جعله صالحاً، أي: وأصلحوا حالكم وما بينكم من الاختلاف والتنازع في الأنفال وغير ذلك. وفي الآية ما يشعر بالعتاب لهم على ما وقع منهم من الخلاف والنزاع في الأنفال، كما جاء في بعض روايات سبب النزول.

وإصلاح ذات البين من أوجب الأعمال وأفضلها؛ لأن فساد ذات البين، كما قال ﷺ: «**هي الحالقة**»[٣].

---

(١) في «الأموال» (ص٤٢٦).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٤١).

(٣) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٤، ٤٤٥)، من حديث أبي الدرداء- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح».

وفي رواية قال: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(١).

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ معطوف على ما قبله.

والطاعة الامتثال بفعل المأمور وترك المحظور، أي: افعلوا ما أمركم الله به ورسوله، واتركوا ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وهي بمعنى التقوى، وحيث اجتمع في هذه الآية الأمر بتقوى الله والأمر بطاعة الله ورسوله، فالأولى حمل الأمر بالتقوى هنا على اجتناب النواهي، وحمل الأمر بالطاعة على فعل الأوامر، أي: وأطيعوا الله ورسوله في قسمة الغنائم وفي غير ذلك.

وعطف قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، و﴿كُنتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

فمن شرط الإيمان تقوى الله وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله- عز وجل- وتكريمه لنبيه ﷺ بخطابه له بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

٢- تولي الله- عز وجل- الإجابة عما يوجه إلى النبي ﷺ من أسئلة، وفي هذا إثبات لرسالته ﷺ ودفاع عنه، وبيان أنه ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل، وفيه رد على من زعموا أنه تقوّل القرآن وافتراه من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

٣- حرص الصحابة- رضي الله عنهم- على تعلّم أمر دينهم.

٤- ينبغي أن يتوجه بالسؤال في أمر الدين إلى الأنبياء، وهكذا فعل الصحابة رضي الله

---

(١) ذكرها الترمذي في الموضع السابق بقوله: «ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**».

عنهم، ويتوجه به بعدهم إلى العلماء فهم ورثة الأنبياء.

٥- أن الأنفال ملك لله والرسول، والحكم فيها لله والرسول؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وقد بيّن عز وجل حكمها في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١].

٦- وجوب تقوى الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٧- وجوب إصلاح ذات البين بين المسلمين والقضاء على أسباب النزاع والاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

٨- حرص التشريع الإسلامي على أن يعيش أتباعه في وئام وانسجام، وأخوة وأُلفة ومحبة، بعيدين عن أسباب النزاع والاختلاف والافتراق.

٩- في الأمر بإصلاح ذات البين على وجه الخصوص دلالة على أهمية ذلك وخطر فساد ذات البين، فهي كما قال ﷺ: «**لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»(١).

١٠- وجوب طاعة الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ والأولى حمل الطاعة هنا على فعل المأمورات، وحمل التقوى على ترك المحظورات حيث اجتمعا في آية واحدة، تفادياً للقول بالتكرار.

١١- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

١٢- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في باب الطاعة؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

١٣- أن من شرط الإيمان تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

ذكر عز وجل أن من شرط الإيمان تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله، ثم أتبع ذلك ببيان صفات المؤمنين حقًّا في هاتين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر: «إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه»، وهي: كافة ومكفوفة، أي: أن «ما» دخلت على «إن» فكفتها عن العمل.

والمعنى: إنما المؤمنون كاملو الإيمان، الذين عندهم الإيمان المطلق، لا مطلق الإيمان هم المتصفون بالصفات المذكورة في الآيتين.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف- عليه السلام- فيما ذكر الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، وكقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] أي: ويصدق للمؤمنين.

والإيمان شرعاً: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هذه هي الصفة الأولى من صفات المؤمنين، أي: الذين إذا ذكر الله عندهم، بذكر ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وآياته الشرعية والكونية، وذُكِّروا به ووعظوا بذكر عظمته ووعده ووعيده.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، الوجل: الخوف والفزع، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣].

ومعنى ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: فرقت وخافت وفزعت قلوبهم تعظيماً لله عز وجل، وخوفاً منه، فأقبلوا على طاعته وابتعدوا عن معاصيه.

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤،

٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ هذه هي الصفة الثانية من صفات المؤمنين، أي: وإذا قرئت عليهم آيات الله الشرعية؛ آيات القرآن الكريم ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، أي: كانت سبباً في زيادة إيمانهم وقوة يقينهم، تصديقاً ويقيناً في قلوبهم، وإقراراً واعترافاً بألسنتهم، وعملاً بجوارحهم.

وذلك لشهودهم لتلاوة القرآن وتدبرهم له بأسماعهم وقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

وهذا بخلاف حال كثير من الناس اليوم يقرأ الواحد منهم القرآن كله، أو يسمعه من فاتحته إلى خاتمته لا يحرك منه ساكناً، بينما يبكي بعضهم أو يتباكى عند سماع دعاء ختم القرآن ولو كان بأدعية لم تؤثر، بل لا تخلو من الاعتداء. فلينتبه لهذا.

وفي الآية دلالة على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضله في القلوب كما هو مذهب أهل السُّنَّة وعليه عامة الأمة، قال ابن كثير[1]: «بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد».

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذه هي الصفة الثالثة من صفات المؤمنين، أي: وعلى ربهم، خالقهم ومالكهم ومدبرهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٥٥٢). وقد استدل بهذه الآية البخاري على ما ذكر في أول كتاب الإيمان.

وقدم المتعلق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لإفادة القصر، أي: وعلى ربهم وحده يتوكلون لا على غيره.

ومعنى ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يفوضون أمورهم إليه ويعتمدون عليه في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به- سبحانه، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون غيره، ولا يلوذون إلا به، ولا يطلبون حوائجهم إلا منه، موقنين أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، متجاوزين الأسباب إلى مسببها من غير إهمال لها، بخلاف حال كثير من الخلق، فإنهم يفزعون في حوائجهم إلى الأسباب الظاهرة، وينسون مسبب الأسباب.

وجاء التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على ذلك في الحال والاستقبال.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

ذكر الله- عز وجل- صفات المؤمنين في اعتقادهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ ثم أتبع ذلك بذكر صفاتهم في أعمالهم، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ وقدم أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وهي سبب لصلاح أعمال الجوارح.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من صفات المؤمنين.

وقوله: ﴿يُقِيمُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم على إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

والمعنى: الذين يحافظون على الصلاة ويقيمونها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها- بمواقيتها، وجماعتها، وركوعها وسجودها، والخشوع فيها، وغير ذلك؛ لتحصل فوائدها، وتجنى ثمارها ومنافعها؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: «يصلون»، وهذا كما هو الغالب في القرآن التعبير بإقام الصلاة؛ لأن المقصود إقامة الصلاة إقامة تامة كما شرعها الله عز وجل.

وقدَّم عز وجل وصفهم بإقام الصلاة، وخصَّها من بين سائر الأعمال والعبادات البدنية؛ لأنها أعظم العبادات بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وقاعدته العظيمة التي يدور عليها رحاه، وهي سر اجتماع الأمة وقوَّتها وفلاحها وصلاحها ونجاحها، وهي جماع الخير كله.

وإقامتها كما شرع الله- عز وجل- في المساجد مع جماعة المسلمين سبب التوفيق والفلاح والعز والنصر والنجاح، والرزق والراحة والطمأنينة، و العون على أمور الدين والدنيا، والقيام بما عداها من الأعمال الصالحة، وقبولها والسلامة من الشرور.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي في الشرع: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

والصلاة: تشمل الفرائض وغيرها من النوافل.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه هي الصفة الخامسة من صفات المؤمنين، أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون.

وفي قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تنبيه وتذكير بأن المال مال الله، وأنه عارية مردودة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

قال لبيد[1]:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوماً أن ترد الودائع

﴿يُنفِقُونَ﴾، أي: يخرجون المال في وجوهه المشروعة، الواجب منها كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ومن تجب النفقة عليه من الأقارب ونحو ذلك.

وفي وجوهه المستحبة كالصدقة والهدية، وغير ذلك من وجوه البر.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٨٨).

فجمعوا بين الإحسانين؛ الإحسان في عبادة الله تعالى بإقام الصلاة؛ إخلاصاً لله تعالى ومتابعة للرسول ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله، بالإنفاق عليهم من رزق الله. وهذا غاية ما يطلب من المؤمن، أن يكون محسناً في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ الجملة مؤكدة لمضمون الآية قبلها، فالإشارة فيها للمؤمنين الذين حُصر الإيمان فيهم ووصفوا بالصفات المذكورة في الآية السابقة. وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لشأنهم، وتنويهاً بهم، وفيها حصر الإيمان فيهم مرة أخرى وتأكيده بثلاث مؤكدات، وهي: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

﴿حَقًّاۚ﴾ مفعول مطلق، مؤكد لمضمون جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أو لمصدر محذوف، أي: إيماناً حقًّا، أي: أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، الذين ثبت لهم وصف الإيمان المطلق الكامل، وكانوا أحق به؛ حيث جمعوا بين العلم والعمل، والإيمان والإسلام، وصلاح الباطن والظاهر، والإحسان في عبادة الله- عز وجل- والإحسان إلى عباده.

ومفهوم الحصر في الآيتين أن من لم يتصف بالصفات المذكورة فليس بمؤمن الإيمان الكامل، بل هو ناقص الإيمان، عنده مطلق الإيمان، لا الإيمان المطلق.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

بعدما ذكر الله- عز وجل- صفات المؤمنين حقًّا، بيَّن ما أعدَّ لهم من الأجر والمثوبة.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الجملة خبر ثان؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

واللام: للاستحقاق، أي: درجات مستحقة لهم، ونكِّرت ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ للتعظيم، أي: لهم منازل عالية، ومراتب رفيعة في الجنة حسب إيمانهم وأعمالهم.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: منه- عز وجل- وعنده- وفي هذا تعظيم لها، فهي منازل عالية ومراتب رفيعة، ويزيدها عظمة كونها من ربهم الجواد الكريم ذي الفضل العظيم،

ويزيدها علوًّا ورفعة كونها عند ربهم؛ حيث يأمنون ويطمئنون بقربه، وينعمون بجواره، نسأل الله الكريم من فضله، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**»(١).

فلهم درجات ومراتب ومنازل ومقامات عند ربهم في الجنة حسب منازلهم في الإيمان، واتصافهم بتلك الصفات.

لكن من نِعم الله- عز وجل- وفضله على أهل الجنة أن من كان منهم أعلى منزلة يرى ما فَضَّله الله به على من دونه، بينما المفضَّل عليه لا يرى أن هناك أحداً أفضل منه؛ لأن الله- عز وجل- أذهب عن أهل الجنة الغم والحزن- كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معطوفة على درجات، ونكِّرت للتعظيم، أي: ولهم مغفرة عظيمة واسعة لذنوبهم، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة، وتقرير العبد بذنوبه، وفيه «**فيقول الله- عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(٢).

ومنه سمي «المغفر»، وهو: البيضة التي توضع على الرأس حال القتال؛ تستره وتقيه السهام.

﴿وَرِزْقٌ﴾ نكَّر للتعظيم، والرزق العطاء، ﴿كَرِيمٌ﴾ واسع كثير، أي: ولهم عطاء من ربهم عظيم واسع، كثير، لا يقدر قدره إلا من أعطاهم إياه، وهو الرب

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة- ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم و الغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

العظيم الواسع الكريم- سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ عن الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١).

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «**ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، في مقامٍ أبداً في حَبْرَةٍ ونَضْرَةٍ في دُورٍ عالية سليمة بهية**» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: «**قولوا: إن شاء الله**» ثم ذكر الجهاد وحضَّ عليه(٢).

قال ابن القيم(٣):

فحيّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
وحيّ على السوق الذي فيه يلتقي ... المحبون ذاك السوق للقوم مُعلم
فما شئت خذ منه بلا ثمن له ... فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
وحيّ على يوم المزيد الذي به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحيّ على وادي هنالك أفيح ... وتربته من أذفَرِ المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضةٌ ... ومن خالص العقيان لا يتقصم
وكثبان مسك قد جعلن مقاعداً ... لمن دون أصحاب المنابر تُعلم
فبينا هم في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
إذا هم بنور ساطع أشرقت له ... بأقطارها الجنات لا يتوهم
تجلى لهم رب السموات جهرة ... فيضحك رب العرش ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يُسلم

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٥)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣٢٢).
(٣) انظر: مقدمة «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» ص(٣١-٣٢).

يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي إنني أنا أرحم
فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضا ... فأنت الذي تولى الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرم
فيا بائعاً هذا ببخسٍ مُعجّل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وقدَّم قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾؛ لبيان منازلهم وعلوّها ورفعتها في الجنة.

ثم أتبعه بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ لبيان ما لهم من النعيم في هذه المنازل فبيَّن أولاً المنزل، ثم بين ما للنازل فيه من الضيافة.

وقدَّم المغفرة؛ لأن فيها التخلية وزوال المرهوب، ثم أتبعها بالرزق الكريم الذي به التحلية وحصول المطلوب- نسأل الله الكريم من فضله.

قال السعدي[1]: «ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان- وإن دخل الجنة فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة».

الفوائد والأحكام:

١- حصر الإيمان المطلق الكامل بمن اتصفوا بالصفات المذكورة في الآيتين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

٢- فضل أعمال القلوب؛ لهذا قدَّمها على أعمال الجوارح من الصلاة والنفقات؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح، وسبب لصلاحها.

٣- أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وفي هذا رد على المرجئة.

٤- الترغيب بذكر الله- عز وجل- والتذكير به، وخوفه ورجائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٤٤).

ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

٥- الترغيب بتلاوة القرآن والاستماع له وتدبره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

٦- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة؛ لقوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

٧- وجوب التوكل على الله- عز وجل- والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه في جلب النفع، ودفع الضر- مع تمام الثقة به؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

٨- وجوب إقامة الصلاة المفروضة، والترغيب في صلاة النوافل؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

٩- وجوب إخراج النفقات الواجبة في المال كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد ونحو ذلك، والترغيب في الصدقة في وجوه البر كلها وفي الهدية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بيان أن الرزق من الله عز وجل. وأنه عارية مردودة، وفي ذلك حض على الإنفاق منه وعدم البخل فيه.

١١- عظم مكانة الصلاة والإنفاق من رزق الله، لهذا خصهما بالذكر، فالصلاة أعظم العبادات البدنية، والإنفاق بإخراج الزكاة والنفقات أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله عز وجل، وفي الإنفاق بإخراج الزكاة وغيرها الإحسان إلى عباد الله.

١٢- أن الصلاة أعظم من الزكاة وغيرها من النفقات، بل هي أعظم العبادات بعد الشهادتين، لهذا قدم إقام الصلاة على الإنفاق.

١٣- تأكيد كمال إيمان من اتصفوا بالصفات المذكورة وبلوغهم درجة الإيمان المطلق؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾. ويفهم من هذا أن من لم يتصف بهذه الصفات ليس بكامل الإيمان، وإنما عنده مطلق الإيمان.

١٤- رفعة درجات المؤمنين ومنازلهم عند ربهم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وأمنهم فيها وعليها بقربهم من ربهم وجوارهم له.

١٥- تفاوت درجات أهل الجنة ومنازلهم حسب تفاوت إيمانهم وأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

١٧- مغفرة الله- عز وجل- العظيمة الواسعة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾.

١٨- عظم ما أعده الله للمؤمنين من العطاء وكثرته وسعته في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

١٩- عظم فضل الله- عز وجل- وعفوه وجوده وكرمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢٠- أن معرفة المنزل ومكانته تسبق معرفة ما للنازل فيه من النعيم، لهذا قدَّم في الآية قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢١- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدَّم المغفرة على الرزق الكريم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً. وكان أبوسفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغِفَارِي، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له: «ذَفِران» فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاهم الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش. فقام أبوبكر- رضي الله عنه- فقال، فأحسن، ثم قام عمر- رضي الله عنه- فقال، فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: امض لما أمرك الله، فنحن معك، فوالله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «بَرْك الغِماد»[(١)]- يعني مدينة الحبشة- لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس- وإنما يريد الأنصار- وذلك أنهم

---

(١) «بَرْك الغِماد» بكسر الغين وضمها، والكسر أشهر موضع إلى الجنوب من مكة، على نحو مائتي كيلومتر مما يلي البحر، وقيل: موضع بأقصى أرض هجر.

كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم غداً»(١).

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾، الكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل» و«ما»: مصدرية، أي: مثل إخراج ربك لك من بيتك بالحق، أي: كما أمرك ربك بالخروج قدراً وشرعاً.

﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾، أي: من منزلك في المدينة.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الباء للملابسة والمصاحبة، أي: إخراجاً ملابساً ومصاحباً للحق، موافقاً للمصلحة، وعين الحكمة والصواب.

فشبه- والله أعلم- اختلاف المؤمنين في قسمة الغنائم، وما حصل بين بعضهم من التنازع فيها حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ، فقسمها على العدل والسوية، فكان في ذلك المصلحة التامة لهم- شبه هذا بخروجه ﷺ إلى بدر وكراهية بعض المؤمنين للقتال، ومجادلتهم بالحق بعد ما تبين، فكان عاقبة كراهتهم للقتال أن قدره الله لهم، وجمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، فكان النصر والفتح للمسلمين، فلله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١-٤٣)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠٦-٦٠٧).

الحكمة في هذا وفي هذا.

وقد قيل العكس، أي: أن الله شبه إخراجه ﷺ يوم بدر بما حصل بين المؤمنين من اختلاف في أمر الغنائم.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾، الواو: للحال، أي: والحال إن جماعة من المؤمنين ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾، أي: لكارهون للقتال، واللام: للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: حال من ﴿فَرِيقًا﴾ أو من الضمير في «كارهون»، بصيغة المضارع لحكاية حالة المجادلة زيادة في التعجب منها.

أي: يخاصمونك وينازعونك في الحق، وهو ما أمرك الله به من القتال بقولهم: لم نعلم أننا نلقى العدو، فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير، ونحو ذلك[1].

﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾، أي: بعد ما تبين لهم أن الله هو الذي أخرجك، وهو الذي أمرك بالقتال لحكمة يعلمها.

أو بعد ما تبين لهم الحق وظهر أن الله قدر لهم النصر حيث وعدهم إحدى الطائفتين العير أو النفير، ثم أخبرهم أن العير قد أخطأتهم، فبقي النفير، وقد وعدوا بالنصر عليه.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الجملة حال من الضمير في «كارهون»، أو من فاعل ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، أي: حال كونهم في كراهتهم القتال ومجادلتهم في الحق بعدما تبين كحال من يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والمعنى: كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون، أي: كمن يساق إلى الموت وهو ينظر أسبابه، وذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم مقارنة بالمشركين، وفي الآية: تعريض بأنهم إنما يساقون ويسار بهم إلى النصر والغنيمة والوعد الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٨).

قوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾، الواو عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾، أو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى: «حين» متعلق بفعل محذوف تقديره: «اذكروا».

﴿يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ بوحيه إلى نبيه ﷺ. ووعد الله- عز وجل- لا يتخلف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

والوعد يكون بالخير- غالباً، وقد يكون بالشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧] بخلاف الوعيد فإنه يكون بالشر.

﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ الطائفة: الجماعة من الناس، أي: إحدى الجماعتين من عدوكم، إما العير التي مع أبي سفيان فيها تجارة قريش، وإما النفير من المشركين الذين خرجوا لحمايتها وعلى رأسهم أبوجهل.

﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾، أي: أنها معطاة لكم، فإما أن تظفروا بالعير وما تحمله من التجارة، وإما أن تظفروا بالنفير الذين خرجوا لحمايتها وتنتصروا عليهم.

وهذا مقتضى وعد الله لهم، فهم رابحون في الحالين.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، أي: وتحبون وترغبون أن الطائفة ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، أي: غير صاحبة الشوكة.

والشوكة في الأصل واحدة الشوك، وهو ما يؤذي من النبات بإبره الحادة.

والمعنى: وتحبون أن الطائفة غير ذات البأس والقوة والعدد والسلاح ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾، أي: تكون من نصيبكم، وهي العير التي ليس معها سوى نحو أربعين رجلاً غير مقاتلين، فتحصل لكم غنيمة باردة بلا حرب، وكسب بلا قتال. وهذا من طبيعة النفس البشرية الرغبة بما هو أيسر وأقل كلفة.

ومفهوم هذا أنهم يكرهون أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة والبأس والقوة والعدة والعدد، والتي قوامها نحو ألف مقاتل، وهي النفير.

ولكن الله- عز وجل- بعلمه وحكمته أراد أمراً هو خير وأعظم وأعلى مما أحبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾.

أي: ويريد الله إرادة شرعية كونية ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريد»، وتقديره: ويريد الله إحقاق الحق أي: أن يظهر الدين الحق، وهو الإيمان بالله وتوحيده وما جاء به رسوله ﷺ.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كلمات الله تنقسم إلى قسمين: كلمات كونية، وهي: أوامره الكونية القدرية، وكلمات شرعية، وهي: وحيه إلى أنبيائه ورسله.

والمراد هنا ما يشمل كلماته الكونية والشرعية، من آيات القرآن المنزلة في قتال الكفار، وإمداد المؤمنين بالملائكة، وأمرهم بتثبيت المؤمنين ونصرهم، وغير ذلك من أسباب النصر.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قطع دابر الشيء: إزالته إزالة تامة حتى لا يبقى منه شيء.

فقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: يستأصلهم بالهلاك عن آخرهم فلا يبقي منهم أحداً، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولهذا قدَّر لكم لقاء الطائفة ذات الشوكة وجمع بينكم وبينهم على غير ميعاد، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يثبت الدين الحق ويظهره، وفيه تأكيد لما وعدهم به من النصر والظفر في بدر، ووعدهم بإحقاق الحق وتثبيته وتأييده.

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: ويزيل الباطل وهو الكفر والشرك، ويمحوه ويزهقه، بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه، وبخذلان أهله وقطع دابرهم.

وهذا توكيد لقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ لأن الباطل ضد الحق، فإذا جاء الحق وظهر؛ زهق الباطل واضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وفي كل من قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾، ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ جناس اشتقاق، وبينهما مقابلة بين: «يحق»، و«يبطل»، و«الحق»، و«الباطل».

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ولو كره ذوو الإجرام من المشركين والكفار إحقاق الحق وإبطال الباطل، وعاندوا وخالفوا فلا يبالي الله بهم.

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى أن لله الحكمة فيما قدر من اختلاف بعض المؤمنين حول قسمة الغنائم وتنازعهم في ذلك حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ، كما أن له- عز وجل- الحكمة في إخراجه ﷺ ومن معه من المدينة وكراهية بعض المؤمنين للقتال فكان عاقبة ذلك أن قدره لهم وجمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، فكان النصر للمسلمين، لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

٢- تشبيه ما حصل من تساؤل عن الأنفال، وما حصل من تنازع حول قسمتها حتى جعل الله الأمر فيها له ولرسوله ﷺ بخروجه ﷺ لبدر ومن معه من المؤمنين وكراهية فريق منهم القتال، ومجادلتهم في أنهم لم يخرجوا لقتال، وجمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وما أعقب ذلك من النصر؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية- ولله الحكمة في ذلك كله.

٣- أن خروجه ﷺ يوم بدر هو بأمر الله- عز وجل- قدراً وشرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بخطابه- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- أن خروجه ﷺ من بيته لبدر خروج مصاحب ومتلبس بالحق ولإحقاق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- كراهية فريق من المؤمنين في بادئ الأمر للقتال ومجادلتهم للنبي ﷺ بقولهم: لم نعلم أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا لطلب العير، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

ولكنهم- رضي الله عنهم- سرعان ما انشرحت صدورهم، واطمأنت قلوبهم لذلك.

٧- أن ما أمر الله- عز وجل- به رسوله ﷺ من القتال يوم بدر هو الحق الذي بيَّنه الله؛ ولهذا عاتب الله- عز وجل- من جادل فيه من المؤمنين بعد بيانه؛ لقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

٨- التحذير من المجادلة بالحق بعد تبينه وظهوره.

٩- في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ إشارة إلى أن كراهتهم للقتال ومجادلتهم ليس لأجل مخالفته ﷺ، ولا جبناً منهم أو نكوصاً عن الجهاد، وإنما لكونهم لم يستعدوا للقتال.

١٠- وعد الله- عز وجل- للمؤمنين بإحدى الطائفتين؛ إما العير، وإما النفير، بما أوحاه الله- عز وجل- إلى رسوله ﷺ وتذكيرهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

١١- مودة المؤمنين ومحبتهم أن تكون لهم الطائفة غير ذات الشوكة والقوة والبأس، وهي العير؛ ليحصلوا على الغنيمة بلا قتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

ومفهوم هذا كراهتهم أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة والقوة والبأس.

وهذا لأن من طبيعة النفس الميل لما هو أيسر، ولا لوم في ذلك، ما لم يترتب على ذلك محذور. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»(١).

١٢- إرادة الله- عز وجل- كوناً وشرعاً إحقاق الحق وتثبيته، وإظهار دينه بكلماته الشرعية بأمره بالجهاد وكلماته الكونية بتقديره وكتابته النصر للمؤمنين وقطع دابر

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨٥).

الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٣- إثبات الإرادة لله- عز وجل- بقسميها الكونية، والشرعية، وتقدير الله- عز وجل- للمقادير؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

١٤- أن ما أراده الله- عز وجل- كوناً كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

١٥- أن ما جاء به ﷺ من الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده ونبذ الشرك هو الحق.

١٦- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله- عز وجل- وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

١٧- تقرير وتوكيد قوة الحق وثباته، وضعف الباطل أمام قوة الحق وبطلانه واضمحلاله.

١٨- إرغام أنوف المجرمين بإحقاق الحق وإظهاره، وإبطال الباطل، ولو كرهوا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، قال: فمازال يهتف بربه ماداًّ يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله- عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ فأمدَّه الله بالملائكة.

قال أبوزُمَيْلٍ: فحدثني ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أَثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيزُوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجهه، كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**» فقَتَلُوا يومئذٍ سبعين، وأسروا سبعين»[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، وأبوداود في الجهاد- فداء الأسير بالمال (٢٦٩٠)، والترمذي في تفسير سورة الأنفال (٣٠٨١)، وأحمد (١/ ٣٠-٣١)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥١). وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب»، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٥٩): «وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني».

قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى «حين»، متعلق بـ«تودون»، أو بـ«يريد» أو بمحذوف تقديره: اذكروا.

ومعنى ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، أي: تطلبون الغوث من ربكم، وهو: التخلص من الشدة، والنصر على أعدائكم بدعائكم إياه، كما في قوله ﷺ: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني**»(١).

وقوله ﷺ: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبَد بعد اليوم**»، فأخذ أبوبكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد أَلَحَحْتَ على ربك، وهو في الدِّرْعِ، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾»(٢).

وجاءت الاستغاثة باسم «الرب»؛ لأنه الخالق المالك المتصرف الذي بيده النصر، والأمر كله.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾.

والسين والتاء فيه للمبالغة، فاستجاب أبلغ من «أجاب»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالباً- أي: فاستجاب لاستغاثتكم وأجاب دعاءكم ووعدكم بالإغاثة.

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وهذا وعد من الله- عز وجل- بإمدادهم بألف من الملائكة، وهو وعد مطلق لم يعلق بشرط، كما علق الإمداد في قصة أحد بقوله تعالى- في سورة آل عمران: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الآيتان: ١٢٤، ١٢٥].

فلما فات شرطه وهو الصبر والتقوى فات الإمداد(٣).

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، أي: بأني ممدكم.

---

(١) سبق تخريجه قريباً- من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «زاد المعاد» غزوة بدر (٣/ ١٧٧-١٧٨).

ومعنى ﴿مُمِدُّكُم﴾ معطيكم ومزودكم، فالإمداد: العطاء والزيادة من الخير، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠].

و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملَك بفتح اللام، وهم خلق من خلق الله، خلقهم الله من نور، كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(١).

﴿مُرْدِفِينَ﴾، قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب بفتح الدال: «مردَفين»، أي: يردفهم غيرهم من الملائكة بعدهم.

وقرأ الباقون بكسر الدال: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، أي يكون هؤلاء الألف رِدْفاً لغيرهم قبلهم.

والإرداف: الاتباع والإلحاق، أي: متتابعين بعضهم إثر بعض.

فالمعنى على قراءة فتح الدال: أن هؤلاء الألف من الملائكة يأتي بعدهم من يردفهم، أي: يتبعهم.

والمعنى على قراءة كسر الدال: أن هؤلاء الألف يأتون ردفاً، أي: تبعاً لمن قبلهم.

ويؤخذ من معنى القراءتين: أن الإمداد ليس محصوراً في هذا العدد من الملائكة وهم الألف، بل هناك زيادة وإمداد بأكثر منهم ممن يأتون بعدهم، أو ممن جاؤوا قبلهم.

فهذا المدد من الملائكة يُرِدِف ويتبع ويلحق بعضهم بعضاً أرسالاً، لم يأتوا دفعة واحدة، وذلك أرهب وأهيب للعدو.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة**»(٢).

وعن علي- رضي الله عنه- قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ، وفيها أبوبكر رضي الله عنه، ونزل ميكائيل- عليه السلام- في ألف من الملائكة

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) سيأتي تخريجه كاملاً. ومجنبة الجيش: هي التي تكون في الميمنة والميسرة.

عن ميسرة النبي ﷺ، وأنا فيها»[١].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سبب النزول: قوله ﷺ: «ذلك من مدد السماء الثالثة».

وعن ابن عباس- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»[٢].

وعن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: «**ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها- قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة**»[٣].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾، الواو استئنافية، أو عاطفة على ما تقدم، و«ما»: نافية، و«جعل» هنا بمعنى: «صير»، والمراد بالجعل هنا: الجعل الكوني، والضمير في «جعله» يعود إلى الوعد بالإمداد بالملائكة، وهو مفعول أول لـ«جعل».

أي: وما جعل الله وعدكم بالإمداد بالملائكة إلا بشرى، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هو إلا بشرى.

و﴿بُشْرَىٰ﴾ مفعول ثانٍ لـ«جعل»، أو مفعول لأجله، أي: لأجل البشرى.

ولم يقل هنا «لكم» كما قال في سورة آل عمران: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ لأنه سبق في قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، فأغنى عن إعادته مرة ثانية.

وقال بعض أهل العلم: لم يُقيد البشرى هنا بقوله: «لكم» لأن هذه الآية عامة وباقية في الأمة، فأخبر عز وجل أنه جعل الإمداد بُشرى ولم يقيده.

وأما قوله في قصة أحد في آل عمران ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي- شهود الملائكة بدراً (٣٩٩٢).

بِهِۦ﴾ فإنه يقتضي خصوصية البشرى بهم؛ لقوله: ﴿لَكُمْ﴾.

ولهذا قدم قوله: ﴿قُلُوبُكُم﴾ على ﴿بِهِۦ﴾ في قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦](١).

والبشرى والبشارة: الخبر السار، مأخوذة من البَشَرة؛ لأن الإنسان إذا سُر اتسعت بشرته، واستنار وجهه، كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «فلما سلمت على رسول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(٢).

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، الواو عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تطمئن به قلوبكم، واطمئنان القلوب: أن تسكن ويزول عنها الخوف، وتوقن بنصر الله.

وقدم المتعلِّق ﴿بِهِۦ﴾؛ للاهتمام بذلك الوعد، وإفادة الاختصاص، أي: أن قلوبهم لا تطمئن إلا به، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود أيضاً إلى الوعد بالإمداد بالملائكة.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، الواو عاطفة، و﴿مَا﴾ نافية، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: وما النصر إلا من عند الله، فهو الذي ينصر من يشاء، وليس ذلك لكثرة العدد ولا العدة ولا بحولكم وقوتكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة، أي: إن الله ذو العزة التامة المطلقة؛ عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع، يعز وينصر من يشاء بفضله، ويخذل ويذل من يشاء بعدله، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣١٠٢).

﴿ حَكِيمٌ ﴾، أي: ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، بقسميها؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو- عز وجل- ذو الحكم التام والحكمة البالغة، فيما خلق وقدر وحكم، وفيما شرع وأمر ونهى.

فبعزته- عز وجل- ينصر أولياءه المؤمنين، ومن حكمه وحكمته أن شرع الجهاد في سبيل الله لقتال الكفار؛ ابتلاءً وامتحاناً للمؤمنين- مع قدرته- عز وجل- على إهلاك الكفار واستئصالهم بدون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين باستغاثتهم به- عز وجل- وإجابته لهم وإمدادهم بالملائكة امتناناً منه- عز وجل- عليهم- وتذكيراً لهم بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

والمنة منه- عز وجل- على أول هذه الأمة منَّة منه على من جاء بعدهم.

٢- أن الاستغاثة إنما تكون بمن بيده الغوث والإمداد والنصر وهو الرب الخالق المالك المتصرف- سبحانه وتعالى، ولا تجوز بغيره.

٣- الترغيب بالاستغاثة به- عز وجل- وطلب المدد والعون منه، والنصر على الأعداء، والالتجاء إليه.

٤- قرب إجابته- عز وجل- لمن استغاثه ودعاه؛ لأن الله رتب الإجابة في الآية ترتيب الجواب على الشرط.

٥- أن وعد الله- عز وجل- للمؤمنين بإمدادهم بالملائكة إنما هو بشارة لهم ولتطمئن به قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾.

٦- شهود الملائكة مع المؤمنين في بدر وتتابعهم أرسالاً ألفاً أو أكثر لنجدة المسلمين، والقتال معهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

٧- أن النصر حقًّا ما هو إلا من عند الله- عز وجل- وبيده، لا بكثرة العدد والعدة ونحو ذلك- وإن كانت هذه الأسباب لا ينبغي إغفالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

٨- الجمع بين التوكل على الله، وفعل الأسباب، فالنصر من عند الله- عز وجل- وبيده سبحانه- لكن الإمداد بالملائكة من أسباب النصر معنويًّا؛ لتقوية عزائم المؤمنين، وحسيًّا لشهودهم المعركة ومقاتلتهم مع المؤمنين.

٩- إثبات صفة العزة التامة لله- عز وجل- بأقسامها الثلاثة؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

١٠- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله- عز وجل- بقسميها؛ الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١١- في اجتماع صفة العزة والحكم والحكمة- في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال، فعزته مقرونة بالحكمة، وحكمه مقرون بالعزة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

ذكَّر الله- عز وجل- بالآيات السابقة المؤمنين باستغاثتهم به ممتناً عليهم باستجابته لهم وإمدادهم بالملائكة، ثم ذكَّرهم في هذه الآيات ممتناً عليهم- أيضاً- بإلقائه النعاس عليهم أمنة لهم، وإنزال الماء عليهم تطهيراً لهم وإزالة لرجس الشيطان عنهم، وربطاً على قلوبهم، وتثبيتاً لأقدامهم، كما ذكرهم بوحيه- عز وجل- إلى الملائكة أني معكم، وأمرهم بتثبيت المؤمنين، ووعده بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو بفتح الياء والشين وألف بعدها: ﴿يَغشَاكُمُ﴾ و﴿النُّعَاسُ﴾ بالرفع.

وقرأ نافع وأبوجعفر بضم الياء، وإسكان الغين، وكسر الشين: ﴿يُغْشِيكم﴾ و﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح الغين، وكسر الشين مشدّدة: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، و﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ بالنصب.

و﴿ إِذْ ﴾ ظرف بمعنى: «حين» متعلق بمحذوف تقديره «اذكر»، أي: اذكر حين يغشيكم النعاس. وقوله: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ بالمضارع؛ لاستحضار الحالة.

والنعاس: هو النوم غير الثقيل، مثل السِّنَة. والتغشية: التغطية.

فالمعنى على قراءة الرفع «إذ يغشاكم النعاسُ»، أي: إذ يغطيكم النعاسُ، أي: يغطي عقولكم.

وعلى قراءة النصب، أي: إذ يغشيكم الله النعاس، أي: إذ يلقي الله النعاس عليكم،

ويجعله يغطي عقولكم.

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، أي: أماناً، والضمير في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ يعود إلى الله، أي: أماناً من الله- عز وجل- لكم.

و﴿أَمَنَةً﴾ منصوب على المفعول لأجله على قراءة نصب ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾، أي: لأجل تأمينكم وإذهاب الخوف من قلوبكم وطمأنتها بنصر الله، وعلى الحال على قراءة رفع النعاس، أي: حال كونه أمنة من الله- عز وجل- لكم.

وهذه الآية كقوله تعالى- في قصة أحد في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [الآية: ١٥٤].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصدِّيق- رضي الله عنه- وهما يدعوان، أخذت النبي ﷺ سِنة من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل، على ثناياه النَّقْع**»، ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]»[(١)].

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح»[(٢)].

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

هذه هي المنة والنعمة الثالثة التي امتنَّ الله بها عليهم من أسباب النصر، وهي: إنزال المطر عليهم، مع إمدادهم بالملائكة، وإلقاء النعاس عليهم أمنة منه لهم.

﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يطهركم به طهارة ظاهرة من الحدث الأصغر والأكبر والنجاسات الحسية.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٦٣). وقد سبق تخريجه عند **تفسير قوله تعالى:** ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٢٥).

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: ويزيل عنكم بهذا المطر رجز الشيطان ووساوسه وخواطره السيئة، من تخذيلكم، وقوله: ليس لكم بهؤلاء طاقة ونحو ذلك. وهي طهارة باطنة معنوية.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، أي: ولأجل أن يربط على قلوبكم، أي: يثبتها ويقويها، فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن وقوته.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، أي: ويثبت بهذا المطر أقدام الناس ودوابهم عند السير حيث لبد المطر الأرض، واشتدت فسهل السير عليها- بعد أن كانت رخوة ووحلاً.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «نزل النبي ﷺ- يعني حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه بألف من الملائكة، فكان جبريل- عليه السلام- في خمسمائة من الملائكة مجنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مجنِّبة»(١).

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «أصابنا من الليل طش من مطر- يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف، نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه- عز وجل- ويقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد**» قال: فلما أن طلع الفجر نادى: «الصلاة عباد الله» فجاء الناس من تحت الشجر والحجَف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٤)، وأخرجه بأخصر من هذا (١١/ ٦٥-٦٦) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٦٦٥)، وأحمد (١/ ١١٧)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٢-٦٣).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

هذا مما امتنَّ الله به وأنعم على رسوله ﷺ والمؤمنين حيث أمدهم بالملائكة وأوحى إليهم بأنه معهم وأمرهم بتثبيت الذين آمنوا وضرب أعناق الذين كفروا وكل بنان منهم.

قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين» متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، أو متعلق بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، وقيل: متعلق بقوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

والوحي: الإعلام بسرعة وخفاء.

والخطاب في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ، وفيه وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له، وإثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة له.

﴿إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾، أي: إلى الملائكة الذين أمد الله بهم المؤمنين. ووحي الله لهم إما بإلقاء هذا الأمر في نفوسهم، أو إبلاغهم ذلك بواسطة.

﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، أي: بأني معكم، والخطاب للملائكة، وفيه إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة لملائكته وأوليائه؛ معية النصر والتأييد والتوفيق والتسديد، أي: أني معكم بالنصر والتسديد والتأييد.

﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾الأمر للملائكة- أي: قووا قلوب الذين آمنوا على الصبر والجلاد والجهاد، وبشروهم بالنصر، وآزروهم وقاتلوا معهم.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ الجملة مستأنفة فيها وعد وبشارة من الله- عز وجل- بهزيمة الكفار من داخلهم، أي: سألقي وأدخل في قلوب الذين كفروا الخوف والفزع.

وهذه والله أعظم هزيمة لهم، وحافز معنوي للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

وقال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) –
=

وذلك لأن الرعب إذا دخل القلوب، انهارت القوى والأعصاب؛ فلا يستطيع المرء أن يعمل شيئًا، وربما سقط على الأرض حتى لا يستطيع الحركة.

﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ الخطاب للملائكة، أو للمؤمنين، أو لهم جميعاً، و«الأعناق»: الرقاب، أي: فاضربوا أعالي رقاب الكفار، أو فاضربوا رقابهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

وقال بعضهم: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، أي: فوق الرؤوس. والمعنى الأول أظهر.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين: ضرب الرقاب وقطعها، وضرب الرؤوس وفلق الهام؛ لأنها كلها مذابح.

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يمر بين القتلى يوم بدر، فيقول:

نُفَلِّق هاماً... ... ...

فيقول أبو بكر الصديق:

... ... من رجالٍ أعزةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

فيبتدئ ﷺ بأول البيت، ويستحسن من أبي بكر- رضي الله عنه- إنشاد آخره؛ لأنه ﷺ لم يُعلَّم الشعر، ولا يليق به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس: ٦٩][(١)].

﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ﴾ معطوف على ما قبله، والبنان: جمع بنانة، قال الشاعر:

ألا ليتني قطّعْتُ مني بنانةً ولاقيْتُهُ في البيت يَقْظانَ حاذِرا[(٢)]

والبنان: الأصابع، أو أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، أي: اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها.

من حديث جابر رضي الله عنه.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٦٥-٥٦٦).

والبيت المذكور للحصين بن الحمام المري، وهو شاعر جاهلي. انظر: «الشعر والشعراء» (٢/ ٦٤٨).

(٢) البيت بلا نسبة في «مجاز القرآن» (١/ ٢٤٢)، و«جامع البيان» (١١/ ٧٢)، وفي «اللسان» مادة «بنن».

فضرب الأعناق فيه القضاء على الكفار، وضرب كل بنان منهم فيه القضاء على مقاومتهم؛ لأن ضرب البنان فيه تعطيل لعمل اليد وقدرتها على حمل السلاح.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ الإشارة لما سبق من الأمر بضرب أعناق الكفار وضرب كل بنان منهم.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ للسببية، أي: بسبب أنهم، فالجملة تعليلية، أي: إنما أمرنا بضربهم فوق الأعناق، وضرب كل بنان منهم، عقوبة لهم، بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، وفي هذا تحذير من مسلكهم، وترغيب في لزوم طاعة الله تعالى.

ومعنى ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، أي: خالفوا وعصوا الله ورسوله.

والمشاقة: مأخوذة من الشِّق، وهو الجانب؛ لأن المخالف يأخذ شقًّا غير شق صاحبه، وجانباً غير جانبه، ومنه شق العصا، أي: جعلها فرقتين.

وعطف هنا اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله- عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله تعالى كما أن طاعته طاعة لله تعالى.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، أي: ومن يعص ويخالف الله ورسوله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية، أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاق الله ورسوله، وعصى وخالف أمر الله ورسوله، بتسليط أوليائه عليهم، وقتلهم وإنزال أنواع العقوبات فيهم في الدنيا، وتخليدهم في النار في الآخرة.

وفي هذا تحذير وتهديد لكل من شاق الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ ، الإشارة والضمير للعقاب المذكور، والمأخوذ من قوله: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ والخطاب: للذين كفروا

وشاقوا الله ورسوله- على طريق الالتفات- وفيه تبكيت وإهانة لهم حيث يقال لهم هذا حال قتلهم وضربهم.

﴿فَذُوقُوهُ﴾، أي: تجرعوا وقاسوا مرارته، وأحسوا بشدته وألمه في الدنيا.

﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الجملة معطوفة على المشار إليه في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾، أي: ذلكم العقاب الدنيوي، وأن للكافرين في الآخرة عذاب النار.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: «وأن لكم»؛ لتأكيد كفرهم، وبيان شمول هذا الوعيد بالنار لهم ولغيرهم من الكفار.

فعذبهم الله- عز وجل- بهذا العذاب الدنيوي في بدر، وتوعدهم هم وغيرهم من الكفار بعذاب النار في الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله- عز وجل- المؤمنين بما منَّ به عليهم في بدر من أسباب النصر، ومن ذلك تغشيتهم النعاس، أماناً لهم، وطمأنة لقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية.

٢- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين وعنايته بهم بإنزال المطر عليهم في بدر، لتطهيرهم من الأحداث والنجاسات الحسية والمعنوية، وإذهاب رجز الشيطان ووساوسه عنهم، والربط على قلوبهم وتقويتها، وتثبيت أقدامهم أثناء السير وأقدام دوابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

٣- وحي الله- عز وجل- إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المؤمنين بأنه- عز وجل- معهم بنصره وتأييده لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾.

٤- أمر الله- عز وجل- الملائكة بتثبيت وتقوية قلوب المؤمنين في بدر ومؤازرتهم والقتال معهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهكذا حصل ولله الحمد.

٥- تحفيز الملائكة والمؤمنين بوعدهم وبشارتهم بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، والذي يعد من أعظم أسباب هزيمتهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾.

٦- أمر الله الملائكة والمؤمنين وحضهم على ضرب أعناق الكفار، وكل بنان منهم، وتقطيع أطرافهم نكاية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾.

٧- أن ما أمر الله به من ضرب أعناق الكفار وضرب كل بنان منهم والنكاية بهم بسبب كفرهم ومشاقتهم لله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿(١٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٨- التحذير من مشاقة الله ورسوله، والتهديد الأكيد بالعقاب الشديد لمن شاق الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

٩- جواز عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله في باب المشاقة والمعصية بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن مشاقة الرسول ﷺ ومعصيته مشاقة ومعصية لله عز وجل.

١٠- شدة عقاب الله- عز وجل- لمن عصاه وخالف أمره وأمر رسوله، وأنه لا طاقة لأحد بعقاب الله.

١١- تبكيت الكافرين وإهانتهم معنوياً مع ما لقوا من العقاب والنكال الحسي في بدر من ضرب أعناقهم، وضرب كل بنان منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾.

١٢- الجمع للكافرين يوم بدر بين العذاب الدنيوي بضرب أعناقهم وكل بنان منهم وبين عذاب النار في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

١٣- الوعيد لجميع الكافرين من قريش وغيرهم بعذاب النار؛ للإظهار مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ذكَّر الله- عز وجل- المؤمنين في الآيات السابقة ممتنًّا عليهم بما منحهم في بدر من أسباب النصر، من الإمداد بالملائكة، وتغشيتهم النعاس أماناً لهم، وإنزال المطر عليهم، وإعلام الملائكة أنه معهم، وأمرهم بتثبيت المؤمنين، وإلقائه الرعب في قلوب الذين كفروا، ثم أتبع ذلك بنهي المؤمنين عن تولية الكفار الأدبار والوعيد لمن فعل ذلك.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب، و«الذين» صفة لـ«أي»، أو بدل منها.

والإيمان في اللغة: التصديق، كما قال إخوة يوسف- فيما حكى الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، وقال تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: يصدق لهم.

وهو في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾، «إذا» ظرفية شرطية، أي: إذا لقيتم الذين كفروا للقتال والنزال.

﴿زَحۡفٗا ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿لَقِيتُمُ ﴾، أو من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، أو منهما معاً.

الزحف: الدنو والتقارب قليلاً قليلاً، وهو في الأصل الزحف على البطن، وعلى الإلية، ولهذا يطلق الزحف على الجيش الكثير، لثقل تنقله.

والمعنى: إذا لقيتم الذين كفروا متزاحفاً ومتقارباً بعضكم إلى بعض.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾، أي: فلا تفروا وتولوهم ظهوركم، بل اثبتوا لقتالهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(١).

والأدبار: جمع دبر، وهي الظهور، قال تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥]، أي: من خلف ظهره. والتعبير بـ«الأدبار» دون «الظهور»؛ لتقبيح الفرار والانهزام.

قال الحصين بن الحمام:

تأخرتُ استبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدما(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، الواو عاطفة، و«من»: شرطية، أي: ومن يول الكفار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم الزحف واللقاء.

﴿دُبُرَهُۥٓ﴾ قفاه وظهره، بأن يفر من المعركة وينهزم.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ منصوب على الاستثناء المتصل من قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾، أو على الحال: أي: إلا حال كونه متحرفاً لقتال، أي: متحيلاً لأجل القتال، والتحرف: الحيلة الحربية، والفر لأجل الكر؛ لأن الحرب خدعة.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ معطوف على ﴿مُتَحَرِّفًا﴾، أي: أو إلا متحيزاً إلى فئة، أي: منحازاً ومنضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين؛ ليستعين بهم أو ليعينهم.

عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كنت في سرية من سرايا رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأغاني» (١٢/ ٤٥٩).

ﷺ فحاص الناس حيصة[١] وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع، وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة، وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج، فقال من القوم؟ فقلنا: نحن الفرارون. فقال: لا، بل أنتم العكَّارون[٢]، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين. قال: فأتيناه، حتى قبَّلنا يده»[٣].

وفي رواية زيادة: «وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾»[٤].

ولهذا لما قتل أبوعبيد- رضي الله عنه- على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو انحاز إليَّ كنت فئته».

وفي رواية أنه قال: «أنا فئة كل مسلم»[٥].

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾.

والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد»، والباء في قوله: ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للملابسة، أي: فقد رجع ملابساً لغضب الله تعالى عليه، واستحق عقاب الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾، أي: ومصيره الذي يأوي إليه ومرجعه ﴿جَهَنَّمُ﴾، أي: النار، وسميت بذلك؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وقبح وساء المصير والمأوى والمرجع جهنم.

وفي هذا الوعيد بغضب الله والنار ما يدل على شدة تحريم التولي يوم الزحف وأنه من

---

(١) الحيص: الحيد عن الشيء والرجوع عنه، وحاصوا عن العدو: انهزموا.

(٢) العكارون: العطّافون، وهو جمع عكّار، وهو الذي يفر لأجل أن يرجع ويكر.

(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد- التولي يوم الزحف (٢٦٤٧)، والترمذي في الجهاد (١٧١٦)، وأحمد (٢/ ٧٠، ٨٦).

(٤) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧١).

(٥) أخرجهما عبدالرزاق في «المصنف» (٩٥٢٢، ٩٥٢٤، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٥٣٦)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٠، ٨١).

كبائر الذنوب، كما قال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**، وذكر منهن: **التولي يوم الزحف**»(١).

ولهذا عاتب الله المؤمنين على ما حصل منهم يوم أحد فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

ذَكَر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما أمدَّ به المؤمنين من الملائكة وغير ذلك من أسباب النصر على الكفار، ثم أتبع ذلك ببيان أن ما حصل لهم من قتل الكفار يوم بدر والانتصار عليهم إنما هو من الله عز وجل، ليجمع المؤمن بين فعل الأسباب والتوكل على الله.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بسكون النون في الموضعين من قوله: «ولكنْ»، وقرأ الباقون بتشديدها ﴿وَلَٰكِنَّ﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، أي: فلم تقتلوا المشركين بحولكم وقوتكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، أي: أظفركم بهم، وسدد رميكم وسهامكم، وصوب سلاحكم نحوهم، ونصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[آل عمران:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ الآية [التوبة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقدَّم لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ دون أن يقول: ولكن قتلهم الله؛ للاهتمام ببيان معرفة فاعل القتل بعد أن نفى أنهم قتلوهم، وتعظيماً لنفسه عز وجل.

فهو- عز وجل- موجد الأسباب ومسبباتها، وهو خالق أفعال العباد وفي هذا

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٧٤)، والنسائي في الوصايا (٣٦٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرد على القدرية الذين ينفون أن الله خالق أفعال العباد، ويزعمون أنهم هم الذين يخلقون أفعالهم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «رفع رسول الله ﷺ يديه- يعني يوم بدر- فقال: «**يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً**» فقال له جبريل عليه السلام: خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين»(١).

فالخطاب في الآية للرسول ﷺ. والمنفي في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ هو التسديد وإصابة الهدف، ولهذا قال بعده: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت أنه رمى، وفَعَل السبب، ولكن إصابة هذا السبب هدفه هو فِعْل مسببِ الأسباب، وهو الله- عز وجل- ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي: سدد رميك وصوبه نحو وجوه المشركين وعيونهم وأنوفهم وأفواههم. فهو- عز وجل- هو الذي جعل هذه القبضة من التراب تصيب وجوه القوم وتعمهم، وتكون من أسباب هزيمتهم- وهذا آية من آيات الله- عز وجل- ومعجزة له ﷺ.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ معطوف على محذوف يدل عليه ما سبق، أي: فَقَتْلُ المشركين وإصابة أعينهم كان الغرض منه هزيمتهم، وله علة أخرى، وهي: أن يُبليَ المؤمنين، فاللام في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾، للتعليل، أي: ولأجل أن يبلي المؤمنين، والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى الله عز وجل، ويجوز عوده على القتل والرمي فتكون «من»: للسببية، أي: وليبلي المؤمنين بسببه بلاءً حسناً.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٨٥)- وقال في «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٨): «ورجاله رجال الصحيح».

وروي بنحوه من حديث حكيم بن حزام- رضي الله عنه- أخرجه ابن إسحاق، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٠٣)، وقال الهيثمي (٦/ ٨٤): «إسناده حسن».

والمعنى: ولينعم على المؤمنين بالظفر والنصر والغنيمة والأجر المضاعف؛ ليشكروه.

قال زهير[١]:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

قال ابن القيم: «فالبلاء الحسن هنا هو النعمة، بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل مِن: أبلاه بلاءً حسناً، إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله، ولا ابتلاك. فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره- غالباً، كما في الحديث: «**إني مبتليك، ومبتلٍ بك**[٢]»[٣].

وقال السعدي[٤]: «إن الله قادر على انتصار المسلمين من الكافرين من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً، وثواباً جزيلاً».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الجملة مستأنفة فيها معنى التعليل لما قبلها.

أي: إن الله ذو سمع واسع، يسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة- رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله- عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]»[٥].

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

أحاط عز وجل علماً بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود،

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها والصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢، ٢٦٦)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٢٩).

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥٢).

(٥) أخرجه النسائي- في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨).

وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

ولهذا لما سئل موسى- عليه السلام- عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

وقدَّم عز وجل السمع على العلم؛ لأن السمع من أدوات العلم وطرقه وأسبابه.

وفي اقتران كمال السمع مع كمال العلم زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال.

ومن سمعه- عز وجل- وعلمه أن سمع استغاثة المؤمنين ودعاءهم، وعلم حالهم، وحاجتهم لنصره فنصرهم، وعلم من يستحق الخذلان فخذلهم.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ذلكم الإبلاء حق.

والإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ﴾ إلى ما أمد الله به المؤمنين، وما أنعم به عليهم وأبلاهم به من النصر وأسبابه وقتل المشركين ونحو ذلك.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له.

وافتتح الكلام باسم الإشارة؛ للتنبيه على أهمية ما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥] ونحو ذلك. والخطاب للمؤمنين.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير وأبوعمرو «موهِّنٌ» بفتح الواو، وتشديد الهاء وبالتنوين، ونصب «كيدَ».

وقرأ حفص عن عاصم بإسكان الواو، وتخفيف الهاء من غير تنوين، وخفض «كيدِ» على الإضافة: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾.

وقرأ الباقون بإسكان الواو وتخفيف الهاء وبالتنوين: «مُوهِنٌ»، ونصب «كيدَ».

والواو في قوله: ﴿وَأَنَّ﴾ عاطفة، و«أن» وما بعدها في تأويلِ مصدر في محل جر بلام التعليل المحذوفة، والتقدير: ولتوهين كيد الكافرين، أي: وليبلي المؤمنين.. وليوهن كيد الكافرين. ويجوز كون «أن» وما بعدها في محل رفع عطفاً على ﴿ ذَٰلِكُمْ﴾.

ومعنى ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: مضعف مكرهم، ومصغر أمرهم، والكيد في الأصل: المكر الخفي، والمراد به هنا ما يشمل المكر الخفي والجلي، وهذا وعد وبشارة من الله تعالى للمؤمنين بعد نصرهم في بدر بإضعاف كيد الكافرين ومكرهم في المستقبل، وفيه ما لا يخفى من تحفيز المؤمنين وتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

عن عبدالله بن ثعلبة بن صُعَير- رضي الله عنه- قال: «لما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض قال أبوجهل: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأَحِنْه الغداة. فكان هو المستفتح»(١).

قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الآية.

الخطاب للمشركين، أي: إن تطلبوا الفتح والفصل والحكم بينكم بإهلاك وعقاب من كان أقطع للرحم وأظلم من الطائفتين.

﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هذا على سبيل التهكم بهم، أي: فقد بان لكم الفتح وظهر، وهو الفتح للمؤمنين ونصرهم عليكم، والفصل بينكم وبينهم.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: وإن تنتهوا عن الاستفتاح، وعما أنتم عليه من الكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٤٧) (٢٣٦٦١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥) (٣٦٦٨١)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب التفسير- قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ (١١٢٠١)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٩٣، ٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٧).

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: فانتهاؤكم خير لكم خيرية مطلقة من جميع الوجوه في دينكم ودنياكم وأخراكم، وهذا من استعمال التفضيل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل؛ لأن استمرارهم على ما هم عليه من الاستفتاح والكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله شر محض ليس فيه شيء من الخير لهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. فليس في النار شيء من الخير، بل هي شر محض.

وقوله: ﴿لَّكُمْ﴾؛ لأن منفعة ذلك تعود في المقام الأول إليهم، وإن كان في انتهائهم عما هم عليه من الكفر خير للمؤمنين حيث يسلمون من شرهم وأذاهم.

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، أي: وإن ترجعوا إلى الاستفتاح والعناد والقتال ﴿نَعُدْ﴾، أي: نعد لكم بمثل هذه الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر، وإلى هزيمتكم ونصر المؤمنين عليكم.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، الواو عاطفة، و﴿تُغْنِيَ﴾ تنفع وتدفع، ﴿فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم وأنصاركم، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أي شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً.

أي: ولن تغني عنكم جماعتكم أي شيء مهما كان بجلب النفع لكم، أو دفع الضر عنكم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، أي: ولو كثر عددها، كما لم تغن عنكم كثرتكم يوم بدر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر وحفص عن عاصم بفتح الهمزة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «وإن الله» على الاستئناف.

أي: وأن الله مع المؤمنين معية خاصة، بتوفيقه وتأييده لهم، وإمدادهم ونصرهم، وإن قل عددهم وعدتهم، كما أيّد عز وجل حواريِّي عيسى ابن مريم- عليه السلام- وأنصاره مع قلتهم، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

كما يوفّق ويؤيّد بهذه المعية الخاصة أولياءه المتقين الصابرين، وعباده المحسنين، وإن كانوا هم الأقلين، كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم

مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٣- أن الثبات عند ملاقاة الكفار زحفاً من مقتضيات الإيمان، وأن الفرار من الزحف يُعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ الآية.

٤- تحريم الفرار من الزحف عند ملاقاة الكفار، والتنفير منه، وأنه من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

٥- الوعيد الشديد لمن فر من الزحف وولى الكفار دبره لما رتب على ذلك من غضب الله والمصير إلى جهنم- وهو في هذا تحت مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولا يخلد في النار؛ لأنه لا يخلد فيها إلا المشرك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

٦- في النهي عن تولية الكفار الأدبار عند الزحف والوعيد الشديد عليه إشارة وتنبيه إلى عظم أثر ذلك؛ لما فيه من تعريض المسلمين للهزيمة والفت في عضد المجاهدين وتحطيم معنوياتهم، وإضعاف عزائمهم.

٧- تأكيد وجوب الثبات عند لقاء العدو، وأنه سبب لمرضاة الله- عز وجل- والوقاية من نار جهنم؛ لمفهوم قوله تعالى فيمن ولى الكفار دبره: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

٨- إثبات صفة الغضب لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

٩- إثبات جهنم وأنها معدة لتعذيب الكافرين والعصاة، وشدة ظلمتها وحرها وبعد قعرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾.

١٠- ذم جهنم وأنها بئس المصير والمرجع؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا يعلم مدى بؤسها وقبحها إلا من وصفها بذلك، وهو العليم الخبير.

١١- ليس من الفرار من الزحف تولية الكفار الدبر تحرفاً واحتيالاً لقتال، أو تحيزاً إلى فئة ليناصرهم ويناصروه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

١٢- أن الحرب حيلة وخدعة؛ لقوله تعالى: ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾.

١٣- أن ما حصل للمسلمين من نصر على المشركين في بدر، وقتل لهم إنما هو من الله عز وجل لا بحولهم ولا قوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

١٤- أن ما حصل من رميه ﷺ بالقبضة من التراب وجوه المشركين وإصابتهم جميعاً بذلك هو من الله- عز وجل- وتسديده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

١٥- إثبات أن الله- عز وجل- خالق أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون إن العباد يخلقون أفعالهم.

١٦- إثبات الأسباب ومسبباتها، وأن على العبد فعل السبب والتوكل على الله- عز وجل- فالأمر كله بيده.

١٧- نعمة الله- عز وجل- العظيمة على المؤمنين، وإبلاؤه لهم البلاء الحسن في نصرهم على عدوهم مع كثرته، وقلة عددهم، ليعرفوا قدر نعمة الله- عز وجل- عليهم، ويشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

١٨- قدرة الله- عز وجل- التامة على الانتقام من الكافرين بقوله للشيء: «كن» لكنه- عز وجل- أمر المؤمنين بقتالهم ليجزل لهم الأجور، ويعظم لهم المثوبة.

١٩- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- فهو- عز وجل- يسمع الدعاء وجميع

الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾.

٢٠- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- فهو- عز وجل- ذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ ومن ذلك علمه- عز وجل- بمن يستحق النصر، ممن يستحق الخذلان.

٢١- في اجتماع صفة السمع الواسع لله- عز وجل- مع العلم الواسع زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال.

وفي تقديم وصفه با لسميع على وصفه بالعليم إشارة إلى أن السمع من وسائل وطرق العلم وأدواته.

٢٢- وعد الله- عز وجل- وبشارته للمؤمنين بإضعاف كيد الكافرين ومكرهم، وفي هذا تحفيز معنوي للمؤمنين وتشجيع لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٣- الإشارة إلى عظمة ما منَّ الله به على المؤمنين في بدر من النصر وأسبابه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ بإشارة البعيد. وأعظم بذلك من منة ونعمة فقد كانت بدر الفاصلة الكبرى بين الحق والباطل والإيمان والشرك، ويومها يوم الفرقان.

٢٤- استفتاح الكفار بطلب الفتح والفصل بينهم وبين المؤمنين بإهلاك من كان أقطع للرحم وأظلم من الطائفتين، ومجيء الفتح من الله بنصر المؤمنين عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

٢٥- جواز التهكم بأهل الكفر والباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فهذا على سبيل التهكم والسخرية بهم، فالفتح جاء ولكن ليس لهم، ولكن للمؤمنين عليهم.

٢٦- ترغيب الكفار بالرجوع عن الاستفتاح، وعما هم عليه من الكفر والتكذيب والمحادة لله ورسوله إلى الإيمان والطاعة، وبيان أن ذلك خير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢٧- إطلاق التفضيل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فليس في عدم انتهائهم عما هم عليه من الكفر خير

البتة، بل هو شر محض.

٢٨- تحذير الكفار وتهديدهم من العود إلى ما هم عليه من المحاربة لله ورسوله، والاستمرار على ذلك، بالإيقاع بهم وهزيمتهم- كما حصل لهم في بدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾.

٢٩- هزيمة الكفار أمام قوة الحق والإيمان، مهما كثرت جموعهم وأنصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

٣٠- إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة بالمؤمنين، بتأييده وتوفيقه ونصره لهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في مطلع السورة بطاعة الله ورسوله بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وذكر ما كان منهم من كراهية الخروج إلى بدر، ومودتهم لقاء العير لا النفير، وما تلا ذلك من تأييد الله- عز وجل- لهم بأسباب النصر، بسبب طاعتهم لله ورسوله، وهزيمة المشركين بسبب مشاقتهم لله ورسوله، ثم أكد في هذه الآية الأمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وحذر من التولي والمخالفة، وفي هذا تحقيق معية الله الخاصة للمؤمنين التي ذكرها الله في الآية السابقة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾.

قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الطاعة: الامتثال، بفعل الأمر، وترك النهي، أي: أطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، والأمر في الآية للوجوب.

وقد عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم «الله» بالواو، وهي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، بل هي طاعة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، ولتأكيد هذا المعنى لم يكرر الفعل «أطيعوا».

وهذا بخلاف باب المشيئة، فلا يجوز أن يقال: ما شاء الله ورسوله، ونحو ذلك؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ وجميع الخلق إنما هي تابعة لمشيئة الله- وليست منها.

ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال ﷺ: «**أجعلتني والله عَدْلاً؟ ما شاء الله وحده**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي حديث قَتِيلة أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تُنَدِّدون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، «**فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله ثم شئت**»(١).

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، الواو: عاطفة و«لا» ناهية، وهذه الجملة توكيد للأمر بطاعة الله ورسوله.

و﴿تَوَلَّوْا﴾ أصلها «تتولوا» فحذفت إحدى التائين تخفيفاً. والتولي: الانصراف بالبدن، والإعراض بالقلب.

والضمير في قوله: ﴿عَنْهُ﴾ يعود إلى الله، أو إلى رسوله، ويجوز عوده إلى الأمر بطاعة الله ورسوله.

والمراد النهي عن المخالفة وعصيان الله ورسوله، فهو توكيد للأمر بطاعتهما.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، الواو حالية، أي: والحال أنكم تسمعون ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره ونواهيه، ومواعظه وحججه وبراهينه، مما تقوم به عليكم الحجة.

فالمراد هنا السماع الذي تقوم به الحجة، والذي هو مناط التكليف.

وفي هذا النهي- مع اكتنافه بالكلام عن الكافرين- زجر للمؤمنين عن مخالفة أمر الله تعالى ورسوله، والتشبه بالكافرين المعاندين.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ فالنهي فيها للمؤمنين، أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون كالذين قالوا من المشركين والمنافقين ونحوهم ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، والمقصود التعريض بذم من هذه صفتهم، والتحذير من مسلكهم.

وقولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾، أي: سمعنا سماعاً مطلقاً بالآذان والقلوب.

هكذا يزعمون، وهم في الحقيقة إنما سمعوا بآذانهم ما تقوم به الحجة عليهم،

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢).

لكنهم لم يسمعوا بقلوبهم ولم ينتفعوا، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: لم ينتفعوا بما سمعوه بقلوبهم وجوارحهم، فصاروا كمن لا يسمع، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: لا يسمعون بها سماع انتفاع، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التشبه بالذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وهم الكفار، ثم بيَّن أن هؤلاء هم شر الدواب وشر الخلق؛ تأكيداً لوجوب البُعد عن التشبه بهم.

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾، الدواب: جمع دابة، وهي: كل ما دب ويدب على الأرض، ويمشي عليها من الحيوانات الناطق منها والبهيم. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي: إن شر ما يدب على الأرض من المخلوقات والحيوانات.

و﴿شَرَّ﴾ اسم تفضيل، كما هو في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠]. وأصله «أشر» فحذفت همزته تخفيفاً، كما حذفت همزة «خير».

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في علم الله- عز وجل- وحكمه.

﴿ٱلصُّمُّ﴾ جمع أصم، والأصم: الذي لا يسمع، والمراد: الصم عن سماع الحق، أي: عن الإصغاء إليه والانتفاع به.

﴿ٱلْبُكْمُ﴾، أي: البكم عن فهم الحق والنطق به. فهم عمي القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: الذين لا يعقلون عقلاً ينفعهم، فعندهم عقل الإدراك

الذي هو مناط التكليف، وليس عندهم عقل الانتفاع الذي هو مناط المدح، ولهذا شبهوا بالصم لعدم انتفاعهم بما يسمعون، وبالبكم، لعدم فهمهم الحق والنطق به، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وفي الآية إشارة أيضاً لانقطاع حجتهم عن رد الحق، كما صمت آذانهم عن سماعه، وخرست ألسنتهم عن النطق به، وعميت قلوبهم عن فهمه والانتفاع به، فهؤلاء هم شر الدواب وهم شر البرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وإنما كان الكفار والمنافقون ونحوهم شر الدواب وشر البرية، لأنهم خلقوا لعبادة الله- عز وجل- وحده، فكفروا به، بينما كل من سواهم من المخلوقات أطاعت وانقادت لما خُلِقَت له، كما قال- عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى كل مخلوق لما خُلِق له.

ولهذا قال تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الآية: ١٨].

فسبحان الله- العظيم- إنها لحكمة بالغة أن تطيع وتنقاد جميع المخلوقات وتخضع لربها سوى كثير من الناس- مع ما ميَّز الله به الإنسان وكرَّمه على سائر المخلوقات من العقل وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾، الواو استئنافية، و«لو»: حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط. و﴿خَيْرًا﴾ نكرة تعم أيَّ خير، أي: ولو علم الله فيهم أيَّ

خير، من صدق ورغبة في الإيمان وغير ذلك. ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾، اللام واقعة في جواب «لو» أي: لأسمعهم سماع تدبر وفهم بقلوبهم، واستجابة وانقياد بجوارحهم.

ومفهوم هذا أنه- عز وجل- لم يعلم فيهم أيَّ خير مهما قل.

وإذا لم يعلم الله فيهم أيَّ خير، فهم لا شك لا خير فيهم البتة، ولهذا لم يسمعهم بالمعنى المذكور، أما إسماعهم بالآذان الذي تقوم به الحجة عليهم فهو حاصل لهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: ٢١].

قال ابن القيم- في كلامه على الآية: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾-:

«فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها، ووقع عليها، كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية، التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فلا هي قابلة للماء، ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له»[1].

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ معطوفة على الجملة قبلها، فيها تأكيد لانتفاء أي خير عنهم، أي: ولو قُدِّر أن الله أسمعهم سماع فهم- وهم بهذا الوصف لا خير فيهم- ﴿لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ واقعة في جواب الشرط «لو»، أي: لتولوا بأبدانهم.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، الواو للحال، أي: حال كونهم معرضين بقلوبهم عن قصد؛ استكباراً وعناداً، فجمعوا بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب.

والمتولي ببدنه قد يرجع، لكن المعرض بقلبه لا أمل في رجوعه مهما سمع، وهذا هو محض عدم الخيرية التي علمها الله تعالى فيهم، وحالت دون إسماعهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٢٩).

قال ابن القيم: «فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان للتكريم والتشريف لهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعد هذا النداء من أمر أو نهي، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- وجوب طاعة الله تعالى ورسوله، بامتثال ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣- أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى حيث عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم «الله»، بالواو التي تقتضي التشريك، ويؤكد هذا عدم تكرار العامل مع قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه وتكريمه بإضافته إلى ضميره عز وجل.

٥- نهي المؤمنين عن التولي عن الله ورسوله، وعن أمر الله عز وجل ورسوله، وهم يسمعون كلام الله عز وجل وما فيه من الأمر والنهي والحجج والبراهين والمواعظ، وهذا توكيد للأمر بطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

٦- أن التولي عن طاعة الله ورسوله مع قيام الحجة بسماع الحق- أعظم وأشد، بل هو الذي يؤاخذ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

٧- التعريض بذم الكفار، الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وتحذير المؤمنين من مسلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

٨- أن السماع قسمان: سماع بالآذان به تقوم الحجة على المكلفين، وسماع تدبر وانتفاع

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٣٠).

وتعقل، وهو مناط المدح، وضده مناط الذم.

٩- أن شر الدواب عند الله وشر الخليقة الصم عن سماع الحق، البكم عن النطق به وفهمه وتعقله من الكفار والمنافقين ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

١٠- أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، وبدونه لا يكلف الإنسان، كما قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصغير حتى يبلغ**»(١).

وعقل هو مناط المدح والذم يثبته الله- عز وجل- للمؤمنين ويمتدحهم به، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

وينفيه- عز وجل- عن الكافرين، ويذمهم بذلك كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهو العقل الذي تطالب به الفئتان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

١١- طاعة جميع المخلوقات وخضوعها لربها، واهتداؤها لما خلقت له، سوى الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولله في ذلك حكمة.

١٢- انعدام الخيرية مطلقاً عند هؤلاء الكفار، مما حال بينهم وبين فهم القرآن والانتفاع به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، أي: لأسمعهم سماع فهم وتدبر، أما سماع الآذان الذي تقوم عليهم به الحجة فهو موجود عندهم كغيرهم.

١٣- شدة عناد المذكورين وبُعدهم عن الحق وقطع الأمل في استجابتهم، حتى لو

---

(١) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٠٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٢)، من حديث علي- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

أسمعهم الله وأفهمهم القرآن لجمعهم بين التولي بالأبدان والإعراض بالقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٤- من كتب الله عليه الضلالة فلا سبيل إلى هدايته، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ .

هذا فيه توكيد لما سبق من أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله، والترغيب في ذلك ببيان أن في ذلك حياتهم.

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ بمعنى: أجيبوا، قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب(١)

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ أبلغ من «أجيبوا»؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالباً- على زيادة المعنى، فالتاء والسين فيه للتأكيد والمبالغة، وعدي باللام- كما هو الغالب- إذا اقترن بالسين والتاء.

والمعنى: اسمعوا وأجيبوا وانقادوا لله وللرسول. والأمر للوجوب.

﴿لِلَّهِ﴾، أي: فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾، أي: واستجيبوا للرسول فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

وفي عطف قوله ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ دون إعادة العامل ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ دلالة على أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله عز وجل.

وفي إعادة العامل وهو لام الجر في قوله ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ إشارة إلى وجوب الاستجابة لما أمر به ﷺ استقلالاً، وإن لم يأت الأمر به في القرآن الكريم؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي. انظر: «الأصمعيات» (ص١٤).

الهوى، ولا يأمر إلا بما أوحاه الله تعالى إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية، وفاعل ﴿دَعَاكُمْ﴾ ضمير مستتر يعود إلى الله عز وجل، أو إلى الرسول ﷺ، وهو الأظهر؛ لأنه أقرب مذكور، وهو المباشر لدعوتهم، وهو مبلغ عن الله عز وجل، وإجابته إجابة لله عز وجل.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، اللام حرف جر، و«ما»: موصولة، أي: للذي يحييكم، أي: يحيي قلوبكم وأرواحكم وأبدانكم، وبه صلاح أمر دينكم ودنياكم وأخراكم.

وهو ما أنزل الله- عز وجل- على رسوله ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة، وما فيهما من الهدى والعلم النافع والعمل الصالح الذي به حياة القلوب والأبدان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وعن أبي سعيد بن المعلى- رضي الله عنه- قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**»، ثم قال: «**لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «**الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»[(١)].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح:٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع الذي به حياة القلوب والعمل الصالح الذي به حياة الأبدان.

وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٤٧٤)، وأبوداود في الصلاة (١٤٥٨)، والنسائي في الافتتاح (٩١٣)، وابن ماجه في الأدب (٣٧١٥).

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأً لم يحي بالعلم ميت ... فليس له قبل النشور نشور[(١)]

وكذا ما فيهما، أي: الكتاب والسنة من الأمر بالجهاد الذي هو سبب الحياة قبل الممات وبعده، فإن بالجهاد حياة الناس وسلامتهم من قتل عدوهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، كما أن الاستشهاد فيه سبب للحياة بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ افتتحت هاتان الجملتان الخبريتان بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ للاهتمام بهما والحث على معرفة مضمونهما وتصديق خبرهما، وهذا كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

وقال ﷺ لأبي مسعود البدري رضي الله عنه: «**اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**»[(٢)].

والمصدر المؤوّل من «أن» المؤكدة وما بعدها في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ﴾ في محل نصب سد مسد مفعولي «علم».

والحول بين الشيئين: منع اتصال أحدهما بالآخر، كما قال تعالى في قصة نوح- عليه السلام- وابنه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

والمعنى أنه- عز وجل- يملك على المرء قلبه، ويصرفه كيف يشاء، فيحول بينه وبين الكفر إن أراد هدايته، وبينه وبين الإيمان إن أراد ضلاله، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان»[(٣)].

---

(١) انظر: «تفسير السمعاني» (٢/ ١٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٥٩)، وأبوداود في الأدب (٥١٥٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٠٨)، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٢٨).

وفي هذا تحذير من عدم المبادرة إلى الاستجابة لله وللرسول؛ لأن ذلك قد يكون سبباً في أن يحول الله بينه وبين قلبه فيمنعه من الاستجابة في ثاني الحال لَمَّا امتنع منها في أول الحال، كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٠١].

كما أن في الآية ترغيباً في الإكثار من الدعاء المأثور: «يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك»، «يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك» كما في حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك**» قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلِّبها كيف يشاء**»(٢).

وعن النواس بن سمعان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**»، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك**»، قال: «**والميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً، ويخفض آخرين إلى يوم القيامة**»(٣).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: «**يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر

---

(١) أخرجه مسلم في القدر- تصريف الله القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨، ١٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي في القدر- ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢٢٢٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)- وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، وابن ماجه في المقدمة- فيما أنكرت الجهمية (١٩٩).

تدعو بهذا الدعاء. فقال: «**إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه**»(١).

كما أن في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ إشارة إلى علمه- عز وجل- بما تنطوي عليه القلوب، وتحذير من مخالفة الباطن للظاهر، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، أي: واعلموا أنه- عز وجل- إليه وحده دون غيره تجمعون فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، فالمآب إليه، والحساب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وفي هذا إشارة إلى أنه لا ملجأ ولا منجى منه- عز وجل- إلا إليه، ووعد لمن استجاب لله وللرسول، ووعيد لمن استكبر وتولى، وتحذير من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦، المجادلة: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في الآية السابقة بالمبادرة للاستجابة لله وللرسول محذراً لهم من ترك ذلك، أو إضمار ما يخالف الباطن، مما قد يكون سبباً للحيلولة بينهم وبين الاستجابة بعد ذلك، ومذكراً لهم بأن مردهم إليه فيجازيهم على أعمالهم.

ثم حذرهم في هذه الآية من عقوبة عاجلة تعم الظالم وغيره إذا كثر الشر والفساد وظهر المنكر ولم يغير.

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، الواو: عاطفة، والخطاب للمؤمنين. والتقوى: الحذر من الشيء الضار والمخوف، واتخاذ وقاية منه.

والفتنة: الابتلاء والاختبار، وتكون بالشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٩١)، وأخرجه بمعناه وأطول منه (٦/ ٣٠١-٣٠٢)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

والمراد بها هنا الابتلاء بالعقوبة، أو ما يكون سبباً لها كإقرار المنكر وترك الجهاد ونحو ذلك.

أي: واحذروا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واتقوها بالاستجابة لله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستغفار، وفعل المأمورات وترك المنهيات.

وقوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، ﴿لَّا﴾ نافية، والجملة صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، ﴿خَآصَّةً﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: لا تصيبن الذين ظلموا منكم إصابة خاصة بهم، أو حال، أي: حال كونهم خاصة، بل تصيبهم وغيرهم.

والمعنى: إذا أصابتكم لا تختص إصابتها بالذين ظلموا بارتكاب المعاصي ﴿مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، بل تعم الظالم وغيره، والصالح والطالح إذا كثر الظلم وانتشر، ولم ينكر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»(١).

وهذا من سنن الله الكونية أن العقوبات إذا كثر الخَبَث وظهر المنكر ولم يغير تعم فاعل المنكر وتارك الإنكار، فالأول لفعله المنكر، والثاني لإقراره وعدم إنكاره.

كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وعن زينب بنت جحش- رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخَبَثُ**»(٢).

وعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل القائم على**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٣).

حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(١).

وعن حذيفة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه، فلا يستجيب لكم**»(٢).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمَّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أُناس صالحون؟ قال: بلى. قلت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**»(٣).

وعن جرير- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي هم أَعَزُّ وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه؛ إلا عمَّهم الله بعقاب**»(٤).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم**»(٥).

والخطاب في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ عام لجميع المؤمنين من الصحابة ومن بعدهم.

وقد روى مطرف قال: «قلنا للزبير: يا أبا عبدالله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٤)، وأحمد (٤/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨، ٣٨٩)، والترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦١، ٣٦٤)، وأبوداود في الملاحم- الأمر والنهي (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩).

(٥) ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٨٤٧).

ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت»[١].

وفي رواية عن الزبير- رضي الله عنه- قال: «لقد خوفنا بها- يعني قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾». وفي رواية: «لقد نزلت وما نرى أحداً منا يقع بها، ثم خلفنا حتى أصابتنا خاصة»[٢].

وفي رواية عن الزبير- رضي الله عنه- قال: «لقد قرأت هذه الآية زماناً، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾»[٣].

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة»[٤].

وهذه الآثار عن الزبير وابن عباس- رضي الله عنهما- إن صحت فغايتها إنما تدل على أن الصحابة من جملة المعنيين في الآية، وهذا لا إشكال فيه، أما قصرها على الصحابة وما وقع بينهم أيام عثمان أو أيام علي- رضي الله عنهما- فهذا ليس بصحيح؛ لأن الآية عامة لجميع الأمة.

فالزبير- رضي الله عنه- فيما رُويَ عنه وربما روي عن غيره من الصحابة ما كانوا يتوقعون أن هذه الفتنة تقع فيهم. وهكذا حال كثير من الناس الذين هم أقل منزلة وإيماناً من الصحابة عندما يُخوفون بالفتن قد يستبعدون وقوعها فيهم، ثم ما تلبث أن تقع بهم، وكانوا يظنون أن تقع في غيرهم، أو أنها لا تدركهم؛ ولهذا حذر الله- عز وجل- منها، وحذر منها نبيه المصطفى ﷺ.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٥).

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٤، ١١٦).

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢).

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٧٨).

صُدر هذا الخبر بالأمر بالعلم مع التوكيد بـ«أن» للاهتمام وشدة التحذير من عقاب الله تعالى أي: واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ولم يستجب لله ولرسوله ﷺ، وعرض نفسه للفتن وعقاب الله وعذابه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين بالطاعة والاستجابة له ولرسوله ﷺ وحذرهم فتنة تعم الصالح والطالح، وعقابه الشديد، ثم ذكّرهم حالهم حين كانوا قلة مستضعفين خائفين، فأنعم عليهم وأحسن إليهم، فآواهم وكثَّرهم وأيَّدهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات ليشكروه.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ما قبله، والخطاب للمؤمنين، وبخاصة المهاجرين منهم، و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين».

أي: واذكروا أيها المؤمنون، أي: تذكروا .

﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ عددكم.

﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يستضعفكم الكفار ويقهرونكم ويؤذونكم، وأنتم أبناء العم والعشيرة. وقد قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند[1]

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: في أرض مكة، وفي أي أرض نزلتم. فأنتم ضعفة تحت حكم غيركم.

﴿تَخَافُونَ﴾، أي: تخافون بسبب قلتكم وشدة ضعفكم.

﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ﴿تَخَافُونَ﴾، أي: تخافون تخطف الناس لكم، والتخطف: شدة الخطف، والخطف: الأخذ بسرعة، قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، أي: يأخذها

---

(١) البيت لطرفة بن العبد. انظر: «ديوانه» (ص٢٧).

بشدة وبسرعة.

والمعنى: تخافون تخطف الناس لكم من المشركين وغيرهم وأخذهم لكم، ونيلهم منكم بالمكروه في أنفسكم وأموالكم وأعراضكم، كما قال تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾، أي: فجعل لكم مأوى تأوون إليه، بأن أذن لكم في الهجرة إلى المدينة، وقيَّض لكم الأنصار، آووكم، وواسوكم، ونصروكم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٤].

فأعزكم بهم بعد الذلة، وكثَّركم بعد القلة، وذلك من أعظم أسباب القوة.

ولهذا قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر[1]

وقالوا في المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة».

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾، أي: قوَّاكم وثبَّتكم بنصره لكم في بدر بأسباب النصر كلها من الإمداد بالملائكة وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: وأعطاكم من الطيبات؛ من الحلال، وما يستلذ ويستطاب بمشاطرة الأنصار لكم أموالهم، وبما غنمتم من أموال المشركين يوم بدر، وبما أدرَّ الله عليكم من الخيرات، وسعة الرزق بسبب الأمن، وأغناكم به بعد الفقر العيلة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: لأجل أن تشكروا الله- عز وجل- على هذه النعم العظيمة والآلاء الجسيمة بطاعته والاستجابة له- عز وجل- ولرسوله ﷺ.

فأمر الله- عز وجل- المؤمنين بتذكر حالهم حين كانوا مستضعفين في الأرض

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

خائفين تخطف الناس وأخذهم لهم- ثم ذكر ما امتنَّ به عليهم من إيوائهم إلى المدينة وتكثيرهم بالأنصار بعد القلة، وتأييدهم وتقويتهم بنصره لهم بعد الضعف والذلة، ورزقه لهم بعد الفقر والعيلة.

وهذا وذاك؛ ليقارنوا حالهم الأولى بحالهم الثانية، فيعرفوا عظم قدر نعمة الله عليهم، ويشكروه حق شكره؛ لأنه لا يعرف قدر النعمة تماماً إلا من جرَّب فقدها، وتجرع مرارة ضدها.

ولهذا امتنَّ الله- عز وجل- على نبيه ﷺ وذكَّره بنحو مما ذكَّر المؤمنين وامتنَّ عليهم به، فقال تعالى في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦-٨].

فقد نشأ ﷺ يتيم الأبوين فسخَّر الله له جده عبدالمطلب، فكفله وآواه، ثم عمه أبا طالب، ثم بايعه الأنصار- رضي الله عنهم- على أن يؤووه ويناصروه في العقبة الأولى والثانية، وهاجر مَن هاجر من المؤمنين إلى الحبشة فآواهم النجاشي- رحمه الله، إلى أن حصل لهم الإيواء التام والنصر المبين، والرزق الوفير بعد هجرتهم إلى المدينة.

وهكذا قال عز وجل في سورة النور في وعد المؤمنين: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

كما قال عز وجل قبل ذلك كله لقريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ٣، ٤].

وقد قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى»، و«بضدها تتميز الأشياء».

الفوائد والأحكام:

١- العناية بخطاب المؤمنين وتشريفهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢- أن من مقتضى الإيمان الاستجابة لله وللرسول وتقوى الله وشكره، وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء.

٣- وجوب الاستجابة لله وللرسول؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

٤- أن الحياة الحقيقية كل الحياة، فيما دعا الله ورسوله إليه فيما أنزل من الكتاب والسنة، ففي ذلك حياة القلوب والأرواح والأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٥- أن من لم يستجب لله ورسوله، فهو كالميت؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٦- في عطف قوله: «للرسول» دون إعادة العامل ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ دلالة على أن الاستجابة للرسول ﷺ استجابة لله عز وجل.

كما أن في إعادة لام الجر إشارة إلى أن الاستجابة للرسول ﷺ تجب استقلالاً وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم.

٧- إثبات أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء بين الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٨- التأكيد على وجوب الاستجابة لله وللرسول والمبادرة إلى ذلك بالعمل الصالح والاستغفار، والعلم بأن الله قد يحول بين المرء وقلبه، وقد يعرض للإنسان ما يمنعه من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

٩- إثبات خلق الله- عز وجل- لأفعال العباد كلها خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن الخلق يخلقون أفعالهم.

١٠- إثبات المعاد وجمع الخلائق وحشرهم إلى الله عز وجل، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

١١- تحذير المؤمنين من الصحابة ومَن بعدهم من فتنة تعم المسيء وغيره، وتشمل الصالح والطالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾.

١٢- إذا ظهرت المعاصي، ولم تنكر عمت الفتنة والعقوبة الصالح والطالح؛ لقوله

تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ وهذا من سنن الله الكونية، مما يوجب الحذر من ذلك.

١٣- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- مع استطاعته ذلك فهو شريك في الإثم والعقوبة لمن ترك المعروف وارتكب المنهي.

١٤- تأكيد شدة عقاب الله وعذابه لمن خالف أمره وعصاه، والحث على العلم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾..

١٥- تذكير المؤمنين بما هم عليه في أول الإسلام وقبله من القلة والضعف والفقر والخوف من تخطف الناس لهم، وما منَّ الله به عليهم بعد ذلك من إيوائهم المدينة وتكثيرهم بالأنصار وتأييدهم وتقويتهم بنصره لهم في بدر وتوسيع رزقهم، ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

١٦- أن القلة سبب للاستضعاف وتسلط الآخرين واعتدائهم؛ لهذا ذَكَّر الله المؤمنين بحالهم حين كانوا قلة مستضعفين يخافون تخطف الناس لهم.

وفي المقابل فالكثرة سبب للقوة، ولهذا ذكر شعيب عليه السلام قومه بنعمة الله عليهم بتكثيرهم فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ [الأعراف:٨٦].

ولكن هذا ليس على إطلاقه، فقد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهكذا نصر الله المؤمنين في بدر وهم قلة أذلة.

١٧- أن الأمن أهم من الرزق، بل هو سبب الرزق، لهذا قَدَّم قوله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

وقال ﷺ في الحديث: «**من أصبح آمناً في سربه معافىً في بدنه عنده قوت يومه**

فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[1]، فذكر الأمن أولاً، وقال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [الآية: ٩٧]، أي: جعلها سبباً لأمنهم تقوم به أمور دينهم ودنياهم.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٩- لا يعرف قدر النعمة تماماً إلا مَن جرَّب فقدها، وذاق مرارة ضدها.

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤١)، من حديث سلمة بن عبيدالله بن محصن الخطمي عن أبيه رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله، ثم حذَّرهم في هذه الآية من خيانة الله والرسول بعدم امتثال ذلك، أو بإظهار الطاعة والاستجابة مع إضمار ما يخالف ذلك في الباطن.

رُويَ عن الزهري، وعبدالله بن أبي قتادة: «أن هذه الآية نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه، أي: أنه الذبح، ثم فطن أبولبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً، وربط نفسه في سارية مسجد المدينة حتى أنزل الله توبته، وحل رسول الله ﷺ رباطه بيده»(١).

والعبرة بعموم اللفظ لو صح هذا السبب.

قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ﴿لَا﴾ ناهية، والخيانة: النقض، والنقض: ضد الوفاء والأمانة.

وخيانة الله والرسول: عدم القيام بما أوجب الله ورسوله أو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

و«ال» في الرسول: للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ.

وعطفه على اسم الله دون إعادة العامل «تخونوا»؛ لأن خيانة الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٢١-١٢٢، ٦٥٧)، وعبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ٢٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٤)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص(١٥٧-١٥٨) وروى غير ذلك.

خيانة لله تعالى.

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ معطوفة على جملة النهي قبلها.

والأمانات: جمع أمانة، وهي كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين الله، ومما بينه وبين الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وخيانة الأمانات: التفريط فيها وإضاعتها، وعدم حفظها والقيام بحقها.

والأمانات قسمان: واجبات يجب القيام بها والمحافظة عليها وعدم تضييعها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وحفظ حقوق الأولاد والأزواج، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوفاء بالعهود، وحفظ الودائع وردها إلى أصحابها، والقيام بما أنيط بالإنسان من حقوق الأمة على الوجه المطلوب، وغير ذلك.

والقسم الثاني من الأمانات: المنهيات التي يجب تركها والبعد عنها واجتنابها كالشرك بالله، والربا والقتل وأكل مال اليتيم والسحر وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، واليمين الغموس ونقض العهود والحسد والظلم والغش والزنا والسرقة، وغير ذلك.

وهي تنقسم من وجه آخر إلى قسمين أيضاً: أمانات فيما بين الخلق وبين الله كإخلاص التوحيد لله والبُعد عن الشرك، وكالصلاة والصيام ونحو ذلك.

وأمانات بين الخلق فيما بينهم يجب عليهم الوفاء بها، كالعقود والعهود فيما بينهم، وحقوق بعضهم على بعض كحق الوالدين والأولاد والأزواج وصلة الأرحام وحقوق المسلمين، وحفظ الودائع، ونحو ذلك.

وهذه الحقوق وإن كانت للخلق، فإنها داخلة تحت حق الله- عز وجل؛ لأن الله- عز وجل- هو الذي أوجبها.

ويحتمل أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ ما بين الخلق من أمانات فيما بينهم وهذا أولى؛ لقوله قبله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ من عطف العام على الخاص فيشمل جميع الأمانات فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم مع بعضهم البعض.

ومن أعظم الأمانات التي ضعف القيام بها، وعظم التفريط فيها: الصلاة، وصلاة الجماعة خاصة، والتي هي في الحقيقة قاصمة الظهر، وسبب اختلال التوازن في حياة الأفراد والجماعات والأمة قاطبة، فإن الصلاة هي عمود الإسلام وقاعدته العريضة، التي يدور عليها رحاه، فهي أُس مقومات السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وإقامتها والمحافظة عليها هي السبب الأول لنجاح الإنسان في دينه ودنياه وأخراه، مع الأخذ بالأسباب، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هو: ١٢٣].

فعبادة الله تعالى: فعل السبب لسعادة الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار. والتوكل على الله: الاعتماد على الله والثقة به، بعد فعل السبب.

فالتوفيق للأعمال الصالحة مرهون بالصلاة، والبعد عن المعاصي مرهون بالصلاة، والرزق مرهون بالصلاة، وقبول الأعمال مرهون بالصلاة، فلا عز ولا سعادة ولا فلاح ولا نجاح ولا طمأنينة ولا حياة طيبة إذا اختل أمر الصلاة.

فاحفظ أخي المسلم صلاتك وأقمها كما شرع الله، ثم انطلق لتكميل أمور دينك، وتحصيل أمور دنياك على ظهر سفينة النجاة بإذن الله- الصلاة- تجد التوفيق والتسديد من الله تعالى في أمور دينك ودنياك وأخراك.

ومن أعظم الأمانات التي حصل فيها التفريط أيضاً: حقوق العمل في الأمة ومصالحها، والذي هو في الحقيقة من أعظم حقوق الله تعالى والذي ضعف القيام به لدى كثير من المسلمين، مما أضر بمصالح الأمة الإسلامية، وأَخَّرها عن ركب الحضارة، وجعلها في مؤخرة الأمم، وإنه لمن المؤسف، ومما يندى له جبين كل مسلم غيور، ومما يُخجل أن نرى كثيراً من المؤسسات في البلاد غير الإسلامية تسير وفق نظام دقيق بسبب الانضباط في أداء الأعمال بينما نرى الفوضى في كثير من المؤسسات في البلاد الإسلامية بسبب تخلي كثير من العاملين عن القيام بأعمالهم، وهذا لعمر الله عين الخيانة.

يُرشح للأعمال في تلك الدول الأكفأ فالأكفأ، بينما يُرشح في كثير من البلاد العربية والإسلامية لاعتبارات أخرى.

تُنجز المعاملات في تلك البلاد بأسرع وقت بشكل منظم مرتب، بينما تتأخر المعاملات في كثير من المؤسسات في البلاد الإسلامية الأيام والأسابيع، وربما الشهور

والأعوام، بسبب الأنانية وعدم الانضباط.

قطع العالم شوطاً بعيداً في التقدم والانتظام في الأعمال والمواعيد وغير ذلك، ومازال كثير من المسلمين في مؤخرة الركب في هذا الميدان.

يجب أن نعمل جميعاً على استشعار عظم المسؤولية في أعمال الأمة ومصالحها، وأن نعلم أن قيام كل فرد بما أنيط به من هذه الأعمال من أعظم الواجبات، وهو من الجهاد الذي يؤجر المسلم عليه، إذ عليه مدار رقي الأمة ونهضتها وأخذها مكانها بين الأمم، إذ لا مكان لحياة الجهل والفوضى والتخلف.

والعجيب أن كثيراً من الناس لو استودع أو استدان بما قيمته خمسون ريالاً لاهتم لأداء ذلك- وهذا أمر محمود- لكنه في مجال العمل لا يبالي أن يقرب هذا، ويبعد هذا، ويُخَلِّص معاملة هذا، ويؤخر هذا، ويتأخر في الحضور، ويخرج أثناء الدوام، وينصرف قبل انتهائه، وهذا- والله- من أعظم الخيانة- وقد يفوق بأضعاف مضاعفة إنكار ما لديه من وديعة لفلان من الناس؛ لأن التفريط في أعمال الأمة والمحاباة فيها ضرره أعم، فهو أعظم وأعظم، فهو هدم في كيان الأمة وأعمالها يؤدي إلى ضعف الأمة وتخلفها وتسلط الأعداء عليها.

وأعجب مما ذكر أن كثيراً ممن هذه حالهم يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وهم أصل بلائها وسبب دائها، كالسوس ينخر في الأمة من داخلها، ويهدم في كيانها؛ لأن الأمة لا تقوم إلا على مؤسساتها، فإذا صلحت مؤسساتها بدءاً من المساجد والمدارس والوزارات والدوائر العامة والخاصة نهضت الأمة.

وصلاح مؤسسات الأمة مبني على صلاح أفرادها، وصلاح الأفراد يحتاج إلى العمل على رفع مستوى الوعي، بتوسيع مدلول الخطاب التعليمي والتوجيهي والديني ليشمل جميع جوانب الحياة، وأعمال الأمة في منظومة واحدة متكاملة.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجملة في موضع نصب على الحال، أي: والحال أنكم تعلمون أن عملكم هذا خيانة لله والرسول، ولأماناتكم، وهي حال كاشفة بمنزلة الصفة، المقصود منها تشديد النهي، وتشنيع المنهي عنه كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا

بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة- رضي الله عنه- لما كتب كتاباً وأرسله إلى المشركين يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على فتح مكة، قال عمر رضي الله عنه: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق»، وفي بعض الروايات: «لقد خان الله ورسوله». فقال ﷺ: «**قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فلقد غفرت لكم**»(١).

وقد استعاذ ﷺ من الخيانة- كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه ﷺ قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ كقوله تعالى في سورة التغابن: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن خيانة الله والرسول وخيانة أماناتهم، ثم أتبع ذلك ببيان أنما أموالهم وأولادهم فتنة؛ لأن الأموال والأولاد من أعظم ما يحمل على الخيانة، ومما تقع فيه الخيانة، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾: «أمانات الأولاد».

قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الأمر للمؤمنين، وأمروا بالعلم بهذا الخبر للتنبيه والاهتمام وتأكيد التحذير.

﴿أَنَّمَآ﴾ أداة حصر، أي: ما أموالكم وأولادكم إلا فتنة.

وجعلت الأموال والأولاد نفس الفتنة وحصرت في ذلك للمبالغة في التحذير من

---

(١) أخره البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٥)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة (١٥٤٧)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٦٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٤).

فتنتها؛ لأن غالب الفتنة إنما يكون بسبب الأموال والأولاد، وإلا فإن من الأموال والأولاد ما هو خير ونعمة.

﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾، الأموال: اسم لكل ما يتمول ويملك من نقد، وعين منقولة كالأثاث والسيارات وغير ذلك، أو غير منقولة كالعقار.

﴿وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾، الأولاد: جمع ولد، ويشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، هذا من حيث الأصل، فهم الذين ينسبون إلى الشخص، وهم الذين يرثونه.

كما قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد(١)

أما من حيث العموم ومن حيث كونهم فتنة فقد يدخل فيهم أيضاً أولاد البنات، وإن نزلوا.

﴿فِتْنَةٌ﴾، أي: ابتلاء، وامتحان من الله لكم هل تشكرون الله عليها وتؤدون حقها، وتطيعون الله فيها، أو تُقَصِّرون في حقها وتنشغلون بها عن طاعة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: ١٤].

قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [التغابن: ١٥]: «ما من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن»(٢).

والفتنة في الأموال والأولاد من وجوه عديدة:

---

(١) انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف» (١/ ٥٦)، «التذييل والتكميل» (٣/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٦، ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٥).

فالمال فتنة: من حيث كسبه إذ قد يؤدي حبه والحرص عليه إلى اكتسابه من أي طريق كان، حتى ولو كان مشتبهاً أو محرماً كالربا والقمار والرشوة والغش والاحتكار والسرقة والغصب، والمساهمات المختلطة والمشبوهة ونحو ذلك.

وهو فتنة من حيث الانشغال به وبجمعه عن طاعة الله تعالى والقيام بحقوقه، وحقوق خلقه من الوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران، وحقوق المسلمين وغير ذلك.

وهو فتنة من حيث إنفاقه فيما لا يجوز إنفاقه فيه، أو الإسراف في إنفاقه أو التقتير في إنفاقه ومنع حق الله فيه من الزكاة والصدقة، وغير ذلك من الحقوق الواجبة والمستحبة للأهل والأولاد وغيرهم.

إلى غير ذلك من وجوه فتنة المال، وهذه الثلاثة أهمها، ولا يسلم منها إلا مَن رحم الله.

كما أن الفقر وفقدان المال فتنة لبعض الناس، فربما يجزع ويتسخط بسبب ذلك، وربما سلك بعض الطرق الملتوية والمحرمة بحثاً عن المال إلا مَن رحم الله.

والأولاد فتنة: من حيث الولع في محبتهم والعطف عليهم والمبالغة في ذلك، وتقديم ذلك على محبة وطاعة الله ورسوله.

وهم فتنة من حيث الحاجة إلى الصبر والمجاهدة فيهم؛ لتربية أجسامهم وعقولهم وتوجيههم وتأديبهم حال صغرهم.

وهم فتنة بعد بلوغهم ومراهقتهم يحتاجون إلى مجاهدة أكبر وصبر وتحمل أعظم في توجيههم وحملهم على ما ينفعهم وإبعادهم عما يضرهم.

وهم فتنة في هذه الحال وبعدها إذ قد يحمل بعضهم والديه على التساهل فيما لا ينبغي مراعاةً وإرضاءً لهم، وكم جر الأولاد والديهم إلى أمور لا تحمد عقباها في دينهم ودنياهم.

وهم فتنة بعد كبرهم، هم وأولادهم وأزواجهم في علاقتهم مع والديهم، بِراً بهم ورحمة ووفاء، أو عقوقاً لهم وغلظة وجفاء.

إلى غير ذلك من وجوه فتنة الأولاد ما داموا على قيد الحياة هم ووالدوهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ

بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال ﷺ: «**إن الولد مبخلة مجبنة**»(١).

كما أن عدم الأولاد فتنة لبعض الناس، فيتعب في طلبهم والبحث عنهم، وقد يجزع ويتسخط على ما قدّره الله عليه من العقم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

بيَّن- عز وجل- أن الأموال والأولاد فتنة، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لئلا تحمل الأموال والأولاد والديهم على التقصير في حق الله تعالى أو الانشغال عن طاعة الله، فما عند الله من الأجر العظيم خير من المنافع المرجوة من الأموال والأولاد، ومن الدنيا وما فيها.

أي: وأن الله عنده ثواب عظيم من حيث كميته وكيفيته ونوعه وديمومته وغير ذلك، ومن عظمته أنه من العظيم- سبحانه وتعالى- وعنده، ولهذا لا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠، الشورى: ٣٦].

وفي تسميته- عز وجل- ما أعدّه من الثواب للمؤمنين بالأجر توكيد لالتزامه- عز وجل- بذلك لهم وإيجابه ذلك على نفسه- مع أنه- عز وجل- في الأصل لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه تفضلاً منه وكرماً، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: بفعل أوامره واجتناب نواهيه والدوام على طاعته.

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، «الجعل» ينقسم إلى قسمين: شرعي، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦)، من حديث يعلى العامري رضي الله عنه.

وكوني، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١].

وقوله: ﴿فُرْقَانًا﴾، أي: نوراً تفرقون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وبين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وتنجون به من فتنة الأموال والأولاد، ومن الحيرة والاضطراب والتبلبل والشك، وتسعدون به في دنياكم وأخراكم، وهو نور القرآن والهدى والعلم والإيمان المثمر للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: ٣٥]، أي: مثل نور الإيمان الذي يلقيه الله في قلب المؤمن، كمشكاة فيها مصباح؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: ويمح عنكم سيئاتكم، ويتجاوز عنها، و«سيئات» جمع سيئة، وهي الذنوب، سميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها، وقد تسوء غيره.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: ويغفر لكم ذنوبكم، أي: يسترها عن الناس.

ويجوز أن يكون المعنى ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: ويمح ويزل صغائر ذنوبكم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: ويغفر لكم كبائر الذنوب بالتجاوز عنها وسترها.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ﴿ذُو﴾ بمعنى: صاحب، و«الفضل» الزيادة والإحسان والكرم والجود والإنعام.

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾، أي: الفضل العظيم من كل وجه؛ كماً وكيفاً ونوعاً وديمومة، وغير ذلك، الذي لا فضل أعظم منه، ولا يقدر قدر عظمة فضله إلا الذي وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

فوعدهم عز وجل إن اتقوه بأربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو النور والهدى الذي يفرقون به بين الحق والباطل والهدى والضلال والحلال والحرام، ونحو ذلك.

والثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب صغيرها وكبيرها.

والرابع: الفضل العظيم والثواب الجسيم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- نهي المؤمنين وتحذيرهم من خيانة الله والرسول وخيانة أماناتهم، وأن ذلك مما يخالف مقتضى الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٢- تأكيد وتشديد النهي عن الخيانة وتشنيعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: والحال أنكم تعلمون أن ذلك من الخيانة.

٣- وجوب طاعة الله تعالى ورسوله بفعل الواجبات والبُعد عن المنهيات، ووجوب أداء حقوق الخلق، لمفهوم النهي عن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات.

٤- أن خيانة الرسول ﷺ خيانة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ ووجه ذلك عطف «الرسول» على لفظ الجلالة «الله» دون إعادة العامل «تخونوا».

٥- التحذير من فتنة الأموال والأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

٦- إثبات أن الأموال والأولاد فتنة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وذلك من وجوه عديدة.

٧- عظم ما عند الله- عز وجل- من الأجر العظيم للمؤمنين- مما لا يقدر قدره إلا هو سبحانه، ومن عظمته أنه منه- عز وجل- وعنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

٨- التنبيه إلى أنه لا ينبغي الانشغال بالأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى أو تقديمها على محبة الله تعالى وطاعته فما عند الله من الأجر العظيم خير من المنافع المرجوة من الأموال والأولاد، ومن الدنيا وما فيها.

٩- تكفُّل الله- عز وجل- بثواب المؤمنين وضمانه لهم، لهذا سمّاه أجراً، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين فيما سبق بتذكر حالهم إذ كانوا مستضعفين في الأرض خائفين فآواهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات، وأمر رسوله ﷺ هنا بتذكر نعمته عليه بإنجائه وحفظه من كيد الكافرين ومكرهم، والمنة والنعمة عليه ﷺ منة ونعمة على أمته.

قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، الواو استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، والخطاب للنبي ﷺ، أي: اذكر ما منَّ الله به عليك. وجاء التعبير بصيغة المضارع «يمكر» لاستحضار الحالة التي دبروا فيها المكر.

والمكر: الكيد والتدبير لإيقاع الضرر خفية.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله، وأنكروا ما جاء به، والمراد بهم هنا كفار مكة، وبخاصة سادتهم وكبراؤهم، كأبي جهل، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأُبيّ بن خلف، وأمثالهم.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، الإثبات: الحبس والتقييد والإيثاق، أي: ليحبسوك ويقيدوك ويوثقوك؛ ليمنعوك من الخروج.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾، فيستريحوا منك- بزعمهم.

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، أي: يُجْلُوك من بلدك مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦].

فهم مترددون هل يثبتونه، أو يقتلونه، أو يخرجونه؟

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أموركم بأمره- قال: فقال قائل: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك، كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي، فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليُخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم. قالوا: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع، وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم- ثم استعرض العرب، لتجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا. قال: فقال أبوجهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: ما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً وسيطاً شابًّا نهداً[1]، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل[2]، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره. قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. قال: فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه

---

(١) الوسيط: الشريف الحسيب في قومه. والنهد: الكريم الذي ينهض في معالي الأمور.

(٢) أي: الديـة.

الذي كان يبيت فيه تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكره نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]. وكان يسمى ذلك اليوم: «يوم الزحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي»(١).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك يا بنية؟ قالت: يا أبت، ما لي لا أبكي، وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من عرف نصيبه من دمك. فقال: يا بنية، ائتيني بوضوء، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا، فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فحصبهم بها، وقال: شاهت الوجوه، فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً»(٢).

وعن مقسم مولى ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: «تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق- يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك. فبات علي- رضي الله عنه- على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج رسول الله ﷺ، حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبون أنه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه عليًّا رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٤-١٣٥)، ورواه ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٠-٤٨٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة» ذكره عنهما ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٨٦).

أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال»(١).

قال ابن كثير(٢): «وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل- عليه السلام- فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه، وأن يتسجى ببرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ، وهو يقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩]».

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾، أي: والحال أنهم يمكرون، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [الآية:٥٤].

والمعنى: أنهم يدبرون ويكيدون خفية، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾، أي: ويمكر الله بهم على وجه المجازاة لهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: ٤٥].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، أي: خير المجازين بالمكر، وأعظم مكراً وتأثيراً بمن يمكرون ويكيدون للرسول ﷺ وللحق وأهله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٣٧).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٥٨٦) وقال: «قال الحافظ أبوبكر البيهقي: وروي عن عكرمة ما يؤكد هذا».

ذكر الله- عز وجل مكر الذين كفروا وكيدهم للرسول ﷺ، ومكر الله- عز وجل- بهم، ودفاعه عن نبيه، ثم أتبع ذلك بذكر استخفافهم بما جاءهم به من الآيات، وتكذيبهم بها، فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ الآية.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث(١).

قوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾، الواو: استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية ﴿تُتْلَىٰ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي:على الذين كفروا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وهم كفار قريش ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، أي: آيات القرآن الكريم.

وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه المستحق لكمال العظمة كما في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله- عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»(٢).

وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره والكبرياء رداؤه**»(٣).

والمعنى: وإذا تقرأ على هؤلاء الكفار آياتنا القرآن الكريم الدالة على صدق ما جاء به الرسول ﷺ.

﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا ﴾، أي: قد سمعنا ما يتلى علينا، أو ما تتلو علينا، وأكدوا قولهم بـ«قد» التي تفيد التحقيق، لكن سمعهم هنا لا يتجاوز الآذان، بلا عقل، ولا فهم، ولهذا لم ينتفعوا به، بل صار حجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى محذراً المؤمنين عن صفتهم: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنفال: ٢١]، أي: لا يفهمون ولا يفقهون ما سمعوا، ولا ينتفعون به.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾، أي: لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن، وهم كذبة مبطلون ويعلمون أنهم لا يستطيعون ذلك، وإلا فما الذي منعهم أن يشاؤوا قول مثله،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٤١-١٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٨٧).

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠).

ولكنهم إنما يقولون هذا من باب المكابرة والعناد، والتبرير لباطلهم، والتغرير بغيرهم، وقد تحداهم الله- عز وجل- أن يأتوا بمثل القرآن، بل بعشر سور مثله، بل بسورة مثله، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿إِنْ ﴾ نافية بمعنى «ما»، ﴿هَٰذَآ ﴾، أي: القرآن، ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، ﴿إِلَّآ ﴾ أداة حصر، و﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أُسطورة بضم الهمزة.

والمعنى: ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين، أي: حكاياتهم التي تُذكر للتسلي، ولا حقيقة لها، ولا أصل، ومما سطروه في كتبهم من أخبار وخرافات؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى آخر الآية»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٦٤٨)، ومسلم في صفات المنافقين- قول الله تعالى: ﴿ وَمَا =

وهذه المقالة التي صدرت من أبي جهل، أو منه ومن النضر بن الحارث كما قيل ذلك، ليست هي سبب نزول هذه الآية، لكن فيها تذكير بما حصل منهم، لأن الآية مدنية، وما حصل منهم كان بمكة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، أي: واذكر إذ قال الكفار كأبي جهل والنضر بن الحارث وأضرابهما: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ يشيرون بـ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم، وما جاء به الرسول ﷺ من الوحي. وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لتأكيد الخبر وتقويته.

﴿مِنْ عِندِكَ﴾ حال من الحق، أي: منزلاً من عندك، فهم يطعنون في كون القرآن حقًّا، وفي كونه منزلاً من عند الله عز وجل.

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، هذا من شدة جهلهم وتكذيبهم وعنادهم، وضعف عقولهم، وكان الأجدر بهم والأليق أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه» فيدعوا لأنفسهم بالهداية إليه.

ولكنهم مبالغة منهم في التكذيب والتهكم والسخرية، ونفي أن يكون القرآن حقًّا من عند الله، استفتحوا على أنفسهم، ودعوا عليها بالعقوبة، واستعجلوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢].

﴿كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (٢٧٩٦)، والواحدي في أسباب النزول ص(١٥٨). وروي أنها نزلت في النضر بن الحارث- كما ذكر هذا الواحدي ص(١٥٨).

وهذا من كفار قريش كما قال سفهاء قوم شعيب- عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: أنزل علينا حجارة تعذبنا بها، كما قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣].

﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿أَوِ﴾ عاطفة، أي: أو ائتنا بعذاب مؤلم موجع أيَّ عذاب يكون.

وهذا من ذكر العام بعد الخاص، فطلبوا أولاً عقوبة خاصة، وهي مطر الحجارة، ثم عمموا في طلب أيِّ عذاب أليم. وهذا مبالغة منهم في نفي كون القرآن حقًّا منزلاً من عند الله.

رُويَ عن معاوية- رضي الله عنه- أنه قال لرجل من سبأ: «ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة. قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له»(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، يقولون: لبيك، لبيك لا شريك لك. فيقول النبي ﷺ: «**قد قد**». فيقولون: إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾»(٢).

---

(١) انظر: «محاسن التأويل» (٥/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١٥١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٩١)، والبيهقي في سننه (٥/ ٤٥).

وهذا- إن صح- فهو كما سبق ليس هو سبب نزول الآية وإنما فيه ذكر ما حصل من المشركين؛ لأن الآية مدنية وما حصل منهم كان بمكة.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ بيان للموجب لإمهالهم وعدم إجابة دعائهم على أنفسهم.

الواو: عاطفة، و«ما»: نافية. واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ لتأكيد النفي.

والواو في قوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ للحال، أي: والحال أنك فيهم، وفيه تكريم وتشريف له ﷺ بمخاطبته بقوله: ﴿وَأَنتَ﴾ دون أن يقول: «ورسولي فيهم».

والمعنى: وما كان الله ليعذبهم وأنت بين ظهرانيهم، أي: حتى يخرجك من بينهم، فوجوده ﷺ بينهم كان أمنة لهم من العذاب، وهكذا قضت حكمته أن لا يعذب أمة وبينهم نبيهم حتى يخرجه من بين أظهرهم؛ لأن العذاب إذا نزل يعم.

وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم.

والعذاب يشمل العذاب السماوي، وما يوقعه- عز وجل- عليهم بأيدي عباده، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، الواو: عاطفة، و«ما» نافية كسابقتها، ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الجملة حاليه، أي: والحال أنهم يستغفرون.

والمعنى: وما كان الله معذبهم لو استغفروا، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال بعض المفسرين: وما كان الله معذبهم وفيهم من سبق له من الله الدخول في الإيمان والصلاة والاستغفار.

وفي حديث ثوبان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا**

يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك، ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»(٢).

فالتوبة والاستغفار أمان من عذاب الله، ومما تُستجلب به النعم وتدفع به النقم.

ولهذا جاء في حديث جندب بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فيدركه، فيكبه في نار جهنم**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين استفتاح المشركين ودعاءهم على أنفسهم بالعقوبة بحجارة من السماء، أو إتيانهم بعذاب أليم، وبين أنه- عز وجل- ما كان ليعذبهم والرسول ﷺ بين ظهرانيهم، وما كان معذبهم وهم يستغفرون، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم أهل للعذاب ومستحقون له لصدهم عن المسجد الحرام.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، الواو: استئنافية، أو عاطفة على قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾.

و«ما»، استفهامية، والاستفهام للإنكار، أي: أيّ شيء يمنعهم أن يعذبهم الله، أي: أنه لا شيء يمنعهم من عذاب الله، وليس عدم نزوله فيهم بسبب أنهم غير

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٦٥٧)، والترمذي في الصلاة (٢٢٢).

مستحقين له بأنفسهم.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم يصدون الناس، أي: يمنعونهم عن المسجد الحرام، حيث صدوا النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، فيمنعونهم من الوصول إلى البيت والصلاة فيه، والطواف والسعي والاعتكاف والعبادة فيه.

فعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمرَّ بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبوجهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد، فقال أبوجهل: تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه»[1] الحديث.

والمعنى: أنهم قد استحقوا العذاب واستوجبوه بصدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام وعن عبادة الله- عز وجل- فيه، وتوحيده، وهذا أعظم الإلحاد فيه والظلم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر هو من العذاب الذي استحقوه، ولكن من رحمة الله- عز وجل- بهذه الأمة ببركة نبيها ﷺ لم يستأصلهم بعامة تحقيقاً لما أراد الله- عز وجل- من إيمان بعضهم وما وعد به في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧]، وتحقيقاً لرجائه ﷺ، لما قال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»[2].

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ الجملة معطوفة على جملة الحال، و«ما»: نافية والضمير الهاء يعود إلى المسجد الحرام، أي: والحال أنهم ما كانوا أولياء المسجد الحرام- كما يزعمون.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٣٢)، وأحمد (١/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي هذا إظهار شدة ظلمهم واعتدائهم في صدهم عن المسجد الحرام، لأنهم لا يجوز لهم الصد عن المسجد الحرام لو كانوا هم أولياءه، فكيف يصدون عنه وهم ليسوا أولياءه، فهذا أشد إثماً وأعظم جرماً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤].

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى: «ما» والضمير الهاء: يعود إلى المسجد الحرام، أي: ما أولياء المسجد الحرام إلا المتقون الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وفي هذا إثبات أن أولياء المسجد الحرام هم المتقون، ونفي ولاية المشركين عليه، والتعريض بذمهم لعدم تقواهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧، ١٨].

وقال بعض المفسرين: يجوز أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إلى الله- عز وجل- أي: وما كانوا أولياء الله إن أولياؤه إلا المتقون.

وهذا محتمل وصحيح، لكن الأظهر الذي يناسب السياق القول الأول.

وقد قيل: الضمير يرجع إلى الرسول ﷺ، أي: وما كانوا أولياء الرسول ﷺ، إن أولياؤه إلا المتقون. وهذا بعيد- وإن كان المعنى عليه صحيح.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وأن أولياءه حقيقة هم المتقون، ولهذا تجرأ المشركون على الصد عن المسجد الحرام ظناً أنهم أحق بولايته من المؤمنين وأن لهم الحق في الصد عنه.

ويفهم من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن من بينهم- وخاصة من عقلائهم- من يعلم صدق الرسول ﷺ، وأنه ليس لهم الصد عن المسجد الحرام، وإنما يفعلون ذلك، أو يؤيدون من قام به مجاراة ومتابعة لرؤسائهم رؤوس الكفر والضلال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- قبل هذا استحقاق الكفار للعذاب لصدِّهم عن المسجد الحرام، ونفى ولايتهم للمسجد الحرام، ثم أتبع ذلك بما يشبه الدليل والعلة على انتفاء ولايتهم للمسجد الحرام، وعلى استحقاقهم للعذاب، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، الواو: استئنافية، أو عاطفة، و«ما» نافية: ﴿صَلَاتُهُمْ﴾، أي: دعاؤهم وعبادتهم.

﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي: عند الكعبة «البيت الحرام» سميت بيتاً لقيامها على أركان، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مُكَآءً﴾ صفيراً، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً، مشتق من الصدى وهو الصوت الذي يردده الهواء.

وإنما كان المشركون يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ قراءته، واستهزاءً منهم به وبما جاء به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

قال حسان بن ثابت- رضي الله عنه- يعيب المشركين في صنيعهم هذا:

إذا قام الملائكة انبعثتم ... صلاتكم التصدي والمكاء(١)

فوضعوا المكاء والتصدية مكان الصلاة، كما قال الفرزدق(٢):

فلما خشيت أن يكون عطاؤه ... أداهم سوداً أو محدرجة سمرا

فوضع القيود والسياط مكان العطاء.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم رسالة النبي ﷺ وما جاء به من

---

(١) انظر: «التفسير البسيط» (١٠/ ١٤٠).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ١٦٩). ويعني بالأداهم: القيود، وبالمحدرجة: السياط.

الآيات، وهذا تبكيت لهم وتوبيخ وعذاب معنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

والمراد ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي والأسر، وقيل: هو وعذاب الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ بما دبَّره له الكفار من مكر، لحبسه أو قتله أو إخراجه، وامتنان الله- عز وجل- عليه بإنجائه وحفظه من مكرهم، ومكر الله- عز وجل- بهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٢- عظم ما لاقى النبي ﷺ من قومه من الأذى، من المكر والكيد وغير ذلك مما لا قِبَل لأحدٍ به، وتجلُّده ﷺ بالصبر والعزم حتى أظهره الله عز وجل.

٣- شدة عداوة قريش للنبي ﷺ ولما جاء به من الحق من عند الله- وعتوِّهم وجبروتهم وعنادهم.

٤- لجوء المكابرين والمعاندين عند عجزهم عن مقارعة الحق ورده إلى أساليب التصفية والقهر، من الحبس أو القتل أو الإخراج.

٥- إثبات مكر الله- عز وجل- بالماكرين على سبيل المجازاة لهم، وأنه- عز وجل- خير الماكرين، وذو الكيد المتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

والمكر والكيد والاستهزاء والمخادعة، ونحو ذلك من الصفات لا يوصف الله بها على سبيل الإطلاق، وإنما على سبيل المقابلة، فهو- عز وجل- يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين ويستهزئ بالمستهزئين، ويخدع المخادعين، ونحو ذلك. وهي على هذا النحو تعد صفة كمال.

٦- شدة استخفاف الذين كفروا بالقرآن الكريم- وزعمهم الكاذب القدرة على الإتيان بمثله، إمعاناً منهم بالتكذيب والعناد، وتمويهاً على الآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ وقد تحدَّاهم الله أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا.

٧- إقرار المشركين على أنفسهم بسماع ما يتلى عليهم من القرآن الكريم، مما تقوم عليهم

به الحجة، ولكنه لا ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾..

٨- جرأة المكذبين والكفار على وصف القرآن بأقبح الصفات؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما وصفوه بالسحر والكهانة والشعر، ونحو ذلك.

٩- شدة جهل الكفار وضعف عقولهم، ومبالغتهم في التكذيب والعتو والعناد، ونفي أن يكون القرآن حقًّا من عند الله- حتى استفتحوا على أنفسهم ودعوا عليها بالعقوبة واستعجلوا العذاب؛ لقوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وكان الأجدر بهم أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه».

١٠- إقرار الكفار بربوبية الله- عز وجل- وقدرته وعلوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

١١- بركة النبي ﷺ وأن وجوده ﷺ بين قومه أمان لهم من عذاب الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

١٢- أن الإيمان والتوبة والاستغفار أمان من عذاب الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

١٣- فضل الاستغفار وأنه مما تُستجلب به النعم، وتُدفع به النقم بإذن الله عز وجل.

١٤- استحقاق المشركين لعذاب الله لصدهم عن المسجد الحرام، وأنه لا مانع يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي والأسر هو من العذاب الذي استحقوه.

١٥- أن الكفار ليسوا بأولياء للمسجد الحرام، وإنما أولياؤه حقًّا المتقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

وهم كذلك ليسوا بأولياء لله ولا لرسوله ﷺ وإنما أولياء الله ورسوله هم المتقون.

١٦- جهل الكفار وعدم علمهم بأنه لا ولاية لهم على المسجد الحرام، وأنه لا يجوز لهم

الصد عنه، وأن ولايته حقًّا للمتقين، وجهلهم وعدم علمهم بما ينفعهم وما يضرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٧- أن صلاة الكفار عند البيت ليست إلا صفيراً وتصفيقاً، للتخليط على النبي ﷺ في قراءته وعلى المؤمنين واستهزاءً بما جاء به، مما يدلل على عدم ولايتهم للمسجد الحرام، وعلى استحقاقهم للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٨- تبكيت الكفار وتعذيب قلوبهم معنويًّا ببيان أن ما أصابهم من العذاب يوم بدر هو بسبب كفرهم، وكذا ما يصيبهم بعد ذلك في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

رُويَ عن جمع من المفسرين أنها نزلت في نفقة المشركين في بدر وبعدها وفي أُحُد لقتال رسول الله ﷺ والمؤمنين(١).

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من أنفق للصد عن سبيل الله فهو داخل في الوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

الإنفاق: إخراج المال وبذله، وهو محمود إذا كان في وجوهه المشروعة، ومذموم إذا كان في الوجوه المحرمة كالإنفاق في الصد عن سبيل الله.

وأضاف الأموال إليهم لأنها تحت أيديهم ويملكونها ملكاً نسبياً، وإلا فهم وما ملكوا ملك لله عز وجل، وجمعها للمبالغة، لأنهم إنما ينفقون بعض أموالهم، وهي تشمل كل ما يتمول من نقد أو عين وغير ذلك.

﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يصدوا الناس عن دين الله وصراطه المستقيم، فهم ينفقون أموالهم، وهي أعز الأشياء عليهم؛ لأجل أسوأ هدف وهو صد الناس عن دين الله، كما صدوا عنه بأنفسهم.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ١٧٠-١٧٥)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(١٥٩).

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، الفاء: للتفريع.

أي: فسينفقون أموالهم ويبذلونها للصد عن دين الله، ونصر الباطل.

وفي قوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بالمضارع والسين الدالة على الاستقبال إشارة إلى أنهم كما أنفقوها في الماضي للصد عن دين الله فسينفقونها في المستقبل لهذا الغرض؛ ولهذا قال قبل هذا: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ بالمضارع للدلالة على استمرارهم في هذا النهج، وتجدد ذلك منهم.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، أي: ثم تكون هذه الأموال التي أنفقوها للصد عن دين الله عليهم حسرة.

وأسند الحسرة إلى الأموال؛ لأنها سبب الحسرة بإنفاقها للصد عن دين الله.

والحسرة: شدة الندامة، والتلهف والأسى على ما فات.

والمعنى: ثم تكون هذه الأموال التي أنفقوها للصد عن دين الله عليهم ندامة شديدة، وأسىً؛ لأنهم خسروها، لا فيما ينفعهم بل فيما يضرهم، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٧].

وقد أحسن المتنبي في قوله:

إذا الجود لم يُرزق خلاصاً من الأذى ... فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا[1]

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، أي: ثم تكون النتيجة أنهم يغلبون، فيخسرونها، كما في بدر وغيرها، ولا يحصلون من إنفاقها على طائل، ولا يستطيعون صد الناس عن دين الله، ولا إطفاء نوره- كما أرادوا؛ لأن الله- عز وجل- ناصر دينه ومظهره، ومتم نوره ولو كره الكافرون، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨، ٩].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار،

---

(١) انظر: «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» (١/ ٣٤٨).

سميت به لجهمتها وظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة حرها.

﴿يُحْشَرُونَ﴾، أي: يساقون إليها ويجمعون فيها.

فجزاؤهم في الدنيا الحسرة والندامة على ضياع ما أنفقوه من أموالهم، والخزي بظهور الحق عليهم وقتلهم وأسرهم، وفي الآخرة حشرهم وجمعهم في جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢].

وأظهر في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مقام الإضمار، فلم يقل: «وإلى جهنم يحشرون» لبيان سبب حشرهم إلى النار، وهو كفرهم، ولبيان أن الكفار جميعاً من هؤلاء وغيرهم سيحشرون إلى جهنم ويجمعون فيها.

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم التحتية الأولى وفتح الميم، وكسر التحتية الثانية وتشديدها: «لِيُمَيِّز».

وقرأ الباقون بفتح التحتية الأولى وكسر الميم وسكون التحتية الثانية ﴿لِيَمِيزَ﴾.

وقوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ في الآية السابقة.

واللام: للتعليل، أي: يحشر الذين كفروا إلى جهنم؛ لأجل أن يميز الله الخبيث من الناس من الطيب، أي: يفرز ويفصل الخبيث من الطيب، فالخبيث من الناس- وهم الكفار- يحشرون إلى جهنم، والطيب من الناس- وهم المؤمنون- يحشرون إلى جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

كما ميَّز الله الخبيث من الطيب قبل ذلك في الدنيا بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

و«الخبيث» و«الطيِّب» و«الخُبْث» و«الطِّيْب» وصفان يوصف بهما الأشخاص، فالكافر خبيث، والمؤمن طيب، وتوصف بهما الأعيان، فالخمر خبيث والعنب طيب، وتوصف بهما الأفعال والأقوال، فيقال: هذا فعل خبيث وهذا فعل طيب، وهذا قول خبيث، وهذا قول طيب.

والخبيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، أي: وليجعل الخبيث بعضه على بعض من الأشخاص والأعمال والأعيان، ويضم بعضه إلى بعض. والجعل هنا وفي الموضع الذي بعده كوني.

﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾، أي: فيجعله متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض، كما قال تعالى في وصف السحاب: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ [النور: ٤٣] أي: متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض، وقال تعالى: ﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾ [الطور: ٤٤]، أي: مركوم متراكب بعضه على بعض.

وفي هذا ما لا يخفى من الإهانة والعذاب المعنوي لأهل الخبث.

﴿فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾، أي: فيصيره في نار جهنم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الإشارة للخبيث الذي جعل الله بعضه على بعض فركمه في جهنم، وأشير إليه إشارة من يعقل، وجمع جمع من يعقل تغليباً للعقلاء؛ لأنهم هم المكلفون المحاسبون، وأشير إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تحقيراً لهم.

والخسارة في الأصل: ذهاب الربح مع رأس المال، والمراد بها في الآية الخسارة العظمى؛ خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة النفس والمال والأهل والولد، وكل شيء؛ ولهذا أكَّد وحصر الخسارة فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ

﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨﴾.

ذكر الله- عز وجل- مكر الكفار- به ﷺ، وتكذيبهم ومخالفتهم له ولما جاء به، وصدهم عن المسجد الحرام، واستحقاقهم للعذاب، وكون صلاتهم عند المسجد الحرام مكاءً وتصدية، وإنفاقهم أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وتوعدهم بحشرهم إلى جهنم، ثم أتبع ذلك بأمره ﷺ بحثهم على الانتهاء عما هم عليه من الكفر والمشاقة والعناد، والصد عن المسجد الحرام وعن سبيل الله، وترغيبهم في الدخول في الإسلام بوعدهم بمغفرة ما سلف منهم، وتخويفهم من العود والاستمرار على ما كانوا عليه، فيقع بهم ما وقع بالمكذبين قبلهم- وهذا على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، الجملة استئنافية، والأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد للذين كفروا وجحدوا دين الله وشرعه، وكذبوا رسوله ﷺ.

﴿إِن يَنتَهُواْ﴾، أي: عما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد والصد عن المسجد الحرام وعن دين الله، ويدخلوا في الإسلام.

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، أي: يستر ويتجاوز لهم الذي قد مضى من الكفر والذنوب.

وهذا يدل على سعة رحمة الله عز وجل، وأنها تسبق غضبه، وعلى عظيم لطفه وعفوه ومغفرته، وأنه لا يتعاظمه شيء أن يغفره حتى الكفر والشرك، بل إنه- عز وجل- يبدل سيئات التائبين حسنات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»(١).

وفي حديث عمرو بن العاص- رضي الله عنه- الطويل قال عمرو: «فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي. قال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله...»(٢).

﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾، الواو: عاطفة، و«إن» شرطية، ﴿يَعُودُوا۟﴾ فعل الشرط. وجوابه: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد».

والمعنى: وإن يرجعوا إلى ما هم عليه من الكفر والتكذيب والصد عن دين الله وقتال الرسول ﷺ والمؤمنين، ويستمروا على ذلك.

﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾، أي: فقد تقدمت وسبقت ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السنة: العادة المألوفة والسيرة المتَّبَعَة، وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد، وتمثيل لهم بما جرى لأمثالهم من المكذبين.

أي: وإن يعودوا إلى ما هم عليه من الكفر والصد عن دين الله وقتال أوليائه فقد سبقت وتقدمت سنة الله- عز وجل- في إهلاك المكذبين الأولين، ومعاجلتهم بالعقوبة إذا استمروا على الكفر والتكذيب والعناد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، ومن ذلك ما أوقعه- عز وجل- في أهل بدر، وفي غيرهم من المكذبين من الأمم قبلهم،

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢١)، ومسلم في الإيمان (١٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٢).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١)، وأحمد (٤/ ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥).

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: وقاتلوا أيها المؤمنون أهل الكفر والشرك. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ لانتهاء الغاية، أي: حتى لا توجد فتنة، والفتنة: الكفر والشرك، أي: حتى لا يفتن الناس ويصدون عن الدين الحق ويُضلون عنه بالكفر والشرك؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.فقابل بين الفتنة وكون الدين كله لله؛ مما يدل على أن الفتنة هي الكفر والشرك.

وقال هنا: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ بالتأكيد، بينما قال في آية البقرة: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ بدون تأكيد. قيل: لأن آية الأنفال أسبق نزولاً من آية البقرة، فناسب فيها التأكيد، وناسب في آية البقرة حذفه للإيجاز.

ومعنى الآية: ويكون الدين كله خالصاً لله، بأن يخلص التوحيد والعبودية والطاعة لله- عز وجل- وحده، لا شريك له، وهذا هو المقصد من القتال والجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (٢٥)، ومسلم في الإيمان- الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (٢٢).

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

وعن نافع: «أن رجلاً أتى ابن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله- عز وجل- وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بُني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه، وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه. وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون».

وفي رواية: «أن رجلاً قال لابن عمر: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك»(٢).

وعن نافع «أن ابن عمر- رضي الله عنهما- أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير- فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ- فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم عليَّ دم أخي المسلم. قالوا: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فقال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان

---

(١) أخرجه البخاري في العلم- من سأل وهو قائم عالماً جالساً (١٢٣)، ومسلم في الإمارة- من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنفال (٤٥١٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٠٦).

الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله».

وفي رواية أيوب بن عبدالله اللخمي، قال: «كنت عند عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- فأتاه رجل، فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله وذهب الشرك، ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله»[1].

رضي الله عنك يا ابن عمر، ليتك ترى حال المسلمين اليوم.

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: «لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله، لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾؟ فقالا: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله»[1].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

عرض عز وجل على الكفار الانتهاء عما هم عليه من الكفر والعناد ورغَّبهم في ذلك بوعده لهم بمغفرة ما سلف منهم، وذلك قبل الأمر بقتالهم، ثم رغَّبهم ثانية بالانتهاء عما هم عليه بعد قتالهم.

وهذا وذاك يدل على سعة رحمة الله- عز وجل- وعفوه ومغفرته، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك، وفيه تدرج في مجازاتهم من الأعلى إلى الأدنى، فقد رتب على انتهائهم عما هم عليه من الكفر قبل قتالهم مغفرة ما سلف منهم، بينما رتب على انتهائهم بعد قتالهم ما يفيد الكف عنهم وبيان اطلاعه على أعمالهم.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، أي: فإن انتهوا ورجعوا وتركوا ما هم عليه من الكفر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ قرأ رويس عن يعقوب بالخطاب «تعملون»،

وقرأ الباقون بالغيب ﴿يَعۡمَلُونَ﴾.

و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: فإن الله بالذي يعملون، أو بعملهم ﴿بَصِيرٞ﴾،

---

(١) أخرجه ابن مردويه، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٩٧).

أي: عليم به، مطلع عليه، خبير به.

والمعنى: فإن انتهوا بقتالكم لهم عما هم عليه من الكفر والصد عن دين الله فكُفوا عنهم، وإن لم تعلموا بواطنهم، فإن الله عليم بأعمالهم مطلع عليها خبير بها، لا تخفى عليه منها خافية، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ [التوبة: ١١].

وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»(١).

ولهذا عاتب الله المؤمنين لما قتلوا من ألقى إليهم السلام، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ﴾ [النساء: ٩٤].

وقال ﷺ لأسامة بن زيد- رضي الله عنه- لما قتل رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله: «**أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟**» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً. قال: «**هلا شققت عن قلبه؟**» وجعل يقول ويكرر عليه: «**من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة**»؟ قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

رتب عز وجل على انتهاء الكفار عما هم عليه من الكفر قبل قتالهم مغفرة ما سلف

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٩)، ومسلم في الإيمان- تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (٩٦)، وأبوداود في الجهاد- علام يقاتل المشركون (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الفتن- الكف عمن قال: لا إله إلا الله (٣٩٣٠)، وأحمد (٥/ ٢٠٧)، من حديث أسامة رضي الله عنه.

منهم، ثم رتب على انتهائهم عن ذلك بعد قتالهم ما يفيد الكف عنهم وأمر بواطنهم إلى الله، ورتب على توليهم إعلام المؤمنين بأنه مولاهم نعم المولى ونعم النصير؛ طمأنة للمؤمنين، كي لا يبالوا بمن تولى.

قوله ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: فإن أعرضوا بأبدانهم وقلوبهم عن الحق، واستمروا على الكفر والصد عن دين الله، ومحاربتكم أيها المؤمنون.

﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وافتتح بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ للاهتمام بهذا الخبر وتيقنه، أي: فأيقنوا أن الله مولاكم، أي: معينكم وناصركم عليهم، ومتولي جميع أموركم، فلا تبالوهم، ولهذا قال بعده:

﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، ﴿نِعْمَ﴾ للمدح والثناء، أي: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الذي لا يُضيع من تولاه، ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الذي لا يُغلب من نصره.

و﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الذي يتولى غيره بجلب الخير والنفع له، و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ الذي ينصر غيره بدفع الشر والضر عنه.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الكفار في إنفاقهم أموالهم، وأنهم إنما ينفقون أموالهم؛ ليصدوا الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فكفروا بالله- عز وجل- وكفروا نعمه عليهم.

٢- ضياع أموال الكفار بلا فائدة، بل إنها تكون حسرة وندامة عليهم وضرراً لهم؛ لأنهم أنفقوها للصد عن دين الله، فلم ينتفعوا بها، بل ولم يسلموا من ضررها وهذا هو الخسران المبين.

٣- حكم الله- عز وجل- وقضاؤه بغلبة الكافرين وانتصار المؤمنين عليهم في بدر، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾.

٤- جمع الكفار من أهل مكة وغيرهم وحشرهم إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

٥- شدة ظلمة النار وجهمتها وحرها وبعد قعرها؛ لهذا سميت «جهنم».

٦- تمييز الله- عز وجل- وفصله بين الخبيث والطيب، بين أهل الكفر، وأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، وجعل الخبيث بعضه على بعض وركمه جميعاً وجعله في جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

٧- أن المؤمن طيب والكافر خبيث، ولا يستوي الخبيث والطيب، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

٨- الجمع للذين كفروا بين العذاب الحسي بإدخالهم جهنم، والمعنوي في ركم بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

٩- تأكيد خسارة الذين كفروا الخسارة العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فقد أكد خسارتهم، بل وحصر الخسارة فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

١٠- أن الخسارة العظمى إنما هي الخسارة في الدين وذلك بالموت على الكفر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

١١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية.

١٢- سعة رحمة الله- عز وجل- وعفوه ومغفرته حيث وعد هؤلاء الكفار إن انتهوا عما هم عليه من الكفر والصد عن سبيل الله بمغفرة ما سلف منهم من الذنوب.

١٣- الوعيد والتهديد لكفار مكة إن عادوا لما هم عليه من المشاقة والمحاربة لله ورسوله والمؤمنين، واستمروا على ما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد بالعقوبة العاجلة، كما هي سُنَّة الله تعالى في المكذبين قبلهم مما أوقعه في أهل بدر، وفي المكذبين من الأمم الخالية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٤- أن لله- عز وجل- سنناً كونية لا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٥- وجوب قتال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ والأصل في الأمر الوجوب.

١٦- أن الغاية والحكمة من الأمر بقتال الكفار حتى لا يفتن الناس عن دينهم الحق إلى الشرك، وليكون الدين كله والعبودية لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

١٧- وجوب إخلاص العبادة لله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

١٨- أن أعظم فتنة هي الفتنة في الدين بالكفر والشرك بالله الموجب لسخط الله والخلود في النار.

١٩- إذا انتهى الكفار عما هم عليه من الكفر والمقاتلة للمؤمنين ينبغي الكف عن قتالهم. وأمر بواطنهم إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٠- علم الله- عز وجل- واطلاعه التام على أعمال الكفار وغيرها من أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢١- تحذير الكفار من التولي وتهديدهم، وطمأنة الله- عز وجل- للمؤمنين بتوليه لهم ونصرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

٢٢- إثبات ولاية الله الخاصة لعباده المؤمنين بالنصر والعون والتمكين وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

٢٣- امتداح الله- عز وجل- لنفسه، وأنه لا أحد أعظم ولاية ولا نصرة منه- عز وجل- لعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في مطلع السورة حكم الأنفال مجملاً في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الآية: ١]. ثم بيَّن ذلك وفصَّله في هذه الآية.

قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ افتتح الله- عز وجل- هذا البيان والتفصيل بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ للتنبيه والاهتمام. والخطاب للمؤمنين، وبخاصة أهل بدر، فهو تعليم لهم وبيان بكيفية قسمة الغنائم.

والواو في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ استئنافية، و«أن»: حرف توكيد ونصب، و«ما»: اسم موصول مبني في محل نصب اسم «أن»، ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيان لعموم «ما»، أي: واعلموا أن الذي غنمتموه من أي شيء قليلاً كان أو كثيراً.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الجملة خبر «أن»، والغنيمة: ما يؤخذ من أموال الكفار عنوة بقتال، وهي الأنفال المذكورة أول السورة.

وأما ما أخذ من أموال الكفار بدون قتال، وإنما بصلح ونحوه فهو «فيء»، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ الآية [الحشر: ٦]، وقوله: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧] (١).

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَأَنَّ﴾ رابطة، لما في الموصول من معنى الشرط.

واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ وما بعده: للاستحقاق، أي: فحق، أو فواجب لله خمسه وللرسول.

---

(١) انظر تفصيل الكلام على الفيء في تفسير سورة الحشر.

وقوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ وما بعده معطوف: على قوله: ﴿لِلَّهِ﴾.

أي: فأن لله خمس الذي غنمتموه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقسم خمس الغنيمة على هذه الأصناف، والباقي وهو أربعة أخماس الغنيمة يكون للمقاتلين.

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾، أي: وللرسول المعهود محمد ﷺ- وفيه إثبات رسالته- ﷺ، وأكثر المفسرين على أن سهم الله وسهم الرسول واحد يأخذ منه ﷺ نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله، يصرف في مصالح المسلمين؛ لما ثبت «أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله»(١).

وعن عبدالله بن شقيق عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بواد القرى وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «**لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش**». قلت : فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «**ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم**»(٢).

وعن عبادة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه، فقال: «**إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم...**»(٣).

وعن عمرو بن عبسة- رضي الله عنه- قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير، ثم قال: «**لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٠٣٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٦٣)، والنسائي في قسم الفيء (٤١٤٠)، والترمذي في الجهاد (١٧١٩)، من حديث أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في قسمة الفيء والغنيمة- إخراج الخمس (٦/ ٣٢٤). قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٧٥٥).

ويؤيد هذا أن خمسه ﷺ بعد وفاته يصرف في مصالح المسلمين كما كان يفعل أبوبكر وعمر- رضي الله عنهما- يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح. وقيل: يرد على بقية الأصناف، وقيل: لولي الأمر بعده، وقيل غير ذلك.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: ولأصحاب قرابة النبي ﷺ، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب يسوى بين غنيهم وفقيرهم، عن جبير بن مطعم- رضي الله عنه- قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد**»(١).

وفي رواية: «**إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبَّك بين أصابعه**»(٢).

فيعطى ذوو القربى من الخمس، غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم على السواء.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم ويتيمة، والمراد يتامى المسلمين. واليتيم من مات أبوه وهو لم يبلغ ذكراً كان أو أنثى؛ لقوله ﷺ فيما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لا يُتم بعد احتلام**»(٣).

فيعطى اليتامى من الخمس؛ لفقدهم من يعولهم ويقوم بمصالحهم.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهم الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم وخلتهم من الفقراء والمساكين، سموا مساكين من السكون وعدم الحركة؛ لأن الحاجة أذلتهم وأسكنتهم.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع في سفره، فيعطى ما يحتاجه في سفره وإن كان غنيًّا في بلده، كما يعطى من الزكاة.

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٤٠)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٧٨)، والنسائي في قسم الفيء (٤١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٨١).

(٢) أخرجها أبوداود (٢٩٨٠)، والنسائي (٤١٣٧).

(٣) أخرجه أبوداود في الوصايا (٢٨٧٣).

وسمي المسافر ابناً للسبيل وهو الطريق لملازمته له.

فخمس الغنيمة يقسم أخماساً: سهم الله وسهم رسوله واحد، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

ولم يقدر في الآية ما لكل صنف من هذه الأصناف، وذلك موكول إلى اجتهاد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، وولاة الأمر من بعدهم- فيقسم بحسب الحاجات والمصالح، بحيث يعطى كل صنف ما يحتاجه على وجه لا يضر بالصنف الآخر.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه محذوف دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه، أي: اعلموا ذلك واعملوا به، فأقسموا الغنائم كما بيَّن الله لكم وارضوا بذلك، فجعل عز وجل، ذلك من شرط الإيمان.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم**»(١).

فأداء الخمس من المغنم من الإيمان بالله.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، الواو: عاطفة، و«ما»: اسم موصول مبني في محل جر معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبالذي أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان من الوحي، والنصر وأسبابه، من الإمداد بالملائكة وإنزال المطر، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٣)، ومسلم في الإيمان- الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١٧)، وأبوداود في الأشربة (٣٦٩٢)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣١)، والترمذي في الإيمان (٢٦١١).

وفي هذا تذكير لهم بهذه النعم، وتعظيم لها.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾، أي: على عبدنا محمد ﷺ، وفي إضافته ﷺ إلى ضميره- عز وجل- ووصفه بالعبودية له تشريف وتكريم له ﷺ.

وإنما وصفه بالعبودية؛ لأنها أشرف ما يوصف به البشر؛ ولهذا وصفه بها في أعلى المقامات مقام الإسراء حين قُرْبه ﷺ من ربه، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ [الإسراء: ١].

كما وصفه بها في أعظم المقامات مقام الدعاء والعبادة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن: ١٩].

﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يوم بدر، يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية.

و﴿ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ الفرق والفصل بين شيئين، أو أكثر.

وسُمي يوم بدر بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾؛ لأن الله فرق وفصل فيه بين الحق والباطل، فأظهر فيه الحق، وأبطل الباطل، وفي هذا تعظيم وتشريف له.

﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، و«ال» في ﴿ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ للعهد أي: يوم التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، قدم المتعلق، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المتعلق به، وهو الخبر «قدير» ونكّر «شيء»: لتأكيد عموم قدرته وشمولها لكل شيء.

و﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن «فعيل»: صفة مشبهة يدل على كمال قدرته، فهو- عز وجل- ذو القدرة التامة على كل شيء، لا يمتنع عليه شيء أو يعجزه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: ٤٤].

ومناسبة تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ واضحة تماماً فإن الله- عز وجل- أجرى من أسباب النصر يوم بدر ما يدل على كمال قدرته من الإمداد بالملائكة، وتغشيته المؤمنين بالنعاس، وإنزال المطر عليهم، ونصرهم مع قلة عَدَدِهم وعُدَدِهم وكثرة عدوهم واستعداده.

الفوائد والأحكام:

١- فضل الله- عز وجل- على هذه الأمة المحمدية، وعلى نبيها ﷺ بإحلال الغنائم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢- بيان وتفصيل كيفية قسمة الغنائم، وأهمية معرفة ذلك والعلم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ الآية.

٣- أن خمس الغنائم لله وللرسول ولقرابته واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وسهم الله وسهم رسوله واحد، فيقسم الخمس خمسة أسهم؛ سهم لله وللرسول، وسهم لقرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

وسهم الرسول ﷺ يأخذ منه ﷺ نفقته ونفقة أهله، ويضع ما بقي منه في مصالح المسلمين، لما ثبت أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله»[1].

وقال ﷺ: «**ليس لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم**»[1].

والأمر في سهمه ﷺ بعد وفاته إلى الإمام يتصرف فيه ويضعه في مصالح المسلمين.

٤- أن قرابة الرسول ﷺ يعطون من الخمس، ويستوي غنيهم وفقيرهم، وذكرهم وأنثاهم؛ لظاهر الآية، فهي مطلقة. وقيل: يعطى فقراؤهم فقط.

٥- رعاية الإسلام لأهل الحاجات وعنايته بهم، كاليتامى والمساكين وابن السبيل، لهذا جعل لكل منهم سهماً في خمس الغنائم.

٦- أن الخمس يقسم في هذه الأصناف حسب الحاجة والمصلحة، فيعطى كل صنف ما يحتاجه على وجه لا يضر بالصنف الآخر، وذلك موكول لاجتهاد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده وولاة الأمر بعدهم؛ لأنه لم يقدر في الآية ما لكل صنف.

---

(١) سبق تخريجه.

٧- أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين؛ لأن الله أضاف الغنيمة إليهم في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾، وأخرج منها الخمس بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية.

٨- أن من شرط الإيمان بالله وبما أنزل على رسوله ﷺ يوم بدر من الوحي، والنصر وأسبابه، من الإمداد بالملائكة، وإنزال المطر، وغير ذلك العلم بأن لله خمس الغنيمة وللرسول ولمن ذكروا في الآية، وقسمة الغنيمة والخمس كما قسمها الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾.

٩- أن الإيمان بالله، وبما أنزل من الوحي شرط لقبول جميع الأعمال.

١٠- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١١- أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

١٢- تشريف الله- عز وجل- وتكريمه لنبيه ﷺ بإضافته إليه بقوله تعالى: ﴿عَبْدِنَا﴾ ووصفه بالعبودية له- عز وجل- التي هي أفضل صفة يوصف بها البشر.

١٣- تعظيم يوم بدر والتنويه به، وبما حصل فيه من إنزال القرآن، وأسباب النصر من الإمداد بالملائكة وإنزال المطر وغير ذلك، والفصل فيه بين الحق والباطل بنصر الحق وأهله ودحض الباطل وأهله؛ ولهذا سماه الله- عز وجل: «يوم الفرقان»، فقال: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

١٤- عموم قدرة الله- عز وجل- على كل شيء، وتمامها، وأنه لا يمتنع عليه شيء أو يعجزه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب: «العِدوة» في الموضعين بكسر العين، وقرأ الباقون بضمها.

﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين» متعلق بـ«أنزلنا»، أي: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان حين أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى.

أي: حين أنتم أيها المؤمنون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾، أي: بعدوة وادي بدر الدنيا، أي: بضفته وجهته القربى مما يلي المدينة.

﴿وَهُم﴾، أي: المشركون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾، أي: بعدوة وادي بدر ﴿الْقُصْوَىٰ﴾، أي: البعدى مما يلي المدينة، والقربى مما يلي مكة.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، الركب: جمع راكب، والمراد بالركب العير التي فيها تجارة قريش مع أبي سفيان في نحو أربعين راكباً، والتي خرج المسلمون لطلبها، وخرج المشركون لحمايتها.

﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، ﴿أَسْفَلَ﴾ ظرف مكان منصوب في محل رفع خبر «الركب» أي: والركب أخفض منكم، أي: في الجهة السفلى منكم مما يلي ساحل البحر، وليس بعيداً منكم، ولكن أراد الله أن يفلت فلا تظفرون به، وفي هذا حكمة بالغة ودلالة على طي علم الغيب حتى عن الرسول ﷺ.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، الواو عاطفة، و«لو» شرطية، و﴿تَوَاعَدتُّمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ﴾، واللام رابطة لجواب الشرط.

والمعنى: ولو تواعدتم أيها المؤمنون أنتم والمشركون، أي: ولو كان بينكم وبينهم موعد محدد مكاناً وزماناً أن تلتقوا في هذا المكان، وهذا الزمن ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، أي: لما استطعتم أن تلتقوا في الوقت المحدد والمكان المحدد بينكم، أي: لصار بينكم اختلاف في الزمان والمكان بتقدم أو تأخر، لما قد يعرض لكم ولهم من العوارض.

و﴿الْمِيعَادِ﴾ وقت وزمان الوعد.

قال السعدي[1]: «ولو تواعدتم أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، أي: لابد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم، أو لهم يصرفكم عن ميعادهم».

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، و«لكن»: للاستدراك، أي: ولكن جمعكم الله على غير ميعاد بينكم وبينهم؛ ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

كما قال كعب بن مالك- رضي الله عنه- في حديثه الطويل حين تخلَّف عن غزوة تبوك: «إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد»[2].

فالمسلمون خرجوا طلباً لعير قريش التي مع أبي سفيان ومن معه من الركب. وأبوجهل ومن معه من صناديد قريش خرجوا لحماية العير فالتقوا ببدر.

﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يتم ﴿اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، أي: واقعاً وكائناً، لا محالة، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٧١).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- قصة غزوة بدر (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

ونكَّر ﴿أَمْرًا﴾ للتعظيم، أي: أمراً عظيماً، وهو: التقاء المسلمين بالمشركين، وحصول المعركة والقتال بينهما، ونصر الإسلام أهله، وإذلال الشرك وأهله، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

والأصل في الهلاك: «الموت»، والأصل في الحياة ما يضاد الموت، والمراد في الآية الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي، والحياة المعنوية بالإيمان والطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: ٣١، الروم: ١٩].

وقال ﷺ: «**دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»(١).

ولما وقع سلمة بن صخر- رضي الله عنه- على امرأته وهو صائم جاء فزعاً إلى النبي ﷺ، يقول: «يا رسول الله، هلكت وأهلكت. قال ﷺ: **ما الذي أهلكك؟** قال: يا رسول الله، وقعت على امرأتي وأنا صائم..»(٢).

وقالت عائشة- رضي الله عنها- في معرض ذكرها حادثة الإفك: «فهلك في شأني من هلك»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٦)، ومسلم في الصيام (١١١١)، وأبوداود في الصوم (٢٣٩٠)، والترمذي في الصوم (٧٢٤)، وابن ماجه (١٦٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في فضائل الصحابة- فضل عائشة- رضي الله عنها (٢٤٨٨)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤)، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

والمعنى: ليكون كُفْرُ من كَفَرَ ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾، أي: بعد قيام الحجة عليه، ببيان الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب وخلف والبزي عن ابن كثير وأبوبكر عن عاصم «حيِيَ» بياءين ظاهرتين الأولى مكسورة والثانية مفتوحة، وقرأ الباقون بياء واحدة مشددة: ﴿حَيَّ﴾.

أي: ولأجل أن يؤمن من آمن ﴿عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾، أي: عن حجة واضحة، وبصيرة نافذة، ومعرفة تامة بالحق، توجب له التمسك بالحق، والثبات عليه؛ رجاء ثواب الله، وخوفاً من عقابه، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

قال ابن القيم: «فتلك آية من أعظم آيات الله سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه؛ ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة، فلا يكون له على الله حجة، ويحيى من حي عن بينة، فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم»(١).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، اللام في قوله: ﴿لَسَمِيعٌ﴾ للتوكيد، أي: وإن الله لذو سمع يسمع الدعاء وجميع الأصوات والحركات، حتى دبيب النمل على الصخر في الظلمات ومن ذلك سماعه- عز وجل- دعاء وتضرع المستغيثين به، وإيمان من آمن، وكفر من كفر.

﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ [طه: ٩٨]، عليم بالبواطن والظواهر، والغيب والشهادة، ومن ذلك علمه- عز وجل- بالكافرين، وعلمه بالمؤمنين واستحقاقهم النصر على أعدائهم الكافرين، وغير ذلك.

وباجتماع سعة السمع وسعة العلم في حقه- عز وجل- يزداد كمالاً إلى كمال.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

كما جمع الله بين المؤمنين والكافرين في بدر على غير ميعاد بينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، جعل الله- عز وجل- لإتمام ما قضاه، وتثبيت المؤمنين أن أرى النبي ﷺ المشركين في منامه قليلاً، كما أرى كل فريق منهم قلة الفريق الآخر، ليحصل الإقدام من كل منهما على الآخر، ويتم ما قضاه.

قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر»، أي: اذكر حين ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: يريك المشركين ﴿فِى مَنَامِكَ﴾، أي: في نومك ﴿قَلِيلًا﴾، أي: قليلاً عددهم- تثبيتاً من الله- عز وجل- لك ولأصحابك، وطمأنة لقلوبكم.

وفي هذا امتنان من الله- عز وجل- عليه ﷺ وعلى أصحابه، وتذكير لهم بذلك. وكان الله- عز وجل- قد أرى رسوله ﷺ في منامه جيش المشركين قليل العدد، فبشَّر بذلك أصحابه فتشجعوا للقائهم واطمأنت قلوبهم، وثبتوا، فكان ذلك من أسباب النصر.

وأسند عز وجل الإرادة إليه لبيان أنها حق ووحي من عنده- عز وجل- قال عبيد بن عمير: «رؤيا الأنبياء وحي»(١).

وقال إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- مخاطباً ابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، أي: ولو أراك المشركين كثيراً عددهم- كما هو الحال- فإنهم أكثر من المسلمين ثلاث مرات- وأخبرت بذلك أصحابك؛ ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾، اللام: رابطة لجواب الشرط: «لو».

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٨).

والفشل: الضعف والجبن، أي: لجبنتم وضعفتم وهبتم الإقدام.

﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، أي: ولاختلفتم في أمر الإقدام على القتال أو الإحجام عنه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ﴾، أي: ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع ولطف بكم، بأن أراكهم قليلاً.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ﴾، فلم يقل: «ولكنه سلم» إظهاراً لعنايته- عز وجل- بهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: إنه- عز وجل- ذو علم تام بصاحبة الصدور، وهي: «القلوب»، وما تخفيه من المضمرات، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩].

وسميت القلوب بذات الصدور لأنها مستترة في الصدور؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

كما يقال للمضمرات: ذات الصدور، قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات: ١٠].

ومن علمه- عز وجل- بما في القلوب: علمه أن رؤيتك لهم في منامك قليلاً من أسباب تثبيت القلوب، وأنه لو أراكهم كثيراً؛ لحصل الفشل والضعف والتنازع في الأمر.

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾.

و﴿إِذۡ﴾ ظرف في الموضعين، بمعنى «حين» أي: وحين يريكم أيها المؤمنون جيش المشركين حين التقيتم وإياهم ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾ رؤية بصرية يَقَظة بالعين المجردة، كما في قوله تعالى: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: ١٣]، .

﴿قَلِيلٗا﴾، أي: قليلاً عددهم- لطفاً منه- عز وجل- بكم؛ ليثبتكم ويجرئكم عليهم ويطمعكم فيهم ويزيدكم إقداماً.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا:

كم هم؟ قال: ألفاً»(١).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، أي: ويقللكم أيها المؤمنون في أعين المشركين يقظة استدراجاً لهم، وتغريراً بهم؛ ليتركوا الاستعداد، استهانة منهم وعدم مبالاة بكم، وهذا في أول اللقاء.

فلما التحم القتال، وأمد الله المؤمنين بالملائكة، وبدت علامات النصر، صار الكفار يرون المؤمنين مثليهم؛ لينهزموا من داخلهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، اللام: للتعليل- أي: لأجل أن يتم الله أمراً كان واقعاً وكائناً لا محالة، وهو التقاء الفريقين ووقوع الحرب والقتال بينهما ونصر الحق وإظهاره، وخذلان الباطل وإزهاقه.

فمن حكمته- عز وجل- أن قلل كل فريق في أعين الفريق الآخر- عند المواجهة واللقاء إغراءً لكل منهما بالآخر، فلما التحم القتال، وتنزلت أسباب النصر من الإمداد بالملائكة، رأى الكفار المؤمنين مثليهم مع أنهم أقل من ثلثهم؛ لإدخال الرعب في قلوبهم وهزيمتهم من الداخل.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي وإلى الله- عز وجل- وحده، ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي: ترد جميع الأشياء في الدنيا والآخرة، فالخلق والملك والتدبير والحكم له- عز وجل- ومرد الخلائق إليه، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين بما حصل بينهم وبين المشركين في بدر من لقاء على غير ميعاد؛ ليتم الله- عز وجل- أمراً واقعاً لا محالة وهو نصر الحق وأهله وخذلان الباطل وأهله.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠).

والامتنان على المؤمنين بذلك؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

٢- أن الرسول ﷺ لم يخرج يوم بدر إلى حرب، وإنما خرج لطلب العير؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ﴾.

٣- إباحة أموال كفار قريش؛ لأن الرسول ﷺ خرج في طلب تجارتهم، وذلك لأنهم كفار محاربون آذوا الرسول ﷺ وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فهم حلال الدم والمال.

٤- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ولهذا أفلت العير منهم، وكان نصيبهم النفير.

٥- حكمة الله- عز وجل- البالغة- وقدرته التامة، وقدره النافذ، حيث التقى الجمعان وتقابلا في العُدوتين، بلا موعد بينهما، ولو كان ذلك عن موعد لاختلفا في الميعاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

٦- أن مما قضاه الله وقدره التقاء المؤمنين والمشركين في بدر على غير ميعاد وحصول المعركة والقتال بينهما ونصر المؤمنين وخذلان المشركين، وإظهار الحق، ودحض الباطل.

٧- أن الله عز وجل نصر الحق وأهله في بدر، وخذل الباطل وأهله؛ ليتبين ويظهر الحق من الباطل، وتقوم الحجة على من سلك طريق الكفر والهلاك، ولتتضح المحجة لمن أراد سلوك طريق الإيمان والحياة والفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾.

٨- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي يسع جميع الأصوات والحركات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾.

٩- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

١٠- منة الله- عز وجل- على الرسول ﷺ والمؤمنين حيث أراه الكفار في منامه قليلاً ليحصل له وللمؤمنين التثبيت والإقدام على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ

ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾.

١١- منة الله- عز وجل- على الرسول حيث لم يره الكفار كثيراً فيخبر أصحابه ويحصل لهم بذلك الفشل والجبن والتنازع والاختلاف حول القتال أو عدمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

١٢- علم الله- عز وجل- التام بالقلوب وما فيها من المكنونات والأسرار والضمائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

١٣- منة الله- عز وجل- على المؤمنين بتقليل الكفار في أعينهم عند لقائهم لطفاً منه- عز وجل- بالمؤمنين وتثبيتاً لهم، وترغيباً لهم في الإقدام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

١٤- تقليل المؤمنين في أعين الكفار تغريراً بهم واستدراجاً لهم؛ ليستهينوا بالمؤمنين فلا يستعدوا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾.

١٥- جمع الله- عز وجل- للمؤمنين في بدر بين وسائل النصر المادية والمعنوية، وتسليمهم من وسائل الضعف والهزيمة.

١٦- أن الله- عز وجل- إذا أراد قضاء أمرٍ وإتمامه هيأ له أسبابه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ بعد ما ذكر تقليل المشركين لرسول الله ﷺ في رؤيته لهم في منامه، وتقليل كل من الفريقين في أعين الفريق الآخر.

١٧- تأكيد قضاء الله التام وحكمه النافذ في نصرة الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

١٨- أن مرجع ومرد ومصير جميع الأمور والأشياء في الدين والدنيا والآخرة إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

١٩- التنبيه للاستعداد للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما أمد به المؤمنين في بدر من أسباب النصر، ثم أمرهم بالأسباب التي إذا أخذوا بها في قتالهم تحقق لهم النصر؛ من الثبات وذكر الله وطاعته ورسوله والصبر وعدم التنازع، وحذرهم من صفات الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس وصداً عن سبيل الله.

كما أن في الأمر بالثبات هنا توكيداً لما سبق من النهي عن تولية الكفار الأدبار.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾، أي: إذا لقيتم جماعة من الكفار للقتال والنزال.

﴿فَٱثْبُتُواْ﴾، أي: فاثبتوا لقتالهم، واصبروا لمنازلتهم. عن عبدالله بن أبي أوفى- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «**يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**». ثم قال ﷺ: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٦)، ومسلم في الجهاد- كراهية تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٣١)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٦).

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ الذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، أي: واذكروا الله بأنواع الذكر القلبية، والقولية والفعلية، وهو ضد الغفلة والنسيان، أي: واذكروا الله ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأمر الله- عز وجل- بالذكر عند اللقاء؛ لأنه من أعظم أسباب الثبات، والعون على القتال، والنصر على الأعداء؛ كما قال تعالى في سورة النساء بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لأجل أن تفلحوا. والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب؛ الفوز بالسعادة في الدنيا، والنصر على عدوكم، والسعادة في الآخرة بالجنة والنجاة من النار.

عن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإذا أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾.

قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الطاعة: الامتثال، بفعل المأمور، وترك المحظور، أي: وأطيعوا الله ورسوله، بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله، مما يتعلق بالحرب والقتال، وغير ذلك، وهذا والله أقوى سلاح، وهو القوة المعنوية.

وفي عطف قوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك بين

---

(١) أخرجه عبدالرزاق- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤)، والدارمي في السير- لا تتمنوا لقاء العدو (٢/ ١٣٥).

المعطوف والمعطوف عليه، دون إعادة الفعل «أطيعوا» دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، التنازع: الاختلاف، سُمي بذلك؛ لأن كلاً من المختلفين ينزع حجة الآخر، ويزعم أن الحق معه، أي: ولا تختلفوا.

﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، الفشل: عدم تحقيق المراد، والهزيمة والضعف والجبن، أي: فتضعفوا وتجبنوا وتعجزوا عن مقاومة عدوكم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، الريح في الأصل: الهواء، ولها إقبال وإدبار، ولها منافع ومضار، وفي الحديث قال ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»(١).

و«الصبا»: الريح الشرقية، و«الدبور»: الغربية.

والمراد بالريح في الآية: القوة والغلبة والنفوذ، أي: فتزول قوتكم، ونفوذ أمركم، وهيبتكم، ويهون شأنكم، ويكون أمركم في إدبار بعد الإقبال. وقد قيل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل ذارية سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

والمعنى: ولا تنازعوا فتختلف قلوبكم وتتفرقوا فتفشلوا وتجبنوا وتضعفوا عن مقاومة عدوكم وتزول قوتكم، ويهون شأنكم، وتخذلوا.

فالتنازع والاختلاف نتيجته لا محالة: الفشل والضعف، وزوال القوة؛ لما يسببه التنازع من اختلاف القلوب والعداوة والتفرق، وتربص بعضهم وانشغاله ببعض بدل الانشغال بالتعاون ضد العدو المشترك الحقيقي؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وواقع المسلمين اليوم شاهد على هذا، فبسبب بُعد كثير من المسلمين عن دينهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله، والتنازع والاختلاف بينهم، والعداوة والبغضاء

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٣٥)، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والتفرق آلت حال المسلمين إلى ما آلت إليه من الضعف والهوان وتسلط الأعداء عليهم، وضعف مكانتهم في المحافل الدولية التي لا تقيم شأناً للضعيف، كما قال جرير[(١)]:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم حضور

وقد تعمق هذا الاختلاف في بعض الأوساط الإسلامية، بسبب الانقسام إلى جماعات يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، حتى خرج أناس على المسلمين بالتكفير والتفجير بدعوى الجهاد، وشوهت صورة الإسلام.

وهذا كله يوجب على المسلمين العودة إلى دينهم، والسعي إلى وحدة الأمة، والقضاء على أسباب النزاع والاختلاف والتفرق، والاجتماع على كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الصبر لغة: الحبس، وفي الاصطلاح: صبر على أشياء وعن أشياء. ويقال: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة: **الأول**: الصبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

والثاني: الصبر عن معصية الله كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حين راودته عن نفسه واستعصم وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٣٣٢).

ومنه صبر الرجل الذي دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: «إني أخاف الله»[١].

والثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، وهذا يتناول الصبر على حكم الله الشرعي، وهو الصبر على تبليغ الرسالة، ويتناول الصبر على حكم الله القدري مما يلقاه من أذى قومه وغير ذلك.

ومنه قوله ﷺ لما أرسلت إليه إحدى بناته أن ابناً لها في الموت، قال: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب**»[٢].

والأمر بالصبر في الآية يشمل الأقسام الثلاثة؛ لأن الله- عز وجل- أمر فيها بالثبات عند اللقاء، وبذكره كثيراً، وطاعته ورسوله، فالصبر على هذا صبر على طاعة الله تعالى.

ونهى فيها عن التنازع، فالصبر عن هذا صبر عن معصية الله تعالى.

كما أفادت الآية بمفهومها النهي عن الفرار عند اللقاء، وعن الغفلة عن ذكر الله- عز وجل- وعن معصية الله ورسوله، فالصبر عن هذا صبر عن معصية الله تعالى أيضاً.

وأفادت الآية أيضاً بمفهومها الأمر بالاجتماع وعدم التنازع، فالصبر على هذا صبر على طاعة الله تعالى.

كما أن في الأمر فيها بالثبات أمر بالصبر على أقدار الله المؤلمة.

فانتظم قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذه الجملة فيها معنى التعليل للأمر بالصبر، وفيها الترغيب فيه بذكر ثمرته ومنفعته، وهي عونه- عز وجل- للصابرين ونصره وتوفيقه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» الحديث..

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٧)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

لهم، وما يترتب على ذلك من منافع دينية ودنيوية وأخروية لا تحصى[١].

والمراد بالمعية هنا معية الله- عز وجل- الخاصة بأوليائه المؤمنين الصابرين- وهي معية التوفيق والعون والتسديد، والنصر والحفظ والتأييد.

وهناك المعية العامة، وهي معية الله- عز وجل- مع جميع الخلق، بعلمه وإحاطته وقدرته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ الآيات.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في الآيات السابقة بالأخذ بأسباب النصر؛ من الثبات، وذكر الله- عز وجل- وطاعته ورسوله، ونهاهم عن التنازع المؤدي إلى الفشل والجبن وذهاب قوتهم وهيبتهم، ثم حذرهم من مشابهة الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، وصداً عن سبيل الله.

وفي هذا حث للمؤمنين على الإخلاص في جهادهم، وتعريض بذم المشركين.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾، أو على قوله: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ في الآية قبلها.

أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون كالكفار الذين خرجوا من مكة، وهم أبوجهل ومن معه من صناديد قريش يوم بدر.

﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ حالان، أي: حال كونهم بطرين مرائين للناس.

ومعنى ﴿بَطَرًا﴾، أي: كبراً واستعلاءً وخيلاءَ، ودفعاً للحق، قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[٢] أي: رد الحق، واحتقار الناس.

﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، أي: مراءاة للناس، وطلباً لثناء الناس عليهم بالشجاعة،

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] في تفسير سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

غروراً منهم. عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما رأى أبوسفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبوجهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً- وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام- فنقيم عليها، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا»(١).

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، وجاء التعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه وصراطه المستقيم الموصل إليه.

والصد: الصرف والمنع، أي: ويصرفون الناس ويمنعونهم عن الدخول في دين الله بتعذيبهم وقتالهم للمؤمنين، وهذا أشد وأعظم من صدهم بأنفسهم عن دين الله وكفرهم به.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي يعملون، أو بعملهم محيط، أي: مطلع عليه، عالم به، لا تخفى عليه منه خافية.

وفي نهي المؤمنين عن التشبه بمن هم على هذه الصفات الذميمة تهديد ووعيد للمشركين، وذم لهم وتشنيع عليهم، وتقبيح لما هم عليه من هذا المسلك المشين وتكريه ذلك للمسلمين، وتحذيرهم منه، وترغيبهم في الإخلاص لله- عز وجل- في جهادهم وجميع أعمالهم.

ولا غضاضة في نهي المؤمنين عن التشبه بمن هذه صفاتهم وإن لم يقع ذلك منهم- بل وإن كان ذلك مستبعداً منهم بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان وأنقذهم الله به من الكفر، وقد قال الله- عز وجل- للمعصوم سيد الرسل وأفضل الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]، وقال له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢١٧-٢١٨)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٨).

ولما أنكر بعد جلساء عمر- رضي الله عنه- على من قال له: «اتق الله» زجره عمر- رضي الله عنه- وقال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم»(١).

وإنما يستنكف عن هذا ضعاف الإيمان أو من لا إيمان عنده كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، الواو: استئنافية، و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف تقديره: «اذكر».

و«التزيين»: إظهار الشيء زيناً وحسناً، أي: وإذ حسن لهم الشيطان أعمالهم، أي: حسَّنها في قلوبهم؛ من الخروج بطراً ورياء، والصد عن سبيل الله، ومقاتلة أولياء الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقال الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وقال لهم الشيطان مغرراً بهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية.

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته والشيطان في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فلما اصطفَّ الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب

---

(١) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٧٣)، وأبو يوسف في «الخراج» (ص٢٢).

فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده فولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك جار لنا؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة»(١).

وعن عروة بن الزبير، قال: «ولما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر- يعني- من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً»(٢).

﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿غَالِبَ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا أحد يغلبكم اليوم من الناس، أيًّا كان لا محمد وأصحابه ولا غيرهم.

أي: أنتم أقوى الناس وأشجعهم، وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ونحو ذلك.

ولهذا أعجبوا بأنفسهم، وخرجوا بطراً ورئاء الناس، وقال أبوجهل مقالته السابقة.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، أي: وإني مجير لكم، أي: حافظ ومانع ودافع للضرر عنكم.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ تراءت مفاعلة من الرؤية، أي: تلاقت الفئتان ورأت كل منهما الفئة الأخرى، والمراد بالفئتين: جيش المسلمين وجيش الكفار.

والفئة: الجماعة.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، ﴿نَكَصَ﴾، أي: رجع من حيث جاء. والنكوص: الرجوع إلى الوراء.

﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ تأكيد؛ لأن النكوص لا يكون إلا على العقبين، وهما: تثنية «عقب» وهو: مؤخر الرجل، ويجمع على أعقاب، كما قال تعالى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٥).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٢)، وابن إسحاق في «السيرة». انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٢)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٦).

نَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦]، وقال ﷺ: «ويل للأعاقب من النار»(١).

والمعنى: فلما رأت كل فئة من الجيش الفئة الأخرى رجع وولى هارباً مدبراً على قفاه.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾، أي: بريء من عهد جواركم وتوليكم.

قال حسان(٢) رضي الله عنه:

دلاّهـــمُ بغـــرور ثـــم أســـلمهم ... إن الخبيـــث لمـــن ولّاه غـــرارُ

وقد سمّاه الله- عز وجل: «الغرور» وحذّر منه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] أي: الشيطان.

﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال المفسرون: رأى جبريل والملائكة، كما جاء في سبب النزول.

وعن طلحة بن عبيدالله بن كريز- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما رؤي الشيطان في يوم هو فيه أصغر، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رؤي يوم بدر**. قالوا: يا رسول الله، وما رؤي يوم بدر؟ قال: **أما إنه رأى جبريل- عليه السلام- يزع الملائكة**»(٣).

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ هذه الجملة بيان لقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، أي: إني أخاف الله فيما رأيت من جنود، أي: أنه خاف عقاب الله وبطشه به في الدنيا.

ويحتمل أن المعنى: إني أخاف الله وعقابه في الآخرة- زعماً منه وكذباً، كما قال الله تعالى عنه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «ديوانه» (١/ ٤٧٥).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» في كتاب الحج- جامع الحج (١/ ٤٢٢) حديث (٢٤٥)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٤)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٩): «هو مرسل من هذا الوجه، ومعنى يزع الملائكة: يصفّهم». وقد رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٧٠) موصولاً عن طلحة بن عبيد الله عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

لِّي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال قتادة: «وذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له، ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلم، وتبرأ منهم عند ذلك»(١).

وقال عطاء: «إني أخاف أن يهلكني الله فيمن هلك».

قال ابن القيّم بعد ما ذكر قول عطاء: «أي: إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل، أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقاب الآخرة. وهذا أصح»(٢).

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يحتمل أن يكون هذا من جملة ما قاله الشيطان، ويحتمل أن يكون مستأنفاً، أي: والله شديد العقاب لمن استحق عقابه، فعقابه- عز وجل- شديد، من حيث كمه وكيفه ونوعه.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، ﴿إِذۡ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بقوله: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الآية.

فمقالة المنافقين ومرضى القلوب في حين زين الشيطان للمشركين أعمالهم وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾.

فاجتمع على المسلمين العدو الظاهر وهم المشركون، والعدو الباطن وهم المنافقون ومرضى القلوب. وكما قيل:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٦).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٣٤٠).

ولـو كـان سـهم واحـد لاتقيتـه ولكنـه سـهم وثـان وثالـث

والمنافقون: جمع منافق، وهم الذين يُظْهِرون الإيمان ويبطنون الكفر.

وسُمي النفاق والمنافقون بهذا الاسم أخذاً من نافقاء «اليربوع» وهو دويبة صغيرة يتخذ جحراً في الأرض، ويجعل في نهايته مخرجاً للطوارئ، عليه قشرة رقيقة من الأرض فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب برأسه هذه القشرة وخرج.

فكذلك المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يقابلون المؤمنين بوجه ويقابلون الكفار بوجه آخر، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: والذين في قلوبهم مرض الشبهة والشك وضعف الإيمان.

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، الغرور: توهم المنفعة بما فيه مضرة.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يشيرون إلى المؤمنين الذين خرجوا إلى بدر، أي: غر هؤلاء المؤمنين دينهم، حين أقدموا مع قلة عددهم وعدتهم وضعفهم على قتال المشركين مع كثرة عددهم وعدتهم وقوتهم، يقولون هذا لمزاً للمؤمنين واحتقاراً لهم واستخفافاً بعقولهم.

وهم- والله- أحقر، وأخف عقولاً وأحلاماً حيث خرجوا بطراً ورئاءً وصداً عن سبيل الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم وغرّهم بكثرتهم وقوتهم وأنه جار لهم، ثم أسلمهم وتخلى عنهم.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فيه تشجيع للمؤمنين، وحض لهم على الثبات والتوكل على الله، والثقة بنصره، وإن قلَّ عددهم وعدتهم؛ لأنه عزيز حكيم، وفيه إرغام لأنوف المشركين والمنافقين ومرضى القلوب وتخييب لظنونهم.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يعتمد على الله- عز وجل- ويفوض أمره إليه

مع تمام الثقة بالله، والتسليم له، والرضا بقضائه.

والتوكل على الله: صدق الاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جواب الشرط، أو كناية عن الجواب، أي: فإن الله ينصره؛ لأنه- عز وجل- عزيز حكيم.

و﴿عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام: الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة البالغة: الغائية والصورية.

والمعنى: ومن يعتمد على الله ويفوض أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله، فإن الله- عز وجل- عزيز قوي غالب، ينصر من انتصر به وتوكل عليه، ولا يضام من لاذ بجنابه والتجأ إليه، حكيم ذو الحكم التام والحكمة البالغة، ينصر من يستحق النصر ويخذل من يستحق الخذلان.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٣- أن امتثال ما بعد هذا النداء بهذا الوصف: من الثبات عند اللقاء، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، والصبر، وعدم التنازع، والبعد عن صفات الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله يُعد من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤- وجوب الثبات عند لقاء العدو، وتحريم الفرار؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.

٥- مشروعية ذكر الله- عز وجل- كثيراً عند اللقاء والقتال وبعده؛ لأنه من أعظم أسباب الطمأنينة والثبات والنصر على الأعداء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٦- أن الثبات عند اللقاء، والإكثار من ذكر الله- عز وجل- من أسباب الفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٧- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وفي هذا الرد على من نفى ذلك من المعتزلة وغيرهم.

٨- نهي المؤمنين وتحذيرهم من التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٩- لا غضاضة في نهي المؤمنين من الصحابة- رضي الله عنهم- عن التشبه بالكفار وصفاتهم- وإن لم يقع منهم ذلك، بل يستبعد أن يقع منهم ذلك- فقد قال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ، وهو أشرف الخلق: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥]، وهو المعصوم ﷺ.

١٠- ذم الكفار والتشنيع عليهم، وبيان سوء مقصدهم، وقبيح صنيعهم، وخيبة مسعاهم، حيث خرجوا من ديارهم بطراً ورياءً وصدًّا عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١١- أن الكبر من أسباب رد الحق ودفعه والصد عنه، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

١٢- جمع المشركين بين الصد بأنفسهم عن دين الله، وصد غيرهم عنه، وهذا أعظم، مما يدل على شدة كفرهم وعداوتهم للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق.

١٣- إحاطة الله- عز وجل- واطلاعه وعلمه بجميع ما يعمله الكفار من المكر والكيد والصد عن سبيل الله، والتهديد الشديد، والوعيد الأكيد لهم، وأنه- عز وجل- سيجازيهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

١٤- تزيين الشيطان وتحسينه للكفار أعمالهم السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

١٥- تغرير الشيطان بالمشركين بكثرة عددهم وعدتهم وقوتهم بقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ

ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

١٦- خديعة الشيطان للمشركين بعونه وإجارته لهم بقوله: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾.

١٧- خذلان الشيطان للمشركين في أشدِ المواقف ونكوصه على عقبيه لما التقى الجمعان ورأى الملائكة، وبراءته منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

١٨- رؤية الشيطان للملائكة يوم بدر وخوفه من عقاب الله وبطشه في الدنيا؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

١٩- زعم الشيطان أنه يخاف الله وعقابه الأخروي، وهذا على الاحتمال الثاني في معنى الآية، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، وهو في ذلك كاذب.

٢٠- ينبغي الحذر من الشيطان وتزيينه وغروره وكيده ووعوده الكاذبة.

٢١- شدة عقاب الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٢٢- تربُّص المنافقين ومرضى القلوب بالمؤمنين ولمزهم واحتقارهم لهم واستخفافهم بهم، وتثبيطهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

٢٣- الترغيب في التوكل على الله والاعتماد عليه؛ لأن مَن توكل عليه كفاه وحفظه ونصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٤- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

٢٥- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة له- عز وجل- الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٢٦- في اقتران صفة العزة والحكم والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال.

٢٧- في ختام الآيات بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تشجيع للمؤمنين على الثبات والثقة بنصر الله؛ لأنه عزيز حكيم، وتخييب لظنون المشركين والمنافقين ومرضى القلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة تزيين الشيطان للكفار أعمالهم وغروره لهم، ومن ثَمَّ خذلانه لهم، ونكوصه على عقبيه، وبراءته منهم في إشارة لما حلَّ بهم يوم بدر، ثم أتبع ذلك بذكر ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة عند توفى الملائكة لهم وفي النار، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد: ٢٧].

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، الواو: للاستئناف، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، أي: ولو تشاهد إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة.

وحذف جواب «لو»: للتهويل والتعظيم، والتقدير: لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً منكراً.

﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾ قرأ ابن عامر بالتاء على التأنيث: «تتوفى»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يَتَوَفَّى﴾.

و﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل، وقدم المفعول للاهتمام، والمراد بهم ملائكة العذاب.

ومعنى ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: يقبضون أرواحهم بنزعها من أجسادهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

فالتوفي: الإماتة، وسُمي الميت متوفى؛ لأنه استوفى رزقه وعمله وأجله.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم، أي: جميع أجسادهم، قد اشتد بهم الكرب والقلق، يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم ممتنعة مستعصية؛ لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر الله.

فالمراد بالوجوه: ما أقبل من أجسادهم؛ لأن الوجه يطلق على ما أقبل من الإنسان؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠] أي: فتوجه بجميع ما أقبل من جسدك شطر المسجد الحرام.

والمراد بالأدبار: ما أدبر من أجسادهم؛ لأن الدبر يطلق على ما أدبر من الإنسان؛ كما قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَضْرِبُونَ﴾، بتقدير: ويقولون.

أي: ذوقوا وأحسوا وتجرعوا عذاب الحريق؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٧]، وهذا تبكيت لهم، وعذاب معنوي ينصب على قلوبهم لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ﴿عَذَابَ﴾: مضاف و﴿الْحَرِيقِ﴾: مضاف إليه، والإضافة بيانية، من إضافة الجنس إلى نوعه؛ لبيان نوع العذاب وأنه عذاب الحريق، أي: عذاب النار المضطرمة المحرقة، وهم فيها كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦].

وقد قيل: إن هذا التوفي والضرب والتبكيت يحصل من الملائكة للكفار عند حشرهم إلى النار.

وقال بعض المفسرين: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ ما حصل لهم يوم بدر.

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وهذا السياق- وإن كان سببه وقعة بدر- ولكنه عام في كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها».

وتقدَّم في سورة الأنعام قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الآية: ٩٣]، أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد لتخرج قهراً، كما في حديث البراء- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود[(٣)] من الصفوف المبلول**»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

هذا من تمام كلام الملائكة في تبكيتهم وتوبيخهم للكفار.

والإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى ما تقدم من توفي الملائكة لهم حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وأشار إليه بإشارة البعيد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٣٠).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ٢٠).

(٣) السفود: حديدة ذات شعب معقفة يُشوى بها اللحم.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٦)

تهويلاً له وتعظيماً.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، الباء: للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي قدمته أيديكم، أو بسبب تقديم أيديكم.

والمعنى: بسبب الذي قدمتم وعملتم من الأعمال السيئة في الدنيا من الكفر بالله والصد عن دينه، وقتال أوليائه، ونحو ذلك.

ويضاف ما قدمه الإنسان وما عمله وينسب إلى يديه؛ لأن بهما البطش والأخذ والعطاء. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي: ذلك بسبب ما قدمت أيديكم وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، فجوزوا بما ذكر بسبب ذنوبهم وجوزوا به دون زيادة؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد.

و«ظلَّام» بصيغة المبالغة لتأكيد النفي، ولا مفهوم لها، والمعنى: أنه- عز وجل- ليس بذي ظلم، أو ليس يظلم أحداً، وهي نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أي ظلم منه للعبيد مهما قلَّ ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

واللام في قوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ للاستغراق في جميع العبيد، فلا يظلم عز وجل أحداً منهم؛ لأنه الحَكَم العدل الذي لا يظلم أحداً من خلقه مثقال ذرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

وقال- عز وجل- في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»(١).

وقد أقام لعباده الحجة وأوضح لهم المحجة؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة- تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين- توفي الملائكة للكفار حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم ويعنفونهم ويبكتونهم بقولهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وذلك بسبب كفرهم وصدهم عن دين الله، ثم أتبع ذلك ببيان أن هذا دأب الأمم قبلهم تكذيب آيات الله، وما أوقعه بكفار مكة هو دأبه- عز وجل- وسنته في إهلاك المكذبين قبلهم.

قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، ﴿كَدَأۡبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: دأبهم كدأب آل فرعون.

والدأب: العادة والسيرة المألوفة المعروفة.

﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، أي: فرعون وقومه.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، أي: والذين من قبلهم من الأمم مثل عاد وثمود.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: جحدوا وكذبوا بآيات الله الشرعية والكونية، الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، أي: فعاقبهم الله وأهلكهم بسبب ذنوبهم بأنواع العقوبات.

والمعنى: أن كفار مكة سلكوا مسلك فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم بالكفر بآيات الله وتكذيب رسله، فعاقبناهم كما عاقبنا المكذبين قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾، أي: إن الله قوي غالب لا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن كفر به وعصاه؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

فأخذه- عز وجل- لهؤلاء المكذبين وغيرهم ممن سلك طريقهم قوي شديد؛ لأنه قوي شديد العقاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما أوقعه الله بالكفار من أهل مكة، وفي آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة من العقوبات بسبب ذنوبهم.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب أن الله.

﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: لم يكن مزيلاً نعمة أنعمها على قوم ومبدلاً لها بضدها، بل يحفظها عليهم ويبقيها لهم، ويزيدهم منها، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ تذكير بأنه- عز وجل- هو المنعم الذي يجب أن يشكر ولا يكفر.

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: إلى غاية أن يغيروا هم الذي بأنفسهم من طاعة الله تعالى إلى معصيته، ومن شكره إلى كفره، فإذا غيروا غير الله عليهم نعمته، وأحل بهم نقمته، جزاءً وفاقاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨].

قال العباس رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب، وما رُفع إلا بتوبة»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٥٩)، وأخرجه في «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ١٠٢)، وانظر «فتح الباري» (٢/ ٤٩٧).

وفي قوله: ﴿لَمْ يَكُ﴾ بصيغة المضارع إيذان بتجدد العقوبات إذا وجد سببها؛ لأن هذه سنة الله في المكذبين.

وفي هذا تحذير وإنذار لجميع الكفار المكذبين من هذه الأمة أن يحل بهم ما حل بمن قبلهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

أي: وأن الله ذو سمع واسع يسع جميع الأصوات، وذو علم واسع يسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه الآية تأكيد وتقرير للإنذار والتهديد في قوله قبل هذا: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

وبين الآيتين اختلاف في بعض الكلمات لزيادة الفائدة والتنويع في الأسلوب، ففي الآية الأولى: ﴿كَفَرُوا۟﴾، وفي الثانية: ﴿كَذَّبُوا۟﴾، والكفر والتكذيب كل منهما سبب للأخذ والإهلاك، وهما متقاربان.

وفي الآية الأولى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وفي الثانية: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي كل منهما تشنيع على الكافرين المكذبين، ففي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تشنيع عليهم لكفرهم بآيات الله العظيم المستحق للعبودية وحده دون من سواه، فكفروه بدل أن يعبدوه.

وفي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تشنيع عليهم لتكذيبهم بآيات ربهم المنعم عليهم ومربيهم، فكذبوه بدل أن يشكروه.

وفي الآية الأولى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وفي الثانية: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

والإهلاك تفسير وبيان لأخذ الله لهم وأنه ينتهي بإهلاكهم.

وأسند أخذهم إليه باسمه العظيم ﴿ٱللَّهُ﴾ واسند إهلاكهم إلى نفسه بضمير العظمة «نا» لأنه العظيم الذي له العظمة المطلقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي**»(١).

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وزيد في الآية الثانية: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وفيه بيان أن إهلاكهم كان بالغرق، مما يدل على شدة عقوبتهم؛ وذلك- والله أعلم- لشدة جرمهم وهو دعوى الربوبية والألوهية.

وختمت الآية بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ وتنوين «كلٌّ» عوض عن المضاف إليه.

أي: وكل من المكذبين من هذه الأمة وفرعون وقومه والذين من قبلهم كانوا ظالمين بكفرهم وتكذيبهم، حيث كفروا وكذبوا بآيات الله ربهم ولا ظلم أعظم من الكفر والتكذيب بآيات الله، وحيث اجتمعوا في الظلم عمتهم العقوبات، كما هي سنة الله في الكفار المكذبين الظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والظلم لغة: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الكهف: ٣٣].

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان. وأظلم الظلم الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله- عز وجل- أبين الحقوق وأعظمها؛ خلق ورزق وأنعم على الخلق بجميع النعم، فالإشراك به وصرف حقه لغيره أظلم الظلم.

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- شدة ما يلاقيه الكفار من التعذيب والإهانة على أيدي الملائكة عند توفيهم لهم وقبض أرواحهم بضرب وجوههم وأدبارهم وتبكيتهم وتعنيفهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

٢- إثبات الملائكة وتوفيهم للكفار وتعذيبهم لهم، والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة.

٣- أن الميت قد استوفى ماله من رزق وعمل وأجل؛ لهذا سُمي الموت وفاة، وسُمي الميت متوفى.

٤- الجمع للكفار بين العذاب الحسي بضرب الوجوه والأدبار والتعذيب بالنار وبين العذاب المعنوي بالتعنيف والتبكيت، وهو لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

٥- إثبات النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: عذاب النار المحرقة.

٦- أن النار تحرق ما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ لكنهم فيها كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وليس معنى ذلك أنهم يحترقون ويفنون، ولا أنهم يكونون جهنميين فلا يحسون فيها- كما يقول بعض أهل البدع والضلال.

٧- أن مجازاة الكفار بما ذكر من العذاب الحسي والمعنوي بسبب كفرهم، وما قدموه واقترفوه من الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٨- كمال عدل الله- عز وجل- وتأكيد نفي الظلم عنه، وأنه لا يظلم أحداً من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

٩- كفر وتكذيب فرعون وقومه والذين من قبلهم بآيات الله ربهم، وأخذه وإهلاكه لهم بذنوبهم.

١٠- سلوك كفار مكة مسلك فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم في الكفر

والتكذيب بآيات الله ربهم وأخذه وإهلاكه لهم بما حل بهم في بدر وحين توفي الملائكة لهم.

١١- إثبات أن سنن الله الكونية بأخذ الكافرين بآيات الله المكذبين بها وإهلاكهم بسبب ذنوبهم ثابتة لا تتبدل ولا تتغير وتأكيد ذلك، فكما أخذ آل فرعون والأمم قبلهم وأهلكهم بسبب ذنوبهم أخذ وأهلك كفار مكة بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

١٢- وجوب الإيمان بآيات الله الكونية والشرعية، والحذر من الكفر والتكذيب بها؛ لأن ذلك سبب للعقوبات العاجلة والآجلة.

١٣- أن دأب كثير من الأمم وكثير من الناس الكفر بآيات الله والتكذيب بها، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

١٤- أن الله- عز وجل- قوي لا يغالب، شديد العقاب لمن كفر به وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ مما يوجب خوفه وتقواه.

١٥- أن الله- عز وجل- لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بالكفر بعد الإيمان، والمعصية بعد الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

١٦- أن النعم كلها من الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

١٧- أن النعم إذا شكرت قرَّت وإذا كفرت فرَّت.

١٨- أن ما يحصل من عقوبات وزوال للنعم إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي، فهي سبب كل بلية، وجالبة لكل رزية، مما يوجب الحذر منها والبعد عنها.

قال ابن القيم: «وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ

سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال الله نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه: إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله.

وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم(١)

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه؛ فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له»(٢).

١٩- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي يسع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾.

٢٠- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- الذي يسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢١- في اجتماع كمال السمع والعلم في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال، والوعد لمن شكر والوعيد لمن كفر.

٢٢- إهلاك فرعون وقومه بالغرق؛ لشدة كفرهم وتكذيبهم، ودعوى فرعون الربوبية والألوهية، ولهذا نص على عقوبتهم دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

٢٣- اجتماع الكفار والمكذبين من هذه الأمة ومن الأمم قبلهم على الظلم، بل على أظلم

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٧٥، ١٧٥.

(٢) انظر: «التفسير القيم» ص٥٤٤-٥٤٨.

الظلم وهو الكفر بآيات الله والتكذيب بها، والشرك بالله؛ ولهذا جرت عليهم سنن الله الكونية في أخذ وإهلاك الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة عقابه لكفار مكة، وأنهم سلكوا مسلك من سبقهم من الكفار والمكذبين؛ فجرت عليهم سنن الله الكونية في أخذ وإهلاك الكفار والمكذبين.

ثم أتبع ذلك بذمهم وأنهم شر الدواب؛ لكفرهم وعدم إيمانهم، ونقضهم للعهود، وعدم تقواهم.

قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إن شر ما دب ويدب على الأرض من الحيوانات في حكم الله- عز وجل- وقضائه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وقوله: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ ولم يقل شر الناس، تحقيراً لهم، وتأكيداً لزيادة شرهم.

﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، الفاء: استئنافية بيانية، أو تعليلية، أي: لأنهم لا يؤمنون.

أي: الذين كانوا على الكفر قبل الإسلام، واستمروا على كفرهم ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعد سماع دعوة الإسلام، أو الذين كفروا بما جاء به النبي ﷺ من الوحي من عند الله وأصروا على كفرهم ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في المستقبل، بل سيستمرون على الكفر.

فهؤلاء هم شر الدواب لكفرهم، وانتفاء إيمانهم في المستقبل، وقد أكد ذلك بتقديم المسند إليه وهو قوله: ﴿فَهُمۡ﴾ على الخبر، وهو الفعل المنفي وهو قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

والكفر وعدم الإيمان بالحق أول مرة سبب للاستمرار على الكفر والحيلولة بين القلب وبين الإيمان في المستقبل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ

أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وإنما كان الذين كفروا شر الدواب لجهلهم بربهم وعصيانهم له دون سائر الدواب، فجميع المخلوقات من الحيوانات التي تدب على الأرض ناطقها وبهيمها، ومن الجمادات كلها انقادت لله- عز وجل- طائعة وسجدت له، واهتدت لما خلقت له، سوى الذين كفروا؛ كما قال- عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والخطاب للنبي ﷺ، أي: الذين أخذت منهم العهد وهم قريظة ونظراؤهم من المشركين والمنافقين وغيرهم، أي: الذين أخذت منهم العهد أن لا يحاربوك ولا يعينوا عليك عدواً.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾، التعبير بالمضارع للدلالة على أن ذلك، كما حصل منهم قبل نزول هذه الآية يتجدد ويتكرر منهم بعد نزولها.

والمعنى: الذين عاهدت منهم ثم نقضوا عهدهم، وينقضونه في كل مرة، فلا يوفون بعهد، بل ديدنهم نقض العهود؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٠].

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، أو حالية، أي: وهم لا يتقون الله، أو الحال أنهم لا يتقون الله فيما ارتكبوه من الكفر ونقض العهود وغير ذلك من الذنوب ولا يخافون عقابه، ولا يتقون النار، وأكد عدم تقواهم بتقديم المسند إليه وهو الضمير «هم» على الخبر وهو الفعل المنفي وهو قوله: ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾، الفاء: عاطفة، و«إن»: حرف شرط جازم، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

و﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فعل الشرط، والنون فيه للتوكيد، وجواب الشرط ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾، أي: فإما تجدنَّهم وتظفرنَّ بهم حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

والتشريد: التطريد والتفريق، ومنه «شرد البعير» أو الدابة إذا هرب من صاحبه، و«من» في قوله: ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ موصولة، أي: الذين وراءهم أي: خوّف بهم وفرّق وسمع من خلفهم. قال الشاعر:

أطوِّف بالأباطح كلّ يوم ... مخافةَ أن يُشرِّد بي حَكِيمُ(١)

أي: مخافة أن يُسَمِّع بي حكيم. و«حكيم» رجل من بني سليم ولَّته قريش الأخذ على أيدي السفهاء.

والمعنى: غلِّظ وشدد عقوبتهم، وأثخنهم قتلاً، لتخيف وتنكِّل بذلك وتفرق به من وراءهم من الكفار، فلا يجترئون على نقض العهد مثلهم، فيكونوا عبرة وعظة لغيرهم، كما قال تعالى في عقوبة الذين اعتدوا في السبت: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٦].

وهكذا نكل ﷺ ببني قريظة لما نقضوا العهد، فحاصرهم في ديارهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ- رضي الله عنه- بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، ففعل بهم رسول الله ﷺ ذلك، وقال لسعد: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**»(٢).

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ضمير الغيبة في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع إلى «من» الموصولة في قوله: ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، أي: لأجل أن يتذكر ويتعظ ويعتبر الذين خلفهم من الكفار، فلا يقعون فيما وقع فيه هؤلاء من نقض العهد ونحو ذلك. والسعيد مَن وُعِظَ بغيره.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) البيت في «لسان العرب» مادة «شرد» بلا نسبة، وانظر «محاسن التأويل» للقاسمي (٥/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين حكم من نقضوا العهد وكيفية التعامل معهم، ثم ذكر حكم من يخاف منهم الخيانة ونقض العهد.

قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾، الواو: عاطفة، ﴿وَإِمَّا﴾ كسابقتها، ﴿تَخَافَنَّ﴾ فعل الشرط ﴿مِن قَوْمٍ﴾، ﴿قَوْمٍ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم كل قوم تُخاف منهم خيانة.

والخوف: توقع حصول ضرر من شيء بأمارة مظنونة أو معلومة.

والخيانة: ضد الأمانة، وهي هنا نقض العهد؛ لأن الوفاء بالعهد من الأمانة، أي: وإما تخافن من قوم ممن عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾، أي: نقضاً لما عاهدوك عليه، وغدراً بما ظهر من أمارات الغدر والخيانة.

﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط.

ومفعول ﴿فَٱنۢبِذْ﴾ محذوف، تقديره: فانبذ إليهم عهدهم، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: نبذاً على سواء، أو حالاً من فاعل «انبذ» أي: حال كونه على سواء.

والنبذ: الطرح وإلقاء الشيء.

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، ﴿سَوَآءٍ﴾ بمعنى: «مستو»؛ كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، قال الراجز:

فاضرب وجوه الغُدَّر الأعداء ... حتى يجيبوك إلى السواء[1]

والمعنى: فألق إليهم عهدهم واطرحه وارم به إليهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، أي: نبذاً واضحاً علناً صريحاً مكشوفاً، يستوي فيه علمك وعلمهم، أن لا عهد بينك وبينهم، ولا تغدر بهم.

عن سليم بن عامر- رضي الله عنه- قال: «كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٢٤٠)، «التبيان» (٥/ ١٤٥).

دابة، يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاءً لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «**ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يَحُلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء**» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة رضي الله عنه»(١).

وعن سلمان الفارسي- رضي الله عنه- أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: «دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله- عز وجل- للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية، وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها»(٢).

والأمر بنبذ عهدهم إليهم على سواء إذا خيف منهم الخيانة، من باب الاحتياط والاحتراز درءاً للخطر عن المسلمين؛ لأنه بعد وقوع الخيانة قد يصعب تدارك الأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ هذه الجملة تعليل للأمر بنبذ عهد من خاف منهم ﷺ الخيانة.

و﴿ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الذين يغدرون وينقضون العهود والمواثيق، ولا يوفون بها، وهو عام في كل خائن سواء كان من الكفار أو من المؤمنين، بل إن الخيانة ونقض العهد من المؤمن أشد وأعظم. قال ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**»(٣).

وفي رواية: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عائلة**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١١١)، وأبوداود في الجهاد- في الإمام يستجن به في العهود (٢٧٥٩)، والترمذي في السير- ما جاء في الغدر (١٥٨٠)- وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣٨)، والترمذي في الفتن (٢١٩١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**أدِ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك**»(١).

وإذا كان الله- عز وجل لا يحب الخائنين فهو يبغضهم، ومن أبغضه الله انتقم منه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ومفهوم الآية أنه- عز وجل- يحب الأوفياء الأمناء الموفين بالعهود والمواثيق والعقود، وفي هذا إثبات المحبة لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته.

الفوائد والأحكام:

١- أن شر ما دب ويدب على الأرض عند الله وفي حكمه الذين كفروا الذين لا يرجى منهم الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهذا حكم من الله عليهم، وخبر عنهم أنهم كفار ولن يؤمنوا.

٢- طاعة جميع المخلوقات لله- عز وجل- من الحيوانات والجمادات وسجودها له، سوى الذين كفروا، ولهذا كانوا شر الدواب عند الله دون غيرهم.

٣- أن المعتبر في الحكم على الشيء بأنه خير أو شر، إنما هو حكم الله- عز وجل- وخبره؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٤- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾.

٥- نقض الكفار من اليهود والمشركين والمنافقين للعهود والمواثيق مراراً وتكراراً من غير خوفٍ من الله واتقاءٍ لعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

٦- التحذير من الكفر ونقض العهود وعدم التقوى؛ لأن هذه صفات شر الدواب عند الله.

٧- ينبغي التنكيل بنَقَضَة العهود من الكفار والتغليظ عليهم، والتشديد في عقوبتهم، والإثخان فيهم قتلاً إذا حصل الظفر بهم حال الحرب ليتشرد بهم من وراءهم من

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع (٣٥٣٥)، والترمذي في البيوع (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

الكفار، ويكونوا عبرة وعظة لغيرهم، لأمره- عز وجل- لنبيه ﷺ بذلك بقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.
وهو أمر له ﷺ ولأمته- وبخاصة ولاة الأمر منهم.

٨- أن السعيد من وعظ بغيره، لقوله تعالىٰ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾.

٩- الإشارة لوجوب احترام العهود والمواثيق مع الكفار، لمفهوم قوله تعالى: ﴿فِي الْحَرْبِ﴾، أي: حال كونهم محاربين لا عهد لهم ولا ميثاق.

١٠- إذا خيف خيانة الكفار ونقضهم للعهد وجب نبذ عهدهم إليهم على سواء نبذاً واضحاً صريحاً معلناً مكشوفاً، بأن لا عهد بيننا وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾.

١١- ينبغي الحذر من الكفار ونقضهم عهودهم معنا؛ لأنهم أقدموا على ما هو أعظم من ذلك وهو الكفر بالله- عز وجل- وليس بعد الكفر ذنب أعظم منه.

١٢- إذا لم نخف خيانة الكفار ونقضهم العهد فلا يجوز لنا نبذ عهدهم إليهم، بل يجب الوفاء به وإتمامه إلى مدته؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ الآية.

١٣- لا يجوز إذا خيف خيانة الكفار ونقضهم العهد أن نخونهم بل يجب إعلان نبذ عهدهم إليهم.

١٤- إذا ظهرت خيانة الكفار ونقضهم ما بيننا وبينهم من عهد فلا حاجة لنبذ عهدهم إليهم على سواء؛ لأنهم صاروا بحكم من لا عهد له.
وهكذا فعل ﷺ لما نقضت قريش العهد بقتال خزاعة حلف رسول الله ﷺ فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران على نحو أربعة فراسخ من مكة.

١٥- عدم محبة الله للخائنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وإذا لم يحبهم فإنه يبغضهم، ومن أبغضه الله انتقم منه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

١٦- عظم حرمة الخيانة ونقض العهود، لما رتب الله عليها من العقوبة الشديدة للخائنين وعدم محبته لهم، وهذا عام في كل خيانة من كافر أو مؤمن، بل إن

الخيانة من المؤمن أشد وأعظم.

١٧- إثبات المحبة لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب الأوفياء الأمناء؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

١٨- تعظيم الإسلام للعهود والمواثيق واحترامه لها، حتى مع غير المسلمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

في هذه الآية الكريمة تسلية وطمأنة للنبي ﷺ ولأصحابه تجاه ما يلاقونه من الكفار، من المشركين ممن نجوا يوم بدر، ومن بني قريظة والمنافقين وغيرهم من الخيانة ونقض العهود والأذى، ووعد لهم بالنصر، ووعيد وتهديد للكافرين.

قوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر وحفص عن عاصم: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾» بالياء على الغيبة، أي: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، سبقوا، أو: ولا يحسبن أحد الذين كفروا سبقوا.

وقرأ الباقون: «ولا تحسبن» بالتاء، على الخطاب، أي: ولا تحسبن يا محمد، ويا أيها السامع والمخاطب الذين كفروا سبقوا.

والحسبان بمعنى الظن، أي: ولا يظنن، أو: ولا تظنن الذين كفروا سبقوا، أي: سبقونا وفاتوا وأفلتوا من أن نظفر بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ قرأ ابن عامر بفتح الهمزة «أنهم»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿ إِنَّهُمْ ﴾.

أي: إنهم وإن نجا منهم من نجا يوم بدر، واجترأ من اجترأ منهم على نقض العهد، كما حصل من بني قريظة وغيرهم من المشركين والمنافقين، فإنهم لا يعجزون الله، فالله قادر على إهلاكهم في الدنيا على يد رسوله ﷺ والمؤمنين، وبما شاء، وعلى تعذيبهم في الآخرة بالنار، قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى فيما ذكر عن الجن أنهم قالوا: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ

أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

بيَّن الله- عز وجل- في الآية السابقة عدم سبق الذين كفروا، وأنهم لا يعجزون، ثم أمر بإعداد المستطاع من عدة وقوة مادية ومعنوية لإرهابهم وغيرهم من أعداء الله وأعداء المؤمنين، وبهذا يظهر ضعفهم وعجزهم وعدم سبقهم.

قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ معطوف على جملة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ﴾، ويحتمل كون الجملة مستأنفة.

والأمر للمؤمنين، وبخاصة ولاة الأمر منهم، والضمير في قوله: ﴿لَهُم﴾ يعود إلى الذين كفروا.

والإعداد: التهيؤ والتجهيز والتحضير.

﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾، ﴿مَّا﴾: موصولة، تفيد العموم، أي: وأعدوا للكفار كل الذي تستطيعونه وتقدرون عليه ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، أي: من أيِّ قوة كانت ومن رباط الخيل.

أي: وأعدوا لهم كل ما تقدرون عليه من قوة معنوية قوامها الإيمان والعلم والعقل وسداد الرأي والحنكة والسياسة.

وأعدوا لهم ما تقدرون عليه من قوة بدنية بالتمرين والتدريب واللياقة والشجاعة، وتعلم الرمي، فعن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على

المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»(١).

وعن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله**».

وفي رواية: «**والممد به، فارموا واركبوا، ولأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا**»(٢).

وعن سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه- قال: مرَّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «**ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان**». قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم. فقال رسول الله ﷺ: «**ما لكم، لا ترمون؟**» فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: «**ارموا فأنا معكم كلكم**»(٣).

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: «**ارم فداك أبي وأمي**»(٤).

وأعدوا لهم ما تقدرون عليه من قوة آلية بالتسلح بأنواع الأسلحة؛ من السيوف والرماح والأقواس والبنادق والمدافع والدبابات والصواريخ والرشاشات، وغير ذلك في كل عصر بحسبه.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ معطوف على قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، من عطف الخاص على العام؛ للاهتمام، أي: وأعدوا لهم الذي استطعتم من رباط الخيل؛ لأن الخيل- حال نزول القرآن- من أعظم القوة، لهذا أقسم الله- عز وجل- بها في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾ [العاديات: ١-٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه (١٩١٧)، وأبوداود في الجهاد- باب في الرمي (٢٥١٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٨٣)، وابن ماجه في الجهاد- الرمي في سبيل الله (٢٨١٣)، وأحمد (٤/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥١٣)، والنسائي في الخيل- تأديب الرجل فرسه (٣٥٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١١).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٥)، والترمذي في المناقب (٣٧٥٥).

وعن عروة بن جعد البارقي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم**»(١).

و﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ربطها وتقييدها وشدها في مكان حفظها، ويسمى به مكان ربطها وحفظها أيضاً.

و﴿رِّبَاطِ﴾ على وزن «فعال» صيغة مبالغة للدلالة على الكثرة.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْج(٢) أو روضة، فما أصابت في طِيَلها(٣) ذلك من المرج، أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طِيَلها، فاستنت شرفاً أو شرفين(٤) كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له، فهي له أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً(٥) ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً(٦) فهي على ذلك وزر**»(٧).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان؛ فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله، وذكر ما شاء الله، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه،**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد- الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٢)، ومسلم في الإمارة- الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٣)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، وابن ماجه في التجارات (٢٣٠٥).

(٢) المرج: الأرض الواسعة، ذات نبات كثير، تمرج فيه الدواب، أي: تخلى تسرح مختلطة متى شاءت.

(٣) الطيل: بكسر الطاء، وفتح الياء: الحبل الذي تربط به.

(٤) أي: علت مكاناً أو مكانين عاليين.

(٥) أي: استغناء بها عن الناس وتعففاً بها عن السؤال.

(٦) أي: مناوأة ومعاداة.

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد- الخيل لثلاثة (٢٨٦٠)، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٨)، وأحمد (٢/ ٢٦٢، ٣٨٣).

وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر»[١].

وعلى من يربي الخيل أن يعلم مكانه من هذه الأصناف.

وعن سهل بن الحنظلية- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة، لا يقبضها»**[٢].

وفي قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أمر بإعداد المراكب المحتاج إليها عند القتال من المراكب البرية والبحرية والجوية، من الطائرات والسيارات والسفن في كل عصر بحسبه.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الجملة استئنافية بيانية، أو حال من ضمير ﴿وَأَعِدُّواْ﴾، أي: حال كونكم ترهبون به عدو الله وعدوكم.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى المصدر المأخوذ من قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾، أي: ترهبون وتخيفون بإعداد القوة ورباط الخيل ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، من الكفار من المشركين واليهود وغيرهم.

وفيه ذم لهم أن كانوا أعداء الله، وبيان سبب الأمر بإعداد العدة لهم، وإرهابهم، وتحريض المؤمنين- الذين هم أولياء الله- على قتالهم.

وعطف ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ من عطف صفة على صفة لموصوف واحد مثل قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهما ... م وليث الكتيبة في المزدحم[٣]

والمعنى: تخيفون بإعداد القوة عدو الله وعدوكم من الكفار الظاهرين، فلا يجرؤون على الاعتداء عليكم ولا على غزوكم، ويرهبون لقاءكم ويخافون بطشكم، ولهذا قال

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه الطبراني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٥٩)- وقال: «رواه الطبراني، ورجاله ثقات».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء ١/ ١٠٥، «حياة الحيوان الكبرى» ٢/ ٣٣٩، «كنز الكتاب ومنتخب الآداب» ١/ ٤٦٤، «المعجم المفصل في شواهد العربية» ٧/ ١٥.

ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»(١).

وقد مضت سنة الحياة الكونية- وخاصة في غيبة تحكيم شرع الله- على أنه لا محل للضعيف والفقير، وعلى أكل الغني للفقير، وتسلط القوي على الضعيف، أشبه بشريعة الغاب، مما يوجب ويؤكد على المسلمين إعداد القوة- كما أمر الله- عز وجل- وقد قيل:

فلا منعت دار ولا عز أهلها ... من الناس إلا بالقنا والقنابل(٢)

وقال زهير(٣):

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من تسلط الأعداء عليهم، واحتلال بلادهم ومقدساتهم، والطمع في خيرات بلادهم، ومحاولتهم طمس هويتهم الإسلامية إلا بسبب ضعف المسلمين في إعداد القوة بقسميها: المعنوية بالإيمان والاجتماع على الحق، والمادية بالسلاح والعتاد ونحو ذلك حتى صار حال المسلمين اليوم كما قيل:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم حضور(٤)

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وهو العودة إلى الله- عز وجل- وإعداد القوة مادياً ومعنوياً لكي يعود للأمة عزها ومجدها- وما ذلك على الله بعزيز.

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، أي: وترهبون به «آخرين» أي: أقواماً أو أناساً، أو أعداءً آخرين.

﴿مِن دُونِهِمْ﴾، أي: ممن هم أقرب منهم إليكم، بل ممن هم بين أظهركم من المنافقين، وبعض قبائل العرب حول المدينة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١].

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت للطرماح. انظر: «ديوان الحماسة» (١/ ٧٧).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ١١١).

(٤) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (ص ٣٣٢).

﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، أي: لا تعرفونهم بالتفصيل، ولا بالإجمال، ممن يضمرون العداوة للمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر من المنافقين، وبعض القبائل.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ لأنه المطلع على السرائر والضمائر، العليم الخبير، وفي هذا تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، وإشارة إلى عناية الله- عز وجل- بالمؤمنين وإحصائه لأعدائهم.

وفي تقديم المسند إليه «الله» على الخبر «يعلمهم» تحقيق وتأكيد علمه- عز وجل- بهم، وتأكيد لازمه من التهديد لهؤلاء والعناية بهؤلاء.

والمنافقون أشد عداوة للمؤمنين من الكفار الظاهرين، وأشد تربصاً للدوائر بهم، وأشد رهبة منهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

وهم أخطر على الأمة الإسلامية من أعدائها الظاهرين؛ لأنهم بين ظهراني المسلمين يَطَّلعون على أحوالهم، ويُلقون بأسرارهم إلى الكفار، ويصعب التحرز منهم، كما يصعب التخلص منهم بقتلهم ونحو ذلك؛ لأنهم يعتبرون في عداد المسلمين.

ولهذا لما قال عمر رضي الله عنه: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق» يعني عبدالله بن أبي بن سلول حين قال كما حكى الله عنه: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني بالأعز نفسه والمنافقين، ويعني بالأذل الرسول ﷺ وأصحابه.

قال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٤)، والترمذي في التفسير (٢٣١٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

ولهذا يُقَدَّم ذكرهم على الكفار والمشركين في باب الوعيد والعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين في أول الآية بإعداد ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل لإرهاب عدو الله وعدوهم من الكفار ومن دونهم من المنافقين ونحوهم، ومن لازم ذلك الإنفاق بسخاء، ولهذا ختم الله- عز وجل- الآية بالترغيب بالإنفاق في سبيل الله بوعدهم بوفائه إليهم من غير ظلم.

والجهاد بالمال أهم من الجهاد بالنفس، ولهذا يقدم- غالباً- في القرآن الكريم على الجهاد بالنفس.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، ﴿مِن شَىْءٍ﴾، «من»: مؤكدة للعموم، ﴿شَىْءٍ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء كان، قليلاً أو كثيراً، صغيراً أو كبيراً.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في نصرة دين الله وإعلاء كلمته، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل**»(١).

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، أي: تُعطون حقه وافياً، ويؤدى إليكم أجره وثوابه تاماً كاملاً، بل ومضاعفاً؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٥١٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إضافة إلى ما يُعوضهم الله في الدنيا من الفيء والغنيمة والجزية والخراج والمباركة لهم في أموالهم وغير ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنكم لا تظلمون أيَّ ظلم، أي: لا تُنقصون مما أنفقتموه في سبيل الله شيئاً من أجوركم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين بإعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل إرهاباً لعدو الله وعدوهم ومن دونهم، ثم أتبع ذلك بأمره ﷺ إذا جنح العدو للسلم أن يجنح لها، ويتوكل على الله في إشارة واضحة إلى أنه ليس المقصود بإعداد القوة أن تكون سبباً لإشعال الحرب مع طلب العدو السلم.

قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ قرأ حمزة وأبوبكر عن عاصم وخلف: «للسِّلم» بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لِلسَّلْمِ﴾.

والجنوح للشيء: الميل إليه، و«السلم» ضد الحرب، أي: وإن مال أعداؤكم الكفار وانقادوا للسلم والمصالحة والمهادنة عن رغبة صادقة.

﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، أي: فمل لها، وأجبهم إليها، أي: للسلم- والتعبير بقوله: ﴿فَٱجْنَحْ﴾ لمشاكلة «جنحوا».

ولهذا لما طلب المشركون الصلح عام الحديبية أجابهم ﷺ، وتم الصلح بينه وبينهم على الهدنة لمدة عشر سنين حتى نقضوا العهد(١).

وعن علي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه سيكون بعدي اختلاف،**

---

(١) كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم- رضي الله عنهما- وسيأتي تخريجه قريباً.

أو أمر فإن استطعت أن يكون السلم فافعل»[١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: واعتمد على الله وفوّض أمرك إليه في حربك وسلمك وثق به.

والمعنى: صالحهم واعتمد على الله ولا تخف في الصلح مكرهم، فإن الله كافيك؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بعد الأمر بإعداد المستطاع من القوة أمر للجمع بين فعل السبب والاعتماد على الله عز وجل.

قال السعدي[٢]: «﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة، منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى لإجابتهم، ومنها: أن في ذلك استجماماً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك، ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو، ولا يعلى عليه- إلى أن قال: فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يُخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾».

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ «السميع» و«العليم» اسمان من أسماء الله- عز وجل- كل منهما على وزن فعيل صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على إثبات صفة السمع الواسع لله تعالى وأنه- عز وجل- ذو السمع الواسع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات.

ويدل ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ على إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى وأنه- عز وجل- ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ٩٨﴾ [طه: ٩٨].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٠).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٨٥). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٨).

فهو- عز وجل- سميع لجميع الأقوال والأصوات، ومن ذلك ما يدور بين الفريقين من كلام في أمر المسالمة والمصالحة، وهو عليم بكل شيء ومن ذلك أمر الصلح وما يدور في نوايا الكفار في طلبهم الصلح وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- رسوله ﷺ إذا جنح العدو ومال إلى السلم أن يجنح لها ويسالمهم، ثم أتبع ذلك بما يبعث الطمأنينة في قلبه ﷺ وهو بيان أنهم إن أرادوا أن يخدعوه بإظهار الميل إلى السلم فإن الله حسبه وكافيه، وأكد ذلك وبرهن له بسابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين وبالتأليف بين قلوبهم.

قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، أي: وإن يرد أعداؤك الكفار.

﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول للفعل ﴿يُرِيدُوٓاْ﴾، أي: وإن يريدوا خداعك، أو خديعتك.

والمعنى: وإن يرد الكفار وينووا ويضمروا- بإظهار ميلهم إلى السلم والمصالحة- خديعتك، ليأخذوكم على غرة، أو لأجل أن يتقووا ويستعدوا لكم، ونحو ذلك.

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾، و«إن»: حرف توكيد ونصب، أي: فإن كافيك الله وحده بنصره ومعونته لك.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ الآيتين.

هذا فيه- كما أشرت سابقاً- طمأنة له ﷺ وتأكيد لكفايته- عز وجل- له إن أرادوا خيانته- بذكر سابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين، والتأليف بين قلوبهم، وهذا أشبه بقوله تعالى له- حين قال المشركون، لما فتر الوحي: «ودعه ربه وقلاه» فأنزل الله تعالى؛ ردًّا عليهم-: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ إلى أن قال مطمئناً ومؤكداً له: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا

فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ١-٨][1].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾، أي: هو- سبحانه وتعالى- الذي قوّاك وأظهرك.

﴿بِنَصْرِهِۦ﴾، أي: بنصره لك في بدر بالإمداد بالملائكة، وغير ذلك من أسباب النصر.

﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وأيدك بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: جمع بين قلوبهم على الإيمان، والأخوة في الله، وعلى مناصرة الحق- وهذا منَّة أخرى على رسول الله ﷺ، ومِنَّة أيضاً على المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، «لو»: شرطية، والخطاب للنبي ﷺ، و﴿مَا﴾ موصولة، تفيد العموم.

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: لو أنفقت الذي في الأرض جميعاً، من كل ما يتمول وينفق من نقد أو عين، أو غير ذلك.

﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: جواب ﴿لَوْ﴾، و﴿مَا﴾: نافية، أي: ما جمعت بين قلوبهم بعد النفرة والفرقة الشديدة، والأحقاد والإحن، والعداوة والبغضاء المتأصلة في قلوبهم، يرثها الأبناء عن الآباء، بسبب الحروب الكثيرة التي دارت بينهم قبل الإسلام، وبخاصة بين الأوس والخزرج.

والمعنى: لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم- حتى لو كان ذلك ما في الأرض جميعاً- ما ألفت بين قلوبهم. وقد قيل:

إن القلوب إذا تنافر ودها ... شبه الزجاجة كسرها يشعب[2]

وقال الآخر:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٢٥)، وفي تفسير سورة الضحى (٤٩٥٠)، ومسلم في الجهاد والسير- ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٧)، وأحمد (٤/ ٣١٢-٣١٣)، والترمذي في التفسير (٣٣٤٥)، من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٢) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص ٢٨).

وقد يَنْبُت المرعى على أثرِ الدِّمَنْ وتبقى حزازتُ النفوس كما هيا[(١)]

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: ولكن الله- عز وجل- بقدرته التامة، على تقليب القلوب وتصريفها، وإحيائها بعد موتها ألف بينهم وجمع قلوبهم.

ولهذا كان ﷺ يكثر من قوله: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»[(٢)].

ولما نهى الله- عز وجل- المؤمنين عن موالاة الكافرين في مطلع سورة الممتحنة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الآية: ١].

أعقب ذلك بفتح باب الرجاء لهم بإيمان المذكورين فتعود المودة بينهم، وذلك بقوله بعد عدة آيات ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧].

ولما عاتب عز وجل المؤمنين بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]، طمأنة وبشارة للمؤمنين بأن من يحيي الأرض بعد موتها قادر على إحياء القلوب بعد موتها وتليينها بعد قسوتها، وجمعها بعد اختلافها وتفرقها.

ولهذا امتنَّ الله- عز وجل- على نبيه ﷺ بهذا التأليف بينهم، كما امتنَّ عليهم بذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولهذا قال ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين: «**يا معشر الأنصار، ألم**

---

(١) البيت لزفر بن الحارث. انظر: «ديوان المعاني» (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي في القدر (٢١٤٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟» كلما قال شيئاً؛ قالوا: الله ورسولذه أمن»[١].

وعن عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزها شيء**، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾»[٢].

وإنما امتنَّ الله على نبيه ﷺ بتأليفه- عز وجل- بين قلوب المؤمنين؛ لأن اجتماع القلوب وتآلفها ومحبة المؤمنين بعضهم لبعض هو مكمن القوة والعزة والنصر والنجاة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا أوجب الله- عز وجل- على المؤمنين المحبة فيما بينهم، وجعل ذلك من شرط الإيمان، كما قال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**»[٣].

فدلَّ هذا على وجوب المحبة بين المؤمنين، وعلى الترغيب على ما يكون سبباً لذلك وهو إفشاء السلام بينهم.

كما رغَّب الإسلام في الهدية والمصافحة من أجل ذلك.

وقال ﷺ: «**إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفرت ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، وأحمد (٤/ ٤٢) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد أيضاً (١/ ٥٧، ٧٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. ومن حديث أنس- رضي الله عنه (٣/ ١٠٤، ٢٥٣).

(٢) أخرجه عبدالرزاق فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٩)، والحاكم في «تفسير سورة الأنفال» (٢/ ٣٢٨-٣٢٩)- وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأبوداود في الأدب (٥١٩٣)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٦٨٨)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبراني- فيما ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٧) وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح، غير سالم بن عيلان وهو ثقة».

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: إنه- عز وجل- ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وعزة القهر والغلبة؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ٤]، وعزة الامتناع فلا أحد يناله بسوء.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للذين كفروا، وأنهم لن يسبقوا ويفوتوا ويفلتوا من عقاب الله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

٢- لا ينبغي أن يظن أحد أن الذين كفروا سيفوتون ويفلتون من عذاب الله تعالى.

٣- قدرة الله- عز وجل- التامة على أخذ الكافرين، والانتقام منهم، وأنهم لا يعجزونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

٤- يجب على المسلمين إعداد ما استطاعوا من قوة معنوية، قوامها الإيمان والعلم والحنكة السياسية وسداد الرأي، ومن قوة مادية بالاستعداد بالقوة الآلية بصناعة المراكب البرية والبحرية والجوية، وأنواع الأسلحة والذخائر لكل عصر بحسبه والتدريب عليها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.
وذلك لتأمين الدعوة إلى الله عز وجل، وحفظ مقدسات المسلمين وبلادهم وثرواتهم وثغورهم، وغير ذلك.

٥- وجوب الأخذ بالأسباب وأنه لا ينافي التوكل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ الآية.

٦- وجوب أخذ الحيطة من الكفار.

٧- أن التكليف إنما يكون بما يستطاع دون ما لا يستطاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

٨- أن الحقوق إنما تحفظ وتصان بالقوة بعد التوكل على الله عز وجل.

٩- فضل الخيل والترغيب في رباطها في سبيل الله؛ لأنها من أعظم وسائل القوة للقتال في سبيل الله، وبخاصة في العهود الإسلامية الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

١٠- أن المقصود من إعداد القوة إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين من الكفار من المشركين واليهود، ومن دونهم من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١١- عداوة الكفار لله- عز وجل- وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وأن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين، كما أن من عادى المؤمنين فهو عدو لله عز وجل.

١٢- التهديد للمنافقين وعظم خطرهم على الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١٣- أن البشر لا يعلمون الغيب، وما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾.

١٤- علم الله- عز وجل- بالخلق وأحوالهم؛ وما تنطوي عليه قلوبهم وضمائرهم من النفاق وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

١٥- الترغيب والحث على الإنفاق في سبيل الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

١٦- فضل النفقة في سبيل الله مهما قلّت؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾، أي: مهما كان قليلاً أو كثيراً.

١٧- إعطاء المنفقين أجر وثواب ما أنفقوه وافياً، بلا نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

بل إن الله يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف،**

قال الله- عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[١].

١٨- كمال عدل الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

١٩- أن الإنفاق في سبيل الله أعظم وأهم وسائل إعداد القوة؛ ولهذا رغب- عز وجل- بالإنفاق في سبيل الله- بعد الأمر بإعداد القوة، وذلك أن الجهاد نوعان: جهاد بالمال، وجهاد بالنفس، والجهاد بالمال أهم؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على الجهاد بالمال، ولهذا نجد القرآن الكريم- غالباً- يقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

٢٠- إذا جنح الكفار للمسالمة ومالوا إلى المصالحة ينبغي لولي أمر المسلمين قبولها منهم ومسالمتهم؛ لأمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

٢١- في الأمر بمسالمة العدو إذا طلب ذلك إشارة إلى أن القتال في الإسلام إنما شُرِع لهدف وهو هداية الناس لدين الله، وزحزحتهم عن النار، وإدخالهم الجنة، وليس المقصود منه القتل.

٢٢- حكمة التشريع العظيمة في الأمر بمسالمة العدو إذا طلب ذلك ومال إليه- والتي قد تخفى على الكثيرين، وذلك لما يترتب على السلم والصلح من فوائد عظيمة ومصالح جمة، ومنافع كثيرة، من معرفة الناس بالإسلام وأحكامه وعدله وإنصافه ومن ثم الدخول فيه، وأعظم شاهد على ذلك ما حصل وترتب على صلح الحديبية بين الرسول ﷺ والمشركين حيث حصلت الهدنة وأمن الناس بعضهم بعضاً فدخل خلق كثير في الإسلام وأقبلوا عليه- مع ما وجد بعض الصحابة كعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- من غضاضة في الصلح بداية الأمر- كما جاء في حديث الصلح[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٥١)، والنسائي في الصيام (٢٢١٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٤)، وابن ماجه (١٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣١- ٢٧٧٢)، =

٢٣- وجوب التوكل على الله- عز وجل- والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٤- ينبغي فعل السبب بإعداد القوة مع التوكل على الله عز وجل، كما ينبغي لولي أمر المسلمين إذا طلب العدو المسالمة ومال إليها أن يسالمهم ويتوكل على الله- عز وجل- فإنه كافيه ما وراء ذلك.

٢٥- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ وما يدل عليه من صفة السمع الواسع لله- عز وجل- الذي يسع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٢٦- إثبات اسم الله- عز وجل- ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وما يدل عليه من صفة العلم الواسع لله- عز وجل- الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٧- في اجتماع صفة السمع الواسع والعلم الواسع لله- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

٢٨- طمأنة الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بكفايته له إن أراد الكفار بطلب المسالمة خديعته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ وهذا له ﷺ ولولاة الأمر من بعده من المسلمين.

٢٩- في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ ما يشير إلى توقع الخيانة من الكفار، وأن ذلك وارد، إذ ليس بعد الكفر ذنب أعظم منه.

٣٠- تأكيد كفايته- عز وجل- لنبيه ﷺ إن أرادوا بطلب السلم خديعته ﷺ- بذكر سابق تأييده له بنصره وبالمؤمنين وبالتأليف بين قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٣١- أن من أعظم نعم الله- عز وجل- على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين تأليفه- عز وجل- بين قلوبهم- مع ما كان بينهم من العداوة المتأصلة بسبب الحروب التي كانت بينهم في الجاهلية- ولهذا امتن الله- عز وجل- على النبي ﷺ بذلك، فقال

وعبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٣٣-٣٤٢)- المغازي- غزوة الحديبية- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٢- أن التأليف بين القلوب المتنافرة ليس بالأمر اليسير، بل ولا الممكن إلا بتوفيق الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٣- قدرة الله- عز وجل- التامة على تقليب القلوب، والتأليف بينها، وإحيائها بعد موتها.

٣٤- أن العبرة بالائتلاف والاجتماع ائتلاف القلوب واجتماعها، لا الأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله: ﴿مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

٣٥- إثبات صفة العزة التامة لله- عز وجل- بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾.

٣٦- إثبات صفة الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة البالغة لله- عز وجل- بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾.

وعد الله- عز وجل- في الآية السابقة نبيه ﷺ بأنه إن أراد الكفار أن يخدعوه بطلبهم السلم فإن حسبه وكافيه الله ومن اتبعه من المؤمنين، ثم أتبع ذلك بوعده في هذه الآية بكفايته له مطلقاً، هو ومن اتبعه من المؤمنين.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها»: للتنبيه، و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ صفة لـ«أي» أو بدل.

والنداء لنبينا محمد ﷺ، وقد خصه الله- عز وجل- من بين الأنبياء والرسل بندائه باسم النبوة والرسالة تكريماً وتشريفاً له ﷺ.

وتصدير الخطاب بالنداء فيه مع التشريف والتكريم له ﷺ التنبيه والعناية والاهتمام بما بعده من أحكام ونحو وذلك.

و«النبي» أصله «النبيء» مشتق من النبأ وهو الخبر؛ لأنه مُنْبَأٌ ومُخْبَرٌ من عند الله عز وجل، ومُنْبِئٌ ومُخبِرٌ لقومه، وأيضاً مشتق من النبوة، وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- ذوو مكانة عالية ومنزلة رفيعة عند الله، وعند المؤمنين.

﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الواو: للمعية، أي: حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين. كما قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا ... فحسبك والضحاك سيف مهند(١)

أي: حسبك مع الضحاك.

---

(١) نسب لجرير في «ذيل الأمالي» (ص١٤٠).

والمعنى: يكفيك الله مع من اتبعك من المؤمنين، أي: يكفيكم جميعاً.

ويجوز كون الواو عاطفة، وتكون «من» معطوفة على الكاف المجرورة في ﴿حَسْبُكَ﴾، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، أي: يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين.

أي: يكفيك الله وحده كفاية عامة بالحفظ والنصر والتأييد وغير ذلك أنت والذي اتبعك واهتدى بهديك من المؤمنين.

ولا يصح أن تكون «من» معطوفة على اسم الله، فيكون المعنى: حسبك الله وأتباعك من المؤمنين، لأن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة، والرغبة والإنابة والحلف، كما قال المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ولهذا قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦٢]، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد بنصره وبالمؤمنين. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، فأخبر أنه وحده كاف عبده.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

أعيد النداء في هذه الآية؛ تأكيداً للمعاني السابقة من تشريفه ﷺ وتكريمه، والعناية والاهتمام بما بعد هذا النداء من أحكام.

﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ التحريض: الحث والترغيب والتهييج على الشيء، أي: حث المؤمنين على القتال، وهيجهم وشجعهم عليه، ورغِّبهم فيه بذكر ما يترتب عليه من النصر والتمكين للأمة، وما أعد الله للمجاهدين في سبيله.

ولهذا كان ﷺ يحث على القتال، ويحرض عليه، عند التحام الصفوف، ومواجهة العدو؛ كما قال ﷺ لأصحابه يوم بدر لما أقبل المشركون بعَدَدهم وعُددهم: «**قوموا إلى**

جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟! قال رسول الله ﷺ: «**نعم**». فقال: بخٍ بخٍ. فقال: «**ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ**»؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات، فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قُتِل رضي الله عنه»(١).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ الكلام استئناف بياني، و«كان» هنا تامة، أي: إن يوجد منكم، أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ﴾ رجلاً مقاتلاً ﴿صَٰبِرُونَ﴾، أي: ثابتون في القتال متحملون لمشاقه، وللكرِّ والفرِّ فيه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموهم فاصبروا**»(٢).

﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾، أي: يقاوموا ﴿مِا۟ئَتَيْنِ﴾، أي: مائتي مقاتل من الذين كفروا وينتصروا عليهم بإذن الله- عز وجل- فالمقاتل الواحد من المؤمنين يصابر ويقاوم عشرة من الكفار.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وأبوعمرو ويعقوب ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾ بالياء على التذكير، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «وإن تكن».

وهذا مثل آخر لزيادة التوكيد على أنه ينبغي أن يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة من الكفار، سواء قلَّ عدد الفريقين أو كثر، ولزيادة الاطمئنان بالغلبة للمؤمنين.

أي: وإن يكن منكم أيها المؤمنون مائة مقاتل ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: يقاوموا ﴿أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وينتصروا عليهم- بإذن الله عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، وأحمد (٣/ ١٣٦-١٣٧)، من حديث أنس رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» (١/ ٦٢٧)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٠).

(٢) سبق تخريجه.

ولم يقل هنا «مائة صابرون» أو «مائة صابرة» اكتفاءً بالوصف الأول في قوله: ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾، كما اكتفى بذكر قيد «الكفر» هنا عن الجملة الأولى.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

الباء: للسببية، والضمير «هم»: يعود إلى الذين كفروا، أي: إنما كان الواحد من المؤمنين يقاوم العشرة من الكفار بسبب أن الكفار ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار لا يفقهون فقهاً ينتفعون به في دينهم ويسعدون به في دنياهم وأخراهم؛ لكفرهم وعدم إيمانهم.

فهم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، ولا يؤمنون بالبعث وما بعده من العذاب والنعيم، فليس لهم هدف سام يقاتلون من أجله، ولهذا يخافون أشد الخوف من الموت، ويخشون الناس أشد من خشيتهم من الله، كما قال تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾ قال: فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم»(١).

قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية.

شرع الله- عز وجل- في الآية السابقة أن يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة من

---

(١) أخرجه البخاري في **تفسير قوله تعالى**: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ (٤٦٥٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤٦).

الكفار، ثم خفف عز وجل ذلك بمقاومة الواحد من المؤمنين للاثنين من الكفار.

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ظرف للزمان الحاضر منصوب على الظرفية، أي: وقت نزول الآية، وما بعده.

﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾، أي: خفف الله عنكم فيما شرع لكم من مقاومة الواحد للعشرة.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ قرأ عاصم وحمزة وخلف بفتح الضاد: ﴿ضَعْفًا﴾، وقرأ الباقون بضمها: «ضُعفا»، وقرأ أبوجعفر وحده: «ضعفاء»: جمع ضعيف.

والضعف: عدم القدرة على العمل الشاق، وقد يكون ضعفاً جسدياً أو نفسياً، أو كليهما؛ لأن كلاً منهما قد يؤدي إلى الآخر.

أي:علم أن فيكم ضعفاً، لا تستطيعون معه أن يقاوم الواحد منكم عشرة من الكفار.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالياء على التذكير ﴿فَإِن يَكُن﴾ وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «فإن تكن».

أي: فإن يكن منكم أيها المؤمنون مائة صابرة ثابتة متحملة مشقة القتال﴿يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾، أي: يقاوموا مائتي مقاتل من الذين كفروا، وينتصروا عليهم.

وأعيد قيد الصبر بقوله: ﴿صَابِرَةٌ﴾؛ للتأكيد على الصبر، وأنه لابد منه حتى مع التخفيف في مقاومة الواحد للاثنين.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾، أي: وإن يكن منكم أيها المؤمنون ألف مقاتل ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾، أي: يقاوموا ألفين وينتصروا عليهم.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيد للجملتين أي: بإذن الله وأمره الكوني، وإذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وإذن شرعي كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: ما لم يشرعه الله.

ولم يذكر قيد الصبر هنا اكتفاءً بذكره مع قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ كما

لم يذكر قيد الكفر بجملتي التخفيف اكتفاءً بما قبله.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معية الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: معية عامة لجميع الخلق، بمعنى: العلم والإحاطة ونحو ذلك، فهو- عز وجل- مع خلقه كلهم بعلمه وإحاطته، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

ومعية خاصة بمعنى: التوفيق والنصر والتيسير والتسديد ونحو ذلك، وهذه خاصة بعباده المؤمنين الصابرين المتقين، فهو- عز وجل- معهم بتوفيقه وعونه وتيسيره وحفظه لهم، كما في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣، الأنفال: ٤٦]، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٢- تشريفه ﷺ وتكريمه بندائه بوصف النبوة خاصة من بين الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٣- إثبات نبوته ﷺ.

٤- كفاية الله- عز وجل- لنبيه ﷺ ولأتباعه المؤمنين، كفاية تامة، من جميع الوجوه؛ حفظاً، ونصراً وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- فضل الإيمان واتباع الرسول ﷺ لكفاية الله- عز وجل- له ﷺ ولمن اتبعه من المؤمنين.

٦- تحريض المؤمنين على القتال وحثهم عليه، وترغيبهم فيه، لما يترتب عليه من تأمين وحماية حرية الدعوة إلى الله- عز وجل- وحفظ وصيانة بلاد المسلمين ومقدساتهم وثرواتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

٧- تكليف المؤمنين في أول الأمر بمقاومة الواحد منهم عشرة من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾.

ولعل من أسباب ذلك- والله أعلم- قلة المسلمين مع كثرة أعدائهم.

٨- أن الكفار لا يفقهون فقهاً ينتفعون به في دينهم ويسعدهم في دنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

فهم يقاتلون بلا هدف سام، لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً، ولهذا فهم يخافون أشد الخوف من الموت ويخشون الناس أشد من خشيتهم لله، ويرهبونهم أشد من رهبتهم من الله- ولهذا من شدة خوفهم وجبنهم يقاوم الواحد من المؤمنين عشرة منهم.

٩- نسخ مصابرة الواحد من المؤمنين لعشرة من الكفار بمصابرة الواحد من المؤمنين لاثنين من الكفار، تخفيفاً على المؤمنين بسبب ضعفهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾.

وقد أجمع أهل العلم على أن المؤمن مكلف بمصابرة اثنين من الكفار بدل أن كان مكلفاً بمصابرة عشرة، لكن من أهل العلم من يسمي هذا تخفيفاً، ومنهم من يسميه نسخاً وهو الصحيح. وهذه المسألة من أصح مسائل النسخ في القرآن الكريم.

١٠- أن من أنواع النسخ في القرآن الكريم النسخ إلى الأخف، كما في هذه الآية الكريمة، فنسخ الله- عز وجل- مصابرة الواحد من المؤمنين لعشرة من الكفار بما هو أخف، وهو مصابرة الواحد من المؤمنين لاثنين من الكفار.

١١- مراعاة الشرع الحكيم لأحوال المكلفين، فالتخفيف لأجل ضعفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

١٢- أن من أقسام النسخ في القرآن الكريم نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، فالآية في مقاومة الواحد للعشرة نسخ حكمها وبقيت تلاوتها.

١٣- تأكيد الحكم وإيضاحه بذكر أكثر من مثال، ففي مصابرة الواحد للعشرة أول الأمر ذكر أن العشرين يغلبون مائتين، وأن المائة يغلبون ألفاً.

وفي مصابرة الواحد للاثنين ذكر أن المائة يغلبون مائتين، وأن الألف يغلبون ألفين. وفي هذا تأكيد الحكم وإيضاحه، وبيان أن الأمر لا يختلف سواءً قل

الفريقان أو كثرا.

١٤- في إتيان الأمر في الآية بمقاومة الواحد من المؤمنين عشرة من الكفار، ومقاومة الواحد من المؤمنين بعد التخفيف لاثنين من الكفار- بلفظ الخبر تقوية قلوب المؤمنين والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين، وامتنان من الله- عز وجل- على المؤمنين وثناء عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة والإيمان والقوة في الحق، وإخبار لهم بذلك ليحمدوه ويشكروه.

١٥- ينبغي للمقاتلين في سبيل الله الصبر والثبات وقوة التحمل والتجلد على ما يصيبهم في ذات الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

١٦- بلاغة الإيجاز في القرآن فقد حذف وصف الصبر في موضعين اكتفاءً بالوصف الذي قبلهما.

١٧- أن غلبة المؤمنين للكفار وانتصارهم عليهم بإذن الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولا شيء يحصل في الكون إلا بإذن الله عز وجل.

١٨- إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة بالمؤمنين الصابرين، معية التوفيق والنصر والحفظ والتسديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

١٩- فضل الصبر والترغيب فيه وفضل أهله؛ لأن الله- عز وجل- معهم بمعيته الخاصة، بالتوفيق والنصر والحفظ والتسديد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس في حديثه عن عمر- رضي الله عنهما- فلما كان يومئذٍ- يعني يوم بدر- والتقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً.

قال أبوزميل: قال ابن عباس: «فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى**»؟ فقال أبوبكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب**»؟ قلت: لا والله، يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبوبكر، ولكني أرى أن تمكنّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر، ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبوبكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» شجرة قريبة من نبي الله ﷺ. وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)، وأبوداود في الجهاد- فداء الأسير بالمال (٢٦٩)، وأحمد (١/ ٣٠-٣١)، والواحدي في «أسباب النزول» ص١٦١(-١٦٢).

=

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

هاتان الآيتان عتاب للمؤمنين في استبقائهم الأسرى، وأخذهم الفداء منهم.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ قرأ أبوعمرو ويعقوب بالتاء مؤنثاً «أن تكون» وقرأ الباقون بالياء مذكراً: ﴿أَن يَكُونَ﴾.

وقرأ أبوجعفر: «أُسارى» بضم الهمزة وبألف بعد السين، وقرأ الباقون: ﴿أَسْرَىٰ﴾ بفتح الهمزة وإسكان السين من غير ألف.

و«ما» في قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ نافية، أي: ما كان لنبي من الأنبياء فيما شرعه الله له ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾، أي: أن يستبقي الأسرى؛ ليفاديهم.

والأسرى: جمع أسير ومأسور، والأسر: الحبس.

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: حتى يغلظ ويشتد في العدو قتلاً وتنكيلاً، ويتمكن سلطانه وأمره، وتقوى شوكة الحق وأهله، وتنكسر شوكة الباطل وأهله، ويأمن من عودة العدو إلى القوة. قال المتنبي[1]:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ

وأخرج الترمذي في تفسير سورة الأنفال (٥٠٨٠)، وأحمد (١/ ٣٨٣-٣٨٤)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٣-٢٧٦)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٦٠-١٦١)، والحاكم في المغازي (٣/ ٢١-٢٢) نحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وأخرج أحمد (٣/ ٢٤٣)- نحوه مختصراً من حديث أنس رضي الله عنه.

وأخرجه بمعناه الحاكم في تفسير سورة الأنفال (٢/ ٣٢٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «على شرط مسلم».

(١) انظر: «ديوانه» (ص٣٨٣).

لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وذلك يوم بدر والمسلمون يومئذٍ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله- تبارك وتعالى- بعد هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، فجعل الله النبي والمؤمنين بالخيار، إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم»(١).

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الخطاب للمؤمنين، والجملة كالعلة للنهي الذي دل عليه قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ الآية.

أي: تحبون وتطلبون بإبقاء الأسرى ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، والعرض: ما يعرض ثم يزول.

وعرض الدنيا: متاعها وحطامها الزائل الفاني؛ لأنه ينتفع به قليلاً ثم يزول بسرعة، والدنيا كلها عرض زائل، وظل حائل، كما قال لبيد(٢):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾، أي: والله يحب لكم، ويطلب منكم أن تحبوا الآخرة وتطلبوها، وما فيها من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، بإخلاص العمل لله وإعلاء كلمته، وإعزاز دينه دون شائبة من إرادة الدنيا.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: له- عز وجل- العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة، ومن عزته- عز وجل- وحكمه، وحكمته أن نهى عن استبقاء الأسرى حتى يُثْخَن في الأرض.

﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾.

﴿لَّوۡلَا﴾ شرطية، وهي: حرف امتناع لوجود.

﴿كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿كِتَٰبٞ﴾ بمعنى: «مكتوب»، أي: لولا مكتوب من الله وقضاء ﴿سَبَقَ﴾ في اللوح المحفوظ.

﴿لَمَسَّكُمۡ﴾، أي: لأصابكم، والخطاب لأهل بدر، ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾، «في»: للسببية،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٢).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٢٥٦).

و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي أخذتم أو بسبب أخذكم الغنائم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة.

أي: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بإحلال الغنائم لهذه الأمة؛ لأصابكم يا أهل بدر بسبب ما أخذتم من الغنائم عذاب عظيم، ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي**»(١).

وقال بعض المفسرين: لولا قضاء من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لأصابكم بسبب أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال بعضهم: لولا قضاء من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم، وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبكم على أخذ الفداء؛ كما قال ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة لما قال عمر رضي الله عنه: «دعني أضرب عنقه». قال ﷺ: «**وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(٢).

ولا مانع من حمل الآية على كل ما ذكر إذ لا منافاة بينها.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾، الفاء للتفريع، والأمر في قوله: «كلوا»: للإباحة، وفيه امتنان عليهم، و«ما» في قوله: ﴿مِمَّا﴾ موصولة، أي: فكلوا أيها المؤمنون من الذي غنمتم من أموال المشركين ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾.

و﴿حَلَٰلًا﴾ حال، و﴿طَيِّبًا ۚ﴾ صفة له، أي: حال كونه حلالاً طيباً، والحلال: ضد الحرام، والطيب: الجيد النفيس، ضد الرديء الخسيس.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في التفسير (٣٣٠٥)، من حديث علي رضي الله عنه.

ومعنى ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أي: حلالاً من خير الحلال لا شائبة فيه بوجه من الوجوه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: واتقوا الله بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه، وما حرَّمه عليكم، شكراً لله- عز وجل- على ما أنعم به عليكم من دفع العذاب عنكم، وإحلال الغنائم لكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، يغفر لمن تاب جميع الذنوب، ويغفر لمن شاء ما دون الشرك.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أن الله- عز وجل- يقرر المؤمن بذنوبه ثم يقول له: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

ومن مغفرته- عز وجل- أن دفع العذاب عنهم.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة وسعت كل شيء وعمَّت كل حي؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، .

رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين. ومن رحمته- عز وجل- أن أباح الغنائم لهم وللأمة وأطابها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

بعد ما أحل الله عز وجل للمؤمنين الغنائم وما أخذوه من الأسرى من الفداء، أتبع ذلك بأمره ﷺ بدعوة الأسرى إلى الخير والإيمان ليعوضهم الله خيراً مما أُخِذ منهم من الفداء.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٧٣).

سبب النزول:

عن مجاهد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قال العباس: فيَّ نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجر، مالي في يديه»(١).

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الآية. وكان العباس أُسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله- عز وجل- خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أُسرت يوم بدر، ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله»(٢).

قوله: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ قرأ أبوجعفر وأبوعمر: «من الأسارى»، وقرأ الباقون: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾.

أي: قل للذين في أيديكم أنت وأصحابك، أي في مَلكتكم ووثاقكم وتحت ولايتكم وحكمكم من أسرى بدر، وهم سبعون رجلاً من صناديد قريش، والذين أخذتم منهم الفداء.

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، أي: إيماناً، بدليل قوله بعده: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وهذا إنما يحصل للمؤمن، وبخاصة المغفرة.

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: يعطكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء، خيراً منه ماديًّا، كمًّا وكيفاً ونوعاً من المال الكثير والرزق الواسع الوفير، من الغنائم وغير ذلك، عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «**انثروه في المسجد**» قال: وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٢٨٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٣٧).

أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس، فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «**خذ**»، فحثى في ثوبه، ثم ذهب يُقِلُّه، فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه إليَّ. قال: «**لا**» قال: فارفعه أنت عليَّ. قال: «**لا**»، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فمازال رسول الله ﷺ يتبعه ببصره حتى خفي عنه، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم»[1].

وأيضاً يعطكم خيراً مما أُخِذ منكم معنوياً من السعادة والطمأنينة وانشراح الصدر بالإيمان في الدنيا وأيضاً في الآخرة مع الأجر العظيم.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: ويغفر لكم ذنوبكم من الشرك وما دونه؛ لأن الإسلام يَجبُّ ما قبله كما قال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله، وأن التوبة تَجبُّ ما قبلها**»[2].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه الجملة توكيد وتقرير لمضمون ما قبلها.

أي: والله ذو مغفرة واسعة، وذو رحمة واسعة عامة وخاصة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾، أي: وإن ينووا- يعني الأسرى.

﴿خِيَانَتَكَ﴾، أي: الغدر بك بنقض العهد الذي أعطوه بألا يعودوا إلى قتال المسلمين، وفيما يُظهر بعضهم من الإسلام والنصح للمسلمين، أو بمنع ما ضمنوا من الفداء.

﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم بالله وعدم قيامهم بالأمانة التي حملوها، وهي الإيمان بالله، وأداء حقه، وبأذيتهم رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بدر، وفي هذا ما فيه من ذمهم وتوقع الخيانة منهم.

---

(١) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٧-٣٨)، وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الجزية- ما أقطع النبي ﷺ من مال البحرين (٣١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، أي: فأمكنك والمؤمنين منهم في بدر، وأظفركم بهم قتلاً وأسراً.

وفي هذا تحذير لهم من الخيانة، وتهديد لهم إن خانوا، كما أن فيه طمأنة من الله- عز وجل- لرسوله ﷺ والمؤمنين بتمكينهم منهم مرة أخرى- إن هم خانوا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: والله ذو علم واسع وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]، ومن ذلك علمه- عز وجل- بما في قلوب الأسرى من خير وصدق، أو إضمار للخيانة والغدر وغير ذلك.

﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكم تام، وحكمة بالغة في مجازاة كلٍ بعمله، وفي كل ما شرع وقدر.

وبعلمه- عز وجل- الواسع، وحكمه التام، وحكمته البالغة شرع هذه الأحكام الجليلة في شأن الأسرى، وغيرها.

الفوائد والأحكام:

١- عتاب الله- عز وجل- لنبيه ﷺ والمؤمنين في استبقاء الأسرى، وأخذ الفداء منهم دون قتلهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- في عتاب الله- عز وجل- لنبيه ﷺ في شأن الأسرى رد على من يزعمون أنه ﷺ تَقَوَّلَ القرآن وافتراه من عند نفسه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣. الأحقاف: ٨]، ومثل هذا العتاب ما جاء في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ [عبس: ١، ٢].

كما أن في الآيتين أيضاً دلالة على أن الأنبياء ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، لكنهم لا يُقَرُّون عليها وسرعان ما يرجعون عنها ويتوبون(١).

٣- نفي الله- عز وجل- أن يكون لنبي أسرى فيما شرعه الله له حتى يثخن في الأرض قتلاً، وتقوى شوكة الحق وأهله، وتنكسر شوكة الباطل وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهو نفي وخبر بمعنى النهي،

---

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٣١٩).

أي: ما ينبغي لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

٤- اهتداء النبي ﷺ واقتداؤه وكل نبي بمن قبله، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥- إذا تم للنبي ﷺ وأتباعه الإثخان في الأرض جاز لهم استبقاء الأسرى ومفاداتهم؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والإمام مخير فيهم إن شاء قتلهم وإن شاء منَّ عليهم، وإن شاء فاداهم؛ كما قال تعالى في سورة محمد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [الآية: ٤].

٦- مشروعية الجهاد في الرسالات السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾.

٧- إرادة المؤمنين باستبقاء الأسرى عرض الدنيا، وهو ما يؤخذ منهم من الفداء؛ لقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٨- إثبات الإرادة للإنسان والاختيار، وأنه ليس مجبوراً على ما يقول ويفعل، كما يزعمه الجبرية.

٩- التعريض بحقارة الدنيا وما فيها من المال والمتاع؛ لأن كل ذلك يعرض ويزول سريعاً؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٠- إثبات الإرادة الشرعية لله- عز وجل- التي بمعنى المحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

١١- ينبغي للمؤمنين الإخلاص لله- عز وجل- في قتالهم وجميع أعمالهم، رجاء ما عنده من الأجر العظيم والنعيم المقيم في جنات النعيم في الدار الآخرة، كما أراد الله ذلك، وأحبه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

١٢- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١٣- في اجتماع صفة العزة التامة والحكم التام، والحكمة البالغة في حقه- عز وجل-

زيادة كماله سبحانه إلى كمال.

١٤- التحذير للمؤمنين من مخالفة أمر الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٥- أنه سبق في علم الله- عز وجل- وفيما كتبه وقضاه في اللوح المحفوظ أنه سيحل الغنائم لهذه الأمة، كما سبق في حكمه وقضائه أنه لا يعاقب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، وأنه غفر لأهل بدر- رضي الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٦- ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب أو حسب؛ لهذا عاتب رسوله ﷺ والمؤمنين، وبيَّن تعرضهم للعذاب العظيم، فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٧- إباحة الغنائم لهذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ وهذا مما خصّت وفضلت به هذه الأمة. والأمر بعد الحظر هنا يدل على الإباحة.

١٨- تأكيد حل الغنائم لهذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾، أي: لا شائبة فيه بوجه من الوجوه.

١٩- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وترك ما حرمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

٢٠- إثبات صفة المغفرة والرحمة الواسعتين لله- عز وجل، وفي تقديم المغفرة على الرحمة إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وتأكيد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٢١- نداء الله- عز وجل- وخطابه لنبيه محمد ﷺ باسم النبوة تشريفاً وتكريماً له، وعناية واهتماماً بما بعد هذا النداء، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾.

٢٢- ترغيب هؤلاء الأسرى بالخير والإيمان بوعدهم إن آمنوا بإيتائهم خيراً مما أخذ منهم من الفداء، في الدنيا والآخرة، والمغفرة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم

مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾.

٢٣- فضل الله- عز وجل- وتوبته، ومغفرته ورحمته حيث دعا هؤلاء الأسرى ورغبهم بالخير والإيمان ووعدهم بتعويضهم خيراً مما أخذ منهم، مع ما كانوا عليه من الكفر والصد عن دين الله وقتال المؤمنين؛ لأنه- عز وجل- لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولهذا تاب على من تاب منهم كالعباس رضي الله عنه.

٢٤- علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه القلوب، وتخفيه الصدور، من الإيمان وضده؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾.

٢٥- أن الخير في الإيمان لما يترتب عليه من الخير في الدنيا والآخرة ومغفرة الذنوب.

٢٦- ثبوت أخذ المؤمنين الفداء من أسرى بدر؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾.

٢٧- تحذير وتهديد الأسرى وغيرهم من خيانته ﷺ بنقض العهد الذي أعطوه بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين، وبما يُظهر بعضهم من الإيمان والنصح للمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾.

٢٨- أن الكفر خيانة لله- عز وجل- والكفار ممن خانوا الله- عز وجل؛ لأنهم لم يقوموا بالأمانة التي حملوها وهي الإيمان بالله والقيام بحقه عز وجل.

٢٩- طمأنة الرسول ﷺ بتمكينه من الأسرى وغيرهم من الكفار مرة أخرى إن هم أرادوا خيانته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾، أي: في بدر.

٣٠- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

٣١- في اقتران العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة واجتماعها في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه السورة العظيمة بإثبات الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار دون من لم يهاجروا، وبيان أن الكفار بعضهم أولياء بعض.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، أي: إن الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله وشرعه وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا لذلك بجوارحهم.

﴿وَهَاجَرُوا۟ ﴾، أي: وهاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم، فتركوا ديارهم وأولادهم وعشيرتهم وأموالهم.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

وكانت سنة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- فقد هاجر إبراهيم- عليه السلام- وقال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩]، وهاجر لوط- عليه السلام- وقال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وهاجر موسى- عليه السلام، وهاجر محمد ﷺ، وهاجر المسلمون بإذنه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة.

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: وبذلوا جهدهم وطاقتهم بأموالهم وأنفسهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: في القتال لإعلاء كلمة الله- عز وجل؛ كما قال

ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله**»(١).

وقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس؛ لأهمية الجهاد بالمال؛ لأن عليه قيام الجهاد بالنفس؛ فإعداد العدة من السلاح والمراكب والطعام والأثاث كل ذلك وغيره مما يحتاجه المجاهدون في سبيل الله، ولا يحصل ذلك إلا بالمال.

ولأهمية الجهاد بالمال يقدم القرآن الكريم- غالباً- الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

ذكر الله- عز وجل- المهاجرين أولاً، وأثنى عليهم، ثم ذكر بعدهم الأنصار وأثنى عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ أي: والأنصار الذين آووا الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرين وأسكنوهم في منازلهم في المدينة، وواسوهم بأموالهم.

﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾، أي: ونصروا دين الله ورسوله، ولهذا سموا بـ«الأنصار»- رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الإشارة: للفريقين المهاجرين والأنصار، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تشريفاً لهم، ورفعة لشأنهم.

أي: فالمؤمنون من المهاجرين والأنصار بعضهم أولى وأحق ببعض من كل أحد، وبعضهم أنصار بعض؛ ولهذا آخى الرسول ﷺ بينهم.

والمؤمنون كلهم بعضهم أولياء بعض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

عن جرير بن عبدالله البجلي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف**

---

(١) سبق تخريجه.

بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»[١].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المهاجرون والأنصار والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة**»[٢].

وقد حمل جمع من المفسرين وأهل العلم الولاية هنا على ما يشمل ولاية النصرة والمؤازرة مع الميراث، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأُخُوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم**»[٣].

وحمل كثير من المفسرين وأهل العلم الولاية هنا على ولاية النصرة والمعونة والمؤازرة دون الميراث.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾.

بيَّن- عز وجل- في الآية السابقة ولاية المؤمنين من المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً، ثم بيَّن أنه لا ولاية بينهم وبين الذين لم يهاجروا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾، أي: ولم يهاجروا من مكة والبوادي إلى المدينة.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ قرأ حمزة بكسر الواو «وِلايتهم» وقرأ الباقون: ﴿وَلَٰيَتِهِم﴾ بفتحها، والمعنى واحد.

والخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُم﴾ لجميع المؤمنين من المهاجرين والأنصار وغيرهم و﴿مَا﴾ نافية.

والمعنى: لا ولاية بينكم وبينهم في شيء، أو لا تتولونهم في شيء ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾، أي: إلى غاية أن يهاجروا من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، وفي هذا ترغيب في الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وتأكيد لوجوبها.

عن جرير بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا بريء من أي**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٣)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩): «تفرد به أحمد».

(٢) أخرجه أبويعلى في «مسنده» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٩٢)، وأبوداود في الفرائض (٢٩٢٢).

مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»(١).

وعن سمرة بن جندب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله**»(٢).

وعن بريدة بن الحصيب- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغدروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فَأَيَّتُهُنَّ ما أجابوك، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**»(٣).

والهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٤).

وأما قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»(٥) فمعناه لا هجرة من مكة؛ لأنها أصبحت

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد- النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٨٠)، والترمذي في السير (١٦٠٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الجهاد- الإقامة بأرض الشرك (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد- تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته لهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٣)، والترمذي في الديات (١٤٠٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨)، وأحمد (٥/ ٣٥٢).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٤٧٩)، والدارمي في السير (٢٥١٣)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والنسائي في المناسك (٤١٧)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)، =

بعد فتحها دار إسلام.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، أي: وإن طلبوا منكم النصر على عدوهم لأجل الدين، لرد الفتنة عنهم في دينهم، كما إذا حاول الكفار إرجاعهم عن دينهم.

﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾، قدم الخبر؛ للاهتمام به، أي: فيجب عليكم النصر لهم، أو فواجب عليكم نصرهم؛ انتصاراً لدين الله عز وجل، ولأنهم إخوانكم في الدين، حتى وإن لم يستنصروكم.

ومفهوم هذا أنهم إذا استنصروهم لمقصد من المقاصد غير الدين فليس عليهم نصرهم.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، أي: إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم ميثاق، أي: عهد مؤكد وهدنة فلا تنصروهم، ولا تخفروا ذمتكم، وتنقضوا عهدكم مع الذين عاهدتم.

عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ يعني: إن استنصركم الأعراب المسلمون أيها المهاجرون والأنصار على عدوهم فعليكم أن تنصروهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾»(١).

وهذا يدل على عظمة الإسلام واحترامه للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل حتى مع المحاربين.

فهؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا وطلبوا النصر من المؤمنين المهاجرين والأنصار وغيرهم على قوم بينهم وبينهم ميثاق اجتمع فيه أمران:

الأول: أنهم لم يهاجروا، **والثاني**: أنهم طلبوا النصر على قوم عاهدهم المؤمنون.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم بصير، أي: مطَّلع وشاهد عليه، عليم به، وإذا كان سبحانه بصيراً مطلعاً على أعمالهم عالماً بها، فسيحاسب ويجازي عليها وفي هذا وعد للمؤمنين، ووعيد

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٢٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٤٢).

للكافرين والعُصاة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ﴾.

بعد ما بيَّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض من المهاجرين والأنصار وغيرهم، أتبع ذلك ببيان المقابل وهو أن الكفار بعضهم أولياء بعض.

أي: والذين كفروا على اختلاف مللهم ونحلهم من المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وغيرهم بعضهم أنصار وأعوان بعض على الباطل ضد المؤمنين، وليسوا ولا أحد منهم بأولياء للمؤمنين، وبدهي أن يوالي الكفار بعضهم بعضاً وخاصة ضد الإسلام والمسلمين؛ لأن الكفر ملة واحدة، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم في بعض الأشياء فإنهم يجتمعون على موالاة بعضهم بعضاً ضد الإسلام والمسلمين.

وهذا مما يوجب على المسلمين الحذر منهم جميعاً، ومن موالاتهم، ومن الاغترار بما يبدونه من موالاة ومحبة ونُصح للمؤمنين- كما يزعمون، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

كما يؤكد هذا على المسلمين وجوب موالاة بعضهم لبعض دون الكافرين، وأن لا يكون الكفار أحسن حالاً منهم في الموالاة بينهم.

وإن مما يحز في نفس كل مسلم أن يكون الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم أشد موالاة فيما بينهم، من كثير من المسلمين فيما بينهم- وهذه والله المصيبة العظمى، والطامة الكبرى- فبينما ترى أهل الكفر يتسارعون إلى عقد المعاهدات والمحالفات والاتحادات فيما بينهم، ترى المسلمين- وهم الأمة الواحدة- موغلين في الاختلاف والتدابر، يكيد بعضهم لبعض، ويتربص بعضهم ببعض الدوائر، بل ويقاتل بعضهم بعضاً، لا تكاد تجمعهم راية، أو توحدهم غاية، ولم يحافظوا ولا على الحد الأدنى من الموالاة والتناصر فيما بينهم. وحل محل ذلك التفرق والتناحر، كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعاً فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولن يعود للأمة الإسلامية عزها ومجدها وقوتها إلا بالاجتماع على الحق ونبذ

الاختلاف والفرقة، وموالاة المسلمين بعضهم بعضاً والبراءة من الكافرين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا﴾ أدغمت «إن» الشرطية في «لا» النافية، والضمير في ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ يعود إلى مضمون ما ذكر، أي: إلا تفعلوا أو تمتثلوا ما ذكر من موالاة ومناصرة بعضكم بعضاً أيها المؤمنون، وعدم موالاة الكافرين.

﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾، «كان» تامة، ونكّر ﴿فِتْنَةٌ﴾ للتعظيم، أي: تقع وتحصل فتنة عظيمة، والفتنة: تكون بالخير والشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: تقع وتحصل بسبب موالاة الكافرين، وعدم موالاة المؤمنين فيما بينهم، أو بموالاة المؤمنين والكافرين وعدم التمييز بينهم فتنة عظيمة في الأرض، وبين الناس، بالتباس الأمر، واختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وتعطل الجهاد والهجرة، وكثير من مقاصد الشرع، وضعف المسلمين وتفرقهم وجرأة الكفار عليهم، وربما ارتد بعضهم عن دينه، بسبب قرب العهد بالإسلام، وتأثير المشركين عليهم بكثرتهم وقوتهم، ونحو ذلك.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، الفساد: ضد الصلاح، أي: ويقع بسبب ذلك فساد كبير عظيم؛ كما قال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»(١).

قال ابن كثير(٢): «أي: إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض».

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في النكاح- ما جاء في من ترضون دينه (١٠٨٥)، من حديث أبي حاتم المزني رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وأخرجه الترمذي أيضاً (١٠٨٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٤/ ٤٢).

بيَّن الله- عز وجل- في الآيات السابقة ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، من المهاجرين المجاهدين في سبيله والأنصار الذين آووا ونصروا، ثم أتبع ذلك بالثناء عليهم، ومدحهم بصدق الإيمان وتحقيقه، وبيان عظم ما أعد لهم من المغفرة والرزق الكريم في الآخرة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيماً ورفعة لشأنهم، وأكد هذا الوصف فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

و﴿حَقًّاۚ﴾ مفعول مطلق، أي: فأولئك هم المؤمنون حقيقة، إيماناً حقًّا، الذين صدقوا إيمانهم بفعالهم، فالمهاجرون: تركوا أولادهم وأهليهم وقومهم وديارهم وأموالهم، والأنصار: آووا إخوانهم المهاجرين وواسوهم وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والجميع: جاهدوا في سبيل الله ونصروا دين الله، ووالى بعضهم بعضاً في ذات الله.

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ قدم الخبر ﴿لَّهُم﴾ للتأكيد، ونكَّر ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ للتعظيم، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، الرزق: العطاء، أي: وعطاء وثواب ﴿كَرِيمٌ﴾، أي: كثير واسع طيب حسن دائم.

أي: ولهم عطاء وثواب كثير واسع طيب حسن دائم في الجنة لا نكد فيه، ولا كدر؛ كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ [التين: ٦].

فجمع لهم عز وجل بين زوال المرهوب بالمغفرة لذنوبهم وسترها والتجاوز عنها، وبين حصول المطلوب بالرزق والعطاء الواسع الكثير الجزيل.

وقدم المغفرة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

وقد أثنىٰ الله- عز وجل- على المهاجرين والأنصار وبين عظم ما أعده لهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩].

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وما هم عليهم من الموالاة والمناصرة فيما بينهم، وأثنى عليهم بما هم عليه من حقيقة الإيمان، وما أعد لهم من المغفرة والرزق الكريم، ثم أتبع ذلك ببيان حكم من آمن بعدهم وهاجر وجاهد معهم وأنه منهم له ما لهم وعليه ما عليهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ ﴾، أي: من بعد المهاجرين الأولين والأنصار ﴿وَهَاجَرُوا۟ ﴾ إلى دار الإسلام ﴿وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾ في سبيل الله.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ﴾ دخلت الفاء على الخبر؛ لتضمن الموصول معنى الشرط، أي: فأولئك من جملتكم في حكم الإيمان والهجرة والجهاد، وفي الموالاة، وفي المغفرة والرزق الكريم في الآخرة، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

لما ذكر عز وجل الموالاة العامة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار ومن بعدهم، وهي الموالاة بالنصرة والمحبة ونحو لذلك أتبع ذلك بذكر الموالاة الخاصة بينهم، وهي الموالاة بين القرابة بالإرث.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، الواو: عاطفة، و﴿أُوْلُواْ﴾ بمعنى: أصحاب، أي: وأصحاب الأرحام، والأرحام: جمع رحم، وهو في الأصل: موضع تكوّن الجنين. والمراد بالأرحام القرابة، وسُمي القرابة أرحاماً، قيل: لأنهم خرجوا من رحم واحد، وقيل: لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في النصرة والصلة وحسن الصحبة، وفي الميراث، سواء كانوا من ذوي الفروض والعصبات، أو من دونهم من القرابة عند فقد ذوي الفروض والعصبات؛ لأن ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ يشمل جميع القرابة.

﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في مكتوب الله وحكمه في اللوح المحفوظ، وقضائه وشرعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قدّم المتعلِّق وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ على المتعلَّق به وهو الخبر ﴿عَلِيمٌ﴾ لتأكيد عموم علمه- عز وجل- بكل شيء.

فعلمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه حقيقة إدراكاً جازماً.

ومن علمه- عز وجل- أن جعل أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقرير الولاية بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وإيجابها بين المؤمنين مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٢- أن الإيمان شرط في صحة الهجرة والجهاد، لتقديمه عليهما، وأن الهجرة أفضل من الجهاد؛ لتقديمها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ

وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٣- فضل المهاجرين على الأنصار؛ لتقديمهم عليهم في الآية، وقد قال ﷺ: «**لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار**»(١).

٤- أهمية الجهاد بالمال، وأنه أفضل من الجهاد بالنفس؛ لتقديم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾.

٥- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٦- لا ولاية بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار وبين من آمن ولم يهاجر إلى بلاد الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾.

٧- وجوب الهجرة من بلد الشرك إلى بلاد الإسلام، وبخاصة إذا كان المسلم- في بلاد الشرك- لا يستطيع إظهار شعائر دينه؛ لأن الله نفى الولاية بين المؤمنين وبين من آمن ولم يهاجر.

٨- يجب على المؤمنين إذا استنصر بهم في الدين قوم ممن آمنوا ولم يهاجروا أن ينصروهم نصرة لدين الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ بل قد تجب مناصرتهم وإن لم يطلبوا ذلك. فإن طلبوا النصر لمقصد من المقاصد غير الدين فليس على المؤمنين نصرتهم؛ لمفهوم الآية.

٩- لا يجوز للمؤمنين نصر من استنصروهم في الدين ممن لم يهاجروا على قوم بينهم وبينهم ميثاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ وهذا يدل على احترام الإسلام للعهود والمواثيق وإيجابه الوفاء بها.

١٠- علم الله- عز وجل- واطلاعه التام على جميع أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

وفي هذا وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وخالف أمر الله؛ لأن مقتضى

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

علمه- عز وجل- بأعمال العباد محاسبتهم ومجازاتهم عليها، خيرها وشرها.

١١- موالاة الكفار بعضهم لبعض على اختلاف مللهم ونحلهم- وبخاصة ضد الإسلام وأهله- ولا عجب في هذا فالكفر ملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ﴾.

١٢- قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين؛ لأن الله جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، فلا يجوز مناصرة الكافرين ولا مودتهم، ولا توارث بينهم وبين المؤمنين.

١٣- يجب على المؤمنين عدم الاغترار بما يبديه الكفار من موالاة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ﴾.

١٤- تأكيد وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، وعدم موالاة الكافرين، والتحذير مما يترتب على مخالفة ذلك من الفتنة في الدين، والفساد الكبير، والشر المستطير؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾.

١٥- ثناء الله- عز وجل- على المؤمنين السابقين من المهاجرين والأنصار، وامتداحه لهم، حيث صَدَّقوا إيمانهم بفعالهم، فالمهاجرون بهجرتهم وجهادهم، والأنصار بإيوائهم المهاجرين ونصرة دين الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾.

١٦- التنويه بعظم ما أعد الله للسابقين من المهاجرين والأنصار من المغفرة والعطاء الواسع الجزيل، الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

١٧- فضل الله- عز وجل- على الذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا مع السابقين قبلهم بجعلهم منهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾.

١٨- أن القرابة بعضهم أولى ببعض في الميراث في اللوح المحفوظ وفي حكم الله الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ ﴾.

١٩- نسخ التوارث بالحلف والمؤاخاة بالإرث بالقرابة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ

بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾.

ولقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦].

أي: من الإرث بالهجرة للمؤاخاة التي آخاها الرسول ﷺ بين المهاجرين- أول مقدمهم المدينة- وبين إخوانهم الأنصار حتى صار المهاجري يرث الأنصاري دون ذوي رحمه[1]؛ حتى نسخ ذلك بهاتين الآيتين.

٢٠- توريث ذوي الأرحام كالخال والخالة والعمة ونحوهم إذا فقد أصحاب الفروض والعصبات؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، أي: وأصحاب القرابة، وهذا يشمل جميع القرابة بما فيهم ذوو الأرحام كالخال ونحوه.

وفي الحديث: «**الخال وارث من لا وارث له، يرث ماله ويعقله**»[2].

ومن كان من القرابة فهو أولى بميراث قريبه من بيت المال، وينزلون في الميراث منزلة من أدلوا به، وهذا هو الراجح.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنهم لا يرثون. قالوا: لأنه لم ينص على أنصبائهم، وقد قال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[3]، ويكون الميراث لبيت مال المسلمين.

٢١- سعة علم الله- عز وجل- وشموله لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الفرائض- ميراث ذوي الأرحام (٢٨٩٩، ٢٩٠٠)، من حديث المقدام الكندي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّوْبَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة التوبة»؛ لأنه ذكر فيها توبة الله- عز وجل- على الثلاثة الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]، وأيضاً جاء ذكر التوبة فيها في عدة مواضع؛ كما في الآيات: [٢، ٥، ١١، ٢٧، ٧٤، ١٠٢، ١٠٤، ١١٢]..

كما تسمى سورة "براءة"؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [الآية: ١].

وهذان الاسمان أشهر أسمائها.

وتسمى «الفاضحة»؛ لما رواه سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: «ومنهم»، «ومنهم»، حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها»(١).

وسميت بأسماء غير ذلك.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة التوبة بالمدينة، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ.

عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: «آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة»(٢).

ويظهر أنها نزلت- أو أكثرها- في السنة التاسعة من الهجرة؛ قبل غزوة تبوك، وفي أثنائها، وبعدها، ونحو ربعها الأول نزل قبيل موسم حج هذا العام.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر (٤٨٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة براءة (٤٦٥٤).

جـ- السبب في عدم كتابة البسملة في أولها:

لأن جبريل- عليه السلام- لم ينزل بها على النبي ﷺ مع هذه السورة، كما قال القشيري فيما نقله عنه القرطبي(١)؛ لأنها لو نزلت لحفظت؛ لأن الله تعالى تكفل بحفظ القرآن، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

إذ لا يجوز أن يعتقد مسلم أن شيئًا من القرآن سقط أو اختلف في ثبوته وعدمه.

أما العلة والحكمة في عدم نزولها مع هذه السورة فالله أعلم بها.

د- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة ببيان براءة الله ورسوله من المشركين، وإعطائهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض؛ ليحسموا أمرهم لعلهم يتوبون، وبيان أنهم لن يعجزوا الله، وتهديدهم بالخزي والعذاب، وإعلان هذه البراءة للناس يوم الحج الأكبر، واستثناء من عاهدهم المسلمون من المشركين ولم ينقصوهم شيئا، فيجب أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، فإذا انسلخ الأشهر الحرم وجب قتل من لم يتب حيث وُجدوا وأخذهم وحصرهم والقعود لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة خلي سبيلهم، قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

٢- أمره ﷺ بإجارة من استجاره من المشركين؛ ليسمع كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [الآية: ٦].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٣).

٣- إنكار واستبعاد أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، إلا من عاهدهم المسلمون عند المسجد الحرام، فما داموا مستقيمين على العهد وجب أن يستقام لهم، وتأكيد الإنكار والاستبعاد، وبيان علة ذلك، مع ترغيبهم ثانيةً بالتوبة: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

٤- الأمر بقتالهم إن نكثوا أيمانهم وطعنوا في دين المسلمين؛ لأنهم لا أيمان لهم، والتحضيض على ذلك وتأكيده ببيان أسباب الأمر بقتالهم والحكمة من ذلك: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

٥- بيان أنه لا بد من الابتلاء بالجهاد في سبيل الله؛ ليتبين المؤمنون حقًّا من المنافقين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [الآية: ١٦].

٦- بيان أنه ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله مع ما هم عليه من الكفر المحبط للأعمال الموجب لخلودهم في النار، وبيان أنه إنما يعمر مساجد الله المؤمنون به وبما أوجب الإيمان به العاملون بشرعه، وبيان أنه لا يستوي عند الله سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مع الكفر بالله؛ مع من آمن بالله واليوم الآخر وهاجر وجاهد في سبيل الله؛ فهؤلاء أعظم درجةً عند الله، وهم الفائزون المبشرون برحمة الله ورضوانه وجناته: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٧- نهي المؤمنين وتحذيرهم من اتخاذ آبائهم وإخوانهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، وبيان أن من يتولهم فأولئك هم الظالمون، وتحذيرهم من تقديم محبة آبائهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأموالهم وتجارتهم ومساكنهم؛ على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ووعيد من فعل ذلك بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

٨- تذكير المؤمنين والامتنان عليهم بنصر الله لهم في مواطن كثيرة، وتذكيرهم بما أصابهم يوم حنين، حين أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، وضاقت عليهم الأرض مع سعتها، ثم ولوا مدبرين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

٩- بيان نجاسة المشركين المعنوية، والنهي عن تمكينهم من قرب المسجد الحرام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [الآية: ٢٨].

١٠- الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق؛ من الذين أوتوا الكتاب؛ حتى يعطوا الجزية أذلاء صاغرين، وبيان شركهم بالله؛ بقول اليهود: «عزير ابن الله»، وقول النصارى: «المسيح ابن الله»، ومضاهاتهم قول الذين كفروا من قبل، واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وإرادتهم إطفاء نور الله بأفواههم، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

١١- بيان أكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله، والوعيد للذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٢- بيان أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم، والنهي عن ظلم النفس فيهن: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

١٣- بيان أن النسيء الذي كان عليه المشركون إنما هو زيادة في كفرهم وضلالهم، حيث يحلون بعض الأشهر الحرم عامًا ويحرمونه عامًا: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٤- توبيخ المتثاقلين عن النفير للقتال في سبيل الله، والتزهيد في متاع الدنيا والترغيب في الآخرة، والوعيد لمن لم ينفروا بالعذاب الأليم واستبدالهم بغيرهم، وبيان أنهم لن يضروا الله شيئا وأنه على كل شيء قدير.

وبيان أنهم إن لم ينصروا الرسول فقد نصره الله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

والترغيب في النفير خفافًا وثقالًا، والجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

١٥- فضح المنافقين وذمهم، وبيان ما هم عليه من قبيح الصفات وسيئ الأعمال، وذمهم على التخاذل عن الخروج للقتال، وأنه لو كان عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا لاتبعوه ﷺ، ولكن بعدت عليهم الشقة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

١٦- بيان عفو الله تعالى عنه ﷺ في الإذن لهم بعدم الخروج قبل أن يتبين له الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، وبيانه أنه لا يستأذنه الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين.

١٧- ذم المنافقين وبيان كذبهم في استئذانهم الرسول ﷺ في عدم الخروج للجهاد؛ بسبب كفرهم وريبهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن

كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وبيان أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوهم إلا خبالًا، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، وفي المؤمنين سماعون لهم، وبيان أنهم قد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا له ﷺ الأمور؛ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون، وبيان شدة خبثهم وتلفيقهم للأعذار الكاذبة في استئذانهم بقول بعضهم للنبي: «ائذن لي، ولا تفتني»؛ قال تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٨- شدة عداوتهم للنبي ﷺ؛ فإن أصابته حسنة ساءهم ذلك، وإن أصابته مصيبة فرحوا بها، وأمر الله تعالى له أن يبين لهم رضاه ﷺ والمؤمنين بما كتب الله لهم، وتوكلهم على الله، وتبكيت المنافقين بأنهم ما يتربصون بالمؤمنين إلا إحدى الحسنيين، بينما يتربص بهم المؤمنون أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين.

١٩- بيان عدم قبول نفقاتهم؛ لأنهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٢٠- حلفهم بالكذب أنهم من المؤمنين، وما هم منهم: ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٢١- لمزهم النبي ﷺ في قسمته الصدقات: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

٢٢- بيان لمن تكون الصدقات، ومصارف الزكاة: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾.

٢٣- أذاهم للنبي ﷺ وقولهم: «هو أذن».. ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾﴾.

٢٤- حلفهم بالله للمؤمنين؛ ليرضوهم، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا

مؤمنين، وتوعدهم بأنه: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٥- حذرهم وخوفهم من افتضاح نفاقهم بأن تنزل سورة تنبئهم بما في قلوبهم، ووقوع ما حذروا منه: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٢٦- أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، وقبضهم أيديهم عن الخير، ونسيانهم الله، وفسقهم: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٢٧- توعد الله تعالى لهم- هم والكفار- بنار جهنم خالدين فيها وبئس المصير.

٢٨- بيان أن مثل المكذبين للرسول ﷺ من الكفار والمنافقين مثل الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا؛ فاستمتع أولئك بخلاقهم كما استمتع هؤلاء بخلاقهم، وخاض هؤلاء كما خاض أولئك الذين: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢٩- تذكير هؤلاء المكذبين من الكفار والمنافقين وتقريرهم بما أتاهم من نبأ المكذبين قبلهم؛ قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكات؛ أتتهم رسلهم بالبينات فكذبوا فأهلكوا: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٣٠- بيان أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض؛ يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ووعده- عز وجل- إياهم بالرحمة وجنات: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

٣١- أمره ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، ومأواهم جهنم وبئس المصير.

٣٢- حلف المنافقين بأنهم ما قالوا كلمة الكفر، والرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾.

٣٣- بيان أن منهم من عاهد الله: لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه لما آتاهم من فضله؛ ببخلهم، وتوليهم، وإعراضهم: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾.

٣٤- لمزهم المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم، وسخريتهم منهم: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾.

٣٥- بيان أن استغفار الرسول ﷺ لا ينفعهم، ولو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾.

٣٦- فَرَحُ المخلفين بمقعدهم خلاف رسول الله، وكراهتهم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقولهم: لا تنفروا في الحر: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾.

٣٧- تنبيهه ﷺ وتعليمه كيف يتعامل معهم مستقبلًا: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

٣٨- بيان أنهم إذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله؛ استأذنه أولو الطول منهم وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

٩٣- ثناؤه- عز وجل- على النبي ﷺ والمؤمنين معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم، ووعده تعالى- لهم بالخيرات والفلاح وجنات: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

٤٠- مجيء المعذِّرينَ ليؤذن لهم، وقعود الذين كذبوا الله ورسوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

٤١- بيان أنه لا حرج على الضعفاء، ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون؛ في عدم الخروج إلى الجهاد: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وبيان أن السبيل إنما هو على الذين يستأذنون وهم أغنياء: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

٤٢- اعتذار المنافقين من الرسول ﷺ والمؤمنين إذا رجعوا إليهم: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وحلفهم بالله للمؤمنين إذ انقلبوا إليهم؛ ليعرضوا عنهم، وليرضوا عنهم، وأمره- عز وجل- بالإعراض عنهم، وبيان أنهم رجس ومأواهم جهنم؛ جزاء كسبهم، وأنه- سبحانه- لا يرضى عن القوم الفاسقين.

٤٣- بيان أن الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وأن منهم من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بالمؤمنين الدوائر؛ لعدم تمكن الإيمان من قلوبهم، كما أن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، وبيان أنها قربة لهم، سيدخلهم الله في رحمته: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

٤٤- الثناء على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وبيان رضاه تعالى عنهم وإعداده لهم: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

٤٥- بيان أن من حول المؤمنين من الأعراب: ﴿مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ لا يعلمهم ﷺ، والله عز وجل يعلمهم، سيعذبهم ﴿مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

٤٦- بيان أن ممن تخلفوا عن الجهاد من خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، لا عن نفاق منهم، والوعد بالتوبة عليهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

٤٧- أمره ﷺ بالأخذ من أموال المسلمين صدقة تطهرهم وتزكيهم، والدعاء لهم، وبيان أنه عز وجل يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات، وأنه هو التواب الرحيم، وترغيبهم بالعمل الصالح: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٤٨- ذم المنافقين على اتخاذهم مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وحلفهم إن أردنا إلا الحسنى، وشهادة الله تعالى أنهم كاذبون، ونهيه للنبي ﷺ أن يقوم فيه أبدًا، وبيان الأحق بذلك بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

٤٩- بيان فضيلة الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال، والاستشهاد في سبيل الله، والترغيب في ذلك: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

٥٠- الثناء والامتداح لأهل طاعته- عز وجل- وعبادته: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ

ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

٥١- بيان عدم جواز الاستغفار للمشركين؛ ولو كانوا أولي قربى؛ لأنهم كفار ومآلهم النار: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

٥٢- إعذاره عز وجل من الخلق، وإقامته الحجة عليهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

٥٣- بيان سعة ملكه- عز وجل- واختصاصه بذلك؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

٥٤- توبة الله تعالى ﴿عَّلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

٥٥- توبته- عز وجل- على الثلاثة الذين خلفوا، بعدما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه؛ بسبب صدقهم: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

٥٦- بيان عدم جواز التخلف عن النفير مع النبي ﷺ، والرغبة عنه، والترغيب في النفير ببيان أجر المجاهدين في كل ما يصيبهم في ذات الله تعالى، وفي كل ما يقومون به مما يغيظ الكفار وينال منهم، وفي كل ما ينفقونه من نفقات صغيرة أو كبيرة، وما يقطعونه من واد: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

٥٧- بيان أنه لا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا جميعهم، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٥٨- تأكيد الأمر بقتال الكفار والمشركين والغلظة عليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٥٩- تأكيد ذم المنافقين، وذكر صفاتهم القبيحة، بذكر سخريتهم عند نزول الآيات وقولهم: أيكم زادتهم هذه إيمانًا، وازديادهم بنزول الآيات رجسًا إلى رجسهم- بخلاف المؤمنين؛ فتزيدهم إيمانًا، وهم يستبشرون- ونظر المنافقين بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرافهم: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

٦٠- ثم ختمت السورة بالامتنان على المؤمنين ببعثته ﷺ فيهم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾.

قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ، خبره الجار والمجرور بعده، أي: براءة صادرة من الله ورسوله، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه براءة من الله ورسوله، والبراءة: التبرؤ من الشيء.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: إلى الذين عاهدتم أيها المسلمون من المشركين، بفسخ عهودهم ونقضها، وإبلاغ المسلمين بذلك؛ ليتبرؤوا منهم، كما تبرَّأ الله ورسوله منهم، وإبلاغ المشركين بذلك؛ ليأخذوا حذرهم.

والمراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من كان بينهم وبين المؤمنين عهد أمان مطلق غير مقيَّد بمدة معينة، وكذا مَن كان لهم عهد مقيَّد بما دون أربعة أشهر.

أما من كان لهم عهد مقيَّد أكثر من أربعة أشهر فيتم لهم عهدهم إلى مدته؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: ٧].

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، الفاء: للتفريع، والسياحة في الأرض: السير والسفر والذهاب فيها.

أي: فسيروا في الأرض، واذهبوا فيها حيث شئتم بعد هذه البراءة آمنين من القتل

والقتال.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهذا لمن كان لهم عهد مطلق، وكذا من كان عهدهم دون أربعة أشهر يكمل لهم أربعة أشهر، كما سبقت الإشارة إلى هذا.

وهذه الأشهر تسمى أشهر السياحة والتسيير، تبدأ من اليوم العاشر من ذي الحجة سنة تسع من الهجرة، حيث بعث النبي ﷺ عليًّا مع أبي بكر- رضي الله عنهما؛ ليبلغ الناس بهذه الآيات، وتنتهي بعشر يخلون من ربيع الآخر. فهذه أربعة أشهر، ثم لا عهد لهم بعد ذلك.

ولعلَّ من الحكمة في إنظارهم وتأمينهم من القتل وغيره هذه الأشهر الأربعة؛ ليتفكروا ويراجعوا أنفسهم، وليعلموا قوة المسلمين- إذ لم يخشوا استعدادهم لهم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَسِيحُوا﴾، وصُدر هذا الخبر بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ للتحذير والاهتمام.

ومعنى ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، أي: غير فائتين بأنفسكم ومفلتين من عذاب الله، وقدرته وحكمه، بل أنتم في قبضته وسلطانه حيث كنتم، وأين ذهبتم في الأرض.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: واعلموا أن الله مذل الكافرين ومهينهم في القتل والأسر وغير ذلك في الدنيا، وفي الآخرة بعذاب النار.

قوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

أنزل الله- عز وجل- براءته ورسوله من المشركين المعاهدين وأعلمهم بذلك، وأنظرهم أربعة أشهر، ثم أمر بإعلام الناس جميعاً يوم الحج الأكبر ببراءته- عز وجل- من المشركين ورسوله؛ إعذاراً منه للمسلمين، وإنذاراً للمشركين.

قوله: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ ﴾ معطوف على قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وفيه: إطناب وإظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: وأذان بذلك؛ لأن المقام يقتضي الإيضاح والبيان.

والأذان: الإيذان والإعلام، أي: وإعلام من الله ورسوله إلى الناس جميعاً، المؤمن والكافر المعاهد وغيره، من نكث من المعاهدين ومن لم ينكث، من شهد منهم موسم الحج ذلك العام ومن لم يشهده.

ففي قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ الآية: إخبار بثبوت البراءة، وفي قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ الآية: إخبار بوجوب الإعلام بالبراءة.

﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو يوم النحر، كما دلَّت على ذلك الأحاديث في بعثه ﷺ أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «بعثني أبوبكر- رضي الله عنه- في الحجة التي أَمَّره رسول الله ﷺ عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»(١).

قال الزهري: فكان حميد يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر؛ لأجل حديث أبي هريرة(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: بعثني أبوبكر- رضي الله عنه- في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة.

قال أبوهريرة: فأَذَّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(٣).

وفي رواية بعد قوله: «ولا يطوف بالبيت عريان- قال: ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنبذ أبوبكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي ﷺ مشرك»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٦٢٢)، ومسلم في الحج (١٣٤٧)، وأبوداود في المناسك (١٩٤٦)، والنسائي في الحج (٢٩٥٧).

(٢) ذكره النووي في شرحه لهذا الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩).

(٤) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧٧).

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «**أي يوم هذا**»؟ قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «**أليس هذا يوم الحج الأكبر**»(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: «**أي يوم هذا**»؟ قالوا: يوم النحر. قال: «**هذا يوم الحج الأكبر**»(٢).

وهذا قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين، وأهل العلم بعدهم أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر؛ لهذه الأحاديث وغيرها(٣)؛ ولأنه اليوم الذي تقضى فيه جل أعمال الحج، من رمي جمرة العقبة ونحر الهدي والحلق والطواف، وهو يوم العيد.

وقيل: يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة؛ لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»(٤)؛ ولأن الناس يجتمعون فيه في صعيد واحد.

وهو مروي عن جمع من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: أنه لا عهد بين الله وبين المشركين، بل قد انتقض عهدهم وانفسخ.

﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ معطوف على لفظ الجلالة، أي: وأن رسوله بريء من المشركين لا عهد بينه وبينهم؛ لأن العهد بينهم وبين الرسول هو عهد بينهم وبين الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

والمعنى: إعلام من الله ورسوله إلى جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ببراءته- عز وجل- ورسوله من المشركين.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٤٥)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥٨)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٦٤٨)، وأخرجه البخاري معلقاً في الحج (١٧٤٢).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٩٤-٥٩٥).

(٤) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٤٤)، والترمذي في الحج (٨٨٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٥)، من حديث عبدالرحمن بن يعمر رضي الله عنه.

وأن عهدهم قد انتقض وانفسخ، فلا عهد بين الله ورسوله وبينهم.

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، الفاء: للتفريع، والخطاب: للمشركين الذين آذنهم الله ببراءته ورسوله منهم.

أي: فإن رجعتم عما أنتم عليه من الشرك إلى الإيمان وإخلاص العبادة لله.

والتوبة: الرجوع من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن المعصية إلى الطاعة.

وشروطها خمسة: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العود إليها، وأن تكون خالصة لله- عز وجل- وأن تكون في وقتها المناسب، قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: فهو خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم؛ وذلك لما في التوبة والإيمان من السعادة في الدنيا والآخرة، مع مغفرة الذنوب؛ كما قال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**»(١).

﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: أعرضتم عن التوبة والإيمان بقلوبكم وأبدانكم، وأقمتم على ما أنتم عليه من الكفر والشرك والضلال.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ تحذير وتهديد لهم، أي: فاعلموا أنكم غير فائتين ولا مفلتين من قدرة الله- عز وجل- وأخذه وعقابه.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ البشارة في الأصل: الإخبار بما يَسر ويُفرح، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا سمع خبراً سارًّا ظهر أثر ذلك على وجهه وبشرته، بحيث يستنير وجهه وتتسع بشرته؛ كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(٢).

وليس المراد بالبشارة في الآية الإخبار بما يسر، وإنما المراد بها ضد ذلك وهو الإخبار

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١)، من حديث عمرو رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

بما يسوء، وهو العذاب الأليم، على طريق التهكم بالكفار والسخرية بهم، والتهديد والوعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨].

و﴿أَلِيمٍ﴾، على وزن: «فعيل»، بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا بالقتل والأسر وغنم الأموال؛ كما قال تعالى في غزوة حنين: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٦]، أي: عذبهم بالقتل والأسر وأخذ أموالهم- وهذا ما حصل لهم في حنين.

وأيضاً: وبشرهم بعذاب أليم في الآخرة بالنار وبئس القرار.

وقد تم إيذان الناس وإعلامهم ببراءة الله- عز وجل- ورسوله من المشركين يوم النحر في الحجة التي حجها أبوبكر بالناس سنة تسع من الهجرة، حيث بعث رسول الله ﷺ مع أبي بكر- رضي الله عنه- علي بن أبي طالب وأبا هريرة رضي الله عنهما في رهط يؤذنون في الناس ببراءة الله- عز وجل- ورسوله من المشركين، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فآذنوا الناس بذلك، وقرأ علي رضي الله عنه هذه الآيات على الناس- كما سبق في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي رواية عن محرّر بن أبي هريرة عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «كنت مع علي- رضي الله عنه- حين بعثه النبي ﷺ ينادي، فكان إذا صحل صوته[1] ناديت. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك»[2].

وفي بعض روايات حديث أبي هريرة: «من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فأجله إلى أربعة أشهر»[3].

وهذا- إن صح- محمول على مَن كان له عهد مطلق، أو مَن كان عهده دون أربعة

---

(١) صحل صوته: أي: بح صوته. انظر: «اللسان» مادة «صحل».

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣١٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢١٤)، وابن حبان (٣٨٢٠)، والحاكم (٢/ ٣٣١).

(٣) أخرجها الطبري (١١/ ٣١٤)، وأحمد بنحوه (٢/ ٢٩٩).

أشهر- كما تقدم في تفسير الآية ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

ويدل على هذا ما جاء في حديث زيد بن يثيع- رجل من همدان- قال: سألنا عليًّا: بأي شيء بُعِثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ- مع أبي بكر في حجة الوداع- قال: «بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا»(١).

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ إِلَّا ﴾ أداة استثناء، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل نصب على الاستثناء المتصل من قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾.

ويحتمل كون الاستثناء منقطعاً، أي: لكن الذين عاهدتم من المشركين فحكمهم كذا وكذا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾، أي: ثم لم ينقصوكم شيئاً مما عاهدوكم عليه، أي: لم يُخِلّوا بشيء من شروط العهد. والعطف بـ«ثم» يدل على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لم ينقصوكم أيَّ شيء مهما قلّ مما عاهدوكم عليه.

﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾، المظاهرة: المعاونة، أي: ولم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم، برجال، أو سلاح، أو برأي ومشورة، أو غير ذلك.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾، أي: فأوفوا لهم بعهدهم، وأكملوه إلى نهاية مدتهم حسب ما عاهدتموهم عليه، وإن طال ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٥٠٨٧)، والطبري (١١/ ٣١٤-٣١٥)- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٧].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته»(١).

وهذا يدل على سمو مبادئ الإسلام واحترامه للعهود والمواثيق- حتى مع غير المسلمين.

ومفهوم الآية أنهم إن أخلُّوا بالشرطين، بأن نقصوا المسلمين شيئاً، وظاهروا عليهم أحداً، أو أخلُّوا بأحدهما، لم يجب إتمام عهدهم إليهم، بل يجب قتالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، في ختام الآية بهذه الجملة تأكيد على الوفاء بالعهد، وأن ذلك من تقوى الله- عز وجل- وترغيب في تقوى الله عموماً؛ لأن الله يحب المتقين، أي: إن الله يحب المتقين له- سبحانه- بفعل أوامره واجتناب نواهيه، من الوفاء بالعهود، وعدم نقضها، وغير ذلك.

وفي الآية إثبات المحبة لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، ومفهوم ذلك نفي محبته عن غير المتقين.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

هذه الآية تسمى آية السيف.

بيَّن الله- عز وجل- في مطلع هذه السورة براءته ورسوله ممن عوهد من المشركين، سواء كان عهدهم مطلقاً أو مقيداً بأقل من أربعة أشهر، وأجَّلهم جميعاً أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض حيث شاؤوا- ثم أمر المؤمنين إذا انتهت هذه الأشهر التي أمهلوا فيها- بقتالهم حيث وجدوهم وأخذهم وحصرهم، والقعود لهم كل مرصد.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾، الفاء: للتفريع على قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، أو استئنافية.

أي: فإذا انقضت الأشهر الحرم وخرجت، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧]، أي: نخرج منه النهار، يقال: سلخت الشهر، أي: خرجت منه، قال الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي(١)

و﴿ٱلْأَشْهُرُ﴾ جمع شهر، و«ال» فيها: للعهد الذكري، أي: الأشهر المذكورة قبل في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]. و﴿ٱلْحُرُمُ﴾ جمع حرام.

والمراد بالأشهر الحرم: أشهر السياحة والتسيير المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تبدأ من يوم النحر العاشر من ذي الحجة سنة تسع من الهجرة- حيث أُعلِم الناس جميعاً في موسم حج هذه السنة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وتنتهي بعشر يخلون من ربيع الآخر.

وهذا ما يدل عليه السياق، فإن عود العهد إلى مذكور، أولى من عوده إلى مقدر، وأيضاً فإن الأشهر الحرم المعروفة سيأتي حكمها في آية أخرى في هذه السورة.

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، وبه قال أكثر السلف وأهل العلم من المفسرين وغيرهم.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأشهر الحرم في الآية هي الأشهر الحرم المعروفة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب. فيكون المراد ما بقي منها وهو خمسون يوماً من يوم النحر إلى نهاية المحرم. لكن السياق لا يساعد على هذا.

ومعلوم أن القتال في الأشهر الحرم لا يجوز ابتداءً على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]،

---

(١) البيت في «لسان العرب» مادة «سلخ» بلا نسبة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

ولكونه ﷺ إذا دخل الأشهر الحرم كفَّ عن القتال.

﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ جواب الشرط «إذا»، أي: فإذا انسلخت الأشهر الحرم وانقضت فاقتلوا المشركين بأي مكان وجدتموهم من الأرض وظفرتم بهم، ويخص من هذا القتال ابتداءً في الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿وَخُذُوهُمْ﴾، الأخذ: الأسر، أي: وأْسروهم.

﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾، الحصر: المنع والتضييق، أي: حاصروهم في معاقلهم وحصونهم، وامنعوهم من التوسُّع في الأرض، وضيِّقوا عليهم.

﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، ﴿كُلَّ﴾ مفعول به منصوب بـ﴿وَٱقْعُدُواْ﴾ بتضمينه معنى: «الزموا»، كما في قوله تعالى- حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦].

ويجوز نصب ﴿كُلَّ﴾ بنزع الخافض، أي: واقعدوا لهم في كل مرصد.

والمراد بالقعود في الآية: المرابطة والملازمة للترصُّد لهم.

﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، المرصد: مكان الرصد والترقب، قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمت وما إخالك ناسياً ... أن المنية للفتى بالمرصد

وقال عدي بن زيد العبادي(١):

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى ... وإن المنايا للنفوس بمرصد

والمعنى: وترصدوا للمشركين في كل طريق ومسلك وممر، ورابطوا في جهادهم حتى تضيقوا الخناق عليهم.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بإعلان البراءة من المشركين، وأمر بقتلهم

---

(١) انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص٣٩١).

حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ الآية؛ ترغيباً لهم في التوبة وحثًّا لهم عليها، ولبيان أنه ليس المقصود في القتال مجرد القتل وإنما المراد هداية الناس إلى دين الله تعالى.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾، أي: رجعوا عما هم عليه من الشرك، و الصد عن دين الله، ودخلوا في الإسلام.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فجمعوا بين الإيمان والإسلام، وبين الإيمان والعمل، ظاهراً وباطناً.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: وأقاموا الصلاة إقامة تامة، بشروطها وأركانها وواجباتها وسُننها.

والصلاة في اللغة الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: ادع لهم.

وفي حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه- قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما**» الحديث(١).

قال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرّبتُ مرتحلاً ... يا رب جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا(٢)

أي: عليك مثل الذي دعوتِ.

والصلاة في الشرع: التعبُّد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

وخص الصلاة بالذكر من بين العبادات البدنية، وقدَّمها في الذكر على جميع

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٤).

(٢) البيتان للأعشى، انظر «ديوانه» ص(١٥١).

العبادات؛ لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وقاعدته العريضة التي يدور عليها رحاه، فبإقامتها- بعد الشهادتين- يدخل المرء في عداد المسلمين، وبإقامتها والمحافظة عليها كما شرع الله يصلح أمر الدنيا والدين، ويسعد الإنسان في الدارين.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: وأَعطوا الزكاة الواجبة في أموالهم لمستحقيها وهم الأصناف الثمانية.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزاد، وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال وتزيده، وتزكي نفس الغني من الشح و البخل، وتزكي نفس الفقير من الحقد والضغينة على إخوانه الأغنياء، ومن السعي لطلب الرزق بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك.

والزكاة في الشرع: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص.

وخصَّ الزكاة بالذكر من بين العبادات المالية؛ لأنها أعظم العبادات المالية، وقرنها بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً؛ لأنهما أعظم العبادات، ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله. وأداؤهما أعظم دليل على صدق التوبة والإيمان.

﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾، أي: اتركوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء؛ لأنهم بتوبتهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة دخلوا في الإسلام فعُصِمَت دماؤهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى**

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (٢٥)، ومسلم في الإيمان- الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: «لا إله إلا الله» (٢٢).

يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

وفي رواية: «**من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا؛ وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده يستر الذنب ويتجاوز عن العقوبة، وذو رحمة واسعة، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها مَن شاء مِن خلقه، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع الخلق.

ومن مغفرته- عز وجل- ورحمته: التوبة على من تاب إليه من المشركين وآمن، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ومغفرة ما سلف منهم من الكفر والغدر، وعصمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الفوائد والأحكام:

١- عدم مشروعية البسملة عند قراءة مطلع سورة التوبة؛ لأنها لم تكتب في مطلع هذه السورة، وذلك لأنها لم تنزل مع هذه السورة، ولو نزلت لحفظت؛ لأن الله تكفَّل بحفظ القرآن كله، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

٢- براءة الله- عز وجل- ورسوله من المشركين المعاهدين ممن بينهم وبين المؤمنين عهود مطلقة، أو مقيدة دون أربعة أشهر- وإمهالهم جميعاً أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض حيث شاؤوا آمنين؛ لقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

٣- أن من برئ الله منه فقد برئ منه رسوله، ومن برئ منه الرسول فالله منه بريء؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بالعطف بالواو التي تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه.

٤- إعلام المشركين بقدرة الله- عز وجل- التامة عليهم، وأنهم غير معجزيه فهم تحت

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة- فضل استقبال القبلة (٣٩٣)، وأبوداود في الجهاد (٢٦٤١)، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٦٦)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٨).

قهره وسلطانه، ولن يفوتوه أو يفلتوا من عقابه؛ تحذيراً وتهديداً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

٥- الوعيد والتهديد للكافرين بالخزي والذل والهوان في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

٦- الإعلام من الله ورسوله إلى الناس جميعاً يوم الحج الأكبر ببراءته- عز وجل- ورسوله ﷺ من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

٧- وجوب براءة المؤمنين من المشركين؛ لبراءة الله ورسوله منهم.

٨- أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، لإيذان علي وأبي هريرة- رضي الله عنهما- الناس بهذه البراءة في هذا اليوم في رهط بعثهم النبي ﷺ مع أبي بكر في حجته بالناس سنة تسع من الهجرة.

٩- وضوح الإسلام في أحكامه وتعامله حتى مع غير المسلمين، ومع الأعداء؛ لأن الله- عز وجل- أمر بإعلان براءته ورسوله من المشركين، وإمهال من كان منهم له عهد مطلق أو مقيد بما دون أربعة أشهر إلى أربعة أشهر.

١٠- ذم الشرك وأهله؛ لأن الله أعلن براءته ورسوله من المشركين.

١١- قبول التوبة من المشركين، وترغيبهم فيها، وبيان أنها خير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

وفي هذا دلالة على سعة رحمة الله- عز وجل- ومغفرته، ومحبته للتوبة، وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه، ولو كان أعظم الذنوب وهو الشرك بالله.

١٢- فضل التوبة وأنها تهدم ما كان قبلها من الذنوب حتى الشرك.

١٣- تحذير المشركين من التولي والإعراض والاستمرار على ما هم عليه من الشرك، وإعلامهم بتمام قدرة الله عليهم، وأنهم لن يعجزوه أو يفوتوا ويفلتوا من قبضته وقهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

١٤- إخبار الذين كفروا بالعذاب الأليم حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب، وبشارتهم بذلك

على سبيل التهكم والسخرية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٥- وجوب إتمام عهد من كان بينهم وبين المؤمنين عهد مؤقت من المشركين والوفاء لهم بذلك، ما لم ينقصوا المؤمنين شيئاً مما عاهدوهم عليه، أو يظاهروا أحداً على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾.

١٦- إذا نقص المشركون شيئاً مما عاهدوا المؤمنين عليه، أو ظاهروا على المؤمنين أحداً من الكفار جاز للمؤمنين نقض عهدهم معاملة لهم بالمثل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾.

وفي هذا ما يدل على أن المشركين الذين تبرأ الله منهم ورسوله، وأجَّلهم أربعة أشهر، وأمر عز وجل بإعلام الناس ببراءته ورسوله منهم أنه قد حصل منهم نقض لما بينهم وبين المؤمنين من عهود. كما قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

١٧- سمو مبادئ الدين الإسلامي، واحترامه للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل وحتى مع الأعداء المحاربين.

١٨- الترغيب في تقوى الله- عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الوفاء بالعهود، وعدم نقضها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٩- إثبات صفة المحبة لله- عز وجل- كما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يحب المتقين من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ومفهوم هذا عدم محبته لغير المتقين.

٢٠- وجوب قتال المشركين بعد انقضاء الأشهر الحرم، أشهر السياحة والتأجيل الأربعة حيث وجدوا وأخذهم وأسرهم ومحاصرتهم والترصد لهم في جميع الطرق والمسالك وتضييق الخناق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾.

لكن يخص من عموم قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ القتال في

الحرم فلا يجوز قتالهم فيه ابتداءً، لكن إن قاتلوا فيه جاز قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: ١٩١].

كما يخص من هذا العموم- على الصحيح- القتال في الأشهر الحرم المعروفة، وهي ذي القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، فلا يجوز القتال فيها ابتداءً، لكن إن بدأ العدو بالقتال، جاز قتاله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

والآية عامة في قتال جميع المشركين بعد انقضاء أشهر السياحة الأربعة، ممن كان لهم عهد مطلق أو مقيّد دون أربعة أشهر، أو لا عهد لهم.

أما من كان لهم عهد مقيد أكثر من أربعة أشهر فيجب إتمام عهدهم إليهم إلى نهاية مدته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٧].

وقد توسَّع بعض الناس فجعل هذه الآية: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية، ناسخة لآيات الأمر بالعفو والصفح والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك، وبالغوا في ذلك، حتى أوصل بعضهم الآيات المنسوخة بهذه الآية إلى نحو مائة وأربع وعشرين آية، وليس هذا بصحيح.

فهذه الآية وغيرها من آيات القتال كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، ونحوها لا تنافي بينها وبين آيات الأمر بالعفو والصفح والمجادلة بالتي هي أحسن، ونحوها؛ لأن آيات القتال تستعمل في وقتها، وآيات العفو تستعمل في وقتها، ولكل منهما حال تناسبها، ولا تعارض بينها حتى يقال بالنسخ.

٢١- إذا تاب المشركون عما هم عليه من الشرك والكفر وآمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وجب على المسلمين تخلية سبيلهم والكفّ عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

٢٢- وجوب الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، والإيمان ظاهراً وباطناً، بين الإيمان والإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢٣- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لهذا خصهما بالذكر من بين أركان الإسلام، وواجباته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله تعالى، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

٢٤- أن من شروط صحة الإسلام إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذا أمر مجمع عليه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، فمن لم يصل فليس بمؤمن، بل هو كافر.

قال ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»(١).

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(٢).

وعن عبدالله بن شقيق قال: «كان أصحاب محمد لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»(٣).

٢٥- أن المقصود والمهم في الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٦- خطورة منع الزكاة؛ لقوله تعالى في الآيتين: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى كفر من منع الزكاة. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأبوداود في السنة (٤٦٧٨)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٩)، من حديث بريدة- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٢).

«**أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له**»(١).

وقد قرنت الزكاة مع الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعاً، مما يدل على عظم مكانتهما معاً فهما القرينتان في كتاب الله- عز وجل- وقد قاتل أبوبكر- رضي الله عنه- الذين منعوا الزكاة، وقال: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»(٢).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**»(٣).

٢٧- ينبغي لمن وجبت عليه الزكاة إيتاؤها لمستحقيها دون تكليفهم البحث عنها أو المطالبة بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢٨- أن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ فلا يؤاخذون بما فعلوا قبل توبتهم وإسلامهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾[التوبة:١١].

٢٩- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾.

٣٠- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- الذاتية والفعلية، العامة والخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٞ﴾.

٣١- في اقتران المغفرة والرحمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٠)، وفي الاعتصام (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، وأبوداود في الزكاة (١٥٥٦)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

٣٢- في اجتماع المغفرة والرحمة زوال المرهوب، وحصول المطلوب، وفي تقديم المغفرة على الرحمة بيان أن التخلية قبل التحلية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- بقتل المشركين حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا طلب أحد منهم الجوار؛ ليسمع كلام الله وجب أن يجار.

قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾.

و﴿أَحَدٌ﴾، بمعنى:«واحد»، وهو: نكرة في سياق الشرط، تفيد التنصيص على العموم، أي: وإن مشرك استجارك، أيًّا كان غنيًّا أو فقيراً، شريفاً أو وضيعاً، أو غير ذلك.

وقدم ﴿أَحَدٌ﴾ على ﴿اسْتَجَارَكَ﴾؛ للاهتمام بالمسند إليه، وتأكيد بذل الأمان لكل من يسأله من المشركين إذا كان ذلك لمصلحة.

ومعنى ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ طلب منك الجوار والأمان، وأن تمنعه من الضرر حين قدومه إلى دار الإسلام، إذا كان ذلك لمصلحة كأداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة، ونحو ذلك ويسمى «المستأمن». قال النووي: «المستأمن هو الحربي الذي يدخل دار الإسلام بأمان»(١).

والخطاب للنبي ﷺ، ولأئمة المسلمين من بعده ونوابهم.

---

(١) في «تحرير الألفاظ» ص٣٢٥.

﴿فَأَجِرْهُ﴾، أي: فأمّنه؛ ولهذا قال ﷺ لأم هانئ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»(١).

وقال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، فأنا بريء من القاتل**».

وفي لفظ: «**أعطي لواء الغدر يوم القيامة**»(٣).

ولهذا لما قدم على رسول الله ﷺ رسول مسيلمة الكذاب قال له النبي ﷺ: «**أتشهد أن مسيلمة رسول الله**»؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك**»(٤).

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، أي: إلى غاية أن يسمع كلام الله منك بأن تقرأ عليه القرآن الكريم، وتدعوه إلى الإسلام، وتعظه وتقيم الحجة عليه.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾، أي: ثم أتم له أمانه حتى يرجع إلى مأمنه، أي: المكان الذي يأمن فيه، وهو بلده وأرض قومه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ الجملة في موضع التعليل؛ لتأكيد الأمر في الجملة قبلها، والإشارة لما سبق من الأمر بإجارة من استجار من المشركين، وتأمينه حتى يسمع كلام الله، ثم إبلاغه مأمنه.

والباء: للسببية، أي: بسبب أنهم قوم لا يعلمون.

والمعنى: إنما أمرناك بإجارة من استجارك من المشركين حتى يسمع كلام الله، ثم إبلاغه مأمنه بسبب أنهم قوم لا يعلمون، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهديهم إلى الحق؛ فلأجل أن يُعلَّموا ذلك وتنتشر الدعوة، وتقوم عليهم الحجة أمرنا بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧١) من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبوداود في الديات (٤٥٣٠)، والنسائي في القسامة (٤٠١٣٤)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٤٣٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٨)، من حديث عمرو بن الحمق الخزاعي- رضي الله عنه- وإسناده صحيح.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٠٠).

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

ذكر عز وجل في مطلع السورة براءته ورسوله من المشركين، ونبذ عهودهم المطلقة والمقيدة بها دون أربعة أشهر، وإنظار الجميع أربعة أشهر يسيحون في الأرض، وأمر بقتلهم إذا انسلخت هذه الأشهر حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم والترصد لهم، ثم بيّن في هذه الآية الحكمة والسبب في ذلك، وهو شركهم بالله، وخيانتهم للعهود.

قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾.

﴿كَيْفَ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والنفي والاستبعاد المشرب بالتعجب.

أي: كيف يبقى ويستمر للمشركين عهد أمان عند الله وعند رسوله مع ما هم عليه من الكفر والتكذيب والنقض للعهود وقتال المؤمنين والصد عن دين الله، أي: لا يمكن أن يبقى لهم عهد عند الله وعند رسوله.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هذا الاستثناء كسابقه يجوز أن يكون منقطعاً أو متصلاً.

أي: إلا الذين عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة حيث تم الصلح بينهم وبين المسلمين وعاهدهم الرسول ﷺ على الهدنة وترك الحرب بينهم عشر سنين، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٥، ٢٦].

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾، الفاء: للتفريع، أو استئنافية، و«ما»: مصدرية ظرفية فيها معنى الشرط، أي: فماداموا مستقيمين لكم على الوفاء بعهدكم ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ على الوفاء بعهدهم، أي: فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم. ويجوز كون «ما»:

اسم شرط جازم والتقدير: أيَّ وقت استقاموا فيه لكم فاستقيموا لهم. والفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ واقعة في جواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

وقد قال الطبري[1] بعدما ذكر اختلاف أهل التأويل في الآية هل نزلت في قوم من جذيمة بن الدُّئِل، أو في قريش، أو في خزاعة، وذكر الآثار الواردة في ذلك عن السلف قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: هم بعض بني بكر من كنانة، ممن كان أقام على عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية من العهد مع قريش حين نقضوه بمعونتهم حلفاءهم من بني الدُّئِل على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة. قال: وإنما قلت: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن الله أمر نبيه والمؤمنين بإتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا على عهدهم. وقد بيَّنا أن هذه الآيات إنما نادى بها عليٌّ في سنة تسع من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة بسنة، فلم يكن بمكة من قريش ولا خزاعة كافر يومئذٍ بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده؛ لأن من كان منهم من ساكني مكة، كان قد نقض العهد، وحورب قبل نزول هذه الآيات».

وقال ابن كثير[2] في كلامه على قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾: «يبين تعالى- حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾، أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم

---

(١) في «جامع البيان» (١١/ ٣٥٠-٣٥٤).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ٥٦-٥٧).

من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، و من استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة على الوفاء بالعهد للمشركين ما استقاموا على عهدهم.

أي: إن الله يحب المتقين له ولعذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك الوفاء بالعهود وعدم نقضها.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

تأكيد لما سبق من أنه لا يمكن أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله.

قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿كَيْفَ﴾ مؤكدة للتي قبلها، أي: تأكيد للإنكار والنفي في قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ حالية، أي: كيف يكون لهم عهد، والحال أنهم إن يظهروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾.

ويجوز كونها عاطفة، أي: كيف يكون لهم عهد وهم إن يظهروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾.

ومعنى ﴿يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ينتصروا عليكم، وتكون لهم القوة والغلبة والعلو عليكم، قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤]، أي:

منتصرين، وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: أن يعلوه.

﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا﴾، «الإل»: القرابة، أي: لا يراعوا فيكم قرابة ولا رحمًا.

قال الشاعر:

أفسد الناس خلوف خلفوا ... قطعوا الإل وأعراق الرحم(١)

وقال حسان(٢):

لعمرك إن إلّك من قريش ... كإل السقب من رأل النَّعام

﴿وَلَا ذِمَّةً﴾، الذمة: العهد، أي: ولا يراعوا فيكم ولا يحفظوا لكم عهداً.

قال الشاعر:

وجدناهمُ كاذباً إلّهُمْ ... وذو الإلّ والعهد لا يكذب(٣)

والمعنى: كيف يكون للمشركين عهد والحال أنهم يتربصون بكم الدوائر ويتحينون الفرص أن يظهروا وينتصروا عليكم، فلا يراعوا فيكم قرابة ولا يحفظوا لكم عهداً ولا يرحموكم.

وفي هذا تحريض للمؤمنين على البراءة من المشركين ومعاداتهم، وعدم الاطمئنان إليهم وتهييج لهم على قتالهم.

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الجملة مستأنفة، أي: يرضونكم بقولهم بأفواههم.

﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: وتمتنع قلوبهم أن توافق ما قالوه بأفواههم.

أي: يعطونكم من القول المعسول بألسنتهم من دعوى محبتهم لكم والنصح لكم ونحو ذلك، خلاف ما يضمرونه لكم في قلوبهم من العداوة والبغضاء، والتربص بكم وإضمار الشر لكم. كما قال الشاعر:

يعطيك من أدنى اللسان حلاوة ... ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

---

(١) البيت لتميم بن مقبل. انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٥٨)، «التبيان» (٥/ ١٧٨).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٣٣٦)، «اللسان» مادة «ألل»، و«السقب»: ولد الناقة ساعة يولد، و«الرأل» ولد النعام. يقول حسان رضي الله عنه: إنه لا قرابة بينك وبينهم، كما أنه لا قرابة بين ولد الناقة وولد النعام.

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٥٩).

يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب(١)

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، أي: وأكثرهم خارجون عن الحق والعدل، والصدق والمروءة ناقضون للعهد.

قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: استبدلوا واعتاضوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: بالقرآن الكريم والإيمان به، وما فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: ثمناً زهيداً، وهو متاع الدنيا الزائل ولذاتها الفانية، وما عليه أهل الجاهلية من أحوال سيئة من الفجور وشرب الخمور واللذات الفاسدة والمحرمة.

كما قال تعالى في وصف أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ﴾، أي: فعدلوا وانصرفوا عن دين الله، وصرفوا عنه غيرهم.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي:إنهم ساء وقبح الذي كانوا يعملون، وساء عملهم من الشرك بالله، والاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً والصد عن سبيله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾، أي: لا يراعون في مؤمن أيًّا كان قرابة ولا عهداً. وفي هذا- مع توكيده لما قبله- ما يبين أن هذا موقف أهل الشرك من عموم المؤمنين في كل زمان ومكان- وفي هذا كله تحريض على قتالهم.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ الإشارة للمشركين الذين أمر عز وجل بقتالهم، وحرض المؤمنين عليه، ونفى أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله، الذين اعتاضوا

---

(١) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب ولابنه الحسين رضي الله عنهما . انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٣/ ٥٨)، وصدر البيت الأول: يعطيك ما فوق المنى بلسانه.

بآيات الله ثمناً قليلاً وصدوا عن سبيله، ممن لا يرقبون في المؤمن قرابة ولا عهداً.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، وأكد وصفهم بالاعتداء بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وفي ضمير الفصل «هم».

ومعنى ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾، أي: المجاوزون الغاية في الظلم بالشرك والصد عن دين الله وقتال المؤمنين.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآية ترغيب وحث ثان للمشركين على التوبة والدخول في دين الله، وتوكيد لسعة مغفرة الله- عز وجل- ورحمته.

وقد سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

قوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾، أي: فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وفي التعبير بقوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ استمالة لقلوبهم.

وقال هنا: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ لمناسبة ذكر عداوتهم للمؤمنين قبل هذا؛ كما قال في الآية السابقة: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ لمناسبة ما قبلها وهو الأمر بقتلهم وأخذهم وحصرهم والترصد لهم.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: ونبين ونوضح الآيات الشرعية والكونية.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لقوم يعلمون علماً ينتفعون به في أمر دينهم ودنياهم وأخراهم، وهم المؤمنون، فلهم ولأجلهم فصل الله الآيات وفي هذا مدح لهم وحث على التأمل والعمل بها، وتعريض بجهل المشركين وعدم علمهم، وإعراضهم؛ كما قال تعالى عنهم قبل هذا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

الفوائد والأحكام:

١- ينبغي إجارة من طلب الجوار من المشركين حتى يسمع كلام الله، ويدعى إلى الإسلام، وتأمينه حتى يرجع إلى مأمنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

وهكذا ينبغي إجارة كل من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام لمصلحة، كأداء رسالة، أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة ونحو ذلك.

٢- إثبات أن القرآن كلام الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

وفي حديث جابر- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس، ويقول: «**ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي**»(١).

وفي هذا إثبات الكلام لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، والرد على من نفى ذلك من الجهمية وغيرهم.

كما أن فيه الرد على القائلين بخلق القرآن من المعتزلة وغيرهم.

٣- أن الحكمة في الأمر بإجارة من طلب الجوار من المشركين وتأمينه، لأجل أن يسمع كلام الله، ويدعى إلى الإسلام، وتقوم عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- أن المشركين لا يعلمون علماً ينتفعون به، ويهديهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

٥- سمو مبادئ الإسلام وأحكامه في التعامل مع غير المسلمين.

٦- إنكار ونفي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله- مع ما هم عليه من الشرك بالله والصد عن دين الله ونقض العهود؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

٧- أن من لم يكن له عهد عند الله، فليس له عهد عند رسول الله، كما أن من لم يكن له عهد عند رسول الله فليس له عهد عند الله.

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة (٤٧٣٤)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١).

٨- استثناء المشركين الذين عاهدهم الرسول ﷺ والمؤمنون عند المسجد الحرام من عموم المشركين بالأمر بالاستقامة لهم على الوفاء بعهدهم ما استقاموا على الوفاء بالعهد للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل والمعاملة تكون بالمثل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾.

١٠- احترام الإسلام للعهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين، بل مع المحاربين.

١١- إثبات محبة الله تعالى للمتقين ترغيباً في تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والتي منها الوفاء بالعهود، وعدم نقضها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٢- إثبات صفة المحبة لله- عز وجل- كما يليق بجلاله وعظمته.

١٣- يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نفي محبته- عز وجل- عن غير المتقين.

١٤- تأكيد إنكار ونفي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

١٥- شدة عداوة المشركين للمؤمنين وتربصهم بهم الدوائر وتحينهم الفرص للظهور عليهم وغلبتهم وعدم مراعاتهم فيهم قرابة ولا عهداً؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾.

١٦- كذب المشركين فيما يظهرونه بأفواههم وألسنتهم من محبة المؤمنين ومناصرتهم ونحو ذلك، لما تنطوي عليه قلوبهم من مخالفة ذلك، مما يوجب الحذر منهم وعدم الاطمئنان إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٧- ينبغي عدم الاغترار بما يدعيه ويظهره أعداء الإسلام من موالاة ومحبة للمسلمين.

١٨- أن أكثر المشركين فاسقون خارجون عن الحق والعدل والصدق والمروءة، ناقضون

للعهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وفي هذا إخبار عنهم وذم لهم.

١٩- استبدال المشركين بآيات الله والإيمان بها متاع الدنيا ولذاتها الفانية، وما عليه أهل الجاهلية من الأحوال والعادات السيئة كالفجور وشرب الخمور ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهذا أيضاً إخبار عنهم وذم لهم.

٢٠- التعريض بذم الدنيا وما فيها من المال والمتاع ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٢١- صد المشركين عن سبيل الله بحالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾.

٢٢- تحقير المشركين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تحقيراً لهم.

٢٣- شدة اعتداء المشركين، فقد عبدوا مع الله غيره، وصدوا عن سبيل الله، وقاتلوا المؤمنين، ونقضوا العهود وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾. فقد أكد الاعتداء وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل (هم).

٢٤- سعة رحمة الله- عز وجل- ومغفرته وعفوه، حيث رغب المشركين بالتوبة والإسلام مع ما هم عليه من الكفر والشرك وشدة العداوة للمؤمنين وقتالهم، واستبدالهم بآيات الله ثمناً قليلاً وصدهم عن سبيل الله، وسوء عملهم واعتدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

٢٥- أن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الإسلام يهدم ما كان قبله.

٢٦- إذا تاب المشركون وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوة للمؤمنين في الدين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

٢٧- أن من شرط صحة الإسلام إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

أما الصلاة فبالإجماع لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٥].

وقال ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»(١)، وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»(١).

وقال عبدالله بن شقيق: «**لم يجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أمر تركه كفر سوى الصلاة**»(١).

وأما الزكاة فذهب بعض أهل العلم إلى أنها شرط في صحة الإسلام مستدلين بقوله تعالى في الآيتين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وغيرها من الأدلة- كما سبق- ولا شك أن من منع الزكاة فهو على خطر عظيم.

٢٨- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين أركان الإسلام وواجباته، فالصلاة أعظم أركان الإسلام وأعظم العبادات بعد الشهادتين، والزكاة أعظم العبادات بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية.

٢٩- أن المطلوب في أمر الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وأن المطلوب في أمر الزكاة إعطاؤها لمستحقيها من غير تكليفهم البحث عنها أو المطالبة بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٣٠- إثبات الأخوة بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾.

٣١- تفصيل الآيات وبيانها إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

٣٢- أن الذين ينتفعون بتفصيل الآيات وبيانها هم الذين يعلمون علماً يهديهم إلى معرفة الحق والعمل به، وهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

وفي هذا تعريض بالمشركين وجهلهم وعدم علمهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة المؤمنين بإتمام عهد من عاهدوه من المشركين ممن لم ينقصوا المؤمنين شيئاً ولم يظاهروا عليهم أحداً إلى مدتهم، وكذا من عاهدوه منهم عند المسجد الحرام ما داموا مستقيمين على العهد مدة عهدهم- وهذا وذاك فيمن كان عهدهم مقيداً بمدة أكثر من أربعة أشهر- ثم أتبع ذلك بالأمر بقتالهم إن نكثوا أيمانهم وطعنوا في دين الإسلام وتحريض المؤمنين على ذلك في هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾.

النكث: النقض لما أبرم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ [النحل: ٩٢].

قال الشاعر:

وإن حلفتْ لا ينقض النأيُ عهدَها ... وليس لمخضوب البنان يمين[1]

وتطلق الأيمان على العهود؛ لأن العهود غالباً تؤكد بالأيمان.

والمعنى: وإن نقض هؤلاء المشركون عهودهم ومواثيقهم وغدروا، وحنثوا في أيمانهم التي أكدوا بها تلك العهود والمواثيق.

---

(١) انظر: «عيون الأخبار» (٤/ ١١١).

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾، أي: وقدحوا في دينكم دين الإسلام وعابوه وتنقصوه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٤].

والطعن في دين المسلمين من نقض العهد ونكث الأيمان، فعطفه على ما قبله أشبه بعطف الخاص على العام.

والواو في قوله: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بمعنى: «أو» أي: أو طعنوا في دينكم، فيجب قتالهم، إذا ارتكبوا أحد الأمرين أو كليهما.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾، الفاء: واقعة في جواب الشرط ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾؛ لأنه جملة طلبية.

والأمر في قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ للوجوب.

﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو: (أيمة) بتسهيل الهمزة الثانية بين الهمزة والياء، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين: ﴿أَئِمَّةَ﴾.

وقرأ هشام عن ابن عامر وأبوجعفر بمد بين الهمزتين.

و﴿أَئِمَّةَ﴾ جمع إمام، والإمام من يكون قدوة ومثالاً يحتذى به، سواء في الخير، أو في الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال تعالى في أئمة الشر: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

قال لبيد[1]:

..... ولكل قوم سنة وإمامها

فأئمة الكفر الذين بلغوا الغاية فيه، فصاروا قدوة لغيرهم بالكفر والشرك، ونقض العهود، والطعن في الدين، كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف وغيرهم.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٤٣٩).

ولم يقل (فقاتلوهم) بل قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ لزيادة التشنيع عليهم وأنهم كلهم قد بلغوا الغاية في الكفر، وليشمل ذلك أئمة الكفر من قريش وغيرهم.

قال ابن كثير(١): «ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومن طعن في دين الإسلام، أو ذكره بنقص».

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ الجملة تعليل للأمر بقتالهم، قرأ ابن عامر بكسر الهمزة: «إيمان» على أنه مصدر، وقرأ الباقون بفتحها على أنه جمع يمين: ﴿أَيۡمَٰنَ﴾.

فعلى قراءة كسر الهمزة تكون الجملة تعليلاً وتأكيداً لما قبلها، أي: لا إيمان لهم مطلقاً.

وعلى قراءة فتح الهمزة: أي: أنهم لا قيمة لأيمانهم، ولا حقيقة لها؛ لأنها أيمان كاذبة، وعهود فاجرة، يعاهدون وينقضون، ويحلفون ويحنثون.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾، أي: لأجل أن ينتهوا، أي: يرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ونقض العهود، ويدخلوا في دين الإسلام، والآية عامة في كل من نكث العهد وطعن في دين الإسلام من قريش وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة بقتال أئمة الكفر، الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في دين الإسلام؛ لأنهم لا أيمان لهم ولا إيمان، ثم أتبع ذلك بتهييج المسلمين وحضهم على قتالهم في هذه الآيات الثلاث.

قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، ﴿أَلَا﴾ للتحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ﴾ [النور: ٢٢]، أي: للتحضيض على قتال المذكورين،

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ٥٩).

ويجوز أن تكون الهمزة للاستفهام، و«لا»: نافية، والاستفهام على هذا للإنكار، أو لتقرير النفي.

﴿تُقَٰتِلُونَ﴾ المقاتلة المفاعلة من القتل بين فريقين أي: ألا تقاتلون أيها المؤمنون.

﴿قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾، أي: نقضوا عهودهم التي أكدوها بالأيمان والحلف، ولم يفوا بها وهم كفار قريش.

ومن ذلك نقضهم العهد بينهم وبين النبي ﷺ بقتالهم مع حلفائهم بني بكر ضد خزاعة أحلاف الرسول ﷺ.

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾

«ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمد ﷺ الذي هو سيد الرسل وأفضلهم- صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

أي: أرادوا إخراج الرسول محمد ﷺ من بلده مكة، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، وخططوا له حين تشاوروا في دار الندوة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦].

فقد هموا بإخراج الرسول ﷺ وكادوا له بأنواع المكائد واستفزوه بأنواع الأذى حتى اضطروه للخروج- صلوات الله وسلامه عليه- من بلده مكة.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

ووقف ﷺ على «الحَزْوَرَة»(١) مخاطباً موطنه وبلده مكة شرفها الله: «والله لأنت أحب البلاد إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»(٢).

---

(١) الحَزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، من حديث عبدالله بن عدي- =

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ﴿أَوَّلَ﴾ منصوب على المصدرية، وإضافته إلى ﴿مَرَّةٍ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتقدير: مرة أولى، أي: وهم بدؤوكم أولاً بمحاربتهم وقتالهم لكم يوم بدر.

وقيل: بنقض عهدهم والقتال مع حلفائهم بني بكر ضد خزاعة، حلفاء النبي ﷺ وقاتلوا معهم، والبادئ أظلم.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، الهمزة: للاستفهام ومعناه النهي، أي: لا تخشوهم.

ويجوز كون الاستفهام للإنكار، أي: أتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾، الفاء: هي الفصيحة، و(الله): مبتدأ و«أحق»: خبر.

﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ في تأويل مصدر: بدل اشتمال من (الله)، أي: فخشية الله أحق.

ويجوز أن تكون في محل جر بحرف محذوف، أي: فالله أحق بالخشية من غيره.

أي: فالله أوجب أن تخافوه في ترك قتالكم لهم وفي جميع أحوالكم، لعظمته- عز وجل- وشدة نقمته وعقوبته، وكون الخلق والملك له، والتدبير بيده؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِن﴾: شرطية، ﴿كُنتُم﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تخشوهم واخشوني، فمن شرط صحة الإيمان خشية الله وحده؛ لأن الخشية نوع من أنواع العبادة، التي يجب صرفها لله وحده دون غيره، كالرجاء والتوكل والذبح والنذر، ونحو ذلك.

فالمؤمن حقًّا لا يخشى ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو ولا يعتمد إلا على الله، ولا يتعبد بأي عبادة إلا الله عز وجل، كما قال تعالى عن المؤمنين: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

قوله تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

أمر الله- عز وجل- بقتال أئمة الكفر الذين نقضوا أيمانهم، وحض المؤمنين وحرضهم على ذلك، ثم أكد الأمر بقتالهم- مبيناً ما يترتب على قتالهم من منافع، واعداً المؤمنين ومبشراً لهم بنصرهم وإذلال الكافرين.

قوله: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ تأكيد لما سبق من الأمر بقتالهم.

﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، «يعذب»: مجزوم في جواب الأمر، أي: يعذبهم الله بأيديكم بالقتل الجراح والأسر وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ إشارة إلى أنه- عز وجل- قادر على تعذيبهم وإهلاكهم ونصر المؤمنين عليهم بأمر من عنده دون قتال المؤمنين لهم، لكنه- عز وجل- أراد أن يحصل ذلك على أيدي المؤمنين لما في ذلك من المنافع الدينية والدنيوية والأخروية لهم.

﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾، أي: ويذلهم بالهزيمة والقتل والأسر والاسترقاق ونحو ذلك، فيجتمع في حقهم العذاب الحسي والعذاب المعنوي.

﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: ويجعل لكم الغلبة والظهور عليهم.

﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾، شفاء الصدور: معافاتها مما فيها من ألم.

أي: ويعافِ بقتالكم هؤلاء الكفار وتعذيبهم بأيديكم وإذلالهم ونصركم عليهم صدور قوم مؤمنين، ممن شهد القتال وممن لم يشهده- مما فيها من الألم والغم والهم ونحو ذلك.

وقد قيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ المؤمنون من خزاعة حلفاء الرسول ﷺ وقيل غيرهم. والعموم أولى.

قوله تعالى: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

قوله: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها للتأكيد، والغيظ: الحنق والغضب الشديد، أي: ويزل ما في قلوب المؤمنين من الحنق والغضب الشديد.

والمعنى: ويشف صدور قوم مؤمنين مما فيها من الألم والهم والغم ويزل ما في قلوبهم من الغيظ والحنق والغضب الشديد بسبب محاربة هؤلاء الكفار لله ورسوله، وبسبب ما نال المؤمنين منهم من المكروه والأذى؛ من نكث العهود والطعن في الإسلام

وإخراج الرسول والبدء بقتال المؤمنين وغير ذلك.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، أي: ويتوب الله على من يشاء من هؤلاء الكفار، فيحصل للمؤمنين أجر هدايتهم على أيديهم.

وتوبة الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: توفيقه عبده للتوبة.

والثاني: قبولها منه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: ثم وفقهم للتوبة ليتوبوا فيقبلها منهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

والتوبة من العبد الرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة.

وقد تاب الله على نفر منهم كأبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهما، وغيرهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، له الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو- عز وجل- حاكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ومحكم متقن في خلقه وأمره ونهيه وشرعه.

وفي اجتماع تمام العلم والحكم والحكمة في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- المؤمنين- في الآيات السابقة بقتال الكفار وحرضهم على ذلك، ثم ذكر في هذه الآية أن من الحكمة في شرعه الجهاد الابتلاء والامتحان ليتبين الصادق من غيره.

قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾، ﴿ أَمْ ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسبتم، أي: بل أظننتم، والخطاب للمسلمين.

﴿أَن تُتْرَكُوا ﴾، ﴿أَن ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حسب».

والمعنى: أظننتم أن تتركوا دون أن تؤمروا بالجهاد، كما قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من ضمير ﴿تُتْرَكُوا ﴾، أي: والحال أنه لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، أي: ولما يظهر في علمه- عز وجل- الذين جاهدوا منكم ظهوراً يترتب عليه الجزاء؛ لأنه- عز وجل- علم أزلاً وأبداً من سيجاهد منهم، لكنه إنما يجازي الخلق على أفعالهم وما يظهر منهم، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومعنى ﴿جَاهَدُوا ﴾، أي: بذلوا جهدهم وما يستطيعون في القتال في سبيل الله.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ الجملة معطوفة على جملة الحال قبلها، أي: ويعلم الذين لم يتخذوا، أي: لم يجعلوا ﴿مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، أي: دخيلة وبطانة في الخفاء، وأولياء من الكفار يفضون إليهم بأسرار المسلمين.

ومفهوم هذا أنهم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله وللمسلمين.

والمعنى: ولما يعلم الله المتصفين بما ذكر ممن هم على ضد ذلك ممن لم يجاهدوا واتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة، أي: اتخذوا الكافرين أولياء، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، إيثاراً لعدم ذكره لحقارته وسوئه.

فشرع الله- عز وجل- القتال والجهاد وأوجبه على المؤمنين، ليعذب عز وجل الكفار على أيدي المؤمنين، ويذلهم وينصر المؤمنين عليهم، ويشفيَ صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء، وليبتلي المؤمنين، ليظهر في علمه- عز وجل- الذين جاهدوا، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين أولياء من الكفار ممن كانوا بخلاف ذلك.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: والله ذو خبرة واطلاع وعلم واسع بالذي تعملونه، أو بعملكم.

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فهو أخص من «العليم»؛ ولهذا فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

وفي ختام الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد لمن اتقى وامتثل أوامر الله عز وجل، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأن مقتضى خبرته- عز وجل- بأعمالهم أن يحاسبهم ويجازيهم عليها.

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة والإيماء إلى توقع نقض المشركين عهدهم مع المؤمنين وطعنهم في دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾.

٢- وجوب قتال الكفار إذا نقضوا عهدهم مع المؤمنين، وطعنوا في دين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

٣- كفر من طعن في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

٤- أن الكفار لا مراعاة ولا احترام عندهم للأيمان والعهود؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ وفي هذا ذم لهم، وليس بعد الكفر ذنب.

٥- أن الحكمة من قتال الكفار لأجل أن ينتهوا عما هم عليه من الكفر، وأذية المؤمنين وقتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

٦- تهييج المؤمنين وتحريضهم على قتال الكفار؛ لنقضهم الأيمان، وهمهم بإخراج الرسول ﷺ، وابتدائهم بقتال المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٧- وجوب خشية الله- عز وجل- وخوفه وتعظيمه وحده، والنهي عن خشية من سواه من الكفار وغيرهم، وأن ذلك من شرط الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٨- تأكيد الأمر بقتال الكفار مع بيان ما يترتب على ذلك من المصالح والمنافع من تعذيب الكفار بأيدي المؤمنين وإذلالهم، ونصر المؤمنين عليهم، وشفاء صدور المؤمنين، وإذهاب غيظ قلوبهم، وتوبة الله على من شاء من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

٩- الإشارة إلى قدرته- عز وجل- على تعذيب الكافرين بلا قتال من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ الآية.

١٠- وعد الله- عز وجل- وبشارته للمؤمنين بنصرهم وهزيمة الكافرين وإذلالهم.

١١- عناية الله- عز وجل- بالمؤمنين ومحبته لهم حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية للقتال شفاء ما في صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم.

١٢- إثبات صفة التوبة لله- عز وجل- بقسميها: توفيقه من يشاء للتوبة، وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

١٣- سعة عفو الله- عز وجل- ورحمته وفضله حيث يوفق من شاء من هؤلاء الكفار، الناكثين للأيمان، الطاعنين في الإسلام، المقاتلين لأهله للتوبة ويقبلها منهم.

١٤- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي اقتران هذه الصفات في حقه- عز وجل- زيادة كماله إلى كمال.

١٥- أن الله لم يخلق الخلق سدى ولم يتركهم هملاً خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾ الآية.

١٦- أن من حكمة الله- عز وجل- في مشروعية الجهاد الابتلاء والامتحان؛ ليعلم الله الذين جاهدوا، ونصحوا لله ولرسوله وللمؤمنين من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

١٧- أن الله- عز وجل- لا يحاسب الناس ويجازيهم على ما سبق في علمه بهم في الأزل وإنما يحاسبهم على ما يظهر من أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآية.

١٨- الترغيب في الجهاد والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين، والتحذير من ترك الجهاد واتخاذ بطانة وأولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين.

١٩- إثبات خبرة الله- عز وجل- واطلاعه التام وعلمه الواسع بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن اتقى الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه؛ لأن مقتضى خبرته- عز وجل- وعلمه بأعمالهم محاسبتهم ومجازاتهم عليها خيرها وشرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ ﴾.

قرأ أبوعمرو ويعقوب وابن كثير: «مسجد الله» بالإفراد، أي: المسجد الحرام.

وقرأ الباقون بالجمع: ﴿مَسَٰجِدَ ﴾ على أن المراد به المسجد الحرام وسائر المساجد.

واتفقوا جميعاً على القراءة بالجمع في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾.

و﴿ مَا ﴾ في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ نافية، وجملة ﴿أَن يَعْمُرُوا ﴾ في محل رفع اسم كان، أي: ما كان للمشركين عمارة مساجد الله، أي: عمارتها بالعبادة.

﴿شَٰهِدِينَ ﴾ حال من ضمير «يعمروا»، أي: مقرين ومعترفين على أنفسهم بالكفر، بأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم.

أي: ليس المشركون بأهل لعمارة مساجد الله بالعبادة، لكفرهم بالله، وشهادتهم على أنفسهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ومساجد الله إنما بنيت وأسست على اسمه- عز وجل- وحده لا شريك له، وتقواه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨].

وهذه الآية- والله أعلم- توطئة وتمهيد لمنع المشركين من دخول المسجد الحرام في

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

ومعنى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾، أي: بطلت أعمالهم بسبب شركهم وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾، أي: وفي النار هم مقيمون إقامة أبدية، لا يتحولون عنها؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن: ٢٣].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يكون للمشركين عمارة مساجد الله مع ما هم عليه من الكفر، ثم بيَّن أنه إنما يعمر مساجد الله حقًّا المؤمنون الموصوفون بالصفات المذكورة في هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿إِنَّمَا ﴾ كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما يعمر مساجد الله بالعبادة فيها وتعظيمها إلا ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، «مَن» موصولة، أي: الذي صدق بالله واليوم الآخر.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث بعد الموت والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

وكثيراً ما يقرن عز وجل بين الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر فيه الحساب والجزاء على الأعمال، فالإيمان به من أعظم ما يحمل ويدفع للعمل الصالح.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: أتبع الإيمان بالعمل الصالح، فجمع بين الإيمان بالاعتقاد الصحيح في الباطن، وبين الإسلام بالعمل الظاهر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، أي: وأقام الصلوات الخمس، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: أعطاها لمستحقيها.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: ولم يخف إلا الله، والخشية: شدة الخوف، فهي أخص منه؛ لأنها تدل على عظم المخشي، وعلم الخاشي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد بدأ بعمل الباطن وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، وختم به بقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لأن الإيمان وعمل الباطن هو الأصل لقبول العمل وصلاحه، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]، يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة وكل ﴿عَسَىٰٓ﴾ في القرآن، فهي واجبة»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٦-٣٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٦).

وقال محمد بن إسحاق: «و﴿عَسَىٰٓ﴾ من الله حق»(١).

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للموصوفين بما في الآية من الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم خشية غير الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم.

أي: فعسى الموصوفين بما ذكر أن يكونوا من ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: من المتصفين بالاهتداء المطلق، لا مطلق الاهتداء.

ولهذا قال: ﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، ولم يقل: (مهتدين).

وفي هذا حث للمؤمنين على الاستزادة من الاهتداء بالعلم النافع والعمل الصالح مع ترجيح جانب الخوف وعدم الاغترار، كما أن فيه قطعاً لأطماع الكفار وإبطالاً لزعمهم أنهم عمار المسجد الحرام وأولياؤه.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: «كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة- ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله- عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾»(٢).

وقد روي أيضاً أن المشركين كانوا يفخرون بالحرم، وأنهم أهله وعمّاره، وسقاة الحاج، فأنزل الله هذه الآيات تبين لهم أن ذلك لا ينفعهم ولا يستوي مع الإيمان بالله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الشهادة في سبيل الله (١٨٧٩)، وأحمد (٤/ ٢٦٩)، والطبري في «جامع البيان» (١١/ ٣٧٧-٣٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٧)، والواحدي في «أسباب النزول» ص(١٦٣).

والهجرة والجهاد في سبيله[١].

قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، والخطاب لمشركي مكة، و﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ سقي حجاج بيت الله الحرام من ماء زمزم، وكانت لبني هاشم، وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبدالمطلب.

﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ببنائه والقيام على إصلاحه، وعلى حراسته وهو السدانة والحجابة، وكانت لبني عبدالدار بن قصي، وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة.

﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، الكاف: للتشبيه، بمعنى: «مثل» و«من»: موصولة، أي: مثل الذي آمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: بَذَل جهده وطاقته في القتال؛ لإعلاء كلمة الله.

﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، وفي منازلهما عنده عز وجل، فسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام والقيام على مصالحه وسدانته- وإن كانت عملاً محموداً- لكن ذلك لا ينفع مع الشرك بالله وعدم الإيمان، فلا يستوي من هذه حاله مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله.

وأيضاً: لا يستوي عند الله من آمن وسقى الحاج وعمر المسجد الحرام بالعبادة؛ بالطواف والصلاة والاعتكاف ونحو ذلك مع من آمن بالله وجاهد في سبيله- فمن آمن وجاهد أفضل وأعظم درجة عند الله.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا يناسب القول بأن المراد بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من المشركين، وأن ذلك لا يجدي ولا ينفع مع عدم الإيمان.

وهداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية البيان والدلالة والإرشاد، وبها أقام الله- عز وجل- الحجة على الناس بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى:

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٣٧٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٧٦٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(١٦٤)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٣-٦٥).

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

وهذه الهداية عامة، فالله- عز وجل- هاد بمعنى دال ومرشد لعباده، والرسل والدعاة هداة إلى الله- عز وجل- بهذا المعنى.

والقسم الثاني: هداية التوفيق، وهذه خاصة بالله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وهي المرادة بقوله هنا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: لا يوفقهم.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ جمع ظالم، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وهو النقص، كما قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بالتعريف يدل على أنهم بلغوا الغاية في الظلم، كيف وقد أشركوا بالله، والشرك أعظم الذنوب، وأظلم الظلم، كما قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله، وهو عبادته- عز وجل- أعظم الحقوق وأوضحها وأبينها، خلق ورزق، وأنعم على العباد بسائر النعم، فصرْفُ حقه لغيره أعظم الظلم، وهو الحنث العظيم.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

نفى عز وجل في الآية السابقة أن يستوي عند الله سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ثم أتبع ذلك ببيان فضل الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله وعظم منزلتهم عند الله، وما لهم من الفوز والبشرى بالرحمة والرضوان والجنات، وما فيها من النعيم المقيم والخلود والأجر العظيم.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله وبكل ما يجب الإيمان به، وانقادوا بجوارحهم.

﴿وَهَاجَرُوا۟ ﴾، أي: وهاجروا من مكة إلى المدينة، فراراً بدينهم ونصرة لله ورسوله.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، أي: بذلوا جهدهم وطاقتهم في الجهاد والقتال؛ لإعلاء كلمة الله، قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ بالإنفاق في الجهاد وتجهيز الغزاة.

﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾ بالخروج للجهاد بأنفسهم.

وقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس لأهمية الجهاد بالأموال؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على الجهاد بالمال(٢).

﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: أرفع منزلة عند الله من أهل السقاية والعمارة؛ حتى لو كانوا مؤمنين، فكيف إذا كانوا غير مؤمنين.

والمفاضلة قد تجري بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة، كما قال تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤]، أي: خير مستقراً وأحسن مقيلاً من أهل النار علماً أن النار ليس فيها خير ولا حسن البتة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيماً لشأنهم، وأكد الفوز وحصره فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، و بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾.

والفوز: الحصول على المطلوب والنجاة من المرهوب، أي: الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار.

قوله تعالىٰ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾.

هذا تفسير وبيان لما لهم عند الله من عظيم المنزلة والفوز.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) راجع الكلام على قوله تعالى- في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٧٢].

قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾، البشارة: الإخبار بما يسر القلب ويبهج النفس، أي: يخبرهم ربهم بما يسرهم، وسمى الخبر السار بشارة وبشرى أخذاً من بشرة الإنسان؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت واستنارت بشرته. وفي حديث كعب بن مالك- رضي الله عنه- قال: «وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(١).

وكون هذه البشارة من ربهم خالقهم ومالكهم ومربيهم بسائر النعم يدل على عناية الله- عز وجل- بهم، وعلى عظم هذه البشارة، فلا يقدر قدرها إلا من بشرهم بها وهو الرب الجواد الكريم- سبحانه وتعالى.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

نكَّر «رحمة»، و«رضوان»، و«جنات»: و«نعيم»: للتعظيم، وأكد تعظيمها بقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ وهو الجواد الكريم سبحانه.

والمراد بقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ رحمته الخاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿وَرِضْوَانٍ﴾ على وزن «فعلان» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: ورضا كامل منه- عز وجل- عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨].

وفي الحديث القدسي: «**أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم**

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»(١).

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ «جنات»: جمع جنة، سميت بذلك لأنها تجن من بداخلها بكثرة أشجارها وغصونها وأوراقها وثمارها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ١٦].

وجمعت باعتبار أنواعها ومراتبها وأنواع النعيم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، وكان قُتِل يوم بدر أصابه سهم غرب(٢)، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(٣).

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»(٤).

﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، قدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ للتأكيد، وبيان اختصاصهم بذلك، أي: لهم دون غيرهم.

﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنات.

﴿نَعِيمٌ﴾ نكرة يعم جميع أنواع النعيم، أي: ولهم فيها أنواع النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ، من المآكل والمشارب والمساكن والفرش والأزواج، ولهم فيها أنواع التنعم والسرور والبهجة وقرة العين، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) «سهم غرب» أي: سهم طائش، لا يدرى من أين أتى، ومن الذي رمى به.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، والترمذي في التفسير (٣١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿مُّقِيمٌ﴾ دائم مستمر، لا ينقطع أبداً، ولهذا قال بعده:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ حال، أي: حال كونهم خالدين في هذه الجنات، خلوداً أبديًّا لا يحول ولا يزول؛ لأن الجنات لا تفنى، ولا يفنى أهلها ولا نعيمها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أي: إن الله عنده ثواب عظيم، مما ذكر ومما لم يذكر، عظيم كمًّا، وكيفاً، لا يدرك عظمته إلا من هو عنده ومِنْهُ، وهو العظيم- سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

ويَعْظُم هذا الأجر بكونه عند الله ومنه، أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، الغني الحميد.

وقد سمى عز وجل ثوابهم أجراً؛ لأنه- عز وجل- تكفَّل به وأوجبه على نفسه تكرماً منه- سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الفوائد والأحكام:

١- نفي أن يكون المشركون عمار مساجد الله وهم على ما هم عليه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾.

٢- تحقير المشركين والكفار، وبيان حبوط أعمالهم- ولو كانت مما يثاب عليه المؤمنون- وخلودهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

٣- أن النار لا تفنى، ولا يفنى أهلها، ولا عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، أي: خلوداً أبديًّا وعلى هذا دل القرآن الكريم في مواضع عدة.

٤- بيان أنه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٥- أن الأهم في عمارة المساجد عمارتها معنويًّا بالإيمان بالله والصلاة فيها والعبادة.

٦- أن أعظم أركان الإيمان هو الإيمان بالله، بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

٧- أن من أعظم وأهم أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

٨- لا يستقيم الإيمان بلا عمل، إذ لابد من الجمع بين الإيمان في الباطن وبين الإسلام بالعمل الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٩- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، فهي عمود الإسلام وأعظم أركانه بعد الشهادتين وأعظم العبادات، لهذا قدمت في الذكر، وخصت من بين العبادات البدنية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٠- أن المقصود من الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١١- أن الزكاة قرينة الصلاة، وهي أعظم العبادات المالية وأعظم العبادات بعد الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٢- وجوب دفع الزكاة لمستحقيها، وعدم تكليفهم طلبها والبحث عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٣- وجوب خشية الله- عز وجل- وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

١٤- أهمية صلاح الباطن، لهذا بدأ به بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وختم

به بقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

١٥- وعد الله- عز وجل- بتحقيق الهداية لمن آمن به واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

١٦- أن على الإنسان أن يجتهد بالقيام بشرائع الإيمان والإسلام، ويسأل الله الهداية والتوفيق، ويرجو ثواب الله، ويخشى عقابه، ولا يُدِل على الله بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

١٧- لا يستوي عند الله من قام بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بالقيام عليه وحراسته ونحو ذلك مع الشرك بالله، مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾.

١٨- لا يستوي من آمن وقام بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بالعبادة فيه مع من آمن وجاهد في سبيل الله، فهؤلاء أعظم درجة عند الله ولهم من الفضل والنعيم ما ليس لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية.

١٩- نفي هداية الله وتوفيقه عن القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومفهوم هذا إثبات هدايته- وتوفيقه لغير الظالمين.

٢٠- عظم ما أعد الله- عز وجل- للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم من الدرجات، وما خصهم به من الفوز والبشارة بالرحمة والرضوان والجنات وما فيها من النعيم المقيم والخلود الأبدي، والأجر العظيم عنده، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٢١- فضل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٢٢- أن الإيمان أصل وأساس لقبول جميع الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية.

٢٣- فضل الهجرة على الجهاد لتقديمها عليه في الآية.

٢٤- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله.

٢٥- أن الجهاد بالأموال أهم من الجهاد بالأنفس؛ لتقديم الجهاد بالأموال في الآية على الجهاد بالأنفس- وهو الغالب في القرآن الكريم.

٢٦- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾.

٢٧- إثبات صفة الرحمة والرضا لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾.

٢٨- إثبات أبدية الجنة ونعيمها وأهلها، وأنها لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، وأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

٢٩- عظم ما عند الله من الأجر والثواب مما لا يقدر قدره سواه- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٣٠- الترغيب في المسابقة في الطاعات والعمل الصالح لنيل ما عند الله من الأجر العظيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: لا تجعلوا أباءكم وإخوانكم أولياء؛ توالونهم وتوادونهم، وتثقون فيهم، وتفشون إليهم أسراركم، وتقدمون طاعتهم ومحبتهم على طاعة ومحبة الله ورسوله.

﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾، «إن»: شرطية، ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه النهي السابق. والسين والتاء في «استحبوا»: للمبالغة والتأكيد.

أي: إن أحبوا الكفر ورضوه، واختاروه على الإيمان، واستمروا عليه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وإذا كان هذا النهي في حق الآباء والإخوان الذين هم أقرب الناس؛ فغيرهم من باب أولى.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾، الواو: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وأصله: «يتولاهم»؛ والمعنى: ومن يجعلهم أولياء.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، والإشارة تعود إلى فاعل «يتولهم»، أي: ومن يتولهم فهو من الظالمين الذين وضعوا الموالاة في غير موضعها، وتجاوزوا ما أمر الله به.

وقد أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، وبيانًا لإغراقهم في الظلم.

ويجوز عود الإشارة إلى ضمير النصب في «يتولهم»، أي: ومن يتولهم فقد تولى الظالمين المشركين والأول أولى وأظهر.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

نهى عزّ وجل في الآية السابقة عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، وبين أن من فعل ذلك فهو من الظالمين، ثم أتبع ذلك بالوعيد لمن فعل ذلك.

قوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾، ومثلهم الأمهات.

﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾؛ في النسب.

﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾؛ قرأ أبو بكر عن عاصم بالألف على الجمع: «وعشيراتكم». وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾.

والعشيرة: الأقارب الأدنون، أو القبيلة، أي: أقاربكم الأدنون، أو قبيلتكم عمومًا.

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾، أي: اكتسبتموها وحصّلتموها.

وفي قوله: ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ إشارة إلى شدة حرصهم عليها؛ لأنهم تعبوا في تحصيلها، بخلاف من تأتيه الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾، أي: تخافون عدم رواجها ورخصها ونقصها؛ بسبب مقاطعة طوائف من المشركين في التعامل معهم، أو الانقطاع عن الاتجار أيام الجهاد أو غير ذلك.

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾، أي: ومنازل تحبونها؛ لطيبها وحسنها، وتعجبكم الإقامة فيها.

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ خبر «كان».

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: من الله عزّ وجل، المنعم عليكم بكل ما ذكر وغيره، والذي يجب تقديم محبته على كل شيء؛ لأنه الذي خلق ورزق، وأنعم على الخلق بسائر النعم، وهداهم إلى الصراط المستقيم.

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على لفظ الجلالة «الله»، أي: أحب إليكم من الله ومن رسوله، فمحبته ﷺ تأتي بعد محبة الله عز وجل.

فيجب تقديم محبته ﷺ على محبة جميع الخلق؛ لأن ما أتانا من الفضل العظيم الذي خص الله تعالى به هذه الأمة إنما جاءنا من طريقه ﷺ، وكل طريق للسعادة في الدنيا والآخرة مسدود إلا من طريقه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة:٢-٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأحب إليكم من جهاد في سبيله. والجهاد في سبيله: بذل الجهد بالمال والنفس؛ لإعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾، أي: فانتظروا. والتربص: الانتظار، وأكثر ما يكون في انتظار الشر والوعيد، وهو المراد هنا، أي: فانتظروا:

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: إلى غاية أن يأتي الله بأمره الكوني وقضائه القدري بعقابكم عاجلًا أو آجلًا، فيظهر لكم سوء عاقبة إيثار محبة ما ذكر على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾؛ أظهر مقام الإضمار، فلم يقل: «لا يهديكم»؛

للتسجيل عليهم بوصف الفسق، وليعمهم هذا الحكم وغيرهم من الفاسقين.

والهداية المنفية عنهم هي هداية التوفيق، أي: والله لا يوفق الفاسقين الخارجين عن طاعته عزّ وجل.

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام والتنبيه بتصدير الخطاب بالنداء؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده- أمرًا كان أو نهيًا- من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٣- تحريم موالاة الآباء والإخوان وغيرهم من الأقارب إن اختاروا الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾.

٤- تحريم موالاة الكافرين عمومًا؛ لأنه إذا حرم اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء فحرمة موالاة غيرهم من الكافرين من باب أولى.

٥- وجوب موالاة المؤمنين عمومًا؛ لمفهوم النهي عن موالاة من استحبوا الكفر على الإيمان.

٦- التحذير من موالاة الكافرين من الأقارب وغيرهم، وأن من فعل ذلك فهو من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

٧- وجوب تقديم محبة الله تعالى ورسوله، والجهاد في سبيله ونصرة دينه؛ على كل محبوب؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ الآية.

٨- وجوب تقديم محبة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، فقدم محبته عز وجل.

٩- وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة كل مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا- والّذي نفسي بيده- حتّى أكون أحبّ إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنه الآن- والله- أنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(١).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين**»(٢).

١٠- وجوب تقديم محبة الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه على محبوبات الدنيا؛ من محبة الأقارب، والأموال، والتجارة، والمساكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

١١- الوعيد لمن قدم محبة ما ذكر من المحبوبات الدنيوية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

١٢- نفي هدايته عز وجل عن الفاسقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

١٣- أن من قدم محبة ما ذكر على محبة الله تعالى ورسوله وجهاد في سبيله؛ فهو من الفاسقين؛ بدليل الاظهار بدل الإضمار، فلم يقل: «والله لا يهديهم»، بل قال: ﴿لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فدل على أنهم من الفاسقين.

١٤- أن مما يُحب طبيعة ما ذكر من الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن، لكن لا ينبغي تقديم ذلك ولا غيره من أمور الدنيا على محبة الله ورسوله والقيام بأمره.

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، كيف كان يمين النبي ﷺ (٦٦٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان- حب رسول الله ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان- بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧).

١٥- التحذير من الافتتان بالدنيا ومحبوباتها- أيًّا كانت- وإيثارها على مرضاة الله تعالى، والانشغال بها عن طاعته وما يقرب إليه من الأعمال الصالحة، مما به سعادة المرء في دنياه وأخراه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزّرع، وتركتم الجهاد؛ سلّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتّى ترجعوا إلى دينكم**»(١).

* * *

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، النهي عن العينة (٣٤٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٢).

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر. و«قد»: حرف تحقيق.

﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أظفركم بعدوكم، وجعل الغلبة لكم؛ بتأييده وتقديره وعونه لكم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ «مواطن»: جمع «موطن»، أي: مواقع ومواقف، أي: لقد نصركم الله في مواقف ومواقع حروب كثيرة في غزواتكم مع النبي ﷺ؛ كغزوة بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة، وغيرها.

وقد بلغت غزواته ﷺ تسع عشرة غزوة؛ كما جاء في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه(١)، وبلغت بعوثه وسراياه أكثر من سبعين بعثًا وسرية.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ونصركم يوم حنين، أي: يوم غزوة حنين.

و«حنين»: اسم للمكان الذي وقعت فيه الغزوة، وهو واد بين مكة والطائف قرب ذي المجاز.

كما تسمى هذه الغزوة غزوة أوطاس، وهو أيضًا: اسم لمكان المعركة، وتسمى

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٤٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢٥٤).

غزوة هوازن؛ لأنهم هم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ وقاتلوه في هذا المكان، وكانت غزوة حنين في سنة ثمان من الهجرة، بعد فتح مكة، وكان المسلمون اثني عشر ألفًا.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، أي: حين أعجبتكم كثرتكم، حيث قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فاغتروا بكثرتهم، واعتمدوا عليها.

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾، أي: فلم تنفعكم، ولم تفدكم شيئًا؛ لا قليلًا ولا كثيرًا، ولم تدفع عنكم.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، الباء للملابسة والمصاحبة. و«ما» مصدرية.

أي: وضاقت عليكم الأرض مع رحبها وسعتها، وكونها لا ضيق فيها.

أي: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها؛ ضيقًا حسيًّا لمفاجأة العدو لكم وتتبعه إياكم، وضيقًا معنويًا بسبب شدة الخوف والقلق؛ كما قال تعالى في خبر الثلاثة الذين خلفوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة:١١٨].

قال الشاعر:

كَأَنَّ فِجَاجَ الأَرْضِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... عَلَى الخَائِفِ المَذْعُورِ كفّةُ حَابِلِ[1]

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾؛ «مدبرين» حال مؤكدة، أي: ثم فررتم ووليتم عدوكم الأدبار منهزمين. وكان هذا في أول الأمر، حيث كمنت لهم هوازن في بطن الوادي، وكانت الواقعة في أول النهار في غلس الصبح، فلما انحدر المسلمون من الوادي لم يشعروا إلا وقد واثبوهم ورشقوهم بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد، فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين- كما قال الله عز وجل- وثبت رسول الله ﷺ ومعه قريب من مائة من أصحابه؛ منهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان، بن الحارث، وغيرهم رضي الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

(١) البيت للطرماح. انظر: «التذكرة الحمدونية» (٥/ ٤٣٠).

وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: ثم لما حصل للمؤمنين ما حصل من الهزيمة بسبب اغترارهم بكثرتهم، وتبين لهم أن ذلك لم يغن عنهم شيئًا؛ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين؛ ليعلموا أن النصر من عند الله تعالى وحده وبإمداده، لا بالكثرة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

و«السكينة»: الثبات والطمأنينة يجعلها الله تعالى في قلوب عباده وقت القلاقل وشدة المخاوف، أي: فأنزل الله طمأنينة وثباته ونصره وتأييده على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، فأمر رسول الله ﷺ العباس أن ينادي في الناس بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب البقرة. فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك. وانعطف الناس وتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعد ما دعا ربه واستنصره، فقال: «**اللّهمّ أنجز لي ما وعدتّني**». ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ قال: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول: «**أنا النّبيّ لا كذبْ، أنا ابن عبد المطّلبْ**»(٢).

﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ من الملائكة؛ يعينون المسلمين، ويثبتونهم، ويبشرونهم بالنصر.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٧-٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، من قاد دابة غيره في الحرب (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير، غزوة حنين (١٧٧٦)، والترمذي في الجهاد (١٦٨٨).

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقتل والأسر والسبي.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: وذلك العذاب عقوبة الكافرين في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من بعد تعذيب الذين كفروا؛ بالقتل، والأسر، والسبي.

وتوبة الله تعالى على العبد: توفيقه للتوبة، وقبولها منه؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨]، أي: وفقهم للتوبة؛ ليتوبوا، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ المشيئة بمعنى: الإرادة الكونية، أي: على من يريد هدايته إلى الإيمان؛ من هوازن الذين قاتلوا رسول الله ﷺ في حنين، وغيرهم، فيوفقهم للتوبة والإيمان، ويقبل ذلك منهم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: والله ذو المغفرة الواسعة لمن تاب وأناب إليه، مهما عظمت ذنوبه وكثرت، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧].

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية، وقرن المغفرة بالرحمة؛ لأن الرحمة هي سبب المغفرة.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير المؤمنين والامتنان عليهم بنصر الله تعالى لهم على أعدائهم في كثير من غزواتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، وهو نصر للأمة أجمع.

٢- تأكيد الأخبار في القرآن الكريم بالقسم وغيره من المؤكدات، كما كان عليه

العرب في نقلهم الأخبار؛ لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

٣- تذكير المؤمنين والامتنان عليهم بنصر الله تعالى لهم يوم حنين خاصة، بعد أن أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، وولوا مدبرين؛ ليعلموا أن النصر من عند الله عز وجل وحده، لا بكثرة العدد والعدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ الآية.

٤- يجب الاعتماد على الله تعالى والاستعانة به؛ وعدم الاعتماد على الأسباب المادية فقط، من كثرة العدد والعدة ونحو ذلك؛ فإنها لا تكفي، بل ذلك سبب للهزيمة، كما أن ترك فعل الأسباب المادية لا ينبغي، بل يجب الجمع بين الأمرين.

٥- أن العبرة بالكيف لا بالكم، فلا يغتر في القتال بكثرة العدد والعدة، و﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

ولا يغتر بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على غير هدى؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦].

ولا يستوي الخبيث والطيب مهما كثر الخبيث؛ كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة:١٠٠].

٦- تصوير ما حصل للمؤمنين في حنين من الكرب، حيث ضاقت عليهم الأرض مع سعتها، واشتد بهم الخوف والقلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾.

٧- أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية.

٨- إمداد الله تعالى المؤمنين يوم حنين بالملائكة، وأنهم في الغالب لا يشاهدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٩- تعذيب الذين كفروا في حنين بالقتل والأسر والسبي؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

١٠- أن ما أوقعه الله عز وجل من تعذيب الكفار يوم حنين بالهزيمة والقتل والأسر والسبي؛ مجازاة لهم على كفرهم وقتالهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ولمن لم يتب منهم في الأخرة عذاب أليم.

١١- سعة عفو الله عز وجل ومغفرته ورحمته، حيث تاب على من شاء من الكفار الذين قاتلوا رسول الله ﷺ من هوازن، ويتوب على من يشاء من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

١٢- إثبات المشيئة لله تعالى، وصفتي المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

نفى- عز وجل- في الآيات السابقة أن يكون المشركون أهلاً لعمارة المسجد الحرام مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر؛ توطئة وتمهيداً للنهي عن قربهم المسجد الحرام، وهو ما ذكره الله عز وجل في هذه الآية.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ النداء والخطاب للمؤمنين حال نزول الآية، ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾، ﴿إِنَّمَا ﴾ كافة ومكفوفة، تفيد الحصر، أي: ما المشركون إلا نجس، والنجس يطلق على النجس حسيًّا؛ كالغائط والبول والدم المسفوح والخنزير والميتة ونحو ذلك.

ويطلق على النجس معنوياً كالشرك والمعاصي ونحو ذلك. وهو المراد هنا فنجاسة المشركين نجاسة معنوية، وهي صفة ملازمة لهم، وهي أشد من النجاسة الحسية؛ لأن النجاسة الحسية يزيلها الماء والتراب ونحو ذلك، وأما النجاسة المعنوية، وهي نجاسة العقائد والأعمال فلا يزيلها إلا التوبة والإيمان، ولهذا فإن المؤمن طاهر لا ينجس، كما قال ﷺ: «**إن المؤمن لا ينجس**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل- عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس (٢٨٥)، ومسلم في الحيض (٢٧١)، وأبوداود في الطهارة (٢٣١)، والترمذي في الطهارة (١٢١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد قيل: المراد بالنجس في الآية ما يشمل النجاسة المعنوية والحسية أيضاً؛ لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، ومن الحدث الأكبر والأصغر.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، الفاء: للتفريع، و«لا»: ناهية، والنهي للمؤمنين بأن لا يَدَعوا المشركين يقربون المسجد الحرام، وظاهره نهي المشركين عن قرب المسجد الحرام مبالغة في نهي المؤمنين من تمكينهم من ذلك.

وقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟﴾ أبلغ من «فلا يدخلوا»، أي: فلا يمكنوا من الاقتراب من المسجد الحرام؛ احتراماً وتكريماً له من رجسهم؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كما قال ﷺ(١).

والمراد بالمسجد الحرام ما يشمل الحرم كله. كما ينبغي منعهم من دخول سائر المساجد.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، وهو العام الذي نزلت فيه هذه الآيات سنة تسع من الهجرة، فلا يجوز أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام، لا لحج ولا لعمرة، ولا لغير ذلك؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًّا بهذه الآيات مع أبي بكر- رضي الله عنهما- وأمر عليًّا في نفر من الصحابة أن ينادوا في الناس: «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(٢).

قال ابن كثير(٣): «فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً».

وإنما أضيف العام إليهم في قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ﴾؛ لأن هذا الحكم الخطير المبلغ لهم فيه وهو المنع من قرب المسجد الحرام يتعلق بهم خاصة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، الواو عاطفة.

و«إن»: شرطية، ﴿خِفْتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

---

(١) هذا جزء من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه- الذي فيه: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله» وقد سبق تخريجه قريباً.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تفسيره» (٤/ ٧٣).

و«العيلة» الفقر، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣﴾ [النساء: ٣]، أي: ألا تفتقروا.

والمعنى: وإن خفتم أيها المؤمنين فقراً بسبب منع المشركين من قرب المسجد الحرام، بانقطاع ما قد يحصل منهم من نفقات وهدايا وتجارة في المواسم.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«سوف».

وهذا وعد من الله- عز وجل- بأن يغني المؤمنين مما عنده من الفضل والزيادة.

وقد أنجز عز وجل وعده، وأغنى المسلمين من فضله بما أوجب على المشركين من الجزية، وبما بسط من الأرزاق للمسلمين، وأدرَّ لهم من الخيرات ورزقهم من الثمرات حيث دخل أهل كثير من البلاد في الإسلام وأخذوا يؤمون البيت للحج والعمرة والاعتكاف والعبادة، ولطلب التجارة، فصارت تجبى إلى الحرم الثمرات والأرزاق من كل حدب وصوب، من اليمن ومصر والشام والهند، وغير ذلك؛ تحقيقاً لوعد الله- عز وجل- واستجابة لدعاء خليله عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿إِن شَآءَ﴾، أي: إن أراد، والمشيئة: هي الإرادة الكونية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع، وذو حكم تام، وحكمة بالغة، ومن علمه- عز وجل- وحكمه وحكمته أن نهى عن قرب المشركين المسجد الحرام، وعلم ما قد يخطر في نفوس المؤمنين من خوف العيلة والفقر فوعدهم بأن يغنيهم من فضله إن شاء فوفى عز وجل لهم بما وعدهم، وصب عليهم الأرزاق صبًّا.

قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾.

أَمَر الله- عز وجل- فيما سبق بقتل المشركين وأخذهم أينما وجدوا وقتالهم حتى يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك وجب تخلية سبيلهم والكف

عنهم، وأنهم إخواننا في الدين، ثم أمر في هذه الآية بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وهو أول أمر بقتالهم، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، ولهذا تجهز ﷺ لقتال الروم وخرج إليهم بنحو ثلاثين ألف مقاتل ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه، وذلك لضيق الحال وضعف الناس(١).

قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أي: قاتلوا الكفار الذين لا يصدقون بالله وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار.

وفي إعادة «لا» وحرف الجر مع العطف: تأكيد وجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن من آمن بالله ولم يؤمن باليوم الآخر لم ينفعه ذلك.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، «ما»: موصولة، أي: ولا يحرمون الذي حرم الله ورسوله من المحرمات، بل استحلوا ما حرم الله ورسوله بأدنى الحيل، كما احتالوا في وضع الشباك للصيد يوم السبت وأخذه يوم الأحد، وكما جملوا الشحوم التي حرمها الله عليهم وأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها وغير ذلك.

وأعاد «لا» هنا وفي قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ لتأكيد وجوب تحريم ما حرم الله ورسوله، والدينونة بدين الحق، وأن ذلك من لازم الإيمان بالله.

وعطف وصف الرسول أو اسمه في قوله ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن ما حرمه رسوله كالذي حرمه الله، بل هو مما حرمه الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الدين الحق، الذي جاء به محمد ﷺ ونسخ جميع الأديان قبله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٧٤-٧٥).

يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿مِنَ﴾ بيانية، أي: من الذين أعطوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى، والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجنس، فاليهود أوتوا التوراة والنصارى أوتوا الإنجيل.

وهم كما لم يدينوا بدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ لم يدينوا قبل ذلك بما جاءت به رسلهم قبل أن ينسخ، بل حرفوا في ذلك وبدلوا، وأشركوا مع الله غيره، واتبعوا أهواءهم، كما ذكر الله تعالى- عنهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٨-٥٠].

ولهذا كفروا بمحمد ﷺ وبما جاء به من الدين الحق مع معرفتهم لذلك في كتبهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦، ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠].

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾، أي: قاتلوهم إلى غاية أن يدفعوا الجزية، إن لم يسلموا.

و﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ الخراج والمال الذي يؤخذ على رقاب الكفار، مقابل الكف عن قتالهم، وتأمينهم والحفاظ على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وإذلالاً لهم وصغاراً.

ولهذا قال بعده:

﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، ﴿عَن يَدٍ﴾ في موضع نصب على الحال، أي: حال كون

إعطائهم إياها عن يد، بأن يدفعوها بأيديهم مستسلمين مقهورين، من غير إرسال بها، أو ممانعة.

وعلى ما قيل من أنه قد يراد باليد في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ يد الآخذ للجزية وهم المسلمون فمعنى ﴿عَن يَدٍ﴾، أي: عن قوة وسلطة قاهرة، أو إنعام عليهم بقبول الجزية منهم وترك قتالهم.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم صاغرين، وهذه حالة لازمة لإعطاء الجزية عن يد.

والصغار: الذل والهوان. والصاغر: الذليل الحقير، أي: وهم ذليلون حقيرون مهانون حيث أهانوا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولهذا قال ﷺ: «**لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه**»(١).

والمقصود من أخذ الجزية منهم ومعاملتهم على هذا الوجه تعظيم حكم الله- عز وجل- وتحقير أهل الكفر، وترغيبهم في الدخول في الإسلام.

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام بخطاب المؤمنين وتكريمهم وتشريفهم، وترغيبهم في الامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- نجاسة المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ولا خلاف في نجاستهم معنويًّا لما هم عليه من الشرك والمعاصي، بل قيل بنجاستهم حسيًّا لأنهم لا يتطهرون من النجاسات والحدث الأصغر والأكبر.

والراجح أن أبدانهم ليست بنجسة؛ لأن الله- عز وجل- أباح نساء أهل الكتاب

---

(١) أخرجه مسلم في السلام- النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٧)، وأبوداود في الأدب (٥٢٠٥)، والترمذي في السير (١٦٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذبائحهم وهم مشركون، كما قال الله عنهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقد توضأ النبي ﷺ من مزادة مشركة(١).

ويفهم من الآية طهارة المؤمنين، وقد قال ﷺ: «**المؤمن لا ينجس**»(٢).

٣- تحريم دخول المشركين المسجد الحرام، ووجوب منعهم من ذلك، بعد نزول هذه الآية، وذلك سنة تسع من الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ وهكذا ينبغي منعهم من دخول الحرم النبوي وسائر المساجد.

٤- إثبات حرمة الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾.

٥- أن دخول المشركين للمسجد الحرام لم يكن ممنوعاً قبل هذا العام ونزول هذه الآيات.

٦- الإشارة إلى أنه قد يخطر في نفوس المؤمنين تخوف الفقر وانقطاع الإمداد والتجارة عنهم بسبب منع المشركين من دخول المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾.

٧- وعد الله- عز وجل- الذي لا يخلف الميعاد- بإغناء المسلمين من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾.

وهكذا حصل بما أوجب الله- عز وجل- على المشركين من أهل الكتاب من دفع الجزية، وبما بسط للمسلمين من الأرزاق وأدر عليهم من الخيرات والثمرات التي صارت تجبى إليهم من كل حدب وصوب بعد أن دخل أهل كثير من البلاد في الإسلام.

٨- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وهي الإرادة الكونية، وأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل (٢٨٥)، ومسلم في الحيض (٣٧١)، وأبوداود في الطهارة (٢٣١)، والنسائي في الطهارة (٢٦٩)، والترمذي في الطهارة (١٢١)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وإرادته. ولا يجب عليه شيء لخلقه إلا ما أوجبه سبحانه وتعالى على نفسه- تفضلاً منه وكرماً، مما يوجب التعلق به- عز وجل- والتضرع إليه ورجاءه- مع بذل الأسباب.

٩- أن الغنىٰ في الدنيا ليس من لوازم الإيمان؛ لأن الله- عز وجل- علقه على مشيئته، وهي إرادته الكونية، التي بها يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ممن يحب وممن لا يحب(١).

١٠- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾.

١١- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل، والحكمة البالغة؛ لقوله- عز وجل: ﴿حَكِيمٌ﴾.

١٢- وجوب قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية مقهورين أذلاء صاغرين؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الجزية لا تؤخذ من غير أهل الكتاب؛ لأن الله لم يأمر بأخذ الجزية إلا منهم، وألحقوا بأهل الكتاب المجوس؛ لأن الرسول ﷺ أخذها من مجوس هجر(٢).

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار، لا فرق بين كتابي

---

(١) كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه» أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٣)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) كما في حديث بجالة أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لم يكن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر» أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٧)، وأبوداود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٥٨٦).

وغيره، من العرب وغيرهم، ورجح هذا ابن القيم رحمه الله(١).

لحديث بريدة- رضي الله عنه- أنه ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، وفيه: «**إذا لقيت عدوك فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال فأيتهن أجابوك فأقبل منهم، وكف عنهم، ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا سألهم الجزية فإن أبوا قاتلهم**»(٢).

وليس فيها تقدير ثابت لا في الجنس ولا في القدر بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين وحال من تؤخذ منه.

وتؤخذ وجوباً من الرجال الأحرار المكلفين، دون سواهم.

١٣- وجوب الإيمان بالله؛ بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ذلك أعظم أركان الإيمان وأولها وأساسها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٤- وجوب الإيمان باليوم الآخر، يوم القيامة وأن ذلك من أعظم وأهم أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٥- وجوب تحريم ما حرم الله ورسوله، طاعة وعبادة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

١٦- جواز عطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسم الله- عز وجل- في باب التحليل والتحريم بالواو التي تقتضي التشريك، وأن ما حرمه رسول الله ﷺ كالذي حرمه الله، بل هو مما حرمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

١٧- أن المحَرَّم ما حرمه الله ورسوله وما عداه فهو حلال.

١٨- أن دين الإسلام هو دين الحق، الذي يجب اتباعه، والذي نسخ جميع الأديان، ولا يقبل من أحد سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾.

١٩- ذم أهل الكتاب، وأنهم حرفوا وبدلوا فيما أنزل الله عليهم في كتبهم، وأشركوا مع

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٥٣-١٥٥)، (٥/ ٩٠-٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبوداود في الجهاد (٢٦١٢)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨).

الله غيره ولم يدينوا بما جاء في كتبهم قبل نسخها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢٠- أن الغاية من قتال من لم يؤمن من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، فلو أعطوها بلا قتال لم يجز قتالهم.

٢١- ينبغي أن تؤخذ الجزية من أهل الكتاب على الصفة التي ذكر الله- عز وجل- تعظيماً لحكم الله- عز وجل- وقهراً لهم وإذلالاً، وترغيباً لهم في الدخول في الإسلام.

٢٢- أن من العقوبات ما يكون بدفع المال؛ لأن الله- عز وجل- أوجب على أهل الكتاب إعطاء الجزية مجازاة لهم على كفرهم، وأماناً لهم- مع ترك قتالهم.

٢٣- أن الكفر والمعاصي تذل صاحبها وتهينه في الدنيا والآخرة، كما أن الإيمان والطاعة- عز للمرء في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أمر عز وجل في الآية السابقة بقتال من لم يؤمن من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ثم أتبع ذلك بذكر ما هم عليه من الشرك بالله والكفر ونسبة الولد إلى الله- تعالى الله عن ذلك- تأكيدًا وتعليلًا للأمر بقتالهم، وإغراءً بذلك، وتهييجًا للمسلمين عليهم.

قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ قرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وأبو عمرو- في رواية-: ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين. وقرأ الباقون بغير تنوين.

و«عزير»: حبر كبير من أحبار اليهود، قيل كان حفظ التوراة لهم.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾؛ يعنون: المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام رسول الله.

وفي هذا بيان أن اليهود والنصارى بلغوا في الكفر غايته حتى ساووا المشركين؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٢٩]، فجمعوا بين الشرك بالله والفرية على الله تعالى بنسبة البنوة إليه، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ الإشارة لمقالتي اليهود والنصارى، وأشار إليهما بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهما، وإشعارًا بإغراقهما في البشاعة والفظاعة.

ومعنى قولهم: «بأفواههم»، أي: أنه مجرد قول بألسنتهم لا حقيقة له، وكَذْبٌ كُبَّار؛ كما قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف:٥].

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ قرأ عاصم: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ بالهمز. وقرأ الباقون بدون همز: «يضاهون».

أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾، أي: قول المشركين من قبلهم، الذين نسبوا إلى الله الولد، وقالوا: الملائكة بنات الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل:٥٧].

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ المفاعلة للمبالغة، ومعنى ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لعنهم الله»(١).

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ الاستفهام: للتعجيب من حالهم، أي: كيف يصرفون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟!

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾.

بعد ما ذكر شرك اليهود والنصارى مع الله في العبادة، وقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾؛ ذكر شركهم في الطاعة باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا، يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم من دون الله.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾، أي: جعل اليهود أحبارهم، أي: علماءهم. و«الأحبار» جمع «حبر» بفتح الحاء، وهم علماء اليهود.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١١/ ٤١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٣).

﴿وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾، أي: وجعل النصارى رهبانهم، و«الرهبان»: جمع راهب، وهم عبّاد النصارى.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: آلهة من دون الله، يطيعونهم في التحليل والتحريم؛ يحلون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم الشرائع التي ما أنزل الله بها من سلطان فيتبعونهم.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها ورغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي المدينة، وكان رئيسًا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ: «﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾». قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «**بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام؛ فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم**». وقال رسول الله ﷺ: «**يا عديّ، أيُفِرُّك أن يقال: الله أكبر؟! فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟ ما يُفِرُّك؟ أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟! فهل تعلم من إلهٍ غير الله؟**» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «**إنّ اليهود مغضوبٌ عليهم، والنّصارى ضالّون**»(١).

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ الجملة حالية، و«ما»: نافية، و«إلا» أداة حصر، أي: وما أمروا بالتوراة والإنجيل، وعلى ألسنة رسلهم موسى وعيسى وغيرهما؛ إلا ليعبدوا معبودًا واحدًا، هو الله عز وجل، يعبدونه ويطيعونه فلا يشركون به في العبادة ولا في الطاعة.

﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو وحده.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة (٣٠٩٥)، وقال: «حديث غريب». وأخرجه مختصرًا الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤١٧-٤١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٤)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢) رقم (٢١٨).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تعالى وتقدس وتعاظم وتنزه؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ [الأنعام:١٠٠، يونس:١٨، النحل:١، الإسراء:٤٣، الروم:٤٠].

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: عن شركهم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ذكر عز وجل إشراك أهل الكتاب به سبحانه بالعبادة والطاعة، ثم أتبع ذلك بذكر مرادهم من ذلك، وهو إطفاء نور الله تعالى.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾، أي: يريد هؤلاء المشركون من أهل الكتاب؛ بإشراكهم بالله في العبادة والطاعة، وأقوالهم وأفعالهم الباطلة.

﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يريدون»، أي: يريدون إطفاء نور الله بأفواههم؛ أي بألسنتهم، أي: يقصدون ويعمدون في إشراكهم بالله إلى إطفاء نور الله الذي بعث به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩].

نور القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥]، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨].

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: بأقوالهم الشركية الباطلة وافترائهم؛ عبثًا منهم، فمثلهم كمثل الذي يريد أن يطفئ شعاع الشمس ونور القمر بنفخه بفيه، فأنى لهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾؛ «إلا» أداة حصر. و«أن» والفعل بعدها في محل نصب مفعول به لـ«يأبى»، أي: ويأبى الله ويمنع إلا أن يتم نوره ويظهره، أي: إلا إتمام نوره وإظهاره؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: ولو كره الكافرون إتمام نور الله تعالى وظهوره، وسعوا في إطفائه وإبطاله؛ فما أراده الله عز وجل نافذ لا محالة، ونور الله تام ولا بد، ولا يمكن لجميع الخلق- لو اجتمعوا- أن يطفئوه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

بيان وتعليل لقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، أي: هو سبحانه وتعالى الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، أي: بالقرآن والوحي والعلم النافع، الذي فيه بيان الهدى من الضلال، والحق من الباطل.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: وبدين الحق، وهو العمل الصالح.

وفي هذا تنويه بشأن الرسول ﷺ، وبالهدى والدين الذي أرسله الله به، وتعريض بأن ما هم عليه باطل، ليس بهدى ولا حق.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يظهره، أي: يعليه. والضمير في «يظهره» يعود إلى ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق ودين الإسلام، أي: ليجعله ظاهرًا على الأديان كلها؛ بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، مهيمنًا عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها**»(١).

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغنّ هذا**

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦).

الأمر ما بلغ اللّيل والنّهار، ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا أدخله هذا الدّين، بعزّ عزيزٍ أو بذلّ ذليلٍ، عزًّا يعزّ الله به الإسلام، وذلًّا يذلّ به الكفر». قال تميم: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية(١).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على وجه الأرض بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا أدخله الله كلمة الإسلام؛ بعزّ عزيزٍ، أو بذلّ ذليلٍ؛ إما يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلّهم فيدينون لها**»(٢).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «**يا عديُّ، أسلم تسلم**». فقلت: إني من أهل دين. قال: «**أنا أعلم بدينك منك**». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «**نعم، ألست من الرّكوسية؟ وأنت تأكل مرباع قومك؟**» قلت: بلى. قال: «**فإنّ هذا لا يحلّ لك في دينك**». قال: فلم يعد أن قالها، فتواضعت لها. قال: «**أما إنّي أعلم ما الّذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما تبعه ضعفة النّاس ومن لا قوّة له، وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة؟**» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «**فوالّذي نفسي بيده ليتمّنّ الله هذا الأمر، حتّى تخرج الظّعينة من الحيرة حتّى تطوف بالبيت في غير جوار أحدٍ، ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز**». قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: «**نعم، كسرى بن هرمز. وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد**»، قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قالها(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب اللّيل والنّهار حتّى تعبد اللّات والعزّى**». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٧).

كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أن ذلك تام. قال: «**إنّه سيكون من ذلك ما شاء الله، حتى يبعث الله ريحًا طيبةً فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبّة خردلٍ من إيمانٍ، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ذم اليهود والنصارى بذكر افترائهم على الله تعالى ونسبة البنوة إليه- تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا- لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

٢- مشابهة اليهود والنصارى- في قولهم هذا- لقول المشركين الذين نسبوا الولد إلى الله تعالى وزعموا أن الملائكة بنات الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

٣- لعنة الله تعالى لليهود والنصارى؛ لشركهم بالله، وافترائهم الباطل على الله تعالى، وانصرافهم عن الحق مع وضوحه؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٤- اتخاذ اليهود أحبارهم وعلماءهم أربابًا من دون الله، يشركونهم مع الله تعالى في العبادة والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٥- اتخاذ النصارى رهبانهم أربابًا من دون الله، يشركونهم مع الله تعالى في العبادة والطاعة؛ لقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٦- إشراك النصارى المسيح ابن مريم مع الله تعالى في العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

٧- أن الله عز وجل أقام الحجة على أهل الكتاب في التوراة والإنجيل وعلى ألسنة رسلهم؛ بوجوب إخلاص العبادة والطاعة لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ وكما قال

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٢٩٠٧).

تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

٨- أنه لا إله بحق إلا الله عز وجل يجب إخلاص العبادة والطاعة له تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٩- تنزيه الله عز وجل نفسه عن الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

١٠- أن اليهود والنصارى يريدون بافترائهم على الله عز وجل الباطل بنسبة البنوة إليه، وبما يتخذونه من أرباب من دونه؛ إطفاء نور الله ودينه الذي بعث به محمدًا ﷺ، وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

١١- التهكم من اليهود والنصارى في إرادتهم ومسعاهم إلى إطفاء نور الله وإبطال دينه؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، فهم أشبه بمن ينفخ بفيه ليطفئ ضوء الشمس أو نور القمر، وهيهات لهم ذلك.

١٢- تكفل الله عز وجل بإتمام نوره وحفظ دينه، ولو كره الكافرون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

١٣- كراهية الكافرين تمام نور الله تعالى ودينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

١٤- التنويه بإرساله عز وجل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما رأس مال الإنسان في هذه الحياة.

١٥- تكفله عز وجل بإظهار دينه على الأديان كلها؛ بالحجة، والبرهان، والسيف، والسنان، ولو كره المشركون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

١٦- كراهية المشركين ظهور دين الله عز وجل على غيره من الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بقتال أهل الكتاب، لما هم عليه من الكفر بالله واليوم الآخر ونحو ذلك حتى يعطوا الجزية مقهورين أذلاء، ثم ذكر بعض نقائصهم في هذه الآية تحقيراً لهم في نفوس المؤمنين، وتحريضاً للمؤمنين على عداوتهم والتشديد في معاملتهم، وتحذيراً من مسلكهم.

قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ ﴾.

﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ جمع «حَبر»، بفتح الحاء وكسرها، وهم العلماء، ولهذا سُمي ابن عباس رضي الله عنهما: «حبرَ الأمة، وترجمان القرآن».

وسُمي العلماء أحباراً؛ لأنهم يُحَبِّرون العلم، أي: يُحَسِّنونه ويزينونه ويبينونه للناس، وهو محبر في صدورهم؛ كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ومن هذا ما روي أن أبا موسى- رضي الله عنه- لما قال له النبي ﷺ حين استمع لقراءته: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»(١)، قال أبوموسى رضي الله عنه: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً»(٢).

والمراد بالأحبار في الآية: علماء اليهود؛ كما قال تعالى: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جاء هذا في رواية ابن سعد وغيره كما ذكر ذلك صاحب الفتح في شرح حديث أبي موسى.

وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

و﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾ جمع راهب، والمراد بهم عباد النصارى؛ كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

والقسيسين: علماء النصارى، والرهبان: عبادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

والمراد بالكثير من الأحبار و الرهبان: الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب بما جاء به نبينا ﷺ، وهم أكثر أهل الكتاب، و قد آمن منهم من آمن كعبدالله بن سلام- رضي الله عنه- من اليهود، والنجاشي من النصارى.

﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، اللام في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ للتأكيد، والباء للملابسة، أي: ليأكلون أموال الناس أكلاً ملابساً للباطل.

و«الأموال»: كل ما يتمول ويملك من نقد وعين.

و﴿ٱلنَّاسِ﴾ البشر، بنو آدم سموا بـ«الناس» لأنهم ينوسون، أي: يتحركون، ويأنس بعضهم ببعض، ويُؤْنَسون، أي: يُرون ويشاهدون، بخلاف الجن فهم مستترون.

والباطل: الحرام، وما ليس بحق، كالربا والقمار والرشوة والغش، واتخاذ مناصبهم ورياساتهم وسيلة لاستغلال الناس وأكل أموالهم بغير حق، والمداهنة في شرع الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

والتعبير بالأكل؛ لأنه المقصد الأهم من جمع المال، وهو كما يقال: كسوة الباطن، وللتشنيع عليهم وتقبيح فعلهم، ومثله صرفهم لها بأي وجه كان.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويصدون الناس ويصرفونهم عن دين الله وصراطه المستقيم بتلبيسهم الحق بالباطل، بعد أن صدوا عنه بأنفسهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة: ٩].

وكما أن في الآية ذمًّا لكثير من الأحبار والرهبان من أهل الكتاب ففيها أيضاً تحذير من مسلكهم.

وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**»(١).

قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ الآية.

وفي هذا إشارة إلى أن سبب أكل كثير من الأحبار والرهبان لأموال الناس بالباطل إيثارهم حب المال وكنزه على أمر الله وتناسيهم وعيده. والآية عامة في أهل الكتاب وغيرهم من هذه الأمة.

عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر- رضي الله عنه- فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان- رضي الله عنه- يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس، حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت، فكنت قريباً، فذلك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمَّروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة- ما أدي زكاته فليس بكنز (١٤٠٦).

قال ابن كثير[١] في كلامه على الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾: «هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس».

و«الكنز»: المال الذي لا تؤدى زكاته.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمته- يعني: شدقيه، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك- ثم تلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾** الآية [آل عمران: ١٨٠]»[٢].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن أعرابيًّا قال له: «أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أُنزلت جعلها الله طهراً للأموال»[٣].

وفي رواية: زيادة ثم قال ابن عمر: «**ما أبالي لو كان لي أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه، وأعمل فيه بطاعة الله تعالى**»[٤].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ كبر ذلك على المسلمين، فذكر عمر- رضي الله عنه- لرسول الله ﷺ، فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»[٥].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك**»[٦].

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٣)، والنسائي في الزكاة (٢٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة- ما أدي زكاته فليس بكنز (١٤٠٤).

(٤) أخرجها ابن ماجه في الزكاة- ما أدي زكاته فليس بكنز (١٧٨٧).

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة- باب في حقوق المال (١٦٦٤).

(٦) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦١٨)، وقال: «حديث حسن غريب».

فالمعنى: والذين يجمعون الذهب والفضة والأموال، ولا يؤدون زكاتها، والحقوق الواجبة فيها. ولهذا قال بعده:

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الضمير الهاء يعود إلى الكنوز أو الأموال المفهومة من ﴿يَكْنِزُونَ﴾.

وفيه من الدلالة على الكثرة ما ليس في التثنية. وخص الذهب والفضة لأنهما الأصل الغالب في الأموال.

والإنفاق: إخراج المال وبذله.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ابتغاء وجه الله، ووفق شرعه، وما أمر به من وجوه الإنفاق الواجبة والمستحبة، كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد، وفي الجهاد في سبيل الله، ومساعدة الفقراء والمساكين، ومصالح الأمة كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والسدود وحفر الآبار وغير ذلك.

وقد ذم الله- عز وجل- وتوعَّد- في مواضع عدة من كتابه مَن هذه صفته، فقال- عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج: ١٥-١٨].

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢].

لكن إذا وفق الإنسان لكسب المال من الحلال، وإنفاقه في الحلال، مع أداء حقوق الله تعالى- فيه، ولم يشغله عن طاعة الله تعالى، ولم يكاثر فيه، فكما قيل:

نعم المال الصالح للرجل الصالح.

قال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل(١)

---

(١) البيت لأبي دلامة الأسدي. انظر: «ديوانه» (ص٧٧).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة فاستقبلنا أُحد، فقال: «**يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ما يسرني أن عندي مثل أُحد ذهباً تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئاً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم مشى، فقال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم..**» (١).

ولا شك أن التقلل من الدنيا أولى وأسلم لما في المال من الفتنة غالباً؛ لما يعتري مكاسبه تارة من الشبهة، ولما يحصل تارة من منع حقوقه، وتعلق القلب به، والانشغال به عن طاعة الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨، التغابن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(٣).

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر الموصول «الذين»، وربط بالفاء؛ لشبه الموصول بالشرط.

والضمير «هم» يعود إلى الموصول، ويجوز عوده إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون.

والبشارة في الأصل: الإخبار بما يسر، والمراد بها هنا: الإخبار بما لا يسر على سبيل التهكم، أي: فأخبرهم على سبيل التبشير لهم تهكماً بهم بعذاب أليم، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٤)، ومسلم في الزكاة (٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجزية (٣٦٥٨)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧)، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨].

و«العذاب»: هو العقوبة، و«أليم» أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنوياً للقلوب.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾، ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف للعذاب، و﴿يُحْمَىٰ﴾ يوقد، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى الكنوز والأموال من الذهب و الفضة.

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

أي: يوم يوقد على ما كنزوه من الذهب والفضة في نار جهنم حتى تبلغ الغاية في الحمو والحرارة وتكون صفائح من نار.

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ﴾ بوضع صفائح الذهب والفضة المحماة على جباههم وجنوبهم وظهورهم.

والكي: إلصاق الحار من الحديد بالعضو حتى يحترق الجلد.

والجباه: جمع جبهة، وهي أعلى الرأس مما يلي الوجه، أي: ما بين الحاجب والناصية.

والجنوب: جمع جانب، وهو جانب الجسد من اليمين واليسار.

والظهور: جمع ظهر.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار..**» الحديث(١).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: «**بشر الكنازين برضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم، ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على**

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٨٧)، وأبوداود في الزكاة (١٦٥٨).

نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل»(١).

ويؤخذ من هذا الإطناب في التعداد في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾: تهويل شأن هذا العذاب وتعظيمه، وعمومه لجميع جهات الجسم.

وأيضاً: الإشارة إلى اختلاف هذه الجهات وتفاوتها في الإحساس بألم الكي فعمم عليها لتذوق أصناف العذاب كلها، فالكي في الجبهة أشهر وأبشع، وفي الجنب والظهر آلم وأوجع، وهكذا.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، أي: ويقال لهم هذا تنديماً وتبكيتاً، وتوبيخاً وتقريعاً، وهذا من العذاب المعنوي الذي ينصب على القلوب، مما قد لا يقل عن العذاب الحسي.

والإشارة في قوله ﴿هَٰذَا﴾ إلى تعذيبهم وكيهم بما كنزوه من الذهب والفضة.

و﴿مَا﴾ موصولة، أي: هذا الذي جمعتم لأنفسكم، أو مصدرية، أي: هذا جمعكم لأنفسكم.

﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، ﴿مَا﴾ كسابقتها، أي: فقاسوا وأحسوا بألم وسوء عاقبة الذي كنتم تكنزون، أو بألم وسوء عاقبة كنزكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩].

الفوائد والأحكام:

١- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم باسم الإيمان والعناية والاهتمام بخطابهم.

٢- ذم كثير من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم، وبيان ما هم عليه من أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله تحريضاً للمؤمنين على عداوتهم والتشديد في معاملتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣- التحذير من علماء السوء وعباد الضلال من أهل الكتاب وغيرهم، وما هم عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٢).

من أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن دين الله.

٤- تحريم أكل أموال الناس بالباطل، كالربا والرشوة، وأخذ العوض على الواجب، والمداهنة في شرع الله وأحكامه.

٥- أن من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم من آمن واتبع ما جاء به نبينا ﷺ من الحق وهم قلة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ الآية.

٦- وجوب الزكاة في النقدين؛ الذهب والفضة بشروطها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

واختلف في وجوب الزكاة في الحلي المستعمل على قولين لأهل العلم.

٧- وجوب إخراج النفقات الواجبة في المال غير الزكاة كالنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، واستحباب النفقات المستحبات من الصدقات وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «**هم الأخسرون ورب الكعبة**». قال: فجئت حتى جلست فلم أَتَقَارَّ حتى قمت فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، مَن هم؟ قال: «**هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا، من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله وقليل ما هم**»(١).

٨- الوعيد والتهديد بالعذاب الأليم لمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وذمهم والتهكم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٩- جواز التهكم بأهل الكفر الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا على سبيل التهكم بهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٠)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٠)، والترمذي في الزكاة (٦١٧)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٥).

١٠- تعذيب أهل الكنز بكيِّهم بما كنزوه؛ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾.

١١- شدة ظلمة النار وحرها، وبُعد قعرها، لهذا سميت جهنم.

١٢- الجمع لمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بين العذاب الحسي بكيهم بها في نار جهنم، وبين العذاب المعنوي بالتنديم والتوبيخ والتقريع؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾، أي: إن عدد الشهور، و«الشهور»: جمع شهر، وسمي الشهر شهراً لاشتهاره.

والمراد بالشهور الشهور القمرية المعروفة عند العرب، وأكثر الأمم، وهي أقدم أشهر التوقيت وأضبطها لاعتمادها على القمر واختلاف أحواله ومنازله وهي التي يدور عليها فلك الأحكام الشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله عز وجل، وتقديره، وشرعه.

﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ قرأ أبو جعفر «عشْر» بإسكان الشين، وقرأ الباقون بفتحها.

وهذه الأشهر هي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في مكتوب الله في اللوح المحفوظ، وتقديره.

﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان لـ﴿كِتَٰبِ﴾ منصوب.

أي: يوم خلق السموات السبع والأرضين السبع، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

ويقدم غالباً ذكر السموات؛ لأنها أعظم وأعلى، وخلقت قبل دحو الأرض، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠].

أما خلق الأرض فهو قبل خلق السموات؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقد يقدم ذكر خلق الأرض، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه: ٤].

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، أي: من هذه الأشهر الاثني عشر: أربعة أشهر حرم، ثلاثة سرد، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد فرد وهو رجب.

ومعنى ﴿حُرُمٌ﴾، أي: أنها أشهر محرمة، يجب احترامها، ويحرم فيها القتال، ونحو ذلك.

عن أبي بكرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «**ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، و المحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**»(١).

وهذا تقرير منه ﷺ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى- في أول الأمر، من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان، ولا نسيء ولا تبديل.

والحكمة- والله أعلم- في كون ثلاثة منها سرداً، هي ذو القعدة، وذو الحجة،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة (٤٦٦٢)، ومسلم في القسامة- تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٧).

ومحرم؛ ليأمن الناس ويتمكنوا من أداء مناسك الحج والعمرة، ويكون في ذلك المدة الكافية لقدومهم وعودهم إلى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار، ليتمكن من أراد زيارته من أقصى جزيرة العرب من الزيارة والعود إلى وطنه آمناً(١).

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الإشارة لما سبق من كون عدة الشهور عند الله- عز وجل- اثنا عشر شهراً في كتابه يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: الشرع الكامل المستقيم.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، الفاء: للتفريع، و«لا»: ناهية، ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: في الأشهر الأربعة الحرم؛ لأنها أقرب مذكور، ولأن الظلم فيها أشد لحرمتها.

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فإن الفسوق منهي عنه في الحج وغيره، لكنه في الحج أعظم، ولأنه لو أريد الأشهر الاثنا عشر لقال: «فيها» ولم يقل «فيهن».

أي: فلا تظلموا في هذه الأشهر الأربعة المحرمة أنفسكم، بالقتال فيها وإحلالها وارتكاب الذنوب والمعاصي المتعدية وغيرها فيها؛ لأن ذلك كله ظلم للنفس، وهو في الأشهر الحرم أشد ظلماً وإثماً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥].

فإن كان ظلم النفس بالاعتداء على الآخرين، فهو ظلم لها من وجهين:

الأول: أن ظلم الإنسان لأخيه بمثابة ظلمه لنفسه؛ لأن الأمة كالجسد الواحد، كما قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٩].

والثاني: أن عاقبة الاعتداء والظلم ترجع إلى الظالم، كما قيل:

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٩).

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم(١)

ويجوز كون الضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود إلى الأشهر الاثني عشر كلها.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية، ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة فجعلهن حراماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم»(٢).

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾.

﴿كَآفَّةً﴾ حال من المشركين في الموضع الأول، وفي الموضع الثاني: حال من ضميرهم «الواو» وهي بمعنى «جميعاً».

والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾: للتشبيه والتعليل، و«ما»: مصدرية، أي: مثل قتالهم لكم كافة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

والمعنى: قاتلوا المشركين كلهم جميعاً، كما يقاتلونكم كلهم جميعاً.

ويحتمل أن ﴿كَآفَّةً﴾ في الموضعين حال من المخاطبين، أي: قاتلوا المشركين كلكم جميعاً، كما يقاتلونكم كلكم جميعاً.

ويَرِدُ على هذا الاحتمال أن النفير لا ينبغي لجميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أمر هنا بالعلم؛ لأن هذا مما ينبغي أن يعلمه المؤمن ويعتقده بقلبه، وهو أن الله- عز وجل- مع عباده المتقين.

والمراد بالمعية هنا المعية الخاصة بأوليائه- عز وجل- وهي معية التوفيق والحفظ والنصر و التأييد، إضافة إلى معية العلم والإحاطة العامة لهم ولغيرهم، فهو- عز وجل-

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص ٤٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٦٩١).

مع عباده المتقين له بفعل أوامره واجتناب نواهيه بتوفيقه وحفظه ونصره وتأييده لهم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «معكم»، إشارة إلى أنهم من جملة المتقين؛ ليستبشروا بذلك، وأيضاً حثًّا لهم على الاستزادة من تقوى الله- عز وجل- وليشمل غيرهم من المتقين فيكون فيه ترغيب بتقوى الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة أن عدة الشهور عنده اثنا عشر شهراً في كتابه، منها أربعة حرم، ونهى عن ظلم الأنفس فيهن، ثم أتبع ذلك ببيان حكم ما كان يفعله المشركون من النسيء في هذه الأشهر، بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وأن ذلك من زيادة الكفر، ومن الضلال والظلم، تحذيراً من ذلك.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قرأ ورش عن نافع وأبوجعفر بياء مشددة بدون همز (النسيُّ)، وقرأ الباقون ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ بالهمز.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، وهي: كافة ومكفوفة، أي: ما النسيء إلا زيادة في الكفر و﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ التأخير والتأجيل.

والمراد به في الآية: تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر حلال، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون بدلاً منه شهراً حلالاً، يوخرون مثلاً حرمة المحرم إلى صفر ونحو ذلك استعجالاً منهم للاعتداء والغارات على الآخرين.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قال: «النسيء: أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم كل عام، وكان يكنى «أبا ثمامة»، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحابُ ولا يُعابُ، ألا وإن صَفَر العام الأول العام حلالٌ، فيحله الناس، فيحرم صفراً عاماً، ويحرم المحرم عاماً. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً

يحرمونه»[١].

كما قال شاعرهم:

لقد علمت مَعَدٌّ أنَّ قومي ... كرام الناس أنَّ لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراماً
فأي الناس لم ندرك بوتر ... وأي الناس لم نُعلك لجاماً[٢]

﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾؛ لأنه تحليل ما حرمه الله، وتحريم ما حلله، فهو كفر مضموم إلى كفرهم.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ خبر ثان عن «النسيء»، وصيغة المضارع تدل على الاستمرار. قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بضم الياء وفتح الضاد: ﴿يُضَلُّ﴾ بالبناء للمفعول.

وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد: «يُضِل» أي: يضل به الذين كفروا الناس، فالذين كفروا فاعل.

وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد «يَضِل»، أي: يَضِلون هم بأنفسهم.

والضلال: البعد والتيه عن الطريق السوي. والإضلال: إبعاد الناس عنه.

والباء في قوله (به): للسببية، أي: يُضَل بسببه الذين كفروا عن الحق، فَيَضِلون، ويُضِلون.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ بيان للنسيء، أي: يحلون الشهر عاماً، ويحرمونه عاماً، أو يحلونه في بعض الأعوام ويحرمونه في بعضها، أو يحلون النسيء عاماً ويحرمونه عاماً.

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، اللام: للتعليل، والمواطأة: الموافقة، أي: لأجل أن يوافقوا عدة ما حرم الله، فيحرموا من الشهور عدد أربعة أشهر بعدد ما حرم الله منها، حفاظاً على العدد، وإن خالفوا في المعدود، ولهذا قال: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَا﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٥٢).

(٢) الأبيات لعمرو بن قيس المعروف «بجَذْل الطِّعان». انظر: «السيرة النبوية» (١/ ٤٥)، «الروض الأنف» (١/ ٤٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩١).

موصولة، أي: فيحلوا الذي حرمه الله منها.

وأظهر في قوله: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: (فيحلوه)؛ لزيادة التشنيع عليهم وذمهم في جرأتهم على الله.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾، أي: حسن لهم الشيطان والأنفس الأمارة بالسوء، وغيرهما أعمالهم السيئة، فرأوا السيئ والقبيح حسناً، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وسوء العمل والعمل السيئ هو ما يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا يوفقهم. وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: (والله لا يهديهم)، للتسجيل عليهم بالكفر، وتأكيد بلوغهم الغاية في الكفر، وأن كفرهم سبب عدم هدايتهم، ولتعميم نفي الهداية عنهم وعن غيرهم من الكافرين.

الفوائد والأحكام:

١- أن عدد الشهور عند الله وفي حكمه وشرعه اثنا عشر شهراً في مكتوبه في اللوح المحفوظ منذ خلق السموات و الأرض، كما هي عليه اليوم، منها أربعة أشهر حرم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

٢- إثبات تقدير الله- عز وجل- مقادير كل شيء، قبل خلق السموات والأرض.

٣- أن كون الأشهر اثني عشر شهراً منها أربعة حرم هو الدين القويم والشرع المستقيم، مما ينبغي على المسلمين الأخذ به و السير عليه في حساباتهم.

٤- وجوب تعظيم الأشهر الحرم، ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، ورجب، وتحريم الظلم والقتال والاعتداء فيها؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

٥- تغليظ ظلم النفس في الأشهر الحرم بالذنوب والمعاصي أشد من غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، فإن كانت الذنوب مما يتعدى فهو أشد؛ لأنه ظلم للنفس وظلم للغير.

٦- تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ لأنه من الظلم للنفس؛ لأن الله حرم القتال في الأشهر الحرم؛ قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة: ٢].

وقد تقدم ذكر الخلاف في نسخ القتال في الأشهر الحرم في الكلام على هاتين الآيتين في سورة البقرة والمائدة، وبيان أن الصحيح أنه باق لم ينسخ فلا يجوز ابتداء القتال فيها.

٧- رحمة الله- عز وجل- بعباده وشفقته عليهم أكثر من شفقتهم على أنفسهم لنهيه- عز وجل- لهم عن ظلم أنفسهم في هذه الأشهر الحرم.

٨- أن بعض الأزمنة أفضل من بعض، فالأشهر الحرم أفضل من غيرها، ورمضان أفضل من غيره، وعشر ذي الحجة وأيام التشريق ويوم الجمعة والاثنين والخميس أفضل من غيرها، كما أن بعض الأمكنة أفضل من بعض، فالمسجد الحرام والمسجد النبوي والمساجد عموماً أفضل من غيرها.

٩- وجوب قتال جميع المشركين لقتالهم جميعاً للمؤمنين وعداوتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾.

١٠- يجب على المؤمنين جميعاً أن يكونوا يداً واحدة في قتال المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾، أي: كلكم جميعاً لكن من غير نفير الجميع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

١١- قتال المشركين وعداوتهم لجميع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾، أي: كما يقاتلونكم كلكم جميعاً.

١٢- إثبات معية الله- عز وجل- الخاصة للمتقين بتوفيقه لهم وحفظهم ونصرهم وتأييدهم، وأن هذا مما ينبغي علمه واعتقاده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

١٣- الترغيب والحث على تقوى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٤- إبطال ما كان عليه المشركون من النسيء بتحليل الشهر الحرام وتحريم الشهر الحلال، وتحليل بعض الشهور عاماً وتحريمه عاماً، وبيان أن ذلك من زيادة الكفر، ومن الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

١٥- أن تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

١٦- وجوب تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل الله من الشهور وغير ذلك.

١٧- أن إحلال الأشهر الحرم الأربعة أو بعضها، وتحريم أشهر حلال بعددها، ليوافق ذلك عدد ما حرم الله لا يغير من الأمر شيئاً لما فيه من الإخلال بالمعدود وهو الأهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

١٨- التشنيع على الكفار، وذمهم في جرأتهم على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

١٩- أن ما وقع فيه المشركون من النسيء وتحليل ما حرم الله من الشهور وغير ذلك من سيئ الأعمال مما زينه لهم الشيطان وأتباعه والأنفس الشريرة؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

٢٠- نفي هدايته- عز وجل- وتوفيقه عن القوم الكافرين بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ويفهم من هذا هدايته- عز وجل- للمؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أيُّ شيء لكم.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: اخرجوا للجهاد في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله. والنفير: الخروج للجهاد، ويطلق على الجماعة الخارجين للجهاد.

﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: تباطأتم وتكاسلتم وملتم إلى الأرض والسكون فيها، وأخلدتم للدعة والخفض وطيب العيش والثمار.

قوله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾، أصله: «تثاقلتم»، وفيه تعريض إلى أن تثاقلهم ليس عن عجز منهم.

وهذا توبيخ ولوم للذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وكان ذلك حين طابت الظلال والثمار، وفي شدة الحر، واستقبل ذلك سفرًا بعيدًا ومفازًا، مع شدة الحاجة إلى الزاد والظهر والعدة؛ ولهذا سميت غزوة العسرة.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ الاستفهام- كسابقه- للإنكار والتوبيخ،

أي: ما لكم فعلتم كذا؟ أرضًا منكم بالدنيا وإيثارًا لها على الآخرة؟

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «فما متاعها في الآخرة»؛ لزيادة التقرير.

و«متاع» مصدر التمتع، أي: التلذذ والتنعم، ويطلق على الشيء المتمتع به، أي: فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة:

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: قليل قدرًا، أي: حقير تافه دنيء؛ كما قال ﷺ: «**لو كانت الدّنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ؛ ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ**»(١).

وقال ﷺ: «**ما الدّنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بم يرجع؟**» وأشار بالسبّابة(٢).

وقليل زمنًا ووقتًا؛ كما قال ﷺ: «**ما لي وللدّنيا؟ إنما أنا كراكبٍ استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»(٣).

وقال ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**». وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»(٤).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

بعد ما أنكر على المتثاقلين عن الخروج إلى الجهاد في سبيل الله ووبخهم، وبين حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة؛ توعدهم- إن لم ينفروا- بالعذاب الأليم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر والقيامة (٢٨٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)؛ من حديث المستورد بن شداد.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٤)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾، أي: إن لا تخرجوا للجهاد.

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا حسيًّا ومعنويًّا، في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ السين والتاء: للتوكيد، أي: ويستبدل بكم قومًا غيركم يقومون بما أوجب الله عليهم من النفير وغيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

وفي هذا دلالة على أن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة للعذاب الأليم؛ لما يترتب عليه من التخلي عن نصرة دين الله وشرعه وأوليائه والفت في عضد الأمة، وكون المتخلف قدوة لغيره من ضعفاء الإيمان.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، أي: ولا تضروا الله عز وجل شيئًا- لا قليلًا ولا كثيرًا- بترككم النفير، وتثاقلكم عن الخروج، ونكولكم عن الجهاد؛ لأنه سبحانه الغني عن العالمين، وإنما تضرون أنفسكم.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة على كل شيء؛ من نصر دينه بدونكم، واستبدال غيركم، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾، أي: إن لا تنصروا رسول الله ﷺ؛ فهو غني عن نصرتكم بنصر الله إياه؛ لأن الله تكفل بنصرة دينه، وإعلاء كلمته. فالضمير في «تنصروه» عائد إلى النبي ﷺ، وإن لم يتقدم له ذكر؛ لأنه واضح من السياق والمقام.

﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: حين أخرجه الذين كفروا من مكة مهاجرًا، أي: اضطروه للخروج لما هموا بحبسه، أو قتله، أو إخراجه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

ولهذا لما وقف ﷺ بـ«الحَزْوَرَة» قال مخاطبًا مكة: «**والله إنّك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّي أخرجت منك ما خرجت**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «**ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما سكنت غيرك**»(٢).

﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾، أي: حال كونه ﷺ ثاني اثنين، أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، بإجماع المسلمين.

﴿إِذْ هُمَا﴾؛ هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿فِي ٱلْغَارِ﴾ غار ثور، أسفل مكة، في جبل ثور الذي بينه وبين مكة نحو خمسة أميال. مكثا فيه ثلاثة أيام حتى برد عنهم الطلب.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، أي: حين يقول لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه. ونعم الصاحب رضي الله عنه؛ ولهذا قال ﷺ: «**لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي**»(٣).

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ وذلك لمّا ظهر على أبي بكر رضي الله عنه الحزن والقلق؛ خوفًا وإشفاقًا على رسول الله ﷺ أن يشعر به المشركون فيصيبوه بمضرة وأذى؛ كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: «**لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه**»(٤).

فجعل ﷺ يسكنه ويطمئنه ويثبته بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، فضل مكة (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)؛ من حديث عبد الله بن عدي الزهري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، فضل مكة (٣٩٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٣)؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٦).

وقوله: «**يا أبا بكر: ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!**»(١).

أي: معنا بمعيته الخاصة؛ بعونه، ونصره، وتأييده، وحفظه؛ كما في قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال:١٢].

قال السعدي(٢): «وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة؛ ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرًا؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها».

قال ابن القيم: «فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب رسول الله ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله، ولم يصحبه ببدنه؛ فإن الله معه»(٣).

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾، أي: طمأنينته وتثبيته وتأييده ونصره ﴿عَلَيۡهِ﴾، أي: على النبي ﷺ، بدليل قوله بعده: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ معطوفة على جملة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾، أي: قواه ونصره وحفظه وحرسه؛ بالملائكة الذين لا يشاهدهم البشر غالبًا.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: جعل شأنهم وما هم عليه من الشرك. ﴿ٱلسُّفۡلَىٰ﴾؛ المغلوبة الساقطة الحقيرة، فلم يتم لهم ما أرادوا، وانقلبوا خاسئين خاسرين، وحفظ الله عز وجل رسوله ﷺ، وأظهر بطلان ما هم عليه من الشرك.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾.

قرأ يعقوب بنصب «كلمةَ»؛ عطفًا على ما قبله، أي: وجعل كلمة الله هي العليا.

وقرأ الباقون برفع «كلمةُ»؛ فالجملة مستأنفة، فـ«كلمة الله» مبتدأ، و﴿هِيَ

---

(١) هذا من بقية حديث أنس المتقدم.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٢٣٩).

(٣) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٥٣).

﴿ٱلْعُلْيَا﴾ خبره.

و «كلمة الله»؛ دينه وشرعه، وكلماته القدرية والدينية؛ ولهذا قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

والمعنى: وجعل كلمته ودينه هو العالي الظاهر على الأديان كلها؛ بالحجج الواضحة، والآيات والبراهين الظاهرة، والسلطان الناصر؛ كما وعد عباده المؤمنين بذلك، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ الخطاب للمتثاقلين عن الخروج إلى الجهاد، الذين سبق لومهم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وهو عام لهم ولغيرهم.

وقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان؛ والمعنى: على أي حال كنتم؛ من الخفة والثقل؛ شبابًا وكهولًا وشيوخًا؛ في العسر واليسر؛ والمنشط والمكره؛ مشاغيل وغير مشاغيل؛ من كان خفيفًا عليه الخروج، ومن كان ثقيلًا عليه، أي: في جميع الأحوال.

﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ابذلوا جهدكم بأموالكم

---

(١) سبق تخريجه.

وأنفسكم في القتال لإعلاء كلمة الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: النفير خفافًا وثقالًا، وبذل الجهد بالأموال والأنفس في القتال في سبيل الله؛ خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم.

قال ﷺ: «**تكفّل الله للمجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنّة، أو يردّه إلى منزله نائلًا ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ**»(١).

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم تعلمون وتنتفعون بعلمكم، فاعلموا أن ذلك خير لكم؛ لما فيه من رضا الله تعالى ونصر دينه، والحصول على الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

وفي حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**أسلم**». قال: أجدني كارهًا. قال: «**أسلم وإن كنت كارهًا**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المتثاقلين عن الخروج للقتال في سبيل الله وتوبيخهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

٢- أن النفير المعتبر هو ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣- التحذير من الركون إلى الدنيا وتقديمها على الجهاد في سبيل الله وطاعته والدار الآخرة، والإنكار والنعي على من قدمها على الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾.

٤- أن الدنيا لا تزن شيئا بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٧)، ومسلم في الإمارة، فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٩، ١٨١)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ ولهذا فالعاقل اللبيب لا يقدمها على الآخرة ولا يغتر بها.

٥- التهديد والوعيد للناكلين عن الخروج للقتال في سبيل الله؛ بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، واستبدال قوم غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

٦- أن الخروج للجهاد في سبيل الله واجب إذا استُنفر الناس لذلك، والتخلف عنه من كبائر الذنوب؛ لأن الله توعد عليه بالعذاب الأليم.

٧- أن من تخلفوا عن النفير والخروج للجهاد لا يضرون الله شيئًا، وإنما يضرون أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾.

٨- إثبات قدرة الله تعالى التامة على كل شيء؛ من نصر دينه، واستبدال المتخلفين عن الخروج للجهاد بغيرهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩- تكفل الله عز وجل بنصرة رسوله في السابق واللاحق، وإن تخلف عن نصره من تخلف؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية.

١٠- التذكير بنصره عز وجل لنبيه ﷺ يوم الهجرة، والامتنان عليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾.

١١- إثبات صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحده للنبي ﷺ في هجرته؛ لقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾، وقد أجمع المسلمون على أنه المراد بهذه الآية الكريمة.

١٢- في لجوئه ﷺ إلى الغار وصاحبه ومكثهما فيه ثلاثة أيام حكمة؛ حتى ينقطع أو يخف الطلب عنهما.

١٣- شدة شفقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه على النبي ﷺ، وحزنه وقلقه؛ خوفًا عليه ﷺ من المشركين؛ لقوله ﷺ له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

١٤- أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، وعلى العبد أن يسعى في إذهابه والتغلب عليه بتفويض أمره إلى الله تعالى.

١٥- قوة اعتماده ﷺ على الله تعالى، وثقته بوعده ونصره وتأييده له؛ لقوله ﷺ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

١٦- إثبات معية الله تعالى الخاصة له ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه، ولجميع رسله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

١٧- تثبيت الله عز وجل للنبي ﷺ في هجرته وتسكينه لقلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾.

١٨- فضيلة السكينة، وأنها من كمال نعمة الله تعالى على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها العقول، وهي بحسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده، وإيمانه وشجاعته.

١٩- تأييده عز وجل له ﷺ بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٢٠- إثبات وجود الملائكة، وأنهم- غالبًا- لا يشاهدون.

٢١- جَعْله عز وجل كلمة الذين كفروا السفلى، أي: الحقيرة المغلوبة المقهورة، وإبطال ما هم عليه من الشرك، وما دبروه من الكيد للنبي ﷺ ولدعوته، وثنيه عن مهاجره؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾.

٢٢- أن كلمة الله تعالى هي العليا، ودينه هو الظاهر قدرًا وشرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾.

٢٣- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل؛ عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾.

٢٤- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل؛ الكوني، والشرعي، والجزائي، والحكمة البالغة؛ الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٢٥- يجب النفير عند الاستنفار لذلك؛ خفافًا وثقالًا، والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢٦- حاجة الجهاد في سبيل الله إلى الجهاد بالمال والنفس، وأهمية الجهاد بالأموال؛ لهذا قدم في الذكر.

٢٧- أن الجهاد المعتبر شرعًا هو ما كان في سبيل الله تعالى، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى.

٢٨- أن النفير خفافًا وثقالًا، والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله؛ خير خيريةً مطلقةً؛ في الدين والدنيا والآخرة، وعلى من ينتفع بعلمه أن يعلم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

عاتب الله في الآيات السابقة المتثاقلين عن الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ثم أتبع ذلك بذم المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، واعتذر كثير منهم كذبًا، وأنه لو كان عرضًا دنيويًّا قريبًا، وسفرًا غير بعيد؛ لاتبعوه ﷺ وخرجوا معه.

قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ «العرض»: ما يعرض من متاع الدنيا الزائل القريب، ومنافعها العاجلة، ثم يزول، أي: لو كان ما تدعوهم إليه متاعًا ونفعًا سهل المأخذ وغنيمة باردة.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، أي: وسفرًا وسطًا غير بعيد.

﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: لخرجوا معك، وليس ذلك منهم طاعة لله تعالى ورسوله، وإنما لموافقة ذلك لأهوائهم؛ لأنه غنيمة باردة بلا مشقة كبيرة؛ لكونه عرضًا قريبًا، وسفرًا غير بعيد.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ الشقة: المسافة الطويلة التي تقطع بمشقة؛ والمراد:

ولكن بعدت عليهم المسافة إلى تبوك.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: لكم إذا رجعتم إليه؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٩٤].

﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾، أي: لو قدرنا على الخروج.

﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، أي: ولم نتخلف عنكم، ولكننا لا نستطيع الخروج، وهذا اعتذار منهم وتأكيد لاعتذارهم.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: يوقعون أنفسهم بالهلاك المعنوي، وهو مخالفة أمر الله ورسوله بالقعود، والأيمان الكاذبة، والأعذار الباطلة، المؤدي إلى الهلاك الحسي، أي: إلى العقوبات والعذاب الدنيوي والأخروي.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ في زعمهم أنهم لا يستطيعون وحلفهم على ذلك، فهم في الحقيقة يستطيعون.

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أبدى فريق من المنافقين أعذارًا كاذبةً للتخلف عن غزوة تبوك؛ فعفا عنهم النبي ﷺ من غير تمحيص في أعذارهم، وأذن لهم بالقعود؛ فعاتبه الله عز وجل في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ الآية.

قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، أي: سامحك الله وتجاوز عنك ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

في هذا من حسن المعاتبة ولطفها ما لا يخفى؛ ولهذا قال بعض السلف: «سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾»(١).

والمعنى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في القعود والتخلف عن الخروج للجهاد. والاستفهام للعتاب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٥) عن مسعد عن عون رحمه الله.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، أي: إلى غاية أن يتبين، أي: يظهر لك ويتضح الذين صدقوا في أعذارهم.

﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، أي: وحتى تعلم الكاذبين في أعذارهم، أي: هلا تريثت في الإذن لهم لما استأذنوك حتى تمحص في أعذارهم وتمتحنهم، فتعلم الصادق من الكاذب؛ لأنهم في الحقيقة كاذبون، ومصرون على القعود وعدم الخروج؛ سواء أذنت لهم بالقعود أو لم تأذن لهم؛ كما قال مجاهد: «ناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ؛ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا»(١).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤﴾.

لما ذكر استئذان المنافقين للقعود عن الجهاد بدعوى عدم استطاعتهم الخروج، وعاتب نبيه ﷺ على عدم التمحيص لمعرفة الصادق منهم من الكاذب؛ أتبع ذلك بما يؤكد كذبهم وعدم إيمانهم، وهو بيان أن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر حقًّا لا يستأذنونه في ترك الجهاد، بل هم في طليعة المجاهدين.

وهذه الآية والآيتان بعدها إلى قوله: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ في موقع البيان والتعليل لقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أي: لا يطلب منك الإذن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر حقًّا وصدقًا.

﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، أي: في أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، أي: في التخلف عن الخروج، وترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، بل يبادرون إلى ذلك ويسارعون. وفي هذا تنويه بفضل المؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٍ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٥).

ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور:٦٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: ذو علم تام حقًّا بالمتقين الذين يبادرون إلى الجهاد، ولا يستأذنوك في تركه كما يفعل المنافقون، وسيجازي كلًّا بعمله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تصريح بمفهوم قوله قبله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

«إنما»: أداة حصر، أي: لا يستأذنك في عدم الخروج للجهاد إلا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، أي: الذين لا يصدقون بالله واليوم الآخر ولا يوقنون بذلك؛ ولا يرجون ثواب الله في الآخرة، ولا يخافون عقابه؛ ولهذا قال: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: شكت في صحة ما جئتهم به من الدين، وفي وعد الله تعالى ووعيده.

﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾، أي: فهم بسبب ارتياب قلوبهم ﴿فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾، أي: لا يزالون في شكهم يتحيرون؛ كما قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء:١٤٣].

ومن مظاهر ترددهم أنهم لم ينفروا للغزو مع من نفر من المؤمنين، ولم يصرحوا بأنهم لن ينفروا، بل سلكوا مسلكًا يصلح للأمرين؛ وهو الاستئذان في القعود وهم كاذبون.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآية تدليل لعدم إرادتهم الخروج حقًّا، وتأكيد لكذبهم في زعمهم عدم الاستطاعة وحلفهم على ذلك.

قوله: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، أي: ولو أرادوا الخروج معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، أي: لتأهبوا له وهيؤوا له عدة من مال، وسلاح، وزاد، ومركب، وكل ما يحتاج إليه من أراد الخروج للجهاد.

والمعنى: أنهم لم يريدوا الخروج؛ لهذا لم يعدوا له عدته.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾، أي: أبغض نهوضهم وخروجهم للجهاد كونًا وقدرًا؛ لما فيه من تخذيل المؤمنين.

﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾، أي: خذلهم وكسّلهم عن الخروج، وثقله عليهم، وابتلاهم بالخور وضعف العزيمة.

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، أي: وقيل كونًا وقدرًا: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ زيادة مذمة لهم وتحقير، أي: اقعدوا مع الذين ليسوا أهلًا للقتال ممن عذر الله تعالى؛ من النساء، والصبيان، وأهل الأعذار؛ كالأعمى، والأعرج، والمريض. وفرق بين قاعد معذور، وقاعد غير معذور.

قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾.

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه كره انبعاث المذكورين وخروجهم وثبطهم، وحكم عليهم قدرًا بالقعود مع القاعدين، ثم ذكر في هذه الآية الحكمة في ذلك.

قوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾، أي: لو خرج هؤلاء المنافقون ﴿فِيكُم﴾، أي: معكم للقتال. وجاء التعبير بقوله: ﴿فِيكُم﴾، ولم يقل: «معكم»؛ إشارة إلى شدة تأثيره فيهم لو خرجوا معهم. ﴿مَّا زَادُوكُمۡ﴾؛ قوة، أو عزًّا، أو نصرًا على العدو. ﴿إِلَّا خَبَالٗا﴾؛ و«الخبال»: الفساد، والاضطراب، والشر، والعجز، والجبن، أي: لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا فسادًا، واضطرابًا في أمركم، واختلافًا، وعجزًا، وجبنًا؛ لإرجافهم بتهويل أمر عدوكم، وتخذيلهم لكم.

والاستثناء في قوله: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ على طريقة التهكم بتأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ فإن «الخبال» ليس زيادة في قوة الجيش، بل هو نقص وعدم للزيادة.

وهذا من علمه عز وجل ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا

لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾، أي: ولأسرعوا السعي بينكم بالنميمة والإفساد وبذلوا جهدهم في ذلك. ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الجملة حالية، أي: يطلبون لكم الفتنة، أي: الشر والاختلاف والتفرق.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، أي: وفيكم- أيها المؤمنون- أهل سمع وطاعة لهم، يصغون لحديثهم ويستنصحونهم؛ اغترارًا بهم، فلو صحبكم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم.

وما أكثر السماعين في الأمة- من السذج وضعاف العقول- لأراجيف المنافقين وأعداء الإسلام وإشاعاتهم وافتراءاتهم الباطلة، نسأل الله تبصير المسلمين.

وقيل: وفيكم جواسيس لهم، ينقلون إليهم أخباركم. والصحيح القول الأول.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، أي: ذو علم واسع بالظالمين من المنافقين وغيرهم؛ ولهذا كره عز وجل انبعاثهم وثبطهم وأقعدهم، وبيّن الحكمة من ذلك، وحذر منهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

بيّن عز وجل في الآية السابقة الحكمة في تثبيطه المنافقين عن الخروج وإقعادهم عنه، وهو سعيهم بالفساد والفتنة بين المؤمنين، ثم أتبع بذكر سوابقهم في هذا المسعى المشين.

قوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم محذوف، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد طلبوا الفتنة.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: فيما مضى وسبق، وفي هذا تعليل وتدليل لقوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، أي: لأن هذا ديدنهم، فقد ابتغوا للمؤمنين الفتنة من قبل، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد، حيث رجع بثلث الجيش هو ومن معه من المنافقين؛ لإلقاء الخوف في قلوب المؤمنين، وتهويلًا لأمر عدوهم.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، واللام: للتعليل، أي: قلّبوا لأجلك الأمور، أي: أجالوا أفكارهم وآراءهم في تدبير الحيل والمكائد لك ولأصحابك، مذ

وطئت قدمك أرض المدينة؛ بمباركة من اليهود، حيث أغاظهم جميعًا ظهور الإسلام وعز المسلمين، فدخل أناس كثيرون منهم في الإسلام ظاهرًا، وعملوا جاهدين على الكيد له في الباطن خلاف ما يظهرون كحال الرافضة أخزاهم الله؛ ولهذا قال:

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، أي: إلى غاية أن جاء الحق، أي: تبين واستقر بانكشاف أمرهم ونفاقهم.

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: ظهر دينه بانتصار المسلمين، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وكون الغلبة للمسلمين.

﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، أي: وهم كارهون لظهور أمر الله وغلبته وانتصاره.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

روى محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: «قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس، أخي بني سلمة: «**هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله، أوتأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «**قد أذنت لك**». ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ الآية، أي: إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر- وليس ذلك به- فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ، والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم»(١).

قال ابن كثير(٢): «وهكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس، وكان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة».

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾، أي: ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٤٩٢). وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٦)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٠١-١٠٢).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ١٠٢).

ائذن لي في القعود.

﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ في الخروج معك، أي: لا تعرضني للفتنة بسبب الجواري من نساء الروم.

وقيل: لا تفتنِّي في مالي وأهلي؛ لشدة محبتي لهم. وقيل: لا تفتني في الوقوع في المعصية بكون قعودي بلا إذن؛ لأنني قاعد أذنت لي أو لم تأذن.

وهذا كله من سمات المنافقين؛ ولهذا قال:

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾؛ «ألا»: أداة استفتاح وتنبيه، أي: ألا في الفتنة العظيمة وقعوا بقعودهم وتخلفهم عن رسول الله ﷺ، وكفرهم، ونفاقهم، وكذبهم، فزعموا الاحتراز من مطلق الفتنة المتوهمة، ووقعوا في الفتنة المطلقة المحققة.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا محيد لهم عنها، ولا مهرب لهم منها، ولا محيص، ولا مفر، ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩].

و«جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

وأظهر في مقام الاضمار، فلم يقل: «محيطة بهم»؛ للتسجيل عليهم بوصفهم بالكفر، وأنه سبب إحاطة النار بهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الكافرين.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المنافقين وفضحهم، وبيان أنه لو كان عرضًا دنيويًّا قريبًا وسفرًا غير بعيد لاتبعوه ﷺ وخرجوا؛ لا طاعة له ﷺ، وإنما لموافقة ذلك لأهوائهم وشهواتهم المادية؛ لأنهم يريدون غنيمة باردة بلا مشقة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾.

٢- لا بد من الصبر والمجاهدة؛ فطريق الجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢].

وقال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

٣- حلف المنافقين بالله كذبًا أنهم لا يستطيعون الخروج مع الرسول ﷺ والمؤمنين، ولو استطاعوا لخرجوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

٤- إهلاك المنافقين لأنفسهم- حسيًّا ومعنويًّا- بعدم خروجهم مع الرسول ﷺ، وحلفهم كذبًا أنهم لو استطاعوا لخرجوا، وكفرهم ونفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

٥- أن الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي أشد من الهلاك الحسي بالموت.

٦- علم الله عز وجل بكذب المنافقين في زعمهم أنهم لا يستطيعون الخروج وحلفهم كذبًا على ذلك، فهم في الحقيقة يستطيعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٧- معاتبة النبي ﷺ معاتبة لطيفة في إذنه للمنافقين دون أن يمحص في أعذارهم؛ ليتبين له الصادق والكاذب منهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٨- إثبات أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل، ولم يكن ﷺ يقوله من عند نفسه كما يقوله المشركون المبطلون؛ لقوله عز وجل عتابًا له ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ الآية.

٩- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لهذا أذن لمن أذن لهم من المنافقين مع أن كثيرًا منهم كاذبون، وفي هذا رد على من يزعمون أنه يعلم الغيب ويرفعونه إلى مقام الربوبية.

١٠- بيان أن المؤمنين حقًّا بالله واليوم الآخر لا يستأذنونه ﷺ في ترك الجهاد، بل يبادرون إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

١١- علم الله عز وجل التام بالمتقين الذين يبادرون إلى الجهاد، ولا يستأذنون في تركه كما يفعل المنافقون، وسيجازي كلًّا بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٢- بيان أنه إنما يستأذنه في ترك الجهاد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، المرتابون

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٩)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فيما جاءهم به ﷺ، وفي وعد الله تعالى ووعيده؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

١٣- تجلية الأمر للنبي ﷺ في بيان المؤمنين حقًّا، وفضح المنافقين.

١٤- تردد المنافقين وارتيابهم وشكهم؛ بسبب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

١٥- التدليل لعدم إرادة المنافقين الخروج حقًّا بعدم استعدادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾.

١٦- كراهته عز وجل لانبعاث المنافقين، وتثبيطه لهم، والحكم عليهم بالقعود كونًا وقدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

١٧- بيان الحكمة من كراهته عز وجل لخروج المنافقين، وتثبيطه لهم، والحكم كونًا وقدرًا عليهم بالقعود؛ وهي ما في خروجهم من الفساد والسعي بالفتنة بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾.

١٧- أن في المؤمنين من يستمع لهؤلاء المنافقين، ويغتر بكلامهم، وينطلي عليه أمرهم؛ وهذا مما يعظم خطر وجودهم مع المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾.

١٨- علم الله عز وجل التام بالظالمين من المنافقين وغيرهم؛ ولهذا كره انبعاثهم وثبطهم وأقعدهم، وبيّن الحكمة من ذلك، وحذر المؤمنين منهم.

١٩- بيان أن ديدن المنافقين ابتغاء الفتنة بين المؤمنين، والكيد للرسول ﷺ ولأصحابه ودعوته، وتدبير الحيل، وسوابقهم شواهد على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾.

٢٠- انكشاف أمر المنافقين وافتضاحهم، وتبين الحق، وظهور دين الله تعالى، رغم أنوفهم وكراهتهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾.

٢١- اختلاق المنافقين للأعذار العجيبة المتوهمة الكاذبة؛ من خوف الفتنة بنساء الروم،

وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

٢٢- التنبيه على أنهم وقعوا في الفتنة بتخلفهم عن رسول الله ﷺ، وبهذه الأعذار الكاذبة، وما هم عليه من النفاق.

٢٣- توعدهم بإحاطة جهنم بهم هم وغيرهم من الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة تخلف المنافقين عن الخروج، وابتغاءهم الفتنة، وتقليبهم الأمور بالكيد له ﷺ، ثم أتبع ذلك بذكر ما ينبئ عن شدة عداوتهم له ﷺ؛ وهو مساءتهم بحصول الخير له، وفرحهم بإصابته بمصيبة.

قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾؛ «الحسنة»: تطلق على كل ما يَحسن ويَسر، أي: إن تصبك حسنة؛ من نصر، وفتح، وظفر، وغنيمة، وظهور لأمرك، ونحو ذلك مما يسرك ويسر أصحابك.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾، أي: تحزنهم وتغمهم؛ لكراهتهم الخير لك ولأصحابك.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾؛ «المصيبة»: تطلق على كل ما يَسوء ويُحزن، أي: وإن تصبك مصيبة من إدالة للعدو عليك ونحو ذلك.

﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾، أي: يقولوا متبجحين بسلامتهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾، أي: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة بعدم متابعته، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، أي: ويرجعوا مسرورين بسلامتهم وبمصابك؛ لمحبتهم المصاب والسوء لك ولأصحابك؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، أي: قل لهؤلاء المنافقين الذين إن أصابتك حسنة ساءتهم، وإن أصابتك مصيبة فرحوا:

﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ «ما» موصولة أي: إلا الذي قدره الله لنا من حسنات أو مصائب، ونحن راضون بما قدره الله تعالى، موقنون بالقضاء والقدر؛ كما قال ﷺ: «**لا يقضي الله قضاءً للمؤمن إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾، أي: متولي أمورنا كلها، الذي بيده جلب النفع ودفع الضر، وضد ذلك، ونحن راضون بما قدره وقضاه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: وعلى الله وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: وعلى الله فليعتمد المؤمنون، ويفوضوا أمرهم إليه، مع تمام الثقة به في جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، أي: ونحن متوكلون عليه، مفوضون أمورنا إليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾، أي: قل يا محمد للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر ويفرحون بمصابكم:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾؛ «هل»: حرف استفهام فيه معنى النفي، والتربص: الانتظار، أي: ما تنتظرون بنا.

﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، أي: إحدى العاقبتين الحسنتين؛ إما الشهادة في سبيل الله التي هي أغلى المطالب وأعلى المراتب.

وإما النصر عليكم والظفر بكم، وكلاهما حسن، فنحن رابحون في الحالين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧٤].

وقال ﷺ: «**تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيل الله؛ أن يبلغه الشهادة، أو يرجعه إلى أهله نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة**»(١).

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾، أي: ننتظر بكم.

﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾، أي: بعذاب سماوي من عنده لا سبب لنا فيه، كما حصل للأحزاب يوم الخندق، حيث سلط الله عليهم الريح «الصبا»، وهي الريح الشرقية؛ كما قال ﷺ: «**نصرت بالصبا**»(٢). قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، أي: أو يصيبكم الله بعذاب بأيدينا؛ بالقتل، والسبي، والأسر، بأن يسلطنا عليكم ويظفرنا بكم إذا أظهرتم ما في قلوبكم من الكفر والنفاق.

والمعنى: ونحن ننتظر بكم أحد هذين الأمرين السيئين: إما إصابتكم بعذاب من عند الله، أو بأيدينا.

﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾، أي: فانتظروا إنا معكم منتظرون.

وفي الأمر في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ إشارة إلى عدم الاكتراث بتربصهم؛ لأن ما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠٥)وغيره، ومسلم، في كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٩٠٠)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يتربصون به هو خير للمؤمنين في الحالين.

وفي قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ تهديد للمخاطبين، أي: فإنا متربصون بكم العذاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بضم الكاف: «كُرها». وقرأ الباقون بفتحها: ﴿كَرْهًا﴾.

و«طوعًا» و«كرهًا»: مصدران في موضع الحال، أي: طائعين أو كارهين. وقوله: ﴿طَوْعًا﴾ من باب التنزل معهم؛ لأنهم في الغالب لا ينفقون إلا كرهًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

و«الطّوع»: ما كان عن طواعية وانقياد واختيار من النفس، و«الكره»: ما كان عن إكراه وإلزام لها.

﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ إنفاقكم، ولا شيء من أعمالكم.

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ تعليل لقوله: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾، أي: لأنكم كنتم قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله تعالى بكفركم ونفاقكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه الآية تفصيل لقوله: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، أي: بيان للتعليل لعدم قبول نفقاتهم.

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾.

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بالياء على التذكير: «يُقبل». وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تُقْبَلَ﴾.

و«أن» والفعل «تقبل»: في تأويل مصدر في محل جر، أي: وما منعهم من قبول نفقاتهم.

﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل «كفروا» في محل رفع فاعل لـ«منع»، أي: إلا كفرهم بالله وبرسوله. والإيمان شرط لقبول الأعمال، وهم لا إيمان لهم ولا عمل صالح.

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾، أي: ولا يأتون الصلاة، التي هي أفضل العبادات، والأعمال البدنية، وعمود الإسلام. ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر.

﴿وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾، أي: إلا حال كونهم كسالى، أي: متثاقلين، لا يكادون يؤدونها من ثقلها عليهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﴿إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾؛ «إلا» أداة حصر، والجملة كالتي قبلها حالية، أي: إلا حال كونهم كارهين.

وإنما كان هذا حالهم؛ لكفرهم ونفاقهم، فهم لا يرجون على إقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، وغير ذلك من الأعمال الصالحة؛ ثوابًا، ولا يخشون بترك ذلك عقابًا، والله عز وجل إنما يتقبل من المتقين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾.

قوله: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾؛ الاعجاب: الاستحسان، يقال: أعجبني كذا، أي: استحسنته، وقد يكون الشيء ظاهره الإعجاب والحسن، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

ومن هذا قوله تعالى هنا: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾، والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وقد يكون له ولكل من يصلح خطابه، أي: فلا تعجبك أموالهم بكثرتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه:١٣١].

﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾، أي: ولا يعجبك أولادهم أيضًا؛ بكثرتهم، ونضارتهم، وشهودهم معهم، ونحو ذلك.

والمراد أنه لا غبطة في أموالهم وأولادهم، بل هي استدراج لهم؛ لأنهم قدموها على طاعة الله تعالى، وعصوا الله تعالى لأجلها، وانشغلوا بها عن ذكره وطاعته، وأشقتهم في دنياهم، وصارت سببًا لعذابهم في الآخرة وشقائهم الأبدي؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ «إنما» أداة حصر، واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يعذبهم عذابًا دنيويًّا بالمشقة في جمعها وتحصيلها.

كما في الحديث: «**السفر قطعة من العذاب**»(١)؛ وذلك لما فيه من المشقة غالبًا.

وهكذا فإن الانشغال بالدنيا بالأموال والأولاد عذاب وعناء، فلا أشقى في هذه الدار ممن جعل الله الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، فاجتمع عنده هم القلب وعذابه، ونصب البدن وتعبه.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾؛ معطوف على «يعذبهم»، أي: وأن تزهق أنفسهم، أي: تخرج أرواحهم ويموتون.

﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم كافرين، ولا عقوبة أشد من هذا؛ أن تكون أموالهم وأولادهم سببًا لموتهم على الكفر؛ الموجب للحسرة والندامة، والعذاب السرمدي في الآخرة بالنار؛ بسبب تقديمهم لها على مرضاة الله تعالى، وانشغالهم بها عن طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾.

قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾؛ اللام في قوله: ﴿لَمِنكُمْ﴾ لام التوكيد، فهي مؤكدة للقسم، أي: لمنكم في الإيمان، أي: أنهم مؤمنون مثلكم.

﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، أي: وليسوا منكم، أي: ليسوا مؤمنين في الحقيقة، بل أهل شك

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، السفر قطعة من العذاب (١٨٠٤)، ومسلم في الإمارة (١٩٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ونفاق وكفر.

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾؛ «الفَرَق»: الخوف الشديد، أي: ولكن الذي دعاهم للتظاهر أنهم منكم والحلف على ذلك؛ أنهم قوم يخافون خوفًا شديدًا أن تدور الدوائر عليهم، بأن تظهر لكم أحوالهم؛ فتعادوهم وتقاتلوهم وتخرجوهم من بينكم.

كما قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

بيان وتفصيل لقوله تعالى: ﴿يَفْرَقُونَ﴾.

قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾؛ «الملجأ»: مكان اللجأ والتحصّن، أي: لو يجدون مأمنًا وحصنًا يتحصنون به.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾، أي: أو يجدون مغارات، وهي الغيران والكهوف في الجبال.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾؛ قرأ يعقوب: بفتح الميم وإسكان الدال مخففة: «مَدْخلًا». وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الدال مشددة: ﴿مُدَّخَلًا﴾.

والمعنى: أو يجدون ﴿مُدَّخَلًا﴾، أي: نفقًا وسربًا وسردابًا في الأرض يدخلونه.

﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ الضمير في «إليه»: يعود إلى ما يجدونه من أحد المذكورات: الملجأ، والمغارات، والمدّخل، أي: لانصرفوا إليه وهم يسرعون ويهرعون من شدة خوفهم.

والمعنى: أنهم من شدة خوفهم من الخروج إلى الغزو؛ لو يجدون مكانًا يختفون فيه عن أنظار الناس لقصدوه مسرعين؛ خشية أن يعزم عليهم بالخروج إلى الغزو.

كما أنهم أيضًا في وجودهم بين المؤمنين على أحر من الجمر، فلو وجدوا ملجأ يخلو الجو لهم فيه لأسرعوا إليه؛ لكراهتهم للمؤمنين، وخوفهم من افتضاح أمرهم، ولما يرون من انتصارات الإسلام وعز أهله؛ فهم في كَمَدٍ وغيظٍ وغمٍّ وهمٍّ، حالهم أشبه بحال الطير في القفص، لو قدروا أن يطيروا إلى السماء لطاروا، ولكن هيهات لهم ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عداوة المنافقين للنبي ﷺ؛ ولهذا يسوؤهم أن تصيبه حسنة، ويفرحون عندما تصيبه مصيبة هو وأصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٢- تبجح المنافقين عندما تصيبه ﷺ مصيبة بسلامتهم، وأن ذلك بسبب احترازهم وحذرهم من متابعته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، وما علموا أنهم إنما أخذوا بسبب هلاكهم.

٣- لا ينبغي الاعتماد على الأسباب المادية؛ من الاحتراز، والحذر، ونحو ذلك؛ فإنها لم تغن المنافقين شيئًا، بل يجب الاعتماد على الله تعالى وحده، مع فعل الأسباب.

٤- يجب الحذر كل الحذر من المساءة بحصول الخير للمسلمين، أو الفرح بمصابهم؛ فإن هذا من صفات المنافقين.

٥- إثبات القدر، ووجوب الإيمان به، ويقينه ﷺ بذلك هو والمؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

٦- تَوَلِّي الله عز وجل له ﷺ وللمؤمنين بولايته عز وجل الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

٧- وجوب التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٨- تربص المنافقين- ومن على شاكلتهم من الكفار- بالمؤمنين السوء، والهزيمة، والقتل، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾؛ أي: إذا كنتم تربصون بنا أن نقتل فذلك عندنا إحدى العاقبتين الحسنتين: الشهادة أو النصر، بل ذلك أحسنهما وأعلاهما مرتبة، وهي الشهادة في سبيل الله.

٩- أن الذين يتربصون بالنبي ﷺ وأصحابه من المنافقين وغيرهم إنما يتربصون بهم إحدى العاقبتين الحسنتين؛ إما: الشهادة، وإما: النصر؛ فكلاهما خير للمؤمنين، وكلاهما حسن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

١٠- انتظار النبي ﷺ والمؤمنين تعذيب الله المنافقين؛ بعذاب من عنده، أو بأيدي المؤمنين، بأن يسلطهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

١١- انتظار كل من المنافقين والمؤمنين عقبى أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

١٢- عدم قبول نفقات المنافقين لفسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

١٣- أن عدم قبول نفقات المنافقين، وتفسيقهم؛ لكفرهم بالله ورسوله، وكونهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون؛ فجمعوا بين كفر الباطن والظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

١٤- التلازم بين الكفر بالله والكفر بالرسول ﷺ؛ فمن كفر بالرسول ﷺ فهو كافر بالله، كما أن من كفر بالله فهو كافر بالرسول؛ لقوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، بعطف «برسوله» على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾، دون إعادة العامل «كفروا».

١٥- أن من أعظم الأعمال الظاهرة بعد إيمان الباطن: الصلاة والإنفاق؛ لهذا خصهما فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

١٦- لا ينبغي الإعجاب بما لدى المنافقين من أموال وأولاد؛ فذلك لا يغني من الحق شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾.

١٧- أن أموال المنافقين وأولادهم إنما هي سبب لعذابهم في الحياة الدنيا؛ بما يحصل لهم من هم القلوب، وتعب الأبدان في جمع الأموال وتحصيلها، ولما يحصل لهم من الشقاء بسبب الأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٨- أن أموال المنافقين وأولادهم سبب لموتهم على الكفر؛ لتقديمهم لها على رضا الله تعالى، وانشغالهم بها عن طاعته وذكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

١٩- حلف المنافقين كذبًا أنهم لمن المؤمنين؛ ليحقنوا بذلك دماءهم، ويحفظوا أموالهم؛

لقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٢].

٢٠- أن المنافقين في الواقع ليسوا من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

٢١- أن الذي حمل المنافقين على النفاق بإظهار الإيمان وهم كفار في الباطن، والحلف على أنهم من المؤمنين؛ هو خوفهم من افتضاح أمرهم، وتسلط المؤمنين عليهم بقتلهم وإخراجهم من بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

٢٢- شدة خوف المنافقين من الخروج إلى القتال، وأنهم لو يجدون مكانًا يختفون فيه عن أنظار الناس لقصدوه مسرعين؛ خشية أن يلزموا بالخروج.

كما أنهم لو يجدون مكانًا يلجؤون إليه ويتخلصون من مخالطة المؤمنين لأسرعوا إليه؛ لكراهتهم للمؤمنين، وخوف افتضاح أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة بعض صفات المنافقين موبخاً لهم، من التثاقل عن الجهاد والاستئذان والاعتذار عن الخروج إليه، وركونهم إلى الدنيا وعرضها القريب، وابتغائهم الفتنة، وتربصهم بالمؤمنين، وفسقهم، وعدم قبول نفقاتهم لكفرهم بالله ورسوله، وعدم إتيانهم الصلاة إلا وهم كسالى، وعدم إنفاقهم إلا وهم كارهون، وحلفهم أنهم من المؤمنين وليسوا منهم.

ثم أتبع ذلك ببيان أنهم مع ما سبق من الصفات الذميمة يتدخلون فيما لا يعنيهم فيعترضون على قسمته ﷺ للصدقات ويلمزونه في ذلك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ مبيناً لهم ما ينبغي أن يكونوا عليه ولمن تكون الصدقات.

سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: «بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «**ويحك، ومن يعدل إذا لم أعدل**» قال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه، قال: «**دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة، ينظر في قُذَذِهِ[1] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصله[2] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه[3] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيِّه[4] فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه، أو قال: إحدى ثدييه مثل ثدي**

---

(١) قُذَذِهِ: القذذ: ريش السهم، واحده قذة. انظر: «النهاية» مادة «قذذ».

(٢) نصله: النصل: حديدة تكون فوق رأس السهم لينفذ في الغرض. انظر: «النهاية» و«اللسان» مادة «نصل».

(٣) رصافه: الرصاف: عقب يلوى على مدخل النصل في السهم. انظر: «النهاية» مادة «رصف».

(٤) نضيه: النضي: السهم قبل أن ينحت إذا كان قدحاً. انظر: «النهاية» مادة «نضا».

المرأة، أو قال: مثل البضعة تَدَرْدَرُ[١] يخرجون على حين فرقة من الناس».

قال أبوسعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل النعت الذي نعته النبي ﷺ، قال: فنزلت فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾»[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

قرأ يعقوب: «يلمُزُك» بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها ﴿يَلْمِزُكَ﴾.

﴿مَّن﴾ موصولة والخطاب للنبي ﷺ، أي: ومن المنافقين الذي يلمزك في الصدقات.

واللمز: هو القدح والتعييب والتنقص، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩]، أي: يعيبونهم وينتقصونهم بالسخرية منهم.

﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: في قسم الصدقات بين الناس.

﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾، أي: فإن أعطوا من الصدقات رضوا.

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، أي: وإن لم يعطوا منها سخطوا وغضبوا و«إذا»: هي الفجائية، أي: يفاجئون بالسخط والغضب إذا لم يعطوا منها دون ترو أو تأمل؛ لجشعهم وشحهم، كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وهذا يدل على أن اعتراضهم على قسمه ﷺ للصدقات ولمزهم له في ذلك ليس لقصد صحيح، وإنما لأجل حظوظ أنفسهم، فهو عدل إن أعطاهم وغير عدل إن لم

---

(١) تَدَرْدَر: أي: ترجرج، تجيء وتذهب. انظر: «النهاية» مادة «دردر».

(٢) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين ومن ترك قتال الخوارج للتألف (٦٥٣٤)، ومسلم في الزكاة- ذكر الخوارج وصفاتهم (١٤٨)، والنسائي في الكبرى- **تفسير قوله تعالى:** ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (١١١٢٠).

يعطهم، وهذا هو حقيقة اتباع الهوى، واشتراء الحياة الدنيا ومتاعها الزائل بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾، الواو: عاطفة، ﴿ وَلَوْ ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿رَضُوا﴾ فعل الشرط، ﴿مَا﴾ موصولة، وجواب «لو» محذوف دل عليه المعطوف عليه، أي: ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا الذي أعطاهم الله ورسوله من قسم، قليلاً كان أو كثيراً لكان خيراً لهم.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه في قوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك، دون إعادة الفعل ﴿آتَاهُمُ﴾ دلالة على أن ما آتاهم الرسول ﷺ هو مما آتاهم الله، وأنه بوحي من الله.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، أي: كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا.

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ بيان لجملة ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، والسين في قوله: ﴿سَيُؤْتِينَا﴾ للاستقبال أي: سيعطينا الله مما عنده من الزيادة والخير العظيم.

فيكون رجاؤهم وثقتهم بما وعدهم الله به أوثق مما في أيديهم.

﴿وَرَسُولُهُ﴾، أي: ويؤتينا رسوله من فضله- عز وجل؛ لأنه ﷺ هو المباشر لقسم الصدقات؛ ولهذا لم يقل من فضله وفضل رسوله.

قال ابن تيمية: «فَذَكر أن الرسول يؤتيهم، وأن ذلك من فضل الله وحده، ولم يقل من فضله وفضل رسوله»(١).

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ تعليل، أي: لأننا إلى الله راغبون.

وقدم الجار والمجرور، لإفادة القصر،ن أي: إلى الله وحده راغبون لا إلى غيره.

والرغبة: الطلب بتضرع ورجاء، أي: راغبون إلى الله متضرعون إليه، راجون توفيقه لنا لطاعته، وأن يغنينا بفضله عمن سواه.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٣/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة لمز المنافقين للنبي ﷺ في قسم الصدقات، ثم أتبع ذلك بالرد عليهم ببيان أنه- عز وجل- هو الذي قسمها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

كما في حديث زياد بن الحارث الصدائي- رضي الله عنه- قال: «أتيت النبي ﷺ فبايعته- فذكر حديثاً طويلاً- قال: فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة. فقال له رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى- لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك**»(١).

وعن معاوية- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي**»(٢).

وفي الآية حسم لأطماع المنافقين وبيان أنهم لا يستحقون شيئاً منها.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه. ويقال لها كافة ومكفوفة؛ لأن «ما» دخلت على «إن» فكفتها عن العمل، وهو نصب المبتدأ ورفع الخبر.

أي: ما الصدقات إلا لهؤلاء المذكورين الفقراء والمساكين. إلخ.

و﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ جمع صدقة، والمراد بها: الزكاة الواجبة في الأموال: النقدين، والخارج من الأرض، وعروض التجارة، والسائمة من بهيمة الأنعام.

قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ**

---

(١) أخرجه أبوداود في الزكاة- من يعطى الصدقة وحد الغنى (١٦٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في العلم- من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧).

من أغنيائهم فترد على فقرائهم»[١]. وسميت صدقة لأنها تدل على صدق إيمان باذلها، كما سميت زكاة؛ لأنها تزكي المال، وتزيده بركة، وتحفظه من الآفات، وتزكي نفس صاحبها من الشح والبخل وتزكي نفس من دفعت إليه فلا يحمل على إخوانه الأغنياء ولا يبحث عن المال بطريق غير مشروع بسبب الحاجة.

﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، اللام في قوله ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وما بعده: للاستحقاق والتمليك، فهم يستحقون الزكاة ويملكونها ملكاً خاصًّا إذا أعطيت لهم.

و«الفقراء»: جمع فقير، وهو المعدم الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية، وسمي الفقير فقيراً لخلو يده أخذاً من القفر وهي الأرض الخالية، أو لشدة حاجته أخذاً من فقار الظهر، فهو لإعدامه يشبه من انقصمت فقار ظهره فأشرف على الهلاك. قال لبيد[٢]:

لما رأى لبد النسور تطايرت ... رفع القوادم كالفقير الأعزل

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو من عنده نصف الكفاية فأكثر دون تمامها، وسمي مسكيناً من السكون، وهو اللصوق في الأرض وعدم الحركة؛ لأن الحاجة أذلته وأسكنته، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٦].

وقُدم الفقراء على المساكين، كما قدموا على بقية الأصناف لشدة فاقتهم وحاجتهم وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال عدة أوصلها بعضهم إلى نحو أحد عشر قولاً[٣].

والأظهر أن الفقير المعدم الذي لا يجد شيئاً أو يجد قليلاً من الكفاية، والمسكين

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٢٧٤).

(٣) انظر: «الناسخ والمنسوخ» بتحقيقنا (٢/ ٤٤٢).

الذي لا يجد تمام الكفاية وإن وجد بعضها ونحو ذلك.

وقد استدل لهذا بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فسموا مساكين وهم يملكون سفينة.

كما استدل له بأن الرسول ﷺ استعاذ من الفقر، وفتنته، فعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ كان يقول: «**وأعوذ بك من فتنة الفقر**»(١).

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر**»(٢).

وقد روي عنه ﷺ أنه سأل المسكنة، فقال: «**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**»(٣).

وعلى كل حال فمن كان عنده ما يغنيه لم تحل له الزكاة، وكذا من كان لديه قدرة على الكسب مع توفر أسبابه. عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سويّ**»(٤).

وعن عبدالله بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ- يسألانه عن الصدقة، فقلَّب فيهما النظر، فرآهما جلدين، فقال: «**إن شئتما أعطيتكما، ولاحظَّ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٨٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٨).

(٢) أخرجه النسائي في السهو (١٣٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٥٢)، من حديث أنس رضي الله عنه- وقال: «حديث غريب».

(٤) أخرجه أبوداود في الزكاة- من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣٤)، والترمذي في الزكاة- ما جاء من لا يحل له الصدقة (٦)، وأحمد (٢/ ١٦٤، ١٩٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٥) أخرجه أبوداود في الزكاة- من يعطى من الزكاة وحد الغنى (١٦٣٣)، والنسائي في الزكاة- مسألة =

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»(١).

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾، وهم: الجباة والسعاة على قبضها وجمعها، وحفظها وتوزيعها، فيعطون من الزكاة للحاجة إليهم أجرة عملهم عليها، وإن كانوا أغنياء.

لكن لا يجوز أن يكونوا من قرابة الرسول ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة؛ لما جاء عن المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ، ليستعملهما على الصدقة، فقال: «**إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس**»(٢).

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين يعطون منها؛ لتأليف قلوبهم، ممن يرجى إسلامهم، أو قوة إيمانهم، أو كف شرهم عن المسلمين، ونحو ذلك.

فقد أعطى ﷺ صفوان بن أمية يوم حنين حتى أسلم، فعن صفوان بن أمية- رضي الله عنه- قال: «**والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ**»(٣).

وأعطى ﷺ يوم حنين جماعة من الطلقاء كل منهم مائة من الإبل، وقال: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، مخافة أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم**»(٤).

القوي المكتسب (٢٥٨٩)، وأحمد (٤/ ٢٢٤).

(١) أخرجه البخاري في **تفسير قوله تعالى**: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (٤٥٣٩)، ومسلم في الزكاة- المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه (١٠٣٩)، وأبوداود في الزكاة (١٦٣١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧١)، وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٣٩٣).

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة- ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة (١٠٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٦٠٩)، من حديث المطلب بن ربيعة والفضل بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣١٣)، والترمذي في الزكاة- ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم (٦٦٦)، وأحمد (٦/ ٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٠)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٢)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وعن علي- رضي الله عنه- «أنه بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: أتألفهم»(١).

وفي حديث أنس- رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم**»(٢).

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ بـ«في» الظرفية وكذا ما بعده للتنبيه على عظم حق هذه الأصناف، وأنهم كالوعاء للزكاة.

وفيه دلالة على أنه لا يشترط تمليكهم إياها، ودفعها لهم بأنفسهم، بل يجوز دفع ما يُعطى في الرقاب لأسيادهم، ودفع ما يُعطى للغارمين لغرمائهم ولو لم يعلموا بذلك، كما أن ما يدفع في سبيل الله لا يختص بملكه شخص بعينه بل هو في تجهيز الجيش عامة.

ومعنى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، أي: وتعطى وتصرف الزكاة في عتق الرقاب، وتخليصها، بشراء الرقاب وإعتاقها من الرق، وعون المكاتبين على سداد ما كاتبوا عليه وتخليصهم.

فيدفع سهم من الزكاة لعتق الرقاب وتخليصها أو المساعدة في ذلك، وهذا يدل على تشوق الإسلام وتشوفه إلى تحرير الرقيق، وتمليكه منافعه، ولهذا جعل سهماً من الزكاة في عتق الرقاب، كما جعل كثيراً من الكفارات في ذلك مثل كفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة اليمين، وغير ذلك. قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١-١٣].

وعن عمرو بن عبسة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أعتق رقبة مؤمنة كانت له فداءه من النار عضواً بعضو**»(٣).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣١)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٩)، والنسائي في الزكاة (٢٦١٠)، والترمذي في المناقب (٣٩٠١).

(٣) أخرجه النسائي في الجهاد (٣١٤٢).

الله، دلني على عمل يقربني من الجنة، ويباعدني عن النار. فقال: «**أعتق النسمة، وفك الرقبة**» فقال: يا رسول الله، أليسا واحداً؟ قال: «**لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**»(٢).

وكما يعتق منها الرقيق والمكاتب فكذلك يفك منها الأسير المسلم عند بعض أهل العلم.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ جمع غارم، وهم الذين غرموا وتحملوا حمالات؛ لإصلاح ذات البين، بين المسلمين، أو ركبتهم ديون في غير معصية عجزوا عن أدائها، وكذا من أصابته جائحة اجتاحت ماله، ونحو ذلك.

فمن غرم لإصلاح ذات البين أعطي بمقدار ما غرم ولو كان غنياً، ومن غرم لإصلاح نفسه أو أصابته جائحة فيعطى ما يفي دينه، ويسد حاجته.

عن قبيصة بن مخارق الهلالي- رضي الله عنه- قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها. فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها**» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة سحتاً، يأكلها صاحبها سحتاً»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه النسائي في النكاح- معونة الله الناكح الذي يريد العفاف (٣١٢٠)، والترمذي في فضائل الجهاد- ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم (١٦٥٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥١٨)، وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة- من تحل له المسألة (١٠٤٤)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٠)، والنسائي في الزكاة (٢٥٩١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «**تصدقوا عليه**» فتصدق الناس فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «**خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك**»(١).

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهم: الغزاة المجاهدون في سبيل الله- عز وجل، أي: لإعلاء كلمة الله؛ كما قال ﷺ: «**من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٢).

فيجعل سهم من الزكاة لتجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله؛ لأن الجهاد لا يقوم إلا على المال بل هو أهم من الجهاد بالنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم- غالباً- يقدم في الذكر الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهو: المسافر المجتاز من بلد إلى بلد، المنقطع في سفره، أي: الذي نفذت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، ولو كان غنيًّا.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾، أي: فرض الله ذلك فريضة وأوجبه وقدره.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع وسع كل شيء. فعلمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل وجودها، وبعد وجودها، وبعد عدمها. يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو حكم تام وحكمة بالغة، له الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية.

فهو- عز وجل- ذو العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة في قسمة الصدقات وفي كل ما قدر وشرع، يعلم أحوال خلقه وما هو أصلح لهم بعلمه وحكمه وحكمته.

ومن علمه- عز وجل- وحكمه، وحكمته أن جعل الزكاة في هذه الأصناف

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٥٦)، وأبوداود في البيوع (٣٤٦٩)، والنسائي في البيوع (٤٥٣٠)، والترمذي في الزكاة (٦٥٥)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٥٦).

(٢) سبق تخريجه.

الثمانية؛ الذين منهم من يعطى لحاجته كالفقراء والمساكين، وفي الرقاب، وابن السبيل، وكذا الغارمون إذا كان غرمهم لأنفسهم.

ومنهم من يعطى للحاجة إليه، كالعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله، وكذا الغارمون إذا كان غرمهم للإصلاح بين الناس تشجيعاً لهم على هذا العمل النبيل- وإن كانوا أغنياء.

ولو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم كما شرع الله- عز وجل- لم يبق في المسلمين فقير ولا محتاج، ولحصل من الأموال ما تكون به أعظم العدة والقوة والمنعة للأمة ضد أعدائها.

الفوائد والأحكام:

١- لمز بعض المنافقين للنبي ﷺ في قسم الصدقات، وتنقصهم وعيبهم له، لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

٢- أن هدف المنافقين في لمزهم وعيبهم له ﷺ في قسم الصدقات من أجل أن يعطوا منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾.

٣- أن نظرة المنافقين للحياة نظرة بهيمية مادية محضة، يرضيهم أن يعطوا من الصدقات، ويسخطهم أن لا يعطوا منها، ولا يفكرون فيما وراء ذلك.

٤- كان الأولى بهؤلاء الذين يلمزون النبي ﷺ في الصدقات الرضا بما آتاهم الله ورسوله، والتوكل على الله والثقة بكفايته وعطائه من فضله ورسوله مع الرغبة والتضرع إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

٥- أن ما يعطيه الرسول ﷺ هو من عطاء الله- عز وجل- وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك، دون إعادة الفعل ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾، أي: ورسوله يؤتينا من فضل الله عز وجل.

٦- وجوب الرضا بما قسمه الله والثقة بكفايته وبما عنده من الفضل، وأنه نعم الحسيب، والحث على الرغبة والتضرع إليه ورجائه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ

مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

٧- تولى الله- عز وجل- وتفرده وحده بقسم الصدقات، وبيان أهلها، كما تولى قسمة المواريث؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

٨- أن أهل الزكاة المستحقون لها ثمانية أصناف، وهم: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٩- لا يجوز صرف الزكاة لغير الأصناف المذكورة؛ لأن الله- عز وجل- حصرها فيهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية. والحصر إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

والأولى صرفها لجميع الأصناف، ويجوز صرفها لصنف واحد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»(١).

بل يجوز صرفها لشخص واحد من صنف واحد؛ كما جعل ﷺ لسلمة بن صخر صدقة بني زريق(٢).

ولا تلزم التسوية بين الأصناف ولا بين أفراد الصنف الواحد إذا أُعطوا جميعاً.

ولا يجوز إعطاؤها من تلزمه نفقته كالأصول والفروع والزوجة، ولا لغني، ولا لمن كان ذا قدرة على الكسب مع توفر أسبابه، كما لا يجوز أن تعطى لقرابة النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم في الإيمان (١٩)، وأبوداود في الزكاة (١٥٨٤)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢٢١٣)، والترمذي في التفسير (٣٢٩٩)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب.

١٠- أن إخراج الزكاة وإعطاءها لمستحقيها دليل على صدق إيمان دافعها، لهذا سميت صدقة.

١١- أن الفقراء أشد حاجة وفاقة من المساكين؛ لأن الله- عز وجل- قدمهم على المساكين وعلى بقية الأصناف.

١٢- أن المساكين غير الفقراء؛ لأن الله- عز وجل- عطفهم عليهم، والعطف في الأصل يقتضي المغايرة، ولهذا لو أوصى شخص للفقراء مثلاً بسدس ماله، وأوصى للمساكين بسبع ماله وجب إعطاء الفقراء السدس والمساكين السبع كما في وصيته.

لكن لو أوصى لأحد الصنفين وحده دخل معه الآخر؛ لأن الفقير والمسكين من الأسماء المترادفة، التي إذا اجتمعت انفردت، وإذا انفردت اجتمعت كالإسلام والإيمان، والبر والتقوى، ونحو ذلك. ولهذا لو أوصى رجل بثلث ماله للفقراء دخل معهم المساكين، ولو أوصى بذلك للمساكين دخل معهم الفقراء- وهكذا.

١٣- أن العاملين على الزكاة يعطون منها أجرة عملهم، حتى ولو كانوا أغنياء، وكذا المؤلفة قلوبهم على الإسلام يعطون ولو كانوا أغنياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذا مطلق.

وقد اختلف أهل العلم في بقاء سهم المؤلفة قلوبهم بعد النبي ﷺ، فروي عن عمر- رضي الله عنه- وجماعة من السلف أنهم لا يعطون من الزكاة بعد رسول الله ﷺ؛ لأن الله قد أعزَّ الإسلام وأهله، ومكن لهم في البلاد، فليسوا في حاجة إلى تأليف أحد على الإسلام.

وقال بعض أهل العلم إنهم يعطون منها عند الحاجة؛ لأن النبي ﷺ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وبعد ما أعز الله الإسلام. قالوا: وهذا أمر قد تدعو الحاجة والمصلحة إليه، فهو باق على جوازه[1]، وهذا هو الراجح.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٥١٩-٥٢٣)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٢٢-١٨٢٣)، «تفسير ابن =

١٤- جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بعمل من أعمال المسلمين كالقضاء والتعليم، وغير ذلك؛ لأن الله فرض للعاملين على الزكاة فيها حقًّا، فكذلك غيرها من أعمال المسلمين يجوز أخذ الأجرة عليها.

١٥- حرص الإسلام على تحرير الرقيق، وفك الرقاب من الرق؛ لهذا جعل لذلك سهماً من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

١٦- ترغيب الإسلام وتشجيعه في إصلاح ذات البين بين الناس وتحمل الغرم في سبيل ذلك؛ لهذا جعل للغارمين سهماً من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ تشجيعاً ومكافأة لهم.

١٧- تخفيف الإسلام عن أتباعه ما يقع عليهم من غرامات وديون وجوائح في أموالهم بإعطائهم نصيباً من الزكاة.

١٨- أهمية المال في الجهاد في سبيل الله، لهذا جعل الشرع سهماً من الزكاة لتجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقد قيل: يعطى منها في الحج؛ لأنه من سبيل الله، كما يعطى منها من تفرغ لطلب العلم، ونحو ذلك. بل وفي بناء المساجد والمدارس والمستشفيات وحفر الآبار وغير ذلك.

ولكن هذا القول يضعفه الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية، فلو جعل معنى (في سبيل الله)، في الآية كل عمل بر وخير لما كان للحصر فائدة.

وأيضاً: لو جعلت الآية عامة في كل بر لحُرِمَ من الزكاة من تُيقن أنه من أهلها. وخاصة أن بعض أعمال البر يبقى نفعها كبناء المساجد فيرغب الناس في وضع زكاتهم في مثل هذه الأعمال، فالصحيح أن المراد بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تجهيز الغزاة والمجاهدين في سبيل الله خاصة.

١٩- عناية الإسلام بأبناء السبيل وهم المسافرون بإعطائهم نصيباً من الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

كثير» (٤/ ١٠٧-١٠٨).

٢٠- أن إعطاء الزكاة لمن ذكر الله- عز وجل- من الأصناف فرض واجب فرضه الله- عز وجل- وأوجبه وقدَّره؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢١- إثبات أن الله- عز وجل- ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٢- في اقتران العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة في حقه- عز وجل- زيادة كماله- عز وجل- إلى كمال، وكمال ما قدره وشرعه من قسم الصدقات وغير ذلك.

٢٣- أن الدين الإسلامي دين التكافل الاجتماعي بأسمى معانيه حيث أوجب في أموال الأغنياء حقًّا لإخوانهم المحتاجين من الفقراء والمساكين ونحوهم مما لا نظير له في جميع الأديان والمذاهب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾؛ الأذى: الإضرار، وأكثر ما يطلق على الإضرار بالقول والدسائس، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١].

والمعنى: من المنافقين قوم يؤذون النبي ﷺ بالكلام فيه.

وأظهر في مقام الاضمار، فلم يقل: «يؤذونك»؛ لتعظيمه ﷺ بوصف النبوة، وتهويل خطر أذيته ﷺ.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾؛ قرأ نافع بإسكان الذال في الموضعين: «أُذْن»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿أُذُنٌ ﴾ .

والجملة بيان لقوله: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: يؤذون النبي بهذه المقالة ونحوها.

ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾، أي: يستمع لكل ما يقال له ويصدقه، ولا يميز بين الصادق والكاذب؛ فمن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا.

وفي هذا مسبة له ﷺ، وإشعار منهم بعدم الاكتراث والاهتمام به.

ولا زالت هذه المقالة النفاقية تجد رواجًا على ألسنة كثيرين، فإذا رأوا شخصًا صريحًا، واضحًا في تعامله، صادقًا في أقواله؛ قالوا هذا «صُحَيح» بالتصغير؛ للتحقير، يعنون أنه يُصدِّق ما يسمع، ويُخبر بالصدق فيما يقول؛ لأن الكيّس الفطن في نظرهم القاصر: من يجيد المكر والخداع ويتصف بالغموض، فلا يفهمه أقرب الناس إليه؛ زوجته وأولاده.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، أي: هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب، ويقبل ما هو خير، ويرفض ما هو شر، يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم، ويسمع معاذريكم ويقبلها منكم؛ لسعة خلقه ﷺ، وامتثالًا لأمر الله له بالإعراض عنكم؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء:٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة:٩٥].

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، أي: يؤمن بالله؛ بقلبه، ولسانه، وجوارحه؛ بربوبيته، وإلاهيته، وأسمائه، وصفاته. وهذا تمهيد لقوله بعده:

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ويصدق المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، أي: وما أنت بمصدق لنا، أي: وما أنت بمصدقنا ولو كنا صادقين.

ومعنى ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يصدقهم فيما يخبرونه به؛ لصدقهم، دون المنافقين الكاذبين.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾؛ قرأ حمزة: «ورحمةٍ» بالجر، عطفًا على «خير». وقرأ الباقون: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع، معطوف على «أذن».

أي: ورحمة خاصة للذين آمنوا منكم؛ لاهتدائهم بهديه واقتدائهم به، دون غيرهم

ممن لم يهتدوا بهديه، وإن كانت رسالته رحمةً لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ رغبهم في الإيمان، ثم حذرهم من أذى رسوله ﷺ، أي: والذين يؤذون رسول الله بقولهم: «هو أذن»، أو بغير ذلك من أنواع الأذى.

﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ مؤلم موجع حسيًّا ومعنويًّا؛ في الدنيا: بتحتم قتل من سب النبي ﷺ، وما يلقاه من ألم المعصية في قلبه. وفي الآخرة: بعذاب النار، والتبكيت والتوبيخ فيها.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «والذين يؤذونك»؛ لتعظيمه ﷺ بوصف الرسالة، وتعظيم أمر أذيته ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾.

قوله: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾، أي: يحلفون بالله على نفي ما نسب إليهم من الأذى ونحوه، أو على الاعتذار عن ذلك، أو عن ترك الجهاد ونحو ذلك؛ وهم كاذبون، بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، وبدليل قوله فيما سبق: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢].

﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾، أي: لأجل أن يرضوكم بهذا الحلف، دون مراعاة لمن هو مطلع على سرائرهم؛ ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، أي: أن يقدموا رضاه عز وجل ورضا رسوله ﷺ على رضا جميع الخلق، وذلك بالإيمان به عز وجل، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

ورضا الله عز وجل ورضا رسوله متلازمان؛ ولهذا أفرد الضمير في قوله: ﴿أَن يُرۡضُوهُ﴾، أي: فالله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك.

﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: كما يزعمون ويدعون؛ لأن المؤمن لا يقدم رضا أحد على رضا الله عز وجل ورضا رسوله ﷺ.

وفي هذا تعريض بعدم إيمانهم؛ حيث قدموا رضا غير الله ورسوله على رضا الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

ذكر في الآيات السابقة كثيرًا من أحوال المنافقين الذميمة؛ مثل ابتغائهم الفساد والفتنة في المؤمنين، وفسقهم، وكفرهم بالله ورسوله واليوم الآخر، وكذبهم، وأذاهم للنبي ﷺ، وغير ذلك، ثم أنكر عليهم وتوعدهم- لمحادتهم الله ورسوله بهذه الأعمال- بنار جهنم خالدين فيها، وذلك الخزي العظيم.

قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: فليعلموا.

﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ الضمير المنصوب بـ«أن»: ضمير الشأن، أي: أن الحال والشأن أنه: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

و«المحادة»: المعاداة والمخالفة والمشاقة، مأخوذة من الحد والشق، أي: أنه من يشاق الله ورسوله، أي: يخالف أمر الله ورسوله، فيكون في حد مباين لحد الله ورسوله.

وعطف قوله «رسوله» على اسم «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن المحادة للرسول ﷺ محادة لله تعالى.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ الفاء واقعة في جواب الشرط «من»، أي: فإن له مجازاة على محادته الله ورسوله: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، سميت النار نار جهنم؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾، أي: حال كونه خالدًا فيها خلودًا أبديًّا؛ لأن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها على الصحيح.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾؛ الإشارة للعذاب بنار جهنم. و﴿ٱلْخِزْىُ ﴾: الفضيحة والذل والهوان. ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴾: البالغ الغاية في عظمته؛ إذ لا أخزى ممن خلد في نار جهنم.

قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾، أي: يخافون ويخشون.

﴿أَن تُنَزَّلَ ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يحذر»، أي: يحذر المنافقون إنزال سورة.

و«السورة»: مجموعة من الآيات ذات بداية ونهاية؛ مثل سورة المنافقين. وهذه السورة سورة التوبة التي فضحتهم.

﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: تخبرهم وتبين لهم علم الله تعالى بالذي في قلوبهم، وتفضحهم وتظهر أسرارهم للناس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة:٨].

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾، أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: إن الله مظهر الذي تحذرون من الإخبار بما في قلوبكم، وكاشف أستاركم وفاضح أسراركم؛ بما ينزله من الآيات والسور؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد:٢٩-٣٠].

وكما توعدهم عز وجل أنزل فيهم سورة المنافقين، وسورة التوبة؛ التي فضحتهم، وهتكت أستارهم، وأظهرت أسرارهم؛ بذكر صفاتهم الذميمة، وتعداد أحوالهم السيئة: «ومنهم... ومنهم... ومنهم...»؛ ولهذا كان من أسمائها «الفاضحة»؛ لأنها فضحت المنافقين، وكشفت عوارهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال

رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾»(١).

ورُويَ عن قتادة: «أن أناسًا من المنافقين قالوا: أيرجو هذا الرجل- يعنون النبي ﷺ- أن يفتح قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات. فقال لهم: النبي ﷺ: قلتم كذا، قلتم كذا، قالوا: يا نبي الله ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. فأنزل الله فيهم ما تسمعون»(٢).

ومقصودهم في هذا وذاك التقليل من شأن جيش المسلمين، والتهويل من شأن الروم؛ إرجافًا بالمؤمنين وترهيبًا لهم.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾؛ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن سألت هؤلاء المنافقين؛ مقرعًا لهم ومنكرًا عليهم ما قيل عنهم من تقليل من شأن المؤمنين وجيشهم، وتهويل من شأن الروم.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم.

﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: إنما كنا في حديثنا نخوض ونلعب، أي: نمزح، أي: لا نقصد الطعن والعيب، أو التنقص للمسلمين وجيشهم، وإنما نتحدث حديث الركب نقطع عنا الطريق.

﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: قل لهم؛ منكرًا عليهم، ومقرعًا لهم، وموبخًا: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، الاستهزاء: السخرية والتنقص. والاستهزاء بآيات الله ورسوله استهزاء بالله تعالى.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾؛ الاعتذار: طلب العفو والتجاوز عن الذنب، أي: لا تطلبوا العفو

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٣-٥٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٤٤، ٥٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٠).

عما حصل منكم من استهزاء بالله وآياته ورسوله.

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ في موضع العلة للنهي عن الاعتذار، أي: لا تعتذروا؛ لأنكم قد كفرتم بهذه المقالة، وبهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

و«قد» للتحقيق، أي: تحقق كفركم بعد إيمانكم الذي تظهرونه وتدّعونه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾؛ قرأ عاصم بنون مفتوحة وضم الفاء: ﴿إِن نَّعْفُ﴾. وقرأ الباقون: «يُعفَ»، بياء مضمومة وفتح الفاء.

أي: إن نتجاوز عن طائفة منكم بتوفيقهم للتوبة، وقبولها منهم.

قيل: وممن عفا عنه رسول الله ﷺ: مخشي بن حُمَيِّر، فتسمى عبد الرحمن، أو عبد الله بن عبد الرحمن(١).

﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؛ قرأ عاصم بالنون وكسر الذال: ﴿نُعَذِّبْ﴾، و﴿طَآئِفَةًۢ﴾ بالنصب مفعول به. وقرأ الباقون: «تُعذَّب» بتاء مضمومة وفتح الذال، و«طائفةٌ» بالرفع، نائب فاعل.

أي: نعذب طائفة لعدم توبتهم.

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم كانوا مجرمين؛ لما صدر منهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، ولما هم مقيمون عليه من الكفر والنفاق.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، أي: أنهم صنف واحد، وعلى شاكلة واحدة، محادون لله ورسوله، وأعداء لله ورسوله وللمؤمنين. وفي هذا قطع الولاية بينهم وبين المؤمنين.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٢٤-٥٢٥).

وفي العدول عن تغليب الذكور على الإناث في هذه الآية والتي بعدها، والتصريح بذكر «المنافقات»؛ زيادة التأكيد والاهتمام؛ لخطورة أمر النفاق.

وقال: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، ولم يقل: «أولياء بعض»؛ لأنه لا ولاية بينهم.

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾؛ من الكفر بالله وآياته ورسوله، والكذب والفسوق والعصيان.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ من الإيمان بالله وآياته ورسوله، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة.

فهم بضد المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله؛ من النفقات الواجبة كالزكاة ونحوها، ومن النفقات المستحبة.

فجمعوا بين ترك الإحسان في عبادة الله تعالى والقيام بحقه، وترك الإحسان إلى عباد الله بعدم أداء حقوقهم.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم به باطنًا، وعدم ذكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٩].

﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ هذا من باب المشاكلة، أي: تركهم وعاملهم معاملة من نسيهم، أي: حرمهم من توفيقه، ورحمته، وجنته؛ فصاروا إلى الدرك الأسفل من النار.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الفسق؛ ولهذا أكد ذلك بعدة مؤكدات، وهي: «إن»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم»؛ وذلك؛ لأن فسقهم أشد وأعظم من فسق غيرهم؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والنفاق والمخادعة؛ ولهذا كانوا أشد الناس عذابًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[النساء: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ

حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

توعد عز وجل في الآيات السابقة- بعد ذكر عدد من أحوال المنافقين- من يحادد الله ورسوله بنار جهنم خالدًا فيها، في إشارة واضحة إلى المنافقين، ثم صرح في هذه الآية بوعدهم والكفار بذلك.

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ «الوعد»: يستعمل فيما يسوء ويضر، كما يستعمل فيما يسر وهو الغالب؛ بخلاف «الوعيد»، فإنه لا يستعمل إلا فيما يسوء.

و«المنافقون والمنافقات»: من يبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام.

و«الكفار»: من يظهرون الكفر.

فهم في نار جهنم سواء، لكن المنافقين أشد عذابًا- كما تقدم- لأنهم جمعوا بين الكفر والنفاق.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.

﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾، أي: هي كافيتهم في العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته وجنته.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ تأكيد لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ولهم عذاب دائم مستمر لا ينقطع.

قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

لما ذكر أحوال المنافقين وتوعدهم هم والكفار بنار جهنم خالدين فيها؛ بيّن مشابهتهم لمن قبلهم ممن توفرت لهم أسباب الحياة المادية، واستمتعوا فيها كالبهائم، وخاضوا فيها بالباطل، وحبطت أعمالهم، وخسروا الخسران المبين.

قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ الكاف للتشبيه، وهي في محل رفع خبر لمبتدأ

محذوف، أي: أنتم كالذين من قبلكم. أو في محل نصب بفعل مقدر، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم.

والمعنى: حالكم أيها المنافقون والكفار كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر؛ في أعمالكم، وجزائكم، ومصيركم؛ فمشابهتكم لهم في الأعمال اقتضت مشابهتكم لهم في الجزاء.

﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، أي: كانوا أقوى وأعظم منكم.

﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾، أي: وأكثر أموالًا وأولادًا منكم، فلم تنفعهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم.

﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ السين والتاء: للمبالغة في قوة التمتع، أي: فاستمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا وشهواتها، وآثروه على حظهم في الآخرة.

و«الخلاق»: النصيب والحظ المقدر من الخير؛ كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة:٢٠٠].

وقال ﷺ: «**إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة**»(١).

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾، أي: فاستمتعتم مثلهم، بنصيبكم من ملاذ الدنيا وشهواتها، وآثرتموه على حظكم في الآخرة.

﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ تأكيد للتشبيه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وما بعده، أي: كما استمتع الذين من قبلكم- من المنافقين والكفار- بنصيبهم وحظهم.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾؛ الكاف صفة لمصدر محذوف، أي: كالخوض الذي خاضوه، أو مصدرية، أي: كخوضهم، أي: وخضتم في الكذب والباطل كالذي خاضه من قبلكم في ذلك؛ فشابهتموهم في الاستمتاع بالخلاق، وفي الخوض بالباطل؛ فسيحيق بكم ما حاق بهم، وهو ما ذكره تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، لبس الحرير للرجال (٥٨٣٥)؛ من حديث ابن عمر عن أبيه عمر رضي الله عنهما.

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قال ابن القيم: «والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب، وهو الاستمتاع بالخلاق؛ فالأول: البدع، والثاني: اتباع الهوى؛ وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل وعصي الرب، ودُخلت النار، وجعلت العقوبات. فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات؛ ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم. فبالصبر تدفع الشهوات وباليقين تدفع الشبهات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:٣]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤]. فقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المبتدعين وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرًا ما يجتمعان؛ فقلّ أن تجد فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله. والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، ويخوضون كخوضهم، وأن لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم»(١).

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: بطلت أعمالهم وزالت، فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، لا بطمأنينة ولا سعادة، بل كانت سببًا لشقائهم، ووبالًا عليهم في الدنيا، وسببًا لعذابهم بها في الآخرة، وشقائهم الأبدي في النار.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الخسران؛ ولهذا أكد

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٦٧).

خسرانهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك هم الخاسرون حقًّا، الذين خسروا الخسران المبين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥].

والمقصود: وأنتم مثلهم في سوء الحال والمال والعاقبة الوخيمة، ولن تنفعكم قوتكم ولا أموالكم ولا أولادكم.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: «ما أشبه الليلة بالبارحة؛ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: والذي نفسي بيده لتتبعنهم، حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم؛ شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وباعًا بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».

قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**»(٢).

وفي رواية: فقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾. قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «**فهل الناس إلا هم؟**»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقرير والتقريع

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالسنة (٧٣١٩، ٧٣٢٠)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٥٥١).

للمنافقين، أي: إنه قد جاءهم نبأ الذين من قبلهم، أي: بلغهم خبرهم العظيم، وما حل بهم من العقوبات لما كذبوا رسل الله.

﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ الذين أغرقهم الله بالطوفان لما كذبوا نوحًا عليه السلام، أول رسل الله إلى أهل الأرض.

﴿وَعَادٍ﴾؛ الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية لما كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام.

﴿وَثَمُودَ﴾؛ الذين أهلكهم الله بالصيحة والصاعقة لما كذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ خليل الرحمن عليه السلام، الذي أيده الله بالمعجزات، ونصره على قومه، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان.

﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾؛ الذين أهلكهم الله بالرجفة، والصيحة، وعذاب يوم الظلة؛ لما كذبوا نبيهم شعيبًا عليه السلام.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾؛ وهي قرى قوم لوط عليه السلام، التي جعل الله عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ لتكذيبهم لوطًا عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، والحجج والدلائل القاطعات.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ الفاء عاطفة، واللام في قوله: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للتوكيد، أي: فما كان الله ليظلمهم بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل والآيات البينات.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ بتكذيبهم الرسل وما جاؤوا به من الآيات البينات، فحل بهم ما حل من أنواع العقوبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

الفوائد والأحكام:

١- أذية المنافقين للنبي ﷺ، ولمزهم له بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، أي: أنه يستمع كل ما يقال له ويصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

٢- دفاع الله تعالى عن نبيه، وتوليه الرد على المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ الآية.

٣- أنه ﷺ أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ويصدق المؤمنين دون المنافقين، ويقبل ما هو خير، ويرفض ما هو شر، ولا يتعجل بالمؤاخذة، ويقبل العذر، ويعرض عمن أُمر بالإعراض عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤- أنه ﷺ رحمة خاصة للذين آمنوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾، كما أنه رحمة عامة لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

٥- الوعيد والتهديد للذين يؤذون رسول الله بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٦- تعظيمه ﷺ بوصفه بوصف النبوة بقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، وبوصف الرسالة بقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، مع ما في ذلك من تعظيم خطر أذيته ﷺ.

٧- حلف المنافقين بالله كذبًا للمؤمنين؛ ليرضوهم ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ لأن نظرتهم مادية فقط؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

٨- أن الأحق بأن يطلب رضاه هو الله تعالى ورسوله، وأن من قدم رضا غير الله على رضاه عز وجل ورسوله فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

٩- الإنكار على المنافقين محادتهم لله ورسوله، ووعيدهم- وكل محاد لله ورسوله- بنار جهنم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ

نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾.

١٠- أنه لا أعظم من خزي وذل من كان مصيره إلى النار والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١١- حذر المنافقين من إنزال سورة تفضحهم، وتبين للناس ما في قلوبهم من الكفر الباطن، وما هم عليه من الاستهزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية. فهم في خوف وقلق دائم؛ خشية افتضاح أمرهم، حالهم كما يقال: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

١٢- وعيدهم وتهديدهم بإخراج ما يحذرون منه وفضيحتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

١٣- استهزاء المنافقين بالله وآياته ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ وقوله: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

١٤- اعتذارهم الكاذب أنهم فيما صدر منهم من مقالة؛ إنما قالوا ذلك من باب المزاح واللعب، ولم يقصدوا حقيقة التنقص والاستهزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

١٥- توعدهم والانكار عليهم، وبيان أن حقيقة ما صدر منهم استهزاء بالله وآياته ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

١٦- رفض عذرهم، وبيان كفرهم بعد إيمانهم الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

١٧- أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج من الملة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

١٨- سعة عفو الله تعالى، وفتحه باب التوبة لمن حصل منه ذلك، وتوفيقه عز وجل طائفة من المذكورين للتوبة، وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾.

١٩- الوعيد بتعذيب طائفة منهم ممن لم يوفقوا للتوبة؛ لما ارتكبوه من الإجرام؛ لقوله

تعالى: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

٢٠- أن المنافقين بعضهم من بعض، صنف واحد، وعلى شاكلة واحدة، محادون لله ورسوله، وأعداء لله ورسوله وللمؤمنين، وفي هذا قطع الولاية بينهم وبين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

٢١- أمر المنافقين والمنافقات بالمنكر ونهيهم عن المعروف، ضد حال المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٢٢- شدة بخل المنافقين وشحهم في إنفاق ما عليهم من حقوق واجبة أو مستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

٢٣- نسيان المنافقين لله عز وجل؛ بكفرهم به باطنًا، وعدم ذكره وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٤- مجازاة الله عز وجل للمنافقين بحرمانهم من رحمته وتوفيقه وجنته، وجعلهم في الدرك الأسفل من النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾.

٢٥- بلوغ المنافقين الغاية بالفسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٢٦- وعد المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها، وكفايتها لهم، وطردهم من رحمة الله، واستمرار عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

٢٧- أن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

٢٨- مشابهة المنافقين والكفار من هذه الأمة- في استمتاعهم بحظوظهم الدنيوية الحقيرة، وخوضهم في الكذب والباطل- لمن قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا؛ في استمتاعهم بدنياهم، وخوضهم في الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ۚ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾.

٢٩- بطلان أعمال المنافقين والكفار في الدنيا والآخرة، وخسرانهم غاية الخسران، كأمثالهم ممن قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، أي: وأنتم مثلهم.

٣٠- أن شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد لا تغني من الله شيئًا، ولا تدفع عذاب الله.

٣١- أن من تشبه بقوم في عملهم فهو منهم، ومصيره مصيرهم.

٣٢- تقريع المنافقين والكفار من هذه الأمة والإنكار عليهم؛ لعدم أخذهم العبرة مما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل وما جاؤوا به من البينات؛ من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

٣٣- إثبات ظلم الأمم المذكورة لأنفسهم وإهلاكهم إياها، بتكذيبهم رسلهم.

٣٤- إقامة الحجة على الخلق بالرسل والآيات البينات، وأنه عز وجل لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

لما ذكر أن المنافقين بعضم من بعض، وذكر صفاتهم الذميمة، وتوعدهم بنار جهنم خالدين فيها؛ أتبع ذلك بذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وذكر صفاتهم الحميدة، ووعدهم رحمته وجناته ورضوانه؛ على طريقة القرآن في ذكر الشيء وضده، والجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾؛ أفرد «المؤمنات» بالذكر: للتأكيد والاهتمام، أي: إنهم يوالي بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا؛ فيتوادون ويتناصرون ذكورهم وإناثهم؛ كما قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»(١).

وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا**»(٢).

وهذا المعنى إنما يحصل بتوفيق الله تعالى للعبد، وقوة الإيمان، واستشعار قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم في البر، تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦)؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٦)، ومسلم في البر، تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي لله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

أما في حال ضعف الإيمان وطغيان الأنانية فإن هذا المعنى يضعف، بل قد ينعدم، بل قد يحل مكانه ضده؛ وهو العداوة والبغضاء، كما هو حال كثير من المسلمين اليوم، والله غالب على أمره.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، خبر ثان لـ«المؤمنون»؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠] وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

و«المعروف»: ما عرف حسنه في الشرع وفي عرف المسلمين من الأقوال، والأعمال، والعقائد، والأخلاق.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ معطوف على «يأمرون»، و«المنكر»: ضد المعروف، فهو ما لم يعرف من الأقوال، والأعمال، والعقائد، والأخلاق.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾، أي: ويقيمون الصلاة- فرضها ونفلها- إقامة تامة؛ بشروطها، وأركانها، وواجبتها، وسننها.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطون زكاة أموالهم لمستحقيها، بلا مماطلة، ولا ممانعة. وهذا في مقابل قوله في المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وخص هاتين العبادتين؛ لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات، وهي عمود الإسلام، وقاعدته التي يدور عليها رحاه.

ولأن الزكاة هي أعظم أركان الإسلام بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية؛ ففي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص؛ لأن كل ما سبق- من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة- من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، أي: ويطيعون الله ورسوله، بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذا في مقابل قوله في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [التوبة:٦٧].

وعطف قوله «رسوله» على اسمه عز وجل «الله» بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

[النساء:٨٠].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ السين للاستقبال والتأكيد. وهذا وعد منه عز وجل لهم برحمته، في مقابل وعيده للمنافقين بقوله: ﴿فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة:٦٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، وذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾.

وعدهم عز وجل رحمته، ثم فصل ما وعدهم به، وكله بسبب رحمته ومن آثارها.

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ الوعد- كما تقدم- يستعمل فيما يسر- وهو الأكثر- كما يستعمل فيما يسوء؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:٦٨]، وقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧].

وأظهر في مقام الاضمار فلم يقل: «وعدهم»؛ للعناية والاهتمام بهم.

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أي: بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر:٢٠].

وهي كما ذكر الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد:١٥].

وهي تجري بغير أخدود، يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا، قال ابن القيم:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أَخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ(١)

---

(١) «النونية» (ص٢٢٩).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين فيها أبد الآباد، لا يموتون، ولا يُخرجون منها.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، أي: منازل وبيوت يسكنونها، طيبة القرار، حسنة البناء، في غاية الصفاء، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلًا في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضًا**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «**لبنة ذهب، ولبنة فضة، وبلاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وشرابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**»(٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء**»(٤).

﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؛ «عدن» بمعنى «إقامة»، أي: في جنات إقامة أبدية، لا يتحولون عنها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي- ورب الكعبة- نور يتلألأ، وريحانة تهتّز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان، إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن (٤٨٨٠)، ومسلم في الجنة في صفة خيام الجنة (٢٨٣٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، صفة الجنة والنار (٦٥٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٠).

دار سليمة، وفاكهة وخضرةٌ، وحَبْرَة ونعمة، في محلة عالية بهية». قالوا: نعم، يا رسول الله، نحن المشمرون لها. قال: «**قولوا: إن شاء الله**». فقال القوم: إن شاء الله (١).

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ الواو: مستأنفة، و«رضوان»: مبتدأ، ونُكِّر «رضوان» للتعظيم، ﴿أَكْبَرُ﴾ خبره، أي: أكبر وأجل وأعظم من الجنات، وكل ما ذكر، ومن كل ما هم فيه من النعيم، وكل ما وعدوا به من ذلك؛ لأن رضا الله تعالى أصل جميع الخيرات، وسببها كلها.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: نعم، لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(٢).

وفي هذا دلالة على أن النعيم المعنوي- نعيم القلب- يفوق النعيم الحسي- نعيم البدن.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ الإشارة لجميع ما ذكر في الآية؛ من الجنات، والمساكن، وصفاتها، ورضوان الله تعالى عنهم.

وفي كون الجملة اسمية مع ضمير الفصل «هم»: توكيد وقصر، أي: ذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه.

الفوائد والأحكام:

١- أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يواد بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا؛ فيجب عليهم أن يقوموا بحق هذه الولاية فيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٢- أن المؤمنين ذكورهم وإناثهم سواء في الخطاب الشرعي، إلا ما دل الدليل عليه من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، صفة الجنة (٤٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٥).

تخصيص أحد الصنفين دون الآخر ببعض الأحكام، كما أنهم في الجزاء سواء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران:١٩٥].

٣- أن من صفات المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٤- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله قدمه في الذكر؛ لأنه سياج الدعوة إلى الله تعالى، وحصن الإسلام الحصين.

٥- أن من صفات المؤمنين أنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

٦- أهمية الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين العبادات.

٧- أن من صفات المؤمنين طاعة الله تعالى ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾، وأن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى.

٨- وعد الله عز وجل- الذي لا يخلف وعده- المؤمنين برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

٩- الإغراء والحث على الاتصاف بالصفات المذكورة؛ لأن الله أثنى على المؤمنين بوصفهم بهذه الصفات العظيمة، وامتدحهم بها، ووعدهم بمجازاتهم عليها برحمته.

١٠- إثبات صفة العزة لله تعالى؛ فله سبحانه عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾.

١١- أنه عز وجل ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ ﴾.

١٢- في اقتران تمام الحكم، والحكمة، والعزة في حقه عز وجل؛ كمال إلى كمال.

١٣- وعد الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان منه أكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

١٤- عظم ما في الجنة من ألوان النعيم؛ ففيها الأنهار الجارية من تحت أشجارها وقصورها وغرفها، والمساكن الطيبة، وغير ذلك، مع رضوان من الله تعالى أكبر.

١٥- خلود أهل الجنة، وإقامتهم فيها إقامة أبدية؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، وعلى هذا أجمعت الأمة.

١٦- أن رضوان الله تعالى على أهل الجنة أكبر وأجل وأعظم من كل أنواع النعيم مما أوتوه ووعدوا به، لأن رضوانه عز وجل سبب ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

١٧- إثبات صفة الرضا لله عز وجل، على ما يليق بجلاله وعظمته.

١٨- أن النعيم المعنوي- نعيم القلب- قد يفوق النعيم الحسي- نعيم البدن- فليس في نعيم الجنة أعظم من رضاه عز وجل عنهم، ورؤيتهم له سبحانه.

١٩- أن الفوز العظيم إنما هو بدخول تلك الجنات، والتنعم بما فيها من ألوان النعيم من الأنهار والمساكن، والخلود فيها، مع رضوان الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

هذه الآية كقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم:٩].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ «يا» حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، و«ها»: للتنبيه، و«النبي» بدل منه أو عطف بيان. وتصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام.

ونداؤه ﷺ بوصف النبوة في مثل هذا الموضع، وبوصف الرسالة في مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]؛ مما اختصه الله تعالى به من بين الأنبياء؛ تشريفًا وتكريمًا له ﷺ.

و«النبي» مشتق من «النبأ»، وهو: الخبر الهام؛ لأنه مُنْبَأ ومُخْبَرٌ من عند الله تعالى، وهو مُنْبِئٌ ومُخبِرٌ لقومه.

ومشتق أيضًا من «النَّبْوَة»، وهي: المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء عليهم السلام ذوو مكانة عالية رفيعة عند الله تعالى وعند المؤمنين.

﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ «المجاهدة»: بذل الجهد والطاقة والوسع، أي: ابذل وسعك وطاقتك في جهاد الكفار وقتالهم بالسيف والسنان، وفي جهاد المنافقين بالحجة والبرهان واللسان؛ فمن أظهر الكفر يجاهد بالسيف والسنان، ومن أبطنه وأظهر الإسلام، أو أذعن للإسلام بذمة أو عهد؛ فإنه يجاهد بالحجة والبرهان.

قال ابن القيم: «فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددًا فهم الأعظمون عند الله قدرًا»(١).

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ الضمير يعود إلى الفريقين: الكفار والمنافقين.

و«الغلظة»: الشدة، أي: واشدد عليهم بالقول والفعل. وهذا بخلاف الذين قال الله تعالى له فيهم: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾، أي: ومصيرهم الذي يأوون إليه جهنم.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: وساء وقبح المصير والمأوى جهنم.

قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾.

لما أمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم؛ أتبع ذلك بذكر موجب ذلك، وهو قولهم كلمة الكفر.

قوله: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾؛ هذا من صفات المنافقين وأقوالهم الذميمة الدالة على كذبهم ونفاقهم، أنهم ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما قالوا كلمة الكفر، وهم قد قالوها؛ لقوله بعده:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٧١).

﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾؛ من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وقول بعضهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، ونحو ذلك، فإذا علموا أن الرسول ﷺ قد بلغه قولهم جاؤوا إليه يحلفون بالله ما قالوا(١).

وتطلق «الكلمة» على الكلام الدال على معنى؛ قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وفي الحديث: «**أصدق كلمةٍ قالها شاعرٌ قول لبيدٍ: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلٌ**»(٢).

ولقد أكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، الواو: استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد قالوا كلمة الكفر، فأقسم الله عز وجل على تأكيد صدور ذلك منهم وكذبهم في حلفهم على نفي ذلك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، أي: وكفروا بهذا القول، ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ الظاهر الذي يدعونه؛ نفاقًا منهم، مع ما هم عليه من الكفر في الباطن؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، أي: بعد إظهاركم الإيمان في الظاهر.

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾؛ الْهَمُّ: نية فعل الشيء، سواء فعل أو لم يفعل. و«ما» في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة، أي: وهموا بالذي لم ينالوه، أو نكرة موصوفة، أي: بشيء لم ينالوه، أي: لم يحصلوا عليه.

قيل: هموا بقتل النبي ﷺ، وأعم من ذلك وأشمل: همهم بإطفاء نور الله بأفواههم بشتى الوسائل، وهيهات لهم ذلك.

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ الضمير في «نقموا»: يعود إلى المنافقين، أي: وما كرهوا وما عابوا على النبي ﷺ، ودخول الإسلام المدينة شيئًا

---

(١) انظر «جامع البيان» (١١/ ٥٦٩-٥٧٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٩-١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، والترمذي في الأدب (٢٨٤٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يدعوهم إلى ما يظهرونه من الكراهية والعداوة.

﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«نقموا».

والضمير في قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعود إلى الله عز وجل، فالمغني هو الله عز وجل وحده، وإنما عطف «رسوله» في قوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾؛ لأنه ﷺ سبب ذلك.

كما قال ﷺ للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟**» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَن(١).

والمعنى: وما نقموا وعابوا إلا أن أغناهم الله من فضله وزيادته وعطائه الجزيل؛ بسببه ﷺ، وقد كانوا قبل مقدمه ﷺ في ضنك من العيش وفقر، فأغناهم الله بسبب بركته ﷺ، وما جاء به من الهدى والحق؛ الذي جمعهم به بعد الفرقة، وألّف به بينهم بعد العداوة والاختلاف؛ فحصل الأمن، وكثرت الخيرات، وتوفرت الغنائم في الغزوات.

وهذه الصفة تقال حيث لا ذنب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف:١٢٦].

وكما قال ﷺ: «**ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله**»(٢).

وكما يقال: مالي عندك ذنب إلا أني أحسنت إليك.

فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ استثناء تهكمي، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ كقول النابغة في معلقته(٣):

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الطائف (٤٣٣٠)، ومسلم في الزكاة، إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، وأحمد (٤/ ٤٢)؛ من حديث عبد الله بن يزيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٨)، ومسلم في الزكاة، تقديم الزكاة (٩٨٣)، والنسائي في الزكاة (٢٤٦٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ٤٥).

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: فإن يرجع هؤلاء الكفار والمنافقون عما هم عليه من الكفر والنفاق. ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ «يك»: أصلها «يكن»، وحذفت النون للتخفيف، أي: يكن ذلك- أي: توبتهم ورجوعهم- خيرًا لهم، خيرية مطلقة؛ في دينهم، ودنياهم، وأخراهم.

فعرض عز وجل عليهم التوبة ورغبهم فيها، وفي هذا دلالة على سعة عفوه ورحمته، وأن المقصود بالغلظة عليهم ووعيدهم: دفع ضررهم وإصلاح حالهم.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾، أي: وإن يعرضوا عن التوبة، ويستمروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق.

﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، أي: يعذبهم الله عذابًا مؤلمًا موجعًا حسيًّا للأبدان في الدنيا، بقتل وأسر من أظهر الكفر منهم، ومؤلمًا وموجعًا للقلوب، بما ينالهم من الهم والغم والحزن والكمد على نصرة الله لدينه وإعزاز نبيه والمؤمنين، وعدم نيلهم مطلوبهم وما هموا به.

﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾، أي: وفي الآخرة بالعذاب الحسي في النار باصطلاء سعيرها ولظاها، والمعنوي بالتبكيت والتقريع لهم فيها، وتحطيم معنوياتهم.

﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف على ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾، و«من»: للاستغراق في العموم، أي: وما لهم في الأرض- إذا حل بهم عذاب الله- من أيِّ ولي يتولاهم بجلب الخير والنفع لهم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم بدفع العذاب والضر عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، «من»: موصولة، أي: الذي أعطى الله عهده وميثاقه، والعهد: الميثاق المؤكد.

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أعطانا الله من فضله. والفضل: الزيادة، أي: لئن أعطانا من فضله وزيادته مالًا، ووسع علينا الرزق.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، و«نصدقن» أصلها «نتصدقن»،

فأدغمت التاء في الصاد؛، للتخفيف، أي: لنتصدقن مما أعطانا الله من الفضل.

﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ معطوف على ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، أي: ولنكونن من الصالحين الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ.

ولكنهم لم يفوا بما قالوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: فلما أعطاهم عز وجل ﴿مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾، أي: أمسكوا بما أعطاهم الله من فضل، ولم يتصدقوا؛ فلم يفوا بعهدهم وقولهم: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾.

﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: تولوا بأبدانهم عن الانقياد والطاعة، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم عن الإيمان، فجمعوا بين التولي بأبدانهم والإعراض بقلوبهم، ومن أعرض بقلبه فلا أمل في رجوعه.

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ﴾، أي: صيَّر عاقبتهم وعقابهم وجزاءهم. وفاعل «أعقبهم» يعود إلى عدم وفائهم بما عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح، أي: إلى بخلهم وتوليهم وإعراضهم، أي: فأعقبهم وأورثهم ذلك- أي: ما صدر منهم من عدم الوفاء بعهدهم وبخلهم وتوليهم وإعراضهم- ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

ويجوز أن يعود فاعل «أعقبهم» إلى الله عز وجل، أي: فأعقبهم الله- أي: صير عاقبتهم وعقابهم وجزاءهم على فعلهم ذلك- ﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، أي: نفاقًا متمكنًا، ثابتًا في قلوبهم، مستمرًّا إلى يوم يلقون الله؛ بموتهم على النفاق، ولقاء الله تعالى يوم القيامة وهم على ذلك، فيجازيهم على أعمالهم. وهذا قد يقوي أن فاعل «أعقبهم» هو الله عز وجل.

﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾؛ الباء في الموضعين: للسببية، و«ما» في قوله: «بما» في الموضعين: مصدرية، أي: بإخلافهم الله ما وعدوه.

و«ما» في قوله: ﴿مَاوَعَدُوهُ﴾ موصولة، أي: الذي وعدوه، أو مصدرية، أي: وعده.

﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، أي: وبسبب كذبهم.

وقوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ يدل على تمكن الكذب فيهم وتجدده منهم؛ كما قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾؛ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ.

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾، أي: ما يسرونه ويضمرونه في أنفسهم فلا يظهرونه لأحد، فيعلم عز وجل ما في بواطنهم من النفاق، وأنهم- وإن آتاهم الله تعالى من فضله- لن يتصدقوا، ولن يكونوا من الصالحين كما يزعمون.

﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾، أي: وما يتناجون ويتحدثون به بينهم خفية، فلا يطلع عليه غيرهم؛ من الكيد والطعن للإسلام ونحو ذلك.

وقدم علمه بـ«سرهم» في إشارة إلى أن السر والجهر عنده سواء؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد:١٠].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؛ «علاّم»: على وزن «فعال»، صيغة مبالغة. و«الغيوب»: جمع «غيب»، وهو: ما غاب وخفي عن العيان ولم تدركه الحواس.

والمعنى: أن علمه عز وجل واسع لجميع الغيوب، لا يخفى عليه منها شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم:٣٨].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، علامة المنافق (٣٣)، ومسلم في الإيمان، بيان خصال المنافق (٥٩)، والترمذي في الإيمان (٢٦٣١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سبب النزول:

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: «لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل بشيء كثير؛ فقالوا: مراء. وجاء رجل فتصدق بصاع؛ فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾»(١).

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

قرأ يعقوب بضم الميم: «يلمُزون». وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَلۡمِزُونَ﴾، أي: الذين يعيبون وينتقصون، ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

و«المطوعين»، أصلها: «المتطوعين»، فأدغمت التاء في الطاء للتخفيف، أي: يعيبون الذين يتطوعون بالصدقة بالمال الكثير، ويطعنون فيهم بأنهم مراؤون.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾؛ عطفهم على «المطوعين» وهم منهم؛ اهتمامًا بشأنهم، أي: ويلمزون- أي: يعيبون- الذين ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾، أي: إلا طاقتهم، أي: إلا شيئًا يسيرًا، أو جهد أبدانهم.

﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾؛ السخرية: الاستهزاء، أي: يستهزئون بهم من قلة صدقتهم، بقولهم: إن الله غني عن صدقة هذا. ونحو ذلك، وما علموا أن «**أفضل الصدقة جهد المقل**»(٢) كما جاء في الحديث.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾؛ مجازاة لهم على سخريتهم بالمؤمنين المتصدقين، وهذا من باب المقابلة والمجازاة على صنيعهم، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع؛ حسًّا ومعنى، في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٤٩)، والنسائي (٢٥٢٦)؛ من حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر- فضل التطوع في البيت (١٤٤٩)، والنسائي في الزكاة- جهد المقل (٢٥٢٦)، وأحمد (٣/ ٤١١)، من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً (٢/ ٣٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(٥/ ١٧٨)، (١٧٩)، (٢٦٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ صيغة الأمر في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ مستعملة في معنى التسوية؛ كقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦].

والمعنى: اطلب المغفرة لهم أو لا تطلبها.

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أي: أنهم ليسوا أهلًا للمغفرة، وأنك لو استغفرت لهم- ولو سبعين مرة- فلن يغفر الله لهم.

ولا يفهم من ذلك أنه لو زاد على السبعين لغفر لهم، وإنما ذكرت السبعين- والله أعلم- حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها؛ ولهذا قال ﷺ: «**لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر لهم؛ لزدت عليها**»(١). يعني: عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ الإشارة: لانتفاء الغفران المستفاد من قوله: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، والباء: للسببية، و«أن» والفعل «كفروا» في تأويل مصدر في محل جر، أي: بسبب كفرهم بالله ورسوله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: والله لا يوفق الفاسقين الخارجين عن الإيمان وعن طاعة الله تعالى ورسوله بالكفر والمعاصي.

وأظهر في مقام الاضمار، فلم يقل: والله لا يهديهم؛ للتسجيل عليهم بوصفهم بالفسق، كما وصفهم بالكفر، وليشملهم هذا الوصف بالفسق هم وغيرهم من الفاسقين.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

٢- تشريف الله عز وجل وتكريمه للنبي ﷺ بخطابه بوصف النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٦)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٦)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٧)؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ٱلنَّبِيُّ﴾، مما لم يخاطب به عز وجل أحدًا من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

٣- وجوب بذل الجهد في مجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم؛ فالكفار الذين أظهروا الكفر يقاتلون بالسيف والسنان، والمنافقون الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام يجاهدون بالحجة والبرهان واللسان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

٤- الوعيد الأكيد للكفار والمنافقين بالمصير إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٥- إثبات وجود جهنم، وأنها بئس المأوى والمصير.

٦- حَلِف المنافقين كذبًا على نفي قولهم كلمة الكفر، وتأكيد الله عز وجل أنهم قالوها وكفروا بعد إسلامهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

٧- أن الإنسان قد يتكلم بكلمة يخرج بها من الإسلام إلى الكفر، وفي الحديث: «**لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته**»(١).

٨- بلاغة القرآن الكريم وإيجازه؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، فحذف مفعول «قالوا» في الجملة الأولى- وهو «كلمة الكفر»- اكتفاءً بذكره في الجملة الثانية.

٩- أن ديدن المنافقين الحلف بالله كذبًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة:١٦، المنافقون:٢].

١٠- أن المنافقين ظاهرهم الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾.

١١- فضح المنافقين ببيان همهم بما لم ينالوه من قتل الرسول ﷺ، أو إطفاء نور الله تعالى، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وأخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠١)؛ من قول أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢- أن المنافقين ليس لديهم ما يعيبون به الرسول ﷺ ودعوته؛ إلا أن ذلك كان سبب إغناء الله تعالى لهم من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

١٣- سعة عفو الله ورحمته، حيث رغَّب المنافقين بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

١٤- تحذير المنافقين من التولي، والوعيد لمن تولى بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

١٥- أنه لا ولي للمنافقين إذا نزل بهم عذاب الله يتولى جلب الخير لهم، أو دفع الضر والعذاب عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

١٦- الترغيب في التوبة، وأنها خير خيريّة مطلقة في الدين والدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

١٧- التحذير من التولي؛ لأنه سبب للعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وفقدان الولي والنصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

١٨- معاهدة بعض المنافقين الله إن آتاهم من فضله أن يتصدقوا ويكونوا من الصالحين، ونقضهم العهد وبخلهم وتوليهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

١٩- أن من صفات المنافقين الغدر ونقض العهود؛ كما قال ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

٢٠- أن الفضل والرزق من الله تعالى وحده، وإقرار المنافقين بذلك، ولو ظاهرًا؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤)، ومسلم في الإيمان (٥٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٨)، والنسائي في الإيمان (٢٦٣٢)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٢١- جمع المنافقين بين التولي بأبدانهم والإعراض بقلوبهم، مما لا يؤمل معه رجوعهم إلى الحق.

٢٢- عقوبة المنافقين لنقضهم عهد الله وبخلهم وتوليهم وإعراضهم؛ بأن أورثهم ذلك نفاقًا ثابتًا في قلوبهم متمكنًا منها، مستمرًّا إلى يوم موتهم ولقائهم الله تعالى؛ بسبب إخلافهم وعد الله وكذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

٢٣- أن السيئة سبب للسيئة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

٢٤- إثبات القيامة ولقاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾.

٢٥- تقريع المنافقين وتوبيخهم على ما يسرونه من النفاق، ومن إضمارهم خلاف ما عاهدوا الله عليه، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

٢٦- سعة علم الله تعالى واطلاعه على جميع الغيوب، وأن السر والجهر عنده سواء؛ ولهذا قدم قوله: ﴿سِرَّهُمْ﴾.

٢٧- لمز المنافقين المتطوعين في الصدقات المكثرين منها، وسخريتهم من الذين لا يجدون إلا القليل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾.

٢٨- سخرية الله تعالى من هؤلاء الساخرين على سبيل المجازاة لهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وتوعدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لتتبعهم أحوال المؤمنين ولمزهم لهم، وهذا من كبائر الذنوب، بل هو من أكبر الكبائر؛ لأنه لمز لهم على فعلهم الطاعات، وفيه تثبيط عن فعل الخير والصدقة.

وأيضًا حكمهم على المتطوع بالصدقة بأنه مراء، وهذا رجم بالغيب، وقولهم للمتصدق بجهده اليسير: «إن الله غني عن صدقة هذا». والله عز وجل غني عن

صدقة الجميع وعن أهل السموات والأرض.

٢٩- تيئيس المنافقين من مغفرة الله تعالى، وأن استغفار الرسول ﷺ لهم لو استغفر لهم وعدمه سواء في عدم انتفاعهم بذلك؛ لأن الله لن يغفر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

٣٠- أن سبب نفي مغفرة الله للمنافقين: كفرهم بالله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٣١- حرمان المنافقين وغيرهم من الفاسقين من هداية الله تعالى وتوفيقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٣٢- أن السيئات والمعاصي سبب للحرمان من هداية الله تعالى وتوفيقه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾، أي: المنافقون الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وأطلق عليهم «المخلّفون»؛ لأنهم استأذنوا النبي ﷺ بالقعود فأذن لهم وخلّفهم، أي: سروا وابتهجوا وتبجحوا.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾، أي: بقعودهم في المدينة، وعدم خروجهم للغزو بعد خروج رسول الله ﷺ، ففرحوا بقعودهم خلافه وعدم خروجهم معه، وفرحوا بمخالفتهم أمره.

وهذا بخلاف حال المؤمنين، كما حصل من الثلاثة الذين خلفوا، فلم يهدأ لهم بال حين تخلفوا عن الخروج، وأقلقهم ذلك حتى قفل رسول الله ﷺ راجعًا، فبادروا إليه معلنين ندمهم وتوبتهم.

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«كرهوا»، أي: وكرهوا الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله؛ لنفاقهم وكفرهم وعدم إيمانهم.

وقدم الجهاد بالأموال؛ لأنه أهم؛ لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إلا على المال.

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾، أي: قال بعض المنافقين لبعض: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾؛ النفير: الخروج للقتال، أي: لا تخرجوا في الحر؛ وذلك أن الخروج لغزوة تبوك كان في شدة الحر والقيظ عندما طابت الظلال والثمار.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾، أي: قل لهم يا محمد: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي ستصيرون إليها؛ بسبب نفاقكم وكفركم وقعودكم عن الخروج؛ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من حر القيظ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٦ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج:١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [الحج:٢١، ٢٢].

بل نار جهنم أشد حرًّا من نار الدنيا؛ كما قال ﷺ: «**ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**». فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «**إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا**»(١).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وأنه لأهونهم عذابًا**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنى أهل النار عذابًا ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه**»(٣).

﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾؛ الفقه: الفهم، أي: لو كانوا يفقهون ويفهمون الفهم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق ويتعظون.

«لو»: حرف امتناع لامتناع، فامتنع تذكرهم واتعاظهم واهتداؤهم إلى الحق؛ لعدم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، أهون أهل النار عذابًا (٢١٣).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢١١).

فقههم وفهمهم الفهم الذي ينفعهم.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا ﴾، الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للأمر، وفيه معنى التبكيت، أي: فليضحكوا في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية، ويتمتعوا بلذتها ويلهوا ويلعبوا ويفرحوا بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٨١]، وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد:٢٦].

﴿قَلِيلًا﴾، أي: ضحكًا قليلًا؛ لأن لذات الدنيا كلها محفوفة بالمنغصات والمكدرات، لا تستقيم على حال؛ كما قيل:

وَمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَرَى ... مِنَ العَيْشِ مَا يَصْفُو وَمَا يَتَكَدَّرُ(١)

وقال الآخر:

فَمَنْ أَكْرَمَتْ يَوْمًا أَهَانَتْ ضُحَى غَدٍ ... وَمَنْ أَضْحَكَتْ قَدْ آذَنَتْ بِبُكَائِهِ(٢)

وأيضًا: فليضحكوا زمنًا قليلًا؛ لأن الدنيا كلها قليل، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

وقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟! إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**». ولهذا كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»(٣).

﴿وَلْيَبْكُوا۟﴾، أي: وليبكوا غدًا في الآخرة في نار جهنم، التي إليها مصيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [فاطر:٣٧].

﴿كَثِيرًا﴾، أي: بكاءً كثيرًا متواصلًا لا ينقطع؛ لأن عذابهم في النار لا ينقطع، ولا

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «المستطرف» (ص٤٣).

(٢) البيت لابن مشرف. انظر: «ديوانه» (ص٣٨).

(٣)سبق تخريجه.

نهاية له؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف:٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧].

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: مجازاة لهم؛ بسبب كسبهم، أو بسبب الذي كسبوه من النفاق، ومخالفة أمر الله ورسوله، والتخلف عن الجهاد.

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فإن أرجعك الله وردك.

﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: من هؤلاء المنافقين الذين اختاروا القعود على الجهاد في سبيل الله، وتخلفوا بغير عذر، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله.

﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، أي: فطلبوا منك الإذن لهم للخروج معك إلى غزوة أخرى؛ إما طمعاً في غنيمة، أو لسهولة الخروج إليها في نظرهم، أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح:١٥].

﴿فَقُل﴾، أي: فقل لهم، ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾، أي: لن تخرجوا للقتال معي، ﴿أَبَدًا﴾؛ تأكيد لنفي خروجهم معه في المستقبل.

﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾؛ «عدوًا»: نكرة في سياق النفي؛ فتعم، أي: ولن تقاتلوا معي أيَّ عدو. وفي هذا تأكيد لما قبله.

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ تعليل لنفي خروجهم وقتالهم معه، أي: لأنكم رضيتم بالقعود أول مرة، أي: أحببتم القعود واخترتموه وآثرتموه على الخروج. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: أول مرة طلب منكم الخروج.

ووراء هذا ما يشير إلى عدم جدوى خروجهم ما داموا بهذه المثابة، وأن خروجهم قد

يكون عبئًا على المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:٤٧].

﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾؛ في هذا تعيير وتبكيت لهم، أي: فاقعدوا مع الخالفين عقوبة لكم، و«الخالفين» جمع خالف، وهم المتخلفون عن الغزو والجهاد من أهل الأعذار من الرجال والنساء والصبيان.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لما مات عبد الله ابن أبي بن سلول دعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟! أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «**أخِّر عني يا عمر**». فلما أكثرت عليه قال: «**إني خيرّت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها**». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف. فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال ﷺ: «**إنما خيرني. فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده**

(١) سبق تخريجه قريبًا، وقد روي نحوه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه، وفيه قول عمر رضي الله عنه: «فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله» أخرجه أحمد (١/ ١٦)، والترمذي في تفسير سورة براءة (٥٠٩٥) وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

على السبعين». قال: إنه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾» (١).

قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾، أي: ولا تصل على أحد من المنافقين مات أبدًا.

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾، أي: ولا تقم على قبره بعد الدفن مستغفرًا له وسائلًا له التثبيت، كما يشرع ذلك في حق المؤمنين.

عن عثمان رضي الله عنه قال: «كان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «**استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل**»(٢).

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾؛ تعليل للنهي عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم، أي: لأنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾، الواو حالية، أي: وهم خارجون عن طاعة الله ورسوله إلى الكفر والنفاق.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

هذه الآية: تأكيد لما دلت عليه الآية السابقة ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥] من أنه لا ينبغي أن يغتر أحد بما متع به المنافقون من أموال وأولاد، وبيان أنها فتنة لهم، ونقمة عليهم، وسبب لعذابهم وخسرانهم في الآخرة.

وقد أعاد «لا» بعد واو العطف في قوله في الآية الأولى: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾؛ تأكيدًا للنفي، وحذفها هنا فقال: ﴿وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾؛ اكتفاء بما سبق. وقال في الآية السابقة: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، وقال هنا: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا ﴾؛ اكتفاء بما ذكر في الآية الأولى.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة براءة (٤٦٧٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٠)، وأحمد (٢/ ١٨).

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز، الاستغفار عند القبر للميت (٣٢٢١).

وقال في الآية الأولى: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾، وقال هنا: ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾، وكلاهما بيان للعلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾؛ المراد بها هذه السورة« سورة براءة».

﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾؛ «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير لما حوته السورة، أي: سورة فيها أمرهم بالإيمان بالله والجهاد مع رسوله.

﴿ٱسۡتَـٔذَنَكَ﴾، أي: طلب منك الإذن في القعود والتخلف عن الجهاد.

﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾، أي: أصحاب الغنى والسعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا﴾، أي: اتركنا.

﴿نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، أي: القاعدين عن الخروج للجهاد؛ إيثارًا منهم للسلامة والدعة والراحة، مع قدرتهم المالية والبدنية على الجهاد، وفي هذا دلالة ظاهرة على أن عذرهم ينحصر في رغبتهم في القعود ليس إلا؛ وذلك لشدة جبنهم وخوفهم.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [محمد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأحزاب:١٩].

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، أي: أحبوا واختاروا وآثروا ﴿بِأَن يَكُونُواْ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: رضوا بكونهم مع الخوالف. و«الخوالف» جمع «خالفة»، صفة للنساء؛ لأنه لا جهاد عليهن؛ ولهذا قال ﷺ: «**عليهن**

جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»(١).

قال الشاعر:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ(٢)

وقيل: المراد بالخوالف: من لا جهاد عليه من أصحاب الأعذار من الرجال، وكذا النساء والصبيان. والمعنى: رضوا لأنفسهم بالعار والقعود في المدينة مع من عذر الله في ترك الجهاد من النساء وغيرهن.

وفي هذا ما فيه من الإهانة لأنفسهم؛ كما قال الحطيئة(٣) في هجاء الزبرقان بن بدر:

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: وختم على قلوبهم وطمس عليها؛ بسبب نفاقهم وكفرهم، ونكولهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ورضاهم بالقعود واختيارهم له.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يفهمون الفهم الذي ينتفعون به في دينهم ودنياهم وأخراهم، والذي يحملهم على فعل الخير، ويحجزهم عن الشر؛ وذلك بسبب الطبع على قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

لما ذم المنافقين على قعودهم، وعدم خروجهم مع رسول الله ﷺ، ونكولهم عن الجهاد معه، وتوعدهم؛ أتبع ذلك بالثناء عليه ﷺ والمؤمنين معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم، ووعدهم بما لهم من الخيرات والفلاح، وما أعد لهم من الجنات والخلود فيها، والفوز العظيم.

قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ «لكن»: حرف استدراك، وفي هذا الاستدراك إشارة إلى الاستغناء عن المنافقين ونصرتهم؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٢٩٠١).

(٢) البيت لعمرو بن ربيعة، انظر «ديوانه» (ص٣٣٨).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٥٣).

بجهاد الرسول ﷺ والمؤمنين معه بأموالهم وأنفسهم ونصرتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧].

والمعنى: لكن الرسول والذين آمنوا معه بذلوا جهدهم وطاقتهم بأموالهم وأنفسهم؛ لنصرة دين الله عز وجل، وإعلاء كلمته.

﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾، أي: وأولئك لهم- خاصة- الخيرات الكثيرة في الدنيا والآخرة، من النصر والغنيمة في الدنيا، والأجر والكرامة في الآخرة.

وأشار إليهم في هذا الموضع والذي بعده بإشارة البعيد؛ تنويهًا بعلو منزلتهم ورفعتهم، وأكد حصول الخيرات لهم خاصة بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبتقديم الخبر «لهم».

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أكّد فلاحهم، وحصر الفلاح فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك هم الفائزون بالمطلوب، والناجون من المرهوب، الفائزون بالجنة، الناجون من النار؛ فخصهم بالخيرات، وحصر الفلاح فيهم.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

هذا بيان وتفصيل لما وعدهم به من الخيرات والفلاح في الآية السابقة.

قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾، أي: هيأ وجهز لهم جنات، أي: بساتين ومساكن طيبة في جنات عدن.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لـ«جنات»، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلودًا أبديًّا، لا انقطاع له.

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ الإشارة: لما لهم من الخيرات والفلاح، وما أعد لهم من الجنات والخلود فيها. و﴿الْفَوْزُ﴾: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في كيفه، وكمه، ونوعه، وغير ذلك.

وإذا كان عز وجل وصف هذا الفوز بالعظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

الفوائد والأحكام:

١- فرح المخلفين وسرورهم وتلذذهم بقعودهم خلاف رسول الله ﷺ، وعدم الخروج لغزوة تبوك، ومخالفته ﷺ، وركونهم إلى الراحة والدعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

٢- كراهية المنافقين الجهاد في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣- أن من فرح بمخالفة أمر الله ورسوله وتلذذ بذلك، أو كره شيئًا مما أمر الله تعالى به ورسوله من الجهاد وغيره؛ فقد اتصف بصفات المنافقين.

ولا يبعد أن يتناول هذا من يتنعمون بالنوم على فرشهم، وبالمآكل والمشارب، ومجالس اللهو، أو اللهث وراء الدنيا؛ ومنادي الله يناديهم: حي على الصلاة، حي على الفلاح؛ فلا يجيبون، ويؤخرون الصلاة عن وقتها، أو يتخلفون عن صلاة الجماعة. فأولئك تنعموا وتمتعوا بقعودهم عن الجهاد، وهؤلاء تنعموا وتمتعوا بقعودهم عن أمر أعظم من الجهاد، وهو أداء الصلاة في وقتها.

٤- أن الجهاد بالمال قد يفوق الجهاد بالنفس؛ ولهذا قدم عليه في الآية.

٥- أن الجهاد المعتبر شرعًا ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى، ووفق شرعه.

٦- نهي المنافقين بعضهم لبعض من النفير متعللين بالحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾.

٧- الوعيد والتهديد للمتخلفين بنار جهنم التي هي أشد حرًّا من حر الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾.

٨- أن نار جهنم موجودة أعدها الله تعالى للكفار والعصاة.

٩- ذم هؤلاء القاعدين خلاف رسول الله بعدم فقههم؛ إذ كيف يتخلفون عن الخروج

مع رسول الله بحجة الحر، مع أن نار جهنم التي سيصيرون إليها بسبب ذلك أشد حرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

١٠- الوعيد للمتخلفين عن الخروج، وأنهم وإن ضحكوا قليلًا في هذه الدنيا الحقيرة وتمتعوا بلذاتها الفانية فسيبكون كثيرًا في الآخرة في النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾.

١١- أن مجازاة المتخلفين عن الجهاد بنار جهنم، وبالبكاء كثيرًا؛ بسبب كفرهم ونفاقهم، وفرحهم بالقعود خلاف رسول الله، وضحكهم وابتهاجهم بذلك، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

١٢- حرمان المتخلفين أول مرة من الخروج للغزو بعد ذلك؛ عقابًا لهم على تخلفهم الأول؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

١٣- تبكيت الذين رضوا بالقعود وإهانتهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

١٤- أن المعاصي سبب للحرمان من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، وفي الحديث: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

١٥- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين، وعن القيام على قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

١٦- أن العلة لنهيه ﷺ عن الصلاة عليهم هي كفرهم بالله ورسوله، وموتهم على الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ ولهذا لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

١٧- مشروعية الصلاة على المؤمن إذا مات، والقيام على قبره للاستغفار والدعاء له؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)؛ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

فمفهوم هذا النهي أن المؤمن يصلى عليه، ويقام على قبره، وعلى هذا دلت السنة النبوية.

١٨- أن أموال المنافقين وأولادهم مهما كثرت لا تثير العجب؛ لأن الله يريد تعذيبهم بها في الدنيا وموتهم على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

١٩- أن الأموال والأولاد قد تكون سببًا للعذاب؛ لأنها قد تشغل عن طاعة الله، وقد تحمل على مخالفة أمر الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٤-١٥]، وذكر عز وجل عن المخلفين والأعراب أنهم يقولون: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ [الفتح:١١].

٢٠- استئذان أولي الطول من المنافقين في عدم الخروج للجهاد، وإيثارهم أن يكونوا مع القاعدين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

٢١- تعبير المستأذنين عن الخروج للجهاد برضاهم أن يكونوا مع الخوالف؛ لقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾.

٢٢- عقوبة من رضوا بالقعود وآثروه على الخروج للجهاد؛ بالطبع على قلوبهم، وجعلهم لا يفقهون؛ لأن المعصية سبب للمعصية بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥].

٢٣- أن هؤلاء الذين اختاروا القعود ورضوه لأنفسهم لا يفقهون، أي: لا يفهمون الفهم الذي يهتدون به إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

٢٤- ثناء الله عز وجل على رسوله ﷺ والذين آمنوا معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾.

٢٥- بشارة الرسول ﷺ والذين أمنوا معه باختصاصهم بالخيرات، وحصر الفلاح

فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٢٦- أن مما أعده الله تعالى للرسول ﷺ والمؤمنين من الخير والفلاح: الجنات وما فيها من النعيم والخلود، والفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢٧- الترغيب في الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس؛ لعظيم ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قرأ يعقوب بتخفيف الذال: «المعذِرون» وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾.

و«المعذِّرون»: جمع «معذِّر»، أي: المعتذرون، أي: وجاء المعتذرون الصادقون المحقُّون في أعذارهم من الأعراب، مبينين ضعفهم وعدم قدرتهم على الخروج؛ بدليل مقابلته بقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وقيل: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ المتكلفون للعذر، أي: المعتذرون بلا عذر. والأعراب: هم سكان البادية.

﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يؤذن لهم في ترك الخروج للجهاد ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي: وقعد الذين كذبوا الله ورسوله في دعواهم الإيمان وإظهارهم له، أو في وعدهم النصر، أي: قعدوا عن المجيء والاعتذار، وعن الخروج إلى الغزو.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ ممن اعتذروا أعذارًا كاذبة، والذين كذبوا الله ورسوله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

لما ذم المنافقين ووبخهم على استئذانهم للقعود، وعدم الخروج للجهاد، مع ما هم عليه من الغنى والقدرة على الجهاد؛ أتبع ذلك بذكر الأعذار التي لا حرج على من قعد عن الخروج بسببها.

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾، الضعفاء: جمع ضعيف، وهو من به ضعف، وهو وهن القوة البدنية، كالشيخ الكبير، وكذا الأعمى والأعرج؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧، النور:٦١].

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾، «المرضى»: جمع «مريض»، وهو من به علة في بدنه لا يستطيع معها الجهاد.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ «ما» نكرة موصوفة، أي: لا يجدون شيئًا ينفقونه، أو موصولة، أي: لا يجدون الذي ينفقونه للتجهز للحرب، من الزاد والراحلة والسلاح؛ بسبب فقرهم.

﴿حَرَجٌ﴾ «الحرج»: الضيق، والمراد ما عليهم إثم في عدم الخروج للغزو والجهاد. وقد أعاد حرف النفي في عطف المرضى والذين لا يجدون ما ينفقون؛ لتوكيد نفي المؤاخذة عن كل فريق بخصوصه، ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ «إذا»: ظرفية شرطية، أي: ما عليهم من حرج بشرط نصحهم لله ورسوله بصدق الإيمان والإخلاص، وفعل ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد، وخَلَفهم الغزاة بخير في أهليهم وأموالهم.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ الجملة واقعة موقع التعليل لما قبلها، أي: ما على هؤلاء من حرج في ترك الجهاد إذا نصحوا لله ورسوله؛ لأنهم محسنون، وما على المحسنين من سبيل، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه سقط عنه ما لا يقدر عليه.

و«من» في قوله: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما على المحسنين من أي سبيل و«السبيل» في الأصل الطريق، أي: ما على المحسنين من طريق لمؤاخذتهم ومعاقبتهم ولومهم، و«المحسنون»: المتبعون شرع الله، فوصفهم بالنصح لله ورسوله- وهو الإخلاص- ووصفهم بالإحسان، وهما شرطا صلاح العمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

وقال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، وذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنصحهم وإخلاصهم وإحسانهم ثواب القادرين الفاعلين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ﴾ الآية معطوف على قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

و«إذا»: ظرف للمستقبل، متضمن معنى الشرط، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

والمعنى: ولا على الذين إذا أتوك لتحملهم. واللام في قوله: ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن تحملهم، أي: لأجل حملهم.

والمعنى: لتعطيهم ظهرًا يركبونه، ويحملون عليه زادهم وسلاحهم، ويجاهدون عليه.

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ جواب الشرط «إذا»، أو بدل من «أتوك»

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: قلت معتذرًا لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ «ما»: نكرة موصوفة، أي: لا أجد شيئًا أحملكم عليه، أو موصولة، أي: لا أجد الذي أحملكم عليه، أي: من الإبل أو غيرها من الدواب.

﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ جملة مستأنفة، أو جواب «إذا» أي: رجعوا.

﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، الواو: حالية، أي: حال كون أعينهم تفيض من الدمع، أي: تسيل ويخرج منها الدمع والماء، أي: تولوا وهم يبكون ﴿حَزَنًا﴾ مفعول لأجله، أي: بسبب الحزن.

﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾، أي: لأنهم لا يجدون ما ينفقون، و«ما» نكرة موصوفة، أي: لا يجدون شيئًا ينفقونه، أو موصولة، أي: لا يجدون الذي ينفقونه في سبيل الله من توفير الزاد لهم والراحلة والسلاح.

فهؤلاء لا حرج عليهم، بل هم مأجورون أجر المجاهدين؛ لصدقهم في إرادة الخروج لو تيسر لهم ووجدوا النفقة والمركب؛ ولهذا رجعوا وهم يبكون، وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

وقد قال الله عز وجل: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ [النساء:٩٥].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة، فدنا من المدينة فقال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**نعم بالمدينة حبسهم العذر**»(١)

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «**حبسهم المرض**»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر (١٩١١)، وابن ماجه في الجهاد، من حبسه العذر عن الجهاد (٢٧٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٠٠).

مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

نفى في الآيتين السابقتين الحرج عن الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، والذين لا يجدون ما يحملهم؛ في عدم الخروج للجهاد، إذا نصحوا لله ورسوله، وبيّن أنه ما على المحسنين من سبيل، ثم حصر السبيل في هذه الآية على الذين يستأذنون في التخلف وهم أغنياء، وفي هذا تأكيد للنفي السابق.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إنما يتوجه الإثم والمؤاخذة والعقاب واللوم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾، أي: يطلبون منك الإذن في عدم الخروج للقتال ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾، أي: حال كونهم أغنياء، قادرين على الخروج، لا عذر لهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾.

وفي هذا وذاك دون ذكر القدرة البدنية إشارة إلى أهمية القدرة المالية، فذو الغنى والطول لا يعذر بترك الجهاد بماله ونفسه، أو بماله إذا لم يستطعه بنفسه، بخلاف من لا يجد النفقة فقد يعذر بتركهما معًا.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ كرر هذا تأكيدًا لذمهم وتعييرهم، أي: رضوا لأنفسهم بكونهم مع الخوالف من النساء والصبيان ونحوهم.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: ختم الله على قلوبهم، فلا تعي الحق ولا تقبله.

﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهديهم إلى معرفة الحق واتباعه والعمل به؛ عقوبة لهم على نفاقهم وقعودهم عن الجهاد ومخالفتهم أمر الله تعالى ورسوله.

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

لما ذكر تخلف المنافقين عن الخروج من أولي الطول والغنى، وأنه لا عذر لهم أخبر أنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا إليهم من غزوهم.

قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، أي:

يعتذر إليكم كذبًا هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الخروج للجهاد إذا رجعتم إليهم بالمدينة من غزوة تبوك.

﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ النهي مستعمل في معنى التأييس ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ في موقع التعليل؛ لنهيهم عن الاعتذار، أي: لأنا لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب. يقال: آمن له، إذا صدقه. قال تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١].

﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تعليل لنفي تصديقهم، أي: لأن الله قد نبأنا من أخباركم بما يقتضي تكذيبكم، أو بأنكم كاذبون.

«قد»: حرف تحقيق، ﴿نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾، أي: أعلمنا الله، وأخبرنا بالوحي، ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ «من»: تبعيضية، أي: بعض أخباركم الكاذبة، وأن ديدنكم الكذب. كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، أي: وسيرى الله ورسوله ما يصدر منكم من عمل بعد اعتذاركم هذا، ويُظهر أنكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم، ولا تُتْبعون القول بالعمل، الذي هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء، وكما قيل:

وَكُلّ يَدَّعِي وَصْلًا بِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا(١)

وقال المتنبي(٢):

لَوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلّهُمُ ... أَلْجَودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

---

(١) البيت لمجنون بني عامر، المعروف بمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٥٣١).

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾، أي: ثم ترجعون وتصيرون بعد الموت والبعث ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ إلى الله عز وجل عالم الغيب والشهادة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢].

و«الغيب»: ما غاب عن علم الناس وعن حواسهم، و«الشهادة»: المشاهدة، و«ال»: فيهما للاستغراق، أي: عالم كل غيب وكل شهادة. ولم يقل ثم تردون إليه؛ لما في الإظهار من التنبيه على أنه لا يعزب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم زيادة في الترغيب والترهيب.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون، أي: بعملكم من خير وشر، ويحاسبكم ويجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ السين: للاستقبال والتأكيد، أي: سيحلفون لكم معتذرين إليكم، إذا رجعتم إليهم من غزوكم.

﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تعرضوا عنهم، أي: تتركوهم فلا تعاتبوهم ولا تعاقبوهم؛ لأنهم يخشونكم ما لا يخشون الله.

﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾، أي: فأعرضوا عنهم إعراضًا تامًّا واتركوهم احتقارًا لهم، ولا تبالوا بهم؛ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليل للأمر بالإعراض عنهم، أي: لأنهم رجس، أي: نجس نجاسة معنوية؛ لكفرهم ونفاقهم وخبث بواطنهم.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾، أي: ومصيرهم في آخرتهم ومرجعهم.

﴿جَهَنَّمُ﴾، أي: النار.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، الباء: للسببية، أي: مجازاة لهم بسبب الذي كانوا يكسبونه، أي: بسبب كسبهم، أي: عملهم السيئ.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].

﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بحلفهم لكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: الخارجين عن طاعته بالكفر والنفاق ومخالفة أمره.

وأظهر في مقام الاضمار فلم يقل: فإن الله لا يرضى عنهم؛ للتسجيل عليهم بوصف الفسق، وليشملهم الحكم هم وغيرهم من الفاسقين، ولفتح باب التوبة لهم، وأنهم إن تابوا تاب الله تعالى عليهم ورضي عنهم.

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾(١).

الفوائد والأحكام:

١- رفع الحرج والإثم عمن لا يستطيعون الجهاد في عدم الخروج للغزو من الضعفاء، والمرضى، ومن لا يجدون النفقة، أو لا يجدون ما يحملهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية.

٢- مراعاة الشرع الحكيم في التكاليف لأحوال المكلفين البدنية والمالية، وأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٢).

٣- أن الأعذار في ترك الجهاد منها ما يعود إلى البدن كالضعف والمرض، ومنها ما يعود إلى القدرة المالية من النفقة ووجود المركب.

٤- أن رفع الحرج عن أصحاب هذه الأعذار إنما يتم إذا نصحوا لله ورسوله بصدق الإيمان والإخلاص، وتشجيع غيرهم من القادرين على الجهاد، وخَلَفِهم المجاهدين بخير في أهليهم وأموالهم، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

٥- أن العبد إذا نصح لله ورسوله، وقام بما يستطيع من العمل فقد أحسن، ولا سبيل عليه، وسقط عنه ما لا يقدر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

٦- أن الإنسان إذا أحسن إلى غيره بنفسه أو ماله، ونحو ذلك وترتب على إحسانه نقص أو تلف؛ فإنه لا يضمن ذلك؛ لأنه محسن وما على المحسنين من سبيل، كما أنه إذا فرط لزمه الضمان.

٧- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨- حرص بعض الصحابة رضي الله عنهم على الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ، وإتيانهم إليه ليحملهم، أي: يعطيهم ما يركبونه من الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية.

٩- ما كان عليه ﷺ من قلة ذات اليد وعدم الجدة، وعدم القدرة على أن يؤمن لمن يأتيه من أصحابه ممن لا يجدون مركبًا ما يحملهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾.

١٠- رجوع الصحابة الذين لم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه وهم يبكون حزنًا؛ لعدم تمكنهم من الجهاد معه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

١١- شتان بين المنافقين الذين يُلَفِّقون الأعذار الكاذبة للقعود والتخلف عن الجهاد،

وبين المؤمنين الذين يبكون ويحزنهم عدم قدرتهم على الخروج.

١٢- أن السبيل والمؤاخذة والمعاقبة على الذين يستأذنون في التخلف عن الجهاد وهم أغنياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾.

١٣- أن من كان من أولي الطول والغنى لا يعذر بترك الجهاد بحال من الأحوال، إما بماله ونفسه إن استطاعه بنفسه، أو بماله. أما من كان ممن لا يجدون ما ينفقون فهو معذور في ترك الجهاد حتى بنفسه، إلا إذا وجد من يجهزه.

١٤- تعيير المستأذنين للقعود، والتخلف عن الخروج للجهاد برضاهم أن يكونوا مع الخوالف ممن عذر الله من النساء والصبيان وأهل الأعذار من الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

١٥- عقوبة الله تعالى لهم بالختم على قلوبهم، فلا تعي الحق ولا تقبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٦- نفي العلم عن هؤلاء المستأذنين وهم أغنياء للتخلف عن الجهاد؛ لأن الله طبع على قلوبهم، فلا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهديهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧].

١٧- اعتذار المتخلفين من المنافقين كذبًا من الرسول ﷺ والمؤمنين إذا رجعوا إليهم من غزوة تبوك؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ فاعتذروا قبل الخروج، واعتذروا بعد الرجوع.

١٨- تأييس المتخلفين من المنافقين من قبول أعذارهم، ونفي تصديقهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾.

١٩- إخبار الله المؤمنين بالوحي بإن ديدن المنافقين الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

٢٠- تنبيه المنافقين بأن المهم اتباع القول بالعمل، وأن عملهم بعد اعتذارهم سيراه الله ورسوله فيتبين صدقهم من كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٢١- إخبار المنافقين وتوعدهم بأن مرجعهم إلى عالم الغيب والشهادة، الذي لا يخفى عليه شيء؛ فيخبرهم بأعمالهم، ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢٢- في قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ إشارة إلى فتح باب التوبة لهم ليتوبوا، وترغيبهم بها وبالعمل الصالح، وتوعدهم وتحذيرهم من الدوام على حالهم.

٢٣- إثبات علم الله عز وجل الواسع والمحيط بكل شيء من الأشياء الغائبة والمشاهدة؛ لقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٢٥- إخبار المؤمنين بأن هؤلاء المتخلفين سيحلفون بالله لهم إذا رجعوا إليهم؛ ليعرضوا عنهم، فلا يعاتبوهم، ولا يعاقبوهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٢٦- أن المنافقين يحلفون بالله؛ لأنهم في الظاهر مؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٢٧- الأمر بالإعراض عن المنافقين إعراضًا تامًّا؛ إحتقارًا لهم، إذ لا أمل فيهم ولا فائدة منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾.

٢٨- أن العلة في الأمر بالإعراض عنهم؛ لأنهم رجس، أي: نجس نجاسة معنوية بسبب كفرهم ونفاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

٢٩- وعيد المنافقين وتهديدهم بمصيرهم إلى جهنم؛ مجازاة لهم بما اكتسبوه من الكفر والنفاق والأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٣٠- أن المنافقين في حلفهم للمؤمنين لا يقفون عند حد إرادة إعراض المؤمنين عنهم، بل يريدون ما هو فوق ذلك، وهو رضا المؤمنين عنهم، وهيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾.

٣١- خشية المنافقين من المؤمنين أشد من خشيتهم من الله، وحرصهم على رضاهم

أشد من حرصهم على رضا الله بسبب نفاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة:٦٢].

٣٢- تحذير المؤمنين من الرضا عن المنافقين المتخلفين عن الجهاد، بالإخبار بأنهم إن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم، بل يسخط عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٣٣- إثبات صفة الرضا لله تعالى كما يليق بجلاله؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ومفهوم هذا إثبات رضاه عن المؤمنين الطائعين.

كما يفهم من نفي رضاه عن القوم الفاسقين إثبات صفة الغضب له على ما يليق بجلاله.

والرضا والغضب من الصفات الاختيارية الثابتة لله عز وجل المتعلقة بمشيئته.

٣٤- التحذير من النفاق والفسق؛ لأن ذلك سبب لغضب الله وعدم رضاه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾، «الأعراب»: هم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾، أي: أعظم كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر، سكان المدن والقرى.

وإنما كان الأعراب أشد في كفرهم ونفاقهم بسبب غلظة قلوبهم، وجفائهم، وما ورثوه من عادات جاهلية عن أسلافهم، ولبُعدهم عن مشاهدة النبي ﷺ وأخلاقه، والتلقي عنه، وبُعدهم عن الحاضرة ومجالس العلم والذكر، قال ﷺ: «**من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم أناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبل. فقال رسول الله ﷺ: «**أوأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة**»(٢).

ولهذا رُويَ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه لما عزم على سكنى الربذة: «**تعهد المدينة كيلا ترتد أعرابيًّا**»(٣).

ولما كانت الغلظة في أهل البادية لم يبعث الله منهم رسولًا، وإنما كانت بعثة الرسل

---

(١) أخرجه أبو داود في الصيد، اتباع الصيد (٢٨٥٩)، والنسائي في الصيد، اتباع الصيد (٤٣٠٩)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٨)، ومسلم في الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٥).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (١١/ ١٢).

من أهل القرى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩].

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، أي: أحرى وأقرب بأن لا يعلموا حدود الذي أنزل الله على رسوله، من أصول الإيمان، والأحكام الشرعية من الأوامر، والنواهي، وغير ذلك؛ لبعدهم عن مجالس العلم والذكر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة فيما قدر وشرع، وفي كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾، أي: ومن الأعراب من يجعل ويعتبر الذي ينفقه من زكاة ونفقة في سبيل الله غرامة وخسارة، ويعده نقصًا؛ لأنه لا يحتسب به الأجر من الله، ولا يريد به وجه الله، و«المغرم» ما يدفع من المال قهرًا وظلمًا.

ولهذا امتنع من امتنع من أداء الزكاة بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه والمسلمون معه، وأخذ الزكاة منهم.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾، التربص: الانتظار، و«الدوائر»: جمع دائرة، وهي ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة، والمعنى: ينتظرون بكم المصائب.

قال الشاعر:

تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ المَنُونِ لَعَلَّهَا ... تُطَلِّقُ يَوْمًا أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَا(١)

والمراد: ينتظرون بكم الحوادث والآفات وتغير الحال واختلالها، إما بضعفكم، أو بموت النبي ﷺ، أو غير ذلك.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين: «السُّوء»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾.

---

(١) انظر: «لسان العرب»، مادة: «ربص».

وهذا حكم من الله بأن دائرة السوء وما ينتظرونه من الشر بالمؤمنين عائد ودائر عليهم أنفسهم، ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها.

و«دائرة السوء» من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ لأن الدائرة لا تكون إلا في السوء.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الواسع لكل الأصوات، والأقوال، وما يتناجى به الكائدون، وما يدعو به الداعون، وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء من أعمال العباد، وغير ذلك، وسينصر أولياءه، ويخذل أعداءه، ويجازي كلا بما عمل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

لما ذكر أن الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا، وأن منهم من يتخذ ما ينفق غرمًا وخسارة، ويتربص بالمؤمنين الدوائر، وتوعدهم أثنى على فريق من الأعراب وهم المؤمنون منهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويتقربون بما ينفقون في سبيل الله إلى الله تعالى.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: ومن الأعراب من هم مؤمنون يؤمنون بالله واليوم الآخر، بخلاف من ذكروا قبلهم.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: ويجعل ويعتبر الذي ينفق من زكاة ونفقات في سبيل الله ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قربات يتقربون بها إلى الله عز وجل رجاء ثوابه وخوفًا من عقابه، وابتغاء القرب منه عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ معطوف «ما»: الموصولة، والتقدير: ويتخذ الذي ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول، أي: ويتخذ صلوات الرسول، أي: دعوات الرسول ﷺ لهم قربات يتقربون بها إلى الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

وكان ﷺ إذا جاءه أحد بصدقته دعا له، ولما جاءه والد عبد الله بن أبي أوفى بصدقته قال: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»(١).

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾، «ألا»: أداة تنبيه، و«إن»: للتوكيد، أي: ألا إنها، أي: نفقاتهم قربة لهم حقًّا، وذلك حاصل لهم، وهذا وعد من الله عز وجل لا يتخلف، وبشارة لهم. ونُكِّرت «قربة»: للتعظيم، أي: ألا إنها قربة عظيمة لهم.

﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾، السين: للاستقبال وتحقيق الوعد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيها معنى التعليل لما قبلها، أي: لأن الله غفور رحيم، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده، يستر الذنب، ويتجاوز عن العقوبة، وذو رحمة واسعة، وهي سبب مغفرته لعباده.

الفوائد والأحكام:

١- أن الكفر والنفاق كما يوجد كل منهما في المدينة وفي أهل الحضر يوجدان أيضًا في الأعراب، وهم أشد من حيث العموم؛ بسبب غلظة قلوبهم، وجفائهم، ووراثتهم بعض العادات الجاهلية عن أسلافهم، ولبعدهم عن مجالسة الرسول ﷺ، والتلقي عنه، والتأثر بأخلاقه في حياته، وعن مجالس العلم والذكر بعد وفاته.

وهذا لا يمنع أن يكون في أهل الحاضرة من هو أشد كفرًا من بعض الأعراب، وقد يدل على هذا قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة:١٠١].

كما لا يمنع أن يكون في الأعراب من هو أقوى إيمانًا من بعض أهل الحاضرة.

ولا ينكر ما لدى الأعراب من صفات محمودة من الشجاعة، والنجدة، وإباء الضيم، والصراحة، والكرم، بل ومن القرب إلى الخير إذا اعتقدوه وآمنوا به.

والمقصود أنه لا ينبغي أن يتخذ من هذا ذمًّا للأعراب ولا مدحًا للحاضرة، فمن أحسن من الفريقين فله أجره وثوابه، ومن أساء منهما فعليه إثمه وعقابه، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣].

---

(١) سيأتي تخريجه.

٢- أن الكفر والنفاق كل منهما يشتد ويخف، ويزيد وينقص حسب الأحوال.

٣- أن الأعراب أحرى وأقرب إلى عدم العلم بحدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين والإيمان، وفروع الشريعة والأحكام؛ لبعدهم عن مجالس الذكر، ومخالطة أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

٤- فضيلة العلم الشرعي، وأنه هو أنفع العلوم وأجلها؛ لأن به معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ من أصول الدين وفروعه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه، علو الذات، وعلو الصفات، وإثبات أن القرآن منزل من عنده عز وجل وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، وفي هذا الرد على الحلولية، وعلى المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٦- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

٧- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾.

٨- أن لله عز وجل الحكم التام: الحكم الكوني، والشرعي والجزائي، وله الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٩- اعتبار بعض الأعراب ما ينفقونه من زكاة ونفقات في سبيل الله غرامة وخسارة ونقصًا عليهم؛ لأنهم لا يريدون بذلك وجه الله، ولا يرجون به لأنفسهم ثوابًا، ولا أن يدفعوا بها عنهم عقابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾.

١٠- تربص هؤلاء الأعراب بالمؤمنين الدوائر، وانتظارهم بهم حوادث الزمان؛ ولهذا لما توفي ﷺ سرعان ما ارتد بعضهم عن الإسلام ومنعوا الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾.

١١- حكم الله تعالى قدرًا وكونًا أن دائرة السوء على هؤلاء الأعراب المتربصين الشر بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

١٢- أن الله عز وجل ذو السمع الواسع لجميع الأصوات وأقوال العباد وتناجيهم ودعائهم وغير ذلك، وذو العلم الواسع لكل شيء من أعمالهم وغير ذلك،

وسينصر أولياءه، ويخذل أعدائه، ويجازي كلًّا بما عمل.

١٣- أن من الأعراب من هم مؤمنون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويتقربون إلى الله تعالى بما ينفقونه، رجاء ثوابه، وخوفًا من عقابه، وطلبًا لقربه وجواره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١٤- أن أعظم أصول الإيمان وأركانه الإيمان بالله تعالى؛ ولهذا ابتدأ الله تعالى بذكره في الآية، فقال: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وشرعه، فمن لم يؤمن بما شرع الله تعالى ويعمل به فليس بمؤمن بالله.

١٥- أن من أهم أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان به من أعظم ما يحمل على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال؛ ولهذا يقرن كثيرًا في القرآن الكريم الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله.

١٦- تقرب هؤلاء المؤمنين المنفقين من الأعراب إلى الله تعالى بصلوات الرسول ﷺ عليهم، ودعائه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

١٧- وعد الله تعالى لهؤلاء المنفقين بأن نفقاتهم قربة لهم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

١٨- وعده عز وجل لهم بإدخالهم في رحمته ومغفرته ورحمته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٩- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

في هذه الآية تنويه بفضيلة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وامتداح لهم، وثناء على الذين اتبعوهم بإحسان، وترغيب في اتباعهم، وبشارة لهم ولأتباعهم برضا الله تعالى عنهم ورضاهم عنه، وما أعد لهم من الجنات والنعيم المقيم.

قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، أي: في الإيمان والجهاد ونصر دين الله وإقامة شرعه.

﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، الذين هاجروا من مكة إلى المدينة؛ فرارًا بدينهم، ونصرة لله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ قرأ يعقوب الحضرمي: «والأنصارُ» بالرفع عطفًا على «السابقون»، وقرأ الباقون: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ بالكسر عطفًا على «المهاجرين» أي: ومن الأنصار أهل المدينة الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين، وأحبوهم، وأشركوهم معهم في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم؛ كما قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾، أي: والذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة.

﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ الباء: للمصاحبة والملابسة، أي: اتباعًا بإحسان في الإيمان والعمل الصالح.

والإحسان كما قال ﷺ «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وذلك ينتظم الإخلاص لله تعالى في العبادة، واتباع شرعه، والإحسان إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ خبر قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، أي: رضي الله عنهم؛ لإيمانهم وجهادهم وإحسانهم.

ورضاه تعالى عنهم أكبر وأعظم من كل نعيم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ لتوفيقه لهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ورضاه عنهم، وإدخالهم جنته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قرأ ابن كثير: «من تحتها» بزيادة «من» وخفض تاء «تحتِها»؛ كما ورد ذلك في جميع المواضع في القرآن الكريم، وقرأ الباقون: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا﴾ بحذف «من»، وفتح تاء ﴿تَحْتَهَا﴾.

أي: وهيأ لهم بساتين لا يقدر قدرها إلا الله تعالى، تجري تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: مقيمين فيها، لا يتحولون عنها أبدًا، ولا يطلبون بها بدلًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الحصول على رضا الله تعالى وجناته، وما فيها من النعيم والخلود الأبدي.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، أي: الفلاح العظيم، الذي لا يقدر قدر عظمته إلا الرب العظيم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ الواو: عاطفة، «ممن»: مكونة مِن «مِنْ» التبعيضية، و«مَنْ»: الموصولة، أي: وبعض الذين حولكم، والخطاب في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للنبي ﷺ والمؤمنين، أي: وممن حول المدينة.

﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين أسلموا؛ كجهينة وأسلم وأشجع ولحيان وغفار وعصية. و«من»: بيانية.

﴿مُنَٰفِقُونَ﴾، أي: يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: ومن أهل المدينة الذين أسلموا منافقون ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ لأنه تأصل فيهم منذ دخل الإسلام المدينة، ومعنى.

﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: مرنوا فيه، ودربوا عليه، واستمروا ومهروا فيه، ومنه قوله تعالى في وصف الشيطان: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات:٧].

وقوله: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ يجوز أن يكون مستأنفًا، وأن يكون نعتًا لـ«منافقون».

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: لا تعلمهم أنت بأعيانهم، فتعاقبهم أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، وذلك لشدة تمردهم وخبثهم وإظهارهم ما لا يبطنون.

قال ابن كثير(١): «وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ الآية [محمد:٣٠] لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٤٢).

على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا، وإن كان يراه صباحًا ومساءً».

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ في هذا وعيد وتهديد لهم؛ ولهذا أتبعه بقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، أي: سنضاعف العذاب عليهم ونكرره، ونغلظه عليهم في الدنيا بما ينالهم من المصائب، ومن الهم والغم؛ بسبب نصر المسلمين والفتح لهم، وفي القبر بما ينالهم من عذاب القبر؛ من التضييق عليهم فيه، وعرضهم على النار؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، أي: ثم يرجعون إلى عذاب عظيم، وهو عذاب النار، وبئس القرار، ونكر «عذاب»: للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

بين في الآيات السابقة حال المنافقين المتخلفين عن الجهاد رغبة عنه وتكذيبًا وشكًّا، ثم بين في هذه الآية حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق.

قال ابن كثير(١): «قال ابن عباس وآخرون: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن غزوة تبوك- قيل: خمسة، وقيل: سبعة، وقيل: تسعة-فلما رجع النبي ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا ألا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم».

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: وقوم آخرون أقروا بذنوبهم بينهم وبين ربهم؛ من التخلف عن الجهاد، وغير ذلك، والاعتراف بالذنب توبة.

فالمعنى: اعترفوا بذنوبهم، أي: أقروا بها ولم ينكروها، وتابوا منها، ولم يكونوا كحال المنافقين؛ ولهذا قال: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أخلصوا فيه لله تعالى، واتبعوا شرعه

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٤٥).

وهدي نبيه ﷺ.

﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، أي: وعملًا آخر سيئًا، خالفوا فيه شرع الله تعالى وأمره؛ من التخلف عن الجهاد، وترك الإنفاق في سبيل الله، ونحو ذلك.

والمعنى: خلطوا السيئات بالحسنات، كما هو حالنا وحال كثير من المسلمين، خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة؛ من ارتكاب بعض المنهيات، والتقصير في بعض الواجبات مع الاعتراف بذلك، ورجاء أن يغفر الله لهم.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى أن يتوب عليهم، بأن يوفقهم للتوبة، ويقبلها منهم؛ لأن «عسى» من الله واجبة؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الله غفور رحيم، ذو مغفرة واسعة، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة عليه، وذو رحمة واسعة بعباده.

قال ابن كثير(٢): «وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين».

وعلى هذا يدل ما رواه سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «**أتاني الليلة آيتان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء. قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه. ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة. قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ تجاوز الله عنهم**»(٣).

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الأمر للنبي ﷺ ولولي أمر المسلمين من بعده،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» (٤/ ١٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة براءة (٤٦٧٤).

والأموال: كل ما يتمول ويملك. لكن المراد بها قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الأموال الزكوية التي تجب فيها الزكاة، وهي: النقدان، وعروض التجارة، والخارج من الأرض من الحبوب والثمار، والسائمة من بهيمة الأنعام.

والمراد بقوله: ﴿صَدَقَةً﴾ الزكاة المفروضة.

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، أي: من الذنوب، والبخل والشح، والأخلاق الرذيلة.

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الزكاء: النماء والزيادة، أي: تنمي وتزيد بها في أخلاقهم الحسنة، وفي أعمالهم الصالحة، وفي أموالهم، فيبارك لهم فيها، وفي ثوابهم الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى:١٤-١٥] وقدم «تطهرهم» على «تزكيهم»؛ لأن التخلية قبل التحلية.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ الصلاة في اللغة: الدعاء، أي: ادع لهم بالمغفرة والقبول والبركة في أموالهم. وفي الحديث: «**إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب، فإن كان صائمًا فليصل**»(١)، أي: فليدع.

وهكذا كان يفعل ﷺ، كما قال عبد الله بن أبي أوفى: «كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»(٢).

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿صَلَوٰتَكَ﴾ على الإفراد وفتح التاء، وقرأ الباقون: «صلواتك» بالجمع وكسر التاء.

﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، أي: رحمة وطمأنينة لهم، تسكن بها نفوسهم، وتطمئن إليها قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك سمع إجابة وقبول، وسميع لجميع الدعاء والأقوال والأصوات.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد وأعمالهم وبكل شيء وسيجازي كلًّا بعمله، وعلى قدر نيته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٣١)، وأبو داود في الصوم (٢٤٦٠)، والترمذي في الصوم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: ألم يعلم هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم، والذين أمر ﷺ بأخذ الصدقة منهم وغيرهم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: أن الله عز وجل؛ لسعة رحمته ومغفرته ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التائبين من أيّ ذنب كان، مهما كان؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

وفي الحديث: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**»(١).

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: ويقبل الصدقات منهم بيمينه، ويربيها ويضاعفها لهم، ويثيبهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

وقال ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل**»(٢).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوف على ما قبله؛ للتأكيد وزيادة التقرير، و«التواب»: اسم من أسماء الله على وزن «فعّال» صيغة مبالغة، يدل على توبته على العبد مرات وكرات كثيرة، وعلى كثرة عدد من يتوب عليه من العباد. وتوبة الله على العبد قسمان: توفيقه للتوبة، وقبولها منه؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٥)، والترمذي في الزكاة (٦٦١)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على أنه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه.

ومن رحمته فَتَحَ باب التوبة، ووفق من شاء إلى التوبة، وقبلها منه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾، أي: وقل لهؤلاء المنافقين والكفار: اعملوا ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم.

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ بعرضكم عليه يوم القيامة وأعمالكم.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة:١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق:٩]، وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات:١٠] أي: أظهر ما فيها.

وفي الحديث في معنى الإحسان، قال ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: وسيرى عملكم رسوله ﷺ والمؤمنون؛ بفضحكم يوم القيامة بين الخلائق بأعمالكم.

ويحتمل أن المعنى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في الدنيا؛ لأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيراه رسوله والمؤمنون؛ بإظهار الله لهم عليه؛ لأنهم بين ظهراني الرسول ﷺ والمؤمنين.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب، ولا كوة؛ لخرج عمله للناس كائنًا من كان**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨).

وفي هذا وعيد لهم بالفضيحة في الدنيا قبل الآخرة، ولا منافاة بين المعنيين.

وفي الآية مع الوعيد ما يشعر بالوعد لمن أحسن العمل؛ ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، أي: وسترجعون ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: عالم كل ما كان غائبًا، وكل ما كان مشاهدًا.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل وستردون إليه؛ للتنبيه إلى إحاطة علمه بالغيب والشهادة، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وفي هذا وعد ووعيد.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملونه، أو بعملكم، ويحاسبكم ويجازيكم عليه، خيرًا كان أو شرًا.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بسكون الواو بدون همزة، وقرأ الباقون: «مرجؤون» بهمز بعد الجيم.

ومعنى ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، أي: وقوم آخرون، أو وأناس آخرون.

﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مؤخرون ومؤجلون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: لحكمه الكوني، لم تنزل توبتهم أو وعدهم بالتوبة، كما نزلت توبة الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٢].

ولم يقبل ﷺ عذرهم كما قبله ممن حلفوا له من المنافقين، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢].

والمراد بهؤلاء الذي ارجئوا: الثلاثة الذين خلفوا، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. وسيأتي ذكر تفصيل قصتهم في الكلام على قوله تعالى:

---

(١) ذكره البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة:١١٨].

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ بيان لقوله: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مؤخرون لأمر الله وحكمه، وإما التوبة عليهم، أي: هم تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذبهم، وإن شاء تاب عليهم، ورحمته سبحانه تغلب غضبه؛ ولهذا تاب عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: عليم بمن يستحق العذاب والعقوبة ممن يستحق التوبة والعفو ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع وقدر، وخلق ودبر، وفي كل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بشأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار إلى الإيمان والجهاد، والثناء عليهم، وعلى الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة، وبشارتهم برضا الله تعالى عنهم، ورضاهم عنه وما أعد لهم من الجنات، وما فيها من النعيم المقيم والفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢- فضيلة المهاجرين؛ لأن الله قدمهم على الأنصار.

٣- فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من جاء بعدهم.

٤- الترغيب في اتباع المهاجرين والأنصار، والثناء على من اتبعهم بإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

٥- أن من شرط اتباع السلف من المهاجرين والأنصار الإحسان بالإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾.

٦- الرد على الرافضة- أخزاهم الله- الذين يطعنون في صحابة رسول الله ﷺ ويبغضونهم ويكفرونهم.

قال ابن تيمية(١): «هم أضل الناس في المنقولات، وأجهلهم في المعقولات. قال عامر الشعبي رحمه الله: «إذا دخلت حيًّا من أحياء الرافضة، فقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث»، وقال أيضًا: «والله الذي لا إله إلا هو، لولا أني على وضوء وأخشى أن ينتقض وضوئي، لأخبرتكم ببعض كلام الرافضة»، وقال: «قاتل الله الرافضة، لو كانوا من الطيور لكانوا رخمًا، ولو كانوا من الوحوش لكانوا حُمُرًا؛ سخطوا على أصحاب محمد ﷺ وقد عدلهم الله ورضي عنهم، وتبرؤوا من الصادقة الصديقة بنت الصديق وقد زكاها الله وعدلها، واتهموا الصحابة وقد زكاهم الله وكفل أقوالهم في أكثر من موضع، وخرجوا على جماعة المسلمين، وسلوا سيف البغي والعدوان، وحقدوا وحسدوا».

وقد أحسن القحطاني رحمه الله حين قال في وصفهم والتحذير منهم(٢):

لا تعتقد دين الروافض إنهم ... أهل المحال وحزبة الشيطان

إن الروافض شر من وطئ الحصا ... من كل إنس ناطق أو جان

مدحوا النبي وخونوا أصحابه ... ورموهم بالظلم والعدوان

حبوا قرابته وسبوا صحبه ... جدلان عند الله منتقضان

فكأنما آل النبي وصحبه ... روح يضم جميعها جسدان

٧- إثبات صفة الرضا لله تعالى، وهي من الصفات الاختيارية المرتبطة بالمشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾.

٨- أن من نعيم أهل الجنة تمام رضاهم عما أعد لهم من النعيم؛ ولهذا لا أحد منهم يرى أن في الجنة من هو أفضل وأعلى نعيمًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

٩- إثبات وجود الجنة، وأنها معدة ومهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١/ ٢٨، ٤/ ٤٧٢. وانظر: «السنة» للخلال ١/ ٤٩٧، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ٦/ ٣٩٣، «السنة» لعبدالله بن الإمام أحمد ٢/ ٥٤٨.

(٢) «نونية القحطاني» ص٢٢.

تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

١٠- أن من أعظم نعيم الجنات ما فيها من الأنهار الجارية تحت أشجارها وقصورها وغرفها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

١١- خلود أهل الجنات فيها خلودًا أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

١٢- أن الفوز برضا الله عز وجل، ودخول الجنات، والتمتع بما فيها من النعيم والخلود الأبدي؛ هو الفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٣- الإخبار بأن ممن حول المدينة من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة منافقون كذلك، مردوا على النفاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾.

١٤- أن النبي ﷺ لا يعلم المنافقين على التعيين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾.

وهذا لا يمنع أن يكون يعرف بعضًا منهم بعلاماتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

ولهذا ورد أن الرسول ﷺ أعلم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سر رسول الله ﷺ بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا(١).

قال قتادة: «ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلًا من المنافقين، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان إذا مات رجل ممن يَرَى أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه صلى عليه، وإلا تركه، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة: «أنشدك بالله أمنهم أنا؟ قال: لا والله، ولا أؤمِّن منها أحدًا بعدك»(٢).

١٥- علم الله تعالى بالمنافقين، وما تنطوي عليه قلوبهم من النفاق؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

١٦- تهديد المنافقين، ووعيدهم بمضاعفة العذاب عليهم في الدنيا بما يصيبهم من

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٢٢، ١٤٣).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٤٧)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٤٤).

المصائب والهم والغم؛ بسبب نصر المسلمين، وغير ذلك، وفي القبر من تغليظ عذاب القبر عليهم وتضعيفه؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾.

١٧- وعيد المنافقين؛ بردهم في الآخرة إلى عذاب عظيم، وهو عذاب النار وبئس القرار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

١٨- أن من بين المسلمين قوم اعترفوا بذنوبهم، ليسوا بمنافقين؛ ولكنهم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهم موعودون بتوبة الله تعالى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٩- إثبات صفة المغفرة والرحمة الواسعتين لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٠- وجوب الزكاة في الأموال الزكوية، وأمره عز وجل للنبي ﷺ بأخذها من أموال المسلمين، وهو أمر له ﷺ ولولاة أمور المسلمين من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ ولهذا لما منع أقوام الزكاة بعد وفاة رسول الله ﷺ، واحتجوا بقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

قائلين: لا ندفعها إلا لمن كانت صلاته سكنًا لنا- وهو النبي ﷺ- أما بعده فلا ندفعها لأحد. وقد أنكر عليهم هذا التأويل الفاسد أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسائر الصحابة رضي الله عنهم، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق رضي الله عنه: «والله لو منعوني عقالًا- وفي رواية: عناقًا- يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»(١).

٢١- أن الزكاة طهرة وزكاء للمزكين ولأموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

٢٢- أمر الله عز وجل له ﷺ بالدعاء لأهل الأموال عند أخذ الزكاة منهم، وهكذا يشرع لمن يتولى أخذ الزكاة من ولاة الأمر من بعده، أن يدعو لأهل الأموال بالقبول

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٠)، وفي الاعتصام (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان، الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠)، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٥).

والبركة في أعمالهم وأخلاقهم وأموالهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٣- أن صلاته ﷺ ودعاءه لأصحاب الأموال سكن لهم، تسكن له نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، كما أن الدعاء لأصحاب الأموال- حتى من ولي الأمر الذي يأخذها بعد رسول الله ﷺ، أو من غيره من المؤمنين- له أثره عليهم.

٢٤- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل، وأنه سميع لجميع الدعاء؛ سمع إجابة وقبول، ولجميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

٢٥- إثبات صفة العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٦- إثبات وتقرير قبول الله التوبة عن عباده، وقبوله الصدقات؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٢٧- إثبات اسم الله تعالى: «التواب» وما يدل عليه من إثبات صفة التوبة الواسعة، وكثرة من يتوب عليهم، وتوبته عليهم مرات وكرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله تعالى «الرحيم»، وأنه ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٩- الترغيب في التوبة والصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٣٠- الوعيد والتهديد للمنافقين والكفار بأن الله سيرى ما هم عاملون، وسيردون إلى عالم الغيب والشهادة، فيخبرهم بعملهم، ويحاسبهم ويجازيهم عليه، وسيظهره لرسوله ﷺ والمؤمنين في الدنيا والآخرة، ويفضحهم به بين الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٣١- إثبات المعاد وحساب الخلائق، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٣٢- أن ممن تخلفوا عن غزوة تبوك واعتذروا أناس أرجئوا لأمر الله وحكمه فيهم؛ إما

يعذبهم، أو يتوب عليهم، وهم الثلاثة الذين خلفوا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد تاب الله عليهم بعد ذلك.

٣٣- إثبات صفة الحكم التام لله تعالى، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ ﴾ فله عز وجل الحكم والحكمة في تعذيب من شاء، والتوبة على من يشاء.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

سبب النزول:

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتٍ بجند، وأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

قال ابن كثير: «كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب» وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ٦٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٨، ١٨٨١).

الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم الرسول ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألبهم على حرب رسول الله ﷺ في أحد، وشهدها معهم، وكان الرسول ﷺ قد دعاه قبل فراره، وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر النبي ﷺ في ارتفاع وظهور؛ ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدًا إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروجه ﷺ لتبوك، وطلبوا منه أن يصلي فيه، فقال: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» فلما قفَل راجعًا وقرب من المدينة نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، فبعث إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة»(١).

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «الذين» بغير واو، وقرأ الباقون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالواو عاطفة.

أي: والذين جعلوا مسجدًا ضرارًا، وهم جماعة من المنافقين؛ من بني غنم بن عوف، وبني سالم بن عوف من أهل العوالي ﴿ضِرَارٗا﴾ مفعول لأجله، أي: لأجل المضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، وهو مسجد قباء ﴿وَكُفۡرٗا﴾ معطوف هو وما بعده على «ضرارًا» أي: ولأجل الكفر بالله.

﴿وَتَفۡرِيقَۢا﴾، أي: ولأجل التفريق بين المؤمنين؛ ليتشعبوا ويختلفوا ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾، أي: ولأجل الإرصاد، أي: تهيئة، وإعدادًا، وإعانة، وانتصارًا.

﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾، «من»: موصولة، أي: للذي حارب الله

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٨-١٤٩).

ورسوله ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: فيما سبق، ومن قبل بناء هذا المسجد.

والمراد به أبو عامر الراهب؛ لأنه ألَّب المشركين في أحد، وشارك معهم، كما حارب مع الأحزاب، ومع ثقيف وهوازن.

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر و«إن»: نافية، أي: ما أردنا إلا الحسنى، أي: ما قصدنا في بنائنا هذا المسجد إلا الإحسان والخير والرفق بالناس، الضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية.

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي: في حلفهم وقولهم: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، واللام للتوكيد.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾، أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدًا.

فالمراد بالقيام: الصلاة؛ لأن أولها، وأعظم أركانها القيام، وفيه قراءة القرآن وهذا النهي نهي له ﷺ ولأمته.

﴿لَمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لمسجد ابتدئ أساسه وقواعده وأصله على تقوى الله وطاعته، والإخلاص له، ولإقامة ذكره وشعائر دينه من أول يوم أسس.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، أي: أجدر وأولى أن تصلي فيه، وتتعبد، وتذكر الله تعالى فيه.

والمراد به: مسجد قباء، أسسه ﷺ وبناه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف.

ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجد قباء كعمرة**»(١). وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا، ويصلي فيه ركعتين(٢).

﴿فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى المسجد الذي أسس على التقوى، والذي هو أحق بالقيام والصلاة فيه، وهو مسجد قباء؛ لأن السياق فيه.

---

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٣٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما جاء في الصلاة في مسجد قباء (١٤١١) من حديث أسيد بن ظُهير الأنصاري. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١١٩٤)، ومسلم في الحج، فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه (١٣٩٩)، وأبو داود في المناسك (٢٠٤٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٨)، وأحمد (٢/ ٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يحبون» أي: رجال يحبون التطهر، أي: يحبون الطهارة من الذنوب والنجاسات والأحداث، ونكّر «رجال»؛ لتأكيد الثناء عليهم.

وإنما أثنى الله على أهل قباء في محبتهم التطهر؛ لأنهم كانوا يستنجون بالماء، أي: يتبعون الاستجمار بالحجارة الاستنجاء بالماء؛ حرصًا منهم على تمام الطهارة وكمالها، وهذا مروي عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم؛ ابن عباس، وأبو هريرة، وعويم بن ساعدة الأنصاري، وخزيمة بن ثابت وغيرهم، وعن جمع من التابعين(١).

وروي أيضًا أن المراد بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ مسجد رسول الله ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن المراد من المسجد الذي أسس على التقوى في هذه الآية، فقال: «**هو مسجدكم هذا**».

يعني: المسجد النبوي بالمدينة(٢).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «**هو مسجدي هذا**»(٣).

وبهذا قال جمع من الصحابة والتابعين؛ منهم عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم، وسعيد بن المسيب، واختاره الطبري(٤).

قال ابن كثير(٥): «وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٩٨)، والنسائي في المساجد (٦٩٧)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣٠٩٩)، وأحمد (٣/ ٧، ٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١). وأخرج أحمد أيضًا (٥/ ١١٦) عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا».

(٤) انظر «جامع البيان» (١١/ ٦٨١-٦٨٨)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٨١-١٨٨٢)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥٠-١٥٢).

(٥) في «تفسيره» (٤/ ١٥٢).

في جوف المدينة هو الذي أسس على التقوى»؛ قال ابن كثير: «وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى».

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، أي: المتطهرين معنويًّا من الشرك والذنوب والمعاصي، وحسيًّا من الأوساخ والنجاسات والأحداث.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

نهى الله عز وجل النبي ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، ورغبه في الصلاة في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، ثم أتبع ذلك ببيان أنه لا وجه للمفاضلة بين مسجد أسس على تقوى من الله ورضوان، ومسجد أسس على شفا جرف هار، فشتان بين المسجدين، والغرض من هذا زيادة وتأكيد أحقية المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه.

قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾.

قرأ نافع وابن عامر: «أُسِّس» بضم الهمزة وكسر السين، وضم نون «بنيانُه» على البناء للمفعول في الموضعين، وقرأ الباقون: ﴿أَسَّسَ﴾ بفتح الهمزة وفتح السين، ونصب نون ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ على أنه مفعول ﴿أَسَّسَ﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ تقريري، و«من» اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، و«التأسيس» بناء الأساس والقواعد التي يقوم عليها البنيان.

﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾، أي: على نية صالحة، وإخلاص لله تعالى، وتقواه، وطلب رضاه ﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ «من»، أي: أفضل؛ لأنه راسخ ثابت موصل إلى الجنة؛ لمقابلته بقوله: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، «أم»: حرف عطف، و«من»: موصولة، أي: أم الذي أسس بنيانه ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ «الشفا»: حرف البئر، وحرف الحفرة.

﴿جُرُفٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف بسكون الراء: «جُرْف»

وقرأ الباقون بضمها: ﴿جُرُفٍ﴾، والجرف: جانب الوادي، وجانب الهوة. ﴿هَارٍ﴾ متصدع، متداع، غير ثابت؛ لأنه بُني على مقصد سيئ.

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أي: فانهار بصاحبه، أي: أفضى به إلى نار جهنم.

والمعنى: أن من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان فهو خير وأفضل؛ لرسوخه وثباته وإيصاله إلى الجنة، بخلاف من أسس بنيانه على شفا جرف هار، متصدع متداع، ومفض بصاحبه إلى النار.

والمفاضلة قد تكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل؛ كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤] أي: خير يومئذ مستقرًّا، وأحسن مقيلًا من أهل النار، ومعلوم أن النار لا خير فيها ولا حسن البتة، بل هي شر محض.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يوفق القوم الظالمين بكفرهم ونفاقهم، ومضارتهم للمؤمنين، وسعيهم بالتفريق بينهم، وانتصارًا لمن حارب الله تعالى ورسوله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾، أي: سيورثهم بنيانهم الذي بنوا، ويدوم ﴿رِيبَةً﴾، أي: شكًّا ونفاقًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: ثابتًا في قلوبهم، أُشربوه في قلوبهم، كما أُشرب عبدة العجل حب العجل في قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣].

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قرأ يعقوب: «إلى» بتخفيف اللام، فجعله حرف جر، وقرأ الباقون بتشديده على أنه حرف استثناء: ﴿إِلَّآ﴾.

وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وحمزة وحفص بفتح التاء: ﴿تَقَطَّعَ﴾، وأصلها: «تتقطع» بتاءين، فحذفت إحداهما تخفيفًا.

وقرأ الباقون بضمها: «تُقَطَّع» مضارع «قطَّع» بالتشديد.

أي: إلا أن تقطع قلوبهم بالموت والفوت والندامة على ذلك، أي: أن فعلهم

وبناءهم لما كان لغرض فاسد كان سببًا لبقاء الريب والنفاق في قلوبهم، ما دامت قلوبهم في أجسادهم؛ لتمكنه منها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: واسع العلم بجميع الأشياء من أعمال العباد؛ خفيها وجليها، ظاهرها وباطنها، سرها وعلانيتها، وغير ذلك.

﴿حَكِيمٌ﴾ له الحكم التام والحكمة البالغة في قدره وشرعه وجزائه، وفي كل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- فضيحة المنافقين الذين اتخذوا مسجدًا للمضارة والكفر، والتفريق بين المؤمنين، ومناصرة من حارب الله ورسوله من قبل، وذمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

٢- أن بناء مسجد لغير الله، بل للمضارة، والتفريق بين المؤمنين، ونصرة من حارب الله ورسوله يعد كفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُفْرًا﴾.

وهكذا كل عمل فيه مضارة للمؤمنين، وتفريق بينهم، ومناصرة لمن عادى الله ورسوله؛ فهو محرم ممنوع.

٣- حلف المنافقين كذبًا أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الحسنى وعمل الخير؛ كما هو ديدنهم الحلف بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٤- تفنيد قولهم، وتكذيب حلفهم بشهادة الله تعالى بكذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٥- نهي النبي ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، وهو نهي له وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

٦- النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها وعن قربها، وأن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار فنُهِي عن القيام فيه.

٧- وجوب الحذر من اتخاذ مسجد لقصد الضرار؛ فإن هذا أمر محرم لا يجوز، فإن من الناس من يعمد إلى هذا المسلك إذا وقع بينه وبين الإمام والمؤذن، أو بينه وبين جماعة المسجد اختلاف.

ولقد ذكر لي أحد الإخوة الثقات رحمه الله أنه كان عنده مبلغ من المال لبعض المحسنين، أودعه عنده ليجعله في بناء مسجد، قال: فجاء إليَّ رجل، وذكر أنه بصدد بناء مسجد، وألح عليّ مرات وكرات حتى أعطيته ذلك المبلغ وبعد فترة صليت في مسجد في أحد الأحياء، فلما خرجت من المسجد، وإذا مقابل محرابه مسجد آخر، فسألت عنه فقيل لي: إن فلانًا حصل بينه وبيننا اختلاف فبنى هذا المسجد، وذكروا لي ذلك الرجل الذي أخذ مني المبلغ.

وهذا جمع بين محظورين: الأول أنه بنى هذا المسجد بقصد الضرار بالمسجد الأول وجماعته؛ حيث بناه بجواره، ولا حاجة له، والواجب على الجهات المسؤولة في البلاد الإسلامية منع مثل هذا، والمحظور الثاني: تغريره بالمحسنين بأخذ الأموال منهم لهذا الغرض السيئ.

٨- لا يجوز بناء مسجد بهدف تفريق جماعة المسجد، كما لا يجوز القيام بأي عمل من شأنه التفريق بين المسلمين، ويجب العمل على ما فيه جمعهم.

٩- الإشارة إلى ما ذكره المفسرون في تفسير الآية، من محاربة «أبو عامر الراهب» لله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

١٠- أن الأولى بالقيام والصلاة فيه المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء، والمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

١١- أن الطاعة تؤثر في البقاع؛ ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما كان، وكان ﷺ يزوره كل سبت، ويصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

١٢- فضل الصلاة في المساجد القديمة العريقة المؤسسة على تقوى الله والإخلاص له.

١٣- الثناء على أهل مسجد قباء، وامتداحهم برجولتهم، ومحبتهم للتطهر؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ وفي هذا تعريض بأن أهل مسجد الضرار ليسوا كذلك.

١٤- محبة الله تعالى للمتطهرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ومفهوم هذا عدم محبته لغير المتطهرين.

١٥- إثبات صفة المحبة لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته.

١٦- الترغيب في التطهر، والحث عليه، تطهرًا معنويًّا من الشرك والمعاصي، وتطهرًا حسيًّا من الأدران والنجاسات والأحداث؛ لأن الله أثنى على أهل قباء بذلك، وذكر أنه يحب المطهرين.

١٧- شتان بين مسجد أو عمل أسس وبني على تقوى الله، والإخلاص له، وطلب رضوانه، وبين مسجد أو عمل أسس وبني على مقصد سيئ.

فالأول خير وأفضل؛ لأنه بني على أساس ثابت سليم، مفض بصاحبه إلى جنات النعيم.

والثاني شر محض؛ لأنه بني على شفا جرف هار، ومفض بصاحبه إلى نار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾.

١٨- أن الأعمال بالنيات، فالعمل وإن كان فاضلًا قد تغيره النية، فيكون منهيًّا عنه.

١٩- حرمان الظالمين بالنفاق والكفر، والمضارة للمؤمنين، والعمل على التفريق بينهم، والانتصار لمن حارب الله ورسوله؛ من هداية الله وتوفيقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

٢٠- عقوبة هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار، بدوام بنيانهم الذي بنوا، ريبة وشكًّا ونفاقًا في قلوبهم؛ بالموت وهم عليه، والندامة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾.

٢١- أن المعصية سبب للمعصية بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية.

٢٢- إثبات صفة العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

هذا خبر ووعد من الله تعالى مؤكد محقق، بأنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فهو سبحانه المشتري، والمؤمنون هم البائعون، والمثمن أنفسهم وأموالهم، والثمن والعوض هو الجنة، وما فيها من ألوان النعيم، التي هي أجل عوض وأعظمه وأغلاه؛ كما قال ﷺ: «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

قال ابن القيم(٢):

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً ... بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الكَسْلَانِ

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

واللام في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ للاستحقاق والتمليك.

وفي هذا ما لا يخفى من الترغيب في الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال، كما أن فيه تنويهًا بالمؤمنين الذين خرجوا لغزوة تبوك في جيش العسرة.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في النونية (ص٢٤٨).

وهذه هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي قدم فيها ذكر الأنفس على الأموال في الجهاد، ولعل من الحكمة في هذا- والله أعلم- التنبيه على شرف الأنفس على الأموال، وبخاصة أنفس المؤمنين.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان وتفسير لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾، أي: يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فيُقتلون ويَقتلون» بضم الياء من الأول وفتحها من الثاني، وقرأ الباقون بالعكس: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ بفتح الأول وضم الثاني.

أي: سواء قَتلوا أو قُتلوا، أو حصل لهم هذا وهذا؛ فقد وجبت لهم الجنة، قال ﷺ: «**تكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي؛ بأن توفاه الله أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة**»(١).

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، «وعدًا»: مفعول مطلق، ﴿عَلَيۡهِ﴾، أي: على الله تعالى، ﴿حَقّٗا﴾ صفة لـ«وعدًا»، أي: وعد به عباده المؤمنين، وأوجبه، وأحقه لهم على نفسه.

﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ«وعدًا» أي: وعدًا مكتوبًا في التوراة والإنجيل والقرآن، أشرف كتب الله وأعظمها، والتي أنزلها على أفضل رسله، موسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام: بمعنى النفي، أي: ولا أحد أوفى بعهده من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢].

وأظهر مقام الإضمار في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ للتعظيم والاهتمام.

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٢٣)، ومسلم في الإمارة، فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ﴾، أي: أظهروا البشر والسرور بهذا البيع.

والخطاب للمؤمنين، وهو عام لكل من قام بمقتضى هذا العقد، أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى بهذا العهد؛ بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾، أي: الذي عاوضتم به.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، الإشارة: إلى البيع، أي: وذلك البيع والعقد هو الفوز، أي: الفلاح العظيم الذي لا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى، وقد أكد وصفه بذلك بضمير الفصل «هو»، وبكون الجملة اسمية.

قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

ذكر عز وجل أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، ثم أتبع ذلك بالثناء عليهم بذكر صفاتهم التي جعلتهم أهلًا للوفاء بهذا العقد.

قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف هو وما بعده، والتقدير: هم التائبون العابدون... إلخ. وهي أوصاف للمؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأصلها الجر، لكنها فصلت عن الوصفية، وجعلت أخبارًا؛ اهتمامًا بهذه النعوت والصفات.

ومعنى ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الراجعون من الذنوب كلها، الملازمون للتوبة في جميع الأوقات.

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾، أي: العابدون لله تعالى، القائمون بما أوجب الله عليهم من العبادات، المحافظون على الطاعات.

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لربهم؛ بالاعتراف بنعمه عليهم، وشكره عليها، واستعمالها في طاعته.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ تطلق السياحة على الصيام، وجمهور السلف على أن المراد بـ«السائحون» هنا: الصائمون.

كما تطلق السياحة على السفر في القربات؛ كالجهاد، والهجرة، والحج، والعمرة،

وطلب العلم، وصلة الأقارب، وغير ذلك.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى**»(١).

والسياحة في الآية تشمل كل ما ذكر، بل وتشمل سياحة القلب واللسان والجوارح في ذكر الله تعالى، ومحبته، والثناء عليه، والإنابة إليه، والشوق إلى لقائه وطاعته.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، أي: المصلون، المكثرون من الركوع والسجود؛ لأن الركوع والسجود من أعظم أركان الصلاة.

﴿ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، المعروف: ما عرف في الشرع، والمنكر: ما أنكره الشرع، أي: الآمرون بما أمر به الشرع، والناهون عما نهى عنه الشرع، فقاموا بعبادة الحق، ونصح الخلق.

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ صفة جامعة للعمل بكل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ ولهذا ختمت بها هذه الأوصاف.

والمعنى: والملازمون للعمل بما أمر الله تعالى به؛ استجابة لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] ولترك ما نهى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، البشارة: الإخبار بما يسر، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره اتسعت بشرة وجهه واستنار، كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «وكان- يعني: النبي ﷺ- إذا سر استنار وجهه، كأنه قطعة قمر»(٢).

ولم يذكر المُبَشّر به في الآية؛ ليذهب الذهن في تصور عظمته كل مذهب، وأنه مما لا يحيط به الوصف؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» قال ﷺ: «**اقرؤوا إن شئتم:**

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٦)، وأحمد (٣/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٢٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧]» (١).

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى المؤمنين المقاتلين في سبيله وعدًا محققًا، وإخبارهم خبرًا مؤكدًا بأنه عز وجل اشترى منهم أنفسهم وأموالهم؛ بأن لهم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

٢- عظم هذا العقد الذي عقده الله تعالى مع المؤمنين المجاهدين، فإن الله تعالى أكده بـ«إن»، وأضافه إلى نفسه الشريفة، وجعله بصيغة الماضي الثابت المستقر، وجعل شرطه غاليًا، وهو بذل النفس والمال، وجعل عوضه أغلى عوض، وهو الجنة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

وأكده عز وجل، وأوجبه على نفسه، وأحقه في أفضل كتبه، فقال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ والتزم بالوفاء به، وبشر به، وأبان بأنه الفوز العظيم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٣- أن سلعة الله تعالى الجنة غالية، لا تنال إلا بالتضحية والجهاد، وبذل ما يستطيع الإنسان من جهد بنفسه وماله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

٤- أن القتال المعتبر في الإسلام ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥- أن المقاتل في سبيل الله موعود بالجنة، سواء قَتَل أو قُتِل، أو حصل له الأمران؛

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

٦- تأكيد تحقيق هذا الوعد للمؤمنين، بذكر الله عز وجل له في أفضل كتبه؛ التوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم.

٧- أنه لا أحد أوفى بعهده من الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٨- البشارة العظمى للمؤمنين بهذا البيع، وبيان وتأكيد أنه هو الفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٩- الثناء على المؤمنين بذكر صفاتهم العظيمة، التي استحقوا بسببها إكرامهم بهذا العقد بالقتال في سبيل الله، والمعاوضة على ذلك بالجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- الحث على الاتصاف بهذه الصفات العظيمة، والترغيب فيها من التوبة والإنابة إلى الله تعالى، والقيام بعبادته، وحمده وشكره، والسياحة في طلب مرضاته بالصيام، والجهاد، والحج، والعمرة، وطلب العلم، وسياحة القلب واللسان والجوارح في ذكره عز وجل وطاعته، والإكثار من الصلاة والركوع والسجود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله تعالى كلها عمومًا.

١١- أن من هذه الصفات التي امتدح الله بها المؤمنين، وأثنى عليهم بها ما يتعلق بإصلاح النفس بالتوبة، والعبادة، وحمد الله، والسياحة في طلب مرضاته، والصلاة، وحفظ حدود الله تعالى، وهذه جل الصفات المذكورة، ومنها ما يتعلق بالعمل على إصلاح المجتمع، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عز وجل، وذلك صمام سعادة الأمة، وسفينة نجاتها.

١٢- البشارة العظيمة للمؤمنين بهذا البيع والعقد العظيم الذي عوضه أعظم عوض وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

عن سعيد بن المسيب، عن أبيه رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل**». فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب. قال: فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطب. فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(١).

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾؛ «ما»: نافية، واللام في قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ لام الجحود والابتداء والتوكيد، ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان».

والمعنى: ما كان جائزًا للنبي والذين آمنوا الاستغفار للمشركين والكفار؛ لأن ذلك لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة (٤٧٧٢)، ومسلم في الإيمان، أول الإيمان قول: لا إله إلا الله (٢٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٥)، وأحمد (٥/ ٥٣٣).

[التوبة:٨٠] .

وجاء النهي بصيغة النفي مبالغة في التنزه عن هذا الاستغفار.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾، أي: ولو كان المستغفر لهم من المشركين أصحاب قرابة، فلا يجوز الاستغفار لهم، وفي هذا توكيد للنفي والنهي عن ذلك، فإذا كان لا يجوز الاستغفار للمشركين من أولي القربى، فمن عداهم من باب أولى.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: من بعد ما ظهر لهم أنهم من أصحاب الجحيم؛ بموتهم على الشرك والكفر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

لما بين أنه لا يجوز شرعًا الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى؛ أتبع ذلك ببيان السبب في استغفار إبراهيم لأبيه؛ حتى لا يُتخذ ذريعة للاستغفار للمشركين.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الجملة مستأنفة، أو معطوفة على قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٣] أي: وما كان طلب إبراهيم المغفرة لأبيه آزر؛ كما في قوله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦].

﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، «إلا»: أداة حصر، و«موعدة»: اسم للوعد، أي: إلا عن وعد وعده إبراهيم لأبيه أن يستغفر له؛ كما في قوله تعالى عنه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧] وقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة:٤].

وقيل: إن الوعد صادر من أبي إبراهيم، وليس من إبراهيم عليه السلام.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾، أي: فلما ظهر لإبراهيم أن أباه عدو لله؛ بموته على الشرك والكفر، أو بوحي الله تعالى لإبراهيم أن أباه سيموت على الكفر، ولن يتنفع بالوعظ والتذكير، أو بنهي الله تعالى له عن الاستغفار له ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أعلن البراءة منه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين

له أنه عدو لله تبرأ منه» وفي رواية: «لما مات تبين له أنه عدو لله»(١).

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ هذا ثناء على إبراهيم عليه السلام، ومعنى «أواه»: موقن، كثير الإنابة، رجاع إلى الله تعالى، كثير الضراعة والخشوع، والذكر والاستغفار، كثير الدعاء للناس والرحمة بهم.

﴿حَلِيمٌ﴾، أي: ذو حلم وعفو وصفح عما يصدر إليه من الزلات، فلا يستفزه جهل الجاهلين، بل يقابل الإساءة بالصفح والإحسان؛ لما قال له أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦] قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧].

وصفة الحلم لا تنافي القوة في الحق كما قيل:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الحِلْمِ في عَيْنِ العُدَاةِ مَهِيبُ(٢)

وقال الآخر:

وَلَا خَيْرَ في حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
وَلَا خَيْرَ في جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا(٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾، أي: وما كان الله ليكتب الضلال على قوم بعد إذ هداهم؛ بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾؛ «ما» موصولة أو نكرة، أي: إلى غاية أن يبين لهم الذي يتقونه، أي: الأشياء التي يريد منهم أن يتقوها، أي: يجتنبوها، ويقيم الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

قال ابن القيم: «فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٢/ ٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥).

(٢) البيت لكعب بن سعد. انظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٧٨).

(٣) البيتان للنابغة الجعدي. انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٢٨٠).

ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان»(١).

قال السعدي(٢): «يعني: أن الله تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الطريق المستقيم، فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه وتدعوا إليه ضروراتهم، فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية، بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال؛ جزاء لهم على ردهم الحق المبين. والأول أولى».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، «إن»: حرف توكيد، وفيها معنى التعليل، أي: لأنه بكل شيء عليم، أي: أن علمه عز وجل محيط بكل شيء.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «عليم»، وقدم عليه؛ لتأكيد شمول علمه لكل شيء.

ومن كمال علمه عز وجل علّم عباده ما لم يكونوا يعلمون، وبين لهم ما ينبغي أن يتقوه؛ من الاستغفار للمشركين، وغير ذلك من المنهيات والمعاصي، ولا يضل قومًا حتى يبين لهم طريق المحجة، ويقيم عليهم الحجة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

تذييل فيه معنى التوكيد لما قبله.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، «إن»: كالتي قبلها للتوكيد، وفيها معنى التعليل، وقدم الخبر «له»؛ للدلالة على اختصاصه بذلك، أي: أن لله وحده ملك

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٠-٣٨١).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٣٠٧).

السموات والأرض، خلقًا وملكًا، وتصريفًا وتدبيرًا؛ ولهذا قال بعده:

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: يحيي من شاء، ويميت من شاء، أي: بيده الإحياء والإماتة.

وفي هذا تصوير لمعنى الملك في أتم مظاهره المحسوسة بين الناس، لا يستطيعون لذلك دفعًا ولا منعًا.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: سوى الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاكم بجلب الخير لكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم بدفع الضر والشر عنكم، و«من»: لتأكيد العموم في النفي، أي: وما لكم غير الله من أيّ ولي، ولا أيّ نصير. وكرر النفي بذكر «لا» في قوله: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ للتوكيد.

الفوائد والأحكام:

١- عدم جواز الاستغفار للمشركين والكفار الذين ماتوا على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٢- تأكيد تحريم الاستغفار للمشركين؛ بمجيء النهي بصيغة النفي بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مبالغة في التنزه عن هذا الاستغفار، وبقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ لأنه إذا كان لا يجوز الاستغفار للمشرك القريب فالبعيد من باب أولى.

٣- أن للمؤمنين أسوة وقدوة بنبيهم ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٤- مشروعية الدعاء للمؤمنين عامة وللأقارب خاصة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾.

٥- خطر الشرك والكفر؛ لأنه يقطع الصلة والمودة بين الناس، بل بين الأقارب.

٦- جواز الدعاء للمشركين والكفار الأحياء بالهداية؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: بموتهم على ذلك وقد قال ﷺ: «**اللهم اغفر**

لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»(١)، وقال ﷺ: «**اللهم اهد دوسًا، وأت بهم**»(٢) وقال ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك؛ بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب**». قال: وكان أحبهما إليه عمر (٣).

٧- أن مآل المشركين والكفار إلى النار، وهم أصحابها المخلدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٨- إثبات النار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٩- الاحتراس ببيان سبب استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك؛ لئلا يتخذ ذلك ذريعة للاستغفار للمشركين، ببيان أن إبراهيم عليه السلام إنما استغفر لأبيه؛ لأنه وعد أباه بذلك قبل أن يعلم أنه عدو لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

١٠- أن من حق الوالدين الاستغفار والدعاء لهما، ودعوتهما إلى الهدى، كما فعل إبراهيم عليه السلام.

١١- وجوب الوفاء بالوعد؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

١٢- أن المشرك عدو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾.

١٣- وجوب البراءة من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

١٤- فضيلة إبراهيم عليه السلام، وكونه قدوة في إخلاصه لله تعالى، وفي حرصه على هداية أبيه، ووفائه بوعده، وفي إعلانه البراءة من أبيه لما ظهر له أنه عدو لله بموته على الشرك، وفي إنابته إلى الله تعالى وحلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١٤- الترغيب في الإنابة إلى الله تعالى وذكره وطاعته، وفي الحلم؛ لأن الله امتدح بذلك إبراهيم عليه السلام.

١٥- إقامة الله تعالى الحجة على الخلق وبيان الطريق المستقيم لهم؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حيّ عن بينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، فمن سلك طريق الخير يسره لليسرى، ومن سلك طريق الشر يسره للعسرى.

١٦- علم الله تعالى الواسع المحيط بكل شيء، ومن ذلك علمه بمن هو أهل للهداية، ومن هو أهل للإضلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٧- سعة ملكه عز وجل، واختصاصه بملك السموات والأرض، وبالإحياء والإماتة، وأنه لا ولي لأحد من دونه ولانصير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وفي هذا وعد ووعيد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاقَب أحدٌ تخلف عنها».

وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: «فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إليَّ رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك**» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**» وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول

الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر الله، أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»(١).

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ قرأ يعقوب برفع الراء: «والأنصارُ» على الاستئناف، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ عطفًا على المهاجرين.

واللام في قوله: ﴿لَّقَد﴾ لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد تاب الله على المهاجرين والأنصار، أي: وفقهم للتوبة.

و«المهاجرين»: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة مع رسول الله ﷺ حفاظًا على دينهم، ونصرة لله تعالى ورسوله، و«الأنصار»: هم أهل المدينة الذين آووا الرسول

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة تبوك (٣٩٥١)، ومسلم في التوبة، حديث كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣١٠٢)، وأحمد (٣/ ٤٥٦-٤٥٩).

ﷺ وأصحابه، ونصروا دين الله.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، أي: اتبعوا النبي ﷺ، وأطاعوه، وخرجوا معه لغزوة تبوك، ولم يخالفوه، ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، أي: في ساعة زمن العسرة الشديدة، أي: في وقت استنفار الناس لغزوة تبوك في شدة الحر، وضيق الحال، وقلة الزاد والركاب والماء، وكان جيش العسرة أكثره من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ قرأ حمزة وحفص وخلف بالياء: ﴿يَزِيغُ﴾ على التذكير، وقرأ الباقون بالتاء: «تزيغ» على التأنيث.

أي: من بعد ما قارب أن ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: يميل قلوب جماعة منهم عن الحق؛ بالتثاقل والقعود، وعدم الخروج للغزو؛ بسبب المشقة وشدة العسرة، وميلًا إلى الدعة والسكون.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على الفريق الذي كادت أن تزيغ قلوبهم.

ويحتمل أن يعود الضمير على المهاجرين والأنصار، فتكون الجملة تأكيدًا لقوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

والمعنى: ثم تاب عليهم؛ أي، وفقهم للتوبة، وثبتهم، وأيدهم، وقواهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للجملة قبلها، أي: لأنه بهم جميعًا ﴿رَءُوفٌ﴾، أي: ذو رأفة عظيمة، والرأفة: شدة الرحمة، فهي أخص من الرحمة؛ ولهذا أتبع ذلك بقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ من ذكر العام بعد الخاص، أي: ذو رحمة بهم واسعة.

ومن رأفته ورحمته بهم أن وفقهم للتوبة، وقبلها منهم، وثبتهم، وحفظ قلوبهم من الزيغ والزلل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾، أي: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار، وتاب على الثلاثة

الذين خلفوا، والثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العمري، وكلهم من الأنصار رضي الله عنهم.

و«ال» في قوله: ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ للعهد الذهني؛ لأنهم كانوا معهودين معروفين بين الناس.

ومعنى ﴿خُلِّفُواْ﴾، أي: ارجئوا عن القضاء في حكمهم، فلم يعذرهم رسول الله ﷺ مع من عذر ممن حلفوا له كذبًا من المنافقين، فقبل علانيتهم، ووكل باطن أمرهم إلى الله تعالى.

وليس المراد أنهم خلفوا عن الغزو، قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل رسول الله توبتهم حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه»(١).

قال ابن القيم: «قد فسرها كعب بالصواب، وهو أنهم خلّفوا من بين من حلف لرسول الله ﷺ واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأنه لو أراد ذلك لقال: تخلفوا؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٢٠]»(٢).

وقيل: المراد: الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عمن تاب عليهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ؛ كأبي لبابة، وأصحابه الذين نزل فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة:١٠٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «حتى»: للغاية، أي: إلى أن ضاقت عليهم الأرض؛ لما هم فيه من الحزن والقلق، والهم والغم على تخلفهم عن الجهاد، وإرجاء الرسول ﷺ أمرهم، إضافة إلى نهيه ﷺ الناس عن محادثتهم ومجالستهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٢).

﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾، الباء: للملابسة، و«ما»: مصدرية ﴿رَحُبَتْ﴾، أي: اتسعت

والمعنى: ضاقت عليهم الأرض مع رحبها وسعتها، أي: تخيلوها ضيقة، وهي رحبة واسعة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر:١٠].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾، أي: وضاقت قلوبهم وصدورهم؛ لفرط ما هم فيه من الحزن والغم والهم والجفوة.

وفي هذا ترق من ضيق الأرض إلى ضيق النفس، الذي هو في الحقيقة سبب ضيق الأرض قال الشاعر:

كَـأَنَّ فِجَـاجَ الأَرْضِ وَهْـيَ عَرِيضَـةٌ عَلَى الخَـائِفِ المَذْعُورِ كِفَّةُ حَابِلِ(١)

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، أي: وأيقنوا وعلموا، ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾، أي: لا مفر، ولا مهرب، ولا محيص، ولا محيد.

﴿مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾، أي: إلا إليه وحده، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله وحده، وفروا منه تعالى إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ [الذاريات:٥٠].

وقال ﷺ: «**وأعوذ بك منك**»(٢).

ومكثوا في هذه الشدة خمسين ليلة، حتى أنزل الله التوبة عليهم؛ كما في حديث كعب رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وفقهم للتوبة، ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يتوبوا، ويرجعوا إلى الله تعالى، فيقبل الله تعالى منهم، ويتوب عليهم؛ كما قال تعالى:

---

(١) البيت للطرماح. انظر: «التذكرة الحمدونية» (٥/ ٤٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوبة على عباده يتوب على العبد مرات وكرات، ويتوب على الكثيرين من عباده، يوفق العبد للتوبة، ويقبلها منه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة الواسعة لجميع خلقه، رحمة عامة، وبالمؤمنين رحمة خاصة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ذكر عز وجل توبته على الثلاثة الذين خلفوا، ثم أمر المؤمنين بتقواه، وأن يكونوا مع الصادقين في إشارة إلى أن سبب توبة الله تعالى عليهم هو صدقهم، كما دل عليه حديث كعب رضي الله عنه.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: اصدقوا والزموا الصدق، وكونوا من جملة الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين في مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ من المهاجرين، والأنصار، وغيرهم، فهم أئمة الصدق؛ وذلك لفضيلة الصدق، وعظيم أثره، وجزيل ثوابه وأجره، فبسببه خلّد الله ذكر توبته على الثلاثة الذين خلفوا في القرآن الكريم.

ولهذا قال كعب رضي الله عنه: «فوالله ما أعلم أحدًا أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وأنزل الله على رسوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (٦٠٩٤)، ومسلم في البر، قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (١٩٧١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٩)، وأحمد (١/ ٣٨٤).

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بتوبته تعالى على النبي والمهاجرين والأنصار، وتوفيقه لهم، وعظيم منته عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

٢- عظم هذه التوبة، وشمولها لجميع الذنوب؛ لأن النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

٣- الثناء على المهاجرين والأنصار، وامتداحهم في اتباعهم النبي ﷺ في ساعة العسرة والضيق، وخروجهم معه لغزوة تبوك، وعدم مخالفتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

٤- أن الأجر على قدر المشقة، والمثوبة على قدر النصب والتعب؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الحديد:١٠].

٥- الامتنان عليهم بتداركه عز وجل لفريق منهم، ووقايتهم من زيغ القلوب، وميلها عن الحق- بإيثار القعود، وعدم الخروج للغزو، ومخالفته ﷺ- وتوبته عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.

٦- تأكيد توبته عز وجل عليهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.

٧- أن توفيق الله العبد للإيمان توبة من الله تعالى عليه، وأن كل إنسان مفتقر إلى توبة الله تعالى عليه، حتى الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر:٣].

وقال ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله تعالى في اليوم والليلة مائة مرة**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، استحباب الاستغفار والإكثار منه (٢٧٠٢)، وأبو داود في الصلاة، تفريع أبواب الوتر، باب في الاستغفار (١٥١٥)، وأحمد (٤/ ٢١١) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

٨- فضل التوبة، وعظم قدرها، وأنها غاية كمال المؤمن؛ لامتنان الله تعالى بها على خير خلقه نبينا محمد ﷺ، وعلى أصحابه؛ من المهاجرين، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وعلى الثلاثة الذين خلفوا؛ لصدقهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا جعل ﷺ توبة الله تعالى على كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه.

٩- رأفته عز وجل بالمهاجرين والأنصار، ورحمته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٠- إثبات صفتي الرأفة والرحمة الواسعتين لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

١١- إعلان توبته عز وجل على الثلاثة الذين خلفوا وارجئوا، فلم يعذرهم النبي ﷺ مع من عذر ممن حلفوا له كذبًا من المنافقين فقبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، ولا آيسهم من التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾.

١٢- شدة ما حصل لهؤلاء الثلاثة من الابتلاء؛ تمحيصًا لهم، فضاقت عليهم الأرض مع سعتها، وضاقت عليهم أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

١٣- أن الابتلاء بالشدائد والمحن فيه تمحيص للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾.

١٤- أنه لا ملجأ من الله، ولا مفر، ولا محيد إلا إليه عز وجل.

١٥- تأكيد توبته عز وجل على الثلاثة الذين خلفوا، وتوفيقه لهم ليتوبوا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

١٦- إثبات اسم الله «التواب»، وأنه ذو التوبة الواسعة، يتوب على العبد فيوفقه للتوبة، ويقبلها منه مرات وكرات، ويتوب على الكثيرين من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

١٧- إثبات اسم الله «الرحيم»، وأنه ذو الرحمة الواسعة؛ رحمة صفة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية، يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة عامة وخاصة، وهي سبب توبته

على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٨- أن سبب توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة هي صدقهم الرسول ﷺ؛ حيث أبانوا له أنه لا عذر لهم في تخلفهم عن الخروج معه إلى غزوة تبوك، كما جاء في حديث كعب رضي الله عنه؛ ولهذا أتبع الله ذكر توبته عليهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

١٩- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال الأمر بعده، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢٠- وجوب تقوى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢١- وجوب الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٢٢- أن الصدق منجاة لصاحبه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة:١١٩]، وقال تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٢٤]. فكفى الصدق أن يكون سبباً للتوبة، ومن أخص صفات المؤمنين وهاديًا إلى الجنة.

٢٣- الحذر من الكذب؛ لأن عاقبته الهلاك في الدنيا والآخرة؛ لمفهوم قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وكفى الكذب أن يكون من أخص صفات المنافقين وهاديًا إلى النار.

٢٤- ينبغي عدم الاغترار بما يحصل عليه الذين يعيشون على الكذب والاحتيال، واللف والدوران، وعدم الوضوح من نفع زهيد في الظاهر يعقبه ضرر عظيم، فما أغنى عن المنافقين اعتذارهم كذبًا، وحلفهم عند رسول الله ﷺ؛ حيث أعقب ذلك أن فضحهم الله تعالى في القرآن الكريم، وتوعدهم بالعذاب الأليم، والسعيد من وعظ بغيره.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

لما ذكر عز وجل منته بالتوبة على المهاجرين والأنصار في اتباعهم النبي ﷺ، وخروجهم معه إلى غزوة تبوك، وأثنى عليهم؛ أتبع ذلك بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ الآيتين تأكيدًا للثناء عليهم، وتحريضًا على ملازمة الجهاد مع رسول الله ﷺ، وتعريضًا بالمتخلفين عن رسول الله ﷺ، وعتابًا لهم.

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

«ما»: نافية، أي: ما كان لائقًا، بل ولا جائزًا شرعًا لأهل المدينة من المهاجرين والأنصار ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ الذين أسلموا، وحسن إسلامهم.

﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم

كان مؤخر، أي: ما كان لهم التخلف عن رسول الله، وعدم الخروج معه إلى الجهاد.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ معطوف على ﴿يَتَخَلَّفُوا۟﴾، أي: ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، أي: ولا رغبة بأنفسهم عن نفسه، بأن يؤثروا أنفسهم بالبقاء والسلامة دونه، بل الواجب الخروج معه، وعدم التخلف عنه، وأن يفدوه بأنفسهم، فهو أولى بهم من أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى المفهوم مما سبق، وهو عدم رغبة أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب في التخلف عن رسول الله، وعدم رغبتهم بأنفسهم عن نفسه.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم، ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾، أي: عطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾، أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾، أي: مجاعة. والخمص: ضمور البطن بسبب الجوع.

وفي الحديث: «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١).

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في سبيل إعلاء كلمة الله؛ كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٢).

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ معطوف على ﴿يُصِيبُهُمْ﴾.

أي: ولا يطؤون بأقدامهم وجيشهم موطئًا يغضب الكفار ويغمهم، من كونه في منزل ومكان يرهبهم ويخيفهم، أو من كونه على أرضهم وديارهم بعد الاستيلاء على أوطانهم.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا يصيبون ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ ونُكِّر؛ لإفادة العموم؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم.

﴿نَّيْلًا﴾، أي: ولا يصيبون من عدو نيلًا، أي: ظفرًا عليه، ونصرًا؛ من قتل أو

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

هزيمة أو أسر أو سبي أو غنيمة.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، «إلا»: أداة حصر، والضمير في «به» يعود إلى قوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾، وما عطف عليه، أي: إلا كتب لهم بذلك المذكور من الظمأ، أو النصب، أو المخمصة، أو وطئهم موطئًا يغيظ الكفار، أو نيلهم من عدو نيلًا، أي: إلا كتب لهم بكل ذلك عمل صالح يثابون عليه ثوابًا جزيلًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، أي: لا يسقط، ولا يهدر ثواب المحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى، بالإخلاص له عز وجل، والمتابعة لنبيه ﷺ.

وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ معطوف على قوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾، أي: ولا ينفقون نفقة قليلة ولا كثيرة. وبدأ بقوله: ﴿صَغِيرَةً﴾ ترغيبًا في النفقة مهما قلّت.

وقد كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية أوفر الحظ والنصيب؛ فعن عبد الرحمن بن خباب السلمي رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال ثم حث، فقال عثمان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث فقال عثمان بن عفان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها: **ما على عثمان ما عمل بعد هذا**(١).

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٧٥).

في ثوبه، حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده، ويقول: «**ما ضر ابن عفان ما فعل بعد اليوم**» يرددها مرارًا(١).

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾، أي: ولا يجتازون واديًا في مسيرهم للجهاد في سبيل الله تعالى. والوادي: هو المنفرج بين الجبال والآكام تمر منه السيول.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، «إلا» أداة حصر، والتقدير: إلا كتب لهم عمل صالح؛ بدليل قوله فيما سبق: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، وقوله بعد هذا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فالمعنى: إلا كتب لهم عمل صالح يثابون عليه، ويجازون أحسن الجزاء. ولم يقل: «به» لأن هذه الأفعال صادرة عنهم.

قال ابن القيم: «فأخبر في الآية الأولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح، وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها. والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه، فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم»(٢).

واللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يجزيهم الله، أي: يثيبهم ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أحسن الذي كانوا يعملون، أو أحسن عملهم.

وأضيف الحسن إلى العمل؛ للتنبيه إلى أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن العمل أُحسن له الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ هذا في مقابل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣).

(٢) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٣).

ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٢٠] ففي هذا تحريض على الجهاد، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ تحريض على العلم.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ معطوف على قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾.

والمعنى: وما كان المؤمنون ليخرجوا للجهاد جميعًا، وهو نفي بمعنى النهي، أي: لا ينبغي أن ينفر المؤمنون كافة، أي: جميعًا.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يعني: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا رسول الله ﷺ في المدينة وحده»(١).

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، الفاء استئنافية، و«لولا» للتحضيض، أي: فهلا خرج ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، أي: من كل فريق، أو قبيلة، ونحو ذلك.

﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، أي: جماعة وسرية تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يتفقهوا في الدين، أي: ليتفهموا ويتعلموا أحكام الدين، وما ينزل على النبي ﷺ من القرآن.

والفقه: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، والمراد به هنا: فهم ومعرفة أحكام دينهم من الحلال، والحرام، وغير ذلك.

والضمير في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ للذين لم يخرجوا من كل فرقة، أي: لأجل أن يتفقه هؤلاء القاعدون في الدين، أي: يتفهموا، ويتعلموا أحكام الدين وشرائعه من النبي ﷺ.

﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ معطوف على ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾، والضمير راجع إلى القاعدين أيضًا، أي: ولأجل أن ينذر هؤلاء القاعدون بعد تفقههم في الدين ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين نفروا للجهاد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٩).

﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾، إذا رجعوا من الجهاد إليهم، أي: يخوفوهم مخالفة أمر الله، بتفقيههم في الدين، وتعليمهم أحكامه.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾، أي: لأجل أن يحذروا عذاب الله وعقابه.

والمعنى: فهلا خرج من كل فرقة طائفة تحصل بهم الكفاية، وجلس من عداهم؛ ليتفقهوا في دينهم، ويتعلموا أحكامه من النبي ﷺ، ومن ثم ينذروا قومهم الذين خرجوا بعد رجوعهم إليهم بتعليمهم أحكام الدين؛ ليحذروا بمخالفة أمر الله وعذابه.

وقيل: المراد بالنفير في الآية: النفير في العلم، أي: ما كان المؤمنون لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة، تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين.

والصحيح القول الأول؛ لأن الآية في سياق الجهاد، والنفير إنما يكون في الغزو والجهاد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة:٤١].

وقال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(١) والآية على هذا تكون كما قال ابن القيم: «قد اشتملت على بيان حكم النافرين والقاعدين، وعلى بيان اشتراكهم في الجهاد والعلم، فالنافرون أهل الجهاد، والقاعدون أهل التفقه، والدين إنما يتم بالجهاد والعلم، فإذا اشتغلت طائفة بالجهاد وطائفة بالفقه في الدين، ثم يعلم أهل الفقه المجاهدين إذا رجعوا إليهم؛ حصلت المصلحة بالعلم والجهاد؛ وهذا الأليق بالآية، والأكمل لمعناها»(٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، أي: القريبين منكم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، لا هجرة بعد الفتح (٢٧٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٨٠)، والنسائي في البيعة (٤١٧٠)، والترمذي في السير (١٥٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٧-٣٨٨).

مكانًا، وهم مشركو العرب؛ لأن خطرهم على المسلمين أعظم، وهم أيضًا أولى بالدعوة قبل القتال ممن وراءهم.

وليس معنى هذا أن لا يُقاتل غيرهم، وإنما معناه أن يُقاتل الكفار أولًا بأول، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام.

قال ابن كثير(١): «ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم، وفتح مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضر موت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل الكتاب؛ فبلغ تبوك، ثم رجع؛ لأجل جهد الناس، وجدب البلاد، وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام.

ثم اشتغل في السنة العاشرة في حجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد الحجة بأحد وثمانين يومًا، فاختاره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده ﷺ الخلفاء الراشدون، فأكملوا بقية الفتوح».

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، و«الغلظة»: الشدة أي: وليجد الكفار فيكم شدة عليهم في قتالكم لهم، انتصارًا منكم لله عز وجل ودينه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٢، التحريم:٩]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ افتتحت الجملة بقوله ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ للاهتمام بما يراد العلم به، أي: واعلموا أن الله مع المتقين معية خاصة بالنصر والتأييد، والتوفيق والتسديد.

أي: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وتوكلوا على الله، واتقوه، واعلموا أن الله

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٧٤).

معكم إن اتقيتموه، وأن نصره لكم بحسب تقواكم له.

قال ابن كثير(١): «وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى؛ لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك؛ طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا؛ لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمته في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم».

وأقول: صدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

فإن الأمة الإسلامية لم تصب بمصاب أعظم من مصيبتها في دينها، وكما قيل:

مَـا يَبْلُـغُ الأَعْـدَاءُ مِـنْ جَاهِـلٍ ... مَـا يَبْلُـغُ الجَاهِـلُ مِـنْ نَفْسِـهِ(٢)

ورحمك الله يا ابن كثير لو ترى حال المسلمين اليوم، وقد ازدادوا انقسامًا واختلافًا، وتفرقوا شيعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، وزاد الأمر خطورة قوة شوكة أهل البدع ممن يحسبون على الإسلام، والإسلام منهم براء، من المجوس، والصفوية، والنصيرية، والرافضة، والحوثيين، ممن يطعنون في ألوهية الله عز وجل، ويشركون معه الأئمة في الخلق والتدبير والعبادة، ويطعنون في كتاب الله تعالى، ويزعمون فيه التحريف، ويطعنون في صحابة رسول الله ﷺ، ويتهمونهم بالخيانة والردة، ويطعنون في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويكفرونها، فقد شوهوا صورة الإسلام، وصاروا غصة في حلوق المسلمين، وخنجرًا

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٧٥).

(٢) البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحلاج. انظر: «الإعجاز والإيجاز» (ص١٦١).

في أيدي أعداء الإسلام، وسيفًا مصلتًا على المسلمين في شتى البلاد الإسلامية؛ فهم الذين مكنوا لأعداء الإسلام من احتلال كثير من بلاد المسلمين فيما مضى، وهم الذين مكنوهم في عصرنا من احتلال أفغانستان والعراق، وهم الذين خربوا كثيرًا من بلاد المسلمين وأشاعوا فيها الفتن والطائفية المقيتة، كما فعلوا في العراق وسوريا ولبنان واليمن، وبعض دول الخليج العربي وأفريقيا، وكثير من الدول الآسيوية وغيرها. وقد قتل على أيديهم وبأبشع صور القتل من المسلمين ما لم يقتل على أيدي غيرهم من أعداء الإسلام، وكفاهم ذلك مقتًا وسحقًا وبعدًا عن الإسلام؛ فهم أشد أعداء الإسلام، كفى الله المسلمين شرورهم، وعاملهم بما يستحقون. وصدق القحطاني رحمه الله(١):

إِنَّ الرَّوَافِضَ شَرُّ مَنْ وَطِئَ الحَصَا ... مِن كُلِّ إِنسٍ نَاطِقٍ أَو جَانِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾.

في هاتين الآيتين وما بعدهما إلى قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة:١٢٧] عود إلى بيان أحوال المنافقين وصفاتهم.

قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾، الواو استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإذا ما أنزلت سورة ما، من سور القرآن فيها الأخبار، والأحكام، والحث على الجهاد، وغير ذلك.

﴿فَمِنۡهُم﴾، أي: فمن المنافقين؛ بدلالة المقام، وقوله بعد هذا: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [التوبة:١٢٥] ﴿مَّن يَقُولُ﴾، أي: الذي يقول إنكاراً ونفياً، واستهزاء وتهكما بالقرآن:

﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾، ﴿أَيُّكُمۡ﴾ الخطاب من بعضهم لبعض، ﴿زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ﴾، أي: هذه السورة ﴿إِيمَٰنٗا﴾، أي: أنها لم تزد أحدًا منا إيمانًا، قال الله: ﴿فَأَمَّا

---

(١) انظر: «نونية القحطاني» (ص٢٢).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ إلى إيمانهم؛ لأنهم آمنوا بها، وصدقوا ما فيها من أخبار، وعملوا بما فيها من أحكام.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، السين والتاء للتأكيد، أي: وهم يبشر بعضهم بعضًا بنزول السورة؛ لانشراح صدورهم، وطمأنينة قلوبهم بآيات الله، ورغبتهم في فهمها والعمل بها، فحصل لهم بنزول السورة زيادة الإيمان والبشارة، وفي هذا إبطال لقول المنافقين: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ إمعانًا منهم في نفي ذلك، قياسًا على أحوال قلوبهم المريضة؛ كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، والرجس: الشيء الخبيث، حسيًّا كان أو معنويًّا، والمراد به هنا الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠].

والمعنى: فزادتهم شكًّا إلى شكهم، ونفاقًا إلى نفاقهم، وكفرًا إلى كفرهم؛ بسبب تكذيبهم بها، وجحودهم لها، وإعراضهم عنها، مما أدى بهم إلى الاستمرار على ذلك؛ ولهذا قال:

﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، أي: حال كونهم كافرين، أي: ماتوا على الكفر، فحصل لهم بنزول السورة زيادة كفرهم، والاستمرار على ذلك حتى ماتوا على الكفر، عقوبة لهم بسبب تكذيبهم وشكهم ونفاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب بالخطاب: «ترون».

وقرأ الباقون: ﴿يَرَوْنَ﴾ بالغيب.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب، أي: أولا يرى هؤلاء المنافقون: ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، أي: يبتلون ويختبرون بالمصائب.

﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ تارة بالجدب والقحط والشدة، وتارة بالأمراض، وتارة بفضيحتهم وإظهار ما يبطنون، وغير ذلك؛ ليستيقظوا من رقدتهم، وليفيقوا من غفلتهم، ولكن هيهات؛ ولهذا قال:

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، أي: لا يرجعون عما هم عليه من النفاق والكفر إلى الإخلاص والإيمان، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، لم يقل «ولا يذكرون» بل قال: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ لتأكيد انتفاء تذكرهم، أي: ولا هم يتعظون ويعتبرون بتلك البلايا والمصائب، وأنها بسبب نفاقهم وكفرهم ومعاصيهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، أي: وإذا ما أنزلت سورة ما، مما فيه الأمر بالجهاد، أو بغير ذلك، أو مما فيه فضح أسرارهم، أو غير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤].

﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: التفت بعض المنافقين إلى بعض، وتغامزوا بالعيون سخرية وإنكارًا للوحي ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، أي: قائلين بلسان المقال ولسان الحال؛ تهيؤًا للاختفاء واللواذ والانصراف: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للعموم من حيث المعنى، أي: هل يشاهدكم أي أحد من الناس.

﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عن مجلس الرسول ﷺ وتولوا، وأعرضوا عما أنزل الله من الحق.

كما قال تعالى عن المشركين: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾

فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر:٤٩-٥١].

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، أي: صرف الله قلوبهم صرفًا كونيًّا، فلا تقبل الحق، ولا تنتفع بالآيات والمواعظ؛ عقوبة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يفقهون ولا يفهمون الذي ينفعهم في أخراهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:٧].

الفوائد والأحكام:

١- بيان أنه ما كان سائغًا ولائقًا لأهل المدينة، ومن حولهم من الأعراب، بل ولا جائزًا لهم شرعًا أن يتخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ للجهاد، ولا يؤثروا أنفسهم بالسلامة على نفسه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وفي هذا امتداح لهم، وثناء عليهم، وإغراء لهم بلزوم اتباعه ﷺ وافتدائه بأنفسهم، كما أن فيه تحذيرًا لهم من التخلف عنه، وإيثار أنفسهم بالسلامة دونه.

وفيه أيضًا حث على مناصرة الحق والقائمين به، وتحذير من ترك مناصرة الحق وخذلان أهله.

وليس في هذه الآية ما يدل على وجوب النفير على جميع الأمة، كما أنه ليس في قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١] ما يدل على ذلك أيضًا، وإنما معناها: انفروا على أي حال كنتم من الخفة والثقل.

وعلى هذا فلا صحة لما قيل: إن هاتين الآيتين منسوختان بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:١٢٢].

٢- التشجيع على الخروج مع رسول الله ﷺ، وعلى الجهاد في سبيل الله بذكر عظيم ما

أعد الله تعالى للمجاهدين في سبيله من الأجر، وأنهم يؤجرون على كل ما يصيبهم من المصائب في ذلك، مما لا يد لهم فيه؛ من ظمأ، أو نصب، أو مخمصة، كما يؤجرون على كل ما يقومون به من أعمال تغيظ الكفار؛ من الترصد لهم، ومحاصرتهم، ووطء أرضهم، والاستيلاء عليها، والنيل منهم قتلًا وسبيًا وسلبًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾.

٣- الحث على الصبر على ما يصيب المجاهد في سبيل الله من المصائب؛ من ظمأ، أو نصب، أو مخمصة، وغير ذلك؛ لأنه مأجور على كل ما يصيبه في ذلك، ومكتوب له به عمل صالح؛ إضافة إلى كون المصائب مكفرات؛ كما قال ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا هم ولا غم حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر به من خطاياه**»(١).

٤- أن الجهاد المعتبر ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله، ووفق شرعه.

٥- الترغيب في إغاظة الكفار في الترصد لهم، ووطء أرضهم، وغزو ديارهم، والنيل منهم قتلًا وأسرًا وسبيًا وسلبًا.

٦- الحث على الإحسان بنوعيه: الإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠].

٧- تكفله عز وجل وضمانه لثواب المحسنين؛ تفضلًا منه وكرمًا؛ ولهذا أسماه أجرًا مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

٨- الحث على الإنفاق في سبيل الله، وأن المنفق يؤجر على النفقة صغيرة أو كبيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.

٩- أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأن النفقة الصغيرة قد تفوق النفقة الكبيرة في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤٠)، ومسلم في البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه... (٢٥٧٢)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاري أيضًا (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)؛ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، رضي الله عنهما.

الأجر، وخاصة إذا كانت جهد المقل؛ لأن الله قدّم في الذكر النفقة الصغيرة.

١٠- الترغيب في تحمل السير والسفر، وقطع الأودية والقفار في الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، أي: إلا كتب لهم عمل صالح.

١١- أن الجزاء من جنس العمل، وأن من أحسن العمل أحسن الله له الجزاء، وأن الله كتب للمجاهدين عملًا صالحًا بكل ما أصابهم وما قاموا به؛ ليكون جزاؤهم أحسن ما كانوا يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

١٢- أنه لا يشرع أن ينفر المؤمنون كافة ويتركوا الرسول ﷺ وحده، أو يتركوا ولي الأمر من بعده، أو يتركوا البلد ومصالح الأمة، وإنما يكون النفير بقدر الحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾.

١٣- أن الأولى أن ينفر من كل فرقة طائفة للجهاد، كالسرايا، ونحوها، ويبقى من عداهم؛ للتفقه في الدين، ورعاية مصالح الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾.

١٤- أن طلب العلم والفقه في الدين فرض كفاية على الأمة، يجب العناية به، وأن على من تعلم وفقه في دين الله أن يعلم غيره.

١٥- أن على الفرقة التي لم تخرج وجلسوا للتفقه في الدين؛ إنذار قومهم الذين خرجوا إذا رجعوا إليهم من مخالفة أمر الله؛ بتفقيههم في الدين، وتعليمهم أحكامه؛ لأجل أن يحذروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

١٦- أن الأمة في حاجة إلى الجهاد في سبيل الله؛ لنشر الدعوة إلى الله تعالى، والدفع عن بلاد المسلمين، وحماية حدودهم.

كما أنها في حاجة إلى العلم والتفقه في الدين، قال ابن القيم بعد ما ذكر أن من أهل العلم من قال: المراد بالنفير في الآية نفير العلم والتفقه في الدين، وأن أكثرهم- وهو الصحيح- على أن المراد به نفير الجهاد، قال: «وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في

الدين، وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل قد يكون أفضل منه»(١).

١٧- ينبغي أن ينتدب لكل مهمة من المهمات، ومصلحة من مصالح الأمة من يقوم بها، ويفرغ لها وقته، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالح الأمة.

١٨- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ لتكريمهم وتشريفهم، والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٩- وجوب مقاتلة الكفار الأقرب فالأقرب منهم لبلاد المسلمين؛ لفتح بلادهم للدعوة إلى الله تعالى، ودرء خطرهم عن المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

٢٠- ينبغي ترتيب الأعمال والمهمات، وتقديم الأولويات، والبداءة بالأهم فالأهم.

٢١- ينبغي الغلظة والشدة على الكفار في قتالهم؛ انتصارًا لله عز وجل ولدينه، وترهيبًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

٢٢- أن الله عز وجل مع المتقين بعونه وتوفيقه، ونصره لهم، وينبغي أن يعلموا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٢٣- فضل تقوى الله تعالى؛ لأن الله تعالى مع من اتقاه بمعيته الخاصة.

٢٤- استهزاء المنافقين بما ينزل من سور القرآن وإنكارهم ونفيهم أنها تزيد في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾.

٢٥- إزدياد المؤمنين إيمانًا بنزول السور، واستبشارهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

٢٦- ازدياد المنافقين ومرضى القلوب بنزول السور نفاقًا إلى نفاقهم، وكفرًا إلى كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾.

٢٧- أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهذا مذهب أهل

---

(١) انظر «بدائع التفسير» (٢/ ٣٨٥).

السنة والجماعة، وقول عامة السلف، بل حكي الإجماع عليه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

٢٨- أن الطاعة سبب للطاعة بعدها، وأن المعصية سبب للمعصية بعدها.

٢٩- عقوبة المنافقين ومرضى القلوب؛ بسبب تكذيبهم بالسور واستهزائهم بها بالموت على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٣٠- عدم اتعاظ المنافقين واعتبارهم بما يبتلون به من المصائب وغيرها، وعدم توبتهم وتذكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣١- أن من الحكمة فيما يحصل من الابتلاء والمصائب أن يتوب الناس، وينيبوا إلى ربهم، ويتذكروا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

٣٢- كراهية المنافقين لنزول السور، وثقل ذلك عليهم؛ إنكارًا منهم لها، فإذا أنزلت سورة التفت بعضهم إلى بعض، وتغامزوا، وتهامسوا: هل يراكم من أحد، ثم انصرفوا وأعرضوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾.

٣٣- عقوبة المنافقين؛ بسبب انصرافهم وإعراضهم عن السور، بصرف الله لقلوبهم صرفًا كونيًّا، بحيث لا تقبل الحق مطلقًا، ولا تنتفع به؛ لقوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾.

٣٤- أن انصراف المنافقين وإعراضهم عن السور، وصرف الله تعالى لقلوبهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون الفقه الذي ينفعهم في أخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

ختم الله عز وجل هذه السورة العظيمة بالامتنان على الناس ببعثته ﷺ، والتنويه بصفاته الجامعة للكمال؛ من حرصه على دفع المشقة عنهم، وعلى هدايتهم، وكونه ذا رأفة ورحمة بهم؛ في إشارة إلى أن كل ما أمر الله به من الجهاد والغلظة والشدة ما هو إلا لاستصلاح الأمة، وهو من مظاهر الرحمة التي أرسل بها ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة براءة»(١).

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، والخطاب لجميع الأمة؛ بدليل قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

أي: لقد جاءكم بالدعوة إلى الله وإلى دينه ﴿رَسُولٌ﴾ نُكِّر للتعظيم، ولا غرو في هذا، فهو ﷺ أفضل رسل الله تعالى، وسيد الأنبياء والمرسلين.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: منكم ومن جنسكم، وبلغتكم، قرشي هاشمي عربي، ليس ملكًا، ولا من غيركم؛ استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي رحمه الله، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٥)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٣).

ومخرجه وصدقه وأمانته»(١).

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ «عزيز» إذا عدي بـ«على» كان معناه: الشدة والمشقة والثقل على النفس، قال الشاعر:

يَعِزُّ عَلَى الأَوْسِ بْنِ تَغْلِبَ مَوْقِفٌ ... يَسُلُّ عَلَيَّ السَّيْفَ فِيهِ وَأَسْكُتُ(٢)

أي: يثقل ويشق عليهم.

ومعنى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾، أي: شاق وصعب عليه.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: عنتكم ومشقتكم، أو الذي يعنتكم ويشق عليكم.

ولهذا قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(٣) وقال ﷺ: «**إن الدين يسر**»(٤).

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، أي: على هدايتكم ومصلحتكم، وإيصال الخير والنفع لكم، فلم يدع ﷺ خيرًا إلا دل الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذرها منه.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه في الهواء إلا وهو يذكّرنا منه علمًا»(٥).

وعنه قال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُين لكم**»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٧٧).

(٢) البيت لتميم بن جميل. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه و(٦/ ٢٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان، الدين يسر (٣٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٧٨).

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ شديد الرأفة، وشديد الرحمة بهم، فهو أرأف وأرحم بهم من أنفسهم، وأشفق عليهم منها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

وقدم قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على عامله ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ للاهتمام بالمؤمنين، وتأكيد رأفته ﷺ بهم، ورحمته بهم رحمة خاصة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وهو ﷺ رحمة للعالمين عامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء:٢١٦-٢١٧].

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: فإن أعرضوا عن اتباعك والانقياد لك، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾، أي: كافيني الله، أي: فامض في سبيل دعوتك، ولا تبالهم، وقل: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾، أي: كافيني الله.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت وفوضت في جميع أموري؛ كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٩].

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: وهو سبحانه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأكبرها، وأعظمها.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله تعالى على الأمة ببعثة محمد ﷺ، وعلى العرب خاصة بكونه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: تعرفون حاله ولغته، وتتمكنون من الأخذ منه؛ كما قال تعالى ممتنًّا عليه ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ

وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف:٤٤].

٢- شرفه ﷺ، وعلو مكانته، وعظم منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ﴾ بالتنكير؛ فهذا تعظيم له.

٣- شفقته ﷺ على أمته والتيسير عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: يعز ويشق عليه الذي يشق عليكم.

٤- حرصه ﷺ على هداية أمته، وصلاح أمر دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

٥- رأفته ﷺ الشديدة بالمؤمنين، ورحمته بهم رحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو ﷺ رحمة عامة لجميع الخلق.

٦- تسليته ﷺ وتقوية قلبه تجاه تولي قومه وإعراضهم؛ بإخباره بكفاية الله تعالى له، فلا يبالي بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾.

٧- تمام ثقته ﷺ بكفاية الله تعالى له، واعتماده عليه، وتفويض أمره إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

٨- أن الله عز وجل نعم الحسب والكافي، ونعم الوكيل لمن استكفاه واعتمد عليه، مما يوجب الاعتماد والتفويض عليه وحده.

٩- إثبات وحدانية الله تعالى وتفرده بالإلهية، لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- ربوبية الله تعالى للعرش العظيم، ولجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وإذا كان الله عز وجل ربًّا للعرش الذي وسع السموات والأرض وجميع المخلوقات، والذي هو سقف المخلوقات وأعظمها فربوبيته لغير العرش من المخلوقات أولى وأحرى.

١١- عظمة العرش، وأنه أكبر المخلوقات وأعظمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الأنفال ٥
المقدمة ٧
أ-اسم السورة: ٧
ب-مكان نزولها: ٧
جـ-موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ ...﴾ الآية [١] ... ١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ الآيات [٢-٤] ... ١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ الآيات [٥-٨] ٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ...﴾ الآيتين [٩، ١٠] ٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ...﴾ الآيات [١١-١٤] ٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ...﴾ الآيات [١٥-١٩] ٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ...﴾ الآيات [٢٠-٢٣] ٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ...﴾ الآيات [٢٤-٢٦] ٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ...﴾ الآيات [٢٧-٢٩] ٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ الآيات [٣٠-٣٥] ٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٣٦-٤٠] ١١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ...﴾ الآية [٤١] ١٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ...﴾ الآيات [٤٢-

٤٤] ١٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ...﴾ الآيات [٤٥-٤٩] ١٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾ الآيات [٥٠-٥٤] ١٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ الآيات [٥٥-٥٨] ١٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ...﴾ الآيات [٥٩-٦٣] ١٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآيات [٦٤-٦٦] ١٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيات [٦٧-٧١] ٢٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيات [٧٢-٧٥] ٢١٧
تفسير سورة التوبة ٢٣١
المقدمة ٢٣٣
أ- اسم السورة: ٢٣٣
ب- مكان نزولها: ٢٣٣
جـ- السبب في عدم كتابة البسملة في أولها: ٢٣٤
د- موضوعاتها: ٢٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ الآيات [١-٥] ٢٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ...﴾ الآيات [٦-١١] ٢٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ...﴾ الآيات [١٢-١٦] ٢٧٦

تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ...﴾ الآيات [١٧-٢٢] ٢٨٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ...﴾ الآيتين [٢٣، ٢٤] ٣٠٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ...﴾ الآيات [٢٥-٢٧] ٣٠٦

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ...﴾ الآيتين [٢٨، ٢٩] ٣١٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ...﴾ الآيات [٣٠-٣٣] .. ٣٢٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ...﴾ الآيتين [٣٤، ٣٥] ٣٣٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ...﴾ الآيتين [٣٦، ٣٧] ٣٤٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ...﴾ الآيات [٣٨-٤١] ٣٤٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ...﴾ الآيات [٤٢-٤٩] ٣٥٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ...﴾ الآيات [٥٠-٥٧] . ٣٧٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ...﴾ الآيات [٥٨-٦٠] ... ٣٨٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ...﴾ الآيات [٦١-٧٠] ٣٩٥

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...﴾ الآيتين [٧١، ٧٢] ٤١٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...﴾ الآيات

[٧٣-٨٠] ٤١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ... ﴾ الآيات [٨١-٨٩] ٤٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴾ الآيات [٩٠-٩٦] ٤٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... ﴾ الآيات [٩٧-٩٩] ٤٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ... ﴾ الآيات [١٠٠-١٠٦] ٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ... ﴾ الآيات [١٠٧-١١٠] ٤٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ... ﴾ الآيتين [١١١، ١١٢] ٤٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ... ﴾ الآيات [١١٣-١١٦] ٤٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ... ﴾ الآيات [١١٧-١١٩] ٥٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ... ﴾ الآيات [١٢٠-١٢٧] ٥٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ الآيتين [١٢٨، ١٢٩] ٥٢٥
فهرس الموضوعات ٥٢٩

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الحادي عشر

تفسير سورة يونس وهود ويوسف

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

(١١)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٥٠٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ يُونُسَ

المقدمـــة

أ- اســـم الســـورة:

سميت سورة يونس بهذا الاسم تكريمًا ليونس- عليه السلام- ولمن آمن به من قومه؛ لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس: أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، فعفا الله عنهم لما آمنوا؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة يونس بمكة في قول جمهور أهل العلم، وهو الصحيح.

ج- موضوعاتها:

١- إثبات إعجاز القرآن، وإثبات رسالة النبي ﷺ؛ لإنذار الناس عامة، وبشارة المؤمنين خاصة، وإثبات عظمة الله تعالى، ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستوائه على عرشه، ودلائل قدرته في خلق السموات والأرض، والشمس والقمر والليل والنهار، وتذكير العباد بتمام نعمته.

٢- إثبات البعث والجزاء، ومرجع الخلائق إليه عز وجل، والوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين، وإنه لا يعاجلهم، بل يمهلهم ولا يهملهم.

٣- بيان أن من طبيعة الإنسان والناس عامة اللجوء إلى الله ودعائه في الضراء، والغفلة والنسيان في السراء، بل والمكر والكفر وعدم الشكر إلا من رحم الله.

٤- التذكير بهلاك المكذبين من الأمم الماضية بسبب إجرامهم؛ لتحذير من جعلهم الله خلفًا لهم من مسلكهم.

٥- ذم المشركين في مكابرتهم وعنادهم للنبي ﷺ، ولما جاء به من الآيات، وبيان شدة ظلمهم في افترائهم على الله كذبا، وتكذيبهم بآياته، وعبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم. وتهديدهم ووعيدهم، وتنزيه الله عن شركهم.

٦- الامتنان على الناس بتسييرهم في البر والبحر. وذكر إخلاصهم في الدعاء

ووعدهم بالشكر عند إحاطة الموج بهم في البحر، وعودتهم إلى البغي في الأرض بعد إنجائهم.

٧- بيان حقارة الدنيا وسرعة زوالها، والترغيب بدار السلام، والدعوة إلى سلوك الطريق المستقيم الموصل إليها.

٨- وعد الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى بالجنة، ورؤية الرب جل وعلا، والوعيد للمسيئين بالنار، هم فيها خالدون، والفصل بينهم وبين شركائهم، وتبرأ كل منهم من الآخر، ومجازاة كل بما عمل.

٩- التذكير بنعمة الله على الناس بالخلق والرزق، وإثبات تفرده بملك السمع والإبصار، والحياة والموت، وتدبير الأمر، وإقرارهم بذلك- ومع ذلك يعبدون غيره، ويعدلون عن الحق إلى الضلال، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

١٠- تفنيد وإبطال ما هم عليه من الشرك، وما يزعمون من الشركاء، وإثبات أن القرآن حق من عند الله، وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله، وذمهم بإتباع الظن وتكذيبهم وظلمهم وإفسادهم، وعدم تعقلهم، وعماهم وعدم إبصارهم وتشكيكهم بالوعيد.

١١- إثبات كمال عدل الله عز وجل، وإثبات خسارتهم يوم حشرهم يوم القيامة

١٢- تسليته ﷺ بأن الله قد يريه بعض الذي يعدهم أو يتوفاه، ومردهم إليه عز وجل وهو شهيد عليهم بأعمالهم يحاسبهم ويجازيهم ويفصل بينهم.

١٣- بيان استعجالهم العذاب والحساب، وأنه ﷺ لا يملك ذلك، وتخويفهم من حلوله بهم، فلكل أمة أجل، وبيان أن وعد الله حق، فإذا حل بهم العذاب لم ينفعهم إيمانهم ولا يقبل منهم فدية وجوزوا بما كانوا يكسبون ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١٤- تذكير الناس بنعمة الله عليهم وفضله بإنزال القرآن؛ موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، ومنته عليهم بما أنزل لهم من الرزق.

والتنديد بالمشركين في تحريمهم وتحليلهم من دون الله افتراء على الله، وتهديدهم ووعيدهم.

١٥- إثبات شهادته عز وجل على جميع الخلق، وإطلاعه عليهم وعلى جميع أحوالهم، وأنه لا يعزب عنه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكل ذلك في كتاب مبين.

١٦- الوعد لأولياء الله بالأمن وعدم الخوف؛ لإيمانهم وتقواهم، والبشارة لهم في الدنيا والآخرة وعدًا حقًا من الله لا يبدل، وذلك الفوز العظيم.

١٧- تسليته ﷺ بأن لا يحزنه قول المشركين المكذبين له، فالله متوليه وناصره، ومحيط بهم، له ما في السموات والأرض، وبيان أنهم ليسوا على شيء، ما يتبعون فيما هم عليه من عبادة غير الله إلا الظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

١٨- الامتنان على العباد بجعل؛ الليل ليسكنوا فيه، والنهار مبصرا؛ ليعملوا فيه، وفي ذلك آيات لقوم يسمعون.

١٩- إبطال نسبتهم الولد لله تعالى، وإثبات غناه عز وجل عن جميع خلقه، فله ملك السموات والأرض، وذمهم بقولهم على الله بلا علم، وافترائهم وكذبهم وكفرهم. وتهديدهم ووعيدهم.

٢٠- تذكيرهم بقصة نوح وقومه ودعوته لهم وتكذيبهم له، وإنجائه ومن معه في الفلك، وإهلاكهم بالغرق؛ ليأخذوا العبرة مما أحله الله بالمكذبين قبلهم.

٢١- تذكيرهم بمن بعثه الله من الرسل بعد نوح بالبينات إلى أقوامهم، وتكذيبهم لهم، والطبع على قلوبهم لاعتدائهم.

٢٢- تذكيرهم ببعث موسى وهارون إلى فرعون وقومه ودعوته لهم، واستكبارهم وإجرامهم، واتهامهم إياهما بالسحر، وجمع فرعون السحرة؛ لمقارعة ما جاء به موسى من الآيات، وإبطال الله سحرهم، وإحقاق الحق، ومن ثم إنجاء موسى ومن معه من بني إسرائيل، وإغراق فرعون وقومه.

٢٣- تثبيت النبي ﷺ، وأن ما أنزله الله تعالى هو الحق، وبيان أن من حقت عليهم كلمة الله فلا سبيل لهم إلى الإيمان، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

٢٤- ثناء الله عز وجل على قوم يونس بتوبتهم وإيمانهم، ومن ثم كشف العذاب عنهم وتمتيعهم بقية أعمارهم.

٢٥- إثبات أن لله المشيئة النافذة في إيمان من آمن وكفر من كفر، فلو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعا، وتسليته ﷺ فلا يحزن على كفر من كفر، فليس أمر الإيمان إليه.

٢٦- التوجيه إلى التأمل والنظر في آيات الله في السموات والأرض، وما فيها من النذر، لكنها لا تغني عن قوم لا يؤمنون.

٢٧- تهديد المكذبين له ﷺ بأنهم ما ينتظرون إلا ما حل بالمكذبين قبلهم من أنواع العقوبات.

٢٨- وعده عز وجل بإنجائه ﷺ والذين آمنوا، كما هي سنته في إنجاء الرسل وأتباعهم المؤمنين.

٢٩- أمره عز وجل له ﷺ بمفاصلة المشركين الذين يعبدون غير الله، وأنه لا يعبد إلا الله مقيما وجهه للدين حنيفا، لا يشرك بالله غيره ولا يدع من دونه سواه مما لا ينفع ولا يضر كما يفعل الظالمون.

٣٠- تفرده عز وجل بتقدير الضر، وأنه لا كاشف له إلا هو، وبجلب الخير، فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم.

٣١- أمره عز وجل له ﷺ بالإعذار من بالناس بما جاءهم من الحق من ربهم في القرآن وعلى لسانه ﷺ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها، وأنه ﷺ ليس عليهم بوكيل، فالهداية والإضلال بيد الله والحساب عليه.

٣٢- أمره عز وجل له بإتباع ما يوحيه إليه والصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. وفي هذا تسلية له ﷺ وتقويه لقلبه ووعد له بالعقبى الحسنة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى
ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ
رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ
وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإشارة للقرآن الكريم، أي: تلك آيات القرآن، و«ال» في «الكتاب» للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم القرآن الكريم الذي إذا أطلق اسم الكتاب انصرف إليه دون غيره؛ لأنه أعظم الكتب وأشرفها وأكملها؛ ولهذا أشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا وتشريفًا له.

وسمي القرآن «الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٣- ١٦]. ومكتوب أيضًا بأيدي المؤمنين في المصاحف.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ مأخوذ من «حكيم» بمعنى: «مُحْكَم»؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه وبينه، وجعله مشتملًا على الحكمة والأحكام والمواعظ والأخبار، وكل ما يحتاج إليه طالب الحق والهدى.

وهو أيضًا: من «حكيم» بمعنى: «حاكم»؛ لأنه الحاكم على الكتب قبله، المصدق لها، المهيمن عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥].

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

امتدح عز وجل كتابه القرآن الكريم، ثم أنكر على من عجب من الناس من إيحائه عز وجل إلى رجل منهم بهذا الكتاب العظيم؛ للإنذار لهم والبشارة للذين آمنوا. وتكذيب الكفار له، وزعمهم أنه ساحر.

قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار، والتعجيب من تعجب المشركين تعجب إحالة وتكذيب أن يكون الرسول بشرًا.

و «أن» والفعل «أوحينا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم (كان) مؤخر.

أي: أكان إيحاؤنا إلى رجل منهم؛ يعني: إلى محمد ﷺ، كما قال كل من هود وصالح لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى عن الكفار من القرون الماضية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال تعالى مخبرًا عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: أن أوحينا إلى محمد ﷺ أن أنذر الناس، أي: حذرهم وخوفهم عذاب الله

وعقابه، وحذف المنذر به للتهويل.

ويجوز أن تكون «أن»: مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بباء محذوفة، أي: أوحينا إلى رجل منهم بإنذار الناس.

وأظهر ولم يقل: «أن أنذرهم»؛ لأن الناس هنا غير الأول، بل أعم منه؛ لأن الإنذار عام لجميع البشر.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ معطوف على «أنذر» فالإنذار لعامة الناس، والبشارة للمؤمنين منهم خاصة، والبشارة: الأخبار بما يسر، أي: أخبر الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم وعملوا الصالحات بجوارحهم.

﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أي: بأن لهم قدم صدق. وقوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: قدم صادق، والقدم: اسم لما تقدم وسلف، والمراد به في الآية: قدم خير، وهو ما قدموه من الإيمان والعمل الصالح بتوفيق الله تعالى لهم، وسبق السعادة لهم عنده عز وجل في الذكر الأول.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ يقول: «سبقت لهم السعادة في الذكر الأول»(١).

فقدم الصدق: ما سبق لهم من تقدير السعادة عند الله عز وجل، وما سبق منهم من إيمان وعمل صالح بتوفيق الله عز وجل لهم؛ قال حسان رضي الله عنه(٢):

لنا القَدَم الأولى إليك وخَلْفُنا ... لأولنا في طاعة الله تابعُ

وقدم الخبر وهو قوله: ﴿لَهُمْ﴾ للتأكيد والتخصيص، أي: لهم خاصة.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أضاف عز وجل ما لهم من قدم صدق إلى نفسه؛ لتعظيمه، أي: عند ربهم المربي لهم بربوبيته الخاصة، سيجازيهم عليه، بالثواب العظيم والنعيم المقيم بجواره في جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ [الكهف: ٢، ٣].

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" ١٢/ ١١٠.

(٢) ديوانه/ ص٢٤١.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المكذبون بآيات الله الجاحدون لها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: «لَسِحْرٌ»، أي: قال الكافرون: إن هذا القرآن لسحر مبين، أي: سحر بيِّن ظاهر، لا يخفى بزعمهم على أحد.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾، أي: قال الكافرون: إن هذا الرسول لساحر مبين، أي: بيِّن أمره أنه ساحر.

وهذا من سفهم وجهلهم وعنادهم؛ وكما قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(١)

وقال الآخر:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلال(٢)

وقال الآخر:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل(٣)

وقال المتنبي:

وهبني قلت هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء(٤)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخطاب لجميع الناس، وأكد هذا الخبر بـ«إن»، لأن أكثر الناس كفار مشركون؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

والمراد بالربوبية هنا الربوبية العامة لجميع الخلق: ربوبية الخلق والملك والتدبير.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أوجدهما بعد العدم وما فيهما وما بينهما من

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٧).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص١٨٣).

(٣) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢٢٠).

(٤) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢).

العوالم على غير مثال سبق.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا المعلومة؛ لأن الله خاطب الناس بما يعرفون، وهذا أدل على عظيم قدرة الله تعالى.

وقيل: من أيام الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

وهو سبحانه وتعالى قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، وهو سبحانه رفيق يحب الرفق؛ كما قال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**»(١).

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أي: ثم بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش، استواءً يليق بجلاله وعظمته؛ كما قال الإمام مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٢).

والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ الأمر: اسم جنس يعم جميع الأمور، أي: يصرف جميع شؤون الخلق وأحوال العالم، والكون كله، علويه وسفليه، من الإحياء والإماتة، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، يعز قومًا، ويذل آخرين ويرفع قومًا ويضع آخرين، يخفض القسط ويقبضه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ «ما»: نافية، و«من» لتأكيد النفي، أي: ما من أي شفيع

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٧، ومسلم في السلام ٢١٦٥، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «الأسماء والصفات» للبيهقي ص٥١٦، مجموع الفتاوي ١٧/ ٣٧٣، وانظر: الكلام على هذه الآية بأوسع من هذا في سورة الحديد.

إلا من بعد إذنه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]. وفي الآية تعريض بالرد على المشركين في عبادتهم ما لا يخلق، ولا يملك من الأمر شيئًا، بل هم مخلوقون، وزعمهم أنهم يشفعون لهم عند الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الموصوف بهذه الصفات العظيمة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ حقًّا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٢]، أي: ذلكم الله ربكم الحق ذو الربوبية التامة الجامعة لصفات الأفعال، وذو الألوهية الجامعة لصفات الكمال.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: أفلا تذكرون أيها المشركون، وتتأملون في أدلة وحدانية الله تعالى في ربوبيته الموجبة توحيده في ألوهيته، فتخلصون له الإلوهية كما أقررتم له بالربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

لما بين عز وجل تفرده بالربوبية، ووجوب إفراده بالعبودية؛ أتبع ذلك بإثبات المعاد ورجوع الخلائق إليه وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم.

قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: إليه- عز وجل- وحده رجوعكم وإيابكم أيها الناس يوم القيامة، وعليه حسابكم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: كلكم. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، أي: وعد الله في رجوع الخلائق إليه ﴿حَقًّا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: محقق الوقوع وكائن لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة: (أنه)، وقرأ الباقون بكسرها ﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: إنه سبحانه لعظيم في قدرته ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ فيخلق الشيء على غير مثال سبق، بتقديره أولًا، ثم برئه وتنفيذه وإيجاده.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: ثم بعد فناء ذلك الخلق يعيده كما كان، وهذا دليل عقلي ونقلي على المعاد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اللام: للتعليل؛ أي؛ ثم يعيد الله الخلائق ويبعثهم؛ لأجل أن يجازيهم بأعمالهم.

أي: ليثيب الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم، وعملوا الأعمال الصالحات من الواجبات والمستحبات بجوارحهم، الذين جمعوا بين إيمان الباطن والظاهر، وجمعوا بين الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ، فكان عملهم صالحًا.

وحذف الموصوف في قوله ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو الأعمال؛ لأن الأهم في العمل أن يكون صالحًا، وقدم جزاء الذين آمنوا عناية بهم وتشريفًا لهم وتكريمًا.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ويزيدهم من فضله؛ كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:

١٧٣] وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨]، وقال تعالى ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الواو: استئنافية، أي: والذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله لهم في جهنم ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء بالغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢- ٩٤]، وقال تعالى: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كفرهم وجحودهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

لما قرر عز وجل ربوبيته وألوهيته ورجوع الخلائق إليه يوم القيامة ذكر في هذه الآية والتي بعدها الأدلة الأفقية على ذلك، وعلى تمام قدرته، وكماله في أسمائه وصفاته من جعل الشمس والقمر، والليل والنهار، والسموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾، أي: صيرها، أو خلقها ضياء بالنهار.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، أي: وجعل القمر نورًا، أي: صيره، أو خلقه نورًا بالليل.

وقدم ذكر الشمس؛ لأن منافعها أكثر، وضياؤها أقوى من نور القمر.

والضياء أقوى من النور، والنور أعم يصدق على كل نور وإن قل.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: وقدر القمر منازل، و﴿مَنَازِلَ﴾ جمع منزل، وهو مكان النزول، والمراد هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر، وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري.

أي: وقدر القمر وصيره منازل يسير ويتدرج فيها، ولا يجاوزها، ولا يقصر دونها، فأول ما يبدأ صغيرًا، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يتم ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأولى في تمام الشهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٩، ٤٠]، وقال تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وهذه أسماؤها مرتبة على حسب تقسيمها على فصول السنة الشمسية، وهي: العواء، السِّماك، الأعزل، الغفر، الزبانى، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، الفرع الأول، الفرع الأسفل، الحوت، الشَّرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، ذراع الأسد، النَّثرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصَّرفة.

﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، أي: لأجل أن تعلموا عدد السنين والحساب، وفي ذلك نعمة من الله تعالى، ومنة على خلقه؛ لضبط تواريخهم ومعاملاتهم وأمورهم وأسفارهم.

أي: وقدر القمر منازل؛ لأجل أن تعلموا، أي: تعرفوا أيها الناس عدد السنين بحصول كل سنة باجتماع اثني عشر شهرًا.

﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ معطوف على «عدد»، أي: وتعلموا الحساب ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾، مصدر حسب بمعنى عد، وتعريفه للعهد، أي: الحساب المعروف، والمراد به حساب سير القمر الذي به معرفة الليالي، والتي بها تعرف الشهور، وبالشهور تعرف الأعوام. قال ابن كثير(١): «بالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام».

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ١٨٥.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الإشارة إلى جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وتقديره منازل، أو له ولما تقدم من ذكر خلق السموات والأرض، فأشار إلى ذلك بإشارة البعيد؛ تعظيمًا لخلقه عز وجل.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والباء للملابسة والمصاحبة؛ أي: إلا خلقًا ملابسًا ومصاحبًا للحق. والحق: الأمر الثابت، والمعنى: أن الله عز وجل ما خلق هذا الخلق عبثًا، بل خلقه لحكمة عظيمة، وهي الدلالة على وحدانيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص بالياء ﴿يُفَصِّلُ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «نفصل».

أي: يفصل الآيات والأدلة والحجج الشرعية، ببيان ما فيها من الهداية والحكم والأحكام والمواعظ والعبر، الدالة على أنه من عنده عز وجل، وعلى وجوب إفراده بالربوبية والإلوهية؛ كما قال تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

كما يفصل عز وجل الآيات الكونية الدالة على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ

أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٩، ٤٠].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون العلم الذي ينفعهم، وهو معرفة الله عز وجل، والإيمان به وطاعته، العلم الذي يسعدهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، لا العلم الدنيوي فقط الذي ذم الله تعالى أهله فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: في تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وأيضا اختلافهما طولًا وقصرًا، فإذا طال هذا قصُر هذا، وإذا قصُر هذا طال هذا، وهكذا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩].

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم موصول معطوف على «اختلاف» من عطف العام على الخاص، أي: إن في اختلاف الليل والنهار، والذي خلق الله في السموات والأرض من جميع المخلوقات.

﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلائل كونية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، أي: لقوم يتقون الله عز وجل، ويتقون عذابه، فيتأملون في الآيات ويستدلون بها، على وجوب عبادته وطاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

وإنما خصهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

أما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات، ولا تغني عنهم شيئا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

ذكر عز وجل في الآيات السابقة دلائل وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، ثم أتبع ذلك بذكر انقسام الناس إلى عدم مستفيد من الآيات، وإلى مستفيد منها، وعاقبة كل منهما، في هاتين الآيتين وما بعدهما.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: لا يطمعون في لقائنا يوم القيامة، ولا يؤمنون به، يعني الكفار المنكرين للبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، ولقاء الله عز وجل.

﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: رضوا بها، واعتاضوا بها عن الآخرة.

﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾، أي: ركنوا إليها، واطمأنت بها قلوبهم، وسكنت إليها نفوسهم، وجعلوها غاية همهم، ومبلغ علمهم، وصرفوا لها حياتهم، وأكبوا على لذاتها وشهواتها، كأنهم خلقوا للخلود والبقاء فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فلا ينظرون ولا يتفكرون في الآيات الكونية، ولا يتدبرون الآيات الشرعية ولا يعملون بها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: منقلبهم ومصيرهم يوم معادهم النار، وبئس القرار، وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تحقيرًا لهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بسبب كسبهم، أو بسبب الذي كانوا يكسبونه، أي: يعملونه من الكفر والشرك وإنكار المعاد ولقاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِي

مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

لما أخبر عزَّ وجلَّ عن حال الأشقياء المكذبين بلقاء الله، والذين رضوا بالحياة الدنيا وآثروها، وسكنوا إليها، وغفلوا عن آيات الله، وتوعدهم بالنار بسبب كفرهم؛ أتبع ذلك بالإخبار عن حال السعداء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما لهم عنده من الثواب في جنات النعيم؛ جمعًا بين الترهيب والترغيب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: جمعوا بين التصديق بالباطن، وعمل الأعمال الصالحة بالظاهر، وأخلصوا العمل لله تعالى، واتبعوا شرعه.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾، أي: يدلهم ربهم ويرشدهم ويوفقهم في الدنيا إلى معرفة الحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح اللذين هما رأس مال الإنسان في هذه الحياة.

ويدلهم ويوفقهم في الآخرة إلى الطريق الموصل إلى جنات النعيم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿رَبُّهُم﴾، أي: مربيهم بربوبيته الخاصة بأوليائه.

﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾، أي: بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، الذي هو من مقتضى الإيمان.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري على الدوام من تحت منازلهم وقصورهم وغرفهم وبين أيديهم الأنهار، أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ التام؛ نعيم القلب الذي هو أعظم النعيم بالفرح والسرور والبهجة والحبور، ونعيم البدن بالتلذذ بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، وأعظم ذلك وأجله التنعم برؤية ربهم وسماع كلامه عزَّ وجلَّ.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، أي: دعاؤهم في الجنة، قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تنزيهًا لله تعالى عن النقائص والعيوب، أي: نسبحك وننزهك، ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، أي: يا الله.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، أي: وتحيتهم في الجنة سلام من ربهم؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وسلام عليهم من الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وسلام من بعضهم على بعض؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾، أي: وخاتمة دعائهم قولهم: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك لما يرون من تضاعف نعم الله تعالى عليهم، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]

وقد ثبت في الحديث «أن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس»(١).

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، والتحدي به؛ لقوله تعالى ﴿الر﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

٣- دلالة القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته واستحقاقه العبادة دون سواه، وعلى صدق الرسول ﷺ؛ لأن الله عزَّ وجلَّ سماه ﴿آيات﴾ فقال تعالى: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾.

٤- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به القرآن الكريم، أفضل الكتب وأعظمها وأكملها؛ لقوله تعالى: ﴿الْكِتَابِ﴾.

٥- إحكام القرآن الكريم؛ لاشتماله على الحكم والأحكام والمواعظ والأخبار، وما يصلح الناس في دينهم ودنياهم وأخراهم، وجعله حاكمًا على الكتب قبله، مصدقًا لها

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٥، وأحمد ٣/ ٣٤٩، ٣٥٤، من حديث جابر رضي الله عنه.

ومهيمنًا عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٦- الإنكار على المشركين في تعجبهم من الوحي إلى النبي ﷺ؛ لأنه رجل منهم وبشر مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

٧- أن الرسل والأنبياء كلهم من البشر ليس فيهم أحد من الملائكة، وكلهم من الرجال الذكور ليس فيهم أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٨- أن مهمة الرسول ﷺ الإنذار لمن كفر وعصى أمر الله، والبشارة لمن آمن وأطاع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٩- البشارة للمؤمنين بما لهم عند الله بما قدموه من الإيمان والعمل الصالح من الأجر العظيم والثواب الجزيل، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهم؛ وتكريمهم وتشريفهم بإضافة اسمه عز وجل إلى ضميرهم في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾.

١٠- تكذيب الكافرين للنبي ﷺ، ولما جاء به من الوحي، وزعمهم أنه ساحر، وما جاء به سحر مبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وأدلتها الدالة على عظمته وتفرده بالملك والخلق والتدبير، مما يوجب إفراده بالعبودية، والتذكر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٢- أن الله عزَّ وجلَّ خلق السموات والأرض في ستة أيام، وله الحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولو شاء لخلقها في لحظة واحدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

١٣- إثبات استواء الله تعالى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته، وإثبات وجود العرش، وهو سقف المخلوقات وأكبرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

١٤- أن بيد الله عزَّ وجلَّ وحده تدبير أمر الكون والخلق كله، لا يشاركه في ذلك أحد؛ لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

١٥- أنه لا أحد يشفع عند الله تعالى إلا بإذنه، لقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

١٦- إثبات الشفاعة لمن أذن الله له بها؛ لمفهوم قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]

١٧- وجوب عبادة الله تعالى وحده، وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

١٨- الإنكار على المشركين في عبادتهم الأصنام مع إقرارهم بتوحيد الربوبية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٩- إثبات البعث والمعاد ورجوع الخلائق إلى الله عزَّ وجلَّ ولقائه، وحسابه لهم ومجازاتهم على أعمالهم وعدًا عليه حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على البعث؛ لأنه الذي يبدأ الخلق ثم يعيده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٢١- أن الحكمة في إعادة الخلق؛ لمجازاة الناس بأعمالهم بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

٢٢- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب والعمل بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفي هذا رد على المرجئة الذي يقولون: يكفي مجرد الإيمان.

٢٣- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٤- مجازاة المؤمنين بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية مع ما وعدهم الله به من الفضل؛ كما قال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

٢٥- الوعيد للذين كفروا بالنار وما فيها من شراب الحميم والعذاب الأليم بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

٢٦- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

٢٧- تأكيد عظمته عزَّ وجلَّ، وتمام قدرته، وكمال ربوبيته وألوهيته بذكر الأدلة الأفقية على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾.

٢٨- الامتنان على العباد بجعل الشمس ضياء بالنهار؛ لما فيها من المنافع العظيمة للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾.

٢٩- الامتنان بجعل القمر نورًا في الليل، وما في ذلك من المنافع، وتقديره منازل لمعرفة عدد السنين والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

٣٠- حكمة الله تعالى العظيمة في خلق السموات والأرض، وجعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وتقديره منازل لمعرفة السنين والحساب، وما في ذلك من الدلالة على عظمته عزَّ وجلَّ ووحدانيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٣١- إقامة الحجة على العباد بتفصيل الآيات وبيانها؛ لقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٢- أنه إنما يستفيد من تفصيل الآيات ذوو العلم بالله وما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٣- النعي على الذين لا يؤمنون بلقاء الله، وركنوا إلى الدنيا، وغفلوا عن آيات الله، وذمهم وتوعدهم بالنار بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

٣٤- وجوب الاستعداد للقاء الله تعالى، والحذر من الركون إلى الدنيا والرضا بها والاطمئنان إليها، والغفلة عن آيات الله تعالى.

٣٥- إثبات وجود النار، وأن الله أعدها للمكذبين والكفار.

٣٦- الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم بهداية ربهم وتوفيقه لهم في الدنيا للطريق المستقيم، وفي الآخرة إلى الطريق الموصل إلى الجنة وما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

٣٧- إثبات الجنة، وأن الله أعدها لعباده المؤمنين.

٣٨- أن الإيمان سبب للهداية في الدنيا والآخرة، والطاعة سبب للطاعة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾، أي: بسبب إيمانهم.

٣٩- طيب كلام أهل الجنة، فدعاؤهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وختام دعائهم أن الحمد لله رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

٤٠- أن الجزاء من جنس العمل، وعلى وفقه، وكل يجازى بما كسب وعمل، فمن كفر فمأواه النار، ومن آمن وعمل صالحًا فمآله إلى الجنة دار الأبرار.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ﴾.

قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح القاف وقلب الياء ألفًا: «لقَضَى» ونصب «أجلَهم» وقرأ الباقون بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء: ﴿لقُضِيَ﴾ ورفع ﴿أجلُهم﴾.

أي: ولو يعجل الله للناس الشر ويبادرهم بالعقوبة به إذا ارتكبوا موجباته من الذنوب، أو دعوا به في حال ضجرهم وغضبهم على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وقال ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا ساعة من الله فيها إجابة، فيستجيب لكم**»(١).

﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾، أي: كاستعجالهم في طلب الخير.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لمحقتهم العقوبة وهلكوا؛ ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد ٣٠١٤، وأبو داود في الوتر- النهي أن يدعو الإنسان على نفسه وماله ١٥٣٢- من حديث جابر رضي الله عنه.

وهذا من لطفه عزَّ وجلَّ ورحمته بعباده وحلمه، قال ابن القيم(١):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: فندع الذين لا يرجون لقاءنا، أي: الذين لا يطمعون في لقاء الله، ولا يؤمنون بالآخرة، ولا يرجون ثواب الله، ولا يخافون عقابه.

﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾، أي: في تجاوزهم الحق والحد في الباطل، وعتوهم وتمردهم وضلالهم.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ العمه: عدم البصر، والمراد به هنا عدم البصيرة، أي: يترددون متحيرين، لا يهتدون إلى السبيل، ولا يوفقون إلى الحق؛ بسبب كفرهم بلقاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾، أي: وإذا أصاب الإنسان الضر، أي: الشدة والكرب، من مرض، أو فقر، أو تسلط عدو، أو غير ذلك.

﴿دَعَانَا﴾، أي: سألنا وتضرع إلينا لكشفه ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ اللام في قوله ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ بمعنى: (على)، أي: على جنبه، أي: مضطجعًا.

والمعنى: دعانا على أي حال كان، حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، وأكثر الدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير.

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾، أي: فلما أزلنا عنه ضره الذي أصابه.

﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾، أي: استمر على كفره وطريقته الأولى قبل أن يمسه الضر، كأنه لم يدعنا إلى كشف ضر مسه، فنسي- أو تناسى- ما أصابه من الضر، ونسي- أو تناسى- دعاءه لكشفه، ولم يشكر ربه الذي كشف ضره، وعاد إلى الشرك به والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١].

---

(١) في «النونية» ص ١٤٨.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة لحال الإنسان المذكورة، وهي إعراضه بعد كشف الضر عنه، أي: مثل ما زين لهذا الإنسان استمراره على الكفر بعد كشف الضر عنه. ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: زُيّن للمسرفين تزيينًا كونيًّا قدريًّا، أو زَينَّ لهم ذلك الشيطان، والأنفس الأمارة بالسوء، واتباع الهوى.

والإسراف: تجاوز الحد، والمراد بالمسرفين هنا: المتجاوزين الحق والحد في الباطل والكفر والطغيان.

﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (ما): موصولة، أو مصدرية، أي: الذي كانوا يعملونه، أو عملهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ الواو: عاطفة، واللام: لا القسم لقسم مقدر، و﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: أهلكنا واستأصلنا الأمم المكذبة وأهلكناهم ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ الخطاب لكفار قريش.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ (لما): ظرف بمعنى (حين) أي: حين ظلموا، أي: بسبب ظلمهم بالشرك والكفر وتكذيب الرسل.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم.

﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ اللام: للجحود، أي: وما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به رسلهم من البينات ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مثل ما صددنا أولئك القرون وصرفناهم عن الإيمان بسبب ظلمهم وأهلكناهم، كذلك نجزي القوم المجرمين بصرفهم عن الإيمان وإهلاكهم بسبب إجرامهم بالشرك والكفر.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب لهذه الأمة، أي: ثم صيرناكم

خلائف في الأرض من بعد تلك القرون التي أهلكناها، أي: استخلفناكم في الأرض من بعدهم.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ننظر كيف تعملون، هل تؤمنون وتطيعون الله، فتستحقون الثواب، أم تظلمون بالشرك والكفر كما ظلموا، فتستحقون العقاب مثلهم؟

الفوائد والأحكام:

١- حلم الله عزَّ وجلَّ ولطفه بعباده ورحمته بهم، وعدم معاجلته لهم بالشر ولو أتوا بأسبابه، بل ولو دعوا به على أنفسهم وأولادهم وأموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ الآية.

٢- التحذير من موجبات العقوبة بالشر، من الذنوب والمعاصي، أو استعجاله، أو الدعاء به على النفس أو الولد أو المال؛ لأن ذلك سبب للعقوبة والهلاك.

٣- أن الإنسان طبع على استعجال الخير؛ كما أنه خلق عجولًا في جميع أموره؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

٤- الوعيد للمستعجلين للشر، الذين لا يرجون لقاء الله بالحيرة، وعمى البصائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

٥- ضعف الإنسان وهلعه واستكانته إلى ربه وتضرعه إليه حال الضر في جميع أحواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾.

٦- جحود الإنسان وطغيانه وكفره وعدم شكره إذا كشف الله ضره، وأزال كربته، وأنعم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

ولا يسلم من هذين الوصفين إلا المؤمن الموفق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩: ٢٢].

وقال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛**

إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١).

٧- لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه، فيجب شكره عند السراء، والصبر والتضرع إليه في الضراء؛ ولهذا كان المشركون وهم يعبدون مع الله غيره إذا مسهم الضر لجؤوا إلى الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٨- أن الجحود وكفران النعم وعدم شكرها والإعراض؛ من عمل المسرفين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٩- أن ما يعمله المسرفون من الإسراف والطغيان هو مما زُين لهم كونًا وقدرًا، ومما زَينه لهم الشيطان، والأنفس الأمارة بالسوء، واتباع الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

١٠- إهلاك القرون والأمم الماضية بسبب ظلمهم بالشرك والكفر، وتكذيب الرسل، بعد إقامة الحجة عليهم بما جاءتهم به رسلهم من البينات، وعتوهم وإجرامهم، وعدم إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

١١- أن من كتب عليهم الكفر والضلال فلن يؤمنوا، ولن تنجع فيهم الرسالات والبينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾.

١٢- التحذير لهذه الأمة من الظلم بالكفر والشرك، وتكذيب الرسول؛ فيحل بهم ما حل بالظالمين قبلهم من الهلاك، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ الآية.

١٣- أن الإجرام بالكفر والشرك وتكذيب الرسل سبب للحيلولة دون الإيمان؛

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، المسلم أمره كله خير ٢٩٩٩، وأحمد ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣، ٦/ ١٥، من حديث صهيب رضي الله عنه.

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام ١١٠].

١٤- استخلاف هذه الأمة بعد الأمم السابقة؛ ليظهر كيف يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

١٥- أن الله عز وجل إنما يحاسب العباد على ما يعملونه ويظهر منهم، لا على ما سبق في علمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: وإذا تُقرأ على المشركين المكذبين للرسول ﷺ المعاندين له آيات الله بينات واضحات بقراءته ﷺ لها عليهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: قال المكذبون للقاء الله تعالى المنكرون للبعث والمعاد، تكذيبًا لآيات الله، ومكابرة، وعنادًا.

﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾، أي: بقرآن غير هذا القرآن الذي تتلوه علينا، أي: ائت بقرآن من نمط وشكل آخر غير هذا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾، أي: غيِّره إلى وضع آخر.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾، أي: قل لهؤلاء المكذبين: ليس لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ (أن) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿يكون﴾، أي: ما ينبغي لي تبديله من قبل نفسي؛ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]؛ ولهذا قال:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الجملة في موضع التعليل لما قبلها، و﴿إِنْ﴾ نافية، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر؛ و﴿مَا﴾ موصولة، أي: ما أتبع فيما أتلوه عليكم إلا الذي يوحى إليَّ، أي: إلا الذي يوحيه الله تعالى إليَّ، إتباعًا لأمر الله تعالى لي بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الجملة تعليل آخر، أي: إني أخاف إن عصيت ربي بمخالفة أمره، أو التقول عليه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: عذاب يوم القيامة، ونكر ﴿يَوْمٍ﴾ ووصفه بقوله ﴿عَظِيمٍ﴾؛ لعظم هوله وشدة عذابه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: قل لهؤلاء المكذبين للقاء الله القائلين: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ لو شاء الله وأراد كونًا، ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ما تلوت هذا القرآن، ولا قرأته عليكم.

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، أي: ولا أَعْلَمكم به، لكن الله شاء أن أتلوه عليكم، وأرسلني به إليكم فما جئتكم به بإذنه ومشيئته وإرادته.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾، أي: فقد لبثت فيكم وعشت بينكم، ﴿عُمُرًا﴾، أي: وقتا طويلًا، ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾، أي: من قبل أن آتيكم به وأتلوه عليكم، أي: من قبل نزوله عليّ، فلو كان الأمر إلي في الإتيان به أو تبديله لأتيتكم به قبل ذلك، وكيف تقولون: تقوَّله وأنتم تعرفون صدقي وأمانتي منذ نشأت فيكم إلى أن بعثني الله به، وأنني أميّ لا أقرأ، ولا أكتب، ولا أدرس ولم أتعلم من أحد؟! كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فكيف يمكن لمثلي أن يأتيكم بهذا الكتاب الذي أعجز الفصحاء، وأعيا البلغاء؟! وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال ابن كثير[١]: «ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفر، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: «بعث الله فينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة».

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: أفليس لكم عقول تعقلون بها، وتعرفون بها الحق من الباطل، وأنه ليس بمقدوري الإتيان بهذا الكتاب، أو الإتيان بغيره، أو تبديله؟

قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: لا أحد أشد ظلمًا، وأكبر جرمًا، وأعظم ذنبًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾، أي: من الذي اختلق على الله كذبًا، وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

عن عبد الله بن سلام- رضي الله عنه- قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته علمت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[٢].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ١٩٠.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥١.

الكونية أو الشرعية التي أرسل بها رسله، الدالة على وجوب عبادته وحده لا شريك له.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ الجملة استئنافية، أي: لا يفوزون بمطلوب، ولا ينجون من المرهوب بسبب ظلمهم وإجرامهم بالكفر والشرك، وتكذيب الرسل والآيات، وافتراء الكذب على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾

قوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون الجاحدون لآيات الله المكذبون لرسوله ﷺ، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، ﴿ما﴾ موصولة أو نكرة موصوفة، أي: الذي لا يضرهم ولا ينفعهم، أو شيئًا لا يضرهم ولا ينفعهم، أي: لا يستطيع جلب الضر لهم، ولا دفعه عنهم، ولا يستطيع جلب النفع لهم؛ لأنه جماد لا يستطيع فعل شيء من ذلك لنفسه، فكيف يفعله لغيره، وقدم نفي الضر على نفي النفع- والله أعلم- لأن سدنة الأصنام يخوفون بها؛ كما قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٥٤].

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقولون كذبًا وزعمًا واعتقادًا باطلًا.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: الآلهة الذين نعبدهم مع الله، وأشاروا إليهم بإشارة العاقل ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حسب زعمهم أن هذه الآلهة تضر وتنفع.

﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: يشفعون لنا عند الله، أي: هم وسائط بيننا وبين الله، كقولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: قل لهم: أتخبرون الله في عبادتكم هذه الآلهة من دونه، وزعمكم أنها تشفع لكم عند الله.

﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (ما) كالتي قبلها، أي: بالذي لا يعلمه، أو بشيء لا يعلمه في السموات ولا في الأرض.

وأعاد حرف النفي ﴿لا﴾؛ لتوكيد النفي، أي: أأنتم أعلم أم الله؟ هذا لا يمكن أن

يكون، فلا معبود مع الله، ولا يشفع هؤلاء عند الله، ثم نزه تعالى نفسه عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تنزه وتقدس وتعاظم.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: (تشركون).

وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

و(ما) في قوله (عما): موصولة، أو مصدرية، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم معه، أو عن إشراكهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: وما كان الناس إلا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق، وهو التوحيد وفطرة الإسلام التي فطر الله الناس عليها.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾، أي: فحدث بينهم الاختلاف والتفرق باتباع الهوى وعبادة الأصنام، قال تعالى في الحديث القدسي «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»(٢).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بحكم حكم به، وقضاء قضاه وقدره بتأجيل الخلق إلى أجل مسمى؛ كما قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية: ١٤]، وأنه سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل.

والخطاب في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، اللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لفصل

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥، من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ١٩٣.

بينهم بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين المكذبين، فيظهر من هو على الحق ومن هو على الباطل.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾، أي: ويقول هؤلاء المكذبون المعاندون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، أي: هلا أنزل على محمد آية من ربه، أي: من الآيات التي يقترحونها، كما سألت ثمود آية فأُعطوا الناقة، وسأل الحواريون المائدة فأنزلها الله تعالى عليهم، وكما اقترح هؤلاء المشركون في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وكما اقترحوا أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا.

﴿فَقُلْ ﴾، أي: فقل لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾، أي: هو سبحانه المختص بعلم الغيب المستأثر به وحده، الذي له الأمر كله، ويعلم عواقب الأمور، وهو وحده القادر على إنزال ما شاء من الآيات، ومنع ذلك لعلمه الواسع وحكمته البالغة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ [الفرقان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

فأخبر أن سببَ عدم إنزال الآيات المقترحة: تكذيبُ الأولين بما اقترحوه من الآيات لما جاءتهم؛ مما كان سببًا في إهلاكهم، كما هي سنة الله تعالى فيمن سألوا الآيات ثم كذبوا بها؛ ولهذا أرشد عزَّ وجلَّ نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، أي: له الغيب والأمر كله، وله الحكمة فيما يفعل: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لمن تكون العاقبة، أهي لي أو لكم؟ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك، أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، وحكم الله فيه.

وفي هذا ما يشبه البشارة له ﷺ بأن العاقبة له، وتثبيته وتقوية قلبه، وتحدي المكذبين المعاندين له، وأن عاقبتهم الخسران؛ لأنهم إنما يسألون عنادًا ومكابرة، لا استرشادًا، وقد علم الله أنهم لا يؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧].

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو المشركين المكذبين للرسول ﷺ ولما جاء به من الآيات، وللقاء الله عزَّ وجلَّ، وسؤالهم له ﷺ مكابرة وعنادًا الإتيان بقرآن غير ما أنزله تعالى عليه، أو تبديله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

٢- إثبات الحجة على الخلق بإنزال الآيات وبيانها بيانًا يقطع العذر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾.

٣- إثبات لقاء الله تعالى، والبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

٤- إرشاد الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ بما يرد به عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ الآية.

٥- أن النبي ﷺ ليس بيده أن يأتي بقرآن غير ما أنزله الله تعالى إليه، ولا أن يبدله، وليس ذلك بمقدوره، ولا بمقدور أحد من البشر.

٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى، يتبع ويتلو ما أوحاه الله تعالى إليه، لم يأت بالقرآن من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٧- خوفه ﷺ من شؤم المعصية كغيره من البشر؛ لقوله ﷺ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالنبي ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾ وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٩- عظم هول يوم القيامة وشدة عذابه؛ لقوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾

١٠- أن مجيء الرسول ﷺ بالقرآن هو بإذن الله، وأن الله لو شاء ما أرسله بالقرآن، ولا أدرى قومه به؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾.

١١- دلالة العقل والواقع والحال على صدقه ﷺ فيما جاء به من الوحي من عند الله عزَّ وجلَّ، وهو أنه ﷺ عاش بينهم يعرفون سيرته وصدقه، وأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا تعلَّم على يد أحد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فكيف يتصور أن يأتيهم بهذا الكتاب المعجز، أو يستطيع الإتيان بمثله، أو تبديله؛ ولهذا أنكر عليهم بقوله: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

١٢- أن هؤلاء المشركين المكذبين للنبي ﷺ ولما جاء به من الآيات، المقترحين

عليه الإتيان بغير القرآن أو تبديله؛ لا يعقلون العقل الذي هو مناط المدح الذي يدلهم إلى معرفة الحق وما ينفعهم في دينهم وآخرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، فتقوّل على الله ما لم يقله، أو كذب بآياته وجحدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

١٤- أن افتراء الكذب على الله، والتكذيب بآياته من أعظم الإجرام والظلم الذي لا يفلح أهله أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الآية: ٢١].

١٥- ذم المشركين، والنعي عليهم في عبادتهم الآلهة التي لا تضر ولا تنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

١٦- ضلال المشركين وزعمهم الكاذب أن هذه الآلهة تشفع لهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾.

١٧- الإنكار على المشركين في عبادتهم هذه الآلهة من دون الله، وزعمهم الكاذب أنها تشفع لهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٨- سعة علم الله عزَّ وجلَّ وعمومه بكل ما في السموات والأرض، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٩- تنزيه الله تعالى لنفسه وتعظيمها عن إشراك المشركين وشركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢٠- أن الناس كانوا في أول الأمر أمة واحدة على دين الإسلام وفطرة التوحيد، ثم اختلفوا بسبب الشيطان، واتباع الهوى، فظهر فيهم الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾.

٢١- أن الله عزَّ وجلَّ جعل لكل أجل كتابًا، وأجّل الخلق إلى أجل مسمى، ولولا ذلك لقضى بين الناس منذ وقع بينهم الاختلاف والتفرق في الدين؛ ليتبين المحق من المبطل، وله الحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٢٢- ذم الاختلاف والتفرق في الدين، ووجوب الاجتماع على الحق، والحذر من التفرق والاختلاف، فذلك شر مستطير، وبلاء كبير.

٢٣- اقتراح المشركين المكذبين للنبي ﷺ لولا أُنزل عليه آية من ربه، أي: معجزة وخارق من خوارق العادات مكابرة منهم وعنادًا، إذ لم يؤمنوا بأعظم ما أنزل الله تعالى من الآيات، وهو القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

٢٤- سوء أدب المشركين مع الله؛ لقولهم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وكأن له ربًّا غير ربهم.

٢٥- تهديد المشركين، وأمرهم بالانتظار لمن تكون العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وفي طي هذا الإشارة إلى أنهم هم الخاسرون، والبشارة للنبي ﷺ والمؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ من خصب ورخاء وأمن وصحة، ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠] أي: آثار المطر الذي هو رحمة من رحمة الله تعالى الفعلية، وهي من آثار رحمته التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عزَّ وجلَّ.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ الضراء: الضر، أي: من بعد ضراء أصابتهم من جدب وشدة وخوف ومرض، ونحو ذلك.

أي: وإذا أذقنا الناس نعمة بعد الضر، كالمطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، ونحو ذلك.

﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾، ﴿إذا﴾ للمفاجأة، أي: إذا لهم كيد واستهزاء في آياتنا وتكذيب بها، وسعي لإبطال الحق ناسين- أو متناسين- ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على أن بدلها بالسراء، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ

يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]

وعن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح على إثر سماء كانت من الليل، ثم قال «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(١).

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أي: أسرع مكرا من مكركم، وأشد استدراجًا لكم، ثم يأخذكم على غرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤، الأنفال: ٣٠].

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ قرأ روح عن يعقوب بالغيب: (يمكرون).

وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَمْكُرُونَ﴾.

وهذا تهديد وإنذار بالعذاب، أي: إن رسلنا من الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين الموكلين بأعمال العباد ﴿يَكْتُبُونَ﴾، أي: يُدونون ويحصون ويسجلون ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾، ﴿ما﴾ موصولة، أي: الذي تمكرونه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر عزَّ وجلَّ في الآية السابقة الحالة العامة للناس عند حصول الرحمة لهم بعد الضراء، وهي نسيان ما حصل لهم من الضراء وعدم الشكر والعودة إلى الكفر، ثم ذكر في هذه الآية أنموذجا لذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده والخوف من الغرق، وعند إنجائهم من ذلك.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر بفتح الياء ونون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة: (يَنْشُركم) من النّشر.

وقرأ الباقون بضم الياء وسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ١٠٣٨، ومسلم في الإيمان- كفر من قال: «مطرنا بنوء كذا» ٧١، وأبو داود في الطب ٣٩٠٦.

التسيير.

والمعنى: هو الذي يسيركم في البر والبحر بما يَسَّر لكم من الأسباب، ففي البر على الظهر والأقدام، وفي البحر على الفلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، أي: في السفن على ظهر البحر.

﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ الجري: السير السريع في البر أو البحر، قال تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا﴾ [هود: ٤١] أي: وجرت الفلك والسفن ﴿بِهِم﴾، أي: بمن فيهن من الركبان، ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾، أي: لينة رفيقة وموافقة للمرغوب.

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾، أي: وفرحوا بهذه الريح الطيبة، واطمأنوا إليها؛ لملاءمتها لهم، وبينما هم كذلك ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، أي: جاء هذه الفلك فجأة ريح شديدة الهبوب.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾، أي: من كل جهة من جهات الفلك

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾، أي: وتيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق، أو أنهم هلكوا وأخذوا، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أي: أهلك ثمره.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: دعوا الله تعالى وحده مخلصين له الدين دون شركائهم، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله تعالى وحده رب العالمين.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أنجيتنا، أي: خلصتنا من هذه الحال والشدة التي نحن فيها.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، وقد أكدوا وعدهم هذا بثلاث مؤكدات: القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: لنكونن من الشاكرين لك بدعائك وعبادتك وحدك لا شريك لك؛ كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الآية: ٦٧].

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ ﴾، أي: خلصهم عزَّ وجلَّ من تلك الكربة أخلفوا وعدهم، ونكثوا أيمانهم؛ لقوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، ﴿إذا﴾ للمفاجأة ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، أي: يعتدون ويفسدون في الأرض بالشرك وارتكاب الموبقات ولا يشكرون؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] والشرك أشد البغي؛ لأنه اعتداء على حق الخالق عزَّ وجلَّ؛ ولهذا كان الشرك أظلم الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣].

ونسوا تلك الشدة ونعمة الله عليهم في إنجائهم منها، ونسوا ما التزموه، وأقسموا عليه من الشكر على ذلك، فعادوا إلى الشرك بالله؛ كما قال تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢].

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ متعلق بـ ﴿يَبۡغُونَ ﴾ وفيه بيان أن البغي إنما يكون بغير حق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾، ﴿إِنَّمَا ﴾ أداة حصر، أي: إنما وبال بغيكم وضرره وعاقبته على أنفسكم خاصة لا على غيركم؛ كما قال ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(١).

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ قرأ حفص بنصب العين: ﴿مَّتَٰعَ ﴾ على الحال، وقرأ الباقون برفعها: «متاعُ» خبر لـ ﴿بَغۡيُكُمۡ ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو متاع.

والمتاع ما ينتفع به انتفاعًا غير دائم، أي: إنما نمهلكم مع بغيكم متاع هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية، والذي هو غاية ما تؤملونه.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ ﴾ قدم الجار والمجرور؛ لإفادة الاختصاص، أي: ثم إلينا وحدنا مصيركم ومآلكم ومآبكم يوم القيامة.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، أي: فنخبركم بعملكم، أو بالذي كنتم تعملونه، ونحاسبكم ونجازيكم عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، النهي عن البغي ٤٩٠٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١١، وابن ماجه في الزهد- باب البغي ٤٢١١- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وفي هذا غاية الوعيد والتحذير لهم من الاستمرار على بغيهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ذكر عزَّ وجلَّ في الآية السابقة أن من بغى فإنما بغيه على نفسه متاع الحياة الدنيا، ثم أتبع ذلك بذكر أحسن مثل للحياة الدنيا وزينتها في سرعة فنائها وزوالها، بالمطر ينزل على الأرض فتخضر وتزدهي، ثم يأتيها من أمر الله ما يأتيها.

قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: ما شبه الحياة الدنيا في سرعة فنائها وزوالها إلا ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا مثل وشبه ماء أنزلناه من السماء، وهو المطر.

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء: للسببية، أو للمصاحبة، أي: فنبت بذلك المطر أنواع النبات مختلطًا بعضه ببعض من كل صنف وزوج بهيج؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، ﴿ما﴾ موصولة، أي: من الذي يأكله الناس كالحبوب والثمار والخضراوات والبقول.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، أي: ومن الذي تأكله الأنعام، من أنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف والألوان والأشكال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، أي: ظهر حسنها وبهاؤها وبهجتها ونضارتها.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾، أي: وتزينت فصارت آية للمستبصرين، وبهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، أي: وظن أهل هذه الأرض واعتقدوا ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، أي: أنهم مالكون لها قادرون على الانتفاع بها وتحصيل ثمراتها،

وجذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، أي: جاء هذه الأرض ﴿أَمْرُنَا﴾، أي: قضاؤنا بهلاكها بصاعقة، أو ريح باردة، أو غرق، ونحو ذلك؛ بسبب ذنوب أهلها وبغيهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ الحصيد: هو الزرع المقطوع من منابته، أي: جعلنا ما عليها من النبات بعد الخضرة والنضارة يابسًا هشيمًا.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: كأن لم تكن قائمة بالأمس زاهية، وكأنها ما كانت، وهذه حال الدنيا والواثق بها سواء بسواء؛ ولهذا قال ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا فيصبغ في النار، ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا**»(١).

والأمس: اليوم الذي قبل يومك، قال زهير(٢):

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمِ

والمراد به في الآية: ما مضى من الزمن.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: كذلك نبين ونظهر الآيات والحجج والدلائل والبراهين بضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني إلى الأذهان.

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يعملون أفكارهم وعقولهم، ويتأملون في الآيات ويتدبرونها، ويعتبرون في الأمثال، فيأخذون من هذا المثل سرعة زوال الدنيا ومتاعها فلا يغترون بها، كما هو حال كثير من الغافلين عن آيات الله.

وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض في آيات عدة من القرآن الكريم،

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد- صفة النار ٤٣٢١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١١١).

فقال تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الآية: ٤٥].

وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

لما بين حالة الدنيا وسرعة زوال نعيمها شوّق إلى الدار الباقية دار السلام، ودعا إليها؛ ترغيبًا في العمل لها.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾، أي: يدعو عباده بتوحيده إلى داره دار السلام، الجنة، دار السلامة من الآفات والنقائص والمنغصات والنكبات، دار كمال النعيم وتمامه وبقائه وخلوده.

﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾، أي: ويوفق الذي يشاء من عباده ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، أي: إلى طريق عدل مستقيم، وهو صراطه عزَّ وجلَّ بمعرفة الحق والعمل به، فعمّ عزَّ وجلَّ جميع عباده بالدعوة إلى دار السلام، عدلًا منه، ثم خص بالهداية والتوفيق من شاء منهم فضلًا منه، والله يختص برحمته من يشاء.

الفوائد والأحكام:

١- كفر كثير من الناس بنعم الله تعالى وعدم شكرها، ومقابلتها بالمكر في آيات الله، تكذيبًا لها، واستهزاءًا بها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾.

٢- أن الواجب من الشكر على من مسته ضراء فأبدلها الله تعالى بالنعماء أعظم من الواجب على من لم تمسه الضراء، وإنما منحه الله النعماء.

٣- أن الله عزَّ وجلَّ أسرع مكرًا من مكر الذين يمكرون بآياته وأشد استدراجًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

٤- أن الله عزَّ وجلَّ إنما يوصف بالمكر على سبيل المقابلة والمجازاة للماكرين، ولا يوصف بذلك على سبيل الإطلاق.

٥- الوعيد للذين يمكرون بآيات الله تكذيبًا لها واستهزاء بها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

٦- إثبات وجود الملائكة الكاتبين لأعمال بني آدم، وإثبات كتابة الأعمال والحساب والجزاء عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

٧- الامتنان على الخلق بتسييرهم في البر والبحر؛ بتهيئة أسباب ذلك لهم وحفظهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾

٨- تسخير الفلك للناس لحملهم، وتسخير الريح الطيبة لتسيير الفلك، ولمصالحهم، نعمة منه عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

٩- فرح المسافرين على ظهر الفلك بالريح الطيبة المعتدلة التي تسيّر الفلك بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾.

١٠- أن الريح كما تكون نعمة ورحمة، تكون عذابًا ونقمة؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

١١- خطورة البحر وأمواجه المتلاطمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، أي: هلكوا.

١٢- إخلاص المشركين الدعاء لله تعالى في حال الشدة والكرب؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

١٣- التزام المشركين بأن يكونوا من الشاكرين إذا الله أنجاهم من الغرق، بإقسامهم على ذلك وتوكيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

١٤- معرفة المشركين أن آلهتهم لا تستطيع جلب النفع لهم، ولا دفع الضر عنهم، وأنه لا ينجيهم في الشدائد إلا الله تعالى، وإقرارهم بذلك.

١٥- خُلْف المشركين لوعدهم، ونقضهم لعهدهم، ونكثهم لأيمانهم؛ ببغيهم في الأرض، وعدم شكرهم بعد إذ أنجاهم الله من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

١٦- عموم رسالة النبي ﷺ وخطاب القرآن لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

١٧- أن من بغى فإنما يبغي على نفسه؛ لأن ضرر ذلك وعاقبته تعود إليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾.

١٨- أن من بغى وطغى فإنما له فقط ما يحصل عليه من متاع الحياة الدنيا الحقيرة والفانية، مع خسرانه دينه ودنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

١٩- الإشارة إلى حقارة الحياة الدنيا وزوالها.

٢٠- إثبات البعث والمعاد، ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد للذين يبغون في الأرض بغير الحق بمجازاتهم ببغيهم وتعذيبهم.

٢٢- بيان أنما مثل الدنيا في سرعة زوالها وفنائها كالمطر ينزل على الأرض، فتنبت وتزهو، ثم يأتيها من أمر الله ما يأتيها فتصبح حصيدًا وهشيمًا تذروه الرياح، كأنها لم تزهُ بالأمس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية.

٢٣- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا، فبسبب نزول المطر تنبت الأرض.

٢٤- أن الرزق كله ينزل من السماء بتقدير الله تعالى ونزول المطر؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

٢٥- ينبغي الحذر من الاغترار بالدنيا، والتفكر في سرعة فنائها وزوالها، والاستعداد للآخرة.

٢٦- ينبغي الحذر من فجاءة نقمة الله تعالى وأخذه، وعدم الاغترار بإمهاله ونعمه، والثقة بالله تعالى وحده لا بها في اليد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

٢٧- بلوغ القرآن الغاية في التفصيل والبيان وتقريب المعاني بضرب الأمثال؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢٨- أنه إنما يستفيد من تفصيل الآيات وبيانها أهل التفكر والتأمل في الآيات دون أهل الغفلة؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، مما يوجب إعمال الفكر والتأمل في آيات الله تعالى.

٢٩- أن الله عزَّ وجلَّ يدعو الناس جميعًا عدلًا منه لتوحيده؛ ليحلهم داره دار السلام الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٣٠- شرف الجنة وعظم نعيمها؛ لأن الله سماها دار السلام، فشرفها بإضافتها إليه، ووصفها بأنها دار السلامة من الآفات.

٣١- تخصيص الله تعالى بهداية التوفيق إلى الصراط المستقيم من شاء من عباده فضلًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٣٢- امتداح الله تعالى لصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بتنكيره ووصفه بالاستقامة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

لما دعا عزَّ وجلَّ إلى داره دار السلام الجنة ذكر لمن تكون، وأنها للذين أحسنوا، فلهم الحسنى وزيادة؛ إغراءً وترغيبًا فيها، وحثًّا على العمل لها.

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، أي: أحسنوا في عبادة الله تعالى في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، والإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ.

وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم، وبما يقدرون عليه من وجوه الإحسان، قولًا وفعلًا وبذلًا، وهم الذين هداهم إلى صراط مستقيم، فالصراط المستقيم هو العمل الحسن.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الجنة دار السلام الكاملة في حسنها، والمثوبة الحسنة في الآخرة؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وهي دار السلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥- ١٢٧].

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وهي أعلى وأعظم من جميع ما أعطوه في الجنة من النعيم، فعن صهيب الرومي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا**

أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ »[١]، وهكذا فسر الصحابة رضي الله عنهم والتابعون الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم[٢].

قال ابن القيم: «فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، كذلك فسرها رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه» ثم ساق حديث صهيب رضي الله عنه[٣].

وهذا لا ينافي أن تفسَّر الزيادة بمضاعفة ثوابهم، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»[٤].

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ لما بيَّن عظم ما أعد لهم من الحسنى وهي الجنة، وما فيها من النعيم، ورؤية وجه الله الكريم؛ أتبع ذلك ببيان اندفاع المحذور عنهم، فلا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه ينغص عليهم ذلك النعيم؛ لأن كمال النعيم وتمامه لا يكون إلا بحصول المطلوب وزوال المرهوب.

والمعنى: ولا يغشى وجوههم غبار ولا قتام وسواد في عرصات القيامة.

﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، أي: ولا يرهق وجوههم ذل وهوان في الباطن يظهر أثره على وجوههم، بل وجوههم كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ١٨١، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٠٥، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧.

(٢) انظر «جامع البيان» ١٢/ ١٥٦- ١٦٢، «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٩٨.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣٩٨.

(٤) أخرجه مسلم في الصيام ١١٥١، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه ١٦٣٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أي: نضرة في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين أحسنوا ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ملازموها وساكنوها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيها إقامة أبدية، لا يتحولون عنها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

لما ذكر ما أعد من الثواب للمحسنين أتبعه بذكر ما أعده من العذاب للمسيئين؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: والذين عملوا الأعمال السيئة، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل من الكفر والشرك والتكذيب والمعاصي.

﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾، أي: يجازون السيئة بمثلها، جزاء يسوؤهم بقدر ما عملوا من سوء، عدلًا منه تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي: موافقًا لأعمالهم.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، أي: وتغشاهم وتعلوهم ذلة، أي: ذل وهوان في قلوبهم من شدة قلقهم وخوفهم من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، أي: ما لهم من الله من مانع ولا واق يقيهم عذاب الله تعالى وعقابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧، ٨].

و﴿من﴾ في قوله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ لتأكيد عموم النفي، أي: ما لهم من أيّ عاصم.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب:

(قِطْعًا) بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿قِطَعًا﴾.

أي: كأنما كسيت وغطيت وجوههم من شدة سوادها قطعًا من ظلمة الليل؛ من عظم ما هم فيه من الزهق والخوف والفزع والقلق.

وشتان ما بين الفريقين؛ كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٨- ٤٢].

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي: أهلها وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ خلودًا أبديًّا.

لأن النار على الصحيح من أقوال أهل العلم لا تفنى، ولا يفنى عذابها، ولا أهلها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ (يوم) منصوب بفعل مقدر، أي: اذكر يوم نحشرهم ﴿جَمِيعًا﴾ حال، أو توكيد، أي: ويوم نجمع الخلائق كلهم جميعًا، والمشركين وشركاءهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا

خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، أي: اثبتوا، أو الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم؛ ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وضمير الفصل ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير المتصل في الفعل المقدر.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، أي: فميزنا وفرقنا بينهم، أي: بين المشركين وشركائهم بالبعد البدني والقلبي، فانقلب ما بينهم من الموالاة إلى عداوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ متبرئين منهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: لم تكونوا تعبدوننا، فأنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: كفى الله شهيدًا بيننا وبينكم أننا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضيناها منكم، وإنما دعاكم الشيطان إلى عبادته فعبدتموه.

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿إِن كُنَّا﴾، ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير محذوف، أي: إننا كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ لنا ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ما كنا نشعر بعبادتكم لنا، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ

كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وفي هذا من التبكيت للمشركين والتنديم لهم ما لا يخفى؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك اليوم، وفي موقف الحساب وعرصات القيامة ﴿تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: (تتلوا) بتائين من التلاوة، وقرأ الباقون بتاء وباء ﴿تَبْلُوا۟﴾ من البلوى، أي: تجد، وتعاين، وتتفقد، وتتبع ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾، أي: الذي أسلفته، أي: قدمته من الكسب والعمل، من خير أو شر، وتحاسب عليه، وتجازى به؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: وردوا جميعًا إلى الله تعالى وحده، ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، أي: وليهم الحق ولاية عامة، الحكم العدل، ففصل بينهم، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: وغاب عن المشركين وزال عنهم، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، ﴿ما﴾ موصولة، أي: ما كانوا يكذبون على الله من الشركاء، فلم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم، ويجوز كونها مصدرية، أي: وضل عنهم الافتراء الذي كانوا يفترونه من زعمهم أن لله شركاء، وأنهم ينفعونهم ويشفعون لهم، ويدفعون عنهم العذاب.

الفوائد والأحكام:

١- عظم ما أعد الله للذين أحسنوا من الثواب، فلهم الحسنى، وهي الجنة وما فيها من ألوان النعيم ومضاعفة الأجور، ولهم ما هو أعلى من ذلك وأجل، وهي الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

٢- الترغيب في الإحسان بإخلاص العبادة لله تعالى وحده، واتباع شرعه؛ لعظم ما أعد الله للمحسنين.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

٤- إثبات الجنة، وأنها جمعت أنواع الحسن كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٥- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وقد فسر عامة السلف والخلف ذلك بالنظر إلى وجه الله الكريم، بل جاء ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ، كما دلت نصوص الكتاب والسنة على إثبات رؤيتهم له عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وقال ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**»(١).

٦- سلامة أهل الجنة من جميع المنغصات والمكدرات الباطنة والظاهرة، فلا يرهق وجوههم قتر في الظاهر، ولا ذلة وهوان في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، بل هي كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

٧- أن التمتع والتلذذ بالنعيم لا يتم إلا بحصول المطلوب، واندفاع المرهوب.

٨- أن المحسنين هم أهل الجنة وملازموها الخالدون فيها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي هذا وعد لهم وتنويه بشأنهم.

٩- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها.

١٠- الوعيد للذين كسبوا السيئات بمجازاتهم بمثلها، وبيان سوء حالهم، وغشيان الذلة لهم، واسوداد وجوههم من شدة الخوف والقلق، وملازمتهم النار، وخلودهم فيها

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧ - من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١١- عدل الله عزَّ وجلَّ في مجازاة الذين كسبوا السيئات السيئة مثلها دون زيادة؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثۡلِهَا﴾.

١٢- أنه ليس لأصحاب السيئات من الله من عاصم يدفع عنهم عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ فلا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

١٣- التحذير من اكتساب السيئات، وأن السيئة تجزى بمثلها، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثۡلِهَا﴾

١٤- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها، وهو الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

١٥- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب بذكر المحسنين وثوابهم، وذكر المسيئين وعذابهم؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

١٦- إثبات جمع الخلائق كلهم، والمشركين وشركائهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾.

١٧- الفصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة، والتفريق بينهم، وانقلاب ما بينهم من محبة وولاية إلى بغض وعداوة، وإنكار الشركاء عبادة المشركين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ وفي هذا ما لا يخفى من التبكيت والتنديم للمشركين.

١٨- كفى بالله تعالى شهيدًا بين خلقه، وحسيبًا عليهم، لقوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ الآية.

١٩- غفلة الشركاء عن عبادة المشركين لهم، وعدم شعورهم بها، أو علمهم؛ لقولهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾.

٢٠- معاينة كل نفس ما أسلفت ومجازاتها به؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾.

٢١- رد الخلائق كلهم، وإرجاعهم إلى الله تعالى من المشركين وغيرهم للحساب والجزاء على أعمالهم والفصل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٢- أن المولى الحق لجميع الخلق هو الله تعالى، فهو وليهم جميعًا ولاية عامة، لا مولى لهم سواه، ولا شريك له في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- غياب وذهاب ما كان يفتريه المشركون من الشركاء يوم القيامة أحوج ما كانوا إليهم، واضمحلال ما كانوا يزعمون فيهم من النفع ودفع الضر والشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ذكر الله عزَّ وجلَّ حشر الخلق وردهم إليه للحساب والجزاء الذي ينكره المشركون، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل ربوبيته التي لا ينكرونها، والدالة على قدرته على البعث وعلى استحقاقه العبادة وحده دون سواه.

قوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ محتجا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلوهية: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾؟ أي: من الذي يجلب لكم الرزق والعطاء؟ كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١].

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإنزال المطر، وتقدير أرزاقكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ومن الذي يرزقكم من الأرض بإخراج نباتها، وما فيها من المعادن والكنوز، وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩- ١١]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ

شَقَّقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ (أم): هي المنقطعة التي بمعنى (بل) التي هي للاضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أَمَنْ يملك السمع والأبصار. و﴿ٱلسَّمْعَ﴾ مصدر دال على الجنس، أي: من الذي خلق السمع والأبصار، وهو مالكهما وواهبهما لكم ولو شاء لسلبهما منكم، وخصهما بالذكر لشرفهما، وكونهما الوسيلتين الخاصتين لإيصال العلم والمعرفة إلى القلب، قال تعالى ممتنا على العباد بهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال تعالى مخوفًا العباد من سلبهما: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كإخراج النسمة من النطفة، والطائر من البيضة، والنبات من الحب والنوى وأنواع البذور، وإخراج المؤمن من الكافر.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ عكس ما قبله؛ كإخراج البيضة من الدجاجة، والكافر من المؤمن.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ﴾ في الكون والعالم كله- علويه وسفليه- وهذا من عطف العام على الخاص، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾، أي: الله الذي يرزقنا من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر؛ لأنهم يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله لا شريك له في ربوبيته.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: فقل إلزامًا لهم بالحجة: أفلا تتقون الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وإخلاص العبادة له وحده، والإقرار بأنه المعبود وحده لا شريك له في ألوهيته؛ كما أقررتم بأنه لا شريك له في ربوبيته؛ لأن من

لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ الإشارة إلى المفهوم من قوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية، أي: فذلكم الله الذي أقررتم بأنه هو الذي يرزقكم من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر هو ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: هو ربكم وإلهكم الحق، الذي يستحق أن يفرد بالعبادة وحده دون سواه، فهو عزَّ وجلَّ الحق في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، شرعه حق، ولقاؤه حق، ووعده حق، ووعيده حق.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ الفاء: عاطفة، و«ماذا»: اسم استفهام فيه معنى النفي، أو «ما»: اسم استفهام فيه معنى النفي، و«ذا» اسم موصول، «إلا»: أداة حصر، أي: ما بعد الحق إلا الضلال، أي: فإذا كان عزَّ وجلَّ هو الرب والإله الحق فكل معبود سواه باطل، ومن عبد الله فقد عبد الرب والإله الحق، ومن عبد غير الله فما عبد إلا الضلال.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: فكيف تصرفون عن الحق وهو التوحيد إلى الضلال الذي هو الشرك وأنتم تعلمون أنه عزَّ وجلَّ هو ربكم الحق الذي خلق كل شيء المتصرف في كل شيء؟!

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بالجمع: ﴿كلمات﴾ وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿كلمة﴾.

أي: كذلك وجبت وثبتت كلمة ربك الكونية على هؤلاء المشركين؛ بسبب شركهم بالله في الألوهية وفسقهم: أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم وشركهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أيها المشركون الذين تعبدونهم من دون الله.

﴿مَن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ﴿مَن﴾ اسم موصول، أي: الذي يبدأ الخلق أول مرة فيوجده من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ خلقا آخر بعد الفناء والعدم؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

والاستفهام بمعنى الإنكار والنفي، أي: لا أحد من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده، بل هم أضعف من ذلك وأعجز؛ لأنهم مخلوقون؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا شريك له في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: فكيف تصرفون عن عبادة المتفرد بالابتداء والإعادة إلى عبادة من هم مخلوقون أمثالكم؟!

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ الاستفهام كالذي قبله، أي: لا أحد من شركائكم من يهدي الضُّلال إلى الدين الحق، ويبصر من الغي إلى الرشد.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل الله وحده ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، أي: يرشد الخلق إلى الحق بالآيات والأدلة والبراهين، ويوفق من شاء منهم لسلوكه بفضله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧].

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله تبارك وتعالى ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾، أي: أحق وأوجب أن يعبد ويطاع، والاستفهام تقريري، والجواب: نعم هو عزَّ وجلَّ أحق أن يتبع ويطاع ويعبد.

﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع بفتح الياء والهاء وتشديد الدال: (يَهَدِّي) وقرأ أبو جعفر كذلك إلا أنه أسكن الهاء: (يَهْدِّي) وقرأ حمزة والكسائي

وخلف بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال: (يَهْدِي) وقرأ يعقوب وحفص بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال: ﴿يَهِدِّي﴾ وروى أبو بكر عن عاصم كذلك، إلا أنه بكسر الياء والهاء: (يِهِدِّي).

أي: أمّن لا يهتدي بنفسه إلى شيء ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لعماه وبكمه وعدم علمه، وهم شركاؤهم وآلهتهم، التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدى، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال عليه السلام لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ «ما» استفهامية، والاستفهام هنا: للإنكار والتوبيخ والتعجيب، أي: أي شيء حصل لكم؟ وأين عقولكم؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الجائر، تسوون بين الله وبين خلقه، تتركون عبادة الله الذي يهدي إلى الحق، وتعبدون من لا يهتدي إلى الحق إلا أن يهدى، هذا هو الضلال المبين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾، أي: وما يتبع أكثر المشركين في تأليههم الأصنام، وعبادتها من دون الله.

﴿إِلَّا ظَنًّا﴾، ﴿إلا﴾ أداة حصر، أي: إلا حدسًا وتخمينًا واعتقادًا باطلًا، ونُكِّر للتحقير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ وهو الحدس والتخمين والشك والاعتقاد الباطل ﴿لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يغني ولا ينفع من الحق الثابت بدليل العقل والنقل شيئا، أي: لا يقوم الظن مقام الحق واليقين أبدًا في أي شيء من الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، أي: إن الله عليم بالذي يفعله هؤلاء المشركون المتبعون

للظن، أو عليم بفعلهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليه، وفي هذا تهديد لهم ووعيد شديد على اتباعهم الظن وإعراضهم عن الحق الثابت.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير المشركين والاحتجاج عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الآية؛ وكما قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

٢- أن الأرزاق كلها من الله عزَّ وجلَّ وبيده؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

٣- أن الرزق منه ما ينزل من السماء وهو المطر، وتقدير الأرزاق كلها، ومنه ما يخرج من الأرض، كالنبات والمعادن، ونحو ذلك.

٤- ملكه عزَّ وجلَّ للسمع والأبصار، وامتنانه عزَّ وجلَّ على العباد بخلقهما؛ لأنهما منفذ العلم والهدى إلى القلب؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

٥- قدرة الله التامة على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

٦- انفراد الله عزَّ وجلَّ وحده دون شريك بتدبير أمر الكون والخلق كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

٧- إقرار المشركين واعترافهم بتوحيد الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لكن ذلك لم ينفعهم لما لم يقروا بتوحيد الألوهية.

٨- الإنكار على المشركين وتوبيخهم لعدم تقواهم بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه؛ ولإشراكهم معه غيره في الألوهية مع إقرارهم له وحده بالربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

٩- أن الله عزَّ وجلَّ هو الرب الحق، والإله الحق، لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾.

١٠- أنه لا شيء بعد الحق إلا الضلال، فالله هو المعبود الحق، وما عبد من دونه فهو ضلال وباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

١١- أن من كتب الله عليه الشقاء وعدم الإيمان فلا سبيل إلى إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٣- إثبات القدر، وأن الله تعالى قدر الكفر والإيمان ومقادير كل شيء.

١٤- أن الفسق والخروج عن طاعة الله، ومقابلة الحق بالتكذيب سبب للحيلولة دون الإيمان.

١٥- الإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله من لا يستحقون العبادة، بل هم في غاية الضعف والعجز، مخلوقون لله كغيرهم من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: لا أحد منهم يستطيع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

١٧- إثبات المعاد وبعث الأجساد، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك، وتفرده تعالى بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

١٨- توبيخ المشركين وتقريعهم كيف يُصرفون عن عبادة الله تعالى الذي يبدأ الخلق ثم يعيده إلى عبادة مخلوقين ضعاف أمثالهم، لا يستطيعون شيئًا من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

١٩- الإنكار على المشركين في عبادتهم آلهة من دون الله ليس فيهم من يهدي إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾، أي: ليس فيهم من يهدي إلى الحق.

٢٠- أن الذي بيده الهداية للدين الحق هو الله عزَّ وجلَّ وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾.

٢١- أن الأولى بالاتباع والعبادة والطاعة هو الله عزَّ وجلَّ الذي بيده الهداية، لا

الشركاء الذين لا يهدون ولا يهتدون؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

٢٢- الإنكار على المشركين في تسويتهم بين الله عزَّ وجلَّ الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، والذي يهدي إلى الحق، وبين شركائهم الذين لا يستطيعون شيئًا من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

٢٣- ذم المشركين والنعي عليهم فيما يتبعون، وبيان أن أكثرهم ما يتبعون إلا ظنًّا، أي: ما يتبعون فيما يعبدون من دون الله إلا ظنًّا وحدسًا وتخمينًا واعتقادًا باطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

٢٤- أن الظن لا يغني ولا ينفع من الحق شيئًا، ولا يقوم مقام الحق الثابت واليقين أبدًا في شيء من الأشياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

٢٥- علم الله التام بما يفعله هؤلاء وغيرهم، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وأن الله عزَّ وجلَّ عليم بأفعالهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

بعدما بين ضلال المشركين وبطلان ما هم عليه من الشرك في العبادة من غير دليل ولا برهان ولا حجة ولا سلطان، أتبع ذلك ببيان أن القرآن الذي يدعوهم إلى توحيد الله حق، ولا يمكن أن يفترى من دون الله؛ كما في زعمهم أن الرسول ﷺ قد افتراه، وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب خبر (كان) أي: ما كان هذا القرآن، ولا يتصور ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾، أي: يختلق ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: أنه لا يكون إلا من عند الله، ولا يمكن أن يفترى على الله؛ لأن كلام الله عزَّ وجلَّ لا يشبه كلام البشر؛ لعظمته وإعجازه في ألفاظه ومعانية وأحكامه ومواعظه وأخباره؛ كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الواو عاطفة، و(لكن) حرف استدراك، ﴿تَصْدِيقَ ﴾ معطوف على خبر (كان) أو مفعول لأجله، أي: ولكن أنزله تصديق الذي بين يديه، أي:

لتصديق الذي بين يديه، أي: الذي سبقه من الكتب السماوية؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

فهو مصدق لها، شاهد بصحتها، وهو مصداق ما أخبرت به، وهو مصدق لها بموافقته لها على الدعوة إلى أصول الأديان من توحيد الله تعالى، ونفي الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، ونحو ذلك، والنهي عن ضد ذلك. وهو مهيمن وحاكم عليها، مبين لما وقع فيها من تحريف وتبديل.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام والمواعظ والأخبار، بيانا شافيًا كافيًا حقًّا.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالقهم ومالكهم ومدبرهم ومربيهم بربوبيته العامة لهم جميعًا؛ أي من وحيه وكلامه.

قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى (بل) التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقول المكذبون لك يا محمد: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ؟ أي: افترى القرآن على الله، أي: اختلقه وتقوله من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [السجدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿قُلْ﴾، أي: قل لهم يا محمد: إن كنتم تزعمون أن القرآن مفترى من دون الله، وأنه ليس من عند الله، وأنني افتريته وتقوَّلته من عند نفسي.

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، أي: فأنا بشر مثلكم، وقد زعمتم أنني أتيت بهذا القرآن من عند نفسي، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: مثل القرآن، أي: من جنسه.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: وادعوا كل من استطعتم دعوته من دون الله من إنس وجن وغيرهم ليعينوكم على ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إن محمدًا افتراه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٣، ٢٤].

وهذا هو المقام الثالث في التحدي للمكذبين من مشركي قريش، وهم أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة، ولغيرهم من الإنس والجن؛ حيث تحداهم أن يأتوا بمثله، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

ثم تقاصر معهم إلى عشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ثم تنازل إلى سورة واحدة، فقال تعالى في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولهذا قال ﷺ: «**ما من بني إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي، و«ما»: موصولة، أي: بل كذب هؤلاء المشركون بالذي لم يحيطوا بعلمه، أي: بادروا بالتكذيب في القرآن ولم يحيطوا به علمًا، أي: قبل أن يفهموه، ودون أن ينظروا في أدلة صحته، وأنه لا يكون إلا من كلام الله، ولا يشبه كلام البشر، وذلك مكابرة منهم وعنادًا، وهذا

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان- وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ونسخ الملل بملته ١٥٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كقوله في سورة النمل: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ٨٤] والحكم على الشيء فرع عن تصوره.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾، أي: ولم يأتهم حقيقة ما توعدوا به من العذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما كذب هؤلاء المشركون بالقرآن قبل أن يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله؛ كذلك كذب الذين من قبلهم من الأمم بوعيد الله إياهم على كفرهم، وبآياته قبل أن يتدبروا فيها.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: فتأمل كيف كانت نهاية الظالمين الهلاك بسبب ظلمهم بتكذيبهم رسل الله وآياته، وكفرهم وعنادهم، والخطاب للنبي ﷺ أو له ولكل من يصلح له، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وتحذير للمكذبين من قومه أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، أي: وممن بعثت فيهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويصدق به، فيتبعك وينتفع بما أرسلت به، وهم الأقلون عددًا، وقدَّمهم في الذكر تشريفًا وتكريمًا لهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، أي: لا يؤمن بهذا القرآن، ولا يصدق به، بل يكذبه ويستمر على ذلك، يموت على ذلك ويبعث عليه، وهم الأكثرون.

كما أن من هؤلاء المكذبين من يؤمن بالقرآن؛ أي يصدق به في نفسه، لكنه يكذبه مكابرة وعنادًا ومجاراة وتقليدًا لغيره من المشركين من الآباء وغيرهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: وربك يا محمد أعلم بالمفسدين، فيحول بينهم وبين

الإيمان بعدله، ويجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، أي: وإن أصروا على تكذيبك فقد أعذرت ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، أي: لكل منا عمله، وعليه حسابه، وله جزاؤه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦].

وقال تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بريئون من عملي الذي أعمل من الإيمان والتوحيد في الحال والاستقبال، وأنا بريء من عملكم الذي تعملونه من الكفر والشرك في الحال والاستقبال؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقال إبراهيم عليه السلام وأتباعه لقومه المشركين: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المكذبين المشركين ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: الذين يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وفي دعوتك، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات؛ ولهذا لم ينفعهم هذا الاستماع، وحرموا فائدته، بل كانوا أشبه بالصم؛ ولهذا قال:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للنفي، أي: أنت لا تسمع الصم

ولو كانوا لا يعقلون، أي: لا تستطيع إسماع الصم مهما جهرت، ولا إفهام من لا يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

لما ذكر عدم استفادتهم مما يسمعون منه ﷺ من تلاوة القرآن والدعوة إلى الله تعالى؛ أتبع ذلك بذكر عدم انتفاعهم بالنظر إليه ﷺ وإلى هديه وأخلاقه.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾، أي: ينظر إليك، ويشاهد أحوالك وأعمالك، وهديك وأخلاقك، وما أنت عليه من الصفات الحميدة والخلق العظيم، مما فيه الدلالة الظاهرة على نبوتك عند أولي البصائر والنهى، لكن هؤلاء لا ينتفعون بذلك؛ لأنهم ينظرون إليه ﷺ بعين السخرية والاستهزاء والاحتقار؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام كسابقه، أي: أنت لا تهدي العمي الذين لا يبصرون، فهؤلاء تعطلت عندهم الوسائل الموصلة إلى الحق ومعرفته، فلا هم يسمعون ولا يبصرون ما ينفعهم ولا يعقلون، وهذا غاية الخسران والخذلان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

لما بين صممهم عن الحق، وعماهم عن الهدى؛ بيّن أنهم اختاروا ذلك، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، أي: إن الله لا يظلم الناس أيَّ شيء من الأشياء مهما قل أو صغر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقال عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظُّلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في البر، تحريم الظلم ٢٥٧٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فهو عزَّ وجلَّ يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ولا يعذب أحدًا إلا بذنبه، ولا ينقص من حسناتهم، ولا يزيد في سيئاتهم، بل يزيد في حسنات من آمن منهم فضلًا منه وكرمًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف: «لكن» ورفع: «الناسُ» وقرأ الباقون بتشديدها ونصب: ﴿الناسَ﴾، أي: ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي.

وقدّم المفعول ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ لحصر ظلمهم على أنفسهم وضررهم عليها «وعلى نفسها جنت براقش».

الفوائد والأحكام:

١- أن القرآن الكريم لا يمكن أن يفترى من دون الله، ولا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٢- تصديق القرآن الكريم لما سبقه من كتب الله تعالى، وتفضيله عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

٣- تفصيل القرآن الكريم وبيانه للأحكام، والحلال والحرام، وما يحتاجه الناس في أمر دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٤- أن القرآن حق وصدق لا شك فيه بوجه من الوجوه من رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٦- الإنكار على المشركين في زعمهم أنه ﷺ افترى القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾.

٧- تحديهم أن يأتوا بسورة مثله، إذا كانوا يزعمون أنه من كلام البشر، وأن الرسول ﷺ افتراه، ويستعينوا على ذلك بكل من استطاعوا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

٨- مبادرة المشركين بتكذيب القرآن دون أن يحيطوا بعلمه ويفهموه ويتأملوا في

أدلة صدقه، وقبل أن يأتيهم ما توعدوا به من العذاب إن هم كذبوه وكفروا به؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

٩- أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا ينبغي أن يحكم على الشيء بقبول أو رد، أو حكم ما، قبل الإحاطة به وفهمه.

١٠- مشابهة المشركين في مبادرتهم بتكذيب القرآن دون إحاطة بعلمه وقبل أن يأتيهم تأويله، للمكذبين قبلهم في سرعة تكذيبهم لرسلهم وما جاؤوا به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١١- ينبغي النظر والتأمل كيف كانت نهاية الظالمين، وما حل بهم من العقوبات والمثلات؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ وتحذير للمكذبين الظالمين من قومه.

١٢- أن من هذه الأمة من يؤمن بالقرآن، وينقاد له ويتبعه، وهم الأقل، وقدمهم تشريفًا وتكريمًا لهم، ومنهم من لا يؤمن به، بل يكذبه ويكفر به، وهم الأكثرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

كما أن من المشركين من يصدق بالقرآن ولكنه يكذبه مكابرة وعنادًا، ومجاراة لغيره، وتعصبًا لدين الآباء.

١٣- علم الله تعالى التام بالمفسدين، فيحول بينهم وبين الإيمان بعدله، ويحاسبهم ويجازيهم على فسادهم وتكذيبهم وكفرهم.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾.

١٥- عناية الله تعالى بنبيه ﷺ، وتعليمه ما يقوله للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الآية.

١٦- أن لكل عمله وعليه حسابه وله جزاؤه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

١٧- براءته ﷺ من عمل المشركين والمكذبين، كما أنهم بريئون من عمله؛ لقوله تعالى ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولا أحد يؤخذ بجريرة غيره.

١٨- أن من هؤلاء المكذبين من يستمع إلى الرسول ﷺ عند قراءته ودعوته إلى الله، لكنهم كالصم البكم الذين لا يسمعون ولا يعقلون؛ لقوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

١٩- أن من هؤلاء المكذبين من ينظر إلى الرسول ﷺ ويشاهد أحواله وأعماله وهديه وأخلاقه لكنهم لا ينتفعون بذلك، فكأنهم عمي لا يبصرون، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

٢٠- أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يسمع الصم الذين لا يعقلون ولا هداية العمي الذين لا يبصرون.

٢١- أن من لم ينتفع بسمعه وبصره بمعرفة الحق والعمل به فهو كالأصم الذي لا يسمع ولا يعقل، وكالأعمى الذي لا يبصر؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢٢- أن النظر إلى النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به.

٢٣- كمال عدل الله عز وجل وأنه لا يظلم الناس أي شيء مهما قل أو صغر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾.

٢٤- ظلم الناس لأنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، وتعريضها لعذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٢٥- أن من كذب بآيات الله وكفر بها فإنه لا يظلم إلا نفسه التي هي وديعة عنده، والله سبحانه غني عن العالمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ حفص عن عاصم بياء الغيبة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾.

وقرأ الباقون بالنون (نحشرهم) و(يوم) منصوب بفعل مقدر، أي: اذكر يوم يحشرهم، أي: يوم يحشر الله عز وجل الخلائق، أي: يجمعهم في عرصات القيامة للحساب بعد بعثهم من قبورهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾، أي: كأن لم يلبث هؤلاء المشركون، أي: كأن لم يقيموا في الدنيا.

﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ (إلا): أداة حصر، و(مِّنَ): تبعيضية، أي: كأنهم لم يقيموا في الدنيا إلا زمنًا قليلًا ووقتًا قصيرًا من ليل أو نهار؛ كما في قوله ﷺ: (**أحلت لي ساعة من نهار**)(١) أي: أنهم يستصغرون الدنيا بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم٥٥: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه١٠٢: ١٠٤]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٤٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون ١١٢: ١١٤].

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ كحالهم في الدنيا يعرف بعضهم بعضًا، فيعرف الأولاد والآباء والقرابات، وغيرهم بعضهم بعضًا، كما كانوا في الدنيا، لكن كل مشغول بنفسه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ كَلَّآۖ﴾، [المعارج: ١٠- ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس٣٤: ٣٧].

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ (قَدْ): حرف تحقيق، أي: قد تحقق خسران الذين كذبوا بلقاء الله والبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ حيث أوقعوا أنفسهم في الضلال وعرضوها للعذاب، فخسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، خسروا أنفسهم وأهليهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، أي: وما كانوا مهتدين للصواب والحق فيما اختاروه لأنفسهم من التكذيب بلقاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ الواو: عاطفة، و(إما): مكونة من (إن) الشرطية و(ما) المؤكدة، والخطاب للنبي ﷺ، أي: فإما ننتقم من هؤلاء المشركين من قومك في حياتك فنريك ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ من عذاب الدنيا فتقر به عينك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] أي: دون عذاب الآخرة.

وقد أراه الله عز وجل فيهم ما أقر عينه ﷺ في بدر الكبرى وغيرها من الغزوات.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل الانتقام منهم وعقابهم.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أي: فإلينا مصيرهم ومآبهم، وعلينا حسابهم، ولن يفلتوا من عذابنا في الآخرة.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ثم الله مطلع على فعلهم، وعلى الذي يفعلونه، لا يخفى عليه منه شيء، وسينبئهم به ويحاسبهم ويجازيهم بالذي يستحقونه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وفي هذا تسلية له ﷺ، ووعيد شديد للمكذبين من قومه، أي: لا تحزن عليهم، ولا تستعجل لهم؛ فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب، إما في الدنيا في حياتك فتراه فتقر به عينك، وإما في الآخرة؛ فإن مرجعهم إلى الله، وسيجازيهم بما كانوا يفعلون، فلا مناص لهم من العذاب عاجلًا أو آجلًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: لكل أمة من الأمم الماضية رسول يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ودينه فضلًا منه، فإذا جاء رسولهم بالآيات صدقه بعضهم وكذبه آخرون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦] فيقضي الله بينهم بالعدل بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، وهي توكيد لما قبلها، أي: قضي بينهم بالعدل وهم لا يظلمون، بأن يعذبوا قبل إرسال الرسل إليهم وإقامة الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأيضاً: لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء

رسولهم الموقف شهد عليهم بأعمالهم من كفر أو إيمان، فيقضى بينهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، ويصير المؤمنون إلى الجنة، والكفار إلى النار.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن يعذبوا بغير جرم، أو ينقص من حسناتهم، أو يزاد في سيئاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

وأول من يقضى لهم هذه الأمة المحمدية؛ لشرف نبيها صلوات الله وسلامه عليه وشرفها، قال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩].

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: ويقول هؤلاء المشركون المكذبون إنكارًا للمعاد، واستعجالًا بالعذاب ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالبعث والمعاد والحساب.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنت ومن اتبعك فيما تعدوننا به من ذلك؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يستعجلونك وعد الله بالبعث ووعيده لهم بالعذاب.

﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًّا، ولا أجلب لها نفعًا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه وأقدرني عليه، فكيف ما هو أعظم من ذلك، وهو تعجيل العذاب لكم؟

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة- هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٦، والنسائي في الجمعة ١٣٦٨- من حديث حذيفة رضي الله عنه.

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ هذه الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: لأن لكل أمة أجل، أي: لكل أمة من الأمم مدة من العمر مقدرة.

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: إذا حضر أجلهم وانقضت مدتهم، وجاء وقت عذابهم.

﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس: ٥١].

هذا جواب ثان على استعجالهم بالعذاب بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه تخويفهم أن يأتيهم العذاب بغتة، وبيان أنه لا ينفع الإيمان بعد وقوعه.

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾، أي: قل لهؤلاء المكذبين المستعجلين لوعد الله وعذابه- تشكيكًا وتكذيبًا به- أخبروني إن جاءكم عذاب الله بغتة.

﴿بَيَاتًا﴾ وقت نومكم بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾، أي: جهرة بالنهار؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٧].

﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (ماذا): اسم استفهام، أو (ما): استفهامية، و(إذا): اسم موصول، والاستفهام: للإنكار والتعجب.

﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ بالشرك وإنكار البعث والتشكيك في عذاب الله.

أي: أخبروني إن أتاكم عذاب الله أيّ شيء تستعجلون منه، أو ما الذي تستعجلون منه، وليس شيء من العذاب يستعجل به لمرارته، بل يسأل الله السلامة منه.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ الاستفهام: للإنكار، و(إذا): ظرفية شرطية، و(ما): زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى، أي: أثم إذا ما وقع العذاب عليكم تؤمنون وتصدقون؟ هيهات، فذلك حين لا ينفعكم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

وكما في قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، (الآن): ظرف، أي: الآن تؤمنون بالعذاب بعد وقوعه ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ تكذيبًا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

أي: فلا ينفعكم الإيمان الآن بعد وقوع العذاب؛ كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٢].

قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالكفر والشرك بالله والتكذيب بوعده، تبكيتًا لهم وتقريعًا:

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، أي: تجرعوا وقاسوا عذاب الخلد، أي: عذاب الخلود في النار، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور١٣: ١٦].

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا تجزون إلا بالذي كنتم تكسبون، أي: تعملون من الكفر والشرك والتكذيب والمعاصي.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الحشر ولقاء الله عز وجل، ورجوع الخلائق إليه، وحسابه ومجازاته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾.

٢- استقصار المشركين حياتهم الدنيا؛ لأنهم لم يعملوا فيها خيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ ونسيانهم أن الله أمهلهم فيها، لكنهم لم ينتفعوا بذلك.

٣- معرفة الناس في القيامة بعضهم بعضًا؛ الأقارب والجيران والأصدقاء وغيرهم، لقوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يعرف بعضهم بعضًا، لكن ذلك لا ينفعهم، وكل منشغل بنفسه.

٤- تحقق خسران المكذبين بلقاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، أي: خسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم وأنفسهم وأهليهم.

٥- ضلال المكذبين بلقاء الله، وعدم اهتدائهم للحق والصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

٦- تسلية النبي ﷺ، ووعد الله عز وجل له إما أن يريه بعض الذي يعد به المكذبين من العذاب، أو يتوفاه قبل ذلك، ويأخذهم بذلك عند رجوعهم إليه يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

وقد أراه الله عز وجل فيهم في بدر ما قرت به عينه ﷺ، وشفا صدره وصدور المؤمنين، وإليه عز وجل مرجعهم يوم القيامة وعليه حسابهم وجزاؤهم.

٧- أن لله عز وجل الحكمة في تعجيل الانتقام من الظالمين، أو تأجيله، فلا ينبغي القلق بسبب تأخير عذابهم، فإنهم لن يفلتوا من عذاب الله، ولن يعجزوا الله هربًا.

٨- شهادة الله تعالى على أعمال العباد وإحصائه لها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

٩- أن لكل أمة رسولًا، فإذا جاءهم آمن به من آمن وكفر به من كفر، فيقضى بينهم بالعدل، بإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين، كما أن لكل أمة رسولًا تدعى باسمه يوم القيامة، فإذا جاء رسولهم الموقف شهد عليهم بأعمالهم، فقضي بينهم بالعدل، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ لقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وفي هذا تحذير للمكذبين من هذه الأمة.

١٠- كمال فضل الله تعالى وعدله في قضائه بين العباد؛ حيث جعل لكل أمة

رسولًا، إقامة للحجة على الخلق ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ويُشهد رسلهم عليهم يوم القيامة، ويقضي بينهم بحكمه العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١١- استعجال المشركين المكذبين للنبي ﷺ بما وعدوا به من البعث، وما توعدوا به من العذاب؛ تكذيبًا منهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٢- أنه ﷺ كغيره من البشر لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، إلا ما قدره الله تعالى له؛ لقوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٣- أن لكل أمة أجلًا محددًا لفنائهم وعذابهم، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

١٤- الإنكار والتعجيب من المكذبين والمجرمين استعجالهم بعذاب الله، وأنه آتيهم لا محالة، وتخويفهم من إتيانه لهم بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

١٥- أن الإيمان بوعد الله ووعيده بالعذاب بعد وقوعه لا يجدي ولا ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

١٦- تبكيت الذين ظلموا بالكفر والشرك والتكذيب، بتجرعهم عذاب النار وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

١٧- كمال عدل الله عز وجل في مجازة الخلائق، وأن الإنسان لا يجازى إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۗ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾، أي: ويستخبرك يا محمد المكذبون، ويطلبون منك أن تنبئهم وتخبرهم ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾، أي: أثابت وواقع البعث من القبور والمعاد والحساب وما تُوعدنا به من العذاب؟ وهذا منهم على سبيل التكذيب والإنكار والتعنت والعناد، لا على وجه الاسترشاد.

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: أي قل لهم: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾.

﴿إِى﴾ بكسر الهمزة، حرف جواب لتحقيق المسؤول عنه، وهو مرادف لـ(نعم)

﴿وَرَبِّىٓ﴾: الواو للقسم، أي: وأقسم بربي.

﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: البعث والحساب وما يوعدون به من العذاب، ﴿لَحَقٌّ﴾ اللام للتوكيد، أي: إنه لحق ثابت لا شك فيه، وأمر واقع وآت لا محالة؛ كما قال تعالى ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أن يبعثكم بعد أن تكونوا ترابًا، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف ٢٩: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥].

وقد أمر الله عز وجل النبي ﷺ أن يقسم به على من أنكر المعاد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: هذا الموضع في سورة يونس، والثاني: قوله تعالى في سورة سبأ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣]، والثالث: قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الآية: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (لو): شرطية غير عاملة، و(ما): موصولة تفيد العموم، والافتداء: تقديم الفدية، وهي: مال أو عرض يقدم نظير ومقابل الخلاص.

والمعنى: ولو أن لكل نفس ظلمت بالكفر والشرك والمعاصي جميع الذي في الأرض من ذهب وفضة وغير ذلك؛ لقدمته يوم القيامة فدية لها مقابل ونظير خلاصها من العذاب؛ لما ترى من شدة الهول والعذاب.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾، أي: وأسر الظالمون الندامة، أي: أخفوا الندامة الشديدة في قلوبهم، وهي الأسف على ما فاتهم، وعلى تفريطهم في جنب الله، وما ارتكبوه من الظلم.

﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾، أي: حين رأوا العذاب وشاهدوه وتحققوه.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: وحكم وفصل بينهم بالعدل التام؛ فجوزي كل منهم بما عمل.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بالنقص من حسناتهم، أو الزيادة في سيئاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

(أَلَآ): حرف تنبيه في الموضوعين، وقدم خبر (إِنَّ) على اسمها؛ لإفادة التخصيص والقصر، واللام: للملك، أي: ألا إن لله خاصة جميع الذي في السموات والأرض،

خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، أي: ألا إن وعد الله بالبعث والميعاد والحساب والجزاء على الأعمال وتعذيب المشركين ﴿حَقّٞ﴾، أي: ثابت كائن لا محالة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: أكثر المشركين- بل أكثر الخلق- لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في معادهم وآخرتهم، وإنما هم كما قال الله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [٥٦].

لما بين عظمة ملكه وسعته وصدق وعده؛ بيّن تمام قدرته على الإحياء والإماتة، ورجوع الخلائق إليه.

قوله: ﴿هُوَ﴾، أي: هو وحده ﴿يُحۡيِۦ﴾ بالإيجاد من العدم، ونفخ الروح والحياة في الحيوان والنبات ﴿وَيُمِيتُ﴾ بسلب الروح والحياة من الحيوان والنبات.

وخص الإحياء والإماتة؛ لأنه إذا قدر على الإحياء والإماتة- وهما من أعظم دلائل قدرته- فقدرته على ما دونهما من باب أولى.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون للحساب والجزاء؛ ببعث الحياة فيكم مرة أخرى؛ كما قال تعالى ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية، ٢٥، ٢٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، أي: موعظة عظيمة؛ ولهذا نكّرها، وأضافها عز وجل إليه فقال: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تعظيمًا لها، والمراد بها القرآن الكريم أعظم واعظ؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب؛ أي ذكر الأوامر والنواهي مع البشارة لمن آمن وامتثل أمر الله، واجتنب نهيه بالسعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، وتحذير من كفر وخالف أمر الله وارتكب نهيه من الشقاء في الدنيا والآخرة

والمصير إلى النار.

وهذا الجانب- وهو التربية بالقرآن بإبراز ما فيه من المواعظ والدروس التربوية- يحتاج إلى عناية أكبر ممن يتولون تعليم القرآن وتدريسه، أو التأليف فيه.

والملاحظ أن هذا الجانب أقل نصيبًا من الجوانب التفسيرية الأخرى، مع أنه هو ثمرة ذلك كله، وهو المقصد الأسمى من إنزال القرآن الكريم.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تذكير لهم بنعمة ربوبيته لهم ربوبية عامة؛ ليؤمنوا به ويشكروه.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من أمراض القلوب كلها من الشرك والشكوك والشبه والنفاق، والجهل والكبر والحسد والحقد، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وإذا شفيت الصدور والقلوب من الأمراض شفيت الأبدان كلها؛ كما قال ﷺ: «**ألا إنَّ في الجسد مصنعة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب**»(١).

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خاصة؛ لأن هم الذين يتعظون وينتفعون به دون غيرهم، فهو موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة للمؤمنين خاصة.

والهدى هو العلم بالحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

والرحمة: ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، وبحصولهما تتم السعادة والفلاح والفرح والسرور.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، أي: قل: ما جاءكم من القرآن الذي هو موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدي ورحمة للمؤمنين، ومن توفيق للإيمان هو ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، أي: بتفضله عز وجل عليكم وزيادته وبرحمته لكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَبِذَٰلِكَ﴾، أي: فبهذا الذي جاءهم من القرآن والهدى والإيمان، وفضل الله ورحمته، وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد؛ تعظيمًا له.

﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ روى رويس عن يعقوب: «فلتفرحوا» بالخطاب، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾، أي: فليُسَرُّوا ويستبشروا، فإن هذا أولى ما يفرح به؛ لأنه أعظم نعمة أنعم الله بها على العباد.

والفرح: شدة السرور، وهو لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب والسلامة من المرهوب، وهو أعلى نعيم القلب ولذته وبهجته، وهو أعلى من درجة الرضا.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذلك يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها وشدة الرغبة فيما عند الله، والإقبال على طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل فإن هذا مذموم؛ كما قال الله تعالى عن قوم قارون أنهم قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] بالباطل المناقض للحق.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس عن يعقوب بالخطاب:

«تجمعون» وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَجْمَعُونَ﴾، أي: هو خير خيرية مطلقة من جميع الوجوه في الحال والمآل.

﴿مِّمَّا﴾ (ما): موصولة تفيد العموم؛ أي: من الذي يجمعونه، أو مصدرية، أي: من جمعهم، من المال وحطام الدنيا، وزينتها الفانية، وعرضها الزائل.

الفوائد والأحكام:

١- إحاطة الله عز وجل علمًا بما يقابل به المشركون النبي ﷺ، وعنايته به، ودفاعه عنه، وإرشاده إلى ما يجيبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

٢- سؤال المشركين المكذبين النبي ﷺ عن البعث وما تُوعّدوا به من العذاب: أهو حق؟ تعنتًا منم وتكذيبًا بذلك، لا استرشادًا.

٣- تحقيق وتأكيد جواب سؤال المشركين بحرف الجواب وبالقسم؛ لأنهم منكرون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

٤- إثبات أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال وتعذيب المكذبين حق لا مرية فيه.

٥- قدرة الله تعالى التامة على بعث الخلق وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم، وتعذيب المكذبين، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٦- شدة وعظم هول يوم القيامة وعذابها، واستعداد كل نفس ظالمة لو كان لها ما في الأرض أن تفتدي به من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

٧- شدة ندامة الظالمين عند معاينتهم العذاب على ما فرطوا في جنب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فندامتهم في ذلك لا تخطر على الأوهام؛ لتعذيبهم معنويًّا من داخل نفوسهم.

٨- قضاء الله عز وجل بين الظالمين وبين الخلق أجمعين بالعدل، ومجازاة كل بعمله من غير ظلم؛ لقوله تعالى ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٩- سعة ملك الله عز وجل، واختصاصه بملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

١٠- ثبوت وعد الله تعالى بإثابة المؤمنين، وتعذيب الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

١١- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي يهتدون به إلى معرفة الحق؛ لقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٢- الامتنان على الناس جميعًا بإنزال القرآن الكريم موعظة للقلوب، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١٣- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

١٤- عموم رسالة النبي ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

١٥- أن القرآن الكريم أعظم موعظة، ذكر الله عز وجل فيه الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨] أي: نعم العظة يعظكم بها.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

١٧- شفاء القرآن الكريم لأمراض القلوب كلها؛ المعنوية والنفسية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يتعظون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١٩- أن مجيء القرآن الكريم موعظة وشفاء لما في الصدور، وهداية ورحمة للمؤمنين هو بفضل الله تعالى وبرحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾.

٢٠- أن ما أنعم الله تعالى به على الناس من إنزال القرآن موعظة وشفاء لما في

الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين بفضله ورحمته؛ أولى ما ينبغي الفرح والاستبشار به؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾.

٢١- أن ما أنعم الله به من هذه النعمة العظيمة من إنزال القرآن الكريم بفضله ورحمته؛ خير من كل ما يجمعه الخلق من حطام الدنيا الفاني الزهيد؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٢٢- أن الفرح منه ما هو محمود، وهو الفرح بالنعم على سبيل الشكر والاعتراف لله تعالى بها، ومنه ما هو مذموم، وهو الفرح على سبيل البطر وكفر النعم، وبالباطل؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٥].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ الاستفهام في قوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ وفي قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ للتقرير والإنكار، والخطاب للمشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، و(ما) موصولة، أي: أخبروني عن الذي أنزل الله لكم من رزق. والرزق: العطاء.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾، أي: فجعلتم من هذا الرزق الذي رزقكم الله إياه حلالًا وحرامًا من تلقاء أنفسكم، مما لم ينزل الله به من سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقال تعالى ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ ﴿قُلْ﴾: تأكيد للأول، أي: قل: آلله أذن لكم شرعًا فيما

حرمتم وأحللتم؟ والاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: إن الله لم يأذن لكم بذلك.

﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ متصلة عاطفة، والتقدير: أخبروني آلله أذن لكم في التحريم والتحليل، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ وقيل: الهمزة للإنكار و(أو) منقطعة بمعني (بل) أي: بل أعلى الله تفترون، أي: تكذبون.

وأظهر مقام الإضمار، فلم يقل: (أم عليَّ تفترون)؛ لتهويل الافتراء عليه وتشنيعه والتهديد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٦٠].

قوله: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (ما): للاستفهام، والمراد به هنا التهديد والوعيد لهم والتعجيب من حالهم.

وحُذف مفعولا ﴿ظَنُّ﴾ للتهويل؛ ليذهب العقل في تصوره كل مذهب.

والمعني: وأي شيء يظن الذين يختلقون على الله الكذب في التحريم والتحليل أن يفعل بهم من العذاب والنكال عند رجوعهم إلى الله يوم القيامة؟ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد، ونُكّر ﴿فَضْلٍ﴾ للتعظيم، أي: لذو فضل عظيم، وإحسان جزيل على الناس بإباحته لهم جميع الطيبات، وعدم تحريمه عليهم إلا ما فيه ضرر لهم في دينهم ودنياهم، وعدم معاجلة من افترى عليه بالعقوبة في الدنيا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: لا يشكرون الله تعالى على ما تفضل به عليهم من الرزق والنعم، بالقيام بطاعته وترك معصيته، فمنهم من يحرم منها ما لم يحرمه الله، أو يحل ما حرم الله، كما وقع من المشركين فيما شرعوا لأنفسهم، ومن أهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

ومنهم من ينسبها إلى غير الله، ومنهم من يستعين بها على معصية الله.

وقليل منهم الشكور الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله تعالى، ويستعين بها على طاعته؛ كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿فِي شَأْنٍ﴾، أي: في أمر من أمورك و«شأن» نكرة في سياق النفي فتعم، أي: وما تكون في أي شأن، وفي أي أمر من أمورك ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ معطوف على قوله ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾ من التنزيل، أو من الكتاب الذي أنزل إليك ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ «من» للتنصيص في العموم، أي: وما تعملون من أي عمل، أي: ولا تعملون أنت وأمتك والخلق أجمع من أي عمل كان، صغيرًا كان أو كبيرًا.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، أي: شاهدين مطلعين على جميع أعمالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي: حين تشرعون فيه وتعملونه، كما قال ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاي والباقون بضمها، أي: وما يغيب عن ربك وعلمه وبصره، وما يخفى عليه.

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ «من» للتنصيص في العموم، أي: من زنة مثقال ذرة، أي: مثقال نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء.

﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ قرأ يعقوب وحمزة وخلف برفع الراء «أصغرُ» و«أكبرُ» وقرأ الباقون بنصبها، أي: ولا أصغر من مثقال ذرة، ولا أكبر منه.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا هو مكتوب في كتاب مبين، أي: في

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ما هو ٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كتاب بين واضح، مُبين عما فيه، وهو اللوح المحفوظ، أي: إلا قد أحاط به علم الله عز وجل، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بكل شيء، وكتابته المحيطة بجميع الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «ألا»: أداة تنبيه و«إن»: حرف توكيد و«أولياء الله»: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، الذين يتولون الله بالإيمان به وطاعته وتقواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٦].

والذين يتولاهم الله بحفظهم وتوفيقه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون مما أمامهم من المخاوف والأهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، وما فاتهم من الدنيا؛ لأنهم استثمروا أيامها فيما ينفعهم في أخراهم، فلم يأسوا على ما سوى ذلك منها. وإذا انتفى عنهم الخوف والحزن ثبت لهم الأمن والفرح والسرور والسعادة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ هذا تفسير وبيان لقوله ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾، أي: أولياؤه بالإيمان والتقوى، فكل من آمن بالله وبما أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها، واتقى الله ظاهرًا وباطنًا، بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه؛ فهو من أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

لما ذكر انتفاء المرهوب عنهم من الخوف والحزن؛ أتبعه بذكر حصول البشارة لهم والمطلوب.

قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: لهم خاصة البشارة في الحياة الدنيا بالسعادة والحياة الطيبة، وتيسير أمورهم، وعون الله وتوفيقه لهم في أمور دينهم ودنياهم، وثناء إخوانهم المؤمنين عليهم، وذلك عاجل بشرى المؤمن، كما قال ﷺ لما سئل عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس عليه، فقال ﷺ: «**ذلك عاجل بشرى المؤمن**»(١).

ومن ذلك ما يرونه من الرؤيا الصالحة أو يرى لهم، كما فسر «البشرى» بذلك أكثر السلف، بل رُويَ ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ من حديث عبادة بن الصامت(٢) وأبي هريرة(٣) وأبي الدرداء(٤) رضي الله عنهم وغيرهم.

وكذا بشارتهم بما أعد الله لهم في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ولهم البشارة في الآخرة، أول ذلك البشارة لهم عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]

وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وفي حديث البراء رضي الله عنه في احتضار العبد المؤمن قوله ﷺ: «**ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله**

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٥، والطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢١٥- ٢١؛ من حديث عبادة.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢١٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢١٦.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، والطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢١٤- ٢٢٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٩٦٥.

ورضوان»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله ﷺ: «فيقولون- يعني ملائكة الرحمة-: اخرجي راضية مرضيًّا عنك إلى روح وريحان، ورب غير غضبان»(٢).

ثم البشرى لهم في قبورهم كما جاء في حديث البراء السابق، عندما يصور للمؤمن عمله الصالح بصورة رجل حسن الهيئة حسن الثياب، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟ فيقول: «أنا عملك الصالح»(٣).

ثم البشرى الكبرى لهم يوم القيامة بدخول الجنة والنجاة من النار؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تبديل، ولا تغيير لكلمات الله الكونية ووعده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة تعود إلى ما وعد الله به أولياءه المتقين من نفي الخوف والحزن عنهم، والبشرى لهم في الدنيا والآخرة.

«الفوز» الفلاح وحصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

«العظيم» من جميع الوجوه كمية وكيفية وغير ذلك، والذي لا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه- وتعالى- الذي وصفه بذلك.

وأكد فوزهم، وحصر الفوز فيهم بكون الجملة اسمية، وبضمير الفصل؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين، وتوبيخهم في جعلهم مما رزقهم الله حرامًا وحلالًا من غير إذن من الله تعالى؛ افتراء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز ١٨٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨.

فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

٢- أن الله تعالى هو الرزاق للخلائق كلهم، والأرزاق كلها بيده.

٣- أن أمر التحريم والتحليل كله إلى الله عز وجل، وأن الأصل في الأشياء الحل إلا ما ورد الشرع بتحريمه؛ لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

٤- إثبات الإذن لله تعالى وهو قسمان: إذن شرعي، وهو المذكور في الآية، وإذن كوني؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

٥- التهديد والوعيد للذين يفترون على الله الكذب بما سيحل بهم يوم القيامة من العذاب والنكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦٠﴾﴾.

٦- إثبات القيامة، والحساب والجزاء على الأعمال، وتعذيب المكذبين.

٧- فضل الله تعالى العظيم على الناس بإباحة الطيبات لهم، وقصر التحريم على ما فيه ضرر عليهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٨- كفر أكثر الناس بنعم الله تعالى، وجحودهم فضل الله عليهم، وعدم شكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٩- يجب عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم غير شاكرين، وليسوا على الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

١٠- اطلاع الله تعالى وشهادته على جميع تصرفات الخلق وتقلباتهم وما يعملون من أعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾.

١١- علم الله تعالى الواسع لجميع المخلوقات في السموات والأرض، صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿عَن رَّبِّكَ﴾.

١٣- إثبات اللوح المحفوظ، وأن الله كتب فيه كل شيء، كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

١٤- عظم ما أعد الله لأوليائه المؤمنين المتقين من السلامة والكرامة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولهم البشارة التامة في الدارين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾.

١٥- أن ولاية الله إنما تُنال بالإيمان به وتقواه، وأولياؤه هم المؤمنين المتقون دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

١٦- إثبات الدار الآخرة والجزاء فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١٧- إثبات القدر، وأن ما حكم الله به كونًا ووعد به أولياءه حاصل وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

١٨- أنه لا فوز أعظم مما فاز به أولياء الله المؤمنون المتقون؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ تشجيعًا له وتسلية، وتقوية لقلبه، أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من اتهامهم لك باختلاق القرآن، ورميك وما جئت به بالسحر والشعر والكهانة والجنون، والاستهزاء فيك وفي دينك، وتوعدهم لك، ونحو ذلك، فلا تبالهم.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ «إن»: للتوكيد، وفيها معنى التعليل، واللام في قوله: «لله»: للملك والاختصاص، و«جميعًا»: حال مؤكدة، أي: لأن العزة جميعها لله تعالى خاصة: عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع؛ كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ١٠].

أي: فإن العزة لله جميعًا، فاستعن بالله، وتوكل عليه، وثق بنصره لك وللمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ هذه الجملة من جملة التعليل، أو تعليل آخر، و«السميع» و«العليم» من أسماء الله عز وجل، فهو عز وجل السميع لجميع أقوال الخلق، العليم بأفعالهم، وفي هذا وعد له ﷺ بالعزة والنصر، ووعد للمكذبين بالذل والهوان؛ لأنه عز وجل السميع لأقوال المكذبين فيه ﷺ، العليم بأفعالهم ومكائدهم له ﷺ، السميع لدعائه ﷺ، العليم بأحواله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ «ألا» أداة تنبيه، وقدم الخبر «لله» للدلالة على الاختصاص، أي: ألا إن لله وحده جميع من في السموات ومن في الأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا شريك له في شيء من ذلك بوجه من الوجوه؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ ﴾ معطوف على الجملة السابقة، وهو كالنتيجة لها، أي: وما يتبع الذين يعبدون من دون الله شركاء له في الحقيقة؛ لأن له عز وجل كل من في السموات ومن في الأرض، لا يشاركه في ذلك أحد، وإنما يعبد هؤلاء المشركون أصنامًا وآلهة باطلة لا تملك من الأمر شيئًا، لا نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل هي مملوكة لله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ «إن»: نافية، و«إلا»: أداة حصر في الموضعين، أي: ما يتبعون في دعائهم من دون الله شركاء إلا الظن الكاذب، الذي لا يغني من الحق شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٣٦].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾، أي: وما هم إلا يخرصون، أي: إلا يُخمنون ويكذبون.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾، أي: هو الذي جعل لكم الليل وقتًا مناسبًا للسكون والنوم والراحة؛ بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض.

﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾، اللام للتعليل؛ أي: لأجل أن تسكنوا فيه بالنوم والراحة بعد النصب والعمل

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ﴾، أي: وجعل النهار مبصرًا، أي: مضيئًا يبصر به الخلق فينصرفون في معايشهم ومصالحهم وأسفارهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في جعل الليل وقتًا للسكن والنهار مبصرًا ﴿لَآيَٰتٍ﴾، أي: علامات ودلالات على عظمة الخالق، وكمال قدرته، وتمام نعمته على عباده، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه.

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: لقوم يسمعون عن الله عز وجل كلامه ووحيه، سَمْع فهم وقبول واسترشاد، لا سَمْع تعنت وعناد؛ فيستدلون بما يسمعون من آيات الله تعالى على عظمته ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

بيَّن في الآية السابقة أن المشركين في دعائهم من دون الله ما يتبعون شركاء له في الحقيقة، وإنما يتبعون الظن الكاذب، والتخمين الخاطئ، ثم بين أن من ظنهم الكاذب وخرصهم الخاطئ نسبة الولد إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٧- ٢٨].

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال هؤلاء الذين يدعون من دون الله آلهة يزعمون أنهم شركاء لله ظنًّا منهم وتخرصًا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، أي: جعل الله له ولدًا، أي: ادعوا أن لله ولدًا، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فقالوا: الملائكة بنات الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، أي: تنزه وتقدس وتعالى وتعاظم عن قولهم، وعن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين؛ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

نزه عز وجل نفسه عن نسبتهم الولد إليه، ثم برهن على ذلك بغناه عن ذلك وسعة ملكه.

أي: هو الغني الغنى التام من كل وجه، عن الولد، وعن الخلق أجمعين، والولد إنما يكون للحاجة، والله الغني عن كل ما سواه، وكل الخلق محتاجون إليه.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لكمال غناه، أي: له وحده كل ما في السموات وما في الأرض من العوالم والمخلوقات، فكيف يكون له ولد مما خلق، والكل عبيد له؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧١].، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦].

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية، بمعنى «ما»، أي: ما عندكم من سلطان، أي: ما عندكم حجة ولا دليل ولا برهان بهذا، أو هل عندكم من سلطان وحجة بهذا القول؟ و«من» للتأكيد والاستغراق في النفي، أي: ما عندكم أي سلطان ولا برهان على هذا، لا عقلًا ولا شرعًا.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أتقولون على الله الذي لا تعلمونه، أو شيئًا لا تعلمونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ذكر عز وجل المفترين عليه باتخاذ الشركاء، ونسبة الولد إليه، ثم توعدهم بنفي الفلاح عنهم، والعذاب الشديد يوم القيامة؛ بسبب كفرهم وشركهم وافترائهم على الله تعالى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، أي: إن الذين يختلقون على الله الكذب بنسبة الشريك له والصاحبة والولد ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾، أي: لا يفوزون أبدًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هم الأخسرون في الدارين، لا يحصلون على المطلوب، ولا ينجون من المرهوب.

قوله: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

هذا تفسير لعدم فلاحهم، وبيان لغاية ما يحصلون عليه.

قوله: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: غاية ما يحصل لهم متاع في الحياة الدنيا، والمتاع المنفعة القليلة قيمة وزمنًا؛ ولهذا نكره إيذانا بتقليله، وأكد ذلك بقوله: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: في الدنيا الحقيرة الزائلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: ٣٦،الأعراف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل: ١١٧]، ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، أي: ثم إلينا معادهم يوم القيامة للحساب والجزاء

﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ المؤلم الموجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب؛ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ الباء: للسببية و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفرهم وكذبهم وافترائهم على الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- دفاع الله تعالى عن نبيه ﷺ، وتسليته، وتقوية قلبه تجاه ما يلقاه من قومه من الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣- أن النبي ﷺ بشر يعتريه ما يعتري غيره من البشر؛ من الحزن، ونحو ذلك، وفي

الحديث قوله ﷺ: «**وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون**»(١).

٤- أن العزة لله جميعًا، هو المالك لها وحده، يعز من يشاء وينصره بفضله، ويذل من يشاء ويخذله بعدله، له سبحانه: عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

٥- إثبات اسم الله «السميع»، وصفة السمع له عز وجل الذي وسع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٦- إثبات اسم الله «العليم» وصفة العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

٧- في اجتماع كمال السمع وكمال العلم في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

٨- التنبيه والتأكيد على سعة ملك الله عز وجل، وأن له عز وجل- وحده- من في السموات ومن في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٩- التعليل والتدليل على قدرة الله تعالى التامة في الدفاع عن رسوله ﷺ وحفظه ونصره؛ لأن له عز وجل العزة جميعًا، وله كمال السمع والعلم، وله الملك كله.

١٠- بطلان ما يدعوه المشركون من دون الله من شركاء ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: ٢٧].

١١- بيان مدى ضلال المشركين في دعائهم من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، وأنهم إنما يتبعون الظن والتخمين بلا حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

١٢- الامتنان على العباد بجعل الليل وقتًا لسكنهم فيه، والنهار مبصرًا ليعملوا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٠٣ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾.

١٣- أن جعل الليل وقتًا للسكون، والنهار مبصرًا ووقتًا للعمل من آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته وعظمته واستحقاقه العبادة وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

١٤- أنه إنما يستفيد من الآيات الذين يسمعون عن الله عز وجل كلامه سمع فهم وقبول، وينتفعون بسمعهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ بخلاف الذين لا ينتفعون بسمعهم، فكأنهم لا يسمعون.

١٥- زعم المشركين وقولهم كذبًا ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.

١٦- تنزيه الله تعالى نفسه عما نسبه إليه المشركون من الولد؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

١٧- غنى الله التام عن الولد، وعن الخلق أجمعين، وأن كل ما في السموات والأرض ملك له، ومحتاجون إليه، فكيف يكون له ولد من خلقه؟ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٨- أنه لا حجة ولا سلطان، ولا دليل ولا برهان، لا شرعًا ولا عقلًا على ما زعمه المشركون من اتخاذ الله ولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾، أي: ما عندكم من سلطان بهذا.

١٩- الإنكار على المشركين وتوبيخهم في نسبتهم الولد إلى الله تعالى بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٢٠- أن المفترين على الله الكذب لا يفلحون أبدًا، بل هم الخاسرون؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢١- أن غاية ما يحصل عليه المفترون على الله الكذب بالشرك ونسبة الولد إليه متاع قليل حقير في الدنيا، كمتاع البهائم؛ لقوله تعالى ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾.

٢٢- حقارة الدنيا ودنوها وقصر عمرها؛ لقوله تعالى: ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾.

٢٣- التهديد والوعيد الأكيد للمفترين بأن مرجعهم إليه عز وجل، ثم يذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٢٤- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: واقرأ واقصص على المكذبين من قومك من كفار مكة وغيرهم.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ النبأ: الخبر العظيم، أي: خبر نوح- عليه السلام- مع قومه لما كذبوه، وكيف أهلكهم الله؛ ليحذر هؤلاء أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾، أي: حين قال لقومه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾، أي: إن كان ثقل وعظم وشق عليكم، واستطلتم مقامي فيكم وبين أظهركم؛ حيث لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿وَتَذْكِيرِى﴾ معطوف على ﴿مَّقَامِى﴾، أي: وكبر عليكم تذكيري إياكم، ووعظي وتخويفي لكم.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: بحججه وبراهينه ودلائل قدرته وعظمته، الدالة على وجوب إخلاص العبادة له تعالى وحده لا شريك له.

والمعنى: إن كان ثقل وعظم واستطال مقامي فيكم، وتذكيري إياكم بآيات الله، فأردتم قتلي أو طردي من بين أظهركم والتخلص مني.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: فعلى الله اعتمدت في دفع كل شر تريدونه بي أو

بدعوتي، وهو حسبي ونعم الوكيل، وسأمضي في طريق دعوتي ولا أبالي فيكم.

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ وهذا تحدٍّ صارخ لهم، أي: اعزموا أمركم واستعدوا.

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ قرأ يعقوب برفع الهمزة: «وشركاؤكم» عطفًا على ضمير ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ وسوغه الفصل بالمفعول، أي: وليجمع شركاؤكم أمرهم.

ويحتمل أن يكون مبتدأ خبره محذوف للدلالة عليه، أي: وشركاؤكم فليجمعوا.

وقرأ الباقون بالنصب: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، أي: وأجمعوا شركاءكم، أو ادعوا شركاءكم، الذين تستنصرون بهم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، أي: ثم بعد أن تجمعوا أمركم وشركاءكم وتعزموا لا يكن أمركم عليكم غمة، أي: ملتبسًا مشتبهًا مبهمًا، وليكن واضحًا ظاهرًا.

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾، أي: ثم نفذوا ما أجمعتم عليه في شأني، وافعلوا ما قدرتم عليه.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: ولا تؤخرون، ولا تمهلون، فإني لا أباليكم، ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: أعرضتم عما دعوتكم إليه من الحق من الإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده، وكذبتم ما جئتكم به.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، أي: فما طلبتكم من أجر على دعوتي لكم، فتدعون أن توليكم بسبب ذلك الغرم، و«من» في قوله: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ لتأكيد الاستغراق في النفي، أي: فما سألتكم أيَّ أجر مهما قل.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى «ما»، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: ما أجري إلا على الله وحده، لا عليكم، ولا على غيركم، ولا أريد الأجر إلا من الله، لا منكم ولا من غيركم

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وأمرني ربي بكوني من المسلمين، أي:

المستسلمين لله بالتوحيد المنقادين له بالطاعة، المخلصين له العبادة من الشرك. والإسلام بهذا المعنى هو دين الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام.

وفي هذا تيئيس للمكذبين له، وأن إجماعهم على التولي عنه لا يفل حده، ولا يفت في عضده، ولا يحمله على التنازل عن دينه.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوه بعد أن دعاهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهرًا، ونوع لهم في أساليب الدعوة، ووعدهم بمغفرة الله لهم، وتأخيره إياهم إلى أجل مسمى، وإرسال السماء عليهم مدرارًا، وإمدادهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار، إلى غير ذلك، لكن لم ينجع فيهم ذلك كله، مع لبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾، أي: فخلصناه من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾، أي: ونجينا وخلصنا الذين معه ممن أمره الله بحملهم معه، من كل زوجين اثنين وأهله إلا ابنه، ومن آمن به، وهم قليل.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: في السفينة التي أمرناه بصنعها بأعيننا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ في الأرض يخلفون المكذبين، ويخلف بعضهم بعضًا ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ﴾ بتكذيبهم نوح عليه السلام وما جاءهم به من الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ٢٥].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: فتأمل كيف كانت نهاية المنذرين، وهي إنجاء الرسل وأتباعهم المؤمنين، وإهلاك المكذبين،

سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتحذير للمكذبين من قومه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد نوح عليه السلام، وفي هذا إشارة إلى أنه أول رسل الله تعالى.

﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾، أي: رسلًا كثيرين إلى قومهم، منهم: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام، وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: فجاؤوا أقوامهم بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الظاهرات، على صدق ما جاؤوا به، فبادر أقوامهم بالتكذيب بها.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ اللام: للتوكيد والمبالغة في انتفاء الإيمان عنهم.

﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ (ما): موصولة، أي: بالذي كذبوا به.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من أول مجيء رسلهم إليهم، أي: فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا بما جاءتهم به رسلهم من تكرار الدعوة والبينات؛ بسبب مبادرتهم بتكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾، أي: كما طبعنا وختمنا على قلوب أولئك الأقوام، فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم أول مجيء الرسل إليهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل ذلك ﴿نَطْبَعُ﴾، أي: نختم.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الذين شابهوهم بالتكذيب والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذا تحذير من التشبه بأولئك الأقوام، وإنذار للمكذبين للنبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧].

الفوائد والأحكام:

١- إعلام المكذبين للرسول ﷺ من مشركي مكة وغيرهم خبر نوح عليه السلام مع قومه لما كذبوه، وكيف أهلكهم الله؛ ليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ الآية.

٢- عناية الله تعالى بالنبي ﷺ، ودفاعه عنه، وتسليته له، وتهديد المكذبين له، وتحذيرهم.

٣- استطالة قوم نوح عليه السلام لبثه فيهم، واستثقالهم مقامه داعيًا إلى الله تعالى بين أظهرهم ومذكرًا لهم بآيات الله تعالى؛ لقوله عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهكذا أهل الباطل والضلال يضيقون ذرعًا بمن يدعوهم إلى الحق ويذكرهم بالله.

٤- إعلان نوح عليه السلام لقومه كمال توكله على الله عز وجل، وعظم ثقته بحفظه له ونصره عليهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

٥- تحديه عليه السلام لقومه لما كذبوه بأنهم وشركاءهم لن يستطيعوا النيل منه ثقة بالله وبحفظه له؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

٦- فضل التوكل على الله تعالى حقًّا، وعظم أثره في طمأنينة النفس وقوتها، ومن توكل على الله كفاه.

٧- إبانة نوح عليه السلام لقومه أنهم إن تولوا فذلك من قبل أنفسهم لا من قبله هو، فإنه لم يطلب منهم أجرًا مقابل دعوته لهم؛ فيتعللوا ويتذرعوا بذلك؛ لقوله عليه السلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ ﴾.

٨- تكفل الله عز وجل بأجر نوح عليه السلام وغيره من رسله عز وجل، وكل من سلك طريقهم بالإيمان والدعوة إلى الله تعالى؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى

ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]

٩- إعلان نوح عليه السلام تمسكه بما أُرسل به، وما يدعو إليه وهو الإسلام، وعدم التنازل عنه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

١٠- ينبغي أن يكون للمسلم انتماء وتمسك بدينه، وثوابته، واعتزاز بذلك، وعدم التنازل عن شيء من ثوابت دينه أمام التحديات وعواصف الفتن والأهواء.

١١- استمرار قوم نوح عليه السلام على تكذيبه مع طول لبثه فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾.

١٢- إنجاء الله تعالى لنوح عليه السلام ومن معه في السفينة من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ وهم من آمن به، وهم قليل، وأهله إلا ابنه، ومن حمل معه من كل زوجين اثنين بأمر الله تعالى له.

١٣- استخلاف الله تعالى لنوح عليه السلام ومن آمن معه بدلًا من المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾.

١٤- إغراق الذين كذبوا بآيات الله وكذبوا نوحًا عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

١٥- ينبغي النظر والتأمل في نهاية المنذرين وما حل بالمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

١٦- أن العاقبة للمتقين، والخيبة والخسران للمكذبين الظالمين.

١٧- أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل، ثم تتابع بعده الرسل إلى أقوامهم، وجاؤوهم بالآيات البينات إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

١٨- أن أولئك الأقوام بادروا إلى تكذيب رسلهم مما حال بينهم وبين الإيمان بهم بعد ذلك عقوبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾.

١٩- أن التكذيب بالحق في أول الحال سبب للتكذيب به في ثاني الحال، والمعصية سبب للمعصية بعدها.

٢٠- أنه مثل ما طبع الله وختم على قلوب أولئك الأقوام، فلم يكونوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم رسلهم أول مرة، كذلك يطبع ويختم على قلوب من جاء بعدهم من المعتدين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

٢١- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ذكر الله عز وجل قصة موسى عليه السلام مع فرعون في مواضع كثيرة من كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، وفيها ما لا يحصى من الآيات والعبر، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رباه في بيته وعلى فراشه ولم ينفعه الحذر، ثم رزقه الله النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه؛ ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده وحده، ويرجع عما هو عليه من الاستكبار والطغيان والأشر، وادعاء الربوبية والألوهية، واستعباد البشر، وبخاصة بنو إسرائيل، وإرسالهم مع موسى عليه السلام، وتخليصهم من عذابه وما يلقونه منه من الضرر، لكن فرعون استمر هو وملؤه على ما هم عليه من التكذيب والعناد، والاستكبار وأذية العباد، وذهب يجمع سحرة مملكته؛ ليبطل ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، التي أيده بها رب العباد، فخيَّب الله مسعاه، وفضحه بين كل من حشرهم ولبَّوا نداه بإبطال سحر السحرة، وإيمانهم بالله، وكفرهم بفرعون ودعواه، إلى أن أحل الله به نقمته فأغرقه وجنوده، ونجى نبيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وأراحهم من فرعون وأذاه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: من بعد الرسل الذين بعثناهم من بعد نوح

﴿مُوسَىٰ﴾، أي: موسى بن عمران عليه السلام، وخص موسى عليه السلام ورسالته بالذكر من بين الرسل المشار إليهم، بل وأطنبت الآيات في تفصيلها؛ لأن شريعة موسى عليه السلام أعظم الشرائع التي سبقتها، وكتابه «التوراة» أفضل الكتب السماوية بعد القرآن الكريم، وهو عليه السلام ثالث أولي العزم بعد نبينا محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام.

﴿وَهَٰرُونَ﴾ هو أخو موسى عليه السلام، أرسله الله مؤازرًا ومعينًا لموسى استجابة لقول موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ٣٥].

فقال عز وجل: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٣٦- ٤٣].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: وإلى ملئه؛ وهم خاصته، وأشراف قومه، وسادتهم ورؤساؤهم، وخص الملأ؛ لأن عامة الناس تبع لهم.

فموسى عليه السلام بعث إلى بني إسرائيل، وبعث إلى فرعون وملئه؛ ليطلق بني إسرائيل؛ كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦- ١٧].

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: بآياتنا التسع، وحججنا وبراهيننا الدالة على صدقه، وأن ما جاء به حق، من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده دون سواه.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: فاستكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، وتصديق ما جاءهم به موسى من الآيات، مع استيقانهم بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

وأنفوا عن تلقي الدعوة من موسى عليه السلام احتقارًا له ولهارون، وإحالة أن يكونا رسولين من الله وهما من قوم يُستعبدون، أي: يستعبدهم فرعون وقومه؛ كما قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، أي: مرتكبين لأعظم الجرائم، من ادعاء الإلوهية والربوبية، واستعباد بني إسرائيل، وإذلالهم بالقتل، والعمل على استئصال ذكورهم واستحياء نسائهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ على يد موسى عليه السلام بالآيات والمعجزات التي أيدناه بها، الدالة على الحق، وهو صدق موسى فيما جاء به من الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا﴾، أي: هذا الذي جاء به موسى من الآيات ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، اللام: للتوكيد؛ أي: لسحر بيِّن ظاهر في نفسه، ومبين أن من جاء به ساحر؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّٰحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

وهذه حجة العاجز، التي قالها جميع المكذبين لرسلهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أتقولون للحق حين جاءكم من عند الله تعالى: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾، لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ والاستفهام كسابقه للإنكار والتوبيخ.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، أي: لا يفوزون أبدًا، ولا يحصلون على مطلوبهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ينجون من مرهوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ الاستفهام: للإنكار ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾، أي: لتصرفنا وتصدنا، والخطاب لموسى عليه السلام.

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾، أي: عن الذي وجدنا عليه أباءنا من الدين، وهو الشرك بالله تعالى.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ قرأ أبو بكر في رواية عن عاصم بالياء: «يكون».

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿وَتَكُونَ﴾.

أي: وتكون لك ولهارون: ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: العظمة والملك والرياسة والسلطان في الأرض، وهذه حجة واهية كسابقتها، أرادوا بها التمويه والترويج على عامة الناس وجهالهم؛ لمعاداة موسى وعدم الإيمان به.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما نحن لكما بمصدقين بما جئتما به، ولا متبعين لكما، والتعبير بالجملة الاسمية لإفادة الدوام والثبات على ما هم عليه، وانتفاء إيمانهم بهما مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه وجنوده في تحدٍّ وعناد لموسى عليه السلام، وتعاظم واستكبار: ﴿ٱئْتُونِى﴾ لأعارض وأنقض ما جاء به موسى من السحر، ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سحّار» بتشديد الحاء وألف بعدها.

وقرأ الباقون: «ساحر» على وزن «فاعل» والألف قبل الحاء، أي: ائتوني بكل ساحر عليم بالسحر، ماهر به، متقن ومجيد له؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١١- ١١٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ لمغالبة موسى من مدائن مصر كلها.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾، وفي سورة طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ [طه: ٦٥- ٦٦].

فأراد موسى عليه السلام أن تكون البداءة منهم؛ ليُظهر مدى ثقته بظهور ما معه من الحق على سحرهم، وليرى الناس ما صنعوا من السحر، فيأتي بعده الحق فيدمغ باطلهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: ٦٧- ٦٩].

و ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ موصولة تفيد العموم، أي: ألقوا الذي أنتم ملقونه، أو أيّ شيء أردتم إلقاءه، وفي هذا إشارة لعدم اكتراثه بمبلغ سحرهم، وثقته بأن الله سيبطله

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ ما لديهم من السحر، من حبالهم وعصيهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه: ٦٦]، وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحر» على وجه الاستفهام من موسى، وقرأ الباقون: ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ على وجه الخبر من موسى.

والمعنى: قال موسى الذي جئتم به هو عين السحر وحقيقته، لا ما جئت به من عند الله من الآيات والمعجزات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ﴾، أي: سيبطله بإظهار أنه تخييل وليس بحقيقة، ويبطل تأثيره على الناس بفضح سره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ تعليل لما قبله، أي: إن الله سيبطله؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين الذين يريدون نصرة الباطل على الحق ويفسدون في الأرض.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: ويثبت الله الحق ويظهره ويعلي شأنه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الكونية والشرعية؛ ولهذا كان أول من تبين لهم الحق السحرة أنفسهم، فخروا لله ساجدين.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ولو كره المجرمون إبطال ما جاء به السحرة من السحر والباطل، وإحقاق الحق وتثبيته.

والمجرمون: أهل الإجرام بالكفر والشرك والسحر وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾، أي: فما صدق موسى واستجاب لدعوته مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الظاهرات، والحجج القاطعات.

﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: إلا شباب قليلون، آمنوا وصبروا وثبتوا على الحق.

﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾، أي: من قوم موسى؛ لأنه أقرب مذكور، أي: إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل.

وقال بعضهم: إلا من قوم فرعون؛ لأن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: على خوف ووجل من فرعون، وعلى خوف من ملئهم أن يردوهم عن دينهم إلى ما كانوا عليه من الكفر قبل إيمانهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ هذا تعليل لخوفهم، أي: أنهم محقون في خوفهم؛ لأن فرعون عال في الأرض ومن المسرفين، واللام في قوله ﴿لَعَالٍ﴾ لام التوكيد، أي: له الغلبة والقهر والاستبداد في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ اللام: للتوكيد كسابقتها، أي: لمن المتجاوزين الحد في البطش والبغي والعدوان والظلم، تخاف منه رعيته خوفًا شديدًا.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾، أي: فعليه اعتمدوا والتجئوا إليه، واستنصروه وفوضوا أمركم إليه، وثقوا بوعده ونصره، فمن توكل عليه كفاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ إغراء وحث لهم على كمال التوكل على الله، وأن من شرط الإيمان والإسلام التوكل على الله وحده والثقة به.

﴿فَقَالُواْ﴾ استجابة لأمر موسى عليه السلام: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾، أي: على الله اعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه، ووثقنا بوعده ونصره.

﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: يا ربنا لا تجعلنا ابتلاء وامتحانًا ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والشرك، أي: لا تنصرهم علينا؛ فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا عن الدين، أو لا تسلطهم علينا فيفتنوننا عن ديننا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: خلصنا برحمتك منهم، فتعلقوا برحمة الله تعالى، أرحم الراحمين ولم يدلوا على الله بإيمانهم؛ لأن المنة لله تعالى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام وبعثهما إلى فرعون وملئه بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، والحجج الظاهرات، والبراهين القاطعات؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾.

٢- استكبار فرعون وقومه عن طاعة موسى والانقياد له، وتكذيبهم بما جاءهم به

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من الآيات، وتماديهم بالإجرام؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

٣- أن الاستكبار قد يحمل صاحبه على رد الحق بعد معرفته؛ كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وفي الحديث: «**الكبر بطر الحق**»(١).

٤- وصف فرعون وملئه لما جاءهم من عند الله من الحق على لسان موسى بأنه سحر مبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٥- تعظيم الله عز وجل لما جاء به موسى عليه السلام من الآيات والحق؛ لإضافة كل منهما إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾.

٦- إنكار موسى عليه السلام على فرعون وملئه وصفهم ما جاءهم به من الحق بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾.

٧- بيان أنه لا يفلح الساحرون أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ فهم مخذولون على الدوام خاسرون في كل حال.

٨- اتهام فرعون وملئه لموسى عليه السلام في قصده بما جاءهم به، وأنه إنما جاءهم بما جاءهم به؛ لصرفهم عن دين آبائهم، ولتكون له ولهارون الزعامة والكبرياء في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٩- تصميم فرعون وملئه على عدم الإيمان بموسى وهارون، وما جاءا به من الحق؛ لقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

١٠- شدة عتو فرعون وعناده واستكباره، وتحديه لموسى، ومحاولته إبطال ما جاء به من الآيات والحق، ولكن هيهات، وأنى له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

١١- حكمة موسى عليه السلام، وتوفيق الله تعالى له حيث أمر السحرة بأن يلقوا قبله ما هم ملقون؛ ليُظهر للناس ما هم عليه من السحر والتمويه، وليلقي بعدهم ما

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

معه من الآيات والمعجزات والحق، فيدمغ سحرهم وباطلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

١٢- مكاشفة موسى عليه السلام للسحرة بأن الذي جاؤوا به هو السحر بعينه وحقيقته، لا ما جاء به من عند الله من الآيات والمعجزات كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾.

١٣- ثقة موسى عليه السلام بأن الله سيبطل سحر السحرة وعملهم الفاسد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

١٤- أن السحر من عمل المفسدين الذي نهايته البطلان والبوار، والضياع والخسار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

عن ليث بن أبي سليم قال: «بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور، الآية التي في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ والآية الأخرى ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١٨] إلى أربع آيات، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩](١).

١٥- يقين موسى عليه السلام بإحقاق الله تعالى الحق وتثبيته، ونصره بكلماته الكونية والشرعية، وأن الغلبة له على فرعون وملئه، ولو كره المجرمون ذلك؛ لقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

١٦- كراهية فرعون وملئه وغيرهم من المجرمين من أهل الكفر والشرك والعناد والاستكبار ظهور الحق.

١٧- أنه لم يؤمن لموسى عليه السلام في أول الأمر إلا ذرية، أي: شباب من قومه مع خوفهم الشديد من فرعون ومن ملئهم أن يفتنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٩٧٤.

ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴿٨٣﴾﴾.

١٨- أن الشباب أسرع من غيرهم لقبول الحق، والانقياد له، والتأثر به؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ وذلك لأنهم أطهر قلوبًا، وأزكى نفوسًا، وأسلم صدورًا لم تتمكن منهم أمراض القلوب من الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وحب الدنيا؛ لأنهم لم يخوضوا بعد غمار الحياة الاجتماعية، ولم يتوغلوا في معتركها، فقلوبهم أقرب إلى الصفاء، وهم أبعد عن الإعراض والجفاء، وأقبل للحق، وأسرع انقيادًا له، وكما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا(١)

ولقد لمست هذا- والله يشهد- في أبنائنا الطلاب في مراحل التعليم كلها، الجامعي وما قبله، فهم- والله- أرض خصبة لبذر الخير فيهم ولتقبل الحق، لكنهم بحاجة إلى التعامل معهم بالأسلوب التربوي الذي يبني ولا يهدم، فإن كثيرًا ممن يتولون التدريس لا يجيدون هذا الأسلوب- وحسن النية إن وجد لا يكفي- فالأجيال في أمس الحاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى أسباب النجاح والرقي في دينهم ودنياهم، وكيف يخوضون معترك الحياة ويسهمون في رقي الأمة وتقدمها، ولن يتأتى ذلك إلا بالتركيز على الجانب التربوي العملي أكثر من الجانب التعليمي، فما أكثر العلماء، وما أقل العاملين؛ لذا يتوجب إذا سرنا في التعليم خطوة أن نسير في التربية خطوات، حينئذ تؤتي التربية والتعليم ثمارهما، ينبغي الغوص إلى أعماق قلوب الطلاب، واحترامهم وتشجيعهم، وتربيتهم على الثقة بالله تعالى، ثم بأنفسهم، ورفع معنوياتهم، وتبشيرهم وبث روح التفاؤل في نفوسهم، كما قالت خديجة رضي الله لما جاء إليها النبي ﷺ أول نزول جبريل بالوحي عليه فزعًا خائفًا، وقال لها: «**لقد خشيت على نفسي**»، قالت رضي الله عنها بلسان الواثقة بالله: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم...» الحديث(٢).

وكما هو لسان الشاعر في قوله:

---

(١) هذا البيت نسبه أكثرهم لزيد بن الطثرية، وبعضهم لمجنون ليلى، وبعضهم لعمر بن أبي ربيعة. انظر: «البيان والتبيين» ٢/ ٢٩، «الحيوان» ١/ ١١١، «عيون الأخبار» ٣/ ١٣، «محاضرات الأدباء» ٢/ ٥٥، «حماسة القرشي» ص٣١٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء(١)

فالشباب هم عدة الأمة بعد الله عز وجل، إذا أُحسن توجيههم والتعامل معهم، وسلموا من عثرات الشباب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقبيصة بن جابر: «إن الشاب يكون عنده تسعة أخلاق حسنة، وخلق واحد سيئ يفسد تلك التسعة؛ فإياك وعثرات الشباب»(٢).

وهذا يوجب العناية والاهتمام بالشباب وتوجيههم وتجنيبهم العثرات.

١٩- أن فرعون قد علا في الأرض واستبد فيها، وأسرف في البغي والظلم والعدوان، وأرعب وأرهب أهل مملكته، وبخاصة بنو إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

٢٠- دعوة موسى عليه السلام قومه إلى ما يقوي قلوبهم، ويحقق إيمانهم وإسلامهم، وهو التوكل والاعتماد على الله، وتفويض أمورهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

٢١- لا بد من الجمع بين الإيمان والإسلام وبين التوكل، أي: بين العبادة والتوكل؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن القرآن بينهما؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

٢٢- مبادرة قوم موسى عليه السلام لامتثال أمره لهم بالتوكل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

٢٣- لجوء قوم موسى عليه السلام إلى ربهم، ودعاؤهم إياه ألا يجعلهم فتنة للقوم

---

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ٢٥.

الظالمين، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.

٢٥- وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه تعالى وحده، وسؤاله السلامة من الفتن، والنجاة من الشرور، فلا واقي من الفتن سواه، ولا منجي من الشرور إلا هو برحمته، وهو أرحم الراحمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون عليه السلام. ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾، أي: اتخذا لقومكم بني إسرائيل بمصر بيوتًا يسكنون فيها.

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، أي: وصيروا بيوتكم مساجد تصلون فيها عند الخوف، أو صيروها مفتوحة إلى القبلة.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أدوا الصلاة كما شرعها الله تعالى؛ لأن الصلاة من أعظم ما يستعان به في الشدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكان نبينا ﷺ «إذا حزبه أمر صلى»(١)، وكان يقول: «**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**»(٢).

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أخبرهم بما يسرهم، وبقرب الفرج من الله لهم، وكشف كربتهم وإزالة شدتهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣١٩)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وأحمد ٥/ ٣٧١، عن عبدالله بن محمد ابن الحنفية، عن صهر لهم من الأنصار، وأخرجه أحمد أيضًا ٥/ ٣٦٤ عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم.

رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾، أي: أعطيتهم.

﴿زينة﴾ الزينة كل ما يتزين به الناس من النساء والبنين والذهب والفضة والأنعام والحرث، وغير ذلك من متاع الدنيا وأثاثها وشهواتها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ معطوف على «زينة»، من عطف الخاص على العام؛ لأن الأموال من أهم الزينة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: في هذه الحياة الدنيا.

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، وأعاد النداء؛ لتأكيد التذلل والتعرض للإجابة، ولإظهار التبرؤ من قصد الاعتراض على تقدير الله.

﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياء، أي: ليطغوا ويتمادوا في إضلال الناس عن سبيلك، وليفتتن بما أعطيتهم غيرهم، فيظنوا أنك إنما أعطيتهم لحبك لهم ورضاك عنهم.

وقرأ الباقون: «ليَضلوا» بفتح الياء، أي: ليضلوا هم ويطغوا ويتجبروا؛ اغترارًا منهم بما أعطيتهم، وظنًّا منهم أنهم على شيء.

والقراءتان بمثابة آيتين، فجمعوا بين الضلال والإضلال.

واللام في قوله ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يضلوا عن سبيلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] أي: لتكون العاقبة أن يكون لهم عدوا وحزنا.

ويحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: لأجل أن يضلوا عن سبيلك، أي: أعطيتهم

ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم؛ لأجل استدراجهم في الضلال؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦- ١٧].

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أعاد النداء ثالثة لزيادة تأكيد التوجه والتضرع والإلحاح على الله، أي: يا ربنا اتلف أموالهم وأهلكها، فلا تبق لها أثرًا.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: ادخل شدة القسوة عليها، واطبع واختم عليها؛ حتى لا تؤمن.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فيتسبب عن الشد على قلوبهم ألا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، و«لا»: نافية.

والمعنى: فلا يؤمنوا بك يا رب وبما أرسلتني به من الحق والآيات الدالة عليه، ويستسلموا إلى غاية أن يشاهدوا ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، أي: العقاب المؤلم المهلك لهم في الدنيا، فيؤمنوا إيمان اضطرار لا اختيار، وذلك حين لا ينفعهم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

وإنما دعا عليهم موسى عليه السلام غضبا لله تعالى لما رأى من جرأتهم على الله تعالى بادعاء فرعون الربوبية والإلوهية، وإفساده وجنوده في الأرض، وصدهم عن سبيل الله.

ولعلمه عليه السلام بأن ما هم عليه من التكذيب والكفر والطغيان من أسباب الحيلولة بينهم وبين الإيمان، كما هي سنة الله عز وجل في المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ «قد» حرف تحقيق، والضمير يعود إلى موسى وأخيه هارون، وأعيد إليهما معًا مع أن الداعي هو موسى وحده؛ لأن هارون أمن على دعاء موسى، فصار بحكم الداعي، أي: قد أجبت دعوتكما بالطمس على أموال فرعون وملئه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال تعالى:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وبالشد على قلوبهم، والطبع عليها، والحيلولة بينهم وبين الإيمان إلى أن يشاهدوا العذاب الأليم، فيؤمنوا حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾، أي: فاستقيما على دينكما، وامضيا على أمري، واستمرا على دعوتكما شكرًا لله على إجابة دعوتكما.

﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: «ولا تتبعانِ» بنون خفيفة مكسورة، وقرأ الباقون بتشديد النون مكسورة.

أي: ولا تتبعان طريق الذين لا يعلمون في الاستعجال بطلب حصول وعدي لكما بالطمس على أموالهم والشد والطبع على قلوبهم والحيلولة بينهم وبين الإيمان، كل ذلك كائن لا محالة فلا تستعجلا.

أو لا تتبعان طريق الذين لا يعلمون، وهم فرعون وقومه الجهال الضلال؛ كقوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، أي: قطعنا بهم البحر، حتى جاوزه، والمراد: بحر القلزم، «البحر الأحمر»، بعد أن أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بضرب البحر وانفلاقه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾، أي: فلحق بهم فرعون وجنوده.

﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ منصوبان على المفعول لأجله، أي: لأجل البغي، أي: الظلم، والعدوان على بني إسرائيل، بقصد إرجاعهم ومنعهم من الخروج من مصر وردهم إلى الاستعباد.

واقترب منهم حتى أخاف أصحاب موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال موسى عليه السلام واثقًا بربه ونصره: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، أي: حتى أذا أحاط به الغرق، وأيقن بالهلكة.

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «إنه» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها.

أي: حتى إذا أدركه الغرق قال يرجو النجاة: ﴿ءَامَنتُ﴾، أي: صدقت أنه لا معبود ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الإله والمعبود الذي آمنت به بنو إسرائيل، وصدقَت به، وانقادت له، وهو الله عز وجل.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأنا من المستسلمين المنقادين لدين الله ولما جاء به موسى.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا جواب لسؤال حذف لدلالة المقام عليه، تقديره: قال الله. وهو جواب لقول فرعون: ﴿ءَامَنتُ﴾؛ لأنه قصد بذلك الإنجاء من الغرق.

والهمزة في قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ للإنكار والتوبيخ، و«الآن»: ظرف للزمان الحاضر، أي: آلآن تؤمن، أي: هذا الوقت حين أدركك الغرق تؤمن، حين فات أوان الإيمان، فلا ينفعك الإيمان الآن؛ لأنه وقت اضطرار لا اختيار، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنك قد عصيت قبل، أي: بارزت بالعصيان والكفر والتكذيب قبل الغرق.

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بادعائك الربوبية والألوهية، واستعباد الناس، وصدهم عن سبيل الله، وإضلالهم، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾؛ قرأ يعقوب: «ننْجيك» بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم: ﴿نُنَجِّيكَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الناس شَكُّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض- وهو المكان المرتفع- ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾، أي: نرفعك على نشز من الأرض ببدنك»(١).

فمعنى ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نخرجك بجسمك وجسدك من البحر، ونجعلك على نشز من الأرض بلا روح.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أي: لأجل أن تكون ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أي: لمن بعدك عظة وعبرة بأخذ الله للظالمين، ودلالة لبني إسرائيل على موتك وهلاكك، وذلك لأنه قد أرعبهم وأرهبهم من شدة بطشه وظلمه لهم، فكأنهم لن يصدقوا بغرقه وموته، ولا يطمئنون إلا برؤية جثته هامدة، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه بلا روح؛ ليكون لهم عبرة وآية.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ اللام في قوله ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾ للتوكيد، أي: وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا الكونية والشرعية ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتأملون فيها، ولا يتعظون بها، ولا يعتبرون؛ ولهذا لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة يونس ٤٧٣٧، ومسلم في الصيام ١١٣٠، وأبو داود في الصوم ٣٤٤٤، وابن ماجه ١٧٣٤- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ: «**أنتم أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، ﴿بَوَّأْنَا﴾: أنزلنا ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، أي: منزل صدق.

أي: منزلًا صالحًا بمصر ـ والشام، فأورثهم عز وجل مساكن آل فرعون بمصر، وأورثهم أرضهم وديارهم، وفتح عليهم بلاد الشام فلسطين وما حولها من الأرض المباركة.

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩].

وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨].

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: وأعطيناهم من الطيبات؛ أي الحلال النافع المستلذ المستطاب طبعًا وشرعًا من المطاعم والمشارب مما ينزل من السماء ومن خيرات الأرض المباركة.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: فما اختلفوا وتفرقوا في شيء من أمر دينهم، وما جاءهم من الحق، وفي بعثة محمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: إلا من بعد ما جاءهم

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٧)، ومسلم في الصيام (١١٣٠)، وأبو داود في الصوم (٢٤٤٤)، وابن ماجه في الصيام (١٧٣٤).

العلم، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذي يتلونه الموجب لاتفاقهم لا اختلافهم، ولاجتماعهم لا افتراقهم، ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم الحق وأزال عنهم اللبس، ولكن بغى بعضهم على بعض، وفرقتهم الأهواء والأغراض المخالفة للحق، فدب بينهم الاختلاف والتفرق، وهذا هو مسلك الشيطان- إن استطاع- مع أهل العلم والدين، فإنه إذا لم يستطع حملهم على ترك الواجبات أو ارتكاب المحرمات الظاهرة سعى في زرع الاختلاف بينهم، ومن ثم إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، ثم تفرقهم شيعًا وأحزابًا، ثم تفرقت عامة الناس تبعًا لهم، فباؤوا بإثمهم وإثم غيرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: ١٦- ١٧]

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤].

قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»، فقيل: من هم يا رسول الله ؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

وانظر حال المسلمين اليوم وما هم عليه من الاختلاف والتفرق مما يثلج صدور أعدائهم، ويندى له جبين كل مؤمن غيور على دينه، وتتفطر كبده، ويبكي دمًا لا دمعًا، وما كان ذلك ليكون لولا تفرقهم شيعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، فأوصي كل مسلم غيور على دينه بالخروج من عنق الزجاجة الذي وصلت به الأمة إلى هذه الحال، إلى رحابة الإسلام، والعمل على جمع كلمة الأمة، والتركيز على الإيجابيات وجوانب الخير، وما أكثرها، استجابة لأمر الله تعالى لنا بقوله:

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة شرح السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن- افتراق الأمة ٣٩٩١- ٣٩٩٣، وأحمد ٢/ ٣٣٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد أيضًا ٣/ ١٢٠، ١٤٥- من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له.

﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بحكمه العدل؛ لعلمه الواسع بهم وبأحوالهم وبكل شيء، وقدرته التامة النافذة فيهم، وفي جميع خلقه.

﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ «ما»: موصولة، تفيد العموم، أي: في جميع الذي يختلفون فيه من أمر نبوته ﷺ، وغير ذلك، فيميز المحق منهم من المبطل، فينجي المؤمنين ويدخلهم جنته، ويهلك المكذبين ويدخلهم النار وبئس القرار.

الفوائد والأحكام:

١- إيحاء الله- عز وجل- لموسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتًا يسكنون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾.

٢- أمر الله- عز وجل- لهما بجعل بيوتهما مساجد يصلون فيها عند الخوف، أو جعلها مفتوحة إلى القبلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾

٣- مشروعية الصلاة في شريعة موسى عليه السلام، وأنها من أعظم ما يستعان به وقت الشدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤- البشارة للمؤمنين بما يسرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٥- إجماع الرسالات على التبشير، وعلى هذا ربى الرسل عليهم السلام أتباعهم؛ ولهذا قال نبينا ﷺ حين بعث معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن قال لهما: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا**»(١).

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾ وقوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

٧- دعاء موسى عليه السلام الله- عز وجل- بوصف الربوبية، كما كان أكبر دعاء

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣-من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الأنبياء والصالحين بذلك؛ لأن معنى «الرب» الخالق المالك المتصرف، فكأن الداعي بذلك يقول: يا من له الخلق والملك والتدبر أجب دعائي.

٨- عظم ما أعطاه الله تعالى لفرعون وملئه من الزينة والأموال في الحياة الدنيا، لكنهم كفروا ولم يشكروا؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٩- أن الله- عز وجل- يعطي الدنيا أعداءه كما يعطيها أولياءه.

١٠- أن الدنيا وزينتها وأموالها قد تكون سببًا للأشر والبطر والضلال والإضلال؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾.

١١- أن إعطاء الزينة والأموال في الحياة الدنيا قد يكون استدراجًا.

١٢- دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه غضبًا لله تعالى بسبب طغيانهم وصدهم عن سبيل الله؛ بالطمس على أموالهم والشد على قلوبهم، والحيلولة بينهم وبين الإيمان؛ حتى يروا العذاب الأليم؛ لقوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

١٣- أن الكفر والتكذيب والطغيان سبب للحيلولة دون الإيمان.

١٤- أن الإيمان لا ينفع بعد معاينة العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، وذلك؛ لأنه إيمان اضطرار لا اختيار، بغية النجاة فقط من العذاب، ولو رفع عنهم العذاب لعادوا لما نهوا عنه؛ كما قال تعالى، عن أهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

١٥- جواز الدعاء على أهل الضلال الذين يصدون عن سبيل الله بهلاك أموالهم، وانهيار اقتصادهم؛ لينشغلوا بذلك عن الكيد للإسلام والمسلمين؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وقد كان نبينا ﷺ يقول في دعائه على المشركين: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٤، ومسلم في المساجد ٦٧٥، وأبو داود في الصلاة ١٤٤٢، والنسائي في التطبيق ١٠٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٦- استجابة الله تعالى لدعوة موسى وأخيه على فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

١٧- أمره- عز وجل- لموسى وهارون بالاستقامة على دينهما، والمضي في دعوتهما؛ تقوية لعزمهما، وتأييدًا لهما، وليقوما بواجب الشكر لله تعالى على إجابة دعوتهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾.

١٨- نهيه- عز وجل- لهما عن اتباع سبيل أهل الجهل بالاستعجال في طلب حصول ما وعدهما تعالى به من الطمس على أموال فرعون وملئه، والشد على قلوبهم، وإيقاع العذاب عليهم؛ لقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد يحمل ذلك على نهيهما عن اتباع سبيل فرعون وملئه؛ لأنهم أجهل الجاهلين، ولا إشكال في هذا، فقد نهى الله- عز وجل- نبينا ﷺ وهو أفضل الرسل وسيدهم عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

١٩- الامتنان على بني إسرائيل بقطع البحر بهم حتى جاوزوه، وإنجائهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾.

٢٠- خروج فرعون وجنوده على إثر بني إسرائيل؛ لثنيهم ومنعهم من الخروج من مصر، وردهم إلى الاستعباد، ظلمًا وعدونًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾.

٢١- إعلان فرعون لما أدركه الغرق وأحاط به الإيمان؛ بأنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل واستسلامه، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأنى له ذلك؟

٢٢- لا بد من الجمع بين إيمان الباطن واستسلام الظاهر بالانقياد بالجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٣- أن إيمان فرعون لا ينفعه؛ لأنه لم يؤمن إلا حين أدركه الغرق وأيقن بالهلاك، وهذا وقت اضطرار لا اختيار، فلا ينفع فيه الإيمان ولا التوبة؛ لقول تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

٢٤- تبكيت فرعون، وتأنيبه بما كان منه من العصيان قبل، والفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

٢٥- إخراج فرعون من البحر بجسده بلا روح؛ ليكون لمن خلفه آية، فيتأكد بنو إسرائيل من موته، ويطمئنوا بسلامتهم من شره، ويكون أيضًا عبرة للمعتبرين بأخذ الله للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾.

٢٦- غفلة كثير من الناس عن التأمل في آيات الله الكونية والشرعية، والاعتبار والاتعاظ بها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

فلا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

٢٧- امتنان الله- عز وجل- على بني إسرائيل بإنزالهم منزل صدق، ورزقه إياهم من الطيبات الحلال المستلذات من المطاعم والمشارب، مما ينزل من السماء، ومما يخرج من الأرض المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

٢٨- أن ما يتمتع به الخلق من المساكن والأرزاق كله من الله عز وجل.

٢٩- أن بني إسرائيل لم يختلفوا فيما هم عليه من الحق، وفي بعثة نبينا محمد ﷺ حتى جاءهم العلم بإنزال كتابه عز وجل عليهم.

٣٠- قضاء الله تعالى، وفصله يوم القيامة بين بني إسرائيل وغيرهم من الأمم فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

٣١- إثبات القيامة، وأنها دار القضاء والفصل بين العباد ومجازاتهم بإعمالهم، ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿فِي شَكٍّ﴾، أي: في ريب ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: من الذي أنزلنا إليك من الوحي.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين دون همزة الوصل وبحذف الهمزة التي بعد السين مخفف سأل: «فَسَلِ».

وقرأ الباقون بهمزة وصل وسكون السين وهمزة بعد السين: ﴿فَسْـَٔلِ ﴾.

والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فاسأل الذين يقرؤون التوراة والإنجيل من قبلك، أي: فاسأل المنصفين من علماء أهل الكتاب، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم.

قال ابن القيم: «وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلًا؛ لأن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه؛ كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥] ونظائره، فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل».

وقال أيضًا بعدما رد قول من قال: الخطاب في الآية له ﷺ والمراد غيره، وبين أن سياق الكلام يأباه قال بعد ذلك: «وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم وهو وقوع الشك منه والسؤال، وقد بينا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلًا عن وقوعه، فإن قيل: فإذا لم يكن واقعًا ولا ممكنا فما مقصود الخطاب والمراد به؟ قيل: المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك، لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود؛ بأن جعل الخطاب لرسوله ﷺ الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك، وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته: مَن شكَّ فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل»(١).

عن ابن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال: «التوراة والإنجيل، الذين أدركوا محمدًا ﷺ من أهل الكتاب فآمنوا به يقول: سلهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم»(٢).

وقيل: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك من قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة والإنجيل من قبلك فإن عندهم على نحو ما أوحي إليك.

والأظهر أن قوله ﴿مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ عام في كل ما أنزل؛ لأن «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: من الذي أنزلنا إليك، والمعنى على هذا كما وجهه ابن القيم، وكما روي عن سعيد بن جبير والحسن قالا: «لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل»(٣).

---

(١) انظر بدائع التفسير، ٢/ ٤١٠- ٤١٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢٨٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان»١٢/ ٢٨٧- ٢٨٨.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد جاءك الحق من ربك، أي: الحق الثابت الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلا تكونن من الشاكين في أنه منزل من ربك؛ كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا والذي قبله لا يدل على وقوع ذلك منه، فلم يكن ﷺ من الممترين، ولا من المكذبين، ولم يضق صدرًا بما أنزل إليه، وإنما هذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: الذين خسروا دنياهم وأخراهم، والفاء للسببية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وابن كثير وأبو عمر ويعقوب بالإفراد: ﴿كَلِمَتُ﴾ وقرأ الباقون بالجمع: «كلمات».

أي: إن الذين وجبت وثبتت عليهم كلمة ربك بالكفر والغواية والضلال والشقاء، والمصير إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦].

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾، أي: لا يؤمنون بما أوجب الله الإيمان به وتصديقه، بل لا بد أن يصيروا إلى ما قدر الله وقضاه؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ٣٣].

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ الواو: حالية، أي: ولو جاءتهم كل آية كونية أو شرعية، بل لا تزيدهم الآيات إلا نفورًا وطغيانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟

وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، أي: إلى غاية أن يشاهدوا العذاب ﴿الْأَلِيمَ﴾، أي: المؤلم الموجع حسيًّا ومعنويًّا الذي توعدوا به، فيؤمنوا حين لا ينفعهم الإيمان.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما يدل على أن الإيمان حين رؤية العذاب لا ينفع صاحبه، كما هي سنته عز وجل في المكذبين، ثم استثنى عز وجل قوم يونس عليه السلام من هذا العموم، فقد آمنوا لما رأوا العذاب، ونفعهم إيمانهم؛ لحكمة يعلمها الله عز وجل، ولعل منها أن الله علم صدق إيمانهم وثباتهم عليه.

قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ الفاء: عاطفة، و«لولا»: للتوبيخ والتنديم، أي: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السابقة الذين بعثنا فيهم الرسل، أي: فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب من الأمم التي كذبت رسلها فنفعها إيمانها، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«قوم» منصوب على الاستثناء.

و﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾ هم أهل قرية نينوى من بلاد العراق، و«يونس» هو يونس بن متى عليه السلام.

﴿لَمَّا آمَنُوا﴾، أي: حين آمنوا كلهم جميعًا؛ خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به يونس عليه السلام، بعد معاينتهم أسبابه، وخروج يونس عليه السلام من بين أظهرهم، فجأروا إلى الله تعالى، واستغاثوا به، وتضرعوا إليه، واستكانوا بإيمان وصدق علمه الله تعالى منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨].

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾، أي: رفعنا، وأزلنا عنهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا بعدما كاد يصل إليهم، وذلك مؤذن أيضًا بكشف عذاب الآخرة عنهم بسبب إيمانهم.

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: وأمهلناهم وأجّلناهم إلى وقت انتهاء آجالهم، ولم نعاجلهم بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، أي: ولو أراد ربك كونا لآمن الذين في الأرض كلهم جميعًا، وصدقوك بما جئتهم به، وأقروا بتوحيد الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون منهم مؤمن وكافر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أنت لست تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، أي: حتى يؤمنوا، ولا تستطيع إكراههم على الإيمان، وإلزامهم إياه، وإلجاءهم إليه، فلا تجهد نفسك فيما لا تستطيعه.

وفي هذا دلالة على حرصه ﷺ على إيمانهم، وإعذار له على عدم استجابتهم، وتسلية له؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ في هذا تأكيد لقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ الآية، أي: وما كان لأي نفس ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم (كان) مؤخر، أي: وما كان لنفس الإيمان ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بإذن الله الكوني.

و«إذن الله»: أمره وحكمه وقضاؤه، وهو قسمان: إذن كوني وهو المراد هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩].

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قرأ أبو بكر بالنون: «ونجعل»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿وَيَجْعَلُ﴾.

والمراد بالرجس هنا الرجس المعنوي، وهو الشرك والكفر والضلال؛ لمقابلته بالإيمان، كالمقابلة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: على الذين لا ينتفعون بعقولهم ولا يهتدون بها إلى معرفة الحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والمراد بالجعل في الآية: الجعل الكوني.

فهو عز وجل يهدي ويوفق للإيمان من شاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿مَاذَا﴾ اسم استفهام، أو «ما»: استفهامية، و«ذا»: اسم موصول.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين انظروا وتفكروا وتأملوا واعتبروا ما الذي في

السموات والأرض من الآيات الكونية من الكواكب النيرات الثوابت والسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، وما أنزل الله تعالى من السماء من الأمطار فأحيا به الأرض بأنواع الزروع والنباتات والثمار، وما أودع فيها من أنواع المعادن والخيرات، وما فيها من الجبال والبحار والسهول والقفار والعمران والخراب، وما ذرأ فيها من الدواب مختلفة الإشكال والألوان والمنافع، وغير ذلك ودلالة ذلك كله على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ «ما»: نافية، أي: ولا تغني الآيات والنذر، أو استفهامية، أي: وأي شيء تغني الآيات والنذر؟

والمعنى: وما تنفع الآيات كونية أو شرعية والنذر وما تجدي.

كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٥].

(النذر) جمع نذير، وهو يشمل النذر من البشر، كالرسل، ومن سلك طريقهم في الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى، كما يشمل أيضًا: النذر القدرية الكونية مما يقع من مصائب وكوارث.

﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: عن قوم سبق لهم في قدر الله تعالى أنهم لا يؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢﴾.

قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ «هل» استفهامية بمعنى النفي، أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد.

﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا مثل ما حل من الوقائع والعقوبات والهلاك بالذين مضوا من قبلهم من المكذبين لرسلهم؛ لأن سنة الله تعالى جارية في الأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ

أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥].

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ما يحل بكم من العقوبة مثل ما حل بمن قبلكم من المكذبين، وأن العاقبة الحسنة لنا؛ لقوله تعالى بعده: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية، وتخفيف الجيم: «ننْجِي»، وقرأ الباقون بفتح الثانية وتشديد الجيم: ﴿نُنَجِّى﴾.

أي: ثم نخلص رسلنا والذين آمنوا من العقوبات والهلاك في الحياة الدنيا، ونهلك المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، أي: مثل ما أنجينا رسلنا والذين آمنوا بهم من الأمم السابقة ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، أي: واجبًا علينا ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي وحفص عن عاصم: ﴿نُنجِ﴾ بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بفتح الثانية وتشديد الجيم ﴿ننَجِّ﴾، أي: نخلصهم من الهلاك والعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهذا حق أوجبه الله تعالى على نفسه؛ تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: «**أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(١).

وقال ﷺ: «**إن الله كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد نزول القرآن من عند الله عز وجل على النبي ﷺ؛ لقول تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ والرسول ﷺ لم يشك، ولم يسأل، والشرط لا يدل على وقوع المشروط ولا على إمكانه، ونهيه صلى الله عليه وسلام عن أن يكون من الممترين، أو من الذين كذبوا بآيات الله لا يدل على حصول ذلك منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١، ٤٨].

٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وكلامه، وأنه الحق من عند الله، والرد على القائلين بخلق القرآن.

٥- شهادة التوراة والإنجيل وبشارتهما بمبعثه ﷺ وصدقه، وصدق وصحة ما أنزل عليه، وأنه الحق من ربه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

٧- أن من كذب بآيات الله الكونية أو الشرعية فهو من الخاسرين؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٦، ومسلم في الإيمان ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣،وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦- من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه في البخاري في التوحيد ٧٥٥٣، ومسلم في التوبة- سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه ٢٧٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٨٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٨- في قوله عز وجل له ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾، رد على الذين يغلون به ﷺ، ويرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.

٩- أن من كتب الله وقدر عليهم الكفر والشقاء والمصير إلى النار وعدم الإيمان؛ لا يمكن أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية؛ حتى يعاينوا العذاب، فيؤمنوا حين لا ينفعهم الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

١٠- إثبات تقدير الله تعالى وخلقه أفعال العباد خيرها وشرها، وأن ما قدره من خير أو شرٍّ كائن لا محالة، والرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم.

١١- أنه إنما يستفيد من الآيات ويهتدي بها من كتب الله لهم الإيمان والسعادة والفوز بالجنة؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

١٢- أن الإيمان عند معاينة العذاب لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

١٣- أنه لم تكن قرية من القرى المكذبة للرسل آمنت بعد معاينتها العذاب فنفعها إيمانها بقبوله منها، وكشف العذاب عنها؛ إلا قوم يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

١٤- إثبات رسالة يونس عليه السلام؛ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ الآية.

١٥- أن الإيمان بالله تعالى وطاعة رسله من أسباب كشف العذاب والتأجيل إلى حين؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله عز وجل، وهي الإرادة الكونية، وأن الله عز وجل لو شاء وأراد كونا لآمن من في الأرض كلهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾.

١٧- أن الله عز وجل شاء وأراد كونا أن يكون من الناس مؤمن وكافر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

١٨- أنه ﷺ ليس عليه إكراه الناس على الإيمان، ولا يستطيع ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

١٩- أنه لا يمكن لأي نفس أيا كانت أن تؤمن إلا بإذن الله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- جعل الله عز وجل الرجس- أي: الشرك والكفر والضلال- جعلًا كونيًّا على الذين لا ينتفعون بعقولهم، ولا يهتدون بها إلى الحق؛ لقوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٢١- وجوب النظر والتأمل والتفكر بما في السموات والأرض من الآيات الكونية الدالة على كمال قدرة الله تعالى ووجوب توحيده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٢- أن الآيات والنذر لا تغني ولا تنفع من سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٣- التحذير للمكذبين للنبي ﷺ، وأنهم ما ينتظرون إلا مثل ما حل من العقوبات بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢٤- إنذار المكذبين وتهديدهم بالعذاب والهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

٢٥- إنجاء الله تعالى رسله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢٦- إيجاب الله تعالى على نفسه إنجاء المؤمنين؛ تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا؛ لقوله

تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٧- الحث على اتباع الرسول ﷺ، والإيمان به وبما جاء به من عند الله تعالى، والترغيب في ذلك؛ لأن بذلك النجاة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾، أي: إن كنتم في شك وريب في صحة وصدق ما جئتكم به من الدين، وكونه حقًّا من عند الله تعالى، وأضاف الدين إليه ﷺ؛ لأنه هو الذي جاء به من عند الله عز وجل.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، أي: فأنا على يقين من بطلان دينكم، وصحة وصدق ما أنا عليه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام والشركاء؛ لبطلانه، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾، أي: ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، أي: الذي يقبض أرواحكم، وإليه مرجعكم، كما أحياكم وأوجدكم من العدم، فهو الذي يستحق العبادة وحده.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وأمرني ربي أن أكون من المؤمنين به، وبما جئتكم به من عنده من الدين.

قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وأمرت أن أقم، و(أن) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير: وأمرت بأن أقم وجهك للدين حنيفاً، أي: أخلص العبادة لله تعالى وحده، وأسلم نفسك له، وتوجه بكليتك لدين الإسلام.

﴿حَنِيفًا﴾ منصوب على الحال، أي: مستقيمًا على التوحيد، مائلًا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً للأمر قبله، وبياناً لمعنى ﴿حَنِيفًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيد بعد تأكيد، وتحذير بعد تحذير، وبيان لعلة النهي عن الشرك.

أي: ولا تدعُ وتعبد غير الله ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (ما): موصولة، أي: الذي لا ينفعك ولا يضرك من سائر المخلوقات، أي: معبودًا، لا يستطيع لك نفعًا ولا ضرًّا.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾، أي: دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، وحاشاه ﷺ من ذلك، وإنما هذا تنبيه وتحذير وتعليم للأمة.

﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الشرك أظلم الظلم؛ لما فيه من صرف حق الله تعالى لغيره، كما قال لقمان فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لما بين أن سائر المعبودات من دون لا تملك ضرًّا ولا نفعًا؛ بيّن أن الذي يملك ذلك كله هو الله عز وجل وحده، وهذا من أعظم الأدلة على أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض أو فقر، ونحو ذلك، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، أي: فلا رافع لهذا الضر إلا هو عز وجل وحده، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ بنعمة من رخاء وعافية وسرور، ونحو ذلك، ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، أي: فلا أحد يستطيع رد فضله عز وجل عن عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يختص به من يشاء، وفي حديث ابن عباس رضي الله

عنهما: «واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «الغفور» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل، أي: وهو عز وجل ذو المغفرة لذنوب من تاب وأناب إليه من عباده من أيِّ ذنب كان؛ الشرك وما دونه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده، ومن رحمته عز وجل مغفرته لذنوب التائبين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كرر النداء للناس؛ تأكيدًا لما سبق، واهتمامًا بما بعده ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ «قد»: حرف تحقيق، أي: قد جاءكم الدين الحق الثابت الذي لا شك ولا مريه فيه ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ بالوحي الذي أنزله من عنده عز وجل، على نبيه ﷺ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فمن اهتدى إلى هذا الحق واتبعه وعمل به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: فإنما نفعُ اهتدائه وفائدته تعود على نفسه لا على غيره، والله غني عن عباده.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: ومن ضل عن هذا الحق وجانبه، وترك العلم والعمل به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: فإنما ضلاله على نفسه، وضرر ذلك ووباله عائد عليه لا على غيره، ولا يضر الله شيئًا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أُلزمكم الاهتداء والإيمان، وأحفظ أعمالكم، وأحاسبكم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: ٦٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧ ـ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وإنما مهمتي بالنسبة لكم البلاغ والإنذار، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾.

في هذا تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، أي: واتبع الذي يوحى إليك من ربك من الكتاب والسنة علمًا وعملًا به، ودعوة إليه.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، أي: واصبر على طاعة الله تعالى بالعمل بما يوحي إليك والدعوة إليه، واصبر على ما يصيبك في ذات الله من الأذى؛ لقوله تعالى بعده: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: حتى يفتح الله بينك وبين المكذبين الضالين، بنصرك وإظهارك عليهم، وهكذا فتح الله تعالى بينه ﷺ وبينهم يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان في بدر الكبرى، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمة الله عز وجل هي العليا.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾، أي: وهو خير الحاكمين وأعدلهم وأحكمهم، بأحكامه الكونية، وأحكامه الشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس.

٣- شك المشركين وتكذيبهم لما جاء به الرسول ﷺ من الدين الحق؛ لقوله ﷺ: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾.

٤- براءته ﷺ من عبادة ما يعبده المشركون من دون الله؛ لقوله ﷺ: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٥- يقينه ﷺ أنه على دين الحق،وأن ما جاء به هو الحق، وأن ما عليه المشركون من عبادة آلهة من دون الله باطل؛ لقوله ﷺ: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾.

٦- ثباته ﷺ على عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

٧- أن الله عز وجل هو الذي يتوفى الأنفس ويقبضها بالموت، ومرجعها إليه، وبيده عز وجل وحده الموت والحياة، وإليه وحده المآب، وعليه الحساب، المستحق للعبادة دون سواه؛ لقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

٨- أنه ﷺ- كغيره- مأمور بالاستسلام والانقياد لما أنزل الله تعالى عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٩- أمر الله عز وجل له ﷺ بالاستقامة على ما أنزل الله تعالى عليه من الدين، والتوجه إليه بكلتيه، وإخلاص العبادة لله تعالى، وتحذيره من المشركين ومن آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

١٠- في أمره ﷺ بالاستسلام والاستقامة على الدين وتوحيد الله تعالى وتحذيره من المشركين، ومن دعاء آلهتهم؛ أمر وتحذير لأمته ﷺ.

١١- ذم الشرك وأهله ومعبوداتهم مما لا ينفع ولا يضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

١٢- أن الشرك أعظم الظلم، وأن المشركين هم الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٣- أن ما يحصل من ضر ومن مصائب وكوارث كل ذلك بتقدير الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

١٤- أن الكاشف للضر والدافع للشر هو الله تعالى وحده دون ما يعبد من دونه من الآلهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

١٥- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى وهي المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٦- أن الجالب للخير هو الله عز وجل؛ إفضالا منه على عباده؛ لقوله تعالى

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾.

١٧- لا أحد يستطيع رد فضل الله تعالى ومنعه عن عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾.

١٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٩- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «الغفور» و«الرحيم»، وصفة المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٠- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢١- أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي، وما يدعو إليه من الدين هو الحق من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٣- أن من اهتدى فنفع اهتدائه وفائدته لنفسه، ومن ضل فضلاله على نفسه، والله عز وجل غني عن خلقه، لا تنفعه هداية من اهتدى، ولا يضره ضلال من ضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾.

٢٤- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ الآية، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور لا اختيار له.

٢٥- كمال عدل الله تعالى حيث يجازي كلًّا بما عمل، ولا يؤاخذ أحدًا بغير عمله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ الآية.

٢٦- أنه ﷺ ليس بوكيل على الناس يلزمهم الإيمان ويرقب ويحفظ أعمالهم، وإنما هو مبلغ فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

٢٧- تثبيت الله عز وجل له ﷺ بأمره له باتباع ما يوحى إليه، والصبر حتى يحكم الله بينه وبين المكذبين له، وينصره ويظهره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ

وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾.

٢٨- أن في اتباع الحق الذي أوحاه تعالى إلى نبيه ﷺ والصبر في سبيل ذلك؛ حصول الفتح ونجح الآمال في الدنيا والآخرة.

٢٩- أن الله عز وجل خير الحاكمين وأحكمهم وأعدلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ هُوْدٍ

المقدمـــة

أ- اسم السورة:

سُمِّيت هذه السورة: «سورة هود» لبسط قصة هود عليه السلام وقومه عاد فيها أكثر من غيرها، وقد تكرر اسمه فيها خمس مرات، ووصف فيها "عادًا" بأنهم قوم هود، في قوله تعالى فيها: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شِبتَ. قال: «**شيّبتني: هودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوِّرت**»(١).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت**»(٢).

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة هود بمكة.

ج- موضوعاتها:

١- ابتدأ عز وجل «سورة هود» بتعظيم كتابه، بإحكام آياته وتفصيلها، وتعظيم نفسه بكمال حكمه وحكمته، وواسع علمه وخبرته.

٢- ثم أمْره له ﷺ بدعوة الناس ألايعبدوا إلا الله، والبشارة للمؤمنين، والنذارة للمكذبين، وأمرهم بالاستغفار والتوبة، ووعدهم بالمتاع الحسن إلى نهاية آجالهم، وإعطاء كل ذي فضل فضله.

٣- تحذيرهم وتخويفهم عذاب يوم القيامة، فمردهم إليه عز وجل وهو على كل شيء قدير.

٤- إثبات علمه عز وجل بالسر والعلانية، وما تكنه الصدور، وتنطوي عليه القلوب، وتكفله عز وجل برزق جميع الدواب، وعلمه مستقرها ومستودعها؛ كل في كتاب مبين.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة، ٣٣٥١، وقال: «حديثٌ حسنٌ غريب».

(٢) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره»- ٤/ ٢٣٦.

٥- إثبات كمال عظمته عز وجل وقدرته حيث خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، وبيان حكمة الخلق، وهي ابتلاء العباد أيهم أحسن عملا.

٦- تكذيب المشركين بالبعث واستعجالهم العذاب؛ تكذيبًا به، وتهديدهم بأنه آتيهم لا محالة، ومحيط بهم بسبب استهزائهم به.

٧- بيان أن من طبيعة الإنسان اليأس والقنوط عند حصول الشدة، والفرح والبطر عند حصول النعمة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾.

٨- تقوية قلب النبي ﷺ، فلا يترك بعض ما يوحى إليه أو يضيق به صدره، بسبب مكابرة وعناد المكذبين له، وقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾، وبيان أن مهمته بالنسبة لهم: الإنذار، والله وكيل عليهم وعلى كل شيء.

٩- زعم المشركين المكذبين أنه ﷺ افترى القرآن، وتحديهم أن يأتوا بعشر سور مثله، وهيهات لهم ذلك، وإثبات أن القرآن إنما أنزل بعلمه عز وجل، لا إله إلا هو، والحض على اتباعه والدخول في الإسلام.

١٠- أن من أراد الدنيا وزينتها أعطي عمله فيها وافيًا بلا نقص، وليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط وبطل ما كانوا يعملون.

١١- شتان بين من آمن بالله وكان على بينة وهدى من ربه بالقرآن وما أنزل الله في كتبه وعلى ألسنة رسله، وبين مَن كفر وكذب بذلك وتوعدهم بالنار.

١٢- بيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا، والوعيد والتهديد لهم بقيام الأشهاد عليهم، ولعنهم بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله، وكفرهم بالآخرة، وأنهم لن يعجزوا الله، وليس لهم من دونه أولياء، يضاعف لهم العذاب؛ لعدم سماعهم وإبصارهم الحق، وخسارتهم أنفسهم، وذهاب ما كانوا يفترونه، وتحقق أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

١٣- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخضعوا لربهم بالجنة والخلود فيها، وفي هذا والذي قبله جمع بين الترغيب والترهيب؛ ولهذا مثّل الفريقين الكافرين والمؤمنين، بالأعمى والأصم، والبصير والسميع، وشتان بين الفريقين.

١٤- التذكير برسالة نوح عليه السلام، ودعوته قومه إلى عبادة الله وحده، وتخويفهم يوم القيامة، وما جرى بينه وبين الملأ الذين كفروا من قومه من المجادلات، واستعجالهم العذاب، وإغراقهم بالطوفان الذي عم السهل والجبل، والبر والبحر، وأغرق جميع أهل الأرض من الكافرين، بما فيهم ابنه؛ لأنه كان كافرًا، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة من المؤمنين، وفي ذلك أعظم الدلائل على كمال قدرة الله تعالى، وأعظم العبر والمواعظ.

١٥- بيان أن ما ذكره تعالى له ﷺ في هذه القصة العظيمة- قصة نوح وقومه- هي من أنباء الغيب الدالة على إحاطته عز وجل بالغيب، وعلى صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، وأنه من عندالله؛ لأنه ﷺ ما كان له ولا لقومه من علم بذلك.

١٦- ثم أتبع ذلك بالتذكير بقصة عاد ونبيهم هود عليه السلام، ودعوته لهم إلى عبادة الله دون غيره، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم إياه وكفرهم، واتباعهم أمر كل جبار عنيد، وإنجائه والذين آمنوا معه برحمة من الله، وأخذ المكذبين بالعذاب الغليظ؛ بإهلاكهم بالريح وإتباعهم باللعنة في الدنيا، وإبعادهم في الآخرة.

١٧- ثم أتبع ذلك بالتذكير بثمود ونبيهم صالح عليه السلام ودعوته إياهم لعبادة الله وحده لاشريك له، وتذكيرهم بنعم الله، وتكذيبهم له، وإيتائهم الناقة آية مبصرة، وعقرهم لها، وتهديده إياهم بالعذاب ثلاثة أيام، وإنجاء صالح عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة من الله، من خزي ذلك اليوم، وأخذ الذين ظلموا من قومه بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يستمتعوا بالنعم في تلك الديار.

١٨- ثم ذكر عز وجل قصة إبراهيم عليه السلام وضيوفه من الملائكة، ومجيئهم له بالبشرى، ومسارعته إلى ضيافتهم، وتخوفه منهم لما لم يأكلوا، وطمأنتهم له، وإخباره أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، وبشارتهم لامرأته بإسحاق ومن بعده يعقوب، وتعجبها من ذلك، ومجادلة إبراهيم لهم في قوم لوط، وما جرى في قصة لوط وأضيافه وقومه، وأمر الملائكة له أن يسري بأهله بقطع من الليل، وإنجاء لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته، وقلب ديار قومه عليهم بجعل عاليها سافلها وإمطارهم بالحجارة.

١٩- ثم أتبع ذلك بذكر قصة شعيب عليه السلام وقومه مدين، ودعوته إياهم لعبادة الله وحده، ونهيهم عن نقص المكيال والميزان، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان

بالقسط، وعدم بخس الناس أشياءهم ونهيهم عن الفساد في الأرض، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم له، وتوعده إياهم بالعذاب، ومن ثم إنجاء شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة من الله، وأخذ المكذبين بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يتمتعوا بتلك الربوع.

٢٠- ثم أشارت السورة باختصار إلى قصة إرسال موسى بالآيات وسلطان مبين إلى فرعون وملئه، واتباعهم أمر فرعون، وتوعدهم يوم القيامة بالنار، واللعنة في هذه الدار، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود.

٢١- ثم ختم أخبار هذه الأمم المكذبة للرسل، بأن هذه الأنباء من أنباء القرى نقصها عليك منها قائم وحصيد، وأن ما وقع بهم من العذاب لا بظلم من الله تعالى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم آلهة من دون الله، لم ينفعوهم، وما زادوهم غير تخسير، والوعيد بأن هذا أخذه عز وجل إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديد، وبيان أن في ذلك عظة وعبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وتوعدهم بشدة ذلك اليوم وأهواله.

٢٢- بيان انقسام الناس في ذلك اليوم إلى شقي وسعيد؛ شقي خالد في النار، وسعيد خالد في الجنة.

٢٣- ذم المشركين وما هم عليه من عبادة غير الله مما كان عليه آباؤهم مما لا مرية في بطلانه، وتوعدهم بإيفائهم نصيبهم من العذاب غير منقوص.

٢٤- التذكير بإيتاء موسى الكتاب، واختلاف أهل الكتاب وتشكيكهم فيه وتوعدهم بتوفيتهم أعمالهم؛ لتمام خبرته عز وجل بها، وفي هذا والذي قبله تسلية له ﷺ.

٢٥- أمره ﷺ بالاستقامة كما أمره الله والذين آمنوا معه وتحذيرهم من الطغيان، وأنه مطلع عليهم بصير بأعمالهم، وتحذيرهم من الركون إلى الذين ظلموا، فتصيبهم النار، وما لهم من دون الله من أولياء ثم لاينصرون.

٢٦- أمره ﷺ بإقام الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل؛ فرضها ونفلها، ذكرى للذاكرين، وأمره بالصبر، وأن ذلك كله من الإحسان، وهو عز وجل لا يضيع أجر المحسنين.

٢٧- قلة الناهين عن الفساد، واتباع أكثر الخلق- بظلمهم وجرمهم- ما أترفوا فيه.

٢٨- بيان عدل الله تعالى، وأنه ما كان ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.

٢٩- إثبات القدر، وأن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الحق والإيمان، لكنهم لا يزالون مختلفين، إلا من رحم الله؛ لأن الله خلقهم- كونًا- لهذا الاختلاف؛ منهم كافر، ومنهم مؤمن.

٣٠- ثم ختمت السورة بالتنبيه على أن ما قصه الله على رسوله ﷺ في هذه السورة أو في غيرها، من أنباء الرسل وأممهم وما جرى لهم وما انتهى إليه أمرهم؛ هو لتثبيت فؤاده؛ لقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣١- التهديد والوعيد للذين لا يؤمنون بالعمل على مكانتهم والانتظار: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٣٢- بيان اختصاصة عز وجل وحده بعلم الغيب، ومرجع الأمر كله إليه، والامر بالجمع بين عبادته والتوكل عليه ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المُقطّعة في أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا كتاب، والمراد به: القرآن لكريم، ونُكِّر ﴿كِتَٰبٌ﴾ للتعظيم، أي: كتاب عظيم.

وسُمِّي «كتابًا»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في المصاحف بأيدي المؤمنين، ولأن ما فيه من أحكام مكتوب ومفروض العمل بها.

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾.

والإحكام: إتقان الصنع، فمعنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أُتقنت وبُيِّنت، وسلمت من الخلل في ألفاظها ومعانيها، وأحكامها، وأخبارها، كما قال تعالى في سورة فُصِّلت: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾: ميزت وبُيِّن ما فيها من الأحكام، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، وغير ذلك.

﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أي: من عند حكيم خبير، وهو الله- عز وجل- ذو الحكم التام، والحكمة البالغة في أمره ونهيه، وشرعه وقدره، وذو الخبرة التامة والواسعة بجميع الأمور والأشياء؛ دقائقها وجلائلها، بواطنها وظواهرها، خفيّاتها وجليّاتها، عواقبها ومآلاتها.

ولكمال حكمه وحكمته، وواسع علمه وخبرته؛ أحكم وفصّل آياته وبيّنها، فجاءت في أعلى مقامات الإحكام والتفصيل، والإيضاح والبيان.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾؛ «أن» تفسيرية؛ فالجملة تفسير وبيان لما أُحكم وفُصِّل من الآيات؛ لأن النهي عن عبادة غير الله، وإيجاب عبادته وحده؛ هو أصل الدين، وكل ما جاء في هذه السورة أو في القرآن كله متفرع عن هذا الأصل، أي: أنزل هذا القرآن المُحكم المفصّل لعبادة الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وجملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بألّا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الله وحده لا شريك له، والخطاب في هذه الآية وما بعدها للناس كافة.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ هذه الجملة معترضة بين جملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، وجملة ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ الآية؛ للتحذير من عبادة غير الله، والتبشير لمن عبد الله ووحَّده.

أي: إنني لكم- أيها الناس- من الله ﴿نَذِيرٞ﴾، أي: مُنذر ومُحَذِّرٌ لمن عَبَد غير الله، وخالف أمره، وتجرأ على المعاصي؛ بعقاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تصبحكم، ألستم مُصدِّقيّ؟ فقالوا: نعم؛ ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد»(١).

﴿وَبَشِيرٞ﴾، أي: ومبشر لمن آمن وعبد الله وحده، وأطاعه بثواب الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المسد ٤٩٧١، ومسلم في الإيمان؛ قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ٢٠٨.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥، الفرقان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ ﴾ [الأنعام: ٤٨، الكهف: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴾.

قوله: ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ ﴾، أي: بألّا تعبدوا إلا الله، وأن استغفروا ربكم، أي: اطلبوا منه المغفرة؛ بستر ما سلف منكم من الشرك بالله والذنوب والمعاصي، والتجاوز عن ذلك، وعدم المؤاخذة به.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾، أي: ثم أنيبوا وارجعوا إليه فيما تستقبلون من أعماركم؛ بالإقلاع عما كنتم عليه من الشرك والذنوب، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، والتقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح، والاستمرار على ذلك.

﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ المتاع: كل ما يتمتع به، أي: ينتفع به، أي: يُمهلكم، ويعطيكم من الرزق ما تتمتعون به، وتنتفعون، ويحييكم حياة طيبة.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾، أي: إلى وقت محدد معين، وهو وقت وفاتكم وانتهاء آجالكم.

﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ ﴾، أي: ويعطي كل صاحب فضل منكم؛ من عمل صالح وبرٍّ وإحسان ﴿فَضۡلَهُۥۖ ﴾؛ الضمير يعود إلى فاعل «يؤت»، وهو الله عز وجل، أي: ويؤت الله ﴿فَضۡلَهُۥ ﴾، أي: ثوابه المُضاعف، كل صاحب فضل في عمله، والجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى؛ إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ٥٦، ومسلم في الوصية- الوصية بالثلث ١٦٢٨- من حديث سعد رضي الله عنه.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ «تولوا»: أصلها «تتولوا» فحُذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أي: فإن تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده، واستغفار ربكم والتوبة إليه.

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن توليتم: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، أي: عذاب يوم القيامة، ونكّر «يوم»؛ للتهويل، ووصف بالكبر؛ لزيادة التهويل، أي: يوم عظيم شديد شاق ثقيل؛ لشدة ما يقع فيه من العذاب والأهوال. وفي هذا تهديد شديد لمن تولى عن عبادة الله تعالى، وخالف أمره، وكذّب رسله؛ بأن العذاب الشديد سيناله يوم القيامة لا محالة.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

الآية في موضع التعليل لما قبلها؛ وذلك أنه لما خوّفهم وحذّرهم عن التولِّي بعذاب يوم كبير، أتبع ذلك ببيان أن مرجعهم إلى الله وهو على كل شيءٍ قدير، فلا مفر ولا مهرب لهم منه، فإليه إيابهم، وعليه حسابهم.

قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾، أي: إلى الله مردكم ومعادكم يوم القيامة؛ فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ من بعث الخلائق، وردهم إليه، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وغير ذلك، لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

عن محمد بن جعفر، قال: قرأ ابن عباس: «ألا إنهم تَثْنَوْنِي صُدورُهم ليستخفوا منه»، قال: قلت: يا أبا العباس، ما تثنوني صدورهم؟ قال: كان الرجل يجامع زوجته فيستحيي، أو يتخلى فيستحيي؛ فنزلت: «ألا إنهم تَثْنَوْنِي صُدورُهم»(١).

وفي رواية قال ابن عباس: «أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود- ٤٦٨١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم»(١).

وهذا السبب- وإن كان صحيح الإسناد- فإن معناه لا يتوافق مع ظاهر معنى الآية وسياقها، فظاهر معناها الذم لمن هذه صفته، وسياقها إنما هو في المشركين، والمذكورون في الحديث ليسوا أهلًا للذم، بل هم أهل للثناء والمدح. والله أعلم.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾، «ألا»: للتنبيه والاهتمام في الموضعين.

﴿إِنَّهُمۡ﴾، أي: المشركون والمكذبون.

﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾، أي: يُكنون ويضمرون في قلوبهم الكفر، ويحرفون، ويميلون صدورهم؛ إذا قالوا شيئًا مما يخالف أمر الله، أو فعلوه.

﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يستتروا من الله؛ ظنًا منهم أنه تخفى عليه أعمالهم إذا أسروها.

ويجوز عود الضمير في قوله: ﴿مِنۡهُ﴾ على الرسول ﷺ، وأن المكذبين له ﷺ من شدة إعراضهم إذا رأوه ثنوا صدورهم واحدودبوا؛ لئلا يراهم ويسمعهم كلام الله ويعظهم، والأول أصح.

﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾، أي: ألا حين يغطون رؤوسهم وأبدانهم بثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل.

﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ «ما»: موصولة، أي: يعلم الذي يخفون والذي يظهرون من الأقوال والأعمال، وفي هذا إعلام من الله تعالى لهم أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم؛ حتى في حال استغشائهم لثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل، يعلم الذي يضمرون ويخفون، ويعلم الذي يظهرون، فكيف يثنون صدورهم ليستخفوا منه؟ ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب وما تنطوي عليه من النيات والمكنونات والسرائر

---

(١) أخرجها البخاري في الموضع السابق ٤٦٨٢.

والمضمرات. قال زهير[١]:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ... ليخفى فمهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كِتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن: بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، لقوله تعالى: ﴿الٓر﴾؛ لأن الحكمة في ذكر الحروف المقطعة أوائل بعض السور- على الصحيح من أقوال المفسرين- هي التحدي بالقرآن.

٢- إحكام آيات القرآن وإتقانها غاية الإحكام والإتقان؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

٣- تفصيل آيات القرآن وإيضاحها وبيانها غاية التفصيل والإيضاح والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

٤- إثبات أن القرآن نزل من عند الله تعالى، وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ ولهذا جاء في غاية الإحكام والإتقان، والتفصيل والبيان.

٥- إثبات أنه عز وجل ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾.

٦- أنه عز وجل ذو الخبرة التامة والعلم الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرٍ﴾.

٧- النهي عن عبادة غير الله، ووجوب عبادته وحده؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

٨- أن التحذير من الشرك، والأمر بعبادة الله وحده هو أصل الدين الذي به أحكمت آيات القرآن ثم فصلت، وكل ما جاء في هذه السورة أو في القرآن كله فهو متفرع عن هذا الأصل.

٩- أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للناس- كغيره من الرسل قبله- هي الإنذار لمن

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٨).

كفر وأشرك بالله وخالف أمره، والتبشير لمن آمن بالله وأطاع الله وامتثل أمره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، ومن لازم ذلك الدعوة، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

١٠- الأمر بالاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى والإغراء في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ الآية.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

١٢- عظم ما أعد الله تعالى للمستغفرين التائبين من ثواب الدنيا والآخرة؛ فبالاستغفار والتوبة يحصل الإمهال، والمتاع الحسن، والحياة الطيبة الكريمة في الدنيا، والفضل العظيم، والثواب الجزيل في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

١٣- التحذير من التولي والإعراض عن عبادة الله تعالى وتوحيده واستغفاره، والتوبة إليه، وأن ذلك سبب لعذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

١٤- إثبات يوم القيامة، وشدة عذابه وخطره وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

١٥- إثبات البعث ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

١٦- إثبات وتأكيد قدرة الله تعالى على كل شيء؛ من بعث الخلائق، وردهم إليه، ومجازاتهم بأعمالهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٧- فضح الكفار والمشركين وتوبيخهم في ثنيهم صدورهم؛ ليخفوا عن الله ما تنطوي عليه قلوبهم من الكفر، وما يرتكبونه من قبيح الأقوال والفعال؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾.

١٨- إثبات علم الله تعالى بجميع أحوالهم؛ ما يسترون منها، وما يسرون ويضمرون،

وما يعلنون منها ويظهرون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١٩- علم الله تعالى التام بما في الصدور والقلوب؛ من النيات والمكنونات والمضمرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥﴾.

٢٠- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ لعلمه الواسع المحيط بما يُخفَى ويُستر، وبما يُسر ويُعلن، وبما تُكنه الصدور وتنطوي عليه القلوب، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

بعدما بيّن عز وجل علمه بما يُسَر ويُعلن وبذات الصدور، وعلمه بما سوى ذلك من باب أولى؛ أتبع ببيان تكفله عز وجل بأرزاق جميع الدواب، وعلمه بمستقرها ومستودعها.

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ «الدابة»: كل ما يدب على وجه الأرض؛ من إنسان وحيوان، في البر أو البحر. و«دابة» أصلها «داب»، والهاء فيها للمبالغة.

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: على الله تعالى وحده رزقها، لا على غيره، وقد أكد هذا الخبر بمؤكدين: أداة الحصر «إلا»، وتقديم الخبر.

و﴿رزقها﴾: طعامها، وشرابها، وما تحتاجه، وما به عيشها، فكل ذلك قد تكفل به عز وجل؛ تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾، أي: ويعلم المكان الذي تستقر فيه وتأوي إليه، ليلًا أو نهارًا في حياتها.

﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، أي: ويعلم مستودعها، أي: موضعها حيث تموت وإذا ماتت.

وقيل: مستودعها الرحم، وقيل: مستقرها الرحم، ومستودعها الصلب، كما قال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الآية: ٩٨].

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي: كل دابة، ورزقها، ومستقرها ومستودعها، وغير ذلك؛ في ﴿كتاب مبين﴾، والتنوين في ﴿كل﴾ عوض عن المضاف إليه.

﴿في كتاب﴾، أي: مكتوب في اللوح المحفوظ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿مبين﴾ من «أبان» بمعنى: أظهر، أي: كتاب مبين عما كتب فيه، أي: مظهر له.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

بعدما ذكر تكفله عز وجل بأرزاق جميع الدواب، وعلمه بجميع أحوالها؛ أتبع ذلك ببيان ما هو أجل وأعظم، وهو خلق السموات والأرض. وفي ذلك كله أعظم الدلالة على البعث بعد الموت؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أوجدهما وأنشأهما على غير مثال سبق، وما فيهما وما بينهما من المخلوقات والعوالم.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا المعلومة.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، أي: وكان عرشه على الماء قبل خلق السموات والأرض.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم. قالوا: بشرتنا فأعطنا. قال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن. قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء. قال: فأتاني آت، فقال: يا عمران، انحلت

ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها؛ فلا أدري ما كان بعدي»(١).

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: أنفق أُنفِق عليك، وقال: يدي ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**»(٣).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، أي: يختبركم ويمتحنكم بالأمر والنهي؟

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أيكم أخلص وأصوب عملًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: «أخلصه وأصوبه»(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله ﴿وهو محسن﴾، أي: متبع لرسول الله ﷺ.

ولم يقل: ﴿أيكم أكثر عملًا﴾؛ لأن العبرة بكون العمل حسنًا صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، لا بكثرته، فالعبرة بالكيف لا بالكم.

فالمعنى: هو الذي خلق السموات والأرض؛ لأجل أن يختبركم بالأمر والنهي؛ ليتبين المؤمن الشاكر من الجاحد الكافر، ويتبين الصابر من غيره؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٠، وفي التوحيد ٧٤١٨، وأحمد ٤/ ٤٣١- ٤٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣.

(٤) انظر: «حلية الأولياء (٨/ ٩٥)، «الإخلاص والنية» لابن أبي الدنيا (ص٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

أي: أنه عز وجل خلق السموات والأرض والخلق كله لأجل عبادته وتوحيده، وابتلائهم أيهم أحسن عملًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

فالأمر خطير جد خطير، والمسؤولية عظيمة، والعقبة كؤود، وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(١)

وقال الآخر:

الأمر جدٌّ وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٢)

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ اللام هنا وفي المواضع الثلاثة بعدها: موطئة للقسم، والخطاب للنبي ﷺ، أي: والله لئن قلت للناس: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ من بعد موتكم للحساب والجزاء على أعمالكم.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الذين جحدوا آيات الله وأنكروها وكذبوك بما جئتهم به.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا الذي جئت به، والذي تقوله من أننا سنبعث بعد الموت.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ساحر» بالألف، وقرأ الباقون: ﴿سِحْرٌ﴾.

«إلا» أداة حصر. ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن ظاهر في نفسه أنه سحر، مبين أن من جاء به ساحر.

---

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

والمعنى: أنهم مع إقرارهم بأن الله هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، مما يدل على تمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ هم مع ذلك ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، والذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ذكر في الآية السابقة تكذيب الذين كفروا بالبعث، وزعمهم أن القول به سحر مبين، ثم أتبعه بذكر استعجالهم بالعذاب؛ تهكمًا وتكذيبًا به، واستبعادًا وإنكارًا لوقوعه.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: ولئن أجلنا عن هؤلاء الكفار العذاب، أي: عذاب الدنيا أو الآخرة.

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: إلى مدة؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: ٤٥]، أي: بعد مدة(١).

﴿مَّعْدُودَةٍ﴾، أي: مقدرة محسوبة.

أي: ولئن أجلنا عنهم العذاب إلى مدة مقدرة محصورة، وأجل محدد معلوم، وأمهلناهم.

---

(١) كما تستعمل «أمة» بمعنى «مدة» تستعمل أيضًا بمعنى «قدوة» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وتستعمل بمعنى «ملة»؛ كما قال المشركون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، وتستعمل بمعنى «جماعة» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ... ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩]، أي: جماعة.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ إشارة إلى قلتها؛ لأن الشيء القليل هو الذي يمكن ضبطه بالعدد.

﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن تهكمًا، واستعجالًا، وتكذيبًا به، واستبعادًا وإنكارًا له.

﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾؛ «ما»: استفهامية، أي: ما الذي يمنعه ويؤخره عنا.

﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾؛ «ألا»: للتنبيه والاهتمام والتخويف والتهديد لهم، أي: ألا حين يأتيهم العذاب الذي يكذبون به ويستعجلونه.

﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾، أي: لا يصرف عنهم، أي: لا يصرفه صارف، ولا يدفعه دافع، بل هو واقع بهم- لا محالة- ومهلكهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط بهم من كل جانب ونزل بهم.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ «ما» موصولة، أي: العذاب الذي كانوا به يستهزئون، أي: إنه نازل بهم لا محالة، وحال بهم حلولًا لا مخلص لهم منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾.

قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾؛ «أل» في الإنسان للجنس، أي: جنس الإنسان، فيعم جميع الناس.

والمراد بالرحمة في قوله: ﴿مِنَّا رَحۡمَةً﴾: كل خير يعطيه الله الإنسان، أي: ولئن أذقنا الإنسان، أي: أعطيناه ﴿مِنَّا رَحۡمَةً﴾؛ من صحة، وأمن، ورخاء، وسعة في الرزق والعيش والمال والأهل والولد، وغير ذلك.

﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾، أي: ثم سلبنا هذه الرحمة منه، فتبدلت صحته بالمرض، وأمنه بالخوف، ورخاؤه بالشدة، ونحو ذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: إنه- لجهله وظلمه- لشديد اليأس والقنوط من رحمة الله، ومن كل خير في المستقبل؛ فلا يؤمل فرجًا، ولا يرجو ثوابًا.

﴿كَفُورٞ﴾، أي: جحود لما مضى من رحمة الله تعالى له، ونعمته عليه، كأنه لم ير خيرًا قط.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾، أي: نعمة؛ من صحة، وأمن، وغنى، ورخاء، ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾، أي: بعد ضراء أصابته؛ من مرض، وخوف، وفقر، ونحو ذلك.

﴿لَيَقُولَنَّ﴾، اللام واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن- لجهله وظلمه-: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، أي: ما بقي ينالني بعد هذا سوء ولا مكروه.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لفرح بما أذاقه الله من النعماء، وما ذهب عنه من السيئات، فرح بطر وأشر، مغترًا بذلك؛ كحال قارون، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦].

﴿فَخُورٌ﴾: على عباد الله بنعم الله، متعالٍ متعاظم عليهم، محتقر لهم، غير شاكر لربه؛ كما قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

لما ذكر طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه عند سلب النعمة منه يؤوس قنوط، كفور بنعم الله السابقة عليه، وعند النعمة فرح فرح بطر وأشر، فخور على الناس متعاظم عليهم؛ استثنى من هذا الوصف المذموم الذين صبروا وعملوا الصالحات.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، والمستثنى منه قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، أي: إلا الذين صبروا إيمانًا بالله تعالى

واستسلامًا لقضائه، واكتفى بوصفهم بالصبر دون الإيمان؛ لأن الصبر دليل الإيمان، ومن أعظم منازله، بل هو «نصف الإيمان»(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته، فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»(٢).

أي: إلا الذين صبروا على الابتلاء بالنقم والشدائد، وعلى الابتلاء بالنعم والرخاء؛ فلم ييأسوا عند سلب النعمة عنهم، ولم يجحدوا ما كان منها قبل ذلك، ولم يغتروا بها عند حصولها، ويطمعوا بدوامها، ويفرحوا بها فرح بطر واختيال وفخر على الناس.

والابتلاء كما يكون بالنقم يكون بالنعم، والشكر عند النعم أشد من الصبر عند النقم؛ ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»(٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الفقر والغنى مطيتان، ما أبالي أيهما ركبت: إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل»(٤).

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «أصبحت والسراء والضراء مطيتان على بابي، لا أبالي على أيهما ركبت»(٥).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الفقر والغنى مطيتان، لا أبالي أيهما أمتطي».

والمراد بالذين صبروا: أهل الإيمان؛ لأن الإيمان هو الذي يُروِّض صاحبه على الصبر عند الضراء؛ انتظارًا للفرج من الله، ورجاءً في ثوابه، وعلى الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته؛ رجاءً في ثوابه؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص٥١٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٤١٩.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٢)، «قوت القلوب في معاملة المحبوب» (٢/ ٦٦).

(٥) انظر: «الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة» (ص٤٦)، «سوء الخلق» (ص١٣٧).

ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

وقال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن اصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

وقال ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا غم، حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياه**»(٢).

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات، في الشدة والرخاء؛ شكرًا لله تعالى على آلائه السابقة واللاحقة.

وحذف الموصوف من قوله ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي الأعمال؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم، ورفعةً لشأنهم.

وفي الجملة قصر، أي: أولئك لهم- خاصةً- مغفرة لذنوبهم.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب كبير عظيم لا يقدر قدر كبره إلا من وصفه بأنه كبير، وهو الكبير المتعال، والمراد به: الجنة وما فيها من ألوان النعيم، الذي أكبره وأعلاه رؤية الرب الكريم.

الفوائد والأحكام:

١- تكفل الله عز وجل برزق جميع الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

٢- علم الله عز وجل بمستقر كل دابة؛ ليلها ونهارها، وبمستودعها وموضعها حيث تموت وإذا ماتت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

٣- وجوب طلب الرزق من الله تعالى، والتوكل عليه في ذلك، مع بذل الأسباب؛ لأن الأرزاق كلها بيده.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله لله، ٢٩٩٩، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، وأحمد ٣/ ٤؛ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

٤- وجوب مراقبة الله تعالى في جميع الأحوال؛ لأنه عز وجل يعلم أحوال العباد، ولا تخفى عليه منهم خافية.

٥- إثبات تقدير الله مقادير كل شيء، وعلمه بها، وكتابته لها في اللوح المحفوظ؛ من دواب الأرض كلها، ومستقرها ومستودعها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

٦- إثبات تمام قدرة الله تعالى وعظمته؛ حيث خلق وأوجد السموات والأرض على غير مثال سبق في ستة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٧- حكمة الله تعالى في جعله خلق السموات والأرض في ستة أيام، مع قدرته عز وجل على خلقها بقوله: ﴿كُن﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

٨- إثبات عرشه عز وجل، وأنه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

٩- أن الله عز وجل خلق السموات والأرض والخلق كله؛ لأجل عبادته، وابتلاء العباد بالأمر والنهي أيهم أحسن عملًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

١٠- الترغيب في المنافسة في حسن العمل، والمسابقة في ذلك.

١١- إنكار الذين كفروا للبعث بعد الموت، وزعمهم أن القول به سحر مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٢- استعجالهم بالعذاب؛ استبعادًا له، وتكذيبًا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾.

١٣- حكمة الله عز وجل في تأجيل العذاب عن المكذبين؛ استدراجًا لهم.

١٤- تخويف المكذبين بالعذاب، وتهديدهم به، وأنه واقع بهم لا محالة في الدنيا والآخرة، لا يصرف عنهم، ومحيط بهم ما كانوا به يستهزئون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ

يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

١٥- أن من أسباب وقوع العذاب وإحاطته بالمكذبين استهزاؤهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

١٦- أن من طبيعة الإنسان من حيث هو؛ اليأس والقنوط عند سلب النعمة منه، وجحود ما مضى من نعم الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

١٧- اغترار الإنسان بحصول النعماء له بعد الضراء، وظنه دوام ذهاب السوء والمكروه عنه، وفرحه بذلك فرح بطر وأشر، وفخره وتعاظمه على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

١٨- استثناء المؤمنين الذين صبروا وعملوا الصالحات مما ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلا ييأسون عند سلب النعمة وحصول الضراء، ولا يجحدون نعمة سابقة، ولا يغترون بنعمة لاحقة، ولا يفرحون بها فرح بطر وأشر وافتخار.

١٩- لابد من الجمع بين الصبر بأنواعه الثلاثة والعمل الصالح، بل لا يمكن القيام بالعمل الصالح إلا بالصبر.

٢٠- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لوجه الله تعالى، تبعًا لسنة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢١- عظم ما أعدَّ الله للمؤمنين الصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: فلهم مغفرة لذنوبهم، وستر لها، وتجاوز عنها، ولهم أجر كبير لا يقدر قدر كبره إلا الله عز وجل.

٢٢- الترغيب في الصبر والعمل الصالح؛ لأن الله وعد الذين صبروا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر الكبير.

٢٣- أن التخلية قبل التحلية، وأن زوال المرهوب مقدم على حصول المطلوب؛ ولهذا قدم المغفرة على الأجر الكبير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، و«ما»: موصولة، أي: فلعلك تارك بعض الذي يوحى إليك.

﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾؛ الباء: للسببية، والضمير في ﴿به﴾ عائد إلى قوله: ﴿بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، أي: وضائق بسبب بعض الذي يوحى إليك صدرك، أي: بسبب تلاوته على هؤلاء المكذبين وتبليغه إياهم.

و«ضائق» اسم فاعل، وعدل عن «ضَيِّق»- والله أعلم- لمراعاة النظير مع قوله: ﴿تَارِكٌۢ﴾، وذلك أفصح، وفيه إيماء إلى أنه ضيق قليل قد يعرض له، بخلاف ما لو قال: «ضيِّق»، فهذا أبلغ في الضيق؛ لأن الصفة المشبهة تدل على تمكن الوصف من الموصوف.

﴿أَن يَقُولُوا۟﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله على حذف مضاف، أي: خشية أن يقولوا، أو في محل جر بلام التعليل المقدرة، أي: لئلا يقولوا، أي: لأجل قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾.

كما في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾؛ «لولا» للتحضيض، أي: هلا أنزل عليه كنز.

و«الكنز» المال الكثير المكنوز، أي: المخبوء.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يشهد برسالته.

والمعنى: لا ينبغي أن تترك بعض الذي يوحى إليك، فلا تبلغ به هؤلاء المكذبين، ويضيق صدرك بتلاوته عليهم وتبليغه إياهم؛ لأجل ما يقترحونه من الآيات تعنتًا منهم وعنادًا؛ من قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾، متجاهلين ما أيدك الله به من الآيات البينات، فلا يليق أن يؤثر فيك هذا ويصدك.

وهذا من باب التسلية له ﷺ، وتقوية قلبه، وتحذيره من أن يفت ذلك في عضده، أي: فلا تبالِ بقولهم هذا، وامض في سبيل دعوتك.

وفيه أيضًا: تأييس للمكذبين من تركه بعض ما يوحى إليه؛ من ذكر البعث، والإنذار من عذاب الله، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾، أي: مما يقترحونه ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا نذير، أي: منذر ومحذر من عذاب الله تعالى لمن كذب بما جئت به من الحق وخالف أمر الله تعالى، وليس إليك أمر الإتيان بما يقترحونه من الآيات، ولك أسوة بالرسل قبلك؛ فقد كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ فهو الوكيل عليهم وعلى غيرهم، وبيده هدايتهم، وعليه حفظ أعمالهم، وحسابهم وجزاؤهم، وليس إليك من ذلك شيء.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ

ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

سبق الكلام على مثيلة هذه الآية في سورة يونس، إلا أنه قال في سورة يونس: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴿٣٨﴾﴾، بينما قال هنا: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، أي: مختلقات كما تزعمون.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾؛ السين والتاء للتأكيد، أي: فإن لم يجيبوا لكم في الإتيان بعشر سور مثله يفترونها- كما يزعمون أنه مفترى-؛ لعدم استطاعتهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فاعلموا وتيقنوا أن القرآن إنما أنزل بعلم الله وحده، أي: بما لا يعلمه غيره؛ لإعجازه بألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وأخباره، واستحالة معارضة الخلق له، بإتيانهم بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: واعلموا أن لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فهل أنتم مستسلمون لله تعالى بتوحيده وعبادته، منقادون لطاعته، متخلصون من الشرك. والاستفهام بمعنى الأمر، أي: فأسلموا لله تعالى ووحدوه وأطيعوه؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، أي: انتهوا.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾؛ «من»: شرطية، و«كان»: فعل الشرط، أي: من كان من الناس.

﴿يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، أي: يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها فقط، وهم الكفار، بدليل قوله بعد هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وزينة الحياة الدنيا: كل ما يتمتع به فيها من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾، أي: نعطيهم جزاء أعمالهم في الحياة الدنيا وافيًا بحسب ما كتب لهم، وليس معنى ذلك أنه يحصل لهم مرادهم.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، أي: وهم في هذه الحياة الدنيا لا ينقصون شيئًا من جزاء أعمالهم الدنيوية حسب ما قدر لهم، ويجوز عود الضمير في ﴿فِيهَا﴾ إلى أعمالهم، والمعنى متقارب.

وهذا منتهى نعيمهم، فيا خيبتهم ويا عظم خسارتهم؛ ولهذا لما ذكر عمر للنبي ﷺ حال فارس والروم، وما هم فيه من المتعة؛ قال له النبي ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»(١)، وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾؛ الإشارة للذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها فقط، وأشار بإشارة الجمع؛ مراعاةً لمعنى «من»، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، أي: أولئك الذين يريدون بأعمالهم مجرد الحياة الدنيا وزينتها فقط، ليس لهم في الدار الآخرة إلا النار خالدين فيها، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا الثواب؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٨، ومسلم في الطلاق ١٤٧٩، والترمذي في التفسير ٣٣١٨- من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٢) أخرجها البخاري في التفسير ٤٩١٣، ومسلم في الطلاق ١٤٧٩ - عنهما- رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠].

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾، أي: وحبط الذي صنعوا، أو: وحبط صنعهم في هذه الحياة الدنيا، أي: ذهب وزال نفع عملهم، فلم ينتفعوا به، بل كان زادًا لهم إلى النار، قال لبيد(١):

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: وباطل الذي كانوا يعملونه، أي: ضائع عملهم؛ سواء كان مما يكيدون به للحق وأهله، أو مما قد يثاب عليه أهل الإيمان من أعمال البر والإحسان، وإكرام الضيف وإطعام الطعام ونحو ذلك؛ بسبب كفرهم؛ لأنه لا يقبل مع الكفر أيّ عمل.

وفي الآية إشارة إلى أن سبب مكابرة المشركين وتكذيبهم القرآن هو إرادتهم الحياة الدنيا وزينتها لا غير.

كما أن فيها تنبيهًا للمسلمين بألَّا يغتروا بظاهر حسن حال الكفار في الدنيا، أو يستبطئوا تعجيل عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، والفاء: عاطفة، و«من»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: كغيره، أو: كمن ليس كذلك.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٥٦).

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤].

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: على دليل وبرهان ويقين من ربه، بما أوحاه الله تعالى إليه في القرآن الكريم، والضمير في «به» يعود إلى نبينا محمد ﷺ، ومن اتبعه من المؤمنين بالأخذ بما جاء به من الحق من عند ربه عز وجل، والدعوة إليه، فهم أحق بهذا الوصف.

والمراد بالربوبية في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: ربوبية الله الخاصة بأنبيائه وأتباعهم المؤمنين.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أي: وجاءه شاهد من ربه مما أوحاه الله تعالى إلى الأنبياء من الكتب المبشرة به ﷺ، والشاهدة بصدقه وصدق ما جاء به من الوحي؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

وشاهد من الفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها، والعقل الصحيح الموافق للنقل الصحيح؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه»(١).

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»(٢).

ويجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أي: شاهد من الله عز وجل؛ يعني: جبريل عليه السلام الذي بلغه النبي ﷺ، أو: النبي ﷺ الذي بلغه الأمة، وكل منهما شاهد بصحة القرآن الكريم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٨٥، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥- من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه.

ويجوز أن يعود الضمير في قوله ﴿مِّنْهُ﴾ إلى القرآن نفسه، أي: ويتلو هذه البينة والبرهان- وهو القرآن- شاهد من القرآن نفسه على صدقه وأنه حق من عند الله، وهو: إعجازه بألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وأخباره.

وكل هذه الأمور الأربعة شواهد على صدق القرآن الكريم؛ فالكتب السابقة شاهدة بصدقه، والفطرة السليمة شاهدة بصدقه، وجبريل عليه السلام ومحمد ﷺ كل منهما شاهد بصدقه، وهو أيضًا شاهد بالصدق على نفسه؛ لما احتواه من الإعجاز الذي أعيا البلغاء والفصحاء، وأعجز الإنس والجن عن الإتيان ولو بسورة مثله.

وقيل المراد بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: النصارى الذين عرفوا حقيقة الإسلام؛ كورقة بن نوفل، ودحية الكلبي، وغيرهما؛ فهم على بينة من ربهم بما جاءهم من الحق على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام في الإنجيل، ويتلوه ويتبعه شاهد من الله عز وجل، وهو القرآن الكريم الذي أنزله تعالى على محمد ﷺ.

والأول أعم وأولى، وهو يشمل من آمن بالرسول ﷺ من النصارى وغيرهم.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: ومن قبل القرآن الكريم ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: التوراة، مبشرًا بالقرآن، وشاهدًا بصدقه وصحته، وموافقًا لما جاء به من الحق.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، فيهما ثناء على التوراة، الذي هو أفضل كتب الله بعد القرآن الكريم، أي: قدوة للناس يقتدون به؛ لما فيه من تفصيل الشريعة، ويهتدون به إلى الإيمان بالقرآن؛ لتبشيره به، ورحمة لهم في الدنيا؛ لما فيه من إقامة العدل بينهم، وفي الآخرة بجزاء الاستقامة عليه، وذلك قبل نزول القرآن الذي نسخ الله به جميع الكتب السابقة، وجعله مهيمنًا عليها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ خبر المبتدأ «مَن» في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

والإشارة إلى من كان على بينة من ربه، وأشار إليه بإشارة الجمع مرة؛ لمعنى «من»، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم ورفعة لشأنهم، أي: أولئك الذين كانوا على بينة من ربهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن، وهو معلوم من المقام، وتقدم ضميره في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، وقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ

بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، أي: ومن يكفر بالقرآن ويكذب به ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، أي: من سائر طوائف أهل الأرض؛ من مشركي أهل الكتاب، ومشركي العرب، وغيرهم من أهل الملل والنحل الباطلة؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: ١٢، ١٣].

﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾، أي: لابد من وروده إليها، وخلوده فيها، وهذا وعيد لكل من بلغه القرآن وكذَّب به؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾، أي: فلا تكن في أدنى شك.

﴿مِّنْهُ ۚ﴾، أي: من القرآن الكريم، وقيل: من الموعد، والأول أصح.

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ تعليل لما قبلها، أي: إنه الحق الثابت من ربك، تكلم به عز وجل وأنزله عليك؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ١، ٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ «لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن، ومع كون القرآن هو الحق من عند الله عز وجل؛ فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن، ولا بما

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس ١٥٣- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان وغيرها؛ إما جهلًا منهم وضلالًا، وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا، ولله في ذلك حكمة؛ كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٥].

فلا ينبغي أن يغتر بما عليه أكثر الناس؛ فهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۝٢٤﴾ [ص: ٢٤].

الفوائد والأحكام:

١- تقوية قلب النبي ﷺ، وتسليته وتحذيره من ترك تبليغ بعض ما يوحى إليه، ومن أن يضيق صدره؛ لأجل اقتراح المكذبين الآيات، من قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾.

٢- أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يترك بعض ما يوحى إليه أو يضيق صدره بتبليغه؛ لأنه معصوم من الخطأ أو التقصير في مقام التبليغ؛ ولهذا- والله أعلم- لم تأت الآية بصيغة النهي.

٣- أن الرسول ﷺ عرضة لضيق الصدر كغيره من البشر، يعتريه ما يعتريهم من الخواطر.

٤- اقتراح المشركين المكذبين للآيات تعنتًا منهم وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾.

٥- لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده عن دعوته اعتراض المعترضين، وقدح القادحين بالباطل، ولا يضيق صدره بذلك، فطريق الدعوة يحتاج إلى الصبر والمجاهدة، وليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

٦- بيان أن مهمته ﷺ بالنسبة للمكذبين هي إنذارهم وتحذيرهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾، وهو بشير لمن آمن منهم ومن غيرهم.

٧- أن الله على كل شيء وكيل، بيده عز وجل الهداية والإضلال، وعليه حفظ أعمال العباد، وحسابهم، وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

٨- زعم المكذبين أنه ﷺ افترى القرآن من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

٩- تحديهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ويدعوا لذلك من استطاعوا ويستعينوا بهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٠- إفحام المكذبين، وإظهار كذبهم، وإسقاط زعمهم بهذا التحدي، وأنهم هم المفترون الكاذبون.

١١- أن القرآن الكريم إنما أنزل بعلم الله تعالى وحده؛ لاستحالة معارضته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

١٢- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٣- ينبغي العلم اليقيني بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزل بعلمه، وأنه لا معبود بحق سواه.

١٤- وجوب الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، وعبادته وحده، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٥- أن من كانت إرادته في عمله مجرد الحياة الدنيا وزينتها فقط أعطي جزاء عمله الدنيوي في الدنيا، ولم ينقص شيئًا مما قدر له؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

١٦- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله كما تقول الجبرية.

١٧- أن من كانت الدنيا غاية مرادهم- وهم الكفار- فليس لهم في الآخرة إلا النار، ونهاية الخسران والبوار؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

١٨- إثبات الدار الآخرة، وإثبات وجود النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

١٩- بطلان صنع وعمل من كانت الدنيا غاية مرادهم، حتى ولو كانت مما يثاب عليه أهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٢٠- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.

٢١- التحذير من إرادة الدنيا وحدها، والتنبيه إلى حقارتها، وإلى عدم الاغترار بحسن ظاهر حال أهلها مع كفرهم بالله.

٢٢- الثناء على النبي ﷺ والمؤمنين بما هم عليه من الحق البين من ربهم، بالوحي الذي أوحاه الله تعالى إليه ﷺ في القرآن الكريم، وما فيه من دلائل الإعجاز، وموافقة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وشهادة الكتب السابقة بصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، وشتان بين هذا وبين من كان على ضلال مبين.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٣- شهادة القرآن الكريم بما فيه من الإعجاز بصدق النبي ﷺ، وصدق ما جاء به من الحق، وشهادة الفطرة المستقيمة بذلك، وشهادة التوراة والكتب السابقة بذلك.

٢٤- أن من كانوا على بينة من ربهم ويقين وبرهان يؤمنون بالقرآن وبما جاء به من الحق؛ من الدلالة على وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد لمن كفر بالقرآن الكريم- أيًّا كان- بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

٢٦- تحذيره ﷺ من أن يكون في شك من القرآن، وهو تحذير له ولأمته، وتأكيد أنه الحق من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٧- أن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن، ولا بما جاء به من الحق، ولا بما أوجب

الله الإيمان به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٨- يجب الحذر من الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على الكفر والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

لما أبطل زعمهم أنه ﷺ افترى القرآن بتعجيزهم عن الإتيان بعشر سور مثله، بين أنهم هم المفترون بتكذيبهم أن يكون القرآن من عند الله تعالى، وشركهم بالله، وقولهم على الله الكذب، وتَوَعْدَهم.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ﴾؛ الاستفهام: للنفي والإنكار، أي: لا أحد أشد ظلمًا من الذي اختلق على الله كذبًا بنسبة الشريك والولد له عز وجل، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو تشريع ما لم يشرعه ونسبة ذلك إليه من التحليل والتحريم، والإيجاب ونفيه، ونحو ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الإشارة للذين افتروا على الله كذبًا، أي: أولئك المفترون على الله كذبًا.

﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة؛ للحساب والعقاب والفضيحة على رؤوس الخلائق.

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكة والرسل والإنس والجن والجوارح، الذين شهدوا عليهم بظلمهم وافترائهم وكذبهم.

﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾؛ في الإشارة إليهم بقولهم: «هؤلاء» تشهير بهم، وفضح لهم، أي: هؤلاء الذين افتروا الكذب على ربهم.

﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا من بقية كلام الأشهاد، ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤].

«ألا»: أداة تنبيه، وفيه تأكيد للتشهير بهم، وهذا إخبار بأن لعنة الله حقت ووجبت على الظالمين، بطردهم وإبعادهم عن رحمته وجنته؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة قال ﷺ: «وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»(١).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ «الذين» وصف للظالمين، أي: الذين يصدون وينصرفون بأنفسهم عن دين الله وصراطه المستقيم، ويصدون غيرهم ويصرفونهم عنه؛ فجمعوا بين الضلال والإضلال، وصاروا أئمة يدعون إلى النار.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ الضمير في «يبغونها» يعود إلى «سبيل الله»، أي: يبغون لها العوج، أي: يريدون أن تكون سبيل الله عوجاءَ، موافقةً لأهوائهم؛ زيغًا منهم وميلًا عن الحق والاستقامة، وقد قال الله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٨].

فجمع هؤلاء المكذبون للقرآن المعارضون للحق بين الكذب على الله تعالى، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجًا.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، أي: مكذبون بها، جاحدون لوقوعها، منكرون للبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، و﴿هم﴾ الثانية توكيد للأولى.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ الإشارة للذين يفترون على الله كذبًا، ويصدون عن سبيله، ويبغونها عوجًا، ويكفرون بالآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة- قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٢٧٦٨، وأحمد ٢/ ٧٤، ١٠٥.

﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لم يكونوا معجزين الله هربًا في الأرض، ولا فائتين ومفلتين من عذابه وانتقامه، بل هم في قبضته وتحت قهره وسلطانه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وقال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته. ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ «من» في قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ مؤكدة لعموم النفي، أي: وما كان لهم غير الله أيُّ أولياء ينصرونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله، أو يجلبون لهم ما ينفعهم.

فتقطعت بهم الأسباب، فلا مفر ولا مهرب لهم من عذاب الله، ولا أولياء ينصرونهم من دون الله، ولم ينفعهم ما اتخذوا من دونه من الأصنام والآلهة.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾، أي: يغلظ ويزاد لهم العذاب؛ لأنهم ضلوا بأنفسهم، وأضلوا غيرهم؛ فيحملون أوزارهم وأوزار الذين أضلوهم بغير علم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾، أي: ما كانوا يستطيعون سماع القرآن والتذكرة؛ لكراهتهم سماع القرآن، ونفورهم من الموعظة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩- ٥١].

وأيضًا ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا القرآن والدعوة إلى الحق سماعًا ينتفعون به؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٦، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، أي: لو كنا نسمع ونعقل ما نسمع وننتفع به.

﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ آيات الله تعالى، أي: ما كانوا ينظرون ويتفكرون في آيات الله تعالى الكونية والشرعية- الدالة علي عظمة الله عز وجل، ووحدانيته، واستحقاقه العبادة دون سواه؛ فهم صم عن سماع الحق، وعمي عن التأمل في الآيات وعن اتباع الحق؛ كما قال تعالي: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالي: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالي: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالي: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٧].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، الخسارة والخسران: ضد الربح، أي: خسروا أنفسهم؛ لأنهم أقحموها في النار والعذاب، وفوتوها الجنة والثواب.

وإذا خسر الإنسان نفسه فماذا ربح؟! فخسرانه ما دون ذلك من باب أولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وقد قيل: إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق في غير واجب.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾، أي: ذهب عنهم وزال واضمحل.

﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، أي: الذي كانوا يفترونه كذبًا من الشركاء؛ من الأنداد والأصنام، وأنها تشفع لهم، وتدفع عنهم الضر عند الشدائد.

قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:

١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ تأكيد لما قبله، أي: حقًّا أنهم في الدار الآخرة هم الأخسرون، وضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ يفيد القصر، فكأنه لا خاسر غيرهم؛ لبلوغهم الغاية في الخسران؛ لاجتماع أسباب الشقاء والعذاب فيهم، وظنهم أنهم يحسنون صنعًا، وهم بخلاف ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

لما ذكر حال المفترين المكذبين الصادين عن سبيل الله الكافرين بالآخرة وتوعدهم بمضاعفة العذاب والخسران؛ ذكر حال المؤمنين العاملين الصالحات المخبتين، ووعدهم بالجنة والخلود فيها، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب، والوعد والوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وخضعوا لربهم، وخشعوا وتذللوا له، واستكانوا لعظمته وسلطانه، وتضرعوا إليه؛ خوفًا من عقابه، ورجاءً في ثوابه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: أولئك هم أهل الجنة وساكنوها، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهاً بهم ورفعة لشأنهم.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: هم فيها مقيمون إقامة أبدية، وضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

لما ذكر فريق المكذبين الكافرين، وفريق المؤمنين المخبتين، وما أعد لكل منهما؛ ضرب مثلًا لبيان الفرق بينهما.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؛ المثل: الحالة والصفة؛ قال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ فريق المكذبين الكافرين، وفريق المؤمنين المخبتين، أي: مثل وصفة حالهما في الضلال والهداية.

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾؛ هذا مثل فريق الكافرين، فشبههم في عدم النظر في الآيات، وعدم التفكر فيها، وفي عمى قلوبهم عن رؤية الحق؛ بالأعمى الذي لا يبصر الطريق، ويمشي على غير هدى.

وشبههم في عدم السماع للآيات، وعدم الانتفاع بها؛ بالأصم الذي لا يسمع ما يقال، ولا يدري ما حوله؛ فهو بمعزل عن الناس، أشبه بأصم الكلاب إذا رأى الكلاب تتثاءب أخذ ينبح؛ ظنًا منه أنها تنبح.

﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾؛ الواو للتقسيم، وهذا مثل فريق المؤمنين، فشبههم في نظرهم في الآيات وتفكرهم فيها بالبصير الذي يشاهد ما حوله ويمشي على بينة من أمره.

وشبههم في سمعهم للآيات والمواعظ والانتفاع بها بالسميع الذي يسمع ما يقال له، ويسمع الأصوات من حوله؛ فينتفع بذلك ويشارك الناس.

وبين «الأعمى والأصم» و«السميع والبصير» مقابلة.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، ﴿مَثَلًا﴾ تمييز، والمثل: الحال والصفة، أي: لا يستويان حالًا وصفةً، بل بينهما من الفرق الشاسع ما لا يأتي عليه الوصف، وشتان بين مشرق ومغرب:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال، وقرأ الباقون: «**تذَّكرون**» بتشديد الذال، وأصله: «**تتذكرون**»، فقلبت التاء ذالًا؛ لقرب مخرجيها، ثم أدغمت إحداهما في الأخرى.

والاستفهام للإنكار، أي: لإنكار انتفاء تذكرهم واستمرارهم في ضلالهم، أي: لم لا تتذكرون؟ أي: أفلا تتعظون وتتدبرون الآيات، وتعتبرون في ضرب الأمثال، وتعرفون مدى الفرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر ١٩: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن أفترى على الله كذبًا، بزعم الشريك له والولد، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ﴾.

٢- الوعيد الشديد للمفترين على الله الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٣- إثبات عرض الخلائق على الله للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿١٨﴾﴾.

٤- إثبات قيام الأشهاد على الناس بأعمالهم، من الرسل، والملائكة، ومن الناس

بعضهم على بعض، والجوارح، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٦- لعنة الله تعالى للظالمين، وطردهم وإبعادهم من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٧- جمع هؤلاء الظالمين مع افترائهم الكذب على الله: الصد عن سبيله، وابتغاء العوج لها، والكفر بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٨- أن سبيل الله في غاية العدل والاستقامة، لا عوج فيها؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

٩- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٠- أن هؤلاء الظالمين لم يكونوا معجزين في الأرض، ولا مفلتين من عذاب الله وانتقامه، وليس لهم من دونه أولياء يجلبون لهم النفع، أو ينتصرون لهم ويدفعون عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴿٢٠﴾﴾.

١١- مضاعفة العذاب لهؤلاء الظالمين وتغليظه عليهم؛ لصدهم بأنفسهم عن سبيل الله، وصدهم لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

١٢- عدم استطاعة هؤلاء الظالمين سماع القرآن والدعوة إلى الحق، وعدم انتفاعهم بما يسمعون، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾.

١٣- إعراض هؤلاء الظالمين عن النظر في آيات الله ودلائل وحدانيته؛ لقوله تعالي: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

١٤- خسارتهم أنفسهم؛ حيث أقحموها في النار والعذاب، وحرموها الجنة والثواب؛ لقوله تعالي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٥- ذهاب وزوال ما يدعيه المفترون من الشركاء لله، وأنهم يشفعون لهم عند الله؛

لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

١٦- أن هؤلاء المفترين حق وثبت أنهم هم الأخسرون ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٧- الوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات وخضعوا لربهم بالجنة والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

١٨- جمع القرآن بين الترهيب والترغيب، والوعد والوعيد.

١٩- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، بين إيمان الباطن وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٠- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ ولهذا حذف الموصوف واكتفى بالصفة في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحات.

٢١- أن من لازم الإيمان والعمل الصالح: الإخبات والذل والخضوع لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- إثبات الجنة ونعيمها، وخلود المؤمنين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

٢٤- ضرب الأمثال في القرآن الكريم؛ لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢٥- شتان بين فريق الكفار الذين عميت أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الآيات وتدبرها، وصمت آذانهم عن سماع العظات وتأملها، فهم يتخبطون في دياجر الجهل

والكفر والضلال؛ وبين فريق المؤمنين الذين أبصروا الآيات وتدبروها، وسمعوا العظات ووعوها، فهم عل نور وهدى من ربهم، وعلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ﴿٢٤﴾﴾ كلا، فشتان بين الثرى الثريا، وبين الأرض والسماء، شتان بين من أوبقوا أنفسهم ودسوها وأهلكوها، وبين من أعتقوا أنفسهم وزكوها وأنقذوها. نسأل الله التوفيق.

٢٦- الحث على التذكر والتأمل في آيات الله ودلائل وحدانيته، والاعتبار ومعرفة البون الواسع بين الفريقين وسلوك طريق المؤمنين؛ لقوله تعالي: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدْتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قص الله تعالى في هذه الآيات وما بعدها أنباء عدد من الرسل مع أممهم، وما لقيه كثير منهم من الأذى والتكذيب من أممهم، ومن ثم إنجاء الله لرسله، وإهلاك المكذبين؛ تحذيرًا للمكذبين من قومه ﷺ، وتسليةً له، وتثبيتًا لفؤاده، وموعظةً وذكرى للمؤمنين؛ كما قال الله تعالى في آخر السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: ولقد بعثنا نوحًا رسولًا منا إلى قومه؛ لما انحرفوا عن فطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها، وأشركوا بالله وعبدوا الأصنام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿إِنِّى﴾ بكسر الهمزة على الابتداء، وقرأ الباقون: ﴿أَنِّى﴾ بفتح الهمزة على تقدير حرف جر، وهو الباء؛

للملابسة.

والمعنى: فقال: إني لكم نذير مبين، أو قائلًا: إني لكم نذير مبين، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: ٨٩].

والنذير: المنذر المحذر، والمخوف من عذاب الله تعالى، كما قال ﷺ: «أنا النذير العريان»(١).

﴿مبين﴾، أي: بيِّن: ظاهر النذارة لكم إن أنتم عبدتم غير الله.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تفسير للإرسال والإنذار، أي: بألَّا تعبدوا إلا الله، و﴿إلا﴾ أداة حصر، أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ٢- ٣].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ تعليل للنهي، أي: لأني أخاف عليكم عذاب يوم أليم، أي: إن استمررتم على عبادة غير الله؛ ففي الدنيا عذاب الطوفان، وفي الآخرة عذاب النار.

و﴿أليم﴾ صفة لـ ﴿يوم﴾، ووصف ﴿يوم﴾ بأنه ﴿أليم﴾؛ لشدة العذاب الواقع فيه؛ كما قال تعالى في سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح: ١].

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾، أي: السادة والكبراء الذين كفروا من قومه.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.

«ما» في الموضعين: نافية، و«إلا» في الموضعين: للحصر، أي: ما نعتبرك إلا بشرًا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

مثلنا، لا مزية لك علينا، أي: لست بملك، فكيف أوحي إليك من دوننا؟ والحجة إنما قامت عليهم بكونه بشرًا؛ إذ لو كان ملكًا لما استطاعوا الأخذ عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨- ٩].

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، أي: وما نشاهدك اتبعك إلا الذين هم الأقلون شرفًا وقدرًا منا، أي: إلا الأراذل والضعفاء من الناس، وما علموا أن أتباع الرسل هم الأكرمون، وأن مخالفيهم هم الأرذلون؛ إذ لا أذل ولا أحقر ممن خالف أمر الله، ولا أكرم ممن اتقى الله، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولا يضير الحق كون أتباعه هم الضعفاء، كما لا يضيره إعراض أهل الترف والأغنياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

وكفى الضعفاء شرفًا وفخرًا أنهم أسرع وأقرب لقبول الحق، وهم أتباع الرسل؛ كما قال هرقل ملك الروم لما سأل أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ قال له: «أأشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل»(١).

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ قرأ أبو عمرو: «بادئ» بالهمز، مشتق من «البداء»، وهو أول الشيء.

وقرأ الباقون بغير همز: ﴿بَادِىَ﴾، مشتق من «بدا» المقصور، إذا ظهر، أي: ظاهر الرأي.

والمعنى، أي: الذين اتبعوك أول وهلة بمجرد ما دعوتهم، من غير رويَّة ولا تفكر، وبناءً على ظاهر الأمر، دون تأمل في باطنه وعواقبه، والمقصود: أنهم في اتباعهم لك ليسوا على بصيرة من أمرهم.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾؛ الفضل: الزيادة، أي: وما نرى لكم علينا من فضل وزيادة في شرف ولا مال ولا حال لما دخلتم دينكم هذا، أي: لستم أفضل منا في

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم.

شيء فننقاد لكم ونتبعكم، وما نرى لكم علينا من فضل فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

نعم، هم لا يرون فضله عليه السلام وأتباعه عليهم؛ لعمى أبصارهم وبصائرهم، وصمم آذانهم عن رؤية الحق ومعرفته وسماعه؛ كما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١].

وقد قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(١)

وقال الآخر:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلالا(٢)

وقد عللوا اعتراضهم على نوح عليه السلام وأتباعه بما لا يستقيم أن يكون علة؛ من كونه بشرًا مثلهم، ومن كون أتباعه هم الضعفاء، وزعمهم أنه هو وأتباعه لا فضل لهم عليهم؛ ليخلصوا إلى قولهم:

﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾؛ «بل» للإبطال، أي: بل نعلم أنك كاذب في دعواك الرسالة، وهم كاذبون في تصديقهم واتباعهم لك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾، أي: أخبروني، والاستفهام تقريري.

﴿إِن كُنتُ﴾ فيما أدعوكم إليه.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾، أي: على بصيرة ويقين وبرهان، وحجة ظاهرة، وأمر جلي، ونبوة صادقة.

﴿مِّن رَّبِّي﴾ أرسلني بها إليكم.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، أي: وأعطاني رحمة من عنده، وهي النبوة والرسالة التي

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٧).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص١٨٣).

هي رحمة لي ولكم، وبها هداني ووفقني للإيمان به وطاعته.

وفي قوله: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ دلالة على عظمة هذه الرحمة؛ لأنها من عند الله، أي: منه عز وجل، والاعتناء بها وبمن أوتيها، وهو نوح عليه السلام.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾، بضم العين وتشديد الميم، وقرأ الباقون: «فعَمِيت»، بفتح العين وتخفيف الميم.

والمعنى: فخفيت عليكم هذه البينة فلم تهتدوا إليها، بل بادرتم بتكذيبها وردها.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، أي: أنلزمكم إياها ونكرهكم على قبولها؟ والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا نلزمكم إياها ولا نكرهكم على قبولها، وليس ذلك إلينا ولا بمقدورنا.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، أي: والحال أنكم لها كارهون، أي: لها مبغضون، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي الآية تعريض بأنهم لو تأملوا تأملًا بريئًا من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته، وترغيب لهم في إعادة التأمل في ذلك، وليس فيه معذرتهم، وتبرير ما هم عليه من المخالفة، ولا ترك تكرار دعوتهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

لما ذكر أنه لا يلزمهم ولا يكرههم على الإيمان بما جاءهم به؛ وجههم إلى النظر في أنه لم يسألهم مالًا في دعوته إياهم، فيستثقلون ذلك، أو يتهمونه بطلب النفع الدنيوي.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؛ أعاد الخطاب لهم بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾؛ لاستمالة قلوبهم.

والمعنى: لا أسألكم على إبلاغكم رسالة ربي ونصحي لكم: ﴿مَالًا﴾، أي: أجرًا، فتستثقلون ذلك المغرم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أجري إلا على الله وحده.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، أي: ولست بطارد الذين آمنوا، ولا ينبغي لي ذلك، ولا يليق بي، وكأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين ويبعدهم عن مجلسه؛ ترفعًا وتعاظمًا منهم أن يجلسوا معهم، وتحقيرًا لهم، كما يوحي به قولهم قبل هذا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ﴾ [هود: ٣١].

وهكذا طلب كبراء قريش من نبينا محمد ﷺ أن يطرد الضعفاء؛ حتى لا يجلسوا معهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ الجملة في موضع التعليل للنفي في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، أي: إنهم ملاقوا ربهم، فمحاسبهم ومثيبهم على إيمانهم، ومنتقم ممن يطردهم.

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في احتقاركم لهم، وطلبكم مني طردهم، وردكم الحق؛ بسبب كونهم أتباعه، مع أنهم أكرم منكم عند الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾، أي: من يمنعني من الله وينجيني من عذابه إن طردت هؤلاء المؤمنين، أي: إن طردهم موجب لغضب الله تعالى وعذابه، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد ينصرني من الله إن طردتهم.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال وحذف إحدى التاءين، وقرأ الباقون: «تذّكرون» بالتشديد، وأصلها: «تتذكرون»، فأبدلت التاء ذالًا وأدغمت في الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: ولا أقول لكم أني أملك خزائن الله؛ فخزائنه عز وجل بيده، ليس عندي منها شيء.

و«خزائن»: جمع خِزانة بكسر الخاء، وهي في الأصل: الوعاء الذين يخزن فيه، أي: يجمع فيه المال، من بيت أو صندوق أو مشكاة أو غير ذلك؛ حفاظًا عليه من الضياع.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾، أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب؛ فعلم الغيب عند الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من الملائكة، بل أنا بشر مثلكم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

وكما حكى الله تعالى عن رسله عليهم السلام قولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾؛ الازدراء: الاحتقار والانتقاص، وهو عمل قلبي، أي: ولا أقول للذين تزدرونهم وتحتقرونهم، ممن اتبعوني من الضعفاء، بوصفكم لهم أنهم أراذلكم، وأنهم اتبعوني من غير روية، بناءً على ظاهر الرأي، دون تأمل في باطنه وعواقبه.

وأضاف الازدراء إلى الأعين؛ لأن الازدراء ينشأ غالبًا عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أي: خيلوا إلى أعين الناس وأبصارهم بسحرهم أن ما ألقوه من حبالهم وعصيهم حيّات حقيقية تسعى، الأمر الذي أثر على عقولهم وأخافهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾.

﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾، أي: لن يعطيهم الله خيرًا كما تعتقدون في ازدرائكم لهم، وفي هذا إبطال لقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، والذي يوحي بأنهم استدلوا بضعفهم وفقرهم الحاصل على ما عند الله لهم في المستقبل، ونظروا إلى الجانب الجسماني المادي فقط، ونسوا الجانب الأهم

والأعظم؛ وهو جانب الإيمان والتقوى، وزكاء النفوس وطهارتها.

والمقصود أن ضعفهم وفقرهم ليس بحائل بينهم وبين حصول الخير والفضل لهم من الله في الدنيا والآخرة، بل قد يكونوا هم الأجدرون بالخير من الله؛ لأن أكرم الخلق عند الله أتقاهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾؛ هذا تعليل لنفي أن يقول: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾.

أي: الله أعلم بالذي في أنفسهم، من صدق الإيمان أو عدمه، فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير كل الخير من الله دونكم، وإن كانوا غير ذلك فأمرهم إلى الله، ولستم أنتم ولا أنا وكلاء عليهم، وفي هذا تيئيس منه لقومه أن يطرد الضعفاء أو يمقتهم، وتنبيه لهم على غلطهم في قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾؛ تعليل لعدم قوله شيئًا مما ذكر، واللام: للتوكيد. ﴿إِذًا﴾ حرف جزاء، أي: إني إذًا لمن الظالمين الذين بلغوا الغاية في الظلم إن قلت لكم شيئًا مما تقدم؛ من امتلاكي خزائن الله، أو علمي الغيب، أو أني ملك، أو نفيت خير الله عن هؤلاء الذين تزدرونهم.

وقد أكد هذا التعليل بثلاث مؤكدات: «إن»، ولام الابتداء، وحرف الجزاء.

وفيه تعريض بظلم قومه في وصفهم الذين آمنوا من الضعفاء بالأراذل، وسلب الفضل عنهم وازدرائهم.

والمقصود: إني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة فوق منزلتي التي أنزلني الله بها، ولا أدعي ما ليس بمقدوري، ولا أحكم على ما في نفوس الناس؛ فذلك إلى الله تعالى، وليس لي إلا الظاهر منهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾.

لما لم يستطيعوا رد ما جاء به عليه السلام من الحق بأدنى شبهة؛ عدلوا إلى المكابرة والعناد باستعجال العذاب، مما ليس بمقدوره، فبين أن ذلك إلى الله تعالى الذي لا يعجزه شيء، وإرادته نافذة فيهم، وإليه رجوعهم.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾، أي: قد حاججتنا وأكثرت محاجتنا، وأطلت في ذلك ونوّعته.

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: عجل لنا الذي تعدنا به من العذاب؛ كما قال كفار قريش: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ١٦]، وكما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ في دعوتك ووعيدك لنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾؛ «إنما»: كافة ومكفوفة، أي: إنما يأتيكم بالعذاب الله وحده، إذا اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم ويعجله لكم فعل ذلك.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ الله، ولا مفلتين من عذابه، فهو واقع بكم لا محالة.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾، أي: ولا ينفعكم نصحي لكم، وإبلاغي إياكم، وإخلاصي في دعوتكم.

﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾؛ «أن» والفعل «أنصح» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أردت»، أي: إن أردت النصح لكم، كما هو الحاصل مني.

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾، أي: إن كان الله يريد- قدرًا وكونا- إغواءكم.

والمعني: أيُّ شيء يجدي عليكم نصحي لكم وإبلاغي إياكم، مهما أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد- قدرًا- إغواءكم؛ بسبب ردكم الحق، فإرادته عز وجل غالبة.

﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾: خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم، يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم ما يريد.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا

تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقولون افتراه؟ أي: أيقول هؤلاء المكذبون لك يا نوح: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ؟ أي: اختلق ما جاء به وما يدعو إليه من تلقاء نفسه، ونسبه كذبًا إلى الله.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾، أي: إن اختلقته فعليَّ ذنبي وإثمي، وقدّم الخبر «عليَّ» للقصر، أي: إجرامي عليَّ لا عليكم، فلماذا تُكْثرون عليَّ في ذلك كأن تبعته عليكم؟

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، أي: من الذي تجرمون وتذنبون؛ من تكذيبكم ما جئتكم به من الحق، واتهامكم إياي بافترائه، وغير ذلك.

ويحتمل أن تكون الآية معترضة في قصة قوم نوح عليه السلام، فيها تأكيد وتقرير لشأنها، وهي تأكيد لقوله تعالى في أول السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، والضمائر فيها ترجع إلى نبينا محمد ﷺ وكفار مكة؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨].

والأول أظهر من وجهين:

الأول: أن السياق كله في ذكر قصة نوح عليه السلام.

والثاني: أن التعبير بالإجرام فيه من الشدة ما يجعله أنسب لما عليه نوح عليه السلام من الشدة، وخاصة في الدعاء على الظالمين والكافرين من قومه؛ كما في قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢٤]، وقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، بخلاف حال نبينا ﷺ نبي الرحمة، الذي كان يقول: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»(١). وهذا واضح من خلال التأمل في آية سورة هود هذه وآية سورة الأحقاف.

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ الآيات.

٢- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه، وتحذير المكذبين من قومه، وموعظة المؤمنين وتذكيرهم بذكر قصص الأنبياء، وما حصل لهم من التكذيب والأذى من أقوامهم، ومن ثم إنجاء الله لأنبيائه وأتباعهم، وإهلاك المكذبين.

٣- أن الحكمة من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام: الإنذار والنهي عن عبادة غير الله، والتحذير للمشركين من عذاب يوم القيامة، والدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والبشارة للمؤمنين الموحدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ ومفهوم هذا الإنذار والنهي والتحذير: الدعوة إلى عبادة الله وحده، والبشارة للمؤمنين.

٤- إثبات يوم القيامة وعذابه وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٥- رد الملأ الذين كفروا من قوم نوح عليه السلام لرسالته، وتكذيبهم له، واعتراضهم على دعوته من وجوه لا تصلح للاعتراض، بل تدل على سفههم، وهي: كونه بشرًا مثلهم، وكون أتباعه هم الضعفاء، وعدم فضله وأتباعه عليهم في المظاهر الدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٦- نعمة الله وتعالى السابغة على الناس: بجعل الرسل بشرًا مثلهم يأخذون عنهم ويفهمون منهم؛ إذ لو كانوا ملائكة ما استطاعوا الأخذ عنهم، مما يدل على حكمته عز وجل البالغة، وجهل أعداء الرسل المعترضين على كونهم بشرًا، وصدق الله العظيم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٧- أن أتباع الرسل- غالبًا- هم الضعفاء والفقراء، وأعداءهم هم الكبراء والأغنياء بسبب ما هم عليه من الرياسات والمناصب والغنى؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾

أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦- ٧].

٨- احتقار المكذبين من قوم نوح لمن آمن به من الضعفاء والفقراء، وازدراؤهم لهم، ووصفهم بالأراذل، وتسفيههم لرأيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾، وما علموا أن هؤلاء الضعفاء بإيمانهم صاروا هم الأكرمين الأرشدين رأيًا، فصار ضعفهم وفقرهم سببًا للذل والخضوع لله تعالى والقرب منه، بينما صار غنى أولئك المكذبين ومناصبهم سببًا لطغيانهم وكفرهم وبعدهم عن الله تعالى.

٩- لا عيب على المرء إذا ظهر له الحق وتبين أن يبادر لقبوله والأخذ به واتباعه، بل هذا هو الواجب عليه، ولا أحق ولا أظهر ولا أبين مما جاءت به الرسل من عند الله عز وجل، قال ﷺ: «وما دعوت أحد إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر؛ فإنه لم يتلعثم»(١)، أي: لم يتردد ولم يتروَّ؛ لأنه رأى أمرًا جليًّا واضحًا ظاهرًا، فبادر إليه وسارع؛ ولهذا سمي «الصديق» رضي الله عنه.

١٠- قصور نظر هؤلاء المكذبين؛ حيث ظنوا أن الضعف والفقر عيب ونقص يوجب احتقار من ابتليَ به، وأن الفضل بين الناس يقاس بالأمور الدنيوية، فاحتقروا المؤمنين؛ لأجل ضعفهم وفقرهم، ونفوا فضلهم عليهم معتدِّين بما هم عليه من حظوظ الدنيا الفانية؛ لقولهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾.

١١- أن نوحًا عليه السلام على بينة ووحي ويقين صادق من ربه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام ولرسله وأتباعهم على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّى﴾.

١٣- أن إيتاء نوح الرسالة رحمة من عند الله تعالى له ولقومه، وبخاصة من آمن منهم به؛ لقوله عليه السلام اعترافًا بهذه النعمة العظيمة: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٢٥٠.

١٤- رحمة الله تعالى للناس بإرسال الرسل؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

١٥- أن الحق قد يخفى بسبب مقابلته بالتكذيب والرد والعناد، وإن كان بينًا جليًّا واضحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

١٦- أن الرسل ليس إليهم ولا بمقدورهم إلزام أقوامهم قبول ما جاؤوهم به مع كراهتهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

١٧- كراهية كثير من قوم نوح لما جاءهم به من الحق، وهذا حال كثير من الخلق، فلا يُغتر بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٨- أن الرسل عليهم السلام لا يسألون أقوامهم مالًا وأجرًا على إبلاغهم رسالات الله؛ لقول نوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾.

١٩- أن أجر الرسل عليهم السلام وثوابهم ليس على أممهم، وإنما هو على الله عز وجل وحده؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٠- طلب المكذبين من نوح عليه السلام طرد المؤمنين؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٢١- إعلان نوح عليه السلام لقومه أنه لن يطرد الذين آمنوا، أي: لن يفعل ذلك، ولا يجوز له ولا يليق به؛ لأنهم ملاقو ربهم ومثيبهم على إيمانهم، ومحاسب ومجاز من يطردهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾.

٢٢- إثبات لقاء الله تعالى وحسابه للخلائق ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- جهل المكذبين من قوم نوح عليه السلام في احتقارهم للذين آمنوا به، وطلبهم منه طردهم. وردهم الحق؛ بسبب اتباع هؤلاء المؤمنين له، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

٢٤- تأكيد نوح عليه السلام عدم طرده للمؤمنين، ببيان أنه لا ناصر له من الله يدفع عنه عذاب الله إن هو طردهم؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدۡتُهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾.

٢٥- تحريم طرد المؤمنين من الضعفاء والفقراء من مجالس الذكر، وحرمانهم من الخير، ووجوب الإفساح لهم كغيرهم ممن يرغب في هذه المجالس، بل والعناية بهم.

٢٦- إنكار نوح عليه السلام على قومه وتوبيخه لهم عدم تذكرهم واتعاظهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وفيه حث لهم على التذكر، وهو واجب على كل عاقل.

٢٧- نفي نوح عليه السلام أن يدعي رتبة فوق رتبته، أو منزلة فوق منزلته؛ من دعوى امتلاك خزائن الله، أو علم الغيب، أو أنه ملك، أو نفي خير الله عن الذين يزدرونهم من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾.

٢٨- اختصاص الله عز وجل وحده بملك خزائن السموات والأرض، وبعلم الغيب، وبإيتاء الخير لمن شاء من عباده، وبعلم ما في النفوس من صدق الإيمان وعدمه، وغير ذلك.

٢٩- أن النبي ﷺ وغيره من الرسل لا يعلمون الغيب؛ لأن علم الغيب مما اختص الله تعالى به، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

٣٠- رد نوح عليه السلام على المكذبين له في احتقارهم أتباعه المؤمنين، وعدم معرفتهم فضلهم، وبراءته من نفي خير الله عنهم، والحكم على ما في أنفسهم من صدق الإيمان وعدمه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

٣١- إقراره عليه السلام على نفسه أنه من الظالمين إن هو ادعى شيئًا مما ذكر؛ من

القول بامتلاكه خزائن الله، أو علم الغيب، أو أنه ملك، أو نفي خير الله عن مَن آمن من الضعفاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣٢- الرد على الذين يغلون بالرسل، ويزعمون أنهم يعلمون الغيب.

٣٣- سأم قوم نوح عليه السلام من محاجته ودعوته ونصحه لهم، وطلبهم منه تعجيل عذابهم؛ جهلًا منهم، واستبعادًا له، وتكذيبًا به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ولهذا دعا عليه السلام عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠].

٣٤- كثرة مجادلة نوح عليه السلام، ومحاجته لقومه، وتنويعه أساليب الدعوة؛ لعل الله يهديهم، واستمراره في ذلك مع طول لبثه فيهم؛ لقولهم: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾، والحق ما شهدت به الأعداء.

٣٥- إخبار نوح عليه السلام لقومه أنه إنما يأتيهم بالعذاب الله عز وجل إن شاء إتيانهم به، وأنهم لا يعجزونه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٣٦- إثبات المشيئة والإرادة الكونية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

٣٧- إخباره عليه السلام أن إبلاغه لهم ونصحه إياهم لن ينفعهم مهما بلغ، إذا كان الله يريد كونًا وقدرًا إغواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

٣٨- إثبات الإرادة للإنسان لقول نوح عليه السلام: ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٣٩- أن من قدر الله تعالى- كونًا- غوايته وضلاله، فلا سبيل إلى رشده وهدايته.

٤٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾.

٤١- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴾.

٤٢- زعم قوم نوح عليه السلام أنه افترى ما جاءهم به وما يدعو إليه من تلقاء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾، ويحتمل أن المراد: كفار مكة قالوا للنبي صلى الله وسلم: إنه افترى القرآن من تلقاء نفسه.

٤٣- التنازل مع الخصم بقصد إفحامه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾، أي: إن كنت افتريته فذنبي وإثمي عليَّ لا عليكم، فلم تُكثرون عليّ في ذلك؟

٤٤- أنه عليه السلام بريء من إجرام قومه؛ لأنه بلغهم رسالة ربه، ونصح لهم، وحذرهم وأنذرهم، وأقام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ذكر عز وجل أنه أرسل نوحًا إلى قومه، فأنذرهم ونهاهم عن عبادة غير الله، وخوفهم عذاب الله وتكذيبهم له، ومحاورته لهم، وإصرارهم على التكذيب، واستعجالهم العذاب، ثم أوحى إليه- تسليةً له، وتهديدًا لقومه- أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وآذنه بقرب عذابهم.

قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾؛ الواو: استئنافية، وبني الفعل «أوحي» لما لم يسمَّ فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل، أي: وأوحينا إلى نوح، أي: أعلمناه بوحي منا.

﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾؛ «أن»: حرف توكيد ونصب، واسمها ضمير الشأن، و«إِلَّا»: أداة حصر، أي: أنه لن يؤمن من قومك إلا الذي قد آمن منهم، وهم القليل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، أي: فلا تحزن، ولا تبال بالذي كانوا يفعلونه من التكذيب والكفر والعناد، ولا تأس على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أعلم الله عز وجل نوحًا أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ونهاه عن الابتئاس بفعلهم مع شدة إجرامهم، وذلك مؤذن بأن الله قد مقتهم، وسيحق عذابه عليهم؛

انتصارًا لنبيه نوح عليه السلام؛ ولهذا أعقب ذلك بأمره بصنع الفلك؛ تهيئةً لنجاته ونجاة من آمن به من الغرق.

قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ معطوف على جملة: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾، أي: لا تبتئس واصنع السفينة.

﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ الباء للملابسة، أي: بمرأى منا وبحفظنا.

﴿وَوَحۡيِنَا﴾، أي: وبوحينا إليك، وتعليمنا لك كيفية صنع الفلك.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، أي: ولا تكلمني في شأن الذين ظلموا، أي: لا تراجعني في إهلاكهم، ولا تسألني العفو أو التخفيف عنهم، وفي هذا إشارة لشدة سخطه عز وجل عليهم.

ولعله توطئة وتمهيد لنهيه عن مخاطبته بشأن ابنه الكافر قبل أن يخطر بباله سؤال نجاته؛ حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف.

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾؛ تعليل للنهي قبله، أي: إنهم محكوم عليهم بالغرق بالطوفان، قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر، فلا سبيل إلى رده، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: ٧٦].

قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾.

قوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، أي: السفينة؛ امتثالًا لأمر الله تعالى له بذلك.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾؛ «كلما»: ظرف زمان مضمن معنى الشرط، أي: وكلما مر عليه كبراء من قومه ورأوا ما يصنع.

﴿سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾، أي: استهزؤوا به في عمله وصنعه هذه السفينة في البر.

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ في صنع السفينة، وفي دعوتكم إلى توحيد الله، وتحذيركم من العذاب، وتوعدكم بالغرق.

﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾، أي: فإنا نسخر منكم كما تسخرون منا؛ لسفه عقولكم، وجهلكم بالله وصفاته، وما يجب عليكم من إخلاص العبادة له، وردكم

الحق وتكذيبكم به، وإشراككم بالله، وتعريضكم أنفسكم للعذاب، واستبعادكم له، واستعجالكم به.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾؛ «سوف»: حرف استقبال، و«من»: اسم استفهام، أو اسم موصول، أي: فسوف تعلمون من الذي يأتيه في الدنيا.

﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: يذله ويهينه، أنحن أم أنتم؟ وقد علموا ذلك حين حل بهم العذاب والغرق.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾، أي: ويقع عليه في الآخرة.

﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: عذاب دائم مستمر أبدًا، وهو عذاب النار؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤، المائدة: ٤١].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، أي: حتى إذا جاء أمرنا الكوني بنزول العذاب بهم، وإغراقهم بالطوفان.

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، أي: ونبع الماء بقوة من التنور، وهو مكان النار، أي: صارت الأرض عيونًا تفور بالماء، حتى فار الماء من التنانير، التي هي مكان النار وأبعد شيء عن الماء في العادة.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾، أي: قلنا لنوح عليه السلام: احمل في السفينة.

﴿مِن كُلٍّ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم: ﴿كُلٍّ﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة.

والتنوين في ﴿كُلٍّ﴾ في قراءة حفص بدل من المضاف إليه، أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات.

﴿زَوْجَيْنِ﴾ ذكر وأنثى؛ لتبقى مادة سائر الأجناس والأصناف.

﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«مَنْ»: موصولة، أي: إلا الذي سبق عليه القول، أي: إلا الذي مضى عليه قول الله كونًا وقدرًا بالكفر والهلاك؛ ومنهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، وامرأة نوح؛ كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، أي: واحمل فيها من آمن من قومك.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ الواو: حالية، أي: والحال أنه ما آمن معه إلا قليل، أي: إلا نفر قليل، ونزر يسير، مع طول لبثه فيهم، ومقامه بينهم، وتنويعه أساليب الدعوة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

ولله في ذلك حكمة؛ كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وفي الحديث القدسي أن الله عز وجل يقول لآدم: «**أخرج بعث النار من ذريتك؛ من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين**».

فعلى المربين والمصلحين والدعاة إلى الله تعالى بذل الجهد في الدعوة والإصلاح والتربية والتوجيه، وليحذروا أن يفت في عضدهم، أو يثبط عزائمهم، أو يحط من معنوياتهم كثرة المعرضين، وصدود الكثيرين؛ فالعبرة بالكيف لا بالكم، وها هو نوح عليه السلام- أحد أولي العزم من الرسل لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما آمن معه إلا قليل.

الفوائد والأحكام:

١- وحي الله تعالى إلى نوح عليه السلام، وإعلامه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

٢- إثبات علم الله تعالى الأزلي بالغيب وما يستقبل؛ مما سيكون، ومما لن يكون.

٣- تسلية نوح عليه السلام، وتثبيت قلبه، وتهديد قومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، أي: فلا تحزن ولا تبال بالذي كانوا يفعلون.

٤- أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام بصنع السفينة؛ تهيئةً وسببًا حسيًّا لإنجائه ومن معه من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾.

٥- مشروعية فعل الأسباب؛ لأن الله أمر نوحًا عليه السلام بصنع السفينة سببًا حسيًا للنجاة، مع قدرته عز وجل على إنجائه بدون ذلك.

٦- عناية الله تعالى بنوح عليه السلام، حيث أمره عز وجل بصنع الفلك بمرأى وحفظ منه سبحانه، ووحي وتعليم له كيف يصنعها؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

٧- شدة سخط الله تعالى على الظالمين المكذبين من قوم نوح، ونهيه له عن المراجعة بشأنهم أو الشفاعة فيهم، أوفي تخفيف العذاب عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

٨- حكم الله تعالى الكوني والقدري- بإغراق قوم نوح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

٩- عدم قبول الشفاعة- حتى من الرسل- في الظالمين المكذبين، ولا يستثني من هذا إلا شفاعة نبينا محمد ﷺ في عمه أبي طالب لتخفيف العذاب عنه؛ لذوده عن النبي ﷺ، ودفاعه المشركين عنه، حيث يجعل في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه(١).

١٠- صنع نوح عليه السلام السفينة؛ امتثالًا لأمر الله تعالى له؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٥، ومسلم في الإيمان ٢١٠- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾.

١١- سخرية قومه منه في صنعه السفينة في البر، وفي دعوته لهم لعبادة الله وحده، وتوعده لهم بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾.

١٢- سخرية نوح عليه السلام والمؤمنين معه من قومهم؛ مجازاةً لهم على سخريتهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

١٣- جواز السخرية بالكافرين مقابل سخريتهم بالمؤمنين، والجزاء من جنس العمل.

١٤- توعد نوح عليه السلام المكذبين من قومه بالعذاب المخزي لهم في الدنيا؛ وهو الطوفان، وبالعذاب الدائم في الآخرة؛ وهو عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

١٥- أن عذاب النار لا ينقطع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

١٦- حلول أمر الله الكوني القدري بإغراق قوم نوح بالطوفان النازل من السماء والنابع من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

١٧- إثبات القدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

١٨- أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل صنف زوجين اثنين ذكرًا وأنثى، وأهله إلا من سبق في علم الله كفرهم وهلاكهم، ومن آمن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

١٩- أن من سبق ومضى في علم الله وقدره كفره وهلاكه فلا سبيل إلى إيمانه ونجاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

٢٠- قلة المؤمنين مع نوح عليه السلام، مع طول لبثه في قومه، وتنويعه لهم أساليب الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وفي هذا درس للمربين

والمصلحين والدعاة إلى الله تعالى.

٢١- ينبغي عدم الاغترار بالكثرة؛ فأكثر الخلق غير مؤمنين، بل هم على ضلال. وقد قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(١).

* * *

(١) سيأتي تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، أي: وقال نوح عليه السلام لمن أمره الله أن يحملهم معه: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، أي: اركبوا في السفينة.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿مَجْرٖىٰهَا﴾ بفتح الميم، مع إمالة الراء، وقرأ الباقون بضم الميم: «مُجراها».

والباء في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ للملابسة، أي: قائلين بسم الله ﴿مَجْرٖىٰهَا﴾، أي: جريها على وجه الماء، ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾: منتهى سيرها ورسوها على الشاطئ، يقال: رسا إذا ثبت، ومنه سميت الجبال الراسيات.

والمعنى: بسم الله يكون جريها وسيرها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها ورسوها، أي: بسم الله يكون إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره وعونه وتوفيقه.

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ الجملة مستأنفة؛ لبيان أن إنجاءهم بتسخير السفينة تجري بهم على وجه الماء هو بمغفرة الله تعالى لهم، ورحمته بهم، وفيها الإشارة إلى أن الله وعده

بنجاتهم، والاعتراف بنعمته وفضله عليهم؛ كما قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون٢٩: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف١٤: ١٢].

وشرع أن يقول عند الركوب: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والولد**». وفي الرجوع من السفر يزيد: «**آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون**»(١).

فهو عز وجل غفور رحيم، وبمغفرته ورحمته ينجي المؤمنين، كما أنه عز وجل شديد العقاب للكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَهِىَ﴾، أي: السفينة، ﴿تَجْرِى بِهِمْ﴾، أي: بمن فيها، وهم نوح ومن حمل معه بأمر الله تعالى له.

﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾؛ «الموج»: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه بسبب شدة الرياح، يقال: ماج البحر إذا اضطرب.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٣٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٧- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أي: وهي، أي: السفينة تجري بمن فيها وسط أمواج الماء التي تشبه الجبال في ارتفاعها وعظمتها، بأمر الله تعالى وحفظه وعنايته ومنته؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر١٦: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة١٢: ١١].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ «يام»؛ ليركب معه، وهو الابن الرابع لنوح فيما ذكر.

﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ الجملة اعتراضية، أي: وكان ابنه في معزل، والمعزل: مكان الانعزال، أي: الانفراد، أي: وكان منعزلًا مبتعدًا عن أبيه وعن المؤمنين؛ لأنه لم يؤمن، بل كان كافرًا.

﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، أي: قائلًا له، أو فقال له: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، أي: في السفينة، أي: آمن واركب معنا في السفينة؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: الهالكين المغرقين.

وقوله ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ بالتصغير؛ إظهارًا للشفقة عليه والرحمة له أن يموت على الكفر ويهلك مع من هلك، ولكن قدر الله غالب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، أي: قال الابن، معتقدًا بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، ومكذبًا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب السفينة: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾، أي: سأقصد إلى جبل، فأصعد عليه وارتقي فوق قمته، ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، أي: يمنعني ويحفظني من الماء، فلا أغرق.

﴿قال﴾ نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا شيء يعصم اليوم اليوم ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: من قضائه وقدره وعذابه إذا نزل، لا جبل ولا غيره.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، و«مَن»: موصولة، أي: إلا الذي رحمه الله

تعالى، فعصمه وحفظه برحمته، فلا عاصم إلا الله، ولا معصوم إلا من رحمه الله.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾، أي: بين نوح وابنه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، أي: فكان ابنه من المغرقين، أي: في عداد المغرقين.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

بعد ما التقى الماء على أمر قد قدر، وأنجى الله عز وجل نوحًا ومن معه في السفينة، وأغرق أهل الأرض كلهم، أمر الأرض بابتلاع مائها، والسماء بالإقلاع عن المطر بعد أن قضي الأمر؛ ليغيض الماء، وتعود الحياة إلى الأرض.

قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، أي: وقيل بعد ما أغرق الله تعالى أهل الأرض إلا أصحاب السفينة.

وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن القائل معلوم، وهو الله عز وجل.

﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، أي: ابلعي ماءك الذي نبع وخرج منك، والذي نزل عليك من السماء، أي: اشربيه بسرعة.

وأضيف الماء إليها؛ لأن منه ما نبع منها، ولأن كله صائر إليها وداخل فيها؛ ما نبع منها، وما نزل من السماء.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، أي: أمسكي عن المطر.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، أي: نقص ونضب الماء وشربته الأرض.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: وأُتم الأمر، أي: وأتم الله أمره الكوني بهلاك المكذبين وغرقهم، ونجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، أي: واستوت السفينة، أي: رست واستقرت على الجودي، وهو جبل في العراق في أرض الموصل.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: وقيل لهؤلاء المكذبين المهلكين: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: قال الله لهم وحكم عليهم- لبلوغهم غاية الظلم؛ بسبب تكذيبهم وكفرهم- بالبعد الملازم لهم ولجميع الظالمين، أي: البعد عن رحمة الله تعالى وعن كل

خير، ومن حكم عليه بالبعد فهو واقع في كل شر.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾، أي: دعا نوح ربه.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ بيان للنداء، أي: يا رب ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾.

قال ابن كثير(١): «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق».

أي: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، وقد وعدتني بنجاة أهلي بقولك: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

ولعله لما حملته الشفقة ظن أن هذا الوعد لعموم أهله؛ من آمن ومن لم يؤمن، أو ظن أن ابنه لم يكن ممن سبق عليه القول بالكفر والغرق.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: الوعد الحق الثابت الذي لا يخلف؛ كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، أي: وأنت أعدل الحاكمين حكمًا، وأبلغهم حكمة.

وفي هذا تفويض من نوح عليه السلام لحكم الله تعالى وتسليم له.

وفي اقتصاره عليه السلام- وهو في مقام الدعاء- بالتعريض بالمطلوب دون التصريح، مع الثناء على الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ دلالة على عظم أدبه مع ربه عز وجل، وتمام معرفته بعلم ربه بمطلوبه؛ كما قيل:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء(٢)

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٢٥٨.

(٢) البيتان لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ﴾، أي: قال الله له: يا نوح.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، أي: ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم؛ لأني إنما وعدتك نجاة من آمن من أهلك، دون من سبق عليه القول بالكفر والهلاك بالغرق؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ تعليل للنفي قبله.

قرأ الكسائي، ويعقوب: «عَمِلَ» بكسر الميم وفتح اللام، و«غيرَ» بنصب الراء، أي: إن ابنك عمل عملًا غير صالح، أي: كفر ولم يؤمن.

وقرأ الباقون: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ﴾، بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء، أي: إن سؤالك ودعاءك إياي لنجاة ابنك وهو كافر عمل غير صالح، وغير لائق ولا مقبول؛ ولهذا قال:

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن كثير، وابن عامر: «تسألَنِّي» بفتح اللام وتشديد النون، وقرأ الباقون بإسكان اللام وتخفيف النون: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾.

و«مَا» في قوله: ﴿مَا لَيْسَ﴾ موصولة، أو نكرة موصوفة، أي: فلا تسألني الذي ليس لك به علم، أو شيئًا ليس لك به علم، أي: لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيرًا أو غير ذلك.

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾ بنهيي لك عن سؤالي ما ليس لك به علم؛ ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾، أي: كراهة أن تكون من الجاهلين، أو لئلا تكون من الجاهلين، والمراد بالجهل هنا ضد العلم؛ لمقابلته لقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لما بيَّن عز وجل لنوح عليه السلام أن سؤاله نجاة ابنه عمل غير صالح، ونهاه عن

سؤال ما ليس له به علم، ووعظه لئلا يكون من الجاهلين؛ ندم عليه السلام ندامة شديدة، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: قال نوح: يا رب.

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾، أي: أستجير بك.

﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾؛ ﴿أَنۡ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل جر بحرف جر محذوف، أي: إني أعوذ بك من سؤالك ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، و«ما» موصولة، أي: الذي ليس لي به علم، مما استأثرت بعلمه.

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: حرف شرط جازم، و«لا»: نافية، والجملة معطوفة على جملة جواب النداء ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾.

أي: وإلا تغفر لي ما فرط مني بستره والتجاوز عنه، وترحمني بتوفيقك لي لما تحب وترضى في المستقبل.

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أي: من جملة الخاسرين، فلا نجاة من الخسران لأحد من الخلق- بما فيهم الرسل والأنبياء- ولا ربح لأحد منهم إلا بمغفرة الله تعالى ورحمته، ولا غنى لأحد عن ذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

قال السعدي(٢) في كلامه على هذه الآية: «ودل هذا على أن نوحًا عليه السلام- لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرَّم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾، بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ وبعد هذا تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم».

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٣/ ٤٢٨.

سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾؛ الهبوط: النزول، أي: قيل لنوح عليه السلام بعد أن استوت السفينة ورست على الجودي: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾؛ الباء: للمصاحبة، أي: انزل من السفينة مصحوبًا بسلام منا وأمن.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾، أي: وبركات منا عليك، أي: خيرات كثيرة نامية.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾، أي: وبركات على أمم، أي: جماعات.

﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾؛ «من»: حرف جر، و«من»: الثانية موصولة، أي: من الذين معك من المؤمنين ومن آمن من ذرياتهم إلى يوم القيامة.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾؛ الواو: استئنافية، أي: وأمم كثيرة كفار غير مؤمنين، سنمتعهم في الدنيا متاع البهائم؛ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ثم يصيبهم منا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع؛ حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا والآخرة، وفي ذكر هذا في القرآن الكريم تعريض بالمشركين ووعيد لهم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ الإشارة تعود إلى ما ذكره الله تعالى في الآيات السابقة من قصة نوح وقومه، أو هي وغيرها من قصص القرآن الكريم؛ تسليةً للنبي ﷺ، وتحذيرًا وتهديدًا للمشركين من قومه. والخطاب للنبي ﷺ، أي: تلك الأنباء المذكورة في هذه القصة من أخبار الغيب الهامة السابقة التي لم تشهدها، والتي لا يعلمها إلا الله.

﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ نعلمك بها بوحينا إليك كأنك شاهدها.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾؛ «أنتَ» ضمير فصل للتوكيد، أي: ما كان عندك

علم بها. ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾، أي: ولا قومك يعلمونها فيقال: تعلمتها منهم.

﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، أي: من قبل أن نوحيها إليك ونعلمك بها بهذا القرآن، وفي هذا امتنان عليه بتعليمه ما لم يعلم.

﴿فَاصْبِرْ﴾، أي: فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وعلى أذى المشركين والمكذبين من قومك، كما صبر نوح عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل للأمر بالصبر، واللام: للاختصاص، أي: لأن العاقبة والنهاية الحسنة للمتقين وحدهم خاصة، وهم الرسل وأتباعهم؛ ففي الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالفوز العظيم في جنات النعيم.

وفي هذا موعظة وتسلية له ﷺ، أي: فاصبر فسينصرك الله، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك المتقين في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات١٧٣: ١٧١].

الفوائد والأحكام:

١- أمر نوح عليه السلام لمن أمره الله بحملهم معهم بركوب السفينة؛ استجابة لأمر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾.

٢- استعانة نوح عليه السلام- وتبركه عند ركوبه السفينة باسم الله الذي بعونه وتقديره وتوفيقه جريها ورسوها؛ لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

٣- مشروعية التسمية عند الركوب؛ تبركًا باسم الله تعالى، واستعانةً به وتيمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

وفي حديث جابر الطويل في قصة بعيره أن رسول الله ﷺ قال له: «اركب باسم الله»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة- بيع البعير واستثناء ركوبه ٧١٥.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: «**باسم الله...**» الحديث، وفي آخره قال: «رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت»(١).

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه ورسله؛ لقول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٥- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَغَفُورٌ﴾.

٦- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٧- اعتراف نوح عليه السلام بأن نجاته ومن معه، بتسخير السفينة تجري بهم في البحر، وتنقلهم إلى شاطئه وترسو بهم، إنما هو بعناية ربه عز وجل، ومغفرته لهم، ورحمته بهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨- قدرة الله تعالى التامة، ومنته العظيمة، في جعل السفينة تجري بنوح ومن معه فيها وسط موج كالجبال، فلا تتوقف ولا تغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾.

٩- مناداة نوح علية السلام- شفقة منه- لابنه، وكان منعزلًا عنه وعن المؤمنين، آمرًا له بأن يؤمن ويركب معهم ولا يكون مع الكافرين المغرقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

١٠- ظن ابن نوح- جهلًا منه وتكذيبًا لأبيه- أن الجبل سيعصمه من الماء؛ لقوله: ﴿سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ﴾.

١١- لا عاصم من أمر الله إلا من رحمه الله وعصمه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

١٢- حيلولة الموج بين نوح وابنه وغرقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- ما يقول الرجل إذا ركب ٢٦٠٢، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٦.

مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾.

١٣- أمر الله عز وجل الأرض بابتلاع مائها، والسماء بالإقلاع عن المطر، وغيض الماء، وقضاء الأمر بهلاك المكذبين، واستواء السفينة على الجودي، ونجاة نوح ومن معه فيها، والحكم بإبعاد القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

١٤- الحكم بالبعد والهلاك على قوم نوح؛ لبلوغهم غاية الظلم بتكذيبهم وكفرهم، وهو حكم عليهم وعلى غيرهم من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

١٥- الحذر من الظلم بالتكذيب والكفر وغير ذلك؛ لأنه سبب للحرمان والإبعاد عن الرحمة وعن كل خير، والوقوع في المهالك والشرور.

١٦- نداء نوح عليه السلام ودعاؤه ربه؛ شفقةً منه بأن ابنه من أهله الذين أمر بحملهم في السفينة ووعد بنجاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

١٧- أن وعد الله تعالى حق لا يتخلف؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾.

١٨- أن الله عز وجل أحكم الحاكمين، وأعدلهم حكمًا كونيًّا وشرعيًّا، وأبلغهم حكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

١٩- تفويض نوح عليه السلام وتسليمه الحكم فيه وفي ابنه إلى الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، أي: تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا رادَّ لحكمك، ولا معقب لقضائك.

٢٠- أدب نوح عليه السلام مع ربه؛ حيث لم يصرح بمطلوبه، واكتفى بالتعريض مع الثناء على ربه عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

٢١- وجوب التفويض والرضا بما حكم الله به كونًا، والقبول بما حكم به شرعًا، والتسليم والانقياد لذلك.

٢٢- ينبغي للداعي والسائل أن يقرن الدعاء والسؤال بالثناء على المدعو والمسؤول؛ فذلك أنجح لقبول الدعاء وإجابة السؤال.

٢٣- إجابة الله تعالى نداء نوح عليه السلام ببيانه عز وجل له: أن ابنه ليس من أهله، وأنه عمل غير صالح؛ لكفره وعدم إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.

٢٤- أن الكفر يفرق بين المرء وبين أهله، ويقطع الصلة بين الأقارب؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

٢٥- أن الكفر وعدم الصلاح سبب للهلاك، كما أن الإيمان والصلاح سبب للنجاة.

٢٦- أن الدعاء للكافرين وسؤال النجاة لهم أمر لا يجوز؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

٢٧- نهي الله عز وجل نبيه نوحًا عليه السلام عن سؤاله ما ليس له به علم، وموعظته له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٢٨- أن سؤال الإنسان ما ليس له به علم من الجهل وعمل الجاهلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٢٩- ندم نوح عليه السلام على ما فرط منه، واستعاذته بالله أن يسأل ما ليس له به علم، وسؤاله الله مغفرته ورحمته؛ مخافة أن يكون من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٣٠- ينبغي الاستعاذة بالله من الوقوع في المخالفة والعصيان، وسؤاله العصمة من ذلك، والمغفرة والرحمة، والإشفاق من الخسران.

٣١- أن الخسران كل الخسران في مخالفة أمر الله ومعصيته، كما أن الربح كل الربح في اتباع أمر الله وطاعته، وأن من لم يحفظه الله ويغفر له ويرحمه هالك لا محالة، وخاسر

الخسران المبين.

٣٢- امتنان الله تعالى بإنجائه نوحًا، وأمره له بالنزول من السفينة بسلام منه عز وجل وأمن وبركات عليه وعلى أمم ممن معه وممن بعده من المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾.

٣٣- كثرة الأمم الكافرة بعد نوح وإلى يوم القيامة، الذين يتمتعون في الحياة كالبهائم، ثم يصيرون إلى عذاب أليم في نار جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

٣٤- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم كالبهائم، يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم.

٣٥- الامتنان على نبينا محمد ﷺ وعلى أمته، بإعلامه بالوحي إليه في القرآن الكريم بما جرى لنوح وغيره من الأنبياء السابقين مع أممهم، مما فيه تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه، وتحذير وإنذار للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾.

٣٦- أمر الله عز وجل له ﷺ بالصبر على تبليغ الرسالة، والقيام بأمر الله، وعلى أذى قومه، وبشارته بأن العاقبة له ولأتباعه المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

٣٧- فضل الصبر والتقوى والترغيب فيهما؛ لأن العاقبة للمتقين الصابرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، أي: أخاهم في النسب؛ ليتمكنوا من الأخذ عنه، والعلم بصدقه.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، أي: اعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له، ما لكم من معبود سواه. و«مِن» في قوله ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لكم من أيِّ إله غيره.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنتم إلا مفترون، والافتراء: الكذب، وأعظمه ادعاء شركاء مع الله، أي: ما أنتم إلا كاذبون باتخاذكم الشركاء مع الله وجعلهم شفعاء.

وفي هذا إنكار عليهم وتوبيخ لهم؛ كما قال لهم في سورة الأعراف: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا

تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

بنحو من هذا خاطب كثير من الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوامهم؛ إقامةً للحجة، وإزاحةً للتهمة، ومحضًا للنصيحة، كما قال نوح، وهود أيضًا، وصالح، وشعيب عليهم السلام: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وقال نوح أيضًا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢] وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

أي: لا أسألكم على إبلاغي لكم رسالة ربي ونصحي لكم أجرًا، أي: أجرة وغرامة من أموالكم، فتقولون: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وتستثقلون هذا الغرم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦]

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أجري إلا على الذي فطرني، أي: على الذي خلقني، وهو الله ربي الذي يسوق رزقي، ويثيبني على تبليغكم رسالته في الدنيا والآخرة.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم، وتهتدون بها إلي عبادة الله تعالى وحده، وترك ما تشركون من دونه، وتستجيبون لمن يدعوكم إلي ذلك بغير أجرة ولا غرم، بل لنفعكم ومصلحتكم؛ كما قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أي: اطلبوا من ربكم مغفرة ما مضى منكم؛ من الشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، أي: ارجعوا وأنيبوا إليه بالإيمان والعمل الصالح، والبعد عن الشرك والمعاصي في المستقبل.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، أي: إنكم إن فعلتم ذلك يرسل ربكم السماء عليكم، أي: ينزل المطر عليكم؛ كما في حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ على إثر سماء كانت من الليل»، أي: على أثر مطر.

﴿مِّدۡرَارٗا﴾ حال، أي: غزيرًا متتابعًا كثيرًا؛ مما يكون سببًا للخصب وكثرة الخيرات والأرزاق.

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً﴾؛ في الأبدان وصحتها، وكثرة العدد، وفى الرزق وغير ذلك؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾؛ حيث كانوا من أقوى الناس أجسامًا؛ ولهذا كانوا يقولون اغترارًا منهم: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾، أي: ولا تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه من استغفار ربكم والتوبة إليه.

﴿مُجۡرِمِينَ﴾ حال، أي: مجرمين بهذا التولي، أي: إن توليكم عما دعوتكم إليه إجرام، ومن عمل المجرمين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، أي: ما أتيتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه وتدعو إليه؛ من وجوب عبادة الله تعالى وحده، وأن ما لنا من إله غيره، وأننا مفترون في عبادتنا غيره.

وهذا بهتان وكذب منهم، وإنكار لما جاءهم به من الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ

عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٥٩].

وقد قال نبينا محمد ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر».

ولو لم يكن من الآيات إلا دعوته لهم إلي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، الأمر الذي شهدت عليه جميع الدلائل الكونية في السموات والأرض، وفي الإنسان نفسه، وفي سائر المخلوقات، والذي هو أعظم الآيات عند أولي البصائر والعقول؛ لكفى وشفى.

ويجوز أن يكون مرادهم بقولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ما يقترحونه من الآيات على سبيل العناد والتعجيز، فهذا ليس بلازم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، أي: وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا لأجل قولك، أو بمجرد قولك: اتركوا عبادتهم؛ كقولهم في سورة الأعراف: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما نحن لك بمصدقين فيما جئتنا به، وهذا تيئيس منهم لهود عليه السلام- أن يؤمنوا به.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما نقول فيك إلا أنه أصابك بعض آلهتنا ﴿بِسُوٓءٍ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: بجنون وخبل في عقلك؛ بسبب نهيك عن عبادتها وسبك لها، فصرت تهذي بما لا تعقل.

وكانوا يهددون الناس بآلهتهم ويخوفونهم منها؛ ليعبدوها ويعظموها.

﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسي، ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أنتم ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: أني بريء من إشراككم آلهة غير الله، أو موصولة، أي: من الذي تشركون به غيره من الآلهة.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾؛ الأمر للتعجيز؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المرسلات: ٣٩]، أي: فدبروا لي من الكيد والمكر والأذى ما استطعتم جميعًا، أنتم وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله.

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، أي: ثم لا تمهلوني ولا تؤخروني طرفة عين، وفى هذا تأكيد لتعجيزهم، واحتقار لهم ولآلهتهم.

وفى هذا كله إبطال لقولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، وإعلان منه عليه السلام بثقته بحفظ الله له تمام الوثوق، وأنهم لا يستطيعون هم وآلهتهم أن يصيبوه بأيٍّ أذى مهما مكروا ودبروا، وتحدٍّ صارخ لهم؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ تعليل لمضمون قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، أي: إني اعتمدت على الله، وفوضت أمري إليه، هو حافظي منكم ومن كل سوء.

﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ خالقنا ومالكنا، والمتصرف فينا جميعًا.

﴿مَّا مِن دَابَّةٍ﴾؛ «ما»: نافية، و«من»: زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما من أيِّ دابة من كل ما يدب على الأرض من إنس وجن وحيوان.

﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾؛ «إلا»: أداة حصر: إلا الله ربي وربكم آخذ بناصيتها.

أي: هو خالقها ومالكها، وهى تحت تدبيره وقهره وسلطانه.

وفي الحديث قوله ﷺ: «اللهم أني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيديك، ماض في حكمك»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إن ربي على طريق عدل مستقيم؛ في خلقه وملكه وتدبيره، في أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، وأقواله وأفعاله، وأوامره ونواهيه، وثوابه وعقابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وفى حديث ابن مسعود رضي الله عنه المتقدم: «عدل فيّ قضاؤك».

أي: فلا أخاف ظلمه؛ لأنه على صراط مستقيم، ولا أخاف من دونه؛ لأن نواصي الخلق كلها بيده، فاحذروه؛ فإن مصير العباد إليه، وطريقهم عليه، لا يفوتونه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

بعدما أعلن البراءة مما هم عليه من الشرك، وتحداهم وشركاءهم أن يكيدوه ولا ينظروه، وأعلن توكله على ربه وربهم الذي نواصي الخلق كلها بيده، يقضي فيهم بحكمه العدل؛ توعدهم وهددهم- إن تولوا- بإهلاكهم واستخلاف غيرهم.

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ «تولوا»: أصلها «تتولوا»، حذفت إحدى التاءين اختصارًا، أي: فإن تتولوا بأبدانكم وجوارحكم، وتعرضوا بقلوبكم عن الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ جواب الشرط «إن»، أي: فقد أبلغتكم الذي أرسلت به إليكم، أي: أوصلت إليكم رسالة ربي التي بعثني بها إليكم، وأديت ما عليَّ، وقامت عليكم بذلك الحجة، ووضحت لكم المحجة، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، أي: فيهلككم ربي ويستبدل قومًا غيركم، يخلفونكم في دياركم وأموالكم، يوحدون الله ويخلصون له العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾، أي: ولا تضرونه بتوليكم. ﴿شيئًا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ولا تضرونه أيَّ شيء من الضرر مهما قل؛ لأنه عز وجل لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، وإنما ضرر توليكم ووباله عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ تعليل لما قبله، أي: إن ربي على كل شيء رقيب مطلع شاهد، وحافظ حاكم متولٍ على كل شيء، فلا يمكن أن يضره شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: وحين جاء عذابنا، أو أمرنا الكوني بالعذاب بإرسال الريح العقيم على عاد؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات ٤١: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة ٦: ٧].

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ الباء: للسببية، أي: خلصناهم بسبب رحمة منا لهم، وفضل عليهم، ولطف بهم من العذاب الدنيوي، بالريح العقيم.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أي: وخلصناهم من عذاب شديد عظيم، وهو عذاب الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

واستعمل الماضي في معنى المستقبل؛ لتحقق الوعد بوقوعه.

ويجوز أن يراد هنا: النجاة من العذاب الدنيوي بالريح العقيم، وكرر للامتنان عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾؛ أُنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة، و﴿عَادٌ﴾ بيان لاسم الإشارة، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، أي: وتلك عاد الذين أوقع الله بهم ما أوقع.

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ الجحود: الإنكار الشديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات، والمعنى: أنكروا آيات ربهم الكونية والشرعية إنكارًا شديدًا، وكفروا بها وكذبوها، وقالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣].

وعُدي «جحدوا» بالباء مع أنه متعد بنفسه؛ لتضمنه معنى «كفروا».

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾: خالفوا رسله، بمعصيتهم ومخالفتهم لهود عليه السلام؛ لأن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: واتبعوا وقلدوا- في الشرك بالله ومعصيته- أمر كل جبار، متسلط على عباد الله، متكبر عن قبول الحق، وعلى الخلق.

﴿عَنِيدٍ﴾: شديد العناد للحق، راد له وللآيات، أي: أنهم اتبعوا وأطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أي: وأُلحقوا في هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾؛ من الله عز وجل بالحكم عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمته، ومن الخلق بالدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، أي: وأتبعوا يوم القيامة لعنة، فلعنوا في الدنيا والآخرة، حيث ينادى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد:

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ «أَلَا»: حرف تنبيه في الموضعين

لتهويل الخبر، و«إنَّ»: حرف توكيد؛ لإفادة التعليل لقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وعدي الفعل «كفروا» بدون حرف الجر؛ لتضمنه معنى «عصوا».

وهاتان اللعنتان في الدنيا والآخرة، مقابل ما فاز به هود عليه السلام والذين آمنوا معه من النجاتين في الدنيا والآخرة.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ «بُعدًا» مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: أُبعدوا بعدًا.

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ بدل من «عاد» وبيان له.

أي: أبعدوا عن رحمة الله تعالى وجنته، ولعنوا وأهلكوا؛ لبعدهم عن الصراط المستقيم. وفي هذا تعريض بالمشركين المكذبين للنبي ﷺ؛ ليعتبروا بما أصاب عادًا بسبب تكذيبهم لهود عليه السلام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه «عاد»؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ الآية.

٢- دعوة هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، وبيان أنه ما لهم من إله غيره، وتوبيخهم على الافتراء بادعاء الشركاء له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

٣- وجوب إخلاص العبادة لله وحده، فلا معبود بحق سواه، وأن ما يدعى دونه من الشركاء كذب وافتراء يجب الحذر منه.

٤- أن هودًا عليه السلام- كغيره من الرسل عليهم السلام- لم يسأل قومه أجرًا على تبليغ رسالته فيستثقلوا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

٥- بيان هود عليه السلام أن أجره في تبليغ الرسالة إنما هو على الذي فطره، لا على أحد سواه؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾، وبنحو من هذا قال غيره من الرسل.

٦- أن الذي فطر الخلائق وأوجدهم هو الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا

عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

٧- تكفل الله عز وجل بثواب الرسل عليهم السلام، بل بثواب المؤمنين عمومًا، مع أنه عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه عز وجل أوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

٨- توبيخ هود لقومه، وإنكاره عليهم عدم الاهتداء بعقولهم إلى وحدانية الله تعالى، ووجوب إخلاص العبادة له وحده، وعلى افترائهم الشركاء له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٩- وجوب الانتفاع بنعمة العقل، والاهتداء به إلى الحق والخير، والبعد عن الباطل والشر.

١٠- وجوب الاستغفار والتوبة، وفضيلتهما، وأنهما من أسباب نزول الأمطار الغزيرة، وكثرة الخيرات، وزيادة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

١٢- الإشارة لما كانت عليه عاد من القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١٣- وجوب الإقبال على الله تعالى بالاستغفار والتوبة، والحذر من التولي والإجرام، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

١٤- شدة عناد قوم هود وإنكارهم ما جاءهم به من الآيات البينات؛ لقولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

١٥- تشبثهم بما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام، واحتقارهم لهود، ولما دعاهم إليه من عبادة الله تعالى وحده وترك الشرك؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾.

١٦- تأكيدهم البقاء على ما هم عليه من الكفر واختيارهم له، ونفيهم أن يؤمنوا

لهود؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

١٧- سخريتهم بهود عليه السلام، وأنه أصابته بعض آلهتهم- كما يزعمون- بجنون، فأصبح يهذي بما لا يعقل؛ لقولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

١٨- إشهاد هود عليه السلام الله عز وجل على نفسه، وإشهاده قومه على براءته من شركهم وشركائهم من دون الله؛ لقوله: ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

١٩- تحديه لهم ولشركائهم أن يكيدوه جميعًا ثم لا ينظرونه، في تحد صارخ أنهم لا يستطيعون ذلك؛ لقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

٢٠- إعلانه لهم توكله على الله ربه وربهم، وتمام تفويضه إليه، واعتماده عليه، وثقته بحفظه له؛ لقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله الخاصة لهود عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

٢٢- وجوب البراءة من الشرك، والتوكل على الله عز وجل، والاعتماد عليه وحده.

٢٣- عموم ملك الله عز وجل، وتدبيره لكل ما يدب على وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾.

٢٤- كمال عدل الله عز وجل في خلقه وملكه، وأحكامه الكونية والشرعية والجزائية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٢٥- تحذير هود لقومه من التولي والإعراض، وتهديدهم بإهلاك الله لهم، واستخلافهم بغيرهم ممن يوحدون الله ولا يكونون أمثالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

٢٦- أن مهمة هود عليه السلام بالنسبة لقومه هي إبلاغهم رسالة ربه وإقامة الحجة، وقد فعل، كغيره من الرسل؛ لقوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٢٧- أن من تولى وأعرض لا يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾.

٢٨- أن الله عز وجل حفيظ رقيب، حاكم متول على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٢٩- امتنان الله تعالى على هود عليه السلام بإنجائه والذين آمنوا معه- برحمة منه عز وجل- من الريح العقيم التي عذب بها قومه في الدنيا، وإنجائهم في الآخرة من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٣٠- أن النجاة من عذاب الدنيا والآخرة إنما هي برحمة الله تعالى، لا بعمل العبد، حتى ولو كان سيد الرسل ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

وكما قال ﷺ: «لن يدخل أحدَكم عملهُ الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

فالإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب فقط للنجاة ودخول الجنة، وحصول ذلك إنما هو برحمة أرحم الراحمين.

٣١- أن عذاب الدنيا مهما عظم فهو دون عذاب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ يعني: عذاب الآخرة.

٣٢- ذم عاد وتحقيرهم؛ لجحودهم آيات ربهم، وعصيانهم لرسله، واتباعهم أمر الجبابرة المعاندين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٣٣- أن هودًا عليه السلام قد جاء قومه بآيات بينات؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وفي هذا إبطال لقولهم قبل هذا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [الآية: ٥٣].

٣٤- أن من عصى رسولًا من الرسل وكذبه فقد عصى وكذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾، فبتكذيبهم هودًا صاروا مكذبين بجميع الرسل.

٣٥- ينبغي الحذر من اتباع وطاعة المتكبرين المتجبرين، المعاندين للحق، ودعاة الباطل والضلال.

---

(١) سبق تخريجه.

٣٦- الحكم على عاد باللعنة والإبعاد عن الرحمة والخير في الدنيا، ويوم القيامة بسبب كفرهم بربهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

٣٧- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣٨- أن التكذيب بآيات الله، ومعصية رسله، واتباع أرباب التكبر والجبروت والعناد؛ سبب للبعد عن الرحمة والخير في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا ۖ فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

بعدما ذكر الله تعالى قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام؛ أتبع ذلك بذكر قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام؛ لأن ثمود كانوا بعد عاد؛ ولهذا كان يقال لثمود: «عاد» «الثانية».

قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، أي: أخاهم في النسب.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، أي: اعبدوه وأفردوه بالعبادة، وأخلصوها له؛ ما لكم من معبود سواه.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ في موضع التعليل للأمر قبلها بعبادة الله تعالى، ونفي إلهية غيره، كما أنها علة أيضًا بطريق التفريع للأمر بعدها بالاستغفار والتوبة.

أي: هو وحده الذي ابتدأ إنشاءكم، أي: ابتدأ خلقكم وإيجادكم من الأرض، بخلق أبيكم آدم من التراب والطين.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أي: جعلكم عمارًا لها، تعمرونها بالبناء والغرس والزرع؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا

فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦- ١٤٩].

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: اطلبوا منه مغفرة ما سلف من ذنوبكم.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، أي: ثم ارجعوا وأنيبوا إليه بالإيمان والعمل الصالح، والبعد عن الشرك والذنوب فيما تستقبلونه من حياتكم.

﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾؛ الجملة تعليل لما قبلها، و«إنَّ»: للتوكيد. وقرب الله عز وجل نوعان: عام وخاص، فالقرب العام: قربه عز وجل من جميع الخلق بعلمه وإحاطته وقدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

والقرب الخاص: قربه من أوليائه وعباده المؤمنين وسائليه باستجابته لهم وتوفيقهم وحفظهم وعونهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩]، وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(١).

وفي حديث معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه رضي الله عنه: «أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]»(٢).

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**ومن تقرب إلي شبرًا تقربت منه باعًا**»(٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داوود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ٣١٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ١/ ٣١٣.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٢٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٤.

وهذا القرب الخاص هو المراد بالآية، فهو قريب ممن استغفره وتاب إليه، وممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة.

﴿مُّجِيبٌ﴾، أي: سميع، مجيب دعاء من دعاه، يعطيه سؤله، ويغفر ذنبه، ويقبل توبته وعبادته، ويثيبه أجلَّ الثواب؛ كما قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

فهو عز وجل قريب من أوليائه وعباده الصالحين، يسمع دعاءهم، ويجيبهم، ويعطيهم سؤلهم، ويثيبهم، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾؛ افتتاحهم الكلام بالنداء لقصد التوبيخ والملام والتنبيه. و«قد» لتحقيق وتأكيد الخبر.

أي: كنا نؤمل ونتوسم فيك العقل والسؤدد، والنفع والخير، وهذه شهادة منهم على أنه عليه السلام من خيارهم، وذو مكانة رفيعة بينهم.

﴿قَبْلَ هَٰذَآۖ﴾، أي: قبل دعوتك لنا بعبادة الله وحده، وترك عبادة آلهتنا، أي: والآن خيبَّت رجاءنا فيك وأخلفت ظننا.

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ الجملة بيان لقولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ﴾، وفي هذا إشارة إلى استخفافهم به بعد هذا؛ كما قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

والاستفهام في قولهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ للإنكار والتوبيخ، أي: كيف تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا.

و«أنْ» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، و«ما»

موصولة، أي: أتنهانا عن عبادة الذي يعبده آباؤنا من الآلهة. هذا شيء لا ينبغي أن يكون منك، ولا يليق بك، ولا يمكن أن نقبله منك. وهذا من سفه عقولهم، وانتكاس فطرهم، وشدة جهلهم، وإلا فكيف يلام ويوبخ النبي الداعي إلى الحق وينكر عليه، وقد قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه(١)

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ الواو: حالية، و«إن»: حرف توكيد، واللام: للتوكيد، أي: والحال أننا لفي شك كثير من الذي تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة ما يعبده آباؤنا.

﴿مُرِيبٍ﴾، أي: موقع في الريبة، موجب للتهمة، وقلق النفس، وعدم الطمأنينة

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وقد سبق الكلام على هذه الآية.

وفي مقالة نوح عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ إشارة- كما سبق بيانه- إلى عظمة هذه الرحمة، والاعتناء بها وبمن أوتيها.

وفي قول هود هنا: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بتقديم «منه»، دلالة على أنه إيتاء خاص دال على عنايته عز وجل بنبيه هود عليه السلام.

والمراد: أخبروني إن كنت على بينة وبصيرة وحجة ظاهرة من ربي، وأعطاني منه رحمة بالنبوة والرسالة، أفأترك دعوتكم إلى ما أرسلني ربي به إليكم، أو أتبعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر دل عليه ما قبله، و«من» اسم استفهام، أي: فمن الذي ينصرني من الله، ويدفع عني عذابه؟

---

(١) البيت ينسب لصالح عبد القدوس. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ٢٧٢)، وينسب لعبد الملك الحلاج. انظر: «الإيجاز والإعجاز» (ص١٦١).

﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ مجاراةً لكم في أهوائكم، فتركت تبليغكم رسالة ربي، ودعْوَتكم إلى الحق وعبادة الله تعالى، ونهيكم عن الشرك.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾، أي: فما تزيدونني لو تركت تبليغكم رسالة ربي؛ نزولًا عند رغبتكم، أو اتبعتكم فيما تدعونني إليه؛ مجاراةً لكم؟

﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، أي: غير خسار وتتبيب وتضليل وإبعاد عن الحق.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾؛ هذا جواب عن قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: ٩].

أي: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، أي: علامة ومعجزة دالة على صدق نبوتي، تزيل الشك عنكم؛ لأن الله خلقها بطلبهم، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف؛ لأن الله تعالى خلقها بقدرته الخارقة للعادة.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، أي: فاتركوها تأكل في أرض الله الواسعة، ليس عليكم من مؤونتها وعلفها شيء.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾، أي: ولا تتعرضوا لها أو تصيبوها.

﴿بِسُوٓءٍ﴾، أي: بأذى؛ من قتل، أو منع لها من الرعي أو الشرب، ونحو ذلك، وكان الاعتداء عليها متوقعًا منهم لشدة عنادهم؛ لهذا حذرهم منه.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، أي: فيصيبكم عذاب قريب عاجل، فيهلككم من فرط غضب الله تعالى عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: فقتلوها.

﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام متوعدًا لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾، أي: تمتعوا

وابقوا في هذه الحياة في داركم، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقط، ثم يأخذكم العذاب.

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ الإشارة إلى ما توعدهم به من إمهالهم ثلاثة أيام فقط، يتمتعون فيها في دارهم، ثم نزول العذاب فيهم. والمعنى: ذلك وعد صادق، وأمر واقع كائن لا محالة.

والوعد المكذوب: الذي يعد ويخبر به الكاذب

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فحين جاء عذابنا وأمرنا الكوني ثمود بالصيحة.

﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، أي: خلصناهم من العذاب.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب رحمة عظيمة منا رحمناهم بها.

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾؛ قرأ نافع، وأبو جعفر: «يومَئذ» بفتح الميم، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾.

والواو عاطفة، أي: ونجيناهم من خزي يومئذ، والتنوين في ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ عوض عن المضاف إليه، أي: يوم إذ جاء أمرنا.

أي: وخلصناهم من هوان وذل ذلك اليوم وفضيحته، الذي أُهلك به المكذبون بالصيحة، فامتن على صالح والذين آمنوا بإنجائهم من العذاب الحسي ومن العذاب المعنوي، وهو خزي ذلك اليوم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح خطابه.

﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ ذو القوة التامة، الشديد البطش؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

و﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، وعزة القوة أيضًا، لكن حيث قرن «العزيز» بـ«القوي» فالأولى حمل «العزيز» هنا على عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

فهو عز وجل ذو القوة وذو العزة، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل هو القاهر فوق عباده، الغالب لكل شيء؛ ولهذا أكد الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾.

قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾، أي: وأصاب الذين ظلموا- بتكذيبهم صالحًا عليه السلام، وشركهم بالله- الصيحة الشديدة من السماء، والرجفة والصاعقة، فرجفوا لها وصعقوا، وهلكوا عن آخرهم. قيل: صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم.

وعبر عن «ثمود» بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ لبيان علة أخذهم بالصيحة، وهي ظلمهم بتكذيبهم لصالح وإشراكهم بالله تعالى، وفي هذا تعريض بمشركي قريش، وتحذير لهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك الظالمين قبلهم.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ﴾، أي: فصاروا في ديارهم، ﴿جَٰثِمِينَ﴾، أي: جثثًا هامدين لا يتحركون.

قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ﴾، أي: كأنهم لما أخذهم العذاب لم يعيشوا في تلك الديار، ولم يقيموا في مساكنها ومرابعها، ولم يتمتعوا ويتنعموا فيها يومًا من الدهر.

كما قال أبو البقاء الرندي رحمه الله(١):

أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليل وتيجان

---

(١) من قصيدته المشهورة في رثاء الأندلس، والتي مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٥/ ٢٤٥)، «نفح الطيب» (٤/ ٤٨٤).

وأيـــن مـــا شـــاده شـــدّاد في إرمٍ ... وأيـن مـا ساسـه في الفـرس ساسـان
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب ... وأيـــن عـــاد وشـــداد وقحطـــان
أتـى عـلى الكـل أمـر لا مـرد لـه ... حتـى قضـوا فكـأن الكـل مـا كـانوا

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾؛ قرأ حمزة، وحفص عن عاصم، ويعقوب: ﴿ثَمُودَاْ﴾ بغير تنوين، على اعتباره اسمًا للقبيلة. وقرأ الباقون بالتنوين، على اعتباره اسمًا لجد القبيلة: «ثمودًا».

أي: ألا إن ثمود كفروا بربهم وكذبوا آياته، و«ألَا»: للتنبيه، وعُدي الفعل «كفروا» بدون حرف الجر؛ لأنه ضمن معنى «جحدوا».

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ قرأ الكسائي بكسر الدال مع التنوين: «لثمودٍ»، وقرأ الباقون بفتحها من غير تنوين: ﴿لِّثَمُودَ﴾.

أي: ألا بعدًا لثمود عن رحمة الله، وجنته، وعن الخير، ولعنةً وهلاكًا لهم؛ لبعدهم عن الحق.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: ٧٣].

٢- نعمة الله تعالى على ثمود وعلى جميع الأمم في جعل رسلهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥﴾ [هود: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: ٥٠].

وذلك ليتمكنوا من الأخذ عنه والفهم منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ٤﴾ [إبراهيم: ٤].

٣- أمر صالح عليه السلام قومه بعبادة الله تعالى وحده، وبيان أن ما لهم من إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ [هود: ٥٠].

٤- تذكير صالح عليه السلام لقومه بنعمة الله عليهم بإنشائهم من الأرض

واستعمارهم فيها؛ ليشكروه بعبادته وحده لا شريك له، ويستغفروه ويتوبوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

٥- أن نشأة الخلق من الأرض؛ لأن الله خلق أباهم آدم من ترابها وطينها.

٦- أن من حكمة إيجاد الخليقة عمارة الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

٧- الاستدلال بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية.

٨- وجوب الاستغفار والتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه ورسله؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾.

١٠- قرب الله عز وجل- قربًا خاصًا- من أوليائه وعباده المؤمنين وسائليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ كما أنه عز وجل قريب- قربًا عامًا- من الخلق كلهم، بعلمه وإحاطته وقدرته.

١١- سماع الله عز وجل دعاء الداعين، واستغفار المستغفرين، وتوبة التائبين وسؤال السائلين من عباده المؤمنين، وإجابتهم وإثابتهم؛ لقوله تعالى: ﴿مُّجِيبٌ﴾.

كما أنه عز وجل يجيب دعوة المضطر والمظلوم، حتى ولو كان من غير المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا عام يشمل المؤمنين وغيرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «**واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١). وهذا أيضًا عام.

١٢- جهل ثمود المركب؛ حيث لاموا نبيهم صالحًا عليه السلام على دعوته إياهم إلى توحيد الله ونهيهم عن الشرك، واستخفافهم به وإنكارهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٩٦، ومسلم في الإيمان ١٩، وأبو داوود في الزكاة ١٥٨٤، والترمذي في الزكاة ٦٢٥، وابن ماجه في الزكاة ١٧٨٣؛ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

١٣- أن الجهل والكفر مما يعمي عن الحق، فتنقلب عند المرء الحقائق، فيرى الحق باطلًا، والباطل حقًّا.

١٤- شدة عناد ثمود وتشكيكهم فيما يدعوهم إليه صالح عليه السلام وارتيابهم في ذلك؛ لقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

١٥- تنزل صالح عليه السلام مع قومه في الخطاب في رده عليهم في لومهم له وإنكارهم عليه دعوته لهم إلى عبادة الله وترك الشرك وتشكيكهم في دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾، أي: إن عصيته في ترك دعوتكم، أو اتباعكم فيما تدعونني إليه، وحاشاه عليه السلام من ذلك.

١٦- أن صالحًا عليه السلام على بينة ويقين وبرهان ووحي من ربه فيما دعا إليه قومه.

١٧- أن إيتاء صالح عليه السلام الرسالة رحمة من الله تعالى له ولقومه، خصوصًا من آمن منهم؛ لقوله عليه السلام اعترافًا بهذه النعمة العظيمة: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾.

١٨- أنه لا أحد ينصر من الله، ويدفع عذابه عمن عصاه، حتى ولو كان من رسله، وحاشاهم من معصيته عز وجل؛ لقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾.

١٩- أن طاعة دعاة الباطل والضلال واتباعهم لا تزيد المرء إلا الخسران والخذلان والتباب، مما يوجب الحذر منهم؛ لقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

٢٠- تأييد الله عز وجل لصالح عليه السلام بالآية العظيمة، وهي الناقة التي أخرجها الله آية مبصرة لثمود؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

٢١- تشريف هذه الناقة بإضافتها إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه هو الذي خلقها وجعلها لهم آية ومعجزة بقدرته الخارقة للعادة.

٢٢- أمر صالح عليه السلام لقومه بترك الناقة تأكل وترعى في أرض الله، وتحذيرهم من أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب قريب؛ لقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي

أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

٢٣- أن الأرض كلها لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾.

٢٤- جرأة ثمود على عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية بطلبهم، ومخالفتهم أمر الله وارتكابهم نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

٢٥- توعدهم بالعذاب، وإمهالهم ثلاثة أيام يتمتعون فيها في دارهم، ثم يحل بهم وعد الله لهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

٢٦- أن وعد الله ووعيده بالعذاب صدق لا يتخلف؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

٢٧- امتنان الله عز وجل على صالح عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة منه عز وجل بإنجائهم من العذاب، ومن خزي ذلك اليوم، أي: من العذاب الحسي وهو الصيحة، ومن العذاب المعنوي وهو الخزي؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾.

٢٨- أن النجاة من العذاب إنما هي برحمة الله تعالى لا بالعمل، وفي الحديث قوله ﷺ: «**لن يدخل أحدَكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

٢٩- أن الإيمان والعمل الصالح سبب للنجاة من العذاب في الدنيا والآخرة.

٣٠- أن في العذاب خزي معنوي للمعذبين، وإذلال لهم وإهانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالنبي ﷺ وبالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «القوي»، وما يدل عليه من إثبات صفة القوة التامة لله

---

(١) سبق تخريجه.

عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾.

٣٣- إثبات اسم الله تعالى «العزيز»، وصفة العزة التامة لله عز وجل بأنواعها.

٣٤- في اقتران صفة القوة والعزة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

٣٥- أخذ «ثمود» وإهلاكهم بالصيحة؛ بسبب ظلمهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

٣٦- تحذير الظالمين المشركين المكذبين للرسول ﷺ مما حل بالظالمين قبلهم، كثمود وغيرهم.

٣٧- شدة أخذ الله وعقابه للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

٣٨- عظم شؤم الكفر والذنوب والمعاصي؛ فهي تهلك الحرث والنسل، وتذر الديار بلاقع؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٥]، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥].

٣٩- تأكيد كفر ثمود بربهم، وجحودهم لآياته، وتكذيبهم رسوله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾.

٤٠- الحكم على ثمود بالبعد عن رحمة الله وجنته، وعن الخير؛ بسبب كفرهم بربهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ ﴾، أي: ولقد جاءت رسلنا من الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر: ١]

﴿إِبْرَٰهِيمَ ﴾ نبي الله وخليله عليه السلام ثاني أولي العزم بعد نبينا محمد ﷺ.

حيث مروا عليه في طريقهم ونزلوا عنده ضيوفًا؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٥]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر: ٥١- ٥٢].

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾؛ الباء: للمصاحبة، و«البشرى»: اسم للتبشير والبشارة، أي: يبشرونه

بولده إسحاق؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨]، والمراد به إسحاق عليه السلام.

وهذه البشارة هي المذكورة بعد هذا في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾؛ لأن بشارة زوجه بشارة له أيضا، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٧٤].

﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، أي: سلمنا عليك سلامًا.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾؛ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بكسر السين وإسكان اللام من غير ألف: «سِلْم»، وقرأ الباقون بفتح السين واللام التي بعدها: ﴿سَلَٰمٌ﴾، أي: سلام عليكم، أو عليكم سلام.

ورده عليه السلام عليهم بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أبلغ وأحسن مما حيوه به؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام بخلاف الجملة الفعلية فهي تدل على التجدد والحدوث.

﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ الفاء: للتعقيب، أي: فما أبطأ وما تأخر ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ «أنْ» والفعل «جاء» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ «لبث»، أي: فما لبث مجيئه بعجل حنيذ، ويجوز أن يكون في محل جر بحرف جر محذوف تقديره: بأن جاء، أو في أن جاء

أي: ذهب سريعًا وأتاهم بالضيافة، وهو عجل حنيذ؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧].

و«العجل»: ولد البقر الصغير ﴿حَنِيذٍ﴾ محنوذ، أي: مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾، أي: لا تصل إلى العجل الذي قدمه ضيافة

لهم، أي: لا يمدون أيديهم إليه؛ لأن الملائكة لا يأكلون، وليس لديهم الحاجة إلى الطعام ﴿نَكِرَهُمْ﴾، أي: أنكر ذلك منهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، أي: أحس في نفسه منهم خوفًا، وكان من عادة العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم وزادهم تخوفوا أنه لم يأت لخير، وأنه يُضمر شرًّا؛ ولهذا قال في سورة الحجر: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر: ٥٢]، وقال في سورة الذاريات: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٥].

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾، أي: لما رأوا وعلموا خوفه ووجله منهم طمأنوه بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقال في سورة الحجر: ﴿قَالُوا لَا نَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: ٥٣].

والمعنى: إنا ملائكة أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط؛ كما قال في سورة الحجر: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحجر: ٥٧-٥٨].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤].

أي: إن هذا هو شأننا الذي أرسلنا من أجله، فلا تخف منا.

وفي بيانهم المقصود الذي أرسلوا من أجله- وهو إهلاك قوم لوط- زيادة في طمأنته؛ لأنهم لو اكتفوا بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ لم يحصل تمام الاطمئنان، ولذهب الذهن في التفكير عن مقصدهم لماذا جاؤوا، وماذا يريدون، وهذا مما يحسن من الضيف أن يبينه لمضيفه؛ لزيادة الاطمئنان والأنس ما لم يترتب عليه ضرر.

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾، أي: وامرأة إبراهيم عليه السلام سارة، ﴿قَائِمَةٌ﴾ تخدمهم، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ من البشارة بالولد، أو بزوال الخيفة عن إبراهيم، أو بهلاك قوم لوط، أو غير ذلك. وقيل: ضحكت تعجبًا واستبعادًا لما بشرت بإسحاق، وهذا مخالف لهذا

السياق، فإن البشارة مرتبة صراحة على ضحكها؛ لقوله: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾؛ قرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بفتح الباء مجرورًا بالفتحة؛ عطفًا على ﴿بِإِسْحَاقَ﴾، وقرأ الباقون: «يعقوبُ» بالرفع على الابتداء، وجملة ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ خبره مقدم.

أي: ومن بعد إسحاق يعقوب، أي: بشرناها بمولود وهو إسحاق الذي يولد له يعقوب؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾، أي: قالت امرأة إبراهيم سارة: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾، أي: يا عجبي.

﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾؛ الاستفهام للتعجب، أي: كيف ألد وأنا عجوز، أي: امرأة مسنة، لا يحمل ولا يلد مثلها عادة، وكانت أيضًا عقيمًا؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات: ٢٩].

﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾، أي: وهذا زوجي.

﴿شَيْخًا﴾ حال من اسم الإشارة «هذا».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ جملة مؤكدة لصيغة التعجب، أي: إن كوني ألد وأنا عجوز وزوجي شيخ كبير شيء عجيب وأمر غريب خارق للعادة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا﴾، أي: قالت رسل الله من الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ﴾.

كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٣٠].

والاستفهام في قوله: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ للإنكار والنفي، أي: لا تعجبي من أمر الله الكوني

في قدرته على خلق الولد منكما وأنت عجوز وزوجك شيخ كبير، وإن كان هذا أمرًا خارقًا للعادة؛ لأن أمره تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ تعليل لإنكار تعجبها، أي: رحمة الله وبركاته عليكم يا أهل البيت المبارك بيت النبوة، بيت خليل الرحمن إبراهيم وآله عليهم الصلاة والسلام.

أي: لا تعجبي من أمر الله في منحكما الولد وأنتما بهذا السن مما هو خارق للعادة فذلك من رحمة الله تعالى الخاصة بكم، وبركاته عليكم يا أهل بيت النبوة.

وفي هذا تنويه بفضيلة إبراهيم وأهل بيته عليهم السلام، وثناء عليهم، وأنهم أهل لرحمة الله تعالى وبركاته.

ولهذا أمرنا النبي ﷺ أن نقول في التشهد: «اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي: لأنه عز وجل ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فهو ﴿حَمِيدٌ﴾، أي: حميد الصفات؛ لأن صفاته كلها صفات كمال تستوجب الحمد، فهو محمود في جميع أقواله وأفعاله؛ لما فيها من الحكمة والإحسان والجود والبر والعدل والقسط؛ ولهذا حمد عز وجل نفسه وأثنى عليها في مواضع كثيرة من كتابه، وأمر عباده أن يحمدوه؛ لأنه أهل الحمد سبحانه؛ كما أنه تعالى شكور يعطي عباده العطاء الجزيل على العمل القليل، ويضاعف لهم الأجور.

﴿مَّجِيدٌ﴾، أي: ذو المجد، أي: ذو العظمة في ذاته وأسمائه وصفاته، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، والمثل الأعلى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٠، ومسلم في الصلاة ٤٠٦، وأبو داوود في الصلاة ٩٧٦، والنسائي في السهو ١٢٨٧، والترمذي في الصلاة ٤٨٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٠٤- من حديث كعب من عجرة رضي الله عنه.

[الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾، أي: فحين ذهب عن إبراهيم الروع، أي: الخيفة التي أوجسها منهم لما لم يأكلوا، بطمأنتهم له بقولهم: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ ٧٠﴾.

﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾؛ «ال» في البشرى للعهد الذكري، أي: البشرى المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ٦٩﴾ [هود: ٦٩].

أي: وجاءته البشرى من الله بواسطة الملائكة بالولد، أي: بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وأخبروه بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط.

﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ جواب «لما»، أي: حين ذهب الروع عنه بطمأنة الملائكة له، وبشروه بعد ذلك بالولد التفت حينئذ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾، أي: يجادلنا في إهلاك قوم لوط ويحاورنا، كيف يهلكون وفيهم لوط وأهله المؤمنون؛ كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾.

قوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لذو حلم واسع وصدر رحب، والحلم صفة عظيمة تقتضي الصفح واحتمال الأذى، وعدم العجلة في الانتقام ممن أساء.

﴿أَوَّٰهٞ﴾: كثير التضرع والدعاء والالتجاء إلى ربه.

﴿مُّنِيبٞ﴾: رجاع إلى ربه، مطيع له، مؤثر محبته ورضاه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾.

قوله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾، أي: أعرض عن هذا الجدال في هلاك قوم لوط.

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ تعليل للأمر قبله، والضمير في «إنه» ضمير الشأن، أي: لأن الشأن ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾؛ «قد»: حرف تحقيق، أي: إنه قد حضر أمر ربك، أي: حكمه وقضاؤه الكوني الذي قدره في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ بعذابهم وهلاكهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ﴾، أي: واقع بهم عذاب لا محالة.

﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾، أي: غير ممنوع ولا مدفوع عنهم؛ لأن الله قد قضى بعذابهم وهلاكهم، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، فلا فائدة في الجدال عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾، أي: وحين جاءت رسلنا من الملائكة- بعد صدورهم من عند إبراهيم- ﴿لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾، أي: ساءه مجيئهم، أي: شق عليه.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، أي: وضاق صدره واغتم لمجيئهم؛ خوفًا عليهم من قومه، ولم يدر كيف يتصرف، وما المخرج.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، أي: شديدٌ حَرِجٌ عظيم بلاؤه؛ لأنه علم أن قومه لا يتركونهم؛ لأنهم في صور شباب حسان جرد مرد في غاية الكمال والجمال؛ ابتلاءً من الله عز وجل، وله الحكمة البالغة، وقد وقع ما خطر بباله عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾، أي: يسرعون إليه، ويبادرون من شدة فرحهم لما علموا بأضيافه، يريدونهم بالفاحشة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: ٦٧].

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: ومن قبل مجيء الرسل من الملائكة إلى لوط كان قومه ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: كان دأبهم عمل السيئات والفواحش بإتيان

الذكران من العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾؛ كقوله في سورة الحجر: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر: ٧١].

يريد بذلك زوجاتهم ونساءهم، كما في الآية السابقة: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وقال ﴿بَنَاتِىٓ﴾؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد. وقيل: أراد بذلك بناته حقيقة، يزوجهم بهن.

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، أي: هن الحلال لكم، واسم التفضيل هنا ليس على بابه؛ لأنه ليس في إتيان الذكران شيء من الطهر، بل هو نجس بالكلية.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك فعل هذه الفاحشة الشنيعة واجتنابها، وعدم طلبها.

﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾؛ قرأ أبو عمرو بإثبات ياء المتكلم: «ولا تخزوني»، وقرأ الباقون بحذفها تخفيفًا: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾.

والخزي: الفضيحة والإهانة والإذلال، أي: ولا تفضحوني في ضيوفي؛ كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ [الحجر: ٦٨- ٦٩]، وكان ضيوفه ثلاثة من الملائكة منهم جبريل عليه السلام.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أليس من بينكم رجل رشيد، أي: غير سفيه، يتقي الله وينهاكم عن هذا الفعل، ويزجركم ويأخذ على أيديكم فتتقوا الله، ولا تفضحوني في ضيوفي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾، أي: قالوا للوط عليه السلام.

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: إنه ليس لنا في بناتك من حاجة ولا رغبة، أو أنهن لسن أزوجًا لنا.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: وإنك لتعلم مرادنا، أو الذي نريده، أي: لتعلم أننا لا نريد إلا الذكور، أي: إنه لا رغبة لنا في النساء، وإنما رغبتنا في الرجال، فلا حاجة في تكرار القول علينا في ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أدفعكم بها، وأمنع منكم أضيافي، وأُنكل بكم، وفي هذا توعد لهم.

﴿أَوْ ءَاوِيَ﴾، أي: أو أستند وأعتمد ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أي: إلى ركن قوي منيع يناصرني عليكم، من أتباعٍ مؤمنين، أو عشيرة، أو قبيلة؛ لأنه كان غريبًا بينهم.

ومراده بهذا الأسباب المادية المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان، وهو الله عز وجل شديد المحال، القوي المتين، الذي لا يقوم لقوته أحد.

ولهذا فليس في قول النبي ﷺ: «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»(١)، إنكار على لوط في قوله: ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وإنما أخبر ﷺ أن لوطًا عليه السلام يأوي إلى ركن شديد يعني من نصر الله له بالملائكة، ولم يكن لوط علم ذلك، وقد طلب النبي ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعة حتى يؤدي رسالة ربه.

ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه، واشتد الكرب على لوط، جاء الفرج من الله؛ كما في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، أي: نحن رسل ربك من الملائكة، فطمأنوه أولًا بأنهم رسل ربه من الملائكة، والملائكة لا ينزلون إلا لإظهار الحق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة يوسف ٤٦٩٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم طمأنوه ثانيًا وبشروه بقولهم: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾، أي: إن قومك لن يستطيعوا الوصول إليك بمكروه، أو أذى ولا إلى ضيوفك، وسيكفيكهم الله. فخرج إليهم جبريل عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحيه فطمس أعينهم فرجعوا لا يهتدون الطريق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾ [القمر: ٣٧].

﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾؛ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو جعفر: «فاسر» بهمزة الوصل من الفعل: «سرى»، وقرأ الباقون بهمزة القطع مفتوحة، ﴿فَأَسۡرِ﴾، من الفعل: «أسرى».

و«السري»: السير في الليل، يقال: سرى وأسرى، والمعنى: فاخرج وسر بأهلك.

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: بجزء كبير من آخر الليل؛ فكونه من آخر الليل حتى لا يشعر بهم قومه فيمنعوهم، وكونه بقطع من الليل، أي: بجزء من آخره حتى يتمكنوا من البعد عن قريتهم قبل الصبح وحلول العذاب.

﴿واتبع أدبارهم﴾، أي: كن خلفهم، ساقةً لهم.

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾، أي: ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه؛ لئلا يرى ما حل بالمجرمين من العذاب، وفيه حث على الإسراع وحث الخطى؛ للتباعد عن موقع العذاب؛ كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: ٦١- ٦٥]

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾؛ قرأ أبو عمرو، وابن كثير بالرفع «إلا امرأتُك» وهو على هذه القراءة مستثنى من قوله: ﴿فَأَسۡرِ﴾، و«امرأتُك» مبتدأ وخبره ما بعده.

وقيل هو مستثنى من قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾، والصحيح الأول؛ لأن الله أمره أن يسري بأهله إلا امرأته، كما تدل على هذا قراءة النصب.

وقرأ الباقون بالنصب: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ مستثنى من قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾، أي: إلا امرأتك لا تسر بها.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ تعليل لاستثنائها من بين أهله، أي: لأنه مصيبها ما أصابهم،

أي: سيصيبها الذي يصيبهم من العذاب؛ لأنها كانت تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف، قال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٩- ٦٠]

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣].

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾، أي: إن موعد عذابهم وهلاكهم الصبح؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.[الحجر: ٦٦]

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ الاستفهام: تقريري، كأن لوطًا استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، أي: بل هو قريب، أو: ما أقربه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، أي: فحين حان وحضر أمرنا الكوني بعذابهم وإهلاكهم، وذلك في الصباح الباكر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ [القمر: ٣٨- ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر: ٧٣].

﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، أي: جعلنا عالي قريتهم سافلها، والضمائر تعود على قريتهم المفهومة من السياق، وهي «سدوم».

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، أي: من طين مشوي شديد الحرارة، متحجر صلب؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: ١٧٣،النحل: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٤]

﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة لـ «سجيل»، أي: متتابعة مصفوفة، يرسل بعضها إثر بعض.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ حال من «حجارة» أو صفة لها، أي: معلمة مكتوب على كل حجر منها اسم صاحبه الذي ينزل عليه؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣٣- ٣٤].

وهذا هو الرجز المذكور في قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿وَمَا هِىَ﴾، أي: وما هذه النقمة والعقوبة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يتشبهون بقوم لوط في ظلمهم بالكفر والشرك وفعل فاحشة اللواط التي ما سبقهم بها أحد من العالمين

﴿بِبَعِيدٍ﴾، أي: ببعيد منهم، أي: ما هذه العقوبة ببعيدة من الظالمين الذين يعملون عمل قوم لوط.

وقد قيل: إن المعنى: وما هذه القرية من الظالمين مشركي مكة ببعيد، فهي قريبة منهم، يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، والراجح الأول، ولاينافي هذا.

وفي الآية تحذير لمن يتشبه بقوم لوط من هذه الأمة؛ ولهذا قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

أي: تركنا من هذه العقوبة عظة وعبرة بينة لقوم يعقلون، فيحذرون من التشبه بقوم لوط.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٥- ٧٧].

أي: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الذين يتوسمون في الآيات والعبر ويتأملونها، ﴿وَإِنَّهَا﴾، أي: هذه القرية ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: لفي طريق واضح ثابت للسالكين، يراها المسافرون المارون بها، وفيها عظة وعبرة للمؤمنين خاصة الذين ينتفعون بالآيات والعظات.

وقد قال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

وقد اتفق العلماء على قتل الفاعل والمفعول به في اللواط، إلا أنهم اختلفوا في كيفية ذلك، فمنهم من قال يقتل محصنًا أو غير محصن، ومنهم من قال يُلقى من شاهق ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، ومنهم من قال حكمه حكم الزنا مطلقًا.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات نبوة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ والملائكة إنما تأتي وتخاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٢- بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بمولود وولده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾، أي: بإسحاق وولده يعقوب.

٣- أن رسل الله من الملائكة ومن الناس؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

٤- مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾.

٥- أن السلام قبل الكلام.

٦- أن الأولى أن يكون رد السلام بأحسن وأبلغ منه؛ لأن رد إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿سَلَٰمٌۖ﴾ أبلغ من سلام الملائكة؛ لأنه جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام، أي: عليكم سلام، بينما سلام الملائكة بقولهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث، أي: سلمنا عليك سلامًا.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

٧- فضيلة إبراهيم عليه السلام وكرمه وجوده، ومسارعته إلى إكرام ضيوفه من

---

(١) أخرجه أبو داوود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود- حد اللواط ١٤٥٦، وابن ماجه في الحدود- من عمل عمل قوم لوط ٢٥٦١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الملائكة بأحسن الضيافة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فاختار لهم العجل وهو من أحسن وأنفع أنواع اللحوم، وجاء به على أحسن طبق حنيذًا مشويًّا على الحجارة.

٨- مشروعية إكرام الضيف، والمسارعة في تقديم الضيافة له، واختيار أحسنها.

٩- استنكار إبراهيم عليه السلام لضيوفه لما لم يأكلوا، وتخوفه أنهم جاؤوا لشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

١٠- أن الرسل والأنبياء عليهم السلام كغيرهم من البشر يعتريهم الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ كما يعتريهم الحزن وضيق الصدر، ويتألمون لما يصيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

١١- طمأنة ضيوف إبراهيم عليه السلام له بقولهم ﴿لَا تَخَفْ﴾، وبيانهم له أنهم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

١٢- أن الملائكة لا يأكلون، وليسوا بحاجة إلى الطعام والشراب.

١٣- يحسن من الضيف أن يطمئن مُضيفه؛ بعدم الامتناع من الأكل مما يقدم ضيافة له، كما يحسن أن يخبر مضيفه بوجهته أو مقصده، ونحو ذلك؛ ليطمئن مضيفه، ما لم يترتب على ذلك ضرر.

١٤- استحباب خدمة الضيف، وجواز خدمة المرأة للأضياف، ولو كانوا رجالًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾، أي: قائمة على خدمة ضيوف إبراهيم عليه السلام.

١٥- تعجّب امرأة إبراهيم عليه السلام، وضحكها مما رأت من أحوال الملائكة، وإبراهيم قدّم لهم الضيافة فلم يأكلوا فخاف منهم فطمأنوه بقولهم ﴿لَا تَخَفْ﴾، وأخبروه أنهم ملائكة جاؤوا لإهلاك قوم لوط.

١٦- بشارتها بإسحاق ومن بعده ولده يعقوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ دلالة على أن الذي أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه هو إسماعيل عليه السلام لا إسحاق؛ إذ كيف يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير وقد أُخبر وبُشّر بأنه سيولد له ولد هو يعقوب.

١٨- أن حصول الولد نعمة، كما أن هلاك المكذبين والعصاة نعمة؛ لحصول البشارة بهما.

١٩- تعجّب امرأة إبراهيم عليه السلام من أن تلد وهي عجوز مسنّة وزوجها شيخ كبير؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

٢٠- لا عجب من أمر الله وقدرته على إيجاد الولد من عجوز وشيخ كبير، وعلى كل شيء ولو كان خارقًا للعادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: لا تعجبي من أمر الله.

٢١- رحمة الله تعالى وبركاته على أهل بيت إبراهيم عليه السلام بيت النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾.

٢٢- فضيلة بيت إبراهيم عليه السلام، والثناء عليهم، والتنويه بهم، والعناية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾

٢٣- أن الله عز وجل حميد الصفات، صفاته كلها صفات كمال تستوجب الحمد، محمود في جميع أقواله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾.

٢٤- إثبات صفة العظمة التامة لله عز وجل، في ذاته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مَّجِيدٌ﴾.

٢٥- جواز محادثة المرأة للرجال، وأن صوتها ليس بعورة.

٢٦- مجادلة إبراهيم عليه السلام، ومحاورته الملائكة بعد أن ذهب الروع عنه وبشر بإسحاق في قوم لوط، وكيف يهلكون وفيهم لوط عليه السلام ومن آمن به؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

٢٧- فضيلة إبراهيم عليه السلام وعلو منزلته عند ربه؛ لثناء الله عز وجل عليه، ووصفه له بأنبل الصفات: الحلم، والتضرع إلى ربه، والإنابة والرجوع إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

٢٨- أمر الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام بالإعراض عن المجادلة في إهلاك قوم

لوط؛ إذ لا فائدة في ذلك بعد مجيء أمر الله، وتحتم أخذهم بعذاب غير مردود؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

٢٩- أن الله عز وجل إذا أبرم أمرًا وقضى قضاء فإنه لا يرد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا دافع لعذابه إذا حل.

٣٠- إثبات القدر وأن الله قدر وكتب مقادير كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾، أي: حضر أمره الكوني الذي قدّره في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ؛ ولقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله الخاصة لإبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٣٢- استياء لوط عليه السلام من مجيء الرسل من الملائكة إليه، وضيقه بهم ذرعًا، وشدة يوم مجيئهم عليه، خوفًا عليهم من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾﴾.

٣٣- فرح قوم لوط بمجيء ضيوفه، وإقبالهم مسرعين إليه يريدونهم بالفاحشة، كما هو ديدنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

٣٤- دلالة لوط عليه السلام، وتوجيهه لقومه إلى ما أباح الله لهم من النساء اللاتي هن أطهر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾.

٣٥- أمره عليه السلام لهم بتقوى الله بترك هذه الفاحشة واجتنابها والبعد عنها، وعدم إهانته وإذلاله وفضيحته في ضيوفه؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾.

٣٦- سفه قوم لوط كلهم؛ لتوبيخه عليه السلام لهم، وإنكاره عليهم أنه ليس فيهم رجل رشيد، يأمرهم بتقوى الله وترك ما هم عليه من فعل الفاحشة، وينهاهم عن فضيحة لوط عليه السلام في ضيوفه؛ لقوله عليه السلام: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾.

٣٧- أن من حق المُضيف ألا يُذل ولا يُهان في ضيوفه ما داموا في ضيافته، وألا يؤذى من نزل في ضيافته.

٣٨- أن من ارتكب الفواحش ولم يتق الله، وخالف أمره وارتكب نهيه؛ فهو سفيه غير رشيد.

٣٩- شغف قوم لوط بإتيان الذكران وإرادتهم له، وعزوفهم عما أباح الله من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

٤٠- توعّد لوط عليه السلام لقومه، لو أن له بهم قوة، أو يستند إلى ركن شديد من عشيرة أو قبيلة أو أتباع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ وهذا لا ينفي اعتماده على الله؛ لأنه أراد بقوله هذا الأسباب المادية المحسوسة.

٤١- طمأنة الملائكة للوط عليه السلام بأنهم رسل الله، وأن قومه لن يستطيعوا الوصول إليه ولا إلى ضيوفه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾.

٤٢- إنجاء الله عز وجل للوط عليه السلام من العذاب؛ بأمره له أن يسري بأهله بقطع من الليل، ويتبع أدبارهم، ولا يلتفت منهم أحد؛ خشية أن يصيبه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

٤٣- استثناء امرأة لوط عليه السلام ممن أمر بالإسراء بهم من أهله؛ لأنها من الهالكين المعذبين؛ بسبب مشاركتها لقومها في أذية لوط؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

٤٤- أن امرأة الرجل من أهل بيته، وفي هذا رد على الرافضة الإمامية في إخراجهم أزواج النبي ﷺ من أهل بيته.

٤٥- أن ما بين نجاة لوط عليه السلام وأهله، وبين إهلاك قومه هو فقط ما بين السحر وطلوع الفجر والصبح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

٤٦- إهلاك قوم لوط وتعذيبهم بقلب قريتهم، وجعل عاليها سافلها، وإمطارها بحجارة من طين مشوي متتابعة عليهم، معلم على كل منها اسم صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

٤٧- تحذير الظالمين من هذه الأمة الذين يتشبهون بقوم لوط بالكفر والشرك وفعل فاحشة اللواط؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا، و«مدين» قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام في بلد يعرف بهم يقال له: «مدين»: فأرسل الله إليهم شعيبًا عليه السلام، وكان من أشرفهم نسبًا؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وكان يقال له خطيب الأنبياء.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ كما قال الأنبياء قبله: نوح، وهود، وصالح عليهم السلام، أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من معبود سواه، وكانوا يشركون بالله.

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، أي: أوفوا الكيل والوزن بالقسط، وكانوا مع شركهم يبخسون المكيال والميزان.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ تعليل للنهي عن نقص المكيال والميزان، أي: إني أراكم في غنى عن هذا التطفيف في الكيل والوزن بما أوتيتم من النعمة والثروة التي يجب عليكم شكرها، والباء في قوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾ للملابسة.

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، أي: عذاب يوم مُهلك يحيط بكم جميعًا ولا يبقي منكم أحدًا، يوم القيامة، أو في الدنيا، بسبب شرككم بالله، وكفران نعمه، وتطفيف الكيل والوزن، ومعصيته عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾.

نهاهم أولًا عن نقص المكيال والميزان، ثم أمرهم بإيفائه، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم تأكيدًا لذلك.

قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، أي: أكملوا وأتموا المكيال والميزان بالعدل، آخذين ومعطين؛ كما قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ معطوف على «أوفوا» من عطف العام على الخاص؛ لأن عدم إيفاء المكيال والميزان من بخس الناس أشياءهم، وهذا أعم.

والمعنى: ولا تنقصوا الناس أشياءهم ببخس المكيال والميزان، أو بأي طريق كان، سواء كانت من الأشياء الحسية من مال، ومتاع، وأثاث، ونحو ذلك، أو أشياء معنوية من إنصافهم، وتقديرهم، واحترامهم، وإنزال كل منهم منزلته، فإن بخس هذه الحقوق هو الأكثر شيوعًا، وقد يفوق بخس الأشياء الحسية.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص، و«مفسدين» حال مؤكدة لمضمون الجملة، أي: ولا تسعوا في الأرض وتسيروا فيها حال كونكم مفسدين بالاستمرار على المعاصي من الشرك، والتطفيف في الكيل والوزن، وقطع الطريق، وغير ذلك من أنواع المعاصي، فكلها تفسد أمر الدين والدنيا،

وتُهلك الحرث والنسل؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

فترقى وتدرج من نهيهم عن التطفيف إلى نهيهم عما هو أعم، وهو بخس الناس أشياءهم، ثم إلى نهيهم عما هو أعم من ذلك كله، وهو الإفساد في الأرض.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

بعد أن نهاهم عن التطفيف وبخس الناس أشياءهم وغير ذلك مما هو فساد في الأرض، من قطع الطريق، وغير ذلك؛ أتبع ذلك بيان أن ما لهم من الثواب العاجل والآجل على امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وما أباحه الله وأبقاه لهم من الربح؛ خير لهم.

قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: ما أعدّه الله لكم من الثواب الباقي على امتثال أمره واجتناب نهيه، وما تكفل به لكم من الرزق، وأبقاه لكم من الربح الحلال بعد الوفاء وأداء حقوق الناس ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: خير لكم خيريّة مطلقة، في دينكم ودنياكم وأخراكم، فلا تطمعوا فيما ليس لكم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: فاعملوا بمقتضى إيمانكم، بفعل ما أمرتم به، وترك ما نهيتم عنه، تظفروا ببقية الله التي هي خير لكم مطلقا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، أي: ولست عليكم بوكيل ولا رقيب؛ أحفظ أعمالكم وأحصيها عليكم، وما عليّ إلا البلاغ، والله الحفيظ عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ﴾، أي: قال قوم شعيب عليه السلام له على سبيل التهكم والسخرية: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ قرأ حمزة والكسائي

وخلف وحفص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ بالإفراد.

وقرأ الباقون بالجمع: «أصلواتك».

والاستفهام للتهكم والسخرية، وخصّوا صلاته عليه السلام؛ لأنها من أخص أعماله المخالفة المعتادة، ولأن الصلاة عماد الأديان كلها.

﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، و«ما»: موصولة، أي: أصلاتك تأمرك بأن نترك، أي: بترك الذي يعبده آباؤنا من الآلهة، أي: بترك عبادتها.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ «أو»: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب عطفًا على مفعول «نترك» وهو «ما» الموصولة.

والتقدير: أصلاتك تأمرك أن نترك الذي يعبد آباؤنا، أو أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا من التطفيف والبخس وغير ذلك؟

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أكدت الجملة بـ«إن» ولام التوكيد، وضمير الفصل «أنت»، أي: إنك لأنت ذو الحلم، أي: ذو العقل ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾، أي: ذو الرشد وحسن التصرف والتدبير.

وهذا منهم من باب التهكم والسخرية والازدراء والذم له عليه السلام، أي: كيف تكون أنت الحليم الرشيد وآباؤنا هم أهل الجهل والسفه؟ ويقوي هذا تهكمهم قبله بقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾.

ومقصودهم بهذا وذاك التهكم والسخرية والاستهزاء به وبصلاته، وأن صلاتك وعبادتك لا شيء، وأنك أنت الأحمق السفيه، لا الحليم الرشيد.

ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ مدحًا له، و«أل» في الحليم و«الرشيد» للاستغراق أو العهد، أي: إنك لأنت الكامل الحليم الرشيد، فمستغرب منك ما تأمرنا به؛ كما قال قوم صالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

وحقيقة الأمر أن صلاته عليه السلام تأمره أن ينهاهم عما يفعله آباؤهم الضالون،

وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أكبر ذلك عبادة غير الله، والتطفيف وبخس الناس أشياءهم وحقوقهم.

كما أنه عليه السلام هو الحليم الرشيد ذو العقل والرشد وحسن التصرف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، أي: على بصيرة وبرهان ويقين من ربي فيما أدعوكم إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ وهو النبوة والرزق الحلال.

وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام، أي: فماذا ينفعكم تكذيبي، أو فما الذي ينجيكم من عاقبة تكذيبي، ونحو ذلك.

وهذا كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وكما قال صالح عليه السلام: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: ٦٣].

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾، أي: وما أريد في دعوتي لكم أن أخالفكم إلى فعل الذي أنهاكم عنه، أي: لا أريد أن أنهاكم عن شيء وأخالفكم إلى فعله خفية عنكم، وليس دعوتي لكم لمجرد مخالفة ما أنتم عليه؛ ولهذا قال بعده:

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ الجملة: تعليل أو بيان لما قبلها، و«إن»: نافية بمعنى «ما» و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾، أي: إلا الإصلاح لكم، أي: إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم أمور دينكم ودنياكم ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾، أي: حسب استطاعتي.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ لما كان قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ فيه نوع من تزكية النفس، دفع هذا بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«إلا» أداة حصر، والباء للاستعانة، أي: وما توفيقي فيما أردت من الإصلاح إلا بعون الله تعالى لي على ذلك.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت وفوضت في جميع أموري مع تمام الثقة به، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: وإليه وحده أتوب وأرجع.

وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بالله والإنابة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾، أي: لا يحملنكم ولا يكسبنكم، و«جرم» هنا متعدٍّ لمفعولين، الأول: الكاف والميم، والثاني قوله ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ فـ«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثان، أي: لا يكسبنكم مشاقتي وعداوتي إصابة العذاب لكم.

﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾، أي: مثل الذي أصاب هؤلاء الأقوام من العذاب، من الغرق والريح والصيحة.

والمعنى: لا يكسبنكم شقاقكم لي إصابة العذاب لكم مثل ما أصاب هؤلاء الأقوام بسبب إصراركم على ما أنتم عليه من الشرك والكفر والضلال، ونقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ﴾، أي: وما قوم لوط الذين علمتم ما حل بهم من النقمة والعذاب الشديد، بقلب ديارهم وجعل عاليها سافلها، وإمطارهم بحجارة من سجيل.

﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، أي: ما هم منكم ببعيد، بل هم أقرب الأقوام إليكم زمانًا ومكانًا فاعتبروا واتعظوا بما أصابهم، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم بسبب مشاقتكم لي؛ فزمن لوط غير بعيد من زمن شعيب، وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب؛ لأن منازل مدين قوم شعيب عند عقبة أيلة مجاورة معان مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾.

قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ كقول هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٦١].

والمعنى: اطلبوا من ربكم مغفرة ما سلف من ذنوبكم من الشرك بالله، والتطفيف، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، وغير ذلك.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾، أي: ارجعوا وأنيبوا إليه فيما تستقبلونه من أعماركم وأعمالكم بإخلاص التوحيد لله تعالى، وطاعته وترك مخالفته.

﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة، أي: إن ربي ذو رحمة واسعة لمن استغفره؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿وَدُودٌ ﴾، أي: شديد المحبة لمن استغفره وتاب إليه وتقرب إليه.

فمن استغفره وتاب إليه غفر له وقبل توبته وأحبه وأثابه الثواب العظيم؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(١).

فهو عز وجل يحب عبادة المؤمنين ويحبونه؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعلى هذا فقوله: ﴿وَدُودٌ ﴾ «فعول» بمعنى ﴿فاعل﴾، وبمعنى «مفعول».

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، أي: ما نفهم ولا نعرف كثيرًا من الذي تقوله وتدعونا إليه، وهذا إمعان منهم في العتو والمكابرة، والتكذيب لما يقول،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعدم قبوله وتصديقه، واستهانة به عليه السلام، وإلا فهو أخوهم ومنهم ولسانه لسانهم؛ وهذا كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت: ٥].

وصدق الله العظيم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا﴾، أي: لست من الكبراء ولا الرؤساء، بل من المستضعفين، فلا قوة لك، ولا منعة تمتنع منا وتدافع بها إن أردناك بسوء.

وأكدوا مقالتهم هذه بـ«إن» ولام الابتداء.

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾، أي: ولولا عشيرتك وقرابتك، وكرامتهم ومعزتهم علينا؛ لكونهم على ديننا وملتنا.

﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لرجمناك بالحجارة وقتلناك قتلة خزي وحقارة.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ الجملة مؤكدة لمضمون ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾، أي: وما أنت بصاحب قدر ومنزلة عندنا، وليس لك احترام في نفوسنا، وإنما لم نرجمك احترامًا لقرابتك وعشيرتك الأعزة علينا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: كيف تراعونني لأجل رهطي، ولا تراعونني تعظيمًا لله وخوفًا منه، فاعتزازي بالله، وهو أعز من رهطي، وفي هذا تهديد لهم بأن الله ناصره.

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ الضمير الهاء يعود إلى لفظ الجلالة:

﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿ظِهۡرِيًّا﴾ حال مؤكدة لقوله: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾، والظهري نسبة إلى الظهر.

والمعنى: واتخذتم الله، أي: جعلتموه وصيرتموه خلفكم ظهريًّا ونسيتموه، فلم تعظّموه ولم تخافوه ولم تطيعوه.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: بجميع الذي تعملونه محيط، أو بجميع عملكم، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

لما يئس شعيب عليه السلام من إيمان قومه أمرهم بالعمل على طريقتهم متوعدًا ومهددًا لهم بترقب العذاب المخزي.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على طريقتكم وحالتكم.

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على طريقتي ومنهجي.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ «سوف»: للاستقبال، و«من» موصولة، مبتدأ، وخبره جملة: ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾.

أي: سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذّله ويهينه.

﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾، «من» موصولة، أي: وسوف تعلمون الذي هو كاذب.

أو اسم استفهام، أي: سوف تعلمون من الذي منا يأتيه عذاب يذله ويهينه، ومن هو الكاذب منا أنا أو أنتم.

وهذا من باب التنزل معهم، وإلا فهو عليه السلام يعلم أنه الناجي من العذاب وهو الصادق، كما علموا هم أنهم الكاذبون المعذبون حين وقع عليهم العذاب.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾، أي: انتظروا وترقبوا ما يحل بي وبكم، وعاقبة كل منا.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾، أي: منتظر ومترقب ما يحل بكم وبي ولمن تكون العاقبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، أي: وحين حضر أمرنا الكوني بإهلاك قوم شعيب.

﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، أي: خلصنا شعيبًا والذين آمنوا معه من الهلاك.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب رحمة منا رحمناهم ونجيناهم بها.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾، أي: وأهلكت الذين ظلموا- وهم قوم شعيب بسبب ظلمهم- الصيحة، وهي الرجفة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: ٩١]، وهو عذاب يوم الظلة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أي: هامدين صرعى هالكين، لا تسمع لهم صوتًا، ولا ترى منهم حركة.

قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، وكما قال تعالى عن ثمود: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٨].

والمعنى: كأنهم لما أخذهم العذاب وهلكوا لم يعيشوا في تلك الديار ولم يتمتعوا ويتنعموا فيها.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا بعدًا لمدين من رحمة الله وجنته، ولعنة وهلاكًا لهم؛ لبعدهم عن الحق.

﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، أي: كما بعدت ثمود قبلهم من رحمة الله وجنته؛ لشدة كفرهم وعنادهم، وكانت مدين جيرانًا لثمود وقريبًا منهم في الدار، وشبههم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عربًا مثلهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة شعيب عليه السلام إلى قومه مدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢- دعوة شعيب عليه السلام- كغيره من الرسل- قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

٣- نهيه عليه السلام لقومه عن نقص المكيال والميزان؛ لقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

٤- تذكيره عليه السلام لهم بما هم فيه من الخير، والنعمة مما فيه غنية لهم عن التطفيف؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾.

٥- شفقته عليه السلام عليهم، وتحذيره لهم من عذاب يوم محيط؛ لقوله: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

٦- إحاطة عذاب الله بالمكذبين في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

٧- أمره عليه السلام قومه بإيفاء المكيال والميزان بالقسط؛ تأكيدًا للنهي عن نقصهما، وتأكيده ذلك بما هو أعم، وهو النهي عن بخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

٨- وجوب الوفاء بالمكيال والميزان، وأن نقصهما من بخس الناس أشياءهم والإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٩- حرمة بخس الناس أشياءهم حسية كانت بنقص المكيال والميزان وغير ذلك، أو معنوية باحتقارهم وتنقصهم والحط من منازلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

١٠- النهي عن الإفساد في الأرض بالشرك، ونقص الكيل والوزن، وبخس الناس أشياءهم، وغير ذلك من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

١١- أن ما أعدّه الله للمؤمنين من الثواب الباقي، وما تكفّل به لهم من الرزق، وأباحه لهم من الربح الحلال خير لهم مطلقًا؛ وخير لهم وأبقى؛ لقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٢- أن القناعة كنز لا يفنى، وهي من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١٣- بيان شعيب لقومه أنه ليس حفيظًا عليهم يرقبهم ويحفظ أعمالهم، فهو كغيره من الرسل مهمته البلاغ، والله الحفيظ عليهم وعلى جميع الخلق؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

١٤- تهكمهم بصلاة شعيب وقراءته؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾.

١٥- أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها أفضل الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه.

١٦- تعصب قوم شعيب لما عليه آباؤهم من الشرك، والتطفيف، وبخس الناس أشياءهم، وقطع الطريق، والإفساد في الأرض، وتقليدهم إياهم على جهل تقليدًا أعمى.

١٧- خطأ قوم شعيب في ظنهم أن لهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، ولو أضروا بالآخرين، ونقصوهم حقوقهم، وبخسوا الناس أشياءهم؛ وما علموا أن المال أمانة يجب كسبه من الحلال وأداء حقوقه، وصرفه في الحلال.

١٨- تهكمهم بشعيب وسخريتهم به، وذمهم له؛ لقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ ويحتمل أن يكون هذا من باب المدح له، أي: كيف تدعونا إلى ما تدعونا إليه وأنت الكامل الحليم الرشيد؟.

١٩- تحذير شعيب عليه السلام لقومه من عاقبة تكذيبهم له مع ما هو عليه من البينة والحجة من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لشعيب عليه السلام؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّى ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾.

٢١- تنويه شعيب عليه السلام بنعمة الله تعالى عليه بالنبوة والرزق الحلال؛ لقوله: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

٢٢- طمأنة شعيب لقومه أنه لم يقصد بما دعاهم إليه مجرد المخالفة لما هم عليه، ولن يخالفهم في فعل ما ينهاهم عنه، بل سيوافق فعلُه قولَه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾.

٢٣- بيانه لهم أنه لا يريد إلا الإصلاح لهم قدر استطاعته؛ لقوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ كما هي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢٤- دفعه عليه السلام التزكية لنفسه، وإرجاعه الفضل فيما يريده من الإصلاح إلى توفيق الله عز وجل له؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

٢٥- تفويضه عليه السلام جميع أموره على الله وإنابته إليه؛ لقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

٢٦- ينبغي استلهام الدروس من منهج شعيب عليه السلام في دعوته، من حيث امتثال الداعي والمربي لما يدعو إليه، وعدم مخالفته له، ومن حيث الصدق في إرادة الإصلاح، وسؤال الله التوفيق في ذلك، والتوكل عليه، والإنابة إليه.

٢٧- تحذير شعيب عليه السلام لقومه أن يحملهم شقاقهم له وعداوتهم على الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والتكذيب؛ فيصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾.

٢٨- أن ما أصاب المكذبين للرسل من العقوبات والعذاب هو بسبب مشاقتهم لهم؛ مما يوجب الحذر من المشاقة للداعي إلى الله.

٢٩- قرب قوم لوط من «مدين» زمانًا ومكانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾.

٣٠- أمر شعيب عليه السلام لقومه باستغفار ربهم مما سلف منهم من الشرك والكفر والمعاصي، والتوبة إليه في المستقبل بتوحيده وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

٣١- أن بالاستغفار والتوبة محو ما سلف من جميع الذنوب من الشرك وما دونه.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمۡ﴾.

٣٣- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى رحمة ذاتية ورحمة فعلية، عامة وخاصة؛

لقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾.

٣٤- إثبات صفة المودة والمحبة لله تعالى، وشدة محبته لأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُودٌ﴾.

٣٥- الترغيب في الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى، لأنه سبحانه الرب الرحيم الودود؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

٣٦- إمعان قوم شعيب عليه السلام بالتكذيب لما يقول وعدم قبوله، والاستهانة به عليه السلام، وزعمهم أنهم لا يفهمون قوله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

٣٧- استضعافهم له عليه السلام، وأنه لا قوة له ولا منعة، ولا أتباع يخافون منهم لو أرادوا به سوءًا؛ لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

٣٨- تهديدهم له عليه السلام لولا رهطه وعشيرته، واحتقارهم له؛ لقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

٣٩- أن الله قد يدفع عن رسله وأوليائه بأسباب كثيرة، كما دفع عن شعيب رجم قومه له بسبب رهطه.

٤٠- إنكاره عليه السلام عليهم تعظيمهم لرهطه وخوفهم منهم دون الله، واعتزازه بربه، وثقته بتأييده له،؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾.

٤١- إحاطة الله عز وجل بأعمال العباد؛ مما يوجب الخوف منه وتعظيمه ومراقبته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

٤٢- توعد شعيب عليه السلام قومه بعد يأسه منهم وتهديده لهم بالعذاب؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

٤٣- أنه ما على الرسل والدعاة إلى الله تعالى بعد الإياس من الاستجابة لهم إلا تذكير المدعوين بالانتظار لمن تكون العاقبة، وأن العاقبة للحق وأهله؛ كما قال تعالى:

﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٤٤- تنزل شعيب عليه السلام مع قومه في الخطاب في قوله ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾، أي: ما دمتم مصرين على ما أنتم عليه من المخالفة فأنتم وشأنكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ على ما أنا عليه ليقيني أني على الحق ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ أهو أنا أم أنتم، وهو يعلم أنهم هم الذين سيأتيهم عذاب يخزيهم؛ لردهم الحق، وأنهم هم الكاذبون المكذبون.

٤٥- أن المعذبين يجمع لهم بين العذاب الحسي للأبدان، والعذاب المعنوي للقلوب بالخزي والذل؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾.

٤٦- إنجاء الله تعالى لشعيب والذين آمنوا معه من العذاب برحمته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

٤٧- أنه لا نجاة لأحد من الخلق بعمله- حتى الرسل عليهم السلام- إلا برحمة الله أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

٤٨- إثبات القدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾.

٤٩- أخذ قوم شعيب وإهلاكهم بالصيحة بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

٥٠- عظم شؤم الذنوب والمعاصي؛ لأنها سبب للعقوبات، وهلاك الحرث والنسل، وتذر الديار بلاقع؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾.

٥١- الحكم على مدين بالبعد عن رحمة الله تعالى وجنته بسبب كفرهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾.

٥٢- تأكيد ذكر الحكم ببعد ثمود عن رحمة الله تعالى هنا؛ لشدة كفرهم وعنادهم، ولمناسبة شبه مدين بهم بالكفر وقطع الطريق، وقربهم منهم وكونهم عربًا مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

بعدما ذكر الله عز وجل قصة شعيب عليه السلام وقومه مدين أتبع بذكر بعثة موسى عليه السلام؛ لقرب ما بين زمنيهما، ولشدة الصلة بينهما؛ فإن موسى بعث في حياة شعيب، وقد قيل: إنه تزوج ابنة شعيب عليهما السلام.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، والباء: للملابسة، أي: ولقد بعثنا موسى بآياتنا البيّنات الدالة على صدقه.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وحجة ظاهرة وبرهان بيِّن على صحة ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: فأطاعوا أمر فرعون، وسلكوا مسلكه في الغي والضلال.

﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ الجملة حالية أو استئنافية، أي: وما أمر فرعون بأمر رشيد، بل هو في غاية الجهل والسفه والضلال، والغي والكفر والعناد، والضرر والفساد.

وأظهر اسم فرعون في المرة الثانية والثالثة للتشهير به، والإعلان بذمه، بانتفاء الرشد عن أمره.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: يتقدم قومه ويقودهم يوم القيامة.

﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأدخلهم النار، وعبر بالماضي لتحقق وقوعه، والورود الدخول، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١].

وقال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فكما قادهم في الدنيا إلى الكفر والضلال يقودهم يوم القيامة إلى النار والأغلال.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾، أي: وبئس مكان الورد المورود، وهو النار، أو وبئس الورد المورود النار.

و﴿ٱلۡوِرۡدُ﴾ اسم مصدر بمعنى «الورود»، أي: الدخول، و﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ اسم مفعول بمعنى: «المدخول»، أي: فورود النار بئس الورود، وهي بئس المورود المدخول.

قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾.

قوله: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾، أي: وألحقوا في هذه الحياة الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ﴾ بالطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى لحكمه تعالى الكوني عليهم بذلك.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة بالطرد عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار بالحكم الجزائي عليهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١، ٤٢].

﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ الرفد في الأصل: العون والعطاء، أي: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ اللعنتان، لعنة الدنيا والآخرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ لعنة الدنيا والآخرة».

وقال قتادة: «ترادفت عليهم اللعنتان من الله، لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة».(١)

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق من ذكر قصص الأنبياء من قصة نوح وما بعدها، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف نجّى الله الرسل وأتباعهم، وأهلك المكذبين.

﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر الهام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ: ١ - ٣].

أي: ذلك الذي ذكرناه من أخبار القرى وأهلها من الأمم السابقة.

﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ الضمير يعود إلى مرجع اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك المذكور من أخبار القرى نقصه عليك يا محمد في هذا الكتاب العظيم «القرآن الكريم» آية على صدق رسالتك، وتسلية لك، وموعظة وذكرى للمؤمنين، وإنذارًا وتحذيرًا للكافرين، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾، أي: من هذه القرى ﴿قَآئِمٌ﴾، أي: قائم عامر يدل على آثار أولئك الأقوام، كآثار الفراعنة في مصر، وآثار قوم يونس بنينوى، وآثار ثمود في الحجر.

﴿وَحَصِيدٌ﴾ «فعيل» بمعني «مفعول»، أي: محصود، أي: ومنها محصود هالك داثر قد محيت آثاره ودرست معالمه، كديار عاد وقرى قوم لوط.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، أي: وما ظلمنا أهل هذه القرى حين أهلكناهم وعذبناهم.

﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: ولكنهم ظلموا أنفسهم بتكذيبهم الرسل والشرك والكفر والعناد، وأوبقوها في الهلاك والعذاب.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: فما نفعتهم ولا دفعت عنهم معبوداتهم من الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها ويدعونها من دون الله.

﴿مِن شَىْءٍ﴾ «مِن»: زائدة لتأكيد العموم، و«شيء» نكرة في سياق النفي تفيد العموم،

---

(١) أخرجها الطبري في «جامع البيان»، ١٢/ ٥٦٥، ٥٦٦.

أي: فما أغنت عنهم آلهتهم أي شيء من الغناء، لا قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير.

﴿لَمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، أي: حين جاء أمر ربك بإهلاكهم وتعذيبهم.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾، أي: وما زادوهم غير هلاك وتخسير وتدمير؛ حيث خسروا بسبب عبادتهم إياهم دينهم ودنياهم وأخراهم.

فلم يتوقف الأمر عند كونهم لم يغنوا عنهم شيئًا، بل تعدى إلى أن زادوهم تتبيبًا وتخسيرًا وهلاكًا وتدميرًا.

وفي هذا تعريض بتحذير المشركين وموعظة لهم لو كانوا يهتدون.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة إلى المذكور من إهلاك واستئصال تلك القرى الظالمة، أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك لتلك القرى.

﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، أي: أخذ ربك وإهلاكه.

﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾، أي: إذا أهلك القرى حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الجملة تعليل، أو بيان لما قبلها، أي: إن عقابه وعذابه ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، أي: مؤلم شديد حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

فهذه سنة الله تعالى التي لا تبدل ولا تغير في أن عاقبة الظالمين أخذهم بالعذاب الأليم الشديد.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٦، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: إن في أخذ القرى وإهلاك أهلها الظالمين، وإنجاء الرسل وأتباعهم ﴿لَءَايَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لعظة وعبرة ودلالة على صدق وعد الله ووعيده في الدار الآخرة للذي خاف عذاب الآخرة واتعظ واعتبر.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ الإشارة إلى يوم القيامة، المدلول عليه بالسياق من قوله ﴿عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

قال ابن القيم: "فإنه إنما آثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع؛ لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع، وأنه لا بد أن يكون ميعادًا مضروبًا لجميع الناس، وأنه الموصوف بهذه الصفة"(١).

واللام في قوله: ﴿لَّهُ﴾ لام الأجل أي: ذلك يوم مجموع لأجله الناس؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] وهو يوم القيامة الذي فيه الحساب والجزاء على الأعمال. ونُكر ﴿يَوْمٌ﴾ وأشير إليه قبل ذلك بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ لزيادة التهويل لليوم، أي: يشهده الرب عز وجل والملائكة وجميع الخلق، أولهم وآخرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٤٤٠.

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ ﴾، أي: وما نؤخر ذلك اليوم المشهود يوم القيامة، أي: وما نؤخر إتيان ذلك اليوم وإقامته ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾، ﴿إِلَّا ﴾ أداة حصر، و﴿الأجل﴾ المدة والوقت، ﴿مَّعْدُودٍ ﴾ محسوب معين مضبوط.

أي: وما نؤخر إتيان ذلك اليوم إلا لوقت محسوب، ومدة محددة، ونهاية معلومة ضربها الله وقدرها في الأزل يوم خلق السموات والأرض، لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه، ولا يتقدم ولا يتأخر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤، النحل: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾، أي: يوم يأتي ذلك اليوم العظيم يوم القيامة.

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: لا تتكلم نفس إلا بإذن الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه: ١٠٨].

ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل: «اللهم سَلِّم سَلِّم»(١).

﴿فَمِنْهُمْ ﴾، أي: فمن الناس؛ لقوله قبل هذا: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ ويدخل في هذا الجن؛ لدلالة الكتاب والسنة على أنهم مكلفون، والإجماع على ذلك.

﴿شَقِىٌّ﴾، أي: فريق شقي، وهم الكفار والمجرمون.

﴿وَسَعِيدٌ ﴾، أي: ومنهم فريق سعيد، وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون المتقون؛ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى: ٧].

عن عمر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٣٨، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﷺ، قلت: يا رسول الله، علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «**على شيء قد فرغ منه يا عمر، وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له**»(١).

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

هاتان الآيتان والتي بعدهما بيان وتفصيل لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ الفاء: عاطفة، «أمّا»: حرف شرط وتفصيل، أي: وأما الذين شقوا وهم الكفار والفجار.

﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾، أي: فمصيرهم النار ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: في النار من شدة ما هم فيه من العذاب، وشدة ما يعانونه من ضيق التنفس.

﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ «الزفير»: إخراج الأنفاس بدفع وشدة وصوت شنيع؛ بسبب ضغط التنفس.

و«الشهيق»: عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة وصوت شنيع؛ لقوة الاحتياج إلى النفس.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾، أي: مقيمين لابثين ماكثين فيها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ كان العرب إذا أرادوا أن يصفوا الشيء بالدوام أبدًا قالوا: «هذا دائم دوام السموات والأرض» كما يقولون: «هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما تكرر الجديدان».

وفي هذا دلالة على خلود أهل النار فيها خلودًا أبديًّا.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] لا يدل على فناء السموات والأرض، وإنما يدل على تبديلهما.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ «إلّا»: أداة استثناء، «ما»: موصولة، والخطاب للنبي ﷺ، أو له

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٢٨٠.

ولكل من يصح خطابه، والاستثناء: يحتمل أن يكون من قوله: ﴿إِلَّا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، أي: إلا المدة التي شاء الله ألا يكونوا فيها، وهي ما كان قبل دخولهم لها(١).

ويحتمل أن يكون الاستثناء من قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، أي: استثناء بعض الداخلين، أي: إلا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها، وهم العصاة من أهل التوحيد، فهم- إن أدخلوا النار- لا يخلّدون فيها، بل يخرجون منها بعد تطهيرهم(٢).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون المتقون.

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بضم السين: ﴿سُعِدُواْ﴾ بمعنى: رُزقوا السعادة، وقرأ الباقون: «سَعِدُوا» بفتح السين.

﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: فمأواهم الجنة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين ماكثين لابثين فيها أبدًا.

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قيل: يحتمل أن الاستثناء هنا لقصد التحذير من توهّم استحقاقهم ذلك على الله تعالى.

قال ابن كثير(٣): «معنى الاستثناء هنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم؛ ولهذا يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس».

وقيل ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ المدة التي يمكث فيها العصاة من أهل التوحيد في النار لتطهيرهم إذا أدخلوا فيها.

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، أي: خلودهم في الجنة، وما أعدّ لهم فيها من النعيم دائم

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٣/ ٤٦١.

(٢) انظر «جامع البيان» ١٢/ ٥٧٩.

(٣) في «تفسيره» (٤/ ٢٨١-٢٨٢).

ومستمر غير مقطوع، وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ولئلا يُتوهّم بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن ثمّ انقطاعًا لهذا الخلود والنعيم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيُذبح بين الجنة النار، ثم يُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة إهلاك المكذبين من أهل القرى، بسبب ظلمهم وشركهم، ثم بيّن أن المكذبين له ﷺ، سلكوا مسلك أولئك الأقوام في الظلم والشرك، وسيوفون نصيبهم من العذاب غير منقوص، كما وفِّي من قبلهم نصيبهم.

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، و«ما» في قوله ﴿مِّمَّا﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: فلا تك في شك من بطلان الذي يعبده هؤلاء المشركون من المعبودات من دون الله، أو من بطلان عبادتهم.

ولم: يقل «مما يعبد المشركون»، بل قال: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بالإشارة إليهم بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقيرًا لهم.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ «إلا»: أداة حصر، والكاف للتشبيه، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ما يعبدون إلا مثل الذي يعبده آباؤهم من الأصنام والأوثان من قبل، أو إلا كعبادة آبائهم الباطلة من قبل، من غير مستند ولا حجة ولا برهان، وإنما مجرد تقليد أعمى لآبائهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٠، ومسلم في الجنة- النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٨.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، أي: وإنا لمعطوهم نصيبهم من العذاب وافيًا؛ بسبب تكذيبهم وشركهم، ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ تأكيد لما قبله، أي: غير منقوص منه، بل تام، عدلًا منا، كما وفيّنا أسلافهم.

كما أنه عز وجل سيوفيهم نصيبهم من الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠]؛ لأنه سبحانه «**يعطي الدنيا من يحب ومن لا يُحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه؛ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

٢- تأييد الله عز وجل لموسى عليه السلام بالآيات البينات والسلطان المبين؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

٣- اتباع ملأ فرعون وقومه أمر فرعون، وطاعتهم له، ومعصيتهم لموسى، ومخالفتهم أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

٤- أن أمر فرعون ليس برشيد، بل هو في غاية السفه والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، كيف وقد ادّعى الربوبية والألوهية.

٥- تقدّم فرعون قومه يوم القيامة وإيرادهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

٦- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٧- إثبات النار، وأنها مآل الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، وقوله: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

٨- ذم النار، وأن ورودها ودخولها بئس الورود والدخول، وهي بئس المورود

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٧٧، ٣٨٧.

المدخول؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

٩- إتباع فرعون وقومه في الدنيا لعنة؛ لحكمه تعالى الكوني بإبعادهم عن رحمة الله وحرمانهم توفيقه، وإهلاكهم، وإتباعهم يوم القيامة بلعنة أخرى بالحكم الجزائي بإبعادهم عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٠- بئس ما استحقوه وجُوزوا به من ترادف اللعنتين عليهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

١١- الامتنان بذكر أنباء أهل القرى ورسلهم وقصصهم في القرآن الكريم، دلالة على صدق رسالته ﷺ، وتسلية له، وموعظة وذكرى للمؤمنين، وإنذارًا وتحذيرًا للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾.

١٢- أن السعيد من وعظ بغيره.

١٣- أن من قرى المكذبين ما بقيت آثاره ومعالمه حتى بعثته ﷺ، وحتى يومنا هذا، ومنها ما اندرست معالمه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

١٤- أن الله لم يظلم أولئك الأقوام حين عذّبهم وأهلكهم، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر ومخالفة أمر الله وعصيان رسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٥- أن الله عز وجل لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

١٦- أن كل ما يعبد من دون الله من الآلهة لا يغني شيئًا عن عابديه، فلا يجلب لهم نفعًا ولا يدفع عنهم ضرًّا، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

١٧- أن ما يعبد من دون الله من الآلهة لا يزيد عابديه إلا تبابًا وخسارًا، في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾.

١٨- بيان سنة الله تعالى التي لا تتبدل في شدة أخذه للقرى إذا أخذها وهي ظالمة بالشرك والكفر والمعاصي؛ زجرًا عن الظلم وتحذيرًا للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٠- أن في أخذ القرى الظالمة وإهلاك الظالمين وإنجاء الرسل وأتباعهم عظة وعبرة ودلالة على صدق وعد الله ووعيده لمن يتعظ ويعتبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٢١- جمع الناس ليوم عظيمٍ مشهود يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

٢٢- أن لمجيء ذلك اليوم وقيام القيامة أجلًا معدودًا لا يتأخر عنه ولا يتقدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

٢٣- أنه لا أحد يتكلم في ذلك اليوم؛ لعظمه وشدة هوله إلا بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

٢٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريق شقي وهم الكفّار والفُجّار، وفريق سعيد وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

٢٥- بيان أن مآل الأشقياء النار، وبيان سوء حالهم فيها، وخلودهم فيها خلودًا أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

٢٦- أن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها، ولا يفنى أهلها.

٢٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

٢٨- تمام قدرة الله تعالى ونفوذ إرادته، فلا يستعصي عليه شيء إذا أراد فعله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

٢٩- إثبات الإرادة لله تعالى بقسميها: الإرادة الكونية التي بمعنى المشيئة، والإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾.

٣٠- أن مآل السعداء إلى الجنة خالدين فيها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟

فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

٣١- أن الجنة لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، ولا ينقطع عطاؤها؛ لقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

٣٢- دوام السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

٣٣- نهيه ﷺ أن يكون في شكٍّ من بطلان ما يعبده المشركون من الآلهة، وتحقيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٣٤- ذم المشركين، وأنهم ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل تقليدًا لهم على جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾.

٣٥- تهديد المشركين وتوعّدهم بمجازاتهم على شركهم بالله بما يستحقون عدلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، أي: لموفوهم نصيبهم من العذاب كما وفَّينا من قبلهم نصيبهم من ذلك، إلا أن الله أعطى هذه الأمة ألا يستأصلهم بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم(١).

* * *

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: ولقد أعطينا موسى الكتاب، أي: أنزلنا عليه الكتاب المعروف: «التوراة».

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾، أي: فاختلف قومه في الكتاب الذي أنزله الله عليه، وفي نبوته عليه السلام، فصدّقه قوم وآمنوا به، وكذّبه آخرون وكفروا به.

والمقصود- والله أعلم- من ذكر إيتاء موسى الكتاب والاختلاف فيه- مع أنه سبق قريبًا في هذه السورة ذكر إرساله إلى فرعون- تسلية الرسول ﷺ، وتحذير المكذبين من قومه.

أي: فلا تأس على تكذيب كثير من بني إسرائيل للقرآن الذي أُنزل عليك، فقد اختلفوا في الكتاب الذي أُنزل على نبيهم موسى عليه السلام، ولا تأس على اختلاف قومك فيما أُنزل إليك، فهذه حال الأمم مع رسلهم وما أُنزل إليهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأجيل العذاب وعدم معاجلتهم بالعقوبة إلى أجل معلوم في الدنيا، أو يوم القيامة.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ جواب ﴿لولا﴾، أي: لعوجلوا بالعقوبة، وقضي بينهم بإهلاك المكذبين ونصر المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، أي: وإن هؤلاء المكذبين الكافرين من أهل الكتاب والمشركين لفي شك من القرآن الكريم.

﴿مُرِيبٍ﴾، أي: قوي شديد موقع في الريبة وقلق النفس لصاحبه وللناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم: «وَإِنْ» بإسكان النون مخففة، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿وَإِنَّ﴾، و﴿كُلًّا﴾ منصوب بها على القراءتين، والتنوين في ﴿كُلًّا﴾ عوض عن المضاف إليه.

﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف: ﴿لَّمَّا﴾ بتشديد الميم، وقرأ الباقون بتخفيفها: «لَمَا»، واللام في قوله ﴿لَّمَّا﴾ لام الابتداء، واللام في قوله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ لام القسم لقسم مقدر، أي: وإن كلًّا من الخلائق من آمن منهم ومن كفر، السابق منهم واللاحق ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: ليعطينهم ربك جزاء أعمالهم وافيًا تامًّا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وقد أكد عز وجل هذا بسبعة مؤكدات، وهي «إن» و«كل» واللام في «لَمَّا»، و«مَا» على القول بأنها موصولة، والقسم المضمر في قوله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ واللام الداخلة على جواب القسم، ونون التوكيد في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾.

وأضاف التوفية إلى الأعمال؛ للتنبيه على أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يُدان؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تعليل للتوفية؛ لأن خبرته بعملهم توجب أن يكون الجزاء مطابقًا للعمل تمام المطابقة، محققًا للتوفية، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها أوفى الجزاء؛ لكمال علمه وتمام خبرته.

أي: إن ربك خبير بعملهم، أو بالذي يعملونه من خير أو شر، مطّلع على جميع أعمالهم، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيّها وجليّها. وفي هذا وعد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾.

بعد أن بيّن اختلاف أهل الكتاب فيما أنزل على موسى عليه السلام، تسلية للنبي ﷺ وتحذيرًا للمكذبين له، وأنه سيوفي كلًّا عمله. أمره بالاستقامة كما أمر هو ومن تاب معه، ونهاهم عن الطغيان؛ تحذيرًا من الاختلاف الذي وقع فيه أهل الكتاب.

قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، أي: فاستقم كما أمرك الله في القرآن أنت ومن آمن معك؛ ولهذا لما قال أبو عمرة الثقفي: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه؛ ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب، قال: «**شيبتني هود وأخواتها**»، وسئل عما في هود، فقال: «﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾»(٢).

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، أي: لا تتجاوزوا ما حدّه الله لكم، بمخالفة أمر الله، أو ارتكاب نهيه؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ [طه: ٨١].

وفي هذا تحذير من الاختلاف الذي وقع فيه أهل الكتاب، كما قال ﷺ: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»(٣).

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: إنه عز وجل بعملكم، أو بالذي تعملونه ﴿بَصِيرٞ﴾، أي: مطّلع عليه، لا تخفى عليه منه خافية، وسيجازيكم على ذلك، وفي هذا وعد لمن استقام على أمر الله، ووعيد لمن طغى وتجبّر.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢ – من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٧٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩– من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الركون: الميل والموافقة، أي: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا بالشرك بالله؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] أي: لا تداهنوهم ولا ترضوا أعمالهم، ولا تعتمدوا عليهم، ولا تثقوا بهم.

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: فتصيبكم النار، والفاء: للسببية، أي: فيتسبب عن ركونكم إليهم أن تصيبكم النار.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يتولونكم بجلب النفع لكم.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصركم، وينقذكم من النار، ويدفع عنكم عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

أمر الله عز وجل في الآيات السابقة النبي ﷺ بالاستقامة كما أُمر هو ومن تاب معه، وهو أمر عام، ثم خص الصلاة هنا؛ لعظمها وفضلها.

سبب النـزول:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: لجميع أمتي كلهم»(١).

وفي رواية قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٢٦، وفي تفسير سورة هود ٤٦٨٧، ومسلم في التوبة ٢٧٦٣، والترمذي في التفسير ٣١١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٩٨.

فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلًا دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ فقال رجل من القوم، يا نبي الله هذا له خاصة؟ قال: بل للناس كافة»(١).

قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: فرضها ونفلها، وهذا أمر له ﷺ ولأمته؛ لأن الصلاة من أعظم الواجبات.

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِۚ﴾، أي: أول النهار وآخره، في الصباح والمساء، ويدخل في هذا صلاة الفجر والظهر، وصلاة العصر والمغرب، والرواتب والنوافل قبلهما أو بعدهما.

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ قرأ أبو جعفر بضم اللام: «وَزُلُفًا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَزُلَفًا﴾.

و «الزلف»: جمع زلفة، أي: طائفة من أول الليل، أو ساعات من الليل، ويدخل في هذا صلاة العشاء والنفل قبلها والراتبة بعدها، وقيام الليل.

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ﴿إِنَّ﴾ تفيد التعليل والتوكيد وتحقيق الخبر.

أي: إن الصلوات الخمس وغيرها من الفرائض، وما ألحق بها من النوافل من أكبر الحسنات التي تقرب إلى الله تعالى وتوجب الثواب وتذهب السيئات، أي: الذنوب الصغائر وتمحوها؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أرأيتم لو أن بباب أحدكم**

---

(١) أخرجها مسلم في الموضع السابق ٢٧٦٣، والترمذي في الموضع السابق ٣١١٢، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل الوضوء والصلاة عقبه ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نهرًا غمرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «**وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**»(١).

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: «هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ» وقال: «**من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢).

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم يذنب ذنبًا فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له**»(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن»(٤).

وعن أبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٥).

فالحسنات- وهي الصلاة وأعمال البر كلها- تذهب السيئات أي: تكفرها وتزيلها وتمحو إثمها بعد وقوعها، كما أنها سبب للحيلولة دون وقوعها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ الإشارة لقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أو له ولما قبله من قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الآيات: ١١٢- ١١٤].

أي: ذلك تذكير وعظة للذاكرين المتعظين، وخصّهم بذلك؛ لأنهم هم الذين

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت- الصوات الخمس كفارة ٥٢٨، ومسلم في المساجد- المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا وترفع به الدرجات ٦٦٧، والنسائي في الصلاة ٤٦٢، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء- الوضوء ثلاثًا ثلاثًا ١٦٠، ومسلم في الطهارة صفة الوضوء وكماله ٢٢٦، وأبو داود في الطهارة ١٠٦، والنسائي في الطهارة ٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٢٢٨، ٤٣٧.

ينتفعون بالذكرى ويتعظون، وإلا فالقرآن كله ذكرى وهدى للناس أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، أي: واصبر أنت ومن آمن معك على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما يصيبك في ذات الله في سبيل تبليغ رسالته.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أي: لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، أي: فالصبر من الإحسان، والله لا يضيع ثواب المحسنين، الذين أحسنوا بالصبر على طاعة الله، فأحسنوا في عبادة الله بالإخلاص لله والمتابعة لشرعه، وأحسنوا إلى عباد الله، والذين أحسنوا بالصبر على ما يصيبهم في ذات الله، وعن معصيته، بل يجازيهم بالإحسان؛ كما قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإيتائه الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

٢- اختلاف أهل الكتاب في التوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام بين مصدّق بها ومكذب لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾.

٣- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب كثير من أهل الكتاب والمشركين له بذكر الاختلاف على موسى عليه السلام في الكتاب الذي آتاه الله إياه، وتكذيب كثير من أهل الكتاب له.

٤- في ذكر الاختلاف على موسى عليه السلام، تحذير للمكذبين للنبي ﷺ مما حل بمن كذبوا موسى عليه السلام.

٥- تهديد المكذبين للنبي ﷺ، وأنه: لولا ما سبق في تقدير الله الكوني من تأجيل العذاب إلى أجل معلوم في الدنيا أو يوم القيامة لعوجلوا بالعقوبة، وقُضي بينهم بإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

٧- شك كثير من المكذبين من أهل الكتاب والمشركين بالقرآن شكًّا مريبًا؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

٨- إثبات وتأكيد مجازاة الخلائق بأعمالهم جزاءً وافيًا، وفي هذا وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين؛ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يُدان؛ لإضافة التوفية إلى الأعمال.

١٠- خبرة الله تعالى وبصره وعلمه الواسع بأعمال الخلق، واطلاعه التام عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١١- أمر الله تعالى له ﷺ بالاستقامة كما أمر ومن آمن معه، ونهيهم عن الطغيان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾؛ وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

١٢- التحذير من الاختلاف في القرآن كما اختلف أهل الكتاب في التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾.

١٣- تحذير المؤمنين من الركون والميل إلى الذين ظلموا بالشرك والكفر، ومداهنتهم فتصيبهم النار، ويتخلى الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية؛ سد ذرائع الفساد المحققة والمظنونة.

١٥- أنه لا ولي لأهل النار من دون الله يجلب لهم نفعًا، ولا نصير لهم من دونه ينصرهم وينقذهم من النار، ويدفع عنهم عذاب الله.

١٦- أمر الله عز وجل له ﷺ، وهو أمر له ولأمته بإقام الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، وما يتبعها من الرواتب والنوافل، وقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

١٧- عظم أمر الصلاة في الإسلام وفضيلتها، فرضها ونفلها؛ ولهذا خصها بالذكر بعد الأمر العام بالاستقامة.

١٨- الترغيب في فعل الحسنات من الصلاة وغيرها من العبادات؛ لأنهن يذهبن

ويمحون السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

١٩- أن في أمره ﷺ بالاستقامة كما أمر هو والذين آمنوا معه، ونهيهم عن الطغيان، وتحذيرهم من الركون إلى الظالمين، وأمرهم بإقام الصلاة فرضها ونفلها؛ ذكرى وعظة لمن يتذكر ويتعظ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾

٢٠- الحث على التذكر والاتعاظ بالآيات وما فيها من العظات؛ لأنه لا ينتفع بها إلا الذاكرون المتعظون؛ ولهذا خصّهم بالذكر فقال: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ وإن كانت لهم ولغيرهم.

٢١- أمر الله عز وجل له ﷺ بالصبر على ما أمره الله به من الاستقامة كما أمر من طاعة لله تعالى، وتبليغ الرسالة، وإقام الصلاة، وعلى ما يصيبه في ذات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

٢٢- أنه لا بد للقيام بأمر الله من الصبر بأنواعه الثلاثة: على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٢٣- فضيلة الصبر، وأنه من الإحسان، والترغيب فيه وفي الإحسان؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الفاء: استئنافية، و«لولا»: حرف تحضيض فيه معنى النفي، ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ الخطاب لهذه الأمة ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾، أي: أصحاب بقية، أي: بقايا من أهل الخير والعقل والدين، أي: فهلا وجد من الأمم الماضية من قبلكم أولو بقية من خير ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أنه لم يوجد منهم أولو بقية.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ينهون قومهم عن الفساد في الأرض، أي: عن الشرك والكفر والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ «إلا»: حرف استثناء، ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء، ﴿مِّمَّنْ﴾ «مِن»: بيانية، و«مَن»: موصولة، أي: إلا قليلًا من الذين أنجينا منهم بعد إهلاك المكذبين، وهم أتباع الرسل؛ لنهيهم عن الفساد، وهؤلاء هم الذين وصفهم الرسول ﷺ بالغرباء، كما في حديث عوف بن زيد بن ملحة، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا، فطوبى**

للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»(١).

وفي قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ إشارة وبشارة إلى أن هذه الأمة لا يكونون كذلك، بل يكون فيهم أولو بقية من خير، وفيه تنويه بأصحاب رسول الله ﷺ وأتباعه، فإنهم أولو بقية من قومهم بين غيرهم من الأمم، يدعون قومهم إلى الإيمان، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] امتثالًا لأمر الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٢).

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالشرك والكفر والمعاصي، وتكذيب الرسل، وهم الأكثرون.

﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي أترفوا فيه، أي: متعوا ونعموا فيه من الرزق ولذات الدنيا وشهواتها.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ باستمرارهم على الفساد والظلم، واتباع ما أترفوا فيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم الالتفات إلى من ينهاهم عن المنكر؛ كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦٣٠، وقال «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٦، ومسلم في الإيمان ٤٩، وأبو داود في الصلاة ١١٤٠، والنسائي في الإيمان ٥٠٠٨، والترمذي في الفتن ٢١٧٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٧٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٦].

وفي الآية تحذير لغيرهم أن يقع فيما وقعوا فيه، وأخذ العبرة مما أصابهم، والسعيد من وعظ بغيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، واللام في قوله ﴿لِيُهْلِكَ﴾ للتوكيد، ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: القرى وأهلها، ﴿بِظُلْمٍ﴾ الباء للسببية.

﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ الجملة: حالية، أي: ما كان ربك يا محمد ليهلك القرى بظلم منه لها، والحال أن أهلها مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح مستمرون عليه.

أي: أنه لم يكن ظالمًا لهم حين أهلكهم؛ لأنه إنما أهلكهم؛ لأنهم مفسدون ظالمون لأنفسهم بالشرك والكفر والمعاصي، ولم يكن ليهلكهم لو كانوا مصلحين غير ظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

وأيضًا: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم منهم سابق وهم مصلحون الآن، أي: لم يكن ليهلكهم بظلم منهم سابق بعدما تابوا وأصلحوا عملهم؛ فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

لما ذكر إهلاك كثير من الأمم؛ لقلة من ينهى عن الفساد فيهم، واتباعهم الترف وإجرامهم، وبيّن أن هلاكهم إنما كان بسبب ظلمهم؛ إذ لو كانوا مُصلحين ما أُهلكوا؛ أتبع ذلك ببيان أن له الحكمة في ذلك، فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الحق،

ولكن حكمته اقتضت أن يختلفوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩] ليميز الله الخبيث من الطيب.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ «لو»: حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير عاملة، و«شاء»: فعل الشرط، أي: ولو أراد ربك كونًا وقدرًا، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جملة جواب الشرط، أي: ولو شاء ربك أن يجعل الناس أمة واحدة على دين واحد لجعلهم كذلك، أي: ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي لفعل؛ لأنه عز وجل ما شاء كان، ولا يمتنع عليه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، أي: وسيستمرون مختلفين؛ لأن حكمته الكونية القدرية ومشيئته اقتضت ذلك، ولم يشأ جعلهم أمة واحدة على دين واحد.

أي: ولا يزال الاختلاف بينهم على أديان واعتقادات وملل ونحل ومذاهب شتى، كل يرى الحق في قوله، وما هو عليه، ويرى الضلال في قول ومنهج غيره، كما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك(١)

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ «إلا»: حرف استثناء، و«من»: اسم موصول مبني في محل نصب على الاستثناء، أي: ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، فعصمهم من الاختلاف، وهداهم ووفقهم إلى الإيمان، والعلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، والثبات على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كما قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(٢).

---

(١) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، ٣٩٩٢، وأحمد ٢/ ٣٣٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد أيضًا ٣/ ١٢٠ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اللام: للتعليل، وقدّم ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾؛ للاهتمام بالعلة، والإشارة إلى الاختلاف المأخوذ من قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، أي: ولذلك الاختلاف خلقهم، أي: اقتضت حكمته وإرادته الكونية ومشيئته اختلافهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

قال السعدي(١): «ليتبيّن للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما في الطباع البشرية من الخير والشر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالابتلاء والامتحان».

وأما حكمته عز وجل، وإرادته الشرعية بخلقهم، فهي أن يعبدوه وحده؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أي: للرحمة خلقهم، والإشارة على هذا ترجع إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، أي: أن حكمته عز وجل وإرادته الشرعية في خلقهم لعبادته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هذا تفسير وبيان للمراد بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ وأن المراد: ولذلك الاختلاف خلقهم كونًا وقدرًا، فمنهم شقي وسعيد.

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، أي: وسبقت كلمة ربك- يا محمد- وقدره وقضاؤه المكتوب في اللوح المحفوظ في الأزل.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأملأن، و«جهنم» اسم من أسماء النار، سُميت به لجهمتها وظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة حرها.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٣/ ٤٧٠.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾، أي: من الجن، و﴿وَٱلنَّاسِ﴾ الإنس، ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أي: من الثقلين كلهم جميعًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا الضعفة من الناس وسقطهم. وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقهم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه، فتقول: قط قط وعزتك»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَكُلًّا﴾ مفعول مقدم لـ ﴿نَّقُصُّ﴾ والتنوين عوض عن المضاف إليه المُبيَّن بقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: وكل نبأ نقص عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ بيان له أو صفة، أي: كل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل قبلك مع أممهم، وما حصل لهم من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله أولياءه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين.

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ «ما»: موصولة، أو نكرة موصوفة، أو مصدرية في محل نصب بدلًا من «كلًّا» أو خبر لمبتدأ تقديره: هو ما نثبّت به فؤادك. والتثبيت: التسكين والطمأنة، أي: ما نسكن ونطمئن ونقوي به قلبك ونسليك، فلا تجزع من تكذيب من كذّبك، ولا يضيق صدرك، ولتعلم ما لقيت الرسل من قبلك من أممهم، فتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾، أي: وجاءك في هذه السورة، أو في هذه الآيات وغيرها من

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، ما جاء في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٧٤٤٩، ومسلم في الجنة ونعيمها وأهلها، النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٦.

آيات القرآن الكريم، ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت اليقين الذي يدحض الباطل ويزيله؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٨].

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وعظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر، وتذكير للمؤمنين الذين ينتفعون بالآيات ويتذكرون، ونكّر «موعظة» و«ذكرى» للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وقل للذين لا يصدقون بما جئتهم به مهددًا لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على حالتكم وطريقتكم ومنهجكم، واستمروا على ذلك، وهذا كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ [هود: ٩٣].

﴿إِنَّا﴾، أي: أنا ومن آمن بي ﴿عَٰمِلُونَ﴾ على حالنا وطريقتنا ومنهجنا.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾، أي: ترقبوا لمن تكون العاقبة، أهي لنا أم لكم؟ أو ترقبوا ما يحل بنا.

﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، أي: مترقبون ما يحل بكم.

وفي هذا تهديد ووعيد للذين لا يؤمنون؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ١٣٥]، وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر: ٣٩، ٤٠].

وقد أنجز الله عز وجل لرسوله ﷺ وعده ونصره وأيّده، وجعل كلمته العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: استئنافية، واللام: للملك

والاختصاص، أي: ولله وحده ملك وعلم ما غاب عن علم الناس من جميع غيوب السموات والأرض، فهو وحده المحيط بذلك كله، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ قرأ نافع: «يَرجع» بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون: ﴿يُرْجَعُ﴾ بالبناء للمفعول، أي: وإليه وحده يرد الأمر كله، والأمر اسم جنس، أي: وإليه يرجع جميع أمور الدنيا والآخرة، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، بيده التوفيق والنصر، والخذلان والحرمان؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] إليه إياب جميع الخلائق وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، أي: فاعبده وحده، واعتمد عليه، وفوض أمرك إليه دون غيره، وداوم على ذلك، فإنه كافٍ لمن عبده واستعان به وتوكل عليه؛ كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]

وفي الآية تعريض بذم الذين عبدوا آلهة غير الله، وفساد آرائهم، وسفههم في عبادتهم آلهة لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، خطابًا للنبي ﷺ والناس معه في الخطاب، وقرأ الباقون: «يعملون» بياء الغيبة، أي: عما يعمل الكفار.

أي: وما ربك يا محمد بغافل عن الذي تعملون، أو عن عملكم، أنت ومن معك من المؤمنين، ولا عن عمل من خالفكم من الكافرين، بل هو مطّلع على أعمالكم جميعًا، محيط بها، محصٍ لها، وسيحاسب ويجازي كلًّا بعمله، خيرًا كان أو شرًا، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد للمشركين.

الفوائد والأحكام:

١- خلو كثير من الأمم السابقة من أولي بقية من أهل الخير ينهون قومهم عن

الفساد في الأرض إلا قليلًا ممن أنجاهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

٢- حاجة كل أمة إلى أهل بقية من أهل الخير والعلم والصلاح ينهون عن الفساد في الأرض والمنكر، ويأمرون بالمعروف.

٣- الإشارة والبشارة لهذه الأمة بأنها لا تخلو من أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض، والتنويه بأصحاب رسول الله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية.

٤- أن النهي عن الفساد في الأرض سبب للنجاة من الهلاك والعقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥].

٥- اتباع الذين ظلموا من الأمم الماضية بالشرك والكفر ما أترفوا ونعموا فيه من لذات الدنيا وشهواتها، وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

٦- ينبغي الحذر من مسلك الذين ظلموا بالشرك والكفر والميل إلى الترف والإجرام، والسعيد من وعظ بغيره.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٨- كمال عدل الله عز وجل، وأنه عز وجل ما كان ليهلك القرى بظلم منه لها وأهلها مصلحون؛ وما كان ليهلكهم بظلم سبق منهم وقد تابوا ورجعوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

٩- أن الصلاح والإصلاح سبب للنجاة من الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

١٠- أنه عز وجل لو شاء وأراد كونًا لجعل الناس أمة واحدة على دين الإسلام كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

١١- أن الله عز وجل لم يشأ جعل الناس أمة واحدة، بل شاء اختلافهم؛ لمفهوم قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، ولقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

١٢- أن الناس لا يزالون مختلفين على ملل ونحل واعتقادات ومذاهب شتى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

١٣- الترغيب في الاجتماع على الحق والتحذير من الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

١٤- أن الله خلق الناس للاختلاف كونًا وقدرًا، كما خلقهم شرعًا لعبادته؛ ليفوزوا برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

١٥- إثبات كلمة الله وقدره السابق المكتوب في اللوح المحفوظ في الأزل بملء النار من الثقلين جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

١٦- إثبات جهنم وهي النار، وأنها موجودة معدة لأهلها.

١٧- إثبات وجود الجن، وأنهم مكلفون ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم.

١٨- أن الحكمة من ذكر أخبار الأنبياء وقصّها عليه ﷺ، هو تثبيت قلبه ﷺ وتقويته وتسليته بذكر ما لقي الرسل من أقوامهم قبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

١٩- بيان أن ما جاءه ﷺ في هذه السورة وفي الآيات كلها هو الحق الثابت اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾.

٢٠- أن ما جاءه ﷺ في هذه الآيات وغيرها عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر، وتذكير للمؤمنين خاصة؛ لانتفاعهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢١- تهديد الذين لا يؤمنون وأمرهم بالانتظار لمن تكون العاقبة، وعلى من تكون الدائرة، وأن العاقبة للمؤمنين، والدائرة والعذاب على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٢٢- أن الله عز وجل يُمهِل ولا يُهْمِل.

٢٣- اختصاص الله عز وجل وحده بملك وعلم غيب السماوات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٤- رجوع الأمر كله إلى الله تعالى خلقًا وملكًا وتدبيرًا: أمر الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾.

٢٥- وجوب عبادة الله تعالى وحده والتوكل عليه دون غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

٢٦- لا بد من الجمع بين عبادة الله تعالى والتوكل عليه، فهما متلازمان؛ كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

فالتوكل على الله لا يستقيم ولا يعد توكلًا حقًّا إلا بعبادة الله تعالى وحده، وعبادته عز وجل لا تقوم إلا بالتوكل عليه والاستعانة به. وكما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده(١)

٢٧- أن في الجمع بين هذين الأمرين- عبادة الله تعالى والتوكل عليه- القوة والمنعة والحصانة بإذن الله من جميع شرور الخلق، فمن وفق للجمع بينهما فهو محفوظ بحفظ الله تعالى، لسان حاله كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشمّاء

النور في جبيني وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء(٢)

٢٨- علم الله تعالى الواسع واطلاعه التام على أعمال العباد، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم عليها، خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

(٢) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص١١).

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ يُوسُفَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة يوسف» لذكرها قصته مع أبيه وإخوته عليهم السلام، وما جرى له، ولم ترد الإشارة إلى قصته عليه السلام في أي سورة من القرآن، بل لم يرد ذكر اسمه إلا في سورة الأنعام وغافر.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة يوسف كلها بمكة.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة يوسف ببيان فضل القرآن، وبيان الحكمة من نزوله عربيا، وأنه مشتمل على أحسن القصص، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

٢- بيان الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، ونُصْح يعقوب عليه السلام لابنه بكتمان تلك الرؤيا، وبيان اصطفاء الله ليوسف عليه السلام ونعمته عليه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

٣- بيان أن في قصة يوسف الكثير من العبر والعظات، قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾.

٤- بيان ما كان من إخوة يوسف من المكر بيوسف ومحاولتهم قتله والتخلص منه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٥- الحديث عن القافلة التي أخذت يوسف من الجب وباعته بثمن زهيد، وبيان وصية من اشتراه لامرأته بإكرام مثواه، وبيان ما أنعم الله به على يوسف من العلم والفهم، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

٦- الحديث عن خبر امرأة العزيز مع يوسف، وبيان موقفها لما انتشر هذا الخبر، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٧- الحديث عن موقف يوسف من طلب امرأة العزيز ودعائه أن يخلصه الله من ذلك، واستجابة الله له ذلك، ثم بيان ما كان من دخوله السجن ودخول الغلامين معه وطلبهما تعبير رؤياهما، وبيانه للغلامين أنه متبع لملة آبائه مخلص لله في دينه وعبادته، ثم تصريحه بدعوة الغلامين إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك، والشروع بتعبير رؤياهما، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

٨- الحديث عن رؤيا ملك مصر وتأويلها على يد يوسف عليه السلام، فكان ذلك سببا لإثبات براءته وظهور فضله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٩- الحديث عن اللقاء الأول بين يوسف وإخوته، وطلب يوسف من إخوته الإتيان بأخيهم من أبيهم، ومحاولتهم إقناع أبيهم الموافقة على ذلك، وبيان أن أباهم

وافق على طلبهم، ووصاهم بألا يدخلوا مجتمعين من باب واحد، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

١٠- الحديث عن اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته وبحضور بنيامين معهم، واحتيال يوسف عليه السلام بحجزه عنده، وطلب إخوة يوسف بأخذ أحدهم مكانه، ورفض يوسف لذلك، ثم بيان موقف يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

١١- الحديث عن اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته، الذي عرفهم يوسف فيه على نفسه، واعتذارهم عن فعلهم، وعفوه عليه السلام عنهم، وطلبه أن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه، ثم تحدثت الآيات عن لقاء يوسف بأبويه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

١٢- بيان ما في قصة يوسف من الحكم والأحكام والعبر والعظات والآداب، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ﴾: سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، أي: القرآن، أي: هذه آيات القرآن المؤلَّفة من هذه الحروف، وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك»؛ تعظيمًا لها.

وسمِّي القرآن بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بالمصاحف التي بأيدي المؤمنين.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ اسم فاعل نعت لـ«الكتاب»، أي: الكتاب البيِّن الواضح في نفسه، المُبيِّن الموضِّح للهدى من الضلال، وللحق من الباطل، والحلال من الحرام، ولما تحتاجه الأمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: إنا أنزلنا هذا الكتاب، و«إنَّا» لتأكيد إنزاله من عند الله تعالى.

﴿قُرْءَٰنًا﴾ بدل من ضمير «أنزلناه»، أو حال منه، «عربيًّا» صفة له، أي: حال كونه قرآنًا عربيًّا، أي: مقروءًا ومكتوبًا بلغة العرب، أفصح اللغات، وأبينها، وأشرفها، وأوسعها.

فهو أشرف الكتب، أنزل بأشرف اللغات، على أشرف الخلق وأفضل الرسل سيدنا ونبينا محمد ﷺ، بسفارة أشرف الملائكة جبريل عليه السلام، في أشرف بقاع الأرض مكة بلد الله الحرام، مشتملًا على أعظم الشرائع، وكان ابتداء إنزاله في أشرف الشهور شهر رمضان المبارك، فكمل له الشرف من جميع الوجوه.

ولا يشكل على هذا القول بأن في القرآن الكريم ألفاظًا غير عربية، مثل: «سجيل» و«المشكاة» و«إستبرق» ونحو ذلك؛ لأن هذه الألفاظ لما تكلَّمت بها العرب، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة، وإن كانت غير عربية في الأصل.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، والعقل: الفهم والعلم، والمعنى: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا؛ لأجل أن تعقلوه، وتفهموا ما تضمَّنه من المعاني والأسرار، والحكم والأحكام، والمواعظ والأخبار، وغير ذلك، وتعملوا به، ولا يلتبس عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ افتتح الجملة بضمير العظمة «نحن»؛ للتنويه بالخبر، وقدم الضمير على الخبر «نقص»؛ لإفادة الاختصاص، أي: نحن نقص عليك لا غيرنا، وفي هذا رد لمن يطعن في القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤].

ومعنى ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، أي: نخبرك ونعلمك، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، أي: أبدعه طريقة، وأعجبه نظمًا وأسلوبًا، وأجمعه حكمًا وأحكامًا وعبرًا، وأصدقه خبرًا، وأبلغه إعجازًا وإيجازًا.

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، والوحي: الإعلام بسرعة وخفاء، أي: بإيحائنا إليك هذا القرآن المشتمل على أحسن القصص التي لا يوجد في شيء من الكتب أحسن منها، بل ولا مثلها.

وليس المراد بأحسن القصص أن قصة يوسف عليه السلام هي أحسن قصص القرآن، بل قصص القرآن كلها أحسن القصص، وكلها في غاية الحسن؛ لأنها من عند الله تعالى الحكيم العليم، اللطيف الخبير، ومنها قصة يوسف، فهي من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من التنقلات من حال إلى حال، من محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، وغير ذلك.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الجملة: حالية، و«إن» واللام في قوله ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ للتوكيد، أي: وإن كنت من قبل إنزال القرآن عليك وإيحائه إليك

﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، المراد بالغفلة هنا انتفاء العلم، أي: لمن الغافلين عن هذا القرآن، وعما فيه من القصص، أي: لا تعلم شيئًا من ذلك، ولم يخطر ببالك.

وفيه امتنان الله تعالى عليه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

الفوائد والأحكام:

١- التحدي بالقرآن الكريم، وما فيه من الإيجاز والإعجاز والفصاحة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿الٓر﴾.

٢- تعظيم آيات القرآن الكريم وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فآياته أعظم الآيات، وهو أعظم الكتب وأفضلها على الإطلاق.

٣- بلوغ القرآن الغاية في البيان والتفصيل، فهو بيِّن جلي واضح، ومبيِّن للهدى من الضلال، وللحق من الباطل، والحلال من الحرام، وما تحتاج إليه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- قيام الحجة على الناس بالقرآن؛ لما فيه من التفصيل والبيان والهدى.

٥- الامتنان بإنزال القرآن الكريم، وكونه بلسان عربي مبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

٦- تشريف اللغة العربية؛ حيث أنزل الله تعالى بها القرآن الكريم أعظم كتبه وأشرفها، وحقَّ لها الشرف والفخر بذلك؛ كما قال حافظ إبراهيم على لسان هذه اللغة الخالدة:

وسعت كتابَ الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظاتِ(١)

٧- دلالة القرآن- بما فيه من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومواعظه

---

(١) سبق ذكر القصيدة بأكملها في الكلام على مطلع سورة البقرة.

وأخباره، وغير ذلك- على أنه من عند الله عز وجل، المستحق للعبادة دون من سواه، وعلى صدق من جاء به؛ ولهذا سميت نصوصه «آيات».

٨- إثبات علو الله عز وجل على خلقه، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٩- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل وليس بمخلوق، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

١٠- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه عن نفسه بضمير الجمع وضمير العظمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وقوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

١١- أن الله عز وجل أنزل الكتاب قرآنًا عربيًّا؛ لأجل أن تعقله الأمة، وتفهم معانيه وأسراره، وما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٢- اشتمال القرآن الكريم في قصصه على أحسن القصص مطلقًا؛ في صدقها ونظمها وأسلوبها، وإيجازها وإعجازها، وفي حكمها وأحكامها وعِبرها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

١٣- أن قصة يوسف وأبيه وإخوته من أحسن قصص القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية.

١٤- أن نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ من طريق الوحي بواسطة جبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

١٥- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

١٦- أن النبي ﷺ لا علم له بالقرآن وقصصه قبل أن يوحيه الله تعالى إليه، وينزله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾، أي: اذكر يا محمد لقومك حين قال يوسف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، في قصة من أحسن القصص وأعجبها وأكملها.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟**». قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢).

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

قرأ أبو جعفر «يا أبتَ» بفتح التاء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصله: يا أبي، وحذفت الياء، وعوض عنها تاء التأنيث، ونقلت إليها كسرة الباء، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التأنيث.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، أي: في المنام، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت رؤيا الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٩٠، وأحمد ٢/ ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحيًا»[١]، والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوَّة، كما جاء في الحديث[٢].

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، وقد تأوَّل يعقوب عليه السلام هذه الرؤيا بأن الأحد عشر كوكبًا هم إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وتعظيمًا، في دلالة على اصطفاء الله تعالى له وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وشمول هذه النعمة آل يعقوب كلهم، كما أفصحت عنه الآيات بعد ذلك.

وهكذا فسَّر السلفُ رضي الله عنهم الآيةَ، فقالوا: الأحد عشر عبارة عن إخوته، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه.

وقد وقع تأويل هذه الرؤيا وتفسيرها بعد ذلك، قيل: بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين، وقيل غير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾.

لما قصَّ يوسف عليه السلام على أبيه رؤياه- والتي تأوَّلها يعقوب بخضوع وسجود إخوته وأمه وأبيه له تعظيمًا له وإكرامًا- نهاه في هذه الآية أن يقصَّ رؤياه على إخوته؛ خشية أن يحسدوه، ويكيدوا له بتزيين الشيطان ذلك لهم.

قوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ ناداه بصيغة التصغير «بني» تصغير «ابن»؛ لصغر سنه، وشفقة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٦٩٨٩، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٨٩٠؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضًا مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «**رؤيا المؤمن**.....» ٧٠١٧، ومسلم في الرؤيا ٢٢٦٣، والترمذي في الرؤيا ٢٢٧٠.

عليه، وتحببًا إليه، وتلطفًا معه.

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، أي: لا تقصَّ رؤياك على إخوتك، ولا تخبرهم بها، وإنما نهى يعقوب ابنه يوسف أن يقص رؤياه على إخوته؛ لما تدل عليه هذه الرؤيا من أنه سيكون له شأن عظيم، وسيهبه الله منزلة رفيعة، ويعطيه من فضله عطاء عظيمًا قد يحسده عليه إخوته؛ لأن كل صاحب نعمة محسود، كما قيل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قُلْنَ لوجهها ... حسدًا وبغيًا: إنه لذميم(١)

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ الفاء: للسببية، و«الكيد»: المكر بخفية، أي: فيدبروا لك كيدًا بخفية؛ حسدًا منهم لك أن يكون لك الشرف والفضل عليهم، و﴿كَيْدًا﴾ مفعول مطلق مؤكِّد لفعله، والتنوين فيه للتعظيم والتهويل، أي: فيكيدوا لك كيدًا عظيمًا، ويبغوك الغوائل.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي عن قصِّ الرؤيا على إخوته، أي: لأن الشيطان للإنسان عدو بيِّن العداوة ظاهرها، لا يألو جهدًا في إغواء من أطاعه، أي: فقد يحمل إخوتك ويزين لهم أن يكيدوا لك كيدًا، ويمكروا بك، ويحتالوا لكي يردوك؛ حسدًا من عند أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: هذا وما بعده إلى آخر الآية من تتمة كلام يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام، وما توقعه له من الخير والبركة من خلال تأمله في رؤياه، و«الكاف» في قوله «كذلك»: حرف تشبيه بمعنى: «مثل»، أي: ومثل هذا الاجتباء والاصطفاء بإراءتك هذه الرؤيا العظيمة الشأن الدالة على ما سيمنحك الله عز وجل من التمكين والمنزلة الرفيعة، كذلك يجتبيك ربك ويصطفيك، ويختارك لما هو أعظم وأهم.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: ويعلمك من تعبير الرؤيا والمنامات وبيان ما

---

(١) البيتان لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» (ص٤٠٤).

تؤول إليه وتفسيرها.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة والرسالة مع الملك والرياسة.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي: ويتم نعمته أيضًا على آل يعقوب- وهم أهله وذريته- باصطفائه لك، وإتمام نعمته عليك بالنبوة والرسالة، وبركة ذلك عليهم.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، أي: مثل ما أتم نعمة النبوة والرسالة من قبل ذلك على أبويك: إبراهيم خليل الرحمن، وابنه إسحاق عليهما السلام، فإبراهيم جد يوسف الأعلى، وإسحاق جده الأدنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لما قبله، ويحتمل أن يكون هذا من تتمة كلام يعقوب عليه السلام، فيكون الخطاب فيه ليوسف عليه السلام.

ويحتمل أن يكون مستأنفًا من كلام الله عز وجل، فالخطاب فيه لنبينا محمد ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، فهو سبحانه عليم بمن هو أهل لحمل الرسالة، حكيم فيما شرعه وقدره، يضع الأمور مواضعها: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بقصة يوسف وأبيه وإخوته، وما جرى له مع امرأة العزيز وملك مصر، وغير ذلك، وما في ذلك من العظات والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآيات.

٢- إثبات علم الرؤيا وتأويلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾

[الأنفال: ٤٣]، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بديء به من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»(٢).

وقال ﷺ: «**يا أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له**»(٣).

وقال ﷺ: «**الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان**»(٤).

وفي رواية: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات، ثم ليتعوذ من شرها؛ فإنها لا تضره**»(٥).

٣- جواز- بل استحباب- الإخبار بالرؤيا إذا كانت حسنة، وخاصة لمن يحب؛ لأن يوسف أخبر بها أباه، وقد قال ﷺ: «**الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحدًا؛ فإنها لا تضره**»(٦).

وقال ﷺ: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت، ولا تقصها إلا على وادٍّ، أو ذي رأي**»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري مطولًا في التعبير ٦٩٨٢، ومسلم في الإيمان ١٦٠، والترمذي في المناقب ٣٦٣٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٩، وأبو داود في الصلاة ٨٧٦، والنسائي في التطبيق ١٠٤٥، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٨٩٩- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في التعبير ٢٥٣٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجها أبو داود من حديث أبي قتادة أبو داود في الأدب ٥٠٢١، والترمذي في الرؤيا ٢٢٧٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩.

(٦) أخرجه البخاري في التعبير ٧٠٤٤، ومسلم في الرؤيا ٢٢٦١؛ من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو داود ٥٠٢٠، وابن ماجه في الرؤيا- الرؤيا إذا عبرت وقعت ٣٩١٤، وأحمد ٤/ ١٠؛ من حديث أبي رزين رضي الله عنه.

٤- في كون الكواكب الأحد عشر في هذه الرؤيا عبارة عن إخوته، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه ما يدل على أن بيت يعقوب وأهله وذريته بيت خير وهدى، يشع منه الإيمان والنور؛ لهذا شبهوا جميعًا بالكواكب.

٥- أن السجود تكريمًا وتوقيرًا لذوي المكانة والسيادة، كان جائزًا في شريعة يعقوب وشريعة يوسف عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وهذا لا يجوز في شرعنا المطهر.

٦- نهي يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام وتحذيره له من أن يقص رؤياه على إخوته؛ خشية أن يحسدوه فيكيدوا له كيدًا؛ ليُرْدوه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

٧- تلطف يعقوب مع ابنه يوسف، وشفقته عليه، وتحببه إليه؛ لقوله في ندائه له: ﴿يَا بُنَيَّ﴾.

٨- لا ينبغي أن تقص الرؤيا على من لا يُطمأن إليه، بل يخشى شره، وفي الحديث: «**ولا تخبر بها إلا من تحب**»(١).

٩- أنه يجوز للإنسان إخفاء بعض ما أنعم الله به عليه؛ إذا خشي حسد الحاسدين وعدوان الظالمين؛ لأن يعقوب عليه السلام نهى يوسف عليه السلام من إخبار إخوته بهذه الرؤيا العظيمة؛ فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

لكن ينبغي الحذر مما عليه كثير من الموسوسين من التكتم والتستر على كل شيء، حتى مما لا داعي لإخفائه مخافة العين، حتى صار ذلك ديدنًا وعادةً لكثير من الناس، شب عليه الصغير، وشاب وهرم عليه الكبير، حتى ظن كثير من هؤلاء أنهم بهذا التكتم هم الذين حفظوا أنفسهم، ونسوا قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤] وأوغلوا في الاعتماد على الأسباب، وضعف إيمانهم واعتمادهم على الله عز وجل مسبب الأسباب، حتى صار كثير منهم يخشون الناس أشد من خشية الله تعالى، وصار ذلك سببًا للعداوة بين الأقارب والجيران، وفقدان الثقة والطمأنينة فيما بينهم.

---

(١) سبق تخريجه.

ولست بهذا أدعو إلى إظهار ما لا ينبغي إظهاره، ولكنني أدعو إلى عدم إخفاء ما لا ينبغي إخفاؤه، وإلى الاعتماد على الله تعالى، والثقة به، مع فعل الأسباب، وعدم الركون إليها.

١٠- أن يعقوب عليه السلام قد عبّر هذه الرؤيا وعرف تأويلها، وما فيها من البشارة ليوسف بما سيعطيه الله من الفضل والسيادة والتمكين؛ ولهذا نهاه أن يقصها على إخوته.

١١- تخوف يعقوب وتوقعه حسد إخوة يوسف وكيدهم له، كما هي العادة بين الإخوة والأقارب والأقران.

١٢- أن الكيد والحسد قد يحصل من المؤمن؛ ولهذا لما قيل للحسن: «هل يحسد المؤمن؟ قال: وما أنساك بني يعقوب، لا أبا لك، حيث حسدوا يوسف»(١).

١٣- جواز ذكر الإنسان بما يكره إذا كان ذلك على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾، وقال ﷺ لفاطمة بنت قيس لما ذكرت له أن معاوية وأبا جهم خطباها: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة**»(٢).

١٤- عداوة الشيطان للإنسان عداوة بينة ظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٥- حرص الشيطان على الإفساد بين الإخوة والأقارب، وجعل بعضهم يكيد لبعض، ويحسد بعضهم بعضًا، مما يوجب الحذر منه.

١٦- أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، والأنبياء ينزهون عن مثل هذا، وليس للشيطان عليهم سلطان، وعلى هذا عامة السلف وأكثر الخلف؛ لأنه ليس في الكتاب والسنة ما يدل على أنهم أنبياء، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، لا من الصحابة ولا من التابعين.

---

(١) أخرجه في «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٣٦)، وذكره في «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٤٥؛ من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

وقيل بأنهم أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ونحوها من الآيات، وأنهم هم الأسباط.

١٧- إثبات نبوة يوسف عليه السلام، وأنه كما اصطفاه الله عز وجل بأن أراه هذه الرؤيا العظيمة التي تدل على ما سيعطيه الله له من الفضل والتمكين، كذلك يجتبيه ويختاره لما هو أعظم وأهم من تعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمة الله تعالى عليه بالنبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

١٨- إتمام الله نعمته على آل يعقوب ﴿أهله وذريته﴾ بنبوة يوسف عليه السلام وبركة ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فالنعمة على العبد نعمة على أهله وذويه.

١٩- إثبات نبوة إبراهيم وإسحاق، وإتمام الله تعالى عليهما النعمة بالنبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ﴾.

٢٠- أن الجد يسمى أبًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ﴾، فإبراهيم جد يوسف الأعلى، وإسحاق جده الأدنى.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة ليوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٢- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٣- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل: الحكم الكوني والشرعي والجزائي، وصفة الحكمة البالغة: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾.

قرأ ابن كثير: «آية» بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع.

أي: لقد كان في قصة يوسف وخبره وإخوته وحديثهم ﴿ءَايَٰتٌ﴾، أي: عبر وحكم وعظات، ودلائل على تمام قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء، وعلى صدق النبي ﷺ، وأن القرآن وحي من عند الله عز وجل.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾، أي: لمن سأل عن نبئهم، وما فيه من العبر والعظات، بلسان الحال أو بلسان المقال؛ للانتفاع بذلك، أما من أعرض فإنه لا ينتفع بالآيات، ولا يعي ما فيها من العبر والعظات.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

يظهر- والله أعلم- أن يوسف عليه السلام أخبر إخوته برؤياه؛ مما أثار حفيظتهم عليه وعلى أبيهم، فحكموا على أبيهم بهذا الحكم الجائر، وأخذوا في التدبير للكيد لأخيهم يوسف.

قوله: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى «حين»، أي: حين قال إخوة يوسف فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿وَأَخُوهُ﴾، أي: شقيقه بنيامين، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، أي: إن أبانا يقدمهما ويفضلهما في المحبة علينا.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أننا عصبة، أي: جماعة أقوياء ذوو عدد؛ والعصبة من الثلاثة إلى العشرة، وكانوا عشرة دون يوسف وبنيامين؛ فكيف يؤثر أبونا يوسف وأخاه ويقدمهما في المحبة علينا.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: إن أبانا في تقديم محبة يوسف وأخيه علينا، ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: لفي خطأ وبعد عن الحق والصواب بيِّن واضح.

وما علموا ما كان يتوسمه عليه السلام في يوسف من اجتباء الله له واصطفائه، وخاصة بعد تلك الرؤيا العظيمة، وكأنهم لم يعلموا أن تقديم محبة الأصغر أمر جِبلي فطر عليه الآباء؛ ولهذا لما قيل لرجل: أي أولادك أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يرجع.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

هكذا أخذوا في تدبير الكيد لأخيهم يوسف كما خشي ذلك أبوهم.

قوله: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، أي: تخلصوا من يوسف واستريحوا منه، إما بقتله، أو ألقوه في أرض مهلكة بعيدة، لا يتمكن من الرجوع منها إلى أبيه.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر «اقتلوا»، أي: يخلص لكم وجه أبيكم ويتفرغ لكم، ويقبل عليكم، وتخلص لكم شفقته ومحبته.

﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾، أي: وتكونوا من بعد التخلص من يوسف بقتله أو طرحه أرضًا مهلكة ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ بأن تتوبوا إلى الله تعالى من فعلتكم هذه، فأضمروا التوبةَ قبل الذنب؛ تسهيلًا وتهوينًا لجرمهم، وتشجيعًا من بعضهم لبعض على هذا العمل الشنيع القبيح.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

كأن هذا القائل أحسنهم رأيًا في يوسف، وأخفهم شدة عليه، فنهاهم عن قتله

استعظامًا للقتل، وأمرهم بالاكتفاء بإلقائه في غيابة الجب إن كانوا لا بد فاعلين، ووافقوه على ذلك، قيل: إن هذا القائل هو روبيل أكبرهم، وقيل: غيره.

ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله أراد أن يجتبيه، ويتم عليه نعمة النبوة والرسالة والرياسة والملك، فصرفهم عنه بهذه المقالة.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ ولم يقل: لا تقتلوه؛ استجلابًا لشفقتهم، واستعظامًا لقتله، وإظهارًا لشناعته.

﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: قرأ نافع بالجمع: «غيابات»، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿غَيَٰبَتِ﴾، و«غيابة الجب»: أسفله وجوفه وقعره، و«الجب»: البئر التي لم تطو بالحجارة.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾، أي: يأخذه بعض المارَّة من المسافرين فيمتلكونه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، أي: إن كنتم عازمين ومصرِّين على إبعاده، والتفريق بينه وبين أبيه، فاختلفوا بادئ الأمر بين قتل يوسف وإبعاده، واستقر بهم الأمر في النهاية، وأجمعوا على قول هذا القائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ حيث لم يعارضه أحد منهم.

قال ابن كثير[1]: «واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

لما تواطؤوا على أخذ يوسف وإلقائه في غيابة الجب، جاؤوا إلى أبيهم يتوسلون إليه

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ٣٠٠).

أن يرسله معهم.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: ما الذي جعلك لا تأمنا على يوسف؟ أو لماذا لا تأمنا على يوسف؟ أو لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب؟

وفي هذا دلالة على أن يعقوب ما كان يأذن ليوسف بالخروج معهم، أو أنهم فهموا هذا من حرصه عليه وعدم مفارقته له، كما أن فيه أنه أحس منهم ما يوجب ألا يأمنهم عليه، كما نهاه سابقًا أن يقص عليهم رؤياه؛ مخافة كيدهم له.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ الجملة: حالية، أي: والحال إنا له لناصحون، و«إن» واللام للتوكيد، أي: وإنا نريد له الخير، ونشفق عليه، ونحب له ما نحب لأنفسنا، وهذا كما قيل: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «نرتع ونلعب» بالنون، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير بكسر العين من «يرتعِ»، وقرأ الباقون: ﴿يَرۡتَعۡ﴾ بإسكانها، أي: دعه يذهب معنا غدًا، و«الغد»: اليوم الذي بعد اليوم الحاضر، كما أن الأمس هو اليوم الذي قبله.

﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾، أي: يتنزه في البرية، ويأنس ويلهو وينشط ويسعى ويستجم، ويأكل ويشرب مما لذ وطاب، حيث الخضرة والمياه والزروع.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، أي: والحال إنا له لحافظون، أي: إنا سنحفظه ونحوطه، فلن يتعرض لأي مكروه، وقد أكدوا قولهم هذا بـ«إن» واللام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾.

«إن» واللام في قوله ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾ للتوكيد، و«أن» والفعل «تذهبوا» في محل رفع فاعل، أي: ليحزنني ذهابكم به، والجملة في محل نصب مقول القول.

والمعنى: قال يعقوب عليه السلام لبنيه؛ إجابةً على طلبهم إرسال يوسف معهم:

﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾، أي: إن مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق عليَّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه ولو مدة يسيرة، ولا أستطيع الصبر عنه ساعة.

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾: «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: وأخاف أكْلَ الذئب له.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾، الجملة في محل نصب حال، أي: وأنتم عنه ساهون لاهون برعيكم ورميكم ولعبكم، أو لقلة اهتمامكم وعنايتكم به، وهو صغير لا يمتنع من الذئب.

فاعتذر إليهم بشيئين:

أحدهما: عدم قدرته على الصبر عنه ولو مدة يسيرة.

والثاني: خوفه أن يأكله الذئب في حال غفلتهم عنه. وقد أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أكله الذئب ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، أي: والحال أننا عصبة، أي: جماعة أقوياء يمكننا أن نخلصه من الذئب.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، أي: إنا حينئذ لعجزة هالكون ضعفاء، و«إن» واللام: للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾، أي: فلما ذهبوا بيوسف من عند أبيهم بعد مراجعتهم له في إرساله معهم وإذنه في ذلك.

﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، أي: وصمموا وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجب، أي: في أسفل البئر، وأجمعوا على ذلك، كما قال القائل منهم: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، بحرف جر محذوف، أي:

بأن يجعلوه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتنبئنهم.

والمعنى: وأعلمناه في تلك الحال الحرجة بإلقائنا في روعه أو بواسطة ملك؛ تثبيتًا لقلبه، وتبشيرًا له بأنك ستخلص مما أنت فيه، وتخبرهم بفعلهم العظيم بك وإساءتهم إليك؛ كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: والحال أنهم لا يدرون، ولا يعرفونك، ولا يعلمون بإيحاء الله إليك.

والمقصود: أنك لا تحزن مما أنت فيه؛ فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، وتكون لك العقبى عليهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن في قصة يوسف وإخوته وخبرهم آيات وعبرًا وعظات، لمن سأل عنها وتأمل فيها، وقصد الانتفاع بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

٢- أنه لا يستفيد من الآيات ولا ينتفع بها إلا من تأمل فيها وتفكر، وحرص على الانتفاع بها.

٣- حسد إخوة يوسف له ولأخيه؛ لكونهما أحب إلى أبيهم منهم، وإضمارهم لهما الشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

٤- أن العدل مطلوب في كل الأمور؛ ولهذا لما آثر يعقوب يوسف على إخوته في المحبة جرى منهم ما جرى في حق أنفسهم وأبيهم وأخيهم.

٥- اعتداد إخوة يوسف بكثرتهم وقوتهم؛ لقوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

٦- جور أبناء يعقوب في حقه عليه السلام بقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا مما يقوي قول من قال: إنهم ليسوا بأنبياء.

٧- غلظة أبناء يعقوب وشدتهم على أخيهم يوسف؛ لقولهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ

ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾، وهذا أيضًا مما يقوي القول بأنهم ليسوا بأنبياء.

قال ابن إسحاق: «لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل عليهم، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله، وبين من أحبه طفلًا صغيرًا على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرًا عظيمًا»(١).

٨- أن إخوة يوسف إنما حسدوه وعمدوا إلى الكيد له والتخلص منه؛ لأجل أن يخلص لهم وجه أبيهم، ولا ينشغل بمحبته له عنهم وعن محبتهم؛ لقولهم: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾، والحاسد لا حيلة فيه؛ كما قيل:

كل العداوات قد ترجى إزالتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد

٩- إضمار إخوة يوسف التوبة قبل الذنب، والصلاح بعد أن يتخلصوا منه؛ لقولهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾.

١٠- أن من مداخل الشيطان والنفس الأمَّارة بالسوء في تخفيف أمر المعصية على مرتكبيها وتهوينها إضمار التوبة بعدها، وكم من مؤمل أن يتوب حيل بينه وبين التوبة!

١١- اختلاف إخوة يوسف فيما بينهم كيف يتخلصون منه: فمنهم قاسي القلب الذي يرى قتله، ومنهم من استعظم قتله ونهى عنه، ورأى الاكتفاء بإلقائه في غيابة الجب، وكان هذا أحسنهم رأيًا فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

١٢- عدول إخوة يوسف عن قتله واتفاقهم على إلقائه في غيابة الجب؛ لأنه لم يعترض أحد على القائل منهم: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾.

١٣- حنانيك بعض الشر أهون من بعض، فإلقاء يوسف في الجب أهون من قتله،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٠٦، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣١.

وإن كان الكل شرًّا.

١٤- ظاهر قول هذا القائل ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أنه لا يرى في قرارة نفسه ما يراه إخوته من التصميم على إبعاد يوسف والتفريق بينه وبين أبيه، وإنما جارى إخوته وجاملهم في ذلك.

١٥- أن يعقوب عليه السلام في ظاهر الأمر ما كان يأمن إخوة يوسف عليه، فلا يدعه يذهب معهم؛ خوفًا عليه منهم، ولعدم استطاعته مفارقته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

١٦- مخادعة أبناء يعقوب له في تأكيدهم النصح ليوسف، وطلب إرساله معهم؛ ليتنزه ويأنس ويلعب وينشط، وتأكيدهم أنهم له حافظون؛ لقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فأكَّدوا النصح له أولًا، وأكَّدوا حفظهم له ثانيًا على حد قول القائل: كاد المريب أن يقول: خذوني.

١٧- اعتذار يعقوب لأبنائه في عدم إرسال يوسف معهم بأنه يحزنه مفارقته ولا يصبر عنه، وخوفه أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون؛ لقوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾.

١٨- أن الأنبياء كغيرهم من البشر يتطرق إليهم الحزن والخوف.

١٩- إجابة أبناء يعقوب عن أهم الأمرين الذين يمنعانه من إرسال يوسف معهم- وهو خوفه أن يأكله الذئب- باستبعادهم لذلك؛ اعتدادًا بكثرتهم وقوتهم، ولمزهم أنفسهم إن أكله الذئب وغلبهم عليه وهم عصبة قوية؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

٢٠- موافقة يعقوب عليه السلام على ذهاب يوسف مع إخوته بعد إلحاحهم عليه في ذلك، وذهابهم به، وإجماعهم على جعله في غيابة الجب، وتنفيذهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.

٢١- إيحاء الله عز وجل إلى يوسف تثبيتًا لقلبه وبشارة له بأنه سيخلص مما هو فيه،

وسينبئهم بأمرهم هذا وفعلهم السيئ به وهم لا يشعرون بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٢- أن من اتقى الله وقاه الله وحفظه وجعل العاقبة له وأيَّدَه ونصره.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾، أي: وجاء إخوة يوسف أباهم، ﴿عِشَآءً﴾ ظرف زمان منصوب، أي: وقت العشاء، أي: بعد مغيب الشفق الأحمر، وإقبال العشو وظلمة الليل، متأخرين عن عادتهم في المجيء عند الغروب.

﴿يَبْكُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم يبكون؛ إظهارًا للأسف والجزع والفجيعة على يوسف وفرط محبتهم له؛ تصنعًا منهم.

فجعلوا من تأخرهم في المجيء عن عادتهم حتى أظلم الليل، ومن مجيئهم وهم يبكون؛ دليلين وقرينتين على صدقهم؛ إيهامًا لأبيهم.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، أي: قالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا كذبًا، ومتوددين إلى أبيهم، ومستعطفين له: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، أي: نتسابق في الجري على الأقدام، أو الرمي بالنصل والسهام.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، أي: عند زادنا وثيابنا وآنيتنا وطعامنا؛ توفيرًا له وراحة.

﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ حال استباقنا وغفلتنا عنه، كما تخوفت ذلك.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾، أي: وما أنت بمصدق لنا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، أي: ولو كنا صادقين في نفس الأمر، وقيل: «لو» بمعنى «إن» الشرطية، أي: وإن كنا صادقين، أي: ولو كنا صادقين حقًّا؛ لغرابة ما وقع وعجيب ما حصل، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لكن هذا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي، وهذا كله تعريض بصدقهم وتأكيد لعذرهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: بدم مكذوب، فالمصدر بمعنى المفعول، أو بدم ذي كذب، فهو مصدر بتقدير مضاف.

قيل: عمدوا إلى سخلة شاة فذبحوها، ولطخوا بدمها قميص يوسف؛ موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، لكنهم نسوا أن يخرقوه أو يمزقوه؛ ولهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب عليه السلام، بل قال معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه؛ كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، أي: قال أبوهم مبطلًا لدعواهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، أي: ليس بصحيح ما تقولون من أن الذئب أكله، بل زينت وحسنت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء أمرًا، والتسويل: التزيين وتصوير القبيح والسيئ بصورة الحسن؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسنِ

ونكَّر ﴿أَمْرًا﴾ للتعظيم والتهويل، أي: أمرًا عظيمًا خطيرًا، ومنكرًا فظيعًا كبيرًا، وهو تغييب يوسف وإبعاده عني والتفريق بيني وبينه، ومن ثم الاعتذار الكاذب.

وإنما قال يعقوب هذا؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما يدل على هذا، واتهامه لهم بأنهم تلقَّفوا العذر من قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ الفاء: عاطفة، و«صبر»: خبر لمبتدأ محذوف، أي: فصبري صبر جميل، أو فأمري صبر جميل، أو مبتدأ وخبره محذوف، أي: فصبر جميل أجمل، أو أليق.

والصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

والصبر الجميل: الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله؛ مع تمام الرضا والتسليم لقضاء الله.

والمعنى: فسأصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالمًا من التسخط والتشكي لغير الله، وأستعين بالله تعالى وحده، وأشكو حالي إلى الله لا إلى غيره؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

فالصبر الجميل والاستعانة بالله هما عدة المؤمن في النوائب والمصائب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال ﷺ حين مر بآل ياسر وهم يعذبون: «**صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**»(١).

وقال ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٢).

وقال الشاعر:

تعزّ فإن الصبر بالحر أجملُ ... وليس على ريب الزمان مُعَوَّلُ(٣)

وقال الآخر:

إصبر لكل مصيبة وتجلدِ ... واعلم بأن المرء غير مخلدِ

واصبر كما صبر الكرام فإنها ... نوَبٌ تنوب الآن تُفرج من غدِ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٥٦٤٦ – من حديث ابن إسحاق، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٣، ومسلم في الجنائز ٩٢٦، والنسائي في الجنائز ١٨٦٩، والترمذي في الجنائز، ٩٨٨، وابن ماجه في الجنائز ١٥٩٦ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) البيت لإبراهيم بن كنيف النبهاني. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (ص١٨٨).

وإذ أصبت مصيبة تشجى بها ... فاجبر مصابك بالنبي محمدِ[١]

وقال الآخر:

صبرت على بعض الأذى خوف كله ... وجاهدت عن نفسي بنفسي فعزّتِ
وجرّعتها المكروه حتى تدربت ... ولو لم أجرعها إذن لاشمأزتِ
وقلت لها يا نفس موتي كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّتِ
إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى ... إلى غير من قال اشتكوا لي فشلت[٢]

وقد أمر الله عز وجل النبي ﷺ بالصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الله أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل، فالهجر الجميل: هجر بلا أذى، والصفح الجميل: صفح بلا عتاب، والصبر الجميل: صبر بلا شكوى؛ قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل»[٣].

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾، أي: والله تعالى وحده المطلوب منه العون.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله المستعان على وصفكم، أو على الذي تصفون، أي: على الذي تذكرون من الكذب والمحال، وعلى ما أصاب يوسف من الضر على أيديكم وغير ذلك.

وبمثل هذا تمثلت عائشة رضي الله عنها، لما ضاق عليها الأمر في قصة الإفك؛ حيث قالت: «والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ

---

(١) تنسب هذه الأبيات- مع اختلاف كثير فيها- لأبي العتاهية. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص١٠٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (٥/ ٨٦).

(٢) الأبيات تنسب للفيروزبادي مع اختلاف فيها، وزيادة ونقصان. انظر: «الحياة الأولى» (ديوان شعر) (ص١٧)، «الشكوى والعتاب» (ص٥).

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٣- ٤/ ٢٩٤.

ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾، أي: ومكث يوسف في غيابة الجب ما مكث حتى جاءت سيارة، أي: قافلة وجماعة مسافرون يريدون مصر، قيل: مكث في الجب ثلاثة أيام، وقيل غير ذلك.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾، أي: الذي يَرِد الماء، ويتطلبه ويستقي لهم.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾، أي: فأرسل دلوه في البئر؛ ليملأها بالماء، ثم ينزعها، فتشبث يوسف عليه السلام بها فأخرجه واستبشر به. والدلو: وعاء من جلد أو غيره يستخرج به الماء من الآبار.

﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ بغير ياء إضافة، وقرأ الباقون: «يا بشرايَ» بياء مفتوحة بعد الألف، أي: إنه فَرِح وسُرَّ وابتهج بالعثور على هذا الغلام.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، أي: وأسرَّه إخوته بضاعة، وكتموا أنه أخوهم؛ ليبيعوه على هؤلاء السيارة؛ حيث كانوا قريبًا من البئر حين أخرجه منها واردهم.

ويحتمل: وأَسَرَّه وارد السيارة بضاعة، أي: أخفوه عن بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضعنا من أصحاب الماء؛ مخافة أن يشاركوهم إذا علموا خبره.

أو أن السيارة لما وجدوه عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم إذ جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد آبق منهم، فباعوه على السيارة بثمن بخس.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، أي: والله ذو علم واسع وتام بالذي يعمله إخوة يوسف، والذين اشتروه منهم، وكل ذلك بعلمه وتقديره؛ ابتلاء وامتحانًا ليوسف عليه السلام، ثم يجعل العقبى له، وفي هذا تعريض للرسول ﷺ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك وسأملي لهم، ثم أجعل العاقبة لك عليهم، كما جعلت ليوسف العاقبة والحكم على إخوته.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦١، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠.

قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾، أي: وباعه إخوته على وارد السيارة ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ «بخس» بدل من «ثمن»، أي: بثمن مبخوس، أي: منقوص، أي: باعوه بثمن قليل جدًّا.

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ تفسير لقوله: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، أي: دراهم قليلة ﴿مَعْدُودَةٍ ﴾، أي: يسهل عدها لقلتها، كما يقال للقليل: يُعد بالأصابع.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ وكان إخوة يوسف في أخيهم يوسف من الزاهدين؛ حيث باعوه واعتاضوا عنه بأبخس الأثمان وأنقصها وأقلها؛ لعدم رغبتهم فيه وشدة حرصهم على التخلص منه، ولو سئلوه بلا شيء لأجابوا.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾، أي: وقال الذي اشتراه من السيارة الذين جلبوه لمصر، وهو عزيز مصر ووزيرها والقائم على خزائنها ﴿لِامْرَأَتِهِ ﴾، أي: لزوجته زليخا، ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾، أي: أكرمي مقامه ومنزله الذي يأوي ويرجع إليه، أي: أكرميه واجعلي مقامه حسنًا مرضيًّا، وهذا من إلطافه عز وجل بيوسف عليه السلام؛ حيث قيض الله له الذي اشتراه من مصر- وهو عزيزها- فاعتنى به وأكرمه وأوصى به أهله، وتوسم فيه الخير والنفع، وأعجب به.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر حين تفرس في عمر، والتي قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص: ٢٦]»(١).

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ بخدمته لنا.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٦٤.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أي: أو نجعله ولدًا بأن نستمتع به كالولد، قيل: لأنهما لم يكن لهما ولد.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة إلى المعنى المفهوم مما سبق، أي: كما أنقذنا يوسف من إخوته، وجعلنا له مثوى كريمًا في منزل العزيز وقلبه، كذلك مكنَّا له في الأرض فجعلناه على خزائنها، وجعلنا له تصرفًا في الأمر والنهي، ومكانة رفيعة في أرض مصر، ووجاهة في أهلها ومحبة في قلوبهم.

ويجوز كون الإشارة إلى مصدر الفعل «مكنا» وهو التمكين، وفيه تنويه إلى أن ذلك التمكين بلغ ذروة التمكين وغايته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ الجملة معطوفة على «مكنا» واللام: للتعليل، أي: ولنعلمه من تعبير الرؤيا وتفسيرها؛ مما سيكون سببًا في جعله على خزائن الأرض وتقليده الرياسة العظمى، وذلك بعد تعبيره لرؤيا الملك.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الضمير في «أمره» يعود إلى الله عز وجل، وأمره: ما قدره وأراده، أي: إنه عز وجل إذا أراد أمرًا وقدره، فأمره نافذ لا محالة، لا يرد، ولا يمانع ولا ينازع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه الفعَّال لما يريد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، ولا يدرون ما لله عز وجل من حكم وألطاف في خلقه وأحكامه القدرية.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾، أي: وحين بلغ يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾، أي: منتهى شدته وقوته العقلية والبدنية وشبابه، وصار أهلًا لتحمل النبوة والرسالة.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، أي: أعطيناه حكمًا وعلمًا وفهمًا وجعلناه نبيًّا رسولًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى واتباعًا لشرعه، ومن المحسنين إلى عباد الله قولًا وفعلًا وبذلًا، فهو عليه السلام في أعلى المقامات وهو مقام الإحسان؛ ولهذا جزاه الله تعالى على إحسانه بأن آتاه الله

الحكم بين الناس والعلم بالنبوة والرسالة.

الفوائد والأحكام:

١- تأخر إخوة يوسف عن المجيء إلى أبيهم عند الغروب- كما هي عادتهم- إلى وقت العشاء وظلمة الليل؛ تمويهًا على أبيهم، وإيهامًا له أنه حصل لهم ولأخيهم ما لم يكن في الحسبان؛ لعله يصدقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓاْ أَبَاهُمْ عِشَآءٗ﴾.

٢- مخادعتهم لأبيهم بمجيئهم وهم يبكون؛ إظهارًا للأسف والحزن على يوسف، وفرط محبتهم له، لقوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾.

٣- أن بكاء المرء لا يدل على صدقه؛ لاحتمال أن يكون تصنعًا.

عن الشعبي قال: «شهدت شريحاً، وجاءته امرأة تخاصم رجلاً، فأرسلت عينيها فبكت. فقلت: يا أبا أمية، ما أظنها إلا مظلومة؟ فقال: يا شعبي، إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاءً يبكون»(١).

٤- مشروعية المسابقة بأنواعها؛ لقوله تعالى: ﴿نَسْتَبِقُ﴾.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: سابقت رسول الله ﷺ مرتين، فسبقته في المرة الأولى، فلما بدنت سبقني وقال: «**هذه بتلك**»(٢).

وقال ﷺ: «**لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر**»(٣)، وقال ﷺ: «**ليس اللهو إلا في ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه ونبله**»(٤).

٥- كذب أبناء يعقوب على أبيهم صراحًا بقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

٦- معرفتهم أن أباهم لن يصدقهم، ولن ينطلي عليه كذبهم؛ لقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٤٦)، «الطرق الحكمية» (ص٢٤)، «الأذكياء» (ص٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٧٨، وابن ماجه في النكاح- حسن معاشرة النساء ١٩٧٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٧٤، والترمذي في الجهاد ١٧٠٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥١٣، والنسائي في الخيل ٢٥٧٨؛ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

٧- تعريضهم بصدقهم وتأكيدهم لعذرهم بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

٨- أن الإيمان معناه لغة: التصديق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

٩- إمعان إخوة يوسف في مخادعة أبيهم والتمويه والكذب عليه؛ حيث لطخوا قميص يوسف بدم سخلة شاة ذبحوها، وقالوا: هذا دم يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

١٠- أن كل ما قاموا به من التمويه والإيهام والكذب لم يرُج على يعقوب عليه السلام؛ ولهذا قال مكذبًا لهم مبطلًا لكل دعاواهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

١١- معرفة يعقوب عليه السلام أن ما فعله إخوة يوسف به مما زينته لهم أنفسهم الأمارة بالسوء؛ لإبعاده عن أبيه والتفريق بينه وبينه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

١٢- عظم وخطر ما فعله إخوة يوسف وما أقدموا عليه في حقه؛ لما في ذلك من الحسد والظلم له، والعقوق لأبيهم؛ لقوله: ﴿أَمْرًا﴾، أي: أمرًا عظيمًا كبيرًا ومنكرًا فظيعًا.

١٣- وجوب الحذر من طاعة النفس الأمارة بالسوء، وعدم الانسياق وراء ما تزينه من قبيح الفعال.

١٤- تجلد يعقوب عليه السلام، وتحليه بالصبر الجميل واستعانته بالله على هذا الخطب الجلل والمحنة العظيمة؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

١٥- أن في الصبر الجميل مع الاستعانة بالله عز وجل جلاء الخطوب وانفراج الكروب، فهما عدة المؤمن وسلاحه في المحن والملمات.

١٦- تفريج كربة يوسف عليه السلام بإخراجه من الجب على يد وارد السيارة، لطفًا من الله عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾.

١٧- أن يوسف حين أبعد عن أبيه كان غلامًا صغيرًا، والغلام: الصغير منذ ولادته إلى أن يشب.

١٨- استبشار وارد السيارة بيوسف عليه السلام لما وجده؛ لما توسم فيه من الخير.

١٩- إسرار إخوة يوسف وإخفاؤهم كون يوسف أخًا لهم، واعتباره بضاعة وعبدًا آبقًا؛ لكي يبيعوه على السيارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾.

ويجوز أن يكون الذين أسروه بضاعة هم السيارة أو واردهم، أي: جعلوه بضاعة؛ ولهذا باعوه في مصر.

٢٠- أن إخوة يوسف لم يذهبوا بعيدًا عن الجب، بل كانوا قريبًا منه حين جاء وارد السيارة فأخرجه.

٢١- علم الله تعالى التام بما يعمله إخوة يوسف والذين اشتروه منهم، وأن ذلك كله بعلم الله تعالى وتقديره؛ ابتلاءً وامتحانًا ليوسف عليه السلام، ثم تكون له العقبى، وفي هذا تعريض للنبي ﷺ وإعلام له بأنه عز وجل عالم بتكذيب قومه وأذيتهم له، وأنه سيملي لهم ثم يجعل العاقبة له ﷺ؛ كما جعل ليوسف العقبى على إخوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

٢٢- بيع إخوة يوسف له على السيارة بثمن بخس معدود قليل، وزهدهم فيه، حتى لو سئلوه بلا شيء لأجابوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

٢٣- منة الله تعالى على يوسف؛ حيث اشتراه عزيز مصر، وأعجب به وأمر امرأته بإكرام مثواه رجاء نفعه، أو اتخاذه ولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، ويظهر من هذا أنهم لم يكن لهم ولد.

٢٤- تمكين الله عز وجل ليوسف في أرض مصر، وجعله على خزائنها، له الأمر والنهي والتصرف؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢٥- منة الله تعالى على يوسف بتعليمه تأويل الرؤيا؛ مما كان سببًا في خروجه من السجن، وجعله على خزائن الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

٢٦- أن ما أراده الله تعالى وقدره كونًا واقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

٢٧- أن كثيرًا من الناس لا يعلمون العلم الذي ينتفعون به، كما لا يعلمون ما لله عز وجل من حكم وألطاف في خلقه وأحكامه القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٢٨- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢٩- نعمة الله تعالى العظمى، ومنته الكبرى على يوسف عليه السلام لما بلغ أشده بإيتائه حكمًا وعلمًا، أي: بإيتائه النبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

٣٠- أن الإيحاء إلى الرسل إنما يكون بعد اكتمال قوتهم العقلية والجسمية وقدرتهم على تحمل النبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

وهكذا كان وحي الله عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ بعد أن بلغ أربعين سنة.

٣١- أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم المرجع لأممهم في الحكم وبيان الأحكام والإرشاد للهدى والحق والعلم.

٣٢- أن يوسف عليه السلام من المحسنين في عبادة الله، وإلى عباد الله؛ ولهذا جزاه الله على ذلك بإيتائه الحكم والعلم، أي: النبوة والرسالة.

٣٣- فضل الإحسان، والترغيب فيه، وعظم ثواب المحسنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، أي: راودته امرأة العزيز، والمراودة: المحاولة، أي: حاولته عن نفسه؛ لتمكنها منه لفعل المكروه، أي: دعته وطلبت منه أن يواقعها؛ لما رأت فيه من الجمال والكمال والبهاء، وشطر الحسن الذي لم يعط لغيره.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ ولم يقل: امرأة الذي اشتراه، أو زوجته، ونحو ذلك؛ لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوِّعه لمرادها.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ إغلاقًا تامًّا؛ أمانًا من دخول أحد عليهما.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر في رواية ذكوان بكسر الهاء وفتح التاء من غير همزة: «هِيتَ»، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء: «هَيتُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿هَيۡتَ﴾، والمعنى: هلم لك، وأقبل إليَّ، وادن وتقرَّب وتعال.

وفي رواية هشام بن عمّار عن ابن عامر: «هِئتُ» بكسر الهاء وضم التاء مع الهمز، أي: تهيأت لك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، أي: أعوذ بالله وأعتصم به من أن أفعل هذا الفعل القبيح.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، أي: صاحب البيت وزوجك أيتها المرأة.

﴿رَبِّيٓ﴾، أي: سيدي ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، أي: أحسن مقامي ومنزلتي وأكرمني، فلا يليق أن أقابل فضله ومعروفه عليَّ بخيانته في أهله.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع المذكور، أي: لأنه لا يفلح الظالمون بارتكاب المعاصي، ومقابلة الإحسان بالإساءة ونحو ذلك.

فاستعاذ عليه السلام بالله واعتصم به من أن يجيبها إلى ما تدعوه إليه؛ لما في ذلك من الخيانة والظلم الذي لا يفلح أهله، مع وجود الدواعي العظيمة، والإغراءات المتعددة الكثيرة: من مراودتها له، وحرصها الشديد على إيقاعه في المكروه، وكونه في بيتها وتحت تدبيرها؛ لأنها سيدته، وإغلاقها الأبواب إغراء له بأمانها، وبذلها نفسها له بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ وكونه شابًّا عزبًا، مع توعدها له إن لم يفعل بالسجن أو العذاب الأليم، وغير ذلك، ومع وجود هذه الدواعي القوية كلها صبر عليه السلام عن معصية الله، واستعصم بالله، فعصمه الله تعالى وحفظه وحماه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ الواو عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد همت به، أي: همت به هم إصرار، بذلت معه جهدها، وعملت كل ما أمكنها من الأسباب لتحقيق ذلك، فلم تصل إليه.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، أي: وهم بها هم خطرات وهو حديث النفس، فتركه لله؛ فأثابه الله عليه، وقيل: إنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

والأظهر المعنى الأول، وقد صوبه ابن القيم، وقال: «قال الإمام أحمد رحمه الله: الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار، فهم الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به»(١).

قال ابن باز رحمه الله: «﴿هَمَّتۡ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ على ظاهرها، ولكن الله عصمه وحفظه عليه الصلاة والسلام، ورأى برهانًا منعه من ذلك، فهذا من فضل الله

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٤٦.

عليه»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها بمثلها**»(٢).

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ «لولا»: حرف شرط غير جازم.

و«أن» الفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، تقديره: موجود، أي: لولا أن رأى برهان ربه، وهو ما معه من العلم والإيمان والهدى الموجب لتقوى الله والبعد كل البعد عما حرم الله.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الكاف للتشبيه، والإشارة لرؤيته برهان ربه، واللام للتعليل، أي: كذلك أريناه برهان ربه؛ لأجل أن نصرف عنه السوء والفحشاء ولم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء؛ لأنه لم يطلب ذلك، وفي هذا حجة قاطعة على أنه لم يقع منه همٌّ بالمعصية.

و«السوء»: العمل السيئ القبيح المنكر، و«الفحشاء»: ما فحش وتناهى قبحه في الشرع وعُرف المسلمين؛ كالزنا ونحوه.

قال ابن القيم: «السوء: العشق، والفحشاء: الزنا، وهو صرف دواعي القلب وميله إليها، فينصرفان عنه بصرف دواعيهما»(٣).

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم ونافع وأبو جعفر بفتح اللام، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اسم مفعول، أي: الذين أخلصهم الله واصطفاهم واختارهم واجتباهم وطهرهم وعصمهم.

وقرأ الباقون بكسر اللام: «المخلِصين» اسم فاعل، أي: الذين أخلصوا لله دينهم وعبادتهم، والجملة تعليل لحكمة صرف السوء عنه.

---

(١) «فتاوى نور على الدرب» لابن باز ٢٧/ ٢١١-٢١٢.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٠١، ومسلم في الإيمان: إذا هم العبد بحسنة كتبت ١٢٨، والترمذي في التفسير ٣٠٧٣.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٥٠.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾، أي: تسابقا وأسرعا إلى الباب، هو يريد الخروج والفرار منها والسلامة من مراودتها، والهروب والتخلص من فتنتها، وهي تريد منعه وتطلبه؛ لتقضي حاجتها منه، وشتان بين الإرادتين.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، أي: لحقته وأمسكت بقميصه من ورائه؛ لأنه كان موليًا هاربًا، وجذبته بشدة فقدَّته قدًّا عظيمًا، أي: شقته شقًّا عظيمًا، حتى قيل: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربًا وهي في أثره.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، أي: وجدا وصادفا زوجها عند الباب قادمًا.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: قالت مبادرة؛ لتبرئة نفسها ونفي التهمة عنها، وإلصاقها بيوسف، متهمة وقاذفة له بدائها؛ كيدًا منها ومكرًا: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، أي: ما جزاء وعقوبة الذي أراد بأهلك سوءًا، أي: أراد بهم أمرًا سيئًا، وهو الزنا.

﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في قوله: ﴿أَن يُسْجَنَ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع بدل من ﴿جَزَآءُ﴾، أي: إلا السجن، ﴿أَوْ عَذَابٌ﴾ معطوف على محل المصدر المؤول، مرفوع مثله، أي: أو يوقَع عليه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجِع، بأن يُضرب ضربًا شديدًا مؤلمًا موجعًا، أو نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

لما ألصقت امرأة العزيز التهمة بيوسف عليه السلام مبرئة ساحتها، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لم يجد عليه السلام بُدًّا من الدفاع عن نفسه وبيان الحقيقة.

قوله: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾، أي: قال يوسف عليه السلام؛ مبرئًا لنفسه مما رمته به بارًّا صادقًا: ﴿هِيَ﴾ يعني امرأة العزيز، ﴿رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾، أي: هي التي أرادت بي السوء، وحاولتني عن نفسي، وطلبت مني مواقعة المكروه معها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾، أي: وشهد شاهد من أهل امرأة العزيز: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾، أي: إن كان قميصه شُقَّ من قُدَّامه وأمامه، ﴿فَصَدَقَتۡ﴾، أي: فصدقت بأنه هو الذي أراد بها سوءًا وراودها عن نفسها؛ لأن انشقاق قميصه من الأمام يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها، وأنها أرادت أن تدفعه فشقت قميصه من هذا الجانب، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿فَصَدَقَتۡ﴾، أي: وهو من الكاذبين في هذه الحال بادعائه خلاف ذلك.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾، أي: وإن كان قميصه شُقَّ من خلفه وورائه ﴿فَكَذَبَتۡ﴾ في زعمها أنه هو الذي أراد بها سوءًا وراودها عن نفسها؛ لأن انشقاق قميصه من دبر يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته وأمسكت بقميصه من ورائه؛ لترده إليها فشقت قميصه من ورائه.

﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾، وهذا تأكيد لقوله: ﴿فَكَذَبَتۡ﴾.

واختلف في هذا الشاهد من أهلها، فقيل: رجل حكيم من أهلها من خاصة الملك، وقيل: كان صبيًّا في المهد.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام»(١).

وقيل: المراد بالشاهد: القميص المقدود.

وقدَّم الشاهد أمارةَ صدقها، وهو أن يكون القميص قُدَّ من قبل، على أمارة صدقه وهو كون القميص قدَّ من دبر؛ إزاحة للتهمة، ووثوقًا بأن الأمارة الثانية هي الواقعة فعلًا، فلا يضر تأخيرها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ١٠٥، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣١٠.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، أي: فلما رأى زوجها العزيز ﴿قَمِيصَهُۥ﴾، أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، أي: شُقَّ من خلفه ووراءه، تحقق صدق يوسف وكذبها، كما شهد بذلك الشاهد من أهلها.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾، أي قال زوجها: إن هذا الكذب على يوسف وإلصاق التهمة به، ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾، أي: من صنيعكن معاشر النساء، وتدبيركن الخفي، والكيد: الحيلة والمكر والتدبير بخفية.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾، أي: إن كيدكن واحتيالكن ومكركنَّ، ﴿عَظِيمٌ﴾، أي: كيد ومكر عظيم، وهل أعظم من هذا الكيد الذي برَّأَتْ به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام؟

وإنما استُعظم كيدهن؛ لأنهن ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيرًا في النفس، وبذلك يغلبن الرجال، قال ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن**»(١).

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذا من تتمة كلام عزيز مصر لما تحقَّق الأمرَ.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، أي: يا يوسف أعرض عن هذا الأمر، واضرب عنه صفحًا، واكتمه ولا تحدث به، أو تذكره لأحد، وهذا من العزيز طلبًا للستر على امرأته، وعدم مؤاخذة يوسف لها عما رمته به.

﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أمر يوسف بالإعراض عما حصل، وأمر امرأته بالاستغفار لذنبها، أي: وأنت أيتها المرأة اطلبي من الله المغفرة، أي: التجاوز والستر لذنبك الذي وقع منك في مراودتك ليوسف، ومن ثم اتهامه بذلك وقذفه بما هو بريء منه.

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض ٣٠٤، ومسلم في الإيمان ٨٠؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ الجملة تعليل للأمر بالاستغفار لذنبها، أي: لأنك كنت من الخاطئين، و«الخاطئين» جمع «خاطئ»، وهو المتعمد للذنب، أي: لأنك كنت من جملة الخاطئين المتعمدين للذنب الآثمين، يقال: خطئ: إذا أذنب متعمدًا، وأخطأ: إذا فعله من غير عمد.

ولم يزد العزيز على قوله لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ قيل: لأنه كان ليِّن العريكة سهلًا، وكان حليمًا عاقلًا، وقيل: لأنه كان قليل الغيرة، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه.

الفوائد والأحكام:

١- مراودة امرأة العزيز يوسف عن نفسه ليواقعها، وبذلها كل جهد؛ لتحصل منه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

٢- خطر الخلوة بين الرجل والمرأة إذا كان أجنبيًّا عنها؛ فإن امرأة العزيز حصل لها ما حصل بسبب خلوتها بيوسف.

٣- اختيار التعبير بقوله: ﴿فِى بَيْتِهَا﴾؛ لأن من شأن ذلك أن يطوعه لها؛ لكونه في خدمتها وتحت تدبيرها.

٤- إغلاقها الأبواب؛ أمانًا من دخول أحد عليها، وطمأنة ليوسف؛ عله أن يجيبها.

٥- إغراؤها له ببذلها نفسها له، وتليين الكلام وترقيقه؛ لاستدراجه إلى مرادها؛ لقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

٦- اعتصامه عليه السلام بالله، وامتناعه أشد الامتناع عن إجابتها إلى مرادها؛ لقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾؛ كما قالت فيما يأتي: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢].

٧- الاستعاذة والاعتصام بالله عند الدعوة إلى المعصية من الشيطان وأعوانه؛ من شياطين الإنس والجن والنفس الأمَّارة بالسوء.

٨- كرم يوسف وحسن خلقه واعترافه بإحسان العزيز وجميله إليه، وشكره له؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾.

٩- لا يجوز مقابلة الإحسان بالإساءة، بل يجب مقابلة الإحسان بالإحسان؛

لقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، وفي الحديث: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه**»(١).

١٠- إطلاق اسم «رب» على السيد والمالك؛ لقول يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾.

١١- أن ارتكاب المعاصي والوقوع فيما حرم الله ومقابلة الإحسان بالإساءة، كل ذلك من فعل الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٢- خسران الظالمين وعدم فلاحهم أبدًا بسبب ظلمهم.

١٣- تأكيد هَمِّ امرأة العزيز بيوسف عليه السلام وإصرارها في مراودته ليواقعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾.

١٤- هم يوسف عليه السلام بها همٌّ خطرات، وحديث نفس لا يؤاخذ به، وتركه ذلك لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فغلَّب عليه السلام محبة الله تعالى وخشيته على داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠﴾ [النازعات: ٤].

ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(٢).

١٥- أن الإيمان والهدى والعلم مما يوجب تقوى الله تعالى والبعد عن محارمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة ليوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى ﴿رَبِّهِۦ﴾.

١٧- صرف الله عز وجل السوء والفحشاء عن يوسف، وحفظه له بأن أراه برهان

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٠٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٦٧؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٦٦٠، ومسلم في الزكاة- فضل إخفاء الصدقة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ربه؛ لكونه من عباده المخلصين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

١٨- تسابق يوسف وامرأة العزيز ومسارعتهما صوب الباب، هو يريد الخروج والفرار منها والسلامة من فتنتها، وهي تريد منعه؛ لتقضي حاجتها منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾.

١٩- الفرار من محل الفتنة وأسباب المعصية، فالسلامة غنيمة، والعافية لا يعدلها شيء.

٢٠- إمساكها بقميصه؛ لتمنعه من الخروج، وشقه من خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

٢١- مصادفتهما زوجها عند الباب قادمًا، ورؤيته ما هما عليه؛ لقوله تعالى ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

٢٢- إطلاق السيد على الزوج.

٢٣- مبادرة امرأة العزيز لتبرئة نفسها وإلصاق التهمة بيوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ الآية، وهذا كما يقال: كاد المريب أن يقول: خذوني.

٢٤- تأكيدها براءة ساحتها، واتهامها ليوسف بمطالبتها بمجازاته بالسجن أو العذاب الأليم؛ لقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٥- دفاع يوسف عليه السلام عن نفسه، وبيانه أنها هي التي راودته عن نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

٢٦- شهادة الشاهد بما يفصل في الأمر بالتأمل في القميص، فـ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٢٧- العمل بالقرائن عند الاشتباه.

٢٨- في تقديم الشاهد أمارة صدق المرأة- وهو كون القميص قدَّ من قبل- على أمارة صدق يوسف- وهو كون القميص قد من دبر- إزاحة للتهمة، ووثوق بأن الأمارة الثانية هي الواقعة فعلًا، فلا يضر تأخيرها.

٢٩- تحقق العزيز كذب امرأته وصدق يوسف وبراءته مما اتهمته وقذفته به، وأن

ذلك من كيد النساء ومكرهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾.

٣٠- عِظَم كيد النساء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولما قال النبي ﷺ في مرضه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر. قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشائم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ. قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً. فقال: «**ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف**»(١).

٣١- أمر العزيز ليوسف بالإعراض عما وقع من مراودة امرأة العزيز له، واتهامها وقذفها له، وعدم ذكر ذلك أو التحدث به، وترك مؤاخذتها؛ لقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾.

٣٢- عظم ما جُبِل عليه يوسف عليه السلام من النبل والخلق الكريم والعفو، فقد أعرض عما وقع من امرأة العزيز من المراودة والكيد له واتهامه.

٣٣- أمر العزيز لامرأته بالاستغفار لذنبها؛ لكونها من الخاطئين في مراودتها يوسف، واتهامها له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

٣٤- أن العاقبة للمتقين، فظهر للعزيز براءة يوسف وصدقه؛ لأنه كان من المتقين كما ظهر له أن امرأته من المذنبين الخاطئين.

٣٥- وجوب الاستغفار من الذنوب والخطيئات.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٤، ومسلم في الصلاة ٤١٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٣٢.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، أي: تحدَّث الناس بأمر يوسف وامرأة العزيز، وشاع خبرهما في مصر ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾، أي: في مصر، من نساء الأمراء والكبراء والسادة يَلُمنها ويَعِبن عليها ويتشمتن بها: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾، أي: امرأة عزيز مصر ووزيرها وأميرها، مع علوِّ مكانتها وقدرها وشرفها.

﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، أي: تحاول عبدها وخادمها وغلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: قد غلب حبه عليها، ووصل إلى شغاف قلبها، أي: إلى باطنه وسويدائه، أي: بلغ حبها أعظم ما يكون من الحب.

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾ «إن»، واللام للتوكيد، أي: إنا لنراها في مراودتها له وغلبة حبه عليها، وولعها وفتنتها به.

﴿فِي ضَلَالٍ﴾، أي: في خطأ وبُعد عن طريق الرشد والصواب.

﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن ظاهر واضح.

وقلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾، ولم يقلن: «إنها» للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم، مع التلويح والتلميح بنزاهتهن.

قال المفسرون: وهذا مكر منهن، ليس المراد منه مجرد لومها والعيب عليها والشماتة

بها، وإنما أردن بهذا أن يتوصلن إلى أن تريهن يوسف؛ لما بلغهن من حسنه وجماله؛ ليعذرنها؛ ولهذا سماه الله تعالى مكرًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، أي: فحين سمعت ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾، أي: باغتيابهن لها وشماتتهن بها، وسوء مقالتهن فيها، وسُمِّي مكرًا؛ لأنهن قلن ذلك خفية فيما بينهن، وقصدن من ذلك أن تريهن يوسف.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾، أي: دعتهن إلى منزلها؛ لتضيفهن.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ «أعتدت» أصلها أعددت، فأبدلت الدال الأولى تاء، والمعنى: أحضرت وهيأت لهن ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد والنمارق؛ لتناول الطعام على طريقة أهل الترف، وقد قال ﷺ: «**لا آكُلُ متكئًا**»(١).

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، أي: وأعطت كل واحدة من هؤلاء النسوة سكينًا؛ ليقطعن ما قدمته لهن من الطعام والفواكه من أترج ونحوه، وكأن هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في شماتتهن بها، واحتيالهن على رؤيته.

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، أي: وقالت ليوسف: ابرز إليهن.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾، أي: أعظمنه وأجللن قدره، وبهرهن جماله وحسنه الفائق وشمائله.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، أي: وحززن وجرحن أيديهن بالسكاكين، من شدة دهشتهن برؤيته، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج، وبهذا تكون قابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قرأ أبو عمرو: «حاشا» بألف بعد الشين لفظًا في حالة الوصل، وقرأ الباقون بحذفها: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٩٨، وأبو داود في الأطعمة ٣٧٦٩، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٦٢؛ من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

والمعنى: معاذ الله وتنزيهًا له سبحانه من صفات النقص والعجز، وتعجبًا من قدرته تعالى على هذا الصنيع البديع والجمال الفائق الذي أعطاه ليوسف، حتى كان آية للناظرين، وعبرة للمتأملين، قال ﷺ في حديث الإسراء: «**ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذ هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير**»(١).

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ «ما» نافية تعمل عمل «ليس»، و«هذا» اسمها مبني في محل رفع، و«بشرًا» خبرها منصوب.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هذا إلا ملك كريم، وإنما نفين عنه البشرية، وأثبتن له الملكية؛ لغرابة جماله.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

لما بهرهن يوسف وأدهشهن بجماله الظاهر، وأعجبهن غاية العجب، وظهر منهن العذر لامرأة العزيز، أرادت أن تريهن جماله الباطن بعفته التامة واستعصامه، وأنها مقيمة على محبته والتعلق به، مهما عذلها العاذلون ولامها اللائمون، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، أي: فهذا الذي أصابكن في رؤيتكن إياه، هو الذي جعلني أولعت وفتنت به، وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته، وهذا حسن منظره وجماله؟!

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، فأقرت لهن بأنها راودته، وأن الذي تُحدِّث عنها في أمره حق، وأكدت ذلك بالقسم وحرف التحقيق.

﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: فامتنع أشد الامتناع، وطلب من الله أن يعصمه مما أدعوه إليه؛ كما قال في الآية الآتية: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ١٦٢- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ اللام موطئة للقسم، و«ما» موصولة، أي: والله لئن لم يفعل، أي: لئن لم يمتثل الذي آمره به، تعني: إجابتها إلى مقصودها منه.

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: ليحبسن في السجن.

﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، أي: من الذليلين الحقيرين، فتوعدته بإيداعه السجن وحبسه فيه، وإذلاله وإهانته، وأكدت ذلك بالقسم ونون التوكيد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، أي: قال يوسف يا رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه.

قرأ يعقوب: «السَّجن» بفتح السين، وقرأ الباقون: ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ بكسرها، اسم مكان، أي: قال يوسف: يا رب السجن أحب إلي من الذي يدعونني إليه من الفاحشة؛ لأن فيه الخلاص من الحرام.

وقوله: ﴿يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ بضمير الجمع يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف بمطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه ويحرضنه على ذلك، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الأخروي، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وفزع إلى ربه في طلب العصمة فقال:

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾، أي: وإن لم تصرف عني كيدهن ومكرهن.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، أي: أمل إليهن، أي: إلى إجابتهن بمقتضى البشرية، أي: إن لم تصرف وتدفع عني كيدهن وما أردن بي من السوء، صبوت إليهن، فلا تكلني إلى نفسي؛ فإني ضعيف عاجز.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: وأكن بسبب ميلي إليهن ومقارفة المعصية ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: من سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم، فكل ذنب عُصي الله به فهو جهالة، وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل بهذا المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾ [النساء: ١٧]، أي: بسفه ثم يرشدون.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ﴾.

قوله: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ الفاء عاطفة، ﴿ فَٱسۡتَجَابَ ﴾ بمعنى أجاب، والسين والتاء فيه: للمبالغة، أي: فاستجاب له ربه حين دعاه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ ﴾؛ لأن معناه: اصرف عني كيدهن.

﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ ﴾، أي: فعصمه ودفع عنه كيدهن ومكرهن.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ تعليل لما قبله، و«السميع» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو السمع الذي يسمع الدعاء والأقوال وجميع الأصوات؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ وما بيني وبينها إلا ساتر، فلم أسمع كلامها، وقد سمع الله كلامها من فوق سبع سموات»(١).

﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴾ من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨ ﴾ [طه: ٩٨].

فهو عز وجل السميع لدعاء يوسف ودعاء المتضرعين إليه، العليم بحاله وصدقه في تضرعه ودعائه، وحاجته إلى لطف الله عز وجل وعونه وإمداده وإجابة دعائه، وقدم «السميع» على «العليم»؛ لأن السمع من أهم وسائل العلم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ ﴾.

قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ «ما» مصدرية، أي: ثم ظهر للعزيز وأهله من بعد رؤيتهم الآيات، أي: العلامات والدلائل والشواهد على براءته وصدقه، وعلى كذب امرأة العزيز.

﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: ليسجننه إلى وقت ومدة يرون رأيهم فيها؛ وذلك لتبرئة امرأة العزيز وتغطية جرمها، وإلصاق تهمة المراودة بيوسف.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ ، فتح الباري ١٣/ ٣٧٢، وأخرجه موصولًا النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة، فيما ذكرت الجهمية ١٨٨، وأحمد ٦/ ٤٦.

أي: أنه لما شاع الخبر وانتشر، وصار الناس فيه بين لائم وعاذر، ظهر لهم من بعد رؤيتهم الآيات على براءته وصدقه وعفته ونزاهته أن المصلحة أن يسجنوه مدة؛ إيهامًا بأنه هو الذي راودها عن نفسها، وحتى ينقطع بذلك الخبر وينساه الناس؛ ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة.

الفوائد والأحكام:

١- انتشار خبر يوسف وامرأة العزيز ومراودتها له، وشغفها بحبه في مصر، وتكلم النساء بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴿٣٠﴾﴾.

٢- لوم النسوة وعذلهن لها، وشماتتهن بها وتخطئتها؛ مكرًا منهن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

٣- مقابلة امرأة العزيز مكر النسوة بها بالقول، وشماتتهن بها بالمكر بهن بالفعل والقول؛ باستضافتهن وإعداد المتكأ والطعام والفواكه لهن، وإعطاء كل واحدة منهن سكينًا، وأمر يوسف بالخروج عليهن؛ ليقطعن أيديهن من شدة دهشتهن لما رأينه، ومن ثم يعذرنها؛ لقوله تعالى: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

٤- عظم ما منح الله عز وجل يوسف من الجمال والكمال، مما يبهر العقول ويأخذ بالألباب؛ مما جعل النسوة لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهم من شدة دهشتهن، ونزَّهن الله، ونفين أن يكون يوسف بشرًا، بل هو ملك كريم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

٥- انتصار امرأة العزيز على النسوة، وإعذارهن لها في مراودتها ليوسف، وشغفها بمحبته؛ يظهر هذا من قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

٦- إقرارها بمراودتها ليوسف؛ لقولها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

٧- اعتصام يوسف بالله، وامتناعه أشد الامتناع من مطاوعتها؛ لعفته العظيمة وجمال وطهارة باطنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

٨- تمادي امرأة العزيز في غيها، وإصرارها على مراودة يوسف، وانتقالها إلى تهديده إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن والإهانة والإذلال؛ لقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بيوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، وقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾.

١٠- اختيار يوسف عليه السلام السجن على فعل المعصية، وأن السجن أحب إليه مما تدعوه إليه النسوة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.

١١- أن عذاب الدنيا بالسجن أو غيره أهون من عذاب الآخرة الذي تسببه المعاصي.

١٢- يجب مدافعة الإكراه على فعل المعصية ما أمكن.

١٣- تضرع يوسف عليه السلام إلى ربه أن يصرف عنه كيد هؤلاء النسوة، واعتصامه بالله وتفويضه أمره إليه وبراءته من حوله وقوته؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

١٤- أنه لا حول للإنسان ولا قوة إلا بالله، ولا حافظ له من الوقوع في الشرور والمعاصي إلا الله، فمن استعان به أعانه وحفظه، ووقاه، ومن كل سوء حماه، ومن أعرض عن الله، واعتمد على حوله وجهده وقواه، خاب وضلَّ وأوبق نفسه بمسعاه، كما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده(١)

١٥- فضيلة العلم والعقل؛ لأنهما يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر. والجهل والسفه بضد ذلك، يدعوان صاحبهما إلى اتباع هوى النفس، ولو كان معصية لله.

١٦- استجابة الله عز وجل لدعاء يوسف عليه السلام، وصرفه عز وجل عنه كيد النسوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾، فعصمه الله عصمة عظيمة، فامتنع أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك.

وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع ويختار السجن على

---

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

ذلك؛ خوفًا من الله، ورجاءً في ثوابه، وهذه منزلة عظيمة لا ينالها إلا من وفقه الله واختاره واصطفاه.

قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وذكر منهم رجلًا دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله(١).

١٧- إثبات خلق الله لأفعال العباد، وفي هذا ردٌّ على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

١٨- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «السميع» و«العليم»، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع لجميع الأقوال والأصوات، وذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٩- استجابة الله عز وجل لمن دعاه؛ لسمعه الواسع للدعاء، وعلمه الواسع بأحوال عباده.

٢٠- تقديم «السميع» على «العليم» في الآية؛ لأن السمع وسيلة للعلم.

٢١- توجه العزيز وأهله من بعد رؤيتهم الآيات الدالة على براءة يوسف وصدقه إلى سجنه حتى حين؛ لتبرئة امرأة العزيز، وتغطية جرمها، وإلصاق تهمة المراودة بيوسف، ولينقطع هذا الخبر وينساه الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

٢٢- عظم ما لقيه يوسف عليه السلام من الظلم؛ فأُبعد عن أبيه ظلمًا، وألقي في غيابة الجب ظلمًا، وبيع على السيارة بثمنٍ بخس ظلمًا، واتهم بمراودة امرأة العزيز ظلمًا، ومن ثم أودع السجن ظلمًا.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾، أي: شابان: أحدهما صاحب سقيا الملك وشرابه، والثاني صاحب خبزه وطعامه، قيل: سجنهما لأنها تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، فرأى كل منها رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو ساقي الملك: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، أي: أعصر عنبًا؛ ليكون خمرًا؛ فهو من تسمية الشيء بما يؤول إليه.

﴿وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ﴾ وهو صاحب خبزه وطعامه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في المنام ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾، أي: أخبرنا بتعبيره وتفسيره وبيان ما يؤول إليه.

والضمير يعود إلى رؤيا كل منهما، فهو بمعنى اسم الإشارة ونحوه، أي: أخبرنا بتأويل ذلك، أو بتأويل الذي رأينا، أو بتأويل المذكور أو المرئي.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عباد الله من أهل السجن وغيرهم، فأحسن إلينا في

تعبيرك لرؤيانا، وقيل: من المحسنين الذين يحسنون تأويل الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، أي: قال يوسف للفتيين مجيبًا لطلبهما ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ غداء أو عشاء، أو غير ذلك ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، أي: إلا أخبرتكما بتأويله، وتأويله بيان ما هو؛ بأن يقول: يأتيكما طعام كيت وكيت، فيجدانه كذلك ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، أي: قبل أن يصل إليكما.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ الإشارة إلى تأويل الرؤيا وإنبائهما بما يأتيهما من طعام يرزقانه قبل أن يأتيهما، و«ما» موصوله أو مصدرية، أي: ذلكما التأويل للرؤيا وإخباركما بما يأتيكما من طعام ترزقانه قبل أن يأتيكما؛ من الذي علمني ربي من العلوم الجمة الكثيرة، من تأويل الرؤيا، وعلم المغيبات، وغير ذلك، أو من تعليم الله تعالى إياي، لا حدسًا، أو رجمًا بالغيب، أو تكهنًا.

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تعليل لعناية ربه تعالى به وتعليمه، أي: لأني ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: اعتزلتها واجتنبتها؛ كما قال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، أي: إني تركت ما عليه قومي من الشرك والكفر بالله واليوم الآخر، ولم يقل: «قومي»؛ إشارة إلى شدة مخالفته وبراءته منهم؛ لما هم عليه من الشرك والكفر بالله واليوم الآخر.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أكد كفرهم بالآخرة بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وهم بالآخرة كافرون لا يؤمنون بالبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، فلا يرجون ثوابًا، ولا يخافون عقابًا.

وإنما خص الكفر بالآخرة؛ لأن الإيمان بها من أعظم ما يحفز على العمل؛ ولهذا يربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله كثيرًا في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

ذكر أولًا تركه وهجره لملة قومه، وما هم عليه من الشرك والكفر بالله واليوم الآخر، ثم أتبع ذلك بذكر اتباعه ملة آبائه المرسلين، وسلوكه طريق المهديين، وقدَّم ذكر تركه ملة الكافرين؛ لأن التخلية قبل التحلية.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾، أي: واتبعت دين آبائي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وهو توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له دون سواه، وفي هذا تنويه بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم، وفضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام، وما كانوا عليه من إخلاص التوحيد والعبادة لله تعالى؛ ولهذا لما سئل عليه السلام عن أكرم الناس قال: «**يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**»(١).

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ تفسير لملة إبراهيم، «ما» نافية، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخر، أي: ما كان جائزًا لنا الإشراك بالله، ولا صح ذلك ولا استقام؛ لعصمة الله تعالى لنا أهل بيت النبوة.

﴿مِن شَيۡءٖ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما كان جائزًا لنا أن نشرك بالله أي شيء من الشرك، لا أكبر، ولا أصغر، ولا شركًا خفيًّا، وما كان جائزًا لنا أن نشرك بالله أي شيء من الأشياء، قليلًا كان أو كثيرًا، صغيرًا أو كبيرًا.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الإشارة إلى ما يؤخذ مما سبق، أي: توفيق الله عز وجل لنا إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وعدم الإشراك به، وجعل كلمة التوحيد في إبراهيم وعقبه، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾، أي: من زيادته عز وجل وتفضله علينا وإنعامه.

﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: ومن فضله عز وجل على الناس عامة، فإن بعث الرسل والأنبياء فيهم، والهداية إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وعدم الإشراك به؛ من أعظم نعم الله تعالى وإفضاله على الناس عامة، وبخاصة من قبل ذلك منهم وقام بحقه؛

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٥٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: لا يشكرون ولا يقدرون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب لهدايتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وتحذيرهم من الكفر والشرك ليسعدوا في دينهم ودنياهم وأخراهم.

ولهذا لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فإن أكثر الناس على ضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم عليه السلام: «**أخرج بعث النار من ذريتك. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون**»(١).

قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٢).

وقال الشاعر:

والنـاس ألـف مـنهم كواحـد ... وواحـد كـالألف إن أمـر عنـا(٣)

وفي قول يوسف للفتيين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) نسب نحو هذه المقالة للفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهما. انظر: «الأذكار» للنووي (ص١٠٨)، «مدارج السالكين» (١/ ٤٦)، «الزهد الكبير» للبيهقي (ص١٣١).

(٣) البيت لابن دريد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تقديم وتمهيد وتوطئة لدعوته لهما لعبادة الله تعالى وحده، وبيان بطلان الشرك بالله في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

لما ذكر ما هو عليه من الملة الحسنة والدين القويم وعبادة الله تعالى وحده؛ ضرب لهما مثلًا متلطفًا بهما؛ لبيان بطلان ما عليه قومهما من الشرك.

قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ شروع منه عليه السلام بدعوتهما إلى توحيد الله، أي: يا صاحبي ورفيقي في السجن، ووصفهما بالصحبة المقتضية للمودة والنصيحة لهما، والصحبة قد تقوم مقام صلة القرابة، أو تفوقها، وقد قالوا في المثل: «صحبة عشرين يوما قرابة».

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ الاستفهام للتقرير، والمراد به تقريرهما لإبطال دينهما، أي: آلهة ومعبودون شتى- كما تعبدون أنتم وقومكم- خير.

﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾، «أم»: هي المتصلة، عطفت لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ على (أرباب)، أي: أم الله الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكل شيء، الغالب الذي لا يغالب، خير من هذه الآلهة المتفرقة كلها، وهي وجميع الأشياء تحت قهره وسلطانه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

فالخير كل الخير في عبادته عز وجل، ولا خير في معبوداتهم البتة، بل هي شر محض.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: ما تعبدون غير الله، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ «إلا» أداة حصر، و«أنتم» ضمير فصل للتأكيد، أي: ما تعبدون سوى الله إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وليس لها من صفات الإلهية شيء؛ ولهذا قال:

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: ما أنزل الله بعبادتها من حجة ولا برهان، بل أنزل السلطان والحجة والبرهان في النهي عن عبادتها وبيان بطلانها.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ «إن»: نافية، بمعنى «ما»، أي: ما الحكم إلا لله وحده، فله عز وجل الحكم الشرعي، يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويشرع الأحكام، وله عز وجل الحكم الكوني، والحكم الجزائي.

والمعنى: إن الحكم في التشريع، والأمر والنهي، والتحليل والتحريم إلا لله عز وجل وحده.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، أي: أمر بألا تعبدوا إلا إياه، أي: أمر بأن تعبدوه وحده، ولا تعبدوا غيره.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما أمر الله تعالى به في الآية السابقة، أي: توحيد الله تعالى وعبادته وحده دون سواه.

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: الدين العدل المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى دخول الجنة والنجاة من النار.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون حقائق الأشياء والعلم الذي ينفعهم في دينهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

ولهذا كان أكثرهم مشركين.

وشتان بين عبادة من له الخلق والملك والأمر، وبين عبادة من ليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

لما فرغ عليه السلام من بيان ما هو عليه من صحة المنهج وسلامة المعتقد، ومن دعوة الفتيين إلى عبادة الله تعالى وحده دون سواه؛ شرع في تعبير رؤياهما، كما وعدهما بذلك.

قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾، أي: يا صاحبي في السجن.

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، لكنه لم يعيِّنه؛ لئلا يحزن الآخر؛ ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ فَيُصْلَبُ﴾ الآية.

﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾، أي: فيخرج من السجن ويسقى سيده خمرًا، أي: يعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر.

﴿وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه.

﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾، أي: فيقتل ويصلب، ويعلق على خشبة في مكان بارز، فتأكل الطير من لحم رأسه، فعبَّر الخبزَ الذي يحمله وتأكل الطير منه بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المخ.

﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أي: قضي الأمر الذي تسألان عن تعبيره وتفسيره، أي: هذا تأويل رؤياكما قد فرغ منه وتم، وهو واقع لا محالة، كما في حديث معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عُبِّرت وقعت**»(١).

قال ابن كثير(٢): «وفي مسند أبي يعلى مرفوعًا: **الرؤيا لأول عابر**».

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾، أي: تيقن ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، أي: أنه سالمٌ من القتل من الفتيين بعد خروجهما من السجن، وهو ساقي الملك الذي رأى أنه يعصر خمرًا.

﴿ٱذْكُرْنِى﴾، أي: اذكر قصتي ومظلمتي ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: عند سيدك ملك مصر؛ لعله يرق لي فيخرجني من السجن.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ يعود إلى الفتى الناجي من القتل، أي: أنساه الشيطان ذكر ربه، أي: ذكر يوسف لربه الملك، وكان هذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في تفسيره ٤/ ٣١٦.

من مكائد الشيطان؛ ليظل يوسف حبيس السجن.

وقيل: الضمير في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ يعود إلى يوسف، أي: فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه، وذلك عندما قال للذي ظن أنه ناج منهما: اذكرني عند ربك، وكان الأولى له أن يتوكل على الله وحده، ويسأله تفريج كربته.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، أي: فمكث يوسف في السجن ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾، البضع: ما بين الثلاثة إلى التسعة، وقيل غير ذلك، قيل: لبث يوسف في السجن سبع سنين، وقيل غير ذلك

الفوائد والأحكام:

١- أن يوسف لما دخل السجن دخل معه فتيان: أحدهما: صاحب سقيا الملك، والآخر: صاحب خبزه وطعامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾.

٢- رؤية كل واحد من الفتيين رؤيا، وطلبهما من يوسف تأويلها، فأحدهما رأى أنه يعصر خمرًا، والآخر رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

٣- أن للرؤيا وتأويلها أصلًا في الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ الآية، وقد قال ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»(١).

وقال ﷺ: «**لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له**»(١).

والرؤيا الصالحة التي تكون من الله لها شروط ثلاثة:

الأول: ألا تكون مخالفة للشرع. فإن كانت مخالفة للشرع، فهي من الشيطان. كما في قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ وقال: إني رأيت رأسي ضرب فرأيته يتدهده، فقال

---

(١) سبق تخريجه.

رسول الله ﷺ: «يعمد الشيطان إلى أحدكم، فيتهوّل له، ثم يغدو يخبر الناس»(١).

الثاني: أن يتذكرها ويضبطها، من غير تضييع بعضها. فإن ضيع بعضها فليست بشيء.

الثالث: ألا تدخل عليه الحزن والأذى في البدن، وإلا فهي من الشيطان.

ويشترط في المعبِّر شروط، منها:

الأول: المعرفة بدلالات اللغة التي تحكى بها الرؤيا.

الثاني: المعرفة بنصوص الكتاب والسنة ومعانيهما.

الثالث: أن يكون له فراسة وبصيرة.

وينبغي أن يعلم أن المعبر يصيب ويخطئ. وقد قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا»(٢).

وأيضًا فإن الرؤيا ليس لها قاعدة تطبيقية، فكل رؤيا لها تفسيرها. ولا ينبغي الجزم بتفسيرها لئلا تجر إلى فتنة أنه يعلم الغيب.

ومع جواز تفسير الرؤيا بشروطها فالأولى عدم الانشغال بها.

وقد روي أن الإمام أحمد رحمه الله أنكر على ابن سيرين ذلك. وناهيك عما يترتب على ذلك من المفاسد العظيمة من التشكيك في العقيدة، والتفريق بين الناس، من الأقارب والإخوان، والأصحاب والجيران، وإدخال الأذى على الناس، بسبب كثير من المعبرين، الذين خاضوا في هذا الأمر، وهم لا يحسنون صنعًا.

٤- حُسن خُلق يوسف عليه السلام وإحسانه الظاهر؛ لقول الفتيين له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٥- بيان يوسف للفتيين أنه لا يأتيهما طعام يرزقانه إلا أخبرهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في تعبير الرؤى ٣٩١١، وأحمد ٢/ ٣٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٧٠٤٦، ومسلم في الرؤيا ٢٢٩١، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٦- جواز ثناء الإنسان على نفسه بما هو حق، إذا كان ذلك لمصلحة، كطمأنة السائل، ونحو ذلك؛ لقول يوسف: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

٧- اعتراف يوسف بنعمة الله عليه بتعليمه عز وجل له، ونسبته النعمة إلى مسديها؛ حمدًا لله تعالى وشكرًا له وثناء عليه؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

٨- إطلاع الله تعالى يوسف عليه السلام على شيء من الغيب.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بيوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

١٠- بيان يوسف عليه السلام سبب إنعام الله تعالى عليه بالعلوم الجمة، وهو اعتزاله ملة الذين لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة كافرون، واتباعه ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ بتوحيد الله تعالى والبعد عن الشرك؛ لقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ﴾.

١١- أن الجد يُسمَّى أبًا؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

١٢- حرمة الشرك قليله وكثيره، وشدة خطره، ووجوب البعد عنه؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

١٣- امتداح الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام.

١٤- عظم فضل الله تعالى على إبراهيم وعقبه وذريته؛ حيث جعل النبوة فيهم، ووفقهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له والبراءة من الشرك، واعتراف يوسف عليه السلام بهذا الفضل العظيم؛ شكرًا لله تعالى؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾.

١٥- فضل الله تعالى على الناس ببعث الرسل والأنبياء فيهم، يدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده، ويحذرونهم من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

١٦- أن أكثر الناس لا يشكرون، ولا يقدرون نعمة الله عليهم بإرسال

الرسل، وإنزال الكتب؛ لهدايتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده، وتحذيرهم من الكفر والشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، فلا يُغتر بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم لا يشكرون.

١٧- أن ما قدم به يوسف عليه السلام من ذكر ما أنعم الله به عليه من علم تأويل الرؤيا وغيره، واعتزاله ملة أهل الكفر، واتباعه ملة آبائه الحنيفية السمحة ملة إبراهيم بإخلاص التوحيد والبراءة من الشرك، وأن ذلك من فضل الله عليهم وعلى الناس، كل ذلك توطئة وتمهيدًا لدعوتهما إلى توحيد الله تعالى، وترك ما هما عليه وقومهما من الشرك بالله، وعبادة آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان.

١٨- شروع يوسف عليه السلام بدعوة الفتيين إلى عبادة الله تعالى وحده، وبيان بطلان ما هما عليه من الشرك وقومهما؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

١٩- لا مانع من ذكر الداعي إلى الله أو المعلم أو المفتي ونحوهم ما هو عليه من المنزلة في العلم والدين، إذا احتاج الأمر إلى ذلك، وكان لذلك أثر في الاستفادة منه والاطمئنان إليه، ولا يعد هذا من تزكية النفس المنهي عنها.

٢٠- شتان بين من يعبد أربابًا وآلهة متفرقين، وبين من يعبد الله وحده الواحد القهار؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾، فهو عز وجل خير من كل ما يعبد من دونه، والخير كل الخير في عبادته عز وجل وحده، ولا خير البتة في عبادة ما سواه، بل هي شر محض، والمفاضلة قد تكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل؛ كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]، أي: خير مستقرًّا وأحسن مقيلًا من أهل النار، مع أن النار شر محض لا خير فيها مطلقًا.

٢١- أنه كما أن على العبد عبودية لله في الرخاء فعليه عبودية له في الشدة، فيوسف عليه السلام لم يترك الدعوة إلى الله حتى في السجن؛ حيث دعا الفتيين

بلسان حاله ومقاله إلى توحيد الله.

٢٢- البداءة بالأهم فالأهم، وأنه إذا كان السائل في حاجة أشد إلى غير ما سأل عنه ينبغي أن يبين له ما يحتاج إليه قبل الإجابة على سؤاله؛ لشدة حاجته إلى هذا الشيء، وانتهازًا لفرصة إقباله على المسؤول.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الواحد» وصفة الوحدانية التامة له عز وجل في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾.

٢٤- إثبات اسم الله تعالى «ٱلْقَهَّارُ»، وصفة القهر والغلبة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾.

٢٥- أن كل ما يعبده المشركون من دون الله ما هي إلا أسماء لا حقيقة لها، لا تنفع ولا تضر، سموها هم وآباؤهم الضالون ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

٢٦- جهل هؤلاء الأقوام؛ بتقليدهم آباءهم على ما هم عليه من الضلال والشرك.

٢٧- أن الحكم في التشريع والأمر والنهي إنما هو لله تعالى وحده، كما أن له الحكم الكوني والحكم الجزائي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

٢٨- أن الله عز وجل أمر ألا يعبد سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

٢٩- أن الدين القيم والهدى القويم والصراط المستقيم عبادة الله تعالى وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

٣٠- أن أكثر الناس لا يعلمون حقائق الأشياء والعلم الذي ينفعهم في دينهم؛ ولهذا كان أكثرهم مشركين؛ لقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

٣١- تأويل وتعبير يوسف رؤيا الفتيين كما وعدهما، وذلك بعد دعوته لهما إلى عبادة الله تعالى وحده دون غيره؛ لقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

٣٢- أن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى؛ لقول يوسف عليه السلام ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

لهذا يجب على من يتصدر لذلك، أن يكون ذا علم وعقل وفطنة وحكمة وإخلاص وتحرٍّ للصدق، ومما يؤسف له أن أكثر من يتصدر لتعبير الرؤيا ليس عندهم مما ذكر شيء يتخبطون تخبط العشواء، جعلوا من هذا الأمر طريقًا لكسب الشهرة والجاه أو الأطماع الدنيوية؛ فضلوا وأضلوا، وفرَّقوا بين الزوج وزوجه، وبين الأقارب والجيران والمعارف، مما يوجب أن تُلجم أفواههم؛ كفًّا لشرهم عن المسلمين.

٣٣- حكمة يوسف عليه السلام في الإبهام في قوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ دون تعيين واحد منهما؛ لئلا يحزن الذي سيصلب وتأكل الطير من رأسه.

وهكذا ينبغي لمن يقوم بتفسير الرؤيا أن يكون عاقلًا فطنًا حكيمًا مراعيًا لمشاعر صاحب الرؤيا، إذا كان تأويل رؤياه ينذر بوقوع أمر مكروه له، فيَحسُن في مِثل هذا التلميح والتعريض دون التصريح.

٣٤- جواز إطلاق اسم «رب» على السيد المالك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ﴾، ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴿٤٢﴾﴾.

٣٥- أن الرؤيا إذا عُبِّرت وقعت؛ لقوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وفي الحديث: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت**»(١).

٣٦- وصية يوسف عليه السلام للناجي من القتل- وهو الساقي- بأن

---

(١) سبق تخريجه.

يذكره عند الملك؛ لعله يرق له فيخرجه من السجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

٣٧- لا بأس أن يستعين المرء بمن يخلصه من مكروه، أو ينفعه في أمر ما إذا كان ذلك في مقدوره، وليس ذلك من الشكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس فيها بعضهم ببعض؛ لقول يوسف للناجي منهما: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

٣٨- إنساء الشيطان للفتى الناجي ذكر يوسف وحالته وظلامته للملك كما أوصاه يوسف بذلك، ولبثه في السجن بضع سنين، وفي هذا- والله أعلم- ما يدل على أن الأَولى بيوسف أن يرفع حاجته وظلامته وشكايته إلى الله، ويكل أمره إليه، ويتعلق به وحده، فكأن في هذا ما يوحي بالعتاب له؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

٣٩- شدة عداوة الشيطان ليوسف وكيده له؛ ولهذا أنسى الناجي ذكر يوسف عند الملك؛ ليظل يوسف رهين الحبس بضع سنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

لما أراد الله أن يأذن بإخراج يوسف عليه السلام من السجن معززًا مكرمًا، ويعلو قدره وشأنه في الملأ، قدر وعقد لذلك سببًا، وهو رؤيا الملك العجيبة التي يتناول تأويلها شأن الأمة كلها، ويكون ذلك على يد يوسف عليه السلام؛ ليظهر من فضله وعلمه ما يكون رفعة له في الدارين.

قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾، أي: وقال ملك مصر الريان بن الوليد، لملئه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ ﴾، أي: في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾، أي: سبع بقرات سمينة لحمًا وشحمًا، ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾، أي: يأكل هذه البقرات السمان سبع بقرات عجاف، أي: ضعاف مهازيل.

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ ﴾.

أي: وأرى «سبع سنبلات» جمع سنبلة، وهي نبات الزروع والحبوب؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿خُضْرٍ ﴾، أي: خضراء مورقة مونقة مثمرة ممتلئة.

﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾، أي: وسبع سنبلات أخر يابسات، والمعنى: يأكلهن سبع سنبلات أخر يابسات، كأنها نبتت وراء السبع الخضر فابتلعتها.

وإنما استغنى عن ذكر عددها وأكلها للخضر؛ للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات؛

لأنها نظيرتها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطاب لكبراء دولته وأشراف قومه وساداتهم.

﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، أي: أخبروني في تأويل وتعبير رؤياي وتفسيرها ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، أي: إن كنتم للرؤيا تفسرون وتؤولون، وقدم ﴿لِلرُّءْيَا﴾ لرعاية الفاصلة.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، أي: رؤياك هذه أخلاط أحلام مشتبهة كاذبة، لا حاصل لها ولا تأويل، وهذا تبرير لعجزهم عن تأويلها، ويدل على عجزهم، وعدم علمهم شك الملك بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ «الأحلام» جمع «حلم»؛ وهو ما يراه النائم فهو مرادف للرؤيا، إلا أنها غلبت في رؤيا الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه، وفي الحديث: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان**».

ومرادهم بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أنهم لا يُعبرون إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس؛ فإنا لا نعبرها، فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضعاث أحلام، والإعجاب بأنفسهم؛ لأنهم لم يعترفوا بالحقيقة، ويقولوا: لا نعلم تأويلها؛ وهذا ليظهر فضل يوسف وعلو مكانته ورفعة منزلته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

لما رأى الملك هذه الرؤيا العجيبة والمهولة وعرضها على ملئه؛ ليعبروها له فما استطاعوا؛ تذكر الذي نجا من صاحبي السجن يوسف وعلمه بالرؤيا، والشيء بالشيء يذكر، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾، أي: قال الذي نجا من صاحبي السجن، أي: الذي نجا من القتل والصلب، وهو ساقي الملك.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ الجملة معترضة بين «قال» ومقوله: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، أي: وتذكر بعد مدة، قيل: كان ذلك بعد خروجه من السجن بسنين، والمعنى: وتذكر بعد مدة وصية يوسف له بذكره للملك، وتذكر ما كان عليه يوسف من العلم بتأويل

الرؤيا، وتعبيره رؤياهما، وأنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا؛ ولهذا قال جازمًا:

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾، أي: أنا أخبركم به بالتلقي عمن عنده علم تأويله، لا من تلقاء نفسي؛ ولذلك لم يقل: أنا أفتيكم فيها، وعقبه بقوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾، أي: فابعثوني إلى يوسف، والخطاب للملك والذين جمعهم لتأويل رؤياه، أي: فابعثوني إلى يوسف في السجن؛ لأسأله عنها.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ «يوسف»: منادى، أي: يا يوسف، و«أي» بدل من يوسف، و«ها» للتنبيه، و«الصديق» نعت لـ«أي» أو عطف بيان، أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، والصديقية منزلة دون منزلة الأنبياء وفوق منزلة الشهداء، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، وفي الحديث «**إنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»(١).

والتقدير: فأرسلوه فجاء إليه فقال: يا يوسف أيها الصديق:

وإنما وصفه بالصديق لما عرف عنه من حسن السريرة، وجميل الخصال، والصدق في أقواله وأفعاله إبان صحبتهما له في السجن وتعبيره لرؤياهما هو وصاحبه، ولم يعنفه يوسف عليه السلام على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه وأجابه.

﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾.

ولم يغير لفظ الملك؛ لأن التعبير يكون على وفقه، وفي قوله ﴿أَفۡتِنَا﴾ بالجمع- مع أن المستفتي واحد- إشعار بأن الرؤيا ليست له، بل لغيره ممن له ملابسة في أمور العامة،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٩٤، وأبو داود في السنة ٤٦٥١، والترمذي في المناقب ٣٦٩٧؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

وأنه مجرد سفير في ذلك؛ كما يدل عليه قوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾.

ومعنى ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ الآية، أي: أفتنا في تأويل هذه الرؤيا وتعبيرها و«لعل» في قوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ للتعليل؛ لأجل أن أرجع إلى الناس فأخبرهم؛ لأجل أن يعلموا تأويل هذه الرؤيا وتعبيرها فيعملوا بمقتضاها، ويعلموا فضلك ومكانتك من العلم؛ لعلهم يخلصوك من محنتك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال يوسف عليه السلام في تعبير هذه الرؤيا وتأويلها مضمنًا جوابه ما ينبغي أن يعملوه ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ قرأ حفص بفتح الهمزة: ﴿دَأَبٗا﴾ وقرأ الباقون: «دَأْبًا» بإسكانها، ومعنى ﴿دَأَبٗا﴾، أي: استمرارًا، أي: وأنتم دائبون جادون.

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ﴾ من تلك الزروع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، أي: فاتركوه في سنبله من غير درس؛ لأن ذلك أبقى له، وأبعد عن وصول التلف والسوس إليه الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾، أي: إلا قليلًا من الذي تأكلون، أي: قدر الذي تأكلون فهذا يدرس ويهيأ للأكل.

وفي قوله «قليلا» إشارة عليهم بتقليل الأكل في سنوات الخصب؛ لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشدة.

قوله: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾.

أي: ثم يأتي من بعد سبع السنين المخصبات سبع سنين شداد، أي: مجدبات ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾، أي: يأكلن جميع الذي قدمتم لهن، أي: جميع الذي ادخرتموه ولو كان كثيرًا.

ولما عبر عن البقرات بالسنين نسب الأكل إلى السنين.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ إلا أداة حصر، و«التحصين» الإحراز والادخار والحفظ في الحصن، أي: إلا قليلًا من الذي تحفظون وتدخرون.

ففسر البقر السمان بالسنين المخصبات؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات

والزروع، وساعد على هذا قوله بعده: ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾، فالبقر السمان والسنبلات الخضر هن السبع السنين المخصبات التي يكثر فيها الخصب والمطر.

وفسر البقر العجاف بالسنين المجدبات، وساعد على هذا قوله بعده: ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾، فالبقر العجاف والأخر اليابسات هن السبع السنين المجدبات.

وضمن هذا التفسير إرشادهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين من الجد والاجتهاد في زراعة الحبوب، والاستمرار على ذلك، والدأب فيه طيلة السبع السنين المخصبات، مع ترك ما يحصدونه من الزروع في سنبله؛ ليبقى أطول وقت لا يتطرق إليه السوس والتلف إلا ما يحتاجون لأكله، فهذا يدرس، وينبغي تقليل ذلك والاقتصاد فيه وعدم الإسراف.

كما أرشدهم إلى تحصين وادخار ما أمكنهم تحصينه وادخاره، ولو كان قليلًا طيلة السنين المجدبات؛ فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

وبهذا جمع لهم في تأويلها بين التعبير والإرشاد لما يفعلونه ويستعدون به من التدابير في سني الخصب إلى سني الجدب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا مما بشرهم به يوسف وزاده على ما سئل عنه في رؤيا الملك، ولعله فهم من التعبير بالسبع الشداد أن العام الذي يليها تزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنوات متوالية إلا بعام خصب جدًّا.

قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: ثم يأتي من بعد السنين الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: تكثر فيه السيول والأمطار، وتكثر فيه الغلات والثمار والخيرات.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قرأ الكسائي وحمزة وخلف بتاء الخطاب: «تعصرون»، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَعْصِرُونَ﴾.

أي: وفيه يعصرون العنب والزيت والسكر ونحو ذلك، ويحلبون الدر من المواشي؛ لكثرة الخير والخصب والنماء.

الفوائد والأحكام:

١- جواز تسمية الكافر ملكًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾.

٢- صحة رؤيا الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ ﴾ الآية.

٣- رؤيا الملك هذه الرؤيا العظيمة المهولة، وانعقاد الأسباب لخروج يوسف من السجن مكرمًا معززًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾.

٤- طلب الملك من ملئه أن يفتوه بتأويل هذه الرؤيا، وعجزهم عن تأويلها، وتبريرهم لذلك بأنها أخلاط أحلام، لا حاصل لها ولا تأويل، وأنها من إيحاء الشيطان وحديث النفس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

٥- جواز طلب تعبير الرؤيا، وخاصة إذا كانت رؤيا حسنة، ومشروعية تأويلها وتعبيرها.

٦- أن تعبير الرؤيا من الفتوى التي هو قول على الله تعالى، فيجب على المعبر تقوى الله، وألا يتصدر لهذا الأمر إلا إذا كان أهلًا لذلك دينًا وعلمًا وحكمة وعقلًا؛ لقول الملك: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾، وقول الفتى الناجي: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ...﴾ الآية.

٧- تشكيك الملك في قدرة ملئه على تعبير رؤياه؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾.

٨- تذكر الناجي من القتل والصلب- وهو ساقي الملك- بعد مدة يوسف، وما هو عليه من العلم بتأويل الرؤيا، وطلبه أن يرسلوه إليه؛ ليعبرها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

٩- مجيء هذا الناجي إلى يوسف وطلبه الإفتاء بتأويل هذه الرؤيا، وعرضها عليه كما رآها الملك؛ لقوله: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٠- وصف الناجي يوسف بـ «الصديق»؛ لما عرفه من صدقه في أقواله وأفعاله

وجميع أحواله حينما كان معه في السجن.

١١- الإشارة في قوله ﴿أَفْتِنَا﴾ بضمير الجمع إلى أن هذه الرؤيا ليست له، وأنها من الأهمية بمكان؛ لأنها رؤيا من له ملابسة لأمر العامة، وهو الملك.

١٢- أن الرؤيا قد يفسر بعضها بعضًا؛ فقوله: ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ تفسير وبيان لقوله: ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾.

١٣- أن الغرض من عرض الرؤيا على يوسف ليعبرها؛ لكي يعلم الناس تأويلها، ويعملون بمقتضاها؛ لأنه قد أهمهم أمرها؛ لقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٤- تعبير يوسف عليه السلام لهذه الرؤيا مع تضمين ذلك إرشادهم كيف يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ففسر سبع البقرات السمان وسبع السنبلات الخضر بسبع سنين مخصبات، وأوصاهم بالاجتهاد فيها بالزرع، وترك ما حصدوه من الزروع في سنبله؛ لأن ذلك أبقى له وأسلم من السوس والتلف، وأرشدهم إلى الاقتصاد في الأكل.

وفسَّر سبع البقرات العجاف، وسبع السنبلات اليابسات بسبع سنين مجدبات، وأرشدهم إلى تحصين وحفظ ما أمكنهم حفظه من الحبوب.

وهذا من أصول التعبير، وفيه الإرشاد لهم كيف يصنعون، وهذا مما يندب للمعبر في مثل هذه الحالات.

١٥- أن جباية الأرزاق وادخارها لمصلحة الناس في المستقبل، من غير احتكار أو تضيق عليهم؛ أمر لا بأس به، وليس مناقضًا للتوكل، بل هو من فعل الأسباب مع التوكل؛ لفعل يوسف عليه السلام؛ حيث ادخر من السنين المخصبات للسنين المجدبات.

١٦- أن ما قيل: «إن الرؤيا لأول عابر» ليس على إطلاقه؛ لأن الملأ قالوا: أضغاث أحلام، وفسرها يوسف بعدهم، ولم تسقط بقولهم.

١٧- زيادة يوسف على ما جاء في الرؤيا؛ تبشيرًا لهم بعام يأتي بعد السبع يكثر فيه الخصب والخير؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٨- جواز الزيادة على تفسير الرؤيا بما فيه بشارة.

١٩- حسن خلق يوسف عليه السلام؛ حيث لم يُعنف الساقي على نسيانه ذكره للملك، والعذر بالنسيان.

٢٠- أن الشيء بالشيء يذكر؛ فالناجي لم يتذكر يوسف ووصيته له حتى رأى الملك الرؤيا، وتحيروا في تأويلها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لما أبلغه الساقي تعبير يوسف لرؤياه بما أعجبه وأيقنه، وما ضمنه من إرشاد عرف به فضل يوسف وعلمه وعقله، وحسن خلقه وحنكته.

﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ الخطاب لملئه، أي: ائتوني بيوسف الذي فسر هذه الرؤيا العجيبة، أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، لما علم من علمه وفضله.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾، أي: فلما جاء يوسفَ الرسول الذي أرسلوه للإتيان به؛ لم يجبه لأول وهلة، وأبى الخروج من السجن.

﴿قَالَ﴾، أي: قال يوسف للرسول الذي جاءه ليأتي به إلى الملك: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وإنما قال له هذه المقالة؛ ليثبت صدقه وبراءته مما اتهم به من مراودة امرأة العزيز، وليظهر للملك وملئه وعموم رعيته أنه إنما سجن ظلمًا وبغير جُرم، وليخرج من السجن مرفوع الرأس معززًا مكرمًا، فلا يظن أنه سجن بحق، ولا أن خروجه من السجن لتبريزه في تعبير الرؤيا، وهذا من صبره ورجحان عقله وثاقب رأيه.

قوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: ارجع إلى سيدك الملك ومن أمر بإرسالك إلي.

﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾، أي: ما شأن النسوة؟ وما خبرهن؟

﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، أي: اللاتي قطعن وجرحن أيديهن لما رأينني.

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ﴾، أي: بمكرهن وما يدبرنه بينهن.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع به، لا يخفى عليه منه شيء، وفي هذا وعيد لهن.

ولا شك أن امتناع يوسف عن المبادرة إلى الخروج من السجن سيثير دهشة الملك وغيره، فمن الذي يأبى الخروج من السجن؟ ولهذا قال ﷺ: «**لو لبثت ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»(١)، أي: داعي الملك، وفي رواية: «**لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر**»(٢).

كما أن قوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ﴾ الآية، مما سيهيج الملك ويحمله على الكشف والبحث والاستعلام؛ فتظهر البراءة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ﴾، أي: قال الملك بعد أن جمعت له النسوة مخاطبًا لهن: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾، أي: ما شأنكن، وما خبركن.

﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، أي: حين راودتن يوسف عن نفسه، وذلك يوم الضيافة، أي: هل وجدتن منه ميلًا إليكن، أو رأيتن منه ما يريب؟

﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ قرأ أبو عمرو في هذا الموضع والذي قبله كما سبق بيانه: (حاشا) بألف بعد الشين لفظًا في حالة الوصل، وقرأ الباقون بحذفها في الموضعين، أي: تنزيهًا لله تعالى، واستعظامًا أن يكون يوسف متهمًا.

﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿سُوٓءٖ﴾ أيضًا نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: ما علمنا عليه أيَّ سوء، أي: أي فعل قبيح، لا قليل ولا كثير.

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾، أي: ثبت واستقر وتبين وظهر بعد خفائه، وهو براءة يوسف مما اتهمته به.

---

(١) أخرجه البخاري تفسير سورة يوسف ٤٦٩٤، ومسلم في الإيمان- زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة ١٥١، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجها أحمد (٢/ ٣٤٦، ٣٨٩).

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، أي: أنا التي راودته، أي: حاولته عن نفسه، وهذا نقض وإبطال لقولها فيما سبق: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: ٢٥] فهو إقرار منها على نفسها، وشهادة ببراءته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ «إن» واللام للتوكيد، أي: وإنه لمن الصادقين في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦]، وهذا تأكيد لقولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة، واعتراف امرأة العزيز على نفسها، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال، والفضل ما شهدت به الأعداء.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الإشارة لإقرارها على نفسها وتبرئته.

واللام للتعليل، أي: لكي يعلم، أو لأجل أن يعلم ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الباء للظرفية، أي: بمكان الغيب، أو في حال الغيب.

وفاعل «يعلم»، والضمير في ﴿أَخُنۡهُ﴾ يعود إلى يوسف، أي: ليعلم أني لم أكن أكذب عليه، وأخنه في حال غيبته، وإن كنت خنته في وجهه في أول الأمر، لكن الأول وهو الأشد وهو خيانته في غيبته لم يحصل مني، وقد جئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه.

قال ابن القيم: «هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك أن قولي هذا وإقراري ببراءته؛ ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾»(١).

وقيل: إن الضمير في ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ وفي ﴿أَخُنۡهُ﴾ يعود إلى العزيز، أي: ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة؛ فلهذا اعترفت؛ ليعلم أني بريئة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿لِيَعۡلَمَ﴾، أي: وليعلم أن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٤٧.

الله لا يهدي كيد الخائنين، أي: لا يسدده ولا يرضاه ولا يوفق أهله، فكل خائن فكيده في سفال وأمره في ضلال، ومكره على نفسه، ولا بد أن يفتضح أمره، لأن الله لا يهدي الخائنين في كيدهم، أو بسبب كيدهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

لما كان في الكلام السابق نوع من تزكيتها لنفسها، وأنه لم يجرِ منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ هذا اعتذار من امرأة العزيز عن نفسها، أي: وما أبريء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ فقد حصلت مني المراودة والهم والحرص الشديد والكيد في ذلك.

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ تعليل لقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾، أي: لأن النفس أمارة بالسوء، أي: كثيرة الأمر لصاحبها بفعل السوء، أي: بفعل الأعمال السيئة التي تسوء صاحبها في الحال والمآل من ارتكاب الفواحش وغيرها من الذنوب.

وقد قيل: إن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ من كلام يوسف عليه السلام، أي: ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته، وإنما رددت الرسول؛ ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب.

والقول الأول أقوى وأظهر وأشهر، وهو أنه من قول امرأة العزيز؛ لأنه متصل بقولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾، ثم قالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ الآية.

ومن جعله من قول يوسف، فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، وأيضًا: فإن يوسف عليه السلام لم يكن حاضرًا حين قالت امرأة العزيز: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ الآية، بل كان في السجن.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي رحمه ربي فإنه

يسلم من شر النفس الأمارة بالسوء، فتكون نفسه مطمئنة، لا أمارة بالسوء، ولا لوامة، فينقاد للهدى، ويسلم من اتباع طريق الردى.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها، وعدم المعاقبة عليها.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة بعباده، ومن رحمته يغفر ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

الفوائد والأحكام:

١- طلب الملك من حاشيته الإتيان بيوسف بإخراجه من السجن وإحضاره إليه، لما أبلغه الساقي تعبير يوسف للرؤيا بما أعجبه وأيقنه، وما ضمن ذلك من إرشاد عرف به فضله وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾.

٢- امتناع يوسف عن المبادرة إلى الخروج من السجن؛ حتى يثبت صدقه وبراءته مما اتهم به من مراودة امرأة العزيز، وأنه إنما سجن ظلمًا وعدوانًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾، وهذا دليل على صبره ورجحان عقله، وثاقب رأيه، وأناته؛ ولهذا قال ﷺ: «**لو لبثت ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»(١).

٣- إطلاق اسم «رب» على السيد والمالك.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بيوسف عليه السلام؛ وربوبيته العامة؛ لقول يوسف: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥- لا لوم على الإنسان في الاجتهاد في دفع التهمة عن نفسه، بل ذلك مطلوب منه؛ لذا قال ﷺ للصحابيَّيْن اللذَين لما رأياه أسرعا، وهو يقلب صفية إلى بيتها: «**على رِسلكما؛ إنها صفية**»(٢).

٦- كيد النسوة وامرأة العزيز ليوسف عليه السلام، وتعاونهن في ذلك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨١، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبو داود في الصوم ٢٤٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٩؛ من حديث صفية رضي الله عنها.

٧- التهديد والوعيد لهن؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

٨- علم الله الواسع لكل شيء مما أخفي أو أعلن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

٩- سؤال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن: ما شأنهن، وما خبرهن حين راودن يوسف عن نفسه؟ استجابة لأمر يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾.

١٠- شهادة النسوة ببراءته عليه السلام؛ لقولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى، واستعظامًا أن يكون يوسف متهمًا بسوء.

١١- اعتراف امرأة العزيز على نفسها بعد ظهور الحق، وتبينه أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه، وأنه كان من الصادقين في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾؛ لقولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

١٢- أن حبل الكذب قصير، والحق أبلج لا بد أن يظهر ولو بعد حين.

١٣- في اعتراف امرأة العزيز على نفسها بأنها التي راودته عن نفسه وأنه من الصادقين بنسبة المراودة إليها، اعتراف منها في مراودتها له علنًا، وتمدح بأنها لم ترتكب أشد الأمرين، وهو خيانته في غيبته؛ وكما يقال: حنانيك بعض الشر أهون من بعض؛ لقولها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.

١٤- أن الله لا يهدي ولا يسدد كيد الخائنين ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فأمرهم إلى انكشاف وفضيحة وعقاب.

١٥- اعتذار امرأة العزيز عن نفسها مع اعترافها؛ لقولها: ﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴿٥٣﴾﴾.

١٦- ينبغي الاعتراف بالتقصير واتهام النفس وعدم تزكيتها؛ فإنها محل للنقص والتفريط، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

١٧- أن النفس أمارة بالسوء، إلا من رحم الله فوقاه شرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾، وقد قيل:

إني بليت بأربع لم يخلفوا ... إلا شديد شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي[1]

١٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾.

١٩- ينبغي التعلق برحمة الله تعالى ورجائه مع العمل وفعل السبب، وعدم الاعتماد على الجهد والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾.

وقد قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[2].

٢٠- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾.

٢١- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

* * *

(١) البيتان مجهولا النسبة مع اختلاف فيهما. انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني (١/ ٤٠).
(٢) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾، أي: وقال الملك حين تحقق براءة يوسف، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، وظهر له ما هو عليه من العلم والفطنة في تأويل الرؤيا وحكمته وصبره.

﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾، أي: ائتوني بيوسف ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ السين والتاء في ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ للمبالغة، أي: أجعله من خلصائي وخاصتي وأهل مشورتي، ومقربًا مني.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾، أي: فأتوه به معززًا مكرمًا، فلما كلمه، أي: كلم الملك يوسف، أي: خاطبه وعرفه عن قرب، فأعجبه وزادت مكانته عنده.

ويجوز أن يكون فاعل «كلّم» يوسف عليه السلام، أي: فلما كلم يوسف الملك أعجب الملك كلامه وحكمته، فازداد منزلة عند الملك.

﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: الآن ﴿لَدَيْنَا﴾، أي: عندنا ﴿مَكِينٌ﴾، أي: ذو مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، ﴿أَمِينٌ﴾ فعيل بمعنى «مفعول»، أي: مأمون على الأسرار، موثوق به في حفظه.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قال يوسف عليه السلام للملك: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾، أي: اجعلني وكيلًا ووليًا على خزائن الأرض، وحافظًا ومدبرًا لها، وخزائن الأرض: جميع خيراتها وغلاتها، وليس هذا حرصًا منه عليه السلام على الولاية، وإنما رغبة في النفع العام، وقد عرف من نفسه الكفاية والأمانة والحفظ، مما لم يكونوا يعرفونه عنه، ومما لم يكن عند غيره؛ ليتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح، ويتمكن من تطبيق أحكام الله، وإقامة الحق، وبسط العدل.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لأني ﴿حَفِيظٌ﴾،

أي: خازن أمين حفيظ لما أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله،﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبيره ووجوه التصرف فيه؛ فوصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما أساس نجاح الوالي على خزينة الدولة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: وبهذه الأسباب والمقامات المذكورة ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أيدناه وقويناه، وجعلنا له تمكنا من التصرف والتدبير في جميع أرض مصر؛ حيث ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في مصر مكان الذي اشتراه من مصر، زوج التي راودته.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير بالنون: «نشاء»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَشَآءُ﴾.

والتبوء: النزول، والمعنى: ينزل منها حيث يشاء بعد الضيق والحبس والسجن، ويتصرف فيها كيف يشاء.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، أي: نصيب ونختص برحمتنا الفعلية الدينية والدنيوية الذي نشاء ونريده من عبادنا.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: ولا نضيع ثواب وجزاء المحسنين، ولا نخيب رجاءهم وآمالهم، بل نجازيهم على إحسانهم أعظم الجزاء في الدنيا، وفي الآية ثناء على يوسف أنه من المحسنين، بل هو في مقدمتهم؛ لإحسانه في عبادة الله تعالى، وصبره على ما قدره الله عليه من أذى إخوته، وأذى إمرأة العزيز والنسوة، وعلى السجن بضع سنين ظلمًا وعدوانًا، وغير ذلك؛ ولهذا أعقبه الله بالفرج والنصر والتأييد.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الواو للحال واللام للتوكيد، أي: والحال أن أجر الآخرة خير، أي: ولثواب الدار الآخرة وجزاؤها خير من ثواب الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: للذين صدقوا بقلوبهم وبواطنهم.

﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتقون الله بجوارحهم بفعل أوامر الله، وترك نواهيه.

فالمطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، فما يدخر للمحسنين فيها أعظم وأجل مما يخولون في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والملك، وغير ذلك، بل ومن الدنيا كلها.

فما ادخره الله تعالى ليوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا؛ كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٩- ٤٠].

قال الفضيل بن عياض: «وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيدًا بمعصيته»(١).

الفوائد والأحكام:

١- طلب الملك الإتيان بيوسف؛ ليجعله من خلصائه وخاصته والمقربين منه وأهل مشورته، وذلك بعد أن تحقق براءته ونزاهة عرضه وعلمه وحكمته وصبره وفطنته في تعبير الرؤيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾.

٢- تكليم الملك ليوسف ومعرفته عن قرب ما هو عليه من العلم والعقل والفطنة والحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾.

٣- حلول يوسف مكانة عظيمة عند الملك؛ لما عرف من علمه وعقله وحكمته وفطنته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾.

٤- طلب يوسف من الملك أن يجعله على خزائن أرض مصر؛ لقدرته على حفظ ما يتولاه، وعلمه كيفية تدبيره والتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾.

٥- جواز عرض الإنسان نفسه لطلب الولاية إذا وثق من نفسه القيام بحقوق الولاية، وأن من مصلحة الأمة والنصح لها توليه هذه الولاية، بل قد يجب عليه ذلك إذا رأى أنه ليس هناك من يصلح لها سواه، ونحو ذلك؛ لقول يوسف عليه السلام للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾.

٦- لا بأس بامتداح الإنسان نفسه بالإخبار عما فيه من صفات الكمال من علم أو

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٢١.

عمل إذا جُهِل حاله، وكان في ذلك مصلحة، ولم يقصد بذلك الرياء والسمعة، وسلم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

وفي المثل: «من لا يعرفك لا يُثَمِنك»، أي: لا يقدرك قدرك.

٧- تمكين الله عز وجل ليوسف في أرض مصر حيث جعله الملك وزيرًا له ووالِيًا على خزينة دولته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ ٥٦﴾.

٨- اختصاص الله تعالى من يشاء من عباده برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾.

٩- إثبات صفة الرحمة وصفة المشيئة، وهي الإرادة الكونية لله تعالى.

١٠- إثابة المحسنين ومجازاتهم في الدنيا قبل الآخرة على إحسانهم؛ بتوفيقهم وتيسير أمور دينهم ودنياهم، وعدم إضاعة ثوابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

١١- الترغيب في الإحسان بنوعيه: الإحسان في العبادة، إخلاصًا لله تعالى ومتابعة للشرع، وإحسانًا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة قولًا وفعلًا وبذلًا، وكف الأذى عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

١٢- أن يوسف عليه السلام من خاصة المحسنين.

١٣- أن ثواب الآخرة خير من ثواب الدنيا، بل ومن الدنيا كلها للمؤمنين المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

١٤- الترغيب في الإيمان والتقوى.

١٥- جمع الله تعالى ليوسف بين خيري الدنيا والآخرة؛ لإيمانه وتقواه، وصبره وأمانته، وعفته ونزاهته، وصدقه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

لما تولى يوسف عليه السلام خزائن أرض مصر، وجاءت السنون المخصبة؛ أحسن التدبير؛ فزرع أرض مصر كلها في هذه السنين، واحتاط وادخر الكثير من الغلات من الحبوب والثمار وغير ذلك للسنين المجدبة، ولما حلت هذه السنون المجدبة أخذ الناس يفدون إلى مصر يمتارون لأنفسهم وعيالهم، وكان الجدب قد وصل إلى فلسطين موطن يعقوب وأولاده، فأرسل يعقوب بنيه إلى مصر؛ لأجل الميرة، فجاؤوا وقدموا إلى مصر فدخلوا على يوسف.

قوله: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ من بلاد كنعان إلى مصر؛ لطلب الميرة، ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾، أي: على يوسف، في وزارته ورياسته، ﴿فَعَرَفَهُمْ ﴾، أي: لما رآهم سرعان ما عرف أنهم إخوته؛ لقوة فراسته ونباهته، دون توسم أو تأمل.

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أي: لم يعرفوه، والجملة اسمية تدل على أن عدم معرفتهم له أمر ثابت متمكن منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: كَالَ لهم كما كان يكيل لغيرهم، وحملهم أحمالهم، وأوقر ركائبهم بالطعام والميرة، وكان من حسن تدبيره أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وقد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيهم اسمه بنيامين.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، أي: قال لهم ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، لم يقل: بأخيكم؛ إظهارًا لجهله به، أي: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم؛ لأعلم صدقكم فيما ذكرتم.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ «ألَا» أداة عرض واستمالة، أي: ألا تشاهدون أني أتم الكيل ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، أي: وأنا خير المضيفين المكرمين للضيوف؛ حيث أنزلتكم وأضفتكم، وهذا منه تحريض وترغيب في الرجوع إليه والإتيان بأخيهم، وليس امتنانًا عليهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بعد أن رغبهم في الإتيان بأخيهم رهبهم إن لم يأتوا به؛ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه؛ وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

والمعنى: فإن لم تأتوني بأخيكم من أبيكم فليس لكم عندي ميرة، ولن يكال لكم.

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، أي: ولا تعودوا لأرض مصر، ولا تدخلوها في المستقبل.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: سنبذل جهدنا لإقناع أبيه في تركه يأتي معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أكدوا مقالتهم هذه بـ «إن» واللام وكون الجملة اسمية، والمعنى: وإنا لفاعلون لما أمرتنا به من الإتيان بأخينا، والمراودة لأبيه من أجل ذلك.

وفي قولهم ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ دلالة على أن يعقوب عليه السلام كان مولعًا به، لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، ويخاف أن يحصل له ما حصل ليوسف؛

«والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين»، كما جاء في الحديث(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ بألف بعد الياء ونون مكسورة بعدها، وقرأ الباقون بتاء مكسورة بعد الياء من غير ألف: «لفتيته» جمع تكسير، أي: غلمانه وخدمه الكيالين.

﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾، أي: اجعلوا الثمن الذي دفعوه واشتروا به من الميرة.

﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ الرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب؛ ولهذا سمي البعير راحلة.

والمعنى: اجعلوا بضاعتهم في أمتعتهم وأوعيتهم، خفية عنهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾، أي: لأجل أن يعرفوا أنها بضاعتهم ودراهمهم وضعت في رحالهم، وردت إليهم قصدًا، عطية من عزيز مصر.

﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾، أي: إذا رجعوا إلى أهلهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لعلهم يعودون إلى مصر بأن يتحرجوا من أخذها، أو يحملهم ذلك الإحسان إليهم برد بضاعتهم إليهم على الإحسان وتمام الوفاء بالإتيان بأخيهم؛ لأن الإحسان يحمل الإنسان على تمام الوفاء للمحسن، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان(٢)

وقد قيل: إن يوسف إنما وضع بضاعتهم في رحالهم؛ خشية ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، أو أنه تحرج من أخذها من إخوته، أو خشي أن يضر

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٥٠)، «مجاني الأدب» (٤/ ٩٤).

بهم ذلك، وقيل غير ذلك، وعلى أكثر هذه التقادير ففيه احتيال منه لمصلحة، وهي رجوعهم إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾، أي: منع منا الكيل في المستقبل إذا لم نأت بأخينا بنيامين، أي: أنذرنا بعدم الكيل لنا إذا لم نأت به؛ ولهذا قالوا:

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بالياء: «يكتل»، أي: هو، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نَكۡتَلۡ﴾، أي: نكتل جميعًا، أي: يكون إرساله معنا سببًا في حصول الكيل لنا جميعًا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أكدوا حفظهم له بحرف التوكيد «إن»، وبتقديم الخبر، ولام التوكيد، وكون الجملة اسمية، أي: وإنا له لحافظون من أن يعرض له ما يكره، أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: ١٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: ٦٤].

قوله: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ﴾، أي: قال أبوهم: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ﴾، الاستفهام إنكاري فيه معنى النفي، أي: ما ائتماني لكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل، ففرطتم فيه، ولم تفوا بما التزمتم به من حفظه، أو ما أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، غيبتموه عني، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ بألف بعد الحاء وكسر التاء، وقرأ الباقون بكسر الحاء وإسكان الفاء من غير ألف: «حِفْظًا»، أي: فلا أثق بالتزامكم بحفظه، وإنما ثقتي بالله تعالى وحده، فأفوض أمري إليه ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾، أي: فهو خير حافظ سبحانه وتعالى.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، أي: وهو سبحانه أعظم الراحمين وأشدهم رحمة، أرحم من الوالدة بولدها، فأرجو أن يرحمني وإياه ويحفظه، وفي هذا إيذان بميله إلى إرساله معهم؛ تغليبًا للمصلحة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾، أي: وحين فتحوا أوعية طعامهم الذي اشتروه من مصر.

﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾، أي: وجدوا دراهمهم التي دفعوها ثمنًا للطعام.

﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: أرجعت إليهم، ووضعت في متاعهم ورحالهم؛ لقول يوسف لفتيانه: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ الآية.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾، أي: قالوا لأبيهم ترغيبًا في إرسال أخيهم معهم ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ «ما» للاستفهام الإنكاري والنفي، أي: أي شيء نطلب أكثر من هذا، أو بعد هذا الإكرام الجميل؛ حيث أكرم وفادتنا، وأحسن مثوانا بإنزالنا عنده، ووفى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا، فلا مزيد على هذا.

﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا﴾، أي: الثمن الذي دفعناه، ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، أي: أرجعت إلينا، وهذا يدل على أنهم عرفوا أن يوسف ردها إليهم بالقصد، وأراد أن يملكهم إياها.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: ونأتي بالميرة والطعام لأهلنا إذا أرسلته معنا.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فلا يناله سوء ولا مكروه، ولا شيء مما تخافه.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، أي: ونزداد حمل بعير باستصحاب أخانا معنا؛ وذلك لأن يوسف يعطي كل رجل حمل بعير، فتكون أحمالهم بعد أن كانت عشرة، تكون أحد عشر حملًا.

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، أي: ذهابنا للكيل يسير، أي: سهل قصير المدة بدون حبس أو تأخير، أو الكيل لنا يسير سهل على الملك؛ لسخائه وكرمه، أو الذي يكال لنا دون

أخينا كيل يسير فنتكثر بكيله.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾، أي: قال يعقوب عليه السلام لأبنائه لن أرسله معكم، أي: لن أرسل بنيامين معكم.

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ «حتى» لانتهاء الغاية، أي: إلى غاية أن تعطوني عهدًا ويمينًا مؤكدًا بالحلف بالله.

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ اللام واقعة في جواب قسم محذوف، أي: والله لتأتنني به.

﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ «إلا» أداة استثناء، أي: إلا أن يحيط بكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون على دفعه.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾، أي: فلما أعطوه موثقهم، أي: عهدهم المؤكد بالحلف بالله.

﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هذا توكيد للحلف، وتذكير لهم بأن الله رقيب على ما وقع بينهم، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله على الذي نقوله؛ أو على قولنا شهيد رقيب، والقصد حثهم على الوفاء بميثاقهم، وعدم نقضه بتخويفهم بالله ورقابته على الجميع ومجازاته لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾، أي: وقال يعقوب عليه السلام لبنيه وهو يودعهم مع أخيهم بنيامين قبيل مسيرهم إلى مصر؛ شفقة منه عليهم: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ ﴾، أي: لا تدخلوا كلكم مصر من باب واحد، ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ توكيد وبيان لما قبله، أي: وادخلوا من أبواب متعددة، أي: ليس من باب واحد ولا بابين، وإنما من أبواب متعددة كثيرة، وكلما تفرقت الأبواب وتعددت فهو أولى، حتى لو دخل كل واحد من باب كان أولى وأحسن؛ وذلك لأنه خشي عليهم من العين؛ لما منحهم الله من الوسامة والجمال

والكمال والبهاء والهيئة الحسنة، ولكثرتهم وهم أبناء رجل واحد.

وقيل: خشي أن يستلفت دخولهم من باب واحد أنظار الجند ومن يعس للحاكم.

﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ «من» زائدة إعرابًا، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: لا أجزي ولا أدفع عنكم بوصيتي هذه لكم أي شيء مما قضاه الله وقدره عليكم؛ فإن الحذر لا ينجي من القدر، والمقدر واقع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال الشاعر:

وإذا حذرت من الأمور مقدرًا ... وفررت منه فنحوه تتوجه(١)

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ تعليل لما قبله، «إن»: نافية بمعنى «ما»، «إلا»: أداة حصر، أي: ما الحكم والتصرف والتقدير إلا لله وحده، فله عز وجل الحكم الكوني- وهو المراد بهذه الآية- كما أن له الحكم الشرعي والحكم الجزائي، لا يشاركه في ذلك أحد، ولا يمانعه شيء، فلا يتم إلا ما أراده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣].

وفي هذا تعليم لهم الاعتماد على الله وتوفيقه ولطفه، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ كما قال ﷺ: «**اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له**»(٢).

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت وفوضت أمري.

فعلى العبد أن يتطلب الأمور من أسبابها، وفي الأثر: «**إذا أراد الله أمرًا يسر أسبابه**».

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: وعليه تعالى وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كلهم من الحاضرين وغيرهم، أي: يعتمدوا عليه ويفوضوا أمورهم إليه، فبالتوكل

---

(١) البيت لابن الرومي. انظر: «شرح كتاب الأمثال» (ص٤٥٤)، «التذكرة الحمدونية» (٧/ ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٤٩)، ومسلم في القدر (٢٦٤٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٩٤)، والترمذي في القدر (٢١٣٦)، وابن ماجه في الإيمان (٧٨)، من حديث علي رضي الله عنه.

عليه مع فعل الأسباب يحصل كل مطلوب، ويزول كل مرهوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾، أي: ولما ذهبوا إلى مصر و﴿دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾، أي: من أبواب متفرقة على الكيفية التي أمرهم بها أبوهم.

﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، أي: ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة ﴿يُغْنِى عَنْهُم﴾، أي: ما كان لينفعهم، أو يدفع عنهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ «من» في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ زائدة إعرابًا، مؤكدة لعموم النفي، أي: ما كان يغني عنهم من الله أيَّ شيء، أي: ما كان ذلك ليرد عنهم قضاء الله وقدره لو قدر الله أن يحاط بهم، لكن الله قدر سلامتهم.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن حاجة في نفس يعقوب ﴿قَضَىٰهَا﴾، أي: أبداها وأظهرها وأنفذها، شفقة على أولاده ومحبة لهم بالوصية لهم بألا يدخلوا من باب واحد، وإنما من أبواب متفرقة؛ خشية الحسد والعين، فحصل له بهذه الوصية لهم قضاء لما في خاطره، وهذا ليس لقصور في علمه عليه السلام، فهو رسول يأتيه الوحي من رب العالمين؛ ولهذا قال:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ اللام لام الابتداء للتوكيد، أي: وإنه لذو علم عظيم، وهو علم النبوة ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: لتعليمنا إياه، أو للذي علمناه إياه، أي: لذو علم وعمل بما علمناه، ولا يخفى عليه أن الحذر لا ينجي من القدر، وأن الواجب الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، وفي هذا دلالة على علو شأن يعقوب وفضيلته، وعظيم منة الله تعالى عليه، وقد أكد ذلك بـ(إن) واللام، وتنكير علم، وإسناده تعليمه إليه عز وجل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى طريق الحق، ولا يعلمون عواقب الأمور، وأن الحذر لا ينجي من القدر، وأن

الواجب الجمع بين فعل الأسباب والاعتماد على الله، لا على الأسباب، كما لا يعلمون ما منحه الله ليعقوب من العلم بوحيه عز وجل إليه.

الفوائد والأحكام:

١- مجيء إخوة يوسف، وقدومهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف طالبين الميرة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾.

٢- حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، وادخاره للغلات؛ لهذا قصده الناس من شتى الأقطار لطلب الميرة.

٣- معرفة يوسف لإخوته؛ لفراسته ونباهته، وعدم معرفتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

٤- طلبه منهم- بعد أن جهزهم بأحمالهم- الإتيان بأخيهم من أبيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ ﴿٥٩﴾﴾.

٥- تظاهر يوسف بأنه لا يعرفهم ولا يعرف أخاه بنيامين؛ لقوله ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾، ولم يقل: بأخيكم.

٦- ترغيبهم وحضهم على الإتيان بأخيهم؛ لقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

٧- عدل يوسف عليه السلام، وإيفاؤه الكيل؛ لقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾.

٨- بلوغه عليه السلام الغاية في الكرم؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وقد قال ﷺ: **«الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»**(١).

٩- مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين.

١٠- جواز امتداح الإنسان لنفسه، وثنائه عليها إذا كان ذلك لمصلحة؛ لقول يوسف: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١١- فضيلة العدل، وإيفاء الكيل، وإكرام الضيف.

١٢- ترهيب يوسف لإخوته إن لم يأتوه بأخيهم بحرمانهم الكيل، ونهيهم أن يقربوه؛ لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

١٣- تكفلهم ليوسف بمراودتهم أبا أخيهم، وفعل ما أمرهم به من الإتيان بأخيهم ما أمكنهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

١٤- تعلق يعقوب الشديد بابنه «بنيامين»؛ ولهذا احتاج إلى مراودته ومحاولة إقناعه؛ ليرسله مع إخوته.

١٥- أمر يوسف عليه السلام لفتيانه بوضع بضاعة إخوته في رحالهم؛ ترغيبًا لهم في الرجوع إليه؛ ليعرفوها فتكون سببًا لرجوعهم إلى مصر، إما وفاءً لمن أحسن إليهم، أو تحرجًا من أخذها، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وفي هذا دلالة على جواز الحيل الحسنة(١).

١٦- إخبارهم لأبيهم لما رجعوا إليه بمنع الكيل لهم مستقبلًا إلا أن يأتوا بأخيهم بنيامين، وطلبهم منه إرساله معهم؛ ليكتالوا، وتكفلهم بحفظه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

١٧- تشكيك يعقوب عليه السلام في حفظهم لأخيهم وفقدانه الثقة بهم؛ لتجرعه مرارة فعلهم بيوسف، وسوء ظنه بهم؛ لوجود قرائنه، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين(٢)، ولكن قدر الله كائن ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، ولقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ٨٣].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٣٣، ومسلم في الزهد ٢٩٩٨، وأبو داود في الأدب ٤٨٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٨- شدة ولع يعقوب عليه السلام بيوسف، وعظم معاناته بفقده، وتذكره له.

١٩- تفويض يعقوب أمره إلى الله تعالى، والتماسه الخير منه، وثقته بحفظه لابنه ورحمته له؛ لقوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٠- سعة رحمة الله تعالى وعظمها، فهو أرحم الراحمين، أرحم من الوالدة بولدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٢١- أن إخوة يوسف لما فتحوا متاعهم وجدوا دراهمهم التي اشتروا بها الطعام ردت إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾.

٢٢- استغلال أبناء يعقوب رد بضاعتهم إليهم للتأكيد على أبيهم بإرسال أخيهم معهم في إشارة إلى ما غمرهم به يوسف من الإكرام؛ حيث أنزلهم وأكرم وفادتهم، ووفى لهم بالكيل، ورد بضاعتهم إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

٢٣- بيانهم وجوه المصلحة بإرسال أخيهم معهم، من الامتيار لأهلهم، وزيادة كيل بعير، مع حفظهم لأخيهم؛ لقولهم: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

٢٤- تسهيل الأمر على أبيهم بأن ذهابهم للاكتيال يسير، مدة قصيرة ثم يرجعون؛ لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، ويحتمل أن الكيل لهم يسير؛ لكرم يوسف وسخائه، أو غير ذلك.

٢٥- امتناع يعقوب من إرسال بنيامين معهم حتى يعطوه موثقًا وعهدًا مؤكدًا بالحلف بالله أن يأتوه به، إلا في حالة أن يحيط بهم أمر لا يستطيعون دفعه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

٢٦- توكيد العهود والمواثيق بالحلف بالله تعالى.

٢٧- في الاستثناء- كما في قوله ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾- مخرج لمن تعهد عهدًا فحيل بينه وبين الوفاء به بأمر لا قبل له به.

٢٨- توكيد يعقوب لما أعطاه أولاده من الموثق والحلف، بتذكيرهم برقابة الله تعالى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

٢٩- نهي يعقوب عليه السلام لبنيه من دخول مصر من باب واحد، ووصيته لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة؛ خشية عليهم من العين، من باب فعل الأسباب؛ لكثرتهم، ولما منحهم الله من الجمال والكمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾.

٣٠- جواز استعمال الأسباب الواقية من المكاره من العين وغيرها، أو الرافعة لها بعد نزولها، مع التوكل على الله، وأنه لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر.

٣١- أنه لا ينجي حذر من قدر، وأن ما قدره الله كائن لا محالة، ولا يمكن دفعه ولا منعه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾، أي: لا أستطيع أن أدفع عنكم قدر الله إن قدَّر الله عليكم مكروهًا، وإنما آمركم بفعل السبب.

٣٢- أن لله تعالى وحده الحكم الكوني والتصرف والتقدير، فما حكم به وقدره وقع؛ لقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ كما أن له عز وجل الحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

٣٣- احتراز يعقوب عليه السلام بعد أن أمر بنيه بفعل السبب من الاعتماد على ذلك، والتصريح باعتماده على الله؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾.

٣٤- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾.

٣٥- التزام أبناء يعقوب بوصيته لهم، ودخولهم من أبواب متفرقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾.

٣٦- أن دخولهم من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء، لا نفعًا ولا دفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾.

٣٧- أن وصية يعقوب لأبنائه بعدم الدخول من باب واحد، وأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة، مجرد حاجة في نفسه أبداها وأنفذها؛ شفقة عليهم، وهو يعلم أنه لا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾.

٣٨- أن العين حق؛ كما قال ﷺ: «العين حق»(١)، وتأثيرها بإذن الله عز وجل وتقديره؛ ولهذا قال يعقوب بعد وصيته لأولاده بالدخول من أبواب متفرقة خشية العين: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾، أي: إن ما قدره الله كائن لا محالة، ولا ينجي حذر من قدر، عليه اعتمدت، وإليه فوضت أمري، وعليه يجب أن يتوكل المتوكلون.

وقال في الآية الأخرى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

ومع أن العين حق فيجب الحذر مما عليه كثير من الموسوسين من ضعاف الإيمان والعقيدة، الذين يتكتمون على كل شيء مخافة العين، ويربون أولادهم على هذا المنهج الهزيل، بدل تربيتهم على التوكل على الله مع فعل الأسباب؛ حتى نشأت أجيال تخاف من العين ومن الناس أكثر مما تخاف من الله، فإذا وقع لأحدهم مكروه أو أصيب بأي مصاب من مرض أو حادث أو غير ذلك فسره بالعين.

وزاد الطين بلة وجود كثير من الدجالين والمشعوذين وبعض مفسري الأحلام وبعض القراء، الذين نذروا أوقاتهم لإفساد عقائد المسلمين، فإذا أتاهم المريض بادروا بالقول: أنت مصاب بالعين، أو مسحور، أو فيك مس من الجن، رجمًا بالغيب، فأدخلوه في بلبلة وحيرة ودوامة لا يمكنه الخروج منها، بدلًا أن يقولوا له: أبشر بالخير وسيشفيك الله عز وجل، فأكثِرْ من ذكر الله تعالى وقراءة القرآن والطاعات، واحرص على الأوراد اليومية، واقرأ على نفسك وعند من تثق بدينه وأمانته، وراجع الطبيب، ونحو ذلك.

وبهذا اهتزت كثير من عقائد المسلمين، وضعف توكلهم واعتمادهم على الله، وانتابت كثيرًا منهم المخاوف من العين والسحر والجن.

٣٩- فضيلة يعقوب عليه السلام، وأنه ذو منزلة عظيمة من العلم؛ لتعليم الله تعالى إياه بوحيه عز وجل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٤٠، ومسلم في السلام ٢١٨٧، وأبو داود في الطب ٣٨٧٩، وابن ماجه في الطب ٣٥٠٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤٠- أن كثيرًا من الناس لا يعلمون العلم الذي به يهتدون إلى الحق، ولا يعلمون عواقب الأمور، وأن الحذر لا ينجي من القدر، وأنه لا بد من الجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله، كما لا يعلمون عظم منزلة يعقوب في العلم، وما منحه الله تعالى من العلم بوحيه عز وجل إليه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، أي: ولما دخل إخوة يوسف عليه، ومعهم شقيقه بنيامين.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾، أي: ضم إليه أخاه وشقيقه بنيامين، وقربه إليه، واختلى به.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ ﴾، أي: قال لأخيه بنيامين مسرًّا له: أنا أخوك يوسف: وأطلعه على شأنه وما جرى له، وقد أكد مقالته هذه بـ «إن» وضمير الفصل «أنا» الذي يفيد القصر، وبكون الجملة اسمية.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، أي: لا تغتمَّ ولا تأسف ولا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فلا تبتئس بالذي كانوا يعملونه، أو لا تبتئس بعملهم؛ فإن العاقبة لنا، وأمره ألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وأطلعه على أنه سيحتال إلى أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا.

ولعل يوسف عليه السلام في احتياله في الظاهر على أخذ أخيه عنده- مع ما في ذلك

من مرارة على أبيه وتجديد حزنه على يوسف- لعله خاف على أخيه أن يتأثر بما عليه إخوته مما ينبغي ألا يكون، أو يؤذونه كما آذوا يوسف من قبل، مع التمهيد والتقديم لمجيء أبيهم وأهلهم أجمعين؛ ولهذا قال لأخيه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: فلما جهز يوسف عليه السلام إخوته بجهازهم، أي: كال لكل واحد منهم وأعطاه حمل بعيره من الطعام.

﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ وهي: إناء فضة، وقيل: من ذهب، كان الملك يشرب فيه، ويكيل للناس به، وهو صواع الملك؛ كما دل عليه قوله: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾.

﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾، أي: في حمل أخيه بنيامين ومتاعه، وكان هذا على ما قيل: بمواطأة بينه وبين أخيه ورضا منه بذلك، وهو في الظاهر حيلة حسنة على إخوته ليأخذ أخاه بنيامين، وهي الحيلة الثانية، وقبلها حيلته في وضع بضاعتهم في رحالهم؛ ليرجعوا إليه.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، أي: ثم لما انطلقوا ذاهبين نادى مناد؛ لأنهم لو لم يذهبوا ما احتاج إلى الأذان والمناداة لهم.

﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ يا أيتها العير، والعير: القافلة من إبل وحمير عليها الأحمال والركاب.

﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أكد هذا بـ «إن» ولام الابتداء، وكيف يقال هذا ويؤكد، وهم لم يسرقوا، بل كان وضع الصواع في رحل أخيه كان بمواطأة بينه وبين أخيه؟

قيل: إن المنادي هو الذي قال ذلك، ولم يأمره يوسف، أو هذا من باب المعاريض، وأن يوسف هو الذي أمر بذلك، وهو يقصد أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع، وقيل غير ذلك.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، أي: قال إخوة يوسف وأقبلوا على المنادي؛ لإزالة التهمة التي رُموا بها، ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، أي: ما الذي تفقدونه؟ ولم يقولوا: ما الذي سرقنا؟ لجزمهم أنهم براء من السرقة.

﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، أي: صاعه الذي يكيل به للناس.

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾، أي: وللذي يأتي به، أي: بهذا الصواع.

﴿حِمۡلُ بَعِيرٍ﴾، أي: حمل بعير من الطعام جعالة وأجرة له.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، أي: وأنا بحمل البعير لمن جاء بالصواع ضامن وكفيل، وهذا يقوله المتفقد للصواع.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾.

أي: قال إخوة يوسف لفتيانه الذين اتهموهم بسرقة الصواع:

﴿تَٱللَّهِ﴾؛ التاء حرف قسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء والتاء.

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لقد علمتم.

﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ «ما» نافية واللام للتعليل، أي: ما جئنا لأجل الإفساد في الأرض؛ يعنون أرض مصر، والجملة في محل نصب مفعول به لفعل العلم المعلق بالنفي.

﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ الجملة في محل نصب عطفًا على جملة ﴿مَّا جِئۡنَا﴾، أي: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، وعلمتم ما كنا سارقين.

فأقسموا على علم من اتهموهم أنهم ما جاؤوا للإفساد في الأرض، وما كانوا سارقين؛ لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم وسيرتهم الحسنة ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة من أن لو قالوا: تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾.

أي: قال الفتيان لإخوة يوسف؛ ليحكِّموهم في أنفسهم ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، أي: فما جزاء السارق؟ أو فما جزاء هذا الفعل؟ أي: ما عقوبته عندكم وفي دينكم ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، أي: إن تبين كذبكم بوجود الصواع في رحالكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾ لثقتهم ببراءتهم ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾، أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله رقيقًا للمسروق منه مملوكًا له.

﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ هذا تقرير وتأكيد لقولهم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾.

فهذا في دينهم، أي: في شريعة يعقوب عليه السلام أن السارق يكون ملكًا لصاحب المال المسروق، وهكذا كان في شريعة إبراهيم عليه السلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء نجزي الظالمين بالسرقة في ديننا وحكم قومنا، وفيه تأكيد لما قبله.

وهذا الذي أراده يوسف في جعله السقاية في رحل أخيه؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ تورية كما في الآية الآتية.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، أي: فبدأ بتفتيش أوعيتهم، قبل وعاء أخيه وشقيقه بنيامين؛ توريةً وإبعادًا للتهمة والريبة؛ لئلا يظن أنها فعلت بالقصد.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾، أي: ثم لما لم يجد في أوعيتهم شيئًا ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾، أي: استخرج السقاية من وعاء أخيه.

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾، أي: دبرنا ليوسف وألهمناه هذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع في رحل أخيه، واستنطاق إخوته بالحكم على أنفسهم بقولهم: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

ومن ثم تفتيشه لأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ توريةً وإبعادًا للتهمة، ثم استخرجها من وعاء أخيه، فتوصل إلى مقصوده بأخذ أخيه عنده بأمر غير مذموم، بل بحيلة حسنة، وكان عليه السلام يعرف ذلك من شريعتهم.

قال ابن القيم: «المكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله

إلى مستحقه عقوبةً له، فالأول مذموم، والثاني ممدوح»(١).

فمن الثاني كيده عز وجل ليوسف وتدبيره عز وجل الخفي له للتوصل لأخذ أخيه، ومن الأول المذموم كيد إخوته له في التفريق بينه وبين أبيه، وكيد امرأة العزيز بما أظهرت أنه راودها عن نفسها، وكذا كيد النسوة حتى استعاذ بالله من كيدهن وآثر السجن على ما يدعونه إليه؛ قال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ٥﴾ [يوسف: ٥]، وقال العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾، وقال يوسف لرسول الملك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾.

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ما كان يوسف ليأخذ أخاه وشقيقه بنيامين ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، أي: في حكم ملك مصر وشرعه وقضائه؛ لأنه ليس في دين الملك وحكمه أخذ السارق وتمليكه للمسروق منه، وإنما فيه على ما قيل ضرب السارق وتغريمه ما سرق مرتين، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده.

وقيل: ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، أي: حكمه، وهو استرقاق السراق.

فالمعنى: ما كان يوسف ليأخذ أخاه في دين الملك لولا حيلة وضع الصواع في متاع أخيه.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن إن يشأ الله يأخذه بطريق آخر.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ قرأ يعقوب بالياء: «يرفع»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نَرۡفَعُ﴾، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي وخلف بتنوين: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾، وقرأ الباقون «درجاتِ» بإضافة درجات إلى ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾.

أي: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾، أي: رتب ومنازل ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾، أي: الذي نشاء من عبادنا بالعلم النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقاصدها، كما رفعنا يوسف عليه السلام

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٦٠.

بذلك درجات، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، أي: وفوق كل صاحب علم ﴿عَلِيمٌ﴾ أعلم منه، أي: فكل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: قال إخوة يوسف لما رأوا الصواع استخرج من وعاء بنيامين؛ انتهازًا للوقيعة بأخيه يوسف عليه السلام: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأنه لا يستغرب من بنيامين أن يسرق، فقد سرق أخوه وشقيقه يوسف من قبل، أي: إنه محل للسرقة؛ لأن أخاه وشقيقه يوسف قد سرق من قبله، وهذا قياس فاسد، وفيه من الغض من شأنهما ما لا يخفى؛ ولهذا قال:

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ يجوز عود الضمير إلى مقالتهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ والمعنى: تحملها يوسف في نفسه.

﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾، أي: ولم يظهرها لهم، بل كظم الغيظ وأسر الأمر في نفسه، ولم يظهر غضبًا منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم، مع أنها طعن فيه، وكذب عليه. ويجوز عود الضمير إلى قوله بعد ذلك:

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، أي: قال في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أي: أنتم أشر مكانًا، و«مكانًا» تمييز، وأطلق المكان على الحالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ على مكانتكم﴾ [الأنعام: ١٣٥، الزمر: ٣٩].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، أي: بالذي تذكرون من وصفنا بالسرقة، وأعلم بأنكم كاذبون، وأنا براء منها، وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وهو من باب الإضمار قبل الذكر وهو كثير، قال الشاعر:

جـزى بنـوه أبـا الغـيلان عـن كـبر وحسـن فعـل كـما يجـزى سـنمارُ(١)

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ لما تعين أخذ بنيامين، وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى حكمهم واعترافهم على أنفسهم أخذوا يترققون له ويعطفونه عليهم.

قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، أي: قالوا مستعطفين ليوسف: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ ﴾، أي: لأخينا بنيامين ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ لا يصبر عنه، ويشق عليه فراقه؛ لصغره وشدة محبته له، وتسليه به عن ولده الذي فقده، يُرحم لأبوته وشيخوخته، وبلوغه في الكبر منتهاه، حتى صار إلى حال لا يقبل، بل لا يسمع عذرًا من معتذر، فتوسلوا بأبيه وشيخوخته وكبره.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾، أي: خذ أحدنا بدلًا وعوضًا عنه.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لإجابة المطلوب، أي: لأنا نراك من المحسنين إلينا وإلى غيرنا، فأتمم إحسانك إلينا بالإحسان لنا ولأبينا في أخذ أحدنا مكان أخينا.

﴿قَالَ ﴾، أي: قال يوسف ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾، أي: نعوذ بالله ونعتصم به.

﴿أَن نَّأْخُذَ ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن نأخذ، أو بأن نأخذ.

﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ «إلا» أداة حصر، و«من» موصولة، أي: إلا الذي وجدنا متاعنا عنده، أي: إلا الذي وجدنا صواعنا عنده؛ يعني بنيامين، ولم يقل: إلا من سرق؛ تحرزًا من الكذب، وتحريًا للصدق، فالمتاع موجود عنده حقًّا، لكنه ليس بسارق، وهذا من أحسن المعاريض.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأنا إن أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده

---

(١) البيت لسليط بن سعد. انظر: «الأغاني» (٢/ ١٣٨)، «خزانة الأدب» (١/ ٢٩٤).

﴿إِذًا﴾، أي: إنا والحالة هذه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن أخذنا بريئًا بمتَّهَمٍ؛ لأنه لا يجوز أن يؤخذ أحد بجرم غيره.

الفوائد والأحكام:

١- إيواء يوسف عليه السلام لأخيه وشقيقه بنيامين لما دخل عليه بصحبة إخوته، وضمه إليه، واختلاؤه به، والإسرار له بأنه أخوه؛ تأنيسًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢- إسرار يوسف لأخيه وشقيقه بنيامين؛ طمأنةً له وتسليةً بألَّا ييتئس ولا يغتم، ولا يحزن بما يعمله إخوته مما لا ينبغي كما فعلوا به وبأبيهم، فإن العاقبة للمتقين؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

ولعل هذا مما حمل يوسف على طلبه منهم الإتيان بأخيهم والاحتيال حسب الظاهر على أخذه عنده؛ مع ما في ذلك من المرارة على أبيه وتجديد حزن فَقْدِ يوسف في نفسه، وذلك خشية من يوسف أن يتأثر أخوه بهم، أو يؤذوه كما آذوا أباهم ويوسف من قبل، وعلى أمل الإتيان بأبيهم وأهلهم أجمعين.

٣- تجهيز يوسف لإخوته بجهازهم وحمولتهم من الميرة والطعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾.

٤- وضع السقاية في رحل أخيه حيلة في الظاهر لأخذه عنده؛ لقوله تعالى ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾، وهذا يدل على جواز الحيلة للتوصل إلى المباح واستخراج الحقوق.

٥- المناداة عليهم بعد شروعهم في الذهاب لأهلهم بالسرقة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٦- إقبالهم على المنادي مسرعين، وسؤالهم عن المفقود؛ لعلمهم ببراءتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

٧- أن هذا المفقود هو سقاية الملك التي يشرب بها، وصواعه الذي يكيل فيه، لقوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾، وقوله: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾.

٨- التكفل والضمان لمن أتى بالصواع بحمل بعير من الطعام جعالةً له؛ لقوله:

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾، فهذه الآية أصل في الجعالة والضمان والكفالة.

٩- إقسام إخوة يوسف على علم من اتهموهم بالصواع بأنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرض، وما كانوا سارقين؛ لتحققهم من براءتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

١٠- سؤال يوسف وفتيانه لإخوته عن جزاء السارق عندهم؛ ليلزموهم بحكمهم على أنفسهم إن كانوا كاذبين، وذلك حسب الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

١١- حكم إخوة يوسف واعترافهم على أنفسهم أن جزاء السارق: هو أن يكون السارق نفسه ملكًا للمسروق منه، كما هو في شريعة يعقوب، وتأكيدهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

١٢- أن السرقة ظلم للمسروق منه، يستحق مرتكبها أن يوصف بالظلم، ويحسب في عداد الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

١٣- البداءة بتفتيش أوعية إخوة يوسف قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين؛ إبعادًا لتهمة التواطؤ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

١٤- استخراج الصواع من وعاء أخيه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

١٥- أن وجود المسروق في حوزة السارق أصدق من البينة، فهو بينة لا تلحقها التهمة.

١٦- كيد الله ليوسف عليه السلام، وتدبيره عز وجل الخفي له في الكيفية التي توصل بها إلى إتيان إخوته بأخيه بنيامين، وأخذه عنده بحكم إخوته واعترافهم على أنفسهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

١٧- جواز استعمال المكائد والحيل التي يتوصل بها لاستخراج الحقوق، وأن الممنوع منه التحيل لإسقاط واجب، أو فعل محرم.

١٨- أنه ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في شرع الملك؛ لأن شرع الملك لا يعاقب

السارق بتمليكه للمسروق منه، وإنما كان هذا الحكم في شريعة يعقوب وأولاده، ولهذا سأل يوسف إخوته عن جزاء السارق عندهم فقالوا: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾، فحكموا بهذا واعترفوا به على أنفسهم، فألزمهم بهذا الحكم، واستبقى أخاه عنده؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾.

ويحتمل كما سبق أن المعنى: ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين الملك، لولا أنه احتال بوضع الصواع في رحل أخيه.

١٩- أن يوسف من عدله وحكمته ما كان يتجاوز شريعة الملك، أو ما ثبت في شريعة يعقوب، وإلا لاسْتَبَدَّ بما شاء؛ ولهذا احتال بوضع الصواع في رحل أخيه؛ ليتوصل بذلك إلى أخذ أخيه، سواء كان ذلك في شرع يعقوب أو في شرع الملك.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾.

٢١- رفع الله عز وجل درجات ومراتب من يشاء من عباده بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى المقاصد الحسنة، كما رفع عز وجل بذلك يوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾.

٢٢- أن فوق كل ذي علم من هو أعلم منه، إلى أن ينتهي العلم إلى علام الغيوب العليم الخبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

٢٣- انتهاز إخوة يوسف ما حصل من استخراج الصواع من وعاء بنيامين للوقيعة في يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعنون يوسف عليه السلام.

٢٤- تحمُّلُ يوسف عليه السلام هذه المقالة من إخوته بوصفه بالسرقة وإسرارها في نفسه، وكظم غيظه، والإعراض عن زجرهم وعقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾.

ويحتمل أن المعنى: أنه أسر هذه المقالة: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾، أي: أنتم شر مكانًا وحالة مما تصفوننا به من السرقة.

٢٥- تهديده لهم وتوعدهم بأن الله أعلم بما يصفون ويذكرون، وأنه كذب وزور، وسوف يحاسبهم الله ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

٢٦- استعطافهم يوسف ليرد إليهم أخاهم ويأخذ أحدهم مكانه؛ رحمة بأبيهم وشيخوخته وكبره؛ وإحسانًا إليهم وإلى أبيهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٧- عراقة يوسف وشهرته بوصف الإحسان؛ لقول إخوته: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾، وقبله قال له صاحبا السجن: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

٢٨- امتناع يوسف من أخذ أحدهم مكان بنيامين، واستعاذته بالله من أخذ غير من وجد متاعهم عنده، فيكون بذلك من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾، أي: فلما استيأس إخوة يوسف، أي: يئسوا من يوسف أن يأخذ أحدهم مكان أخيه بنيامين، ويسمح له بالرجوع معهم، أو يئسوا من أخيهم بنيامين، أي: من تخليصه ليرجع معهم كما التزموا بذلك لأبيهم، والسين والتاء فيه للمبالغة، أي: لما بلغ بهم اليأس منتهاه.

﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾، أي: اجتمعوا وانفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم ويتشاورون: ما الحل؟ ما المخرج من هذه الورطة؟ ماذا نقول لأبينا وقد غلبنا على أمرنا في أخذ أخينا؟

والتناجي: المحادثة سرًّا بين اثنين فأكثر.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، أي: أكبرهم سنًّا، وهو «روبيل»، ويقال: «رؤبين»، وهو الذي نهاهم أن يقتلوه، وأشار عليهم بإلقائه في غيابة الجب.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام للتقرير، وهذا تذكير منه لهم، أي: ألم تعلموا وتذكروا أن أباكم قد أخذ عليكم ﴿مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: عهدًا مؤكدًا موثقًا بالحلف بالله بأن تأتوا بأخيكم إلا أن يحاط بكم، وهو المذكور في

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ هذه الجملة معترضة بين جملة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ وجملة ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أي: ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف، فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم السابق في يوسف، وعدم إتيانكم بأخيه اللاحق، وقد أخذ أبوكم عليكم موثقًا بأن تأتوه به إلا أن يحاط بكم، وسينكأ هذا المصاب الجديد في بنيامين في قلب أبيكم المصاب الدفين في يوسف.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أي: فلن أفارق هذه الأرض- أرض مصر- فليس لي وجه أواجه به أبي بعد أن جمعنا عليه هاتين المصيبتين.

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾، أي: إلى غاية أن يأذن لي أبي بالرجوع إليه، راضيًا عني.

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، أي: أو يحكم الله لي حكمًا قدريًّا بالخروج من مصر والمجيء وحدي، أو بتخليص أخي بسبب ما، والمجيء به معي.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، له الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين: ٨].

قوله تعالى: ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

قوله: ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ﴾، أي: ارجعوا فأخبروه بحقيقة ما جرى، ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، أي: نُسب إليه سرقة صواع الملك وأخذ بسرقته، فلم نتمكن من الإتيان به مع ما بذلنا من الجهد في ذلك.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ الواو حالية، أي: والحال أنا ما شهدنا عليه بالسرقة إلا بالذي علمناه وتيقناه من استخراج الصواع من رحله.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾: احتراس من تحقق كونه سرق، والغيب: الأحوال

الغائبة عن المرء، والحفظ: العلم.

ويحتمل أن يكون المعنى: لو كنا نعلم بما سيجري لما حرصنا على ذهابه معنا، ولما أعطيناك الموثق على الإتيان به، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾، أي: واسأل- إن شككت بأمرنا- أهل القرية- مصر- يخبروك بما جرى.

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، أي: واسأل أيضًا القافلة التي أقبلنا فيها ورفقتنا الذين جئنا معهم عما جرى يخبروك بالحقيقة.

﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ الواو عاطفة، و«إن» واللام للتوكيد، أي: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به من أن أخانا سرق وأخذوه بسرقته.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾، أي: قال لهم كما قال حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾، والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قاله لهم أخوهم، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾، أي: زينت وسهلت لكم أنفسكم، ﴿أَمْرًا ۖ﴾: نكر للتعظيم، أي: أمرًا منكرًا عظيمًا خطيرًا، فاتهمهم في هذه القضية كما اتهمهم في الأولى.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾، أي: اشتد حزنه وتضاعف كَمَدُه، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾، أي: ألجأ في هذا المصاب والخطب الجلل إلى الصبر الجميل، والصبر الجميل: الذي لا جزع معه ولا تسخط ولا شكوى إلى غير الله تعالى.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾: تجلَّدَ بالصبر الجميل، ثم أتبعه بالرجاء من الله أن يأتيه بهم جميعًا، أي: بأولاده الثلاثة: يوسف، وبنيامين، وروبيل أكبرهم الذي جلس في مصر ينتظر إذن أبيه له بالرجوع، أو حكم الله له.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأنه هو العليم بحالي واحتياجي إلى تفريجه ومِنَّته، واضطراري إلى إحسانه.

و«العليم» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما حكم وقدر وقضى، وفيما شرع وأمر ونهى، جعل لكل شيء قدرًا، ولكل أمر منتهًى.

و«الحكيم» من أسمائه عز وجل، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن بنيه؛ كراهةً لما جاؤوا به، وانصرف عنهم بعد المحاورة انصراف غضب.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: اشتد به الأسى والحزن، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: يا حزناه على يوسف، والأسف: أشد الحزن والحسرة على ما فات، فجدد له حزن الابنين الحزن الدفين.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾، أي: ذهب سوادهما، وضعف بصرهما من الحزن وكثرة البكاء.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: شديد الحزن والغيظ والكمد، مع الكتمان لذلك، لا يشكو حاله لمخلوق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

لما قال أبوهم بعد أن تولى وأعرض عنهم: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل: وقد قالها في خلوته، لكنهم سمعوها فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾، أي: قال أبناء يعقوب له لما سمعوه يتأسف على يوسف لوماً له، وتعجبًا منه وشفقة عليه: ﴿تَٱللَّهِ﴾ التاء حرف قسم، والمعنى: والله.

﴿تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تزال ولا تبرح تذكر يوسف، أو لا تفتر تذكر يوسف، وهو جواب القسم.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، أي: حتى تكون مريضًا ضعيفًا مُشْفيًا على الهلاك والموت.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، أي: من الميتين إن استمر بك هذا الحال.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال يعقوب عليه السلام لما تعجبوا من ذكره يوسف ولاموه على ذلك.

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: «إنما» أداة حصر، أي: لا أشكو بثي وحزني إلا إلى الله وحده، والبث: الهم الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء، والحزن: الأسف الشديد والتحسر على فائتٍ، أي: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾، أي: همي، أي: ما أنا فيه من الهم الشديد، وما أبثه من الكلام. ﴿وَحُزْنِي﴾، أي: أسفي، أي: ما أنا فيه من الأسف الشديد. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، أي: إلى الله تعالى وحده، ملتجئًا إليه دون سواه، فهو الذي يسمع النجوى، ويعلم الشكوى، ويكشف الضر، ويرفع البلوى.

قال المتنبي(١):

لا تشكون لمخلوق فتورثه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرَّخَمِ

وقال الآخر:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ(٢)

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: وأعلم من علم الله تعالى الذي علمنيه. ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «ما» موصولة أو نكرة موصوفة، أي: الذي لا تعلمونه، أو الشيء الذي لا تعلمون، أي: أعلم أن يوسف حي، وأن رؤياه صادقة، وأننا سنخر له

---

(١) انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٦٢).

(٢) البيت ينسب للشافعي، وينسب لزين العابدين. انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢/ ٢٧٤).

ساجدين، وأن الله سيرده هو وأخويه علي، ويقر عيني بالاجتماع بهم.

الفوائد والأحكام:

١- اجتماع إخوة يوسف منفردين للتناجي فيما يفعلون، وماذا يقولون لأبيهم لما يئسوا من يوسف أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم بنيامين، ويئسوا من أخذه معهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾.

٢- حاجة من يعنيهم الأمر في أي مشكلة أو عمل يهمهم إلى الانفراد والتشاور فيما بينهم للخروج من تلك المشكلة أو القيام بذلك العمل؛ قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]؛ قال الشاعر:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأيُ الفردِ يشقيها(١)

٣- تذكير كبيرهم لهم بما أخذه أبوهم عليهم من موثق من الله ليأتينه بأخيهم، وبتفريطهم قبل ذلك في يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴿٨٠﴾﴾.

٤- أن هذا الأخ الكبير من إخوة يوسف كان أعدلهم رأيًا، وأقربهم للإنصاف، وأوفاهم للعهد، وأرحمهم بأبيه وأخويه.

٥- إصرار هذا الأخ الكبير على البقاء في أرض مصر؛ تحرجًا من مواجهة أبيه وليس معه أخوه، حتى يأذن له أبوه في المجيء، أو يحكم الله له بتخليص أخيه أو غير ذلك؛ لقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾.

٦- وجوب تسليم الأمر الله تعالى وحكمه الكوني؛ لقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾.

٧- أن الله عز وجل هو خير الحاكمين قدرًا وشرعًا وجزاء، لقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

٨- وصية هذا الأخ وأمره لإخوته بالرجوع إلى أبيهم وحكاية الواقع له؛ لقوله: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴿٨١﴾﴾.

٩- ينبغي أن تكون الشهادة موافقة للواقع وبما يعلمه الشخص تمامًا؛ لقوله:

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» (ص٩٠)، «صيد الأفكار» (٢/ ٢٧).

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، فلا يجوز أن يشهد الإنسان إلا بما علم.

١٠- أن الغيب وما في طي القدر لا يعلمه إلا الله، لقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

١١- إبداء إخوة يوسف حسن النية، وأنهم لو علموا بما سيحصل لهم من أخذ أخيهم ما ألحوا على أبيهم بالذهاب به، وما أعطوه الموثق من الله على الإتيان به.

١٢- طلبهم من أبيهم سؤال أهل القرية ورفقتهم في الطريق، وتأكيدهم صدقهم؛ لقولهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

١٣- عدم اقتناع يعقوب عليه السلام بقولهم؛ لما جرب منهم في أمر يوسف، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ ﴿٨٣﴾﴾.

١٤- أن مصاب يعقوب ببنيامين وأخيه نكأ عنده الجرح الدفين في يوسف؛ لقوله في هذا المقام ما قاله في المقام الأول يوم فجع بيوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾ الآية.

١٥- تجلُّد يعقوب في المصابين جميعًا بالصبر الجميل؛ لقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾.

١٦- قوة رجاء يعقوب بالله وتعلقه به، ودعاؤه برَدِّ أولاده جميعًا؛ لقوله عليه السلام: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾.

١٧- تعليله قوة هذا الرجاء بالثناء على الله بإثبات واسع علمه، وتمام حكمه، وبالغ حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

١٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العليم» و«الحكيم»، وما يؤخذ منهما من إثبات صفة العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

١٩- تولي يعقوب وإعراضه عن بنيه إعراض غضب بعد المحاورة لهم لما جاؤوا به مما لا يسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾.

٢٠- شدة أسفه عليه السلام وتجدد حزنه الدفين على يوسف بسبب مصابه بأخويه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

٢١- ابيضاض عيني يعقوب وضعف بصرهما؛ من شدة الحزن وكثرة البكاء على

يوسف وأخويه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴿٨٤﴾﴾.

٢٢- جواز الحزن والبكاء عند المصيبة، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾.

وقد بكى ﷺ وحزن على ابنه إبراهيم لما مات، وقال ﷺ: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(١).

٢٣- كظم يعقوب ما في قلبه من الأسى والحزن والكمد والغيظ وكتمانه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾.

٢٤- تعجب أبناء يعقوب من كثرة تذكره ليوسف، ولومهم له، وإشفاقهم عليه من الضعف أو الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

٢٥- إعلام يعقوب عليه السلام لبنيه أنه إنما يشكو بثه وهمه وحزنه إلى الله تعالى وحده لا إلى غيره؛ لقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴿٨٦﴾﴾.

والشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى الخلق.

٢٦- علمه عليه السلام مما علمه الله ما لا يعلمونه من أن الله سيرد إليه أبناءه ويجمعه بهم، وغير ذلك مما علمه الله؛ لقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، قول النبي ﷺ: «**وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» ١٣٠٣، ومسلم في الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال ٢٣١٥، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٦؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

هذه الآية كالتفسير والبيان لقوله قبلها: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التحسس: شدة الطلب والتعرف، وهو أعم من التجسس، الذي هو التطلب مع اختفاء وتستُّرٍ.

والمعنى: ارحلوا إلى مصر، وتطلبوا خبر يوسف وأخيه، أي: استعلموا واستقصوا الأخبار عنهما بحواسكم.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾، أي: لا تقطعوا رجاءكم وأملكم من الله تعالى وفرجه ورحمته، وأن يرد يوسف وأخاه، فهو عز وجل خير مرجُوٍّ وأعظم مأمول، لمن أحسن الظن به عز وجل، وفي هذا تشجيع وبشارة لهم.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا يقطع الرجاء من روح الله ورحمته.

﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا القوم الكافرون بالله، المنكرون لقدرته على تبديل الأحوال من الشدة إلى الرخاء، ومن العسر إلى اليسر، المستبعدون لرحمته، وهي بعيدة عنهم؛ لكفرهم، قريبة من المؤمنين المحسنين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

وفي الإظهار مكان الإضمار في قوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل «منه» تأكيد لذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾، أي: فلما دخل إخوة يوسف عليه بعد قدومهم لمصر للمرة الثالثة.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾، أي: في ملكه ومكانته.

﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، أي: أصابنا وأهلنا القحط والجدب الذي أضرَّ بنا.

﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾، أي: بدراهم قليلةٍ حقيرةٍ، وهذا منهم تذلُّلٌ واستجلابٌ لعطفه وحنانه وإحسانه.

﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾، أي: فتمم لنا الكيل، واجعله وافياً، وتجاوز عن كون بضاعتنا مزجاةً قليلةً حقيرةً.

﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بالزيادة عن الواجب والإحسان إلينا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الله يجزي المتصدقين، أي: يكافئهم بمضاعفة الأجر لهم أضعافًا كثيرة، وإثابتهم أحسن المثوبة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا مصداق لقوله تعالى في أول السورة: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال يوسف لإخوته: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ الاستفهام للتوبيخ، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: هل علمتم الذي فعلتم؟ أو هل

علمتم فعلكم العظيم، وما ارتكبتموه في حق يوسف وأخيه بالأذية لهما، والتفريق بينهما وبين أبيهما؟ فيوسف معلوم ظاهر فعلهم فيه، وأخوه أيضًا فرقوا بينه وبين أبيه، وقالوا فيه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين»، أي: حين أنتم جاهلون، أي: جاهلون بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، والمراد بالجهل هنا: السفه؛ ضد الرشد، وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل على هذا المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧].

وهذا فيه توبيخ لهم لجهلهم، كما أن فيه تلويحًا لعذرهم بجهلهم، وفيه تعريض بصلاح حالهم بعد ذلك.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير: «إنك» بدون استفهام، وقرأ الباقون: ﴿أَءِنَّكَ﴾ بالاستفهام، وهو للتقرير أو الاستخبار، وفيه معنى التعجب والاستغراب من قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾؛ لأن هذا لا يعلمه إلا يوسف، وقد كانوا يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه، وهو مع ذلك يعرفهم ويكتم نفسه، وقد أكدوا كلامهم بـ «إن»، ولام الابتداء، وضمير الفصل «أنت».

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ يعني: بنيامين.

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بحفظه لنا، والخلاص مما ابتلينا به، والاجتماع بعد الفرقة، والتمكين والعزة بعد الذلة.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ تعليل لمنة الله تعالى عليهم، أي: لأنه من يتق الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ويصبر على ذلك وعلى ما يصيبه من أقدار الله المؤلمة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾، أي: لا يضيع ثوابهم وجزاءهم، بل يحفظه لهم ويثيبهم على إحسانهم بالأجر العظيم في الدنيا والآخرة، فجمع بينهما

وحفظهما بسبب تقواهما وصبرهما وإحسانهما.

فالمحسن في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى ومتابعة لشرعه؛ أجره ثابت عند الله، والمحسن إلى عباد الله محتسبًا ذلك عند الله أجره أيضًا ثابت عند الله، مع ما قد يكافئه المحسن إليه برد الجميل إليه؛ قال الشاعر:

يد المعروف خير حيث كانت ... تلقفها كفور أم شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور(١)

وفيه تعريض لإخوته للأخذ بذلك؛ ولهذا أظهر مقام الإضمار في قوله: ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل: «أجرهم» للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم، وأنه يعم كل محسن.

قال ابن كثير(٢): «والظاهر أن يوسف عليه السلام إنما تعرَّفَ إليهم بنفسه بإذن الله له في ذلك؛ كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥- ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: قال إخوة يوسف له ﴿تَٱللَّهِ﴾، أي: والله ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: لقد فضلك الله علينا واختارك، بما أعطاك من النعم الدينية من التقوى والصبر والإحسان والنبوة، على قول من يقول: إنهم ليسوا أنبياء، ومن النعم الدنيوية في التمكين في الأرض والملك.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ الخاطئ: المتعمد للخطأ، أي: وإن كنا لخاطئين آثمين

---

(١) البيتان لابن المبارك. انظر: «ديوانه» (ص١٣٩)، «بهجة المجالس» ص٦٥، ونسبا في «المحاسن والأضداد» ص٢٥ لابن أبي عائشة.

(٢) في تفسيره ٤/ ٣٣٢.

بما فعلناه بك وبأخيك وبأبينا، فاعترفوا له بالفضل والأثرة عليهم، وأقروا أنهم أخطؤوا وأساؤوا في حقه وحق أخيه، وفي حق أبيهم، وهذا نوع من التوبة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، أي: قال يوسف لإخوته لما أقروا بكونهم خاطئين؛ كرمًا منه وجودًا، وتسامحًا تامًّا منه وإحسانًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، أي: لا لوم ولا عتب عليكم، ولا تقريع ولا تأنيب.

﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاء لهم، أي: اللهم اغفر لهم، والظرف «اليوم» يجوز أن يكون متعلقًا بـ «تثريب» أو بـ «يغفر».

أي: اليوم يتجاوز الله عنكم ويستر ذنبكم، فيغفر لكم ما لي من حق عليكم لرضاي عنكم وتجاوزي عنكم، ويغفر ما له من حق أيضًا؛ لواسع رحمته؛ ولهذا قال:

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أي: أعظمهم رحمة، وما عندهم من رحمة هي من رحمته عز وجل، أرحم من الوالدة بولدها؛ كما قال ﷺ «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(١).

وبهذا جمع لهم بين ترك التثريب واللوم والعتاب وبين العفو عنهم وسؤال الله المغفرة لهم، وهذا لا يتأتى إلا من الخواص.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾، أي: قال يوسف لإخوته ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ حتى يشم رائحتي.

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾، أي: يَصِر بصيرًا بعد العمى؛ لأنه قد عمى من شدة الحزن وكثرة البكاء.

وقيل: المعنى: يأتي إلي، أي: يقدم إلي؛ لقوله: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والأظهر المعنى الأول.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٩، ومسلم في التوبة ٢٧٥٤؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال السعدي(١): «لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم، أراد أن يشمه فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر».

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وائتوني في مصر ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: بجميع أولاد يعقوب وأحفاده وأهله وتوابعهم؛ ليحصل تمام اللقاء والأنس، ويزول عنهم نكد العيش ووحشة الفرقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾، أي: ولما خرجت القافلة من أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين.

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده من أهله وحفدته وغيرهم:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، أي: إني لأشم وأتنسم رائحة يوسف، وأكد هذا بـ«إن» وبلام الابتداء؛ لأنه مظنة الإنكار؛ ولذلك أعقبه بقوله:

﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ «لولا» حرف شرط غير جازم، و«أن» حرف مصدري، ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون، والنون للوقاية، والأصل «تفندونني» وحذفت ياء المتكلم للتخفيف ومراعاة الفواصل.

والمعنى: أي: لولا أن تسفهوني وتكذبوني، وتنسبوني إلى الفند؛ وهو ضعف الرأي والعقل والتخريف؛ بسبب الهرم وكبر السن، وهكذا حصل منهم كما في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: قال من بحضرة يعقوب له ﴿تالله﴾، أي: والله ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ «إن» ولام الابتداء للتوكيد، أي: والله إنك لفي خطئك وبعدك القديم عن الصواب،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٥٦.

في إفراطك في محبة يوسف وتذكره ورجائك لقاءه بعد مرور عشرات السنين على فراقه وفقده.

قال قتادة: «قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ»(١).

الفوائد والأحكام:

١- قوة إيمان يعقوب ورجائه ربه، وحسن ظنه بالله في أن يرد إليه يوسف وأخيه؛ لأمره أبناءه بالتحسس عنهما وعدم اليأس من روح الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

٢- وجوب التعلق بالله ورجائه وانتظار فرجه، والتفاؤل وحسن الظن بالله، وعدم القنوط من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد، واليأس يوجب له التثاقل والتباطؤ وقد يقطع به.

٣- أنه لا ييأس من روح الله، ويقنط من رحمته ويستبعد فرجه إلا القوم الكافرون، الذين ينكرون قدرته عز وجل على تبديل الأحوال من الشدة إلى الرخاء، ومن العسر إلى اليسر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مما يوجب البعد عن هذه الصفة، وبقدر إيمان العبد يكون رجاؤه لروح الله ورحمته.

٤- تضرع إخوة يوسف، وتذللهم له، وتمسنكهم بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ﴾.

٥- شدة فقر يعقوب عليه السلام، وما ابتلي به هو وأولاده من قلة ذات اليد.

٦- جواز عرض المحتاج حاجته على من يقدر على إزالتها، مع الاعتماد على الله تعالى والتعلق به وحده، وهذا من باب فعل السبب، وليس من باب الاعتماد على السبب، فإن المعطي المانع هو الله تعالى، وشكوى الحال إلى الغير التماسًا منه المساعدة مع

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٣٤٢، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٩٩.

الاعتماد على الله تعالى أمر لا بأس به، قال الشافعي[١] رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

ومن هذا قول الآخر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع[٢]

٧- الإرشاد إلى أدب جليل وهو تقديم الوسائل أمام ذكر الحاجات والمآرب؛ لأنه أنجع لها، كالثناء أولًا على المسؤول؛ لقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾، أي: العزيز في ملكه ومكانته؛ كما قال الشاعر:

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء[٣]

وثانيًا: ذكر ضيق الحال وقلة ذات اليد؛ لقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾[القصص:٢٤].

٨- أن الأيام دول، والعاقبة للمتقين الصابرين، والنصر للمظلومين ولو بعد حين، فها هم إخوة يوسف يأتون إليه مستكينين متذللين، يسألونه أن يوفي لهم الكيل ولو كانت بضاعتهم مزجاة، وأن يتصدق عليهم بعد ما أذلوه وآذوه هو وأخاه.

٩- الترغيب في الصدقة ببيان مجازاة الله تعالى للمتصدقين وإثابته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، أي: يجزيهم أضعاف ما قدموه.

١٠- انتهاز يوسف تضرع إخوته وتذللهم بين يديه؛ لتذكيرهم بفعلهم القبيح فيه وفي أخيه من التفريق بينهم وبين أبيهم وأذيتهم؛ توبيخًا لهم، وكيف يدعونه إلى الصدقة عليهم، وقد فعلوا فيه الأفاعيل وبأخيه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٧٩).

(٢) البيت لبشار بن برد. انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٧٩).

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

١١- جمعه بين التوبيخ لهم والتلويح بعذرهم لجهلهم، والتعريض بصلاح حالهم بعد ذلك؛ لقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

١٢- استشفاف إخوة يوسف واستنباطهم من قول العزيز: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؛ لأن هذا الأمر لا يعلمه إلا يوسف؛ لقولهم: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

١٣- رقته عليه السلام لهم، وإخبارهم بأنه يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾.

١٤- اعتراف يوسف عليه السلام بعظيم منة الله تعالى وفضله عليه وعلى أخيه بحفظهما، وتخليصهما مما ابتليا به، وباجتماعهما بعد الفرقة، وحصول العزة لهما بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

١٥- أن ما مَنَّ الله به على يوسف وأخيه إنما هو بسبب تقوى الله تعالى والصبر، فهما سلاح المؤمن للنصر والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، بعد توفيق الله تعالى وعونه ورحمته وفضله؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

١٦- جواز التحدث بالنعمة دينية أو دنيوية؛ إظهارًا لنعمة الله تعالى وترغيبًا بتقوى الله والعمل الصالح؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، وقال ﷺ: «**والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**»(١).

١٧- الترغيب في تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والصبر على ذلك، وعلى ما يصيب المرء من أقدار الله المؤلمة؛ لأن من التزم ذلك فهو من المحسنين الذين لا يضيع الله أجرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٨- فضيلة الصبر: فهو شطر الإيمان، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨، من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

قوام للدين إلا به: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

١٩- تكفله عز وجل بأجر المحسنين وثوابهم، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٠- اعتراف إخوة يوسف بتفضيل الله تعالى له وإيثاره عليهم، وإقرارهم بخطئهم فيما ارتكبوا بحقه؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾.

٢١- كرم يوسف عليه السلام، ونبل خلقه، فلم يثرب على إخوته، ولم يعاتبهم، وعفا عنهم، وسأل الله المغفرة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

٢٢- فضيلة التجاوز عمن أساء، ومقابلته بالإحسان؛ لما له من أثر عظيم على المحسِن وعلى المحسَن إليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما كافأت من عصى الله فيك بأحسن من أن تطيع الله فيه»(١).

وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان(٢)

٢٣- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى التي فاقت كل رحمة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٢٤- أمر يوسف عليه السلام إخوته بالذهاب بقميصه وإلقائه على وجه أبيه؛ ليعود إليه بصره وهذا من آيات الله، ومن الأسرار والحكم التي أطلع الله تعالى عليها يوسف؛ لقوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

٢٥- طلبه منهم الإتيان بأهلهم أجمعين إليه في مصر؛ لقوله: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾؛ ليلتئم شملهم وتصلح أحوالهم في دينهم ودنياهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتابه «الزهد» (ص٩٨)، والبيقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٥٥٩).

(٢) البيت لأبي الفتح علي بن محمد البستي. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٥٠)، «مجاني الأدب» (٤/ ٩٤).

٢٦- شم يعقوب عليه السلام رائحة يوسف منذ فصلت العير وخرجت من مصر متجهة إلى فلسطين؛ حيث يقيم يعقوب عليه السلام؛ آية من آيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾.

٢٧- إنكار من بحضرة يعقوب من أهل وأحفاد وغيرهم عليه قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ وتسفيههم وتخطئتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾، وهو ما عناه يعقوب بقوله: ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ الفاء عاطفة، و«أن» مزيدة للتأكيد.

﴿ٱلْبَشِيرُ﴾، أي: المبشر ليعقوب، أي: المخبر له بما يسره، وهو قرب اجتماعه بيوسف وإخوته، قيل: إنه أخوه لأبيه يهوذا، والبشارة: المبادرة بالإخبار بالخبر السار بقصد إدخال السرور.

﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، أي: طرح قميص يوسف على وجه أبيه يعقوب.

﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾، أي: فرجع بصيرًا بعد إلقاء القميص على وجهه وشمه رائحة يوسف؛ كرامةً له وليوسف، وخارقًا للعادة.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾، أي: قال يعقوب لبنيه ومن بحضرته من أهله الذين كانوا يفندون رأيه وقوله: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يشير إلى قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: ٨٦].

يقول هذا مغتبطًا بنعمة الله تعالى عليه. أي: أعلم مما علمني الله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: الذي لا تعلمونه، أو الشيء الذي لا تعلمون من حياة يوسف؛ لهذا كنت مترجيًا للقائه، واثقًا بأن الله سيزيل هذا الهم والغم والحزن، ويجمع بيني وبينه.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾.

سألوا أباهم الاستغفار لهم، وأقروا واعترفوا له بخطئهم؛ كما أقروا واعترفوا بذلك ليوسف بقولهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾، أي: اطلب من الله المغفرة لنا بستر ذنوبنا، والتجاوز عما فرط منا في حقك وفي حق يوسف.

﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، أي: متعمدين للخطأ والذنب؛ حيث فعلنا معك ما فعلنا وآذيناك في نفسك وفي فلذة كبدك أخينا يوسف.

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾هذا وعد منه عليه السلام بالاستغفار لهم، قيل: إنه أخر الاستغفار إلى وقت السحر؛ لفضيلة هذا الوقت، ولكونه أقرب لحضور القلب ومواطأته اللسان، وأرجى للإجابة؛ ولهذا امتدح الله المستغفرين فيه، فقال: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لما قبله، لأنه عز وجل هو الغفور الرحيم، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، وذو الرحمة الواسعة لهم، ولرحمته عز وجل بهم شرع التوبة لهم ووعدهم بالمغفرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: فلما دخل أبوا يوسف وإخوته وأهله عليه في سكناه في أرض مصر.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾، أي: ضم إليه أباه يعقوب وأمه راحيل، وقيل: أباه وخالته؛ لأن أمه قد توفيت، وقربهما إليه إحسانًا وبرًّا بهما، ومحبةً وتكريمًا وتبجيلًا لهما.

كما آوى إليه قبل ذلك أخاه بنيامين؛ شفقةً عليه وعناية به ورعاية له؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩].

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، أي: وقال لجميع أهله: ادخلوا مصر، أي: ادخلوها دخول

استيطان واستقرار، وفي هذا ترحيب بهم وإشادة بسكنى مصر في ذلك العهد؛ لما فيها من الخيرات والعيش الهنيء.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، أي: بمشيئة الله تعالى آمنين من جميع المخاوف والمكاره، ومما كنتم فيه من الجدب والقحط، فدخلوا على هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب والنكد والكدر.

قال ابن كثير(١): «ويقال والله أعلم: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم؛ كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»، ثم لما تضرعوا واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: على سرير الملك، أي: أجلسهما معه على سرير ملكه تكريمًا لهما.

﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ الخرور: الهوي إلى الأرض، أي: سجد له أبوه وأمه وإخوته؛ تحيةً له وتكريمًا وإجلالًا له وتبجيلًا، وليس على وجه العبادة، وكان هذا جائزًا في شرعهم.

قال ابن كثير(٣): «وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، فجعل السجود مختصًّا بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة

---

(١) في تفسيره ٤/ ٣٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٢١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٩٨، والترمذي في التفسير ٣٢٥٤؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) في تفسيره ٤/ ٣٣٥- ٣٣٦.

وغيره»(١).

وفي الحديث: أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «**ما هذا يا معاذ؟**» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك، فقال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**»(٢).

وفي حديث آخر أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «**يا سلمان لا تسجد لي، واسجد للحي الذي لا يموت**»(٣).

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، أي: قال يوسف: يا أبي هذا السجود تعبير رؤياي من قبل التي رأيتها في صغري، وقصصتها عليك بقولي: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: ٤].

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ «قد» حرف تحقيق، أي: قد صيرها ربي حقًّا، أي: حقيقة وأمرًا واقعًا صدقًا، فها أنتم سجدتم لي جميعًا، قيل: كان بين الرؤيا وتأويلها أربعون سنة، وإليه ينتهي أقصى الرؤيا، وقيل: بينهما نحو ثمانين سنة.

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾، أي: وقد أحسن بي إحسانًا عظيمًا، وأحسن إلي، ولطف بي.

﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، أي: حين أخرجني من السجن معززًا مكرمًا.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾، أي: من البادية وحياة الصحراء إلى حاضرة مصر، وكانوا أهل بادية وشاء وإبل، وفي الآية إشارة إلى أن الانتقال من البادية إلى الحاضرة نعمة؛ لما يلحق أهل البادية؛ كما في الحديث: «**من سكن البادية جفا**»(٤).

فذكر عليه السلام من نعم الله تعالى عليه إخراجه من السجن، والمجيء بأبويه

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٣/ ٣٥٥- ٣٥٦.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨١، وابن ماجه في النكاح؛ حق الزوج على المرأة ١٨٥٣، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه أبو داود في الصيد ٢٨٥٩، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٣٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٥٦، وأحمد ٢/ ٣٧١؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال الترمذي: حسن، صحيح، غريب.

وإخوته من البادية إليه، ولم يذكر إخراجه من الجب؛ لتمام عفوه عن إخوته، وترك اللوم والعتاب لهم؛ لقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾، أي: من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بوسوسته وإلقائه الحسد في قلوبهم.

ولم يقل: نزغ الشيطان إخوتي، بل قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فكأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، وهذا من تمام عفوه وتواضعه، وليس هذا من التثريب عليهم، وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعًا.

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾، أي: لطيف التدبير له والرفق به، يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا ويسره.

قال ابن القيم(١):

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بحكمة ... واللطف عند مواقع الإحسان

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي: ذو العلم الواسع لمصالح عباده ولكل شيء، الذي يعلم بواطن الأمور وظواهرها، وسرائر العباد وضمائرهم وغير ذلك.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، الذي يضع الأمور مواضعها، خلقًا وشرعًا وتقديرًا، قولًا وفعلًا.

قوله تعالى: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

لما أتم الله عز وجل على يوسف عليه السلام النعمة باجتماعه بأبويه وإخوته، مع ما منَّ الله به عليه من النبوة والملك وتأويل الرؤيا؛ دعا ربه بهذا الدعاء العظيم؛ مقرًّا بنعمة الله تعالى عليه، شاكرًا لها، داعيًا بالثبات على الإسلام: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا

---

(١) في «النونية» ص ١٤٩.

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قال ابن القيم: «جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء»(١).

قوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾، أي: يا رب قد أعطيتني من الملك الشيء العظيم، وهو ملك مصر؛ حيث كان على خزائن الأرض وتدبيرها وزيرًا كبيرًا للملك.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، أي: من تعبير الرؤيا، وتأويل أحاديث الكتب المنزلة، وغير ذلك من العلم.

﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يا فاطر السموات والأرض، أي: مبدعهما وخالقهما.

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي: أنت وحدك ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة، وفي هذا تعظيم لله تعالى، وإقرار واعتراف أنه لا ولي له إلا الله في الدنيا والآخرة، ودعاء بأن يتولاه الله في الدنيا والآخرة، والولي: من يتولى دفع الضر عن العبد وجلب الخير له.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، أي: اقبضني إذا حانت وفاتي ﴿مُسْلِمًا﴾، أي: حال كوني مسلمًا والمعنى: وفقني للبقاء على الإسلام ما حييت، وتوفني عليه؛ ولهذا يقال في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين».

وهذا ما تعبد اللهَ تعالى به الأنبياء وأتباعهم؛ ولهذا وصى بذلك إبراهيم بنيه ويعقوب؛ قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

وليس هذا من تمني الموت، وقد قال ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، فإن كان لا بد فاعلًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**»(٢).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى- تمني المريض الموت ٥٦٧١و ومسلم في الذكر- كراهية تمني الموت ٢٦٨٠، وأبو

ولا يستثنى من هذا إلا عند حلول الفتن في الدين، وخوف الإنسان من الفتنة في دينه، كما قال سحرة فرعون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وكما قالت مريم لما جاءها المخاض: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: ٢٣].

وفي الحديث: «**والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء**»(١).

﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: وألحقني بالصالحين من إخواني الأنبياء والمرسلين، الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه، أي: مكني من اللحاق بهم وإدراكهم، واجعلني في عدادهم.

فسأل الله كما أتم عليه نعمته في الدنيا أن يحفظها عليه بقية عمره، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام، وألحقه بالصالحين، وليس فيه تمني الموت.

وقد قيل: إن قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إنما قاله يوسف عليه السلام عند احتضاره؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «**اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية البشارة بالخير دينيًّا أو دنيويًّا، والسرور بحصوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ الآية.

٢- رجوع بصر يعقوب عليه السلام إليه بعد إلقاء قميص يوسف على وجهه؛

داود في الجنائز ٣١٠٨، والنسائي في الجنائز ١٨٢٠، والترمذي في الجنائز ٩٧١، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٥؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ١٥٧، وابن ماجه في الفتن- شدة الزمان ٤٠٣٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في السلام- استحباب رقية المريض ٢٤٤٤.

لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ كرامة له وليوسف، وخارقًا للعادة.

٣- تذكير يعقوب عليه السلام لمن حوله من أهل وأولاد وأحفاد بقوله لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾، أي: من أن يوسف حيٌّ، وأن الله سيجمع بيننا وبينه؛ لقوله عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ الآية.

٤- إطلاع الله تعالى أنبياءه ورسله على ما شاء أن يطلعهم عليه من علم الغيب، فإن يعقوب إنما علم بحياة يوسف، وأن الله سيجمع بينه وبينه من تعليم الله تعالى له من علم الغيب.

٥- ابتلاء الله تعالى وامتحانه لنبيه يعقوب بهذه المحنة العظيمة، والتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي كان يحبه أشد الحب، ولا يصبر على فراقه ساعة واحدة أكثر من ثلاثين سنة، وحزنه وأسفه عليه حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.

ثم ازداد الأمر شدةً حين حصل الفراق بينه وبين ابنه الثاني «بنيامين» شقيق يوسف.

هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر، لا يشكو بثه وحزنه إلا إلى الله تعالى وحده، لا إلى أحد من الخلق، حتى كانت له العاقبة.

٦- أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وأن الله عز وجل يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء والعسر واليسر؛ ليمتحن بذلك صبرهم وشكرهم، ويزداد إيمانهم ويقينهم.

٧- استكانة أبناء يعقوب وخضوعهم له، وطلبهم منه الاستغفار لهم مما بدر منهم، واعترافهم بارتكابهم الخطأ عن عمد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

٨- وعده عليه السلام لهم بالاستغفار لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ قيل: إنه أجل ذلك إلى وقت السحر؛ لأنه أرجى للاستجابة.

٩- تحري الأوقات الفاضلة للدعاء، والتي هي أقرب لإجابة الدعاء والاستغفار وحضور القلب ومواطأته اللسان؛ ولهذا روي أن يعقوب أرجأ الاستغفار لأولاده إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة.

١٠- إثبات ربوبية الله الخاصة ليوسف عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾ وقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾.

١١- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «الغفور»، و«الرحيم» وسعة مغفرته ورحمته.

١٢- إيواء يوسف لأبويه، وضمهما إليه لما دخلا عليه هما وإخوته وأهليهم؛ محبةً لهما، وشفقةً وبرًّا بهما؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾.

١٣- ترحيبه عليه السلام بأبويه وإخوته وأهليهم، وتهنئتهم بدخول مصر وسكناها، وزوال الخوف والقحط والجدب والنكد عنهم؛ لقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

١٤- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وأنه لا يحصل شيء إلا بمشيئة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وقوله: ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ ﴿١٠٠﴾﴾.

١٥- رفعه عليه السلام أبويه وإجلاسهما معه على سرير ملكه؛ تقديرًا واحترامًا لهما؛ لقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.

١٦- سجود أبويه وإخوته؛ تحيةً له وإجلالًا وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾، وكان هذا جائزًا في شرعهم والشرائع السابقة. أما في شرعنا فإنه لا يجوز السجود لغير الله، لا سجود عبادة، ولا سجود تحية وتكريم.

١٧- أن سجود أبويه وإخوته له تحقيق لرؤياه في صغره أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ﴾.

١٨- ذكر يوسف إحسان ربه عز وجل به في إخراجه من السجن، والمجيء بأبويه وإخوته وأهلهم إليه من البدو؛ اعترافًا منه بعظيم إحسان الله تعالى وفضله عليه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾.

١٩- الإشارة إلى أنه عليه السلام إنما سجن ظلمًا لا بحق.

٢٠- أن سكنى الحاضرة أولى من سكنى البادية؛ لما في سكنى الحاضرة من رقة الطباع ولين الأخلاق، ولما في سكنى البادية من قسوة الطباع والجفاء.

٢١- نزغ الشيطان وإفساده بين الناس، حتى بين الإخوة؛ مما يوجب الحذر منه، والاستعاذة بالله من نزغاته ووساوسه؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

٢٢- تمام عفو يوسف عليه السلام وتواضعه؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فكأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، بل وكأنه من بدأ ذلك؛ لتقديمه قوله ﴿بَيۡنِي﴾.

٢٣- أن حصول النعمة بعد البلاء أشد أثرًا لها، وأعظم احتفاءً بها وتقديرًا لها؛ لقوله عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

فليس هذا من باب التثريب عليهم؛ لأنه قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢]، وإنما هذا من ذكر الشيء وضده، وكما قيل: «وبضدها تتميز الأشياء».

ولهذا قالوا: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

٢٤- لطف الله تعالى لما يشاء، فهو يوصل بره وإحسانه إلى من يشاء بلطف ورفق به، ومن حيث لا يشعر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾.

ومن ذلك لطفه عز وجل بيوسف عليه السلام، وكيده له؛ حيث نقله الله بين تلك الأحوال، وابتلاه بما ابتلاه به؛ ليوصله إلى أعلى الغايات، وأعظم المقامات، ورفيع الدرجات.

قال ابن القيم: «فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله؛ بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم؛ كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته، وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها، واعترافها بأنها هي التي راودته، وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغيًا وعدوانًا.

وكاد له بأن أوقف إخوته بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي؛ فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ

يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: ٨٨].

فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد، وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي سجدوا له هم وأبوه وخالته في مقابلة كيدهم له؛ حذرًا من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له؛ حتى وقع ذلك كما رآه في منامه»(١).

٢٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى وهما «العليم»، و«الحكيم» وإثبات صفة العلم الواسع له عز وجل والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل.

٢٦- تحدث يوسف عليه السلام بنعم ربه عز وجل عليه؛ حيث آتاه الله من الملك، وعلمه من تأويل الأحاديث؛ ثناء منه على ربه عز وجل، واعترافًا بعظيم نعمه تعالى عليه، وحمدًا له وشكرًا؛ لقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

٢٧- تعظيمه عليه السلام لربه عز وجل، واعتماده عليه، ودعاؤه إياه أن يتولاه في الدنيا والآخرة، وكما أتم عليه نعمه التي أعظمها نعمة الإسلام أن يحفظه بقية عمره على الإسلام ويتوفاه عليه، وأن يلحقه بالصالحين؛ لقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

٢٨- عظم قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض؛ لقوله ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما على ما هما عليه من العظمة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

٢٩- ولاية الله تعالى الخاصة ليوسف عليه السلام في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٣٠- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٣١- أن من أجل الدعاء وأفضله، ومما يندب الدعاء به أن يدعو المسلم ربه أن يثبته

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٦١، ٤٧٢.

على دين الإسلام، وأن يحسن له الختام، ويتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بالصالحين.

٣٢- أن حياة الإنسان على الإسلام ووفاته عليه هي أعز وأجل مطلب؛ فهي النعمة الكبرى والمنحة العظمى؛ ولهذا جاء في الحديث: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله**»(١).

٣٣- فضيلة الصالحين من الأنبياء والرسل وأتباعهم، وعلو منزلتهم، والترغيب في السير على خطاهم، واللحاق بهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٩- من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ﴾ الإشارة لما قصه الله في هذه السورة العظيمة من خبر يوسف وأبيه وإخوته، وكيف رفع الله يوسف ونصره وآتاه النبوة والملك، وجعل العاقبة له، وحقق رجاء يعقوب؛ باجتماعه وأولاده وأهلهم بيوسف بعد غيبة طويلة، وخيب سعي إخوته ومكرهم السيئ به وبأبيه؛ لأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ تجاه ما لقيه من قومه، بل من أقرب الأقربين إليه كبعض أعمامه وغيرهم، بما لقيه يعقوب عليه السلام من أبنائه، وما لقيه يوسف عليه السلام من إخوته؛ وكما قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند(١)

﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: من أخبار الغيب الهامة؛ لأن النبأ: الخبر الهام، والغيب: ما غاب عن الناس، ولم تدركه حواسهم، وهو مما اختص الله تعالى بعلمه، أي: ذلك من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، أي: نعلمك به؛ لما فيه من العبرة والعظة، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، أي: وما كنت يا محمد حاضرًا عند إخوة يوسف.

---

(١) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» (ص٢٧).

﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾، أي: حين عزموا ودبروا أمرهم، وتعاقدوا واتفقوا على التفريق بين يوسف وأبيه، وإلقاء يوسف في الجب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ﴾ [يوسف: ١٥].

﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وهم يدبرون السوء بخفية لأخيهم كيف يتخلصون منه؛ كما قال قائلهم: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: ٩- ١٠].

ويمكرون للاحتيال على أبيهم لإرسال يوسف معهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: ١١- ١٢].

والمراد: تهويل الأمر باستحضار صورة تداولهم له، وعزمهم وإجماعهم على هذا الأمر المشين في حق أخيهم وفي حق أبيهم.

أي: ما كنت حاضرًا عندهم؛ فتطلع على سوء ما أجمعوا عليه وعلى مكرهم، لكنا أوحينا إليك وأعلمناك بذلك، وفي هذا دلالة على أن ما جاء به ﷺ حق وصدق، وتعريض بالمشركين المكذبين للقرآن الكريم.

وخص- والله أعلم- بنفي حضوره لديهم حين أجمعوا أمرهم وهم يمكرون بالذكر دون بقية مشاهد القصة؛ لأن هذا هو أول القصة وأخفى أحوالها؛ كما ينبئ عنه قوله: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾.

أشار عز وجل في الآية السابقة إلى أن ما قصه الله عليه ﷺ في هذه السورة من هذه القصة العظيمة من أنباء الغيب، مما فيه عظة وعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين، ثم أتبع ذلك ببيان أن أكثر الناس مع هذا لا يؤمنون، وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه.

قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ «ما» نافية تعمل عمل «ليس»، و«أكثر» اسمها مرفوع، وجملة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ معترضة بين اسم «ما» وخبرها،

وقوله ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل نصب خبر «ما»، أي: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الشعراء: ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠].

والمعنى: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو جهدت كل الجهد على إيمانهم، وبالغت في ذكر العبر والعظات، وفي إظهار الآيات القاطعات على صدقك؛ كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

لما ذكر قلة المؤمن من الناس مع توارد العبر والعظات وظهور الآيات القاطعات، أتبع ذلك بنفي أن يكون هناك ثمة سبب يمنع من الإيمان: من مطالبتهم بالعوض والعزم على ذلك.

قوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: وما تسأل الناس يا محمد على تبليغهم رسالة ربك، وما يوحيه الله إليك من أنباء الغيب ودعوتهم إلى الإيمان.

﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ «من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما تسألهم عليه من أيِّ أجر، لا قليل ولا كثير، بل تفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ونصحًا لخلقه، وقيامًا بما أوجب الله عليك من إبلاغ رسالة ربك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ «إنْ» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هو، وضمير الفصل يعود إلى ما يوحيه الله تعالى إلى رسوله ﷺ من الكتاب والسنة، وما فيهما من القصص والعبر والعظات والآيات القاطعات، أي: ما هو إلا تذكير وعظة وعبرة للعالمين يتذكرون به ويهتدون به إلى ما يسعدهم وينجيهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ذكر عز وجل عدم إيمان كثير من الناس مع أنهم لم يسألوا أجرًا على ذلك، ومع إنزال الآيات الشرعية تذكيرًا لهم، ثم أتبع ذلك بذكر كثرة الآيات الكونية التي يمرون عليها في السموات والأرض وهم عنها معرضون، وفي ذلك بيان قيام الحجة عليهم بالآيات الشرعية والكونية، وانتفاء عذرهم؛ إذ لم يطالبوا بغرم مقابل ذلك.

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وكثير من الآيات الكونية في السموات والأرض الدالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ووجوب الإيمان به، من كواكب وأفلاك، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وقفار شاسعات، وحيوان ونبات، وثمار مختلفات، وأحياء وأموات، وغير ذلك من سائر المخلوقات، فكلها دلائل وشواهد وآيات بينات.

قال الشاعر:

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد(١)

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، أي: يمرون عليها ويشاهدونها في ذهابهم وإيابهم وتقلباتهم على مر الأوقات، ولا يستدلون بها على وجوب الإيمان بالله فاطر الأرض والسموات؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: معرضون عن التأمل فيها، فلا ينظرون إليها بأبصارهم، ولا يتفكرون فيها بقلوبهم، بل هم عنها لاهون غافلون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أخبر عز وجل فيما سبق بعدم إيمان أكثر الناس، ثم أخبر في هذه الآية أنه ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

أي: وما يؤمن أكثر الناس ﴿بِٱللَّهِ﴾، أي: بوجوده وربوبيته.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ «إِلَّا» أداة حصر، والواو حالية، أي: إلا وهم مشركون في إلوهيته، يشركون معه غيره في المحبة والتعظيم والعبادة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكما حكى الله تعالى عن المشركين قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨].

وكما يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»(١).

وهو الشرك العظيم؛ كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي: الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وقد خلقك**»(٢).

ولهذا لا ينفعهم إيمانهم بربوبيته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

لما ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون توعدهم بالعقوبة في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتهديد، أي: أفأمن هؤلاء المشركون؟

﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أمنوا».

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- التلبية وصفاتها ووقتها ١١٨٥؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ٤٤٧٧، ومسلم في الإيمان- كون الشرك أقبح الذنوب ٨٦، وأبو داود في الطلاق ٢٣١٠، والنسائي في تحريم الدم ٤٠١٣، والترمذي في التفسير ٣١٨٢.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد؛ من أشرك في عمله غير الله ٢٩٨٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾، أي: عقوبة من عذاب الله تغشاهم وتغمرهم، وتحيط بهم جميعًا.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: أو تأتيهم القيامة وما فيها من الأهوال والعذاب.

﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون بذلك، أي: وهم لاهون غافلون.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩].

الفوائد والأحكام:

١- أن ما ذكره الله تعالى في هذه السورة من هذه القصة العظيمة هو من أخبار الغيب التي يوحيها الله عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ؛ لما فيها من التسلية له ﷺ، ولما فيها من العظة والعبرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

٢- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له.

٣- اختصاص الله عز وجل بعلم الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

٤- الاستدلال على صدقه ﷺ وأن ما جاء به من الوحي حق وصدق، والتعريض بالمشركين المكذبين للقرآن، وتهويل ما أقدم عليه إخوة يوسف من الأذى والمكر في حق أخيهم يوسف وفي حق أبيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

٥- أنه ﷺ لم يكن حاضرًا عندهم حين أجمعوا على هذا الأمر المشين والمكر الكبَّار.

٦- أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرص ﷺ على إيمانهم ومهما توافرت لهم الآيات والأدلة؛ حكمة بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾.

٧- حرصه ﷺ على إيمان قومه وهدايتهم، وتسليته ﷺ؛ لعدم إيمان الكثير منهم.

٨- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال، قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(١).

٩- أنه ﷺ لم يسأل المشركين على تبليغهم رسالة ربه ودعوتهم إلى الإيمان أجرًا؛ فيعللون عدم إيمانهم بسبب هذا الغرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾.

١٠- ينبغي لمن تصدر للتعليم والدعوة والوعظ اجتناب ما يمنع من قبول كلامه.

١١- أن ما أوحاه الله للرسول ﷺ من القرآن والسنة ما هو إلا تذكير وعظة وعبرة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

١٢- كثرة الآيات الكونية في السموات والأرض التي يمر بها المشركون ويشاهدونها، وهي دالة على عظمة الله وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهم عنها معرضون، فلا يتأملون فيها بالنظر بأبصارهم، ولا يتفكرون فيها بقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾.

١٣- لا عذر لمن عدل عن الإيمان؛ لأنه لم يُسأل أجرًا وغرمًا مقابل ذلك، ولتوافر الآيات الدالة على وجوب الإيمان وقيام الحجة عليه.

١٤- أن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون، فيؤمنون بربوبية الله تعالى، ويشركون في إلوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾.

١٥- توبيخ المشركين وتهديدهم بالعقوبة العاجلة التي تحيط بهم في الدنيا، أو بإتيان الساعة بغتة وهم لا يشعرون بها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١٦- خطر الشرك ووجوب الحذر منه كبيره وصغيره، جليه وخفيه، كالرياء، والحلف بغير الله، والطيرة، وتعليق التمائم، وغير ذلك.

قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه فقال: «**الرياء**»(١).

وقال ﷺ: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»(٢).

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»(٣).

و قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٤).

و قال ﷺ: «**مَنْ رَدَّتْه الطيرة عن حاجته فقد أشرك**»(٥).

١٧- إثبات القيامة، وأنها لا تأتي إلا بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

* * *

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٨- من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب تعليق التمائم ٣٨٨٣، وابن ماجه في الطب ٣٥٣٠، وأحمد ١/ ٣٨١، ٣٨٩؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٦.

(٤) أخرجه الترمذي في النذور والإيمان ١٥٣٥؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن».

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٠؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾، أي: هذه السبيل سبيلي، أي: طريقتي ومنهجي ومسلكي وسنتي.

﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ تفسير لسبيله ﷺ، أي: أدعو إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، أي: سبيلي الدعوة إلى الله تعالى، وإلى الإيمان به وتوحيده لا شريك له، كما هي سبيل الرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ«أدعو»، أو بمحذوف حال من فاعل «أدعو».

ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ خبرًا مقدمًا، و«أنا» مبتدأ مؤخرًا، ويكون الكلام قبله تم عند قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، فيكون الكلام على هذا جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية: أنه هو وأتباعه على بصيرة.

والمعنى: أنه هو وأتباعه على بصيرة في دعوتهم إلى الله.

ومعنى ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، أي: على علم ويقين وبرهان شرعي وعقلي.

وقوله: ﴿أنا﴾ ضمير منفصل مبني في محل رفع توكيد لفاعل «أدعو»، أو مبتدأ مؤخر، وخبره قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ مقدم.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ الواو عاطفة، و«من» اسم موصول مبني في محل رفع معطوف على

الضمير المستتر فاعل «أدعو»، أو معطوف على المبتدأ المؤخر «أنا»، أي: والذي اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة.

ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف، أي: والذي اتبعني داع إلى الله على بصيرة.

والمعنى: هذه سبيلي الدعوة إلى الله على بصيرة، وهي سبيل كل من اتبعني، وسلك سبيلي، وهي المتضمنة للعلم النافع والعمل الصالح،المؤدية إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار، فأتباعه ﷺ حقًّا كلهم دعاة إلى الله تعالى، ولا يتحقق تمام اتباعه إلا بالدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، ومجانبة الشرك.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: أُنزه الله وأُجله وأُقدسه وأُعظمه عما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله، من الشريك والنظير، أو الصاحبة والولد، وغير ذلك: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

ويجوز حمل التسبيح في الآية على ما هو أعم من التنزيه، أي: على ما يشمل تنزيه الله عما لا يليق به، والتعبد له بأنواع العبادة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: إنني بَراءٌ منهم ومِن شركهم، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، قرأ حفص: ﴿نُّوحِىٓ﴾ بالنون وكسر الحاء، وقرأ الباقون: «يوحَى» بالياء وفتح الحاء.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: وما أرسلنا من قبلك في الأمم السابقة ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رجالًا من بني، آدم ليس فيهم أنثى، وليسوا ملائكة، بل هم بشر من سائر البشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ

ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨].

وفي هذا الرد على المشركين في إنكارهم لرسالته ﷺ بدعوى أنه بشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧].

فهو ﷺ بشر كغيره من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: من أهل المدن والحواضر، لا من أهل البوادي؛ لأن أهل الحاضرة أرق طباعًا وألين أخلاقًا، وأقرب إلى العلم وأهله، بخلاف أهل البادية، فإنهم أغلظ طباعًا، وأجفى أخلاقًا؛ لتأثرهم بحياة الصحراء، وهم أبعد عن التعلم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع، أي: لِمَ لم يسر هؤلاء المكذبون لك يا محمد في الأرض، فينظروا ويتأملوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ أو للتقرير، أي: أفليسوا يسيرون في الأرض وينظرون ويتأملون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟

وقد يكون الاستفهام للتقرير، أي: أفليسوا يسيرون في الأرض وينظرون ويشاهدون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كعاد وثمود لما كذبوا رسلهم؟ أي: كيف كانت عاقبتهم السيئة ونهايتهم المؤلمة؛ حيث حلت بهم المثلات، وأخذوا بأشد العقوبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فيحذروا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم، فتلك سنة الله تعالى في المكذبين فلن

تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد لسنة الله تبديلا، والسعيد من وعظ بغيره.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، واللام لام الابتداء للتوكيد، أي: ولدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم في الجنة.

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ خير للذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وفي هذا تعريض بسلامة عاقبتهم في الدنيا، أي: ولدار الآخرة خير للمتقين من عاقبتهم في الدنيا، كما أن فيه تعريضًا بأن دار الآخرة أشد أيضًا على الذين من قبلهم من المكذبين من عاقبتهم في الدنيا، فحصل إيجاز بحذف الجملتين.

فنعيم الآخرة خير للمتقين مما أعطوا من التنعم في الدنيا، وعذاب الآخرة بالنار للمكذبين أشد مما عوقبوا به في الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١- ٥٢].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يعقلون﴾ على نسق ما قبله.

والاستفهام للإنكار والتقريع، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم فتتفكرون بها في عاقبة الذين من قبلكم، وماذا حل بهم من العقوبات بسبب تكذيبهم، فتحذروا من سلوك سبيلهم بالتكذيب؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم، وتعلموا أن الدار الآخرة خير للذين اتقوا؛ فتؤثرونها على الدنيا، ولا تؤثرون الذي هو أدنى على الذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ «حَتَّىٰ» حرف ابتداء، واستيأس مبالغة من «يئس»، أي: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان أقوامهم، مع كمال إيمان الرسل عليهم

السلام، وقوة يقينهم، وتمام تصديقهم بوعد الله.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قرأ أبو جعفر، وحمزة، والكسائي، وعاصم بالتخفيف: ﴿كُذِبُواْ﴾، وقرأ الباقون بالتشديد: «كُذِّبوا»، أي: وظن الرسل وأيقنوا وعلموا أن أقوامهم كذبوهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خفيفة ذهب بها هناك، وتلا قوله: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤](١).

قال ابن أبي مليكة: «ذهب بها إلى أنهم ضعفوا فظنوا أنهم أخلفوا»(٢).

وفي رواية قال: «كانوا بشرًا فضعفوا ويئسوا»(٣).

وقيل: إن الضمير في «ظنوا» على قراءة التخفيف في «كُذِبوا» يعود إلى القوم، أي: وظن القوم أن الرسل قد كُذِبوا ما وعدوا من النصر.

قال ابن تيمية: «وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، قد يكون مثل قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]، والظن لا يراد به في الكتاب والسنة: الاعتقاد الراجح؛ كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم، ويسمون الاعتقاد المرجوح «وَهْمًا». بل قد قال النبي ﷺ: «**إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث**»(٤)، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ [يونس: ٣٦، النحم: ٢٨]. فالاعتقاد المرجوح هو ظن، وهو «وَهْمٌ»؛ وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المعفو عنه؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله تجاوز لأمَّتي ما حدَّثتْ به أنفسَها، ما لم تكلَّمْ أو تَعملْ**»(٥).

وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريح الإيمان. كما جاء في الحديث: إن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٢٥.

(٢) أخرج هذا الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٣٩٣ وغيره.

(٣) أخرجها الطبري ١٣/ ٣٩٣.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به؟! قال: «**الحمد لله الَّذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسةِ**»(١).

فهذه الأمور التي تعرض ثلاثة أقسام:

منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان وإن كان لا يزيله. واليقين في القلب له مراتب.

ومنها ما هو عفو يعفى عن صاحبه.

ومنها ما يقترن به صريح الإيمان»(٢).

﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، أي: جاءهم نصرنا بعد ضيق الحال وطول انتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات؛ كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ قرأ ابن عامر، ويعقوب، وعاصم بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء: ﴿فَنُجِّىَ﴾. وقرأ الباقون بنونين الثانية ساكنة وتخفيف الجيم وإسكان الياء: «فننْجيْ».

و«من»: موصولة، أي: فنخلص الذي نشاء من العذاب؛ وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾، أي: ولا يمنع ولا يدفع عذابنا، ولا يرفع.

﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين ارتكبوا الجرائم، من تكذيب الرسل، وغير ذلك من الموبقات.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

ختم الله عز وجل هذه السورة العظيمة بتعظيم ما ورد فيها من قصص يوسف وأبيه وإخوته، وما ورد من قصص الأنبياء، وما فيها من العبر والعظات لذوي الألباب، وتعظيم القرآن الكريم، ومصداقيته وتصديقه للكتب قبله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) دقائق التفسير ٣/ ٤/ ٣١٠.

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد كان في قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم، وقصة يوسف مع إخوته وأبيه، وكيف كانت العاقبة للمتقين، والخيبة والخذلان والهلاك للكافرين.

﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: عظة لأصحاب العقول السليمة الحية النيرة، يعتبرون بها ويتعظون، ويستدلون بها على عظمة الله تعالى وكماله ووحدانيته.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾، أي: ما كان هذا القرآن وما جاء فيه من القصص وأنباء الغيب حديثًا يختلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، أي: يختلق من دون الله، بل هو كلام الله عز وجل.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: ولكن تصديق الذي سبقه من الكتب السماوية بموافقته لها، وشهادته بصدقها وصحتها، وكونه مصداقَ ما أخبرت به، وكونه حاكمًا ومهيمنًا عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وبيان كل ما يُحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والآداب والأخلاق، وأصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين، وغير ذلك.

﴿وَهُدًى﴾، أي: وهدى هداية خاصة من الضلالة إلى الطريق المستقيم.

﴿وَرَحْمَةً﴾، أي: ورحمة خاصة، بها النجاة من النار والعذاب الأليم، والفوز بالجنة والثواب العظيم.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله عز وجل، ويصدقون بالقرآن، ويعملون به، وإنما خص الذين يؤمنون؛ لأنهم هم الذين يصدقون بالقرآن ويعملون به، بخلاف الكافرين المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

أما من حيث الهداية العامة فالقرآن هداية لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ١﴾ [إبراهيم: ١].

الفوائد والأحكام:

١- أن النبي ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾، وفي هذا رد على من يزعمون أنه افترى القرآن واختلقه من عند نفسه.

٢- أن سبيله ﷺ وسبيل أتباعه واضحة جلية، وهي الدعوة إلى الله تعالى والإيمان به، وتوحيده على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ١٠٨﴾.

٣- تسبيح الله عز وجل وتنزيهه عن النقائص والعيوب وعما لا يليق به؛ لقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

٤- براءته ﷺ من الشرك وأهله؛ لقوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٥- أنه لا يتم اتباعه ﷺ إلا بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، والبراءة من الشرك وأهله.

٦- لا ينبغي أن يتصدر للدعوة إلى الله تعالى إلا من كان ذا علم ومعرفة وبصيرة بما يدعو إليه.

٧- إثبات الرسالات، وأن الرسل كلهم من البشر، ومن الذكور، ومن أهل الحواضر؛ ليسوا ملائكة، وليس فيهم أنثى، وليسوا من أهل البوادي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ١٠٩﴾.

٨- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

٩- حكمة الله تعالى في جعل الرسل للناس من البشر؛ إذ لو كانوا ملائكة ما استطاعوا الفهم منهم والأخذ عنهم.

١٠- أن مما خص الله تعالى به الرجال، وفضلهم به على النساء كون الرسل منهم، لما منحهم الله تعالى من خصائص عقلية وبدنية؛ ولهذا لم يكن في النساء رسل ولا نبيات، لكن منهن المصطفيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

ومنهن المبشرات؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

ومنهن الصديقات؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

١١- أن الرسالة لا تثبت لأي أحد إلا بوحي الله تعالى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [الشورى: ٥١].

١٢- أن الرسل كلهم من أهل المدن والحاضرة؛ لأنهم أقرب للعلم وأهله، وألين أخلاقًا، وأرق طباعًا من أهل البادية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾، أي: أهل المدن والحاضرة.

١٣- الرد على المشركين في إنكارهم لرسالته ﷺ وتكذيبهم له بدعوى أنه بشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

١٤- الإنكار على المشركين المكذبين وتقريعهم؛ لأنهم لم يسيروا في الأرض فينظروا ويتأملوا كيف كانت العاقبة السيئة المؤلمة للذين من قبلهم؛ لما كذبوا رسل الله؛ حيث أخذوا وأهلكوا بأشد العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ﴾.

أو هو تقرير لهم، أي: أفليسوا يسيرون في الأرض وينظرون ويشاهدون كيف كان

عاقبة الذين من قبلهم؟

١٥- أن دار الآخرة خير من الدنيا للذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه مع سلامة عاقبتهم في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾.

١٦- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

١٧- الترغيب في تقوى الله عز وجل.

١٨- الإنكار على المكذبين في عدم انتفاعهم بعقولهم التي ميزهم الله بها عن البهائم، فلم ينظروا ويتأملوا كيف كانت نهاية المكذبين للرسل قبلهم، وما حل بهم من المثلات وشديد العقوبات، فيحذروا من ذلك، ويعلموا أن دار الآخرة خير للذين اتقوا، فيتقوا الله ويعملوا لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٩- أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥-٦].

وفي الأثر: «لن يغلب عسر يسرين»(١).

٢٠- إمهال الله تعالى للمكذبين؛ ليرجعوا إلى الحق، إلى غاية أن ييأس الرسل من إيمانهم، ويتيقنوا من تكذيبهم لهم، ويشتد أذاهم لرسلهم.

٢١- يأس كثير من الرسل من إيمان قومهم، وتيقنهم تكذيبهم لهم؛ وكما قال ﷺ: «**يأتي النبي ومعه الرجل والرجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد**»(٢). وذهب ابن عباس- كما سبق- إلى أن الرسل يئسوا مما وعدوا به من النصر، وتلا قوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

٢٢- إنجاء الله تعالى الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥- ٤٩٦ عن الحسن مرسلًا.

(٢) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٤- أن عذاب الله لا يرده راد، ولا يصده صاد عن القوم المجرمين المكذبين للرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١].

وفي هذا تحذير من الإجرام بالشرك، وتكذيب الرسل، وفعل الموبقات.

٢٥- أن في قصة يوسف وأبيه وإخوته وفي قصص الأنبياء كلهم عبرة وعظة لأصحاب العقول، يتعظون ويعتبرون بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١١١﴾﴾.

٢٦- أن القرآن وما تضمنه من القصص والأخبار والمواعظ والحكم والأحكام وغير ذلك؛ ما كان حديثًا يختلق من دون الله، ولكنه كلام الله عز وجل.

٢٧- تصديق القرآن الكريم لما سبقه من الكتب السماوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٢٨- أن في القرآن تفصيل كل شيء مما تحتاجه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٢٩- أن القرآن الكريم هدى للمؤمنين هداية خاصة، به هدايتهم من الضلالة إلى الطريق المستقيم، ورحمة خاصة، بها سعادتهم في الدنيا والآخرة، ودخولهم الجنة، ونجاتهم من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣٠- أنه إنما خص المؤمنين بكون القرآن هداية ورحمة لهم؛ لأنهم هم الذين يهتدون به ويعملون بمقتضاه.

٣١- الترغيب في الإيمان وتدبر القرآن، والاهتداء به.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة يونس ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
ج- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١...﴾ الآيات [١-١٠] ١١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ ...﴾ الآيات [١١-١٤] ٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ ...﴾ الآيات [١٥-٢٠] ٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ ...﴾ الآيات [٢١-٢٥] ٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ ...﴾ الآيات [٢٦-٣٠] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيات [٣١-٣٦] ٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٣٧-٤٤] ٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ ...﴾ الآيات [٤٥-٥٢] ٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ ...﴾ الآيات [٥٣-٥٨] ٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ ...﴾ الآيات [٥٩-٦٤] ٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ ...﴾ الآيات [٦٥-٧٠]

..... ١٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ...﴾ الآيات [٧١-٧٤]..... ١١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ...﴾ الآيات [٧٥-٨٦]..... ١٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ...﴾ الآيات [٨٧-٩٣]..... ١٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ...﴾ الآيات [٩٤-١٠٣]..... ١٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [١٠٤-١٠٩]..... ١٥٦
تفسير سورة هود..... ١٦٣
المقدمة..... ١٦٥
أ- اسم السورة:..... ١٦٥
ب- مكان نزولها:..... ١٦٥
ج- موضوعاتها:..... ١٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ...﴾ الآيات [١-٥] ١٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ...﴾ الآيات [٦-١١]..... ١٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ...﴾ الآيات [١٢-١٧]..... ١٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ...﴾ الآيات [١٨-٢٤] ٢٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ الآيات [٢٥-٣٥]..... ٢١١

تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ...﴾ الآيات [٣٦-٤٠] ٢٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ...﴾ الآيات [٤١-٤٩] ٢٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ...﴾ الآيات [٥٠-٦٠] ٢٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ...﴾ الآيات [٦١-٦٨] ٢٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ ...﴾ الآيات [٦٩-٨٣] ٢٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ...﴾ الآيات [٨٤-٩٥] ٢٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ...﴾ الآيات [٩٦-١٠٩] ٣٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ ...﴾ الآيات [١١٠-١١٥] ... ٣١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ ...﴾ الآيات [١١٦-١٢٣] ٣٢٦
تفسير سورة يوسف ٣٣٧
المقدمة ٣٣٩
أ- اسم السورة: ٣٣٩
ب- مكان نزولها: ٣٣٩
ج- موضوعاتها: ٣٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ ...﴾ الآيات [١-٣] ٣٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ...﴾ الآيات [٤-٦] ٣٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ...﴾ الآيات [٧-١٥] ٣٥٤

تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ...﴾ الآيات [١٦-٢٢] ٣٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ...﴾ الآيات [٢٣-٢٩] ٣٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ...﴾ الآيات [٣٠-٣٥] ٣٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ...﴾ الآيات [٣٦-٤٢] ٣٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ...﴾ الآيات [٤٣-٤٩] ٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ...﴾ الآيات [٥٠-٥٣] ٤١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ...﴾ الآيات [٥٤-٥٧] ٤٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ...﴾ الآيات [٥٨-٦٨] ٤٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ...﴾ الآيات [٦٩-٧٩] ٤٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ...﴾ الآيات [٨٠-٨٦] ٤٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٨٧-٩٥] ٤٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ...﴾ الآيات [٩٦-١٠١] ٤٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ...﴾ الآيات [١٠٢-١٠٧] ٤٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...﴾ الآيات [١٠٨-١١١] ٤٨٩
فهرس الموضوعات ٥٠١

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثاني عشر

تفسير سورة الرعد وإبراهيم والحجر والنحل

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٢

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.-الدمام، ١٤٤١هـ
٥١٨ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلرَّعْدِ

المقدمـــة

أ- اســـم الســـورة:

سمِّيت «سورة الرعد» بهذا الاسم؛ لِذِكر الرعد فيها في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الآية: ١٣].

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الرعد في مكة في أظهر وأشهر أقوال المفسرين، وهو الذي يؤيده ما تناولته آياتها من الاستدلال على وحدانية الله تعالى وتمام قدرته، ومن تسلية النبي ﷺ تجاه ما لقيه ويلقاه من قومه.

وقيل: بعضها مدني، وقيل: كلها مدنية.

ج- موضوعاتها:

تدور موضوعات السورة على المحاور التالية:

أ- إقامة الأدلة المتنوعة على كمال عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ونعمته وحكمته، وإثبات ربوبيته وإلهيته.

ب- إثبات عظمة القرآن الكريم، وأنه الحق من عند الله، وشهادته عز وجل بصدقه، والرد على المكذبين في تعنتهم وطلبهم آياتٍ غيره.

ج- تسليته ﷺ وتثبيت قبله تجاه أذى قومه وتكذيبهم له، بذمهم بما هم عليه من الكفر وسيئ الأقوال والأحوال، وما ينتظرهم من سوء المآل، كالذين مضوا من قبلهم، وفيما يلي تفصيل لذلك:

١- افتتح الله عز وجل سورة الرعد بتعظيم القرآن الكريم، كما هو الشأن في كثير من سور القرآن الكريم: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾.

٢- ثم استدل عز وجل على كمال عظمته وحكمته ونعمته، وتمام قدرته في آياته في الكون؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا وتسخيرًا، وتفصيلًا للآيات، وإخراجًا للثمرات، وإدرارًا للنعم والخيرات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ

تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

٣- ثم تعجب من إنكار المشركين بعثهم بعد كونهم ترابًا؛ مؤكدًا كفرهم بربهم، ومتوعدًا لهم بالأغلال في أعناقهم والخلود في النار: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥﴾﴾.

٤- ذم المشركين والمكذبين في استعجالهم السيئة والعقوبة قبل الحسنة والنعمة؛ إمعانًا منهم بالتكذيب، وقد خلت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، وبيان أنه سبحانه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، يمهل ولا يهمل، وهو شديد العقاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾.

٥- ذم الذين كفروا بذكر اقتراحهم أن ينزل على النبي ﷺ آية من ربه؛ عنادًا منهم وتكذيبًا لما جاءهم به من الآيات، وبيان أن مهمته ﷺ الإنذار.

٦- بيان سعة علمه وحكمته في قضائه وقدره، وعظيم سلطانه عز وجل، وإحاطته بكل شيء؛ من الدقيق والخفي، والغيب والشهادة، والسر والجهر ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

٧- تأكيد كمال عظمته، وتمام قدرته ونعمته، وشدة حوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

٨- بيان أنه له عز وجل دعوة الحق خاصة، والذي يجب إفراده بالعبادة وحده لا

شريك له، وبيان ضعف وبطلان ما يعبد من دونه، وانقياد جميع المخلوقات له عز وجل: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

٩- بيان أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتقريع المشركين في اتخاذهم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وبيان مثل الحق والباطل؛ فالباطل كالزبد يذهب جفاءً، والحق مثل ماء المطر الذي يمكث في الأرض فينفع الناس: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

١٠- بيان ما أعده عز وجل للذين استجابوا لربهم من النعيم، وما أعد للذين لم يستجيبوا له من العذاب الأليم: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

١١- بيان أنه لا يستوي المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فلا يستوي من يعلم أن ما أنزل على النبي ﷺ هو الحق ومن هو أعمى، ولا يستوي أولو الألباب الذين يتذكرون ويوفون بعهد الله ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾، لا يستوي هؤلاء مع الذين ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

١٢- بيان أن الأرزاق بيده- عز وجل، يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء؛ لحكمة يعلمها، فلا ينبغي أن يفرح من أوتي الدنيا؛ فما هي في الآخرة إلا متاع:

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾.

١٣- تأكيد ذم الكافرين في اقتراحهم أن ينزل على النبي ﷺ آية من ربه؛ لكفرهم بما جاءهم به من الآيات، وعدم اعتدادهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾.

١٤- الثناء على الذين آمنوا وامتداحهم باطمئنان قلوبهم بذكر الله الذي به طمأنينة القلوب، وعمل الصالحات، ووعدهم بالجنة وحُسن المآب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾.

١٥- بيان أن مهمته ﷺ تلاوة وإبلاغ ما أوحاه الله تعالى إليه، وأمره بتقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته والتوكل عليه والإنابة إليه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾، وبيان أن لله الأمر جميعًا، فله الحكمة في الهداية والإضلال، والثناء على القرآن الكريم، لكن من لم يرد الله هدايته لا ينفعه القرآن: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾.

١٦- تسليته ﷺ تجاه ما يلقاه من أذى قومه وتكذيبهم، ببيان ما حصل من استهزاء بالرسل من قبله، وإملائه عز وجل للذين كفروا، ثم أخذهم بعقابه الشديد.

١٧- الإنكار على المشركين وتقريعهم في جعلهم لله عز وجل القائم على كل نفس بما كسبت شركاء ليس لهم من الأمر شيء، وبيان أنه ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾.

١٨- بيان مثل الجنة وصفتها؛ ترغيبًا في العمل لها: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ

وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

١٩- فرح الذين أوتوا الكتاب بما أنزل إلى النبي ﷺ؛ لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، ولما فيه من التصديق لكتبهم في وجوب عبادة الله تعالى وحده، وبيان أن من الأحزاب من ينكر بعضه؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

٢٠- الامتنان بإنزال القرآن الكريم حكمًا عربيًّا، وتحذيره ﷺ من اتباع أهواء أهل الكتاب، وهو تحذير لأتباعه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٢١- بيان أنه عز وجل أرسل رسلًا من قبله ﷺ بشرًا، وجعل لهم أزواجًا وذرية؛ فليس هو ﷺ بدعًا من الرسل، وليس لرسول منهم ولا وله ﷺ ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢٢- بيان تحديد الآجال وكتابتها، وأنه سبحانه يمحو ﴿مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٢٣- وعيد المشركين بالعقوبة العاجلة أو الآجلة، وبيان أنه إنما عليه ﷺ البلاغ، وعليه عز وجل الحساب، وتوبيخ المشركين وتقريرهم فيما يجريه تعالى من نقص الأرض من أطرافها وفتحها للمسلمين، وأنه سبحانه ﴿يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وتوعدهم بذكر مكر الذين من قبلهم ومكر الله بهم، وعلمه عز وجل بما تكسب كل نفس، وتحذيرهم: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

٢٤- وختمت السورة بذكر إنكار الكفار لرسالته ﷺ، وإثبات شهادة الله تعالى وهو خير الشاهدين، وكفى به عز وجل شهيدًا على صدقه ﷺ، فهو سبحانه الذي عنده علم الكتاب، وكذا شهادة من آمن من أهل الكتاب بذلك: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾.

قوله: ﴿الٓمٓرۚ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل بعض السور في تفسير مطلع سورة البقرة، وبيان أن هذه الحروف- في أظهر الأقوال- لا محلَّ لها من الإعراب، وأنها حروف لا معنى لها في ذاتها، لكن لها مغزى، وهو الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به؛ ولهذا كانت جُلُّ السور التي بدأت بهذه الحروف أو كلها فيها الانتصار للقرآن، وبيان أن نزوله من عند الله تعالى حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال هنا:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، أي: آيات القرآن الكريم، وأشار لها بإشارة البعيد تعظيمًا لها.

وآيات: جمع «آية» وهي العلامة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وسمِّيت بهذا الاسم؛ لما فيها من الإعجاز في ألفاظها ومعانيها وأحكامها وأخبارها، الدال على أنها من عند الله عز وجل، وعلى وحدانيته عز وجل في ربوبيته

وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى صدق من أنزلت عليه وبلغها نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

و«آيات» مضاف و«الكتاب» مضاف إليه، و«الكتاب» إذا أطلق معرفًا بـ«ال» انصرف للقرآن الكريم؛ لأنه أفضل وأجل كتب الله عز وجل وأعظم الكتب على الإطلاق.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فالواو: عاطفة، و«الذي»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، أي: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، فهو كلام الله عز وجل، تكلم به سبحانه بحرف وصوت، وأنزله من عنده إلى نبيه ﷺ.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبر المبتدأ الموصول، أي: الحق الثابت، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥].

أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الواو عاطفة، و(لكن) حرف استدراك، ﴿أَكۡثَرَ﴾ اسم تفضيل، أي: ولكن مع إنزال القرآن إليك من ربك، وكونه الحق الثابت البين الواضح، ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: الكثرة الكاثرة منهم، ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لا يؤمنون بهذا القرآن؛ لما فيهم من الجهل والإعراض والشقاق والعناد والنفاق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: الله- وحده- الذي ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: خلقها بقدرته العظيمة مرتفعة على عظمتها واتساعها، وجعلها سقفًا على الأرض؛

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ متعلق بـ«رفع»، أي: رفعها بدون عمد، أي: خالية من العمد، ليست معتمدة على شيء.

﴿تَرَوْنَهَا﴾ الجملة في محل نصب حال مؤكدة من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: حال كونكم ترونها بغير عمد، أي: لا شبهة في كونها بغير عمد.

أو في محل جر صفة لـ ﴿عَمَدٍ﴾، أي: لو كان لها عمد لرأيتموها. أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

قال ابن كثير(١): «قال إياس بن معاوية: «السماء على الأرض مثل القبة» يعني: بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وهذا هو الأكمل في القدرة».

وقال أيضاً(٢): «فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء، من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]».

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٣٥١، وأخرج قول إياس الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٤١١.

(٢) في «تفسيره» ٤/ ٣٥٠.

وقيل: لها عمد ولكن لا ترى، قال هذا ابن عباس ومجاهد(١).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: ثم بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

أي: ثم استوى على العرش، استواء يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تعطيل؛ كما قال الإمام مالك رحمه الله: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٢).

و«العرش» في اللغة: سرير الملك؛ كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

و«العرش» أكبر المخلوقات وأعلاها، وهو سقف الجنة، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد، ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**»(٣).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة؛ وأعلى الجنة؛ وفوقه عرش الرحمن**»(٤).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وذلل الشمس والقمر، وأجراهما لمصالح العباد ومواشيهم وحروثهم، وليعلموا بجريهما عدد السنين والحساب، ويعرفوا الليل من النهار. وخصهما هنا؛ لأنهما أظهر الكواكب وأعظمها وأكثرها فائدةً ونفعًا.

قال ابن كثير(٥): «وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه؛ فلأن يدخل في التسخير

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٤٠٩.

(٢) انظر: «الأسماء والصفات البيهقي» ص٥١٦، «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٣٧٣.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ٥٣٩، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ١١: «أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع، وقد روي عنه من طرق أخرى موصولًا»، وانظر: «فتح المجيد» ص٦١٦.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠.

(٥) في «تفسيره» ٢/ ٦٠٨.

سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى».

وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: كل من الشمس والقمر، ﴿يَجْرِى﴾، أي: يسير بسرعة وانتظام دقيق، ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين محدد ينقطع دونه سيرهما، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة، التي عندها تكور الشمس، ويخسف القمر، وتكور النجوم، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ١، ٢].

قال ابن كثير(١): «وقيل: المراد: إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الأحاديث الصحيحة، ولله الحمد».

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، خلقًا وملكًا وتصرفًا؛ يخلق ويرزق، ويعز ويذل، ويعطي ويمنع، يرفع أقوامًا ويضع آخرين، يقيل العثرات، ويفرج الكربات، ويجري ما سبق به علمه وقلمه من الأقدار في جميع الأوقات بمشيئته وحكمته، على أكمل الأحوال، ولا يشغله شأن عن شأن.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يبينها ويوضحها، أي: يبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، فيما أنزل من كتبه وعلى ألسنة رسله.

ففي تدبيره الأمر- خلقًا وملكًا وتصرفًا- الدلالة على كمال ربوبيته وإلوهيته، وعلى تمام قدرته على إعادة الخلق للحساب كما ابتدأهم. وفي تفصيله الآيات إقامة الحجة، وبيان طريق الهدى، وإيضاح المحجة؛ ولهذا قال بعده:

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٣٥٢.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: يدبر الأمر ويفصل الآيات الكونية والشرعية؛ لأجل أن توقنوا بلقاء ربكم، أي: لتصدقوا التصديق الجازم بالبعث والنشور، ولقاء ربكم، والقيام بين يديه للحساب والجزاء على الأعمال؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾ [الآيتانة: ٣، ٤].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾.

لما ذكر عز وجل دلائل قدرته في العالم العلوي برفع السموات بغير عمد، ذكر دلائل قدرته في العالم السفلي؛ فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ الآيتين، وفي هذا وذاك استدلال على كمال ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب إخلاص العبادة له دون سواه.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: وهو الذي خلق الأرض وجعلها ممدودة واسعة مبسوطة طولًا وعرضًا.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، أي: وخلق فيها جبالًا رواسي ثوابت، ترسيها وتثبتها عن التحرك والاضطراب والميدان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٧].

قال السعدي(١): «لئلا تميد بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها؛ لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتادًا لها».

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ذكر الأنهار بعد الجبال؛ لأنها تتفجر من الجبال؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٨٧.

فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٧].

أي: وجعل فيها، أي: في الأرض، أنهارًا جارية متفجرة منها؛ لسقي ما على ظهرها من الإنسان والحيوان والحروث والزروع؛ ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: ومن كل الثمرات المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح وغير ذلك.

﴿جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، أي: جعل فيها صنفين اثنين؛ كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والكبير والصغير، وغير ذلك؛ إتمامًا للنعمة؛ ليختار كلٌّ ما يحلو له ويناسبه.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف بتشديد الشين: «يُغشِّي»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿يُغۡشِي﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الآية: ٥٤]، أي: يجلل الليل النهار فيلبسه ظلمته، فتظلم الآفاق، ويحصل السكون والنوم والراحة من النصب والتعب في النهار، ويجلل النهار الليل بضيائه؛ لينتشر الناس في مصالحهم وأعمالهم بالنهار؛ قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [غافر: ٦١].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، الحديد: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

ويشمل هذا جعل الليل يغشى النهار بظلمته، وجعل النهار يغشى الليل بضيائه، واختلافهما طولًا وقصرًا واعتدالًا، وكل ذلك من دلائل كمال قدرة الله عز وجل، وتمام نعمته تعالى على العباد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، الإشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى

هنا، أي: إن في ذلك المذكور ﴿لَآيَٰتٍ﴾، أي: لعلامات ودلائل واضحات على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته على العباد، وعظيم حكمته.

﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يتفكرون في الآيات، ويتأملونها، ويعتبرون بها، ويستدلون بها على عظمة الله عز وجل، الذي خلقها ودبرها وصرفها، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾.

قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾، أي: قطع أراضٍ وبقاع يجاور بعضها بعضًا؛ منها بقاع طيبة التربة تنبت الزرع والكلأ وما ينتفع به الناس ومواشيهم، ومنها أراضٍ تمسك الماء فينتفع به الناس بأنفسهم ومواشيهم وزروعهم، ومنها أجادب قيعان سبخة مالحة لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، ومنها ما تربته حمراء، ومنها ما تربته بيضاء، ومنها ما تربته سوداء، ومنها ما تربته صفراء ،منها ما هي محجرة، ومنها ما هي سهلة ومنها رملية، منها سميكة ومنها رقيقة، ولكل منها صفاتها الخاصة ومنافعها.

﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾، أي: وفيها «جنات»، أي: بساتين من أعناب.

﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾، قرأ أبو عمر، وابن كثير، وحفص عن عاصم، ويعقوب: ﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾ بالرفع، عطفًا على «جنات»، وقرأ الباقون: «وزرعٍ ونخيلٍ» بالجر، عطفًا على «أعناب».

﴿صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ صفة لـ«نخيل»، و«صنوان» جمع «صنو»، وهي العدد من النخيل يجمعها أصل واحد، أي: النخيل تتفرَّع عن منبت وأصل واحد، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمر: «أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه؟»(١)، أي: أن عم الرجل يجتمع مع أبيه في أصل واحد.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- تقديم الزكاة ومنعها ٩٨٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٢٣، والترمذي في المناقب ٣٧٦١.

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ هي النخلات المتفرقات، المنفردة كل منها بمنبتها وأصلها على حدتها.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾، قرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب على التذكير: ﴿يُسْقَىٰ﴾، أي: يسقى ذلك، وقرأ الباقون على التأنيث: «تسقى»، أي: تسقى الجنات.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «ويفضل» بالياء، وقرأ الباقون بالنون: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ ، أي: نجعل بعضها يفضل بعضًا قدرًا وطعمًا ولذة ونفعًا ولونًا وشكلًا ورائحةً، وغير ذلك.

﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾، أي: فيما يؤكل، والمراد به هنا: الثمر والحب، فهذا حلو، وهذا حامض، وهذا مر، وهذا أخضر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أزرق، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ولا ينضبط؛ مع أنها تسقى بماء واحد، وهذا من أعظم الدلائل على كمال قدرة الله تعالى؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: إن في ذلك المذكور من قوله ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ إلى هنا، أي: إن في ذلك المذكور لَدلالات على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وكمال ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة وحده، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتحجزهم عما يضرهم، وبها يعقلون عن الله تعالى أمره ونهيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾.

قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، أي: وإن تعجب من شيء فعجب قول المشركين منكرين للبعث:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أئذا متنا واستحالت أجسامنا ترابًا ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: أئنا لمعادون في خلق جديد؛ كقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وقولهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ [ق: ٣].

والمعنى: وإن تعجب من شيء فعجب إنكارهم البعث، مع الآيات والدلائل الظاهرة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ من خلق السموات والأرض، وخلقهم من تراب أول مرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥- ٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

قال ابن القيم: «وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ فعجب قولهم، كيف ينكرون هذا، وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئًا؟!

والثاني: وإن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فإنكارهم للبعث وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته وحكمته وعدله وسلطانه»(١).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٨١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾، أي: الذين جحدوا وحدانيته وتفرده بالإلهية وقدرته على كل شيء، فأشركوا معه غيره في العبادة والإلهية، وأنكروا قدرته على البعث والمعاد.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وعيد وتهديد لهم، أي: وأولئك القيود والأنكال في أعناقهم ورقابهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، أي: أهلها وساكنوها وملازموها، فجمع لهم بين الأغلال والأنكال وبين ملازمة الجحيم والحميم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢﴾ [المزمل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيها إقامة أبدية، لا يموتون ولا يخرجون منها أبدًا.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓر﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم وامتداحه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

٣- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به القرآن الكريم؛ لأنه أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله عز وجل كلها.

٤- دلالة القرآن على أنه من عند الله تعالى، وعلى صدق النبي ﷺ؛ لهذا سميت نصوصه آيات.

٥- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، غير مخلوق، تكلم الله عز وجل به بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

٦- إثبات رسالة النبي ﷺ بإنزال القرآن عليه، وتشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٧- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل؛ فله عز

وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن ما أنزله تعالى على رسوله ﷺ من آيات الكتاب هو الحق الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾، فهو حق ونزل بالحق، واشتمل على الحق، أخباره صدق، وأحكامه عدل.

١٠- عدم إيمان كثير من الناس، مع إنزال القرآن الكريم عليه ﷺ من ربه، وكونه الحق الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١١- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم غير مؤمنين وعلى غير هدى، بل على ضلال مبين.

١٢- عظمة الله عز وجل وتمام قدرته؛ حيث خلق السماء ورفعها بلا عمد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

١٣- أن السموات مرفوعة بلا عمد، فهي على الأرض كالقبة.

١٤- إثبات استواء الله عز وجل على العرش بعد خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: استواء يليق بجلاله وعظمته.

١٥- إثبات العرش، وهو سرير الملك، وأكبر المخلوقات، وسقف الجنة.

١٦- تسخير الله عز وجل الشمس والقمر يجريان لمصالح العباد ومنافع الخلق إلى أجل مسمى، وهو فناء الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٧- تفصيل الله عز وجل وبيانه للآيات الشرعية؛ إقامةً للحجة، وإيضاحًا للمحجة؛ لقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

١٨- أن الحكمة من تفصيل وبيان الآيات الكونية والشرعية؛ ليؤمن الناس ويوقنوا بلقاء ربهم، ومحاسبته لهم، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

١٩- إثبات القيامة ولقاء الله عز وجل، والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾.

٢١- ينبغي التأمل والتفكر في آيات الله تعالى الكونية والشرعية؛ لأن ذلك سبب للإيمان واليقين.

٢٢- بيان عظمة آيات الله ودلائل تمام قدرته في العالم السفلي؛ بمد الأرض، وترسيتها بالجبال، وفيما جعل فيها من الأنهار، وأخرج منها من أصناف الثمار؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

٢٣- أن من نعم الله تعالى على العباد، ودلائل قدرته وحكمته: مد الأرض وبسطها وتوسعتها؛ لتسع الناس ومواشيهم وحروثهم، وغير ذلك من المخلوقات عليها.

٢٤- حكمة الله تعالى وتمام قدرته في جعل الجبال رواسي في الأرض وأوتادًا لها؛ لئلا تميد بأهلها.

٢٥- نعمة الله تعالى على العباد في جعل الأنهار في الأرض لسقيهم ومواشيهم وحروثهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

٢٦- منة الله تعالى وعظيم فضله على العباد في إخراجه لهم من كل الثمرات صنفين اثنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

٢٧- قدرة الله تعالى التامة وحكمته، ومنته على العباد في تكويره الليل على النهار، والنهار على الليل، وجعل كل منهما يغشى الآخر، والمراوحة بينهما طولًا وقصرًا واعتدالًا؛ لما في ذلك من المنافع للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

٢٨- أن فيما ذكر الله تعالى من دلائل قدرته في العالم العلوي والسفلي؛ من رفع السموات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر.. وغير ذلك، ومن مد الأرض وترسيتها بالجبال، وجعل الأنهار فيها، وأصناف الثمرات، ومن إغشائه الليل النهار، وتفصيل الآيات الكونية والشرعية: آياتٍ لقوم يتفكرون في ذلك، ويستدلون به على عظمة الله عز وجل وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته،

واستحقاقه العبادة وحده دون سواه.

٢٩- قدرة الله تعالى الباهرة، ونعمته الظاهرة في تكوين الأرض واختلاف قطعها وبقاعها مع تجاورها؛ فهذه خصبة منبتة، وهذه سبخة مالحة، وهذه ممسكة للماء، وهذه صلبة قاسية، وهذه رخوة لينة، وهذه لونها كذا، وهذه لونها غير ذلك، ولكل منها صفاتها ومنافعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾.

٣٠- منة الله تعالى وكرمه، وبديع صنعه فيما أخرج للعباد من جنات وبساتين مختلفة، من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد، ويفضِّل بعضها على بعضها في ثمرها وأكلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾.

٣١- أن فيما جعله الله في الأرض من قطع وبقاع متجاورات مع اختلاف صفاتها ومنافعها، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد، ويفضِّل بعضها على بعض في أكلها: آياتٍ لذوي العقول السليمة النيّرة، يستدلون بها على عظمة الله تعالى، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٣٢- الحث على التفكر والتعقل والتأمل في آيات الله ودلائل قدرته، والانتفاع بالعقل الذي ميَّز الله به الإنسان عن غيره؛ لأنه إنما ينتفع بالآيات أصحاب العقول النيرة المستقيمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٣٣- أن الذي يتفكر ويعقل حقًّا هو من قاده فكره وعقله إلى معرفة الله تعالى بآياته، وآمن وانقاد لشرع الله تعالى، وليس من تفكر وعقل فقط في أمر دنياه، وغفل عن آيات الله، وعن أمر أخراه؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

٣٤- أن مما يثير عجب كل متعجب إنكار الكفرة للبعث، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، مع وضوح الآيات والدلائل على تمام قدرة الله على ذلك؛ من خلق السموات والأرض، وخلقهم من تراب أول مرة، وغير ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾.

٣٥- كفر من أنكر البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾.

٣٦- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للذين أنكروا البعث وكفروا بربهم، بالأغلال والقيود في أعناقهم والخلود في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣٧- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، ولا يموت أهلها، ولا يخرجون منها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآية السابقة تكذيب الكفار بالبعث بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ثم أتبع ذلك بذكر تكذيبهم بما حذرهم الرسول ﷺ من الوعيد؛ فقال:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والمستعجلون هم الكفار المنكرون للبعث، والاستعجال: طلب تعجيل الشيء. والسيئة: ما يسوء ويُحزن. والحسنة: ما يحسن ويسر.

والمعنى: ويستعجلك يا محمد كفار قومك بسؤال العقوبة والبلاء، ويختارون ذلك، دون سؤال العافية والسلامة؛ إمعانًا منهم في المكابرة والعناد، والاستهزاء والاستخفاف بالوعيد، وجهلًا منهم وغرورًا، واغترارًا بحلم الله تعالى، كما قال بعضهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج: ١].

وهكذا استعجل قوم صالح من قبلهم العذاب؛ ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: ٤٦].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾، الواو: حالية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والحال أنهم قد خلت من قبلهم المثلات، جمع «مَثُلة» وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالًا تمثل به العقوبات المنكِّلات.

والمعنى: وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون بهم، ولا يخشون أن يصيبهم مثل ما حل بأولئك، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ الواو: حالية، والخطاب له ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه، واللام في قوله: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ وقوله بعده: ﴿لَشَدِيدُ﴾ للتوكيد.

ومعنى ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾، أي: صاحب مغفرة للناس، يغفر لمن تاب منهم من الشرك ونحوه، ويتجاوز عما دون ذلك، ويصفح ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة، ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، أي: على ظلمهم، وتعديهم بالوقوع بالشرك والمعاصي، وظلمهم أنفسهم بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بعد أن ذكر عز وجل سعة مغفرته بقوله: ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ ذكر شدة عقابه؛ ليجمع المرء بين الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فكما أنه عز وجل واسع المغفرة لمن تاب وأناب إليه، فهو شديد العقاب لمن أصر على الكفر والمعاصي، فلا ينبغي أن يغتر بحلمه وإمهاله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المنكرون للبعث، المستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؛ تعنتًا منهم وعنادًا، والتعبير بالمضارع يدل على تجدد ذلك منهم، والإظهار مقام الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾، «لولا»: للتحضيض، أي: هلا أنزلت عليه- يعنون النبي محمدًا ﷺ.

﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام، أو مثل ما يقترحونه

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

من جعل الصفا ذهبًا، أو إزالة جبال مكة وجعل مكانها مروجًا وأنهارًا، ونحو ذلك، كما في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وقولهم في هذه الآية: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إعلان صريح منهم بعدم اعتدادهم بأعظم الآيات التي أنزلها الله تعالى، وخصّ بها محمدًا ﷺ، آيات القرآن الكريم، مما يدل على أن هذا الاقتراح منهم على وجه العناد والتحدي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾، «إنما»: أداة حصر، وهو حصر وقصر إضافي، أي: ما أنت بالنسبة لهؤلاء المشركين إلا منذر، وليس إليك أمر الإتيان بالآيات، فذلك إلى الله تعالى وحده، و«المنذر» هو المخوف والمحذر للمكذبين من عذاب الله تعالى.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قرأ ابن كثير: «هادي» بإثبات الياء في الوقف، وقرأ الباقون بحذفها وصلًا ووقفًا.

أي: ولكل قوم هادٍ يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، من هؤلاء وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فلست بدعًا من الرسل،

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

أو لكل قوم هاد عظيم الشأن قادر على هدايتهم، هو الله سبحانه، فما عليك إلا الإنذار، والهداية بيد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: ٨].

بعد أن ذكر استعجال المنكرين للبعث بالعذاب واقتراحهم الآيات، أتبع ذلك ببيان سعة علمه عز وجل، وأنه لسعة علمه وحكمته يعجل العذاب ويؤجله بعلم وحكمة، كما ينزل الآيات ويمنع إرسالها بعلم وحكمة.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة تفيد العموم، أي: الله يعلم الذي تحمله كل أنثى من إناث الحيوانات كلها من حمل؛ ذكرًا كان أو أنثى، تامًّا أو ناقصًا، حسنًا أو قبيحًا، كبيرًا أو صغيرًا، طويلًا أو قصيرًا، شقيًّا أو سعيدًا، طويل العمر أو قصيره، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه، وعمره،**

وعمله، وشقي أو سعيد»(١).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**وكل الله بالرحم ملكًا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب أذكر أم أنثى؟ أي رب أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله: ويكتب الملك**»(٢).

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويعلم ما تغيض الأرحام، و«ما» في الموضعين كالتي قبلها: مصدرية أو موصولة، و«الغيض»: النقص، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]، ويقال في المثل: «هذا غيض من فيض»، أي: قليل من كثير.

أي: ويعلم الذي تنقص الأرحام وتزيد عليه من مدة الحمل، عن تسعة أشهر أو الزيادة عليها، أو من انحباس الحيض وقت الحمل أو وجوده، أو من عدد الحمل واحدًا أو أكثر، أو من نقص الولد أو كماله، أو إسقاط الحمل أو إتمامه، ونحو ذلك، كل هذا روي عن السلف في معنى الآية، والآية تشمل ذلك كله وأكثر منه؛ لعمومها.

قال ابن القيم بعد أن ذكر أقوال السلف في المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: «والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، فهو سبحانه المتفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيها، وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه؛ كالسقط والتام، ورؤية الدم وانقطاعه»(٣).

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٨)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في القدر (٦٥٩٥)، ومسلم في القدر (٢٦٤٦).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢/ ٤٨٢).

وقال ﷺ، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»(١).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ معطوف على جملة ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، أي: وكل شيء عنده بقدر وحد لا يجاوزه، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناته أن ابنًا لها في الموت، فقال النبي ﷺ: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب**»(٢).

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾.

تأكيد لما قبله، وبيان لعموم علمه وإحاطته بكل شيء.

قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، الغيب: ما غاب عن الناس، أي: ما غاب عن أبصارهم وحواسهم. والشهادة: الأشياء المشاهدة المحسوسة بالبصر، أو بالسمع وغيرهما من الحواس. والمقصود: الإخبار بإحاطة علمه بكل شيء، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، العظيم الشأن، الذي هو أكبر من كل شيء، ودونه كل شيء.

﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: المتعالي على جميع خلقه بذاته وصفاته، وقدرته وقهره، الذي بلغ غاية العلو.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٧)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨).

وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

بيَّن عز وجل- في الآية السابقة عموم علمه للغيب والشهادة، ثم أكد ذلك ببيان استواء السر والجهر، والإخفاء والإعلان عنده عز وجل.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾، أي: مستو منكم، أو يستوي منكم عند الله تعالى وفي علمه وسمعه.

﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، ﴿مَّنْ﴾ موصولة، أي: الذي أسر القول في نفسه، أو بينه وبين خاصته. ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، الواو للتقسيم بمعنى «أو»، أي: والذي جهر به، أي: بالقول، فأظهره للناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣].

قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١]»(١).

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: وسواء منكم من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار.

أي: ويستوي منكم عند الله تعالى وفي علمه وبصره من ﴿هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾، السين والتاء في ﴿مُسْتَخْفٍۭ﴾ للمبالغة، أي: الذي هو مختف مختبئ في ظلمة الليل في قعر بيته، أو في غار أو مغارة، ونحو ذلك.

﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، أي: أو سارب بالنهار، أي: ظاهر ماشٍ في سربه وطريقه في وضح النهار وضيائه، و«سارب» من سرب إذا ذهب.

أي: يستوي عنده عز وجل من أسر قوله ومن جهر به، ومن استخفى بعمله ومن أظهره، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦).

تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ [يونس: ٦١].

وفي قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ إشارة إلى أن من نواميس الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها: السكونَ في الليل والحركة في النهار، لكن كثيرًا من الناس اليوم انتكست فطرهم، فعكسوا الأمر، فجعلوا الليل محلًّا للسهر والحركة، بل للهو واللعب، والنهار وقتًا للسكون والنوم والكسل؛ ولهذا اختلت الموازين عندهم، واضطربت حياة كثير منهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾.

ذكر عز وجل أنه يستوي عنده من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٍ بالنهار، ثم أتبع ذلك بذكر حفظه للإنسان وأعماله بما وكل عليه من المعقبات.

قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾، أي: لكل منكم؛ لقوله في الآية السابقة: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾.

والمعنى: للإنسان، أو لكل إنسان معقبات، و«معقبات» جمع مُعَقِّبة، وهم: الملائكة الذين وكِّلوا بحفظ الإنسان وحفظ أعماله، سموا «معقبات»؛ لتعاقبهم عليه في الليل والنهار.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، أي: من أمامه، ومن ورائه، ومن جميع جوانبه؛ وذلك لتكريم الله تعالى للإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: حفظهم له من أمر الله تعالى لهم بذلك، و﴿مِنْ﴾ تعليلية سببية بمعنى اللام أو الباء، أي: لأن الله أمرهم بذلك، أو بسبب أن الله أمرهم بذلك، والمعنيان متقاربان.

والمعنى: لكل إنسان معقبات من الملائكة، يتعاقبون عليه في الليل والنهار، يحفظونه ويحفظون أعماله، أربعة ملائكة بالليل، وأربعة بالنهار، اثنان يحفظانه ويحرسانه بأمر الله تعالى في يقظته ومنامه من الشرور والحادثات؛ أحدهما أمامه والآخر خلفه.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه»(١).

واثنان يكتبان أعماله؛ أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والثاني عن شماله يكتب السيئات.

قال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم- وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون**»(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، «ما» موصولة في الموضعين، أي: إن الله لا يغير الذي بقوم مما أنعم به عليهم من الأمن والعافية ورغد العيش، وغير ذلك من النعم، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إل المعصية، ومن شكر النعم إلى كفرها؛ فيسلبهم إياها عند ذلك.

وكذلك إذا غيَّر العباد ما بأنفسهم من المعصية وكفر النعم إلى الطاعة والشكر، غيَّر الله عليهم ما هم فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، تأكيد للتحذير في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أي: وإذا أراد الله كونًا بقوم ﴿سُوٓءًا﴾، أي: أمرًا سيئًا يكرهونه من شدة أو عقوبة وعذاب.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٢)، والنسائي في الصلاة (٤٨٥)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، أي: فإنه واقع بهم، ونافذ فيهم؛ لأنه لا راد لما أراده الله تعالى، وفي هذا وعيد وتهديد، وتحذير شديد من مخالفة أمر الله تعالى.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾، قرأ ابن كثير: (والي) بإثبات الياء في الوقف، وقرأ الباقون بدونها في الوصل والوقف.

أي: وما لهم من دون الله تعالى ﴿مِن وَالٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما لهم من دون الله من أيِّ وال يتولاهم؛ بجلب النفع لهم، ودفع الضر والعذاب عنهم.

الفوائد والأحكام:

١- جهل المشركين ومكابرتهم وعنادهم في استعجالهم السيئة قبل الحسنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له.

٣- عدم اعتبار المكذبين والكفار بعقوبات المكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾.

٤- وجوب أخذ العظة والعبرة مماحل بالمكذبين للرسل.

٥- مغفرة الله تعالى للناس وحلمه بهم، مع ظلمهم وارتكابهم للكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله تعالى.

٨- ظلم الناس بارتكابهم المعاصي، وظلمهم لأنفسهم.

٩- شدة عقاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

١٠- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الرجاء والخوف، والرغبة والرهبة.

١١- اقتراح الكفار- تعنتًا منهم وعنادًا- إنزال الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾.

١٢- تكذيب الكفار للقرآن وعدم اعتدادهم به، وهو أعظم ما أنزل الله تعالى من

الآيات، وذلك أكبر دليل على كذبهم وتعنتهم في طلبهم الآيات.

١٣- جفاء الكفار في تعبيرهم في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وذلك من وجهين؛ أحدهما: استعمالهم ضمير الغائب بدل ضمير الخطاب له ﷺ؛ إظهارًا لعدم المبالاة به، والثاني: قولهم: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وكأن له ربًّا غير ربهم، وهم يعلمون أن رب الجميع واحد.

١٤- أن رسول الله ﷺ إنما هو منذر للمكذبين من عذاب الله تعالى، وليس إليه إنزال الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾.

١٥- أن لكل قوم هاديًا وداعيًا يدعوهم إلى الهدى، من الرسل وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

١٦- جمع الرسل عليهم الصلاة والسلام بين الإنذار من عذاب الله، والتحذير من سلوك طرق الضلال المفضية إليه، وبين هداية الناس ودلالتهم إلى طريق الحق المؤدي إلى سعادة الدارين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

١٧- علم الله تعالى التام بما تحمله كل أنثى من إناث الحيوانات كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾.

١٨- علم الله عز وجل التام بغيض الأرحام وازديادها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

١٩- أن كل شيء عند الله عز وجل بمقدار، لا يتجاوزه إلا حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

٢٠- إحاطة علم الله تعالى بالغيب والشهادة على السواء، وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، وأنه سبحانه أكبر من كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، وأنه سبحانه متعال على جميع خلقه بذاته وصفاته وقدرته وقهره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾.

٢٣- استواء الإسرار بالقول والجهر به عنده عز وجل وفي علمه وسمعه؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾.

٢٤- استواء الاستخفاء والإعلان والإظهار عنده عز وجل، وفي علمه وبصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

٢٥- أن الليل وقت السكون والراحة، والنهار وقت الحركة والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

٢٦- عناية الله تعالى بحفظ الإنسان، وحفظ أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

٢٧- إثبات المعقبات من الملائكة الذي يحفظون ابن آدم ويحرسونه، ويحفظون أعماله ويكتبونها.

٢٨- أن الله لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم من الإيمان والطاعة إلى الكفر والمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٢٩- أن النعم إذا شكرت قرت وزادت، وإذا كفرت فرت؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

٣٠- أن ما أراده الله من سوء من عقاب ونحوه نافذ لا محالة، لا راد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

٣١- أنه لا والي لمن أرادهم الله بسوء يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ كما أنه لا ولي لأحد من الخلق يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الضر إلا الله .

٣٢- التحذير من مخالفة أمر الله ونقمته وعذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

أنذر الله عز وجل المكذبين بأنه إذا أراد بقوم سوءًا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال، ثم أتبع ذلك بما يدل على تمام قدرته عز وجل على الإنعام والانتقام؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ الآيتين.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: هو الله الذي؛ لعظمته وتمام قدرته ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، وهو النور اللامع الساطع من خلل السحاب.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مصدران منصوبان على المفعول له، أي: يريكم البرق؛ لأجل تخويفكم من الصواعق والهدم والغرق وأنواع الضرر، ولأجل إطماعكم بالغيث والمطر، والرزق والنفع، والبركة والخير، ففيه لكم نذارة وبشارة.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾، أي: يخلق السحاب ويوجده نشئًا جديدًا.

﴿ٱلثِّقَالَ﴾، أي: المثقل المحمَّل بالماء الكثير، والمطر الغزير، وعلامة ثقله قربه من الأرض، وبطء تنقله بالرياح.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾، الباء للملابسة، أي: ويسبح الرعد الله تسبيحًا ملابسًا لحمده. و«التسبيح»: التنزيه والتقديس. و«الرعد»: الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج المخيف للعباد؛ ولهذا كان ﷺ إذا سمع صوت الرعد قال: «**اللهم لا تقتلنا**

بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد**»(٢).

فالرعد خاضع لربه، مسبح بحمده، كغيره من المخلوقات من حيوان وجماد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ معطوف على «الرعد»، و«من»: تعليلية، أي: وتسبح الملائكة بحمده خوفًا منه، أي: تقدس الله عز وجل وتعظمه، وتنزهه عما لا يليق به، وتتعبد له، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۝٣٨﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»(٣).

وفيه تعريض بالكافرين والمشركين المعرضين عن عبادة الله وتعظيمه بغناه عز وجل عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي النار التي تخرج من السحاب؛ يرسلها عز وجل إنذارًا وتخويفًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٠٠، ١٠١، والترمذي في أبواب الدعوات- ما يقول إذا سمع الرعد ٣٤٥٠- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال «حديث غريب».

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٩.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ- كتاب الكلام- القول إذا سمعت الرعد ١٨٦٩، من حديث عامر بن عبد الله بن الزبير.

أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩].

﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، مما يتسبب في هلاك أو تضرر بعض الأنفس، أو المواشي، أو بعض الزروع والثمار والأشجار، والمساكن والممتلكات، وغير ذلك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق تلكم الغداة، فيقولون: صعق فلان وفلان**»(١).

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ الجملة: حالية، أي: والحال أنهم، أي: الكافرون والمكذبون ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾، أي: يحاجون ويخاصمون ويشُكون في الله، أي: في عظمته ووحدانيته وتمام قدرته، وينكرون قدرته على البعث، ويقترحون الآيات، ويستعجلون العذاب استهزاءً. والمجادلة: المخاصمة بشدة.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، أي: والحال أنه عز وجل ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، أي: شديد الحول والقوة، والأخذ والبطش، والمماحلة والمكايدة للكائدين، والمكر بالماكرين؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

لما ذكر عز وجل تمام قدرته على الإنعام والانتقام، أتبع ذلك بذكر استحقاقه عز وجل وحده للدعاء والعبادة لا شريك له في ذلك.

قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ اللام: للاستحقاق والاختصاص، أي: لله عز وجل وحده خاصة.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٦٤، ٦٥.

﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: له عز وجل الدعوة الحق، أي: له خاصة الدعاء والعبادة الحق، بشهادة أن لا إله إلا الله، وتوحيده وإفراده بالدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: والآلهة الذين يدعوهم المشركون من دون الله، من الأصنام والأنداد والأوثان.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾، أي: لا يستجيبون لمن يدعونهم ويعبدونهم.

﴿بِشَىْءٍ﴾ التنكير للتعميم والتحقير، أي: لا يستجيبون لهم بأي شيء: أيًّا كان، ومهما قَلَّ؛ من جلب نفع، أو دفع ضر؛ لأن هذه المعبودات كلها باطلة، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فكيف تملك ذلك لعابديها؟

وأجرى على هذه الآلهة ضمائر العقلاء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾؛ لأنهم يُعامِلون هذه الآلهة معاملة العاقل.

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كحال باسط كفيه، أي: مادٍّ يديه من طرف البئر ﴿إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ الذي لا تناله يداه لبعده. وبسط الكف: نشر الأصابع ممدودة؛ كما قال الشاعر في مدحه ﷺ:

تَعوَّد بسْطَ الكف حتى لوَ أنه ... نواها لقبضٍ لم تطعه أناملُهْ(١)

﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾، أي: لأجل أن يصل فاه، أي: فمه، ليروي ظمأه الشديد، فهو من شدة عطشه يمد يديه إلى الماء؛ ليتناوله من بعد، وهيهات أن يصل إليه؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ الواو للحال، أي: وما هو، أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾، أي: ببالغ وواصل «فاه». وقيل: وما هو، أي: الباسط ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾، أي: ببالغ الماء، أو أن فروج أصابعه لما قبض على الماء خانته فلم تمسك الماء.

والعرب تضرب لمن سعى في أمر لا يدركه مثلًا بالقابض على الماء؛ كما قال الشاعر:

---

(١) البيت لأبي تمام يمدح المعتصم. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ٣٢٠)، «نهاية الأرب» (٣/ ١٨٤)، «ديوان المعاني» (١/ ٢٤).

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع(١)

وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ تأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ لأن المعنى: أن هؤلاء الآلهة الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا يستجيبون لهم بأي شيء، فلا ينتفعون بهم أبدًا؛ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، كحال الذي يبسط يديه إلى الماء ليتناوله من بعد ليبلغ فاه، وما هو ببالغه لشدة بعده، أو كالذي يقبض على الماء ليوصله فاه فتخونه فروج أصابعه، فلا يصل إلى فيه قطرة ماء.

وهذا من أحسن الأمثلة وأبلغ التشبيه؛ لأن فيه تشبيهًا بأمر محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: وما دعاء الكافرين وعبادتهم لهذه الآلهة من دون الله ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا في ضياع وخسار وبطلان؛ لبطلان ما يدعون من دون الله، وكون هذه الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ولله وحده يسجد جميع الذين في السموات والأرض من المخلوقات من الإنس والجن والملائكة والحيوان والجماد وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿طَوْعًا﴾ مصدر في موضع حال، أي: طائعًا، أي: سجود طواعية واختيار وانقياد من المؤمنين ومن جميع المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

---

(١) انظر: «العقد الفريد» (٣/ ٤٧)، «التمثيل والمحاضرة» (ص٢٥٧)، «نهاية الأرب» (١/ ٢٨٠)، «مجاني الأدب» (٤/ ١٠٤).

والطوع: الانسياق والامتثال من النفس؛ تعظيمًا لله تعالى ومحبةً له وتقربًا إليه.

﴿وَكَرْهًا﴾ معطوفة على ﴿طَوْعًا﴾، أي: ومكرها، أي: سجود كره من الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

فكل ما ذكر يسجد لله تعالى سجود طاعة وانقياد، ثم قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] وهم الكفرة؛ لأنهم لم يسجدوا لله سجود طاعة وامتثال، وإنما سجدوا مكرهين، سجود انقياد فقط لأمر الله عز وجل الكوني.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ معطوف على «من» الموصولة في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ولله يسجد الذي في السموات والأرض من المخلوقات، ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾، أي: ويسجد له سبحانه ظلال هذه المخلوقات.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾، الغدو: البكور وأول النهار، والآصال: العشي وآخر النهار.

والمعنى: ويسجد له سبحانه ظلال هذه المخلوقات؛ غربيًّا كان أو شرقيًّا، فظل الغدو من جهة الغرب، وظل الآصال من جهة الشرق؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

وسجود هذه المخلوقات وظلالها كل بحسبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا كانت المخلوقات تسجد كلها لربها طوعًا وكرهًا كان هو الإله المعبود حقًّا، وإلهية غيره باطلة؛ ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه وعلى وحدانيته بقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ١٦].

قال الشاعر:

فوا عجبا كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد(١)

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

وهذه هي السجدة الثانية من مواضع السجود في القرآن الكريم، بعد سجدة الأعراف، وبالسجود عند قراءة هذه الآية يضع المسلم نفسه في عداد الساجدين لله طوعًا، وهو اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته في إيجاد البرق، وإنشاء السحاب الثقال، وجعل الرعد يسبح بحمده والملائكة من خيفته، وإرسال الصواعق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

٢- حكمة الله تعالى وقدرته الباهرة في إيجاد البرق؛ إخافةً للعباد من الصواعق والهدم وأنواع الضرر، وإطماعًا لهم بالغيث والمطر والرزق والخير؛ لقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

٣- تمام قدرة الله تعالى في إنشاء السحاب الثقال المحمل بالماء، الذي لا يقدر قدر غزارته وكثرته إلا الله تعالى، والذي لو نزل على مساحات كبيرة شاسعة واسعة من الأرض لأغرقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾.

٤- تسبيح الرعد بحمد الله كغيره من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٥- إثبات وجود الملائكة وتسبيحهم بحمده عز وجل؛ تنزيهًا له وعبادةً وتعظيمًا، وخوفًا منه وخشيةً وإجلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

٦- تخويف الله عز وجل العباد بإرسال الصواعق، وإصابته بها من يشاء؛ ابتلاءً وبيانًا لعظيم قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

٧- مجادلة المشركين ومحاجتهم في الله، وتشكيكهم في عظمته ووحدانيته وقدرته على البعث، واستهزاؤهم باقتراح الآيات واستعجال العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾.

٨- التحذير من بطش الله وأخذه، وبيان أنه شديد الحول والقوة والأخذ

والبطش؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

٩- أن لله عز وجل وحده دعوة الحق والعبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾.

١٠- أن ما يدعوه المشركون ويعبدونه من دون الله من الآلهة محال أن يستجيبوا لهم بأي شيء؛ من جلب نفع، أو دفع ضر؛ لأن الله شبههم بدعائهم هذه الآلهة بمن يمد يديه من بعيد إلى الماء ليبلغ فاه، وذلك مستحيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

١١- بلوغ القرآن الغاية في إبطال الشرك والتنفير منه؛ حيث شبَّه استحالة انتفاع المشركين بأي شيء من معبوداتهم باستحالة بلوغ الماء لمن يمد يديه من بُعد ليبلغ الماء فاه، وهيهات له ذلك.

١٢- ضياع دعاء الكافرين لهذه المعبودات وبطلانه؛ لبطلان هذه المعبودات، وما بني على باطل فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

١٣- سجود كل من في السموات والأرض من المخلوقات لله طوعًا وكرهًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، فالمؤمنون والملائكة وسائر المخلوقات يسجدون لله طوعًا؛ خضوعًا وتعظيمًا له، كما قال تعالى عن السماء والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وأما الكفار فيسجدون لله كرهًا، أي: مكرهين منقادين لأمره الكوني رغم أنوفهم.

١٤- سجود ظلال جميع المخلوقات لله عز وجل بالغدو والآصال؛ لقوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر سجود من في السموات والأرض له عز وجل طوعًا وكرهًا وظلالهم، برهن على وحدانيته وبطلان عبادة غيره.

قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، الاستفهام: للتقرير، أي: لتقرير المشركين تقريرًا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، أي: من خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل الله ربهما.

وأمْره عز وجل له ﷺ بالإجابة من قبله بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ للإشعار بتعيّن هذا

الجواب، فهو وهم في تقريره سواء، وهو حكاية لاعترافهم بهذا، وكونهم لا ينكرونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

والمقصود تقرير توحيد الإلهية الذي ينكرونه، والاستدلال على وجوبه بتوحيد الربوبية الذي يقرون به؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، فإقرارهم بتوحيد الربوبية، وأن الله هو رب السموات والأرض، وخالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، وهو خالقهم؛ يوجب عليهم إفراده بالعبادة وتوحيده بالإلهية؛ ولهذا قال:

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: قل إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع، أي: أبعد أن علِمتموه رب السموات اتخذتم من دونه أولياء؟، أي: أجعلتم من دون رب السموات والأرض أولياء، عبدتموهم وأشركتموهم معه في العبادة؟

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا يملكون لأنفسهم جلب نفع ولا دفع ضر، أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، وإذا كانوا لا يملكون ذلك لأنفسهم فعدم ملكهم ذلك لغيرهم من باب أولى، فكيف يتخذون أولياء ويعبدون من دون الله؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦].

وعبر عن آلهتهم بضميري من يعقل في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾؛ لاعتقادهم ذلك فيها.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، أعاد الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام، أي: هل يستوي الكافر الذي تعبَّد على جهل، وأشرك بالله، وعبد معه غيره، والمؤمن الذي عبد الله تعالى على بصيرة وحده لا شريك له؟

والجواب: لا يستويان؛ فالكافر يتخبط في ظلمات الكفر والشرك والجهل،

كالأعمى لا يبصر الطريق، ولا يدري أين يسلك.

والمؤمن على نور من ربه، يمشي سويًّا على صراط مستقيم، كالبصير الذي يبصر الطريق ويعرف أين يسلك.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بالياء مذكرًا: «يستوي»، وقرأ الباقون بالتاء مؤنثًا: ﴿تَسْتَوِي﴾.

﴿أَمْ﴾ في الموضعين هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل هل تستوي ظلمات الكفر والضلال والشرك والشك والجهل، ونور الإيمان والهدى والقرآن والعلم؟

والجواب: لا يستويان؛ فالكفر والضلال والشرك والشك والجهل فيها الحيرة والتخبط والقلق، كظلمات الليل والبحار والأمواج والسحاب، يتحير فيها المسافر، وتنتابه المخاوف والقلق.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، أي: بل أجعلوا لله شركاء؟

﴿خَلَقُوا۟﴾، أي: أوجدوا خلقًا.

﴿كَخَلْقِهِۦ﴾، أي: كخلق الله عز وجل.

﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فتشابه ما خلقه هؤلاء الشركاء وما خلقه الله على هؤلاء المشركين، فجعلوهم شركاء لله من أجل ذلك، أي: ليس الأمر كذلك، أي: أنهم ما اتخذوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؛ حتى يقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة كما استحقها الله، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلًا عما يقدر عليه الخالق، وهم يقرون بأنها مخلوقة لله تعالى معبّدة له، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٤].

كما يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»(١).

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أعاد الأمر للاهتمام، أي: قل لهم يا محمد: الله خالق كل شيء، فلم يخلق شركاؤكم شيئًا، بل هم مخلوقون لله عز وجل؛ إذ لا شيء من

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ١١٨٥- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المخلوقات خلق نفسه، ولا شيء منها وُجد بلا خالق؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وحيث لا شركاء له في الخلق فلا شركاء له في العبادة؛ ولهذا قال:

﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾، «الواحد» من أسمائه عز وجل، أي: وهو سبحانه الواحد الأحد في ربوبيته وإلهيته وأسمائه، المستحق للعبادة وحده دون سواه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصمد: ١- ٤].

﴿الْقَهَّارُ﴾، «القهار» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو القهر والغلبة لجميع المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١].

قال ابن القيم: «فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر»(١).

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

ضرب الله عز وجل في هذه الآية مثلين للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في اضمحلاله وفنائه؛ أحدهما مائي، والثاني ناري، ذكر أولًا المثل المائي بقوله:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: أنزل عز وجل ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: من العلو، أي: من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٨٤.

السحاب والمزن الذي في العلو، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]. ﴿مَآءً﴾، أي: مطرًا.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾، أي: فجرت أودية. والأودية: جمع «واد»، وهو: مجرى السيل.

﴿بِقَدَرِهَا﴾، أي: بقدر كبرها وصغرها، وما تحتمله من السيول، فأخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع الكثير من الماء، وهذا صغير وسع من الماء بقدره.

وهذا إشارة إلى القلوب وتفاوتها في قبول الهدى والعلم والخير؛ فمنها ما يتقبل ذلك ويسع الكثير منه، ومنها ما لا يتسع لذلك، بل يضيق عنه.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾، أي: فاحتمل السيل من قوة الجيشان، أي: حمل ﴿زَبَدًا﴾ غثاءً لا نفع فيه، ﴿رَّابِيًا﴾ مرتفعًا على الماء وعلى جنبات الوادي.

هذا هو المثل الأول المائي، ثم ذكر عز وجل المثل الثاني الناري بقوله:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بياء الغيبة: ﴿يُوقِدُونَ﴾، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: «توقدون».

أي: ومن الذي يوقدون عليه في النار من الذهب والفضة ونحوهما، أي: ومما يسبك في النار ويصاغ من ذلك، وعدل عن تسمية الذهب والفضة إلى الموصولية بقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾؛ اختصارًا؛ لأن الصلة تغني عن ذكرهما، وليشمل ذلك كل ما يوقد عليه من المعادن؛ ذهبًا كان أو فضة، أو حديدًا أو نحاسًا، أو غير ذلك.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾، أي: لأجل طلب حلية، أي: زينة يُتحلى بها مما يصاغ ويسبك من الذهب والفضة.

﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ معطوف على «حلية»، أي: أو لأجل طلب متاع، وهو ما يتمتع به من الأواني وآلات الحرب والحرث والمراكب، وغير ذلك من الحديد والنحاس، ونحو ذلك.

﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، أي: مثل زبد السيل، وهو خبثه الذي ينفيه الكير، كما في الحديث: «**كما ينفي الكير خبث الحديد**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٧١، ومسلم في الحج ١٣٨٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: مثل ذلك المثلين ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: يبين مثلهما إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، فكذلك الباطل لا ثبات له أمام الحق؛ فالحق ثابت باق، والباطل زائل زاهق.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، الفاء عاطفة، و«أما» في الموضعين حرف شرط وتفصيل.

﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾، أي: متلاشيًا مقذوفًا مرميًّا به، فلا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح.

وكذلك زبد وخبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ويضمحل، ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء الصافي، والذهب الخالص ونحوه؛ ولهذا قال:

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، «ما» موصولة، أي: وأما الذي ينفع الناس، وهو الماء.

﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يبقى فيها منتفعًا به على ظاهرها وفي باطنها.

قال ابن تيمية: «شبَّه ما يَنزِل من السماءِ على القلوبِ من الإيمان والقرآن، فيختلط بالشبهات والأهواء المغوية، بالمطر الذي يحتمل سيله الزبد، وبالذهب والفضة والحديد ونحوه إذا أذيب بالنار، فاحتمل الزبد فقذفه بعيدًا عن القلب، وجعل ذلك الزبد هو مثل الباطل الذي لا منفعة فيه، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن فهو مثل الحق النافع، فيستقر ويبقى في القلب»(١).

وقال ابن القيم: «قد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد في حق المؤمنين، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الآية: ١٧]؛ شبَّه الوحي لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماءً كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت القلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاءً وزبدًا، فكذلك العلم

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣- ٤/ ٣١٢.

والهدى إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات؛ ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطًا فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

ثم ذكر المثل الناري، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ ؛ وهو الخَبَثَ الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والحديد والنحاس، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، وكذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه، وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يدرِهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلها، والله الموفق»(١).

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تفخيم لهذا التمثيل، وتنويه بضرب الأمثال وفائدتها، وتأكيد لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، وهو أعم منه، والكاف للتشبيه، والإشارة إلى التمثيل السابق في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الآية.

أي: مثل ذلك الضرب البديع المحكم النافع المفيد ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، أي: يبينها.

والأمثال جمع «مَثَل»، وهو تشبيه وتمثيل أمر معنوي يراد تقريبه وبيان معناه والاعتبار به، بأمر حسي؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

فالمراد من ضرب الأمثال تقريب المعاني وتبيينها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٨٤- ٤٨٥.

ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا؛ فكان منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب قيعان أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»(١).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

ضرب الله عز وجل في الآية السابقة مثلين للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في زهوقه واضمحلاله، ثم أتبع ذلك بذكر جزاء من اتبع الحق ومن اتبع الباطل، ومآل كل منهما.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ اللام للاختصاص، أي: للمؤمنين خاصة، الذين استجابوا لربهم، أي: انقادوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله ﷺ؛ باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة والمثوبة الحسنى والجزاء الحسن؛ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨].

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾، وهم الكفرة الذين لم يستجيبوا لله تعالى ورسوله، بل عصوا الله ورسوله، بعد ضرب الأمثال، وبيان الحق من الباطل، وقيام الحجة عليهم.

﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: لو أن لهم الذي في الأرض جميعًا من ذهب

---

(١) أخرجه البخاري في العلم- فضل من علم علمًا ٧٩، ومسلم في الفضائل- بيان فضل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم ٢٢٨٢.

وفضة وأصناف الأموال.

﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾، الضمير الهاء يعود إلى «ما» الموصولة، أي: لو أن لهم الذي في الأرض جميعًا ومثل الذي في الأرض مضافًا معه، أي: لو أن لهم ضعف ما في الأرض، أي: كثره مرتين.

﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ﴾، الضمير في «به» يعود إلى ما في الأرض ومثله معه، أي: لدفعوه فديةً مقابل الخلاص مما هم فيه من سوء العذاب وشدة الكرب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٤٧].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، أي: أولئك لهم سوء الحساب في الآخرة، يناقشون على النقير والقطمير، والقليل والكثير، والجليل والحقير، مما أسلفوه من أعمال سيئة، وما ضيعوه من حقوق الله، وحقوق عباده، مما سطر عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، أي: ومصيرهم ومآلهم بعد هذا الحساب السيئ جهنم، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**من نوقش الحساب هلك**» (١).

و«جهنم» من أسماء النار، سميت به لجهمتها، أي: ظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، أي: وبئس المقر والفراش والمسكن جهنم؛ لجمعها بين أصناف العذاب.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٠٣، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

بعدما ذكَر جزاء ومصير من استجابوا لربهم، وجزاء ومصير من لم يستجيبوا له، ذكَر مبرر هذا الاختلاف في الجزاء والمصير، وأنه لا يستوي في الجزاء والمصير من يعلم أن الذي أنزل عليه ﷺ من ربه هو الحق ومن هو أعمى، شتان بين مشرق ومغرب:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أفيستوي الذي يعلم، أي: يؤمن ويصدق، ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: إن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك-يعني: القرآن الكريم- ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا مرية، ولا لبس فيه ولا اختلاف؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

أخباره صدق، وأحكامه عدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾، أي: كالذي هو أعمي، لا يعلم الحق ولا يهتدي إليه، ولا يؤمن به ولا يصدقه.

أي: لا يستوي هذا وهذا، وشتان بينهما، شتان بين من علم أن ما جئت به يا محمد هو الحق، فآمن به وصدقه، وانقاد له واتبعه، وبين من جهل ذلك وضل عنه ولم يهتد إليه، فهو متحير في ظلمات الباطل والشك والكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]،

---

(١) «النونية» لابن القيم ص٤٧.

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٢٠].

قال ابن القيم: «وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء، وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك، وشهادة المؤمنين عليهم»(١).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، تعليل للإنكار والنفي، و«إنما» أداة حصر، أي: لأنه إنما يتذكر ويتعظ ويعلم الحق ويهتدي إليه أولو العقول السليمة، وفيه تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا أهلًا للتذكير؛ وأنهم لا عقول لهم؛ لعدم انتفاعهم بها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٠- ٢٤].

حصر عز وجل في الآية السابقة التذكر في أولي الألباب، ثم ذكر في هذه الآيات صفاتهم الجميلة وأعمالهم الجليلة، وما أعد لهم من الثواب والعقبى الحسنة.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، هذه الجملة وما بعدها إلى قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ كلها في محل رفع صفات لـ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: الذين من صفتهم الوفاء بعهد الله، و«عهد الله» مصدر مضاف لمفعوله، أي: ما عاهدوا الله عليه، أي: على فعله.

ويحتمل أن يكون من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: ما عهد الله به إليهم.

والمعنى على الاحتمالين: الذين يوفون بالذي عهد الله به إليهم، وعاهدوه عليه؛ من الإيمان والإسلام، وعبادته عز وجل وحده، وفعل الواجبات، وترك المنهيات؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٩٣.

مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، هذه من الصفات المنفية التي يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فهي تأكيد لقوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

و«الميثاق»: العهد المؤكد، و«ال» فيه للجنس، أي: جميع المواثيق؛ مما بين العبد وبين ربه، ومما بين العبد وبين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، أي: والذين من صفتهم أنهم ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، «ما»: موصولة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: يصلون الذي أمر الله بوصله، والوصل: ضم شيء لشيء، وضده: القطع.

أي: يصلون جميع الذي أمر الله به أن يوصل، وهو عام في جميع الأوامر والعلائق التي أمر الله بصلتها؛ منها: آصرة الإيمان والإسلام بأداء حقوق المسلمين، ومنها: آصرة القرابة بصلة الرحم، ومنها: آصرة الجوار بأداء حق الجار، وغير ذلك.

قال ابن القيم: «ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه»(١).

فهم يصلون كل ما أمر الله بوصله؛ فيصلون أرحامهم، ويصلون إخوانهم المؤمنين، ويؤدون حقوقهم، ويصلون جيرانهم، ويصلون ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين ونحوهم بالإحسان إليهم، وبذل المعروف لهم، وغير ذلك.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: ويخافون ربهم، فيراقبونه فيما يأتون ويذرون في جميع الأحوال.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، الذي يعامل به الذين لم يستجيبوا لله، ولم يفوا بعهد الله، ولم يصلوا ما أمر الله به أن يوصل.

فحملتهم خشيتهم ربهم، وخوفهم سوء الحساب على الوفاء بعهد الله وعدم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٩٤.

نقضه، وصلة ما أمر الله بوصله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: والذين من صفتهم أنهم ﴿صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، والصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله، أي: اصبروا على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: طلب مرضاة ربهم وجزيل ثوابه.

والصبر عليه مدار الأعمال كلها؛ لأنه لا يقوم شيء منها إلا بالصبر، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصبر نصف الإيمان» (١).

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامةً تامةً، كما شرعها الله، بشروطها وأركانها، وواجباتها وسننها. وذكرها بعد صفة الصبر؛ لأنها لا تقوم إلا به، ولأنها هي والصبر أكبر ما يعين على أمور الدين والدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، ذكر إقامتهم الصلاة ثم ذكر إنفاقهم مما رزقهم الله بأداء الزكاة وغيرها من النفقات؛ لأن الصلاة والزكاة قرينتان، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية.

أي: وأنفقوا من الذي رزقناهم وأعطيناهم من الأموال والخيرات، فأخرجوا ما فيه من النفقات الواجبة؛ كالزكاة، والنفقة على الأولاد والأهل، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة؛ من الصدقات والهدايا ونحو ذلك.

فجمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى بإقامة الصلاة؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعةً لرسوله ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله بالإنفاق مما رزقهم الله.

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ حالان، أي: وأنفقوا مما رزقناهم في حال السر والجهر.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، لما ذكر حسن عبادتهم وقيامهم بحقوق الله وحقوق

---

(١) أخرجه الطبراني بإسناد صحيح، انظر: «مجمع الزوائد» ١/ ٥٧.

خلقه، ذكر حسن أخلاقهم مع الناس بمقابلة الإساءة بالإحسان، وإتباع السيئة الحسنة.

أي: ويدفعون بالحسنة السيئة، أي: يدفعون بالقول والفعل الحسن القول والفعل السيئ والقبيح، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل؛ صبرًا واحتسابًا وصفحًا وعفوًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان؛ فما ظنك بغير المسيء؟!

كما أنهم أيضًا يتبعون السيئة الحسنة؛ لتذهبها وتمحوها، فيتبعون المعصية والذنب الطاعة والاستغفار والتوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، الجملة مستأنفة، أو خبر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وما عطف عليه.

والإشارة للذين وصفوا بتلك الصفات الجليلة، والمناقب الجميلة، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم ورفعةً لشأنهم، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات العظيمة ﴿لَهُمْ﴾ خاصةً ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

والعقبى: العاقبة، وهي الشيء الذي يعقب، أي: يقع عقب شيء آخر، واشتهرت في عقبى الخير، أي: لهم العاقبة والنهاية المحمودة الحسنة في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٣، ٢٢٨- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

هذا تفسير وبيان لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ؛ ولهذا ختمه بقوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾، «جنات»: بدل من ﴿عُقۡبَى﴾، و«عدن» بمعنى إقامة واستقرار، أي: جنات إقامة أبدية يدخلونها ويخلدون فيها، ولا يبغون عنها حولًا؛ لأنها غاية المطالب، فيها كما قال ﷺ: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». ثم قرأ ﷺ: «﴿**فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ** ١٧﴾ [السجدة: ١٧]»(١).

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾، الواو عاطفة، و«من» اسم موصول مبني في محل رفع معطوف على الواو في «يدخلونها»، أي: يدخلونها، والذي ﴿صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾؛ تكريمًا لهم، وإتمامًا لسرورهم، وتطييبًا لعيشهم.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾، أي: والذي صلح لدخولها، ممن آمن وعمل عملًا صالحًا، وجمع بين الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ، فلا تنفع الأنساب وحدها إذا فقد الإيمان والصلاح.

﴿مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾، أي: من آبائهم وأجدادهم، وإن علوا، من أي جهة كانوا، وكذا أمهاتهم وجداتهم وإن علون؛ لأن الآباء يشمل الأمهات على طريق التغليب، كما قالوا: الأبوين.

﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ فيلحق بالرجل أزواجه، ويلحق بالمرأة زوجها.

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ من أولادهم وأولاد أولادهم وأحفادهم وإن نزلوا.

فمن كان مؤمنًا وعمل صالحًا من أصولهم وفروعهم وأزواجهم، وكان دون مرتبتهم ألحق بهم، ومن كان فوق مرتبتهم ألحقوا به؛ لتقر أعينهم جميعًا من غير أن ينقص من كان منهم أعلى؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، أي: يدخلون عليهم من هاهنا وها هنا من كل أبواب الجنة؛ لكثرتهم وكثرة ترددهم، يهنئونهم بدخولهم الجنة، واجتماعهم مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وكرامة الله تعالى لهم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، أي: يقولون: سلام عليكم، أي: حلت عليكم السلامة من الله، والنجاة من كل سوء ومكروه، وظفرتم بكل خير ومحبوب.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: نالكم هذا التكريم بسبب صبركم، أي: بسبب صبركم على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أي: فنعم عاقبة الدار المحمودة الحسنة عقباكم الجنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، فلا يستطيع لها قضاءً. فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾**»(١).

وفي رواية بنحوه، وفيها: «**وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإذا كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض، حتى يموت وهي في صدره**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- تقرير تفرده عز وجل بربوبية السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) وأخرجه أحمد ٢/ ١٦٨.

(٢) أخرجه الطبراني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٣٧٣- ٣٧٤.

٢- الإنكار على المشركين اتخاذهم من دون الله أولياء مع إقرارهم بربوبيته وحده.

٣- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

٤- أن كل ما يعبد من دون الله من أولياء من الأصنام والأوثان وغير ذلك، لا يملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضر، ولا لغيرها، بل هم مربوبون لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

٥- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، والعاصي والمطيع؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

٦- أنه كما لا تستوي الظلمات والنور، فكذلك لا يستوي الكفر والإيمان، والضلال والهدى، والباطل والحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾.

٧- أنه لا حجة للمشركين في اتخاذهم شركاء لله؛ لأن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا كخلق الله فيتشابه الخلق عليهم، بل هم مخلوقون لله تعالى مربوبون له؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

٨- تفرده عز وجل بخلق كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٩- إثبات اسمه- عز وجل- «الواحد»، وصفة الوحدانية له عز وجل؛ في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾، وتفرده بالقهر والغلبة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

١١- أن القهر التام يستلزم الوحدة؛ لأن الشركة تنافي القهر.

١٢- نعمة الله تعالى التامة وقدرته الباهرة في إنزال الماء من السماء من السحاب والمزن، وإجراء الأودية الكبيرة والصغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾.

١٣- احتمال الأودية- بسبب سيلانها وقوة جريانها وجيشانها- زبدًا يعلوها وعلى جنباتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾.

١٤- منة الله تعالى على العباد في إيجاد المعادن من الذهب والفضة والحديد

والنحاس وغير ذلك، وتسخير النار لإذهاب زبدها وخبثها، وصهرها لتسهل صياغتها حليةً أو متاعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

١٥- أن مثل الحق في ثباته وبقائه وانتفاع أتباعه به كمثل الماء الصافي الذي يمكث في الأرض على ظهرها وفي باطنها، فينتفع به الناس وسائر المخلوقات، ومثل صافي المعادن بعد صهره بالنار.

وأن مثل الباطل في زهوقه وزواله واضمحلاله كمثل زبد الماء، وزبد وخبث ما يوقد عليه في النار يذهب جفاءً متلاشيًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

١٦- التفخيم لهذا المثل، والتنويه بضرب الأمثال وفائدتها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ وذلك لما فيها من تقريب المعاني.

١٧- وعد الذين استجابوا لربهم فآمنوا واتبعوا الحق بأن لهم خاصةً الجنة والمثوبة الحسنى؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

١٨- الوعيد والتهديد للذين لم يستجيبوا لربهم وكفروا به واتبعوا الباطل، وتهويل ما يلقونه من شدة العذاب، حتى إنه لو أن لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه لدفعوه فدية مقابل الخلاص مما هم فيه، وأنى لهم ذلك؟ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾.

٢٠- الوعيد للذين لم يستجيبوا لربهم بأن لهم سوء الحساب، فيشدد في حسابهم ويناقشون على القليل والكثير والنقير والقطمير؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، وقد قال ﷺ: «**من نوقش الحساب هلك**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٢١- أن مصير هؤلاء الذين لم يستجيبوا لربهم ومآلهم جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٢٢- أن جهنم بئس المستقر والمسكن؛ لجمعها بين أصناف العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

٢٣- الترغيب والحث على اتباع الحق والاستجابة لله تعالى، والترهيب والتحذير من اتباع الباطل وعدم الاستجابة لله تعالى.

٢٤- شتان بين من يعلم أن ما أنزل إلى النبي ﷺ من ربه هو الحق ويؤمن به ويتبعه، وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك، ولا يبصر دلائل الحق، ولا يؤمن به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾.

٢٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٢٦- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، تكلم به سبحانه بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٧- إثبات رسالته ﷺ بإنزال الوحي إليه، وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وربوبيته له ربوبية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٨- أن ما أنزل إليه ﷺ هو الحق، فهو حق وطريق وصوله إليه حق، وهو مشتمل على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

٢٩- أنه إنما يتذكر بما أنزل الله أصحاب العقول السليمة التي تهدي أصحابها إلى الاتعاظ بما أنزل الله ومعرفة الحق واتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٣٠- الترغيب في التعقل والتدبر فيما أنزل الله والتذكر والاتعاظ؛ لأن الله امتدح أولي الألباب بذلك، بل وحصر التذكر فيهم.

٣١- امتداح أولي الألباب- الذين يتذكرون فيما أنزل الله، وتهديهم عقولهم إلى الحق- بالصفات الجليلة والمناقب الجميلة؛ من الوفاء بعهد الله وعدم نقضه، ووصلهم ما أمر الله به أن يوصل، وخشيتهم ربهم، وخوفهم سوء الحساب، وصبرهم ابتغاء وجه ربهم، وإقامتهم الصلاة، وإنفاقهم مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة؛

لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

فأكرم بها من عقول، وأنعم بها من صفات!

٣٢- وعد الله- الذي لا يتخلف- للموصوفين بما ذكر بأن لهم العاقبة المحمودة في الآخرة، وهي جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

٣٣- خلود أهل الجنة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، أي: جنات إقامة أبدية.

٣٤- إكرام الله عز وجل أهل الجنة بتشفيعهم فيمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وإدخالهم معهم الجنة؛ لتقر أعينهم بهم، ويهنأ عيشهم، ويتم سرورهم، فمن كان من أصولهم وفروعهم وأزواجهم مرتبته دونهم أُلحِق بهم، ومن كانت مرتبته فوقهم ألحقوا به؛ وفي هذا بشارة لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح؛ لأن الله يلحق الأدنى منهم بالأعلى؛ فضلًا منه وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

٣٥- عظم كرم الله تعالى وفضله، حيث يرفع الأدنى من أهل الجنة مع الأعلى، دون أن ينقص الأعلى؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١﴾ [الطور: ٢١].

٣٦- أن الأنساب لا تنفع وحدها إذا فقد الصلاح والإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

٣٧- دخول الملائكة على أهل الجنة من كل باب، وسلامهم عليهم، وتهنئتهم لهم بما هم فيه من النعيم وحسن العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

٣٨- إثبات وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم.

٣٩- فضل الصبر وعِظم مكانته في الدين؛ لأنه لا يقوم شيء من الأعمال الظاهرة

والباطنة إلا بالصبر؛ ولهذا قالت الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾، أي: بسبب صبركم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٤٠- وجوب الأخذ بهذه الصفات التي امتدح الله بها أولي الألباب؛ لأنها قوام الإيمان والإسلام، وعليها تترتب العاقبة المحمودة في الآخرة ودخول جنات عدن:

أولها: الوفاء بعهد الله؛ وذلك بالقيام بموجبات الإيمان، وعدم نقض المواثيق؛ مما بين العبد وبين ربه، ومما بينه وبين الناس.

ثانيها: وصل ما أمر الله بوصله؛ من صلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين والجيران، وأداء حقوق المسلمين، وبذل المعروف والندى، وكف الأذى، وغير ذلك.

ثالثها: خشية الله في جميع الأحوال في كل ما يأتي المرء أو يذر.

رابعها: الخوف من سوء الحساب وشدته.

خامسها: الصبر ابتغاء مرضاة الله تعالى على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

سادسها: إقام الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

سابعها: الإنفاق من رزق الله بإخراج الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة، سرًّا وعلانية.

ثامنها: درء السيئة بالحسنة، بالإحسان لمن أساء، وإتباع السيئة الحسنة تمحها.

قال ابن القيم: «والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها؛ اشتملت على فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، وقد ذكر الله هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»(١).

فمن أخذ بهذه الصفات فليبشر بما وعد الله تعالى به في قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٩٣.

عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر عز وجل صفات المؤمنين وما لهم من العقبى الحسنة، ثم أتبع ذلك بذكره صفات الكافرين ونهايتهم السيئة المؤلمة، جمعًا بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، كما هو منهج القرآن الكريم؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقى الله عز وجل.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ نقض العهد: نكثه وإبطاله، وعدم الوفاء به، أي: والذين ينكثون ميثاق الله، وما عهد به إليهم وعاهدوه عليه، ولا يفون بذلك.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، أي: من بعد توثيقه وتوكيده وتغليظه عليهم في كتبه وعلى ألسنة رسله، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض، قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»(١).

وفي حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- علامة المنافق ٣٣، ومسلم في الإيمان- بيان خصال المنافقين ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٤، ومسلم في الإيمان ٥٨، والنسائي ٥٠٢٠، والترمذي ٢٦٣٢.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، أي: ويقطعون الذي أمر الله بوصله، من حقوق الله تعالى وحقوق خلقه؛ فقطعوا ما بينهم وبين ربهم بكفرهم وعدم إيمانهم، وقطعوا ما بينهم وبين أرحامهم، وما بينهم وبين سائر الخلق بعدم أداء حقوقهم، بل بظلمهم لهم والاعتداء عليهم.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي والصد عن دين الله، والفساد المعنوي المؤدي إلى الفساد الحسي بهلاك الحرث والنسل؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الجملة خبر قوله ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: أولئك لهم خاصة اللعنة، أي: الإبعاد عن رحمة الله تعالى وجنته.

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، «سوء الدار» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ولهم الدار السيئة، وهي النار وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر سوء أعمال الكافرين وسوء عاقبتهم ومآلهم ذكَر أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء، فلا يغتر الكفار بما بسط الله لهم من الرزق في الدنيا، ولا ينبغي لأحد أن يغتر بما هم فيه من ذلك، أو يقول: كيف يوسع الرزق عليهم مع ازديادهم طغيانًا؟! فلله الحكمة في ذلك، قال موسى - عليه السلام - : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: الله عز وجل بحكمته البالغة يوسع العطاء ويكثره ويديمه للذي يشاء من عباده.

﴿وَيَقۡدِرُ﴾، أي: ويقدر الرزق، أي: يضيقه ويقتره على من يشاء بحكمته البالغة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾ [الإسراء: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: ومن ضيق عليه رزقه فلينفق بقدر ما أعطاه الله.

﴿وَفَرِحُواْ﴾، أي: وفرح هؤلاء الكفار فرح بطر واختيال وطغيان واغترار، كحال قارون إذ قال له قومه: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: بالعيش في هذه الحياة الدنيا، وما أعطوا فيها من النعيم استدراجًا لهم وإمهالا، وركنوا إليها، واطمأنوا بها، واغتروا بزينتها، وغفلوا عن الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٥- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: وما الحياة الدنيا إذا نسبت للآخرة وقورنت فيها.

﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ إلا أداة حصر ﴿مَتَٰعٞ﴾ نُكِّر؛ للتقليل؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

والمعنى: إلا شيء قليل حقير يتمتع به قليلًا ثم سرعان ما يزول؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: ٣٨].

عن المستورد أخي بني فهر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في**

الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في هذا اليم، فلينظر بم يرجع، وأشار بالسبابة»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مر بجدي أَسَكَّ فتناوله بأُذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الذين جحدوا رسالته ﷺ، وكذبوه من كفار مكة تعنتًا وعنادًا واستكبارًا.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾، أي: هلا أنزل على محمد ﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: معجزة من ربه علامة على صدقه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ [الرعد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ [الأنبياء: ٥].

وفي هذا تعجب من قولهم، وأنه لمجرد العناد لا لطلب الهداية؛ لأن الله قد أنزل عليه أعظم الآيات؛ ولهذا قال:

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المكذبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ فليس السبب في كفركم وضلالكم هو عدم إنزال آية أو آيات عليه من ربه، فقد أنزل الله عليه أعظم الآيات القرآن الكريم، فلم تصدقوا ولم تؤمنوا، ولكن السبب أن الله حكم قدرًا بإضلال من يشاء، ومنهم أنتم ومن كان على شاكلتكم في المكابرة والعناد، فلا سبيل إلى هدايته ولو جاءته كل آية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها- فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٥٨، والترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٧، وأحمد ٣/ ٣٦٥.

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿وَيَهْدِىٓ﴾، أي: ويهدي هداية خاصة، أي: يوفق ﴿إِلَيْهِ﴾، أي: إلى الإيمان بالقرآن وتصديقه ﷺ ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، أي: الذي أناب إلى الله عز وجل وتضرع إليه، وتاب من الكفر والشرك، ورجع إلى الحق، وتأمل في دلائله الواضحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣، النور: ٤٦].

فهو عز وجل يضل بعدله من يشاء، ويهدي بفضله من يشاء؛ كما قال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر عز وجل أنه يهدي إلى الإيمان بالقرآن وتصديق الرسول ﷺ من أناب إليه عز وجل ورجع إلى الحق، ثم بين وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية والآية التي بعدها.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل من «مَن» في قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: تسكن قلوبهم وتلين وتخشع وتنشرح ببرد اليقين، ويزول قلقها واضطرابها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»(١).

وقال ﷺ في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب**»(٢).

وذِكر الله هو كتابه الذي أنزله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩] فهو الذي به تطمئن قلوب المؤمنين، ويذهب عنها بسببه القلق والاضطراب والشك، ومن أعرض عنه ضل وشقي في الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

ومن ذكر الله تعالى ذكرُه عز وجل بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وخشيته ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه؛ كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وكل ما ذكر مما تطمئن له قلوب المؤمنين.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، «ألا» أداة تنبيه، أي: هو حقيق بذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٨، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم ٢/ ١٣ وصححه، ووافقه الذهبي وقال: «سنده قوي».

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾.

وصف عز وجل أهل هدايته الخاصة، وهم المنيبون إليه- سبحانه- وإلى الحق بالإيمان واطمئنان قلوبهم لذكره، ثم أكد وصفهم بالإيمان مقرونًا بعملهم الصالحات؛ لأن الإيمان لا يصح بلا عمل، ووعدهم طوبى وحسن مآب.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم من صلاة وزكاة وصيام وحج وبر للوالدين وصلة للأرحام، وغير ذلك، والأعمال الصالحات هي التي توفر فيها: الإخلاص لله تعالى والمتابعة للنبي ﷺ، وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلم يقل: وعملوا الأعمال الصالحات؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ طوبى: مصدر من طاب طيبًا، إذا حسن، أي: حال طيبة وفرح وقرة عين وغبطة لهم، ونعم ما لهم من رضوان الله وكرامته! واللام: للاختصاص، أي: لهم خاصة.

وقال جمع من الصحابة والتابعين: «طوبى» شجرة في الجنة، وروي مرفوعًا؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام**»(١).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»(٢).

﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، أي: وحسن منقلب ومرجع.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، حيث ذكر عز وجل

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧١.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٧، وأخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣٢٥١- من حديث أنس رضي الله عنه.

أولًا صفات المؤمنين وما لهم من العقبى الحسنة، ثم أتبع ذلك بذكر صفات الكافرين ونهايتهم السيئة.

٢- أن رحمة الله عز وجل تسبق غضبه؛ لأن الله قدم هنا الوعد على الوعيد.

٣- ذم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله بوصله، ويفسدون في الأرض، وتوعَّدهم بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، وهي النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

٤- يجب البعد عن صفات المذكورين؛ حذرًا مما توعدوا به من اللعنة وسوء الدار، والخسران؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: ٢٧].

٥- أن الكفر والمعاصي فساد معنوي في الأرض، يؤدي إلى الفساد الحسي بهلاك الحرث والنسل وحلول المصائب والكوارث.

٦- أن الله عز وجل يبسط الرزق ويوسعه على من يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء منهم بحكمته البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾.

٧- أنه ليس في بسط الرزق وتوسيعه على من وسعه الله عليه دلالة على رضا الله عنه، فقد يكون استدراجًا له وإمهالًا، فلا ينبغي أن يغتر هو ولا غيره بذلك.

كما أنه ليس في تضييق الرزق على من ضيق عليه دلالة على سخط الله ونقمته، بل قد يكون نعمة من الله عليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥- ١٧]، أي: كلا، فليس في الإنعام دلالة على الإكرام، وليس في تضييق الرزق وقدره دلالة على الإهانة.

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(١)

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

٨- لا ينبغي الاعتراض على مشيئة الله وقدره في بسط رزق الكفار والعصاة، مع أنهم يزدادون بذلك كفرًا وعصيانًا، فلله في ذلك الحكمة البالغة؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

٩- فرح الكفار بالحياة الدنيا وما بسط لهم فيها من الرزق فرح بطر واختيال وطغيان واغترار؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٠- حقارة الحياة الدنيا، وأنها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فهي متاع قليل حقير سرعان ما يزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

١١- أن الدار الآخرة هي الحياة الحقة التي يجب العمل لها والعناية بعمارتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: لهي الحياة حقًّا.

١٢- اقتراح الذين كفروا أن ينزل عليه ﷺ آية من ربه ليصدقوه؛ تعنتًا منهم وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

١٤- جفاء الكفار وسوء تعبيرهم؛لقولهم: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ولم يقولوا: «من ربنا» مع إيمانهم بأن رب الجميع واحد.

١٥- أن ضلال من ضل عن الحق ممن يقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وغيرهم، ليس بسبب عدم إنزال آية عليه ﷺ، فقد أنزل الله عليه أعظم الآيات القرآن الكريم، وإنما لأن الله شاء وحكم كونًا بضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾.

١٦- هداية الله تعالى وتوفيقه إلى الإيمان بالقرآن وتصديقه ﷺ من أناب ورجع إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

١٧- أن مَن تحرَّى الحقَّ، وطلبه وصدق في الطلب هداه الله تعالى إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥- ٧]. وقال ﷺ:

«اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ الآيتين»(١).

١٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وأنه يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

١٩- امتداح من أنابوا إلى الله، بإيمانهم واطمئنان قلوبهم بذِكر الله تعالى- القرآن الكريم- وذِكره عز وجل بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار وامتثال أمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- اطمئنان القلوب وسكونها وانشراحها بذكر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

٢١- أن القرآن الكريم وذكر الله تعالى فيه الطمأنينة والشفاء لكثير من الأمراض البدنية والاضطرابات النفسية.

٢٢- الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والوعد لهم بالحال الحسنة الطيبة وقرة العين والجنة، وحسن المآب والمرجع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾.

٢٣- أنه لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، ولابد من كون العمل صالحاً، أي: خالصاً لله تعالى، تبعاً لشرعه.

٢٤- أن المهم في العمل كونه صالحًا؛ ولهذا اكتفى بذكر الصفة في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وحذف الموصوف وهي الأعمال.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ * مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه، والخطاب للنبي ﷺ، أي: كما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾، أي: قد مضت وسبقت قبلها أمم كثيرة كافرة أرسلنا إليهم رسلًا من قبلك فكذبوهم وآذوهم، فلك أسوة في أولئك الرسل في صبرهم على ما كذبوا وأوذوا، وللمكذبين من قومك عظة وعبرة بما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات، فليحذروا من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]، أي:

كيف نصرناهم.

وتكذيبه ﷺ أشد وأعظم من تكذيب الرسل قبله؛ ولهذا فعقوبة من كذبه وآذاه وعذابه أشد وأعظم في الدنيا والآخرة.

﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تتلو عليهم، أي: تقرأ عليهم، أي: على أمتك الذي أوحينا إليك من الكتاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: وهؤلاء المشركون المكذبون لك يكفرون بالرحمن ويجحدونه، وينكرون تسميته عز وجل بـ«الرحمن»؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠].

ولهذا لما قال ﷺ في صلح الحديبية: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**» قال سهيل بن عمرو- وكان هو المصالح عن المشركين، وذلك قبل إسلامه- قال: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم**»(١).

وقد قال ﷺ: «**أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن**»(٢).

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد: الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّى﴾، أي: أقر واعترف وأشهد أنه هو وحده ربي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو وحده لا شريك له.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت، وإليه فوضت في جميع أموري.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣٤- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الآداب- النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء ٢١٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، أي: وإليه وحده توبتي وإنابتي، لا يستحق ذلك غيره.

وأصل «متاب»: متابي بإضافة ياء المتكلم، فحذفت تخفيفًا وأبقيت الكسرة دليلًا عليها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

ذكر عز وجل في الآيات السابقة قول المشركين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفي هذه الآية بيَّن أن القرآن الكريم هو أعظم آيات الله وأفضل كتب الله؛ لما فيه من الإعجاز في نظمه وألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه.

وروي أن المشركين من قريش قالوا للنبي ﷺ: لو وسعت لنا أودية مكة، وسيرت جبالها فاحترثناها، وأحييت من مات منا. ونحو ذلك فأنزل الله هذه الآية(٢).

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ من الكتب الإلهية التي أنزلها الله تعالى ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ جنانًا وأنهارًا، وقربت مسافاتها، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في قبورهم، أي: لكان هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ؛ لكونه أعظم كتب الله وأفضلها؛ لإعجازه التام، وكونه غاية في الهداية والبيان، والتذكير والتبشير، والإنذار والتحذير، ولكن لم يكن شيء من كتب الله سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، ولو كان منها شيء كذلك لكان هو القرآن الكريم، وفي هذا بيان عظم شأن القرآن الكريم، وأنه أعظم الآيات، وبيان فساد رأي المكذبين، وسفاهة

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٣/ ٥٣٢).

عقولهم في اقتراحهم من الآيات غيره.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن التقدير: ولو أن قرآنا سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى لما آمنوا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

واسم القرآن قد يطلق عل كل من الكتب السابقة؛ لأنه مشتق من الجمع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خفف على داود عليه السلام القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القران قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده**»(١).

والمراد بالقرآن هنا «الزبور».

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، «بل» للإضراب، واللام في قوله ﴿لِّلَّهِ﴾ للاختصاص، و«ال» في ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ للجنس والاستغراق، و﴿جَمِيعًا﴾ توكيد، أي: بل لله وحده تدبير الأمور ومرجعها كلها؛ من إنزال الآيات أو عدمه حسب ما تقتضيه حكمته، ومن هداية من شاء بفضله، وإضلال من شاء بعدله، وغير ذلك، فما بال هؤلاء المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون، فليس لهم ولا لغيرهم من الأمر من شيء.

﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلم يتبين ويعلم الذين آمنوا!

قال الشاعر:

ألم ييـــأس الأقـــوام أني أنـــا ابنـــه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيَا(٢)

أي: ألم يعلم ويتبين الأقوام.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، أي: أفلم يتبين ويعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا؛ لقدرته عز وجل التامة على ذلك، ونفوذ مشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ٣٤١٧، وأحمد ٢/ ٣١٤.

(٢) البيت لـ «رباح بن عدي»، انظر: «المحتسب (١/ ٣٥٧).

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، «بل» للإضراب، أي: بل لله وحده الأمر والشأن كله جميعاً.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾.

هذا وعيد وتهديد للكافرين على تعنتهم وتكذيبهم القرآن الكريم، واستعجالهم العذاب الذي توعدوا به.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: من أهل مكة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾، أي: تصيبهم بسبب الذي صنعوا وفعلوا من الكفر والتكذيب والعناد والتمادي في الطغيان.

﴿قَارِعَةٌ﴾ مصيبة وفاجعة، من الحوادث المؤلمة.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، أي: أو تنزل قارعة قريبًا من دراهم فترعبهم وتفزعهم.

أي: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بسببهم كفرهم وتماديهم في الطيغان والعناد القوارع والمصائب في أنفسهم وديارهم.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾، أي: أو تنزل هذه القوارع والمصائب ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، أي: من حولهم؛ ليتعظوا ويعتبروا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٤].

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾، أي: إلى غاية إتيان وعد الله.

و«وعد» من إطلاق المصدر على المفعول، أي: موعود الله، وهو ما وعد الله به المسلمين من الغلبة والنصر في الدنيا والآخرة، وما توعد به الذين كفروا من الهزيمة والقتل على أيدي المسلمين.

كما في بدر وحنين وفتح مكة وغير ذلك، مع ما توعدوا به من العذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢]، وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، أي: لا ينقض وعده لرسله والمؤمنين بنصرهم في الدنيا والآخرة والانتقام من عدوهم، فلا أحد أوفى بعهده من الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

فوعده عز وجل محقق مؤكد قريب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

لما ذكر كفر المشركين بالرحمن وبالقرآن، وتكذيبهم للنبي ﷺ واقتراحهم الآيات استهزاءً منهم وعنادًا، أتبع ذلك ببيان أن الاستهزاء حصل للرسل من قبله من الكفار من أقوامهم، فأمهلهم الله ثم أخذهم بعقابه، وفي هذا تثبيت وتسلية له ﷺ عما لقي من قومه من التكذيب والاستهزاء، وتحذير لهم.

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد استهزئ برسل من قبلك، والخطاب للنبي ﷺ، والاستهزاء: المبالغة في الهزء، والهزء: السخرية والاحتقار والانتقاص، أي: ولقد سخر المكذبون والكفار من الأمم الماضية ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

ونكَّر «رسل» للتكثير، أي: برسل كثيرين من قبلك يا محمد، فلست أنت أول رسول استهزئ به وأوذي.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال قوم شعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام، فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الإملاء: الإمهال والترك مدة، قال تعالى: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، أي: فأمليت للذين كفروا برسلهم، أي: أمهلتهم وأنظرتهم وأجلتهم؛ استدراجًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم ٤٤، ٤٥].

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، أي: ثم أخذتهم بالأخذة الرابية، أي: أهلكتهم بالعقوبة الشديدة؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾**﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: فكيف كان عقابي، وحذفت الياء تخفيفًا، مع مراعاة الفواصل.

أي: فكيف كان عقابي لهم، أي: كان عقابًا شديدًا أليمًا، أي: فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا لهم، فلهم أسوة فيمن قبلهم، وفي هذا تحذير وتهديد لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٦، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

لما ذكر كفر المكذبين وشركهم، وتوعدهم وهددهم بالعذاب في الدنيا والآخرة، بيَّن سفاهة عقولهم، وأنكر عليهم كيف يجعلون لله تعالى القائم على كل نفس بما كسبت شركاء ليس لهم من الأمر شيء، ويسوون بينهم وبين الخالق العظيم المالك المدبر تعالى الله عما يشركون.

قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والتقرير، أي: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وحفظًا ورقابةً عليها ورزقًا لها وعلمًا بأحوالها وأعمالها ومحاسبةً ومجازاةً لها بما كسبته من خير أو شر، وهو الله عز وجل الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له ولا ندَّ ولا نظير.

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

وضمن «قائم» معنى «رقيب» أو حفيظ؛ ولهذا عدي بـ «على» وأصل «قائم» مأخوذ من القيام وهو الملازمة؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وخبر قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ محذوف دلت عليه جملة ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس كذلك، وحذف لدلالة السياق عليه.

والباء في قوله ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ للملابسة، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كسبته، أو بكسبها، أي: قيامًا موافقًا لأعمالها خيرًا كانت أو شرًّا.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: وجعلوا له تصريحًا بأنه المراد في الموصول السابق، زيادة على التصريح بالحجة.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾، أي: قل لهم يا محمد: سموا هؤلاء الشركاء الذين جعلتموهم مع الله، وأعلمونا بهم، واكشفوا عنهم وصفوهم؛ لنعلم حالهم، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ويجوز كون هذا من باب التهكم وعدم المبالاة بهم، أي: سموهم ما شئتم فليس لهم حظ إلا التسمية دون مسمى الشريك.

كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وفي الآية تسفيه لأحلامهم بأنهم ألهوا ما لا حقائق لها، فلا شبهة لهم في ذلك.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

و«أم» في قوله ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ هي: المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للاضطراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتنبئونه، والضمير يعود إلى «الله»، أي: بل أتخبرون الله.

﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، «ما»: موصولة، أي: بالذي لا يعلمه في الأرض، أي: أتخبرون الله بشركاء لا يعلمهم ولا وجود لهم في الأرض؛ لأنه لو كان له شركاء لهم وجود في الأرض لعلمهم؛ لأنه عز وجل عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾، أي: أم تنبئونه بظاهر من القول لا حقيقة له.

أو أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول وباطل وكذب لا حقيقة له؛ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٠، الأحزاب: ٤].

وأعيدت الباء في قوله ﴿بِظَٰهِرٍ﴾؛ للتأكيد.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾، ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، إضراب عن الاحتجاج عليهم بإبطال إلهية أصنامهم إلى كشف السبب فيما وقعوا فيه، وهو تزيين المكر لهم، فلم ينتفعوا بالآيات والحجج والدلائل، وعبدوا آلهة باطلة ليس لها من الأمر شيء.

أي: بل زين وحسن للذين كفروا ما هم عليه من الكفر والاستهزاء والشرك والضلال، أي: زين لهم ذلك كونًا وقدرًا، وزينه لهم الشيطان وقرناؤهم من شياطين الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢٥﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الصاد: «وصَدُّوا»، أي: لما زُين لهم مكرهم وما هم عليه من الباطل، دعوا الناس إليه وصدوهم وصرفوهم عن صراط الله المستقيم، ودينه القويم.

وقرأ الباقون بضم الصاد: ﴿وَصُدُّواْ﴾، أي: وصدوا عن الطريق المستقيم بما زُين لهم من المكر وصحة ما هم عليه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الآية: ٢٣].

«من» شرطية، و«يضلل» فعل الشرط، أي: ومن يضلل الله كونًا وقدرًا، أي: يقدر

عليه الضلال.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ جواب الشرط «من»، والفاء واقعة في جواب الشرط، و«ما» نافية، أي: فليس له ﴿مِنۡ هَادٍ﴾.

و«من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: فليس له أيُّ هادٍ يهديه من بعد الله.

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ [النحل: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾.

لما ذكر استهزاء الكفار وشركهم ومكرهم وصدهم عن السبيل وضلالهم، أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم بما لهم من عذاب في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قوله: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: لهؤلاء المشركين الضالين ﴿عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل والأسر على أيدي المؤمنين، وبما يحل بهم من العقوبات، وبما هم فيه من الحيرة والقلق، بسبب كفرهم، ونكّر «عذاب»؛ للتعظيم والتهويل.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة في النار المعد لهم ﴿أَشَقُّ﴾، أي: أشد مشقة من عذاب الدنيا؛ لشدته وعظمته وكثرته ودوامه وأبديته، بخلاف عذاب الدنيا فإنه مهما عظم فله انقضاء وانتهاء؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

وقال ﷺ: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»(١).

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، «من» في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما لهم من الله من أيِّ واق يقيهم عذابه، أي: يحول بينهم وبينه، فيمنعه عنهم قبل وقوعه، أو يرفعه عنهم بعد وقوعه، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١﴾ [غافر: ٢١].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ۝٣٥﴾.

لما ذكر ما أعد للكافرين المكذبين من عذاب الدنيا والآخرة وعيدًا وتهديدًا لهم، أتبع ذلك بذكر ما وعد الله به المتقين من الجنة، وما فيها من النعم، على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: صفة الجنة وحقيقتها ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: التي وعد الله بها المتقين، الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار؛ كما قال تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]؛ أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿أُكُلُهَا﴾، أي: مأكولها وثمرها، وما فيها من المطاعم والفواكه والمشارب ﴿دَآئِمٌ﴾ لا انقطاع له ولا فناء؛ كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٣، والترمذي في الطلاق ١٢٠٢- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله: رأيناك تناولت شيئًا، ثم تكعكعت، قال: «**إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»(١).

﴿وَظِلُّهَا﴾ معطوف على ﴿أُكُلُهَا﴾، أي: وظلها دائم بلا شمس؛ لكثرة أشجارها والتفافها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

قال ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها. ثم قرأ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»(٢).

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الإشارة إلى الجنة بصفاتها، بحيث صارت كالمشاهدة، أي: تلك الجنة العظيمة بصفاتها الجليلة عاقبة ومآل الذين اتقوا الله وخافوه؛ كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، أي: عاقبتهم ونهايتهم النار، أي: المصير إلى النار، وهذا كالبيان لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وشتان بين من كانت عقباهم الجنة فنعم عقبى الدار، وبين من كانت عقباهم النار ولهم سوء الدار؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٤٨، ومسلم في الكسوف ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من الجنة والنار ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣.

(٢) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بخطاب الله عز وجل له: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِيٓ أُمَّةٍ﴾ الآية.

٢- أن الرسول ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأمته ليست بدعًا من الأمم، فقد خلت من قبلها أمم كثيرة أرسل الله إليهم الرسل فكذبوهم وآذوهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه، وتحذير للمكذبين من قومه.

٣- أنه ما من أمة من الأمم السابقة إلا أرسل الله فيهم رسولًا ونذيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾، أي: أرسل الله إليهم الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

٤- أن الحكمة من إرساله ﷺ ليتلو على أمته ويبلغهم ما أوحاه الله تعالى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

وهي الحكمة من إرسال جميع الرسل، فهم كلهم مبلغون عن الله وحيه ورسالاته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

٥- أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنما يتلو ويبلغ ما أوحاه الله تعالى إليه.

٦- كفر المشركين وجحودهم وإنكارهم لاسمه عز وجل: «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٧- إثبات اسمه عز وجل «الرحمن» وصفة الرحمة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾.

٩- إثبات وحدانية الله عز وجل وأنه لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- توكله ﷺ على ربه وحده تمام التوكل وتفويضه إليه؛ لقوله ﷺ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وللمؤمنين الأسوة فيه ﷺ في وجوب التوكل على الله عز وجل.

١١- توبته ﷺ إلى الله عز وجل وحده؛ لقوله ﷺ: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، أي: إليه متابي، وقد قال ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة**»(١).

١٢- شدة تعنت المشركين وعنادهم وتكذيبهم القرآن أعظم كتب الله تعالى واستهزاؤهم، واقتراحهم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

١٣- أنه لو كان كتاب من كتب الله تعالى سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى لكان ذلك الكتاب هو القرآن الكريم؛ لأنه أعظم كتب الله عز وجل، وأفضل الكتب على الإطلاق.

١٤- أنه ليس من شأن كتب الله تعالى لا القرآن ولا غيره من كتب الله، تسيير الجبال، أو تقطيع الأرض، أو تكليم الموتى.

١٥- أن لله عز وجل وحده جميع الأمور من إنزال الآيات أو عدمه، وهداية من شاء وإضلال من شاء وغير ذلك، حسب ما تقتضيه حكمته وفضله وعدله؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

١٦- علم المؤمنين وتبينهم، بل وتيقنهم بأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعًا؛ لتمام قدرته على ذلك ونفوذ مشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

١٧- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية.

١٨- تحذير الذين كفروا وتذكيرهم بما يصيبهم من القوارع والمصائب- بسبب تماديهم في الكفر والطغيان- في أنفسهم ودارهم، أو قريبًا منها؛ ليعتبروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠، وأبو داود ١٥١٥- من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

١٩- تحذير الذين كفروا وتهديدهم بإتيان وعد الله بهزيمتهم وقتلهم على أيدي المسلمين ونصر المسلمين عليهم في معارك الإسلام كبدر وحنين وفتح مكة وغير ذلك، وبعذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- أن الله تعالى لا يخلف وعده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

٢١- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه بذكر استهزاء الكفار والمكذبين بالرسل من قبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢٢- تحذير كفار مكة المكذبين له ﷺ المستهزئين به مما حل بمن قبلهم من المستهزئين بالرسل من شديد العقاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

٢٣- أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، ويملي للكافرين؛ استدراجًا لهم، ثم يأخذهم بالعقاب الشديد، أخذ عزيز مقتدر.

٢٤- الإنكار على المشركين في جعلهم لله تعالى القائم على كل نفس بما كسبت شركاء في العبادة، ليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وتسويتهم بالله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

٢٥- أن الله عز وجل وحده هو القائم على كل نفس بما كسبت، القيوم على جميع الخلق، خلقًا وملكًا تدبيرًا، رزقًا ومحاسبةً وجزاءً، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وهو الله عز وجل.

٢٦- عظم حاجة الخلق إلى الله عز وجل؛ لأنه القائم على كل نفس بما كسبت، وقيام الخلق كلهم به، مما يوجب التوكل عليه، والاستعانة به، واللواذ به، والتضرع إليه.

٢٧- أن ما اتخذه المشركون من شركاء مع الله مجرد أسماء لا حقيقة لها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.

٢٨- أن المشركين في اتخاذهم مع الله شركاء لا وجود لهم ولا حقيقة أشبه بمن يُنبئ الله ويخبره بما لا يعلمه في الأرض؛ لأنهم لو كان لهم وجود في الأرض لعلمهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢٩- أن جعل المشركين وتسميتهم شركاء مع الله ما هو إلا مجرد ظاهر من القول لا حقيقة له؛ لقوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

٣٠- أن ما عليه الكفار من المكر والكفر والاستهزاء والضلال زين لهم كونًا وقدرًا، وزينه لهم شياطين الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾.

٣١- أنه بتزيين المكر لهؤلاء الكفار صُدوا عن سبيل الحق وعن الطريق المستقيم، كما صَدوا هم غيرهم عنه بكفرهم ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٣٢- أن طريق الحق وسبيله واحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بالإفراد.

٣٣- أن من أضله الله كونًا وقدرًا فليس له من هاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٣٤- التهديد والوعيد للكفار بالعذاب في الحياة الدنيا، وبالعذاب الأشق في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

٣٥- أن عذاب الآخرة أشق وأشد وأكبر من عذاب الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾.

٣٦- أنه لا واقي للكفار من الله تعالى وعذابه، فلا أحد يمنعه عنهم قبل وقوعه، ولا يرفعه بعد وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

٣٧- بيان مثل الجنة التي وعد الله بها المتقين وصفتها وحقيقتها، فهي تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة، وأكلها وطعامها وشرابها دائم، وظلها دائم لا شمس فيها؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

٣٨- تعظيم الجنة وما أعد للمتقين فيها، والبشارة لهم بحسن العقبى؛ لقوله

تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾.

٣٩- الترغيب في تقوى الله تعالى.

٤٠- أن عقبى الكافرين ومآلهم ونهايتهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

٤١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم أهل الكتاب القائمون بمقتضى ما أنزل الله في التوراة والإنجيل، المنصفون المتجردون عن العصبية.

﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: يفرحون بالذي أنزل إليك يامحمد من القرآن الكريم ويستبشرون به، ويؤمنون به ويصدقونه؛ لما في كتبهم من البشارة به والشواهد على صدقه، ولما فيه من تصديق ما أنزل إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:

١٠٧-١٠٩].

أي: إن كان ما وعدنا ربنا به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ حقًّا وصدقًا مفعولًا وكائنًا لا محالة.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، أي: ومن الطوائف والفرق من أهل الكتاب والمشركين المتحزبين المجتمعين على الكفر.

﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، «من»: موصولة، أي: الذي ينكر بعض القرآن، مما لا يوافق معتقده أو هواه، فيجحده ولا يصدقه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧].

وقد توعَّدهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾، أي: قل يا محمد للفريقين وللناس كافة: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أمرت إلا أن أعبد الله وحده، وجملة ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أمرت»، أي: إنما أمرت أن أعبد الله وحده، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: إنما أمرت بعبادة الله وحده.

﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ معطوف على جملة ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، أي: وأمرت بأن لا أشرك به أي شيء من أنواع الشرك، ولا أيَّ شيء من الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾، أي: إليه عز وجل وحده، وإلى سبيله وتوحيده أدعو الناس، أي:

ما أمرت إلا بالتوحيد والدعوة إليه، كما هي طريقة الرسل من قبلي؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾، أي: وإليه عز وجل مآبي، وحذفت الياء للتخفيف ومراعاة الفواصل.

أي: وإليه وحده مآبي ومرجعي في جميع أموري في الدنيا، ومصيري في الآخرة، وعليه حسابي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ الكاف للتشبيه، والإشارة لإنزال القرآن، والضمير الهاء يعود إلى «ما» في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: يعود إلى القرآن الكريم. ﴿حُكْمًا﴾ حال، أي: حال كونه «حكما»، أي: حال كونه ذا حكم وحكمة، أي: ذا حكم بالعدل والحق، وذا حكمة، أي: محكمًا متقنًا؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس: ١].

﴿عَرَبِيًّا﴾ حال ثانية، ولا يصح أن تعرب صفة، أي: حال كونه عربيًّا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥].

فاجتمع فيه الكمالان: الكمال من جهة معانيه ومقاصده بكونه حكمًا وحكمةً، والكمال من جهة ألفاظه بكونه عربيًّا.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن اتبعت أهواء هؤلاء المكذبين.

﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي: بعد الذي جاءك من الله تعالى من العلم والوحي

بالقرآن الكريم.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما لك من دون الله، ولا غير الله.

﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لك من دون الله أيّ ولي يتولاك ويجلب النفع لك، ولا أيّ واق يقيك ويدفع الضر عنك، وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه أن يتبع أهواءهم بما يقترحون عليه من طلب إنزال آية غير القرآن والمداهنة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

وفي هذا وعيد وتحذير لأهل العلم أن يتّبِعوا سُبُلَ أهل الأهواء والضلال مع ما منحهم الله تعالى من العلم بالحق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، أي: فلست بدعًا من الرسل، ولا أول رسول.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾، «الأزواج»: جمع «زوج»، أي: جمع زوجة، وهو من مقابلة الجمع بالجمع، فبعض الرسل لم يكن له إلا زوجة واحدة، كنوح ولوط عليهما السلام، ومنهم من كان له عدة زوجات؛ مثل: إبراهيم وموسى وداود وسليمان عليهم السلام.

﴿وَذُرِّيَّةً﴾، أي: وجعلنا لهم ذرية، أي: نسلًا من الأولاد الذكور والإناث، علمًا أن أكثر ذرية الأنبياء بنات؛ حكمة بالغة.

وفي هذا رد لقول المشركين لو كان نبيًّا من جنس الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: ٧].

فاقترحوا أن يكون الرسول من الملائكة، وكيف يكون بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ كما قالوا، وكيف يتزوج النساء ويولد له؟ فبيَّن عز وجل أن شأنه ﷺ

شأن الرسل من قبله، كلهم من البشر ولهم أزواج وذرية؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: وما كان ممكنًا ولا مستطاعًا لرسول؛ أيًّا كان من الرسل، ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخَّر، أي: وما كان لرسول الإتيان بآية، أي: بخارق للعادة كما يقترحون.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا بإذن الله تعالى وأمره الكوني والشرعي، أي: ليس ذلك إليه، بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وفي هذا رد على اقتراحهم عليه ﷺ الإتيان بآية.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أي: لكل أجل من الآجال؛ لإتيان الآيات، وإنفاذ الوعيد، ومجيء العذاب.

و«الأجل»: الوقت الموقت لحصول موعود أو أمر من الأمور.

﴿كِتَابٌ﴾، أي: مكتوب محدد لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه من إتيان الآيات، ومجيء العذاب وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بسكون الثاء وتخفيف الباء، وقرأ الباقون بفتح الثاء وتشديد الباء: «يُثَبِّت».

والمحو: الإزالة، ويطلق على تغيير الأحوال وتبديل المعاني، قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

والتثبيت: جعل الشيء ثابتًا قارًّا في مكان أو على حال، قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

أي: يمحو الله الذي يشاء من الأحكام والأقدار والأرزاق والآجال وغير ذلك، ويبدله وينسخه، ويثبت منها ما يشاء؛ لكمال تصرفه، وتمام قدرته، وواسع علمه، وبالغ حكمته ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أم الكتاب: اللوح المحفوظ الذي كتب الله عز وجل فيه مقادير كل شيء، ما يمحى ويبدل وينسخ، وما يثبت، وغير ذلك.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من القرآن، يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب؛ الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك في كتاب»(١).

وقال قتادة: «قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ هي مثل قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]»(٢).

فيمحو الذي يشاء من الأقدار، ويثبت منها ما يشاء، ويزيل ما يشاء من الموجودات، ويبقي منها ما يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

ويعفو عما يشاء من الوعيد، ويقر ما يشاء، وينسخ ما يشاء من النصوص والأحكام، ويحكم منها ما يشاء، وغير ذلك.

وذلك وفق ما قدره في الأزل وسبق به علمه وجرى به قلمه، من جعل أسباب يترتب عليها المحو والإثبات.

كما جعل عز وجل البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وجعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، كما جعل التعرض للمهالك سببًا للهلاك والعطب، والبعد عنها سببًا للسلامة؛ ولهذا ثبت أن المدمنين على المخدرات والدخان أقل أعمارًا من غيرهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٥٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٥٦٧.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه؛ ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر**»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾، «إن»: شرطية، و«ما»: مزيدة، فأكد هذا الشرط بـ«ما» المزيدة ونون التوكيد، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، أي: بعض الذي نعد المكذبين من قومك من العذاب والخزي والنكال، بأن نعذبهم في الدنيا في حياتك، فتشاهد ما حل بهم من العقاب، وتقر به عينك.

أي: لا تعجل عليهم بوقوع ما يوعدون من العذاب، فهو واقع بهم لا محالة عن قريب، إن استمروا في طغيانهم وكفرهم.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، أي: قبل إنزال الوعيد بهم، وقد أرى الله نبيه ﷺ ما قرت به عينه، مما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر، ويوم فتح مكة، ويوم حنين.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ الفاء تعليلية، و«إنما» أداة حصر، أي: ما عليك إلا البلاغ فقط؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨]، أي: ما عليك إلا إيصال رسالة ربك إليهم وتبليغهم إياها، وبيان الحق لهم، وليس إليك أمر إنزال الآيات، أو تعجيل العذاب؛ ولهذا قال:

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، أي: وعلينا حسابهم وحساب جميع الخلائق وجزاؤهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣.

وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أو لم ير هؤلاء المكذبون، أي: يشاهدوا بأبصارهم آثار نقص الأرض من أطرافها، أي: نواحيها ويعلموا ما حل بالأمم المكذبة قبلهم من الهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]، و«يروا» أيضًا، أي: يشاهدوا ويعلموا ما يحل بأرضهم والأرض من حولهم من النقص في الأنفس والثمرات وقلة الخيرات ومحق البركات، أو فتح المسلمين لها بلدًا بلدًا.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أن نقص الأرض من أطرافها: موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها(١). قال الشاعر:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلف(٢)

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ الجملة فيها حكم التعليل لما قبلها، أي: لأن الله يحكم، أي: يحكم بما شاء، له الحكم القدري، والحكم الشرعي والحكم الجزائي؛ لتمام قدرته وكمال عدله وحكمته، وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: وهو يحكم؛ تعظيمًا لنفسه وتأكيدًا لوحدانيته في إلهيته المقتضية عدم المنازع.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٣/ ٥٧٩.

(٢) البيتان لأحمد بن غزان، انظر: «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٩٣.

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: نافذًا حكمه، لا راد ولا مبطل له.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾، أي: وهو سريع الحساب؛ لأن حسابه آت، وكل آت قريب؛ ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة مهما طال فهو قصير؛ ولأن الإنسان يجد في الحياة شيئًا من جزاء عمله معجلًا فيسعد بفعل الطاعة، ويحصل له من الشقاء بقدر ما يرتكبه من المخالفة والمعصية؛ ولأن الله عز وجل لا يحتاج إلى طويل وقت لحساب الخلائق؛ لأنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وإذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: مكر هؤلاء المكذبون بكفرهم وتكذيبهم وكيدهم له ﷺ ولدعوته، وقد مكر الذين من قبلهم من الأمم بكفرهم وتكذيبهم لرسلهم وكيدهم لهم.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام للاختصاص، ﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: فلله وحده خاصة المكر جميعًا، لا لغيره؛ لأن مكره لا يدفعه دافع ولا يمنعه مانع، فمكر غيره بالنسبة لمكره كالعدم؛ ولهذا مكر بالذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة، فأحل بهم عظيم عقابه وأهلكهم، وسيمكر بهؤلاء المكذبين كما مكر بالذين من قبلهم، فهذه سنته في المكذبين؛ قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٠- ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ، أي: لأنه يعلم الذي تكسبه، أي: الذي تعمله كل نفس من خير أو شر، من ظاهر الكسب وباطنه؛ لهذا كان له المكر جميعًا، وكان مكره أشد وأعظم، وفي هذا إنذار وتحذير للمكذبين، وبشارة للرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر وأبو جعفر بالإفراد: «الكافر»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾ بالجمع.

أي: وسيعلم الكفار مستقبلًا لمن تكون عقبى الدار ونهايتها، أهي لهم أو للمتقين من الرسل وأتباعهم، أي: لمن تكون العاقبة الحميدة، وأنها للمتقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وفي هذا تعريض بالوعيد للكفار، وأن دائرة السوء ستكون عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: ويقول الذين كفروا من قريش وأهل مكة تكذيبًا لرسالتك: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: ما أرسلك الله، ولست رسولًا.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الباء: مزيدة للتأكيد، أي: كفى الله، أي: حسبي الله.

﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: شهيدًا عليّ بصحة ما جئتكم به وثبوت رسالتي، بقوله عز وجل فيما أوحاه تعالى إليَّ من القرآن؛ قال تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣].

وبفعله بتأييده ونصره لي، وبإقراره لي؛ فلو تقولت عليه لعاجلني بالعقوبة.

وشهيدًا أيضًا على تبليغكم رسالته عز وجل إليكم، وشهيدًا بيني وبينكم على ما قابلتموني به من التكذيب والكفر.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: اسم موصول معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، أي: كفى بالله شهيدًا، والذي عنده علم الكتاب من أهل الكتاب اليهود والنصارى الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم

المتقدمة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧]؛ منهم ورقة بن نوفل وغيره، وإنما استشهدهم لأنهم- وخصوصًا من آمن منهم وشهد بالحق- أهل هذا الشأن؛ لما عندهم من علم بالكتب المتقدمة.

الفوائد والأحكام:

١- فرح أهل الكتاب واستبشارهم وإيمانهم وتصديقهم بما أنزل على النبي ﷺ من القرآن الكريم؛ لما في كتبهم من البشارة به والشهادة على صدقه، ولما فيه من تصديق ما أنزل إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٢- إنكار بعض الأحزاب من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار بعض ما أنزل من القرآن مما لا يوافق أهواءهم ومعتقداتهم الباطلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٥- أن الرسول ﷺ إنما أمر بعبادة الله تعالى وحده وألا يشرك به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾.

٦- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والبعد عن الشرك؛ لأن الله أمر به رسوله ﷺ، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٧- أن الشرك يضاد التوحيد وينافيه، ولا يجتمع معه أبدًا.

٨- أنه ﷺ إنما أمر بالدعوة إلى الله تعالى وتوحيده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾

٩- أن المآب والمرجع إلى الله في جميع الأمور، والمصير في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾.

١٠- الامتنان والتنويه بكون القرآن ذا حكم بالحق والعدل وذا حكمة، أي: محكمًا

متقنًا، وبكونه عربيًّا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

١١- التحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب والمشركين بعد نزول القرآن وظهور الحق، وأنه لا ولي من الله ولا واق لمن اتبع أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

١٢- ليس في تحذيره ﷺ من اتباع أهواء أهل الكتاب دلالة على وقوع ذلك منه، فلا غضاضة في ذلك، وقد قال الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، بل فيه تحذير للأمة- وخصوصًا علماءها- من اتباع سبل أهل الأهواء بعد ظهور الحق لهم وعلمهم به.

١٣- أنه ﷺ ليس بدعًا من الرسل الذين قبله، الذين جعل الله لهم أزواجًا وذرية، بل له الأسوة بهم في ذلك، فلا يقدح في رسالته ﷺ كونه له أزواج وذرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

١٤- أن الإتيان بالآيات وخوارق العادات والمعجزات ليس أمره إلى الرسل، بل إلى إذن الله عز وجل وأمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٥- أن لكل أجل ووقت- لإتيان الآيات، وإنفاذ الوعيد، ومجيء العذاب، وغير ذلك- كتابًا مكتوبًا محددًا لا يتجاوزه؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

١٦- محو الله عز وجل لما يشاء من الأحكام والأقدار والأرزاق والآجال، وإثبات ما يشاء منها؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

١٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٨- كتابة الله عز وجل مقادير كل شيء في أم الكتاب عنده- اللوح المحفوظ- مما يشاء محوه ومما يشاء إثباته، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

١٩- تأكيد الله عز وجل لنبيه ﷺ وقوع العذاب الدنيوي العاجل بالمكذبين؛ إما في حياته ﷺ بحيث يراه، وإما بعد وفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى

نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

وقد أراه عز وجل ما قرت به عينه ﷺ من هلاك الكثيرين منهم بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين.

٢٠- أن الرسول قد يتوفى ولا يرى ما توعد الله به المكذبين من قومه أو بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، أي: قبل ذلك.

٢١- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ الرسالة، وعلى الله عز وجل الحساب، أي: محاسبة الخلائق ومجازاتهم بأعمالهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

٢٢- الإنكار على المكذبين عدم النظر والاعتبار بنقص الأرض من أطرافها بما يحل فيها من القوارع وهلاك الأنفس والثمرات ومحو البركات، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

٢٣- أن في حلول المصائب والكوارث في الأنفس والأموال والديار ما يوجب التفكر والاعتبار واستبانة الحق لذي عينين.

٢٤- حكم الله عز وجل في الخليقة ما شاء من أحكام قدرية وشرعية وجزائية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾.

٢٥- نفوذ حكم الله تعالى، فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

٢٦- سرعة حساب الله عز وجل للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

٢٧- مكر المكذبين من الأمم السابقة، وكيدهم لرسلهم، وكفرهم بما جاؤوا به من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، ومكر الله تعالى بهم باستدراجهم وأخذهم بأنواع العقوبات الشديدة والمثلات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي: فمكر الله تعالى بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ

وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

٢٨- أن لله عز وجل المكر جميعًا؛ لسعة علمه وتمام قدرته، فهو خير الماكرين، ومكره لا يدافع ولا يمانع، ومكر غيره بالنسبة لمكره أشبه بالعدم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾.

٢٩- تحذير المشركين وتهديدهم بأن يحل بهم ما حل بالمكذبين الماكرين قبلهم من العقوبات.

٣٠- علم الله عز وجل وإحاطته بما تكسبه كل نفس؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾، وفي هذا تحذير من كسب الشر، ووعيد لمن كسبه، وترغيب في كسب الخير، ووعد لمن كسبه.

٣١- الوعيد والتهديد للكفار بسوء العاقبة، والوعد للرسول ﷺ والمؤمنين بحسن العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أي: وسيعلم الكفار مستقبلًا لمن تكون عقبى الدار الحسنة، وأنها للمؤمنين، وأن لهم سوء الدار.

٣٢- إنكار الكفار لرسالته ﷺ وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾.

٣٣- كفايته عز وجل شهيدًا على صدق رسوله ﷺ فيما جاء به، بوحيه عز وجل إليه، وتأييده له ونصره، وإقراره له، وشهيدًا على كفر المشركين وتكذيبهم له ﷺ، وعلى تبليغه رسالة ربه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: حسبي الله شهيدًا بيني وبينكم فهو خير الشاهدين.

٣٤- شهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى المنصفين بصدقه ﷺ فيما جاء به، وتصديقه والإيمان به؛ وذلك لتصديق كتبهم وبشارتها به، وتصديقه لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ

المقدمـــة

أ- اسم السورة:

سميت سورة إبراهيم بهذا الاسم؛ لذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيها، ودعواته التي تضرع بها إلى ربه عز وجل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

جمهور العلماء على أنها مكية، وقيل: فيها آيتان نزلتا في المدينة، وهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾، قيل: نزلتا في قتلى بدر من المشركين.

والصحيح: أنها كلها مكية.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة إبراهيم بتعظيم القرآن الكريم، وبيان الحكمة من إنزاله، وهي إخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان، وسلوك صراط الله المستقيم، وبيان سعة ملك الله تعالى وتمام قدرته، ووعيد الكافرين الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله، وبيان شدة ضلالهم، وبيان أنه عز وجل ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم؛ لطفاً منه بعباده، وامتناناً عليهم، فيضل عز وجل من يشاء بعدله ويهدي من يشاء بفضله، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

٢- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام بالآيات، لنفس الحكمة التي أنزل من أجلها القرآن الكريم وتذكيره لقومه بنعم الله عليهم، وإنجائهم من آل فرعون، وتحذيرهم من كفر نعم الله، وبيان أن النعم تزيد بشكرها، وأن الله غني عن العالمين ولا يضره كفر من كفر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

٣- بيان ما حل بالأمم السابقة الذين كفروا بما أرسل رسلهم، وشكوا في دعوتهم. وتأكيد رسلهم ثبوت وأحقية ما دعوهم إليه، واعتراض هؤلاء الكفار على رسلهم بأنهم بشر مثلهم، وتحديهم لهم بالإتيان بحجة بينة. ورد الرسل عليهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾.

٤- تهديد الذين كفروا لرسلهم بإخراجهم من أرضهم إن لم يعودوا في ملتهم، ووعد الله لرسله بالنصر والتمكين، وإهلاك الظالمين، وإسكانهم مكانهم، وتهديد الجبارين المعاندين بالخيبة، و بجهنم وصديدها وعذابها الغليظ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ ﴾.

٥- تصوير أعمال الذين كفروا بربهم في بطلانها واضمحلالها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ

ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

٦- التنبيه على الغاية من خلق الله السموات والأرض، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

٧- بيان سوء حال التابعين والمتبوعين من أهل الباطل يوم القيامة، وعدم إغناء بعضهم عن بعض، وتحتم مصيرهم جميعاً إلى العذاب، قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

٨- براءة الشيطان من بني آدم يوم القيامة، واعترافه بأن وعد الله هو الحق، وإلقاؤه الملامة عليهم في استجابتهم لدعوته وتبعيتهم له، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٩- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم الجنات وخلودهم فيها، وما لهم فيها من النعيم.

١٠- تشبيه الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، وكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة، ووعده عز وجل بتثبيت الذين آمنوا، ووعيده بإضلال الظالمين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

١١- ذم حال المكذبين الذين استبدلوا نعمة الله عليهم بالكفر والشرك بالله، وحلول دار البوار جهنم ، والمصير إلى النار، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟

نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

١٢- أمر الله عباده بإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله سراً وعلانية، ما داموا في زمن الإمهال، قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

١٣- إثبات كمال قدرة الله تعالى، وتعداد نعمه على خلقه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

١٤- ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام بالأمن، وله ولبنيه بتجنيبهم عبادة الأصنام، وذكر إسكانه من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام لإقامة الصلاة ودعائه بجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، ورزقهم من الثمرات ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

١٥- ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه بعلمه بما يخفى وما يعلن وعلمه بكل شيء، وسماعه الدعاء، وحمده على هبته له إسماعيل وإسحاق، ودعائه ربه أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته وأن يتقبل دعاءه، وسؤاله المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة.

١٦- بيان عاقبة الظالمين، وتهديدهم ووعيدهم بعذاب يوم القيامة وأهواله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

١٧- أمر الرسول ﷺ بإنذار الناس، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى. وسؤال الظالمين تأخيرهم؛ لإجابة دعوته وإتباع الرسل. وتقريعهم وتوبيخهم على ما كان منهم في الدنيا من إنكار الآخرة والمكر الكبار، وبيان مكرهم وكيدهم لرسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

١٨- بيان صدق وعده عز وجل رسله بنصرهم وإثابتهم، والانتقام من الظالمين ، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

١٩- وصف أحوال يوم القيامة، وأهواله، وحال المجرمين فيه، وبيان عدل الله جل شأنه، ومجازاة كل بما عمل، وسرعة حسابه، وأن هذا القرآن بلاغ للناس يرتقون به إلى أعلى المقامات، وإنذار لمن خالفه، ودليل على وحدانية الله تعالى في إلوهيته وربوبيته وتذكير لأولي الألباب، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾.

قوله: ﴿الٓر﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾، أي: هذا كتاب أنزلناه إليك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد القرآن الكريم، ونُكِّر «كتاب» للتعظيم؛ لأن القرآن أعظم كتب الله، وأشرف الكتب على الإطلاق، أنزله الله عز وجل على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أشرف الخلق، وأفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، في أشرف البقاع: مكة البلد الحرام، على خير الأمم أمة محمد ﷺ.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ اللام: للتعليل، أي: إنما أنزلنا عليك يا محمد هذا الكتاب العظيم؛ لأجل أن تخرج الناس كلهم، بسببه، وبما فيه من البيان والهداية والإرشاد، كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي،**

وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١).

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من ظلمات الجهل والضلال والكفر والغي، إلى نور العلم والهدى والإيمان والرشاد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وجَمَع «الظلمات» وأفرد «النور»؛ لأن طُرُق الباطل كثيرة متشعبة ملتوية، وطريق الحق طريق واحد عدل مستقيم، لا اعوجاج فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أي: بأمر ربهم وتوفيقه وعونه لهم.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وبيان وتفسير له، أي: إلى دين العزيز الحميد وسبيله، بمعرفة الحق والعمل به، والعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

و«العزيز» و«الحميد» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، القاهر الذي لا يغالب ولا يمانع. يقال: عَزَّ يعَزُّ، بفتح العين: إذا صَلُب، وعَزَّ يَعِزُّ بكسر العين: إذا امتنع، وعَزَّ يَعُزُّ بضم العين: إذا غَلَب.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وأوامره ونواهيه الشرعية والقدرية، وعلى نعمه الظاهرة والباطنة، والتي من أعظمها وأجلها إنزال هذا الكتاب العظيم، وبعثه محمدًا ﷺ وإرساله رحمة للعاملين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «اللهُ» بالرفع على الاستئناف، فهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

وقرأ الباقون: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالكسر على الاتباع، بدل من «العزيز» أو «الحميد»، أو عطف بيان، ولا يصح أن يعرب صفة؛ لأن أسماءه عز وجل كلها تابعة لاسمه «الله» بمعنى أنها أوصاف له وهو موصوف بها.

والمعنى: الله الذي له جميع الذي في السموات والذي في الأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، والذي يجب أن يدين له الخلق ويعبدوه وحده دون سواه، ويسلكوا سبيله وصراطه المستقيم.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، وتخويف وتحذير، أي: وويل للكافرين بما أنزل إليك يوم القيامة.

﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، أي: من عذاب عظيم، شديد عليهم، لا يقدر قدر شدته إلا الذي وصفه بذلك، وهو الله شديد المحال.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، أو في محل جر بدل من «الكافرين»، أو صفة له.

﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ أصلها «يحبون»، والسين والتاء للتأكيد.

والمعنى: الذين يؤثرون الحياة الدنيا ويقدمونها على الآخرة، فعملهم للحياة الدنيا، واهتمامهم بها وبزينتها الفانية؛ لركونهم إليها، واطمئنانهم بها، وغفلتهم عن الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [يونس: ٧].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وينصرفون بأنفسهم عن دين الله وصراطه المستقيم، بالإعراض بقلوبهم عن النظر والتدبر في آيات الله الكونية والشرعية، والتولي بأبدانهم عن الانقياد لشرع الله، كما يصدون غيرهم ويصرفونهم عن سبيل الله ودينه

القويم وصراطه لمستقيم.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: ويبغون سبيل الله عوجًا، أي: يطلبون ويريدون ويحبون أن تكون سبيل الله معوجة مائلة؛ لتوافق أهواءهم، أو لينفروا الناس منها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ الإشارة إلى الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

والضلال البعيد الذي يتعذر رجوع سالكه إلى الحق، واهتداؤه إليه، أي: أولئك في جهل وضلال بعيد عن الحق والهدى؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وصدوا عن سبيل الله، فضلوا عنها وأضلوا وأرادوها معوجة وفقًا لأهوائهم، فأي ضلال أبعد من هذا؟!

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: ٤].

امتن عز وجل بإنزال الكتاب عليه ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتوعّد الكافرين، وبيّن إغراقهم في الضلال، ثم أتبع ذلك بالامتنان على الأمم، وبيان قيام الحجة عليهم بأنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم، كما أرسل محمدًا ﷺ بلسان قومه العرب.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، «من» في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما أرسلنا أيَّ رسول إلا بلسان قومه، أي: بلغتهم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يُبين لهم البيان التام، ويبلغهم البلاغ المبين ما أرسله الله به إليهم، وما يدعوهم إليه؛ وليفهموا عنه قوله ويفهم منهم، نعمة من الله تعالى، وإقامة للحجة عليهم.

وفي هذا امتنان من الله تعالى بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه بلغة قومه اللغة العربية أفصح اللغات وأكملها وأوسعها، وإقامة للحجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، أي: فيضل الله بعدله عن الحق

بعد هذا البيان وإقامة الحجة ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء إضلاله من العباد، ﴿وَيَهْدِى﴾، أي: ويوفق بفضله إلى الحق ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء هدايته من عباده.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: وهو سبحانه ذو العزة التامة والقوة والقهر والغلبة، الذي لا يغالب ولا يمانع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام، كونًا وشرعًا وجزاء، وذو الحكمة البالغة الغائية والصورية.

ومن عزته عز وجل تفرده بالهداية والإضلال، ومن حكمه وحكمته هدايته بفضله من كان أهلًا للهداية، وإضلاله بعدله من كان أهلًا للضلال.

و«العزيز»، و«الحكيم» من أسمائه عز وجل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓر﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم، وأنه أعظم كتب الله تعالى، وأشرف الكتب على الإطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بالتنكير.

٣- إثبات صفة العلو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات.

٤- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه بحرف وصوت، وغير مخلوق.

٥- إثبات رسالته ﷺ، وإنزال القرآن إليه وتشريفه ﷺ بذلك، وبخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

٦- أن الحكمة من بعثته ﷺ وإنزال القرآن عليه ليخرج الناس بسبب هذا القرآن وما فيه من الهداية والإرشاد من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٧- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾.

٨- أن طريق الحق واحد، وطرق الباطل كثيرة متشعبة؛ لجمع الظلمات، وإفراد النور.

٩- شتان بين الكفر والإيمان، شتان شتان، فالكفر ظلمات بعضها فوق بعض؛ كما قال

تعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، والإيمان نور على نور، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

والكافر كالمتحير وسط دياجر الظلمات، لا يدري كيف يتجه، ولا إلى أين يذهب، والمؤمن على نور من ربه يمشي سويًّا على صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ [الملك: ٢٢].

فشتان بين الأرض والسماء، وبين الثرى والثريا، شتان بين من يتخبط وسط حالك الظلمات، وبين من هو على نور من ربه، نور الأرض والسموات، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ [هود: ٢٤].

شتان بين ساع في إعتاق نفسه وخلاصها، وبين ساع في إيباق نفسه وهلاكها، وصدق الله العظيم: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وصدق نبيه المصطفى ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

وقد أحسن القائل:

وما الناس إلا عاملان، فعامل ... يتبر ما ينبي، وآخر رافع(٢)

١٠- أن هداية من اهتدى وخروجه من الظلمات إلى النور لا تكون إلا بإذن الله تعالى وتقديره الكوني، وهكذا ضلال من ضل؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلف؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾.

١٢- أن صراط الله تعالى هو النور؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ فقوله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بيان وتفسير للنور.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص٥٦).

١٣- إثبات اسم الله تعالى «العزيز» وصفة العزة التامة له- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

١٤- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد» وأنه المحمود في أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه الشرعية والقدرية، وعلى نعمه الظاهرة والباطنة، ومن أعظمها بعثته ﷺ وإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾.

١٥- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الحميد» زيادة كمال إلى كمال، فهو محمود في عزته، بخلاف المخلوق، فإنه قد يذم بسبب عزته؛ لما فيه من الغشم والظلم وعدم الحكمة.

١٦- تعظيم الله عز وجل لصراطه؛ لإضافته إلى نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وذلك لاستقامته واعتداله ونوره وهدايته إلى الله عز وجل، ومرضاته، والسعادة في الدنيا والآخرة.

١٧- تعظيم الله عز وجل لنفسه ببيان واسع ملكه، وتمام قدرته، وكمال تدبيره وتصرفه، ونفوذ أمره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٨- وعيد الكافر ين به عز وجل وبما أنزل على رسوله ﷺ وتهديدهم بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

١٩- ذم الكافرين لما هم عليه من إيثار الحياة الدنيا على الآخرة والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجًا، وبيان إغراقهم في الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٢٠- ينبغي الحذر من الركون إلى الحياة الدنيا، وإيثارها على الآخرة، والصد عن سبيل الله؛ لأن هذا من أعمال الكافرين وصفاتهم.

٢١- وجوب الاستعداد للآخرة، وعدم الانشغال عنها بالدنيا وزهرتها الفانية.

٢٢- حقارة الحياة الدنيا، وأنها لا تعدل شيئًا بالنسبة للآخرة.

٢٣- حب الكافرين وإرادتهم أن تكون سبيل الله معوجة؛ موافقة لأهوائهم؛

لقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

٢٤- أن سبيل الله وصراطه عدل مستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٢٥- امتنان الله تعالى على هذه الأمة وعلى الأمم السابقة أنه ما أرسل رسولًا إلا بلسان قومه؛ ليبين لهم البيان التام، نعمة من الله تعالى عليهم، وإقامة للحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

٢٦- استحباب تعلم اللغة العربية؛ لفهم كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ؛ وهو واجب في حدود ما لا يقوم دين المرء إلا به.

٢٧- أن الإضلال والهداية بيد الله عز وجل، يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٢٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وأنه ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣٠- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم» كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الواو مستأنفة، واللام موطئة للقسم، أي: ولقد أرسلنا موسى بن عمران عليه السلام إلى قومه بني إسرائيل ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباء للمصاحبة، أي: بآياتنا البينات العظيمة الدالة على صدقه وصحة ما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، «أن» تفسيرية، والجملة تفسير لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء مقدرة، أي: بأن أخرج قومك من الظلمات إلى النور، أي: أخرجهم بهذه الآيات وما فيها من الدلائل والحجج، من ظلمات الجهل والضلال والكفر إلى نور العلم والهدى والإيمان، أي: كما أرسلناك إلى قومك وأنزلنا إليك القرآن؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، لقد أرسلنا قبلك موسى بآياتنا إلى قومه؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

فلم تكن بدعًا من الرسل، ولم تكن رسالة موسى وغيره من الرسل عليهم السلام قبلك مختلفة عن رسالتك، فكل منكم أرسل بالآيات لإخراج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾، أي: وعظهم ترغيبًا وترهيبًا بتذكيرهم نعم الله تعالى وأياديه عليهم وعلى أوليائه المؤمنين. ونقمه وعقوباته لأعدائه الكافرين والعصاة.

أي: وذكرهم بنعم الله تعالى، وأياديه عليهم، وإحسانه إليهم، بإنجائه إياهم من آل

فرعون، وإخراجهم من أسر عدوهم فرعون وقهره وظلمه وعذابه المهين، وتوريثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وفلق البحر لهم، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم؛ كما قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية: ٦].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠﴾.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال: بنعم الله تبارك وتعالى»(١).

قال الشاعر:

وأيـــام لنـــا غـــر طـــوال عصينا الـمَلْكَ فيها أن نـدينا(٢)

وأيضًا: وذكرهم بأيام الله، أي: بوقائعه بالمكذبين والكافرين من الأمم السابقة وعقوباته لهم وإهلاكهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ليشكروا نعم الله تعالى عليهم، ويحذروا نقمه.

قال ابن القيم: «وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أيامًا»؛ لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس، أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام»(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. الإشارة تعود إلى أيام الله ونعمه عليهم وعلى أوليائه، ونقمه وعقوباته لأعدائه، والتذكير بها.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لعبر وعظات، واللام: للتوكيد.

---

(١) أخرجه احمد ٥/ ١٢٢، وذكر ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٣٩٨ أنه روي موقوفًا، قال: «وهو أشبه».

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم انظر: «شرح القصائد السبع» لابن الأنباري ص٣٨٨.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٧.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾، أي: لكل صبار على الضراء والبلاء، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته.

﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله تعالى بنسبتها لله تعالى، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على طاعته، واستعمالها في مرضاته.

عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»(١).

قال قتادة: «نعم العبد، إذا ابتلى صبر، وإذا أعطي شكر»(٢).

وقدم الصبر على الشكر؛ لأن الشكر عاقبة الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم: ٦].

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: واذكر يا محمد بنفسك ولقومك حين قال موسى لقومه- امتثالًا لأمر الله له بتذكيرهم أيام الله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تذكروا نعمة الله عليكم، واذكروها، واشكروها، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم.

قال ابن القيم: «الذكر رأس الشكر.. والشكر جلاّب النعم، وموجب للمزيد».

وقال بعض السلف: «ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عنك»(٣).

﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾، أي: حين أنجاكم، أي: خلصكم وأنقذكم.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد- أمر المؤمن كله خير ٢٩٩٩، وأحمد ٥/ ٣٣٢- ٣٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٥٩٨.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: من فرعون وقومه، وعذابهم لكم، واستذلالهم وإهانتهم لكم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: يذيقونكم أسوأ العذاب وأشده.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ تفسير وبيان لـ«سوء العذاب»، أي: يذبحون من ولد ووجد من أبنائكم الذكور؛ مخافة أن يكون من بينهم النبي الذي يكون على يديه هلاك فرعون وزوال ملكه، وهو موسى عليه السلام.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، أي: ويستبقون نساءكم، أي: ويتركون إناثكم فلا يقتلونهن.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة تعود إلى إنجائه عز وجل إياهم من آل فرعون، أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ومن سوء تعذيبهم لكم ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أي: نعمة عظيمة عليكم من ربكم تستوجب عظيم الشكر، وامتحان عظيم منه تعالى لكم، هل تشكرون هذه النعمة أو تكفرونها؟

ويحتمل عود الإشارة إلى سوء العذاب الذي يسومه آل فرعون بني إسرائيل، من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، فهو لا شك بلاء من ربهم عظيم، فيه ابتلاء وتمحيص لهم، واختبار لصبرهم واحتسابهم.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فالبلاء والابتلاء كل منهما يكون في الخير والشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ويبتلى المرء بالنعمة كما يبتلى بالنقمة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

امتن عز وجل عليهم بتخليصهم من تعذيب آل فرعون لهم مما يوجب عليهم

شكره، ثم أتبع ذلك بتذكيره إياهم إعلامه ووعده لهم إن شكروا بالزيادة، وتحذيرهم إن كفروا من عذابه الشديد.

قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾، «تأذن» بمعنى: آذن وأعلم، قال الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء(١)

«إذ»: ظرف متعلق بفعل محذوف، و«تأذن»، أي: أعلم إعلامًا مؤكدًا، أي: واذكروا حين آذنكم ربكم وأخبركم بوعده لكم، مرغبًا لكم في الشكر وحاثًّا لكم عليه.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن شكرتم، أي: إن شكرتم نعمتي، وذلك باعتراف القلب بنعم الله تعالى، ونسبتها إليه عز وجل والثناء عليه بها، والاستعانة بها على طاعته، واستعمالها في مرضاته.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: لأزيدنكم من نعمي.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ مثل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾، أي: والله لئن كفرتم نعمتي وجحدتموها، بنسبتها إلى غير الله، والإنكار لها، والاستعانة بها على معصية الله وصرفها فيما لا يرضي الله.

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ جواب القسم (لئن كفرتم)، واللام في ﴿لَشَدِيدٌ﴾ للتوكيد، أي: إن عذابي لشديد لمن كفر نعم الله تعالى، وذلك بعقابكم على كفركم، وسلب النعمة منكم؛ كما في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ﴾، أي: إن تكفروا نعمة الله وتجحدوها ﴿أَنتُمْ﴾ ضمير منفصل في محل رفع توكيد لفاعل «تكفروا».

﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: والذي في الأرض من الناس جميعًا.

---

(١) البيت للحارث بن حلِّزة، انظر: «القصائد السبع» ص٤٣٣.

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن ٤٠٢٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط المحذوف، والجملة تعليل للجواب المحذوف، أي: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض من الناس جميعًا فلن تضروا الله شيئًا، وإنما وبال ذلك على أنفسكم؛ لأن الله عز وجل غني عن طاعتكم وشكركم، وعن الخلق جميعًا، فلا يضره كفر الكافرين، ولا ينفعه شكر الشاكرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وعن أبي ذر رضي الله، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه- عز وجل- أنه قال: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»(١).

﴿حَمِيدٌ﴾، أي: محمود بأجل المحامد في شرعه وقدره، وعلى سابغ نعمه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

٢- أن الحكمة من إرسال موسى عليه السلام بالآيات هي إخراج قومه من ظلمات الكفر إلا نور الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهي الحكمة من إرسال جميع الرسل.

٣- أن الكفر ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، والإيمان نور على نور؛ لقوله

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب- تحريم الظلم ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تعالى: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٤- أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة متشعبة؛ لهذا أفرد النور وجمع الظلمات.

٥- أن من أعظم وسائل الدعوة التي أمر الله تعالى بها رسله، وأوصاهم بها هم وأتباعهم التذكير بنعم الله عز وجل على أوليائه وعباده المؤمنين، والتذكير بعقوباته لأعدائه الكافرين؛ لما في ذلك من الترغيب والحث على الإيمان، والترهيب والتحذير من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

٦- أن في التذكير بنعم الله تعالى ونقمه عبرًا وعظات لكل مؤمن صبار عند الضراء، شكور حال السراء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٧- امتثال موسى عليه السلام أمر الله له بتذكير قومه بأيام الله، بتذكيره لهم نعمة الله عليهم في إنجائه إياهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، قتلًا لأبنائهم، واستحياء لنسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

٨- أن في إنجاء بني إسرائيل من آل فرعون وتعذيبهم نعمة من الله تعالى، وامتحان عظيم لهم هل يشكرون أو يكفرون، كما أن في سوم آل فرعون لهم سوء العذاب بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم أيضًا ابتلاء وتمحيصًا لهم واختبارًا لصبرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

٩- شدة ظلم آل فرعون لبني إسرائيل وتنكيلهم بهم، قتلًا لأبنائهم، واستحياء لنسائهم، وإذلالًا لهم وإهانة.

١٠- ينبغي تذكر نعم الله تعالى على الدوام وشكرها، وتذكر نقم الله وعقوباته، والحذر من موجباتها. قال أبو قلابة: «لا تضركم الدنيا إذا شكرتموها»(١).

---

(١) انظر: «الشكر» لابن أبي الدنيا ص٢٤ (٥٩)، «حلية الأولياء» ٢/ ٢٨٦، «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٧٢٠ (١٣١٤).

١١- تذكير بني إسرائيل بإعلام الله تعالى، وإخباره لهم بزيادته لهم إن شكروا، وتحذيره لهم إن كفروا من عذابه الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

١٢- الإعذار من بني إسرائيل، وإقامة الحجة عليهم بإعلامهم ما لهم إن شكروا، وما عليهم إن كفروا.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

١٤- وجوب شكر نعم الله تعالى، والحذر من كفرها.

١٥- أن النعم إذا شكرت قرت وزادت، وإذا كفرت فرت.

١٦- عظم جود الله تعالى وكرمه وزيادته الشاكرين من فضله.

١٧- شدة عذاب الله تعالى لمن كفر نعمه.

١٨- إثبات وتأكيد غنى الله تعالى تمام الغنى عن جميع خلقه، وعن طاعتهم وشكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

١٩- أن من كفر لا يضر إلا نفسه؛ لأن الله لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي.

٢٠- إثبات أنه عز وجل «حميد»، أي: محمود في أمره ونهيه، وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وعلى جميع نعمه الظاهرة والباطنة.

٢١- أن الغنى لا يُمدح إلا إذا قارنه كون صاحبه محمودًا على غناه؛ لكرمه وجوده؛ وأما إذا صاحبه الشح والبخل فإنه يذم؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين اسميه «الغني الحميد» أو وصفه بذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قيل: هذا من تمام قول موسى لقومه، فالخطاب لبني إسرائيل.

والأظهر أنه خبر مستأنف، والخطاب لهذه الأمة، والنبأ: الخبر الهام، أي: ألم يأتكم خبر الذين من قبلكم من الأمم، وما قابلوا به رسلهم من الكفر، وما جرى بينهم، وكيف كانت عاقبتهم، فتأخذوا من ذلك العظة والعبرة، والسعيد من وعظ بغيره.

الاستفهام: للإنكار عليهم، وفيه معنى التقرير، أي: قد أتاكم نبأ الذين من قبلكم،

وذلك بما قص الله في كتابه من قصصهم وبسطها، وبما تناقله الناس من أخبارهم وما رأوه من آثارهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدل من «الذين»، وهذا وما بعده بيان وتفسير لقوله: ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كمدين وأصحاب الرس وقوم تبع، وغيرهم ممن انقرضوا وذهبت أخبارهم ممن لا يحصون كثرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨].

﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكثرتهم واندراس أخبارهم وآثارهم.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: جاءتهم رسلهم بالآيات البينات والدلائل الواضحات، والحجج القاطعات الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله تعالى رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الفاء عاطفة، أي: فرد أولئك الأقوام أيديهم في أفواههم؛ تكذيبًا لرسلهم وعنادًا واستكبارًا؛ كما قال نوح عليه السلام ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٧].

والمعنى: رفعوا أيديهم، ووضعوها على أفواه الرسل؛ ليسكتوهم، لما دعوهم إلى الله تعالى.

وقيل: المعنى: عضوا على أيديهم غيظًا على الرسل ودعوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقيل: وضعوا أيديهم على أفواههم، إخفاءً لشدة الضحك على كلام الرسل، سخرية منهم واستهزاء بهم.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾، أي: إنا كذبنا بالذي أرسلتم وجحدناه، فجمعوا في تكذيبهم وكفرهم بما جاؤوا به بين التكذيب والكفر بالفعل بالإشارة

والهيئة، وبين التصريح بالكفر بالقول المؤكد.

كما قال تعالى في سورة التغابن: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [الآيتان: ٥، ٦].

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾، «إن» واللام للتوكيد، أي: وإنا لفي شك وريب من الذي تدعوننا إليه من عبادة الله وحده وترك الشرك.

﴿مُرِيبٍ﴾، أي: موقع في الريبة والتهمة الشديدة، فلا نصدقكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [إبراهيم: ١٠].

قوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾، أي: قالت لهم رسلهم ردًّا على قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وتكذيبًا لهم.

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، كما في قوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**أَوَفي شك أنت يا ابن الخطاب؟**»(١).

وقدّم متعلق الشك للاهتمام به، أي: أفي وجود الله وربوبيته وإلهيته ووحدانيته شك؟

والجواب: لا، أي: لا شك فيه عز وجل، ولا يجوز أن يشك فيه.

ثم استدل على ذلك بالدليل القاطع فقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالق السموات والأرض ومبدعهما وما فيها من العوالم على غير مثال سبق، فهذا دليل قاطع على أن لهما خالقًا مقتدرًا؛ لاستحالة وجود هذه المخلوقات العجيبة العظيمة من غير فاعل مختار؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥].

وأي دليل أعظم من هذا؛ ولهذا قالت رسلهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

قال ابن القيم: «أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده، وأي

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٨، ومسلم في الطلاق ١٤٧٩، والترمذي في التفسير ٣٣١٨- من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.

دليل أصح وأظهر من هذا المدلول، فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟! ثم نبّهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾»(١).

وقال السعدي(٢): «وقد كذبوا في ذلك وظلموا؛ ولهذا قالت لهم رسلهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات حتى الأمور المحسوسة؛ ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه، ولا يصلح الريب فيه».

وكما قيل:

فكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل(٣)

ولهذا فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، وأنه الرب المالك المدبر، الذي يجب إخلاص الإلهية له، وحده لا شريك له، ولا يستحق العبادة سواه.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ اللام للتعليل، أي: يدعوكم لعبادته وحده لا شريك له؛ لأجل أن يغفر لكم من ذنوبكم بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على «يغفر»، داخل ضمن جملة التعليل، أي: ولأجل أن يؤخركم، أي: يؤجلكم ويمهلكم في الدنيا، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت انتهاء أعماركم وحلول آجالكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فوعدهم على إجابة دعوته عز وجل بمغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل.

﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: قال الذين كفروا من تلك الأمم لرسلهم مقالة السفهاء الجاهلين:

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، «إن» في هذا الموضع والذي بعده: نافية، بمعنى «ما»، أي: ما أنتم: إلا بشر مثلنا، أي: لستم ملائكة، فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة؟ وكيف نتبعكم وما نرى معكم حجة ظاهرة؟ كما قال أصحاب القرية لرسلهم الثلاثة: ﴿مَآ أَنتُمْ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ١٢٧.

(٣) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢٢٠).

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وقالت عاد في نبيهم هود: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

وقالت ثمود مخاطبين نبيهم صالحًا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾ [القمر: ٢٤]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «تريدون»، أي: تريدون صدنا. و«ما» موصولة، أي: عن الذي كان يعبد آباؤنا، أي: تريدون صرفنا عن دين آبائنا.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: فأتونا بحجة بينة، ودليل ظاهر، أي: مما نقترحه عليكم؛ وذلك لأن رسلهم جاؤوهم بالبينات؛ كما تقدم في قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٩].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾.

قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ إجابة على اعتراضهم واقتراحهم بقولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ الآية.

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أي: ما نحن إلا بشر مثلكم نستوي معكم في البشرية كما تقولون، وليس في ذلك ما يمنع إرسال بشر إليكم، والمنة في ذلك لله يختار من يشاء لرسالته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ ولهذا قالوا:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: ولكن الله يمتن وينعم بالنبوة والرسالة على الذي يشاء من عباده، أي: على بعضهم، فيخصهم بهذه المنة والإنعام،

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾، «ما» نافية، و«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان، أي: وما كان ممكنًا ومستطاعًا لنا إتيانكم ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾، أي: بحجة ومعجزة وبرهان كما تقترحون، وعلى وفق ما تسألون.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: إلا بأمر الله الكوني والشرعي، فالأمر في ذلك ليس إلينا، بل لله تعالى وحده، وله الحكمة في إتيانكم بذلك أو منعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قدَّم المتعلِّق؛ لإفادة الحصر، أي: وعلى الله تعالى وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا في جميع أمورهم، في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، مع تمام الثقة به عز وجل، والعلم بتمام كفايته، وكمال قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وفي قول الرسل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إظهار لتوكلهم على الله، ووجوب ذلك عليهم، وقوة ثقتهم بكفاية الله لهم، يؤكد هذا قولهم في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الواو عاطفة، و«ما» اسم استفهام، أي: ما الذي يمنعنا، أو أي شيء يمنعنا من التوكل على الله والاعتماد عليه، أو أي عذر لنا في أن لا نتوكل على الله، والاستفهام هنا للتعجب.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ قرأ أبو عمرو: «سبْلنا» بإسكان الباء، وقرأ الباقون بضمها ﴿سُبُلَنَا﴾.

والجملة: حالية، أي: والحال أنه قد هدانا سبلنا، أي: أرشدنا ووفقنا لصراطه المستقيم فعلمنا أننا على الحق، وعلمنا وجوب التوكل على الله عز وجل وكفايته لمن

توكل عليه.

قال ابن القيم: «فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا، وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره مضطر إلى توكله على الله، ولا يجد بدًّا من توكله، فإن التوكل يجمع أصلين:

علم القلب، وعمله.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه»(١).

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، أي: والله لنصبرن، فأكدوا صبرهم بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد.

و«ما» مصدرية، أي: على أذاكم لنا، أو موصولة، أي: على الذي آذيتمونا، والمعنى: سنستمر على دعوتكم وتذكيركم ووعظكم، ولنصبرنّ على أذاكم لنا، ونوطن أنفسنا على ذلك؛ احتسابًا للأجر من الله تعالى، ونصحًا لكم وطمعًا في هدايتكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يحتمل أن يكون هذا من بقية كلام الرسل عليهم السلام، فيكون تأكيدًا لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه تأكيد من الرسل على قوة توكلهم على الله في دفع كيد أعدائهم ومكرهم، وثقتهم بكفايته لهم، وقد كفاهم، وهذا كقول نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وقول هود عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨.

دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

ويحتمل أن يكون من كلام الله، ففيه تنويه بشأن المتوكلين على الله، وأنه لا ينبغي التوكل إلا على الله وحده.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وصبرهم على أذاهم؛ ذكر مدى ما وصل الحال بقومهم من الأذى لهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ الآية.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾، أي: متوعدين لهم ومهددين.

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، أي: والله لنخرجنكم من أرضنا، فأكدوا وعيدهم وتهديدهم بلام القسم والقسم المقدر ونون التوكيد، أي: لنخرجنكم ونبعدنكم من أرضنا، وننفينكم من بين أظهرنا.

كما قال قوم لوط عليه السلام: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقال تعالى إخبارًا عن قريش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

وأضافوا الأرض إليهم جهلًا منهم، وما علموا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال

تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ معطوف على ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ و«أو» عاطفة تفيد التخيير، أي: أنتم مخيرون بين أمرين: إما أن نخرجكم من أرضنا، أو تعودوا في ملتنا؛ كما قال قوم شعيب عليه السلام له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

ومعنى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، أي: أو لترجعن في ملتنا، أي: في ديننا، وما نحن عليه من الشرك، وتتركوا ما جئتم به من الدعوة إلى عبادة الله وحده، وهذا أبلغ ما يكون في رد دعوة الرسل عليهم السلام؛ لأنه تخيير بين أمرين أحلاهما مر، يدل على أنه لا مطمع فيهم بعد هذا؛ ولهذا توعدهم عز وجل بالإهلاك، وطمأن رسله بنصرهم وإسكانهم الأرض من بعدهم فقال:

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأوحى إلى الرسل ربهم؛ تأييدًا وطمأنة لهم وبشارة:

﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بيان لجملة: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ واللام لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، فأكد الجملة: بلام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد، أي: والله لنهلكن الظالمين، بأخذهم بأنواع العقوبات وإهلاكهم، بسبب ظلمهم بكفرهم بالله وتوعدهم رسله بإخراجهم من أرضهم.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوف على «نهلكن»، وهو في مقابل قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ فانقلب السحر على الساحر، فحيث توعدوا الرسل بإخراجهم من أرضهم، وليس هذا بمقدورهم، وعد القوي العزيز القدير الرسل بإسكانهم الأرض؛ لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

وقد أكد هذه الجملة بثلاث مؤكدات: لام القسم، والقسم المقدر، ونون التوكيد، والخطاب للرسل وأتباعهم المؤمنين، أي: لنجعلنكم تسكنون الأرض من بعدهم ونمكنكم فيها ونورثكم إياها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب:

٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإهلاك الظالمين وإسكان الرسل وأتباعهم الأرض هو وعد الله تعالى لرسله بنصرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ الإشارة إلى ما وعد الله تعالى به الرسل وأتباعهم من نصرهم وإسكانهم الأرض، بعد إهلاك الظالمين، أي: ذلك الوعد بالنصر والتمكين.

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾، أي: للذي خاف مقام الله تعالى واطلاعه عليه في الدنيا، فراقبه وأحسن العمل؛ كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وللذي خاف قيامه وموقفه بين يدي الله عز وجل في الآخرة للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وفي الحديث في ذكر السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم، لا ظل إلا ظله قال: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»(٢).

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قرأها يعقوب بإثبات الياء: «وعيدي» وصلًا ووقفًا، وقرأها

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورش عن نافع بإثباتها في الوصل دون الوقف، وقرأ الباقون بحذفها مطلقًا تخفيفًا ومراعاة للفواصل.

والمعنى: وخاف وعيدي، أي: خاف ما توعدت به من كفر بي وعصاني، فبادر إلى الإيمان وطاعة الله تعالى.

ولم يقل: ذلك لكم، بل قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إيماء إلى العلة في حصولهم على هذا النصر والتمكين، وهي خوفهم مقام الله ووعيده.

ولم يقل: ذلك لكم؛ لأنكم خفتم مقامي وخفتم وعيدي؛ ليشملهم هذا الوعد وغيرهم ممن خاف مقام الله ووعيده.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾، أي: واستفتح الرسل، أي: طلبوا من الله الفتح والنصر لهم على أعدائهم الظالمين، والاستفتاح: طلب الفتح والنصر؛ كما قال شعيب وقومه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ويحتمل عود الضمير في «استفتحوا» على الظالمين المكذبين للرسل، أي: واستفتح الظالمون على أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولا مانع من أن يكون كل منهما مرادًا، فقد استفتح رسول الله ﷺ يوم بدر واستنصر، كما استفتح المشركون في ذلك اليوم على أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ١٩].

﴿وَخَابَ﴾ معطوف على مقدر، أي: فنصر الله رسله وأتباعه، وأفلحوا وربحوا، ﴿وَخَابَ﴾، أي: وخسر الخسران المبين، وهلك.

﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: كل متعاظم شديد التكبر على الخلق وعن قبول الحق.

﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق مكابر، معارض للحجة، مشاق للرسل، وبين «خاف» و«خاب»، وبين «وعيد» و«عنيد» جناس غير تام.

والمراد بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الكفرة المشركون الظالمون المكذبون لرسل الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥

ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد..**»(١).

ولم يقل: «وخابوا» مع العلم بأن المراد بهم الظالمون أعداء الرسل؛ لذمهم والتسجيل عليهم بوصف التجبر والعناد، وأن ذلك سبب خيبتهم، وأن كل من سلك سبيل التجبر والعناد فعاقبته الخيبة والخسران.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾، أي: من وراء هذا الجبار العنيد جهنم، أي: من أمامه جهنم، وهي له بالمرصاد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢] مآله إليها، ومقره فيها، خالدًا مخلدًا فيها أبد الآباد.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ وهو: «غساق»، غسالة أهل النار، وما يسيل ويخرج من أجسادهم وأجوافهم من القيح والصديد والدم، في غاية النتن، في غاية البرودة؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [ص: ٥٧]، أي: حميم في غاية الحرارة، وغساق في غاية البرودة.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ التجرع: تكلف الجرع، والجرع: البلع، أي: يحاول ابتلاعه ويتغصصه ويتكرهه؛ لقهره وإجباره على ذلك، ومن شدة ما هو فيه من العطش، عله يبل صداه، ويروي ظمأه وهيهات ذلك.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، أي: لا يستطيع ابتلاعه؛ لقذارته وشدة نتنه، وسوء طعمه وشدة برودته أو حرارته.

روُي عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾؛ قال: «**يقرب إلى فيه، فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره**»، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٠، وأخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه ٢٥٧٤- وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]» (١).

وعن أسماء بنت السكن رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» (٢).

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: يحيط به الموت بأسبابه وآلامه وسكراته.

﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من بدنه وجوارحه، ومن كل جهة من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، أي: وما هو بميت فمستريح مما نزل به؛ لأن الله قضى أنهم لا يموتون إلا الموتة الأولى؛ كما قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، أي: ومن وراء هذا العذاب، أي: بعده ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ آخر أشد وأعظم منه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى المعذّب نفسه، وهذا أصح، أي: ومن وراء هذا الجبار العنيد، أي: أمامه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، أي: قوي شديد، أشد وأغلظ مما هو فيه، ومن الذي قبله وأدهى وأمر؛ كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٤- ٦٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٦٥، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٨٣، والطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٦٢٠، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) أخرجه احمد ٦/ ٤٦٠، وأخرجه أبو داود في الأشربة بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣- ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١- ٤٤].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٥- ٥٨].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ المثل: الحالة والصفة العجيبة، أي: مثل حال الذين كفروا بربهم وصفتهم ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أو مبتدأ، أي: أعمالهم التي يظنون أنها تنفعهم مما يثاب عليه المؤمنون، كصلة الرحم، وقرى الضيف، وإطعام الفقراء، وإعتاق الرقيق، ونحو ذلك.

﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، أي: مثلها في بطلانها وضياعها واضمحلالها.

﴿كَرَمَادٍ﴾ نُكِّر للاحتقار والتقليل له ولأعمالهم. و«الرماد» ما يتبقى من الحطب وغيره عند إحراق النار له، وهو من أدق وأخف الأشياء.

﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «الرياح» بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ٱلرِّيحُ﴾، أي: عصفت به بشدة الريح فطيَّرته.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، أي: شديد عصف الريح وهبوبها، أي: فإنه يتطاير، ولا يبقى منه شيء، بل يذهب ويضمحل.

قال ابن القيم: «وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا... فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادًا، فهم

وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار»(١).

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، أي: لا يقدرون أن ينتفعوا بشيء من الذي كسبوه، أو من كسبهم يوم القيامة؛ لذهابه سدى، وبطلانه واضمحلاله، كاضمحلال الرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف، فلا يقدر منه على شيء، وإنما كانت أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير الله، وعلى غير مراده، والله إنما يتقبل من المتقين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقد يشمل قوله ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الآية أعمالهم الكفرية من الكيد للرسل، ودعوتهم وأذيتهم لهم ومحاربتهم، فكل هذه الأعمال تذهب أدراج الرياح سدى بنصر الله عز وجل للرسل والمؤمنين، وإهلاكه للمكذبين الظالمين.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ الإشارة للكفر وما يوجبه من بطلان الأعمال واضمحلالها وضياعها وعدم القدرة على شيء منها.

أي: ذلك هو التيه والجهل والخطأ (ٱلْبَعِيدُ) البعيد كل البعد عن الحق والهدى.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين شركهم وكفرهم وتكذيبهم له ﷺ، وقد جاءتهم أخبار الذين كفروا من الأمم قبلهم، وما جرى بينهم وبين رسلهم ونصر الله لرسله

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٩.

والمؤمنين، وإهلاك الكفرة المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية.

٢- يجب أخذ العظة والعبرة مما حل بالذين كفروا من الأمم السابقة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية.

٣- كفر قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم من الأمم ممن لا يعلمهم ولا يحصيهم إلا الله تعالى، وتكذيبهم بما جاءتهم به رسلهم من الآيات البينات وتشكيكهم بدعوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

٤- تثبيت قلب النبي صلى الله عليه سلم وتسليته والمؤمنين بذكر كفر الأمم السابقة- على كثرتهم- وما لقي منهم رسلهم من التكذيب والتشكيك في دعوتهم والأذى لهم ولأتباعهم.

٥- أن هناك الكثير من الأمم الكافرة المكذبة للرسل من بعد قوم نوح وعاد وثمود اندرست أخبارهم، وانمحت آثارهم ممن لا يحصون كثرة ولا يعلمهم إلا الله.

٦- إقامة الرسل الحجة على أممهم بما جاؤوا به من الآيات البينات والحجج والدلائل الواضحات؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٧- تكذيب الأمم المذكورة ومن بعدهم من الأمم لرسلهم ومكابرتهم، وعملهم على إسكاتهم وتسكير أفواههم عن الدعوة إلى الله، وكفرهم برسالاتهم وتشكيكهم في دعوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

٨- شدة إنكار الرسل على من كفر بما أرسلوا به وشكك في دعوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

٩- قوة حجة الرسل في الرد على من كفر برسالاتهم وشكك في دعوتهم؛ لقولهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: أيشك في الله خالق السموات والأرض

ومبدعهما على غير مثال سبق، وفي وحدانيته ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

١٠- أن الغرض من إرسال الرسل وإنزال الكتب دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، واتباع شرعه؛ لمغفرة ذنوبهم، وتأجيلهم إلى نهاية آجالهم، ثم مصيرهم إلى رحمته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١١- شدة عتو الذين كفروا من الأمم السابقة، وعنادهم لرسلهم، وطعنهم في رسالاتهم؛ لكونهم بشرًا مثلهم، وليسوا ملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

١٢- تمسك مشركي الأمم السابقة بما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام وتقليدهم لهم على جهل وضلال؛ لقولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وهذا من أسباب ضلال كثير من الأمم.

١٣- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾.

١٤- مطالبتهم رسلهم بالإتيان بما يقترحونه عليهم من الآيات والحجج؛ تحديًا لهم وتعجيزًا؛ لقولهم ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

١٥- رد الرسل على أممهم وإفحامهم لهم بأن كونهم بشرًا لا يمنع أن يمن الله عليهم بإرسالهم؛ لقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٦- حكمة الله تعالى البالغة في كون الرسل إلى بني آدم كلهم من البشر، بل كل منهم بلسان قومه؛ ليبين لهم.

١٧- أن اصطفاء الله تعالى من يشاء من عباده لرسالاته من أعظم المنة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٨- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَشَآءُ﴾.

١٩- إثبات عبودية جميع الخلق لله عز وجل عبودية خاصة أو عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٠- أن الإتيان بالآيات والمعجزات ليس أمره إلى الرسل عليهم السلام، وإنما أمر

ذلك إلى الله عز وجل وإذنه؛ لقول الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢١- أن الرسل عليهم السلام إنما هم مبلغون عن الله رسالاته، مظهرون لما يؤيدهم به من آياته.

٢٢- توكل الرسل- عليهم السلام- على الله تعالى وثقتهم التامة بكفايته لهم، وأن ذلك واجب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٢٣- وجوب توكل المؤمنين على الله تعالى وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

٢٤- تأكيد الرسل- عليهم السلام- توكلهم على الله، إذ ليس هناك ثمة شيء يمنعهم من ذلك؛ لهدايته عز وجل لهم صراطه المستقيم، الذي يقتضي ويوجب تمام التوكل عليه عز وجل لقولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.

٢٥- اعتراف الرسل- عليهم السلام- بهداية الله تعالى لهم اعتراف الشاكرين، مما يزيدهم هداية منه وتوفيقًا.

٢٦- إظهار الرسل عليهم السلام لأقوامهم وإشهارهم لهم تجلدهم بالصبر على أذاهم تيئيسًا لهم من التراجع عن دعوتهم، وثقة منهم بنصر الله تعالى- لهم، لقوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.

٢٧- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا.

٢٨- أذية أعداء الرسل لهم، وأن كل من سلك طريقهم في الدعوة إلى الله تعالى سيناله من الأذى مثل ما نالهم، فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يوطن نفسه بالصبر والتحمل، وأن يعلم أن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وكما قيل:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود

٢٩- وجوب التوكل على الله تعالى وحده، دون غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

٣٠- تهديد الذين كفروا من أولئك الأقوام لرسلهم بإخراجهم من أرضهم، ونفيهم من بلادهم إن لم يرجعوا إلى ملتهم بالشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

٣١- بشارة الله تعالى لرسله ووعده لهم بإهلاك أعدائهم الظالمين وإسكانهم الأرض من بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

٣٢- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

٣٣- أنه لا ولاية شرعية على الأرض لغير الرسل وأتباعهم المؤمنين.

٣٤- أن الرسل إنما استحقوا النصر هم وأتباعهم المؤمنون على أعدائهم الكافرين؛ لخوفهم من الله ومراقبته لهم، وخوفهم القيام بين يديه، وخوفهم من وعيده؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

٣٥- استفتاح الرسل وأتباعهم المؤمنين بنصر الله لهم على أعدائهم الكافرين، وحصول ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾.

٣٦- استفتاح الكفار على أنفسهم واستعجالهم العذاب غرورًا منهم، ورجوعهم بالخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٣٧- أن الكفار إنما باؤوا بالخيبة والخسران والهزيمة بسبب تجبرهم وعنادهم.

٣٨- أن كل من تجبر وتكبر عن قبول الحق، وعاند من يدعوه إلى الله، فعاقبته الخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٣٩- الوعيد لمن كفر وتجبر وعاند بجهنم وحرها الشديد، وسقيه من ماء صديد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

٤٠- عظم ما يلاقيه من كفر وتجبر وعاند من العذاب، فهو يتقلب بين جهنم وحرها الشديد وبين الصديد وسوء مذاقه وطعمه ونتنه وبرده الشديد.

٤١- شدة عطش أهل النار واضطرارهم إلى شرب الصديد مما يصعب بلعه، ولا يكاد الشارب يسيغه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

٤٢- بلوغ عذاب الواحد من أهل النار نهايته في الشدة والألم، في بدنه كله وجميع جوارحه مما يجعل الموت يأتيه من كل مكان، وما هو بميت؛ لأن الله قضى أن لا يموتوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

٤٣- أن من بعد هذا العذاب بجهنم والماء الصديد عذاب أغلظ وأشد منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

٤٤- أن مثل أعمال الكفار في اضمحلالها وبطلانها وصيرورتها هباءً منثورًا، لا ينتفعون بها، ولا يقدرون على شيء منها؛ كرماد اشتدت به الريح في يوم شديد العصف؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

٤٥- أن من اختار الكفر والتجبر والعناد الموجب لعذاب جهنم وتجرع الصديد، وما وراء ذلك من العذاب الغليظ فقد ضل الضلال البعيد؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «خَالِقُ» بالألف وكسر اللام ورفع القاف، وخفض «السمواتِ والأرضِ».

وقرأ الباقون بفتح اللام والقاف من غير ألف، ونصب ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالكسر ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بالفتح.

والاستفهام للتقرير، والخطاب لكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد وتعلم أن الله خلق السموات والأرض بالحق، والباء للملابسة، والحق: ضد اللعب والعبث والباطل، أي: أن الله خلق السموات والأرض بالحق والعدل، ما خلقهما لعبًا وعبثًا وباطلًا.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ

فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

والمراد أنه- عز وجل- ما خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات لعبًا وعبثًا وباطلًا، وإنما خلقهما ليعبده الخلق ويعرفوه، ويستدلوا بهما وما فيهما على تمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون سواه، وأنه لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لأمر عظيم، وهو عبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ(١)

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٢)

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

وفيه التهديد للمشركين خاصة، تأكيدًا لقوله قبل هذا: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

والمعنى: إن يشأ يذهبكم إذا كفرتم به وخالفتم أمره، ويأت بقوم غيركم يؤمنون به ويطيعونه.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾، أي: الذهاب بكم والإتيان بخلق جديد.

﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، أي: بممتنع، أو بعظيم، بل هو سهل عليه جدًّا، إذا كفرتم وخالفتم أمره، لعظمته وتمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥- ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

---

(١) البيت للطغرائي. انظر: «لامية العجم» (ص١٢٤).

(٢) انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١٤٣/ ١).

ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويحتمل أن المعنى: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدكم بالبعث خلقًا جديدًا، ويقوي هذا الاحتمال ما ذكره بعد ذلك من أحوال القيامة.

فيكون في الآيات دليل على قدرته على البعث والمعاد؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٧٧- ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾.

لما ذكر قدرته عز وجل التامة على إذهاب المكذبين، والإتيان بخلق جديد، وأن ذلك ليس عليه بعزيز، أتبع ذلك بذكر أحوال المكذبين يوم القيامة، وتخاصمهم في المحشر، وفيه ترهيب للمشركين، وأنهم غير معجزين.

قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾، أي: وبرز الخلائق لله وحده كلهم جميعًا برهم وفاجرهم، وذلك يوم القيامة حين ينفخ في الصور، أي: خرجوا كلهم من قبورهم،

واجتمعوا في براز من الأرض ظاهر، ليس فيه شيء يستر أحدًا، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولا يخفى منهم أحد.

و«برزوا» بمعنى يبرزون يوم القيامة، وإنما جيء بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته وتحقق وقوعه- كأنه قد وقع ووجد؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ وهم الأتباع المقلدون ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم القادة المتبعون المقلَّدون، الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى، وأشركوا به وكفروا، وخالفوا رسله وعاندوهم. والسين والتاء للمبالغة.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أي: إنا كنا في الدنيا لكم تبعًا مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، وقد أمرتمونا بالضلال وزينتموه لنا فأغويتمونا وضللنا.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام للتوبيخ، وفيه معنى النفي، أي: لن تغنوا عنا من عذاب الله من شيء.

و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للنفي، أي: فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله أي شيء، مهما قل، أي: أنكم لن تغنوا عنا من عذاب الله أيّ شيء؛ ولهذا ﴿قَالُواْ﴾، أي: قال القادة المتبوعون:

﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، أي: لو وفقنا الله إلى الحق ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾، أي: لدللناكم عليه وأرشدناكم إليه، أي: ولكن الله حرمنا التوفيق للهداية فضللنا، وأغويناكم كما غوينا، وحق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾، أي: سواء علينا وعليكم ﴿أَجَزِعْنَآ﴾، أي: أجزعنا من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾، «أم»: حرف عطف، أي: أم صبرنا على العذاب.

﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ تعليل لقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ ، و«من» كسابقتها زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لنا أيُّ محيص، أي: ما لنا أيّ مهرب ولا خلاص ولا نجاة مما نحن فيه من عذاب الله وناره؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦- ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وهذه المحاجة في النار بعد دخولهم فيها ومقاساتهم عذابها وحرها.

أما تخاصمهم في المحشر فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سبأ: ٣١- ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: وقال الشيطان الذي هو سبب إغواء بني آدم وضلالهم مخاطبًا أهل النار متبرئًا منهم؛ ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وغبنًا إلى غبنهم،

وحسرة إلى حسرتهم.

﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: لما قضى الله الأمر بحساب الخلائق والفصل بينهم، ودخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾، «إن»: للتوكيد، أي: إن الله وعدكم فيما أنزل من كتبه وعلى ألسنة رسله إن أنتم آمنتم به واتبعتم رسله.

﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الوعد الحق، أي: الوعد الصادق الثابت الذي لا يخلف، بالسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

أي: وعَدَكم الله وعدًا لا يخلف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أنا ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، أي: كذبت موعدي، أي: وعدتكم الوعود الكاذبة، ومنَّيتكم الأمانيّ الباطلة، وغرّرت بكم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: وما كان لي عليكم من حجة ولا دليل على صدق ما وعدتكم به ودعوتكم إليه، ولا قوة وغلبة أقهركم بها وأجبركم على اتباعي.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن دعوتكم إلى الباطل فاستجبتم لي بمجرد دعوتي لكم؛ لهوى في أنفسكم، واتباعًا لشهواتكم.

﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليوم فيما حصل منكم وما انتهيتم إليه من دخولكم النار وتعذيبكم فيها.

﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ الأمارة بالسوء، إذ قبلتم دعوتي اتباعًا لأهواء أنفسكم، فأوبقتموها وأهلكتموها.

وجملة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ تفيد معنى الحصر، أي: لا تلوموا إلا أنفسكم، وفي هذا تبكيت لهم وزيادة حسرتهم، كما قيل:

فنفسَك لُمْ ولا تَلُم المطايا ... ومت كمدًا فليس لك اعتذارُ(١)

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ قرأ حمزة وخلف بكسر الياء «بمصرخيِ»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿بِمُصۡرِخِيَّ﴾.

والإصراخ: الإغاثة والإنقاذ، مأخوذ من الصراخ، أي: ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب النار.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾، أي: وما أنتم بمنقذي ومخلصيّ مما أنا فيه من العذاب والنكال في النار.

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾، «ما»: مصدرية، أي: إني كفرت بإشراككم إياي من قبل، أي: جحدت ذلك وتبرأت منه، فلست شريكًا لله، ولا تجوز عبادتي، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٤].

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك بالله وطاعة الشيطان والإعراض عن الحق واتباع الباطل.

﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان ومعنويًّا للقلوب.

ومع أن الشيطان أراد تخفيف الملام عن نفسه وإشراك أتباعه في تبعة ضلالهم؛

---

(١) انظر: «الزهرة» (ص٨٤) بترقيم الشاملة.

لانصياعهم لما يدعوهم إليهم دون دعوة الحق، فإن في إنطاقه بهذا إعلان الحق، وإظهار الحقيقة، وشهادة عليهم، أشبه بشهادة جوارحهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾.

لما ذكر مآل الكفار الظالمين الأشقياء، وما صاروا إليه من الخزي والنكال والتقريع والتبكيت والعذاب الأليم، ذكر مآل المؤمنين السعداء بإدخالهم الجنة، يتمتعون بنعيمها وأنهارها، وتحيتهم فيه سلام.

قوله: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم كالصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين والجهاد وصلة الأرحام، وغير ذلك، مما يجتمع فيه الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ، وحذف الموصوف واكتفى بذكر الصفة «الصالحات»، لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

﴿جَنَّٰتٖ﴾ هي ما أعده الله لإقامة أوليائه من البساتين والمنازل والغرفات.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الجملة في محل نصب صفة لـ«جنات»، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار السارحة بلا أخدود، يصرفونها كيف شاؤوا، يشربون منها، ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها.

أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى؛ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين في تلك الجنات إقامة أبدية، لا يتحولون عنها، ولا يُخرجون منها، ولا يموتون.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: بإذن وأمر ربهم الكوني وعنايته الخاصة بهم.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾، أي: تحيتهم في تلك الجنات التي يحيون بها من ربهم ومن ملائكته، والتي يحيي بعضهم بعضًا بها.

﴿سَلَٰمٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير وإثبات أن الله خلق السموات والأرض بالعدل والحق لأمر عظيم، وهو أن يعبده الخلق، ويستدلوا بهما على عظمته وتمام قدرته ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢- إثبات عظمة الله عز وجل وعظيم مخلوقاته، وقدرته التامة على إذهاب الخلق والإتيان بغيرهم، وعلى بعثهم بعد موتهم، وأنه لا يمتنع عليه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾.

٣- تهديد المشركين الظالمين بإذهابهم والإتيان بخلق جديد يؤمنون بالله ويطيعونه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾.

٤- إثبات صفة المشيئة لله عز وجل وهي الإرادة الكونية القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾.

٥- بروز الخلائق كلهم لله جميعًا من قبورهم واجتماعهم جميعًا في صعيد واحد، لا يخفى منهم أحد، يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

٦- محاجة أهل النار ومراجعة بعضهم بعضا؛ الضعفاء والمستكبرون، الأتباع والمتبوعون؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ

أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ الآية.

٧- ينبغي الحذر من الاستكبار وأهله، فهو سبب لبطر الحق ورده، وأهله يدعون الناس ويحملونهم على ذلك.

٨- ندم الأتباع وحسرتهم لاتباعهم من لا يغنون ولا يدفعون عنهم من عذاب الله من شيء، وخيبة أملهم فيهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

٩- يجب الحذر من التقليد الأعمى واتباع الآخرين دون تبصر وعلم.

١٠- تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، أحوج ما يكونون إليهم، وفي أصعب المواقف وأشدها، واعترافهم ضمنًا أنهم هم الذين أضلوهم، وأنهم لا يغنون عنهم من عذاب الله شيئًا؛ لقولهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ الآية.

١١- انقطاع العلائق بين الخلائق يوم القيامة، فلا أحد يغني عن أحد، بجلب نفع أو دفع ضرر.

١٢- احتجاج المستكبرين المتبوعين لما هم عليه هم وأتباعهم من الضلال بالقدر؛ لقولهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولا حجة في القدر.

١٣- أن هداية التوفيق مما اختص الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

١٤- أنه لا مفر ولا مهرب من عذاب الله، سواء جزع المعذبون أم صبروا، وأنى لهم الصبر؟ لقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦].

١٥- تبرؤ الشيطان من أوليائه وأتباعه، بعد قضاء الأمر ودخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، مما يزيدهم أسى وحسرة وندامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية.

١٦- إقرار الشيطان واعترافه آنذاك أن وعد الله حق، وأن وعوده كذب وتغرير وأمانٍ باطلة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

١٧- أنه لا سلطان للشيطان، ولا حجة له، ولا دليل على صحة وصدق ما يدعو إليه، بل الحجة والدليل على خلافه، ولا قوة له ولا غلبة يقهر بها الناس ويجبرهم على اتباعه، وإنما أطاعه أكثر الخلق بمجرد دعوته وتزيينه الباطل لهم؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

١٨- تنصل الشيطان من مسؤوليته عن ضلال أتباعه، وإلقائه اللوم على أوليائه وأتباعه، وأنى له ذلك؟ فكل منهما ملوم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾.

١٩- اعتراف الشيطان بضعفه وعدم استطاعته إغاثة أوليائه وإنقاذهم مما هم فيه من العذاب؛ كما غرر بهم ومنّاهم الأماني الباطلة؛ كما أنهم لا يستطيعون إنقاذه من ذلك؛ لقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾.

٢٠- كفر الشيطان وجحوده وإنكاره أن يكون شريكًا لله، وبراءته من شرك من أشركوه، لقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد للظالمين المشركين بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٢- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لإتباعه ما أعد للظالمين من العذاب الأليم بذكر إدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات، وما لهم فيها من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية.

٢٣- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب والباطن وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٢٤- لا بد أن يكون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة النبي ﷺ

وهديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٥- خلود أهل الجنة وإقامتهم فيها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٢٦- إثبات الإذن الكوني القدري لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

٢٧- أن دخول المؤمنين الجنات وما لهم فيها من النعيم، وخلودهم فيها كل ذلك بإذن ربهم وتقديره وتوفيقه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

٢٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ وتشريفهم بإضافة اسمه عز وجل إلى ضميرهم.

٢٩- أن تحية أهل الجنة فيها سلام، سلام من الله تعالى عليهم، ومن ملائكته، وسلام من بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

٣٠- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من ألوان النعيم الحسي والمعنوي؛ فـ«جنات» قطوفها دانية، وظلالها وارفة، وأنهارها سارحة، وتحيات وسلام، وخلود وإكرام، نسأل الله تعالى من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

لما بين ما أعد الذين كفروا من العذاب الأليم، وما أعد للذين آمنوا من النعيم المقيم ضرب مثلًا للإيمان والكفر، وأن مآل الأول الثبات والاستقرار، ومآل الثاني الخسار والبوار.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب لكل من يصلح له، أي: ألم تعلم.

﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، «كيف» اسم استفهام، وضرب المثل: تشبيه أمر معنوي معقول بشيء محسوس، تقريبًا لمعنى ذلك الأمر، وهو من نعم الله تعالى على العباد؛ لما فيه من الإيضاح والبيان، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا

يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد والإيمان والإسلام؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

و﴿طَيِّبَةً﴾، أي: نافعة، يطيب بها قول صاحبها وفعله، ويرفع بها عمله، ويصلح بها حاله ومآله.

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة أطيب الشجر ثمرًا، وأعظمها نفعًا، وأثبتها أصلًا، وأعلاها فرعًا، وأجملها شكلًا، وأبهاها منظرًا.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، أي: جذرها وجذعها ثابت مستقر في الأرض، لا تزعزعها الرياح والعواصف.

﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: في العلو لطول ساقها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠]، أي: طوال.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله، ثابت في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء»(١).

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، أي: تؤتى مأكولها، أي: ثمرها طيبًا تامًّا من غير نقص؛ كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣].

﴿كُلَّ حِينٍ﴾، أي: كل وقت.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، أي: بأمر ربها الكوني القدري.

فشبه عز وجل كلمة الإيمان والإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، مع العلم بمعناها، والعمل بمقتضاها، في ثباتها في قلب العبد المؤمن، وما تثمره من الأعمال الصالحة التي ترفع إلى السماء كل حين بإذن الله عز وجل؛ بشجرة طيبة، وهي النخلة أثبتت الشجر أصلًا، وأطيبها ثمرًا، وأكثرها نفعًا، وأعلاها فرعًا، تؤتي

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء ١٥٩٨.

ثمرها كل حين بإذن ربها.

قال ابن القيم: «والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك».

وقال أيضًا: «والشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس؛ فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشك، أن تيبس، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم**»(١).

قال ابن كثير(٢): «والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر، في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار، في كل وقت وحين».

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل- المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا، تؤتى أكلها كل حين**». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئًا قال رسول الله ﷺ: «**هي النخلة**». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد وقع في نفسي أنها النخلة. فقال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئًا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا»(٣).

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا للمعاني وبيانًا لها، وإقامة للحجة، وإيضاحًا للمحجة.

---

(١) أخرجه الحاكم ١/ ٤ وقال: «رواته مصريون تقات» ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي ١/ ٥٢: «رواه الطبري في الكبير وإسناده حسن». وانظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢، ١٣.

(٢) في «تفسيره» ٤/ ٤١٢.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم ٤٦٩٨، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويتعظوا ويعتبروا.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر مثل الكلمة الطيبة ذكر مثل الكلمة الخبيثة ترغيبًا وترهيبًا.

قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر والشركقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤].

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، أي: خبيثة المطعم، كشجرة الحنظل نحوها.

عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: **هي النخلة**، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قال: **هي الحنظلة**»(١).

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: اقتلعت واستؤصلت من فوق الأرض. والاجتثاث: قطع الشيء، مأخوذ من الجثة وهي: الذات.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: مالها أيّ قرار، أي: لا أصل لها، فلا عرق ثابت، ولا فرع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، ولا ظل، ولا جنى، وكذلك الكفر لا أصل له، ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يستقبل منه شيء، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: يؤيدهم ويقويهم ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: بالقول الحق الصادق، وهو الكلمة الطيبة في الحياة

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣١١٩، وذكر أنه روي موقوفًا، وهو أصح.

الدنيا وفي الآخرة.

في الحياة الدنيا قولًا وعملًا بالهدى والإيمان واليقين ورد الشبهات، والإعراض عن الشهوات ولزوم الحق، والثبات والصبر في ذات الله.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كنت كثيرا أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم، فقلت: يا أبة، من أبو الهيثم؟ فقال: لما أخرجت للسياط، ومدت يداي للعقابين، إذا أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا. قال: أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوطًا بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن؛ لأجل الدين. قال: فضربت ثمانية عشر سوطًا بدل ما ضرب ثمانية عشر ألفًا، وخرج الخادم فقال: عفا عنه أمير المؤمنين»(١).

فكان هذا مما ثبت الله به الإمام أحمد رحمه الله في هذه المحنة.

وفي الآخرة بالثبات على الإسلام والموت على الإيمان والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار قال: «**إن المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فذلك قوله:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»(٢).

وفي رواية: «**فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: رب الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ**»(٣).

وفي حديث أنس رضي الله عنه: «**فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول**

---

(١) «صفوة الصفوة» لابن الجوزي ٢/ ٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٩٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧١، وأبو داود في السنة ٤٧٥٠.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٥- ٢٩٦، وأخرجه مسلم مختصرًا ٢٨٧١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥٧، والترمذي في التفسير ٣١٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٩.

في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله»(١).

ولهذا كان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «**استغفروا لأخيكم وسلوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل**»(٢).

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ بعدله عن القول الثابت وعن الحق.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والشرك والكلمة الخبيثة، بسبب ظلمهم وكفرهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

والمعنى: يجعلهم في عماية عن الحق وحيرة في الدنيا والآخرة وبعد عن طريق النجاة.

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: ويفعل الله الذي يشاء، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، فيثبت المؤمنين على الحق بفضله، ويضل الظالمين بعدله ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٢٩﴾.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الاستفهام: للتقرير، وفيه معنى التعجب، أي: ألم تشاهد وتعلم، والمعنى: قد رأيت وعلمت.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ وهم كفار قريش وغيرهم، وبخاصة رؤوس الكفر منهم ﴿بَدَّلُواْ﴾، أي: استبدلوا نعمة الله وفضله ورحمته ببعثة محمد ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

و«نعمة» مفرد مضاف إلى معرفة، فيعم كل نعم الله تعالى الدينية والدنيوية.

﴿كُفۡرٗا﴾ مفعول ثان لـ﴿بَدَّلُواْ﴾، أي: قابلوا نعمة الله تعالى بالكفر، فكفروا بما أنزل الله تعالى على رسوله من الوحي والهدى، وجحدوا رسالته ﷺ وكذبوه، وكفروا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٣٨، ومسلم في الجنة وصفه نعيمها ٢٨٧٠، وأبو داود في السنة ٤٧٥١؛ والنسائي في الجنائز ٢٠٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز الاستغفار عند القبر للميت ٣٢٢١- من حديث عثمان رضي الله عنه.

نعم الله تعالى عليهم الدنيوية، من نعمة الخلق والرزق والأمن وغير ذلك.

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، أي: وأنزلوا قومهم ممن اتبعوهم على الكفر والشرك ومحاربة الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، أي: دار الهلاك والخسار النار.

والمعنى: وتسببوا في إنزال قومهم دار البوار والخسار النار بدعوتهم إياهم إلى الكفر، ومخالفة أمر الله ورسوله؛ كما قال تعالى عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقال تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ومن ذلك تزيين صناديد قريش- كأبي جهل وأمثاله- لقومهم الخروج والقتال يوم بدر، فكانت نهايتهم الهزيمة النكراء في بدر الكبرى، ومصيرهم في القيامة إلى نار تلظى.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ هذا تفسير لـ«دار البوار»، «وجهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يدخلونها، ويغمرون فيها، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ويقاسون حرها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، أي: وساء وقبح المستقر والمسكن جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: واتخذوا لله شركاء ونظراء عبدوهم مع الله.

﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، ورويس عن يعقوب بفتح الياء: «ليَضلوا»، أي: ليستمروا على ضلالهم.

وقرأ الباقون بالضم: ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾، أي: ليُضلوا الناس عن سبيل الله وعبادته وحده لا شريك له- بعد أن ضلوا هم بأنفسهم- ويدعوهم إلى عبادة هؤلاء الأنداد والشركاء.

واللام لام العاقبة، ويجوز كونها للتعليل.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ تهديد ووعيد لهم، أي: قل لهم مهددًا ومتوعدًا: تمتعوا بكفركم وضلالكم وما أنتم فيه من النعم.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾، أي: مرجعكم ومردكم ومآلكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

والتمتع: الانتفاع بالمتاع برهة ثم يزول، بزوال المتاع أو بزوال صاحبه؛ ولهذا وصفت الدنيا كلها بأنها متاع قليل؛ لأنها تنتهي وتزول ويزول أهلها.

ومن كان مصيره إلى النار فإنها تنسيه كل ما تمتع به في حياته، ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها؛ كما قال ﷺ: «**يؤتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مربك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب**»(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾.

لما ذكر سوء حال الذين بدلوا نعمة الله كفرًا، ومصيرهم النار، وبئس القرار، انتقل لوعظ المؤمنين وترغيبهم بالأعمال الصالحة قبل يوم القيامة.

قوله: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: قل لعبادي الذين شكروا نعمة الله بالتصديق بها باطنًا بقلوبهم، والانقياد لها ظاهرًا بجوارحهم.

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، حيث هي عمود الإسلام، وأعظم أركانه بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، وعنوان الإحسان في عبادة الله تعالى والقيام بحقه.

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، أي: ويخرجوا النفقات من الذي أعطيناهم من الرزق: الواجب منها كالزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد، ومن تجب عليهم نفقته، وغير ذلك.

والنفقات المستحبة: كالصدقات والهدايا ونحو ذلك، وفي هذا إحسان إلى عباد الله.

وأمر الذين آمنوا بإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله أمر بالثبات على ذلك والاستمرار عليه والاستزادة منه؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

وكما في قول المؤمنين ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: وفقنا وزدنا هداية وثبتنا عليه.

وفي قوله ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تنبيه وإرشاد إلى أنه عز وجل الرازق، وأن المال ماله استودعهم إيّاه، واستخلفهم فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

قال الشاعر:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يومًا أن ترد الودائع(١)

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مصدران منصوبان على الحال، أي: خفية وجهرًا، أي: ينفقون خفية وعلانية، فالإنفاق خفية وسرًّا أقرب إلى الإخلاص لله تعالى؛ كما قال ﷺ في ذكر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(٢).

وهو أستر لحال المتصدق عليه، وفيه رفع للحرج عنه.

والإنفاق علانية دعوة للإنفاق، وتشجيع عليه، وترغيب فيه، وحث عليه، ومنافسة فيه، وفي الحديث: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل**

---

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» (ص١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»(١).

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه، أي: من قبل إتيان يوم، وهو يوم القيامة، ونكِّر للتعظيم.

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «لا بيعَ» بالفتح.

وقرأ الباقون بالرفع ﴿لَّا بَيْعٌ﴾ والجملة في محل رفع صفة لـ«يوم».

والمعنى: لا معاوضة فيه، فلا تقبل فيه فدية؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحديد: ١٥].

﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾، «خلال» جمع خُلة؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فلا خلة في ذلك اليوم ولا صداقة، ولا ينفع الخليل في الدنيا خليله في ذلك اليوم ولا الصديق صديقه، بل الحال كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

وكما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٣].

أي: من قبل أن يأتي يوم لا سبيل فيه إلى استدراك ما فات بمعاوضة وفدية، ولا باستعانة بخليل أو صديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم المرء لنفسه، ولينظر ما قدمه لغده، وليتفقد أعماله، وليستعد لسفره، ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

وليس المراد بهذا نفي الخلة مطلقًا في ذلك اليوم، فإن الخلة ثابتة بين المتقين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤ من حديث المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنه.

لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

بعد أن توعد المشركين ورغب المؤمنين وأمرهم بإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، والمبادرة بذلك قبل يوم القيامة ذكّرهم عز وجل بالعديد من نعمه عليهم، مما يوجب شكره وعدم كفره.

قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الله وحده ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أوجدهما على عظمتهما واتساعهما وما فيهما من المخلوقات على غير مثال سبق، وجعل السماء سقفًا محفوظًا، والأرض فراشًا.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: من العلو ﴿مَآءً﴾ وهو المطر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾، أي: فأخرج بسبب هذا الماء من الأرض.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المختلفة الطعوم والأشكال والألوان والروائح والمنافع، من أنواع الحبوب والفواكه والخضروات وغير ذلك.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تتمتعون به أنتم وأنعامكم؛ كما قال تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، أي: وسخر لكم السفن، أي: طوعها وذللها.

﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجري، أي: تسير في البحر على ظهر الماء مع ما تحمله من الأحمال الثقيلة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: بأمره الكوني حيث يسر لكم صنعتها، وأقدركم عليها؛ لتحملكم وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، أي: وذلل لكم الأنهار وطوعها لكم تنشق من

الأرض والجبال، وتجري على ظهر الأرض المسافات الطويلة من بلد إلى آخر؛ لتشربوا منها وتسقوا دوابكم وحروثكم وأشجاركم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وذلل لكم الشمس والقمر وطوعهما لكم يجريان بحساب دقيق لمصالحكم وحروثكم وأنعامكم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥].

﴿دَآئِبَيْنِ﴾ حال، أي: مستمرين في الجريان والسير لا يفتران لا ليلًا ولا نهارًا، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: وذلل لكم الليل والنهار وطوعهما؛ يتعاقبان؛ يأتي هذا ويذهب هذا، ويذهب هذا ويأتي هذا؛ يزيد هذا وينقص هذا، وينقص هذا ويزيد هذا، ويعتدلان أحيانًا؛ كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾ [فاطر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

جعل عز وجل الليل وقتًا للسكن، والنهار وقتًا للعمل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص: ٧١- ٧٣].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، أي: وأعطاكم من كل الذي سألتموه، أي: من كل الذي تحتاجونه وتسألونه بلسان الحال أو بلسان المقال، فجلب لكم كل أنواع الخيرات، ودفع عنكم الشرور والمضرات.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ الإحصاء: ضبط العدد، مشتق من الحصى؛ لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبًا للغلط، قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثرِ(١)

والمعنى: وإن تعدوا نعم الله لا تستطيعوا إحصاءها وعدها، فضلًا عن القيام بشكرها؛ كما قال ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(٢).

وقال صلى الله عليه سلم: «**اللهم لك الحمد غير مكفي ربنا ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا**»(٣).

قال ابن القيم: «سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه إلا بالعلم بالتقصير عن معرفتها.. فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرًا».

وقال الشاعر:

لو كل جارحة مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حَسَنِ
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن(٤)

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ اللام في «الإنسان»: للجنس، أي: جنس الإنسان ﴿لَظَلُومٌ﴾ اللام: للتوكيد، و«ظلوم» على وزن «فعول»، أي: شديد الظلم لنفسه ولغيره، وأظلم الظلم الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة ٨٧٩، والنسائي في التطبيق ١١٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٤١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة- ما يقول إذا فرغ من طعامه ٥٤٥٨، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٤٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٥٦، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٤- من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٤) البيتان نسبا في «صفوة الصفوة» لابن الجوزي ١/٥٤٩-٥٥١، لأبي الحسن محمد بن أحمد بن سمعون. ونسبا في «التعرف لمذهب التصوف» ص١٠٠، لأبي علي الروذباري.

﴿كَفَّارٌ﴾ بربه جحود لنعمه.

والمعنى: أن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم كفار إلا من هداه الله ووفقه.

فالمراد بالإنسان على هذا الكافر؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن الكريم بتشبيه الأمور المعنوية المعقولة بأشياء حسية لتقريب المعاني والإيضاح والبيان.

٢- تشبيه الكلمة الطيبة، كلمة الإيمان والإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، في رسوخها وثباتها في قلب المؤمن، وما تثمره من قوة اليقين والثبات على الحق، ومن الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله عز وجل والأعمال الصالحة التي ترفع إليه؛ بشجرة طيبة أصلها ثابت راسخ في الأرض، لا تزعزعها الرياح، تعطي أكلها وثمرها كل حين بإذن ربها، كالنخلة ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

٣- الحث على الإسلام والإيمان والإخلاص لله عز وجل والترغيب في طيب الكلام، وحسن العمل وصلاحه.

٤- إثبات الإذن الكوني القدري لله عز وجل لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق حتى الجماد؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهَا﴾.

٦- أن الحكمة من ضرب الأمثال للناس لأجل أن يتذكروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٧- تشبيه الكلمة الخبيثة: كلمة الكفر والشرك في عدم ثباتها وبطلانها وزوالها، وما تثمره من الأعمال والأقوال الباطلة بشجرة خبيثة كشجرة الحنظل- اجتثت من فوق الأرض وقلعت من أصلها، فلا ثبات لها ولا قرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

٨- التنفير من الكلمة الخبيثة كلمة الكفر والشرك والتحذير منها ومن ثمارها وآثارها؛ لأن الله شبهها بشجرة خبيثة منبتًا وثمرة، فلا ثبات لها، واجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وثمرتها غاية في الخبث طعمًا ولونًا وغير ذلك.

٩- جمع القرآن بين الترغيب في الخير والترهيب من الشر، بين الحث على الإيمان، والتحذير من الكفر.

١٠- أن الوصف بالطيب والخبث يطلق على الكلام ويطلق على الأعيان كما يطلق على المعاني وعلى الأشخاص(١).

١١- تثبيت الله تعالى- الذين آمنوا- بفضله- بسبب إيمانهم- بالقول الثابت، والكلمة الطيبة في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيثبتهم في الدنيا على الإيمان، ويثبتهم في الآخرة عند السؤال في قبورهم وفي عرصات القيامة، وعلى الصراط، وعند الميزان، وعند تطاير الصحف.

١٢- حاجة العبد الشديدة إلى تثبيت الله تعالى له في الدنيا والآخرة؛ لهذا ينبغي له أن يسأل الله تعالى الثبات، كما كان ﷺ يكثر من قوله «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»(٢)، وكما في قول الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

قال ابن القيم: «وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].. وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]»(٣).

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى في سورة المائدة ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [الآية: ١٠٠].

(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٤٠- من حديث أنس رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن».

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦.

١٣- إثبات الدار الآخرة ويوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ .

١٤- إضلال الله عز وجل الظالمين بالشرك والكفر- عدلًا منه بسبب ظلمهم- عن الصراط المستقيم والطريق القويم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٥- وجوب الحذر من الظلم بالشرك والكفر، فإنه سبب للضلال.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأنه يفعل ما يشاء، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٧- التقرير والتعجب من حال الذين بدلوا نعمة الله ببعثته ﷺ كفرًا بما أنزله الله تعالى عليه، وجحودًا لرسالته ﷺ، وأحلوا قومهم وأتباعهم دار البوار والخسار؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

١٨- أن دار البوار والخسار الذي لا خسار بعده هي جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾.

١٩- نزول الكفار بجهنم وحلولهم فيها واصطلاؤهم بلهيبها، وأنها بئس المستقر؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

٢٠- وجوب شكر نعمة الله تعالى- بالإيمان به، والاستعانة بها على طاعته، والحذر من كفرها.

٢١- ينبغي الحذر من دعاة الشر والكفر والضلال؛ لأنهم دعاة إلى النار؛ كما قال تعالى عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

٢٢- اتخاذ المشركين أندادًا لله وشركاء ونظراء؛ ليستمروا على الضلال عن سبيل الله ويُضلوا غيرهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٢٣- تهديد الكافرين وتوعدهم وتحقير ما هم فيه من المتاع؛ لأن مصيرهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

٢٤- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢٥- أمر المؤمنين بإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله، أي: بالدوام على ذلك والاستمرار والثبات عليه والاستزادة منه؛ لقوله تعالى: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٢٦- لا بد من الجمع بين إيمان الباطن وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٢٧- أن الصلاة لا تكون صلاة، ولا تنفع صاحبها إلا إذا أقيمت إقامة صحيحة بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: يصلوا.

٢٨- أهمية الصلاة؛ لأنها ثاني أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، وعمود الإسلام، وأهمية الإنفاق من رزق الله بإخراج الزكاة وغير ذلك، لأن الزكاة أعظم أركان الإسلام بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية؛ لهذا خص الصلاة والإنفاق بالذكر.

٢٩- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء الحقوق الواجبة في المال، والندب إلى صلاة النوافل وإلى الصدقة والهدية، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٣٠- أن الرازق هو الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٣١- أن المطلوب في الإنفاق بعض الذي رزق الإنسان، وهو القليل فلم يكلف الله الإنسان إنفاق ماله كله.

٣٢- جواز الإسرار والإعلان بالإنفاق، زكاة كان ذلك أو صدقة أو هدية أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وأن الإسرار أولى وأفضل؛ لأن الله قدمه، ولأنه أقرب للإخلاص.

٣٣- ينبغي المبادرة بالأعمال الصالحة، من إقام الصلاة، والإنفاق، وغير ذلك قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

٣٤- أن يوم القيامة لا معاوضة فيه ولا فدية، ولا ينفع الخليل في الدنيا خليله في

ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾.

٣٥- تذكير الله عز وجل الخلق بعظمته وبالعديد من نعمه، ليشكروه ولا يكفروه، من خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإخراج الثمرات به، رزقًا لهم، وتسخير الفلك والأنهار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وإيتائهم من كل ما سألوه، وغير ذلك من نعمه التي لا يمكن إحصاؤها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

٣٦- عظمة الله عز وجل وتمام قدرته وخضوع جميع المخلوقات له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

٣٧- أن من أعظم مخلوقات الله ودلائل كمال قدرته خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإخراج الثمرات، وتسخير الفلك تجري في البحر، وتسخير الأنهار والشمس والقمر والليل والنهار.

٣٨- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، أي: فأخرج بسببه.

٣٩- الامتنان على الخلق بإيتائهم من كل ما سألوه، بلسان المقال أو بلسان الحال، أي: كل ما احتاجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

٤٠- أن نعم الله تعالى- على العباد كثيرة لا حصر لها، ولا يستطاع عدها، ولا إحصاؤها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

٤١- أن الإنسان ظلوم في إشراكه بربه ومخالفة أمره، ظلوم لنفسه ولغيره

﴿كَفَّارٌ﴾ بربه جحود لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ لا يستثنى من هذا إلا من رحمه الله وهداه ووفقه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾، أي: واذكر حين قال إبراهيم عليه السلام.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، أي: يا رب ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، أي: صير هذا البلد «مكة البلد الحرام» آمنا، وقال في سورة البقرة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] بالتنكير، وهذا- والله أعلم- لما كان أرضًا، أي: قبل بنائه، وقال هنا: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ بالتعريف؛ لأن هذا- والله أعلم- بعد بنائه.

قال ابن كثير(١): «ولهذا قال هنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق في ثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضًا، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقد ابتدأ إبراهيم عليه السلام دعواته هذه بسؤال ربه الأمن للبيت الحرام؛ لأن الأمن به قوام أمر الدين والدنيا، ولا قيام لشيء من ذلك بدون الأمن؛ ولهذا امتن الله تعالى به على الناس في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ

(١) في «تفسيره» ٤/ ٤٣١.

ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

قال السعدي(١): «فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمته قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم».

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ لما دعا عليه السلام للبيت بالأمن دعا لنفسه ولبنيه بالأمن من الشرك فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب، أي: اجنبني وبني عبادة الأصنام، أي: بعّدني وبني، أي: اجعلني وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها، واجعلنا مجتنبيها، أي: ووفقنا لاجتنابها والابتعاد عنها.

قال ابن القيم: «فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنيب فعله عز وجل ولا سبيل إلى فعلهم إلا بفعله»(٢).

والمراد بقوله ﴿وَبَنِىَّ﴾ ما يشمل البنات على سبيل تغليب الذكور على الإناث، فدعاؤه عليه السلام لجميع ذريته.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ١٤٤.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧.

وقال ابن كثير[١]..: «وينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته به».

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾، أي: الأصنام.

﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: كن سببًا في ضلال كثير من الناس؛ لافتتانهم بعبادتهن.

﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ الفاء: عاطفة، و«من» شرطية، والاتباع: تمام الموافقة، أي: فمن وافقني والتحق بي وسار على ملتي، وكان حنيفًا مسلمًا.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ فقال: «**وماذا أعددت لها؟**» قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ. فقال: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»[٢].

وعن أبي وائل قال: قال عبد الله بن مسعود: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**»[٣].

قال الشافعي:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعهْ
وأكره من بضاعته المعاصي ... وإن كنا سواءً في البضاعهْ

فأجابه الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم ... محب القوم يلحق بالجماعه[٤]

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملة شرطية كسابقتها، أي: ومن خالف

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٤٣١.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٨٨، ومسلم في البر والصلة ٢٦٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٩، ومسلم في البر والصلة ٢٦٤١.

(٤) انظر: «بلغة السالك لأقرب المسالك» (٤/ ٧٣٥).

أمري وسار على غير ملتي ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فإنك ذو مغفرة واسعة لذنوب التائبين من عبادك، ذو رحمة واسعة، تسع جميع خلقك. وهذا- والله أعلم- محمول على رجائه عليه السلام المغفرة والرحمة لمن عصاه ممن كان على ملته، أو محمول على رجائه المغفرة والرحمة له بأن يوفقه الله لاتباع ملته فتشمله مغفرة الله تعالى ورحمته.

وقال السعدي(١): « وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية. وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي**» وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد- وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله صلى لله عليه وسلم بما قال- وهو أعلم- فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك»(٢).

وبهذا الدعاء وبهذا البكاء منه ﷺ دلالة على عظم شفقته ﷺ على أمته، شفقة فاق بها شفقة أبيه إبراهيم الخليل- عليهما الصلاة والسلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: أسكنت بعض ذريتي. يعني: ابنه إسماعيل عليه السلام الذي أسكنه مع أمه هاجر، وهو دعاء له ولذريته.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٤٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٠٢.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ الوادي: الأرض بين الجبال، وهو وادي مكة ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، أي: لا يصلح للزرع؛ لكثرة حجارته وقلة مائه، لا سكن فيه، ولا داع ولا مجيب؛ ولهذا تضرع إبراهيم عليه السلام إلى ربه بهذا الدعاء متوكلًا عليه.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يقيموا الصلاة، وخص الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات البدنية، فمن أقامها كان مقيمًا لدينه، وهي علامة الإيمان وعمود الإسلام.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: فصيّر قلوبًا من الناس تميل إليهم، وتحن إلى الموضع الذي هم ساكنون فيه، وتسرع إليه.

وقد استجاب الله دعوته فأخرج من ذرية إسماعيل محمدًا ﷺ أفضل رسله وخاتمهم، الذي ولد في مكة البلد الحرام، أفضل بقاع الأرض، وأحبها إلى الله، وبعثه الله وأنزل عليه القرآن أفضل كتبه فيها، فدعا إلى الحنيفية ملة إبراهيم، وإلى دين الإسلام، آخر الأديان وأكملها، وفرض الله عليه وعلى أمته الصلاة وغيرها من الفرائض والشرائع، وفرض عز وجل حج البيت الحرام، فصار هذا البيت موئلًا للناس للحج والعمرة والصلاة والاعتكاف والعبادة، وصارت تجبى إليه ثمرات كل شيء، فأقبل إليه كل من يريد الله والدار الآخرة، وصار كل من حجه أو اعتمره لا يكاد يقضي منه وطرًا، وكلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه إليه وولعه فيه، وهذا- والله أعلم- سر إضافته تعالى البيت إلى نفسه الشريفة.

وقصده الكثيرون للتجارة وطلب الرزق، وكل ذلك ببركة دعاء الخليل عليه الصلاة والسلام.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: وأعطهم من الثمرات المختلفة.

وقد استجاب الله دعاءه فصارت تجبى إليه ثمرات كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، أي: لأجل أن يشكروا نعمتك بالاعتراف بها ظاهرًا وباطنًا، ونسبتها إليك، والاستعانة بها على طاعتك وذكرك وشكرك، وحسن عبادتك.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

بهذا الثناء العظيم والدعوات المباركة ختم خليل الرحمن دعاءه ربه، فاستلهم- وفقك الله- هذا الثناء وهذه الدعوات العظيمة، ينفعك الله بهما.

قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾، «ما» في الموضعين: موصولة، أي: يا ربنا إنك أعلم بأحوالنا منا، تعلم الذي نخفيه، أي: الذي نضمره ونسره من النوايا ومكنونات الصدور، ومن الأعمال والأقوال، وغير ذلك، وتعلم الذي نعلنه، أي: الذي نظهره ونجهر به. فتعلم أن قصدي في هذه الدعوات الإخلاص لك ورضاك.

وقدّم ذكر علمه بما يخفون؛ لأن السر والعلانية عنده عز وجل سواء؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، فأخبر بعلمه بما يخفون وما يعلنون، ثم أخبر بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من ذكر العام بعد الخاص. وقدم قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ للاهتمام.

و«من» في قوله: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ولا يخفى على الله أيُّ شيء في الأرض ولا في السماء، مهما كان سرًّا أو علانية، باطنًا أو ظاهرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، صغيرًا أو كبيرًا؛ لأنه رب كل شيء وخالقه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: وصئف المحمود بصفات الكمال والثناء عليه مع المحبة والتعظيم، ﴿لِلَّهِ﴾ اللام: لام الاستحقاق والاختصاص، أي: الحمد التام الكامل مستحق لله تعالى، وخاص به.

﴿ٱلَّذِي وَهَبَ لِي﴾، أي: الذي أعطاني ورزقني.

﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾، أي: على كبر سني، وحال الإياس من الأولاد، ﴿إِسۡمَٰعِيلَ

﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ حيث ولد إسماعيل وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة، وولد له إسحاق وعمره مائة سنة، وكان لا يولد له من قبل.

فهبته عز وجل له الولد نعمة، وكونها في حال الإياس من الولد نعمة أخرى، واصطفاء الله تعالى لهم وجعلهم أنبياء صالحين أجل وأفضل.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، «إن»: حرف توكيد ونصب، واللام: للتوكيد، أي: إن ربي لسميع قريب مجيب الدعاء ممن دعاه، وقد دعوته فاستجاب لي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١].

والدعاء هنا يشمل دعاء العبادة والثناء، ودعاء المسألة والطلب، وكل منهما عبادة؛ ولهذا قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠]»(١).

فالمراد بالسمع هنا: السمع الخاص، وهو سمع الإجابة.

قال ابن القيم: «قول إبراهيم هنا ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام؛ لأنه يسمع كل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء، ودعاء الطلب. وسمع الرب تبارك وتعالى له: إثابته على الثناء، وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا»(٢).

قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾.

تضرع الخليل عليه السلام- إلى ربه بأنه أسكن بعضًا من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم؛ ليقيموا الصلاة، داعيًا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وأن يرزقهم من الثمرات؛ لعلهم يشكرون، ثم قبيل ختام هذه الدعوات المباركة وتأكيدًا على أهمية الصلاة وعظم شأنها دعا ربه أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته، وأن يتقبل دعاءه.

قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: محافظًا عليها، مقيما لحدودها، كما شرعها الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة ٢٩٦٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٢٨، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٨.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، أي: واجعل من ذريتي مقيمين للصلاة.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة: «دعائي» بإثبات الياء ساكنة، وقرأ الباقون: ﴿دُعَآءِ﴾ بحذفها تخفيفًا.

وقوله: ﴿وَتَقَبَّلْ﴾ معطوف على «اجعلني» والدعاء كما تقدم: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، أي: وتقبل عبادتي: وأجب سؤالي ودعواتي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي﴾ والمغفرة ستر الذنب، والتجاوز عن العقوبة، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا معصومين عن الخطأ في تبليغ ما أرسلوا به، وعن الوقوع في الكبائر، إلا أنهم ليسوا معصومين عن الوقوع في بعض الصغائر.

وأيضًا: فليس في سؤالهم المغفرة دلالة على حصول الذنب منهم، وقد كان نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد ولد آدم يستغفر الله في المجلس مئة مرة(١).

﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، أي: واغفر لوالدي، وهذا الدعاء قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقدّم طلب المغفرة لنفسه؛ لأنها أولى، قال ﷺ: «**ابدأ بنفسك**»(٢).

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: واغفر للمؤمنين كلهم.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾، أي: يوم تحاسب عبادك وتجازيهم على أعمالهم، خيرها وشرها.

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل للنبي ﷺ بذكر دعاء إبراهيم عليه السلام ربه للبلد الحرام

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣٤، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب». وأخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١٤، إلا أنه قال: «سبعين في اليوم».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٩٧، وأبو داود في العتق ٣٩٥٧، والنسائي في البيوع ٤٦٥٢- من حديث جابر رضي الله عنه.

بالأمن، ودعائه لنفسه ولذريته وثنائه على ربه عز وجل وحمده له، وتذكير أمته ﷺ بتلك الدعوات المباركة.

٢- إثبات نبوة إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الآيات.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لإبراهيم؛ لقوله عليه السلام ﴿رَبِّ﴾، ﴿رَّبَّنَآ﴾، ﴿رَبِّى﴾.

٤- أن دعاء الله وسؤاله باسم ووصف الربوبية من أعظم الأدعية وأفضلها وأقربها للقبول والاستجابة؛ لما فيه من الذل والخضوع لله تعالى، والإقرار والاعتراف له بأنه الخالق المالك المدبر الذي بيده العطاء والمنع؛ ولهذا كان جل دعاء إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات وفي غيرها، وكذا دعاء الأنبياء عليهم السلام باسم الرب ووصف الربوبية.

٥- أهمية الأمن؛ لأنه لا يستقيم أمر الدين والدنيا إلا به؛ ولهذا ابتدأ به الخليل عليه السلام في دعائه ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وامتن الله به على سكان الحرم، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال ﷺ: **«من أصبح آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»**(١).

٦- فضيلة الخليل- عليه السلام، وأنه قدوة وإمام في التوحيد والإخلاص لله تعالى، والحذر من الشرك وعبادة الأصنام، ومعرفة خطره، والبراءة منه؛ لهذا ابتدأ بعد دعائه ربه بأمن البلد الحرام بدعائه ربه أن يؤمنه وبنيه من عبادة الأصنام، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

٧- أن من أحق الناس بالدعاء له بعد دعاء المرء لنفسه الدعاء للبنين والذرية لتثنية

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤٤١- من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه وكانت له صحبة- وقال الترمذي: «حسن غريب».

إبراهيم بالدعاء لبنيه؛ لقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٨- أن على العبد أن يسأل الله أن يجنبه الشرك والمعاصي، وأن يوفقه لاجتنابها والابتعاد عنها، ويعمل بنفسه على اجتنابها والبعد عنها.

٩- خطر الشرك وعبادة الأصنام، وأنهن سبب لضلال كثير من الناس؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١٠- أن أكثر الناس على ضلال فلا يغتر بكثرة الظالمين؛ لقوله: ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١١- إعلان الخليل عليه السلام أن من تبعه في إخلاص التوحيد لله والبعد عن عبادة الأصنام فهو منه، ومن أهل ملته الحنيفية، وبراءته ممن عصاه، مع رجائه هدايته والمغفرة والرحمة له؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢- حسن ظن إبراهيم عليه السلام بربه، وعدم انقطاع رجائه من هداية الله تعالى لمن عصاه من الناس؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقد فاقه في هذا نبينا محمد ﷺ حين قال: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

أما عيسى عليه السلام فقد قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] مسلمًا الأمر فيهم لله عز وجل، وختم بقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأدبًا مع الله، وبعدًا عن الإدلال على ربه.

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١٣- إثبات سعة مغفرته عز وجل ورحمته؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٤- إسكان إبراهيم عليه السلام بعض ذريته، وهو ابنه إسماعيل مع أمه هاجر بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم؛ لأجل أن يقيموا الصلاة؛ لقوله عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٥- حكمة الله تعالى في جعل بيته المحرم في واد غير ذي زرع، قليل ماؤه، جبلية صخرية أرضه، ولعل من حكمة ذلك أن تظهر قدرته التامة في جعل هذا البيت مأوى للأفئدة، ومثابة للناس وأمنًا.

١٦- قوة توكل إبراهيم عليه السلام على ربه في حفظه عز وجل لابنه إسماعيل وأمه وتوليه- سبحانه- إياهما وعنايته بهما، مع أنه أسكنها في واد غير ذي زرع، ليس فيه داع ولا مجيب.

١٧- أن من حفظ الله حفظه الله في دينه ودنياه وأخراه وفي نفسه وولده وأهله وماله وغير ذلك، وقد قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»(١).

وهذا المعنى يغيب عن كثير من الناس إلا من رحمه الله ووفقه.

١٨- دعاؤه عليه السلام بجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، ورزقهم من الثمرات؛ ليشكروا الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

١٩- وجوب شكر نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، من الرزق وغير ذلك.

٢٠- أن ما يشهده البلد الحرام من توافد الناس إليه من كل فج عميق، ومن كل حدب وصوب للحج والعمرة والطواف والصلاة والاعتكاف والعبادة، أو لطلب الرزق، أو لجلب الأرزاق إليه والثمرات والخيرات، مما لا يكاد يوجد في أي بلد سواه، كل ذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل دعاء إبراهيم عليه السلام واستجابة الله عز وجل لدعائه.

---

(١) سبق تخريجه.

٢١- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فإبراهيم عليه السلام أنزل ابنه إسماعيل وأمه هاجر في هذا الوادي القفر طاعة لله تعالى عند بيته المحرم؛ ليقيموا الصلاة، فجعل الله هذا البيت مثابة للناس وأمنا، تجبى إليه ثمرات كل شيء.

٢٢- ثناؤه عليه السلام على ربه عز وجل بعلمه ما يخفون وما يعلنون، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢٣- حمده عليه السلام لله عز وجل على هبته له على كبره ابنيه: إسماعيل وإسحاق- عليهما السلام- استجابة لدعائه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾.

٢٤- أن الواهب للذرية هو الله عز وجل وهو المستحق للحمد على ذلك.

٢٥- قدرة الله التامة على هبة الذرية، ولو خالف ذلك ما كان معتادًا من كبر الزوجين أو عقمهما أو أحدهما، ونحو ذلك؛ لأن الله وهب إبراهيم ابنيه: إسماعيل وإسحاق بعد ما كان شيخًا كبيرًا، وزوجه عجوزًا عقيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات: ٢٩].

٢٦- ثناؤه عليه السلام على ربه بسماعه الدعاء واستجابته له؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

٢٧- إثبات صفة السمع لله عز وجل فهو يسمع الدعاء وجميع الأقوال والأصوات.

٢٨- دعاؤه عليه السلام ربه أن يجعله مقيم الصلاة، وأن يجعل من ذريته مقيمين لها.

٢٩- عظم أمر الصلاة وأهميتها وعناية الخليل عليه السلام بها، فقد ذكر أولًا أنه أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم؛ لأجل أن يقيموا الصلاة، ثم دعا قبيل ختام هذه الدعوات ربه أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته.

٣٠- تضرعه عليه السلام وإلحاحه على ربه بقبول دعواته؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾.

٣١- سؤاله عليه السلام ربه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم حسابه عز وجل للخلائق ومجازاته لهم بأعمالهم؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وهذا الدعاء من إبراهيم لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

٣٢- إثبات الحساب والجزاء على الأعمال.

٣٣- تعظيم إبراهيم عليه السلام لربه وإخلاصه له التوحيد، فقد نادى ربه باسم الربوبية وصفتها مع كل دعوة من هذه الدعوات، وكرر ذلك تسع مرات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: ولا تظنن الله، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: لا تحسبن الله غافلًا عن الذي يعمله الظالمون، أو عن عملهم، أي: لا تحسبه إذا أنظرهم وأجلهم وأمهلهم أنه غافل عنهم وعما يعملونه من الشرك والكفر والكيد للدعوة ومحاربة الله ورسوله والمؤمنين، وأنه لا يعاقبهم، بل يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عدًّا، ويمهلهم ولا يهملهم. والمراد بـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مشركو مكة وغيرهم من أهل الشرك والكفر والمعاصي.

وقوله ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالتعريف دلالة على أن كفار مكة بلغوا الغاية في الظلم من الظلم بين العبد وبين ربه، والظلم لنفسه، والظلم للآخرين، من الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب، والكفر والمعاصي، والكيد للدعوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الواقعة: ٤٦]، أي: الشرك العظيم.

وفي الآية تسلية للرسول ﷺ، ووعد له أكيد، ووعيد للظالمين المشركين شديد، قال ميمون بن مهران: «هي وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم»(١).

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾، أي: ينظرهم ويوجلهم؛ استدراجًا لهم ليزدادوا إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣، القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**، ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»(٢).

﴿لِيَوْمٍ﴾، أي: ليوم عظيم، شديد، ثقيل، عسير، على الكافرين غير يسير، وهو يوم القيامة، ونكّر للتعظيم.

﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في محل جر صفة «ليوم»، أي: ترتفع فيه الأبصار، أي: العيون، فلا تتحرك ولا تطرف من شدة الخوف والفزع؛ لعظم ما ترى من أهوال ذلك اليوم، يُبيِّن هذا قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: مسرعين إلى إجابة الداعي إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل مادي أعناقهم من شدة الخوف؛ كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٣- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٧٠٣- ٧٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٢٨٦، ومسلم في البر والصلة ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨- من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨].

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، أي: رافعي رؤوسهم، أو مطأطئي رؤوسهم من الذل.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، أي: لا يرجع إليهم طرفهم لحظة، بل شاخصة أبصارهم من شدة الهول والفزع.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾، أي: خاوية خربة، ليس فيها شيء من الخير، قد ارتفعت عن أماكنها وبلغت الحناجر من شدة الهول والهم والغم والحزن والخوف والقلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: حذر المشركين والكفار من قريش وغيرهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: حين يأتيهم العذاب في الآخرة: عذاب القيامة وأهوالها وعذاب النار، مبينًا لهم الأعمال الموجبة للعذاب ليجتنبوها، وأحوال المعذبين ليرتدعوا.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشرك والكفر والتكذيب، وظلم أنفسهم وظلم غيرهم، نادمين على ذلك، ولات ساعة مندم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

، أي: يا ربنا أنظرنا وأجلنا إلى وقت قريب، أي: ردنا إلى الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾

[المنافقون: ٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾، أي: نستجب لما دعوتنا إليه من الإيمان، وترك الكفر والشرك والمعاصي.

﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: ونتبع الرسل فيما دعونا إليه من التوحيد وشرائع الإيمان.

وهذا لأجل أن يتخلصوا من العذاب، وإلا فهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ ولهذا قال الله تعالى لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أولم تكونوا حلفتم من قبل، أي: في الحياة الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، «من» لتنصيص العموم في النفي، أي: ما لكم أيّ زوال عن الدنيا وانتقال منها إلى الآخرة، وأنه لا بعث ولا جزاء، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

أي: فها قد تبين حنثكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدعونه.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: وسكنتم في حياتكم الدنيا ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والتكذيب لرسل الله من

الأمم السابقة، كقوم نوح، وعاد وثمود وغيرهم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾، أي: ظهر لكم وعلمتم كيف فعلنا بهم، وذلك من خلال ما أخبرناكم به عنهم في القرآن، ومن خلال ما تشاهدون مما بقي من آثار منازلهم وقراهم وديارهم المدمرة، ومن خلال ما يتناقله الناس من أخبارهم، حيث أخذناهم بأنواع العقوبات والمثلات، وأهلكناهم بسبب ظلمهم.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ وذلك بتشبيه الأمور المعنوية المعقولة بأشياء حسية، لتقريب المعاني، وزيادة الإيضاح والبيان، وإزالة اللبس والشك عنكم، ولكنكم لم تنتفعوا بذلك، ولم تعتبروا وتتعظوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الذي تمكنوا منه وقدروا عليه، والمكر: الكيد والتدبير لإلحاق الأذى بالآخرين، أي: وقد مكروا وكادوا للرسول ﷺ ودعوته وللمؤمنين كل ما في وسعهم، وبالغوا في العتو والعناد والشرك والكفر والمخالفة؛ كما مكر المكذبون من الأمم السابقة مكرهم، وكادوا للرسل ودعوتهم؛ كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢].

﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ وعيد وتهديد لهم، أي: هو محيط به علمًا وقدرة على المكر بهم مقابل مكرهم برسله ودعوتهم، وجزاء مكرهم عنده، ووبال مكرهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قرأ الكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى، ورفع الثانية، وقرأ الباقون ﴿لِتَزُولَ﴾ بكسر الأولى ونصب الثانية.

أي: وإن كان مكر المكذبين للرسل وبما جاؤوا به من الحق من عظمه ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾، «من» سببية، أي: لتزول بسببه الجبال الراسيات عن أماكنها لو كان

لها أن تزول؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾

وفي هذا تعريض بثبات الرسول ﷺ والمؤمنين كثبات الجبال الراسيات، فلا يزعزعهم مكر الماكرين من المشركين وغيرهم.

وقيل: «إن» في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ نافية بمعنى «ما» فيكون المعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي: أن مكرهم ما ضر الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم، فيشبه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧]، والقول الأول أصح وأظهر.

الفوائد والأحكام:

١- التهديد والوعيد للظالمين، وبيان أن الله ليس بغافل عما يعملونه من الشرك والكفر والمعاصي والعتو والعناد، ولا ينبغي أن يظن ذلك أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

٢- أن الله عز وجل لا يغفل، لكنه يمهل ولا يهمل.

٣- تسلية الرسول ﷺ وتهديد الظالمين.

٤- التحذير من الظلم بالشرك وما دونه، ومن ظلم النفس، وظلم الآخرين.

٥- تأخير عذاب الظالمين وتأجيله إلى يوم القيامة؛ استدراجًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

٦- عظم أهوال يوم القيامة، وسوء أحوال الظالمين في ذلك اليوم، من شدة الخوف والفزع والقلق، فالأبصار منهم شاخصة، والخطا منهم حثيثة مسرعة لإجابة الداعي، والرؤوس منهم مقنعة مرتفعة أو مطأطئة، والطرف منهم لا يرجع، والأفئدة منهم خاوية خربة، مرتفعة عن أماكنها، قد بلغت الحناجر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

٧- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بإنذار الناس وتحذيرهم يوم يأتيهم العذاب، ببيان أسباب ورودهم العذاب، وأسباب النجاة منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ الآية.

٨- طلب الظالمين في ذلك اليوم التأخير إلى أجل قريب، والرجعة إلى الدنيا؛ ليجيبوا دعوة الله، ويتبعوا رسله؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ وهيهات لهم ذلك.

٩- تقريع المشركين المكذبين وتذكيرهم- بعد أن رأوا العذاب وطلبوا الرجعة إلى الدنيا- بإقسامهم من قبل في الدنيا ما لهم من زوال، أي: إنما هي الحياة الدنيا فقط، ولا معاد بعد الموت، ولا حياة ولا جزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾.

١٠- تقريعهم وتوبيخهم لعدم أخذهم العظة والعبرة مما حل بالمكذبين قبلهم، وقد سكنوا مساكنهم، ورأوا آثار التدمير في ديارهم، وعلموا كيف فعل الله بهم، وما أوقعه بهم من العقوبات، وضرب الله لهم الأمثال؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

١١- أن السعيد من وعظ بغيره، فيجب أخذ العظة والعبرة مما حل ويحل بمن خالف أمر الله عز وجل.

١٢- أن مخالفة أمر الله بالشرك والكفر والمعاصي ظلم للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

١٣- الإنذار والإعذار ببيان ما فعل الله بالمكذبين من الأمم السابقة، وأن الله تعالى لا يعاقب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾.

١٤- نعمة الله تعالى على العباد بضرب الأمثال؛ لتقريب وبيان الأمور المعنوية المعقولة؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

١٥- مكر الكفار والمكذبين للرسل ما بوسعهم من المكر والكيد لرسل الله، وتكذيب دعوتهم، والصد عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾.

١٦- علم الله بمكر المكذبين لرسله ودعوتهم، وتهديده عز وجل لهم، وأخذهم، ومكره بهم بأنواع العقوبات في الدنيا، والعذاب في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾.

١٧- عظم مكر المكذبين لرسله وكيدهم لهم ولدعوتهم، مما تكاد أن تزول منه الجبال عن أماكنها لو كان لها أن تزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ الفاء عاطفة، أو رابطة لجواب شرط مقدر، والخطاب للنبي، وفيه تسلية له ﷺ وتثبيت لقلبه، ويجوز أن يكون الخطاب له ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: فلا تظنن الله مخلف وعده رسله بنصرهم ونجاتهم وسعادتهم وإثابتهم بالثواب الجزيل هم وأتباعهم في الدنيا والآخرة، وفي خذلان أعدائهم وإهلاكهم وعقابهم في الدنيا والآخرة.

وفي هذا تقرير وتأكيد لوعده لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٥٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ الجملة فيها تعليل لما قبلها، أي: لأن الله عزيز ذو انتقام، له العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، فلا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، «ذو» بمعنى: صاحب، أي: ذو انتقام ممن كفر به، وخالف أمره وارتكب نهيه وما يغضبه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ

عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١، المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩، المطففين: ١٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ هذا من علامات القيامة وأهوالها، فتبدل الأرض بأرض كالفضة البيضاء، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النَّقي، ليس فيها معلم لأحد**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على الصراط**»(٢).

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه الطويل في سؤال اليهودي له ﷺ قال: أين الناس ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**»(٣).

قال السعدي(٤): «وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى عوجًا ولا أمتًا».

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، أي: وتبدل السموات غير السموات. قال السعدي: «وتكون

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- يقبض الله الأرض يوم القيامة ٦٥٢١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٩٠. وقرص النقي: الخبز الحواري، وهو الذي نخل مرة بعد مرة.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- البعث والنشور، وصفة الأرض يوم القيامة ٢٧٩١، والترمذي في تفسير سورة إبراهيم ٣١٢١، وابن ماجه في الزهد- ذكر البعث ٤٢٧٩، وأحمد ٦/ ٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في الحيض ٣١٥.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ١٥١.

السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى- بيمينه».

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: وخرج جميع الخلائق من قبورهم لله ظاهرين لا يخفى على الله منهم شيء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾، أي: الأحد الفرد، ذو الوحدانية التامة، في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته وعظمته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١].

و«الواحد» من أسمائه عز وجل.

﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ من أسماء الله عز وجل، أي: الذي قهر كل شيء، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب وذلت لعزته الشدائد الصلاب، وكل ما في الكون تحت تصرفه وتدبيره.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: وتشاهد المجرمين بكفرهم وفسادهم وارتكابهم الجرائم والموبقات.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة.

﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، أي: قد قرن وربط بعضهم إلى بعض، وقرنت أيديهم وأرجلهم بالأغلال والقيود والسلاسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣].

والأصفاد: جمع: «صفاد»، وهو: القيد والغل، وهي: الأغلال والقيود والسلاسل، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٤].

قال عمرو بن كلثوم:

فـــآبوا بالنهـــاب وبالســـبايا ... وأبنـــا بـــالملوك مصـــفدينا(١)

---

(١) انظر: «شرح القصائد السبع» ص٤١٢، «جامع البيان» ١٣/ ٧٤٠.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾، أي: ثيابهم التي يلبسونها ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو مادة تهنأ بها الإبل، أي: تطلى وتدهن بها إذا أصابها الجرب، وهي سريعة الاشتعال، منتنة شديدة الحرارة، وقيل: هو النحاس المذاب.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: تعلو وتصلى وتلفح وجوههم النار؛ كما قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**»(١).

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ اللام: للتعليل، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: لأجل أن يجزي الله في القيامة كل نفس بالذي كسبته، أو بكسبها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: إن الله سريع الحساب قريبه؛ لأن حسابه آت لا محالة، وكل آت قريب؛ كما قال تعالى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]؛ ولأن الدنيا كلها في الآخرة قليل، وعمر الإنسان فيها مهما طال فهو قليل.

ولأن الإنسان يجد شيئًا من جزاء عمله خيرًا كان أو شرًّا بعد فعله، ويظهر أثره عليه، فإذا عمل حسنة أو سيئة في الليل ظهر أثرها على وجهه وعلى تصرفاته في النهار.

وأيضًا هو عز وجل ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: يحصي أعمال عباده ويحاسبهم بأقل وقت، فلا يحتاج إلى مزيد وقت لحسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز- التشديد في النياحة ٩٣٤، وأحمد ٥/ ٣٤٢.

لأنه خالقهم، وهو أعلم بهم، ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم وأعمالهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤] وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾، أي: هذا القرآن بلاغ للناس كلهم، أي: تبليغ وإيصال لهم رسالة ربهم؛ كما قال تعالى عن الرسل: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وأيضًا بلاغ لهم يستيقظون به من غفلتهم، ويصلون به إلى رضا ربهم وجنتِه، والنجاةِ من النار، والسعادةِ الأبدية، وفي حديث الثلاثة: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»(١).

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾، أي: ولأجل أن ينذروا به، أي: بهذا القرآن، أي: يوعظوا ويحذروا ويخوفوا به عقاب الله وعذابه في الدنيا والآخرة بما تضمنه من ذكر عقوبات المكذبين في الدنيا ووعيدهم في الآخرة، أي: فيه إقامة الحجة عليهم والتحذير لهم، فيه الوعد والوعيد، والإعذار والإنذار.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي: ولأجل أن يعلموا أنما الله إله واحد، بالاستدلال بما في هذا القرآن من الآيات والحجج والبراهين والدلائل على وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: وليتعظ ويعتبر أصحاب العقول بما في هذا القرآن، فيهتدون به إلى الصراط المستقيم الذي فيه سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

وإنما خص «أولو الألباب»؛ لأنهم هم الذين تهديهم عقولهم إلى الأخذ بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، بخلاف بقية الخلق فهم لا ينتفعون بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد ٢٩٦٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الفوائد والأحكام:

١- تحقيق الله تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام ما وعدهم به، هم وأتباعهم، من النصر والتأييد والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، وإهلاك أعدائهم، وأنه- سبحانه- لا يخلف وعده رسله، ولا ينبغي لأحد أن يظن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

٢- كمال عزته عز وجل وقوته وقهره، وشدة انتقامه ممن كفر به وخالف أمره وعصاه، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

٣- إثبات القيامة وأهوالها وأحوالها.

٤- أن من أهوال القيامة تبديل الأرض غير الأرض، وتبديل السموات غير السموات؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

٥- عظمة الله تعالى وقدرته التامة، وأنه لا يعجزه شيء، حيث يبدل الأرض والسموات هذه المخلوقات العظيمة، كما خلقها أول مرة.

٦- ينبغي أن يعتبر ويتعظ ابن آدم الضعيف الذي يريد دوام الحال من تبديل الأرض والسموات مع عظمهما، فيعلم أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي القيوم، فكل من عليها فان، وكل شيء هالك إلا وجهه الكريم.

قيل: مات فلان قالوا: ما سبب موته؟ أجيب بأنه صعد على السطح فسقط فمات. فقالوا: لماذا يصعد؟ ثم قيل: مات فلان. قالوا: ما سبب موته؟ أجيب بأنه نزل في بئر فسقط فمات. فقالوا: لماذا ينزل البئر؟ ثم قيل: مات فلان. قالوا ما سبب موته؟ أجيب بأنه كان يقود السيارة بسرعة فوقع له حادث فمات. فقالوا: لماذا يسرع في القيادة؟

ثم قيل: مات فلان. قالوا: ما سبب موته؟ أجيب بأنه مات على فراشه، أو وهو واقف عند الإشارة، أو جالس على مكتبه فقالوا: خف من هذه. هذا لسان حال الإنسان ومقاله، يريد دوام الحال، ودوام الحال من المحال.

٧- خروج الخلائق كلهم من قبورهم، وبروزهم لله تعالى في مكان لا يخفى على الله منهم شيء، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

٨- إثبات اسم الله تعالى «الواحد» وأنه ذو الوحدانية في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

٩- إثبات اسم الله تعالى: «القهار» وأنه ذو القهر والغلبة، دانت لعظمته الرقاب، وخضعت لجبروته الشدائد الصلاب، وكل شيء تحت تصرفه وتدبيره.

١٠- تهديد المجرمين ووعيدهم، وبيان سوء حالهم يوم القيامة، فهم في الأصفاد مقرنون، وسرابيلهم من قطران، وتعلو وجوههم النار، جزاء إجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾.

١١- فضيحة المجرمين والتنكيل بهم، بجعل الرسل والمؤمنين يرون ما هم فيه من العذاب.

١٢- التحذير من الإجرام وسلوك طريق المجرمين.

١٣- أن بعث الله الخليقة وإعادتهم يوم القيامة؛ لمجازاة كل نفس بما كسبت؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

١٤- سرعة حساب الله وقربه، وسرعة إحصائه لأعمال العباد، ومجازاتهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

١٥- أن القرآن الكريم بلاغ للناس، به إيصال رسالة ربهم إليهم، وبه إيصالهم إلى النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾.

١٦- أن القرآن إنذار للناس وتحذير لهم من عذاب الله تعالى بما اشتمل عليه من أخبار المكذبين من الأمم السابقة، وعقوباتهم الدنيوية، وما توعدوا به في الآخرة.

١٧- دلالة القرآن الكريم بما فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والدلائل والبراهين الساطعات على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم فيه التذكرة والعظة لمن كان ذا لب وعقل ينتفع بعقله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

١٩- التعريض بمن لم يتذكروا بأنه لا ألباب لهم ولا عقول؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٢٠- الترغيب بالتذكر والاتعاظ بالقرآن، والترهيب من الغفلة والإعراض عنه.

٢١- أن الله عز وجل- قد أقام الحجة على الخلق وأنذرهم، وأعذر منهم بإنزاله هذا القرآن العظيم.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الحِجْرِ

المقدمـــة

أ- اسم السورة:

سميت سورة «الحجر» بهذا الاسم؛ لذكر «الحجر» فيها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾، ولم يذكر اسم «الحجر» في غيرها من السور.

وأصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح- عليه السلام- وكانوا ينزلون «الحجر»، وهو المعروف الآن بـ«مدائن صالح» في «محافظة العلا» بين خيبر وتبوك. وقد مرَّ النبي ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة الحجر بمكة، فهي مكية باتفاق المفسرين.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الحجر بتعظيم القرآن الكريم، كما هو الشأن في عدد من السور قبلها: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾.

٢- إنذار الذين كفروا وتهديدهم بسوء عاقبتهم، وأن لهلاكهم وقتًا معلومًا، لا يسبقونه ولا يستأخرون عنه، كغيرهم من الأمم المهلكة قبلهم: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

٣- ذم المشركين، وذكر أذيتهم للنبي ﷺ واتهامهم له ﷺ بالجنون، وطلبهم إتيانه لهم بالملائكة ليصدقوه، ورده- عز وجل- عليهم ببيان أن إنزال الملائكة إليه سبحانه، وما ينزلهم إلا بالحق، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

٤- إثبات إنزاله- عز وجل- القرآن وتكفله بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

٥- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بذكر إرساله عز وجل الرسل قبله في الأمم السابقة واستهزائهم بجميع رسلهم، وبيان حكمته عز وجل في ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى

قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾، أي: من المكذبين قبلهم للرسل والوحي وفي عقوبات الله تعالى لهم. وبيان بعدهم عن الهدى، وعن اتباع الحق، مهما أوتوا من الآيات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٦- ذكر دلائل كمال عظمته تعالى وتمام قدرته وخلقه، وحسن تدبيره، ونعمته وحكمته، وسعة علمه، ومنها: أن جعل في السماء بروجًا، وزينها للناظرين وحفظها من كل شيطان رجيم، ومد الأرض، وألقى فيها رواسي، وأنبت فيها من كل شيء موزون، وجعل فيها معايش للخلق وأرزاقًا، وما من شيء إلا عنده خزائنه وما ينزله إلا بقدر معلوم، وأرسل الرياح لواقح فأنزل من السماء ماء، فأسقاهم منه وما هم له بخازنين، وهو الذي يحيي ويميت ويرث الأرض ومن عليها، ويعلم المستقدمين منهم والمستأخرين ويحشرهم إنه حكيم عليم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

٧- ذكر خلق آدم- عليه السلام- من صلصال من حمإٍ مسنون، وخلق الجان من قبل من نار السموم، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وسجودهم طاعة لله تعالى، وامتناع إبليس عن السجود استكبارًا، وإنكار الله عز وجل عليه وتقريعه إياه، وإخراجه له من الجنة، والحكم عليه باللعنة إلى يوم الدين، وإجابته له في طلب الإنظار لإغوائهم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ

لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

٨- بيان عظم ما أعد الله تعالى للمتقين من ألوان النعيم الحسي والمعنوي: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

٩- وجوب الجمع بين رجاء الله تعالى ومغفرته ورحمته، وبين الخوف من عذابه ونقمته: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

١٠- ذكر قصة ضيوف إبراهيم- عليه السلام- من الملائكة حين دخلوا عليه فسلموا ووجل منهم: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾، وتعجبه عليه السلام من أن يولد له ولد مع ما هو عليه من الكِبَر، وسؤاله لهم عن شأنهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

١١- ذكر ما دار بين لوط- عليه السلام- وبين رسل الله تعالى من الملائكة، وإنكاره لهم، وبيانهم له أنهم جاؤوا بما كان قومه يشكون فيه من العذاب، وأنهم جاؤوا بالحق وإنهم لصادقون، وأمرهم له بأن يسري بأهله على الكيفية التي ذكر الله، وإخباره بأن الله قضى بأن دابر قومه مقطوع مصبحين، وذكر ما جرى من مدافعته- عليه السلام- لقومه عن ضيوفه، وأخذهم بالصيحة، وجعل ذلك عبرة للمعتبرين، وآية للمؤمنين: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

١٢- الإخبار بظلم أصحاب الأيكة، قوم شعيب عليه السلام، وانتقام الله منهم: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

١٣- ذكر تكذيب أصحاب الحجر المرسلين بتكذيبهم نبيهم صالحًا- عليه السلام- وإيتائهم الآيات، وإعراضهم عنها، وما منحهم الله من القوة حيث ينحتون

من الجبال بيوتًا آمنين، وأخذ الصاعقة لهم مصبحين: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

١٤- بيانه عز وجل أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل ولإقامة الحق والعدل ولعبادته- سبحانه وتعالى- وحده، وتأكيد إتيان القيامة، وأمره ﷺ بالصفح الجميل حتى يأتي الله بأمره: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

١٥- الامتنان عليه ﷺ بإيتائه السبع المثاني «الفاتحة» والقرآن العظيم، وإنعامه بذلك تشريفًا وتكريمًا له ﷺ؛ ولهذا نهاه الله تعالى أن يمد عينيه إلى ما دون ذلك مما متع الله به أزواجًا منهم، ولا يحزن على من أعرض منهم، وأمره أن يخفض جناحه للمؤمنين، وأن يستمر في إنذار المكذبين، وبيان أن الله سيسألهم أجمعين عن أعمالهم، وأن يصدع بما يؤمر، ويعرض عن المشركين، وأن الله سيكفيه المستهزئين المشركين بالله، وتوعده عز وجل لهم، وأمره عز وجل له ﷺ بالاستعانة على ما يلقاه منهم بعبادة الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

قوله: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة يونس ويوسف والرعد.

﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ونُكِّر «قرآن» للتعظيم والتفخيم، كما عُرِّف «الكتاب» بـ«ال» للتعظيم والتفخيم، وسمي الكتاب «قرآنا» أخذًا من «القَرء» وهو «الجمع»؛ لأنه يجمع سورًا وآيات كثيرة، وأخذاً من القراءة؛ لأنه مقروء، قرأه جبريل- عليه السلام- على الرسول ﷺ، وقرأه الرسول ﷺ على أمته، ويقرؤه المؤمنون.

﴿مُّبِينٍ﴾ اسم فاعل صفة لـ«قرآن» مأخوذ من «أبان» اللازم والمتعدي:

من «أبان» اللازم الذي معناه: «بان»، أي: ظهر ووضح. والمعنى على هذا: وقرآنٍ بيِّنٍ واضح؛ لأن الله عز وجل بيَّنه وفصّله، كما قال عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٦- ١٨]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: ٣].

ومن «أبان» المتعدي الذي معناه «بَيَّن»، أي: أَوْضَحَ ما يحتاج إلى بيان، والمعنى على هذا: وقرآنٍ مبيِّنٍ للحقِّ من الباطل، والحلال والحرام، والمشروع والممنوع، ولكل ما

تحتاجه الأمة في أمر دينها ودنياها، بأوضح لفظ وأدلة على المقصود، مما يقيم الحجة ويقطع العذر، ويوجب الانقياد له، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾.

قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بتخفيف الباء: ﴿رُّبَمَا﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «ربَّما» كافة ومكفوفة، و«رب» حرف جر.

﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: يحبون ويتمنون.

﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ «لو»: مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يود»، أي: يودون كونهم مسلمين.

والمعنى: أنهم سيندمون عند كشف الغطاء وحضور الموت، وعند عرضهم على النار على ما كانوا عليه من الكفر في الدنيا، ويتمنون أنهم أسلموا، وأنى لهم ذلك؟

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] وقال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و«التمتع»: الانتفاع بالمتاع، أي: اتركهم ولا تبال بهم ودعهم منغمسين في المآكل والمشارب، والتمتع في الملذات الجسدية، والدوران في فلك الشهوات والحياة البهيمية، معرضين عما يدعوهم إليه القرآن من الحياة الروحية والمعنوية والكمال النفسي والسعادة الأبدية.

وليس المعنى أن يترك دعوتهم، وإنما المعنى: ألا يشغله عدم إيمانهم مع الاستمرار على دعوتهم، كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ

ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾، أي: ويشغلهم الأمل والطمع في الدنيا وطول البقاء فيها عن التوبة والإنابة والاستعداد للآخرة، مغترين بما خولهم الله من النعم- مع ما هم عليه من الكفر- استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣، القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد لهم، أي: فسوف يعلمون مستقبلًا حين رؤيتهم العذاب ضلالهم، وبطلان ما هم عليه من الكفر، وسوء عاقبته، وأن للإمهال أجلًا معلومًا، كما قال تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [النجم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝٤٦﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢﴾ [محمد: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ «من» هنا وفي قوله: ﴿مِنۡ أُمَّةٍ﴾، زائدة من حيث الأعراب، وتفيد من حيث المعنى: التنصيص في عموم النفي، أي: أيّ قرية. والقرية: المدينة، مأخوذة من «القري» وهو الجمع؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين.

﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا ولها مكتوب معلوم، أي: أجل مقدر، ووقت محدد لإهلاكها، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

والمعنى: وما دمرنا من قرية من القرى الظالمة المكذبة للرسل وأخذنا أهلها بالعقوبة وقضينا عليها إلا ولها أجل مقدر، فلما حان أجلها أهلكناها.

وفي هذا تعريض بالتهديد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ بألا يغتروا بإمهال الله لهم، فإن الله عز وجل يمهلهم ولا يهملهم، ولكل أمة أجل، ولكل أجل كتاب، كما قال

تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ بيان لقوله: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾، أي: ما تسبق أيّ أمة أجلها، أي: تفوته وتتقدم قبل حلوله، بأن تؤخذ وتعاقب قبل حلول أجلها المقدر المحدد المعلوم.

﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، أي: وما يستأخرون عن أجلهم المقدر لهلاكهم المحدد المعلوم، بل تؤخذ كل أمة في أجلها المقدر المحدد المعلوم. والسين والتاء للتأكيد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾، أي: وقال الكفرة المكذبون للنبي ﷺ استهزاء وسخرية واستخفافًا به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، أي: حسب زعمك وادعائك، وليس هذا إقرارًا منهم بذلك أو امتداحًا له ﷺ؛ لقولهم بعده: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

و«الذكر»: القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: في زعمك إنزال الذكر عليك، وفي دعوتك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، وظنك أننا سنتبعك ونترك دين آبائنا لمجرد قولك.

والمجنون: الذي أصابه مس من الجن.

قوله: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ «لوما»: حرف تحضيض بمعنى: «هلا»، أي: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون على صحة ما جئت به، وعلى صدقك، كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١].

وكقول فرعون قبلهم لموسى عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف: ٥٢].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنت من الصادقين فيما جئت به مما تدعونا إليه، أي: فإن لم تأتنا بالملائكة فلست من الصادقين، وهذا من أعظم الكفر والجحود.

قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾.

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بنونين، الأولى مضمومة، والثانية مفتوحة، وكسر الزاي، ونصب ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

وروى أبو بكر عن عاصم: «تُنَزَّل الملائكةُ» بتاء مضمومة وفتح النون والزاي، ورفع الملائكة.

وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم فتحوا التاء: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

«إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة، أي: إلا تنزيلًا متلبسًا بالحق، أي: بالأمر والشيء الحق المقضي، إما بالرسالة والوحي، وإما بالعذاب الحاق على المكذبين للرسل، كما تنزلت لعذاب قوم لوط.

ولو تنزلت الملائكة لعُجِّل للمنزل عليهم العذابُ ولما أُمهلوا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢﴾ [الفرقان: ٢٢]؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ «إذًا» ظرف بمعنى «حين»، أي: وما كانوا حين ننزل الملائكة- إن لم يؤمنوا- ﴿مُّنظَرِينَ﴾، أي: ممهلين ومؤخرين ومؤجلين؛ فصار طلبهم تَنزُّل الملائكة تعجيلًا لأنفسهم بالهلاك والدمار.

مع أنهم مهما أوتوا من الآيات فلن يؤمنوا؛ لأنه ليس طلبهم إتيانه بالملائكة للاسترشاد والاهتداء إلى الحق، وإنما ذلك من باب المكابرة والعناد والتعجيز، كما قال

تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

ويكفيهم من الآيات- لو كانوا صادقين- هذا القرآن العظيم؛ ولهذا امتن الله- عز وجل- بإنزاله، وأخبر بتكفله بحفظه:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«نا» ضمير في محل نصب اسم «إن»، و«نحن» ضمير منفصل مؤكد للضمير «نا».

وتكلم عز وجل بضمير العظمة وأكد ذلك؛ لأنه- عز وجل- هو العظيم حقًّا ذو العظمة التامة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي**»(١).

و«الذكر»: القرآن الكريم، وسمي القرآن ذكرًا؛ لأن الله ذكر فيه ما يحتاجه الخلق في أمر دينهم ودنياهم، وفيه تذكير وعظة وعبرة لمن أراد أن يتذكر، وفيه شرف له ﷺ ولقومه، كما قال ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾، أي: لهذا الذكر، وهو القرآن الكريم.

﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، أي: لحافظون له حال إنزاله من استراق السمع، وبعد إنزاله من التغيير والتبديل والتحريف، والزيادة والنقصان، وغير ذلك، في ألفاظه ومعانيه، وقد أكد عز وجل هذا الوعد بـ«إنَّ» ولام التوكيد، تأكيدًا لحفظه- عز وجل- لكتابه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٢- تعظيم آيات الكتاب والقرآن المبين؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

٣- إقامة الحجة على العباد ببيان القرآن وإيضاح الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ

---

(١) سبق تخريجه.

مُّبِينٍ﴾.

٤- ندامة الذين كفروا على كفرهم عند الموت ومعاينتهم العذاب، ولات ساعة مندم، وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين، وهيهات وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾.

٥- أن الندم لا ينفع بعد فوات الأوان، وإذا فات الفوت فلا ينفع الصوت.

٦- أن الآخرة إنما هي دار جزاء، لا مجال فيها للاستعتاب والعمل.

٧- تهديد الذين كفروا ووعيدهم بالعذاب وسوء العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾.

٨- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه بأمره بترك أمر الذين كفروا، فعقابهم إليه- عز وجل- فلا يحزن عليهم ولا يبالي بهم ولا يستبطئ عقابهم.

٩- أنه ليس على الرسول ﷺ إلا البلاغ، أما هداية الخلق وحسابهم فذلك إلى الله عز وجل.

١٠- تمتيع الكفار بالنعم من المآكل والمشارب وغير ذلك- مع ما هم عليه من الكفر- استدراجًا لهم، وأنه عز وجل يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

١١- أن الانغماس في المآكل والمشارب ومتع الحياة الدنيا، والانشغال بالآمال الطوال العراض، من أعظم أسباب الضلال والكفر والمعاصي؛ مما يوجب الحذر من ذلك، قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

١٢- وجوب الحذر من الاغترار بطول الأمل، والانشغال به عن العمل؛ ففي الحديث: «أن رسول الله ﷺ خط خطًّا في الأرض، ثم خط حوله خطوطًا...»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الشاعر:

نؤمل آمالًا ونرجو نتاجها ... وعلّ الردى مما نرجِّيه أقربُ
ونبني القصور المشمخرات في الهوى ... وفي علمنا أنا نموت ونخرب(١)

وقيل:

وإياك والآمال فالعمر ينقضي ... وأسبابها ممدودة من ورائه(٢)

١٣- أن الله- عز وجل- ما أهلك من قرية إلا بأجلها المحدد المعلوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾.

١٤- أن لكل أمة أجلًا لهلاكها، لا تسبقه ولا تستأخر عنه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

١٥- التعريض بتهديد المشركين المكذبين للنبي ﷺ فلا يغتروا بإمهال الله لهم، فإنه يمهل ولا يهمل، فلهم أجل، كما أن لكل أمة أجلًا، ولكل أجل كتابًا.

١٦- استهزاء المشركين بالرسول ﷺ؛ لقولهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، فهم لا يقولون هذا تصديقًا بأنه أنزل عليه الذكر، ولا مدحًا ولا تشريفًا له بذلك، وإنما سخرية منه، واستخفافًا به، أي: يا من يزعم ويدعي أن أنزل عليه الذكر.

١٧- اتهامهم ورميهم له ﷺ بالجنون؛ إذ كيف يدعوهم لاتباعه وترك دين آبائهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾.

١٨- عظم ما لقيه ﷺ من قومه من الاستخفاف به والأذى له، ورميهم له بالجنون، كما لقي الرسل قبله نحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

وهذا مما يوجب على الدعاة إلى الله تعالى والمصلحين أن يعلموا أن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق، تحفه الأشواك، كما قال ﷺ:

---

(١) البيتان للشاعر ابن عثيمين. انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١/١٤٨)، «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧، «دواوين الشعر العربي على مر العصور» ٨/٨٩.

(٢) البيت لابن مشرف. انظر: «ديوانه» (ص٧٨).

«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»(١).

١٩- شدة عتو الكافرين وتكذيبهم للنبي ﷺ، ومطالبتهم- عنادًا منهم- أن يأتيهم بالملائكة؛ ليشهدوا على صدقه؛ لقولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾.

٢٠- إثبات وجود الملائكة، ووجوب الإيمان بهم.

٢١- أن الله- عز وجل- ما ينزل الملائكة إلا بالحق، أي: إلا بالأمر والشيء الحق المقضي؛ إما الوحي، وإما العذاب الحاقّ على المكذبين للرسل، كما تنزلت لعذاب قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل لو أنزل الملائكة- حسب اقتراح المشركين- ما كانوا بعد نزول الملائكة- إن لم يؤمنوا- منظَرين، فيكون طلبهم الإتيان بالملائكة تعجيلًا لإهلاك أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

٢٣- إثبات تنزيله- عز وجل- الذكر، والامتنان بذلك على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، وأنه أعظم آية على صدقه ﷺ.

٢٤- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾.

٢٥- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق، تكلم به- عز وجل- بحرف وصوت.

٢٦- تسمية القرآن الكريم بالذكر؛ لأن الله ذكر فيه ما يحتاجه العباد في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، فيه التذكرة والعظة والعبرة، وفيه شرف له ﷺ ولقومه، وغير ذلك.

٢٧- تكفل الله- عز وجل- بحفظ القرآن حال تنزيله وبعد تنزيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وفي هذا بشارة للمؤمنين وإغاظة للمكذبين المشركين.

كما أن فيه تأكيدًا لكونه من عنده عز وجل، وشهادة على صدق من جاء به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

في هذه الآيات تسلية للنبي ﷺ، وتقوية وتثبيت لقلبه، وتهديد ووعيد للمشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك يا محمد.

﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾: «شيع» جمع شيعة، وهي: الفرقة والطائفة التي أمرها واحد، أي: في فرق الأولين وطوائفهم وجماعاتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١١﴾ «من»: زائدة إعرابًا مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما يأتيهم أيّ رسول، ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا كانوا به يسخرون، استخفافًا منهم بالرسل، وتكذيبًا لهم وعنادًا- كما هو حال قومك معك، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ الكاف: للتشبيه، والضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾، وفي قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعود إلى «الذكر»، ومعنى ﴿نَسْلُكُهُ﴾، أي: ندخله، أي: كذلك نسلك هذا الذكر، أي: ندخله في قلوب المجرمين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: لا يؤمنون بهذا الذكر، أي: لا يصدقون به، أي: سلكناه وأدخلناه في قلوبهم غير مؤمنين به، بل مكذبين، وهذا ما يدل عليه ظاهر السياق وهو أن الضميرين يعودان إلى شيء واحد وهو «الذكر».

وقيل: المعنى: كذلك نسلك الشرك والضلال والاستهزاء والتكذيب في قلوب المجرمين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: لا يؤمنون بالذكر؛ وبهذا قال أكثر المفسرين.

والأظهر القول الأول، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الآيات: ١٩٨- ٢٠١].

قال ابن القيم- بعد أن ذكر القول الثاني والقائلين به-: «وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ ، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟ قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذَّبًا به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدَّقًا به.

وهذا هو مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به، فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقوم عليه بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه الحق، وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدّق به مؤمن به مرضي به. وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفرًا من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه»(١).

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السنة: العادة المألوفة والمتكررة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والمعنى: وقد مضت سنة الله تعالى في الأولين بإهلاك المكذبين للرسل، وإنجاء الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣، ٢١- ٢٢.

لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧].

وفي الآية تعريض بل تهديد للمكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم، معاملة للنظير بنظيره، كما أن فيها تسلية للنبي ﷺ وبشارة له وللمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ذكر عز وجل كفر المجرمين بالذكر وعدم إيمانهم به، ثم أتبع ذلك بذكر شدة عتوهم وعنادهم ومكابرتهم للحق.

قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الواو: استئنافية، و«لو»: شرطية غير جازمة.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾، أي: على هؤلاء المجرمين المكذبين للنبي ﷺ.

﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: مدخلاً من السماء آية لهم.

﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، أي: فصاروا طول وقتهم فيه، ﴿يَعْرُجُونَ﴾، أي: يصعدون، ورأوا ذلك رأي العين.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الكاف: «سُكِرت»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿سُكِّرَتْ﴾.

أي: لقالوا من شدة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم وإنكارهم لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، أي: سحرت، أو سدت وحبست عن الإبصار، أي: لجحدوا أن يكونوا رأوا شيئًا.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ «بل»: للإضراب، وفي إقحام كلمة «قوم» إشارة إلى أن السحر قد تمكن منهم جميعًا وبلغ منهم مبلغه حتى صار من خصائص قوميتهم، أي: بل نحن قوم سحرنا، فما رأيناه هو تخيلات ليس له حقيقة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧].

الفوائد والأحكام:

١- إرسال الله- عز وجل- الرسل في الأمم السابقة، لإقامة الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

٢- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وختم الرسل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾.

٣- إطباق الأمم على الاستهزاء برسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦، ٧].

٤- تسلية الرسول ﷺ وتثبيت قلبه وتقويته، تجاه استهزاء المشركين به، بذكر استهزاء المكذبين بالرسل من قبله، والمصائب إذا عمت خفت، وليس هو ﷺ ببدع من الرسل.

٥- صبره ﷺ على ما لقي من الاستهزاء والأذى من قومه، وكذا الرسل من قبله، مما ينبغي أن يكون نبراسًا للدعاة إلى الله تعالى والمصلحين، فطريق الدعوة محفوف بالمكاره، ومن صبر ظفر.

٦- عدم انتفاع المجرمين والكفار بالقرآن وعدم إيمانهم به؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

٧- حكمة الله تعالى في سلكه الذكر في قلوب الفريقين فآمن هؤلاء، وكفر به هؤلاء، كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٨- تهديد ووعيد المجرمين المكذبين للنبي ﷺ بإهلاكهم، كما هي سنة الله تعالى

الثابتة والماضية في المكذبين الأولين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٩- شدة عتو المشركين وعنادهم ومكابرتهم وإنكارهم للآيات حتى لو عاشوا وقائعها، ورأوها عيانًا بيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

١٠- أن طلب المشركين وسؤالهم الإتيان بالآيات ليس لقصد الاسترشاد والاهتداء، وإنما من باب المكابرة والعناد والتعجيز.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

لما ذكر شدة عتو الكافرين ومكابرتهم أتبع ذلك بذكر الدلائل والآيات على عظمته وتمام قدرته وسابغ نعمه، وعلى صدق ما جاء به رسله من الحق وصحته، مما لا عذر معه لمن تولى وكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر و«قد»: للتحقيق ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: خلقنا وأوجدنا.

﴿فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾، أي: في السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج: ١].

و«البروج»: جمع: «برج» مأخوذ من الظهور والعلو والارتفاع، ومنه سمّي التَّبرج»؛ وهو إظهار المرأة زينتها أمام الرجال الأجانب.

والمراد بالبروج: منازل الشمس والقمر والكواكب، أو هي الكواكب نفسها.

﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾، أي: حسّنّاها وجمّلناها بِحَبْكِ خلقها وإتقانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وبالمصابيح والكواكب من الشمس والقمر والنجوم، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات: ٦].

﴿لِلنَّظِرِينَ﴾ في حسنها وجمالها، المتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾، أي: وحرسناها بالشهب وغير ذلك.

﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾: أي من كل شيطان من شياطين الجن.

﴿رَّجِيمٍ﴾ «فعيل» بمعنى: «مفعول»، أي: مرجوم حسًّا ومعنى، بالرمي بالشهب والإخراج من الجنة، والطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى وعن كل خير.

والمعنى: وحفظناها وحرسناها بالشهب من استراق شياطين الجن السمع، كما قال قائلهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٧- ١٠].

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي استرق السمع، أي: سرقه واختلسه.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾، أي: فتبعه ولحقه فأدركه، ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بين ظاهر مضيء محرِق، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان(١)»، قال عليّ(٢): وقال غيره(٣): «صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فيسمعها مسترقو السمع. ومسترقو

---

(١) الصفوان: الحجر الأملس.

(٢) هو: علي بن عبدالله المديني، شيخ البخاري في هذا الحديث.

(٣) يعني: غير سفيان بن عيينة في روايته لهذا الحديث.

السمع هكذا: واحد فوق آخر»- ووصف سفيان؛ ففرج بين أصابع يده اليمنى ونصبها فوق بعضها- «فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض»، وربما قال سفيان: «حتى تنتهي إلى الأرض، فتلقى في فم الساحر أو الكاهن، فيكذب معها مئة كذبة، فيقولون: ألن يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا؟ للكلمة التي سمعت من السماء»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

لما ذكر آياته السماوية أتبع ذلك بذكر آياته الأرضية للدلالة على عظمته وتمام قدرته وسابغ نعمه على العباد وصدق رسله.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ كقوله تعالى في سورة «ق»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [الآية: ٧].

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، أي: بسطناها ووسعناها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، أي: وضعنا في الأرض جبالًا رواسي، لتثبيتها من أن تميد وتضطرب بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: وأنبتنا في الأرض من كل شيء من أنواع النباتات من الزروع والحبوب والثمار والفواكه والخضروات وسائر النباتات متاعًا للعباد وأنعامهم، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿مَّوْزُونٍ﴾، أي: مقدر بقدر معلوم مضبوط، كما قال تعالى في الآية الآتية: ﴿وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجر ٤٧٠١.

نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ١٢].

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾، «معايش»: جمع «معيشة»، أي: وخلقنا وأوجدنا لكم في الأرض ما تعيشون وتحيون به وتصلح أحوالكم مما احتوت عليه الأرض من معادن وحجارة وما تخرجه من نبات وغير ذلك.

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ «من»: موصولة، أي: والذي لستم له برازقين مما أنعم الله به عليكم وتكفل برزقه- من العبيد والإماء والدواب والأنعام- فخولكم عز وجل ما في ذلك كله من المنافع، وتكفل بأرزاقكم وأرزاقهم.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾

قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: وما من شيء من الأشياء، من الأمطار والأرزاق والخيرات وغير ذلك.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: أن عندنا خزائن كل شيء، وبأيدينا مفاتيح تلك الخزائن كلها، وبتدبيرنا وحكمتنا ورحمتنا يكون العطاء والمنع، والخفض والرفع، والضر والنفع.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ «إلا» أداة الحصر، أي: وما ننزل من شيء إلا بتقدير معلوم من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ يشمل ما ينزل من السماء كالمطر والرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث يشاء، عامًا ههنا وعامًا ههنا» (١)، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾.

ويشمل ذلك أيضاً: ما يوجد في باطن الأرض من معادن وغير ذلك، وما يخرج

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ٤٠.

منها من نبات وغيره، وما يوجد على ظهرها من أموال ورياش ودواب وأنعام وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ لأن كل ذلك من رزق الله وبتقديره النازل من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

بعد الاستدلال بالآيات السماوية والأرضية انتقل إلى الاستدلال بما بين السماء والأرض من الرياح قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ قرأ حمزة: «الريح» بالإفراد.

وقرأ الباقون بالجمع: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾.

﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع «مُلَقِّح»: أي: أن الرياح تلقح السحاب فيمتلئ بالماء، كما تلقح الرياح الشجر فتصلح ثمرته.

ويجوز أن تكون: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع «لاقحة» مؤنث: «لاقح»، يقال: لقحت الريح: إذا حملت الماء، ولقحت الناقة: إذا حملت الجنين في بطنها.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأنزلنا من العلو، أي: من السحاب الذي في العلو، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿مَآءً﴾ وهو المطر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾، أي: جعلناه لكم سقيا، بحيث جعلناه نميرًا عذبًا سائغًا للشرب، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨- ٧٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل:١٠].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: وما أنتم لهذا الماء ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾، أي: وما أنتم له بحافظين من أن يغور في الأرض، أو يكون مرًّا أجاجًا بعد أن كان عذبًا نميرًا، بل نحن ننزله

ونحفظه لكم في الأرض، ونحفظ عليكم عذوبته ونخرجه لكم معينًا وينابيع من خلال العيون والآبار والأنهار وغير ذلك؛ ليبقى لكم طول السنة تشربون منه، وتسقون أنعامكم وزروعكم وثماركم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ذكر عز وجل آياته الكونية في السماء والأرض الدالة على كمال قدرته، ثم أتبع ذلك بذكر تمام قدرته على إحياء الخلق وإماتتهم، وأنه الوارث للأرض ومن عليها؛ بدأ الخلق، ثم يميتهم، ثم يحيهم، ثم إليه يرجعون.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ﴾ «إن»: حرف توكيد، واللام للتوكيد.

﴿نُحْىِۦ﴾، أي: نوجد الحياة، حيث بدأنا الخلق وأوجدناهم من العدم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ١، ٢].

﴿وَنُمِيتُ﴾، أي: وبيدنا الإماتة، وهي سلب الحياة، بإخراج الروح من البدن.

وهذا إخبار عن تمام قدرته- عز وجل- على بدء الخلق وإماتتهم، وأنه هو الذي خلق الخلق بعد العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

كما يقول الذين كفروا وهم في النار: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١].

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾، أي: الوارثون للأرض وما عليها، الباقون بعد فناء الخلق وهلاكه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

بعد أن بين عز وجل كمال قدرته أتبع ذلك ببيان كمال علمه.

والسين والتاء في الموضعين للتأكيد والمبالغة، أي: والله لقد علمنا المستقدمين منكم ممن عاشوا وهلكوا من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرين ممن هم أحياء سيأتون إلى

يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ويجوز أن يكون له ولكل من يصلح خطابه، أي: وإن ربك يا محمد هو يجمعهم ليوم القيامة للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٣٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥﴾ [آل عمران: ٢٥].

وأكدت الجملة بمؤكدين: «إن» وضمير الفصل «هو» للرد على إنكارهم الشديد للبعث.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، أي: إنه ذو الحكم التام والحكمة البالغة، وذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر آياته- عز وجل- الكونية في السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من الدلائل على عظمته وتمام قدرته، وسابغ نعمته، وصدق رسله، وتفرده بالربوبية والألوهية، وإحياء الخلق وإماتتهم وردهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦...﴾ الآيات.

٢- تزيين السماء للناظرين بالبروج والكواكب والنجوم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦﴾ ، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الآية: ١٦]، وقال تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الآية: ٥].

٣- الترغيب في النظر في زينة السماء، والتأمل والتفكر في آيات الله الكونية.

٤- دلالة الزينة والجمال في مخلوقات الله- عز وجل- على عظيم قدرته، وبديع صنعه، واعتبار الزينة في الشرع، ومحبته- عز وجل- للجمال، كما قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٥- حفظ السماء من كل شيطان رجيم مارد؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الآيتان: ٧، ٨].

٦- تسليط الشهاب التي يرمى بها من السماء على مسترقي السمع من مردة الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الآيات: ٨- ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

قال قتادة: «خلق الله النجوم لثلاث: زينة السماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها»، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦][1].

٧- حكمة الله- عز وجل- ونعمته، حيث مد الأرض وبسطها ووسعها لمصالح العباد، وثبتها بالجبال الرواسي لئلا تميد بأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

٨- نعمة الله- عز وجل- وسعة رزقه في إنباته في الأرض من كل شيء، وجعل المعايش فيها للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾.

٩- أن كل ما ينبت في الأرض ويخرج منها من النبات موزون مقدر معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

١٠- سعة رزق الله وكرمه، وتكفله برزق العباد، ورزق من ليسوا له برازقين من المماليك والدواب والأنعام ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

١١- أن الرازق للخلق كلهم هو الله- عز وجل- وحده وأنه لا أحد من الخلق يستطيع رزق نفسه ولا رزق غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٤٤٢.

١٢- أنه ما من شيء إلا عند الله تعالى خزائنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾، أي: أن عنده- عز وجل- خزائن كل شيء.

١٣- أن الله- عز وجل- ما ينزل شيئًا من هذه الخزائن من الأمطار والأرزاق وغير ذلك إلا بمقدار محدد معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

١٤- قدرة الله تعالى التامة ونعمته العامة في إرسال الرياح تلقح السحاب والأشجار، وإنزال المطر من السماء سقيًا للعباد وأراضيهم ودوابهم وأنعامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾.

١٥- حفظ الله- عز وجل- لما ينزله من ماء في الأرض ليبقى سقيًا للعباد، فلا يغور، ولا يتغير لعجزهم عن خزنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

١٦- إثبات قدرته- عز وجل- على الإحياء والإماتة، وعلى بدء الخلق وإعادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾.

١٧- أن الله تعالى هو الوارث للأرض ومن عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

١٨- إثبات كمال علم الله- عز وجل- وسعته، وعلمه المستقدمين من الخلائق من لدن آدم، والمستأخرين منهم إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

١٩- في إثبات تمام قدرته- عز وجل- وسعة علمه دلالة على كمال وعظمة خلقه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

٢٠- إثبات حشر الله- عز وجل- الخلائق، وجمعهم للحساب والجزاء على الأعمال؛ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

٢١- إثبات أنه- عز وجل- ذو الحكم التام كونًا وشرعًا وجزاءً، وأنه ذو الحكمة البالغة غائية وصورية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾.

٢٢- أنه- عز وجل- ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: ولقد أوجدنا وأنشأنا أصل خلق الإنسان بخلق آدم عليه السلام.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾، أي: من طين قد يبس وتحجر بعدما خمر، حتى صار له صوت وصلصلة كالفخار، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفة لـ«صلصال» أو بدل من قوله: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾. والحمأ: الطين إذا اسودّ وكرهت رائحته.

﴿مَّسْنُونٍ﴾ صفة لـ«حمأ»، أي: منتن أملس مصبوب.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: وأبو الجن وأصلهم إبليس، أوجدناه من قبل الإنسان، قيل: لأنه مخلوق من عنصر الحرارة، والحرارة قبل الرطوبة.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾، أي: من لهب نار شديد الحرارة لا دخان فيه، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥].

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقت الملائكة من نور،

وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: واذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة، اذكره بنفسك، واذكره لقومك.

﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾، أي: إني خالق جسدًا تامًّا من البشر، لا من الملائكة.

﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، أي: يكون خلقه من صلصال من حمإ مسنون، أي: من طين، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [الآيتان: ٧١، ٧٢].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾، أي: فإذا سويت خلق هذا البشر، أي: أكملته وأتممته، وعدلته، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فدبت فيه الحياة، وأصبح كائنًا حيًّا.

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فبادروا بالوقوع على الأرض له ساجدين، أي: فبادروا بالسجود له إكرامًا واحترامًا.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾.

قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ امتثالًا لأمر الله تعالى.

وقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد؛ ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيمًا لأمر الله- عز وجل- وإكرامًا واحترامًا لآدم- عليه السلام- حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ «إلا»: أداة استثناء بمعنى: «لكن»؛ لأن الاستثناء منقطع، ويجوز كون الاستثناء متصلًا.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أبى»، أي: أبى كونه ساجدًا، أي: امتنع أن يسجد لآدم كفرًا وعنادًا واستكبارًا على أمر الله، وعلى آدم، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الآية: ٣٤]، وقال تعالى في سورة ص: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الآيتان: ٧٣، ٧٤]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الآية: ١١]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٥٠]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ «ما» اسم استفهام للتوبيخ، أي: ما منعك، وما عذرك.

﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أي: من ألا تكون مع الساجدين، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ لم يقل: لا أسجد، وإنما قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾، فنفى الكون، وهو أشد في النفي والجحود.

وقوله: ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تعليل لتركه السجود لآدم، بأن هذا البشر خلق من هذا العنصر، أي: من عنصر الطين فهو حقير ذميم لا يستأهل السجود.

فاحتقر آدم وحسده، واستكبر وتطاول عليه، وأظهر له العداوة ولذريته، وافتخر بالباطل بعنصره الناري.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: ٦١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾.

قوله: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، أي: قال الله- عز وجل- لإبليس آمرًا له أمرًا كونيًّا لا يُخالف ولا يُمانع: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، أي: من الجنة ومن ملكوت السموات، ومن منزلتك التي كنت فيها في الملأ الأعلى.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ تعليل لأمره بالخروج من الجنة، أي: لأنك رجيم، أي: مرجوم مطرود مبعد عن رحمته وجنته وعن كل خير.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وإن عليك لعنة الله التي قضى بها عليك كونًا وقدرًا بالطرد والإبعاد عن رحمته وجنته وعن كل خير.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: إلى يوم الحساب الجزاء على الأعمال يوم القيامة، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [الآيتان: ٧٧، ٧٨].

فأتبعه- عز وجل- لعنته التي لا تزال متصلة به متواترة عليه تلاحقه إلى يوم الجزاء، فيجازى بأشد اللعنة وأشد الجزاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال إبليس لما أُخرج من الجنة ومن ملكوت السموات وطرد من رحمة الله وأيس من كل خير:

﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ فطلب النظرة إلى يوم بعث الخلائق يوم القيامة، وذلك من تمام حسده وشدة عداوته لآدم وذريته؛ ليسعى ما استطاع لإضلال أكبر قدر منهم وإهلاكهم والزج بهم معه في النار.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، أي: من المؤجلين الممهلين ﴿إِلَىٰ

يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾، أي: إلى يوم الوقت المعلوم للبعث والقيامة، أي: إلى يوم الأجل المعدود المحدود للبعث والقيامة، أي: المعلوم لله- عز وجل- أجله ومتى يكون، والمعلوم للناس أنه حق ولا بد من وقوعه.

وكذا قال في سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [الآيتان: ٧٩- ٨١].

وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥].

وليس إجابة الله تعالى لسؤاله كرامة له، وإنما استدراج له، وابتلاء وامتحان له وللعباد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾، أي: قال إبليس: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب إغوائك إياي، وإضلالك لي.

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اللام: لام قسم محذوف، وهو المصرح به في قوله في سورة ص: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الآيتان: ٨٢، ٨٣].

أي: لأزينن لذرية آدم في الأرض، أي: لأحسننَّ لهم، وأحببنَّ إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ولأرغبنهم في الإقبال على الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها، والانشغال بها عن الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ معطوف على «أزينن» مع إعادة اللام للتأكيد.

والإغواء: الإضلال، والغواية: الضلال، أي: ولأضلنهم أجمعين، كما أغويتني وأضللتني، كما قال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

فالشيطان لا يقتنع حتى يوقع الإنسان في الكفر والضلال، فإن عجز عن ذلك أوقعه في البدعة؛ لأنه من الصعب الرجوع عنها، فإن لم يستطع أوقعه في ترك الواجبات، فإن عجز عن ذلك أوقعه بفعل المحرمات، فإن لم يستطع ذلك أشغله بالمفضول عن الفاضل، فإن عجز عن ذلك أشغله بالمباحات، فيضيع عمره سبهللًا وحياته سدى، في التقلب والتفنن في أنواع المآكل والمشارب والمساكن والمراكب، والأسفار هنا وهناك، ويلقى الله غدًا مفلسًا، كما هو حال كثير من المسلمين اليوم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بكسر اللام: «المخلِصين» جمع «مُخلص» اسم فاعل، أي: الذين أخلصوا لك العمل.

وقرأ الباقون بفتح اللام: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ جمع «مُخلَص» اسم مفعول، أي: الذين أخلصتهم أنت وطهرتهم واجتبيتهم.

و«إلا» في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾ أداة استثناء، والمعنى: إلا عبادك الذين أخلصتهم واجتبيتهم؛ لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم على الله، وإنما استثناهم لتحققه أنه لا سلطان له عليهم، كما قال تعالى في الآية الآتية: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قرأ يعقوب: «عليٌّ» بكسر اللام ورفع الياء وتنوينها، على أنها وصف من «العلو»، أي: هذا صراط عليٌّ، أي: طريق رفيعٌ

مستقيم، وقرأ الباقون: ﴿عَلَيَّ﴾ بفتح اللام والياء من غير تنوين، على أنها حرف الجر «على» اتصل بياء المتكلم، وهي هنا تعود إلى الله عز وجل، أي: هذا طريق موصلٌ إليَّ مستقيم معتدل، أي: أن الطريق المستقيم المعتدل يرجع إلى الله ويوصل إليه، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٩]. قال طفيل الغنوي:

مضوا سلفًا قصد السبيل عليهمُ وصرف المنايا بالرجال تشقلب(١)

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا.

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو عليَّ طريقها(١)

قال ابن القيم في ذكر السر في اختيار أداة «على»: «قيل: في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النحل: ٧٩].

والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على دينه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على»- على هذا المعنى- ما ليس في أداة «إلى»، فتأمله؛ فإنه سر بديع»(١).

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: إن عبادي الذين آمنوا بي، وتوكلوا علي، وأخلصوا لي.

﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: لا تَسَلُّطَ لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ولا سبيل لك عليهم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، وهو استثناء منقطع، أي: لكن من اتبعك وأطاعك وتولاك من الغاوين فلك عليهم سلطان؛ لأنهم اختاروا اتباعك وولايتك وطاعتك، على ولاية الله وطاعته.

و«الغاوين»: جمع «غاوي» وهو الضال الذي عرف الحق وتركه. وضده الراشد

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤.

وهو الذي عرف الحق فاتبعه. أما من ترك الحق من غير علم به فهو ضال فقط.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

وعيد شديد وتهديد أكيد للشيطان وجنوده وأتباعه من الغاوين.

قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾اللام: للتوكيد، و«جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

أي: وإن جهنم لموعد الشيطان وجنوده وأتباعهم من الغاوين أجمعين، أي: مكان اجتماعهم فيها كلهم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر؛ لأنها طباق بعضها فوق بعض، ومنازل حسب أعمالهم.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أي: لكل باب من أبواب جهنم جزء مقسوم من إبليس وجنوده وأتباعه الغاوين يدخلونه لا محيد لهم عنه، ويستقرون في دركها بقدر أعمالهم، قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

الفوائد والأحكام:

١- أن خلق آدم عليه السلام- وهو أصل خلق الإنسان-: من صلصال من حمإ مسنون، أي: من طين قد يبس واسودّ وتغيرت رائحته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

٢- أن خلق إبليسَ- أعاذنا الله منه- وهو أصل خلق الجان: من نار السموم، أي: من لهب نار شديد الحرارة لا دخان فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

٣- أن خلق إبليس أصل الجان قبل خلق آدم أصل الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾.

٤- فضل آدم على إبليس في أصل الخلقة، فآدم خلق من الطين عنصر الثقل

والرزانة والبناء، وإبليس خلق من النار عنصر الخفة والطيش والإحراق.

٥- ينبغي للإنسان أن يتواضع ولا يتكبر فأصله من الطين والتراب، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم.

٦- تنويه لله- عز وجل- بذكر آدم وتشريفه في الملأ الأعلى قبل خلقه، فقد أخبر عز وجل الملائكة- قبل أن يخلقه- بأنه سيخلقه وبيَّن لهم أصل خلقه، وأمرهم بالسجود له بعد تسويته ونفخ الروح فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله- الخاصة لنبينا ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٨- أن الملائكة مخلوقون قبل آدم.

٩- أن الله- عز وجل- بعد أن خلق آدم وسواه مجسدًا تامًّا نفخ فيه من روحه.

١٠- سجود الملائكة لآدم استجابة لأمر الله تعالى لهم بذلك واحترامًا لآدم عليه السلام؛ لقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

١١- فضيلة الملائكة عليهم السلام؛ لسرعة استجابتهم لأمر الله، ومبادرتهم إلى طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

١٢- امتناع إبليس من السجود لآدم- عليه السلام- مع الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

١٣- إنكار الله- عز وجل- على إبليس وتوبيخه له في عدم سجوده لآدم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

١٤- إفصاح إبليس وإبانته أن سبب تركه السجود لآدم هو الاستكبار على آدم واحتقاره؛ لأن أصل خلقه من الطين؛ لقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ مغترًّا بخلقه من النار، كما قال في الآية الأخرى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٧٦].

١٥- شدة إباء إبليس وامتناعه من السجود لآدم؛ لأنه لم يقل: لا أسجد، بل قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾؛ فلم ينف السجود، بل نفى الكون، وهذا أشد.

١٦- أن من حكمة الله تعالى في أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ أن يظهر ما يضمره إبليس من الكفر والمخالفة، والاستكبار على أمر الله، والتكبر على آدم.

١٧- خطر الكبر وأنه يحمل على رد الحق وعدم قبوله، قال ﷺ: «الكبر: بطر الحق وغمط الناس»(١).

١٨- حكم الله- عز وجل- الكوني على إبليس بالطرد والإبعاد، وأمره له بالخروج من الجنة ومن ملكوت السموات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

١٩- قضاؤه عز وجل الكوني باستمرار اللعنة والطرد والإبعاد لإبليس عن رحمة الله تعالى وعن كل خير إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

٢٠- سؤال إبليس- بعد تيئيسه من رحمة الله تعالى، ومن كل خير- من ربه: إنظاره إلى يوم البعث؛ ليتمكن من إغواء أكبر عدد من ذرية آدم، ويدخلهم معه في النار؛ من شدة عداوته لهم ولأبيهم وحسده لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وإقرار إبليس بهذه الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

٢٣- إجابة الله- عز وجل- سؤال إبليس النظرة إلى يوم البعث ابتلاءً وامتحانًا من الله تعالى له وللعباد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

٢٤- أن ليوم القيامة وقتًا محددًا معلومًا لله تعالى، لا يتقدم عنه ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

٢٥- إقسام إبليس على أنه- بسبب إغواء الله إياه- سيزيِّنُ لبني آدم في الأرض

---

(١) سبق تخريجه.

الكفر والمعاصي والإقبال على الدنيا وملذاتها والإعراض عن الآخرة ويغويهم أجمعين؛ لشدة عداوته وحسده لهم ولأبيهم، لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢٦- علم إبليس وتحققه أنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين؛ لهذا استثناهم فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢٧- إثبات العبودية الخاصة لله تعالى، وهي عبودية أوليائه المؤمنين المخلصين.

٢٨- ينبغي الحذر من تزيين الشيطان الكفر المعاصي وحب الدنيا والتعلق بها ونسيان الآخرة، ومن إغرائه وإغوائه، وينبغي الإخلاص لله تعالى.

٢٩- أن طريق الحق طريق عدل مستقيم يرجع إلى الله تعالى ويوصل إليه وإلى مرضاته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

٣٠- أن عباد الله المخلصين ليس لإبليس عليهم سلطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

٣١- أن لإبليس سلطانًا على من اتبعه ووالاه وأطاعه من الغاوين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، وهذا يوجب الحذر من أَتْبَاعه ومن إغوائه.

٣٢- التهديد والوعيد لإبليس وأتباعه من الغاوين بأن جهنم موعدهم أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٣٣- إثبات الحساب والجزاء، وأن نار جهنم معدة، وهي موعد الغاوين، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

٣٤- تهويل أمر جهنم وخطرها، وأن لها سبعة أبواب، لكل باب من الغاوين جزء مقسوم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

٣٥- أن النار أطباق ودركات ينزل بها أصحابها على قدر أعمالهم وإجرامهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

لما توعد- عز وجل- إبليس وأتباعه من الغاوين بجهنم وعذابها الأليم، أتبع ذلك بوعد المتقين بالجنات والعيون وألوان النعيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، أي: إن المتقين الذين اتقوا الله بفعل ما أمرهم الله به واجتناب ما نهاهم عنه، فظفروا بالهداية، وسلموا من الضلال، ونجوا من الغواية.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: في بساتين ملتفة بالأشجار والثمار، تجري فيها العيون والأنهار.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾، أي: يقال لهم تكريمًا لهم، وترحيبًا بهم عند دخولها: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، أي: ادخلوا هذه الجنات والعيون ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ الباء للمصاحبة، أي: مصاحبين ومصحوبين بكل سلام، أي: سالمين من الآفات ومن كل سوء، مسلمًا عليكم.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونكم آمنين من كل خوف وفزع، آمنين من الموت ومن المكدرات، ومن انقطاع هذا النعيم، أو فنائه، أو الإخراج منه، كما قال تعالى في الآية الآتية: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الآية: ٤٨].

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾، أي: أزلنا ورفعنا، ﴿مَا فِى صُدُورِهِم﴾، «ما»: موصولة، أي: أزلنا الذي في صدورهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾، أي: من حقد وضغينة وشحناء وعداوة وبغضاء، من بعضهم لبعض، فصارت قلوبهم متصافية متحابة متآلفة.

قال أبو أمامة رضي الله عنه: «لا يدخلون الجنة حتى ينزع الله ما في قلوبهم

من غل»(١).

ويدل على هذا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة»(٢).

﴿إِخْوَانًا﴾ حال، أي: حال كونهم إخوانًا وإخوة في الله متحابين متصافين، ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ «سرر»: جمع «سرير» وهو اسم لما يجلس عليه موطّأ للسرور، وهو مأخوذ منه؛ لأنه مجلس سرور، يزين بالفرش واللؤلؤ والجواهر.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ جمع «متقابل»، أي: يقابل بعضهم بعضًا ولا يتدابرون، فلا يدير أحدهم قفاه إلى الآخر، ولا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر، من حسن أدبهم فيما بينهم واحترام كل منهم وتقديره للآخر، كما قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ [الواقعة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾ [الدخان: ٥٣].

تأمل- أخي في الله- هذه أخلاق أهل الجنة، واعلم أنه لن يدرك منازلهم إلا من تخلق بأخلاقهم مع إخوانه المسلمين في هذه الدار دار الاختبار.

ولك أن تتصور أحوال كثير من المسلمين اليوم، وكم هو الفرق الشاسع والبون الواسع بين أخلاقهم، وبين أخلاق أهل تلك المنازل، فجفاء وغلظة، وأنانية ولامبالاة، وتدابر في القلوب والأبدان.

يقابل الواحد أخاه في الشارع أو على باب متجر أو داخل بقالة أو عند إشارة، فيصد ويعرض عنه، ويترك السلام عليه، ولسان حاله يقول: أخاف أن يعرفني، أو يقول: هذا شخص لا أعرفه.

وأقول لهذا وأمثاله: إن لم يعرفك فلان فالله يعرفك، ويعلم ما توسوس به نفسك، وإن لم تعرف هذا الشخص فالسلام من حقه عليك، وستجد مغبة هذا التعامل مع إخوانك المسلمين، وقد قيل:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- القصاص يوم القيامة ٦٥٣٦، وأحمد ٣/ ١٧، ٧٥.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليَبَس[(١)]

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

هذا من السلام والأمن الذي بشروا به في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: لا يصيبهم في الجنة تعب ولا مشقة ولا كدر ولا أذى، لا ظاهر ولا باطن، كما في حديث عبد الله بن أبي أوفى، أن رسول الله ﷺ قال: «بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[(٢)]»[(٣)].

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، أي: وما هم من الجنات ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾، الباء زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: فلا هم مخرجون منها، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

ولا هم يرغبون في الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٨].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي منادٍ: إن لكم أن تَصِحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[(٤)].

وهذا وعد لجميع المتقين؛ لعموم قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾،

---

(١) البيت لابن المبارك. انظر: «ديوانه» (ص٢٦) . وينسب لأبي العتاهية. انظر: «الأغاني» (٤/ ١١٢)، «زهر الآداب» (٣/ ٨٧١)، «مجاني الآداب» (٢/ ١٤).

(٢) القصب: اللؤلؤ المجوف، والصخب: الصوت المختلط المرتفع، والنصب: التعب والمشقة.

(٣) أخرجه البخاري في الحج ١٧٩٢، ومسلم في فضائل الصحابة وفضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ٢٤٣٣.

(٤) أخرجه مسلم في الجنة- دوام نعيم أهل الجنة ٣٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

ويدخل في هذا بلا شك من باب أولى أهل بدر والخلفاء الراشدون والمبشرون بالجنة وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، لكنه ليس خاصًّا بهم.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر ما يوجب الرهبة والرغبة مما توعد الله به من عصاه، ومما وعد الله به من أطاعه، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه.

قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾، أي: أخبر يا محمد عبادي ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ﴾، أي: أني أنا ذو المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي هي صفة من صفاته- عز وجل- الذاتية الثابتة، وصفة من صفاته- عز وجل- الفعلية التي يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال عثمان رضي الله عنه: «قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾»(١).

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ونبئهم أن عذابي هو العذاب الأليم، أي: هو العذاب المؤلم الموجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

وفي هاتين الآيتين التوجيه والترغيب في الجمع بين الرجاء والخوف، أي: أخبر عبادي أني أنا الغفور الرحيم، فلا يسترسل بهم الخوف حتى يقنطوا من مغفرتي ورحمتي، وأخبرهم أن عذابي هو العذاب الأليم، فلا يتمادى بهم الرجاء فيأمنوا من عذابي.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨]،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٣٢٢.

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»(١).

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون الخوف والرجاء للمؤمن كجناحي الطائر، أي: لا يرجح أحدهما على الآخر.

وقال ابن القيم: يغلب جانب الرجاء عند فعل الطاعة، ويغلب جانب الخوف عندما تزين له نفسه فعل المعصية.

وقال بعضهم: إذا نظر إلى رحمة ربه غلب جانب الرجاء، وإذا انظر إلى ذنوبه غلب جانب الخوف.

وقال كثير من أهل العلم: يغلب جانب الخوف حال الصحة، ويغلب جانب الرجاء حال المرض؛ ليحسن الظن بربه.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، فبعد أن توعد إبليس وأتباعه الغاوين بجهنم وعذابها الأليم، أتبع ذلك بوعد المتقين بالجنات والعيون وألوان النعيم.

٢- عظم ما أعد الله للمتقين من الجنات والعيون والتكريم النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، إلى قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

٣- تكريم المتقين والترحيب بهم وتهنئتهم بدخول الجنة بالسلام والأمن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

٤- أن من أعظم نعيم الجنة إزالة ما في قلوب أهلها من الغل والحقد والضغائن، مما يتعسر في الدنيا السلامة منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.

٥- تنعم أهل الجنات باكتمال الأخوة بينهم والسرور، والجلوس على السرر متقابلين احترامًا وتقديرًا من بعضهم لبعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

٦- سلامة أهل الجنات من النصب والتعب والآفات والمكدرات، وأمنهم من الإخراج منها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

٧- الجمع لأهل الجنات بين النعيم الحسي من الجنات والعيون وتقابلهم على السرر، وبين النعيم المعنوي من الترحيب بهم والتهنئة لهم بالسلام والأمن، ونزع الغلّ من صدورهم وجعلهم إخوانًا، وسلامتهم من النَّصَب والآفات وأمنهم من الإخراج.

٨- أن نعيم أهل الجنات يجمع بين حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، وبهذا تمام النعيم واكتماله. نسأل الله تعالى من فضله.

٩- أن الجنات لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها، بل هي خالدة، وأهلها مخلدون فيها أبد الآباد.

١٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾.

١١- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما «الغفور» و«الرحيم»، وإثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٢- أن عذاب الله هو العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

١٣- وجوب الجمع بين الرجاء والخوف، فلا يقنط العبد من رحمة الله، ولا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يأمن عذاب الله؛ لأمره- عز وجل- له ﷺ بإخبار العباد بأنه هو الغفور الرحيم، وأن عذابه هو العذاب الأليم.

١٤- أن مغفرة الله تعالى ورحمته تسبق غضبه وانتقامه؛ لأن الله قدم البشارة والإخبار بمغفرته ورحمته على الإخبار بأليم عذابه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾.

قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: وأخبر قومك يا محمد ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، «ضيف» يطلق على الواحد وعلى الجمع، أي: وأخبرهم عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن، من الملائكة.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، أي: حين دخلوا عليه.

﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ «سلامًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: نسلم سلامًا.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ «الوجل»: الخوف، ومحله القلب، أي: إنا منكم خائفون، وقد ذكر في سورة هود وسورة الذاريات رده السلام عليهم بقوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود:٦٩، الذاريات:٢٥].

وسبب خوفه منهم عدم أكلهم من العجل الذي قربه ضيافة لهم، فخاف أن يكونوا لصوصًا أو نحوهم، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [الآيات: ٦٩- ٧١].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ

دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾ [الآيات: ٢٤- ٢٨].

﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾، أي: قالت الملائكة تطمينًا لإبراهيم، ﴿لَا تَوۡجَلۡ﴾، أي: لا تخف، أي: كن آمنًا مطمئنًا.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ قرأ حمزة وحده: «نَبْشُرك» بفتح النون وسكون الباء، وضم الشين.

وقرأ الباقون بضم النون وفتح الباء وتشديد الشين مكسورة: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾.

﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾، أي: بغلام ذو علم واسع وهو علم النبوة؛ لأنه سيكون نبيًّا، وهو إسحاق- عليه السلام- كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

وفي إردافهم قولهم: ﴿لَا تَوۡجَلۡ﴾ بقولهم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ زيادة على البشارة تأكيد لطمأنته، وأنهم ما جاؤوا إليه بشر، وإنما جاؤوا إليه بخير وهو البشارة، وليظهر له أنهم ليسوا بشرًا، بل رسل من الله من الملائكة، فيطمئن أكثر.

وحكى هنا البشارة لإبراهيم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾، وكذا في سورة الذاريات قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾ [الآية:٢٨]، وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الآية:١١٢].

وحكى في سورة هود البشارة لامرأته فقال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾.

لأن البشارة كانت لهما معًا، وقد تكونا حاصلة في وقت واحد، فهي بشارتان باعتبار المبشَّر، وقد تكون حصلت في وقتين متقاربين، بشروه بانفراد، ثم جاءت امرأته فبشروها.

﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، قرأ نافع: «تبشرونِ» بكسر النون مخففة، وقرأ ابن كثير بكسرها مشددة: «تبشرونِّ»، وقرأ الباقون بفتحها مخففة: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾.

والاستفهام في الموضعين للتعجب، والثاني تأكيد للأول، فتعجب من بشارتهم له بالولد مع أنه قد مسه الكبر، كما مس زوجته، وأكد التعجب بالاستفهام الثاني متحققًا للوعد: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، أي: فبأي شيء تبشرونني، أو على أي وجه تبشرونني، وقد عدمت الأسباب.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، أي: قالت الملائكة لإبراهيم- عليه السلام- مؤكدين تحقق البشارة: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بما هو حق، لا شك فيه.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، أي: فلا تكن من اليائسين.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف بكسر النون: «يقنِط»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَقْنَطُ﴾.

والاستفهام في الموضعين للتعجب والنفي، و«من» و«إلا» أداة حصر، أي: ومن الذي يقنط من رحمة ربه، ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، أي: إنه لا يقنط من رحمة ربه ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

و«الضالون» جمع «ضال» وهم الذين لا علم لهم بربهم، ولا معرفة لهم بتمام قدرته وواسع رحمته، فضلوا عن طريق الحق والصواب، فأيسوا من روح الله، وقنطوا من رحمته.

ومفاد جوابه هذا- عليه السلام- أنه لم يقنط من رحمة الله تعالى، وإنما يرجو رحمته وأن يهبه الله الولد، وإن كان قد مسه الكبر هو وامرأته؛ لعلمه بواسع رحمة الله، وتمام قدرته على خرق العادة وعلى كل شيء، كما قال تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾.

لما بشروه هذه البشارة عرف أنهم مرسلون لأمر عظيم وشأن خطير، فسألهم عن شأنهم.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال إبراهيم- عليه السلام- لما ذهب عنه الروع: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أي: فما شأنكم الخطير يا أيها المرسلون؟ ولأي شيء

أرسلتم؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط أهل قرية «سدوم»، الذين أجرموا بتكذيب نبيهم لوط- عليه السلام- وارتكابهم فاحشة اللواط، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، وهي إتيان الذكران، والمعنى: أرسلنا لتعذيبهم؛ ولهذا قالوا:

﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نرسل عليهم حجارة من طين، أي: من طين متحجر.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع؛ لأن آل لوط ليسوا من المجرمين، و﴿ءَالَ لُوطٍ﴾: لوط وأهله.

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بسكون النون وتخفيف الجيم: «لَمُنْجُوهم»، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الجيم: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾.

«إن»: حرف توكيد ونصب، واللام في قوله: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ للتوكيد، أي: إنا لمخلصوهم أجمعين من العذاب.

وهم فقط: لوط وابنتاه.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ الاستثناء: متصل؛ لأن امرأته من آل لوط.

﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ قرأ أبو بكر بتخفيف الدال: «قَدَرنا».

وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿قَدَّرۡنَآ﴾، أي: قضينا وحكمنا كونًا، ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ «إن» واللام للتوكيد، أي: إنها لمن الباقين في العذاب الهالكين.

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله- عز وجل- للنبي ﷺ أن يخبر قومه عن ضيوف إبراهيم من الملائكة وما جرى بينه وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآيات، للعظة والاعتبار والاستفادة مما فيها من الحكم والأحكام والآداب.

٢- إثبات نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٣- مشروعية الضيافة وأنها من شريعة إبراهيم، وسنن المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام.

٤- إثبات وجود الملائكة- عليهم السلام- وتنزلهم بأمر الله بالوحي أو البشارة، أو العذاب أو غير ذلك.

٥- مشروعية السلام عند الدخول على أهل البيت؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

٦- تخوّف إبراهيم- عليه السلام- من هؤلاء الضيوف قبل أن يعرف أنهم رسل من عند الله من الملائكة، خشية أن يكونوا لصوصًا أو جاؤوا لشر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

وكان سبب ذلك امتناعهم من الأكل، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الآية: ٧٠]، وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الآية: ٢٧، ٢٨].

٧- طمأنة الملائكة عليهم السلام لإبراهيم عليه السلام، وتهدئتهم لروعه؛ لقولهم: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾.

٨- بشارة الملائكة لإبراهيم بغلام ذي علم واسع، وهو علم النبوة؛ لأنه يكون نبيًّا، وهو إسحاق عليه السلام؛ لقولهم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

٩- في إرداف الملائكة طمأنتهم لإبراهيم بالبشارة له بالولد زيادة في طمأنته وإيحاء إلى أنهم رسل من عند الله جاؤوا إليه بالخير والبشارة.

١٠- تعجب إبراهيم عليه السلام من أن يولد له ولد بعد أن أصابه الكبر، وتأكيده التعجب؛ لقوله: متعجبًا ومتحققًا للوعد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

١١- تأكيد الملائكة لإبراهيم- عليه السلام- أن ما بشروه به حق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٢- نهي الملائكة لإبراهيم عليه السلام عن القنوط واليأس من حصول الولد له مع كبره، وحاشاه- عليه الصلاة والسلام- من القنوط واليأس، وإنما تعجب من ذلك؛ لأنه عَجَبٌ وفق ما جرت به العادة؛ لأنه كبير وامرأته عجوز عقيم مع علمه-

عليه السلام- التام بواسع رحمة الله- عز وجل- وتمام قدرته على خرق العادة، وأنه لا يمتنع عليه شيء؛ ولهذا لما قالت له الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، أجابهم على الفور بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

١٣- إنه إنما يقنط من رحمة الله الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا علم لهم بربهم ولا معرفة لهم بواسع رحمته وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

١٤- لا بأس بسؤال الضيف عند الاطمئنان إليه عن شأنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١٥- فطنة إبراهيم عليه السلام وتفرسه أن هؤلاء الملائكة جاؤوا لأمر عظيم وشأن خطير، يلحظ هذا في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أي: ما أمركم العظيم، وما شأنكم الخطير.

١٦- إفصاح رسل الله من الملائكة بشأنهم وما أرسلوا له وهو تعذيب قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾.

١٧- فضيلة إبراهيم وعناية الله به؛ فإن هؤلاء الرسل من الملائكة لم يرسلوا لإبراهيم ولبشارته، وإنما مروا عليه في طريقهم إلى قوم لوط؛ لأن لوطًا من أتباعه ومن أول من آمن به، فلما أراد الله إهلاك قوم لوط أمر هؤلاء الملائكة أن يمروا على إبراهيم ويبشروه بالولد ويخبروه بما أرسلوا من أجله، حتى إنه جادلهم حتى أقنعوه.

١٨- إجرام قوم لوط بتكذيبهم لوط عليه السلام وارتكابهم جريمة اللواط بإتيانهم الذكران، والتي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

١٩- عظم عقوبة قوم لوط لعظيم جرمهم بارتكابهم فاحشة اللواط، حيث جعل الله عالي ديارهم سافلها، وأرسل عليهم حجارة من طين، فهلكوا عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾.

وقد قال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول

به»[١].

٢٠- إنجاء الله تعالى لوطًا وأهله من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهم لوط وابنتاه.

٢١- استثناء امرأة لوط من الناجين من أهله، وإهلاكها مع قومه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: الباقين المعذبين؛ لمشاركتها قومه وإعانتها لهم على إجرامهم.

٢٢- أنه لا يغني أحد عن أحد من الله شيئًا، فلم ينفع امرأة لوط لما كفرت كونُها امرأة نبي الله لوط عليه السلام.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾، أي: فلما جاء آل لوط الملائكة المرسلون ﴿قَالَ﴾، أي: قال لوط- عليه السلام لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، أي: غير معروفين لي، أي: أنى لا أعرفكم ولا ادري من أنتم، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال هؤلاء الرسل من الملائكة للوط عليه السلام: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، و«ما» موصولة، أي: بل أتيناك بالذي كانوا فيه يمترون، أي: بالعذاب الذي كان قومك فيه يشكون، ويكذبونك حين تتوعدهم به.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: وأتيناك بالأمر الحق، الجد الذي ليس بالهزل، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما قلنا لك، وهذا تأكيد لقولهم: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقد أكدوا هذا التأكيد بـ«إن» واللام.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، الإسراء: السير ليلًا، أي: سر بأهلك ليلًا.

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: بجزء من الليل، أي: بجزء من الليل بعد مضي جانب منه، ونوم العيون، فلا يشعر أحد بمسراك.

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، أي: سر وراءهم، وامش خلفهم، يكون أحفظ لهم. وهكذا كان نبينا صلوات الله وسلامه عليه في الغزوات يكون في الساقة خلف الجيش، يزجي الضعيف، ويحمل المنقطع، كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم»(١).

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾، أي: أسرعوا السير، ولا يلتفت منكم أحد إلى ورائه، فيشاهد ما حل بالمجرمين من العذاب والنكال، فيروعه ذلك ويعوقه عن الإسراع.

ولم يستثن امرأته هنا كما قال في سورة هود: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [هود: ٨١]؛ لأنه في كل موضع يذكر من القصة ما يناسبه، والقصة بكاملها تؤخذ من جميع المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم.

﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، أي: أسرعوا واذهبوا ﴿حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، قال ابن كثير(٢): «كأنه كان معهم من يهديهم السبيل».

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾، أي: أوحينا إليه وتقدمنا إليه، وأخبرناه خبرًا مؤكدًا.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ تفسير للأمر في قوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾.

قال ابن القيم: «فسر ذلك الأمر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾، وفي إبهامه أولًا وتفسيره بعد ذلك: تفخيم للمبهم، وتعظيم لشأنه، فإنه لو قال: وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، لما كان بهذه المثابة من الفخامة»(٣).

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: أن دابر هؤلاء القوم المجرمين، أي: آخرهم.

﴿مَقۡطُوعٞ﴾، مهلك بالعذاب.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- في لزوم الساقة ٢٦٣٩.

(٢) في «تفسيره» ٤/ ٤٦٠.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٦.

﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال، أي: وقت الصباح، كما قال في سورة هود: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [الآية: ٨١]، أي: أن سيصبحهم عذاب يجتاحهم ويستأصلهم، فيقطع دابرهم ولا يبقي منهم أحدًا، وهو ما ذكره تعالى في آخر السورة بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الآية: ٨٣].

الفوائد والأحكام:

١- استنكار لوط- عليه السلام- للرسل من الملائكة لما جاؤوا إليه وعدم معرفته أنهم ملائكة؛ لأنهم جاؤوا على صور شباب من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

٢- إعلام هؤلاء الرسل من الملائكة للوط عليه السلام أنهم جاؤوا بالعذاب الذي كان قومه المجرمون يشكون فيه؛ لقولهم: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

٣- تأكيدهم للوط- عليه السلام- أنهم أتوه بالأمر الحق، والجد الذي ليس بالهزل، وتأكيدهم صدقهم؛ لقولهم: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

٤- أمرهم له- عليه السلام- بأن يسري بأهله تحت جنح الليل، لينجو هو وإياهم من العذاب؛ لقولهم: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

٥- أمرهم له بأن يتبع أدبارهم، أي: يكون خلفهم حفاظًا عليهم؛ لقولهم: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾.

٦- نهيهم له ولأهله من أن يلتفت منهم أحد إلى ورائه، فيشاهد ما حل بالمجرمين من العذاب، فيروعه ذلك ويعوقه عن الإسراع والابتعاد عن ديار المعذبين؛ لقولهم: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

٧- أن قصص القرآن يذكر منها في كل موضع ما يناسبه، وتختلف طولًا وقصرًا في موضع عن الآخر، وذلك من أسرار إعجاز القرآن؛ ولهذا لم يستثن امرأته هنا وقد استثناها في سورة هود فقال: تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الآية: ٨١].

٨- حثهم له ولأهله بالمضي قدمًا والإسراع حيث يؤمرون؛ لقولهم: ﴿وَٱمْضُوا۟

حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾.

٩- إيحاء الله تعالى إلى لوط عليه السلام، وإخباره له بالأمر الجلل، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين، وقطع دابرهم واستئصالهم عن آخرهم صباحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

١٠- أن العذاب كثيرًا ما يقع وقت الصباح بكرة حال نشوة المعذبين باستقبال النهار ولهوهم ولعبهم؛ ليكون أشد وقعًا عليهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: أهل مدينة «سدوم»، وهم قوم لوط، جاؤوا إلى بيت لوط لما علموا بأضيافه، وما هم عليه من حسن الوجوه والجمال.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي: يبشر بعضهم بعضًا فرحين بأضياف لوط، وما هم عليه من الحسن والجمال، طمعًا بفعل الفاحشة بهم، فأخذوا يراودون لوطًا عن أضيافه، وهو يحاول ردهم وإقناعهم وثنيهم عن مرادهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لوط- عليه السلام- محاولًا ثني قومه عن مرادهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾، أي: ضيوفي، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، أي: فلا تفضحوني فيهم وتذلوني أمامهم وتهينوني؛ لأن المضيف يجب عليه إجارة الضيف وحمايته والدفاع عنه، وعيب أن يناله سوء وهو في ضيافته.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: راقبوا الله وخافوه، وابتعدوا عن هذه الفاحشة العظيمة.

﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ تأكيد من حيث المعنى لقوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، أي: ولا تذلوني في ضيوفي وتهينوني أمامهم وأمام الناس.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جواب عن قوله لهم: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾، والاستفهام للإنكار، أي: أوَلم ننهك عن العالمين، أي: أوَما نهيناك عن أن تضيِّف أحدًا،

فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر فقد أعذر، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾ [الآية: ١٦٧].

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، أي: هؤلاء بناتي فتزوجوهن، يحتمل أنه أراد ببناته: عموم النساء، ويحتمل أنه أراد بنتيه الاثنتين، أو أراد هذا وذاك، والأول أقرب، لكنهم لم يبالوا بقوله؛ ولهذا قال تعالى مخاطبًا نبينا محمداً ﷺ مقسمًا بحياته عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، اللام لام الابتداء، و«عمرك» مبتدأ، والخبر محذوف وجوبًا تقديره: «لعمرك قسمي، أو يميني»، فأقسم عز وجل بحياة نبيه ﷺ أن هؤلاء المجرمين من قوم لوط: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»(١).

﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إن هؤلاء المجرمين من قوم لوط عليه السلام ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ اللام لام التوكيد، أو القسم، أي: لفي غفلتهم وفي سكرة محبة الفاحشة ونهمهم بها، لا يبالون بعذل ولا لوم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الرشد والصواب.

قال ابن القيم: «و«العَمر» و«العُمر» واحد، إلا أنهم خصوا القسَم بالمفتوح؛ لإثبات الأخف؛ لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم، وأقسم بحياة نبيه ﷺ؛ ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه، وإنما وصف الله اللوطية بالسكرة؛ لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمر. كما قال القائل:

سُكرانِ سُكر هوى وسُكر مُدامة ... ومتى إفاقة من به سُكرانِ»(٢)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، أي: فأخذتهم صيحة العذاب وأهلكتهم، وهي الصوت

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ٩١- ٩٢.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧، ٢٨.

الشديد القاصف، ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حال، أي: وقت شروق الشمس وطلوعها، وهو أشد عليهم؛ لأن الناس يسرون ويبتهجون بهذا الوقت، بينما فوجئ هؤلاء فيه بالعذاب.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، أي: فقلبنا عليهم مدينتهم «سدوم»، وصيرنا عاليها سافلها، وهي في طريق القوافل والتجارة من الحجاز إلى الشام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، أي: من طين متحجر متصلب متين، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الآية: ٨٢]، وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الآية: ٣٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى ما أوقعه الله- عز وجل- بقوم لوط من العذاب الشديد، بأخذهم بالصيحة مشرقين، وقلب مدينتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها، وإمطارهم بحجارة من سجيل؛ لجرأتهم على ارتكاب أعظم الفواحش، وأشنع السيئات، بإتيانهم الذكران.

﴿لَآيَٰتٍ﴾، أي: لدلالات وعلامات على عظمة قدرة الله تعالى، وشدة عقابه وانتقامه من المجرمين، وعظة وعبرة.

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، أي: للناظرين بعين البصر والبصيرة، المعتبرين المتأملين المتفكرين، الذين يرون في آثار هذه العقوبة الشديدة عظم جرم من عوقبوا بها لارتكابهم هذه الفاحشة العظيمة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

قال ابن القيم: «هم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة»(١).

﴿وَإِنَّهَا﴾، «إن»: حرف توكيد ونصب، تعود إلى مدينة قوم لوط «سدوم».

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لَبِطَرِيقٍ قائم باق ثابت واضح مسلوك لم تندرس معالمه وآثاره، يراها المسافرون والمارون.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، الإشارة تعود إلى ما تعود إليه الإشارة الأولى،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٢.

وفي هذا دلالة على أن المتوسمين هم المؤمنون، أي: إن في ذلك لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله على عظيم قدرته وشدة عقابه، وعظة وعبرة لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾، أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: الغيضة من الأشجار الملتف بعضها حول بعض، ونعتهم وأضافهم إلى الأيكة؛ ليذكرهم نعم الله عليهم، ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾، أي: في تكذيبهم شعيبًا عليه السلام، وإشراكهم بالله، والشرك أظلم الظلم، وأعظم الذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وكانوا ظالمين أيضًا للناس بنقصهم المكيال والميزان وبخسهم الناس أشياءهم، وقطعهم الطريق على الناس وصدهم عن سبيل الله من آمن به.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أي: عاقبناهم وأهلكناهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة.

كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ [الآية: ٩٤]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الآية: ٩١]، وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية: ١٨٩].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾، «إن»: حرف توكيد ونصب، والضمير «هما» يعود إلى مدينة قوم لوط «سدوم» وأيكة قوم شعيب، أي: وإن مدينة قوم لوط وأيكة قوم شعيب.

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ اللام للتوكيد، أي: أنهما لبطريق بين واضح ظاهر، ولا يخفى منه شيء، يسلكه الناس ويأتمون به، ويعرفون أنه يوصل، وهو طريق القوافل بين الحجاز والشام، وإدخال مدينة قوم لوط هنا تأكيد لقوله قبل هذا: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

قال ابن كثير[١]: «وكانوا قريبًا من قوم لوط، بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان ولهذا لما أنذر شعيب- عليه السلام- قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

الفوائد والأحكام:

١- مجيء قوم لوط فرحين يبشر بعضهم بعضا بضيوفه الذين هم على درجة من الحسن والجمال، أن يظفروا بفعل الفاحشة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

٢- مراودتهم لوطًا عن أضيافه، وممانعته لهم، ونهيه لهم أن يذلوه ويهينوه في أضيافه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.

٣- أمره لهم بتقوى الله والخوف منه، وترك هذه الفاحشة العظيمة، وتأكيده لهم ألا يخزوه ويذلوه في ضيفه ويهينوه؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [الآية: ٧٨].

٤- إنكارهم على لوط أن يستضيف أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥- عرضه- عليه السلام- عليهم بناته، أي: ما أباح الله لهم تزوجه من النساء؛ ليكتفوا بالنكاح الحلال عن ارتكاب فاحشة اللواط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

٦- أن فيما أباح الله من الزواج بالحلال غُنيةً عن الوقوع في الحرام.

٧- إقسام الله- عز وجل- بحياة نبينا محمد ﷺ وتشريفه له؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ولم يقسم عز وجل بأحد من الأنبياء سواه، صلوات الله وسلامه عليه.

٨- أن الله- عز وجل- أن يقسم بما شاء من خلقه؛ لأن إقسامه بشيء من خلقه

---

(١) في «تفسير» ٤/ ٤٦٢.

تعظيم لنفسه هو، أي: أقسم بما خلقت.

٩- شدة سكرة قوم لوط ونهمهم بفعل الفاحشة، وغفلتهم وعدم مبالاتهم بوعظ لوط عليه السلام ونهيه لهم؛ وعدم اكتراثهم بعرضه الحلال عليهم، وترددهم في حيرتهم وضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

١٠- أن حب الشهوة والولع بها واتباع هوى النفس، يعمي ويصم عن الرشد والحق والصواب، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

قال الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

١١- عقوبة قوم لوط بأخذهم بالصيحة وقت شروق الشمس؛ ليكون أشد عليهم، فالناس يستقبلون الصباح والبكور مبتهجين، وهم يستقبلون العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

١٢- قلب مدينتهم عليهم وإمطارهم بحجارة من سجيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

١٣- أن فيما أحل الله بقوم لوط من هذه العقوبة الشديدة دلالات وعلامات وعظات وعبر للمؤمنين المتأملين المتفكرين، ذوي التوسم والبصر والبصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾.

١٤- أن مدينة قوم لوط في طريق قائم ثابت مسلوك لم تندرس معالمه وآثاره؛ ليعتبر بها المعتبرون ويتعظ بها المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

١٥- ظلم أصحاب الأيكة قوم شعيب- عليه السلام- بتكذيبهم شعيبًا وشركهم بالله، وظلمهم الناسَ بقطع الطريق عليهم وبخسهم أشياءهم ونقص المكيال والميزان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾.

١٦- انتقام الله- عز وجل- من أصحاب الأيكة بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

١٧- أن كلًّا من مدينة قوم لوط «سدوم»، وأيكة قوم شعيب، في طريق بيِّنٍ

واضح قائم مسلوك، وهو طريق القوافل بين الحجاز والشام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

أتبع ذكر قوم لوط بذكر أصحاب الأيكة قوم شعيب؛ ثم بأصحاب الحجر قوم صالح؛ لأن أهل مكة يشاهدون ديار هذه الأمم الثلاث.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أصحاب الحجر هم «ثمود» قوم صالح عليه السلام، مساكنهم بالحجر، شمال الجزيرة، في «العلا».

والحجر هو المعروف بوادي القرى بين المدينة والشام، وهو المعروف اليوم باسم: مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك، وقد سمي في حديث غزوة تبوك: «حجر ثمود».

والحجر: مشتق من الحجارة؛ لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في حجر الجبل نحتًا محكمًا، والحجر أيضًا: المكان المحجور، أي: الممنوع من الناس لاختصاص به.

أرسل الله لهم نبيه صالحًا عليه السلام فكذبوه، ومن كذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل؛ لأن التكذيب ليس لشخص الرسول أيًّا كان، وإنما هو تكذيب للحق الذي جاء به.

كما أن من صدق رسولًا وجب عليه تصديق جميع الرسل السابقين واللاحقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، علمًا أن نوحًا- عليه السلام- هو أول رسول، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠].

كما امتدح المؤمنين من هذه الأمة بإيمانهم بجميع الرسل، فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

كما ذم الذين يقولون: نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على صدق صالح عليه السلام، وصحة ما جاءهم به، وأعظمها وأظهرها الناقة التي أخرجها الله لهم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥].

ونهاهم أن يمسوها بسوء وحذرهم عقوبة ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٦].

﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، أي: فكانوا عن ما آتاهم الله من الآيات معرضين عن التأمل والتفكر فيها بقلوبهم وتعظيم الله تعالى الإخلاص له، متولين بأبدانهم- كبرًا وتجبرًا- عن العمل بما دلت عليه من وجوب عبادة الله تعالى وحده وطاعته وعدم التعرض للناقة بسوء، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الآية: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَانُوا۟﴾، أي: وكانوا من كثرة إنعام الله عليهم وما هم فيه من الرخاء.

﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، النحت: لحفر والنقر في الصخر والحجارة، أي:

ينحتون من صخر الجبال وحجارتها بيوتًا أشرًا وبطرًا وعبثًا، كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٩]. وقيل: ليسكنوها ويتحصنوا بها.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: آمنين مطمئنين في ديارهم لا يخافون.

فجمع الله لهم بين كثرة الخيرات والنعم التي أدرّها عليهم، وبين الأمن التام في ديارهم، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الآيات: ١٤٦-١٤٨].

فبدل أن يشكروا الله تعالى قابلوا آياته بالإعراض عنها، وقابلوا نعمه بكفرها وبالتباهي في نحت البيوت من الجبال، مما لا حاجة بهم إليه، ويكتفى بما دونه، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ الفاء عاطفة، أي: فكفروا نعمة الله وكذبوا صالحًا، وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧].

فأخذتهم الصيحة الشديدة، فقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في ديارهم جاثمين هلكى، وهي الرجفة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الآية: ٧٨]، وهي الصاعقة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿مُصْبِحِينَ﴾، أي: داخلين في وقت الصباح من اليوم الرابع، بعد مضي أيام التمتع الثلاثة التي أنظروا بها، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤، ١٥].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع العذاب أو رفعه عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم الذي

كانوا يكسبونه، أو كسبهم من الأموال والخيرات التي أدرها الله عليهم من الزروع والتجارات والصناعات، والبيوت التي حصنوها وشيدوها، وغير ذلك، شيئًا من عقاب الله تعالى لما نزل بهم.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب أصحاب الحجر وهم «ثمود» لنبيهم صالح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢- أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، كما أن من صدق رسولًا يجب عليه التصديق بجميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة ودينهم واحد.

٣- إقامة الحجة على أصحاب الحجر بما آتاهم الله من الآيات كالناقة، وإعراضهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

٤- انصراف أصحاب الحجر- بدل شكر ما هم فيه من النعم والأمن- إلى التباهي بنحت البيوت من الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، مما لا حاجة بهم إليه، ومما يكتفى ببعضه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

٥- أن الله جمع لثمود بين كثرة النعم والخيرات وبين الأمن التام، وهذا تمام الإنعام، لكنهم لم يشكروا؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

٦- أهمية الأمن في حياة الأمم؛ ولهذا امتن الله به عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾، كما امتن به على هذه الأمة فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ٣، ٤].

٧- أخذ ثمود وإهلاكهم بالصيحة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم بسبب تكذيبهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

٨- أن نزول العذاب صباحًا أشد وقعًا حيث هو وقت الفرح بإقبال الصبح والنهار، فانقلابه ترحًا أشد على النفس.

٩- لم يغن عن ثمود ما كانوا يكسبون من الأموال والأرزاق من زراعة وصناعة

وبيوت حصنوها وغير ذلك؛ لأن عذاب الله إذا جاء فلا مرد له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

١٠- أن المكاسب المادية مهما عظمت لا تنفع أصحابها، ولا تدفع عنهم عقاب الله، إذ حل بهم.

١١- أن للإنسان اختيارًا وكسبًا، وليس مجبورًا على الفعل، كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ «إلا»: أداة حصر، والباء للملابسة والمصاحبة، أي: إلا خلقًا ملابسًا للحق ومصاحبًا له.

والمعنى: وما خلقنا السموات والأرض والذي بينهما من المخلوقات إلا بالحق والعدل، الذي به وعليه قامت السموات والأرض والكون كله؛ والدال على وجود الخالق وعظمته وكماله وحكمته وسعة رحمته وعلمه المحيط بكل شيء ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على بعث الخلائق ومجازاتهم، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والذي لأجله خلق الله الخليقة، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ الواو عاطفة، و«إن»: حرف توكيد ونصب، واللام في قوله: ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ للتوكيد، والساعة: القيامة، أي: وإن القيامة لآتية حقًّا وصدقًا، وكائنة لا محالة، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ [الواقعة: ١، ٢].

وذلك لبعث الناس من قبورهم ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وهذا من كمال عدل الله عز وجل؛ ليجزي كلًّا بما عمل، ويقضي بين الخلق بالحق والعدل، فخَلْق السموات والأرض وما بينهما بالحق والعدل، وإقامة القيامة للحق والعدل.

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: فاعفُ وتجاوز، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩].

«والصفح الجميل»: العفو الحسن الذي لا عتاب فيه ولا تثريب ولا أذى، بل فيه مقابلة الإساءة بالإحسان، كما قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وهو العفو الذي في محله المناسب، ليس في مقام لا ينفع فيه إلا العقوبة، فإن الصفح في مثل هذا المقام لا يجمل ولا يحسن.

وهذا قبل الإذن بالقتال؛ لأن سورة الحجر وسورة الزخرف كل منهما مكية، والقتال إنما شرع في المدينة، وليس معنى هذا أن هذه الآية وأمثالها منسوخة، وإنما يؤخذ بها في حال الضعف وعدم القدرة على القتال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أوله ولكل من يصلح له، والجملة في موقع التعليل للأمر بالصفح، وفيها تسلية له ﷺ، و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل يفيد الحصر،

أي: هو وحده الخلاق العليم، و«الخلاق»: اسم من أسماء الله تعالى، أي: الخلاق لكل شيء، ذو القدرة التامة على خلق كل شيء بدءًا وإعادة.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، الذي وسع علمه كل شيء، مما تمزق من الأجساد، وما تفرق من الأبدان وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١- ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

في هذا امتنان عليه ﷺ- بعد التسلية له- بإيتائه السبع المثاني والقرآن العظيم؛ ليطمئن بأنه كما أنعم الله عليه بهذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، فإنه منجز له وعده.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ الواو استئنافية، واللام: لام القسم، أي: والله لقد أعطيناك يا محمد، وفي هذا امتنان عليه، وتكريم وتشريف له:

﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ يعني: سورة الفاتحة، التي هي سبع آيات، تثنى وتكرر وتقرأ في كل ركعة من الصلاة، وسميت «القرآن العظيم» لاشتمالها على مجمل معان القرآن وأحكامه.

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه، قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيته. فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟! ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟! فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكَّرته، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»(١).

---

(١) سبق تخريجهما في تفسير سورة الفاتحة.

ففي هذين الحديثين نص النبي ﷺ على أن السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه هي سورة الفاتحة؛ ولهذا أجمع أهل العلم على تسميتها بهذا الاسم، لكن هذا لا يمنع من إطلاق هذا الاسم: «السبع المثاني والقرآن العظيم»- كما قال بعض السلف- على القرآن كله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، كما لا يمنع من إطلاقه على السور السبع الطوال؛ وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس؛ كما قال بعض السلف، وقال بعضهم بدل «يونس»: الأنفال مع التوبة؛ قالوا: لأن في هذه السور الكثير من الكلام عن الإيمان والتوحيد والبعث والفرائض والحدود والقصص والأحكام والأمثال والأخبار والمواعظ والعبر، وتثنيتها فيها.

لكن يشكل على هذا أن سورة الحجر مكية وأكثر هذه السور المدنية.

ويحتمل أيضًا أن يكون المراد بقوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾: القرآن كله، فيكون من عطف العام على الخاص.

وقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ ولم يقل: «أوحينا إليك»؛ لأن الإيتاء والإعطاء أظهر في الإكرام والمنة.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾، أي: لا تنظر بعينيك إلى الذي متعنا به أصنافًا من المشركين من الدنيا وزهرتها وزينتها الفانية؛ فتنة لهم، ولا تغبطهم به، ولا تتمناه، ولا تعجب بما يتمتع به المترفون ويغتر به الجاهلون من شهوات الدنيا وزخرفها مع ما هم عليه من الكفر والمعاصي، واستغن بما آتاك الله من السبع المثاني والقرآن العظيم، والدين القويم، قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [الآية: ١٣١].

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: لا تأسفْ ولا تأسَ عليهم لتكذيبهم لك، وعدم إيمانهم، أو لتعذيبهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: أَلِنْ جانبك للمؤمنين، وتواضع لهم، وتودد إليهم، وهكذا كان ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

قوله: ﴿وَقُلۡ﴾، أي: وقل للناس عامة: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾، أي: المنذر المحذر من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: البيِّن النذارة، الموضح المصرح بها.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم، فأصبحوا في مكانهم، فصحبهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»(١).

أي: المنذر المحذر من عذاب أليم يحل بالمكذبين، كما حل بالمكذبين قبلهم؛ كما قال لقيط الإيادي محذرًا قومه غزو كسرى من قصيدة بعنوان: «صرخة غيور»(٢):

أبلغ وخلّل إيادًا في سراتهم ... إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرًا ... على نسائكمُ كسرى وما جمعا
هذا كتابي إليكم والنذير معًا ... لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخَل ... فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ الكاف للتشبيه، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: كالذي أنزلنا على المقتسمين من العذاب، أو كإنزالنا عليهم العذاب، أي: أنا النذير

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- الانتهاء عن المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل- شفقته ﷺ على أمته ٢٢٨٣.

(٢) انظر: «ديوان لقيط الإيادي» (ص ٤)، «الحماسة البصرية» (١/ ٨٩)، الذخائر والعبقريات» (٢/ ٢٢٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (١/ ٥٢٢).

البيِّن النذارة لكم أيها المكذبون من عذاب أليم يحل بكم، كالعذاب الذي أنزله الله على المقتسمين.

و«المقتسمين»، أي: المخالفين، الذي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذيتهم وصد الناس عن سبيل الله، كما قال تعالى إخبارًا عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: ٤٩].

﴿تَقَاسَمُواْ﴾، أي: تحالفوا ﴿بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾، أي: لنقتلنهم ليلًا.

وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ [الأعراف: ٤٩].

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ بيان لمعنى المقتسمين، أي: الذين جعلوا القرآن أجزاء.

ويحتمل أن المراد بالذين جعلوا القرآن عضين: أهل الكتاب، ويكون المراد بالقرآن: كتابهم؛ لأنه مقروء كغيره من كتب الله.

وقد يكون المراد بـ«القرآن»: الكتاب الذي أنزل على نبينا محمد ﷺ، وصار علمًا عليه اسم «القرآن».

فأهل الكتاب كما جزّؤوا كتابهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كذلك جزّؤوا القرآن فآمنوا منه بما وافق أهواءهم، وكفروا بما عدا ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد بالذين جعلوا القرآن عضين: هم الكفار والمكذبون من هذه الأمة، جعلوا القرآن أصنافًا وأجزاءً، ووصفوه بأوصاف بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فمنهم من يقول: هو سحر، ومنهم من يقول: شعر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترى مختلق، ومنهم من يقول: أساطير الأولين، إلى غير ذلك من افتراءاتهم الباطلة، التي يريدون بها صد الناس عن سبيل الله.

عن قتادة أن المقتسمين رهط خمسة من قريش عضوا كتاب الله»(١).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ الفاء: استئنافية، والواو: للقسم، والخطاب للنبي ﷺ ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ واللام واقعة في جواب القسم.

فأقسم عز وجل بنفسه والتقدير: فأُقسمُ بربك يا محمد لنسألنهم أجمعين، أي: لنسألن هؤلاء المقتسمين وغيرهم من المكذبين أجمعين.

﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ عن الذي كانوا يعملونه، أو عن عملهم من تكذيب القرآن والقدح فيه وعيبه، والعمل على صد الناس عنه، وفي هذا أعظم الزجر لهم لو كانوا يعلمون.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ثم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]؛ قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟»(٢).

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، «الصدع»: الجهر والإعلان، و«ما» موصولة، أي: فاجهر بالذي تؤمر به وأعلنه قولًا كان أو فعلًا، أي: اصدع بالذي يأمرك الله به من القرآن والدعوة إلى الله، والصلاة.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مازال رسول الله ﷺ مستخفيًا حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فخرج هو وأصحابه»(٣).

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: واترك المشركين ولا تبالهم وامضِ في دعوتك

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ١٣٢، ١٣٣)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ١٤١.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٤٦٩، والسيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ١٠٦، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٤/ ١٤٢ من قول عبد الله بن عبيدة.

وشأنك، ولا تلتفت لهم.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ تعليل للأمر بالصدع بأمر الله، والإعراض عن المشركين، و«ال» في «المستهزئين» للجنس، أي: كفيناك كل مستهزئ بك وبما جئت به من الحق، أي: كفيناكهم واستهزاءهم، فلا تخشهم؛ فإن الله حافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولم يقل: «نكفيك» بالمضارع، بل قال: ﴿كَفَيْنَاكَ﴾ فعلًا ماضيًا؛ لتأكيد تحقق كفايته له.

وهذا وعد من الله تعالى لرسوله ألا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله تعالى إياهم بما شاء من أنواع العقوبات، وهكذا حصل فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء بالرسول ﷺ وبما جاء إلا أهلكه وقتله شر قتله، حتى ولو أمهله قليلًا فإنه لا يهمله.

وكان من بين هؤلاء المستهزئين عدة نفر من قريش، قيل: خمسة، وقيل: سبعة، عد منهم: الوليد بين المغيرة، والأسود بن يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن غيطلة، والعاص بن وائل، هلكوا كلهم في مكة متتابعين وكان هلاكهم العجيب صارفًا لأتباعهم عن الاستهزاء؛ لانفراط عقدهم(١).

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ذكر أذيتهم له وﷺ ثم وصفهم بما هو أطم وأعظم وهو جعلهم مع الله معبودًا آخر.

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، أي: معبودًا آخر يشركون به مع الله، وهذا أعظم الكفر وأشد الظلم؛ ولهذا توعدهم فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون مستقبلًا سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لهم ولكل من جعل مع الله إلهًا آخر.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

في هذه الآية طمأنة له ﷺ وتقوية لقلبه وإخبار له ﷺ بعلمه- عز وجل- بضيق

---

(١) انظر: «جامع مع البيان» ١٤/ ١٤٦- ١٥٣، «تفسير ابن كثير» ٤/ ٤٧٠، ٤٧١.

صدره بسبب ما يقولونه من الاستهزاء به وبما جاء به، و بسبب إشراكهم بالله.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: ولقد نعلم أنك يا محمد يضيق صدرك بالذي يقوله هؤلاء المستهزئون المشركون من الاستهزاء بك وبدينك ومن التكذيب لك، والإشراك بالله- وقد أكد عز وجل علمه بذلك بالقسم.

وحرف التحقيق «قد» للتأكيد على عنايته- عز وجل- به ﷺ وأنه لن يتركه، بل سيحفظه ويكفيه إياهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝٩٥ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وأنه- وإن أمهلهم لحكمة- فلن يهملهم.

فعليه ألا يثنيه ذلك عن الاستمرار بتبليغ رسالة ربه، وليثق بنصر الله تعالى له؛ ولهذا أمره الله بالثبات وبما يعينه على القيام بذلك فقال:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والباء للمصاحبة، أي: سبح بحمد ربك بتنزيهه عما لا يليق به، والإكثار من تحميده وتهليله وتكبيره، والصلاة له، وعبادته؛ ولهذا قال: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، أي: من المصلين العابدين.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، أي: داوم واستمر على عبادة ربك أنت ومن معك، إلى غاية أن يأتيك ﴿الْيَقِينُ﴾، أي: إلى أن يأتيك الموت، كما قال تعالى إخبارًا عن أهل النار: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۝٤٧﴾ [المدثر: ٤٣- ٤٧]، أي: الموت وقال زكريا: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، وعن أم العلاء امرأةٍ من الأنصار رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قلت: رحمة الله عليك، أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»، فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين؛ والله إني لأرجو له الخير»(١).

وقد امتثل- صلوات الله وسلامه عليه- أمر ربه، فاجتهد في إبلاغ الرسالة وأداء

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ١٢٤٣.

الأمانة وعبادة ربه حتى أتاه اليقين من ربه، والتحق بالرفيق الأعلى فصلوات الله وسلامه عليه عدد ما صلى الله عليه المصلون، وعدد قطرات الماء ونسمات الهواء، وذرات الرمل، وجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وجمعنا معه ووالدينا وأولادنا وأزواجنا وأقاربنا وجميع إخواننا المسلمين في الفردوس الأعلى من الجنة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، بمنه وفضله وكرمه.

الفوائد والأحكام:

١- أن الله- عز وجل- ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل، للدلالة على عظمته ووحدانيته ووجوب إخلاص العبادة له تعالى وحده لا شريك له، ومجازاة كل بعمله خيرًا كان أو شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢- إثبات القيامة والمعاد وبعث الأجساد، والحساب والجزاء للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾، وهذا يوجب الاستعداد لها.

٣- أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالصفح الجميل عن المشركين والمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، وهذا قبل الأمر بالقتال، فلما نزل الإذن بالقتال والأمر به بقي الأخذ بالصفح حين لا تستطيع الأمة القتال.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ وأنه- عز وجل- الخلاق لكل شيء، الخالق لما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٧- امتنان الله تعالى عليه ﷺ بإعطائه السبع المثاني والقرآن العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وهذا امتنان عليه ﷺ وعلى أمته.

٨- تكريم الله- عز وجل- له ﷺ وتشريفه بخطابه- عز وجل- له.

٩- فضل سورة الفاتحة، فهي أفضل سور القرآن، وفضل السبع الطوال، والقرآن العظيم كله.

١٠- تزهيده ﷺ في الدنيا، ونهيه أن يمد عينيه إلى ما متع الله به المشركين المكذبين من زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية وهو نهي لأمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

١١- ينبغي عدم الاغترار بما عليه الكفار من متاع الدنيا الزائل، مع ما هم عليه من الكفر والضلال.

١٢- نهي الله- عز وجل- له ﷺ أن يحزن ويأسى على المشركين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

١٣- أمره- عز وجل- له ﷺ بخفض الجناح، ولين الجانب للمؤمنين، والتواضع لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهكذا يجب على المؤمنين فيما بينهم أسوة به ﷺ.

١٤- أمر الله تعالى له ﷺ بأن يعلن أنه هو النذير البين النذارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، وفي هذا إقامة الحجة على الناس بوضوح ما جاء به من الإنذار.

١٥- تحذير المكذبين له ﷺ ولما جاء به من عذاب أليم يحل بهم كالعذاب الأليم الذي أنزله- عز وجل- على المقتسمين على تكذيب الأنبياء وأذيتهم، وصد الناس عن دعوتهم، وتجزئة كتب الله تعالى والقرآن الكريم أجزاء، يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ويصفون القرآن بأوصاف باطلة حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وقلوبهم الفاسدة، فمنهم من يقول: هو سحر، ومنهم من يقول: شعر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مفترى مختلق، ومنهم من يقول: أساطير الأولين اكتتبها، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

١٦- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

١٧- إقسامه عز وجل بنفسه على أنه سيسأل هؤلاء المقتسمين الذي جعلوا القرآن عضين، وغيرهم من الكفار المكذبين أجمعين، عن الذي كانوا يعملونه من تكذيب القرآن والقدح فيه وصد الناس عنه، وفي هذا ما لا يخفى من الزجر والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾.

١٨- تثبيت الله عز وجل له ﷺ وتقوية قلبه بأمره له بالصدع بأمره والإعراض عن المشركين وعدم المبالاة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٩- ينبغي ألا يفتّ في عضد الداعية إلى الله إعراض من أعرض عن الحق، وله في المصطفى أسوة وقدوة.

٢٠- تكفله- عز وجل- بكفايته ﷺ المستهزئين به وبما جاء به، وأنعم بها من كفاية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.

٢١- عظم ما لقيه ﷺ من المكذبين من قومه- كما هو ديدن المكذبين قبلهم- من الاستهزاء به وبما جاء به، والمخالفة لأصل دعوته بالإشراك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٢٢- الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، للمستهزئين به ﷺ وبما جاء به من الحق، المشركين بالله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٢٣- طمأنته ﷺ بأن الله- عز وجل- يعلم أن صدره يضيق بما يقوله هؤلاء المستهزئون المشركون، وأن الله لن يتركه وسينصره ويظهره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

٢٤- أنه ﷺ كغيره من البشر يعتريه ما يعتريهم من ضيق الصدر، بل يحصل له أعظم من غيره، لسمو هدفه وصدق مقصده؛ ولهذا نهاه الله- عز وجل- فقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣].

وشتان بينه ﷺ وبين غيره في سبب ضيق الصدر، فهو ﷺ يضيق صدره بسبب كفر قومه وعدم استجابتهم له وعدم إيمانهم وإهلاكهم أنفسهم بالكفر والنار، بينما

يحصل ذلك لأكثر الخلق بسبب أمور دنيوية لا تساوي شيئاً.

وصدق المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»(١).

وقال ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

٢٥- أمره- عز وجل- وتوجيهه له ﷺ إلى الاستزادة من الغذاء الروحي المعنوي بتسبيحه عز وجل، والصلاة له، والمداومة على عبادة ربه حتى يأتيه اليقين، مما فيه سعة صدره وانشراحه، وعونه ونصره على من عاداه.

٢٦- أن العبادة كالصلاة ونحوها لا تسقط عن الإنسان ما دام عقله ثابتًا، فيصلي بحسب حاله، كما قال ﷺ: «**صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب**»(٢).

٢٧- الرد على الملاحدة وغلاة الصوفية الذين يقولون: إن المراد باليقين: المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل؛ فإن الأنبياء عليه السلام هم وأصحابهم أعرف الناس بالله وبصفاته وحقوقه، وما يجب له من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثرهم عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين الموت بإجماع المفسرين.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة- إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب- من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّحْلِ

المقدمـــة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة النحل» بهذا الاسم لذكر النحل فيها بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية: ٦٨].

وتسمى أيضًا «سورة النعم»؛ لأن الله ذكر فيها عددًا من النعم التي أنعم بها على عباده، فذكر في أولها أصول النعم وفوائدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة النحل بمكة، فهي كلها مكية، وقيل: كلها مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فإنها نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد، في منصرفه ﷺ من غزوة أحد.

والروايات في أن هذا هو سبب نزولها لا تخلو من مقال، فمنها المرسل، ومنها ما فيه مبهم، ومنها ما فيه ضعف.

ج- موضوعاتها:

اهتمت سورة النحل كغيرها من السور المكية بالجوانب التالية:

أ- إثبات ربوبية الله تعالى وإلهيته ووحدانيته، وكمال عظمته وتمام قدرته، وحكمته، وسعة علمه وملكه، وسابغ نعمته.

ب- إثبات وحيه عز وجل إلى رسله وأنبيائه، وتأييده عز وجل لهم.

ج- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

د- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والثناء على أهله، ووعدهم بالجزاء العظيم في الدنيا والآخرة.

هـ- التحذير من الشرك والكفر، وذم أهله، ووعيدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وفيما يلي تفصيل لموضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل سورة النحل بإثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على

الأعمال، وأن ذلك آت، وكل آت قريب.

٢- تعظيم الله تعالى وتنزيهه لنفسه عن الشركاء، وإثبات وحدانيته، وامتنانه بتنزيل الملائكة: ﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

٣- إثبات دلائل كمال عظمته، وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وسابغ نعمه، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾.

٤- إثبات سعة علمه عز وجل وإحاطته بما يسرون وما يعلنون، والتنديد بما يدعوه المشركون من دونه ممن: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾.

٥- تأكيد وحدانيته عز وجل: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

٦- التنديد بالمشركين وما هم عليه من التكذيب للقرآن ووصفه بأساطير الأولين: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وتوعدهم بما حل بالذين مكروا من قبلهم من عذاب الله من حيث لا يشعرون، وما أعد لهم يوم القيامة من الخزي والتقريع، وعذاب جهنم خالدين فيها: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٧- امتداح المتقين المصدقين بما أنزل الله، وبيان ما أعد لهم من الخير والنعيم الحسي والمعنوي في دار المتقين: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

٨- تأكيد وعيد المشركين والمكذبين، وأنهم ما ينتظرون إلا إتيان الملائكة، أو إتيان أمر الله كفعل الذين من قبلهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

٩- ذكر احتجاجهم بالقدر على ما هم عليه من عبادة غير الله، كما فعل الذين من قبلهم، ولا حجة لهم في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ

فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

١٠- إقامة الحجة على الخلق في بعثه عز وجل في كل أمة رسولًا يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، واجتناب الطاغوت: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

١١- من يضلل الله فلا هادي له: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٢- إنكار المشركين لبعث الله الموتى، والرد عليهم بأنه وعد على الله حق: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

١٣- وعد الله عز وجل للذين هاجروا من بعد ما ظلموا أن يبوئهم: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

١٤- بيان أن الرسل من قبله ﷺ رجال مثله يوحي الله تعالى إليهم، والرد على منكري رسالته ﷺ؛ لأنه بشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴿٤٤﴾﴾.

١٥- تحذير الذين مكروا السيئات من عقوبات الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

١٦- توبيخ المشركين وتقريعهم وتقريرهم بأن يستدلوا على وحدانية الله تعالى، وبطلان ما هم عليه من الشرك بالنظر والتأمل في أن كل ما خلق الله من شيء، وكل ما في السموات وما في الأرض من دابة، كل أولئك: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾

يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

١٧- نهيه عز وجل عن الشرك به واتخاذ إله ثانٍ معه، وتأكيد تفرده بالإلهية، ووجوب إخلاص العبادة له وحده، وخوفه دون سواه، والاستدلال على ذلك بذكر اختصاصه عز وجل بما في السموات والأرض، وبيان أن النعم كلها منه سبحانه، وهو الذي يكشف الضر والنقم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

١٨- النعي على المشركين، وذمهم في جعلهم لما لا يعلمون من آلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله، افتراء على الله، وتوعدهم بأنهم سيسألون عما كانوا يفترون، وذمهم في جعلهم لله سبحانه البنات، ولهم ما يشتهون- يعني: الأبناء- وبيان شدة كراهتهم للبنات بسبب جهلهم وظلمهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وبيان أن للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء- أي: المثل السيئ الدون- ولله عز وجل المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم، فكيف ينسبون له الولد، بل ويخصونه بالبنات ويختارون البنين، بل وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

١٩- بيان حلمه عز وجل وأنه لو عاجل الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

٢٠- تسليته ﷺ ببيان أنه كغيره من الرسل الذين أرسلهم الله للأمم من قبله، فزين لهم الشيطان أعمالهم فكذبوا رسلهم: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

٢١- بيان المقصود من إنزال الكتاب عليه ﷺ، وهو أن يبين للناس: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وبه حياة القلوب، كما أنزل عز وجل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها.

٢٢- بيان تمام قدرته، وواسع رحمته وعلمه، وبالغ حكمته، وسابغ نعمته وفضله، فيما يسقيهم مما في بطون الأنعام من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وما يخرجه لهم من ثمرات النخيل والأعناب، وما يخرجه لهم من بطون النحل من شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ففي ذلك كله آيات لقوم يعقلون ويتفكرون.

وفي خلقه إياهم وتوفيهم، ورد بعضهم إلى أرذل العمر، وتفضيل بعضهم على بعض في الرزق، وجعله لهم من أنفسهم أزواجًا، ومن أزواجهم بنين وحفدةً، ورزقهم من الطيبات؛ ليشكروا نعمته ولا يكفروها.

٢٣- ذم المشركين وتسفيههم في عبادتهم ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا ولا يستطيعون، ونهيهم عن ضرب الأمثال والأنداد والنظراء لله عز وجل، وبيان أنه عز وجل يعلم وهم لا يعلمون، وضربه عز وجل مثلين لما يعبدونه من دونه من معبودات لا تملك شيئًا مثلًا بعبد مملوك لا يقدر على شيء ومن رزقه الله منه رزقاً حسناً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٤- بيان اختصاصه عز وجل بغيب السموات والأرض، وعلم الساعة وقربها: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٢٥- سرد عدد من نعمه تعالى على الخلق، ودلائل قدرته؛ بإخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة؛ لعلهم يشكرون، وتسخيره الطير في جو السماء ما يمسكهن إلا الله، وجعله لهم من بيوتهم سكنًا، ومن جلود الأنعام بيوتًا يستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾. وجعله لهم مما خلق ظلالًا ومن الجبال أكنانًا، وجعله لهم

سرابيل تقيهم الحر، وسرابيل تقيهم بأسهم؛ ليتم نعمته عليهم لعلهم يسلمون.

ثم ختم الآيات في هذا ببيان أن الذي عليه ﷺ هو البلاغ فقط، ووعيد المكذبين الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، وأكثرهم الكافرون: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

٢٦- بيان أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر، ويأمر بالوفاء بعهده عز وجل، وينهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

٢٧- بيان أن ما عند الخلق ينفد، وما عند الله باق، ووعد الصابرين ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى بالحياة الطيبة والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة: ﴿مَا عِندَكُمْ

يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

٢٨- بيان مشروعية الاستعاذة عند قراءة القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

٢٩- بيان أنه ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٣٠- اتهام المشركين للنبي ﷺ عندما يبدل الله آية مكان آية بالافتراء، وزعمهم إنما يعلمه بشر، ورده عز وجل عليهم، وإثبات نزول القرآن من عنده عز وجل بالحق، والدفاع عن نبيه ﷺ، وبيان أنهم هم المفترون: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٣١- الوعيد لمن كفر وارتد بعد ايمانه وشرح بالكفر صدرًا: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

٣٢- وعد الله تعالى للذين هاجروا وجاهدوا وصبروا بالمغفرة والرحمة: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ

بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

٣٣- التحذير من يوم القيامة، والحث على الاستعداد له: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

٣٤- بيان سوء عاقبة الكفر والمعاصي وكفر نعم الله تعالى، وأن ذلك سبب لسلب نعمة الأمن والطمأنينة، ورغد العيش: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

٣٥- الامتنان على العباد وأمرهم بالأكل مما رزقهم الله حلالًا طيبًا، وشكر نعمة الله عليهم، وبيان ما حرمه الله عليهم، وإباحة الأكل منه حال الضرورة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

٣٦- نهي المشركين المكذبين عن التحليل والتحريم من عند أنفسهم كذبًا وافتراء على الله، وتوعدهم بعدم الفلاح، وبالعذاب الأليم: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

٣٧- بيان ما حرمه الله على اليهود: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

٣٨- بيان توبته عز وجل على من عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

٣٩- ثناء الله عز وجل على خليله إبراهيم عليه السلام بكونه قدوة، وبطاعته لله تعالى، وإخلاصه العبادة له تعالى، وبراءته من الشرك وأهله، وما آتاه الله في الدنيا، وما له في الآخرة، وأمر نبينا ﷺ باتباع ملته عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٤٠- بيان أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

٤١- أمره ﷺ بالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبيان علمه سبحانه بمن ضل عن سبيله، وعلمه بالمهتدين: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

٤٢- جواز المعاقبة لمن اعتدى بمثل اعتدائه، والترغيب في الصبر بترك المعاقبة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

٤٣- ترغيبه ﷺ بالصبر على ما يلقى من تكذيب قومه وأذاهم، وعدم الحزن عليهم، والضيق من مكرهم، وبيان أنه عز وجل مع المتقين المحسنين: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾.

قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي: سيأتي أمر الله؛ بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ وعبر بالماضي «أتى» لصدق المخبر به، ولتأكيد تحقق وقوعه وقربه، فهو آت لا محالة ولا بد، وكل آت قريب، كما قال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١].

قال ابن القيم «فإن «أتى» ها هنا بمعني «يأتى»، وإنما حسن فيه لفظ الماضي؛ لصدق إثبات الأمر في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه، فصار «يأتي» بمنزلة «قد أتى» ومضى»(١).

وقوله: ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي: البعث والمعاد والقيامة والحساب والجزاء للعباد بالثواب والعقاب والجنة والنار، ولم يقل «أتى أمري» ولم يقل: أتى البعث والحساب والجزاء، بل قال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ للتعظيم والتفخيم والتهويل.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، وضمير الهاء يحتمل أن يعود

---

(١) انظر: بدائع التفسير ٣/ ٣٥.

إلى الله، أي: فلا تستعجلوا الله الإتيان بأمره، كقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ [الأنبياء: ٧٥].

ويحتمل أن يعود الضمير على ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: فلا تستعجلوا أمر الله، فهو آت قريب، وكلاهما متلازمان، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٣- ٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾ [الشورى: ١٨].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، أي: تنزه عز وجل، أو تنزيهًا له عز وجل.

﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تعاظم وتقدس.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ قرأ حمزة والكسائي بتاء الخطاب: «عما تشركون» وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

و«ما» في قوله «عما»: مصدرية، أي: عن إشراكهم غيره معه، وشركهم به وعبادتهم سواه، أو موصولة، أي: عن الذين يشركون به، ويعبدون معه من الأوثان والأصنام والأنداد، وينسبون له من الصاحبة والولد، أي: عن الذي يشرك به هؤلاء المشركون المكذبون بالساعة.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

هذه أول نعمة ذكرها الله عز وجل في هذه السورة، وهي أعظم وأكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، وهي إنزال الملائكة بالوحي على الرسل؛ للدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وتحذيرهم من الشرك.

قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر: «يُنزِل» بالياء وتخفيف الزاي مكسورة ونصب «الملائكةَ»، وكذا روى رويس عن يعقوب، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «تُنزَّل» بالتاء وتشديد الزاي مفتوحة، ورفع «الملائكةُ»، وهكذا روى روح عن

يعقوب، إلا أنه فتح التاء «تَنزَّل»، وقرأ الباقون: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالياء وتشديد الزاي مكسورة ونصب ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

والمعنى: يرسل الملائكة يعني: جبريل عليه السلام.

﴿بِٱلرُّوحِ﴾، أي: بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشوري: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، «من» موصولة، أي: على الذي يشاء.

﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، «من» تبعيضية، أي: على بعض عباده ممن يصطفيهم ويختارهم لرسالاته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥].

﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾، «أن» تعليلية، أي: لينذروا ويحذروا، أو تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر، أي: بأن أنذروا، أي: بالإنذار.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، أي: بأنه لا معبود بحق ﴿إِلَّآ أَنَا۠﴾ و«إلا» أداة استثناء.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾، أي: فاتقوني بإخلاص العبادة لي، وفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾.

لما أخبر عز وجل بثبوت القيامة وقربها، ونهى عن استعجال ذلك، وامتن بأعظم منة وأكبر نعمة أنعم بها على الخلق، وهي إنزال الوحي على الرسل لدعوة الناس لتوحيده وتحذيرهم من الشرك، أتبع ذلك بذكر دلائل عظمته وتمام قدرته وسابغ نعمه، الدالة على وحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، ووجوب إخلاص العبادة له

تعالى وحده لا شريك له، والإيمان برسله وتصديق لقائه، وبدأها بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ٣]، لأن السموات والأرض من أكبر المخلوقات وأعظم الآيات، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، أي: خلق الله السموات والأرض خلقًا ملابسًا للحق والعدل والحكمة والجد، ولم يخلقهما عبثا ولا باطلًا، كما هو ظن الذين كفروا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وإنما خلقهما للدلالة على كمال عظمته وتمام قدرته ووحدانيته، ووجوب الإيمان برسله، والتصديق بلقائه ومجازاته لخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم٣١].

﴿تَعَٰلَىٰ﴾، أي: تعاظم وتقدس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: عن إشراكهم معه، وعن الذين يشركون بهم معه من الأنداد والأصنام والأوثان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

استدل عز وجل على عظمته ووحدانيته أولًا بخلق السموات والأرض، والتي هي من أكبر المخلوقات، ثم استدل على ذلك بخلق الإنسان نفسه، وأطوار خلقه وأحواله، وما في ذلك من الدقة والحكمة والعجب.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، «ال» للجنس، أي: خلق وأوجد جنس الإنسان.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: من نطفة من مني الرجل ضعيفة مهينة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ

نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٩]،

﴿فَإِذَا هُوَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا» فجائية، وتفيد هنا التعجيب، أي: فإذا هو بعد نعمة الله تعالى عليه بخلقه في أحسن تقويم، وكون أصل خلقه من نطفة من ماء مهين.

﴿خَصِيمٌ﴾ شديد الخصومة لربه يكفر به، ويجحد نعمه، ويجادل رسله، ويكذب بآياته؛ منكرًا قدرة الله تعالى على بعثه، ناسيًا أصل خلقه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٦- ٧٩]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان٥٤- ٥٥].

وعن بسر بن جحاش رضي الله عنه قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أنىَّ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأنَّى أوان الصدقة؟»(١).

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن الخصومة ظاهرها.

ويحتمل أن يكون معنى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، أي: فإذا هو بعد أن خلقه الله من نطفة لم يزل ينقله من طور إلى طور

﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، أي: متكلم مفصح عما في ضميره ومراده بالحق أو بالباطل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه مختصرًا في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة، والتبذير عند الموت (٢٧٠٧).

وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

لما ذكر دلائل قدرته في خلق الإنسان، ونعمته عليه، أتبع ذلك بالامتنان على العباد بما خلق لهم من الأنعام، وما لهم فيها من دفء، ومنافع من الأكل والركوب وحمل الأثقال والزينة وغير ذلك.

قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾، «الأنعام»: مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسره ما بعده، أي: وخلق الأنعام خلقها لكم.

و«الأنعام» هي: الإبل والبقر والغنم، أي: الأزواج الثمانية: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز.

وقد تطلق «الأنعام» على الإبل خاصة.

﴿خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾، أي: أوجدها لأجلكم ولمنافعكم ومصالحكم.

﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾، أي: لكم فيها دفء من البرد، مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت، وغير ذلك.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ معطوف على ﴿دِفْءٌ﴾ من عطف العام على الخاص، أي: ولكم فيها منافع كثيرة من شرب ألبانها، والحرث بها، والمتاجرة فيها، وغير ذلك.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: ومن هذه الأنعام تأكلون.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: تتجملون فيها، أي: بمناظرها وهيئاتها ورغائها وثغائها.

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾، أي: وقت رواحها ورجوعها عشية.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: وحين تبعثونها غدوة وبكرة إلى المرعى، وقدم الإراحة على التسريح؛ لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج، حيث تقبل ملأى البطون، حافلة الضروع، ممتدة الخواصر، عالية الأسنمة، فرحة مسرورة بالرجوع إلى مراحها وسكنها ومعاطنها ومرابضها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾.

قرأ أبو جعفر: «بشَق» بفتح الشين، وقرأ الباقون: ﴿بِشِقِّ﴾ بكسرها، والمعنى واحد، أي: وتحمل أمتعتكم وأحمالكم الثقيلة التي تعجزون عن حملها ونقلها.

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾، أي: إلى بلد بعيد ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾، أي: لم تكونوا قادرين على بلوغه، أي: إلى بلد لا تستطيعون بلوغه، كما في ترحالهم إلى الشام واليمن للتجارة، والترحال إلى مكة للحج والعمرة والتجارة، وغير ذلك.

﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾، «إلا» أداة حصر، والباء للملابسة، والشق: المشقة والتعب الشديد، أي: إلا بمشقة وتعب شديد ونصب ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ واللام في قوله ﴿لَرَءُوفٌ﴾ للتوكيد، والمعنى: لذو رأفة بعباده، والرأفة: أشد وأخص من الرحمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة، أي: وإن ربكم- الذي خلق هذه الأنعام وسخرها لكم تشربون من ألبانها، وتأكلون من لحومها، وتحملون أثقالكم عليها، وتركبونها- لذو رأفة عظيمة ورحمة واسعة بعباده، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون٢١- ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر٧٩- ٨١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس٧١- ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف١٢- ١٤].

قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: وخلق الخيل والبغال والحمير وسخرها لكم. و«البغال» واحدها «بغل» وهو

ما تولد بين الحمار والفرس.

وأخّر ذكر هذه الأصناف الثلاثة وأفردها؛ لأنها دون الأنعام في كثرة منافعها، ولأن الأنعام من أفضل وأعظم ما امتن الله به على عباده.

﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تركبوها، أي: لأجل ركوبها، واكتفى بذكر ركوبها، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرم أكلها، ولأن الخيل لا تتخذ للأكل غالبا، بل نهى عن ذبحها لأجل الأكل؛ خوفًا من انقطاعها وانقراضها، وإلا فقد ثبت في السنة من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، ورخص في الخيل»(١).

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: «نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن في المدينة»(٢).

ولهذا ذهب جمهور أهل العلم سلفًا وخلفًا إلى حل لحوم الخيل، وهو الصحيح.

أما ما روي في حديث خالد بن الوليد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ: «نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير»(٣)، كما رواه بعض أهل السنن وأحمد، فهذا لو صح لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين من حديث جابر وأسماء رضى الله عنهما.

ولم يذكر الحمل عليها؛ لأنها غالبا تستخدم للركوب لا للحمل، وبخاصة الخيل والبغال فهي تركب للغزو والصيد والأسفار، كما تركب الحمير في التنقل في القرى وشبهها.

﴿وَزِينَةً﴾ معطوف على قوله ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾، فـ«زينة» منصوبة على المفعول لأجله، أي: لأجل أن تركبوها وتتزينوا بها.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٢١٩، ومسلم في الصيد والذبائح- أكل لحوم الخيل ١٩٤١، وأبو داود في الأطعمة، أكل لحوم الخيل، ٣٧٨٨، والنسائي في الصيد والذبائح، ٤٣٢٧، وأحمد ٣/ ٣٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥١، ومسلم في الصيد- أكل لحوم الخيل ١٩٤٢، والنسائي في الضحايا ٤٤٠٦، وابن ماجه في الذبائح ٣١٩٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة- أكل لحوم الخيل ٣٧٩٠، والنسائي في الصيد- تحريم أكل لحوم الخيل ٤٣٣١، وابن ماجة في الذبائح- لحوم البغال ٣١٩٨، وأحمد ٤/ ٨٩.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: ويخلق الذي لا تعلمونه، أي: مما يكون بعد نزول القرآن، وفيما يستقبل من الزمان مما يهدي الله تعالى إليه البشر، ويلهمهم صناعته من المراكب البرية والبحرية والجوية، وغير ذلك، التي تحمل الناس والبضائع وغير ذلك، وهذا من معجزات القرآن العلمية.

ولم يذكرها تعالى في كتابه بأعيانها؛ لأنه عز وجل لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره؛ لأنه لو ذكر لهم ما لا يعرفونه، ولا يعرفون نظيره لم يعرفوا المراد به، ولربما صار لهم فتنة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧:٢٠]، فأمرهم بالتفكر والتأمل فيما يقع تحت أنظارهم من المخلوقات؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟»(١).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

لما امتن عليهم بما خلق وسخر لهم من الأنعام والدواب مما يركبونه ويحملون عليه أثقالهم في الأسفار والطرق الصعبة، نبه على ما هو أعظم منه، وهو بيانه الطريق المعنوي الموصل إليه عز وجل.

وفي هذا عود على بدء بتذكيرهم منته الكبرى عليهم بإنزال الوحي على الرسل؛ لدعوتهم لتوحيد الله، وتحذيرهم من الشرك، وسلوك الطريق المستقيم.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، «القصد» استقامة الطريق، وإضافة «قصد» إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: طريق القصد والاستقامة والعدل.

والمعنى: وعلى الله بيان طريق القصد والاستقامة والحق والعدل، الموصل إليه عز وجل وإلى مرضاته وكرامته وجنته بأقرب الطرق وأخصرها، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر٤١].

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، أي: ومن السبيل جائر مائل عن الحق، لا يوصل إلى الله، وهي

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٧.

سبل الغي والضلال، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام ١٥٣].

﴿وَلَوْ شَآءَ﴾، أي: ولو شاء الله وأراد كونًا ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لوفقكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد لضمير الخطاب، أي: كلكم، أي: ولو شاء الله وأراد كونا لوفقكم كلكم أجمعين لسلوك سبيل القصد والاستقامة، طريق الحق والعدل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ [هود ١١٨].

ومفهوم هذا أنه عز وجل لم يشأ هدايتهم جميعًا، بل شاء أن يكون منهم مهتد وضال، ومؤمن وكافر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود ١١٨، ١١٩].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وأنها آتية لا محالة، وقريبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

٢- تعظيم أمر القيامة وشدة أهوالها وكروبها وخطوبها؛ لقوله تعالى: ﴿أمر الله﴾ دون أن يقول: أتت القيامة، ونحو ذلك.

٣- النهي عن استعجال أمر الله بالإتيان بالقيامة؛ لأنها آتية ولا بد، وقريبة، وكل آت قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

٤- سفه المشركين، وشدة تكذيبهم بالبعث، واستعجالهم إياه استهزاءً ومبالغة منهم بالتكذيب والكفر بالقيامة، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى١٨].

٥- تسبيح الله وتنزيهه وتقديسه وتعاليه وتعاظمه عن شرك المشركين به وشركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٦- الاستدلال على كمال عظمة الله عز وجل وحكمته وعدله ووحدانيته، ووجوب إخلاص العبادة له وحده، وتمام قدرته على الخلق بدءًا وإعادةً بخلق

السموات والأرض؛ لأنها من أكبر المخلوقات وأعظم الآيات؛ لهذا تقدم على غيرها في الاستدلال على ما ذكر، كما في هذا الموضع؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٧- أن الله عز وجل ما خلق السموات والأرض إلا بالحق، ما خلقهما باطلًا ولا عبثًا؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ خلقهما لتوحيده وعبادته وحده، والإيمان به، وتصديق رسله، وإقامة شرعه، وليحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

٨- تأكيد تعاليه عز وجل وتعاظمه عن شرك المشركين به وشركائهم؛ لقوله عز وجل: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٩- التدليل على كمال عظمته عز وجل، وتمام قدرته ووحدانيته ونعمته على الإنسان، وقدرته عز وجل على بعثه بخلقه من نطفة وتنقله في أطواره وأحواله العجيبة؛ ليشكر نعمة الله تعالى عليه في ذلك، وليعرف قدر نفسه، فلا يطغى ولا يتجبر ولا يتكبر؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

١٠- كفر كثير من بني آدم، وتجبره وتكبره، وكونه بعد نعمة الله تعالى عليه بخلقه خصيمًا مبينًا لربه، ونكرانه لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

١١- الامتنان على العباد بخلق الأنعام وتسخيرها لهم، وما لهم فيها من الدفء والمنافع، يشربون من ألبانها ويأكلونها ويتجملون فيها عند رواحها ومسرحها، وتحمل أثقالهم في تنقلاتهم وأسفارهم الشاقة ويركبونها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾.

١٣- إثبات صفتي الرأفة والرحمة لله عز وجل، وأنه رؤوف رحيم بعباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

١٤- الامتنان على العباد بخلق الخيل والبغال والحمير؛ ليركبوها وزينه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وإنما قدم ذكر الأنعام؛ لأنها

أفضل والانتفاع بها أكثر والامتنان بها أعظم، وقد قال ﷺ: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**» (١).

١٥- جواز التجمل والتزين بما جعله الله جمالًا وزينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ وقوله: ﴿وَزِينَةً﴾.

١٦- بيان قدرته عز وجل في خلق ما لا يعلمون من المراكب غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي هذا معجزة علمية، وإشارة واضحة لما مّن الله به على الخلق، وعلمهم صنعه، وأقدرهم عليه من المراكب البرية والبحرية والجوية وغير ذلك، فكل هذا داخل تحت قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٧- أن على الله عز وجل بيان قصد السبيل، وطريق الحق والعدل المستقيم الموصل إليه عز وجل وإلى مرضاته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٨- أن ما عدا سبيل القصد من السبل الكثيرة كلها جائرة معوجّة عن القصد، مائلة عن الحق، لا توصل إلى الله، بل توصل سالكيها إلى النار وبئس القرار.

١٩- أن الله عز وجل لو شاء وأراد كونا لهدى الناس أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ لكنه لم يشأ ذلك، بل شاء أن يكون منهم مهتد وضال، ومؤمن وكافر.

٢٠- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء من إيمان وكفر وغير ذلك.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٧٢، والنسائي في الخيل ٣٥٧٢، من حديث جرير بن عبد الله رضى الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٌ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾.

دلل عز وجل على كمال عظمته وقدرته، وتمام نعمته على العباد بخلق السموات والأرض بالحق، ثم بخلق الإنسان، ثم بخلق الأنعام، ثم أتبع ذلك بالاستدلال بإنزال المطر، وما لذلك من منافع.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٌ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾.

قوله: ﴿هُوَ﴾، أي: هو الله وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: ماء المطر، والمراد بـ «السماء» العلو، وليس المراد أن المطر ينزل من السموات، بل ينزل من السحاب الذي بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، «شراب» مبتدأ مؤخر، أي: لكم من هذا الماء شراب؛ حيث جعله الله عذبًا زلالًا تشربون منه، ولم يجعله ملحًا أُجاجًا لا يستساغ شربه؛ ولهذا امتن عليهم في سورة الواقعة بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [الواقعة ٦٨- ٧٠].

كما تشرب منه مواشيهم، وتسقى منه حروثهم.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: ويخرج لكم ﴿مِّنْهُ﴾، أي: من هذا الماء، أي: يخرج لكم بسببه ﴿شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: ترعون فيه أنعامكم

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «ننبت» بالنون، وقرأ الباقون ﴿يُنۢبِتُ﴾ بالياء، أي: يخرج لأجلكم بسبب هذا الماء: ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ الذي يثمر الحبوب بأنواعها التي هي قوت الإنسان.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ الذي فيه إدام الإنسان، ومنافع كثيرة.

﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ التي هي أطيب الأشجار، وثمرها أفضل الثمار ومن أهم القوت، مع ما فيه من التفكه والتلذذ والمنافع العظيمة؛ ولهذا شبه النبي صلي الله عليه وسلم بها المؤمن؛ لفضله وكثرة خيره.

﴿وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾التي هي من أفضل الفواكه، ومنافعها كثيرة رطبة ويابسة

وخص هذه الأصناف الأربعة؛ لأنها من أفضل ما تنبته الأرض من الأشجار، وثمرها من أطيب الثمار طريا أو يابسا، ومنافعها لا تحصى كثرة.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ تعميم بعد تخصيص، أي: وينبت لكم بهذا المطر من كل الثمرات ما لا يحصيه ولا يحيط به إلا الله تعالى .

وكل هذه الأصناف من الأشجار مختلفة الثمار والطعوم والروائح والأشكال والألوان، مع كونها تسقى بماء واحد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ الإشارة تعود إلى إنزاله عز وجل من السماء ماء لهم منه شراب، ومنه شجر فيه يرعون أنعامهم، ينبت لهم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، والتقدير: إن في ذلك المذكور ﴿لَءَايَةً﴾ اللام للتوكيد، أي: لدلالة واضحة وحجة ظاهره على كمال عظمته عز وجل، وتمام قدرته وسابغ نعمته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ

قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠].

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: يتأملون ويعملون فكرهم في آيات الله الكونية، السماوية والأرضية، من إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها بأنواع النباتات والأشجار مختلفة الثمار وغير ذلك، فيستدلون بذلك على عظمة الله تعالى وقدرته ووحدانيته.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا استدلال رابع وخامس على كمال عظمته وتمام قدرته، وسابغ نعمته على العباد ووحدانيته.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قرأ ابن عامر برفع الأسماء الأربعة: «والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ» وقرأ حفص بنصب الشمس والقمر ورفع النجوم ومسخرات: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ﴾.

وقرأ الباقون بنصب الأربعة وكسر تاء «مسخرات»: «والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ».

أي: وسخر لكم الليل والنهار يتعاقبان؛ لمصالح العباد، يزيد هذا وينقص هذا، وينقص هذا ويزيد هذا، ويستويان تارة؛ كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣، الحديد: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وسخر الشمس والقمر يدوران في فلكيهما بحساب دقيق؛ لمصالح الخلق ومنافعهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، أي: والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات ﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ الكوني؛ زينةً للسماء ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ [الصافات ٦- ١٠] وقال تعالى ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

وكل منها يسير في فلكه بحساب دقيق، بتسخير الله عز وجل وتقديره وقهره وسلطانه وتسييره، كما قال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الآية: ٥٤]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ الجملة مؤكدة كسابقتها والتي بعدها، بمؤكدين «إن»، واللام.

أي: إن في ذلك التسخير لهذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من المنافع الكثيرة والفوائد العظيمة. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، أي: لدلائل واضحات على كمال عظمة الله عز وجل، وتمام قدرته ونعمه ووحدانيته ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، أي: لقوم ينتفعون بعقولهم في النظر والتأمل في الآيات، والاهتداء بها إلى وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم موصول في محل نصب معطوف على «الليل»، أي: وسخر ما ذرأ لكم في الأرض من حيوان ونبات ومعادن وجماد.

﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾، أي: تختلف ألوانه، كما تختلف أصنافه وأشكاله ومنافعه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾، أي: إن في ذلك المذكور وهو ما ذرأه الله لهم ﴿لَآيَةً﴾ لدلالة عظيمة، وحجة ظاهرة على تمام قدرة الله تعالى وسابغ نعمته وسعة بره وعميم إحسانه.

﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يعتبرون بنعم الله، ويتعظون ويشكرون، ويعلمون أنه عز وجل المنعم الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٤-١٦].

هذا استدلال سادس وسابع على تمام قدرته، وواسع رحمته ونعمته ووحدانيته.

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾، أي: ذلَّله ويسر للعباد ركوبه والغوص في أعماقه.

﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تأكلوا منه، و«من» ابتدائية

﴿لَحْمًا﴾ وهو ما يصطادون منه من السمك والحوت، حيًّا كان أو ميتًا، حُرُمًا كانوا أو غير حُرُم.

﴿طَرِيًّا﴾، أي: غضًّا جديدًا، غير يابس، ووصفه بالطراوة امتنانًا بذلك، وتنبيهًا إلى أنه ينبغي المبادرة إلى أكله، وأن لا يؤكل إلا طريًّا؛ لأنه إذا أخرج من البحر مات فأسرع إليه الفساد، وبتوفر وسائل التبريد والتجميد فإنه يحفظ من الفساد، لكن ما أكل منه طريًّا ألذ وأنفع.

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ﴾ السين والتاء للمبالغة والتأكيد ﴿مِنْهُ﴾، أي: من البحر، من قعره ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الحلية: ما يتحلى به الناس، أي: يتزينون به من الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان وغير ذلك.

وغلب الذكور على الإناث في ضمير ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وإلا فإن غالب الحلية تلبسها النساء عدا الخواتيم وحلية السيف.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾، أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري في البحر تمخر عبابه، وتشق وجه الماء بتسخير الله تعالى بجؤجئها، وهو صدرها المسنم الذي أرشد الله تعالى العباد إلى صنعته، كما علم أباهم نوحا عليه السلام أول من صنع السفن وركبها.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ اللام للتعليل، أي: ولأجل أن تبتغوا، أي: تطلبوا من فضل الله تعالى الرزق والربح الحلال؛ حيث تركبون هذه السفن في أسفاركم وتنقلاتكم، وتحملون عليها أمتعتكم وتجاراتكم وأموالكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليكم من تسخير البحر لكم تأكلون منه لحمًا طريًّا، وتستخرجون منه حلية تلبسونها، وتركبونه على ظهور الفلك في أسفاركم، وتحملون عليه أمتعتكم وتجاراتكم.

والمعنى: لتشكروا الله تعالى على هذه النعم باستعمالها في طاعة الله عز وجل، والاستعانة بها على ما يرضيه، ونسبتها إليه، والثناء بها عليه.

قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾، أي: وجعل في الأرض جبالا رواسي ثوابت ثبتها وأرساها بها.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ «أن» تعليلية، أي: لئلا تميد، أي: لئلا تضطرب بكم.

أي: وجعل في الأرض جبالا رواسي، ثبتها بها؛ لتقر ولا تميد، أي: ولا تضطرب بما عليها من حيوان وجماد وغير ذلك، فلا يهنأ العيش عليها، أو لا يستطاع بسبب ذلك.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾، أي: وجعل فيها، أي: في الأرض أنهارًا تجري على ظهرها من مكان إلى مكان آخر، شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، تنبع في مكان فتقطع البراري والقفار وتخترق الجبال والآكام لتصل إلى مكان وبلد آخر سخرها الله له رزقًا لأهله.

وتتشعب يمنة ويسرة، فينتفع بها كل ما مرت به من البلاد، فضلًا منه عز وجل- ورزقًا للعباد.

كما جعل في الأرض أنهارًا في بطنها تستخرج بحفرها بما أرشد عز وجل إليه العباد من الآلات والأسباب لذلك.

﴿وَسُبُلًا﴾، أي: وجعل فيها سبلًا، أي: طرقًا برية يسلكها الناس ودوابهم ومواشيهم في أسفارهم وتنقلاتهم من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى آخر، حتى إنك لتجد بعض

الجبال قد قطع ليكون ما بين قطعتيه ممرًا ومسلكا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الانبياء ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف ١٠].

قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن تهتدوا السبيل إلى البلد الذي تقصدونه، وأيضا: لعلكم تهتدون إلى الحق بالتأمل والنظر في هذه الآيات العظيمة، والنعم الجسيمة، وتستدلون بذلك على عظمة الله عز وجل ووحدانيته، فتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾، أي: وجعل في الأرض علامات، وهي جمع علامة، أي: وجعل في الأرض معالم ودلائل أرضية من جبال وآكام، ونحو ذلك يستدل بها على الطرق في البر والبحر نهارًا.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: يستدلون بها في ظلام الليل في أسفارهم برًا وبحرًا، ويعرفون بها الأوقات حتى في حال إقامتهم في حضرهم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«من»: اسم موصول، أي: أفيكون الذي يخلق، وهو الله الخالق لجميع المخلوقات.

﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ الكاف للتشبيه، و«من» موصولة، أي: كالذي لا يخلق شيئًا، وهو كل ما سوى الله من المعبودات من الأوثان والأصنام، وغير ذلك، أي: لا يستوي الذي يخلق والذي لا يخلق؛ كما قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفلا تتعظون وتعتبرون فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وملكه وتدبيره، فهو واحد في إلهيته وعبوديته.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾.

بعدما عدد لهم الكثير من نعمه تذكيرًا لهم بعظيم فضله ومنته؛ ليشكروه؛ بعبادته وحده لا شريك له، وطاعته، والاعتراف بنعمته، والثناء عليه بها- بيّن أنه لا يمكنهم إحصاء نعمته، أي: عدها عددًا مجردًا، فضلًا عن شكرها؛ لكثرتها وامتناعها عن العد والحصر، فنعمه عز وجل لا تعد ولا تحصى؛ لكثرتها، والمؤمن عاجز عن شكرها حق الشكر؛ لأن الشكر على النعمة نعمة أخرى تستوجب الشكر؛ كما قال ﷺ: «**سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

وفي هذا يقول الشاعر:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليّ بها لله يُستوجب الشكْرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضلِهِ ... وإن طالتِ الأيامُ واتصل العمْرُ(٢)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، «إن» واللام: للتوكيد، أي: إن الله لذو مغفرة واسعة لذنوب عباده، وذو رحمة واسعة بهم، ومن مغفرته لهم ورحمته بهم لم يكلفهم تعداد نعمه كلها وشكرها، ولو كلفهم بذلك لعجزوا وضعفوا، وتركوا، بل يغفر الكثير، ويتجاوز عن التقصير، ويجازي على اليسير، بمغفرته ورحمته الواسعتين.

وخالف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم؛ لأن ختام آية سورة إبراهيم جاء في سياق الوعيد بعد قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨] فكان المناسب لهم تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابًا للمؤمنين بعد تعداد نعم الله عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- نعمة الله تعالى العظيمة على العباد بإنزال المطر من السماء يشربون منه، ويرعون مواشيهم فيما يخرج منه من الأشجار، ويأكلون وينتفعون بما ينبت الله به من

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الفاضل» (ص٩٥).

الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٢- أن ما يوجد من ماء في الأرض هو مما نزل الله من السماء.

٣- أن الزرع والزيتون والنخيل والأعناب من أنفع الأقوات وأفضل النباتات؛ لهذا خصها الله بالذكر.

٤- أن في إنزاله عز وجل المطر من السماء، وما فيه من منافع عظيمة للعباد منه شرابهم، ومنه شجر أنعامهم، وينبت لهم به الأقوات والفواكه والثمرات؛ آية ودلالة للذين يُعملون فكرهم ويتأملون في آيات الله وآلائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٥- الامتنان على العباد بتسخيره عز وجل الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، وما في ذلك من المصالح والمنافع المختلفة العظيمة للإنسان والحيوان والنبات وسائر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

٦- خضوع جميع المخلوقات وانقيادها لأمر الله تعالى الكوني.

٧- أن من أعظم آيات الله الكونية: الليل والنهار وتعاقبهما، والشمس والقمر وتتابعهما، والنجوم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت ٣٧].

٨- أن في هذه الآيات العظيمة- الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم- وتسخير الله عز وجل لها دلالة عظيمة على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته، وسابغ نعمه، لقوم ذوي عقول ينتفعون بها، فتهديهم إلى تعظيم الله تعالى وشكره وعبادته وحده لا شريك له.

٩- الامتنان على العباد بما ذرأه عز وجل لهم وخلقه وبثه ونشره في الأرض من حيوان ونبات ومعادن وغير ذلك، مختلف الألوان والأشكال والمنافع وغير ذلك، وأنه

عز وجل خلق ذلك كله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

١٠- أن فيما ذرأه الله تعالى وخلقه وبثه في الأرض من مخلوقات مختلفة الألوان والأشكال والمنافع؛ دلالة على عظمته عز وجل، وتمام قدرته، وواسع عطائه ونعمته وكمال وحدانيته لقوم يتذكرون ويعتبرون بالآيات ويتعظون.

١١- فضل التفكر في آيات الله، والتعقل فيها، والاعتبار والاتعاظ بمدلولاتها، وفضل الذين يتفكرون ويعقلون ويتذكرون، وامتداحهم؛ لأنهم هم المنتفعون بالآيات، وذم من لا يتفكرون ولا يعقلون ولا يذَّكَّرون؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١٢- نعمة الله تعالى ومنته على العباد بتسخير البحر؛ ليأكلوا من أسماكه لحمًا طريًّا، ويستخرجوا حلية يلبسونها، ويركبونه على ظهور الفلك التي تمخر عبابه وتجري على سطحه في أسفارهم وتجاراتهم؛ لطلب الرزق والفضل من الله.

١٣- في قوله تعالى: ﴿طَرِيًّا﴾ جمع بين الامتنان عليهم بذلك، والتوجيه لهم بالمبادرة بأكله قبل أن يسرع إليه الفساد، وأنه لا ينبغي أكله إذا ذهبت طراوته، ما لم يحفظ فيما يمنع وصول الفساد إليه من وسائل التبريد ونحو ذلك.

١٤- مشروعية طلب الرزق والربح والفضل من الله، وإيجاده عز وجل الأسباب الكونية المعينة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

١٥- أن الله عز وجل أنعم على عباده بسائر النعم لأجل أن يشكروه ويعبدوه وحده ويطيعوه ولا يعصوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٦- الامتنان على العباد بتثبيت الأرض بالجبال الرواسي؛ لئلا تميد وتضطرب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

١٧- نعمة الله على العباد بجعل الأنهار في الأرض تجري على ظاهرها، وفي باطنها مما يستخرجونه بما وهبهم الله من الوسائل والأسباب لذلك؛ لشربهم، وسقي حروثهم ومواشيهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

١٨- منته عز وجل على العباد بجعل السبل البرية السالكة الواضحة التي يسلكونها في أسفارهم، يهتدون بها، وبما جعل لهم على تلك السبل من علامات، من جبال وآكام يهتدون بها نهارًا في البر والبحر، كما جعل لهم النجوم يهتدون بها ليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

١٩- لا استواء بين الرب الخالق لكل شيء، وبين من لا يخلق شيئًا، بل هو مخلوق ضعيف مملوك مدبر لله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٢٠- الإنكار المؤكد على المشركين في إشراكهم مع الله تعالى الخالق لكل شيء شركاء لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، وعدم تذكرهم واتعاظهم واعتبارهم بأن الخالق لكل شيء المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وملكه وتدبيره فهو واحد أحد في إلهيته وعبادته.

٢١- كثرة نعم الله تعالى على العباد، وأنها تجلّ عن العد والحصر، فلا يستطيع العباد عدها وإحصاءها، فضلًا عن استطاعتهم شكرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾.

٢٢- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٣- أن كثرة نعم الله تعالى بسبب سعة مغفرته ورحمته.

٢٤- أن التخلية قبل التحلية، لتقديم المغفرة على الرحمة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾، «ما»: موصولة، أي: والله يعلم الذي تسرون والذي تعلنون، أو مصدرية، أي: والله يعلم إسراركم وإعلانكم.

أي: والله يعلم الذي تخفونه، وتكتمونه من الأقوال والأعمال في ضمائركم وسرائركم، وفيما بينكم، ويعلم الذي تظهرونه وتبدونه وتجهرون به من الأقوال والأعمال وغير ذلك.

وقدّم علمه بما يسرون؛ لأن السر والجهر عنده سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ١٠﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: ١٣].

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن آمن وأطاع الله، ووعيد لمن كفر وعصى الله، وأنه

سيجازي كلًّا بعمله سرًّا كان أو جهرًا؛ لأن السر والعلانية عنده سواء.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قرأ يعقوب وعاصم بالغيب ﴿يَدۡعُونَ﴾.

وقرأ الباقون بالخطاب: «تدعون»، أي: والآلهة الذين يدعونهم المشركون ويعبدونهم من دون الله من الأصنام والأوثان.

﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق النفي تعم أي شيء، أي: لا يخلقون أي شيء من المخلوقات، مهما كان صغيرًا أو حقيرًا، أو غير ذلك.

﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، أي: والحال أنهم يُخلقون، أي: وعلاوة على كونهم لا يخلقون شيئًا هم مخلوقون لله تعالى مملوكون مربوبون له عز وجل كغيرهم من المخلوقات.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿أَمۡوَٰتٌ﴾، أي: جمادات لا أرواح فيها ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ صفة لـ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ وهي صفة سلبية تدل على كمال ضدها، أي: أموات ليس فيهم شائبة حياة بوجه من الوجوه؛ لأنهم حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، أي: ولا يدرون ولا يعلمون متى يبعثون، أي: متى تكون الساعة، وإنما الذي يعلم ذلك هو الله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ۝٢٣﴾.

قوله: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾، أي: معبودكم أيها الناس معبود واحد، لا رب لكم غيره، ولا معبود بحق سواه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ

ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، أي: فالذين لا يصدقون بالدار الآخرة.

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، أي: جاحدة لوحدانية الله تعالى، جاحدة للبعث والحساب والجزاء على الأعمال. كما قالوا متعجبين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ السين والتاء للمبالغة والتأكيد، أي: مستنكفون عن عبادة الله تعالى، يأنفون من أن يعبدوه تعالى وحده؛ ولهذا توعّدهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [الآية: ١٩]، أي: حقًّا إن الله يعلم الذي يسرون، أي: الذي يخفونه ويضمرونه، والذي يعلنون، أي: والذي يجهرون به ويظهرونه، أي: يعلم سرهم وجهرهم، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم أتم الجزاء.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ وإذا كان لا يحبهم فهو يبغضهم أشد البغض، وسينتقم منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾، أي: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين المشركين المستكبرين.

﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾، «ماذا»: في هذا الموضع والذي بعده مركبة من «ما» الاستفهامية، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي أنزل ربكم.

ويجوز كون «ماذا» كلها اسم استفهام، أي: ماذا أنزل ربكم من الآيات؟

﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أساطير: جمع أسطورة، أي: حكايات الأولين وقصصهم الباطلة الكاذبة التي سطروها في كتبهم، وتناقلها الناس شفاهًا وكتابةً.

أي: إن ربنا لم ينزل شيئًا، وهذا الذي يُتلى علينا باعتبار أنه منزل من عنده ما هو إلا أساطير الأولين اكتتبها محمد، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اللام: للعاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يحملوا أوزارهم، أي: ذنوبهم وآثامهم.

ويجوز أن تكون اللام: للتعليل، ويكون المعنى: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك؛ لأجل أن يحملوا أوزارهم ﴿كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، و«كاملة» حال، أي: حال كونها كاملة يوم القيامة.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾، أي: وليحملوا من أوزار الذين يضلونهم بغير علم، و«من»: تبعيضية، أي: وبعض ذنوب الذين يضلونهم بغير علم، من غير أن ينقص من آثام الأتباع شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من**

الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»(١).

وقوله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، «بغير» جار ومجرور حال من فاعل «يضلون» أو من مفعوله، بحسب المعنى.

فيحتمل أن يكون المعنى: أن هؤلاء المضلين لعدم علمهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن المضللين إنما أوقعوا في الضلال؛ لعدم علمهم.

ولا تنافي بين الاحتمالين، فكل من الفريقين الضال والمضلل لا علم عندهم؛ ولهذا وقعوا فيما وقعوا فيه.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، «ألا» أداة تنبيه، ﴿سَآءَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم، أي: بئس وقبح.

﴿مَا يَزِرُونَ﴾، أي: ما يحملون من الوزر والحمل الثقيل المثقل لظهورهم: وزرهم، ووزر من أضلوهم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

لما ذكر ما عليه المشركون من عبادة ما لا يخلق، والجحود لوحدانية الله تعالى، وللبعث والجزاء على الأعمال، وضلالهم وتضليلهم لغيرهم؛ توعدهم وهددهم بأن يحل بهم ما حل بالماكرين من قبلهم من العذاب العاجل من حيث لا يشعرون مع ما أعد لهم من العذاب الآجل يوم القيامة.

قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤.

قَبْلِهِمْ﴾، أي: الذين من قبل كفار قريش من المشركين والمكذبين، أي: دبروا الكيد لرسلهم ودعوتهم، وآذوهم، فمنهم من قتلوا رسلهم، ومنهم من أخرجوهم، وكذبوا وكفروا بدعوتهم، وصدوا الناس عن اتباعهم.

كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٢- ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ١٢٣].

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، أي: اجتث بنيانهم واقتلعه من أساسه، وأبطل عملهم، وأحبطه من أصله، أي: أبطل وأحبط مكرهم الحسي والمعنوي، الفعلي والقولي، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾، أي: سقط وانهدم عليهم السقف من فوقهم لما اجتثت وقلعت قواعده من أصله وأسسه وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ تأكيد لجملة ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: جاءهم من السماء العذاب والهلاك الدنيوي.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: من حيث لا يعلمون ولم يخطر ببالهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢٠].

وقد ظنوا أن ما بنوه من قصور هائلة عظيمة سيمنعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه، وهذا من مكر الله بهم، مقابل مكرهم برسله واحتيالهم على إبطال ما جاؤوهم به من الحق، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا

بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، أي: يفضحهم ويذلهم على رؤوس الخلائق، فيُظهر ما تنطوي عليه سرائرهم من الكفر والمكر والكيد للرسل ودعوتهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩]، أي: تُظهر وتُشهر.

وأيضًا: يخزيهم ويذلهم بإدخالهم النار، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ قرأ نافع بكسر النون: «تشاقونِ» على حذف ياء المتكلم:، أي: تشاقونني، أي: تعادونني.

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾، أي: تخاصمون وتجادلون وتعادون. والاستفهام في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ للتهكم والتوبيخ والتقريع. والمشاقة: المشادة في الخصومة والمجادلة، أي: أين شركائي الذين كنتم تخاصمون المؤمنين وتجادلونهم في شأنهم، وتعادونهم وتحاربونهم من أجلهم وفي سبيلهم؟

أي: أين هم من نصركم اليوم وتخليصكم من العذاب؟ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل غادر لواء**(١) **يُنصب بغدرته يوم القيامة؛ يقال: هذه غدرة فلان**»(٢).

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون الذين أعطوا العلم الشرعي وهو المعرفة بالله عزَّ وجلَّ، وما يجب له، وهو ما أرسل به رسوله محمدًا ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

---

(١) اللواء: الراية.

(٢) أخرجه: البخاري في الجزية ٣١٨٨، ومسلم في الجهاد، تحريم الغدر ١٧٣٥، والترمذي في السير ١٥٨١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٢.

﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ﴾، أي: الذل والإهانة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة.

﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾، أي: سوء الحساب، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ١٨].

وسوء العذاب، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النمل: ٥].

وسوء الدار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ لكفرهم ومكرهم.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ حمزة وخلف: «يتوفاهم» بالياء على التذكير في الموضعين، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «توفاهم» في الأصل: «تتوفاهم» فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني في محل جر صفة للكافرين أو بدل، ويجوز كونها مستأنفة في محل رفع.

﴿ظَالِمِيٓ﴾ حال، أي: الذين تتوفاهم الملائكة حال ظلمهم أنفسهم، أي: حال بقائهم على الكفر والشرك الذي هو أعظم الظلم.

ومعنى ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تقبض أرواحهم من أبدانهم عند الموت.

وسُمي الميت متوفى؛ لأنه استوفى رزقه وأجله وعمله. والمراد بالملائكة: ملك الموت وأعوانه، وقيل: معنى ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ تحشرهم إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾، أي: استسلموا لأمر الله، أي: أظهروا الاستسلام والسمع والطاعة والانقياد قائلين:

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۚ﴾، «ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة للعموم والنفي من حيث المعنى، أي: ما كنا نعمل أيّ سوء لا قليل ولا كثير.

كما في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: قال الله مكذبًا لقولهم: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أي: بلى كنتم تعملون السوء من الشرك وغيره؛ ولهذا توعدهم بقوله:

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ﴾ الفاء: عاطفة لربط المسبب بالسبب، والأمر «ادخلوا» أمر إلزام وإكراه.

﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾، «جهنم»: اسم من أسماء النار سميت به؛ لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها، وأبوابها: مداخلها، وتطلق على طبقاتها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية، لا تموتون ولا تخرجون منها؛ لأن النار على الصحيح لا تفنى ولا ينقطع عذابها، ولا يفنى أهلها.

﴿فَلَبِئْسَ﴾ الفاء: استئنافية، واللام: للتوكيد، «بئس» فعل جامد يفيد الذم، ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: مأوى ومقر المتكبرين الذين تكبروا واستنكفوا عن عبادة الله تعالى، وتعالوا وتعاظموا على عباد الله.

أي: فساء وقبح مأوى المتكبرين ومقرهم جهنم، دار الآلام والأحزان والندم والحسرات، دار الشقاء والهموم والغموم وموضع سخط الحي القيوم، كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢، غافر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- علم الله تعالى المحيط بكل ما يُسره الخلق وما يعلنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

٢- أن السر والعلانية عنده عزَّ وجلَّ سواء؛ لهذا قدَّم قوله: ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ على قوله: ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

٣- إثبات سعة علمه عزَّ وجلَّ.

٤- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا، والوعيد لمن كفر وتكبر؛ لأن في إثبات علمه عزَّ وجلَّ بما يسرون وما يعلنون إثبات الحساب والجزاء على الأعمال.

٥- تسفيه المشركين في دعائهم وعبادتهم من دون الله آلهة ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٦- ذم كل ما يدعوه المشركون من دون الله من الآلهة وتحقيرهم، فهم لا يخلقون شيئًا، بل هم مخلوقون لله تعالى، أمواتٌ لا حياة فيهم مطلقًا، ولا شعور؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

٧- شتان بين من يعبد الله تعالى الذي يعلم السر والعلن، الخالق، المالك المدبر، الذي بيده الخير والنفع والضر، وبين من يعبد آلهة لا تخلق شيئًا، أمواتًا وجمادات، لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

٨- إثبات وحدانية الله تعالى في ألوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٩- إنكار المكذبين بالآخرة لوحدانية الله تعالى في ألوهيته، وللبعث، والحساب، والجزاء على الأعمال، واستكبارهم عن عبادته، والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

١٠- تأكيد علمه عزَّ وجلَّ بما يسرونه وما يعلنونه تأكيدًا للوعيد؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١١- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٢- نفي محبته عزَّ وجلَّ للمستكبرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، ومفهوم هذا إثبات محبته لغير المستكبرين.

١٣- ذم الكبر وأهله والتحذير منه.

١٤- جحود المشركين لما أنزل الله من القرآن وتكذيبهم به، واعتبارهم إياه من أساطير الأولين وحكاياتهم الكاذبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٥- إثبات العلو لله تعالى، فله سبحانه علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.

١٦- أن القرآن الكريم منزلٌ من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

١٨- شدة عناد المشركين وعتوهم وجرأتهم بوصفهم المنزل من عند ربهم بأساطير الأولين، مع علمهم بأنه ليس كذلك، وقد أعياهم بفصاحته، وبهرتهم بلاغته.

١٩- حمل هؤلاء المستكبرين بقولهم عن القرآن أساطير الأولين أوزارهم يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢٠- أن من دعا إلى ضلالة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص من أوزارهم شيئًا، كما جاء في الحديث(١).

٢١- أن كل من ضل عن الحق وأضل عنه، فضلاله وإضلاله بغير علم؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٢٢- أن العلم والمعرفة بالله عزَّ وجلَّ، وما يجب له من أسباب الحفظ من الضلال مع توفيق الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٣- بئس وقبح ما يزره هؤلاء الذين جمعوا بين الضلال بأنفسهم وإضلال غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

٢٤- تهديد ووعيد المستكبرين المنكرين لوحدانية الله تعالى المكذبين للقرآن؛ بما حل بالذين مكروا من قبلهم من اقتلاع بنيانهم من أساسه، وهدم أعلاه فوقهم، وإبطال مكرهم وكيدهم، وأخذ العذاب لهم في الدنيا من حيث لا يشعرون؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٥- تهديد ووعيد أهل المكر والتكذيب والشرك بالخزي والفضيحة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، والتوبيخ والتقريع لهم؛ لإشراكهم مع الله آلهة لا تملك لهم شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾.

٢٦- أنه يجمع للكفار بين العقوبات الدنيوية والعذاب الأخروي.

٢٧- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾.

٢٨- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما حل بأهل المكر والكيد؛ لإبطال الحق ورده من الأمم السابقة، والسعيد من وُعظ بغيره.

٢٩- أنه قد يؤتى الحذر من مأمنه، ويكون هلاك المرء بما بناه بيده، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وأن العذاب يأتي بغتة وفي غرة وغفلة.

٣٠- أن الخزي يوم القيامة والسوء على الكافرين خاصة بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣١- رفعة منزلة أهل العلم، وعلو مكانتهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم؛ لتقرير مقالتهم والاستشهاد بها في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الآية.

٣٢- فضل العلم، وأنه رفعة لأهله، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

٣٣- أن الوعيد بالخزي والسوء على الكافرين الذين تقبض أرواحهم الملائكة ظالمي أنفسهم بالبقاء على الكفر والشرك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٣٤- أن مآل كل حي سوى الله عزَّ وجلَّ إلى الموت، وأن مآل الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك إلى العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٣٥- إثبات وجود الملائكة، ملَك الموت وأعوانه، وملائكة العذاب وغيرهم.

٣٦- أن من مات فقد استوفى رزقه وأجله وعمله؛ لهذا سُمي الموت وفاة.

٣٧- استسلام الكافرين الظالمين لأنفسهم لأمر الله في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾.

٣٨- إنكارهم ونفيهم أن يكونوا عملوا أي سوء؛ لقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾.

٣٩- تكذيب إنكارهم؛ لأن الله عزَّ وجلَّ عليمٌ بالذي يعملونه، لا يخفى عليه منه شيء، ولا يستطيعون إنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٤٠- إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى؛ لقوله: ﴿عَلِيمٌۢ﴾.

٤١- التهديد والوعيد والتبكيت لهؤلاء الكافرين بأمرهم بدخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾.

٤٢- إثبات وجود نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١].

٤٣- خلود أهل النار فيها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وهو خلود أبدي كما دل القرآن على ذلك، قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾، وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

٤٤- أن نار جهنم بئس مثوى ومقر المتكبرين المستنكفين عن عبادة الله تعالى وطاعته، المتعالين على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

لما ذكر عزَّ وجلَّ سؤال المكذبين عما أنزل ربهم وجوابهم الباطل ومكرهم، وتوعدهم بحمل أوزارهم يوم القيامة، وأوزار الذين يضلونهم بغير علم، والخزي والسوء، ودخولهم جهنم خالدين فيها؛ أتبع ذلك بذكر سؤال المتقين عما أنزل ربهم، وجوابهم الحق عن ذلك، ووعدهم بدار المتقين جنات عدن وما فيها من ألوان النعيم.

وفي ذلك جمع بين الوعد والوعيد، والترغيب في سلوك طريق المتقين، والتحذير من سلوك طرائق المكذبين.

قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾ هذا في مقابل قوله تعالى في الكفار المكذبين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤].

أي: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ﴾، أي: ما الذي أنزله ربكم، وذلك؛ لمعرفة الفرق الشاسع بينهم وجوابهم، وبين المكذبين وجوابهم.

﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾، أي: أنزل خيرًا، فشتان ما بين الفريقين، ويا بُعد ما بين الإجابتين،

شتان بين أهل التوفيق والإيمان، وأهل الكفر والخذلان، شتان شتان.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]، أي: للذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله عزَّ وجلَّ، واتباعًا لرسوله ﷺ، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿حَسَنَةٌ﴾، أي: رزق واسع، وعيشة هنيئة، وطمأنينة قلب وأمن وسرور وسعادة وحياة طيبة، كما قال تعال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: ولدار الآخرة خيرٌ من هذه الدنيا كلها وأحسن مما فيها من حسنة.

لأن كل ما في الدنيا من نعيم ليس بشيء بالنسبة لنعيم الآخرة، مع كونه مصحوبًا بالآفات والأكدار، لا بقاء له ولا دوام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤].

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ هذا في مقابل قوله في المكذبين الكافرين: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٩] الواو: عاطفة، واللام: للتأكيد، «ونعم» فعل ماض جامد لإنشاء المدح.

﴿دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الدار التي أعدها الله للذين اتقوه بفعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، «جنات» خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي، و«عدن» بمعنى: إقامة، أي جنات إقامة أبدية.

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة ل «جنات»، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حال من ضمير الهاء في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، أي: تجري وتسيل تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار.

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ الجملة حالية، والضمير «لهم» للمتقين، و«ما» موصولة تفيد العموم، أي: لهم كل الذي يريدونه في هذه الجنات، فمهما أرادوا من شيء أُعطوه، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء والثواب العظيم يجزي الله ويثيب كل من اتقاه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ سبق الكلام عليه قريبًا.

وقدم ذكر دخولهم الجنة، وما لهم فيها؛ للعناية والاهتمام، ثم أتبعه بذكر طيب حالهم عند الاحتضار، وسلام الملائكة عليهم، وتهنئتهم، والبشارة لهم بالجنة تقديمًا للغاية على الوسيلة، وللأهم على المهم، وللثمرة على ما قبلها.

﴿طَيِّبِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم طيبين، أي: نقيين مخلصين طاهرين من الشرك والرجس والمعاصي.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ حال من الملائكة، أي: حال كون الملائكة يحيونهم بتحية الإسلام، ويهنئونهم ويبشرونهم بالجنة قائلين لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ تحية أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] نسأل الله تعالى من فضله.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أمر تكريم وتهنئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ

إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملونه، أو بسبب عملكم، أي: بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ذكر ما أعد للمتقين من الجنات، وما فيها من النعيم ثم عاد إلى وعيد المكذبين وتهديدهم على تماديهم بالباطل، واغترارهم بالدنيا بأن يحل بهم ما حل بمن قبلهم من الظالمين، وأن يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، «هل» حرف استفهام بمعني «ما» يفيد النفي والإنكار، أي: ما ينظرون، أي: ما ينتظرون، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء مذكرًا: «يأتيهم»، وقرأ الباقون بالتاء مؤنثًا ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾.

«إلا» أداة حصر و«أن» والفعل «تأتيهم» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ ﴿يَنظُرُونَ﴾.

أي: ما ينظرون إلا إتيان الملائكة، أي: إتيان ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم، أو إتيان الملائكة لهم بالعذاب الدنيوي.

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على قوله ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾، أي: ما ينتظرون إلا إتيان الملائكة، أو إتيان أمر ربك بإقامة القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم بعذاب النار، أو بالعذاب الدنيوي.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: هكذا فعل الذين من قبلهم من نظرائهم المشركين، تمادوا في شركهم وضلالهم حتى ذاقوا بأس الله، وحل بهم العذاب والنكال.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين عذبهم؛ لأنه قد أقام عليهم الحجة، وأعذر إليهم بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ولكنهم ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل، والكفر، والشرك، والصد عن دين الله، كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١١٨]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية: ١٠١]، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ١١٧].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: وأحاط ونزل بهم.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: أحاط ونزل بهم الذي كانوا به يستهزئون، أو استهزاؤهم، أي: سخريتهم بالرسل وما جاؤوا به من الحق، وما توعدوهم به من العذاب، وتكذيبهم لهم، وارتكابهم السيئات.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]

الفوائد والأحكام:

١- مقابلة حال الكافرين المكذبين ومآلهم بحال المؤمنين المتقين أو العكس؛ جمعًا بين الوعد والوعيد، وليظهر الفرق الشاسع والبون الواسع بينهما حالًا ومآلا، وشتان

بين الثرى والثريا، وبين الأرض والسماء، شتان بين المخذولين وبين الموفقين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان

٢- أن تقوى الله عز وجل سبب للهداية للحق والصواب وحسن الجواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾.

وشتان بين هذا الجواب وبين جواب المكذبين المخذولين بقولهم، لما قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ﴾؟: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٣- إثبات العلو لله تعالى: علو الذات، وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ۚ﴾

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، كلامه بحرف وصوت، وليس بمخلوق لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ۚ﴾.

٥- إثبات ربوية الله تعالى الخاصة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ ۚ﴾ .

٦- أن القرآن خير خيرية مطلقة، ورحمة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾

٧- وعد الله عز وجل ومنحه للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، من سعة الرزق والأمن والحياة الطيبة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾

٨- الترغيب بالإحسان في هذه الحياة بالإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول صلى وسلم، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجب منها والمستحب؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

٩- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾.

١٠- أن دار الآخرة خير خيرية مطلقة من الدنيا وما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾.

١١- أن دار المتقين نعم الدار جنات عدن يدخلونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ .

١٢- أن الجنات لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، أي: جنات إقامة أبدية.

١٣- عظم نعيم الجنات، فالأنهار تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها، ولهم فيها ما يشاؤون من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

١٤- الترغيب في تقوى الله، لما أعده الله لمن اتقاه من الأجر والجزاء العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

١٥- حسن حال المؤمنين، وطيبها عند توفي الملائكة لهم، وتسليم الملائكة عليهم، وبشارتهم لهم، وتهنئتهم بدخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

١٦- أن الموت غاية كل حي، سوى الحي القيوم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾

١٧- إثبات وجود الملائكة: ملك الموت وأعوانه، وملائكة الرحمة وغيرهم؛ لقوله تعالى ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقوله: ﴿تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

١٨- أن من مات فقد استوفى رزقه وأجله وعمله؛ لهذا سمي متوفى.

١٩- أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس ثمنًا وعوضًا عن دخولها؛ لأنه لا أحد يُدخله عمله الجنة، وإنما العمل مجرد سبب لذلك، ودخولها إنما هو برحمة أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عمله الجنة**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا**»(١).

٢٠- الإنكار على الكفار والمكذبين تماديهم بالباطل، وتهديدهم، وأنهم ما ينتظرون إلا الموت وأخذهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦.

يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ .

٢١- إثبات ربوية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٢- اتباع المكذبين والكفار في التمادي بالباطل فعل الذين من قبلهم من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢٣- أن الله عز وجل ما ظلم هؤلاء حين عذبهم في الدنيا وتوعدهم بعذاب الآخرة، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، فأوقعوها في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٢٤- أخذ الظالمين بسيئات كسبهم، وإحاطة استهزائهم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

لما توعد المشركين وهددهم أن يحل بهم ما حل بالظالمين من قبلهم أتبع ذلك بذكر احتجاجهم على شركهم بالقدر، كما فعل الذين من قبلهم مما لا حجة لهم فيه.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ من أهل مكة مغترين بما هم عليه من الشرك، ومحتجين عليه بالقدر: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: لو أراد الله كونًا.

﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ جملة جواب الشرط «لو»، أي: ما عبدنا غيره، و«من» في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعني، أي: لو شاء الله وأراد كونا ما عبدنا من دونه أيّ شيء، أي: ما عبدنا غيره شيئا من المعبودات، من الأصنام والأوثان وغير ذلك.

﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، أي: ولا عبد آباؤنا غيره شيئًا، ومفهوم قولهم هذا: أن الله شاء ذلك منهم وأحبه.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ نحن ولا آباؤنا ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، أي: من دون تحريمه ﴿مِن شَيْءٍ﴾، أي: أيّ شيء كان، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما حرموه من عند أنفسهم، كما قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ومرادهم: أن ما حصل منا ومن آبائنا من عبادة غيره، ومن تحريم ما لم يحرمه قد شاءه الله وأحبه، أي: أنه لو كان كارهًا لما فعلنا، ولما مكننا منه، ولأنكره علينا وعاقبنا عليه، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الآية: ١٤٨].

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: مثل فعل هؤلاء المشركين في إشراكهم بالله تعالى، وتحريمهم ما لم يحرمه الله، واحتجاجهم بالقدر؛ فعل المشركون من الأمم قبلهم، وقد أهلكهم الله، وعاقبهم أشد العقاب، فلو كان في القدر حجة ومعذرة لهم، ودلالة على محبة الله تعالى لفعلهم؛ لما عاقبهم عليه.

﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، «هل» حرف استفهام بمعنى النفي «إلا» أداة حصر، أي: ما على الرسل إلا البلاغ المبين. والبلاغ: الإيصال، أي: ما على الرسل إلا إبلاغ وإيصال رسالات ربهم إلى أممهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾صفة لـ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾، أي: البلاغ البين الواضح الصريح في نفسه، المبين للهدى من الضلال وللحق من الباطل.

ومن أعظم الضلال وأبطل الباطل، الذي نهى عنه الرسل أشد النهي، وبينوا شدة

حرمته والوعيد الشديد عليه: الإشراك بالله، وتحريم ما لم يحرمه.

والمعنى: أن هؤلاء المشركين وأمثالهم من مشركي الأمم قبلهم قد قامت عليهم الحجة، وبلغتهم الرسل البلاغ المبين، بأمرهم إياهم بعبادة الله تعالى وحده، ونهيهم عن الشرك، فكيف يحتجون بالقدر على شركهم وتحريمهم ما لم يحرمه الله.

ولماذا لم يؤمنوا بالله ويوحدوه، ويحرموا ما حرمه، ويحتجون على ذلك بالقدر، فالقدر لا حجة فيه لأحد، لأن كل ما يجري ويحصل من إيمان وكفر هو بمشيئة الله تعالى، ولا يمكن أن يجري شيء في الكون إلا بمشيئته عز وجل وتقديره الكوني.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد بعثنا، أي: أرسلنا ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَّسُولًا﴾ من لدن قوم نوح إلى أمة محمد ﷺ.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ﴾، «أن» تفسيرية، أي: قلنا لهم اعبدوا الله وحده، ويجوز كونها مصدرية، أي: بأن اعبدوا الله.

﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله، أي: كل ما عبد من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾، أي: فمنهم الذين وفقهم الله فاتبعوا المرسلين قولًا وعملًا.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾، أي: ومنهم الذين وجبت عليهم الضلالة

فتنكبوا سبيل الهدى، واتبعوا سبل الغي والردى.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأبدانكم.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾ بأبصاركم وتفكروا بعقولكم وبصائركم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: كيف كانت عاقبة المكذبين السيئة، ونهايتهم الوخيمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، وقاله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء المكذبين من قومك، وتجتهد وتلح في ذلك.

والحرص: فرط الإرادة الملحة في تحصيل المراد بالسعي في أسبابه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وخلف: ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياء وكسر الدال، وقرأ الباقون: «يُهدَى» بضم الياء وفتح الدال، وألف بعدها: «يُهدَى».

والفاء، تعليلية، و«من» موصولة، أي: فإن الله لا يوفق الذي كتب عليه الضلال، وحقت عليه كلمة العذاب، أي: فلا تستطيع أنت ولا غيرك هدايته مهما حرصت وفعلت كل سبب، أي: إن تحرص على هداهم لا ينفعهم ذلك؛ لأن الله لا يهدي من يضل، قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ

كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ٩٧].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أي: وما لهؤلاء المكذبين الضالين من ناصرين ينصرونهم، فيدفعون عنهم عذاب الله وعقابه؛ لأنه عز وجل لا يغالب ولا يمانع، وعذابه لا يدافع، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧، ٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ذكر عز وجل احتجاج المشركين المكذبين بالقدر على ما هم عليه من الشرك بالله والتحريم من دونه، وأبطل ذلك، ثم ذكر إقسامهم بالله الأيمان المغلظة على نفي البعث.

قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: وحلف هؤلاء المشركون بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: غاية أيمانهم، أي: الأيمان المغلظة المؤكدة المشددة.

﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: حلفوا على أن الله لا يبعث الذي يموت من الخلق، أي: أقسموا على تكذيب وإنكار ما أخبر الله تعالى به في كتبه وعلى ألسنة رسله من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وأنكروا قدرة الله تعالى على ذلك.

﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، «بلى»: حرف جواب لإيجاب المنفي، أي: بلى يبعثهم ﴿وَعْدًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وعد ذلك وعدًا ﴿حَقًّا﴾ صفة لـ«وعدًا» أو مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: حق حقًّا.

أي: بلى يبعث الله الذي يموت ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، أي: وعدًا عليه عز وجل محققًا لا بد منه لا يغيره ولا يبدله، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩] وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

وأمر عز وجل نبيه ﷺ أن يقسم على ذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولهذا وقع أكثرهم في الشرك والكفر وتكذيب الرسل وإنكار البعث بسبب جهلهم وعدم علمهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود: ١٧، الرعد: ١، غافر: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾.

قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يبين لهم الذي يختلفون فيه، أي: بلى إن البعث حق، لأجل أن يبين عز وجل للناس الذي يختلفون فيه من مسائل البعث والحساب والجزاء على الأعمال وغير ذلك من مسائل الدين، ويظهر ذلك على الحقيقة عندما يجازى كل بما عمل، كما قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ معطوف على «ليبين».

أي: ولأجل أن يعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين في إقسامهم وحلفهم: لا يبعث الله من يموت، فيندموا، ولات ساعة مندم، وتكون أعمالهم حسرات عليهم، ويدفعون بشدة إلى النار ويقال لهم تبكيتا وتقريعًا: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤- ١٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾.

بعدما ذكر إنكار المشركين للبعث، وإقسامهم علي ذلك، ونفيهم قدرة الله عليه، وأبطل قولهم، وبين أن البعث حق، وبين الحكمة فيه أتبع ذلك بيان تمام قدرته على ذلك وعلى كل شيء، وأنه إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون.

﴿إِنَّمَا﴾، أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة.

قوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي: «فيكون» بالنصب عطفا على «نقول»، وقرأ الباقون: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع، أي: «فهو يكون».

والمعني: ما قولنا لشيء إذا أردناه من البعث وغير ذلك، إلا أن نقول له مرة واحدة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ، أي: أننا لا نحتاج إلى تأكيد وتكرار أمرنا بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ [لقمان ٢٨] وذلك، لأن له عز وجل الخلق والأمر والسلطان والقهر، فأمره نافذ لا يخالف ولا يمانع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران ٤٧].

قال الشاعر:

إذا مـــا أراد الله أمـــرًا فـــإنما يقـول لـه "كـن" قولـةً فيكـون

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾.

لما توعد المشركين على شركهم وتحريمهم مالم يحرمه الله، واحتجاجهم بالقدر، وإنكارهم البعث وإقسامهم على ذلك، ورد عليهم في ذلك كله، أتبع ذلك بذكر ما أعده للمهاجرين فيه من التوفيق والتيسير في الدنيا والأجر في الآخرة، جزاء صبرهم وتوكلهم على ربهم.

قال ابن كثير(١): «يحتمل أن يكون سبب نزول هذ الآية الكريمة مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة؛ ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم، وجعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم

(١) في تفسيره: ٤/ ٤٩١.

وقد فعل، فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ الآية».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ ، أي: في سبيل الله وابتغاء مرضاته؛ ليتمكنوا من إقامة شعائر دينهم.

والهجرة لغة: الترك، وشرعا: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾، «ما» مصدرية، أي: من بعد ظلمهم، أي: من بعد ظلم المشركين لهم بالأذية والتعذيب لهم؛ ليفتنوهم ويردوهم عن دينهم إلى الكفر والشرك، فهاجروا، فتركوا من أجل ذلك الأهل والأوطان والأحباب والجيران؛ ابتغاء مرضاة الملك الديان.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: لنبوئنهم تبوئة حسنة، أو لننزلنهم دارًا حسنة، ولنمنحنهم بعد الضيق سعة في الأرض والرزق، وسعة في الصدر، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ ١٠٠﴾ [النساء١٠٠]، أي: ما يرغم به أنوف أعدائه من الخير والتمكين والسعة؛ لأن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرًا منه.

وهكذا حصل للنبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه في هجرتهم إلى المدينة، فإن الله سخر لهم الأنصار آووهم وقاسموهم أموالهم وناصروهم، حتي مكن لهم الله في البلاد، وصاروا أئمة وحكامًا على العباد.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ الواو عاطفة، واللام لام الابتداء للتوكيد، أي: ولأجر الآخرة وثوابها أكبر من عطاء الدنيا وحسنتها؛ لأن الدنيا كلها وما فيها لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فهي قليل، ومتاع قليل بالنسبة للآخرة.

وقد جمع الله للمهاجرين في سبيله بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، كما هو مطلب المؤمنين في دعائهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة٢٠١].

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة يعلمون عظم ما ادخر

الله من الجزاء الحسن في الدنيا والأجر والثواب العظيم في الآخرة، ما تخلف أحد منهم عن الهجرة.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ امتداح للمهاجرين على صبرهم وتوكلهم على ربهم؛ ولهذا فازوا بخيري الدنيا والآخرة، أي: الذين صبروا على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، فأسلموا وأظهروا إسلامهم طاعة لله، وصبروا على الأذى والتعذيب من قومهم قبل تمكنهم من الهجرة، وعلى مرارة الخروج من ديارهم وأوطانهم، ومفارقة أهليهم وأولادهم وخلانهم؛ ابتغاء مرضاة الله.

وليس هذا بالأمر السهل، بل هذا من أشد ما يكون على النفوس.

فما أشد مرارة البعد عن الأوطان، ومفارقة الأهل والأولاد والصحب والجيران، خصوصًا إذا كان قسريا، وقد كان من مكر المشركين بالنبي ﷺ محاولتهم طرده وإخراجه بالقوة من مكة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ ٣٠﴾ [الأنفال٣٠].

وقد ضيقوا عليه وعلى دعوته وأصحابه حتى اضطروه للخروج من مكة إلى المدينة، وقد وقف ﷺ على الحَزْوَرَة يخاطب مكة ويقول: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»(١).

كيف وإذا كان الوطن يحتضن مكة والمدينة اللتين فيهما أعظم المقدسات الكعبة، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، اللذين تهفو إليهما قلوب المسلمين في شتى بقاع الأرض.

وقد قال ﷺ: «**من أصبح آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(٢).

وما حال الإنسان بلا بيت يستره، ووطن يؤويه، إنه أشبه حالًا بالعريان والشريد

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٢٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد٤١٤١.من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه رضي الله عنه وكان له صحبة. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

الطريد، وقد أحسن القائل:

ولي وطـــن آليـــت ألا أبيعـــه ... وألّا أرى غـيري لـه الـدهرَ مالكَـا
عمـرت بـه شرخ الشـباب مـنعما ... بصـحبة قـوم أصـبحوا في ظلالكـا
وحبَّـب أوطـانَ الرجـال إلـيهم ... مـآربُ قضّـاها الشـباب هنالكـا
إذا ذَكَـروا أوطـانهم ذكَّـرتهمُ ... عهودَ الصبا فيها فحنوا لذلكا(١)

والصبر بأقسامه الثلاثة من أعظم وأفضل الأعمال، بل وأوجبها، وهو من أجل صفات أولي العزم من الرسل؛ ولهذا أمر الله به رسوله ﷺ والمؤمنين، فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان١٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وبشر عز وجل الصابرين، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة١٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر١٠].

وقال ﷺ في حديثه لابن عباس رضي الله عنهما: «وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»(٢).

وقال ﷺ: «وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»(٣).

وقد أحسن القائل:

اصـبر لكـل مصـيبة وتجلـدِ ... واعلـم بـأن المـرء غـير مخلـد
واصـبر كـما صـبر الكـرام فإنهـا ... نُـوَبٌ تنـوب الآن تُفْـرج مـن غـدِ
وإذا أصـبت مصـيبة تشـجى بهـا ... فـاجبر مصـابك بـالنبي محمـد(٤)

---

(١) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (٥/ ١٨٢٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦٩، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣، وأبو داوود في الزكاة ١٦٤٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٤، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) الأبيات تنسب لأبي العتاهية مع اختلاف فيها. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص١٠٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (٥/ ٨٦).

وقال الآخر:

صبرت على بعض الأذى خوف كله ... وجاهدت عن نفسي بنفسي فقرَّتِ
وجرعتها المكروه حتى تدربت ... ولو لم أجرعها إذن لاشمأزت
إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى ... إلى غير من قال اشتكوا لي فشلت(١)

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وعلى ربهم وحده، خالقهم ومالكهم ومدبرهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون ويفوضون أمورهم إليه وحده، واثقين بعونه ونصره وجعله العاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وهاتان الصفتان- الصبر، والتوكل على الله- هما ملاك نجح المطالب، ونيل المآرب في جميع الأمور الدينية والدنيوية، فمن صبر ظفر وقدر، ومن توكل على الله كفاه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ﴾.

٢- احتجاج المشركين واعتذارهم عن شركهم، وتحريمهم ما لم يحرمه الله هم وآباؤهم بالقدر، مما لا حجة ولا عذر لهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾.

٣- اعتراف المشركين بشركهم، وتحريمهم ما لم يحرمه الله.

٤- تقليدهم لآبائهم تقليدًا أعمى على جهل وضلال في شركهم، وتحريمهم ما لم يحرمه الله.

٥- ينبغي الحذر من التقليد الأعمى والتعصب للآباء، أو لغيرهم من الأحزاب والجماعات على غير هدى، فإن ذلك مزلة قدم، وخطر في الدين.

٦- اتباع المشركين المكذبين من هذه الأمة ما فعله الذين من قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقد قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا**

---

(١) الأبيات تنسب للفيروزابادي مع اختلاف فيها. انظر: «الحياة الأولى» (ديوان شعر) (ص١٧)، «الشكوى والعتاب» (ص٥).

بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»(١)

٧- أن وظيفة الرسل ومهمتهم بالنسبة لأقوامهم هي إبلاغهم إياهم رسالات ربهم البلاغ البين الواضح؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتعريض بالمشركين من قومه.

٨- التسجيل على المشركين فيما فعلوا من الشرك وغيره؛ أنهم بذلك خالفوا ما بلغتهم به رسلهم من البلاغ المبين، وفي هذا إبطال لحجتهم، وقطع لعذرهم، وشهادة للرسل بإبلاغهم إياهم البلاغ المبين.

٩- إقامة الحجة على جميع الأمم ببعثه عز وجل في كل أمة رسولًا يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، واجتناب الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

١٠- أن أصل دعوة الرسل كلهم وأساسها التوحيد، أي: الأمر بعبادة الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك.

١١- انقسام الناس أمام دعوة الرسل إلى قسمين، فمنهم من هداه الله، أي: وفقه فآمن واتبع الرسل، ومنهم من وجبت عليه الضلالة، فكفر وخالف الرسل وكذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

١٢- أن الهداية والإضلال بيد الله، فمن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

١٣- ينبغي السير في الأرض والنظر والتفكر كيف كانت عاقبة المكذبين السيئة ونهايتهم الأليمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

١٤- أن السعيد من وعظ بغيره.

١٥- أن من شكر الله تعالى على ما جعله للإنسان من الجوارح من البصر والعقل

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٣٢٠، ومسلم في العلم ٢٦٦٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وغير ذلك؛ الانتفاع فيها في السير في الأرض، والنظر والتفكر في آثار عقوبات المكذبين، وغير ذلك.

١٦- حرصه ﷺ على هداية المكذبين من قومه مع ما يلقاه منهم من الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾.

١٧- التيئيس من هداية من كتب الله عليهم الضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾.

١٨- أنه لا ناصر للضالين يدفع عنهم عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

١٩- إقسام المشركين وحلفهم بالله الأيمان المؤكدة المغلظة على إنكار البعث، ونفي قدرة الله تعالى عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

٢٠- إثبات البعث، وأنه وعد على الله حق، وإبطال إنكار المشركين له؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾.

٢١- أن أكثر الناس لا يعلمون؛ ولهذا وقعوا بسبب جهلهم وعدم علمهم بالشرك والكفر وتكذيب الرسل وإنكار البعث فلا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢٢- أن الحكمة من بعث الناس بيان الذي يختلفون فيه؛ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وليجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾.

٢٣- بيان تمام قدرته عز وجل على البعث، وعلى كل شيء إذا أراده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

٢٤- ظلم المشركين للمسلمين في مكة، وأذيتهم لهم، وتضييقهم عليهم؛ مما اضطرهم إلى الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴿٤١﴾﴾.

٢٥- وعد الله تعالى للمهاجرين في سبيله في الدنيا حسنة، أي: وطنا يسكنونه،

وسعة في الأرض والرزق، وسعة في الصدر، وغير ذلك، مع ما أعد لهم في الآخرة من الأجر الذي هو أكبر وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾.

٢٦- فضيلة الهجرة في سبيل الله؛ لعظم ما وعد الله به المهاجرين فيه من حسنة الدنيا والأجر الأكبر في الآخرة.

٢٧- أنه لو علم المتخلفون عن الهجرة عظم ما للمهاجر في سبيله من الجزاء الحسن في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة؛ ما تخلف عنها منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

٢٨- امتداح المهاجرين، والثناء عليهم بالصبر؛ لصبرهم على طاعته، وعن معصيته، وعلى ما لقوا في سبيل ذلك من الأذى قبل هجرتهم، ومن العناء بعد هجرتهم، وعلى توكلهم على ربهم، وتمام ثقتهم بوعده وعونه ونصره؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٢٩- أن الهجرة لا تتحقق بدون الصبر والتوكل على الله، فهما أمران لازمان لها ولكل عمل صالح جليل، كالصلاة والجهاد والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك.

٣٠- أن التذرع بالصبر، والتوكل على الله مع تمام الثقة به هما ملاك الأمور كلها، وهما العدة بعد توفيق الله في نُجح المطالب، ونيل المآرب.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ ۝٤٢﴾.

٣٢- وجوب الصبر والتوكل على الله تعالى وحده.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ * وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وما أرسلنا من قبلك يا محمد.

﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رجالًا وبشرًا مثلك، ليسوا ملائكة.

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فلست بدعًا من الرسل، كما قال تعالى له: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] وصيغة القصر لقلب اعتقاد المشركين وقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، أي: نلقي الوحي إليهم. والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، وشرعًا: هو كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

كما قال تعالى: ﴿* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والأمر للمشركين المكذبين للنبي ﷺ، المنكرين أن يكون الرسول بشرًا، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢].

وكما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]

أي: إن شككتم أن الرسل إنما هم من البشر ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

و﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هنا هم أهل الكتاب، والذكر هنا التوراة والإنجيل.

وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين من السلف، ومن بعدهم، قال ابن القيم: «والذكر هنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ، وهما التوراة والإنجيل»(١).

أي: فسألوا أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى: أبشر كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة، فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشرًا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، أي: ليسوا ملائكة وليسوا نساءً، بل رجالًا كاملين.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

وقال تعالى آمرًا للنبي ﷺ لما طلب منه المشركون ما لا يستطيعه البشر: ﴿قُلْ

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٣٨.

سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن الرسل كلهم رجال من البشر، وفي هذا إيماء إلى أنهم في الحقيقة يعلمون ذلك، لكنهم يريدون المكابرة والتمويه لتضليل العامة والدهماء من الناس، سنن المكذبين قبلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ متعلق بـ﴿نُّوحِىٓ﴾ أو بمحذوف تقديره: أرسلناهم بالبينات.

والباء في قوله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ للمصاحبة، أي: مصحوبين بالبينات والزبر، أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين القاطعات والدلائل العقلية والمعجزات.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، أي: اللوح المحفوظ.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلذِّكْرَ﴾، أي: القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وسمي القرآن بـ«الذكر»؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد في أمور دينهم ودنياهم، وأعظم ذلك وأجله: تذكيرهم بربهم، وما يجب عليهم من عبادته وحده لا شريك له.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تبين للناس، أي: تفصل لهم وتوضح.

﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، «ما» موصولة، أي: لتبين للناس الذي نزل إليهم من القرآن والسنة، ببيان ألفاظ القرآن والسنة ومعانيهما وأحكامهما، وبيان ما أجمل في القرآن بما جاء في السنة من التفصيل والبيان.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجملة معطوفة على مقدر، أي: فيسمعون ذلك، ولعلهم يتفكرون، و«لعل» للتعليل، أي: ولأجل أن يتفكروا ويتدبروا فيما أنزل إليهم من

الآيات الشرعية، وفيها دعوا فيها للتفكر والتأمل فيه من الآيات الكونية في السموات والأرض وفي أنفسهم، فيهتدون إلى الحق، فيفوزون بالسعادة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار.

﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: المشركون الذين ارتكبوا السيئات، وعملوا الأعمال السيئة.

وأصل المكر: التدبير بخفية، والمراد به هنا ما هو أعم من ذلك، فيشمل ما كان من السيئات خفية أو غير خفية.

﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول للفعل «أمن»، أي: أفأمن الذين مكروا السيئات خسف الله الأرض بهم، أي: جعلها تبتلعهم وتغيبهم فيها، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الآية: ١٦].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، «أو» عاطفة في المواضع الثلاثة، أي: من حيث لا يشعرون بمجيئه، ومن حيث لا يعلمون، أي: حال غفلتهم بنوم أو لعب أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧].

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ﴾ الله، أو العذاب ﴿فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، أي: في حال تقلبهم، أي: حال سعيهم وتصرفهم في أعمالهم، وفي أمور حياتهم ومعاشهم وتنقلاتهم وأسفارهم من أجل ذلك.

والمراد بقوله: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، أي: أو يأخذهم حال انشغالهم في تقلبهم وحال كون العذاب لم يخطر ببالهم، فيكون على هذا قريبًا من قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وقد يكون المراد عكس ذلك، أي: أو يأخذهم حال حركتهم وعملهم جهارًا نهارًا، فيكون على هذا في مقابل قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: فما هم بمعجزين الله على أي حال كانوا عليه؛ لأنهم في قبضته ونواصيهم بيده، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢]

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، أي: أو يأخذهم العذاب ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، أي: في حال تخوف. والتَّخوُّف في اللغة يأتي مصدر «تخوّف» اللازم بمعنى «خاف»، ومصدر «تخوّف» المتعدي بمعنى «تنقص».

فعلى اعتباره من اللازم يكون المعنى: أو يأخذهم وهم في حالة تخوّف، أي: في حالة توقع نزول العذاب بأن يريهم مقدماته، مثل الرعد قبل الصواعق.

وعلى اعتباره بمعنى «تنقص» يكون المعنى: أو يأخذهم في حالة تنقص من قبل، بأن يتنقصهم قبل الأخذ بأن يكثر فيهم الموتان والفقر والقحط.

والمعنيان متقاربان؛ لأن التنقص الواقع فيهم قبل الأخذ مما يخيفهم أشبه بمقدمات العذاب، وأخذهم على تخوف قد يكون أشد وأعظم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾، «إن» واللام: للتوكيد، أي: فإن ربكم أيها الخلق، ﴿لَرَءُوفٞ﴾، أي: لذو رأفة بعباده، والرأفة: أشد وأخص من الرحمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة بخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: ١٤٧] ولرأفته عز وجل وواسع رحمته لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهلهم ولا يهملهم، كما قال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ

ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «أولم تروا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾.

والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أولم ير المكذبون المنكرون لوحدانية الله تعالى.

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾، «ما» موصولة، أي: أولم ينظروا إلى الذي خلق الله من كل شيء مما له جسم وظل.

﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «تتفيؤ» بالتاء على التأنيث، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟﴾، ومعنى ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾، أي: يميل ظلاله.

والتفيّؤُ: تفعّل من فاء الظل فيئًا، أي: رجع شيئًا فشيئًا، يقال: فاء الظل، أي: رجع من جهة إلى أخرى، أو من جهة الشرق إلى جهة الغرب.

وقد اختلف في «الفيء» فقيل: هو مطلق الظل سواءً كان قبل الزوال أو بعده، وهو الموافق لمعنى الآية، وقيل: الفيء: ما كان بعد الزوال، وما قبله فهو ظل، وقيل غير ذلك.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، أي: يميل ظلاله ذات اليمين وذات الشمال، أي: جهة اليمين وجهة الشمال، أي: جهة المشرق والمغرب.

و«اليمين» بمعنى الأيمان، فهو مفرد قائم مقام الجمع؛ ولهذا جاء في مقابلة «الشمائل» وهي جمع «شمال».

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾، «سجدًا» جمع تكسير «ساجد»، وهي حال، أي: حال كونهم سجدًا لله تعالى سجود انقياد لأمره وتدبيره وقهره، وسجود تعظيم وعبادة، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥]

﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وهم ذليلون خاضعون لعظمة الله تعالى تحت تسخيره وتدبيره وقهره.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾

قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ولله وحده يسجد جميع الذي في السموات والذي في الأرض.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: من كل ما يدب عليها من إنس وجن وحيوان، وطير وحشرات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على «ما» في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: والملائكة له يسجدون، وخصهم بعد العموم؛ لشرفهم وفضلهم وكثرة عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الجملة: حالية، و«السين والتاء» للمبالغة والتأكيد، أي: وهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، أي: لا يستنكفون أن يكونوا عبيدًا لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وهذه السجدة ثالث سجدات القرآن، وهي موضع سجود بالاتفاق.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ الجملة حالية، أي: جمعوا بين تعظيم الله عز وجل بالسجود والخضوع والذل له، وتعظيمه بالخوف منه والإقرار بفوقيته وعلوه عليهم بذاته وقهره وأمره.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، أي: ويفعلون الذي يأمرهم الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨].

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾.

قوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، أي: لا تجعلوا معبودين اثنين ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: ما هو إلا معبود واحد، هو الله عز وجل وحده، فلا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال:

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فإياي وحدي فخافون.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ الجملتان معطوفتان على جملة ﴿هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، أي: وله وحده كل الذي في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾أي: وله وحده ﴿ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾، أي: ثابتًا دائمًا وواجبًا وخالصًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، و«الدين»: التدين والطاعة.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أفغير الله من المخلوقات تتقون وتخافون مما لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، وتعدلون عن تقوى الله الذي له ملك السموات والأرض، وله الدين واجبًا خالصًا وبيده كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥﴾

قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الباء: للملابسة، أي: وما بكم من نعمة ظاهرة أو باطنه فمن الله تعالى وحده.

أي: إن كل ما أنتم مغمورون فيه من النعم التي لا تحصى هي من الله تعالى وحده، قال ابن القيم: «فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة»(١).

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٣٧.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾، أي: ثم إذا أصابكم الضر من فقر ومرض وشدة وغير ذلك ﴿فَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ تضجون بالدعاء والتضرع والاستغاثة به وحده، متناسين شركاءكم؛ لعلمكم أنه لا يكشف الضر إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧، يونس: ١٠٧]

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾، أي: أزاله ورفعه عنكم.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، «إذا» هي الفجائية، أي: إذا فريق منكم بعد لجوئهم إلى الله، وتضرعهم إليه، وكشفه الضر عنهم يفاجئون بالرجوع إلى الشرك بربهم، فأخلصوا له في حال الشدة والضراء، وأشركوا به في حال اليسر والرخاء.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ [الروم: ٣٣- ٣٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ

مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ اللام لام العاقبة، و«ما» موصولة، أي: عادوا إلى الشرك بربهم بعد كشف الضر عنهم؛ لتكون عاقبتهم أن يجحدوا ويكفروا بالذي أعطيناهم من النعم حيث نجيناهم من الشدة وخلصناهم من المشقة.

ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل، أي: قيّضنا لهم ذلك ليكفروا .

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ التمتع: العيش والانتفاع بالمتاع، أي: فتمتعوا في دنياكم بما أنتم فيه من العيش قليلًا، واعملوا ما شئتم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعلمون عاقبة كفركم وعدم شكركم، وفي هذا وعيد شديد لهم، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ رسالاته إلى أهل الأرض وأوحى إليهم؛ كلهم رجال من البشر ليسوا ملائكة، وليس فيهم أنثى، ولا رسول من الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وأنه آخر الرسل، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾.

٣- أن بعثة الرسل وإرسالهم إنما تكون بعد اكتمال رجولتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾.

٤- أن رسالات الله تعالى إلى الأنبياء إنما تكون بوحي الله تعالى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾.

٥- أمْر المشركين المكذبين للنبي ﷺ والمنكرين أن يكون الرسول بشرًا بسؤال أهل الذكر، وهم أهل الكتاب قبلهم: هل كان الرسل ملائكة أو بشرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦- إطلاق الذكر على التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة سابقًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ فالمراد بهم أهل الكتاب، وكما في قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

كما سمي بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

٧- فضل العلم وأهله، وأن أعلى أنواعه العلم بما أنزل الله تعالى من الذكر؛ لأن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إلى أهل العلم، وفي هذا تعديل وتزكية لهم، وأن الجاهل يخرج من التبعة بسؤالهم، وأن الله ائتمنهم على وحيه، فيجب عليهم تزكية أنفسهم، بالعلم والورع والزهد والعمل بالعلم، وصيانة علمهم، وأفضل أهل العلم أهل العلم بالقرآن الكريم، لأنه أعظم الذكر وأفضل العلم، وهم أهل الله وخاصته كما جاء في الحديث(١).

٨- ليس في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ تزكية لأهل الكتاب، وإنما سموا- أو وصفوا- بأهل الذكر؛ لأن الله أنزل عليهم الذكر، فأنزل التوراة على موسى، وأنزل الإنجيل على عيسى عليهما السلام، كما سموا أهل الكتاب؛ لأن الله أنزل عليهم الكتاب.

٩- أن الحق ما شهدت به الأعداء، ففي الأمر بسؤال أهل الكتاب مع عداوتهم للنبي ﷺ وإنكارهم لرسالته عن كون الرسل بشرًا؛ إرغام للمشركين المنكرين لذلك، على أنه قد يحتمل أن المراد بأهل الذكر في الآية المؤمنون من أهل الكتاب، وهؤلاء كما يشهدون ببشرية الرسل كلهم يشهدون أيضًا بصدقه ﷺ في رسالته، وفي هذا إرغام للمشركين بعد إرغام.

١٠- تنزل القرآن في خطابه المكذبين المعاندين؛ لإفحامهم وإلزامهم الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فنزلهم منزلة من لا يعلمون، وهم في ظاهر الأمر معاندون مكابرون.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الإيمان (٢١٥)، من حديث انس بن مالك رضي الله عنه.

١١- أن الله عز وجل أرسل الرسل عليهم السلام بالآيات البينات والحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات، والكتب التي فيها الهدى والنور؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾.

١٢- إنزال الذكر عليه ﷺ ليبين للناس ما نزل إليهم من القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

١٣- أن السنة مبينة للقرآن ومفصلة له.

١٤- أن إنزال الذكر عليه ﷺ وأمره بأن يبين للناس ما نزل إليهم من القرآن والسنة هو لأجل أن يتفكروا، أي: يُعملوا فكرهم وعقولهم في ذلك وينتفعوا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٥- تهديد الذين يمكرون السيئات أن يخسف الله بهم الأرض، أو يعاجلهم بالعذاب من حيث لا يشعرون به، أو يأخذهم في تقلبهم وتصرفهم في معاشهم، أو على حين تخوف منهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

١٦- أن العذاب يأتي بغتة من حيث لا يخطر ببال المعذبين، فلا يشعرون إلا وقد وقع بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١٧- أن العذاب قد يأخذ الناس حال تقلبهم وتصرفهم في معاشهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾، أي: حال انشغالهم في أعمالهم ومعائشهم، أو حال انتشارهم، أي: جهارًا نهارًا.

١٨- أن الذين يمكرون السيئات ما هم بمعجزين الله أن يأخذهم بأي صنف من أصناف العذاب، لتمام قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

١٩- أن العذاب قد يأتي على حين تخوّف منه وتوقع لنزوله بوجود مقدماته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وهذا قد يكون أشد.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾.

٢١- إثبات صفتي الرأفة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٢- عدم معاجلته عز وجل من عصاه بالعقوبة؛ لرأفته ورحمته، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل.

٢٣- الإنكار على المكذبين في وحدانية الله تعالى عدم نظرهم وتأملهم في عظمة الله عز وجل، وعظيم ما خلقه عز وجل من جميع الأشياء وسجودها له، تذللًا وخضوعًا له، وانقيادًا لأمره وقهره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾.

٢٤- أن لله وحده يسجد كل ما في السموات وما في الأرض من دابة، سجود تذلل وخضوع وعبادة لله عز وجل، وسجود انقياد لأمره وقهره؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

ولا يستثنى من السجود لله سجود تذلل وخضوع وعبادة سوى كثير من الناس حق عليهم العذاب، كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الآية: ١٨].

٢٥- إثبات وجود الملائكة وفضلهم وشرفهم؛ لكثرة عبادتهم؛ لهذا خصهم بالذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٢٦- خضوع الملائكة وتذللهم لله تعالى، ومداومتهم على عبادته، وعدم استنكافهم عن عبادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٢٧- خوف الملائكة ربهم من فوقهم، وطاعتهم له، وقيامهم بأمره؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾.

٢٨- نهي الله عز وجل عن اتخاذ إلهين اثنين، وإثبات وحدانيته، وأنه لا إله إلا هو أحد فرد صمد؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٢٩- وجوب خوفه عز وجل وحده، والرهبة منه دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ

فَٱرۡهَبُونِ﴾ .

٣٠- عظمة الله عز وجل، وسعة ملكه، وأن له وحده ملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ .

٣١- أن لله عز وجل وحده الدين والطاعة والتعبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

٣٢- أن من دان وتعبد لغير الله فليس على شيء؛ لأن الدين والتعبد إنما هو حق لله تعالى وحده.

٣٣- التوبيخ والتقريع للذين يتقون ويخافون غير الله الذي تجب تقواه والخوف منه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

٣٤- أن جميع ما بالخلق من نعمة هي من الله تعالى وحده، يجب شكره عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

٣٥- لجوء الخلق كلهم عندما يمسهم الضر إلى الله تعالى وحده، ودعاؤهم وتضرعهم إليه بما فيهم المشركون؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾.

٣٦- رجوع المشركين بعد كشف الضر عنهم إلى الشرك، وكفرهم نعمة الله تعالى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾.

٣٧- الوعيد والتهديد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۖ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذه الآيات في سياق ذكر ما عليه المشركون من الشرك والافتراء على الله تعالى، وكفران نعمه.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾، أي: ويجعل هؤلاء المشركون والكفار، أي: يصيرون ويضعون، والتعبير بالمضارع؛ للدلالة على استمرارهم في ذلك وتجدده منهم.

﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: للذين لا يعلمون من الأصنام والأوثان التي يعبدونها، وهي جمادات لا تنفع، ولا تضر، ولا تعقل.

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، أي: حظًّا وقسمًا من الذي أعطيناهم من رزقنا من الحرث والأنعام، بل وفضلوهم في هذا النصيب على الله.

فبدل أن يشكروا الله تعالى على ما رزقهم وأعطاهم من ذلك؛ استعانوا به على الشرك بالله، وتقربوا به إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ التاء: للقسم، واللام واقعة في جواب القسم.

و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله لتسألن عن الذي كنتم تفترون، أو عن افترائكم.

أي: لتسألن وتحاسبن وتجازون عن الذي كنتم تختلقونه من الكذب والإفك على الله تعالى من إشراك هذه الآلهة معه، وجعلها شريكة له فيما رزقكم.

وفي هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى، كما قال تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [يونس: ٦٠].

وأكد سؤالهم بالقسم؛ لأنهم ينكرون البعث كله، وأتى بفعل المضارع في قوله: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ للدلالة على تجدد ذلك منهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ﴾، أي: ويجعل هؤلاء المشركون لله البنات وينسبونهن إليه- كذبًا وزورًا- فيقولون: الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧].

فأخطؤوا خطأً عظيمًا وارتكبوا إثمًا مبينًا في نسبة الولد إلى الله تعالى، وهو سبحانه الذي لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ ولدًا.

وأخطؤوا ثانيًا في جعل البنات له سبحانه، ولهم البنون، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١- ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١- ٢٢].

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا من الله تعالى لنفسه عن قولهم وإفكهم في نسبتهم الولد والبنات له عز وجل.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ويجعلون لهم، أي: لأنفسهم الذي

يشتهون وهم البنون، كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ذكر في الآية السابقة جعلهم البنات لله ولهم ما يشتهون، أي: الأبناء، ثم بين شدة كراهتهم للبنات وأنفتهم منهن، فكيف نسبوهن إلى الله؟! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾، أي: بولادة الأنثى.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾، أي: صار وجهه ﴿مُسْوَدًّا﴾، أي: مسود اللون متغيرًا كئيبًا من الهم والغم؛ استياء لما بشر به من ولادة الأنثى له.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: وهو حزين ممتلئ غيظًا وهمًا، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، أي: يستخفي من الناس؛ حياءً منهم، وكراهية أن يروه فيعيبوه.

﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، «من» سببية، أي: بسبب سوء الذي بشر به، وهي الأنثى، خوف التعيير به، وكأنه بذلك ارتكب أعظم جرم.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ بدل من قوله: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، والهمزة للاستفهام، أي: أيبقي هذا الذي بشر به، وهي الأنثى فلا يقتلها؟

﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾، أي: على إهانة وإذلال منه لها، فلا يكرمها ولا يعتني بها، ولا يورثها، بل يهضمها حقها، ويفضل الذكور عليها.

﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾، «أم» حرف عطف، أي: أم يدفنه في التراب حيًّا، أي: أم يئد هذه الأنثى، فيدفنها في التراب وهي حية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩].

ومعنى الآية أنه يستخفي عن أنظار قومه بسبب سوء الذي بشر به- في نظره- خوفًا أن يعيروه به، مترددًا بين أحد هذين الأمرين: أيبقيه حيًّا مع إهانته وإذلاله، أم يدفنه في التراب ليموت.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، «ألا»: حرف تنبيه، أي: ألا ساء وقبح وبئس الحكم الذي يحكمون به من نسبة الولد إلى الله عز وجل، وجعل البنات له، واختيارهم الذكور، كما قال تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣- ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

وبئس ما يحكمون أيضًا من استيائهم بولادة الأنثى، والتردد بين إمساكها حيةً مهينةً ذليلةً حقيرةً مظلومةً مهضومةً عندهم، أو دفنها في التراب وهي حية.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

لما كان نسبة الولد إلى الله عز وجل من أمثال السوء التي نسبها إليه المشركون، وأسوأ من هذا جعل البنات له دونهم؛ أتبع ذلك ببيان أن لهم خاصة مثل السوء، وله خاصة عز وجل المثل الأعلى.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: لهؤلاء المشركين والكفار الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، أي: لا يصدقون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾، أي: المثل السيئ، والوصف القبيح، والنقص التام؛ ولهذا ضرب الله لهم ولأمثالهم من المكذبين أسوأ الأمثال، فضرب لهم مثلًا بالكلب، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦- ١٧٧].

وضرب لهم مثلًا بمن كان ميتًا، وبمن هو خالد في الظلمات ليس بخارج منها؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وضرب لهم مثلًا بمن يمشي مكبًّا على وجهه، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وضرب لهم مثلًا بالأنعام، وبما هو أضل، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: الوصف الأعلى، والكمال المطلق من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

و ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: «أفعل» تفضيل، أي: الأعلى على غيره.

فكل وصف كمال، وكل كمال في الوجود فالله أولى وأحق به، فله المثل الأعلى في سمعه وبصره وعلمه ووجهه وسائر صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والمعرفة.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، «العزيز» اسم من أسماء الله- عز وجل- يدل على أنه سبحانه ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، يدل على أنه سبحانه ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لما ذكر ما افتراه عليه المشركون الظالمون ذكر كمال حلمه وأنه يمهل ولا يهمل.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: ولو يعاقب الله الناس ﴿بِظُلْمِهِم﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب ظلمهم، وهو ما هم عليه من الشرك والكفر والافتراء على الله تعالى.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: ما ترك على الأرض من دابة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

و﴿مِن﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

﴿دَآبَّةٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ما ترك عليها أيَّ دابة.

و﴿دَآبَّةٍ﴾ اسم لكل ما يدب على الأرض، أي: يمشي عليها من الحيوانات، أي: لأهلك كل ما على وجه الأرض من الدواب بسبب شؤم ظلم الظالمين من بني آدم ومعاصيهم التي بسببها يهلك الحرث والنسل، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وعن أبي عبيدة قال: قال عبد الله «كاد الجعل أن يهلك في جحره بخطيئة ابن آدم»(١).

وعن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلًا يقول: «إن الظالم لا يضر إلا نفسه. قال: فالتفت إليه. فقال: بلى والله، إن الحبارى لتموت في وكرها هزالًا بظلم الظالم»(١).

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾، أي: ولكن بحلمه عز وجل يؤخرهم، أي: يمهلهم وينظرهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين تقضيه حكمته؛ ليتوب من يتوب فيغفر له، ويصر من يصر فيزداد عذابًا.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا جاء وقت هلاكهم المحدد لهم في الدنيا ويوم القيامة.

﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ السين والتاء في ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ للمبالغة، أي: لا يتأخرون عن أجلهم ساعة، ولا يتقدمون عنه ساعة، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الآية: ٣٤]، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الآية: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٢٦٠).

٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، أي: ويجعلون لله الذي يكرهونه من البنات، وهذا تصريح بمفهوم قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وأيضًا: يجعلون لله ما يكرهون من الشركاء؛ لأنهم يكرهون أن يكون معهم شركاء في أموالهم ومماليكهم، فكيف يشركون مع الله غيره.

وأيضًا يجعلون لله شركاء من عبيده وخلقه، وهم يكرهون أن يكون عبيدهم- وهم مخلوقون من جنسهم- شركاء لهم في أموالهم.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾، أي: وتقول وتدعي ألسنتهم الكذب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ بدل من ﴿الْكَذِبَ﴾، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن لهم الحسنى، أي: العاقبة الحسنى في الدنيا، وفي الآخرة إن كان ثمة معاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، وقال تعالى إخبارًا عن أحد الرجلين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦].

فجمع هؤلاء بين عمل السوء وبين تمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسنًا، وذلك

مستحيل، إذ لا يجنى من الشوك العنب؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، أي: حقًّا أن لهم النار يوم القيامة، ولا شك.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾. قرأ أبو جعفر: «مفرِّطون» بكسر الراء وتشديدها، أي: مفرِّطون في أداء حقوق الله تعالى، متساهلون فيها، مضيِّعون لها، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقرأ نافع: «مفرِطون» بكسر الراء وتخفيفها، أي: مفرطون في الذنوب والمعاصي مكثرون منها، مسرفون على أنفسهم.

وقرأ الباقون: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ بفتح الراء وتخفيفها، أي: متروكون في النار، منسيون فيها مضيَّعون، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

في هذا تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب قومه وإشراكهم بالله وافترائهم على الله؛ بإخباره بما حصل من الأمم السابقة من تزيين الشيطان لهم التكذيب ومخالفة الرسل، وما توعدهم الله تعالى به من العذاب الأليم.

قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ التاء- كما سبق- للقسم، واللام واقعة في جواب القسم، و«قد»: حرف تحقيق، و«أمم»: جمع «أمة»، ونكرت للتكثير، أي: أمم كثيرة، والخطاب للنبي ﷺ.

أي: والله لقد أرسلنا رسلًا إلى أمم من قبلك بمثل ما أرسلناك إلى أمتك.

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: فحسن لهم الشيطان ما هم عليه من الشرك والكفر والعناد وتكذيب الرسل، فرأوا أن ما هم عليه هو الحق، فأطاعوه واتبعوه. كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وكما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: فهو متولي أمورهم في الدنيا، يزين لهم الشر والكفر والمعاصي، فيطيعونه ويتبعونه، يؤزهم ويستفزهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

[مريم: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وفي قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ تهكم بهم؛ لأن الولي في الحقيقة من يجلب الخير ويدفع الشر، لا من هو بضد ذلك، فهذا هو العدو، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، حين لا صريخ لهم، ويتولى الشيطان عنهم ويقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

بعد تسليته ﷺ ببيان ما حصل للرسل قبله من أممهم من التكذيب والعناد؛ بين في هذه الآية أن المقصود من إنزال الكتاب عليه هو بيان ما اختلف فيه، وهدى ورحمة للمؤمنين، وليس عليه هداية الخلق.

قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: وما أنزلنا عليك يا محمد القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، أي: إلا لأجل أن تبين للناس الذي اختلفوا فيه، ببيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والتوحيد من الشرك، وغير ذلك.

﴿وَهُدٗى﴾، أي: بيانًا وإرشادًا ونورًا للقلوب باطنًا، ورشادًا لمن اتبعه ظاهرًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ بالله تعالى، وما أوجب الإيمان به وشرعه، وخصهم بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن دون من عداهم من الكفار، فما يزيدهم إلا نفورًا ورجسًا إلى رجسهم.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين والكفار وما هم عليه من الجهل والافتراء على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ الآية وما بعدها.

٢- ظلم المشركين وكفرهم نعمة الله في جعلهم لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾.

٣- سفاهة عقول المشركين وجهلهم المركَّب؛ حيث عبدوا من دون الله آلهة لا تعلم شيئًا ولا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٤- أن الرزق من الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، وهذا يوجب الاستعانة به على طاعته، وشكر نعمه وعدم كفرها، وطلب الرزق منه وحده.

٥- الوعيد الأكيد والتهديد الشديد للمشركين الذين عبدوا غير الله، وجعلوا

لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾، أي: لتسألن عن ذلك، وتحاسبن وتجازون عليه.

٦- جرأة المشركين وكذبهم وافتراؤهم على الله تعالى بنسبة الولد إليه، ومن ثم تخصيصه بالبنات، واختيارهم لأنفسهم الذكور؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾.

٧- كراهة المشركين البنات وأنفتهم منهن- جهلًا منهم- وظلمًا، واستياؤهم وحزنهم وغيظهم من ولادتهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

٨- اعتبارهم- لشدة حمقهم وجهلهم- أن ولادة الأنثى عار وعيب يعابون به، وتواري أحدهم عن الأنظار بسبب ولادة الأنثى له؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾.

٩- تردد الواحد منهم- بسبب حمقهم وجهلهم وظلمهم- إذا رزق بنتًا، بين أن يبقيها حية مع إهانته وإذلاله لها وهضم حقها، وبين أن يئدها ويقتلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾.

١٠- بئس ما حكم به هؤلاء المشركون من نسبة الولد إلى الله تعالى، وجعل البنات له، ولهم الذكور، ومن إبقاء المولودة مع إهانتها وإذلالها، أو دفنها وقتلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

١١- أن للذين لا يؤمنون بالآخرة من هؤلاء المشركين وأضرابهم المثل السوء والوصف القبيح والنقص التام والعيب؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾.

١٢- أن لله عز وجل المثل الأعلى والكمال المطلق من جميع الوجوه، والوصف التام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

١٣- إثبات اسم الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وأن له عز وجل العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

١٤- إثبات اسم الله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وأن له سبحانه الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة: الحكمة الغائبة والحكم الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٥- حلم الله عز وجل على الناس وإمهاله لهم مع ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

١٦- أن العقاب إذا نزل قد يعم الصالح والطالح حتى الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

١٧- أن الله تعالى يمهل ولا يهمل، ويؤخر الظالمين إلى أجل مسمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٨- إذا جاء أجل الله تعالى بأخذ الظالمين وإهلاكهم فإنهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

١٩- جعل المشركين لله تعالى ما يكرهون من البنات، ومن الشركاء، فهم يكرهون البنات، ويكرهون أن يشاركهم أحد في أموالهم، سواء من مماليكهم أو من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

٢٠- كذب المشركين وزعمهم- مع ما هم عليه من الشرك والافتراء على الله- أن لهم العاقبة الحسنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٢١- الوعيد الأكيد للمشركين بالله المفترين عليه الكذب بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، أي: حقًّا ولا شك أن لهم النار.

٢٢- ذم هؤلاء المشركين المفترين على الله بتفريطهم في جنب الله، وإفراطهم في المعاصي، وتوعدهم بسبب ذلك بتركهم في النار، ونسيانهم فيها وإضاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ على القراءات الثلاث فيها.

٢٣- إثبات النار وأنها موجودة الآن أعدت للكافرين.

٢٤- تسلية الرسول ﷺ تجاه تكذيب قومه، ببيان ما حصل للرسل عليهم السلام قبله من تكذيب أممهم لهم وتزيين الشيطان لهم أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٢٥- تولي الشيطان في الدنيا لمن كفروا بالله وخالفوا رسله؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾.

٢٦- الوعيد لمن والى الشيطان وأطاعه واتبعه، وخالف رسل الله؛ بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٧- أن المقصود من إنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ بيان ما اختلف الناس فيه، ببيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، وهدايتهم ورحمتهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٢٨- إثبات العلو لله على خلقه فهو عال عليهم بذاته وصفاته، وإثبات أن القرآن منزَّل من عند الله تعالى غير المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢٩- أنه لا ينتفع بالقرآن الكريم وما فيه من الهداية والرحمة إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المطر، والمراد بالسماء: العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، [البقرة:١٦٤].

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ الباء للسببية، أي: فأحيا بسبب الماء الأرض بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، أي: بعد أن كانت ميتة يابسة جرداء هامدة خاشعة، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها ﴿لَءَايَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة ظاهرة من أعظم الدلائل على وحدانية الله تعالى وتمام قدرته على البعث، وعلى أن الله عز وجل- كما جعل الماء حياة للأرض بعد موتها كذلك جعل القرآن الكريم حياة للقلوب بعد أن كانت ميتة.

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يسمعون الآيات سماع إصغاء بآذانهم، وسماع فهم وانتفاع بقلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا

خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وإن لكم أيها الناس ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم.

﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لعظة وآية ودلالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ولطفه ورحمته.

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ الجملة بيان لقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ قرأ أبو جعفر بالتاء مفتوحة «تسقيكم» وقرأ الباقون بالنون، فتحها نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر: «نَسقيكم» وضمها الباقون: ﴿نُّسْقِيكُم﴾.

أي: نسقيكم من الذي في بطونه، وأفرد الضمير في ﴿بُطُونِهِۦ﴾ على معنى: نسقيكم مما في بطون هذا النعم أو الحيوان.

وفي آية سورة المؤمنون: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [الآية: ٢١].

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما في الكرش ﴿وَدَمٍ﴾ وهو ما في العروق من الدم ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ نقيًّا صافيا، لا يشوبه شيء مما يكدره.

﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذًا لا يغص به شاربه، ويسقي ويغذي.

قال ابن كثير[1]: «أي: يتخلص الدم: بياضه، وطعمه، وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به».

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

لما امتن عليهم بما يخرجه لهم من ضروع الأنعام من لبن خالص سائغ للشاربين أتبع ذلك بذكر ما امتن به عليهم مما أخرجه لهم من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا.

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٤٩٩.

قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾، أي: وأخرج لكم من ثمرات النخيل والأعناب ثمرًا، أو عصيرًا تتخذون منه سكرًا.

أو معطوفة على قوله: ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وإن لكم فيما أخرج لكم من ثمرات النخيل لعبرة.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، أي: تجعلون مما أخرج لكم من ثمرات النخيل والأعناب من التمر أو العصير ﴿سَكَرًا﴾ وهو ما كانوا يصنعونه من النبيذ المسكر من التمر وعصير العنب، وذلك قبل تحريمه.

وقيل المراد بالسكر: الطعام والشراب اللذيذ؛ لقوله بعده: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال السعدي(١): «وهو أولى من القول الأول».

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو التمر والزبيب.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: إن فيما يخرجه لكم من ثمرات النخيل والأعناب من ثمر تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا.

﴿لَءَايَةً﴾ اللام للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وفضله ونعمته ورحمته.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم ينتفعون بعقولهم، فيهتدون بها إلى التفكر والتأمل في آلاء الله تعالى ونعمه وشكرها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٤-٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) ٤/ ٢١٧.

لما امتن عليهم بما يخرجه لهم من بطون الأنعام من اللبن وما يخرجه لهم من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا؛ امتن عليهم بإيحائه إلى النحل لاتخاذ البيوت والأكل من كل الثمرات ليخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه، و«النحل»: هي الحيوانات المعروفة، أي: وأوحى ربك إلى النحل وحي إلهام وهداية، أي: ألهمها وهداها، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، أي: هدى كل مخلوق لما خلق له، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، أي: قدر مقادير الخلق كلهم، ثم هدى كل مخلوق لما قدّر له.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، «أن»: تفسيرية، أو مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ ﴿وَأَوْحَىٰ﴾، أي: اجعلي من الجبال بيوتا، ومن الشجر ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، أي: ومن الذي يعرشون، أي: ومن الذي يبنون من البيوت والسقف للنحل.

وقد ألهمها الله عز وجل في اتخاذ بيوت تأوي إليها، وتضع فيها ما تخرجه من بطونها من هذا الشراب، غاية الإحكام والإتقان ودقة النظام، في بناء هذه البيوت، وتسديدها ورصها؛ بحيث لا يكون فيها خلل يتسرب منه العسل أو تنفذ إليها منه الحشرات.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: ثم أذن لها كونا وقدرًا وسخرها وألهمها بالأكل من كل الثمرات؛ ليجتمع لها جميع ما في هذه الثمرات الكثيرة المتنوعة من الفوائد، فيأتي ما يخرج من بطونها من شراب مشتملًا على شتى الفوائد، وأعظم المنافع.

﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، أي: فاسلكي المسالك والطرق الحسية التي جعلها ربك وذللها، واسلكي طرق العمل ووسائله التي ألهمك الله إياها، وهكذا ألهمها الله وسخرها وأقدرها، فهي تنتقل في البراري الشاسعة بين السهول والأودية الواسعة والجبال الشاهقة، وتقطف من كل ثمرة زهرتها، ثم تعود إلى بيوتها، لا تحيد عنها ولا تخطؤها، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها،

ثم تصبح إلى مراعيها وهكذا[١].

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ تقيئه من فيها ﴿شَرَابٌ﴾ وهو العسل.

﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ صفة لـ ﴿شَرَابٌ﴾، أي: مختلف ألوانه بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الجميلة الحسنة، حسب اختلاف مراعي النحل ومأكلها منها.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «إن أخي استطلق بطنه، فقال: **اسقه عسلًا**، فسقاه عسلًا، ثم جاءه، فقال: يا رسول الله، سقيته عسلًا فما زاده إلا استطلاقًا، قال: **اذهب فاسقه عسلًا**، فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله: **صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلًا**. فذهب فسقاه فبرأ»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي**»[٣].

﴿فِيهِ﴾، أي: في هذا الشراب، وهو العسل ﴿شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ من كثير من الأدواء والأمراض التي تصيبهم، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد قال بعضهم: لو قال: «فيه الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

قال ابن كثير[٤] بعد أن ذكر المقالة السابقة «أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة؛ فإنه حار والشيء يداوى بضده».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إيحائه عز وجل إلى النحل هذه المخلوقات الضعيفة، وتسخيرها لاتخاذ البيوت، والأكل من كل الثمرات، وسلوك الطرق المذللة في البراري والمهامه الواسعة من أجل ذلك، ومن ثم جمعها للشمع والعسل الذي فيه شفاء للناس.

---

(١) انظر (تفسير ابن كثير) ٤/ ٥٠١

(٢) أخرجه مسلم في السلام- التداوي بسقي العسل (٢٢١٧).

(٣) أخرجه البخاري في الطب الدواء بالعسل (٥٦٨٠)، وأخرجه أيضًا بنحوه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (٥٦٨٣)، وكذا أخرجه مسلم في السلام لكل داء دواء واستحباب التداوي (٢٢٠٥).

(٤) في (تفسيره) ٤/ ٥٠١.

﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لدلالة لقوم يتفكرون في عقولهم ويستدلون بذلك على عظمة خالقها وملهمها ومسخرها ومقدرها، وتمام قدرته، وبالغ حكمته، وواسع علمه وكرمه ورحمته، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

وقد قيل: إن الضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى القرآن، وهذا من حيث المعنى صحيح، فالقرآن فيه شفاء للناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله عليه وسلم: «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**»(١).

لكن الصحيح رجوع الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ إلى الشراب؛ لأنه هو المذكور والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية.

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان على العباد بإنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ٦٥].

٢- أن في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض الميتة به دلالة على عظمة الله تعالى، ووحدانيته، وسعة رحمته، وتمام قدرته على البعث، لقوم يسمعون سماع فهم وانتفاع بما يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥].

٣- أن الله كما جعل الماء حياة للأرض بعد موتها، كذلك جعل القرآن حياة للقلوب بعد موتها.

٤- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء والعلو؛ ليعم جميع تضاريس الأرض جبالها ووهادها، مرتفعاتها ومنخفضاتها.

٥- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب باب العسل ٣٤٥٢. قال ابن كثير في (تفسيره) ٤/ ٥٠٢: (وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعًا. وقد رواه ابن جرير موقوفًا، وهو أشبه).

[النحل: ٦٥]، أي: بسببه.

٦- أنه لا ينتفع بالآيات والدلائل إلا الذين يسمعون سماع تفهّم وانتفاع بقلوبهم؛ لهذا خصهم بالذكر.

٧- أن في الإنعام لعبرة ودلالة على عظمة الله تعالى، ونعمته، وتمام قدرته، ورحمته بخلقه؛ حيث يسقيهم مما في بطونها من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٨- التنبيه والحث على التفكر في عظيم خلق الله وبديع صنعه وعنايته بخلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ الآية، أي: اعتبروا بذلك، واتعظوا، واستدلوا به على تمام قدرة الله تعالى، وعنايته بخلقه.

٩- الامتنان على العباد بما أخرج لهم من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا من التمر والزبيب، لقوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

١٠- استدل بعض أهل العلم على إباحة الخمر أول الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، وقال بعضهم المراد بالسكر الطعام والشراب اللذيذ؛ لقوله بعده: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، وعلى هذا فلا دلالة في الآية على إباحة الخمر في أول الإسلام.

وعلى كل فقد ثبت تحريم الخمر، فبين عز وجل أن إثمه أكبر من نفعه، فقال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم حرم شربها وقت الصلاة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم حرمها تحريمًا قاطعًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن

ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١].

١١- التسوية بين السكر المتخذ من العنب والمتخذ من النخل.

١٢- أن فيما أخرج عز وجل من ثمرات النخيل والأعناب مما يتخذ منه سكرًا ورزقًا حسنًا لدلالة على عظمة الله تعالى وفضله ونعمته لقوم ينتفعون بعقولهم، فتهديهم إلى التفكر في نعم الله تعالى وشكرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ .

١٣- الامتنان على العباد بإيحائه عز وجل إلى النحل وإلهامها وإقدارها وتسخيرها لاتخاذ البيوت، والأكل من كل الثمرات، وسلوك الطرق المذللة في البراري الشاسعة من أجل ذلك، وإخراج العسل قيئًا من بطونها فيه شفاء للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۚ﴾.

١٤- إن في إلهام النحل وهي المخلوقات الضعيفة، وإقدارها وتسخيرها لما ذكر لدلالة لقوم يتفكرون على تمام قدرة الله تعالى وعظمته وبالغ حكمته وسعة علمه وكرمه ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

١٥- الحث والترغيب والتحضيض على سماع الآيات سماع استفادة وانتفاع، والتعقل والتفكر فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، أي: أنشأكم من العدم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

وقال تعالى: ﴿* ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، أي: يقبض أرواحكم ويميتكم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، «من» الأولى: تبعيضية، والثانية: موصولة، وبعضكم الذي يرد، أي: يرجع ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أي: إلى أردأ العمر وهو الهرم، والذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ اللام: للتعليل، أو للصيرورة، أي: لأجل أن يصل إلى حالة، أو حتى يصير إلى حالة لا يعلم من بعد علم شيئًا.

أي: فبعد أن كان عالمًا أصبح لا يعلم ولا يدري شيئًا مما علمه، ولا مما حوله، ونسي ما كان يعلمه ويعقله قبل ذلك، وصار عقله كعقل الطفل من الهرم والخرف يهذي بما لا يدري؛ ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الهرم وأرذل العمر فقال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات**»(١).

قال الشاعر:

وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع(٢)

ولك أخي أن تتصور حالك إن أخطأتك المنايا حتى وصلت إلى هذا العمر، ولك عبرة بمن سبقوك إلى هذه الحال، فاحذر أن تستخف بمن بلغ هذه الحال، واسأل الله العافية، فأنت إلى هذه الحال إن طال بك العمر؛ أسرع من السيل إلى منحدره.

قال زهير(٣):

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولًا لا أبا لك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تعليل لقوله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ الآية، أي: إن الله ذو علم واسع، وقدرة تامة، فبعلمه عز وجل الواسع، وقدرته التامة خلق الخلق، ويتوفاهم، ويرد بعضهم إلى أرذل العمر، ويبعثهم جميعًا يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النحل ٤٧٠٧، ومسلم في الذكر والدعاء- التعوذ من العجز والكسل ٢٧٠٦- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيت لقطري بن الفجاءة. انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ١١٨)، «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ٢٥)، «نفح الأزهار» (ص ٦٩).

(٣) البيتان من معلقة زهير. انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص ١٧٦)، «المعلقات العشر» (٧/ ٣)، «مجاني الأدب» (٦/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾، أي: زاد بعضكم على بعض، وجعل بعضكم أفضل من بعض في الرزق، أي: في العطاء والإمداد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢].

فقد فاضل عز وجل بحكمته البالغة بين الخلق في الرزق والعطاء والإعداد والإمداد، فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وهذا صحيح وهذا مريض، وهذا حر له ملك وثروة وهذا عبد مملوك لا ملك له، وهكذا قال الشاعر:

جلّ من قسّم الحظوظ فهذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا(١)

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ بالرزق والعطاء على غيرهم.

﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾، أي: ما هم بمرجعي رزقهم الذي أعطاهم الله إياه.

﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، أي: على الذي ملكته أيمانهم من العبيد والرقيق، أي: ما هم بمشركي مماليكهم فيما رزقهم الله من المال وغير ذلك.

﴿فَهُمۡ﴾، أي: فهم ومماليكهم ﴿فِيهِ﴾، أي: في الذي رزقهم الله ﴿سَوَآءٌۚ﴾.

أي: متساوون، أي: ما هم بقابلين ولا راضين أن يشاركهم مماليكهم ويساووهم في الذي رزقهم الله.

وإذا كانوا لا يرضون ولا يقبلون أن يشاركهم مماليكهم في رزقهم ويستوون معهم فيه، فكيف يجعلون لله شركاء في إلهيته من عبيده وخلقه لا يرضاهم، ويسوونهم به، وهم يعترفون بأنهم عبيده وملكه؛ حيث كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»(٢).

أي: كيف ترضون لله ما لا ترضونه لأنفسكم، كما قال تعالى في الآية الأخرى:

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» (ص ٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم في الحج ١١٨٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ روى أبو بكر عن عاصم ورويس بالخطاب: «تجحدون» وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ والاستفهام! للتوبيخ والتقريع، والفاء: عاطفة، و«بنعمة» جار ومجرور متعلق بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بتضمينه معنى: «يكفرون».

أي: أيجحدون نعمة الله عليهم برزقه إياهم، ويكفرون بها بعبادتهم من دونه آلهة وإشراكهم معه في سلطانه وملكه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ هذا مما امتن الله به على عباده من النعم كما في الآيات السابقة.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: خلق وأوجد لكم من جنسكم أزواجًا؛ ليحصل لكم تمام الأنس والمودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وهذه من أعظم المنن على الزوجين، فلو كان أحدهما من جنس والثاني من جنس آخر ما التأما، ولا أنس أحدهم بالآخر، ولا سكن إليه.

ونعمة الزوجية من أكبر النعم؛ لما يترتب عليها من المعاني السابقة، وإعفاف كل من الزوجين الآخر، ووجود الذرية والنسل الذي به عمارة الكون، وهذا أمر جبلي فطري، ولا تسأل عن حال من لا زوج له.

ورُوِيَ في الحديث: «**مسكين مسكين مسكين رجل ليس له امرأة، ومسكينة مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج**»(١).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان مرسلًا عن أبي نجيح، انظر: «كنز العمال» ١٦/ ٢٧٨، ٢٧٩ حديث ٤٤٤٥٥، وذكره الهيثمي ٤/ ٢٥٢ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات إلا أن أبا نجيح لا صحبة له».

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾، أي: وخلق لكم من أزواجكم أبناء وبنات ﴿وَحَفَدَةً﴾ وهم أولاد الأولاد، وقيل: هم الأولاد وأولاد الأولاد، والأصهار.

وهذه أيضًا من أعظم النعم وهي نعمة الإنجاب والنسل، فالأولاد زينة الدنيا وزهرتها، وهم بهجتها ولذتها، وبهم يكتمل أنس الوالدين وتطيب حياتهما، فهم نعمة من أجل النعم وأكبرها، واسأل من ابتلي بالعقم ماذا فقد من هذه المعاني؟ قال الشاعر:

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد(١)

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: من المطاعم والمشارب الحلال اللذيذة المستطابة.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والباطل: ما ليس بحق، وأعظم ذلك وأشده الشرك، وتأليه الأصنام والأنداد المنافي للتوحيد والإخلاص، والكفر والجحود المنافي للإيمان والشكر.

أي: أفبالباطل- وهو الشرك بالله وكفر نعمه وجحودها- يؤمنون ويصدقون.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾، «نعمة» مفرد مضاف إلى لفظ الجلالة «الله» فيعم جميع نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، من نعمة القرآن والرزق من الطيبات وغير ذلك، أي: وبنعم الله هم يكفرون، أي: يجحدونها وينكرونها ويسترونها.

وضمير الفصل «هم» مبتدأ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

هذه الآية كالبيان للآية قبلها.

---

(١) انظر: «طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار» (ص ٨٩)، «روض الأخيار» (ص٤٣١)، «السحر الحلال في الحكم والأمثال» (ص٤٧).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨.

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون، الذين بالباطل يؤمنون، وبنعمة الله هم يكفرون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي لا يملك لهم رزقًا، أي: الذي لا يملك رزقهم.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: ولا يقدرون أن يرزقوهم، ولا يملكون لهم رزقًا.

فعدلوا عن عبادة الله الخالق المالك الرازق المتفضل المنعم عليهم إلى عبادة ما لا يملك لهم شيئًا من الرزق، ولا يستطيع ذلك، ولا يقدر عليه، فلا يقدر على إنزال المطر، ولا على إنبات زرع ولا شجر.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أنكر على المشركين عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا ولا يستطيعه، ثم نهاهم عن ضرب الأمثال لله؛ لأنهم يدعون أن شركاءهم نظراء وأمثال لله، تعالى الله عن ذلك.

قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، «الأمثال»: جمع «مثل» وهو الشبيه والند والنظير، أي: لا تجعلوا لله أمثالًا وأشباهًا ونظراء وأندادًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾، أي: يعلم أنه لا مثيل له ولا شبيه ولا ند ولا نظير، وأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، وأنه لا إله إلا الله، ويعلم كل شيء.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: وأنتم جهلة لا معرفة لكم بالله، ولا علم عندكم بما يجب له من التعظيم وإخلاص العبادة له تعالى وحده لا شريك له؛ ولهذا عبدتم من دونه ما لا يملك لكم رزقًا ولا يستطيعونه، وجعلتموهم أمثالًا لله، تعالى الله وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

نهى عز وجل عن ضرب الأمثال لله بجعل الشركاء والأشباه والأمثال له سبحانه، ثم أتبع ذلك ببيان استحالة مماثلة خلقه ومشابهتهم له ومشاركتهم له في وحدانيته بمثلين ضربهما لنفسه وللأصنام، فللأصنام مثل السوء، ولله المثل الأعلى.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

وقال تعالى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠].

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، أي: ضرب الله مثلًا لبيان بطلان أن يكون له مثيل أو شريك.

﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، أي: عبدًا رقيقًا مملوكًا لسيده، لا يقدر على أي شيء، لأنه تحت تدبير مالكه وسيده، فهو لا يملك نفسه، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر على شيء.

﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾، أي: وحرًّا غنيًّا رزقناه وأعطيناه منا رزقًا وعطاءً حسنًا واسعًا.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾، أي: فهو شكور لربه ينفق مما رزقه الله النفقات الواجبة والمستحبة في وجوه البر والخير ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ حسب المصلحة ومقتضى الحال.

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا يستوون، أي: لا يستوي هذا وهذا، فشتان بين عبد مملوك لا يقدر على شيء ولا يملك شيئًا، وبين حر رزقه الله منه رزقًا حسنًا فهو شكور ينفق منه سرًّا وجهرًا.

أي: إذا كان لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر على شيء، وغني موسع عليه ينفق مما رزقه الله، فكيف تجعلون الصنم- الذي هو أسوأ حالًا من هذا العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء- شريكًا لله؟!

وقيل: ضرب الله هذا المثل للكافر والمؤمن، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن المنفق سرًّا وجهرًا مثل المؤمن.

قال ابن القيم في التوفيق بين هذين القولين: «ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه الله منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك، الذي لا يقدر على شيء، فهذا نبه عليه المثل وأرشد إليه»(١).

والأظهر المعنى الأول.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لما كان الأمر واضحًا جليًّا أن لا مساواة بوجه من الوجوه بينه وبين خلقه، وأن تمثيله بأحد من خلقه أمر في غاية الجرأة على الله والتنقص له سبحانه، حمد عز وجل نفسه إثباتًا لاستحقاقه لصفات الكمال، وتنزيهًا لنفسه فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، «ال» في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ للجنس، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق والاختصاص، أي: جميع أجناس المحامد وأنواع الحمد مستحقة وواجبة له وخاصة به.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: بل أكثرهم جهلة لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وما يجب لله من التعظيم، وما له من صفات الكمال والوحدانية في ربوبيته وإلهيته؛ ولهذا عبدوا آلهة من دونه، وأشركوهم مع الله، وساووا بينهم وبين الله، وضلوا بسبب ذلك كما في قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾.

وهذا مثل ثان ضربه الله أيضًا لنفسه، ولما يعبد من دونه؛ لإثبات وحدانيته وإبطال ما يعبد من دونه، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، أي: مثلًا آخر:

﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾، أي: أخرس لا يسمع ولا ينطق ولا يعقل، كما قال

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣.

تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، أي: ضعيف عاجز لا يقدر على أيِّ شيء ألبتة، لا قليل ولا كثير.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾، أي: وهو عبء ثقيل وعالة على مولاه، أي: على من يلي أموره ويعوله، أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه.

﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾، أي: لأي جهة أو عمل أو حاجة، ونحو ذلك يرسله مولاه.

﴿لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾، أي: لا يأتي بأي خير، فلا يقوم بعمل، ولا يقضي حاجة، ولا ينجح في مسعى، فهو ناقص من كل وجه: أبكم أصم أخرس، لا يسمع، ولا ينطق، ولا يعقل، عاجز لا قدرة له على أي شيء، كَلٌّ وثقل وعالة على مولاه.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، أي: هل يستوي هو والذي يأمر بالعدل، أي: هل يستوي هو ورجل يأمر بأقواله بالعدل والقسط والحق؟

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: وهو على طريق مستقيم عدل في أفعاله وجميع أحواله.

والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا يستويان.

أي: إذا كان لا يستوي عندكم رجلان: أحدهما أبكم لا يعقل ولا ينطق، وهو مع ذلك عاجز لا يقدر على شيء، وآخر على طريق مستقيم في أقواله وأفعاله، آمر بالعدل عامل به، فكيف تسوون بين الصنم الذي لا يملك شيئًا ولا يقدر على شيء، وبين الله عز وجل، الذي يأمر بالعدل والقسط، والحق في جميع أقواله، وهو على صراط مستقيم في جميع أفعاله وأحكامه الكونية والشرعية والجزائية، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١﴾ [الحجر: ٤١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٢٦]؟!

وفي الحديث: «**اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، والحاكم ١/ ٥٠٩- ٥١٠- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وذكره

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله وقال له اعمل وأدِّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غيره، فأيكم يحب أن يكون عبده كذلك»(١).

وقد قيل: إن المراد بهذا المثل الكافر والمؤمن، والأظهر القول الأول، وفيه تنبيه وإرشاد إلى هذا، فإذا كان لا يستوي المعبود الباطل مع المعبود الحق، فكذلك لا يستوي من ألّه الباطل وكفر بالله مع من عبد الله وآمن به.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

لما أنكر على المشركين عبادتهم من دون الله آلهة مملوكة لله تعالى، لا تقدر على شيء، وتسويتهم بينها وبين الله تعالى أتبع ذلك ببيان عظمته واختصاصه بغيب السموات والأرض، محذرًا من قرب القيامة، ومبينًا تمام قدرته على كل شيء.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الواو استئنافية، واللام في قوله: «لله» لام الملك، وقدم الخبر للدلالة على الاختصاص، أي: ولله خاصة ملك وعلم غيب السموات والأرض.

و﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ كل ما غاب عن الأعين والحواس في السموات والأرض، فلا اطلاع لأحد على شيء من ذلك إلا أن يطلعه الله على ذلك.

كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٣٦- وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان».

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٣٠، ٢٠٢، والترمذي في الأمثال ما جاء في مثل الصلاة والصيام ٢٨٦٣ وقال: «حديث حسن صحيح غريب» والحاكم ١/ ٤٢١ وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: القيامة، ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾، «إلا» أداة حصر.

أي: ما أمر قيام الساعة والقيامة إلا كخطفة البصر، وطرفة عين، ، أي: إغماضها وفتحها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠].

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، أي: أو أمر الساعة أقرب من لمح البصر؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، وكل شيء عليه يسير، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، «إن» للتوكيد، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾ قدم عليه للتأكيد أيضًا، وبيان عموم قدرته تعالى- على كل شيء، لسعة علمه وتمام قدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات كمال عظمة الله تعالى، ووحدانيته في ربوبيته، وتفرده بالخلق والإماتة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

٢- تمام قدرة الله تعالى على البعث وإحياء الخلق بعد موتهم؛ لأنه هو الذي خلقهم ثم يتوفاهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

٣- في إثبات تفرده تعالى بالإحياء والإماتة، وتمام ربوبيته دلالة على كمال ألوهيته، ووجوب إفراده بالعبادة وحده لا شريك له.

٤- أن أكثر الناس يتوفى قبل بلوغ أرذل العمر، إما في بطن أمه أو وليدًا أو طفلًا صغيرًا أو مميزًا أو بالغًا أو شابًّا أو كهلًا أو شيخًا كبيرًا، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر، وهم قليل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾.

٥- أن لقوى الإنسان العقلية والبدنية وحواسه وإدراكه عمرًا لا تتجاوزه غالبًا، فإذا وصل إليه فقد هذه القوى والحواس، وصار إلى التخريف والنسيان، ونسي ما علمه

من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

٦- ضعف الإنسان، وأنه كما بدأ من ضعف يعود إلى ضعف، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

ويجب على الإنسان ألا يغفل عن هذا؛ ليحمله ذلك على استمداد القوة من القوي المتين، ويعرف قدر نفسه، ويخضع ويذل لربه، ويسأله لطفه وألا يرده إلى أرذل العمر.

٧- أن لكل شيء مما خلقه الله تعالى في هذا الكون نهاية، وبعد كل قوة ضعفًا، وأن ما زَمَّ هضَمَ، وما طار وقع، وما ارتفع اتضع، وأن دوام الحال من المحال، فالقوة يعقبها الضعف، والقدرة يعقبها العجز، والحياة يعقبها الموت، وقد أحسن القائل:

إذا كنت تهوى العيش فاقنع توسطًا ... فعند التناهي يقصر المتطاولُ
تُوقّى البدورُ النقصَ وهي أهلةٌ ... ويدركُها النقصانُ وهْيَ كوامِلُ(١)

٨- إذا كان الإنسان عرضة للنسيان، إذا لم تعاجله المنية وطال عمره قد يُردُّ إلى حال لا يعلم فيها من بعد علم شيئًا، فينبغي له كتابة ما لديه من شهادات أو نقول رواها مشافهة في مسائل العلم عن العلماء المعتبرين، وغير ذلك من القضايا التي تحتاج إلى تدوين وإثبات، مما فيه براءة الذمة وبيان الحق، ومنفعة عامة أو خاصة، كما يجب عليه الوصية قبل ذلك بماله وما عليه من حقوق.

٩- أن من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان نعمة العقل والفهم والعلم التي كرمه الله بها وميزه فيها عن الحيوان، يجب عليه شكرها، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

١١- إثبات صفة العلم الواسع، والقدرة التامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

١٢- أن الله عز وجل بعلمه الواسع وقدرته التامة على كل شيء خلق الخلق ثم

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «شرح منهاج البلاغة» (ص١٦٣).

يتوفاهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

١٣- تفضيل الله عز وجل بحكمته البالغة بعض الناس على بعض في الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾.

١٤- أن الرزق كله من الله تعالى، وهو الرزاق، وخير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾، وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وقوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾.

١٥- أن من فضلهم الله في الرزق لا يقبلون ولا يرضون أن يشاركهم مماليكهم وعبيدهم في رزقهم ويكونوا فيه سواء؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

١٦- إذا كان هؤلاء المرزوقون لا يقبلون، ولا يرضون أن يشاركهم مماليكهم في رزقهم ويساووهم فيه، فكيف يرضون بجعل الشركاء لله في إلهيته؟! وكيف يرضون لله من الشركاء ما لا يرضونه لأنفسهم؟! وكيف يجيزون أن يرضى الله بالشركاء، وهم لا يرضون بهم ألبتة لأنفسهم؟!

١٧- أن الأنفس جبلت على الشح وحب الذات والانفراد بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

١٨- إثبات ملك اليمين، وأن المملوك لا يَملك بل يُملك؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وقوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾.

١٩- الإنكار على المشركين جحودهم نعمة الله عليهم برزقه إياهم، وكفرهم بإشراكهم غير الله معه في عبادته وسلطانه وملكه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بجعله عز وجل لهم من أنفسهم أزواجًا، ومن أزواجهم بنين وحفدة؛ ورزقهم من الطيبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٢١- أن نعمة الزوجية من أعظم النعم، وكون الزوجين من جنس واحد نعمة أخرى؛ ليحصل السكن والأنس والطمأنينة.

٢٢- أن نعمة الإنجاب والنسل من أجلِّ النعم وأكبرها؛ لأن الأولاد هم زينة الحياة الدنيا وبهجتها، وبهم اكتمال سرور والديهم.

٢٣- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا، فجعل من أسباب الإنجاب والتناسل الزواج والارتباط بين الذكر والأنثى.

٢٤- تكفل الله عز وجل برزق العباد وأزواجهم وأولادهم وحفدتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٢٥- الإنكار على المشركين إيمانهم بالباطل وكفرهم نعمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

٢٦- ذم المشركين والنعي عليهم في عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا ولا يقدر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

٢٧- أن من عبد مع الله غيره فهو لم يعبد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فمن أشرك مع الله غيره في العبادة لم تنفعه عبادته لله، والله غني عن شركه، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

٢٨- أن الخلق كلهم لا يملكون رزق أحد، ولا يقدرون على ذلك، كما لا يملكون ولا يقدرون على منع الرزق عنه.

٢٩- نهي الله عز وجل أن تضرب له الأمثال والأشباه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾. وذلك لأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، ولا يماثله أحد من خلقه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال ابن القيم: «فالله سبحانه لا تضرب له الأمثال التي يشترك هو وخلقه فيها، لا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شمولًا ولا تمثيلًا، وإنما يستعمل في حقه قياس الأولى»(١).

٣٠- إثبات علم الله تعالى الواسع لكل شيء، ومن ذلك علمه بأنه لا مثيل له ولا نظير، وأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

٣١- جهل المشركين وعدم علمهم، فلا معرفة لهم بالله، ولا علم لهم فيما يجب عليهم من تعظيمه وإفراده وحده بالعبادة؛ ولهذا عبدوا آلهة من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٢- نعمة الله تعالى على العبد بضرب الأمثال في القرآن لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية.

٣٣- أنه لا يستوي العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا يملك شيئًا مع الحر الغني الذي رزقه الله منه رزقًا حسنًا، فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾، أي: لا يستوون.

٣٤- أن العبد لا يملك شيئًا، لكن إن ملَّكه سيده ملك، وهو وما ملك ملك لسيده؛ قال ﷺ: «من باع عبدًا وله مال، فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع»(٢).

٣٥- بطلان أن يكون لله تعالى مثيل أو شريك؛ لأنه إذا كان العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء لا يستوي مع الحر الغني المرزوق المنفق سرًّا وجهرًا مع كونهما مخلوقين لله تعالى، فكيف يستوي المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره رزقًا ولا يقدر على شيء، من الأصنام والأوثان، ويشرك مع الخالق العظيم الذي بيده الملك والتدبير والرزق والعطاء والمنع القادر على كل شيء؟ هذا في غاية البطلان والظلم والبهتان.

٣٦- امتداح الإنفاق من رزق الله سرًّا وجهرًا، والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة والشرب ٢٢٥٠، ومسلم في البيوع، ١٥٤٣.

٣٧- أن الإسرار في النفقة أولى من الجهر بها؛ لهذا قدم الإسرار على الجهر في الآية، وذلك أن الإسرار أدل على الإخلاص، وأستر للمنفَق عليه.

٣٨- جواز الجهر بالنفقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَهْرًا﴾، وقد يكون في بعض الحالات أولى من الإسرار، كما إذا كان بهدف التشجيع على الإنفاق وسن سنة حسنة.

٣٩- أن لله تعالى وحده المحامد كلها استحقاقًا واختصاصًا؛ لقوله تعالى إثباتًا لاتصافه بصفات الكمال، وتنزيهًا لنفسه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٤٠- أن أكثر الخلق جهلة لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وما يجب لله من التعظيم، وما له من صفات الكمال والوحدانية؛ ولهذا عبدوا من دونه آلهة لا ترزقهم ولا تقدر على شيء، وأشركوهم مع الله وسووهم به؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٤١- أن الجهل داء قاتل ومهلك يُبعد صاحبه عن سبيل الحق والهدى، ويرديه في متاهات الغواية والضلال والردى.

٤٢- لا يستوي رجل أبكم لا يقدر على شيء، وهو عالة على مولاه، أينما يرسله ومهما يطلب منه لا يأتي بخير، ورجل يأمر بالعدل في أقواله، وهو على طريق مستقيم عدل في أفعاله وجميع أحواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وإذا كان هذان الرجلان لا يستويان، لما في الأول من صفات النقص من كل وجه، ولما في الآخر من صفات الكمال من الأمر بالعدل في أقواله والاستقامة على الحق في أفعاله وجميع أحواله، وهما مخلوقان لله، بل ومن جنس واحد، فكيف تسوى الآلهة التي تُعبد من دون الله مما لا يملك رزقًا ولا يقدر على شيء، بالله عز وجل الذي يأمر بالعدل والقسط في أقواله، وهو سبحانه على صراط مستقيم في أفعاله وأحكامه؟! هذا كسابقه في غاية الظلم والزور والبطلان.

٤٣- امتداح الآمر بالعدل في أقواله المستقيم على الصراط المستقيم في أفعاله.

٤٤- اختصاص الله تعالى وحده بعلم ما غاب عن الخلق في السموات والأرض وملكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤٥- التهديد بقرب الساعة، وسرعة قيامها، وأنها حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

٤٦- إثبات وتأكيد عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

لما أنكر الله عز وجل على المشركين عبادتهم من دونه من لا يملك لهم رزقًا، وضربهم الأمثال والأنداد له، وضرب مثلين لبطلان ذلك؛ أتبع ذلك ببيان دلائل تمام قدرته وعظيم نعمه على عباده، وكمال ربوبيته المستلزم كمال إلهيته ووحدانيته.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أي: والله وحده الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونكم لا تعلمون شيئًا، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فيعم، أي: لا تعلمون أي شيء، وفي هذا تأكيد لعظم نعمته عليهم بتعليمه إياهم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، أي: وخلق لكم السمع الذي تدركون به الأصوات، والأبصار التي تشاهدون بها المرئيات، والأفئدة، وهي القلوب التي تعقلون بها وتتفكرون وتفهمون.

وخص هذه الثلاثة من بين الجوارح لأهميتها، فهي وسائل العلم والمعرفة والهدى؛ ولشرفها وفضلها، وهي مخلوقة مع الإنسان منذ خلق في بطن أمه، وهي تنمو على التدريج شيئًا فشيئًا حتى يبلغ أشده، فالسمع والبصر وسيلتا نقل المسموع والمبصر إلى الفؤاد، والفؤاد هو محل المعرفة والفهم والتفكر والتدبر، والهداية والصلاح، أو ضد

ذلك، وهو مما ميز الله به الإنسان عن سائر الحيوانات.

والمعنى: وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة حين خلقكم في بطون أمهاتكم، وليس بعد إخراجكم من بطون أمهاتكم، والواو لا تقتضي الترتيب، بل هي لمطلق الجمع إلا إذا دل دليل على اقتضائها الترتيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] حيث دل قوله ﷺ «**ابدؤوا بما بدأ الله به**»(١) على وجوب البداءة بالصفا.

قال ابن القيم: «والصحيح أنه إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها، وهذا وإن كان مرادًا به العين والأذن، فالقوة السامعة والباصرة مودعة فيها، وأما الإدراك بالفعل فهو موقوف على زوال الحجاب المانع منه، فلما زال بالخروج من البطن عمل المقتضى عمله»(٢).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: لأجل أن تشكروا الله تعالى على نعمة إخراجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، وجعل وسائل العلم لكم: السمع والأبصار والأفئدة، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون.

أي: لأجل أن تشكروا الله على ذلك بطاعته والبعد عن معصيته، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الآيتان: ٢٣، ٢٤].

والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح بالاعتراف بالنعمة باطنًا وظاهرًا، ونسبتها إلى مسديها ومموليها، وهو الله عز وجل، واستعمالها في طاعة الله تعالى، والاستعانة بها على القيام بذلك.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

امتن عز وجل عليهم بإخراجهم من بطون أمهاتهم ومنحهم السمع والأبصار

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧-٤٨.

والأفئدة مبينًا تمام قدرته على ذلك، ثم أتبع ذلك ببيان تمام قدرته على تسخير الطير وإمساكها في جو السماء.

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة وخلف بالخطاب: «ألم تروا»، وقرأ الباقون بالغيب: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ والاستفهام للتقرير والخطاب للعموم.

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حال، أي: مذللات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾، أي: بين السماء والأرض يصارعن الهواء والتقلبات الجوية المختلفة من برد وحر ومطر وغبار وغير ذلك.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما يمسكهن من السقوط إلا الله تعالى وحده، بقدرته التامة، الذي أقدرهن على الطيران، وهيأهن له، ويسره لهن، وسخر الهواء لحملهن، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الآية: ١٩].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في تسخير الطير تطير بين السماء والأرض وإمساكهن من السقوط ﴿لَآيَاتٍ﴾ اللام للتوكيد، أي: إن في ذلك لعلامات ودلالات على عظمة الله عز وجل وتمام قدرته ووحدانيته.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لقوم يؤمنون بالله تعالى وبما أوجب عليهم الإيمان به ويصدقون برسله وآياته ووعده ووعيده وخبره.

وخصهم بذلك؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات ويتدبرونها ويتفكرون فيها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾، أي: والله وحده الذي خلق لكم ﴿مِّنْ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تبنونها من الحجر والطين والمدر﴿سَكَنًا﴾، أي: مساكن ودورًا ومنازل تأوون إليها وتسكنون فيها، وتستقرون فيها في الحضر، تستر حرماتكم، وتحفظ أموالكم ومتاعكم، وتكنكم من الحر والبرد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ من الأدَم في السفر، وهي بيوت العمود

والخيام.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾، أي: يخف عليكم حملها ونقلها.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ بإسكان العين، وقرأ الباقون: «ظعَنكم» بفتحها، أي: يوم ترحالكم.

أي: تستخفون حملها في أسفاركم يوم ترحالكم وسيركم ويوم إقامتكم للراحة والنوم، تكنكم أنتم وأمتعتكم من الحر والبرد والمطر، ونحو ذلك.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾، أي: ومن أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعز.

﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، «أثاثًا» منصوب عطفا على «بيوتا»، أي: أثاثًا من الأواني والأوعية، والبسط والفرش والثياب وغير ذلك مما يتمتع به؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: تتمتعون به إلى أجل مسمى ووقت معلوم محدد، ثم يزول أو تزولون عنه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾، أي: جعل لكم من الذي خلقه من المخلوقات مما لا صنع لكم فيه ﴿ظِلَالًا﴾ تستظلون فيه من حر الشمس، كالأشجار والجبال والآكام ونحوها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، «أكنانا»: جمع «كن» وهي: الغيران والكهوف والمغارات، أي: وجعل لكم من الجبال كهوفًا ومغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾، أي: ثيابًا وملابس من القطن والكتان والصوف وغير ذلك ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، أي: تقيكم حر الشمس، وحر لفح الهواء الحار.

ولم يذكر البرد؛ لأن أول هذه السورة في أصول النعم وآخرها في مكملاتها، والوقاية من البرد من أصول النعم؛ لأنه من الضرورة، وقد ذكره أول السورة في قوله:

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [الآية: ٥][(١)].

﴿وَسَرَابِيلَ﴾، أي: وجعل لكم سرابيل، أي: دروعًا من الحديد المصفح والزرد، وغير ذلك ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، أي: تقيكم في حربكم وقتالكم من السلاح.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى الذي أنعم الله به عليهم من النعم من قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ إلى قوله هنا: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

ويجوز أن تكون من قوله قبل ذلك: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ والأول أولى.

﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يجعلها تامة سابغة تجل عن الحصر؛ لتستعينوا بها على أمر دينكم ودنياكم؛ ولهذا سميت هذه السورة سورة النِّعم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أي: لأجل أن تسلموا، أي: تستسلموا لله بالتوحيد؛ وتنقادوا له بالطاعة، والخلوص من الشرك، فتصرفوا هذه النعمة في طاعة الله تعالى موليها ومسديها، وتنسبوها إليه وحده.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: فإن تول هؤلاء المشركون وغيرهم عن الإسلام، بعد الامتنان عليهم بنعم الله، وبيان تمام قدرته، فلا عليك منهم، ولا تبالهم، ولا تهتم لهم.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفاء: عاطفة، و«إنما» أداة حصر، أي: فما عليك إلا البلاغ المبين، و«البلاغ»: الإيصال، أي: ما عليك إلا إيصال الرسالة والدعوة إليهم، وقد فَعَلْتَ.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البيِّن في نفسه الظاهر الواضح؛ والمبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

والمعنى: ما عليك إلا إيصال الرسالة وتبليغ الدعوة البلاغ المبين، وقد فعلت.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وشهادة له بالبلاغ المبين، ووعيد وتهديد للمكذبين من قومه.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) انظر (دقائق التفسير) ٣/ ٤/ ٣٢٧.

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: يعرف هؤلاء المشركون المكذبون ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ عليهم.

و«نعمة» مفرد مضاف إلى معرفة، فيعم جميع نعم الله تعالى عليهم مما ذكر في الآيات السابقة وغيرها، وأعظم تلك النعم وأهمها نعمة بعثته ﷺ، وما أنزل الله عليه من الكتاب والحكمة.

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، أي: ثم ينكرون نعمة الله بعد معرفتها بإنكارهم رسالة النبي ﷺ، وتكذيبهم لما جاء به من الوحي، مع اعترافهم بأنه ﷺ الصادق الأمين، وأن ما جاء به من القرآن ليس من كلام البشر، لكنهم كما قال الله تعالى عن قوم موسى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وبإنكارهم ما يتقلبون فيه من سائر النعم من نعمة الخلق والسمع والأبصار والأفئدة والبيوت والأثاث والمتاع والظلال والأكنان والسرابيل، وغير ذلك، بنسبة تلك النعم إلى غير الله، وكفرها بالشرك به ومعصيته، وعدم شكرها بالإيمان به وطاعته.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الكاذبون﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الكذب في اتخاذهم آلهة من دونه، وإشراكهم إياهم معه في العبادة.

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان على العباد بإخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل السمع والأبصار والأفئدة لهم، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

٢- أن الإنسان يخرج من بطن أمه وهو لا يعلم شيئًا، ثم يمنحه الله تعالى العلم، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١- ٤].

٣- أن من أعظم النعم على بني آدم ما أعطاهم الله من السمع والأبصار والأفئدة التي هي أشرف الأعضاء وأهمها، فالسمع والأبصار وسيلتا وصول العلم والهدى والنور إلى الأفئدة، والأفئدة هي محل التفكير والتدبر، ومحل الصلاح أو ضده؛ لهذا خص هذه الأعضاء بالذكر.

٤- أن الحكمة من إخراج بني آدم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ومنحهم السمع والأبصار والأفئدة، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمونه؛ لأجل أن يشكروا الله تعالى بالاستدلال بذلك على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، والاعتراف بنعمه ونسبتها إليه، واستعمالها في طاعته، والبعد عن معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٥- توجيه الأنظار والعقول للنظر والتأمل والتفكر في قدرة الله تعالى وحكمته في تسخير الطير تطير بين السماء والأرض لا يمسكها من السقوط إلا هو عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

٦- أنه لا ينتفع بالنظر والتفكر في آيات الله الكونية في الطير وغيرها الدالة على تمام قدرته ووحدانيته إلا المؤمنون؛ لهذا خصهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٧- الامتنان على العباد بما جعل عز وجل لهم من بيوت للسكن في الحضر، ومن جلود الأنعام بيوتا يستخفونها في السفر، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها من أثاث ومتاع إلى حين، والاستدلال بذلك على تمام قدرته ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٨- التزهيد في الدنيا وأن كل ما فيها من النعم هو مجرد متاع إلى أجل مسمى، وسرعان ما يفنى، إما بزواله هو، أو زوال الإنسان عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٩- الامتنان على العباد بجعله تعالى لهم مما خلق ظلالًا، ومن الجبال أكنانا، وسرابيل تقيهم الحر، وأخرى تقيهم الحرب والقتال، وبيان تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

١٠- الامتنان على العباد بإتمام نعمته عز وجل عليهم بالنعم المذكورة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.

١١- أن الحكمة من إتمام النعمة على العباد لأجل أن يستسلموا لله تعالى، وينقادوا لطاعته، ويعبدوه وحده لا شريك له، شكرًا له تعالى على نعمه؛ لقوله تعالى:

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

١٢- تسلية النبي ﷺ، وبيان أنه ليس عليه إلا البلاغ المبين، فلا يبالي بالمشركين المكذبين، ولا يهتم لهم. والشهادة له بأنه بلغ البلاغ المبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: فما عليك إلا البلاغ المبين، وقد بلغت وأبنت الحق لهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

١٣- التهديد لمن تولى وأعرض عن الله تعالى وعن اتباع الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

١٤- معرفة المشركين المكذبين لنعمة الله تعالى، وأن كل ما يتقلبون فيه من النعم هو من الله عز وجل، وإنكارهم لذلك، ونسبتهم تلك النعم إلى غيره، وإنكارهم أعظم نعمة أنعم الله بها على العباد بإنكارهم رسالته ﷺ، وتكذيبهم ما أنزل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

١٥- بلوغ أكثر المشركين المنكرين لنعمة الله تعالى ولرسالته ﷺ المتخذين مع الله آلهة أخرى الغاية في الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

١٦- التحذير من إنكار نعمة الله تعالى بعد معرفتها، وأن من عرف نعمة الله تعالى ثم أنكرها فقد بلغ الغاية في الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

لما عدد نعمه تعالى على العباد، وذكر إنكار المشركين لها، وأن أكثرهم الكاذبون، أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، أي: واذكر يا محمد لقومك يوم القيامة وأهواله، حين نبعث من كل أمة من الأمم شهيدًا عليهم من أنفسهم وهو رسولهم يشهد عليهم بما أجابوه فيما بلغهم عن الله تعالى وعلى أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنه فات أوانه؛ لأن الآخرة دار جزاء فقط، لا دار اعتذار ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: ولا هم إذا طلبوا العتبى والرجوع إلى الدنيا؛ ليستدركوا يجابون ويعتبون، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

[غافر: ٥٢] وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

فإنهم كاذبون فلو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، أي: وإذا رأى الذين ظلموا بالشرك والكفر والمعاصي ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، أي: عذاب النار.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط.

أي: فلا يخفف عنهم العذاب من حين يرونه، لا من شدته، ولا من حيث استمراره ودوامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا هم يؤخرون ويمهلون ويؤجلون، بل يأخذهم العذاب سريعًا.

قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى

ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾، أي: وإذا رأى المشركون يوم القيامة شركاءهم الذين أشركوهم مع الله وعبدوهم من دونه، وتيقنوا بطلان إشراكهم مع الله، وسُقط في أيديهم، ولم يُمكنهم الإنكار ولا الاعتذار.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾، أي: قال المشركون: يا ربنا.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾، أي: الذين كنا ندعوهم ونعبدهم من دونك، أي: نعترف اليوم أنه لا نفع فيهم ولا شفع، ونكفر بهم ونعلن عداوتنا لهم.

﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾، أي: فألقى الآلهة إلى عابديهم، أي: قالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إنكم في جعلكم إيانا شركاء لله لكاذبون، فلسنا شركاء لله تعالى، ولا نستحق ذلك، ولم نأمركم بذلك.

فظهرت بينهم العداوة والبغضاء، وتبرأ بعضهم من بعض، وكفر بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿وَأَلْقَوْا۟﴾، أي: وألقوا كلهم جميعًا؛ المشركون وشركاؤهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿ٱلسَّلَمَ﴾، أي: الاستسلام، أي: استسلموا لله تعالى كلهم جميعًا وذلوا، فما منهم أحد إلا سامع ومطيع.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، أي: استسلمت وذلت

وخضعت، وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: غاب عنهم وذهب واضمحل، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: وغاب عنهم وذهب افتراؤهم، أو الذي كانوا يفترونه، أي: يختلقونه من الشركاء لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذين كفروا بالله وجحدوا وحدانيته ﴿وَصَدُّوا۟﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: عن طريقة وصراطه المستقيم، فانصرفوا عن الإيمان إلى الكفر، وعن التوحيد وإخلاص العبادة لله إلى الشرك واتخاذ الأنداد.

وصدوا غيرهم وصرفوهم عن دين الله تعالى القويم، وصراطه المستقيم إلى الكفر والشرك والضلال المبين.

كما فعل المشركون مع عامر بن الطفيل الدوسي في تحذيرهم له من سماع كلام محمد، حتى وضع في أذنيه قطنًا حتى لا يسمع كلامه(١).

وكما فعلوا مع الأعشى حينما جاء إلى مكة قاصدًا الرسول ﷺ؛ ليعلن إسلامه، حاملًا قصيدته المشهورة:

ألم تغتمضْ عيناك ليلة أرمدَا ... وبتَّ كما بات السليم مسهدَا

والتي تعتبر من روائع الشعر، فما كان من المشركين إلا أن اعترضوه، فصدوه وصرفوه عن الإسلام(٢).

---

(١) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٦٠)، «دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص٢٣٨)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦٢)، (٣٩٥٢).

(٢) انظر: «ديوان الأعشى» ص١٨٥ - ١٨٧، و«السيرة النبوية» ٢/ ٢٦ - ٢٨، و«الشعر والشعراء» ص٢٧٥.

﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ على صدهم الناس عن سبيل الله، ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ونكر ﴿عَذَابًا﴾؛ لأن عذاب صدهم الناس عن دين الله أشد وأعظم من عذاب كفرهم بأنفسهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب إفسادهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله وخروجهم عن طاعة الله تعالى وحدوده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: واذكر يا محمد يوم ﴿نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ وهو نبيهم، كما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [النحل: ٨٤]

واذكر ما منحك الله في ذلك اليوم من الشرف العظيم والمقام الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾، أي: على أمتك، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ علي**. قلت يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: **نعم**. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: **حسبك الآن**. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٠.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿تِبْيَٰنًا﴾ مفعول لأجله، أي: وأنزلنا عليك القرآن لأجل بيان وإيضاح علم كل شيء من أصول الدين وفروعه، وأحكام الدارين، وعلم ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل ما يحتاج إليه العباد في دينهم ودنياهم وأخراهم.

﴿وَهُدًى﴾ معطوف هو وما بعده على ﴿تِبْيَٰنًا﴾ داخل ضمن التعليل. ﴿وَهُدًى﴾، أي: وهدى هداية خاصة للمسلمين لما فيه من العلم النافع، والتوجيه للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

كما أنه هدى هداية عامة للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿وَرَحْمَةً﴾، أي: ورحمة خاصة للمسلمين، في الدنيا والآخرة، ينالون به السعادة في الدنيا ودخول الجنة والثواب العظيم في الآخرة.

كما أن نزوله رحمة عامة للخلق كلهم، كما قال عز وجل مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وبشرى للمسلمين خاصة بالتوفيق والعزة والسعادة في الدنيا والآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات شهادة كل نبي على أمته والوعيد والتهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢- أنه في ذلك اليوم لا يؤذن للذين كفروا بالاعتذار، ولا يجابون إذا طلبوا العتبى، والرجوع إلى الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

٣- شدة عذاب الذين ظلموا بالشرك والكفر والمعاصي في النار ودوامه وعدم

تخفيفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾.

٤- سرعة أخذ العذاب لهم عند رؤيتهم له وعدم إنظارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

٥- الجمع بين المشركين وشركائهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ ٩٩].

٦- اعتراف المشركين عندما يرون شركاءهم يوم القيامة، ويظهر لهم بطلان ما كانوا عليه من إشراكهم مع الله، ويسقط في أيديهم أن شركاءهم لا يملكون نفعًا ولا شفعا، وكفرهم بهم، وظهور العداوة والبغضاء بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ﴾.

٧- تكذيب آلهة المشركين لهم في زعمهم أنهم شركاء مع الله، وأنهم أمروهم بعبادتهم، وظهور العداوة والبغضاء بينهم وبين عابديهم، وكفر بعضهم ببعض، ولعن بعضهم بعضا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٨- استسلام المشركين وشركائهم في ذلك اليوم كلهم لله تعالى، وخضوعهم وذلهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾ [النحل: ٨٧]. كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الآيات: ٢٤ ٢٦].

٩- غياب ما كان المشركون يفترونه من الشركاء لله وتخليهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

١٠- جمع المكذبين للنبي ﷺ بين الكفر والصد عن سبيل الله بأنفسهم وبين صد الناس عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ﴾ [الآية: ٢٦].

١١- زيادة الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله عذابًا آخر فوق العذاب، فالعذاب الأول بسبب كفرهم، والعذاب الثاني بسبب صدهم عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٢- أن السبب في زيادة المذكورين عذابًا فوق العذاب هو إفسادهم في الأرض بصد الناس عن سبيل الله، بعد فسادهم بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾.

١٣- تفاوت الكفار في عذابهم حسب أعمالهم، فأعمالهم درجات، وعذابهم دركات.

١٤- إثبات شهادة الرسول ﷺ على هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

١٥- الامتنان على الرسول ﷺ وعلى أمته بإنزال القرآن تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

١٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله عز وجل علو القدر وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، وأنه منزل غير مخلوق.

١٨- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه بإنزال القرآن عليه وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

١٩- أن القرآن الكريم تبيان لكل شيء مما يحتاج إليه الخلق في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢٠- أن القرآن الكريم هدى للمسلمين هداية خاصة، ورحمة لهم رحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ كما أنه هدى ورحمة للناس عامة.

٢١- أن القرآن بشارة للمسلمين بالفرح والنصر والتمكين والسعادة في الدارين والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾.

هذا خبر من الله- عز وجل- وثناء منه على نفسه وشرعه، وقد جمع الله- عز وجل- في هذه الآية أصول التشريع، وهي الأمر والنهي، وهي بيان لقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩].

عن عثمان بن مظعون- رضي الله عنه- أنه مر على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته فكَشَرَ[1] إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «**ألا تجلس؟**» فقال: بلى. فجلس ثم أوحي إليه هذه الآية، فقرأها عليه. قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمدًا ﷺ»[2].

وقال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية»[3].

---

(١) أي: تبسم في وجه النبي ﷺ حتى بدت أسنانه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣١٨).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٧).

لهذا أمر الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز- رحمه الله- بتلاوتها في الخطبة يوم الجمعة. وانتدب أكثم بن صيفي رجلين إلى النبي ﷺ- فتلا عليهما رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ فأتيا أكثم، فقرآها عليه، فقال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا»(١).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد والاهتمام بهذا الخبر الذي معناه الأمر.

والأمر: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، إذا كان من أعلى إلى من هو دونه. فإن كان من مساوٍ فهو التماس، وإن كان من أدنى إلى من هو فوقه فهو دعاء.

و«العدل»: القسط والاستقامة، بفعل الواجبات، وترك المحظورات، بأداء حقوق الله- عز وجل- وحقوق النفس، وحقوق الخلق، في الأقوال والأفعال والأحكام، في الغضب والرضا. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

وقال ﷺ: «**إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، ولزورك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه**»(٢).

والإحسان: فعل المندوبات والمستحبات؛ قولًا وفعلًا وبذلًا، فالعدل واجب والإحسان فضيلة، فالله- عز وجل- أوجب العدل وندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٨)، والترمذي في الزهد (٢٤١٣) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكما أن العدل بمعناه العام إعطاء كل ذي حق حقه، فإن الإحسان بمعناه العام والذي هو أعلى درجات الإحسان، كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وهو بهذا المعنى يشمل جميع أنواع العبادة من الأقوال والأفعال، والبذل، والترك، وغير ذلك، وهو على هذا قسمان: إحسان في عبادة الله- عز وجل- بالإخلاص له- عز وجل- والمتابعة لرسوله ﷺ، وإحسان إلى عباد الله وخلقه بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»(٢).

وقدم عز وجل في أمره «العدل» لأنه يتناول فعل الواجب وترك المحرم، وهو حقه- عز وجل- على العباد، ولهذا لما جاء الرجل الذي يسأل عن الإسلام قال له رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة. فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوّع، وصيام شهر رمضان. فقال: هل عليَّ غيره؟ فقال: لا، إلا أن تطوّع، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع**»، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**» وفي رواية: «**أفلح وأبيه إن صدق، أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»(٣).

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه: «**من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأبوداود في الضحايا (٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٦)، ومسلم في الإيمان (١١)، وأبوداود في الصلاة (٢٩١)؛ من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤).

وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه**»(١).

فالعدل كل العدل والواجب العض على فعل الواجبات بالنواجذ وإقامتها وإتمامها كما شرع الله، والبعد كل البعد عن المنهيات، والاجتهاد بعد ذلك بفعل النوافل والمستحبات.

وقد ظهر عند كثير من الناس اليوم التشبث ببعض النوافل مع الإخلال بالواجبات حتى كثر هذا فيمن يتوسم فيه الحرص على الخير والصلاح، بل وفي بعض المنتسبين إلى العلم، يترك كثير منهم ما يجب عليه من الأذان أو الإمامة، أو العمل الوظيفي الذي يتقاضى عليه أجرًا بحجة أنه ذاهب للعمرة، وتفوته صلاة الجماعة بحجة أنه ذاهب لصلاة جنازة، أو للتراويح في مسجد بعينه، ونحو ذلك. وما حال هؤلاء إلا كما قيل: «يعمر قصرًا ويهدم مصرًا».

والنوافل مطلوبة ومرغب فيها وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»(٢).

لكن النوافل إنما تنفع ويرقع بها نقص الفرائض عند الحرص على إتمام الفرائض، أما مع التهاون اليومي شبه المتعمد في الفرائض- كما هو حال كثير من الناس اليوم- فإن هذا خرق عظيم خطير، يخشى أن لا تُرقِّعه النوافل مهما كثرت.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: ويأمر بإعطاء صاحب القربى حقه الواجب والمستحب، ببره وصلته، بالزيارة والسلام، والإحسان إليه قولًا وفعلًا وبذلًا، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكل من كان أقرب فحقه أولى وأوجب.

وخص إيتاء ذي القربى مع أنه داخل في العدل والإحسان؛ لعظم حق القريب، وكثرة التهاون به والغفلة عنه.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ الجملة معطوفة على التي قبلها، وبينهما

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا جزء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق.

مقابلة بين قوله: ﴿يَأْمُرُ﴾، ﴿وَيَنْهَىٰ﴾، وبين قوله: ﴿بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ وبين قوله: ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾.

و«النهي» ضد الأمر، وهو طلب الكف والترك على جهة الاستعلاء، إذا كان من أعلى إلى من هو دونه، فإن كان من مساوٍ فهو التماس، وإن كان من أدنى إلى من هو فوقه كان دعاء.

و﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ كل ما يستفحش ويستقبح من قول أو فعل أو اعتقاد في الشرع، ولدى العقول والفطر السليمة والأعراف المستقيمة، مما هو ظاهر الفساد ويضر بالمجتمع والأفراد والبلاد والعباد كالشرك بالله والسحر وقول الزور والقتل بغير حق، والسرقة والزنا، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى حكاية عن لوط عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: ما ينكره الشرع والعقول والفِطر السليمة والأعراف المستقيمة، من قول أو فعل أو اعتقاد، وهو أعم من الفحشاء، فعطفه عليها من عطف العام على الخاص، وقدمت عليه لفحشها وقبحها وشدة أثرها وانتشار ضررها.

ومن المنكر ترك الواجبات، كترك الصلاة والزكاة والصيام والحج، وصلاة الجماعة، ونحو ذلك.

ومنه ارتكاب المنهيات كعقوق الوالدين، والغيبة والنميمة والظهار ونحو ذلك، قال تعالى في المظاهرين من نسائهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾ [المجادلة: ٢].

ومما يدل على التداخل بين الفحشاء والمنكر إطلاق كل منهما على بعض الأعمال كاللواط، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى

نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

وقد حمل بعض المفسرين الأمر بالعدل والإحسان على فعل المأمورات، وحمل النهي عن الفحشاء والمنكر على ترك المنهيات.

وقال الطبري(١): «وقد ذكر عن ابن عيينة أنه كان يقول في تأويل ذلك: إن معنى العدل في هذا الموضع: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملًا.

وأن معنى الإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته، وأن الفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته».

﴿وَٱلْبَغْيِ﴾، أي: وينهى عن البغي. والبغي في الأصل: التعدي ومجاوزة الحد من كل شيء.

والمعنى: وينهى عن التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وهو فحش ومنكر، لكنه خص بالذكر اهتمامًا بالنهي عنه لخطره وعظم ضرره، لما فيه من التعدي والظلم للآخرين، ولأنه قد يخفى فلا يعلم الناس به ولا ينكرونه، بل قد يلبس بلباس الحق وهو اعتداء وظلم.

عن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(٢).

﴿يَعِظُكُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حال كونه يعظكم.

والموعظة: ذكر الأحكام من الأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

والمعنى: أن الله يأمركم بالعدل والإحسان وينهاكم عن الفحشاء والمنكر والبغي موعظة لكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تتذكروا، أي: تتعظوا، ولأجل هذا أنزل القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل

---

(١) في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد- باب البغي (٤٢١١)، وأحمد (٥/ ٣٦، ٣٨).

عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤].

والعجيب أن كثيرًا ممن يشتغلون بالتفسير ينشغلون بالأعاريب والقراءات الشاذة والمعاني والأقوال الضعيفة، ونحو ذلك، وربما خرجوا في ذلك من شيء إلى شيء، بينما يهملون جانب الموعظة والتربية بالقرآن مما يحرك القلوب، ويدعوها إلى التفكر والتأمل، وربما قلل بعضهم من قيمة هذا التفسير، وهذا مكمن الخطأ، فإن تربية الناس بالقرآن وتذكيرهم ووعظهم به هو الذي من أجله أنزل القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

أخبر عز وجل في الآية السابقة أنه يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ثم أتبع ذلك بالأمر بالوفاء بعهد الله، والنهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها في هذه الآيات، وهذا أشبه بالتوكيد لما سبق، وأيضًا فإن الأمر في الآية السابقة بما هو واجب في أصل الشرع وهذه الآيات في الوفاء بما أوجبه الإنسان على نفسه.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ الآية.

رُويَ أن هذه الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة، وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان(١).

و«العهد» الميثاق والعقد، والوفاء به: القيام بموجبه وعدم نقضه، أي: وأوفوا بميثاق الله وعقده الذي واثقتموه وعاهدتموه عليه، من الإيمان والطاعة.

و﴿إِذَا﴾ للظرفية المجردة والتوكيد؛ لأن المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة.

فالمعنى: من عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٩)- عن ابن أبي ليلى عن مزيدة.

ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

وعهد الله كل ما عاهدوا عليه الله من الإيمان والطاعة والعبادات والنذور وغير ذلك، وأعظم ذلك وأهمه الإيمان، فإنه عهد وميثاق بين العبد وبين ربه يحتم عليه القيام بمقتضيات هذا الإيمان، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومن عهد الله ما عاهدوا عليه الرسول ﷺ فهو عهد مع الله، كما قال- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

ومن ذلك مبايعتهم له ﷺ على الإسلام، وعلى ألا يعصوه في معروف، وبيعة العقبة، ونحو ذلك.

عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا، وحيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم» (١).

كما يشمل عهد الله ما أبرموا بينهم من عقود وعهود ووعود، يجب الوفاء بها فيما بينهم.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

الأيمان: جمع يمين، وهو الحلف. ونقض الأيمان: الحنث فيها، وعدم الوفاء بها.

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، أي: بعد أن أكَّدتموها، أو مع توكيدكم لها، والتوكيد بمعنى التوثيق، أي: بعد توثيقها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرعد: ٢٥]، أي: بعد توثيقها بالحلف بالله. قال الشاعر:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهبُ (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٨٦٦).

(٢) البيت للنابغة الذبياني. انظر: «جهرة أشعار العرب» (ص٧٢)، «الأغاني» (١١/ ٦) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٢٦١).

والمعنى: ولا تحنثوا في الأيمان بعد توثيقها بالحلف بالله- عز وجل- أو باسم من أسمائه، أو وصفة من صفاته.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنكم قد جعلتم واتخذتم الله عليكم كفيلًا.

و«جعل» هنا بمعنى: «صيَّر» تنصب مفعولين، الأول لفظ الجلالة «الله»، والثاني: «كفيلًا».

أي: وقد جعلتم الله بتوكيد الأيمان بالحلف به- عز وجل- عليكم ﴿كَفِيلًا﴾، أي: شهيدًا ورقيبًا، وضامنًا وحافظًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿مَا﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: إن الله يعلم الذي تفعلونه، أو يعلم فعلكم. وفي هذا وعيد وتهديد لمن لم يفوا بعهد الله أو نقضوا الأيمان بعد توكيدها، كما أن فيه وعدًا لمن أوفى بعهد الله، وحفظ الأيمان بعد توكيدها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، فيها تشنيع وذم لحال الذين ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها، والغرض من ذلك توكيد النهي عن نقض العهود والأيمان بعد توكيدها.

والمعنى: ولا تنقضوا العهد والأيمان بعد توكيدكم لها فتكونوا كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾.

والنقض: ضد الفتل والشد. ﴿غَزْلَهَا﴾ مصدر بمعنى المفعول، أي: المغزول، ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾، أي: من بعد إحكام غزله وفتله وإبرامه بقوة.

﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نِكْث، أي: نقضت غزلها أنكاثًا. أي: أنقاضًا، وقد يكون مصدرًا؛ لأن ﴿نَقَضَتْ﴾ بمعنى نكثت.

أي: ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها أنقاضًا أو نقضًا. ويحتمل كونه حالًا من ﴿غَزْلَهَا﴾، أي: نقضته فإذا هو أنكاثًا.

فشبه حال من ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها بأسوأ الأمثال وأقبحها، وأدلها على سفاهة فاعله ونقص عقله وخسرانه، شبههم بحال المرأة التي تفتل غزلها وتحكمه، ثم تعود فتنقضه خيطًا خيطًا، فتعبت في فتله ثم في نقضه، ولم تستفد إلا الخيبة والعناء والخسران، فكذلك من نقض العهد والأيمان بعد توكيدها فهو ظالم جاهل خاسر سفيه ناقص الدين والمروءة.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ حال من ضمير الواو في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أو في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾.

أي: تجعلون حلفكم دخلًا بينكم، و«الدَخَل» المكر والغدر والخديعة والخيانة والدغل والفساد، أي: لا تجعلوا حلفكم وسيلة للمكر والغدر والخديعة والخيانة وسببًا للفساد بينكم والعداوة والخصام، بدل أن كانت وسيلة للتوثيق وطمأنة بعضكم بعضًا والسلامة من الاختلاف والعداوة.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، ﴿أَن﴾ للتعليل والسببية، أي: بسبب أن تكون أمة هي أربى من أمة، والأمة: الطائفة والجماعة، و﴿أَرْبَىٰ﴾ بمعنى أزيد وأكثر.

قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠]، أي: زائدة.

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، أي: يزيدها.

ومنه سمي «الربا». قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

والمراد لا يحملكم على نقض العهد والأيمان بعد توكيدها كون المشركين أكثر عددًا وعدة من المسلمين فتركنون إلى المشركين وتوالونهم من دون المؤمنين، تبعًا لأهوائكم وتقديمًا لما تطمعون به من المنفعة الظاهرة العاجلة.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ الجملة مستأنفة، والابتلاء: الاختبار والامتحان، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى المصدر المؤول.

﴿أَن تَكُونَ﴾، أي: إنما يختبركم الله ويمتحنكم بكون أمة أربى من أمة؛ ليظهر منكم صدق الإيمان من عدمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال بعض المفسرين: الضمير في «به» يعود إلى الأمر بالوفاء بالعهد والأيمان.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

اللام: واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله ليبينن لكم، والنون للتوكيد، و«ما» موصولة، أي: والله ليظهرن لكم ربكم أيها الناس يوم القيامة الذي كنتم فيه تختلفون من الأحوال والأعمال وغير ذلك، وذلك بمحاسبته- عز وجل- للناس ومجازاته لهم على أعمالهم، وفوز من آمن وأوفى بالعهد والأيمان بجنات النعيم، وخسران من كفر ونقض العهود والأيمان بمصيره إلى دركات الجحيم- وليس الخبر كالعيان.

وفي هذا وعد لمن أوفى بعهد الله وبالأيمان ووعيد لمن نقض العهد ونكث في الأيمان.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: ولو أراد الله كونًا لجعلكم أيها الناس جماعة واحدة، مجتمعين على الإيمان، متفقين غير مختلفين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

ولكنه- عز وجل- لم يشأ جعل الناس أمة واحدة، بل شاء وأراد أن يكونوا مختلفين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، ولهذا قال بعده: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

و«جعل» بمعنى: «صيَّر» تنصب مفعولين، الأول: ضمير المخاطبين، والثاني: «أمة واحدة».

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: ولكن لم يشأ أن يجعلكم أمة واحدة، بل شاء أن يضل عن الإيمان من يشاء بعدله، ويهدي ويوفق إلى الإيمان من يشاء

بفضله، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للقسم، أي: والله لتسألن، والنون للتوكيد، و«ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة أو مصدرية، أي: عن الذي كنتم تعملونه، أو عن عملكم.

أي: والله لتسألن عن الذي كنتم تعملون وتحاسبون وتجازون عليه بالثواب، أو العقاب، فالمؤمنون يُسألون سؤال تقرير، والكفار يسألون سؤال توبيخ وتقريع.

وليس المراد بالسؤال الاستفهام والاستخبار؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ولا غيرها، وفي هذا وعد لمن آمن وعمل صالحًا، ووعيد لمن خالف ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

هذا تأكيد لما سبق من التحذير من اتخاذ الأيمان دخلًا بينهم بالنهي الصريح عن ذلك، وذكر سوء عاقبة ذلك في الدين والدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾، أي: ولا تجعلوا أيمانكم وحلفكم خديعة وغرورًا ومكرًا بينكم تبعًا لأهوائكم.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ جواب النهي قبله، وزلل القدم: انزلاقها وعدم ثباتها على الأرض لوحل وطين ونحو ذلك. يقال لكل مبتلى بعد عافية زلت به قدمه، أو زلت به القدمان.

قال الشاعر:

سيمنع منك السبق إن كنت سابقًا ... وتقتل إن زلت بك القدمان(١)

﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، أي: بعد رسوخها وثباتها وعدم تزلزلها.

والمراد هنا: فتختل الحال، وتزل أقدامكم عن الصراط المستقيم بعد ثبوتها عليه.

---

(١) البيت لبشير بن أبيّ العبسي. انظر: «أمثال العرب» (ص٧١)، «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ١٧٣، ١٧٤).

وفي قوله: ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ تصوير اختلاف الحالين، وفرق ما بين الأمرين، فزلل القدم سبب للسقوط والانكسار، وثبوتها سبب للسلامة بإذن الله عز وجل.

وكذلك الثبات على الصراط المستقيم سبب للسعادة في الدنيا والآخرة، والزيغ عن الصراط المستقيم سبب للشقاء في الدنيا والآخرة، ولهذا قال بعده:

﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ذوق السوء الإحساس به وتجرع ألمه ومرارته، كما قال تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: ٩٥].

والسوء: ما يؤلم من العقاب، وسمي بـ«السوء» لأنه يسوء من يصيبه حسًّا ومعنى. والمراد به في الآية: العقاب الدنيوي على أيدي المؤمنين.

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صدودكم وانصرافكم عن دين الله، وصرفكم الناس عنه بنقضكم العهود والأيمان، وتشويه صورة الإسلام وغير ذلك.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: ولكم عذاب عظيم في الآخرة، من حيث كمه وكيفه ونوعه، حسًّا ومعنى، ولا يعلم قدر عظم هذا العذاب إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا تعتاضوا وتستبدلوا بالوفاء بعهد الله.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الثمن: هو العوض الذي يأخذه المعاوض، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة كاشفة، وليست مقيدة، أي: أن كل عوض يؤخذ مقابل نقض عهد الله فهو قليل، ولو كان ذلك الدنيا بجميع ما فيها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وهذا نهي وتحذير من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها قل أو كثر.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تعليل للنهي السابق. و﴿إِنَّمَا﴾ مركبة من «إن» المؤكدة

و«ما» الموصولة.

أي: إن الذي عند الله لكم من الرزق والفضل والثواب في الدنيا والآخرة.

﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: هو خير لكم خيرية مطلقة من جميع الوجوه في دنياكم وأخراكم، خير لكم من الدنيا بما فيها، وخير لكم من كل شيء، فأوفوا بعهد الله، واحفظوا أيمانكم ينلكم ما ادخره لكم من خير.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم تنتفعون بعلمكم، فتؤثرون ما عند الله لكم من خير، على الثمن القليل الحقير، وفي الآية حث لهم على العلم.

قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: إنما عند الله خير لكم؛ لأن ما عندكم ينفد وما عند الله باق، ففرق ما بين الأمرين وشتان ما بين العوضين.

و«ما» في الموضعين موصولة. والخطاب لجميع الناس، أي: الذي عندكم أيها الناس ﴿يَنفَدُ﴾، أي: يفنى وينقرض ولو كانت الدنيا بحذافيرها، إما في حال حياتكم، أو بموتكم، لأنه لأجل معدود.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، أي: والذي عند الله وفي خزائنه باق لا يفنى ولا ينقرض من خيري الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

أي: فلا تعتمدوا على الذي عندكم، مهما كثر؛ لأن ذلك يفنى وينقرض، واطلبوا الذي عند الله من الخير؛ لأنه الذي يبقى ولا يفنى، وذلك بالوفاء بعهده- عز وجل- والاستقامة على طاعته.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قرأ عاصم وابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر في إحدى الروايتين عنه وأبوجعفر بنون العظمة

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ على الالتفات، وقرأ الباقون بياء الغيبة: «وليجزين»، أي: وليجزين الله.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم﴾ الواو: عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لنجزين الذين صبروا.

والنون للتوكيد. والاسم الموصول في محل نصب مفعول أول لـ«نجزين» و«أجرهم» مفعوله الثاني لتضمينه معنى «لنعطين» المتعدي إلى مفعولين.

وقد أقسم- عز وجل- على صحة هذا الخبر- وهو أصدق القائلين، على طريقة العرب في تأكيد الخبر بالقسم.

والصبر في اللغة: الحبس، وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء. ويقال: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أقسام ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

﴿أَجْرَهُم﴾، أي: ثواب عملهم وصبرهم، وسمي أجرًا؛ لأن الله- عز وجل- ضمنه وتكفل لهم به.

﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بأحسن الذي كانوا يعملونه، أو بأحسن عملهم.

والمعنى: ولنجزينهم عن الحسن والأحسن من أعمالهم بالأحسن من الجزاء والثواب، ونتجاوز عن سيئ أعمالهم- وهذا من كرمه- عز وجل- وجوده، وواسع فضله، وعظيم عفوه.

وأضيف الحسن إلى العمل للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وفيه حث على إحسان العمل، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ورتب عز وجل هذا الجزاء العظيم على الصبر؛ لأنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال ﷺ: «**ما أُعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

أخبر عز وجل وأقسم وأكد في الآية السابقة بأنه يجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، ثم فصَّل وبيَّن أن ذلك لكل من عمل صالحًا من ذكر وأنثى وهو مؤمن، مع الحياة الطيبة وأقسم على ذلك وأكده.

قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم، و﴿عَمِلَ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾.

﴿صَٰلِحًا﴾، أي: عملًا صالحًا، وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه؛ لأن المهم في العمل وشرط قبوله أن يكون صالحًا.

ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: أخلص العمل لله، وهو متبع ما جاء به رسول الله ﷺ.

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لعموم «من» الموصولة، أي: من ذكر أو أنثى من بني آدم.

وقدم الذَّكر على الأنثى لفضله عليها من حيث العموم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

أما من حيث الخصوص فقد تكون بعض النساء أفضل من بعض الرجال، ويكفي أن من النساء فاطمة- رضي الله عنها- سيدة نساء أهل الجنة، ومنهن أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وغيرهن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم

مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**»(١).

قال الشاعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ ... أبوهمُ آدم والأم حواء
فإن يكن لهم من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء(٢)

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونه مؤمنًا، أي: وهو مصدق بقلبه ولسانه بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبوعد الله- عز وجل- ووعيده، وكل ما أوجب الله الإيمان به.

فالإيمان بالقلب واللسان شرط لقبول العمل، ولا يصح العمل بلا إيمان، كما لا يصح الإيمان بلا عمل؛ لأن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح، خلافًا للمرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان- وهذا باطل.

﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، واللام لام القسم لقسم مقدر.

أي: فوالله لنحيينه حياة طيبة في هذه الدنيا تطيب بها نفسه وينشرح بها صدره، بتوفيقه في أمر دينه، وتيسير أمر دنياه، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٢].

وقال ﷺ: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة (١١٣)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧).

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة- الكفاف والقناعة (١٠٥٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٨)، وأحمد (٢/ ١٦٨)- من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما.

وعن فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**»(٢).

وعن خباب بن الأرت- رضي الله عنه- قال: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي بذلك وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا، كان منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أُحد، فلم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا بها رجليه خرج رأسه، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها»(٣).

قال ابن القيم في كلامه على الآية: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال: «وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة، وقد ضمن الله- سبحانه- لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد، الذي لا يخلف وعده، وأيّ حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله...»(٤).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الكلام فيه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الآية السابقة.

وفيه توكيد وتعميم وبيان أن هذا الأجر كما هو للصابرين كذلك هو لكل من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، أي: ولنجزينهم في الآخرة بأحسن ثواب عملهم مع الحياة الطيبة في الدنيا، وهذا هو حسنة الدنيا والآخرة، كما في الدعاء: ﴿رَبَّنَآ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد- ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٩)- وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة (٢٨٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٩١٤)، ومسلم في الجنائز (٩٤٠)، والنسائي في الجنائز (١٩٠٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٣).

(٤) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٥٠).

ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال ابن القيم: «فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا الحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله- عز وجل- بالعدل والقسط، وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٢- أمْر الله- عز وجل- بالإحسان وترغيبه فيه؛ قولًا وفعلًا وبذلًا، فعلًا للمستحبات وبُعدًا عن المكروهات وإحسانًا في أداء الواجب بكونه خالصًا لله تعالى وفق شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

٣- الموازنة بين التكاليف بتقديم ما هو واجب؛ لأن الله قدَّم الأمر بالعدل؛ لأنه واجب، وعطف عليه الإحسان بفعل المندوب.

٤- عظم حق ذي القربى؛ لأن الله خصّه بالذكر من بين سائر الحقوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: إيتائهم حقهم من الصلة والبر والإحسان، الواجب والمندوب.

٥- نهي الله- عز وجل- عن الفحشاء والمنكر من الأقوال والأعمال والأحوال، وتحريمه لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

٦- في تقديم النهي عن الفحشاء دلالة على شناعة الفاحشة وقبحها وشدة أثرها وانتشار ضررها.

٧- أن المنكر أعم من الفحشاء؛ لهذا عطف عليها من عطف العام على الخاص؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾.

٨- عظم البغي على الناس وشدة حرمته؛ لأن الله خصّه بالذكر بعد النهي عن الفحشاء والمنكر مع أنه من المنكر أو منهما معًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾.

٩- أن فعل المأمورات أهم وأعظم من ترك المحظورات؛ لأن الله قدم الأمر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٥٠).

بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى على النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

١٠- أن ما أمر الله به من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وما نهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغي كل ذلك مما يعظ الله به الناس ليتذكروا ويتعظوا؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١١- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله- عز وجل- وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١٢- وجوب الوفاء بعهد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ وذلك بالقيام بمقتضى الإيمان من فعل الواجبات والبعد عن المنهيات والوفاء بالعهود.

١٣- النهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وتحريم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لكن لو حلف على أمر فرأى غيره خيرًا منه ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير كما دلت على ذلك السنة.

١٤- وجوب تعظيم الأيمان والوفاء بها وعدم نقضها بعد توكيدها تعظيمًا لله- عز وجل- حيث جعل الحالف الله عليه كفيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

١٥- علم الله- عز وجل- الواسع بكل ما يفعله الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن وفوا بعهد الله، وحفظوا الأيمان، ووعيد لمن لم يفوا بعهد الله، ونقضوا الأيمان بعد توكيدها.

١٦- بلاغة القرآن الكريم في تشبيهه من ينقضون العهد والأيمان بعد توكيدها، ويتخذونها دخلًا بينهم، من حيث سوء وقبح فعلهم وسفاهة عقولهم وخسرانهم بالمرأة التي نقضت غزلها بعد إحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ فاجتمع فيها سفاهة الرأي ونقصان العقل والخسران بعد العناء.

١٧- التحذير من اتخاذ الأيمان للمكر والخديعة والفساد والعداوة والخصام لقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾.

١٨- لا ينبغي أن تكون كثرة المشركين سببًا لنقض العهد والأيمان طمعًا في منفعة

عاجلة تحصل منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

١٩- ابتلاء الله للمؤمنين بكون المشركين أكثر منهم، وبما أوجب من الوفاء بالعهد والأيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢٠- تأكيد الله- عز وجل- بأنه سيبين ويظهر للخلائق ما كانوا فيه يختلفون من الأحوال والأعمال وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا وعد لمن وفوا بالعهد وحفظوا الأيمان، ووعيد لمن نقضوا العهد ونكثوا الأيمان.

٢١- إثبات القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٢٢- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وهي الإرادة الكونية، وأنه- عز وجل- لو شاء لجعل الناس أمة واحدة غير مختلفين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

٢٣- أنه- سبحانه- لم يشأ كون الناس أمة واحدة مجتمعة على الإيمان، ولكن يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٢٤- إثبات تقدير الله- عز وجل- لجميع الأعمال من الهداية والضلال، والرد على القدرية الذين ينفون تقديره- عز وجل- لأفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٢٥- إثبات سؤال الخلق عن أعمالهم وتوكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالمؤمنون يسألون سؤال تقرير، والكفار يسألون سؤال توبيخ وتقريع.

٢٦- أن اتخاذ الأيمان دخلًا للمكر والمخادعة سبب لزلة الأقدام والانحراف عن طريق الهدى والرشاد، وصد الناس عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢٧- التحذير من الصد عن سبيل الله وصرف الناس عنه بنقض العهد والأيمان

وتشويه صورة الإسلام، والوعيد على ذلك بالعذاب السيئ في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٨- النهي عن الاشتراء بالوفاء بعهد الله ثمنًا قليلًا، ولو كان ذلك الدنيا بحذافيرها فهو قليل مقابل ترك الوفاء بعهد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾.

٢٩- أن ما عند الله من الفضل والرزق والثواب في الدنيا والآخرة هو خير لمن كانوا ذوي علم بما ينفعهم على الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٣٠- أن ما عند الناس مهما كثر فهو يفنى وينقرض، ولو كان ذلك الدنيا بما فيها، وما عند الله من الخير وخزائن الدنيا والآخرة باق لا يفنى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣١- الترغيب في الطمع بما عند الله- عز وجل- من الفضل والرزق والثواب في الدنيا والآخرة والسعي لتحصيله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣٢- ينبغي أن يكون المؤمن أوثق بما عند الله مما في يده؛ لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣٣- الإشارة إلى أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾.

٣٤- وعد الله- عز وجل- المحقق، وخبره المؤكد بمجازاة الصابرين بأحسن ثواب أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٥- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فمن أحسن العمل أحسن له الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٦- عظم مكانة الصبر وفضله، والترغيب فيه، والحث عليه؛ لأن الله وعد أهله بأحسن الجزاء.

٣٧- وعد الله- عز وجل- لكل من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن بالحياة الطيبة في الدنيا، ومجازاتهم في الآخرة بأحسن ثواب عملهم وتأكيد تحقيق ذلك

لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

٣٨- تكفل الله- عز وجل- وضمانه لثواب الصابرين، وثواب من عمل صالحاً وهو مؤمن؛ ولهذا سماه «أجرا».

٣٩- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، فلابد أن يكون العمل صالحًا خالصًا لله- عز وجل- وفق شرعه وسنة نبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٤٠- استواء الذكور والإناث في الجزاء الدنيوي والأخروي؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية.

٤١- أن الذكر من حيث العموم أفضل من الأنثى، لتقديمه عليها بالذكر في الآية، وهذا لا يمنع أن تكون بعض النساء أفضل من بعض الرجال.

٤٢- يجوز أن يقصد الإنسان بعمله ثواب الدنيا والآخرة معًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية. وقد قال الله- عز وجل- في سورة القصص: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وأثنى- عز وجل- على الذين يدعون ربهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

٤٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله وعد على ذلك بهذا الجزاء العظيم في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ الفاء استئنافية و«إذا» ظرفية شرطية، و﴿قَرَأْتَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾.

والخطاب في قوله: ﴿قَرَأْتَ﴾ للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

و«القرآن» هو ما أنزله الله- عز وجل- على نبيه ﷺ من الوحي، المتعبد بتلاوته والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

وسمي القرآن بهذا الاسم؛ لأنه مقروء متلو أخذًا من «قرأ» إذا تلا، ومن «قرى» إذا جمع؛ لأنه مجموع آيات وسور، ومنه سميت «القرية»؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين، وسمي مجمع الماء «قروًا» لاجتماع الماء فيه.

والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: قل «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

والفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

و«السين» للطلب، أي: اطلب العوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والأمر للندب عند جمهور أهل العلم، بل حكي عليه الإجماع.

ومعنى: «أعوذ بالله»، أي: أعتصم بالله، وأمتنع به، وألجأ إليه، قال ﷺ لابنة الجون، لما قالت حين أدخلت عليه: أعوذ بالله منك، قال ﷺ: «**لقد عذت بعظيم**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٥٤)، والنسائي في الطلاق (٣٤١٧)، وابن ماجه في الطلاق

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ كل متمرد عات من الإنس والجن والحيوان، مأخوذ من «شطن» بمعنى بَعُد عن رحمة الله- عز وجل، وعن كل خير.

﴿ٱلرَّجِيمِ﴾، «فعيل» بمعنى «مفعول»، أي: المرجوم بالإبعاد والطرد عن رحمة الله، والإخراج من الجنة، والرمي بالشهب(١).

فأمر الله- عز وجل- بالاستعاذة عند قراءة القرآن لئلا يلبس الشيطان على القارئ، ويحول بينه وبين التدبر والتفكر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ [الحج: ٥٢].

والمصيبة أن كثيرًا من المسلمين لا يتدبر معنى الاستعاذة كما لا يتدبر معاني القرآن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن، وترغيب في امتثاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

والسلطان: السلطة والتسلط، أي: إنه ليس للشيطان سلطة ولا تسلط ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ لإغوائهم؛ لحفظ الله لهم منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ معطوف على جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون إعادة اسم الموصول للدلالة على أنه لابد من الجمع بين الإيمان والتوكل على الله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وتقديم المتعلق ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لإفادة القصر، أي: لا يتوكلون إلا على ربهم الذي له الخلق والملك والتدبير.

والتوكل على الله: الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه في جلب النفع ودفع الضر

(٢٠٥٠)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(١) راجع تفصيل الكلام على الاستعاذة؛ صيغها وإعرابها ومعناها وأحكامها في الجزء الأول.

مع تمام الثقة به سبحانه.

فهؤلاء محفوظون بحفظ الله من الشيطان أن يتسلط عليهم، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال ﷺ لابن عباس- رضي الله عنهما: «**يا غلام، احفظ الله يحفظك**»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذا تأكيد لنفي سلطانه على المؤمنين.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: ليس له تسلط «إلا على الذين يتولونه»، أي: الذين يتخذون وليًا لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يحتمل عوده لـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: والذين هم بربهم مشركون.

ويحتمل أن يعود إلى ما يعود إليه الضميران في قوله: ﴿سُلْطَٰنُهُۥ﴾ وقوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ وهو الشيطان، وهذا أولى لاتحاد الضمائر، أي: إنما سلطان الشيطان على الذين يتخذونه وليًّا لهم ويشركونه مع الله في العبادة والطاعة، فيشاركهم في الأموال والأولاد، كما قال تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤]. والباء على هذا للتعدية.

ويحتمل كون الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ للسببية، والضمير يعود إلى الشيطان، أي: والذين هم صاروا بسببه مشركين، أي: بسبب طاعتهم وعبادتهم له.

وقدم المتعلق ﴿بِهِۦ﴾ لإفادة الحصر، أي: إنهم ما أشركوا إلا بسببه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فتسلطه عليهم بسبب موالاتهم له وإشراكهم به واستجابتهم له.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

حصر عز وجل في الآية السابقة سلطان الشيطان على الذين يتخذونه وليًا ويشركون به. ثم ذكر في هذه الآية والآيات بعدها- الأسباب التي جعلته يتسلط عليهم، وهو تكذيبهم ما جاء به الرسول ﷺ وزعمهم أنه مفتر، وأنه إنما يعلمه بشر، وعدم إيمانهم بآيات الله، وافتراؤهم وكذبهم وكفرهم واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة وغفلتهم.

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ الواو عاطفة، ﴿وَإِذَا﴾ ظرفية شرطية، و﴿بَدَّلْنَآ﴾ فعل الشرط، وجوابه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾.

والتبديل: وضع شيء مكان شيء.

والآية في اللغة العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

والآية من القرآن: القطعة من كلام الله تعالى ذات بداية ونهاية، منفصلة عما قبلها، مندرجة تحت سورة من سور القرآن العظيم.

والمراد بالتبديل هنا النسخ، أي: إذا نسخنا آية بآية أخرى، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو «ينْزل» بسكون النون وتخفيف الزاي، وقرأ الباقون ﴿يُنَزِّلُ﴾ بفتح النون، وتشديد الزاي.

وهذه الجملة اعتراضية بين شرط «إذا» وجوابها لبيان أن لله- عز وجل- العلم التام والحكمة البالغة فيما ينزل من القرآن، وفيما يبدل وينسخ منه.

قال ابن القيم: «تأمَّل حسن الاعتراض وجزالته، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه، أفاد أمورًا منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟ ومنها: أن الذي بُدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم. ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى- وأن كلًا منهما

منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني»(١).

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا يُنَزِّلُ﴾ موصولة، أي: والله أعلم بالذي ينزل، والذي هو أصلح لخلقه، فيما يبدل ويغير من أحكامه.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرٍۚ﴾، أي: قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرٍۚ﴾، ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، أي: ما أنت إلا مفتر، أي: كذاب مختلق للكذب، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [الطور: ٣٣].

فنفوا عنه صلوات الله وسلامه عليه صفة النبوة والرسالة والصدق فيما جاء به، وحصروا صفاته بالافتراء والكذب- وحاشاه من ذلك، بل هو الصادق المصدوق، كما قال عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة**» الحديث(٢).

وقد كانوا قبل مبعثه ﷺ يسمونه الأمين لصدقه وأمانته.

ولما سأل هرقل أبا سفيان لما قدم عليه فيمن قدم قبل أن يسلم عن صفة النبي ﷺ كان فيما سأله عنه قوله له: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله- عز وجل»(٣).

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿بَلۡ﴾ للإضراب الإبطالي، أي: لإبطال ما زعموه من أنه ﷺ مفتر للقرآن، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل أكثرهم جهال لا علم عندهم يهتدون به إلى الحق، فهم يتخبطون في الجهل، فلا عبرة بقولهم؛ لأنه قول بلا علم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، وأبوداود في السنة (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)؛ من حديث عبدالله بن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أي: قل يا محمد ردًّا عليهم، لست بمفتر، وليس القرآن بافتراء بل ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾.

﴿نَزَّلَهُ﴾ التنزيل: إنزال الشيء مفرقًا شيئًا فشيئًا، لا دفعة واحدة، وهكذا أنزل القرآن الكريم من عند الله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾، «الروح» جبريل- عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

و﴿الْقُدُسِ﴾: الطهر والفضل وجلالة القدر.

و﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة، كما يقال: «حاتم الجود»، و«زيد الخير»، أي: الملَك المقدس الذي هو أفضل الملائكة: جبريل عليه السلام.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفيه تشريف له ﷺ من حيث خطابه- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

﴿بِالْحَقِّ﴾ حال، والباء: للملابسة، أي: حال كونه ملابسًا للحق، لا شائبة للباطل فيه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، فنزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فهو حق ثابت من عند الله، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ويتضمن الحق الثابت في خبره وطلبه، فكل ما جاء به حق ويهدي إلى الحق، فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ [الأنعام:

١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وهو يهدي إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يثبت الذين آمنوا على الحق، ويقوي إيمانهم، لتوارده عليهم وقتًا بعد وقت ولعلمهم أنه الحق.

وفيه إشارة لرسوخ إيمانهم، وتعريض بغيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوف على ما قبله داخل ضمن جملة التعليل، أي: لأجل أن يثبت الذين آمنوا، ولأجل أن يكون هدى وبشرى للمسلمين، الذين لم يصلوا إلى درجة قوية من الإيمان، يهديهم ويدلهم إلى الطريق المستقيم في الدنيا، ويهديهم في الآخرة إلى جنات النعيم، ويبشرهم ويخبرهم بما يسرهم، مما أعدَّ الله لهم من الفضل والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم في جنات النعيم، وفي الآية تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة زعم المشركين أنه ﷺ مفتر للقرآن، ثم ذكر في هذه الآية زعمهم وقولهم: إنما يعلمه بشر، مما يدل على تخبطهم واضطرابهم وحيرتهم فيما يتقوّلونه على الرسول ﷺ وعلى ما جاء به من الوحي.

عن مجاهد عن ابن عباس- رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعَلِّم قينًا بمكة، وكان اسمه «بلعام»، وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه، ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه «بلعام» فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ

عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾»(١).

وقال ابن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ- فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له «جبر» عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعلِّم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾»(٢).

وهذه الروايات يشهد لها سياق الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ﴾ الواو: للاستئناف، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد علمنا أنهم يقولون، وإنما جاء التعبير بصيغة المضارع للدلالة على استمرار علمه- عز وجل- بقولهم في المستقبل، أي: والله لقد علمنا فيما مضى ونعلم في المستقبل قولهم هذا القول، أي: ولقد نعلم أن المشركين يقولون: إنما يعلم محمدًا هذا القرآن الذي جاء به بشر، وليس من عند الله.

وهذه الدعوى تتناقض مع قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، و﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾.

ولم يصرح باسمه- والله أعلم- إيذانًا بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله وسلامه عليه إلى التعلم من شخص معين، بل من البشر كائنًا مَن كان.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «يَلحَدون» بفتح الياء والحاء، وقرأ الباقون ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بضم الياء وكسر الحاء.

أي: لسان الذي يميلون إلى أنه علم الرسول ﷺ هذا القرآن ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾، أي: لغته أعجمية، لا يكاد يبين.

﴿وَهَٰذَا﴾ يعني القرآن الكريم، ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾، أي: بلغة عربية، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: فصيح معجز كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٦٩).

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٣).

وفي هذا رد لزعمهم أن الذي يعلمه بشر، أي: كيف يكون هذا والذي يميلون إلى أنه علّم الرسول ﷺ القرآن أعجمي، والقرآن الكريم بلسان عربي مبين، وأعجز فحول الفصاحة والبلاغة، وكيف للأعجمي أن يتذوق بلاغة القرآن، وما حواه من العلوم، فضلًا أن ينطق به، فضلًا أن يكون معلمًا له.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- زعم المشركين أنه ﷺ مفتر افترى القرآن وتعلمه من بشر، ورد عليهم، ثم أتبع ذلك بالوعيد بحرمانهم من هدايته، وبالعذاب الأليم، وحصر الافتراء والكذب فيهم.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، أي: إن الذين لا يصدقون بآيات الله الشرعية والكونية ويزعمون أن ما جاء به ﷺ من الوحي كذب منه وافتراء.

﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في هذا تهديد لهم على كفرهم بالقرآن، بعد ردّ طعنهم فيه.

﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾، أي: لا يوفقهم الله للحق والإيمان؛ لأن هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه عامة، وبها أقام الله- عز وجل- الحجة على جميع الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهداية التوفيق وهذه خاصة بالمؤمنين، وهي المنفية عن الذين لا يؤمنون بآيات الله بقوله: ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ وهذه عقوبة عاجلة لهم في الدنيا بسبب عدم إيمانهم بآيات الله، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

ومن حُرم الهداية وقع في الضلالة لا محالة، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد تحمل الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ على رؤوس

الكفر كأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَلِيمٌ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى: «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب في الدنيا بالقتل والجراح والسبي ونكد العيش، بسبب عدم الإيمان، وبالآخرة بعذاب النار.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

هذا رد لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ بقلب ما زعموه عليهم وحصر الافتراء فيهم وقصره عليهم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر وقصر، و﴿يَفْتَرِي﴾ بمعنى: يختلق، أي: إنما يختلق الكذب ويتقوله على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بآيات الله ممن لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا يردعهم عنه، حيث زعموا أنه ﷺ مفتر، ويعلمه بشر، وكذبوا القرآن، وما دل عليه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وغير ذلك.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ قصر الافتراء فيهم، ثم قصر الكذب وأكده فيهم بكون هذه الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية الاستعاذة عند قراءة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وهي مستحبة على الصحيح من أقوال أهل العلم.

٢- أن أصح صيغ الاستعاذة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بدليل الآية، وهكذا جاء في حديث سليمان بن صُرَدٍ- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال لما رأى رجلًا قد اشتد به الغضب: «**إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب- الحذر من الغضب (٦١١٥)، ومسلم في البر- فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦١٠)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨١)، وأحمد (٥/ ٢٤٠).

٣- حفظ الله- عز وجل- للقارئ من الشيطان وتلبيسه ووساوسه بالاستعاذة؛ لأن الله- عز وجل- أمر بها عند القراءة.

٤- لا عصمة للإنسان من الشيطان ووساوسه إلا بالالتجاء إلى الله- عز وجل- والاعتصام به.

٥- بُعد الشيطان عن كل خير، وإبعاده عن رحمة الله، لهذا سمي بـ«الشيطان الرجيم».

٦- لا سلطة للشيطان ولا طريق له على المؤمنين المتوكلين على ربهم، لحفظ الله- عز وجل- لهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٧- الترغيب في الإيمان والتوكل على الله- لأنه سبب لحفظ الله العبد من تسلط الشيطان.

٨- حصر تسلط الشيطان على الذين يتخذونه وليًّا ويشركون به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

٩- التحذير من تولي الشيطان والإشراك به؛ لأنه سبب تسلطه على الإنسان.

١٠- إثبات النسخ في القرآن الكريم، وتبديل آية مكان آية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾.

١١- علم الله- عز وجل- بما يُنزل؛ وما يبدله وينسخه، وما يثبته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

١٢- اتخاذ المشركين من نسخ الله- عز وجل- آية وتبديلها بأخرى وسيلة للطعن في القرآن الكريم، واتهامه ﷺ بالافتراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾.

١٣- جهل كثير من المشركين وعدم علمهم علمًا ينتفعون به ويهديهم إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٤- إثبات تنزل القرآن الكريم بواسطة جبريل من عند الله- عز وجل؛ لقوله

تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

وفي هذا رد على من زعموا أن الرسول ﷺ افتراه، وإثبات أن القرآن منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق، خلافًا للمعتزلة.

١٥- أن القرآن نزل مفرقًا ومنجمًا؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾.

١٦- شرف جبريل- عليه السلام- وفضله بين الملائكة؛ لقوله- عز وجل: ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾. و«الروح» هو جبريل- عليه السلام، و«القدس» الطهر والفضل وعلو القدر.

١٧- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطابه- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبيته- عز وجل- الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم نزل من عند الله- عز وجل- متلبسًا بالحق من حيث وصوله إلينا، فسنده أصح الأسانيد أخذه جبريل الأمين من الله- عز وجل- وبلغه إلى الهادي الأمين محمد ﷺ، وبلغه محمد ﷺ إلى أمته. وهو أيضًا مشتمل فيما جاء به على الحق، فأخباره صدق وأحكامه عدل.

١٩- أن الحكمة في تنزل القرآن مفرقًا تثبيت الذين آمنوا وزيادة إيمانهم، وهداية وبشارة المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

٢٠- علم الله- عز وجل- وإحاطته بما يقوله المشركون ويزعمونه من أنه ﷺ إنما يعلمه القرآن بشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

٢١- تخبط المشركين واضطرابهم فيما يتقولونه عليه ﷺ وعلى القرآن، فتارة يقولون: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ وتارة يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

٢٢- بطلان دعوى المشركين وقولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ واستحالة ذلك؛ لأن الشخص الذي يزعمون أنه علَّم النبي ﷺ أعجمي، والقرآن بلسان عربي مبين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

٢٣- تنزل القرآن في الرد على المخالفين ومقارعتهم لإفحامهم من كلامهم فكيف يزعمون أن بشرًا أعجميًا يُعلم النبي ﷺ القرآن ذا اللسان العربي المبين.

٢٤- أن من عقوبة رد الحق وعدم الإيمان بآيات الله الحرمان من هداية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾.

٢٥- التهديد والوعيد للذين لا يؤمنون بآيات الله بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٢٦- الترغيب بالإيمان بآيات الله؛ لأنه سبب لهداية الله والنجاة من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٢٧- حصر الافتراء والكذب في الذين لا يؤمنون بآيات الله وقصره عليهم، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ وفي هذا تبرئة له ﷺ مما رموه به من الافتراء .

٢٨- التحذير من الكذب وأنه من الكبائر ومن أعمال الذين لا يؤمنون بآيات الله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾.

﴿ مَن ﴾ اسم موصول مبتدأ، وخبره ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

ويجوز كون ﴿ مَن ﴾ شرطية، و﴿كَفَرَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ ﴾.

أي: من كفر بالله فجحد ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه بعد إيمانه به.

والمعنى: من يكفر بالله بعد إيمانه؛ لأن الفعل الماضي في الشرط ينقلب إلى المضارع.

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾، ﴿إِلَّا ﴾ أداة استثناء، ﴿مَنۡ ﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع، أي: إلا الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

والإكراه: الإلجاء إلى فعل أو قول ما يُكره فعله أو قوله.

والمعنى: إلا الذي أكره على إظهار الكفر، فأظهره بالقول بأن نطق بكلمة الكفر بلسانه.

﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾، أي: وقلبه ثابت على الإيمان موقن منشرح الصدر به، فلا حرج عليه؛ لأن الله إنما يؤاخذ العباد بما انعقدت عليه قلوبهم.

عن محمد بن عمار قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ- وفي بعض الروايات أنه سبّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير وأنه قال: «ما تُركت يا رسول الله حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير. قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنًا. فقال: «إن عادوا فعد»، وفي ذلك أنزل

الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾»(١).

وهكذا من أكره على ما دون الكفر من المعاصي، فهو معذور، ما لم يكن فيه اعتداء على الغير فلا يجوز. قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣].

وقال ﷺ: «**عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(٢).

قال السعدي(٣): «من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه، ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها».

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ بيان وتفسير لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾.

أي: ولكن المؤاخذ المعاقب الذي شرح بالكفر صدرًا، بأن استمر على الكفر أو رجع إليه وانشرح واتسع له صدره، واطمأن إليه قلبه.

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وعلى اعتبار الجملة خبرًا ربط بالفاء؛ لشبه الموصول ﴿مَنْ﴾ بالشرط.

أي: فعليهم غضب من الله بسبب كفرهم بعد إيمانهم وانشراح صدورهم بالكفر. ومن غضب الله عليه عاقبه وانتقم منه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

أي: فلما أغضبونا انتقمنا منهم، ولهذا قال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: ولهم عذاب عظيم في الدنيا والآخرة من حيث كيفيته، وكمه، ونوعه، لا يعلم مقدار عظمته إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٦٠)، والطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٣٧٤- ٣٧٥)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى غضب الله على من كفر به بعد الإيمان وانشرح بالكفر صدره، وما لهم من العذاب العظيم.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ للسببية، أي: بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا، والضمير لمن كفروا بالله بعد إيمانهم وشرحوا بالكفر صدورهم.

و﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ بمعنى أحبوا، والزيادة فيها: للمبالغة، أي: أحبوا الحياة الدنيا وآثروها وفضلوها على الآخرة، فكان سعيهم للدنيا، ونسوا الآخرة وغفلوا عنها، فاختاروا الدنيا الدنية العاجلة الفانية على الحياة الآخرة العظيمة الباقية.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين، أي: لا يوفقهم بسبب كفرهم. فالهداية المنفية عنهم هداية التوفيق، أما هداية الدلالة الإرشاد فبها قامت الحجة عليهم.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وأن الله لا يهديهم» لبيان أن سبب عدم هدايتهم هو كفرهم، وليشملهم الوعيد وغيرهم من الكافرين.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

هذا فيه بيان لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهو أن حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها، وهي القلوب والأسماع والأبصار، وذلك بالطبع عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأشار إليهم في الموضعين بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

ومعنى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾، أي: ختم عليها فلا قلوبهم تتفكر وتتدبر وتتأمل في الآيات، ولا أسماعهم تصغى إليها، ولا أبصارهم تنظر فيها فصار حالهم كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا

وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فختم على قلوبهم وأصم أسماعهم، وأعمى أبصارهم، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٣].

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أكد غفلتهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل ﴿هُمُ﴾.

و﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ جمع غافل، والغفلة: السهو وقلة التحفظ والتيقظ، أي: الغافلون الساهون عما خلقوا له، وما أمامهم من الأهوال. كما قال الشاعر:

والنـاس في غفلـة عـما يـراد بهـمْ كأنهـم غنـم في بيـت جـزارِ(١)

فعوقب من كفر بالله من بعد إيمانه بخمس عقوبات: غضب الله عليهم، وعذابه العظيم لهم، وحرمانهم من هدايته، والطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، والحكم عليهم بالغفلة. وواحدة من هذه العقوبات كافية، فكيف إذا اجتمعت.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقًا، أو لا محالة.

﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخسارة: ضياع رأس المال أو بعضه مع الربح. والمعنى: حقًا أنهم في الآخرة هم الخاسرون الخسارة العظمى، الذين خسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

---

(١) البيت مجهول النسبة. انظر: «الأمثال الواردة» (ص٤٣٦).

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد لمن كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدره بغضب الله- عز وجل- عليهم، والعذاب العظيم لهم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.

٢- أن من أكره على التلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ثابت عليه فلا حرج ولا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾.

ومن باب أولى لا حرج على من أكره على ما دون الكفر من قول أو فعل كالطلاق والعتاق، وكالمرأة تكره على الزنا ونحو ذلك. لكن لا يجوز الاعتداء على الآخرين بحجة الإكراه.

وإذا أمكن أن يُعرِّض بشيء بدل التصريح بالكفر فهذا أولى، بل وأوجب وإذا صبر ولم يتلفظ بالكفر ونحو ذلك فهو أعظم أجرًا؛ لأنه أخذ بالعزيمة وترك الرخصة، كما فعل بلال- رضي الله عنه- فقد كان مواليه يُضجعونه على بطنه ويعصرونه، ويقولون: دينك اللات والعزى، فيقول: ربي الله، أحد أحد، ولو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها»(١).

وكما فعل حبيب بن زيد الأنصاري- رضي الله عنه- لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إربًا إربًا، وهو ثابت على ذلك»(٢).

وكما فعل عبدالله بن حذافة السهمي- رضي الله عنه- لما أسره الروم وطلب منه ملكهم أن يتنصر وأغراه بأن يعطيه نصف ملكه. فقال: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين. قال: إذًا أقتلك، قال: أنت وذاك، وأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبًا من بدنه، وهو يعرض عليه، ويأبى، فأنزله ودعا بقدر فصب فيه ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٥٣)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٥).

(٢) انظر: ترجمة حبيب بن زيد في «أسد الغابة» (١/ ٤٤٣)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٥).

فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى»(١).

وكما قال خبيب بن عدي- رضي الله عنه- لما صلبه المشركون ليقتلوه:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع(٢)

٣- سعة رحمة الله- عز وجل- وعفوه عن عباده حيث لا يؤاخذ من أكره على الكفر إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان.

٤- أن مدار الأعمال على ما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

٥- خطر الردة والكفر بعد الإيمان ووجوب الحذر من ذلك؛ لما فيه من نكران نعمة الإيمان، والحور بعد الكور، والتعرض لغضب الله وللعذاب العظيم.

٦- إثبات الاختيار للإنسان، والرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

٧- إثبات صفة الغضب لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٨- شدة عذاب الله لمن كفر بعد إيمانه، وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٩- أن ما توعد الله- عز وجل- به من كفر بعد إيمانه من غضبه- عز وجل- عليهم، والعذاب العظيم لهم بسبب كفرهم واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١٠- أن من استحب الحياة الدنيا وفضلها وآثرها على الآخرة فقد خسر وتعرض لغضب الله وعذابه.

١١- حرمان الكافرين من توفيق الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويفهم من هذا هدايته- عز وجل- وتوفيقه للمؤمنين.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٤).

(٢) انظر: «الإصابة» (١/ ٤١٨).

١٢- أن حرمان الكافرين الهداية بحرمانهم الانتفاع من وسائلها وهي القلوب والأسماع والأبصار وذلك بالطبع والختم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾.

١٣- ذم الكافرين وتأكيد غفلتهم عما خلقوا له، وما أمامهم من الأهوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾.

١٤- تحقق خسارة الكافرين في الآخرة الخسارة العظمى، خسارة الدين والدنيا والآخرة، خسارة الأنفس والأهل، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

١٥- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى هي الخسارة في الدين بالكفر والمعاصي.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ فرارًا بدينهم، كما في الهجرة الأولى إلى الحبشة والهجرة الثانية إلى المدينة، وقد قال ﷺ: للمهاجرين إلى المدينة: «**لهم هجرة واحدة**» وقال لمن هاجروا إلى الحبشة: «**لكم هجرتان**»(١).

﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء: «فَتَنوا»، وقرأ الباقون بضم الفاء وكسر التاء: ﴿فُتِنُوا﴾، و«ما» مصدرية، أي: من بعد ما ابتلوا وامتحنوا وعذبوا على أيدي المشركين ليردوهم عن دينهم.

---

(١) أخرجه البخاري مطولًا في المغازي ٤٢٣١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٠٣ من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

والفتنة: الابتلاء، وتكون في الشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأشد ذلك وأعظمه الفتنة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الفتنة بالرد إلى الكفر والشرك أكبر من القتل.

أي: من بعد ما ابتلوا بأذى المشركين وتعذيبهم وإذلالهم لهم؛ ليردوهم إلى الكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠].

﴿ثُمَّ﴾ بعد هجرتهم ﴿جَاهَدُوا﴾ في سبيل الله، فانضموا في سلك المؤمنين المجاهدين في قتال الكفار؛ لإعلاء كلمة الله تعالى في أموالهم وأنفسهم، وبذلوا جهدهم في ذلك وطاقتهم.

﴿وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد في سبيل الله، وما فيه من ألم القتل والجراح والمشقة وغير ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: ثم إن ربك يا محمد ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾، أي: من بعد ما حصل لهم من الفتنة والابتلاء والتعذيب قبل هجرتهم على أيدي المشركين.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لغفور لهم، رحيم بهم، وفي هذا إيماء إلى أنهم أو بعضهم قد لا يسلم من الإثم في تأخير الهجرة، لولا مغفرة الله تعالى ورحمته، بمعنى أن منهم من تأخر في الهجرة مع قدرته عليها، وأن هذا مما فتنوا به، فلما هاجروا وجاهدوا وصبروا غفر الله لهم ورحمهم.

ويجوز أن يكون هذا مثل قوله تعالى في سورة النساء في حق المستضعفين من الرجال والنساء والولدان: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الآيتان: ٩٨-٩٩].

فقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ﴾ لا يدل على إثمهم بترك الهجرة؛ لأنهم مستضعفون معذورون، وإنما فيه حض على الهجرة وتأكيد لوجوبها في حق

القادر عليها.

قوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾، أي: اذكر يوم القيامة حين تأتي كل نفس ﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، أي: تحاج وتدافع عن نفسها، فلا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوج ولا قريب أو صديق يحاج عنها، ولا هي يهمها سوى نفسها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

وفي حديث الشفاعة الطويل أن الأنبياء عليهم السلام يترادون الشفاعة كل منهم يقول: «نفسي نفسي، لا أملك إلا نفسي. إلى أن يأتي الناس إلى نبينا ﷺ فيسجد تحت العرش.....»(١).

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: عملها، أو الذي عملته، أي: وتعطى كل نفس جزاء الذي عملته وافيًا من غير نقص، خيرًا كان أو شرًا.

وجعلت التوفية للعمل للإشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم لا يظلمون، فلا ينقص من حسناتهم وثوابهم، ولا يزاد في سيئاتهم وعذابهم، كما قال تعالى: ﴿۞ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١، آل عمران: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩، الإسراء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، أي: وضرب الله مثلًا لمكة وأهلها المشركين المعاندين ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾، ﴿قَرْيَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾، أي: قرية كانت في غاية الأمن وعدم الخوف ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ ساكنة مستقرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾، ﴿رَغَدًا﴾ حال، أي: يأتيها رزقها وعطاؤها بفضل الله عز وجل ﴿رَغَدًا﴾ وافرًا هنيئا سهلًا.

﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: من كل مكان من خارجها؛ لأنها لم تكن أرض زرع؛ لأن أرضها صخرية جبلية.

والمعنى: يأتيها رزقها من بقاع الأرض كلها، استجابة لدعاء خليل الله عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فكانت الأرزاق تنهال عليها من كل حدب وصوب، بسبب هذه الدعوات المباركة، وتجبى إليها ثمرات كل شيء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾، «أَنْعُم»: جمع «نِعْمة» تجمع على «نِعَم» و«أَنْعُم»، أي: فكفرت بنعم الله وجحدت آلاء الله، والتي أعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، وإنزال الوحي عليه، والتي لا تعدلها نعمة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فكفروا بجميع نعم الله تعالى، وبأجلّها وأعظمها وهي بعثة محمد ﷺ فيهم، والتي من كفر بها لا ينفعه الإيمان بغيرها لو آمن، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾ الفاء: عاطفة، تفيد السببية، أي: فأذاقها الله وألبسها بسبب كفرها بأنعم الله ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ عقوبة عاجلة لهم، فبعد أن كانت تجبى إليها ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، دعا ﷺ على أهلها بسبب كفرهم وتكذيبهم ومكابرتهم بالعصيان بقوله: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(١).

قال ابن كثير(٢): «فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهِز، وهو وبر البعير يجعل بدمه إذا نحروه».

﴿وَٱلْخَوْفِ﴾، أي: وأذاقها الله لباس الخوف، فبعد أن كانت آمنة مطمئنة لا أحد يعرض لأهلها؛ لأنهم أهل الحرم، ويتخطف الناس من حولهم، فبدلوا من بعد أمنهم خوفًا، فسلط الله عليهم رسوله ﷺ والمؤمنين فغزوهم في عقر دارهم وفتحوا مكة، فأسلم منهم من أسلم وقتل منهم من قتل، وانخنس منهم من انخنس وفر هاربًا.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: بسبب صنعهم، أو بسبب الذي كانوا يصنعونه، أي: الذي كانوا يعملونه، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٤، ومسلم في المساجد ٦٧٥، وأبو داود في الصلاة ١٤٤٢، والنسائي في التطبيق ١٠٧٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٤٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (تفسيره) ٤/ ٥٢٧.

ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فأبدلهم الله بعد الرزق ورغد العيش جوعًا، وبعد الأمن والاستقرار خوفًا، وهكذا آثار الكفر والمعاصي، فإنها سبب لمحق البركات، وقلة الخيرات، وحلول المجاعات، وفقدان الأمن والاستقرار.

كما أن الإيمان وعمل الصالحات سبب لسعة الرزق ورغد العيش والأمن، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد جاءهم رسول منهم فكذبوه.

والضمير في ﴿جَآءَهُمۡ﴾ يعود إلى كفار مكة ﴿رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هو نبينا محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ جملة جواب القسم، أي: فكذبوه بما جاءهم به من الرسالة.

وقد أكدت هذه الجملة للاهتمام بهذا الخبر بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، ولام القسم، و«قد».

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ معطوفة على جملة «كذبوه» ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ في محل نصب حال، أي: وهم ظالمون بما هم عليه من الشرك والكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾.

لما ضرب مثلًا لحال أهل مكة عندما كانوا في أمن واطمئنان تأتيهم الأرزاق رغدًا من كل مكان؛ بسبب كونهم أهل الحرم وسكانه، ثم كفروا بأنعم الله، فسلبهم الله ما هم فيه من النعم، وأبدلهم بذلك جوعًا وخوفًا؛ أتبع ذلك بالامتنان على العباد بالأمر بالأكل مما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر نعمته؛ لتحقيق عبادتهم له.

قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، «ما»: موصولة، أي: فكلوا من الذي رزقكم الله، أي: من الذي أعطاكم الله من الرزق، والأمر للامتنان والإباحة.

﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ حالان، والحلال: المباح المأذون به شرعًا، وهو يشمل كل ما أوجده الله من المطعومات والمآكل إلا ما دل الدليل على تحريمه لضرره في الدين، أو في البدن والعقل، أو فيها جميعاً.

﴿طَيِّبًا﴾، أي: مستطابًا مستساغًا لذيذًا نافعًا.

﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الأمر للوجوب، و﴿نِعْمَتَ﴾ مفرد مضاف إلى معرفة وهو لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ فيعم جميع نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى، والتي من أعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، ونعمة الأمن والرزق الحلال الطيب.

وشكر نعمة الله تعالى يكون بالقلب بالاعتراف بها باطنًا، ويكون باللسان بالتحدث بها ظاهرًا، ونسبتها إلى مسديها، وهو الله عز وجل والثناء عليه بها، ويكون بالجوارح باستعمالها وصرفها في طاعة الله تعالى، والاستعانة بها على مرضاته.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، ﴿إِن﴾ شرطية، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما قبله.

﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: إن كنتم تعبدونه وحده لا شريك له؛ فاشكروا نعمته، ولا تكفروها. وقدم المفعول ﴿إِيَّاهُ﴾؛ لإفادة الحصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

امتن الله تعالى على العباد بأمرهم بالأكل من جميع ما رزقهم الله حلالًا طيبًا موجبًا عليهم شكر نعمته، في إشارة إلى أن الأصل في المأكولات الحل، ثم أكد ذلك بحصر المحرم عليهم وبيان قِلَّته، وأنه لا يساوي شيئًا بالنسبة للحلال الطيب، وفي هذا تأكيد للامتنان عليهم، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: ما حرم الله عليكم إلا ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ الآية.

و﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: التي ماتت من غير ذكاة شرعية، سواء ماتت حتف أنفها، أو

ذكيت ذكاة غير شرعية.

﴿وَٱلدَّمَ﴾، أي: وحرم عليكم الدم، وهو الدم المسفوح الذي يخرج عند الذبح، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾، أي: وحرم عليكم لحم الخنزير، أي: لحمه وشحمه وسائر أجزائه؛ لقذارته وخبثه.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، «ما»: اسم موصول بمعنى «الذي»، مبني في محل نصب معطوف على ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾، أي: وحرم عليكم الذي أهل لغير الله به، أي: الذي ذكر عليه عند ذبحه أو نحره أو صيده اسم غير الله، من أسماء الأصنام والأوثان، وغير ذلك؛ لما فيه من الشرك بالله، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الآية: ٣]، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الآية: ١٤٥] وقد سبق الكلام عليهما مستوفى في تفسير سورة المائدة، وسورة الأنعام.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿ٱضْطُرَّ﴾ فعل الشرط، أي: أصابته ضرورة ألجأته إلى الأكل من شيء من هذه المحرمات.

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ حال، أي: حال كونه في أكله منها ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير قاصد الأكل من المحرم، ولا متعمد له من غير ضرورة.

﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: ولا متجاوز ما يدفع الضرورة من سد الرمق، أو الزيادة على ذلك، أي: فلا إثم عليه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ١٧٣].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملة تعليلية، أي: فإن الله ذو مغفرة واسعة، وذو رحمة واسعة؛ ولهذا أباح لمن اضطر إلى الأكل من هذه المحرمات من غير بغي ولا

عدوان، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية: ٣]، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الآية: ١١٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

امتن عز وجل على العباد بالأمر بالأكل مما رزقهم من الحلال الطيب والذي لا حصر له، وامتن عليهم بكون المحرم محصورًا قليلا، ثم نهى المشركين المكذبين عن التحليل والتحريم من تلقاء أنفسهم افتراءً وكذبًا على الله تعالى.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ اللام في ﴿لِمَا﴾ للتعليل، و«ما»: مصدرية، أي: ولا تقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾.

أو موصولة أي: ولا تقولوا لأجل الذي تصفه ألسنتكم كذبًا ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢].

وقيل اللام في قوله: ﴿لِمَا﴾ بمعنى «عن»، أي: ولا تقولوا عن الذي تصفه ألسنتكم كذبًا: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨]، أي: الذين قالوا عن إخوانهم.

ومعنى الآية: ولا تقولوا بمجرد وصف ألسنتكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام، كما في تحريمهم البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ويدخل في الآية كل من حلل شيئًا مما حرمه الله، أو حرم شيئًا مما أحله الله، أو ابتدع في الدين ما ليس منه.

﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، أي: لتختلقوا على الله الكذب، واللام: لام

العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن تفتروا على الله الكذب، وقال بعضهم: اللام للتعليل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، أي: إن الذين يختلقون على الله الكذب بالتحليل والتحريم ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوب ولا ينجون من مرهوب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ في الدنيا، أي: قليل من حيث زمنه وكمه، وقليل من حيث كيفه وقدره وقيمته.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا ومعنويا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [يونس: ٦٩- ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

امتن الله عز وجل على هذه الأمة بإحلال الطيبات كلها لهم، وحصر المحرم عليهم في الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والرخصة لهم فيه عند الضرورة، وما في ذلك من التوسعة عليهم؛ حيث يريد الله بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى ما حرمه على اليهود فيما قصه من الآيات، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والضيق بسبب ظلمهم.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾، أي: وعلى اليهود حرمنا الذي قصصنا عليك في الآيات من قبل، أي: في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الآية: ١٤٦].

وفي هذا ما لا يخفى من التضييق عليهم، بسبب بغيهم وظلمهم؛ ولهذا قال في ختام آية الأنعام: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، وقال في هذه الآية:

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: وما ظلمناهم في التضييق والتشديد عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: ولكن استحقوا ذلك بسبب ظلمهم بالكفر والشرك؛ وصدهم عن سبيل الله، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، والتحايل على أحكام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي: للذين عملوا العمل السيئ القبيح من الشرك والكفر والمعاصي.

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ الباء للملابسة، أي: بسفه وجهل لعاقبته، وكل من عصى الله فهو جاهل، وكل ذنب عصي الله به فهو جهالة.

﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم رجعوا من بعد عمل السوء، بالإقلاع عن ذلك العمل السيء، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وكون ذلك في وقت التوبة قبل الغرغرة وبلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها، وكون ذلك خالصًا لله تعالى لا رياء، ولا سمعة، ولا خوفًا من أحد، ولا غير ذلك .

﴿وَأَصْلَحُوٓاْ﴾، أي: وأصلحوا عملهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ تأكيد لقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾، أي: إن ربك يا محمد من بعد تلك الجهالة، وعمل السوء بسببها، والتوبة من ذلك.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام للتوكيد، أي: لذو مغفرة ورحمة، يغفر لهم ويرحمهم، ويغفر لكل من تاب وأناب إليه ويرحمه، برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾.

٢- ابتلاء المؤمنين وامتحانهم بأذية المشركين لهم وتعذيبهم والتضييق عليهم في دينهم، واضطرارهم إلى الهجرة من مكة فرارًا بدينهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾.

٣- أن أعظم فتنة وأشدها الفتنة في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الفتنة في الدين وإيقاع الناس في الشرك.

٤- فضل الهجرة والجهاد والصبر في سبيل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥- أن الحسنات يذهبن السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦- وجوب الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وأنه لا يجوز تأخيرها لمن قدر عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فهذا يدل على أن هؤلاء قد عرّضوا أنفسهم للإثم والعقوبة في تأخيرهم الهجرة مع قدرتهم عليها، لولا توفيق الله لهم للهجرة والجهاد والصبر في سبيل ذلك، فكفر الله عنهم بذلك، وغفر لهم ورحمهم.

٧- انشغال كل نفس يوم القيامة بالمجادلة عن نفسها، فلا أحد يدافع عنها من أب أو ابن أو أخ أو زوج أو غيرهم، ولا هي يهمها غير نفسها، من ولد أو أب أو أم أو قريب أو صديق؛ لشدة الموقف وعظم هول ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي

كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾.

٨- إعطاء كل نفس جزاء عملها وافيًا، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل بدلالة أن الله أضاف التوفية إلى العمل، لا إلى الجزاء.

١٠- كمال عدل الله تعالى في حسابه الخلائق، وأنه لا يُظلم أحد عنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١١- ضرب الأمثال في القرآن للتحذير والوعيد، وتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية.

١٢- ضرْب المثل لمكة وأهلها بقرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأبدل الله شبعها جوعًا، وأمنها خوفًا؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم رسولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

١٣- الامتنان على أهل مكة بجعلها بلدًا آمنا مطمئنا، يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان؛ لقوله تعالى: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤].

١٤- التحذير من الكفر بنعم الله تعالى، وأن ذلك سبب لإبدال الأمن والطمأنينة خوفًا وذلًّا، وإبدال سعة الرزق ورغد العيش جوعًا وفقرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

١٥- أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

١٦- أن الأمن في الأوطان، والرزق الذي تحيا به الأبدان من أعظم النعم على العباد؛ ولهذا امتن الله بهما على أهل الحرم في هذه الآية، وفي مواضع عدة من القرآن.

١٧- إقامة الحجة على أهل مكة ببعثة الرسول ﷺ منهم وإثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾.

بل الحجة عليهم وعلى العرب قاطبة أقوى؛ لكونه منهم وبلسانهم، وهم قومه يفهمون عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

١٨- أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد الإنذار والإعذار وإقامة الحجة عليها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

١٩- استمرار كفار مكة على التكذيب والظلم بالشرك بالله، والأذى للرسول ﷺ وأصحابه، حتى أخذهم العذاب وهم ظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بأمرهم بالأكل مما رزقهم الله حلالًا طيبًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ والأمر للإباحة، وقد يجب إذا خاف الإنسان على نفسه الهلاك جوعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

٢١- أن الأصل في المأكولات والأطعمة الحل؛ من الحيوانات والنباتات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، أي: من كل ما رزقكم الله حلالًا طيبًا.

٢٢- وجوب شكر نعم الله تعالى بنسبتها إليه، والثناء بها عليه، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

٢٣- أن من شرط صحة عبادة الله تعالى شكر نعمه الظاهرة والباطنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٢٤- تحريم أكل الميتة التي لم تذك ذكاة شرعية، والدم المسفوح، ولحم الخنزير وشحمه وسائر أجزائه، وما ذكر عليه اسم غير الله، والامتنان على العباد بكون المحرم محصورًا معدودًا محدودًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

ولا يستثنى من الميتة إلا ميتة السمك والجراد، ولا من الدم إلا الكبد والطحال،

وما يبقى في اللحم والعروق من الدم فهو حلال، للأحاديث الثابتة في ذلك كما تقدم في مطلع تفسير سورة المائدة.

٢٥- أن الحكمة من تحريم هذه المحرمات وغيرها ما فيها من ضرر حسي على الأبدان، كالميتة والدم المسفوح، وما فيها من ضرر معنوي على العقول والأديان، كلحم الخنزير، وما أهل لغير الله به.

٢٦- عناية الشرع بدفع الضرر عن أتباعه، وحفظهم في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ ولهذا حرم عليهم هذه المحرمات؛ لما فيها من الضرر في الدين والبدن والعقل، وغير ذلك.

٢٧- إباحة الأكل من هذه المحرمات وغيرها لمن اضطر إلى ذلك من غير تعمد للأكل من المحرم بلا ضرورة، ولا تجاوز لسد الرمق وما يدفع الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٨- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٩- النهي عن الكذب على الله بالتحليل والتحريم افتراء على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

٣٠- التهديد والوعيد للذين يفترون على الله الكذب بالتحليل والتحريم من دونه، بأنهم لا يفلحون لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن حياتهم مجرد متاع قليل، ولهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

٣١- التضييق والتشديد في التحريم على اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: في قوله في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية [الآية: ١٤٦].

٣٢- أن ما حصل من التضييق عليهم ليس ظلما من الله تعالى لهم؛ لأنه لا يظلم أحدًا، وإنما بسبب ظلمهم، وصدهم عن سبيل الله، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وقوله في سورة

الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الآية: ١٤٦].

٣٣- ظلم العباد لأنفسهم بالشرك والكفر والمعاصي.

٣٤- سعة مغفرة الله تعالى ورحمته وتوبته على من عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣٥- أن كل من عصى الله وعمل السوء فهو جاهل، وكل ذنب عصي الله به فهو جهالة.

٣٦- التحذير من عمل السوء، والترغيب في التوبة وإصلاح العمل لمن حصل منه ذلك.

٣٧- في تأكيد ربوبيته عز وجل الخاصة به ﷺ في الآية إشارة إلى عنايته عز وجل بعباده، وترغيب لهم في التوبة والإصلاح.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، «أمة»: خبر كان، أي: قدوة وإماما في الدين والعلم والخير معلمًا لذلك، داعيًا إليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

أحيا عليه السلام التوحيد في الأمم بعد اندراسه، وجمع الفضائل وخصال الخير، فكان بذلك أمة وحده، أي: بمثابة أمة، كما قال البحتري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت ... لدى المجد حتى عد ألف بواحد(١)

وقال الآخر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد بالألف إن أمر عنا(٢)

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، ﴿قَانِتًا﴾ خبر ثان لـ ﴿كَانَ﴾ منصوب، أي: مطيعًا لله تعالى خاضعًا خاشعًا له، مداومًا على طاعته، ملازمًا لها، والقنوت دوام الطاعة.

---

(١) انظر: «زهر الآداب وثمر الألباب» (١/ ٣١٨)، «نهاية الأرب» (٣/ ٩٨).

(٢) البيت لابن دريد ضمن مقصورته. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

﴿حَنِيفًا﴾ خبر ثالث منصوب، أي: مخلصًا التوحيد لله، مائلًا عن الشرك منحرفًا عنه، مقبلًا على الله، معرضًا عما سواه، ثابتًا على الحق مجانبًا للباطل.

قال ابن القيم بعدما فسر ﴿حَنِيفًا﴾ بقوله: «مقبلًا على الله معرضًا عما سواه» قال: «ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى، ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]».

وقال أيضًا: «الحنيف: المقبل على الله، ويلزم على هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لا أنه موضوعه لغة». (١)

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الجملة في محل رفع معطوفة على ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، وهي تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ بنفي ضده، أي: ولم يكن من المشركين، لا في قول ولا فعل، بل كان إمام الموحدين والحنفاء.

فتضمن قوله: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ الصدق، وتضمن قوله: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الإخلاص، فالصدق: توحيد الطلب، وهو طلب مرضاة الله وجنته، والإخلاص: توحيد المطلوب، وهو إفراده عز وجل بالعبادة دون غيره، والصدق: أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص: أن لا ينقسم مطلوبك(٢).

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾، ﴿شَاكِرًا﴾ خبر آخر لـ﴿كَانَ﴾ منصوب، أي: شاكرًا لأنعم الله تعالى عليه بقلبه ولسانه وجوارحه، بالإقرار بها وإضافتها إلى ربه المنعم بها، وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يحب؛ ولهذا امتدحه الله تعالى بقوله في سورة النجم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [الآية: ٣٧]، أي: وفَّى وتمم ما أمر الله به.

وهذه الصفات الأربع التي امتدح الله- عز وجل- بها خليله إبراهيم كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره ودعوة الخلق إليه، وذلك غاية الكمال في

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٦٢؛ ٦٤.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٦٢.

العمل وفي العامل.

﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾، أي: اصطفاه واختاره لنبوته، وجعلها في ذريته وعقبه، واختصه بخلته، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: أرشده ووفقه إلى طريق مستقيم، أي: إلى العلم النافع والعمل الصالح «دين الحنيفية السمحة» بإخلاص التوحيد لله تعالى، واجتناب الشرك، والبراءة منه ومن أهله.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي: أعطيناه في الدنيا حسنة، بأن جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في كمال الحياة الطيبة، من المتاع الحسن، والصحة في البدن، والسعة في الرزق، والزوجة الكريمة، والذرية الصالحة وغير ذلك، ومن التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، والثناء والذكر الجميل له ولآله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩].

وشرع لنا عز وجل أن نقول في التشهد في الصلاة: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

وأعظم من ذلك كله وأعم أنه عز وجل أمر نبينا محمدًا ﷺ وأمته باتباع ملته، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: وإنه عليه السلام في الدار الآخرة ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من رب العالمين ورؤية وجهه الكريم والجنان

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٠، ومسلم في الصلاة ٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ٩٧٦، والنسائي في السهو ١٢٨٧، والترمذي في الصلاة ٤٨٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٠٤، من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

وما فيها من ألوان النعيم، استجابة لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

الذين جمعوا في حياتهم بين الإخلاص لله تعالى، واتباع شرعه وهي الحسنة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

فجمع الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام خيري الدنيا والآخرة، اللذين هما أكمل المطالب وأتمها وأعمها، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: ثم أوحينا إليك يا محمد، و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الرتبي، قدم عز وجل الثناء على إبراهيم عليه السلام، ثم أمر نبينا محمدًا ﷺ وأمته باتباع ملته، وهو جل المقصود.

﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿أَنِ﴾ تفسيرية، فالجملة تفسير لقوله: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ والاتِّباع: اقتفاء السير على سير آخر.

﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، «حنيفاً»: حال، أي: حال كونه حنيفًا وما كان من المشركين، وهذا لتأكيد إخلاصه التوحيد لله عز وجل وبراءته من الشرك، براءة تامة في الماضي والحاضر والمستقبل.

أي: اقتفِ وسر على ملة إبراهيم الحنيفية السمحة، في التوحيد وإخلاص العبادة لله

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٨٩، وأبو داود في الصلاة ١٥١٩، وأحمد ٣/ ١٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

تعالى، والبراءة من الشرك وأهله، والمداومة على طاعة الله، وعلى خصال الفطرة كلها.

وهكذا كان ﷺ؛ ولهذا أمره الله عز وجل بقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة ﴿جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾، أي: فرض احترامه وتعظيمه وتحريم العمل والصيد فيه.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾، أي: على اليهود الذين اختلفوا فيه، حين ضلوا عن يوم الجمعة وهدى الله له هذه الأمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا، ثم يومهم هذا الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد**»(٢).

فصار اختلافهم ومخالفتهم أمر الله سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه وتحريم العمل والصيد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ١٥٤].

فاعتدوا واحتالوا فعاقبهم الله ولعنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾ [النساء: ٤٧].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب له ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اللام: للتوكيد ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين الذين اختلفوا في السبت وهم اليهود.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٦ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، و٦/ ١١٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٥.

﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيتبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب، ممن استحق العقاب، بمجازاتهم على اختلافهم ومخالفتهم أمر الله وارتكابهم نهيه، واعتدائهم واحتيالهم.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، أي: استمر واثبت على الدعوة إلى صراط ربك المستقيم ودينه القويم، ولا تأبه بالمكذبين المعاندين، وقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١] وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ الباء: للملابسة، أي: بالعلم والفهم والرفق واللين، والتدرج والتنويع في وسائل الدعوة، والبداءة بالأهم فالأهم، ومعاملة كل بحسب حاله وفهمه وعقله وقبوله وانقياده، وفق ما جاء في الكتاب والسنة.

﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الموعظة: ذكر الأحكام والأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، ببيان عظم جزاء المؤمنين في الدنيا والآخرة وشدة عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾، أي: الصائبة الموافقة للكتاب والسنة، المناسبة للحال والمقام.

قال ابن القيم: «أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي، وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان؛ إذ ليس كل موعظة حسنة»(١).

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ المجادلة: المحاجة والمناظرة لبيان الحق.

أي: وجادلهم بالمجادلة التي هي أحسن، أي: بالرفق واللين وحسن الخطاب، والتلطف وأدب الحوار، مع مراعاة الحال والمقام، وبالحجج والبراهين والأدلة الواضحة التي هي أدل على المقصود، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٣/ ٦٥.

وقد أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما لأعتى الخلق فرعون الذى ادعى الربوبية والألوهية؛ بقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

قال ابن القيم: «جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق:

فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة.

والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة.

والمعاند الجاهل يجادل بالتي هي أحسن، وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، وهذا إن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن؛ ولمجادلته فائدتان: أن يُرد عن باطله، ويرجع إلى الحق، والثانية أن يكف شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل».

وقال أيضًا: «وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين»(١).

وقيد المجادلة بكونها بالتي هي أحسن، كما قيد الموعظة بكونها حسنة، لأن الجدال قد يكون بغير التي هي أحسن، بل جلُّ الجدال من هذا القبيل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي: إن ربك يا محمد هو أعلم بالذي ضل عن سبيله وصراطه المستقيم، وأعلم بالسبب الذي أضله وأرداه، وأعلم بما هو عليه من أنواع الضلالات، وسيحاسبه ويجازيه على ذلك، فلا تباله.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو أعلم بالمهتدين إلى سبيل الله وصراطه المستقيم، وسيجازيهم ويثيبهم.

علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم منَّ عليهم واجتباهم، فهو سبحانه أعلم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٦٤- ٦٦ بتصرف.

بالضالين والمهتدين وأعمال كل منهم، وهو الذي قدر الضلال على من ضل، وقدر الهداية لمن اهتدى، وعلم الشقي من السعيد، وسيجازي كلًّا منهم بما عمل خيرًا كان أو شرًّا.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتثبيت له، أي: فلا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فليس عليك هداهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أمر عز وجل نبيه ﷺ بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ثم أتبع ذلك بما يدل على أنه إذا لم ينفع في المعاندين الجدال انتقل معهم إلى الجلاد والمعاقبة.

قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، والعقاب والمعاقبة: المؤاخذة بالجرم والذنب والإساءة، أي: وإن اخترتم وأردتم معاقبة من أساء إليكم بقول أو فعل.

﴿فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ جواب الشرط «إن»، وربط بالفاء؛ لأنه جملة فعلية، أي: فعاقبوا عقوبة بمثل الذي عوقبتم به، أي: بمثل الجرم والاعتداء الذي وقع عليكم، استيفاء لحقكم من غير زيادة على ذلك.

أي: بالعدل في القصاص، والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦].

أي: جزاءً موافقًا لعملهم.

وسُمي الاعتداء والإساءة عقوبة في قوله: ﴿عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ من باب المشاكلة لقوله قبله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلًا، وقتل من المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربين عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد

اليوم. فنادى منادي رسول الله ﷺ: أمن رسول الله ﷺ الأسود والأبيض، إلا فلانا وفلانا... ناسًا سماهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «**نصبر ولا نعاقب**»(١).

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، واللام في قوله ﴿لَهُوَ﴾ واقعة في جواب القسم.

لئن صبرتم ولم تعاقبوا من أساء واعتدى عليكم، ولم تستوفوا حقكم في الدنيا ﴿لَهُوَ﴾ الضمير «هو» يعود إلى الصبر مصدر «صبرتم»، أي: لهو، أي: الصبر.

﴿خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، أي: أفضل لهم وأولى وأحسن عاقبة من استيفاء الحق في الدنيا وعدم ادخاره لهم في الآخرة، وهو أيضا- أي: الصبر- خير لأهله الصابرين خيرية مطلقة، في دينهم ودنياهم وأخراهم، فأمرهم في أول الآية بالعدل، ثم ندبهم في آخرها إلى الفضل بالصبر.

وأفضل من هذا وأجل، وأعظم وأنبل من يعفو ويُصلح، ويتجاوز ويصفح؛ لينال أجر ذلك وثوابه مضاعفًا من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، أي: فمن تصدق فعفى عن القصاص.

وفرقٌ بين من يَرِدُ على الخلق ليستوفي حقه منهم عاجلًا أو آجلًا، وبين من يعفو ليأخذ ثوابه وأجره من ربه الجواد الكريم، كاملًا تامًّا وافيا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١]، فما بين هذا وذاك أبعد مما بين المشرق والمغرب، وما بين الثرى والثريا، والأرض والسماء:

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعًا فما الضدان يجتمعان

نسأل الله التوفيق.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٥، وأخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، سورة النحل ٣١٢٩، والنسائي في الكبرى، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، ١١٢٧٩، وابن حبان ٤٨٧، والحاكم ٢/ ٣٥٨، ٣٥٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ رغب عز وجل الرسول ﷺ والمؤمنين معه بالصبر، وندبهم إليه، ثم أمره ﷺ خاصة بذلك وأكد ذلك بقوله: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ تثبيتًا له وتقوية لقلبه.

﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، أي: هو الذي يعينك على الصبر ويوفقك إليه ويثيبك عليه، أي: ما صبرك إلا بعون الله وتوفيقه لك، ولطلب مرضاته وابتغاء وجهه ونيل ثوابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

قال ابن القيم: «وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل، فقالت طائفة: الصبر له أكمل؛ فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان لله فهو غاية، وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل... فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته؛ ولذلك كان توحيد الألوهية المنُهي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عُبّاد الأصنام مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد الربوبية.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به، والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة، كقوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»»(١).

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: ولا تحزن على المكذبين من قومك في تكذيبهم ومخالفتهم لك، واختيارهم الشرك والكفر على الإيمان، وما حل، أو قد يحل بهم من العقوبات في الدنيا، وما تُوعِّدوا به من العذاب الأليم في الآخرة؛ لأن الله حكم عليهم بذلك وقدره كونا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٦٧.

تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ قرأ ابن كثير بكسر الضاد: «في ضِيق»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ضَيۡقٖ﴾، والضيق: الغم والهم.

﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: من مكرهم، أو من الذي يمكرونه، أي: مما يدبرونه من الكيد الخفي والجلي لدعوتك، ومن الأذى لك ولأصحابك، أي: إن مكرهم عائد إليهم، والله معك وكافيك وناصرك ومؤيدك، ومظهرك عليهم، ومظفرك بهم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ تعليل للنهي قبله، أي: إن الله مع الذين اتقوا بفعل ما أمرهم الله به، وترك ما نهاهم عنه.

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى ومتابعة لشرعه، ومحسنون إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

والمراد بالمعية في الآية معية الله الخاصة بأوليائه المتقين وعباده المحسنين، معية التوفيق والعون والنصر والتأييد، والحفظ والتسديد، كما في قوله تعالى ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

فهو عز وجل مع الذين اتقوا والذين هم محسنون معية خاصة بالتوفيق والحفظ والنصر والتأييد، وهو معهم- كغيرهم من سائر الخلق- معية عامة بالسمع والبصر والعلم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١].

الفوائد والأحكام:

١- فضيلة إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، وعظم منزلته عند ربه؛ لثناء الله عز وجل عليه، وامتداحه له بكونه قدوة وإمامًا في الدين والخير، مطيعًا لله تعالى على الدوام، مخلصا له التوحيد، مائلًا عن الشرك، بريئا منه ومن أهله، شاكرًا لأنعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾.

٢- إثبات نبوة إبراهيم عليه السلام ورسالته.

٣- أن إبراهيم عليه السلام كان قدوة وإماما في الدين والخير، جمع فضائل ومحاسن أمة كاملة، فكان بذلك أمة وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

٤- مداومته عليه السلام واستمراره على عبادة الله تعالى وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

٥- إخلاصه عليه السلام التوحيد لله تعالى وملازمته له، واجتنابه الشرك وابتعاده عنه، وبراءته منه ومن أهله؛ لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ ولهذا سمي إمام الحنفاء.

٦- شكره عليه السلام لأنعم الله تعالى عليه، بالاعتراف بها ونسبتها إلى ربه والقيام بحقها، والإخلاص لله، والدوام على طاعته، والوفاء بما أمره الله به؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: وفى ما أمره الله تعالى به.

٧- كثرة نعم الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام وعظمها، وأن أجلها وأعظمها اجتباؤه عز وجل له، واصطفاؤه للنبوة، وجعلها في ذريته وعقبه، وتخصيصه بخلته، وهدايته إلى صراطه المستقيم، وأمره عز وجل أفضل الرسل نبينا محمدًا ﷺ وأمته باتباع ملته؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٨- أن نبينا محمد ﷺ بعث بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام، وهي إخلاص التوحيد والعبادة والطاعة لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

٩- إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له ووحيه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٠- أن الرسالة لا تثبت إلا بوحي من الله تعالى إلى من اصطفاه للرسالة من خلقه.

١١- تأكيد إخلاص إبراهيم عليه السلام التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٢- فيما أعطاه الله تعالى لإبراهيم من النعم وما اختصه به من الفضائل، وفي ثنائه عليه وامتداحه له إثبات عظيم فضله وواسع عطائه وأنه الشكور لأهل السعي المشكور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

١٣- أن تحريم الصيد في السبت، ووجوب احترامه وتعظيمه وترك العمل فيه إنما جعله الله على اليهود عقوبة لهم بعد أن ضلوا عن يوم الجمعة بسبب اختلافهم فيه ومخالفتهم أمر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾.

١٤- أن من العقوبات ما يكون في التشريع بالتشديد في التحريم ونحو ذلك على من خالفوا أمر الله وارتكبوا نهيه.

١٥- الوعيد للذين اختلفوا في السبت بأن الله سيحكم بينهم يوم القيامة فيتبين منهم المحق من المبطل، والمستحق منهم للثواب من المستحق للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

١٦- أمر الله عز وجل للنبي ﷺ بالاستمرار على الدعوة إلى سبيل ربه وصراطه المستقيم بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والثبات على ذلك، وأن لا يأبه بالمكذبين المعاندين، ولا يثنيه عن دعوته كيد الكائدين ومكر الماكرين، وفي هذا تقوية لقلبه وتثبيت له ﷺ وتسلية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ وتشريفه بإضافتة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٨- أن ما بعث به ﷺ وأرسل هو الدعوة إلى سبيل الله ودينه القويم، وصراطه المستقيم.

١٩- تنويع أساليب الدعوة حسب مراتب الخلق وأحوالهم، فالمستجيب القابل اللبيب الذي لا يعاند الحق يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، والمعاند الجاهل يجادل بالتي هي أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٢٠- ينبغي التدرج في أساليب الدعوة وطرقها، والبداءة بالأسهل فالأسهل، فأولًا: بالحكمة، ثم الموعظة الحسنة، ثم المجادلة بالتي هي أحسن، فإن أصر وعاند الحق ولم يقبله انْتُقِل معه من الجدال إلى الجلاد وآخر الدواء الكي.

٢١- أن الحكمة كلها حسنة؛ لأن وصف الحسن فيها ذاتي، ولهذا لم تقيد بوصف الحسنة، بينما قيدت بذلك الموعظة؛ لأنه ليس كل موعظة حسنة.

٢٢- تسلية الله عز وجل لنبيه ﷺ ببيانه له أنه سبحانه هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، أي: أعلم بهم جميعًا وبأعمالهم وجزائهم، وهو الذي قدر ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، وفي هذا أيضا وعيد للضالين ووعد للمهتدين.

٢٣- جواز معاقبة من أساء، وأنه يجب على من اختار معاقبة من أساء إليه معاقبته بمقدار إساءته إليه دون زيادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

٢٤- الندب إلى الصبر على إساءة من أساء، وأن الصبر وعدم استيفاء الحق في الدنيا خير وأفضل للصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ وهذا إنما يندب في حدود ما يستطيعه الإنسان، ولا يشق عليه، وفي حال ما لم يؤد إلى مفسدة كجرأة المسيء وتكراره الإساءة، ونحو ذلك.

٢٥- فضيلة الصبر، وأنه خير للصابرين، وقد قال ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

٢٦- أمر الله عز وجل له ﷺ بالصبر بعد أن رغبه هو والمؤمنين به، وندبهم إليه وتأكيده له بقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ والصبر منه ما هو واجب، ومنه ما هو مندوب.

٢٧- أن الصبر لا يكون إلا بعون الله تعالى وتوفيقه، وينبغي ألا يكون إلا لله تعالى، أي: لابتغاء وجه الله تعالى، وطلب مرضاته وثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقال تعالى في سورة الطور: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٤٨].

٢٨- نهي الله عز وجل للنبي ﷺ عن الحزن على تكذيب قومه، وما حل بهم، أو يحل من العقوبات في الدنيا، وما توعدوا به من العذاب في الآخرة؛ لأن ذلك لا يفيد شيئًا؛ ولأن الله حكم بذلك عليهم وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

٢٩- نهيه عز وجل له ﷺ أن يكون في ضيق من مكرهم؛ لأن مكرهم عائد إليهم، والله معه وكافيه وناصره ومؤيده ومظهره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي

---

(١) سبق تخريجه.

ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

٣٠- إثبات معية الله تعالى الخاصة للمتقين المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

٣١- وعد الله تعالى لرسوله ﷺ وأصحابه أنه معهم بالحفظ والنصر والتأييد؛ لأنه تعالى بعد أن نهاه عن الحزن عليهم، وعن أن يكون في ضيق مما يمكرون أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾. في إشارة واضحة إلى أنه عز وجل معه هو وأصحابه بمعيته الخاصة.

٣٢- الترغيب في التقوى والإحسان؛ لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

٣٣- عظم مكر المشركين وكيدهم للدعوة، وأذيتهم للرسول ﷺ وأصحابه، وشدة ما وصل به الحال ﷺ؛ لهذا أمره الله تعالى بالصبر، ونهاه عن الحزن عليهم، وعن أن يكون في ضيق مما يمكرون، ووعده هو وأصحابه بأنه معهم بمعيته الخاصة؛ تقوية لقلبه وتثبيتًا له، وللمؤمنين.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الرعد ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها ٧
ج- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ ...﴾ الآيات [١- ٥] ١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ ...﴾ الآيات [٦- ١١] ٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ...﴾ الآيات [١٢- ١٥] ٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ ...﴾ الآيات [١٦- ٢٤] ٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ...﴾ الآيات [٢٥- ٢٩] ٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ...﴾ الآيات [٣٠- ٣٥] ٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ ...﴾ الآيات [٣٦- ٤٣] ٩٨
تفسير سورة إبراهيم ١١٣
المقدمة ١١٥
أ- اسم السورة: ١١٥
ب- مكان نزولها: ١١٥
ج- موضوعاتها: ١١٥

تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾ الآيات [١- ٤] ١٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ الآيات [٥- ٨] ١٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ...﴾ الآيات [٩- ١٨] ١٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ ...﴾ الآيات [١٩- ٢٣] ١٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ ...﴾ الآيات [٢٤- ٣٤] ١٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ...﴾ الآيات [٣٥- ٤١] ١٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ ...﴾ الآيات [٤٢- ٤٦] ٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ ...﴾ الآيات [٤٧- ٥٢] ٢٠٨
تفسير سورة الحجر ٢١٧
المقدمة ٢١٩
أ- اسم السورة: ٢١٩
ب- مكان نزولها: ٢١٩
ج- موضوعاتها: ٢١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ...﴾ الآيات [١- ٩] ٢٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ...﴾ الآيات [١٠- ١٥] ٢٣٢

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ...﴾ الآيات [١٦- ٢٥]..... ٢٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ...﴾ الآيات [٢٦- ٤٤]..... ٢٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ الآيات [٤٥- ٥٠]..... ٢٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ...﴾ الآيات [٥١- ٦٠] ٢٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ...﴾ الآيات [٦١- ٦٦]... ٢٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ...﴾ الآيات [٦٧- ٧٩] .. ٢٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ...﴾ الآيات [٨٠- ٨٤]٢٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ...﴾ الآيات [٨٥- ٩٩]..... ٢٨٧
تفسير سورة النحل..... ٣٠١
المقدمة ٣٠٣
أ- اسم السورة: ٣٠٣
ب- مكان نزولها:..... ٣٠٣
ج- موضوعاتها:..... ٣٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ...﴾ الآيات [١- ٩]..... ٣١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ...﴾ الآيات [١٠- ١٨] ٣٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ...﴾ الآيات [١٩- ٢٩] ٣٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ...﴾ الآيات [٣٠- ٣٤]..... ٣٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ...﴾ الآيات [٣٥- ٤٢] ٣٥٨

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ ...﴾ الآيات [٤٣- ٥٥]..... ٣٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ ...﴾ الآيات [٥٦- ٦٤] ٣٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ...﴾ الآيات [٦٥- ٦٩] ٣٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ ...﴾ الآيات [٧٠- ٧٧]..... ٤٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا...﴾ الآيات [٧٨- ٨٣]..... ٤٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ...﴾ الآيات [٨٤- ٨٩]..... ٤٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ الآيات [٩٠- ٩٧]..... ٤٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ...﴾ الآيات [٩٨- ١٠٥]..... ٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ...﴾ الآيات [١٠٦- ١٠٩]..... ٤٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ...﴾ الآيات [١١٠- ١١٩]..... ٤٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ...﴾ الآيات [١٢٠- ١٢٨]..... ٤٩٩
فهرس الموضوعات..... ٥١٥

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثالث عشر

تفسير سورة الإسراء والكهف ومريم

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

(١٣)

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

(ح) دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٤٨٠ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

البارکود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِسْرَاءِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الإسراء» بهذا الاسم؛ لذكر قصة الإسراء فيها في قوله- تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة بني إسرائيل»، كما تسمى: «سورة سبحان».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- أنه قال: «في بني إسرائيل، والكهف، ومريم: إنهن من العتاق الأُول، وهن من تلادي[١]»[٢].

أي: أنهن السور التي أنزلت أولاً بمكة.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بني إسرائيل» و«الزمر»»[٣].

د- موضوعاتها:

١- افتتح الله- عز وجل- سورة الإسراء بتعظيم وتنزيه نفسه ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الآية: ١].

٢- إثبات نبوة موسى- عليه السلام- وإيتائه الكتاب: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٢- ٣].

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية» مادة: «ت ل د»: «أي: من أول ما أخذته وتعلمته بمكة، والتالد: المال القديم، الذي ولد عندك، وهو نقيض: "الطارف"».

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل (٤٧٠٨)، وفي تفسير سورة الأنبياء (٤٧٣٩)، وفي فضائل القرآن (٤٩٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٩).

٣- ذكر ما قضاه الله تعالى على بني إسرائيل من الإفساد في الأرض مرتين والعلو فيها والتجبر: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الآيات: ٤- ٨].

٤- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآيتان: ٩، ١٠].

٥- بيان طبيعة الإنسان وعجلته ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر كدعائه بالخير: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الآية: ١١].

٦- امتنان الله- عز وجل- بجعل الليل والنهار آيتين ومحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الآية: ١٢].

٧- بيان أن لكل إنسان عمله وجزاءه، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضل فضلاله على نفسه ولا تحمل نفس ذنب غيرها، ولابد من إقامة الحجة ببعث الرسل قبل التعذيب: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الآيات: ١٣- ١٥].

٨- بيان أن آثار الترف والفسق والدمار والهلاك، وبيان نفوذ إرادة الله تعالى الكونية في إهلاك القرى المكذبة، وارتباط المسببات بأسبابها، وأنه- عز وجل- لا يعاقب إلا بذنب: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الآيتان: ١٦، ١٧].

٩- بيان الفرق الشاسع والبون الواسع بين مريد الدنيا ومريد الآخرة الساعي لها وهو

مؤمن، فالأول له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، والثاني سعيه مشكور ومجازى عليه بأعظم الجزاء، ولكل منهما في الدنيا ما قدر له منها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الآيات: ١٨- ٢١].

١٠- النهي عن الشرك، وبيان أن عاقبته الخذلان، والأمر بعبادة الله تعالى وحده: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الآيتان: ٢٢، ٢٣].

١١- الأمر بالإحسان إلى الوالدين والبر بهما، وخاصة عند بلوغهما الكبر، والتواضع لهما والرحمة بهما، والدعاء لهما: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الآيات: ٢٣- ٢٥].

١٢- الأمر بإيتاء ذوي الحقوق حقوقهم، من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والنهي عن التبذير والبخل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الآيات: ٢٦- ٣٠].

١٣- النهي عن عدد من الكبائر والموبقات التي كانت تفعل في الجاهلية، وغير ذلك من الأخلاق السيئة. والأمر بالوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والوزن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا

بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ﴾ [الآيات: ٣١- ٣٩].

١٤- تأكيد النهي عن الشرك والوعيد لمن أشرك بالله، وتقريع من قالوا الملائكة بنات الله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الآيتان: ٣٩، ٤٠].

١٥- بيان عدم انتفاع المشركين المكذبين بالقرآن، ودحض قولهم بوجود آلهة مع الله، وتنزيه نفسه- عز وجل- عما يقولون، وبيان تسبيح السموات السبع والأرض ومن فيهن، وكل شيء له- سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الآيات: ٤١- ٤٤].

١٦- الحيلولة بين المشركين والمكذبين وبين القرآن وسماعه بالحجاب والأكنة على قلوبهم أن يفقهوه، والوقر في آذانهم ونفورهم من ذكر الله بالقرآن وحده، ورميهم له ﷺ بالسحر: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الآيات: ٤٥- ٤٨].

١٧- إنكارهم البعث وزعمهم عدم إمكانية ذلك، والرد عليهم، وبيان تمام قدرته- عز وجل- على ذلك- كما فطرهم أول مرة، وقرب ذلك: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ

عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآيات: ٤٩- ٥٢].

١٨- إرشاد المؤمنين وتوجيههم أن يقولوا التي هي أحسن، والحذر من نزغات الشيطان بينهم: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الآية: ٥٣].

١٩- بيان علمه- عز وجل- التام بالعباد، ونفوذ مشيئته فيهم إن يشأ يرحمهم وإن يشأن يعذبهم، وبيان سعة علمه لمن في السموات والأرض وتفضيل بعض النبيين على بعض وإيتاء داود ذبوراً: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الآيتان: ٥٤، ٥٥].

٢٠- توبيخ المشركين وتقريعهم وتحديهم بأن يدعوا شركاءهم لكشف الضر عنهم أو تحويله، فلا يملكون ذلك، بل إن هؤلاء المعبودين يبتغون الوسيلة إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذابه كان محذوراً، فكيف يطلب منهم ما هم بحاجة إليه.

٢١- الوعيد للمكذبين وبيان أخذه عز وجل للقرى المكذبة وإهلاكها ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الآية: ٥٨].

٢٢- بيان أن السبب في عدم إرسال الآيات التي يقترحها المكذبون للرسول ﷺ: تكذيب الأولين بالآيات التي اقترحوها بعد أن جاءتهم، كما آتى- عز وجل- ثمود الناقة آية مبصرة ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الآية: ٥٩].

٢٣- بيان إحاطته- عز وجل- بالناس، وعصمته ﷺ منهم، وجعله ما أراه ليلة أسري به امتحاناً ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ٦٠].

٢٤- التذكير بأمره- عز وجل- للملائكة بالسجود لآدم وسجودهم إلا إبليس، وتكبره وحسده لآدم، وتوعده بإهلاك ذريته بجعلهم يتبعونه، واستفزازهم بصوته والإجلاب عليهم بخيله ورجله ومشاركتهم في الأموال والأولاد، ووعدهم.

واستثناء الله- عز وجل- عباده ببيان أنه ليس له عليهم سلطان: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الآيات: ٦٢- ٦٥].

٢٥- بيان نعمته- عز وجل- على العباد بإزجاء الفلك في البحر ليبتغوا من فضله رحمة بهم.

٢٦- بيان تذبذب المشركين فإذا أصابهم الضر في البحر أخلصوا الدعاء لله، فإذا نجاهم إلى البر أعرضوا وكفروا، وتهديدهم بأن لا يأمنوا أن يخسف الله بهم جانب البر أو يرسل عليهم حاصباً ثم لا يجدوا لهم وكيلاً، أو يعيدهم في البحر تارة أخرى فيغرقهم بما كفروا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ [الآيات: ٦٧- ٦٩].

٢٧- تكريمه- عز وجل- لبني آدم، وإنعامه عليهم بحملهم في البر والبحر، ورزقه إياهم من الطيبات، وتفضيلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الآية: ٧٠].

٢٨- دعاء كل أناس بإمامهم يوم القيامة لأخذ كتب أعمالهم: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الآيتان: ٧١، ٧٢].

٢٩- امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بحفظه له ﷺ عن فتنة المكذبين له عن الذي أوحاه الله إليه، وتثبيته له في عدم الركون إليهم: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

[الآيات: ٧٣- ٧٧].

٣٠- أمره ﷺ بإقامة الصلوات في أوقاتها، والقيام من الليل، ودعاء الله أن يدخله مدخل صدق، وأن يخرجه مخرج صدق، ويجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الآيات: ٧٨- ٨١].

٣١- بيان أن القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الآية: ٨٢].

٣٢- بيان أن الإنسان- إلا من عصم الله- إذا أنعم الله عليه أعرض وكفر النعمة، وإذا أصابه الشر قنط ويأس من الخير: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الآيتان: ٨٣، ٨٤].

٣٣- ذكر سؤال اليهود له ﷺ عن الروح، وأمر الله تعالى له أن يبين لهم أنها من أمر الله، ويبين لهم قلة علمهم: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الآية: ٨٥].

٣٤- بيان نعمته- عز وجل- وفضله على النبي ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن، وأنه لو شاء لذهب به: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الآيتان: ٨٦- ٨٧].

٣٥- بيان شرف القرآن وإعجازه، وعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الآية: ٨٨].

٣٦- إقامة الحجة على الناس بالتصريف لهم في القرآن من كل مثل، وإباء كثير منهم إلا الكفر، وشدة تعنتهم وعنادهم بمطالبتهم له ﷺ بما ليس بمقدوره: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الآيات: ٩٠- ٩٣].

٣٧- بيان أنه ما منع الناس من الإيمان وتصديق الرسل إلا قولهم: كيف يكون رسول من البشر؛ ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الآيات: ٩٤- ٩٦].

٣٨- من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الآية: ٩٧].

٣٩- أن الكفر بآيات الله وإنكار البعث موجب لعذاب الله- تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الآيتان: ٩٨- ٩٩].

٤٠- التنبيه على كرمه- عز وجل- وعظيم فضله على العباد، وواسع رحمته وجوده: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الآية: ١٠٠].

٤١- التأكيد على رسالة موسى- عليه السلام- وإيتائه تسع آيات بينات، وذكر تكذيب فرعون له ورميه له بالسحر، وإغراقه ومن معه، وتوريث الأرض لبني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الآيات: ١٠١- ١٠٤].

٤٢- إثبات إنزال القرآن الكريم بالحق، ونزوله بالحق، وبيان أن مهمته ﷺ البشارة والإنذار وقراءة القرآن على الناس على مكث وتبليغه إياهم: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ

نَزَّلْنَٰهُ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الآيتان: ١٠٥، ١٠٦].

٤٣- تأكيد أن القرآن الكريم حق سواء آمن به المشركون أو لم يؤمنوا: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الآيات: ١٠٧-١٠٩].

٤٤- الرد على المشركين في إنكارهم اسم «الرحمن» وبيان جواز دعائه عز وجل بأي اسم من أسمائه، وأمره ﷺ بالتوسط في قراءته بين الجهر والمخافتة: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الآية: ١١٠].

٤٥- وكما افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى وتعظيمه اختتمت بالثناء عليه وحمده على غناه عن الولد والشريك والولي، وتكبيره وتعظيمه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الآية: ١١١].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾.

قوله: ﴿سُبْحَانَ﴾ مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف، أي تنزيهًا وتعجيبًا من قدرته، وتمجيدًا لنفسه عز وجل، وتعظيمًا لشأنه.

﴿الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ أسرى وسرى بمعنى: سار في الليل.

﴿بِعَبْدِهِ﴾ الباء للمصاحبة، أي: بعبده محمد ﷺ، بروحه وجسده، يقظةً لا منامًا، وأضافه عز وجل إليه في قوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ تشريفًا وتكريمًا له ﷺ.

وفي قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ دون: «بعث بعبده»، أو «أرسل بعبده».

وقوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾ دون «سرى»؛ ما يفيد مصاحبته له ومعيته له بمسراه، بعنايته به، وحفظه وتوفيقه له، إضافة لما في ﴿أَسْرَىٰ﴾ بصيغة المبالغة من إفادة السرعة.

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان ﷺ إذا سافر يقول: «**اللهم أنت الصاحب في السفر**»[١]»[٢].

وذكر عز وجل نبيه ﷺ ووصفه بصفة العبودية؛ لأن أكمل الخلق أكملهم عبودية لله عز وجل، وأعظمهم افتقارًا إلى ربه؛ لأن العبودية أشرف وصف يوصف به البشر، من الرسل والأنبياء وغيرهم؛ ولهذا قال ﷺ في دعاء المكروب: «اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»[٣].

وكان ﷺ يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- استحباب الذكر إذا ركب دابة السفر ١٣٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٧- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر بدائع التفسير ٣/ ٧١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٠.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٤٥، من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ولهذا ذكر الله عز وجل نبيه ﷺ بوصف العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، فقال في هذه الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية.

وفي مقام الدعاء والعبادة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي مقام التحدي، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿لَيْلًا﴾ تأكيد لقوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾؛ لأن السُّرى خاص بالليل.

ونُكِّر ﴿لَيْلًا﴾ للتعظيم، وفيه دلالة على أن الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن ثم رجوعه، كان في ليلة واحدة، بل في جزء من ليلة.

وفيه إيماءٌ إلى أن قطع هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت القصير خارق للعادة.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: من مسجد مكة أول بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

بناه إبراهيم الخليل عليه السلام.

و﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ في الأصل مكان السجود.

والحرام والمحرّم: الممنوع، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**»(١).

وظاهر الآية أن الإسراء به ﷺ كان من نفس المسجد الحرام، وعليه يدل حديث أنس بن مالك بن صعصعة، عن رجل من قومه، عن النبي ﷺ: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلًا يقول: أحد الثلاثة. فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا...» الحديث(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦.

لكن جاء في حديث أم هانئ رضي الله عنها في مسرى النبي ﷺ أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبّنا رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: «**يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين**»(١).

قال السعدي(٢) بعد ما أشار إلى ما ثبت في حديث أم هانئ: «فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم».

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس، الكائن بـ«إيلياء» الذي بناه نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام.

وقوله: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾، أي: الأبعد، أي: الأبعد عن مكة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام.

عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المسجد الحرام**». قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**». قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»(٣).

و﴿ٱلْأَقْصَا﴾ صيغة تفضيل، وقد يكون في وصفه بهذا الوصف إيماءٌ إلى أنه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم، هو مسجد طيبة الذي هو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه.

وعلى هذا تكون الآية تشير إلى جميع المساجد الثلاثة المفضلة في الإسلام على جميع المساجد، كما جاء في قوله ﷺ: «**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٤/ ٤١٤، وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٢.

(٢) في تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٦٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٢٠، والنسائي في المساجد ٦٩٠، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٩٧، وأبو داود في المناسك ٢٠٣٣، والنسائي

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ «البركة» كثرة الخير والفضل في الدنيا والآخرة.

أي: الذي باركنا حوله ببركات دينية، فجعلنا تلك الأرض المقدسة محل بعثة كثير من الأنبياء عليهم السلام، ومستقرهم وقبلتهم من لدن إبراهيم عليه السلام، ومسرى خاتم النبيين ومعراجه إلى السموات العلى.

كما باركنا حوله ببركات دنيوية، بكثرة الأنهار والأشجار، والخصب والنماء في الحروث والزروع والغروس والثمار، ووفرة المعايش والأقوات.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ اللام: للتعليل، والضمير الهاء في ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ يرجع إليه ﷺ، أي: لأجل أن نريه من آياتنا العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨]؛ تثبيتًا له ودلالةً على صدقه.

ومن ذلك ما رآه في طريقه إلى بيت المقدس، وبعد وصوله إليه من العجائب والعبر، ومن وصف المسجد الأقصى وغير ذلك، وفي هذا تأكيد على أن الإسراء كان بروحه وجسده، ويقظةً لا منامًا.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه التفات من التكلم إلى الغيبة، كما في أول الآية؛ لتنبيه القارئ والسامع، و«إن» وضمير الفصل «هو» للتأكيد.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، أي: ذو السمع الواسع الذي وسع جميع الأصوات، السميع لدعاء عباده، ولما يقوله المشركون المكذبون لمسرى رسول الله ﷺ، ولغير ذلك.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ اسم من أسماء الله تعالى، أي: ذو البصر التام بعباده، والاطلاع الواسع على أحوالهم، فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته، حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء**

في المساجد ٧٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤٠٩ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحّبا ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧]. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل

وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب، خفف على أمتي. فحطّ عني خمسًا، فرجعت إلى موسى ﷺ، فقلت: حط عني خمسًا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث، أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ. فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح».

قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة.

قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى، فقال: مرحبًا بالنبي

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ ١٦٢.

الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى، فقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم ﷺ».

قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام.

قال ابن حزم، وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ: **«ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق. فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لديّ. فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»**(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ ليلة أسري به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن. قال جبريل: **«الحمد لله الذي هداك إلى الفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك»**(٢).

قال ابن كثير(٣) بعد أن ذكر أحاديث الإسراء: «فصل: وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، كيف فرضت الصلوات الخمس ٣٤٩، ومسلم في الإيمان- قوله ﷺ: «نور أنّى أراه» ١٦٣، ورواه أحمد ٥/ ١٤٣- ١٤٤ من حديث أنس رضي الله عنه عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٠٩، ومسلم في الأشربة ١٦٨، والنسائي في الأشربة ٥٦٥٧.

(٣) في تفسيره ٥/ ٣٩.

السلام، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة، فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يحصل على مطلب».

وقال أيضًا[١]: «وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء، ومرة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًّا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر به النبي ﷺ أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرار».

الفوائد والأحكام:

١- تنزيه الله عز وجل وتمجيده لنفسه وتعظيمه لشأنه وتعجيبه من تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية. وفي ذلك تنبيه لعباده للتأمل في ذلك، وتعليم لهم أن يسبحوه.

٢- أن لله عز وجل الثناء على نفسه، والتعجيب من قدرته، وتنزيه نفسه؛ لأنه سبحانه أهل الثناء والمجد، ذو القدرة التامة، المُنزّه عن كل عيب ونقص، له المثل الأعلى في السموات والأرض، والكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، والعزة والكبرياء، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «العزة إزاري، والكبرياء ردائي»[٢].

وهذا بخلاف المخلوق، فليس له مدح نفسه، والثناء عليها، وتزكيتها؛ لأنه محل الضعف والنقص والعيب.

٣- إثبات الإسراء برسول الله ﷺ، وأنه بروحه وجسده، يقظة لا منامًا، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

قال ابن كثير[٣]: «قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه، فأفاد وأجاد، ثم

---

(١) في ٥/ ٤٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٤٢.

قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، وذكر نحو خمسة وعشرين رووه من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ثم قال: منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترضت فيه الزنادقة الملحدون: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨] ».

وقد قيل: إن الإسراء كان بروحه فقط، وأنه كان منامًا. وهذا خلاف ما دلّت عليه الآيات والأحاديث الصحيحة في الإسراء.

قال الطبري(١): بعدما ذكر الروايات في القولين: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يُقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال: أسري بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلًا على نبوته، ولا حجة على رسالته».

وقال ابن كثير(٢): «والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا منامًا، من مكة إلى بيت المقدس، راكبًا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أُتي المعراج، وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع».

وقال أيضًا: «ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظمًا، ولما بادرت قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان أسلم، وأيضًا فإن «العبد» عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَىٰ

(١) في جامع البيان ١٤/ ٤٤٦.
(٢) في تفسيره ٥/ ٤٠- ٤١.

﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

قال ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ»، رواه البخاري في تفسير سورة الإسراء. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح؛ وأيضا فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وأن يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج حركتها إلى مركب تركب عليه».

كما اختلفوا متى كان الإسراء، والأشهر أنه كان قبل الهجرة بسنة فأكثر، ولا يعلم في أي شهر كان، ولا في أي يوم كان.

٤- تشريف الله عز وجل وتكريمه له ﷺ بإضافته إليه، ووصفه له بعبوديته الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾.

٥- أن أشرف وصف يوصف به البشر هو كمال العبودية لله عز وجل؛ ولهذا وصف نبيه ﷺ بذلك في أعلى المقامات: مقام الإسراء، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: برسوله، كما وصفه به في مقام الدعاء والعبادة، وفي مقام التحدي.

٦- أن الإسراء كان ليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، فالإسراء إنما يكون بالليل، وأكد ذلك بقوله: ﴿لَيْلًا﴾.

٧- أن الإسراء به ﷺ كان من المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وظاهر الآية أنه من المسجد نفسه، ويدل على هذا قوله ﷺ في حديث أنس بن مالك بن صعصعة: «بينا أنا عند البيت»(١).

ويحتمل أن يكون المراد بـ«المسجد الحرام»: الحرم كله، ويدل على هذا قول أم هانئ: «ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي»(١).

وقوله ﷺ في حديث أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما: «**فرج سقف بيتي وأنا بمكة**»(١).

٨- عظم مكانة المسجد الأقصى، ومباركة الله تعالى حوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٩- أن الله عز وجل يضع البركة حيث شاء، وأن بعض البقاع أبرك من بعض.

١٠- أن الحكمة في الإسراء به ﷺ أن يريه الله عز وجل من آياته الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

١١- إثبات اسم «السميع» لله عز وجل وصفة السمع الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٢- إثبات اسم «البصير» لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو البصر والاطلاع التام على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾.

١٣- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، وهو أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين ذكر التوراة والقرآن، وبين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، أي: الكتاب «التوراة».

﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: هاديًا لبني إسرائيل، يهتدون به إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣﴾ [السجدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾ [غافر: ٥٣- ٥٤].

وفرقانًا يفرقون به بين الحق والباطل، وضياءً وموعظةً وذكرًا للمتقين، وبصائر للناس، وهدًى ورحمةً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء: ٤٨]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ

أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣].

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ قرأ أبو عمرو بالغيبة: «ألا يتخذوا»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾، أي: لئلا تتخذوا، أو قلنا لهم: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾، أي: لئلا تجعلوا غيري معبودًا تعبدونه، وتفوضون إليه أموركم من دوني.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، «ذرية» منصوب على النداء، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح، وفي هذا تذكير لهم بهذه المنة العظيمة، أي: يا سلالة من حملنا مع نوح في السفينة وأنجيناهم من الطوفان والغرق، وفيه تحريض لهم على التشبه بأسلافهم بشكر الله وعبادته وحده، والتوكل عليه دون غيره.

والناس بعد الطوفان كلهم من ذرية من أنجى الله مع نوح في السفينة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ استئناف بياني، فيه معنى التعليل لإنجائه عليه السلام، وهو أنه كان عبدًا شكورًا لربه عز وجل، معترفًا بنعمه، مُثنيًا بها عليه، مستعملًا لها في مرضاته، حامدًا لربه على كل حال وفي كل حين، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس يوم القيامة... » الحديث، وفيه: «فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك»(١).

ولهذا أنجاه الله ومن معه، وفي هذا ترغيب بالشكر اقتداءً به عليه السلام.

وفيه تعريض بأن هلاك من هلك منهم وإغراقهم بسبب كفرهم، وتحذير للمشركين أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك الكافرين، كما قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: وحكمنا على بني إسرائيل حكمًا كونيًا في اللوح المحفوظ، وأخبرناهم بذلك في الكتاب الذي أنزلناه عليهم، وهو التوراة، وعدّى الفعل «قضينا» بـ«إلى»؛ لتضمنه معنى أوحينا وأبلغنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ۝٦٦﴾ [الحجر: ٦٦].

﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾، اللام لام القسم، لقسم مُقدر، أي: والله لتفسدن، وقد أكد هذا القضاء باللام، والقسم المقدر، ونون التوكيد، والإفساد ضد الإصلاح، أي: لتفسدن في الأرض بالكفر والشرك والمعاصي التي بها هلاك البلاد والعباد، والمراد بالأرض أرض فلسطين بيت المقدس.

﴿مَرَّتَيۡنِ﴾، أي: إفسادتين.

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ معطوف على: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾. و﴿عُلُوّٗا﴾ مفعول مطلق، ﴿كَبِيرٗا﴾ صفة له، أي: علوًا في العصيان والطغيان، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١﴾ [الدخان: ٣١]، أي: ولتعلن علوًا عظيمًا بالإفساد في الأرض بالكفر، والمعاصي، والطغيان، وقتل الأنبياء والعلماء، وكفران النعم، والتكبر على الناس والتجبر عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: ٨٠].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾، أي: فإذا جاء وعد أولى الإفسادتين، أي: إذا وقعت منكم أولى الإفسادتين. و﴿وَعۡدُ﴾ مصدر بمعنى «موعود».

﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: أرسلنا وسلَّطنا عليكم تسليطًا كونيًّا جزائيًّا.

﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾، أي: جندًا من عامة عبادنا وجندنا؛ لأن المراد بالعبودية هنا العبودية العامة.

﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، أي: ذوي قوة، وأصحاب شجاعة وعدد وعدة.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، أي: فانتصروا عليكم، وملكوا بلادكم، وطافوا. ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، أي: وسط دياركم، ذهابًا ومجيئًا لا يخافون أحدًا، ودخلوا مسجد بيت المقدس وأفسدوه.

﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾، أي: وعدًا مقضيًّا نافذًا واقعًا لا محالة.

وقد اتفق المفسرون على أن هؤلاء المسلطين قوم كفار، سلطهم الله على بني إسرائيل لما طغوا وبغوا وتجبروا في الأرض، وأفسدوا فيها بالكفر والمعاصي، وبطروا نعم الله، وفي الأثر: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد اختلف في تعيين هؤلاء المسلطين؛ فقيل: هم من أهل العراق، وقيل: من الجزيرة، وقيل غير ذلك.

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي والزمني معًا، أي: ثم أرجعنا لكم الدولة والغلبة والظهور عليهم، و﴿ٱلۡكَرَّةَ﴾: الرجعة.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾، أي: أعطيناكم وزودناكم بأموال كثيرة وبنين كثيرين.

﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾، أي: وصيرناكم أكثر نفرًا وعددًا ممن تسلطوا عليكم، وهذا من أسباب القوة والعزة، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقد قيل في المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة». وقال الشاعر:

ولستُ بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر[1]

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ بالإيمان بالله وعبادته وحده والإخلاص له، والإحسان إلى خلقه بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، أي: فنفْع إحسانكم لأنفسكم، أي: عائد إلى أنفسكم.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بالكفر والمعاصي والتمرد على أحكام الله، والتكبر على عباد الله وأذيتهم.

﴿فَلَهَا﴾، أي: فلأنفسكم أسأتم، وعليها جنيتم؛ لأن ضرر إساءتكم عائد إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾، أي: موعود المرة الآخرة، أي: الإفسادة الآخرة، الثانية عددًا، والآخرة زمنًا، أي: فإذا أفسدتم في الأرض للمرة الثانية.

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، وخلف، وأبو بكر عن عاصم بالياء ونصب الهمزة على لفظ الواحد: «ليسوءَ»، وقرأ الكسائي بالنون ونصب الهمزة: «لنسوءَ»، وقرأ الباقون بالياء وضم الهمزة بعدها واو الجمع: ﴿لِيَسُوءُوا﴾.

واللام هنا وفي الموضعين بعده للتعليل وليست للأمر، والضمائر في: ﴿لِيَسُوءُوا﴾، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا﴾ تعود إلى ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾، وعلى قراءة الإفراد يعود الضمير إلى الله عز وجل.

ومعنى ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أي: ليظهروا على وجوهكم المساءة والكآبة؛ بسبب قهرهم وإذلالهم لكم، وانتصارهم عليكم، وإهانتهم لكم.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾، أي: بيت المقدس.

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: كما دخلوه في المرة الأولى التي جاسوا فيها خلال الديار.

---

(١) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص١٤٣).

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾، أي: وليخربوا ويدمروا.

﴿مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ «ما» موصولة، أي: وليخربوا ويدمروا الذي علوا، أي: الذي ظهروا وغلبوا عليه ووقع تحت أيديهم من بلادكم.

﴿تَتْبِيرًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: تدميرًا شديدًا، وتخريبًا عظيمًا كاملًا، لبيوتكم ومساجدكم وحروثكم وغير ذلك.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ «عسى» من الله واجبة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]، أي: أن فيها وعدًا من الله تعالى لهم بالرحمة.

أي: عسى ربكم أن يرحمكم فيصرفهم عنكم، ويديل لكم الكرة عليهم، قال السعدي[2]: «فرحمهم، وجعل لهم الدولة، وتوعدهم على المعاصي، فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ الآية».

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الإفساد في الأرض، ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا، مع ما ندخره لكم من العذاب في الآخرة؛ ولهذا قال:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، أي: سجنًا لهم، لا خروج لهم منها أبدًا، وفراشًا ومهادًا، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

وفي الإظهار مقام الإضمار في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾- ولم يقل: «لكم»- تسجيل عليهم بالكفر، وليعم هذا الوعيد غيرهم من الكافرين.

قال السعدي[2] في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: «فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي؛ لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسُنّة الله واحدة، لا تبدل، ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٢٦٣.

عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مكّن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- ربط القرآن الكريم بين رسالة موسى ورسالة نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما؛ لأن كتابيهما أعظم كتب الله تعالى، وشريعتيهما أفضل الشرائع السماوية.

٣- أن الله جعل التوراة هدى لبني إسرائيل من الجهل إلى العلم، ومن الباطل إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- أن أعظم ما في التوراة من الهدى لبني إسرائيل نهيهم عن الشرك، وأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، والتوكل عليه دون غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾، وهو ما أمر الله تعالى به جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٥- تحفيز بني إسرائيل وحضهم في التوراة على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والتوكل عليه دون غيره، بتذكيرهم بإنجاء آبائهم مع نوح في السفينة، وشكره لربه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

٦- أن النعمة بإنجاء من كانوا مع نوح في السفينة نعمة على جميع الخلق؛ لأن المتواجدين بعد الطوفان كلهم من ذرية من حمل مع نوح في السفينة.

٧- ثناء الله عز وجل على نبيه نوح عليه السلام، وامتداحه له بوصفه له بأنه عبد شكور، فأكرم بهذا من وصف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

٨- أن سبب إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة كونه عبدًا شكورًا.

٩- الترغيب والحض على شكر الله تعالى؛ لأنه سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

١٠- قضاء الله تعالى وحكمه الكوني على بني إسرائيل بالإفساد في أرض بيت المقدس مرتين والعلو فيها علوًّا كبيرًا، وإخبارهم بذلك في التوراة؛ لقوله تعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الآيات.

١١- أن ما قضاه الله وحكم به كونًا كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

١٢- إفساد بني إسرائيل في الأرض للمرة الأولى بالكفر والمعاصي، وكفران النعم، وعلوهم علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ الآية.

١٣- تسليط الله تعالى على بني إسرائيل بسبب فسادهم وإفسادهم وعلوهم في الأرض أول مرة جندًا من عباده أولي بأس شديد، ملكوا بلادهم، وطافوا وسط ديارهم، وأفسدوا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

١٤- منة الله تعالى على بني إسرائيل برد الكرّة لهم على أعدائهم، وإمدادهم بالأموال والبنين، وجعلهم أكثر عددًا من عدوهم؛ لعلهم يشكرون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

١٥- أن من أسباب القوة والعزة والتمكين كثرة الأموال والبنين وكثرة العدد، لكن هذا قد لا ينفع مع الكفر وعدم الشكر.

١٦- الإغراء والحث على الإحسان في عبادة الله تعالى والإحسان إلى خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، أي: إن من أحسن أحسن لنفسه؛ لأن نفع وثواب إحسانه يعود لنفسه.

١٧- التحذير من الإساءة بمخالفة أمر الله وارتكاب نهيه، وأذية خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أي: وإن أسأتم فعلى أنفسكم ضرر إساءتكم.

١٨- بلاغة القرآن الكريم وإيجازه، فإن في قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ من الإغراء والترغيب بالإحسان، والتحذير والتنفير من الإساءة ما لا يخفى.

١٩- أن كل إنسان يجازى بعمله إحسانًا أو إساءةً، فثواب إحسانه له خاصة، وعقاب إساءته عليه خاصة، فلا يعطى إحسانه لغيره، ولا يعاقَب بذنب إساءته سواه.

٢٠- غنى الله عز وجل عن الخلق، فلا ينفعه إحسان المحسن، ولا تضره إساءة المسيء.

٢١- شتان بين الإحسان والإساءة؛ ولهذا قدم الترغيب بالإحسان على النهي عن الإساءة.

٢٢- عودة بني إسرائيل للإفساد في الأرض مرة ثانية بعدما رد الله لهم الكرة على أعدائهم، وإدالة أعدائهم عليهم مرة أخرى، وإذلالهم وقهرهم لهم، وإظهارهم المساءة على وجوههم، ودخولهم بيت المقدس كما دخلوه في المرة الأولى، وتخريبهم وتدميرهم كل ما غلبوا عليه ووقع تحت أيديهم تدميرًا كاملًا عقوبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

٢٣- وعد الله لبني إسرائيل برحمته لهم، وإدالة الكرة لهم على أعدائهم، وتحذيرهم من العود للإفساد في الأرض، وتهديدهم بتسليط أعدائهم عليهم؛ عقوبةً لهم في الدنيا، ووعيدهم في الآخرة بجهنم لا خروج لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾.

٢٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾.

٢٦- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ﴾.

٢٧- إثبات جهنم، وأنها سجن الكافرين ومهادهم، لا خروج لهم منها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

٢٨- التسجيل على بني إسرائيل بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، ولم يقل: «لكم».

٢٩- أن كل من كفر بالله فمصيره إلى جهنم خالدًا فيها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، وهذا عام.

٣٠- عظم نعم الله تعالى ومننه على العباد وفضله وكرمه، وواسع عفوه عنهم، ورحمته بهم، فقد والى على بني إسرائيل النعم، ودفع عنهم النقم، ونصرهم على أعدائهم

وأداهم عليهم مرة تلو الأخرى، ولكنهم لشدة عتوهم وطغيانهم وتمردهم وكفرانهم نعم الله تعالى ومننه عليهم قابلوا ذلك بالكفر والجحود والإفساد في الأرض مرات وكرات، فكان عاقبتهم في الدنيا تسليط أعدائهم عليهم، ووعيدهم في الآخرة بجهنم خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾.

كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا﴾ [الآيات: ١- ٤]. وقال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة:٢- ٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ «إن» حرف توكيد، و«القرآن» الكتاب الذي أنزل الله تعالى على نبينا محمد ﷺ، أفضل كتب الله تعالى، وأعظمها، وأشرفها، وخاتمها، والمهيمن عليها.

سمي بـ«القرآن» لأنه مقروء متلو، تلقاه جبريل عليه السلام عن الله عز وجل، وبلغه عليه السلام لنبينا محمد ﷺ، وأقرأه إياه، وأقرأه النبي ﷺ أمته، فصاروا يقرؤونه.

وسمي أيضًا بـ«القرآن» أخذًا من «القرء» وهو الجمع؛ لأنه يجمع سورًا وآيات كثيرة، كما سمي «القرو» مجمع الماء، وسميت «القرية» لأنها تجمع أناسًا كثيرين.

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، أي: يدل ويرشد للطريق التي هي أعدل الطرق

وأصوبها، والتي هي أوضح السُّبل وأبينها في العقائد والأعمال والأخلاق، وهي سبيل الله تعالى وصراطه المستقيم، كما قال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى: ٥٢- ٥٣].

فهو ﷺ يهدي إلى صراط الله المستقيم بهدي القرآن الكريم، الذي هو هُدى للناس كلهم، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال ابن القيم في كلامه على الآية: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: «أي: الطريقة، أو الحالة، أو الملة التي هي أقومها وأشدها، وأيّ ذلك قدّرت لم تجد له مع الإفصاح ذوق البلاغة الذي تجده مع الإبهام؛ لذهاب الوهم فيه كل مذهب، وإيقاعه على محتملات كثيرة»(١).

فمن اهتدى بالقرآن هدي إلى صراط مستقيم، وكان من أكمل الناس وأقومهم؛ عقيدةً وعملًا وخلقًا، وفي جميع أموره وأحواله، ومن أسعدهم في دينه ودنياه وأخراه؛ لأن القرآن الكريم هو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، ونوره المبين.

ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وكان من أشقى الناس في دينه ودنياه وأخراه.

كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾»(٢).

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرٗا كَبِيرٗا﴾، أي: ويبشر المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم به، وبما هداهم إليه من وجوب الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أوجب الله الإيمان به.

---

(١) انظر بدائع التفسير ٣/ ٧٢.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٣/ ٣٧١، والطبري في «جامع البيان» ١٦/ ١٩١.

﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: الذين يعملون الأعمال الصالحات بجوارحهم؛ من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وغير ذلك من الواجبات والسنن.

وحذف الموصوف، وهو الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي الصالحات؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

والمعنى ويبشر المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان باطنًا بقلوبهم، وبين العمل الصالح ظاهرًا بجوارحهم.

﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ «أن» للتوكيد، أي: أن لهم خاصة ثوابًا وجزاءً ﴿كَبِيرٗا﴾، أي: جزيلًا عظيمًا من حيث كيفه، وجزيلًا كثيرًا من حيث كمه، وغير ذلك، لا يقدر قدر كبره وعظمته وكثرته وغير ذلك إلا من منحه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ووصفه بكونه كبيرًا، وهو الكبير المتعال.

ومن ذلك توفيقهم في الدنيا للحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾[النحل: ٩٧].

وأعظم من ذلك وأجل ما أعد لهم في الآخرة من مضاعفة الأجور، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وما أعد لهم في الجنة من أنواع النعيم وألوانه، وقرة العين، مما لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ﷺ في وصف الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ الآية[1].

وأجل ذلك وأعظمه وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٥، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

الكريم، كما قال ﷺ(١).

وسمى ثوابهم أجرًا؛ لأنه عز وجل تكفل به وضمنه لهم وأوجبه على نفسه، تفضلًا منه وكرمًا، وليس ذلك واجبًا عليه مقابل عملهم، كما يجب على المستأجر دفع أجرة الأجير؛ لأن عملهم ليس عوضًا عن هذا الأجر، وإنما هو سبب له.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، أي: ويبشر بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، أي: بالقيامة وبعث الأجساد والمعاد، والحساب والمجازاة للعباد على الأعمال.

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾، أي: أعددنا وهيأنا وجهزنا لهم.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: عذابًا مؤلمًا موجعًا، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، وهو عذاب النار، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾، أي: ويدع الإنسان- لجهله أحيانًا- على نفسه أو ولده أو ماله، ﴿بِٱلشَّرِّ﴾، أي: بالموت والهلاك واللعنة ونحو ذلك؛ بسبب غضب ونحوه.

﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ «دعاءه» منصوب بنزع الخافض، وهو الكاف، أي: كدعائه بالخير، أي: ويبادر الإنسان عند الغضب بسبب عجلته وجهله بالدعاء على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، أي: بالموت والهلاك واللعنة ونحو ذلك، كما يبادر في الدعاء بالخير، أي: بالتوفيق والرزق له ولولده ونحو ذلك، ولو استجاب الله له لهلك من دعا عليه بسبب دعائه، كما قال ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»(٢).

ويستعجل الشر كاستعجاله بالخير، فيستبطئ حلول الوعيد والعذاب، ويدعو على نفسه بذلك، وهذا أيضًا من جهله وظلمه وعجلته، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٣٠١٤- من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكما في قولهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وكقول قوم نوح وقوم هود عليهما السلام لكل منهما: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠، هود: ٣٢، الأحقاف: ٢٢]، وقول قوم شعيب عليه السلام له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، ولو أجيبوا لهلكوا في الحال.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، أي: من صفته وجبلته الخلقية العجلة، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: ٣٧]. أي: أنه يستعجل الأمور من غير روية وفكر، وقد يكون الخير له في تأجيلها.

وقد رُوي أن آدم عليه السلام لما نفخت الروح في أعلى جسده هم بالنهوض؛ لعجلته، قبل أن تصل الروح إلى رجليه(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾، أي: وخلقنا الليل والنهار آيتين، وآيتاهما الشمس والقمر، وجعلناها دالة على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، وواسع رحمته، وكمال ربوبيته ووحدانيته. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى

---

(١) انظر جامع البيان، ١٤/ ٥١٤.

ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: فطمسنا آية الليل، وهي القمر، وجعلنا الليل مظلمًا؛ للسكون فيه والراحة.

﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهي الشمس، ﴿مُبۡصِرَةً﴾، أي: مضيئةً وسراجًا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ٦١﴾ [الفرقان: ٦١]؛ ولهذا كان النهار مبصرًا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [يونس: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [النمل: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [غافر: ٦١].

﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تطلبوا الرزق من ربكم بالسعي في النهار، وتستعينوا بسكون الليل والراحة فيه على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [الروم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾ [النبأ: ١٠- ١١].

﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾، أي: ولأجل أن تعلموا عدد السنين والحساب، بتميز الليل عن النهار، بمحو آية الليل، وهي القمر، وجعل آية النهار- وهي الشمس- مضيئةً.

قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ

يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨- ٤٠].

ولو كان الزمان على نسق واحد- ليل سرمد، أو نهار سرمد- لانتفت الحكمة من اختلاف الليل والنهار، وهي كون الليل محل السكون، والنهار محل المعاش، ولما عُلم عدد السنين والحساب؛ ولهذا خوف الله العباد من ذلك، وامتن عليهم بجعلهما على هذه الكيفية رحمةً بهم. كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١- ٧٣].

﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾، ﴿تَفۡصِيلٗا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: وكل شيء بيّناه تبيينًا تامًّا بليغًا لا التباس فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾.

قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾، أي: وكل إنسان ألزمناه ما قدر له، وما صدر وطار عنه من عمل، خيرًا كان ذلك أو شرًا، يحفظ ويكتب عليه، ويجازى به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٤].

وقوله: ﴿فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ للدلالة على ملازمة ذلك له ملازمة دائمة كلزوم القلادة، وأنه لا محيد له عنه.

﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا﴾ قرأ أبو جعفر بالياء المضمومة، وفتح الراء: «ويُخرَجُ»، وقرأ يعقوب بالياء وفتحها وضم الراء: «ويَخْرُجُ»، وقرأ الباقون بالنون

مضمومة وكسر الراء﴿وَنُخْرِجُ﴾. أي: ونظهر له يوم القيامة كتابًا فيه جميع أعماله، يؤتاه بيمينه إن كان سعيدًا، ويؤتاه بشماله من وراء ظهره إن كان شقيًّا.

﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر: «يُلَقَّاهُ» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان اللام وتخفيف القاف ﴿يَلْقَىٰهُ﴾، أي: يجده.

﴿مَنشُورًا﴾ حال، أي: مفتوحًا للقراءة؛ لسرعة قراءته والاطلاع على جميع ما عمله من خير أو شر، من صغيرة أو كبيرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ جملة مقول القول لقول محذوف، أي: نقول له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، الباء في قوله: ﴿بِنَفْسِكَ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿حَسِيبًا﴾ تمييز، أي: حسبك بنفسك اليوم عليك حسيبًا، أي: كفى بك اليوم على نفسك حسيبًا وشهيدًا؛ لتعلم أنك لم تُظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۝١٧﴾ [غافر: ١٧].

وهذا غاية العدل والإنصاف أن يقال للإنسان: حاسب نفسك؛ ليعرف أنه لم يظلم، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون ممّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي. قال: فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بُعْدًا لكُنَّ وسُحقًا، فعنكنَّ كنت أناضل»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٩.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾.

أخبر عز وجل أنه ألزم كل إنسان طائره في عنقه، أي: ما قدر له من عمل، خيرًا كان أو شرًا، وأنه سيجازى بما عمل، ثم أتبع ذلك ببيان أن من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها؛ ترغيبًا في سلوك طريق الهدى، وتحذيرًا من سلوك طرق الضلال والردى.

قوله: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ «من» في الموضعين: شرطية، أي: من اهتدى بالقرآن، واسترشد به، وسلك سبيل الهدى والحق، ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما» هنا وفي الموضع الذي بعده: أداة حصر، أي: فإنما اهتداؤه لنفسه خاصة، أي: فثمرة اهتدائه وعاقبته الحميدة لنفسه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾، أي: ومن زاغ وبعُد عن الحق والهدى، وسلك سبل الغواية والردى.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾، أي: فإنما ضلاله على نفسه، أي: فوبال ضلاله وجنايته على نفسه خاصة.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾، أي: ولا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة آثمة، محملة بوزرها وذنبها وإثمها.

﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾، أي: ذنب وإثم نفس أخرى.

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ [فاطر: ١٨].

أي: لا يحمل أحد ذنب أحد غيره، بل كل يؤخذ بذنبه وجريرته، وعلى هذا فإن من دعا إلى ضلالة فإنه يحمل مع وزره، مثل أوزار من أضلهم من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا؛ لأنه هو سبب ضلالهم، فضلالهم من جريرته، قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال ﷺ: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص

ذلك من آثامهم شيئًا»(١).

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، أي: وما كنا معذبين أحدًا من الخلق ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، أي: إلى غاية أن نرسل إليهم رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وينهاهم عن الشرك، ويبين لهم طريق الحق والهدى، ويحذرهم من طرق الباطل والضلال، فتقوم بذلك عليهم الحجة، فمن أشرك منهم وعصى بعد ذلك عذبناه، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٨- ٢٠٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨- ٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾، أي: وإذا أردنا كونًا وقدرًا، أي: شئنا.

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أردنا»، أي: وإذا أردنا إهلاك قرية من القرى الظالمة واستئصالها بالعذاب، والمراد بالقرية: أهلها.

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ قرأ يعقوب: «آمرنا» بمد الهمزة، وقرأ الباقون: ﴿أَمَرْنَا﴾ بقصرها.

أي: أمرنا أهل الترف والرفاهية وسعة العيش فيها وشرارها، أمرًا قدريًا، وسلطناهم تسليطًا كونيًّا، ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ بالكفر والشرك والمكر والمعاصي والفجور والدعوة إلى الضلال، كما هو حال أكابر مشركي مكة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقيل: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالطاعة ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾، أي: فخرجوا عن الطاعة بالكفر والمعاصي والفواحش والفجور.

والصحيح الأول، وهو أن المعنى: قضينا ذلك وقدرناه كونًا؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا شك أنهم مأمورون- كغيرهم- بالطاعة شرعًا، لكن الله قضى وقدر كونًا أن يفسقوا بسبب ترفهم، وإذا فسق هؤلاء اغتر بهم دهماء الناس فاتبعوهم على ذلك، ولو كانوا غير مترفين، فهلكوا جميعًا.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ الفاء عاطفة، أي: فوجب عليها القول بالعذاب، أي: كلمة العذاب في النار، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر: ١٩]، وكما في قول الكفار: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾، أي: أهلكناهم واستأصلناهم. وفي هذا وعيد وتهديد لمشركي قريش.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

هذا تأكيد لوعيد المشركين وتهديدهم بالعذاب.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ الواو: استئنافية، و«كم» خبرية

للتكثير، أي: وكثيرًا ما أهلكنا من القرون.

و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ جمع «قرن»، وهو المدة أو الحقبة الزمنية التي يعيش فيها جيل ويفنى، قُدِّر بنحو مائة سنة، ويطلق على الأمة من الناس الذين يعيشون في تلك المدة، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، وكما في قوله ﷺ: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١).

والمعنى: وكثير من الأمم المكذبة أهلكناهم من بعد نوح، كعادٍ وثمود وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم فرعون، وغيرهم، بسبب تكذيبهم، وكفرهم، وبغيهم، وظلمهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

وفي هذا تحذير وتهديد لمشركي مكة أن يحل بهم- بسبب تكذيبهم للنبي ﷺ- ما حل بالأمم المكذبة للرسل من بعد نوح من الهلاك؛ فليسوا أكرم على الله منهم، وقد كذبوا أشرف الرسل وأكرمهم على الله تعالى، بل هم أولى وأحرى بالعقوبة.

عن زينب رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا**»، وحلق بين الإبهام والتي تليها. قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم، إذا كثُر الخبث**»(٢).

وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ دلالة على أن الإهلاك إنما حصل فقط للقرون من بعد نوح بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، أما من قبل نوح فقد كانوا على التوحيد ودين أبيهم آدم عليه السلام، لم يبدلوا ولم يغيروا.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ الواو: استئنافية، و«كفى» بمعنى:

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٢١- من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٦، ومسلم في الفتن ٢٨٨٠، والترمذي في الفتن ٢١٨٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٣.

حسب، «بربك» الباء زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: حسبك بربك يا محمد.

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾، أي: بجميع ذنوب عباده كلهم ﴿خَبِيرًۢا﴾، أي: ذا خبرة تامة ببواطنها ودقائقها وخفياتها.

﴿بَصِيرًا﴾، أي: بصيرًا بها مُطَّلِعًا عليها، عالمًا بظواهرها، وجلائلها، وجلياتها.

وفي هذا وعيد وتهديد للمشركين، وتسلية له ﷺ، وطمأنة بأن الله حسبه وكافيه، كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن القرآن يهدي للطريق التي هي أقوم وهو سبيل الله القويم، وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

٢- فضيلة القرآن وشرفه؛ لأن الله امتدحه وأثنى عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الآية.

٣- لا هدي أعظم من هدي القرآن، ولا أقوم سبيلًا من السبيل التي يهدي إليها القرآن، وهو سبيل الله وصراطه المستقيم.

٤- الترغيب في اتباع هدي القرآن الكريم، والتحذير من اتباع ما عداه من السُبُل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٥- بشارة القرآن الكريم للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بما أعد لهم خاصةً من الأجر الكبير والثواب الجزيل، كيفًا وكمًّا ونوعًا وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

٦- أن من أنجع أساليب الدعوة إلى الله تعالى التبشير، وهي طريقة القرآن الكريم، وطريقة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فكان صلوات الله وسلامه عليه يقول: «**بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تُعسّروا**»(١)، وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى رضي الله

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٨٣٥ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

عنهما حين بعثهما إلى اليمن: «**وبشروا ولا تنفروا**»(١).

وهذا هو منهج العلماء الربانيين في دعوتهم إلى الله تعالى؛ شفقةً منهم بالمدعوين ونصحًا لهم، وتحبيبًا لهم في الخير، وإخلاصًا لله تعالى، وحسن ظن به عز وجل، وتأسِّيًا بمنهج القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأشهد الله عز وجل لقد لمحت هذا في منهج العلامة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، فكان في دعوته يبشر دائمًا، وكان كثيرًا ما يختم فتواه لمن يستفتيه بقوله: «وأبشر بالخير».

أسأل الله أن يجزيه عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

٧- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، أي: بين الإيمان في القلب والباطن، وعمل الصالحات بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وفي هذا رد وإبطال لقول المرجئة: إنه يكفي مجرد الإيمان.

٨- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، وموافقًا لشرعه عز وجل، وسنة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٩- أن البشارة في القرآن الكريم بالأجر الكبير إنما هي خاصة بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

١٠- عظم فضل الله تعالى وما أعده للمؤمنين من الأجر، وأنه لا يقدر قدر كبره وعظمته إلا من وصفه بقوله: ﴿كَبِيرًا﴾، وهو الكبير المتعال.

١١- الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لبشارة القرآن لمن جمعوا بينهما.

١٢- تهديد القرآن الكافرين بالآخرة بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٣- إثبات الدار الآخرة، ووجوب الإيمان بها وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال بالجنة أو النار، وأن ذلك من أهم أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣ من حديث أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

١٤- أن النار مهيأة معدة الآن بما فيها من العذاب والأنكال للكفار؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: هيأناه لهم في النار.

١٥- شدة عذاب الكفار في النار؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلمًا موجعًا حسِّيًا للأبدان، ومعنويًا للقلوب.

١٦- دعاء الإنسان لجهله أحيانًا، وبخاصة عند الغضب، على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، واستعجاله ذلك، كما يدعو بالخير؛ بسبب عجلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

١٧- يجب الحذر من أن يدعو الإنسان على نفسه أو ولده أو ماله ونحو ذلك بالشر، فقد يوافق ذلك من الله ساعة إجابة- كما جاء في الحديث[1]، فيندم حين لا ينفع الندم.

١٨- لا لوم على الإنسان في دعائه لنفسه بالخير، بل ذلك أمر مشروع، واجب أو مندوب أو مباح؛ لمفهوم قوله: ﴿بِٱلشَّرِّ﴾.

١٩- أن الإنسان خلق من عجل، وطبع على العجلة، يستعجل الأمور قبل أوانها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بخلق الليل والنهار، وآيتيهما الشمس والقمر، وجعلها من أعظم آياته الدالة على كمال قدرته وعنايته بخلقه، وتمام نعمته، وواسع رحمته، ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ﴾.

٢١- حكمة الله تعالى، وتمام نعمته، وواسع رحمته، في محو آية الليل وهي القمر؛ ليكون الليل مظلمًا ساكنًا وقتًا، وجعل آية النهار، وهي الشمس، مبصرة مضيئة؛ ليكون النهار وقتًا للسعي، وطلب الرزق، والتصرف في الأعمال، والمعايش والأسفار والتجارات، ولمعرفة عدد السنين والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾.

٢٢- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٤- أن الفضل والرزق والزيادة والخير كله من ربنا عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- أن من حكمة الله تعالى في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر معرفة حساب الأيام والشهور والسنين، مما تعرف به أوقات العبادات من الصلوات والصوم والحج، ومعرفة أوقات الحروث والزروع، ومعرفة أوقات آجال الديون وحلولها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

٢٦- مشروعية طلب الرزق والفضل من الله، والسعي في أسباب ذلك، ومشروعية معرفة حساب الأيام والشهور والأعوام؛ لمعرفة أوقات الصلوات والصيام والحج، ومواقيت الحروث والزروع، وآجال الديون وحلولها وغير ذلك.

٢٧- تفصيل الله عز وجل وبيانه كل شيء، وكل ما يحتاج إليه الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

٢٨- أن ما كتب على الإنسان وقدر له ملازم له لا محيد له عنه، وما عمله من خير أو شر محفوظ محاسب عليه مجازى به؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

٢٩- إثبات كتابة الأعمال وتطاير الصحف وإيتاء كل إنسان كتاب أعماله يقرؤه منشورًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

٣٠- إلزام كل إنسان بقراءة كتابه، ليكون حسيبًا على نفسه؛ ليعلم أنه لم يظلم مثقال ذرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

٣١- كمال عدله عز وجل في محاسبة الخلائق؛ حيث جعل عز وجل الإنسان في ذلك اليوم على نفسه حسيبًا.

٣٢- أن في إيتاء كل إنسان كتاب أعماله وأمره بقراءته ومحاسبته لنفسه تهنئةً للمؤمنين وتكريمًا لهم، وتبكيتًا للكافرين وتوبيخًا لهم.

٣٣- أن من اهتدى بهدي القرآن وسلك سبيل الهدى فنفْع اهتدائه يعود لنفسه، لا لغيره، ومن ضلّ عن الهدى وسلك سبيل الردى فضرر ضلاله يعود على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

٣٤- أنه لا يحمل أحد ذنب أحد غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، لكن من سنّ سنة سيئة أو دعا إلى ضلالة فإن عليه مع وزره مثل أوزار من دعاهم من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا؛ لأنه هو سبب ضلالهم.

٣٥- في مجازاة كل إنسان بعمله خاصة، من هداية أو ضلال، وعدم أخذ أحد بجريرة غيره، تأكيد لكمال عدله عز وجل.

٣٦- أن الله لا يعذب أحدًا من الخلق إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وبلوغ الدعوة إليهم، وتكذيبهم وكفرهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وهذا من تمام عدله عز وجل.

أما من لم تبلغهم الدعوة، كأهل الفترة وأولاد المشركين ونحوهم، فقد ثبت أنه ﷺ سئل عن أولاد وذراري المشركين فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»(١).

ولهذا توقف بعض أهل العلم في حكمهم، وذهب أكثرهم إلى أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. وهذا أظهر الأقوال وأشهرها.

٣٧- أن الله عز وجل إذا أراد كونًا إهلاك قرية من القرى المكذبة للرسل، أمر مترفيها أمرًا قدريًا وسلطهم تسليطًا كونيًا بالفسق فيها، بالكفر والمكر والفجور والمعاصي، فحق عليها القول بالعذاب فأهلكها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

٣٨- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى التي هي بمعنى المشيئة.

٣٩- التهديد والوعيد لمشركي قريش إن استمروا على الفسوق والمكر والفجور والعصيان بإهلاكهم واستئصالهم.

٤٠- إثبات الأسباب، وأن لكل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الآية.

٤١- ينبغي البعد عن الترف؛ لأنه سبب للفسق والخروج عن طاعة الله تعالى،

---

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٧، ومسلم في القدر ٢٦٦٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري أيضًا في الجنائز ١٣٨٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويجب الحذر كل الحذر من الفسق؛ لأنه سبب للهلاك.

٤٢- أن من حقت ووجبت عليه كلمة العذاب والهلاك فلا محيد له عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

٤٣- عظم آثار الفسق والذنوب والمعاصي، فهي سبب لهلاك الحرث والنسل، والبلاد والعباد، تذر الديار بلاقع.

٤٤- شدة عقاب الله تعالى وأخذه للقرى الظالمة، واستئصاله إياها.

٤٥- إخباره عز وجل بإهلاكه كثيرًا من القرون والأمم المكذبة من بعد نوح؛ تحذيرًا للمكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك القرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾.

٤٦- إثبات رسالة نوح عليه السلام، وأن الإهلاك للقرون إنما كان بعد نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾؛ لأن التكذيب للرسل إنما حصل بعد نوح عليه السلام.

٤٧- كفى بالله تعالى وحسبه بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا، يحصيها عليهم، ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

٤٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة ضميره إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾.

٤٩- وعيد وتهديد المكذبين له ﷺ، وتسليته وطمأنته بكفاية الله تعالى له.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ «من» شرطية، أي: من كان من الناس يريد بعمله وسعيه ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾، أي: الحياة الدنيا الحاضرة الزائلة، وزينتها الفانية؛ من المكاثرة بالأموال والأولاد، وتولي المناصب والرياسات، والتفنن في المأكولات والمشروبات، والتباهي بالمنازل والمراكب والممتلكات، والتعصب للديار والبلدان والعائلة والقبيلة وغير ذلك.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾، أي: عجلنا له في هذه الدنيا العاجلة، أي: أعطيناه فيها ﴿مَا نَشَآءُ﴾، أي: الذي نشاء تعجيله له، فلا يحصل له فيها إلا ما شئنا تعجيله له فيها، لا كل ما أراده فيها.

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل بعض من قوله: ﴿لَهُۥ﴾، أي: للذي نريد التعجيل له، ممن أرادوا العاجلة، أي: فليس كل مريد للعاجلة يعجل له فيها ما يريده، وإنما ذلك حسب إرادتنا؛ فمن أردنا التعجيل له عجلنا له، ومن أردنا عدم التعجيل له لم نعجل له.

وقوله تعالى في سورة هود: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الآية: ١٥] مقيد بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ في الدار الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾، أي: النار؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة، ولم يعمل لها.

﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها ويقاسي حرها، وتغمره من جميع جوانبه.

﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ حالان، أي: حال كونه مذمومًا ملومًا عند الله وعند الخلق على إرادته الدنيا العاجلة، وتقديمها على الآخرة، واختيار الفاني على الباقي.

﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا عن رحمة الله تعالى وجنته، وعن كل خير، حقيرًا ذليلًا مهانًا، كما قال تعالى لإبليس لما طرده من الجنة: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

فمن كان أكبر همه ومبلغ علمه إرادة الدنيا العاجلة الفانية الحقيرة وزينتها، أعطاه الله ما كتب له منها، ثم مآله إلى نار جهنم، ليس له في الآخرة سواها، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥- ١٦].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي: ومن قصد الدار الآخرة بعمله وسعيه، وما فيها من الحياة الكريمة، والسرور والنعيم المقيم في جنات النعيم.

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، أي: وعمل لها عملها الصالح الخالص لوجه الله، الموافق للشرع.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو حالية، أي: والحال أنه مؤمن، أي: مصدق بقلبه باطنًا بأركان الإيمان، وكل ما أوجب الله الإيمان به، وهذا كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والإشارة إلى «من» باعتبار معناها، أي: فأولئك الذين أرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها وهم مؤمنون. وأشار إليهم بإشارة البعيد إعلاءً لشأنهم، ورفعةً لمنزلتهم، وتنويهًا بهم.

﴿مَّشْكُورًا﴾، أي: مقبولًا، مضاعفًا، منمًّى، مُدخرًا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

فلابد لمن رام السلامة وأراد النجاة لنفسه من النية الصالحة بإرادة رضا الله تعالى، والدار الآخرة، والتزود لذلك من يومه- ما دام ممكنًا- بالعمل الصالح الخالص لله الموافق لشرعه، مع الإيمان بالقلب الذي لا يقبل الله عملًا بدونه؛ لأن سلعة الله غالية،

كما قال ﷺ: «**ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

قال ابن القيم(٢):

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنتِ غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... بالألف إلا واحد لا اثنان

ويجب الحذر من الاغترار بالدنيا، والأماني الباطلة، فالكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، فالسفر طويل، والعقبة كؤود.

وما أكثر من اغتر من الخلق بهذه الدنيا وخرجوا منها وهم مفلسون، بلا زاد، بل وهم مثقلون بالأوزار، زعموا أنهم يحسنون الظن بالله، وكذبوا؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، وما حال هؤلاء إلا كما قيل:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس(٣)

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

لما بين عز وجل في الآيتين السابقتين أنه يعطي مريد الدنيا ما قدر له منها، مع ما له من العذاب في الآخرة لإعراضه عنها وعدم العمل لها، وأن من أراد الآخرة وعمل لها فسعيهم مشكور مدخر لهم أجرهم عنده، أتبع ذلك ببيان أنه سبحانه يمد كلًّا من الفريقين من عطاء الدنيا، فلا يحظر عطاءه عن أحد لإرادته الدنيا، أو يعطيه لآخر لإرادته الآخرة؛ لأن الشأن كل الشأن في عطاء الدين وعطاء الآخرة، فذلك لا يناله إلا من أراد الآخرة وعمل لها.

قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾ ﴿كُلًّا﴾ منصوب على الاشتغال، أي: نمد كلًّا من

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠- وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في «النونية» ص٣٥٤.

(٣) البيت في «ديوان عبدالله بن المبارك» ص٢٦، وينسب لأبي العتاهية. انظر: «الأغاني» ٤/ ١١٢، «زهر الآداب» ٣/ ٨٧١، «مجاني الآداب» ٢/ ١٤.

الفريقين، أي: نزيدهم من العطاء ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: الذين أرادوا الدنيا، والذين أرادوا الآخرة.

﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾، أي: من رزق ربك يا محمد وفضله الدنيوي، فلا يمنع عطاءه عن أحد لكونه أراد الدنيا، ولا يعطيه لأحد لكونه أراد الآخرة.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي: وما كان رزق ربك وفضله ممنوعًا عن أحد من خلقه، فكلهم راتعون في فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وهذا لا يتنافى مع كون الإيمان والعمل الصالح سببًا للحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[النحل: ٩٧].

كما لا يتنافى مع أن العبد قد يحرم الرزق بسبب الذنب، كما قال ﷺ: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

لأن ذلك كله مقيد بما يشاؤه الله من الإمداد لمن يريده من العباد؛ لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الآية: ١٨].

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

لما بيّن عز وجل أنه يمد كلًّا من الفريقين من عطائه الدنيوي من غير حصر ذلك على أحد دون غيره، مع ما بينهم من التفاضل في ذلك، وجَّه للتأمل في ذلك التفاضل الدنيوي؛ للتنبيه على ما هو أعظم وأجل، وهو التفاضل الأخروي.

قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام مستعمل في التنبيه.

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾، أي: في الإمداد والعطاء في هذه الدنيا، فمنهم الغني، ومنهم الفقير، ومنهم القوي، ومنهم الضعيف، ومنهم الصحيح، ومنهم المريض، ومنهم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، وابن ماجه في المقدمة ٩٠- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

البصير، ومنهم الأعمى، ومنهم السميع، ومنهم الأصم، ومنهم من يرزق الزوج والذرية، ومنهم من يُحرم ذلك، ومنهم من يطول عمره، ومنهم من يقصر، ومنهم بين ذلك.

جل من قسم الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكي الديارا(١)

والغرض من هذا التنبيه لما هو أعظم وأهم، وهو اختلافهم في الآخرة في الدرجات والتفضيل؛ ولهذا قال:

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الواو: حالية، واللام: للتوكيد، والدرجات الرتب والمنازل. أي: وللدار الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا من درجات الدنيا وتفضيلها.

وشتان ما بين الدارين، فلا نسبة بينهما بوجه من الوجوه، فكم بين من هم في أعلى درجات الجنات في الغرف العاليات، يتنعمون بأنواع اللذات، وبين من هم في الجحيم يقاسون أشد العذاب في أسفل الدركات.

وكم بين أهل الجنة فيما هم فيه من النعيم من تفاضل في المنازل والدرجات.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهما**»(٢).

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»(٣).

وكم بين أهل الجحيم من التفاوت في شدة العذاب والدركات، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا**»(٤).

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان ٢١٣.

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس إلى قسمين: مريد للدنيا، ومريد للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الآيتين، ومجازاة الله تعالى لكل منهم بما يستحق.

٢- أن من أراد الدنيا أعطاه الله منها ما شاءه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾.

٣- إنما الأعمال بالنيات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى والإرادة الكونية وهما بمعنى واحد؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

٥- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على الفعل كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿أَرَادَ﴾.

٦- ليس كل مريد للدنيا يعطى منها، بل ذلك حسب إرادة الله عز وجل وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾.

٧- التقليل من شأن الدنيا، وسرعة زوالها؛ لوصفها بـ«العاجلة». قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له»(١).

٨- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن أراد الدنيا فقط، وجعلها أكبر همه، ومبلغ علمه؛ والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

٩- الجمع لمن قصر إرادته على الدنيا بين العذاب الحسي بإصلائه جهنم، وبين العذاب المعنوي بالذم والعيب والتنقص له، وتخلي الناصر عنه، فهو مذموم مخذول، لا محمود ولا منصور.

١٠- أن من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فسعيه مشكور، وأجره مضاعف موفور؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٧١ من حديث عائشة رضي الله عنها.

فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾.

١١- لابد أن يكون السعي للآخرة خالصًا لله تعالى، موافقًا للشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾.

١٢- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء.

١٣- أن الإيمان شرط لصحة الأعمال وقبولها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾.

١٤- التنويه بشأن من أرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها مع الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ بإشارة البعيد.

١٥- فضل الله تعالى على عباده المؤمنين بالإثابة على العمل القليل بالأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾، أي: مقبولًا مضاعفًا لهم أجرهم؛ لأن معنى الشكر في حقه عز وجل أنه يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل.

١٦- أن الدنيا والآخرة ضرتان، فمن مال لأحدهما أضر بالأخرى، مما يوجب الحذر كل الحذر من فتنة الدنيا وغرورها، والانشغال بها عن الاستعداد للآخرة التي هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقد ذمها الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه، وبيّن أنها متاع قليل، ومتاع غرور، وحذر منها ومن الاغترار بها، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: ٣٣].

وبيّن المصطفى ﷺ حقارتها، فقال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»(١).

وقال ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا،**

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب.

كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»(١).

١٧- إمداد الله تعالى من فضله بالعطاء والرزق للفريقين: من يريد الدنيا، ومن يريد الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾، وقد يستدل بهذا على الربوبية العامة بحمل الخطاب على كل من يصلح له.

١٩- أن عطاء الله تعالى ورزقه ليس ممنوعًا عن أحد من خلقه، بل كلهم راتعون في فضله وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

٢٠- أن الإمداد والعطاء والرزق كله من الله تعالى وحده، فهو الرازق ذو الفضل العظيم.

٢١- الحث على النظر والتأمل في التفضيل بين الناس في العطاء والرزق في الدنيا، والتفكر في حكمة الله تعالى في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٢٢- في الأمر بالنظر في تفضيله عز وجل الناس بعضهم على بعض في العطاء في الدنيا تنبيه لما هو أعظم وأهم، وهو التفاضل بينهم في الآخرة حسب أعمالهم؛ ليكون ذلك باعثًا على التنافس في العمل الصالح.

٢٣- عظم التفاوت بين الناس في الدرجات والتفضيل في الآخرة، وأن ذلك لا يقاس به تفاوتهم في العطاء في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، فشتان بين من هم في الجنان في أعلى عليين، وبين من هم في النيران في أسفل سافلين، وما أعظم التفاوت بين أهل الجنة في المنازل والدرجات، ويا بعد ما بين أهل النار من السفول والدركات.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجة في الفتن ٣٩٩٧- من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ﴿لَّا﴾ ناهية، والخطاب لكل من يصلح خطابه من الأمة، أي: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا.

أي: لا تعبد مع الله معبودًا آخر غيره، بل أخلص العبادة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

و«الإله» يطلق على المعبود بحق وهو الله- عز وجل- ويطلق على المعبود بغير حق، كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥].

﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي: فتصير بسبب ذلك.

﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ حالان، أي: حال كونك مذمومًا مخذولًا، والمذموم: المذكور بالسوء والعيب، والمخذول: الذي أسلمه ناصره وتخلى عنه.

أي: فتقعد مذمومًا على شركك عند الله عز وجل؛ لأن الله- عز وجل- ذم الشرك وأهله وحرّمه وحذر منه في جميع الشرائع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ومذمومًا أيضًا عند ذوي العقول من خلقه- عز وجل، كما قال إبراهيم- عليه السلام- لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات: ٩٥].

﴿مَّخْذُولًا﴾ أي: مخذولًا غاية الخذلان، تخلى الله عن نصرتك، ووكلك إلى من عبدته معه، وأسلمك وتخلى عنك من عبدته مع الله مما لا يغني عنك شيئًا، كما قال الخليل- عليه الصلاة والسلام- لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

فمن أشرك مع الله غيره فهو مذموم غاية الذم مخذول غاية الخذلان، لا ولي له ولا ناصر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الواو: استئنافية.

﴿وَقَضَىٰ﴾ أي: أمر وأوجب. وقضاء الله ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني بمعنى المشيئة والإرادة الكونية، لابد من وقوعه، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

والقسم الثاني: قضاء شرعي بمعنى الإرادة الشرعية، لابد أن يكون محبوبًا لله- عز وجل- ولا يلزم وقوعه، كما في هذه الآية.

ومثل القضاء في هذا التقسيم: الأمر، والحكم، والإذن، والكتب، فكل منها منه ما هو كوني، ومنه ما هو شرعي.

والخطاب في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية.

وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تكريم وتشريف له ﷺ، وهو أيضًا تكريم وتشريف لمن اتبعه من المؤمنين؛ لأن الخطاب له ولهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ «أن» يحتمل أن تكون مصدرية مجرورة بباء جر مقدرة، أي: بأن لا تعبدوا إلا إياه، و«لا» نافية، ويحتمل أن تكون «أن» مفسرة، لما في «قضى» من معنى القول، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، و«لا» على الحالين ناهية.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، أي: لا تعبدوا غيره.

ففي الآية نفي وإثبات؛ نفي العبادة عن غير الله، وإثباتها لله- عز وجل- وحده،

كما في كلمة وشهادة التوحيد: «لا إله إلا الله».

والمعنى: وأوجب ربك يا محمد أن لا تعبدوا أيها الناس إلا هو، أي: أوجب عبادته وحده لا شريك له.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع والاستكانة.

يقال: طريق معبد، أي مذلل ذللته الأقدام بالسير عليه، ويقال بعير مذلل، أي: ذُلل بالركوب عليه.

والعبادة في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة(١).

والعبادة تطلق على نفس العبادة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك وتطلق على فعل التعبد.

والعبادة بمعناها العام تتناول جميع الأحكام التكليفية الخمسة مع استصحاب النية، ففعل الواجب عبادة، وترك المحرم عبادة، وفعل المندوب عبادة، وترك المكروه عبادة، وفعل المباح عبادة.

فمن وفق لاستصحاب النية الصالحة فحياته كلها عبادة؛ حتى أكله وشربه ونومه ويقظته وترويحه عن نفسه، وغير ذلك، حتى جماعه لزوجته؛ كما قال ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»(٢).

ولهذا قال أهل العلم: «الموفقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات» فانتبه لهذا وفقك الله.

وعبادة الله تعالى وتوحيده أصل الشرائع كلها وهو حق الله- عز وجل- على الخلق، وأول الحقوق وأعظمها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(١).

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ معطوف على ما قبله، والباء في قول ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ للتعدية، وهو متعلق بـ﴿إِحْسَٰنًا﴾ وقدم عليه للاهتمام بالوالدين، و«ال» فيه للاستغراق باعتبار والدي كل مكلف ممن عمهم الخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾.

و﴿إِحْسَٰنًا﴾ مفعول مطلق، أي: وأحسنوا إحسانًا بالوالدين.

والمعنى: وأوجب أن تحسنوا إلى الوالدين قولًا، وفعلًا وبذلًا؛ بطاعتهما، وأداء حقوقهما الواجبة والمستحبة، والتلطف معهما، وإظهار الفرح والاغتباط عند الدخول عليهما، والدعاء لهما مقابل جميل معروفهما، وعظيم صنيعهما، وتقبيل رؤوسهما والصدق في محبتهما، وطلب رضاهما، والبر بهما.

و«الوالدين» يشمل الآباء والأجداد، والأمهات والجدات، وكل من كان منهم أقرب كان حقه أعظم وألزم.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ بيان لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: بيان وتفصيل للإحسان المأمور به في الآية.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «يبلغان» بألف مطولة بعد الغين وكسر النون على التثنية مع التشديد، وقرأ الباقون ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ بغير ألف وفتح النون على التوحيد.

و«إمّا» مركبة من «إن» الشرطية و«ما» التي للتوكيد، و﴿يَبْلُغَنَّ﴾ فعل الشرط والخطاب لكل ولد بمفرده، ذكرًا كان أو أنثى.

أي: إما يبلغن عندك أيها الولد الكبَر أحدُ والديك أو كلاهما، وبلوغ الكبر: الوصول إلى سن الكبر.

وخص هذه الحال- وإن كان برهما والإحسان إليهما واجب في كل حال بسبب

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)- من حديث معاذ- رضي الله عنه.

كبرهما وحاجتهما إلى مزيد من الإحسان والعطف عليهما، والعناية والتلطف بهما نظرًا لضعفهما، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وأيضًا فإن في هذه الحال يحتاج الولد إلى مجاهدة النفس أكثر لما فيها من مشقة القيام بشؤونهما، فلا يسأم من رعايتهما وخدمتهما، حتى ولو ساء خلقهما، ولا يستطيل حياتهما.

وقدم قوله ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على قوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إشارة- والله أعلم- إلى أن الغالب أن يموت أحد الوالدين إن لم يمت كلاهما قبل سن الكبر، وهذا هو الواقع، فقل أن يدرك الكبرُ الوالدين كليهما عند الولد.

وفي الآية من تحريك الشعور ما لا يخفى لمن وفقه الله، ويا غبطة من بلغ والداه الكبر عنده وسر بهما، وأحسن إليهما وخدمهما، وهذا أمر بعيد المنال.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ جواب الشرط «إن»، والفاء رابطة للجواب؛ لأنه جملة طلبية.

قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء من غير تنوين: «أُفَّ»، وقرأ نافع وأبوجعفر وحفص بكسر الفاء مع التنوين: ﴿أُفٍّ﴾، وقرأ الباقون بكسر الفاء من غير تنوين: «أُفِّ».

و«أُف» اسم فعل مضارع معناه أتضجر، وهذه الكلمة أدنى مراتب الأذى باللسان.

أي: لا تؤذهما بأي أذى مهما قل ولو كانت هذه الكلمة؛ لأنه إذا نهي عن هذه الكلمة فغيرها من الأذى بالقول والفعل مما هو أشد أولى بالنهي والتحريم.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يقال: نهره وانتهره إذا زجره بالكلام، أي: ولا تزجرهما. وقال عطاء بن أبي رباح: «أي: لا تنفض يدك على والديك»(١).

عن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال:**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٥٤٨).

يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»(١).

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لعن الله من لعن والديه**»(٢).

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: قولًا جميلًا حسنًا طيبًا لينًا لطيفًا، بأدب وتوقير، يُدخل السرور عليهما وتنشرح به صدورهما، ويغتبطان به.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تذلل وتواضع لهما بفعلك، وليِّن جانبك لهما رحمة بهما وعطفًا عليهما.

وإذا كان الشرع رغب بالرحمة مطلقًا فمَن أولى من الوالدين بالرحمة؟! قال ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله**»(٣).

وقال ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(٤).

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أي: وقل داعيًا سائلًا الله- عز وجل: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾.

أي: يا رب ارحمهما برحمتك التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ الكاف للتعليل، أي: مجازاة لهما لأجل تربيتهما لي ورحمتهما إياي حال كوني صغيرًا.

وفي هذا اعتراف من الولد بجميلهما، وشكر لهما، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

كما أن في الآية إيذانًا بأن الدعاء لهما مستجاب؛ لأن الله- عز وجل- أمر به، وقد

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، وأبوداود في الأدب (٥١٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٨).

(٣) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)- من حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٨)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، وأبوداود في الجنائز (٣١٢٥)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٨)- من حديث أسامة- رضي الله عنه.

قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

والبر بالوالدين والدعاء لهما من صفات الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام، كما قال عز وجل عن عيسى- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٣]، وقال عز وجل عن يحيى- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤]، وقال إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، وقال أيضًا- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦]. وقال نوح- عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨].

والدعاء بالرحمة إنما يجوز للوالدين المؤمنين دون من كان كافرًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي**»(٢).

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآيتين، السابقتين بعبادته وحده، وبالإحسان إلى الوالدين، ثم أتبع ذلك ببيان علمه- عز وجل- بما في النفوس، ومغفرته لمن كانوا صالحين، إذا

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٦٣١)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٨٠)، والنسائي في الوصايا (٣٢٥١)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٧٦)، وأبوداود في الجنائز (٣٢٣٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٤)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٦٩).

آبوا إليه، وفي هذا إشارة إلى أنه قد لا يسلم الإنسان من التقصير وبخاصة مع والديه فعليه التوبة والإنابة إلى الله- عز وجل.

قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: خالقكم ومالككم، والمتصرف فيكم ﴿أَعْلَمُ﴾ على وزن «أفعل» صيغة تفضيل، و«ما» موصولة، أي: أعلم منكم ومن كل أحد بالذي في نفوسكم وقلوبكم من المضمرات، من قصد البر أو العقوق أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بإخلاص العمل لله- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، فهذان شرطان لصلاح العمل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو متبع الرسول ﷺ.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ أي: فإن ربكم كان للأوابين غفورا.

و«الأوَّابين» جمع أوَّاب، مشتق من الأوب، وهو الرجوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: ٢٥]، أي: رجوعهم.

وكان ﷺ إذا رجع من سفر قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**»(٢).

وقال عبيد بن الأبرص(٣):

وكل ذي غيبة يؤوب ... وغائب الموت لا يؤوب

والمراد بـ«الأوابين» التائبون المنيبون إلى الله- عز وجل، الراجعون من معصيته إلى طاعته، قال تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٤)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨٦)، ومسلم في الحج- ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره (١٣٤٥)- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٣) انظر: ديوانه، ص(١٣).

وفي الحديث: «**صلاة الأوابين عندما ترمض الفصال**»(١).

﴿غَفُورًا﴾ أي: ذا مغفرة واسعة. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة، فهو عز وجل يستر ذنوب الأوابين التائبين ويتجاوز عنها، فلا يؤاخذهم عليها.

فمن قصد الصلاح والبر بوالديه فإن الله يغفر له ما فرط منه في حقهما إذا آب وأناب إلى الله، ورجع عن ذلك.

وقد عظم الله عز وجل حق الوالدين في مواضع عدة من كتابه العزيز؛ لأنهما السبب الظاهر- بعد الله- عز وجل- في وجود الولد في هذه الحياة، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكيد حقهما ووجوب البر بهما، ولهذا قرن الله- عز وجل- حقهما بحقه وأوصى بهما في عدة مواضع في كتابه العزيز، فقال تعالى في هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قال: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قال: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما**

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٤٨)- من حديث زيد بن أرقم- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، والنسائي في المواقيت (٦١٠)، والترمذي في الصلاة (١٧٣).

ثم لم يدخل الجنة»(١).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: «**فهل أحد من والديك حي**»؟ قال: نعم بل كلاهما. قال: «**فتبغي الأجر من الله**»؟ قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»(٢).

وعنه- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك**» قال: نعم: قال: «**ففيهما فجاهد**»(٣).

وعنه- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان، فقال: «**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»(٤).

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة قال أحدهم: «اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي يومًا طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج... الحديث»(٥).

وعن جاهمة السلمي- رضي الله عنه- أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك. فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم. فقال: «**الزمها فإن الجنة تحت رجليها**»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في البر- باب رغم أنف من أدرك أبويه (٢٥٥١)، وأحمد (٢/ ٢٤٦، ٢٥٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٤)، والنسائي في الجهاد (٣١٠٣)، والترمذي في الجهاد (١٦٧١).

(٤) أخرجه أبوداود في الجهاد (٢٥٢٨)، والنسائي في البيعة (٤١٦٣).

(٥) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)- من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٩)، والنسائي في الجهاد (٣١٠٤).

وقال ﷺ: «**لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**»(١).

ورُويَ أن ابن عمر- رضي الله عنهما- رأى رجلًا يطوف بالكعبة حاملًا أمه. فقال الرجل: هل أديت حقها؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «لا، ولا بزفرة من زفراتها»(٢).

وفي رواية: أن هذا الرجل كان يُنشد:

إني لها مطية لا تذعر ... إذا الركاب نفرت لا تنفر
ما حملت وأرضعتني أكثر ... الله ربي ذو الجلال أكبر(٣)

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مالًا ووالدًا، وإن والدي يحتاج مالي. قال: «**أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم**»(٤).

ورُوي من حديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- من حديث طويل: أن النبي ﷺ قال للرجل: «**ائتني بأبيك**»، فلما جاء سأله النبي ﷺ: «**ماذا قلت في نفسك**»؟ فقال: لقد قلت في نفسي:

غذوتك مولودًا وعلتك يافعًا ... تُعلّ بما أسدي إليك وتنهل
إذا ليلة ضامك السقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرًا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالأذى ... طُرقت به وحدي وعيني تهمل
تخاف الردى عيني عليك وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أُؤمِّل

---

(١) أخرجه مسلم في العتق (١٥١٠)، وأبوداود في الأدب (٥١٣٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٥٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٦٤).

(٣) انظر: «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٣١٨)، «المحاسن والمساوئ» للبيهقي (١/ ٢٣٥).

(٤) أخرجه أبوداود في التجارات (٣٥٣٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩، ٢٠٤، ٢١٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٨).

وقد أخرجه كثير من الأئمة من حديث جابر وعائشة وابن عمر- رضي الله عنهم وصححه جمع من أهل العلم ومنهم من حسنه وقد تقدم ذكر ذلك مستوفى في تفسير قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [الآية: ٤].

جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... عليّ بمال دون مالك تبخل

فأمسك النبي ﷺ بتلابيب ابنه، وقال: «**أنت ومالك لأبيك**»(١).

وجاء في بعض الروايات أنه لما جاء الأب وكان شيخًا كبيرًا يتوكأ على عصا، سأله النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه كان ضعيفًا وأنا قوي، وفقيرًا وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليَّ بماله، ثم التفت إلى ابنه منشدًا- وذكر الأبيات- فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «**ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى**» ثم قال للولد: «**أنت ومالك لأبيك**».

وعن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدالله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير، فقال عبدالله: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه**»(٢).

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه- قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما،**

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٧٠)، وفي «الصغير» (٩٤٧) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٤٥، ٢٤٦).

وهذه الرواية بذكر الشعر ضعَّفها بعض أهل العلم. أما بقية الحديث فقد أخرجه أ هل السنن وغيرهم من حديث جابر- رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» كما رواه بعضهم من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده، ومن حديث ابن عمر- رضي الله عنهم. وقد سبق تخريجه مستوفى في تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [الآية:٤].

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٢)، وأبوداود في الأدب (٥١٤٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٣).

وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»(١).

وعن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلقها، فأبيت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**يا عبدالله، طلق امرأتك**»(٢).

بل إن الشرع أمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة(٣)، أفأصلها؟ قال: «**نعم صلي أمك**»(٤).

والأحاديث في بيان عظم حق الوالدين تجل عن الحصر، وحق الأم أعظم من حق الأب، لما لاقته من ثقل وآلام وأخطار الحمل والولادة، ومعاناة الإرضاع والتربية والرعاية والعناية؛ ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(٥).

قال الشاعر:

لأمك حق لو علمت كثيرُ ... كثيرك يا هذا لديه يسيرُ
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي ... لها من جواها أنّة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة ... فمن غصص منها الفؤاد يطير

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٣٨)، والترمذي في الطلاق (١١٨٩)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٨٨).

(٣) أي: مشركة.

(٤) أخرجه البخاري في الهبة للمشركين (٢٦٢٠)، ومسلم في الزكاة- فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٦٨)، وأحمد (٦/ ٣٤٤، ٣٤٧).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٤٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وكم غسلت عنك الأذى بيمينها ... وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها ... حنانًا وإشفاقًا وأنت صغير
فآها لذي عقل ويتَّبع الهوى ... وآهًا لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها ... فأنت لما تدعو إليه فقير(١)

ومن الطريف في هذا ما ذكر أنه جاء إلى سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله رجل وقال له: يا شيخ، أنا بار بوالديَّ كل البر، وأنا أقوم بخدمتهما معًا، ومن ذلك أنني أُقدِّم لهما القهوة فبأيهما أبدأ؟ فقال له الشيخ: استمر على ما كنت عليه، فقال له: يا شيخ، أنا أخاف من العقوق، وألحَّ على الشيخ في هذا ثلاث مرات، فقال له الشيخ في المرة الرابعة: ما دمت ملحًّا، فالأولى أن تبدأ بأمك، فذهب الرجل كعادته ليقدم القهوة لوالديه، وأعطى أمه الفنجان قبل أبيه، فإذا بأبيه يلطمه تلك اللطمة الشديدة ليعود إلى الشيخ فيخبره بما جرى.

ولا شك أن الحق أحق أن يتبع، لكن في مثل هذا الأمر اليسير ينبغي مراعاة العرف وعدم التشديد على النفس، واستعمال الحكمة، وبخاصة إذا أدى الأمر إلى مفسدة أكبر، رحم الله شيخنا ابن باز فقد أوتي الحكمة فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن اتخاذ إلهًا آخر وإشراكه مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهذا النهي عام لكل فرد من أفراد الأمة.

٢- وجوب إفراد الله- عز وجل بالعبادة، وإخلاصها له، وتحريم اتخاذ شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

٣- أن مصير وعاقبة من أشرك مع الله غيره الذم والخذلان؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فهو مذموم عند الله وعند الخلق، مآله النار، كما قال تعالى في الآية

(١) انظر: «الكبائر» للذهبي، ص(٤٨).

الأخرى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩].

٤- خذلان جميع المعبودات من دون الله- عز وجل- لعابديها؛ لأنها لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنهم من الله شيئًا.

٥- أن عبادة الله- عز وجل- وحده أول وأعظم حق على العباد؛ لأن الله بدأ بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

٦- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله- عز وجل- له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبية الله الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ وهو تشريف وتكريم له ولأتباعه؛ لأن الخطاب له ولهم.

٧- وجوب الإحسان إلى الوالدين، بأداء حقوقهم الواجبة واستحباب الإحسان إليهم بأنواع الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٨- عظم حق الوالدين والإحسان إليهما؛ لأن الله قرن حقهما بحقه- عز وجل- في هذه الآية وفي مواضع كثيرة من كتابه الكريم.

٩- تأكد حاجة الوالدين إلى الإحسان إليهما عند كبرهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية.

١٠- الإشارة إلى أنه قد يتوفى الوالدان قبل الكبر، وقد يبلغه أحدهما، وقلّ أن يبلغه كلاهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ففي هذا إشارة إلى قلة ذلك، وفي تقديم ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على ﴿كِلَاهُمَا﴾ إشارة إلى أن بلوغهما الكبر معًا أقل وأندر وفي هذا من تحريك مشاعر الولد ما يكفي- لمن وفقه الله.

١١- تحريم أذية الوالدين بأي نوع من الأذى مهما قلّ، قولًا كان أو فعلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وإذا حرم أن يقال لهما ﴿أُفٍّ﴾ فما فوق ذلك أولى بالتحريم.

١٢- وجوب معاملة الوالدين بالقول الكريم، الجميل الحسن الطيب اللين، والتلطف معهما وتوقيرهما واحترامهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

١٣- وجوب معاملة الوالدين بالفعل الطيب بخفض الجناح ولين الجانب

والتواضع لهما رحمة بهما وعطفًا عليهما، لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾.

١٤- الترغيب بالاتصاف بالرحمة وبخاصة مع الوالدين.

١٥- إبطال القول بوجود المجاز في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾، فالسياق يدل على أن المراد بخفض الجناح لهما: لين الجانب والتواضع والتذلل لهما، وليس ذلك من المجاز أو التشبيه في شيء(١).

١٦- أن من حق الوالدين على الولد أن يدعو ربه أن يرحمهما جزاء تربيتهما له حال صغره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

١٧- إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾.

١٨- ينبغي مكافأة الجميل بمثله، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

١٩- تحريم عقوق الوالدين والتقصير في حقوقهما والإساءة لهما؛ لمفهوم قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ الآيات.

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئًا. فقال: ألا وقول الزور» قال: فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت**»(٢).

وعن المغيرة بن شعبة قال: قال النبي ﷺ: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال**»(٣).

وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر**»(٤).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»(٢٠/ ٤٠٠، ٤٥٨، ٤٦٢- ٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض وأداء الديون (٢٤٠٨)، ومسلم في الأقضية (٥٩٣).

(٤) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٦٧٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**»(١).

٢٠- علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه النفوس والقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾، وفي هذا وعد ووعيد.

٢١- مغفرة الله- عز وجل- للأوابين التائبين ما قد يفرط منهم في حق الوالدين، أو غير ذلك، إذا صلح العمل وحسن القصد؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

٢٢- الترغيب في الصلاح بالإخلاص والمتابعة، وبالتوبة والرجوع إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

٢٣- سعة مغفرة الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾.

٢٤- في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾، إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الإحسان والبر بالوالدين خالصاً لله تعالى، وطلباً لرضاه في رضاهما؛ وذلك بكون الإحسان إليهما والبر بهما بمبادرة من الولد، وتلمُّسًا منه لحاجتهما- دون طلب منهما- وهذا غاية الإحسان والبر، بحيث يكون الولد فرحاً مغتبطاً متلذذاً بخدمتهما؛ رحمة بهما، وشفقة وعطفاً عليهما؛ مستبشراً بذلك رجاء موعود الله تعالى.

أما أن يكون الإحسان إليهما والبر بهما موقوفاً على طلب منهما فهذا دون الأول أضعافاً مضاعفة، وشتان بين الثرى والثريا:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان

فمبادرة الولد بنفسه للإحسان إلى والديه والبر بهما وقضاء حوائجهما، تُدخل عليهما من السرور والسعادة والاطمئنان وراحة النفس والبال والاغتباط بولدهما؛ ما لا يحيط به الوصف، بخلاف ما إذا كان الولد ينتظر بالإحسان إليهما وقضاء حوائجهما طلبهما منه ذلك؛ فإن هذا يشوبه أمور عدة؛ منها:

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٠٥)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٢).

أن الوالد لِما جُبل عليه من الشفقة على الولد والرحمة، قد لا يُبدي بعض حاجاته لولده رفقاً به وتخفيفاً عنه، ونحو ذلك.

ومنها: أن الولد قد لا يسلم من وجود بعض التبرُّم أوالاستثقال لطلب والده، وإن قام بذلك قام به على مضض «مكره أخاك لا بطل»، وهذا أقل أحواله: أنه يُخاف عليه ألا يؤجر على ذلك.

ومنها ما هو أشد وأعظم وأخطر، وهو: أن يمتنع من تلبية طلب والده مما هو في مقدوره، فيكون عاقًّا. فلا تسأل عن حاله ومآله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾، فقد أمر- عز وجل- في الآيات السابقة بعبادته وحده، وبالإحسان إلى الوالدين، بأداء حقوقهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بإيتاء ذي القربى حقه؛ لأن القرابة متشعبة عن الوالدين، وهو أشبه بعطف العام على الخاص.

والخطاب في قوله: ﴿ وَءَاتِ ﴾ للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه، و﴿ذَا ﴾ بمعنى صاحب، و«ال» في ﴿ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ للجنس، أي: وأعط القرابة حقهم الواجب والمسنون من البر والصلة والمواساة، والإحسان والإكرام، قولًا وفعلًا وبذلًا.

وقوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ولم يقل: «القريب»؛ ليصدق على كل ذي قرابة قريب أو بعيد- وإن كان القريب أولى.

وحق ذوي القربى من أعظم الحقوق فعن أبي أيوب- رضي الله عنه- أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال النبي ﷺ: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣)، والنسائي في الصلاة (٤٦٨).

فقرن ﷺ بين عبادة الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصلة الرحم.

وقد أثنى الله- عز وجل- على الواصلين، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: ٢١].

كما توعَّد- عز وجل- أهل القطيعة وذمَّهم فقال تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرعد: ٢٥].

وفي الحديث القدسي أنه لما خلق الله الخلق قامت الرحم وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال عز وجل: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك**»(١).

ولهذا قال ﷺ: «**الصدقة على ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول**»(٣).

وعن طارق المحاربي- رضي الله عنه- قال: «قدمنا المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «**يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»(٤).

وعن أنس- رضي الله عنه- أنه لما أراد أبوطلحة أن يتصدق بحائطه المسمى

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٨٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤).
(٤) أخرجه النسائي في الزكاة (٢٥٣٢).

«بيرحاء» قال له ﷺ: «**وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**» فقال أبوطلحة: «أفعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه**»(٢).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عليهم ويجهلون علي. فقال: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»(٣).

وفي حديث عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»(٤).

وعن جبير بن مطعم- رضي الله عنه- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قاطع**»(٥) يعني قاطع رحم.

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم**»(٦).

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ المحتاج الذي لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة؛

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨)، وأبوداود في الزكاة (١٦٨٩)، والنسائي في الأحباس (٣٦٠٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع- من أحب أن يبسط له في رزقه (٢٠٦٧)، ومسلم في البر والصلة- صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٣).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩١)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٩).

(٦) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٠٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢١١).

لأن الفقر أسكنه وأذله، فيعطى حقه من الزكاة الواجبة، ومن الصدقة المستحبة، وما يحتاجه من توجيه ورعاية أو مساعدة بدنية، أو غير ذلك مما تصلح به حاله.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر المنقطع به فيعطى حقه من الزكاة، والضيافة وما يحتاجه في سفره من الدلالة على الطريق وحمل متاعه وإنزاله، ونحو ذلك.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

﴿تَبْذِيرًا﴾ مصدر مؤكد للنهي، والتبذير: الإسراف وتفريق المال في غير وجهه، كالإنفاق في الفساد والمعاصي ولو كان قليلًا، والزيادة في الإنفاق بالمباح، أما الإنفاق في وجوه البر فيرى طائفة من أهل العلم أنه ليس فيه تبذير مهما بلغ، وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا إلى الصدقة فجاء عمر بنصف ماله، وجاء أبوبكر- رضي الله عنهما- بكل ماله(١).

لكن مجيء جملة: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ معترضة بين قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وبين قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ الآية. يدل على أن التبذير قد يكون في وجوه البر.

وقد قال ﷺ لسعد: «**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(٢).

ولا شك أنه لا ينبغي أن ينفق الإنسان ماله على وجه يضر به بحيث يصير هو ومن تحت كفالته عالة على الآخرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾ الجملة تعليل للنهي المؤكَّد عن التبذير، و«ال» في ﴿ٱلْمُبَذِّرِينَ﴾ للجنس.

﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾ أي: أمثال وأشباه الشياطين في كفر نعمة الله، وأتباعهم على الباطل وقرناءهم في الشر وفي النار.

---

(١) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٤)، والنسائي (٣٦٢٦)، والترمذي في الوصايا (٢١١٦)- من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ أي: جحودًا لربه، منكرًا لنعمه، صارفًا لها بالكفر والإفساد وإضلال الناس، وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه عليهم.

والمراد بالربوبية في قوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ الربوبية العامة لجميع الخلق، وفيه إشعار بشدة عتو الشيطان وتمرده؛ لأن الربوبية تستوجب الشكر فمقابلتها بالكفر غاية الكفران ونهاية الضلالة والطغيان.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾.

أمر عز وجل بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل ونهى عن التبذير، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا لم يتمكن من الإحسان الفعلي لهم فلا يعدم الإحسان القولي.

قوله: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ الواو: للاستئناف، و«إن» شرطية و«ما» زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإن تعرضنَّ عنهم.

والخطاب في قوله: ﴿تُعۡرِضَنَّ﴾ للمخاطب بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الآية.

والضمير في قوله: ﴿عَنۡهُمُ﴾ يعود إلى من أُمر بإيتائهم حقوقهم، وهم ذوو القربى والمسكين وابن السبيل.

والإعراض: ضد الإقبال، مشتق من «العُرض» أي: الجانب، يقال: أعرض، إذا أعطى جانبه، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣].

أي: وإما تعرضنَّ عن المذكورين حياءً من الرد لعدم الجدة، ولم يصرح بذلك بل أقام مقامه. قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ تلطفًا كأن إعراضه عنهم لأجل السعي لهم لا بسبب الفقر.

﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ أي: طلب رحمة من ربك تؤمل أن ييسرها لك.

والمراد بالرحمة هنا الرزق، فالمعنى: طلب وانتظار رزق تؤمل أن يسوقه ربك إليك فتعطيهم منه.

وإطلاق الرحمة على الرزق أمر معلوم فتطلق الرحمة على المطر وهو من أعظم الرزق، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].

وقال- عز وجل- عن الجنة وهي أعظم الرزق: «**أنت الجنة رحمتي أرحم بك من**

أشاء»(١).

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: فلا تؤيسهم وقل لهم قولًا سهلًا لينًا طيبًا، فيه شيء من الاعتذار والوعد الحسن لهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

أي: فإذا لم يمكن الإحسان الفعلي إليهم لعدم الجدة، فلا يُعدم الإحسان القولي لهم بالقول الميسور الطيب، والاعتذار الجميل، والوعد الحسن جبرًا لخواطرهم، وكما قيل:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال(٢)

وقيل: المعنى: وإما تعرض عنهم فلا تعطيهم طلب رحمة من ربك في المنع عنهم خوفًا أن يصرفوه فيما لا ينبغي من التبذير والفساد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

نهى الله- عز وجل- في الآيات السابقة عن التبذير، ثم نهى في هذه الآية عن التقتير، مؤكدًا النهي عن التبذير؛ ليكون الإنفاق وسطًا بين التقتير والتبذير.

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي: ولا تكن شحيحًا مقترًا منوعًا للنفقة والحقوق الواجبة والمستحبة، فشبه الشحيح المقتر بما عليه من النفقات بمن غُلت يده، أي: شدت وربطت، بالغل وهو القيد إلى عنقه، فلا يستطيع أن يمدها أو يتصرف فيها، أو يعطي فيها شيئًا، وغل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها، وفي هذا ما فيه من التنفير من الشح والبخل.

وقد قال ﷺ: «**مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٤٨٦).

وتعفو أثره[١]**، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع**»[٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك**»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله- عز وجل: أَنفق أُنفق عليك**»[٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفا**»[٥].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[٦].

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح؛ أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[٧].

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ معطوف على ما قبله، وبين الجملتين طباق.

والبسط: المدّ، ضد «الغل» و«القبض»، أي: ولا تبسط يدك وتمدها في الإنفاق.

---

(١) أي: تمحو أثر مشيته وتطمسه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة- مثل المتصدق والبخيل (١٤٤٤، ومسلم في الزكاة- باب المنفق والبخيل (١٠٢١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٤٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة- هبة المرأة لغير زوجها (٢٥٩١١)، ومسلم في الزكاة- الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء (١٠٢٩)، وأبوداود في الزكاة (١٦٩٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٦٠).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٤)، ومسلم في الزكاة (٩٩٣).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٠).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩).

(٧) أخرجه أبوداود في الزكاة (١٦٩٨).

﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: غاية ونهاية البسط، أو البسط كله، فتبذر وتسرف، بل كن وسطًا بين الأمرين، كما قيل:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم(١)

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ الفاء: للسببية، و﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ حالان، أي: فتقعد بسبب جعل يدك مغلولة إلى عنقك، أو بسطها كل البسط: ملومًا محسورًا، والمراد بالقعود تحول الحال، أي: فتصير ملومًا محسورًا.

وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت وشححت بالمال ملومًا يلومك الناس، وبخاصة أصحاب الحقوق والحاجات من القرابة والفقراء وأبناء السبيل وغيرهم، ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير(٢):

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

وكما قيل: إن البخيل ملوم حيثما كانا.

وتقعد إن بذّرت وأسرفت ﴿مَّحْسُورًا﴾ و«محسور» على وزن «مفعول» بمعنى «فعيل». أي: وتقعد حسيرًا، والحسير: العاجز المنهوك القوى، يقال: بعير حسير، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٤].

والمعنى: فتصير حسيرًا لا شيء عندك تنفقه، حاسر اليد فارغها، نادمًا متحسرًا بسبب التبذير، عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عال من اقتصد**»(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

أمر عز وجل بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، ونهى عن التبذير والبخل، وفي ذلك أمر بالاعتدال بالإنفاق، ثم أخبر أنه يبسط الرزق لمن يشاء

---

(١) البيت لأبي سليمان الخطابي، كما في كتاب «العزلة» له (ص٩٧)، وفي «قرى الضيف» لابن أبي الدنيا (٤/ ٣٨٥).

(٢) انظر: «ديوانه» ص(٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧).

ويقدره على من يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، فلا يظن الممسك أن الشح مبق للمال، ولا يخشى المعتدل في الإنفاق العيلة، فالرزق على الله، ولا يأمن المبذر سوء عاقبة التبذير والفقر، ولا يجزع من ضيق عليه رزقه، فلله الحكمة في ذلك كله وهو الخبير البصير.

قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ ﴾ الخطاب لكل من يصلح خطابه.

و﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ويزيده، والرزق: العطاء.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: للذي يريد من عباده، والمشيئة: الإرادة الكونية.

﴿وَيَقْدِرُۚ﴾ أي: ويضيق الرزق على من يشاء، وكل ذلك لحكمة يعلمها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: إنه كان بعباده ذو خبرة تامة، يعلم ما بطن ودق وخفي منهم ومن أخبارهم و«الخبير» العليم بالأخبار.

﴿بَصِيرًا﴾ أي: ذو بصر واطلاع وعلم بهم، فيعلم ما ظهر وجلّ وجلي منهم ومن أحوالهم و«البصير» العليم بالمبصرات.

ولهذا فهو سبحانه أعلم بالأصلح والمناسب لكل منهم من بسط الرزق أو تقديره. وفي الحديث: «**إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه**»(١).

وبسط الرزق أو تضييقه ليس دليلًا على رضا الله عن العبد أو سخطه عليه.

عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه**»(٢).

وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه الطبراني وغيره- فيما ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣٣). وضعفه ابن رجب وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٩٤)- عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز- رحمه الله- في تعليقه على تفسير ابن كثير عند هذه الآية: «هذا من الآثار التي لا يعلم لها سند و معناه صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧).

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(١)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

نهى عز وجل في الآيات السابقة عن الشح والتبذير، وبيّن أنه المتكفل بأرزاق العباد يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ثم أتبع ذلك بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر مبينًا أن رزق الجميع على الله- عز وجل.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

الإملاق: الفقر والعيلة، أي: ولا تقتلوا أولادكم خوف الافتقار والعيلة.

وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم الذكور والإناث مخافة الفقر، كما قد يقتلون البنات أيضًا مخافة العار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]، فنهاهم الله عن ذلك وضمن لهم أرزاقهم فقال:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ الجملة تعليلية معترضة بين قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

وقد قدم هنا رزق الأولاد فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ لأن الإملاق متوقع فقط بينما قدم في سورة الأنعام رزق الأولياء، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وذلك لأن الإملاق واقع.

والرزق: العطاء، أي: نحن نعطيهم الرزق في الصغر والكبر، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ الآن بإغنائكم. وفي الآية إشارة إلى أن رزق الوالدين قد يكون بسبب الأولاد.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ جملة تعليل ثان للنهي و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان.

قرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها (خِطاءً)، وقرأ أبوجعفر وابن ذكوان عن ابن عامر بفتح الخاء والطاء من غير ألف ولا مد (خَطَأً) على وزن «نبأ»، وقرأ الباقون بكسر الخاء وإسكان الطاء ﴿خِطْـًٔا﴾.

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص ٥٧٧).

و«الخَطَأ» بفتح الخاء والطاء ضد العمد، وضد الصواب، وهو المراد هنا، و«الخِطْء» بكسر الخاء وسكون الطاء مصدر «خطئ» على وزن «فرح» إذا أصاب إثمًا متعمدًا، فالخِطْء: الإثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨]، وقال تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: ١٦].

والمعنى: إن قتلهم كان إثمًا كبيرًا من كبائر الذنوب، وذنبًا عظيمًا مجانبًا للصواب. عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» قلت: ثم أي: قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، فنهى عن قتل الأولاد، ثم أتبعه بالنهي عن الزنا؛ وكل منهما من أعظم الكبائر، وفيهما قطع للنسل.

والنهي عن قرب الزنا أبلغ من النهي عن الزنا مباشرة؛ لأن النهي عن قرب الزنا معناه النهي عن الزنا، وعن الوسائل المؤدية إليه وأسبابه ودواعيه، كالخلوة بالأجنبية والنظر المحرم، ونحو ذلك؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

و«الزنا» بالقصر، وبالمد «الزناء» والقصر أولى. وهو «غيبوبة حشفة الرجل في فرج امرأة لا تحل له».

أي: إتيان الرجل المرأة بطريق الحرام، كما قال ماعز- رضي الله عنه- لما سأله الرسول ﷺ: «أتعرف الزنا؟ قال: نعم، أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا»(٢).

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ تعليل للنهي، أي: لأنه كان فاحشة، أي: فعلة قبيحة متناهية القبح، وفي غاية الفحش، في الشرع والعقل والفطر السليمة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (٨٦)، وأبوداود في الطلاق (٢٣١٠)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٨٢).

(٢) أخرجه أبوداود في الحدود (٤٤٢٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

قال ابن القيم(١): فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان. عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم»(٢).

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقًا طريقه، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة. وقد قيل: «بشر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر ولو بعد حين».

وذلك لما فيه من ارتكاب ما حرّمه الله، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وإلحاق الضرر بالمرأة وأهلها وزوجها، والأمراض الخطيرة والمستعصية، وضياع المقاصد الشريفة للنكاح، إلى غير ذلك من المفاسد والأضرار العظيمة على الفرد والمجتمع في الدين والدنيا، وإذا كان الله- عز وجل- وصفه بأنه فاحشة وساء سبيلًا فلا يقدر قدر فحشه وقبحه وسوء مسلكه إلا هو- سبحانه وتعالى.

عن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: «إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: «**ادنه**» فدنا منه قريبًا، فقال: «**اجلس**» فجلس. قال: «**أتحبه لأمك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**». قال: «**أفتحبه لابنتك**»؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**». قال: «**أتحبه لأختك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**». قال: «**أتحبه لعمتك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: «**أفتحبه لخالتك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**» قال: فوضع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**». قال: فلم يكن ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٧٨- ٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار- القسامة في الجاهلية (٣٨٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٦- ٣٥٧).

قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، وهي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ﴾ والباء للسببية، أي: بسبب الحق، أي: إلا بسبب أن الحق أوجب قتلها.

ويجوز أن يكون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حالًا من فاعل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ﴾ أي: إلا حال كونكم متلبسين بالحق، ويجوز كونه نعتًا لمصدر محذوف، أي: إلا قتلًا متلبسًا بالحق.

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا إذا ارتكبت ما تستحق به القتل، كالقتل العمد، والزنا بعد الإحصان، والردة عن الإسلام، كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**»(١).

وقد شدد الشرع في حرمة الدماء والأنفس المعصومة؛ لأنها من الضروريات الخمس التي جاء الإسلام للحفاظ عليها وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال. وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم**»(٢).

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ معطوف على قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ﴾ و«من»: شرطية و﴿قُتِلَ﴾ فعل الشرط، و﴿مَظْلُومًا﴾ حال، أي: حال كونه مظلومًا، أي: بغير حق.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط. و«قد»: للتحقيق.

أي: فقد جعلنا شرعًا ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لولي المقتول ظلمًا، وهم عصبته وورثته.

﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسلطًا وحجة ظاهرة على القاتل في الاقتصاص منه إن شاء ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة (١٦٧٦)، وابوداود في الحدود (٤٣٥٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤).

(٢) أخرجه النسائي في تحريم (٣٩٨٦)، والترمذي في الديات (١٣٩٥) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

وإن شاء عفا عنه إلى الدية، وإن شاء عفا عن القصاص والدية، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال ﷺ: «**ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يُفدى، وإما أن يقتل**»(١).

فالحق في القصاص للولي لكن ذلك منوط بالسلطان، فلا يتولى الولي بنفسه قتل القاتل دون حكم السلطان درءًا للفتنة والتقاتل.

﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «فلا تسرف» وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿فَلَا يُسۡرِف﴾.

والإسراف: تجاوز الحد المباح، أي: فلا يتجاوز الولي في القصاص الحد المباح له وهو قتل القاتل قصاصًا، فلا يمثل به، أو يقتله ويقتل غيره، أو يقتل غيره.

كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا لم يتمكنوا من قتل القاتل قتلوا غيره من قبيلته. وكانوا يقتلون بالأنثى ذكرًا وبالرجل رجلين.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ تعليل للنهي السابق. والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى الولي، أي: فلا يسرف في القتل؛ لأنه كان منصورًا معانًا شرعًا على القاتل، وغالبًا قدرًا(٢)؛ لأن الحق له؛ ولهذا لا يُقتص من القاتل إلا بإذنه، فإن عفا سقط القصاص.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾.

قوله: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ ﴾.

نهى عز وجل عن قتل الأولاد وعن قرب الزنا وعن قتل النفس بغير حق، ثم أتبع ذلك بالنهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وكل هذه المنهيات من الكبائر العظيمة التي اتفقت الشرائع على تحريمها، من أحوال أهل الجاهلية.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١١٢)، ومسلم في الحج (١٣٥٥)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٢٤)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٧١).

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

﴿ٱلْيَتِيمِ﴾ من فقد أباه وهو دون البلوغ ذكرًا كان أو أنثى، فإذا بلغ زال يتمه، لقوله ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(١).

﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والمعنى: لا تقربوا مال اليتيم بحال من الأحوال إلا بالحال التي هي أحسن، وهي حفظه وصيانته والمتاجرة به لمصلحة اليتيم ونحو ذلك.

والنهي عن قرب مال اليتيم أبلغ من النهي عن أخذه وأكله، لأنه نهى عن ذلك وعن الأسباب المؤدية إليه.

فلا يجوز التصرف في مال اليتيم لمصلحة غيره، ولا تجوز المخاطرة به، كما لا يجوز أكله. قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى متوعدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وقال ﷺ: «**إني أُحَرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»(٢).

وقال ﷺ لأبي ذر- رضي الله عنه: «**يا أبا ذر، إنك إنسان ضعيف، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَولينَّ مال يتيم**»(٣).

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ غاية لجواز التصرف بمال اليتيم على الوجه الحسن.

أي: إلى غاية بلوغه أشده، ببلوغه النكاح، ورشده وحسن تصرفه بتدبير ماله، فتزول وترتفع عنه الولاية، ويصير ولي نفسه، ويدفع إليه ماله، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ﴾ [النساء: ٦].

---

(١) أخرجه أبوداود في الوصايا (٢٨٧٣)- من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه- وله شاهدان- من حديث جابر وأنس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٦٧٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥)، وأبوداود في الوصايا (٢٨٦٨)، وأحمد (٥/ ٧٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ﴾ «ال»: للجنس، أي: أوفوا بجميع العهود والعقود مما عاهدتم الله عليه، ومما عاهدتم عليه الخلق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، والوفاء بالعهد إتمامه وعدم نقضه وهو واجب؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ الجملة تعليلية، وأظهر في مقام الإضمار بإعادة لفظ «العهد» فلم يقل: «إنه كان مسؤولًا»، للاهتمام به، أي: إن العهد كان مطلوبًا الوفاء به، ومسؤولًا صاحبه عن نقضه إياه.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: وأتموا الكيل إذا كلتم للناس ولا تنقصوه وتبخسوه وتطففوه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٤، ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ١ - ٣].

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم: ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ بكسر القاف، وقرأ الباقون «القُسطاس» بضمها.

والقسطاس: اسم للميزان الحسي آلة الوزن، واسم للعدل المعنوي.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ السوي المعتدل بلا اعوجاج، ولا خديعة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الإشارة إلى الوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ أي: الوفاء بالكيل، والوزن بالعدل خير خيرية مطلقة لما يترتب على العدل من قيام أمور الدين والدنيا، وإعطاء الحقوق لأربابها، وانتظام الحياة

والمعاش، وحصول البركات وكثرة الخيرات.

كما أن نقص الكيل والوزن والظلم سبب لمحق البركات وقلة الخيرات، وظهور الفساد، قال ﷺ: «**ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان**»(١).

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن مآلًا وعاقبة في الآخرة؛ لما يترتب عليه من الثواب العظيم، والسلامة من مغبة البخس والجور والظلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ القفو: الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا تبعه مشتق من «القفا»، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد: ٢٧].

ومنه سُمى نبينا ﷺ «المُقَفِّي»(٢)؛ لأنه جاء آخر الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام، وسمي القافة؛ لأنهم يتتبعون الآثار، وسمي القائف لأنه يتبع أثر الشبه، وسميت قافية الشعر؛ لأنها تقفو البيت.

قال الكميت(٣):

فلا أرمي البريء بغير ذنب ... ولا أقفو الحواصن إن قُفينا

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة، أي: الذي ليس لك به علم.

قال قتادة: «لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله»(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)- من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣٥٥)، وأحمد (٥/ ٤٠٥)- من حديث حذيفة- رضي الله عنه.

(٣)انظر: «ديوانه» (ص٤٦٦).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٥٩٤).

والمعنى: لا تتبع ما لا علم لك به، فلا تقل ما لم تعلم، ولا تعمل بما لا تعلم.

ولا تتدخل فيما لا يعنيك، كما قال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(١).

وقال ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»(٢).

ويدخل في الآية دخولًا أوليًا شهادة الزور وقول الزور والزعم الباطل والقذف، وتحقيق الظن الكاذب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»(٣)، وقال ﷺ: «**أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تر**»(٤)، وقال ﷺ: «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٥).

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.

المراد بـ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ جارحة السمع والبصر، والفؤاد، وهو القلب. وأشير إليها بإشارة من يعقل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنزيلًا لها منزلة من يعقل، لأنها طريق العقل.

وأيضًا فإن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قد تستعمل لغير العاقل، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال الشاعر(٦):

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام

والمعنى: إن كل هذه الجوارح يسأل الإنسان عنها يوم القيامة. هل استعملها في

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الأشربة (٥٧١١)، والترمذي في صفة لقيامة (٢٥١٨)، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٤٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٣)- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٩٧٢) من حديث حذيفة أو أبي مسعود- رضي الله عنهما.

(٦) البيت لجرير، انظر: «ديوانه» ص(٤٥٢)، وانظر: «المقتضب» للمبرد (١/ ١٨٥)، «شرح شواهد الكافية» (٤/ ١٦٧). والبيت في ديوان جرير: والعيش بعد أولئك الأقوام وعلى هذا لا شاهد فيه.

طاعة الله- عز وجل- وما خلقت له، أو استعملها بضد ذلك.

فيسأل الإنسان عن سمعه، هل استمع به لنداء الحق ودعوته أم لا؟ ولماذا استمع به إلى اللغو والباطل وما لا يعنيه؟

قال ﷺ: «**من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يفرون منه صب في أذنيه الآنك يوم القيامة**»(١).

كما يسأل الإنسان عن بصره وهل أبصر به آيات الله الشرعية والكونية، أم لا؟

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ ﴾ [الروم: ٥٠].

ويسأل لماذا نظر به إلى ما حرمه الله عليه من عورات الناس، ومما يفسد العقائد والأخلاق، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

كما يسأل الإنسان عن فؤاده وقلبه يوم يُحَصَّل ما في الصدور، بل المسؤولية على القلب أعظم لأنه أمير الجوارح كما قال ﷺ: «**إلا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٢).

يسأل عن قلبه، وهل فكر فيه وتأمل في آيات الله الشرعية والكونية، أم لا؟ قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩].

ويسأل عن قلبه لماذا جعله تبعًا لهواه، وجعله مرتعًا لأمراض الكفر والشك والنفاق والحقد والحسد وسوء الظن، وقد قال الله- عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢)، وأبوداود في الأدب (٥٠٢٤)، والترمذي في اللباس (١٧٥١- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، أي: سليم بإخلاص العمل لله، وسليم من الحسد والحقد وغير ذلك على عباد الله.

وقد قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

وإنما خصت هذه الجوارح الثلاث بالذكر وهي السمع والبصر والفؤاد، لأنها أعظم الجوارح، وبقية الجوارح تبع لها، فالقلب عليه مدار صلاح الجسد وفساده، والسمع والبصر هما الطريقان المؤديان إليه الخير أو الشر.

ولهذا ذم الله- عز وجل- المنافقين والكفار، لعدم انتفاعهم بهذه الجوارح، قال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وكما أن الإنسان مسؤول عن هذه الجوارح فهي أيضًا مسؤولة عما عمل فيها، وكذا بقية الجوارح، قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه الوصايا والمنهيات الخمس عشرة من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى هنا بالنهي عن الاختيال والمشي في الأرض مرحًا، وهو أمر يتعلق بهيئة الإنسان، وما قبله يتعلق بأقواله وأفعاله.

قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾ ﴿مَرَحًا ۖ﴾ حال، أي: مختالًا معجبًا بنفسك متكبرًا.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ تهكم بهذا المرح المختال في مشيته، أي:

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ١١٣)، وانظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

إنك لن تخرق الأرض التي تحتك بوطء قدميك عليها مهما شددت، ولن تبلغ بتطاولك في مشيتك طول الجبال مهما تطاولت، فما الذي يغريك بهذه المشية؟ وما هذا الغرور؟

وفي هذا ذم وتحقير للمرح المختال المتكبر في مشيته، وتقليل من شأنه، أي: أين أنت من الأرض ذات العمق العظيم، وأين أنت من الجبال ذات الطول والشموخ، لست بشيء بالنسبة لذلك، فهوّن على نفسك، واعرف ضعفك.

ويكفي ذمًا للاختيال والكبر أنه صفة إبليس لعنه الله، حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: ١٢]، وأبى السجود لآدم وقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: ٦١].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، يغشاهم الذل**»(١).

وقال ﷺ: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(٢).

وقد أحسن القائل:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع(٣)

وقال الآخر:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ... فإن رفيع القوم من يتواضع(٤)

وقال الآخر:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعًا ... فكم تحتها قوم همُ منك أرفع
وإن كنت في عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم همُ منك أمنع(٥)

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيتان لموسى بن علي بن موسى الزرزاري، كما في «أعيان العصر وأعوان النصر» (٥/ ٤٧٩).

(٤) البيت بلا نسبة في «جواهر الأدب» (٢/ ٤٨٠).

(٥) البيتان للكريزي، كما في «روضة العقلاء» (ص٦١).

قال القاسمي[١]: «قال الناصر: ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينما أحدهم قد عرف مسألتين، أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفًا من رياسة الدنيا، إذ هو يتبختر في مشيه ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون. وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل والله ولي التوفيق».

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر وخلف ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ بضم الهمزة وهاء ضمير في آخره، وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتاء تأنيث منصوبة في آخره «سيئةً».

والإشارة ترجع إلى كل ما نهى الله عنه من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿مَكْرُوهًا﴾، وقدم عليه للاهتمام، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

والمعنى على القراءة الأولى ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على الإضافة: كل الذي ذكرنا من الأوامر والنواهي ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ أي: قبيحه، وهو مخالفة المأمور وارتكاب المنهي مكروهًا عند الله، يكرهه ويأباه ولا يرضاه.

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى: كل الذي نهينا عنه في هذه الآيات «سيئة» أي: فعلة قبيحة وعمل سيئ يسوء صاحبه في الحال والمآل، وقد يسوء غيره، ويكرهه الله ويأباه ولا يرضاه.

قال ابن القيم: «﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فذكر توحيده، وذكر المناهي التي نهاهم عنها، والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم الآية بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: مخالفة هذه الأوامر، وارتكاب هذه المناهي سيئة مكروهة لله»[٢].

---

(١) في «محاسن التأويل» (٦/ ٤٦١).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٧٧).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾.

ختم الله- عز وجل- ما ذكره من الوصايا في هذه الآيات بالإشارة إلى عظمة ذلك وامتدحه، وأنه مما أوحاه إلى نبيه ﷺ من الحكمة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق في الآيات من الوصايا وأشار إليه بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيمًا له. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة.

أي: ذلك من الذي أوحاه وأنزله إليك ربك من الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ وهي معرفة الحقائق على ما هي عليه، من بيان الخير والشر، والضار من النافع، والأمر بالخير والنهي عن الشر، والأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق، والنهي عن مساوئ الأعمال وأراذل الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا، فسلطه على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**»(٢).

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ تأكيد وتفسير، لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨).

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، ولقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، اهتمامًا بالتوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده.

أي: ولا تتخذ مع الله معبودًا آخر، أي: أخلص العبادة لله وحده، وهو نهي له ﷺ- ولأفراد أمته، قال ﷺ فيما حكى الله عنه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ١١].

وقال تعالى مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، وقال تعالى لما ذكر هدايته لأنبيائه ورسله ومن شاء من عباده: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨].

﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فترمى وتطرح في جهنم، والإلقاء: رمي الجسم من أعلى إلى أسفل، وهو يؤذن بالإهانة.

﴿مَلُومًا﴾ حال، أي: حال كونك ملومًا تلومك نفسك على الإشراك بالله، وإيقاعها في الهلاك والنار، ويلومك الناس والملائكة وغيرهم.

﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا عن رحمة الله وجنته، وعن كل خير.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إيتاء ذي القربى حقه ببره وصلته والإحسان إليه؛ قولًا وفعلًا وبذلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾.

٢- وجوب إيتاء المسكين حقه والعطف عليه ومساعدته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾.

٣- وجوب إعطاء ابن السبيل وهو المسافر حقه من الضيافة والمساعدة والدلالة وما يحتاجه في سفره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٤- أن الدين الإسلامي دين التكافل الاجتماعي بأسمى صوره ومعانيه.

٥- تحريم التبذير والإسراف بالإنفاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ وهذا يشمل الإنفاق في الفساد والمعصية وإن قل، كما يشمل تجاوز الحد في الإنفاق في المباح، بل ويشمل تجاوز الحد في الإنفاق في المندوب إذا أدى ذلك إلى احتياج الشخص إلى

الآخرين، وكونه عالة عليهم وما دون ذلك لا يعد تبذيرًا.

٦- تأكيد تحريم التبذير والتنفير منه بوصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين وأمثالهم وأتباعهم وقرناؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

٧- كفر الشيطان بربه- عز وجل- وبشرعه ونعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

٨- التحذير من اتباع الشيطان وخطواته، وأعوانه.

٩- إذا لم يستطع الإنسان الإحسان الفعلي لذي القربى والمسكين وابن السبيل بالبذل لهم بسبب فقره فلا يعدم الإحسان القولي بالاعتذار لهم بالقول الطيب، والوعد الحسن بإعطائهم إذا رزقه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

١٠- لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها وما آتاها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١١- ينبغي أن يكون المسلم راجيًا رحمة الله- تعالى، وأن يكون أوثق بما عند الله تعالى مما في يده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: رجاء أن يرزقك الله فتعطيهم.

١٢- لا رازق إلا الله- عز وجل- وحده، ولا راحم سواه.

١٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة بالمؤمن وتشريفه وتكريمه بخطاب الله له وإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، ويجوز حمل الخطاب على العموم فيستدل به أيضاً على إثبات الربوبية العامة، كما في قول: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

١٤- أن الإحسان كما يكون بالفعل يكون بالقول أيضًا، والأولى الجمع بينهما، فإن عدم الإحسان بالفعل فلا أقل من الإحسان بالقول.

١٥- ينبغي أن يكون الإنسان في نفقاته وسطًا فلا يبخل ويقتر، ولا يسرف ويبذر، وخير الأمور الوسط؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

١٦- التنفير الشديد من البخل، بوصف البخيل بمن غلت يده إلى عنقه فلا يستطيع لها حراكًا.

١٧- في وصف البخيل بمن غلت يده إلى عنقه، ووصف المسرف في الإنفاق بمن بسط يده كل البسط ما يدل على أن البخل أشد.

١٨- أن البخل والتقتير سبب للملامة من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾.

١٩- أن بسط اليد كل البسط في الإنفاق سبب للفقر والعوز والحسرة على ذهاب ما بيد الإنسان، حتى لا يجد ما ينفقه ولا على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّحْسُورًا﴾.

٢٠- أن الأرزاق كلها بيد الله- عز وجل- يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء- لحكمة يعلمها؛ لقوله- عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

٢١- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله- عز وجل: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

٢٢- إثبات كمال خبرة الله- عز وجل- وعلمه وبصره بعباده واطلاعه عليهم وعلى أحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

٢٣- أن الله- عز وجل- قسم الأرزاق بين عباده، فبسط رزق من شاء منهم، وضيق رزق من شاء؛ لخبرته التامة بهم، وبصره واطلاعه عليهم وعلى أحوالهم، وما يناسب ويصلح لكل منهم، مما يوجب الرضا بما قدره الله.

٢٤- تحريم قتل الأولاد مخافة الفقر، وأن ذلك خطأ ومن كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

٢٥- أن رزق الأولاد ووالديهم على الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ بل إن في الآية ما يشير إلى أن رزق الآباء قد يكون بسبب الأولاد أو تبعًا لرزق الأولاد.

٢٦- النهي عن قرب الزنا، وتحريمه والوسائل المؤدية إليه، كالخلوة بالأجنبية، والنظر المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾.

٢٧- شناعة الزنا وفحشه وشدة قبحه، وسوء سبيله ومسلكه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٢٨- تحريم قتل النفس التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، نفس المؤمن، ونفس الذمي والمعاهد والمستأمن، إلا بما يوجب قتلها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٩- إذا ارتكب ذو النفس المعصومة ما يوجب قتله زالت عصمته وحرمة دمه ووجب قتله، كالمرتد والزاني المحصن، والقاتل عمدًا ما لم يعف عنه ولي الدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بما يوجب قتلها.

٣٠- صيانة الإسلام للأنفس والدماء.

٣١- انتصار الشرع لولي من قُتل مظلومًا بتمكينه من القصاص من القاتل- إن شاء ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ وإن شاء العفو إلى الدية، أو العفو مطلقًا فله ذلك وهو أفضل.

٣٢- أن القتل بغير حق ظلم، بل هو من أعظم الظلم، وجمهور أهل العلم على أن القتل العمد أكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

٣٣- كمال عدل الإسلام وإنصافه للمقتول بالقصاص من قاتله، إذ لا عدل ولا إنصاف يفوق هذا.

٣٤- لا يجوز لولي المقتول الإسراف في القتل؛ كأن يمثل بالقاتل، أو يقتل غير القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾.

٣٥- تحريم قرب مال اليتيم والتصرف به إلا بما هو أحسن له وأصلح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٣٦- جواز التصرف بمال اليتيم بما هو أحسن له وفيه مصلحته؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بل قد يجب ذلك.

٣٧- إذا بلغ اليتيم أشده ورشده وجب رد ماله إليه، وجاز تصرفه فيه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

٣٨- وجوب الوفاء بالعهود والعقود مما بين العبد وبين ربه، وفيما بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾.

٣٩- أن الإنسان مسؤول يوم القيامة عما التزم به من عهود وعقود؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

٤٠- وجوب الوفاء بالكيل، والوزن بالعدل الحسي والمعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

٤١- أن الوفاء بالكيل والوزن بالعدل خير مطلقًا في الدين والدنيا، وأحسن مآلًا وعاقبة في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

٤٢- قيام الإسلام على الوفاء والعدل الحسي والمعنوي، والذي قامت عليه السموات والأرض، والكون كله بأمر الله- عز وجل.

٤٣- أن في الوفاء والعدل الخير كل الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وفي الغدر والخيانة والظلم الشر والشقاء والخسران والبوار في الدنيا والآخرة.

٤٤- النهي عن أن يقفو الإنسان ويتبع ما ليس له به علم بسمعه أو بصره أو قلبه، بقول أو فعل أو ظن، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٤٥- جواز الحكم بالقافة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأن القائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه، وهو أمر معلوم إلى حد كبير، ولهذا سُرَّ النبي ﷺ لما قال: «مجزِّز» وكان قائفًا لما نظر إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة وقد غطيت رؤوسهما وبدت أقدامهما: «إن هذه الأقدام بعضها من بعض»(١).

٤٦- مسؤولية الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده، وسؤال هذه الجوارح وغيرها

---

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٧٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٥٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٦٧)، والنسائي في الطلاق (٣٤٩٣)، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٩)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

عما عمل فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

٤٧- النهي عن الاختيال والمشي في الأرض مرحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

٤٨- تحقير المختال في مشيته المتكبر والتهكم به؛ لقوله- تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

٤٩- أن كل ما نهى الله- عز وجل- عنه في الآيات السابقة سيئ مكروه عند الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

٥٠- أن المعاصي والذنوب تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره؛ لهذا سميت سيئات.

٥١- أن الكراهة تطلق على ما يحرم فعله، ويجب اجتنابه؛ لقوله تعالى: ﴿مَكْرُوهًا﴾.

٥٢- تعظيم الله- عز وجل- وامتداحه ما أوحاه إلى رسوله ﷺ من الحكمة في هذه الآيات وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

٥٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله- عز وجل- له وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾.

٥٤- النهي عن اتخاذ معبود مع الله وتحريم ذلك، ووجوب إخلاص العبادة لله- عز وجل- وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٥٥- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن أشرك بالله بإلقائه وطرحه في النار ملومًا على شركه، مبعدًا عن رحمة الله وجنته وعن كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتهكم، والخطاب للمشركين المكذبين المفترين القائلين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

أي: أفخصّكم ربكم ونفّلكم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾، أي: بالذكور، فاختار لكم الصفوة من الأولاد.

﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾، أي: وجعل لنفسه واختار لها ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾، أي: بناتًا كما تزعمون؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ تقرير لمعنى الإنكار، وبيان وتأكيد له، فـ«إن» واللام للتوكيد، ﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق منصوب، وبينه وبين «تقولون» جناس اشتقاق، ﴿عَظِيمًا﴾ صفة له، وفي هذا أشد الإنكار عليهم، أي: إنكم لتقولون في نسبتكم الولد إلى الله عز وجل، وزعمكم أن ربكم أصفاكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثًا: ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾، أي: قولًا خطيرًا بلغ الغاية في عِظَمه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

وذلك لما في قولهم من الجرأة على الله تعالى من وجهين:

الأول: نسبة الولد إليه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهو سبحانه الأحد الفرد

الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

الوجه الثاني: أنهم مع بطلان قولهم لم ينصفوا في القسمة، فاختاروا البنين الذين يشتهون لأنفسهم، وجعلوا لله تعالى البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢١- ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾ [الصافات: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦﴾ [الزخرف: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩﴾ [الطور: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بإسكان الذال وضم الكاف مع تخفيفها: «ليذْكُروا»، وقرأ الباقون بفتح الذال والكاف وتشديدهما: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

والواو في قوله «ولقد»: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر؛ و«قد»: حرف تحقيق.

﴿صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: صرفنا الآيات في القرآن، وبيّنا الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله تعالى، ونوّعنا الأساليب والوعد والوعيد، وضربنا الأمثال والعبر، وبشرنا وأنذرنا بذكر عاقبة المؤمنين وعقوبات المكذبين في الدنيا والآخرة.

﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ اللام: للتعليل، أي لأجل أن يتذكروا، أي: يتعظوا ويعتبروا بما فيه من الآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعة، والمواعظ البليغة، فينزجروا عما هم عليه من الشرك والإفك والافتراء على الله، كما قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: وما يزيد هؤلاء المشركين المفترين ما جاءهم من تصريف القرآن والآيات ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: إلا نفورًا عن الحق وبعدًا عنه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن

كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الآية: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾، قرأ ابن كثير، وحفص بالغيب ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب: «كما تقولون».

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أو للناس عامة: لو كان مع الله آلهة وشركاء من خلقه كما تقولون، أو كما يقولون.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾، «إذًا»: حرف جواب، واللام: رابطة لجواب «لو»، أي: إذًا لابتغى أولئك الآلهة الذين يعبدونهم مع الله.

﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: إلى الله عز وجل، ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: صاحب العرش، وفي هذا تعظيم لنفسه عز وجل، وتعظيم لعرشه، أي: لابتغوا إلى العظيم، ذي العرش العظيم، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو العرش﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٤- ١٥].

﴿سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا يتقربون به إلى الله تعالى، ووسيلة يتوسلون بها إليه، وإلى مرضاته، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٧- ١٨].

أي: لو كان مع الله آلهة- كما يقولون ويزعمون- لطلب هؤلاء الآلهة إلى الله الوسيلة والقربة؛ لحاجتهم إليه، فكيف يعبدونهم من دونه ويتوسلون بهم، ويتركون عبادته وحده، مع حاجتهم مثلهم إليه عز وجل.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، أي: لسعوا وطلبوا إلى ذي العرش طريقًا لمغالبته، كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقد يقوي هذا التعبير بقوله: ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، ولم يقل: إلى الله، فكأنه يقول: لطلبوا إلى ذي العرش طريقًا للمغالبة، وأنّى لهم ذلك؟ فهو عز وجل مستوٍ على عرشه بائن من خلقه عالٍ عليهم.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو الطيب عن التمار عن رويس بالخطاب: «تقولون»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تنزه وتقدس وتعاظم.

﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: عما يقوله هؤلاء المشركون الظالمون وأمثالهم؛ من نسبة الولد له، وتخصيصه دونهم بالإناث، والزعم أن معه آلهة أخرى.

﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، ﴿عُلُوًّا﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، فهو اسم مصدر منصوب، ﴿كَبِيرًا﴾ صفة له، أي: تعاليًا كبيرًا عظيمًا.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو الطيب عن التمار عن رويس بالياء على التذكير: «يسبح»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تُسَبِّحُ﴾.

أي: تقدسه السموات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن من العوالم والمخلوقات؛ من الملائكة، والإنس، والجن، والحيوانات، والنبات، والجماد، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١، التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الحديد: ١]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الحشر: ١، الصف: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ

بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨- ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، أي: سبّحي.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، الواو: عاطفة، و«إن»: نافية، و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، و«شيء»: نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، و«إلا»: أداة حصر.

أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمده، أي: متلبسًا بحمده، أي: إلا يسبحه تسبيحًا مقرونًا بحمده عز وجل والثناء عليه. ففي التسبيح: التنزيه ونفي النقص، وفي الحمد: إثبات صفات الكمال؛ لأن معنى الحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي: ولكن لا تفقهون- أيها الناس- تسبيحهم، فكل المخلوقات تسبح الله تسبيحًا حقيقيًّا بالقول، وإن كنا لا نفقه تسبيحهم.

وقد قيل: إن المراد بتسبيح من في السموات والأرض والطير وجميع المخلوقات: انقيادها لأمر الله الكوني، ودلالتها على وجود الله وعظمته، وهذا خلاف ما دلّ عليه ظاهر الكتاب والسنة.

قال القرطبي(١): «فالصحيح أن الكل يسبح؛ للأخبار الدالة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي اختصاص لداود؟- يعني: في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[الأنبياء: ٧٩]، وما في معناها- وإنما ذلك تسبيح المقال».

وقال ابن تيمية: «والصواب أن لها تسبيحًا وسجودًا بحسبها»(٢).

وقد ردّ ابن القيم القول بأن المراد بالتسبيح دلالتها على صانعها من ثلاثين وجهًا(٣).

وقد ثبت في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٢٣٤.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى»، ١/ ٤٧.

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» ١/ ٢٢٦.

الطعام وهو يؤكل»(١).

ولاشك أن وجود هذه المخلوقات وانقيادها كونًا لأمر الله تعالى شهادة على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وكمال عظمته في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، لكن هذا أمر غير تسبيحها.

ويدل على هذا قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الآية: ١٨]، فهذا سجود حقيقي وإن كنا لا نعلم كيفيته، ولو كان المراد بالسجود دلالة هذه المخلوقات على وجود الله وانقيادها الكوني له لما استثنى منه كثيرًا من الناس في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾؛ لأن هؤلاء أيضًا دالون على وجود الله، ومنقادون لأمره الكوني كغيرهم من المخلوقات.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾، أي: ذا حلم واسع عظيم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله ولا يهمله.

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لذنوب عباده، يستر الذنب عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبته.

ومن واسع حلمه وسعة مغفرته أنه لم يعاجل من نسبوا له الولد، بل وجعلوا نصيبه الإناث، فقالوا: الملائكة بنات الله، وقالوا: معه آلهة أخرى، مع عظم هذا القول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم ٨٩- ٩١].

فلولا حلمه ومغفرته لعاجلهم بأشد العقاب، ولما ترك على ظهرها من دابة، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب- علامات النبوة ٣٥٧٩، والنسائي في الطهارة ٧٧، والترمذي في المناقب ٣٩٣٣.

مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤١- ٤٥].

فأمهلهم عز وجل ليتوبوا فيغفر لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

أو يغتروا بإمهاله فيكون ذلك استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢- ١٨٣، القلم: ٤٤- ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته**». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار الشديد على المشركين في قولهم الباطل وزعمهم الكاذب بنسبة الولد إلى الله تعالى، وأنه خصهم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُم﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣- تهديد المشركين ووعيدهم لجرأتهم على الله تعالى، وعظم قولهم وافترائهم على الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

٤- اصطفاء البنين على الإناث؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾.

وهذا من حيث العموم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ولا يقلل هذا من شأن الإناث فقد قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**».

ويكفي النساء فخرًا أن منهن أمهات المؤمنين، وفاطمة الزهراء، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وعددًا من الصحابيات الفاضلات، كأم سليم امرأة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنها، وغيرها.

وكم من امرأة خير من كثير من الرجال، وكم من زوجة هي أفضل من زوجها، وهكذا.

٥- إقامة الحجة على الناس في تصريف الآيات في القرآن، وبيان الحجج والبراهين، وتنويع الأساليب والمواعظ، والوعد والوعيد، وضرب الأمثال، والبشارة والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾.

٦- أن الحكمة من التصريف في القرآن: ليتذكر الناس، وبخاصة المكذبون المعاندون؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

٧- شدة عتو المشركين واستكبارهم وعنادهم وازديادهم بتصريف القرآن بعدًا عن الحق، ونفورًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

٨- أن من كتب الله عليه الضلال والشقاء فلا سبيل إلى هدايته وإسعاده.

٩- إبطال قول المشركين وزعمهم الكاذب أن مع الله آلهة أخرى، ببيان أنه لو كان معه آلهة- كما يقولون- لطلبوا إليه عز وجل طريقًا يتقربون بها إليه وإلى مرضاته؛ لحاجتهم إليه عز وجل، فكيف يعبدهم هؤلاء المشركون ويتركون عبادة الله تعالى

وحده؟! لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، ويحتمل أيضًا: لابتغوا إليه سبيلًا لمغالبته.

١٠- إثبات العرش، وإثبات استوائه عز وجل على عرشه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾.

١١- تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعاليه عما يقوله المشركون المفترون- من نسبة الولد له، وتخصيصه بالإناث دونهم، وقولهم: إن معه آلهة أخرى- تعاليًا كبيرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

١٢- إثبات تسبيح السموات السبع والأرضين السبع وجميع من فيهن من المخلوقات والعوالم؛ من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد وغير ذلك، لله عز وجل، تسبيحًا حقيقيًّا بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

١٣- أنه ما من شيء في الكون إلا يسبح الله عز وجل، متلبسًا بحمده، أي: قارنًا بين التسبيح والحمد، أي: بين تنزيه الله عز وجل عن النقص بالتسبيح، وإثبات كماله عز وجل بالحمد، وإن كنا لا نفقه تسبيحهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

١٤- وجوب التصديق بما أخبر الله عز وجل به في كتابه، أو أخبر به الرسول ﷺ في سنته الثابتة الصحيحة، وإن كنا لا ندرك ذلك.

١٥- إثبات وصف الحلم لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو الحلم الواسع، الذي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾.

١٦- أنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة، يستر ذنوب عباده ويتجاوز عنها؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾.

١٧- أن من أثر واسع حلمه ومغفرته أنه لم يعاجل هؤلاء المفترين الذين نسبوا له البنات والشركاء، مع عظم ما اقترفوه من القول العظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين المكذبين وغيرهم.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: صيّرنا بينك وبين هؤلاء المكذبين الذين لا يصدقون بالدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿حِجَابًا﴾، أي: حاجزًا و حائلًا ومانعًا، يمنعهم من رؤية الحق، ومن الوصول إليك بأذى.

﴿مَّسْتُورًا﴾، أي: مستورًا عن الأبصار فلا تراه.

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في تفسير سورة المسد، لما جاءت امرأة أبي لهب أم جميل تريد أذية النبي ﷺ هو وأبو بكر، فقرأ ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، فلم تره ﷺ الحديث(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، ١٠/ ٣٤٧٢. وأخرجه أبو يعلي الموصلي- فيما ذكره ابن كثير في

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أي: وصيرنا على قلوبهم وأفئدتهم- كونًا وقدرًا- أغطية.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ «أن»: تعليلية، أي: لئلا يفقهوه، أي: لئلا يفهموا القرآن ويعوه.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: وجعلنا في آذانهم وقرًا، أي: ثقلًا وصممًا، يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينتفعون ويهتدون به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥].

وهذه الثلاثة هي أسباب الحيلولة دون الحق، فالحجاب يمنع من رؤيته، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه، وهي الختم على القلوب والسمع، والغشاوة على الأبصار، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [الآية: ٧]، وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الآية: ٢٣].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا تلوت الآيات الدالة على وحدانيته، داعيًا لتوحيده في الإلهية، ناهيًا عن الشرك.

﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾، أي: رجعوا على أدبارهم، أي: أدبروا راجعين. وقوله: ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ للتشنيع عليهم.

«تفسيره» ٤/ ٧٦، وانظر: ٨/ ٥٣٦، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، تفسير سورة تبّت ٧/ ١٤٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿نُفُورًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: نفورًا عن ذكر الله، أو نافرين عن ذكر الله، أي: متولين بأبدانهم، معرضين بقلوبهم عن ذكر الله تعالى وتوحيده؛ لبغضهم لذكر الله وتوحيده ومحبتهم للشرك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

وهذه حال إخوانهم من الشياطين عند سماع ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ١- ٤]، أي: الذي إذا ذكر الله انخنس وهرب.

وقال ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط؛ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل، حتى إذا ثوّب بالصلاة أدبر.. الحديث»(١).

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

لما ذكر تولي المشركين على أدبارهم ونفورهم وإعراضهم عند ذكره ﷺ لربه في القرآن وحده، فضح حالهم حين استماعهم له، وأنه استماع تناجٍ بينهم؛ للسخرية والتنقص، لا للفائدة، فقال:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾، أي: نحن أعلم بالذي يستمعون به- يعني كفار قريش- إلى قراءتك، حيث كان نفر منهم: أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق الثقفي، وغيرهم، يأتون بالليل سرًّا يستمعون إلى قراءة النبي ﷺ وهو يصلي في بيته.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: حين يستمعون إليك، أي: إلى قراءتك.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ الواو: عاطفة، أي: وحين هم نجوى، و«نجوى»: مصدر، أو جمع

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٠٨، ومسلم في الصلاة ٣٨٩، وأبو داود في الصلاة ٥١٦، والنسائي في الأذان ٦٧٠- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«نجي» كقتلى، أي: وحين تناجيهم وتسارُّهم فيما بينهم.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: حين يقول الظالمون في نجواهم، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: «إذ يقولون»، بل قال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للتسجيل عليهم بالظلم؛ لشركهم وسعيهم في أذية الرسول ﷺ والمؤمنين، والصد عن دين الله، وأن ذلك هو باعث قولهم:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا، أي: إنكم إن اتبعتم محمدًا ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا، أي: إلا رجلًا قد سُحر، فهو يهذي ولا يدري ما يقول.

ومفاد هذا القدح في عقله وعدم اعتبار قوله، والقدح فيما يتلوه من القرآن ويدعو إليه وأنه سحر، ومرادهم التحذير والنهي عن اتباعه، أي: لا تتبعوا محمدًا فهو رجل مسحور، ولهذا قال:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الاستفهام: للتعجيب، أي: كيف ضربوا لك الأمثال السيئة التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب، من قولهم: مسحور، أو ساحر، أو مجنون، أو كاهن، أو شاعر، ونحو ذلك، وسميت أمثالًا؛ لأنهم تحيّروا فيما يصفونه به للناس.

﴿فَضَلُّوا۟﴾ في قولهم فيك، وضلوا بسبب ذلك عن الصراط المستقيم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: فلا يجدون طريقًا إلى الهدى والصواب فيما يصفونك به، ولا يجدون طريقًا إلى الحق والهدى يتبعونه ويسلكونه، قد انسدت عليهم السبل بسبب شركهم وظلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

ذكر إنكارهم توحيد الله تعالى، وتكذيبهم له ﷺ، ثم أتبع ذلك بذكر إنكارهم

للبعث وتكذيبهم به.

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ الاستفهام للإنكار، أي: وقال هؤلاء المشركون المكذبون لك، المنكرون لوحدانية الله تعالى إنكارًا منهم للبعث وتكذيبًا به واستبعادًا له: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، أي: فتاتًا ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾، أي: كيف نبعث خلقًا جديدًا؟! لا يمكن هذا، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ [النازعات: ١٠- ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ جواب عن قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ الآية. أي: كونوا حجارة أو حديدًا، وهما أشد امتناعًا، وأبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات.

﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ معطوف على «حجارة»، أي: أو كونوا خلقًا مما يكبر في صدوركم، أي: من أي شيء يكبر في صدوركم وتستعظمونه، سواء كان الموت أو السماء والأرض كما قيل، أو غير ذلك، أي: كونوا ما شئتم فستبعثون خلقًا جديدًا.

والمعنى: كونوا إن قدرتم حجارة أو حديدًا أو خلقًا أعظم من ذلك، أو صوروا أنفسكم وقدروها خلقًا لا يضمحل ولا ينحل، فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقًا جديدًا.

قال ابن القيم: «**فالمعنى الأول**: يقتضي أنكم لو قدرتم على نقل خلقتكم من حالة إلى حالة هي أشد منها وأقوى، لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم ولم تعجزونا، فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك؟

والمعنى الثاني: يقتضي أنكم صوروا أنفسكم ونزلوها هذه المنزلة، ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا، أم قدرتنا ومشيئتنا محيطة بكم ولو كنتم كذلك؟»(١).

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ إنكارًا منهم للبعث بعد إنكار، أي: من الذي يعيدنا،

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ٣/ ٨٣- ٨٤.

أي: من الذي يقدر على إعادتنا بعد أن نكون عظامًا ورفاتًا، أو بعد كوننا حجارة أو حديدًا، أو خلقًا أكبر من ذلك؟! فأجابهم بقوله:

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: قل لهم: يعيدكم الذي فطركم أول مرة، أي: الذي خلقكم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى في جواب من قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلًا، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به:

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ الإنغاض: التحريك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، فإنغاض الرأس تحريكه، أي: يحركون رؤوسهم استهزاءً، أي: مستهزئين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ تهكمًا منهم وإصرارًا على استبعاد البعث وإنكاره والتكذيب به، أي: متى نبعث ونعاد خلقًا جديدًا؟! كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: قل لهم: عسى أن يكون بعثكم قريبًا، و«عسى» من الله واجبة، أي: أنه قريب، فاحذروا من ذلك؛ لأنه آتٍ لا محالة، وكل آتٍ قريب، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»(١).

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ «يوم»: ظرف زمان منصوب بدل من «قريبًا»، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر. أي: يوم يدعوكم ربكم للبعث والنشور، فيأمر إسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الثانية، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى

---

(١) أخرجه البخاري في **الرقاق** ٦٥٠٤، ومسلم في الفتن ٢٩٥١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة، و«تستجيبون» أبلغ من «تجيبون»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أي: فتستجيبون لدعائه لكم، وتخرجون من قبوركم، وتقومون لرب العالمين مسرعين إلى الداعي، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: ١٠٨].

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ متعلق بحال من فاعل «تستجيبون» بتضمينه معنى «تسبحون»، أي: فتستجيبون له، مسبحين بحمده.

وقيل: معنى «بحمده»، أي: بأمره وطاعته ودعائه إياكم وقدرته، ولله الحمد في كل حال، وعلى كل حال، كما قال الشاعر:

إني بحمد الله لا ثوب فاجر لبستُ، ولا عن خزية أتقنَّعُ(١)

أي: فإني ولله الحمد لا ثوب فاجر لبست..

﴿وَتَظُنُّونَ﴾، أي: تعتقدون.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾، أي: إن أقمتم في الدنيا.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة، أي: إلا وقتًا قليلًا، أي: تستقصرون مدة لبثكم في الحياة الدنيا، من سرعة وقوع البعث، وأن الذي مرّ عليكم من التنعم في الدنيا كأنه ما كان، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات:

---

(١) اختلف في نسبة هذا البيت فنسبه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٣/ ٤٠٥، ٤٠٦) لغيلان بن سلمة الثقفي، ونسبه في «الأغاني» (١٦/ ٢٥١، ٢٥٢) لبرزع بن عدي، ونسبه ابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ١٣٥) لحسان بن ثابت. وليس في ديوانه.

٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾ [طه: ١٠٢- ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٤].

الفوائد والأحكام:

١- الحيلولة بينه ﷺ عند قراءته القرآن، وبين المكذبين بالبعث المنكرين للآخرة، بحجاب مستور يمنعهم من رؤية الحق، ومن الوصول إليه ﷺ بأذى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

٢- تشريف الله عز وجل للنبي ﷺ بخطابه له، وإثبات ربوبيته الخاصة له، وعنايته به، وحفظه له.

٣- عقوبة المكذبين بالآخرة بالحيلولة قدرًا بينهم وبين رؤية الحق، وفهم القرآن وسماعه سماع انتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾.

٤- إثبات الآخرة والمعاد والحساب والجزاء.

٥- أن أسباب الحيلولة دون الوصول إلى الحق ثلاثة: الحجاب الذي يمنع من رؤيته، والأكنة التي تمنع من فهمه، والوقر الذي يمنع من سماعه.

٦- تولي المكذبين على أدبارهم، عند ذكره ﷺ ربه في القرآن، ودعوته إلى توحيد الله تعالى، والنهي عن الشرك، ونفورهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

٧- فضح حال المكذبين والمشركين في سوء قصدهم في استماعهم إلى قراءته ﷺ، وأنهم لا يقصدون بذلك الانتفاع، وإنما يقصدون التماس القدح فيه؛ ولهذا كان غاية ما وصلوا إليه- لما أخرسهم وبهرهم ذلك بعد التناجي بينهم في أمره ﷺ- القول بأنه

مسحور؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

٨- علم الله تعالى الواسع، واطلاعه التام على أحوال العباد؛ علانيتها وسرها.

٩- بلوغ هؤلاء المكذبين غاية الظلم؛ لشركهم بالله تعالى، وسعيهم في أذية الرسول ﷺ والمؤمنين، وصد الناس عن اتباعه ﷺ.

١٠- جرأة كفار قريش على اتهامه ﷺ بالسحر، كما هي عادة المكذبين قبلهم للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

١١- التعجيب فيما ضربوه له ﷺ من الأمثال السيئة، التي هي أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب، والتي هي سبب ضلالهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟﴾.

١٢- انسداد طريق الهدى والصواب أمام هؤلاء المكذبين، فلم يجدوا طريقًا للصواب فيما يصفونه به ﷺ، ولم يجدوا طريقًا للهدى يسلكونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وهذا عقوبة من الله تعالى لهم بسبب شركهم وظلمهم.

١٣- إنكار المشركين وتكذيبهم بالبعث واستبعادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

١٤- إثبات قدرة الله تعالى التامة على إفناء الناس وبعثهم مهما تحولت أحوالهم، ومهما كانوا عليه من عظم الخلقة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾.

١٥- إنكار المشركين قدرة الله تعالى على البعث، بعد بيانه عز وجل قدرته على ذلك مهما كانوا عليه من عظم الخلقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾.

١٦- الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، وأن من قدر على بدء الخلق فهو أقدر على إعادته من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١٧- إصرار المشركين على إنكار البعث واستبعاده، وسخريتهم واستعجالهم

لذلك، بعد أن دلل عز وجل على تمام قدرته عليه بخلقه إياهم أول مرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾.

١٨- قرب البعث؛ لأنه آتٍ، وكل آتٍ قريب، ولأن عمر الدنيا كلها لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾.

١٩- أن بعث الخلائق من قبورهم يسير على الله عز وجل، فبدعوته عز وجل لهم يستجيبون جميعًا لأمره، ويخرجون من قبورهم للقيام بين يديه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾؟

٢٠- أن لله عز وجل الحمد في كل حال، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾.

٢١- استقصار الناس مدة بقائهم في الدنيا، وبخاصة المكذبين عند بعثهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وقل يا محمد لعبادي المؤمنين.

﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: يقولوا القول الأحسن، والكلام الطيب، والأسلوب اللين اللطيف، في مخاطباتهم ومحاوراتهم فيما بينهم؛ حفاظًا على الصلة والمودة والأخوة الإيمانية بينهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولنّ أحدكم خبُثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي**»(١). فكره ﷺ لفظ «الخبث»؛ لبشاعته، فأرشدهم إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب- لا يقل خبثت نفسي ٦١٧٩، ومسلم في الألفاظ من الأدب- كراهة قول

لفظ أحسن منه- وإن كان بمعناه- ؛ تعليمًا للأدب بالمنطق، وإرشادًا إلى استعمال الحسن وهجر القبيح في الأقوال، كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الشيطان يفسد بينهم، إذا كلم بعضهم بعضًا بغير التي هي أحسن، فيحملهم على سيئ المقال، ثم يخرجهم بسبب ذلك من سيئ المقال إلى سيئ الفعال، فيقع الشر بينهم والمخاصمة والمنازعة، والشجار والاقتتال؛ ولهذا أمر عز وجل بالاستعاذة بالله من نزغاته، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ تعليل لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، أي: لأن الشيطان كان- منذ القدم- للإنسان عدوًّا مبينًا، أي: بيّن العداوة ظاهرها، وذلك منذ امتناعه عن السجود لآدم، فعداوته لآدم وذريته بيّنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].

ولهذا قال ﷺ: «لا يُشيرن أحدكم على أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار»(١).

وفرقٌ مثل ما بين الثرى والثريا والأرض والسماء الفرق بين أحسن القول وسيئه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت: ٢٤- ٢٦].

ولهذا حذر ﷺ من خطر الإنسان وعثراته، قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه وقد أخذ ﷺ بلسانه: «**كفّ عليك هذا**». قال معاذ: فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم

الإنسان: خبثت نفسي ٢٢٥٠، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٩.

(١) أخرجه البخاري في الفتن- من حمل علينا السلاح فليس منا ٧٠٧٢، ومسلم في البر والصلة والآداب- النهي عن الإشارة بالسلاح ٢٦١٧، وأحمد ٢/ ٣١٧.

به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم- أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟**»(١).

فاللسان عدو الإنسان، فكم حروب اشتعلت وأكلت الأخضر واليابس بسبب سيئ الكلام. قال نصر بن سيار:

وإن النـــار بـــالعودين تـــذكى ... وإن الحـــرب أولهـــا كـــلام(٢)

وناهيك بما يفعله الإعلام اليوم بوسائله المختلفة من إشعال الفتن والحروب والعداوة والبغضاء بين الدول والطوائف والقبائل وغير ذلك، وكم من دماء أهرقت ونفوس أزهقت بسبب سيئ الكلام، وكم من زوجات طلقت، وأسر شردت، وأطفال ضيعت بسبب سيئ الكلام، وكم من عداوات وإحن وبغضاء بين الأقارب والجيران والأسر والجماعات والأفراد: الأقارب والأباعد، بسبب سيئ الكلام.

وقد قيل:

جراحـــات الســـنان لهـــا التئـــام ... ولا يلتـــام مـــا جـــرح اللســـان(٣)

وقال الآخر:

احفـــظ لســـانك أيهـــا الإنســـان ... لا يلـــدغنك إنـــه ثعبـــان

كـــم في المقـــابر مـــن قتيـــل لســـانه ... كانـــت تخـــاف بقـــاءه الشـــجعان(٤)

وبالمقابل: فكم من حروب أطفئت، وثارات أخمدت بسبب القول الحسن والكلام الطيب، وكم من منازعات ومشاجرات وخصومات انتهت بسبب طيب المقال، وحسن الكلام. وصدق المصطفى ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**».

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣- من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) البيت لنصر بن سيار، كما في «عمدة الكتاب» لأبي جعفر النحاس (١/ ٣٩)، «التذكرة الحمدونية» (١/ ٤٣٢).

(٣) البيت بلا نسبة، كما في «فصل المقال» (ص٢٤).

(٤) انظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢١/ ٥٩).

وقال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»(١).

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الخطاب عام لجميع الناس، أي: ربكم- أيها الناس- أعلم بجميع أحوالكم: بواطنكم وظواهركم، ومن هو أهل للهداية منكم، ومن ليس أهلًا لها، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾، أي: إن يُرد كونًا يرحمكم، فيوفقكم للإيمان به، والإنابة إليه، والعمل الصالح، فيسعدكم في الدنيا بطاعته، وفي الآخرة بجنته.

﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أو إن يُرد كونًا يعذبكم، فيخذلكم باختياركم الكفر والضلال المفضي إلى الشقاء في الدنيا، وإلى نار جهنم في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، أي: وما أرسلناك يا محمد على هذه الأمة «وكيلًا»، أي: موكولًا إليك أمرهم، تدبرهم وتقسرهم على الإيمان، أو تُسأل عمن ضل منهم، وتجازيهم.

أي: إنما أرسلناك مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار، والله هو الوكيل عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٩٣، ٢٥٩٤- من حديث عائشة رضي الله عنها.

عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ معطوف على قوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ من عطف العام على الخاص، فبيّن أولًا علمه تعالى بهم، ثم بيّن علمه العام بكل ما في السموات والأرض، أي: وربك يا محمد أعلم بالذي في السموات والأرض، من جميع المخلوقات، وبأحوال العباد وأعمالهم، ومن هو أهل للرحمة ومن هو أهل للعذاب، وغير ذلك.

﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾، أي: جعلنا- بمقتضى علمنا وحكمتنا- بعضهم أفضل من بعض، فأفضلهم على الإطلاق وسيدهم خاتمهم نبينا محمد ﷺ، وأفضلهم بعده بقية أولي العزم من الرسل، وهم: إبراهيم، وموسى، ونوح، وعيسى عليهم السلام، وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ: إبراهيم ثم موسى عليهما السلام، ثم نوح وعيسى عليهما السلام، على اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل نوح أو عيسى، ثم بقية الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذا لا يتنافى مع قوله ﷺ: «**لا تفاضلوا بين الأنبياء**»(١)؛ لأن النهي في الحديث عن التفضيل بينهم بمجرد الرأي والهوى بلا دليل.

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾، أي: وأعطينا داود عليه السلام وأنزلنا عليه «زبورًا»، وخصه بالذكر وذكر ما آتاه؛ تنبيهًا على فضله عليه السلام، وفضيلة الزبور.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خفف على داود عليه السلام**

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١٢، ومسلم في الفضائل- من فضائل موسى ٢٣٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٦٨، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه»(١).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾.

قوله: ﴿قُلِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا آلهة غير الله.

﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾، أي: نادوا الذين زعمتم وادعيتم كذبًا وزورًا أنهم آلهة لكم.

﴿مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد، وارغبوا إليهم، فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون الضر عنكم، تجدون أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾، أي: لا يملكون إزالة الضر ودفعه عنكم، من مرض أو فقر أو شدة أو غير ذلك.

﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾، أي: ولا يملكون أيضًا: تحويل الضر من شدة إلى ما دونها، ولا من موضع إلى موضع، ولا من شخص إلى آخر، فلا قدرة لهم على رفع الضر بالكلية، ولا على تحويله.

قال ابن تيمية: «لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، أو من حال إلى حال، كتغير صفته أو قدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾، فذكر نكرة تعم أنواع التحويل»(٢).

أي: أن الذي يملك ذلك كله ويقدر عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر، كما قال ﷺ فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧﴾ [الأعراف: ١٩٦- ١٩٧].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤١٧.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٣.

رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم أولئك الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾»(١).

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، أي: أولئك الآلهة الذين يعبدهم المشركون من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، أي: يطلبون إلى ربهم القربة، بالإيمان والطاعة والأعمال الصالحة.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أيهم: اسم موصول مبني على الضم في محل رفع بدل من فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أو اسم استفهام مبتدأ خبره ﴿أَقْرَبُ﴾؛ أي يتسابقون في التقرب إلى ربهم، أيهم يكون إليه أقرب، ويتنافسون في ذلك.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾، أي: ويأملون رحمة الله تعالى.

﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ الذي توعّد به المكذبين والكافرين، أي: فيعملون ما يكون سببًا لرحمته، ويجتنبون ما يوجب عذابه، من ترك أمره، أو ارتكاب نهيه.

والمعنى: أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين من خواص عباده، جمعوا بين المقامات الثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء، فهم يتقربون إلى ربهم، ويخافونه، ويرجونه، فهم عبيده، كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له(٢)؟

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: إن عذاب ربك يا محمد كان محذورًا مخوفًا، أي: يجب الحذر منه كل الحذر، والخوف من وقوعه، بتوقي أسبابه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، ٤٧١٤، ومسلم في التفسير، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، ٣٠٣٠.

(٢) انظر: بدائع التفسير ٣/ ٨٥.

حذّر في الآية السابقة من عذاب الله، وبيّن وجوب الحذر منه، ثم أتبع بالتهديد والوعيد للمكذبين بالهلاك والعذاب.

قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الواو: استئنافية، و«إن» نافية بمعنى «ما»، أي: وما من قرية من القرى المكذبة للرسل، و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لاستغراق النفي لعموم القرى المكذبة، بما في ذلك مشركو مكة المكذبين للنبي ﷺ.

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا نحن مبيدوها قبل يوم القيامة، بالموت أو بعذاب مستأصل.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بقتل أو ابتلاء بما نشاء، بسبب كفرهم وتكذيبهم وظلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ [الطلاق: ٧- ٨].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾، أي: إهلاك القرى المكذبة قبل يوم القيامة أو تعذيبها عذابًا شديدًا.

﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾أي: في اللوح المحفوظ.

﴿مَسْطُورًا﴾، أي: مسطرًا مكتوبًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾.

لما ذكر عز وجل قضاءه وحكمه بإهلاك القرى المكذبة قبل يوم القيامة أو تعذيبها عذابًا شديدًا، أتبع ذلك ببيان السبب الذي منع من إرسال الآيات التي طلبها المشركون من الرسول ﷺ؛ تعنتًا وعنادًا، وهو مخافة أن يكذبوا بها، فتكون سببًا لهلاكهم كحال المكذبين قبلهم.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحّي الجبال عنهم فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: «**لا، بل أستأني بهم**». فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا

ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك. قال: «**وتفعلون؟**» قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: «**بل باب التوبة والرحمة**»(٢).

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف.

والباء: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، أي: وما منعنا من إرسال الآيات التي يقترحها المكذبون.

ويحتمل كونها للمصاحبة والملابسة، أي: وما منعنا أن نرسل رسلنا بالآيات التي يقترحها المكذبون.

كما في قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وكما في قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ [القصص: ٤٨].

﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين بها.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٨، والطبري في جامع البيان ١٤/ ٦٣٥.

(٢) أخرجها أحمد ١/ ٢٤٢.

أي: فصارت سببًا لهلاكهم، فلو أرسلنا لهؤلاء ما سألوه من الآيات ثم كذبوا بها لأهلكوا، كما هي سنة الله في المكذبين قبلهم، كما قال تعالى في المائدة: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الآية: ١١٥].

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ آية حين طلبوها.

﴿مُبْصِرَةً﴾، أي: بيّنة واضحة، موجبة للتبصر.

قال ابن القيم: «مبيّنة موجبة للتبصر، وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًا، يقال: أبصرته بمعنى أريته، وأبصرته بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية بمعنى: مرئية، لا بمعنى رائية»(١).

والمعنى: أنها واضحة الدلالة على وحدانية الله تعالى، وصدق نبيه صالح عليه السلام، تجعل من رآها يكون ذا بصيرة بتوفيق الله، بخلاف من خذله الله، كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل: ١٣].

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، الباء: للسببية، أي: فظلموا بسببها، أي: كذبوا وكفروا بسببها، وكذبوا نبي الله صالحًا عليه السلام، ومنعوا الناقة شربها وعقروها، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤- ١٥].

وخص بالذكر ثمود وآيتها؛ لشهرة أمرهم عند العرب، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكة، يبصرها صادرهم ووارديهم في رحلاتهم بين مكة والشام.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الباء: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وما نرسل الآيات إلا تخويفًا.

ويجوز كونها للمصاحبة والملابسة، أي: وما نرسل رسلنا بالآيات إلا تخويفًا. و«إلا» أداة حصر ﴿تَخْوِيفًا﴾ مفعول لأجله.

أي: وما نرسل بالآيات إلا لأجل التخويف من عذاب الله وعقابه لمن عصى الله

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨٦.

وخالف أمره وارتكب نهيه، كما قال ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره**»، ثم قال: «**يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته، يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف بمعنى «حين» متعلق بفعل محذوف تقديره: اذكر، أي: واذكر يا محمد حين قلنا لك ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ﴾، أي: قد عصمك من الناس، ومنعك منهم، حتى تُبلّغ رسالة ربك؛ لأنه عز وجل محيط بهم علمًا وقدرة وقهرًا.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: ١٢٦].

وفي هذا تذكير له ﷺ بوعده له بحفظه ونصره، وأنه محل عنايته عز وجل؛ تقويةً لقلبه، فلا يحزن، فإن الله سينصره وينتقم من أعدائه، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾، أي: ما رأيته ليلة الإسراء بعينك من العجائب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ﴾ هي: شجرة الزقوم»(٢).

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا ابتلاءً واختبارًا للناس وامتحانًا لهم، حيث ارتد بعض ضعاف الإيمان، واستلج المشركون بكفرهم، وازدادوا عتوًّا ومكابرة وتكذيبًا وكفرًا، لما أُخبروا بالرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٤٤، ومسلم في صلاة الكسوف ٩٠١، والنسائي في الكسوف ١٤٧٤، وأحمد ٦/ ٨٧، ١٦٨ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٨، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٣٤.

بيت المقدس، وما فيها من خوارق العادات، ومن وصفه ﷺ لبيت المقدس، وذكره أنه مرّ بعيرهم في مكان كذا، ووصف حال رجال فيها وغير ذلك.

ومن هنا تُعلم الحكمة في عدم التصريح في القرآن والسنة بذكر الأمور التي حدثت في هذه الأزمنة المتأخرة، والاكتفاء بألفاظ عامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٨].

فقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعم كل ما وصل إليه العلم من التقدم في الصناعات والاختراعات ووسائل النقل والتواصل وغير ذلك، وما سيصل إليه بعد، والعلم عند الله.

ولو ذكر للناس في ذلك العهد شيئًا مما وصل إليه العلم في هذا العصر لكان ذلك فتنة لهم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ معطوف على «الرؤيا»، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. والمراد بالشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. ووجه كونها فتنة للناس خروجها في أصل الجحيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾ [الصافات: ٦٤- ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦].

ولهذا روي أن أبا جهل قال: «يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرًا وزبدًا فتزقّموا»(١).

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾، أي: ونخوف المشركين بالآيات، وذكر ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات والهلاك.

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، أي: فما يزيدهم التخويف بالآيات والعقوبات.

﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا زيادةً وتماديًا عظيمًا في الكفر

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ ٦٤٨). وسنده ضعيف.

والضلال والعتو والعناد، وذلك من خذلان الله تعالى لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله تعالى، لا ينطق عن الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾.

٢- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّعِبَادِى﴾.

٣- الحث والترغيب في اختيار القول الأحسن والكلام الطيب في المخاطبات والحوارات بين المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٤- أن عدم اختيار الأحسن من القول سبب لنزغ الشيطان وإفساده على العباد أمر دينهم ودنياهم، يجب الاحتراز منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

٥- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى، وأفعاله.

٦- حرص الشيطان على الإفساد بين المؤمنين، وانتهاز الفرص لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

٧- شدة عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ﴾.

٩- أن الله تعالى أعلم بالعباد، وأحوالهم: بواطنهم وظواهرهم، ومن هو أهل للهداية ومن ليس أهلًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾.

١٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾.

١١- نفوذ مشيئة الله تعالى في خلقه، فمن شاء رحمه فوفقه وأثابه، ومن شاء خذله وعذبه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾.

١٢- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ

إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

١٣- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ رسالة ربه، وليس وكيلًا على الناس يلزمهم الهداية ويحاسبهم ويجازيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ؛ حتى لا تذهب نفسه حسرات على المكذبين من قومه.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وربوبيته الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾.

١٥- أن الله عز وجل أعلم بجميع من في السموات والأرض من المخلوقات، وبأحوال العباد وأعمالهم، ومن هو أهل للهداية، ومن ليس أهلًا لها.

١٦- تفضيل الله عز وجل بعض النبيين على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٧- تشريف نبي الله داود عليه السلام بتخصيصه بالذكر، والتنويه بإيتائه الزبور الذي هو من أفضل كتب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

١٨- تأنيب المشركين في عبادتهم من دون الله من لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلًا، وفي ذلك تسفيه لعقولهم، وإبطال لإشراكهم هذه المعبودات مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

١٩- أن الذي يملك ويقدر على كشف الضر وتحويله هو الله عز وجل وحده.

٢٠- أن الملائكة والأنبياء والصالحين الذين يدعوهم المشركون من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة والقربى، فكيف يعبدهم المشركون من دون الله، ويجعلونهم وسائط بينهم وبين الله؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وفي هذا أيضا إبطال لإشراكهم مع الله، وتسفيه لعقول المشركين بعبادتهم مع الله خلقًا من خلقه، مثلهم محتاجين إلى الله.

٢١- حاجة الخلق كلهم إلى الله تعالى، وغناه عز وجل عنهم.

٢٢- تنافس الملائكة والأنبياء والمؤمنين الذين عرفوا الله حق معرفته، في التوسل أو التقرب إليه بالإيمان والأعمال الصالحة؛ رجاء رحمته وخوفًا من عذابه؛ لقوله تعالى:

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

٢٣- أن رضى الله والقرب منه إنما ينال بالتوسل إليه بالإيمان والأعمال الصالحة، والجمع بين الرجاء والخوف.

٢٤- وجوب الحذر والخوف من عذاب الله تعالى؛ لشدته وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

٢٥- قضاء الله تعالى- كونًا وقدرًا- بإهلاك جميع القرى المكذبة للرسل قبل يوم القيامة، أو تعذيبها عذابًا شديدًا، وتسطيره عز وجل ذلك في اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾.

٢٦- تهديد مشركي مكة وتحذيرهم من الإهلاك والعذاب الشديد، كما هو قضاء الله وسنته في المكذبين قبلهم، وهكذا أهلكهم الله في بدر الكبرى.

٢٧- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء.

٢٨- إثبات اللوح المحفوظ الذي كتب الله تعالى فيه مقادير كل شيء.

٢٩- أن ما قدره الله تعالى وقضاه كونًا كائن لا محالة.

٣٠- أن الحكمة والسبب في عدم الإرسال بالآيات التي يقترحها المكذبون، هو أن الأولين طلبوها من رسلهم، فلما أعطوها كذبوا بها، فأهلكوا بسبب ذلك، كما هي سنة الله تعالى فيمن اقترحوا الآيات ثم كذبوا بها، ولا تجد لسنة الله تبديلًا.

٣١- أن من فضل الله عز وجل على نبينا محمد ﷺ وعلى أمته، عدم الإرسال بالآيات التي اقترحها المكذبون؛ إذ لو أرسلها ثم كذبوا بها لأهلكوا عن آخرهم.

٣٢- إيتاء ثمود الناقة آية مبصرة، وظلمهم وكفرهم بها وتكذيبها، ومنعها شربها، وعقرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾.

٣٣- أن الحكمة من إرسال الآيات هو التخويف والتحذير للمكذبين من عذاب الله تعالى وانتقامه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

٣٤- تشريف الله عز وجل لنبيه ﷺ بخطابه له، وعنايته به، وتكفله بعصمته من الناس، وحفظه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾.

٣٥- إحاطته عز وجل بالناس بعلمه وتقديره، وقدرته وتدبيره وقهره.

٣٦- ابتلاء الله عز وجل للناس وامتحانه لهم بالرؤيا التي أراها نبيه ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة التي ذكرت في القرآن تخرج في أصل الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

٣٧- تخويف الله للمكذبين ليؤمنوا، وما يزيدهم التخويف إلا عتوًّا وتماديًا بالباطل وطغيانًا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

٣٨- أن من قدر الله عليهم الكفر والطغيان لا ينفع فيهم التحذير والتخويف، كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٥].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، أي: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، أي: حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم؛ تكريمًا واحترامًا له وتشريفًا.

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي: فبادروا كلهم بالسجود، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣]؛ استجابة لله تعالى، وطاعةً له، لأنهم كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧].

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«إبليس»: منصوب على الاستثناء المتصل أو المنقطع، أي: لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، أي: لم يكن من الساجدين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ١١٦].

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: قال مبررًا عدم سجوده لآدم بقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، ﴿طِينًا﴾ منصوب بنزع

الخافض، أي: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين، كما قال في سورة الحجر: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الآية:٣٣]؛ وذلك استكبارًا منه وافتخارًا، واحتقارًا لآدم عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٤- ٧٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾، أي: أخبرني.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، «هذا» مستعمل في التحقير، كما في قول المشركين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أي: أهذا الذي كرّمت عليّ؟ أي: فضلته عليّ بأن أمرتني بالسجود له، لِمَ كرّمته عليّ؟ من كِبره وغروره وجهله وشدة كفره وجرأته على الله، والرب يحلم ويُنظِر.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرتني إلى يوم القيامة.

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لأتسلطنّ على ذريته، ولأستأصلنهم في الإضلال، ولأغوينهم، كما قال تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨- ١١٩].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة استثناء، «قليلًا»: منصوب على الاستثناء.

فطلب النظرة؛ لأجل أن يُغوي جميع بني آدم، وأقسم على ذلك، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الآيات: ٣٦- ٤٠].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الآيات: ٧٩- ٨٣].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الآيات: ١٦- ١٧].

ومن هنا يُعلم شدة عداوته لآدم وذريته، وأنها عداوةٌ قديمة؛ مما يوجب الحذر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

لما طلب إبليس النظرة أعطاها عز وجل له، ولله الحكمة في ذلك؛ ليزداد مع إثمه آثام من أغواهم وأضلهم، وجعل له تسلطًا على الذين يتولونه ويشركون به، دون عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

قوله: ﴿قَالَ اذْهَبْ﴾، أي: قال الله عز وجل جوابًا منه عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة. أي: اذهب وامض لشأنك الذي اخترته وطلبته: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨، ص: ٨٠، ٨١].

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن تبعك من ذرية آدم، فأطاعك ووالاك، وخالف أمر الله وعصاه.

﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ جواب الشرط، أي: فإن نار جهنم جزاؤكم جميعًا- أنت ومن اتبعك- على أعمالكم.

﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾، «جزاء»: مفعول مطلق منصوب، و«موفورًا»: صفة له، أي: وافرًا تامًّا مدخرًا كاملًا.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾، أي: استخف واستعجل وأزعج واستزل.

﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾، أي: الذي قدرت عليه منهم.

﴿بِصَوْتِكَ﴾ صوت إبليس: هو كل داع دعا إلى معصية الله، وكل دعوة إلى الباطل.

فالمعنى: استفز واستخف بصوتك، أي: بدعائك إياهم إلى الشرك والكفر والمعاصي واللهو والغناء والمزامير وغير ذلك.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾، أي: واحمل وصح عليهم.

﴿بِخَيْلِكَ﴾، أي: بخيّالتك، وهو كل راكب من جنودك في معصية الله تعالى.

﴿وَرَجِلِكَ﴾، قرأ حفص بكسر الجيم: ﴿وَرَجِلِكَ﴾، وقرأ الباقون بإسكانها.

وهو معطوف على: «خيلك»، أي: وأجلب عليهم برجلك، وهو كل ماشٍ على رجليه في معصية الله.

أي: اجلب عليهم بجنودك الراكبين والماشين في معصية الله. فكل راكب وماش في معصية الله، فهو من جنود إبليس لعنه الله.

قال ابن القيم: «فكل متكلم بغير طاعة، ومصوّت بيراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل، فذلك صوت الشيطان، وكل ساعٍ في معصية الله على قدميه فهو من رجله، وكل راكب في معصية الله فهو من خيالته»(١).

أي: أجلب بجميع جنودك على كل من اتبعك من ذرية آدم كل وسائل الفتنة والفساد وتزيين المعاصي، وتسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]. أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتسوقهم إليها سوقًا.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾، أي: كن لهم شريكًا فيها، بحملهم على تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٨٨.

نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»(١).

وبتزيين أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وكسب المال بالطرق المحرمة، وصرفه في الوجوه المحرمة، ومنع الحقوق الواجبة فيه من الزكاة والنفقات الواجبة وغير ذلك.

﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، أي: وشاركهم في الأولاد، وتتمثل مشاركة الشيطان في الأولاد بالإيقاع في محاذير كثيرة، من أهمها ما يلي:

أولًا: ما كان يفعله أهل الجاهلية من قتلهم الأولاد؛ مخافة الفقر أو مخافة العار، كما في وأدهم البنات، وكذا طلبهم الأولاد بطريق الزنا، وحملهم أولادهم على الكفر، كما قال ﷺ: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٢).

ثانيًا: عدم اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين والخلق، كما رغّب في ذلك ﷺ بقوله: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(٣).

ثالثًا: عدم تحصين الأولاد من الشيطان بالتسمية عند الجماع، وقد قال ﷺ: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما**

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٢٨٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٨، ومسلم في القدر ٢٦٥٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٩٠، ومسلم في الرضاع ١٤٦٦، وأبو داود في النكاح ٢٠٤٧، والنسائي في النكاح ٣٢٣٠، وابن ماجه في النكاح ١٨٥٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدًا»(١).

رابعًا: مشاركة الشيطان لهم في أسمائهم، بتسميتهم بأسماء غير شرعية، بكونها معبدة لغير الله، كعبد النبي، وعبد الرسول، وعبد الكعبة، وعبد الحارث، وعبد شمس، أو بكونها إحياءً لأسماء أناس غير مسلمين، أو تقليدًا لغير المسلمين، ونحو ذلك.

خامسًا: إهمال تربيتهم التربية الشرعية، وعدم توجيههم إلى الخير، وأمرهم ونهيهم، فكم من الآباء من يقتصر جل دوره في تربية أولاده على تربية أجسامهم فقط، بتأمين الأكل والشرب والملبس والمسكن والمركب، ونحو ذلك، مع ضعف العناية بالجانب الديني الذي خلقوا من أجله.

وأسوأ من هذا من يجعل جل جهده في توجيه أولاده تشجيعهم على جمع الدرهم والدينار، كأنه يخشى عليهم الفقر، فيزج بهم في المنافسات الدنيوية في المساهمات، والمحامات، وجمع الأموال، فيفتتنون في الدنيا ويتعلقون بها، على حساب دينهم وآخرتهم، كما هو واقع الكثيرين.

وليت هذه الأموال تجمع لمشاريع وأعمال لنفع الأمة وتقدمها، فهذا مما يؤجر عليه، والأمة أحوج ما تكون إليه، ونعم المال الصالح للرجل الصالح(٢).

ولكن المصيبة أن هذه الأموال إنما تجمع فقط لمجرد الجمع ورفع الأرصدة البنكية، لا لنفع الأمة، بل ربما لم ينتفع بها أصحابها، وربما قصروا في أداء الحقوق الواجبة فيها من شدة الحرص عليها، وقد قال المصطفى ﷺ: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(٣).

وقال ﷺ: «**فاتقوا الدنيا**»(٤).

وهذا كله معنى قوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه**

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤١، ومسلم في النكاح ١٤٣٤، وأبو داود في النكاح ٢١٦١، والترمذي في النكاح ١٠٩٢، وابن ماجه في النكاح ١٩١٩- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء- أكثر أهل الجنة الفقراء ٢٧٤٢، والترمذي في الفتن ٢١٩١، وابن ماجه في الفتن ٤٠٠٠، وأحمد ٣/ ٢٢- من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أو ينصرانه». فليس المعنى أنهما يدخلانه اليهودية أو المجوسية أو النصرانية فقط، وإنما المعنى أعم من ذلك، وهو أنهما يتسببان في إخراجه من دين الفطرة الدين الحق لأي مذهب أو دين آخر، أو يشغلانه بالاهتمام بغير ما خلق له.

كما أن من مشاركة الشيطان في الأولاد أن يحملهم على عقوق والديهم، إما بسبب عقوق الوالدين لهم بإهمال تربيتهم صغارًا فعقوهم كبارًا، أو لغير ذلك.

﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، أي: إلا خداعًا وباطلًا، كما يقر ويعترف بذلك يوم القيامة إذا حصحص الحق وقضي الأمر، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: ليس لك عليهم حكم وتسلط؛ لإيمانهم وعبادتهم لله تعالى وحده، وتوكلهم عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، أي: وكفى بربك يا محمد وحسبه وكيلًا كافيًا حافظًا، ومؤيدًا ونصيرًا لمن توكل عليه، أي: ما أعظم كفايته لمن عبده وتوكل عليه وأناب إليه، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

قال ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٢، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٧ - من حديث جابر ابن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٨٠، ومعنى «ينضي»، أي: يهزله ويجعله نضوًا، أي: هزيلًا.

الفوائد والأحكام:

١- أمْر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم؛ تقديرًا واحترامًا له، وتشريفًا وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾.

٢- إثبات وجود الملائكة.

٣- فضيلة الملائكة، وسرعة استجابتهم لأمر الله بسجودهم لآدم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾.

٤- عدم استجابة إبليس لأمر الله الملائكة بالسجود لآدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، أي: إلا إبليس لم يكن من الساجدين.

٥- أن عدم سجود إبليس لآدم بسبب استكباره وافتخاره على آدم واحتقاره له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

٦- إنكار إبليس كيف يؤمر بالسجود لآدم، وافتخاره بعنصره الناري؛ لقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

٧- جرأة إبليس على الاعتراض على حكم الله الكوني في تكريم آدم وتفضيله عليه؛ لقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾.

٨- تعريض إبليس بطلب النظرة إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهو ما صرّح به في آيات أخرى.

٩- إقسام إبليس على إغواء ذرية آدم وإضلالهم؛ لقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾.

١٠- أن من ذرية آدم من لا سلطان للشيطان عليهم، ولا يستطيع إضلالهم؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهم عباد الله المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

١١- إنظار الله تعالى حكمة منه لإبليس، وتسليطه على بني آدم كونًا وقدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾.

١٢- التحذير من اتباع الشيطان، وأن جزاء اتباعه جهنم جزاءً وافرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾.

١٣- إثبات وجود جهنم، وأنها دار أتباع الشيطان، وجزاؤهم.

١٤- تحريض إبليس على استفزاز أتباعه بصوته، والإجلاب عليهم بجنوده ركبانًا ومشاةً، ومشاركتهم في الأموال والأولاد، ووعدهم الوعود الكاذبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾.

١٥- وجوب الحذر من الدعاة إلى الباطل وإلى المعصية والفجور واللهو والغناء، والحذر من مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ووعوده الكاذبة.

١٦- أن وعود الشيطان إنما هي غرور وكذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

١٧- تكفل الله عز وجل بحفظ عباده المؤمنين المتوكلين عليه من تسلط الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

١٨- إثبات عبودية المؤمنين لله عبودية خالصة.

١٩- الترغيب في عبادة الله تعالى والتوكل عليه؛ للسلامة من تسلط الشيطان وشروره.

٢٠- أن ما قدره وقضاه نافذ لا محالة، وأنه ليس لأحد تدبير في الكون مع الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢١- ضعف كيد الشيطان ومكره، فلا قدرة له على من اعتصم بالله وعبده وتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦].

٢٢- كفاية الله تعالى وحفظه وعصمته لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ.

* * *

قال الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: ربكم- أيها الناس- هو الذي ﴿يُزْجِى﴾، أي: يسيّر ويجري، ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، أي: السفن، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: على ظهره تمخر عبابه.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: لأجل أن تبتغوا، أي: تطلبوا، ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: من رزقه وزيادته، في ركوبكم الفلك للتجارة، ونقل البضائع عليها من إقليم إلى إقليم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: إنه كان بكم ذا رحمة واسعة، ومن رحمته إزجاء الفلك لكم في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

رُوي أن عكرمة بن أبي جهل لما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج هاربًا فارًّا من رسول الله ﷺ، فركب البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعنّ يدي في يديه، فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا[1]. فخرجوا من

(١) يعني: النبي ﷺ.

البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وحسن إسلامه رضي الله عنه(١).

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: وإذا أصابكم الضر في البحر، وهو خوف الغرق.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ جواب الشرط «إذا»، و«من» موصولة، أي: ذهب وغاب الذي تدعونه من الشركاء، من الأصنام والأوثان والأنداد.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الله تعالى وحده، أي: ذهب وغاب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾، أي: فلما نجاكم وخلصكم من الخوف في البحر وخطره إلى البر والأمان، وظفرتم بالسلامة.

﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، أي: توليتم وأعرضتم بقلوبكم وألسنتكم عن دعاء الله تعالى وحده لا شريك له، ورجعتم إلى الإشراك به، ونسيتم توحيده في البحر، ونعمته في إنجائكم منه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، أي: من سجيته كفر النعم وجحودها ونسيانها، إلا من عصمه الله وهداه إلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٩٣، وانظر: أسد الغابة، ترجمة ٣٧٣٥، ٤/ ٧٠- ٧١.

لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٣- ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

بعدما امتن عليهم بإزجاء الفلك لهم في البحر، وذكر إخلاصهم له في البحر، وإعراضهم عنه بعد إنجائهم إلى البر، حذرهم وخوفهم وهددهم بخسف البر بهم، أو إعادتهم مرة أخرى إلى البحر وإغراقهم.

قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ﴾ الآيتين، قرأ ابن عامر بالنون في الأفعال الخمسة: «نخسف»، «نرسل»، «نعيد»، «فنرسل»، »فنغرقكم»، وقرأ الباقون بالياء. لكن قرأ أبو جعفر ورويس: «فيغرقكم» بالتاء على التأنيث: «فتغرقكم».

قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، و«أن» والفعل «يخسف» في تأويل مصدر في محل نصب بـ «أمنتم»، أي: أفأمنتم خسف جانب البر بكم.

أي: إذا أنجاكم من خوف الغرق في البحر أفأنتم في أمن من خسف جانب البر بكم؟!

أي: فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر، ولا تأمنوا من خسف جانب البر بكم.

والخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾، أي: حجارة من السماء، أو مطرًا فيه حجارة، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هود: ٨٢، الحجر: ٧٤].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾، أي: ثم لا تجدوا لكم حافظًا يحفظكم، ويدفع عنكم ذلك، وينقذكم منه.

﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، وقدمت همزة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة أي: بل أأمنتهم.

وأن والفعل «يعيدكم» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أمنتم»، أي: أفأمنتم إعادتكم فيه مرة أخرى؟ أي: لا تأمنوا أن يعيدكم الله في البحر مرة أخرى.

﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ القصف: الكسر، والريح القاصف: الريح الشديدة التي تكسر المراكب وتغرقها وتدمر ما أتت عليه.

﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب كفركم وشرككم، وإعراضكم عن توحيدكم الله تعالى.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾، الضمير في «به» يعود إلى المصدر المفهوم مما سبق، أي: إلى إرسال الريح عليهم وإغراقهم، أو إلى إغراقهم، أي: ثم لا تجدوا لكم علينا بإغراقكم، «تبيعًا»، أي: مطالبًا يطالبنا بما فعلنا، ويثأر لكم، ولا نخاف تبعة ذلك وعقباه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾ [الشمس: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾.

لما ذكر ما عليه المكذبون من الكفر والشرك بالله ذكر منته على بني آدم، وتكريمه

إياهم، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات، وتفضيلهم على كثير من الخلق، في إشارة واضحة إلى أنه مع هذا التكريم والتفضيل كفروا هذه النعم ولم يشكروها، إلا القليل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣].

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

والتكريم: جعل الشيء كريمًا، أي: نفيسًا غير مبذول ولا ذليل، لا في صورته ولا في حركته ولا في بشرته ولا في غير ذلك، أي: ولقد كرمنا بني آدم بجميع وجوه التكريم، فجعلنا خلقهم على أحسن الصفات، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤]، فجعلناه منتصب القامة، جميل الخلقة، تام الأطراف والحواس.

وكرمناهم بالعقل والعلم، وجعلنا الرسل منهم، وأنزلنا الكتب عليهم، وجعلنا الأصفياء والصديقين والشهداء منهم، وأنعمنا عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وجعلنا لهم التسلط على ما في الأرض والتمتع به.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ على الدواب من الإبل والخيل والبغال والحمير، وعلى ما يسرنا لهم صناعته من السيارات والمراكب الصناعية ونحوها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٨].

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: وحملناهم في البحر في السفن والمراكب البحرية.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: وأعطيناهم من كل ما حل وحسُن وطاب، من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، وغير ذلك مما تتعلق به حوائجهم، مما يسرنا لهم زراعته وصناعته وعمله بأيديهم، ومما لا يد لهم فيه.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، «ممن»: «من» الأولى: حرف جر، والثانية: موصولة، أي: على كثير من الذي خلقناه، «تفضيلًا» مفعول مطلق منصوب، وبين التكريم والتفضيل عموم وخصوص، فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتشريف منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره. أي: فضلناهم تفضيلًا عظيمًا على كثير من المخلوقات.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ﴾.

٢- الامتنان على العباد بتسخير الفلك وإزجائها لهم، وتسييرها على ظهر البحر؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾.

٣- أن الحكمة من تسيير الفلك على ظهر البحر لتيسير التنقل عليها بين الأقاليم؛ لطلب الرزق والتجارة، ونقل البضائع، وغير ذلك من مصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٤- أن الفضل والرزق كله من الله تعالى.

٥- رحمة الله تعالى الواسعة بالعباد كلهم، ومن رحمته بهم تسخير الفلك والبحر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

٦- التعريض بضعف ما يعبده المشركون من دون الله من الآلهة، وأنهم عاجزون لا قدرة لهم على إزجاء الفلك في البحر، ولا على أي شيء كان، وإنما القادر على ذلك هو الله وحده.

٧- إخلاص المشركين- عندما يمسهم الضر في البحر ويخافون الغرق- الدعاء لله تعالى وحده دون معبوداتهم من دونه؛ لعلمهم في قرارة أنفسهم أنه لا يقدر على إنجائهم إلا الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وفي هذا رجوع إلى الفطرة الصحيحة.

٨- إعراض المشركين عن دعاء الله تعالى وتوحيده بعد إنجائه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾.

٩- أن من سجية الإنسان كفر نعم الله تعالى وجحودها ونسيانها، إلا من عصمه الله وهداه إلى صراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

١٠- حاجة الإنسان إلى مجاهدة نفسه؛ لشكر نعم الله تعالى، والبعد عن كفرها.

١١- تحذير المشركين وتهديدهم- بعد إنجائهم من هول البحر وأخطاره- من خسف جانب البر بهم، أو إرساله عز وجل عليهم حاصبًا، فيهلكهم، فلا يجدون لهم وكيلًا يدفع عنهم ذلك أو ينقذهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ

أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

١٢- أن ما يقع من خسوف في الأرض، أو إرسال حجارة من السماء، أو مطر فيه حجارة، أو رياح ترمي بالحصباء، أو أعاصير أو براكين أو غير ذلك؛ كل ذلك من أنواع العقوبات، ومما يخوف الله به العباد من الآيات.

١٣- التذكير بنعمة الله تعالى في جعل الأرض مستقرة غير مضطربة، ووجوب شكره على ذلك.

١٤- أنه لا راد لعقاب الله تعالى، ولا دافع له قبل إنزاله، ولا رافع له بعد إنزاله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

١٥- تحذير المشركين وتهديدهم من إعادتهم لركوب البحر مرة أخرى، أو إرساله عز وجل عليهم قاصفًا من الريح وإغراقهم بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

١٦- أن الكفر والمعاصي سبب للعقوبات العاجلة والآجلة، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

١٧- إثبات الحكمة في أحكام الله تعالى وأفعاله، وربط المسببات بأسبابها، وأن الله جعل لكل شيء سببًا.

١٨- أنه لا معقب لحكم الله، ولا راد لقضائه، ولا تبعة عليه فيما يفعل، يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله، ولا يسأل عما يفعل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

١٩- تكريم الله عز وجل بني آدم، وتسخيره لهم المراكب في البر والبحر، ورزقه إياهم من الطيبات، وتفضيلهم تفضيلًا عظيمًا على كثير من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

٢٠- عظم فضل الله عز وجل على بني آدم، حيث كرمهم، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم، وفضلهم على كثير من مخلوقاته.

٢١- أن على بني آدم من واجب الشكر لله تعالى ما ليس على غيرهم؛ لما اختصهم

الله به من التكريم، والتفضيل، وغير ذلك.

٢٢- استدل بعضهم بالآية على تفضيل بني آدم على الملائكة، وليس هذا ظاهرًا؛ لأن الله قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾، ولم يقل: فضلناهم على جميع خلقنا، ونحو ذلك. لكن المؤمنين من بني آدم أفضل من الملائكة على القول الراجح؛ لأدلة أخرى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ﴾، «يوم» مفعول به لفعل محذوف، أي: اذكر يوم ندعو، أي: ننادي كل أناس بإمامهم، أي: بمن كانوا يقتدون به في الخير والدين، وهو نبيهم، فيقال: يا أمة محمد، يا أمة نوح، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ٤٧].

ويجوز أيضًا أن يكون إمامهم من كانوا يقتدون به بالشر والكفر، فيقال: يا أتباع فرعون، يا أتباع قارون.

ويحتمل أن يكون المراد بـ«إمامهم» كتاب أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٨- ٢٩].

ورجح هذا الحافظ ابن كثير(١)، وقال: «وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي ﷺ إذا حكم الله بين أمته، فإنه لابد أن يكون شاهدًا عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، ولكن المراد بالإمام هاهنا هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾».

﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الآية، هذا يقوي القول بأن المراد بقوله: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ كتاب أعمالهم، فهو تفصيل له.

قوله: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن أعطي كتاب أعماله بيده اليمنى، وذلك دليل سعادته.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، أي: فأولئك الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تعظيمًا لشأنهم، وتنويهًا بعلو مقامهم، ورفعة قدرهم ومنزلتهم.

﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾؛ لفرحهم وسرورهم، واستبشارهم بما سجل لهم فيه مما قدموه من الأعمال الصالحة، ويعرضونه من شدة الفرح على غيرهم ليقرؤوه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩-٢٠].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: ولا يظلمون مقدار فتيل، وهو الخيط المستطيل في شق النواة، أي: لا ينقصون مما عملوه من الحسنات قدر الخيط الذي يكون في شق النواة.

قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾، الأعمى: الذي لا يبصر، ويطلق «العمى» على عمى البصر الذي ضده الرؤية والمشاهدة، ويطلق على عمى البصيرة، وهو عدم الانتفاع بما رأى وشاهد، أو قرأ وسمع، وهو أعظم وأشد من عمى البصر، بل هو المصيبة العظمى، وهو المراد في الآية، أي: ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الحق، لا يبصر

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٩٦.

آيات الله الكونية المشاهدة، ولا يتفكر فيها، ولا ينظر في آيات الله الشرعية ولا يتدبرها.

﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ جواب الشرط «من»، أي: فهو في الدار الآخرة، ﴿أَعْمَىٰ﴾، أي: أشد عمى عن سلوك طريق الجنة، كما لم يسلك طريق الحق في الدنيا. فـ«أعمى» الأولى اسم فاعل، و«أعمى» الثانية اسم تفضيل، أي فهو في الآخرة أشد عمى.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: وأشد ضلالًا في الآخرة عن الجنة، من ضلاله في الدنيا عن طريق الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ الواو: استئنافية، و«إن»: مخففة من الثقيلة مهملة وجوبًا، و«كادوا» بمعنى: قاربوا، أي: وإن كاد كفار قريش.

﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾، أي: ليوقعونك في الفتنة.

﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: فيصرفونك عن الذي أوحينا إليك، أي: عن القرآن الكريم.

﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ اللام: للتعليل، أي: طمعًا منهم أن تفتري، أي: تختلق علينا غيره مما يوافق أهواءهم، وحاشاك من ذلك.

﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ الواو: عاطفة، و«إذًا» بالتنوين حرف جواب لا عمل لها. واللام: واقعة في جواب شرط مقدر، أي: لو فعلت ذلك لاتخذوك خليلًا، أي: لجعلوك صديقًا حبيبًا خالصًا؛ لأنهم في الحقيقة لم يعادوك لذاتك، وإنما لما جئت به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، أي: ولولا تثبيتنا لك حاصل أو موجود، أي: ولولا أن عصمناك وثبتناك على الحق وقويناك وأيدناك، وفي هذا امتنان من الله عز وجل عليه ﷺ.

﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لقد قاربت.

﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، أي: تميل إليهم شيئًا قليلًا من الركون؛ حرصًا منك على هدايتهم ومحبة لذلك.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، «إذًا» كالتي قبلها، أي: لو فعلت ذلك، ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾، أي: جعلنا ذلك يمسك ويصيبك.

ومعنى ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾، أي: ضعف عذاب الحياة ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، أي: ضعف عذاب الممات، أي: عذاب ما بعد الموت، من عذاب البرزخ وعذاب الآخرة.

وضعف الشيء: كثره مرتين، والمعنى: لأذقناك عذابًا مضاعفًا في الدنيا والآخرة؛ لكمال نعمة الله عليك، وتمام معرفتك بالله، وحاشاه ﷺ من ذلك، وقد تكفل الله بتثبيته وعصمته.

وهذا كما في قوله تعالى مخاطبًا أزواجه ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وحاشاهن من ذلك رضي الله عنهن، لكن فيه دلالة على أن العقوبة تكون على قدر النعمة.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾، أي: لو ركنت إليهم وأخذناك بذلك- وحاشاه ﷺ من ذلك- لا تجد لك علينا من ينصرك وينقذك من ذلك، ولكن الله عصمك فلم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم النعمة، وأبلغ المنحة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

ذكر أولًا محاولة المشركين افتتانه ﷺ وصرفه عن القرآن، ثم أتبع ذلك بذكر محاولتهم إخراجه من المدينة لما يئسوا من صرفه عن القرآن.

قال ابن كثير[1]: «وقيل: نزلت في كفار قريش همّوا بإخراج الرسول ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا،

(١) في «تفسيره»: ٥/ ٩٨.

وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى سراتهم؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم، ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه السلام رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]».

قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الواو عاطفة، أي: وإن كاد كفار قريش، أي: قاربوا ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾.

﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يخرجوك منها، أي: من مكة.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: «خَلْفك» بفتح الخاء وإسكان اللام من غير ألف، وقرأ الباقون: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ بكسر الخاء، وفتح اللام وألف بعدها.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: وإذا أخرجوك، أو وإذا خرجت ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يقيمون بعدك، أي بعد خروجك منها، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا زمنًا يسيرًا، ثم يهلكون، أو يخرجون منها فيهلكون فلا يرجعون إليها، كما حصل لكفار مكة، خرجوا منها فقتلوا في بدر ولم يرجعوا إليها.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾، ﴿سُنَّةَ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: سننًّا ذلك سنة.

ويجوز أن يكون منصوبًا بنزع الخافض، أي: كسنة من أرسلنا قبلك.

والسنة: العادة والسيرة الثابتة، والمعنى: أن هذه سنتنا فيمن أرسلنا قبلك من الرسل، أن الرسول إذا أخرجه قومه أو اضطروه إلى الخروج فإنهم لا يلبثون بعد خروجه إلا زمنًا يسيرًا ثم يُهلكون، وهكذا خرج كثير من الرسل من ديار أقوامهم، منهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وغيرهم، وأهلكت أقوامهم.

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، أي: ولا تجد لسنتنا تغييرًا، أي: إن سنتنا في ذلك ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ [الآية: ٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بالقيامة، ونداء كل أناس بإمامهم، وهو كتاب أعمالهم، أو من كانوا يقتدون به في الدنيا من داع للخير والحق من الأنبياء وأتباعهم، أو داع للشر والباطل من دعاة الكفر والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾.

٢- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: سعداء يؤتون كتبهم بأيمانهم، يقرؤونها ويستبشرون بما سطروا فيها من الأعمال الصالحة، وضلَّال عموا عن الحق في الدنيا، فكانوا في الآخرة أشد عمى وضلالًا عن طريق الجنة- نسأل الله العافية- ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

٣- إثبات كتابة الأعمال والمجازاة عليها.

٤- تكريم المؤمنين السعداء بإيتائهم كتبهم بأيمانهم.

٥- شدة فرح وسرور من أوتي كتابه بيمينه وغبطته وبهجته واستبشاره، نسأل الله تعالى من فضله.

٦- أنه لا يظلم أحد في ذلك اليوم بأن ينقص من أجورهم ولا مقدار فتيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ وذلك لتمام عدله عز وجل.

٧- أن من كان في الدنيا أعمى عن طريق الحق والهدى، فهو في الآخرة أشد عمى وضلالًا عن طريق الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

٩- إثبات الدار الآخرة.

١٠- أن العمى الحقيقي هو عمى القلوب والبصائر عن رؤية الحق ومعرفته، لا عمى الأبصار عن مشاهدة الأشياء الحسية، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

١١- حرص كفار قريش على صرفه ﷺ عن الذي أوحاه الله تعالى إليه من القرآن، ومقاربتهم ذلك طمعًا منهم أن يفتري على الله غيره- وحاشاه ﷺ من ذلك- لعصمة الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾.

١٢- أن عداوة هؤلاء الكفار ليست لذاته ﷺ، فهو ذو الخلق الكريم والأمين عندهم، وإنما عداوتهم له لما جاءهم به من الحق، فلو أجابهم إلى ما يدعونه إليه- وحاشاه ﷺ من ذلك- لاتخذوه خليلًا وأحبوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾.

١٣- امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بتثبيته إياه وعصمته وحفظه إياه من الركون إلى المشركين شيئًا قليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، وذلك بسبب حرصه ﷺ على هدايتهم ومحبته لذلك.

١٤- شدة حاجة العبد إلى تثبيت الله تعالى إياه؛ لأن النبي ﷺ- وهو أكمل الخلق- قال الله تعالى له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ فكيف بغيره.

١٥- أنه ليس بين الله وبين أحد من الخلق نسب، وأن العقوبة على قدر النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾. وحاشاه ﷺ من ذلك؛ لأنه معصوم في أمر تبليغ الرسالة، وهكذا جميع الرسل، وإنما هذا من باب الفرض والتقدير فقط.

١٦- أنه لا يستطيع أحد الانتصار من عذاب الله ورده أو رفعه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

١٧- عمل المشركين كل ما يستطيعونه لاستفزازه ﷺ من الأرض وإخراجه من مكة، ومقاربتهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

١٨- أن خروجه ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة هو بسبب أذية المشركين له ﷺ وتضييقهم عليه في دعوته.

١٩- الوعيد والتهديد للمشركين بأنهم إن أخرجوه من مكة لا يقيمون بعده فيها إلا زمنًا يسيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهكذا وقع، فإنهم

لما ضيقوا عليه وخرج لم يمض سوى أقل من سنتين حتى خرجوا من مكة ليلقوا حتفهم في بدر الكبرى، ولم يرجعوا إليها.

٢٠- أن سنة الله تعالى في المرسلين قبله ﷺ أن الأمم إذا أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم أهلكوا بعد خروجه، ولم يمهلوا؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾.

٢١- أن سنة الله ثابتة في إهلاك من أخرجوا رسولهم من الأمم بعد خروجه من بين أظهرهم بزمن قليل، لا تتحول ولا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

ثبت في أحاديث الإسراء- والتي سبقت الإشارة إلى بعضها في تفسير مطلع السورة- أن الله عز وجل فرض على النبي ﷺ وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة، وفي هذه الآية بيّن عز وجل أوقات هذه الصلوات.

قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾، أي: أقم الصلوات الخمس المكتوبات في أوقاتها.

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ اللام: للتوقيت، أي: لوقت دلوك الشمس، وهي بمعنى «عند»، أي: عند دلوك الشمس، أي: عند زوالها، وهو: ميلانها إلى الأفق الغربي، ويدخل فيه صلاة الظهر، وصلاة العصر.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ غسق الليل: ظلامه بعد غروب الشمس، ويدخل فيها صلاة المغرب وصلاة العشاء.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾، أي: صلاة الفجر، وسميت «قرآن الفجر»؛ لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، «إن»: حرف توكيد، والجملة: تعليلية، أي: لأن قرآن الفجر كان مشهودًا، يشهده الله عز وجل، وتشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله:

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»(١).

وفي رواية قال ﷺ: «**تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر**». قال أبو هريرة رضي الله عنه: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾»(٢).

كما أن هذا الوقت يشهده أكبر عدد من المصلين؛ لأنه يكون وقت اجتماع الناس في بيوتهم وقيامهم من النوم، بخلاف بقية الأوقات فالناس يكونون متفرقين في أعمالهم.

ولا تسألني عن حال المسلمين اليوم عندما يكون عدد المصلين الفجر هو الأقل؛ بسبب قلة الإيمان، وضعف الوازع الديني، وفشو النفاق، وبعد الناس عن دينهم، ومخالفتهم سنة الله الكونية بسهر اليل، فهذا خروج عن المنهج السليم والصراط المستقيم لا اعتبار له، ولا يعول عليه، نسأل الله لنا ولجميع المسلمين الهداية.

وقد يضاف إلى ما سبق في معنى ﴿مَشْهُودًا﴾ أن القلب في هذا الوقت يكون شاهدًا حاضرًا فيواطئ اللسان؛ لأنه وقت السكون، وقلة الحركة، والراحة والنشاط بعد الاستيقاظ من النوم، كما قال تعالى عن قيام الليل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾، أي: صلِّ به، في سائر أوقاته، والتهجد: صلاة الليل، ما بعد العشاء، أو ما بعد النوم، وقال بعضهم: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: **صلاة الليل**»(٣).

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ النافلة: الزيادة، ومنه سميت الأنفال؛ لأنها زيادة عن المقصود الأهم

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٤٧٤، والترمذي في تفسير سورة بني إسرائيل ٣١٥٣، وابن ماجه في إقام الصلاة- وقت صلاة الفجر ٦٧٠.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل ٤٧١٧، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة- فضل صلاة الجماعة ٦٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في الصيام- فضل صوم المحرم ١١٦٣، والترمذي في الصلاة ٤٣٨.

من القتال، وهو إعلاء كلمة الله، والمراد بالنافلة هنا: الزيادة، وليس المراد بها النافلة التي يقابلها الفرض والواجب، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة على الولد.

فالمعنى: زيادة لك خاصة في علو القدر، ورفعة الدرجات، ومضاعفة الأجر؛ لأن قيام الليل واجب في حقه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١- ٤].

ووصف تهجده ﷺ بأنه نافلة له، مع أن قيام الليل واجب في حقه؛ لأنه ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقيامه الليل وتهجده كله زيادة في أجره، لا تكفير كما هو حال غيره.

ولو كان المراد بالنافلة التطوع لما خصه به بقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، فالتطوع نافلة للأمة كلها.

قال ابن القيم: «والمقصود أن النافلة في الآية لم يُرِد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب والمندوب، وإنما المراد: الزيادة في الدرجات، وهذا قدر بين الواجب والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافيًا لما دل عليه الأمر من الوجوب»(١).

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ «عسى» من الله واجبة، ووعد منه عز وجل له ﷺ بأن يبعثه هذا المقام المحمود.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «عسى». أي: عسى أن يقيمك ربك «مقامًا محمودًا»، أي: مقامًا يحمده فيه أهل الجمع كلهم، كما قال ﷺ(٢)، وهو مقام الشفاعة العظمى لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: «**هي الشفاعة**»(٣).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٧٥- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤١، ٥٢٨، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٣٧- وقال: «حديث حسن».

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

لما أمره تعالى بالشكر الفعلي بإقام الصلوات المكتوبة في أوقاتها، وصلاة التهجد في الليل، عطف عليه أمره بالشكر القولي باللسان، بالابتهال إلى الله تعالى بسؤاله أن يدخله مدخل صدق، ويخرجه مخرج صدق، وينصره.

قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾، أي: وقل يا رب.

﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، «مدخل»: مصدر ميمي من الرباعي «أدخل»، وزنه «مُفعَل» بضم الميم وفتح العين، و«مُخْرَج»: مصدر ميمي من الرباعي «أخرج»، وزنه «مُفعَل» بضم الميم وفتح العين.

قال ابن القيم: «وحقيقة الصدق الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة، فمدخل الصدق ومخرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفي مرضاته، بالظفر بالبغية وحصول المطلوب.. ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في بدر، وكذلك مدخله ﷺ المدينة كان مدخل صدق بالله ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة؛ ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجَلّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق؛ إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته»[1].

﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك.

﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، أي: تأييدًا وحجة وقوة وغلبة. وقد آتاه الله ذلك كله فأيده ونصره على أعدائه، ومكّنه من الدعوة إلى الله تعالى، وإقامة شرعه وتطبيق حدوده، وقهر من ناوأه وعاداه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٩٨- ٩٩.

وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال عثمان رضي الله عنه: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١).

قال ابن كثير بعد أن ذكر قول عثمان رضي الله عنه: «أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع».

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

قوله: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو ما بعث الله به رسوله ﷺ من الوحي في الكتاب والسنة. والحق بمعنى: الأمر الثابت.

﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾، أي: ذهب وزال واضمحل الباطل، وهو ما ليس بحق.

﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾، أي: لا ثبات له أمام الحق، ولا بقاء له مع الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾»(٢).

قال السعدي(٣): «أي: أن هذا هو وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة ورواج إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل فلا يبقى له حراك؛ ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمنة والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته».

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «من»: لبيان

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل، ٤٧٢، ومسلم في الجهاد- إزالة الأصنام من حول الكعبة ١٧٨١، والترمذي في تفسير سورة بني إسرائيل ٣١٣٨، وأحمد ١/ ٣٧٧، ٣٧٨.

(٣) في: تيسير الكريم الرحمن، ٤/ ٣٠٨.

الجنس، لا للتبعيض؛ لأن القرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

و«ما»: موصولة، أي: الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين.

والشفاء منه ما يكون شفاء للأمراض الحسية، ومنه ما يكون شفاء للأمراض المعنوية والنفسية.

قال عنترة(١):

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس: أيك عنتر أقدم

والقرآن الكريم فيه الشفاءان، فهو شفاء للقلوب من الأمراض المعنوية: من الشرك والشك والنفاق والجهل، ومن الحسد والحقد والعداوة والبغضاء والشحناء والإحن، ومن الكبر والعجب والخيلاء، وغير ذلك.

قال ابن القيم: «فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه شفاءً قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن»(٢).

وهو شفاء لأمراض القلوب والأبدان الحسية الجسدية والنفسية، بحيث يقرؤه المريض على نفسه أو يُقرأ عليه، فيشفى بإذن الله تعالى، كما في قصة اللديغ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال: «فلدغ سيد القوم، فقالوا: هل فيكم من راقٍ؟ فقلنا لهم لم تقرونا. فجعلوا لنا جعلًا، فجعل رجل منا يقرأ بفاتحة الكتاب ويتفل حتى قام اللديغ كأنما نشط من عقال. فأعطوهم قطيعًا من الغنم» الحديث(٣).

﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «رحمة»: معطوف على ﴿شِفَآءٞ﴾، ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ متعلق

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢١٩).

(٢) انظر: بدائع التفسير: ٣/ ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٣٦، ومسلم في السلام ٢٢٠١، وأبو داود في البيوع ٣٤١٨، والترمذي في الطب ٢٠٦٣، وابن ماجه في التجارات ٢١٥٦.

بـ«ننزل»، أي: شفاء للمؤمنين خاصة، ورحمة أيضًا للمؤمنين خاصة يهتدون به إلى الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، دون غيرهم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ولا يزيد الظالمين بالشرك إلا خسارًا؛ لكفرهم، وعدم إيمانهم به، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٤٤﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ۝٤١﴾ [الإسراء: ٤١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ۝٨٣ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦۖ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ۝٨٤﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، أي: أغدقنا عليه النعم من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب، والصحة والمال، وغير ذلك.

﴿أَعۡرَضَ﴾، أي: أعرض بقلبه عن الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ [يونس: ٢١].

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قرأ أبو جعفر، وابن ذكوان بألف قبل الهمزة: و«ناء»، وقرأ الباقون بألف بعد الهمزة: ﴿وَنَـَٔا﴾.

والجانب: الجنب، وهو الجهة التي فيها اليد، وهما جانبان: يمين ويسار.

والمعنى: تولى ببدنه وتباعد بكليته عن طاعة الله ربه وعبادته؛ كبرًا وعنادًا وغرورًا،

فجمع بين الإعراض والتباعد.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، أي: وإذا أصابه الشر من مرض أو فقر أو هم أو غم أو تسلط عدو، أو غير ذلك من المصائب والحوادث والنوائب.

﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ ﴿يَـُٔوسًا﴾ صيغة مبالغة تدل على شدة يأسه.

ومعنى ﴿يَـُٔوسًا﴾، أي: قنوطًا من رحمة الله تعالى ومن الفرج، أي: قنوطًا أن يحصل له بعد ذلك الشر خير أبدًا.

وكان المؤمل إذا كانت النعمة تبطره أن تكون النقمة تذكره، ولكن هيهات ذلك.

فهذه طبيعة الإنسان إلا من هداه الله تعالى يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره، وإذا مسه الشر كان يؤوسًا من الخير، يظن أنه لن يحصل له بعد ذلك الشر خير أبدًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩-١١].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي: قل يا محمد كل يعمل على طريقته وما يليق به، وكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها.

قال ابن القيم: «أي: كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل يجري على طبيعته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله».

قال: «والنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفوس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش، ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها

أكبر من كل ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك. فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها»(١).

وفرق بين من يسعى لفكاك نفسه وإعتاقها، ومن يسعى لإهلاك نفسه وإيباقها، أعظم مما بين الثرى والثريا، والأرض والسماء، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(٢).

قال الشاعر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب(٣)

وقال الآخر:

ومن يتهيب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر(٤)

وقال الآخر:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام(٥)

وقال الآخر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا

فلا تسكنن الدهر دار مذلة ... تعد مسيئًا بعدما كنت محسنا(٦)

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: فربكم أيها الناس أعلم بالذي هو أهدى طريقا، كما أنه سبحانه أعلم بالذين هم أضل طريقا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٠٠- ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) البيت لعلى بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص١٥).

(٤) البيت لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص٧٠).

(٥) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص١٦٤).

(٦) البيتان مجهولا النسب. انظر: «الدر الفريد» (٢/ ٣٦٧)، «أدب الدنيا والدين» (ص٣٢٠).

وفي هذا وعد للمهتدين المؤمنين، ووعيد وتهديد للضالين الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١٢١- ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤].

الفوائد والأحكام:

١- تحديد وبيان أوقات الصلوات الخمس المكتوبة، التي لا تصح الصلاة قبلها ولا بعدها، وأن الوقت شرط لصحة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾الآية.

٢- أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، أي: واجبة عليهم في أوقاتها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

٣- أن وقت صلاة الظهر من زوال الشمس، وصلاة العصر بعدها إلى الغروب؛ لقوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾.

٤- جواز الجمع بين صلاة الظهر وصلاة العصر للعذر؛ لأن وقتهما واحد.

٥- أن وقت صلاة المغرب بعد غروب الشمس، وصلاة العشاء بعدها عند اشتداد ظلمة الليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾.

٦- جواز الجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء للعذر؛ لأن وقتهما واحد.

٧- أن وقت صلاة الفجر عند طلوع الفجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

٨- تعظيم صلاة الفجر وفضيلة إطالة القراءة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، أي: يشهده الله والملائكة.

٩- أن القراءة واجبة أو ركن من أركان الصلاة؛ لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دلّ ذلك على وجوبه فيها.

١٠- مشروعية التهجد وقيام الليل، وهو سنة في حق الأمة، وواجب في حقه ﷺ؛ رفعةً في قدره، وزيادةً في أجره، وعلوًّا في مقامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

١١- تشريفه ﷺ بخطاب الله عز وجل له، وتكريمه له بوعده المقام المحمود، وهو

الشفاعة العظمى للناس يوم القيامة، لفصل القضاء بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ، لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾.

١٣- أمر الله عز وجل له ﷺ بالدعاء والابتهال إلى ربه بأن يدخله مدخل صدق ويخرجه مخرج صدق، في جميع مداخله ومخارجه، من خروجه من مكة ودخوله المدينة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾.

١٤- شدة حاجته ﷺ إلى تأييد الله تعالى له بالحجة والبرهان، ونصره بالقوة والسلطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾، والأمة أحوج ما تكون إلى الدعاء بهذا الدعاء.

١٥- تهديد كفار قريش ووعيدهم بأنه قد جاءهم من الله الحق، الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعث الله به رسوله من القرآن، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح.

١٦- ثبات الحق ورسوخه، وزوال الباطل واضمحلاله، وأنه لا ثبات للباطل أمام قوة الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾.

١٧- أن من طبيعة الباطل الزهوق والزوال والاضمحلال، ولا ثبات له أمام الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

١٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته، لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات.

١٩- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

٢٠- أن القرآن الكريم شفاء للمؤمنين من الأمراض المعنوية والنفسية والجسدية، ورحمة لهم، به يهتدون إلى الطريق المستقيم في الدنيا، وإلى طريق الجنة في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢١- أن القرآن الكريم لا يزيد الظالمين- بسبب كفرهم به، وعدم انتفاعهم بما فيه- إلا خسارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٢٢- أن من طبيعة الإنسان الإعراض عند النعمة، والاغترار وعدم الشكر، واليأس الشديد من رحمة الله ومن الفرج عند البلية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾، ولا يستثنى من هذا إلا من هداه الله ووفقه إلى سلوك صراطه المستقيم.

٢٣- أن المنعم بسائر النعم هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

٢٤- أن الخير كله بيديه عز وجل، والشر ليس إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، فأضاف الإنعام عز وجل إليه دون الشر، مع أنه المقدر لذلك كله.

٢٥- أن كل أحد من الخلق يعمل على شاكلته وطريقته، وما يليق به ويميل إليه، فعامل خيرًا، وعامل شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، كما قال ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(١).

٢٦- الوعد للمهتدين، والوعيد للضالين، وأنه عز وجل أعلم بمن هو أهدى طريقًا، كما أنه أعلم بمن هو أضل طريقًا، وسيجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

٢٧- أنه لا إكراه في الدين، فكل يعمل على طريقته وما يميل إليه ويختاره، فمن عمل خيرًا أثيب عليه، ومن عمل شرًّا عوقب به.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه، يسمعكم ما تكرهون. فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن الروح. فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يوحى إليه، فتأخرت عنه، حتى صعد الوحي، ثم قال: «﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾» الآية[1].

قال ابن كثير[2] بعد ذكره حديث ابن مسعود: «وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية، ويمكن أن يجاب عن هذا بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه وحي بأن يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه وهي هذه الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾».

ثم استدل على نزول هذه الآية بمكة بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير بني إسرائيل ٢٧٢١، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح ٢٧٩٤، وأحمد ١/ ٣٨٩، ٤١٠، ٤٤٥، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٤١.

(٢) في «تفسيره» ١/ ١١٢.

قال: وأنزل الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]»(١).

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾، أي: يسألك- يا محمد- اليهود عن الروح.

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: من شأنه وأمره الكوني، ومما استأثر بعلمه واختص به دون الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد اختلف في المراد بالروح المسؤول عنها:

فقال بعض المفسرين: المراد بها أرواح بني آدم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، فالسؤال عن حقيقة الروح وماهيتها التي بها يحيا الإنسان وبخروجها يموت، وقد رجح هذا ابن حجر(٢) والشوكاني(٣).

وقال بعض المفسرين: المراد بها جبريل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

وقال بعضهم: المراد بها طائفة من الملائكة.

وقال بعضهم: المراد بها ملك عظيم، فعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الروح ملك»(٤).

قال ابن القيم: «وأكثر السلف- بل كلهم- على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم، ومعلوم أنهم سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٥، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ٣١٤٠، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: «فتح الباري» ٨/ ٢٥٥- ٢٥٦.

(٣) «فتح القدير» ٣/ ٢٥٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٥/ ٧١.

(٥) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٠٤.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ما أعطاكم الله وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، أي: أن علمكم وعلم جميع الخلائق في علم الله تعالى قليل، كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه في قصة الخضر، أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نقرة، أي: شرب منه بمنقاره، فقال لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ الواو: استئنافية، أو عاطفة، واللام موطئة للقسم، أي: والله لئن شئنا، أي: أردنا كونًا وقدرًا.

﴿لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: لنذهبن بالقرآن الذي أوحيناه إليك، أي: لنذهبنه عنك ونسلبنه منك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ الضمير في «به» يعود إلى مصدر «نذهبن».

﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ يمنعنا من إذهابه عنك، أو يرده إليك بعد ذهابنا به.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الاستثناء منقطع، و«إلا» بمعنى «لكن» حرف استدراك، أي: لكن رحمةً من ربك لم نشأ الذهاب بما أوحينا إليك، بل تكفلنا ببقائه وحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: ومن فضله عليك أنه لن يذهب بالذي أوحاه إليك.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟﴾ اللام موطئة للقسم، و«أن»

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٢٧، ومسلم في الفضائل ٢٣٨٠، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٤٩.

والفعل «يأتوا» في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: على الإتيان بمثل هذا القرآن.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ جواب القسم المحذوف، وجرد من اللام كراهة اجتماع لامين: لام القسم ولا النافية.

﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: بقرآن مثل هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى.

والمعنى: قل مقسمًا لهم بالله: والله لئن اجتمعت الإنس والجن، أي: اتفقوا، واتحد رأيهم على المجيء بمثل هذا القرآن الذي أنزله الله عليّ.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، أي: لا يستطيعون الإتيان بمثله، بل ولا بعشر سور من مثله، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [الآية: ١٣]، بل ولا بسورة من مثله، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [الآية: ٢٣]، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ [الآية: ٣٨].

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، أي: معينًا، أي: ولو تعاونوا وتساعدوا وتضافروا على ذلك.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: صرفنا للناس الآيات في هذا القرآن، ونوعنا لهم الأساليب، وبينا لهم الحجج، وأوضحنا لهم الأدلة والبراهين، وضربنا لهم الأمثال، وكررنا لهم المواعظ.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ «إلا» أداة حصر، ﴿كُفُورًا﴾ مفعول به منصوب، والتقدير: لم يرضوا إلا كفورًا، أي: جحودًا للحق، وردًّا له، وتماديًا في الباطل والضلال.

الفوائد والأحكام:

١- سؤال اليهود والمشركين النبي ﷺ عن الروح؛ عنادًا وتحديًا وتعجيزًا له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾.

٢- أن الروح من شأن الله وأمره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾، وقوله: ﴿رَّبِّكَ﴾.

٤- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له، وأنه إنما هو مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

٥- أن اليهود والمشركين وغيرهم من الخلق لم يعطوا إلا قليلًا من علم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٧- إخباره عز وجل أنه لو شاء لذهب بما أوحاه إليه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٨- تعظيم القرآن الكريم، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾الآية.

٩- أنه لو قدر- فرضًا- الذهاب بما أوحاه عز وجل إليه ﷺ، فلن يجد له به على الله وكيلًا يمنع من إذهابه عنه، أو يرده عليه بعد إذهابه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾.

١٠- أنه لا أحد من الخلق- لا الرسول ﷺ، ولا غيره- يستطيع منع أو دفع أو رفع ما أراد الله به.

١١- أن من رحمته عز وجل له ﷺ وفضله عليه تكفله بحفظ القرآن الكريم وعدم الذهاب به؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

١٢- إثبات رحمة الله تعالى الفعلية التي يوصلها إلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾.

١٣- عظم فضل الله عز وجل على نبيه ﷺ، ومن أجلِّ ذلك إنزال القرآن عليه، ورحمته بحفظه له، وعدم الذهاب به.

١٤- تحدي الإنس والجن بالإتيان بمثل القرآن، مهما اجتمعوا وتظاهروا وتعاونوا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

١٥- إثبات إعجاز القرآن الكريم.

١٦- إقامة الحجة على الخلق بتصريف الآيات في القرآن الكريم، وتنويع

الأساليب، وبيان الحجج، وإيضاح الأدلة والبرهان، وضرب الأمثال، وتكرار المواعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

١٧- إباء كثير من الناس إلا الكفر، وامتناعهم من الإيمان، مع تصريف القرآن، وقيام الحجة على الخلق أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

لما تحدى عز وجل جميع الإنس والجن بالإتيان بمثل هذا القرآن، وأنهم لا يستطيعون ذلك مهما تظاهروا وتعاونوا، وبيّن أنه صرّف للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثرهم إلا كفورًا، أتبع ذلك بذكر ما عليه المشركون من التعنت والعناد واقتراح الآيات.

وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، أن جمعًا من المشركين من سادة قريش منهم عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبو سفيان، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وعبدالله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، وغيرهم اجتمعوا عند الكعبة، وبعثوا إلى النبي ﷺ فجاءهم، وطلبوا منه التنازل عما جاءهم به، ورغبوه ليكف عما يدعوهم إليه، فلما أبى أن يقبل منهم ذلك لجؤوا إلى اقتراح أن يأتيهم بكذا وكذا من الآيات، من تسيير الجبال، وتفجير الأرض بالينابيع، وغير ذلك، أو إسقاط السماء عذابًا لهم، أو الإتيان بالملائكة، ونحو ذلك مما أمْرُهُ إلى الله تعالى، وليس بمقدوره ﷺ(١). فأعرضوا عن القرآن أعظم الآيات وأوضح

(١) أخرجه مطولاً الطبري في «جامع البيان» (١٥/ ٨٧- ٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

البينات، وأخذوا يقترحون ما تمليه عليهم آراؤهم الفاسدة وعقولهم الضالة من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾.

قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب بفتح التاء وإسكان الفاء وضم الجيم وتخفيفها: ﴿تَفْجُرَ﴾. وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم وتشديدها: «تُفَجِّر». «والتفجير»: التشقيق، وهو أبلغ من «الفجر» وهو الشق.

أي: لن نصدقك فيما جئتنا به إلى غاية أن تفجر لنا من الأرض ينبوعًا، أي: عينًا معينًا جارية.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ «أو» في هذا الموضع والمواضع التي بعده عاطفة تفيد التخيير، أي: أو يكون لك بستان من نخيل وعنب.

﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، أي: فتشقق الأنهار.

﴿خِلَٰلَهَا﴾، أي: خلال هذه الجنة، أي: في وسطها وجنباتها وبين أشجارها.

﴿تَفْجِيرًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: تفجيرًا واسعًا قويًا كثيرًا.

ومقصودهم أن يدعو ربه، فيحصل ذلك معجزةً وخارقًا للعادة بين عشية وضحاها، دون فعل الأسباب لذلك.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، وعاصم: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين. وقرأ الباقون بإسكانها: «كِسْفًا».

﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ في تهديدك لنا بالعذاب، و«الزعم»: أشد الكذب، ودعوى المستحيل.

وفي قولهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ اعتراض بين الفعل «تسقط» وبين المتعلق به «علينا»؛ للتهكم والتعجيب، وتأكيد التكذيب فيما تُوُعِّدوا به من العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤﴾ [الطور: ٤٤].

وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٥- ٢٩٧)، «تفسير ابن كثير» (٥/ ١١٥- ١١٧).

أي: فيما زعمت مما لا يصدقه أحد، وهذا كقول قوم شعيب عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾ [الشعراء: ١٨٧].

﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، أي: قطعًا من العذاب، عقوبة لنا، وتُعجل لنا العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، أي: نشاهدهم مقابلةً وعيانًا.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾، أي: من ذهب.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: تصعد في السماء، في سلم ونحن نشاهدك وننظر إليك. ثم لم يكتفوا بهذا، بل زادوا بقولهم:

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾، أي: ولن نؤمن ونصدق لمجرد رقيك في السماء.

﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ «حتى»: للغاية، أي: إلى غاية أن تنزل من السماء علينا ﴿كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾، أي: تنزل على كل واحد منا كتابًا له خاصة منشورًا يقرؤه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ٥٢﴾ [المدثر: ٥٢].

﴿قُلْ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر: «قال» فعل ماضٍ. وقرأ الباقون: ﴿قُلْ﴾ فعل أمر.

﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾، أي: أسبح ربي، وأنزهه وأقدسه، وأجله، وأعظمه، مما اجترأتم عليه مما فيه سوء أدب مع الله تعالى، ومن أن أدعي قدرتي على شيء مما ذكرتم مما لا يستطيعه غير الله عز وجل؛ ولهذا قال:

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ «هل»: حرف استفهام بمعنى النفي، أي: ما كنت، ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ كغيري من البشر، ﴿رَّسُولًا﴾ خصني ربي برسالته إليكم، وكلّفني بها، أي: فليس بيدي شيء من الأمر، وإنما مهمتي تبليغ رسالة ربي إليكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ

ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف الجر المحذوف، أي: وما منع الناس من الإيمان، أي: وما منع أكثر الناس من الإيمان واتباع الرسل.

﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: حين أتاهم الهدى من عند الله تعالى، على ألسنة رسله عليهم السلام، وفي كتبه المنزلة عليهم.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل قالوا: في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ« منع »، أي: وما منعهم من الإيمان إلا قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، الهمزة: للاستفهام التعجبي، أي: متعجبين جهلًا منهم أن يكون الرسول بشرًا من جنسهم، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦].

وكذا قال كثير من الأقوام لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: ٢٤].

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾، أي: مستقرين، كما أنتم فيها.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾، أي: من جنسهم، كما بعثنا فيكم بشرًا رسولًا من جنسكم؛ لطفًا ورحمةً بكم، لتفقهوا عنه وتفهموا خطابه وكلامه، ولو بعث الله إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه؛ ولهذا امتن الله على الأمة إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم، ومن جنسهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ الباء: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: كفى الله شهيدًا بيني وبينكم، أي: شهيدًا عليّ وعليكم، يشهد لي بصدقي فيما جئتكم به، وأنه هو الحق، ويشهد عليكم بتكذيبكم الحق وردكم له.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعليل للاكتفاء به تعالى شهيدًا، أي: ذا خبرة تامة، وذا بصر واطلاع على جميع أفعال عباده وأقوالهم وأحوالهم: الباطنة والظاهرة، الدقيقة والجليلة، الخفية والجلية.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو مشركي مكة وردهم الحق، وكفرهم بالقرآن أعظم آيات الله تعالى، واقتراحهم من عند أنفسهم الآيات تعجيزًا وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قولهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ﴾، كما قالوا في سورة الفرقان: ﴿لَّوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾ [الآيتان: ٧، ٨].

٢- شدة تكذيبهم للنبي ﷺ وسخريتهم منه؛ لقولهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾.

٣- جرأتهم على الله تعالى، وسوء أدبهم معه؛ لقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾.

٤- إثبات وجود الملائكة.

٥- تسبيح الله وتنزيهه عما يقول الظالمون وتقديسه وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾.

٧- أنه ﷺ ما هو إلا بشر كغيره من البشر، ورسول اختصه برسالته إلى هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

٨- أنه ﷺ ليس بمقدوره الإتيان بما يقترحونه من الآيات، وليس ذلك إليه، وإنما أمر ذلك إلى الله تعالى.

٩- أن من أسباب امتناع كثير من الناس من الإيمان بعد أن جاءهم الهدى، تعجبهم- جهلًا منهم- أن يبعث الله بشرًا رسولًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

١٠- أن من لطف الله تعالى ورحمته وحكمته جعل الرسل إلى البشر بشرًا من جنسهم؛ ليفقهوا ويفهموا عنهم، بخلاف ما لو كان الرسل إلى البشر من الملائكة، لم يستطيعوا مواجهتهم، ولا الأخذ عنهم.

١١- أنه لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين مستقرين فيها لنزل الله عليهم رسولًا من الملائكة- لا من البشر- ليتمكنوا من الأخذ عنه والفهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾، أي: ومن يهده الله، أي: يوفقه للصراط المستقيم، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ حقًّا.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾، أي: ومن يضلله، أي: يضلله عن الصراط المستقيم، فيخذله ويحرمه التوفيق.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه، وإذا لم يجد لهم أولياء فمعنى ذلك نفي وجودهم.

وجمع الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ باعتبار معنى «مَن»، أي: فلن تجد لهؤلاء الضالين أولياء غير الله، يتولونهم وينصرونهم، فيهدونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله؛ لأنه عز وجل المتفرد بالهداية والإضلال، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

وَلِيٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، أي: ونجمعهم يوم القيامة على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «**الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**»(١).

﴿عُمۡيٗا﴾ لا يبصرون، ﴿وَبُكۡمٗا﴾ خرسًا لا ينطقون، ﴿وَصُمّٗا﴾ لا يسمعون، كما كانوا في الدنيا عميًا وبكمًا وصمًا عن الحق، لا يرونه، ولا ينطقون به، ولا يسمعونه، جزاءً وفاقًا.

وهذا لا ينافي أنهم في بعض الأحوال يبصرون وينطقون ويسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف:٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ١٢].

كما لا ينافي ذلك ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: «أما قوله «عميًا» فلا يرون شيئًا يسرهم، وقوله: «بكمًا» لا ينطقون بحجة، وقوله: «صُمًّا» لا يسمعون شيئًا يسرهم»(٢).

﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: مرجعهم ومصيرهم ومنقلبهم نار جهنم.

﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾، أي: كلما سكنت، أي: سكن لهيبها.

﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾، أي: سعرناها بهم، فازدادت لهبًا ووهجًا، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان ٤٧٦٠، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- يحشر الكافر على وجهه ٢٨٠٦، وأحمد ٣/ ١٦٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٤/ ٩٣- ٩٤.

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ [فاطر: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الإشارة لجزاء من أضل الله وحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، ومصيرهم إلى جهنم، أي: ذلك جزاؤهم وعقابهم الذي يستحقونه.

﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم كفروا بآياتنا، أي: كذبوا بآياتنا وأدلتنا الكونية والشرعية وجحدوها.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مستبعدين ومنكرين للبعث بعد الموت، وللموت والحساب والجزاء على الأعمال، كما قال تعالى مخبرًا عنهم قبل هذا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: إئذا كنا عظامًا نخرة بالية، كما قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ [النازعات: ١٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨].

﴿وَرُفَٰتًا﴾، أي: فتاتًا.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الاستفهام تأكيد للإنكار السابق، أي: أئنا إذا صرنا عظامًا ورفاتًا. ﴿لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ اللام للتوكيد، أي: لمعادون ومحيون خلقًا جديدًا، أي: مرة ثانية، أي: كيف نعاد مرة ثانية بعد أن صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والتفرق في الأرض، أي: أن هذا أمر غير ممكن، كما قال تعالى: ﴿* وَإِن تَعْجَبْ

فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ﴾ [الرعد: ٥]؛ ولهذا احتج عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الاستفهام مشوب بالتعجيب من انتفاء علمهم، أي: أولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾، أي: قادر على أن يخلق مثل هؤلاء المكذبين، أي: يعيدهم بأشكالهم وأمثالهم، بأبدانهم وأعيانهم يوم القيامة، وينشئهم نشأة ثانية، وخلقًا جديدًا، كما بدأهم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨١- ٨٢].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾، أي: وجعل لبعثهم من قبورهم وإعادتهم خلقًا جديدًا وقتًا محدودًا، وزمنًا معدودًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧].

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ «إلا» أداة حصر، ﴿كُفُورًا﴾ مفعول به منصوب، أي: لم يرضوا إلا كفورًا، أي: إلا جحودًا للحق، وإنكارًا للبعث وتكذيبًا به، وتماديًا في الباطل والضلال.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾، أي: قل يا محمد لو أنكم أيها الناس

تملكون التصرف في خزائن رحمة ربي وأرزاقه للعباد.

﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ «إذًا» حرف جواب، أي: إذًا لبخلتم خوف نفادها بسبب الإنفاق، وحصول الفقر؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيبًا من ملك الله لما أعطوا أحدًا ولا مقدار نقير؛ لشدة بخلهم وخشيتهم الفقر، بنفاد ما عندهم، مع أن خزائن الله لا تنفد، ولا يغيضها كثرة النفقة، قال ﷺ: «**يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده**»(١).

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾، أي: ممسكًا منوعًا شديد البخل إلا من وفقه الله وهداه، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

الفوائد والأحكام:

١- أن من يهده الله ويوفقه فهو المهتدي حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾.

٢- أن من يضلله الله فليس له أولياء من دونه يهدونه وينصرونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾، كما قال ﷺ: «**من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»(٢).

٣- أن لله عز وجل الخلق والأمر، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

٤- ينبغي طلب الهداية من الله تعالى وحده؛ فهو الذي يهدي من يشاء، كما قال تعالى مخاطبًا سيد الخلق نبينا محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص:٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٠٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٦٨، والنسائي في النكاح ٣٢٧٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٣.

٥- الوعيد الأكيد بالعذاب الشديد للضالين، بحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا إلى جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾.

٦- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٧- أن نار جهنم موجودة معدة لأهلها، وأنها مصير الضالين، وأن لهبها لا ينطفئ، بل يزداد؛ لقوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

٨- أن تعذيب الظالمين مجازاة لهم على كفرهم بآيات الله وإنكارهم البعث؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأن الجزاء من جنس العمل.

١٠- الاستدلال على قدرة الله تعالى التامة على البعث بخلق السموات والأرض، الذي هو أكبر من خلق الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

١١- أن لبعث الناس من قبورهم وإعادتهم خلقًا جديدًا أجلًا لاشك فيه، لا يتقدم ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

١٢- تمادي الظالمين في كفرهم وعنادهم، وعدم نظرهم في الآيات الدالة على بعثهم، ومجازاتهم على كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

١٣- أن الناس- لما جبلوا عليه من البخل- لو ملكوا خزائن الله التي لا تنفد لأمسكوا عن الإنفاق وبخلوا؛ خوف نفادها؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّىٓ﴾.

١٥- أن الإنسان من طبيعته وسجيته التقتير والبخل، إلا من هداه الله ووفقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

أي: ولقد أعطينا موسى عليه السلام تسع آيات بينات واضحات، معجزات ودلائل قاطعات على نبوته وصدق ما أخبر به، وهي: العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وجعل بعضهم: «فلق البحر» بدل نقص الثمرات.

وجمعها الفيروزبادي بقوله:

عصًا، سَنَةٌ، بحرٌ، جرادٌ، وقُمَّلٌ ... دمٌ، ويدٌ، بعد الضفادع، طوفانُ(١)

وهذه التسع أعظم الآيات التي أوتيها موسى، وشاهدها فرعون وقومه من أهل مصر.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٠- ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧- ١٠٨، الشعراء: ٣٢- ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» مادة: (تسع).

ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[الأعراف: ١٣٣].

ومن الآيات أيضًا: تلقف عصا موسى وابتلاعها ما يأفك السحرة من السحر، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف: ١١٧].

ومنها: الطمس على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨- ٨٩].

ومن الآيات التي أوتيها موسى عند مفارقتهم هو وبنو إسرائيل لفرعون وقومه: ضربه البحر بعصاه، وانفلاقه فرقتين، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

ومنها: ضربه الحجر بعصاه، وانفجار العيون منه، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿فَسْـَٔلْ﴾، أي: فاسأل يا محمد.

﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني الموجودين في عهده ﷺ المعاصرين له.

﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾، أي: حين جاء موسى آباءهم وأسلافهم، أي: اسألهم سؤال احتجاج بهم على المشركين، لا سؤال استرشاد.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، أي: مغلوبًا على عقلك بالسحر، فأصبحت تهذي بالكلام الباطل، وبما لا تعرف، أو ساحرًا تؤثر على عقول الناس، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥].

والمقصود بهذا تسليته ﷺ، وتثبيت قلبه وتقويته. أي: فلست أول رسول يُكذَّب

ويُكفَرُ بما جاء به من الآيات، فهذا موسى عليه السلام مع ما آتيناه من الآيات البينات المشاهدات لفرعون وقومه، لم تنجع فيهم الآيات، بل كفروا بها وجحدوها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وأيضًا لو أجبنا هؤلاء الذين اقترحوا الآيات، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها لكذبوا بها، ولما استجابوا، كحال فرعون بعد أن شاهد ما شاهد من الآيات، قال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ الكسائي بضم التاء: «علمتُ»، على وجه الخبر من موسى عن نفسه، أي: لقد علمتُ أن ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقرأ الباقون بفتح التاء: ﴿عَلِمْتَ﴾ خطابًا من موسى لفرعون، أي: لقد علمت يا فرعون في قرارة نفسك أنه ما أنزل هؤلاء الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [الآيتان: ١٣- ١٤]، فأخبر عز وجل أن جحودهم للآيات وتكذيبهم كان عن يقين، وهو أقوى العلم، ظلمًا وعلوًّا منهم.

﴿بَصَآئِرَ﴾، أي: حججًا ودلائل يستدل بها أهل البصيرة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق ما جئتك به.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: وإني لموقن أنك، ﴿يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: هالكًا مغلوبًا ملعونًا مُبعدًا. وجاء جواب موسى لفرعون بمثل ما شافهه فرعون به من قوله: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾؛ مقارعةً له، وإظهارًا لكونه لا يخافه.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أراد»، أي: فأراد استفزازهم من الأرض. والاستفزاز: الاستخفاف، أي: فأراد استخفاف بني إسرائيل، وإبعادهم من أرض مصر وإخراجهم منها.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، أي: فأغرقناه في البحر والذين معه من جنوده الذين

خرجوا يتبعون بني إسرائيل، ﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: كلهم.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد غرقه وهلاكه.

﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: أرض الشام، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨].

قال ابن كثير(١): وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة، مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة همّوا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: وعد الدار الآخرة، وهو ما وعد الله به الخلائق من البعث والحشر والقيامة.

﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أي: أحضرناكم لدينا جميعًا مختلطين أنتم وعدوكم؛ لنجازيكم بأعمالكم، كما حكمنا بينكم في الدنيا بإغراق عدوكم، وتوريثكم الأرض من بعدهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾الآيات.

٢- عظم ووضوح الآيات التي أوتيها موسى الدالة على وحدانية الله تعالى، وصحة ما جاء به وصدقه.

٣- جواز سؤال بني إسرائيل سؤال استشهاد، لا سؤال استرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾.

٤- أن شهادة بني إسرائيل في عهده ﷺ بحكم شهادة أسلافهم وآبائهم؛ لأنهم

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ١٢٤).

يأخذون منهم.

٥- شدة عتو فرعون ومكابرته وعناده، وتكذيبه، وكفره بالآيات التي أرسل بها موسى، ورميه له بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

٦- إقسام موسى عليه السلام على علمه بأنه ما أنزل هذه الآيات إلا رب السموات والأرض، وعلى علم فرعون بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٧- أن الله أنزل هذه الآيات بصائر ودلائل وحججًا، يستدل بها أهل البصيرة على توحيد الله تعالى، وصدق موسى عليه السلام فيما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾.

٨- تيقن موسى عليه السلام بهلاك فرعون وثبوره؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

٩- إرادة فرعون ومحاولته استفزاز بني إسرائيل وإخراجهم من أرض مصر بتضييقه عليهم وأذاه لهم، وإغراقه وجميع من معه، وإنجاء موسى وبني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

١٠- أن العاقبة للمتقين، وأن من أضمر شرًّا وقع فيه، وأن من حفر حفرة لغيره وقع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾.

١١- توريث بني إسرائيل أرض الشام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾.

١٢- إثبات الآخرة والمعاد وجمع العباد، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، وفي هذا وعد لموسى ومن معه من المؤمنين، ووعيد لفرعون وملئه الكافرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الواو: استئنافية، والباء للملابسة في الموضعين، و«الحق»: العدل، والأمر الثابت.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلنا القرآن، وعبر عن القرآن بضمير الغائب تعظيمًا له، أي: أنزلنا القرآن العظيم المعهود المعلوم. أي: وأنزلنا القرآن متلبسًا بالحق متضمنًا له، فيه الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والنهي عن الشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدلالة على كل خير، والتحذير من كل شر، وبيان الثواب والعقاب.

﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾الواو عاطفة، أي: وبالحق وصل إليك يا محمد، محفوظًا من كل شيطان مارد، محروسًا من كل شيطان رجيم، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل، بأصح الأسانيد، أوحاه الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل إلى النبي ﷺ، وعلمه إياه، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩- ٢١]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥].

فهو حق من عند الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام،

وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما أرسلناك يا محمد إلا مبشرًا لمن أطاعك فآمن وعمل صالحًا بالسعادة والجنة، ونذيرًا لمن عصاك فكفر بالشقاء والنار. ومن لازم ذلك البلاغ، ببيان الأوامر والنواهي والأحكام، التي يبشر من امتثلها وينذر من خالفها، إضافة إلى أنه هو وغيره من الرسل مكلفون- كغيرهم من البشر- بامتثال تلك الأحكام.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾، أي: بيناه وفصلناه آية آية، وأنزلناه مفرقًا مُنجَّمًا حسب الوقائع، إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة.

﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تقرأه على الناس على مكث، أي: على مهل وتؤده، وترسُّل وترتيل؛ ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، أي: شيئًا بعد شيء؛ ليكون ذلك أدعى لحفظه وفهمه، والعمل به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن المقترحين لغيره من الآيات.

﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾، أي: آمنوا بالقرآن، أي: صدقوا به، أو لا تصدقوا به، أي: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا، فهو حق ثابت؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩].

أي: إن الذين أعطوا العلم من قبل نزول القرآن من صالح أهل الكتاب، كورقة بن نوفل، وعبدالله بن سلام، وغيرهما ممن آمن من أهل الكتاب لما عندهم من العلم، وفي هذا تعريض بجهل من أعرضوا عنه، وقد قيل: المراد بالذين أوتوا العلم: محمد ﷺ وأصحابه.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: إذا يقرأ عليهم القرآن.

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، أي: يتأثرون به، ويخضعون له، ويخرون على الأذقان وعلى وجوههم.

﴿سُجَّدًا﴾ حال، أي: سجدًا لله تعالى؛ تعظيمًا له عز وجل على نعمته في إنزال هذا القرآن، وانقيادًا وعبادة له؛ لأن من السنة سجود المستمع للقرآن كالتالي له.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾، أي: ننزه ربنا ونقدسه ونعظمه، ونتعجب من تمام قدرته، فجمعوا بين تعظيم الله عز وجل بالفعل بالسجود والخضوع له، وبين تعظيمه بالقول بتسبيحه وتنزيهه عما لا يليق به وتقديسه، كقوله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥].

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾، أي: وعد ربنا بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

﴿لَمَفْعُولًا﴾ اللام: للتوكيد، أي: لواقعًا وحاصلًا، لا خلف فيه، ولا شك.

كما أن وعده عز وجل بالتوراة والإنجيل ببعثة محمد ﷺ والبشارة به حق وصدق، وقع كما وعد وأخبر عز وجل.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وتأكيد له.

﴿يَبْكُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم يبكون خضوعًا لله تعالى، كما قال في سورة مريم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [الآية: ٥٨].

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، أي: ويزيدهم سماع القرآن، ﴿خُشُوعًا﴾، أي: خضوعًا لله تعالى، واستكانةً له، وتصديقًا بكتابه، وتعظيمًا لكلامه عز وجل، وإيمانًا وتسليمًا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ

وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين اسم الله عز وجل: «الرحمن»، ووصفه عز وجل بالرحمة، كما في حديث صلح الحديبية لما قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «اكتب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»، قال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم(١).

﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، أي: ادعوا الله ونادوه وسموه: بسم الله، أو باسم الرحمن، لا فرق في ذلك.

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ «أيًا» اسم شرط جازم مفعول به منصوب، و«ما» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، ﴿تَدْعُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف النون.

﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والجملة تعليل للتخيير السابق، أي: لأن له الأسماء الحسنى، أي: كل أسمائه حسنى، فليس فيها اسم غير حسن حتى ينهى عن دعائه به، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

لكن يستحب أن يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم، فيقال: يا رحيم ارحمنا، ويا غفور اغفر لنا، ويا رزاق ارزقنا... وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣٤، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

سبب النـزول:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مختف بمكة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾»(١).

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: ولا تجهر بقراءتك القرآن في صلاتك؛ لأن المشركين المكذبين بالقرآن إذا سمعوه سبوه، وسبوا من أنزله، ومن جاء به.

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، أي: ولا تسر بها، فلا تُسمع أصحابك.

﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، أي: واسلك بين الجهر بالقراءة والمخافتة بها طريقًا وسطًا، تُسمع بها أصحابك، ولا يسمعه المشركون المكذبون، فالمنهي عنه الجهر أو المخافتة في القراءة.

وعن عائشة رضي الله عنها: «﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أنزلت في الدعاء»(٢). وهكذا روي عن جمع من السلف أنها نزلت في الدعاء.

وهذا قد يحمل على ما يشرع الجهر به في الصلاة من التكبير وقول «سمع الله لمن حمده»، والدعاء والذكر بعد الصلاة، فهذا أيضًا ينبغي أن يكون بين الجهر والمخافتة كالقراءة سواء.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «الحمد» وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، و«ال»

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، ٧٥٢٥، ومسلم في الصلاة، التوسط في القراءة بين الجهر والإسرار إذا خاف من الجهر مفسدة، ٤٤٦، والنسائي في الافتتاح، ١٠١١، والترمذي في أبواب التفسير، باب ومن سورة الإسراء، ٣١٤٥، وأحمد ١/ ٢٣، ٢١٥.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات- الدعاء في الصلوات ٦٣٢٧، ومسلم في الصلاة، التوسط في القراءة ٤٤٧.

في «الحمد» للاستغراق، واللام في «لله» للاختصاص والاستحقاق، فله عز وجل المحامد كلها، والثناء والمجد، والكمال المطلق من جميع الوجوه.

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، أي: الذي لم يجعل له ولدًا؛ لكمال ربوبيته وغناه، وحاجة الخلق كلهم إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل له الملك كله، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ «من» سببية، و«الذل»: العجز والافتقار، ضد «العز»، أي: لا يتولى عز وجل أحدًا من خلقه؛ ليتعزز به، ويستنصر به؛ لأنه عز وجل العزيز، ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿وَكَبِّرْهُ﴾، أي: عظّمه بقلبك وقولك وفعلك، باطنًا وظاهرًا، بعبادته وحده لا شريك له، والإخلاص له، وتكبيره وتحميده وتسبيحه، وإجلاله عما لا يليق به، وعما يقول الظالمون المعتدون من نسبة الشريك والصاحبة والولد له، تعالى الله عن ذلك.

﴿تَكْبِيرًا﴾ توكيد، أي: تكبيرًا عظيمًا.

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وما عطف عليه، إيماءٌ إلى وجه اختصاصه عز وجل بالحمد، وسبب الأمر بحمده وتكبيره، وهو تنزهه عن الولد، وانفراده بالملك وغناه وعزته.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، والإنزال والنزول والتنزيل يكون من أعلى، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، وفي هذا رد على

المعتزلة ونحوهم.

٣- تعظيم شأن القرآن الكريم للتعبير عنه بضمير الغائب دون الاسم الظاهر، بقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾.

٤- أن الله عز وجل أنزل القرآن الكريم متلبسًا بالحق والعدل، مشتملًا على الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والهدى إلى الصراط المستقيم، صراط المُنعم عليهم، والتحذير من طرق المغضوب عليهم والضالين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٥- أن القرآن بالحق نزل، ووصل إلى النبي ﷺ بأصح الأسانيد، محفوظًا محروسًا من الانقطاع، والتغيير والتبديل، والزيادة والنقصان، أوحاه الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام، وبلغه جبريل الأمين إلى محمد ﷺ خاتم النبيين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾.

٦- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية.

٧- أن مهمة الرسول ﷺ البشارة بالسعادة والجنة للمؤمنين، والإنذار من الشقاء والنار للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، ومن لازم هذا تبليغ الرسالة، وبيان الأحكام والأوامر والنواهي.

٨- بيان الله عز وجل وتفصيله القرآن، وإنزاله مفرقًا منجمًا حسب الوقائع والأحداث؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾.

٩- أن الحكمة من إنزاله عز وجل القرآن مفرقًا؛ ليقرأه ﷺ على الناس على مكث وتؤده وتمهل وترتيل؛ ليتدبروه؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾.

١٠- تنزيل القرآن شيئًا بعد شيء؛ لأن ذلك أدعى لحفظه وفهمه والعمل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

١١- أن القرآن حق ثابت، سواء آمن به المشركون أو لم يؤمنوا به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، وفي هذا تهديد لهم.

١٢- إيمان صالح أهل الكتاب بالقرآن وخضوعهم وسجودهم عند تلاوته

عليهم، وتسبيحهم ربهم، وتصديقهم وعده بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، ووعده في كتبهم ببعثة محمد ﷺ، وبكاؤهم، وزيادته إياهم خشوعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

١٣- فضل العلم وأهله، وأنه سبب لقبول الحق وتصديقه والإيمان به، والتعريض بذم الجهل وأهله، وأن سبب إعراض المشركين عن القرآن وتكذيبهم به هو جهلهم.

١٤- فضيلة من آمن من أهل الكتاب بالقرآن الكريم، والثناء عليهم، وفي الحديث قال ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، فله أجران**»(١) الحديث.

١٥- إنصاف القرآن لمن آمن من أهل الكتاب، والدعوة إلى المنافسة في الإيمان والعمل الصالح، وتدبر القرآن وتعظيمه، والسجود عند تلاوته وسماعه، وتسبيح الله عز وجل، وتصديق وعده، والبكاء والخشوع عند تلاوة القرآن وسماعه.

١٦- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقولهم: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّنَا﴾.

١٨- مشروعية سجود التلاوة للقارئ والمستمع عند هذه الآية: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

١٩- مشروعية التسبيح والبكاء والخشوع عند قراءة القرآن وسماعه.

٢٠- استواء دعاء الله عز وجل باسمه ﴿الله﴾ أو باسمه «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١١، ومسلم في الإيمان ١٥٤، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٣، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ٢٩٥٦؛ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٢١- إثبات اسميه عز وجل «الله»، و«الرحمن».

٢٢- أن لله عز وجل جميع الأسماء الحسنى، يدعى بها كلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٢٣- نهي الله عز وجل له ﷺ عن الجهر بالقراءة في الصلاة بحيث يسمعه المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، وعن المخافتة والإسرار بها بحيث لا يسمع أصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

٢٤- حثه على أن تكون قراءته وسطًا بين الجهر والمخافتة، بحيث لا يسمعه المشركون، ويسمعه أصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

٢٥- أمره بتخصيص الحمد كله لله تعالى، وتكبيره تكبيرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾، وهذا أمر له ﷺ وللمؤمنين.

٢٦- أن وجه اختصاصه عز وجل بالحمد كله، واستحقاقه له: تنزهه عن الولد وتمام غناه عن غيره مع حاجة غيره إليه، وتفرده وحده بالملك بلا شريك وكمال عزته.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْكَهْفِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكهف»؛ لذكر قصة أصحاب الكهف فيها، وهكذا وردت تسميتها في السنة، كما سيأتي، ويقال لها: «سورة أصحاب الكهف».

ب- مكان نزولها:

مكية، قيل: نزلت جملة واحدة.

جـ- فضلها:

عن البراء بن عازب ﷺ، قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فإذا ضبابة- أو سحابة- قد غشيته، فذكره للنبي ﷺ، فقال: «**اقرأ فلان؛ فإنها السكينة نزلت للقرآن**» أو: «**تنزلت للقرآن**»(١).

وعن أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال**»(٢).

وفي رواية عنه، عن النبي ﷺ: «**من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، عصم من فتنة الدجال**»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم: «إنهن من العتاق الأول، وهم من تلادي»(٤).

د- موضوعاتها:

اشتملت هذه السورة على أربع قصص عظيمة، فيها عبر وعظات وفوائد جليلة، وهي: قصة أصحاب الكهف، الآيات: ٩- ٢٦، وقصة الرجلين: صاحب الجنتين، وصاحبه، الآيات: ٣٢- ٤٤، وقصة موسى والخضر عليهما السلام، الآيات: ٦٠- ٨٢، وقصة ذي القرنين، الآيات: ٨٣- ٩٩.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٤، ومسلم في صلاة المسافرين، نزول السكينة لنزول القرآن ٧٩٥، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٨٥، وأحمد ٤/ ٢٨١.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، فضل سورة الكهف وآية الكرسي ٨٠٩، وأبو داود في الملاحم، خروج الدجال ٤٣٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٦.

(٤) سبق تخريجه.

تفصيل الكلام في موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى وحمده سبحانه على إنزاله الكتاب على نبيه ﷺ- أعظم نعمه على الإطلاق- ووصف هذا الكتاب بالكمال من جميع الوجوه، وبيان الغاية من إنزاله، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

٢- إرشاد النبي ﷺ إلى عدم إشغال نفسه بالأسى والأسف على من لم يؤمن، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

٣- بيان الغاية من إيجاد المخلوقات على الأرض، وبيان مصير تلك المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

٤- ذكر قصة أصحاب الكهف، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

٥- أمر النبي ﷺ باتباع ما أوحي إليه من ربه، وبالصبر مع المؤمنين، وعدم طاعة الغافلين، وبقول الحق، ثم بيان مآل كل من الكافرين والمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

٦- ضرب المثل لكل من الشاكرين لنعم الله والكافرين لها، وبيان عاقبتهما، قال تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

٧- تصوير زوال الدنيا بالنبات الذي تذروه الرياح، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

٨- بيان أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات هي التي تنفع الإنسان وتبقى له، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

٩- ذكر بعض أهوال يوم القيامة، وأن الناس يعرضون على ربهم في ذلك اليوم، ويحاسبون على ما عملوا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

١٠- تكريم الله لآدم وذريته بأمر الملائكة بالسجود له، وبيان عداوة الشيطان لآدم وذريته، والتحذير منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

١١- بيان أن الله هو المتفرد بالخلق والتدبير، ليس لأحد شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

١٢- ذكر حال من أشرك بالله يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

١٣- بيان عظمة القرآن وجلالته مما يوجب الانقياد والتسليم له، إلا أن كثيرًا من الناس يجادلون في الحق، ويمتنعون من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

١٤- بيان الغاية من إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

١٥- بيان أن أشد الناس ظلمًا من أعرض بعد التذكير، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

١٦- بيان أن الله غفور رحيم، يمهل العصاة لعلهم يتوبون، وإن استمروا على ظلمهم أهلكهم، وجعل لمهلكهم موعدا، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

١٧- ذكر طرف من قصة موسى ورغبته في الخير وطلب العلم، وقصته مع الخضر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

١٨- ذكر قصة ذي القرنين، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

١٩- بيان ما يكون في آخر الزمان، وبيان عاقبة الكافرين يوم القيامة، ومن هو الخاسر في ذلك اليوم، ثم بيان مآل المؤمنين، قال تعالى: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

٢٠- بيان أن لله تعالى الكلمات الكاملة الواسعة، التي لا حد لها ولا منتهى، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

٢١- بيان أن الرسول ﷺ بشر يوحى إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

روى عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة، فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، فخرجا من المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وبعض قوله، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث، نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فسألوه، فقال لهم: أخبركم غدًا بما سألتم ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه له في ذلك وحيًا، ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]»(١).

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، «الحمد»: وصف المحمود بصفات الكمال والثناء عليه، مع المحبة والتعظيم. و«أل» فيه للاستغراق والعموم، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاص والاستحقاق.

وهذا خبر من الله تعالى باستحقاقه جميع المحامد واختصاصه بها، فهو المحمود على كل حال، وفي كل وقت، له الحمد في الأولى والآخرة، وفي السموات والأرض.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ القرآن.

فحمد عز وجل نفسه على إنزاله الكتاب على عبده ونبيه محمد ﷺ؛ لأن إنزال الكتاب أعظم نعمة، وأكبر منة امتن الله بها على الناس؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كما قال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

وفي ضمن هذا إرشاد لعباده أن يحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنزَلَ﴾، أي: ولم يجعل لهذا الكتاب عوجًا، كما قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، والعوج: الميل، أي: ولم يجعل له ميلًا عن الحق، ولا مخالفة للحكمة والصواب، ولا تناقضًا ولا اختلافًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

و«عوجًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ولم يجعل له أيَّ شيء من العوج.

﴿قَيِّمًا﴾ معتدلًا مستقيمًا، أخباره صدق، وأحكامه عدل، ويهدي إلى صراط

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة ١/ ٣٢١، وأخرجه من طريق ابن إسحاق الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ١٤٣- ١٤٤ وسنده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق. وانظر: «الروض الأنف» ٣/ ١٢٨، «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٣٢- ١٣٣.

مستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر، أي: يخوف ويحذر الكافرين بهذا الكتاب ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾، أي: عقابًا وعذابًا شديدًا، عاجلًا في الدنيا، وآجلًا في الآخرة، كما قال تعالى لما ذكر في هذا القرآن وصف النار: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ قرأ أبو بكر بإسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون والهاء: «من لدْنِهِ»، وقرأ الباقون بضم الهاء والدال وإسكان النون: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾، أي: من عند الله عز وجل، شديد العقاب، وشديد العذاب، الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على «ينذر»، أي: لينذر ويبشر، والبشارة: الإخبار بما يسر ويفرح ويبهج القلب، أي: ويبشر المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ نعت للمؤمنين، أي: الذين يعملون بجوارحهم الأعمال الصالحات التي اجتمع فيها الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

أي: ويبشر المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والتصديق بقلوبهم في الباطن، وعمل الأعمال الصالحات بجوارحهم الظاهرة.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾، أي: بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، أي: ثوابًا عظيمًا جزيلًا جميلًا، عاجلًا في الدنيا بالحياة الطيبة، وآجلًا في الآخرة بالفوز بدخول الجنات، وما فيها من رؤية الرب العظيم، وألوان النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ للدلالة على تخصيصهم بهذا الأجر، أي: لهم خاصة، وسمى ثوابهم: «أجرًا»؛ لتكفله عز وجل به، وضمانه لهم.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾، «ماكثين» حال، أي: مقيمين لابثين في هذا الأجر الحسن- وهو الجنة- مكثًا ولبثًا أبديًّا دائمًا لا يحول ولا يزول، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ

فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [المائدة: ١١٩، البينة: ٨]، وقال تعالى:﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠، التغابن: ٩].

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ﴾، أي: ويخوف ويحذر من عقاب الله تعالى وعذابه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ كذبًا وباطلًا من اليهود والنصارى والمشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ حيث قال المشركون: الملائكة بنات الله، كما قالت اليهود قبلهم: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى عن المشركين:﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾، أي: ما لهم بهذا القول- وهو نسبة الولد له عز وجل- ﴿مِنۡ عِلۡمٖ﴾، «من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما لهم بهذا القول الذي افتروه واختلقوه من أيِّ علم، بل هو محض كذب وزور وباطل.

﴿وَلَآ لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾، أي: ولا لآبائهم وأجدادهم وأسلافهم به من علم.

﴿كَبُرَتۡ﴾ أي: عظمت ﴿كَلِمَةٗ﴾ تمييز، أي: كبرت كلمتهم هذه كلمة، ومعنى الكلام على التعجب، أي: ما أكبرها كلمة! أي: في بشاعتها وفظاعتها وقبحها.

وأطلقت «كلمة» على الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقال ﷺ: «**إن أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الجملة في محل نصب صفة لـ«كلمة»، أي: ليس لها مستند ولا مصدر غير الأفواه بلا تعقل، والتعبير بالمضارع لاستحضار خروجها من أفواههم تخييلًا لفظاعتها وشناعتها.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، و«كذبًا»

---

(١) سبق تخريجه.

مفعول به منصوب، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إلا قولًا كذبًا، أي: كذبًا محضًا، في قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ وغير ذلك، أي: ما يصدر منهم قول إلا الكذب.

فأبطل الله عز وجل قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ من وجوه ثلاثة:

الأول: أنهم ما لهم به من علم.

والثاني: لشناعته وقبحه؛ لقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

والثالث: كونه كذبًا؛ لقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾:

قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الفاء: استئنافية، و«لعل» للإشفاق، وفيها معنى النهي.

والخطاب للنبيﷺ، أي: مهلك نفسك وقاتلها.

قال ذو الرمة(١):

ألا أيهذا الباخع الوَجدُ نفسه ... لشيء نَحَتْه عن يديه المقادرُ

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾، أي: على آثار المشركين من قومك.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾، أي: إن لم يؤمنوا ويصدقوا، واستمروا على كفرهم، أي: بسبب عدم إيمانهم.

﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي: بهذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿أَسَفًا ۝٦﴾ منصوب على المفعول لأجله، أي: لأجل الأسف، أي: لا تهلك نفسك حزنًا وغمًّا وهمًّا، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧].

---

(١) انظر: «ديوانه» ٢/ ١٠٣٧.

أي: إنك وصلت إلى حال يشفق عليك أن تهلك نفسك على آثار المشركين من قومك بسبب كفرهم وعدم إيمانهم بالقرآن، همًّا وغمًّا، وأسفًا وحزنًا عليهم، وذلك شفقة منه ﷺ على أمته، ورحمة بهم، وحرصًا منه على هدايتهم.

والمراد: تسليته ﷺ، وإرشاده بألا يُضر بنفسه بالأسف والحزن والندم على هؤلاء المكذبين، ولا يكترث بهم، وألا يفت تكذيبهم له من عزمه في طريق دعوته، وفيه إيماء إلى أنهم أو بعضهم لن يصيروا إلى الإيمان أبدًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

لعل مناسبة هذه الآية لما قبلها: التعريض باغترار المشركين بما هم فيه من زينة الحياة الدنيا.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾، «ما»: اسم موصول مبني في محل نصب، أي: إنا خلقنا أو صيرنا جميع الذي على الأرض من حيوان وجماد، وبساتين وأنهار، ونبات وأشجار، وأموال ومعادن، ومآكل ومشارب ومساكن، وملابس ومراكب، ومباهج ومناظر، وغير ذلك مما يتمتع به الناس.

﴿زِينَةً لَّهَا﴾، أي: زينة للأرض، يتزين بها الناس في هذه الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٤٢، والترمذي في الفتن ٢١٩١، وابن ماجه في الفتن ٤٠٠٠، وأحمد ٣/ ٢٢.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نبلوهم، أي: نختبرهم ونمتحنهم، والضمير يعود الى الخلق.

﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أيهم أخلص عملًا وأصوبه، ولم يقل: أكثر عملا؛ لأن العبرة بالأحسن، لا بالأكثر، أي: بالكيف لا بالكم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، أي: أخلصه وأصوبه.

وهو عز وجل جعل هذه الزينة ليبلوهم من هو أحسن عملًا؛ وهو من يتعلق بالله، ومن هو أسوأ عملًا ممن يتعلق بالزينة، وإنما خص بالذكر من هو أحسن عملًا تنويهًا بهم، وتشريفًا لهم، وإغراء بمنهجهم.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ اللام: للتوكيد، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: لمصيِّرون جميع الذي على الأرض من جميع المخلوقات.

﴿صَعِيدًا﴾ ترابًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿جُرُزًا ﴿٨﴾﴾، أي: خاليا لا نبات فيه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧]، أي: اليابسة الجرداء التي لا حياة فيها ولا نبات.

فأخبر عز وجل أولًا: أن ما على الأرض زينة لابتلاء الخلق أيهم أحسن عملًا، ثم عطف على ذلك بالإخبار بجعل ما عليها صعيدًا جرزًا، وزوالها وخرابها وهلاكها.

وفي هذا تسلية له ﷺ؛ لئلا يأسى على تكذيب المشركين له ببيان حقيقة الدنيا وحقارتها، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]

ولهذا لما نام ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، وقال له عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال ﷺ: «**ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا**

كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

وأخذ ﷺ بمنكب ابن عمر رضي الله عنهما، وقال له: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**». وكان ابن عمر يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- أن جميع المحامد واجبة لله تعالى ومستحقة له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٢- حمد الله عز وجل لنفسه على إنزال القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي ضمن هذا إرشاد لعباده أن يحمدوه على هذه النعمة العظيمة، التي هي أجل نعمة أنعم الله بها على العباد، وهي إنزال القرآن الكريم.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾.

٤- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٥- فضيلة العبودية لله تعالى، وأن أشرف وصف يوصف به البشر عبوديتهم لله عز وجل؛ ولهذا وصف الله بها رسوله محمدًا ﷺ، سيد الخلق وأفضل الرسل، في مقام إنزال الكتاب عليه، كما وصفه بها في مقام قيامه ﷺ في الصلاة يدعوه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وهذان أعلى المقامات.

٦- تعظيم شأن القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالتعريف بـ«أل»؛ لأنه أعظم الكتب وأفضلها وأشرفها.

٧- حفظ القرآن الكريم وصيانته وسلامته من أي عوج وميل عن الحق، وموافقته للحكمة والصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾.

٨- قيام القرآن الكريم على العدل والاستقامة في أخباره وأحكامه، فأخباره

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣.

صدق، وأحكامه عدل؛ لقوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾.

٩- أن الحكمة من إنزال القرآن الكريم: الإنذار والتحذير للكافرين من عذاب الله تعالى، والتبشير للمؤمنين بالثواب الحسن؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

١٠- شدة بأس الله وعقابه، مما يوجب الحذر منه؛ لأن الله وصفه بالشدة، وأخبر أنه من لدنه، وهو سبحانه شديد العقاب، وشديد العذاب، لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

١١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب والباطن، وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٢- لا يقبل من العمل إلا ما كان صالحًا، جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

١٣- حسن ثواب الله وجزائه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، والترغيب في ذلك.

١٤- الإنذار والتحذير لمن نسبوا الولد لله عز وجل من اليهود والنصارى والمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾.

١٥- تنزيه الله تعالى عن الولد، وإثبات غناه، وعدم حاجته للولد، ولا لأحد من خلقه.

١٦- الرد على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾، وإبطال قولهم، بأنهم لا علم لهم بذلك ولا لآبائهم، وتشنيع مقالتهم، وأنهم ما يقولون إلا كذبًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾.

١٧- شناعة القول بنسبة الولد إلى الله عز وجل وفظاعته؛ لقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم: ٩٠، ٩١].

١٨- تسليته ﷺ وإرشاده ألا يهلك نفسه بسبب تكذيب المشركين، وعدم إيمانهم بالقرآن أسفًا وحزنًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

١٩- أن الله عز وجل جعل جميع ما على الأرض- من كل ما يتمتع به الناس- زينة لها، ابتلاءً وامتحانًا للعباد، أيهم أحسن عملًا، ممن هو بضد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

٢٠- تقديم الشرع على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيات، ثم قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ الآية؛ لأن المخلوقات إنما خلقت وسخرت لعبادة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذه طريقة القرآن، يقدم دائما الشرع على الخلق، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١- ٤].

٢١- الترغيب بإحسان العمل والحث عليه، والتنويه بأهله وتشريفهم؛ لتخصيصهم بالذكر في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، مع أن الله جعل زينة الدنيا ابتلاء لمن أحسن العمل، ولمن أساء العمل.

٢٢- أن مصير كل ما على الأرض أن يكون ترابًا فانيًا هالكًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾.

٢٣- حقارة الدنيا وما فيها من الزينة؛ لأن الله جعلها دار ابتلاء، ثم نهايتها إلى الفناء والانقضاء، لكنها مطية للآخرة، وميدان للمنافسة، فأيامها ولياليها خزائن لمن وفقه الله للأعمال الصالحة.

٢٤- التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وفتنتها، والانشغال بها عن الاستعداد للآخرة، فهي زائلة فانية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾.

في هذه الآيات الأربع إجمال واختصار لقصة أصحاب الكهف، تلاه بسط لها، بقوله تعالى بعدها: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ وما بعدها.

قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام للإنكار والتعجب والنهي. والحسبان بمعنى: الظن، أي: بل أظننت؟ والخطاب للنبي ﷺ، أي: لا تظن ذلك.

﴿أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، «الكهف»: الغار المتسع الوسط في الجبل، وأضيفوا إلى الكهف لملازمتهم له دهرًا طويلًا.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ بمعنى المرقوم، أي: المكتوب؛ لأنه كتب في حجر على هذا الكهف قصتهم، وأسماؤهم، وسبب اضطرارهم إلى الالتجاء إلى الكهف، وهو الفرار بدينهم من قومهم المشركين؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين: ٩، ٢٠]، أي: مكتوب.

وقيل: «الرقيم» اسم للوادي أو الجبل الذي فيه كهفهم.

﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، «من»: تبعيضية، أو ظرفية، أي: في آياتنا عجبًا، أي: أظننت أن أصحاب الكهف والرقيم وقصتهم عجبًا من آياتنا الكونية؟ أي: ليس أمرهم وما جرى لهم عجبًا من آياتنا ودلائل قدرتنا؛ فإن في آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وأدل على كمال قدرتنا؛ كخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، واختلاف الليل والنهار، وغير ذلك.

وفي هذا تعريض بجهل الذين طلبوا من النبي ﷺ الإخبار عن قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، وأنهم غفلوا عما هو أعجب من ذلك من آيات الله الدالة على كمال قدرته في أنفسهم، وفي كل ما خلق الله تعالى في هذا الكون.

وقد قال بعض أهل العلم: إن الاستفهام في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ تقريري، أي: أنهم من بين آياتنا آية عجيبة.

قال القاسمي[١]: ««أم» للاستفهام التقريري بمعنى الهمزة، أي: أنهم من بين آياتنا آية عجيبة. وجعلها منقطعة مقدرة بـ«بل»، والهمزة والاستفهام للإنكار، أي: إنكار حسبانهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى- فيه بعد؛ لأن سياق النظم الكريم- أعني: سوقها مفصلة منوهًا بها- ما هو إلا لتقرير التعجب منها».

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: اذكر حين التجأ ودخل الفتية إلى الكهف فرارًا بدينهم، واختفوا فيه خوفًا من ملكهم الجبار، وقومهم المشركين أن يفتنوهم ويردوهم إلى الشرك.

و«الفتية»: جمع «فتى»، وهو الشاب ذو القوة والعزيمة.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾، أي: فقالوا حين دخلوا الكهف: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، أي: أعطنا وَهَبْ لنا من عندك رحمة، ترحمنا بها، وتثبتنا بها على ديننا، وتحفظنا بها عن قومنا.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾، أي: يسِّر وسهِّل لنا وقدِّر لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: من شأننا صوابًا وتوفيقاً للحق، واجعل عاقبتنا ومآل أمرنا رشدًا وخيرًا، كما قال ﷺ: «**وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدًا**»[٢].

وعن بسر بن أبي أرطأة ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه كان يدعو: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**»[٣].

فجمعوا بين السعي والفرار بدينهم ومفارقة قومهم وبلدهم، وبين التضرع إلى الله تعالى وسؤاله تيسير أمرهم، أي: جمعوا بين فعل السبب، والتوكل على الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

---

(١) في «محاسن التأويل» ٧/ ٧.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٤٧، من حديث عائشة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٨١.

وما خاب مسعى من وفقه الله عز وجل للجمع بين هذين الأمرين؛ ولهذا شملهم الله تعالى برحمته، وأرشدهم في مسعاهم، وجعل عاقبتهم خيرًا.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾، أي: أنمناهم نوماً عميقاً في الكهف بحيث لايسمعون من حولهم.

﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، أي: سنين عديدة كثيرة، وفي هذا النوم مع تحصينهم بالكهف حفظ لقلوبهم من الخوف والاضطراب، وحفظ لهم عن قومهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: ثم أيقظناهم من نومهم ورقدتهم، وسمي الإيقاظ من النوم بعثاً؛ لأن النوم وفاة صغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢].

﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ اللام للتعليل، ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾، أي: لأجل أن نعلم. «أي»: اسم استفهام، أي: لنعلم أي الفريقين المتنازعين في مدة لبثهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ «أحصى»: فعل ماضٍ مبني على الفتح المقدر على الألف، «لما»: اللام حرف جر، و«ما»: حرف مصدري ظرفي.

وقيل: ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل، أي: أبلغ إحصاءً، أي: أضبط وأحفظ للبثهم في كهفهم، ﴿أَمَدًا﴾ مدة وغاية.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩]، ثم إن الناس اختلفوا بعدهم في ذلك.

وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾، أي: لنعلم علم ظهور يتبين فيه للناس أي الفريقين المختلفين في عدتهم أحصى لمدتهم. والله يعلم قبل وقوع هذا الشيء أنه سيقع، ويعلم بعد وقوعه أنه وقع، وتحقق الأمرين في علمه سواء، ما سيقع وما وقع.

قال السعدي[١]: «وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم».

الفوائد والأحكام:

١- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾.

٢- أن أصحاب الكهف والرقيم وقصتهم ليسوا عجبًا من آيات الله ودلائل قدرته الكونية، فهناك ما هو أعجب منها؛ من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾.

٣- التعريض بجهل من طلبوا من النبي ﷺ الإخبار عن قصة أصحاب الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، وأنهم غفلوا عما هو أعجب من ذلك من آيات الله الكبرى المنتشرة في الكون، الدالة على تمام قدرة الله تعالى.

٤- مشروعية الفرار إذا خاف المرء على دينه، والبعد عن مواطن الفتن، حفاظًا على الدين وبعدًا عن الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فخرجوا من وطنهم، وفارقوا أهلهم وقومهم المشركين فرارًا بدينهم.

٥- أن الشباب أقرب لقبول الحق؛ ولهذا كان أصحاب محمد ﷺ جلهم شبابًا.

٦- أن من أعظم أسباب حفظ الله تعالى للعبد في دينه ودنياه: سعي العبد لتحقيق ذلك بالعمل الصالح، مع التضرع إلى الله عز وجل، وصدق التوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول أصحاب الكهف: ﴿رَبَّنَآ﴾.

٨- حاجة العبد إلى سؤال ربه من لدنه الرحمة، وأن ييسر ويسهل له من أمره

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٣- ١٤.

رشدًا؛ لأن خزائن الرحمة كلها بيده عز وجل، ورحمته وسعت كل شيء؛ ولأن بيده تقدير الأمور وتدبيرها، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٩- حكمة الله تعالى؛ حيث وفق أصحاب الكهف إلى التحصن بهذا الكهف، وألقى النوم العميق عليهم هذه المدة الطويلة، حفظًا لهم من قومهم، وحفظًا لقلوبهم من الاضطراب والخوف؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

١٠- بعث هؤلاء الفتية وإيقاظهم بعد نومهم؛ لمعرفة أيّ الفريقين المتنازعين في مدة لبثهم أحصى وأضبط وأحفظ لمدة وغاية لبثهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾، أي: ليظهر ذلك في علم الله ويتبين للناس.

١١- إطلاق البعث على اليقظة من النوم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾.

١٢- في إيجاز قصة أصحاب الكهف واختصارها في هذه الآيات الأربع قبل بسطها في الآيات بعدها: تشويق لتفصيل هذه القصة، ومنهج يتبع عند تناول القصص، بذكرها موجزة، ثم تفصيلها وبسطها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

هذا شروع في بسط قصة أصحاب الكهف وتفصيلها، بعد التمهيد بإجمالها في الآيات السابقة.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾، أي: نحن نقص ونقرأ عليك يا محمد خبرهم، والنبأ: الخبر الهام.

﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بالأمر الثابت، والصدق المطابق للواقع، وبأحسن القصص؛ كما

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف:٣].

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾، أي: شباب، و«فتية»: جمع قلة، يدل على أنهم دون العشرة.

قال ابن كثير(١): «فذكر الله تعالى أنهم فتية- وهم الشباب- وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين عتوا وعسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابًا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل».

وصدق ابن كثير رحمه الله، فالشباب أقبل للحق؛ لأن فطرتهم ما زالت سليمة، وقلوبهم بيضاء خالية من الأحقاد والحسد، والعداوة والبغضاء، والغلظة والجفاء، التي هي من أوضار الذنوب والمعاصي، فقلوبهم كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا(٢)

وقد أحسن القائل:

إن الغصون إذا قوَّمتَها اعتدلت ... ولا تلين إذا قوَّمتَها الخشبُ(٣)

لكن الشباب بما لديهم من الطاقات يحتاجون إلى من يحسن التعامل معهم، ويشجعهم ويربيهم على الثقة بالله تعالى ثم بأنفسهم، ويشعرهم بأنهم في السابق واللاحق هم حملة مشعل هذا الدين الإسلامي الحنيف، وحراس العقيدة، وحماة الشريعة، ويبشرهم بالخير، كما قالت خديجة ﵂، لما جاء إليها النبي ﷺ يرجف فؤاده في بدء الوحي قائلًا: «**لقد خشيت على نفسي، قالت: أبشر، كلا والله لا يخزيك أبدًا**»(٤).

ويذكرهم بقوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله**» وذكر منهم شابًّا نشأ في عبادة الله(٥).

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٣٦.

(٢) البيت لديك الجن الحمصي. انظر: «ديوانه» (ص١٩٤).

(٣) البيت ينسب لصالح بن عبد القدوس. انظر: «حماسة البحتري» (ص٤٦١)، وينسب لطرفة. انظر: «الحماسة المغربية» ٢/ ١٢٢٥-١٢٢٦. وينسب لسابق البربري. انظر: «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» ص١٨٢، وانظر: «بهجة المَجالس وأنس المُجالس» ص١٩/ ترقيم الشاملة.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠، من حديث عائشة ﵂.

(٥) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١، من حديث أبي هريرة ﵁.

﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، أي: آمنوا وصدقوا بوحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وانقادوا لشرعه، فاجتمع فيهم قوة الإيمان، مع فتوة الشباب وقوة البدن والعزيمة.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، أي: وزدناهم هداية بسبب إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قوينا قلوبهم وثبتناها بالإيمان واليقين والطمأنينة، في تلك الحال المزعجة، وشددنا عليها بالصبر على مخالفة دين قومهم، وهجر الوطن والأهل والعشيرة، ومفارقة ما كانوا عليه من رغد العيش؛ وهذا ليس بالأمر اليسير. وقد قيل: إنهم من أبناء ملوك الروم وساداتهم.

﴿إِذْ قَامُواْ﴾، أي: حين قاموا، أي: اجتمعوا على هذا الأمر العظيم، وهو توحيد الله تعالى، والبراءة مما عليه قومهم من الشرك، وعزموا على ذلك، وتعارفت قلوبهم على هذا وائتلفت، كما في الحديث: «**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»(١).

﴿فَقَالُواْ﴾ مقرين بربوبية الله تعالى لهم، ومستدلين بها على وجوب إفراده بالعبودية: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالقنا ومالكنا والمتصرف فينا هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، أي: لن نعبد غيره، أي: لن ندعو، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، غير ربنا رب السموات والأرض، ﴿إِلَٰهًا﴾، أي: معبوداً آخر.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، ﴿إِذًا﴾، أي: لو دعونا غيره إلـهًا، أي: والله لقد قلنا إن دعونا غير ربنا إلهًا آخر قولًا شططًا، أي: جائرًا

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الأنبياء، الأرواح جنود مجندة، من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم في البر والصلة، الأرواح جنود مجندة ٢٦٣٨، وأبو داود في الأدب ٤٨٣٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بعيدًا عن الحق، مخالفًا للصواب، ومجانبًا له. وهذا اعتزاز منهم بدينهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾، أي: جعلوا من دون الله، أي: غيره آلهة، عبدوهم مع الله. وفي هذا إنكار منهم على قومهم، وتعجب من حالهم، وإشارة إلى سبب انعزالهم عن قومهم.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾، «لولا»: للتحضيض والتوبيخ، أي: هلا يأتون على هذه الآلهة التي اتخذوها من دون الله ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾، أي: بحجة واضحة، وبرهان بيِّن، ودليل ظاهر على صحة مشاركتهم لله، وجواز اتخاذهم آلهة من دون الله، وهيهات وأنى لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وإنما ذلك كذب وافتراء منهم، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ الفاء: استئنافية، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: أشد ظلمًا ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾، أي: من الذي اختلق على الله كذبًا، بنسبة الشركاء له، والصاحبة والولد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾:

هذا من قول الفتية، ووصية بعضهم لبعض، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾، أي: وإذا اعتزلتم قومكم المشركين، أي: فارقتموهم وابتعدتم عنهم بأبدانكم.

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، «ما»: موصولة، أي: واعتزلتم وفارقتم الذي يعبدونه من الآلهة غير الله.

والمعنى: إذ فارقتموهم بأبدانكم، وخالفتموهم في دينكم، وتم الانفصال بينكم وبينهم في أبدانكم وأديانكم.

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، أي: فصيروا إلى الكهف وادخلوه واختفوا فيه؛ لتنجوا من شر قومكم، وتسلموا من أذاهم.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: يوسع لكم ربكم من رحمته، ويبسطها عليكم، ويستركم بها من قومكم؛ لأن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء: «مَرْفِقًا»، وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الفاء: ﴿مِّرْفَقًا﴾، أي: وييسر لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغم والكرب، والخوف على أنفسكم ودينكم.

﴿مِّرْفَقًا﴾، أي: ما ترتفقون وتنتفعون به في حياتكم من المكان الآمن وأسباب العيش، والطمأنينة والأمن على أنفسكم ودينكم.

وهكذا حصل، شملهم الله بواسع رحمته، ويسر لهم من أمرهم مرفقًا، فحفظهم في دينهم وفي أبدانهم، وجعلهم من آياته لخلقه، ونشر لهم الثناء الحسن.

قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾..

قوله: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾:

قال ابن كثير[1]: «هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزْوَرُّ عنه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: يتقلص الفيء يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾، أي: تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بيِّن لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب.

وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق؛ لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة؛ لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب،

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٣٩.

ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالًا، ولو كان من جهة الغرب؛ لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، ولله الحمد».

قوله: ﴿وَتَرَى﴾ الخطاب لغير معين، أي: ويرى من تمكنه الرؤية.

﴿ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾، أي: عند طلوعها.

﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «تَزْوَرُّ» بإسكان الزاي وتشديد الراء من غير ألف، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بفتح الزاي وتخفيفها وألف بعدها، وتخفيف الراء: ﴿تَزَاوَرُ﴾، وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم شددوا الزاي: «تَزَّاوَرُ».

ومعنى ﴿تَّزَٰوَرُ﴾، أي: تميل، ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: جهة اليمين.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تدخل غارهم من شمال بابه من ناحية الشرق، وتصيب منهم، حتى لا تتغير أجسامهم. وقيل: ﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تتركهم وتتجاوزهم، وتنصرف عنهم جهة الشمال.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾، أي: وهؤلاء الفتية في فضاء ومتسع من الكهف؛ بحيث يطرقه الهواء والنسيم، داخل الكهف، وليسوا على بابه، وذلك أحفظ لهم.

وهذا من رحمة الله تعالى بهم وتيسيره، أن جعل هذا الكهف بهذه المثابة؛ ليكون مناخه في غاية الاعتدال، فلا الشمس تصيبهم مباشرة فتحرق أبدانهم وثيابهم، ولا الهواء والنسيم محجوب عنهم، فيحصل لهم الكتمان والاختناق وفساد الأبدان.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الإشارة لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ الآية وحالهم المذكورة، وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا له.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: من دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، وعنايته بأوليائه.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ «من»: شرطية في الموضعين، أي: من يوفقه الله تعالى للهدى.

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾، أي: فهو المهتدي حقًّا، أي: أنه عز وجل هو الذي أرشد هؤلاء الفتية ووفقهم من بين قومهم.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، أي: ومن يضلله الله، أي: يقدّر عليه الضلال، فلن تجد له وليًّا يتولاه ويدبره إلى ما فيه صلاحه، ويرشده إلى الحق والخير

والصواب؛ لأن الله قد قضى وحكم عليه بالضلالة، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ الخطاب لغير معين، كما في قوله: ﴿وَتَرَى﴾، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «وتحْسِبهم» أي: وتظنهم أيها الناظر إليهم.

﴿أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، «أيقاظًا»: جمع «يقظ»، و«رقود»: جمع «راقد»، والراقد: النائم، وضده اليقظ واليقظان، فهو غير النائم، أي: المستيقظ.

أي: وتظنهم أيقاظًا وهم نيام؛ لأنهم ليس عليهم علامات النوم، من الاسترخاء ونحو ذلك، وقيل: لأن أعينهم منفتحة لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظًا وهم رقود.

وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا وهو راقد، كما قال الشاعر:

ينـــام بإحـــدى مقلتيـــه ويتقـــي ... بأخرى الأعادي فهْو يقظان هاجعُ(١)

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، أي: جهة اليمين وجهة الشمال، أي: مرة على الجنب الأيمن، ومرة على الجنب الأيسر، حتى لا تأكل أجسادهم الأرض.

والله- سبحانه- قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾، أي: وكلبهم الذي كان معهم للحراسة، أي: رابض جالس على بطنه ماد ذراعيه، كما هي عادة الكلب في جلسته.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾، «الوصيد»: ما يوصد، أي: يغلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهمزة: ٨]، أي: مطبقة مغلقة. والمراد: بالوصيد: فناء الكهف أو فتحته وبابه.

---

(١) البيت لحميد بن ثور، وهو في ديوانه ص١٠٤.

وقد شملته بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

قيل: كان كلب صيد لأحدهم، وقيل: كلب حراسة.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لو رأيتهم وشاهدتهم وهم بهذه الحال، والخطاب لغير معين.

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، أي: لوليت هروبًا منهم وفرارًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠، القصص: ٣١]، واللام: واقعة في جواب «لو».

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بتشديد اللام الثانية: «وَلَمُلِّئْتَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾، أي: لامتلأ قلبك منهم فزعًا وخوفًا.

فألقى الله عز وجل عليهم المهابة والذعر؛ لئلا يدنو منهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله، ويبلغوا المدة التي قدرها الله للبثهم في الكهف، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والرحمة الواسعة.

فحفظهم الله من الأرض بالتقليب، وحفظهم من الوحوش بالكلب، وحفظهم من الآدميين بما ألقاه عليهم من المهابة والرعب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: وكما أرقدناهم وأنمناهم بعثناهم وأيقظناهم من رقدتهم ونومهم الطويل، صحيحة أبدانهم، سالمة أشعارهم وأبشارهم، لم تتغير هيئاتهم، وقد مر عليهم ثلاثمئة سنة وتسع سنين.

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يتساءلوا بينهم، أو: للعاقبة، أي: ليسأل بعضهم بعضًا عن مدة لبثهم ورقدتهم، ليقفوا على حقيقة ذلك، وكأنه حصل لهم اشتباه في طول رقدتهم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، أي: كم رقدتم؟ أي: كم مدة رقودكم ونومكم في هذا الكهف؟

﴿قَالُواْ﴾ ظنًّا منهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، أي: لبثنا يومًا كاملًا إن كان هذا هو اليوم الثاني، أو بعض يوم إن كان هذا هو اليوم الأول الذي دخلنا فيه.

قال ابن كثير[1]: «كأنه كان دخولهم الكهف في أول النهار، واستيقاظهم كان في آخر النهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾».

﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، أي: قال آخرون منهم: ربكم أعلم بالذي لبثتم، أي: فردوا العلم في ذلك إليه عز وجل، فهو المحيط علمًا بكل شيء، وكأن هؤلاء شعروا بطول نومهم، لكنهم لم يستطيعوا تحديد ذلك؛ ولهذا عدلوا عن هذا إلى ما هو أهم وهو حاجتهم إلى الطعام والشراب، فقالوا:

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر وروح بإسكان الراء: «بِوَرْقِكُمْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾، و«الورق»: الفضة.

أي: فأرسلوا أحدكم بنقودكم الفضية ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، «ال» في «المدينة» للعهد الذهني، أي: المدينة المعهودة، أي: إلى مدينتكم التي خرجتم منها.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، أي: أيها أحل طعامًا وأطيبه وألذه؟

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، أي: بقوت وطعام منه، أي: من الطعام الذي هو أزكى الأطعمة وأطيبها وألذها، أي: يشتري ذلك ويأتي به.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، أي: وليتعامل بخفية ويترفق في ذهابه ودخوله المدينة وإيابه، وفي شرائه، فيبتعد عن التعرض لأي أحد، وعن المماسكة والمشاكسة، وعن أي أمر يثير الشبهة والشكوك فيه، وفي هذا إشارة إلى أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا قليلًا.

«**لطيفة**»: ذكر أن منتصف حروف القرآن: «التاء» من قوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وهو

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٤١.

قول الجمهور، وقيل: «الفاء»، وقيل: «النون» من «نكرًا» من قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ [الكهف: ٧٤].

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، أي: ولا يُعلِمن بكم أحدًا، أي: يتخفى ويخفي أمر إخوانه.

قيل: إنه لما أراد الذهاب إلى المدينة تنكر، وأخذ يمشي في غير الطريق المعروف حتى انتهى إلى المدينة، وكان الناس قد تبدلوا وتغيروا قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قيل:

أمـا الـديار فإنهـا كـديارهم وأرى رجال الحي غير رجالِه(١)

لكن لا ينجي حذر من قدر، فقد ظهر قومهم وعثروا عليهم. قيل: لأنه لما دفع النقود التي اشترى بها الطعام، نظر البائع فإذا سِكَّتها قديمة، فكان ذلك سبب الظهور والعثور عليهم.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾، «إن»: تعليلية، أي: لأنهم إن يظهروا عليكم، أي: إن يطلعوا عليكم، ويعلموا بمكانكم.

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة، فيقتلوكم أشنع قِتلة؛ لشدة حقدهم عليكم، وعداوتهم لكم ولدينكم.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾، أي: أو يرجعوكم في دينهم، ويفتنوكم عن دينكم.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾، أي: ولن تفوزوا إذا صرتم إلى ملتهم إذن أبدًا، بل تخسرون دينكم ودنياكم وأخراكم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: ١٥].

قال السعدي(٢): «ولعل الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدة لبثهم؛ لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخيرًا تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٦).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٩ - ٢٠.

الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينًا، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثًا.

ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فلولا أنه حصل العلم بحالهم لم يكون دليلًا على ما ذكر».

الفوائد والأحكام:

١- ذِكر الله عز وجل وإخباره بقصة أصحاب الكهف؛ لبيان سعة علمه وحكمته ورحمته، ولاستلهام ما فيها من المواعظ والدروس والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾ الآيات.

٢- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ بضمير الجمع؛ لتفرده بالعظمة والكبرياء.

٣- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾..

٤- أن ما جاء في هذه الآيات من خبر هؤلاء الفتية وقصتهم هو الحق والأمر الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾..

٥- إخباره عز وجل عن أصحاب الكهف، وثناؤه عليهم بأنهم شباب آمنوا بربهم وزادهم هدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

٦- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿رَبُّنَا﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٧- أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

٨- أن الشباب أقرب لقبول الحق والانقياد له من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾، أي: شباب، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: شباب من قومه.

٩- تثبيت الله تعالى لهؤلاء الفتية على الحق، وربطه على قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

١٠- أن الهداية والتوفيق للحق، والتثبيت للقلوب عليه، بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

١١- ينبغي سؤال الله الهداية للحق والثبات عليه، وهكذا كان ﷺ يتضرع إلى ربه بطلب الهداية، ويكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»(١).

١٢- اجتماع هؤلاء الفتية على الإيمان والتوحيد، والبراءة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٤- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية؛ لقول أصحاب الكهف: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾.

١٥- أن من دعا إلهًا غير الله؛ فقد قال قولًا شططًا، بعيدًا كل البعد عن الحق والصواب؛ لقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

١٦- مشروعية الاعتزاز بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

١٧- ذم الشرك وإبطاله، والبراءة منه وأهله؛ لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾.

١٨- لا دليل ولا سلطان، ولا حجة ولا برهان على اتخاذ الشركاء مع الله؛ لقوله

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٤٠، من حديث أنس ﷺ، وقال: «حديث حسن».

تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾ الآية، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

١٩- أن اتخاذ الآلهة من دون الله من أعظم الافتراء والظلم، الذي لا ظلم أشد منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

٢٠- وصية هؤلاء الفتية لبعضهم بعضًا في اعتزال قومهم وما يعبدون من دون الله، واللجوء إلى الكهف والاختفاء فيه عن قومهم وملكهم؛ لقولهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

٢١- مشروعية التواصي بالحق والتواصي بالصبر، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣].

٢٢- ينبغي الاعتزال والفرار والبعد عن مواقع الفتن إذا خاف الإنسان على دينه خوفًا محققًا، قال ﷺ: «**يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر؛ يفر بدينه من الفتن**»(١).

وقد قيل: «الوحدة خير من جليس السوء».

فإذا لم يستطع الإنسان الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخاف على دينه؛ ففي هذا الحال تجوز له العزلة عن الناس، وفيما عداها لا يجوز؛ لما في ذلك من ترك الجماعات والجمع، وترك مخالطة الناس ودعوتهم، والصبر على أذاهم.

٢٣- قوة إيمان هؤلاء الفتية ويقينهم، وقوة توكلهم على الله عز وجل، وتفاؤلهم مع ما هم فيه من الشدة والضيق، وتمام ثقتهم برحمة الله تعالى لهم، وتيسيره أمرهم؛ لقولهم: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

٢٤- إثبات رحمة الله تعالى، وأن تيسير الأمور بيده وحده.

٢٥- يجب أن يكون المؤمن أوثق برحمة الله تعالى وفرجه وتيسيره، من ثقته بما في يديه، فهذه حقيقة التوكل على الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٦٧، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٠، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢٦- أن الشمس إذا طلعت تميل عن كهف هؤلاء الفتية جهة اليمين، وإذا غربت تتركهم جهة الشمال وهم في متسع من الكهف، وذلك من آيات الله عز وجل ورحمته بهم، وتيسيره لهم، وعنايته ورفقه بهم، حيث كان مناخ هذا الكهف في غاية الاعتدال، فلا الشمس تصيبهم مباشرة، فتحرق أبدانهم وثيابهم، ولا الهواء والنسيم محجوب عنهم، فيحصل لهم الاختناق؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٢٧- إثبات أن الشمس تتحرك وتجري، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ﴾ [يس:٣٨]، وفي هذا الرد على من زعم أن الشمس ثابتة.

٢٨- أن من هداه الله تعالى فهو المهتدي حقًّا، ومن أضله الله فهو الضال، وليس له من دون الله وليٌّ مرشدٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.وهذا يوجب سؤال الهداية من الله تعالى وحده، وعدم الأسى على ضلال من ضل؛ لأن الله هو الذي أضله قدراً.

٢٩- فضل الله عز وجل ونعمته العظيمة على هؤلاء الفتية؛ حيث منَّ عليهم بالهداية من بين قومهم.

٣٠- أن من يطلع على أصحاب الكهف يظنهم أيقاظًا وهم رقود، وذلك مما يدل على أن أحوالهم لم تتغير، وقيل: لأن أعينهم كانت منفتحة لئلا تفسد؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

٣١- تقليبهم جهة اليمين وجهة الشمال؛ ليتوازن الدم في الجسد، ولئلا تأكل الأرض أجسادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن النوم على اليمين وعلى الشمال أكمل من النوم على الظهر أو على البطن ، وأن النوم على اليمين أولى من النوم على الشمال.

٣٢- أن الله جعل لكل شيء سببًا، وربط المسببات بأسبابها، ولو شاء لحفظ أجسادهم بدون تقليب.

٣٣- بركة مصاحبة الصالحين؛ حيث إن كلب أصحاب الكهف أصابه من النوم ما

أصابهم، فصار له ذكر وخبر وشأن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

٣٤- جواز اتخاذ الكلب للحراسة.

٣٥- أن الله جعل على أصحاب الكهف المهابة والذعر؛ بحيث لو اطلع عليهم أحد لولى هاربًا فرارًا منهم، وامتلأ قلبه منهم رعبًا وخوفًا، وذلك ليحفظهم عز وجل من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

٣٦- حفظ الله التام لهؤلاء الفتية في كهفهم: فحفظهم من الأرض بتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، وحفظهم من الوحوش بكلبهم الباسط ذراعيه بالوصيد، وحفظهم من بني آدم بإلقاء المهابة والذعر عليهم.

٣٧- بعث أصحاب الكهف من رقدتهم، وإيقاظهم من نومهم؛ ليسأل بعضهم بعضًا عن مدة لبثهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

٣٨- ردهم العلم في مدة لبثهم إلى ربهم، والتفاتهم إلى ما هو أهم وهو حاجتهم إلى الطعام، وبعث أحدهم بورقهم إلى المدينة لجلب الطعام لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

٣٩- أن الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، ويقول: الله أعلم.

٤٠- صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك؛ لقولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ الآية، فجمعوا في توكيلهم له بين الشراء والإحضار.

٤١- جواز اختيار وأكل الطيب اللذيذ من المطاعم، ما لم يخرج إلى حد الإسراف؛ لقولهم: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

٤٢- طلبهم ممن بعثوه لجلب الطعام لهم بالتلطف والرفق في ذهابه، ودخوله المدينة، وفي شرائه، وعند رجوعه، والتخفي ما أمكن، وألا يشعرن بهم أحدًا خوفًا من قومهم؛ لقولهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

٤٣- شدة حذر هؤلاء الفتية من ظهور قومهم عليهم، حفاظًا على دينهم؛ لعلمهم أنهم إن يظهروا عليهم يرجموهم بالحجارة، أو يردوهم في دينهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾.

٤٤- التحرز والاستخفاء واستعمال الكتمان عند خوف الضرر بالدين، وأخذ الحذر من الأعداء.

٤٥- أن من ارتد عن دينه وأشرك بالله فلن يفلح أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: وكما أرقدناهم وأيقظناهم بهيئاتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان.

﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يعلم الناس ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: أن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال حق وصدق، وأمر ثابت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾، أي: وأن القيامة الموعود فيها بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال لا شك فيها، بل هي آتية لا محالة، قيل: وكان قومهم ينكرون البعث والحساب.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بـ«أعثرنا».

أي: إذ يتنازع ويتخاصم أهل المدينة ، الذين عثروا على أصحاب الكهف بينهم ﴿أَمْرَهُمْ﴾، أي: شأن أصحاب الكهف، هل كانوا في تلك المدة نيامًا أو أمواتًا؟ وكم كانت مدة لبثهم؟ وماذا يفعلون بهم بعد موتهم؟ أيبنون عليهم بنيانًا، أو يتخذون عليهم مسجدًا؟ كما في قوله:﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ الآية.

ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿أَمْرَهُمْ﴾ عائدًا إلى ما عاد عليه ضمير ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، أي: فيما يفعلون بهم.

وذهب ابن كثير[1] إلى أن المعنى: «﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها، ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم».

والأظهر: المعنى الأول، وعليه أكثر المفسرين.

﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي: فقال قائلون منهم: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾، أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم. وهذا يدل على أنهم ماتوا.

﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي: ربهم أعلم بحالهم وشأنهم الذي تنازعنا فيه، فدعوا ذلك له عز وجل. وهؤلاء أرشد القوم، وأصوبهم رأيًا، وأعدلهم حكمًا.

ويجوز كون جملة: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ معترضة من كلام الله تعالى، والأول أقرب.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾، أي: أهل الغلبة والنفوذ والأمر والكثرة، وهم المشركون، وهم أسفه القوم، وأخطؤهم رأيًا، وأبطلهم حكمًا.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ اللام: لام القسم، لقسم مقدر، أي: والله لنتخذن، أي: لنجعلن ونبنينَّ عليهم مسجدًا نتعبد لله تعالى فيه، ونتذكر أحوالهم وما جرى لهم.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٤٣.

وهذا شرك محرم، نهت عنه الشرائع السماوية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذِّر ما صنعوا(١)، وقال ﷺ: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**»(٢).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿سَيَقُولُونَ﴾، أي: سيقول أهل الكتاب وغيرهم من الناس مختلفين في عدة أصحاب الكهف: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾، أي: هم ثلاثة نفر ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾، أي: هم خمسة ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أي: حدسًا وتخرصًا وتخمينًا وظنًّا بلا دليل ولا علم، وفي هذا تضعيف لهذين القولين.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذا- والله أعلم- هو الصحيح؛ لأن الله أبطل القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، ولم يبطل هذا القول، فدل على صحته.

قال ابن تيمية في «مقدمة التفسير»(٣): «اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلًا لرده كما ردهما».

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٣٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٣١، والنسائي في المساجد ٧٠٣، من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه مسلم ٥٣٢- من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٣/ ٣٦٧.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، أي: قل يا محمد: ربي أعلم بعدة هؤلاء الفتية، وفي هذا إشارة إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، وأن هذا الاختلاف مما لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، ولا مصلحة للناس في معرفة عددهم، لا دينية ولا دنيوية.

﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، أي: إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، وكان ابن عباس ﵄ يقول: «أنا ممن استثناه الله»، ويقول: «عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم»(١).

وقيل: المراد بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، أي: أن الله أعلم بعدتهم وقد أعلمنا أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، وقوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، أي: قبل إعلام الله أنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾، أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تجادل فيهم، أي: في شأنهم، وفي زمانهم ومكانهم، وفي مآلهم، وغير ذلك، إلا جدالًا ظاهرًا، بأن تتلوا ما أوحي إليك في شأنهم. والمراء الظاهر: ما كان على اللسان، ولا يصل إلى القلب.

وفي هذا تحذير من المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، والتي لا فائدة فيها إلا تضييع الزمن والتأثير في القلوب.

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾ النهي للنبي ﷺ، أي: ولا تستفت في شأن أهل الكهف، أي: تطلب الفتوى في شأنهم.

﴿مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾، أي: من أهل الكتاب، نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: أيَّ أحد منهم؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾:

روي أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: «**أخبركم غدًا**»، ولم يقل: «إن شاء الله» فتلبث الوحي، ثم نزلت هذه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٢١٩- ٢٢٠.

الآية[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولأمته، أي: ولا تقولن لشيء من الأشياء أيًّا كان: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾، أي: إني فاعل ذلك الشيء «غدًا»، والغد: اليوم الذي بعد يومك، وما يستقبل.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا أن تعلق قولك بمشيئة الله، فتقول: إني فاعل ذلك غدًا إن شاء الله.

والتعليق بالمشيئة- وهو الاستثناء- مشروع فيما يخبر به عن المستقبل من فعل أو قول أو وعد أو وعيد، فيقول مثلًا: سأزورك غدًا إن شاء الله، أو: سأعمل كذا إن شاء الله.

كما يشرع الاستثناء في اليمين، فيقول الحالف: والله لأفعلن كذا إن شاء الله.

والتعليق بالمشيئة فيما يخبر عن فعله في المستقبل، أو فيما يحلف على فعله في المستقبل له فائدتان:

الأولى: أن الله ييسر له أمره ويعينه، حيث فوض إليه أمره.

والثانية: أنه لا إثم ولا تبعة عليه فيما أخبر عن فعله معلقًا بالمشيئة إذا لم يفعله، ولا إثم عليه ولا كفارة فيما حلف على فعله معلقًا بالمشيئة إذا لم يفعله.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أي: إذا نسيت أن تستثني فيما أخبرت به عن المستقبل من قول أو فعل أو وعد أو وعيد، أو في يمينك، بأن تقول: إن شاء الله، فقل ذلك متى ذكرته.

عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلف، قال: «له أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك»[٢].

وأيضًا: اذكر ربك عند النسيان والسهو عمومًا؛ فإن ذكر الله عز وجل يزيله، ويذكر العبد ما نسيه وسها عنه؛ لأن النسيان من الشيطان، قال فتى موسى: ﴿وَمَآ

---

(١) سبق تخريجه في مطلع السورة، وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٢٢٥، والطبراني «١١٠٦٩»، والحاكم ٤/ ٣٠٣.

أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]. وذكر الله يطرد الشيطان؛ لأنه إذا ذكر الله خنس؛ ولهذا قال ﷺ: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك**»(١).

وأيضًا: اذكر ربك على الدوام، ولا تنس ذكره، ولا تكن من الغافلين، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال ابن القيم: «وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب».

وقال أيضًا: «وهذا إما أن يختص بالاستثناء إذا نسيه، كما ذكره جمهور المفسرين، أو يعمه ويعم غيره، وهو الصواب»(٢).

وإذا نسي الاستثناء فيما أخبر به أنه سيفعله في المستقبل، ثم ذكر واستثنى فلا إثم عليه، وكذا إذا نسي الاستثناء في اليمين فإنه يستثني إذا ذكر، ولا إثم عليه، وعلى هذا يحمل قول ابن عباس رضي الله عنهما: «له أن يستثني ولو إلى سنة»، لكن تلزمه الكفارة إذا حنث.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ بعد أن أمر عز وجل نبيه ﷺ بذكره عند النسيان، أمره بسؤاله الهداية إلى الرشد في أمره، وهو أمر له ولأمته.

و﴿عَسَىٰٓ﴾ للترجي والدعاء، أي: أدعو راجيًا ﴿أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿عَسَىٰٓ﴾ أي:عسى أن يدلني ربي ويوفقني.

﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ الإشارة يحتمل أن تعود لما ذكر من التعليق بالمشيئة، أو الذكر عند النسيان، أي: أرجو أن يوفقني ربي لأجل أن أقرب من هذا الذي طلب مني، ﴿رَشَدًا﴾، أي: هدًى وخيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٩٧، ومسلم في المساجد ٦٨٤، وأبو داود في الصلاة ٤٤٢، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١١٧، ١١٨.

قال ابن كثير[١]: «إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد».

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾:

قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾، أي: وأقام هؤلاء الفتية في كهفهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بغير تنوين على الإضافة: «ثَلَاثَ مِئَةِ سِنِينَ»، وقرأ الباقون بالتنوين: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾.

﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾، أي: وازدادوا على الثلاث مئة سنة تسع سنين، فصار لبثهم ثلاث مئة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاث مئة سنة بالشمسية؛ لأن تفاوت ما بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين.

ولم يقل: «ثلاث مئة وتسع سنين»، بل قال: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾- والله أعلم- من أجل تناسب الفواصل، وليس لأن المراد ثلاث مئة سنة بالشمسية، وازدادوا تسعًا بالقمرية، كما قيل؛ لأن الحساب عند الله واحد، والعلامات التي بها الحساب عند الله هي الأهلة، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، أي: قل يا محمد للمختلفين في لبثهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، «ما»: مصدرية، أي: بلبثهم، أي: بمدة لبثهم.

وفي هذا قطع للمماراة في مدة لبثهم المختلف فيها بين أهل الكتاب، أي: قل الله أعلم منكم بمدة لبثهم،وقدأخبرناأنهم لبثوا﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٤٦.

﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: له علم كل ما غاب عن الناس وعن حواسهم في السموات والأرض، فلا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النحل:٦٥].

﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ أي: ما أبصره وما أسمعه، وهو تعجب من كمال بصره وسمعه، وإحاطتهما بالمبصرات والمسموعات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات.

أي: ما أبصره عز وجل بكل شيء! وما أسمعه لكل مسموع! لا يخفى عليه من ذلك شيء، فلا أحد أبصر منه عز وجل، ولا أسمع منه، فهو السميع البصير.

﴿مَا لَهُم﴾، أي: ما للخلق كلهم ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: غيره، ﴿مِن وَلِيّٖ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما لهم غيره أيُّ ولي يتولاهم، فهو سبحانه ولي الخلق كلهم ولاية عامة، المدبر لهم، المتصرف فيهم، وهو الولي ولاية خاصة للمؤمنين، بتوفيقه لهم ولطفه بهم، كما تولى عز وجل أصحاب الكهف، ولطف بهم، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق.

﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ قرأ ابن عامر بالخطاب وجزم الكاف على النهي: «وَلَا تُشْرِكْ»، وقرأ الباقون بالغيب ورفع الكاف على الخبر: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ﴾.

أي: ولا يشرك في حكمه وقضائه الكوني والشرعي أحدًا من الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

فلا أحد يشركه في حكمه الكوني، ولا في حكمه الشرعي؛ فهو عز وجل الحاكم المتفرد بالحكم، له الحكم في خلقه كونًا وقدرًا وخلقًا وتدبيرًا، وله الحكم فيهم شرعًا وأمرًا ونهيًا وجزاءً.

الفوائد والأحكام:

١- أن الحكمة في إطلاع الله تعالى الناس على أصحاب الكهف؛ لأجل أن يعلموا أن وعد الله بالحساب والجزاء على الأعمال حق لا مرية فيه، وأن القيامة آتية لا ريب

فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

٢- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى وأفعاله، وأن وعده حق وصدق.

٣- تنازع الذين عثروا على أصحاب الكهف في أمرهم وشأنهم، هل كانوا أمواتًا أو نيامًا؟ وكم كانت مدة لبثهم؟ وماذا يفعلون بهم؟ هل يبنون عليهم بنيانًا، أو يتخذون عليهم مسجدًا؟ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ﴾.

٥- أنه سبحانه أعلم بأصحاب الكهف وأحوالهم ومدة لبثهم وغير ذلك، فينبغي رد العلم إليه عز وجل في ذلك، وفي كل ما لا يعلمه إلا هو؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾.

٦- أن الغلبة في قوم أصحاب الكهف كانت لأهل الشرك، الذين يبنون المساجد على القبور ويعبدون الأموات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

٧- اختلاف الناس من أهل الكتاب وغيرهم في عدة أصحاب الكهف، فمن قائل: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ومن قائل: هم خمسة سادسهم كلبهم، ومن قائل: هم سبعة وثامنهم كلبهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

٨- أن عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأن الله أبطل القولين الأولين، فقال بعدهما: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: تخرصًا وتخمينًا بلا علم ولا دليل، وذكر القول الثالث فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وسكت عنه، فدل على صحته.

٩- أن الله عز وجل أعلم بعدتهم، وأن من الأدب في مثل هذا المقام رد العلم إليه

عز وجل، والإشارة إلى أن الاختلاف في مثل هذا لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، ولا مصلحة للناس في معرفة عدتهم، لا في دينهم ولا في دنياهم.

١٠- أنه لا يعلم عدة أصحاب الكهف إلا قليل من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

١١- نهي الله عز وجل له ﷺ عن المماراة في عدة أصحاب الكهف إلا مراءً ظاهرًا لا عمق فيه، وذلك بتلاوة ما أوحاه الله إليه في شأنهم، والتحذير من المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب مما لا فائدة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾.

١٢- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يستفتي في أهل الكهف وعدتهم من أهل الكتاب أحدًا؛ لجهلهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

١٣- لا ينبغي استفتاء من ليس أهلًا للفتوى، إما لقصور علمه في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي فيما يفتي فيه، وليس عنده ورع يحجزه، وهو منهي عن الفتوى من باب أولى.

١٤- النهي أن يقول في الأمور المستقبلة: إني فاعل ذلك غدًا، من دون أن يقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، سواء كان ذلك إخبارًا فقط أو يمينًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهذا نهي له ﷺ ولأمته.

عن أبي هريرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون**»(١).

قال السعدي(٢): «فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة: إني فاعل ذلك من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب المستقبلة

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٣٩، ومسلم في الأيمان، الاستثناء ١٦٥٤.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٢٥.

التي لا يدري هل يفعلها أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالًا، وذلك محذور محظور؛ لأن المشيئة كلها لله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩]، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه».

١٥- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٦- أن مشيئة جميع الخلق- بما فيهم الرسول ﷺ- تابعة لمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩].

١٧- مشروعية ذكر الله تعالى عند النسيان، فإذا نسي أن يستثني فيما أخبر؛ بأن يقول إذا ذكر: إن شاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ ليحصل المطلوب ويندفع المحذور، فيخرج من تبعة ذلك إن كان له تبعة، ما عدا كفارة اليمين فلا تسقط بالاستثناء إلا في حال اتصاله بالحلف.

١٨- مشروعية ذكر الله عند النسيان والسهو عمومًا؛ لأن النسيان من الشيطان، والذكر يطرد الشيطان، وأيضًا مشروعية ذكر الله على الدوام، وعدم نسيان الذكر، والبعد عن الغفلة.

١٩- أمره ﷺ بدعاء الله تعالى ورجائه، وسؤاله الهداية والتوفيق إلى الرشد والصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾، وهذا أمر له ولأمته.

٢٠- أن الهداية والتوفيق إلى الرشد والصواب من خصائص الله تعالى.

٢١- إثبات ربوبية الله الخاصة بنبيه محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾، وهي ربوبية خاصة الخاصة.

٢٢- أن مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم ثلاثمئة سنة وتسع سنوات بالسنة الهلالية القمرية، وهي ثلاثمئة سنة فقط بالسنة الشمسية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾.

٢٣- أن الله تعالى هو الأعلم بما لبثوا، وما أخبر به من مدة لبثهم هو الحق؛ لقوله

تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾.

٢٤- اختصاصه عز وجل بعلم غيب السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٥- عموم اطلاعه عز وجل وبصره لكل شيء، وسمعه لجميع المسموعات، فلا أبصر منه، ولا أسمع؛ لقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾.

٢٦- أنه لا ولي للخلق كلهم غير الله، فهو وليهم كلهم ولاية عامة، المدبر لهم، المتصرف فيهم، وهو ولي المؤمنين ولاية خاصة، كأصحاب الكهف وغيرهم، الموفق لهم للهداية والخير، الحافظ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾.

٢٧- تفرده عز وجل وحده بالحكم بلا شريك، فله وحده الحكم الكوني القدري، الذي لا مناص لأحد عنه، وله وحده الحكم الشرعي الديني، الذي يجب الرجوع إليه، لا إله غيره، ولا رب سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وهنا انتهت قصة أصحاب الكهف.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾:

لما قص الله عز وجل على نبيه ﷺ نبأ أصحاب الكهف بالحق، وأبطل كيد المتحدّين للنبي ﷺ وأكاذيبهم وتخرصاتهم، وبيَّن أن له علم غيب السموات والأرض وتفرده وحده بالحكم الكوني والشرعي- أمر نبيه ﷺ أن يتلو ويتبع ما أُوحي إليه من كتاب ربه، وهذا كالنتيجة لما قبله.

قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، أي: واتل يا محمد؛ تلاوة لفظية وتلاوة حكمية عملية، أي: اقرأ واتبع وبلغ ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي أوحي إليك، أي: الذي أوحاه الله إليك بواسطة جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القرآن الكريم.

والمعنى: اقرأ واتبع وبلغ الذي أوحاه ربك إليك في كتابه العظيم القرآن الكريم.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: لا مبدل لكلماته الشرعية وآياته في القرآن الكريم، أي: لا تغيير لها؛ لبلوغها الغاية في الصدق والعدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ

رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وأيضًا: لا مبدل لها ولا مغير ولا محرف ولا مؤول؛ لتكفل الله بحفظها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

وأيضًا: لا مبدل لكلماته الكونية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: ولن تجد غير ربك ﴿مُلْتَحَدًا﴾، أي: ملجأ تلجأ إليه، ومعاذًا تعوذ به، فهو الملجأ وإليه الملتجأ، وهو المألوه المرغوب إليه في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾:

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، أي: احبس نفسك حبس ملازمة وتثبيت وصبر على طاعة الله تعالى.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، أي: مع المؤمنين العبَّاد المنيبين، الذين يدعون ربهم ويعبدونه ويسألونه ويذكرونه ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويكبرونه ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، «الغداة»: أول النهار، و«العشي»: آخر النهار، أي: أول النهار وآخره، بكرة وأصيلًا، وذلك يشتمل أوقات جميع الصلوات، وأذكار الصباح والمساء، وقيام الليل، بل وجميع أوقات الليل والنهار، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾ [مريم: ٦٢]، ورزق أهل الجنة وطعامهم على الدوام لا ينقطع في أي وقت.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، أي: مخلصين لله تعالى في دعائهم، يطلبون مرضاة الله تعالى،

فجمعوا بين دعاء الله تعالى وعبادته على الدوام، وبين الإخلاص لله عز وجل.

وفي الآية: الأمر بصحبة الأخيار وإن كانوا فقراء، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم؛ لما في صحبة الأخيار من الفوائد التي لا تحصى.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي: ولا تتجاوز عيناك عن هؤلاء السادة الأخيار، الأبرار الأطهار؛ أي:لا تجاوزهم بصرك، ولا تصرف عنهم نظرك.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية الزائلة، بصرف بصرك عن هؤلاء الأخيار الأبرار، ومجالسة الأغنياء والأشراف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾، أي: ولا تطع الذي أغفلنا قلبه، أي: عاقبناه بسبب كفره وشركه، بأن جعلنا قلبه غافلًا لاهيًا عن ذكرنا، أي: عن القرآن والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي: اتبع ما تهواه وتشتهيه نفسه الأمارة بالسوء، وآثره على ما فيه هداه وفلاحه، فما اشتهت نفسه فعله وسعى في إدراكه، ولو كان فيه ضلاله وهلاكه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾، أي: أعماله وأقواله، ومصالح دينه ودنياه، وشأنه كله ﴿فُرُطًا﴾، أي:منفرطًا ضائعًا، مجانبًا للحق، تمضي الأيام والليالي من عمره ولا ينتفع منها بشيء، فخسر الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم: «أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه،

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٤، «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة»(١).

وما أكثر الذين كان أمرهم ﴿فُرُطًا﴾ حتى من المنتسبين إلى الإسلام، وإن كان فرطًا دون الكفر.

وليس في نهيه ﷺ عما ذكر ما يدل على أنه ﷺ قد فعل شيئًا من ذلك، وإنما هذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ونحو ذلك، وهو نهي له ﷺ ولأمته.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي: قل يا محمد للناس: هذا الذي أتلوه عليكم من القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي: هو الحق الثابت من ربكم، والقول الفصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغي.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الفاء عاطفة، أو رابطة لجواب شرط مقدر، و«من» شرطية في الموضعين، والفاء في الموضعين بعدها رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة طلبية.

والمعنى: لا إكراه في الدين، فمن شاء وأراد الإيمان فليؤمن، ومن شاء وأراد الكفر فليكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقدم في الذكر الإيمان ترغيبًا فيه.

وفي قوله: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ تهديد ووعيد شديد؛ ولهذا قدّم ذكر ما تُوعِّدوا به من النار وما فيها من صنوف العذاب تحذيرًا من الكفر، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٠.

نَارًا﴾، فكأنه قال: فمن شاء فليكفر وله النار.

ومعنى ﴿أَعْتَدْنَا﴾، أي: هيأنا وأعددنا وجهزنا، ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي وأذية العباد، ﴿نَارًا﴾ نكرت للتهويل والتعظيم.

﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، أي: سورها وفسطاطها، فليس لهم منها مخرج ولا مخلص، ولا منفد ولا طريق.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾، أي: يطلبوا الغوث بالماء ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد.

﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾، أي: بماء شديد الحرارة أسود منتن غليظ، كدُرديِّ الزيت وعكره.

﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ من شدة حره، فإذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى يسقط فروة وجهه وجلده، قال تعالى: وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٥]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤].

﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾، أي: قبح وساء هذا الشراب الذي يراد ليطفئ العطش، ويخفف شدة العذاب، فيكون زيادة وشدة في عطشهم وعذابهم.

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: وساءت النار وقبحت مرتفقًا، أي: منزلًا ومقيلًا وموضعًا للارتفاق، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

و«المرتفق» في الأصل: مكان الارتفاق والراحة، وإطلاق وصف ﴿مُرْتَفَقًا﴾ على النار من باب التهكم؛ لأنه ليس في النار شيء من الراحة والارتفاق، وإنما فيها العذاب الشاق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾:

ذكر في الآية السابقة ما أعده للكافرين من النار، وما فيها من صنوف العذاب، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده للمؤمنين من الجنات وما فيها من ألوان النعيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، أي: إنا لا نضيع ثواب الذي ﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ بإيمانه وعمله عملًا صالحًا جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

ولم يقل: أجرهم، لبيان العلة في ثوابهم، وهو أنهم أحسنوا العمل، مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

والمراد: لا نجعل عملهم الصالح يذهب سدى، بل نثيبهم، ونجازيهم عليه، ونزيده ونضاعفه لهم أضعافًا كثيرة، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تشريفًا لهم، ورفعة لقدرهم ومنزلتهم، وقدم الخبر ﴿لَهُمْ﴾ للدلالة على الاختصاص، أي: لهم خاصة جنات عدن، و«عدن» بمعنى: إقامة، أي: جنات عدن التي يقيمون فيها إقامة دائمة، خالدين فيها أبدًا.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وهذه الأنهار تجري بغير أخدود يصرفونها كيف شاؤوا، قال ابن القيم(١):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، أي: يحلون في هذه الجنات ذكورهم وإناثهم.

---

(١) في «النونية» ص٢٢٩.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، «أساور»: جمع «سوار»؛ وهو ما يوضع من الحلي والزينة على اليد.

﴿مِن ذَهَبٍ﴾ «من»: بيانية، أي: هذه الأساور من ذهب.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾، أي: لونها أخضر، وهو لون مميز من بين الألوان، جمالًا، ومحبة في عين الناظر، وهو أعدن الألوان وأفقعها عند البصر، وهو شعار الملوك.

﴿مِّن سُندُسٍ﴾ وهو رقيق الديباج والحرير، كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، [فاطر: ٣٣] يلبس مباشرًا للجلد لرقته ونعومته.

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو غليظ الديباج والحرير، يلبس فوق الثياب؛ لما فيه من البريق، ولا يباشر الجلد لغلظته.

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: ﴿مُّتَّكِئِينَ﴾ حال، أي: في حال كونهم متكئين في تلك الجنات. والاتكاء: الجلوس وهو جلسة الراحة والطمأنينة والترف، و«الأرائك»: جمع «أريكة»، وهي: السرر المزينة بالستائر الجميلة.

﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾، أي: نعم الثواب تلك الجنات وما فيها من النعيم.

﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ هذا في مقابل قوله تعالى عن النار: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: وحسنت تلك الجنات مرتفقًا، أي: منزلًا ومقيلًا ومقامًا يرتفقون بها، ويتنعمون بما فيها من أنواع وألوان النعيم، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

٢- أمر الله عز وجل له ﷺ بتلاوة واتباع وتبليغ ما أوحاه عز وجل إليه من القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

٣- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإثبات ربوبيته الخاصة، بل ربوبية خاصة الخاصة له ﷺ.

٤- أن في تلاوته ﷺ ما أوحاه الله تعالى إليه من القرآن القول الفصل في جميع المنازعات والاختلاف مما جاء في قصة الكهف وغير ذلك، وبيان الحق من الباطل والهدى من الضلال.

٥- تعظيم شأن القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا ترغيب في الإقبال عليه.

٦- لا تبديل ولا تغيير لكلمات الله تعالى الشرعية وآياته في القرآن الكريم؛ لبلوغها الغاية في الصدق والعدل، ولحفظ الله تعالى لها من التبديل والتغيير والتحريف والتأويل، كما أنه لا تبديل لكلماته الكونية، فما قدره كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

٧- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه عز وجل يتكلم بحرف وصوت مسموع، وأن القرآن الكريم كلامه، غير مخلوق.

٨- أنه لا ملجأ ولا ملتجأ إلا إلى الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾.

٩- عناية الله تعالى بأوليائه المؤمنين، وعباده الداعين ربهم غدوة وعشية، المخلصين له؛ لأمره لنبيه ﷺ بتصبير نفسه وحبسها معهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾، وهذا عام له ولأمته، وبخاصة أهل الشأن منهم من العلماء والدعاة ونحوهم؛ أن يصبروا أنفسهم مع إخوانهم المؤمنين.

١٠- الترغيب بدعاء الله تعالى وعبادته بالغداة والعشي، وفي جميع الأوقات.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

١٢- وجوب الإخلاص لله تعالى في الدعاء والعبادة؛ لأن ذلك لا يقبل بدون الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾.

١٣- إثبات الإرادة والمشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾، وفي هذا إبطال لقول

الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على أفعاله، كالسعفة في الهواء.

١٤- إثبات الوجه لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

١٥- النهي عن صرف النظر عن هؤلاء الذين أمر الله بحبس النفس معهم؛ لفقرهم أو ضعفهم أو انشغالًا بالأشراف والأغنياء، أو إرادة لزينة الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وفي هذا تأكيد للعناية بهم، وعظم مكانتهم عند الله عز وجل، لكن لو انصرف عنهم لمصلحة دينية لم يدخل في النهي.

١٦- سمو مبادئ الإسلام وتشريعاته المطهرة، فالناس فيه لا يقاسون بالدرهم والدينار، وإنما أكرمهم عند الله أتقاهم، وفي الحديث: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبره**»(١).

١٧- تحقير الدنيا وزينتها الفانية الزائلة، والتحذير من الانشغال بها عن الآخرة الباقية؛ لقوله تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٨- النهي عن طاعة من عاقبه الله بسبب كفره، فأغفل قلبه عن ذكر الله، واتبع ما تهواه وتشتهيه نفسه الأمارة بالسوء، وكان أمره فرطًا وضياعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، ويدخل في هذا النهي من غفل عن ذكر الله مطلقًا، بقلبه ولسانه، ومن غفل عن ذكر الله بلسانه دون قلبه.

١٩- أن ما يقع من شر أو خير هو بتقدير الله تعالى الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: قدرنا غفلة قلبه عن ذكرنا.

٢٠- ذم الغفلة عن ذكر الله واتباع الهوى، والتحذير من ذلك، ووجوب لزوم ذكر الله، واتباع الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

٢١- أن من غفل عن ذكر الله واتبع هواه؛ كان أمره ضياعًا وسفاهًا وهلاكًا، وخسر دينه ودنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٨٥٤، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

٢٢- أمره ﷺ بقول الحق والصدع فيه، وبيان أن ما جاء به من القرآن هو الحق من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٤- بيان أنه لا إكراه في الدين، فمن أراد الإيمان فليؤمن، ومن أراد الكفر فليكفر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وقدم الإيمان ترغيبًا فيه.

٢٥- التهديد والوعيد الشديد للظالمين، تحذيرًا من الظلم بالكفر والشرك والمعاصي والاعتداء على الخلق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الآية.

٢٦- أن النار موجودة الآن، معدة لأهلها الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾.

٢٧- إحاطة سرادق النار بالظالمين، فليس لهم منها مخرج ولا منفذ ولا طريق؛ لقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

٢٨- شدة ما هم فيه من العطش من حر النار، وإغاثتهم إذا استغاثوا بماء غاية الحرارة والغلظة والنتن والسواد كعكر الزيت، يشوي الوجوه ويسقط فروتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾.

٢٩- ذم ما يغاثون به من الشراب، فلا هو يطفئ العطش، ولا يخفف من شدة العذاب، بل يزيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾.

٣٠- أن النار ساءت وقبحت منزلًا ومقيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

٣١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب؛ لأنه لما ذكر الظالمين وما أعد لهم من النار والعذاب، ذكر المؤمنين وما أعد لهم من الجنات والثواب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيتان.

٣٢- لا بد من الجمع بين إيمان القلب والباطن، وعمل الصالحات بالجوارح والظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

٣٣- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لسنة رسوله ﷺ،

لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣٤- تكفل الله عز وجل وضمانه ثواب من أحسن العمل؛ ولهذا سماه «أجرًا»، بل وزيادته ومضاعفته له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

٣٥- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات وأحسنوا العمل، فلهم جنات عدن، يتمتعون فيها بألوان النعيم من الأنهار، والحلية واللباس، والاتكاء على الأرائك؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

٣٦- امتداح الله عز وجل لما أعده لعباده المؤمنين من جنات عدن، وما فيها من أنواع النعيم، وأنها حسنت مرتفقًا ومنزلًا ومقامًا لهم؛ لقله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤]، نسأل الله تعالى من فضله.

٣٧- الترغيب في الإيمان وإصلاح العمل وتحسينه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾، أي: واضرب لهؤلاء المشركين؛ المفتخرين بأموالهم وأحسابهم وأنسابهم، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء من المسلمين، أو: اضرب للفريقين معًا المشركين والمؤمنين.

وضرب المثل: تشبيه أمر معنوي بأمر حسي؛ لتقريب الأمر المعنوي.

﴿مَّثَلًا﴾، أي: شبهًا وصفة ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ أحدهما مؤمن، والآخر كافر.

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾، أي: حديقتين وبستانين، ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾، أي: من أشجار العنب.

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾، أي: وحففنا هاتين الجنتين- أي: أحطناهما- بنخل محدق بجنباتهما.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾، أي: وجعلنا بين الجنتين- أي: في خلالهما- زرعًا.

فجمع الله له في هاتين الجنتين الأعناب والنخل والزرع، التي ثمرها من أهم الأقوات، وأنفع الثمار وألذها وأطيبها وأجودها، جمع فيهما بين الفاكهة من العنب، والغذاء من الحب وثمر النخل، وجعل منظرهما من أجمل وأبهى المناظر.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الهمزة وضم الكاف: ﴿أُكُلَهَا﴾، وقرأ الباقون بضم الهمزة وسكون الكاف: «أُكْلَهَا»، أي: أثمرت وأخرجت ثمرها.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولم تنقص من ثمرها شيئًا.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: وفجرنا خلال الجنتين وبينهما نهرًا، فاجتمعت فيهما كل مقومات الحياة، من الفاكهة والقوت والثمار والماء.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وعاصم وروح ورويس بفتح الثاء والميم: ﴿ثَمَرٌ﴾، وقرأ الباقون: بضم الثاء والميم: «ثُمُر».

ونكر ﴿ثَمَرٌ﴾ للتعظيم، أي: وكان له ثمر عظيم من هاتين الجنتين اللتين آتت كل منهما أكلها تامًّا ولم تنقص منه شيئًا، أو: كان له أموال كثيرة مثمرة غيرهما.

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، أي: فقال صاحب هاتين الجنتين والثمر الكثير ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ الجملة حالية، ﴿وَهُوَ﴾، أي: صاحب الجنتين والثمر ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، أي: يحاور صاحبه المؤمن، أي: يراجعه الكلام مفتخرًا متطاولًا عليه ومغترًّا بجنتيه:

﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: وأشد عزة وأقوى وأكثر نفرًا، أي: أكثر عشيرة وأنصارًا وأعوانًا وخدمًا وحشمًا وولدًا، فافتخر على صاحبه بأمرين- هما سبب هلاك كثير من الخلق- وهما: كثرة المال، وقوة العشيرة وكثرة الأنصار.

أي: افتخر بالغنى والحسب، ولم يغن الافتخار بهذا عن فرعون ولا عن قارون

شيئًا؛ ولهذا قابله بقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَدَخَلَ﴾، أي: الكافر صاحب الجنتين ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ أفردها، فإما أن يقال: المراد بالمفرد الجنس، وإما لأنهما متجاورتين فيدخل من أحدهما لينتقل منها إلى الأخرى، أو لغير ذلك.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، أي: حال كونه ظالمًا لنفسه بكفره وافتخاره وغروره، وكل ما يرتكبه الإنسان من الكفر والشرك والمعاصي هو ظلم للنفس؛ لأن ذلك يوردها موارد الهلاك، وهي وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه نجاتها وسلامتها في دينها ودنياها وأخراها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩- ١٠].

وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

قال لبيد(١):

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يومًا أن ترد الودائع

﴿قَالَ﴾ لجهله وظلمه: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، أي: ما أعتقد أن تفنى وتزول هذه الجنة أبدًا، وذلك لإعجابه بها وبما فيها من قوة وحسن المنظر، وغير ذلك، واغتراره بالحياة الدنيا وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال منكرًا للبعث:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أي: وما أعتقد القيامة قائمة، أي: لا أعتقد أن هناك بعثًا ولا حسابًا ولا جزاءً على الأعمال.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر: «مِنْهُمَا» بميم بعد الهاء على التثنية، وقرأ الباقون بحذف الميم على الإفراد: ﴿مِّنْهَا﴾.

واللام في قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٨٨.

والمعنى: والله لئن رجعت إلى ربي على سبيل الفرض والتقدير أن هناك رجعة ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، أي: خيرًا من هذه الجنة ﴿مُنقَلَبًا﴾، أي: مرجعًا ومردًّا، أي: لحظوتي عنده، ولولا ما لي عنده من الحظوة والكرامة ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧]، أي: في الدار الآخرة.

وهذا اغترار وجهل منه، واستدلال بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة، ولا تلازم بينهما، بل إن الغالب أن الله يزوي بالدنيا عمن يحب، ويوسعها على من لا يحب من الكفرة، الذين ليس لهم في الآخرة من نصيب.

كما في الحديث: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه**»(١).

وقال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**»(٢).

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٣)

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء، وهذا أقرب، وهو أشد وأعظم، وزيادة كفر على كفره.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ﴾، أي: قال لصاحب الجنتين الكافر، ﴿صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ناصحًا له وواعظًا ومخوفًا، وزاجرًا له عما هو عليه من الكفر والاغترار، مذكرًا له بنعمة الله تعالى عليه بخلقه وإيجاده من العدم، وإعداده وإمداده.

﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، أي: وهو يراجعه ويجادله، والضمير «هو» يعود إلى المؤمن، والضمير في ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يعود إلى صاحب الجنتين.

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، أي: كيف كفرت بالله العظيم «الذي خلقك من تراب»، أي: ابتدأ خلق الإنسان بخلق آدم عليه السلام أبي البشر من طين، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]، فذكّره بأصل خلقه؛ ليعرف قدر نفسه وضعفه، وليعرف تمام قدرة الله على البعث الذي ينكره.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: بخلق بني آدم كلهم من نطفة مني، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾ [النجم: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، أي: ثم عدلك وأكمل خلقك، وجعل لك السمع والبصر والفؤاد، وصيرك رجلاً، وأحسن خلقك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧- ٩].

وقوله هنا: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية؛ كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس عن يعقوب: «لكنا» بإثبات الألف بعد النون وصلًا، وقرأ الباقون: «لكنَّ» بغير ألف، ولا خلاف في إثباتها

في الوقف اتباعًا للرسم.

أي: لكن أنا هو الله ربي، أعترف له بالربوبية والوحدانية، وأعبده وحده.

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ من الخلق، بل أعبده وحده لاشريك له، وأتبرأمن مقالتك وكفرك.

﴿وَلَوۡلَآ﴾ الواو: عاطفة، و«لولا» حرف تحضيض بمعنى: «هلا»، للتوبيخ.

﴿إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾، أي: حين دخلت حديقتك وبستانك، ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

«ما» اسم شرط جازم، و﴿شَآءَ﴾ فعل الشرط، وجوابه محذوف، تقديره: كان أو وقع.

أو هي: اسم موصول في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر ما شاء الله، فيكون المعنى، قلت: ما شاء الله كان، أو: الأمر ما شاء الله.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، أي: لا قوة لي ولا لأحد على إنشاء هذه الجنة، أو القيام بأي عمل إلا بالله وعونه وتوفيقه، أي:هلا فوضت الأمر إلى الله، الذي له القوة جميعًا.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»(١).

قال ابن كثير(٢): «هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله فليقل: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة».

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾، أي: إن احتقرتني لكوني أقل منك مالاً، وأقل منك ولداً، وافتخرت علي بكثرة مالك وولدك.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات- الدعاء إذا علا عقبه ٦٣٨٤، ومسلم في الذكر- استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٧٠٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٢٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٤.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ١٥٤.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«عسى»: فعل ماض جامد، ﴿رَبِّيٓ﴾ اسمها، ﴿أَن يُؤۡتِيَنِ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب خبر «عسى».

أي: أدعو الله وأرجوه أن يعطيني ﴿خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾، أي: أفضل وأحسن منها، في الدنيا والآخرة؛ لأن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من فضله وإحسانه وثوابه وإنعامه؛ لمن آمن به وتوكل عليه، وسأله ورجاه خير من الدنيا وما فيها من متاع الغرور.

﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ الواو: عاطفة، أي: ويرسل على جنتك التي ظننت أنها لا تبيد أبدًا، وافتخرت بها وغرتك.

﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: عذابًا من السماء بمطر عظيم أو صواعق أو غيرذلك، وما جاء من السماء لا يمكن دفعه ولا منعه.

قال ابن كثير[1]: «والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾».

﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾، أي: أرضًا ملساء جرداء، لا تثبت عليها قدم، ولا تنبت شيئًا.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾، أي: ويصير ماؤها غائرًا في الأرض ذاهبًا فيها فلا يوجد فيها ماء، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ ٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾، أي: فلن تقدر ﴿لَهُۥ﴾، أي: لهذا الماء بعد غوره ﴿طَلَبٗا﴾، أي: وصولًا، أي: ولن تقدر على الوصول إلى مائها بعد غوره بشتى الوسائل من المعاول وغيرها.

فدعا الله أن يؤتيه ما يستأثر به عليه؛ لأنه احتقره، وأن يتلف جنته لعله يراجع رشده، ويعرف أن الأمر لله فيتوب إليه.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٥٤.

قال السعدي[١]: «وإنما دعا على جنته المؤمن غضبًا لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينيب ويراجع رشده ويتبصر في أمره».

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، قرأ أبو جعفر وعاصم وروح بفتح التاء والميم: ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾، وقرأ أبو عمرو بضم التاء وإسكان الميم: «بِثُمْرِهِ»، وقرأ الباقون بضم الثاء والميم: «بِثُمُرِهِ».

أي: أصاب ثمره وأمواله عذاب أحاط بها وأهلكها، وأتلفها كلها، فلم يبق منها شيئًا، أرسل الله عليها حسبانًا من السماء؛ استجابة لدعاء صاحبه المؤمن، أو غير ذلك.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، أي: فصار يقلب كفيه ظهرًا لبطن، ويصفقها، ندامة وحسرة وأسفًا وتلهفًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: على الذي أنفق، أو على إنفاقه في هذه الجنة من الأموال الكثيرة الطائلة.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الجملة حالية، أي: وهي ميتة يابسة هامدة على عروشها التي تعرش لتتمدد عليها أغصان الأعناب.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، أي: ويقول نادمًا على إشراكه بربه: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، أي: أتمنى أنني لم أشرك بربي أحدًا.

والندم لا ينفع بعد فوات الأوان، وإذا فات الفوت فلا ينفع الصوت.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿وَلَمْ تَكُن﴾، أي: ولم تكن له جماعة من عشيرة أو ولد كما افتخر واستعز بهم بقوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: يقدرون على نصرته من دون الله، ويدفعون عنه عذاب الله.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، أي: وما كان بنفسه وقوته منتصرًا ممتنعًا، قادرًا على دفع العذاب عنها، وأنى له أن يُنصر أو ينتصر من عذاب الله، الذي لا يدفعه دافع، ولا يمنعه مانع؟!

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَيَةُ لِلَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ٱلْوِلَيَةُ» بكسر الواو، أي: الحكم والسلطان والملك لله، وقرأ الباقون بفتح الواو: ﴿ٱلْوَلَيَةُ﴾، أي: النصرة والغلبة لله، ينصر أولياءه، أو الموالاة لله وحده.

أي: هنالك في ذلك الموقف وذلك الحين، الذي يقع فيه عذاب الله العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة، لله تعالى وحده الحكم والسلطان والملك والنصرة والغلبة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

وفي ذلك الموقف وذلك الحين الموالاة لله وحده، فيرجع كل أحد من مؤمن وكافر إلى الله تعالى، وإلى موالاته تعالى وحده، والخضوع له، كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾، وأنّى ينفع ذلك؟! كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥]، وقال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠- ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

﴿ٱلْحَقِّ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وخلف بضم القاف: «الْحُقُّ» صفة للولاية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفة لله، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ الضمير «هو» يعود إلى الله، أي: هوخيرثوابًا؛ لأنه يثيب على العمل بعشرة أمثاله إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أي: عاقبة ومالًا، أي: أن ولاية الله تعالى وطاعته والعمل بمرضاته هي خير جزاءً، وخير عاقبةً.

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن الكريم؛ لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ...﴾ الآية.

٢- ضرب المثل لهؤلاء المشركين الذين كفروا نعم الله، وللمؤمنين الذين شكروا نعم الله بهذين الرجلين: صاحب الجنتين الذي كفر نعم الله تعالى، وافتخر واغتر بما آتاه الله، وظن تأبيد جنته، وأنكر البعث، وصاحبه المؤمن الذي وعظه وأنكر عليه كفر نعم الله، واعترف بربوبية الله وإلهيته ولم يشرك بربه أحدًا، فثبته الله تعالى على الإيمان والتوحيد، والتعلق بربه ورجائه الخير والفضل منه، وأحيط بثمر صاحبه وأهلك، فأصبح يقلب كفيه حسرة وندامة على ثمره وماله، ويتمنى أنه لم يشرك بربه أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

٣- الابتلاء بالنعم؛ فإن من أسباب غرور صاحب الجنتين وافتخاره على صاحبه وكفره وإنكاره البعث واعتقاده حظوته عند الله: أنْ مَنَّ الله عليه بهاتين الجنتين، وكثرة الثمر والمال.

٤- أن من أفضل الحدائق والبساتين وأنفعها ثمرًا، وأجملها منظرًا، ما كان من شجر الأعناب المحفوفة بنخل، ومن بينهما وخلالهما زرع ونَهَر؛ لأن الله ذكر هاتين الجنتين وما فيهما وما هما عليه من الوصف من باب الامتنان.

٥- أن من معاني الظلم: النقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولم

تنقص، ولا يمكن أن يفسر الظلم في هذه الآية بغير النقص.

٦- إطلاق الصحبة على من كان بينهما أيُّ علاقة وترابط حتى ولو اختلفا في الدين، وجواز الحوار بين المؤمن وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾.

٧- افتخار صاحب الجنتين على صاحبه بكونه أكثر منه مالًا وأعز نفرًا، اغترارًا منه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

٨- ظلم صاحب الجنتين لنفسه بالكفر بالله وكفر نعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الآية.

٩- أن الكفر والمعاصي وكفر النعم ظلم للنفس؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان، يجب أن ينأى بها عن أسباب الهلاك والعذاب، ويحملها على ما فيه صلاحها وسلامتها ونجاتها في الدنيا والآخرة.

١٠- اغتراره بجنته، واعتقاده أنها لن تبيد أبدًا جهلًا منه؛ لقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾.

١١- إنكاره القيامة والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

١٢- اعتقاده أن له الحظوة عند الله، مستدلًّا على ذلك جهلًا منه وغرورًا بما أعطاه الله في الدنيا، وأنه إن كان ثمة معاد إلى الله فله خير منها هنالك؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ وكل هذا وما قبله من ظلمه لنفسه.

١٣- إقراره بربوبية الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾.

١٥- إنكار صاحبه المؤمن عليه كفره بالله الذي خلقه وأعدَّه وأمدَّه، ووعظه له وزجره وتخويفه بالله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي

خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾.

١٦- مشروعية إنكار المنكر، ووعظ صاحبه وتخويفه وتحذيره.

١٧- أن أصل خلق بني آدم من تراب بخلق أبيهم، وتناسلهم من نطفة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٧-٨].

١٨- الامتنان على بني آدم بخلقهم وإعدادهم وإمدادهم وتسوية خلقهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

١٩- اعتراف الرجل المؤمن بربوبية الله تعالى له، وإخلاصه العبادة له وحده بلا شريك؛ لقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾.

٢١- توبيخ المؤمن لصاحبه على افتخاره بجنته، واغتراره بما آتاه الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾.

٢٢- يشرع لمن أعجبه شيء من مال أو ولد أو غير ذلك له أو لغيره؛ أن يقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ومال وولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيها آفة دون الموت**»؛ وقرأ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(١).

وعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأى أحدكم من**

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٥٣٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٠٦٠، والطبراني في الأوسط ٤٢٧٣، وفي الصغير ٥٨٨، وابن السني في عمل اليوم والليلة ٣٥٧، وهو مضعف.

أخيه أو من نفسه أو من ماله، ما يعجبه، فليبركه؛ فإن العين حق»(١).

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وأنه لا قوة لأحد إلا بالله تعالى؛ ولهذا أمرنا إذا قال المؤذن: «حي على الصلاة، حي على الفلاح» أن نقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»(٢).

٢٤- احتقار صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن أنه أقل منه مالًا وولدًا؛ لقول المؤمن له: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

٢٥- دعاء المؤمن راجيًا ربه أن يعطيه خيرًا من جنة صاحبه، ولا خاب من رجاه سبحانه؛ لقول المؤمن له: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

٢٦- جواز أن يسأل المؤمن أن يعطيه الله خيرًا مما أعطى فلانًا أو مثله.

٢٧- التسلي بما عند الله من الخير عن لذات الدنيا وشهواتها؛ لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

٢٨- لا غبطة في المال والولد إذا لم يكونا عونًا على طاعة الله تعالى.

٢٩- دعاء المؤمن على جنة صاحبه الكافر؛ لاحتقاره له، ولعله بتلفها يراجع رشده ويتوب إلى ربه؛ لأنها كانت سبب كفره نعمة الله، وظلمه وافتخاره وغروره وإنكاره البعث، واعتقاده حظوته عند الله؛ لقوله: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾.

٣٠- جواز الدعاء على مال من كان ماله سببًا في ظلمه وطغيانه، وكفره نعمة الله عليه، وتكبره وافتخاره واحتقاره لغيره؛ لعله بهلاك ماله يتوب أو يكف شره.

٣١- إهلاك ثمر صاحب الجنتين وإتلافه، واستجابة دعاء صاحبه عليه، بسبب ظلمه وكفره نعمة الله، وافتخاره وغروره واحتقاره لصاحبه المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾.

٣٢- ندم صاحب الجنة، وتحسره على ما أنفق على جنته بعد أن خوت على عروشها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٤٧، وابن ماجه في الطب ٣٥٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٣٨٥، وأبو داود في الصلاة ٥٢٧، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٣٣- تمنيه أنه لم يشرك بربه أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

قال السعدي[1]: «ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه؛ أن صاحب هذه الجنة تحسنت حاله ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول».

٣٤- أن الظلم وكفر النعم والطغيان والافتخار على الخلق واحتقارهم؛ سبب لزوال النعم وحلول النقم.

٣٥- أنه لم يكن لصاحب هاتين الجنتين من فئة ينصرونه من دون الله من عشيرة أو ولد، فيمنعون عنه عذاب الله أو يدفعونه، ولم يكن هو منتصرًا من ذلك بقوته بنفسه؛ لأن عذاب الله لا مانع له ولا دافع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

٣٦- أنه حين وقوع العذاب العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة؛ يتبين أن الولاية والنصرة والحكم والسلطان لله الحق، ويرجع إلى موالاته في ذلك الموقف والخضوع له كل مؤمن وكافر؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

٣٧- أن الله عز وجل هو الحق، كما أن له الولاية الحق، سبحانه وتعالى.

٣٨- أن الله عز وجل هو خير ثوابًا وخير عقبًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾.

٣٩- أن ولاية الله تعالى وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار، وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾.

* * *

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾، أي: واضرب يا محمد للناس، وللمشركين خاصة، الذين اغتروا بالحياة الدنيا، وظنوا أنها لا تفنى، وأنكروا البعث والحساب؛ كحال صاحب الجنتين الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وكحال الذين توعدهم الله بقوله ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، ومن توعد الله بقوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١- ١٦]، وبقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٤- ١٦].

﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: شبه وصفة الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها وانقضائها كلها، وبالنسبة لحياة كل فرد فيها.

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الكاف للتشبيه، أي: كمثل ماء أنزلناه من السماء، أي: كمطر أنزلناه من السماء.

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء: عاطفة، والباء في «به» للسببية، والضمير يعود

إلى «ماء»، أي: فاختلط بسبب ماء المطر نبات الأرض، أي: كثر بسببه نبات الأرض والتفَّ بعضه ببعض من قوة الخصب والازدهار والنماء.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾، أي: صار هامدًا يابسًا متكسرًا متفتتًا.

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، أي: تفرقه وتلقيه وتطرحه الرياح، وتنسفه يمينًا وشمالًا، وهنا وهناك، وإلى كل جهة.

وهذا مثل الحياة الدنيا، تزدهر للإنسان وتزهو له ثم سرعان ما تخمد بموته، أو تزول عنه قبل ذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، أي: وكان الله على كل شيء من إحياء النبات وإماتته وإحياء الخلق وإماتتهم وبعثهم وغير ذلك ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قدرة تامة؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

قال ابن القيم: «عدل عن «قادر» إلى «مقتدر»؛ ليشعر بالزيادة على زيادة قدرة الله تعالى والبيان عن عظم شأنه»(١).

وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها واضمحلالها بالماء ينزل من السماء، فتنبت الأرض وتخضر وتزدهر وتتزخرف، ثم يهيج نباتها ويصفر ويكون حطامًا وهشيمًا تذروه الرياح، وهكذا حال عمر الدنيا كلها، وحال حياة الفرد فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢١.

٢١]، وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: يتزين بهما في الحياة الدنيا، وليس وراء ذلك شيء، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، «الباقيات» جمع: «باقية»، أي: الأعمال الصالحات التي تبقى للإنسان ولا تفنى، وتصحبه في قبره ويوم حشره، يوم تطاير الصحف ونشرها، ووضع الموازين القسط، ووزن الأعمال، ويبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، من الصلاة والزكاة والصيام والحج، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذكر والاستغفار والتسبيح والتكبير والتحميد والتهليل وغير ذلك؛ قال ﷺ: «**الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(١).

﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾، أي: خير جزاءً؛ حيث تضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾، أي: وخير ما يؤمل ويرجى عند الله، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا ٧٦﴾ [مريم: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٧٠ من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ٤/ ٢٦٨ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾:

لما زهّد في الدنيا الفانية، ورغب بالأعمال الصالحة الباقية، أتبع ذلك بذكر أهوال القيامة، وحشر الناس جميعًا، وعرضهم على ربهم.

قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالتاء وضمها وفتح الياء، ورفع الجبال: «تُسَيَّرُ الْجِبَالُ»، وقرأ الباقون بالنون وضمها وكسر الياء وفتح الجبال: ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾.

والواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ استئنافية أو عاطفة، و«يوم» مفعول به لفعل محذوف، أي: اذكر يوم، أي: اذكر يوم القيامة وما فيه من الأهوال والشدائد والأمور العظام، من تسيير الجبال، وكونها كالعهن المنفوش، ونسفها وإزالتها عن أماكنها، وجعلها كثيبًا مهيلًا، وهباءً منبثًّا، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥].

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: ظاهرة، ممدودة غير كروية، لا شيء يسترها من جبال أو أودية أو شجر أو بناء أو غير ذلك، قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري أحدًا، بل الخلق كلهم بارزون على ظهرها، لا يخفى على الله منهم شيء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق:٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جمعنا جميع الخلق في موقف القيامة، حتى الوحوش والدواب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: فلم نترك منهم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، أي: وعرض الخلائق على ربك يا محمد مصطفين، أي: صفًّا واحدًا أو صفوفًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، وفي الحديث: «**يصف الناس يوم القيامة صفوفًا**»(١)، وفي الحديث الآخر: «**أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومئة صف، أنتم منهم ثمانون صفًّا**»(٢).

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، أي: فيقال لهم ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، وجملة: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ جواب القسم المقدر.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه، و«ما» مصدرية، أي: لقد جئتمونا مجيئًا كما خلقناكم أول مرة، أي: كحالكم لما خلقناكم أول مرة، لا شيء معكم، أي: بلا مال، ولا أهل، ولا ولد، ولا عشيرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾ [الأنعام: ٩٤].

وفي الحديث: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**»(٣)، أي: كما ولدتهم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٦٨٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٥٣، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٧، ومسلم في الجنة ٢٨٦٠، والنسائي في الجنائز ٢٠٨١، والترمذي في

أمهاتهم جردًا لا شيء معهم، والمعنى: لقد جئتمونا كحالكم يوم خلقناكم أول مرة، ليس معكم شيء مما خولناكم في الدنيا، وهذا ظاهر الآية، ولا ينافي هذا أن يستدل بها أيضًا على الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق: ١٥].

وفي هذا تهديد وتقريع للمنكرين للبعث، وتنديم لهم وتوبيخ على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل زعمتم زعمًا كاذبًا، واعتقدتم اعتقادًا باطلًا:

﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ لبعثكم وحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم، أي: أنكرتم وعد الله ووعيده بالبعث والحساب والجزاء، وها قد رأيتموه.

وهذا يقال للكفار فيناقشون الحساب، ويحاسبون حسابًا عسيرًا، و«**من نوقش الحساب عُذّب**»، كما قال ﷺ(١)؛ ولهذا ينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين.

أما المؤمنون فيدنى أحدهم من ربه حتى يضع عليه كنفه- أي: ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، فيقول: «يا فلان، أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾.

قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، «الكتاب» اسم جنس، أي: ووضعت كتب الأعمال،

صفة القيامة ٢٤٢٣، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

أي: أحضرت ونشرت الصحف ودواوين الأعمال التي كتبها الملائكة الحافظون الكرام الكاتبون، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: فترى أيها الرائي وتشاهد ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مرتكبي الجرائم من الكفر والشرك والكبائر والموبقات والمعاصي والآثام.

﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، أي: خائفين مما في هذا الكتاب، أي: من الذي كتب في هذا الكتاب من الجرائم والفضائح والأعمال السيئة والأفعال القبيحة التي ارتكبوها، ويتمنون أنهم لم يعطوا كتبهم ولم يروها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من شدة الخوف والوجل: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ «يا» للتنبيه، أي: يا ويلنا ويا حسرتنا على ما فرطنا في أعمارنا، ويا هلكتنا!

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، «ما» للاستفهام، ومعناه: التعجب، أي: أيُّ شيء لهذا الكتاب؟ أو ما شأن هذا الكتاب؟

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا عدها وضبطها وأثبتها عددًا وحفظها، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقدم «صغيرة»؛ لأن إحصاءها أدل على التعجب، ولأنها إذا أحصيت ولم تنس

فالكبيرة من باب أولى، وعطف عليها الكبيرة لإرادة التعميم وتأكيده.

عن سعد بن جنادة ﷺ، قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين، نزل قفرًا من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: «**اجمعوا من وجد حطبًا فليأت به**»، قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا. فقال النبي ﷺ: «**أترون هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة؛ فإنها محصاة**»(١).

وقد مر عبد الله بن مسعود ﷺ على قوم يعدون حسناتهم بالحصا، فقال: ما هذا الذي تصنعون؟ قالوا: حصا نعد به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء(٢).

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: ووجدوا الذي عملوه، أو وجدوا عملهم ﴿حَاضِرًا﴾، أي: مثبتًا محضرًا لا يستطيعون نفيه وإنكاره، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهر المخبآت والضمائر.

وعن عبدالله بن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة**»(٤).

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الخطاب لكل من يصلح له، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: ولا يظلم ربك أحدًا من خلقه، لكمال عدله بل يجازي كلًّا بعمله، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

---

(١) أخرجه الطبراني، فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ١٦١- ١٦٢.

(٢) أخرجه الدارمي في «المسند» ١/ ١٢٠ (٢١١- ٥)، وأخرجه في «تاريخ واسط» ص١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في الحيل ٦٩٦٦، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٣٥.

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٣٨، والترمذي في الفتن ٢١٩١.

[آل عمران: ١٨٢]، [الأنفال: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

فيجازي عز وجل الكفرة والمجرمين بالعدل، ويجازي أولياءه بالمغفرة والصفح والفضل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء: ٤٩]، [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤﴾ [النساء: ١٢٤].

وفي الحديث: «**إنه ليقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- بيان حقارة الحياة الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، والتحذير من الاغترار بها، وأنها بسرعة فنائها أشبه بالماء ينزل من السماء، فيختلط به نبات الأرض، فيصير هشيمًا يابسًا تفرقه الرياح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾.

٢- بلوغ القرآن الكريم الغاية في البلاغة والبيان في ضرب الأمثال؛ فإن في تمثيل الحياة الدنيا وعمر الإنسان فيها بالمطر ينزل من السماء، فيختلط به نبات الأرض، ثم يصير هشيمًا تذروه الرياح؛ أبلغ مثال وأدقه وأوضحه وأبلغه في التأثير، وإقامة الحجة، على من كان ذا عقل وعلم، والإنسان يعيش هذا وذاك، فيرى بأم عينيه المطر ينزل، فينبت النبات ويزهو، ثم سرعان ما يكون هشيمًا تذروه الرياح، ويرى عمره والأعمار سرعان ما تتصرم، وصدق الله العظيم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٣- قدرة الله تعالى التامة على الإحياء والإماتة وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

٤- التحذير من الافتتان بالمال والبنين، والانشغال بهما عن الاستعداد للآخرة، وبيان أنهما مجرد زينة الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وقال ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»(١).

٥- أن الباقيات الصالحات- وهن الأعمال الصالحة- خير ثوابًا وأجرًا، وخير يؤمل ويرجى عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

٦- أن الأعمال الصالحة هي التي تبقى ولا تفنى، ويبقى ثوابها وأجرها؛ ولهذا قال ﷺ: «**يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**»(٢).

٧- الترغيب في الاستزادة من الأعمال الصالحة؛ لأن الله وصفها بـ«الباقيات الصالحات» ووعد عليها بالثواب والأجر العظيم، وأنها خير ما يؤمل ويرجى عند الله تعالى، وشتان شتان بين من انشغل بما يفنى من زينة الحياة الدنيا من الأموال والأولاد وغير ذلك، وبين من آثر ما يبقى وما هو أرجى له عند الله.

٨- بيان عظيم يوم القيامة وشدة أهواله؛ تخويفًا وتحذيرًا من ذلك، وحثًّا على الاستعداد له، ففيه تُسيَّر الجبال الثوابت الراسيات، وتظهر الأرض بارزة لا شيء يسترها، من جبال أو أودية أو أشجار أو غير ذلك، بعد أن تسير الجبال، ثم تكون قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

٩- حشر جميع الخلائق وجمعهم يوم القيامة دون ترك أحد منهم؛ لقوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

١٠- عرض الخلائق على الله عز وجل صفًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٢- مجيء الخلائق يوم القيامة كحالهم لما خلقهم أول مرة، لا شيء معهم مما خُوِّلوه في الدنيا من الأموال والأولاد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١٣- قدرة الله تعالى التامة على إعادة الخلق خلقًا آخر كما بدأهم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

١٤- التزهيد في الدنيا ومتاعها الزائل، وما فيها من زينة الأموال والأولاد وغير ذلك؛ لأن هذا كله يذهب ويفنى، ولا يبقى للمرء إلا العمل الصالح.

١٥- إنكار الكفار البعث والمعاد والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

١٦- تهديد الكفار ووعيدهم وتقريعهم على كفرهم وإنكارهم البعث؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

١٧- وضع كتب الأعمال، ونشر الصحف التي كتبتها الملائكة الحافظون الكرام الكاتبون، فسعيد آخذ كتابه بيمينه، وشقي آخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

١٨- إشفاق المجرمين وخوفهم مما في كتبهم؛ لعلمهم بما سطر فيها من قبيح الأقوال، وسيئ الأفعال؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

١٩- تحسر المجرمين وندامتهم- ولات ساعة مندم- على ما سطروا على أنفسهم في كتبهم من الجرائم والموبقات، وتعجبهم من تسجيل أعمالهم عليهم صغيرها وكبيرها؛ لقولهم: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

٢٠- أن المجرمين والكفار في ذلك اليوم ينطقون بألسنتهم ويتكلمون في بعض

المواقف.

٢١- إحصاء وإثبات جميع ما عمله الخلائق وضبطه في كتب أعمالهم، صغيره وكبيره، قليله وكثيره، دقيقه وجليله.

٢٢- إحضار وإثبات جميع ما عمله المجرمون فلا يستطيعون نفيه وإنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾.

٢٣- إثبات كمال عدل الله تعالى في محاسبته الخلائق ومجازاتهم، وأنه لا يظلم أحدًا من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾..

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، أي: واذكر إذ قلنا، أي: حين ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: لجميع الملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ احترامًا وإكرامًا له، وتشريفًا وتعظيمًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ كلهم، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ٣٠، ص: ٧٣].

أي: سجدوا تكريمًا وتشريفًا وتعظيمًا لآدم، وطاعة وامتثالًا لأمر الله عز وجل.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾، «إلا» أداة استثناء.

﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾، أي: في أصل خلقه؛ لأنه خلق من مارج من نار، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرحمن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: ٢٧]، وقال ﷺ: «**وخلق الجان من مارج من نار**»(١).

قال ابن كثير(٢): «خانه أصلُه؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة».

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾، أي: فخرج عن أمر ربه وعن طاعته، فلم يسجد لآدم تكبرًا منه على آدم وافتخارًا بأصله، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: ٧٥- ٧٦].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ بعدما ذكر بعداوة إبليس لآدم عليه السلام، وعدم سجوده له مع الملائكة، وفسقه وخروجه عن أمر ربه وطاعته، أنكر على المشركين اتخاذه وذريته أولياء من دون الله، مع عداوته لله تعالى ولأبيهم آدم عليه السلام.

الاستفهام في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ للإنكار والتقريع والتوبيخ، والتسفيه للمشركين والمكذبين وكل من خالف أمر الله.

أي: أتجعلون إبليس ونسله من شياطين الجن ومن تبعهم من شياطين الإنس ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ توالونهم وتطيعونهم وتتبعونهم؟ أي: بدلًا عني؛ لأن من والى إبليس وذريته فليس بموالٍ لله، وإن زعم ذلك، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى**

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٦، وأحمد ٦/ ١٥٣، ١٦٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ١٦٤.

الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(١).

فلا تجتمع موالاة الله تعالى ومحبته وطاعته، مع موالاة عدوه إبليس ومحبته وطاعته، وكما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ(٢)

﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الجملة حالية، وفيها تعليل للنهي عن موالاتهم، و«العدو» اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

أي: وقد تبين لكم من عداوتهم لله تعالى، وعداوتهم لأبيكم؛ أنهم لكم عدو، فكيف توالونهم؟

قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢﴾ [يس: ٥٩-٦٢].

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، «بئس» فعل ماضٍ جامد يفيد الذم، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك ﴿بَدَلًا﴾ تمييز.

أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من اتخاذ إبليس وذريته أولياء، وهم سبب كل شر، بدلًا عن ولاية الله الذي في ولايته كل خير.

وفي الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أن تقديم ولاية الشيطان على ولاية الرحمن من أظلم الظلم، وأن من فعل ذلك فهو ظالم أشد الظلم.

قوله تعالى: ﴿* مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الكامل في اللغة» ٢/ ٤.

كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قرأ أبو جعفر: «مَا أَشْهَدْنَاهُمْ» بالنون والألف على الجمع للعظمة، وقرأ الباقون بالتاء مضمومة: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾، أي: ما أشهدت إبليس وذريته الذين اتخذهم المشركون أولياء من دوني ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ما أحضرتهم وما جعلتهم شهداء ولا شركاء في خلق السموات والأرض، بل تفردت بخلقهما.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: ولا أشهدتهم خلق أنفسهم، أي: خلق أنفس بعضهم.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قرأ أبو جعفر بفتح التاء: «وَمَا كُنْتَ» خطابًا للنبي ﷺ، وهو خبر مستعمل في النهي، وقرأ الباقون بضم التاء: ﴿وَمَا كُنتُ﴾.

أي: وما كنت جاعل المضلين، وهم إبليس وذريته وأعوانه من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وقال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠- ٦٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

﴿عَضُدًا﴾، أي: عونًا لي؛ لتمام قدرتي وغناي عنهم، ولا أنصارًا ينصرون ديني، لأنهم ضالون، فكيف يُتَّخذون أولياء من دوني وهم ما خلقوا شيئًا، ولا شاركوا في الخلق، بل ولا شاهدوه؟!

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، قرأ حمزة بالنون: «نَقُولُ»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَقُولُ﴾.

أي: واذكر يوم يقول عز وجل للمشركين؛ تقريعًا وتوبيخًا لهم على رؤوس الأشهاد:

﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾، أي: ادعوا شركائي ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، أي: الذين ادعيتم في الدنيا كذبًا وزورًا أنهم شركاء لي، وعبدتموهم من دوني.

أي: ادعوهم ليشفعوا لكم، وينقذوكم مما أنتم فيه من الهول والعذاب.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾، أي: نادَوْا شركاءهم واستغاثوا بهم.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، أي: فلم يجيبوهم، والسين والتاء للمبالغة، و«استجاب» أبلغ من «أجاب»، أي: فلم يجيبوهم؛ لأن هؤلاء الشركاء إنما هم جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، أو ممن عبدهم المشركون من الملائكة والأنبياء والصالحين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١- ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٨- ٢٩].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، أي: مهلكًا، والموبق: المهلك، وفي الحديث قوله ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها**»(١)، أي: أو مهلكها، وقوله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»(٢)، أي: المهلكات.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في

أي: وجعلنا بينهم موبقًا ومهلكًا عظيمًا، فلا يستطيعون الوصول إلى شركائهم، ولا يستطيع شركاؤهم الوصول إليهم. أو: جعلنا بينهم موبقًا ومهلكًا في جهنم، يهلكون فيه جميعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ، قال: «هو واد عميق، فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة»(١).

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

لكن حمل الآية على هذا المعنى بعيد، والأظهر الأول بدلالة السياق.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾، أي: رأوها عين اليقين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧]، وذلك عندما يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها(٢).

﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا﴾، أي: أيقنوا أنهم واقعون فيها لا محالة؛ لعلمهم بما ارتكبوا من أسباب وردوها، وهذا من باب تعجيل الهم والحزن والألم المعنوي لهم؛ لأن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز؛ ولهذا قيل: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي: مخلصًا وطريقًا يعدل بهم عنها، ومكانًا

الوصايا ٣٦٧١، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ١٦٦، ١٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٣، من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

ينصرفون إليه؛ لينجوا منها، بل لا بد لهم منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾، أي: وضحنا وبينا ونوّعنا ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: في هذا القرآن العظيم ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: للناس جميعًا.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾أي: نوّعنا في هذا القرآن من كل مثل، لإثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث، وبيان حال الدنيا والآخرة وغير ذلك؛ لإيضاح وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، والترغيب والترهيب، وذكر ما أعد للمؤمنين من الجنات والنعيم المقيم، وما أعد للكافرين من النار والعذاب الأليم، إلى غير ذلك مما فيه إقامة الحجة على الخلق، إعذارًا وإنذارًا.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، أي: ومع التصريف والبيان في القرآن للناس من كل مثل وبيان الحق من الباطل غاية البيان، كان الإنسان أكثر شيء جدلًا.

عن علي بن أبي طالب ﷺ، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلًا، فقال: «**ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه وهو يقول﴿ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾**»(١).

ومعنى قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، أي: كثير المجادلة والمخاصمة بالباطل، والمعارضة للحق، والمخالفة لأمر الله، والخروج عن طاعته؛ بسبب ظلمه وجهله.

فكل المخلوقات انقادت لأمر الله، واهتدت لما خلقت له، وأطاعت أمره، ما عدا كثيرًا من الناس، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٢٧، ومسلم في صلاة المسافرين، ما روي فيمن قام الليل أجمع حتى أصبح ٧٧٥، والنسائي في قيام الليل ١٦١١، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

ويا سبحان الله! كل المخلوقات تهتدي لما خلقت له، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، أي: هداه لما خلق له، ما عدا كثيرًا من بني آدم الذين كرمهم الله وميزهم بالعقل على سائر المخلوقات، ولله في ذلك الحكمة البالغة، وصدق الله العظيم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، نعم هم أضل من الأنعام؛ لأنهم لم يهتدوا لما خلقوا له، وقد اهتدت الأنعام لما خلقت له، تحوط أولادها، وتغذيهم بلبنها، وبها تجلب لهم من الطعام والشراب، وتذهب لمراعيها وتعود إلى مراحها، تغدو خماصًا وتروح بطانًا، تسكن وتنام بعد غروب الشمس، وتستيقظ عند طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، تعتاد لما عودت عليه من حمل الأمتعة، والتنقل من مكان إلى مكان، وتعرف طريقها إلى ذلك، وإلى محالبها، وإلى موارد المياه، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ۝٥٦﴾:

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾، «أن» والفعل «يؤمنوا» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«منع»، أي: وما منع الناس الإيمان، ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين جاءهم الهدى على ألسنة الرسل، وفيما أنزل عليهم من الكتب.

﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾، أي: يطلبوا منه المغفرة ويتوبوا إليه وينيبوا له.

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿مَنَعَ﴾.

﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: سنة الله تعالى وطريقته في المكذبين الأولين بأخذهم بالعذاب المفاجئ واستئصالهم، والمعنى: وما منع الناس من الإيمان واستغفار ربهم

والتوبة والإنابة إليه؛ إذ جاءهم الهدى، إلا انتظار أن تأتيهم سنة الله في المكذبين قبلهم بأخذهم بالعذاب المفاجئ، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، «أو» عاطفة، ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ منصوب عطفًا على ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾.

﴿قُبُلًا﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم بضم القاف والباء: ﴿قُبُلًا﴾، وقرأ الباقون بكسر القاف وفتح الباء: «قِبَلًا» حال.

أي: أو طلبهم أن يأتيهم العذاب الذي توعدوا به مقابلة ومواجهة، يرونه عيانًا، ويشاهدونه، كما قال قوم شعيب له عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال قوم لوط له عليه السلام: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وكما قالت قريش: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر: ٦- ٧]، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، «إلا» أداة حصر.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، أي: إلا حال كونهم مبشرين ومنذرين، أي: مبشرين لمن آمن وأطاع الله ورسله بالسعادة في الدنيا والآخرة، والجنة، ومنذرين لمن كفر وعصى الله ورسله بالشقاء في الدنيا والآخرة، والنار.

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: ويخاصم الذين كفروا وينازعون ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾، والباطل: ما ليس بحق، وهو الزائل الذاهب.

﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يزيلوا ويبطلوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وهيهات أن يحصل لهم ذلك.

والضمير في «به» يعود إلى الباطل، أي: ليدحضوا بالباطل الحق، أو يعود إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، أي: ليدحضوا

بجدالهم بالباطل الحق.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ قرأ حمزة بسكون الزَّاي: ﴿هزْءًا﴾، وقرأ الباقون بضمها: ﴿هُزُوًا﴾، أي: جعلوا ما بعثت به رسلي من الآيات البينات، وما أيدتهم به من المعجزات، والحجج والبراهين القاطعات، وما حذروا وخوفوا به من العذاب والعقوبات ﴿هُزُوًا﴾، أي: استهزاءً وسخرية، فسخروا بالرسل وما جاؤوا به من الآيات والمعجزات، وكذبوهم أشد التكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾:

لما بين مجادلة الذين كفروا بالباطل ليزيلوا به الحق، واتخاذهم آيات الله والنذر هزوًا، أتبع ذلك ببيان شدة ظلم من قبل ذلك فأعرض عن آيات ربه بعد أن ذكر بها.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، الواو: استئنافية، و«من» اسم استفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أشد ظلمًا ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾، أي: من الذي وعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الكونية والشرعية.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الفاء للتعقيب، إشارة إلى سرعة إعراضه عن آيات الله دون تأمل أو تفكر، أي: فأعرض عنها بقلبه، ونسيها ولم يصغ لها ولا ألقى لها بالًا.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: ونسي الذي قدمته يداه من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ولم يعرضها على ميزان الحق ليعلم أهي صالحة أم طالحة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢]، [الأنفال: ٥١].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي: إنا جعلنا كونًا وقدرًا، أي: صيرنا على قلوبهم أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: لئلا يفقهوه، أي: لئلا يفهموا هذا القرآن، أي: تمنعهم من فهم القرآن.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾، أي: وجعلنا في آذانهم صممًا وثقلًا معنويًّا بحيث لا ينتفعون بما يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: لا يسمعون بها سماع انتفاع، وإن كانوا يسمعون بها سماعًا حسيًّا.

﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: ومهما دعوتهم إلى الهدى.

﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ لأن الله طبع على قلوبهم، وختم عليها، وجعل عليها أكنة، فلا يفهمون ما يدعون إليه، وجعل في آذانهم وقرًا وصممًا معنويًّا فلا ينتفعون بما يسمعون، وذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم وضلالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة: ٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥].

قال ابن القيم(١):

والله ما خوفي الذنوب فإنها ... لعلى طريق العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب من ... تحكيم هذا الوحي والقرآن

وقد أكد نفي هداية هذا المعرض عن آيات الله لما قدمت يداه، والذي ختم الله على قلبه وجعل في آذانه وقرًا، بثلاثة مؤكدات هي: حرف الجزاء المفيد تسبب الجواب على الشرط، وحرف النفي والتوكيد «لن»، ولفظ «أبدًا» المؤكد لمعنى «لن».

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ۝٥٨ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾:

قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لجميع ذنوب عباده، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) في «النونية» ص٣٥٥.

و«الغفور»: اسم من أسماء الله عز وجل، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾، أي: صاحب الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمَّت كل حي، كما قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ورحمته عزو وجل تنقسم إلى قسمين: رحمة هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾، «لو» حرف شرط غير جازم، وهي حرف امتناع لامتناع، والباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: لو يعاقبهم بسبب الذي كسبوه، أو بسبب كسبهم من الكفر والإعراض عن آيات الله ونسيان ما قدمت أيديهم.

﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ اللام رابطة لجواب «لو»، أي: لعجل لهم العذاب وأهلكهم ولم يؤخره، ولم يمهلهم، ولكنه عز وجل حليم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله ولا يهمله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: أنهم وإن أخر عنهم العذاب فلن يسلموا منه، بل لهم موعد للعذاب الدنيوي إن استمروا على كفرهم، وهذا وعيد وتهديد بما حصل لهم بعد ذلك في بدر، كما أن لهم موعدًا للعذاب الأخروي يوم القيامة لا بد لهم منه؛ ولهذا قال:

﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، أي: لن يجدوا من دونه مكانا يَئِلون إليه، ولا مخلصًا وملجأً، وليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل، ولا مفر ولا مهرب.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ المراد بالقرى: أهلها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١]، أي: تلك الأمم السابقة والقرون الخالية الظالمة بالكفر

والشرك وتكذيب الرسل، كعاد وثمود ومدين وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم، وأشار إليهم بـ«تلك»؛ لأن هذه الأمم كالحاضرة يرى مشركو قريش آثارهم، ويسمعون أخبارهم، ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، أي: أخذناهم بأنواع العقوبات وعذبناهم واستأصلناهم، ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾، أي: حين ظلموا بتكذيب الرسل والكفر والشرك.

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم واللام: «لِمَهْلَكِهِمْ»، وقرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح اللام: «لِمُهْلَكِهِمْ».

أي: لم نعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلناهم، وجعلنا لوقت هلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾، أي: وقتًا معلومًا، وأجلًا محدودًا، لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون، فلما حان أجلهم أهلكناهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، [النحل: ٦١].

وفي هذا تحذير وتهديد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ، أي: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، ولا تغتروا بإمهالكم، وترقبوا أخذ الله لكم، فلهلاككم وقت معلوم، وأجل محدود.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير هذه الأمة بأمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم، وامتثالهم لذلك إلا إبليس؛ ليعلموا شدة عداوة إبليس لله عز وجل، ولأبيهم آدم ولهم، ويحذروا من طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الآية.

٢- فضيلة آدم عليه السلام وشرفه عند ربه؛ لهذا أمر عز وجل الملائكة بالسجود له تشريفًا له وتكريمًا وتعظيمًا.

٣- إثبات وجود الملائكة، وسرعة امتثالهم لأمر الله تعالى، ومبادرتهم بالسجود لآدم، طاعة لله تعالى، وتعظيمًا لآدم عليه السلام.

٤- امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام مخالفة لأمر الله، واستكبارًا على آدم.

٥- أن إبليس كان من الجن في أصل خلقه، خلق من نار؛ ولهذا خانه أصله ففسق عن أمر ربه وخرج عن طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق بما فيهم إبليس؛ لقوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

٧- رجوع كل شيء لأصله غالبًا، وكل إناء بالذي فيه ينضح، ولا يجنى من الشوك العنب.

٨- الإنكار والتقريع للمشركين، الذين اتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله، وهم لهم عدو، لعداوتهم لله تعالى، وعداوتهم لأبيهم آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾.

٩- أن من اتخذ إبليس وذريته أولياء فهو عدو لله، وإن زعم موالاة الله؛ لأن موالاة الله لا تجتمع مع موالاة عدوه؛ ولهذا قال: ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾.

١٠- بئس وقبح للظالمين بدلًا اتخاذهم إبليس وذريته أولياء من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

١١- أن من أظلم الظلم اختيار ولاية الشيطان، وتقديمها على ولاية الرحمن، وأن من فعل ذلك فهو ظالم أشد الظلم، بدلالة الإظهار في قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ مقام الإضمار.

١٢- عدم استحقاق إبليس وذريته اتخاذهم أولياء من دون الله؛ لأنهم ليس لهم من الأمر شيء، فلم يشهدهم الله خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، ولم يكن بحاجة إلى اتخاذهم أعوانًا؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

١٣- تفرده عز وجل بخلق السموات والأرض، وخلق الجن والإنس وجميع الخلق، وعظيم قدرته وقوته وغناه، وعدم حاجته إلى أحد من الخلق.

١٤- توبيخ المشركين يوم القيامة بأمره عز وجل لهم بنداء شركائه الذين زعموهم والاستغاثة بهم؛ لفضحهم وبيان بطلان زعمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾.

١٥- دعوة المشركين شركاءهم في الدنيا، واستغاثتهم بهم في ذلك اليوم؛ ليشفعوا لهم، وعدم استجابتهم لهم؛ لأنهم جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا يملكون

لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾.

١٦- الحيلولة بين المشركين وبين الوصول إلى شركائهم، والفصل بينهم بموبق ومهلك من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، ويحتمل أن يكون المعنى: وجمعنا بينهم بمهلك من النار يهلكون فيه جميعًا.

١٧- رؤية المجرمين النار في موقف القيامة عيانًا وتيقنهم أنهم واقعون فيها لا محالة، لما قدموه من موجبات ورودها من سيئ الأعمال وقبيح الفعال؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾.

١٨- لا مناص ولا محيد للمجرمين عن جهنم، ولا طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

١٩- إقامة الحجة بتصريف الأمثلة في القرآن، وتنويعها للناس، وتوضيحها؛ لبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحرام من الحلال، والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

٢٠- أن الإنسان أكثر شيء جدلًا، يجادل بالباطل؛ ليدحض به الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

٢١- أنه ما منع الناس من الإيمان واستغفار ربهم إلا انتظار أن تأتيهم سنة الله تعالى في الأولين قبلهم بمفاجأتهم بالعذاب وإهلاكهم، أو طلبهم أن يأتيهم العذاب مقابلة وعيانًا يشاهدونه قبل وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين للنبي ﷺ.

٢٢- اتباع كثير من الناس سنن من كان قبلهم، ولو كانوا على ضلال وباطل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣].

٢٣- أن سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين ثابتة في الأولين والآخرين لا تتغير ولا تتبدل.

٢٤- التحذير من تأخير الإيمان والاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى حتى حلول العذاب وغلق الباب.

٢٥- أن الله عز وجل إنما أرسل الرسل للبشارة للمؤمنين بالجنة، والنذارة للكافرين من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٢٦- مجادلة الذين كفروا ومخاصمتهم بالباطل ليزيلوا به الحق، وهيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

٢٧- اتخاذهم آيات الله وما أنذروا وخوفوا به من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة استهزاءً وسخريةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾.

٢٨- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن ذكر ووعظ بآيات ربه، ثم تولى وأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فذلك لأنه قد عصى الله على بصيرة.

٢٩- التحذير من الإعراض عن آيات الله، وعدم التأمل والتفكر فيها، ونسيان المرء ما قدمت يداه، وعدم التوبة والاستغفار.

٣٠- معاقبة المكذبين بسبب تكذيبهم، بجعل الأكنة على قلوبهم، والوقر في آذانهم، فلا يفهمون القرآن، ولا يسمعونه سماع تدبر وانتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

٣١- أن من قدر الله عليهم الكفر، وجعل على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقرًا، فلا سبيل إلى هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾.

٣٣- إثبات اسم الله تعالى: «الغفور»، وصفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾.

٣٤- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٣٥- إمهال الله تعالى للمكذبين، وعدم مؤاخذتهم بما كسبوا بتعجيل العذاب لهم، وهذا من آثار مغفرته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا

كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾.

٣٦- أن للمكذبين بآيات الله المعرضين عنها موعدًا لعذابهم محددًا معلومًا لا يتقدم ولا يتأخر، لا محيد لهم عنه ولا محيص، ولا ملجأ لهم منه ولا مهرب، فلا يغتروا بإمهال الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾.

٣٧- تسلية النبي ﷺ تجاه إعراض قومه عما جاءهم به من الآيات وكفرهم وضلالهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة.

٣٨- تحذير المشركين المكذبين أن يحل بهم ما حل بالأمم الظالمة قبلهم من الهلاك؛ بسبب ظلمهم، الذين أمهلوا ولم يهملوا، بل جعل الله لوقت إهلاكهم موعدًا؛ أهلكهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة: قصة موسى وفتاه والخضر؛ بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب رضي الله عنهم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب، فكيف لي به؟ فقال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت، فهو ثمَّ. فأخذ حوتًا فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه «يوشع بن نون»، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا؛ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾. فقال: فكان للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا. فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾،

قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبًا، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا، قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾. فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْلٍ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا ۝٧٣﴾. قال: وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسيانًا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا نُّكۡرًا ۝٧٤ * قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ۝٧٥﴾ قال: وهذه أشد من الأولى. قال: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءٖ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرًا ۝٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال: مائل- فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾، قال: فقال رسول الله ﷺ: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة

صالحة غصبًا»، وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ قال موسى عليه السلام هذا؛ حرصًا منه على لقاء هذا العبد، الذي أوحى الله لموسى: أنه في مجمع البحرين من هو أكثر منه علمًا؛ ليتعلم منه.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾، أي: واذكر إذ قال موسى نبي الله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾، أي: لخادمه يوشع بن نون، وكان تبعًا له، وقد طُويَ ذكره بعد أن لقيا الخضر، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليهما السلام، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾، أي: لا أزال أتابع المسير.

﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، «حتى» للغاية، أي: إلى غاية أن أبلغ مجمع البحرين، أي: ملتقى البحرين؛ لأن الله أوحى إليه، كما في حديث ابن عباس، عن أبي بن كعب ﷺ: «أن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك».

﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾، أي: حقبًا من الزمان، أي: ولو أن أمضي زمنًا طويلًا، أي: إلى أن أبلغ ذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾، أي: فلما بلغ موسى وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾، أي: مجمع بين البحرين، أي: ملتقاهما.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي أمر الله موسى بأخذه معه لما قال موسى: «يا رب فكيف لي به؟»، أي: بهذا العبد الذي هو أعلم مني؟ قال: تأخذ معك حوتًا، وفي رواية: «حوتًا مالحًا» فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل».

وأضاف النسيان إليهما مع أن الناسي هو الفتى؛ لأن شأنهما واحد.

والمراد بالنسيان هنا الذهول والغفلة، لا الترك، أي: ذهلا عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٥، ٤٧٢٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٨٠، والترمذي في التفسير ٣١٤٩، وأحمد ٥/ ١١٨-١١٩.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، «سربًا» مفعول به ثانٍ لـ«اتخذ»، أي: اضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾، أي: طريقه في البحر ﴿سَرَبًا﴾، أي: كالسرب والنفق، حيث أمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ موسى وفتاه مجمع البحرين.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾، أي: لغلامه وخادمه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، أي: أحضر لنا غداءنا، والغداء هو: طعام النهار، مشتق من كلمة «الغدوة»؛ لأنه يؤكل وقت الغدوة.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، أي: من سفرنا هذا الذي جاوزنا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾، أي: مشقة وتعبًا.

قال ﷺ: «**ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به**». وذلك والله أعلم؛ لأن الشوق للوصول إليه سهل لهما الطريق، فلما جاوزا غايتهما وجدا مس التعب، وهذا من آيات الله، ومن العلامات التى جعلها الله دلالة لموسى عليه السلام على وجود مطلبه، ومن أجل ألا يتماديا في البعد عن المكان.

قال ابن القيم: «لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب ومسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»(١).

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ لما قال موسى لفتاه المقالة السابقة، قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ الاستفهام للتعجب، أي: أتذكر حين لجأنا إلى الصخرة؟ وهي صخرة في مجمع البحرين، لما أتياها وضعا رؤوسهما فناما، فانفلت هنالك الحوت.

﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، أي: نسيت حفظه وتفقده، فاضطرب في المكتل وخرج منه وسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٣.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، أي: وما أنساني أن أخبرك بما جرى للحوت إلا الشيطان؛ لقوله ﷺ: «**فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت**».

﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، «أن» والفعل «أذكره» في تأويل مصدر في محل نصب بدل اشتمال من الهاء في «أنسانيه»، أي: وما أنساني ذكر ما جرى للحوت لك إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبًا﴾، أي: واتخذ طريقه في البحر عجبًا، و«عجبًا» مفعول به ثانٍ لـ«اتخذ»، أو مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: محل عجب، أي: كيف اضطرب الحوت في المكتل وسقط منه، وسلك طريقه في البحر بعد أن كان ميتًا زمنًا طويلًا؟! وكيف كان هذا الماء السيّال بمرور الحوت به طريقًا سربًا، مجوفًا خاليًا من الماء، فكان هذا الطريق للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ أي:قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ الإشارة إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقد الحوت، أي: هذا الذي كنا نطلب من بلوغ المكان الذي نفقد فيه الحوت ونجد فيه الخضر.

﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، أي: فرجع موسى وفتاه يقصان ويتتبعان ويقفوان آثار مشيهما؛ لئلا يخطئا الطريق الأول، حتى انتهيا إلى الصخرة، في المكان الذي انفلت فيه الحوت.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدًا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾، أي: فلما وصل موسى وفتاه إلى الصخرة وجدا ﴿عَبۡدًا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ وهو الخضر عليه السلام، ووصفه بالعبودية تشريفًا له.

وفي الحديث: «**قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبًا، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا**».

عن أبي هريرة عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة[1] بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء**»[1].

ومن هنا طوي ذكر فتى موسى، فلم يرد له بعدُ ذكر؛ لأن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وما كان بينهما.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أعطيناه رحمة عظيمة واسعة من عندنا، ونكر «رحمة» للتعظيم.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، أي: وعلمناه من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ نكر للتعظيم، أي: علمًا واسعًا لم يطلع عليه موسى عليه السلام، كما جاء في الحديث أن الخضر قال: «**يا موسى، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه**».

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام للاعتبار والاستفادة بما فيها من العبر والمواعظ والحكم والفوائد والأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾، أي: واذكر إذ قال موسى لفتاه إلى آخر القصة.

٢- فضيلة موسى عليه السلام، وحرصه على الاستزادة من العلم، وقوة عزيمته في ذلك؛ لقوله لفتاه: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

٣- جواز تسمية الخادم: فتى لمن يخدمه، وجواز اصطحابه في السفر لكفاية المؤن وطلب الراحة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**»(٢).

٤- فضيلة طلب العلم، والرحلة في طلبه، وتحمل المشاق.

٥- مشروعية العزم والحزم في معالي الأمور، وعدم التردد أو الفتور، كما في طلب العلم والاستزادة منه، ونحو ذلك.

٦- البداءة بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة علم الإنسان أهم من ترك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تزود العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث الخضر مع موسى عليه السلام ٣٤٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٥.

٧- جواز إخبار الخادم ونحوه ممن هم بصحبة المرء عما ينوي القيام به؛ توطينًا لهم على ذلك، وليستعدوا له، ما لم يكن في ذلك محذور؛ لقول موسى لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، كما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهته، مع أن عادته التورية، وذلك حسب المصلحة.

٨- حكمة الله تعالى في نسيان موسى وفتاه لما بلغا مجمع البحرين حوتهما، واتخاذه طريقه في البحر سربًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾.

٩- حكمة الله تعالى في عدم إحساس موسى عليه السلام وفتاه بالجوع والنصب طيلة سيرهما إلا بعد مجاوزتهما المكان الذي أمر الله به؛ مما يدل على أن الموافق للأمر يعان ما لا يعان غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾.

١٠- إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعًا؛ لظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

١١- جواز إخبار الإنسان عما يجده من نصب أو جوع أو ألم، إذا لم يكن ذلك على سبيل التسخط والجزع من قدر الله.

١٢- تذكر فتى موسى بعد أن طلب منه موسى الإتيان بغدائهما وشكواه النصب، نسيانَه أن يخبر موسى بما جرى للحوت حين أويا إلى الصخرة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾.

١٣- أن الشيطان من أعظم أسباب النسيان وعدم الذكر لما يحتاج الإنسان إلى ذكره؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾.

١٤- أن ما جرى للحوت- من اضطرابه وحياته واتخاذه في البحر طريقًا سربًا- هو أمر في غاية العجب، فكان ذلك للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾.

١٥- أن فقدان الحوت هو مبتغى موسى عليه السلام؛ لأن ذلك هو العلامة على مكان الخضر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾.

١٦- رجوع موسى وفتاه على آثارهما يقصانها إلى مكان الصخرة حيث فقد الحوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمَا قَصَصًا﴾.

١٧- وصولهما إلى الخضر ووجودهما له؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ الآية.

١٨- تشريف الله عز وجل للخضر بوصفه بالعبودية الخاصة له عز وجل.

١٩- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾.

٢٠- فضيلة الخضر، ومنة الله تعالى العظيمة عليه بإيتائه رحمة واسعة من عنده، وتعليمه علمًا واسعًا من لدنه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى نبوة الخضر، واستدلوا بهذه الآية، وبقوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه لم يكن نبيًّا بل كان عبدًا من عباد الله الصالحين أعطاه الله بعض الكرامات؛ ليبين عز وجل لموسى عليه السلام أنه يفوته من العلم الشيء الكثير، وقد مات الخضر قبل بعثة النبي ﷺ.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ * قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡء�م بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗاۖ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: قال موسى للخضر- بعد أن عرف كل منهما الآخر-: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ سؤال تلطف وتواضع وأدب، أي: هل أصحبك وأرافقك؟ وتأمل هذا الأدب من موسى مع الخضر مع أنه أفضل من الخضر، وكان عند الله وجيهًا؛ وذلك لأنه سيأخذ منه علماً لايعلمه موسى، وهكذا ينبغي أن يكون تلطف المتعلم وتواضعه بين يدي معلمه وشيخه.

قال الشافعي[1]:

تَصَبَّـر عـلى مـر الجفـا مـن معلـم ... فـإن رسـوخ العلـم في نبراتـه
ومـن لم يـذق ذل الـتعلم سـاعة ... تجـرع كـأس الجهـل طـول حياتـه

وقال الآخر:

إن المعلـم والطبيـب كلـيهما ... لاينصـحان إذا همـا لم يكرمـا[1]

﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، أي: لتعلمني، كما جاء في الحديث: «**أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا**».

﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين: «رَشَدًا».

وقرأ الباقون بضم الراء وإسكان الشين: ﴿رُشْدًا﴾.

«ما» موصولة، أي: من الذي علمت رشدًا، أي: ما أسترشد وأهتدي به من علم وخير؛ لأن العلم هو طريق الرشد وحسن التصرف في الدين والدنيا.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾، أي: قال الخضر مجيبًا لطلب موسى اتباعه: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

وفي الحديث أيضًا؛ أنه قال بعد هذا: «**يا موسى، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه لا أعلمه**».

وقد أكد قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ بحرف التوكيد «إن»، وبحرف النفي «لن»، وبعموم «صبرًا» فهي نكرة في سياق النفي، فتعم، وذلك كله لتأكيد تحقق مضمونها، وهو ضيق ذرع موسى وعدم صبره معه.

أي: لا أمنعك من اتباعي، ولكنك لن تقدر على الصبر معي؛ لأنك سترى مني أفعالًا ظاهرها منكر، لكن باطنها معروف، قد خصني الله بعلمه دونك.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، و«ما» موصولة، أي: لا يمكن أن تصبر على الذي ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، أي: لم تحط به علمًا، أي: كيف تصبر على ما يخفى عليك علمه؟! ودليل ا لخضرعلى أن موسى لم يحط بذلك خبرًا قول موسى قبل هذا: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فهذا

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» ص٦٨، «العقد التليد في اختصار الدر النضيد» ص١٤٦.

يدل على أنه لا علم له بما عند الخضر.

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى للخضر: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ «صابرا»: مفعول ثانٍ لـ«وجد».

﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾، «أمرًا» نكرة في سياق النفي، أي: ولا أعصي لك أيَّ أمر، ولا أخالفك في شيء أبدًا، وهذا الذي قاله موسى حسب اعتقاده في نفسه في تلك الساعة من أنه سيصبر، ولكنه ما صبر.

وقد علق قوله بالمشيئة فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ ابتعادًا عن الاغترار بنفسه، والإعجاب بها، وحتى لا يلحقه تبعة أو إثم إن لم يصبر، كما قال إسماعيل لأبيه إبراهيم عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات:١٠٢].

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون: «فَلَا تَسْأَلَنِّي»، وقرأ الباقون بإسكان اللام وتخفيف النون: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾.

أي: قال الخضر لموسى مشارطًا له: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾، أي: فإن صحبتني ورافقتني- لإلحاحك عليَّ بذلك- فلا تبتدئني بسؤالي عن شيء مما أفعله، أي: لاتستنكر علي شيئًا مما أفعله.

﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا﴾، أي: حتى أبدأك به قبل أن تسألني، وأخبرك بحقيقة الأمر ووجه الحكمة فيه. وهذا أيضًا من آداب المتعلم مع العالم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا ٧٣﴾:

﴿فَٱنطَلَقَا﴾، أي: موسى والخضر، أي: سارا ومشيا معًا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾، أي: إلى غاية إذا ركبا في السفينة ﴿خَرَقَهَا﴾، أي: خرقها الخضر بقلعه لوحًا من ألواحها بعد أن دخلت لجة البحر، فلم يصبر موسى ولم يتمالك نفسه أن قال منكرًا على الخضر:

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء وفتحها وفتح الراء «لِيَغْرَقَ» و«أَهْلُهَا» بالرفع، وقرأ الباقون بالتاء وضمها وكسر الراء ونصب أهلها: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ للإنكار والتعجب، واللام في قوله: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن تُغرق أهلها، كما في قول الشاعر:

لـه ملـك ينـادي كـل يـوم لـدوا للمـوت وابنـوا للخـراب(١)

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد جئت، أي: ارتكبت وفعلت ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾، أي: شيئًا عظيمًا فظيعًا، وأَمِر الشيء، أو أَمِر أَمْرُه: بمعنى عَظُم.

كما قال أبو سفيان حين سأله هرقل عن النبي ﷺ وبين له حاله وصفاته، فقال هرقل: إن كان كما تقول فسيملك موضع قدمي هاتين. فقال أبوسفيان لما رجع إلى قومه: أَمِر أَمرُ ابن أبي كبشة! إنه ليخافه ملك بني الأصفر(٢). يعني النبي ﷺ، ومعنى «أمر أمره»، أي: عظم أمره.

واستعظم موسى عليه السلام فعل الخضر لما فيه من تعريض السفينة للتلف، وأهلها للغرق، من غير ذنب، مع ما في ذلك من كفران نعمة حملهم لهما بلا نول.

وفي الحديث: «**فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها! لقد جئت شيئًا إمرًا!**».

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾، أي: قال الخضر مذكرًا موسى بما تقدم من الشرط. والاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير.

أي: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾، أي: فوقع كما قلت لك، وكما أخبرتك، ﴿قَالَ﴾ موسى للخضر معتذرًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، «ما» مصدرية،

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص٢٣.

(٢) سبق تخريجه.

أي: لا تؤاخذني بنسياني للشرط، وعدم صبري.

وفي الحديث: قال ﷺ: «**كانت الأولى من موسى نسيانًا**».

وكان سبب نسيانه عظم الأمر وخطورة الموقف، حيث خشي أن تغرق السفينة وهم على ظهرها، مما أنساه الشرط السابق.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، أي: ولا تكلفني ولا تحملني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾، أي: من شأني ﴿عُسْرًا﴾، أي: ما يتعسر ويثقل عليَّ، أي: لا تشدد وتضيق عليَّ، وسامحني واصفح عني، فأقر بعدم صبره، واعتذر بالنسيان، وطلب المسامحة والصفح حيث هي أول مرة، وكأن في هذا توطئة لما بعده.

وفي الحديث في آخر خبر السفينة: «**قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة**».

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾:

قوله: ﴿فَانْطَلَقَا﴾، أي: فعذر الخضر موسى بما وقع منه من النسيان وسامحه، وانطلقا يمشيان على الساحل، بعد أن رست السفينة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾، كما جاء في الحديث: «**إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله**».

وفي الحديث: «**الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا**»(١).

فرأى موسى أمرًا منكرًا في نفسه، فلم يصبر ولم يتمالك نفسه أن قال منكرًا على الخضر قتله الغلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر بغير ألف بعد الزاي وتشديد الياء: ﴿زَكِيَّةً﴾، وقرأ الباقون بالألف وتخفيف الياء: «زَاكِيَةً».

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

والاستفهام للإنكار، وفيه معنى التعجب، أي: طاهرة، صغيرة لم تبلغ الحنث، ولم تصل إلى حد التكليف.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغير نفس قتلها هذا الغلام فيقتل بها قصاصًا.

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، أي: والله لقد جئت منكرًا عظيمًا أشد من الأول.

وقال في خرق السفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، أي: أمرًا عظيمًا من حيث عموم ضرره لمن على السفينة، لكنه متوقع فقط، ولهذا لم يحصل، فلم تغرق السفينة.

وقال في قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، أي: منكرًا عظيمًا من جهة تحققه؛ لأنه قتل فعلًا.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار، لكنه أشد من الأول؛ لزيادة قوله: «لك»، أي: فقال له الخضر منكرًا ومعاتبًا ومذكرًا بالشرط الأول: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ.﴾ الآية.

قال في الحديث: «**وهذه أشد من الأولى**»، ولهذا أكد هنا بزيادة «لك» دون قصة السفينة؛ لزيادة الإنكار؛ لأن الأولى كانت نسيانًا، وهذه عدم صبر؛ ولهذا قال موسى مشترطًا على نفسه لما رأى أنه لا عذر له:

﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾، أي: إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة، أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة، ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾، أي: فامنعني من صحبتك.

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بضم الدال وتخفيف النون: «مِنْ لَدُنِي»، وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد النون: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾.

«قد» حرف تحقيق، أي: قد بلغت من عندي عذرًا، أي: قد وصلت إلى حال أعذرك فيها بمنعك إياي أن أصحبك؛ لأن موسى أنكر عليه مرتين، مع أنه التزم له ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَانطَلَقَا﴾ بعد أن عذره للمرة الثانية، وشارطه موسى المشارطة الثانية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾، أي: إلى غاية إذا أتيا أهل قرية، وجاء في بعض روايات حديث ابن عباس، عن أبي بن كعب ﷺ: «حتى إذا أتيا أهل قرية لئامًا»(١)، أي: بخلاء.

﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾، أي: طلبا طعامًا من أهلها على سبيل الضيافة.

﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي: امتنعوا أن يضيفوهما، وهذا نقص في الإيمان؛ لقوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»(٢).

﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾، أي: في القرية ﴿جِدَارًا﴾ مائلًا معيبًا، ﴿يُرِيدُ أَن﴾، أي: يوشك أن يسقط وينهدم، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضر، أي: رده إلى حالة الاستقامة، إما ببنائه بناءً معتادًا، أو أن الله أعطاه قوةً فأقام الجدار بيده فاستقام، كما قيل.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير: بتخفيف التاء وكسر الخاء من غير ألف وصل: «لَتَخِذْتَ»، وقرأ الباقون بتشديد التاء وفتح الخاء وألف وصل: ﴿لَتَّخَذۡتَ﴾.

أي: قال موسى للخضر برفق ولطف ولين: لو شئت لأخذت على إقامة هذا الجدار أجرًا، أي: عوضًا عن إقامته؛ لأنهم لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، فكان ينبغي ألا تعمل لهم بدون أجر. فلم يعاتبه الخضر، بل استعذر منه قائلًا:

﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾، أي: هذا السؤال منك فرقة ما بيني وبينك فلا صحبة بيني وبينك؛ لأنك قلت في المرة السابقة قبل هذا: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءٍ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرًا﴾، وها قد سألتني المرة الثالثة.

عن ابن عباس، عن أبي بن كعب ﷺ، قال: كان النبي ﷺ إذا دعا بدأ بنفسه، فقال: «**رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر لرأى من صاحبه العجب، ولكنه قال:** ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءٍ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرًا﴾»(٣).

---

(١) أخرجها الإمام أحمد ٥/ ١١٩.

(٢) يأتي تخريجه قريبا.

(٣) أخرجه أبو داود في الحروف والقراءات ٣٩٨٤، والطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٣٤٥.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾، السين للتحقيق والقرب، أي: سأخبرك عن قرب قبل المفارقة ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ بتفسير وبيان وجه ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، أي: بما تؤول إليه عاقبة الذي فعلته أنا من الأفعال التي لم تستطع على ترك المسألة عنها، وعن النكير عليّ فيها صبرًا.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

هذا تأويل وتفسير ما أشكل على موسى فأنكر ظاهره من أفعال الخضر «الثلاثة»: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار بلا أجر، وقد أظهر الله الخضر على باطنه، فأبان ذلك لموسى بقوله:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

«ال» في ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾ للعهد الذكري، أي: أما السفينة التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ فقراء، و«مساكين» جمع، فهم ثلاثة فأكثر.

﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: يكتسبون الرزق عليها في البحر، فيحملون عليها الناس وبضائعهم من جزيرة إلى أخرى، أو يصيدون عليها السمك، وهي رأس مالهم، وسبب رزقهم، مما يوجب الرقة لهم، والرأفة بهم.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أردت»، أي: أردت عيبها، أي: أردت أن أجعل فيها عيبًا بقصد مني، فخرقتها.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾، أي: أمامهم وقدامهم، كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦].

وقال لبيد(١):

أليس ورائي إن تراءت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وهكذا جاء في قراءة لابن عباس ﷺ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ»(٢).

ويحتمل أن يكون معنى ﴿وَرَآءَهُم﴾، أي: يطلبهم.

﴿مَّلِكٌ﴾ ظالم، ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة سالمة من العيب، بدليل قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وهكذا جاء في قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب ﷺ: «كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ»(٣).

﴿غَصْبًا﴾ الغصب: أخذ الشيء قهرًا بغير حق، أي: وكان أمامهم وفي طريقهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة تمر عليه ﴿غَصْبًا﴾، أي: قهرًا وظلمًا بغير حق؛ ولهذا خرقتها؛ ليكون فيها عيب تسلم بسببه من ذلك الملك الظالم، فتبقى لأصحابها المساكين يطلبون الرزق عليها.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾:

أي: وأما الغلام الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي: كان أبوه وأمه مؤمنين، أي: وكان هو كافرًا؛ كما جاء في حديث ابن عباس، عن أبي بن كعب ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ **فطبع يوم طبع كافرًا**»(٤).

﴿فَخَشِينَآ﴾ الخشية: أشد الخوف، أي: خفنا خوفًا شديدًا.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«خشينا»، أي: خشينا أن يكلفهما ويحملهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، الطغيان: مجاوزة الحد في معصية الله ومخالفة أمره، والكفر: الجحود، أي: خشينا أن يحملهما على متابعته ومجاوزة

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٥٧.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٨٠، والترمذي في التفسير ٣١٤٩.

(٣) أخرجها عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٨٠، وأبو داود في الحروف والقراءات ٤٧٠٦، والترمذي ٣١٥٠.

أمر الله طغيانًا وكفرًا، إما بسبب محبتهما له، أو حاجتهما إليه، أو غير ذلك، أي: أن قتلي له لأجل سلامة دين أبويه المؤمنين.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بتشديد الدال: «أَنْ يُبَدِّلَهُمَا»، وقرأ الباقون بالتخفيف: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أردنا».

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، أي: خيرًا منه طهارة وصلاحًا في الدين.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أي: أقرب رحمة بوالديه، وصلة لهما، وبرًّا بهما.

أي: فأردنا بقتله أن يبدلهما ربهما، أي: أن يتفضل عليهما بمن هو أزكى في الدين وأوصل للرحم.

قيل: أبدلهما الله بجارية، وقيل: بولد ذكر. وفي قوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ما قد يقوي أنها جارية؛ لأن البنت أرحم بوالديها من حيث العموم.

قال قتادة: «وقد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه يوم قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله؛ فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾، أي: الذي كان يريد أن ينقض فأقمته بلا أجر.

﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾، أي: لغلامين صغيرين، ﴿يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قد مات أبوهما، مما يدعو للعطف عليهما ومساعدتهما بإقامة جدارهما، وعدم أخذ الأجر على ذلك.

واليتيم: من مات أبوه قبل أن يبلغ، كما قال ﷺ: «**لا يتم بعد احتلام**»(١).

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، «الكنز»: المال المدفون، أي: وكان تحت هذا الجدار مال مدفون في الأرض لهما.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، أي: وكان أبوهما رجلًا صالحًا، فحفظهما الله بسبب صلاح أبيهما.

قال ابن عباس ﷺ: «حفظا بصلاح أبيهما وما ذكر منهما صلاحًا»(١).

فاجتمع فيهما كونهما يتيمين يستوجبان الرأفة والعطف والرحمة، وكون أبيهما رجلًا صالحًا، وصلاح الآباء له أثر في صلاح أحوال الأبناء في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

وقد روي أن هذا هو الأب السابع لهما، وهذا موافق لعموم الأدلة الدالة على أن الجد يسمى أبًا مهما علا، وفضل الله واسع.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾، أي: فأراد ربك يا موسى ﴿أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أراد»، أي: فأراد ربك بلوغهما أشدهما، أي: فأراد ربك أن يكبر اليتيمان ويبلغا قوتهما ورشدهما.

﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت هذا الجدار، الذي كان إصلاحه وإقامته سببًا لعدم التعرض للكنز تحته حتى بلوغهما؛ لأنه لو انقض الجدار لظهر الكنز، وأخذه الناس.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ «رحمة»: مفعول لأجله منصوب، أي: هذا الذي فعلته في الأحوال الثلاث رحمة من ربك يا موسى بمن ذكر من المساكين أصحاب السفينة، وأبوي الغلام، والغلامين اليتيمين في المدينة.

﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾، أي: وما فعلت الذي فعلته في الأحوال الثلاث عن أمري، أي: من تلقاء نفسي وابتداء من رأيي أو ذكاءً مني، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به، وإلهامه وتوفيقه لي؛ لأن هذا الشيء فوق ما يدركه البشر.

﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، أي: ذلك الذي أخبرتك به وفسرته لك ﴿تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، أي: هو تفسير الذي لم تستطع عليه صبرًا، وضقت

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٣٦٦.

به ذرعًا، والذي وعدتك به بقولي: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾.

قال ابن كثير[1]: «ولما فسره وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تَسْطِع﴾، وقبل ذلك كان الإشكال قويًّا ثقيلًا، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾، وهو: الصعود، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾، وهو أشق من ذلك، فقابل كلًّا بما يناسبه لفظًا ومعنى».

الفوائد والأحكام:

١- حسن أدب موسى عليه السلام، وتلطفه مع الخضر في سؤاله له أن يصحبه؛ لقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وهكذا ينبغي للمتعلم حسن الأدب مع معلمه.

٢- حرص موسى عليه السلام على الاستزادة من العلم؛ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

٣- أن عند الخضر من العلم مما علمه الله ما ليس عند موسى؛ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، كما أن عند موسى من العلم مما علمه الله ما ليس عند الخضر، كما جاء في الحديث.

٤- إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: مما علمك الله.

٥- تواضع موسى عليه السلام، فلم يمنعه- وهو ثالث أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام- أن يسعى في الاستزادة إلى علمه بما عند الخضر من علم، وهكذا ينبغي تواضع الفاضل في تعلم علم لا يعلمه ممن هو دونه، وبلا غضاضة.

٦- أن العلم والاستزادة منه من أسباب الرشد، وحسن التصرف في أمور الدين والدنيا؛ لقوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: ما أسترشد به وأهتدي به إلى الخير.

٧- معرفة الخضر عليه السلام بما منحه الله من علم لا يعلمه موسى، أن موسى لن يستطيع معه صبرًا، وذلك لأنه سيفعل أفعالًا ظاهرها منكر لا يصبر عليها موسى،

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٨٤.

بل يضيق بها ذرعًا وينكرها، مع أن باطنها وعاقبتها خير لا يعلمه موسى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾.

٨- إظهار الخضر لموسى العذر والسبب في عدم صبره، وأنه لا يمكن أن يصبر على ما لم يحط به خبرًا، عله أن يعدل عن الإلحاح في طلب صحبته؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

٩- عزم موسى عليه السلام وثقته بأنه سيصبر مع الخضر، ولا يخالفه في أيّ أمر؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.

١٠- أن العلم لا يحصل إلا بالصبر على صحبة العلماء، وثني الركب في حلق العلم، وطول الدراسة، وعدم السأم والملل، والحزم والعزم في الطلب، وتقدير هذا الأمر قدره، قال الشاعر:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبِرا(١)

وقال الشافعي(٢):

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تأويلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وإرشاد أستاذ وطول زمان

وقال المتنبي(٣):

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

فمن استعمل الصبر ولازمه أدرك مأموله في كل أمر سعى إليه بإذن الله.

١١- معرفة موسى عليه السلام بربه، وما يجب له، واحترازه في تعليق صبره مع الخضر وعدم عصيانه له أمرًا بمشيئة الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، وقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وهكذا ينبغي ألا يقول الإنسان لشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول: إن

---

(١) البيت لرجل من بني أسد، كما في «ديوان الحماسة» ٢/ ٢٢٥.

(٢) انظر: «ديوانه» ص١١٣.

(٣) انظر: «ديوانه» ص٢/ ٢٧٢.

شاء الله.

١٢- اشتراط الخضر على موسى إن اتبعه ألا يسأله عن شيء ابتداء حتى يكون هو الذي يحدث له منه ذكرًا، وقبوله لهذا الشرط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠ فَٱنطَلَقَا﴾، أي: متصاحبين متفقين على هذا الشرط.

١٣- التأني والتثبت وعدم المبادرة في الحكم على الأشياء، حتى يعرف المراد منها والمقصود.

١٤- أن للمعلم إذا رأى المصلحة ألا يبتدئه المتعلم بالسؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة أولى بالاتباع.

١٥- جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

١٦- خرق الخضر للسفينة التي ركباها بعد انطلاقهما معًا، وهذا منكر ظاهر عظيم؛ لما فيه من تعريضها للتلف وتعريض أهلها للغرق، ومبادرة موسى لإنكار ذلك، وعدم صبره؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

١٧- وجوب إنكار المنكر الظاهر بما يناسب من الوسائل باليد أو باللسان أو بالقلب؛ لفعل موسى عليه السلام في الأحوال الثلاث.

١٨- أن ما فعله موسى عليه السلام من الإنكار على الخضر وعدم الصبر مخالف لما اتفقا عليه، ومصداق قول الخضر له بداية: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧﴾ لهذا ذكّره به.

١٩- أن ما فعله موسى عليه السلام في هذه المرة من إنكاره على الخضر خرق السفينة كان نسيانًا منه؛ لهذا طلب عدم المؤاخذة به؛ لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، وفي الحديث قال ﷺ: «**كانت الأولى من موسى نسيانًا**».

٢٠- التجاوز وعدم المؤاخذة على النسيان، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن

نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي صحيح مسلم: «**قال الله: قد فعلت**»(١).

وسواء كان ذلك في حق الله أو في حقوق العباد.

٢١- طلب موسى من الخضر عليهما السلام التسامح معه، والرفق به، وألا يكلفه ما يتعسر عليه؛ لقوله: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾.

وهذا الحوار من المتعلم مع معلمه مستحسن؛ ليبين فيه مدى قدرته واستطاعته، بحيث لا يكلفه معلمه ما يعسر عليه.

٢٢- ينبغي أن يؤخذ من أخلاق الناس ومعاملتهم العفو وما تيسر دون إرهاقهم والمشقة عليهم، مما يسبب النفور والسآمة.

٢٣- قبول الخضر اعتذار موسى بالنسيان، وانطلاقهما مرة ثانية متصاحبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾.

٢٤- قتل الخضر للغلام الذي لقياه في طريقهما، وهذا أشد من الأول؛ لهذا لم يصبر موسى، بل بادر بإنكاره أشد من الأول؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾.

٢٥- تحريم قتل النفس الزكية المعصومة بغير حق من قصاص ونحوه، وأن ذلك من أعظم المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾.

٢٦- أن القصاص ثابت في الشرائع السابقة؛ لقوله: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾، لكن هل يؤخذ من الآية القصاص من القاتل وإن كان غير بالغ؟ هذا ليس بلازم، فيحتمل كون هذا الغلام بالغًا، ويحتمل أن ذلك كان مشروعا فيمن سبق، أما في شريعتنا فلايقاد ممن دون البلوغ.

٢٧- أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها في الأحكام الدنيوية؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة، وقتل الغلام، وكل منهما منكر، وموسى لا يسعه السكوت عنها.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٨- تذكير الخضر مرة ثانية لموسى بما قاله له أولًا من عدم استطاعته معه الصبر وبما شرط عليه، وإنكاره عليه أشد من الأول؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾؛ لقيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالمرة الثانية.

٢٩- مبادرة موسى عليه السلام بالاشتراط على نفسه، أنه إن سأل الخضر بعد هذه المرة فهو في حل من ترك مصاحبته، وأنه قد بلغ منه غاية العذر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾.

٣٠- فضيلة موسى عليه السلام واعترافه بما حصل منه من عدم الصبر، وإنصافه واعتذاره للخضر في ترك مصاحبته، وشهادته له بأنه قد بلغ منه غاية العذر.

٣١- فيما اتصف به موسى عليه السلام في هذا الموقف ثلاث صفات تحتذى: الأولى: الاعتراف بالخطأ أو التقصير، والثانية: الإنصاف وقول الحق ولو كان على النفس، والثالثة: الإقرار لمن قام بما عليه حتى بلغ غاية العذر بإعذاره.

وكل من هذه الصفات يحتاج القيام بها إلى مجاهدة عظيمة للنفس.

٣٢- قبول الخضر ما اشترط موسى على نفسه؛ أنه إن سأله عن شيء بعد هذه المرة فلا يصاحبه لبلوغه العذر منه، وانطلاقهما متصاحبين للمرة الثالثة؛ لقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾.

٣٣- بخل أهل القرية التي مر بها موسى والخضر عليهما السلام، فاستطعما أهلها، وعدم قيامهم بواجب ضيافتهما؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

٣٤- وجوب إكرام الضيف وإضافته إذا نزل بأحد من أهل البلد، كما قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»(١).

٣٥- إقامة الخضر للجدار- الذي وجده هو وموسى يريد أن ينقض- بلا أجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٨، ومسلم في الإيمان ٤٧، وأبوداود في الأدب ٥١٥٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٦- إثبات الإرادة للجدار والجماد؛ لقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾.

وكما قال ﷺ: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**»، وكما في حنين الجذع إليه، وتسبيح الطعام بين يديه[1]، وغير ذلك.

٣٧- عدم صبر موسى، ومساءلته للخضر للمرة الثالثة، التي شرط موسى أنها نهاية المصاحبة بينهما، وغاية العذر للخضر في ترك مصاحبته، وذلك بلوم موسى للخضر، لماذا لم يأخذ على إقامته الجدار أجرًا؟ خصوصًا وأن أهل هذه القرية أبوا أن يضيفوهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

٣٨- مفارقة الخضر لموسى بعد أن أعذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، ويؤخذ من هذا عدم مفارقة الصاحب لصاحبه حتى يعذر منه، وأن موافقة الصاحب لصاحبه فيما لا محذور فيه سبب لبقاء الصحبة، وأن عدم موافقته سبب لانقطاعها.

٣٩- إخبار الخضر لموسى بتأويل وتفسير ما لم يستطع عليه صبرًا، وبادر إلى إنكاره من أفعال الخضر؛ لقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وفي هذا بيان الخضر وجه الحكمة فيما فعل، ونوع من الاعتذار لموسى في إنكاره تلك الأفعال؛ لأن ظاهرها منكر.

٤٠- أن سبب خرق الخضر للسفينة وعيبها؛ لتبقى لأصحابها المساكين الذين يعملون عليها في البحر، وتسلم من ذلك الملك الغاشم الظالم الذي يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا؛ لقوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

٤١- أن العمل في البحر يجوز كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم.

٤٢- مشروعية العطف على المساكين ومساعدتهم والدفاع عنهم وعن حقوقهم.

٤٣- أن المسكين قد يملك بعض المال؛ لأن الله سمى مُلَّاك السفينة المذكورة:

---

(١) سبق تخريجها.

مساكين وهم يملكون سفينة.

٤٤- إثبات الإرادة للإنسان والاختيار؛ لقول الخضر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾.

٤٥- ربما صحت الأبدان بالعلل، فخرق السفينة وعيبها كان سببًا لسلامتها، قال المتنبي(١):

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحَّتِ الأجسام بالعلل

٤٦- أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة يجوز ولو بلا إذنه، حتى ولو ترتب على ذلك إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة ليحصل فيها عيب، فتسلم من غصب الملك الظالم.

٤٧- قتل الخضر للغلام بسبب كفره، وخشية أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانًا وكفرًا؛ لقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

٤٨- حفظ الله تعالى لأوليائه المؤمنين، وعنايته بهم، ودفاعه عنهم، وتقديره الخير لهم، والتسخير لخدمتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

٤٩- دفع أكبر المفسدتين بارتكاب ما دونها، وتقديم أعظم المصلحتين على ما دونها، فقتل الغلام مفسدة، لكن بقاءه حتى يفتن أبويه أعظم من ذلك، ويؤخذ من هذا أنه يقتل الكافر خوفًا من أن ينشر كفره في الناس.

٥٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُمَا﴾ ﴿رَبُّكَ﴾.

٥١- أن الأولاد قد يكونون فتنة لوالديهم؛ فقد يحملونهم على الكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٥٢- أن سبب إقامة الخضر للجدار الذي يريد أن ينقض، وبلا أجرة: كونه لغلامين يتيمين في المدينة، يستحقان العطف والرحمة والمساعدة، وكان تحته كنز لهما،

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٣٩.

ولو سقط هذا الجدار ربما عثر على كنزهما، وكون أبيهما رجلًا صالحًا، فأقامه ليبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

٥٣- إطلاق المدينة على القرية؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، ثم قال هنا: ﴿لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، أي: مكة والطائف.

٥٤- أن لصلاح الآباء أثرًا في صلاح الأبناء وحفظهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

٥٥- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، وهي بمعنى: المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

٥٦- استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه قبل هذا بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير فأضافه إلى الله تبارك وتعالى، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

٥٧- عناية الله عز وجل بالأيتام، والحث على حفظ حقوقهم، ودفع الظلم والأذى عنهم.

٥٨- أن ما فعله الخضر في الأحوال الثلاث من خرق السفينة لتبقى لأصحابها المساكين وتسلم من أن يأخذها الملك غصبًا، ومن قتل الغلام لئلا يرهق أبويه المؤمنين طغيانًا وكفرًا، ومن إقامة الجدار ليكون سببًا في حفظ كنز اليتيمين إلى غاية بلوغهما، كل ذلك من رحمة الله تعالى؛ لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٥٩- إثبات رحمة الله تعالى المتعدية إلى عباده؛ لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٦٠- أن ما فعله الخضر من خرق السفينة، ومن قتل الغلام، ومن إقامة الجدار، لم يفعله من تلقاء نفسه، وإنما بأمر الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

٦١- ختم الكلام بمثل ما بدئ به من باب التأكيد، وليكون كالطابع على الكلام؛ لقول الخضر في ختام تأويل الآيات: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وقد قال في أولها: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

٦٢- مقابلة الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، ففي أول الآيات قبل أن يبين تأويل ما فعل وكان الأمر ما زال ثقيلًا قال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل: ﴿تَسْتَطِع﴾، فلما بينه ووضحه وظهر وبان وخف الأمر قال: ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأخف بالأخف: ﴿تَسْطِع﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾.

هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة: «قصة ذي القرنين».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، أي: ويسألك يا محمد أهل الكتاب والمشركون ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، أي: عن صاحب القرنين، وهو ملك طوّاف صالح عادل، ملك وطاف بين المشرق والمغرب، سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب. قيل: إنه على عهد إبراهيم عليه السلام، وأنه طاف بالبيت. وقيل: إنه كان من ملوك الصين.

﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ السين لتحقيق الوعد، و«من» تبعيضية، أي: قل لهم سأقرأ وأقص عليكم من أحواله ما يُتذكر فيه، ويكون عبرة وعظة لمن يتذكر ويعتبر.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ملكناه في الأرض وقويناه وأيدناه وأعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، دانت له البلاد، فملك مشارق الأرض ومغاربها، وخضعت له ملوك الأرض، وخدمته جميع الأمم من العرب والعجم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، أي: وأعطيناه من كل شيء يحتاج إليه في الوصول إلى مراده ﴿سَبَبًا﴾، أي: علمًا ومعرفة ومعونة وقدرة وقوة وطريقًا يصل به إلى ما يريد، فيسرنا له الأسباب والطرق والوسائل لفتح البلدان، وقهر الأعداء، وإذلال أهل الكفر والشرك.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم بقطع الهمزة وإسكان التاء هنا وفي الموضعين بعده: ﴿فَأَتْبَعَ﴾، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وتشديد التاء: «فَاتَّبَعَ».

والمعنى: فأخذ بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها واستثمرها بجد وحزم وعزم واتبع السبب الموصل إلى مقصوده وجال في الأرض، وسلك طريقًا باتجاه المغرب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾، أي: حتى إذا وصل مكان مغرب الشمس؛ حيث يلوح في الأفق أنه لا أرض وراءه، أي: بعد أن وصل إلى نهاية الأرض اليابسة، وانتهى إلى البحر.

﴿وَجَدَهَا﴾، أي: شاهدها ورآها في نظره، أي: في نظر العين.

﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر ويعقوب وحفص بغير ألف بعد الحاء، وهمز الياء: ﴿حَمِئَةٍ﴾، وقرأ الباقون بالألف وفتح الياء من غير همز: «حَامِيَةٍ»، أي: في عين ذات طين أسود حارة، وهي أرض البحر؛ لأن الماء إذا مكث طويلًا في الأرض صارت سوداء.

والمعنى: رآها في نظره كأنها تغرب في عين حمئة، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين الأفق الغربي ماء، يرى الشمس كأنها تغرب في سواد الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع، وهي أكبر من هذه العين الحمئة، بل أكبر من الأرض، وهي تدور على الأرض.

قال الشاعر:

بلـغ المشـارق والمغـارب يبتغـي ... أسـباب أمـر مـن حكـيم مرشـد
فـرأى مغيـب الشـمس عنـد غروبهـا ... في عـين ذي خلـب وثـأط حرمـد[1]

قال ابن كثير[2]: «أي: وجد الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه».

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾، أي: عند العين الحمئة، وهوالبحر ﴿قَوْمًا﴾، أي: أمة عظيمة من بني آدم مكنه الله منهم وأظفره بهم.

﴿قُلْنَا﴾، أي: قلنا له بعد أن مكناه من أولئك القوم وأظفرناه بهم، مخيرين له بالحكم فيهم:

﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾، «إما» في الموضعين حرف تخيير أو تقسيم، أي: أنت مخير في هؤلاء القوم: إما أن تعذبهم بالقتل والسبي ونحو ذلك، وهذا يدل على أنهم كفار أو فساق، ولو لم يكونوا كذلك لم يرخص له بتعذيبهم.

﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، أي: وإما أن تحسن إليهم بالمن والفداء ونحو ذلك.

وإنما خيره الله بين قتلهم أو الإحسان إليهم؛ لتمام عقله وعدله.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾، «أما» حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«مَن» اسم موصول أيضًا في الموضعين، أي: أما الذي ظلم، أي: بالشرك والكفر، واستمر على ذلك؛ لقوله بعده: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ الفاء: واقعة في جواب الشرط «أما»؛ لاقترانه بـ«سوف»، أي: فسوف نعذبه بالقتل والسبي ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾، أي: عذابًا عظيمًا فظيعًا في

---

(١) البيتان لأمية، وهما في «ديوانه» صـ٢٦، ويقال: هي لـ«تبع» انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٨. و«ذي خلب»: الطين، و«ثأط»: الحمأة، و«حرمد»: الأسود. انظر: «اللسان» مادة: «خلب»، «ثأط»، «حرمد».

(٢) في «تفسيره» ٥/ ١٨٧.

نار جهنم ينكره المعذَّب من شدته وقوته، فيجمع له بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة؛ لأن الكافر لا تطهره العقوبة، بخلاف المسلم فإن العقوبة تطهير له؛ كما جاء في الحديث: «**فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له**»(١). وفي حديث ماعز قال: «أريد أن تطهرني»(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجملة شرطية كسابقتها، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بالنصب والتنوين، وكسره للساكنين: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقرأ الباقون برفع «جزاء» وإضافته إلى «الحسنى»: «جَزَاءُ الْحُسْنَى».

أي: أما الذي آمن بقلبه بالله تعالى وبما أوجب الله الإيمان به، أي: وعمل عملًا صالحًا بجوارحه، خالصًا لله، موافقًا لشرعه، ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: فله المثوبة الحسنة في الدارين، والجنة في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقد فسر ﷺ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ بالنظر إلى وجه الله الكريم(١).

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ الجملة معطوفة على جملة جو اب الشرط، والسين للاستقبال، أي: وسنقول له من أمرنا قولًا وأمرًا يسرًا، فنلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة.

فتوعد من ظلم بأمرين: أن يعذبه، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا. ووعد المؤمن بأمرين: مجازاته بالحسنى، وأن يعامله باليسر والسهولة.

وبدأ بوعيد الكافر؛ لأن أكثرهم- والله أعلم- كفار. وقدم فيه عذاب الدنيا؛ لأنه قبل عذاب الآخرة، وأيسر منه، ولأن الكافر يخاف من عذاب الدنيا أشد من عذاب الآخرة؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة.

وأما المؤمن فبدأ بوعده بثواب الله في الجنة، ثم ذكر المعاملة له باليسر في الدنيا؛ لأن المؤمن هدفه ومقصوده الوصول إلى الجنة.

وبهذا يتبين ما كان عليه ذو القرنين من الصلاح والعدل والعلم بالسياسة الشرعية

---

(١) سبق تخريجه.

في معاملة كل أحد بما يليق بحاله، وموافقة مرضاة الله تعالى في حكمه فيهم، فاستحق بذلك هذا الثناء والمدح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩﴾، أي: ثم سلك طريقًا، فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وأخضع كل ما مر به من البلاد، ودان له كل من فيها من الأمم، وحكم فيهم بحكمه العدل فيمن قبلهم؛ لأن الله مكنه في الأرض كلها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾، أي: إلى غاية أن بلغ مطلع الشمس من الأرض من جهة الشرق.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾، أي: لم نجعل لهم من دونها بناءً يكنهم ويسترهم منها، ولا أشجارًا تظلهم وتقيهم حرها، أو أن الشمس دائمًا عندهم لا تغرب غروبًا يذكر كما يوجد في بعض البلدان.

وإنما طاف ذو القرنين ما بين مغرب الشمس ومشرقها؛ لأن عمارة الأرض تكون نحو المشرق والمغرب، والسكان يتبعون الشمس من المشرق إلى المغرب أو من المغرب إلى المشرق، أما الشمال والجنوب فأقصى كل منهما ثلج ليس فيه سكان؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث: «**إن الله زوى لي الأرض فرايت مشارقها ومغاربها**»(١).

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾، أي: كذلك مكنا له في الأرض وهيأنا له أسباب ذلك، فأخذ بتلك الأسباب، فملك البلاد، ونفذ حكمه في العباد.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾، «قد» حرف تحقيق، و«ما» موصولة، أي: وقد اطلعنا وأحطنا بالذي عنده من الأسباب العظيمة، وسعة الملك والخير، وحسن التدبير والعدل، وسائر أحواله حيثما توجه وسار.

﴿خُبْرًا﴾، أي: علمًا تامًّا بأحواله كلها باطنها وظاهرها، خفيها وجليها، دقيقها وجليلها.

---

(١) سبق تخريجه.

والخبر: العلم والإحاطة بالخبر والشيء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، أي: ثم سلك طريقًا، قال المفسرون: متوجهًا من المشرق قاصدًا الشمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين: ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «السُّدَّيْنِ»، والسدين: الجبلين الحاجزين لما وراءهما. وهما جبلان عظيمان يفصلان بين شرق آسيا وغربها، بينهما منفذ ينفذ منه الناس.

قال ابن كثير[1]: «وهما جبلان متناوحان[2]، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل».

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر القاف: «يُفْقِهُونَ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَفْقَهُونَ﴾.

أي: وجد من دون السدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وذلك لعجمة ألسنتهم وبعدهم عن الناس، واستعجام أذهانهم وقلوبهم. فلا هم يفهمون لغة الناس، ولا الناس يفهمون لغتهم.

ويظهر من هذا أن مما أعطاه الله تعالى لـ«ذي القرنين» من الأسباب فقه ألسنة الأمم الذين أخضعهم ودانوا له، ودعاهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ومنهم هؤلاء القوم

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ١٩١.

(٢) أي: متقابلان.

الذين وجدهم دون السد؛ ولهذا راجعوه وراجعهم؛ لقوله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، «يأجوج ومأجوج»: أمتان عظيمتان من بني آدم، كثيرتا العدد، يقال: إنهما من قبائل بلاد الصين والمغول والتتر.

عن أبي سعيد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين. قال: فذاك حين يشيب الصغير:** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢].

قال: فاشتد عليهم، قالوا يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا، ومنكم رجل»(١). وفي رواية: «**من يأجوج ومأجوج تسع مئة وتسعة وتسعين، ومنكم رجل**»(٢).

﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال والكفر والشرك وإخافة الناس، وغير ذلك.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها: «خَرَاجًا»، وقرأ الباقون بإسكان الراء من غير ألف: ﴿خَرْجًا﴾، و«هل» للاستفهام، أي: فهل نجعل لك أجرًا؟

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح السين: ﴿سَدًّا﴾، وقرأ الباقون بضمها: «سُدًّا»، أي: حاجزاً يحصننا ويمنعنا منهم، ويحفظنا من فسادهم وشرهم.

أي: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالًا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا يحصنهم منهم، ويقيهم فسادهم.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان، قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين. ٢٢٢.

(٢) جاء هذا في رواية البخاري.

وفي هذا دلالة على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، ومعرفتهم اقتدار ذي القرنين على ذلك، وإنما أرادوا أن يجعلوا له خرجًا؛ خوفًا منهم أن يرد طلبهم، وإلا فهم يعلمون أنه وماله من الملك الواسع ليس بحاجة إلى ذلك.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي أعطاني ربي من التمكين والملك خير من هذا الخرج الذي تجعلونه لي، كما قال نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦].

وفي هذا اعتراف من ذي القرنين بنعمة الله تعالى، ودلالة على ديانته، وحسن قصده، وصلاح نيته، وإرادته الخير والإحسان.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ استعف عن أخذ الأجرة منهم على عمله، لكن طلب منهم أن يساعدوه بقوة بدنية، فقال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، أي: ساعدوني بعملكم معي بقوة بأيديكم، وبآلات البناء؛ لقوله بعده: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، وقوله: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، أي: ردمًا مانعًا من عبورهم إليكم، والردم: أشد وأعظم من السد، أي: أكبر مما سألوه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ هذا وما بعده تفسير لقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

و«زبر» جمع «زبرة» وهي: القطعة، أي: أعطوني وناولوني قطع الحديد العظيمة، فجمعوا أرتال الحديد العظيمة المرتفعة كالجبال، مما يدل على الشدة والعظمة في ذلك الوقت.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وابن عامر بضم الصاد والدال: «الصُّدُفَيْنِ»، وروى أبو بكر عن عاصم بضم الصاد وإسكان الدال: «الصُّدْفَيْنِ»، وقرأ الباقون بفتح الصاد والدال: ﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾.

و«الصدفين»: جانبي الجبلين، أي: حتى إذا ساوى السد بين الجبلين، أي: حاذاهما طولًا وعرضًا وارتفاعًا.

﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾، أي: أوقدوا وأججوا على هذا الحديد نارًا عظيمة، وانفخوا بالمنافيخ ذات الهواء الشديد؛ لتكون في غاية الحرارة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾، أي: إلى غاية إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد كله نارًا تتأجج.

﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ لما بلغ ما بين الجبلين من الحديد غاية الحرارة وصار كله نارًا، ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾، «أفرغ»، أي: أصب، ﴿عَلَيۡهِ﴾، أي: على الحديد، ﴿قِطۡرًا﴾، «القطر»: النحاس المذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾ [سبأ: ١٢].

أي: أعطوني نحاسًا مذابًا أصبه على هذا الحديد الملتهب نارًا؛ ليستحكم، ويكون أشد قوة وصلابة، فكان هذا السد غاية في الارتفاع والطول والعرض، وغاية في الشدة والقوة والصلابة والاستحكام؛ ولهذا قال:

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾.

قرأ حمزة بتشديد الطاء وإدغام التاء في الطاء والجمع بين ساكنين: ﴿فما اسطّاعوا﴾، وقرأ الباقون بفك الإدغام: ﴿فما استطاعوا﴾.

أي: فما اسطاع يأجوج ومأجوج وما قدروا أن يظهروا على هذا السد والردم، ويصعدوا ويعلوا عليه؛ لارتفاعه وملاسته، و«أن» والفعل في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«اسطاعوا»، أي: فما اسطاعوا ظهوره.

﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾، أي: وما استطاعوا أن ينقبوه ويخرقوه من أسفله؛ لثخنه وصلابته وإحكامه وشدته وقوته، فكفى الله شر هؤلاء المفسدين، وهم يأجوج ومأجوج.

ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلًّا بما يناسبه، فقال: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا ٩٧﴾؛ لأن زيادة المبنى تدل- غالبًا- على زيادة المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ * وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾:

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، أي: قال ذو القرنين لما بنى السد وأحكمه: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، أي: هذا السد وهذا العمل الذي أقدرني الله عليه، رحمة من ربي، وليس بحولي ولا بقوتي ولكن رحمة منه عز وجل بي، ورحمة من ربي بالناس، حيث جعل هذا السد والردم المنيع حائلًا بينهم وبين يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض.

فاعترف بنعمة الله تعالى عليه وعلى الناس الذي حفظهم الله بهذا السد، وأضاف النعمة إلى ربه عز وجل شكرًا له على نعمته وفضله، وهذه حال الخلفاء الصالحين.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾، أي: فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج، وذلك من علامات الساعة وأشراطها.

﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، أي: جعل ذلك السد والردم المحكم المتقن ﴿دَكَّآءَۖ﴾ مندكًّا منهدمًا مساويًا للأرض، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: مساويًا للأرض.

﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾، أي: واقعًا ولا بد، كائنًا لا محالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، [الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

عن زينب بنت جحش ﵂، قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا**»، وحلق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(١).

وعن أبي هريرة ﵁، قال: «**فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وعقد التسعين**»(٢). يعني شيئًا يسيرًا، لكن ما ظهر فيه فتح وشق- وإن كان يسيرًا- لا بد أن يتسع.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع... قال: «**ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد**

---

(١) أخرجه البخاري فيالفتن- قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب» ٧٠٥٩، ومسلم في الفتن- اقتراب الفتن ٢٨٨٠، والترمذي في الفتن ٢١٨٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٣، وأحمد ٦/ ٤٢٨، ٤٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، قصة يأجوج ومأجوج ٣٣٤٧، ومسلم في الفتن ٣٨٨١.

كان بهذه مرة ماء»(١).

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ إلى يأجوج ومأجوج والناس الموجودين آنذاك، أي: وتركنا يأجوج ومأجوج والناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم اندكاك السد والردم ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، أي: يختلط ويضطرب بعضهم في بعض، تشبيهًا بموج البحر؛ لكثرة يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وبهذا الاختلاط يُفسد يأجوج ومأجوج على الناس حياتهم، ويعيثون في الأرض فسادًا، بالقتل ونهب الأموال، وإهلاك الحرث والنسل، وغيرذلك.

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ إلى الخلائق كلهم من الإنس والجن، أي: وتركنا بعضهم يوم القيامة يموج ويضطرب في بعض، من شدة الحيرة والذهول من أهوال ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: ٤].

ويقوي هذا الاحتمال ما بعده: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾، أي: وعرضنا جهنم يومئذٍ يموج الخلائق بعضهم في بعض يوم القيامة.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، «الصور»: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟**» قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**»(٢).

والمراد: ونفخ في الصور النفخة الثانية لبعث الناس من قبورهم خلقًا جديدًا، وقد سبقتها النفخة الأولى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٣٧، والترمذي في الفتن ٢٢٤٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٢٥٤٨، وقال: «حديث حسن».

ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾، أي: فجمعنا الخلائق كلهم الإنس والجن والملائكة والوحوش والدواب، وأحضرناهم للحساب ﴿جَمْعًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: جمعًا عظيماً تامًّا لا يغادر منهم أحدًا، أولهم وآخرهم، إنسهم وجنهم، وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠].

الفوائد والأحكام:

١- سؤال أهل الكتاب والمشركين للنبي ﷺ عن قصة ذي القرنين في معرض أسئلتهم له تعنتًا وتعجيزًا، كما سألوه عن قصة أصحاب الكهف وعن الروح، وإجابته ﷺ لهم بما يسكتهم ويقطع حجتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

٣- تعليم الله تعالى له ﷺ ما يجيبهم به، وإيحاؤه إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ الآيات.

٤- الاكتفاء من قصة وخبر ذي القرنين بما فيه التذكير والعظة والعبرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

٥- تمكين الله عز وجل لذي القرنين في الأرض، وإيتاؤه من كل شيء سببًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

٦- أن الله عز وجل مالك الملك، يعطي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء؛ بقدرته وحكمته وعلمه وعدله.

٧- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا.

٨- عمل ذي القرنين بكل ما آتاه الله من الأسباب المادية والمعنوية؛ لهذا تم له ما أراد، وأدرك بغيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

٩- أن من جمع بين العمل وفعل الأسباب مع الإيمان بالله، والتوكل عليه؛ يسر الله له أمور دينه ودنياه، ومن جد وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل،

والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وفي الحديث: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»(١).

١٠- سلوك ذي القرنين طريقًا حتى بلوغه مغرب الشمس، جهة البحر المحيط ورؤيته الشمس في نظر عينه كأنها تغرب في عين حمئة، كما هو المعتاد لمن انتهى إلى ساحل البحر يراها كأنها تغرب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

١١- وجوده لقوم كفار عند مغرب الشمس، وتمكنه منهم وظهوره عليهم، وتخيير الله له في الحكم فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

١٢- تمام علمه ومعرفته بالسياسة الشرعية وتدينه وصلاحه، وعدله في معاملة كل أحد بما يليق به؛ بتعذيب من ظلم واستمر على شركه وتوعده بعذاب الله يوم القيامة، ومجازاة من آمن وعمل صالحًا، بالحسنى والتيسير له بالقول والأمر والمعاملة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾.

١٣- الحذر من الظلم بالشرك وغير ذلك، وأن عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

١٤- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

١٥- إثبات المعاد والحساب والجزاء، والعذاب الشديد للظالمين؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

١٦- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا بالمثوبة الحسنى من الله عز وجل والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾.

١٧- أن على من قدر على أعدائه ألا تنسيه نشوة الانتصار عليهم العدل فيهم، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٤، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

١٨- لا بد من الجمع بين الإيمان باطنًا بالقلب، والعمل ظاهرًا بالجوارح؛ لقوله: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

١٩- أن المهم في العمل كونه صالحًا جامعًا بين الإخلاص والمتابعة؛ لقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بحذف الموصوف: «عملًا»، والاكتفاء بالصفة: «صالحًا».

٢٠- سلوك ذي القرنين طريقًا من مغرب الشمس إلى مطلعها؛ استمرارًا لتطوافه في الأرض، ووجوده عندها قومًا لم يجعل الله لهم من دونها سترًا يقيهم حرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ۝٩٠﴾.

٢١- إحاطة الله عز وجل خبرًا وعلمًا بما عند ذي القرنين من الخير والأسباب العظيمة وبأحواله، وما مكن فيه من الملك وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ۝٩١﴾.

٢٢- سعة علم الله عز وجل وإحاطته بجميع أحوال خلقه؛ باطنها وظاهرها، ودقيقها وجليلها، وخفيها وجليها.

٢٣- سلوك ذي القرنين سببًا وطريقًا من مطلع الشمس، حتى بلغ بين السدين، ووِجدانه من دونهما قومًا لا يفقهون قولًا؛ لاستعجام ألسنتهم وأذهانهم وأفهامهم؛ لبعدهم عن الناس، وقدرته على محاورتهم بما أعطاه الله من الأسباب، التي منها- والله أعلم- فقه ألسنة الأمم الذين أخضعهم الله له ودانوا له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣﴾.

٢٤- بلوغ ذي القرنين وتطوافه في جميع أرجاء الأرض مشارقها ومغاربها وسائر جهاتها.

٢٥- أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض بالقتل ونهب الأموال وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢٦- طلب هؤلاء القوم من ذي القرنين أن يجعلوا له أجرًا؛ ليجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا يحصنهم منهم؛ لقولهم: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ

بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

٢٧- تحدُّث ذي القرنين بفضل الله عليه، واستغناؤه عن أخذ الخرج منهم بما مكنه ربه فيه من الخير، وقصده الإحسان إليهم بدون مقابل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

٢٨- أن على خليفة المسلمين وولي أمرهم التعفف- ما أمكنه ذلك- عن أموال رعيته، وأخذ الأجرة منهم في مقابل عمل يأتيه لهم؛ ففي ذلك حفظ كرامته.

٢٩- موافقته على بناء السد لهم، وطلبه منهم إعانته بقوة بأيديهم وبالآلات من الحديد والنحاس، وبالنفخ؛ لقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦﴾.

٣٠- ينبغي لخليفة المسلمين وحكامهم المساعدة في رفع الأذى ورفع الظلم عن إخوانهم المسلمين، وعمن طلب ذلك من المجاورين.

٣١- أن القوي من الخلق مهما أوتي من القوة قد لا يستغني عن أن يستعين بغيره، حتى بمن هو دونه؛ لقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، وهذا يدل على ضعف الخلق مهما أوتوا من قوة.

٣٢- أن من أعظم الأشياء صلابة وقوة الحديد المذاب عليه النحاس.

٣٣- بلوغ هذا السد والردم غاية الارتفاع، وغاية الثخانة والصلابة والإحكام والقوة؛ ولهذا ما استطاع يأجوج الصعود عليه، ولا استطاعوا خرقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٩٧﴾.

٣٤- أن هذا السد رحمة من الله تعالى للناس، جعله الله حائلًا بينهم وبين يأجوج ومأجوج؛ ليسلموا من شرهم وفسادهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾.

٣٥- تحدث ذي القرنين بنعمة الله تعالى عليه، ونسبته ما أقدره الله عليه من عمل السد إلى الله عز وجل وشكره على ذلك؛ لقوله: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾، وهكذا يجب على كل مؤمن شكر نعمة الله تعالى عليه ونسبتها إليه عز وجل، والتحدث بها.

٣٦- إثبات رحمة الله تعالى المتعدية إلى عباده.

٣٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّي﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾.

٣٨- أن لهذا السد العظيم أجل، فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج- وذلك من علامات الساعة الكبرى- جعله الله عز وجل دكًّا مساويًا للأرض؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾.

٣٩- أن وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وغير ذلك من علامات الساعة وقيامها، والحساب والجزاء على الأعمال وغير ذلك؛ حق كائن لا محالة؛ لقوله: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

٤٠- اضطراب يأجوج ومأجوج والناس يوم خروجهم؛ لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

٤١- اختلاط الخلائق كلهم بعضهم في بعض يوم القيامة من الإنس والجن، واضطرابهم وحيرتهم وذهولهم لشدة أهوال ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

٤٢- إثبات النفخ في الصور النفخة الثانية لبعث الخلائق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾.

٤٣- جمع الخلائق كلهم في القيامة للحساب، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، أي: أبرزنا جهنم وأظهرناها، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، يوم يموج الخلائق بعضهم في بعض، ﴿عَرْضًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: عرضًا بينًا جليًّا ظاهرًا أمامهم؛ ليروها عين اليقين، وما فيها من العذاب والنكال، قبل دخولها؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم.

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧].

وعن ابن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»(١).

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾، أي: الذين كانت أعينهم في غشاوة ﴿عَن ذِكْرِي﴾، أي: عن القرآن الكريم، وعن التأمل في آياتي الشرعية والكونية، كما قال

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١].، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الإسراء:٤٦].

قال ابن القيم: «وهذا يتضمن معنيين؛ أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده، وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولًا، ثم يسري منه إلى العين»(١).

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعٗا﴾ هذا أبلغ من «وكانوا صمًّا»؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، و«سمعًا» نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: وكانوا لا يستطيعون أيَّ سمع، أي: لا يقدرون على أيِّ سمع.

والمعنى: أنهم لا يستطيعون سماع أيِّ شيء من الذكر والآيات؛ لشدة إعراضهم ومكابرتهم وبغضهم للقرآن وللرسول ﷺ، ولو سمعوا شيئًا من ذلك بآذانهم؛ لم ينتفعوا بشيء منه بقلوبهم ولم يستجيبوا، فكأنهم لم يسمعوا، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: ٢١].

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ الاستفهام للإنكار.

أي: أفظن الذين كفروا أن يجعلوا ﴿عِبَادِي﴾ من الملائكة والأنبياء والصالحين الذين يشركونهم معي وغيرهم من المخلوقات، كالشمس والقمر والأشجار والأحجار وغيرذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم:٩٣].

﴿مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾، أي: أن يجعلوا عبادي هؤلاء أولياء لهم من دوني، أي: أن هذا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٧.

أمر غير ممكن، وبطلانه متقرر في العقول؛ لأن أولياء الله لا يوالون أعداء الله، بل ينكرون عبادتهم لهم ويتبرؤون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

فمن زعم أنه يتخذ أولياء الله أولياء له وهو معادٍ لله فهو كاذب، فليس هو بولي لهم، ولا هم بأولياء له.

ويحتمل أن يكون المعنى: أفحسب الذين كفروا بالله وكذبوا رسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء، أي: أن يكون لهم من دون الله أولياء ينصرونهم من دون الله، ويدفعون عنهم وينفعونهم.

أي: لا يظنوا ذلك، فليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ [الشورى: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان: ٣].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فلا منافاة بينهما.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: أعددنا جهنم وهيأناها وجهزناها.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: ضيافة لهم، ومقرًّا ومنزلًا. والنزل في الأصل: ما يعد من القرى للضيف، وفي هذا نوع من التهكم والسخرية بهم، والتبكيت لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦﴾:

قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ بدأ الكلام بـ«قل» والاستفهام؛ للاهتمام، أي: قل يا محمد للناس محذرًا لهم ومنذرًا: هل أخبركم بالأخسرين أعمالًا؟ و«أعمالًا» تمييز، أي: بالذين هم أخسر الناس أعمالًا، أي: أشد الناس خسرانًا.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، «الذين» صفة لـ«الأخسرين»، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم، أي: الذين ضاع سعيهم وعملهم في الحياة الدنيا وذهب سدى؛ لأنه على غير هدى.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾، أي: وهم لشدة جهلهم وضلالهم يظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: أنهم يحسنون عملًا، أي: يظنون أن عملهم حسن؛ لعمى قلوبهم، وانطماس بصائرهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨].

وكما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن(١)

وبين «يحسبون» و«يحسنون» جناس غير تام.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ تفسير لقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾، أي: هم أولئك الذين كفروا بآيات ربهم، أي: جحدوا آيات ربهم الشرعية، وآياته الكونية، وكذبوا بها.

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾، أي: وكفروا بلقائه وكذبوا به، فأنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، ولقاء الله تعالى. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، أي: فبطلت أعمالهم بسبب كفرهم بآيات ربهم ولقائه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «روح المعاني» ١/ ١٥٦.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، أي: قدرًا، أي: فلا قدر لهم عندنا يوم القيامة ولا وزن، ولا نثقل موازينهم؛ لخلوها من الخير والعمل الصالح.

عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وقال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾**»(١).

وفي حديث عن عبدالله بن مسعود ﷺ؛ أنه كان يجتبي سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «**مم تضحكون؟!**» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه! فقال: «**والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد**»(٢).

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾، الإشارة لما سبق، أي: ذلك المذكور من حبوط أعمالهم، وسقوط منزلتهم عند الله، و«الباء»: للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كفرهم.

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ الجملة معطوفة على «كفروا»، أي: بسبب كفرهم واتخاذهم آياتي ورسلي هزوًا، أي: بسبب جعلهم آياتي الشرعية والكونية ﴿وَرُسُلِى﴾ الذين أرسلتهم إليهم وأيَّدتهم بالمعجزات؛ لدعوتهم وهدايتهم.

﴿هُزُوًا﴾، أي: محلًّا للاستهزاء والسخرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء:٣٦]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾:

لما بين أعمال الكافرين ومآلهم؛ أتبع ذلك بذكر أعمال المؤمنين ومآلهم، جمعًا بين الوعيد والوعد، والترهيب والترغيب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكهف ٤٧٢٩، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٥.
(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٢٠- ٤٢١.

الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ خاصة ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾، «الفردوس»: أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها وأحسنها، ﴿نُزُلًا﴾، أي: ضيافة لهم، ومكانًا لنزولهم.

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(١).

والفردوس: البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين من أشجار العنب وغيرها، ويُجمع على «فراديس»، قال جرير:

فقلت للركب إذ عنَّ المسير بنا ... يا بعد يَبرينَ من باب الفراديس(٢)

وعلى هذا فالمراد بالفردوس: جميع منازل الجنان، بدليل ذكر لفظ: «جنات» بالجمع وإضافتها إلى الفردوس، فيشمل الوعد بهذا جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين والأبرار والمقتصدين كل بحسب حاله، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

قال ابن القيم: «والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيرها من الجنات».

قال حسان:

وَإِنَّ ثواب الله كلّ مخلّدٍ ... جنان من الفردوس فيها يخلد(٣)

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين لابثين فيها، لا يظعنون عنها.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٨.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٨، ١٢٩.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي: لا يريدون عنها تحولًا، ولا يتطلعون إلى غيرها؛ لتمام وكمال ما هم فيه من النعيم، والذي أعلاه وأجله رؤية وجه الله الكريم، وكما قيل:

فحلت سواد القلب لا أنا باغيًا ... سواها ولا عن حبها متراخيًا(١)

فهم مع خلودهم فيها، وطول إقامتهم، لا يتطرق إليهم في تلك المنازل العظيمة السأم أو الملل، فلا يختارون عنها متحولًا، ولا يريدون منها بديلًا، ولا يتطلعون لغيرها؛ لعلمهم أنه لا أفضل منها مقامًا، ولا ألذ منها نعيمًا، وبلوغهم فيها غاية الرضا فيما هم فيه من النعيم، حتى إن من كان منهم في منزلة أقل لا يرى أن هناك من هو أرفع منزلة منه، أو أعظم نعيمًا منه، كما جاء في الحديث(٢)؛ ليحصل له كمال الطمأنينة والرضا، ولا يتطرق إليه الغم والحزن، نسأل الله تعالى من فضله.

ومن هنا أخي الكريم يتبين لك حقارة الدنيا ونعيمها، فمهما بلغ الإنسان من التنعم فيها فهو في شغف إلى غيره، بل إنه كلما ازداد فيها تنعمًا انتابه السأم والملل أكثر، فهو بين الظعن والترحال، والتنزه والأسفار هنا وهناك، وكل ذلك لا يروي له غليلًا، ولا يشفي له عليلًا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥- ١٩].

قال لبيد(٣):

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، انظر: «مغني اللبيب» صـ٢٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٨، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في ذكر أدنى أهل الجنة منزلة، وفيه ذكر ما يعطيه الله تعالى، وقوله: «ما أعطي أحد مثل ما أعطيت».

(٣) انظر: «ديوانه» ص٣٢، «جمهرة أشعار العرب» ص٨٥، «الأغاني» ١٥/ ٣٥٢.

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وصدق المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وسلم: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ الآية.

عن ابن عباس ﷺ، قال: «قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾(٢).

قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾، أي: قل يا محمد للناس مبينًا لهم سعة علم الله وكمال تقديره وتدبيره، وتمام حكمه وحكمته وشرعه، وكتابته مقادير كل شيء.

﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾، «لو» شرطية غير جازمة، و«أل» في «البحر» للجنس، أي: لو كانت جميع البحار، أي: جميع بحار الدنيا.

﴿مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾، «المداد»: الحبر الذي يكتب فيه بالقلم، و«كلمات الله» تنقسم إلى قسمين: كلمات كونية، وكلمات شرعية، أي: لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي تكتب به كلمات ربي وحكمه وأحكامه وأوامره وآياته الكونية والشرعية.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن- سورة الكهف ٣١٤٠، والنسائي في الكبرى في التفسير، قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ ١١٣١٤، وأحمد ١/ ٢٥٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ اللام واقعة في جواب «لو»، أي: لفرغ البحر وفني ماؤه مدادًا.

﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير: «يَنْفَدَ»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَنفَدَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى «قبل»، أي: قبل نفاد كلمات ربي.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾، أي: ولو جئنا بمثل البحر آخر ثم آخر ثم آخر، إلى ما لا نهاية له من البحور.

﴿مَدَدًا﴾ له وزيادة عليه، أي: لنفدت كل هذه البحور قبل أن تنفد كلمات ربي، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

والمقصود: بيان أن كلمات الله عز وجل لا تنفد ولا تنتهي مهما نفدت البحار، وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن البحار مخلوقة كغيرها، وجميع المخلوقات مآلها الزوال والفناء.

وأما كلام الله فهو صفة من صفاته الثابتة غير المخلوقة، التي لا نهاية لها ولا نفاد.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ولغيرهم من الناس أجمع: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا بشر مثلكم كغيري من سائر البشر، لست ملكًا، ولا أملك من الأمر شيئًا، ولا أعلم الغيب، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، أي: يوحي الله تعالى إلي، والوحي لغة: الإعلام بسرعة وخفاء. وشرعًا: هو كلام الله عز وجل المنزل على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

والمعنى: إنما أنا بشر مثلكم فضلت عليكم بالوحي فقط.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، «أنما» أداة حصر، مثل «إنما»، أي: ما إلهكم ومعبودكم الذي يجب أن تعبدوه إلا إله ومعبود واحد، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، أي: فمن كان منكم يأمل لقاء ربه وحسابه وجزاءه وثوابه ويخشى عقابه.

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، واللام: للأمر.

﴿عَمَلٗا﴾ مفعول مطلق، ﴿صَٰلِحٗا﴾ صفة له، أي: عملًا صالحًا خالصًا لله تعالى، تبعًا لسنة الرسول ﷺ.

قال ابن القيم: «ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل بجميع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة»(١).

﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ معطوف على قوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾، وتأكيد له، أي: ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا من الخلق.

وهذا كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦﴾ [فصلت: ٦].

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٢).

وعن محمود بن لبيد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فسئل عنه فقال: «**الرياء**»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- عرض جهنم يوم العرض الأكبر للكافرين عرضًا بيِّنًا؛ ليروها عيانًا وما فيها من الأغلال والأنكال، تعجيلًا لهم بالعذاب المعنوي والهم والحزن؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٢٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٣٩٨٥.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٨.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

٢- أن الكافرين إنما عوقبوا بما هم عليه من الكفر، وعرضت عليهم جهنم وتوعدوا بها؛ لأن أعينهم كانت عميًا عن ذكر الله والنظر والتأمل في آياته، وكانوا صمًّا لا يستطيعون سماعه ولا ينتفعون به؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

٣- أن القرآن الكريم هو ذكر الله تعالى، وهو تذكير به وعظة وعبرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذِكْرِي﴾.

٤- أن من لم ينتفع بما وهبه الله من البصر والسمع بالاهتداء بهما إلى معرفة الله تعالى؛ فهو كمن فقدهما بل أشد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

٥- بطلان ظن المشركين الذين عبدوا الملائكة والأنبياء والصالحين من دون الله أنهم أولياء لهم؛ لأن هؤلاء المعبودين إنما هم أولياء لله تعالى، وأعداء لمن عادى الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾.

٦- أنه لا ولي للمشركين من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٦].

٧- إثبات العبودية الخاصة لله تعالى، وهي عبودية الملائكة والأنبياء والصالحين، وأن أهل عبوديته الخاصة هم أهل ولايته؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾.

٨- إعداد جهنم وتجهيزها وتهيئتها يوم القيامة ضيافة للكافرين ومنزلًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

٩- أن جهنم معدة مهيأة الآن لأهلها الكافرين، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، [آل عمران: ١٣١].

١٠- التهكم والسخرية والتبكيت للكافرين بوصف جهنم بكونها لهم نزلًا، والنزل في الأصل: ما يعد من القرى للضيف، فبئس النزل جهنم.

١١- أن الأخسرين أعمالًا هم الذين ضل سعيهم وعملهم في هذه الحياة، مع

ظنهم أن عملهم حسن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

١٢- أن من أعظم المصائب والبليات أن يكون الإنسان على ضلال وباطل، وهو يظن أنه على هدى وحق، وأنه يحسن صنعًا.

١٣- أن الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا هم الذين كفروا بآيات ربهم وكذبوا بلقائه وحسابه للخلائق ومجازاته إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

١٥- إثبات لقاء الله عز وجل ومحاسبته للخلائق ومجازاته إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾.

١٦- حبوط أعمال الذين كفروا بآيات الله وبطلانها؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

١٧- أنه لا وزن ولا قيمة يوم القيامة لمن كفروا بآيات الله ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

١٨- إثبات وزن الأعمال يوم القيامة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ فمفهوم هذا أن من عداهم من المؤمنين بآيات الله ولقائه يقام لهم وزن.

١٩- أن سبب حبوط أعمال المذكورين وبطلانها، وعدم إقامة الوزن لهم يوم القيامة هو كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

٢٠- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم خاصة جنات الفردوس ضيافة ومنزلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

٢١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلوب وعمل الصالحات بالجوارح، بين إيمان الباطن والإخلاص بالقلب وبين عمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

٢٢- لا بد من كون العمل صالحًا جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾.

٢٣- أن جنات الفردوس معدة ضيافة ومنزلًا لأهل الإيمان والعمل الصالح.

٢٤- خلود أهل الجنة فيها خلودًا أبديًّا، وعدم رغبتهم في التحول عنها؛ لتمام رضاهم عما هم فيه من النعيم، وتمام معرفتهم أنه لا نعيم أفضل منه، وهذا الرضا وهذا الشعور هو نعيم يضاف إلى نعيمهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾.

وفي الحديث: «**أن الله يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ هل تريدون شيئًا أزيدكم؟...**»، إلى قوله: «**اليوم أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا...**» إلى قوله: «**فيتجلى لهم، فما أعطوا شيئًا أحب من ذلك**»(١).

٢٥- أن الله تعالى قد فضح الدنيا بفنائها وانقضائها، وكون القاطن فيها عرضة للسأم والملل، فلا يكاد الإنسان يقيم في موطن إلا وهو يتطلع إلى الظعن إلى غيره، فتراه يلهث متنقلًا هنا وهناك بين المتنزهات، يبحث عن الأجواء المناسبة، والمناظر الجميلة، والحياة السعيدة، وكل ذلك لا يبل له صدى، ولا يروي له غليلًا.

٢٦- إثبات الكلام لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وكتابته لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي...﴾ الآية.

٢٧- أن كلمات الله تعالى الكونية والشرعية لا تنفد، فلو جعل ماء بحار الدنيا كلها وأمثالها، وأمثالها إلى ما لا نهاية له من البحار مدادًا لكتابة كلماته عز وجل؛ لنفد ماء تلك البحار كلها، وكلماته عز وجل لم تنفد؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾.

٢٨- ضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المعاني، فللدلالة على سعة كلماته عز وجل الكونية والشرعية وكثرتها، وعدم نفادها، وكتابته لكل شيء، وواسع ملكه

---

(١) سبق تخريجه.

عز وجل وعلمه، وتمام قدرته وحكمه وحكمته، وغير ذلك، ضرب الله عز وجل هذا المثل، وليس معنى ذلك: أن كلماته عز وجل قد تنفد بنفاد البحار مهما أمدت وتضاعفت هذه البحار.

٢٩- أن النبي ﷺ ما هو إلا بشر كغيره من سائر البشر، اختصه الله تعالى بوحيه عز وجل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٣٠- إثبات رسالته ﷺ؛ لقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الآية.

٣١- إثبات وحدانية الله تعالى وتفرده بالإلهية، وأن ذلك مما أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ وبعثه به، كما بعث بذلك جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٣٢- أن على كل مؤمن يرجو لقاء الله وثوابه، ويخاف ويخشى عقابه، وجوب الاستعداد لذلك بالعمل الصالح، وألا يشرك بعبادة ربه أحدًا من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

٣٣- وجوب الإيمان بالمعاد، ولقاء الله وحسابه للخلائق، ومجازاته لهم، وأن من لم يؤمن بذلك لا ينفعه العمل الصالح والعبادة وترك الشرك؛ لمفهوم قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية.

٣٤- إثبات ربوبية الله الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ مَرْيَمَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة مريم» لذكر قصة مريم عليها السلام فيها أطول من غيرها من السور، عدا سورة آل عمران، وقد نزلت بعدها في المدينة.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ والآيات بعدها.

وعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن أبيه، عن جده قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية، فقال: «**والليلة أنزلت علي سورة مريم، فسمها مريم،**» فكانت تسمى مريم، وكان يكنى بأبي مريم(١).

وتسمى: «سورة كهيعص»؛ رُوي هذا عن جماعة من السلف.

ب- مكان نزولها:

مكية.

عن أم سلمة رضي الله عنها في قصة الهجرة إلى الحبشة من مكة: «أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي، فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكى أساقفته، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء موسى ليخرج من مشكاة واحدة»(٢).

ج- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: «إنهن من العتاق الأُوَل، وهن من تلادي»(٣).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة مريم بالحروف المقطعة، وبذكر قصة زكريا وتضرعه لربه، وإجابة الله دعاءه وتحقيق سؤله، قال تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ

---

(١) أخرجه الطبراني في " الكبير"٢٢/ ٣٣٢(٨٣٤)، وفي"مسند الشاميين"٢/ ٣٥٠(١٤٧٨)،والدولابي في"الكنى والأسماء"١/ ١٥٨(٣١٢).

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٠١،٢٠٣،٥/ ٢٩٠،٢٩٢، وانظر "سيرة ابن هشام" ١/ ٣٣٦.

(٣) سبق تخريجه.

عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

٢- ذكر قصة مريم، وقصة عيسى ووجوده من غير أب، وتكليمه الناس صبيًّا، واختلاف الأحزاب في شأنه، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٣- بيان أن الظالم أصم أعمى عن الحق، قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

٤- أمر النبي ﷺ بإنذار الناس يوم الندامة والحسرة، وبيان أن الله يرث الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

٥- ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ودعوته لأبيه وحواره معه، ثم اعتزاله له ولقومه وما يعبدون، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

٦- ذكر قصة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

٧- ذكر قصة إسماعيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

٨- ذكر قصة إدريس عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

٩- بيان أن هؤلاء المذكورين في السورة ابتداء بزكريا عليه السلام وختاما بإدريس عليه السلام هم ممن أنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

١٠- ذكر حال الناس بعد هؤلاء الأنبياء، وبيان سوء عاقبتهم، إلا من تاب

وأناب منهم، قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

١١- بيان أن الملائكة تتنزل بأمر الله لها، وبيان أن النسيان منتفٍ عن الله تمامًا، وأنه سبحانه خالق السموات والأرض، مستحق للعبادة، ليس له مثيل ولا نظير سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

١٢- ذكر شبهة إنكار البعث التي قال بها الضالون، والرد عليها، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

١٣- بيان أن جميع الخلائق تمر على الصراط، والنجاة لمن آمن منهم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

١٤- بيان موقف الكفار من الآيات إذا تليت عليهم، وبيان أن الله قد أهلك قبلهم من تفوق عليهم ماديًّا، ثم بيان أن الله سيمهل من هذه حاله ليزداد ضلالًا على ضلاله، وفي المقابل يزيد الله الذين اهتدوا هدى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا ﴿٧٦﴾﴾.

١٥- التعجيب من حال الكافر الذي جمع بين كفره وادعائه أنه سيعطى المال والولد في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾﴾.

١٦- بيان أن المشركين اتخذوا معبودات ينتصرون بهم من دون الله تعالى، وما علموا أنهم سيتبرؤون منهم ويكونون لهم أعداء، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا ﴿٨٢﴾﴾.

١٧- بيان أن الله سلط الشياطين على الكافرين، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾﴾.

١٨- بيان حال المتقين وحال المجرمين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

١٩- زعم الكفار أن لله ولدا- تعالى الله عن ذلك- والرد على زعمهم الباطل، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

٢٠- وعد الله من آمن به وعمل صالحًا بحبه لهم وتحبيبهم إلى عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

٢١- بيان أن الله يسر القرآن؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

٢٢- بيان عاقبة الأمم السابقة، والتهديد للمكذبين، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾: سبق الكلام عن الحروف المقطعة أوائل السور، وذكر الحكمة فيها في مطلع سورة البقرة.

وقد بدئت هذه السورة بخمسة من هذه الحروف، وهو الحد الأعلى في عدد الحروف التي ابتدئت بها هذه السور؛ لأن منها ما ابتدئ بحرف، ومنها ما ابتدئ بحرفين، ومنها ما ابتدئ بثلاثة أحرف، ومنها ما ابتدئ بأربعة أحرف، ومنها ما ابتدئ بخمسة أحرف وهي هذه السورة: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، وسورة الشورى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾[الشورى: ١- ٢].

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، أي: هذا ذكر رحمة ربك- يا محمد- عبده ونبيه زكريا، في استجابته عز وجل لندائه، وبشارته بالولد وهبته له.

وقد وصفه عز وجل بالعبودية له؛ لأنها أشرف ما يوصف به البشر، وكان زكريا عليه السلام نبيًّا من أشرف أنبياء بني إسرائيل، وكان نجارًا يأكل من عمل يده، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان زكريا نجارًا**»(١).

والمراد: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾، أي: ذكرها للتذكير بها، فهو بمعنى: «اذكر»؛ كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وغير ذلك ممن ذكر في هذه السورة، أو في غيرها من الأنبياء والصالحين.

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، فضائل زكريا عليه السلام ٢٣٧٩، وابن ماجه في التجارات، باب الصناعات ٢١٥٠، وأحمد ٢/ ٢٩٦، ٤٠٥.

والمقصود من ذلك: التذكير بنعم الله تعالى عليهم، والثناء عليهم، وبيان فضائلهم، والحث على الاقتداء بهم.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين نادى ربه، أي: دعا ربه.

﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾، أي: دعاءً خفيًّا، أي: دعا ربه خفية؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء، وأقرب للإجابة.

وقد نادى عليه السلام ربه في هذه الآيات ودعاه ست مرات بوصف الربوبية؛ كما في دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى الرب: الخالق الملك المتصرف.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، أي: ضعف العظم مني، وإذا ضعف العظم خارت القوى وضعف جميع البدن؛ لأن العظم قوام البدن، والتعريف في «العظم» للجنس، فيشمل عموم العظام.

عن سعيد بن المسيب، قال: «لما صدر عمر بن الخطاب من منى أناخ بالأبطح، ثم كوّم كومة بطحاء، ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط»(١).

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، معطوف على: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، و﴿شَيْبًا﴾ تمييز، والشيب: بياض الشعر بسبب الكبر غالبًا.

والمعنى: وانتشر الشيب في الرأس، واضطرم البياض في السواد كاضطرام النار في الهشيم؛ كما قال ابن دريد(٢):

أما ترى رأسيَ حاكى لونُه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده ... مثل اشتعال النار في جَزْل الغضا

فتبرأ عليه السلام من الحول والقوة، وأقر بضعفه وكبره، وتعلق بحول الله وقوته.

وانتشار الشيب في الرأس وكثرته فيه أمارة على التوغل في الكبر؛ لأن الشيب لا يكثر في الرأس أو يعمه إلا بعد أن يعم اللحية غالبًا؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن من إجلال الله:**

---

(١) أخرجه مالك في الحدود ١٥٦٠.

(٢) انظر: شرح المقصورة ص ٢.

إكرام ذي الشيبة المسلم»[١].

والشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، قال الشافعي[٢]:

خبت نار نفسي باشتعال مفارقي ... وأظلم ليلي إذ أضاء شهابها
أيا بومة قد عششت فوق هامتي ... على الرغم مني حين طار غرابها
رأيت خراب العمر مني فزرتني ... ومأواك من كل الديار خرابها
أأنعم عيشًا بعدما حل عارضي ... طلائع شيب ليس يغني خضابها
وعزة عمر المرء قبل مشيبه ... وقد فنيت نفس تولى شبابها
إذا اصفر لون المرء وابيض شعره ... تنغص من أيامه مستطابها

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، «شقيًّا» خبر «كان» منصوب، والشقي: من الشقوة؛ وهي الحرمان، أي: ولم أكن بدعائك ربي شقيًّا محرومًا من الإجابة، بل كنت سعيدًا تجيبني إذا سألتك؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[مريم: ٤٨]، أي: عسى أن أكون سعيدًا، مستجاب الدعوة، وفي الحديث: «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**»[٣]، أي: بل يسعد بهم جليسهم.

﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾، قرأ الكسائي بتسكين الياء: «الموالي».

وقرأ الباقون بنصبها: «الموالِيَ»، و«الموالي» جمع: «مولى» بمعنى: «الولي»، وهم العصبة.

﴿مِن وَرَآءِى﴾، أي: من بعدي، قال النابغة[٤]:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهبُ

أي: وليس بعد الله.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٣، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٤٤، ٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٨٩، والترمذي في الدعوات ٢٦٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٢٣.

أي: وإني خفت الموالي والعصبة من بعد موتي، أي: أخاف وأخشى أن يتصرفوا بعدي في الناس تصرفًا سيئًا.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، أي: عقيمًا لا تلد أصلًا، وهو وصف خاص بالمرأة.

ثم بعد أن مهد بالتوسل إلى ربه بضعفه، وكبر سنه، واضطراره لسؤاله، وتبرأ من حوله وقوته، وأثنى على ربه باستجابته سابق دعائه، سأل حاجته ومطلوبه، فقال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

أي: أعطني وامنحني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك، والمراد بالعندية هنا: عندية خاصة؛ لأن كل شيء من عند الله تعالى.

﴿وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي بجزم «يرثْني ويرثْ»، وقرأ الباقون برفعهما: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾.

﴿وَلِيًّا ۝٥﴾، أي: ولدًا وارثًا ومعينًا يلي الأمر من بعدي؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: ٨٩] وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾، أي: يرث النبوة، ويكون نبيًّا من بعدي، وعلى هذا فالمراد بالولاية في قوله: ﴿وَلِيًّا﴾ الولاية في الدين، وقيل المعنى: يرث مالي.

والصحيح الأول، والدليل قوله تعالى بعده: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي: ويرث من آل يعقوب النبوة قطعًا، وأيضًا: فإن زكريا عليه السلام- وكذا غيره من الأنبياء- أجل وأعظم من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده: أن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونهم.

كما أن زكريا عليه السلام لم يكن ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يده، وقل

أن يجتمع عند مثله شيء من المال، والأنبياء عليهم السلام أزهد الناس في الدنيا.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا نورث؛ ما تركناه صدقة**»(١).

فمن شفقة زكريا عليه السلام على الدين، وخشيته عليه الضياع بسبب ولاية من ليس أهلًا للولاية فيه، سأل ربه أن يهبه من لدنه وليًّا يرث النبوة منه ومن آل يعقوب، وليس لأمر سوى ذلك، وحق له أن يخاف على دين الله من التبديل والتغيير؛ فإن في موت الأنبياء والعلماء الربانيين والمصلحين ثلمةً لا تسد.

قال الشافعي(٢):

فما تخرب الدنيا بموت شرارها ... ولكن بموت الأكرمين خرابها

وقال الآخر:

ولست أبالي أن يقال: محمد ... أبل أم اكتظت عليه المآتم

ولكن دينًا قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

فيا رب إن قدرت رجعى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا ... رشيدًا يضيء النهج والليل قاتم(٣)

﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾، أي: مرضيًّا عندك وعند خلقك في دينه ودنياه، وفي خُلُقه وخَلْقه.

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، قول النبي ﷺ: «**لا نورث؛ ما تركناه صدقة**». ١٧٦١، وأحمد ٢/ ٤٦٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «موارد الظمآن لدروس الزمان» ٢/ ١٧٩.

(٣) الأبيات للشيخ محمد عبده، كما في «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا ١/ ٤١١، و«مذكرات محمد عبده» ص٧.

تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

٢- ذكر رحمة الله عز وجل عبده زكريا باستجابته لندائه، وبشارته بيحيى وهبته له، وغير ذلك؛ للتذكير والامتنان به، وأخذ العبرة والعظة منه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ الآيات.

٣- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة بيحيى وبأوليائه عز وجل.

٤- تشريف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ، وربوبيته عز وجل الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٥- إثبات عبودية زكريا عليه السلام الخاصة لله تعالى، وتشريفه بهذه العبودية؛ لقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾.

٦- نداء زكريا عليه السلام، ودعاؤه ربه بخفية أن يهبه وليًّا يرثه من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ الآيات.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لزكريا ولأوليائه الصالحين، وتشريف زكريا بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٨- إثبات سماع الله عز وجل التام، الواسع لجميع الأصوات والنداءات خفيها وجهرها؛ لأنه إذا سمع الخفي فسماعه للجلي والجهر من باب أولى.

٩- فضيلة إخفاء الدعاء؛ لأنه أبعد عن الرياء، وأقرب للإجابة.

١٠- تقديم زكريا عليه السلام، وتمهيده لسؤاله بالتوسل إلى ربه بضعفه وكبر سنه، وأنه لم يكن يومًا ما شقيًّا بدعائه، محرومًا من إجابته، بل كان سعيدًا مستجاب الدعوة، وباضطراره إلى سؤاله لخوفه الموالي من بعده، وعقم زوجته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ۝٥﴾.

١١- ينبغي للسائل أن يقدم بين يدي سؤاله ما يكون سببًا لإجابته، بذكر حالته، والأسباب التي اضطرته للسؤال، ونحو ذلك، والثناء على المسؤول، وكما قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناءُ[1]

١٢- أن من علامة الكبر ودنو الأجل: وهن العظم والبدن، ومشيب الرأس؛ لقول زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

١٣- سرعة انتقال الشيب وعمومه للشعر عند الكبر؛ كاشتعال النار في الهشيم؛ لقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

١٤- ثناء زكريا عليه السلام على ربه، واعترافه بنعمه عليه وسابق فضله في استجابته لدعائه؛ لقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

١٥- مخافة زكريا عليه السلام من العصبة من بعده أن يتصرفوا في الناس تصرفًا سيئًا مخالفًا لما هو عليه من الدين؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾.

١٦- سؤاله عليه السلام ربه أن يهبه من لدنه وليًّا يرث النبوة منه ومن آل يعقوب؛ لقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾.

١٧- إثبات نبوة زكريا عليه السلام؛ لقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، والمراد بذلك: ميراث النبوة.

١٨- دعاؤه عليه السلام ربه أن يجعل هذا الولي الذي يهبه له ﴿رَضِيًّا﴾ مرضيًّا عند ربه، وعند الخلق في دينه وخلُقه وخَلْقه؛ لقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

* * *

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» ص١٧.

قال الله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾.

ذكر في الآيات السابقة نداء زكريا ودعاءه رب أن يهبه من لدنه وليًّا يرث النبوة منه ومن آل يعقوب، ثم بشره به في هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١﴾.

قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾، بهذا أجاب الله عز وجل نداء زكريا، وقوله: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ الآية، فبشره به على ألسنة الملائكة؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي خطاب الله تعالى لزكريا بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ إثبات نبوته عليه

السلام.

والتبشير: الإخبار بما يسر، والوعد بالعطاء؛ كما قال ﷺ للأنصار رضي الله عنهم: «**فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم**»(١).

﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾، أي: سماه الله: يحيى، فكان اسمًا موافقًا لمسماه، أحياه الله حياة حسية بدنية، وحياة معنوية، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم، وهي أهم وأعظم، فتمت بذلك على زكريا المنة، واكتملت به النعمة.

﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾، أي: لم يسم قبله أحد بهذا الاسم، وقيل: لم نجعل له من قبل مساميًا ومماثلًا فيما أعطاه الله من الصفات الحميدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩]، قال مجاهد: «ولم نجعل له شبهًا ومثلًا»(٢).

وعلى هذا لا بد أن يكون هذا العموم مخصوصًا بإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، ونحوهم ممن هم أفضل من يحيى قطعًا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم تلد العواقر مثله ولدًا»(٣).

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾.

لما جاءته البشارة بالولد تعجب واستغرب، وكأنه وقت دعائه وسؤاله إياه لم يستحضر هذا المانع؛ لشدة حرصه على الولد.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾، الاستفهام للتعجب، أي: قال متعجبًا: يا رب، كيف يكون لي غلام؟!

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، أي: عقيمًا لا تلد أصلًا من أول عمرها، مع كبرها.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٤٦٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦١- ٤٦٢ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر أوائل: «عِتِيًّا، جِثِيًّا، صِلِيًّا»، وقرأ الباقون بضمها: «عُتِيًّا، جُثِيًّا، صُلِيًّا».

أي: والحال أني قد بلغت من شدة الكبر «عتيًّا»، أي: نهاية الكبر واليبس، وفي سورة آل عمران: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله إجابة عن استفهام زكريا وتعجبه، وقيل: قال الملك: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، الخطاب لزكريا، والإشارة إلى البشارة بالولد.

﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، لم يقل: «قلت»، بل قال: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، تعظيمًا لنفسه عز وجل.

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، الضمير «هو» يعود إلى إيجاد الولد له وامرأته عاقر وهو قد بلغ غاية الكبر، أي: هو يسير سهل.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «خلقناك» بالنون والألف على لفظ الجمع، وقرأ الباقون: ﴿خَلَقْتُكَ﴾ بالتاء مضمومة من غير ألف على لفظ الإفراد.

أي: وقد أوجدتك من قبل من العدم ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولم تك شيئًا يذكر، بل كنت عدمًا؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان.

فاستدل عز وجل على قدرته على إيجاد الولد بين امرأة عاقر ورجل قد بلغ غاية الكبر، بقدرته قبل ذلك على خلق الإنسان من العدم، فمن قدر على الإيجاد من العدم أقدر على إيجاد الولد مما ذكر من باب أولى، وليس الثاني منهما بأصعب من الأول.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾.

لما بشره الله عز وجل بالولد ووعده به، طلب علامة ودليلًا على وجوده؛ زيادة لاطمئنان قلبه، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي: ليجتمع لي

مع علم اليقين عين اليقين، وليس الخبر كالعيان.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: قال زكريا لما بشره الله تعالى ووعده بالولد: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: يا رب، اجعل لي علامة على وجود ما بشرتني به، وتحققه، وحصوله.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله مجيبًا له: ﴿ءَايَتُكَ﴾، أي: علامتك على حصول ذلك: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

والمعنى: علامتك على ذلك: ألا تستطيع تكليم الناس ثلاث ليال بأيامها، أي: ثلاثة أيام بلياليها، أي: يعتقل لسانك، فلا تستطيع أن تكلم الناس إلا إشارة ورمزًا، مع قدرتك على الذكر والتسبيح؛ كما قال في آية آل عمران: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال في هذه السورة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

﴿سَوِيًّا﴾، حال من المخاطب، أي: حال كونك سويًّا صحيحًا سليمًا معافى، من غير خرس ولا بكم، ولا مرض ولا علة.

وقيل: ﴿سَوِيًّا﴾ صفة لـ ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، أي: ثلاث ليال كاملة بأيامها.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

الفاء عاطفة، و ﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ بيت أو محتجر يخصص للصلاة والعبادة، وهو المكان الذي بشر فيه بالولد؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: فأشار إليهم إشارة خفية سريعة، ورمز لهم: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، «أن» تفسيرية، أي: بأن سبحوا الله تعالى.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، البكرة: أول النهار، والعشي: آخر النهار، أي: سبحوا صباحًا

ومساءً.

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وذكره وتحميده وتهليله وتكبيره، وعبادته بأنواع العبادة.

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: ١٢- ١٥].

طوى الكلام في ذكر ولادة يحيى وشبابه وتربيته، إلى مرحلة الأمر له بقوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾، أي: خذ الكتاب بجد واجتهاد، وحزم وعزم؛ حفظًا وفهمًا وعلمًا وعملًا، والمراد بالكتاب: التوراة، أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وبها يحكم أنبياء بني إسرائيل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، أي: وأعطيناه ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾، أي: النبوة والحكمة والعلم والفهم؛ كما قال تعالى في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [يوسف: ٢٢].

﴿صَبِيّٗا﴾، أي: وهو صغير حدث.

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾، معطوف على ما قبله، أي: وآتيناه حنانًا، أي: محبة وشفقة ورحمة، ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: من عندنا لا يقدر عليها غيرنا.

والتحنن: التعطف والمحبة والشفقة والرحمة، ومنه يقال: حنت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها، وحن الرجل إلى وطنه، قال الحطيئة(١):

تحنن عليَّ هداك المليك ... فإن لكل مقام مقالا

(١) انظر: «ديوانه» ص ٧٢.

وقال طرفة بن العبد(١):

أبـا منـذر أفنيـت فاسـتبق بعضـنا حنانيك بعض الشر أهون من بعضِ

﴿وَزَكَوٰةً﴾، أي: وآتيناه زكاة، أي: طهارة معنوية وتزكية لنفسه بالأعمال الصالحة، وطهارة حسية من الأحداث والنجاسات، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

﴿وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣﴾، لربه، مجتنبًا ما نهى الله عنه من الذنوب والمعاصي.

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾، لما ذكر طاعته وتقواه لربه، أتبع ذلك بذكر بره لوالديه، وطاعته لهما، وعدم معصيتهما.

قوله: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ معطوف على ﴿تَقِيّٗا﴾، أي: وكان برًّا بوالديه، أي: محسنًا إليهما قولًا وفعلًا وبذلًا.

﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤﴾، أي: ولم يكن جبارًا متكبرًا على والديه عصيًّا لهما، بل كان متواضعًا لهما، مطيعا لهما، وعلى البر بهما.

و﴿عَصِيّٗا﴾، خبر ثان لـ«يكن»، أي: ولم يكن ذا عصيان لوالديه، بل كان بارًّا بهما، مطيعًا لهما غاية الطاعة.

فكان عليه السلام جامعًا بين طاعة الله تعالى وتقواه، وبين البر بوالديه، والتواضع لهما، وطاعتهما، ولهذا أثابه الله تعالى بقوله:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾، أي: أن له السلامة والأمان في هذه الأوقات والمواطن الثلاثة، التي هي أشد ما يكون على الإنسان:

يوم ولادته وخروجه من بطن أمه، من ذلك المكان الأمين والقرار المكين، إلى الدنيا وما فيها من المصائب والأحزان، والآلام وتسلط الشيطان.

ويوم موته، وما فيه من هول المطلع وعذاب القبر.

ويوم بعثه وما فيه من الفزع الأكبر، وأهوال يوم القيامة، وعذاب النار.

قال سفيان بن عيينة: «أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى

---

(١) انظر: «ديوان طرفة» ص ٢٠٨.

نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا، فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾»(١).

والمراد- والله أعلم- : أن له السلام والأمان في هذه الأيام وما بعدها، أي: في المراحل والدور الثلاث: مرحلة الدار الدنيا، ومرحلة دار البرزخ، ومرحلة القيامة والدار الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- بشارة الله عز وجل لزكريا عليه السلام، بغلام له اسمه: يحيى، استجابة لسؤاله ربه أن يهبه وليًّا يرث النبوة بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾.

٢- إثبات نبوة زكريا عليه السلام، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وبشارته له.

٣- فضيلة يحيى عليه السلام، وعلو منزلته عند الله، فقد خصه الله تعالى بأن سماه سبحانه بنفسه: «يحيى»، واختار له هذا الاسم الذي لم يكن له من قبل سميًّا، وفضله على كثير من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾.

٤- التفاؤل بالاسم الحسن، وأنه قد يكون لصاحبه نصيب من مسماه؛ كما قال بعضهم: «سميته يحيى ليحيا».

وفي حديث صلح الحديبية، لما أرسلت قريش سهيل بن عمرو للصلح، ورآه النبي ﷺ، قال متفائلًا: «**لقد سهل لكم من أمركم**»(٢).

٥- تعجب زكريا عليه السلام، واستبعاده أن يكون له غلام، وامرأته عاقر وقد بلغت غاية الكبر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لزكريا؛ لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ﴾.

٧- تأكيد البشارة والوعد لزكريا بولادة يحيى له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٤٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٤، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: كذلك قال ربك وقدره كونًا.

٨- بيان أن حصول مولود له وامرأته عاقر لا تحمل مع بلوغه غاية الكبر، أمر هين يسير على الله تعالى؛ لأنه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

٩- بيان قدرة الله تعالى التامة على ذلك؛ لقدرته عز وجل على ما هو أعظم منه، وهو خلق الإنسان وإيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

١٠- سؤال زكريا عليه السلام من ربه آية على ما بشره به من وجود الولد، ليطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ﴾.

١١- منح الله له آية على ذلك، وهي عدم قدرته على تكليم الناس ثلاث ليالٍ بأيامها من غير خرس ولا علة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾.

١٢- أن الآية كما تكون تمكينًا من فعل الشيء- كما في جعل عصا موسى عليه السلام تلقف إفك السحرة، وكما في إقدار عيسى بإذن الله تعالى على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ونحو ذلك- قد تكون منعًا من فعل الشيء بسلب القدرة عليه؛ كما في سلب قدرة زكريا على تكليم قومه هذه المدة، مع قدرته على الذكر والتسبيح، وهذه من أعظم الآيات.

١٣- خروج زكريا عليه السلام على قومه من محرابه ومصلاه، وإيحاؤه إليهم رمزًا وإشارة أن سبحوا بكرة وعشيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾.

١٤- مشروعية التسبيح في البكور والعشي، والغدو والآصال، والصباح والمساء.

١٥- إثبات نبوة يحيى عليه السلام، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وأمره عز وجل له بأخذ التوراة بقوة وجد واجتهاد، حفظًا وفهمًا وعلمًا وعملًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾.

١٦- منة الله تعالى على يحيى بإيتائه الحكم والحكمة والعلم والفهم صبيًّا؛ لقوله

تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

١٧- تفضله عز وجل على يحيى بإيتائه الحنان والرحمة والمحبة من عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

١٨- تزكيته عز وجل ليحيى، بتوفيقه له لتزكية نفسه بالإيمان والأعمال الصالحة، ومن الذنوب والمعاصي والأحداث والنجاسات؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً﴾.

١٩- تقواه عليه السلام لربه، واجتنابه ما نهى الله تعالى عنه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

٢٠- بره عليه السلام بوالديه، وتواضعه لهما، وطاعتهما، وعدم تكبره عليهما، وعدم معصيته لهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.

٢١- مجازاة الله تعالى، وإثابته ليحيى عليه السلام على اتصافه بأكمل الخصال وأتم الصفات، وتزكيته لنفسه، وتقواه لربه، وبره وطاعته لوالديه، بالسلام والأمان له يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

٢٢- أن من أشد المواقف وأصعبها على المرء: يوم ولادته وخروجه من المكان الأمين والقرار المكين في بطن أمه، إلى الدنيا وما فيها من المصائب والأكدار، ويوم موته وما فيه من هول المطلع وعذاب القبر والبرزخ، ويوم بعثه وما فيه من الفزع الأكبر وأهوال القيامة وعذاب النار؛ لأن الله خص هذه الأيام الثلاثة بالذكر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

ذكر عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، وكانت من الآيات العجيبة العظيمة، ثم أتبعها بما هو أعجب منها وأعظم، وهي قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، تدرجًا من الأدنى إلى الأعلى، كما قرن بين هاتين القصتين في سورة آل عمران وسورة الأنبياء؛ لما بين القصتين من التشابه والتقارب في المعنى من حيث دلالة كل منهما على تمام قدرة الله تعالى وعظمة سلطانه، وأنه لا يعجزه شيء، حيث أوجد من زكريا- مع كبره وعقم زوجته- ولدًا زكيًّا طاهرًا، وأوجد من مريم ابنها عيسى ابن مريم من غير أب، فسبحان العليم القدير!

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، أي: واذكر يا محمد ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: في القرآن العظيم، أعظم كتب الله على الإطلاق.

﴿مَرْيَمَ﴾، أي: مريم ابنة عمران عليها السلام من سلالة نبي الله داود عليه

السلام، وكانت من بيت اختاره الله واصطفاه وطهره، وقد نذرتها أمها قبل ولادتها محررة لخدمة بيت المقدس، وأعاذتها بعد ولادتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم، وتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، وكفلها عز وجل نبيه زكريا عليه السلام، وصب عليها رزقها ويسره لها؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٧].

اصطفاها الله عز وجل وطهرها على نساء العالمين، فكانت قانتة راكعة ساجدة، متبتلة دائبة على العبادة والطاعة، ملازمة لمحرابها، عفيفة محصنة لفرجها، مصدقة بكلمات ربها وكتبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢- ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، أي: تباعدت وانفردت عن أهلها، واعتزلتهم، وتنحت عنهم، ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، أي: مما يلي الشرق عنهم، شرق بيت المقدس.

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾، أي: سترًا ومانعًا، استترت به منهم وتوارت عنهم؛ لتنفرد وتتفرغ لعبادة ربها، وليتم الله ما أراد من مجيء الملك إليها منفردة.

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، أي: جبريل عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ

ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، أي: جاء إليها بصورة إنسان، في أكمل صورة، وأتم خلقة، وأحسن هيئة؛ لتتمكن من رؤيته، وتستطيع مكالمته.

﴿قَالَتْ﴾، أي: قالت مريم لما تمثل لها جبريل في صورة بشر، وهي في مكان منفرد عن أهلها بينها وبينهم حجاب:

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾، أي: أستجير بالرحمن وألتجئ وأعتصم به منك؛ لأنها خافت، وظنت أنه يريدها على نفسها.

﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، أي: إن كنت تقيًّا تخاف الله، فلا تتعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، ولهذا امتدحها الله تعالى وأثنى عليها بتحصينها فرجها وكمال عفتها، فنعتها بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء:٩١].

﴿قَالَ﴾، أي: قال جبريل لمريم عليها السلام، مطمئنًا لها، ومزيلًا ما حصل عندها من الخوف على نفسها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا رسول ربك، بعثني الله إليك، ولست بشرًا.

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب وورش بالياء بعد اللام: «ليهب»، وقرأ الباقون بالألف: ﴿لِأَهَبَ﴾، و«الهبة»: العطية، أي: لأعطيك وأمنحك.

﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، أي: طاهرًا من الذنوب والآثام.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، أي: قالت مريم متعجبة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، أي: كيف يكون لي غلام؟ فالاستفهام للتعجب.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، أي: ولم يجامعني بشر بنكاح حلال، أي: لم أكن ذات زوج.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، أي: ولم أك زانية، ولا يتصور مني ذلك.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾، أي: قال جبريل مجيبًا لاستفهام مريم وتعجبها من هبة الغلام لها وإن لم تكن ذات زوج ولا هي بغي: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ الخطاب لمريم، والإشارة إلى هبة الله لها غلامًا زكيًّا.

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، الضمير «هو» يعود إلى هبة الغلام لها، أي: هو علي يسير سهل.

وهذا كقول زكريا عليه السلام قبل هذا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: ٨]، وقوله عز وجل له: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩].

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، الواو: عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن نجعل هذا الغلام آية للناس على تمام قدرة الله تعالى في خلقه من أنثى بلا ذكر؛ كما قال تعالى:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

فخلق عز وجل آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، فسبحان الله العليم القدير!

كما أن في الآية دلالة على أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بقدر الله تعالى.

ولهذا لا يذكر عيسى في القرآن- غالبًا- إلا منسوبًا لأمه؛ للتنبيه إلى عظيم قدرة الله تعالى في خلقه من أنثى بلا ذكر، في حين أن الأنبياء يذكرون في القرآن غير منسوبين حتى ولا لآبائهم.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، معطوف على ﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، أي، ورحمة منا به وبوالدته وبالناس، بجعله نبيًّا من الأنبياء، ومن الصالحين، يدعو إلى توحيد الله تعالى، وينهى عن الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: ٤٥- ٤٦]، أي: يدعو إلى عبادة الله تعالى في مهده وكهولته.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾، أي: وكان وجود هذا الغلام من مريم بنفخ جبريل روح الله في فرجها أمرًا مقدرًا في علم الله تعالى، مكتوبًا في الأزل، كائنًا لا محالة كما قدر الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

ولهذا قال: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾، أي: فحملت بهذا الغلام بعد أن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها.

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾، أي: فتباعدت به.

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾، أي: مكانًا قاصيًا بعيدًا عن قومها؛ لئلا تراهم ولا يروها؛ لاستشعارها اتهامهم لها بالريبة، وأنهم لن يصدقوها فيما تخبرهم به.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾، الفاء هنا وفي قوله: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ للتعقيب، فالجملتان معطوفتان على قوله: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾.

قال ابن القيم: «إنما عطف بالفاء- مع أن بين مجيء المخاض والحمل مهلة- لأن المهلة التي بين حملها ومخاضها كانت مدة يسيرة، قيل: كانت يومًا، وقيل: كانت ثلاث ساعات، وعليه أكثر المفسرين، حتى يتميز حملها عن سائر النساء، ويكون ذلك كرامة لها، فعلى هذا يكون المراد بالآية بيان ذلك»(١).

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: «ليس إلا أن حملت فولدت»(٢).

وقال ابن كثير(٣): «فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر». وقال أيضًا: «فالمشهور الظاهر- والله على كل شيء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن». وهذا هو الظاهر والأقرب؛ لعدم الدليل على خلافه.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾، أي: فألجأها الطلق ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، تستند إليه وتتمسك به عند اشتداد الطلق، وهذه النخلة في المكان الذي انتبذت فيه عن أهلها،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٣٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٤٩٧، قال ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٢١٦: «وهذا غريب».

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٢١٦، ٢١٧.

يقال: في قرية يقال لها: «بيت لحم».

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾، أي: قبل هذه الحال.

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ قرأ حمزة وحفص بفتح النون: ﴿نَسْيًا﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «نِسيًا»، أي: وكنت شيئًا لا يذكر ولا يعرف.

وإنما تمنت هذا- وإن كان تمني الموت في الأصل لا يجوز- لأنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود وتتهم بالريبة، وأن الناس لن يصدقوها في خبرها، فبعد أن كانت عندهم صِدِّيقة عابدة، تصبح- فيما يظنون- بغيًّا زانية.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وحفص وروح عن يعقوب بكسر الميم والتاء: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ على أن «مِن» حرف جر.

وقرأ الباقون بفتحهما: «مَن تحتَها» على أن «مَن» موصولة، أي: فناداها الذي تحتها، أي: المولود- وهو عيسى عليه السلام- مسليًا لها، ومبشرًا وموصيًا لها، ويؤيد هذا قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩].

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾، لتحقيق أنه ناداها عند وضعه- قبل أن ترفعه- مبادرة للتسلية والبشارة والتوصية، ودلالة على تمام قدرة الله تعالى.

وهذه آية عظيمة ومعجزة أخرى في عيسى عليه السلام، فالأولى في خلقه من أم دون أب، والثانية: في كلامه بعد ولادته، فسبحان العليم القدير!

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، أي: قائلًا لها: «أن لا تحزني»، و«أن» تفسيرية، أي: بأن لا تحزني.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، تعليل لقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾، أي: لأن ربك قد جعل تحتك سريًا، أي: قد جعل تحتك نهرًا وجدول ماء لتشربي منه.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، أي: حركيه؛ لتتحرك بذلك النخلة وتهتز.

قال الشاعر:

ألم تـــر أن الله قـــال لمـــريمٍ: وهـزي إليـك الجـذع يسّـاقط الرطـبْ

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سببْ(١)

﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾، قرأ حمزة بفتح التاء والقاف وتخفيف السين: «تَساقَط»، وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين: ﴿تُسَٰقِطۡ﴾.

وقرأ يعقوب بالياء على التذكير وفتحها، وتشديد السين، وفتح القاف: «يَسَّاقَط»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث، وتشديد السين، وفتح القاف: «تَسَّاقَط».

﴿رُطَبٗا﴾، الرطب: التمر الذي لم يتم جفافه.

﴿جَنِيّٗا﴾، طريًا، أي: تمرًا طريًّا لذيذًا نافعًا.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي﴾، أي: فكلي من هذا الرطب، واشربي من هذا الجدول والنهر.

﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾، طيبي نفسًا، واهنئي عيشًا وسرورًا، وهذا تسلية وبشارة لها فيما يتعلق بنفسها وحالها خاصة، وأما ما يتعلق بقومها فأوصاها بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ﴾، أي: فقولي لهم بالإشارة فقط؛ لقوله بعده: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، «النذر»: إلزام الإنسان نفسه فعل شيء لله، أو قوله، مما هو في الأصل ليس واجبًا عليه.

﴿صَوۡمٗا﴾، أي: صمتًا وسكوتًا عن الكلام، وكان السكوت عندهم مما يتعبد به شرعًا.

﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾، بيان وتأكيد لما قبله، و ﴿إِنسِيّٗا﴾، نكرة في سياق النفي، أي: فلن أكلم اليوم أيَّ إنسان.

وإنما أمرها الله عز وجل بهذا لتستريح من قالة الناس وكلامهم؛ لأنها لو خاطبتهم بنفي ما سيتهمونها به فلن يصدقوها، فلا فائدة في ذلك.

وفيه طمأنة لها بأن الله سيتولى أمرها، وسيسخر لها من يقوم بحجتها ويثبت براءتها، بمعجزة تقابل معجزة حملها بدون زوج، وهو كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، وذلك أعظم شاهد على صدقها وبراءتها.

---

(١) البيتان نسبا للبندنيجي في «الدر الفريد» ٤/ ١٦٠، وهما بلا نسبة في «ثمار القلوب» ص٥٩٠، و«ربيع الأبرار» ٣/ ٤٦٢.

وإذا لم يكن في الكلام فائدة متحققة فالصمت أسلم وأحكم؛ ولهذا قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(١)، وقال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٢).

وقد قيل: «لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب».

وقال الشاعر:

ولئن ندمتَ على سكوتك مرة ... فلتندمن على الكلام مرارًا(٣)

ويتأكد هذا أو يجب إذا كان الكلام قد يجر إلى ما لا تحمد عقباه، من مجاراة أهل السفه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال الشاعر:

اترك محاورة السفيه فإنها ... ندم وغب بعد ذاك وخيمُ(٤)

وقال الشافعي(٥):

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوتُ

وقال أيضًا(٦):

يكلمني السفيه بكل قبح ... وأكره أن أكون له مجيبَا

يزيد حماقة وأزيد حلمًا ... كعود زاده الإحراق طيبا

الفوائد والأحكام:

١- ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، والتذكير بما فيها من العبر والعظات والدلالة على تمام قدرة الله تعالى، وعظيم نعمته عليهما، والتنويه بفضل مريم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٨، ومسلم في الإيمان ٤٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٧، وابن ماجه في الزهد ٣٩٧٦، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٥٤٢.

(٤) البيت لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» ص٤٠٣.

(٥) انظر: «ديوانه» ص٥١.

(٦) انظر: «ديوانه» ص٤٥- ٤٦.

وابنها عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] الآيات.

٢- تباعد مريم عليها السلام عن أهلها وانفرادها عنهم، واتخاذها من دونهم حجابًا؛ لتتفرغ لعبادة الله تعالى؛ وليتم ما أراد من مجيء الملك إليها منفردة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾.

٣- إرسال جبريل عليه السلام إليها وتمثله لها بشرًا تام الخلق؛ لتتحمل رؤيته وتفهم كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

٤- قدرة الله تعالى في جعل الملك قد يتمثل بصورة بشر، أو ما شاء الله؛ بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

٥- عدم قدرة البشر على رؤية الملائكة على صفتهم التي خلقوا عليها.

٦- مخافة مريم عليها السلام، وظنها أنه يريدها على نفسها، واستعاذتها بالرحمن منه، وتخويفها إياه بالله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

٧- إثبات اسم الله «الرحمن»، وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة له: الذاتية والفعلية، العامة والخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

٨- طمأنته عليه السلام لها بأنه ليس بشرًا، وإنما هو رسول ربها ليهب لها غلامًا زكيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

٩- تعجبها عليها السلام من أن يكون لها غلام، وهي ليست ذات زوج، ولا يتصور منها الفجور؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- بيان جبريل لمريم عليهما السلام، بأن ما أخبرها به من هبة الغلام لها هو ما قال ربها: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١] لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾.

١١- أن في خلق عيسى ابن مريم من أم بلا أب آية من أعظم آيات الله تعالى ودلائل تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

١٢- أن في خلق عيسى من أم بلا أب وتزكيته وتشريفه بالنبوة والرسالة رحمة منه عز وجل له، ولوالدته، وللناس الذين بعثه الله فيهم يدعوهم إلى توحيد الله لا شريك له.

١٣- أن إيجاد عيسى من مريم بنفخ جبريل «روح الله» في فرجها أمر قد قضاه وقدره في الأزل، وكتبه في اللوح المحفوظ.

١٤- حملها عليها السلام به بعد النفخ فيها من روح الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾.

١٥- ابتعادها بعد أن حملت مكانًا قاصيًا عن أهلها؛ لئلا تراهم ولا يروها؛ لاستشعارها باتهامهم لها، وأنهم لن يصدقوها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

١٦- إلجاء المخاض والطلق وآلام الولادة لها إلى جذع النخلة؛ لتستند إليه؛ لتتمسك به عند شدة الطلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾.

١٧- تمنيها أنها ماتت قبل هذه الحال وكانت شيئًا لا يذكر؛ لعلمها أنها ستؤذى بسبب هذا الولد وتتهم بالريبة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

١٨- جواز تمني الموت عند خوف الفتنة في الدين.

١٩- المعجزة الباهرة، والآية الظاهرة، والنعمة العظيمة على عيسى وأمه، في تمكين الله عز وجل له من الكلام بعد ولادته؛ لتسلية أمه وبشارتها وتوصيتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ الآية.

٢٠- تسلية عيسى لأمه عليهما السلام، وبشارته وتهنئته لها بما من الله به عليها من المشرب والمأكل؛ لقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لمريم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكِ﴾.

٢٢- لا بد من بذل السبب في طلب الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾مع أنه عز وجل قادر على إسقاط الرطب عليها من النخلة دون هزها.

٢٣- قدرة الله تعالى في تيسيره رزق مريم، بإجراء النهر تحتها، وتمكينها من هز النخلة، وإسقاطها عليها رطبًا جنيًّا.

٢٤- تعليمه وتوصيته عليه السلام لأمه كيف تصنع لتسلم من قالة الناس؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

٢٥- أنه كان في شريعتهم جواز النذر على الصمت، وكان ذلك مما يتعبد به في ملتهم، أما في شريعتنا فلا يجوز ذلك، وليس مما يتعبد لله به.

٢٦- أن الصمت حكمة وفيه سلامة، ما لم يكن عن قول الحق والخير فلا ينبغي حينئذٍ الصمت.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧- ٣٣]:

قوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، أي: فأتت بوليدها قومها بعد أن تعالّت من نفاسها، ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾، أي: حال كونها تحمله، واثقة بأن الله سيكفيها أمرها ويبرئها.

﴿قَالُوا۟﴾ لما رأوا الولد معها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد جئت ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أي: أمرًا عظيمًا مفترى، ومنكرًا فظيعًا، يريدون بذلك: الزنا، أخزاهم الله، وحاشاها من ذلك.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، ليس المراد بـ«هارون» هذا: أخا موسى عليهما السلام كما قيل؛ لأن بين هارون أخي موسى وبين عيسى زمنًا طويلًا، وإنما هو ممن سموا باسم هارون عليه السلام؛ لأن الناس كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم؛ كما في حديث المغيرة بن

شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟! قال: فرجعت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**ألا أخبرهم أنهم كانوا يتَسمَّوْن بالأنبياء والصالحين قبلهم**»(١).

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾، أي: ما كان أبوك رجل سوء يرتكب الفواحش.

﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾، أي: وما كانت أمك زانية.

أي: إنك من بيت طاهر، ومن أبوين عفيفين، فكيف صدر منك هذا، وخالفتِ سيرتهما؟! حاشاها من ذلك.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾، أي: لما استرابوا في أمرها ورموها بالفرية، واتهموها، وكانت قد نذرت يومها صومًا وصمتًا عن الكلام أشارت إليه، أي: أن كلموه يجبكم عني؛ لثقتها بأن الذي أنطقه بندائه لها بعد وضعه وهو تحتها بقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ سينطقه ببيان الحق والذب عن عرضها.

﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾، أي: قال قومها: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، و«المهد» فراش الصبي وما يمهد لوضعه.

أي: أنكروا أن تحيلهم على مكالمة من كان في المهد صبيًّا صغيرًا، أي: كيف نلقي عليه السؤال؟ وكيف نترقب منه الجواب؟

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، بهذا قطع حجة قومه في قولهم: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ وأسكتهم، وكما يقال: قطعت جهيزة قول كل خطيب، وليس الخبر كالعيان.

وقد صدر كلامه بوصف نفسه بالعبودية لله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، وهي

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب، النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء ٢١٣٥، والترمذي في تفسير سورة مريم ٣١٥٥، وأحمد ٤/ ٢٥٢.

أعظم ما يوصف به البشر.

وفي هذا رد على من غلا فيه من النصارى بقولهم: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: قضى أن يؤتيني الكتاب؛ يعني: الإنجيل.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾، أي: قضى أن يجعلني نبيًّا بوحيه إليَّ وإنزاله الكتاب عليَّ.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾، «البركة» كثرة الخير والنفع واليمن، أي: وجعلني كثير الخير والنفع، معلمًا للخير، وداعيًا إلى توحيد الله تعالى ناهيًا عن الشرك، أحل الله على يدي لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم، وبارك على تلك البقاع وأهلها بسببي.

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾، أي: في أي مكان وزمان كنت.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون سببًا وعاملًا للخير أينما حل وارتحل.

﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، «الوصية»: الأمر المؤكد، أي: أمرني أمرًا مؤكدًا بإقامة الصلاة وأدائها فرضها ونفلها، وابتدأ بها لأنها أعظم حقوق الله تعالى بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية.

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾، أي: وأوصاني وأمرني بإيتاء الزكاة وإعطائها لمستحقيها، الواجب منها والمستحب. وثنى بالوصية بها؛ لأنها أعظم الحقوق بعد الصلاة، وأعظم العبادات المالية.

﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، أي: مدة حياتي، وهذا كقوله تعالى لنبينا ﷺ:

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَبَرّٗا بِوَٰلِدَتِي﴾، الواو عاطفة، أي: وجعلني برًّا بوالدتي، أي: مطيعًا لها، محسنًا إليها، متواضعًا ذليلًا لها، مترحمًا عليها.

وذكر طاعته لوالدته بعد ذكر طاعته لله تعالى؛ لأن الله كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته عز وجل والإحسان إلى الوالدين؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: ١٤].

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾، أي: ولم يجعلني جبارًا غليظًا مستكبرًا عن عبادته عز وجل وطاعته، وعن بر والدتي وطاعتها، فأشقى بسبب ذلك.

قال بعض أهل العلم: لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا، ثم قرأ هذه الآية(١).

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾، أي: والسلام عليَّ من الله، كما في قوله تعالى في حق يحيى بن زكريا: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

فقول عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ الآية: تنويه بكرامته، أجراه الله عز وجل على لسانه؛ ليعلموا أنه محل العناية والحفظ والسلامة من ربه.

وقوله هنا: ﴿وَالسَّلَامُ﴾ معرفًا بـ«ال» الدالة على الجنس، حتى كأن جنس السلام بأجمعه عليه.

وفي هذا دلالة على تفضيله على يحيى بن زكريا؛ لأن الله قال في شأن يحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم:١٥] بالتنكير، ولا شك أن عيسى أفضل من يحيى عليهما السلام؛ لأن عيسى أحد أولي العزم من الرسل، الذين هم أفضل الرسل على الإطلاق.

وفي هذا أعظم الرد على اليهود في قولهم- أخزاهم الله- : ولد من زنى، ومات مصلوبًا، ويحشر مع الكفرة؛ لزعمهم أنه كفر بالتوراة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب اللام: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «قولُ الحق»، ويشهد لهذا قوله: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٦٠].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٣٣، عن عبدالله بن واقد أبي رجاء عن بعض أهل العلم.

أي: ذلك الذي قصصناه عليك وأخبرناك خبره هو عيسى ابن مريم عليه السلام، أرسل الله جبريل عليه السلام إلى أمه مريم، فنفخ فيها من روحه، فحملت به وولدته، وهو عبدالله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا، إلى آخر ما جاء في قصته.

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾، أي: هو قول الحق والخبر الصدق، فهو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله وحده لا شريك له، وأنه محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»(١).

﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: الذي فيه يشكون، أي: الذي فيه يشك المبطلون من أهل الكتاب، فاليهود المغضوب عليهم ينكرون نبوته ورسالته، بل ويتهمون أمه بالزنا، ويزعمون أنه ولد زنا، عليهم من الله ما يستحقون.

والضالون من النصارى- أخزاهم الله- غلوا فيه، ورفعوه إلى مقام الإلهية، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾، بعدما بين أن قول الحق في عيسى عليه السلام؛ أنه عبدالله ونبيه، نزه عز وجل نفسه عن الولد ردًّا على غلاة النصارى.

و«من» في قوله ﴿مِن وَلَدٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للنفي، أي: ما كان لله أن يتخذ أيَّ ولد سبحانه؛ لكمال غناه عن خلقه.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾، أي: تنزيهًا له عز وجل عن الولد وعن جميع النقائص والعيوب،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ ٣٤٣٥، ومسلم في الإيمان، من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنة وحرم على النار، وأحمد ٥/ ٣١٣، ٣١٤.

وعن مماثلة المخلوقين في حاجتهم إلى الولد وغير ذلك.

وفي هذا رد على النصارى في قولهم الباطل: المسيح ابن الله، كما أن فيه ردًّا على اليهود في قولهم: عزيز ابن الله، تعالى الله عن قولهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، أي: إذا أراد شيئًا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟! قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٩- ٦٠].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر وروح بكسر الهمزة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: «وأن الله».

بعدما بين غنى الله عز وجل عن الولد، وكمال قدرته، وتمام تصرفه، بيَّن أن الله عز وجل هو ربه وربهم، وخالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وفي هذا إثبات لتوحيد الربوبية، واستدلال به على إثبات توحيد الإلهية؛ لقوله بعده: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، أي: فاعبدوه وحده لا شريك له.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الهدى الذي جئتكم به وأمرتكم بالأخذ به؛ من الإقرار بربوبية الله تعالى وإلهيته وعبادته وحده ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: طريق عدل قويم، موصل إلى مرضاة الله تعالى والسعادة في الدنيا والآخرة، وإلى جنته؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، أي: فاختلفت فرق الضلال من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم في عيسى عليه السلام، بين غالٍ وجافٍ، بعد بيان الحق فيه، وأنه عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فغلا فيه طوائف من النصارى، فمنهم من قال: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك.

وجفا في حقه اليهود، فكذبوه وأنكروا رسالته، وادعوا أن كلامه سحر، واتهموا أمه- أخزاهم ولعنهم- بالفاحشة، وأنه ولد زنا.

وآمن به بعض النصارى والمسلمون، وقالوا: هو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، الفاء: عاطفة، و«ويل»: كلمة وعيد وتهديد بالهلاك والعذاب.

﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: من شهود يوم عظيم، وهو يوم القيامة الذي يشهده الأولون والآخرون، وأهل السموات وأهل الأرض، والخالق والمخلوق، والذي فيه الفضائح والأهوال، والجزاء على الأعمال.

وقوله ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ولم يقل: «لهم»؛ للتسجيل على أولئك الأحزاب بالكفر، وليعم هذا الوعيد كل من كفر، ولأن من بينهم من آمن بأن عيسى عليه السلام عبدالله ورسوله.

فتوعد عز وجل بالعذاب الشديد كل من كفر من جميع هذه الأحزاب من أهل الكتاب وغيرهم، ممن كذبوا رسله أو غلوا فيهم، وافتروا على الله وزعموا أن له ولدًا، ولم يعاجلهم بالعقوبة؛ لأنه عز وجل يمهل ولا يهمل، كما قال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله** ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، الصبر على الأذى ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة، لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ٢٨٠٤، وأحمد ٤/ ٤٠٥.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، صفتا تعجب، أي: ما أشد سمع هؤلاء الكفار وبصرهم! ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، يوم القيامة، أي: أنهم أسمع شيء وأبصره في ذلك، بعد فوات الأوان ومعاينة العذاب، فيقرون بكفرهم وشركهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾بالشرك والكفر والمعاصي، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: في الدنيا، ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في ضلال وتيه وبعد عن الحق بيِّن واضح، لا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يعقلون، ولا يهتدون إلى الحق.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾، أي: وأنذر الكفار ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، أي: يوم القيامة، يوم الندامة الشديدة، والتلهف على التفريط في جنب الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٥٦- ٦٠].

﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: تم أمر الله عز وجل بحشر المتقين إلى الرحمن وفدًا، وسوق المجرمين إلى جهنم وردًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥- ٨٦].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل ترون هذا؟ قال: فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هو الموت. قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ**

﴿ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، وأشار بيده»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم، فيقول: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت، كل خالد بما هو فيه**»(٢).

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، الجملتان في محل نصب على الحال، أي: وهم اليوم في غفلة في الدنيا عما أنذروا به، وهم لا يصدقون به.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾، أي: نرث الأرض وجميع الذي عليها من المخلوقات، بحيث يفنى ويهلك جميع الخلق، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، ويبقى الله تعالى وتقدس؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦- ٢٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾، أي: وإلينا وحدنا يرجع ويرد جميع الخلائق، فنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١].

الفوائد والأحكام:

١- مجيء مريم بولدها إلى قومها تحمله، واثقة بأن الله سيكفيها أمرها ويبرئها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾.

٢- مبادرة قومها إلى اتهامها بالفاحشة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٠، ومسلم في صفة الجنة، النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٩، وأحمد ٣/ ٩.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ٦٥٤٤، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٥٠.

٣- أن لما عليه الوالدان من سلوك وأخلاق أثرًا في أخلاق أولادهما غالبًا.

٤- أن الزنا أمر منكر عظيم، وكبيرة من كبائر الذنوب.

٥- عفة والدي مريم وصلاحهما وديانتهما وطهارتهما.

٦- لزوم مريم الصمت، واكتفاؤها بالإشارة إلى وليدها في ردها لاتهام قومها لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، أي: كلموه يجبكم عني؛ لثقتها بأن الذي أنطقه بندائه لها من تحتها بتسليتها وبشارتها وتوصيتها بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ الآية، سينطقه ببيان الحق، والذب عن عرضها.

٧- إنكار قومها وتعجبهم من إحالتها إياهم لتكليم من كان في المهد صبيًّا صغيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾.

٨- مبادرة عيسى عليه السلام في الإجابة عن أمه، والرد على اتهام قومها لها ببيان أنه عبدالله، أعطاه الله الكتاب وجعله نبيًّا ومباركًا، وبيان ما أوصاه الله تعالى به وما وعده ومنَّ عليه به من السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

٩- إن أشرف ما يوصف به البشر هو العبودية لله تعالى؛ ولهذا ابتدأ عيسى عليه السلام بوصف نفسه بذلك فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

١٠- الرد على الذين يغلون في عيسى ويرفعونه إلى مقام الإلهية، فيقولون: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

١١- إثبات نبوة عيسى عليه السلام وإيتائه الإنجيل؛ لقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾، وفي هذا الرد على اليهود المنكرين رسالته وغيرهم؛ قال ابن تيمية: «فيها الرد على الغلاة في المسيح، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه»(١).

١٢- مباركة الله تعالى على عيسى حيثما كان، بكونه معلمًا للخير وداعيًا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، أحل الله على لسانه لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم، وكان سبب البركة في تلك البقاع؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٨.

١٣- التفاؤل بأهل الخير؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

١٤- وصية الله تعالى له بالصلاة والزكاة طيلة عمره؛ لقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

١٥- ينبغي ملازمة عبادة الله تعالى بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وغيرها، حتى يلقى الإنسان ربه؛ كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

١٦- توفيق الله تعالى لعيسى بجعله برًّا بوالدته محسنًا إليها، مطيعًا لها، غير جبار، ولا مستكبر عن عبادة ربه وطاعته، ولا عن بر والدته وطاعتها، فيشقى بسبب ذلك؛ لقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

١٧- عظم مكانة الصلاة والزكاة وبر الوالدين؛ لأن الله أوصى بها عيسى عليها السلام، وخصها من بين العبادات.

١٨- فضيلة عيسى عليه السلام وكرامته عند الله، ومجازاة الله تعالى له بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا، أي: في دار الدنيا، ودار البرزخ، والدار الآخرة؛ لقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

وفي هذا رد على اليهود في قولهم الباطل في حقه عليه السلام.

١٩- أن ما قصه الله تعالى وأخبر به في هذه الآيات عن عيسى ابن مريم عليه السلام، هو قول الحق، والخبر الصدق، فهو عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾.

٢٠- تشكيك أهل الكتاب في عيسى عليه السلام، فمنهم من غلا فيه وهم النصارى، ومنهم من جفا في حقه، وهم اليهود كذبوه وأنكروا رسالته.

وقول الحق فيه هو ما ذكره الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

٢١- تنزيه الله عز وجل عن الولد، وأنه ما ينبغي له أن يتخذ ولدًا سبحانه؛ لكمال غناه، وعدم حاجته إلى الولد، ولا إلى أحد من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾.

٢٢- الرد على من نسب الولد إلى الله؛ كقول النصارى: المسيح ابن الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، وقول المشركين: الملائكة بنات الله، وإبطال ذلك، وتنزيه الله تعالى عن ذلك، وعن كل نقص، وعن مماثلة المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

٢٣- كمال غناه عز وجل، وكمال قدرته، وأنه إذا أراد أمرًا إنما يقول له: كن فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

٢٤- إثبات عيسى عليه السلام ربوبية الله تعالى له وللناس، ووجوب عبادته عز وجل وحده، استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

وفي هذا الرد على من غلا فيه من النصارى فرفعه إلى مقام الإلهية.

٢٥- أن ما جاء به عيسى قومه؛ من وجوب الاعتراف بربوبية الله تعالى وإلهيته، وعبادته وحده لا شريك له؛ هو الصراط المستقيم، المؤدي للسعادة في الدارين؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

٢٦- اختلاف الأحزاب من أهل الكتاب في عيسى عليه السلام، فمنهم من غلا فيه، وهم أكثر النصارى، فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا.

ومنهم من كذبه وجحد رسالته وهم اليهود، بل ذهبوا- عليهم من الله ما يستحقون- إلى اتهامه بأنه ولد زنا، أخزاهم الله وقبحهم.

ومن النصارى من آمن بأنه عبد الله ورسوله، كما آمن بذلك المسلمون.

٢٧- الوعيد والتهديد للذين كفروا بما جاء به عيسى وغيره من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام؛ من مشهد يوم القيامة العظيم، وما فيه من الأهوال والأغلال والنكال؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٢٨- ما أشدَّ سمع الكفار وبصرهم عند قدومهم على الله تعالى يوم القيامة، حين لا ينفعهم ذلك، وقد كانوا في الدنيا صمًّا عن سماع الحق، وعميًا عن إبصاره؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

٢٩- إثبات يوم القيامة، والرد إلى الله تعالى ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

٣٠- ضلال الظالمين بالكفر والشرك البيِّن في الدنيا عن سماع الحق وإبصاره، وعن الاستعداد لمشهد يوم القيامة العظيم وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾.

٣١- إنذار الكفار وتحذيرهم يوم الحسرة يوم القيامة، حين يقضي الله بين العباد، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

٣٢- كثرة الحسرات وشدة الندامات يوم القيامة؛ لهذا سمي: يوم الحسرة.

٣٣- غفلة الكفار عن يوم الحسرة والقضاء فيه بين العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير، وما أنذروا فيه، وعدم إيمانهم، وكفرهم وجحودهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾.

٣٤- أن لله ميراث السموات والأرض ومن عليها، ومرد الخلق كلهم إليه، وحسابهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: واذكر يا محمد، ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: في القرآن الكريم، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: قصة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾، الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: قد بلغ الغاية في الصدق في أقواله وأفعاله وأحواله، وغاية التصديق بالحق، ﴿نَّبِيًّا﴾ خبر ثانٍ لـ«كان»، أي: أكرمه الله واصطفاه بالنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾، أي: حين قال لأبيه «آزر»: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، أي: يا أبي، وابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه.

﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ «لم» حرف جر واستفهام، أي: لماذا تعبد؟ فأخرج الكلام معه مخرج السؤال، ولم يقل: لا تعبد؛ احترامًا له، ورفقًا به، وتلطفًا معه.

﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي لا يسمع صوتًا، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ مرئيًّا.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، «شيئًا» نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا يغني عنك أي شيء، أي: لا يجلب لك نفعًا، ولا يدفع عنك ضررًا؛ لأنها أحجار وجمادات لا تنفع

ولا تضر، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها، نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، كرر النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ هنا وفيما بعده للتأكيد، ولاستعطاف أبيه واستنزاله لقبول الموعظة، لأنها مقام إطناب.

و«ما» موصولة، أي: قد جاءني من العلم الذي لم يأتك، ولم يقل: أنا عالم وأنت جاهل لا علم عندك، أو ليس عندك من العلم شيء، وإنما أتى بألطف عبارة، فقال: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، فكأنه قال: أنت عندك علم لكن جاءني من العلم ما لم يأتك.

﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ﴾، أي: أدلك وأرشدك.

﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، أي: طريقًا عدلًا مستقيمًا، لا عوج فيه، موصلًا إلى السعادة في الدارين، ونيل المطلوب، والنجاة من المرهوب. وهذا كما قال موسى لفرعون: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النازعات: ١٩].

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾، بطاعتك له وعبادتك الأصنام؛ لأن كل من عبد غير الله فقد عبد الشيطان؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧- ١١٨]، وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس: ٦٠- ٦١].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾، تعليل للنهي عن عبادته، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: إنه؛ لزيادة التنفير من الشيطان.

و﴿عَصِيّٗا﴾، صيغة مبالغة، أي: عظيم العصيان، مستكبرًا عن طاعة ربه.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ﴾، أي: يصيبك ﴿عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، بسبب كفرك وشركك، وعصيانك لما آمرك به وأرشدك إليه.

ومن تلطفه مع أبيه أنه نسب الخوف لنفسه، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، وذكر لفظ «المس» الذي هو ألطف من غيره، ونكَّر «عذاب» وذكر «الرحمن» ولم يقل: الجبار ولا القهار.

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾، أي: قرينًا متابعًا له فيما هو عليه من الكفر والعصيان، ومصاحبًا له في النار؛ كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل: ٦٣].

وقد تدرج عليه السلام في دعوة أبيه من الأسهل إلى ما فوقه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال أبو إبراهيم: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجب، أي: كيف ترغب عن آلهتي؟ والرغبة عن الشيء: تركه والعدول عنه، أي: أراغب أنت عن عبادة آلهتي يا إبراهيم وتاركها وعادل عنها؟

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾، اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته عن سب آلهتي وشتمها وذكرها بالسوء.

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، اللام واقعة في جواب القسم. و«الرجم» يكون بالقول؛ كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، كما يكون بالفعل بالرمي بالحجارة وغيرها.

والمراد بالرجم في الآية: الرجم بالقول، أي: لأرجمنك بسيئ القول والسب والشتم اقتصاصًا منك، وانتصارًا لآلهتي، ويدل عليه قوله بعده:

﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، الهجر بمعنى: الترك، ﴿مَلِيًّا﴾، منصوب على الظرفية، أي: اهجرني واتركني زمنًا طويلًا لا تكلمني.

ويحتمل أن يكون ﴿مَلِيًّا﴾ حالًا من فاعل ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾، أي: اهجرني واتركني حال كونك ﴿مَلِيًّا﴾، أي: سويًّا سالمًا من عقوبتي إياك، أي: اهجرني وعرضك وافر، وجسمك معافى من أذاي.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ يقول: اجتنبني سويًّا»(١).

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾، لما أيس عليه السلام من استجابة أبيه له، بعد أن قابله أبوه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٥٤.

بالوعيد والتهديد له، قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾، أي: مسالمة لك يا أبي، فلست فيما دعوتك إليه إلا ناصحًا لك، ولن ينالك مني مكروه ولا أذى لما لم تستجب لي، وهذا منهج الرسل عليهم السلام وأتباعهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص: ٥٥].

﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾، السين الأولى للاستقبال، والثانية للطلب، أي: سأستغفر لك في المستقبل، أي: أطلب لك المغفرة من ربي، أي: أسأله أن يهديك فيغفر ذنبك ويستره ويتجاوز عنك؛ كما في قوله عليه السلام: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾، تعليل لقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾، أي: لأنه كان بي حفيًّا، أي: ذا احتفاء وعناية بي ولطفًا ورأفة، يجيبني إذا دعوته.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾، الخطاب لأبيه وقومه المشركين، ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، «ما» موصولة، أي: والذي تعبدون من الأصنام والأوثان من دون الله، أي: أبتعد عنكم وأجتنبكم وآلهتكم التي تعبدونها غير الله، وأتبرأ منكم.

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾، أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، وأسأله من فضله.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾، «عسى» هنا تفيد ثقته عليه السلام بأنه لن يشقى بدعائه ربه، بل سيجيب الله دعاءه، ويسعد بذلك، وفي هذا تعريض بالمشركين ودعائهم لآلهتهم، وأن ذلك سبب شقائهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: فلما اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، وابتعد عنهم وفارقهم والذي يعبدونه من دون الله من الأصنام، حفاظًا على دينه، واعتزازًا به.

﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾، أي: آتيناه ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن

إسحاق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾، أي: وكلًّا من إسحاق وابنه يعقوب جعلنا نبيًّا.

فلما اعتزل عليه السلام أباه وقومه المشركين- في الله ولله- أبدله الله خيرًا منهم، فوهبه ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، وجعل كلًّا منهما نبيًّا في حياة إبراهيم عليه السلام، فأقر الله بهما عينه في حياته، ولم يذكر يوسف بن يعقوب؛ لأنه ولد بعد موت إبراهيم، كما لم يذكر من جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل؛ لأنهم جاؤوا بعد ذلك.

وليست مفارقة الأهل والوطن والعشيرة بالأمر السهل، بل هي أشق الأشياء على النفوس، لكن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾، أي: ووهبنا لإبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب وعقبهم من رحمتنا بكثرة الأنبياء والصالحين فيهم، وسعة الرزق، وحيازة الأرض المقدسة.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾، أي: ذكرًا حسنًا، وثناء عطرًا باقيًا في الناس، يدعون لهم، ويصلون ويسلمون عليهم.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر خبر إبراهيم خليل الرحمن، وإثبات صديقيته ونبوته، والتذكير بقصته مع أبيه؛ وما في ذلك من الدلالة على فضيلة إبراهيم، وعظيم نعمة الله تعالى عليه، وما فيه من الدروس والعظات والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢﴾ الآيات.

٢- توقيره عليه السلام لأبيه، واحترامه له بندائه له باسم الأبوة: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، فلم يناده باسمه، وتكراره هذا النداء أربع مرات تأكيدًا لاحترامه له، واستعطافًا واستنزالًا له لقبول الموعظة.

٣- إنكاره عليه السلام على أبيه عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني

عن عابدها شيئًا؛ لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

٤- بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تملك جلب نفع، ولا دفع ضر، وهكذا كل ما عبد من دون الله، فلا يستحق العبادة إلا من كان سميعًا بصيرًا، بيده جلب النفع ودفع الضر، وهو الله عز وجل وحده.

٥- تلطفه عليه السلام مع أبيه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾، فلم يقل: إني عالم وأنت لا تعلم، أو أنت جاهل، ونحو ذلك.

٦- حرصه عليه السلام على تخليص أبيه من الشرك، وهدايته إلى الصراط المستقيم.

٧- أن الوالدين والأقربين أولى بالإنذار والدعوة والنصح، وأولى بالمعروف؛ كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

٨- أن من عبد غير الله، أو أشرك مع الله غيره؛ فهو عابد للشيطان؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

٩- التحذير من عبادة الشيطان وطاعته؛ لشدة عصيانه لربه، ومخالفته لأمره؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾.

١١- شدة شفقته عليه السلام، وخوفه أن يمس أباه عذاب من الرحمن فيكون قرينًا للشيطان، ومصاحبًا له في النار؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

١٢- أن مقام الدعوة والموعظة مقام يحتاج إلى الإطناب والبسط والتدرج من الأسهل إلى ما فوقه.

١٣- إنكار أبيه عليه رغبته عن عبادة الأصنام، وتهديده له لئن لم ينته عن سبها وشتمها برجمه بسيئ القول، وتوعده إياه بالعقوبة، ونهيه له عن تكليمه زمنًا طويلًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾﴾.

١٤- مسالمة إبراهيم لأبيه لمّا لم يستجب له، وعدم تأنيبه له أو سبه أو شتمه؛ لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ﴾.

١٥- موعدة إبراهيم لأبيه استغفار ربه له، بطلب الهداية له والمغفرة؛ لقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، وقد استغفر عليه السلام لأبيه وفاءً بوعده له، لكنه لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّيٓ﴾.

١٧- عناية الله عز وجل بإبراهيم، ورأفته به، ولطفه واحتفاؤه به؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾﴾.

١٨- عزمه عليه السلام على اعتزال أبيه وقومه وما يعبدون من دون الله من الأصنام، وابتعاده عنهم؛ لقوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

١٩- إفراده عليه السلام ربه بالدعاء والعبادة والمسألة؛ لقوله: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾.

٢٠- ثقته عليه السلام باستجابة ربه لدعائه وعبادته، وأنه سيسعد بسبب دعائه ربه ولن يشقى؛ لقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾، وفي هذا تعريض بشقاء المشركين بدعائهم آلهتهم من دون الله.

٢١- هبة الله تعالى له وإبداله لما اعتزل أباه وقومه المشركين وآلهتهم- في الله ولله- خيرًا منهم: ابنيه إسحاق ويعقوب، وجعلهما نبيين، وهبة الله له ولذريته من رحمته النبوة وسعة الرزق والخير والذكر الحسن والثناء الجميل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾.

٢٢- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

٢٣- ينبغي اعتزال أهل الشرك والكفر والمعاصي والبعد عنهم، حفاظًا على الدين واعتزازًا به.

٢٤- إثبات نبوة إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

٢٥- أن الذكر الحسن للإنسان في حياته وبعد مماته من نعم الله عز وجل على العبد، فهو عاجل بشرى المؤمن في حياته، وينال به العبد في حياته وبعد مماته دعاء الصالحين، واستغفارهم له، وسلامهم عليه، وترضيهم عنه وغير ذلك، فطوبى لمن نقى سريرته، وأحسن في هذه الحياة سيرته، وخلف له ذكرًا حسنًا.

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى[1]

* * *

(١) البيت لابن دريد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٤، وانظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾:

لما ذكر عز وجل إبراهيم الخليل عليه السلام وأثنى عليه، أتبع ذلك بذكر الكليم موسى عليه السلام وأثنى عليه؛ لأنه وجميع أنبياء بني إسرائيل من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ولأن موسى يأتي في الفضل بعد إبراهيم عليهما السلام بين أولي العزم من الرسل، فأولهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى عليهما السلام.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾، أي: واذكر يا محمد في القرآن الكريم خبر موسى الكليم وقصته، وعظيم نعمة الله تعالى عليه، وفضيلته عليه السلام، وما في ذلك من العظات والعبر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿مُخۡلَصٗا﴾ بفتح اللام، أي: مصطفًى مختارًا، أخلصه الله واختاره واصطفاه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقرأ الباقون: «مخلِصًا» بكسر اللام، أي: مخلِصًا لله تعالى العبادة، لا يبتغي بعمله سوى وجه الله ومرضاته والدار الآخرة.

وهذان المعنيان متلازمان؛ فإن الله أخلصه؛ لإخلاصه، كما أن إخلاصه موجب لاستخلاصه.

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾، أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فنبأه بوحيه عز وجل إليه، وأرسله بأمره له بتبليغ الناس ما أوحى الله به إليه.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، أي: جبل الطور، جبل بين الشام ومصر، ويقال له: «طور سيناء»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

والمعنى: كلمناه من جانب الطور؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾، أي: من جانب الجبل الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن، أي: الأبرك؛ من اليمن والبركة، كما في قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨].

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، أي: مناجيًا لنا.

قال السعدي(١): «والفرق بين النداء والنجاء: أن النداء: هو الصوت الرفيع، والنجاء: ما دون ذلك. وفي هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم».

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾، استجابة لسؤاله وشفاعته في أخيه في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: ٢٩- ٣٦].

وقوله: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [القصص: ٣٤]، وقوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشعراء: ١٣- ١٤].

قال بعض السلف: «ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في أخيه هارون أن يكون نبيًّا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾»(٢).

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١١٧.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ٢٣٣.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان هارون أكبر من موسى»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾، أي: واذكر في القرآن الكريم خبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقصته وفضله، وهو أكبر ولد إبرهيم، وأمه هاجر، وهو شريك أبيه إبراهيم في بناء الكعبة؛ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ وهو أبو العرب أفضل الشعوب، الذين منهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ، فهو خيار من خيار من خيار.

وفُصل ذكره- والله أعلم- عن ذكر أبيه وأخيه؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمره بذكره مستقلًّا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، تعليل لما قبله، أي: إنه لا يعد وعدًا إلا صدق ووفى به وأنجزه، ومن أعظم ذلك: صدقه وعده أباه إبراهيم بأن يجده صابرًا على الذبح؛ كما قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾، جمع الله له بين النبوة والرسالة، وفي هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة.

وقد قال ﷺ: **«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**(٢).

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾، أي: أمه وأهل بيته وأصهاره جرهمًا وغيرهم.

﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾، أي: بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، الواجب منهما والمستحب؛

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٦١.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٠٥، من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

لأن الصلاة قوام العبادات البدنية، والزكاة قوام العبادات المالية؛ بالصلاة يتجلى الإحسان في عبادة الله تعالى والإخلاص له، وبالزكاة يحصل الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾، لقيامه بما يرضي ربه عز وجل رضي الله عنه وأرضاه.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۖ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾.

قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۖ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾، سبق الكلام على مثله في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۖ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٤١﴾ [مريم: ٤١].

و«إدريس» كان قبل نوح في عمود نسب نوح؛ ولهذا قال الطبري[١] في كلامه على قوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾: «فالذي عَنى به «من ذرية آدم» إدريس».

وقال ابن تيمية: «ذكر آدم لأجل إدريس»[٢].

وقال ابن كثير[٣] بعد ذكر كلام الطبري: «قلت: هذا هو الأظهر؛ أن إدريس في عمود نسب نوح عليه السلام»، أي: أنه من أجداد نوح عليه السلام.

﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾، أي: مكانًا ذا علو وارتفاع في العلم والذكر والمنزلة، ففي حديث أنس رضي الله عنه في خبر الإسراء: أن النبي ﷺ لما عرج به إلى السماء الرابعة واستفتح جبريل ففتح لهما، فإذا بإدريس فرحب، ودعا بخير، ثم قال: يقول الله: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾»[٤].

وروي عن الحسن وغيره: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ قال: «الجنة»[٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، الإشارة للأنبياء المذكورين في هذه

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٥/ ٥٦٥.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٨.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٢٣٧.

(٤) سبق تخريجه في مطلع سورة الإسراء.

(٥) ذكره في «تفسيره» ٥/ ٢٣٦.

السورة وغيرهم من الأنبياء، أي: إلى جنس الأنبياء كلهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تعظيمًا لهم، ورفعة لمنزلتهم، وإعلاءً لشأنهم.

وقيل: إن الإشارة تعود إلى الأنبياء المذكورين في السورة فقط، والأول أولى؛ لقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾، وهذا يعم جميع الأنبياء وغيرهم ممن هداه الله واجتباه.

قال ابن كثير[(١)]: «ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية: جنس الأنبياء؛ أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾، إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٣- ٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

عن مجاهد أنه قال لابن عباس: «أفي «ص» سجدة؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فنبيكم محمد أُمر أن يَقتدي بهم، قال: وهو منهم يعني: داود»[(٢)].

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قال الطبري[(٣)]: «فالذي عَنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عَنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عَنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم؛ ولذلك فرّق تعالى في أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم ﷺ؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع سفينة نوح في السفينة، وهو إدريس، وإدريس جد نوح».

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٣٢.

(٣) في «جامع البيان» ١٥/ ٥٦٥، وانظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٣٨.

وقال ابن كثير[١]: «قلت: هذا هو الأظهر: أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام.

وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذًا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل: «والولد الصالح» كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام».

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾، أي: ومن الذين وفَّقْنا للإيمان والعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾، أي: وممن اصطفينا واخترنا لرسالاتنا ووحينا وطاعتنا.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: إذا تقرأ عليهم آيات الرحمن التي أنزلها على رسله، الدالة على عظمته عز وجل ورحمته، والمتضمنة الحجج والبراهين ودلائل الإعجاز والعظات والعبر، والوعد والوعيد.

﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، قرأ حمزة والكسائي بكسر الباء: «بِكِيًّا»، وقرأ الباقون بضمها: «بُكِيًّا».

و ﴿سُجَّدًا﴾، حال، أي: خروا على الوجوه والأذقان سجدًا لله تعالى وخضوعًا له، واستكانة وتعظيمًا، وشكرًا له على نعمه العظيمة، والتي أعظمها وأجلها نعمة الهداية والإيمان والاصطفاء.

«البكي»: جمع «باكٍ»، وهي معطوفة على «سجدًا»، أي: حال كونهم يبكون من خشية الله.

عن أبي معمر، قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد فيها، فقال: هذا السجود، فأين البكي؟ يريد البكاء»[٢].

الفوائد والأحكام:

١- ذكر خبر موسى الكليم وقصته، ونعمة الله وثنائه عليه، والتذكير بذلك؛ لما فيه من الدروس والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾الآية.

٢- فضيلة موسى عليه السلام؛ لاصطفاء الله تعالى له واختياره، ولإخلاصه عليه

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٦٧.

السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾.

٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام ونبوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾.

٤- إثبات نداء الله عز وجل، وتكليمه لموسى، وتقريبه ومناجاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾.

٥- أن نداء الله عز وجل لموسى كان من جانب الطور الأيمن منه عليه السلام في وقت مسيره، أو الأيمن: ذو اليمن والبركة.

٦- منة الله تعالى على موسى عليه السلام، وهبته عز وجل من رحمته أخاه هارون نبيًّا؛ استجابة لسؤاله وشفاعته في أخيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾.

٧- التذكير بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقصته، وبيان فضائله، وما في ذلك من العظات والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾الآيتين.

٨- إبراز كمال عناية الله عز وجل بإسماعيل، بذكره مستقلًّا عن أبيه وأخيه إسحاق.

٩- امتداحه والثناء عليه بكونه صادق الوعد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾.

١٠- فضيلة صدق الوعد، والترغيب فيه؛ لأن الله امتدح به إسماعيل عليه السلام، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣].

وقال ﷺ: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر**»(١)، وقال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(٢).

١١- إثبات رسالة إسماعيل ونبوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٦٠٧، وأبو داود في الأدب ٤٩٨٩، والترمذي في البر والصلة ١٩٧١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، علامة المنافق ٣٣، ومسلم في الإيمان، صفات المنافق ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢- أن إسماعيل أشرف من إسحاق عليهما السلام؛ لأن الله وصف إسماعيل بالرسالة والنبوة، ووصف إسحاق بالنبوة فقط.

١٣- قيامه عليه السلام على أهله بأمرهم بالصلاة والزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾.

١٤- أن الأقربين أولى بالأمر والنهي والدعوة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١).

وقال ﷺ: «**رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى، ثم أيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، ثم أيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»(٢).

١٥- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الدين؛ لذكرهما خاصة من بين العبادات.

١٦- إثبات تمام رضا الله عز وجل عن إسماعيل، وربوبيته عز وجل الخاصة به؛ لقيامه بما يرضي ربه، فرضي الله عنه وأرضاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

١٧- كما يدين المرء يدان، فمن حفظ الله وعمل بما يرضيه، حفظه الله ورضي عنه وأرضاه.

١٨- ذكر إدريس عليه السلام في القرآن الكريم، والثناء عليه بصديقيته وإثبات نبوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

١٩- عظم منزلة إدريس عليه السلام عند الله عز وجل، ورفعته له؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٨٩٥، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وقال: «حديث غريب حسن».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، الحث على قيام الليل ١٣٠٨، والنسائي في قيام الليل ١٦١٠، وابن ماجه في إقام الصلاة، ما جاء فيمن أيقظ أهله ١٣٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٠- ثناء الله عز وجل على هؤلاء الأنبياء، الذين ذكرهم في السورة ثناءً عامًّا، بعد أن أثنى على كل منهم ثناء خاصًّا، وثناؤه عز وجل على جميع الأنبياء غيرهم بإنعامه عليهم بالنبوة، وهدايته إياهم، واجتبائهم وخضوعهم وخشوعهم له، وخرورهم إذا تتلى عليهم آيات الله سجدًا وبكيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

٢١- ينبغي الاقتداء بهؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم بالنبوة وهداهم واصطفاهم، في أخلاقهم وصفاتهم وأعمالهم، وما ذكر من أحوالهم؛ لأن من أعظم الحكم في ذكرهم: الإغراء والحث على الاقتداء بهم، كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾. [الأنعام: ٩٠].

ولهذا يشرع السجود عند هذه الآية بإجماع أهل العلم؛ اقتداء بأنبياء الله كما أمر الله عز وجل.

٢٢- ينبغي إحضار القلب عند قراءة القرآن وسماعه، والخضوع والتدبر، عسى القلب أن يخشع، وعسى العين أن تدمع، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، على النبي ﷺ سورة النساء، ولما بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] قال: «**أمسك**» فإذا عيناه تذرفان(١).

٢٣- الحذر من قسوة القلب والإعراض، وعدم تدبر آيات الله والاتعاظ بها، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾.

بعدما ذكَّر عز وجل بأنبيائه، وأثنى عليهم وعلى من اتبعهم ممن هداهم الله واجتباهم، للاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم، أتبع ذلك بذم خلوف جاءت بعدهم، بسبب تضييعهم الصلوات، واتباعهم الشهوات، وتوعدهم وهددهم. وفي ذلك تنفير وتحذير من مسلكهم.

قوله: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾، أي: فخلف من بعد أولئك الأنبياء الأطهار وأتباعهم الأخيار، أي: جاء بعدهم «خلف» و«الخَلْف» بسكون اللام: عقب السوء، وبفتحها: عقب الخير.

قوله: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾، أي: خلْف سوء، وهذا يشمل جميع الأمم التي ضلت بعد أنبيائها، فبعد ذهاب كل نبي وأتباعه يأتي بعدهم خلوف حالهم كما قال تعالى:

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: فرطوا فيها، إما بتركها، أو الإخلال بشروطها وأركانها وواجباتها، وتفويت وقتها، وغير ذلك.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥] هل هو عن فعل الصلاة- يعني: تركها بالكلية- أو السهو فيها، كما جرت العادة من صلاة الغفلة الذين لا يعقلون من صلاتهم شيئًا؟ فأجاب:

«بل المراد بهاتين الآيتين: من أضاع الواجب في الصلاة، لا مجرد تركها، هكذا فسرها الصحابة والتابعون، وهو ظاهر» إلى أن قال: «وهكذا فسروا قوله: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، بأن إضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وإضاعة حقوقها»(١).

وقال ابن القيم: «وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها، والتحقيق: أن إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها وواجباتها وأركانها، وأيضًا فإن مؤخرها عن وقتها عمدًا متعدٍّ لحدود الله، كمقدمها عن وقتها، فما بالها تقبل مع تعدي هذا الحد، ولا تقبل مع تعدي الحد الآخر؟»(٢).

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي: واتبعوا ما تشتهيه نفوسهم من الشهوات: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة اتباع الهوى.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، أي: خسارًا وشرًّا وخيبة يوم القيامة في جهنم، وفي هذا أشد الوعيد والتهديد.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾، «إلا» أداة استثناء بمعنى: «لكن»؛ لأن الاستثناء منقطع، وقيل: متصل.

و«من» موصولة، أي: إلا الذي تاب من الكفر والمعاصي، وتضييع الصلاة، واتباع الشهوات، فأقلع عن ذلك وندم عليه، وعزم على عدم العودة إليه، مخلصًا لله، في وقت تقبل فيه التوبة.

﴿وَءَامَنَ﴾، أي: وآمن بقلبه، أي: صدق بكل ما أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٤٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٤٣.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: وعمل عملًا صالحًا بجوارحه، وحذف الموصوف واكتفى بالصفة «صالحًا»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

أي: إلا من تاب ورجع وأناب إلى الله تعالى، وآمن باطنًا وظاهرًا، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له(١)؛ ولهذا قال:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: فأولئك التائبون المؤمنون العاملون الصالحات يدخلون الجنة، مجازاة لهم على توبتهم وإيمانهم وعملهم الصالح، وأشار إليهم بإشارة البعيد تشريفًا لهم.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾، «شيئًا» نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا يظلمون أي شيء بنقص من حسناتهم وأجورهم، أو بزيادة في سيئاتهم، بل تبدل سيئاتهم حسنات كرمًا من الله تعالى وفضلًا؛ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾، «جنات» بدل من «جنة»، و«جنات» مضاف، و«عدن» مضاف إليه، من إضافة الصفة إلى الموصوف، و«عدن» بمعنى: إقامة، أي: جنات إقامة أبدية لا تنقطع ولا تفنى.

﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلق بـ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: التي وعد الرحمن عباده المؤمنين بظهر الغيب، فآمنوا بها وعملوا لها وما رأوها؛ لقوة إيمانهم وشدة يقينهم، ولو رأوها لكانوا أشد طلبًا لها؛ كما في حديث: «**يسألونك الجنة، قال: وهل رأوها؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو أنهم رأوها؟ قالوا: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة**»(٢).

ويحتمل أن يكون ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلقًا بـ ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فكيف لو رأوه؟ لكن الاحتمال الأول أولى؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التوبة ٤٢٥٠، من حديث عبيدة بن عبدالله عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لقوله بعده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾، أي: موعوده، ﴿مَأۡتِيّٗا﴾، أي: آتيًا لا محالة، ولا بد من وقوعه؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، كما قال تعالى: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولٗا ١٨﴾ [المزمل: ١٨].

وأيضًا: كان موعوده مأتيًّا إليه، أي: العباد صائرون وآتون إليه.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾، أي: لا يسمعون في هذه الجنات «لغوًا»، أي: كلامًا لاغيًا، باطلًا ساقطًا، لا فائدة فيه، ولا معنى له.

﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو استثناء منقطع بمعنى: «لكن»، أي: لكن يسمعون فيها سلامًا من الله تعالى عليهم، ومن الملائكة، ومن بعضهم لبعض؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦]، وقال تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ [يونس: ١٠].

﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا﴾، أي: ولهم عطاؤهم وطعامهم في الجنات؛ من المآكل والمشارب وأنواع اللذات.

﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾، أي: في جميع الأوقات لا ينقطع، فمنتصف الوقت الأول: «بكرة»، ومنتصفه الثاني: «عشيًا»، وذلك بتقدير الوقت؛ لأنه ليس هناك ليل ولا نهار، بل هم في ضوء ونور أبدًا.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾، قرأ رويس: «نُوَرِّثُ» بفتح الواو وتشديد الراء، وقرأ الباقون بالإسكان والتخفيف: ﴿نُورِثُ﴾.

وأشار إليها بإشارة البعيد: «تلك» تعظيمًا لها، أي: تلك الجنة العظيمة ﴿ٱلَّتِي نُورِثُ﴾، أي: نعطي ﴿مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾، أي: من كان تقيًّا لله تعالى، ممتثلًا ما أمر الله به، مجتنبًا ما نهى الله عنه؛ كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل

عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾:

سبب النـزول:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**ما يمنعك يا جبريل أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ﴾ إلى آخر الآية**»(١).

قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ﴾، أي: وما نتنزل نحن الملائكة إلا بأمر ربك يا محمد، الذي له وحده الأمر والنهي والتدبير، أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمرًا، فنحن عبيد مأمورون؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، اللام: لام الملك والتدبير، و«ما» موصولة.

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾، أي: الذي أمامنا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾، أي: الذي وراءنا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: الذي عن أيماننا وعن شمائلنا؛ لأن ما كان بين اليمين والشمال هو ما بين الأمام والخلف.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٥، والترمذي في التفسير ٣١٥٨.

والمراد: له خاصة: الملك والتدبير في الدنيا والآخرة، وما بينهما، أي: في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، أي: وما كان ربك يا محمد نسيًّا، أي: أنه عز وجل منزه عن النسيان لكمال علمه؛ كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥٢].

وقال ﷺ: «**وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها**»(١).

والمراد: وما كان ربك يا محمد لينساك ويهملك، بل لم يزل معتنيًا بك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣].

﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، تعليل لكمال علمه وتنزهه عن النسيان، أي: خالق السموات والأرض والذي بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه.

﴿فَاعْبُدْهُ﴾، أي: فاشتغل بعبادته يكفك كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، أي: واصبر لعبادته، والاصطبار: شدة الصبر.

وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعبد عن جميع التعلقات والشواغل.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، أي: مثيلًا ومضاهيًا في ذاته وصفاته، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا تعلم له سميًّا من جميع الوجوه، لا عقلًا ولا سمعًا.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الخَلْف الذين جاؤوا بعد الأنبياء وأتباعهم الصالحين؛ لإضاعتهم الصلاة واتباعهم الشهوات، وتوعدهم وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾.

٢- عظم مكانة الصلاة وخطر إضاعتها، وأن تركها كفر؛ لأن الله رتب على إضاعتها هذا الوعيد الشديد؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

---

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» ٤/ ٢٩٧- ٢٩٨، والحاكم ٤/ ١٢٩ وصححه، كما صححه ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٢٥٢، وقد سبق ذكر الحديث بتمامه من حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه.

فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(١).

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة**»(٢).

٣- التحذير من إضاعة الصلاة بتركها، أو الإخلال بشروطها وواجباتها، ومن اتباع الشهوات، وخطر ذلك؛ لأن الله ذم الخلف بسبب ذلك؛ وتوعدهم وهددهم بالخيبة والخسران، والعذاب يوم القيامة.

٤- كرم الله تعالى وفضله على العباد بفتح باب التوبة لهم، والحث عليها وعلى الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٥- أن التوبة تجب ما قبلها، وأن الإسلام يجب ما قبله.

٦- لا بد من الجمع بين الإيمان باطنًا، والعمل الصالح ظاهرًا، أي: الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٧- لا بد من كون العمل «صالحًا»، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٨- منة الله عز وجل على من تاب وآمن وعمل صالحًا بعفوه عنهم، وإدخالهم الجنة دار الخلد والنعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ الآيات.

٩- كمال عدله عز وجل في حساب الخلائق، ومجازاة كل بعمله من غير نقص من حسناته، أو زيادة في سيئاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

١٠- أن الجنات دار إقامة أبدية لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها، ولا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾.

١١- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل: رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨٢، وأبو داود في السنة ٤٦٧٨، والترمذي في الإيمان ٢٦١٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما جاء فيمن ترك الصلاة ١٠٧٨، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٢١، وابن ماجه ١٠٧٩، وأحمد ٥/ ٣٤٦، ٣٥٥، من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

١٢- إثبات عبودية المؤمنين لله عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادَهُۥ﴾، ﴿عِبَادِنَا﴾.

١٣- ثناء الله عز وجل على المؤمنين بإيمانهم بالغيب؛ لإيمانهم به عز وجل وبما وعدهم من الجنات مما لم يروه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

١٤- أن وعد الله تعالى وموعده آتٍ لا محالة، لا بد من إتيانه، والمصير إليه؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾.

١٥- تنزيه أسماع أهل الجنة وتطهيرها، فلا يسمعون فيها إلا سلامًا من ربهم، أو من الملائكة، أو من بعضهم لبعض؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾.

وفي هذا من النعيم المعنوي ما قد يفوق النعيم الحسي، نسأل الله من فضله.

١٦- أن رزق أهل الجنات وطعامهم على الدوام في جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

١٧- تعظيم الجنة والتنويه بها، وأنه عز وجل خص بتوريثها أهل عبادته وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾..

١٨- الترغيب بتقوى الله تعالى؛ لأنه عز وجل خص بتوريث الجنة أهل تقواه.

١٩- أن جبريل وغيره من الملائكة لا يتنزلون إلا بأمر الرب عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢١- أن له عز وجل ملك وتدبير أمر الكون كله، وأمر الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

٢٢- تمام علم الله عز وجل، وتنزهه عن النسيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

٢٣- تسليته ﷺ، والإشارة إلى عناية الله تعالى به، وأنه عز وجل ما كان لينساه.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للكون كله؛ السموات والأرض وما بينهما، وسعة ملكه، وكمال خلقه، وتمام تدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

٢٥- أمر الله عز وجل له ﷺ بالاشتغال بعبادته والصبر عليها، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتعريض بعدم الاشتغال بغير ذلك؛ لأن الله سيكفيه ما أهمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾.

٢٦- أن في الاشتغال بعبادة الله تعالى تسلية عن كل شاغل، وعوض عن كل فائت.

٢٧- أنه لا سمي لله تعالى ولا مثيل ولا شبيه، ولا ند ولا مضاهي؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: الكافر المنكر للبعث.

﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، الاستفهام للإنكار والتعجب، و«ما» زائدة للتوكيد، أي: ويقول الإنسان الكافر منكرًا للبعث ومتعجبًا ومستبعدًا لإعادته بعد موته: أئذا مت وصرت رميمًا وترابًا ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؟! اللام للتوكيد، و﴿حَيًّا﴾، حال، أي: لسوف أخرج من قبري حيًّا، أي: هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا حسب عقله القاصر، وتصوره الفاسد؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧- ٧٩]:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾، قرأ نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الذال والكاف مع ضم الكاف: ﴿يَذْكُرُ﴾، وقرأ الباقون بتشديدهما وفتح الكاف: «يذّكَّر».

والاستفهام للإنكار والتعجيب من ذهول الإنسان المنكر للبعث عن خلقه الأول، أي: أولا يذكر الإنسان أن الله خلقه من قبل ولم يك شيئًا يذكر، بل كان عدمًا، فيستدل بذلك على قدرته عز وجل على إعادته بعد موته، أي: فيستدل بالبداءة والخلق الأول على الإعادة والخلق الثاني؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ

أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئًا أحد**»(١).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، الفاء: استئنافية، والواو: للقسم، أي: أقسم بربك يا محمد، وفي إقسامه عز وجل بنفسه تعظيم لنفسه الشريفة، وتأكيد لهذا الخبر- وهو عز وجل أصدق القائلين- على ما كان عليه العرب من تأكيد الأخبار الهامة بالقسم، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ تشريف وتكريم له.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لنجمعن هؤلاء المشركين المنكرين للبعث، والشياطينَ الذين كانوا يعبدونهم من دون الله.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، «ثم» حرف عطف هنا وفي المواضع بعده، واللام للقسم هنا، وفي قوله: ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾، وقوله: ﴿لَنَحْنُ أَعْلَمُ﴾.

﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾، أي: باركين على ركبهم من شدة الهول، خاضعين ذليلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾، النزع: إخراج الشيء من غيره، والشيعة: الفرقة التي شايع بعضها بعضًا، وغالب ما يستعمل في الذم؛ ولهذا لا يطلق إلا على فرق الضلال؛ لتفرقهم واختلافهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ٤٩٧٤، والنسائي في الجنائز، وأحمد ٢/ ٣٥٠، ٣٥١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الشاعر:

فتفرقوا شيعًا فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبرُ(١)

والمعنى: ثم لنخرجن من كل فرقة من فرق المشركين والظالمين وأهل البدع، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾، أي: تمردًا وعصيانًا وتجبرًا، أي: الأشد فالأشد كفرًا وظلمًا وتمردًا، والأغلظ فالأغلظ إثمًا وجرمًا وعقوبة وعذابًا، فنلقيهم في نار جهنم.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعًا، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾»(٢).

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨- ٣٩].

وهذا جزاء وفاقًا لأعمالهم، فيتوجه العذاب إلى السادات والكبراء أولًا، ثم تكون الأتباع تبعًا لهم فيه؛ كما كانوا تبعًا لهم في الدنيا.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾، ﴿صِلِيًّا﴾، تمييز منصوب، أي: لنحن أعلم بالذين هم أولى بجهنم، أي: بمن هم الأولى بدخول جهنم، ومقاساة حرها، ومضاعفة عذابها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، الخطاب لجميع للخلائق إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، و«إلا» أداة حصر، والضمير في ﴿وَارِدُهَا﴾ يعود إلى جهنم، وهذا قسم من الله تعالى، والتقدير: وإن منكم والله إلا واردها، أي: إلا وارد جهنم، يدل على

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «ديوان الحماسة» ١/ ١٧٦.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٢٤٦.

هذا قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد يلج النار إلا تحلة القسم**»(١)، والمراد بتحلة القسم: الورود على النار.

والورود: الدخول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمعنى: ما منكم أحد إلا وهو وارد جهنم، أي: داخلها، وهذا ما يدل عليه ظاهر السياق، فجميع الخلق يردون جهنم، أي: يدخلونها كلهم برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، وذلك بمرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم على قدر أعمالهم.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: كان ورودهم جهنم على ربك يا محمد ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، أي: أمرًا محتومًا لازمًا، وحكمًا مقضيًا لا بد من وقوعه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾، أي: ثم بعد ورود الخلق كلهم جهنم، وتساقط المجرمين فيها والكفار، وأهل المعاصي والأوزار، بحسب كفرهم وسوء أعمالهم، ﴿نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾، أي: نخلص الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه منها، فيجتازونها ويعبرون الصراط، سرعتهم على قدر أعمالهم، ثم يُشفع الله الملائكة والنبيين والمؤمنين بأصحاب الكبائر من المؤمنين، ويُخرج من النار كل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وكل من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، ولو لم يعمل خيرًا قط.

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، أي: ونترك الظالمين بالشرك والكفر في جهنم ﴿جِثِيًّا﴾، أي: باركين على ركبهم.

وعن حفصة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرًا والحديبية. قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَٰرِدُهَا﴾؟ قالت: فسمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، فضل من مات له ولد فاحتسب ١٢٥١، وابن ماجه في الجنائز ١٦٠٣.
(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٢، ٣٨٥.

وقد روي أن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه بكى في مرضه، فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال: إني ذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا[1].

الفوائد والأحكام:

١- إنكار المشركين والكفار للبعث والمعاد وحياة الأجساد بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾.

٢- إثبات قدرة الله تعالى التامة على البعث؛ لأنه خلق الإنسان من قبل ولم يك شيئًا، فهو سبحانه قادر على بعثه وإعادته من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

٣- إقسام الله عز وجل بنفسه الشريفة على حشر المشركين والمنكرين للبعث، والشياطين الذين يعبدونهم من دون الله، وإحضارهم حول النار جثيًّا على الركب؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾.

٥- إثبات البعث بعد الموت، وجمع الخلائق للحساب والجزاء، وإثبات جهنم.

٦- التحذير من عبادة الشياطين، واتباعهم في الكفر وتزيين المعاصي، وإنكار البعث وغير ذلك.

٧- أن أول الظالمين إدخالًا للنار وإصلاءً فيها الأشد فالأشد منهم عتوًّا وكفرًا وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾، وفي هذا أعظم التهديد والوعيد لهم.

٨- إثبات اسم الله «الرحمن» وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٩- علم الله عز وجل التام بمن هم أولى دخولًا للنار ومقاساة لحرها، لشدة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٥٩٤، ٥٩٦.

كفرهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

١٠- إثبات وتأكيد ورود جميع الخلائق نار جهنم؛ إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، ومرورهم على الصراط المنصوب على متنها، وأن ذلك أمر محتم، وقضاء مبرم، لا بد منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

١١- تخليص المتقين من النار باجتيازهم وعبورهم الصراط على قدر أعمالهم، وشفاعة الملائكة والأنبياء والمؤمنين لأهل الكبائر منهم، وبرحمة أرحم الراحمين وإخراجه من النار كل من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وكل من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

١٢- ترك الظالمين والمجرمين في النار جثيًّا على الركب بعد ورودهم عليها وسقوطهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

١٣- الترغيب في تقوى الله، والترهيب من الظلم والكفر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: وإذا تقرأ على الكفار المكذبين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، أي: آيات الله «القرآن الكريم».

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: واضحات، ظاهرات الدلالة على أنها حق وجاءت بالحق، وأن المؤمنين بها هم الذين على الحق.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، بالله ورسله وآياته، مغترين بحالهم، محتجين على صحة ما هم عليه من الكفر، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، محتقرين لهم، متكبرين عليهم؛ لما هم فيه من الفقر وخشونة العيش.

﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾، استفهام تقريري، أي: أي الفريقين: نحن أو أنتم؟

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾، قرأ ابن كثير بضم الميم: «مُقامًا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مَّقَامًا﴾، أي: منزلًا ومسكنًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٧].

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، أي: مجلسًا وناديًا، والندي: المجلس والنادي الذي يجتمع فيه الرجال؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

أي: أننا خير مقامًا، أي: خير منكم في أماكن إقامتنا، أي: في منازلنا ودورنا وقصورنا.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي: وأحسن نديًّا منكم، فنادينا أعمر، ورواده أكثر، وهو أظهر وأشهر، وهم في هذا يعرِّضون بدار الأرقم بن أبي الأرقم التي يجتمع فيها المؤمنون، وهذا

كما قال الله تعالى عنهم في سورة الأحقاف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، وكما قال قوم نوح له عليه السلام: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١﴾ [الشعراء: ١١١].

وهذا منهم قلب للحقائق؛ لأن ما افتخروا به من كونهم ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ۝٧٣﴾ قد يكون سببًا لهلاكهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾، الواو استئنافية، و«كم» خبرية للتكثير، و ﴿قَرۡنٍ﴾ بمعنى: «أمة»، أي: وكثير من القرون، أي: الأمم أهلكناهم قبلهم بسبب كفرهم.

﴿هُمۡ﴾، أي: هؤلاء القرون المهلكون، ﴿أَحۡسَنُ﴾، أي: أحسن من هؤلاء المشركين المكذبين له ﷺ.

﴿أَثَٰثٗا﴾، أي: متاعًا؛ من أوانٍ وملابس، وفرش وزخارف، وبيوت وأموال، وغير ذلك.

﴿وَرِءۡيٗا﴾، أي: مناظر وأشكالًا.

أي: فلم ينفعهم ولم يمنعهم من عذاب الله ما هم فيه من النعيم، مع كونهم ﴿أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾من هؤلاء المكذبين للنبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ۝٧٥﴾.

لما ذكر اغترارهم وتكبرهم بسبب ما هم فيه من النعم، واحتقارهم للمؤمنين، وتوعدهم وهددهم بما حل بالمكذبين قبلهم، مع أنهم أحسن تنعمًا منهم، أتبع ذلك ببيان أن ما هم فيه من الإمداد هو من الاستدراج لهم.

قوله: ﴿قُلۡ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المغترين بما هم فيه من النعم:

﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾، بأن اختار الضلالة ورضيها لنفسه، فأحاطت به إحاطة الظرف بالمظروف، فبعد كل البعد عن الهدى.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، بما هو فيه من الضلالة، عقوبة له على اختياره الضلالة، فيمهله ويملي له استدراجًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: إلى غاية إذا رأوا، أي: إذا رأى هؤلاء الضالون الذي يوعدون به ويُهددون.

﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾، «إما» في الموضعين حرف تفصيل، أي: إما العذاب العاجل في الدنيا بالقتل والإهلاك بأنواع العقوبات الدنيوية.

﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، أي: وإما أن تأتيهم الساعة، أي: القيامة، بغتة فيؤخذون بعذاب الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٧].

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾، هذا في مقابل زعمهم أنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، وهدم له من أساسه.

والفاء في قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ رابطة لجواب الشرط «إذا»، والسين لتوكيد حصول العلم، أي: فسيعلمون حين يرون العذاب العاجل في الدنيا، أو عذاب القيامة في الآخرة.

﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أي: أنهم هم شر مكانًا، وليسوا كما يدعون: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾.

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾، أي: وأنهم هم أضعف جندًا، وليسوا أحسن نديًّا؛ كما قال تعالى في سورة الجن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

لما ذكر أنه يمد للضالين في ضلالهم عدلًا منه؛ لاختيارهم الضلال لأنفسهم، أتبع ذلك ببيان أنه يزيد الذين اهتدوا هدى فضلًا منه؛ لاختيارهم الهدى.

قوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ إلى العلم النافع والعمل الصالح، بتوفيق الله ﴿هُدًى﴾، أي: إيمانًا وعلمًا وعملًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، أي: الأعمال الصالحات التي تبقى ويبقى ثوابها؛ من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة، وقراءة وتسبيح وتحميد وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، إلى غير ذلك من أعمال بدنية وقلبية.

قال ﷺ: «**ما لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**» وفي بعض الروايات: «**فأبقيت**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها غير كتفها**»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله**

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢، من حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٧٠.

وعمله، فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله»(١).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل في نعيم القبر وعذابه، قال ﷺ: **«ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح»**(٢).

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾، «خير» خبر «الباقيات»، أي: الخير كل الخير فيها، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، وهذا مما يزيدها خيرية وعظمة، أي: عند ربك يا محمد ويا أيها المخاطب، ﴿ثَوَابًا﴾، أي: جزاء.

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، أي: وخير مردًّا على صاحبها، ومرجعًا وعاقبة يستمر ثوابها، ويبقى نفعها؛ كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على الكفرة والمكذبين، وعلى الناس أجمعين، بإنزال الآيات البينات وتلاوتها عليهم، التي فيها بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾.

٢- اغترار الكفار بما منحهم الله ووسع عليهم من المنازل والدور والقصور، وبمجالسهم التي يجتمعون فيها، واحتقارهم المؤمنين بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

٣- الوعيد والتهديد للمشركين بأن يحل بهم ما حل بكثير من القرون والأمم المكذبة قبلهم، لما عصوا الله وكذبوا رسله، مع أنهم أحسن أثاثًا ومتاعًا، ومناظر وأشكالًا منهم، فلم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عذاب الله، وفي هذا عظة وعبرة لهم ولكل من كفر من هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٩.

(٢) سبق تخريجه.

٤- ليس في إدرار النعم في الدنيا دلالة على أن صاحبها على الحق، ولا على خيريته في الآخرة، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

٥- عقوبة الله تعالى للضالين عدلًا منه؛ بسبب اختيارهم للضلال، واستدراجه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

٦- التهديد والوعيد للكفار الضالين بالعذاب العاجل في الدنيا، أو الآجل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الآية.

٧- أن وعد الله تعالى ووعيده حق، واقع وكائن لا محالة.

٨- علم الكفرة وأهل الضلالة تمام العلم عند رؤيتهم العذاب أنهم هم شر مكانًا، وأضعف جندًا، ولم ينفعهم أو يدفع عنهم غرورهم بأنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، لقوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

٩- أن القوة لله جميعًا، وأن العاقبة الحسنى لمن آمن بالله، وأن العقوبة العظمى لمن كفر بالله.

١٠- زيادة الله الذين اهتدوا هدىً، فضلًا منه وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾.

١١- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وفي هذا رد على المرجئة.

١٢- الإغراء والحث والترغيب بالأعمال الصالحات؛ لأنها هي الباقية، الباقي ثوابها وجزاؤها، المحمودة عقباها، المستمر نفعها وأثرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

سبب النزول:

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: «**كنت رجلًا قينًا، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قال: قلت: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لمبعوث من بعد الموت؟! فسوف أقضيك إذا رجعتُ إلى مالٍ وولدٍ. قال: فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾**»(١).

وفي لفظ: «**كنت قينًا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفًا، فجئت أتقاضاه، وذكر الحديث وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ قال: مَوْثِقًا**»(٢).

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾، قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وإسكان اللام: «وَوُلْدًا» في هذا الموضع والمواضع الثلاثة بعده، وقرأ الباقون فيها بفتح الواو واللام: ﴿وَوَلَدًا﴾، والمعنى واحد؛ قال رؤبة بن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٥، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح ٢٧٩٥، وأحمد ٤/ ١١١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٣.

العجاج[(١)]:

الحمـــــد لله العزيـــــز فـــــردَا لم يتخـــذ مـــن وُلـــد شيء وُلْـــدَا

وقيل: «الوُلد» بالضم جمع، و«الوَلَد» بالفتح مفرد.

والاستفهام للتعجيب من كفره بآيات الله، ودعواه أنه من أهل الجنة، وأنه سيعطى كذا وكذا.

والمعنى: أفعلمت الذي كفر بآيات الله، وقال مقسمًا: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾، أي: في الجنة؛ غرورًا منه وكذبًا على الله واستهزاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠] وقال تعالى عن صاحب الجنتين أنه قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾، الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي: أأشرف على الغيب فعلم أنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا، حتى حلف على ذلك؟!

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾، «أم»: حرف عطف، أي: أم له عند الرحمن عهد وميثاق بأنه سيؤتى ذلك، فأيقن بحصوله؟ والجواب: لا هذا ولا هذا، فلا هو اطلع الغيب، ولا قدرة له ولا لأحد من الخلق على ذلك؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ولا عهد ولا ميثاق له عند الله بذلك، ولم يشهد بشهادة الحق: لا إله إلا الله، فيرجو بها ذلك.

حاله كما قال الشاعر:

ترجـو النجـاة ولم تسـلك مسـالكها إن السـفينة لا تجـري عـلى اليـبسِ[(٢)]

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٥/ ٦٢.

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «زهر الآداب» ٣/ ٨٧١، «مجاني الآداب» ٢/ ١٤، وهو في «ديوان عبدالله بن المبارك» ص٢٦.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر له، وتكذيب له، ونفي لما يقول.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، «ما» مصدرية أو موصولة، أي: سنكتب قوله، أو الذي يقوله من كفر وكذب، ومن تمنٍّ باطل بقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ وغير ذلك، ونحصيه عليه ونحفظه ونحاسبه عليه ونجازيه به؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾، أي: ونزيد له من العذاب ﴿مَدًّا﴾، أي: زيادة عظيمة، باستدراجه، وزيادة العذاب له ومضاعفته، جزاء كفره وكذبه، واغتراره بنعم الله واستهزائه.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، أي: وننزع عنه ونسلبه الذي يقول، أي: الذي آتيناه من مال وولد، وما جمع في الدنيا وما عمل فيها.

﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: وحده، فريدًا وحيدًا، بلا مال ولا ولد ولا أهل، ولا أنصار ولا أعوان، في ذلك الموقف العظيم، وفي هذا تهديد ووعيد له خاصة، ولمن سلك مسلكه في الكفر والاغترار والكذب على الله، وإلا فإن الخلق كله سيأتي الله فردًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾، أي: واتخذ الكفرة والمشركون غير الله آلهة عبدوهم وأشركوهم.

﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يكونوا لهم عزًّا، يتعززون ويستنصرون بهم، ويشفعون لهم عند الله حسب زعمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

﴿كَلَّا﴾، للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما زعموا، بل:

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: سيكفر هؤلاء الآلهة يوم القيامة بعباده المشركين لهم وينكرونها، وينفون استحقاقهم لها؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٣- ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل: ٨٦].

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: أعداء وخصماء أشداء لهم، وأعوانًا عليهم، يكذبونهم ويخاصمونهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، الاستفهام للتعجب، أي: ألم تر أنا سلطنا الشياطين على الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٠٠].

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، أي: تزعجهم إلى الكفر والمعاصي إزعاجًا، وتحرضهم تحريضًا، وتغويهم بذلك إغواء، وتغريهم به إغراء، وتصدهم عن الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فلا تعجل يا محمد على هؤلاء الكافرين وقوع العذاب بهم، وإن استعجلوه لجهلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾، تعليل للنهي السابق، أي: لأننا إنما نعد لهم عدًّا، فلهم أيام معدودة، ولهلاكهم أجل محدود معلوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

فهو واقع بهم لا محالة، وهم صائرون إليه ولا بد، نمهلهم ولا نهملهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، «يوم»، أي: يوم القيامة، ﴿نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: نجمع المتقين، الذين اتقوا الله في الدار الدنيا بفعل ما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه.

﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، «وفدًا» جمع «وافد»، وهو القادم مكرمًا معززًا، أي: وفودًا مكرمين، ركبانًا على النجائب، ضيوفًا على أكرم الأكرمين إلى جنته.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: ندفعهم بشدة وعنف إلى جهنم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]؛ يدفعون إليها بشدة وعنف.

﴿وِرْدًا﴾، أي: مشاة عطاشًا، و«الورد» يطلق على الماء المورود، ويطلق على الواردين.

والمعنى: ونسوق المجرمين بعنف وشدة إلى جهنم مشاة عطاشًا ذليلين خائفين.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾، أي: لا شافع لهم، ولا تنالهم الشفاعة، ولا تنفعهم لو شُفع فيهم؛ كما قال تعالى مخبرًا عن قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ

﴿١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠١] وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، الاستثناء منقطع، و«إلا» بمعنى: «لكن»، و«من» موصولة، أي: لكن الذي ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، أي: الذي جعل عند الرحمن عهدًا وموثقًا بشهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان والعمل الصالح، فإنه يملك الشفاعة، أي: تناله الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- التعجيب من شدة غرور من جمع بين الكفر بآيات الله وقوله: إنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ لا شك أن هذا غاية الغرور.

٢- إبطال قول هذا المدعي، والإنكار عليه، والتعجيب من قوله؛ لأنه لم يطلع الغيب، ولا قدرة له ولا لغيره من الخلق على ذلك، وليس له عهد وميثاق عند الله بذلك، بإيمان أو غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

٣- اختصاص الله تعالى بعلم الغيب دون خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

٤- لا عهد لأحد عند الله تعالى إلا بالإيمان والعمل الصالح، فمن وفى بعهده وفى الله له؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

٥- إثبات اسم الله «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٦- ردع وزجر هذا القائل الكافر المغتر بنعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾،،

أي: ليس له ما يدعيه ويقوله.

٧- تهديده ووعيده، بأن الله سيكتب أقواله، ويزيده من العذاب باستدراجه ومضاعفة هذا العذاب له؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾، وهذا وعيد له ولأمثاله من الكفرة المكابرين.

٨- إثبات كتابة أعمال العباد، وإحصائها وحفظها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها.

٩- سلبه كل ما أوتيه من مال وولد، وما جمع في الدنيا وما عمل فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾.

١٠- إتيانه يوم القيامة وقدومه على الله تعالى فردًا وحيدًا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، وفي هذا من التهديد والوعيد له ما لا يخفى.

١١- تجهيل المشركين في اتخاذهم آلهة غير الله ليعتزوا بهم ويشفعوا لهم، وزجرهم وردعهم، ونفي وإبطال ما اعتقدوه فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا﴾.

١٢- كفر الآلهة يوم القيامة بعبادة الذين عبدوهم وأشركوا بهم مع الله، ومضادتهم لهم، وعداوتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

١٣- قضاء الله تعالى كونًا بتسليط الشياطين على الكافرين تؤزهم إلى الكفر والمعاصي أزًّا، وتغويهم بذلك إغواءً؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾.

١٤- نهي الله لنبيه ﷺ عن استعجال عذاب الكفرة والمكذبين وإهلاكهم؛ لأنه عز وجل جعل لهم وقتًا معدودًا، ولهلاكهم أجلًا محدودًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

١٥- تكريم المتقين يوم القيامة بجمعهم وحشرهم إلى الرحمن وفودًا مكرمين على النجائب إلى الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

١٦- إذلال المجرمين وإهانتهم بسوقهم بشدة وعنف إلى جهنم مشاة عطاشًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

١٧- نفي الشفاعة عن المجرمين، فلا أحد يشفع لهم، ولو شفع فيهم شافع لم

يُشفَّع؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

١٨- أنه لا يملك الشفاعة ولا ينالها إلا من اتخذ عند الله عهدًا بشهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾.

١٩- الترغيب بتقوى الله، والترهيب من الكفر والإجرام.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

قرر عز وجل في هذه السورة العظيمة عبودية عيسى عليه السلام لله، وذكر خلقه من مريم بلا أب، وشرع في هذه الآيات في الإنكار على من زعم أن له عز وجل ولدًا؛ كما قال النصارى واليهود والمشركون.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال اليهود والنصارى والمشركون، ومن قبلهم من الكفار، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا:

﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، أي: جعل الله له ولدًا، فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال مشركو قريش: الملائكة بنات الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ٢١].

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد جئتم في قولكم هذا ﴿شَيْـًٔا إِدًّا﴾، أي: أمرًا منكرًا فظيعًا، وكفرًا عظيمًا، والإدّ: الداهية والأمر العظيم.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾، قرأ نافع والكسائي بالياء على التذكير: «يكاد»، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَكَادُ﴾، وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير والكسائي وحفص بالتاء وفتح الطاء مشددة: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾، وقرأ الباقون بالنون وكسر الطاء مخففة: «يَنْفَطِرْنَ».

أي: تقارب السموات يتشققن ﴿مِنۡهُ﴾، «من» للتعليل، والضمير يعود إلى: ﴿شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، أو إلى قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾، أي: تكاد السموات يتشققن لأجله فرقًا وغضبًا لله تعالى، وتعظيمًا له.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾، أي: وتتصدع الأرض وتتفطر.

﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ﴾، أي: تسقط سقوطًا شديدًا وتندك ﴿هَدًّا﴾، أي: هددًا وهدمًا.

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾، «أن» والفعل «دعوا» في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، أي: لأجل أن نسبوا للرحمن ولدًا، وفيه تأكيد لقوله: ﴿مِنۡهُ﴾..

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ندًّا، ويجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم**»(١).

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «**إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله**»(٢).

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، أي: ما يليق به ولا يصلح له، ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ«ينبغي».

أي: وما ينبغي له اتخاذ ولد؛ لكمال عظمته، وتمام غناه، وعدم حاجته إلى الولد؛ ولأن الولد من جنس والده، والله عز وجل لا مثيل له ولا شبيه، ولا كفء له من خلقه تعالى وتقدس.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾، «إن» نافية

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٦٣٧.

بمعنى: «ما»، و«من» موصولة، و«إلا» أداة حصر، و ﴿عَبْدًا﴾ حال، أي: ما كل الذي في السموات والأرض إلا آتي الرحمن، ﴿عَبْدًا﴾ عبودية عامة، أي: ذليلًا خاضعًا منقادًا له عز وجل، من الملائكة والإنس والجن، وغيرهم.

فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه، وعظمة سلطانه وملكه، وكل الخلق عبيد له؟!

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ﴾، الضمير يعود إلى «من» باعتبار معناها، ﴿عَدًّا﴾ مفعول مطلق منصوب.

أي: والله لقد أحصى سبحانه الخلائق كلهم إنسهم وجنهم، ذكرهم وأنثاهم، كبيرهم وصغيرهم.

أي: وعدَّهم واحدًا واحدًا، وعلم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾، «فردًا» حال، أي: وحده فريدًا، بلا مال، ولا ولد، ولا أنصار، لا ملجأ لأحد منهم إلا إلى الواحد القهار.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾، أي: سيجعل لهم عز وجل مودة ومحبة، يحبهم سبحانه، ويغرس لهم مودة ومحبة في قلوب خلقه في السماء والأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»

الحديث(١).

وفي لفظ: «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إني قد أحببت فلانًا فأحبه، فينادى في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾»(٢).

عن قتادة، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقول: «ما من الناس عبد يعمل خيرًا ولا شرًّا إلا كساه الله رداء عمله»(٣).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، الفاء: تعليلية، وجملة ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ تعليل لمقدر، أي: بلغ ما أنزل، فإنما يسرناه بلسانك. و«إنما» كافة ومكفوفة.

والضمير يعود إلى القرآن الكريم، وهو معلوم، وأشهر من أن يذكر، أي: فإنما يسرنا هذا القرآن، أي: سهلناه بلسانك يا محمد، وهو اللسان العربي المبين؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن تبشر به، أي: بهذا القرآن وما فيه من الوعد بالثواب العظيم في جنات النعيم، ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، الذين يتقون الله، ويخشون عذابه، فيمتثلون أمر الله ويجتنبون نهيه.

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾، أي: ولتنذر وتحذر وتخوف بهذا القرآن وما فيه من الوعيد والزجر والتهديد.

﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾، أي: قومًا ألداء، شديدي الخصومة بالباطل، شديدي الظلم والكفر والعتو عن قبول الحق، كصناديد كفار قريش ونحوهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، المنة من الله تعالى ٦٠٤٠، ومسلم في البر، إذا أحب الله عبدًا أحببه لعباده ٢٦٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة مريم ٥١٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٥/ ٦٤٤.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، الواو استئنافية، و«كم» خبرية للتكثير، أي: وكثيرًا أهلكنا قبلهم من القرون والأمم ممن كفروا بآيات الله وكذبوا رسله؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وغيرهم من المكذبين.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، و«من» زائدة، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، و«من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: هل ترى وتجد من هؤلاء القرون المهلكين ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، أي: لا تجد منهم أيَّ أحد، بل أهلكوا جميعًا عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٨].

وهكذا آثار الكفر والذنوب والمعاصي تذر الديار بلاقع، وتهلك الحرث والنسل.

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾، أي: صوتًا، أو صوتًا خفيًّا، و«الركز»: الصوت الخفي.

أي: أنهم لم تبق منهم عين ولا أثر، وإنما بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، والسعيد من وعظ بغيره.

الفوائد والأحكام:

١- جرأة أهل الضلال من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم من فجرة بني آدم، بنسبة الولد إليه، تعالى الله وتقدس عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾.

٢- أن نسبة الولد إلى الله تعالى منكر فظيع، وكفر عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾.

٣- أن هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض على عظمتها وسعتها وكبرها تكاد تتشقق وتتفطر، والجبال على شدتها وصلابتها تكاد تخر وتنهد؛ لفظاعة هذا القول، فرقًا وغضبًا وتعظيمًا لله؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾.

٤- تأكيد خطورة هذه الدعوى وفظاعتها؛ لقوله تعالى: ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٦- أنه لا ينبغي لله تعالى، ولا يليق به سبحانه أن يجعل له ولدًا؛ لكمال غناه، وكمال عظمته، وعدم حاجته إلى الولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

٧- إثبات عبودية جميع من في السموات والأرض لله تعالى عبودية عامة، وخضوعهم وتذللهم وانقيادهم له من الملائكة والإنس والجن وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾.

٨- إحصاء الله عز وجل لجميع الخلائق وعدهم عدًّا، واحدًا واحدًا، منذ خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا﴾.

٩- إتيان جميع الخلائق إلى الله عز وجل، وقدومهم عليه يوم القيامة فردًا فردًا، ليس مع أحد منهم مال ولا ولد ولا أنصار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾.

١٠- بشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم بجعل المودة والمحبة لهم منه عز وجل، وغرسها في قلوب خلقه من أهل السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾.

١١- إثبات صفة المودة والمحبة لله عز وجل، وأنه عز وجل يحب عباده المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران: ٧٦].

١٢- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الصالحات بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٣- لا بد من كون العمل صالحًا، جامعًا بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، وهذا هو الأهم؛ ولهذا حذف الموصوف وهو الأعمال، واكتفى بذكر الصفة: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٤- تيسير القرآن وتسهيله بلسانه ﷺ اللسان العربي المبين؛ ليبشر به المتقين، وينذر به الكفرة الألداء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا ٩٧﴾.

١٥- نعمة الله تعالى على العباد، بتسير القرآن للذكر باللسان العربي المبين.

١٦- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وفي تقوى الله عز وجل؛ لما رتب على ذلك من جعل المودة لهم والبشرى، والتحذير من الكفر والتمادي في الباطل ورد الحق.

١٧- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانِكَ﴾.

١٨- تحذير المشركين أن يحل بهم من الهلاك ما حل بكثير من المكذبين من القرون والأمم قبلهم، ممن بادوا عن آخرهم فلا يُرى منهم أحد، ولا يُسمع لهم صوت، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الإسراء ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- فضلها: ٧
د- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا...﴾ الآية [١] ١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾ الآيات [٢-٨] ٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ الآيات [٩-١٧] .. ٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ...﴾ الآيات [١٨-٢١] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ...﴾ الآيات [٢٢-٢٥] ٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ الآيات [٢٦-٣٩] ٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا...﴾ الآيات [٤٠-٤٤] ١١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا...﴾ الآيات [٤٥-٥٢] ١١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ الآيات [٥٣-٦٠] ١٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾

الآيات [٦١-٦٥] ١٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ..﴾ الآيات [٦٦-٧٠] ١٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ...﴾ الآيات [٧١-٧٧] ... ١٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ...﴾ الآيات [٧٨-٨٤] ١٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى...﴾ الآيات [٨٥-٨٩] ١٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا...﴾ الآيات [٩٠-٩٦] ١٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ...﴾ الآيات [٩٧-١٠٠] ١٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ...﴾ الآيات [١٠١-١٠٤] ٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾ الآيات [١٠٥-١١١] ٢٠٥
تفسير سورة الكهف ٢١٥
المقدمة ٢١٧
أ- اسم السورة: ٢١٧
ب- مكان نزولها: ٢١٧
جـ- فضلها: ٢١٧
د- موضوعاتها: ٢١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا...﴾ الآيات [١-٨] ٢٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا...﴾ الآيات [٩-١٢] ٢٣١

تفسير قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ...﴾ الآيات [١٣-٢٠] ٢٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ...﴾ الآيات [٢١-٢٦] ٢٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ...﴾ الآيات [٢٧-٣١] ٢٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ...﴾ الآيات [٣٢-٤٤] ٢٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات [٤٥-٤٩] ٢٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ...﴾ الآيات [٥٠-٥٩] ٣٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا...﴾ الآيات [٦٠-٦٥] ٣١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا...﴾ الآيات [٦٦-٨٢] ٣٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا...﴾ الآيات [٨٣-٩٩] ٣٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا...﴾ الآيات [١٠٠-١١٠] ٣٦٢
تفسير سورة مريم ٣٧٧
المقدمة ٣٧٩
أ- اسم السورة: ٣٧٩
ب- مكان نزولها: ٣٧٩
ج- فضلها: ٣٧٩
د- موضوعاتها: ٣٧٩

تفسير قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١...﴾ الآيات [١-٦]..... ٣٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا...﴾ الآيات [٧-١٥]..... ٣٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا...﴾ الآيات [١٦-٢٦]..... ٣٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ...﴾ الآيات [٢٧-٤٠]..... ٤١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا...﴾ الآيات [٤١-٥٠]..... ٤٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا...﴾ الآيات [٥١-٥٨]..... ٤٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ...﴾ الآيات [٥٩-٦٥]..... ٤٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا...﴾ الآيات [٦٦-٧٢]..... ٤٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا...﴾ الآيات [٧٣-٧٦]..... ٤٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا...﴾ الآيات [٧٧-٨٧]..... ٤٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩...﴾ الآيات [٨٨-٩٨]..... ٤٦٩
فهرس الموضوعات..... ٤٧٧

* * *

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الرابع عشر

تفسير سورة طه والأنبياء والحج والمؤمنون

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٤

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٥٣٧ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ طٰهٰ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة طه»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿طه ۝١﴾، وهي من الحروف المقطعة أوائل السور، وقد جاء في الحديث في قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسميتها بهذا الاسم(١).

وتسمى سورة «الكلِم» كما ذكر ذلك السيوطي في «الإتقان» عن السخاوي.

وتسمى أيضًا «سورة موسى»، ذكره في «الإتقان» عن الهذلي في «كامله»(٢).

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «هن من العتاق الأُوَلُ، وهنَّ من تلادي»(٣).

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

ووجِّه الخطاب في مطلعها إلى النبي ﷺ؛ لبيان مهمته وتقوية عزيمته، وبيان الحكمة من إنزال القرآن عليه، وهي التذكير والموعظة، وبيان عظمته، وعظمة منزله وعلوه، وعظيم ملكه، وسعه علمه، ووحدانيته، واختصاصه بالأسماء الحسنى، والصفات العلا.

٢- التذكير بقصة موسى عليه السلام، وابتداء وحي الله تعالى إليه واختياره لرسالته، ووحيه إليه بوحدانيته عز وجل في ألوهيته وعبوديته، وإقام الصلاة لذكره، وإثبات الساعة وقيام القيامة، ومجازاة كلٍّ بعمله.

٣- إيتاء الله تعالى موسى العصا آية من آياته تعالى، يلقيها فتكون حية، ويأخذها فتعود لحالها الأولى، وإيتاؤه اليد آية أخرى، يضمها إلى جنبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ ليريه من آياته الكبرى، وإرساله إلى فرعون لطغيانه.

---

(١) انظر: «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (١/ ٢٧٩)، «تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٦٥٧).

(٢) انظر: «الإتقان» (١/ ١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنبياء (٤٧٣٩).

٤- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره، وييسر له أمره، ويحلل عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وأن يجعل له وزيرًا من أهله هارون أخيه؛ ليشد به أزره، ويشاركه في أمره وتسبيحه ربه وذكره كثيرًا، واستجابة الله له وإيتاؤه سؤله.

٥- تذكير موسى عليه السلام بمنة الله عليه قبل ذلك مرة أخرى، منذ كان جنينًا في بطن أمه، وإنجائه من فرعون، وإرساله وأخيه هارون بآياته إلى فرعون بسبب طغيانه، وأمره لهما بدعوته بالقول اللين؛ لعله يتذكر أو يخشى، وتخوفهما من بطشه وطغيانه، وطمأنته عز وجل لهما بسمعه ورؤيته لهما وحفظهما، وأمره لهما بإقامة الحجة عليه، بأنهما رسولا ربه، وطلبهما منه إرسال بني إسرائيل معهما وتحذيره عذاب الله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

٦- مجادلة فرعون لهما في ربهما، وردهما عليه بأن ربهما الذي أعطى كل شيء خلقه، وهدى كل مخلوق لما خلقه له، ذو القدرة التامة الذي خلق الأرض وسلك فيها السبل، وأنزل من السماء الماء وأخرج به أنواع النبات؛ لأكلهم ورعي أنعامهم.

٧- تكذيب فرعون لهما وإباؤه، بعد أن أراه الله آياته كلها، واتهامه موسى بالسحر، وتحديه له بالإتيان بسحر مثله، وجمعه السحرة، وغلبة موسى لهم بما معه من الآيات، وبطلان سحرهم، وإيمانهم برب موسى وتوعد فرعون لهم حين آمنوا.

٨- وحيه عز وجل لموسى بالإسراء ببني إسرائيل ليلاً، وأن يضرب لهم طريقاً في البحر يبسًا لا يخاف إدراك فرعون له، ولا يخشى من الغرق. وإتباع فرعون بجنوده لهم، وغشيان البحر لهم وغرقهم، وإضلاله لقومه وإبعادهم عن الهدى.

٩- الامتنان على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون، ومواعدتهم جانب الطور الأيمن، وإنزال المن والسلوى عليهم، وأمرهم بالأكل من الطيبات، وتحذيرهم من الطغيان، وترغيبهم بالإيمان والعمل الصالح، وسلوك طريق الهدى.

١٠- معاتبة الله تعالى لموسى على الاستعجال عن قومه، وإخباره بما حصل لهم بعده من فتنة السامري وإضلاله إياهم بعبادة العجل، ورجوع موسى إليهم غضبان

أسفًا، ومعاتبته لهم على مخالفة موعده وطاعة السامري بعبادة العجل، الذي لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ومعصيتهم لهارون حين حذرهم من ذلك، وإصرارهم على العكوف على عبادة العجل حتى يرجع إليهم موسى.

١١- معاتبة موسى لأخيه هارون بعدم اتباعه حين رآهم ضلوا، واعتذار هارون بخشيته أن يقول: فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي.

١٢- معاتبة موسى وتأنيبه للسامري على ما فعل وتهديده له وتوعده، وابتلاء الله إياه أن يقول: لا مساس، وإحراق إلهه العجل، ونسفه في اليم نسفًا، وإثبات إلهية الله وحده الذي وسع كل شيء علمًا.

١٣- الامتنان على النبي ﷺ بقص أنباء ما قد سبق وإيتائه من لدنه علمًا، بما أوحى إليه من الكتاب والسنة، وتهديد ووعيد من أعرض عنه.

١٤- إثبات النفخ في الصور، وتهديد المجرمين بحشرهم زرق الوجوه والألوان، يتخافتون بينهم: إن لبثتم إلا عشرًا، بل يقول أمثلهم طريقة: إن لبثتم إلا يومًا.

١٥- ذكر أهوال القيامة من نسف الجبال، وجعلها قاعًا صفصفًا، واتباع الخلائق الداعي، وخشوع الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همسًا، حين لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الله عز وجل ورضي له قولًا، وإحاطة علمه بهم، وقصد الوجوه للحي القيوم، وخيبة من حمل ظلمًا، وبشارة من آمن وعمل صالحًا فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا.

١٦- العودة لتعظيم القرآن، والامتنان بجعله قرآناً عربيًّا، وتصريف الوعيد فيه؛ لأجل أن يتقوا الله، ويحدث لهم ذكرًا، وتعظيم نفسه عز وجل بتعاليه وكونه الملك الحق، ونهيه له ﷺ أن يعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، وحثه على طلب مزيد العلم من ربه.

١٧- ذكر قصة آدم وعهده عز وجل إليه بعدم الأكل من الشجرة، وأمره الملائكة بالسجود له، وسجودهم له جميعًا إلا إبليس أبى، وتحذير آدم منه ومن عداوته له ولزوجه، وسعيه في إخراجهما من الجنة لدار الشقاء.

١٨- وسوسة الشيطان إلى آدم وتغريره له بالأكل من الشجرة، وأكله هو وزوجه منها وبدو سوءاتهما لهما، ومعصية آدم لربه وغوايته، ثم اجتباؤه عز وجل له وتوبته عليه وهداه، وإهبطاهما إلى الأرض بعضهم لبعض عدو.

١٩- الترغيب في اتباع هدى الله، ووعده عز وجل بعصمة من اتبع هداه من الضلال والشقاء، والتحذير من الإعراض عن ذكر الله تعالى، ووعيد من أعرض عن ذكر الله بالمعيشة الضنك، وحشره يوم القيامة أعمى، بسبب إعراضه عن آيات الله وعماه عنها ونسيانها، وإسرافه وعدم إيمانه بآيات ربه. وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

٢٠- توبيخ المكذبين وتقريعهم كيف لم يعتبروا بكثرة القرون المهلكة قبلهم بسبب تكذيبهم؟ وهم يمشون في مساكنهم، ويرون آثارهم، مما فيه العظة لكل ذي عقل ولب، وتهديدهم بتعجيل العذاب لهم، لولا أن الله جعل له أجلاً مسمًّى.

٢١- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بأمره بالصبر على قولهم، والتسبيح بحمد ربه في عموم الأوقات، وعدم النظر إلى ما متعوا به من زهرة الحياة الدنيا فتنة لهم، فرزق الله خير وأبقى. وأمره ﷺ بأمر أهله بالصلاة والصبر عليها وتكفله عز وجل برزقه والعاقبة للتقوى.

٢٢- عتوّ المشركين وعنادهم بطلبهم منه ﷺ الإتيان بآية من ربه وقد جاءهم بينة ما في الصحف الأولى.

٢٣- بيان أنه عز وجل لو أهلكهم بعذاب من قبل إرسال الرسول ﷺ إليهم بالآيات، وقيام الحجة عليهم لقالوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك، كذبًا منهم، وتهديدهم بالتربص وانتظار العذاب، فكل متربص، وسيعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾.

قوله: ﴿طه ۝١﴾، من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها تسعًا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، منها هذه السورة، لإثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به، مع أنه مؤلف من الحروف التي ينطق بها العرب، وقد سبق الكلام عليها في مطلع سورة البقرة.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾، الخطاب للنبي ﷺ، واللام في قوله: ﴿لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ للتعليل، أي: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لأجل أن تشقى، بأن يكون فيه من التكاليف ما يشق عليك وعلى أمتك، بل يسرنا ذكره وتكاليفه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وأيضًا: ما أنزلنا عليك القرآن لأجل أن تشقى وتتعب، وتذهب نفسك حسرات على المكذبين والكافرين من قومك بغية أن يؤمنوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

فليس عليك هداهم، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وأيضًا: ما أنزلنا عليك القرآن وأمرناك بالعمل به، وتلاوته وقيام الليل به أنت

وأصحابك لتشقى بذلك، بل ليكون ذلك عنوان السعادة لكم وسببها؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار**».

فما أنزله الله تعالى عليه ﷺ إلا ليكون سببًا للسعادة والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة؛ كما هو مفهوم الآية، وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»(١).

وقال قتادة: «لا والله ما جعل شقاءً، ولكن جعله نورًا ورحمة ودليلًا إلى الجنة»(٢).

وقد أحسن القائل:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرًا ... وعند الله للأتقى مزيد(٣)

ففي إنزاله القرآن عليه ﷺ تكريم له وعناية به وبأمته، ومنة عظيمة منه تعالى عليهم، ورحمة بهم وإسعاد لهم؛ ولهذا قال:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾، «إلا»: للاستثناء المنقطع بمعنى: «لكن».

﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعول لأجله، و«مَن» موصولة، أي: لكن أنزلناه؛ ليكون تذكرة وعظة وعبرة للذي يخشى الله ويخاف عقابه، يهتدي به إلى العلم النافع والعمل الصالح، وإلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ [المدثر: ٥٤-٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وخص به من يخشى؛ لأنه هو الذي ينتفع بالتذكرة دون غيره، كما قال تعالى:

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٩).

(٣) البيتان للحطيئة. انظر: «ديوانه» (ص٣٢١).

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝﴾ [الأعلى: ١٠- ١١].

ويؤخذ من هذا أنه ليس عليك إلا أن تبلغ وتذكر بالقرآن، وليس عليك أن يؤمنوا لا محالة، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝﴾، بعد أن نفى عز وجل أن يكون أنزل القرآن عليه ﷺ ليشقى، وقرر أنه إنما أنزله عليه؛ لإسعاده وإسعاد أمته؛ أتبع ذلك بذكر جلالة هذا القرآن، وعظمة منزِّله، ورحمته، وكمال صفاته؛ إغراءً وحثًّا على الأخذ به.

﴿تَنزِيلًا﴾، مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نزلناه، «من»: موصولة، أي: من الخالق العظيم المتفرد بكمال الربوبية، الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة الأرض والسموات العلى، والكون بما فيه، ومعنى ﴿ٱلْعُلَى﴾، أي: اللاتي هن سقف هذا الكون وأعلاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قال الفرزدق(١):

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتًا دعائمه أعز وأطول

وقد أجابه جرير بقوله(٢):

أخزى الذي سمك السماء مجاشعًا ... وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

ثم بعدما بيّن كمال ربوبيته عز وجل أتبع ذلك ببيان كمال رحمته، وكمال علوه وكبريائه وعظمته، فقال:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾، «الرحمن» اسم من أسماء الله عز وجل، بل هو ثاني أسماء الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

يدل على إثبات صفة الرحمة له عز وجل وسعتها: رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، عامة وخاصة؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن

---

(١) انظر: «ديوانه» (٢/ ١٥٥).

(٢) انظر: «ديوان جرير» (ص٣٥٧).

يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، «العرش»: يطلق على سرير الملك، وعرشه عز وجل أكبر المخلوقات وأعظمها وأعلاها وأرساها.

والاستواء: بمعنى العلو والارتفاع، أي: استوى عز وجل على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم لما بين كمال ربوبيته وكمال رحمته وكمال علوه وكبريائه وعظمته؛ أتبع ذلك ببيان سعة ملكه، فقال:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، اللام: للملك والاختصاص، و«ما»: موصولة، أي له خاصة- خلقًا وملكًا وتدبيرًا- الذي في السموات والذي في الأرض، والذي بينهما من جميع المخلوقات.

﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، أي: وله الذي تحت الثرى، أي: الأرض وما تحتها، و«الثرى» في الأصل: التراب الندي.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾، معطوف على ما قبله، فبعد أن بين عز وجل سعة ملكه بين سعة علمه، أي: أنزله الذي له ملك كل ما في الكون، والذي يعلم الجهر من القول، كما يعلم السر وأخفى؛ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦].

و«السر»: ما أسر المرء في نفسه، و«أخفى»: ما حدث به نفسه من الخطرات.

أو السر: ما خطر على القلب، و«أخفى»: ما لم يخطر على القلب.

والمراد: أنه سبحانه محيط بجميع الأشياء كلها، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليها، فسواء أسررت في قولك أو جهرت به، فالكل سواء بالنسبة لعلمه عز وجل.

ولما بين عز وجل وقرر كمال ربوبيته، وعموم رحمته، وكمال علوه وعظمته، وسعة ملكه وعلمه، أتبع ذلك ببيان وتقرير وإثبات كمال إلهيته، استدلالًا بتوحيد الربوبية على

توحيد الألوهية؛ فقال:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، «الله» علم على ذات الرب، وهو أصل الأعلام، أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، وهو أصل أسمائه عز وجل، وتأتي أسماؤه عز وجل كلها تابعة له، وهو الاسم الأعظم من أسمائه عز وجل.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: لا معبود بحق إلا هو.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: له وحده الأسماء الكثيرة الكاملة، الحسنى من جميع الوجوه؛ الدالة على الحمد والثناء والمدح، وعلى جميع صفات الكمال؛ ولهذا أمر عز وجل عباده أن يثنوا عليه بها ويدعوه ويتعبدوا له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾.

٢- إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية، وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ الآية. وفي هذا إبطال لما ذهب إليه المعتزلة من القول بخلق القرآن، وما أثاروه من الفتنة والمحنة في ذلك أيام الخليفة المأمون(١).

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله سبحانه وتعالى علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا﴾، وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية.

٤- إثبات نبوته ﷺ بإنزال الكتاب عليه، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

٥- أن الله عز وجل ما أنزل القرآن عليه ﷺ ليشقى، بأن يُكلف ما يشق عليه وعلى أمته، ولا ليشقى ويتحسر أسفًا وندمًا على المكذبين له، ولا ليكون عمله بالقرآن، وتلاوته وقيامه الليل به شقاءً له، بل أنزله عليه ليسعد به هو وأمته في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، فمفهوم هذا: أنزلناه عليك لتسعد.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥٣-٥٥٥).

٦- أن الله عز وجل إنما أنزل القرآن تذكرة وعظة وعبرة لمن يخشى الله ويخاف عقابه، يهتدي به إلى معرفة الحق والعمل به، وينجو به من طريق الضلال والزلل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾.

٧- تعظيم القرآن الكريم ورفعة شأنه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية.

٨- تعظيم الله عز وجل لنفسه، وإثبات وتقرير كمال ربوبيته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ الآية.

٩- إثبات اسم الله عز وجل: «الرحمن»، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل: رحمة ذاتية ثابتة له سبحانه، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

١٠- إثبات استوائه عز وجل على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

١١- إثبات العرش، وهو أكبر المخلوقات وأعلاها وأرساها.

١٢- بيان سعة ملك الله عز وجل وعمومه، وأن له سبحانه خاصة كل ما في هذا الكون؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾.

١٣- سعة علمه عز وجل واطلاعه على الجهر، وعلى السر وأخفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾.

١٤- إثبات وتقرير كمال إلهيته عز وجل وتفرده وحده سبحانه بالعبودية، فلا إله غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٥- تعظيم الله عز وجل لنفسه، وامتداحه لها وثناؤه عليها بما له خاصة من الأسماء الحسنى، المتضمنة للصفات العلى؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾.

أعقب عز وجل تثبيت النبي ﷺ على التبليغ، والتنويه بشأن القرآن، وعظمة مُنَزِّله سبحانه، بذكر قصة موسى عليه السلام، وما جرى له منذ ولادته، وإلى أن بعثه الله وأرسله إلى فرعون، وما جرى له مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل؛ ليتأسى به ﷺ في الصبر على تحمل أعباء الرسالة، وتسلية له تجاه أذى المكذبين من قومه، وتحذيرًا لهم.

وهذه السورة من أوفى السور في ذكر قصة موسى، بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩﴾.

وقد ذكرت قصة موسى عليه السلام، وكررت في القرآن أكثر من غيرها مبسوطة ومختصرة؛ لأن اليهود في المدينة أهل جدل، فأراد الله أن يبين ما فيه دحض افترائهم، وأن يكون ﷺ أعلم بموسى منهم.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، الواو استئنافية، والاستفهام: للتشويق والتحقيق والتقرير، أي: قد أتاك وجاءك حديث موسى، أي: خبره العظيم وقصته العجيبة.

﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾، أي: إذ أبصر نارًا وهو في طريقه من فلسطين إلى مصر هو وأهله.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾، يبشرهم بعد أن لم يجد ما يقدح به النار:

﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: أقيموا؛ إني أبصرت نارًا؛ كما قال تعالى في سورة

القصص: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: أبصر من جانب جبل الطور الأيمن نارًا.

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، «لعل» للترجي، أي: أرجو أن آتيكم منها

﴿بِقَبَسٍ﴾، أي: بشهاب قبس وجذوة وشعلة من النار توقدون منها ناركم، وتصطلون بها وتصنعون عليها طعامكم؛ كما قال في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: ٧]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

قال ابن كثير[(١)] في مطلع كلامه على هذه الآيات: «من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصدًا مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلًا بين شعاب وجبال، في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند كان معه ليوري نارًا- كما جرت- فجعل لا يقدح شيئًا، ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارًا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: بشهاب من نار، وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وهي: الجمر الذي معه لهب ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾، دل على وجود الظلام».

قال السعدي[(٢)]: «وكان مطلبه النور الحسي، والهداية الحسية، فوجد النور المعنوي، نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بباله».

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٧٠.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٤٦.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، «أو» عاطفة، أي: أو أجد على النار من يهديني الطريق، وهذا يدل على أنه قد تاه عن الطريق.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، أي: فلما أتى النار التي آنسها من بعيد، واقترب منها.

قال السعدي[1]: «وكانت في الحقيقة نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره**»[2].

﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، أي: ناداه الله عز وجل؛ كما قال في سورة القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، وقال تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨]، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢].

﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الهمزة: «أَنِّي»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنِّىٓ﴾.

أي: إني أنا ربك، أي: الذي يناديك ويكلمك ربك؛ كما قال في آية القصص: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، فناداه عز وجل هنا باسم الربوبية، وناداه في آية القصص باسم الألوهية.

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، تعظيمًا لهذه البقعة المطهرة؛ ليطأ بقدميه أرضها المقدسة المباركة فينال من بركتها. وقيل: لأنهما كانتا من جلد حمار ميت[3].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٩، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٦/ ٢٣.

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾، «الوادي»: هو المفرج والسهل بين الجبال والتلال، و«المقدس»: المطهر المبارك المعظم؛ لأن الله اختاره لمناجاة كليمه موسى عليه السلام.

﴿طُوًى﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم بالتنوين: ﴿طُوًى﴾.

وقرأ الباقون: «طُوَى» بغير تنوين، وهو اسم للوادي، فهو عطف بيان.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، قرأ حمزة: «وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ» بتشديد النون: «أَنَّا»، و«اخْتَرْنَاكَ» بالنون المفتوحة وألف بعدها على لفظ الجمع.

وقرأ الباقون: «أنا» بتخفيف النون، و«اخترتك» بالتاء مضمومة من غير ألف على لفظ الواحد، أي: تخيرتك واصطفيتك على الناس.

كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، والمراد: الناس الموجودون في زمانه.

وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه توجب عليه تلقي ما أوحي إليه، وشكر الله تعالى؛ ولهذا قال الله تعالى في آية الأعراف: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى له هنا.

﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط، و«ما»: موصولة، أي: فاستمع للذي يوحى إليك، أي: فألق سمعك للذي أوحيه إليك.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾، هذا تفسير وبيان لـ«ما» في قوله: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، أي: إنني أنا المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، أي: لا إله غيري، ولا معبود بحق سواي.

﴿فَٱعْبُدْنِي﴾، الفاء: رابطة للمسبب بالسبب، أي: فاخضع وذل لي، وأخلص لي أنواع العبادة كلها، لا شريك لي.

وهذا هو حق الله على العباد، وأول وأعظم واجب عليهم؛ كما قال ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٥٩٦٧، ومسلم في الإيمان ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، معطوف على ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأهمية الصلاة، فهي أعظم العبادات كلها، وأفضلها وأشرفها، متضمنة عبودية القلب واللسان والجوارح.

والصلاة في اللغة: الدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي في الشرع: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

﴿لِذِكْرِىٓ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تذكرني فيها بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لأن الصلاة تذكِّر بالله تعالى، أي: صل لتذكرني؛ لأن ذكره عز وجل أجل المقاصد.

قال ابن القيم: «قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: لأذكرك بها، وقيل: مضاف إلى المذكور، أي: لتذكرني بها»(١).

ويجوز كونها للتوقيت، أي: صل الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكري، أي: صل الصلاة لوقتها؛ كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

وأيضًا: صل الصلاة حين تذكرها، فعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾**»(٢).

والأظهر أنها لام التعليل، أي: وأقم الصلاة لأجل ذكري.

قال ابن القيم: «ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ٥٩٧، ومسلم في المساجد، قضاء الصلاة الفائتة ٦٨٤، وأبو داود في الصلاة ٤٤٢، والترمذي في الصلاة ١٧٨، وابن ماجه في الصلاة ٦٩٦.

فذكر الله سابق على ذكره؛ فإنه لما ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق»(١).

فالصلاة- بل العبادات كلها- شرعت لذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ولهذا قال ﷺ: «**إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»(٢).

قال السعدي(٣): «وهذا النوع يقال له: توحيد الألوهية وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده».

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، الجملة: تعليلية، أي: لأن الساعة آتية، أي: واقعة لا محالة، وكائنة ولا بد؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، أي: أقارب أن أخفيها، أي: أسترها من نفسي؛ لشدة إخفائي إياها.

قال ابن عباس: «لا أظهر عليها أحدًا غيري(٤)».

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٣.

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك ١٨٨٨، والترمذي في الحج ٩٠٢، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٤٨.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٤).

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥].

فهي غيب استأثر الله بعلمها وأخفاها عن الخلائق، لم يطلع عليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجزى كل نفس بما تسعى، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تسعاه، أو بسعيها، أي: عملها وكسبها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

والمعنى: إن الساعة قائمة وواقعة لا محالة؛ لأجل أن تجزى كل نفس بسعيها وعملها خيرًا كان أو شرًّا، وأخفيت علم وقوعها عن الخلائق؛ ليجتهدوا في العمل، ويتنافسوا في الاستعداد لها.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا﴾، أي: فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، والاستعداد لها، والخطاب لآحاد المكلفين.

﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾، «من» موصولة، أي: الذي لا يصدق بالساعة بل يكذب بها ويشكك ويجادل فيها بالباطل، قد أنكر البعث والحساب والجزاء على الأعمال، واغتر بدنياه.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي: اتبع ما تهواه نفسه الأمارة بالسوء، وآثر ذلك على طاعة مولاه، فخسر دينه ودنياه وأخراه.

﴿فَتَرۡدَىٰ﴾، جواب النهي، أي: فتهلك وتخسر وتشقى مثله، قال تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ١١]، أي: إذا هلك.

واتباع الهوى مردٍ ومهلك، قال الشاعر:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

---

(١) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤)، وانظر: «العقد الفريد» (٢/ ١١٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

لما بين عز وجل لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى به إيمانه؛ بتأييد الله له على عدوه.

قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، الاستفهام: للتقرير والتنبيه والاهتمام والإيناس لموسى عليه السلام، أي: ما هذه التي في يمينك يا موسى.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾، أي: أعتمد عليها في قيامي وفي مشيي.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أي: أهز بها الشجر ليتساقط ورقه فترعاه غنمي.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾، أي: حاجات ومنافع ومصالح أخرى غير ذلك، كأن يضعها عنزة له في صلاته، أو يدفع بها عن نفسه الأذى ونحو ذلك.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾، أي: ألق هذه العصا التي في يدك يا موسى، أي: اطرحها على الأرض، ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾، أي: طرحها على الأرض.

﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾، الفاء عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هي ثعبان تسعى، أي: فإذا هي قد انقلبت ثعبانًا عظيمًا مخيفًا، ﴿تَسْعَىٰ﴾، أي: تمشي بسرعة وخفة وشدة، وتضطرب، وتهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات مشيًا وحركة، فولى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب؛ كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: ١٠]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: ٣١].

وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لتوهم أنها تخييل لا حقيقة؛ كما هو حال سحر السحرة.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، أي: فلا بأس عليك منها.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، «سيرتها» منصوب بنزع الخافض، أي: سنعيدها إلى سيرتها الأولى، أي: سنرجعها إلى هيئتها وطبيعتها الأولى، أي: سنعيدها عصًا كما كانت من ذي قبل، وهذه هي الآية الكبرى؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النازعات: ٢٠].

فامتثل أمر الله إيمانًا وتسليمًا، فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، الضم: الإلصاق. والجناح: العضد وما تحته إلى الإبط.

أي: واضمم وألصق يدك، أي: كفك، إلى جنبك تحت عضدك، أدخلها في جيب قميصك حتى تماس بشرة جنبك.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: تخرج بيضاء بياضًا ساطعًا.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير مرض كالبرص والبهق ونحو ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾، أي: آية ثانية غير الآية الأولى، فالآية الأولى: انقلاب العصا حية تسعى.

والآية الثانية: أن يلصق يده إلى جنبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢].

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾، أي: أعطيناك هاتين الآيتين: العصا واليد؛ لأجل أن نريك ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، أي: من حججنا وبراهيننا العظيمة التي هي غاية في الكبر، الدالة على كمال قدرتنا وعلى صدق رسالتك وصحة ما جئت به؛ ليطمئن قلبك وتثق بوعد الله ونصره وحفظه لك، ولتكون حجة على من أرسلناك إليهم.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وتقريره بما جاءه من خبر موسى عليه السلام وقصته العظيمة العجيبة، وعناية الله تعالى به قبل بعثته وبعدها، وما أيده الله به من المعجزات، وما جرى له مع فرعون، ومع بني إسرائيل؛ ليتأسى به في الصبر في تحمل أعباء الرسالة، وتسلية له تجاه

المكذبين من قومه، وتحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وتكريمه.

٣- فضيلة موسى عليه السلام، وعظم ما حفلت به قصته قبل مبعثه وبعد مبعثه من الآيات والدروس والعبر؛ لهذا كانت قصته أكثر القصص ذكرًا وورودًا في القرآن الكريم.

٤- رؤية موسى عليه السلام نارًا، واستبشاره بذلك، وأمره أهله بالمكث، وإخباره إياهم أنه آنس نارًا، راجيًا أن يأتيهم منها بقبس أو يجد على النار هدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾.

٥- حاجة موسى وأهله في تلك الحال إلى ما يشعلون به النار للاصطلاء عليها من البرد وصنع طعامهم؛ كما قال في الآيتين الأخريين: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، [القصص: ٢٩].

٦- أن موسى عليه السلام قد ضل الطريق؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، أي: من يهديني الطريق.

٧- مناداة الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أتى إلى النار التي رآها وآنسها، وتكليمه له، وثبوت نبوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ الآيات.

٨- إثبات الكلام لله عز وجل، وأنه يتكلم بحرف وصوت يُسمع من شاء، وأنه نادى موسى عليه السلام وكلمه؛ لقوله تعالى: ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ الآيات.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى، إضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام.

١٠- تطهير وادي «طوى» وتعظيمه؛ لأن الله أمر موسى عليه السلام بخلع نعليه، تعظيمًا لهذا الوادي.

١١- أن الله فضل بعض البقاع على بعض، ففضل وادي طوى؛ كما جعل مكة أفضل البقاع.

١٢- إثبات اختيار الله عز وجل لموسى عليه السلام- واصطفائه ووحيه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

١٣- إثبات الألوهية لله تعالى، وأنه هو الإله المعبود بحق، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا﴾.

١٤- وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾.

١٥- أن أول واجب على الخلق، وأعظم حق لله تعالى عليهم؛ هو توحيده بالألوهية، وعبادته وحده لا شريك له.

١٦- أن من لازم توحيد الربوبية توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وقوله بعده: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾.

١٧- وجوب إقام الصلاة، وأنها أعظم العبادات؛ لهذا خصها بالذكر من بين العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

١٨- أن الله تعالى شرع الصلاة؛ لأجل ذكره عز وجل؛ كما شرع جميع العبادات لذلك، ففيها ذكر الله تعالى، والتذكير به عز وجل، وذكره عز وجل لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

١٩- أن المهم في الصلاة أن تقام إقامة صحيحة بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقل: «فصل».

٢٠- إثبات الساعة والقيامة، وأنها آتية لا ريب فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾.

٢١- شدة إخفاء الله عز وجل لعلم الساعة، وأنها من أعظم الغيوب التي استأثر الله تعالى بعلمها، لم يطلع عليها أحدًا من خلقه، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ

مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٦].

٢٢- أن الحكمة في إتيان الساعة وإقامة القيامة لأجل أن تجزى كل نفس بسعيها، خيرًا كان أو شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

٢٣- أن إخفاء الساعة والقيامة؛ لأجل أن يجتهد العباد في العمل والاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

٢٤- كمال عدل الله عز وجل بين العباد، فلأجل ذلك أثبت إتيان الساعة؛ ليقتص للمظلوم من الظالم في ذلك اليوم، ولأجل أن يجازى العباد حسب أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

٢٥- الترغيب والإغراء بالإيمان والعمل الصالح، والترهيب والتحذير من الكفر والمعاصي؛ لأن كل إنسان سيلقى جزاء عمله خيرًا كان أو شرًّا.

٢٦- التحذير ممن لا يؤمنون بالساعة ويصدون الناس ويصرفونهم عنها، ويشككونهم فيها، وأن من سلك سبيلهم فمآله كمآلهم: الهلاك والردى، والخسران والبوار؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

٢٧- التحذير من اتباع الهوى، وأنه سبب للهلاك والردى.

٢٨- طمأنة الله عز وجل لموسى عليه السلام، وإيناسه له قبل أن يريه الآيتين: في عصاه، وفي يده بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

٢٩- اتخاذ موسى عليه السلام العصا، للاعتماد عليها عند قيامه ومشيه، وليهش بها على غنمه، ولحاجاته الأخرى؛ لقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨].

٣٠- أن اتخاذ العصا- حتى ولو كان الإنسان نشيطًا وغير كبير- ليس عيبًا؛ لأن موسى عليه السلام اتخذها وهو نشيط وغير كبير.

٣١- تأييد الله عز وجل لموسى عليه السلام بالمعجزة العظمى، وهي انقلاب عصاه إذا ألقاها حية تسعى، ومن ثم أخذها وعودتها عصا كما كانت؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

٣٢- تأييده عز وجل له بآية أخرى، وهي أن يضمم يده إلى جناحه ويدخلها في جيبه فتخرج بيضاء تسطع بياضًا من غير برص ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

٣٣- منة الله تعالى على موسى عليه السلام بما أيده به وأراه من الآيات الكبرى، والمعجزات العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

٣٤- قدرة الله تعالى التامة على تأييد رسله وأنبيائه بما شاء من الآيات والمعجزات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

لما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام، وأراه الآيات الكبرى؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارًّا منه وهاربًا، فادعه وبلغه ما أرسلناك به إليه.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، الجملة تعليلية، أي: لأنه طغى، أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد، والعتو والتمرد والعناد، والبغي والعلو في الأرض وظلم العباد، فادعى الربوبية والإلهية، وأضل قومه وعذب بني إسرائيل وآذاهم أشد الأذى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام وقد تلقى أمر الله تعالى له بالذهاب إلى فرعون بالقبول، سائلًا ربه الوسائل المعينة على ذلك، معدًّا لذلك الأمر العظيم عدته، حيث بعثه الله إلى أعظم ملوك الأرض آنذاك، وأشدهم كفرًا وتجبرًا، وعنادًا وطغيانًا.

مع شدة عداوته لموسى الذي تربى في بيته، وما حصل من موسى من قتل القبطي من قوم فرعون، ومع هذا كله لم يتردد موسى عليه السلام في إجابة أمر الله تعالى له، لكنه سأله فقال:

﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، أي: يا رب اشرح لي صدري، أي: وسِّعه وأفسحه بالحلم والصبر؛ لأستطيع القيام بهذا الأمر العظيم، وأتحمل في سبيل ذلك الأذى القولي والفعلي، فلا يضيق صدري بذلك فينفض الناس من حولي ولا يقبلوا قولي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥].

وهذا أعظم مطلب يحتاجه الداعي إلى الله، وذلك لأن من كان ضيق الحشا، سريع الانفعال والغضب؛ لا يصلح لهداية الخلق؛ لأنه لا يصبر على أذاهم، ولا على

معالجتهم، ويستعجل جني الثمرة قبل أوانها، وأكثر الخلق يرد الحق، حتى ولو جاء به حليم واسع الصدر، فكيف إذا جاء به من ليس كذلك؟!

﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦﴾، أي: سهل لي شأني، أي: جميع أموري بعونك وتسديدك لي، وهذا من أعظم المطالب، وأكبر أسباب التوفيق للعبد؛ أن ييسر الله له أمره ويعينه؛ فإن العبد لا يستطيع أن يعمل أي شيء إلا بتيسير الله وعونه، وقد أحسن القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده(١)

ومن أعظم التيسير للداعي إلى الله: أن يوفق للدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإتيان الأمور من أبوابها، ومخاطبة كل بما يناسبه، وبأقرب الطرق إلى قبول قوله.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ۝٢٨﴾، أي: حل عقدة من لساني، أي: خفف ما في لساني من العقدة واللثغة والعي، التي لا أستطيع بسببها الإفصاح بالقول؛ ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾ [الشعراء: ١٣].

وجملة ﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ في محل نصب مفعول لأجله، أي: لأجل أن يفقهوا قولي، أي: يعوه ويفهموه.

ولم يقل عليه السلام: «واحلل عقدة لساني»، بل سأل قدر الحاجة، فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾، أي: بقدر ما يفقهوا ويفهموا المعنى.

وقد استجاب الله له فحل عقدة من لسانه، لكن بقيت في لسانه بقية من لثغة، ولو سأل الله زوالها لزالت بالكلية.

ولهذا عيَّره فرعون- أخزاه الله- بقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف: ٥٢].

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩﴾، «الوزير»: مأخوذ من المؤازرة والمساعدة والمعاونة، أي: اجعل لي مؤازرًا ومساعدًا ومعينًا.

---

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

﴿مِّنْ أَهْلِي﴾؛ لأنهم أولى بالمعروف والبر، وأشفق وأنصح، والمرء أعرف بهم من غيرهم.

﴿هَٰرُونَ﴾، بدل من ﴿وَزِيرًا﴾، ﴿أَخِي﴾، عطف بيان لـ«هارون»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**وكان هارون أكبر من موسى**»(١).

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١﴾، قرأ ابن عامر: «أَشْدُدْ» بقطع الهمزة وفتحها، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وضمها: ﴿ٱشْدُدْ﴾.

أي: قوِّني به، وشُدَّ به ظهري؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥].

﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾، قرأ ابن عامر بضم الهمزة: «وأُشركه»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾، أي: أشركه في شأني ومشاورتي، واجعله نبيًّا رسولًا كما جعلتني.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣﴾، أي: كي نسبحك تسبيحًا كثيرًا، والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾، أي: ونذكرك ذكرًا كثيرًا بأنواع العبادة كلها، من التهليل والتحميد والتكبير، وقراءة القرآن والصلاة، وغير ذلك.

وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة والغاية من بعثة الرسل: هي عبادة الله تعالى وتعظيمه، وأنها أكبر معين للداعي إلى الله ولكل مؤمن في تيسير أمر دينه ودنياه.

أي: كي نتعاون ونتساعد على تسبيحك كثيرًا، وذكرك كثيرًا في سائر الأوقات والأحوال، آناء الليل والنهار، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبنا.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾، أي: تعلم أحوالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إلى عونك في جميع أمورنا، وقد أوليتنا عنايتك ورعايتك في اصطفائك إيانا بالنبوة، فمنَّ علينا بما سألناك، واستجب لنا فيما دعوناك، قال النابغة الذبياني(٢):

عهدتك ترعاني بعين بصيرة ... وتبعث حراسًا عليَّ وناظرًا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ ٥٦١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٨١).

الفوائد والأحكام:

١- بعث موسى عليه السلام إلى فرعون مصر في زمانه، يدعوه إلى الله عز وجل، ويبلغه ما أرسل به إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾.

٢- شدة طغيان فرعون وتجبره وعناده وتكبره، وتجاوزه الحد في الكفر والبغي والظلم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

٣- استجابة موسى عليه السلام لأمر الله له بالذهاب إلى فرعون، وتقديره وإعداده في نفسه لهذا الأمر الخطير قدره وعدته، وتحمله عليه السلام تجاه ذلك مسؤوليته؛ لهذا سأل ربه عز وجل أسباب العون على ذلك، بأن يشرح صدره، وييسر أمره، ويحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن يجعل أخاه هارون وزيرًا له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢﴾.

٤- أن من أعظم الأسباب لنجاح الداعي إلى الله تعالى في دعوته: أن يشرح الله صدره؛ ليتحمل ما يلاقيه من الأذى والمكابرة والعناد بحلم وأناة، وصبر وسعة صدر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥﴾.

٥- أن فقدان الحلم، وسرعة الانفعال والغضب، وضيق الصدر، وعدم التحمل والصبر؛ من أسباب إخفاق الداعي.

٦- أن نعمة انشراح الصدر للإسلام أعظم النعم، بها يستنير القلب بنور الله، ويهتدي بهدى الله، وبها ينشط العبد للقيام بأمر الله، وما ينفعه في أمر دينه ودنياه؛ لهذا سأل موسى ربه ذلك، بل وجعله أول مطالبه.

٧- أن قيام الإنسان بالدعوة إلى الله تعالى، أو بأي عمل كان؛ مرهونٌ بتيسير الله تعالى له أمره، فإن لم ييسر الله له أمره لم يستطع القيام بشيء؛ لهذا ينبغي التضرع دائمًا إلى الله تعالى بذلك؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾.

٨- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه؛ لما فيه من اللثغة، مما لا يستطيع معه إفهام قومه؛ لهذا سأل الله تعالى ذلك؛ لقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾.

٩- أدب موسى كغيره من الأنبياء عليهم السلام في الاقتصار في سؤاله على ما تدعو الحاجة إليه، وما تحصل به الكفاية في فهم قوله؛ لقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾، ولم يقل: «واحلل عقدة لساني».

١٠- حاجة الداعي إلى الله تعالى إلى لسان فصيح يبين فيه الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويرغب في الحق والهدى، ويحذر من الباطل والضلال والردى.

١١- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يجعل أخاه هارون وزيرًا له، يشدد به أزره، ويشركه في أمره بالنبوة، وفي هذا- مع تقديره للأمر قدره- اعتراف منه عليه السلام بحاجته إلى من يكون له عونًا في هذا الأمر العظيم؛ لقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾.

١٢- عظم مكانة موسى ووجاهته عند ربه؛ ولهذا أجاب الله سؤاله وشفاعته في جعل أخيه هارون نبيًّا ووزيرًا له؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩].

١٣- أن الأهل والأقربين أولى بالمعروف والبر؛ لقول موسى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾.

١٤- بر موسى بأخيه هارون عليهما السلام غاية البر؛ حيث شفع فيه عند الله أن يجعله نبيًّا وزيرًا له؛ ولهذا قالوا: إن أنفع أخ لأخيه في الدنيا موسى عليه السلام؛ حيث سأل الله لأخيه النبوة، فاستجاب الله له(١).

١٥- سلامة قلب موسى عليه السلام، وصفاء ما بينه وبين أخيه هارون؛ ولهذا خصه بالوجاهة له عند ربه.

وقل أن تجد أخًا يرشح أخاه ليكون وزيرًا له، ولو كانت فيه الكفاءة، بل يبحث عن غيره، حكمة بالغة.

١٦- تمام معرفة موسى عليه السلام بربه، وما ينبغي له سبحانه من التعظيم، ومعرفته للحكمة العظمى من إيجاد الخلق وإرسال الرسل، وهي عبادة الله تعالى والمنافسة في ذلك؛ وأن ذلك هو الغذاء الروحي الذي هو أكبر معين للداعي إلى الله؛

لقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

١٧- الترغيب في الإكثار من تسبيح الله تعالى وذكره وعبادته، وأن ذلك أعظم معين للعبد لتيسير أمور دينه ودنياه.

١٨- علم الله الواسع، واطلاعه التام على أحوال العباد، وعلى حال موسى وأخيه، وافتقارهما إلى عونه، وعنايته بهما واصطفائهما بالنبوة؛ لقول موسى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

١٩- إظهار موسى افتقاره وأخيه إلى الله عز وجل البصير بهما؛ ليَمنَّ عليه بالاستجابة لما سأله ودعاه، وقد فعل كما في الآيات التالية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل إخبارًا لموسى بإجابته سؤاله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، أي: قد أعطيت سؤلك يا موسى، أي: قد أعطيتك ما سألت، وأجبتك فيما طلبت: من شرح صدرك، وتيسير أمرك، وحل عقدة من لسانك؛ ليفقهوا قولك، وجعل أخيك هارون وزيرًا لك.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧﴾، بعدما وعده عز وجل بإجابة سؤاله، أتبع ذلك بما يقوي تحقق هذا الوعد وتقريره؛ وهو سابق منته تعالى عليه، وأن هذه ليست المنة الأولى؛ فقد سبقها غيرها.

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد، و«قد» حرف تحقيق، ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾، أي: أنعمنا عليك مرة أخرى قبل هذه المنة والنعمة، من غير سابق دعاء منك ولا طلب.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾، أي: حين أوحينا إلى أمك، أي: ألهمناها ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾، «ما» موصولة، تفيد أهمية ما أوحي إليها، أي: الذي أوحيناه إليها، وألهمناها إياه وأنت رضيع: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾، «أن» تفسير للفعل «أوحينا» أو للفعل «يوحى»، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل نصب بدل من «ما» الموصولة، وضمير الهاء يعود إلى موسى، أي: أن ألقيه وضعيه في التابوت، و«التابوت»: الصندوق.

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، الفاء في الموضعين عاطفة، والهاء في الموضعين تعود إلى موسى أو إلى التابوت.

﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، أي: في البحر، والمراد به: نهر النيل، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ الفاء: عاطفة، و«الساحل»: شاطئ النهر.

والمعنى: فألقيه وضعيه في اليم ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ كونًا وقدرًا، ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾، أي: بالشاطئ خارج النهر.

وذلك أن فرعون رأى رؤيا: أنه سيولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكه على يديه، فكان يقتل المواليد الذكور منهم، وكانوا يستعملونهم في الخدمة، فخوِّف أن يفنى بنو إسرائيل، فكان يقتل المواليد عامًا ويتركهم عامًا، فولد موسى في العام الذي يقتل به المواليد، فخافت أمه من فرعون وملئه أن يقتلوه، فألهمها الله أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، فكانت ترضعه، فإذا خافت عليه وضعته في تابوت وألقته في البحر، وأمسكته إلى منزلها بحبل، فانفلت منها الحبل يومًا وذهب به البحر فألقاه بالساحل إلى حيث دار فرعون، ولهذا قال:

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾، وهو فرعون عدو الله؛ لادعائه الربوبية والألوهية، وإنكاره ألوهية الله، بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وهو عدو لموسى عليه السلام عداوتان: عداوة قديمة؛ لأنه من بني إسرائيل الذين يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، أنجاه الله من قتله بأعجوبة كما ذكر الله تعالى في هذه الآيات وغيرها.

وعداوة جديدة أشد وأعظم؛ لأن موسى عليه السلام أنكر على فرعون دعواه الربوبية والألوهية، ودعاه إلى توحيد الله تعالى وحده، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه.

وهذه سبب عداوته القديمة له.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، أي: وجعلت لك محبة مني، فأحببتك وحببتك إلى خلقي، حتى أحبك فرعون وزوجته.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان اللام وجزم العين: «وَلْتُصْنَعْ».

وقرأ الباقون بكسر اللام ونصب العين: ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾، أي: ولتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي وتحت رعايتي وعنايتي، وكفى به حافظًا؛ حيث جعله يتربى في بيت الملوك، وعلى فراش ألد أعدائه، حكمة بالغة، وعناية فائقة.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾، الاستفهام: للعرض، أي: هل أدلكم على من يربيه ويضمن حضانته ورضاعه، وذلك أنه لما عرض عليه المراضع من آل فرعون أباها؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢]؛ لأنها علمت أنه سيقبل ثدي أمه، وهكذا حصل فاستأجروها لإرضاعه.

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، أي: كي تطيب نفسها برؤيتك، ورجوعك إليها ووجودك عندها، فأكرمها الله بسببه فلم تفارقه إلا ساعات قلائل، عناية من الله عز وجل به.

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، على فراقك، وتتحقق من سلامتك؛ كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣].

فجمع الله لها بين قرة العين به وذهاب الحزن، والأجر الأخروي والغنم الدنيوي.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾، يعني: القبطي من آل فرعون؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ١٥].

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أي: فخلصناك من الغم والهم بسبب عزم آل فرعون على قتلك قصاصًا بقتيلهم؛ كما قال عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠-٢١].

حتى ورد ماء مدين وقال له الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾؛ «فتونًا»: مصدر فتنه يفتنه فتنًا، أي: ابتليناك ابتلاء، وامتحناك

واختبرناك.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً، فقال الله له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾**»(١).

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، أي: وأقمت سنين طويلة في أهل مدين، وذلك بعدما خرج هاربًا من فرعون وملئه خوفًا أن يقتلوه، ووصل إلى أهل مدين وتزوج منهم، وأقام فيهم معززًا عشر سنين أو ثمانيًا يرعى على صهره، فلما قضى الأجل المضروب بينه وبينه خرج وسار بأهله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩].

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾، أي: على قدر مقدر لتكليم الله لك، ووحيه إليك وإرسالك، لم تتقدم عنه ولم تتأخر، قال جرير(٢):

جاء الخلافة أو كانت له قدرًا ... كما أتى ربه موسى على قدر

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾، «الاصطناع» في الأصل: اتخاذ الصنيعة، وهي الخير تهديه إلى غيرك، قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها ... وجه الذي يولي الصنائع أو دع(٣)

والمعنى: اصطفيتك واجتبيتك واخترتك واختصصتك لنفسي؛ لتبليغ وحيي ورسالتي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**التقى آدم موسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس، وأخرجتهم من الجنة؟ قال: نعم، قال: فوجدته قد كتب علي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٣٩٠٥، والطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٦٣.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٢١١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، والترمذي في القدر ٢١٣٤.

الفوائد والأحكام:

١- استجابة الله عز وجل دعاء موسى وسؤاله، بشرح صدره، وتيسير أمره، وحل عقدة من لسانه، وجعل أخيه هارون وزيرًا له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه: ٣٦].

٢- تذكير الله عز وجل لموسى بمنته السابقة عليه بإنجائه من قتل فرعون بأعجوبة وقدرة تامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾ الآيات.

٣- إلهام الله عز وجل لأم موسى أن تلقيه في تابوت وتلقيه في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، وذلك بعد إرضاعه إذا خافت عليه من فرعون أن يقتله؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧].

٤- حكمة الله تعالى وقدرته وقدره المبرم في جعل البحر يلقيه بالساحل حيث دار فرعون؛ ليأخذه عدو الله وعدو موسى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

٥- أن الحذِر قد يؤتى من مأمنه، وأن الحذَر لا ينجي من القدر، فقد تربى موسى في بيت فرعون الذي كان يقتل غلمان بني إسرائيل حذرًا منه، وهو الذي هلاك فرعون وزوال ملكه على يده.

٦- أن من تسخير الله تعالى لموسى أن ألقى عليه المحبة، فأحبه عز وجل وحببه إلى خلقه، حتى أحبه فرعون وزوجته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾.

٧- عناية الله تعالى التامة بموسى، وجعله يتربى على نظره، وفي حفظه، وتحت كلاءته ورعايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

٨- أن من عناية الله تعالى بموسى عليه السلام وبأمه: أن حرم عليه المراضع كونًا؛ ليرده إلى أمه لترضعه وتقر عينها ولا تحزن؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾، وهذا بعد أن حرم الله

عليه المراضع؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٢- ١٣].

٩- امتنان الله عز وجل على موسى بإنجائه من الغم وخوف القتل، بسبب قتله القبطي؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

١٠- ابتلاء الله عز وجل لموسى بأنواع الابتلاء وامتحانه واختباره وتمحيص الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾.

١١- أن من قدر الله له السلامة سلم مهما ألمت به الحتوف والخطوب، فهذا موسى عليه السلام يلقى في البحر فينجو، ويصير إلى بيت فرعون عدو الله وعدوه، فيسلم من شره وبطشه.

١٢- لبثه عليه السلام في أهل مدين معززًا عشر سنين أو ثمان سنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، ومن ثم خروجه منهم وسيره بأهله بعد أن قضى الأجل المضروب بينه وبين صهره في الرعي؛ كما قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩].

١٣- مجيء موسى عليه السلام- بعدما قضى الأجل بينه وبين صهره- على قدر مقدر لم يتقدم ولم يتأخر؛ لتكليم الله تعالى له بالوحي والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

١٤- اصطناع الله عز وجل موسى لنفسه، واصطفاؤه واجتباؤه واختياره لتبليغ وحيه عز وجل ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، أي: اذهب يا موسى، أنت وأخوك هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي، الدالة على صدقكما وصدق ما جئتما به من الحق وعلى إبطال الباطل؛ من العصا واليد وغيرهما من الآيات التسع؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠١- ١٠٢].

﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾، أي: ولا تضعفا ولا تفترا في ذكري، بل اذكراني على الدوام، والزما ذكري باستمرار في جميع الأحوال؛ كما وعدتما بقولكما: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

وذلك لأن ذكر الله أعظم معين في الملمات، وأكبر قوة وسلطان في مواجهة الخطوب؛ ومن أهم أسباب تيسير الأمور؛ ولهذا أمر الله تعالى به وقت الجهاد والقتال والجلاد، قال تعالى بعد أن ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وشرعه في ختام الأعمال من الصلاة والصيام والحج، وغير ذلك.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، «إن»: تعليلية، أي: لأنه طغى، أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد، والظلم والبغي والعناد، وادعى الربوبية والإلهية وتطاول على رب العباد.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: قولًا سهلًا رقيقًا لطيفًا برفق وأدب؛ لأن ذلك أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع؛ كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ١٨- ١٩]، فخاطبه عليه السلام بقوله: ﴿هَل لَّكَ﴾، الدالة على العرض والمشاورة، ولم يأمره أمرًا، أو ينكر عليه، أو ينهه.

وهكذا أمر الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ وأمته بذلك، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۝١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: لعله يتعظ ويعرف الحق ويتبعه، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: أو يخشى الله ويخاف عقابه، فينتهي عما هو عليه من المعارضة واتباع الهوى.

قال ابن تيمية: «الذي يذَّكر الذي إذا عرف الحق وتبين له اتبعه، فهو الذي يدعى بالحكمة، وهو الذي يتذكر، وهو الذي يُحدث القرآن له ذكرًا.

والثاني: أن يكون له من الهوى المعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة، وهذا هو القسم المذكور في قوله: ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾، فقوله «سبحانه»: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] طلب وجود أحد الأمرين، بتبليغ الرسالة، وجاء بصيغة «لعل»؛ تسهيلًا للأمر، ورفقًا وبيانًا؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول الآخر، فلا يطلبان جميعًا في الابتداء»(١).

فالقول اللين داعٍ للتذكر والخشية وقبول الحق وترك الباطل، والقول الغليظ بخلاف ذلك داعٍ لرد الحق والتمادي في الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾.

قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا، ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾، أي: أن يعاجلنا ويبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة.

﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾، أي: أو أن يتمرد ويزداد طغيانًا، اغترارًا بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله لهما: ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾ أن يفرط فرعون عليكما.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، معية خاصة، بتوفيقي وحفظي لكما، وتأييدكما، ودفع شره عنكما، ونصركما عليه.

﴿أَسۡمَعُ﴾، أي: أسمع كلامكما وكلامه.

﴿وَأَرَىٰ﴾ مكانكما ومكانه، وأعمالكما وأعماله، وأرقب أحوالكم؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥﴾ [الشعراء: ١٥].

فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بحفظ الله لهما، وهو خير الحافظين؛ ولهذا قال:

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، أي: إنا أرسلنا من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره دونهما في هذا الموضع والذي بعده استدعاء لسمعه وطاعته؛ كما أن فيه إشعارًا له بكذب دعواه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أطلقهم من الأسر والعبودية وسرحهم، واتركهم يذهبون معنا؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ [الشعراء: ١٦- ١٧]، وقال في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾ [الأعراف: ١٠٤- ١٠٥].

﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾، بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، واستعبادهم، وتسخيرهم بالخدمة

والأعمال الشاقة.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، «قد»: حرف تحقيق، أي: قد أتيناك بدلالة ومعجزة من ربك، وعلامة تدل على صدقنا، وأن ما جئناك به هو الحق من ربك.

ووحد «آية» مع أن معه آيتين؛ لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها، فكأنه قيل: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة، ولذلك قال في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

ويحتمل أن المراد بـ«آية»: جنس الآيات، كاليد والعصا؛ ولهذا لما قال فرعون بعد هذه: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأعراف: ١٠٦]، قال الله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧- ١٠٨].

ويحتمل أن المراد بالآية هنا: الآية الكبرى وهي العصا؛ كما في قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النازعات: ٢٠].

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾، أي: والسلام على الذي اتبع الهدى، أي: أن من اتبع الهدى الذي أرسل الله به الرسل حصلت له السلامة، وفي هذا ترغيب باتباع الهدى، أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

وهذا ليس بسلام تحية، بل هو خبر محض، بأن السلام المطلق على من اتبع الهدى، أي: أن السلامة له، دون من خالف الهدى، فإن له العذاب؛ كما قال تعالى بعد هذا: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

قال ابن القيم: «أما قول موسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ فليس بسلام تحية؛ فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض؛ فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه؛ فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾»(١).

ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا كان أوله: «**بسم الله**

الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»(١).

وكتب إلى مسيلمة الكذاب: «**سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين**»(٢).

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ أي: قد أوحى الله تعالى إلينا وأخبرنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل لـ«أوحي»، أي: أن العذاب في الدنيا والآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: على الذي كذب بقلبه بآيات الله وما جاءت به الرسل.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: وأعرض عن الانقياد لذلك بجوارحه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل: ١٤- ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١- ٣٢]، أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٤٩- ٥٢].

قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام للإنكار، أي: قال فرعون منكرًا ربوبية الله تعالى، ومنكرًا وجود الخالق الصانع: أي إذا كان الأمر كما تقول فمن هو ربكما يا موسى؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام إجابة لفرعون:

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾، أي: الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، والملائم له، من حيث شكله وصورته ولونه وحسنه وكبره

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/ ٢٤)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/ ١٤٨)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٥٧٢).

وصغره وجميع صفاته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾، أي: ثم هدى كل مخلوق لما خلق له، قدرًا وشرعًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قال ابن القيم: «والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه».

وقال أيضًا: «والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون»(١).

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١﴾، لما أخبره موسى بأن ربهما ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾، ولم يتمكن فرعون من رد هذا الدليل القاطع حاد عن المقصود، وأخذ بالمراوغة، فشرع يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا الله، أي: إذا كان الأمر كما تقول، فما بال القرون السالفة والأمم الماضية الذين لم يقروا بهذا الرب ولم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ أي: أن هذا لم يخف عليهم ولم يهملوه.

وهذا احتجاج فاسد؛ إذ كيف يعارض الإقرار بربوبية رب العالمين وألوهيته بكفر الكافرين وشرك المشركين؟! هذا في غاية الفساد والبطلان.

وهذا السؤال من فرعون لصرف موسى عما يدعوه إليه أمام ملئه، وإشغاله بما لا يعني عما أرسل به.

ويحتمل أن يكون توهم أن موسى يعلم الغيب، فأراد أن يقف على ما مضى ويفتح بابًا للتكذيب والتخطئة بالفساد واللجاج؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٧، ١٥٨.

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وشتان بين الاحتجاجين، فموسى عليه السلام يحتج على وجود الخالق وإلهيته بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبيته في خلقه، وعدو الله فرعون يحتج على إنكار ذلك بكفر الكافرين وشرك المشركين؛ كما هو شأن المبطلين.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، أي: قال موسى: علم القرون الأولى عند ربي، أي: خبرهم وعملهم وكفرهم وشركهم معلوم عند ربي.

﴿فِى كِتَٰبٍ﴾، أي: محصًى مضبوط في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يعتري علمه عز وجل جهل سابق، ولا نسيان لاحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]، فعِلْمُه عز وجل محيط بالأشياء كلها قبل وجودها وبعد وجودها وبعد عدمها، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقد علم عز وجل أعمالهم وكتبها وقدرها قبل أن يعملوها، وهداهم إليها فعملوها، وعلم بها وكتبها بعد أن عملوها، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

أي: أنه لا معنى لسؤالك يا فرعون عنهم، فسيحاسبون ويجازون بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

وفي قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ تعريض بحال الإنسان؛ فإن علمه محفوف بنقصين: جهل سابق بالأشياء قبل علمها، ونسيان لاحق لها بعد علمها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم بفتح الميم ومن غير ألف: ﴿مَهْدًا﴾، وقرأ الباقون بكسر الميم والألف: «مِهَادًا».

وهذا من تمام كلام موسى، و«الذي» اسم موصول مبني في محل رفع نعت لـ«ربي»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي جعل لكم الأرض مهدًا، أي: ممهدة مذللة قرارًا وفراشًا لكم؛ لتتمكنوا من السكن والقرار عليها، والبناء والغراس؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: جعل لكم فيها طرقًا، سهلها ويسرها وذللها لكم، تسلكونها وتمشون فيها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: وأنزل من السحاب الذي في العلو مطرًا.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾، أي: فأخرجنا من الأرض بسبب هذا الماء أصنافًا وأنواعًا وأشكالًا وألوانًا.

﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، أي: من نباتات وزروع وثمار كثيرة، مختلفة الطعوم والمآكل والروائح والمنافع وغير ذلك.

﴿كُلُوا۟﴾، الأمر للامتنان، أي: كلوا مما أخرجنا لكم من الزروع والفواكه والثمار.

﴿وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾، فيما أخرجنا لكم من النبات والعشب والقضب، رطبًا ويابسًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، الإشارة تعود إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ الآية، أي: إن في جعل الأرض ممهدة، وسلك السبل فيها، وإنزال المطر عليها، وإخراج النبات المتعدد الأصناف والأنواع المختلف الطعوم والمنافع منها

﴿لَآيَٰتٍ﴾، أي: لعلامات ودلالات، وحججًا وبراهين ساطعات.

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾، أي: لأولي العقول السليمة المستقيمة، الذين ينتفعون بعقولهم، فيهتدون بها إلى الاستدلال بذلك على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ومنته ونعمته واستحقاقه العبادة وحده، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، بخلاف من عداهم ممن لم ينتفعوا بعقولهم، فهم كالبهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا تفيدهم الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾، أي: من الأرض خلقناكم بخلق أبيكم آدم منها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، بدفنكم فيها بعد موتكم وصيرورتكم ترابًا ورميمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة: ٤٧].

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، أي: مرة أخرى ببعثكم من قبوركم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥].

الفوائد والأحكام:

١- إرسال موسى وأخيه هارون إلى فرعون بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾، وقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

٢- نهيهما أن يضعفا في ذكر الله أو يفترا فيه؛ لأن ذكر الله تعالى أكبر معين لهما، وهو أعظم قوة في مواجهة جميع الملمات والخطوب، ومن أعظم أسباب تيسير الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، ولهذا أمر الله به حال الجهاد، وجعله ختام كثير من العبادات.

٣- شدة طغيان فرعون وعلوه وتكبره وعناده وتجبره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وقد فاق بذلك جميع طغاة الأرض فادعى الربوبية والألوهية، أخزاه الله.

٤- سعة حلم الله عز وجل؛ لأمره عز وجل موسى وهارون بتليين القول لفرعون، وفتح باب التوبة له، لعله يتعظ ويخشى الله ويخاف عقابه، مع ما وصل إليه من التمادي والطغيان، وإنكار ألوهية الواحد الديان؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

٥- يجب على الدعاة إلى الله تعالى والمربين والمصلحين استلهام هذا الدرس العظيم من قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ لأنه إذا كان هذا مع فرعون أكبر طغاة الأرض، فغيره من المدعوِّين أولى بالرفق واللين والدعوة بالحكمة والموعظة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

٦- سعة رحمة الله تعالى ومغفرته وعفوه، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك، فمن تاب وأناب إليه قبله مهما ارتكب من الموبقات؛ لأن الله عرض التوبة على فرعون مع ما ارتكبه من الطغيان.

٧- مخافة موسى وهارون عليهما السلام من فرعون أن يفرط عليهما فيعاجلهما بالعقوبة، قبل أن يبلغاه رسالة الله، أو أن يتمرد ويزداد طغيانًا؛ اغترارًا بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى وهارون؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾، وقوله: ﴿رَبُّكُمَا﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّي﴾.

٩- طمأنة الله عز وجل لهما بكلاءته ورعايته لهما، وعنايته بهما بسمعه وبصره وحفظه وتسديده وتوفيقه لهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

١٠- إثبات معية الله الخاصة لأوليائه، معية الحفظ والتسديد والعون والتوفيق، ونحو ذلك.

١١- إثبات صفة السمع لله تعالى، وأنه تعالى يسمع جميع الأصوات، وإثبات صفة الرؤية والإبصار له، وأنه سبحانه يرى ويبصر كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

١٢- أمر الله لهما أن يأتيا فرعون ويخبراه أنهما رسولا ربه، ويدعوانه إلى الله، ويطلبان منه أن يرسل معهما بني إسرائيل، ويخلصهم من استعباده وأسره وقهره لهم وتعذيبه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

١٣- جمع فرعون بين أشد أنواع الظلم بدعوى الربوبية والألوهية، وصرف حق الله لنفسه، وباستعباد بني إسرائيل وتعذيبهم وظلمهم.

١٤- إقامة موسى وأخيه الحجة على فرعون بما جاءا به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لفرعون ولجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- الإخبار بأن السلام على من قبل الهدى واتبعه؛ لقول موسى وهارون: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾.

١٧- وحي الله عز وجل وإخباره لموسى وأخيه أن العذاب على من كذب بقلبه بالحق، وتولى وأعرض عن العمل به بجوارحه؛ لقولهما: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

١٨- إنكار فرعون ربوبية الله تعالى ووجود الخالق والصانع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

١٩- إفحام موسى عليه السلام لفرعون، وإبطال دعواه الربوبية في إجابته له بقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، حيث بين أن ربهم هو رب العالمين كلهم، الذي يشاهد فرعون وغيره آثار ربوبيته في خلقه، لا رب لأحد سواه.

٢٠- عدول فرعون لما أفحمه موسى بالجواب القاطع لحجته إلى المشاغبة والمراوغة؛ لصرف موسى عما يدعوه إليه، بالاحتجاج بالقرون الأولى الذين لم يقروا بربوبية الله تعالى ولم يعبدوه بل عبدوا غيره، وهذا في غاية الفساد والبطلان؛ إذ كيف يعارض الإقرار بربوبية رب العالمين وإلهيته بكفر الكافرين وشرك المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

٢١- رد موسى عليه السلام هذا الاحتجاج الباطل بأنه لا معنى لسؤالك يا فرعون عن القرون الأولى، فعلمهم وخبرهم وأعمالهم عند الله تعالى يحصيها عليهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾.

٢٢- إثبات سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء، وكتابته، وكتابة أعمال العباد، ومجازاتهم عليها، لقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾.

٢٣- إثبات اللوح المحفوظ، وكتاب الأعمال.

٢٤- كمال علم الله عز وجل، فلا يعتري علمه سبحانه ضلال وجهل سابق، ولا نسيان لاحق، لقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

٢٥- التذكير بنعم الله تعالى على العباد، ودلائل وحدانيته؛ من جعل الأرض ممهدة للاستقرار والحياة عليها، وسلك الطرق فيها، وإنزال المطر عليها، وإخراج أصناف النباتات المختلفة منها؛ ليأكلوا منها، ويرعوا أنعامهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝٥٤﴾.

٢٦- أن كل ما يخرج من الأرض فهو حلال مباح، ما لم يكن فيه ضرر على البدن والعقل، كالسموم والمخدرات ونحوها؛ لأن الله عز وجل ساق الآية مساق الامتنان.

٢٧- أنه إنما يستفيد من الآيات الكونية والشرعية أصحاب العقول السليمة، والبصائر المستقيمة، الذين ينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝٥٤﴾، وفي هذا امتداح لهم وثناء عليهم.

٢٨- أن من لم ينتفع بالآيات فهو- وإن كان عنده عقل الإدراك- فليس من أولي النهى، بل هو أضل من البهيمة.

٢٩- إخبار العباد وتذكيرهم بمبدئهم ومنتهاهم، وأنهم خلقوا من الأرض بخلق أبيهم من أديمها وترابها، وفيها يعيدهم بدفنهم فيها بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا ورميمًا، ومنها يخرجهم مرة أخرى ببعثهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾.

٣٠- الترغيب والحث على التواضع والعمل الصالح، فالخلق خلقوا من التراب،

ويعودون إلى التراب، ثم يخرجون للحساب، فإما ثواب وإما عقاب.

٣١- الاستدلال بدليلين عقليين على قدرة الله التامة على البعث، وهما: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإيجاد المكلفين وخلقهم منها أول مرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾، الواو: استئنافية، اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد أرينا فرعون آياتنا كلها، كالعصا واليد، وغيرها من الآيات التسع، وغيرها، الدالة على صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الحق، وأنه مرسل من عند الله تعالى إليه.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بها وجحدها ظاهرًا مع استيقانها باطنًا، ﴿وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾، أي: امتنع من الانقياد لما دلت عليه من الأمر والنهي، كفرًا وعنادًا وبغيًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا﴾، الاستفهام: للإنكار، واللام للتعليل، أي: قال فرعون منكرًا ما جاء به موسى من الآيات البينات والدلالات والمعجزات: أجئتنا لأجل أن تخرجنا ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: أرض مصر، ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب سحرك، فجعل ما جاء به موسى عليه السلام من معجزة العصا واليد، من السحر؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٦- ١١٠].

وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٩- ٣٥].

فزعم أن ما جاء به موسى سحر، وأنه يريد به إخراجهم من أرضهم، ليؤثر في قلوب الناس، ويحرك مشاعرهم؛ لأن الناس تعز عليهم أوطانهم، ويصعب عليهم فراقها، وهذا أمر جبلي، فقد وقف المصطفى ﷺ على الحزورة، وقال مخاطبًا مكة: «**والله لأنت أحب البلاد إلى الله- أو إليَّ- ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**»(١).

قال الشاعر:

ولي وطن آليت ألا أبيعه ... وألّا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعمًا ... بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهمُ ... مآرب قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمُ ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه ... لها جسد إن بان غودر هالكا(٢)

وقال الآخر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا علي كرام(٣)

وقال الآخر الذي اضطره الفقر والبحث عن لقمة العيش إلى ترك بلده «نَجْد» حانّاً إليها، ومتوجّداً عليها:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجدًا على وجد

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، أي: فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (٥/ ١٨٢٦).

(٣) انظر: «تفسير المراغي» (٢٤/ ٨٢).

﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان الفاء جزمًا: «نُخْلِفْهُ»، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿نُخۡلِفُهُۥ﴾.

أي: فأمهلنا واجعل لنا ﴿مَوۡعِدٗا﴾، أي: وعدًا، ومكانًا للوعد، أي: اجعل لنا وقتًا ومكانًا محددين معينين نجتمع فيهما.

﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ﴾، أي: لا نخلف ذلك الموعد، ﴿نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ توكيد لضمير الفاعل المستتر في «نخلف».

﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم وحمزة وخلف بضم السين: ﴿سُوٗى﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «سِوًى».

وقوله: ﴿مَكَانٗا﴾ بدل من «موعدًا»، ﴿سُوٗى﴾، أي: يستوي علمنا وعلمك به، أو مكانًا مستويًا معتدلًا؛ لنتمكن ويتمكن الناس كلهم من رؤية ما يجري فيه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، أي: يوم العيد، أي: يوم عيدكم الذي تتزينون فيه وتتفرغون فيه من مشاغلكم وتجتمعون فيه، قيل: هو يوم عيد نَوْروزهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان يوم الزينة يوم عاشوراء»(١).

﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾، أي: وأن يجمع الناس ضحى، أي: في ضحوة من النهار؛ ليكون الأمر أوضح وأجلى، وليظهر الحق لكل ذي عينين، ويزهق الباطل.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾.

قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾، أي: انصرف فرعون وشرع يعد لهذا الأمر عدته؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣﴾ [النازعات: ٢٢- ٢٣].

﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾، أي: فجمع السحرة من جميع مدائن مملكته، وجمع كل ما لديه

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٢٩٣.

من وسائل الكيد والمكر والحيل، لإظهار غلبة السحرة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: ١١١- ١١٢]، وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ [الشعراء: ٣٦- ٤٠].

وقال في سورة يونس: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩﴾ [يونس: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣﴾ [الشعراء: ٥٣].

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾، أي: حضر الموعد هو وملؤه وجنوده.

قال ابن كثير(١): «أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم، وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف حوله أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ [الشعراء: ٤١- ٤٢]».

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ واعظًا ومحذرًا لهم، ومنذرًا ومخوفًا.

﴿وَيۡلَكُمۡ﴾، الخطاب للسحرة، وقيل: لفرعون وملئه وللسحرة، و«الويل»: تهديد ووعيد بالعذاب.

﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾، أي: لا تختلقوا على الله كذبًا بما تخيلون للناس من السحر والشعوذة؛ لتنصروا ما أنتم عليه من الباطل، وتغالبوا الحق.

﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح الياء والحاء: «فَيَسْحَتَكُمْ»، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء: ﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾، أي: فيستأصلكم بعقوبة تبيدكم عن آخركم، ولا تبقي منكم بقية، ولا تذر منكم أحدًا.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٩٤.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، أي: وقد خسر الذي افترى واختلق على الله الكذب.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، لما وعظ موسى عليه السلام السحرة وأنذرهم وخوفهم عقوبة الافتراء، وبين لهم خيبة وخسران من افترى؛ ارتبكوا فتنازعوا أمرهم بينهم فيما يقولون في موسى، هل هو على حق أم لا؟ وهل ما جاء به سحر أم لا؟ وهل ما توعدهم به من العذاب حقيقة أم لا؟ ونحو ذلك.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾، أي: لما تنازعوا واختلفوا، اختلوا وأسروا الحديث والتناجي بينهم؛ ليصدروا عن رأي واحد يتفقون عليه، لا يدخل معهم فيه غيرهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، قرأ ابن كثير وحفص بتخفيف النون: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «إِنَّ هَذَانِ»، قال ابن تيمية: «وهي أصح القراءات لفظًا ومعنى، ورفعت «هذان»؛ لأنها من الأسماء المبهمة»(١).

وقرأ أبو عمرو بالياء: «هَذَيْنِ»، وقرأ ابن كثير على أصله في تشديد النون: «هَذَانِّ».

﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾، يعنون موسى وأخاه هارون، ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لساحران خبيران بصناعة السحر، وهذه المقالة: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وما بعدها خلاصة ما اتفقوا عليه في نجواهم.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب، أي: يريدان إخراجكم من أرضكم مصر، بحيث تكون لهم الغلبة في الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلان فرعون وجنوده فينتصران عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقد توافقوا مع فرعون في مقالته السابقة، وزادوا عليها قولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾، أي: ويريدان أن يستبدا بطريقتكم المثلى في السحر، وينفردا بها، ويصرفا وجوه الناس إليهما، وتكون لهما الرياسة والتعظيم وجباية الأموال دونكم.

وهذا حض من بعضهم لبعض على الاجتهاد في مغالبتهما؛ ولهذا قالوا:

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾، قرأ أبو عمرو بوصل الهمزة وفتح الميم: «فَاجْمَعُوا»، وقرأ الباقون بقطعها وكسر الميم: ﴿فَأَجْمِعُواْ﴾.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٤٨.

ومعنى ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾، أي: اعزموا عليه، وابذلوا فيه غاية جهدكم، وأجمعوا عليه ولا تختلفوا.

﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾، أي: ثم ائتوا مجتمعين صفًّا واحدًا متظاهرين متناصرين، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتكون لكم الغلبة والانتصار.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾، أي: واعلموا أنه قد فاز ونجح اليوم وبعده من غلب من الفريقين.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد قيام الحجة على فرعون بما أراه الله من الآيات والمعجزات على يد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾.

٢- تكذيب فرعون بآيات الله تعالى، وامتناعه من قبول الحق، والانقياد للأمر والنهي؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

٣- إنكار فرعون على موسى مجيئه بالآيات، وزعمه أنها من سحر موسى، جاء به ليخرجهم من أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

٤- اغترار فرعون بمن عنده من السحرة، وأنه سيقابل بسحرهم ما جاء به موسى من الآيات، حسب زعمه أنها سحر؛ لقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

٥- طلب فرعون من موسى ضرب موعد بينهم وبينه، أي: وقتًا يجتمعون فيه، لا يخلفونه لا هم ولا هو، ومكانًا يستوي علمهم وعلمه به، مستويًا يتمكن كل من حضر من الناس من رؤية ما فيه؛ لقول فرعون: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

٦- حرص موسى عليه السلام على بيان دعوته وما جاء به من الحق لجميع قوم فرعون، وعلى شهودهم كلهم ما يجري بينه وبين السحرة، وثقته عليه السلام التامة بأن الغلبة له ولما جاء به من الحق؛ ولهذا ضرب لهم موعدًا يوم زينتهم وعيدهم، وأن يكون جمع الناس ضحوة في رابعة النهار؛ ليعلنها صريحة في الملأ؛ وليزهق الباطل ويظهر الحق لكل ذي عينين؛ لقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾.

٧- رفق موسى عليه السلام بالناس، وعدم تكليفه إياهم موعدًا آخر غير موعد

عيدهم وزينتهم.

٨- انصراف فرعون وسعيه في جمع السحرة من جميع مدائن مملكته، وجمع ما عنده من وسائل المكر والحيل؛ لإظهار غلبة السحرة، وإتيانه وملؤه وجنوده هذا المشهد العظيم؛ ليكيد للحق ويغالبه، غرورًا منه.

٩- تحذير موسى عليه السلام للسحرة، وإنذاره إياهم من افتراء الكذب على الله، وتهديدهم بإهلاكهم واستئصالهم بالعذاب والخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

١٠- أن نهاية كل مفتر على الله الهلاك والخيبة والخسران.

١١- تأثر السحرة بموعظة موسى، وتنازعهم أمرهم بينهم بسبب ذلك: هل موسى على الحق أم لا؟ وهل ما جاء به سحر أم لا؟ وهل لوعيده حقيقة أم لا؟ ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾.

١٢- أن الموعظة والدعوة إلى الحق لها أثرها في القلوب مهما كان حال المدعو.

١٣- إسرار السحرة النجوى واختلاؤهم فيما بينهم؛ ليصدروا برأي موحد قوي يتفقون عليه، يرضي فرعون وملأه، ولا يطلع عليه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾.

١٤- موافقة السحرة لقول فرعون في حكمهم على موسى وهارون بأنهما ساحران يريدان أن تكون لهما الغلبة والأمر، ويخرجا فرعون وقومه من أرضهم؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، وقد قال فرعون قبلها: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

١٥- اتهام السحرة موسى وهارون بأنهما يريدان أن يستبدا بالطريقة المثلى في صناعة السحر، ويسلبانها منهم، وتكون لهما الشهرة والرئاسات وجباية أموال الناس؛ لقولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾.

١٦- حض السحرة بعضهم بعضًا على جمع كيدهم ومكرهم، والحزم والعزم وتوحيد جهدهم وكلمتهم؛ لقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾.

١٧- اتفاقهم على أن يأتوا مجتمعين متعاونين صفًّا واحدًا؛ ليلقوا ما في أيديهم من السحر ليبهروا الأبصار، وتكون لهم الغلبة والانتصار؛ لقولهم: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾.

١٨- توهم السحرة الباطل بأنهم سيكون لهم الفوز والاستعلاء يومهم ذلك وما بعده؛ لقولهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾ [الأعراف: ١١٥].

«إما» في الموضعين: أداة شرط وتفصيل، وفيها معنى التخيير، أي: إما أن تلقي يا موسى أنت أولًا عصاك وما معك، مما يزعمون أنه سحر سيغالبونه عليه، وخيروه وقدموه في تخييرهم له موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حال، ومغترين بذلك.

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، أي: وإما أن نكون نحن السحرة ﴿أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، أي: وإما أن نلقي نحن أولًا ما معنا من السحر.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾، أي: بل ألقوا أنتم؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وإنما قال لهم هذا ثقة بأن الله سيبطل كيدهم، وإرخاء للعنان لهم؛ ليرى ماذا يصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾، أي: فألقوا حبالهم وعصيهم؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الآيات: ٤٣- ٤٤].

﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ﴾، قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر، وروح عن يعقوب بالتاء على التأنيث: «تُخَيَّلُ»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يُخَيَّلُ﴾.

أي: يخيل إلى موسى من شدة سحرهم ﴿أَنَّهَا﴾، أي: أن هذه العصي والحبال ﴿تَسۡعَىٰ﴾، تتحرك وتضطرب وتميد بسبب ما أودعوها من الزئبق، مما يخيل للناظر أنها تسعى باختيارهم، وإنما كانت حيلة؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾، أي: شعر وأحس في داخل نفسه خيفة؛ كما هو

مقتضى الطبيعة البشرية، مع ثقته وجزمه بوعد الله ونصره، ولهذا لم يظهر ذلك على ملامحه.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾، أي: قلنا له تثبيتًا وتطمينًا: لا تخف.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، الجملة: استئنافية، أي: إنك أنت الأعلى عليهم، أي: ستعلو عليهم وتنتصر، ويخضعوا ويذلوا لك.

وقد أكد حصول العلو له والغلبة عليهم بست مؤكدات، هي: «إن» التي تؤكد ما بعدها، وضمير الفصل «أنت»، ولام التعريف في قوله: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: أنت الأعلى دون غيرك، وأفعل التفضيل، ولم يقل «العالي»؛ ليشعر بزيادة العلو، وإثبات الغلبة من «عالٍ»، والاستئناف في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ولم يقل: لأنك أنت الأعلى، فنفى الخوف عنه أولًا بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ثم استأنف بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١). ويحتمل كون الجملة تعليلية، أي: لأنك أنت الأعلى.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، أي: عصاك التي في يمينك؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧].

﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾، روى ابن ذكوان برفع الفاء: «تَلْقَفُ»، وقرأ حفص بإسكان اللام مع تخفيف القاف: ﴿تَلْقَفْ﴾، وقرأ الباقون بالجزم وفتح اللام والتشديد: «تَلَقَّفْ»، وذلك أنها صارت ثعبانًا بينًا، وحية كبرى، وتنينًا عظيمًا هائلًا، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي فتبتلعها حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس كلهم ينظرون إلى ذلك في ذلك الجمع العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧- ١١٩].

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سِحْرٍ» بكسر السين، وإسكان الحاء من غير ألف، وقرأ الباقون بالألف وفتح السين وكسر الحاء: ﴿سَٰحِرٍ﴾.

«إنما»: أداة حصر، أي: ما صنعوا إلا كيد ساحر، أي: مكر ساحر وتخييله وتمويهه،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٩.

لا ثمرة منه، ولا ثبات له أمام الحق؛ ولهذا قال:

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، أي: لا يفوز الساحر ولا ينجح، بل هو مغلوب مقهور، ثمرة عمله وعاقبة أمره الخيبة والخذلان، والبوار والخسران، في الدنيا والآخرة.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾، لما رأى السحرة هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة- وهم أعلم الناس بفنون السحر وطرقه- علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والتخييل، وأنه برهان من رب العالمين، على ما جاء به موسى من الحق المبين، فخروا لله ساجدين.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، أي: صدقنا به بقلوبنا، وانقدنا له بجوارحنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٦- ٤٨].

الفوائد والأحكام:

١- تخيير السحرة لموسى وتقديمهم له في التخيير، موهمين ثقتهم بالظهور عليه، ومغترين بسحرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾.

٢- ثقة موسى عليه السلام بوعد الله تعالى له بالنصر والغلبة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَلْقُواْ﴾، ولكي يظهر للناس جلية أمر السحرة، ويتبين لهم بطلان أمرهم.

٣- تمويه السحرة على موسى وعلى الناس، وتخييلهم عليهم بسحرهم وحبالهم وعصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

٤- شعور موسى عليه السلام وإحساسه في نفسه خيفة- كما هو مقتضى الطبيعة البشرية- مع تمام ثقته وجزمه بوعد الله ونصره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾.

٥- تثبيت الله عز وجل لموسى وطمأنته له بأن الغلبة له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

٦- أمر الله عز وجل لموسى بإلقاء عصاه لتلقف ما صنعوا من السحر، وابتلاع

كل ما صنعوه وأفكوه من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾ [الشعراء: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧﴾ [الأعراف: ١١٧].

٧- أن ما صنعه سحرة فرعون هو من كيد ومكر وتخييل السحرة وتمويههم مما لا حقيقة له ولا ثبات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾.

٨- خيبة الساحر وخذلانه وخسرانه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

٩- سجود السحرة لله عز وجل لما ظهر وتبين لهم- وهم أرباب صناعة السحر- أن ما جاء به موسى من الآيات الظاهرهْ، والمعجزات الباهرهْ، ليس من قبيل السحر والتخييل، وإنما هي براهين ودلالات على ما جاء به من الحق المبين؛ ولهذا خروا لله ساجدين، وآمنوا برب هارون وموسى رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهارون وموسى عليهما السلام، ولأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

١١- إبطال ادعاء فرعون الربوبية والألوهية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: آمنتم لموسى وصدقتم له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا، وقال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، أي: صدق له.

أي: قال فرعون لما ظهر الحق، وآمن السحرة، وأسقط في يده مستغربًا ومنكرًا على السحرة ومهددًا لهم ومتوعدًا: كيف آمنتم لموسى وصدقتموه.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى «قبل»، أي: قبل إذني لكم، فاستغرب واستنكر منهم ذلك؛ لذلهم وانقيادهم له طوعًا أو كرهًا، أي: كيف آمنتم له وما أذنت لكم بذلك وما أمرتكم به.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، «إن» واللام: للتوكيد، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى موسى، فاعتبره فرعون كبير السحرة وأنه علمهم السحر، وأنهم اتفقوا هم وموسى عليه وعلى رعيته؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

فيا سبحان الله! كان بالأمس يفتخر بسحرته ويعتز بهم وبسحرهم، ويقول لموسى

متحديًا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧- ٥٨].

واليوم لما آمنوا تبرأ منهم ومن سحرهم، بل جعل إيمانهم سحرًا، واعتبر موسى كبير السحرة، بعد أن كان يحتقره وسحره كما يزعم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وهذه مكابرة، يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنها بهت وكذب، ولكنه لما ظهر الحق، وآمن السحرة، وأصبح صديق الأمس عدو اليوم؛ اضطرب وارتبك وفقد شعوره، فأخذ يهذي بما لا يدري، فاتهم السحرة بعد أن اتهم موسى بأنهم اتفقوا هم وموسى عليه وعلى رعيته، وأن موسى لم يكن ليغلب لولا مكر السحرة وتمالؤهم معه، وأخذ يتهددهم ويتوعدهم بقوله:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، أي: والله لأقطعن أيديكم وأرجلكم ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، أي: بأن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، الجملة معطوفة على ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾، والصلب: ربط المصلوب قائمًا على خشبة بعد قتله، أو قبل قتله، وتركه حتى يموت، للخزي والتشهير به.

و«التقطيع»، و«التصليب» بالتشديد: تحتم القطع والصلب.

﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، «في» بمعنى: «على»، أي: على جذوع النخل؛ لأن المصلوب لا يصلب داخل الجذع، وإنما يصلب عليه.

وهذه الآية؛ كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩﴾ [الآية ٤٩].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾، معطوف على ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾، أي: ولتعلمن أيها السحرة.

﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، أي: أهو أنا، أو رب هارون وموسى الذي آمنتم به؟ وهذا تهديد منه ووعيد لهم، أي: إنني أنا أشد وأعظم عذابًا وأبقى وأدوم، فخافوني.

وقيل: المعنى: ولتعلمن أينا يكون له العذاب الشديد الدائم الباقي.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال السحرة ردًّا على فرعون في استغرابه واستنكاره إيمانهم لموسى، وتوعده إياهم بالقطع والصلب والعذاب الشديد الدائم، في تحدٍّ صارخ له، واستهانة لما يصيبهم في ذات الله:

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: لن نفضلك ونختارك ونقدمك على الذي جاءنا من الآيات البينات والهدى واليقين والحق المبين.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾، الواو: عاطفة، والاسم الموصول معطوف على «ما» الموصول السابق، أي: لن نؤثرك على الذي جاءنا من البينات ولا على الذي فطرنا، أي: الذي خلقنا وهو الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أي: خالقهما.

والمعنى: سنؤثره ونفضل ونختار الذي جاءنا من البينات والحق، ونؤمن به ونتبعه، دون ما أكرهتنا عليه من السحر والكيد للحق واتباع الباطل.

وسنؤثر الذي فطرنا وخلقنا وهو الله عز وجل، ونؤمن به ربًّا وإلهًا، ونعبده وحده لا شريك له، دون ما تلزمنا به من الإيمان بك، واعتقاد ربوبيتك وإلهيتك.

ويحتمل أن تكون الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ للقسم، والموصول مقسم به، والتقدير: وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على ما جاءنا من الحق.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، أي: فافعل ونفذ الذي أنت قاضيه؛ مما توعدتنا به من القطع والصلب والعذاب، هذا جواب لقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ الآية.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، أي: إن ما توعدنا به غايته قضاء هذه الحياة الدنيا الزائلة، ونحن نطمع في الحياة الباقية؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾، أي: صدقنا بربنا بقلوبنا وألسنتنا، وانقدنا له بجوارحنا.

﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يغفر لنا خطايانا وذنوبنا.

﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، أي: ويغفر لنا الذي أكرهتنا على فعله من السحر وألزمتنا لنعارض به الحق؛ كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الآيات: ٥٠- ٥١].

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ هذا في مقابلة قول فرعون: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾، أي: والله خير لنا منك ومما وعدتنا، أي: وهو سبحانه ورضاه وثوابه أبقى لنا وأدوم؛ كما أن عذابه لمن عصاه أبقى وأدوم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أول النهار سحرة، فصاروا آخره شهداء بررة»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه: ٧٤- ٧٦].

يحتمل أن يكون هذا من تمام ما وعظ به السحرة فرعون، يحذرونه نقمة الله وعذابه السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي. ويحتمل أن يكون هذا استئنافًا من كلام الله تعالى.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، هذه الآية كقوله في سورة الأعلى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾ [الأعلى: ١١- ١٣].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ﴾، أي: إنه من يأت ربه يوم القيامة ويلقاه ﴿مُجۡرِمٗا﴾، حال، أي: قد مات على الإجرام، أي: على الكفر والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: ٢٩].

﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾، جواب الشرط «من»، والفاء رابطة لجواب الشرط، واللام للاستحقاق، أي: فإن له نار جهنم، الشديد حرها وعذابها، البعيد قعرها، الشديدة ظلمتها، أي: أنه صائر إليها لا محالة.

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، فيستريح من العذاب.

﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، حياة طيبة كريمة يهنأ ويلتذ بها، وإنما حياة عذاب أبدي سرمدي للقلب والروح والبدن؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ [فاطر: ٣٦].

---

(١) ذكره الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ١١٦.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾ [المائدة: ٣٧].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون..**» الحديث(١).

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾، أي: ومن يأت ربه يوم القيامة ويلقه حال كونه مؤمنًا بقلبه ولسانه، أي: قد مات على الإيمان.

﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: قد عمل الأعمال الصالحات بجوارحه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وأشار بإشارة الجمع مراعاة لمعنى «من»، وأشار بإشارة البعيد تنويهًا برفعة شأن المؤمنين.

﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾: المنازل العالية الرفيعة في الجنة.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم؛ كما يتراءون الكوكب الدري العابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(٣).

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، بدل من «الدرجات العلى»، أي: جنات إقامة أبدية.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، إتيان الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١٨٥، وأحمد ٣/ ١١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٠، وأحمد ٥/ ٣١٦.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ما جاء في صفة الجنة ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة، ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء ٢٨٣٠.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا.

﴿وَذَٰلِكَ﴾، أي: الثواب العظيم من الدرجات العلى، وجنات عدن، والخلود فيها ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: ثواب الذي تطهر من الشرك والمعاصي، والأرجاس المعنوية، بالإيمان والعمل الصالح، وتطهر من النجاسات والأحداث الحسية؛ كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

الفوائد والأحكام:

١- إنكار فرعون على السحرة إيمانهم برب هارون وموسى دون أن يأذن لهم؛ لأنه كان قد أذلهم واستعبدهم، فلا يصدرون عن أمر دونه قبل ظهور الحق لهم؛ لقوله: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾.

٢- مكابرة فرعون، وزعمه أن موسى كبير سحرته الذي علمهم السحر؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾.

٣- تهديد فرعون للسحرة، وتوعده إياهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم في جذوع النخل، وتعذيبهم العذاب الشديد؛ لقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.

٤- شدة علو فرعون وجبروته وتسلطه واغتراره بقوته وسلطانه وجنوده، حتى وصل به الغرور إلى الاعتقاد أن عذابه أشد وأبقى من عذاب الله.

٥- أن ما يفعله الطغاة والمتسلطون على الناس لإخضاعهم لما يريدون بالتهديد والقوة؛ سياسة فرعونية.

٦- ثبات السحرة على الإيمان بربهم، وبما جاءهم من البينات، وكفرهم بفرعون وما يدعو إليه من الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾.

٧- تضحية السحرة بأنفسهم وبالدنيا كلها في سبيل الإيمان بربهم، والتمسك بدينهم، وتحديهم بذلك فرعون؛ لقولهم: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾.

٨- حسن ظنهم بربهم، وقوة رجائهم به، بمغفرته خطاياهم وما أكرههم عليه فرعون من السحر؛ لقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ

ٱلسِّحْرِ﴾.

٩- أن الإيمان إذا وجد المرء حلاوته، وخالطت بشاشته قلبه؛ ثبت عليه بإذن الله وتوفيقه ثبات الجبال الراسيات، نسأل الله التوفيق؛ ولهذا قال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

وفي حديث هرقل مع أبي سفيان، قال: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب»(٢).

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾.

١١- أن ما صنعه السحرة من السحر بإكراه من فرعون لهم على ذلك؛ ليرد بذلك الحق، ولكن خاب مسعاه.

١٢- أن الله خير وأبقى، وما عنده من الثواب والأجر خير من الدنيا بما فيها لمن آمن به وأطاعه واتقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

١٣- الوعيد الشديد لمن لقي الله على الإجرام والكفر بنار جهنم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة طيبة كريمة هنيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾.

١٥- خلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

١٦- الوعد لمن لقي ربه مؤمنًا قد عمل الصالحات بالدرجات العلا في جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

١٧- إثبات البعث ولقاء الله تعالى- والحساب والجزاء على الأعمال.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ٦٧٧٣، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

١٨- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وعمل الأعمال الصالحات بالجوارح.

١٩- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى- موافقًا لشرعه.

٢٠- أن الجنات منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض.

٢١- أن الجنات لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا يموت أهلها ولا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾.

٢٢- الترهيب والتحذير من الإجرام والكفر والترغيب والإغراء في التزكي والتطهر من الشرك والمعاصي والأرجاس المعنوية، ومن الأحداث والنجاسات الحسية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾، أي: أمرنا موسى حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾، «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير لـ«أوحينا»، والمعنى: أوحينا إلى موسى الإسراء بعبادي، أي: بني إسرائيل.

والإسراء: السير ليلًا، أي: أوحينا إلى موسى وأمرناه بأن يخرج ويسير ليلًا بعبادي بني إسرائيل، ليخلصهم من قبضة فرعون واستعباده إياهم.

وقد أخبره الله عز وجل أن فرعون سيتبعهم؛ كما قال تعالى في سورة الدخان: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، أي: فاضرب بعصاك لهم طريقًا في البحر يابسًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٤].

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾، قرأ حمزة بسكون الفاء دون ألف: «تَخَفْ»، وقرأ الباقون بالرفع مع الألف: ﴿تَخَٰفُ﴾.

﴿دَرَكًا﴾: إدراكًا، أي: لا تخاف أن يدركك وقومك فرعون وجنوده؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٠- ٦٢].

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾، أي: ولا تخشى غرقًا في البحر أنت ولا قومك.

ومن الذي لا يخاف ولا يخشى أمام هذا الخطب الجسيم، والأمر العظيم، إلا من رحم الله، فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾، لما خرج موسى ببني إسرائيل، وسار بهم ليلًا، وأصبحوا ليس في مصر منهم داع ولا مجيب، غضب فرعون غضبًا شديدًا، وقرر وعزم على اللحاق بهم وإرجاعهم مكرهين، وأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون جنوده وجيشه للخروج في أثر بني إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الآيات: ٥٠- ٥٦].

فأتبعهم هو وجنوده وسلكوا وراءهم في البحر، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، أي: فغشي فرعون وجنوده بعد أن أنجى الله موسى وقومه، أي: غطاهم وأغرقهم من البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، «ما» للتهويل، أي: من الأمر العظيم الذي غشيهم مما يصعب وصفه، ولا يستطاع دفعه ولا منعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٣- ٥٤].

وذلك أنه لما تكامل موسى وقومه خارجين من البحر، وتكامل فرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر أن يرتطم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: ٢٤]، فغرقوا عن آخرهم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾، أي: أوقعهم في الضلال، بما زين لهم من عبادته، وتكذيب موسى ورد دعوته، وبما ألزمهم من اعتقاد ربوبيته لهم وإلهيته.

﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، تأكيد لما قبله؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ﴾ [النحل: ٢١]، أي: وما هداهم إلى خير البتة.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: أنه أضلهم إضلالًا تامًّا عن الحق، أي: أضلهم غاية الإضلال، وما هداهم إلى خير أبدًا، وفي هذا إبطال لقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾ [غافر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ

وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «أَنْجَيْتُكُمْ»، و«وَعَدتُّكُمْ»، و«رَزَقْتُكُمْ» بالتاء مضمومة، على لفظ الواحد من غير ألف في الثلاث، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

أي: قد خلصناكم من عدوكم فرعون، وأهلكناه وجنوده بالغرق، وهذه من أعظم نعم الله تعالى عليهم؛ ولهذا قال تعالى ممتنًّا عليهم بذلك: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٥٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى منهم، فصوموه**»(١).

﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾، أي: وواعدناكم مع موسى جانب جبل الطور الأيمن بعد هلاك فرعون؛ لإنزال الكتاب العظيم: «التوراة» على موسى، الذي فيه النعمة الدينية الكبرى عليكم.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، أي: ونزلنا عليكم في التيه «المن» وهو: طعام حلو يشبه العسل، و«السلوى» وهو: طائر كالسماني، رزقًا رغدًا هنيئًا لكم، بلا مشقة ولا تعب، رحمة من الله تعالى بكم، وإحسانًا إليكم؛ ولهذا امتن الله تعالى عليكم بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، الأمر: للإباحة والامتنان، وهو واجب في قدر ما يسد الرمق ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، «الطيبات»: الحلال وما يستلذ ويستطاب.

﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، «ما»: موصولة، أي: كلوا من طيبات الذي رزقناكم، أي: الذي أعطيناكم، أو مصدرية، أي: كلوا من طيبات رزقنا، أي: عطائنا إياكم، والمراد: كلوا واشكروا نعم الله تعالى عليكم الدينية والدنيوية.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ٤٧٣٧، ومسلم في الصيام، صوم عاشوراء ١١٣٠، وأبو داود في الصوم ٢٤٤٤.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أي: ولا تطغوا فيما رزقناكم، فتكفروا نعم الله عليكم بنسبتها إلى غيره، وبطرها، واستعمالها في معاصيه، وعدم شكرها، وتعالي بعضكم على بعض، وظلم بعضكم لبعض، والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِىٌ﴾، قرأ الكسائي بضم الحاء: «فَيَحُلَّ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿فَيَحِلَّ﴾، أي: فينزل عليكم غضبي؛ بسبب طغيانكم وكفركم بنعمي.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى﴾، قرأ الكسائي بضم اللام: «يَحْلُلْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَحْلِلْ﴾، أي: ومن يحل وينزل عليه غضبي.

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط لاقترانه بـ«قد»، أي: فقد ردي وشقي وخسر وهلك؛ لأن من حل عليه غضب الله، عذبه الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، لما نهى عن الطغيان وحذر منه وتوعد عليه، وعد بالمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؛ ترغيبًا في ذلك.

قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾، اللام: للتوكيد، و«غفار» على وزن «فعَّال»، أي: كثير المغفرة، يغفر للكثيرين من عباده، ويغفر للعبد مرة بعد مرة مهما اقترف من الشرك والكفر والمعاصي إذا تاب وأناب.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «**إن الله يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ويقرره بذنوبه، فيقول: يا فلان، أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم. إلى قوله: فيقول: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

﴿لِّمَن تَابَ﴾، أي: للذي تاب، أي: رجع وأناب إلى الله تعالى من الكفر والمعاصي، فأقلع عن ذلك وندم، وعزم على عدم العودة إليه، مخلصًا لله تعالى في توبته، في وقت تقبل فيه التوبة، قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿وَءَامَنَ﴾، أي: وآمن وصدق بقلبه بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، ﴿وَعَمِلَ

---

(١) سبق تخريجه.

صَٰلِحًا﴾، أي: وعمل الأعمال الصالحات بجوارحه؛ من صلاة وصوم وحج وغير ذلك.

﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾، أي: استمر على الهدى وثبت عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد: ١٧].

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا. قال: «**قل: آمنت بالله، فاستقم**»، أو: «**ثم استقم**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أوحى الله عز وجل لموسى بالخروج ببني إسرائيل والإسراء بهم ليلًا؛ لتخليصهم من قبضة فرعون واستعباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾.

٢- إثبات عبودية بني إسرائيل لله عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِي﴾.

٣- أمره عز وجل لموسى بضرب البحر بعصاه؛ ليتخذ لبني إسرائيل فيه طريقًا يبسًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقًا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾.

٤- طمأنة الله عز وجل لموسى وتثبيته له أمام هذا الخطب العظيم بألا يخاف إدراك فرعون له، ولا يخشى الغرق في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾.

٥- إنجاء الله تعالى لموسى وقومه، وخروجهم جميعًا من البحر سالمين؛ لمفهوم قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم﴾.

٦- خروج فرعون وجنوده في أثر موسى وبني إسرائيل، واتباعهم إياهم في طريقهم على البحر، وارتطام البحر عليهم وإغراقهم جميعًا في أمر مهول؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾.

٧- إضلال فرعون لقومه غاية الإضلال، وصده إياهم عن الهدى غاية الصد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾.

٨- تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم الدينية والدنيوية؛ من إنجاء أسلافهم من عدوهم فرعون، ووعدهم جانب الطور الأيمن لإنزال الكتاب عليهم، وتنزيل المن والسلوى عليهم، رزقًا لهم دون مشقة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢.

عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾.

٩- أن النعمة على المتقدمين من بني إسرائيل نعمة على المتأخرين منهم؛ لأن الله امتن على بني إسرائيل الموجودين في عهد النبي ﷺ بما أنعم به على أسلافهم الماضين.

وهكذا كل نعمة على السلف هي نعمة على الخلف.

١٠- الامتنان على بني إسرائيل بإباحته عز وجل لهم الأكل من طيبات ما رزقهم؛ ليشكروه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

١١- إباحة الأكل من كل ما أحل الله وطاب أكله.

١٢- أن الأرزاق كلها من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

١٣- النهي والتحذير من الطغيان وكفر نعم الله تعالى الدينية والدنيوية، وعدم القيام بحقها وشكرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾.

١٤- في النهي عن الطغيان وكفر النعم- بعد الامتنان بذكر النعم- إشارة إلى أن من أسباب الطغيان كثرة النعم؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦- ٧].

١٥- حلول غضب الله ونقمته وعذابه على من طغى وكفر نعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾.

١٦- إثبات صفة الغضب لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾.

١٧- أن من حل عليه غضب الله فقد ردي وشقي وهلك، ووقع في النقمة والعذاب، وخسر دينه ودنياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

١٨- وعد الله تعالى بالمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

١٩- أن مغفرة الله تعالى ورحمته تسبق غضبه؛ لأن الله لما حذر من حلول غضبه أتبع ذلك بذكر سعة مغفرته.

٢٠- سعة مغفرة الله تعالى؛ فهو يغفر للكثيرين من عباده، ويغفر للعبد مرة بعد مرة، مهما كثرت ذنوبه وعظمت، إذا تاب إليه وأناب.

٢١- الترغيب بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، والاستمرار على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

٢٢- لا بد من الجمع بين الإيمان الباطن وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٢٣- لا يقبل العمل إلا إذا كان ﴿صَٰلِحًا﴾، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٤- وجوب الثبات على الإيمان والعمل الصالح، والاستمرار على ذلك، وأن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾.

قوله: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾، الواو: استئنافية، و«ما»: استفهامية، والاستفهام هنا فيه معنى اللوم، ويقوي هذا قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾.

أي: ما الذي جعلك تتقدم عن قومك وتأتي قبلهم، وفي هذا إيماء إلى أن الأولى أنك صبرت وأتيت أنت وإياهم، ولم تتركهم وتفارقهم.

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾، روى رويس بكسر الهمزة وإسكان الثاء: «عَلَى إِثْرِي»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾.

أي: هم هؤلاء خلفي قريبون، سيصلون في أثري، أي: أني لم أتقدمهم كثيرًا.

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ترضى، أي: عجلت إليك يا ربي مسارعة في رضاك.

وذلك أنه عليه السلام لأجل المسارعة إلى ربه استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله له: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾، الفتنة: الابتلاء والامتحان، ويكون بالشر والخير؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: فإنا قد امتحنا قومك يا موسى من بعدك، وابتليناهم بشر بلية، وهي عبادة العجل.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، أي: أوقعهم في الضلال، فعبدوا العجل من دون الله، و«السامري»: نسبة إلى «السامرة» من بني إسرائيل من اليهود، يخالفونهم في بعض دينهم.

قيل: كان من أناس يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان من أهل «سامرا».

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾، أي: فلما أخبر الله تعالى موسى بما حصل لقومه من الفتنة وإضلال السامري لهم بعبادتهم العجل؛ رجع إليهم.

﴿غَضۡبَٰنَ﴾ حال، أي: شديد الغضب، أي: في غاية الغيظ والحنق عليهم.

﴿أَسِفٗاۚ﴾، حال ثانية، أي: حزينًا جزعًا مغمومًا.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾، الاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير، أي: أنه عز وجل قد وعدكم وعدًا حسنًا بإنزال التوراة عليكم، التي فيها شرعكم وشرفكم، ووعدكم حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فلم عبدتم غيره؟!

﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾، الاستفهام: للإنكار. والعهد: المدة، أي: أفطالت عليكم مدة غيبتي وهي قصيرة؟!

أو: أفطال عليكم عهد النبوة فانمحت آثارها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل؟!

أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

أي: أنه ليس وقوعكم في ذلك بسبب طول غيبتي؛ فهي قصيرة، وليس ذلك بسبب طول عهد النبوة عليكم؛ فالنبوة بين أظهركم.

﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، «أم»: للإضراب الإبطالي، والاستفهام: إنكاري، أي: لم يطل عليكم العهد، بل ﴿أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أردتم»، أي: أردتم حلول غضب من ربكم عليكم، أي: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: ١٥٢].

﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾، أي: حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت هارون بكم، وأمرتكم بطاعته.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال بنو إسرائيل في جوابهم على إنكار موسى عليهم عبادة العجل:

﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بفتح الميم: ﴿بِمَلۡكِنَا﴾.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمها: «بِمُلْكِنَا»وقرأ الباقون بكسرها: «بِمِلْكِنَا».

أي: ما أخلفنا موعدك باختيارنا وقدرتنا وتعمدنا.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر وروح بفتح الحاء والميم مخففة: «حَمَلْنَا».

وقرأ الباقون بضم الحاء وكسر الميم المشددة: ﴿حُمِّلۡنَآ﴾.

أي: ولكن عذرنا في ذلك أنا حملنا أثقالًا من زينة القبط قوم فرعون، التي استعرناها منهم حين خروجنا من مصر، ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾، أي: ألقيناها تورعًا وتأثمًا، قيل: ألقوها في حفرة من نار.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾، أي: فكذلك مثل إلقائنا ألقى السامري، وهذا عذر أوهى من نسج العنكبوت، لا يبرر لهم عبادة العجل من دون الله.

قال السعدي(١): «وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة: أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر، أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب؛ يعني: هل يصلى فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ- يعني الحسين- وهم يسألون عن دم البعوض!»(٢).

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾، أي: فصنع السامري لهم من تلك الزينة عجلًا مجسدًا صاغه من الذهب، فصار له خوار، أي: صوت، كخوار البقر، بسبب حفيف الريح، ودخولها من جهة وخروجها من جهة أخرى.

﴿فَقَالُواْ﴾، أي: فقال السامري والذين افتتنوا بعبادة العجل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، أي: هذا العجل هو معبودكم ومعبود موسى.

﴿فَنَسِيَ﴾، أي: فنسي موسى، أي: ضل الطريق، يطلب ربه، فضَلَّ ولم يعلم مكانه،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٥٩٩٤، والترمذي في المناقب ٣٧٧٠، وأحمد ٢/ ٩٣، ١١٤.

أو نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهكم وإلهه.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، الاستفهام: للإنكار والتقريع لهم، وتسفيه عقولهم وأحلامهم.

أي: أفلا يرون أن هذا العجل الذي عبدوه من دون الله لا يرجع إليهم قولًا؟! أي: أنه لا يتكلم، فلا يراجعهم ويراجعونه، ولا يجيبهم إذا سألوه، ولا يرد عليهم ولا يسمعهم إذا خاطبوه؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: لا يملك أن يدفع عنهم ضرًّا، ولا يجلب لهم نفعًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

قال ابن القيم: «فجَعلَ امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع؛ دليلًا على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يُكلِّم ويتكلم، ويملك لعابده الضر والنفع، وإلا لم يكن إلها»(١).

الفوائد والأحكام:

١ - استعجال موسى عليه السلام عن قومه، مسارعة إلى موعد ربه وطلبًا لرضاه، ولومه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾، أي: لماذا لم تصبر حتى تأتي أنت وهم؟ ويدل على أن في هذا لومًا له قوله تعالى له بعد ذلك: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾، أي: إن هذا حصل بسبب تركك لهم.

٢- إثبات تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام.

٣- أن الأنبياء عليهم السلام لا يقرون على أي مخالفة مهما كانت، بل ينبهون إليها، ويرجعون عنها.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٣.

٤- أن الإنسان طبع على العجلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

٥- أن الأنبياء والرسل عليهم السلام لا يعلمون الغيب؛ لأن موسى لم يعلم بما جرى لقومه من بعده حتى أعلمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

٦- أن موسى عليه السلام إنما عجل إلى ربه؛ طلبًا لرضاه عز وجل: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

٧- ذم العجلة؛ لأنها قد تكون سببًا لحصول ضرر، أو فوات نفع، بخلاف المبادرة، فإنها مندوبة أو واجبة.

٨- أن الأناة في الأمور محمودة، وسبب لإدراكها؛ ولهذا قال ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».

وقد قيل:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزللُ(١)

٩- أنه ليس كل مجتهد مصيبًا، فموسى عليه السلام تقدم قومه مسارعة إلى رضا ربه، ولو صبر وأتى هو وإياهم لكان أولى.

١٠- إخبار الله عز وجل لموسى بما حصل من الفتنة والابتلاء لقومه من بعده بعبادتهم العجل، وإضلال السامري إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

١١- إثبات القدر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾.

١٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

١٣- رجوع موسى عليه السلام لما أعلمه الله بافتتان قومه بعبادة العجل وضلالهم إليهم، قد اشتد به الغضب، غضبًا لله تعالى، وأسفه وحزنه لما وقع منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾.

١٤- توبيخ موسى عليه السلام لقومه، وإنكاره عليهم ما وقع منهم؛ لقوله: ﴿أَلَمْ

---

(١) البيت للقطامي عمير بن شييم. انظر: «ديوانه» (ص٢٥).

يَعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾.

١٥- أن الله عز وجل وعد بني إسرائيل وعدًا حسنًا بإنزال التوراة عليهم فيها شريعتهم، وشرف لهم، ووعدهم بالعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ كما من عليهم بإنجائهم من فرعون وإهلاكه وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾.

١٦- أن العهد لم يطل ببني إسرائيل بعد ذهاب موسى لوعد ربه، فلم تكن غيبته عنهم طويلة، فيبرروا إخلاف موعده ونقض وصيته لهم بذلك، بل كانت غيبته مدة قصيرة، ومع ذلك خالفوا أمره؛ لقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

١٧- إذا كانت مدة غيبة موسى عنهم قصيرة، وليست مبررًا لمخالفة أمره، فلم يبق إلا الأمر الثاني، وهو أنهم أرادوا تعريض أنفسهم لحلول غضب الله عليهم، فأخلفوا موعده بلا عذر؛ لقوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

ولهذا استحقوا ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢].

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٩- اعتذار بني إسرائيل من موسى بما لا يصح عذرًا ولا يقبل، وهو أن ذلك لم يكن باختيارهم وقدرتهم، بدعوى أنهم حملوا أوزارًا من زينة القبط، استعاروها منهم عند خروجهم من مصر، فتورعوا عنها فألقوها، فصنع السامري وصاغ منها صورة عجل مجسد له خوار، فقالوا هم والسامري: هذا إلهكم وإله موسى، نسيه موسى أو ضل عنه، فعبدوه؛ لقولهم: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾.

فادعوا أن ما فعلوه ليس باختيارهم ولا قدرتهم، وهذا باطل، فمن الذي ألزمهم ذلك وأجبرهم عليه؟! وتأثموا وتورعوا عن أمر حقير، وهو ما حملوه من زينة القبط،

ووقعوا في أمر خطير، وهو الشرك الكبير.

٢٠- وجوب الحذر من دعاة الضلال والشرك والبدع، ولزوم هدي الرسل وطريقهم عليهم الصلاة والسلام.

٢١- الإنكار على عبدة العجل وتقريعهم، وبيان سخافة عقولهم وسفه أحلامهم؛ حيث عبدوا جمادًا لا يجيبهم إذا سألوه، ولا يرد عليهم ولا يسمعهم إذا خاطبوه، ولا يدفع عنهم ضرًّا ولا يجلب لهم نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

٢٢- أنه لا يستحق الإلهية إلا من كان يكلم ويتكلم، ويملك لعابديه الضر والنفع؛ لمفهوم قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾، أي: ولقد قال لبني إسرائيل هارون لما عبدوا العجل من قبل رجوع موسى إليهم:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: يا قوم إنما ابتليتم ﴿بِهِۦ ۖ﴾، أي: بعبادة العجل، أي: ما هو إلا فتنة لكم وليس ربًّا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أي: وإن ربكم ورب جميع الخلائق الذي يستحق العبادة وحده دون سواه هو الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي.

﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، أي: اقتفوا أثري واسلكوا طريقي.

﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾، أي: امتثلوا أمري إذا أمرتكم، واجتنبوا نهيي إذا نهيتكم.

﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال عبدة العجل من بني إسرائيل مخالفين لأمر هارون، معاندين له: ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾، أي: لن نزال ﴿عَلَيْهِ﴾، أي: على عبادة العجل ﴿عَٰكِفِينَ﴾، مقيمين على عبادته، ملازمين لها ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾، أي: إلى غاية أن يعود إلينا موسى فنسمع كلامه فيه، وهذا يدل على توقيرهم لموسى وخشيتهم منه، واستضعافهم هارون، وهوانه عندهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟

يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾، الاستفهام: للإنكار والتوبيخ واللوم، أي: ما الذي منعك حين رأيت بني إسرائيل ضلوا بعبادتهم العجل.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾، أي: ألا تلحق بي فتخبرني، فأبادر بالرجوع إليهم؛ لإنكار ما وقعوا فيه؟!

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، إنكار بعد إنكار، وتوبيخ بعد توبيخ، أي: كيف ولم خالفت أمري في قولي لك: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال هارون لموسى مجيبًا على لومه له وإنكاره عليه، ومعتذرًا مما حصل: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾؛ قال هذا ترقيقًا وتحننًا واستعطافًا له، وإلا فهما شقيقان.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ﴾، وذلك أن موسى لما رأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه من شدة الغضب والعتب عليه؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

قال ابن القيم: «وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحال شاهدة حدث له غضب آخر؛ فإنه ليس الخبر كالمعاينة»(١).

﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾، أي: إني خفت أن أتبعك وألحق بك؛ لأخبرك بضلالهم.

﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿خَشِيتُ﴾، أي: خشيت قولك: فرقت بين بني إسرائيل، أي: لم تركتهم وحدهم، وفرقت بينهم؟ لأن تركهم بلا راعٍ سبب لتفرقهم.

قال ابن القيم: «فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨.

موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، وكان له هائبًا مطيعًا»(١).

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، أي: ولم تراع قولي لك حين استخلفتك عليهم: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى مستفهمًا من السامري، مؤنبًا له، بعد أن ندم على ما صنع بأخيه هارون وهو غير مستحق لذلك؛ لأنه لم يقصر، ولا ذنب له، وبعد أن دعا لنفسه وأخيه بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف: ١٥١]، فقال:

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«ما»، استفهامية، أي: ما شأنك فيما فعلت؟ وما حملك على ما صنعت؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال السامري: ﴿بَصُرْتُ﴾، أي: أبصرت ورأيت ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «تَبْصُرُوا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَبْصُرُواْ﴾، و«ما» موصولة، أي: بالذي لم يبصروا به، أو نكرة موصوفة، أي: بشيء لم يبصروا به، أي: لم يروه. قيل: رأى جبريل عليه السلام لما جاء لهلاك فرعون وقومه.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾، أي: أخذت قبضة من التراب والقبضة: ملء الكف، أو بأطراف الأصابع.

﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي: من أثر حافر فرس الرسول جبريل عليه السلام، أي: من تحت حافر فرسه.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾، أي: فألقيتها وطرحتها على حلي بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، أي: زينت وحسنت لي نفسي أن أقبض هذه القبضة فأنبذها، فكان ما كان و«التسويل»: تزيين ما ليس بزين.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾، أي: انصرف وابتعد؛ فإن عقوبتك في الحياة الدنيا: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، أي: أن تكون كالأجرب، منبوذًا، تقول لكل أحد: ﴿لَا مِسَاسَ﴾، أي: لا أَمس ولا أُمس، أي: لا تماس الناس ولا يماسونك، ولا تقرب منهم ولا يقربونك، عقوبة لك؛ كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يوم القيامة تجازى فيه بعملك.

﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللام: «لَنْ تُخْلِفَهُ»، أي: لن تخلفه أنت، أي: لن تغيب عنه ولا محيد لك، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، أي: أنه آتٍ لا محالة، ولا بد منه.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾، أي: إلى معبودك، وهو العجل.

﴿ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾، أي: الذي ظللت عليه، أي: أقمت على عبادته ﴿عَاكِفًا﴾، أي: ملازمًا لعبادته.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان الحاء وتخفيف الراء: «لَنَحْرِقَنَّهُ».

وقرأ الباقون بفتح الحاء وتشديد الراء: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾.

واللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾، «النسف»: ذرء الأجزاء وتفريقها، ويطلق أيضًا على قلع الشيء من أصله وأساسه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ١٠٥﴾ [طه: ١٠٥].

والمعنى: ثم بعد إحراقه وصيرورته رمادًا لنذرونه، أي: في البحر، والمراد به: البحر الأحمر «بحر القلزم».

﴿نَسْفًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: ذروًا شديدًا.

فحرقه عليه السلام، وذرأه في البحر؛ ليبين لهم أنه ليس بإله، فلو كان إلهًا لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى في إتلافه.

وأتلفه بهذه الطريقة؛ لأن قلوب بني إسرائيل قد أشربت بحبه، فاختار إتلافه بهذه

الطريقة، بإحراقه ثم نسفه في اليم حتى لا تبقى منه بقية يرونها، ولتزول من قلوبهم محبته، بزواله واضمحلاله بشخصه، بطريقة لا يمكن إعادته؛ لأن في القلوب أقوى داعٍ إلى الباطل.

ولما بين لهم بطلان عبادة العجل، أخبرهم بالذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، «إنما»: أداة حصر، و«الحصر»: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، أي: ما إلهكم إلا الله الذي لا إله إلا هو، أي: ما معبودكم إلا الله الذي لا معبود بحق لجميع الخلائق إلا هو، ولا رب لهم سواه.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، «علمًا»: منصوب على التمييز. و«العلم»: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا. وعلم الله عز وجل واسع للأشياء كلها، محيط بها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق؛ كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

الفوائد والأحكام:

١- تنبيه هارون عليه السلام بني إسرائيل قبل رجوع موسى إليهم، أن ما وقعوا فيه من عبادة العجل فتنة وابتلاء، وأن ربهم الرحمن جل وعلا وحده، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه، وأمرهم باتباعه وطاعة أمره، وإعذاره منهم، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٣- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٤- تمرد بني إسرائيل على هارون، وعصيانهم له، ومخالفتهم أمره، وإصرارهم على ملازمة عبادة العجل إلى رجوع موسى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾.

٥- استضعاف بني إسرائيل هارون وهوانه عندهم؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

٦- معاتبة موسى لهارون ولومه له: لماذا لم يتبعه فيخبره بما حصل من ضلال قومه، لعله يتدارك الأمر في أوله؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣﴾.

٧- المبادرة إلى إنكار المنكر قبل أن يتسع ويستشري وتألفه القلوب؛ لأنه إذا كثر الإمساس قل الإحساس.

٨- ترقيق هارون في ندائه لموسى بقوله: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ مع أنه شقيقه، تحننًا إليه، واستعطافًا له.

٩- أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره من شدة الغضب لما رأى ما أصاب قومه؛ لقول هارون له: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ﴾، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

١٠- أنه ليس الخبر كالمعاينة؛ فإن موسى لما أعلمه الله بافتتان قومه رجع إليهم غضبان أسفًا، ولما رجع ورأى الحال مشاهدةً ازداد غضبًا.

١١- لم يعتب الله تعالى على موسى في إلقائه الألواح وفيها كلامه عز وجل، ولا في أخذه برأس أخيه يجره إليه؛ لأن الذي حمله على ذلك هو الغضب لله تعالى.

١٢- اعتذار هارون لموسى في عدم اتباعه له لما رآهم ضلوا بخشيته منه أن يلومه على ذلك؛ لقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

١٣- حرص هارون واهتمامه وعنايته بتنفيذ وصية موسى له في قومه على التمام، وشدة هيبته له وطاعته.

١٤- أن عدم وجود راعٍ وخليفة على الناس سبب لتفرقهم وتشتتهم واختلافهم.

١٥- قبول موسى اعتذار أخيه هارون؛ ولهذا لم يرد عليه، بل سأل الله المغفرة له ولأخيه؛ كما في قوله في سورة الأعراف: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

١٦- تأنيب موسى للسامري بسؤاله: ما شأنه؟ وما الذي حمله على ما صنع؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۝٩٥﴾.

١٧- أن ما قام به السامري من إخراج العجل وصنعه لبني إسرائيل، وأمره إياهم بعبادته؛ مما سولته له نفسه الأمارة بالسوء؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

١٨- عقوبة السامري في الحياة بعقوبة شديدة، بسلبه الأنس الذي في طبيعة البشر فيما بينهم، وجعله منبوذًا يقول: ﴿لَا مِسَاسَ﴾، أي: لا أمس أحدًا، ولا يمسني أحد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، فصار بهذه العقوبة كأنه ليس بين الناس، وهو بين أظهرهم.

١٩- توعده بأن له موعدًا يوم القيامة لا بد منه، ولا محيد له عنه، يجازى فيه بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، وفي هذا إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٠- تبكيت السامري وإغاظته وتسفيه رأيه وفعله، بإحراق معبوده العجل، وأنه لا يملك الدفع عن نفسه ولا عن غيره؛ لقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

٢١- حكمة موسى عليه السلام في إحراق العجل ونسفه في البحر؛ ليزول بالكلية ويضمحل، بحيث لا تمكن إعادته، ولا يبقى في قلوب بني إسرائيل بقية من محبته التي أشربوها بقلوبهم.

٢٢- إثبات أن إله الخلق كلهم هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود لهم بحق سواه حصرًا وقصرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٣- سعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء علمًا؛ لقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

٢٤- أن من أعظم وأهم صفات الإله الحق: الإحاطة بكل شيء علمًا، وليس ذلك لأحد سوى الله عز وجل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾، أي: مثل ما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون، ومع قومه بني إسرائيل، كذلك نقص عليك بعضًا من أنباء الذين سبقوا؛ لما فيها من الحكم والأحكام والمواعظ والدروس والعبر، والتسلية، والشهادة على صدقك وصدق ما جئت به.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾، الواو: عاطفة، أو حالية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والحال أنَّا أعطيناك من عندنا ذكرًا وهو القرآن العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۗ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وسمي القرآن: ذكرًا؛ لأن فيه ذكر الله تعالى وأسمائه وصفاته وآياته، ويذكِّر بالله تعالى، وما يجب له من التعظيم، وفيه ذكر الأحكام والحكم والمواعظ، والعبر والدروس، والحساب والجزاء، وذكر الأخبار السابقة واللاحقة، وهو سبب لذكر الله تعالى لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولأن الله تعالى يسر ذكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، ولأن الله جعله شرفًا لمن اتبعه وعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولهذا أوجب الله تعالى على الأمة تلقيه بالقبول والتسليم، والانقياد والتعظيم، والاهتداء بنوره إلى الصراط المستقيم؛ لأن فيه نبأ ما كان قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما

بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، أي: من أعرض عن القرآن، فكذب به بقلبه، وتولى عنه ببدنه؛ فلم يعمل به بجوارحه، فلم يتدبر ألفاظه ولا معانيه، ولم يعمل بأحكامه، وابتغى الهدى من غيره.

﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾، أي: إثمًا عظيمًا، بسبب إعراضه عن القرآن وكفره به وهجره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾، أي: فيما يحملون من وزر، وفي العذاب.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾، أي: وبئس الحمل الذي يحملونه يوم القيامة ويعذبون به، وهذا عام في كل من بلغه القرآن وأعرض عنه من جميع الناس من العرب والعجم وأهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، قرأ أبو عمرو بالنون وفتحها وضم الفاء: «نَنْفُخُ فِي الصُّورِ»، وقرأ الباقون بالياء وضمها وفتح الفاء: ﴿يُنفَخُ﴾.

والصور: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام النفختين: نفخة الصعق، ونفخة البعث؛ كما قال ﷺ وقد سئل عن الصور، فقال: «**قرن ينفخ فيه**»(١).

وقال ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟!**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٤٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٠، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) سبق تخريجه.

والمعنى: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور لقيام الناس من قبورهم.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: ونجمع المجرمين، أي: أهل الإجرام بالكفر والشرك والمعاصي.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿زُرْقًا﴾، أي: زرق الألوان والعيون من شدة الخوف والقلق والعطش؛ لعظم ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، المخافتة: المسارّة والتناجي بخفية، أي: يتسارون بينهم ويتناجون خفية.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، بيان لما يتسارون به، أي: يقول بعضهم لبعض متقاصرين مدة الدنيا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، «إن»: نافية في الموضعين، أي: ما لبثتم إلا عشرًا، أي: إن أقمتم في الدنيا إلا عشرًا، أي: عشرة أيام؛ لقوله بعده: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: نحن أعلم بقولهم، أو بالذي يقولونه حال تناجيهم ومسارتهم بينهم.

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، أي: حين يقول أعدلهم وأحسنهم طريقة، وأعلمهم وأوفاهم عقلًا، وأقربهم تقديرًا.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، أي: ما لبثتم إلا يومًا واحدًا، وإنما كان هذا هو أمثلهم طريقة؛ لتوسطه في قوله؛ لأن منهم من يقسم أنهم ما لبثوا غير ساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

وإنما استقصروا مدة لبثهم في الحياة الدنيا لما رأوا من أهوال القيامة وشدائدها؛ لأنهم ضيعوا في الدنيا أعمارهم بالكفر والسهو واللهو واللعب والغفلات، وتزجية الأوقات، واتباع الشهوات، وأعرضوا عن القرآن وما يدعوهم إليه من الإيمان والأعمال الصالحات، والاستعداد لما بعد الممات، فانشغلوا بما يضرهم، وأعرضوا عما ينفعهم.

ولهذا ندموا حين لا ينفع الندم، واستقصروا مدة لبثهم في الدنيا، وهي كافية لإقامة الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا

لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٥].

الفوائد والأحكام:

١- أنه كما قص عز وجل على نبينا محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون ومع بني إسرائيل، قص عليه بعض أنباء ما قد سبق من الأمم الماضية، فالكل من مشكاة واحدة؛ لاستلهام ما في تلك القصص من الحكم والأحكام والمواعظ والدروس والعبر، وغير ذلك، والشهادة بصدقه ، وصدق ما جاء به، والتسلية له ﷺ وتثبيت قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

٢- تشريف الله عز وجل وتكريمه للنبي ﷺ، بخطابه عز وجل له، وبما خصه به من إتيانه من لدنه الذكر الحكيم والقرآن العظيم، والإشادة والتنويه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾.

٣- أن القرآن هو أعظم الذكر، فيه ذكر العبد لربه وأسمائه وصفاته وآياته، وفيه ذكر التشريع والأحكام والأخبار والمواعظ والعبر، والحساب والجزاء، إلى غير ذلك، وبسببه يذكر الله عباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٤- التهديد والوعيد لمن أعرض عن القرآن، لا يتدبر ألفاظه ولا معانيه، ولا يعمل بأحكامه؛ بالوزر الثقيل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾﴾ الآية.

٥- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٦- خلود المعرضين عن القرآن، المكذبين به فيما حملوه من الوزر، وفي العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾.

٧- ساء الوزر والحمل يوم القيامة حمل من أعرض عن القرآن وكذب به؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾.

٨- إثبات النفخ في الصور لبعث الناس من قبورهم والمعاد وحياة الأجساد؛

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾.

٩- حشر المجرمين يوم القيامة زرق الألوان والعيون، من شدة الخوف والقلق والعطش؛ لعظم الأهوال والكروب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

١٠- تسار المجرمين بينهم في عرصات القيامة، وتناجيهم مستقلين مدة لبثهم في الحياة الدنيا بسبب تضييعهم أعمارهم فيها بالكفر واللهو والغفلات واتباع الشهوات، ولما يرونه في ذلك الموقف من الأهوال والشدائد والكربات؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾.

١١- علم الله تعالى بما يقولون وما يتسارون به، ومدى استقلالهم للبثهم في دار الدنيا، وأن أمثلهم طريقة يقول: إن لبثتم إلا يومًا؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، أي: ويسألك الناس يا محمد ﴿عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾، أي: عن هذه الجبال الراسيات الصلبة العظيمة، هل ستبقى بحالها يوم القيامة أو تزول؟

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾، «نسفًا» مفعول مطلق منصوب، أي: نسفًا تامًّا، أي: يزيلها عن أماكنها إزالة تامة، ويقتلعها من أصولها اقتلاعًا تامًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات: ١٠]، ويسيرها فتمر مر السحاب، وتكون سرابًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير: ٣].

وتكون في الخفة كالصوف المنفوش؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٩].

وتبس وتدك وترجف، وتكون كثيبًا مهيلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: فيذر الأرض، أي: يتركها بعد نسف الجبال وإزالتها منها وتسويتها بها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: أرضًا مستوية ملساء، بساطًا واحدًا.

﴿لَّا تَرَىٰ﴾، أيها الناظر ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾، أي: ميلًا، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾، أي: ولا ارتفاعًا

ولا انخفاضًا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾:

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة حين يخرجون من قبورهم، ويرون هذه الأحوال والأهوال.

﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾، أي: يستجيبون للداعي لهم إلى موقف الحشر والحساب، مهطعين إليه مسرعين؛ كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، أي: مقبلين من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعوجون عنه يمنة ولا يسرة، ولا يميلون، فدعوته تسمع الجميع، لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي، لا يعوج عنه(١).

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: سكنت ذلًّا وخضوعًا لله عز وجل.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، الهمس: الصوت الخفي، والمراد به في الآية: وطء الأقدام في السير والمشي إلى المحشر بسكون وخضوع، أو المخافتة سرًّا بتحريك الشفتين، ونحو ذلك.

قال ابن كثير(٢): «وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥]».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أي: في ذلك اليوم يوم القيامة، لا تنفع الشفاعة عند الله.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٣١٠.

والشفاعة: هي التوسط بطلب الخير للغير، أو دفع الشر عنه ممن يقدر على ذلك.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، «إلا»: أداة حصر، أو للاستثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي أذن له الرحمن بالشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾، أي: رضي قوله، أي: شفاعته، ورضي عن المشفوع له؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨].

وفي حديث أنس رضي الله عنه الطويل في الشفاعة: قوله ﷺ: «**ثم يقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع**»(١).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: علمه محيط بالخلائق كلهم، يعلم الذي بين أيديهم، والذي خلفهم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والضمير في «به» على هذا يرجع إلى الله عز وجل.

وقيل: الضمير يرجع إلى قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، فعلى القول الأول يرجع إلى العالِم، وعلى القول الثاني يرجع إلى المعلوم.

والقول الثاني يستلزم الأول، من غير عكس؛ لأنه إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فأن لا يحيطوا علمًا به سبحانه أولى(٢).

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، أي: خضعت وذلت الوجوه، واستكانت واستسلمت وانقادت.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٩.

﴿لِلْحَيِّ﴾، «الحي» من أسماء الله تعالى، أي: ذو الحياة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿ٱلْقَيُّومِ﴾، من أسماء الله عز وجل، أي: القيم على جميع شؤون خلقه، كل شيء فقير إليه؛ لا قوام له إلا به، القائم بنفسه، الغني عن جميع خلقه.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، الواو: حالية، أي: وقد خسر الخسران المبين في ذلك اليوم كل من حمل ظلمًا، بالشرك بالله تعالى الذي هو أظلم الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣].

وكل من حمل ظلمًا، بأن ظلم أحدًا من عباد الله؛ لأن ذلك اليوم يوم رد المظالم، والانتصار للمظلومين وإنصافهم، فالخيبة كل الخيبة، والخسران المبين لمن ظلم بالشرك بالله؛ لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

ولأن الله حرم على المشرك الجنة، وجعل مأواه النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والخيبة لمن ظلم الناس بالاعتداء على حقوقهم؛ لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرمًا، وبيَّن أن عاقبته وخيمة، وأنه ظلمات يوم القيامة، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا**»(١).

وقال ﷺ: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»(٢).

كما أوجب عز وجل على نفسه إنصاف المظلوم، والاقتصاص من الظالم، قال ﷺ: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(٣).

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، لما توعد

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، تحريم الظلم ٢٥٧٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٧٨، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الظالمين بالخيبة والخسران، وعد المؤمنين بحسن المجازاة والعدل.

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾، «من»: شرطية، أي: ومن يعمل بجوارحه، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، «من»: تبعيضية، أي: بعض الأعمال الصالحات، التي يتوفر فيها الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنه مؤمن بقلبه، أي: مصدق بكل ما أوجب الله الإيمان به.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، قرأ ابن كثير: «يَخَفْ» بالجزم، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿يَخَافُ﴾.

أي: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ بزيادة في سيئاته، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بنقص من حسناته، بل تضاعف حسناته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

لما ذكر تحقق البعث والمعاد، والمجازاة على الأعمال خيرها وشرها، وحذر من الظلم، ورغب في الإيمان والعمل الصالح، أتبع ذلك ببيان أنه أنزل القرآن عربيًّا فصيحًا، وصرف فيه من الوعيد؛ لأجل تقوى الله تعالى، والاستعداد ليوم المعاد، بالإيمان والذكر والأعمال الصالحة.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب العظيم.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: باللسان العربي الفصيح المبين؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وفي هذا امتنان على الأمة بإنزال هذا القرآن العظيم أفضل كتب الله وأعظمها، بأوسع اللغات وأفصحها وأبينها.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾، أي: فصلنا فيه أنواعًا من الوعيد، بذكر أسماء الله

الدالة على العدل والانتقام، وذكر المثلات التي أحل الله بالمكذبين من الأمم السابقة، وذكر آثار المعاصي والذنوب، وذكر أحوال القيامة وأهوالها، والنار وعذابها، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله بترك الكفر والشرك والمعاصي، ويتقوا شر يوم القيامة.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ «أو» عاطفة، أي: ويحدث لهم ذكرًا، أي: تذكرة وموعظة بالإيمان والعمل الصالح والطاعات والقربات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ الفاء :عاطفة، أي: فتقدس وارتفع وتعاظم وتنزه عن كل نقص وعيب.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ من أسماء الله عز وجل، أي: الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما.

والمِلك: من له المُلْك، وله حق التصرف والتدبير في ملكه، فهو عز وجل المالك لذلك كله، وهو المتصرف فيه والمدبر له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل ملكٍ مالك، وليس كل مالكٍ ملك.

﴿ٱلْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت، فوجوده حق، وملكه حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وقوله حق، وفعله حق، وشرعه حق، ولقاؤه حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، وكل أمره حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، قرأ يعقوب بالنون مفتوحة وكسر الضاد وفتح الياء نصبًا، ونصب «وحيه»: «نَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ»، وقرأ الباقون بالياء مضمومة وفتح الضاد ورفع وحيه: ﴿يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

أي: من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، أي: أنصت، فإذا فرغ جبريل من قراءته فاقرأه بعده، وكان ﷺ من حرصه على حفظ القرآن، ومخافة نسيانه؛ يستعجل ويبادر بالقراءة قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، فكلما قرأ جبريل قرأ معه، فأرشده الله تعالى إلى ما هو أخف وأسهل، وهو أن يقرأ بعد فراغ جبريل من القراءة، وتكفل له عز وجل بجمعه وقراءته وبيانه.

كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦- ١٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يعالج من القرآن شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية(١).

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾، أي: اطلب من ربك زيادة العلم، وقد أعطاه الله عز وجل من العلم ما لم يعط لأحد سواه، فلم يزل في زيادة من العلم حتى توفاه الله تعالى، وكان الوحي أكثر ما كان تتابعًا عليه ﷺ يوم توفي عليه الصلاة والسلام(٢).

وكان ﷺ يقول: «**اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار**»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال يوم القيامة، فالجبال مع عظمتها ورسوها وصلابتها تنسف فيه نسفًا، فتكون قاعًا مستويًا، لا ميول فيها ولا ارتفاع ولا انخفاض؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣- جواز السؤال في مثل هذا إذا كان لغرض صحيح، وليس تعنتًا ومكابرة وتعجيزًا.

٤- توجيه السؤال لمن هو أهل للإجابة؛ للرسول ﷺ في حياته، ولأهل العلم بعد وفاته؛ كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

٥- خروج الناس يوم القيامة من قبورهم، واتباعهم الداعي للحشر، واستجابتهم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥ ومسلم في الصلاة، الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠١٦، وأحمد ٣/ ٢٣٦، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٦٦٩، وابن ماجه دون قوله: «وأعوذ... إلخ، في المقدمة، الانتفاع بالعلم والعمل ٢٥١، من حديث أبي هريرة رضي لله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

له، وتوجههم صوبه لا يميلون عنه يمنة ولا يسرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾.

٦- خشوع الأصوات كلها للرحمن من شدة الهول والكرب، فلا تسمع إلا وطء الأقدام، أو صوتًا في غاية الخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٨- أن الشفاعة يوم القيامة لا تنفع إلا ممن أذن له الرحمن، ورضي قوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

٩- علم الله عز وجل المحيط بما بين أيدي الخلائق وما خلفهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

١٠- عدم إحاطة الخلائق بالله عز وجل علمًا، ولا بشيء من علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

١١- خضوع الوجوه في ذلك اليوم واستكانتها وتذللها واستسلامها وانقيادها لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وصفة الحياة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ﴾.

١٣- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾، وأنه سبحانه القائم على جميع شؤون خلقه، القائم بذاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾.

١٤- خيبة وخسارة من حمل ظلمًا بالشرك بالله، وظلم عباده، والتحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

١٥- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا بإثابته بعمله، لا يخاف ظلمًا بزيادة سيئاته، ولا هضمًا بالنقص من حسناته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

١٦- تمام عدل الله تعالى في مجازاته عباده، فلا يظلمون لديه ولا يهضمون.

١٧- لا بد من كون الأعمال صالحة يتوفر فيها: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

١٨- لا بد من الجمع بين عمل الجوارح الظاهرة وإيمان القلب.

١٩- أن النعمة كما تكون بجلب الخير، تكون بدفع الشر من الظلم والهضم ونحو ذلك.

٢٠- الامتنان بإنزال القرآن عربيًّا بأوسع اللغات وأفصحها وأبينها، لهداية الخلق إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ومعادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا﴾.

٢١- تصريف الوعيد في القرآن وتنويعه؛ لحمل الناس على تقوى الله، بترك ما حرمه ونهى عنه من الكفر والشرك والمعاصي، وذكره بالإيمان والعمل الصالح والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

٢٢- تعاظمه عز وجل وتقدسه، وتنزهه عن النقائص والعيوب وتعاليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الملك»، وتفرده بملك السموات والأرض وما بينهما وتدبيره والتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾.

٢٤- أن الله عز وجل هو الملك الحق، وجوده حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وشرعه حق، وخبره حق وصدق، ولقاؤه حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، وكل أمره حق، وهو الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

٢٥- استعجاله ﷺ بقراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، حرصًا منه ﷺ على حفظه، ومخافة نسيانه، ونهي الله عز وجل له عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

٢٦- إرشاده عز وجل له ﷺ لما هو الأسهل والأخف في حقه، وأرفع للمشقة عنه، وهو أن ينصت حتى يفرغ جبريل من قراءته، فإذا فرغ قرأ بعده؛ لمفهوم قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، أي: أنه إذا قُضي إليك وحيه وفرغ جبريل من قراءته فاقرأ بعده.

٢٧- الأدب في طلب العلم، وأنه ينبغي للمتعلم التأني وعدم العجلة، فلا يقاطع

المعلم أو المملي حتى يفرغ.

٢٨- أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدعاء ربه بزيادة العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ولهذا لم يزل ﷺ في زيادة من طلب العلم حتى لحق بربه.

٢٩- فضل العلم؛ لأنه ينير للمسلم طريقه، ويهديه إلى ما فيه خيره وصلاحه وفلاحه في دينه ودنياه وأخراه، فرأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع، وعمل صالح؛ ولهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدعائه بطلب زيادة العلم، وقال تعالى ممتنًّا عليه ﷺ وعلى الأمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، [الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾، أي: وصيناه وعهدنا إليه، ونهيناه عن الأكل من الشجرة.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، أي: حفاظًا لما أمر به.

قال ابن القيم: «فتأمل أول نقص دخل على أبي البشر، وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ الآية.

والنسيان سواء كان عدم العلم، أو عدم الصبر؛ كما فسر به ههنا؛ فهو أمر عدمي»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ الآيات.

ذكر الله عز وجل قصة خلقه آدم وأمره الملائكة بالسجود له إكرامًا واحترامًا، في عدد من السور، منها سورة البقرة(٢)، والأعراف(٣)، والحجر(٤)، والإسراء(٥)، والكهف(٦)، وص(٧)، وفي هذه السورة(٨)؛ لما فيها من الحكم والمواعظ والعبر، ومن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٩، ١٧٠.

(٢) [الآيات: ٣٠- ٣٨].

(٣) [الآيات: ١١- ٢٥].

(٤) [الآيات: ٢٨- ٤٠].

(٥) [الآيات: ٦١- ٦٥].

(٦) [الآية: ٥٠].

(٧) [الآيات: ٧١- ٨٥].

(٨) [الآيات: ١١٦- ١٢٣].

أهم ذلك: أن يعلم بنو آدم شدة عداوة إبليس لهم ولأبيهم؛ لامتناعه من السجود له، وأن عداوته لهم ولأبيهم قديمة، فيحذروا منه أشد الحذر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾، أي: واذكر إذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم إكرامًا واحترامًا له، وإظهارًا لفضله، وعبودية لله تعالى، وطاعة له.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾، أي: فسجدوا جميعًا إلا إبليس امتنع من السجود مخالفة لأمر الله عز وجل، وتكبرًا على آدم واحتقارًا له؛ كما قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، يعني: حواء عليها السلام، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، أي: فاحذر أن يسعى ويتسبب في إخراجكما من الجنة، دار النعيم المقيم.

﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾، أي: فتتعب في طلب رزقك والمكابدة في الدنيا، بعد أن كنت في الجنة في عيش رغيد هنيء، بلا كلفة ولا مشقة.

وشرَّك بينه وبين زوجه في الخروج، وخصه بالشقاء؛ لاشتغاله بالكسب والمعاش دون المرأة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨﴾، أي: إن لك ألا تجوع في الجنة ولا تعرى، أي: ولا تعرى من اللباس على بدنك، وقابل بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، كما أن الأكل كسوة البطن، واللباس كسوة الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة: «وَإِنَّكَ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّكَ﴾، أي: لا يصيبك الظمأ، وهو العطش.

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾، أي: لا يصيبك حر الشمس. وهنا قابل بين الظمأ، وهو: حر الباطن، والضحى، وهو: حر الظاهر.

وبانتفاء ذل الباطن والظاهر، وحر الباطن والظاهر؛ تنتفي جميع الآفات ظاهرًا وباطنًا.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: سوّل وزين له وغره؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾، أي: الشجرة التي من أكل منها خلد ودام مكثه وبقاؤه، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام ما يقطعها، وهي شجرة الخلد**»(١).

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، أي: لا ينقضي ولا ينقطع؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، أي: فظهرت لهما عوراتهما، بسقوط ما عليهما من اللباس، بسبب الأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وأباح لهما الأكل من حيث شاءا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: أخذا يلصقان على عورتيهما من ورق الجنة لسترهما.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، بارتكابه ما نهاه الله عنه بالأكل من الشجرة.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: اصطفاه واختاره ووفقه إلى التوبة، فتاب إلى ربه وأناب؛ كما

---

(١) أخرجه أبو داود في صفة الجنة ونعيمها ٢٨٣٣، وأحمد ٢/ ٤٥٥، ٤٦٢.

قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، أي: فقبل توبته وتاب عليه وهداه، فصار بعد التوبة أفضل منه قبل المعصية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**حاج موسى آدم، فقال له: أنت آدم الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟**» قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- عهد الله تعالى ووحيه إلى آدم، ونهيه له عن الأكل من الشجرة، ونسيانه عليه السلام، وضعف عزمه، وأكله منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾.

٢- أمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم وسجودهم جميعًا؛ احترامًا وتكريمًا له إلا إبليس أبى، استكبارًا وكفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

٣- إثبات وجود الملائكة عليهم السلام، وطاعتهم لله تعالى بفعل ما يأمرهم به.

٤- فضل آدم على الملائكة؛ لأن الله أمرهم بالسجود له، إكرامًا واحترامًا له، وإظهارًا لفضله.

٥- أن سجود الملائكة لآدم بأمر الله تعالى، إنما هو عبادة لله تعالى؛ لأن الله هو الذي أمرهم بذلك.

٦- فضل الملائكة ومبادرتهم بالسجود لآدم طاعة لله تعالى.

٧- إخبار الله عز وجل لآدم بعداوة إبليس له ولزوجه، وتحذيرهما من أن يسعى

---

(١) سبق تخريجه.

ويتسبب في إخراجهما من الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

٨- أن عداوة إبليس لبني آدم قديمة قدم عداوته لأبيهم قبل ذلك.

٩- أن آدم وزوجه عليهما السلام كانا في الجنة يتمتعان بما فيها من النعيم والعيش الهنيء الرغيد، قبل أن يتسبب إبليس في إخراجهما منها إلى دار العناء والشقاء.

١٠- الإشارة إلى أن المطالب بالسعي وطلب الرزق هو الرجل، يسعى على نفسه وعلى أهله؛ لقوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾، أي: فتشقى في طلب الرزق.

١١- تكفله عز وجل لآدم بالجنة بانتفاء جميع الآفات عنه ظاهرًا وباطنًا؛ فلا يناله جوع ولا عري ولا ظمأ ولا حر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

١٢- أن الجنة التي أسكنها آدم وزوجه هي جنة الخلد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾، وهذا لا يكون في الدنيا.

١٣- وسوسة الشيطان وتزيينه وتسويله لآدم الأكل من الشجرة، وتغريره له ولزوجه بأنها شجرة الخلد والملك الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

١٤- انخداع آدم وزوجه بتسويل الشيطان، ووسوسته لهما، وأكلهما من الشجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾.

١٥- انكشاف عوراتهما، وظهورها لهما بسبب أكلهما من الشجرة، وأخذهما بالإلصاق عليهما من ورق الجنة؛ لسترهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

١٦- معصية آدم لربه ومخالفته لنهيه، وغوايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

١٧- اجتباء الله تعالى لآدم، واصطفاؤه له، وتوفيقه للتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لآدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾.

١٩- قبول الله تعالى توبة آدم وهدايته له، فصار بعد التوبة أفضل منه قبل المعصية، فضلًا من الله تعالى وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾، أي: من الجنة ﴿جَمِيعًۢا﴾، يعني: آدم وحواء وإبليس؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يعني: آدم وذريته وإبليس وذريته.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، الفاء عاطفة، و«إن» حرف شرط جازم، و«ما» زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾»(١).

قال ابن القيم: «فنفى الضلال عنه الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح»(٢).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾، الواو عاطفة، و«من» شرطية، أي: ومن أعرض عن ذكري الذي أنزلته وهو القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ١٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٨٠.

عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ [القلم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ [فصلت: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

والمعنى: ومن أعرض عن القرآن الكريم، أي: تركه، فلم يتدبره بقلبه، ولم يعمل به بجوارحه، بل نسيه، وخالف أمر الله واتبع هواه؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾.

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي: عيشة ضيقة شديدة في الدنيا، فلا سعادة، ولا طمأنينة، ولا انشراح صدر، وهو وإن تنعم ظاهرًا، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن ما شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى في قلق وحيرة وشك وضيق وحرج.

وله عيشة ضنك ضيقة بعذاب القبر في البرزخ، وهذا أشد من ضنك الدنيا، حتى إنه ليضيق قبره حتى تختلف أضلاعه كما جاء في الحديث(١).

قال ابن القيم: «والصحيح أنها في الدنيا وفي البرزخ، فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب لسكرته، فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر».

وقال أيضًا: «فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا»(٢).

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾، «الحشر»: الضم والجمع، ويراد به تارة: الحشر إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٥٣- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧٢، ١٧٤.

موقف القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: ٥]، وقال ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا**»(١).

ويطلق ويراد به: الحشر إلى دار المستقر، فحشر المتقين إلى الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ [مريم: ٨٥].

وحشر الكافرين إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم: ٨٦].

فالحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار، وهم عند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويتكلمون ويجادلون، وعند الحشر الثاني لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧](٢).

ولهذا قال هنا: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، أي: أعمى البصر؛ لقوله بعده:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥﴾، أي: وقد كنت في الدنيا مبصرًا أرى الأشياء وأشاهدها.

ودلالة هذا على أن المراد بالعمى: عمى البصر واضحة جدًّا، بل إن السياق لا يدل إلا عليه، بخلاف ما قيل: إن المراد بذلك: عمى البصيرة؛ لأنه لم يكن بصيرًا في كفره، بل إنه قد تبين له أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾؟ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾، بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فجازاه الله على إعراضه عن الذكر وعمى بصيرته عنه في الدنيا، بأن أعمى بصره يوم القيامة، وجازاه على تركه الذكر في الدنيا بتركه في العذاب يوم القيامة جزاء وفاقًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الحشر ٦٥٢٦، ومسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٦٠، والنسائي في الجنائز ٢٠٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٣، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧٩- ١٨٠.

وقد استدل من قال: المراد بالعمى: عمى البصيرة لا عمى البصر؛ بالآيات التي أثبتت لهم الرؤية في الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾ [الطور: ١٣- ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٣].

وقد استظهر ابن القيم بعدما ذكر القولين وأدلتهما: أن الصواب هو القول بأنه أعمى البصر، قال: «فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذٍ»(١).

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾، أي: فأعرضت عنها وتركتها وأغفلتها.

﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، أي: تترك ويتخلى عنك وتسلم للنار والعذاب، ونعاملك معاملة من نسيك؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فجمع الله لمن أعرض عن القرآن وخالف أمر الله واتبع هواه بين المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، وحشره يوم القيامة أعمى البصر، وتركه ونسيانه في العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦].

قال ابن كثير(٢): «فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه؛ فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعدًا عليه من جهة أخرى؛ فإنه قد وردت

السنة بالنهي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك».

عن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة وهو أجذم**»(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾، بتعدي الحدود، وارتكاب المحارم.

﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، أي: ولم يصدق بآيات ربه، خالقه ومالكه ومدبر أمره، بل كفر وكذب بها وأعرض عنها.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾، الواو استئنافية، واللام للتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة بالنار، وما فيها من صنوف العذاب، أشد ألمًا وأعظم من عذاب الدنيا أضعافًا مضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [القلم: ٣٣].

ولهذا قال ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»(٢).

﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وأدوم؛ لأنه لا ينقطع أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾ [المائدة: ٣٧].

بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه مهما طال ينقطع.

الفوائد والأحكام:

١- إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

٢- الترغيب والإغراء باتباع هدى الله؛ لضمانه عز وجل لمن اتبع هداه بحفظه من الضلال، وإسعاده في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

٣- التحذير من الإعراض عن ذكر الله تعالى «القرآن الكريم» وتركه ونسيانه، والوعيد لمن فعل ذلك بالمعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، وحشره يوم القيامة

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٨٥، ٣٢٣، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٣، وأبو داود في الطلاق، باب في اللعان ١٢٠٢، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٣، والترمذي في تفسير سورة النور ٣٢٢٨، وأحمد ١/ ٣٠٩، ٣١٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أعمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

٤- أن الهدى الحق هدى الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

٥- أن سعادة الدنيا والآخرة باتباع هدى الله، لا طريق لها سوى ذلك.

٦- استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ على ثبوت عذاب القبر.

٧- إثبات الحشر والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، وأن من عميت بصيرته عن الحق في الدنيا أعمى الله بصره يوم القيامة، وأن من أتته آيات الله فنسيها وتركها، تركه الله في العذاب يوم القيامة ونسيه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

٩- التحذير من الإسراف بتعدي الحدود، وارتكاب المحارم، والكفر بآيات الله والإعراض عنها، والوعيد بالمجازاة على ذلك بمثل الجزاء السابق.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦٓ﴾.

١١- أن عذاب الآخرة أشد ألمًا من عذاب الدنيا، وأبقى زمنًا؛ لأنه لا ينقطع أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات تحذير وتهديد للمكذبين، وتسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، الاستفهام للإنكار، أي: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين ما جئتهم به يا محمد.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾، «كم» للتكثير، أي: أفلم يهد لهم كثرة الذين أهلكنا قبلهم ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾، أي: من الأمم لما كذبوا الرسل فبادوا عن آخرهم، ولم تبق منهم باقية.

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾، أي: يمشون ويسيرون في ديارهم الخالية، ومساكنهم وبيوتهم الخاوية التي خلفوهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، الإشارة تعود إلى إهلاك كثير من الأمم الماضية المكذبة للرسل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، اللام للتوكيد، أي: لعلامات ودلالات على صحة ما جاءت به الرسل.

﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، أي: لأصحاب العقول السليمة، والألباب المستقيمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات، وتهديهم عقولهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، دون من سواهم ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، الواو استئنافية، و«لولا» حرف امتناع لوجود فيه معنى الشرط، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك يا محمد، وهي أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾، اللام رابطة لجواب «لولا»، أي: لكان العذاب والهلاك عاجلًا لازمًا.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، «أجل» معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾، أي: ولولا أجل مسمى، أي: وقت معين محدد لهلاك هؤلاء المكذبين، لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

والمعنى: ولولا كلمة سبقت من ربك أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، ولولا أجل مسمى ووقت معين معلوم محدد ضربه الله لإهلاكهم؛ لكان الهلاك والعذاب لهم عاجلًا لازمًا.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فاصبر على قولهم، أو على الذي يقولونه، من تكذيبهم لك، ورميهم لك بالسحر والجنون والكهانة والشعر ونحو ذلك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: وسبح ربك متلبسًا بحمده، أي: قارنًا بين تسبيحه وتحميده.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾، يعني: صلاة الفجر.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، يعني: صلاة العصر.

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى

القمر ليلة البدر، فقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته. قال: فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ هذه الآية**»(١).

وعن عمارة بن رؤيبة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: الفجر والعصر**»(٢).

﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، أي: ومن ساعات الليل وأوقاته فسبح وصل وتهجد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وحمله بعضهم على صلاة المغرب والعشاء.

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، في مقابلة ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾، أي: وسبح وصل أطراف النهار.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، قرأ الكسائي وأبو بكر بضم التاء: «تُرْضَى»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تَرْضَىٰ﴾، أي: لأجل أن ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، والجزاء الأوفى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت، فضل صلاة العصر ٥٥٤، ومسلم في المساجد، فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤١٧، وأحمد ٤/ ١٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، صفة الجنة والنار ٦٥٤٩، ومسلم في الجنة، إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا ٢٨٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾:

بعد أن أمره بالصبر على ما يقوله المكذبون من قومه، والاستعانة بالتسبيح والتحميد والصلاة فرضًا ونفلًا، تسلية له وتثبيتًا لقلبه، نهاه عن الالتفات إلى ما هم فيه من زهرة الحياة الدنيا معجبًا بذلك فهو فتنة لهم، وما عند الله من الرزق خير وأبقى.

قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾، أي: لا تنظر ولا تلتفت معجبًا.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾، أي: إلى الذي متعنا به أصنافًا من المشركين المعرضين عن ذكر الله، من الأموال والأولاد والمآكل والمشارب والمساكن والمراكب ونحو ذلك.

أي: لا تنظر إلى ذلك نظرة إعجاب واستحسان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، ولهذا قال:

﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، قرأ يعقوب بضم الهاء: «زَهُرَةَ»، وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿زَهۡرَةَ﴾، أي: زهرة الحياة الدنيا وزينتها الحقيرة الزائلة.

﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن نبتليهم ونختبرهم في الذي متعناهم به، ونمتحنهم، ونستدرجهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧- ٨].

﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾، أي: وعطاء ربك خير خيرية مطلقة من جميع الوجوه.

﴿وَأَبۡقَىٰ﴾، أي: وأدوم، أي: خير مما متع به هؤلاء وأبقى، وخير وأبقى من الدنيا كلها وما فيها؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجر: ٨٧- ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ

يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٤-٨].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، وهو مضطجع على حصير، قال: فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظًا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي. قال: «**ما يبكيك يا بن الخطاب؟**» قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك، لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟! فقال: «**يا ابن الخطاب: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟**».

وفي رواية: «**فقال: أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»(١).

فما أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ ولعباده الصالحين من الرزق والعطاء الديني والدنيوي، وما أعد لهم من ذلك، ومن العطاء الأخروي خير وأبقى؛ لأنه لا ينقطع؛ كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: بإقام الصلاة فرضها ونفلها؛ لأنها قوام الدين، وعمود الإسلام، وسبب العون والتوفيق والحفظ من الشرور، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وخص الأهل هنا؛ لأن المسؤولية عنهم أعظم، وهم أولى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- الغرفة العلية المشرفة ٢٤٦٨، وفي تفسير سورة التحريم، ومسلم في الطلاق- الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن ١٤٧٩، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣١٨.

وفي الحديث: «**رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله**»(١) الحديث.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قام من الليل أقام أهله، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٢).

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، الاصطبار: شدة الصبر، أي: واصطبر أنت على الصلاة بإقامتها بأركانها وواجباتها وخشوعها ونحو ذلك؛ لأن ذلك شاق على النفس؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأمر أهله بالصلاة، وأن يصطبر عليها، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، في إشارة واضحة ودلالة بينة على أن الصلاة من أعظم أسباب الرزق، وأوسع أبوابه.

قوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، أي: أمرناك بأمر أهلك بالصلاة والصبر عليها ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾، بل لنرزقك؛ لأن الصلاة سبب الرزق؛ ولهذا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، أي: عليك إقام الصلاة وحفظها وعلينا رزقك، فإذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فالصلاة عمود الإسلام وقاعدته ورحاه التي يدور عليها، وهي أعظم الأسباب وأوسع الأبواب للعون والتوفيق لمصالح الدين والدنيا والآخرة؛ ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، فمن صدق الله ودخل عليه من باب الصلاة فليبشر بالخير.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: والعاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة للتقوى وأهلها، ففي

---

(١) أخرجه أبو داود في قيام الليل(١٣٠٨)، والنسائي في قيام الليل (١٦١٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٢١٧، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٢١.

الدنيا لهم التوفيق والسعادة بالإيمان، وفي الآخرة لهم الجنة دار السلام.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن نافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا بن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلًا، ولم أسد فقرك**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا هم المعاد، كفاه هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي وادٍ هلك**»(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين عدم الاتعاظ بإهلاك كثير من الأمم المكذبة قبلهم ممن يرون آثارهم، ويسمعون أخبارهم، والوعيد والتهديد لهم أن يحل بهم ما حل بأولئك القرون قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾.

٢- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما حل بمن خالفوا أمر الله، والسعيد من وعظ بغيره.

٣- أن فيما أحله الله بالمكذبين من الأمم الماضية من العقوبات والهلاك؛ علاماتٍ

---

(١) أخرجه مسلم في الرؤيا، رؤيا النبي ﷺ ٢٢٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦، وابن ماجه في الزهد- الهم بالدنيا ٤١٠٧- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٠٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٦٠٥.

ودلالاتٍ على صحة ما جاءت به الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

٤- أنه لا ينتفع بالآيات ويستفيد منها إلا أصحاب العقول السليمة، الذين تهديهم عقولهم إلى التأمل بالآيات والانتفاع بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾.

٥- استحقاق المشركين المكذبين للنبي ﷺ معاجلتهم بالهلاك، وأنه لولا كلمة سبقت منه عز وجل أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار والإعذار منه، وأنه عز وجل جعل لإهلاكهم أجلًا مسمًّى ووقتًا معلومًا محددًا، ولولا هذا وذاك لكان العذاب عاجلًا لازمًا لهم. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد وتحذير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

٦- كمال عدل الله عز وجل، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٧- إثبات القدر، وأن الله قدر الأقدار والآجال، فكل شيء خلقه بقدر، وكل شيء عنده بمقدار وأجل مسمًّى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

٨- أمره عز وجل للنبي ﷺ بالصبر على ما يقوله المشركون من التكذيب له ﷺ وغير ذلك؛ تثبيتًا لقلبه، وتسلية له؛ لأن الصبر أعظم أسباب النصر والعون من الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٩- إرشاده إلى الاشتغال بما يعينه على ذلك ويسليه، وهو التسبيح بحمد ربه، والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن ساعات الليل وأطراف النهار؛ ليرضى ويطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطابه عز وجل له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

١١- فضل الصبر والترغيب فيه؛ لأنه أكبر عون للعبد على تحقيق أمور دينه

ودنياه.

١٢- أن وقت صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، ووقت صلاة العصر قبل غروبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

١٣- فضل التسبيح بحمد الله، والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل وأطراف النهار، وأن ذلك سبب لحصول الرضا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

١٤- نهي الله عز وجل له ﷺ أن ينظر نظرة إعجاب، إلى ما مُتع به المشركون المعرضون عن ذكر الله من متاع الحياة الدنيا وزهرتها وزينتها الفانية؛ لأن ذلك ما هو إلا فتنة لهم واستدراج؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

١٥- ينبغي عدم الاغترار بمتاع الدنيا الزائل؛ لأن ذلك قد يكون فتنة وابتلاءً واستدراجًا.

١٦- ليس في نهيه عز وجل له ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ ما يدل على حصول ذلك منه، وحاشاه صلى الله عله وسلم من ذلك، وهو الذي عرضت عليه الدنيا فرفضها، وقال ﷺ: «**ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

١٧- أن رزق الله تعالى وعطاءه لنبيه ﷺ خير مطلقًا، وأدوم وأبقى، وقد أعطاه الله من خيري الدنيا والآخرة ما لم يعطه لأحد سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

١٨- إرشاده ﷺ لأمر أهله بالصلاة، والاصطبار عليها؛ لعظم مكانتها في الإسلام، وما رتب على حفظها وإقامتها من صلاح أمور الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

١٩- الأقربون أولى بالمعروف؛ بالأمر والنهي، والتوجيه والدعوة إلى الخير، وغير ذلك.

٢٠- تمام غنى الله تعالى عن خلقه، وحاجة الخلائق كلهم إلى رزقه وتكفله عز وجل بأرزاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

٢١- أن الصلاة من أعظم أسباب الرزق، وأوسع أبوابه؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر أهله بها ويصطبر عليها، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ في دلالة واضحة وإشارة بينة إلى هذا المعنى.

وكم من إنسان انغلقت أبواب الرزق دونه، وتعسرت عليه أسبابه بسبب التفريط في الصلاة أو التهاون فيها، وعدم حفظها وإقامتها كما شرع الله، والمصيبة أنه لا يدري ما سر تعاسته، وما سبب تعسر أموره وسوء أحواله.

وكم من أناس يسر الله رزقهم، وشرح صدورهم بسبب العناية والاهتمام بالصلاة، وحفظ حدودها.

٢٢- أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للتقوى ولعباد الله المتقين، فلهم في الدنيا التوفيق والسعادة بالإيمان، ولهم في الآخرة سكنى الجنان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾، أي: وقال المشركون المكذبون للنبي ﷺ: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾، أي: هلا يأتينا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾، تدل على صدقه في أنه رسول الله، يريدون: من الآيات التي يقترحونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٢].

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، قرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب وابن جماز وحفص بالتاء: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾، وقرأ الباقون بالياء: «أو لم يأتهم».

الاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير، أي: أو لم تأتهم بينة الذي في الصحف الأولى: التوراة والإنجيل والكتب السابقة، وهو مصداق ما أخبرت به؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

والمعنى: أنه قد جاءهم القرآن العظيم الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى، وأنباء الأمم الذين أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها، وهو الآية الكبرى، والمعجزة الخالدة العظمى، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠- ٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**ما من نبي من الأنبياء قبلي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٧٤، ومسلم في الإيمان ١٥٢.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين بعذاب من قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل إليهم هذا القرآن العظيم.

﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لكانوا قالوا: هلا أرسلت إلينا رسولًا قبل أن تهلكنا؟

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، أي: فنؤمن ونتبع آياتك، ونعمل بها.

﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾، أي: من قبل أن نذل ونهان بالعذاب، ﴿وَنَخْزَىٰ﴾، أي: نفتضح بحشرنا مع المكذبين والمجرمين.

وهم في هذا كذبة مبطلون؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦- ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩- ١١٠].

﴿قُلْ﴾، يا محمد لهؤلاء المكذبين، ولكل من كذبك وخالفك: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾، أي: كل منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾، أي: منتظر، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾، أي: فانتظروا.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾، أي: مَن أصحاب الطريق المستقيم أأنا أو أنتم؟ و«من» استفهامية في الموضعين والسين في: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ للاستقبال والتحقيق.

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، أي: ومن اهتدى إلى الحق وسلك سبيل الرشد، أي: أأنا أو أنتم؟ أي: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، ممن ضل وصار من أصحاب الطريق العوج والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ

ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- مطالبة المشركين أن يأتيهم الرسول بآية من ربه مما يقترحونه من الآيات؛ مكابرة وعنادًا، وإمعانًا منهم في تكذيب القرآن، أعظم الآيات، وأكبر المعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، وفي تعبير المشركين بهذا دون أن يقولوا: «من ربنا» دلالة على جفائهم.

٣- الإنكار على المشركين في نفيهم وزعمهم أنه لم يأتهم بآية من ربه، وإثبات وتقرير أنه جاءهم بأعظم الآيات: القرآن الكريم، الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى والكتب السابقة وتصديقها، وأنباء الأمم الذين هلكوا لما اقترحوا الآيات وكفروا بها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

٤- في بيان القرآن الكريم ما في الصحف الأولى والكتب السماوية السابقة، وتصديقه لها، وكونه مصداق ما أخبرت به؛ دلالة واضحة تامة على صدق الرسول ﷺ، وعلى أن القرآن من عند الله عز وجل.

٥- أن الله لو أهلك المشركين المكذبين بعذاب قبل إرسال الرسول ﷺ إليهم، وإنزال القرآن العظيم عليهم؛ لكانوا احتجوا قائلين: هلا أرسلت إلينا رسولًا قبل ذلك؟ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

٧- أن الله أراد بإرسال الرسول وإنزال القرآن إقامة الحجة، والإنذار والإعذار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الآية.

٨- تمام عدله عز وجل؛ لأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

٩- الإشارة إلى استحقاق المكذبين للهلاك بعد مجيء الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، بسبب تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية.

أي: فإهلاكهم إنما كان بعد إتيان الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، وتكذيبهم، فليس لهم حجة أن يقولوا: أهلكنا قبل ذلك. وفي هذا تكذيب لقولهم: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

١٠- أن العذاب إذلال وإهانة للمكذبين، وخزي وفضيحة لهم؛ لقولهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

١١- تربص جميع الخلق وانتظارهم موافاة الحساب، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾.

١٢- تهديد المكذبين له ﷺ ولما جاء به من الآيات البينات، وأمرهم بالتربص والانتظار؛ لقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: ممن هم خلاف ذلك، وهم أهل طريق العوج والضلال.

١٣- تنازله مع المكذبين له ﷺ بالخطاب؛ لقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، أي: أأنا أو أنتم؟ مع يقينه أنه هو وأتباعه أصحاب الصراط السوي والهدى.

١٤- تحقير طريق العوج والضلال؛ ولهذا آثر عدم ذكره.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْأَنْبِيَاءِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الأنبياء»؛ لأن الله تعالى ذكر فيها ستة عشر نبيًّا، وشيئًا من قصص بعضهم وأخبارهم، ولم يأت في سورة من سور القرآن ذكر هذا العدد عدا سورة الأنعام، فقد ذكر فيها سردًا أسماء ثمانية عشر نبيًّا في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٣- ٨٦].

فذُكرت أسماؤهم في هذه الآيات سردًا فقط، أما في سورة الأنبياء فجاء ذكرهم مع شيء من التفصيل في قصص بعضهم وأخبارهم، فكان تناولها للأنبياء أظهر وأشهر؛ لهذا- والله أعلم- خصت بهذا الاسم: «سورة الأنبياء»، كما سميت «سورة الأنعام» بهذا الاسم؛ لما اختصت به من ذكر أحكام الأنعام.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «هن من العتاق الأُوَل، وهن من تِلادي»(١).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بما يهز القلوب ويحملها على الاستعداد ليوم القيامة: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ﴾.

٢- ذكر بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول الرسول ﷺ، وحول القرآن والرد عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

٣- ذكر صدق وعده عزوجل رسله بإنجائهم وأهلاك المسرفين، والامتنان على

---

(١) سبق تخريجه.

العباد بإنزال القرآن العظيم الذي فيه ذكرهم، وتهديد المشركين والمكذبين بما حل بالظالمين قبلهم من العقوبات، وبيان سوء حالهم عند حلول العذاب بهم ودعائهم بالويل وندمهم على ظلمهم حين لا ينفعهم الندم؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾.

٤- ذكر الحكمة من خلق السماء والأرض، وأنه عزوجل ما خلقها لعبًا ولا لهوًا، وإنما خلقها لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وتوعد من ظن أن الله خلقها لعبًا ولهوًا، وبيان سعة ملكه وعبادة الملائكة له؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾.

٥- الإنكار على المشركين في اتخاذهم من دونه آلهة من الأرض لا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وبيان أنه لو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، وتنزيهه عزوجل نفسه عن شركهم، وإثبات تفرده بالتدبير دونهم، وأنه لا برهان لهم على ما اتخذوه من دونه من الآلهة، وقد دل ما معه ﷺ من القرآن والذكر، وما أنزل على من قبله من الرسل على بطلان الشرك، وأجمعت الرسل على الدعوة إلى وحدانية الله؛ قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾.

٦- الإنكار عليهم في نسبتهم الولد لله، واعتبارهم الملائكة بنات الله، وتنزيه نفسه عن ذلك، وثناؤه على الملائكة لعبادتهم وطاعتهم له وامتثالهم قوله وعملهم بأمره، وذكر إحاطة علمه بهم، وعدم شفاعتهم إلا برضاه، وإشفاقهم من خشيته، والوعيد لمن يدعي منهم الألوهية من دون الله بجهنم بسبب ظلمه وحاشاهم من ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾.

٧- الإنكار على المشركين في عدم النظر والتأمل في آيات الله الكونية، وأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله، وجعل من الماء كل شيء حي مما يوجب الإيمان به، وجعل في الأرض رواسي أن تميد بهم، وفجاجا وسبلاً لعلهم يهتدون،

وجعل السماء سقفا محفوظًا، وهم عن آياتها معرضون، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون؛ قال تعالى: ﴿۝٣٠ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾.

٨- حكمه عزوجل على جميع البشر بالفناء والموت، فلا هو ﷺ مخلد، ولا أعداؤه مخلدون، ولا غيرهم من البشر، وابتلاء العباد بالخير والشر فتنة، ومردهم إلى اليه عز وجل؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾.

٩- استهزاء المشركين به واحتقارهم له؛ انتصارًا لآلهتهم، وكفرهم بالقرآن وتقرير أن من طبيعة الإنسان العجلة، وأنه عزوجل سيريهم آياته، وتحذيرهم من الاستعجال، وسؤالهم ما وعدوا به من العذاب؛ استعجالًا منهم، وتكذيبًا للرسل،وبيان سوء حالهم حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون، وإتيان الساعة لهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾.

١٠- تسليته ﷺ بذكر استهزاء المكذبين بالرسل من قبله، وإحاطة إستهزائهم وسخريتهم بهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾.

١١- تذكير هؤلاء المكذبين بكلاءة الله وحفظه لهم منه عزوجل بالليل والنهار، وهم عن ذكر ربهم معرضون، وتحقير آلهتهم وأنهم لا يستطيعون دفع عذاب الله عنهم ولا نصر أنفسهم ولا ناصر لهم من الله؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣﴾.

١٢- اغترارهم وآباؤهم بما متعهم الله به من النعم حتى طال عليهم العمر؛ قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾.

١٣- بيان أن مهمته ﷺ بالنسبة لهم هي إنذارهم بما أوحاه الله تعالى إليه، وليس عليه هدايتهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا

يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

١٤- دعاؤهم بالويل وتحسرهم عندما تصيبهم نفحة من عذاب الله بسبب ظلمهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٥- بيان كمال عدله عزوجل في حساب الخلائق يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

١٦- التذكير بإيتائه عزوجل موسى وهارون الفرقان فيه الضياء والذكرى للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون.

١٧- التنويه بالقرآن، وأنه ذكر مبارك أنزله الله عزوجل، والإنكار على من أنكره؛ قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۗ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

١٨- التذكير بإبراهيم وما أتاه الله من الرشد، وإنكاره على أبيه وقومه عكوفهم على عبادة الأصنام، وما جرى بينه وبينهم من المجادلة، وبيانه أن ربهم رب السموات والأرض الذي يجب أن يعبدون وحده، وتحطيمه أصنامهم. ورميهم إياه في النار وجعله عزوجل النار عليه بردًا وسلامًا، ورد كيدهم في نحورهم، وجعلهم الأخسرين، وإنجائه إبراهيم ولوطا إلى الأرض المباركة، وهبة الله تعالى له إسحاق ويعقوب نافلة وجعلهم جميعًا من الصالحين، وأئمة يهدون بأمر الله، ووحيه إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله تعالى.

١٩- التذكير بمنته على لوط عليه السلام، بإيتائه حكمًا وعلمًا بالنبوة، وإنجائه من القرية التي كانت تعمل الخبائث وقوم السوء الفاسقين، وإدخاله في رحمته أنه من الصالحين.

٢٠- التذكير بمنته على نوح عليه السلام من قبل، والاستجابة له، وإنجائه وأهله من الكرب العظيم، ونصرته على القوم الذين كذبوا بآيات الله قوم السوء وإغراقهم أجمعين.

٢١- ذكر حكومة داود وسليمان عليهما السلام في الحرث الذي رعته غنم القوم، وشهادته عزوجل لحكمهما، وتفهيمها لسليمان، وإيتاء كل منهما حكمًا وعلمًا، وتسخير

الجبال مع داود يسبحن والطير، وتعليمه صنعة لبوس لهم؛ لتحصنهم من بأسهم؛ ليشكروه وتسخير الريح لسليمان تجري بأمره، وإحاطة علمه عزوجل بكل شيء، وتسخير الشياطين يغوصون ويعملون له، وحفظه تعالى لهم.

٢٢- ذكر ابتلاء أيوب عليه السلام بالضر، وندائه ربه وشكواه إليه واستجابته تعالى له، وكشف ضره؛ قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

٢٣- ذكره عزوجل إسماعيل وإدريس وذا الكفل عليهم السلام كل من الصابرين، وإدخالهم في رحمته عزوجل إنهم من الصابرين.

٢٤- ذكره عزوجل ذا النون عليه السلام إذ ذهب مغاضبًا لقومه، والتضييق عليه في بطن الحوت، ومناداته في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، واستجابة الله تعالى له، وإنجائه من الغم كما ينجي عباده المؤمنين.

٢٥- ذكر زكريا عليه السلام حين نادى ربه سائلًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾، واستجابة الله تعالى له وهبته يحيى، وإصلاح زوجه له، وثناء الله تعالى عليهم بدعائهم الله رغبًا ورهبًا والخشوع له.

٢٦- ذكر مريم عليها السلام، وامتداحها بإحصان فرجها، ونفخه عزوجل فيها من روحه، وجعلها وابنها عيسى آية للعالمين حيث حملت به وولدته من غير أب.

٢٧- تقرير وتوكيد وحدة الأمة، فدينهم واحد وهو الإسلام، وربهم هو الله وحده، وهو مبعودهم دون سواه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

٢٨- تقطع الأمم واختلافهم على رسلهم، فمن مصدق لهم ومكذب، ومن مؤمن بهم وكافر، ورجوعهم كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء، فمن عمل من الصالحات وهو مؤمن فسعيه مشكور غير مكفور، ومسجل مكتوب، ومن عمل غير ذلك فله جزاؤه.

٢٩- تأكيد بعث المهلكين من المكذبين وغيرهم ورجوعهم إلى الله يوم القيامة،

وخروج يأجوج ومأجوج، واقتراب الوعد الحق والقيامة والحساب، وشخوص أبصار الذين كفروا، ودعائهم بالويل وحسرتهم على غفلتهم وظلمهم، ووعيدهم بالنار هم ومعبوداتهم، وتأكيد ورودهم إليها ودخولهم فيها.

٣٠- الامتنان على المؤمنين الذين سبقت لهم من الله الحسنى بإبعادهم عن جهنم وإدخالهم الجنة وبشارة الملائكة لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

٣١- طي السماء كطي السجل للكتب، وإعادته عز وجل الخلق كما بدأهم وعدًا عليه حقًّا.

٣٢- كتابته عزوجل وقضاؤه الشرعي أن الأرض يرثها عباده الصالحون.

٣٣- التنويه بالقرآن وتعظيمه وأن فيه البلاغ التام لقوم عابدين يعبدون الله ويعملون بما جاء في كتابه.

٣٤- أنه تعالى إنما أرسل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين كلهم، وأَمْرُه له بإعلان وحدانية الله تعالى في عبادته وحضهم على الإسلام: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

٣٥- التهديد والوعيد لمن تولى وأعرض عن طاعته ﷺ وعن إتباعه، وبيان أنه ﷺ لا يدري متى يحل بهم ما يوعدون، أقريب أم بعيد، ورده العلم إلى الله تعالى، وأنه لا يدري لعل ما هم فيه من النعم فتنة لهم ومتاع إلى حين، وطلبه من ربه الحكم بالحق، وتفويضه الأمر إليه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾.

قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، أي: قرب ودنا للناس حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم بقرب الساعة والقيامة؛ كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى**»(١).

وذلك لأن ذلك آتٍ، وكل آتٍ قريب؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ﴾ [الحج: ٤٧].

ولأن عمر الدنيا كلها، ومتاعها، وما بقي منها؛ كل ذلك قليل بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

ولأن من مات قامت قيامته، ورأى جزاء عمله.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: وهم غافلون

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٠، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

معرضون، و«الغفلة»: السهو وعدم اليقظة، أي: وهم في غفلة عما خلقوا له، وعما يراد بهم، لا يستعدون لذلك، ولا يعملون له.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن الحق، مكذبون له بقلوبهم، متولون عنه بأبدانهم، منشغلون عنه بدنياهم.

قال الشاعر:

والناس في غفلة عما يراد بهم ... كأنهم غنم في بيت جزارِ(١)

وقال الآخر:

الناس في غفلاتهم ... ورحا المنية تطحنُ(٢)

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ «من» في قوله: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ما يأتي كفار قريش وغيرهم من الكفار من أيِّ ذكر من ربهم من القرآن الكريم، يذكرهم ما ينفعهم، ويحثهم عليه، ويحذرهم ما يضرهم.

﴿مُّحْدَثٍ﴾، أي: حديث وجديد إنزاله.

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا استمعوه فقط سماعًا تقوم به عليهم الحجة، ولا ينفعهم؛ لقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: حال كونهم يلعبون، أي: غير منصتين إليه، ولا متدبرين له، ولا معتبرين بوعده ووعيده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضًا لم يُشب؟!»(٣).

وفي حديث: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»(٤).

---

(١) البيت لمجهول. انظر: «الأمثال الواردة» (ص٤٣٦).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» صـ٤٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، قوله تعالى: ٧٥٢٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٣٨، من حديث أُبيّ وعمر رضي الله عنهما.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، أي: غافلة منشغلة بما لا ينفعها.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ «الذين» بدل من فاعل «أسروا».

أي: وأسر التناجي بينهم الذين ظلموا بالكفر والتكذيب، وبالغوا بإخفاء ما يتناجون به قائلين فيما بينهم:

﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الاستفهام بمعنى: النفي، والإشارة للنبي ﷺ، أي: ما هذا إلا بشر مثلكم كسائر البشر، ليس بملَك، فكيف اختص بالوحي دونكم؟!

كما قال الذين كفروا من قوم نوح: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال الذين كفروا من قوم هود: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣ – ٣٤].

وقالوا هم وغيرهم من المكذبين لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١٠ – ١١].

وقال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٥].

وقال غيرهم من المكذبين: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦].

وكذا قال كفار قريش؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨ – ٩].

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، وجملة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حالية، أي: وأنتم ذوو بصائر وعقول، أي: كيف تأتون السحر وأنتم تبصرون وتعرفون أنه سحر؟ أي: إن تصديقكم به واتباعكم له وأنتم تعلمون أنه بشر مثلكم وواحد منكم؛ كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر.

ويحتمل: أنهم أرادوا اتهامه ﷺ بالسحر، وأن ما جاء به سحر؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿قَالَ﴾ بألف على الخبر، وقرأ الباقون: «قل» بغير الألف على الأمر.

أي: قال ﷺ مجيبًا عما افتروه من الكذب، وما تناجوا به من الكيد له ﷺ ولدعوته: ﴿رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم القول كله سره وجهره، خفيه وعلانيته، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي: وهو السميع لأقوالكم، العليم بأعمالكم وأحوالكم، ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، وذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

و«السميع» و «العليم» من أسماء الله عزو وجل.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي في المواضع الثلاثة، أي: بل قال الكافرون المكذبون للنبي ﷺ وللقرآن: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾، أي: ما جاء به محمد أضغاث أحلام، أي: أخلاط أحلام يراها في النوم، لا حقيقة لها.

﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: بل اختلقه وتقوله من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ [الطور: ٣٣].

﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، أي: وما جاء به شعر؛ كما قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٦]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

وقد فند الله قولهم هذا وأبطله بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس: ٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [الحاقة: ٤١].

فمن شدة عنادهم وكفرهم وضلالهم وحيرتهم اختلفوا وترددوا فيما يصفون به الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي، فتارة يقولون: سحر، وتارة يقولون: أضغاث أحلام، وتارة يقولون: مفترى، وتارة يقولون: شعر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ [الإسراء: ٤٨]، [الفرقان: ٩].

﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فليأتنا بآية وعلامة ومعجزة تدل على صدقه ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، أي: كالآيات التي أرسل بها الرسل الأولون، أو جاء بها الرسل الأولون؛ مثل: ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام، ونحو ذلك.

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾، أي: ما آمنت قبلهم من قرية بالآيات التي اقترحوها، بل كفروا بها، فكانت سببًا لهلاكهم.

﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أنهم لن يؤمنوا بالآية لو جاءتهم، بل سيكفرون بها فتكون سببًا لهلاكهم؛ كحال الأمم قبلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: ٩٦ – ٩٧].

وإذا كانوا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الآية العظمى والمعجزة الخالدة الكبرى، وما جاء على يديه ﷺ من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والمعجزات الظاهرات، فأنّى لهم أن يؤمنوا بأي آية بعد ذلك؟! قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾.

ذكر عز وجل قول المكذبين والكفار: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ الآية،

واستبعادهم أن يكون الرسول من البشر، ثم رد في هذه الآية عليهم، وعلى من أنكر بعثة الرسل من البشر.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: ما كان الرسل قبلك يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، أي: إلا رجالًا مثلك من البشر، ليس فيهم أحد من الملائكة؛ كما أنه ليس فيهم أنثى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾، أي: فاسألوا أهل الذكر والعلم من الأمم السابقة؛ كاليهود والنصارى وغيرهم: هل كان الرسل الذين أرسلوا إليهم بشرًا أو ملائكة؟

إنما كانوا بشرًا مثلهم، وذلك من تمام نعمة الله تعالى على خلقه؛ ليتمكنوا من الأخذ عنهم، ولتقوم بهم الحجة عليهم؛ إذ لو كان الرسل ملائكة ما استطاع البشر الفهم منهم، والأخذ عنهم.

﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، وليسوا من الملائكة.

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، أي: وما جعلنا الرسل أجسادًا وأجسامًا خارجين عن طبيعة البشر.

﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، أي: لا يحتاجون إلى الطعام والشراب ونحو ذلك، بل جعلناهم أجسادًا يأكلون ويشربون كغيرهم من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي هذا رد على المشركين، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾، أي: وما كانوا خالدين في الدنيا، بل هم كغيرهم من البشر، يعيشون ثم يموتون؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾، أي: ثم صدقنا رسلنا الوعد الذي وعدناهم بإنجائهم وأتباعهم، وإهلاك أعدائهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾، أي: فخلصناهم والذي نشاء من أتباعهم المؤمنين من الهلاك.

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب للرسل.

الفوائد والأحكام:

١- قرب الحساب والجزاء على الأعمال والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

٢- أن عمر الدنيا كلها بالنسبة للآخرة قليل، وما بقي منها بالنسبة للآخرة أقل من القليل، وأن من مات قامت قيامته، ورأى جزاءه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

٣- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٤- غفلة الناس عما خلقوا له وعما يراد منهم، وإعراضهم عن ذلك إلا من رحم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

٥- انشغال قلوب كثير من الناس بالدنيا ولهوها وشهواتها عما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

٦- إسرار الظالمين المكذبين التناجي بينهم للكيد له ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

٧- أن في التكذيب للنبي ﷺ ولما جاء به أعظم الظلم؛ ولهذا وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

٨- إنكارهم رسالته ﷺ، بدعوى أنه ما هو إلا بشر مثلهم وليس بملك؛ لقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

٩- إنكارهم على من صدقه، ووصفهم لمن اتبعه بمن أتى السحر وهو يعلم أنه

سحر، تحذيرًا وتنفيرًا للناس منه، واتهامهم له ﷺ بالسحر؛ لقوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

١٠- أن النبي ﷺ بشر كغيره من البشر، وإنما ميزه الله عنهم بوحيه إليه، كغيره من الرسل.

١١- الإنكار على من أتى السحر، أو أتى أي عمل منكر وهو يعرف ذلك ويعلم حرمته.

١٢- أن من أتى أي عمل منكر وهو يجهل ذلك فلا إثم عليه؛ لمفهوم قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

١٣- علم الله عز وجل الواسع بجميع الأقوال سرها وجهرها، خفيها وعلانيتها، في السماء والأرض، وفي هذا وعيد وتهديد للمتناجين للكيد له ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّى﴾.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «السميع» و«العليم»، وأنه سبحانه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٦- اضطراب الكفار المكذبين للنبي ﷺ، وضلالهم وحيرتهم فيما يصفون به الرسول ﷺ والقرآن الكريم، فتارة يصفونه بالسحر، وتارة يقولون: أضغاث أحلام، وتارة يقولون: افتراه واختلقه من عنده، وتارة يقولون: شاعر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾، وقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

١٧- تعنت الكفار والمكذبين، وطلبهم أن يأتيهم الرسول ﷺ بآية مما يقترحونه، كناقة صالح، وآيات موسى وعيسى عليهم السلام؛ لقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

١٨- تكذيب كفار قريش بالقرآن، وعدم اعتدادهم بكونه آية؛ كفرًا منهم وعنادًا، وهو الآية العظمى، والمعجزة الخالدة الكبرى، وقد بهرهم وأسكتهم وأخرس ألسنتهم بفصاحته وبلاغته.

١٩- تكذيب جميع الأمم الماضية بالآيات التي اقترحوها على أنبيائهم، وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾.

٢٠- أن هؤلاء المكذبين للنبي ﷺ- كغيرهم ممن سبقوهم من الأمم- لو جاءتهم آية مما اقترحوه لن يؤمنوا بها، بل سيكفرون بها وتكون سببًا لهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾.

٢١- أن جميع الرسل الذين أرسلهم الله وأوحى إليهم؛ رجال من البشر، ليس فيهم أحد من الملائكة، كما أنه ليس فيهم أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾.

٢٢- أنه لا فرق بين الرسل وسائر البشر، إلا أن الله خص الرسل والأنبياء بوحيه تعالى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾.

٢٣- أمره عز وجل للمكذبين للنبي ﷺ بسؤال أهل الذكر من الأمم السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم: هل كان الرسل الذين أرسلوا إليهم بشرًا أو ملائكة؟ وأن الرسل إنما كانوا بشرًا مثلهم، منة من الله تعالى على خلقه، وإقامة للحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٢٤- أن السؤال في طلب الهداية والعلم إنما يكون لأهل الذكر والعلم؛ من الرسل ومن اقتفى أثرهم من أهل الإيمان والتقوى والورع والخوف من الله، لا من الجهلة، ولا من أنصاف المتعلمين؛ لأن في ذلك الهلاك والضلال. وصدق من قال: «يفسد الناسَ ثلاثةٌ: نصفُ فقيه، ونصفُ طبيب، ونصفُ نحوي؛ فالأول يفتيهم في الأديان، والثاني يفتيهم في الأبدان، والثالث يفتيهم في اللسان»(١).

٢٥- أن الرسل عليهم السلام كغيرهم من البشر يأكلون ويشربون، وليسوا مجرد أجساد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

٢٦- أن الرسل- كغيرهم من البشر- يعيشون في هذه الحياة ثم يموتون، وليسوا

---

(١) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٨/ ١٣٦)، «الاستغاثة في الرد على البكري» لابن تيمية (ص٤١١)، «الفتوى الحموية الكبرى» (٥٥٤).

بمخلدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾.

٢٧- صدق الله عز وجل وعده رسله بإنجائهم ونصرهم وأتباعهم وإهلاك أعدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

٢٨- صدق الله عز وجل وعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

٢٩- أن من كذب رسل الله وكفر بما جاؤوا به من الحق فهو من المسرفين.

٣٠- الترغيب في اتباع الحق وما جاءت به الرسل، والتحذير من مخالفة ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: لقد أنزلنا إليكم كتابًا عظيمًا، ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، أي: فيه عزكم وشرفكم وتذكيركم بما فيه صلاح دينكم ودنياكم وأخراكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم فتتأملوا في عظمة هذا الكتاب وتتدبروه، وتهتدوا بهديه، وتعملوا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، أي: وكم أهلكنا واستأصلنا من قرية كانت ظالمة بالكفر والشرك وتكذيب الرسل، و«كم»: خبرية تفيد التكثير، أي: وكثير من القرى أهلكناها؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

والمراد بالقرية: أهلها؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾، أي: وأنشأنا بعد هذه القرى التي أهلكناها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: أممًا أخرى.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾، أي: فلما رأوا عذابنا، وتيقنوا أنه واقع بهم، كما توعدهم نبيهم.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ «إذا»: هي الفجائية، أي: إذا هم منها يسرعون فارين هاربين من العذاب، وهيهات لهم ذلك.

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾، أي: قيل لهم: لا تركضوا، أي: لا تسرعوا، فلا مفر لكم من عذابنا.

﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾، أي: وقيل لهم على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: عودوا إلى الذي أترفتم فيه من النعم والمساكن، فبطرتم وكفرتم، أي: إن استطعتم ذلك، وهيهات لهم ذلك، بعد أن حل بهم العذاب.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ هذا من جملة التهكم بهم، أي: لعلكم تُسألون عن حالكم وما أصابكم، وأنى لهم الرجوع فضلًا عن السؤال؟!

﴿قَالُوا﴾ لما أيقنوا بنزول العذاب ندمًا وأسفًا: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾، أي: يا هلاكنا.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بما كنا عليه من الكفر والشرك والتكذيب لرسل الله.

وهذا ندم منهم حين لا ينفع الندم، وإقرار منهم حين لا ينفع الإقرار؛ ولهذا قال:

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾، أي: فما زالت تلك المقالة- وهي الندم والاعتراف بالظلم- دعواهم وهجيراهم، يرددونها ويكررونها.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾، أي: إلى غاية أن أهلكناهم واستأصلناهم، وجعلناهم كالزرع المحصود، ﴿خَامِدِينَ﴾، أي: ميتين قد سكنت حركاتهم، وانقطعت أصواتهم.

وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين له ﷺ أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾، أي: ما خلقنا السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿لَاعِبِينَ﴾ حال، أي: ما خلقنا ذلك لعبًا وعبثًا.

واللعب: ما ليس فيه تحصيل مصلحة ولا دفع مفسدة، ولا جلب نفع ولا دفع مضرة، قولًا كان أو عملًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

والمراد: تقرير وإثبات أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق والعدل والقسط، ولأمر جلل وهدف عظيم، وهو الدلالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته ووجوب عبادته، وتمام قدرته على البعث ومجازاة الناس بأعمالهم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم: ٣١].

﴿لَّوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ هذه الجملة مقررة لمعنى جملة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، «لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع.

أي: لو أردنا- على سبيل الفرض والمحال- أن نتخذ ونجعل لهوًا مما يُتلهى فيه ويلعب، مما لا حكمة فيه ولا مصلحة ولا فائدة؛ لاتخذناه وجعلناه من عندنا، وما خلقنا جنة ولا نارًا، ولا موتًا ولا بعثًا ولا حسابًا.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ «إن»: شرطية، وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنا فاعلين ذلك لاتخذناه، ويحتمل كون «إن»: نافية، أي: ما كنا فاعلين لهوًا؛ لعدم إرادتنا له، وكونه لا يليق بنا.

وفي هذا رد وإبطال لنسبة الصاحبة والولد له عز وجل كما زعم اليهود والنصارى والمشركون؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤]؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ «بل»: للإضراب، أي: بل نرمي بالحق على الباطل، ببيان الحق وإظهاره وتأييده.

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾، أي: فيدحضه ويمحقه، ويزيله ويزهقه.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾، أي: ذاهب مضمحل زائل، متبين بطلانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ﴾، أي: الهلاك والعذاب.

﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: من وصفكم، أو موصولة، أي: من الذي تصفونه، أي: من الذي تصفون به الله عز وجل كذبًا وافتراءً من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلَهُۥ﴾ للاختصاص والملك، أي: وله خاصة جميع من في السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة، وهذا تشريف وتكريم لهم.

﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾، أي: لا يتعاظمون ولا يأنفون ولا يستنكفون عن عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾، أي: لا يتعبون ولا يملون ولا يَعْيَون؛ لقوة إيمانهم، ونشاط أبدانهم، وشدة رغبتهم، وقد جعل الله التسبيح لهم كالنفس لبني آدم.

يقال: حسر واستحسر: إذا تعب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: ٤]، أي: كليل متعب.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يستكبرون عن عبادته ويعبدون غيره.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾، بيان لجملة: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾، أي: يصلون ويسبحون على الدوام أوقات الليل وأوقات النهار، لا يضعفون ولا ينقطعون.

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان بإنزال القرآن، وإقامة الحجة به على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾.

٢- إثبات صفة العلو لله تعالى، وأنه سبحانه عالٍ بذاته فوق خلقه، بائن منهم، له علو الذات وعلو الصفات، وعلو القدر وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَآ﴾.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

٤- تعظيم القرآن الكريم وتشريفه، والتنويه به؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا﴾ بالتنكير، أي: كتابًا عظيمًا جليلًا، ولا غرو في هذا، فهو أفضل كتب الله تعالى على الإطلاق.

٥- أن القرآن الكريم ذكر لهذه الأمة، وشرف لها، وعز ورفعة؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

٦- توبيخ وتقريع الكفار الذين لا ينتفعون بعقولهم بالتأمل والتدبر في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٧- أن من لم ينتفع بعقله بالاهتداء به إلى الحق والصراط المستقيم فليس بعاقل، وإن زعم وادعى أنه عاقل، وهكذا حال كثير من الخلق، لا عقل صحيح، ولا رأي رجيح، حكمة بالغة.

٨- التحذير والتهديد للكفار المكذبين بالقرآن، أن يحل بهم من الهلاك مثلما حل بالمكذبين الظالمين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾، والسعيد من وعظ بغيره.

٩- تمام قدرة الله تعالى، وشدة عقابه، وهوان الخلق عليه إذا هم عصوه وخالفوا أمره.

١٠- سعي من نزل بهم العذاب من أولئك الأقوام للهروب والفرار من العذاب، ولكن هيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

١١- التهكم والاستهزاء بهم في مسعاهم للفرار من العذاب بلا جدوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

١٢- ينبغي الحذر من الترف والتنعم؛ لأن ذلك من أسباب البطر، وكفر النعم، ومخالفة أمر الله تعالى.

١٣- أن الله عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما لعبًا، وإنما خلقهما للدلالة على عظمته ووحدانيته، في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب عبادته،

وتمام قدرته على البعث والجزاء، وغير ذلك؛ لقوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

١٤- تنزيه الله تعالى عن اللعب واللهو، وأن كل ما يخلقه ويقدره، أو يقوله ويفعله، أو يأمر به أو ينهى عنه، كل ذلك يجري في غاية الحكمة والإتقان.

١٥- أن الله عز وجل لو أراد أن يتخذ لهوًا لاتخذه من عنده وفعله، ولكنه لا يريد ذلك وما يفعله؛ لأنه لا يليق به عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤].

١٦- دمغ الباطل وإزهاقه وإزالته وإذهابه ببيان الحق وإظهاره؛ لقوله تعالى:﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾.

١٧- أنه لا ثبات للباطل مهما عظم أمام قوة الحق.

١٨- الوعيد والتهديد بالعذاب والهلاك للذين يصفون الله بما لا يليق به من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد؛ لقوله تعالى:﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

١٩- أن لله عز وجل جميع من في السموات والأرض ملكًا وخلقًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى:﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٠- امتداح الله تعالى لمن عنده من الملائكة، وثناؤه عليهم بعدم الاستكبار عن عبادته، وعدم التعب والملل منها، والمداومة على التسبيح آناء الليل والنهار، وعدم الانقطاع عنها؛ لقوله تعالى:﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٢١- تشريف الملائكة وتكريمهم، والتنويه بعلو منزلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، والهمزة: للاستفهام الإنكاري، والتقدير: بل أأتخذوا آلهة من الأرض؟

أي: هم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض، أي: هم لا يقدرون على شيء من ذلك، بل هم كما قال عز وجل: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

فنفى في هذه الآية: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أن يكونوا آلهة بدليل العقل، وسيأتي نفي ذلك بدليل الشرع.

وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ تحقير لهذه الآلهة والأصنام، وأنها أرضية سفلية، ومصنوعة من جنس الأرض.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ «لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾.

اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لاختل نظامهما وما فيهما من المخلوقات، أي: أنه لو كان في الوجود إله غير الله لفسدت السموات والأرض، واختل نظام الكون كله.

قال السعدي(١): «فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد؛ كما أنه لم يوجد إلا برب واحد؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾، أي: في السموات والأرض، ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات. وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، يدل على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما دون الآخر تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنه محال وجود مرادهما معًا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذن يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار؛ ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تنزه عز وجل وتقدس، وأظهر اسم الجلالة للتعظيم وتربية المهابة.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٢٢٠- ٢٢١.

﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأوسعها وأعظمها، ووصف نفسه برب العرش للتذكير بأنه خالق ما هو أكبر وأعظم من السموات والأرض، وهو العرش الذي هو أكبر المخلوقات.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن وصفهم، أو عن الذي يصفونه تعالى به من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد؛ كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، أي: لا يسأل سبحانه عن فعله، أو عن الذي يفعله؛ لكمال ربوبيته وتمام تدبيره، فهو خالق الخلق ومالكهم والمتصرف فيهم، الحاكم الذي لا معقب لحكمه؛ لعظمته وجلاله وكبريائه وعزته وعدله.

﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، أي: وهؤلاء المشركون الذين يصفون الله باتخاذ الصاحبة والولد، والشركاء والأنداد، هم وجميع الخلق يسألون عن أفعالهم وأقوالهم، ويحاسبون، ويجازون عليها؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢ – ٩٣]،

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦].

قال ابن القيم: «فقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلهية، وإفراد له بالربوبية والإلهية، وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية، فإنها مسؤولة مربوبة مدبرة، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟!»(١).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ الآية، تأكيد لقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾، استعظامًا لفظاعته، وليبني عليه إبطاله بدليل الشرائع؛ كما

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٨٤.

بنى على نظيره السابق إبطاله بدليل العقل.

و«أم» في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كالتي قبلها للإضراب الانتقالي، بمعنى «بل»، والهمزة للاستفهام الإنكاري.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أعطونا برهانكم، أي: دليلكم وحجتكم على صحة ما تقولون، وما ذهبتم إليه من اتخاذ الشركاء مع الله، من شواهد الشرائع والرسل.

﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ الإشارة إلى القرآن، و«من»: موصولة، أي: هذا القرآن ذكر الذي معي من المسلمين، أي: ذكر أتباعي وأمتي.

﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾، أي: وهذا ذكر الذي قبلي، أي: الكتب السابقة، أي: هذا القرآن الكريم والكتب السابقة قد اتفقت على إثبات وتقرير وحدانية الله تعالى، وإبطال الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر المكذبين المتخذين آلهة من دون الله لا يعلمون الحق، وإنما يقلدون آباءهم وأسلافهم على جهل وضلال.

﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: فهم بسبب جهلهم وعدم علمهم معرضون عن الحق بقلوبهم، متولون ومبتعدون عنه بأبدانهم؛ لأن الجهل داء قاتل، وموت قبل الموت، وقد أحسن القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسادهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت ... فليس له بعد النشور نشور(١)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٢):

---

(١) البيتان بدون نسبة. انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٧)، «نتائج الفكر» للسهيلي (ص٢٦)، «طبقات الشافعية» (٥/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٧).

فقم بعلم ولا تطلب له بدلًا فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ قد يؤخذ منه أن منهم من يعلم الحق ويعرفه، ويتركه عنادًا واستكبارًا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

هذه الآية بيان لقوله: ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما أرسلنا من قبلك أيَّ رسول ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿أَنَّهُۥ﴾، أي: بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، أي: لا معبود إلا أنا، فاعبدوني وحدي؛ كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال ابن كثير(١): «فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضًا، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد».

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال المشركون المكذبون: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، أي: جعل له ولدًا، وذلك بزعمهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣١.

[الزخرف: ١٩].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل، أي: تنزه وتقدس وتعالى عن اتخاذ الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لأن اتخاذ الولد إنما ينشأ عن الافتقار إلى إكمال النقص بفقد الولد؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الآية: ٦٨].

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل الملائكة عباد لله تعالى، مكرمون عنده، مقربون لديه، مربوبون له، ليس لهم من الأمر شيء، قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، أي: لا يتقدمون بين يديه عز وجل بالقول إجلالًا له وتعظيمًا؛ لكمال أدبهم وعلمهم ببالغ حكمته وواسع علمه، فلا يقولون إلا ما أذن الله لهم بقوله.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ قدّم قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ لإفادة القصر، أي: فكما أنهم لا يقولون قولًا إلا بإذنه، فكذلك لا يعملون عملًا إلا بأمره، ولا يعصونه، ومهما أمرهم عملوا بأمره وبادروه وامتثلوه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: علمه محيط بهم، يعلم الذي بين أيديهم والذي خلفهم، والذي قدموه والذي أخروه، وأمورهم الماضية والمستقبلة.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ هذا داخل في عموم النفي في قوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، وخصه بالذكر اهتمامًا بأمر الشفاعة، ولبيان خطئهم في جعلهم الآلهة شفعاء لهم عند الله.

أي: ولا يشفعون إلا للذي ارتضاه الله، وارتضى الشفاعة له، بأن أذن لهم بالشفاعة له؛ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾، أي: وهم من خوفه عز وجل ورهبته، ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون

وجلون، فيعظمونه، ويحذرون من مخالفة أمره، ويخشون بطشه.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: ومن يقل من الملائكة إني إله من دونه، أي: من دون الله، وهذا على سبيل الفرض، وحاشاهم من ذلك.

﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، أي: نجعلها مصيره وداره، ونعذبه فيها.

وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والمقصود من هذا الشرط: الرد على الذين ادعوا للملائكة الإلهية، وأنهم ادعوا لهم ما لا يرضونه ولا يقولونه، وما يوجب لقائله نار جهنم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء بجهنم نجزي الظالمين بالشرك بالله، فنجعلها مآلهم ونعذبهم فيها.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قرأ ابن كثير: «ألم ير» بغير واو، وقرأ الباقون بالواو: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾، والاستفهام: إنكاري، والرؤية يحتمل كونها علمية أو بصرية، أي: أولم ير الذين جحدوا وأنكروا وحدانية الله تعالى وعبدوا معه غيره؟

﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾، أي: كانتا ملتصقتين، ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، أي: ففصلناهما بقدرتنا.

قال ابن كثير(١): «كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعًا، والأرضين سبعًا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض، ولهذا قال:

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣٢.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾».

وقال بعض المفسرين: المعنى: كانتا رتقًا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث، والأرض بالنبات، بدلالة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ الواو: عاطفة، و«جعل» هنا بمعنى: «خلق»، أي: خلقنا من الماء كل شيء حي، أي: أن أصل جميع الحيوانات من الماء، فما يتوالد منها خلق من ماء الذكر والأنثى، وما يتولد كالحشرات والديدان ونحو ذلك خلق من الرطوبات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا يؤمن ويصدق الجاحدون لإلهية الله تعالى، العابدون معه غيره؛ بوحدانيته وعظمته وكمال قدرته على الخلق، وعلى إعادتهم بعد فنائهم، مستدلين بهذه الآيات العظيمة في السماء والأرض وفي سائر المخلوقات؟! كما قال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ هذا من آثار فتق الأرض.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جبالًا رواسي، رست ورسخت في الأرض، وثبتنا بها الأرض.

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ «أن» تعليلية، أي: لئلا تميد بهم، أي: لئلا تضطرب بهم وتتحرك فلا يستطيعون القرار عليها.

قال ابن كثير(١): «لأنها غامرة بالماء إلا مقدار الربع؛ فإنه بادٍ للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات».

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ الفجاج: جمع فج، وهي الطرق الواسعة، أي: وجعلنا في الأرض طرقًا واسعة مسلوكة.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن يهتدوا بهذه الطرق للوصول إلى مطالبهم،

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣٣.

ويتنقلون عبرها من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى آخر.

وأيضًا: لأجل أن يهتدوا ويتأملوا في هذه الآيات الكونية العظيمة، ويستدلوا بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمه عليهم، فيؤمنوا به ويشكروه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ على الأرض كالقبة عليها، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس: ٥]، أي: جعلها كالقبة على الأرض.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ عاليًا محفوظًا من السقوط والزوال والخلل؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣].

ومحفوظًا أيضًا بمعنى: محروسًا من استراق الشياطين السمع؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات: ٦ – ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: ٨].

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾، أي: وهم عن آيات السماء، أي: عما فيها من الآيات العظيمة: من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات، في سيرها وغروبها وشروقها وغيبتها، وجريان ذلك على حساب قويم دقيق، ونظام عجيب، وما يترتب على ذلك من المنافع العظيمة، والمصالح الكبيرة.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم، لا يتأملون في هذه الآيات العظيمة فيستدلون بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، ووحدانيته، وبالغ حكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ﴾ بظلامه وسكونه، وجعله وقتًا للنوم والراحة والسكون، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: وخلق النهار بضيائه وأنسه، وجعله وقتًا للحركة وطلب الرزق؛ كما

قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص: ٧٣].

وعاقب بينهما، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يقصر الليل ويطول النهار؛ كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وخلق الشمس وجعلها ضياء، وخلق القمر وجعله نورًا، وجعلهما يجريان بحساب دقيق؛ لمعرفة حساب السنين والأعوام، والشهور والأيام؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾، أي: كل من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم في فلك. الفلك: كل شيء دائر.

﴿يَسْبَحُونَ﴾ يدورون ويجرون فيه، كالسابح في الماء، أي: كل منها يدور في فلكه ومداره لا يتجاوزه ولا يحيد عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

وفي ذلك كله من الفوائد والمنافع والمصالح للخلق ما لا يحصى؛ ولهذا سيقت الآية مساق الامتنان.

الفوائد والأحكام:

١ - الإنكار على المشركين في عبادتهم من دون الله آلهة من الأرض، لا يملكون من الأمر شيئًا، وإبطال ذلك بدليل العقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ

يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾، أي: كلَّا؛ لا يملكون ذلك ولا ما دونه.

٢- تحقير آلهة المشركين وأصنامهم، وأنها أرضية سفلية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

٣- إثبات وحدانية الله تعالى، واستحالة وجود آلهة غير الله، وأنه لو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، واختل نظامهما وما فيهما من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

٤- تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعظيمه عما يصفه به المشركون من الشركاء والأنداد، والصاحبة والولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

٥- إثبات العرش الذي هو أكبر المخلوقات، وإثبات ربوبية الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾، فربوبيته لما دونه من المخلوقات أولى.

٦- إثبات كمال ربوبيته عز وجل وعظمته، وتمام تدبيره وحكمته وعدله، وأنه لا معقب لحكمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.

٧- أن الخلق كلهم يُسألون عن فعلهم؛ من عُبدوا من دون الله وعابدوهم، وسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

٨- تأكيد الإنكار على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومطالبتهم بالدليل والحجة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

٩- دلالة القرآن الكريم والكتب السابقة على بطلان الشرك، وعلى إثبات الوحدانية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾.

١٠- أن كثيرًا من المشركين المكذبين بالقرآن جهلة لا يعلمون الحق، بل يقلدون أسلافهم على ضلال؛ لهذا أعرضوا عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

١١- خطر الجهل، وأنه من أسباب الضلال والإعراض عن الحق، ومرتع خصب للبدع والخرافات.

١٢- إجماع الرسل على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وأنه لا رب غيره، ولا معبود

بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾.

١٣- قول المشركين وزعمهم الباطل أن الملائكة بنات الله، وأن له ولدًا، تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾.

١٤- تنزيه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾.

١٥- الرد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله، وبيان أن الملائكة عباد من عباد الله تعالى، مكرمون عنده، مقربون إليه، مربوبون له، ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾.

١٦- تعظيم الملائكة عليهم السلام لله عز وجل وإجلالهم له، وكمال أدبهم، وعلمهم ببالغ حكمته، وواسع علمه، فلا يتقدمونه بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾.

١٧- مبادرتهم إلى طاعته وعمل ما يأمرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾.

١٨- إحاطة علمه عز وجل بما قدموه وبما أخروه، وبأحوالهم وأمورهم الماضية والمستقبلة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

١٩- أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله تعالى، وارتضى الشفاعة له، بأن أذن لهم بالشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾.

٢٠- إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

٢١- شدة خوفهم عليهم السلام، ورهبتهم له عز وجل، وإشفاقهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾.

٢٢- الرد على الذين اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله، بأن الملائكة لا يرضون بذلك ولا يقولونه، ولو قال قائل منهم ذلك على سبيل الفرض- وحاشاهم من ذلك- لكان جزاؤه جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾.

٢٣- تنزل القرآن الكريم في الكلام مع المشركين في عبادتهم الملائكة؛ لاستنزالهم عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، وهذا إنما هو على سبيل الفرض والتقدير، وحاشاهم من ذلك.

٢٤- إثبات جهنم، وأنها دار جزاء الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٥- الإنكار على الذين كفروا عدم النظر والتأمل بأن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله عز وجل، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض النبات، والاستدلال بذلك على تمام قدرة الله تعالى ونعمته، ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

٢٦- أن كل شيء حي خلق في الأصل من الماء، فما يتوالد خلق من ماء الذكر والأنثى، وما يتولد خلق من الرطوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

٢٧- توبيخ الكفار على عدم إيمانهم مع ما يرون من الآيات العظيمة في السموات والأرض وفي سائر المخلوقات، وما في ذلك من المنن الجسيمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٨- الامتنان على العباد بإرساء الأرض بالجبال العظيمة لئلا تضطرب بهم، وجعل الطرق الواسعة فيها ليسلكوها ويهتدوا بها في تنقلاتهم من مكان إلى آخر، وبيان تمام قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٢٩- كمال قدرة الله تعالى ونعمته في جعل السماء سقفًا على الأرض، محفوظًا من السقوط والخلل واستراق السمع؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

٣٠- إعراض المكذبين عن آيات الله العظيمة في السماء؛ من شمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومجراتها، وغروبها وشروقها وغيبتها، في نظام دقيق عجيب، وما في ذلك من المصالح والمنافع للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

٣١- قدرة الله تعالى العظيمة، ونعمته الكبيرة على الخلق؛ في خلق الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وجعلها تدور في أفلاكها، وما في ذلك من المصالح العظيمة من معرفة الحساب، ومن اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا واعتدالًا، واختلاف الفصول حرًّا وبردًا واعتدالًا، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ۝٣٣﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، أي: وما صيرنا لبشر من قبلك يا محمد الخلد في الدنيا، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧].

وكان الكفار والمكذبون له ﷺ يقولون متشمتين به بأنه سيموت وينتهي أمره؛ كما مات لبيد والشعراء من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، فرد الله تعالى عليهم بأنه قضى ألا يخلد في الدنيا بشر، فإذا مت فسبيل من مات قبلك من الرسل والأنبياء وسائر البشر.

قال الشاعر:

رأيت المنايا لم يدعن محمدًا ... ولا باقيًا إلا له الموت مرصد[١]

وقال الفرزدق[٢]:

إذا ما الموت جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا: أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ يا محمد كما يتمنى أعداؤك وينتظرون.

﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، أي: فهم الخالدون بعدك، أي: فهل سيخلدون بعدك؟ كلا، بل الكل إلى فناء؛ فالموت منهل لا بد من وروده، وكأس لا بد من شربه؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ [النساء: ٧٨].

قال الشافعي[٣]:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لستُ فيها بأوحدِ

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلِها فكأنْ قَدِ

وقال الآخر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فلَّ من جمع وأفنى من دول[٤]

وقال الآخر:

فهن المنايا أيّ واد سلكته ... عليها طريقي أو عليّ طريقها[٥]

وقال الآخر:

---

(١) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس، مع اختلاف في روايته. انظر: «ديوانه» (ص٤٠)، «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٣٨١).

(٢) انظر: «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢/ ٥٥).

(٣) انظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي ٢/ ٧٣.

(٤) البيت لابن دريد، ضمن مقصورته. انظر: «ديوانه» (ص٧١)، وانظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

(٥) البيت بلا نسبة. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٥).

هـو المـوت مـا منـه مـلاذ ومهـرب ... متى حط ذا عـن نعشـه ذاك يركـبُ[١]

وقال أبو العتاهية[٢]:

المـوت بـاب وكـل النـاس داخلـه ... يـا ليـت شـعريَ بعـد المـوت مـا الـدارُ

الـدار جنـة عـدن إن عملـت بـما ... يـرضي الإلـه وإن فرطـت فالنـارُ

همـا محـلان مـا للنـاس غيرهمـا ... فـاختر لنفسـك مـاذا أنـت مختـار

وقد ذُكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يتمثل بالبيتين الأولين من هذه الثلاثة.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾، أي: ونختبركم بالمصائب والنعم، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، والحرام والحلال، والمعصية والطاعة، والضلال والهدى، وما تحبون وما تكرهون.

﴿فِتْنَةً﴾، أي: اختبارًا لكم وامتحانًا؛ لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع ويقنط، ومن يختار طريق الخير، ومن يختار طريق الشر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإلينا تُردون فنحاسبكم ونجازيكم بأعمالكم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٦ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، أي: وإذا رآك يا محمد كفار قريش، ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ «إن»: نافية، أي: ما يتخذونك ويجعلونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا محلًّا للاستهزاء والسخرية، أي: يستهزئون بك، ويسخرون منك، وينتقصونك، قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ الاستفهام للتعجب، والإشارة للتحقير، أي:

---

(١) البيت للشاعر ابن عثيمين، وهو مطلع قصيدة له في رثاء صديقه عبدالله العجيري، ملحقة في آخر «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧. وانظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١٤٨/ ١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٤١).

أهذا المحتقَر بزعمهم: ﴿ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، أي: يذكر آلهتكم بسوء، بقرينة المقام، أي: أهذا الذي يسب آلهتكم ويذمها؟ فلا تبالوه ولا تحتفلوا به.

﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ الواو: حالية، أي: يستهزئون بك، ويتعجبون من سبك لآلهتهم، ويحتقرونك لأجل ذلك، ويغضبون من ذكر آلهتهم بما هو كشف لحالها المطابق للواقع، في حال كونهم كافرين بذكر الرحمن، غافلين عن القرآن الكريم، الذي هو الحقيق بأن يذكروه، منكرين كونه آية على صدقه ﷺ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤١ - ٤٢].

فهم يعيبون النبي ﷺ في بيانه بطلان آلهتهم التي هي باطلة حقًّا، وهم مع ذلك يكفرون بالرحمن الإله الحق، ويحتقرونه بما هو كماله، وهو إخلاص العبادة لله تعالى، وذم ما يعبد من دونه، وهم محل الاستهزاء والاحتقار؛ لكفرهم بربهم، وعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر.

وفي قوله: ﴿بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بيان لقبح صنعهم، وأنهم قابلوا الرحمن مسدي النعم كلها ودافع النقم بالكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠].

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾، أي: من صفته وطبيعته وجبلته العجلة، و«العجل» و«العجلة»: السرعة، وهذه الآية كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١].

فخلق الله الإنسان من طبيعته وسجيته العجلة، يستعجل الأمور، ويستبطئ وقوعها؛ ولهذا يستعجل المؤمنون وقوع ما وعدوا به من النصر على أعدائهم؛ كما قال ﷺ: «**والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٩، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

كما يستعجل المكذبون المستهزئون وقوع العذاب فيهم لجهلهم استبعادًا له؛ لشدة تكذيبهم وعنادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولهذا قال عز وجل: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني وكذب رسلي.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، أي: فلا تستعجلوا عذابي وانتقامي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار والمشركون إمعانًا منهم في التكذيب والعناد، وغرورًا وجهلًا، واستبعادًا لما توعدوا به: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الاستفهام: للتهكم، أي: متى وقوع هذا الوعد بعذابنا وإهلاكنا إن كنتم صادقين؟ فالمراد بالوعد في الآية: «الوعيد»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

وما علموا أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، وأن كل شيء عنده بأجل مسمى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢][1]، ولهذا قال:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة ٢٥٨٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣١١٠، وابن ماجه في العتق ٤٠١٨، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ «لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، «يعلم» فعل الشرط، وجوابه محذوف، يدل عليه السياق، تقديره: لما استمروا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء بالرسول ﷺ، وتكذيب القرآن، واستعجال العذاب ونحو ذلك.

أي: لو يعلم الذين كفروا ويتيقنون حين لا يدفعون ولا يدرؤون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، أي: حين دخولهم النار وغشيانها لهم وإحاطتها بهم من كل جانب، لا يستطيعون دفعها بأنفسهم عن وجوههم، ولا عن ظهورهم.

وخص الوجوه والظهور؛ لأن الوجوه مجمع المحاسن وأولى ما ينبغي وقايته من النار، وذكر الظهور للدلالة على غشيان النار لهم من كل جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: ٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: من خارجهم، أي: لا أحد ينصرهم، فلا انتصروا لأنفسهم، ولا نصرهم غيرهم.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل تأتيهم النار ﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾، أي: فتحيرهم، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: تحير واندهش وانقطعت حجته.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، أي: فلا قدرة لهم ولا حيلة لرد النار عنهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا هم يمهلون ولا يؤخر عذابها عنهم ساعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣﴾.

ذكر عز وجل قبل هذا استهزاءهم به ﷺ بقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ثم بين بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية، بأن هذا دأب

الأمم السابقة مع رسلهم، وأنه قد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وفي هذا تسلية له ﷺ، ووعيد وتهديد للمستهزئين به من المشركين.

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، أي: ولقد استهزئ وسخر برسل كثيرين من قبلك، أي: فلست أنت أول رسول يستهزأ به، وليس استهزاء قومك بك ببدع من فعل الأمم السابقة مع رسلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ [الحجر: ١٠ - ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف: ٦ - ٧]، وقال الرجل المؤمن: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾ [يس: ٣٠].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، أي: فأحاط بالذين سخروا من الرسل، وحل بهم ونزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: الذي كانوا به يستهزئون، أي: الذي كانوا به يستهزئون من العذاب ويستبعدونه؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ [الأنعام: ٣٤].

فليحذر المستهزئون المكذبون من قومك أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعرضين: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: من يحرسكم ويحفظكم ويجيركم.

﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: في جميع الأوقات ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: من بأسه وعذابه، أي: لا أحد يكلؤكم وينجيكم ويجيركم من بأسه وعذابه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد: ١١].

فالمعنى: لا أحد يكلؤكم من الرحمن ويجيركم من عذابه إلا هو سبحانه؛ ولهذا قال

ﷺ: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك**»(١)، وقال: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»(٢).

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، أي: بدل الرحمن، أي: هو الذي يكلؤكم وحده، لا كالئ لكم غيره، ولا حافظ لكم سواه.

وفي هذا امتنان على العباد بحفظه عز وجل وكلاءته لهم في جميع الأوقات، وأنه لا حافظ لهم غيره، ولا واقي لهم سواه.

﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم عن ذكر ربهم القرآن الكريم، وعن عبادته عز وجل وطاعته وشكره.

﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ فلا يتأملون بقلوبهم في آياته، ولا يعترفون فيها بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، ولا ينقادون بجوارحهم لامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل ألهم آلهة؟ والاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: ألهم ﴿ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم﴾، أي: تحفظهم وتكلؤهم.

﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾، أي: غيرنا؟ أي: ليس الأمر كما زعموا وتوهموا، فآلهتهم لا تملك شيئًا من ذلك؛ ولهذا قال:

﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: فهذه الآلهة التي عبدوها من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم والدفاع عنها، فكيف ينصرونهم ويدفعون عنهم؟

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾، أي: ولا هم منا يجارون ويمنعون وينصرون ويعانون، وإذا لم يجاروا من الله وينصروا ويعانوا ويؤيدوا فهم مخذولون، لا يستطيعون جلب نفع أو دفع ضر، وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧١٠، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٩٤، وابن ماجه في الدعاء ٢٨٧٦، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة ٨٧٩، والنسائي في التطبيق ١١٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٤١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده[1]

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۖ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ الآية، «بل»: للإضراب الانتقالي.

أي: بل إنما حملهم على الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والضلال اغترارهم بما متعناهم به من النعم هم وآباؤهم في هذه الحياة الدنيا.

﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، أي: حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وألفوا ما هم فيه، وظنوا أنهم على شيء؛ كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع، أي: أفلا ينظرون ويتأملون ويعتبرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها؛ بنصر الله تعالى لأوليائه، وإهلاك المكذبين والقرى الظالمة؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: ليسوا هم الغالبون، بل هم المغلوبون الأسفلون، الأخسرون الأرذلون؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

وأيضًا: أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها بموت أهلها وفنائها شيئًا فشيئًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

فلا يغتروا بما هم فيه من متاع الدنيا، فليسوا هم الغالبون، الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله، والامتناع عن الموت والفناء.

---

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: قل يا محمد للناس، وبخاصة المكذبين منهم: إنما أنذركم، أي: أخوفكم وأحذركم من العذاب والنكال بالوحي الذي أوحاه الله تعالى إليَّ، أي: ما أنذركم إلا بالوحي الذي أوحاه تعالى إليَّ، لا بشيء من عندي.

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالتاء مضمومة وكسر الميم: «تُسْمِعُ»، ونصب «الصُّمَّ»، وقرأ الباقون بالياء مفتوحة وفتح الميم، ورفع الصم: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾.

و«الصم»: جمع «أصم»، وهو الذي لا يسمع، أي: الذي قد انسد عنده طريق السمع الحسي وتعطل، ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ النداء، ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ولا يسمع الصم الدعاء بسبب ما في آذانهم من الصمم الذي عطّل أسماعهم، أي: وكما لا يسمع الصم الذين انسد لديهم طريق السمع الحسي بالآذان النداء، فكذلك- بل أشد- من أصيبوا بالصمم المعنوي: صمم القلوب لا يسمعون الدعاء إذا ما أنذروا وخوفوا عذاب الله؛ لعمى قلوبهم وما عليها من الأكنة والغلف؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، أي: جزء ونصيب يسير، أي: أدنى شيء من عذاب ربك ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن معترفين بظلمهم واستحقاقهم العذاب، نادمين على ذلك، حين لا ينفع الندم داعين على أنفسهم بالويل والثبور: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾، أي: يا هلاكنا ويا مصيبتنا وعذابنا.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعتراف منهم على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين بكفرهم وشركهم، وندم حيث لا ينفع الندم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٥].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، أي: ونضع أدوات الوزن العدل.

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: لوزن أعمال الخلائق يوم القيامة لمحاسبتهم ومجازاتهم عليهم؛

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨ – ٩].

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، أي: فلا تظلم نفس مؤمنة أو كافرة.

﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فلا تظلم نفس أيَّ شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، أو غير ذلك، بأن ينقص من حسناتها أو يزاد في سيئاتها.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر برفع اللام: «مِثْقَالُ»، وقرأ الباقون بنصبها: «مِثْقَالَ»، أي: وإن كان هذا الشيء ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: وزن حبة من خردل، أي: وزن ذرة، التي هي أصغر الأشياء وأقلها وأحقرها.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾، أي: أحضرناها ليجازى بها صاحبها؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾، أي: حسبنا، وما أعظم كفايتنا ﴿حَٰسِبِينَ﴾، أي: حاسبين لأعمال الخلائق، مثبتين حافظين لها، عالمين بمقاديرها ومقادير ثوابها، مجازين عليها.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل يستخلص رجلًا من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا، كل سجل مد البصر، ثم يقول: تنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. قال: أفلك عذر وحسنة؟ قال: فبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة، فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله». فيقول: أحضروه، فيقول: يا**

رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، قال: ولا شيء يثقل بسم الله الرحمن الرحيم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- لا خلود لأحد من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾.

٢- تربص المشركين المكذبين به ﷺ، وانتظارهم موته؛ لتموت معه دعوته كما يتوهمون، ويبقون بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

٣- أن كل نفس ذائقة الموت، وشاربة كأسه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٤- ابتلاء الخلق وامتحانهم بالشر والخير، بالمصائب والنعم، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، ليتبين من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

٥- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، ومحاسبته ومجازاته إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

٦- استهزاء الكفار بالنبي ﷺ عند رؤيتهم إياه واحتقارهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

٧- بيانه ﷺ بطلان عبادة الأصنام وذمها؛ لقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: يذمها ويذكرها بالسوء، ويبين بطلان عبادتها.

٨- تعجب المشركين بل وإنكارهم وغضبهم لذكر آلهتهم بما هو كشف لحالها المطابق للواقع، وبيان بطلان عبادتها، مع أنهم في الحال يكفرون بذكر الرحمن الإله

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٣، والترمذي في أبواب الإيمان، فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٢٦٣٩، وابن ماجه في الزهد، ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٣٠٠.

الحق، فكيف يعيبون عليه ﷺ بيان بطلان عبادة آلهتهم التي لا تملك نفعًا ولا ضرًّا مع كفرهم بالرحمن الإله الحق الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وكيف يحتقرونه بما هو كماله وهو إخلاصه العبادة لله تعالى رب العالمين، خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ولا يحتقرون أنفسهم بما هو أعظم النقص، وهو عبادتهم ما لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، هذا أمر في غاية التناقض، وهو المثير للدهشة والعجب حقًّا.

٩- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾.

١٠- أن الإنسان خلق طبيعته وسجيته العجلة في أموره؛ لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ ولهذا فالكفار لجهلهم وعجلتهم يستعجلون العذاب، والمؤمنون لعجلتهم يستعجلون موعود الله لهم بنصرهم وإهلاك عدوهم.

١١- الوعيد والتهديد لمن كفر بالله وعصى أمره وكذب رسله؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

١٢- استبعاد الكفار ما تُوعِّدوا به من العذاب، وتكذيبهم به، وسؤالهم رسلهم تهكمًا واستعجالًا: متى هذا الوعد؟ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾.

١٣- تأكيد وقوع ما توعدوا به من عذاب النار مما لا يستطيعون كفه عن وجوههم ولا عن ظهورهم، وأنهم لو علموا حقيقة ذلك لما استمروا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء بالرسول ﷺ، وتكذيب القرآن، واستعجال العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ...﴾ الآية.

١٤- غشيان النار وإحاطتها بالكفار من كل جانب؛ لقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ ففي ذكر الوجوه بيان حرق النار لمحاسنهم وإهانتهم، وفيه وفي ذكر الظهور بيان إحاطتها بهم.

١٥- أنه كما لا قدرة للكفار في كف النار عنهم بأنفسهم، فلا ناصر لهم من خارجهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

١٦- إتيان النار أهلها فجأة فتبهتهم وتحيرهم، فلا يقدرون على ردها، ولا هم

يمهلون فيؤخر عنهم عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١٧- تسلية الرسول ﷺ، بذكر استهزاء المكذبين بالرسل من قبله، وإحاطة ما استهزأوا به فيهم، وتحذير وتهديد المستهزئين به من قومه أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

١٨- إطباق المكذبين للرسل على الاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠ - ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦ - ٧].

١٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بحفظ الله تعالى، وكلاءته لهم بالليل والنهار وجميع الأوقات من بأسه وعذابه، فلا حافظ لهم سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٢١- إعراض الكفار والمكذبين عن القرآن الكريم وذكر الله تعالى بقلوبهم، وتوليهم عن الانقياد لذلك بجوارحهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِم﴾.

٢٣- الإنكار على المشركين اعتقادهم الباطل أن آلهتهم تمنعهم وتحفظهم من دون الله، وتقريعهم وتوبيخهم، وبيان أن آلهتهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، وليسوا معانين من الله، فكيف ينصرونهم؟! لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وفي هذا إبطال زعمهم أنهم لهم شفعاء؛ كما في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

٢٤- أنه إنما حملهم على الاستمرار على الشرك والكفر والضلال اغترارهم بما

مُتعوا به هم وآباؤهم من النعم في هذه الحياة الدنيا، استدراجًا لهم، حتى طال عليهم الأمد؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

٢٥- أن إدرار النعم والتمتيع بها قد يكون فتنة واستدراجًا، فيجب عدم الاغترار بذلك؛ كما قال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

٢٦- وعيد هؤلاء المكذبين المغترين بما متعوا به هم وآباؤهم، وتهديدهم بسلب ما هم فيه، وأن يحل بهم مثل ما حل بالقرى الظالمة وبالمكذبين قبلهم من إهلاكهم، ونصر الله تعالى لأوليائه، فليسوا بالغالبين ولا الممتنعين؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

٢٧- أن النبي ﷺ إنما ينذر الكفار والمكذبين بالوحي الذي أنزله الله تعالى عليه، وليس بشيء من تلقاء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾.

٢٨- أن الإنذار والدعاء لا يجدي فيمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، فهو كالأصم حسيًّا لا ينفذ الدعاء والإنذار إلى سمعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

٢٩- أنه لو أصاب هؤلاء المكذبين المعرضين أدنى شيء من عذاب الله لاعترفوا بظلمهم واستحقاقهم للعذاب، وندموا حين لا ينفع الندم، ودعوا على أنفسهم بالويل والثبور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٣٠- تمام عدل الله عز وجل في محاسبة الخلائق يوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئًا، بنقص من حسناتها، أو زيادة في سيئاتها، ولو كان ذلك قدر مثقال ذرة أتى بها الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

٣١- إثبات الموازين ووزن الأعمال يوم القيامة، وفي الحديث: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله**

العظيم»[١].

٣٢- كفاية الله تعالى التامة في حسابه الخلائق؛ لعلمه التام بهم وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، وفي هذا ضمان للعدل، وترغيب في الثواب، وترهيب من العذاب.

* * *

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، قوله تعالى: ٧٥٦٣، ومسلم في الذكر وفضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٨٠٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨ – ٥٠].

هذا شروع في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وما لقوه من المكذبين من أممهم، وصبرهم في سبيل ذلك، حتى صارت العقبى لهم، بنصرهم وإنجائهم، وإهلاك

المكذبين لهم، وبيان أن هذه سنته في السابقين؛ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾ [الإسراء: ٧٧]، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، تجاه ما يلقى من أذى قومه، وتحذير وتهديد ووعيد للمكذبين له.

وابتدأ بذكر قصة موسى وأخيه- والله أعلم- لمعرفة العرب بكتابهم، ووجود بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب.

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي: آتينا موسى أصلًا وهارون تبعًا ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي: الكتاب العظيم «التوراة» التي فيها الفرق بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، والهدى والضلال، والرشاد والغي، والعدل والجور.

﴿وَضِيَآءً﴾، أي: وهدى ونورًا يهتدى به في معرفة الأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، ومحاربة الجهل والبدع والخرافات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: تذكيرًا وموعظة لهم، يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيجتنبونه، وخصهم؛ لأنهم هم المنتفعون بذلك علمًا وعملًا.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ الآية، تفسير للمتقين، أي: الذين يخافون ربهم ويؤمنون به، وهو غيب لأنهم يرونه؛ كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

ويخشونه ويخافونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم، وفي هذا امتداح لهم؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢].

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على «يخشون» من

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باب عطف الصفات، أي: وهم من القيامة وأهوالها وعذابها خائفون؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

فجمعوا لكمال معرفتهم بربهم وعظمته بين الإحسان بتقواه وخشيته، والخوف من الساعة والاستعداد لها.

﴿وَهَٰذَا﴾، أي: وهذا القرآن العظيم ﴿ذِكۡرٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، أي: تذكير وموعظة وشرف ورفعة.

﴿مُّبَارَكٌ﴾، أي: كثير البركة والخير والنفع؛ لاشتماله على مصالح الدين والدنيا والآخرة، به السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، ﴿أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ من عندنا.

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما؛ لأن كتابيهما أفضل كتب الله، وشريعتيهما أعظم وأوسع الشرائع، ومحمد ﷺ أفضل ذوي العزم من الرسل، وموسى عليه الصلاة والسلام ثالثهم.

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفأنتم لهذا القرآن العظيم الذي هو غاية في الجلاء والظهور، المبارك الذي منَّ الله بإنزاله على هذه الأمة ﴿مُنكِرُونَ﴾، أي: جاحدون له مكذبون به.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ

ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٦].

قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾، أي: أعطيناه الهداية والنبوة، ووفقناه للحق والتوحيد الخالص، وخصصناه بالخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل أن نؤتي موسى وهارون الفرقان، أي: من قبل نزول التوراة. وقيل: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أنه أهل لذلك لزكائه وذكائه، وسلامة قلبه، ونقاء سريرته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾، أي: إذ قال لأبيه «آزر» وقومه المشركين: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الاستفهام للتحقير، والإنكار عليهم، والتوبيخ لهم.

و«التماثيل»: جمع «تمثال»، وهي الأصنام التي صنعوها ومثلوها ونحتوها بأيديهم على صور بعض المخلوقات، ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، أي: عليها عاكفون، أي: مقيمون على عبادتها، ملازمون لها.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، أي: وجدنا آباءنا وأجدادنا لهذه التماثيل عابدين، فنحن نعكف عليها ونعبدها مثلهم، فلم يكن لهم حجة إلا صنيع آبائهم الضُّلال، يقلدونهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٣].

ولهذا قال: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾، أي: والله لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، أي: ضلال بين واضح، في عكوفكم على التماثيل، وعبادتكم الأصنام، وإشراككم بالله؛ إذ لا ضلال أشد وأعظم من الشرك بالله تعالى.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾، أي: قالوا على وجه الاستغراب: أجئتنا بما هو الحق؟

﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ «أم»: هي المتصلة حرف عطف، أي: أم أنت من اللاعبين، أي: كلامك كلام لاعب مستهزئ، لم نسمع به قبلك.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل ربكم الذي لا إله غيره هو رب السموات والأرض.

﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾، أي: خلقهن وما فيهن من جميع المخلوقات، وهو المستحق للعبادة وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي: وأنا على وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته من الشاهدين، أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾.

قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ لما بين لهم ضلالهم في عبادتهم ما لا يملك من التدبير شيئًا، أراد أن يريهم بالفعل عجزها؛ ليحصل إقرارهم بذلك.

قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، والتاء: للقسم، واللام في قوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، و«الكيد»: التحيل والمكر والتدبير بخُفْية لإلحاق الضرر، أي: لأحتالن لإلحاق الضرر والأذى بأصنامكم وتكسيرها بخفية.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾، أي: بعد انصرافهم إلى عيدهم مباشرة، وكان لهم عيد يخرجون إليه.

وفي هذا تأكيد منه على عزمه على فعل ذلك، مبادرة منه إلى إنكار المنكر.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ قرأ الكسائي: «جِذَاذًا» بكسر الجيم، وقرأ الباقون: ﴿جُذَٰذًا﴾ بضمها، أي: فجعل أصنامهم جذاذًا، أي: حطامًا وقطعًا صغيرة، وكسرها كلها.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ «إلا»: أداة استثناء، «كبيرًا»: منصوب على الاستثناء، أي: إلا الصنم الكبير عندهم.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لعل قومه إلى هذا الصنم الكبير يرجعون، أي: إن إبراهيم ترك تكسير صنمهم الكبير؛ لأجل أن يرجعوا إلى هذا الصنم فيعتقدوا أنه هو الذي غار لنفسه، ويحتمل أن الضمير في «إليه» يعود إلى إبراهيم عليه السلام، أي: لعل قومه يرجعون إليه ويستمعون له، ويلتفتون إليه، ولا يعرضون عنه.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾، أي: من الذي فعل هذا الفعل بآلهتنا فكسرها، وجعلها جذاذًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾ [الصافات: ٩٣ – ٩٤].

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن الذي فعل هذا لمن الظالمين غاية الظلم.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال من سمع إبراهيم يقول: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ الآية [الأنبياء: ٥٧].

﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، أي: سمعنا شابًّا يعيبهم ويذمهم ويتوعد بكيدهم.

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾، أي: يسمى إبراهيم.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: بمرأى من الناس ومسمع، وعلى رؤوس الأشهاد، وبحضرة الناس كلهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، أي: لأجل أن يحضروا ويشهدوا عليه وعلى ما يقول، ويشهدوا ما يصنع به.

ويا سبحان الله! فما دعوا إليه من هذا المجمع الكبير والإتيان به عليه السلام، ليشهدوا الناس عليه، هو الذي أراده إبراهيم؛ ليكون بيان الحق بمشهد من الناس؛ وتقوم عليهم الحجة، ويظهر جهلهم وسفه عقولهم في عبادة ما لا يسمع ولا يضر ولا ينفع؛ كما قال موسى حين واعد فرعون وملأه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه: ٥٩].

﴿قَالُوٓاْ﴾ حين حضر الناس، وأتوا بإبراهيم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، أي: أأنت فعلت هذا التكسير بآلهتنا يا إبراهيم؟ والاستفهام فيه معنى التقرير، أي: هل أنت الذي فعلت هذا الفعل؟ وما الذي جرّأك على ذلك؟

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ بل: للإبطال ونفي أن يكون هو الفاعل لذلك، أي:

الذي فعل ذلك هو ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، أي: كبير آلهتهم؛ يعني: الصنم الذي تركه فلم يُكسِّره بقصد إلزامهم، وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، أي: فاسألوا هذه الآلهة من فعل هذا بهم ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؟ ومراده عليه السلام بهذا: أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون.

قال ابن القيم: يعني أن كبير الأصنام غضب أن تعبد هذه الأصنام الصغار معه فكسرها.

فغرض إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام: إقامة الحجة عليهم؛ لأنه قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ هذا على سبيل الاستهزاء بهم، وهذا من رموز الكلام، والقصد فيه أن إبراهيم عليه السلام لم يكن القصد الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها، على أنه أسلوب من الفصاحة آخر يقتضي أن يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة، وتبكيتهم والاستهزاء بهم»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾. قال وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلًا، فأتى الجبار رجل فقال: إنه نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه، فقال: ما هذه المرأة معك؟ قال: هي أختي، قال: فاذهب، فأرسل بها إليَّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الرجل سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلي، فلما أن دخلت فرآها أهوى إليها فتناولها، فأُخذ أخذًا شديدًا. قال: ادعِي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأُرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأُخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة فأُخذ، فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال ادعي الله، فلا أضرك، فدعت له فأُرسل، ثم دعا أدنى حجابه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته قال: مهيم(٢)؟**

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٨).

(٢) أي: ما شأنك وما خبرك؟

قالت: كف الله كيد الكافر والفاجر، وأخدمني هاجر» (١).

قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا حدث بهذا الحديث قال: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء» (٢).

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾.

قوله: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: فرجعوا وعادوا إلى أنفسهم بالملامة، أي: رجع كل منهم إلى نفسه، ورجع بعضهم إلى بعض، وأقبل بعضهم على خطاب بعض.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾، أي: فقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجملة مؤكدة بـ«إن»، وبضمير الفصل «أنتم»، وبكونها جملة اسمية معرفة الطرفين، تفيد الحصر، أي: إنكم أنتم الظالمون في اتهامكم لإبراهيم بتكسيرها قبل أن نسألها عمن فعل بها ذلك، ويظهر أن الذي فعله كبيرهم.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾، أي: ثم رجعوا إلى عنادهم وضلالهم، فبعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم رجعوا إلى المكابرة لما غلبوا، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له عليهم، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، أي: فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا لا ينطقون، وأنت تعلم أنهم لا ينطقون؟ أتتهكم وتستهزئ بنا؟

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: لما اعترفوا أن هؤلاء الآلهة لا ينطقون أنكر عليهم عبادتهم، وهم في هذه الحالة من الضعف، فقال: أفتعبدون غير الله ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾، أي: الذي لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ ٣٣٥٨، ومسلم في الفضائل، فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ٢٣٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وقول أبي هريرة: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء» يعني: العرب؛ لخلوص نسبهم وصفائه، وقيل: لأنهم أصحاب مواشٍ، وعيشهم على المرعى والخصب، وما ينبت بماء السماء.

و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: الذي لا يقدر على جلب أيِّ نفع لكم، ولا دفع أي ضر عنكم.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: قبحًا لكم وللذي تعبدون غير الله، وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: «من دونه»؛ لتعظيمه عز وجل، وزيادة البيان، وتشنيع عبادة غيره.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم وتعلمون ما أنتم عليه من الضلال والكفر في عبادتكم ما لا ينفع ولا يضر؟!

وبهذا أقام عليه السلام عليهم الحجة؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

لما غلبهم بالحجة القاهرة، وظهر الحق، وبان عجزهم وبطلان ما هم عليه من عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم، لجؤوا إلى معاقبته بالقوة، فقالوا:

﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: حرقوه بالنار، والتحريق: المبالغة في الحرق، واختاروا التحريق للنكاية به؛ لأن التحريق أشد ما يعاقب به وأفظع وأهول.

﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: وانتصروا لآلهتكم، بإحراق من اعتدى عليها وكسرها وأهانها، بقتله أشنع قتلة؛ غضبًا لآلهتكم وانتصارًا لها.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ تحريض وتلهيب لحميتهم، أي: إن كنتم فاعلين الانتصار لها فنفذوا ذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: قلنا للنار وأمرناها أمرًا كونيًّا أن تكون بردًا فتنقلب حرارتها برودة ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بحيث لا يؤذيه بردها.

قال المفسرون: لو لم يقل الله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذاه بردها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:

١٧٣]»[(١).

قال بعض السلف: «عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى»[(٢)].

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ حيث عزموا على إحراقه ودبروا ذلك بخفية.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ «الأخسرين»: جمع «أخسر»: اسم تفضيل يفيد القصر والمبالغة، أي: فصيرناهم الأخسرين الخائبين المغلوبين، الذين بلغوا الغاية في الخسران، وخاب مسعاهم، فخسارتهم لا تدانيها خسارة، فكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين، فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾.

قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ ونجينا إبراهيم عليه السلام نجاة ثانية بعد أن نجيناه من النار.

﴿وَلُوطًا﴾، أي: ونجينا لوطًا مع إبراهيم؛ لأنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، وهو ابن أخيه هارون بن آزر، قال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: بخروجهما من بين ظهراني أعدائهم الكفار من «بابل» في أرض العراق، وهجرتهما من دار الكفر والشرك، ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: إلى بلاد الشام والأرض المقدسة ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ بكونها مهد كثير من الرسالات، وفيها بيت المقدس ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وبخصب أرضها، وطيب مائها، واعتدال جوها،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٦٣.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٤٥.

وكثرة خيراتها، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾، أي: وهبنا له ابنه إسحاق بعد اعتزاله قومه، وبعد دعوته: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات: ١٠٠]، وذلك بعدما كبر وكانت امرأته عاقرًا، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾ [الصافات: ١١٢]، وقد وهبه الله إسماعيل قبل ذلك؛ كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، أي: ووهبنا له يعقوب بن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ زيادة عما سأل، وعطية وفضلًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾، أي: وكلًّا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلنا صالحين؛ مخلصين العمل لله تعالى، متبعين لشرعه، قائمين بحقوقه وحقوق عباده.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في الخير والصلاح، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم: ٤٠].

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يهدون الناس، ويدعونهم إلى الحق، ويدلونهم على الخير.

﴿بِأَمْرِنَا﴾، أي: بأمرنا وإذننا الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: وأوحينا إليهم وألهمناهم فعل الخيرات عمومًا، ووفقناهم إلى ذلك، من حقوق الله تعالى وحقوق العباد.

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وإقام الصلاة إقامة تامة؛ كما شرعها الله تعالى، وإعطاء الزكاة من المال لمستحقيها، وخص الصلاة والزكاة، لعظم مكانتهما في الشرع، فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وفيها تمام الإحسان في عبادة الله تعالى، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفيها تمام الإحسان إلى عبادة الله.

﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: مديمين على عبادة الله تعالى باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَلُوطًا﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، أي: واذكر نبينا ورسولنا لوطًا، وهو: لوط بن هارون بن آزر.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، أي: أعطيناه بالنبوة حكمًا بين الناس بالعدل والصواب والسداد، وعلمًا بالشريعة.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ﴾، أي: وخلصناه من القرية التي كانت تعمل الأعمال الخبيثة وفاحشة اللواط، وهي قرية «سدوم» الذين بعثه الله إليهم فكذبوه وخالفوه، فأهلكهم الله وجعل عالي ديارهم سافلها، وأتبعها بالحجارة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ الجملة: مستأنفة بيانية، أو تعليلية، أي: لأنهم كانوا قوم سوء خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآۖ﴾ بالتوفيق والنصر والتأييد والثناء الحسن في الدنيا، وبدخول الجنة في الآخرة.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجملة: تعليلية، أي: لأنه من الصالحين الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم بالإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه.

والصلاح من أعظم الأسباب للدخول في رحمة الله وجنته، وهو من أخص أوصاف الأنبياء عليهم السلام؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٣]، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَنُوحًا﴾، أي: واذكر نبينا ورسولنا نوحًا ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل من ذكر من الرسل؛ لأنه كان أول الرسل، أي: حين دعا على قومه لما كذبوه، فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: فاستجبنا له دعاءه، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾، أي: فخلصناه ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ وهم أهل بيته عدا أحد ابنيه، وهو الذي كفر به؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: من كرب الطوفان العظيم.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: ومنعناه وحميناه منهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥﴾ [المؤمنون: ٦٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾، أي: أهل كفر وفساد، وتكبر وعناد.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: فأهلكناهم بالغرق بالطوفان كلهم جميعًا، فلم نبق منهم على وجه الأرض أحدًا.

وهكذا عاقبة الكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله وتكذيب رسله، وفي هذا تهديد لكفار قريش وغيرهم من المكذبين من هذه الأمة.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع أممهم، وما لقوه منهم من أذى، ومن ثم نصر الله تعالى لرسله وإنجاؤهم، وإهلاك أعدائهم المكذبين، تسلية للنبي ﷺ وتقوية لقلبه، وتحذيرًا وتهديدًا للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام وإيتائهما التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

٣- ثناء الله عز وجل على التوراة وامتداحه لها؛ لعظم مكانتها، فهي أفضل كتب

الله عز وجل بعد القرآن الكريم، فيها بيان الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، وهي ضياء ونور، وتذكير وموعظة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

٤- أنه إنما يتذكر وينتفع بكتب الله تعالى ووحيه إلى رسله المتقين الذين يخشون ربهم، وهو غيب لم يروه، وحال غيبتهم عن أعين الناس، مع إشفاقهم من الساعة واستعدادهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

٥- ثناء الله عز وجل على المتقين، وامتداحه لهم بخشيتهم له بالغيب، وهم لم يروه، وهذه درجة الإحسان، وخشيتهم له أيضًا حال غيبتهم عن الناس، فلا يراؤون الناس بأعمالهم، وإنما يراقبون الله وحده، مع إشفاقهم وخوفهم من الساعة وأهوالها.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

٧- إثبات الساعة والقيامة، وأهوالها، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

٨- ينبغي أن يجمع العبد بين تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبين خشيته وخوفه ورجائه، فلا يُدل على الله بعمله.

٩- تعظيم الله عز وجل للقرآن الكريم، والتنويه بشأنه، وامتداحه بكونه تذكيراً وموعظة، كثير النفع والخير، والامتنان بإنزاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾.

١٠- الجمع بين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما هنا وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ لأن كتابيهما أفضل كتب الله، فالقرآن أفضل كتب الله على الإطلاق، وبعده التوراة، ولأن شريعتيهما أعظم وأوسع الشرائع.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق، علو الذات وعلو الصفات.

١٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وكلامه عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾.

١٣- الإنكار والتقريع والتوبيخ لمن أنكروا القرآن، وما فيه من الذكر والبركة، وكذبوه، وهو منزل من عند الله، وفي غاية الجلاء والوضوح؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ

مُنكِرُونَ﴾.

١٤- التنويه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وأن الله أعطاه رشده وهداه، وآتاه النبوة والرسالة، وخصه بالخلة، واصطفاه في الدنيا والآخرة قبل إيتاء موسى وهارون الفرقان؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

١٥- علم الله التام بأن إبراهيم عليه السلام أهل لما أعطاه الله عز وجل من الرشد والاصطفاء والهدى، والنبوة والرسالة، وبما خصه به من الخلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

١٦- إنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومه عكوفهم على التماثيل وعبادة الأصنام، وتحقيره لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

١٧- أنه لم يكن لهم حجة أو دليل إلا التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

١٨- بيان إبراهيم لهم أنهم هم وآباؤهم في عكوفهم على هذه التماثيل في ضلال بين واضح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

١٩- استغرابهم، بل وإنكارهم أن يكون ما جاءهم به حق، واستهزاؤهم به عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾؟

٢٠- إثبات إبراهيم وبيانه لهم أن ربهم وإلههم الذي يجب أن يعبدوه وحده هو رب السموات والأرض، هذه المخلوقات العظيمة، الذي خلقهن وما فيهن من جميع المخلوقات، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه، وشهادته عليه السلام على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾.

٢٢- تهديده عليه السلام لهم بالكيد لأصنامهم؛ مبادرة لإنكار المنكر؛ وليظهر لهم مدى ضعفها، وأنها لا تدفع عن نفسها، فكيف تدفع عنهم أو تنفعهم؟! لقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

٢٣- تكسيره عليه السلام لأصنامهم كلها ما عدا الكبير منها؛ لأجل أن يرجعوا إليه فيظنوا أنه هو الذي كسر أصنامهم الصغيرة غيرة وغضبًا أن تعبد معه، أو لأجل أن يرجعوا إليه عليه السلام، ويستملوا له ويستمعوا إليه ولا يعرضوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٢٤- استفهامهم إنكارًا لمن فعل هذا الفعل بآلهتهم، وأنه من الظالمين غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

٢٥- توجس بعضهم أنه إبراهيم لسماعهم قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

٢٦- أمرهم بالإتيان به عليه السلام بمرأى من الناس ومسمع وعلى رؤوس الأشهاد؛ ليشهدوا عليه وعلى ما يقول ويشهدوا ما يصنع به، ولله الحكمة البالغة، فهم بهذا العمل يمهدون لإبراهيم؛ ليقيم عليهم الحجة في هذا المجمع العظيم الذي لو أراد هو جمعهم لما استطاع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٢٧- استفهامهم منه عليه السلام: أهو الذي فعل هذا بآلهتهم؟ وإجابته بإبطال ذلك ونفيه، وأن الذي فعله كبيرهم، فليسألوهم إن كانوا ينطقون، وفي هذا تبكيت لهم، واستهزاء وتهكم بهم، وتدرج لإبطال آلهتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٨- رجوعهم إلى أنفسهم بالملامة، وأنهم هم الظالمون باتهامهم إبراهيم بتكسيرها قبل أن يسألوها عمن فعل بها ذلك، مستظهرين في هذه الحال أن الذي فعله كبيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٩- انتكاسهم إلى العناد والمكابرة لما غلبوا في الحجة، واحتجاجهم على إبراهيم بما هو حجة له عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

٣٠- تدرجه عليه السلام معهم ووصوله بهم إلى إقرارهم واعترافهم بضعف آلهتهم، وأنها لا تنطق، ولا تدفع عن نفسها، فكيف تدفع عن غيرها أو تنفعهم؟! ولهذا

أكد الإنكار عليهم والتقريع والتوبيخ لهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

٣١- تقبيح حالهم ومعبوداتهم من دون الله؛ لقوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾.

٣٢- تسفيه عقولهم، والإنكار عليهم في عدم الانتفاع بها؛ إذ كيف يعبدون من دون الله أحجارًا لا تنطق، ولا تنفع ولا تدفع، ولا تملك من الأمر شيئًا؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣٣- أن من لم يهده عقله إلى معرفة الله وتوحيده في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ومعرفة ما يجب لله فليس بعاقل، ولو بلغ من الدنيا مبلغه.

٣٤- لجوء قومه عليه السلام إلى أخذه بالقوة، لما غلبهم بالحجة الظاهرة، وبان عجزهم وبطلان ما هم عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، وهذا ديدن المكذبين للرسل وللدعاة إلى الله تعالى، عندما تبطل حجتهم يسلكون طريق التهديد بالقوة؛ كما بين ذلك القرآن في مواضع كثيرة.

٣٥- تواصيهم بالنكاية به، وقتله أشنع قتلة، بتحريقه انتصارًا لآلهتهم، وتحريض بعضهم لبعض على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

٣٦- أمره عز وجل الكوني للنار أن تكون بردًا على إبراهيم فلا يضره حرها، وسلامًا فلا يؤذيه بردها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

٣٧- قدرة الله تعالى التامة التي لا يستحيل أمامها أي شيء حتى لو كان مخالفًا للقوانين الكونية، فالنار طبيعتها الإحراق، فجعلها عز وجل بردًا وسلامًا على إبراهيم.

٣٨- عناية الله تعالى بخليله إبراهيم وحفظه ووقايته له، وإنجاؤه وتسليمه من النار.

٣٩- رد كيد قومه ومكرهم، وخيبة مسعاهم، وجعلهم الأخسرين المغلوبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

٤٠- إنجاء الله عز وجل له عليه السلام نجاة ثانية بعد إنجائه له من النار، وذلك بخروجه من بين ظهراني قومه المشركين، هو ولوط عليهما السلام، وهجرتهما من دار الكفر والشرك إلى الأرض المقدسة المباركة، أرض الشام وفلسطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

٤١- فضل الله عز وجل على لوط عليه السلام بإنجائه وهجرته مع إبراهيم عليهما السلام إلى الأرض المقدسة.

٤٢- أن الهجرة من بلد الكفر والشرك إلى بلد الإسلام مشروعة في الشرائع السابقة، ويقال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من هاجر؛ كما قال عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، أي: مهاجر إلى ربي.

٤٣- مباركة الله تعالى في أرض الشام، فهي تحتضن المسجد الأقصى المبارك، ومهبط كثير من النبوات والرسالات، وخصب أرضها وكثرة خيراتها.

٤٤- هبة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام- بعد هجرته للأرض المباركة- ابنه إسحاق، إجابة لدعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات: ١٠٠]، وهبته «يعقوب» ابن ابنه إسحاق نافلة زيادة وفضلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾.

٤٥- امتنان الله تعالى على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وآل إبراهيم، وثناؤه عليهم وتفضيلهم، بجعلهم صالحين، مخلصين العمل له، متبعين لشرعه، وأئمة يدعون الناس ويرشدونهم بأمره، وتوفيقهم وإلهامهم فعل الخيرات، وإقام الصلاة والمداومة على عبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ۝٧٣﴾.

٤٦- الترغيب في الصلاح، والدعوة إلى الله، وفعل الخيرات، وإقام الصلاة، والمداومة على عبادة الله، والإمامة في الخير؛ لامتداح المتصفين بهذه الصفات والثناء عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]؛ ولهذا قال عباد الرحمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٤٧- فضيلة الصلاة والزكاة؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين سائر العبادات، فالصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية، وقدم الصلاة؛ لأنها أفضل العبادات على الإطلاق بعد الشهادتين.

٤٨- منة الله تعالى على لوط عليه السلام بإيتائه بالنبوة حكمًا بين الناس بالعدل والصواب والسداد، وعلمًا بالشريعة، وإنجائه من القرية التي تعمل الخبائث،

وبإخراجه من بين قومه قوم السوء الفاسقين قبل إهلاكهم، وإدخاله في رحمة الله تعالى إنه من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤ – ٧٥].

٤٩- الحذر من عمل الخبائث والفواحش، وارتكاب فاحشة اللواط والأعمال السيئة والفسق.

٥٠- إثبات رحمة الله تعالى الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها ويشمل بها من يشاء من عباده.

٥١- التذكير بمنة الله عز وجل على نوح عليه السلام أول الرسل باستجابة دعائه، وإنجائه من كرب الطوفان العظيم، ونصره على المكذبين بآيات الله قوم السوء وإغراقهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

٥٢- ذم قوم لوط بأنهم قوم سوء فاسقين؛ لكفرهم وتكذيبهم لوط وفعل فاحشة اللواط، وذم قوم نوح بأنهم قوم سوء؛ لكفرهم وشركهم وتكذيبهم نوحًا، وشدة عنادهم واستكبارهم.

٥٣- صدق الله عز وجل وعده رسله، وسنته الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول، في إنجاء رسله وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وتحذير وتهديد ووعيد للمكذبين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ الواو: استئنافية، و«داود»: منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر، أي: واذكر يا محمد داود وسليمان، والمراد بهما: داود وسليمان النَّبيَّان عليهما الصلاة والسلام؛ داود بن يسي من سبط يهوذا، وهو الذي آتاه الله «الزبور».

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

وابنه سليمان، الذي وهبه الله له، وورثه، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل: ١٦].

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين» أي: حين حكم كل منهما على انفراده في الحرث، بما رآه وفهمه، حسب اجتهاده، بحكم مخالف لحكم الآخر.

و﴿ٱلْحَرْثِ﴾ النبات والزرع، سُمي بذلك؛ لأن الأرض تحرث، ويوضع فيها النبات. والحرث المذكور كان عنباً. وقيل: كان زرعاً.

﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: حين نفشت فيه غنم القوم، أي: انتشرت فيه ورعته ليلاً بلا راع وأفسدته.

والنَّفَشُ- بفتح الفاء-: الغنم المنتشرة، والرعي بالليل. والهمل: الرعي بالنهار، والنفش يلزم صاحبه ضمان ما أتلفته ماشيته.

عن حرام بن محيِّصة عن أبيه- رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل، فأفسدته عليهم، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار،

وعلى أهل المواشي حفظها بالليل، وما أفسدته بالليل فهو ضامن على أهلها»(١).

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ الواو: حالية. وقد تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ أي: لحكم داود وسليمان، وجمع الضمير وهما اثنان؛ لأن الجمع يطلق على الاثنين، وهما أقل الجمع، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، فجمع القلوب مع أن المخاطب اثنتان عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، والمراد أخوان فأكثر.

وقيل: جمع الضمير في قوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ باعتبار داود وسليمان والمتحاكمين إليهما.

﴿شَٰهِدِينَ﴾ أي: عالمين به، مطلعين عليه؛ لأنه- عز وجل- مطلع وشهيد، ورقيب على جميع الخلق وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم، لا تخفى عليه منهم خافية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ أي: ففهمنا القضية والحكومة سليمان- عليه السلام- فحكم فيها بما وافق الحق والصواب.

ويفهم من قوله- عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ أن داود- عليه السلام- لم يُفهم الحكومة فيها، ولم يوفق فيها للصواب، وأن حكمهما فيها كان باجتهاد منهما.

وقيل: إن كلاً منهما مصيب، لكن حكم سليمان كان أصوب. كما قيل: إن حكمهما كان بوحي.

والفهم: منحة من الله- عز وجل- ونور يقذفه في قلب من شاء من عباده، به يستطيع الاستنباط من النصوص، وفهمها فهماً صحيحاً، كما قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- لما سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ قال: «لا والذي

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع- المواشي تفسد زرع قوم (٣٥٦٩، ٣٥٧٠)، وابن ماجه في الأحكام- الحكم فيما أفسدت المواشي (٢٣٣٢)، وأحمد (٥/ ٤٣٥- ٤٣٦).

فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر»(١).

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أدلي إليك»(٢).

قال ابن القيم(٣): «فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه في قلبه يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه».

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ قال: «كرم أنبتت عنا قيده، فأفسدته- قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، وتدفع الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾»(٤).

ورُويَ عن ابن عباس نحوه(٥) وهكذا رُوي عن جمع من التابعين(٦).

قال ابن القيم(٧): «فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم، أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها، ورضي أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة.

وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل، بأن

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٩٠٣)، والنسائي في القسامة (٤٧٤٤)، والترمذي في الديات (١٤١٢)- من حديث أبي جحيفة- رضي الله عنه- أنه سأل عليًّا- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥) وما بعدها.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٩).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٢)، والحاكم (٢/ ٥٨٨)، والبيهقي (١٠/ ١١٨).

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٣).

(٦) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٣- ٣٢٨).

(٧) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٩).

يعمروا البستان كما كان، ولم يضيع عليهم مغلَّه من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك، ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين، فوجدهما سواء. وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه».

ولما تبين لداود- عليه السلام- إصابة سليمان الحق رجع إلى حكم سليمان- عليه السلام- وقد قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»(١).

والأنبياء- عليهم السلام- ليسوا بمعصومين من الخطأ في الصغائر على الصحيح من أقوال أهل العلم كما هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره(٢). ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه، فليأخذها أو ليدعها فإنما أقطع له قطعة من النار**»(٣).

وما قضى به داود وسليمان- عليهما السلام- من تضمين أصحاب الغنم ما أفسدته بالليل موافق لما جاء في شرعنا، كما في حديث حرام بن محيِّصة- رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها»(٤).

وهكذا قضى شريح القاضي- رحمه الله- بين رجلين جاءا إليه، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥- ٨٦).

(٢) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٤/ ٣١٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٨٣)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) سبق تخريجه.

فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: كان النفش ليلاً»(١).

ومثل هذه الآية في الدلالة على فهم سليمان- عليه السلام- في الحكم والقضاء ما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه. فقضى به للصغرى**»(٢).

والذم والوعيد إنما هو لمن قضى على جهل، وبلا علم، كما في حديث سليمان بن بريدة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار**»(٣).

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ أي: وكلاً من داود وسليمان آتيناه ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكماً وفصلاً في المسائل والقضايا، وفي الاختلاف بين الناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

﴿وَعِلْمًا﴾ أي: وآتيناهما علماً، وأعظم ذلك وأجله علم النبوة، به يتمكنان من الحكم بين الناس وتعليمهم أمر دينهم ودنياهم، فخص عز وجل سليمان- عليه السلام- بالفهم في هذه الواقعة المعينة، وأثنى على داود وسليمان بالحكم والعلم.

وقد استدل بهذا الاحتراز من قال: إن كلاً منهما مصيب لكن حكم سليمان- عليه السلام- أصوب.

ومهما يكن فليس في حكم داود- عليه السلام- ما يعاب عليه لأنه اجتهد، والحاكم إذا كان ممن له الاجتهاد، أي ممن يملك أدوات الاجتهاد- إذا اجتهد فأصاب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٥)، من رواية عامر الشعبي رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٩)، ومسلم في الأقضية (١٧٢٠)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠٢)، وأحمد (٢/ ٣٢٢، ٣٤٠).

(٣) أخرجه أبوداود في الأقضية- باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥).

فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر.

عن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر**»(١).

قال الحسن: «لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام قد هلكوا، لكن الله- تعالى- حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده»(٢).

وليس في الآية دلالة على أن كل مجتهد مصيب، بل فيها أن الذي فهم القضية هو سليمان- عليه السلام- دون داود، لكن ليس فيها تأثيم داود- عليه السلام، بل فيها الاحتراز من ذلك؛ لأنه اجتهد، فهو مأجور باجتهاده، غير آثم في خطئه.

وعلى هذا دل قوله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**».

ومثل هذا يقال في فعل الصحابة- رضي الله عنهم- لما قال لهم النبي ﷺ: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»، فمنهم من صلى العصر في الطريق لما دخل وقتها، ومنهم من أخَّرها فلم يصلها إلا في بني قريظة بعد المغرب وفوات وقتها(٣)، فكل منهم مجتهد، ولهذا لم يعنف النبي ﷺ أحداً منهم، وإن كان المصيب من صلى العصر في وقتها.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وذللنا مع داود الجبال ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بيان لـ«سخرنا» أو حال مبينة، أي: حال كونهن يسبحن.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ الواو بمعنى: «مع» أي مع الطير، أي: وذللنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام- أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية- بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٧١٦)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٧٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٨- ١١٩)، وانظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، أي: رجِّعي ورددي معه التسبيح.

وقدّم الجبال على الطير- والله أعلم؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق.

والمعنى: وسخرنا مع داود الجبال والطير يسبحن، لكنه لو جاء هكذا لربما أفهم أن التسبيح فقط من الطير وحدها.

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾: «وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنَّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب فوقف واستمع لقراءته، وقال: «**لقد أوتي هذا من مزامير آل داود**»، قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيراً[2]. وفي رواية: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»[3].

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وذكره وتهليله وتحميده وتكبيره وعبادته، والانقياد له، والدلالة على وجوده، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن كل كمال فهو أولى به، له الأسماء الحسنى والصفات العُلى.

فالجبال والطير تسبح الله- عز وجل- مع داود- عليه السلام، وكذا جميع المخلوقات تسبِّح الله- عز وجل- حقيقة وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح؛ كما قال- عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ٣٥٢).

(٢) التحبير: التحسين، أي: لحسَّنته لك تحسيناً.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حسن الصوت بالقراءة (٥٠٤٨)، ومسلم في المسافرين، استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والترمذي في المناقب، مناقب أبي موسى الأشعري (٣٨٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، حسن الصوت بالقرآن (١٣٤١)، وأحمد (٢/ ٣٦٩، ٤٥٠)؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ توكيد لما قبله، أي: فاعلين ما قضيناه وأردناه وقادرين عليه؛ من تفهيم سليمان، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير يسبحن مع داود، وغير ذلك- مع ما في ذلك من الأمر العجب الدال على كمال قدرة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ اللبوس: اللباس، يقال: البس لكل حالة لبوسها، فلحال السلم لبوسها، ولحال الحرب لبوسها، أي: وعلمنا داود عليه السلام صنع لباس لكم حال الحرب، وهي الدروع، وهي السابغات؛ كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

قال كعب بن زهير(١):

شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق الأكفاء مجدول

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ قرأ أبوجعفر وابن عامر وحفص: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاء على التأنيث، أي: لتحصنكم صنعة اللبوس، وفي رواية أبي بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب (لنحصنكم) بالنون، فيعود الضمير إلى الله- عز وجل.

وقرأ الباقون (ليحصنكم) بالياء، أي: ليحصنكم اللبوس أو داود- عليه السلام.

والإحصان لغة: المنع، والتحصن: الامتناع، ومنه سمي «الحصن» لأنه يُمتنع به من الأعداء، وسمي «الحصان» لأن صاحبه يركبه ويمتنع به.

والبأس: الشدة والقوة والقتال، قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]،

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤١).

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ١٨].

ومعنى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتمنعكم وتحميكم من ضرب السيوف والسهام والسنان وغير ذلك حال القتال والنزال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«هل»: للاستفهام، ومعناه الأمر، أي: فاشكروا نعمة الله عليكم لما مَنَّ به عليكم من تعليم داود- عليه السلام- صنعة هذه اللبوس والدروع لتتحصنوا بها حال القتال، وغير ذلك من نعمه عليكم، والشكر يكون بنسبة النعم إلى الله، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته، واحترامها وعدم إهانتها.

وضد ذلك كفران النعم بحيث تستعمل في معصية الله أو يستعان بها على ذلك، أو تنسب لغيره- عز وجل، أو تهان ولا تحترم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١]، وفي مجيء الأمر بالشكر على صيغة الاستفهام تشويق لامتثال الأمر، وتحبيبه إلى النفوس، وتلطف معها في الطلب في عدم مقابلتها بالأمر الذي قد يثقل على بعض النفوس.

كما أن فيه إشارة إلى قلة الشاكرين، وضعف الشكر عند الكثير منهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ الواو: عاطفة، أي: وسخرنا لسليمان الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

ومعنى ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: شديدة الهبوب، وهي تحت أمره- عليه السلام، فإن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، تتجه وتسير حيث أراد من البلاد، كما قال

تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٦].

والريح: هي نسيم الهواء، وهي مخلوق لطيف شفاف لا يرى، وإنما يُحس به من خلال تحريكه للأشياء.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: تسير بأمر سليمان عليه السلام، وتتجه حيث أمرها، وحيث شاء.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام المباركة التي بارك الله فيها، أي: جعلها كثيرة الخير والبركة، ومهبط كثير من الرسالات، ومبعث كثير من الرسل، منهم داود وسليمان وموسى وعيسى بن مريم- عليهم السلام- وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

قال الطبري[١]: «﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾».

وقال ابن كثير[٢]: «وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه».

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء، صغيراً كان أو كبيراً، خفياً أو جلياً ﴿عَٰلِمِينَ﴾ لا يخفى علينا منه شيء.

أي: فسخرنا مع داود الجبال والطير، وعلمناه صنعة الدروع، وسخرنا لسليمان الريح، كل ذلك وغيره بعلم منا، كما علِمنا أن تسخيرنا لداود وسليمان ما ذكر مما يزيدهما خضوعاً لله- عز وجل- وتعظيماً له، وتذللاً بين يديه.

---

(١) في «جامع البيان» (١٦/ ٣٣١).

(٢) في «تفسيره» (٥/ ٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا أيضاً لسليمان مِن الشياطين مَن يغوصون له.

والشياطين: جمع شيطان، مشتق من شطن، أي: بعد عن رحمة الله- عز وجل- وعن كل خير، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله- عز وجل- من الإنس والجن والحيوان، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

والغوص: النزول تحت الماء، أي: يغوصون له في أعماق البحار.

والمراد بالشياطين هنا شياطين الجن وعفاريتهم سخرهم الله- عز وجل- لسليمان- عليه السلام، يغوصون له في الماء وفي أعماق البحار، يستخرجون منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان والمحّار وأنواع الحلية، وغير ذلك، فسخرهم الله- عز وجل- له، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: دون الغوص، كالبنيان، والمحاريب والتماثيل، والجفان، والقدور، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: ١٣، ١٤].

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: حافظين لأعدادهم وأعمالهم فلا يخرجون عن أمره، ولا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل هم مسخرون له وتحت أمره وقهره، يطلق

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبوداود في الصلاة- ما يقطع الصلاة (٧٠٢)- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

من شاء منهم في العمل ويحبس من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بما حصل من سليمان وداود- عليهما الصلاة والسلام- في هذه الواقعة لأخذ العبرة من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ الآية.

٢- إثبات نبوة داود وسليمان- عليهما السلام.

٣- في ذكره ﷺ خبر داود وسليمان- عليهما السلام- أعظم دليل على صدق نبوته ﷺ.

٤- إطلاق الجمع على اثنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ والمراد حكم داود وسليمان.

٥- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ بضمير العظمة، وكذا ما بعده إلى آخر الآية- وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

٦- سعة علم الله- عز وجل- واطلاعه على كل شيء، ومن ذلك حكم داود وسليمان- عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾.

٧- اختصاص الله- عز وجل- سليمان- عليه السلام- بتفهيمه الصواب في هذه القضية، وهو دفع الكرم إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ودفع الغنم إلى صاحب الكرم ليصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعه إلى صاحبه ودفع الغنم إلى صاحبها؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

وهذا موافق لما جاء في قضائه ﷺ كما في حديث حرام بن محيِّصة عن أبيه- رضي الله عنه- «أن على أهل المواشي ضمان ما أفسدته مواشيهم بالليل، وأن على أهل الحروث حفظها بالنهار»(١).

وهذا مخصص لعموم قوله ﷺ: «**العجماء جرحها جبار**»(٢) أي: هدر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٩١٢)، ومسلم في الحدود (١٧١٠)، وأبوداود في الخراج (٣٠٨٥)،

وهذا قول جمهور أهل العلم، فما أتلفته المواشي بالليل يضمن بقيمته، وإن زادت على قيمة المواشي.

وقد قال بعض أهل العلم بضمان ما أتلفته المواشي بالنهار، كما قيل بعدم الضمان على أهل المواشي مطلقاً.

٨- جواز الاجتهاد للأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وغيرهم ممن هو أهل للاجتهاد.

٩- أنه ليس كل مجتهد مصيباً، وفي الحديث: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»(١).

لكن من اجتهد ممن له الاجتهاد فأخطأ فإنه لا يلام ولا يأثم؛ ولهذا قال ﷺ: «**وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فليأخذها أو ليدعها فإنما أقطع له قطعة من النار**»(٢).

١٠- جواز الخطأ والوقوع في الصغائر من الأنبياء- عليهم السلام، لكنهم لا يُقرون على ذلك، بل سرعان ما يتوبون من ذلك، وقيل بعدم جواز الخطأ عليهم وعصمتهم من الخطأ مطلقاً.

١١- وجوب رجوع القاضي عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره، فقد رجع داود إلى حكم سليمان- عليهما السلام- لما تبين له أن حكم سليمان أحق وأصوب.

١٢- ثناء الله- عز وجل- على كل من داود وسليمان- عليهما السلام- والامتنان عليهما بما آتاهما عز وجل من الحكم والعلم، وأعظم ذلك علم النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

١٣- الاحتراز والإشارة إلى أنه ليس في حكم داود- عليه السلام- ما يعاب؛ لأن الله-

---

والنسائي في الزكاة (٢٤٩٥)، والترمذي في الزكاة (٦٤٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٧٣)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

عز وجل- أثنى على سليمان بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ ولم يذم داود، بل أثنى عليهما معاً فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

١٤- امتنان الله- عز وجل- على داود- عليه السلام- بتسخير الجبال والطير يسبحن معه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾.

١٥- تسبيح الجماد والطير لله- عز وجل- وهكذا جميع المخلوقات؛ كما قال- عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٦- قدرة الله- عز وجل- التامة على فعل ما قضاه وأراده، من تفهيم سليمان الحكم في هذه القضية، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير تسبح مع داود وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، كما قال تعالى: في وصف نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦].

١٧- فضل الله- عز وجل- على داود- عليه السلام- بتعليمه صنعة الدروع والسرابيل ليتحصن بها جنوده حال القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ﴾.

١٨- وجوب شكر نعم الله بنسبتها إليه- عز وجل؛ والاستعانة بها على طاعته، والبعد عن معاصيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

١٩- أن التلطف في الخطاب- أحرى للقبول؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، فجاء الخطاب بصيغة الاستفهام، والمراد الأمر، أي: اشكروا.

٢٠- امتنان الله- عز وجل- على سليمان- عليه السلام- بتسخير الريح له تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده ورجال مملكته وما أراد إلى الأرض المباركة، وإلى حيث شاء من أرجاء مملكته ذهاباً وإياباً، تارة تجري بعصف وشدة، وتارة بلين ورخاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾.

٢١- مباركة الله- عز وجل- في أرض الشام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾.

٢٢- علم الله- عز وجل- الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

٢٣- تسخير الله- عز وجل- الشياطين لسليمان- عليه السلام، يغوصون له في أعماق البحار، يستخرجون ما فيها من الكنوز، ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾.

٢٤- عظم قدرة الله- عز وجل- في تسخيره الريح، هذا المخلوق الخفيف اللطيف لحمل سليمان- عليه السلام- وما معه من المحمولات الثقيلة، وفي تسخيره مردة الجن لخدمته في الغوص والعمل.

٢٥- عظمة ملك سليمان- عليه السلام- وما أعطاه الله- عز وجل- من القوة ونفوذ السلطان وتسخير الريح له ومردة الجن.

٢٦- حفظ الله- عز وجل- لأعداد الشياطين وأعمالهم في مملكة سليمان فلا يخرجون عن أمره- عليه السلام، ولا يقدرون على الامتناع منه ومعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قوله: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب حين نادى ربه ودعاه، قائلًا: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾، أي: أصابني الضر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١].

وذلك أن الله ابتلاه في ماله وولده وجسده، فقد كان ذا مال كثير من الأنعام والدواب والمواشي، وله أولاد كثيرون، ومنازل واسعة، وذا صحة وعافية في بدنه، فابتلي بذهاب ماله كله وولده، ثم ابتلي بالضر في جسده، يقال: أصيب بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله تعالى بهما، وتقزز من حالته الناس، فلا أحد يجالسه، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بحاجته، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس لأجله.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وصف نفسه بما يقتضي شدة الحاجة إلى رحمة ربه، ثم أثنى على ربه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وفي هذا الثناء على ربه بعد وصف حاله من التعريض بعظيم حاجته إلى رحمة أرحم الراحمين ما يكفي عن التصريح؛ كما قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء(١)

قال ابن القيم: «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه،

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت انظر: «ديوانه» (ص١٧).

ووجود طعم المحبة في التملق له والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات- ولاسيما مع هذه المعرفة- كشف الله ضره»(١).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، أي: فأجبنا له دعاءه وتضرعه، والسين والتاء للمبالغة. وفي هذا دلالة على أنه في وصفه حاله، وثنائه على ربه، يعرض بسؤال رحمة ربه وكشف ضره؛ ولهذا قال:

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ﴾، أي: أزلنا الذي بجسده ﴿مِن ضُرٍّ﴾، أي: من مرض وبلاء.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾، أي: وأعطيناه أهله، ورددناهم له، وجمعناه بهم في الجنة، ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، أي: وآتيناه مثل أهله في الدنيا، أي: عوضناه عنهم في الدنيا أهلًا مثلهم، ويحتمل ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، أي: آتيناه أجرهم في الآخرة.

وقال بعضهم: آتيناه أهله في الدنيا ومثلهم معهم.

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «ألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس في ناحية، وجاءته امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبدالله، أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب! فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك، أنا أيوب!

قالت: أتسخر مني يا عبدالله؟ فقال: ويحك، أنا أيوب، قد رد الله علي جسدي!

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده عيانًا ومثلهم معهم»(٢).

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ «رحمة» منصوب مفعول لأجله، أو مفعول مطلق، أي: رحمناه رحمة.

أي: رحمة من عندنا به، وفي هذا تعظيم لنفسه عز وجل ولرحمته بأيوب، وتنويه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٨٩- ١٩٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٥٦.

بشأنه عليه السلام، حيث صبر، فآتاه الله ثواب الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [ص: ٤٤].

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ معطوف على «رحمة»، أي: وعظة وعبرة وتذكيرًا ﴿لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يتذكرون بذلك ويتعظون ويعتبرون، فيعلمون أن الله يبتلي العبد- وإن كان من أهل الصلاح- ليزيده رفعة ومنزلة.

قال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»(١).

وذكرى للعابدين أيضًا: ليتأسوا به في الصبر على الضر والابتلاء، وليعلموا عناية الله تعالى بعباده، واستجابته لهم، إذا لجأوا إليه.

وخص العابدين؛ لأنهم هم الذين يتذكرون، وتنفعهم الذكرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، أي: واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل، أي: اذكرهم بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء؛ لكونهم من الصابرين، ولهذا قرن بينهم وبين أيوب عليه السلام؛ لكونهم مثالًا يحتذى في قوة الصبر وكماله.

وإسماعيل هو: إسماعيل بن إبراهيم، أكبر أولاد إبراهيم عليهما السلام، وكان من عظيم صبره عليه السلام أن الله عز وجل أمر إبراهيم عليه السلام أن يذبحه، فرضي عليه السلام واستسلم لأمر الله تعالى متذرعًا بالصبر الجميل، قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وأما إدريس فهو نبي الله تعالى، الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وأحمد ١/ ١٧١، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأما «ذو الكفل»: فهو نبي من أنبياء الله تعالى؛ ولهذا قرن مع إسماعيل وإدريس في هذه الآية، كما قرن مع إسماعيل واليسع في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾ [ص: ٤٨].

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: كل من هؤلاء الثلاثة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الصبر.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ الخاصة، فآتيناهم النبوة، وهديناهم لخيري الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجملة تعليل لإدخالهم في رحمته عز وجل، أي: لأنهم من الصالحين، الذين أخلصوا لله تعالى باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، واتبعوا شرعه.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾.

قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون، أي: صاحب النون، و«النون»: الحوت، وذو النون هو: يونس بن متى عليه السلام.

وقد ذكر الله قصته هنا وفي سورة الصافات، وفي سورة «ن».

وكان من قصته: أن الله بعثه إلى أهل نينوى، قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا، وتمادوا في كفرهم وكذبوه، فتوعدهم بالعذاب بعد ثلاث وخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، وذهب وركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١﴾ [الصافات: ١٤٠ - ١٤١].

أي: وقعت عليه القرعة، فقام عليه السلام وتجرد من ثيابه وألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت.

أما قومه فإنه لما توعدهم بالعذاب بعد ثلاث، وقد تحققوا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وتضرعوا إلى الله تعالى، وجأروا إليه فرفع عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، أي: حين ذهب مغاضبًا لقومه؛ لأنهم لم يؤمنوا به.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قرأ يعقوب بالياء المضمومة وفتح الدال: «يُقْدَرَ»، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وكسر الدال: ﴿نَّقْدِرَ﴾.

أي: فظن أن لن نضيق عليه في ذهابه وفي بطن الحوت، فمعنى ﴿نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: نضيق عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال بعضهم: معنى ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: لن نقدر ذلك عليه، فتكون من التقدير؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٢]، أي: قد قدر، ومنه قول الشاعر:

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى ... تباركت ما تقدر يكن فلك الأمر(١)

ولا تعارض بين القولين، فالتضييق عليه وقع بقدر الله.

﴿فَنَادَىٰ﴾، أي: بعد أن التقمه الحوت، ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، أي: أنه لا إله للخلق ولا معبود لهم بحق إلا أنت.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا لك عن كل نقص وعيب، وعن الشريك والولد، وعن مشابهة المخلوقين.

﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراف على نفسه عليه السلام بالظلم.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٢٠).

قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾ [الصافات: ١٤٢]، أي: فاعل ما يلام عليه، ولهذا نهى الله عز وجل نبينا ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الاستجابة: مبالغة في الإجابة، أي: فاستجبنا له دعاءه وقبلنا توبته مما فرط منه.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أي: خلصناه من الغم والضيق في تلك الظلمات؛ كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: ٤٩ – ٥٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر بنون واحدة وتشديد الجيم: «نُجِّي»، وقرأ الباقون بنونين؛ الثانية ساكنة مع تخفيف الجيم، أي: مثل إنجائنا ليونس عليه السلام وإخراجنا إياه من الظلمات والغم، بسبب دعائه واعترافه بالظلم وتوبته، كذلك ننجي من وقع في شدة وغم من المؤمنين، وهذا وعد من الله تعالى وبشارة للمؤمنين عمومًا، وللمؤمنين من الصحابة بأن الله سينجيهم من أذى المشركين لهم.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**»، وفي رواية: «**فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾.

ذكر الله عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى في أول سورة مريم، وفي أول سورة آل عمران، كما ذكر ها هنا بأخصر من ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٧١، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، والحاكم ١/ ٥٠٥، ٢/ ٣٨٢ وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا بن يحيى عليهما السلام.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، أي: حين دعا ربه خفية، وتضرع إليه أن يهبه ولدًا يرث النبوة من بعده؛ كما في قوله في سورة مريم: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٥ – ٦].

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، أي: يا رب، لا تتركني فردًا، أي: منفردًا وحيدًا، لا ولد لي، ولا وارث يقوم بعدي بالدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة، أي: وأنت خير الباقين، وخير من يرثني بخير، وخير الوارثين للدنيا وما عليها، وأرحم وأشفق بعبادك، من كل مخلوق.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾، أي: فاستجبنا له دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، أي: امرأته، يقال: كانت عاقرًا لا تلد، فولدت له، وأصلحها الله.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، والضمير في «إنهم» يعود إلى زكريا وأهل بيته، أي: إنهم كانوا يبادرون إلى فعل الطاعات في أوقاتها الفاضلة، ويتسابقون في فعل القربات، ويتنافسون في الخيرات.

﴿وَيَدْعُونَنَا﴾، الجملة معطوفة على ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾.

أي: ويدعوننا دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ حالان؛ ﴿رَغَبًا﴾، أي: رغبة ورجاء فيما عندنا من الثواب.

﴿وَرَهَبًا﴾، أي: ورهبة وخوفًا مما عندنا من العقاب.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متذللين متضرعين.

روي أن أبا بكر رضي الله عنه قام خطيبًا، ثم قال: «أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ذكر الله عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، ثم أتبع ذلك بذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام هنا؛ كما قرن بينهما في سورة آل عمران وسورة مريم، لما في كل منهما من الدلالة على كمال قدرة الله تعالى، وعجيب صنعه.

وقدم عز وجل في الذكر قصة زكريا توطئة وتمهيدًا لذكر قصة مريم، فإنه وإن كان إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تلد في حال شبابها أمرًا عجيبًا، فإن إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر أشد عجبًا، وأدل على قدرة الله تعالى.

ولهذا يذكر عيسى ابن مريم في القرآن الكريم- غالبًا- منسوبًا لأمه؛ للتنبيه على هذا الأمر.

قوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي: حفظته وصانته من الفواحش، وهي مريم عليها السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أرسل إليها عز وجل جبريل الروح الأمين، فنفخ عليه السلام في جيب قميصها ودرع جيبها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ عيسى عليه السلام ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عبرة وعظة وعلامة ودلالة على كمال وتمام قدرة الله تعالى للعالمين من الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: آية على أنه عز وجل على كل شيء قدير؛

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٦٥.

كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة نبي الله تعالى أيوب عليه السلام وما ابتلاه الله به من الضر، وعظم صبره، وابتهاله وتضرعه إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأيوب عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾.

٣- أن الذي يجب أن ترفع إليه الشكوى ويطلب منه كشف البلوى، هو الله تعالى وحده؛ لقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، وفي هذا تظهر حقيقة التوحيد.

٤- جواز ذكر المبتلى ما ابتلي به؛ إظهارًا لشدة فقره وحاجته وفاقته إلى ربه، لا جزعًا وسخطًا مما قدر الله.

٥- إثبات أن الله عز وجل هو أرحم الراحمين، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي؛ لقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾.

٦- في ثنائه عليه السلام على ربه تعريض بشدة حاجته إليه، وغنية عن التصريح بذكر حاجته.

٧- إن من أسباب إجابة السؤال الثناء على المسؤول؛ ولهذا قدم في سورة الفاتحة حمد الله، والثناء عليه، وتمجيده على سؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم. وهذا أدب قرآني ينبغي أن يحتذى.

٨- استجابته عز وجل لأيوب عليه السلام، وإزالته ما به من ضر بسبب صبره ودعائه وتضرعه إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾.

٩- تعويض الله تعالى أيوب ما فقده من أهل ومثلهم معهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

١٠- رحمته عز وجل لأيوب رحمة خاصة من عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

١١- تذكير المؤمنين العابدين بما جرى لأيوب عليه السلام من الابتلاء العظيم، وما قابل به ذلك من التسليم والرضا، والصبر الجميل، والابتهال والدعاء، ورفع الشكوى إلى الله وحده الذي يسمع النجوى، ويكشف الضر والبلوى؛ ليعلموا أن أشد الناس بلاء الرسل والأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، وليتأسوا به عليه السلام عند الابتلاء بالصبر والتسليم والرضا، وصدق الابتهال والدعاء أو اللجأ إلى ربه جل وعلا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

١٢- أن العابدين هم الذين ينتفعون بالذكرى؛ لهذا خصهم بالذكر.

١٣- التذكير بإسماعيل وإدريس وذي الكفل، والثناء عليهم بكونهم من الصابرين، وما من الله به عليهم من النبوة وإدخالهم في رحمته لأنهم من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾.

١٤- الترغيب في الصلاح واللحاق بالصالحين، والتخلق بأخلاقهم.

١٥- التذكير بقصة ذي النون «يونس» عليه السلام، ومغاضبته لقومه لما لم يؤمنوا، واستعجاله وعدم صبره وخروجه من بينهم، وما جرى له من الابتلاء بسبب ذلك؛ لقوله تعالى:﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ الآية.

١٦- ظنه عليه السلام أن الله لن يقدر ويضيق عليه بجعله من المدحضين لما ساهم في السفينة، وبالتقام الحوت له؛ لقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

١٧- نداؤه عليه السلام ربه، واستغاثته به بعد أن أحاطت به الظلمات، وتوسله بوحدانيته عز وجل، وتنزيهه له، واعترافه بظلمه، وتوبته؛ ودعاؤه بتلك الدعوات العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٨- إثبات أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

١٩- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن الشريك والولد، وعن مشابهة المخلوقين، ونحو ذلك؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾.

٢٠- أن مغاضبة يونس عليه السلام لقومه، وخروجه من بينهم ظلم اعترف به،

وليم عليه؛ كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]؛ ولهذا قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨].

٢١- أن العبد إذا اعترف بالذنب ثم تاب، تاب الله عليه؛ كما قال ﷺ(١).

٢٢- أن الأنبياء غير معصومين من الوقوع في بعض الصغائر، لكنهم لا يقرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها.

٢٣- استجابة الله عز وجل ليونس عليه السلام، وقبول توبته مما فرط منه، وإنجاؤه من الغم، والامتنان عليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

٢٤- وعد الله تعالى للمؤمنين بإنجائهم من الغموم والكروب- إذا دعوه وتضرعوا إليه- كما أنجى يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي هذا بشارة للصحابة بأن الله سينجيهم من أذى المشركين.

٢٥- التذكير بزكريا عليه السلام؛ إذ نادى ربه ودعاه بألا يتركه فردًا، وأن يرزقه ولدًا يرث النبوة من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾.

٢٦- سمو أهداف الأنبياء عليهم السلام، فزكريا عليه السلام لم يسأل الولد ليتكثر به من قلة، ولا ليتقوى به من ضعف، وإنما ليطمئن على استمرار النبوة، وبقاء الدعوة.

٢٧- أن الله عز وجل هو خير الوارثين للأرض وما عليها؛ لقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

٢٨- استجابته عز وجل لزكريا، وهبته له «يحيى»، وإصلاح زوجه له، فولدت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤١، ومسلم في فضائل الصحابة -فضل عائشة رضي الله عنها ٢٤٨٨، وأبو داود في النكاح ٢١٣٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٧٠، وأحمد ٦/ ١٩٤ -من حديث عائشة رضي الله عنها.

بعد أن كانت عقيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

٢٩- ثناء الله عز وجل على زكريا وابنه يحيى وزوجه بمسارعتهم إلى الخيرات، ودعائهم إياه رغبة ورهبة، وخشوعهم له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

٣٠- الترغيب في المسارعة إلى الخيرات، ودعائه عز وجل رغبة ورجاء في ثوابه، ورهبة وخوفًا من عقابه، والخشوع له، والتذلل والخضوع.

٣١- ثناء الله عز وجل على مريم عليها السلام، وامتداحه إياها بإحصان فرجها وحفظه من الفواحش مع أنها لم تتزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

٣٢- قدرة الله تعالى التامة في إيجاد عيسى عليه السلام من مريم من غير أب، بنفخه عز وجل فيها من روحه، وجعلها وابنها آية للعالمين على كمال قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة، والأمة: الملة؛ كما في قول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: إنا وجدنا آباءنا على ملة.

والمعنى: إن هذه ملتكم- أيها الأنبياء- ملة واحدة، هي العبودية لله تعالى لا شريك له، وتوحيده، ودينكم الإسلام، لا دين لكم سواه.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾، أي: وأنا ربكم وحدي، لا رب لكم غيري؛ ولهذا قال: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾، أي: فاعبدوني دون سواي، وأخلصوا لي العبادة، وتذللوا واخضعوا لي دون غيري؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ – ٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**الأنبياء إخوة من علات؛**

وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد»(١).

أي: أن شرائعنا مختلفة؛ كما قال عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وديننا واحد، وهو التوحيد، عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي: أعرض أقوام الرسل عن التوحيد الذي جاءتهم به رسلهم، وتقطعوا أمرهم بينهم، واختلفوا في دينهم فتفرقوا شيعًا وأحزابًا، كل يدعي أنه على الحق دون غيره؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾، أي: كل أولئك الأمم والأحزاب إلينا راجعون يوم القيامة، فنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن يعمل الأعمال الصالحات بجوارحه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه مؤمن، أي: مصدق بقلبه.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلا جحود لعمله، بل هو مشكور على عمله، سيثاب ويجازى عليه أحسن الجزاء، ويضاعف له الثواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف**»(٢).

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾، أي: وإنا لعمله وسعيه كاتبون، فلا يضيع منه شيء؛ كما

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٦٥.

(٢) سبق تخريجه.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٩٧﴾.

قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: بكسر الحاء وإسكان الراء من غير ألف: «وَحِرْمٌ»، وقرأ الباقون بفتح الحاء والراء وألف بعدها: ﴿وَحَرَامٌ﴾.

والتحريم يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا، والمراد به هنا: التحريم الكوني، أي: ممتنع على أي قرية أهلكناها، من القرى المكذبة للرسل، أنهم لا يرجعون إلينا بالبعث، بل لا بد من رجوعهم إلينا؛ لنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم.

ويؤكد هذا المعنى قوله قبل هذا: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۝٩٣﴾ [الأنبياء: ٩٣]، فيكون إثباتًا للبعث لنفي ضده.

وقيل: المعنى: أنهم لا يرجعون عن الكفر، وتكون «لا»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وحرام على قرية أردنا إهلاكها أنهم يرجعون عن الكفر ويتوبون منه.

وقيل: المعنى: أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة؛ ليستدركوا ما فرط منهم.

والأظهر القول الأول.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، أي: إذا فتح السد الذي بينهم وبين الناس، الذي بناه ذو القرنين.

وهما أمتان من بني آدم؛ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ أن الله يقول: «**يا آدم، فيقول: لبيك، فيقول: ابعث بعث النار من ذريتك. فيقول: وما بعث**

النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فحينئذٍ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»(١).

قال ابن كثير(٢): «بل هم من نسل نوح أيضًا، من أولاد يافث أبي الترك، والترك شرذمة منهم، تُركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين».

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾، أي: مرتفع من الأرض، ﴿يَنسِلُونَ﴾، أي: يأتون ويسرعون المشي للفساد.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل... الحديث، وفيه ذكر خبر الدجال وما يجري منه، ثم ذكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، إلى أن قال: «**فبينا هم كذلك؛ إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا من عبادي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون**»... إلى أن قال: «**فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَف في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى، كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض شبرًا إلا وقد ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله**»(٣).

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ «اقترب» أبلغ من «قرب»، ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يوم القيامة، أي: فإذا وجدت هذه العلامات والأهوال: من نزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وغير ذلك، اقترب الوعد الحق، أي: القيامة والبعث؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن ٢٩٣٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٣٢١، والترمذي في الفتن ٢٢٤٠، وأحمد ٤/ ١٨١، ١٨٢.

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا، أي: مفتوحة لا تكاد تطرف من شدة ما تشاهد من الأهوال العظام.

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾، أي: يا حسرتنا! ويا هلاكنا!

﴿قَدْ كُنَّا﴾، أي: في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: في غفلة من هذا الأمر الذي توعدنا به، ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: كنا في غفلة عن هذا الأمر، وكنا ظالمين بسبب غفلتنا وإعراضنا وكفرنا وشركنا.

وقيل: «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: ما كنا في غفلة من هذا؛ لأننا قد وعينا وحذرنا وأنذرنا، بل كنا ظالمين بمكابرتنا وإعراضنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «إن»: حرف توكيد، و«ما»: موصولة، أي: إنكم والذي تعبدون غير الله، والخطاب للمشركين من أهل مكة وغيرهم.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: وقود جهنم وحطبها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، أي: أنتم ومعبوداتكم من دون الله لجهنم واردون، أي: داخلون فيها.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ﴾، أي: لو كان هؤلاء الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دون الله آلهة صحيحة حقًّا ما وردوا النار وما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: وكل من العابدين ومعبوداتهم في جهنم خالدون.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: لهم في جهنم ﴿زَفِيرٌ﴾، أي: يعانون مشقة شديدة في إخراج النفس من بين الضلوع؛ لشدة ما هم فيه من عذابها.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لما في آذانهم من الصمم والوقر؛ كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١].

وفي هذا إبطال لتأليههم لهذه الأصنام، وبيان لكذبهم، وإذلال لهم ولآلهتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

لما توعد المشركين بكونهم وقود جهنم هم وما يعبدون من دون الله، وورودهم لها وخلودهم فيها، أتبع ذلك ببيان أن الذين سبقت لهم منه الحسنى مبعدون عنها كل البعد، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال المشركون: فالملائكة وعيسى والعزير يُعبدون من دون الله! قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(١).

وسواء صح هذا أو لم يصح فإن الآية نزلت خطابًا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جمادات لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريعًا وتوبيخًا لعابديها، فلا يرد على هذا من عبد الملائكة أو عبد المسيح والعزير ونحوهم ممن لهم عمل صالح، ولم يرض بعبادة من عبده.

وأيضًا: فإن «ما» لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، أي: إن الذين سبقت وقدرت في الأزل قبل وجودهم لهم منا الحسنى، أي: المنزلة الحسنى، بالتوفيق للإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح، والمثوبة الحسنى والجنة؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٨٤- ٣٨٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾، أي: أولئك عن جهنم مبعدون غاية البعد، وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تنويهًا بهم، ورفعة لمنزلتهم.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ تأكيد لمعنى «مبعدون»، أي: فهم من شدة بعدهم عنها لا يسمعون حسيسها، أي: لا يسمعون حريقها في الأجساد وأصواتها، فيفزعهم ذلك.

﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ الواو: حالية، و«ما»: موصولة، أي: وهم في الذي اشتهته وتشوقت إليه أنفسهم والتذت به من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر وغير ذلك.

﴿خَٰلِدُونَ﴾ مقيمون إقامة أبدية، لا يموتون ولا يخرجون منها، ولا يفنى نعيمهم.

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾، أي: لا يحزنهم ولا يزعجهم الفزع والخوف الأعظم يوم القيامة، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الأخرى للبعث، وخروج الناس عن قبورهم وحشرهم إلى الموقف؛ كما قال: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النمل: ٨٧].

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إذا خرجوا من قبورهم، تبشرهم وتقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ بمجيئه، وتوعدون فيه بالجزاء العظيم، والثواب الجزيل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتأكيد أن ملة الرسل كلهم ملة واحدة، هي: التوحيد وعبادة الله تعالى وحده، ودينهم الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

٢- أن رب الخلق كلهم هو الله عز وجل، لا رب لهم غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾.

٣- الاستدلال بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

٤- تفرق الأمم واختلافهم على رسلهم، وإعراضهم عما دعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

٥- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، ومحاسبته ومجازاته إياهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾.

٦- أن من عمل الأعمال الصالحات بجوارحه، وهو مؤمن ومصدق بقلبه، يجازى على عمله ويشكر، ولا يكفر سعيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين العمل بالجوارح والإيمان بالقلب، ولا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٨- كتابة أعمال العباد وضبطها وإحصاؤها، وعدم ضياع شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

٩- لا محالة ولا بد من رجوع أي قرية أهلكها الله في الدنيا لموافاة الحساب والجزاء يوم القيامة كسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾.

١٠- فتح سد يأجوج ومأجوج، وذلك من علامات الساعة، وسرعة انتشارهم، وفسادهم في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾.

١١- اقتراب الوعد الحق بالبعث والقيامة بعد خروج يأجوج ومأجوج، وتتابع علامات الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ﴾.

١٢- شخوص أبصار الذين كفروا من شدة أهوال القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٣- دعاؤهم بالويل والثبور، وندمهم على غفلتهم، واعترافهم على أنفسهم بالظلم؛ لقولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

١٤- الوعيد والتهديد للمشركين وما يعبدون من دون الله؛ بأنهم وقود جهنم وواردون لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾.

١٥- إبطال زعم المشركين إلهية الأصنام التي يعبدونها من دون الله؛ لأنهم لو كانوا

آلهة لما وردوا النار، ولدافعوا عن أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾.

١٦- خلود المشركين ومعبوداتهم من دون الله في جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٧- معاناة المشركين في جهنم مشقة شديدة في الزفير وإخراج النفس؛ لشدة عذابها، وصممهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

١٨- إبعاد من كتب الله لهم الحسنى والسعادة غاية البعد عن جهنم، فلا يرونها فتروعهم، ولا يسمعون حسيسها وصوتها فيزعجهم ويؤذيهم ويقلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

١٩- عظم ما أعد الله للمؤمنين بالله ورسله من النعيم الحسي مما تشتهيه أنفسهم، ومن النعيم المعنوي من أمنهم من الفزع الأكبر، وتلقي الملائكة لهم بالبشارة بما وعدوا به يوم القيامة من الأجر والثواب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

٢٠- خلود أهل الجنة فيما هم فيه من النعيم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

٢١- إثبات القدر، وأن الله عز وجل قدر ما الخلق عاملون، وما هم صائرون إليه في الأزل قبل خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

٢٢- إثبات وجود الملائكة، وأن من أعمالهم بشارة المؤمنين، وتهنئتهم، والترحيب بهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾ قرأ أبو جعفر: «تُطْوَى السَّمَاءُ» بالتاء مضمومة على التأنيث، وفتح الواو، ورفع السماء.

وقرأ الباقون بالنون مفتوحة، وكسر الواو، ونصب السماء: ﴿نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾.

كما قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم: ﴿لِلْكُتُبِۚ﴾ بضم الكاف والتاء من غير ألف على الجمع.

وقرأ الباقون: «لِلْكِتَابِ» بكسر الكاف وفتح التاء مع الألف على الإفراد.

أي: إن ما سبق من الوعيد والوعد كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾.

و«السجل»: الصحيفة والورق المكتوب فيه، أي: يوم نطوي السماء كطي الصحيفة، أي: كما تطوى الصحيفة والورقة على ما كتب فيها.

وفي هذا من الدلالة على عظم قدرة الله تعالى ما لا يخفى، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**يقبض الله الأرض يوم**

القيامة، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(٢).

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ استدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، أي: كما بدأنا الخلق أول مرة نعيده مرة أخرى، أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا له.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ «وعدًا»: مفعول مطلق منصوب، أي: وعدًا علينا حقًّا كائنًا لا محالة.

﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ «إن»: حرف توكيد، أي: إنا فاعلين لما وعدنا به؛ لكمال قدرتنا على ذلك، فهو كائن لا محالة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «**إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ:** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» وذكر تمام الحديث(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ «الزبور»: جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام؛ كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾ [النحل: ٤٣ – ٤٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ المراد بالذكر هنا: الكتاب الأول: «اللوح المحفوظ»، «أم

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٨٢، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٧، وابن ماجه في المقدمة ١٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٦٠، والنسائي في الجنائز ٢٠٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٣.

الكتاب».

قال ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**»(١).

أي: كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء من بعد أن كتبنا في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فهم المستحقون لخلافة الأرض في الدنيا، وهم الوارثون لأرض الجنة في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

وأخص من يوصف بالعبودية لله تعالى والصلاح هي هذه الأمة، ونبيها الكريم محمد ﷺ؛ ولهذا ذهب ابن عباس رضي الله عنهما وبعض المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: أمة محمد ﷺ.

قال ابن القيم: «والأرض: الدنيا. وعباده الصالحون: أمة محمد ﷺ. هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ؛ فإنه أخبر بذلك وأهل مكة كفار، وأعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم، وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول: أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله»(٢).

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**وزويت لي الأرض،**

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ٣١٩٢، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٩٦.

فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه: أن تورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون»(٢).

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ القرآن الكريم الذي أنزلناه على محمد ﷺ.

﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ «البلاغ»: الكفاية والغنية والوصول إلى الغاية والمبتغى؛ كما في حديث الأقرع والأبرص والأعمى، يقول الملك لكل واحد منهم: «**لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك ناقة أو بقرة أو شاة أتبلغ بها في سفري...**» (٣)، أي: أستعين بها وأصل بها في سفري إلى بلدي.

ومعنى: ﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾، أي: لكفاية وغنية ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ لله تعالى، يبلغون ويصلون به إلى مبتغاهم من معرفة الله عز وجل وما يجب له، والوصول إلى مرضاته وإلى دار كرامته.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ «إلا» أداة حصر، و«رحمة» مفعول لأجله، أي: وما أرسلناك إلا لأجل رحمة العالمين، أي: وما أنت إلا رحمة عامة للعالمين كلهم؛ إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، ورحمة خاصة لمن آمن منهم بك واتبعك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: «**لم أبعث لعانًا، إنما بعثت رحمة**»(٤).

فهو رحمة خاصة لمن آمن به واتبعه؛ لأن ما جاء من الوحي على لسانه ﷺ هو سبب سعادتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وهو رحمة عامة للعالمين، رفع الله برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، كما في حديث ثوبان رضي الله عنه، قال ﷺ: «**وسألت ربي لأمتي ألا يهلكهم بسنة بعامة**»...

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن، ذكر الفتنة ودلالتها ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢٦١٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٤٣٤.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في البر، النهي عن لعن الدواب ٢٥٩٩.

الحديث(١).

وهو رحمة عامة للعالمين، بما جاء به من الشرع العدل المستقيم، الذي به العدل بينهم، وإنصاف بعضهم من بعض، فعاش في كنف شريعة الإسلام الغراء المعاهدون، وأمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومنع من الاعتداء حتى على غير المسلمين، ولم ينه عن البر بهم والقسط إليهم ما لم يكونوا محاربين للمسلمين في دينهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].

وشرع الإحسان إلى كل ذات كبد رطبة من إنسان أو حيوان، قال ﷺ: «**في كل كبد رطبة أجر**»(٢).

بل حقن دماء المنافقين، وحفظ أموالهم، وصان أعراضهم، وأجرى عليهم أحكام المسلمين، بما أظهروا من الإسلام، مع أنهم أشد أعداء الإسلام!

فهو رحمة عامة للعالمين، فمن قبلها انتفع بها في دينه ودنياه وأخراه، ومن ردها لم يخرجها رده لها عن كونها رحمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، أي: قل للمشركين وللناس عامة: إنما يوحى إلي من ربي.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ «أنما»: أداة حصر، أي: ما إلهكم ومعبودكم إلا إله ومعبود واحد، هو الله وحده لا شريك له.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة ٢٣٦٣، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«هل»: للاستفهام ومعناه: الأمر والتحضيض، أي: فهل أنتم مستسلمون منقادون لما يوحى إليَّ من وجوب توحيد الله؟ أي: أسلموا وانقادوا واعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من توحيد الله تعالى بقلوبهم وجوارحهم.

﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾، أي: أعلمتكم ما أمرت به.

﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، أي: أنا وأنتم مستوون في العلم بذلك، وأنا بريء منكم وأنتم بريئون مني؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١].

وأيضًا: آذنتكم وحذرتكم من العقاب الواقع بكم لا محالة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«أم»: عاطفة، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: وما أدري أقريب أو بعيد وعدكم، أو الذي تُوُعِّدتم به من العذاب، لكنه لا بد واقع بكم.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾، أي: إن الله عز وجل يعلم ما تجهرون به من الأقوال، ويعلم الذي تكتمونه وتسرونه من المضمرات أنتم وجميع الخلق، وسيحاسبكم جميعًا على ذلك ويجازيكم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ «إن»: نافية، أي: وما أدري لعل تأخير العذاب الذي تستعجلونه.

﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾، أي: ابتلاء واستدراج لكم.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: وتمتيع لكم، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ في الدنيا، أي: إلى أجل مسمى؛ لتزدادوا إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ قرأ عاصم: ﴿قَٰلَ﴾ بالألف على الخبر، وقرأ الباقون: «قُلْ» من غير ألف على الأمر.

وقرأ أبو جعفر: «رَبُّ» بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿رَبِّ﴾.

أي: قال: يا رب ﴿ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ الباء للملابسة، أي: يا رب افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالقضاء الحق؛ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فاستجاب الله دعاءه، فحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة بما أوقعه بالكفار في بدر.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: المستعان به على الذي تصفون، أي: على الذي تقولون وتفترون من الكذب على الله عز وجل وعلى دينه ورسله.

الفوائد والأحكام:

١- طيُّ الله عز وجل السموات يوم القيامة بيمينه؛ كما تطوى الصحيفة على ما كتب فيها، وإثبات عظمته، وكمال قدرته، وتمام قوته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾.

٢- الاستدلال بالنظير على النظير، أي: الاستدلال ببدء الخلق أول مرة على قدرته عز وجل على إعادته مرة أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾.

٣- صدق وعده عز وجل في إعادة الخلق مرة أخرى؛ لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وأن ذلك كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

٤- حكم الله عز وجل، وكتابته في كتبه المنزلة على رسله، وقبل ذلك في اللوح المحفوظ: أن الأرض يرثها عباده الصالحون، فهم المستحقون للخلافة عليها في الدنيا، وهم الوارثون لها في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾.

٥- إثبات القدر، وكتابة كل شيء مما يجري في هذا الكون في اللوح المحفوظ.

٦- تكريم الله تعالى لعباده الصالحين، بتوريثهم الأرض في الدنيا والآخرة، وفي هذا ترغيب في الصلاح.

٧- إثبات عبودية الصالحين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

٨- تعظيم شأن القرآن الكريم وما فيه من الهداية، وتأكيد أن فيه الكفاية والغنية

لقوم عابدين لله تعالى؛ لمعرفة الله عز وجل، وما يجب له، والوصول إلى مرضاته، وإلى دار كرامته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾.

٩- إثبات رسالة النبي ﷺ وعمومها، وأن الله إنما أرسله رحمة للعالمين عامة؛ لبيان ما فيه السعادة لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، في معاشهم ومعادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾.

١٠- الرد على من يسعون لتشويه صورته ﷺ، وتشويه ما جاء به من رسالة الإسلام والسلام.

١١- أنه ﷺ إنما جاء بما أوحاه الله تعالى إليه من إعلان وحدانية الله تعالى في الإلهية لجميع الخلق، والأمر بالاستسلام والانقياد، والحض على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨﴾.

١٢- التحذير من التولي والإعراض عما دعا إليه ﷺ من توحيد الله تعالى، والاستسلام والانقياد له، والوعيد والتهديد بالعقاب العاجل أو الآجل لمن تولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ﴾.

١٣- الرد على المستعجلين للعذاب، وبيان أنه ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري هل قريب أو بعيد ما يوعدون به من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

١٤- إثبات علم الله تعالى بما يجهر به الناس من القول وما يكتمونه؛ لإحاطة علمه عز وجل بكل شيء مما غاب أو ظهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠﴾.

١٥- أنه ﷺ لا يدري ما الحكمة في عدم معاجلة المكذبين بالعذاب، وأنه قد يكون ابتلاء واستدراجًا لهم ليزدادوا إثمًا فيزدادوا عقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾.

١٦- سؤاله ﷺ الحكم والفصل بينه وبين قومه بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾، ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

١٨- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

١٩- استعانته ﷺ بربه على ما يلقاه من المكذبين من قومه من الافتراء على الله تعالى وعلى دينه ورسله، وثقته بعون الله ونصره؛ لقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

٢٠- أن الذي ينبغي الاستعانة به في الملمات والشدائد في جميع الأمور، والذي بيده العون والنصر؛ هو الله تعالى وحده.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الحَجِّ

المقدمـــــة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الحج» بهذا الاسم؛ لأن الله ذكر فيها أمره إبراهيم عليه السلام أن يؤذن بالحج، وذكر فيها بعض أحكامه؛ قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧]، والآيات بعدها.

والحج إنما شرع في الآيات في سورة البقرة وآل عمران.

ب- مكان نزولها:

سورة الحج منها ما هو مكي، كأولها وآخرها، ويغلب عليها طابع السور المكية في تناولها لتوحيد الله تعالى، وإثبات الساعة ومشاهد القيامة والتخويف منها، وإنكار الشرك وذم أهله، وذكر آيات الله ودلائل قدرته ونعمه.

ومنها ما هو مدني، كالآيات في ذكر بعض أحكام الحج والنسك، والآيات في الإذن بالقتال، والأمر بالجهاد في سبيل الله، والوعد بنصر الله، ونحو ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، فعرفت أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: فهي أول آية نزلت في القتال»(١).

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا في يوم بدر»(٢).

وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «سورة نزلت بمكة سوى ثلاث آيات منها؛ فإنهن نزلن بالمدينة، وهن: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى تمام

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣٠٨٥)، والترمذي في تفسير سورة الحج (٣١٧١)، وأحمد (١/ ٢١٦)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وأخرجه الحاكم (١/ ٦٦)وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٣، ومسلم في التفسير، قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ﴾ ٣٠٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٣٥.

الآيات الثلاث»[١].

وقد روى مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن سورة الحج نزلت بالمدينة»[٢].

قال ابن تيمية: «سورة الحج فيها مكي ومدني»[٣].

وقال الزركشي: «سورة الحج مدنية، وفيها أربع آيات مكية، قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿عَقِيمٖ﴾»[٤].

وقد قيل: إنها كلها مكية. وقيل: كلها مدنية.

والأظهر أن منها ما هو مكي، وما هو مدني، وهو قول الجمهور.

جـ- فضلها:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[٥].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بخطاب الناس جميعًا وأمرهم بتقوى ربهم، وإثبات الساعة والقيامة، وبيان عظمتها وشدة أهوالها، والتخويف منها؛ للاستعداد لها، والذم لمن يجادل في الله بغير علم منكرًا قدرة الله تعالى على البعث، متبعًا كل شيطان مريد، يضله عن الحق ويهديه إلى عذاب السعير، وبيان تمام قدرته تعالى على البعث بالاستدلال بالخلق الأول، وبإحياء الأرض بعد موتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾.

٢- بيان أن من الناس من يجادل في الله وفي قدرته على البعث بلا علم، متكبرًا ساعيًا في الإضلال عن سبيل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾.

---

(١) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٠٩) (٦٦٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٧/ ١٤٤.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٧١.

(٤) «البرهان» ١/ ١٩٤.

(٥) سيأتي تخريجه.

٣- بيان أن من الناس صنفًا يعبد الله على حرف، سرعان ما ينقلب على وجهه إذا أصابته فتنة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

٤- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

٥- تخييب ظن من يظن أن الله لن ينصر رسوله ودينه، وامتنانه عز وجل بإنزال القرآن وبيانه، وأنه يهدي من يريد: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾.

٦- الإخبار بفصله عز وجل بين الأمم والطوائف يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾.

٧- سجود جميع المخلوقات وانقيادها لله تعالى سوى كثير من الناس: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾.

٨- تشبيه المؤمنين الذين يريدون نصر دين الله، والكافرين الذيم يريدون إطفاء نور الله بالخصمين، وبيان عاقبة كل منهما: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

٩- ذم المشركين الذين يصدون عن المسجد الحرام، الذي جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد، والوعيد لمن يريد فيه بإلحاد بظلم: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الحج: ٢٥].

١٠- التذكير بما امتن الله به على إبراهيم عليه السلام وعلى الناس كافة؛ إذ بوأه مكان البيت لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، والتأذين في الناس بالحج؛ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام

معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وتعظيم حرمات الله وشعائره، والإخلاص له، وذكر اسمه وتكبيره: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الآيات: ٢٦- ٣٧].

١١- دفاع الله تعالى عن الذين آمنوا، وإذنه لهم بالقتال لمن ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، ووعده لهم بالنصر: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

١٢- تسليته ﷺ وتثبيت قلبه بذكر تكذيب الأمم قبله لرسلهم وإهلاكهم: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

١٣- توبيخ المشركين والمكذبين وتقريعهم لما لم يؤمنوا بما يرون ويسمعون من آثار ما حل بالمكذبين قبلهم، وذمهم على استعجالهم بالعذاب، وبيان أن الله يملي ويمهل ولا يهمل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

١٤- بيان أن النبي ﷺ ما هو إلا نذير للناس بين النذارة والوعد لمن آمن به، والوعيد لمن كذبه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

١٥- بيان أنه ما أرسل الله عز وجل من رسول إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فتنة وابتلاء للظالمين، وتثبيتًا للمؤمنين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

١٦- فضيلة المهاجرين في سبيل الله، ووعد الله تعالى لهم بالرزق الحسن، وإدخالهم مدخلًا يرضونه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

١٧- وعد الله تعالى لمن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه بنصره: ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾.

١٨- بيان دلائل قدرة الله تعالى ونعمته على أنه الإله الحق: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

١٩- امتنانه عز وجل بأن جعل لكل أمة منسكًا هم ناسكوه، وتثبيته ﷺ في الدعوة: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

٢٠- ذم المشركين وتجهيلهم في عبادتهم من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا وما ليس لهم به علم: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

٢١- إنكار المشركين لآيات الله، وشدة عدائهم لمن يتلو عليهم آيات الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

٢٢- ضرب المثل لبيان ضعف ما يدعوه المشركون من دون الله، وأنهم لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، ضعف الطالب والمطلوب، وبيان أنهم ما قدروا الله حق قدره حين دعوا آلهة من دونه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

٢٣- بيان أنه عز وجل يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، والرد على من يزعمون أن الرسل لا يكونون من البشر: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

٢٤- إحاطة علم الله عز وجل بالخلائق، ورجوع الأمور إليه سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٥- ثم ختم عز وجل السورة بأمر المؤمنين بالركوع والسجود، وعبادته سبحانه وفعل الخير، والجهاد في الله حق جهاده، والتنويه باصطفائه إياهم، ورفع الحرج عنهم في الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به، و«ها» للتنبيه، وتصدير الخطاب بالنداء للعناية والاهتمام، والتعظيم والتنبيه لما بعده من الخبر والطلب.

و«الناس»: صفة لـ«أي»، أو بدل منها، أو عطف بيان، مشتق من «النوس» وهي الحركة.

أو من «الأنس»، أو من «الإيناس» وهي المشاهدة، أو من ذلك كله. والمراد بهم: البشر، بنو آدم عليه السلام.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

و«التقوى» في الأصل مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي الشوك بلبس النعلين؛ ويتقي البرد بالملابس، وهكذا.

والمعنى: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

﴿رَبَّكُمْ﴾ «الرب»: هو الخالق المالك المدبر، أي: اتقوا خالقكم ومالككم ومدبركم.

وفي اقتران الأمر بالتقوى باسم «الرب» ترغيب؛ لأن فيه تذكير الناس بنعمة ربوبيته عز وجل لهم؛ خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بسائر النعم؛ مما يوجب تقواه شكرًا له على نعمه.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ الجملة في موضع التعليل للأمر بالتقوى.

وهذا- والله أعلم- هو السبب في ربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وهو أن الإيمان بالقيامة وأهوالها واليوم الآخر من أعظم الحوافز على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

و«الزلزلة»: حركة الأرض واضطرابها الشديد، وما يحصل للنفوس من الفزع والرعب.

و«الساعة»: القيامة وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء على الأعمال، وسميت القيامة بالساعة؛ لأنها أكبر حدث، وآتية لا محالة، ومحددة الوقوع.

قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ١ – ٨].

وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤- ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ – ٦].

﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، أي: أمر كبير، وخطب جليل، وحادث فظيع، لا يقدره قدر عظمته، ولا يعلم كنه ذلك إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى، وذلك؛ لما فيه من الأهوال العظام والأخطار الجسام.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

بيان وتفسير لقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ «يوم» منصوب على الظرفية، أي: يوم تشاهدونها وما فيها من الأهوال.

﴿تَذْهَلُ﴾، أي: تغفل وتنشغل من شدة الهول، ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، أي: التي في حال الإرضاع قد ألقمت ثديها رضيعها، وهي أبلغ من «مرضع»، قال ابن القيم: «المرضع: من لها ولد ترضعه. والمرضعة: من ألقمت الثدي للرضيع. وعلى هذا فقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ من «مرضع» في هذا المقام؛ لأن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع، وأكد هذا بقوله: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ فعلم أن المراد بالمرضعة: التي ترضع بالفعل، لا بالقوة والتهيؤ، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة»(١).

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، أي: وتُسقط من شدة الفزع والهول كل ذات حمل حملها قبل تمامه.

﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾، أي: صاحبة حمل، وهي المرأة التي قد ظهر حملها وتحقق، وصلح للوضع كاملًا أو سقطًا.

فذهلت لشدة ذلك اليوم المرضعات قبل الفطام، وألقت ذوات الحمل حملها قبل التمام.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سَكْرَى» بفتح السين وإسكان الكاف من غير ألف في الموضعين، وقرأ الباقون: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ بضم السين وفتح الكاف وألف بعدها في الموضعين.

والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، أي: وترى الناس تحسبهم سكارى من الخمر من شدة ما هم فيه من الخوف والفزع والانزعاج واندهاش العقول؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤]، وذلك من شدة الاضطراب والحيرة والذهول.

﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم ليسوا بسكارى على التحقيق.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، أي: ولكن الذي أذهب عقولهم وأدهشهم خوفهم من عذاب الله؛ لأن عذاب الله شديد.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٠١.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف- أراه قال- : تسعمئة وتسعة وتسعين، فحينئذٍ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد،** ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: «**تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء، ينظر بعضهم إلى بعض! قال: «**يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

بعدما أخبر بعظم زلزلة الساعة، ووجوب الاستعداد لها، ذكر حال المنكرين لها.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الواو: استئنافية، أي: وبعض الناس وفريق منهم ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ «من»: موصولة، أي: الذي يجادل، أي: يخاصم في قدرة الله تعالى، فينكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ويكذب بالبعث.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بغير علم يعتمد عليه في جداله، بل بالباطل، وعلى جهل وتقليد أعمى لأئمة الضلال من أهل الكفر والأهواء والبدع؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾، أي: ويتبع في جداله وكفره وإنكاره البعث ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾ من شياطين الإنس والجن، ﴿مَّرِيدٍ﴾ متمرد خارج عن طاعة الله تعالى ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ الضمير يعود إلى ﴿شَيْطَٰنٍ﴾، أي: قضي وحكم على هذا الشيطان كونًا وقدرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، كيف الحشر ٦٥٢٧، ومسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٥٩، والنسائي في الجنائز ٢٠٨٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٦.

﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ الضمير في «أنه» ضمير الشأن، و«من»: اسم شرط جازم ﴿تَوَلَّاهُ﴾، أي: اتخذه وليًّا واتبعه وقلده من الناس.

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

أي: فأنه يضله عن الحق، ويبعده عنه في الدنيا، ويسلك به طريق الضلال والباطل.

﴿وَيَهْدِيهِ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إلى عذاب النار المستعرة المتوقدة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعول»، أي: النار المسعورة المتوقدة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾.

لما ذكر تعالى المكذب بالبعث، المنكر للمعاد، المجادل في ذلك بغير علم، ذكر الأدلة على قدرته التامة على ذلك، من بدئه للخلق الأول، وإحيائه الأرض بعد موتها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أعاد خطاب الناس للتأكيد والعناية والاهتمام.

﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾، أي: إن كنتم في شك من البعث، أي: من قدرة الله تعالى على بعث الناس وإخراجهم من قبورهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية، أي: فإنا أوجدناكم وأنشأناكم النشأة الأولى من تراب، وذلك بخلق أبيكم آدم عليه السلام.

ثم نقلناكم في مراحل خلقكم من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى تمام خلقكم وأطوار حياتكم.

وفي قدرتنا على هذا دليل على كمال قدرتنا على بعثكم، فكيف ترتابون فيه؟ وليس بعثكم وخلقكم ثانيًا بأصعب من خلقكم الأول؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ

هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢].

أي: أفلا تذكرون وتتعظون وتعلمون أن من أنشأكم من العدم قادر على إعادتكم خلقًا آخر بعد موتكم؟

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي مني الرجل، وهي الماء المهين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨]، وهي بداية التخليق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾، أي: ثم تتحول النطفة إلى علقة، وهي: قطعة من دم أحمر غليظ تعلق بالرحم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨].

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾، أي: تتحول العلقة إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة على قدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط.

﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة لـ﴿مُّضْغَةٍ﴾، ومعنى ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾، أي: مصورة ظاهر منها خلق الآدمي.

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي: غير ظاهر منها خلق آدمي، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، وهو السقط، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ- وهو الصادق المصدوق- قال: «**وإن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد**»(١).

وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «**يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقي أو**

---

(١) سبق تخريجه.

سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب، أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص»(١).

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نبين لكم، أي: نظهر لكم أصل نشأتكم، وعظيم قدرتنا في خلقكم أولًا، ولنظهر لكم كمال قدرتنا على بعثكم بعد الموت ثانيًا.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ «ما»: موصولة، أي: ونبقي في الأرحام الذي نشاء من الحمل.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت محدد، وهو مدة الحمل، أي: إلى وقت ولادته.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم طفلًا.

وأفرد «طفلًا»؛ لأن المراد به: الجنس، فهو بمنزلة الجمع، والطفل: يطلق على الولد من الانفصال إلى البلوغ.

وفي قوله: ﴿طِفْلًا﴾ إشارة إلى ضعفه في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وعقله وجميع قواه، ثم بلطفه عز وجل يحنن عليه والديه، ويعطيه القوة شيئًا فشيئًا، وينقله من طور إلى طور؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ كمال عقولكم وقواكم وعنفوان شبابكم؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، أي: ومنكم الذي يموت قبل بلوغ الأشُد؛ كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾، أي: ومنكم الذي يُرجع ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أي: إلى أردأ العمر، وهو سن الهرم والشيخوخة وضعف القوة وزوال العقل والتخريف.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ اللام: لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة ألا يعلم ولا يعقل ﴿مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ «من»: للتوكيد؛ ولهذا لم تذكر في آية سورة النحل: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ

---

(١) أخرجه مسلم في القدر، كيفية خلق الآدمي ٢٦٤٤.

عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

ومعنى ﴿مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، أي: من بعد ما كان يعلم أصبح لا يعلم شيئًا من الأشياء، ولا شيئًا من العلم.

فقوة ابن آدم محفوفة بضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الهرم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ هذا دليل آخر على قدرة الله تعالى على البعث، وإحياء الناس بعد موتهم، وهو إحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ الخطاب لكل من يصلح خطابه، أي: وتشاهد الأرض ﴿هَامِدَةً﴾، أي: ميتة يابسة قاحلة دارسة الآثار، لا نبات فيها ولا زرع.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾، أي: فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها.

﴿وَرَبَتْ﴾ قرأ أبو جعفر: «وَرَبَأَتْ» بهمزة مفتوحة بعد الباء، وقرأ الباقون: ﴿وَرَبَتْ﴾ بحذف الهمزة، أي: زادت وارتفعت وانتفخت.

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾، أي: وأنبتت من كل صنف من أصناف النبات.

﴿بَهِيجٍ﴾ حسن المنظر يَسرّ الناظرين.

عن لقيط بن عامر رضي الله عنه، أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به؟**» قلنا: بلى. قال: «**فالله أعظم**». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «**أما مررت بوادٍ أُهْلِكَ مَحْلًا؟**» قال: بلى. قال: «**ثم مررت به يهتز خَضِرًا؟**» قال: بلى. قال: «**فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آية الله في خلقه**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣١، وابن ماجه في المقدمة ١٨٠، وأحمد ٤/ ١١.

وفي رواية عنه رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «**أمررت بأرض من أرضك مجدبة، ثم مررت بها مخصبة؟**» قال: نعم. قال: «**كذلك النشور**»(١).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من خلق الإنسان من تراب وأطواره، وإحياء الأرض بعد موتها بالنبات، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك، فهذان دليلان قاطعان على هذه الخمسة المذكورة في الآية بقوله:

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أن الله هو الحق؛ ربًّا ومعبودًا، فهو الرب الحق، الخالق المالك المدبر، وهو الإله الحق، الذي تجب عبادته وحده، ولا تجوز العبادة لغيره، فعبادته حق، وعبادة غيره باطلة.

وقيل: الباء ليست للسببية، بل متعلقة بمحذوف يقتضيه المقام، والتقدير: ذلك المذكور شاهد بأن الله هو الحق.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ذلك بسبب أن الله هو الحق ربًّا ومعبودًا، وبسبب أنه يحيي الموتى، فيبعث الأجساد، ويعيد إليها الأرواح كما خلقكم بعد العدم من تراب، وكما أحيا الأرض الميتة فأخرج منها النبات.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أنه على كل شيء قدير، أي: لا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أن الساعة آتية لا ريب فيها، أي: واقعة وكائنة لا محالة، لا شك فيها ولا مرية.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، أي: وبسبب أن الله يبعث من في القبور، أي: يخرج الذي في القبور من الأجساد بعد أن كانت رميمًا، ويرد إليها الأرواح والحياة؛ كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١١.

يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

قال ابن القيم: «جعل الله إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة، وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور؛ كما أخرج النبات من الأرض»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾.

٢- عموم رسالة النبي ﷺ، وخطاب القرآن الكريم للناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٣- وجوب تقوى الرب عز وجل؛ لقأوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمۡۚ﴾.

٥- إثبات الساعة والقيامة، وأن زلزلتها وأهوالها وأخطارها شيء عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾.

٦- أن القيامة وما فيها من أهوال وحساب وجزاء من أعظم ما يحفز الناس على العمل؛ لتعليل الأمر بتقوى الرب بذكر زلزلة الساعة وعظم أمرها.

٧- عظم كرب ذلك اليوم على الناس، وفزعهم وقلقهم وذهولهم فيه، واندهاش عقولهم بسبب عظم أهواله وشدة عذاب الله تعالى، فالمرضعة تذهل عن رضيعها، وذات الحمل تضع حملها، والناس أشبه بالسكارى وما هم بسكارى؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٠٦.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

٨- أن عذاب الله شديد لا يطاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

٩- النعي على فريق من الناس، وذمهم من المكذبين من المشركين وغيرهم ممن يجادلون في وحدانية الله وفي قدرته على البعث وإحياء الموتى بغير علم، بل بجهل واتباع لأئمة الضلال من شياطين الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾.

١٠- التحذير من اتباع شياطين الإنس والجن ومردتهم؛ لأن من اتبعهم وتولاهم فإنهم يضلونه في الدنيا ويهدونه إلى النار في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

١١- إقامة الدليل والحجة على الناس على قدرة الله تعالى التامة على بعثهم، وإعادتهم أحياء بعد موتهم؛ بخلقهم الأول من التراب وأطواره، وإحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ الآية.

١٢- أن من أعظم دلائل قدرة الله تعالى على البعث والمعاد الخلق الأول، وإحياء الأرض بعد موتها.

١٣- أن أصل خلق الإنسان من التراب، ثم انتقل في أطوار خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن تم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

١٤- في التأمل في أطوار خلق الإنسان بخلق آدم من التراب، ثم خلق نسله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم إقراره في الرحم إلى أجل مسمى، ثم إخراجه من بطن أمه طفلًا إلى أن يبلغ أشده، ثم يكون شيخًا، فإما أن يتوفى أو يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم من بعد علم شيئًا، كل هذا يدل على عظمة الخالق عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعنايته بخلقه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

١٥- أن الإنسان خلق من ضعف، ثم أعطي من بعد ضعف قوة، ثم يعود إلى الضعف والشيبة والهرم والتخريف ثم الفناء، مما يوجب عليه أن يعرف قدر نفسه، فلا يطغى ولا يتجبر ولا يتكبر، قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

١٦- إحياء الله عز وجل الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، فتتحرك وترتفع وتنبت من أصناف النبات الحسن ما يسر الناظرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

١٧- أن في خلق الإنسان من التراب وأطوار خلقه، وفي إحياء الأرض بعد موتها وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ دلالةً قاطعة على أن الله عز وجل هو الحق ربًّا ومعبودًا، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة كائنة لا شك فيها، وأنه عز وجل يخرج من في القبور؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾:

ذكر في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ المجادلين بالجهل والتقليد والاتباع للشياطين ولأئمة الضلال، ثم ذكر في هذه الآية المجادلين بالجهل والباطل بمجرد الرأي والهوى من رؤساء الكفر ودعاة الضلال.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: وبعض الناس، أي: فريق من المكذبين من المشركين وغيرهم.

﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾، أي: الذي يجادل، أي: يخاصم ﴿فِى ٱللَّهِ﴾، أي: في وحدانية الله تعالى في إلهيته، وفي إحيائه عز وجل الموتى، وبعثه من في القبور، وقدرته تعالى على ذلك، مع وضوح الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بلا علم صحيح منه بما يجادله فيه.

﴿وَلَا هُدًى﴾ «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي في الموضعين، أي: ولا هدى يهديه ويسترشد به في جداله.

﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، أي: ولا كتاب نيِّر واضح، ينير ويبين له الحق من الكتب الشرعية.

قال ابن كثير[1]: «أي: بلا عقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى».

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ «الثني»: ليُّ الشيء، و«العطف»: العنق والجانب، أي: لاويًا عنقه استكبارًا عن الحق، وإعراضًا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٩٤.

ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يضل الناس ويبعدهم عن سبيل الله، أي: عن دين الله وشرعه وصراطه المستقيم.

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ﴾، أي: لهذا المجادل بالباطل في الدنيا ذل وهوان؛ لخسرانه الصفقة في مجادلته، وظهور الحق، وبطلان حجته، ومن هذا ما أصاب المشركين يوم بدر من القتل والأسر.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: عذاب النار المحرقة، و«فَعِيل» بمعنى «مُفْعِل».

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، أي: يقال له تقريعًا وتوبيخًا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ الآية.

والإشارة في «ذلك» تعود إلى ما ذكر من الخزي الدنيوي؛ وعذاب يوم القيامة بالحريق، أي: ذلك المذكور. وفي الإشارة إليهما بإشارة البعد «ذلك»: تعظيم وتهويل لهما، أي: ذلك الخزي الدنيوي العظيم، وعذاب يوم القيامة بالحريق الشديد.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي ﴿قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، أي: بسبب الذي عملته وكسبته من الكفر والمجادلة بالباطل، والاستكبار والإعراض عن الحق، والسعي لإضلال الناس عن سبيل الله.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الجملة معطوفة على «ما» الموصولة، فهي في محل جر.

أي: ذلك الخزي والعذاب بسبب الذي قدمت يداك، وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، بل يجازي كلًّا بعمله، من غير زيادة في سيئاتهم، ولا نقص من حسناتهم، ولا تعذيب أحد منهم بغير ذنب، أو بذنب غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا، ونتجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء»(١).

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ «حرف الشيء»: طرفه وجانبه، ومنه حرف الجبل، أي: طرفه، أي: ومن الناس من دخل في الدين على طرف، أي: على ضعف وشك وتردد. و«من»: تبعيضية، أي: وبعض الناس.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ من صحة وسعة رزق في نفسه وأهله وماله، أي: حصل له ما يحبه.

﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾، أي: استقر وسكن في مكانه، أي: استمر على الإيمان وعبادة الله، فرحًا بالخير الذي أصابه.

﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾، أي: ابتلاء بمكروه وشدة، وهو مقابل الخير.

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، أي: انكب على وجهه وارتد ورجع إلى ما كان عليه من الكفر، كمن يمشي على حرف الجبل وجانبه، وانكب على وجهه، وسقط إلى أسفله.

قال ابن زيد(٢): «هذا المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، وإن أصابته شدة أو فتنة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر».

وعن جابر رضي الله عنه: أن أعرابيًّا أسلم وبايع النبي ﷺ، فأصابه وعك بالمدينة، فجاء إلى النبي ﷺ يستقيله بيعته، فأبى أن يقيله، فخرج من المدينة، فقال النبي ﷺ: «**المدينة كالكير: تنفي خبثها، وينصع طيبها**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٤٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٨٣)، والنسائي في البيعة (٤١٨٥)، والترمذي في المناقب (٣٩٢٠).

فهذه حال من لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه، وإنما دخل فيه إما خوفًا، أو عادة على وجه لا يثبت عند المحن.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ فلم يحصل فيهما على خير، ففي الدنيا خاب مسعاه بردته وعوده في الكفر، ولم يحصل له منها إلا ما قسم له، وفي الآخرة خسر الجنة بسبب كفره، واستحق النار والعذاب الأليم.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البين الواضح، الذي لا خسران أبين منه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: ١٥].

فالخسارة العظمى والمصيبة الكبرى هي: الخسارة في الدين، التي لا تعدلها ولا تشبهها خسارة، ولا جبران لها، وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبرانُ(١)

﴿يَدْعُواْ﴾، أي: يدعو هذا العابد الله على حرف ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي لا يضره والذي لا ينفعه، عبده أو لم يعبده، أي: يدعو من دون الله آلهة لا تستطيع ضره ولا نفعه؛ لأن كل ما عبد من دون الله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وإنما المالك لذلك كله هو الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ [المائدة: ٧٦].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ الإشارة تعود إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع، و«الضلال»: التيه عن طريق الحق، وعن طريق القصد، قال الشاعر:

ألم تسأل فتخبرك الديار ... عن الحي المضلل أين ساروا؟(٢)

﴿ٱلْبَعِيدُ﴾، أي: البعيد كل البعد عن الطريق الحق، وأي ضلال أبعد من ضلال من عدل عن عبادة الله تعالى الذي بيده الأمر والنفع والضر، إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر؟!

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص٨٠).

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «خزانة الأدب» (٨/ ٥٢٦)، «الدر المصون» (١/ ٧٦).

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ اللام: لام الابتداء، و«من»: موصولة، أي: يدعو ويعبد الذي ﴿ضَرُّهُۥٓ﴾، أي: ضر عبادته ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾.

فنفى أولًا ضره ونفعه بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ لأنه جماد لا يستطيع الضر ولا النفع، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ لأن مآل عبادته الضر لا النفع؛ لأن عبادته شرك بالله يوجب لصاحبه النار.

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أو لام التوكيد، أي: لبئس هذا المعبود ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾، أي: الولي والناصر، من لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، بل ضره أقرب من نفعه.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾، أي: ولبئس المعاشر المخالط، والقرين والملازم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- ذم فريق من الناس من المكذبين من المشركين وغيرهم يجادلون ويخاصمون في وحدانية الله تعالى، وفي قدرته على البعث، وإحياء من في القبور، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، بل بالباطل وبمجرد الرأي والهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

٢- أن المجادلة بالعلم والهدى وأدلة الشرع لبيان الحق أمر جائز بل مشروع؛ لمفهوم الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣- ذم هذا الفريق بالاستكبار، والإعراض عن الحق، والسعي لإضلال الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤- تهديدهم ووعيدهم بالخزي والإذلال في الدنيا، وبعذاب النار المحرق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

٥- إثبات القيامة، والدار الآخرة، والنار وحريقها.

٦- تقريع وتوبيخ من سلك هذا المسلك وعوقب بما ذكر؛ بأن هذا بسبب عمله وكسبه، وعلى نفسها جنت براقش؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾.

٧- تمام عدل الله تعالى في مجازاته الخلائق، وتنزيهه عن الظلم؛ لقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يزيد في سيئات أحد منهم، ولا ينقص من حسناته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: ١٧].

٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لعبيده.

٩- ذم فريق من الناس يعبد الله على حرف، أي: على ضعف وشك وتردد، فإن أصابه خير اطمأن به واستقر على دينه، وإن ابتلي بمكروه ارتد ورجع إلى الكفر، وخسر دنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾.

١٠- أن الله يبتلي العباد بالشر والخير؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

١١- لا ينبغي أن يربط ما يبتلى به الإنسان من خير أو شر بأمر دينه، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب؛ كما جاء في الحديث(١)؛ كما أن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم(١).

١٢- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى خسارة الدين، فهي الكسر الذي لا ينجبر، والخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٣- يجب على المؤمن الثبات أمام الفتن والابتلاء، والشكر في السراء، والصبر في الضراء، وعدم الجزع، والحذر من ضعف الإيمان.

١٤- تسفيه المشرك وذمه لدعائه غير الله آلهة لا تضره ولا تنفعه، وبيان بلوغه الغاية في الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾.

١٥- أن ضر عبادة آلهة من دون الله أقرب من نفعها؛ لأن ذلك شرك موجب

---

(١) سبق تخريجه.

لدخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾.

١٦- أن المعبود من دون الله بئس المولى والناصر، وبئس القرين والمعاشر؛ لقوله تعالى:﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾:

لما ذكر أهل الضلال والشرك، وتوعدهم بالخزي والعذاب والخسران المبين، أتبع ذلك بالوعد بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات، يتمتعون بما فيها من الأنهار والنعيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، وحذف الموصوف وهو الأعمال؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لوجه الله تعالى، موافقًا لشرعه.

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى، تجري في غير أخدود، يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي: يفعل الذي يريده ويشاؤه، فيضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج: ١٦].

لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ

وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ «من»: شرطية، أي: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، كما وعد عز وجل بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وقيل: الضمير في قوله: ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ﴾ عام، أي: من ظن من المؤمنين أن الله لن ينصره؛ كما وعد عز وجل بقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: فليمدد بحبل إلى العلو يربطه في سقف بيته.

﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمرو وورش ورويس بكسر اللام: «ثُمَّ لِيَقْطَعْ»، وقرأ الباقون بإسكانها، أي: ثم ليقطع الحبل ليختنق، أو ليقطع نَفَسَه ويموت انتحارًا وقهرًا؛ لأن نصر الله لرسوله وللمؤمنين أمر محقق، وهكذا وقع، نصر الله رسوله والمؤمنين، وأرغم أنوف أعدائهم من الكفرة والمشركين والمنافقين، ووعدُه بنصر أوليائه باقٍ إلى يوم الدين.

وقيل: المعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء، ليقطع عنه ما يأتيه من الوحي، والنصر من السماء(١).

وقيل: ليقطع ما عنده من الشك بالخبر اليقين من السماء.

قال ابن كثير(٢): «وقول ابن عباس وأصحابه- يعني: القول الأول- أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فيقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة».

﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كَيۡدُهُۥ﴾، أي: ما يكيد به للرسول ﷺ لإبطال دينه ومحاربته، وما يعمله من الأسباب لذلك.

﴿مَا يَغِيظُ﴾ «ما» موصولة، أي: الشيء الذي يغيظه، أي: فلينظر هل يذهب كيده، ويشفى الشيء الذي يجد في صدره من الغيظ والغضب الشديد بسبب نصرة الله تعالى

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٦/ ٤٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٣٩٧.

لرسوله وللمؤمنين؟

والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لن يذهب كيده ما في صدره من الغيظ؛ لأنه لا يستطيع إطفاء نور الله، ومنع نصره لرسوله والمؤمنين.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلنا القرآن العظيم ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: علامات ودلالات واضحات في ألفاظها ومعانيها وأحكامها؛ منة على العباد، وإقامة للحجة على الخلق.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾، أي: يوفق ﴿مَن يُرِيدُ﴾، أي: من يشاء، أي: يوفق بفضله الذي يريد ويشاء توفيقه من عباده؛ كما يضل بعدله من يشاء منهم، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم: أمة محمد ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وهم: اليهود، ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ وهم من لا دين لهم، أو عبدة الملائكة، أو الكواكب، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وهم: أتباع عيسى عليه السلام، ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ وهم: عباد النار، ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ وهم: عباد الأصنام والأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم، فيدخل من آمن منهم الجنة، ويدخل من كفر منهم النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لأنه على كل شيء شهيد، أي: مطلع على كل شيء، عالم به علم مشاهدة، يرى أفعالهم، ويسمع أقوالهم، ويعلم سرائرهم وما تكنه ضمائرهم.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ

وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تر وتعلم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ سجود عبادة وتذلل وخضوع، وسجود طاعة وانقياد.

﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: كل الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات والعوالم من الملائكة والإنس والجن، والحيوان والطير والجماد، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨ – ٥٠].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ هذا من عطف الخاص على العام، وفي التنصيص على هذه المخلوقات تأكيد لسجودها لله عز وجل؛ لأن منها ما عُبِدَ من دون الله كالشمس والقمر والنجوم وغيرها.

فبين عز وجل أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «**أتدري أين تذهب؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها،**

يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾»(١).

وقال ﷺ: «**إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له**»(٢).

وعن سهل بن معاذ، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «**اركبوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله تبارك وتعالى منه!**»(٣).

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، أي: ويسجد له عز وجل كثير من الناس طوعًا منهم واختيارًا، وتعبدًا لله عز وجل بذلك.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾، أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب، فلم يسجد لله طائعًا، ولم يؤمن بالله ورسله وشرعه، بل امتنع وأبى واستكبر.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾، أي: ومن يهنه الله ويذله بالكفر وترك السجود له.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط «من»، ﴿مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، و«مكرم»: نكرة في سياق النفي، فتعم أيضًا، أي: فما له من أيِّ مكرم يكرمه، وقد هان على ربه بترك السجود له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ «ما»: موصولة، أي: يفعل عز وجل الذي يشاؤه، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، يهدي من يشاء ويعزه بفضله، ويضل من يشاء ويذله بعدله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في بد الخلق، صفة الشمس والقمر بحسبان ٣١٩٩، ومسلم في الإيمان، الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ١٥٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، صلاة الكسوف ١١٧٧، والنسائي في الكسوف ١٤٨٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما جاء في الكسوف ١٢٦٢، وأحمد ٤/ ٢٦٧، ٢٦٩، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٩.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى الذي لا يتخلف بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات يتمتعون بما فيها من الأنهار والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾.

٢- جمع القرآن الكريم بين الوعيد والوعد، والترهيب والترغيب، فبعد أن توعد أهل الضلال والشرك بالخزي والعذاب والخسران، أتبع ذلك بالوعد بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات.

٣- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح.

٤- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٥- أن من أعظم نعيم الجنان التمتع بما فيها من الأنهار المختلفة.

٦- إثبات صفة الفعل، وصفة الإرادة والمشيئة لله تعالى، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

٧- نصر الله المحقق لرسوله ﷺ ودينه وأوليائه المؤمنين في الدنيا والآخرة، وتخييب من ظن خلاف ذلك؛ ليختنق ويموت قهرًا وغيظًا بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾الآية.

٨- أنه مهما كاد من يريد إبطال دين الله وعدم نصره لرسوله وللمؤمنين، فإن كيده لن يُذهب غيظه؛ لأن نصر الله لرسوله وللمؤمنين وعد محقق وكائن ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

وفي هذا تأييس لكل من يريد من الكافرين وغيرهم الكيد للإسلام وإطفاء نور الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

٩- الامتنان بإنزال القرآن آيات بينات في ألفاظها ومعانيها وأحكامها ودلالاتها؛ لإقامة الحجة وإيضاح المحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾.

١٠- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أي: أنزلنا هذا الكتاب العظيم الذي هو أعظم وأفضل كتب الله تعالى.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات وعلو القدر وعلو القهر.

١٢- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

١٣- أن الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ فيهدي من يريد ومن يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

١٤- أن من أراد الله تعالى وشاء هدايته، فلا سبيل إلى إضلاله؛ كما أن من أراد الله إضلاله فلا سبيل إلى هدايته.

١٥- فصل الله تعالى وحكمه وقضاؤه بين الأمم يوم القيامة، ومجازاتهم بأعمالهم، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٦- علم الله تعالى الواسع، واطلاعه وشهادته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

١٧- إثبات وتقرير سجود كل من في السموات ومن في الأرض من المخلوقات والعوالم من الملائكة والإنس والجن، والحيوان والطير والجماد، وسائر المخلوقات لله تعالى؛ سجود عبادة وتذلل وخضوع، وسجود طاعة وانقياد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

١٨- مشروعية السجود عند هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، قال ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»(١).

١٩- في تخصيص الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر بعد التعميم تأكيد سجودها لله تعالى، والرد على من عبدها أو بعضها، كالذين عبدوا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، بيان إطلاق الكفر على من ترك الصلاة ٨١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٥٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشمس والقمر والنجوم، وعبدوا الأشجار وبعض الدواب وغير ذلك.

٢٠- انقسام الناس خاصة من بين سائر المخلوقات إلى فريقين: فريق سجد لله تعالى طوعًا كسائر المخلوقات وآمن به، وفريق أبى وامتنع من السجود، فحق عليه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

٢١- عجب وأي عجب أن يضل كثير من الناس بترك السجود لله تعالى مع سجود جميع المخلوقات له عز وجل، ومع ما كرم الله به الإنسان على سائر المخلوقات من العقل وغير ذلك، فلله الحكمة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة.

٢٢- أن من أهانه الله وأذله وكتب عليه الشقاء فلا مكرم له ولا سبيل إلى إسعاده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

٢٣- أن العزيز من أعزه الله وأكرمه بطاعته، وأن الذليل من أهانه الله وأذله بمعصيته، وأن العز بطاعة الله تعالى، وأن الذل كل الذل بمعصية الله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾.

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أنه كان يقسم فيها قسمًا: أن هذه الآية نزلت في الذين بارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة(١).

وعن علي رضي الله عنه قال: «فينا نزلت هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾(٢).

وعن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة»(٣).

قوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾، أي: هذان فريقان، وهم المؤمنون، والكافرون؛ لقوله تعالى في ذكر جزائهم: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ الآية، وقوله:

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، قتل أبي جهل ٣٩٦٩، ومسلم في التفسير، قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ ٣٠٣٣، وابن ماجه في المبارزة والسلب ٢٨٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، قتل أبي جهل ٣٩٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ الآية.

وهذا القول عام يشمل جميع الأقوال، فلا ينافي ما جاء في حديث أبي ذر وعلي رضي الله عنهما: أنها نزلت في المبارزة، ولا ما قيل: إنها بين المسلمين وأهل الكتاب، بل ولا ما قيل: إنها بين الجنة والنار.

﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ فآمن به فريق وأطاعوه، وجاهدوا فيه وحاربوا أعداءه، وكفر به فريق، وخالفوا أمره وعصوه، وحاربوا أولياءه.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾، أي: فُصّلت وقدرت لهم ثياب من نار يلبسونها، تُشعل بهم؛ ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم.

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ ليشمل جميع أبدانهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، و«الحميم»: الماء المتناهي في الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: بالغ غاية الحرارة.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠﴾، أي: يذاب بهذا الحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم، ويسقونه.

﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ من الشحم واللحم والأمعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ۝١٥﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾، أي: وتصهر به وتذاب جلودهم.

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١﴾، أي: مطارق عظيمة من حديد، تقمعهم بها الملائكة الغلاظ الشداد وتضربهم بها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ «كلما» تفيد التكرار، أي: أنهم كلما أرادوا أو حاولوا الخروج منها لشدة ما هم فيه من العذاب والغم ومنع النفس والكرب.

قال الفضيل بن عياض: «والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل مقيدة، وإن الأيدي موثقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها!»(١).

﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، أي: في دركها وأسفلها.

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٥/ ٥٠٣.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: وقيل لهم تقريعًا وتوبيخًا، وإهانة لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: أحسوا بشدته وكابدوه، وتجرعوا آلامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

فيجمع لهم بين العذاب الحسي للأجساد بالحريق بالنار، والعذاب المعنوي بالتوبيخ والتقريع والإهانة لهم، الذي ينصب على القلوب فيحطم المعنويات، وهو لا يقل عن العذاب الحسي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدم الكلام عليه قريبًا، وفي ذكر هذا الوعد للمؤمنين بعد وعيد الكافرين جمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، أي: يحلون في الجنات، أي: يزينون ويلبسون فيها رجالهم ونساؤهم.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ «من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، أي: يحلون فيها أساور، و«الأساور»: جمع «سوار»، وهو ما تسور وتزين به الأيدي، وفي الحديث: «تبلغ الحلية من المؤمن كما يبلغ الوضوء»(١).

﴿مِن ذَهَبٍ﴾ «من»: لابتداء الغاية، أي: هذه الأساور من ذهب.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم ويعقوب بالنصب: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفًا على موضع ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أي: ويحلون لؤلؤًا، وقرأ الباقون بالجر: «وَلُؤْلُؤٍ» عطفًا على ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أو على ﴿مِن ذَهَبٍ﴾. و«اللؤلؤ»: الدر والجمان والجوهر.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، أي: ولباسهم في الجنات حرير. وهذا في مقابلة

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة، تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء ٢٥٠، والنسائي في الطهارة، حلية الوضوء ١٤٩، وأحمد ٢/ ٣٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله في أهل النار: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

أي: ولباس أهل الجنات فيها حرير؛ سندسه وإستبرقه؛ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

ولهذا قال ﷺ محذرًا من لبس الحرير في الدنيا للرجال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»(١).

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هذا في مقابل ما يقال لأهل النار: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

أي: أرشدهم الله ووفقهم إلى الطيب والحسن من القول، وألهمهم إياه، من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وإلى ما يكرمون به من التهنئة والسلام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢].

وقد جاء في الحديث أنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس(٢).

كما هدوا ووفقوا إلى القول الطيب والحسن في الدنيا؛ من النطق بالإيمان والشهادتين، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وتلاوة القرآن والذكر؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، لباس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه ٥٨٣٤، ومسلم في اللباس والزينة ٢٠٦٩، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٥- من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي الحديث: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**»(١).

وفي رواية: قال ﷺ: «**أربع أفضل الكلام، لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٢).

وقال ﷺ: «**ألا إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات**»(٣).

وقال ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»(٤).

﴿وَهُدُوٓاْ﴾، أي: أرشدوا ووفقوا، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، أي: إلى دينه القويم وصراطه المستقيم الموصل إليه عز وجل وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى جنته.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

و«الحميد»: اسم من أسمائه عز وجل، أي: المحمود سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته، في خلقه وقدره وشرعه، في أقواله وأفعاله، وفي كل شيء؛ كما أنه سبحانه حميد شكور، يجازي على العمل القليل بالأجر العظيم، والفضل الكبير.

ويحتمل أن يكون «الحميد» وصفًا لـ«صراط»، فيكون من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ويهدي إلى الصراط المحمود، أي: الطريق المحمود، طريق الإسلام الموصل إلى الله تعالى وإلى جنته.

الفوائد والأحكام:

١- تخاصم المؤمنين والكفار في ربهم ودينه، فالمؤمنون آمنوا بربهم وانقادوا لأمره

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجها ابن ماجه في الأدب ٣٨١١.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٨، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأطاعوه وجاهدوا فيه، وحاربوا أعداءه، والكفار كفروا بربهم، وخالفوا أمره وعصوه، وحاربوا أولياءه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لأوليائه المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمۡۖ﴾.

٣- عظم ما أعد للذين كفروا بربهم من صنوف العذاب، فثيابهم قطعت من نار، والحميم يصب من فوق رؤوسهم، يذيب ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تقمعهم بها الملائكة، وكلما علا بهم لهب النار أعيدوا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

٤- الجمع لأهل النار بين العذاب الحسي للأجساد، والعذاب المعنوي للقلوب، الذي لا يقل عن العذاب الحسي من التقريع والتوبيخ والإهانة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

٥- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الثواب، من دخول الجنات والتمتع بما فيها من النعيم؛ من الأنهار، والتحلي بأساور الذهب واللؤلؤ، ولباس الحرير، وهدايتهم إلى الطيب من القول، وهدايتهم إلى صراط الحميد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

٦- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٧- أن من تمام نعيم أهل الجنة إباحة أشياء لهم كانت محرمة في الدنيا؛ كالذهب والحرير كان محرمًا على الرجال فأبيح لهم في الجنة، ومثل ذلك: الخمر.

٨- أن من أعظم ما من الله به على المؤمنين أن هداهم إلى الطيب من القول، وإلى صراط الحميد في الدنيا والآخرة.

٩- إثبات اسم الله تعالى «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في ذاته وصفاته وخلقه وقدره وشرعه، وأمره ونهيه، وقوله وفعله، وفي كل شيء.

١٠- شتان ما بين الفريقين، وشتان ما بين الجزاءين، فالكفار يترددون بين صنوف العذاب في الجحيم، والمؤمنون يتمتعون في الجنات بألوان النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: الكفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر، أي: يغطيه في الأرض ويدفنه فيها، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، أي: أعجب الزراع.

أي: إن الذين كفروا بالله، فجحدوا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، وما أوجب الإيمان به. والكفر: ضد الإيمان.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الواو: عاطفة، وفي عطف المضارع على الماضي بيان استمرارهم على الصد، فكأن ذلك صفة لهم، أي: ومن صفة هؤلاء الكفار أنهم يصدون عن سبيل الله.

ويحتمل كون الواو: حالية، أي: والحال أنهم يصدون عن سبيل الله.

والصد عن الشيء: المنع من الوصول إليه والدخول فيه، أي: ويمنعون عن سبيل الله والمسجد الحرام.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هو دينه وطريقه المؤدي إليه وإلى مرضاته وجناته، كما قال عز وجل: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١]، فصدوا بأنفسهم وأعرضوا عن دين الله، ويصدون ويمنعون غيرهم من الدخول فيه.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾أي: ويصدون عن المسجد الحرام، بيت الله العتيق وكعبته المشرفة وحرمه المعظم، ومشاعره المقدسة؛ الصفا والمروة ومنى وعرفة ومزدلفة وغيرها، أي: يصدون عن المسجد الحرام من قصده من المؤمنين لقضاء مناسكهم، والتعبد والصلاة فيه، بدعوى أنهم سدنة الحرم وأولياؤه، كما فعلوا عام الحديبية، وقد رد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ولهذا أباح الله- عز وجل- قتالهم في الحرم، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ﴾ قرأ حفص: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، مفعول

ثان لـ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، وقرأ الباقون بالرفع: (سواءٌ) على أنه مبتدأ وخبره ما بعده.

﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة ثانية لـ«المسجد الحرام» وما بعده صلة الموصول، و«جعل» هنا بمعنى: «صير» تنصب مفعولين: الأول ضمير الهاء في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ والثاني ﴿سَوَآءً﴾، أو الجملة: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾.

و«جعل» تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية، وهي هنا شرعية، أي: الذي جعلناه شرعًا.

﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: للناس الذين آمنوا بالله كافة لا فرق بينهم.

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾ أي: يستوي فيه ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾ أي: المعتكف الملازم له المقيم فيه لطاعة الله تعالى.

﴿وَٱلْبَادِ﴾ أي: القادم من خارجه البعيد النائي عنه، سواء كان من أهل الحاضرة أو البادية، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فهما فيه سواء في العبادة والاعتكاف فيه، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع منه القادم إليه، وهما يستويان فيه في إقامة المناسك؛ من الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ومنى ورمي الجمار وغير ذلك.

ولهذا رُويَ أن النبي ﷺ امتنع أن يُبنى له بيت بمنى، وقال: «**منى مناخ من سبق**»[1].

وهما سواء في فضل الصلاة فيه والطواف به، وفي وجوب تعظيم الحرم واحترامه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقال بعض المفسرين: المراد بالمسجد الحرام الحرم كله، ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء في النزول فيه، قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام»[2] والأظهر القول الأول.

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك- تحريم مكة (٢٠١٩)، والترمذي في الحج، ما جاء أن منى مناخ من سبق (٨٨١)، وقال: «حديث حسن صحيح» وأخرجه ابن ماجه في المناسك- النزول بمنى (٣٠٠٦)، وأحمد (٦/ ٢٠٦- ٢٠٧)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٣).

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: عن عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: «نزلت في عبدالله بن أبي أُنيس، وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبدالله بن أُنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾» يعني من لجأ إلى الحرم ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ يعني بميل عن الإسلام»[1].

قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾: الواو: استئنافية، ﴿وَمَن﴾ شرطية، و﴿يُرِدْ﴾ فعل الشرط وجوابه ﴿نُّذِقْهُ﴾ وكلاهما مجزوم بحذف حرف العلة الياء، أي: ومن يقصد وينوي في المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ﴾.

وعُدي الفعل ﴿يُرِدْ﴾ بالباء؛ لأنه ضُمن معنى: «يهم»، فالباء: للتعدية، أو هي زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: «وَمَنْ يُرِدْ فيه إلحادًا»، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تنبت الدهن، وكقول الشاعر:

هن الحرائر لا ربات أخمرة ... سود المحاجر لا يقرأن بالسور[2]

أي: لا يقرأن السور.

وكقول الآخر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج ... نضرب بالسيف ونرجو بالفرج[3]

أي: ونرجو الفرج.

وقيل: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ متعلق بحال من مفعول ﴿يُرِدْ﴾، والباء: للملابسة، أي: يرد التعدي متلبسًا بإلحاد.

والإلحاد: الميل والعدول عن الحق والقصد إلى الظلم، ونكر «إِلحَادٍ»؛ ليعم كل إلحاد وميل عن الحق أيًّا كان.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٤).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «لحد».

(٣) البيت في «معجم ياقوت» بلا نسبة.

﴿بِظُلْمٍ﴾ بدل من «إِلحَادٍ» بإعادة الجار، أو حال ثانية، والباء للملابسة، أي: متلبسًا بظلم، أو متعلق بـ﴿يُرِدْ﴾ والباء للسببية، أي: بسبب الظلم.

والظلم لغة: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

وأظلم الظلم: الشرك بالله، كما قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]. أي: بشرك.

والمعنى: ومن يقصد وينو في المسجد الحرام بميل وعدول عن الإسلام وعن الحق ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك أو استحلال لحرمة الحرم، وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، وارتكاب للمعاصي فيه من القتل أو الاحتكار وغير ذلك.

رُويَ أن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- كان له فسطاطان: أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يصلي صلى في الذي في الحرم، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل، فقيل له، فقال: كنا نحدَّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: «كلا والله، وبلى والله»(١).

ورُوي عن يعلى بن أمية- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**احتكار الطعام بمكة إلحاد**»(٢).

ورُوي أن عبدالله بن عمر أتى عبدالله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله- تبارك وتعالى- فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر لا تكن هو**»(٣).

﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿نُّذِقْهُ﴾ جواب الشرط.

﴿مِنْ عَذَابٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ تبعيضية، و﴿أَلِيمٍ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسًّا ومعنى.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥١٠)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٥)، وفيه «عبدالله بن عمرو» بدل «ابن عمر».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٦)، وروى نحوه أيضًا (٢/ ٢١٩)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

والمعنى: نعذبه عذابًا شديدًا مؤلمًا موجعًا، يذوقه ويتجرع ألمه نفسيًّا وبدنيًّا في الدنيا والآخرة.

وهذا الوعيد لمن هَمَّ بالإلحاد فيه بظلم، وهو لمن ارتكب ذلك آكد وأشد وأعظم.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لو أن رجلًا أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بـ«عدن أبين»[(١)] أذاقه الله من العذاب الأليم»[(٢)].

وعنه- رضي الله عنه- قال: «ما من رجل يهم فيه بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلًا بـ«عدن أبين» هَمَّ أن يقتل رجلًا بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم»[(٣)].

ولهذا لما همَّ أبرهة الأشرم بهدم الكعبة هو ومن معه من أصحاب الفيل عذبهم الله- عز وجل، فأرسل عليهم طيرًا أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٤، ٥] فصاروا عبرة ونكالًا لغيرهم.

وقال ﷺ: «**يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم...**»[(٤)].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على الكافرين الذين أعرضوا بأنفسهم عن دين الله، ويَصدون الناس عن الدخول فيه، ويصدون عن المسجد الحرام القاصدين له لقضاء المناسك والتعبد فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. الآية.

٢- جمع كفار مكة بين الكفر والصد عن دين الله وعن المسجد الحرام، وهكذا يعمد الطغاة والمكابرون كزعيمهم إبليس- لعنه الله- إلى جر الناس إلى الكفر والهلاك

---

(١) «أبين» موضع في جبل عدن، يقال: إنه سمي بأبين بن زهير بن حمير- انظر: «معجم البلدان» (١/ ١٠٩- ١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٣، ٢٤٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في البيوع- ما ذكر في الأسواق (٢١١٨)، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وأخرجه مسلم في الفتن- الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٣)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٣)، من حديث حفصة- رضي الله عنها.

وكبهم في النار، بل إن بعض الفساق ومرضى القلوب يحبون ويعجبهم أن يجروا الناس إلى ما هم عليه من الفسق والمعاصي لغرض في أنفسهم ومرض في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء: ٢٧].

٣- إثبات الإلوهية لله- عز وجل؛ لأن معنى ﴿ٱللَّهِ﴾ المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

٤- إثبات حرمة الكعبة والبيت العتيق؛ لأن الله- عز وجل- سماه المسجد الحرام؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه ولا يُختلى خلاه، ولا يُنفَّر صيده، ولا تُلتقط لقطته إلا لمنشد...**» الحديث(١).

٥- أن الناس سواء في المسجد الحرام في أداء المناسك والصلاة؛ المعتكف منهم والبادي، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع عنه القادم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾.

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ أي: في السكن والنزول في الحرم، كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «**ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام**»(٢).

ولهذا اختلف الفقهاء رحمهم الله- في حكم تَمَلُّك رباع مكة وتوريثها وبيعها وتأجيرها، فذهب جمع من السلف منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجمع من الفقهاء إلى أن رباع مكة تُملك وتورث وتباع وتؤجر.

وحملوا الآية على أن الناس سواء في المسجد الحرام في قضاء المناسك والاعتكاف والتعبد، وفي وجوب احترامه وتعظيمه، واستدلوا بأدلة منها: قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [الحشر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ [الممتحنة: ٩].

ففي هذه الآيات ونحوها أضاف الديار إليهم إضافة تمليك.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ فقال: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور**» وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي- رضي الله عنهما- شيئًا؛ لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين.. ثم قال: «**لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر**»(١).

وعن أبي سفيان- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**»(٢).

فنسب دار أبي سفيان إليه، وهي نسبة تملك، وكذا قال: «**من أغلق بابه فهو آمن**» وهذا يفيد أيضًا معنى التملك للباب وللدار.

وأيضًا فإن جميع أهل مكة بقيت لهم ديارهم بعد الفتح، يتصرفون بها بما شاؤوا من بيع وإجارة ويتوارثونها.

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- «اشترى من صفوان بن أمية دارًا بمكة فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم»(٣).

وقياسًا لأرض مكة على غيرها من الأرض.

ويستثنى من جواز البيع بقاع المناسك بالإجماع.

وذهب طائفة من الفقهاء إلى أن رباع مكة لا تملك ولا تورث ولا تؤجر، منهم إسحاق بن راهويه وهو مذهب طائفة من السلف(٤).

وحملوا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ على أن المراد به السكنى في الحرم، قالوا: فالناس فيه سواء.

واستدلوا بما رواه علقمة بن نضلة- رضي الله عنه- قال: «توفي رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج- توريث دور مكة وبيعها وشرائها (١٥٨٨)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض- ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد- فتح مكة (١٧٨٠)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٢٤).

(٣) أخرجه البخاري معلقًا في الخصومات- الربط والحبس في الحرم، وأخرجه موصولًا عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٧)، (٩٢١٣)، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٣٤- ٣٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٦).

وأبوبكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب[١]، من احتاج سكن، ومن استغنى أَسكن»[٢].

وعن عطاء: «أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بَوَّب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأً تاجرًا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان ظهري[٣]. قال: فذلك إذًا»[٤].

وعن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: «يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابًا لينزل البادي حيث شاء»[٤].

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: «لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها»[٥].

وقال بعض الفقهاء: تملك بيوت مكة وتورث ولا تؤجر- جمعًا بين الأدلة.

٦- الوعيد الشديد لمن ألحد بظلم في الحرم، أو أراد ذلك بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٧- عظم حرمة الحرم؛ لأن الله- عز وجل- رتب على الإلحاد فيه بظلم العذاب الأليم.

* * *

(١) السوائب: جمع سائبة، كأنها سيبت وتركت لله- عز وجل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك- أجر بيوت مكة (٣١٠٧).

(٣) الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتركب. أي: يحبسان لي إبلي.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٦- ١٤٧) (٩٢١٠، ٩٢١١).

(٥) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٨) (٩٢١٤).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

أنكر الله- عز وجل- على الكفار صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وتوعد من أراد الإلحاد فيه والظلم بالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك بالتذكير بنعمة الله- عز وجل- ببناء البيت، وبيان عظمة المسجد الحرام وما بني له، وهو عبادة الله- عز وجل- والصلاة والحج وذكر الله- عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره «اذكر».

﴿بَوَّأْنَا﴾ أي:هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت وأسكناه فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١].

قال الشاعر:

كم من أخ لي ماجد ... بوَّأته بيديَّ لحدا[1]

﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ هو إبراهيم الخليل- عليه السلام- أبوالأنبياء، وأفضل أولي العزم بعد محمد ﷺ.

﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي:موضع بناء البيت العظيم والكعبة المشرفة.

والمعنى: وإذ هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت الحرام، وأرشدناه إليه، وأسكناه فيه، وأذنا له في بنائه.

---

(١) البيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب ا لزبيدي. انظر: «ديوانه» ص٨١.

فإبراهيم- عليه السلام- هو أول من بنى البيت العتيق.

وهو أول بيت بُني للناس لعبادة الله- تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بيت المقدس**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»(١).

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ ﴿أَن﴾ تفسيرية. أي: وعهدنا إليه وأمرناه ووصيناه بأن لا تشرك بي شيئًا، أي: لا تشرك بي شيئًا من الشرك؛ لا شركًا أكبر ولا أصغر، ولا جليًا ولا خفيًا، ولا تشرك بي شيئًا من الأشياء أيًّا كان؛ لا شيئًا صغيرًا ولا كبيرًا، ولا قليلًا ولا كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وفي قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ إشارة إلى أن القصد من بناء البيت هو عبادة الله- عز وجل- وعدم الإشراك به. قال ابن كثير(٢): «أي: ابنه على اسمي وحدي».

والشرك: دعوة غير الله وإشراكه مع الله، وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالعبادة والنذر والذبح والتوكل والاستغاثة ونحو ذلك، قال تعالى حكاية لقول المشركين: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦- ٩٨].

وفي ذكر نهيه- عز وجل- إبراهيم- عليه السلام- عن الشرك- وهو إمام الحنفاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٠)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥٣)، وأحمد (٥/ ١٥٠، ١٦٦، ١٦٧).

(٢) في «تفسيره» (٥/ ٤٠٩).

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧]، فيه إنكار على المشركين من قريش، وتقريع وتوبيخ لهم على شركهم بالله، وبيان أن البيت إنما أُسس من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وعلى تقواه.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ كما قال في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]، أي: وطهر بيتي من الشرك وعبادة الأوثان والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس المعنوية والحسية، ومن الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على الطائفين والمصلين وغير ذلك.

ولهذا نهى الله- عز وجل- عن القتال فيه، قال عز وجل: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١﴾ [البقرة: ١٩١].

ونهى المشركين من قربه، فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأضاف عز وجل البيت إليه لأنه رب البيت؛ خالقه وواضعه ومالكه والمتصرف فيه، وفي ذلك تشريف وتعظيم للبيت وترغيب في تطهيره وتعظيمه.

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: طهره من الشرك والمعاصي وغير ذلك للطائفين والقائمين والركع السجود، الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

و«الطائفين» جمع طائف، والطواف بمعنى الدوران على الشيء والتردد عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [النور: ٥٨].

وقوله ﷺ في الهرة: «**إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات**»(١).

والمعنى: والطائفين بالبيت وعلى الكعبة المشرفة.

والطواف خاص بالبيت الحرام الذي بناه إبراهيم- عليه السلام- بأمر ربه- عز

---

(١) أخرجه أبوداود في الطهارة (٧٥)، والنسائي في الطهارة (٦٨)، والترمذي في الطهارة (٩٢)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٦٧)- من حديث أبي قتادة- رضي الله عنه.

وجل، والذي جعله الله قبلة للمسلمين في صلاتهم ومثابة للناس وأمنًا، وقيامًا للناس، كما قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

فلا يجوز التعبد لله- عز وجل- بالطواف على غير الكعبة والبيت الحرام، سواء كان المَطُوفُ به مسجدًا أو قبرًا، أو غير ذلك.

ولكون الطواف خاصًّا بالبيت الحرام قدَّمه على القيام والركوع والسجود، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ علمًا أن الصلاة أفضل العبادات.

﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ جمع قائم، أي: القائمين في الصلاة؛ لقوله بعده: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وقدَّم القيام؛ لأنه في الأصل مقدَّم في الصلاة، فهو أول أركان الصلاة، ولأنه موضع قراءة الفاتحة وهي ركن أيضًا من أركان الصلاة، وموضع قراءة القرآن مطلقًا في الصلاة، وهو أفضل الذِّكر.

﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾ جمع راكع. والركوع: هو الركن الثالث من أركان الصلاة، وهو محل تعظيم الرب؛ لقوله ﷺ: «**أما الركوع فعظِّموا فيه الرب**»(١).

﴿ٱلسُّجُودِ﴾ جمع ساجد. والسجود: هو الركن الخامس من أركان الصلاة، وهو السجود على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، وتعفيرها بالتراب تعظيمًا لله- عز وجل.

وأصل السجود: التطامن والتواضع والخضوع لله- عز وجل.

ويطلق على الانقياد لله- عز وجل- عمومًا، ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة، ويطلق على الصلاة كلها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، لأنه من أعظم أركان الصلاة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد- كما قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٢).

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم**»(١).

والقيام والركوع والسجود من أعظم وأهم أركان الصلاة، ولهذا خصها بالذكر؛ لأن في القيام قراءة القرآن أفضل الكلام، وفي الركوع والانحناء تعظيم الرب، وفي السجود القرب من الله عز وجل.

وقرن بين الطواف والصلاة في الآية؛ لأن الطواف لا يصح إلا بالبيت الحرام، والصلاة لا تصح إلا إليه. وقدم الطواف على الصلاة لاختصاصه بالبيت.

وفي آية البقرة: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [الآية: ١٢٥]، قدم أيضًا الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بالحرم، كما قدم الاعتكاف على الصلاة لاختصاص الاعتكاف بالمساجد.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الأمر لإبراهيم- عليه السلام، والأذان هو الإعلام والنداء، والإخبار، أي: وناد في الناس وأخبرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣]، أي: وإعلام من الله ورسوله.

قال الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء(٢)

أي: أَعْلَمتنا.

و﴿النَّاسِ﴾ يعم كل البشر، أي: كل ما أمكنه أن يبلغ إليه ذلك.

والمعنى: وأعلم الناس وأخبرهم وناد بهم بأن يحجوا بيت الله الحرام، أو بوجوب الحج عليهم.

والحج لغة: القصد. وشرعًا: قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) البيت للحارث بن حلزة. انظر: «ديوانه» ص١٩.

وقد رُوي أن إبراهيم- عليه السلام- قال: «يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أَذِّن وعليَّ البلاغ». فقام إبراهيم- عليه السلام- على الحجر، أو على المقام، وقيل: على الصفا، أو على أبي قبيس، فنادى ألا إن ربكم قد اتخذ بيتًا، وأمركم أن تحجوه، أو إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، فخفضت له الجبال رؤوسها فسمعه ما بين السماء والأرض، فأجابه كل من سمعه «لبيك اللهم لبيك» هكذا روي عن جمع من السلف[١].

وهكذا قال محمد ﷺ لأمته: «**أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**»[٢].

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ ﴿رِجَالًا﴾ حال، وهي: جمع راجل، والراجل: هو الذي يمشي على رجليه، أي: يأتوك للحج حال كونهم ماشين على أرجلهم.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على قوله: ﴿رِجَالًا﴾، أي: ويأتوك حال كونهم راكبين على كل ضامر.

وكلمة ﴿كُلِّ﴾ تدل على الكثرة، أي: وعلى ضوامر كثيرة.

والضمور: الضعف والهزال بسبب الركوب وطول السير وبعد الشقة. والضمور أيضًا قلة لحم البطن، وهو من محاسن الرواحل والخيل؛ لأنه يعينها على السير والحركة.

والمعنى: يجيئك الناس للحج منهم الماشي على رجليه، ومنهم الراكب على الإبل والخيل الضوامر، التي أضمرها السير والركوب وبُعد الشقة.

وفي تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة إلى أن الحج يجب على من قدر عليه ولو ماشيًا، إذا كان يستطيع ذلك بلا مشقة شديدة، فليس من شرطه أن يجد مركبًا.

وفيه إشارة أيضًا إلى عظم أجر الحج ماشيًا؛ لأن الأجر على قدر المشقة، ولا شك أن الحج على الأقدام أشق، فهو أفضل إذا لم يجد مركبًا، أما إذا وجد مركبًا فالسُّنَّة أن يركب كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد أَخذ من هذا بعضهم أن الحج ماشيًا أفضل؛ لأن الله قدمه، ولما فيه من المشقة والدلالة على علو الهمة وقوة العزيمة. وقالوا: إنما حج الرسول ﷺ راكبًا رفقًا بأمته،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٥١٤- ٥١٧)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٤٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وطاف راكبًا ليرى الناس هيئة الطواف.

وأكثر أهل العلم على أن الحج راكبًا أفضل؛ لأن الرسول ﷺ حج راكبًا، بل وطاف بالبيت وتنقل بين المشاعر ورمى الجمار وهو راكب ﷺ- مع قوته وقدرته على المشي، وهو الأسوة ﷺ والقدوة للأمة، وما خُيِّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا- كما قالت عائشة- رضي الله عنها[1].

وليس المقصود من الحج ولا من غيره من العبادات المشقة، وإنما المهم أداء العبادة كما شرعها الله- عز وجل- وبيَّنها رسوله ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»[2]، وقال في أمر الصلاة: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[3].

﴿يَأْتِينَ﴾ هذه الضوامر.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ الفج: الشق بين جبلين تسير فيه الركاب، وغلب على الطريق أي: من كل طريق ومسلك وسبيل، وجمعه «فجاج»؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد، يقال: بئر عميقة، أي: بعيدة القعر، أي: يأتين هذه الضوامر من كل طريق ومسلك بعيد، استجابة لنداء إبراهيم- عليه السلام، ودعائه في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فالمسلمون في جميع أقطار الأرض على اختلاف لغاتهم ومشاربهم كلهم يَحِنون إلى البيت العتيق، ويحجونه، ويزورونه، ولا يكاد أحد منهم يسلو عنه، أو يشبع منه مهما حج وتردد إليه.

وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٦)، وأبوداود في المناسك (١٧٨٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٦٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٠٨)- من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١)، والدارمي في الصلاة (١٢٥٣)- من حديث مالك بن الحويرث- رضي الله عنه.

يـا سـائرين إلى البيـت العتيـق لقـد ... سرتـم جسومًا وسرنـا نحـن أرواحـا
إنـا أقمنـا عـلى عـذر نكابـده ... ومـن أقـام عـلى عـذر كمـن راحـا[1]

قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، اللام للتعليل، ونكِّرت ﴿مَنَٰفِعَ﴾ للتعظيم والتكثير، أي: لأجل أن يحضروا ويحصلوا على منافع عظيمة كثيرة لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، فيستفيدوا من الحج وأداء مناسكه كما شرع الله- عز وجل- وفي التعبد في تلك البقاع الطاهرة تكفير السيئات ورفعة الدرجات والفوز بالجنات.

كما قال ﷺ: «**من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[2]، وقال ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»[3].

ويستفيدوا من منافع البدن والهدي وطلب الفضل والربح بالتجارة؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. ويستفيدوا من الحج أيضًا منافع أخرى دينية ودنيوية بتعلم أمور دينهم وأحكام حجهم، وتقوية الألفة والترابط بينهم، والتعاون على البر والتقوى، ودراسة مصالحهم المشتركة، اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا وأمنيًا.

وهذا لن يتأتى إلا بالنظرة الجدية في الحكمة من مشروعية الحج، والصدق مع الله في طلب هذه المنافع، والاستزادة من الخير، أما في غياب هذه النظرة، وغياب الصدق مع الله في طلب هذه المنافع، كما هو حال كثير من الحجاج اليوم فلن تدرك هذه المنافع، بل إن مما يؤسف له أن من الحجاج من ليس له من حجه إلا اللغو والفسوق والجدال

---

(١) البيتان لأبي العباس أحمد بن العريف الأندلسي. انظر: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٤/ ٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، والترمذي في الحج (٨١١)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وأذية الآخرين ومزاحمتهم ونحو ذلك.

﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

أي: ويتقربوا إلى الله- عز وجل- بنحر وذبح الهدي والأضاحي[1] ويذكروا اسم الله عليها عند النحر والذبح، بقولهم: بسم الله والله أكبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى في صيد الجوارح: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا**»[2].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ أي: في أيام محددة بوقتها وعددها، وهي يوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة بعده، وفي هذا إشارة إلى أنه يجب الاهتمام بحسابها لما فيها من النسك وأعمال الحج وذكر الله.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي:على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام، من الإبل والبقر والضأن والمعز، قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]، فلا تجزئ الأضحية من غيرها.

وسميت بهيمة لما في نطقها من الإبهام، وسميت بالأنعام لما في مشيها من اللين والنعومة، وقيدها بالأنعام لأن غيرها من البهائم لا يتقرب إلى الله بذبحه كالخيل والبغال والحمير وغيرها.

والمجزئ في الهدي واجبًا كان أو تطوعًا وكذا في الأضحية شاة، أو سبع بدنة أو

---

(١) الهدي: ما يهدى للحرم من بهيمة الأنعام، والأضاحي: ما ينحر ويذبح من بهيمة الأنعام يوم النحر وأيام التشريق، سميت بذلك لأنها تذبح ضحى بعد صلاة العيد.

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٨)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦٨)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢١)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٩٧)، والترمذي في الأحكام والفوائد (١٤٩١)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٧)- من حديث رافع بن خديج- رضي الله عنه.

سبع بقرة[١]، ما عدا إفساد الحج ففيه بدنة كاملة، وتجزئ البدنة عن سبعة، وكذا البقرة. والشاة أفضل من سبع البدنة وسبع البقرة.

ويجزئ في الأضحية عن الواحد وأهل بيته شاة؛ لأن النبي ﷺ ضحى بكبشين أقرنين أحدهما عنه وعن أهل بيته، والآخر عمن لم يضح من أمته[٢].

والسن المجزئ في الهدي والأضحية جذع من الضأن، وهو ما له ستة أشهر، وثني من غيرها، وهو من الإبل ما كان له خمس سنوات، ومن البقر ما له سنتان، ومن المعز ما له سنة؛ لحديث: «**لا تذبحوا إلا مسنة، فإن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن**»[٣].

ويشترط سلامتها من العيوب البيّنة، قال ﷺ- فيما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه: «**أربع لا تجزئ في الأضاحي: العوراء البيِّن عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء التي لا تُنقي**»[٤].

وفي قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دون الأمر بالنحر والذبح إشارة إلى أن المقصود من ذلك هو ذكر اسم الله- عز وجل- عليها والتقرب إليه بها.

وفي قوله: ﴿أَيَّامٍ﴾ ما يشمل الليل والنهار فيجوز ذبح الهدي والأضاحي نهارًا وليلًا لكن النهار أولى وأفضل، وقيل: لا يجوز الذبح ليلًا.

كما أن في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ما يوجب استشعار أنها من الله، ينبغي شكره عليها بالإخلاص له بالعبادة، ولهذا يشرع أن يقول بعد التسمية

---

(١) هذا بخلاف العقيقة فلا يجزي فيها سبع بدنة أو سبع بقرة، ولا يجوز الاشتراك فيها.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الأضاحي- سن الأضحية (١٩٦٣)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٧)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٨)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤١)، من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الضحايا (٢٨٠٢)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦٩)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٧)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٤)- من حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

والتكبير «**اللهم هذا منك ولك**»(١).

ومن ذكر اسم الله- عز وجل- ومما يشرع في هذه الأيام صلاة العيد وخطبتاه يوم النحر، والتكبير والتهليل والتحميد، وأداء بقية مناسك الحج من المبيت بالمزدلفة وبمنى والطواف والسعي ورمي الجمار وغير ذلك.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالأيام المعلومات عشر ذي الحجة التي أقسم الله- عز وجل- بها في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ٢]، فهي أفضل أيام السنة؛ لمشروعية الأعمال الصالحة كلها فيها وفضلها، واختصاصها بأداء فريضة الحج فيها.

وقال بعض أهل العلم: العشر الأواخر من رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها ورجح ابن القيم أن أيام عشر ذي الحجة أفضل للحديث الوارد في فضلها، وأن ليالِيَ عشر رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها جمعًا بين الأدلة.

فهذه الأيام العشر أيام معلومات مفضلة، والعمل فيها أفضل من غيرها.

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**ما العمل في أيام أفضل منها في هذه**» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء**»(٢).

ومن أفضل الأعمال وآكدها في هذه الأيام الحج والعمرة، والتكبير والتهليل والتحميد، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «**ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**»(٣).

وقد ثبت عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما: «**أنهما كانا يخرجان إلى السوق فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما**»(٤).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٩)، وأبوداود في الصوم – صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم – ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصوم – صيام العشر (١٧٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٧٥، ١٣١، ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري معلقًا- في كتاب العيدين- فضل العمل في أيام التشريق (٢/ ٤٥٧).

كما أن من أفضل الأعمال وآكدها في هذه الأيام العشر صيام يوم عرفة؛ لما رواه أبوقتادة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده**»(١).

وهو من أفضل أيام العشر، قال ﷺ: «**ما رُئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما أُريَ يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة**»(٢).

كما أن من أفضل هذه الأيام يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر- فيه تؤدى كثير من مناسك الحج من الرمي والذبح والحلق والطواف.

ولا مانع من حمل الأيام المعلومات على عشر ذي الحجة، وعلى أيام التشريق، فكلها أيام معلومات مفضلة.

قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ كقوله فيما يأتي: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].

والخطاب في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾: للمُهدي، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لتأكيد مشروعية الأكل والإطعام من هذه الذبائح، والامتنان عليهم بذلك، أي: فكلوا مما ذبحتم من بهيمة الأنعام من الهدي والأضحية.

وظاهر قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ وجوب الأكل من الهدي والأضحية، وهذا الظاهر غير مراد؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأكثر أهل العلم على عدم وجوب الأكل من الهدي والأضحية؛ لأن هذا الأمر لرفع ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج من الأكل منها.

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام- استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١١٦٢)، وأبوداود في الصوم (٢٤٢٥).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»- كتاب الحج (٩٦٢)- من حديث طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه.

فالأمر بالأكل محمول على الرخصة أو الاستحباب، وهكذا قوله ﷺ بالنسبة للأضحية: «**كلوا وأطعموا وادخروا**»[١]، وفي رواية: «**فكلوا وادخروا وتصدقوا**»[٢].

وقد أهدى النبي ﷺ مائة بدنة، نحر منها ثلاثًا وستين بيده الشريفة، ونحر بقيتها علي بن أبي طالب- رضي الله عنه، ثم أمر ﷺ من كل بدنة ببضعة فطبخت، فأكل من لحمها وشرب من مرقها[٣].

ويستحب جعلها أثلاثًا، يأكل ثلثًا، ويهدي ثلثًا، ويتصدق بثلث؛ لقوله- ﷺ: «**كلوا وأطعموا وتصدقوا**»[٤].

وإن أكل أكثرها أو تصدق به جاز ذلك.

وينتفع بجلودها وأوبارها وأشعارها، أو يدفع ذلك لمن ينتفع به، ولا يبيع منها شيئًا، ولا يعطي الجزار أجرته منها؛ لما رواه علي- رضي الله عنه- قال: أمرني النبي ﷺ أن أقوم على بدنه، فقال: «**اقسم جلودها وجلالها، ولا تعط الجزار منها شيئًا**»[٥].

لكن لو أعطى الجزار منها على سبيل الإهداء، أو تصدق عليه منها لفقره جاز ذلك.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ وهو محمول على الاستحباب عند أكثر أهل العلم، وقيل بوجوبه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٩)، ومسلم في الأضاحي (١٩٧٤)- من حديث سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه. وأخرجه النسائي في الضحايا (٤٤٢٩)، والترمذي في الأضاحي (١٥١٠)- من حديث بريدة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧١)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨١٢)، والنسائي في الضحايا (٤٤٣١)- من حديث عبدالله بن واقد- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحج- حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك- صفة حجة النبي ﷺ (١٩٠٥)، والترمذي في الحج- حج النبي ﷺ (٨١٢)، وابن ماجه في المناسك- حجة رسول الله ﷺ (٣٠٧٤)- من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري في الحج (١٧١٦)، ومسلم في الحج (١٣١٧)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٩٩).

و﴿ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي عليه آثار البؤس وشدة الحاجة والفقر في حاله وهيئته.

و﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية.

وقيل: البائس الذي أصابه البؤس، وهو ضيق المال وهو الفقير، ولهذا لم يعطف أحد الوصفين على الآخر؛ لأنه كالبيان له، وفي وصفه بهما معًا تأكيد شدة حاجته، وتحريك المشاعر للعطف عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ قرأ أبوعمرو وهشام عن ابن عامر، وورش عن نافع وقنبل عن ابن كثير ورويس عن يعقوب بكسر اللام «لِيقضوا» وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿لْيَقْضُوا۟﴾.

﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، واللام: للأمر، وهي كذلك في قوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟﴾، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾ ولام الأمر تأتي غالبًا ساكنة بعد الحروف الثلاثة: ثم، والواو، والفاء، كما في قوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٩].

والتفث: الوسخ من طول الشعر والأظفار والشعث، أي: ثم ليزيلوا درنهم ووسخهم بإزالة هذه الأشياء، وذلك بإتمام مناسك الحج من الطواف والرمي وغير ذلك، والخروج من الإحرام؛ بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط والاستحداد وتقليم الأظافر ولبس الثياب.

قال أمية بن الصلت[1]:

حفّوا رؤوسهم[2] لم ينزعوا تفثًا ... ولم يسلوا لهم قملًا وصئبانا

وقال بعض المفسرين: التفث: مناسك الحج كلها، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر- رضي الله عنهما، ويقويه قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟﴾.

﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ الواو في الموضعين عاطفة.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٦٢).

(٢) يقال: حف رأس الإنسان، أي: شعث وبعد عهده بالدهن. انظر: «لسان العرب» مادة: «حفف».

قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بكسر اللام من قوله: ﴿وَلْيُوفُوا﴾، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ وقرأ الباقون بإسكان اللام منهما.

وقرأ أبوبكر عن عاصم بفتح الواو وتشديد الفاء من (وليوَفّوا) والباقون بإسكان الواو وضم الفاء بدون تشديد.

والنذور: جمع نذر، والنذر: ما أَلزم الإنسانُ به نفسه وأوجبه عليها مما لم يكن واجبًا عليه في الأصل، أي: وليوفوا نذورهم التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدي وغير ذلك بإتمامها وقضائها، وأيضًا وليتموا ما أحرموا به من حج أو عمرة؛ لأن مجرد الإحرام بهما يوجب إتمامهما، حتى ولو كانا غير واجبين.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الأمر: للوجوب، والطواف بالبيت: الدوران عليه.

أي: وليطوفوا بالكعبة المشرفة طواف الحج، الذي هو ركن من أركان الحج، ويسمى طواف الإفاضة، وطواف الزيارة، وبه يحصل التحلل الأول، وبه يحصل قضاء التفث، كما صح أنه ﷺ لما رجع إلى منى بدأ برمي جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت(١).

وقيل: المراد بالطواف في الآية ما يشمل طواف الحج، وطواف الوداع.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»(٢).

وعن أبي جمرة قال: قال لي ابن عباس: «أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت»(٣).

وسمي البيت بـ﴿الْعَتِيقِ﴾؛ لأنه أفضل وأكرم وأقدم بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٥٤)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤)- من حديث جابر- رضي الله عنه الطويل في صفة حجته ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٥٥)، ومسلم في الحج (١٣٢٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٠).

ولأنه أعتق من تسلط الجبابرة وظهورهم عليه، فلم يرده أحد بسوء إلا هلك كما حصل لأبرهة الأشرم وغيره.

عن عبدالله بن الزبير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط**»(١).

قال السعدي(٢) في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: «وهذا أمر بالطواف خصوصًا بعد الأمر بالمناسك عمومًا لفضله وشرفه، ولكونه المقصود وما قبله وسائل إليه، ولعله- والله أعلم- أيضًا: لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعًا لنسك أم مستقلًا بنفسه».

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله- عز وجل- بما منّ به على إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- وأتباعه المؤمنين، في إرشاده إلى مكان البيت، وتهيئته له لعبادة الله وحده لا شريك له، وحج بيته والصلاة فيه، وهي نعمة ومنة على نبينا محمد ﷺ وأمته، لهذا ذكَّره- عز وجل- بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾.

٢- عظم منزلة نبي الله إبراهيم الخليل- عليه السلام، فهو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء، وثاني أولي العزم من الرسل بعد محمد- عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

٣- عظم مكانة البيت الحرام الذي بناه إبراهيم- عليه السلام، وأنه أعظم وأقدم، بل وأول بيت وضع للناس؛ لقوله تعالى في أول الآية: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: البيت العظيم، ولقوله في آخر الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ ولهذا أضافه الله- عز وجل- إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ تشريفًا وتعظيمًا له.

٤- عهد الله- عز وجل- إلى إبراهيم- عليه السلام- بتطهير البيت الحرام من الشرك

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحج (٣١٧٠)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٣١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وهكذا روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٠).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٠).

والمعاصي والأنجاس المعنوية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٥- عظم خطر الشرك؛ لأن الله بدأ بالنهي عنه، ونهى عنه إبراهيمَ- عليه السلام- إمامَ الحنفاء- وإذا كان إبراهيم- عليه السلام- إمام الحنفاء منهيًا عن الشرك فغيره منهي عن ذلك من باب أولى وأحرى.

٦- أن المقصود من بناء البيت الحرام توجيه الناس إلى عبادة الله وتوحيده والبُعد عن الشرك.

٧- وجوب تطهير البيت الحرام من جميع الأرجاس والأدناس المعنوية والحسية.

٨- التنويه بمكانة المؤمنين الطائفين بالبيت والمصلين فيه والعناية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٩- عظم منزلة الطواف والصلاة في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

١٠- تقديم ذكر الطواف في الآية على أركان الصلاة- القيام والركوع والسجود- مع أن الصلاة أفضل وأهم العبادات البدنية؛ لأن الطواف مختص بالبيت الحرام، إذ لا يجوز الطواف بغيره.

١١- أن من أعظم أركان الصلاة القيام والركوع والسجود؛ لهذا خصها بالذكر من بين أركان الصلاة وحالاتها.

١٢- فرض الحج على الناس منذ عهد إبراهيم عليه السلام وأمر الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام بالنداء والإعلام بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾.

وهكذا دل القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب الحج على هذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال ﷺ: «**إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٧٦٩)، وابن ماجه في المقدمة (١، ٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا**»(١).

١٣- التنويه بشأن المجيبين داعي الله لحج البيت الحرام، وكثرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

١٤- جواز الحج رجالًا وركبانًا على الإبل وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

١٥- في تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة- والله أعلم- إلى أنه ليس من شرط الحج وجود المركب إذا استطاعه الإنسان ماشيًا بلا مشقة شديدة.

وليس فيه دلالة على فضل الحج ماشيًا لمن لم يجد المركب، كيف وقد حج ﷺ راكبًا، وقد قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**».

لكن من لم يجد مركبًا وحج ماشيًا أعظم أجرًا؛ لأن الأجر على قدر المشقة، وإلا فالأفضل الحج راكبًا تأسيًا بالنبي ﷺ، وعلى هذا أكثر أهل العلم.

١٦- أن الحج كما يجب على القريب من البيت يجب على البعيد إذا استطاعه، والأجر على قدر المشقة.

١٧- أن من حكمة مشروعية الحج شهود المنافع الدينية والدنيوية والأخروية، وذكر اسم الله بالتلبية وأداء مناسك الحج والتكبير والتهليل والتحميد والتسمية على نحر وذبح الهدي والأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

وينبغي للمسلمين أن يتأملوا هذا المقصد الأسمى من فرضية الحج فيستغلوا هذا الموسم العظيم لما يعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٨- مشروعية الهدي في هذه الأيام المعلومات؛ هدي التطوع، أو الهدي الواجب

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩)- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

كهدي التمتع والقران وغير ذلك، وهي: يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة بعده، ويبدأ ذبح الهدي بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر؛ لأن النبي ﷺ لم ينحر هديه ولا هدي أزواجه إلا بعد أن رمى جمرة العقبة، وكذا فعل أصحابه- رضي الله عنهم.

كما تشرع في هذه الأيام المعلومات الأضحية، وهي سنة مؤكدة عند أكثر أهل العلم، وقال بعضهم بوجوبها منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر: ٢]، أي: وانحر أضحيتك، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج: ٣٤].

وقد أقام النبي ﷺ في المدينة عشر سنوات يضحي[(١)].

ويقوي القول بعدم وجوبها قوله ﷺ: «**إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره**»[(٢)]. فقوله: «**وأراد أحدكم أن يضحي**» يدل على عدم وجوبها.

وهي من أفضل الأعمال، قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسًا**»[(٣)].

ووقت ذبحها من بعد صلاة العيد وخطبتيه إلى غروب شمس اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، عن البراء بن عازب- رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا،**

---

(١) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧) من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩١)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦١)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢٣)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٩)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) سيأتي تخريجه.

ومن نحر قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء»[(١)].

فإن كان في مكان لا تقام فيه صلاة العيد ذبح بعد ارتفاع الشمس قدر رمح ومضى وقت كاف لصلاة العيد وخطبتيه.

وقيل: أيام الذبح فقط يومان بعد العيد، وقيل بل يوم واحد بعد العيد، والأصح أن أيام التشريق الثلاثة مع يوم العيد كلها وقت للذبح، وفي الحديث: «**وأيام التشريق كلها ذبح**»[(٢)].

فهذه الأيام كلها ذبح، وهي سواء في حرمة صيامها، وفي التكبير فيها، ورمي الجمار، وغير ذلك.

١٩- مشروعية ذكر اسم الله على الهدي والأضاحي وغيرها من الذبائح عند ذبحها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى وجوب التسمية عند الذبح؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى في الجوارح: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

وقوله ﷺ في حديث رافع بن خديج رضي الله عنه: «**ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه فكلوه**»[(٣)].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن التسمية عند الذبح سنة.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٥)، ومسلم في الأضاحي- وقتها (١٩٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، من حديث جبير بن مطعم- رضي الله عنه، وكذا رواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٤٣)، والبزار في «الكشف» (١٢٠٦)، وصحح البيهقي إرساله، وضعفه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٦١، ٤/ ٢١٣)، وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٣١٨): «منقطع لا يثبت وصله» وذكر أنه ورد من وجهين مختلفين يشد أحدهما الآخر، واختار العمل به.

(٣) سبق تخريجه.

وذهب الجمهور إلى أنها تجب عند الذكر، وتسقط عند النسيان.

والصحيح القول بوجوب التسمية عند الذبح، وقد ذكرت تحقيق القول في هذا في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، في تفسير سورة المائدة.

٢٠- أن الرزق كله من الله- عز وجل- من بهيمة الأنعام وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾؛ ولهذا شرع أن يقول عند ذبح الأضحية والهدي بعد التسمية والتكبير: «**اللهم هذا منك ولك**»(١).

٢١- أن مكان ذبح الهدي البيت الحرام، كما قال تعالى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال ﷺ: «**كل عرفة موقف، وكل منى منحر، وكل المزدلفة موقف، وكل فجاج مكة طريق ومنحر**»(٢).

ويفرق لحمه على مساكين الحرم.

٢٢- أن الهدي والأضحية لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ وأفضلها الإبل، ثم البقر، ثم الغنم؛ لأن الإبل أكبر وأنفع للفقراء، وكذا البقر أنفع من الغنم.

٢٣- استحباب الأكل من الهدي والأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ وبخاصةً ما كان منها تطوعًا، أو واجبًا بسبب تمتع أو قران، وقيل بوجوب الأكل منها.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أهدى مائة ناقة وأمر بكل منها ببضعة فطبخت وأكل منها وحسا من مرقها(٣)، وفيها دم قران لأنه ﷺ كان قارنًا.

أما ما كان منها واجبًا بسبب ترك واجب أو ارتكاب محظور، أو فوات الحج أو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٣٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٤٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٦)، من حديث جابر رضي الله عنه، و أخرجه أحمد أيضًا (٤/ ٨٢)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

إفساده أو إفساد العمرة، أو الإحصار فلا يجوز لصاحبه الأكل منه.

وقيل: يجوز له الأكل منه ما لم يكن جزاء صيد أو فدية أذى. وقيل: يجوز الأكل من ذلك كله.

والصحيح القول الأول؛ لأنه دم جبر.

بخلاف هدي التمتع والقران فأكثر أهل العلم على جواز الأكل منه، بل على استحبابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾، ولأنه دم شكر لله حيث مكَّنه من الجمع بين نسكي الحج والعمرة في سفر واحد.

وقيل: لا يجوز الأكل منه واعتبروه دم جبر.

والصحيح القول الأول، ويشهد له ظاهر الآية، فإن فيها- مع الأمر بالأكل- ترتيب قضاء التفث على الذبح والطواف، ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقران، فإن سائر الدماء يجوز ذبحها قبل هذه الأفعال وبعدها، وقد ذبح ﷺ عن أزواجه بقرًا وكن قارنات ودخل عليهن يوم النحر بلحم من ذلك(١).

٢٤- استحباب إطعام البائس الفقير من لحوم الهدي والأضاحي، وعدم جواز بيع شيء منها؛ أو إعطاء الجزار أجرته منها، وقيل بوجوب الإطعام منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

٢٥- وجوب إكمال مناسك الحج وإتمامها كما شرع الله والتحلل من الإحرام وإزالة التفث بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

٢٦- وجوب الوفاء بالنذر من حج وغيره.

٢٧- وجوب طواف الإفاضة، وهو ركن من أركان الحج لا يصح الحج بدونه، ووجوب طواف الوداع، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ وأهمية الطواف بالبيت وفضله.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٢٠)، ومسلم في الحج (١٢١١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

٢٨- أن البيت الحرام أفضل وأقدم وأول بيت وضع للناس، لقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

٢٩- فضل هذه الأيام المعلومات، واستحباب الإكثار فيها من الأعمال الصالحة، من الحج والتكبير والتهليل والتحميد وصيام يوم عرفة وصلاة العيد وخطبتيه وذبح الهدي والأضحية، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، وأعمال البر والخير، وأهم ذلك وأعظمه أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما سبق ذكره من مناسك الحج، من شهود المنافع وذكر اسم الله على الهدي والأضاحي، والأكل منها والإطعام، وقضاء التفث والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق، وأشار إليها بإشارة البعيد تعظيمًا لها، والقصد من الإشارة- مع تعظيم المشار إليه- التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥].

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ» شرطية.

﴿يُعَظِّمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿حُرُمَٰتِ﴾ جمع حُرْمَة.

و﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كل ما أوجب الله احترامه وحرم استحلاله، كالحرم والإحرام ومحظورات الإحرام، والمناسك كلها من الهدايا وغيرها، وكذا ما أمر الله به من العبادات، وتعظيمها بإجلالها بالقلب ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله.

وكذا كل ما نهى الله عنه، وتعظيمها باجتنابها والبعد عنها.

عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى**

يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه»[(١)].

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فتعظيمه حرمات الله- تعالى؛ فعلًا لما أمر الله به وانتهاءً عما نهى الله عنه ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

ونكر ﴿خَيْرٌ﴾ وأطلقه؛ ليشمل كل أنواع الخير، أي: فهو خير له مطلقًا عند ربه في دينه ودنياه وأخراه، يجازيه عليه بالخير الكثير، والثواب الجزيل، في الدنيا، والآخرة مما لا يقدر قدره إلا العلي الكبير.

وفي إضافة ضمير هذا المعظِّم لحرمات الله إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾ خالقه ومالكه ومدبره ومربيه الربوبية العامة والخاصة تشريف وتكريم له، وإشارة إلى عظمة هذا الخير، وتكفله- عز وجل- به.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: وأحللنا لكم جميع الأنعام، وبُني الفعل «أحلت» لما لم يسمّ فاعله؛ لأن المحلل معلوم وهو الله- عز وجل- وحده.

أي: وأحللنا لكم أكل جميع الأنعام إذا ذكيتموها على اسم الله- عز وجل، والمراد بالأنعام ما يشمل بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية الإبل والبقر والضأن والمعز وغيرها.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء متصل، و﴿مَا﴾ موصولة في محل نصب على الاستثناء.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُقص ويُقرأ عليكم، والمعنى: إلا الذي يقرأ ويقص عليكم تحريمه في كتاب الله- عز وجل، وسنة رسوله ﷺ في المستقبل، وما سبق تلاوة تحريمه عليكم فيهما، فقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يشمل ما تلي عليهم تحريمه قبل نزول هذه الآية، وما يتلى عليهم بعد ذلك في الكتاب والسنة، وإنما عبر بالمضارع للتنبيه على أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره في الذهن، والتنبه له، وذلك يشمل: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه، والصيد في الحرم وحال الإحرام، وكل ذي ناب من السباع، وكل

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥).

ذي مخلب من الطير والفواسق، وغير ذلك مما حرمه الله.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال ﷺ: «**يحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير**»(١).

قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ هذا من تعظيم حرمات الله عز وجل، و﴿ٱلرِّجْسَ﴾ النجس الخبيث القذر حسًا ومعنى وحكمًا، والمراد به هنا: النجس معنى وحكمًا من الأعمال والأقوال الباطلة والمحرمة، وسماها رجسًا تقبيحًا لها وتنفيرًا منها.

﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾، ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو عبادة الأوثان.

و﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾: جمع وثن، وهي الأصنام والأنداد والمعبودات من دون الله، فهي رجس وعبادتها رجس، وهي سبب الرجز والعذاب.

أي: ابتعدوا كل البعد عن عبادة الأوثان وتعظيمها وعما يقرب إليها، والأمر بالاجتناب أبلغ في التحريم والنهي من الأمر بالترك.

وقال السعدي(٢): «والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله أكثر المفسرين، وإنما هي للتبعيض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًّا عنها عمومًا، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصًا».

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وابتعدوا كل البعد عن قول

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٢).

الكذب والباطل وشهادة الزور والشرك، وهو رأس الزور وأعظمه.

والزور مأخوذ من الإزورار، وهو الانحراف عن الحق، والميل والعدول عن الصواب، وليس هناك أشد انحرافًا وميلًا وبعدًا عن الحق والصواب ممن زعم أن لله شريكًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي قرن الأمر باجتناب قول الزور بالأمر باجتناب الأوثان دليل على عظم شهادة الزور.

عن أيمن بن خريم رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قام خطيبًا فقال: «**يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكًا بالله**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾»[(١)].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «**تُعْدَلُ شهادة الزور بالشرك**، وقرأ هذه الآية...»[(٢)].

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**- وكان متكئًا فجلس، فقال: **ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[(٣)].

ولهذا ذكر الله- عز وجل- أن من صفات عباد الرحمن عدم شهادة الزور. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الشهادات (٢٢٩٩)، وأحمد (٤/ ١٧٨، ٢٣٣، ٣٢٢)، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٣٦).

(٣) أخرجه البخاري- في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان- بيان الكبائر وأكبرها (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

قوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ حال، أي: فاجتنبوا الشرك وقول الزور حال كونكم حنفاء لله، أي: مخلصين له العبادة.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ قال: «حجاجًا لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام قال الله للمسلمين: «**حجوا الآن غير مشركين بالله**»(١).

وعن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: «كان الناس يحجون وهم مشركون، فكانوا يسمونهم: حنفاء الحجاج، فنزلت: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ يقول: حجاجًا غير مشركين به»(١).

و﴿حُنَفَآءَ﴾: جمع حنيف، وهو المائل عن الشرك إلى التوحيد، وعن الباطل إلى الحق، ولهذا بيّنه بقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: حال كونكم غير مشركين به، أي: غير مشركين معه غيره، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وكما قال إبراهيم- عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

والمعنى: مائلين إلى توحيد الله- عز وجل- مستقيمين عليه غير مشركين به شيئًا.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

بعدما أمر باجتناب الشرك والميل عنه إلى توحيد الله ضرب مثلًا في فظاعة حال المشرك وشدة هلاكه وضلاله وبعده عن ربه، وعن الحق والهدى، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الآية: ٧١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩١).

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الواو عاطفة، و«من» شرطية، ﴿يُشْرِكْ﴾ فعل الشرط، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة، أي: فكأنما سقط من السماء.

﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الخاء وتشديد الطاء: «فتخَطَّفُه».

وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

أي: فتخطفه الطير في الهواء، وتأخذه بسرعة، وتمزقه قطعًا في حواصلها.

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ قرأ أبوجعفر: «الرياح»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيحُ﴾.

أي: أو تعصف به الريح وتلقيه وترمي به.

﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: في مكان بعيد كل البعد، مُهلك لمن هوى وسقط فيه.

والمعنى: أن من أشرك بالله فقد أهلك نفسه غاية الإهلاك، حيث استبدل بالتوحيد وأعلى عليين الشرك وأسفل سافلين، وفي هذا أعظم التخويف، وأبلغ التنفير عن الشرك، فشتان بين من وحد الله- عز وجل- فهو يترقى في مصاعد السمو إلى أعلى عليين، وبين من أشرك بالله فهبط بنفسه إلى أسفل سافلين، وشتان بين من عبد الله وحده واتبع سبيله، وبين من تفرقت به السبل واحتوشته الشياطين من كل جانب فصار بينهم شذر مذر، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي أمرتكم به من تعظيم حرمات الله واجتناب الشرك وقول الزور وغير ذلك، وتعظيم شعائر الله بفعل المأمورات وترك المحظورات، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ»: شرطية، ﴿يُعَظِّمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

و﴿شَعَٰٓئِرَ﴾ جمع شعيرة، وهي: المعالم الظاهرة للدين مما أمر الله بتعظيمه وإجلاله واحترامه من الهدي والأضحية، من البدن وغيرها، ومن الصفا والمروة، وغير ذلك من

مشاعر الحج ومناسكه مما أمر الله به، فكل ذلك من شعائر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومنه سمي إشعار البدن، أي: إعلامها؛ ليعلم أنها هدي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: ٢].

وتعظيم شعائر الله عمومًا بإجلالها واحترامها ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله- عز وجل- وكما أمر.

وخص بعض أهل العلم ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ هنا بالهدي، ولا شك أنه من أعظم الشعائر، ومن أول ما يدخل في عموم الآية؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

وتعظيم الهدي والأضاحي باستحسانها واستسمانها وتمام صفاتها وأوصافها، وعدم التعرض لها أو تحميلها ما يضر بها، أو التقصير في طعامها وشرابها، وبذل الثمن الغالي فيها، وعدم المماكسة في شرائها، وأن يتولى نحرها أو ذبحها بنفسه، أو يحضرها، ونحو ذلك.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «تعظيمها: استحسانها واستسمانها»[(١)].

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف- رضي الله عنه- قال: «كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في الأضاحي- أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين ويذكر سمينين- قال: «وقال يحيى بن سعيد: سمعت أبا أمامة بن سهل- وذكره». انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحج- باب التحميد والتسبيح والتكبير (١٧١٢)، ومسلم في الأضاحي- استحباب التضحية (١٩٦٦)، وأبوداود في الأضاحي (٢٧٩٣)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٠).

فحيل يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد[١]»[٢].

وعن أبي رافع رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوئين خصيين»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**دم عفراء**[٤] **أحب إلي من دم سوداوين**»[٥].

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ الضمير ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعود إلى ﴿شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ وتعظيمها، أي: فإن تعظيم شعائر الله ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: برهان ودليل على تقوى القلوب لله- عز وجل، وإجلالها له، وخشيتها منه- عز وجل، التي تحمل على فعل أوامره وترك نواهيه.

وخص القلوب بالتقوى؛ لأنها موضع التقوى والصلاح كما قال ﷺ: «**التقوى هٰهنا**- ويشير إلى صدره»[٦].

وقال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٧].

وفي إضافة الشعائر إليه- عز وجل، والإخبار بأن تعظيمها من تقوى القلوب حث وترغيب في تعظيم شعائر الله واحترامها، والقيام بها كما شرعها الله- عز وجل.

---

(١) أقرن: ذي قرنين، فحيل: كامل الخلقة، لم تقطع أنثياه، يأكل في سواد: أي في بطنه سواد، ويمشي في سواد، في رجليه سواد، وينظر في سواد: أي: مكحول في عينيه سواد.

(٢) أخرجه أبوداود في الأضاحي- ما يستحب من الضحايا (٢٧٩٦)، والنسائي في الضحايا (٤٣٩٠)، والترمذي في الأضاحي- ما يستحب من الأضاحي (١٤٩٦)، وابن ماجه في الأضاحي- ما يستحب في الأضاحي (٣١٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٨، ٣٩١)- ومعنى «موجوءين» أي: خصيين، أي: قد قطعت خصيتاهما أورضتا.

(٤) العفراء: البيضاء بياضًا ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها؛ لأن دمها أحب إليه ﷺ من دم سوداوين.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٧).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة و الآداب (٢٥٦٤)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء».

وفي رواية عن علي- رضي الله عنه- قال: «المقابلة: ما قطع طرف أذنها، والمدابرة: ما قطع من جانب الأذن، والشرقاء: المشقوقة، والخرقاء: المثقوبة»[١].

وعنه- رضي الله عنه- قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يضحى بأعضب القرن والأذن[٢]»[٣].

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء[٤] التي لا تنقي**»[٥].

قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: لكم في الهدي من البدن وغيرها منافع دنيوية من ركوبها وشرب لبنها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها، وهذه المنافع الدنيوية عون على المنافع الدينية والأخروية.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: إلى وقت محدد، وهو وقت نحرها وذبحها، وهو يوم النحر وأيام التشريق، الأيام المعدودات.

والمعنى: أنهم ينتفعون بالهدي من البدن وغيرها عند الحاجة قبل نحرها وذبحها في هذه الأيام.

---

(١) أخرجه أبوداود في الأضاحي- ما يكره من الضحايا (٢٨٠٤)، والنسائي في الضحايا (٧٢، ٤٣)، والترمذي في الأضاحي- ما يكره من الأضاحي (١٤٩٨)، وابن ماجه في الأضاحي- ما يكره من الأضاحي (٣١٤٢)، وأحمد (١/ ٨٠، ١٠٨). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أعضب القرن: مكسور القرن، وأعضب الأذن: مقطوع الأذن.

(٣) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨٠٥)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٧)، والترمذي في الأضاحي (١٥٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٥)، وأحمد (١/ ٨٣، ١٠٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أي: الهزيلة.

(٥) سبق تخريجه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا كان يسوق بدنة، قال: «اركبها» قال: إنها بدنة. قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة»(١).

وعن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبدالله سئل عن ركوب الهدي فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرًا**»(٢).

وذهب طائفة من السلف منهم ابن عباس- رضي الله عنهما، وجمع من التابعين إلى أن معنى قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: ما لم تُسم وتُعيَّن بدنًا أو هديًا، فإذا عينت فلا يجوز الانتفاع منها بشيء، لا لبنها ولا صوفها وشعرها وأوبارها ولا تركب.

والأظهر القول الأول، وهو جواز الانتفاع منها عند الحاجة، شريطة ألا يضُرّ ذلك بها.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: ثم محل الهدي من البدن وغيرها وانتهاؤها ﴿إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي إلى الكعبة والحرم. والمَحِل مكان الحلول، أي: ثم محل الهدي، والبدن، أي: المكان الذي تنحر وتذبح فيه الحرم، كما قال تعالى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: أن يبلغ الحرم.

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحرت ههنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم**»(٣).

وأيضًا: مِحل النسك والشعائر كلها الطواف بالبيت يوم النحر، وكان ابن عباس- رضي الله عنهما- يقول: «من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج- ركوب البدن (١٦٨٩)، ومسلم في الحج- ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها (١٣٢٢)، وأبوداود في المناسك (١٦٧٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٧٩٩)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في الحج- ركوب البدن (١٣٢٤)، وأبوداود في المناسك (١٧٦١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٠٢).

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨).

ٱلْعَتِيقِ ﴾»[١].

كما أن مناسك الحج وشعائره؛ من الوقوف بعرفة والمبيت بمنى ومزدلفة ورمي الجمار والطواف والسعي كلها تنتهي بانتهاء وقتها وبالطواف بالبيت العتيق.

الفوائد والأحكام:

١- الحث على تعظيم حرمات الله من مناسك الحج وغيرها، والقيام بما أوجبه الله والبُعد عما حرَّمه من محظورات الحج وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٢- عظم ما أعدَّه الله- عز وجل- لمن يعظم حرماته من الخير الكثير من عنده- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٣- إثبات الربوبية الخاصة لله- عز وجل- التي يربي بها أولياءه ويسددهم ويوفقهم ويثيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٤- امتنان الله- عز وجل- على العباد بتحليل جميع الأنعام، إلا ما دل الدليل على تحريمه، فالحلال منها بفضل الله غير محصور، والمحرم منها محدود محصور معدود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٥- أن مما حرم الله- عز وجل- ما ذكر في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣].

كما حرم ﷺ كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، والفواسق ونحو ذلك، مما تليَ تحريمه في الكتاب والسنة.

٦- وجوب اجتناب الرجس والشرك وعبادة الأوثان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

٧- وجوب اجتناب قول الزور وشهادة الزور، وأن ارتكاب ذلك من أكبر الكبائر حيث قرن بالشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٩٦)- من حديث عطاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما.

٨- وجوب توحيد الله- عز وجل- وإخلاص العبادة له بلا شريك؛ لقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

٩- عظم خطر الشرك وسوء عاقبة ومآل صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

١٠- بلوغ القرآن الغاية في التنفير عما يريد التنفير منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، فمثَّل المشرك بالله بأبشع صورة وأقبح مثال.

١١- مشروعية إشعار البدن والهدي ليعلم أنها هدي.

١٢- الترغيب في تعظيم شعائر الله وأعلام دينه، من مناسك الحج وغيرها، بالقيام بها وإتمامها، وتعظيم البدن والهدي باستحسانها واستسمانها، وعدم التعرض لها ومنعها أو إلحاق الضرر بها، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾.

١٣- أن تعظيم شعائر الله من أعظم الدلائل على تعظيم القلوب لله- عز وجل- وتقواه.

١٤- أن مدار صلاح الأعمال وفسادها على القلوب.

١٥- جواز الانتفاع بالبدن والهدي بركوبها وشرب لبنها ونحو ذلك عند الحاجة من غير إضرار بها إلى وقت نحرها وذبحها؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٦- أن محل ذبح البدن والهدي هو الحرم كله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

١٧- أن مناسك الحج وأعماله ومشاعره فيها المنافع والأجور أيام الحج، فإذا انتهت أيامه انتهت تلك المنافع فالوقوف بعرفة والمبيت بالمزدلفة ومنى ورمي الجمار كل هذا ينتهي بانتهاء أيام الحج وأعماله التي تنتهي بالطواف بالبيت العتيق للإفاضة ثم الوداع؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أنه شرع الحج والمناسك والشعائر ونحر البدن وذبح الهدي لهذه الأمة، ثم ذكر أنه- عز وجل- جعل لكل أمة منسكًا، فشرع لكل أمة التعبد لله- عز وجل- والتنسك له بذبح الهدي والقرابين، وإراقة الدماء باسمه- عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي: ولكل أمة من الأمم، والأمة: الجماعة، والمراد لكل أتباع دين من الأديان السماوية.

﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «منسِكًا» هنا وفي الموضع الذي بعده بكسر السين على معنى الاسم كالمسجد والمطلع، أي: ولكل أمة جعلنا وشرعنا موضعًا للنسك والعبادة، ومكانًا لذبح الهدي، وهو الحرم.

وقرأ الباقون بفتح السين على المصدر: ﴿مَنسَكًا ﴾، أي: نُسكًا يتعبدون به من الحج والعمرة وغير ذلك، ونسكًا يتقربون بذبحه إلى الله- عز وجل- من الهدي والأضحية.

﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يذكروا اسم الله على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم عند نحرها وذبحها، فيقولوا: «بسم الله والله أكبر»؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر، ووضع رجله على صفاحهما»(١).

وعن زيد بن أرقم- رضي الله عنه- قال: قلت: أو قالوا: يا رسول الله، ما هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي- من ذبح الأضاحي بيده (٥٥٦٥)، ومسلم في الأضاحي- استحباب الضحية وذبحها مباشرة (١٩٦٦)، وأبوداود في الأضاحي (٢٧٩٤)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣٢١٠).

الأضاحي؟ قال: «**سنة أبيكم إبراهيم**» قالوا: وما لنا منها؟ قال: «**بكل شعرة حسنة**» قالوا: فالصوف؟ قال: «**بكل شعرة من الصوف حسنة**»(١).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: «ذبح النبي ﷺ يوم النحر كبشين أقرنين أملحين موجوءين، فلما وجههما قال: «**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك وعن محمد وأمته، ثم سمى الله، وكبَّر وذبح**»(٢).

وفي رواية عنه: «أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بكبش فذبحه هو بنفسه، وقال: «**بسم الله والله أكبر، هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**»(٣).

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: فمعبودكم معبود واحد أنتم وجميع الأمم، وإن اختلفت الشرائع ونسخ بعضها بعضًا، فالأنبياء كلهم يدعون إلى عبادة الله- عز وجل- لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات، أو إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(٤).

﴿فَلَهُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«له» متعلق بـ﴿أَسْلِمُوا﴾ قدم عليه لإفادة الحصر، أي: فله وحده دون غيره. ﴿أَسْلِمُوا﴾ أي: استسلموا بالتوحيد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨)، وابن ماجه- في الأضاحي- ثواب الأضحية (٣١٢٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٧٩٥)، وابن ماجه في الأضاحي- أضاحي رسول الله ﷺ (٣١٢١)، والدارمي في الأضاحي (١٩٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٣).

(٣) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨١٠)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢١)، وأحمد (٣/ ٣٥٦، ٣٦٢)، وقال الترمذي: «حديث غريب»..

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، وأبوداود في السنة (٣٦٧٥).

والإخلاص والانقياد والطاعة.

فإله جميع الخلق إله واحد وهو الله- عز وجل، ودينهم واحد وهو الإسلام.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ التبشير والبشارة: الإخبار بما يسر القلوب ويبهج النفوس مأخوذ من البشرة؛ لأن الخبر السار إذا ورد على القلب سر وفرح وظهرت آثار ذلك على الوجه والبشرة فيستنير الوجه وتنبسط البشرة.

عن كعب بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(١).

والإخبات: سكون الجوارح على وجه الخشوع والخضوع والتواضع لله- عز وجل، والخَبْت في الأصل: المكان المنخفض المطمئن من الأرض.

فـ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: الخاشعين لله- عز وجل- الخاضعين المتواضعين له، المطمئنين المخلصين لله، الوجلين عند ذكره، كما وصفهم الله- عز وجل- بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهذا تفسير لما قبله، ولم يذكر المبشَّر به وأطلقه لتعظيمه وتعميمه، وليذهب فيه الفكر كل مذهب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ عندهم، أو ذكروه بأنفسهم ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل: الخوف الشديد المقرون بهيبة ومحبة، أي: خافت قلوبهم هيبة منه وتعظيمًا ومحبة له وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠٢)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ الصَّابِرِينَ: جمع صابر، والصبر لغة: الحبس والمنع، وشرعًا: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عما حرم الله. وهو أنواع الثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والمعنى: والصابرين على الذي يصيبهم في ذات الله عند القيام بأمره، والصبر عن نهيه، وعلى ما يصيبهم من المصائب في أنفسهم وأهليهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

والصبر من أعظم صفات المؤمنين وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قرأ أبوعمرو في رواية: «وَالْمُقِيمِي الصَّلاةَ» بنصب الصلاة، وعليه يكون حذف النون من «وَالْمُقِيمِي» للتخفيف.

وقرأ بقية القراء بجر ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على الإضافة، وعليه يكون حذف النون من ﴿وَٱلۡمُقِيمِي﴾ بسبب الإضافة.

أي: والذين يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، ولهذا جاء التعبير بالإقامة هنا، وفي أكثر المواضع في القرآن الكريم والسنة النبوية دون أن يقول: «يصلون» تنبيهًا على أن المهم، أن تكون الصلاة تامة كاملة مستقيمة.

وهي هنا تشمل الفرائض وغيرها من النوافل.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ «من»: تبعيضية، و«ما» موصولة أو مصدرية.

أي: ومن بعض الذي رزقناهم، أو من بعض رزقنا ينفقون. فالمطلوب إنفاق البعض مما رزقناهم.

ويحتمل أن تكون «من» بيانية، أي: ومن الذي رزقناهم، أو من رزقنا ينفقون، بعضه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه. وانظر في تفصيل الكلام على الصبر وبيان فضله: الكلام في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الآية: ٣٥].

أو كله، وعلى هذا فيجوز أن ينفق الإنسان جميع ماله- كما فعل أبوبكر الصديق- رضي الله عنه- حسب قوة إيمانه واعتماده على الله وثقته بما عند الله- ما لم يحتج لغيره فلا يجوز.

وقوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾، أي: أعطيناهم من الأموال وغير ذلك، وفيه إشارة إلى أن المال مال الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧].

﴿يُنفِقُونَ﴾ أي: يخرجون المال ويصرفونه في مصارفه الشرعية من النفقات الواجبة من الزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، ومن النفقات المستحبة والصدقات في وجوه البر والخير، شكرًا لله- عز وجل- واعترافًا وإقرارًا بفضله، فجمعوا بين الخوف من الله وإقامة الصلاة، وهذا إحسان في عبادة الله- عز وجل، وبين الإنفاق مما رزقهم الله من الأموال، على أولادهم وأهليهم، وعلى الفقراء والمساكين، وفي وجوه البر والخير، وهذا إحسان إلى عباد الله، فجمعوا بين الإحسانين وهذا غاية الإحسان، والله يحب المحسنين.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله- عز وجل، وفضله على العباد بجعله لكل أمة منسكًا يتقربون إلى الله- عز وجل- بنحره وذبحه وذكر اسمه- عز وجل- عليه، وجعله لهم نسكًا وعبادات يتعبدون لله- عز وجل- بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ﴾.

٢- وجوب ذكر اسم الله- عز وجل- عند الذبح والنحر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ﴾.

٣- أن الأضحية والهدي لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام، الأزواج الثمانية: الإبل والبقر والضأن والمعز.

٤- أن إله الخلق ومعبودهم واحد، وهو الله- عز وجل، لا معبود لهم غيره ولا رب لهم سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٥- وجوب الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ﴾.

٦- البشارة للمخبتين الخائفين الوجلين عند ذكر الله، الخاضعين له، المتذللين لعظمته؛

لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

٧- في إطلاق بشارة المخبتين إشارة لعظمة ما أعد لهم، أي: وبشر المخبتين بما لا يُعلم كنهه وكيفه وكمه من ألوان النعيم، وفي هذا ما فيه من الترغيب في الخشوع والخضوع لله- عز وجل.

٨- مدح المخبتين الخاشعين بذكر صفاتهم العظيمة، وهي وجل قلوبهم عند ذكر الله، والصبر على ما أصابهم، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٩- الترغيب والحث على الخوف من الله- عز وجل، وذكره، والصبر على أقداره، وإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله، والتنبيه على فضل هذه الأعمال.

١٠- أن الرزق كله من الله- عز وجل، من بهيمة الأنعام وغيرها من الأموال، وغير ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

حض عز وجل في الآيات السابقة على تعظيم الشعائر والنسك، وذكر اسم الله- عز وجل- عليها، وامتن على العباد بأنه جعل لكل أمة منسكًا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ثم أتبع ذلك بالتنويه بشأن البدن وتعظيمها، من بين الشعائر، ومن بين بهيمة الأنعام هديًا كانت أو أضحية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ البدن: جمع بَدَنة، وهي الإبل، ذكرًا كانت أو أنثى، وسميت بُدنًا لبدانتها وضخامتها وكبرها، وقد اشتهر إطلاقها في الشرع على ما يهدى منها للحرم.

فالبدن في الأصل هي الإبل خاصة، وهي المرادة في الآية بدليل قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي: سقطت وهذا وصف خاص بالإبل فإنها تنحر قائمة.

ولكن اسم البدن صار يطلق على البقر عند بعض أهل العلم؛ لأن الشرع جعلهما سواء في الإجزاء كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة»(١).

وفي رواية: «كنا ننحر البدنة عن سبعة. فقيل: والبقرة؟ قال: وهل هي إلا من البدن»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- الاشتراك في الهدي (١٣١٨)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨٠٧)، والنسائي في الضحايا (٤٣٩٣)، والترمذي في الحج (٩٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٢).

(٢) أخرجها مسلم في الموضع السابق.

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر».

ومن أهل العلم من قال: لا تطلق البدنة على البقرة لما ورد في بعض روايات حديث جابر المتقدم: «نحرنا مع رسول الله ﷺ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة». قالوا: فالعطف يقتضي المغايرة بين البدنة والبقرة.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن**»(١).

قالوا: فتفريقه ﷺ بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال لها بدنة، وقسم الشيء لا يكون قسيمه ومقابلًا له. قالوا: وعلى هذا لو أن رجلًا نذر أن ينحر بدنة لم تجزئه البقرة.

وخص البدن بالذكر- وهي الإبل- دون غيرها من بين بهيمة الأنعام مع أنها كلها مما يشرع في الهدي؛ لبيان أن البدن أفضل الهدي؛ لعظمها وشرفها ومكانتها عند الناس، ولكبرها وكثرة لحمها، ولما لها من صفات عظيمة اختصها الله بها من بين سائر البهائم، ولهذا وجه الله- عز وجل- الأنظار للتأمل في عظيم خلقها، والاستدلال بذلك على ربوبيته وعظيم قدرته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]، وقرن عز وجل خلقها بخلق السماء والجبال والأرض.

وذكر عز وجل أن من علامات القيامة وأهوالها الشديدة إهمال الإبل العشار، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ [التكوير: ٤]، أي: أهملت وتركت بلا راع وسيبت من شدة هول ذلك اليوم مع أنها من أنفس الأموال عند العرب.

هذه خلقتها العظيمة وهذه مكانتها وقيمتها الرفيعة من حيث الأصل، فكيف إذا عُينت هديًا للبيت الحرام أو أضحية، فلا تسأل عن عظيم فضلها وشرفها وبركتها وكثرة خيرها، وجزيل ثوابها؛ لأن الله نوّه بها وامتنَّ على عباده بجعلها من شعائره عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة- فضل الجمعة (٨٨١)، ومسلم في الجمعة- الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٥٠)، وأبوداود في الطهارة (٣٥١)، والنسائي في الإمامة (٨٦٤)، والترمذي في الجمعة (٤٩٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٢).

﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾.

﴿شَعَٰٓئِرِ﴾ جمع شعيرة، وهي العلامة، أي: جعلناها لكم جعلًا شرعيًا من أعلام دين الله وشريعته التي شرعها لعباده، ومن مناسك حج بيته الحرام.

ولهذا يسن إشعارها بطعنها في صفحة سنامها بحديدة ونحو ذلك؛ ليعلم أنها هدي، فلا يتعرض لها بأذى تعظيمًا لها.

والمعنى: والبدن جعلناها شرعًا لكم من شعائر الله التي يتقرب بها إلى الله- عز وجل، وتهدى إلى بيته الحرام، وهي أفضل الهدي، ويجب احترامها وتعظيمها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢].

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: ٣٣]، أي: لكم فيها خير كثير ومنافع عظيمة، في دينكم ودنياكم وأخراكم، ففيها خير في الدين من حيث إنها شعائر ونسك يتقرب إلى الله- عز وجل- بنحرها وإهراق دمها.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أُنفقت الورِق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد**»(١).

وفيها خير كثير ومنافع في الدنيا؛ من ركوبها وشرب ألبانها، والانتفاع بأوبارها وأشعارها من غير إضرار بها، وأكل لحومها والتصدق بها والإهداء منها، والإفادة من جلودها.

وفيها خير كثير وثواب عظيم في الآخرة، فهي من أعظم الشعائر والقربات.

عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا**»(٢).

---

(١) أخرجه الدارقطني في الأشربة وغيرها- الصيد والذبائح والأطعمة ونحو ذلك (٤/ ٢٨٢) حديث (٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي- ما جاء في فضل الأضحية (١٤٩٣)، وابن ماجه في الأضاحي- ثواب الأضحية (٣١٢٦). وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ أي: فاذكروا اسم الله على هذه البدن عند نحرها بقولكم: «باسم الله»، والأمر للوجوب.

﴿صَوَافَّ﴾ حال، وهي: جمع صافة، والمعنى: حال كون البدن قائمة على ثلاث قوائم معقولة اليد اليسرى.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿صَوَافَّ﴾ قال: «قائمة على ثلاث قوائم معقولة إحدى يديها»(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما: «أنه أتى رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها، فقال: ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ»(٢).

وعن جابر- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى- قائمة على ما بقي من قوائمها»(٣).

وتذبح البقر والغنم على جنبها الأيسر موجهة إلى القبلة، ويضع رجله على صفحة رقبتها ليكون أثبت له وأمكن؛ لئلا تضطرب فلا يتمكن من إتمام ذبحها فتتأذى بذلك وتؤذيه.

ويستحب أن يكبر بعد التسمية ويدعو بما ورد، فيقول: بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا منك ولك، اللهم تقبل مني ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أُتي بكبش فذبحه، فقال: «**بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضحِّ من أمتي**».

وعنه- رضي الله عنه- قال: «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الحج- نحر الإبل مقيدة (١٧١٣)، ومسلم في الحج- نحر البدن مقيدة (١٣٢٠)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٨).

(٣) أخرجه أبوداود في المناسك- كيف تنحر البدن (١٧٦٧).

حين وجهها: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته ثم سمى الله وكبّر، وذبح**»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ: «أمر بكبش أقرن، يطأ في سواد، ويبرك في سواد، وينظر في سواد، فأتى به ليُضحي به، فقال لها: يا عائشة هلمي المدية، ثم قال: اشحذيها بحجر، ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه، ثم ذبحه، ثم قال: باسم الله، اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد، ثم ضحى به»(٢).

كما يستحب أن يتولى الإنسان بنفسه نحر وذبح ما يتقرب به إلى الله- عز وجل- من أضحية أو هدي، كما كان ﷺ ينحر أضحيته بنفسه(٣)، ونحر ثلاثًا وستين بدنة من هديه ﷺ بيده الشريفة(٤). فإن لم يتمكن من ذلك فيستحب له حضور نحرها أو ذبحها.

وعن أبي رافع رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أُتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية، ثم يقول: «اللهم إن هذا عن أمتي جميعًا، من شهد بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ» ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ويقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمها جميعًا المساكين، ويأكل هو وأهله منها»(٥).

قوله: ﴿**فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا**﴾ أي: سقطت جنوبها، والجنوب: جمع جنب، وهو الشق، أي: إذا ماتت بعد نحرها وذبحها وسكنت حركتها، عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «ولا تُعَجِّلوا النفوس أن تزهق»(٦).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان**

---

(١) سبق تخريجها.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٦٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٢).

(٣) كما سبق في حديث ابن عباس وجابر وعائشة- رضي الله عنهم.

(٤) سبق تخريجه من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٨، ٣٩١).

(٦) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٥).

على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»(١).

وعن أبي واقد الليثي- رضي الله عنه- قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يَجبُّون أسنمة الإبل، ويقطعون إليات الغنم، فقال: «**ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة**»(٢).

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ كقوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: ٢٨].

وفي ترتيب الأكل والإطعام على وجوب جنوبها، أي: سقوطها ترتيب الجزاء على الشرط إشارة إلى المبادرة بالأكل منها والإطعام، ولهذا كان من السنة أن يكون أول ما يأكله الإنسان يوم النحر من هديه وأضحيته.

والخطاب للمُهدي والمضحي، والأمر في الموضعين للاستحباب، أي: فإذا نحرت فسقطت ميتة بعد النحر، فكلوا منها وأطعموا، وقيل: للوجوب، وقيل: للإباحة.

و﴿ٱلْقَانِعَ﴾ الذي يقتنع بما أعطي، أو بما عنده، ويتعفف ولا يسأل، مأخوذ من القناعة، وهي الرضى بما قُسم له.

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض للناس ويسألهم.

قال زهير(٣):

على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

وقال الآخر:

يعطي ذخائر ماله ... معترَّه قبل السؤال(١)

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد- الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبوداود في الأضاحي(٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠).

(٢) أخرجه أبوداود في الصيد- باب في صيد قطع منه قطعة (٢٨٥٨)، والترمذي في الصيد- ما قطع من الحي فهو كميت (١٤٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وأخرجه ابن ماجه في الصيد- ما قطع من البهيمة وهي حية (٣٢١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «ديوانه» ص(١١٤).

وقيل: القانع الذي يسأل بتذلل، والمعتر: الذي يتعرض ولا يسأل. وقيل غير ذلك.

وقد استحب بعض أهل العلم- لهذه الآية- تجزئة الأضحية ثلاثة أجزاء، يُهدي ثلثًا، ويتصدق بثلث، ويأكل ثلثًا.

وعلى هذا يدل قوله ﷺ: «**إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم**» وفي رواية: «**فكلوا وادخروا وتصدقوا**» وفي رواية: « **فكلوا وأطعموا وادخروا**»(٢).

ولا يجوز بيع شيء منها ولا إعطاء الجزار أجرته منها، ولا بيع جلدها ووبرها وصوفها، بل يَنتفع به أو يتصدق به أو يهديه.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هكذا جعلناها مسخَّرة لكم مذللة منقادة، تركبونها وتشربون من ألبانها، وتنحرونها وتأكلون لحومها، وتنتفعون من أصوافها وأشعارها وأوبارها وجلودها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣].

قال الزمخشري(٣): «ولولا تسخير الله لم تُطَق، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرمًا وأقل منها قوة، وكفى بها يتأبد من الإبل شاهدًا وغيره».

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأجل أن تشكروا الله- عز وجل، أو لكي تشكروا الله- عز وجل، اعتقادًا بقلوبكم، وإقرارًا بألسنتكم، وعملًا بجوارحكم، على ما أنعم به عليكم من تسخير البدن وغير ذلك بالاستعانة بذلك على طاعة الله- عز وجل، والقيام بما أوجب الله، والبعد عن ما نهى الله عنه. وفي هذا تعريض بالمشركين الذين جعلوا الكفر مكان الشكر.

وكل نعمة تتجدد على العبد تحتاج إلى شكر، وتوفيق الله العبد للشكر هو أيضًا

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ٢٩٧.

(٢) سبق تخريجها.

(٣) في «الكشاف» (٣/ ٣٤).

نعمة تحتاج إلى شكر، ولهذا يقر العبد ويعترف أنه لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره؛ كما قال ﷺ: «**سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

وقد أحسن القائل:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر(٢)

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾ قرأ يعقوب بالتاء على التأنيث: «تنال»، «تناله». وقرأ الباقون بالياء على التذكير.

هذه الجملة فيها معنىٰ التعليل والتأكيد للجملة قبلها، أي: سخرناها لكم لأجل أن تشكروا الله- عز وجل- بتقواه؛ لأنه لن يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم.

أي: ليس المقصود ذبحها فقط أو نحرها، وتقطيع لحمها، فلن ينال الله ولن يصل إليه لحوم هذه البدن ولا دماؤها؛ لأنه- عز وجل- هو الغني عما سواه، كما قال- عز وجل: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨].

وفي الآية إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية حيث كانوا ينضحون الكعبة بدماء البدن والهدي، ويلطخونها بدمائها ويضعون لحومها هنا وهناك حول الكعبة.

ويذبحون على النصب، ولها، ويهدون إليها القرابين، ويضعون عليها لحومها وينضحونها بدمائها.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾، أي: ولكن يناله التقوى منكم بامتثال أوامره

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الفاضل» (ص٩٥).

واجتناب نواهيه، وإخلاص التعبد له بنحر وذبح الهدي والأضاحي، وذكر اسمه- عز وجل- عليها، والتقرب إليه- عز وجل- بذلك، وبالأكل منها والتصدق والإهداء.

فشرع الله- عز وجل- هذه النسك لذكره- عز وجل- وتقواه؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ كما قال تعالى في مشروعية الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال ﷺ: «**إنما شرع الطواف والسعي ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»(١).

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢).

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرر هذا امتنانًا عليهم، وتذكيرًا لهم بعظيم نعمة الله عليهم فيها، أي: هكذا سخر الله- عز وجل- البدن وذللها لكم، تنتفعون بها منافع كثيرة، وتتقربون إلى الله- عز وجل- بنحر ما شئتم منها هديًا وأضحية وذكر اسم الله- عز وجل- عليها.

﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وهذا من أعظم الشكر المذكور بقوله قبل هذا: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومن أعظم التقوى المذكورة بقوله: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ففي الآية تأكيد وبيان لما قبلها.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ مصدرية، أي: على هدايته إياكم، هداية دلالة وإرشاد وبيان، وهداية توفيق.

وقد تكون ﴿مَا﴾ موصولة والعائد محذوف.

والمعنى: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه بقولكم: «الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد»، ونحو ذلك. وبالتسمية والتكبير عند الذبح، وغير ذلك، شكرًا لله

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (١٨٨٨)، والترمذي في الحج (٩٠٢)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في البر- تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد- باب القناعة (٤١٤٣)، وأحمد (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩).

تعالى على هدايته إياكم وتوفيقه لكم لهذا الدين القويم والشرع المستقيم، ولأداء النسك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الخطاب، أي: بشر يا محمد المحسنين، وليبشرهم بذلك كل مبشر ممن هو أهل لذلك.

والبشارة: الإخبار بما يَسر ويُفرح القلب، ويبهج النفس، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا ورد على قلبه الخبر السار استنار وجهه واتسعت بشرته، و«كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر»(١).

و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جمع محسن، والإحسان نوعان: إحسان في عبادة الله- عز وجل- بالإخلاص له- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع رسوله ﷺ.

وقال ﷺ: «**الإحسان أنك تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٢).

والقسم الثاني: الإحسان إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، بوجوه الإحسان كلها؛ قولًا وفعلًا وبذلًا.

أي: بشر المحسنين في عبادة الله- عز وجل، إخلاصًا لله- عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، والمحسنين إلى عباد الله، بأداء حقوقهم والتصدق عليهم.

ولم يذكر المبشَّر به، بل أطلقه؛ لتعظيمه وتعميمه ليذهب فيه الذهن كل مذهب، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣، التوبة: ١١٢، الصف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أي: بشر المحسنين بشارة مطلقة، بشرهم بالسلامة من كل شر، والحصول على كل خير، بشرهم بخيري الدنيا والآخرة، بشرهم بالإحسان إليهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

بشرهم بالحسنى والزيادة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى: المثوبة الحسنة والجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم كما قال ﷺ(١).

بشرهم بالجنات وما فيها من ألوان النعيم، وبرحمة الله تعالى ورضوانه والأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بشأن البدن والامتنان على العباد بخلقها، وجعلها شرعًا من شعائر الله، وما فيها من الخير للناس في دينهم ودنياهم، وأنها أعظم وأفضل ما يتقرب به إلى الله- عز وجل- من بهيمة الأنعام، هديًا أو أضحية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ﴾.

٢- استحباب إشعار البدن وإعلامها ليعرف أنها هدي؛ لأن الله سماها وجعلها من الشعائر.

٣- وجوب ذكر اسم الله عند نحر البدن؛ لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ﴾.

٤- استحباب نحر البدن قائمة صافة على قوائمها معقولة يدها اليسرى؛ لقوله تعالى: ﴿صَوَافَّ ۖ﴾.

٥- لا يجوز سلخ البدن ولا غيرها من بهيمة الأنعام ولا تقطيعها ولا الأكل منها حتى تموت وتسكن حركتها تمامًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

٦- استحباب الأكل من الهدي إن كان هدي تطوع، أو هدي تمتع وقران، ومن الأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

فإن كانت فدية ترك واجب، أو فعل محظور، أو فوات الحج، أو إفساده، أو إحصار فلا يجوز الأكل منها عند أكثر أهل العلم وهو الصحيح.

وقيل يجوز الأكل منها ما عدا فدية الصيد والأذى.

٧- استحباب إطعام المحتاج من البدن والهدي سأل أو لم يسأل، وقيل بوجوب الإطعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

٨- أن من استعف عن السؤال مع حاجته ينبغي أن يطعم ولا ينسى، بل هو أولى بالإطعام ممن يسأل الناس؛ لهذا قُدّم ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ على ﴿المعتر﴾.

٩- امتنان الله- عز وجل- على العباد- بتسخير البدن- هذه المخلوقات العظيمة، يسيرونها كيف شاءوا، ويركبونها، ويشربون ألبانها ويستفيدون من أصوافها وأوبارها وغير ذلك، وينحرونها ويتقربون بها إلى الله- عز وجل، ويأكلون لحمها وينتفعون بجلودها، وغير ذلك، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾.

١٠- أن الحكمة من تسخير البدن للعباد؛ ليشكروا الله- عز وجل- على ذلك بالقيام بطاعته والبعد عن معاصيه، وذكر الله- عز وجل- وتكبيره وتعظيمه على هدايته لهم إلى دينه القويم وشرعه المستقيم، وحج بيته العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

١١- أن الله- عز وجل- إنما شرع البدن وغيرها من الهدي والأضاحي لأجل التقرب إليه- عز وجل، وذكر اسمه، وتقواه إذ لا يناله- سبحانه- شيء من لحومها ولا دمائها؛ لأنه- عز وجل- الغني عما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

١٢- التأكيد على وجوب الإخلاص لله- عز وجل- في ذبح القرابين من الهدي والأضاحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

١٣- البشارة المطلقة للمحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله- عز وجل- إخلاصًا لله- عز وجل، واتباعًا لرسوله ﷺ، وأحسنوا إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة

والمستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤- استحباب الأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الآيتين.

ولما ثبت أنه ﷺ «ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمَّى وكبَّر ووضع رجله على صفاحهما»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتىٰ يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا**»(١).

وعن زيد بن أرقم قال: قلت- أو- قالوا: «يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: **سنة أبيكم إبراهيم**. قالوا: ما لنا منها؟ قال: **بكل شعرة حسنة**. قالوا: فالصوف؟ قال: **بكل شعرة من الصوف حسنة**»(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «أقام رسول الله ﷺ في المدينة عشر سنين يضحي»(٢).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الأضحية على من ملك نصابًا، واستدلوا بما رُويَ عن أبي هريرة مرفوعًا: «من كان له سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا»(٣).

وأكثر أهل العلم على أن الأضحية سنة وليست بواجبة؛ لأن النبي ﷺ «ضحى عن نفسه بكبش وضحى عمن لم يضحّ من أمته بكبش»(٤) وبهذا سقط وجوبها عليهم.

وقد قال أبوسريحة: «كنت جارًا لأبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- فكانا لا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧)- وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٢١). وقال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٨): «على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل».

(٤) سبق تخريجه.

يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما»[١].

وعن أبي أيوب- رضي الله عنه- قال: «كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون، حتى تباهى الناس، فصار كما ترى»[٢].

* * *

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي- ما جاء في أن الشاة الواحدة عن أهل البيت (١٥٠٥)، وابن ماجه في الأضاحي- من يضحي بشاة عن أهله (٣١٤٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة صد الكفار للمسلمين عن البيت الحرام وأتبعه بذكر الحج وأداء المناسك والشعائر، فكأن قائلًا قال: كيف القيام بهذا مع صد المشركين للمسلمين عن البيت الحرام، وإخراجهم لهم من ديارهم؟ فوعد الله- عز وجل- ووعده حق- بالمدافعة عن الذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بفتح الياء وإسكان الدال وفتح الفاء من غير ألف: «يَدْفَع»، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها مع كسر الفاء: ﴿يُدَٰفِعُ﴾.

وهذا والله أعلم- توطئة وتمهيد لمشروعية الجهاد.

والمدافعة: مفاعلة من الدفع ومبالغة، أي: إن الله- عز وجل- يدافع عن الذين آمنوا بشدة وقوة، ومرة بعد أخرى، أي: يدافع عنهم من بغى عليهم من المشركين والكفرة الخائنين؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾، كما يدافع عنهم شر النفس والشيطان وشر الأشرار وكيد الفجار وشر طوارق الليل والنهار، وكل سوء ومكروه.

وهذه بشارة من الله- عز وجل- للمؤمنين، ووعد منه لا يتخلف؛ لأنه- عز وجل- لا يخلف الميعاد؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى عن النساء الصالحات القانتات: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤]، أي:

بحفظ الله لهن.

وقال ﷺ في حديثه لابن عباس- رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»(١).

قال قتادة: «والله ما يُضيِّع الله رجلًا قط حفظ له دينه»(٢).

وقال ابن القيم(٣): «فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادة الإيمان وقوته بذكر الله- تعالى، فمن كان أكثر إيمانًا وأكثر ذكرًا كان دفع الله- تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكرًا بذكر ونسيانًا بنسيان».

عن جندب بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم**»(٤).

فما أعظم سعادة من دافع الله- عز وجل- عنه وحفظه فلا يضيره أحد، ويا خيبة من تخلى الله- عز وجل- عن الدفاع عنه وعن حفظه، فهو عرضة لجميع الشرور والبلايا والآفات. فانتبه لهذا.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من الوهن والضعف وتسلط الأعداء عليهم إلا بسبب ضعف إيمانهم واختلافهم وتفرقهم، وتخليهم عن الأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية التي يدافع الله بها عنهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل لمدافعة الله الكافرين عن المؤمنين، فهو- عز وجل- يدفع الكافرين لخيانتهم وكفرهم، ويدافع عن المؤمنين لأمانتهم وإيمانهم.

و﴿خَوَّانٍ﴾ على وزن «فعّال» و﴿كَفُورٍ﴾ على وزن «فعول» كل منهما صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، لبيان الواقع الذي هم عليه، فقد بلغوا غاية الخيانة والكفر.

و﴿خَوَّانٍ﴾ كثير الخيانة للأمانات، والنقض للعهود والمواثيق، وعدم الوفاء بها،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٥).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١١).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥٧).

شديد الغدر، مخالف لأمر الله، مرتكب لنهيه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿كَفُورٍ﴾ شديد الجحود لربوبية الله- عز وجل- وألوهيته وأسمائه وصفاته ونعمه، لا يعترف بها ولا يشكرها.

والمعنى: إن الله- عز وجل- لا يحب من كان خوانًا للأمانات، ناقضًا للعهود والمواثيق، لا يحفظ أمانة، ولا يرعى ذمة، ولا يفي بعهد، كفور بربه وبدينه ونعمه، والكفر أشد الخيانة وأعظمها، بل يكره عز وجل من هذه صفته ويبغضه، وإذا كان الله- عز وجل- لا يحب من هذه صفته فهو- عز وجل- يحب من كان أمينًا وافيًا بالأمانات والعهود مؤمنًا بالله معترفًا بنعمه- عز وجل.

قوله- تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: «فأنزل الله- عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبوبكر- رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال»[1].

فهذه أول آية نزلت في القتال، كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما، وبه قال جمع من السلف- وقد استدل بعضهم بهذه الآية على أن سورة الحج مدنية.

قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب وأبوعمرو وعاصم بضم الهمزة ﴿أُذِنَ﴾. وقرأ الباقون بفتحها «أَذن».

وقرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر وحفص بفتح التاء من ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ بالبناء للمفعول، وقرأ الباقون بكسرها: «يُقاتِلون».

والإذن ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

[آل عمران: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وإذن شرعي، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، وكما في هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾.

والفرق بين الإذن الشرعي والإذن الكوني: أن المأذون به شرعًا لابد أن يكون محبوبًا لله- عز وجل، ولا يلزم وقوعه، كالأمر الشرعي والإرادة الشرعية.

والإذن الكوني لا يلزم أن يكون محبوبًا لله، ولابد من وقوعه، كالأمر الكوني والإرادة الكونية.

والمراد بالإذن في الآية الإذن الشرعي، أي: أذن الله- عز وجل- شرعًا للنبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون والكفار بالقتال، أو أذن الله بالقتال للمؤمنين الذين يُقاتِلون في سبيل الله.

﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ الباء: للتعليل، أي: لأجل أنهم ﴿ظُلِمُواْۚ﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان أو على سبيل التعدي، وهو النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

ومعنى ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ أي: لأجل أنهم ظلموا واعتدى عليهم الكفار وآذوهم، في أنفسهم وأموالهم وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم.

فأذن الله- عز وجل- شرعًا للمؤمنين بالقتال للكفار بسبب ظلم الكفار لهم، ومقاتلتهم إياهم بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي هذا أعظم الرد على من يقولون: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فقد ذكر الله- عز وجل- أن سبب الإذن في الجهاد هو دفع الظلم عن المسلمين، وقد قال- عز وجل- في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن الظلم للمسلمين أيضًا منعهم من الدعوة إلى الله- عز وجل، ونشر دينهم الذي أوجب الله عليهم نشره والدعوة إليه؛ لإخراج الناس من الكفر، وإنقاذهم من النار؛ ولهذا أوجب الله- عز وجل- على المسلمين قتال من يقف عائقًا في سبيل الدعوة

إلى الله ونشر الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

فالمقصود من الأمر بالقتال في هذه الآيات وفي غيرها إقامة دين الله وشرعه، ودفع الظلم عن المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال السعدي[1]: «وهذا يدل على حكمة الجهاد، فإن المقصود منه إقامة دين الله، أو ذب الكفار المؤذين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة».

وقال- أيضًا: «فلولا دفع الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين فخربوا معابدهم وفتنوهم في دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره».

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أي: وإن الله- عز وجل- على نصر المؤمنين على من ظلمهم من الكفار وقاتلهم ﴿لَقَدِيرٌ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَقَدِيرٌ﴾ للتوكيد، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، و«إنَّ»، ولام التوكيد.

و«قدير» على وزن فعيل «صفة مشبهة أو صيغة مبالغة» أي:إنه عز وجل ذو قدرة تامة على نصر المؤمنين على الكفار من غير قتال، ولكنه عز وجل يريد ابتلاء المؤمنين وامتحانهم بفرض القتال عليهم، وقد تكفل بنصرهم، ففي الآية بيان لقدرته على نصر

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠).

المؤمنين على الكفار بغير قتال لو شاء ذلك، ووعد منه- عز وجل- للمؤمنين بنصرهم على الكفار في قتالهم وجهادهم لهم، وحث وترغيب لهم على الصدق مع الله- عز وجل- وطلب النصر منه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].

وقد نصر الله- عز وجل- رسوله ﷺ وأولياءه وأذل أعداءهم في بدر وحنين وغيرهما من الغزوات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة: ٢٥].

قال ابن كثير[(١)]: «وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق بهم؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا فلو أمر المسلمين- وهم أقل من العشر- بقتال الباقين لشق عليهم ذلك، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيِّفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي- يعنون أهل منى- ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أؤمر بهذا**»[(٢)] فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب طائفة منهم إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجؤون إليه- شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ٤٣١- ٤٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٢) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٤٨).

ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾».

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من «الذين» في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ ﴾ وهذا من أعظم الظلم الذي وقع على المسلمين؛ لأن إخراج الإنسان من بلده، ومسقط رأسه ليس بالأمر السهل عليه، ولهذا قال ﷺ مخاطبًا مكة: «**والله إني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك**»(١).

أي: الذين أخرجهم المشركون من مكة، أي: اضطروهم للخروج منها، فهاجر منهم من هاجر إلى الحبشة، وإلى المدينة، فرارًا بدينهم بعد أن لقي كثير منهم صنوف الأذى والاضطهاد من المشركين.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ حال، أي: حال كون إخراجهم بغير حق يستوجب إخراجهم، وبلا ذنب ولا مبرر، بل ظلمًا وعدوانًا، وهذا يدل على أن الإذن بالقتال إنما كان في المدينة بعد الهجرة، وإخراج المسلمين من ديارهم. وهذه السورة فيها المكي والمدني.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ﴾ ﴿إِلَّآ ﴾ أداة استثناء، والاستثناء منقطع، و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء، والتقدير: إلا قولهم ربنا الله.

أي: فلا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، فآمنوا بربوبية الله- عز وجل، وعبدوه وحده لا شريك له، وهذا من تأكيد الشيء بما يوجب نقضه، فقولهم: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ لا يبرر إخراجهم وظلمهم، كيف وهذا مما يجب عليهم وعلى الناس أجمع أن يقولوه.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الآية: ١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقوله تعالى عن سحرة فرعون أنهم قالوا له: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ

---

(١) سبق تخريجه.

أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ «أي: من مكة إلى المدينة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني محمدًا ﷺ»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. وفي رواية أنه قال: أُخرج رسولُ الله ﷺ والله ليهلكن جميعًا، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قال أبوبكر: فعرفت أنه سيكون قتال.. وهي أول آية نزلت»(٢).

وعن عثمان بن عفان- رضي الله عنه، قال: «فينا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والآية بعدها، أخرجنا من ديارنا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، فهي لي ولأصحابي»(٣).

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الواو: استئنافية، و«لولا»: حرف امتناع لوجود ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب: «دفاع»، وقرأ الباقون: ﴿دَفْعُ﴾.

أي: ولولا أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض، بإقامة الجهاد في سبيل الله والحدود، فيدفع الله- عز وجل- المشركين بالمسلمين، ويدفع الله الشر والاعتداء عن قوم بسبب قوم آخرين ولو كانوا غير مسلمين، وهذا كما قال ﷺ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦- ٢٤٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٦٢)، ومسلم في الإيمان (١١١)، وأحمد (٢/ ٣٠٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ اللام في قوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ واقعة في جواب «لولا».

قرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير: «لهدِمت» بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ مبالغة في الهدم، أي: لهدمت بشدة وقوة، أو لهدمت مرة بعد مرة. والهدم: تقويض البناء وإسقاطه.

﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمع صومعة، وهي صوامع الرهبان ومعابدهم.

﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بِيعة، وهي كنائس اليهود ومعابدهم، وقيل: كنائس النصارى.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود، مُعَرَّبة عن كلمة «صلوتا»، وقيل: كنائس النصارى، وقيل: صلوات المسلمين.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «الصوامع التي تكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، وصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين»(١).

﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ جمع مسجد، وهي ممنوعة من الصرف؛ لأنها على وزن صيغة منتهى الجموع «فعالل»، وهي بيوت الله، وأماكن الصلاة والعبادة للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وإنما بدأ- والله أعلم- بالصوامع والبيع مراعاة للسبق الزمني؛ لأن عبادة وصلاة من تقدم من أهل الكتاب كانت فيها، وكذا «صلوات» على اعتبار أن المراد بها أيضًا مواضع عبادتهم.

قال الزجاج والأزهري: أي: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في كل شريعة نبي من الأنبياء- عليهم السلام- المكان الذي يصلي فيه هو وأتباعه، أي: لهدمت متعبدات كل فريق.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٧).

وقال الحسن: «يدفع عن مصليات أهل الذمة بالمؤمنين»[١].

قال ابن القيم[٢]- بعد ذكره هذين القولين: «وعلى هذا القول- يعني قول الحسن- لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول. وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه، فإن الآية دلت على الواقع، ولم تدل على كون هذه الأمكنة- غير المساجد- محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقر منها ما أقر بعده- وإن كانت مسخوطة له، كما أقر أهل الذمة- وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين- وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أُقروا عليها شرعًا وقدرًا، فهو يحب الدفع عنها- وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها- وإن كان يبغضهم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى».

﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: في المساجد بالصلاة فيها وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاعتكاف فيها وغير ذلك من أنواع الذكر والعبادة. و«كثيرًا» صفة لمصدر محذوف، أي: ذكرًا كثيرًا، أو وقتًا كثيرًا.

ويحتمل عود الضمير إلى كل ما ذكر من أماكن عبادة أهل الكتاب من الصوامع والبيع والصلوات، وأماكن عبادة المسلمين المساجد.

قال الطبري[٣]: «الصواب لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم. ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم».

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ الواو: استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم محذوف، و«من»: موصولة، أي: والله لينصرن الله الذي ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه، ويقاتل في سبيله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٣- ٢١٤).

(٣) في «جامع البيان» (١٦/ ٥٨٦).

وقد أكدت الجملة بالقسم ولام القسم ونون التوكيد، وهذا وعد من الله- عز وجل- لا يتخلف إذا وجد مقتضاه، وهو صدق النية والعمل في نصرة دين الله، دون وجود مخالفة تمنع تحقيق ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذه الجملة تعليل وتوكيد لما قبلها، واللام في قوله: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ للتوكيد.

أي: إنه- عز وجل- ذو القوة الشديدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ [الأنفال: ٥٢].

و«القوي»: الذي يفعل الشيء بلا ضعف، كما أن «القدير»: الذي يفعل الشيء بلا عجز.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

وحيث اجتمع في هذه الآية وصفه- عز وجل- بـ«القوي» و«العزيز» فالأولى حمل قوله: «عزيز» على عزة القهر، وعزة الامتناع؛ لدلالة قوله: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ الظاهرة على معنى «القوة».

أي: إن الله لقوي على نصر من ينصره، ويقاتل في سبيله، منيع لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، فبقوته- عز وجل- الشديدة وعزته التامة ينصر من ينصره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية. بدل من «مَن» في قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ وفيها حث وإغراء على الاتصاف بالصفات المذكورة.

عن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- قال: «فينا نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي»(١).

ولا شك أن أول من يدخل تحت هذه الآية هم صحابة رسول الله ﷺ؛ كما قال عثمان- رضي الله عنه، لكنها- أيضًا- عامة لكل من اتبعهم وعمل بها، وهي كقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ [النور: ٥٥].

ويدخل تحت الوصف المذكور في الآيتين كل من الراعي والرعية.

ومعنى ﴿ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: جعلنا لهم السلطة والتمكين فيها والاستخلاف عليها بلا منازع ولا معارض ولا مدافع ولا ممانع.

﴿ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أقاموا الصلاة المفروضة، التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عموده وأعظم العبادات البدنية وأهمها، أي: أقاموها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها إقامة تامة؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ دون أن يقول: «الذين يصلون» ونحو ذلك.

والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس المفروضة التي يجب أداؤها في المساجد، وغيرها من النوافل.

﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: وأعطوا الزكاة المفروضة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي أعظم العبادات المالية وأهمها، وغيرها من النفقات والصدقات.

﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ المعروف: ما أمر به الشرع وتعارف المسلمون على حسنه، ويشمل الأمر بتوحيد الله وطاعته وفعل الواجبات والمستحبات.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المنكر ما أنكره الشرع، وعرف المسلمين، ويشمل النهي عن الشرك والمعاصي، وعن ارتكاب المحرمات.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم وأخص صفات هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو حصن الإسلام المنيع، ومن أعظم وأهم واجبات الدين؛ ولهذا عدّه بعض أهل العلم الركن السادس من أركان الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وعن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»(٢).

وعن أبي بكر- رضي الله عنه- أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥)- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩). وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٥/ ٣٨٨).

أوشك أن يعمهم الله بعقابه»[١].

وعن زينب بنت جحش- رضي الله عنها- قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ فزعًا مرعوبًا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[٢].

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: مَن ميّت الأحياء؟ فقال: «**الذي لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا**»[٣].

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

أي: أن مرد الأمور ومرجعها ونهايتها إلى الله- عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٣]، فإليه- عز وجل- مرد جميع الأمور ونهايتها، وإليه مرد الخلائق في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، وإليه مصيرهم وإيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قال ابن كثير[٤]: «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣]».

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله- عز وجل- وتكفله بالمدافعة عن الذين آمنوا أذى الكفار وشرور الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- التشويق والإغراء بالدخول تحت حفظ الله- عز وجل- ودفاعه بالإيمان به- عز وجل- والعمل الصالح.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٧).

(٤) في «تفسيره» (٥/ ٤٣٤).

٣- قوة الله- عز وجل- التي لا تقهر وقدرته التامة في دفاعه عن أوليائه المؤمنين.
٤- لا حول ولا قوة لأحد من المؤمنين ولا غيرهم على دفع الشرور إلا بالله عز وجل.
٥- نفي محبة الله- عز وجل- لمن كان خوانًا كفورًا، وإثبات بغضه له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.
٦- إثبات محبة الله- عز وجل- لمن كان أمينًا مؤمنًا؛ لأنه- عز وجل- إذا كان لا يحب من كان خوانًا كفورًا، فمفهوم الآية أنه يحب من كان بضده.
٧- التحذير والتنفير من الخيانة والكفر؛ لأن ذلك سبب بغض الله- عز وجل- ومقته وانتقامه.
٨- إذن الله- عز وجل- الشرعي للرسول ﷺ والمؤمنين بالقتال لَمَّا وجد سببه، وجاءت مناسبته واكتملت أدواته؛ لقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ وكان المشركون بمكة يؤذون المؤمنين أذى شديدًا، فيتظلمون إلى رسول الله ﷺ فيأمرهم بالصبر؛ لأنه لم يؤمر بالقتال.
٩- أن سبب الإذن للمؤمنين بالقتال ظلم المشركين لهم بأذيتهم وقتالهم لهم وإخراجهم لهم من ديارهم بغير حق؛ وذلك أشد الظلم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾.
وفي هذا رد على من يقول: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فالجهاد شرع لدفع الظلم عن المسلمين، وقتال من يقاتلهم، أو يقف في طريق الدعوة إلى الله وإقامة شرعه، ونشر دينه الحق.
١٠- قيام الدين الإسلامي على العدل ورفع الظلم.
١١- قدرة الله- عز وجل- التامة على نصر المؤمنين، وتحقيقه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.
١٢- أن نهاية الظلم الخسار والبوار والهزيمة.
١٣- شدة بغض الكافرين للمؤمنين، فقاتلوهم وآذوهم، وأخرجوهم من ديارهم، لا لشيء، وبغير حق، إلا أنهم آمنوا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين.

١٥- تأكيد الشيء بما يوجب نقضه.

١٦- حفظ الله- عز وجل- للناس حياتهم الدينية والدنيوية وأماكن عباداتهم بدفع بعضهم ببعض، بالجهاد في سبيل الله وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

١٧- أن الجهاد في سبيل الله هو الحصن المنيع الحامي بإذن الله لبيضة الإسلام ودولته وحرية الدعوة إلى الله- عز وجل- وعبادته.

١٨- دفع الله- عز وجل- عن مواضع عبادة أهل الكتاب وغيرهم بالجهاد في سبيل الله، إذا دخلوا تحت حكم الإسلام ودفعوا الجزية، وإن كان يبغضهم ومواضع عبادتهم.

١٩- الإشارة إلى أن الله- عز وجل- قد يدفع عن المؤمنين بالكافرين وقد يدفع عن الكافرين بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

٢٠- الترغيب في إقامة المساجد، وذكر الله فيها كثيرًا بالصلاة وأنواع العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

٢١- وعد الله- عز وجل- الذي لا يتخلف- بنصر من ينصر دينه وأولياءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

٢٢- إثبات صفتي القوة والعزة التامتين لله- عز وجل، وتأكيد قدرته التامة على نصر المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

٢٣- ثناء الله- عز وجل- على المؤمنين الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٢٤- الإغراء والحث على الاتصاف بما ذكر في الآية من الصفات؛ لأن الله- عز وجل- رتب نصره الذي وعد به المؤمنين وتمكينه لهم على قيامهم بذلك شكرًا له- عز وجل- على نعمة النصر والتمكين في الأرض.

٢٥- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين العبادات، فالصلاة عمود الإسلام وقاعدته العظيمة التي يدور عليها رحاه، وأعظم العبادات كلها بعد الشهادتين، من حفظها وأقامها كما شرع الله- عز وجل- حفظ دينه، وربح دنياه وأخراه، ومن أضاعها خسر دينه ودنياه وأخراه.
والزكاة أعظم العبادات المالية، وأهم العبادات بعد الصلاة، فيها يتجلى مظهر الإحسان إلى عباد الله- كما يتجلى في الصلاة مظهر الإحسان في عبادة الله.

٢٦- عظم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله ذكره بعد الصلاة والزكاة، ولا غرو في هذا فهو حصن الإسلام الحصين وسياجه المتين.

٢٧- أن عاقبة الأمور كلها ومصيرها ومرجعها ومردها إلى الله- عز وجل، إليه إياب الخلائق، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ الواو: استئنافية، و«إن»: شرطية، و﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ فعل الشرط، والخطاب للنبي ﷺ، أي: وإن يكذبك هؤلاء المشركون، وجواب الشرط قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾.

ويجوز كون جواب الشرط محذوفًا دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، والتقدير: فلا عجب في تكذيبهم لك، أو فلا تبالهم، فإن ذلك عادة أمثالهم.

أي: فلست بأول رسول كُذِّب، وليسوا بأول أمة كَذَّبت.

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أول الرسل عليهم السلام، مع لبثه فيهم يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿وَعَادٌ﴾، أي: وكذبت عاد، وهم قوم هود عليه السلام.

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: وكذب قوم إبراهيم عليه السلام، وهم الكلدان.

﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾، أي: وكذب قوم لوط عليه السلام.

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾، أي: وكذب أصحاب مدين، وهم قوم شعيب عليه السلام.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كليم الرحمن مع ما جاء به من الآيات البينات، والمعجزات الواضحات.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: أنظرتهم وأمهلتهم، ولما أعاجلهم بالعقوبة، استدراجًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣، القلم:٤٤، ٤٥].

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فأمليت لهم؛ للإيماء أن علة الإملاء لهم ثم أخذهم هو الكفر بالرسل، وفي هذا تعريض بالنذارة والوعيد لمشركي قريش.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، أي: أخذتهم بالعقوبة، أي: ثم عاقبتهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان إنكاري عليهم، وعقابي لهم، بسبب تكذيبهم وكفرهم؟ والاستفهام للتعجب، أي: ما أعظم عقابي لهم، وما أشد إنكاري عليهم!

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: ١٠٢][1].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «أَهْلَكْتُهَا» بالتاء مضمومة من غير ألف، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

و«كأين» للتكثير، أي: فكم من قرية، أي: وكثير من القرى المكذبة أهلكناها.

﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والتكذيب لرسولها.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، أي: متهدمة، قد سقطت حيطانها على سقوفها، وصارت خرابًا بعد العمران، وموحشة بعد أن كانت آهلة بالسكان.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾، أي: وكم من بئر معطلة لا يستقي منها أحد، ولا يردها أحد، بعد أن كانت مزدحمة بالواردين والصادرين.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، أي: وكم من قصر مشيد، مرفوع البنيان، مبيض ومزين بالجص وغيره، تعب عليه أهله، وشيدوه وحصنوه وزخرفوه، قد تعطل وصار موحشًا بعد خلوه من السكان، فصار ذلك كله عبرة وعظة لمن تفكر ونظر، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أفلم يسيروا في الأرض بأقدامهم وأبدانهم، ويتأملوا ببصائرهم؟ والاستفهام للأمر؛ ولهذا قال: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فتكون لهم قلوب يعقلون بها آيات الله في الكون، وفي عقوباته للمكذبين، فيعتبروا ويتعظوا.

﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ «أو»: حرف عطف بمعنى الواو، أي: وآذان يسمعون بها أخبار القرى والأمم المكذبة، وما حل بهم من العقوبات والنكال، فيعتبرون ويتعظون؟

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الفاء: تعليلية، والضمير في «إنها»: ضمير الشأن، أي: فالشأن أنها لا تعمى الأبصار الحسية عن المشاهدة والنظر، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عن التفكر والتدبر والتأمل والاتعاظ والاعتبار، فما ينفع مع ذلك مجرد الإبصار.

وقوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ صفة لـ«القلوب».

قال ابن كثير[1]: «أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ

(١) في «تفسيره» ٥/ ٤٣٥.

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، أي: ويستعجلك يا محمد هؤلاء الكفار المكذبون بالعذاب؛ لجهلهم وعنادهم وشدة تكذيبهم وإنكارهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣ – ٥٤].

﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الذي وعده؛ من تعذيب الكافرين في الدنيا والآخرة والانتقام منهم، وإكرام المؤمنين، أي: أن ذلك واقع لا محالة، وفي هذا تهديد للكافرين، ووعد للمؤمنين.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بالغيب: «يَعُدُّونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَعُدُّونَ﴾.

أي: وإن يومًا عند ربك يا محمد من طوله وشدته وهوله كألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا وسنيها، فمقدار يوم واحد عنده كألف سنة عند خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥].

وهو سبحانه حليم لا يعجل؛ لتمام علمه وكمال قدرته، وكونه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأمهل.

وسواء عجل لهم العذاب في الدنيا أو أجل؛ فإن أمامهم هذا اليوم العظيم، وهو آتٍ لا محالة فلا يستعجلوه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩ – ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [السجدة: ٢٨ – ٢٩]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾، أي: وكم من قرية أمهلتها وأنظرتها مدة طويلة، ولم أعاجل أهلها بالعقوبة استدراجًا لهم.

﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، أي: حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعقوبة، أي: ثم عاقبتها.

﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، أي: وإلي مصير الأمور ومآلها، ومرجع الخلق يوم القيامة فأحاسبهم وأجازيهم على أعمالهم.

قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩﴾.

لما استعجل المشركون والكفار والمكذبون منه ﷺ العذاب؛ أمره الله عز وجل أن يبين لهم أن مهمته الإنذار البين لهم، وليس إليه أمر تعجيل العذاب، فذلك إلى الله عز وجل.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين لك، المستعجلين بالعذاب، ولغيرهم من الناس.

﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ «إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير لكم بيِّن وواضح النذارة، وليس إليَّ تعجيل العذاب.

و«النذير»: المنذر المخوف من الشر والعذاب قبل وقوعه، ولهذا قال ﷺ: «**أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء**»(١).

وخص الإنذار بالذكر في الآية؛ لأن السياق مع المكذبين، وإلا فهو نذير وبشير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤].

ولهذا قال مبشرًا:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم﴾ خاصة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: وعطاء واسع من فضل الله عز وجل في الدنيا، وفي الآخرة الجنة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «مُعَجِّزِينَ» بتشديد

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الانتهاء من المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل، شفقته ﷺ على أمته ٢٢٨٣، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الجيم من غير ألف، وقرأ الباقون بالتخفيف والألف: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، أي: مغالبين لإطفاء نور الله، وتثبيط الناس عن اتباع القرآن، ظانين أنهم يعجزوننا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: ساكنوها وملازموها، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم عذابها.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ تجاه من كذبه من قومه، بإخباره بتكذيب كثير من الأمم قبلهم لرسلهم؛ ليعلم أنه ليس بأول رسول كذبه قومه؛ تقوية لقلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ۝٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾.

٢- أن المصائب إذا عمت خفت؛ كما أن التكاليف إذا عمت خفت.

٣- عناية الله تعالى برسوله ﷺ وتثبيته له، وتشريفه عز وجل له بخطابه له بقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، وقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾.

٤- إثبات رسالة من ذكر من الرسل في هذه الآية، وتكذيب أقوامهم لهم.

٥- الإشارة إلى عظم ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات والمعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾، أي: مع ما جاء به من الآيات البينات، والدلائل والمعجزات.

٦- إملاء الله تعالى للذين كفروا وللقرى الظالمة، وإمهالهم استدراجًا لهم، ثم أخذهم بالعقوبة الشديدة أخذ عزيز مقتدر، وإنكاره عليهم أعظم الإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾.

٧- أن الله عز وجل يمهل ويُنظر ولا يهمل، وإذا أخذ فإن أخذه أليم شديد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾.

٨- إهلاك كثير من القرى المكذبة للرسل، وتهدمها بعد العمران، وسقوط حيطانها على سقوفها، وتعطل آبارها من الوارد والصادر، وخلو قصورها المشيدة من السكان.

٩- التهديد والإنذار للمكذبين له ﷺ من مشركي قريش؛ أن يحل بهم ما حل

بالمكذبين قبلهم.

١٠- التعجيب من حال المكذبين والإنكار عليهم؛ كيف وهم يسيرون في الأرض بأبدانهم لا يتأملون بعقولهم، ولا ينتفعون بأسماعهم وأبصارهم فيما يسمعون ويشاهدون من آيات الله في الكون، وفي آثار عقوباته للمكذبين، فيعتبروا ويتعظوا؟! لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

١١- أن العمى الحقيقي ليس هو عمى الأبصار، وإنما هو عمى القلوب والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

١٢- أن السير في الأرض دون تأمل في آيات الله ونظر، وانتفاع بما منح الله الإنسان من عقل وسمع وبصر لا يفيده شيئًا، بل قد يكون حجة عليه.

١٣- أن القلوب محلها الصدور، وكذا العقول؛ فإن العقل دائر بين القلب والمخ.

١٤- استعجال المكذبين النبي ﷺ بالعذاب؛ لجهلهم وظلمهم وعنادهم وشدة تكذيبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

١٥- إثبات أن عذاب المكذبين آتٍ لا محالة، ولا بد من وقوعه؛ لأن الله لا يخلف وعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

١٦- إثبات يوم القيامة وطوله وشدة أهواله، والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

١٧- أن مصير الأمور كلها، ومرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٨- أن الرسول ﷺ رسول الناس عامة، نذير بيِّن النذارة؛ كما أنه مبشر لمن آمن منهم، وليس إليه أمر تعجيل العذاب أو تأجيله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

١٩- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

٢٠- أنه إنما يثاب بالمغفرة والجنة الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات

الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعهم بجوارحهم.

٢١- الوعيد والتهديد للذين سعوا في آيات الله معاجزين، ظانين أنهم سيفلتون من عذاب الله، ومثبطين للناس عن الإيمان بالله وآياته بدخول الجحيم وملازمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

الواو: استئنافية، و«مَا»: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: بعثنا ووجهنا.

﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ الخطاب للنبي- محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين، فيعم قوله: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم- عليه السلام- إلى بعثته ﷺ.

﴿مِن رَّسُولٖ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لاستغراق العموم في النفي، أي: ما أرسلنا قبلك أيّ رسول ولا نبي ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: مؤكدة للنفي.

وفي عطف النبي على الرسول: دلالة على أن النبي غير الرسول، فالرسول عند أكثر أهل العلم: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

قال مجاهد: «النبي الذي يُكلم ويُنزل عليه، ولا يرسل»(١).

وقال البغوي(١): «الرسول الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانًا. والنبي: الذي تكون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٠).

نبوته إلهامًا».

وقال بعض أهل العلم: «الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله»(٢).

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، أو استثناء، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير عاملة.

﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿أَلْقَى﴾.

ومعنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا وقرأ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: إلا قراءة، أي: يقرؤون ولا يكتبون(٣).

﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته في مسامع الناس ما لم يقرأه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه»(٤).

ومراد ابن عباس- رضي الله عنهما، أي: إذا تكلم وقرأ وتلا، ومن هذا قول حسان- رضي الله عنه- في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام المقادر(٥)

وقال الآخر:

تمنى كتاب الله أول ليله ... تمنِّيَ داود الزبور على رسل(٦)

أي: تلا كتاب الله.

---

(١) في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٩٣).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١٧/ ١٥٧)، «الرسل والرسالات» ص(١٤، ١٥).

(٣) انظر: «صحيح البخاري مع الفتح» (٨/ ٤٣٨)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٣٢). وانظر مادة «مني» في «لسان العرب».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٣٠)، وأخرجه البخاري- معلقًا- في تفسير سورة الحج (٨/ ٤٣٨).

(٥) انظر: «لسان العرب» مادة «منَي».

(٦) البيت لحسان بن ثابت- رضي الله عنه. انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٥٢٧)، «روح المعاني» (٩/ ١٦٤).

وبهذا قال أكثر المفسرين(١).

والمعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ولا نبي إلا إذا حدث وقرأ وتلا ألقى الشيطان في حديثه وقراءته وتلاوته، مما لم يقرأه الرسول وإنما ألقاه الشيطان في مسامع الناس.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه بذكر ما حصل للرسل والأنبياء قبله- عليه وعليهم الصلاة والسلام.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: فيزيل الله- عز وجل- ويبطل ما يلقيه الشيطان، يريد به التلبيس على الناس وخلط الحق بالباطل.

وقد رُوِيَ أنه لما كان ﷺ يقرأ في سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» ولما سجد النبي ﷺ في آخر السورة سجد معه المسلمون والمشركون، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلى آخر ما جاء في هذه القصة، المسماة: قصة الغرانيق.

وقد رويت هذه القصة مطولة ومختصرة عن جمع من السلف منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحارث بن هشام والزهري ومحمد بن قيس والضحاك وأبوالعالية والمطلب بن عبدالله والسدي وغيرهم(٢).

وفي أكثر روايات هذه القصة ما لا يليق بمقامه ﷺ، وهي باطلة من وجهين:

أولًا: أن هذه القصة لم ترد من وجه صحيح، بل كل طرقها ما بين منكر وضعيف ومرسل ومنقطع، وقد سئل عنها محمد بن إسحاق، فقال: «هذا من وضع الزنادقة»

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٩- ٦١٠)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٥٠٠)، «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٣) وما بعدها، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٥٠٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٢٧- ٥٢٨، ٥٣٣)، «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٢).

وقد صنف فيها كتابًا[١].

وقال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا التصانيف الحديثيّة شيء مما ذكروه، فواجب اطراحه، ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه»[٢].

وقال القاضي عياض[٣]: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند صحيح سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون والمولعون بكل غريب والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم».

وقال القرطبي[٤]: «الأحاديث الواردة في نزول هذه الآية ليس منها شيء صحيح».

وقال ابن كثير[٥]: «قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح- ثم ساق بعض روايات هذه القصة عن سعيد بن جبير وابن عباس والسدي وقتادة وابن شهاب الزهري- ثم قال: قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات».

ثانيًا: أن ما جاء فيها من أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ تلك المقالة مستحيل وقوعه شرعًا؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ في تبليغ ما أوحاه الله إليه، محفوظ عن الشياطين بحفظ الله- عز وجل- لوحيه. قال- عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣٨١- ٣٨٢).

(٢) انظر: «المصدر السابق».

(٣) في «الشفاء» (٢/ ١٢٤).

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٠).

(٥) في «تفسيره» (٥/ ٤٣٨- ٤٤٠).

مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

قال ابن الجوزي[١] عما ورد في هذه القصة: «قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح؛ لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا».

ومما ينبغي أن يُعلم أن نص الآية يدل على أن الرسل والأنبياء قبل رسولنا ونبينا محمد- عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام- كان الواحد منهم إذا قرأ وتلا ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته، وهذا ظاهر الدلالة من الآية.

وأيضًا فإن الحكمة من ذكر ما حصل للرسل والأنبياء وهي تسليته ﷺ وتثبيت قلبه، وكذا سياق الآيات ومعناها- كل ذلك قد يدل على وقوع شيء من ذلك له ﷺ؛ ولهذا قال عز وجل مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

لكن يجب القطع بأن ما حصل من إلقاء الشيطان إنما هو في مسامع المشركين، لا أن الرسول ﷺ قال ذلك وتكلم به، فذلك مستحيل شرعًا؛ لعصمته ﷺ عن مثل هذا وحفظ الله- عز وجل- لوحيه- كما سبق بيانه- وعلى هذا يجب تنزيل ما رُويَ في هذه القصة على فرض صحتها- علمًا أن كل أسانيدها مرسلة ومنقطعة، وضعيفة ومنكرة[٢].

وعلى هذا أيضًا ينزل سبب سجود المشركين مع المؤمنين لما سجد النبي ﷺ في آخر السورة، كما ثبت في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[٣].

قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ثم يثبت الله آياته ويحررها ويقررها ويحفظها ويبينها، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، فتبقى خالصة

---

(١) في «زاد المسير» (٥/ ٤٤١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦١٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٢٨- ٥٢٩، ٥٣٢- ٥٣٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٠٢- ١٣٠٣)، «الشفاء» (٢/ ١٤٢)، «زاد المسير» (٥/ ٤٤١)، «الروض الأنف» (١/ ٢٢٩)، «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩١)، «فتح الباري» (٨/ ٤٣٩)، «أضواء البيان» (٥/ ٧٣٠)، «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» للألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٧٠)، وفي تفسير سورة النجم (٤٨٦٢)، والترمذي في الجمعة (٥٧٥).

من مخالطة إلقاء الشيطان- تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن القيم(١): «فالمحكم هنا هو المنزل من عند الله، أحكمه الله، أي: فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ما ليس منه بإبطاله».

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه- عز وجل- ذو علم واسع محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

ولما سئل موسى عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٥٢]، فلا يعتري علمه- عز وجل- جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف المخلوق الضعيف فإنه عرضة للأمرين.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، الحاكم الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، المحكم المتقن في خلقه وقدره وشرعه.

وبعلمه- عز وجل- الواسع، وحكمه التام، وحكمته البالغة- عصم رسله وأنبياءه من الخطأ في التبليغ، وحفظ وحيه من الشياطين، وأحكم آياته وهو العليم الحكيم.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾.

قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اللام في ﴿لِّيَجْعَلَ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يجعل. والمراد بالجعل هنا: الجعل الكوني القدري.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ موصولة أو مصدرية، أي: الذي يلقيه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٩).

الشيطان، أو إلقاء الشيطان، من الجن أو الإنس. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاءً وامتحانًا.

﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض القلوب نوعان: مرض حسي، ومرض معنوي، وهو أشد، وينقسم إلى قسمين: مرض شهوة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: شهوة اتباع هوى، وشهوة فرج، وشهوة بطن، والقسم الثاني: مرض شبهة وشك ونفاق، وهو المراد هنا في الآية.

والمعنى: ومن علمه- عز وجل- الواسع- وحكمه التام، وحكمته البالغة أن قدر كونًا ما يحصل من إلقاء الشيطان في قراءة رسله وأنبيائه؛ ليجعل ما يلقيه الشيطان ابتلاءً وامتحانًا للذين في قلوبهم مرض شبهة وشك ونفاق.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ويجعل ما يلقيه الشيطان؛ ابتلاءً وامتحانًا للقاسية قلوبهم من المشركين واليهود وغيرهم من الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قال ابن كثير[1]: «﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان».

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ من أهل الشرك والكفر والشك والنفاق من اليهود وغيرهم.

والظلم في الأصل: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، ولا أظلم ممن عبد غير الله وأشرك معه غيره؛ لأن حق الله- عز وجل- هو أعظم الحقوق وأوضحها

(١) في «تفسيره» (٥/ ٤٤٢).

وأبينها؛ ولهذا قال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ أي: لفي مشاقة ومحادة ومخالفة لله- عز وجل- ولدينه ورسوله ﷺ، والشقاق والمشاقة: المحادة والمخالفة والمعاندة، مأخوذ من الشق وهو الجانب والحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [المجادلة: ٥، ٢٠].

﴿بَعِيدٍ﴾ أي: بعيد كل البعد عن الموافقة والمتابعة، بالغ الغاية في المخالفة؛ لتماديهم وإغراقهم في الظلم والكفر والضلال، فهم بعيدون كل البعد عن الرجوع إلى الحق بسبب زيغهم وضلالهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الواو: عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن يعلم الذين أعطوا العلم النافع؛ العلم بالله وشرعه، والذي يفرقون به بين الحق والباطل، أي: الذين جمع الله لهم بين العلم والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦].

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: أن القرآن الكريم الذي أنزلناه إليك وأحكمنا آياته هو الحق الثابت من ربك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: فيصدقوا به.

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فتلين وتخضع وترق وتذل له قلوبهم وتطمئن وتخشع

وتُسلِّم؛ مما يكون سببًا في انقياد جوارحهم، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هذا وعد من الله- عز وجل- للذين آمنوا بدلالته وإرشاده لهم وتوفيقهم إلى صراط مستقيم.

وهداية الله- عز وجل- للمؤمنين تنقسم إلى قسمين، هداية الدلالة والإرشاد والبيان- وهذه عامة لهم ولغيرهم، وهداية التوفيق والقبول- وهذه خاصة بالمؤمنين.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: إلى طريق معتدل لا اعوجاج فيه، بمعرفة الحق والعمل به، وهو صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣ ، النور: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: ٤١]، وقال عز وجل لنبيه- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وهو صراط المنعم عليهم بالعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

ومن هداه الله وأرشده ووفقه للطريق المستقيم في الدنيا هداه إلى الطريق المستقيم في الآخرة، لجواز الصراط الحسي على متن جهنم ودخول الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ﴾ أي: ولا يزال الذين كفروا بالله وجحدوا دينه وشرعه في شك وريب من الحق الذي أنزل إليك وهو القرآن الكريم.

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ حتى: لانتهاء الغاية، أي: حتى تأتيهم القيامة فجأة،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

ويحال بينهم وبين الإيمان، وسميت القيامة بالساعة؛ لأنها محددة الوقوع، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٣٠].

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿أَوْ﴾ عاطفة بمعنى الواو، أي: ويأتيهم عذاب يوم عقيم، وهو يوم القيامة.

ومعنى ﴿عَقِيمٍ﴾ أي: شر محض عليهم لا خير فيه البتة، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

وهذا كما سمى الله- عز وجل «الريح الدبور» التي أهلك بها عادًا بالريح العقيم، لأنها شر محض لا خير فيها، أهلكت كل شيء أتت عليه كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وقيل: سمي عقيمًا لأنه لا ليل له.

ويحتمل كون ﴿أَوْ﴾ على معناها للتقسيم وهو الأصل، والمراد باليوم العقيم يوم بدر الذي قتل فيه سبعون من صناديدهم، فهو عقيم بالنسبة لهم لا خير لهم فيه البتة، ويقوي هذا ذكر الساعة قبله، أي: أو يأتيهم عذاب يوم عقيم وهو يوم بدر؛ فيُقْتَلون على الكفر.

ويقوي أن المراد به يوم القيامة: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، أي: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم تأتيهم الساعة.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يلاقيه من أعدائه من شياطين الجن والإنس- بذكر ما حصل للرسل والأنبياء- قبله- عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

٢- إثبات الرسالات والنبوات، وأنها جاءت من عند الله- عز وجل.

٣- الإشارة إلى كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾.

٤- أن النبي غير الرسول، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ والعطف يقتضي المغايرة.

٥- حرص الشيطان- لعنه الله- على تشكيك الناس فيما جاءت به الرسل والأنبياء والتلبيس عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

٦- حفظ الله- عز وجل- لوحيه ورسله وما أنزله عليهم، وإبطال ما يلقي الشيطان وإزالته، وإحكام آياته- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

٧- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- والحكم التام بأقسامه الثلاثة، الكوني والشرعي، والجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٨- ابتلاء الله- عز وجل- وامتحانه لمرضى القلوب وقساتها من المنافقين والكفرة بما يلقيه الشيطان للتلبيس عليهم وتشكيكهم في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

٩- عظم مشاقة الظالمين، من مرضى القلوب وقُساتها من المنافقين والكفرة وبُعدهم كل البعد عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

١٠- أن الظلم كل الظلم بمعصية الله- عز وجل- ومخالفة أمره وتكذيب رسله وعبادة غيره.

١١- تثبيت الذين أوتوا العلم بمعرفتهم أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي من عند الله- عز وجل- هو الحق وإيمانهم به، وخضوع قلوبهم له، وعدم اغترارهم بما يلقيه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٢- فضل العلم وأهله؛ لأن الله- عز وجل- امتدحهم بمعرفة أن ما جاءت به الرسل هو الحق وإيمانهم به وإخبات قلوبهم له.

١٣- تعظيم ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي؛ لقوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإضمار دون الإظهار.

١٤- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب- عز وجل- إلى ضميره ﷺ،

وربوبية الله تعالى الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١٥- وعد الله- عز وجل- وتكفله للذين آمنوا بدلالتهم وإرشادهم وتوفيقهم إلى طريق مستقيم وهو معرفة الحق والعمل به، والذي يسعدون بسلوكه في الدنيا بالحياة الطيبة، ويسعدون في الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

١٦- استمرار الذين كفروا على ما هم عليه من المرية والشك والريب فيما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق حتى تأتيهم القيامة وما فيها من العذاب الأليم والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

لما ذكر استمرار الذين كفروا في التشكيك في القرآن، وتوعدهم بالساعة وعذاب يوم القيامة، أتبع ذلك ببيان أن الملك في ذلك اليوم له وحده، يفصل بينهم.

قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، أي: الملك في ذلك اليوم- يوم القيامة، يوم تزول مريتهم وشكهم- لله وحده، لا لغيره، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يفصل بينهم بحكمه العدل وقضائه الفصل.

والملك لله تعالى اليوم، وفي ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ - ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولكن في ذلك يتضح ويتبين ويظهر تمام الظهور تفرده وحده بالملك، ويخضع جميع ملوك الدنيا وما ملكوه له عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله وما جاؤوا به، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الصلاة والزكاة وغير ذلك، فصدقوا إيمانهم بعملهم.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: كفروا بالله ورسله، واستكبروا عن الإيمان واتباع الحق، وأعرضوا عنه.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: جحدوها وأنكروها.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: لهم خاصة عذاب يهينهم ويذلهم حسيًّا ومعنويًّا، بسبب كفرهم واستكبارهم، واستهانتهم بأمر الله ورسله وآياته؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذليلين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾.

لما ذكر ما أعد للمؤمنين من جنات النعيم، ذكر في هذه الآية ما أعده للمهاجرين في سبيل الله خاصة من الرزق الحسن، والمدخل العظيم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، أي: خرجوا من ديارهم وأوطانهم وهجروها وتركوا أولادهم وأموالهم.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ابتغاء وجه الله ونصرة لدينه.

﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾، أي: في الجهاد في سبيل الله.

﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ من غير قتل، على فرشهم أو غير ذلك.

أي: فهم في أجر الهجرة سواء، لهم الأجر الجزيل والثناء الجميل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٠٠]، ولهذا قال:

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: ليعطينهم الله عطاء حسنًا في البرزخ بنعيم القبر، وفي يوم القيامة في الجنة، رزقًا يجمع لهم بين الحسن

والإحسان، والروح والريحان، ونعيم القلب والروح والبدن.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اللام: للتوكيد، والمفاضلة لا تعني أن هناك رازقًا غير الله، بل إن الله تعالى هو الرازق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر.

﴿مُّدْخَلًا﴾ قرأ نافع: «مَدْخَلًا» بفتح الميم اسم مكان، وقرأ الباقون: ﴿مُّدْخَلًا﴾ بضم الميم مصدرًا ميميًّا، أي: ليدخلنهم الجنة دار الرضوان؛ كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة: ٢١ – ٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١﴾ [التوبة: ٢١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لذو علم واسع لكل شيء، عليم بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، ويستحق ما ذكر ممن ليس كذلك.

﴿حَلِيمٌ﴾، أي: ذو حلم واسع، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب، ولا يهمله.

قوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ۖ﴾ اسم إشارة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر أو الشأن.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ﴾.

هذا- والله أعلم- من باب التهيئة والتوطئة للجهاد، والتأكيد للنصر الذي سبق الوعد به بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]، قوله: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ﴾، أي: ومن جازى ظالمًا واستوفى حقه منه.

﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ﴾ «ما»: موصولة، أي: بمثل الذي عوقب به، أي: بمثل اعتداء هذا الظالم عليه، ولم يتعد في الاقتصاص وسمي الاعتداء معاقبة من باب المشاكلة؛ لقوله: ﴿عَاقَبَ﴾.

﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾، أي: ثم اعتدى عليه مرة أخرى بسبب أنه استوفى حقه.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لينصرنه الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ الجملة: استئنافية، واللام: للتوكيد، أي: أن من صفته عز وجل العفو والتجاوز، مع تمام قدرته على الانتقام؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

﴿غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عنه.

وحيث اجتمعت صفة العفو والمغفرة، فيحمل العفو على التجاوز عن الذنوب، ويحمل الغفور على سترها عن الخلق.

وفي ختم الآية بهاتين الصفتين ترغيب في العفو والصفح والمغفرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: ذلك النصر بسبب أن الله عز وجل ذو القدرة التامة والتصرف المطلق في خلقه بما يشاء: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، أي: يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم العكس، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧].

ويترتب على ذلك اختلاف الفصول، وذلك من أجل نعم الله تعالى على العباد؛ لما في ذلك من المنافع للإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات.

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: ذو البصر الذي يبصر ويرى كل شيء، يرى النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

فهو عز وجل سميع لأقوال عباده بصير بهم، لا تخفى عليه منهم خافية، قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ من بين العظام النّحّل
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول[1]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: بسبب أن الله هو الحق الثابت، فذاته حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه حق، وقدره حق، وشرعه حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص بالغيب: ﴿يَدْعُونَ﴾.

---

(١) الأبيات تنسب للزمخشري، ولغيره، مع اختلاف فيها. انظر: «الكشاف» ١/ ١١٦، «ربيع الأبرار» ١/ ١٠، «المستطرف» ص٣٥٢، «الكشكول» ٢/ ٢٩١، «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» ص٤٦٤.

وقرأ الباقون بالخطاب: «تدعون»، والجملة والتي بعدها في محل جر عطفًا على قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

و«ما»: موصولة، أي: وأن الذي يدعونه ويعبدونه غير الله من الأصنام والأنداد والأوثان.

و«الباطل»: إما أن يكون في الطلب فيكون كذباً، وإما أن يكون في الحكم فيكون جوراً، وقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ يشمل الأمرين: دعواهم أن هذه آلهة، وهذه دعوى كاذبة، وعملهم لهذه الآلهة وعبادتهم لها، وهو جور وظلم، حيث يعدلون المخلوق بالخالق. فدعوى ألوهيتها كاذبة باطلة، وهي معبودات باطلة؛ لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا، وعبادتها باطلة تبعًا لذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، أي: وذلك بأن الله هو العلي الكبير؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩].

و«العلي»: اسم من أسماء الله عز وجل، يفيد أنه سبحانه ذو العلو المطلق على جميع خلقه، بذاته وصفاته، وقدره وقهره.

و«الكبير»: اسم من أسمائه عز وجل، يفيد أنه ذو الكبرياء والعظمة، الذي لا أعظم منه، ولا أكبر منه؛ كما قال عز وجل: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»(١).

فله عز وجل كل صفات العلو والعظمة والكبرياء والكمال والجلال، وله من كل صفة منها أكملها وأجلها.

الفوائد والأحكام:

١- أنه في يوم القيامة يتبين ويتضح ويظهر تمام الظهور تفرد الله عز وجل وحده بالملك؛ حيث يخضع له في ذلك جميع الملوك وما ملكوا وجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

٢- حكم الله تعالى في ذلك اليوم وقضاؤه بين الخلق جميعًا، وفصله بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣- إثابة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات النعيم، وعقاب الذين

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كفروا وكذبوا بآيات الله بالعذاب المهين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧﴾.

٤- أن من شرط الإيمان أن يقرن بالعمل، وأن من شرط العمل أن يكون خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٥- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب من الكفر والتكذيب بآيات الله.

٦- الجمع للكفار والمكذبين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي المذل والمهين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٧- فضيلة الهجرة في سبيل الله، والشهادة في سبيله؛ لعظم ما أعد الله لمن هاجروا في سبيله، ثم قتلوا أو ماتوا، من الرزق الحسن، والمدخل الذي يرضونه، وهو الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ﴾.

٨- أن الممدوح والمعتبر من الهجرة هو ما كان في سبيل الله، أي: لنصرة دين الله وإقامة شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٩- أن من هاجر في سبيل الله فله أجر هجرته سواء قتل، فاجتمع له أجر الهجرة وأجر الشهادة، أو مات بدون قتل فنال أجر الهجرة فقط.

١٠- أن الرزق من الله تعالى وحده، وأن الله تعالى هو خير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

١١- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾ [طه: ٩٨].

١٢- إثبات صفة الحلم الواسع لله عز وجل، وأنه عز وجل لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب ولا يهمله؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾.

١٣- جواز رد الظلم والاعتداء بمثله؛ لقوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾.

١٤- وعد الله تعالى لمن استوفى حقه من ظالمه، ثم عاد ظالمه فاعتدى عليه؛ بنصره

تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾.

١٥- إثبات صفتي العفو والمغفرة الواسعتين لله تعالى؛ فهو سبحانه عفو يتجاوز عن ذنوب عباده، غفور لهم، يستر ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

١٦- إثبات تمام قدرة الله تعالى على نصر من بُغي عليه، وعلى تدبير الكون كله، وإدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، وترتيب المصالح العظيمة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

١٧- إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع لجميع الأصوات، وذو البصر النافذ يشاهد ويرى جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

١٨- أن الله عز وجل هو الحق وحده، فربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وشرعه حق، وقدره حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وهو الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

١٩- أن كل ما يعبد من دون الله فهو باطل زائل مضمحل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾.

٢٠- إثبات اسم الله تعالى «العلي»، وأنه سبحانه ذو العلو المطلق بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: «الكبير»، وأنه لا أكبر منه ولا أعظم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

ذكر عز وجل من دلائل تمام قدرته وعظيم سلطانه إدخال الليل بالنهار والنهار بالليل، وأنه الإله الحق، وبطلان ما يعبد من دونه، وكمال علوه وكبريائه وعظمته، ثم أكد ذلك بذكر إنزاله المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وتسخير ما في الأرض للناس، والفلك تجري في البحر بأمره، وإمساكه السماء من السقوط، وإحياء الخلق ثم إماتتهم ثم إحياؤهم مرة أخرى.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الاستفهام في الموضعين: للإخبار والتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك أن الله بقدرته التامة أنزل من السماء، أي: من العلو، ماءً وهو المطر، بعد أن أوجد أسبابه فأنشأ السحاب ولقحه بالرياح؟ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فتصير الأرض مخضرة بأصناف النباتات بعد أن كانت جرزًا جرداء مجدبة يابسة قاحلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج:

٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

قال الشاعر:

وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤوسه ... ففي ذاك آيات لمن كان واعيا(١)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾، أي: ذو اللطف التام، يدرك أسرار الأمور وحكمها ودقائقها وخفياتها، وذو اللطف والإحسان إلى عباده، والتيسير عليهم، والتخفيف عنهم.

قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ الأحزاب: ٣٤، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩].

قال ابن القيم(٢):

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بحكمة ... واللطف عند مواقع الإحسان

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو الخبرة التامة الواسعة بدقائق الأشياء، وخفايا الأمور، وما تكنه الصدور؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: له وحده خلقًا وملكًا وتدبيرًا جميع

---

(١) البيتان لأمية بن أبي الصلت، أو زيد بن عمرو بن نفيل. انظر «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤١٦.
(٢) «النونية» ص١٤٩.

الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات والعوالم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ «إن» واللام: للتوكيد. و«الغني» من أسماء الله عز وجل، أي: وإنه سبحانه ذو الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، عن جميع خلقه؛ لسعة ملكه وعظيم قدرته وقوة سلطانه، وكثرة خزائنه وملاءتها وغير ذلك، والخلق كلهم محتاجون إليه.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ اسم من أسمائه عز وجل، أي: المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وقدره وشرعه، وغير ذلك، المحمود في غناه؛ لعظيم كرمه، وواسع جوده، يده سحاء الليل والنهار.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: سخر لكم جميع الذي في الأرض، مما على ظاهرها من حيوان ونبات وجماد، ومما في باطنها من معادن وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: تسير على ظهر الماء وتمخر عباب البحر بأمره الكوني وتسخيره، تحملكم وتحمل أمتعتكم وتجاراتكم من بلد إلى آخر، ومن مكان إلى مكان.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ «أن» والفعل «تقع» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: لئلا تقع، أو خشية أن تقع.

أي: ومن لطفه ورأفته ورحمته وتمام قدرته؛ يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه وأمره الكوني، وفي هذا تخويف للعباد بأنه لو شاء أسقط السماء على الأرض فهلك من فيها؛ إذ لا ممسك لها غيره؛ كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استئنافية، وفيها معنى التعليل للتسخير والإمساك، أي: لأن الله بالناس ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ذو رأفة

ورحمة، والرأفة: شدة الرحمة؛ فهي أخص من الرحمة، فهو عز وجل ذو رأفة ورحمة عامة بجميع الناس، وذو رأفة ورحمة خاصة بالمؤمنين منهم، ومن رأفته ورحمته بالناس سخر لهم ما سخر من المخلوقات، وأمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بإيجادكم وخلقكم من العدم بخلق أبيكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى عليه وقت كان عدمًا.

وأحياكم أيضًا: بخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم كسا العظام لحمًا، ثم أرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ مرة أخرى ويبعثكم للحساب والجزاء على الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾ [الجاثية: ٢٦].

أي: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل بالإحياء والإماتة؟ ولهذا يقول الكفرة والمكذبون معترفين حين لا ينفعهم الاعتراف: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان ﴿لَكَفُورٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: شديد الكفر والجحود لربه ولنعمه، إلا من هداه الله ووفقه، مع رأفة الله تعالى ورحمته به؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾.

قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: لكل أمة نبي، ﴿جَعَلْنَا﴾ جعلًا شرعيًّا، أي: شرعنا ﴿مَنسَكًا﴾، أي: عبادة ومتعبدًا وشريعة؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(١).

ويحتمل أن يكون المعنى: ولكل أمة من الأمم جعلنا منسكًا جعلًا قدريًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أي: متعبدون به شرعًا، أو قدرًا.

﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾، أي: فلا ينازعك يا محمد هؤلاء المشركون المكذبون ويخاصمونك ويجادلونك.

﴿فِي الْأَمْرِ﴾، أي: في الأمر الذي أنت عليه، وتدعو إليه، وهو توحيد الله تعالى.

والمعنى: فلا تبالهم؛ فأنت على الحق، فلا يثبطونك ويثنونك عن دعوتك؛ ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: واستمر على الدعوة إلى ربك.

كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ الجملة تعليل للأمر بالدعوة إلى ربه، أي: لأنك على هدى مستقيم، أي: على طريق واضح معتدل موصل إلى المقصود، بالعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

والمراد: إنك على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فاستمر في دعوتك؛ كما قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾، أي: وإن جادلك المكذبون والمشركون وخاصموك فيما جئت به من الحق.

﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: فقل لهم: الله أعلم بعملكم، أو بالذي تعملونه، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٦٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: يفصل بينكم يوم القيامة في الذي كنتم فيه تختلفون في الدنيا، فيجازي كل فريق بما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤ – ١٦].

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾:

لما ذكر حكمه بين الخلائق يوم القيامة، أتبع ذلك بما يدل على كمال حكمه؛ وهو إحاطة علمه بما في السماء والأرض، وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ الاستفهام للإخبار والتقرير، أي: اعلم ذلك، أو أنت تعلم بما علمك الله.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: أن علمه محيط بجميع الذي في السماء والأرض من المخلوقات.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾، أي: إن ذلك مكتوب عنده في كتاب عظيم، وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب فيه كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير**

كل شيء حتى تقوم الساعة، فجرى بما هو كائن إلى الأبد»(١).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»(٢).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: إن ذلك المذكور؛ وهو علمه ما في السماء والأرض، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل وهيّن عليه عز وجل؛ لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقرير كمال قدرة الله تعالى ورحمته ومنته بإنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وجعلها مخضرة زاهية بعد أن كانت يابسة جرداء، والاستدلال بذلك على وحدانيته وقدرته التامة على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾.

٢- إثبات صفة اللطف لله عز وجل، فهو سبحانه ذو اللطف بعباده والرفق بهم والإحسان إليهم، وهو ذو اللطف بإدراك أسرار الأمور وخفياتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾.

٣- إثبات أنه سبحانه ذو الخبرة التامة الواسعة بدقائق الأشياء وخفايا الأمور، وما تكنه الصدور، وذو العلم بالظاهر والمستور؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾.

٤- إثبات سعة ملك الله عز وجل، وأن له جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٥- إثبات اسم الله «الغني»، وأنه عز وجل ذو الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، خزائنه ملأى، لا تغيضها كثرة النفقة، وكل الخلق محتاجون إليه، لا غنى لهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر ٤٧٠٠، والترمذي في تفسير سورة «ن» ٣٣١٩، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وأحمد ٥/ ٣١٧.

(٢) أخرجه مسلم في القدر، حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٢٦٥٣.

٦- إثبات اسم الله «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وقدره وشرعه وجزائه، وغير ذلك، المحمود في غناه؛ لعظيم كرمه وواسع جوده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾.

٧- الامتنان على العباد بتسخير الله لهم ما في الأرض، وتسخير الفلك تجري في البحر بأمره، وإمساكه عز وجل السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبيان تمام قدرته على ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

٨- إثبات إذن الله تعالى وأمره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾.

٩- تخويف العباد بأنه عز وجل لو شاء أسقط السماء على الأرض فهلك من فيها.

١٠- إثبات صفة الرأفة لله تعالى، وأنه سبحانه رؤوف بالناس كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾.

١١- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وأنه عز وجل ذو الرحمة العامة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾، وفي هذا دلالة على أن «الرحيم» لا يختص بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، بل يدل على الرحمة العامة لجميع الناس، وعلى الرحمة الخاصة بالمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٢- إثبات عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته؛ لأنه سبحانه الذي خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم، والاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

١٣- أن الإنسان كفور بربه، جحود لنعمه، إلا من وفقه الله وهداه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

١٤- أن الله جعل شرعًا لكل أمة نبي منسكًا ومتعبدًا وشريعة هم متعبدون به؛ كما جعل لكل أمة من الأمم منسكًا ومتعبدًا هم متعبدون به؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

١٥- تقوية عزيمته ﷺ، ونهيه عن الالتفات إلى منازعة قومه، وأمره بالاستمرار بالدعوة إلى ربه؛ لأنه على هدى مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ

رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

١٧- أمره بالتحذير والتهديد للمجادلين له بالباطل بعلم الله عز وجل بعملهم، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

١٨- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد وما يبدون وما يكتمون، وأنه أعلم بذلك منهم ومن غيرهم.

١٩- فصل الله تعالى بين الخلائق يوم القيامة، وبين المؤمنين والكافرين، ومجازاة كل فريق بما عمل، وإدخال المؤمنين جنات النعيم، وسوق المجرمين إلى دار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢٠- إثبات يوم القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢١- إثبات وتقرير علم الله تعالى بجميع ما في السماء والأرض، وكتابته ذلك باللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾.

٢٢- إثبات اللوح المحفوظ، وأن الله تعالى كتب فيه كل شيء.

٢٣- أن إحاطة علمه عز وجل بما في السموات والأرض وكتابته ذلك كله في اللوح المحفوظ في الأزل، ووقوع ذلك كما علمه عز وجل وكتبه أمر عليه يسير؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون المكذبون غير الله.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي لم ينزل به حجة ولا برهانًا على جواز عبادته، بل أنزل الحجج والبراهين على بطلان عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: والذي ليس لهم به علم، بل عبدوه على جهل وتقليد أعمى لآبائهم، مما سوله لهم الشيطان وزينه.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والشرك بالله ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: وما لهم؛ لبيان أن سبب الوعيد لهم وانتفاء النصير عنهم هو ظلمهم بالشرك والكفر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على وحدانية الله تعالى وصدق ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ﴾ الخطاب لكل من يصلح له، بدليل قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: ترى الكراهة ظاهرة على وجوههم.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: يكادون من شدة الغيظ والغضب من سماع القرآن، ﴿يَسْطُونَ﴾، أي: يبطشون بالذين يقرؤون عليهم آيات الله.

﴿قُلْ﴾، أي: قل لهؤلاء الظالمين الكارهين لتلاوة القرآن عليهم.

﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ الهمزة للاستفهام، وفيه تهكم بهم، ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ الإشارة إلى ما أثار نكرهم وغضبهم وحفيظتهم، أي: إذا كنتم تستاؤون عند تلاوة القرآن عليكم وتكرهون ذلك ويغيظكم، وتعدونه في نظركم الفاسد وقلوبكم القاصرة شرًّا، فأخبركم بما هو شر لكم من ذلكم: النار وعذابها الشديد، فمآلكم ومصيركم إليها، وهي أشد وأعظم مما تخوفون به المؤمنين وتنالون منهم في الدنيا.

﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لم يقل: وعدكم الله إياها، وإنما قال: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للدلالة على أن سبب توعدهم بها ومصيرهم إليها هو كفرهم.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الواو: استئنافية، أي: وبئس المصير هي، أي: وبئس المآل والمنزل والمقام النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ «ضرب المثل»: تشبيه أمر معنوي لإيضاحه وبيانه وتقريبه بأمر حسي، وهو مما امتن الله به على العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾، أي: ألقوا له أسماعكم، وأنصتوا إليه، وتفهموه وتدبروه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: إن الذين تعبدون غير الله من الأصنام والأوثان، وترجون شفاعتهم، وتطلبون منهم الحاجات.

﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾، أي: لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابًا، الذي هو من أحقر

المخلوقات وأضعفها.

﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ الواو: حالية، أي: ولو اجتمع هؤلاء الذين تدعون من دون الله من الأصنام والأوثان والأنداد ما قدروا على خلق ذباب واحد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا ذرة أو ذبابة أو حبة**»(١).

وفي رواية: «**فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة**»(٢).

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ﴾، أي: وإن يسلب هذه المعبودات، أي: يأخذ منهم ﴿ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: وإن يسلبهم الذباب أي شيء مهما قل أو صغر، مما يضعونه عليها من طيب ونحوه.

﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، أي: لا يستخرجوه ولا يستردوه ولا ينقذوه منه، والسين والتاء للمبالغة.

فهم عاجزون عن مقاومته والامتناع منه، وعن الانتصار والانتصاف منه لو سلبهم شيئًا، وهم عن خلقه أشد عجزًا.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ وهو: الصنم المعبود من دون الله، الذي سلب منه شيء، ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ وهو: الذباب، وفيه تسوية بين السالب والمسلوب في الضعف والعجز.

وقيل العكس: فالطالب الذباب، والمطلوب المعبود.

أو ضعف الداعي والمدعو، أي: ضعف العابد، وهو المشرك، والمعبود، وهو الصنم، فهو عاجز متعلق بعاجز.

قال ابن القيم: «والصحيح: أن اللفظ يتناول الجمع، فضعف العابد والمعبود، المستلِب والمستلَب»(٣).

فالذباب السالب ضعيف، وأضعف منه المسلوب المعبود من دون الله، وأضعف منهما من تعلق بالمعبود الضعيف وعبده من دون الله.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٩١.

(٢) أخرجها البخاري في التوحيد ٧٥٥٩، ومسلم في اللباس، لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ٢١١١.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٢١.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، وما قدروه حق تقديره، حين عبدوا معه آلهة غيره، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا، وسووها به، وهو الإله الحق، الخالق العظيم، وهذا غاية الجهل والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٦ – ٩٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ تعليل لمضمون قوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

«إن» واللام: للتوكيد، أي: ذو القوة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة بأنواعها: عزة القوة، وعز القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وحيث اجتمع في هذه الآية «قوي» و«عزيز»، فالأولى حمل قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ على عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وبقوته عز وجل وتمام قدرته وكمال عزته خلق هذا الكون، واختص بملكه وتدبيره، ويعيده كما بدأه؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ [البروج: ١٢ – ١٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: يختار بعلمه وحكمته من الملائكة رسلًا؛ لتنفيذ أحكامه وأوامره الكونية وقدره، ولتبليغ رسالاته إلى أنبيائه ورسله من البشر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على «الملائكة»، أي: ويصطفي ويختار من الناس رسلًا؛ لتبليغ رسالاته إليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: إن الله ذو سمع واسع يسمع أقوال عباده ودعاءهم وجميع الأصوات، وذو بصر واطلاع وعلم بهم وبأحوالهم وبجميع المخلوقات، يعلم من هو أهل للرسالة منهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: يعلم الذي بين أيديهم والذي خلفهم، أي: يعلم ما بين أيدي الخلق كلهم من الملائكة والناس، والرسل من هؤلاء وهؤلاء، أي: يعلم أحوالهم كلها، وما يظهرونه وما يخفونه، وما سبق من أحوالهم وما يستقبل، وما قبلهم وما بعدهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٨].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي: وإلى الله وحده ترجع الأمور كلها في الدنيا والآخرة، وإليه عز وجل مصير الخلائق كلهم وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥ – ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تسفيه عقول المشركين في عبادتهم من دون الله ما لم ينزل به حجة ولا برهانًا، وما ليس لهم به علم، بل بجهل وضلال؛ تقليدًا لآبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٢- التهديد والوعيد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أي: أن الله سيعذبهم، ولا أنصار لهم يدفعون أو يمنعون أو يرفعون عنهم عذاب الله.

٣- أن عبادة آلهة من دون الله، والإشراك به ظلم عظيم، يوجب لصاحبه العذاب.

٤- تنكر الكفار لآيات الله، وكراهتهم لها، واستياؤهم من تلاوتها عليهم، واغتياظهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ٱلْمُنكَرَ﴾.

٥- شدة بغضهم لمن يقرأها عليهم، ومقاربتهم البطش به؛ لقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

٦- انطماس عقول المشركين، وانقلاب الحقائق عندهم؛ لتنكرهم للآيات وما فيها من الدعوة إلى الخير، واعتبارهم ذلك شرًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٧- أن النار أشر شيء يجب الحذر منها ومن موجبات دخولها.

٨- أن التنكر لآيات الله والكراهة لها والبغض لمن يتولاها كفر موجب للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٩- أن النار بئس المصير والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٠- ضرب الأمثال في القرآن الكريم؛ لتقريب المعاني، والامتنان بذلك على الناس، والحث على الاستماع للمثل، والإنصات له بتدبر وتعقل؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾.

١١- عموم رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٢- بيان وتأكيد شدة ضعف ما يعبده المشركون من دون الله من الأصنام والأوثان، وأنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا؛ وهو أحقر المخلوقات وأضعفها، ولو اجتمعوا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾.

١٣- أن هؤلاء المعبودين من دون الله لا يستطيعون استنقاذ ما سلبه الذباب منهم من شيء، فضلًا عن أن يخلقوا ذبابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

١٤- ضعف الذباب وحقارته، وأضعف منه المعبود من دون الله، وأضعف منهما من تعلق بالمعبود الضعيف وعبده من دون الله.

١٥- إثبات كمال عظمة الله تعالى، وذم المشركين الذين سووا به غيره من المعبودات الضعيفة الحقيرة، ولم يعظموه حق تعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ

قَدْرِهِۦٓ﴾.

١٦- إثبات صفة القوة التامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾.

١٧- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى بأنواعها: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ﴾.

١٨- اصطفاء الله تعالى واختياره من يشاء من الملائكة رسلًا لتنفيذ أحكامه وأوامره الكونية القدرية، وتبليغ رسالاته الشرعية لأنبيائه ورسله من الناس، واختياره من الناس رسلًا لتبليغ رسالاته الشرعية إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١٩- إثبات أنه عز وجل ذو السمع الواسع، يسمع أقوال عباده وجميع الأصوات، وذو البصر والاطلاع والعلم بهم وبجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٢٠- علم الله تعالى المحيط بالخلائق كلهم، من الملائكة والرسل والناس وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٢١- أن مرد الأمور كلها إلى الله في الدنيا والآخرة، وأن مصير الخلائق كلهم إليه، فإليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

خاطب الله- عز وجل- في مطلع هذه السورة وفي ثناياها عموم الناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في أربعة مواضع، ثم ختم السورة بخطاب المؤمنين خاصة؛ لأنهم صفوة الناس والممتثلون لأمر الله- عز وجل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ أي: انقادوا بجوارحكم للإيمان واركعوا واسجدوا لله- عز وجل- أي: صلوا. وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة.

قال ﷺ: «**فأما الركوع فعظموا فيه الرب- عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم**»(١).

وقال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(٢).

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ من عطف العام على الخاص، أي: واعبدوا ربكم بأنواع العبادات كلها، من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للرحم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك، وأخلصوا له فيها.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وإنما خص الركوع والسجود أولًا؛ لعظم مكانة الصلاة بين سائر العبادات، فهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وأفضل العبادات كلها، ولهذا فهي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة، فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردت رد سائر عمله كما جاء في الحديث(١).

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ بأنواع الإحسان التي ليست بواجبة، وبخاصة الإنفاق في وجوه الخير كلها، فبعد أن أمر الله- عز وجل- بالعبادة الواجبة بأنواعها، عطف عليه الأمر بفعل الخير بأنواع الإحسان المستحبة قولًا وفعلًا وبذلًا.

وقد يكون هذا من عطف الأعم على العام. فيكون أولًا عطف العام على الخاص، ثم عطف على العام ما هو أعم منه. وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ عامًّا لأنواع البر كلها الواجب والمستحب من العبادات وغيرها.

وقد يكون المراد بقوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ما يتعدى نفعه إلى الناس من الزكاة والصدقات وحُسن المعاملة وصلة الأرحام ونحو ذلك.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا، أو راجين أن تفلحوا.

والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

ويشرع السجود عند قراءة هذه الآية، كما يشرع السجود عند الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية ١٨ من هذه السورة].

ويقول في سجود التلاوة مثل ما يقول في سجود الصلاة: «سبحان ربي الأعلى» والأولى أن يكررها ثلاثًا، ويقول: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»(٢).

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٥)، والترمذي في الصلاة (٤١٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٥)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٥٤)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي تحت شجرة فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: «اللهم اكتب بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ هذا أيضًا معطوف على ما قبله. من عطف الأعم على العام، فأمر أولًا بالركوع والسجود، ثم أمر بالعبادة وفعل الخير من عطف العام على الخاص، ثم أمر بالمجاهدة في الله حق جهاده بأنواع المجاهدة كلها من عطف الأعم على العام، توكيدًا لما قبله.

﴿فِي ٱللَّهِ﴾ ﴿فِي﴾ للسببية، أي: في ذات الله، ومن أجله، ونصرة لدينه.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ مفعول مطلق، أي: الجهاد الحق الذي لا يشوبه تقصير.

والمجاهدة في الله حق جهاده: بذل الطاقة واستفراغ الوسع في طاعة الله- عز وجل- ومحبته ومرضاته- بالأنفس والأموال والأقوال والأفعال، وفي جهاد النفس والشيطان والمنافقين والكفار، وليس في هذا تكليف ما لا يطاق، بل هو كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: حق تقاته مما تستطيعونه وتقدرون عليه؛ لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله- ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة- ما يقول في سجود القرآن (٥٧٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة- سجود القرآن (١٠٥٣)، وقال الترمذي: «حديث غريب من حديث ابن عباس».

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٧٧)، والنسائي في مناسك الحج

وجهاد النفس والشيطان واجب؛ جهاد النفس بمخالفة هواها وشهواتها، وحملها على طاعة الله تعالى، والبُعد عن معصيته، وجهاد الشيطان بمدافعة وساوسه وتسويله.

وجهاد المنافقين ونحوهم من أهل البدع والمعاصي، وجهاد الكفار كل منهما واجب على الكفاية، وقد يتعين[1]. فجهاد المنافقين وأهل البدع والمعاصي بالحجة والبيان والبرهان، وجهاد الكفار المعاندين المعتدين بالسيف والسنان.

قال ابن القيم[2]: «وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليُسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانيَّ ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا».

وقال أيضًا: «وحق تقاته وحق جهاده: هو ما يطيقه كل عبد من نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء».

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، أي: وجاهدوا في الله حق جهاده شكرًا لله- عز وجل؛ لأنه هو اجتباكم، أي: هو اختاركم واصطفاكم، وجعلكم أهله وخاصته وصفوته من خلقه- بعد النبيين والمرسلين، فخصكم بأفضل الرسل

(٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(١) يتعين جهاد المنافقين وأهل البدع ونحوهم بالحجة واللسان والبرهان إذا لم يقم به أحد، أو لم يقم به من يكفي، كما يتعين جهاد الكفار في مواضع منها إذا كان في الصف، وإذا استنفره الإمام، وإذا هاجم العدو بلد المسلمين.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٤).

وسيدهم، وأعظم الكتب والمهيمن عليها، وأكمل الأديان، وفضلكم وشرفكم على الأمم. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»(١).

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ لما أمر عز وجل بالمجاهدة فيه حق جهاده ربما يتوهم متوهم أن في هذا تكليف ما لا يطاق أو ما فيه ضيق- احترز من ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

الواو عاطفة، و«ما» نافية، ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لاستغراق العموم في النفي.

أي: وما جعل عليكم في الدين الإسلامي أيَّ ضيق أو مشقة، ولم يكلفكم ما لا تطيقون بل يسر لكم غاية التيسير، كما قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال تعالى في الحديث القدسي: «**قد فعلت**»(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥، ٦]، أي: مع كل عسر يسران من الله- عز وجل، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

ولهذا رخص الله- عز وجل- للمسافر قصر الصلاة الرباعية، والجمع بين الظهر

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

والعصر، والمغرب والعشاء، وعند الخوف تصلى رجالًا وركبانًا، وإذا مرض الإنسان ولم يستطع القيام فيها صلى قاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب، فإن لم يستطع أومأ بها إيماء. وشرع سجود السهو لجبر ما يحصل من سهو في الصلاة.

كما رخص في التيمم عن الحدث الأصغر والأكبر إذا لم يجد الإنسان الماء، أو لم يستطع استعماله.

ورخص بالمسح على الخفين يومًا وليلةً للمقيم وللمسافر ثلاثة أيام بلياليهن. ورخص للمسافر والمريض في الفطر في نهار رمضان والقضاء، وكذا المرضع والحامل، ورخص للكبير والمريض الذي لا يرجى برؤه بالفطر والإطعام.

وأوجب الحج على المستطيع دون غيره، ويسر في أحكامه، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه، فقال رجل: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. قال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر، فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي. فقال: «أرم ولا حرج». فما سئل يومه عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج»(١).

كما جعل جميع التكاليف حسب الوسع والطاقة والاستطاعة، وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»(٢).

ولهذا فإن من قواعد الشريعة: «**أن المشقة تجلب التيسير**».

كما جعل عز وجل في التوبة والكفارات مخرجًا من الذنوب والمعاصي، وأباح في حال الاضطرار أكل الميتة واستعمال المحرم، وجعل الضرورات تبيح المحظورات، قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٠٦)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٤)، والترمذي في الحج (٩١٦)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠).

وعفا للأمة عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله- عز وجل- في الحديث: «**قد فعلت**»(١).

وفي الحديث: «**إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»(٢).

وأباح عز وجل جميع الطيبات وأحلها بلا حصر، وجعل الحرام محصورًا محدودًا معدودًا، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠].

وبهذا رفع الله- عز وجل- عن هذه الأمة الأغلال التي كانت على من قبلهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا**»(٣).

وقال ﷺ: «**وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(٤).

قال ابن القيم(٥) في كلامه على الآية ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: و«الحرج»: الضيق، بل جعله واسعًا يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع كل حي، وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد- ما يكره من الخلاف والتنازع في الحرب (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة وفي الجهاد- الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٧٣٣)، من حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٥).

عبده في الدين من حرج بوجه ما، قال النبي ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[١] أي: بالملة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، وقد وسع الله- سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة مادامت الروح في الجسد، وفتح لهم بابًا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة، وجعل بكل ما حرم عليهم عوضًا من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه، وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرًا قبله ويسرًا بعده، «فلن يغلب عسر يسرين» فإذا كان هذا شأنه- سبحانه- مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلًا عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه».

وقال السعدي[٢]: ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي: «أن المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات».

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿مِّلَّةَ﴾ منصوب على الإغراء، أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم.

وقيل: منصوب على المصدرية بفعل مقدر يدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم.

وفيه امتداح وثناء على ما جاء به محمد ﷺ، وإغراء وحث على اتباعه؛ لأنه جاء بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم- عليه السلام، ولهذا علَّم ﷺ المؤمنين أن يقولوا إذا أصبحوا وإذا أمسوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد،**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)- من حديث أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**». وأخرجه أحمد (٦/ ١١٦)- من حديث عائشة رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وإني أرسلت بحنيفية سمحة**»، وأخرجه البخاري في الإيمان- باب الدين يسر- معلقًا بلفظ: «وقول النبي ﷺ: **أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٣٦) موصولًا من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»، قال ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٩٣، ٩٤): «إسناده حسن». وأخرجه أحمد (٣/ ٤٤٢)- من حديث التنوخي قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل لك في الإسلام الحنيفية ملة إبراهيم أبيك**».

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٣٠).

وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين»(١).

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: الله- عز وجل- سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: وسماكم المسلمين ﴿فِي هَٰذَا﴾ أي: في القرآن الكريم، كما في حديث الحارث الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله**»(٢).

فنوَّه بهم عز وجل، وأثنى عليهم- في كتبه المتقدمة قبل وجودهم وسماهم المسلمين، ونوَّه بهم وأثنى عليهم بذلك في القرآن الكريم بعد وجودهم.

وقيل: إن الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى إبراهيم، أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا الكتاب وهذا الشرع مازال هذا اسمكم قديمًا وحديثًا.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ امتنان من الله- عز وجل- على هذه الأمة، وتذكير لهم بفضله وإنعامه عليهم، باختيارهم من بين الأمم، ورفع الحرج عنهم، وهدايتهم إلى ملة أبيهم إبراهيم، وتسميتهم المسلمين في الكتب السابقة، وفي القرآن الكريم.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ اللام: للتعليل، و«ال» في الرسول: للعهد الذهني، أي: ليكون الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

والمعنى: أن الله- عز وجل- اجتباكم واصطفاكم واختاركم ورفع عنكم الحرج، ونوّه بكم وأثنى عليكم وسماكم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم لأجل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٧)، والدارمي (٢/ ٢٠٢) حديث (٢٦٩١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ص(١٩)- من حديث سعيد بن عبدالرحمن بن أبزى الخزاعي عن أبيه- رضي الله عنه، وقال النووي في «الأذكار» ص(٦٨): «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الأمثال- ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣)- وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، وانظر: «كنز العمال» (٤٣٥٧٧).

أن يكون الرسول محمد ﷺ شهيدًا عليكم ببلاغه لكم، وعلى استجابتكم واتباعكم له؛.

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ أي: ولأجل أن تكونوا أنتم ورسولكم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغتهم رسالات الله إليهم، وذلك بما جاءكم من عند الله من الوحي على لسان رسوله محمد ﷺ؛ لأنكم أمة وسط عدول خيار، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقدمت شهادته ﷺ في الآية هنا لأنها في مقام التنويه بالدين الذي جاء به ﷺ بينما قدم في آية البقرة شهادة الأمة؛ لأن الآية صدرت بالثناء على الأمة.

فهو ﷺ بما فضله الله به على سائر الرسل- عليهم الصلاة والسلام- يشهد على أمته أفضل الأمم. وهم بما فضلهم الله به وشرفهم على سائر الأمم يشهدون هم ورسولهم على الأمم قبلهم بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام- بلغوهم رسالات الله.

وبهذا تكون هذه الأمة المحمدية شاهدة على الأمم ومشهودًا عليها بشهادة الرسول ﷺ.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، يقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه. قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

وفي رواية عن أبي سعيد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته. فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله- جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾** والوسط العدل»(١).

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: فقابلوا نعمة الله عليكم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله- عز وجل- حيث اصطفاكم واختاركم من بين الأمم ورفع الحرج عنكم بما شرعه لكم من الحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- وسماكم المسلمين في الكتب السماوية السابقة وفي القرآن الكريم، وجعل الرسول محمدًا ﷺ شهيدًا عليكم، وجعلكم شهداء على الناس، فكل هذا موجب لشكر الله- عز وجل- بطاعته، وفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: صلوها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والأمر للوجوب.

والصلاة في اللغة: الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الحديث: أن رجلًا سأل النبي ﷺ قائلًا: هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما**»(٢). أي: الدعاء لهما.

قال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرَّبتُ مرتحلًا ... يا ربّ جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نومًا فإن لجنب المرء مضطجعًا(٣)

والصلاة في الشرع: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة

---

(١) أخرجها البخاري في الأنبياء (٣٣٣٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤)- من حديث مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه.

(٣) البيتان للأعشى، انظر: «ديوانه» ص(١٥١).

بالتسليم.

والمراد بالصلاة: الفرائض المكتوبات، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الفرائض والنوافل.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم، والأمر للوجوب والمراد بالآية الزكاة الواجبة، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الزكاة الواجبة وغيرها من النفقات الواجبة والمستحبة.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة والتطهير.

وفي الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص.

وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال وتنميه وتزيده، وتقيه بإذن الله- عز وجل- الآفات، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال بل تزيده**»(١)، وقال ﷺ: «**ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة**»(٢).

كما أنها تزكي وتطهر نفس صاحب المال من رذيلة البخل والشح.

وتطهر أيضًا أنفس من تدفع إليهم من الفقراء والمساكين وغيرهم من الحقد والضغينة على إخوانهم الأغنياء، ومن اللجوء إلى كسب المال من طرق محرمة من الغصب والسرقة، وارتكاب الأعمال المحرمة من أجل ذلك.

فهي تزكية وتطهير ونماء للمال، وتزكية وتطهير لنفس الغني والفقير والمسكين ونحوهما، وتزكية وتطهير ووقاية للمجتمع الإسلامي من الجرائم والفواحش.

ولهذا قال ﷺ: «**واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر و الصلة (٢٠٢٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- بلفظ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٢٤)- من حديث عبادة بين الصامت- رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» (٦/ ٥٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٨)- من حديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنه.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: التجئوا إلى الله وتمسكوا بحبله واستعينوا به وتوكلوا عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام: افتعال من العَصْم، وهو: المنع من الضُرّ والنجاة، قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: ٤٣].

﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هو- عز وجل- متوليكم وحافظكم وناصركم على أعدائكم.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: فنعم الولي كامل الولاية عظيمها. و﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ من يجلب النفع.

﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: عظيم النصرة والمعونة. و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ من يدفع الضر.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريمًا وتشريفًا لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الطلب يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٣- وجوب الركوع والسجود لله- عز وجل- والصلاة له وعبادته وحده بأنواع العبادة كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

٤- الترغيب في فعل الخير عمومًا قولًا وفعلًا وبذلًا؛ لقوله ـ تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾.

٥- أن الإيمان بالله والركوع والسجود والصلاة له- عز وجل- وعبادته وحده، وفعل الخير كل ذلك سبب للفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٦- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية، عن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أُفُضِّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «**نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما**»(١).

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- تشريع سجود السهو (١٤٠٢)، والترمذي في الجمعة- السجدة في الحج

وعن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي الحج سجدتان»(١).

وعن أبي الجهم أن عمر- رضي الله عنه- سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: «إن هذه فضلت بسجدتين»(٢).

٧- وجوب المجاهدة في الله حق جهاده قدر الوسع والطاعة، بالأموال والأنفس والأفعال والأقوال، جهادًا عامًّا، وجهادًا خاصًّا؛ للشيطان والنفس والهوى، وللمنافقين والكفار وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾.

٨- نعمة الله- عز وجل- على هذه الأمة المحمدية حيث فضلهم واختارهم من بين الأمم، ورفع عنهم الحرج، وجعلهم على ملة أبيهم إبراهيم، وسماهم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم، وجعل الرسول ﷺ شهيدًا عليهم، وهم شهداء على الناس، وفي ذلك تكريم وتشريف لهم على سائر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾.

٩- شهادة الرسول ﷺ على أمته، وشهادة أمته على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾.

١٠- تقرير قاعدة «المشقة تجلب التيسير» والأخذ بأيسر الأمرين ما لم يكن إثمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾.

١١- وجوب شكر الله- عز وجل- على ما أنعم به على هذه الأمة بالمجاهدة فيه حق جهاده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾.

---

(٥٧٨)، وأحمد (٤/ ١٥١- ١٥٥)، وقال الترمذي: «حديث ليس إسناده بالقوي».

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- تشريع سجود السهو (١٤٠١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة- عدد سجود السهو (١٠٥٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٠).

١٢- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين العبادات؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين سائر العبادات.

١٣- وجوب الاعتصام بالله واللجوء إليه وحده، والتوكل والاعتماد عليه وحده فلا ملجأ منه إلا إليه.

١٤- أن الله- عز وجل- هو مولى الذين آمنوا حافظهم وناصرهم ومتولي أمورهم، وجالب الخير لهم، ودافع الشر عنهم، فنعم المولى ونعم النصير؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة المؤمنون»؛ لأن الله افتتحها بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، وذكر صفاتهم وسبب فلاحهم، وذكر ثوابهم.

وقد وردت تسميتها في السنة: «سورة المؤمنين».

عن عبدالله بن السائب قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح «سورة المؤمنين» حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر موسى وعيسى، أخذت النبي ﷺ سعلة فحذف وركع»(١).

ومما جرى على الألسنة أن يسموها: «سورة قد أفلح»، ويسمونها أيضا «سورة الفلاح».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: «كان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه كدوي النحل، فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا**»، ثم قال: «**لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم العشر»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بوعد المؤمنين بالفلاح، وذكر صفاتهم التي استحقوا بها هذا الوعد من ربهم؛ من كونهم في صلاتهم خاشعين، وعن اللغو معرضين، وللزكاة فاعلين، ولفروجهم حافظين عما حرم عليهم، ولأمانتهم وعهدهم راعين، وعلى صلواتهم يحافظون.

ثم فصل ما وعدهم به من الفلاح في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٥٥، وأبو داود في الصلاة ٦٤٩، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٤، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٧٣.

ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

٢- ثم ذكر دلائل قدرته ونعمته عز وجل في خلق الإنسان، فذكر أطواره منذ بداية خلقه من طين إلى اكتمال خلقه، وحياته إلى موته، ثم بعثه يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٣- ثم أتبع ذلك بذكر دلائل تمام قدرته في السماء والأرض، والماء والنبات والأنعام وغير ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٤- ثم لما ذكر دلائل قدرته في خلق الإنسان والكون بما فيه من الآيات الدالة على كمال عظمته ووحدانيته ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ أتبع ذلك بذكر نعمته على العباد بإرسال الرسل يدعون إلى عبادة الله تعالى دون غيره، وذكر ما جرى بنيهم وبين المكذبين من أقوامهم، وانتهاء ذلك كله بإنجاء الرسل وإهلاك المكذبين من أقوامهم.

بدأ ذلك بذكر رسالة نوح عليه السلام أول الرسل، ثم ذكر إنشاء عدد من القرون الذين جاءتهم رسلهم تترى، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، فأهلكوا جميعًا، وأتبع الله بعضهم بعضًا، وجعلهم أحاديث، وأبعدهم لكفرهم وعدم إيمانهم. ثم ذكر إرساله موسى وهارون بآياته وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكذبوهما فكانوا من المهلكين، ثم ذكر أنه جعل ابن مريم وأمه آية فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

٥- أمْره عز وجل الرسل جميعًا بأن يأكلوا الطيبات ويعملوا صالحًا، وهو أمر لهم ولأتباعهم المؤمنين، وبيان وحدة الأمة، فدينها واحد وهو الإسلام وتوحيد الله تعالى، وهو عز وجل ربهم جميعًا يجب أن يتقوه ويعبدوه وحده.

٦- ذكر تقطع أمر الأمم واختلافهم على رسلهم من مصدق لهم ومكذب، ومؤمن بهم وكافر، وفرح كل حزب بما هم عليه من الضلال ظنًّا أنهم مهتدون، واغترارهم بما هم فيه من النعم، والوعيد والتهديد لهم.

٧- ثناء الله وامتداحه للمؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾.

٨- حكمته عز وجل وكمال عدله، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها وطاقتها، ويحصي على العباد أعمالهم ويجازي كلًّا بما عمل، وهم لا يظلمون.

٩- ذم الكافرين والمكذبين لأن قلوبهم في غمرة وضلالة وغفلة عن آيات الله وما جاءهم من الحق، وتهديدهم ووعيدهم بالعذاب، يصرخون فلا ناصر لهم، وتقريعهم وتوبيخهم على نكوصهم على أعقابهم وعدم تدبرهم القرآن، وإنكارهم معرفة رسولهم ﷺ ورميهم إياه بالجنون وكراهتهم الحق؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾.

١٠- بيان أن الحق لو اتبع أهواء أهل الضلال والكفر والاستكبار لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: الكون كله بما فيه؛ لأن الله خلق الكون كله وأقامه على الحق والعدل.

١١- بيان قيام الحجة على المكذبين بما جاءهم من الذكر، لكنهم عنه معرضون، وانتفاء ما يمنعهم من الإيمان من سؤالهم خرجًا أو أجرًا، وأنه ﷺ إنما يدعوهم إلى صراط مستقيم، لكنهم بكفرهم بالآخرة عن الصراط ناكبون.

١٢- عدم شكرهم رحمة الله بكشف ما بهم من ضر، وعدم استكانتهم وخضوعهم له عند العذاب وتماديهم بالطغيان والعتو، وإبلاسهم عند شدة العذاب.

١٣- الامتنان على العباد بما منحهم عز وجل من السمع والإبصار والأفئدة، وقلة الشاكر منهم، وبيان تمام قدرته في ذرئهم في الأرض وإثبات حشرهم إليه وحده، وتفرده بالإحياء والإماتة وله اختلاف الليل والنهار ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾.

١٤- إنكارهم البعث ومقالهم كقول الأولين: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣﴾.

١٥- تقريرهم بوحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وعموم ملكه وشموله لكل شيء وسعته؛ الأرض وما فيها، وربوبية السموات السبع، وربوبية العرش العظيم، وبيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وإقرارهم بذلك، وتقريعهم لعدم تذكرهم وتقواهم: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

١٦- إثبات أنه عز وجل أتاهم بالحق بأن لا معبود بحق سواه، وتأكيد كذبهم في إشراكهم معه ونسبتهم الولد له، واستحالة أن يكون للخلق إلهان، وتنزيه نفسه عما يصفونه به، وبيان سعة علمه للغيب والشهادة وتعاليه عن شركهم ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

١٧- أمره عز وجل له ﷺ أن يدعوه إن عاقبهم بسبب ظلمهم وهو شاهد ألا يجعله معهم، وبيان قدرته عز وجل بأن يريه ما توعدهم به. وأمره تعالى له أن يدفع السيئة بالحسنة، وأن يستعيذ بالله من همزات الشياطين وحضورهم: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

١٨- بيان سوء حال المكذبين والكفار عند الموت، وطلب من حضره الموت منهم من ربه الرجعة ليعمل صالحًا فيما ترك وهيهات! ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، وانقطاع الأنساب بينهم فلا يتساءلون ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ووعد من ثقلت موازينه بالفلاح، ووعيد من خفت موازينه بخسران أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون، وتوبيخهم على تكذيبهم بآيات الله، واعترافهم على أنفسهم بغلبة الشقاء عليهم وضلالهم، وتوسلهم بربهم ليخرجهم منها وهيهات لهم ذلك، وتقريعهم وتبكيتهم بقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

١٩- استقلالهم عند رؤيتهم العذاب لبثهم في الدنيا لعدم علمهم قيمة حياتهم وظنهم أنهم إنما خلقوا عبثًا وأنهم لا يرجعون إلى الله؛ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

٢٠- إثبات علو الله تعالى وعظمته، وأنه الملك الحق لا إله، ولا معبود بحق إلا هو وحده وهو رب العرش الكريم، والتهديد والوعيد لمن يدعو مع الله إلهًا آخر لا برهان

له به، وإنما حسابه عند ربه وأنه لا يفلح الكافرون؛ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

٢١- أمره صلى الله عليه وسلم بأن يقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾، وهو أمر له ﷺ ولغيره من المؤمنين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ «قد»: حرف تحقيق، و«الفلاح»: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، أي: قد فاز المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، أي: فازوا وظفروا بمطلوبهم، ونجوا من مرهوبهم، بالسعادة في دنياهم وأخراهم، ونجاتهم من النار، ودخولهم الجنة، ووراثتهم لها؛ كما قال تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

أي: قد أفلح غاية الفلاح، وفاز الفوز العظيم، المؤمنون الإيمان المطلق، وبقدر ما يكون عليه الإنسان من الإيمان، والاتصاف بهذه الصفات يكون نصيبه من الفلاح.

رُوي أنه لما خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها، قال لها: «تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾»(١).

وروي أن عائشة رضي الله عنه سئلت: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ(٢).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ «الذين» في محل رفع صفة لـ«المؤمنون»،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤٥٥.

(٢) أخرجه النسائي في «تفسيره»، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٥٤.

والموصولات الثلاثة بعدها في محل رفع عطفًا عليها.

فالصفة الأولى من صفاتهم: أنهم في صلاتهم- فرضها ونفلها- خاشعون، أي: خاضعون لربهم، متذللون له، مستشعرون لعظمته، مستكينة ومنكسرة قلوبهم بين يديه، ساكنة جوارحهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ هذه هي الصفة الثانية من صفات المؤمنين، و«اللغو»: الباطل وما لا خير فيه، ولا فائدة منه من الأقوال والأفعال، أي: والذين هم عن اللغو- وهو الباطل من الأقوال والأفعال- صادون، لا يقعون فيه، ولا يجالسون أهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ۝٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣].

وعن معاذ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: «**كف عليك هذا**» وأخذ بلسان نفسه، فقال معاذ: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟**»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾، أي: يؤدون زكاة أموالهم لمستحقيها، وهذه هي الصفة الثالثة من صفات المؤمنين.

وهذا يدل على أن أصل فرض الزكاة كان بمكة؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية أيضًا: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد بينت أنصبتها ومقاديرها في المدينة في السنة الثانية من الهجرة.

ويحتمل أن يراد بالزكاة هنا: ما يشمل أيضًا النفس من الشرك والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾، أي: عن المحرم من الزنا واللواط وغير ذلك.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ «إلا»: أداة حصر، إلا على أزواجهم التي أحلها الله لهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، «أو»: عاطفة، أي: والذي ملكته أيمانهم من الإماء والسراري.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ «اللوم»: الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق، أي: لا لوم عليهم شرعًا، ولا حرج ولا إثم في وطء أزواجهم وما ملكته أيمانهم من الإماء، ومفهوم هذا: أن عدم حفظ الفروج عما سوى ذلك يوجب اللوم الشرعي، وهو ما صرح به بقوله:

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» طلب غير ذلك، أي: غير الأزواج والإماء.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والجملة مؤكدة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: فأولئك هم المعتدون المجاوزون الحلال إلى الحرام.

قال ابن القيم: «فمن لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وكان من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ قرأ ابن كثير: «أَمَانَتَهُمْ» بالإفراد دون ألف، وقرأ الباقون بالألف جمعًا: ﴿أَمَانَاتِهِمْ﴾.

أي: والذين هم لما ائتمنوا عليه من أمانات، وما عقدوه من عهود فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين العباد ﴿رَٰعُونَ﴾، أي: حافظون لتلك الأمانات، مؤدون لها، وافون بتلك العهود امتثالًا لقوله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»(٢).

بخلاف صفات أهل النفاق، قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا**

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالإفراد: ﴿صَلَاتِهِمۡ﴾، وقرأ الباقون بالجمع: «صَلَوَاتِهِمْ»، وهذه هي الصفة الخامسة من صفات المؤمنين.

ومعنى ﴿يُحَافِظُونَ﴾، أي: يواظبون ويداومون عليها في أوقاتها وشروطها وأركانها وواجباتها؛ كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»(٢).

وقد افتتح الله عز وجل هذه الصفات الحميدة بصفة الخشوع في الصلاة، واختتمها بصفة المحافظة على الصلاة؛ لعظم مكانة الصلاة وفضلها، فهي أعظم العبادات مطلقًا بعد الشهادتين، قال ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»(٣).

ولأن الصلاة لا بد لصحتها وقبولها من الخشوع فيها، ومن المحافظة عليها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ أكد الجملة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهًا بشأنهم، ورفعة لهم، أي: أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات العظيمة ﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾، وحذف معمول ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾، ليحصل إبهام واحتمال يترقب السامع بيانه؛ قصدًا لتفخيم هذه الوراثة،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، فضل الصلاة على وقتها ٥٢٧، ومسلم في الإيمان، كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها، المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦ – ٢٧٧، ٢٨٢، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

أي: أولئك هم الوارثون المستحقون لأعظم موروث، ثم بينه بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ بيان وتفسير للموروث في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾، أي: الذين يستحقون الفردوس ويختصون به.

قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾ [مريم: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾**»(١).

قال ابن كثير(٢): «فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما أوجب الله عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له؛ أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل».

و«الفردوس»: اسم يطلق على الجنة، وعلى أعلى الجنة، وأوسطها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(٣).

وفي حديث أم حارثة، قال رسول الله ﷺ: «**إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(٤).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ ضمير الفصل «هم» للتوكيد، أي: هم في الفردوس مقيمون إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، صفة الجنة ٤٣٤١.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٤٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٠٩، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٧٤.

قال حسان رضي الله عنه[١]:

وإن ثـــواب الله كـــل موحِّـــد جنـان مـن الفـردوس فيهـا يخلـد

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله المحقق للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة، والبشارة لهم بالفلاح والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، والنجاة من النار، والتنويه بهم وبصفاتهم، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ الآيات.

٢- أنه من لم يؤمن ولم يتصف بهذه الصفات فهو خاسر الخسران المبين.

٤- الترغيب والإغراء بالصفات المذكورة؛ لأنها من أعظم وأفضل صفات المؤمنين.

٥- أن لب الصلاة هو الخشوع لله تعالى، وتذلل القلب له، والخضوع وسكون الجوارح له؛ لأن الله امتدح المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾.

٦- فضيلة الإعراض عن اللغو قولًا أو فعلًا، والبعد عن مجالسه؛ لأن الله امتدح المؤمنين بذلك فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

٧- وجوب إخراج زكاة المال وتزكية النفس بالأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾.

٨- وجوب حفظ الفروج عما حرم الله من الزنا واللواط والاستمناء باليد والسحاق وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾.

٩- إباحة وطء الزوجات، وملك اليمين، وأنه لا لوم على ذلك شرعًا؛ لأن الله أباحه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

١٠- أن من طلب غير الأزواج وملك اليمين فهو من المعتدين المجاوزين الحلال إلى الحرام، الملومين على فعلهم، غير المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٣٣٩).

١١- حرمة نكاح المتعة؛ لأن المتمتع بها لا تسمى زوجة، وكذا نكاح المحلل.

١٢- وجوب أداء الأمانات، والوفاء بالعهد، مما بين العبد وبين ربه، ومما بين العبد وبين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾.

١٣- امتداح المؤمنين بمحافظتهم على صلواتهم على أوقاتها وحدودها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾.

١٤- فضيلة المواظبة والمداومة على الصلاة؛ لأن الله امتدح بها المؤمنين.

١٥- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، والخشوع فيها، والمحافظة عليها؛ لأن الله ابتدأ بها هذه الصفات وختمها بها.

١٦- أنه لا بد لصحة الصلاة من أمرين: الخشوع فيها، والمحافظة عليها.

١٧- التنويه بشأن المؤمنين المتصفين بهذه الصفات، وعظيم أجرهم، وجزيل ثوابهم، وأنهم هم الوارثون حقًّا للخير كله؛ لوراثتهم الفردوس وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾، فأين المشمرون؟

١٨- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يبلى أهلها، ولا يخرجون منها، نسأل الله تعالى أن نكون من أهلها ووالدينا وذرياتنا وأهلونا وجميع المسلمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لما وعد المؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة، وبشرهم بالفلاح ووراثة الجنة والخلود فيها، أتبع ذلك بذكر دلائل كمال قدرته وتمام نعمته على الإنسان، وعظم عنايته به في خلقه وأطوار حياته، وفي ذلك التدليل على وحدانيته عز وجل، وقدرته التامة على البعث.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: ولقد أنشأنا الإنسان وابتدأنا خلقه بخلق آدم عليه السلام.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: ١١].

والسلالة: الشيء المسلول، أي: المنتزع من شيء آخر، أي: خلاصة الشيء، والمعنى: أن خلْقه استل، أي: أخذ من جميع أجزاء الأرض وأصنافها؛ ولهذا جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، والسهل والحزن، وغير ذلك.

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك**»(١).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ الضمير في «جعلناه» يعود إلى جنس الإنسان؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٥٥، وأحمد ٤/ ٤٠٠، ٤٠٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٧ – ٨].

والمراد بالنطفة: الماء الدافق، وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥ – ٧].

﴿فِى قَرَارٍ﴾ وهو الرحم الذي تستقر فيه النطفة أعظم الاستقرار، وتنتقل فيه من طور إلى طور إلى تمام خلق الإنسان.

﴿مَّكِينٍ﴾، أي: مصون محفوظ من الفساد والآفات، في أعدل الأجواء، دفء في الشتاء، وبرودة في الصيف، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ – ٢٣].

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، أي: ثم بعد مضي أربعين يومًا صيرنا النطفة علقة، أي: دمًا أحمر، على شكل علقة مستطيلة، تعلق في جدار الرحم.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ﴾، أي: صيرناها بعد أربعين يومًا ﴿مُضْغَةً﴾، أي: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالإفراد: «عَظْمًا»، وقرأ الباقون: ﴿عِظَٰمًا﴾ بالجمع، أي: فصيرنا المضغة عظامًا، أي: جعلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها، وصورناها على شكل الإنسان وهيئته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب؛ منه خلق ابن آدم، ومنه يركب**»(١).

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، أي: فكسونا العظام وسترناها باللحم؛ لتشتد وتقوى.

فالعظام عماد اللحم، واللحم كسوة وسترة للعظام وتقوية لها.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، أي: ثم نفخنا فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا إلى أن صار خلقًا آخر، أي: حيوانًا ذا روح وسمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب، إلى أن كمل نموه في بطن أمه، ثم ولد طفلًا صغيرًا، ثم احتلم، ثم صار شابًّا، ثم كهلًا، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «عم يتساءلون» ٤٩٣٥، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، ما بين النفختين ٢٩٥٥، وابن ماجه في الزهد، ذكر القبر والبلى ٤٢٦٦، وأحمد ٢/ ٣١٥، ٤٢٨، ٤٩٩.

شيخًا، ثم هرمًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: ٦٧].

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**»(١).

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ لما ذكر دلائل كمال قدرته وحكمته وعنايته ونعمته في خلق الإنسان، ونقله من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، أتبع ذلك بالثناء على نفسه.

أي: فتعالى الله وتعاظم وكثر خيره.

﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ الذي أحسن الخلق وأجمله وأتمه وأعظمه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السجدة: ٧ – ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ﴾ [التغابن: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ٣٣٣٢، ومسلم في القدر، كيف خلق الآدمي في بطن أمه ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٧ – ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

وفي قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بعد ذكر خلق الإنسان وأطواره؛ إشارة إلى أنه عز وجل خلق الإنسان على أحسن خلقة؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم إنكم بعد خلقكم وحياتكم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لصائرون إلى الموت، أي: تنتهي أطواركم وتنقلاتكم بالموت، وكفى بالموت واعظًا، لكن ما بعده أشد؛ ولهذا قال:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أحياء، فتحاسبون وتجازون على أعمالكم، وليس خلقكم الثاني بأصعب من الأول.

كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْىِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ – ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥].

الفوائد والأحكام:

١ – بيان قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته ومنته على الإنسان، وعنايته به في خلقه، ونقله إياه في أطوار حياته، ودلالة ذلك على وحدانيته عز وجل، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الآية.

٢ – أن أصل خلق الإنسان من سلالة من طين، بخلق آدم عليه السلام أبي البشر ـ من ذلك.

٣ – أن من أسباب اختلاف ألوان البشر وطبائعهم وأشكالهم تأثرهم بما أخذت منه هذه السلالة من أصناف الأرض وأجزائها.

٤ – لا فخر لأحد من البشر على أحد في أصل الخلق؛ لأنهم خلقوا جميعًا من التراب والطين، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، وقد أحسن القائل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهمُ من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء[(١)]

وإنما الفضل بتقوى الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥- أن جنس الإنسان خلق من نطفة؛ وهي المني والماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾.

٦- عناية الله تعالى التامة بالإنسان منذ كونه نطفة في بطن أمه، بجعله في هذا المستقر المكين المحفوظ المصون وهو الرحم؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

٧- انتقال خلق الإنسان في الرحم من نطفة إلى علقة تعلق بالرحم، ثم إلى مضغة، أي: قطعة لحم صغيرة، ثم إلى عظام يتبين منها شكل الإنسان وهيئته؛ من رأس ويدين ورجلين وغير ذلك، ثم كسوة العظام لحمًا تسترها وتشدها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

٨- نفخ الروح فيه بعد تلك المراحل، وإنشاؤه خلقًا آخر، وانتقاله من جماد إلى حيوان ذي روح وسمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب، إلى اكتمال نموه في بطن أمه، ثم ولادته طفلًا إلى آخر مراحل حياته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

٩- تعظيم الله تعالى، وثناؤه على نفسه بتعاليه وكثرة خيره وحسن خلقه وكماله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

١٠- في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بعد ذكر خلق الإنسان وأطواره؛ إشارة واضحة إلى نعمة الله على الإنسان في تسوية خلقه، وجعله من أحسن المخلوقات، بل أحسنها على الإطلاق.

١١- أن نهاية أطوار الناس في هذه الحياة الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾.

١٢- إثبات القيامة، وبعث الخلائق وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى:

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧)، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢/ ١٠٨).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

١٣- دلالة الخلق الأول للإنسان، ونقله في أطواره المختلفة، ثم إماتته؛ على قدرة الله تعالى التامة على البعث والمعاد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾:

لما بين عز وجل تمام قدرته، وعظيم منته ونعمته بخلق الإنسان، وما في ذلك من الدلالة على وحدانيته، وتمام قدرته على البعث، أتبعه بالاستدلال على ذلك بخلق السموات السبع الطباق.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين خلق الإنسان وخلق السموات والأرض؛ لأن خلقهما يدل على كمال قدرته وأكبر وأعجب، وإن كان خلق الإنسان إلى نظره أقرب، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾، أي: سبع سموات طباقًا، بعضها فوق بعض؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

أي: وما كنا عن الخلق غافلين، بل كنا عالمين به، محيط به علمنا وعنايتنا إحاطة تامة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال

تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

بعدما استدل على عظيم قدرته ومنته ووحدانيته وقدرته على بعث الخلائق، بخلق الإنسان ونقله في أطوار حياته حتى مماته، وبخلق السموات السبع الطباق فوق العباد، أتبع بالاستدلال على ذلك أيضًا: بإنزال المطر، وإنبات النبات، وإنشاء الجنات، وقرن بين خلق السموات وإنزال المطر؛ لأن المطر ينزل من جهة السماء.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ وهو المطر، ﴿بِقَدَرٍ﴾، أي: بمقدار معلوم معين، وبقدر حاجة الخلق وكفايتهم، من غير زيادة فيضر بالمساكن، ويهلك الحروث والزروع، ولا نقص بحيث لا تحيا به الأرض، ولا ينبت النبات والأشجار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف: ١١].

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جعلناه يسكن ويستقر في الأرض، فمنه ما ينتفع به وهو على سطح الأرض في الأودية والغدران، ومنه ما تشربه الأرض فيتغذى به ما يخرج منها من النبات والحب والنوى والأشجار وغير ذلك، ومنه ما ينزل ويتسرب إلى باطنها، فتكنزه وتخرج منه العيون والأنهار، أو يخرج بواسطة حفر الآبار؛ وكل ماء في الأرض فهو مما نزل من السماء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنا على ذهاب بهذا الماء لو شئنا ذلك لقادرون، ونكّر «ذهاب» للتفخيم والتعظيم، والإشارة إلى تعدد أسباب الذهاب به، من إمساك إنزاله زمنًا طويلًا، أو تغويره في أعماق الأرض فلا يوصل إليه، أو غير

ذلك؛ كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾، أي: بذلك الماء، ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، أي: بساتين من نخيل وأعناب، مما يقتات بثمره ويتفكه به رطبًا ويابسًا.

﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ الجملة في محل نصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، أي: لكم في تلك الجنات فواكه كثيرة مما يتلذذ بطعمه، ويتفكه به من غير قصد القوت.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ الواو عاطفة، والجملة في محل نصب عطفًا على جملة: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ﴾، أي: ومنها تأكلون طعامًا وقوتًا لكم.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين: «سِيناءَ»، وقرأ الباقون: ﴿سَيْنَآءَ﴾ بفتحها.

﴿وَشَجَرَةً﴾، «شجرة» منصوبة بفعل مقدر تقديره: وأنشأنا لكم به شجرة، وهي شجرة الزيتون، التي هي من أطيب الأشجار وأفضلها، وأكثرها بركة، وأعظمها نفعًا.

﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام بين مصر وأيلة من أرض فلسطين من أرض الشام المباركة، وشجرة الزيتون تخرج فيه وفي غيره، وإنما خص منها ما يخرج منه؛ لأن خروجها منه يزيدها بركة؛ لبركة أرضه وطيبها، أو لأن أول خروجها كان من تلك الأرض المباركة.

وخص هذه الأصناف الثلاثة: النخيل والأعناب والزيتون؛ لأنها أكرم الأشجار، وأكثرها بركة، وأنفعها ثمرًا، مما يقتات ويتفكه به، وإلا فإن المطر سبب لحياة الأرض كلها، وخروج جميع النباتات المختلفة الثمرات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ [النحل: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ [طه: ٥٣ – ٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ

مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿تَنْبُتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بضم التاء وكسر الباء: «تُنْبِتُ».

وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الباء: ﴿تَنْبُتُ﴾.

﴿بِالدُّهْنِ﴾ الباء للتعدية، أي: تنبت الدهن، أي: الزيت، وقيل: الفعل مضمن معنى: تخرج بالدهن، أي: تأتي بالدهن، وهو الزيت، الذي يدَّهن به ويستصبح به، ويتداوى به، وغير ذلك.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾، أي: أدم لهم لطعامهم من خبز وغيره.

عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلوا الزيت وادّهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾.

ذكر عز وجل دلائل قدرته ومنته في خلق الإنسان، وخلق السموات، وإنزال الماء من السماء وإنشاء الجنات به، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته في الأنعام التي خلقها وسخرها يشربون من ألبانها، وينتفعون بها منافع كثيرة، ويأكلون منها، ويحملون عليها وعلى الفلك.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: وإن لكم في الأنعام- الإبل والبقر والغنم- لعبرة تعتبرون بها، تدلكم على عظم نعمة الله تعالى عليكم، وعلى تمام قدرته، فاعتبروا بذلك واشكروا؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح النون:

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٧، والترمذي في الأطعمة ١٨٥٢.

«نَسْقِيكُمْ»، وقرأ أبو جعفر بتاء التأنيث مفتوحة: ﴿تَسْقِيكُمْ﴾ على أن الضمير للأنعام، وقرأ الباقون بالنون مضمومة: ﴿نُّسْقِيكُم﴾.

أي: نسقيكم من الذي في بطونها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من الحرث عليها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٥، ٦].

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: وتأكلون من لحومها وشحومها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، أي: وعلى هذه الأنعام وعلى السفن تحملون، فتنقلون عليها من بلد إلى آخر، وتحملون عليها أمتعتكم وتجاراتكم من قطر إلى قطر، فالإبل سفن الصحراء والبر، والفلك سفن البحر؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٧].

الفوائد والأحكام:

١- بيان كمال قدرة الله تعالى وعظمته في خلق السموات السبع الطباق، وحكمته، والامتنان بذلك على العباد؛ لما في ذلك من المصالح والمنافع، ودلالة ذلك على وحدانيته عز وجل، وقدرته التامة على بعث الخلائق يوم المعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾.

٢- علم الله تعالى التام بالخلق كله، وإحاطته وعنايته به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

٣- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ فإنه مطلع ورقيب عليهم وشهيد؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩].

٤- قدرة الله تعالى التامة على إنزال المطر من السماء، وإسكانه في الأرض، وحكمته ورحمته، والامتنان بذلك على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٥- تخويف العباد بالذهاب بهذا الماء؛ ليشكروا الله تعالى عليه، وبيان تمام قدرته على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾.

٦- الامتنان على العباد بما أنشأ عز وجل لهم بهذا الماء من جنات النخيل والأعناب، لهم فيها فواكه كثيرة، يأكلون منها قوتًا وتفكهًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٧- امتداح شجرة الزيتون التي تخرج من طور سيناء الأرض المباركة، ودهنها وأدمها، والامتنان على العباد بإنشائها لعظيم منافعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- تخصيص هذه الأصناف بالذكر: النخيل والأعناب والزيتون؛ لأنها من أكرم الأشجار، وأكثرها بركة، وأنفعها ثمرًا.

٩- تذكير العباد بما في الأنعام لهم من العبرة؛ ليشكروا، يُسقون لبنًا مما في بطونها، وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ويأكلون من لحومها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾.

١٠- الامتنان على العباد بحملهم وأمتعتهم في البر على الإبل، وحملهم في البحر على السفن؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍۭ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

بعدما ذكر عز وجل دلائل قدرته وحكمته ورحمته، ومنته في خلق الإنسان والسموات السبع الطباق، وإنزال الماء من السماء، وإنشاء الجنات به، من النخيل والأعناب والزيتون، وغير ذلك، وفي خلق الأنعام لهم، يشربون من ألبانها، وينتفعون بها، ويأكلون من لحومها، وتحملهم هي والسفن في البر والبحر، أتبع ذلك، بذكر ما هو أعظم منة امتن بها على العباد، وهي: إقامته الحجة على الخلق بإرسال الرسل إليهم.

وقد قص الله عز وجل أخبار الرسل وأممهم، وكررها في مواضع كثيرة من كتابه؛ للتأكيد على سلوك منهجهم في الدعوة إلى الله والتأسي بهم، والحذر من مسالك المكذبين لهم، ومن أكثر السور بسطًا لهذه القصص سورة هود والأعراف.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ «نوح» هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض؛ لينذر قومه ويحذرهم عذاب الله لما هم عليه من الشرك بالله وعبادة الأصنام.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ليس لكم معبود سواه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا تتقون الله وتخافونه، وتتركون ما أنتم عليه من عبادة الأصنام والأوثان؟!

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾، أي: السادة والرؤساء والأكابر والأشراف منهم، على وجه المعارضة لنوح عليه السلام، والتحذير من اتباعه.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«يريد»، أي: يريد التفضل عليكم، أي: يريد أن يظهر أنه أفضل منكم، ويترفع ويتعاظم عليكم بدعوى النبوة، وإلا فما الذي يفضله عليكم وهو بشر مثلكم ومن جنسكم؟! وكيف خص بالوحي دونكم؟

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، أي: ولو شاء الله أن يبعث رسولًا لأنزل ملكًا، ولم يبعث بشرًا. وهذا من جهلهم؛ لأنه لو كان ملكًا لم يقدروا على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩].

وكانت هذه الدعوى الباطلة سبب ضلال كثير من الناس وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال المشركون لنبينا محمد ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، أي: ما سمعنا ببعثة رسول من البشر.

﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: في أجدادنا وأسلافنا السابقين، وفي الأمم الماضية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا رجل به مس من الجنون، أي: مجنون؛ كما قال تعالى عنهم في سورة القمر: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

ودعواهم أنه مجنون مناقض لقولهم قبل هذا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾، أي: فانتظروا به واصبروا عليه مدة، أي: حتى يموت فتستريحوا منه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

لما كذبه قومه واتهموه أنه يريد التفضل عليهم ورموه بالجنون استنصر الله ودعا عليهم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ الباء للسببية، أي: يا رب انصرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ – ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٥ – ٧٦].

وذلك بعد أن طال لبثه فيهم يدعوهم إلى الله تعالى وأيس منهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾، أو على مقدر، أي: فاستجبنا دعاءه وأوحينا إليه.

﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أوحينا»، أي: أوحينا إليه صنع الفلك، أي: صنع السفينة سببًا ووسيلة للنجاة من الغرق قبل وقوعه.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بمرأى منا، وبحفظنا وكلاءتنا.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الكوني القدري بإرسال الطوفان بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، الذي غمر الأرض وغطى السهل والجبل؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١ – ١٢].

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، أي: ونبع الماء من التنور المعروف «محل النار»، الذي جرت العادة ببعده عن الماء.

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأ حفص بالتنوين: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾، وقرأ الباقون بإضافة «زوجين» إلى «كل»: «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ».

أي: فأدخل فيها، أي: في السفينة من كل شيء زوجين، ذكرًا وأنثى من الحيوان وغيره.

﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: وأدخل فيها أهلك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا الذي سبق عليه القول بالهلاك والغرق منهم كابنه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٠ – ٤٣].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: لا تكلمني فيهم وتدعني أن أنجيهم شفقة منك عليهم، أو طمعًا في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: ولا تخاطبني فيهم، بل قال: ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ للدلالة على أن سبب شدة غضبه عليهم وإغراقه لهم هو ظلمهم، وقد أكد هذا أيضًا في الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، أي: لأنهم مغرقون لا محالة، قد قضيت بذلك وقدرته عليهم، فقضائي نافذ فيهم ولا بد.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: فإذا اعتليت أنت ومن معك على الفلك، وركبتم فيها، واستقلت بكم على ظهر الأمواج المتلاطمة.

﴿فَقُلِ﴾، أي: فقل شاكرًا لله تعالى مثنيًا عليه أنت ومن معك:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله تعالى وحده، ﴿ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾، أي: خلصنا وأنقذنا:

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأهلكهم بالغرق، وسلمنا منهم، ومن عملهم، ومن الغرق.

وقد امتثل نوح عليه السلام هذا؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١]، فذكر الله عند ابتداء سيره كما ذكره عند انتهائه، فقال: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ – ١٤].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ روى أبو بكر عن عاصم «مَنْزِلًا»

بفتح الميم وكسر الراء، اسم لمكان النزول.

وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الزاي: ﴿مُنزَلًا﴾ اسم مفعول، أو مصدر.

وقد استجاب الله دعاءه وأنزله خير منزل وأبركه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في قصة نوح وقومه، وإنجائه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين من قومه؛ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالات وحجج واضحات على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وصدق رسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥].

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، أي: وإن كنا لمختبرين العباد بإرسال الرسل إليهم، ومبتلين الرسل وأتباعهم، والناس أجمعين؛ كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢ – ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وفي حديث هرقل: «**وكذلك الأنبياء تبتلى ثم تكون العاقبة لهم**»(١).

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من المشركين، وتعريض بتهديدهم، وأن ما يواجهه الرسل بلوى تزول، ثم تكون الدائرة على أعدائهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

٢- أن أساس دعوة نوح عليه السلام وجميع الرسل إثبات العبادة لله تعالى وحده، وإبطال إلهية من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣- إنكار نوح عليه السلام على قومه ما هم عليه من الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان؛ وعدم تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٤- معارضة الملأ الذين كفروا من قومه لدعوته، وتكذيبهم إياه، وتحذيرهم قومهم من اتباعه، بحجة أنه بشر مثلهم، وليس بملك، وإنما يريد التفضل عليهم بدعوى النبوة، وكيف خص بالوحي دونهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

٥- أن الملأ والسادات والكبراء وذوي المناصب والجاه والغنى في مقدمة معارضي الرسل، والمكذبين لهم، والتحذير من اتباعهم، اغترارًا بحالهم؛ لهذا لا ينبغي الاغترار بهم.

٦- شدة جهل هؤلاء في اعتراضهم على كون الرسول بشرًا مثلهم؛ إذ لو كان ملكًا ما استطاعوا مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل فيعود اللبس عليهم.

٧- جرأة مكذبي الرسل على تلفيق الاتهامات لهم، وتفننهم في ذلك؛ ليمنعوا الناس من اتباعهم؛ لقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

٨- دورانهم في فلك حظوظ الدنيا ومناصبها الفانية؛ لقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

٩- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

١١- إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلق من خلق الله تعالى.

١٢- تقليدهم الأعمى لآبائهم، واحتجاجهم بما هم عليه من جهل وضلال؛ لقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا دليل على جهلهم وجهل آبائهم، فليس فيه حجة لهم.

١٣- اتهامهم لنوح عليه السلام بالجنون، وأمرهم بانتظار هلاكه وموته؛ لقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

١٤- عدم تورع أعداء الرسل من وصفهم وأتباعهم بأقبح الأوصاف؛ كالجنون والسحر والكهانة والشعر وغير ذلك؛ لينفروا الناس منهم، وهكذا قيل لسيد الرسل وأفضلهم نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

١٥- تناقضهم في وصفهم لنوح عليه السلام بين العاقل والمجنون، فأولًا قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾، ثم عادوا وقالوا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ۝٢٥﴾ وهذا يدل على حيرتهم وتذبذبهم وفقدانهم الصواب.

١٦- دعاء نوح عليه السلام ربه أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم، ودعاؤه عليهم بعد أن طال لبثه فيهم وأيس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦﴾.

١٧- استجابة الله تعالى له ووحيه إليه بصنع السفينة بمرأى منه عز وجل، وعناية ووحي منه؛ لتكون سببًا ووسيلة لنجاته ومن معه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

١٨- إثبات صفة الأعين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾.

١٩- أمر الله تعالى لنوح إذا جاء أمره عز وجل القدري بإرسال الطوفان والغرق، بفتح أبواب السماء بماء منهمر، وتفجير الأرض عيونًا، وفوران التنور؛ بأن يُدخل في السفينة من كل شيء زوجين اثنين، ذكرًا وأنثى، من الحيوانات وغير ذلك، وأهله إلا من سبق عليه القول منهم بالهلاك والموت على الكفر كابنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾.

٢٠- إثبات القدر، وأن ما قدر الله كائن لا محالة، وأن من سبق عليه القول بالهلاك على الكفر فلا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾.

٢١- شدة غضب الله تعالى على هؤلاء المكذبين الظالمين، ونهيه عز وجل نوحًا أن يكلمه في شأنهم بدعائه إياه بنجاتهم، شفقة عليهم، أو طمعًا في إنظارهم لعلهم يهتدون، وتيئيسه منهم، وأنهم مغرقون لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

٢٢- أن سبب شدة غضب الله تعالى عليهم، وإغراقه إياهم هو ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، وقول نوح عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٣- أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام إذا استوى هو ومن معه على السفينة واستقلت بهم؛ بحمد الله تعالى والثناء عليه على إنجائه إياهم من القوم الظالمين وما هم عليه، وإنجائهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾، وهكذا فعل عليه السلام، فذكر الله في ابتداء سيره ونهايته، وهكذا شرع عز وجل لهذه الأمة الدعاء عند الركوب والسفر.

٢٤- أمره عز وجل له بدعاء ربه أن ينزله هو ومن معه في السفينة منزلًا مباركًا، ويثني عليه بكونه خير المنزلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَٰرَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾.

٢٦- أن الله عز وجل هو خير المنزلين، ومشروعية الثناء عليه بذلك والدعاء بهذا الدعاء: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَٰرَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

٢٧- أن في قصة نوح وقومه، وإنجائه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين من قومه آياتٍ ودلالاتٍ عظيمةً على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته، وصدق رسله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾.

٢٨- ابتلاء الله العباد بإرسال الرسل إليهم، وابتلاء الرسل وأتباعهم بما يحصل لهم من الأذى من مخالفيهم، وأن الابتلاء بالخير والشر سنة كونية؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، والكافر من المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وتهديد للكافرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: جيلًا آخرين وأمة أخرى، يحتمل أن المراد بهم: «عاد»؛ لأنهم هم المستخلفون بعد قوم نوح، وقد جاء في مواضع كثيرة من القرآن ذكرهم بعد قوم نوح.

ويحتمل أن المراد بهم: «ثمود» وهو الأقرب- والله أعلم- لأن هذه القصة تشبه قصة ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ وغير ذلك.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، أي: يعرفون نسبه وحسبه وصدقه؛ ليكون ذلك أقرب لانقيادهم له، وليبين لهم وتقوم الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وهو «هود» أو «صالح».

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: فقال لهم رسولهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية؛ كما قال نوح لقومه، وقد سبق الكلام على هذا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الذين أنكروا رسالته وكذبوه وجحدوا وحدانية الله تعالى.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: كذبوا بلقاء الله تعالى، والدار الآخرة، وأنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: أغدقنا عليهم الأموال والأرزاق والنعم في الحياة الدنيا، فاغتروا بذلك، وبطروا.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أي: من جنسكم، ليس له مزية عليكم، وليس بملك.

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: يأكل من الذي تأكلون منه من المطاعم، ويشرب من الذي تشربون منه، فما الذي يفضله عليكم؟ أي: فهلا كان ملكًا لا يأكل ولا يشرب؛ كما قال المشركون: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أطعتم بشرًا مثلكم وصدقتموه واتبعتموه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جملة جواب القسم، و«إذًا» بالتنوين: حرف جواب لا عمل له، واللام: واقعة في جواب القسم.

وهذا قلب للحقائق؛ فإن مخالفيه هم الخاسرون، وإن مطيعيه هم الرابحون، وهذا كقولهم في سورة القمر: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤ – ٢٥].

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: أيعدكم أنكم إذا متم وبليتم وكنتم ترابًا ورميمًا وعظامًا نخرة ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من قبوركم ومبعوثون أحياء بعد ذلك؟!

﴿* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ قرأ أبو جعفر بكسر التاء: «هَيْهَاتِ هَيْهَاتِ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾، أي: بَعُد بَعُد.

﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾، اللام: للتوكيد، و «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بعُد وعدكم، أو بعُد الذي توعدون.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ «إن» نافية في الموضعين بمعنى «ما»، أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أي: يموت أناس ويحيا أناس، ويموت قوم ويحيا آخرون.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أحياء بعد الموت؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]، أي: لا ثمة بعث ولا آخرة ولا حساب ولا جزاء.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ «إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا رجل اختلق على الله كذبًا فيما جاء به من دعوى الرسالة، والدعوة إلى عبادة الله وترك عبادة الآلهة،

وفيما يعد به من البعث ويحذر منه من الحساب والجزاء.

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما نحن له بمصدقين، ولا منقادين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾، أي: يا رب انصرني وأظهرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي، فأجاب الله دعاءه.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله عن ﴿قَلِيلٍ﴾، أي: بعد زمن قليل قريب ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليصيرن نادمين، أي: متأسفين على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم لك.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، أي: أهلكتهم الصيحة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، أي: أخذًا ملابسًا ومصاحبًا للحق، أي: أخذًا بالحق والعدل، وذلك بأن صاح بهم جبريل صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: ٥]، أي: بالصيحة الشديدة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾، أي: فصيرناهم غثاء كغثاء السيل الذي يطفو على الماء من الأعواد والورق اليابس ونحو ذلك، ويلقيه السيل في جنبات الوادي، مما لا قيمة له، وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾ [القمر: ٣١].

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفاء: عاطفة، و«بعدًا»: مفعول مطلق، أي: أُبعدوا بعدًا، أي: فهلاكًا وإبعادًا للقوم الظالمين من الرحمة.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: فبعدًا لهم؛ لبيان أن سبب إهلاكهم وإبعادهم عن الرحمة هو ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف: ٧٦].

وفي هذا تحذير للظالمين من هذه الأمة.

الفوائد والأحكام:

١ - إنشاؤه عز وجل بعد قوم نوح قرنًا آخرين، وإقامة الحجة عليهم بإرساله فيهم رسولًا منهم، يحتمل أنهم قوم هود عليه السلام، ويحتمل أنهم ثمود وقوم صالح عليه السلام، وهو الأقرب لشبه ما ذكر بقصتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

٢- منة الله تعالى على كل أمة بجعل رسولهم منهم؛ ليبين لهم، ويطمئنوا إليه.

٣- إطباق دعوة الرسل كلهم على الأمر بعبادة الله تعالى، وإبطال إلهية غيره، والأمر بتقواه، وإنكار عبادة من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٤- تكذيب الملأ والأكابر من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفوا في الحياة الدنيا له بحجة أنه بشر، وليس بملك؛ كما قال قوم نوح وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وهذا دليل جهلهم وضلالهم.

٥- جمع هؤلاء الملأ بين الكفر والتكذيب بلقاء الآخرة والترف؛ ولهذا كذبوا رسولهم، وأنكروا رسالته.

٦- إثبات لقاء الله تعالى، والدار الآخرة، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٧- الحذر من الترف؛ فإنه قد يحمل على البطر والغرور، ورد الحق ومعارضته.

٨- أن من طبيعة البشر حاجتهم إلى الأكل والشرب، بخلاف الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

٩- تحذير هؤلاء الملأ لقومهم من طاعة رسولهم أشد التحذير، وتهديدهم بالخسران إن أطاعوا بشرًا مثلهم واتبعوه؛ لقولهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

١٠- تعجبهم من وعد رسولهم لهم بعد موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا، بإخراجهم من قبورهم، واستبعادهم لذلك؛ لقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

١١- أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال حق؛ لوعد الرسل كلهم بذلك.

١٢- تكذيبهم بالبعث، وإنكارهم له، وزعمهم أن الحياة مجرد هذه الحياة الدنيا، يموت أناس ويحيا آخرون، ولا بعث ولا جزاء؛ لقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٣- زعمهم كذب رسولهم، وأنه إنما هو رجل اختلق على الله كذبًا بدعواه النبوة، ولن يؤمنوا له؛ لقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

١٤- استفتاحه عليه السلام ودعاؤه ربه بنصره عليهم بسبب تكذيبهم له؛ لقوله

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩﴾.

١٥- استجابة الله عز وجل له، ووعيده لهم بالعذاب القريب، وتنديمهم على تكذيبهم له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠﴾.

١٦- إهلاكهم بالصيحة بالحق والعدل بسبب تكذيبهم وكفرهم، وجعلهم غثاء لا قيمة لهم كغثاء السيل، والحكم عليهم بالإبعاد عن الرحمة بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد إهلاك المكذبين من قوم نوح والقرن الآخرين بعدهم، ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: أممًا وأجيالًا آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما تسبق أيُّ أمة أجلها وما يستأخرون، أي: أن لكل أمة من الأمم المكذبة للرسل وقتًا محددًا لهلاكها، لا تسبقه ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين: «تَتْرًا».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تَتْرَا﴾.

أي: ثم أرسلنا إليهم رسلنا متتابعة يتبع بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾، أي: كلما جاء أمة من هذه الأمم رسولها كذبوه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠].

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالإهلاك والاستئصال؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾، أي: صيرناهم أحدوثات وأخبارًا يتحدث الناس بما أصابهم.

قال الشاعر:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى[1]

وفي هذا تهديد للمكذبين، وعظة للمتقين، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: فإبعادًا وهلاكًا لهم، وما أشقاهم وأخسر صفقتهم!

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾، أي: ثم بعد إهلاك تلك القرون والأمم المكذبة أرسلنا موسى وأخاه هارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ البينات ودلائلنا الواضحات.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: حجة بينة، وبرهان قاطع على صدقهما، وصحة ما جاءا به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، منها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص الثمرات، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧ – ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: سادات قومه وكبار جنوده وقياداته كهامان وغيره.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: استكبروا عن الإيمان بالله، وعن الانقياد لموسى وهارون واتباعهما، وعن طاعتهما بإرسال بني إسرائيل معهما.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾، أي: مستكبرين متطاولين على الناس، فجمعوا بين الاستكبار

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ١/ ١٩٤، «جمهرى الأمثال» ١/ ٣٥٢، «زهر الأكم» ١/ ٣٣٥.

عن قبول الحق، وبين التعالي على الخلق، وقد قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١)، أي: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ منكرين لبعث الرسل كحال المكذبين قبلهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ الاستفهام للإنكار ﴿لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ يعنون: موسى وهارون، أي: ما كان لنا أن نؤمن لهما ونصدقهما وهما بشران مثلنا، وليسا من الملائكة.

﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾ يعنون: بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾، أي: لنا متذللون معبَّدون مطيعون، وقد كانت بنو إسرائيل خولًا للقبط وخدمًا لهم، يعبِّدونهم بالأعمال الشاقة؛ كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: ٢٢].

والمعنى: كيف نؤمن لهما ونتبعهما بعد أن كانوا تابعين لنا؟ وكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وهذا من كبرهم وعلوهم، ونظير هذا قول قوم نوح: ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: ١١١]، وقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: ٢٧].

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ بحجة أنهما من البشر.

﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالغرق، أهلكهم الله، وبنو إسرائيل إليهم ينظرون؛ كما قال: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ الضمير يعود إلى بني إسرائيل، أي: لأجل أن يهتدي بنو إسرائيل بما في التوراة من الهدى وبيان الحق والشرائع والأحكام.

قال ابن كثير(٢): «وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص: ٤٣]».

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾، أي: وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٤٦٩.

﴿ءَايَةً﴾، أي: علامة ودلالة على عظيم قدرة الله تعالى؛ حيث خلق عيسى من مريم، أي: من أنثى بلا ذكر، كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾، أي: جعلنا لهما مأوى.

﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، أي: مكان مرتفع من الأرض.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، أي: صاحبة استقرار، أي: مكان صالح للاستقرار عليه.

﴿وَمَعِينٍ﴾، أي: ماء جارٍ ظاهر للعيون لا ينضب. وهذا- والله أعلم حين وضعها عيسى، وذلك في بيت المقدس.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام، وتأييد الله لهما بالآيات الواضحات والحجج البينات، بعد إهلاك قرون وأمم كثيرة جاءتهم رسل الله فكذبوهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

٢- استكبار فرعون وملئه عن الإيمان بالله، وعن اتباع موسى وهارون والانقياد لما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾.

٣- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه يحمل صاحبه على رد الحق، والتعالي على الخلق، وغمطهم وانتقاصهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾.

٤- امتناع فرعون وملئه عن الإيمان لموسى وهارون وتصديقهما واتباعهما، بحجة أنهما بشران مثلهما، وليسا من الملائكة، وبحجة أن قومهما بني إسرائيل كانوا معبدين لهم بالخدمة، فكيف يكونون تابعين بعد أن كانوا متبوعين؟! كبرًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٥- تسلط فرعون وقومه القبط على بني إسرائيل، واستعبادهم إياهم بالخدمة والأعمال الشاقة، وإذلالهم لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

٦- تكذيبهم لموسى وهارون، وإهلاكهم بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟

مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴿١٨﴾﴾.

٧- إيتاء موسى عليه السلام التوراة بعد إهلاك فرعون وقومه، وخروجه ببني إسرائيل وإنجائهم من فرعون وقومه؛ ليهتدوا بما فيه من بيان الحق والشرائع والأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴿٤٩﴾﴾.

٨- الإخبار والامتنان بجعله عز وجل عيسى ابن مريم وأمه آية، أي: علامة ودلالة على كمال قدرته عز وجل؛ حيث خلق عيسى من مريم، أي: من أنثى بلا ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ ولهذا يذكر عيسى عليه السلام في القرآن غالبًا منسوبًا إلى أمه: «عيسى ابن مريم»، بينما يذكر غيره من الأنبياء بلا نسبة.

٩- الامتنان على عيسى وأمه بإيوائهما حين وضعها له إلى مكان مرتفع مستوٍ مناسب للاستقرار عليه، فيه الماء المعين، وذلك- والله أعلم- في بيت المقدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب، ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ بدل من «أي»، أو عطف بيان، والنداء موجه لكل رسول، والأمر لهم كلهم في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المراد بـ«الطيبات» هنا: الحلال من الرزق، أي: كلوا من الرزق الطيب الحلال.

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ الواو: عاطفة، أي: واعملوا عملًا صالحًا؛ شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليكم من الطيبات.

والعمل الصالح ما كان خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه. والأمر للوجوب.

﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بجميع الذي تعملونه، أو بعملكم كله ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم تام به، مطلع عليه، وسأجازيكم عليه أتم الجزاء وأوفاه وأفضله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب

لذلك؟!»(١).

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الهمزة: ﴿وَإِنَّ﴾.

وقرأ الباقون بفتحها: «وَأَنَّ»، وسكن النون من «أن» ابن عامر، وشددها الباقون.

﴿أُمَّةً﴾ حال منصوبة من «أمتكم»، والمراد بالأمة هنا: الملة، أو الجماعة، أي: وإن هذه ملتكم أيها الرسل ملة واحدة، ودينكم دين واحد، وهو الإسلام وعبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى ذلك، وإن هذه جماعتكم جماعة واحدة هي الأمة الإسلامية؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»(٢).

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾، أي: وأنا ربكم وحدي، لا رب لكم غيري.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، والخطاب والأمر لهم ولأتباعهم.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾، أي: تفرقت الأمم الذين بعث الله إليهم الرسل ﴿أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾، أي: شأنهم ودينهم، واختلفوا على ملل ونحل كثيرة، وعدلوا عما جاءتهم به الرسل من توحيد الله تعالى وحده لا شريك له، والاستسلام له بذلك، والانقياد لطاعته.

﴿زُبُرٗاۖ﴾ قرأ أبو عمرو- على خلاف عنه- بفتح الباء: «زُبَرًا»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿زُبُرٗاۖ﴾، أي: شيعًا وأحزابًا وفرقًا.

قال ابن القيم: «والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله به رسوله»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، قبول الصدقة من الكسب الطيب ١٠١٥، وأحمد ٢/ ٣٢٨، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٨٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣)انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣/ ٢٣٣.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: كل فريق بالذي عندهم من العلم والرأي والقول والمعتقد والعمل ﴿فَرِحُونَ﴾ يرون أنهم على الحق والهدى دون غيرهم، وإن كانوا على الباطل والضلال؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

وكما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك(١)

ومن المؤسف أن المجتمعات الإسلامية قد أصيبت بهذا الداء العضال، وهو تقطع الأمر، حتى على مستوى البيوت والأسر والقرابات، وجماعات المساجد، وسكان الحي، وكثير من المؤسسات التعليمية والخدمية وغيرها. فافتقد كثير من هذه المجتمعات التعاون والتناصح والتواصي بالحق، والتنافس المثمر البنّاء، مما ينذر بتفكك المجتمع، وبعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع والأمة. وهذا يوجب علينا جميعاً- أفراداً ومجتمعات- العمل جميعاً بروح الفريق الواحد، وبث روح التعاون والإخلاص والنصيحة ، وتحمل المسؤولية؛ ليصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، ونسعد في الدنيا والآخرة.

ولنعلم أن التفرق والاختلاف وتقطع الأمر أساس كل بلية، وسبب كل رزية، في الأمم والمجتمعات صغيرها وكبيرها، حتى بين الأقارب والأسر والإخوة والأصحاب، وهو مركب شياطين الإنس والجن الذين يفرقون بين المرء وزوجه، والوالد وولده، والأخ وأخيه، والجار وجاره، وقد حذر الله منه ورسوله، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(٢).

---

(١) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧١).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٠،

وقال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»(١).

ولم تُصَب الأمة الإسلامية منذ عهد الرسالة إلى يومنا هذا بأعظم من هذا المصاب؛ حيث تفرقت شيعًا وأحزابًا، وطوائف وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام؛ كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعًا فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر(٢)

ولن يعود للأمة مجدها وعزها إلا برجوعها إلى دينها، والاجتماع على كلمة سواء، وما ذلك على الله بعزيز.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ في شأن المشركين المكذبين، تسلية له ﷺ، وتهديدًا لهم، أي: اتركهم في غيهم وضلالتهم وجهلهم، ولا تبالهم، فهم من جملة الذين ﴿تَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فمنهم من عبد اللات، ومنهم من عبد العزى، ومنهم من عبد مناة، ومنهم من عبد غير ذلك، وفي هذا إشارة لعدم انتفاعهم بالوعظ؛ لأن كلًّا منهم يزعم أنه على الحق؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨].

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت نزول العذاب وإهلاكهم؛ كما قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ الاستفهام للتقريع، أي: أيظنون.

«أن»: حرف توكيد، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ما نزودهم به ونعطيهم إياه من الأموال والأبناء.

والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت بلا نسبة، كما في «ديوان الحماسة» (١/ ١٧٦).

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ «نسارع» خبر «أن»، أي: أيحسبون أن الذي نمدهم به من مال وبنين، أو أن إمدادنا لهم من ذلك مسارعة منا لهم في الخيرات، أي: بإعطائهم ما يحبون لفضلهم عندنا؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: «**ما أرى ربك إلا يسارع في هواك**»(١)، أي: في إعطائك ما تحب.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يعلمون أنما نمدهم بذلك إملاء واستدراجًا لهم؛ ليزدادوا إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢ – ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤ – ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١ – ١٦].

قال قتادة: «﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾: مكر، والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح»(٢).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه**» قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «**غشمه وظلمه. ولا يكسب عبد مالًا حرامًا فيبارك له فيه، ولا**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٨، ومسلم في الرضاع ١٤٦٤٤، والنسائي في النكاح ٣١٩٩، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٠، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٧٣.

يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١﴾.

لما ذكر الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف من الله، والوجل من عدم القبول.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ «إن» حرف توكيد، و«من»: للتعليل، أي: إن الذين هم بسبب شدة خوفهم من ربهم ﴿مُّشْفِقُونَ﴾، أي: وجلون خائفون، وهم المؤمنون أتباع الرسل، جمعوا بين الأكل مما أباح الله من الطيبات، والعمل الصالح، وبين الخوف من الله وعذابه، فجمعوا بين الإيمان وإحسان العمل، وبين الخوف من الله، معرفة به، وخوفًا من أن يضع عليهم عدله، واتهامًا لأنفسهم بالتقصير.

قال الحسن: «المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، والمنافق جمع إساءة وأمنًا»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾، أي: والذين هم بآيات ربهم الكونية والشرعية، الدالة على عظمته ووحدانيته يصدقون، يتدبرون آياته الشرعية وتزيدهم إيمانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

ويتفكرون في آياته الكونية وتزيدهم له تعظيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ قدَّم المعمول في المواضع الثلاثة، وهي قوله: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾، وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ تعظيمًا له عز وجل، وفيه

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤٧٣.

مراعاة الفواصل.

أي: والذين هم لا يعبدون إلا الله، ولا يشركون به أحدًا سواه، لا شركًا جليًّا، كاتخاذ آلهة مع الله، ولا شركًا خفيًّا كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون له العبادة تمام الإخلاص.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ كرر الموصولات للاهتمام، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: يعطون ما أعطوا من العطاء، ويعملون ما عملوا من العمل، أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والنفقات والصدقات والهبات والهدايا وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [النمل: ٣]، [لقمان: ٤].

ويعملون ما عملوا من الأعمال الصالحات؛ من صلاة وصوم وحج وبر، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ودعوة إلى الله تعالى، وغير ذلك.

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الجملة حالية، أي: حال كون قلوبهم وجلة، أي: خائفة من ربهم، ومشفقة من عدم القبول، وهذا دأب الصالحين، لا يحملون همًّا للعمل؛ فهو يسير عليهم لقوة إيمانهم وشدة عزائمهم، وإنما يحملون هم القبول، ويخافون من الرد.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا ابنة أبي بكر، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم**»(١).

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ الجملة تعليلية، أي: ليقينهم بأنهم إلى ربهم راجعون، أي: أن مردهم وإيابهم إليه عز وجل، وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥ – ٢٦].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: يسارعون في عمل الخيرات، ويسابقون إليها، وينافسون فيها، امتثالًا لأمر ربهم، قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المؤمنون ٣١٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٨، وأحمد ٦/ ١٥٩، ٢٠٥.

وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٨]، [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ وهم للخيرات سابقون، أي: مدركون لها، ومحصلون لثوابها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، ولكل مجتهد نصيب، ومن جد وجد، ومن زرع حصد، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد أحسن القائل:

الجد بالجد والحرمان بالكسل ... فانصب تصب عن قريب غاية الأمل(١)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٢):

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب

وقال الشافعي رحمه الله(٣):

ومن طلب العلا من غير كد ... أضاع العمر في طلب المحال

وقال الآخر:

ومن طلب العلا من غير كد ... سيدركها متى شاب الغراب(٤)

وقال الآخر:

ومن زرع الحبوب وما سقاها ... تأوه نادمًا يوم الحصاد(٥)

الفوائد والأحكام:

---

(١) البيت لصلاح الدين الصفدي من لاميته. انظر: «نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص١٥).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٥).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٩٧).

(٤) انظر: «بيان المعاني» (٤/ ٣٨٣).

(٥) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب (ص١٤٨).

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والتعظيم والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾.

٢- امتنان الله عز وجل على الرسل وأمره لهم بالأكل من الحلال، وعمل الصالحات؛ شكرًا لله تعالى على ذلك، وهو امتنان على أتباعهم، وأمر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

٣- اتفاق شرائع الرسل على إباحة الطيبات من المآكل وتحريم الخبائث، وعلى كل عمل صالح.

٤- أن كل ما أباحه الله تعالى وأحله فهو طيب، وما حرمه فهو خبيث.

٥- ينبغي الحرص على تطييب المأكل والمشرب، والتعبد لله بذلك؛ لأن ذلك من طاعة الله تعالى، وعون على العمل الصالح، وهذا دأب الرسل عليهم الصلاة والسلام، فما منهم من أحد إلا رعى الغنم، قال ﷺ: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(١).

وعن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»(٢).

٦- أن الرسل عليهم السلام مكلفون بالعمل كسائر الناس، خلافًا لما يزعمه غلاة الصوفية، من أن الإنسان إذا بلغ درجة في الدين يرتفع عنه التكليف، وهذا من تحريفاتهم الباطلة.

٧- وجوب شكر الله تعالى على نعمه، وعلى ما أباحه من الطيبات بالعمل الصالح.

٨- يجب مقابلة المحسن بالشكر والإحسان، ورد الجميل بالجميل.

٩- أن كل ما أباحه الله وأحله فهو طيب، وما حرمه فهو خبيث.

١٠- لا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١١- علم الله عز وجل الواسع المحيط بأعمال العباد، يحصيها ويكتبها عليهم، ويحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، رعي الغنم على قراريط ٢٢٦٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، كسب الرجل من عمل يده ٢٠٧٢.

١٢- أن ملة الرسل عليهم السلام ملة واحدة؛ هي الإسلام وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأمتهم كلهم وجماعتهم هي أمة وجماعة واحدة، هي الأمة الإسلامية.

١٣- إثبات ربوبية الله الخالصة للرسل وأتباعهم المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، وقوله: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾.

وإثبات ربوبيته العامة لجميع أمم الرسل وسائر الخلق.

١٤- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

١٥- عدول الأمم عما جاءتهم به الرسل من توحيد الله تعالى، والاجتماع على ملة واحدة، واختلافهم وتفرقهم شيعًا وأحزابًا وطوائف، كل يرى أن الحق معه دون غيره، وتلك بلية البليات، وأعظم المصائب والرزيات؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾.

١٦- وجوب الحذر من التفرق والاختلاف، والحرص كل الحرص على لم الشمل والائتلاف بين المسلمين، على مستوى الأمة والدول والقبائل والعوائل والقرابات والأسر، والمجتمعات كبيرة أو صغيرة، فإن الاجتماع والألفة خير، والخلاف والفرقة والتباغض والتعادي والتهاجر شر مستطير.

١٧- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب المشركين له، وتهديدهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾، أي: اتركهم ولا تبالهم إلى حين حلول العذاب بهم.

١٨- ذم المشركين المكذبين له ﷺ، وأنهم سادرون في غيهم وجهلهم وضلالهم، جمعوا بين الإساءة والأمن من مكر الله: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾.

١٩- الإنكار عليهم في ظنهم أن ما يمدهم الله به من الأموال والأولاد مسارعة لهم في الخيرات لخيريتهم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾، أي: لا يظنوا ذلك.

٢٠- جهلهم وعدم علمهم أن ما يمدون به من الأموال والأولاد إملاء واستدراج لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

٢١- ثناء الله عز وجل على أتباع الرسل المؤمنين، الذين جمعوا بين الإحسان والخوف من الله، أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين خشية ربهم والخوف منه ومن عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾.

٢٢- امتداحهم بالإيمان بآيات لله الكونية والشرعية والتصديق بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾.

٢٣- امتداحهم بجمعهم بين إعطاء العطاء والقيام بالعمل، مع وجل قلوبهم وخوفهم من ربهم، ومن عدم القبول، وعدم الإدلال على الله بما يعطونه وما يعملونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

٢٤- إيمانهم ويقينهم أنهم إلى ربهم راجعون، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾.

٢٥- ثناء الله تعالى عليهم بالمسارعة إلى الخيرات، وإدراكهم لها، وتحصيلهم لثوابها؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: لا نكلف نفسًا إلا ما تستطيع القيام به وتقدر عليه وتطيقه؛ فعلًا أو قولًا أو بذلًا.

﴿وَلَدَيْنَا﴾، أي: وعندنا، ﴿كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وهو كتاب الأعمال، الذي سُطرت فيه جميع أعمال العباد صغيرها وكبيرها؛ لمحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة: حالية، أي: لا يظلمون بأن ينقص من حسناتهم، أو يزاد في سيئاتهم، بل يجازى كل بما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: في غفلة وجهالة وضلالة، ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: من هذا القرآن الذي أنزله الله على النبي ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراطه المستقيم، أي: أنه لا يصل إلى قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: ولهم أعمال سيئة مكتوبة عليهم، زيادة على ما هم فيه من الغمرة والغفلة عن القرآن، والكفر والشرك.

أي: لا بد أن يعملوها قبل هلاكهم؛ ليضاعف عذابهم، وتحق كلمة العذاب عليهم؛ ولهذا أمهلوا وأنظروا، ولم يعجل عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقيل: الإشارة في قوله: ﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إلى ما ذكر من صفات المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم

بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ على هذا، أي: ولهم أعمال سيئة مخالفة لأعمال المؤمنين وصفاتهم هم لها عاملون؛ من الكفر والشرك والاستكبار ونحو ذلك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد لهم، وأنهم وإن أملي لهم وأمهلوا ليزدادوا إثمًا؛ فإنهم معذبون لا محالة، ولنزول العذاب بهم أجل وغاية.

﴿حَتَّىٰ﴾ «حتى» لابتداء الغاية، ﴿إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ «إذا» شرطية غير عاملة، ﴿مُتْرَفِيهِم﴾، أي: المترفين المنعمين منهم، ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الباء للملابسة، أي: بالعذاب الدنيوي، أي: إذا أصابهم العذاب ووجدوا مسه وألمه.

﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ «إذا» هي الفجائية، والجملة جواب الشرط «إذا»، أي: إذا هم يصرخون ويستغيثون ويتوجعون، ويرفعون أصواتهم متضرعين؛ كما قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص: ٣].

وخص مترفيهم، مع أن العذاب يعم المترف وغيره؛ لأن وقْع العذاب عليهم أشد؛ لما اعتادوه من الترف والتنعم؛ كما أن عذابهم أشد وأعظم، قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل: ١١ - ١٣].

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾، أي: فيقال لهم تبكيتًا وتنديمًا: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾، أي: لا تصرخوا وتستغيثوا اليوم بعد وقوع العذاب، فذلك غير نافع لكم، سواء جأرتم أو سكتم.

﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، أي: لا ناصر لكم منا يرفع عنكم العذاب، وإذا الله لم ينصرهم فلا ناصر لهم من أنفسهم ولا من غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ثم ذكر سبب أخذهم بالعذاب، فقال:

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تقرأ عليكم؛ لتهتدوا بنورها، وتؤمنوا بها،

وتعملوا بمقتضاها.

﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ الأعقاب: جمع «عقب»؛ وهو: مؤخر القدم، والنكوص: الرجوع إلى الوراء، أي: فكنتم على أعقابكم ترجعون القهقرى إلى الخلف والوراء؛ لإعراضكم عن آيات الله وصدودكم عنها ونفوركم من سماعها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَنكِصُونَ﴾.

﴿بِهِۦ﴾ الضمير يحتمل عوده إلى القرآن وآياته؛ لقوله قبله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمعنى: مستكبرين بالقرآن، أي: مكذبين به تكذيب استكبار، فضمن الاستكبار معنى التكذيب، أو الباء بمعنى «عن»، أي: مستكبرين عن اتباعه.

ويحتمل أن المراد بالضمير: الحرم؛ لأنه معهود عند المخاطبين، والباء للسببية، أي: مستكبرين متعالين على الناس بسبب الحرم، تقولون: نحن أهل الحرم وسدنته، وقوّامه وخدامه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقيل: الباء على هذا ظرفية، أي: مستكبرين في الحرم.

﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم: «يُهْجِرُونَ»، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم: ﴿تَهْجُرُونَ﴾.

﴿سَٰمِرًا﴾ حال، أي: تسمرون الليل بالحرم.

﴿تَهْجُرُونَ﴾، أي: تهجرون القرآن بالإعراض عنه، وبقولكم القول السيئ فيه؛ كقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ﴾ [الطور: ٣٣].

وكقولهم: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة، وأيضًا: تهجرون، أي: تقولون هجرًا أو سيئًا من القول وأنتم في الحرم.

الفوائد والأحكام:

١- تمام عدل الله عز وجل في التكليف، فلا يكلف نفسًا إلا ما تطيقه وتقدر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٢- إحصاؤه عز وجل على العباد أعمالهم، وكتابته إياها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها بالحق والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾.

٣- تمام عدله عز وجل في محاسبته الخلائق ومجازاته إياهم، فلا يُظلم أحد منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٤- غفلة المكذبين والمشركين عن القرآن وآياته، وما فيه من الهدى والنور، وإعراضهم عنه، وضلالتهم وجهالتهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

٥- إمهال هؤلاء المكذبين، وتأخير عذابهم؛ لما قدر عليهم من أعمال سيعملونها؛ ليزدادوا بها إثمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾.

٦- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد وتقديره لها قبل أن يعملوها، وأن ما قدره الله تعالى كائن لا محالة.

٧- صراخ مترفيهم واستغاثتهم وتضرعهم بعد أخذهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٨- تبكيتهم وتيئيسهم، بأن صراخهم لن يرفع العذاب عنهم بعد وقوعه، ولا ناصر لهم من الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

٩- أن من خذله الله تعالى وتخلى عنه فلا ناصر له، لا من نفسه ولا من غيره؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

١٠- تقريعهم وتوبيخهم على إعراضهم عن آيات الله، والتكذيب بها، وعدم الاهتداء بنورها، ونكوصهم على أعقابهم في ضلالتهم وجهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

١١- أن التقدم حقًّا إنما يكون باتباع ما جاءت به الرسل، والاهتداء بهدى الله تعالى، وأن النكوص والتأخر والرجوع إلى الخلف والوراء بالإعراض عن ذلك.

١٢- استكبار المشركين عن اتباع القرآن، وتعاليهم على الناس بسبب أنهم سكان الحرم وسدنته؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾.

١٣- سمرهم في ليلهم بقول الهجر والسيئ من القول بالقرآن، بوصفه بالسحر والشعر والكهانة والكذب، وقول الهجر والسيئ من القول وهم في الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء: عاطفة، أي: أجهلوا فلم يدبروا القرآن ويتفهموه ويتفكروا به؛ ليعلموا أنه الحق المبين، أي: أن الذي منعهم من الإيمان هو جهلهم وعدم تدبرهم القرآن.

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «أم» في المواضع الأربعة هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ و«ما»: موصولة، أي: الذي لم يأت آباءهم الأولين وأسلافهم، أي: أفمنعهم من الإيمان ومن تدبر القرآن أنه جاءهم رسول وكتاب لم يأت آباءهم الأولين، فردوا ما جاءهم من الحق وعارضوه؛ لمخالفته ما كان عليه آباؤهم من الضلال؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩ – ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢ – ٢٣].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾، أي: بل ألم يعرفوا رسولهم، أي: أومنعهم من الإيمان واتباع الحق أن رسولهم محمدًا ﷺ غير معروف عندهم، فيشكون في صدقه وأمانته؟ أي: ليس الأمر كذلك، فهو ﷺ معروف عندهم معرفة تامة، يعرفون منه كل خلق جميل،

ويعرفون صدقه وأمانته، وكانوا يسمونه قبل بعثته: «الأمين»؛ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: «إن الله قد بعث إلينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته».

وهكذا قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفارًا لم يسلموا؛ ولهذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك(١).

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۚ﴾، أي: بل أيقولون به ﷺ جنة؟ أي: جنون، وهو الخلل في العقل، فيهذي بما لا يدري وبالباطل، ولا عبرة بكلامه.

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ «بل»: للإضراب والانتقال مما تقدم، أي: بل جاءهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الصدق العدل، وهو الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ الجملة في محل نصب حال، أي: بل الذي منعهم من الإيمان به، واتباع ما جاء به أنه جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون؛ لمخالفته لأهوائهم الباطلة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: ما تهواه أنفسهم مما هم عليه وآباؤهم، من الشرك والكفر والظلم والفساد، وسيئ الأعمال والأخلاق.

﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لفسدت السموات والأرض ومن فيهن من المخلوقات والعوالم، واختل نظام الكون؛ لأن ذلك كله إنما قام على الحق والعدل والتوحيد.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أتيناهم بما فيه تذكيرهم وموعظتهم وعزهم وشرفهم وسؤددهم، إذا قاموا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤٧٧.

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم، فلم يتدبروه بقلوبهم، ولم ينقادوا له، ولم يتبعوه بجوارحهم.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾، أي: بل أتسألهم خرجًا؟ أي: أجرًا وجعلًا، أي: أومنعهم من الإيمان بما جئت به واتباعك أنك تسألهم على ذلك أجرًا؟ كما قال تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]، أي: أنك لم تسألهم خرجًا؛ ولهذا قال:

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ قرأ ابن عامر: «فخرج ربك»، وقرأ الباقون: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾.

الفاء تعليلية، أي: لأن خراج ربك خير، أي: جزاؤه وثوابه وعطاؤه خير لك ولكل من دعا إلى الله تعالى من الرسل وأتباعهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧].

وهكذا قال كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لقومهم: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠ – ٢١].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أي: هو الرازق والرزاق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

والتفضيل في قوله: ﴿خَيْرُ﴾ لا يدل على أن هناك رازقًا غير الله؛ لأن التفضيل قد يكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

وكذلك الجمع في قوله: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لا يدل على أن هناك رازقًا غير الله؛ لأن الرازق قد يطلق على من كان سببًا في الرزق، والله وحده عز وجل هو الرازق؛ لأنه هو موجد الأسباب ومسبباتها.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنك يا محمد لتدلهم إلى طريق عدل مستقيم موصل إلى السعادة في الدارين، والفوز بالجنة والنجاة من النار، بأخصر طريق وأقربه.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، أي: بالقيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، بل يكذبون بذلك وينكرونه.

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، أي: عن الصراط المستقيم المعهود الذي تدعوهم إليه، وهو صراط الله والصراط: الطريق.

﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: مائلون منحرفون، زائغون جائرون عنها.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وإنهم»، بل قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ لبيان أن سبب تنكبهم الطريق المستقيم هو عدم إيمانهم بالآخرة.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ «لو» شرطية، ﴿رَحِمْنَٰهُمْ﴾: فعل الشرط، أي: ولو رحمناهم برحمتنا العامة لجميع الخلق، ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ «ما»: موصولة، أي: وأزلنا الذي بهم من ضر يتضررون به من مرض أو فقر أو غير ذلك.

﴿لَّلَجُّوا۟﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لتمادوا واستمروا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾، أي: في تجاوزهم الحد بالكفر والشرك والكبر والمعاصي.

﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يترددون ويتحيرون ويتخبطون في الضلال والطغيان؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين عدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عنه، وأن ذلك هو الذي حرمهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾.

٢- وجوب تدبر القرآن، وأن من تدبره دلّه إلى الحق، وهداه إلى الصراط المستقيم.

٣- الإنكار عليهم في امتناعهم من الإيمان وتدبر القرآن؛ لمخالفته ما كان عليه آباؤهم الضالون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٤- ينبغي الحذر من التعصب لما عليه الآباء والأجداد، ورد الحق ومخالفته لأجل ذلك.

٥- الإنكار عليهم في امتناعهم من الإيمان واتباع الرسول ﷺ مع معرفتهم له، ومعرفتهم صدقه وأمانته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾.

٦- أن قيام الحجة على قريش آكد من غيرهم؛ لكونه ﷺ منهم، يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته.

٧- الإنكار عليهم في رميهم إياه ﷺ بالجنون، وردهم ما جاء به من الحق؛ لأجل ذلك؛ مع علمهم أنه ليس فيهم أعقل منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾.

٨- جرأة المكذبين والمشركين على وصف الرسل بأقبح الأوصاف؛ لتنفير الناس منهم ومن دعوتهم.

٩- أن الذي حملهم على تكذيبه ﷺ ورد ما جاءهم به؛ أنه جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

١٠- إن أكثر الخلق كارهون للحق، مخالفون مجانبون له، فلا يغتر بما عليه الكثرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

١١- أن كراهة أكثر الخلق للحق؛ لمخالفته لأهوائهم الضالة؛ ولهذا أتبع قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ بقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

١٢- أن الحق لا يمكن أن يتبع أهواءهم؛ لأنه لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: لفسد الكون بما فيه؛ لما هم عليه من الكفر والشرك والظلم وسيئ الأعمال والأخلاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

١٣- أن السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات؛ إنما قامتا على الحق والعدل والتوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١٤- أن الله عز وجل أنزل القرآن تذكيرًا وعظة للناس، وعزًّا وشرفًا لمن آمن به واتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾.

١٥- إعراض المكذبين والمشركين عن القرآن الكريم، وعدم تذكرهم واتعاظهم

به بقلوبهم، وعدم الانقياد له والعمل به بجوارحهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٦- أنه ﷺ لم يسألهم على تبليغهم الدعوة، واتباعهم إياه أجرًا، فيستثقلوا ذلك ويمتنعوا عن اتباعه بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾.

١٧- أن أجره ﷺ في تبليغه رسالة ربه للناس على الله عز وجل، وكذا غيره من الرسل، وذلك أعظم أجر وأفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله عز وجل له، وإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٩- أن الله عز وجل هو خير الرازقين، والأرزاق كلها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

٢٠- ثناء الله عز وجل وامتداحه لمنهجه ﷺ ودعوته إلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

٢١- تنكب الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء، وانحرافهم وعدولهم عن الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

٢٢- إثبات الدار الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٣- تمادي هؤلاء المكذبين بالآخرة في طغيانهم وكفرهم، وعدم شكرهم حتى بعد كشف ما بهم من ضر من مرض أو فقر أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

٢٤- إثبات صفة الرحمة الفعلية العامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾.

٢٥- أنه لا يكشف الضر من مرض أو شدة أو فقر أو غير ذلك ولا يزيله إلا الله تعالى.

٢٦- حيرة أهل الكفر والطغيان، وترددهم وتخبطهم في الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

٢٧- علم الله تعالى بما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العِلهِز- يعني: الوبر والدم- فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾»(١).

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾، أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد من الفقر والجوع، وغير ذلك، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ دعا على قريش لما أبطأوا عن الإسلام، فقال: «**اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف**» فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام»(٢).

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾، أي: فما خضعوا وذلوا لربهم، ورجعوا له، بل استمروا على كفرهم وضلالهم وطغيانهم.

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: وما يتضرعون إليه ويدعونه ويفتقرون إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالقتل يوم بدر، أو بالمجاعة والفقر، أو

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ٦/ ٤١٣ رقم ١١٣٥٢، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٢٤٧ رقم ٩٦٧، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٩٣.
وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٤، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

بعذاب يوم القيامة في النار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾، «إذا»: هي الفجائية، أي: إذا هم في العذاب الشديد آيسون من النجاة ومن كل خير، متحيرون، قد انقطعت آمالهم، وأحاط بهم الشر وأسبابه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾:

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾، أي: وهو سبحانه الذي خلقكم وأوجد لكم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم؛ لتسمعوا وتبصروا وتتفكروا في آيات الله الكونية والشرعية، الدالة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

وهذه الأدوات الثلاث: السمع، والبصر، والعقول؛ هي أدوات إدراك الأشياء ووصول الإنسان إلى العلم والمعرفة؛ ولهذا امتن بها وحدها دون بقية الأعضاء.

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾، أي: قليلًا شكركم على ما أنعم الله به عليكم من هذه الجوارح وغيرها من النعم باستعمالها فيما خلقت له، والاستعانة بها على طاعة الله تعالى ونسبتها إلى مسديها، وهو الله عز وجل، وقليلًا الشاكر منكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: نشركم وبثكم وفرقكم في الأرض، واستخلفكم فيها، ومكنكم من استخراج خيراتها وعمارتها، ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ وحده بعد موتكم ﴿تُحۡشَرُونَ ٧٩﴾، أي: تجمعون ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: وهو وحده عز وجل المتفرد بالإحياء والإماتة،

والمتصرف في الحياة والموت.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: وله عز وجل وحده اختلاف الليل والنهار، أي: تعاقبهما، وتناوبهما، وتسخيرهما، كل واحد منهما يطلب الآخر حثيثًا؛ كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للتقريع، أي: أليس لكم عقول تتفكرون وتتأملون بها، فتعرفون أن الذي خلقكم وامتن عليكم بهذه النعم؛ من السمع والبصر والأفئدة ونشركم في الأرض، والذي يحيي ويميت، ويقلب الليل والنهار، هو الله وحده المتفرد بكمال الوحدانية في ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره، ولا رب سواه، فتخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتشكروه على نعمه، وتؤمنوا بتمام قدرته على البعث وعلى كل شيء؟

﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل قال هؤلاء المكذبون.

﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: مثل قول المكذبين الأولين قبلهم. أو موصولة، أي: مثل الذي قاله الأولون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا﴾ قرأ ابن عامر بهمزة واحدة: «إِذَا مِتْنَا»، وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾.

﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾، أي: وكنا ترابًا ورميمًا وعظامًا بالية.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بهمزة واحدة: «إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

الاستفهام: للإنكار والتعجب، واللام: للتوكيد.

أي: قالوا إنكارًا للبعث واستبعادًا له: أإذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، أي: هذا لا يمكن ولا يتصور بزعمهم.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ وفي سورة النمل قُدم اسم الإشارة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧ – ٦٨].

والمعنى: لقد وعدنا نحن وآباؤنا أننا نبعث بعد كوننا ترابًا وعظامًا، ولم نره، ولم

يبعث أحد من آبائنا. وهذا تعليل للإنكار وتأكيد وتقوية له.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا الوعد بالبعث بعد كوننا ترابًا وعظامًا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: حكايات الأولين وما سطروه في كتبهم من الخرافات والقصص والأكاذيب، وهذا كقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١٠ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٠ - ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- أخذ المكذبين بالعذاب الدنيوي بالابتلاء بالمصائب والشدائد من الجوع والفقر وغير ذلك؛ ليستكينوا ويخضعوا لربهم ويتضرعوا إليه، ولكن هيهات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾.

٢- شدة قسوة قلوب هؤلاء المكذبين، وتماديهم في الطغيان والكفر، وعدم رجوعهم وخضوعهم لربهم، وعدم تضرعهم إليه مع أخذهم بالعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأنعام: ٤٣].

٣- أن الابتلاء بالمصائب من أسباب رجوع العبد الموفق إلى ربه وخضوعه له، وتضرعه إليه.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾.

٥- تهديد المشركين المكذبين، وتوعدهم بالعذاب الشديد، الذي يجعلهم آيسون من النجاة ومن كل خير، قد أحاط بهم الشر وأسبابه، إما في الدنيا وإما في الآخرة في النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾.

٦- امتنان الله تعالى على العباد بخلقهم ومنحهم السمع والأبصار والأفئدة، ونشرهم في الأرض، وتسخيرها لهم يستخرجون خيراتها ويعمرونها؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٧- أن من أعظم ما منحه الله للعباد نعمة السمع والأبصار والأفئدة، فهي أدوات الإدراك والعلم والمعرفة؛ ولهذا امتن الله بها وحدها دون سائر الأعضاء.

٨- قلة شكر العباد لربهم على نعمه العظيمة عليهم، وقلة الشاكرين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٩- إثبات بعث الخلائق، وحشرهم إلى ربهم لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

١٠- إثبات تفرده عز وجل وحده بالحياة والموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

١١- تفرده عز وجل وحده بتقليب الليل والنهار وتصريفهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

١٢- الإشارة إلى نعمته عز وجل ومنته على الخلق باختلاف الليل والنهار، وتقليبهما، وتمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝٤٤﴾ [النور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ [يونس: ٦].

١٣- الإنكار الشديد على المكذبين والمشركين عدم انتفاعهم بعقولهم في التفكر في عظمة الله تعالى وكمال قدرته، الذي أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة، وذرأهم في الأرض، وتفرد بالحياة والموت، وتقليب الليل والنهار؛ ليستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى، فيخلصوا له العبادة، وعلى عظيم نعمه ومننه عليهم، فيشكروه، وعلى تمام قدرته على البعث، فيؤمنوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- أن من لم يهده عقله إلى معرفة ربه عز وجل، وكمال قدرته، ووحدانيته، وعظيم نعمه، ووجوب شكره، بإخلاص العبادة له وحده، فليس بعاقل.

١٥- سلوكهم مسلك المكذبين الأولين في إنكار البعث، وترديدهم مقالتهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾.

١٦- تأكيدهم هذا الإنكار، وتعليلهم له بأنهم وعدوهم وآباءهم بهذا البعث، ولم يروه ولم يبعث أحد من آبائهم. وزعمهم أن الوعد بذلك ما هو إلا من أساطير الأولين وحكاياتهم الكاذبة؛ لقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

١٧- قدرة الله التامة على بعث الموتى بعد كونهم ترابًا وعظامًا بالية، وعلى كل شيء مما قد لا تدركه العقول، لكن يجب التسليم به؛ لإخبار الله ورسوله بذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

في هذه الآيات تقرير المشركين بتوحيد الربوبية، الذي يقرون به ولا ينكرونه؛ لإلزامهم بتوحيد الإلهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ الاستفهام: للتقرير هنا، وفي قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث- محتجًّا عليهم بما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية، وبعث الناس بعد الموت- : ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾من المخلوقات والعوالم، خلقًا وملكًا وتدبيرًا؟.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾أي: أجيبوني إن كنتم تعلمون ذلك.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «سَيَقُولُونَ اللهُ» في المواضع الثلاثة بألف الوصل قبل اللام، ورفع الهاء من الجلالة.

وقرأ الباقون: ﴿لِلَّهِ﴾ بغير ألف مع خفض الهاء، أي: سيقولون لله وحده ذلك كله، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا شريك له في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود: ٥٦]، أي: متصرف فيها.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام: للتقريع، أي: أفلا تعتبرون وتتعظون وتستدلون بهذا على وحدانيته في إلهيته وحده لا شريك له.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ تدرج من سؤالهم عن الأرض

ومن فيها إلى ما هو أكبر وأعظم؛ وهو سؤالهم عن رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها، وأكبرها وأوسعها، وأحسنها؛ كما قال في آخر السورة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، أي: الحسن الباهر.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: هي لله وحده، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا شريك له في ذلك.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾ الاستفهام للتقريع، أي: أفلا تتقون الله وتخافون عقابه في عبادتكم معه غيره، وإشراككم به مع إقراركم بربوبيته، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم الذي هو أكبر المخلوقات؟!

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ انتقال وتدرج مما سبق إلى تقريرهم بما هو أعم من ذلك كله، أي: من بيده ملك كل شيء في هذا الكون وخزائنه علوية وسفلية. و«ملكوت»: صيغة مبالغة بمعنى: «ملك».

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾، أي: يحمي ويغيث من يشاء، ويحفظ عباده من الشرور، ويدفع عنهم المكاره.

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، أي: ولا يغاث أحد ويحمَى منه، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: فأجيبوني.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: سيقرون بأن ملكوت كل شيء لله، وأنه الذي يجير ولا يجار عليه.

﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ الاستفهام للتقريع، أي: فكيف تذهب عقولكم؟! تعبدون غير الله، وأنتم تعلمون أن بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وأن معبوداتكم لا تملك شيئًا!

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ «بل» حرف إضراب وابتداء، أي: بل جئناهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الصحيح، وهو إعلامهم أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وأقمنا الأدلة الكونية والشرعية على ذلك.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ الجملة في محل نصب حال، واللام: للتوكيد، أي: وإنهم لكاذبون في عبادتهم مع الله غيره، وجعلهم معه آلهة أخرى، وفي نسبتهم الولد له، تعالى

الله عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، أي: ما جعل الله له ﴿مِن وَلَدٍ﴾ «من» هنا وفي الموضع الذي بعده: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما جعل الله لنفسه أيَّ ولد؛ لكمال غناه عن خلقه، وعدم حاجته إلى الولد، وهذا رد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾، أي: وما كان معه عز وجل أي إله غيره.

وقدّم نفي الولد على نفي الشريك- والله أعلم- لأن شبهة من زعموا أن الملائكة بنات الله وعبدوهم من دون الله أقرب للتمويه من زعم المشركين الحجارة شركاء لله؛ لأن الملائكة غير مشاهدين.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ «إذ»: حرف جواب، واللام: واقعة في جواب «لو» مقدر، و«ما»: موصولة، أي: لو كان على سبيل فرض المحال مع الله إله آخر؛ ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ﴾، أي: لانفرد كل إله بخلقه.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: ولغالب كل منهما الآخر، يريد الانفراد بالأمر دون الآخر.

قال ابن القيم: «فلا بد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإله الحق، وهم العبيد المربوبون المقهورون. وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا إله غيره؛ كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان»(١).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٣٥.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى وتقديسًا له ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: عن الذي يصفون، أو عن وصفهم، أي: عما يصفه به المشركون وينسبونه إليه من الولد والشريك.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قرأ نافع وأبو حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «عَالِمُ» بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿عَٰلِمِ﴾، أي: عالم ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم وإدراكهم، وما يشاهدونه ويحسونه ويدركونه.

﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تعاظم وتقدس وتنزه.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: عن الذي يشركون به من الشركاء، وعن شركهم به.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية الذي يقرون به ولا ينكرونه؛ لإلزامهم بتوحيد الإلهية الذي ينكرونه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ الآية.

٢- تقرير المشركين بأن لله الأرض ومن فيها من المخلوقات، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾.

٣- تقريع المشركين على عدم تذكرهم واتعاظهم، وعبادتهم مع الله غيره مع إقرارهم بربوبيته، وعلمهم أن له الأرض ومن فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٤- تقرير المشركين بأن الله هو رب السموات ورب العرش العظيم، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾.

٥- تقريع المشركين على عدم تقواهم عذاب الله وعقابه؛ لعبادتهم غير الله، مع إقرارهم بربوبيته، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٦- تقرير المشركين بأن بيده عز وجل ملكوت السموات والأرض، وهو يجير ولا يجار عليه، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا

يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.

٧- تقريع المشركين؛ كيف تذهب عقولهم؟! يعبدون غير الله مع إقرارهم بربوبيتهم، وعلمهم أن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه!

٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لكل شيء.

١٠- إقامة الحجة على المشركين ببيان الحق؛ بأنه لا معبود بحق إلا الله، وإقامة الأدلة والبراهين على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾.

١١- تأكيد كذب المشركين في جعلهم مع الله آلهة أخرى، وفي نسبتهم الولد إليه، تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

١٢- النفي القاطع المؤكد أن يكون الله اتخذ ولدًا، أو كان معه إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾.

١٣- أنه يمتنع أن يكون للكون أكثر من إله؛ إذ لو كان له أكثر من إله لاختل بنيانه وما استقام نظامه؛ لأنه لا يخلو إما أن ينفرد كل إله بخلقه، أو يعلو بعضهم على بعض، ولأن انتظام أمر العالم علويه وسفليه، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم دقيق، لا يختل ولا يختلف ولا يفسد، أدل دليل على أن مدبره واحد لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١٤- تنزيه الله وتقديسه عما يصفه به المشركون من الولد والشريك؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

١٥- علم الله تعالى الواسع بما غاب عن أعين الخلق وحواسهم، وبما يشاهدونه؛ لقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

١٦- تعاليه عز وجل وتعاظمه عما يشركه به المشركون من الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾:

قوله: ﴿قُل رَّبِّ﴾، أي: قل يا محمد داعيًا: ﴿رَّبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾، «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: إن أريتني.

﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي يوعدون، أي: الذي يوعد المكذبون من العذاب، أي: إن عجلت عذابهم في حياتي، فعذبتهم وأنا أنظر إليهم، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾، أي: يا رب فلا تجعلني فيهم فيصيبني ما أصابهم من العذاب؛ لأن العذاب إذا نزل قد يعم الظالم وغيره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢].

وفي الحديث: «**ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج**». وحلق بين أصبعيه السبابة والوسطى، فقلت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(١).

ولهذا قال ﷺ في الدعاء: «**وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون**»(٢).

وأظهر في مقام الإضمار،فقال: ﴿فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: «فيهم»؛ للدلالة على أن ما توعدوا به من العذاب بسبب ظلمهم، وليعم هذا الوعيد معهم غيرهم من الظالمين.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٦، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٠، والترمذي في الفتن ٢١٨٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٣، من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ص ٣٢٣٥، وأحمد ٥/ ٢٤٣، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، و«ما»: موصولة، واللام: للتوكيد، أي: وإنا على أن نريك الذي نعدهم به من العقوبات والنقم لقادرون بأن نعجل ذلك في حياتك فتراه.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: ادفع بالحسنة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أي: عامل بالإحسان من أساء إليك، واعف واصفح عمن آذاك من قومك، واصبر على أذاهم، ففي ذلك عظيم الأثر، وجزيل الأجر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٤ – ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: نحن أعلم بالذي يصف ويقول هؤلاء المكذبون من قومك من الأقوال الباطلة المتضمنة للكفر والتكذيب لك، ولما جئتهم به من الحق، أي: فدعهم واترك أمرهم إلينا. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد لهم.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾.

أمر بالدفع بالتي هي أحسن في معاملة المسيء من البشر؛ لأن ذلك قد ينجع فيه ويكف شره، ثم عطف بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين، ومن حضورهم؛ لأن شرهم لا يندفع إلا بالاستعاذة بالله منهم؛ لأنهم لا يكفيهم ولا يقنعهم إلا إهلاك الإنسان وزجه في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وقل: يا رب أعتصم وأستجير بك، وألتجئ إليك، وألوذ بجنابك.

﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: من وساوسهم ونزغاتهم، وتسويلهم وتزيينهم الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١ – ٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ [محمد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وكان ﷺ يستعيذ بالله من الشيطان ويقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفخه ونفثه**»(١).

ولما رأى رجلًا قد اشتد به الغضب وانتفخت أوداجه، قال ﷺ: «**إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١).

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: وأعوذ بك يا رب من حضورهم، أي: من حضورهم إياي في أي أمر من أموري؛ عند قراءة القرآن، أو عند النزع والسياق، أو في أي شيء من أمري.

وعن أبي اليسر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الغرق والحرق والهرم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت**»(٢).

وعن عمرو بن شبيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند الفزع من النوم: «**باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**»(٣).

كما أمر بذكر الله عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ لأن في ذكر الله مطردة للشيطان؛ لأنه إذا سمع ذكر الله خنس وأدبر.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر، باب في الاستعاذة ١٥٥٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الطب -كيف الرقى ٣٨٩٣، والترمذي في الدعوات ٣٥٢٨، وأحمد ٢/ ١٨١- وقال الترمذي: «حسن غريب».

تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: حتى إذا حضر أحد هؤلاء المكذبين الظالمين المفرطين الموت، وكُشف عنه غطاء الغفلة، ورأى مآله، وذكر قبح أفعاله؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

﴿قَالَ﴾ ندمًا على تفريطه حين لا ينفعه الندم: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، أي: ردوني إلى الدنيا.

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، أي: لأجل أن أعمل عملًا صالحًا.

﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾، أي: فيما تركت من العمل، وفرطت في جنب الله.

قال قتادة: «والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل أو عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله؛ لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل»(١).

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر، أي: لن تجاب إلى سؤالك، ولا سبيل إلى الرجعى؛ لأن الله قد قضى أنهم إليها لا يرجعون؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٥٠].

وهكذا يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار وهم في غمرات الموت، ويوم النشور، وعند العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى:

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٨٧.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١].

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ الجملة للتعليل للزجر السابق، والضمير في «إنها» يعود إلى مقالة هذا المحتضر: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

و«كلمة»: مستعملة في الكلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

أي: هي مجرد أمنية يتمناها، ومقالة لا تفيد قائلها إلا الحسرة والندامة والأسى، وكلام كاذب لا عمل معه، فلو رد لعاد إلى ما نُهي عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: ومن أمامهم؛ كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم.

وقال لبيد(٢):

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

و«البرزخ»: الحاجز بين شيئين، أي: ومن أمامهم حاجز بين الدنيا والآخرة، وهو مقامهم في القبور منذ موتهم إلى يوم يبعثون، يُنعم فيه المؤمنون، ويعذب فيه الكافرون، إلى قيام الساعة؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يدعوه إن عجل عذاب المكذبين الظالمين في

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٤١، ومسلم في الشعر ٢٢٥٦، وابن ماجه في الأدب ٣٧٥٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٥٧، «البيان والتبيين» ٣/ ٥٧، «الأغاني» ١٥/ ٣٦٣.

حياته وأراه الله إياه: ألا يجعله في القوم الظالمين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿رَّبِّ﴾.

٣- أن وعيده عز وجل للمكذبين واقع بهم لا محالة، وآتٍ ولا بد.

٤- أن العذاب إذا نزل قد يعم الظالم وغيره، والصالح والطالح.

٥- أن تكذيب الرسول ﷺ وما جاء به، والشرك بالله أعظم الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

٦- قدرة الله تعالى التامة على تعجيل ما توعد به الظالمين من العذاب في حياته ﷺ، فيريه عذابهم لو شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾.

٧- أمره عز وجل له ﷺ بالإحسان إلى من أساء إليه، والصبر على أذى قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾.

٨- الترغيب والحث على مقابلة الإساءة بالإحسان؛ لأمره عز وجل به رسوله ﷺ، وامتداحه لأثره، وتكفله بأجره.

٩- إثبات علمه عز وجل التام بما يصف المكذبون ويقولون من الأقوال الباطلة، المتضمنة للتكذيب له ﷺ، والكفر بما جاء به من الحق، وإعلامه ﷺ بذلك؛ ليدعهم ويكل أمرهم إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد لهم.

١٠- أمره عز وجل له بالاستعاذة به من همزات الشيطان، والاستعاذة به من حضورهم أيَّ أمرٍ من أموره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

١١- مشروعية الاستعاذة بالله من همزات الشياطين، ومن حضورهم؛ لأن الله أمر بذلك الرسول ﷺ، ولنا به أسوة، وحاجتنا إليها أشد وأعظم.

١٢- أن شر شياطين الإنس قد يندفع بالإحسان إليهم؛ لهذا أمر الله بذلك، بخلاف شر شياطين الجن؛ فإنه لا يندفع إلا باللجوء إلى الله، والاستعاذة به من شرورهم، ومن حضورهم؛ لأنه لا يقنعهم ولا يكفيهم إلا إهلاك بني آدم.

١٣- ندم كل واحد من المكذبين الظالمين المفرطين عند الموت والاحتضار وسؤاله الرجعة؛ ليتدارك ما فاته، ولكن هيهات ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾.

١٥- معرفة المفرط عند الاحتضار تمام المعرفة أنه لا ينفع إلا العمل الصالح، لكن بعد فوات الأوان.

١٦- تيئيس هذا السائل من الرجوع إلى الدنيا، وردعه وزجره؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا سبيل لك إلى الرجعى.

١٧- أن مقالة هذا السائل: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كلمة لا قيمة لها، ومجرد أمنية يتمناها، لا تفيد قائلها إلا الحسرة والندامة، وكلام كاذب لا عمل معه، فلو رد لعاد لما نهي عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

١٨- أن الكلمة تطلق على الكلام وإن كثر وطال.

١٩- إثبات البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، من المقام في القبور إلى قيام الساعة والبعث، وتهديد المكذبين الظالمين المفرطين بعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢٠- إثبات البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الفاء: استئنافية، و«الصور»: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل النفختين: النفخة الأولى، وهي الراجفة؛ ليموت كل من على وجه الأرض من الأحياء إلا من شاء الله، والنفخة الثانية، وهي الرادفة؛ ليحيا كل من في باطنها من الأموات، والبعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦ – ٧].

والمراد بالنفخة في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: النفخة الثانية للبعث والنشور وخروج الناس من القبور وحشرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨].

أي: تنقطع الأنساب بينهم، فلا يرثي والد ولده، ولا يلوي عليه، ولا ينتصر أخ لأخيه، ولا قريب لقريبه، وذلك من شدة الكرب والهول.

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه وهو يبصره؛ لانشغال كل منهم بطلب النجاة والفكاك لنفسه، بل يفر كل منهم من الآخر مخافة أن يطالبه بشيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ

يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

وقد كانوا في الدنيا ينتصر القريب لقريبه، والنسيب لنسيبه، إما بالحق، أو بالباطل؛ كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح[1]

لكن في ذلك اليوم ينتهي هذا كله، وينشغل كل منهم بنفسه، ولا يفكر في غيره.

لا نسب اليوم ولا خلة ... اتسع الخرق على الراقع[2]

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى منادٍ: ألا من كان له مظلمة، فليجئ فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته، وإن كان صغيرًا، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾»[3].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: كثرت حسناته فرجحت على سيئاته.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب، الفائزون بالجنة، والناجون من النار، وأكد فلاحهم وحصر الفلاح فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: كثرت سيئاته فرجحت على حسناته.

﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الخسران المبين، الذين بلغوا الغاية في الخسران والهلاك والخيبة.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، أي: مآلهم جهنم، ماكثون فيها، مقيمون أبد الآبدين؛

---

(١) البيت لمسكين الدرامي. انظر: «ديوانه» (ص٢٩).

(٢) البيت ينسب لأنس بن العباس بن مرداس، وينسب لأبي عامر جد العباس بن مرداس. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٢/ ٢٨٥، «سمط اللآلي» ٢/ ٣٦، «شرح شواهد المغني» ٢/ ٦٠١. وفي بعضها: «اتسع الخرق على الراتق».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٨٨.

لكفرهم.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: تغشى وتحرق وجوههم النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وخص الوجوه بالذكر إهانة وإذلالًا لهم؛ لأنها مواضع الحسن والتشريف والإكرام، وإلا فإن عذاب النار يغشاهم من كل جهة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، أي: وهم في جهنم كالحون، أي: عابسون، قد قلصت شفاههم، وبرزت أسنانهم من أثر تقطب أعصاب الوجه من شدة العذاب والألم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لما ذكر العذاب الحسي لأبدانهم، أتبع ذلك بذكر العذاب المعنوي لقلوبهم، بالتقريع والتوبيخ لهم، الذي لا يقل عن العذاب الحسي.

قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الاستفهام: للتقريع، أو الإنكار، أي: ألم تكن آياتي الشرعية وحججي تقرأ عليكم فيها بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ودعوتكم إلى الإيمان، وتحذيركم من عواقب الكفر والإجرام، بما لا حجة لكم بعده؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: فكنتم بآياتي تكذبون؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ – ٩].

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، أي: أقروا بقيام الحجة عليهم بالآيات؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين وألف بعدها:

«شَقَاوَتُنَا».

وقرأ الباقون بكسر الشين وإسكان القاف من غير ألف: ﴿شِقْوَتُنَا﴾، أي: غلبت واستولت علينا شقاوتنا، وإعراضنا عن الآيات، وما كتب علينا من الشقاء في سابق علمك.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾، أي: تائهين عن الحق، مبتعدين عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾، أي: من نار جهنم؛ لنرجع إلى الدنيا؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: ١١ - ١٢].

﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾، أي: فإن رجعنا إلى ما كنا عليه من التكذيب والضلال.

﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، أي: مستحقون للعقوبة، وهم كاذبون في وعدهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝١١١﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾، أي: امكثوا في جهنم أذلاء صاغرين مهانين، وفي هذا زجر لهم وإهانة وإذلال.

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، أي: ولا تكلموني في طلب الخروج مرة أخرى، ولا في رفع العذاب أو تخفيفه؛ فإنكم لن تخرجوا، ولن يرفع عنكم العذاب أو يخفف، وفي هذا تيئيس لهم من الخروج، ومن النجاة مما هم فيه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾.

لما توعدهم بالخسران والعذاب الحسي في جهنم، والعذاب المعنوي بالتقريع

والتوبيخ، وأيسهم من كل خير؛ ذكر السبب الذي أوصلهم إلى العذاب وقطع عنهم الرحمة، وهو سخريتهم بالمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾، الهاء: ضمير الشأن، أي: إنّ الشأنَ أنّ فريقًا من عبادي- وهم المؤمنون- كانوا ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا بقلوبنا بآياتك، وانقدنا لما جاء فيها من الحق بجوارحنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾، أي: استر ذنوبنا، وتجاوز عنا.

﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ برحمتك الخاصة الواسعة.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنك أرحم بعبادك من الوالدة بولدها، وأرحم بهم من أنفسهم.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بضم السين: «سُخْرِيًّا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿سِخْرِيًّا﴾، أي: جعلتموهم سخريًّا، تسخرون منهم وتستهزئون بهم؛ لإيمانهم وسؤالهم ربهم المغفرة والرحمة، وانشغلتم بذلك.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾، أي: حتى نسيتم ذكري بسبب اشتغالكم بالسخرية والاستهزاء بهم.

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، أي: وكنتم مما هم عليه من الإيمان والعبادة تضحكون؛ استهزاء بهم، مما أنساكم ذكر الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩ – ٣٢].

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: أثبتُهم وأكرمتهم بسبب صبرهم على أذاكم وسخريتكم بهم، وعلى طاعة الله تعالى وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر لهمزة: «إِنَّهُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنَّهُمْ﴾.

أي: بأن جعلتهم هم الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة

من النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

وقد أكد عز وجل الفوز وحصره فيهم بـ«أن»، وضمير الفصل «هم»، وبكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

الفوائد والأحكام:

١- انقطاع الأنساب يوم القيامة بين الأقارب، فلا يلوي والد على ولده، ولا ولد على والده، ولا أخ على أخيه، ولا قريب على قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾.

٢- عدم تساؤل الأقارب والأصدقاء وغيرهم فيما بينهم؛ لانشغال كل منهم بطلب الخلاص والفكاك لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

٣- فلاح وفوز من ثقلت موازينه، فرجحت حسناته على سيئاته، وتأكيد فلاحهم، بل حصر الفلاح فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

٤- خسران الذين خفت موازينهم أنفسهم بمصيرهم إلى جهنم وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

٥- شدة عذاب جهنم، وإذلالها لأهلها بلفح وجوههم وإيلامها، حتى تكون كالحة عابسة من شدة تقطيبها؛ لقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

٦- تقريع المكذبين وتوبيخهم على تكذيبهم بالآيات وعدم الإيمان بها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٧- اعترافهم بغلبة الشقاوة واستيلائها عليهم، وضلالهم، وكتب الشقاء عليهم في سابق علم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

٨- سؤالهم ودعاؤهم ربهم أن يخرجهم من جهنم؛ ليرجعوا إلى الدنيا فيستدركوا، وأنهم إن عادوا إلى الضلال فهم ظالمون يستحقون العقوبة؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

٩- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾.

١٠- زجر الله تعالى لهم، وتخسئتهم، وإذلالهم، وإهانتهم، ونهيه إياهم عن تكليمه

بطلب الخروج، أو رفع العذاب، أو تخفيفه، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ﴾ الآية.

١١- ثناء الله تعالى على المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والخضوع والتضرع والتوسل إلى ربهم، ودعائه بطلب المغفرة والرحمة، والثناء عليه بسعة رحمته وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

١٣- أن سبب تعذيب المكذبين بالعذاب الحسي في جهنم، والعذاب المعنوي بالتقريع والتخسئة والإذلال لهم؛ تكذيبهم بآيات الله، وسخريتهم واستهزاؤهم بالمؤمنين، وانشغالهم بذلك، ونسيانهم ذكر الله والعمل لأنفسهم، وضحكهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

١٤- مجازاة الله تعالى المؤمنين بالجزاء العظيم، بسبب صبرهم على أذى المكذبين، وصبرهم على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره، وتخصيصه إياهم بالفوز والفلاح دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

١٥- الترغيب في الصبر على الأذى، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لعظم أجر الصابرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾.

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «قُلْ» بغير ألف على الأمر.

وقرأ الباقون: ﴿قَالَ﴾ بالألف على الخبر.

أي: قال الله تعالى لهؤلاء المكذبين على سبيل التوبيخ لهم على تفريطهم: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾، أي: كم مكثتم وأقمتم في الدنيا من عدد السنين؟ أي: أنكم أقمتم فيها سنين يمكنكم فيها العمل- وإن كانت قليلة- ولكنكم فرطتهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ﴾ استقصروا لبثهم في الدنيا؛ لأنهم قضوا ذلك بالكفر واللهو واللعب والغفلة واتباع الشهوات، والسخرية والاستهزاء بالمؤمنين، والضحك منهم.

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾، أي: فاسأل الحاسبين الضابطين للعدد، وهذا من باب التأكيد بأن لبثهم في حدود ما ذكروا ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما لبثتم إلا زمنًا قليلًا؛ لأن الدنيا كلها في الآخرة قليل.

﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لاستفدتم من هذا القليل بالإيمان والعمل الصالح كما استفاد منه المؤمنون، ولم تضيعوه بالكفر واللهو واللعب والغفلة والشهوات.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفظننتم أيها المكذبون

﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ «عبثًا»: مصدر في موضع الحال، أي: عابثين، أو مفعول لأجله، أي: لأجل العبث.

ومعنى ﴿عَبَثًا﴾: باطلًا، وبلا حكمة، تأكلون وتتمتعون وتمرحون وتسرحون، بلا أمر ولا نهي، ولا حساب ولا جزاء؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾، أي: وحسبتم، أي: ظننتم أنكم لا ترجعون، أي: لا تردون فنحاسبكم ونجازيكم على أعمالكم، أي: لا تظنوا ذلك، ولا يخطر لكم ببال، فمردكم إلينا وحسابكم علينا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾، أي: تعالى وتعاظم وتقدس عن هذا الظن الباطل، بأنه خلق الخلق عبثًا، وأنهم إليه لا يرجعون؛ لما في ذلك من القدح في حكمته عز وجل.

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ «الملك» و«الحق» من أسماء الله عز وجل، أي: الملك للكون كله، خالقه ومالكه، والمتصرف فيه.

﴿ٱلْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت، فهو عز وجل حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وأمره ونهيه حق، وخبره حق، وقدره حق، وشرعه حق، ووعده حق، ووعيده حق، وحسابه حق، وجزاؤه حق، وجنته حق، وناره حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٥].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ خالق العرش ومالكه وصاحبه؛ كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ [البروج: ١٥].

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾، أي: ذو الحسن والمنظر البهي.

وخص العرش؛ لأنه سقف المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وهو سبحانه رب ما دون العرش من المخلوقات من باب أولى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا

يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: ومن يعبد مع الله معبودًا آخر ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ الجملة معترضة بين الشرط وجوابه، أي: لا حجة له به ولا بينة، ولا دليل له البتة.

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فإنما حسابه وعقابه على شركه بالله عند ربه، فهو الذي يحاسبه. وفي هذا تهديد ووعيد له.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: لا يفوزون البتة، بل يخسرون الخسران المبين، وفي هذا ضرب من رد الصدر على العجز، فقد افتتحت السورة بذكر فلاح المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، وختمت بنفي فلاح الكافرين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ الأمر له ﷺ ولكل من يصلح خطابه، أي: وقل يا رب ﴿ٱغْفِرْ﴾، أي: اغفر لنا بستر ذنوبنا، والتجاوز عنا؛ لننجو من عذابك.

﴿وَٱرْحَمْ﴾، أي: وارحمنا برحمتك الخاصة؛ لنفوز برضاك، ونحصل على ثوابك.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنك أرحم بعبادك من الوالدة بولدها، وأرحم بهم من أنفسهم.

الفوائد والأحكام:

١- توبيخ المكذبين وتنديمهم على تضييع أعمارهم بما يضر ولا ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

٢- استقصارهم لمدة لبثهم في الدنيا؛ لأنهم شغلوها بالكفر واللهو واللعب والغفلة واتباع الشهوات؛ لقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾، وقد عُمِّروا ما يتذكر فيه من تذكر.

٣- أن مدة لبثهم- وإن كانت قليلة- فهي كافية للعمل لخلاص أنفسهم كما فعل المؤمنون، لو كانوا يعلمون ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

٤- الإنكار عليهم وتقريعهم في ظنهم، أنهم إنما خلقوا عبثًا؛ ليأكلوا ويشربوا ونحو ذلك، دون حكمة فوق ذلك كله، وهي تكليفهم بعبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾.

٥- الإنكار عليهم في تكذيبهم بالمعاد، ورجوعهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

٦- تقديس الله وتعظيمه وتعاليه عن أن يكون خلق الخلق لغير حكمة، وأنهم لا يردون إليه فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ﴾.

٧- إثبات أنه عز وجل هو «الملك الحق» الذي لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- إثبات عظمته عز وجل، وربوبيته للعرش، ولجميع المخلوقات ربوبية عامة، والاستدلال بذلك على إثبات إلهيته؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٩- إثبات الحكمة لله تعالى في خلقه وقدره وشرعه.

١٠- أنه لا برهان ولا حجة ولا دليل لمن دعا مع الله إلهًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾.

١١- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لمن أشرك مع الله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾.

١٢- أن الكافرين لا يفلحون أبدًا، بل هم الخاسرون الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

١٣- أن من دعا مع الله إلهًا آخر فقد أشرك، وبلغ غاية الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

١٤- الأمر والندب إلى دعاء الرب عز وجل وسؤاله المغفرة والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله الخاصة له ﷺ وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾.

١٦- الحث على الثناء على الله عز وجل بأنه خير الراحمين، فهو أرحم بالعبد من الأم بولدها، وأرحم به من نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة طه ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- فضلها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ...﴾ الآيات [١-٨] ١١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ...﴾ الآيات [٩-٢٣] ١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ...﴾ الآيات [٢٤-٣٥] ٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ...﴾ الآيات [٣٦-٤١] ٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى...﴾ الآيات [٤٢-٥٥] ٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ...﴾ الآيات [٥٦-٦٤] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ...﴾ الآيات [٦٥-٧٠] ٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ...﴾ الآيات [٧١-٧٦] ٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى...﴾ الآيات [٧٧-٨٢] ٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ...﴾ الآيات [٨٣-٨٩] ٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ...﴾ الآيات [٩٠-٩٨] ٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾ الآيات [٩٩-١٠٤] .. ٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ...﴾ الآيات [١٠٥-١١٤] ١٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا...﴾ الآيات [١١٥-١٢٢] ١١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ الآيات [١٢٣-١٢٧]

..... ١١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ...﴾ الآيات [١٢٨-١٣٢] ١٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ...﴾ الآيات [١٣٣-١٣٥]... ١٣٤
تفسير سورة الأنبياء ١٣٩
المقدمة ١٤١
أ- اسم السورة:..... ١٤١
ب- مكان نزولها:..... ١٤١
جـ- فضلها:..... ١٤١
د- موضوعاتها:..... ١٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ...﴾ الآيات [١-٩] ١٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ...﴾ الآيات [١٠-٢٠]..... ١٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ...﴾ الآيات [٢١-٣٣] ١٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ...﴾ الآيات [٣٤-٤٧] ١٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ...﴾ الآيات [٤٨-٧٧]..... ١٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ...﴾ الآيات [٧٨-٨٢]..... ٢١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ...﴾ الآيات [٨٣-٩١] ٢٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ...﴾ الآيات [٩٢-١٠٣]..... ٢٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ..﴾ الآيات [١٠٤-١١٢]

..... ٢٤٨
تفسير سورة الحج ٢٥٧
المقدمة ٢٥٩
أ- اسم السورة: ٢٥٩
ب- مكان نزولها: ٢٥٩
جـ- موضوعاتها: ٢٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ...﴾ الآيات [١-٧] ٢٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ...﴾ الآيات [٨-١٣] ٢٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ...﴾ الآيات [١٤-١٨] ٢٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ...﴾ الآيات [١٩-٢٤] .. ٢٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ الآية [٢٥] ٢٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا...﴾ الآيات [٢٦-٢٩] ٣٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ...﴾ الآيات [٣٠-٣٣] ٣٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ...﴾ الآيتين [٣٤، ٣٥] ٣٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ...﴾ الآيتين [٣٦، ٣٧] ٣٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ...﴾ الآيات [٣٨-٤١] ٣٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ...﴾

الآيات [٤٢-٥١] ٣٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ...﴾ الآيات [٥٢-٥٥] ٣٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ...﴾ الآيات [٥٦-٦٢] ... ٣٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ...﴾ الآيات [٦٣-٧٠] ٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ...﴾ الآيات [٧١-٧٦] ٤١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ...﴾ الآيتين [٧٧، ٧٨] ٤٢٢
تفسير سورة المؤمنون ٤٣٧
المقدمة ٤٣٩
أ- اسم السورة: ٤٣٩
ب- مكان نزولها: ٤٣٩
جـ- فضلها: ٤٣٩
د- موضوعاتها: ٤٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ...﴾ الآيات [١-١١] ٤٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ...﴾ الآيات [١٢-١٦]. ٤٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ...﴾ الآيات [١٧-٢٢] ٤٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ...﴾ الآيات [٢٣-٣٠] ٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ...﴾ الآيات [٣١-٤١] ٤٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٤٣...﴾ الآيات [٤٢-٥٠] ٤٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ...﴾ الآيات [٥١-٦١]

..... ٤٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ الآيات [٦٢-٦٧] ٤٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ...﴾ الآيات [٦٨-٧٥] ٤٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ...﴾ الآيات [٧٦-٨٣] ٥٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ...﴾ الآيات [٨٤-٩٢] ٥٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾...﴾ الآيات [٩٣-١٠٠] ٥١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ...﴾ الآيات [١٠١-١١١] ٥٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ...﴾ الآيات [١١٢-١١٨] ٥٢٨
فهرس الموضوعات ٥٣٣

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الخامس عشر

تفسير سورة النور والفرقان

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٥

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٤٧١ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة سورة النور لذكر النور فيها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية:٣٥]، وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية:٣٥]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [الآية:٤٠].

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- فضلها:

رُويَ مرسلًا عن مجاهد أن رسول الله ﷺ قال: «**علِّموا رجالكم سُورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور**»(١).

وعن أبي عطية، قال: كتب إلينا عمر: «أن علِّموا نساءكم سورة النور»(٢).

وعن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: «أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور»(٣).

وعن المسور بن مخرمة- رضي الله عنه- أنه سمع عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يقول: «تعلموا سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور؛ فإن فيهن الفرائض»(٤).

وهذه السورة سورة عظيمة، اشتملت من أولها إلى آخرها على كثير من الأحكام والأخلاق والآداب والجوانب التربوية وغير ذلك.

ولهذا أفردها جمع من أهل العلم بالتفسير، منهم ابن تيمية والمودودي والشنقيطي وغيرهم، كما أطال الكلام فيها كثير من المفسرين في تفاسيرهم.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ١٨ ونسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣٥.

(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٢٨.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» كتاب التفسير ٢/ ٣٩٥. وقال: «صحيح علي شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بمطلع خاص من بين سور القرآن الكريم؛ تعظيمًا لها، وامتنانًا بإنزالها ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

٢- بيان حد الزاني غير المحصن: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

٣- بيان حرمة الزنا، وأن الزاني لا يطاوعه على زناه إلا زانية مثله أو مشركة.

٤- بيان حد القذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

٥- بيان حكم اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

٦- ذكر قصة الإفك وما تضمنته من الوعد والوعيد والعبر والعظات والحكم والأحكام وغير ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

٧- النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وعن الحلف على ترك الإحسان وبذل الفضل.

٨- التحذير من قذف المحصنات الغافلات المؤمنات والوعيد لمن فعل ذلك، وتبرئة عائشة رضي الله عنها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

٩- بيان آداب الاستئذان في دخول بيوت الآخرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [الآية:٢٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾.

١٠- الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج، وعدم إبداء الزينة إلا للمحارم فقط إلا ما ظهر منها: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾.

١١- الأمر بتزويج الأيامي من الأحرار والمماليك، ومكاتبة الذين يريدون المكاتبة من المماليك ومساعدتهم، والنهي عن إكراه الإماء على البغاء: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾.

١٢- الامتنان بإنزال الآيات البينات، وذكر الأمثال: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾.

١٣- ثناء الله عز وجل على نفسه بأنه نور السموات والأرض، وتعظيم نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ﴾ [الآية:٣٥].

١٤- تعظيم عمارة المساجد، والثناء على عمّارها بالتسبيح والصلاة والعبادة وامتداحهم، ووعدهم بأحسن الجزاء والزيادة من فضله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾.

١٥- ضرب مثلين لأعمال الكفار الباطلة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ [الآية:٣٩]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾.

١٦- ذكر مظاهر تمام قدرته عز وجل في تسبيح جميع المخلوقات له، وسعة ملكه، وإزجائه السحاب، وتقليب الليل والنهار، وخلق الدواب كلها من ماء، على اختلاف

أشكالها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

١٧- تأكيد الامتنان بإنزال الآيات: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

١٨- فضح المنافقين، وبيان دعواهم الإيمان وهم كاذبون، وإعراضهم عن حكم الله ورسوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الآية:٥٣]، إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

١٩- امتداح المؤمنين بقبولهم حكم الله ورسوله، وقولهم سمعنا وأطعنا ووعدهم بالفلاح والفوز والاستخلاف في الأرض وتمكين دينهم وتأمينهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

٢٠- تهديد الكافرين ووعيدهم: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

٢١- مشروعية استئذان المماليك ومن دون الحلم عند الدخول على أهليهم في أوقات ثلاثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ﴾ [الآية:٥٨]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

٢٢- رفع الجناح عن القواعد من النساء في وضع ثيابهن: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

٢٣- رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد، وفيما تحول هذه الأعذار بينهم وبين القيام به من الأعمال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ يُبَيِّنُ﴾ [الآية:٦١].

٢٤- بيان البيوت التي يجوز الأكل منها وإن لم يعلم رضا أصحابها: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ يُبَيِّنُ﴾ [الآية:٦١].

٢٥- بيان صفة المؤمنين حقًّا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

٢٦- نهي المؤمنين أن ينادوا الرسول صلى الله عليه وسلم باسمه مجردًا، كما ينادي بعضهم بعضًا، أو لا يستجيبوا له إذا دعاهم، وتحذير المنافقين المخالفين لأمر الله ورسوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٧- تقرير سعة ملك الله عز وجل وعلمه، ورجوع الخلائق إليه ومجازاته إياهم بأعمالهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

قوله: ﴿سُورَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه سورة، وفي تنكير «سورة» تفخيم وتعظيم لشأنها، وفيه مع تخصيصها بهذا المطلع إشارة إلى عظمة هذه السورة لما اشتملت عليه من أحكام عظيمة وآداب كريمة ومواعظ جليلة[١].

والسورة: مأخوذة من معنى الرفعة والشرف.

قال النابغة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر[٢]:

ألم تـــرَ أن اللهَ أعطـــاكَ ســـورة ... تـرى كـل ملْـكٍ دونهـا يتذبـذبُ

أي: أعطاك منزلة رفيعة شريفة قصرت عنها منازل الملوك.

وهي أيضًا مأخوذة من معنى الإبانة والتمام والإحاطة؛ لأنها بائنة عن السورة الأخرى، منفصلة عنها تامة بموضوعاتها، محيطة بآياتها[٣].

والسورة من القرآن في الاصطلاح: هي القطعة من كلام الله تعالى في كتابه ذات بداية ونهاية معروفة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر[٤].

---

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن، مادة «سور»، «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٨٩.

(٢) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» ص ٥٦ جمع وتحقيق محمد عاشور.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» ١/ ٢٠، «جامع البيان» ١/ ١٠٤- ١٠٥ تحقيق أحمد شاكر، «المحرر الوجيز» ١/ ٤٦، «لسان العرب» مادة «سور».

(٤) انظر: «البرهان في علوم القرآن» ١/ ٢٦٤، وانظر ما تقدم في بيان معنى السورة والآية في تفسير سورة الفاتحة، المبحث السادس.

﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾: الجملة في محل رفع صفة لـ«سورة»، والإنزال يكون من علوٍ إلى أسفل، وفي هذا إثبات علو الله عز وجل على خلقه، وفيه دلالة على أن القرآن منزل غير مخلوق كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة من القول: بخلق القرآن، وقولهم باطل بدلالة القرآن كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وفرَّضناها» بالتشديد.

وقرأ الباقون بالتخفيف(١).

والفرض يطلق بمعنى: الحز والقطع، يقال: فرض الجزار اللحمة، أي: قطعها، ويطلق على الإيجاب ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ [البقرة:١٩٧]، أي: أوجب على نفسه الحج بالإحرام به.

ويطلق على التقدير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٦](٢).

فمعنى ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجابًا قطعيًّا، وقدَّرنا ما فيها من الحدود والأحكام تقديرًا محكمًا، بحيث لا تجوز الزيادة فيها، ولا النقص منها.

وفي قراءة التشديد توكيد الإيجاب والتقدير والإحكام(٣)؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا. وقيل: قراءة التخفيف بمعنى «الإيجاب» وقراءة التشديد بمعنى «التقدير».

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾وهو كالتفسير والتوكيد لقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾.

و﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمع آية، وهي لغةً: العلامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:٢٤٨].

---

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص ٣٣٧، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) انظر مادة «فرض» في «المفردات في غريب القرآن»، «لسان العرب».

(٣) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» ٢/ ١٣٣، «النشر» ٢/ ٣٣٠، «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٩٠.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧].

وهي تنقسم إلى قسمين آيات كونية، وهي كل ما بثَّه الله وخلقه في هذا الكون علويه وسفليه من المخلوقات، من السموات والأرض والجبال والملائكة والإنس والجن، والحيوان والنبات، وسائر المخلوقات، فكل ذلك من الآيات والعلامات الدالة على وجود الخالق وعظمته، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس:٣٣، ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٣٨- ٤٩].

وفي كل ذلك آية، بل آيات دالة على عَظمة الخالق عز وجل.

قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحد

وفي كـــل شيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلى أنـــه واحـــد[١]

والقسم الثاني من الآيات: الآيات الشرعية المنزلة من عند الله، وهو الوحي الذي أوحاه الله عز وجل إلى أنبيائه ورسله، وأعظمه القرآن الكريم الذي أنزله الله وأوحاه إلى عبده ونبيه محمد ﷺ، ومنه هذه السورة وما فيها من الآيات البينات.

وسمي ذلك ﴿ءَايَٰتٍ﴾؛ لما فيه من الهدى والإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وأخباره، وصلاحيته لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، ولما فيه من الدلالة على أنه من عند الله عز وجل الذي له الكمال في ذاته وأسمائه وصفاته، وربوبيته وألوهيته، المستحق للعبادة دون سواه، كما قال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

ولكونه علامة ودلالة على صدق من جاء به وهو نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ: قال «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أُوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٢].

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾جمع بيِّنة، من بان يبين فهو بيّن، إذا ظهر واتضح، أي: واضحات مفصَّلات بأنفسهن، لا غموض فيهن ولا إشكال، ولا لبس فيما تضمنته من الأحكام والأخلاق والآداب الشرعية، ومن الدلائل الكونية الدالة على وجود الخالق وكمال قدرته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما ذكر الله عز وجل في مواضع كثيرة هذا البيان والتفصيل، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

وقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦- ١٩].

ففي هذه الآيات الشرعية بيان الأحكام والحلال والحرام.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان ١٥٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف وأصلها «تتذكرون»، وقرأ الباقون: «تَذَّكَّرُونَ» بالتشديد[1]. و«لعل» للتعليل، أي: لأجل أن تتذكروا، أو للترجي، أي: رجاء أن تذكروا، والرجاء إنما هو من المخاطبين. والأول أصح.

والتذكر: هو الاتعاظ بالقرآن الكريم، والاعتبار بما فيه من الوعد والوعيد، وتدبر ألفاظه ومعانيه وتصديق أخباره، وتطبيق أحكامه. وليس التذكر الثقافي فقط الذي لا يصاحبه عمل كما هو حال الكثيرين اليوم.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

هذا أول حكم مما فرضه الله عز وجل وأوجبه في هذه السورة وهو حكم الزانية والزاني، أي الحد الذي يقام عليهما، وهو وما بعده تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾، ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلزَّانِي﴾ معطوف عليه، وخبر المبتدأ قوله: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

والزانية: هي المرأة التي ارتكبت فاحشة الزنا، والزاني: هو الرجل الذي ارتكب تلك الفاحشة. و«الزنا» بالمد والقصر «الزناء»و«الزنا»[2]. والقصر أولى.

والزنا هو: إتيان الرجل المرأة بطريق الحرام أي: «غيبوبة حشفة الرجل في فرج امرأة لا تحل له».

كما قال ماعز بن مالك- رضي الله عنه- لما سأله الرسول ﷺ: «أتعرف الزنا»؟ قال: « نعم: أتيت منها حرامًا، ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا»[3].

والزنا: من أعظم الفواحش قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ

---

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «زنا».

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٢٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

وقدَّم الزانية على الزاني في الذكر هنا- مع أن الغالب في القرآن تقديم الرجال على النساء، وذلك- والله أعلم- إشارة إلى أن المرأة هي السبب الأعظم في حصول هذه الجريمة، فلو احتشمت وحفظت نفسها، وقرَّت في بيتها، وامتنعت من هذه الفاحشة وابتعدت عن الرجال لانقطع دابر هذه الجريمة، بخلاف جريمة السرقة فإن الله عز وجل قدَّم فيها ذكر السارق على السارقة، فقال: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨] وذلك لأن الرجل أجرأ على السرقة غالبًا.

وأيضًا فإن الزنا في حق المرأة أشد شناعةً وفحشًا، وضرره وآثاره عليها أعظم لما فيه من الفضيحة والعار عليها وعلى عشيرتها، وقد تَحْمِل بسببه، إضافةً إلى ما قيل من أن داعي الشهوة في المرأة أكثر وأقوى من الرجل على وجه العموم.

وقوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ﴾ يعم كل زانٍ وزانية من المسلمين أو من غيرهم، كما في رجمه ﷺ لليهوديَيْن.

﴿ فَٱجْلِدُواْ ﴾ الأمر للوجوب، والخطاب فيه لولاة أمور المسلمين، فلا يجوز أن يقيم الحد غير الإمام أو نائبه لما في ذلك من حصول الفوضى بين الناس، ما عدا السيد فإنه يقيم الحد على مملوكه على الصحيح.

والجلد: ضرب «الجِلد». يقال: جلده، إذا ضرب «جلده» ضربًا يؤلمه، ولا يبضع اللحم، ولا يجرح الجلد[1]، ولا يكسر العظم.

وهكذا ينبغي أن يكون الضرب وسطًا بين الضربين لا شديدًا، ولا سهلًا خفيفًا لا يؤلم، بل ضربًا مؤلمًا غير مبرح، ولا يرفع الضارب يده حتى يُرى بياض إبطه.

ويكون السوط أيضًا وسطًا بين السوطين لا شديدًا ولا لينًا، ويتقي الضارب المَقاتل، كالرأس والوجه ونحو ذلك، قال ﷺ: «**إذا ضرب أحدكم فليتقِ الوجه**»[2].

وينبغي أن يفرق الضرب على الجسم لينال كل عضو نصيبه من الألم، ويجلد

---

(١) انظر: «اللسان» مادة «جلد».

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٩٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرجل قائمًا والمرأة قاعدة.

﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾، أي: كل واحد من الزانيين المذكورين في قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾.

والآية هنا خاصة بالزناة الأبكار؛ كما سيأتي بيانه في الفوائد والأحكام.

﴿مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، أي: عدد مائة جلدة بالسوط والعصا ونحو ذلك.

وقد خصَّ من عموم قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ الإماء لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥]، أي: فعليهن نصف حد الحرائر خمسون جلدة، وألحق الجمهور بالإماء العبيد الذكور فمن زنى منهم جُلد خمسين جلدة(١).

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» ناهية، «تأخذكم» مجزوم بها، وعلامة جزمه السكون، «بهما»، أي: بالزانيين.

﴿رَأْفَةٌ﴾ قرأ ابن كثير: «رَأَفَةٌ» بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بسكونها(٢)، ومعناهما واحد.

والمعنى: ولا تغلبكم الشفقة عليهما، والرحمة بهما، والعطف عليهما، فتمنعكم من إقامة الحد عليهما، أو تحملكم على تخفيفه والخروج به عن الوجه الشرعي المطلوب، أما الرأفة الطبيعية فإنها أمر جِبِلِّيٌّ فُطِر عليه البشر، بل كثير من الحيوانات.

﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: في سبيل إقامة دين الله وشرعه وحكمه.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦] ولفظ الجلالة «الله» علم على ذات الرب عز وجل، وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز وجل تابعة له، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢- ٢٤].

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [٢٥].

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٠.

وقد يأتي تابعًا لغيره من أسماء الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١، ٢]، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب عطف بيان، ومعنى (الله)، أي: المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيمًا.

فلا يجوز أن تحول الشفقة عليهما والرحمة بهما دون تنفيذ حكم الله فيهما، أو تحمل على التساهل به وتخفيفه، بل إن عين الشفقة عليهما والرحمة بهما إقامة هذا الحد عليهما تطهيرًا لهما من رجس هذه الفاحشة، كما قال ماعز ﷺ: «طهرني يا رسول الله»(١).

وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قال تعالى بعد ذكر قصة أصحاب الجنة الذين عزموا على منع المساكين منها: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:١٩- ٣٣].

وقال ﷺ للمتلاعنين: «فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»(٢).

وهذا بعد رفع الحكم إلى السلطان وثبوت الحد، عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لحدٌّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا**»(٤).

وفي رواية: «لحد يقام في الأرض بحقه أذكى فيها من مطر أربعين عامًا»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٦٩٥- من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه. وانظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٨٥- ٣٨٦.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود- العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان ٤٣٧٦، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٨٦.

(٤) أخرجه النسائي في قطع يد السارق- الترغيب في إقامة الحد ٤٩٠٤، ٤٩٠٥، وابن ماجه في الحدود- إقامة الحدود ٢٥٣٨، وأحمد ٢/ ٣٦٢، ٤٠٢.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١١٩٣٢.

قال ابن كثير[١]: «وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله، لا ترحموهما، وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز ذلك».

وأيضًا فلا تأخذكم بهما شفقة ورحمة فتخففون الجلد والضرب عليهما، بل أقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن هذه الفاحشة، وليس المراد الضرب المبرح.

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهم-: «أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها وظهرها. قال عبيد الله: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: يا بني، ورأيتني أخذتني بها رأفة. إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جَلْدها في رأسها، وقد أوجعتُ حيث ضربتُ»[٢].

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ «إن» شرطية، و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه محذوف، دلَّ عليه ما سبق، أي: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فاجلدوهما ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله.

قال ابن كثير[٣]: «وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: فافعلوا ذلك، أقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحًا؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك».

وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله! إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها. فقال: «ولك في ذلك أجر»[٤].

والإيمان بالله معناه: التصديق بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته مع عمل الجوارح بمقتضى ذلك.

والإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث بعد الموت والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال وما في ذلك اليوم من الأهوال، والجنة والنار، وغير ذلك مما دلَّ عليه الكتاب

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٤٠، وعبد الرزاق في «المصنف» ١٣٥٣٧، والبيهقي في سننه ٨/ ٢٤٥. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٦.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٦.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٦، ٥/ ٣٤. من حديث قرة المزني رضي الله عنه.

والسنة.

وسُمي اليوم الآخر بهذا الاسم؛ لأنه بعد انقضاء هذه الدنيا بأيامها ولياليها، فآخر ليلة منها صبيحتها ذلك اليوم الطويل ولا ليل بعده.

وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به عز وجل وبين الإيمان باليوم الآخر، وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح، وهو أعظم رادع عن التمادي في الباطل لمن وفقه الله تعالى.

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»، أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في الشرور، واعتدى بعضهم على بعض ونحو ذلك.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، وهو للوجوب أي: وليحضر (عذابهما). أي: عقوبتهما بجلدهما وإقامة الحد عليهما ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: جماعة من المؤمنين بحيث يكون رجمهما علانيةً بحضور الناس، والطائفة: الجماعة من الناس، من واحد، أو من اثنين، أو من ثلاثة فأكثر[1].

والحكمة من ذلك- والله أعلم- التنكيل بهما والفضيحة لهما، والردع لأمثالهما، كما قال عز وجل في المحاربين: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [المائدة:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨].

قال ابن كثير[2]: «هذا تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان الناس حضورًا».

وهذا عذاب معنوي يقع على القلب، مع العذاب الحسي على الجسد بالجلد.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٤٥- ١٤٩، وانظر مادة «طوف» من «القاموس المحيط»، و«لسان العرب».

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٦.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «فأمر بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين، وذلك بشهادته على نفسه أو بشهادة المؤمنين عليه؛ لأن المعصية إذا كانت ظاهرة كانت عقوبتها ظاهرة، كما روي في الأثر عن عمر رضي الله عنه: «من أذنب سرًّا فليتب سرًّا، ومن أذنب علانيةً فليتب علانيةً».

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

أمر الله عز وجل بجلد الزانيين عقوبةً لهما وتنكيلًا بهما، ثم أتبع ذلك ببيان تحريم مناكحتهما هجرًا وتأديبًا لهما.

سبب النـزول:

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق، فأراد أن يتزوجها، فسأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله ﷺ، ولم يرد عليه شيئًا حتى نزلت ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد! ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾ فلا تنكحها»[٢].

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن امرأة يقال لها: أم مهزول كانت تُسافِح، وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة، وأن رجلًا من المسلمين أراد أن يتزوجها فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾[٣].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٠١، والنسائي في النكاح ٣٢٢٨، والترمذي في «التفسير» ٣١٧٧، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٥١- ١٥٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢٦، والحاكم ٢/ ١٦٦، والبيهقي في سننه ٧/ ١٥٣. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: «حسن الإسناد». وانظر: «لباب النقول» ص ١٥٢، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص١٤٢.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٥٩، ٢٢٥، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٥٠- ١٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢٥ والحاكم في النكاح ٢/ ١٩٣ وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٢١٢، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨.

قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

الزاني والزانية: من يرتكبان فاحشة الزنا، وقدم هنا الزاني على الزانية؛ لأن الكلام في النكاح، والرجل هو الذي بيده عقدة النكاح، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

والمشركة والمشرك: من يرتكبان الشرك، وهو دعوة غير الله، وإشراكه مع الله، وتسويته بالله، فيما هو من خصائص الله، كما قال الله جل جلاله عن المشركين أنهم يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

والنكاح: يطلق على العقد، وعلى الوطء، وأكثر إطلاقاته في القرآن على العقد.

واختلف في المراد به هنا، فذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المراد به: الوطء والجماع. فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- : ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: «ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشركٍ»[(١)].

وهكذا قال جمع من السلف: إن المراد بالنكاح في الآية: الجماع[(٢)] واختاره الطبري[(٣)] وغيره. قال ابن تيمية[(٤)]: «فأما المشرك فلا إيمان يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها، وأما الزاني ففجوره يدعوه إلى ذلك، وإن لم يكن مشركًا».

وقال ابن كثير[(٥)]: «هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاصٍ بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢٢، وصحح إسناده ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٧.
كما أخرجه ابن أبي حاتم أيضًا بمعناه من طرق عدة ٨/ ٢٥٢٢- ٢٥٢٦، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٥٣- ١٥٤، ١٥٧، ١٥٩.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٥٧- ١٥٩، «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٢١ وما بعدها، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٦٧ «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٦٠- ١٦١، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ٥٤٠.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٣.

(٥) في «تفسيره» ٦/ ٧.

والمراد من هذا: تقبيح الزنا، والتصريح بخبث الزناة والزواني.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن المراد بالنكاح هنا: العقد، وهذا ما يؤيده ما رُوي في سبب النزول.

قال ابن القيم[1]: «والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يُعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم.. والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى، فإنهم أَشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ هل هو خبر، أو نهي، أو إباحة؟ فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة، وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهيًا له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحةً له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعًا، فلما أَشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهًا يصح حملها عليه، فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة- وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويُصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك، ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه، ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به: رجل واحد وامرأة واحدة وهي «عناق» البغي وصاحبها، فإنه أسلم واستأذن رسول الله ﷺ في نكاحها فنزلت الآية، وهذا أيضًا فاسد».

وبعد أن بيَّن وجه فساد هذا القول وذكر قول من قال: الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور:٣٢]، وبيَّن أن هذا أفسد من الكل إذ لا تعارض بين الآيتين قال بعد ذلك:

«فإن قيل فما وجه الآية؟ قيل: وجهها- والله أعلم- أن المتزوج أُمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أُبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر سبحانه في سورتي النساء والمائدة، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرَّعه على لسان رسوله، أولا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٣- ٢٤٦.

يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من أشرك مثله.

وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرَّم عليه لم يصح النكاح، فيكون زانيًا، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وتبين غاية البيان، وكذلك المرأة».

وقال أيضًا: «وأما نكاح الزانية، فقد صرَّح الله سبحانه وتعالى بتحريمه في سورة النور، وأخبر أن من نكحها فهو إما زانٍ أو مشرك، فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه ويعتقد وجوبه، أولا فإن لم يلتزمه ولم يعتقده، فهو مشرك. وإن التزمه واعتقد وجوبه، وخالفه، فهو زانٍ ثم صرَّح بتحريمه فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

واستدل ابن القيم على أن المراد بالنكاح: الزواج بقوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور:٢٦]، فقال: «والخبيثات: الزواني، وهذا يقتضي أن من تزوج بهن فهو خبيث مثلهن. وأيضًا: فمن أقبح القبيح أن يكون الرجل زوج بغي، وقُبْحُ هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة. وأيضًا فإن البغي تفسد على الرجل فراشه، وتعلق عليه أولادًا من غيره، والتحريم يثبت بدون هذا، وقد فرَّق النبي ﷺ بين الرجل والمرأة التي وجدها حُبْلَى من الزنا، ولما استأذنه: مرثد بن أبي مرثد أن ينكح «عناق» وكانت بغيًّا قرأ ﷺ عليه آية النور، وقال: «لا تنكحها».

وقد تعقب الشنقيطي[1] قول ابن القيم بأن ما صح عن ابن عباس يرده. واستدل للقول بأن المراد بالنكاح في الآية: الوطء، بالآيات التي فيها تحريم مناكحة المشركين، ثم قال: «وهذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقًا؛ لأن حمل النكاح فيها على التزويج لا يلائم ذكر المشرك والمشركة، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم الأحاديث الواردة المتعلقة بالآية، فإنها تعين أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج، ولا أعلم مخرجًا واضحًا من الإشكال في هذه الآية إلا مع بعض تعسف، وهو أن أصح الأقوال عند الأصوليين، كما حرَّره أبو العباس ابن تيمية- رحمه الله- في رسالته في علوم القرآن، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة، هو جواز حمل المشترك على معنييه أو معانيه. وإذا علمت ذلك، فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج، خلافًا لمن زعم أنه حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر. وإذا حملت المشترك على معنييه، فيحمل

(١) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ٧١- ٨٢.

النكاح في الآية على الوطء وعلى التزويج معًا، ويكون ذكر المشركة والمشرك على تفسير النكاح بالوطء دون العقد، وهذا هو نوع التعسف الذي أشرنا له».

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة لما سبق، أي وحرم وحظر شرعًا الزنا، وتزوج الزانيات، وتزويج الزناة على المؤمنين.

كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [الآية:٢٥] أي: عفيفات غير زانيات علنًا ولا سرًّا، وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [الآية:٥].

فالإيمان المطلق يمنع صاحبه من الزنا، ومن تزويج الزناة والزانيات، قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث(١).

الفوائد والأحكام:

١- عِظم هذه السورة وأهميتها، وما فيها من أحكام وآداب؛ لقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فتخصيصها في هذا المطلع من بين سور القرآن يدل على ذلك.

٢- إثبات علو الله عز وجل على خلقه لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، وفي هذا الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن. وقد ظهرت هذه المقولة منذ القرون الأولى- وما بالعهد من قدم- وانتصر لها الخليفة المأمون. وعُذِّب علماء أهل السنَّة من أجل القول بذلك، منهم إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، الذي تصدى لهذه البدعة وردَّها وثبت على القول بأن القرآن مُنزَّل غير مخلوق.

ولهذا قال علي بن المديني رحمه الله: «أعزَّ اللهُ الإسلامَ برجلين ليس لهما ثالث: أبو

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بكر الصديق يوم الرِّدة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة»[١].

٤- أن ما أنزله الله عز وجل في هذه السورة من أحكام مما فرضه الله على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾.

٥- أن في القرآن وما اشتمل عليه من آياتٍ أعظم الدلالة على وجود الله عز وجل وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته، وربوبيته، وألوهيته، وكمال شرعه، وصدق رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾.

٦- الامتنان بإنزال هذه السورة وفرضها، وما فيها من الآيات البينات، وهكذا امتن الله عز وجل على عباده بهذا البيان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

٧- أن المقصود من إنزال السور والآيات: حمل العباد على التذكر والاتعاظ والعمل بما أنزل الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تذكروا.

ويؤخذ من هذا رأفة الله عز وجل ورحمته بالخلق ومحبته لهدايتهم، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢، ١] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] ولولا ذلك لما أرسل الرسل وأنزل الكتب.

٨- في تقديم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ إشارة إلى أن السبب الرئيس في وقوع هذه الفاحشة هي المرأة، كما أنها المتضررة به أكثر، إذ لو قرَّت في بيتها وحفظت نفسها وامتنعت وابتعدت عن مخالطة الرجال لانقطع دابر هذه الجريمة.

وفي هذا دلالة على تحريم التبرج والسفور، ووجوب حفظ المرأة لنفسها وعِفتها، والبعد عن مخالطة الرجال وأسباب الفتنة لها وبها.

وما من شكٍّ أن نساء المسلمين لو التزمن الحجاب واللباس الشرعي وقررن في بيوتهن، كما أمر الله بذلك أمهات المؤمنين لكان المجتمع أبعد ما يكون عن هذه الفاحشة. نسأل الله الهداية والتوفيق.

٩- بلاغة القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ فقدَّم الزانية على الزاني؛ لأن المرأة-

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٥/ ٢٧٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٩٠).

كما سبق- هي السبب الأعظم؛ ولهذا في آية السرقة قدَّم السارق على السارقة فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨]؛ لأن الرجل أجرأ على السرقة غالبًا.

١٠- في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ دليل على أنه لا بد من ثبوت الزنا في حق من يقام عليه الحد، وثبوته بشهادة أربعة رجال عدول مكلفين أحرار، يشهدون شهادة صريحة بذلك، أو بالإقرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾[النساء:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ [النور:٤]، وقال تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، فهاتان الآيتان تدلان بمفهومهما على أن الزنا يثبت بأربعة شهداء. وعلى هذا أجمع أهل العلم. فإن كان الشهود دون الأربعة أو اختلفت شهادتهم أو بعضهم، أو لم تثبت عدالتهم أو بعضهم، أو كان بعضهم مملوكًا لم يثبت الزنا.

كما يثبت الزنا بالإقرار، وهو أن يعترف الزاني على نفسه بالزنا، من غير أن يكره على ذلك، مع التصريح، بذلك بدليل قوله ﷺ في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- لماعز بن مالك رضي الله عنه: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت» قال: لا. قال: «أفنكتها»؟ قال: نعم. فعند ذلك، أمر برجمه»[(١)].

وقد اختلف العلماء هل يكفي الإقرار مرة واحدة أو لا بد من الإقرار أربع مرات؟ فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنه لا بد من الإقرار على نفسه أربع مرات، لما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، وهو في المسجد، فناداه، فقال: يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه، حتى ثنَّى عليه ذلك أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال له: «أبك جنون»؟ قال: لا. قال: «فهل أُحصنت»؟، قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهبوا به فارجموه»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨٢٤، ومسلم في الحدود ١٦٩٣، وأبو داود في الحدود- رجم ماعز بن مالك ٤٤٢٧، وأخرجه أيضًا ٤٤٢٨ بمعناه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٧٢، ومسلم في الحدود ١٦٩١، وأبو داود في الحدود ٤٤٢٨، والنسائي في

وعن بريدة- رضي الله عنه- : أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فرده الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «أتعلمون بعقله بأسًا، تنكرون منه شيئًا»؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا، فيما نرى. فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه، فأخبروه: أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرةً، ثم أمر به فرجم»[(١)].

وقالوا أيضًا: إن هذا هو الموافق لعدد الشهود في الزنا، فمقابل كل شاهد إقرار مرة واحدة. واشترط بعضهم أن تكون الإقرارات في أربعة مجالس لحديث بريدة- رضي الله عنه.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يكفي الإقرار على نفسه مرة واحدة فإذا أقر على نفسه مرة واحدة ولم ينزع عن إقراره أقيم عليه الحد.

واستدلوا بما جاء في حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها» فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»[(٢)].

قالوا: فلو كان يشترط لإقامة الحد على الزاني الإقرار أربع مرات لَبيَّن النبي ﷺ ذلك لأنيس- رضي الله عنه- فلما أطلق ذلك عرفنا أنه يكفي الإقرار ولو مرة واحدة.

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة- رضي الله عنه- قال: «أُتي رسول الله ﷺ بماعز بن مالك- رجل قصير عليه إزار- فردَّه رسول الله ﷺ مرتين، ثم أمر به فرجم»[(٣)].

وروي أنه ردَّه ثلاث مرات.

الجنائز ١٩٥٦، والترمذي في الحدود ١٤٢٨.

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٦٩٥، وأبو داود في الحدود ٤٤٣٣. وهكذا جاء في حديث جابر بن سمرة- رضي الله عنه- وغيره، أخرجه مسلم ١٦٩٢، وأبو داود ٤٤٢٢.

(٢) سيأتي قريبًا بتمامه وتخريجه.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٨٦.

قالوا: فهذا كله يدل على أن العدد غير مقصود، وإنما المقصود التثبت والتحقق من وقوع الزنا.

والأول أحوط، والثاني أرجح، فما حصل به تمام التثبت والتحقق كافٍ، سواء اعترف على نفسه مرةً أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا أو أكثر.

ولهذا لو رجع ونزع عن إقراره قُبل منه على الصحيح من أقوال أهل العلم ولم يقم عليه الحد، ولو أقرَّ على نفسه مائة مرة لقوله ﷺ في حديث ماعز لما هرب حين أذلقته الحجارة: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه»(١).

وأما الحمل فلا يثبت به الزنا لوجود الشبهة، فقد تكون المرأة مكرهة أو زُني بها وهي نائمة أو غير ذلك. وقد قال ﷺ: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلّوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»(٢).

١١- وجوب جلد كل من الزاني والزانية مائة جلدة، وعدم الرأفة بهما والشفقة عليهما في إقامة حكم الله عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ وأجمع المسلمون على هذا.

ويخص من عموم الآية الأَمَة فحَدّها خمسون جَلْدة، نصف حد الحُرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ [النساء:٢٥]. كما دلَّت السنَّة على أن الجلد مائة جلدة خاص بغير المحصن، وأن عليه أيضًا تغريب سنة.

كما دلَّت الآية التي نسخ لفظها وبقي حكمها وكذا السُّنَّة على أن حد المحصن- وهو الذي وطئ بنكاح صحيح- الرجم، فعن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني- رضي الله عنهما: «أن أعرابيين أتيا رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: إن ابني كان عسيفًا- يعني أجيرًا- على هذا، فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة،

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤١٩- من حديث يزيد بن نعيم بن هزال، عن أبيه رضي الله عنه، وصححه الألباني. وانظر: «المغني»١٢/ ٣٥٤- ٣٥٥، «أضواء البيان» ٦/ ٢٨- ٣٢، ٥٩- ٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الحدود ١٤٢٤- من حديث عائشة- رضي الله عنها- وذكر أنه روي موقوفًا عن عائشة وعدد من الصحابة قال والموقوف أصح. وانظر: «أضواء البيان» ٦/ ٣٧- ٤١.

فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جَلْد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس- لرجل من أسلم- إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها» فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»(١).

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا، البِكرُ بالبِكرِ جلد مائة وتغريب عام، والثيبُ بالثيب جلد مائة والرجم»(٢).

فدلَّ هذان الحديثان وغيرهما من الأحاديث على أن حد الزاني غير المحصن هو الجلد مائة جلدة وتغريب عام. وبهذا قال جمهور أهل العلم.

واختلفوا في تغريب المرأة، والمملوك ذكرًا كان أو أنثى(٣)، والأظهر- والله أعلم- أن المرأة تغرب كالرجل إلا إذا خِيف عليها الفتنة، والغالب أنه إذا كان التغريب بما هو ممكن الآن وهو أن يسجن الزاني في بلد آخر(٤)- كما رجح ذلك جمع من المحققين منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره(٥)- فإن الفتنة قد تكون مأمونة.

أما العبد والأمة فالأظهر- والله أعلم- أنهما لا يغربان، لتضرر مالكهما بذلك وقد دلَّ على ذلك حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٢٥، ومسلم في الحدود- من اعترف على نفسه بالزنا ١٦٩٨، وأبو داود في الحدود ٤٤٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٤١٠، والترمذي في الحدود ١٤٣٣، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود- حد الزنا ١٦٩٠، وأبو داود في الحدود- في الرجم ٤٤١٥، والترمذي في الحدود- ما جاء في الرجم على الثيب ١٤٣٤، وابن ماجه في الحدود ٢٥٥٠.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للشافعي ١/ ٣٠٥، «معالم التنزيل» ١/ ٤٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ١/ ٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ٥/ ٨٧، «زاد المعاد» ٥/ ٣٤، ٣٧، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣.

(٤) وذلك أن مجرد التغريب بدون سجن قد يكون من الصعب التحكم فيه بمن غرب نظرًا لتوفر وسائل المواصلات السريعة والمختلفة، فبمجرد أن ينفى سرعان ما يعود، ومن الصعب جدًّا، بل ومن العسير جدًّا مراقبته، ولو جهز له جيش كامل.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٩٩.

فتبين زناها، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها..» الحديث[١] ولم يذكر فيه التغريب. وظاهر حديث عبادة الجمع بين الجلد والرجم للثيب. وقد رُوي عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة، وقال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ»[٢].

وبهذا قال طائفة من السلف، وأهل الظاهر[٣] وهو رواية عن الإمام أحمد[٤]، لكن الظاهر من أمر الرسول ﷺ لأنيس في قوله: «واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت، فارجمها». ولم يذكر الجلد أن حد الزاني المحصن هو الرجم فقط، وهكذا ثبت من فعل الرسول ﷺ مع ماعز بن مالك، والغامدية الاقتصار على الرجم فقط، ولم ينقل عنه ﷺ أنه جلدهما قبل الرجم.

وعلى هذا دلت الأحاديث الصحيحة بألفاظها وطرقها المختلفة والمتعددة[٥]، فحد الزاني المحصن الرجم، وهو مما أنزل في القرآن، كما في حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس! فإن الله بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أُنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أُحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحَبَل أو الاعتراف»[٦].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨١٢، وأحمد ١/ ١٤١، وعبد الرزاق في «المصنف» الأثر ١٣٥٠، وابن أبي شيبة ١٠/ ٨٨.

(٣) انظر: «المحلى» ١١/ ٢٣٤.

(٤) انظر: «المغني» ١٢/ ٣٠٨.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥.

(٦) أخرجه البخاري في الحدود- رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ٦٨٢٩، ومسلم في الحدود- رجم الثيب في الزنا ١٦٩١، وأبو داود في الحدود ٤٤١٨، والترمذي في الحدود- تحقيق الرجم ١٤٣٢، وابن ماجه في الحدود ٢٥٥٣، وأحمد ١/ ٢٩، ٣٣، ٣٦.

وقد رجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية، والجهنية، واليهوديين، وامرأة العسيف.

وجمهور العلماء على أن حد الزاني المحصن هو الرجم فقط دون الجلد، وهو الراجح للأدلة السابقة فيرجم بالإجماع، ولا يزاد عليه الجلد عند جمهور أهل العلم[١].

وقد رتَّب الله على فعل الفاحشة هذه العقوبة العظيمة وهي الرجم، ورجم سبحانه وتعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل (فاحشة اللواط)، وذلك ما لم يجعله في شيء من المعاصي[٢] مما يدل على شناعة وقبح الزنا واللواط.

١٢- أن الذي يقيم الحد على الزناة هم ولاة الأمر أو من يقوم مقامهم، وليس لأحد غيرهم أن يقيمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾، ما عدا المملوك فإن الذي يقيم الحد عليه سيده لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت أَمَة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبْلٍ من شعر»[٣].

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ سُئل عن الأَمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضفير[٤]»[٥].

ولا يقال إن الخطاب في قوله: (فاجلدوها) لولاة الأمر ونوابهم لقوله في آخره «فبيعوها ولو بضفير» والذي له حق بيعها هو مالكها.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أيها الناس، أقيموا الحدود على أرقائكم،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥، «أضواء البيان» ٦/ ٤١- ٤٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١٢.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٣٤، وفي الحدود ٦٨٣٩، ومسلم في الحدود ١٧٠٣، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٩، والترمذي في الحدود ١٤٣٣، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦٥.

(٤) الضفير: الحبل، كما في الحديث قبله «ولو بحبل من شعر» وانظر: «النهاية» مادة «ضفر».

(٥) أخرجه البخاري في الحدود ٦٨٣٧، ٦٨٣٨، ومسلم في الحدود ١٧٠٣، ١٧٠٤، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٩، ٤٤٧٠، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦٥.

من أُحصن ومن لم يُحصن؛ فإن أَمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها»[١].

وقيل: إن الذي يقيم الحدود على جميع الزناة بما فيهم المماليك هو الإمام أو نائبه لعموم الآية.

والصحيح الأول للأحاديث المذكورة ونحوها فهي مخصصة لعموم الآية، وأنها في الأحرار. وقد رُوي عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه جلد أمةً له في الزنا[٢]، وكذا رُوي عن أنس رضي الله عنه[٣].

١٣- لا يجوز للمؤمنين أن تأخذهم شفقة أو رحمة بالزانيين تحول بينهم وبين إقامة الحد عليهما وتنفيذ حكم الله فيهما، أو تحملهم على تقليل الجَلد أو تخفيفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- الإشارة إلى تقديم تنفيذ حكم الله وما يقتضيه العقل والمصلحة على العاطفة مطلقًا، لقوله هنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فإن إقامة الحد عليهما هو عين الرأفة بهما والشفقة عليهما تطهيرًا لهما من رجس الفاحشة، وكما قيل:

فقَسَا ليزدجروا ومَن يكُ حازمًا ... فَلْيَقْسُ أحيانًا على من يرحم[٤]

والمشاهد أن كثيرًا من الناس قد تحملهم العاطفة على ترك ما يجب فعله أو على ارتكاب ما يجب تركه.

١٥- أن من شرط الإيمان بالله واليوم الآخر إقامة الحد على الزناة، وألاَّ تأخذنا بهما شفقة ورحمة في تنفيذ حكم الله عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وفي هذا حث وتأكيد على وجوب إقامة الحدود.

١٦- أن الإيمان بالله أعظم أركان الإيمان الستة، وهو أصل الإيمان لتقديمه دائمًا في الذكر على بقية أركان الإيمان كما في قوله هنا: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وكما في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود ١٧٠٥، وأبو داود في الحدود ٤٤٧٣، والترمذي في الحدود ١٤٤١.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ٧/ ٣٧٦ (١٣٥٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» ٨/ ٤٢٨ (١٧١٠٩).

(٣) أخرجه البيهقي ٨/ ٤٢٧ (١٧١٠٨).

(٤) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٢٧٤).

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

١٧- أن الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان وأعظمها؛ لأنه أعظم ما يحمل على العمل ويدفع إليه، لهذا يقرنه عز وجل دائمًا بالإيمان به سبحانه وتعالى كما في قوله هنا: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

١٨- يجب أن تكون إقامة الحد على الزانيين علنًا بحضور طائفة من المؤمنين تنكيلًا بهما وفضيحة لهما وردعًا لمن تسول له نفسه الإقدام على مثل فعلهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه قال: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١).

١٩- شدة حرمة الزنا وشناعته؛ لأن الله عز وجل رتَّب عليه هذه العقوبة العظيمة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

وسأل عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- فقال: «يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(٣).

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»، انظر: «كنز العمال» ١٤٢٨٤، وقد روي نحوه عن عثمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٤٧٧، ومسلم في الإيمان ٨٦، وأبو داود في الطلاق ٢٣١٠، والنسائي في تحريم الدم ٤٠١٣، والترمذي في «التفسير» ٣١٨٢.

(٣) سبق تخريجه.

ومع تشديد الشرع في عقوبة الزنا إلا أنه جعل في هذه العقوبة شيئًا من التدرج، فجعل عقوبته أولًا الحبس والأذى[١]، ثم شرع بعد ذلك الجلد والرجم، وذلك- والله أعلم- لشدة هذه العقوبة حتى لا يفاجأ بها من كان يستخف بأمر هذه الفاحشة.

٢٠- أن الذين يرتكبون فاحشة الزنا من الرجال والنساء هم من الزناة الذين استهانوا بهذه المعصية العظيمة، والتي هي من كبائر الذنوب، أو من أهل الشرك الذين لا يعتقدون حرمة الزنا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فمن استحضر عظم حرمة هذه الفاحشة، واعتقد ذلك، فإنه في الغالب يبتعد عنها وعن أسباب الوقوع فيها. وفي هذا تنفير من الزنا وأهله.

٢١- حرمة تزويج الزناة، والزواني؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾ [النساء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

وعن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله».[٢]

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، أو حرم عليهم الجنة، أو لا ينظر الله إليهم: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر في أهله الخبث»[٣].

وعن عمار بن ياسر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يدخل الجنة

---

(١) وذلك في قوله في سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾الآيتين ١٥، ١٦. وقد ذكر أن نزول آيات سورة النور بعد هاتين الآيتين بسنتين ونصف. انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص٤٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٤ وأبو داود في النكاح- باب قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ ٢٠٥٢، والنسائي في النكاح- باب تزويج الزانية وقال ابن حجر في «بلوغ المرام» ص٢٠٨: «رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٦٩، ١٣٤، والنسائي في الزكاة- المنان بما أعطى ٢٥٦٢ وقال الألباني: «حسن صحيح».

ديوث»[١].

وقد ذهب طائفة من أهل العلم إلى جواز تزويج الزناة والعقد للزاني على العفيفة، وللعفيف على الزانية وحملوا الآية على أن المراد بالنكاح فيها الوطء والجماع. قالوا: فلا دليل فيها على تحريم العقد للزناة[٢].

وقد تقدم أن كون النكاح مرادًا به العقد هو ما تؤيده الروايات في سبب نزول الآية.

وعلى القول بأن المراد بالنكاح في الآية: الوطء، أو ما يشمل العقد والوطء، فإن أدلة اشتراط العفة في النكاح كثيرة معلومة، منها قوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ﴾ [النساء:٢٥]، وقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة ٥].

فهذه الأدلة وغيرها تدل على اعتبار العفة شرطًا في النكاح فكيف يقال مع هذا بجواز عقد الزاني على العفيفة، وعقد العفيف على الزانية.

وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بأدلة لا تدل على ما ذهبوا إليه، منها قوله تعالى في سورة النساء بعد أن ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤]. قالوا: فيدخل فيمن أحل الزانية. وهذا ليس بصحيح فإن الآية عامة خص منها كل ما حرم نكاحه مما لم يذكر في الآية كالجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، وبين العمتين وبين الخالتين، ونكاح الخامسة، وزوجة الملاعن، ونكاح الأَمة لمن يستطيع نكاح حرة ونحو ذلك[٣]، ومن ذلك نكاح الزاني والزانية.

كما استدلوا بما رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- : أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده. انظر: «منحة المعبود» أبواب حد الزنا- النهي عن الزنا ١/ ٢٩٧، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ١٠: «ويستشهد به لما قبله من الأحاديث».

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ٧١- ٨٢.

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامس. قال: «غَرِّبْهَا». قال: أخاف أن تتبعها نفسي. قال: «فاستمتع بها». وفي رواية: «طلقها» قال: لا صبر لي عنها قال: «فأمسكها»[(١)] وهذا الحديث ضعفه جمع من أهل العلم.

فالصحيح الذي تؤيده الأدلة تحريم نكاح الزاني والزانية حتى يتوبا إلى الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]: «فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم، وفيه آثار عن السلف، وإن كان الفقهاء قد تنازعوا فيه، وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه».

وقال القاسمي[(٣)]: «واتفقوا على الكفاءة في الدين والزاني ليس كفؤًا للعفيف فكيف يقال بجواز اقترانهما».

وقال أخونا الدكتور/ ناصر الحميد[(٤)]: «وإني لأعجب- مع وضوح الأدلة- أن يذهب جمهور الفقهاء إلى عدم التحريم، فيجيزون ارتباط الزاني الذي لم يتب بالعفيفة، وارتباط العفيف بالزانية. فالعفيف الذي يقترن بالزانية التي لم تتب بمنزلة مَن يُقر الفاحشة في أهله».

أما إذا تاب الزانيان وأنابا إلى الله عز وجل وصلحت أحوالهما فإنه يجوز تزويجهما[(٥)]؛ لأن التوبة تجبُّ ما قبلها، حتى ولو كان أعظم الذنوب وهو الشرك بالله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح- النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ٢٠٤٩، والنسائي في النكاح ٣٢٢٩، وفي الطلاق ٣٤٦٤، ٣٤٦٥.

وقد ضعَّفَ هذا الحديث جمع من أهل العلم بل حكموا بوضعه، قال الإمام أحمد: «هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ وهو منكر، ليس له أصل» انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٠- ١١، «أضواء البيان» ٦/ ٧٣ وقال النسائي: «هذا خطأ والصواب مرسل، وهذا الحديث غير ثابت».

وقال الحافظ ابن حجر في «بلوغ المرام» ص٢٣٣: «ورواه أبو داود والترمذي والبزار، ورجاله ثقات». وصححه الألباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٥/ ٣١٧.

(٣) في «محاسن التأويل» ١٢/ ٤٤٤٣.

(٤) في كتابه «تفسير سورة النور» ص ١١٠.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٤، «تفسير ابن كثير» ٦/ ١١ «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٨٩.

يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

٢٢- حرمة الزنا على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨].

وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١).

وقد أجمعت الشرائع السماوية والديانات على حرمة الزنا وتأثيم مرتكبه وأنه رذيلة وعيب وعار(٢).

٢٣- أن الزاني ليس بمؤمن الإيمان المطلق، وإن كان عنده مطلق الإيمان، لأن الإيمان المطلق يمنع صاحبه من الزنا، وتزويج الزناة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وكما في حديث أبي هريرة المتقدم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧١، «تفسير سورة النور» للمودودي ص ٣١.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حد الزنا وحكم مناكحة الزناة، ثم أتبع ذلك بذكر حد القذف، وذلك كله صيانة للأعراض من الانتهاك والأذى، وصيانة للنفوس المعصومة من الإزهاق[(١)] والقضاء على وسائل إشاعة الفاحشة في مهدها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الواو: استئنافية. و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، يعم كل من رمى المحصنات من ذكرٍ أو أنثى، وإنما غلب فيه الذكور على الإناث.

ومعنى ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الرمي في الأصل يطلق على الرمي الحسي بالفعل، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فقد أخذ النبي ﷺ قبضة من التراب يوم بدر فرمى بها في وجوه المشركين، فما منهم من أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين[(٢)].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[(٣)].

ويطلق الرمي على الرمي المعنوي بالقول بالقذف بالزنا وسيئ القول، قال الشاعر:

رماني بأمر كنت منه ووالدي ... بريئًا ومن أجل الطوي رماني[(٤)]

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص٣٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ٨٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٦٧٣، والطبراني في «الكبير» ١١/ ٢٨٥- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال في «مجمع الزوائد» ٦/ ٤٨: «ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩١٧، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٤، والترمذي في «التفسير» ٣٠٨٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٨١٣.

(٤) هذا البيت للأزرق بن طرفة الباهلي جوابًا لبعض بني قشير، وقد اختصما في بئر، فقال القشيري: أنت

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الإحصان في اللغة: المنع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠]. أي: لتمنعكم، أي: لتمتنعوا بها في القتال من ضرب السيوف والسهام.

ومنه سُمي الحصن حصنًا؛ لأنه يُتحصن فيه ويمتنع من العدو، وسُمي الحصان حصانًا؛ لأن صاحبه يركبه ويمتنع به من العدو كرًّا، وفرًّا.

ويطلق الإحصان في القرآن الكريم على العفة، كما في قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

كما يطلق أيضًا على الحرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥].

كما يطلق الإحصان أيضًا على التزويج، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

والمراد بالمحصنات في قوله هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: العفائف الحرائر[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هي الحرة البالغة العفيفة».

والحَصان بالفتح المرأة العفيفة، كما قال حسان- رضي الله عنه- [(٣)] في عائشة- رضي الله عنها- :

حَصَان رزانٌ ما تُزن بريبة ... وتُصبح غَرثى من لحوم الغوافل

لص ابن لص. انظر: «معاني القرآن» للفراء ١/ ٤٥٨.

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٦١.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١١.

(٣) انظر: «ديوان حسان» ص٢٢٨. ومعنى «رزان»، أي: أنها رزينة عاقلة قليلة الحركة، ما تُزنُّ: ما تتهم، غَرثى: جائعة. وانظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤] في تفسير سورة النساء.

ومعنى ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أي: يقذفونهن بالزنا صراحة، فيقولون: فلانة زانية، أو قد زنت، ونحو ذلك، أو بنفي ولدها عن أبيه؛ لأن ذلك يستلزم الزنا.

ولا خلاف في أن المراد في الآية القذف بالزنا. وحذف المتعلق ولم يصرح به لفحشه وقبحه، مع إمكان الاستغناء عنه لدلالة قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ بعد ذكر الزواني على أن المراد بالمحصنات هنا: العفائف عن الزنا، وأيضًا لدلالة قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ لأن هذا العدد لا يشترط إلا في الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥]، مما يدل على أن المراد بـ«المحصنات» في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ المحصنات من الزنا.

ويؤيد هذا أيضًا قوله بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النور:٦]، فسياق الآية ولحاقها كل ذلك في الزنا وأحكامه.

والرمي بالقول قد لا يقل أثرًا وضررًا عن الرمي الحسي بالنبل والنصال، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦].

وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ»، وفي رواية: «لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض»(١).

وفي حديث بلال بن الحارث المزني بنحوه، وفيه: «فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»(٢).

وقال ﷺ لمعاذ: «كف عليك هذا» وأمسك بلسانه. فقلت يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»(٣).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- حفظ اللسان ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد- التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٢٩٨٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٦٩ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣ وصححه الألباني.

«أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[١].

قال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان[٢]

وقال الآخر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ
فعثرته بالقول تودي برأسه ... وعثرته بالرِّجْل تبرا على مَهْل[٣]

وقال الآخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران[٤]

وقد ذكر أن ابن مسكويه كان يحدث تلاميذه في الصباح عن عثرة اللسان، وأنها أعظم من عثرة الرجل، وفي المساء دخل على الخليفة، فبينما هو عنده إذ دخل ابنا الخليفة، فقال الخليفة: أيهما أفضل ابني هذين أو الحسن والحسين؟ فقال ابن مسكويه: خادم علي قنبر أفضل من ابنيك. فاستشاط الخليفة غضبًا وأمر جنوده أن يقتلعوا لسانه، ويخرجوه من خلف رأسه[٥].

وسواء كان المقذوف رجلًا أو امرأةً فإن الحكم واحد، وإنما خص بالذكر رمي المحصنات- والله أعلم؛ لأن قذف المرأة أشد ضررًا وأعظم أثرًا من قذف الرجل؛ لما في ذلك من آثار سيئة عليها، وعلى أهل بيتها وعائلتها، بحيث يبتعد الناس عن الزواج منها، ومن أهل بيتها وعائلتها؛ بسبب هذه القالة التي تنتشر انتشار النار في الهشيم، وقد تكون أوهى من بيت العنكبوت.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٠٦ وقال: «حديث حسن».

(٢) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «فيض القدير» للمناوي ٦/ ١٣٩، «روح البيان» لأبي الفداء ٩/ ٥٠٦.

(٣) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٦٠.

(٤) البيتان للشافعي. انظر: «ديوانه» ص١١٦.

(٥) انظر: «النجوم الزاهرة» ٢/ ٢٨٥، «وفيات الأعيان» ٦/ ٤٠٠.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ «ثم» عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿يَرْمُونَ﴾، أي: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ بعد رميهم لهن بالزنا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، أي: بأربعة رجال مكلفين أحرار عدول يشهدون على صحة ما قال أولئك القذفة.

وسُموا شهداء؛ لأنهم يخبرون بما شاهدوه وبما عاينوه؛ ولهذا لا بد أن تكون شهادتهم صريحة بأن يشهد كل منهم أنه رأى ذكر الزاني في فرج الزانية، كما يرى الميل في المكحلة، ولا تقبل في هذا شهادة النساء مطلقًا ولو كان معهن بعض الشهود من الرجال.

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء:١٥]، فأمر عز وجل باستشهاد أربعةً من الرجال بقوله: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ وأكد وجوب كون الشهادة صريحة بقوله بعد ذلك: ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾، أي: فإن شهدوا شهادةً صريحة بأنهم رأوا ذكر الرجل في فرج المرأة(١).

كل هذا من أجل الحفاظ على الأعراض وصيانتها وصيانة المجتمع من الأفّاكين المتقولين، بلا علم. وذلك لما يترتب على القذف من آثار سيئة، وأضرار عظيمة على المقذوف، إذ لو تسامح الشرع في هذا الجانب لأطلق أُناس ألسنتهم بأعراض بريئة.

فسدًّا لهذا الباب وإيصادًا له شدَّد الشرع في أمر ثبوت حد الزنا، فجعل من شرط ذلك أن يكون الشهود أربعة من الرجال الأحرار المكلفين، ولم يقبل فيه شهادة النساء مطلقًا، لا وَحدهُنَّ، ولا مع الرجال، واشترط أن تكون الشهادة صريحة واضحة على الوجه المذكور.

فإن شهد كل واحد من هؤلاء الشهود شهادة صريحة على الوجه المذكور ثبت حد الزنا، ووجبت إقامته، وإن نقص عدد الشهود عن الأربعة، أو لم تكن شهادة أحدهم صريحة واضحة لم يثبت حد الزنا وأقيم حد القذف على القذفة.

والواقع أن ثبوت حد الزنا بالبينة، وهم الشهود الأربعة على الصفة المذكورة لا

---

(١) كما روي في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال لماعز بن مالك: «حتى غاب ذلك منك فيها، كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر..» الخ أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٢٨.
وهذا وإن كان في الإقرار، فكذلك ينبغي أن تكون الشهادة أو أصرح منه.

يكاد يقع، وقد ذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال: «إنه لم يثبت حد الزنا بالبينة منذ عهد الرسالة إلى يومي هذا».

وليس الدين بالرأي، والشرع ليس متعطشًا لإقامة الحد أكثر من تعطشه لصيانة الأعراض وحفظ الأنفس، بل إن مشروعية حد الزنا مقصود منها صيانة الأعراض كمشروعية حد القذف.

﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ خبر المبتدأ «الذين»، وارتبط بالفاء؛ لأن الاسم الموصول فيه معنى الشرط.

والأمر للوجوب، والخطاب فيه لولاة الأمر ومن يقوم مقامهم، والمعنى: فاضربوهم ثمانين جلدة.

﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الواو: عاطفة في الموضعين، والجملتان معطوفتان على قوله: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ﴾ الواو عاطفة، و«لا» ناهية، أي: ولا تقبلوا لهم بعد قذفهم المحصنات، وعدم إتيانهم بما يثبت صحة وصدق ما قالوه:

﴿شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾، أي: على الدوام؛ في أي وقت من الأوقات، وفي أي حال من الأحوال، وعلى أي أمر من الأمور، ما لم يتوبوا؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الإشارة لمن يرمون المحصنات بالزنا، و«الفاسقون» جمع فاسق، والفسق هو: الخروج عن طاعة الله تعالى، وعن الصلاح إلى الفساد.

ومنه سميت الفأرة فويسقة، وسُميت الفواسق التي تقتل في الحل والحرم[1] لخروجها من أماكنها للإفساد. فـ (الفاسقون) الخارجون عن طاعة الله تعالى.

وقد أكد عز وجل الفسق فيهم بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

---

(١) كما في حديث عائشة- رضي الله عنها- عن النبي ﷺ أنه قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديّا» أخرجه البخاري في الحج ١٨٢٩، ومسلم في الحج ١١٩٨، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٢٩، والترمذي في الحج ٨٣٧، وابن ماجه في المناسك ٣٠٨٧.

والفسق في الأصل يطلق على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

ويطلق على ما دون الكفر كما في قوله هنا: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وكما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦].

ففي هذه الآية أوجب الله عز وجل على القذفة إذا لم يُقيموا بينة على صحة ما قالوه ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد كل منهم ثمانين جلدة. الثاني: أن ترد شهادته دائمًا. الثالث: أن يعد فاسقًا، وليس بعدل، لا عند الله، ولا عند الناس. وهم كاذبون وإن كان خبرهم مطابقًا للواقع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[النور:١٣].

ويفهم من قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أن القاذف إذا أتى بأربعة شهداء، وشهدوا شهادة صريحة على صحة وصدق ما قال فإنه لا يجلد، ولا ترد شهادته، ولا يعد فاسقًا، ويثبت بذلك حد الزنا على المشهود عليه بذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

«إلا» أداة استثناء، والتوبة: الرجوع والعودة إلى الله عز وجل والإنابة إليه، أي: الرجوع من المعصية إلى الطاعة ومن المخالفة إلى الموافقة والمتابعة.

فمعنى ﴿تَابُوا﴾، أي: رجعوا وأنابوا إلى الله عز وجل من فعل هذه المعصية، وهي قذف المحصنات بالزنا.

﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من بعد ما حصل منهم قذفهن، وذلك: بالإقلاع عن هذه المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون التوبة خالصة لوجه الله عز وجل، لا رياء ولا سمعة، ولا خوفًا من مخلوق، وأن تكون في وقتها المناسب: قبل حضور الموت وبلوغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

﴿كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨]، وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١). وقبل طلوع الشمس من مغربها لقوله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

وبما أن من شروط التوبة- بل من أهمها- : الإقلاع عن المعصية، فإن على القاذف أن يتوب علانيةً كما قذف علانيةً، وذلك بأن يُكذِّب نفسه ويُبرئ المقذوف(٣)؛ لأن القذف حق للمقذوف، ومن صدق الإقلاع عن المعصية أن يرد إلى المقذوف حقه وذلك بتبرئته مما قذفه فيه، فلا يُعد القاذف مقلعًا عن المعصية مادام حق المقذوف باقيًا عنده، فإن حقيقة الإقلاع عن المعصية إذا كانت تتعلق بالآدميين، من اعتداء على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم أن يردَّ تلك الحقوق إليهم ما أمكنه ذلك.

فمن شرط صحة الإقلاع عن المعصية أن يُسلِّم القاتل نفسه للقصاص، ويرد من أخذ أموال الناس أموالهم إليهم، ويستحلهم من اعتدى على أعراضهم ويؤدي حقوقهم بأي طريقٍ أمكنه ذلك.

قال ابن القيم في الكلام على قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣]: «فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري، فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبًا، فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه»(٤).

﴿وَأَصْلَحُوا﴾، أي: أصلحوا حالهم وعملهم بترك هذه المعصية والبعد عنها، وصلاح العمل بالإخلاص فيه لله عز وجل، وكونه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وليس من شرط قبول التوبة من ذنب إصلاح العمل مطلقًا.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٣ وأحمد ٢/ ١٣٢، وابن حبان في «موارد الظمآن» ٢٤٤٩، والحاكم ٢/ ٢٤٩ من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أحمد شاكر في تخريج المسند ٦١٦٠، والألباني في «صحيح الجامع الصغير» ١/ ٣٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص٥٠.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٦.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، أي: أصلحوا حالهم وعملهم مطلقًا، وهذا شرط لقبول التوبة. والصحيح الأول.

والاستثناء يعود إلى الجملتين السابقتين قبله، وهما قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، و﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ وذلك أن التوبة تمحو وتجب وتهدم ما كان قبلها.

قال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(١)، وقال عمر لأبي بكرة- رضي الله عنهما- لما شهد مع الذين شهدوا على المغيرة: «إن تبت قبلت شهادتك، أو تب تقبل شهادتك»(٢).

وقيل: إن الاستثناء في الآية يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، وهي قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فالتوبة ترفع الفسق فقط. والصحيح القول الأول.

إذ لا شك أن عدم قبول شهادة القاذف بعد توبته فيه شيء من العقوبة له، وهذا يتنافى مع ما تقتضيه الأدلة الواردة في تكفير التوبة ما قبلها، وقبول شهادة التائب حتى من تاب من الكفر، بل تبديل سيئات التائب حسنات كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

ويدل على هذا أيضًا قوله في ختام الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن من مقتضى مغفرته ورحمته أن يتوب على من تاب إليه، وألا يبقى عليه تبعة في شيء بعد توبته.

وإلى هذا القول ذهب جمهور أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٣): «دلَّت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة، كما هو مذهب الجمهور، فإن من جملتهم مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش وغيرهم، ومعلوم أنه لم يرد النبي ﷺ ولا المسلمون بعده شهادة أحد منهم؛ لأنهم كلهم تابوا، لما نزل القرآن ببراءتها، ومن لم يتب فإنه كافر مكذب للقرآن، وهؤلاء

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٥٠- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ١٦٩، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٦٣، والبيهقي في سننه ١٠/ ١٥٢

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٥.

ما زالوا مسلمين، وقد نهى الله عن قطع صلتهم... وشهادة غيرهم ممن شهدوا على غير عائشة أولى بالقبول إذا تابوا».

أما حد القذف فلا يسقط بالتوبة؛ لأنه حق للمقذوف، فإن عفا عنه سقط وإلا تلزم إقامته.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل رد شهادة القذفة وفسقهم، إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد ذلك ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إنه عز وجل بمغفرته ورحمته شرع لهم التوبة، ويقبلها منهم.

وهذا يؤيد القول بأن الاستثناء راجع إلى الجملتين، فإن من مغفرة الله عز وجل ورحمته الواسعتين: أن لا ترد شهادة من تاب من القذف وأصلح عمله وحاله، وأن لا يوصف بالفسق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، «غفور» على وزن «فعول»، صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].

والمغفرة معناها: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن يوم القيامة فيضع عليه كنفه[1] ويستره، فيقول: «أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟»فيقول: نعم، أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» فيعطى كتاب حسناته»[2].

ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستر الرأس وتقيه السهام.

---

(١) كنفه: سَتْره ورحمته. انظر: «النهاية في غريب الحديث» مادة «كنف».

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، وفي «التفسير» ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

﴿رَّحِيمٌ﴾، على وزن «فعيل»، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧].

ورحمة الله تنقسم إلى قسمين: رحمة هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية، يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

ورحمته الفعلية تنقسم أيضًا إلى قسمين: رحمة عامة لجميع المخلوقات، الإنس والجن، والبر والفاجر، والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة: فرحمته لهم في الدنيا: ما يتمتعون فيه من نعم الله عز وجل، ورحمته لهم في الآخرة: العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء- كما جاء في الحديث(١).

ومما يدل على أن اسمه عز وجل «الرحيم» يدل على الرحمة العامة قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]، و[الحج:٦٥]. والقسم الثاني من أقسام الرحمة الفعلية: الرحمة الخاصة بالمؤمنين، بهدايتهم إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة، وإدخالهم جنات النعيم. قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- عموم حكم القذف لكل من وقع منه ذلك من ذكر أو أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾، وهو اسم موصول يفيد العموم لكن غلب فيه الذكور على الإناث. لكن إن كان القاذف مملوكًا فعليه نصف حد الحر، لقوله عز وجل في حد الإماء في الزنا: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥].

وقَاسَ أهل العلم حكم القذف على حكم الزنا بالتنصيف، كما قاسوا حكم العبد على الأَمة، وقيل: عليه حد الحر ثمانون جلدة(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: الكلام على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية ٢٥.

٢- أن الرمي كما يطلق على الرمي الحسي يطلق على الرمي والقذف المعنوي بالقول ونحوه، بل إن الرمي بالقول قد يكون أشد خطرًا وأعظم جرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْمُونَ﴾.

٣- من شرط إقامة حد القذف وإجراء الأحكام المذكورة في الآية على القاذف: كون المقذوف مسلمًا بالغًا عاقلًا حرًّا عفيفًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أي: الحرائر العفيفات.

واختلفوا فيمن قذف مملوكًا: فذهب جمهور أهل العلم إلى أن من قذف مملوكًا لا يقام عليه حد القذف في الدنيا وإنما يعزر فقط، بل حكي الإجماع على هذا(١).

لما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «من قذف مملوكًا له بالزنا أُقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال»(٢).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالمحصنات في الآية العفائف خاصةً، فمن قذف عفيفة سواء كانت حرة أو أَمة فعليه حد القذف مستدلين بعموم الآية، وعموم قوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»(٣).

قالوا: وأما حديث أبي هريرة: «من قذف مملوكًا له بالزنا» فهذا خاص بالسيد إذا قذف مملوكه فلا يقام عليه الحد في الدنيا للحديث. كما لا يقام حد القذف على الوالد إذا قذف ولده. أما من قذف مملوك غيره فعليه الحد.

أما إن كان المقذوف صغيرًا دون البلوغ، أو كان ذميًّا فعلى قاذفه التأديب والتعزير عند أكثر أهل العلم، وقيل: عليه الحد(٤).

٤- أن رمي المحصنات من النساء أعظم وأشد ضررًا من رمي المحصنين من الرجال، ولهذا خصَّه بالذكر، مع أن الحكم واحد في رمي الذكور والإناث.

---

(١) انظر: «الإجماع» لابن المنذر ١٢/ ٧٠، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧٤- ١٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الحدود- قذف العبيد ٦٨٥٨، ومسلم في الإيمان- التغليظ فيمن قذف مملوكه بالزنا ١٦٦٠، وأبو داود في الأدب ٥١٦٥، والترمذي في البِر والصِّلة ١٩٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٣٣- ١٣٣٤، «المغني» ١٢/ ٣٩٩، «أضواء البيان» ٦/ ٩٣- ٩٤، ٩٩- ١٠٠، ١١٤.

٥- بلاغة القرآن الكريم في تخصيصه المحصنات بالذكر هنا دون المحصنين؛ لعظم ضرر قذف المحصنات، وقد كان الغالب في التعبير القرآني الاكتفاء بذكر الذكور وتغليبهم على الإناث، وقد جاء العكس في هذه الآية للحكمة المذكورة ونحوها.

٦- أنه لا بد لتبرئة القذفة من الحد والأحكام المذكورة في الآية، وإثبات الزنا على المقذوف من أربعة شهود من الرجال العدول الأحرار البالغين؛ لمفهوم قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فمفهوم هذا أنهم إذا أتوا بالشهود انتفت عنهم هذه الأحكام كلها.

ولا تقبل شهادة غير العدول في تبرئة القاذف؛ لأن قبول شهادتهم قذف للمشهود عليه ورمي له بالزنا حتى ولو لم نثبت حكم الزنا عليه بشهادتهم. فإن المفسدة المترتبة على قبول شهادتهم أعظم من المصلحة.

قال ابن تيمية[1]: «وأمَّا من قال الأصل في المسلمين العدالة فهو باطل، بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٣٢]».

٧- ينبغي أن لا يشهد الإنسان على أحدٍ بالزنا صراحة ما لم يكن معه ما يكمل أربعة شهود على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ الآية. ولقوله ﷺ لعويمر العجلاني: «البينةُ أو حدٌّ في ظهرك»[2].

وقد اختلف العلماء فيما إذا كان الشهود دون الأربعة، أو أربعة لكن اختلفت شهادتهم هل يقام عليهم حد القذف أولا[3]؟ فمن قال: لا يقام عليهم الحد، قال: لأنهم شهود طُلبوا لأداء الشهادة بما رأوا فما ذنبهم.

ومن قال: يقام عليهم الحد اعتبرهم قَذَفة. واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ الآية. وبقوله: ﴿لَوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣].

وبقوله ﷺ لعويمر العجلاني لما قذف امرأته: «البينةُ أو حدٌّ في ظهرك».

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٣- ٤٢٤.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧٧.

وبما رواه سعيد بن المسيب: «أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ضرب أبا بكرة، وشبل بن معبد، ونافع بن الحارث بن كلدة حدَّهم، وقال لهم: من أَكْذَبَ نفسه أجزتُ شهادته فيما يستقبل، ومن لم يفعل لم أجز شهادته، فأكذبَ شبل نفسه، ونافع، وأبى أبو بكرة أن يفعل»[(١)].

واختار بعض أهل العلم كالشنقيطي[(٢)] وغيره القول بإقامة حد القذف عليهم، وهو ظاهر النصوص، وهو الأحوط والأسلم للأعراض.

واختار بعضهم كالمودودي القول: بأنه لا حدّ عليهم[(٣)].

٨- احتياط الشرع المطهر للأعراض وحرصه على حفظها وصيانتها؛ فإن إتيان القاذف بأربعة شهداء يشهدون شهادة صريحة على الزنا أمر في غاية الصعوبة والتعذر. ولهذا فإن المخرج من هذا بإمساك اللسان عن الخوض في أعراض المسلمين، ولو تسامح الشرع في هذا لأطلق أُناس ألسنتهم بأعراض بريئة كذبًا وزورًا وبهتانًا، ولأصبح كثير من البيوت مهجورة لا يتزوج منها بسبب ذلك، ولكن الشرع المطهر الحكيم أوصد الباب وسدَّ الطريق أمام هؤلاء الأفاكين ومروجي الإشاعات. فسبحان الحكيم العليم.

٩- وجوب جلد القاذف ثمانين جلدة، ورد شهادته، والحكم بفسقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

وفي هذا جمع للقاذف بين العقوبة الحسية بالجلد، والعقوبة المعنوية برد شهادته وتفسيقه. والعقوبة المعنوية أشد عليه من العقوبة الحسية، وذلك تنكيلًا له وردعًا لغيره، فإن اللسان عدو الإنسان.

هذا إذا كان القذف بالزنا صريحًا- كما سبق بيانه، فإن كان ذلك كنايةً أو تعريضًا، فهذا لا يوجب الحد بل على القاذف التعزير فقط، ما لم تدل القرائن على أن مراد القاذف الزنا، وذلك لأن الحدود تدرأ بالشبهات وقدر المستطاع، لما رُويَ في

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢/ ٥٢، وفي «المصنف» الأثران ١٣٥٦٤، ١٣٥٦٥، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٦٣.

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ١٤، ١٥، ١٠٣.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص٦١، ٦٢.

الحديث: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم، فإن كان له مخرج، فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»(١).

ولا يجوز أن تعطى الكناية والتعريض حكم التصريح، وقد فرَّق القرآن بينهما قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٥].

فأباح عز وجل التعريض، ونهى عن التصريح فدلَّ هذا على افتراقهما(٢).

١٠- ينبغي أن يكون الجلد مؤلمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ والجلد ضرب الجلد بما يؤلم ولا يشق الجلد، ولا يبضع اللحم، ولا يكسر العظم، ويكون ضربًا بين الضربيْن، ليس بالشديد، ولا بالخفيف، ويكون بسوط وسطًا بين السوطين، ليس بالشديد ولا باللين.

١١- في جلد القذفة ثمانين جلدة، وتأبيد عدم قبول شهادتهم ووصفهم بالفسق بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ مع ما في هذه الجملة من المؤكدات دلالة على عظم جرم القذف وشناعته وأثره السيئ على القاذف وعلى المقذوف والمجتمع الإسلامي.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل فحيث شهد القاذف بالزنا، وهو كاذب جعل الشرع من ضمن عقوبته رد شهادته، ووصفه بالفسق.

١٣- فضل الله عز وجل ورحمته الواسعة ومغفرته حيث استثنى التائبين من القذف، وجعل لهم ولجميع المذنبين متسعًا للتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

١٤- أن من تاب من القذفة فإن شهادتهم تقبل، وينتفي عنهم وصف الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

وهذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين قبله، وهما قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٧٣، «أضواء البيان» ٦/ ٩٤- ٩٩.

وقد قيل: إنه يرجع للجملة الأخيرة فقط وهي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وعلى هذا فالتوبة لا تسقط إلا وصفهم بالفسق. والصحيح الأول.

ومن توبة القاذف أن يُكذِّب نفسه، ويتحلل من المقذوف ما أمكن.

وقيل: لا يلزم أن يُكذِّب نفسه بل يكفي أن يندم ويصلح حاله، والصحيح الأول[(١)].

فإن كانت توبته قبل إقامة حد القذف عليه، وعفا عنه المقذوف سقط عنه الحد وقُبلت شهادته، وانتفى وصف الفسق عنه؛ لأن حد القذف حق للمقذوف فإذا عفا عنه سقط.

وقد قيل: إن حد القذف حق لله تجب إقامته مطلقًا، حتى ولو عفا المقذوف، قالوا: لأن الله لم يذكر سقوطه بالعفو، كما قال تعالى في القتل العمد: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: آية ١٧٨]، وقال في القتل الخطأ: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: آية ٩٢].

والأظهر أن حد القذف حق للمقذوف، أو منه ما هو لله، ومنه ما هو للمقذوف[(٢)]، وأنه يسقط بعفو المقذوف عنه، فإن كان قبل الرفع إلى الإمام فلا إشكال؛ لقوله ﷺ: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب»[(٣)].

وإن كان بعد الرفع إلى الإمام، فالأظهر أنه يسقط، كما يسقط حد القصاص بالعفو، ولو بعد الرفع إلى الإمام.

١٥- أن من شرط التوبة من القذف أن تكون التوبة صادقة تتوفر فيها شروط التوبة، وأن يصلح القاذف حاله وعمله وبخاصة ما يتعلق بما وقع فيه من القذف.

١٦- أن من شرط إقامة حدّ القذف والحكم على القاذف بما ذكر في الآية أن يكون القاذف مكلفًا، أي: بالغًا عاقلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ لأن القذف من الحدود، والحدود إنما تقام على المكلفين، وأيضًا فإن

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٤- ١٧٦.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٢/ ١٧٧، ١٩٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٧٦، والنسائي في قطع يد السارق ٤٨٨٦- من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

الشهادة إنما تعتبر بالنسبة للمكلفين، وكذلك الوصف بالفسق، وقد قال ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يبلغ، والمجنون حتى يفيق»(١).

١٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾.

١٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ رحمةً ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمةً فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمةً عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

١٩- في ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. إشارةٌ إلى أَنَّ من مغفرته عز وجل ورحمته أن وفَّقَ من شاء من القذفة وغيرهم إلى التوبة وقبلها منهم.

كما أن في ختمها بذلك توجيهًا للمؤمنين بإسقاط الأحكام المذكورة في الآية عمَّن تاب من القذف، بل إن فيها ما يُشير إلى ترك اللوم لهم والتثريب عليهم، أي: فإن الله سيغفر لهم ويرحمهم، فلا تتبعوهم بشيء.

فالله عز وجل أَغْير على حرماته، وقد فتح للقذفة وغيرهم باب التوبة، بل فتح باب التوبة لمن ارتكب أعظم الذنوب وهو الشرك بالله، وبمغفرته ورحمته وفَّقَ من شاء من القذفة وغيرهم للتوبة وقبلها منهم، بل إنه يُبدل سيئات التائبين حسنات بفضله وكرمه. وعلى هذا فليس من الغيرة الشرعية، ولا من الحق والعدل أن يُلْحق التائب من القذف أو غيره بأي لومٍ أو تثريبٍ.

٢٠- فضل الله عز وجل على عباده حيث شرع لهم التوبة من القذف وغيره من الذنوب، ولو كان أعظم الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث علي- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب» وصححه الألباني، وقد روي من حديث عائشة- رضي الله عنها- وغيرها. انظر: «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٨٧.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيتين السابقتين حد القذف إذا لم يأتِ القذفة بأربعة شهداء، يشهدون على صحة ما قالوا، ثم أتبع ذلك ببيان أنه إذا كان القذفة هم الأزواج، ولم يكن لهم شهداء يشهدون على صحة ما قالوا، فإنه يجري بينهما حكم اللعان، كما دلَّت عليه هذه الآية، وذلك أن الزوج لا يرمي زوجته غالبًا- إلا إذا كان صادقًا؛ لأن زناها فيه ضرر له وعار عليه، والإنسان لا يذكر عيبًا يعود عليه.

قال ابن كثير[1]: «هذه الآية فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسّر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل».

سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ قال سعد بن عبادة- وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيّدكم»؟ قالوا: يا رسول الله، لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله! ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأةً له قط، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غَيْرَته. فقال سعد: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنها حق، وأنها من الله، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاعًا[2] قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أُحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله! لا آتي بهم حتى يقضي حاجته. قال: فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية- وهو أحد الثلاثة الذين تِيب عليهم[3]، فجاء من أرضه عشاء، فوجد

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

(٢) اللكاع: الحمقاء.

(٣) أي: الثلاثة الذين خلفوا، وهم: هلال بن أمية العمري، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع. وقد

عند أهله رجلًا، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاءً، فوجدت عندها رجلًا، فرأيت بعينيَّ وسمعت بأذنيَّ، فكَرِهَ رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت الأنصار، فقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة(١). الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويُبطل شهادته في الناس. فقال هلال: والله، إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا، وقال هلال: يا رسول الله، إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئتُ به، والله يعلم إني لصادق. فوالله، إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي- وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تَرَبُّد وجهه(٢)؛ يعني: فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي- فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ الآية. فسُري عن رسول الله ﷺ، فقال: «أبشر يا هلال، قد جعل الله لكَ فرجًا ومخرجًا». فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل. فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ، وذكَّرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله! يا رسول الله، لقد صدقتُ عليها. فقالت: كذبتَ. فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما» فقيل لهلال: اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كان في الخامسة قيل له: يا هلال، اتقِ الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه المُوجِبة التي تُوجِب عليكَ العذاب. فقال: والله، لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها. فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل لها: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسة قيل لها: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه المُوجِبة التي تُوجِب عليكِ العذاب، فتلكأت ساعة، ثم قالت: والله، لا أفضحُ قومي.

ذكر الله قصتهم في سورة التوبة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [الآية:١١٨].

(١) وفي هذا إشارة إلى أن البلاء موكل بالمنطق- كما قيل:

احذر لسانك أن تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

نسب هذا البيت في «العقد الفريد» ٣/ ١٦، لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أي: تغيّر لون وجهه إلى الربدة، وهي لون بين السواد والغبرة.

فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرَّقَ رسول الله ﷺ بينهما، وقضى بأن لا يُدعى ولدها لأب، ولا يُرمى ولدها، ومن رَماها أو رَمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق، ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أُصَيْهب أُرَيسح حَمْش الساقين[١] فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعدًا جُمَاليًّا، خَدَلَّج الساقين، سابغ الأليتين[٢]، فهو للذي رُميت به»، فجاءت به أورق جعدًا جُمَاليًّا خَدَلّج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن» قال: عِكرمة- وهو راوي الحديث عن ابن عباس: فكان بعد ذلك أميرًا على مصر، وكان يُدعى لأمه ولا يُدعى لأب»[٣].

وفي روايةٍ[٤] عن ابن عباس- رضي الله عنهما- : «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك! إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليها فجاء هلال، فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب»؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها مُوجِبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع،

---

(١) الأصيهب: هو الذي تعلو لونه صهبة، وهي كالشقرة، والأريسح: هو الذي لا عجز له، وحمش الساقين: أي دقيق الساقين.

(٢) الأورق: الأسمر، وجعدًا: أي جعد الشعر، وهو ضد السبط المسترسل، وجُمَاليًّا: بضم الجيم، وتشديد الياء: هو الضخم الأعضاء، التام الأوصال، وخَدَلَّج الساقين: أي: عظيم الساقين، وسابغ الأليتين، أي: عظيم الأليتين.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣٨- ٢٣٩.

(٤) أخرجها البخاري في «تفسير سورة النور» ٤٧٤٧، وفي الشهادات ٢٦٧١، وأبو داود في الطلاق- باب اللعان ٢٢٥٤، ٢٢٥٦، والترمذي في «التفسير» ٣١٧٩، وابن ماجه ٢٠٦٧.

كما أخرجه مسلم مختصرًا من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- في اللعان- ١٤٩٦، ومن حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- ١٤٩٥، وكذا الإمام أحمد ١/ ٤٢١- ٤٢٢.

ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن عويمرًا العجلاني أتى عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجلٍ وجد مع امرأته رجلًا، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سَلْ لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكرِه رسول الله ﷺ المسائل فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كَرِهَ المسائل وعابها. فقال عويمر: والله! لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر، فقال: يا رسول الله، رجلٌ وَجدَ مع امرأته رجلًا أيقتله، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أنزل الله القرآن فيكَ وفي صاحبتِكَ»، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله، إن حبستها فقد ظلمتها، فطلقها، فكانت سُنَّة لمن كان بعدهما في المتلاعنيْن، ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم، أدعج العينين[1]، عظيم الأليتين، خدلج الساقين، فلا أحسب عويمرًا إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَة[2]، فلا أحسب عويمرًا إلا قد كَذَبَ عليها، فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر، فكان بعد ذلك ينسب إلى أمه»[3].

وفي حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «ثم فرَّق النبي ﷺ بين أخوي بني العجلان، وقال: «الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب» ثلاث مرات».[4]

وقد اختلف أهل العلم هل ما ورد في هذه الروايات قصتان أو قصة واحدة، فمن

---

(١) أسحم: أسود. أدعج العينين: شديد سواد العينين، واسعهما. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادتي «سحم»، «دعج».

(٢) الوَحَرة: دويبة تلزق بالأرض. انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «وحر».

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤٥، ومسلم في اللعان ١٤٩٢، وأبو داود في الطلاق ٣٤٠٢، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٦، وأحمد ٥/ ٣٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في الطلاق- قول الإمام للمتلاعنَيْن: «إن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب»؟ ٥٣١٢، ومسلم في اللعان ١٤٩٣، وأحمد ١٩١٢.

أهل العلم من قال: هما قصتان، ومنهم من قال: هي قصة واحدة، ولا يترتب على هذا إشكال؛ لأن القصة ثابتة وصحيحة، فهذا الحكم وهو اللعان دلَّ عليه الكتاب والسنَّة، وأجمعت عليه الأُمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الواو: استئنافية، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، يفيد العموم لكلِّ مَن رمى زوجته من حرٍّ وعبدٍ.

ومعنى ﴿يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، أي: يقذفون زوجاتهم بالزنا، كأن يقول: يا زانية، أو رأيتكِ تزنين، ونحو ذلك.(١) والأزواج: جمع زوج، ويُطلق الزوج في القرآن الكريم على المرأة، كما يطلق على الرجل؛ قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ [النساء:١٢].

ويطلق على المرأة زوجة في لغة بني تميم؛ وهي دون الفصحى وقد جاء هذا في بعض الأحاديث. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في ذكر نعيم أهل الجنة: «ولكل امرئ منهم زوجتان»(٢).

قال الفرزدق(٣):

وإن الذي يمشي يحرش زوجتي ... كساعٍ إلى أسد الشرى يستبيلها

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم لم يكن لهم شهداء يشهدون على زناهن، ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾، «إلا» للاستثناء، و«أنفسهم»: بدل من «شهداء»، أي: ليس لديهم من يشهد إلا أنفسهم، ولم يقل هنا: «ولم يأتوا بالشهداء» أو «ولم يأتوا بأربعة شهداء» بل قال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ إشارة إلى أن المتوقع غالبًا أن لا يكون لدى الزوج شهداء.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٦، «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٨٨، ٢٩٠- ٢٩١، ٢٩٥، «المغني» ١١/ ١٢٢، ١٣٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤.

(٣) انظر: «ديوانه»ص ٦٠٥.

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ خبر قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء لشبه الموصول بالشرط من حيث العموم والإبهام.

﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف، وحفص عن عاصم بالرفع في قوله: «أَرْبَعُ» فتكون خبرَ قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بنصبها، فتكون مفعولًا مطلقًا لشهادة[1].

أي: فشهادة أحدهم التي يسقط بها عنه الحد، أو فالحكم أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، أي: بأن يشهد أربع مرات فيقول:

أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي من الزنا، أو أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به ونحو ذلك، ويكرر ذلك أربع مرات.

والصدق: مطابقة الخبر للواقع، وضده الكذب.

قال ابن كثير[2]: «وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدَّعي عليها بما رماها به، فيُحَلِّفه الحاكم أربع شهادات مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: فيما رماها به من الزنا».

قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾.

قوله: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾، أي: والشهادة الخامسة.

﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قرأ نافع المدني، ويعقوب بتخفيف «أن» ورفع ما بعدها: «أنْ لعنتُ الله»، وقرأ الباقون بتشديدها ونصب ما بعدها: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾[3].

أي: والشهادة الخَامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنا، فيقول: أشهد بالله أن لعنة الله عليَّ إن كنتُ من الكاذبين، أو إن كنت كاذبًا فيما رميت به زوجتي من الزنا.

واللعنة من الله: الإبعاد والطرد عن رحمته، واللعن من المخلوق، معناه: الدعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله.

---

(١) انظر: «مشكل إعراب القرآن» ٢/ ٥٠٩، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

(٣) انظر: «الغاية» ٣٣٧- ٣٣٨، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

واختلف أهل العلم هل ألفاظ اللعان شهادات، أو أيمان؟ والراجح أنها أيمان أكدت بلفظ الشهادة؛ لقوله ﷺ في امرأة هلال: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»[(١)].

وإذا شهد أربع مرات أنه من الصادقين فيما رماها به من الزنا، وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين في ذلك برئ من حد القذف، وثبت عليها حد الزنا، وبانت منه بنفس هذا اللعان وحُرِّمَت عليه أبدًا.

قال ابن كثير[(٢)]: «فإذا قال ذلك بانت منه بنفس اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبدًا، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا».

قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا﴾، أي: ويدفع عنها، ﴿الْعَذَابَ﴾ العقوبة بحد الزنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، وقال تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥].

﴿أَن تَشْهَدَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: ويدفع عنها العذاب شهادتها أربع شهادات بالله إنه- يعني زوجها- لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا، فتقول: أشهد بالله إن زوجي كاذب فيما رماني به من الزنا، ونحو ذلك. وتكرر ذلك أربع مرات.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قرأ عاصم بنصب: ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾؛ فتكون معطوفة على قوله: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ﴾.

وقرأ الباقون بضمها: «والخامسةُ»؛ فتكون مبتدأً، وخبرُها ما بعدها.

وقرأ يعقوب: «أنْ غَضَبُ»؛ بتخفيف «أَنْ» ورفع ما بعدها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٧٨. «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٨٧، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٢٤٧، «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ١٨٦- ١٨٧ «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٢، «أضواء البيان» ٦/ ١٣٤- ١٣٨.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

وقرأ نافع أيضًا بتخفيف «أنْ» وكسر الضاد وفتح الباء: «غَضِبَ» ورفع لفظ الجلالة على أنّ «غَضِبَ» فعل ماضٍ.

وقرأ الباقون بتشديد «أنَّ» ونصب ما بعدها: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾(١).

﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: والشهادة الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به، فتقول: أشهد بالله أن غضب الله عليَّ إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به من الزنا، ونحو ذلك.

والغضب أشد من اللعنة؛ لأنه سبب للانتقام، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف:٥٥].

وإنما جعل الغضب- وهو الأشد- في حق المرأة؛ لأن الزوج- غالبًا- أقرب إلى الصدق، ويبعد أن يرمي زوجته بالزنا إلا إذا تيقن ذلك؛ لأنه يتضرر بذلك، ولأنه إذا كان الزوج صادقًا والمرأة تنكر، صارت ترد الحق مع علمها به، ومن رد الحق مع علمه به فجزاؤه الغضب، كحال اليهود.

قال ابن كثير(٢): «فخصَّها بالغضب، كما أنَّ الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به؛ ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه».

فإن نكلت الزوجة، ولم تلاعن ثبت عليها الحد، لمفهوم قوله: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ الآية. فمفهومه أنها إذا لم تشهد ثبت عليها العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الواو: عاطفة، و«لولا»: حرف امتناع لوجود، وهي شرطية غير عاملة، وجوابها محذوف للتفخيم والتهويل، ليذهب العقل في تصوره كل مذهب، أي: ولولا فضل الله عليكم وإحسانه إليكم ورحمته بكم لكان كذا وكذا، ولحرجتم، ولما قَبِل منكم هذه الأيمان، ولعاقبكم، ولما صلح أمر دينكم

---

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ٣٣٧- ٣٣٨، «النشر» ٢/ ٣٣٠.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٢.

ودنياكم ونحو ذلك.

والفضل: الزيادة والإحسان.

ورحمة الله قسمان: رحمة هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة هي صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، وهي أثر من آثار رحمته الثابتة، ومن آثارها الإحسان، وليست هي الإحسان كما يقول بعض أهل التحريف.

قال السعدي[1]: «وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام، أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين؛ لشدة الحاجة إليه، وأنْ بين لكم شدة الزنا وفظاعته، وفظاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها».

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ «توّاب»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على أن من صفته عز وجل التوبة الواسعة الكثيرة على عباده. يتوب على الكثيرين منهم، ويتوب عليهم مرات كثيرة.

وتوبته عز وجل على عباده تنقسم إلى قسمين: توفيقهم للتوبة، كما قال عز وجل في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨]؛ أي: ثم وفَّقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].

﴿حَكِيمٌ﴾ صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدلُّ على أنه عز وجل ذو الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فهو عز وجل حاكم له الحاكمية ومحكم متقن في خلقه وشرعه وأمره ونهيه، يضع الأمور في مواضعها.

ومن توبته عز وجل الواسعة على عباده، وحكمه التام وحكمته البالغة حرَّم الزنا ومناكحة الزناة، وشرعَ حد الزنا وحد القذف، وحكم اللعان تطهيرًا للنفوس، وصيانةً

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٤.

للأعراض.

الفوائد والأحكام:

١- أن الزوج إذا قذف زوجته وأتى بأربعة شهود من الرجال العدول المكلفين الأحرار، يشهدون شهادة صريحة على صحة ما قال ارتفع عنه حد القذف، وثبت حد الزنا على زوجته كمن رَمى غير زوجته، ولا لعان عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾.

وقيل: لا بد من اللعان لرفع الفراش ونفي الولد.

والأظهر أنه لا يلاعن ولا ينفي الولد؛ لأن الولد للفراش[1]، لحديث عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[2].

٢- في مشروعية اللعان بين الزوجين- إذا قذف الرجل زوجته- فرج ومخرج له، إذ من الصعب جدًّا والمتعسر أن يكون لدى الزوج شهود في تلك الحال؛ ولهذا لم يقل الله عز وجل: (ولم يأتوا بأربعة شهداء) بل قال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾، أي: كما هو المتوقع غالبًا. ولهذا قال هلال بن أمية: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ ورسول الله ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. وفي بعض الروايات: والله، إني لأرجو الله أن يجعل لي منها مخرجًا، فأنزل الله هذه الآيات».

وفي حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- أن الرجل قال: يا رسول الله، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلًا فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، اللهم افتح. قال: فأنزلت آية اللعان»[3]. فحصل بذلك الفرج والمخرج للزوج، وهذا من تيسير الله عز وجل في هذه الشريعة المطهرة، فكلما اشتد الأمر جاء

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٠- ٢٩٢، «المغني» ١١/ ١٤١، ١٨١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩١، «زاد المعاد» ٥/ ٣٨٥- ٣٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٥٣، ومسلم في الرضاع ١٤٥٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٧٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٨٤، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٥، وأبو داود في الطلاق ٢٢٥٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٨.

اليسر من الله عز وجل قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]. وفي الأثر: «لن يغلب عسر يسريْن»(١).

ولهذا شرع الله الرخص لأهل الأعذار، ومن قواعد الشريعة: أن المشقة تجلب التيسير- فلله الحمد والمنة.

٣- في نقل الزوج الذي قذف زوجته إذا لم يكن لديه شهود إلى الشهادة بنفسه وحكم اللعان بخلاف غيره من القذفة إشارةٌ إلى أنَّ الزوج في الغالب لا يقدم على قذف زوجته وفضيحتها إلا إذا كان صادقًا؛ ولهذا فرَّق الله عز وجل في الحكم بين من قذف زوجته، ومن قذف غير زوجته، فخفف على الأول دون الثاني. وخاصة أن الزوج قد يجب عليه قذف زوجته وملاعنتها إذا وُجد ولدٌ من هذا الزنا، كأن يراها تزني في طهر لم يجامعها فيه، ثم تلد لستة أشهر فأكثر، أو يكون غائبًا عنها مدة طويلة، وهي حامل فتلد، ثم تحمل في حال غيبته وتلد، فهذا الولد قطعًا ليس منه فيجب عليه القذف واللعان. أما في حال عدم وجود ولد فالأولى الستر عليها وعدم القذف واللعان. هذا إذا رآها تزني. أما إذا لم يتحقق، فيحرم عليه(٢).

٤- إذا رمى الرجل زوجته بالزنا ولم يكن له شاهد إلا نفسه، فإنه يجري بينهما حكم اللعان وهو أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به، أو في أن زوجته قد زنت. وهذه الشهادات الأربع بدل من الشهود الأربعة، ثم يقول في الخامسة: إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. وبهذا يرتفع عنه حد القذف، فإن وجد ولد، ينتفي عنه الولد الذي وجد من هذا الزنا، فلا ينسب إليه ولا تلزمه نفقته ولا يتوارثان.

ويدفع عنها العذاب أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا. مقابل شهاداته، ثم تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ

---

(١) رُوي هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه مالك في الموطأ. انظر: «تنوير الحوالك» للسيوطي ١/ ٢٩٦.

(٢) انظر: «المغني» ١١/ ١٥٦- ١٦٠.

ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

وهكذا جاء في سبب نزول الآية. ويجب البداءة بالرجل في اللعان وترتيب ألفاظه كما ذكر الله عز وجل [(١)].

وإذا تم اللعان بين الزوجين فُرِّق بينهما فرقةً أبدية، وأُلحق الولد بأمه، لما جاء في حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: «حضرت عند رسول الله ﷺ، فمضت السُّنَّة في المتلاعنين أن يفرّق بينهما ولا يجتمعان أبدًا». [(٢)]

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- : «أن رجلًا لاعن امرأته على عهد رسول الله ﷺ ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما وألحق الولد بأمه» [(٣)].

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الحكم يجري بين الزوجين الحرين فقط، أو بين الأحرار والمماليك لعموم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، كما اختلفوا هل تحصل الفرقة بلعان الزوج وحده دون لعان الزوجة، أو لابد من لعانهما معًا؟ وهل تحصل الفرقة بينهما بمجرد اللعان أو بتفريق الحاكم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٤)]: «وقد مضت سنَّة النبي ﷺ بالتفريق بين المتلاعنين، سواء حصلت الفرقة بتلاعنهما، أو احتاجت إلى تفريق الحاكم، أو حصلت عند انقضاء لعان الزوج؛ لأن أحدهما ملعون، أو خبيث، فاقترانهما بعد ذلك يقتضي مقارنة الخبيث الملعون للطيب». وفي حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- أن امرأة لعنت ناقة لها، فأمر النبي ﷺ فأخذ ما عليها وأرسلت، وقال: «لا تصاحبنا ناقة ملعونة» [(٥)].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٤٧، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩١- ١٩٢، «زاد المعاد» ٥/ ٣٨٥- ٣٩١، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق- باب في اللعان ٢٢٤٨ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٧٤٨، وفي الطلاق ٥٣٠٦، ومسلم في اللعان ١٤٩٣، ١٤٩٤، وأبوداود في الطلاق ٢٢٥٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٧، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٦٩.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٧.

(٥) أخرجه مسلم في الصِّلة والبِر والآداب ٢٥٩٥، وأحمد ٤/ ٤٢٠.

وإذا حصل اللعان بين الزوجين فإنهما لا يُعاقبان، ولا يجوز قذف الملاعنة بالزنا، ولا يقال لولدها: ولد زنا، ومن قذفها بالزنا أقيم عليه الحد؛ لأنه لم يثبت زناها، وإنما انتفى نسب الولد عن الزوج بلعانه، ولا يسقط صداقها، ولا نفقة لها عليه(١).

٥- أن الزوج إذا قذف زوجته لا مخرج له من إقامة حد القذف عليه إلا باللعان، فإن نكل عن اللعان وجب إقامة حد القذف عليه وعلى هذا جمهور العلماء. وعليه يدل قوله ﷺ لهلال ابن أمية: «البينة أو حدٌّ في ظهرك» وقوله له: «اتقِ الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة». وقوله تعالى في آية القذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤]. وقيل: يحبس حتى يلاعن أو يُكذِّب نفسه فيقام عليه حد القذف(٢).

٦- إذا لاعن الزوج ثبت على الزوجة حد الزنا، فإذا لاعنت اندفع عنها الحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ الآية.

٧- مفهوم قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ الآية. أن الزوج إذا لاعن زوجته ونكلت هي عن اللعان أن عليها العذاب، وعلى هذا يدل قوله ﷺ لزوجة هلال: «اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

وبناءً على هذا ذهب جمهور العلماء إلى أن الزوجة إذا نكلت وجب إقامة حد الزنا عليها. وهذا هو الراجح، وقيل: تحبس حتى تلاعن أو تعترف بالزنا(٣).

٨- أن الشهادات تطلق على الأيمان لتوكيدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: يمين أحدهم بالله، ولهذا قال ﷺ لما جاء الولد يشبه المقذوف: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن». كما قال تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٣٠٣، ٣٠٤، «المغني» ١١/ ١٤٤- ١٤٧، ١٥٢- ١٥٤، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٦، «أضواء البيان» ٦/ ١٥٧، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٣.

(٢) انظر: «المغني» ١١/ ١٣٦- ١٣٧.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٨٧- ١٨٨، «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٦، «المغني» ١١/ ١٨٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩١، «زاد المعاد» ٥/ ٣٦٥- ٣٧٤، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٣، «أضواء البيان» ٦/ ١٣٢- ١٣٣.

أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [المائدة:١٠٧، ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١، ٢].

٩- أن الزوج بحكم المدعي، عليه الإتيان بالبينة: أربعة شهود، فلو أتى بثلاثة شهود، مع شهادته هو لم يثبت حكم الزنا، وعليه أن يلاعن؛ لأنه مدع والبينة لم تكمل، وقوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ بمعنى: «يمينه». وقيل: يثبت بذلك حكم الزنا؛ لأن الله سمى الزوج شاهدًا، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.

والأظهر القول الأول، وعليه أكثر أهل العلم(١).

١٠- مراعاة عدد الأيمان وأن تكون أربع مرات؛ لتكون- والله أعلم- كل يمين مكان واحد من الشهود الأربعة في القذف.

وهكذا في شهادة الإنسان وإقراره على نفسه بالزنا لابد أن يُقرّ أربع مرات عند طائفة من أهل العلم، لما جاء في قصة ماعز بن مالك- رضي الله عنه- ، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يكفي الإقرار مرة واحدة(٢).

١١- التشديد في أمر اللعان حيث طلب من المتلاعنين أن يشهد كل منهما أربع شهادات، وأن يقول الرجل في الخامسة: إن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين، وتقول المرأة في الخامسة: إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

١٢- في جعل اللعنة في جانب الرجل بأن يقول في الخامسة: أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين، وجعل الغضب في جانب المرأة بأن تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ما يشير إلى أن الزوج هو الأقرب للصدق؛ لأن اللعنة والغضب- وإن كان في كلٍّ منهما وعيد شديد وتهديد أكيد، إلا أن الغضب- والله أعلم- أشد من اللعنة؛ لأن فيه معنى اللعنة وأشد فهو سبب الانتقام قال تعالى:

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٢٩٥، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٨٩- ١٩٠.

(٢) انظر ما سبق في فوائد الآية: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥]، وهو من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، كما قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: آية ٧]، فالمغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى.

١٣- أن أحكام الشرع على حسب الظاهر، ولو كان الواقع يخالفه؛ لأن المتلاعنين متكاذبان، فالزوج يثبت أن زوجته زانية، وهي تدعي أنه قاذف كاذب، وأحدهما كاذب لا محالة كما قال ﷺ: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما من تائب»(١). قالها ﷺ لهلال بن أمية وزوجته لما تلاعنا.

١٤- امتنان الله عز وجل على عباده بما شرع لهم من الفرج والمخرج من الضيق والشدة، ومن اليسر بعد العسر- بفضله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾. أي: لوقعتم في الحرج والمشقة، أو لهلكتم، ولما قَبِلَ منكم الظاهر، مع أن الباطن غير صحيح(٢)، وغير ذلك.

قال ابن كثير(٣): «أي: لحرجتم ولشقّ عليكم كثير من أموركم».

١٥- أن الإنسان ليس له غنى عن ربه طرفة عين، ولا أقل من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ ولهذا جاء في الدعاء: «اللهم، رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله»(٤).

١٦- أن كل ما يتقلب فيه الخلق كلهم من نعم الدين والدنيا، وما أعده الله لأوليائه من النعيم في الآخرة كل ذلك بفضل الله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل:٥٣].

١٧- إثبات صفة التوبة لله عز وجل بقسميها، وهما توفيقه عبده للتوبة، وقبولها منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾.

---

(١) جاء هذا في لفظ البخاري وغيره- وقد سبق الحديث وتخريجه.

(٢) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٥٥.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ١٣.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٥٩- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وحسنه الألباني.

وفي ختام آية اللعان بهذا ما يدل على أن المتلاعنين قد حصل منهما ما يوجب التوبة من زنا المرأة، أو قذف الزوج لها، والأيمان الكاذبة، والدعاء على أنفسهما، وفي ذلك أيضًا دلالة على أن من تاب منهما تاب الله عليه.

١٨- إثبات صفة الحكم لله عز وجل بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، والحكمة بقسميها: الغائية والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ وأنه عز وجل الحاكم المحكم فيما خلق وشرع وقدر، ومن ذلك حكمه العدل وحكمته التامة في مشروعية اللعان الذي به مخرج وفرج للزوجين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

سبب النـزول:

عن عائشة- رضي الله عنها- : قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما أُنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه، مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عِقْدي من جزعِ ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقْدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يُهبَّلن[1] ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام[2]، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عِقْدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت،

(١) لم يثقلن باللحم والشحم.

(٢) أي: القليل والبلغة من الطعام.

وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني، قد عرس من وراء الجيش، فادّلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يُضرب الحجاب عليَّ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله! ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا، موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني. وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي، أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ، فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يريبني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح، قِبَل المناصع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأُول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقتُ أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عبّاد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، وقالت: تعسَ مسطح، فقلت لها: بئسما قلتِ، أتسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟! قالت: أيْ هَنْتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ، فسلّم، ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أُريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: يا أُمّتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوّني عليك، فوالله! لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثّرن عليها، قالت: قلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم

أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب، فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق! إن رأيت عليها أمرًا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ ابن سلول. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية. فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه. فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي، قالت: فبينا نحن كذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلم، ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب، تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي، حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟ فقلت، وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ

كثيراً من القرآن: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة- والله يعلم أني بريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة لتصدقونني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبويوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ قالت: ثم تحولت، فاضطجعت على فراشي. قالت: وأنا والله أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن، والله ما كنتُ أظن أن ينزل في شأني وحي يُتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكني كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[1] عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان[2] من العرق في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أُنزل عليه، قالت: فلما سُري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأكِ». فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي. قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ عشر آيات. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي. قالت: فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة، التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري: «ما علمتِ، أو ما رأيت»؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[3] من أزواج النبي ﷺ

---

(١) أي: الشدة.

(٢) أي: الدر، شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ في الحسن والصفاء.

(٣) أي: تضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ وتفاخرني.

فعصمها الله عز وجل بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها[١]، فهلكت فيمن هلك»[٢].

وفي بعض روايات حديثها زيادة: «وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره، وحمنة».

وفي بعضها: «أنه بلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل فيه، فقال: سبحان الله، والله ما كشفت عن كنف أنثى قط» قالت: «وقتل شهيداً في سبيل الله».

وفي بعضها أن عائشة كانت تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: «فإنه قال:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء»[٣]

وفي بعض الروايات عنها قالت: «لما نزل عذري قام النبي ﷺ على المنبر، فذكر ذاك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حَدَّهم»[٤].

قال أبو داود بعد إخراج هذه الرواية: «وحدثنا النفيلي حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق بهذا الحديث لم يذكر عائشة، قال: «فأمر برجلين وامرأة ممن تكلم بالفاحشة: حسان بن ثابت، ومسطح بن أُثاثة» قال النفيلي: «ويقولون: المرأة حمنة بنت جحش».

قال ابن كثير[٥]: «هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن أم المؤمنين- رضي الله

---

(١) أي: تتعصب لها فتحكي ما يقوله أهل الإفك.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤١، ومسلم في فضائل الصحابة، فضل عائشة- رضي الله عنها- ٢٤٨٨، وفي التوبة حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٢٧٧٠، وأبو داود في النكاح ٢١٣٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٧٠، وأحمد ٦/ ١٩٤، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٩٧- ٢٠٤، وقد روي من حديث أم رومان أم عائشة- رضي الله عنهما- مختصراً، أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥١، وفي المغازي- حديث الإفك ٤١٤٣، وأحمد ٦/ ٣٦٧- ٣٦٨.

(٣) كل هذه الروايات جاءت عند مسلم.

(٤) أخرجها أحمد ٦/ ٣٥، وأبو داود في الحدود- حد القذف ٤٤٧٤، والترمذي في تفسير سورة النور ٣١٨١، وابن ماجه في الحدود- حد القذف ٢٥٦٧، وقال الترمذي: «حديث حسن» وحسنه الألباني.

(٥) في «تفسيره» ٦/ ١٧.

عنها- ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها، ولنبيه- صلوات الله وسلامه عليه- فأنزل براءتها صيانةً لعرض الرسول- عليه أفضل الصلاة والسلام».

وقد اتفق أهل السِّير على أن هذه الحادثة وقعت في غزوة «المريسيع» ماء لخزاعة، وهي غزوة بني المصطلق، لكنهم اختلفوا متى وقعت هذه الغزوة فأكثرهم على أنها سنة ستٍ من الهجرة، وذهب بعضهم إلى أنها سنة أربع من الهجرة وقيل غير ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ الإفك: الكذب الشنيع، والافتراء والبهتان، مأخوذ من أَفَكَ الشيء إذا قلبه، ومنه سُميت قرى قوم لوط بالمؤتفكات؛ لأن الله جعل عاليها سافلها، وسُمي الكذب إفكاً؛ لأنه قلب للحقيقة عن وجه الصواب إلى وجه الباطل، وهو الإثم الكبير، والذنب العظيم[٢]، قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، وذكر منهن: «قذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[٣].

والمعنى: إن الذين اختلقوا هذا الكذب الشنيع، وافتروا هذا البهتان العظيم، وهو قذف عائشة رضي الله عنها.

﴿عُصْبَةٌ﴾ العصبة: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، وقيل غير ذلك وسُمِّي الجماعة عصبة؛ لأنه يعصب بعضهم بعضاً ويقويه[٤].

﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وقال: ﴿مِّنكُمْ﴾ مع أن فيهم عبد الله بن أُبيّ، رأس المنافقين؛ لأن المنافقين في الظاهر من المؤمنين.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» ٣/ ٣٠٩، «صحيح البخاري مع الفتح » غزوة بني المصطلق ٧/ ٤٢٨، «البداية والنهاية» ٤/ ١٦٠.

(٢) انظر: «القاموس المحيط»، «لسان العرب»، «النهاية» مادة «أَفَكَ».

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ١٩٨، «لسان العرب» مادة «عصب».

والمراد بهم الذين تكلموا في شأن عائشة- رضي الله عنها- وفي صفوان بن المعطل- رضي الله عنه- كما جاء في سبب النزول، وهم ثلاثة رجال وامرأة: عبد الله بن أبيّ، وحسان بن ثابت ومسطح بن أُثاثة، وحمنة بنت جحش.

قال ابن كثير[1]: «أي: جماعة منهم، يعني ما هو واحد ولا اثنان، فكان المقدم في هذه العصبة عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن».

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبوجعفر بفتح السين: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ وقرأ الباقون بكسرها[2].

والخطاب للنبي ﷺ وزوجه عائشة وأبي بكر وأهل بيته وصفوان بن المعطل، والمؤمنين.

أي: لا تظنوا هذا الإفك شرًّا لكم، أي: إنه وإن كان ظاهره الشر، وكان فيه أذية لكم، فهو ليس شرًّا محضًا.

﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن عاقبته إلى خير، والأمور إنما هي بعواقبها وما تؤول إليه، فقد أثبت الله عز وجل براءة أم المؤمنين- رضي الله عنها- وأنزل في ذلك قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، وهو امتحان من الله عز وجل فيه الأجر العظيم والثواب الجسيم لمن رُمي به. فالأمور بعواقبها لا بظواهرها القريبة.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٧- ١٨.

(٢) انظر: «المهذب في القراءات» ٢/ ٧١

فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر:١٥- ١٧].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»(٢).

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الخيرة فيما يختاره الله عز وجل للعبد، وأن الإنسان قد يظن أن هذا الأمر شر، لنظره فقط إلى ظاهر الأمر، بينما هذا الأمر خير في الحقيقة؛ لأن عاقبته ومآله إلى خير.

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٣)

فما حصل من هذا الإفكِ وإن كان ظاهره شرًّا إلا أن عاقبته ومآله إلى خير، ففيه الأجر والثواب العظيم لمن رُمي به وهي أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل، ولكل من تأذى به، منهم رسول الله ﷺ وأهل بيته وآل أبي بكر- رضي الله عنهم- وغيرهم من المؤمنين.

كما أن في هذا الابتلاء تمحيصاً للمؤمنين، وبيان عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وأهل بيته، ودفاعه عنهم، ورفعة شأن عائشة- رضي الله عنها- ، بإنزال براءتها وتخليد ذكرها في القرآن الكريم.

وقد روي عن عائشة وزينب ﵄ أنهما تفاخرتا، فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء: وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتابه، حين حملني ابن المعطل على الراحلة. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلتِ حين ركبتيها؟ قالت: قلتُ:

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

حسبي الله ونعم الوكيل: قالت: قلتِ كلمة المؤمنين»[١].

كما أن في ذلك فضيحة المنافقين وبخاصة رأسهم عبد الله بن أُبيّ، فشره وضرره عائد عليهم؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

فهذا كله خير للمؤمنين في دينهم ودنياهم في الحال والمآل.

قال ابن كثير رحمه الله[٢]: «﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس- رضي الله عنهما، وهي في سياق الموت قال لها: أبشري، فإنكِ زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبكِ، ولم يتزوج بكرًا غيركِ، وأنزل براءتكِ من السماء».

فحمداً لك اللهم أن كل ما يصيب المسلم مما يتأذى به ظاهراً فعاقبته ومآله إلى خير، إذا احتسب ذلك عند الله عز وجل، كما قال ﷺ في حديث صهيب- رضي الله عنه- :

«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[٤].

فتأمل أخي الكريم هذه النصوص الكريمة وما فيها من المعاني العظيمة، فإن فيها بتوفيق الله الطمأنينة القلبية وانشراح الصدر، وشفاء القلوب والأبدان، والسعادة في الدنيا والآخرة بإذن الله عز وجل. نسأل الله التوفيق للحق والثبات عليه إلى أن نلقاه عز وجل.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٩٤- ١٩٥ من حديث محمد بن عبد الله بن جحش.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٤- ٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٢، ومسلم في البِر والصِّلة والآداب ٢٥٧٣، والترمذي في الجنائز ٩٦٦.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ «لكل»: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و«ما» موصولة أو مصدرية في محل رفع مبتدأ، أي: لكل امرئ منهم الذي اكتسبه، أو اكتسابه من الإثم. و«اكتسب» أبلغ من كسب؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والمعنى: لكل شخص من هؤلاء الذين تكلموا بالإفك وتناقلوه، وخاضوا فيه ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾، أي: ما استحقه وحصل عليه «من الإثم» وهو الذنب والعذاب، بحسب خوضه في ذلك بين مقل ومكثر، وبحسب نيته وما انطوى عليه قلبه، فإن من بين هؤلاء من قصد إشاعة الفاحشة في المؤمنين ممن يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ومنهم من انطلى عليه الأمر فخاض فيه وهو لا يشعر.

والكسب كما يكون بالجوارح الظاهرة يكون بالقلب، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

قال ابن كثير[(١)]: «أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب».

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قرأ يعقوب الحضرمي «كُبره» بضم الكاف، وقرأ الباقون بكسرها[(٢)].

والضمير في قوله «كبره» يرجع إلى الإفك، المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أو إلى الإثم في قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

والضمير في قوله: «منهم» يرجع إلى الاسم الموصول في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾.

ومعنى قوله: ﴿تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾، أي: تولى كبر هذا الإفك، وكبر الشيء بكسر الكاف وضمها: معظمه، أي: والذي تولى معظم هذا الإفك بكونه هو الذي يستوشيه ويجمعه، كما قالت عائشة رضي الله عنها، أو بكونه أول من ابتدأه واختلقه وعمل على نشره وإشاعته وإذاعته.

والمقصود بالذي تولى كبره منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، كما

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٥.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

قالت عائشة- رضي الله عنها- ، وعلى هذا أكثر المفسرين[١].

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرًا، وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك وكان الذي يتكلم فيه مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم»[٢].

وعن مسروق قال: دخلنا على عائشة- رضي الله عنها- وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرًا يشبب بأبيات له، وقال:

حصان رزان ما تُزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[٣]

فقالت له عائشة: «لكنك لست كذلك. قال مسروق: فقلت لها: لِمَ تأذنين له أن يدخل عليك، وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأي عذاب أشد من العمى- وكان قد ذهب بصره- لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح، أو يهاجي عن رسول الله ﷺ»[٤].

وعنها أنها قالت: «ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولستَ له بكفءٍ؟ ... فشركما لخيركما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

فقيل: يا أم المؤمنين، أليس هذا لغوًا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: أليس قد أصابه عذاب

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ١٩٥- ١٩٧، «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٤٥، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي- حديث الإفك ٤١٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠.

(٣) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» ص ٢٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥٥، ٤٧٥٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٨٨ وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٥.

عظيم؟ أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف؟»[١][٢].

قال ابن كثير[٣]: «تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك فعلاه بالسيف، وكاد أن يقتله».

ومع أن هذه الروايات قد يفهم منها أن حسان بن ثابت ممن تولى كبر الإفك، فإن الرواية السابقة صريحة في أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ.

وأيضًا فإن مما يرجح كون الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ، لا حسان بن ثابت ما عند عبد الله بن أبيّ من سوء النية وخبث الطوية والقصد المتعمد لأذية الرسول ﷺ وعائشة والمؤمنين- كما هو معلوم عنه مما يبرأ منه حسان بن ثابت، وإن كان قد خاض فيه، وانطلى عليه الأمر من غير قصد، ولهذا قال ابن كثير[٤] عن هذا القول: «وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يذُبُّ عن رسول الله ﷺ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وروح القدس معك».

وأيضًا فإن حسانًا- رضي الله عنه- أنكر ذلك ودعا على نفسه إن كان قال ذلك، وقال في أبياته المشهورة في الثناء على عائشة والدفاع عنها:

حصان رزان ما تُزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[٥]
حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا ... نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة قد طيَّب الله خِيمها ... وطهرها من كل شين وباطل
فإن كان ما بلِّغت أني قلته ... فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملي
فكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زَيْن المحافل

---

(١) كنعه بالسيف، أي: أيبس جلده فرقًا وخوفًا وهلعًا.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ١٩٣.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٢٦.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٢٥.

(٥) رزان، أي: عاقلة رزينة. ما تُزنُّ، أي: ما تُتهم. غرثى، أي: جائعة، أي: أنها لا تتكلم في الغافلات. وقد تُكلم فيها.

لـه رتبـة عـال عـلى النـاس فضـلها تقاصـر عنـه سـورة المتطـاول[١]

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: في الآخرة وهو عذاب النار العذاب الأكبر، وأيضًا عذاب الدنيا مما يترتب على الكفر والمعاصي من الآثار السيئة النفسية والبدنية والمعيشية وغير ذلك، فإن الكفر والمعاصي سبب لفقدان السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة.

قال السعدي[٢]: «﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ هو المنافق الخبيث عبد الله بن أبيّ ابن سلول لعنه الله، ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار».

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

هذا توبيخ للمؤمنين في عدم ظنهم الخير بأنفسهم ورد الأكاذيب، وتوجيه لهم.

قوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾: «لولا» هنا للتوبيخ والتنديم على التفريط في أمر قد مضى، وفيه تحذير من مثله مستقبلاً.

والهاء في «سمعتموه» ضمير يعود إلى الإفك، أي: هلا إذ سمعتم هذا الإفك.

﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: ظن المؤمنون والمؤمنات، كحسان ومسطح وحمنة وغيرهم من المؤمنين ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: ظنوا بقلوبهم بأم المؤمنين عائشة وصفوان ﷺ وغيرهم من المؤمنين خيرًا، بأن غلبوا جانب حسن الظن والخير والعفاف في عائشة- رضي الله عنها- وفي صفوان، وفي غيرهم من المؤمنين، وأن هذا الفعل لا يقع من مؤمن، كما قال النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث[٣] فكيف بأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- والصحابي الجليل صفوان بن المعطل رضي الله عنه؟!

---

(١) انظر: «ديوان حسان» ص ٢٢٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٠.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وترتيب الظن على السماع بترتيب الجزاء على الشرط يدل على وجوب المسارعة إلى الظن الحسن حال سماع هذا الإفك.

ونص على المؤمنات في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ ولم يكتف بذكر ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كما هي طريقه القرآن في تغليب الذكور على الإناث؛ لبيان أنه وقع هذا الأمر من ذكور وإناث، وأنه ينبغي أن يحسن المؤمنون ذكورهم وإناثهم الظن بإخوانهم المؤمنين.

﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأن المؤمنين كلهم بمثابة نفس واحدة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، وقتل المسلم لأخيه المسلم بمثابة قتله لنفسه.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١١]، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»(١).

فحسنُ الظن وتغليب جانب الخير في المؤمنين كلهم واجب، فكيف بأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- والصحابة ﷺ كصفوان بن المعطل وغيره.

وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(٢)، وفي الحديث الآخر: «إذا ظننت فلا تحقق»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- ، وأخرجه الحافظ عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني في الإيمان عن الحسن البصري مرسلاً. انظر: «الجامع الصغير» ٣٤٦٦. وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧ من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه.

قال ابن تيمية[١]: «لكن مع العلم بما عليه المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر».

وتحتمل الآية معنى ثانياً أي: كما يظن الإنسان بنفسه الخير ينبغي أن يظن ذلك بإخوانه المؤمنين.

أي: كما تظن بنفسك الخير يجب أن تظن ذلك بإخوانك، إلا بيقين يدل على خلاف ذلك، بل لو ظن الإنسان بنفسه الشر والوقوع في الفاحشة إذا حصلت له الخلوة، فلا يجوز له أن يظن ذلك بالآخرين من إخوانه المؤمنين، فكيف بأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- . والآية تشمل هذا كله.

قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ معطوف على قوله: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾، أي: فبادروا عند سماعه بظن الخير بأنفسهم، وتفنيد هذا الخبر وتكذيبه، أي: قالوا بألسنتهم: هذا كذب وافتراء بَيِّن واضح ظاهر في نفسه أنه كذب وافتراء ومُبَيِّن أمر قائله بأنه مفتر كذاب.

فجمعوا بين حسن الظن بأم المؤمنين- رضي الله عنها- في باطنهم، وبين رد هذه الفرية ظاهرًا والجزم ببطلانها، وأنها كذب وافتراء بَيِّن واضح.

قال ابن كثير[٢]: «﴿وَقَالُواْ﴾ بألسنتهم: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾، أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا- لو قدر- خفية مستورًا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة».

وهكذا يجب على المؤمنين أن يقدموا حسن الظن بمن هم محل العدالة والثقة من المسلمين، وأن يردوا بألسنتهم ما يلفقه المغرضون من افتراءات كاذبة، ما لم يظهر لهم

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٧.

خلاف ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ «لولا» كالتي قبلها للتوبيخ والتنديم والضمير في «جاؤوا» يعود إلى العصبة الذين جاؤوا بالإفك. أي: هلا جاء أولئك العصبة الذين تكلموا بهذا الإفك ﴿عَلَيْهِ﴾، أي: على الإفك ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ من الرجال الأحرار المكلفين العدول يشهدون شهادة صريحة على صحة ما قالوا.

وفي هذا إشارة إلى مطالبتهم بالإتيان بأربعة شهداء على هذا الإفك، كما أن فيه إشارة إلى عجزهم عن الإتيان بالشهداء؛ لأنهم كَذَبَة مفترون، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾: عاطفة، و«إذْ» ظرف للزمان الماضي بمعنى: «حين» مُضَمَّنٌ معنى الشرط.

وقوله: ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ ولم يقل: «فإذ لم يأتوا بهم» بل أظهر في مقام الإضمار للتوكيد، أي: فإذ لم يأتوا بالشهداء على صحة ما قالوا، ولن يأتوا بهم.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية. أي: فأولئك الذين قذفوا عائشة وصفوان- رضي الله عنهما. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لشأنهم.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في علمه وحكمه الشرعي ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الكذب والافتراء والفجور.

وأكد تحقق هذا الوصف فيهم وبلوغه غايته بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: الكاذبون غاية الكذب دون غيرهم.

قال ابن القيم[1]: «فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقًا».

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٦.

وقال السعدي[١]: «﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأنه حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، لهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾» ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون» وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق».

ولهذا أمر النبي ﷺ بإقامة حد القذف على حسان بن ثابت. ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، أما عبد الله ابن أبيّ، فيحتمل- والله أعلم- أنه لخبثه ومكره، يشيع هذا الخبر ويلفقه، دون أن يصرح بذلك، كأن يقول: يقولون حصل كذا من عائشة، أويتكلم به لدى خواصه الذين يطمئن أنهم لا يشهدون عليه بذلك، لينشروه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ «لولا»: حرف امتناع لوجود، وهي حرف شرط غير جازم.

﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الفضل: الزيادة، أي: ولولا فضل الله وزيادته التي يتفضل بها على عباده من جلب الخير لهم، ودفع الضر عنهم، والتوبة عليهم، والتجاوز عنهم.

والخطاب في قوله (عليكم) للذين تكلموا في قضية الإفك، وبخاصة المؤمنين منهم؛ وهم: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش؛ لأن المؤمنين هم الذين أهل لفضل الله ورحمته الخاصة.

﴿وَرَحْمَتُهُ﴾، أي: ورحمته لكم، والمراد هنا رحمته الخاصة بالمؤمنين؛ لأن الخطاب معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

والرحمة هي سبب الفضل من الله.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ «الدنيا»: هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت «دنيا» من الدنو وهو القرب؛ لأنها قبل الآخرة فهي متقدمة عليها من حيث الزمن؛ ولهذا سماها

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٧.

الله عز وجل الأولى قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم:٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص:٧٠].

وهي أيضًا مأخوذة من الدناءة، ؛لأنها حقيرة دنيئة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩].

وعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»(١).

﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ هي الدار الآخرة التي بعد هذه الدار الدنيا، وسميت الآخرة؛ لأنها متأخرة في الزمن بعد الدنيا؛ ولأنها آخر دار، فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

والمراد: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم في الدنيا بأن وفقكم للتوبة وقبلها منكم، وشرع لكم ما يطهركم به من حد القذف، وفي الآخرة بأن عفا عنكم، وتجاوز عن ذنوبكم ليحلكم دار كرامته.

﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا هو جواب «لولا» والخطاب في قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ إلى الذين خاضوا بالإفك.

أي: لأصابكم ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ «في» سببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب الذي خضتم وتكلمتم فيه في حديث الإفك. يقال: أفاض في الحديث، أي: أكثر منه ونشره(٢).

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: عذاب عظيم من حيث كمه وكيفه ونوعه في الدنيا مما يفوق الجلد والتوبيخ، وفي الآخرة بالنار، والذي سيمس أولئك الذين حرموا فضل الله ورحمته ممن خاضوا في الإفك من المنافقين كعبد الله بن أبي وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولكن بفضل الله عز وجل ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، وتطهيرهم بالجلد،

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «فيض».

وتوفيقه لهم للتوبة وقبولها منهم عفا الله عنهم، وتجاوز عن ذنوبهم وأنجاهم من العذاب، وفازوا بالجنات وعظيم الثواب.

قال ابن كثير[١]: «يقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبيّ ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه».

وقال السعدي[٢]: «﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب».

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين»، والأصل «تتلقونه» فخفف بحذف إحدى التاءين، أي: حين تتلقونه وتتلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض ويرويه وينقله بعضكم عن بعض، والضمير في ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ يعود إلى الإفك، ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، أي: بقولكم: قال فلان كذا، وسمعت فلانًا يقول كذا، وذكر بعضهم كذا، وقيل: كذا وكذا ونحو ذلك[٣].

وأُسند التلقي وأُضيف إلى الألسن، مع أن الكلام يتلقى بالأذن إشارة- والله

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٧.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٧- ٣٩٨.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٧.

أعلم- إلى مبادرتهم إلى نقله والتكلم فيه بألسنتهم وهلة وحال سماعه، وكأنهم تكلموا به قبل أن يستقر في الآذان من سرعة تلقيهم له.

وقد كانت عائشة- رضي الله عنها- تقرأ «إِذْ تَلِقونَهُ بِأَلسِنَتِكُم» والوَلق: الإسراع. والمراد به هنا الإسراع إلى اختلاق الكذب.

عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة- رضي الله عنها- أنها كانت تقرأ: «إِذ تَلِقونَهُ» تقول: إنما هو وَلْقُ القول- والوَلْقُ: الكذب. قال ابن أبي مليكة: وكانت أعلم من غيرها بذلك؛ لأنه نزل فيها»[1].

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾، أي: قولاً لا مستند له ولا حقيقة، بل مجرد قول بالأفواه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] أي: بألسنتكم مما لا حقيقة له. وقيل: هذا من باب التأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فقوله:﴿ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ توكيد إذ من المعلوم أن القلوب في الصدور، ومثل هذا قول القائل: رأيت بعيني، وسمعت بأذني.

﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي ليس لكم به علم، أو مصدرية، أي: قولًا ليس لكم به علم، أو نكرة بمعنى شيء في محل نصب مفعول به أي: وتقولون بأفواهكم شيئًا ليس لكم به علم.

أي: تقولون ما لا تعلمون[2].

فأصبح حالكم كمن يقول: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»[3].

وقد قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»[4].

وعن حذيفة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤٤، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢١٥- ٢١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٤٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير»٦/ ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥،- من حديث أسماء- رضي الله عنها- .

(٤) أخرجه مسلم في المقدمة ٥، وأبو داود في الأدب ٤٩٩٢- من حديث حفص بن عاصم رضي الله عنه.

تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[١].

وروى عن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- أنه قال: «إذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم»[٢].

قال ابن تيمية[٣]: «وقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قال: فهذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان: القول بالباطل، والقول بلا علم».

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها[٤].

أي: وتظنون أن هذا الإفك الذي افتريتموه في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

﴿هَيِّنًا﴾، أي: سهلاً يسيرًا. قال السعدي[٥]: «ولهذا أقدم عليه من أقدم من المؤمنين، ثم تابوا وتطهروا بعد ذلك».

﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الواو للحال أي: والحال أنه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكمه الشرعي، وحكمه الجزائي وفي علمه.

﴿عَظِيمٌ﴾، أي: ذنب عظيم، وجرم كبير، وعقابه عظيم وعذابه أليم؛ لأنه قذف لزوجة أفضل الرسل نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وهي أفضل أزواج الأنبياء وسيدتهن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- بل إن القذف مطلقًا من أعظم الذنوب الموبقات.

كما في حديث أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن: «قذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة- ما جاء في الإحسان والعفو ٢٠٠٧، وقال «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٩٥.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١.

(٤) انظر: «المهذب في القراءات العشر» ص ٧١.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٩٨.

(٦) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧ ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧.

قال ابن كثير[١]: «ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هينًا، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل».

وإذا كان الرب العظيم وصف هذا الإفك بأنه عنده عظيم، فلا يستطيع أحد أن يقدر كنه عظمة هذا القول وخطورته إلا العظيم سبحانه وتعالى، مصداق ذلك قوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ، وفي رواية لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض»[٢].

وفي حديث بلال بن الحارث المزني أن رسول الله ﷺ قال: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عز وجل عليه بها سُخطه إلى يوم يلقاه»[٣].

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «كف عليك هذا- وأمسك بلسانه- فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[٤].

وعن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الواو: استئنافية، و«لولا»: للتوبيخ والتنديم؛ لأنه فات وقتها ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين»، أي: وهلا حين سمعتم هذا الإفك.

﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، أي: قلتم منكرين لذلك ومسارعين حال سماعه بالبراءة منه.

وترتيب القول على السماع بترتيب الجزاء على الشرط يدل على وجوب المسارعة

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- حفظ اللسان ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد- التكلم بكلمة يهوي بها في النار ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٦٩. وصححه الألباني

(٤) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٠٦ وقال الترمذي: «حديث حسن».

إلى نفي هذا الإفك والبراءة منه حال سماعه.

و«ما»: نافية، أي: قلتم: ما يجوز لنا أن نتكلم بهذا الإفك العظيم ولا يمكن أن نتكلم به، ولمَكَانة عائشة- رضي الله عنها- أجل وأعلى من أن ينسب إليها هذا الأمر، أو يقع منها. وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف(١).

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيها لله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وعن أن يقدر على زوجة سيد الخلق، وسيدة نساء الأنبياء أن تقع فيما قيل عنها ورميت به، فهو عز وجل أغير على نبيه ﷺ وعلى زوجة نبيه ﷺ، ولهذا لم تزنِ امرأة نبي قط لعصمة الله عز وجل لهن عن ذلك فكيف بعائشة- رضي الله عنها- أفضلهن وزوجة أفضلهم(٢).

وأيضًا: سبحانك وتنزيها لك من أن نتكلم بهذا الإفك فنخالف أمرك.

﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: هذا الإفك الذي رميت به عائشة وصفوان رضي الله عنهما ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: كذب عظيم.

و﴿بُهْتَٰنٌ﴾ على وزن «فعلان» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على أن هذا الإفك بلغ الغاية في الكذب، ولهذا وصفه بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾.

والبهتان: هو الكذب على البريء، والقول عليه بما ليس فيه، كما قال ﷺ في الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»(٣).

وسمي الكذب بهتانًا، وبهتًا؛ لأنه يبهت ويحير من رمي به ويدهشه كما أنه في نهاية الأمر يبهت ويحير صاحبه الذي افتراه واختلقه؛ لأن وبال ذلك عليه.

ولهذا يطلق البهت والبهتان على المجادلة بالباطل كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي: تحير وانقطع وقال تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٢٠]،

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١١.

(٢) انظر: «زاد المسير» ٨/ ٢١٥، «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٧، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٨- ٢٩، ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: كذبًا وذنبًا عظيمًا ودعوى باطلة.

قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ الموعظة: معناها: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، وما يلين القلوب. أي: ينهاكم الله متوعدًا ومحذرًا لكم أن ترجعوا لشبه هذا القول.

﴿أَبَدًا﴾، أي: مطلقًا فيما يستقبل من رمي عائشة أو غيرها من أزواج النبي ﷺ أو غيرها من المؤمنين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن» شرطية و«كنتم» فعل الشرط، وجوابه دل عليه ما سبق، أي: إن كنتم مؤمنين بالله ورسوله، وكل ما يجب الإيمان به، فلا تعودوا لمثله أبدًا؛ فمن شرط الإيمان: ألا تعودوا لمثل هذا القول أبدًا؛ تعظيمًا لحرمات الله عز وجل، واحترامًا لرسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ﴾، أي: يوضح ويفصل لكم الآيات الشرعية والكونية وما يؤخذ منها من أحكام وحكم، شرعية وكونية وجزائية. فقد بين الله عز وجل في معرض ذكر هذه الحادثة حادثة الإفك كثيراً من الأحكام والحكم الشرعية والكونية والجزائية.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، كما قال موسى عليه السلام لما سُئِل عن القرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فلا يعتري علمه عز وجل جهل سابق، ولا نسيان لاحق.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم الكوني والشرعي والجزائي، وذو الحكمة الغائية

والحكمة الصورية، فهو عز وجل حاكم محكم متقن في خلقه وشرعه وقدره وجزائه[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

هذا وعيد وتهديد وتحذير للذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾، أي: يرغبون ويودون ويتمنون بقلوبهم إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وربما عملوا على ذلك بجوارحهم، فتكلموا بألسنتهم، وكتبوا بأقلامهم ونحو ذلك؛ لإظهار الشماتة بالمؤمنين وأذيتهم، ولإشباع رغباتهم وشهواتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾، أي: يحبون شيوع الفاحشة، أو إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

ومعنى ﴿أَن تَشِيعَ﴾، أي: أن تظهر وتفشو وتنتشر[٢].

والفاحشة والفحشاء والفحش: ما يستقبح ويستفحش في الشرع وعرف المسلمين من الأقوال؛ كالقذف والغناء والسب والشتم، ونحو ذلك، ومن الأفعال؛ كالزنا واللواط وأسبابها من الاختلاط بين الرجال والنساء والخلوة بالنساء وبالمردان، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

واللواط أشد وأفحش من الزنا، ولهذا أطلق عليه اسم الفاحشة بالتعريف، قال تعالى عن لوط أنه قال لقومه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

قال ابن تيمية[٣]: «وهذا ذم لمن يحب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم في الفاحشة، أو يخبر بها محبة لوقوعها في

---

(١) يحسن مراجعة تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء:١٧].

(٢) انظر مادة «شيع» في «المفردات» و«لسان العرب».

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤١٢.

المؤمنين إما حسدًا أو بغضًا، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، فكل من أحب فعلها ذكرها».

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ العذاب: هو العقوبة والنكال، و«أليم» على وزن «فعيل» بمعنى «مُفعِل»، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

وهكذا جميع الذنوب والمعاصي وعقوباتها المترتبة عليها في الدنيا والآخرة لها آلامها الحسية والمعنوية.

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾: «أي: يختارون ظهور الكلام عليهم بالقبيح ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي بالحد، وفي الآخرة بالعذاب».

فلهم عذاب أليم في الدنيا بجلدهم حد القذف ثمانين جلدة، لنطقهم بالقذف بألسنتهم وأفواههم، مع العذاب المعنوي الدنيوي بسبب الذنوب والمعاصي وهو قلقهم واضطراب حياتهم.

ولهم عذاب أليم في الآخرة حسيًّا ومعنويًّا في النار، لما انطوت عليه قلوبهم من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين وسعيهم إلى ذلك.

وذلك أن الحدود على الصحيح كفارات فلا يجمع للقاذف بين عقوبتين؛ الحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، اللهم إلا أن يحمل ذلك على المنافقين فإن العقوبة في الدنيا لا تكفر عنهم عقوبة الآخرة إلا من تاب منهم من النفاق.

وفي حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك»[2].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٨، ومسلم في الحدود ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩، وابن ماجه في الحدود ٢٦٠٣.

كان كيف كان يكون، علمه محيط بالأشياء في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم فهو عز وجل يعلم أحوال خلقه، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ويعلم ما يصلحهم من الأحكام الشرعية والقدرية.

ويعلم ما تنطوي عليه قلوب أناس من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

ومن علمه عز وجل تقديره كونًا أن يحصل ما حصل من قضية الإفك، وعاقبته خير للمؤمنين كما ذكر الله عز وجل.

ومن علمه عز وجل أنه رتب العذاب الدنيوي وهو الجلد، والعذاب الأخروي بالنار على من وقع في ذلك ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، تأديبًا لهم وردعًا لأمثالهم، ولو لم يقم عليهم حد القذف لانبرى أناس يتكلمون في أعراض بريئة ولشاعت الفاحشة بين المؤمنين بسبب ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: لا تعلمون وجه الحكمة فيما شرع الله وقدر، ولا علم عندكم؛ لأن ما عندكم من العلم لا يساوي شيئًا بالنسبة لعلم الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، ولا تعلمون أيضًا إلا ما علمكم الله. قال ابن كثير[1]: «فردوا العلم إليه ترشدوا».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ كرر عز وجل تذكيرهم بفضله ورحمته هنا، وقد سبق في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية:١٠] تأكيدًا لعظيم فضله عليهم ورحمته بهم وامتنانًا عليهم بذلك؛ ليشكروه، وتنبيهًا لهم على عظم هذا الإفك كما قال عز وجل: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

«لولا» شرطية غير عاملة، وحذف جوابها للتعظيم والتفخيم؛ ليذهب فيه الفكر كل مذهب، أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكان كذا وكذا، أو لعاجلكم بالعقوبة، أو لما صلح أمر دينكم ودنياكم ونحو ذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ﴾، أي: ذو الرأفة العظيمة بعباده وخلقه. والرأفة: أخص من

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٩.

الرحمة، بل هي أشد الرحمة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة.

فلكونه عز وجل رؤوفًا رحيمًا تفضل على المؤمنين ورحمهم، ووفقهم إلى التوبة مما حصل منهم من الخوض في هذه القضية، وقبلها منهم وطهرهم من ذلك.

قال ابن كثير[1]: «﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه».

ففي الآيات السابقة ذكر عز وجل الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فجعل لهم مخرجًا من ذلك بالملاعنة بين الزوجين بفضله عز وجل ورحمته؛ لأنه التواب الحكيم.

وذكر عز وجل في هذه الآيات أنه جعل لعائشة- رضي الله عنها- وللمؤمنين فرجًا ومخرجًا من هذه القضية، وجعل العاقبة لهم بفضله ورحمته؛ لأنه الرؤوف الرحيم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات براءة أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- مما قاله فيها أهل الإفك، وعناية الله عز وجل بها وفضلها وعظيم مكانتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات.

٢- دفاع الله عز وجل عن نبيه وأهل بيته، وعن آل أبي بكر وعن المؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

٣- فضيحة أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم بما أنزل الله فيهم من الآيات وبيان أن ما جاؤوا به كذب وإفك مبين، وبهتان عظيم.

٤- أن الذين تكلموا في قضية الإفك جماعة من المؤمنين، بما فيهم المنافقون الذين هم في الظاهر من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾.

٥- أن عاقبة الابتلاء قد تكون إلى خير؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإن ما حصل لعائشة- رضي الله عنها- من هذا الإفك عاقبته خير لها ولرسول الله ﷺ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٠.

وأهل بيته ولآل أبي بكر ولصفوان بن المعطل، وغيرهم من المؤمنين.

فقد فضح الله عز وجل أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم وبيّن كذبهم، وبرأ أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وأهل بيته ﷺ والمؤمنين، وأثنى عليهم وامتدحهم، وبيّن لهم الحكم وعلمهم الأدب في مثل هذا، وهذا كله خير، هذا في الدنيا.

وفي الآخرة لهم عند الله عظيم الأجر والثواب، كما قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». وقال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»(١).

٦- أن لكل من هؤلاء العصبة الذين تكلموا بالإفك نصيبه من الإثم والذنب وجزاءه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

فمن أطال الخوض في هذا وأكثره فنصيبه من الذنب والجزاء أعظم، ومن أقل في ذلك فذنبه وجزاؤه على قدر خوضه في ذلك.

ومن خاض فيه عن قصد وسوء نية وخبث طوية كعبد الله بن أبيّ فذنبه وجزاؤه أعظم ممن خاض فيه من غير قصد، وإنما انطلى عليه الأمر.

ومن جزاء ذلك الجزاء الدنيوي بإقامة حد القذف على من ثبت عليه ذلك منهم ورد شهادته، والحكم بفسقه حتى يتوب.

٧- أن أعظم أصحاب هذا الإفك عذابًا من تولى كبر هذا الأمر، ابتداءً به ونشرًا وإشاعة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهو عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين، فهو من أعظم الخائضين في هذا مع نفاقه وسوء نيته، وخبث طويته ومحبته إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

٨- أن الذنوب تتفاوت من حيث كبرها وكثرتها وخلاف ذلك، ويتفاوت عذابها على حسب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٩- توبيخ من تكلم بالإفك من المؤمنين، وتنديمهم وعتابهم، وتعليمهم الأدب في مثل هذا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) سبق تخريجهما.

١٠- وجوب حسن الظن بالمؤمنين، وأن الأصل فيهم العدالة والبراءة والخير والعفاف، حتى يثبت خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

١١- أن اتهام المؤمن لأخيه بمثابة اتهامه لنفسه، وأن حسن الظن به بمثابة حسن الظن بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾، أي: بإخوانهم المؤمنين، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

وقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

١٢- أن ما رُميت به عائشة- رضي الله عنها- كذب بين واضح ظاهر، وبهتان عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

١٣- وجوب رد الأخبار والإشاعات المغرضة ورفضها بقوة وحزم؛ لكذبها وعدم صحتها، ولما تسببه من شرور وفتن على المجتمع الإسلامي؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله في الآيات بعد هذه الآية: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: هذا كذب بين مردود جملة وتفصيلاً.

وقد قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

١٤- وجوب إتيان القَذَفة بأربعة شهداء يشهدون بصحة ما قالوا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾.

١٥- إذا لم يأت القذفة بأربعة شهداء يشهدون بصحة ما قالوا فهم عند الله الكاذبون المفترون، الذين بلغوا الغاية في الكذب، ووجب إقامة حد القذف عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

وحيث إن ما جاء به هؤلاء الذين تكلموا في عائشة- رضي الله عنها- إفك وكذب مبين، وبهتان عظيم، فقد أقام النبي ﷺ الحد على القذفة منهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، وتاب الله عليهم.

فعن عروة عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لما نزل عذري قام النبي ﷺ على

المنبر فذكر ذاك وتلا- يعني القرآن- فلما نزل أمر بالرجلين والمرأة فَضُربوا حدهم»[١].

وعن محمد بن إسحاق قال: «ثم أمر رسول الله ﷺ بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصحوا بالفاحشة فَضُربوا حدهم»[٢].

وقيل: إن النبي ﷺ أقام الحد على أربعة، هؤلاء الثلاثة، وعبد الله بن أبيّ ابن سلول.

والمشهور القول الأول: وهو أنه ﷺ أقام الحد على الثلاثة: حسان ومسطح وحمنة، دون عبد الله بن أبيّ؛ لأنه لخبثه ودهائه وخوفه من أن يفتضح نفاقه، كما قالت عائشة- رضي الله عنها- : «يستوشيه ويجمعه»، فهو يعمل على نشره وإشاعته بطرق خفية وملتوية، ولا يصرح به. وإن صرح به فعند أمثاله من المنافقين الذين يتسترون عليه، وقيل غير ذلك[٣].

١٦- فضل الله عز وجل على المؤمنين ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، حيث طهر من وقع منهم بالإفك بإقامة الحد عليهم، ووفقهم للتوبة، وقبلها منهم، فسلموا من أن يمسهم العذاب العظيم لو لم يتوبوا، وفي هذا وعيد شديد وتحذير أكيد من الوقوع في مثل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٧- العتاب الشديد للذين تلقوا الإفك وتناقلوه بألسنتهم فيما بينهم، وتكلموا بأفواههم بما ليس لهم به علم، والنهي عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

١٨- وجوب التثبت في الأخبار وفي نقل الكلام، والإمساك عما ليس للإنسان به علم؛ لأن الله عاتب المؤمنين على ما حصل منهم من تلقي الإفك والقول بلا علم.

١٩- عظم ذنب وإثم من خاضوا في هذا الإفك، وأنه ليس بالأمر الهيِّن، فهو قذف لأم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣١٥.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٣، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٦٦.

المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ وابنة الصديق رضي الله عنه وعنها، فآذوها وآذوا رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، وآذوا أبا بكر وأهله ﷺ، وصفوان بن المعطل رضي الله عنه والمؤمنين.

علمًا أن القذف بحد ذاته ذنب عظيم، فكيف إذا كان لإحدى أمهات المؤمنين، بل لعائشة التي هي من أفضل أمهات المؤمنين، والتي هي أحب أزواج النبي ﷺ إليه والتي فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كما قال ﷺ[1]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن كثير[2]: «وقد أجمع العلماء- رحمهم الله- قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به الذين ذكروا في هذه الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم».

٢٠- عتاب الله للمؤمنين ثانيًا وتأديبه وتعليمه لهم، وبيان أنه كان الواجب عليهم لما سمعوا حديث الإفك أن يمسكوا عن الكلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

٢١- وجوب الذب عن عرض المسلم برد ما يقال فيه من الإفك، وبيان أنه كذب وبهتان عظيم وفي الحديث: «من رد عن عرض أخيه المسلم رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[3].

٢٢- وجوب الإمساك والبعد عن الخوض في الكلام الباطل، وإن خاض فيه من خاض من الخلق، وما أكثرهم، فالعافية غنيمة، والسلامة لا يعدلها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

وانظر إلى كثير من المسلمين في مجالسهم العامة والخاصة ومنتدياتهم وفي مواقعهم على «الإنترنت» وفي الساحة المفتوحة الساحة السوداء ساحة الحراج وغير ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٣٤، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٣١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٣١، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وقال: «حديث حسن».

يندى جبينك من سوء أخلاق كثير من المسلمين، وخوضهم في الباطل، بما يحمل بين طياته الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ويؤدي إلى تمزيق كلمة المسلمين ووحدتهم، وجعلهم أيدي سبا، ولقمة سائغة لأعدائهم، بل ويؤدي إلى ما هو أعظم من ذلك وهو الإساءة إلى الشرع المطهر والدين الإسلامي الحنيف ووصمه بأنه مصدر هذه التصرفات، وحاشا الدين الإسلامي من ذلك.

٢٣- تسبيح الله عز وجل وتنزيهه عن كل ما لا يليق به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، وأن حكمته عز وجل تأبى أن يقع في فراشه ﷺ ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها.

٢٤- أن ما قيل من الإفك في عائشة- رضي الله عنها- كذب بلغ من الكذب غايته ومنتهاه؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٥- وعظ الله للمؤمنين ونهيه لهم نهيًا مؤكداً وتحذيرهم من الرجوع إلى مثل هذا الإفك؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

٢٦- أن من شرط الإيمان وكماله عدم الرجوع في مثل ذلك، وعدم الوقوع في أعراض المسلمين وقذفهم كذبًا وبهتانًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٢٧- أن الذنوب والمعاصي تضعف الإيمان، وأن كمال الإيمان بالبعد عنها؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وفي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه بها أعناقهم حين ينتهبها وهو مؤمن»(١).

٢٨- تبيين الله وإيضاحه لعباده الآيات الشرعية والكونية، وما فيها من الأحكام والحكم؛ إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل والحكم التام والحكمة البالغة له- سبحانه

---

(١) سبق تخريجه.

وتعالى- لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٣٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، والتحذير للذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذوا المؤمنين ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»(١).

وإذا كان هذا الوعيد بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لمن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فكيف بما هو أعظم من ذلك، من فِعْل ذلك وقوله ونقله وإظهاره(٢).

٣١- يجب أن يعمل المؤمنون جميعًا على القضاء على أسباب إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي.

٣٢- يجب رد الأمور إلى الله تعالى والتسليم لأمره، والرضا بقدره؛ لسعة علمه وحكمته، فما حصل من خبر الإفك فبعلمه وتقديره، ولحكمة يعلمها، وبعلمه شرع ما شرع من الأحكام لعلاج هذه القضية وأمثالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٣- أن علم الخلق لا شيء بالنسبة لعلم الله عز وجل فهم لا يعلمون كيف المخرج من مثل هذه الوقائع، وكيف علاجها، ولا يعلمون الحكمة في تقدير الله لها، وفيما شرع من أحكام لعلاجها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٣٤- أن ما فيه العباد من النعم، وما اندفع عنهم من النقم في دينهم ودنياهم هو بفضل الله عز وجل عليهم ورحمته لهم ورأفته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن ذلك تبرئة عائشة- رضي الله عنها- والمؤمنين، وفضيحة أهل الإفك وبخاصة المنافقين.

٣٥- إثبات صفة الرأفة الواسعة لله عز وجل وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، وهي

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٩- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٠.

رحمة ذاتية صفة من صفاته عز وجل الثابتة، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل قضية الإفك، وما حصل من الخوض فيها فمن متكلم فيها، ومن ناقل، أو مصدق لها أتبع ذلك ببيان أن ذلك كله من خطوات الشيطان وعمله تحذيرًا من ذلك.

وقد نهى الله عز وجل في آيات عدة من القرآن الكريم عن اتباع خطوات الشيطان. أعاذنا الله وجميع المسلمين من الشيطان وخطواته.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة لـ«أي»، أو بدل منها، و«آمنوا» صلة الموصول.

والإيمان في اللغة: التصديق قال تعالى عن أولاد يعقوب أنهم قالوا لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، وقال تعالى: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١].

وقال ابن تيمية معناه الإقرار لا مجرد التصديق[(١)].

فعلى هذا أبو طالب عم النبي ﷺ مصدق برسول الله ﷺ لكنه لم يقر؛ لهذا لم يدخله تصديقه في الإيمان، فهو القائل:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يُعنَى بقول الأباطل[(٢)]

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٦٣٨، ٥٢٩- ٥٤٣.

(٢) انظر: «ديوان أبي طالب» ص١٢٨، «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩٩، «الحماسة المغربية» ١/ ١٠٤.

والقائل:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا[(١)]

ولهذا لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء إليه النبي ﷺ، وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل، فقال ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقال له عبد الله بن أمية وأبو جهل: قل: بل على ملة عبد المطلب. فقال: بل على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله»[(٢)].

والإيمان في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان، وهي الجوارح[(٣)].

قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- : «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[(٤)].

﴿لَا تَتَّبِعُواْ﴾، اتباع الشيء: الأخذ به واقتفاؤه وسلوك منهجه وطريقه.

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، قرأ نافع وحمزة وأبو عمرو، وخلف، وأبو بكر عن عاصم: «خُطْوات» بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بضمها[(٥)].

وخُطوات: جمع خُطْوة، والخُطْوة في الأصل: ما بين قدمي الماشي.

وخُطوات الشيطان: طرقه ومسالكه ووساوسه ونزغاته، وتزيينه وهمزاته وتسويله وعمله.

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية» ٢/ ٤٦١، «ديوان أبي طالب» ص١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٤، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥- من حديث ابن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى»٧/ ٦٧٢، ١٧٠.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤.

(٥) انظر: «النشر» ٢/ ٢١٥، ٢١٦.

يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون:٩٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص:١٥].

والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله عز وجل، مأخوذ من شطن، بمعنى: بعد عن رحمة الله وجنته، وعن كل خير(١).

ويكون من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»(٢). ورأس الشياطين وكبيرهم إبليس لعنه الله، ومن خطوات الشيطان وطرقه وأعماله محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الواو: عاطفة، و«من» اسم شرط جازم، و«يتبع» فعل الشرط، وجوابه قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

ويحتمل كون «الفاء» تعليلية، والجملة تعليل للنهي أو للشرط. وجواب الشرط محذوف، تقديره: فقد غوى. ونحو ذلك، وهذا أقرب.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾، أي: الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ الفحشاء: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين، ومن ذلك الزنا والقذف ونحو ذلك.

---

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه ص ٢٦٠، ٢٨٦، ٣٢١، وانظر مادة «شطن» في «تهذيب اللغة» و«مقاييس اللغة»، وانظر: «تفسير ابن كثير» ١/ ٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة- ما يقطع الصلاة ٧٠٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

و«المنكر»: كل ما أنكره الشرع وعرف المسلمين، وهو ضد المعروف، ويشمل جميع المعاصي والذنوب، فعطفه على الفحشاء من عطف العام على الخاص. والمعنى: أن من يتبع طرق الشيطان ومسالكه وأعماله فإنه لا يدله إلى خير بل يأمره بالفحشاء والمنكر ويقوده إلى كل شر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

قال ابن كثير[١]: «هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها».

ورحمك الله يا ابن كثير فما أفصح هذه العبارة وما أوجزها وأبلغها وأحسنها وأدلها على المقصود، فإن قوله: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ اشتمل على نهي وتحذير، ودل على أنه يأمر بكل ما خالف الشرع والعرف، أي يأمر بجميع المعاصي والذنوب والشرور، ومفهوم ذلك أنه لا يأمر بما لم يكن فاحشًا ولا مستنكرًا في الشرع والعرف، فلا يأمر بخير أبدًا.

اللهم إلا إذا كان سيترتب على ذلك الخير شر أعظم منه، أو يمتنع بسببه خير أعظم منه فإن هذا من مسالك الشيطان كما قال ابن القيم- رحمه الله- : «إن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل»[٢].

وقد قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصدًا ... وصولاً إلى باب من الشر أعظم

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ جواب «لولا» و«ما» نافية ﴿زَكَىٰ﴾ قرأ روح ويعقوب في رواية زيد «زكّى» بتشديد الكاف، وقرأ الباقون بتخفيفها[٣].

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٥/ ٤٥٨. «التفسير القيم» ص٦١٣.

(٣) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

و«زكى»، أي: طهر، طهارة معنوية من دنس الشرك والذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩- ١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٨].

و«من» في قوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي. «أحد» نكرة في سياق النفي، فتعم كل أحد. والمعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم بتوفيقه لكم للتوبة، وبيان الحق لكم، وحفظكم من خطوات الشيطان ما طهر منكم من أحد أبدًا من الشرك، ومن جميع الذنوب والمعاصي، من الفجور والفحش والأخلاق الرديئة وغير ذلك، فطهارة من طهر منكم إنما هي بفضل الله ورحمته؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾، أي: ولكن الله عز وجل بفضله ورحمته يطهر من يشاء من عباده ممن يعلم أنهم أهل للتزكية. فيوفقهم للتوبة، ويقبلها منهم، ويوفقهم لسلوك الطريق المستقيم، ويحفظهم من خطوات الشيطان وطرق أهل الجحيم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦]

لهذا أمر المسلمون أن يردِّدوا في صلواتهم، بل في كل ركعة منها قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[الفاتحة:٦- ٧]، وفي الدعاء: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»(١).

وكان ﷺ يردد في أناس من أصحابه ﷺ يوم الخندق:

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد- حفر الخندق ٢٨٣٧، ومسلم في الجهاد والسير- غزوة الأحزاب ١٨٠٣-

نسأل الله عز وجل الهداية والتوفيق بفضله ورحمته.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي ذو السمع الواسع لكل شيء، سميع مجيب الدعوات، سميع لجميع الأصوات خفيها وجليها سرها وعلانيتها، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف:٨٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١] وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩].

وقالت عائشة- رضي الله عنها- : «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾»(١).

فهو عز وجل سميع لدعاء عباده ولجميع الأصوات، يسمع أنين المذنبين وتوبة التائبين وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي أحاط علمه بكل شيء، ومن ذلك علمه عز وجل بمن يستحق التزكية والتطهير ممن لا يستحق ذلك، والعلم بما يظهر الخلق وما يبطنون، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

سبب نزول الآية:

لما أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى عشر آيات فيها براءة عائشة- رضي الله عنها- مما قال أصحاب الإفك، وكان ممن تكلم فيه مسطح بن أثاثة.

قالت عائشة- رضي الله عنها- : فقال أبو بكر- رضي الله عنه- وكان ينفق على

من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(١) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨. وصححه الألباني.

مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه أبدًا بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة، التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدًا»[١].

قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ الواو استئنافية، و«لا» ناهية.

قرأ أبو جعفر «ولا يتأل» وقرأ الباقون: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾.

ومعنى القراءتين واحد، أي: ولا «يحلف»[٢] مأخوذ من «الأَلِيَّة» وهي الحلف واليمين كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٦- ٢٢٧]، أي: للذين يحلفون على عدم قربان نسائهم تربص أربعة أشهر.

قال الأعشى[٣]:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقي محمدًا

وقال الآخر:

قليل الألايا حافظ ليمينه ... إذا صدرت منه الألية برت[٤]

والمعنى: ولا يحلف أولو الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولي القربى واليتامى والمساكين. فحذفت «لا» النافية[٥].

وقيل معنى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾، أي: ولا يألو، أي: ولا يقصر، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:١١٨]، أي: لا يقصرون في جلب الخبال لكم. ومنه ما رُوي عن معاذ: «أجتهد رأيي ولا آلو»[٦]، أي: ولا أقصر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ١٨٥- ١٨٧، «السيرة النبوية ٢/ ٢٦- ٢٧.

(٤) البيت لكثير عزة. انظر: «ديوانه» ص٣٢٥.

(٥) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٩، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ٧٦.

(٦) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧- من حديث معاذ في قصة بعث

ويكون المعنى: ولا يقصر أولو الفضل منكم والسعة في أن يؤتوا أولي القربى[(١)].

والآية تحتمل المعنيين، لكن المعنى الأول أظهر وأشهر، وعليه يدل سبب النزول.

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾، أي: أصحاب الفضل منكم، و«الفضل»: الزيادة، أي: أصحاب الزيادة والتفضل والإحسان والصدقة. وقيل: المراد بالفضل هنا الصلاح في الدين، لعطف السعة عليه.

﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: الغنى والطول والجدة، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧].

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾، أي: أن لا يؤتوا، فحذفت منه «لا» النافية، وحذفها بعد القسم مطرد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٥] أي: لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف.

وعلى المعنى الثاني تكون جملة ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ في محل جر، والتقدير: ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة في أن يؤتوا أولي القربى، أي: ولا يقصروا في أن يعطوا أولي القربى.

﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، أي: أصحاب القرابة المحتاجين. وذلك أن أم مسطح بنت خالة أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- وكان مسطح مسكينًا لا مال له إلا ما ينفقه عليه أبو بكر- رضي الله عنه- وكان من المهاجرين في سبيل الله، وكان ممن تكلم في الإفك وجلد حد القذف وتاب الله عليه- رضي الله عنه[(٢)].

وقدم «أولي القربى»؛ لأن الصدقة على القريب أولى، فهي صدقة وصلة- كما جاء في حديث سلمان بن عامر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»[(٣)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن

النبي ﷺ له إلى اليمن.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٨، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٠- ١٦٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣١.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٨٢، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٤، والدارمي في الزكاة ١٦٨٠. وصححه الألباني.

ظهر غنى وابدأ بمن تعول»[١].

وعن طارق المحاربي قال: قدمنا المدينة، فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك، أدناك»[٢].

وعن حكيم بن حزام- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[٣].

ولهذا قال ﷺ لأبي طلحة- رضي الله عنه- لما أراد أن يتصدق بحائطه المسمى «بيرحاء» قال ﷺ: «وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[٤].

وحتى في الدعوة إلى الله فهم أولى من غيرهم ولهذا قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

ولهذا كان الميراث للأقربين، الأقرب فالأقرب، وكذا النفقة تجب للأقرب فالأقرب.

وقد استدل ابن تيمية[٥] وغيره بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية على وجوب الصلة والنفقة لذوي الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب قال: «لأن أم مسطح بنت خالة أبي بكر، وقد جعله الله من ذوي القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم، والنهي يقتضي التحريم، فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل كان الفعل واجبًا؛ لأن الحلف على ترك الجائز جائز».

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين، وهو الذي لا يجد إلا بعض كفايته أو لا يجد شيئًا، وسمي مسكينًا أخذًا من السكون وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، فتجده بين

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٦، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٣٢. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٨، ومسلم في الزكاة ١٠٣٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٣.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦١، ومسلم في الزكاة ٩٩٨، وأبو داود في الزكاة ١٦٨٩، والنسائي في الأحباس ٣٦٠٢، والترمذي في التفسير ٢٩٩٧- من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- .

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٣.

الناس ساكتاً لا يتكلم. وإن تكلم لم يسمع الكثيرون له، بل قد يمن عليه بعض الناس بالسلام، وحاله كما قيل:

إذا قلّ مال المرء قل بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازمًا ... أقدامه خير له أم وراؤه
وإن غاب لم يشتق إليه خليله ... وإن مات لم يسرر صديقًا بقاؤه(١)

والمراد بالمساكين هنا ما يشمل الفقراء؛ لأن «الفقير» و«المسكين» من الأسماء التي إذا افترقت اجتمعت وإذا اجتمعت افترقت وقد اختلفوا أيهما أشد حاجة الفقير أو المسكين، والأكثرون على أن الفقير أشد حاجة(٢)؛ لأن الفقر مأخوذ من «القفر» وهي الأرض الخالية، أو من انفصام فقار الظهر، الذي هو من أشد ما يكون، وقد يؤدي إلى الهلاك نسأل الله العافية. وقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»(٣).

﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: والمهاجرين من مكة إلى المدينة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في طريق الله وإخلاصًا له، وفرارًا بدينهم، ونصرة لدين الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٠٠] أي: إخلاصًا لله عز وجل ومتابعة للرسول ﷺ.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام(٤).

وخص «المهاجرين» مع أن المسكنة والحاجة قد تكون فيهم وفي غيرهم من الأنصار وغيرهم، وذلك لما جاء في سبب نزول الآية من منع أبي بكر النفقة على مسطح وهو من المهاجرين؛ ولأن المهاجرين أشد حاجة حال نزول الآيات؛ لأنهم ﷺ خرجوا من مكة وتركوا أزواجهم وأولادهم وأموالهم وديارهم، كل ذلك فرارًا بدينهم، ولهذا آخى النبي ﷺ في أول الهجرة بينهم وبين إخوانهم الأنصار، حتى كان الأنصاري يجعل ماله نصفين

---

(١) الأبيات لأبي حيان التوحيدي. انظر: «ديوانه»ص ٢٤٦. وانظر: «الكشكول» ٢/ ٢٣٩، «الوابل الصيب» ص٧٦.

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ٤٤٢- ٤٤٨، «لسان العرب» مادة «سكن»، «فقر».

(٣) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وصححه الألباني ١٢٧٦.

(٤) انظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة «هجر».

بينه وبين أخيه المهاجري، ويطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المهاجري. بل يرث بعضهم بعضًا بتلك المؤاخاة حتى نسخ الله ذلك وجعل الميراث للأقربين.

والمعنى: لا يحلف أصحاب الفضل منكم والغنى، الذين منّ الله عليهم بذلك أن لا يعطوا المحتاجين من أصحاب القرابة والمساكين والمهاجرين، وكل هذه الصفات الثلاث موجودة في مسطح، فهو من قرابة أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- وهو من المساكين المحتاجين، وهو من المهاجرين.

وعطف هذه الصفات على بعض تنزيلاً لتغاير ا لصفات منزلة تغاير الذوات للدلالة على أن كل صفة منها بمفردها تستوجب الإنفاق والإحسان، فكيف إذا اجتمعت هذه الصفات.

والنهي موجه إلى ما يقع في المستقبل، ويفهم منه أن ما وقع من أبي بكر- رضي الله عنه- كما دل عليه سبب النزول- أمر لا ينبغي، لكن دون توبيخ.

قال ابن كثير[1]: «أي: لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام».

وقد نهى الله تعالى عن جعل اليمين بالله تعالى عرضة لعدم البر؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٤].

﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ اللام لام الأمر في الموضعين، ولهذا جزم الفعل بعدها. والعفو: ترك العقوبة على الذنب، والتجاوز عنها. والصفح: ترك التثريب واللوم، ونسيان ما حصل، كما قال يوسف لإخوته- عليه وعليهم السلام- : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

أي: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ عما حصل أو يحصل من هؤلاء المنفق عليهم من الإساءة والأذى وسوء الأدب- إذ لا شك أن الواجب مقابلة الإحسان بالإحسان، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، لكن إذا قابل المحسن إليه بالإساءة فلا ينبغي أن يكون ذلك حاملاً على ترك الإحسان إليه، فإن الاستمرار بالإحسان إليه أقرب لرده إلى الحق، وهو أخلص لله تعالى، يدل على أن باذل الإحسان لا ينتظر ممن أحسن

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣١.

إليهم شيئاً كما قال الله عز وجل عن عباده المؤمنين: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨- ٩].

وقال تعالى في الثناء على أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- في إنفاقه في تخليص المستضعفين من المؤمنين بمكة من أيدي المشركين ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧- ٢١].

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ «ألا»: أداة عرض لاستمالة قلوب المخاطبين. ﴿تُحِبُّونَ﴾، أي: تودون. ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، والتقدير: ألا تحبون مغفرة الله لكم، أو غفران الله لكم.

ومفعول «يغفر» محذوف للعلم به، أي: أن يغفر الله لكم ذنوبكم.

والمغفرة: ستر الذنوب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه، ومنه سُمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره، وتقيه السهام.

ولما أنزل الله عز وجل هذه الآية بادر أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- فعفا وصفح، وأعاد النفقة إلى مسطح وقال رضي الله عنه: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

مع أن خوض مسطح في هذا الإفك من مقابلة الإحسان بالإساءة ومن ظلم ذوي القربى الذي ما أشد وقعه على النفس كما قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند(١)

وهكذا ينبغي للمسلم إذا حلف على أمر فرأى غيره خيرًا منه أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»(٢).

كما ينبغي للمسلم أن يكون إلى العفو والصفح عمن أساء أقرب منه إلى الانتقام لينال مغفرة الله عز وجل كما في هذه الآية، وليكون أقرب للتقوى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، ولينال الخيرية الموعود بها في

---

(١) البيت ينسب لطرفة بن العبد، وهو في «ديوانه» ص ٣٦ طبعة دار صادر، وينسب لعدي بن زيد العبادي، وهو موجود في «ديوانه» ص ١٠٧ تحقيق محمد جبار، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد.

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان ١٦٥٠، والترمذي في الأيمان والنذور ١٥٣٠، ومالك في النذور ١٠٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، وليكون أجره على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠]، وليأخذ بعزائم الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ من الترغيب في الخير والحث على المبادرة إليه والحض على المسارعة إليه والمنافسة فيه، وفي مغفرة الله، ما يقصر التعبير عنه، مما يدل على بلوغ القرآن الغاية في الترغيب فيما يريد الترغيب فيه، ومن ذا الذي لا يقول: «بلى» إذا قيل له: ألا تحب أن يغفر الله لك. رغبة فيما عند الله، كما قال الصديق رضي الله عنه: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

لكن من كتب الله عليه الخذلان قد يقول: «لا» بلسان حاله أو بلسان مقاله، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥].

ولما قيل لرجل: «ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ» قال: إني لست بمجنون»[(١)].

ولهذا قال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سبق الكلام عليه[(٣)]، وفي ختم الآية بهذا وعد بالمغفرة والرحمة لأبي بكر الصديق- رضي الله عنه- الذي نزلت فيه هذه الآية، ولغيره من أهل الإحسان والعفو.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده بفعله إن كان أمرًا، وتركه إن كان نهيًا يعد من

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١١٥، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦١٠، وأبو داود في الأدب ٤٧٨١- من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٠، ومسلم في الإمارة ١٨٣٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في الكلام على قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان، وأن الإيمان قبل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- نهي المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان وطرقه ومسالكه ووساوسه وما يزينه من أعمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

٤- أن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، ولا يأمر بخير أبدًا، مما يوجب الحذر منه ومن مسالكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾.

٥- تزكية الله عز وجل للمؤمنين وتطهيره لهم من الذنوب والمعاصي بالإيمان والتوبة بفضله عز وجل ورحمته، ولولا ذلك ما زكى منهم من أحد أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾.

٦- أن الأمر في الهداية والإضلال، وتزكية النفوس وتطهيرها، وعدم ذلك كله بمشيئة الله يهدي من يشاء ويطهرهم بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

٧- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل، الذي وسع جميع الأصوات، وصفة العلم الواسع لله عز وجل، الذي وسع وأحاط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

٨- نهي الله عز وجل لمن أعطاهم الله الفضل والسعة في الرزق عن الحلف على ألا يؤتوا المحتاجين من أصحاب القربى والمساكين والمهاجرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾.

وأول من يدخل تحت هذا النهي أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- الذي نزلت بسببه الآية.

فلا ينبغي للمسلم أن يحلف على ترك شيء من أعمال البر والخير، وأن من فعل ذلك ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير، وهكذا فعل الصديق- رضي الله عنه.

٩- مشروعية الإنفاق على الأقارب، وقد يكون ذلك واجبًا.

١٠- الترغيب في الصدقة والإحسان لمن عنده فضل وَوُسِّع عليه في رزقه بأن يعطي المحتاجين من أصحاب القرابة والمساكين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾.

١١- أن الصدقة على القريب أفضل من الصدقة على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ فقدم «أولي القربى» على «المساكين» فدل على أن الصدقة عليهم أفضل، وفي الحديث «الصدقة على القريب صدقة وصلة»(١).

١٢- ذل الحاجة، ولهذا سمى الله المحتاجين بالمساكين؛ لأن الحاجة أذلتهم وأسكنتهم فكانوا كالساكن الذي لا حراك فيه، وكما سماهم في مواضع أخرى بالفقراء؛ لأن الحاجة جعلتهم كمن انقصمت فقار ظهره نسأل الله العافية.

١٣- في ذكر المهاجرين في سبيل الله إشارة إلى ما كان عليه المهاجرون ﷺ من الفاقة والحاجة حيث تركوا ديارهم وأموالهم ﷺ، وأن المعتبر في الهجرة ما كان في سبيل الله؛ لإقامة دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- الترغيب في العفو والصفح عمن أساء عمومًا، وعن أهل الحاجة من الأقارب والمساكين خصوصًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾، وأن ذلك سبب للمغفرة؛ ولهذا قال بعده: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣- ١٣٤].

١٥- أنه لا ينبغي أن تحمل إساءة من أساء، ومعصيته على ترك الإحسان إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾، بل إن الإحسان لمن أساء دليل على الإخلاص، كما أنه سبب لرد المسيء إلى الحق وترك الإساءة.

١٦- الرد على المعتزلة القائلين بأن الكبائر تحبط الأعمال؛ لأن مسطحًا- رضي الله عنه- ممن خاض في الإفك، وذلك كبيرة من الكبائر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ولعن الله فاعليه وتوعد عليه بالعذاب العظيم، فقال: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ

---

(١) سبق تخريجه.

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ومع ذلك أثبت أن هجرة مسطح باقية بل نوّه بهجرته[١].

١٧- بلوغ القرآن الغاية في الترغيب في العفو والصفح وطلب مغفرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فإن في هذا من حسن التعبير ولطافته وتحبيب هذا العمل ما لا مزيد عليه؛ ولهذا قال أبو بكر ﷺ: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي».

١٨- أن الجزاء من جنس العمل فإن من عفا وصفح عن الخلق، غفر الله له وتجاوز عن ذنوبه وسترها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن كثير[٢]: «فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله ما أنفعه بنافعة أبدًا. فلهذا كان الصديق هو الصديق».

وفي حديث أسامة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٣].

١٩- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه قبل نزول الآية وبعدها، فقد كان رضي الله عنه معروفًا بالإحسان والفضل والأيادي على الأقارب والجيران والمستضعفين من المؤمنين، لكنه بعد خوض مسطح في الإفك أراد أن يمنع النفقة عنه، فلما أنزل الله هذه الآية رد النفقة، وقال: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي» ومقابلة الإساءة بالإحسان درجة عظيمة لا ينالها إلا من وفقه الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤- ٣٥]. اللهم نسألك من فضلك.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٨، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٢- ١٦٣.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨.

وهذا المعنى متحقق في الصديق- رضي الله عنه- أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[(١)]. قال بكر بن عبد الله المزني: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه»[(٢)].

٢٠- من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ينبغي أن يكفر عن يمينه ويفعل الذي هو خير.

٢١- إثبات سعة مغفرة الله عز وجل وتجاوزه عن ذنوب عباده وستره عليهم. وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل ؛ رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٢- دل ختم الآية بصفتي المغفرة والرحمة له عز وجل، على أن زوال المرهوب بسبب مغفرته عز وجل، وحصول المطلوب بسبب رحمته سبحانه وتعالى.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلاة- باب الخوخة والممر ٤٦٦، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٣٨٢، والترمذي في المناقب- مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣٦٦٠، وابن ماجه في المقدمة- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٩٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الصلاة، ٤٦٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «المقاصد الحسنة» ص ٣٦٩ رقم ٩٧٠.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق حد الذين يرمون المحصنات في الدنيا وهو جلدهم ثمانون جلدة ورد شهادتهم، وفسقهم. ثم ذكر ما قاله أصحاب الإفك من الكذب المبين والبهتان العظيم في حق أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وما لهم من العذاب العظيم في الدنيا والآخرة. ثم أتبع عز وجل ذلك بالوعيد للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات عمومًا باللعن والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، وهو متناول لمن قذف عائشة، أو غيرها من أمهات المؤمنين من باب أولى.

وقد روي عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: «رميت بما رميت به، وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذا أوحي إليه، قالت: وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات، وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه، وقال: يا عائشة أبشري، قالت: قلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى قرأ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾»[1].

وهذا- إن صح- إنما فيه أن عائشة هي سبب النزول، ولعل هذا هو مراد ابن عباس رضي الله عنهما- فيما روي عنه- أنه قال: «نزلت في عائشة خاصة»[2]، أي: أن عائشة هي سبب النزول.

والصحيح أن الآية عامة كما اختار ذلك أكثر المفسرين منهم الطبري[3]، وابن كثير[4]، واستدل له بما رواه أبو هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٥٧- الأثر ١٤٢٨٥- وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٢.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٣٠.

(٤) انظر: «تفسيره» ٦/ ٣٢- ٣٣.

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ «الذين» اسم موصول لجمع الذكور، وغلب الذكور هنا على الإناث؛ لأن الآية تشمل من رمى من الذكور والإناث.

ومعنى: ﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، أي: يقذفونهن بالزنا و«المحصنات» العفائف. ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾، أي: عن الفاحشة، البعيدات عنها فلا تخطر لهن على بال، ولا يخطر على بالهن ما يقال عنهن من أمر الفاحشة لحسن سرائرهن، وطهارة قلوبهن، وسلامة صدورهن[٢] كما قالت عائشة- رضي الله عنها: «رميت بما رميت به وأنا غافلة.

وكما قال عنها حسان ﷺ[٣]:

حَصَان رَزَان ما تُزن بريبة ... وتُصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقوله: «وتصبح غرثي»، أي: جائعة، «من لحوم الغوافل»، أي: أنها لا تقع في أعراض النساء الغافلات عن الفاحشة.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾: جمع مؤمنة، أي: المصدقات المنقادات ظاهرًا وباطنًا، والمؤمنات إيمانًا يمنعهن من الفجور.

وسواء كان القاذف رجلاً أو امرأة، وسواء كان المقذوف أيضًا رجلاً أو امرأة، وهذا بإجماع المسلمين[٤].

وإنما خصّ- والله أعلم- بالذكر رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، دون رمي المحصنين من المؤمنين، مع أن كل ذلك لا يجوز ومتوعد عليه؛ لأن رمي المرأة أشد ضررًا وأعظم أثراً من رمي الرجل؛ ولأن سياق الآيات جاء بعد ذكر من رموا أم

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان- بيان الكبائر ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١.

(٢) انظر: «فتح القدير» للشوكاني ٤/ ١٧، «أضواء البيان» ٦/ ٨٧.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٢٢٨.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٠٩، «أضواء البيان» ٦/ ٨٩.

المؤمنين عائشة- رضي الله عنها.

وقدم الوصف بالإحصان على الإيمان في الآية مع أن الإيمان أكمل وأولى بالاعتبار؛ لأن الزنا ينقض الإحصان وينافيه، فبدأ بالوصف الذي ينقض ما رُمين به وهو الإحصان.

﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يقل: لعنهم الله، ليشمل لعن الله وغيره، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩].

واللعن من الله معناه: الطرد والإبعاد عن رحمته، ومن المخلوقين معناه: الدعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله.

فهؤلاء القذفة: ملعونون مبعدون عن رحمة الله وعن الخير في الدنيا والآخرة، ومن طرد عن رحمة الله وعن الخير، فليس له إلا العقوبة والشر، ولهذا قال:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بحد القذف، وألم الذنب والمعصية المعنوي وأثره السيئ على مرتكبه مدة حياته، وهذا أمر مشاهد.

فإن المعاصي والذنوب تورث قسوة في القلب، وضيقًا في الصدر، وسوادًا في الوجه، ومحقًا للبركة في الرزق والعمر، وشقاءً في الحياة، ويزداد ذلك بقدر بعد الإنسان عن الله عز وجل قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

ولهم عذاب عظيم في الآخرة بالنار، وهو أعظم وأشد من عذاب الدنيا.

ولهذا الوعيد الشديد ذهب بعض أهل العلم كابن عباس ﷺ وغيره إلى أن الآية فيمن رمى أزواج النبي خاصة. ويقوي هذا قوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧]، وفي رمي أمهات المؤمنين أعظم الأذى له ﷺ.

ولهذا قال ﷺ كما في حديث الإفك: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد

بلغني أذاه في أهل بيتي»[١].

وظاهر الآية عمومها لجميع المحصنات من أزواج النبي ﷺ وغيرهن من المؤمنات، وهو الصحيح كما سبق بيانه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ يوم: ظرف للعذاب، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء: «يشهد»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تَشْهَدُ﴾[٢].

والمعنى: تقر وتعترف عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بحيث لا يستطيعون الإنكار كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي بالذي كانوا يعملون، أو بعملهم، وهو يشمل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

أي: يوم القيامة تشهد عليهم ألسنتهم بما تكلموا بها من الخوض في الباطل من رمي المحصنات بالزنا، وإشاعة الفاحشة والغيبة والنميمة وغير ذلك.

وتشهد أيضًا عليهم أيديهم بما بطشوا بها وظلموا واعتدوا، وبما أخذوه بها من غير حق، وتشهد عليهم أرجلهم بما مشوا بها إلى الباطل والحرام والظلم.

فيا سبحان الله هذه الجوارح التي كانت تدافع عنهم في الدنيا، أشهدها الله عليهم وأنطق ما لم يكن منها ناطقًا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:١٩- ٢٣].

وفي بعض المواضع يُختم على الأفواه وتنطق الجوارح فقط، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣١.

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، فقال: أتدرون مم أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا» فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكنَّ كنت أناضل»(١).

قال السعدي رحمه الله(٢): «ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ «يوم» بدل من يوم الأولى في قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ والتنوين عوض عن المحذوف، أي: يومئذ تشهد عليهم تلك الجوارح، وذلك يوم القيامة.

﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾، أي: يعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا تامًا، لا نقص فيه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١].

«الحق»، أي: الذي هو غاية الحق والعدل والإنصاف، من غير زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: ويعلمون عندما يوفيهم الله أعمالهم علمًا جازمًا أن الله عز وجل هو الحق الثابت فهو عز وجل حق، ووجوده حق، وصفاته حق، وربوبيته حق،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٦٩.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٤.

وألوهيته حق، ودينه حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وحسابه حق، وكلامه حق، صدق وعدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأحكام الكونية والشرعية والجزائية.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البين أنه حق في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته بدلالة آياته ومخلوقاته، المبين أنه عز وجل الحكم العدل سبحانه وتعالى، فهو سبحانه حق، وما عداه باطل، قال لبيد(١):

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وهو عز وجل المظهر للأمور على حقائقها، والذي لا تخفى عليه خافية، والذي لا يظلم أحد عنده مثقال ذرة.

الفوائد الأحكام:

١- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للذين يرمون العفائف الغافلات عن الفاحشة المؤمنات بالطرد عن رحمة الله، والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، وذكر منهن: «**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٢).

٢- أن من رمى غير العفائف الغافلات المؤمنات لا يستحق هذا الوعيد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

٣- حِرْص الشرع المطهر على صيانة المجتمع الإسلامي وحفظه من إشاعة الفاحشة.

٤- عناية الدين الإسلامي بعفاف المرأة المسلمة وطهرها، لتبقى مكرَّمة مصونة؛ لهذا جاء في الآية النص على من يرمون المحصنات، دون من يرمون الرجال المحصنين، وإن كان رمي الجنسين كلاهما محرم وقذف، إلا أنَّ تضرر المرأة العفيفة بالقذف أشد من تضرر الرجل كما هو معلوم.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص ٢٥٦.

(٢) سبق تخريجه.

٥- إثبات الدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٦- شهادة الجوارح: الألسنة والأيدي والأرجل على الإنسان بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٧- في شهادة الجوارح على الإنسان بما عمل إجارة له من الظلم، ودليل على كمال عدل الله تعالى.

٨- تمام قدرة الله تعالى، حيث أنطق هذه الجوارح.

٩- في شهادة الجوارح على صاحبها، وقد كانت في الدنيا تدافع عنه دليل على إحقاق الحق، وقيام العدل في ذلك اليوم بأدق صوره.

١٠- عدم استطاعة الإنسان الاستتار بفعله؛ لأن جوارحه شهود عليه، مع شهادة الكرام الكاتبين، واطلاع العليم الخبير.

١١- مجازاة الخلق على أعمالهم وحسابهم عليها بدقة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾.

ولهذا يقول المجرمون إذا وضع الكتاب ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

١٢- في تلك العرصات يوم القيامة يظهر للخلائق تمام الظهور أن الله عز وجل هو الحق المبين، الحكم العدل، الذي لا يظلم أحد بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

الخبيث والطيب من الأوصاف المتضادة، فيقال: الخبيث للحرام والرديء والنجس، ويقال: الطيب للحلال والجيد والطاهر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء:٢] فسر الخبيث بالحرام والرديء، وفسر الطيب بالحلال والجيد.

وقال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]، أي: ولا تقصدوا الرديء منه تنفقون.

والخبيث والطيب من الأوصاف التي قد توصف بها الأقوال والأعمال والأعيان والأشخاص والمعتقدات وغير ذلك.

فالقول منه الطيب والخبيث، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم:٢٤]، وقال تعالى:﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

وفي الحديث: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»(١).

والعمل منه الطيب والخبيث، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والرجس: النجس والخبيث.

وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»(١).

وهذا يشمل الطيب من الأقوال والأعمال والأعيان أيضًا وغير ذلك.

والأعيان: منها الطيب والخبيث.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥١]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف:٥٨]، وقال تعالى ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ﴾ [التوبة:٧٢]، و[الصف:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [يونس:٢٢].

والأشخاص منهم الطيب والخبيث، فالمؤمن طيب طاهر، والكافر خبيث نجس، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] والنجس: الخبيث.

قال الراغب(٢) في تعريف الخبيث: «وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال».

وقال في تعريف الطيب: «والطيب: ما تستلذه الحواس وتستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان مباحًا، وفي حدود ما جاء في الشرع والطيب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال».

ولهذا فإن قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ [المائدة:١٠٠] يشمل كل ما يمكن وصفه بالخبث والطيب، أي: لا يستوي الخبيث أيًا كان من قول أو عمل أو عين أو شخص أو غير ذلك بالطيب أيًا كان.

وبناء على هذا فإن قوله هنا: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٥، والترمذي في التفسير ٢٩٨٩ والدارمي في الرقاق ٢٧١٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «المفردات» مادة «خبث»، ومادة «طيب».

﴿لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ يحتمل أن المراد به: أن الزانيات من النساء للزناة من الرجال، وأن الزناة من الرجال للزانيات من النساء، واللام للاستحقاق، أي: فهن لهم وهم لهن شرعًا واستحقاقًا.

والطيبات العفيفات من النساء للطيبين العفيفين من الرجال، و«الطيبون» العفيفون من الرجال «للطيبات» العفيفات من النساء، أي: فهن لهم وهم لهن شرعًا واستحقاقًا.

فالمراد بالخبث على هذا القول الزنى، وهو الوصف الذي لا يمكن أن ينسب لزوجات الأنبياء عليهم السلام؛ كما جاء في الأثر: «وما زنت امرأة نبي قط».

بخلاف ما عدا الزنى من الأوصاف الخبيثة؛ فقد كانت امرأة نوح ولوط عليهما السلام كافرتين.

والمراد بالطيب على هذا القول: العفاف.

فعلى هذا فالمراد بالخبيثات: الزانيات من النساء، والمراد بالخبيثين: الزناة من الرجال، والمراد بالطيبات: العفيفات من النساء، والمراد بالطيبين: العفيفون من الرجال.

وفي هذا توكيد لبراءة عائشة- رضي الله عنها- وأن الله عز وجل لم يكن ليختار لأفضل الخلق وأطيبهم وسيد الأولين والآخرين إلا أفضل وأطيب وأطهر وأعف نساء العالمين، ومنهن عائشة الطاهرة المطهرة وسيدة نساء الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن كثير[1]: «أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعًا، ولا قدرًا».

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾، أي: «الخبيثات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات كالفواحش من الزنا وقذف المحصنات والخوض في الكلام الباطل «للخبيثين» من الرجال والنساء وهم أهل الفحش فعلاً وقولاً وأخلاقًا وصفاتٍ و«الخبيثون» من الرجال والنساء «للخبيثات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، فهن لهم، وهم لهن يصدرن منهم ويلقن بهم ويوصفون بهن، ومن ذلك رمي المحصنات

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٥.

الغافلات المؤمنات بالزنا، وغير ذلك.

و«الطيبات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، وهي الصالحات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات، من الصلاة والزكاة والصيام وذكر الله عز وجل والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس وحسن السمت وحسن الخلق وغير ذلك «للطيبين» من الرجال والنساء وهم المؤمنون المتقون.

و«الطيبون» من الرجال والنساء وهم المؤمنون المتقون «للطيبات» من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات[1] فهن لهم وهم لهن يصدرن منهم ويلقن بهم ويوصفون بهن.

ولا مانع من حمل الآية على القولين بحيث يحمل الخبث والطيب على خبث الأشخاص وطيبهم، وخبث العمل والقول والخلق والصفات وطيبها قال ابن القيم[2] بعد أن ذكر القولين: «وهي تعم ذلك وغيره، فالكلمات، والأعمال، والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين».

وقدم ذكر الخبيثات والخبيثين- والله أعلم؛ لأن السياق في إثبات براءة عائشة- رضي الله عنها- والرد على أهل الإفك وغيرهم من قذفة المحصنات الغافلات المؤمنات، وبيان حكم ذلك وشناعته والوعيد عليه.

وفي قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ إطناب وتوكيد وحصر.

ففي عطف قوله: ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ على ما قبلهما إطناب وتوكيد لذلك.

كما أن في الجمل الأربع لفظها ومفهومها توكيدًا وحصرًا وبيان أن لكل صنف خبيثًا كان أو طيبًا قرينه الذي يستحقه ويليق به شرعًا؛ لأن اللام في قوله: ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ وكذا ما بعدها للاستحقاق. وفي ذلك حصر من جهتين: حصر الخبيثات للخبيثين، وحصر الخبيثين للخبيثات، وحصر الطيبات للطيبين وحصر الطيبين للطيبات، بحيث

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٣٢- ٢٣٨، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٥.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٧.

لا تبقى خبيثة لطيب، ولا خبيث لطيبة، ولا تبقى طيبة لخبيث، ولا طيب لخبيثة[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ الإشارة تعود إلى الذين رُموا بالإفك، وهم عائشة وصفوان- رضي الله عنهما- ومن نالهم أذى ذلك وهم الرسول ﷺ وآل أبي بكر، وغيرهم من المؤمنين ممن قد يُرمون بذلك، وهم الطيبون والطيبات المذكورون بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تنبيهًا على شرفهم وفضلهم وعلو منزلتهم و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، و﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾: خبره، ومعنى: ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: أن الله برأهم، فهم أبرياء مما قيل فيهم، منزهون منه، و«من» في قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ حرف جر، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: من الذي قاله أو يقوله أهل الإفك، أو من قول أهل الإفك.

وفي قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ توهين لهذا القول وتضعيف له، وأنه مجرد قول لا حقيقة له فهم بريئون بتبرئة الله عز وجل لهم من قول أهل الإفك فيهم. وهذا شهادة من الله عز وجل ببراءة عائشة رضي الله عنها وكفى بها شهادة، فهو خير الشاهدين.

فبرأ عز وجل عائشة بنفسه، كما برأ يوسف عليه السلام على لسان صبي في المهد، وكما برأ مريم على لسان ابنها عيسى عليهما السلام[٢].

وهم أيضًا بريئون مما يقوله أهل الإفك والكذب عمومًا وأهل القذف بالباطل للمحصنين والمحصنات، فليس بصحيح ما قيل فيهم، وليسوا ممن يرمون أهل العفة والإحصان بالفاحشة، أو يخوضون في الباطل؛ ولهذا قال تعالى:

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه. والرزق: العطاء. والكريم: الكثير الواسع الحسن، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**وإياك وكرائم أموالهم**»[٣]، أي: خيارها وحسنها.

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٠٦.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١٢، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٥، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص٨١.

(٣) سبق تخريجه.

أي: لهم خاصة من الله عز وجل ستر لذنوبهم عن الخلق وتجاوز منه عن عقوبتهم عليها، وعطاء منه عز وجل لهم واسع حسن كثير في الدنيا، وفي الآخرة في جنات النعيم بسبب ما قيل فيهم من الكذب، وما حصل لهم من الأذى، فصبروا عليه، وبسبب بعدهم عن قول الإفك في غيرهم وعن الخوض بالباطل.

قال ابن كثير[1]: «وفيه وعد بأن تكون زوج النبي ﷺ في الجنة» يعني: عائشة- رضي الله عنها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات حكمة الله تعالى في الأحكام الشرعية والقدرية؛ حيث جعل الأشياء متناسبة؛ كل شيء له ما يناسبه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢﴾[الصافات:٢٢]، فالأماكن الطيبة العامرة بذكر الله مأوى الملائكة، والأماكن الخبيثة- كمواضع الأذى- مأوى الشيطان، والنفس الطيبة يقترن بها الطيب، وتؤيدها الملائكة، والنفس الخبيثة يقترن بها الخبيث ويسلط عليها قرينها من الشياطين، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾ الآية.

٢- أن الخبيثات الزانيات من النساء للخبيثين الزناة من الرجال، وأن الخبيثين الزناة من الرجال للخبيثات الزانيات من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾.

٣- أن الطيبات العفيفات من النساء للطيبين العفيفين من الرجال، وأن الطيبين العفيفين من الرجال للطيبات العفيفات من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فلا يجوز تزويج عفيفة بزان، ولا تزوج عفيف بزانية.

٤- توكيد براءة عائشة رضي الله عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لأن رسول الله ﷺ أطيب الطيبين، وعائشة أفضل نساء الأنبياء وسيدتهن رضي الله عنها وعنهن أجمعين.

٥- أنه لا يجوز تزوج الطيبين من الرجال بالخبيثات من النساء، ولا تزويج الطيبات من

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٥.

النساء بالخبيثين من الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

وقال تعالى في أول السورة: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٣].

٦- أن الخبيثات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات للخبيثين من الرجال والنساء، وأن الخبيثين من الرجال والنساء للخبيثات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾.

٧- أن الطيبات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات للطيبين من الرجال والنساء، وأن الطيبين من الرجال والنساء للطيبات من الأعمال والأقوال والأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

٨- أن الخبيث لا يلتقي مع الطيب، وأن الطيب لا يلتقي مع الخبيث بحال، لأن الله جعل أهل الخبث بعضهم لبعض، وجعل الطيبين بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة:١٠٠].

وأن كل صنف يلتقي مع نظيره وقرينه، ويلتئم معه، ويطمئن إليه، فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١).

وروي عن عمر- رضي الله عنه- قال: «نزلنا الكوفة بليل، فنزل الأخيار على الأخيار، ونزل الأشرار على الأشرار». وفي المثل: «الطيور على ألّافها تقع»(٢).

٩- وجوب تنزيل الناس منازلهم، فلا يوصف الطيب بالخبيث، ولا الخبيث بالطيب.

١٠- تبرئة أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وأهل بيته ﷺ مما قال أهل الإفك؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- الأرواح جنود مجندة ٣٣٥٣، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- في البر والصلة والآداب- الأرواح جنود مجندة ٢٩٨٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٤.

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» للنيسابوري ١/ ٤٤٢، «الأمثال المولدة» للخوارزمي ص١٢٨.

قال ابن كثير[١]: «وهو عز وجل لا يقدر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك- يعني الفاحشة- حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة».

١١- دفاع الله تعالى عن رسوله ﷺ وعن المؤمنين عمومًا.

١٢- بُعد الطيبين والطيبات عن الخوض في الباطل وعن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

١٣- وعد الله عز وجل للطيبين والطيبات البعيدين عن الفواحش، وعن قول الإفك، وعن قذف المحصنين والمحصنات، وقول الباطل بالمغفرة والرزق الواسع الحسن في الجنة، وفي مقدمتهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

* * *

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٨.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة، من أول السورة إلى ما قبل هذه الآيات حد الزنا والقذف وأحكامهما، ثم أتبع ذلك بالأمر بالاستئذان عند دخول بيوت الغير، وذلك كله حفاظًا على الأعراض، وصيانة لها، وذلك أن الاستئذان من أسباب الوقاية من الاطلاع على ما لا يجوز والنظر إلى العورات، وما قد يؤدي إليه ذلك من الوقوع في الفاحشة، أو القذف وذكر عورات الآخرين.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ «لا» ناهية، ﴿بُيُوتًا﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وورش وحفص عن عاصم بضم الباء هنا وفي قوله ﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ وفي جميع القرآن.

وقرأ الباقون بكسرها[1].

و«بيوتًا»: جمع بيت، والبيت في الأصل ما له أعمدة. ومنه سمي البيت الحرام.

﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، أي: بيوت غيركم، أي البيوت التي يسكنها غيركم، سواء كان الساكن في هذه البيوت مالكًا لها أو مستأجرًا.

ويفهم من ذلك أن دخول بيوتهم ليس بحاجة إلى ما ذكر من الاستئناس والسلام، وسيأتي بيان حكم ذلك في آخر السورة.

﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ حتى: لانتهاء الغاية، والمعنى: حتى تستأذنوا، أي: تطلبوا الإذن بالدخول، وتعلموا بأنه قد أذن لكم، كأن يقول من يريد الدخول: أأدخل ونحوه، ويجاب إلى ذلك، وبأي عبارة أو وسيلة حصل الاستئذان كفى ذلك كدق

---

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٢٦٦.

الباب ونحو ذلك[١].

وسُمي الاستئذان: استئناسًا؛ لأن الطارق قبل أن يؤذن له كالمستوحش، فإذا استأذن واستعلم واستكشف، وأذن له بالدخول أنس وزالت عنه الوحشة.

والدليل على أن المراد بالاستئناس: الاستئذان والاستعلام قوله بعد هذا: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[٢].

وكذا قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا»[٣].

وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ: «حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها»، ويقول: «تستأنسوا» وهم من الكاتب، أو يقول: أخطأ الكاتب»[٤]، فهذا إن صح عن ابن عباس رضي الله عنهما فإن الذي يؤخذ منه أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرؤها: «حتى تستأذنوا» كقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه، وهي تفسر قراءة: «حتى تستأنسوا».

أما قول ابن عباس رضي الله عنهما: «وهم من الكاتب أو أخطأ الكاتب» فهذا في صحة نسبته لابن عباس نظر، ولو صح فهو مردود بإجماع الأمة قاطبة على أن ما بين دفتي المصحف هو مما أنزله الله عز وجل بلا نقص ولا تغيير ولا تبديل؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وقد فند صحة هذه المقالة عن ابن عباس وردها جمع من أهل العلم منهم ابن العربي والقرطبي وأبو حيان والشنقيطي وغيرهم[٥].

---

(١) كما في حديث جابر- رضي الله عنه- وسيأتي.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٤١- ٢٤٢، ٢٤٥- ٢٤٦، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١٣- ٢١٤، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٦، ٣٨، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٧.

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤١، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٨٨٠٠.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان»١٧/ ٢٣٩-٢٤٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٦، والحاكم ٢/ ٣٩٦.

(٥) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٣٥٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢١٤، «البحر المحيط» ٦/ ٤٤٥، «أضواء البيان» ٦/ ١٦٨.

﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال الطبري[١]: «وهو من المقدم الذي معناه التأخير إنما هو: حتى تسلموا وتستأذنوا».

وقال ابن كثير[٢]: «فيستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده»

لكن ليس في الآية ما يدل على أن الأولى تقديم الاستئذان على السلام؛ لأن الواو تقتضي الجمع ولا تقتضي الترتيب، فيجوز عطف الأول على الأخير بالواو كقوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣]، والركوع قبل السجود، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧]

فالواو إذا تجردت من القرائن والأدلة الخارجية لا تقتضي إلا مطلق الجمع والتشريك، وقد تقتضي الترتيب إذا دلت القرائن أو الأدلة على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨].

وقد قال ﷺ في الحديث: «ابدأ بما بدأ الله به»[٣].

وقد دلت السنة على تقديم السلام على الاستئذان، فعن كلدة بن حنبل- رضي الله عنه- قال: دخلت على النبي ﷺ، ولم أسلم، ولم استأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل»[٤].

وعن ربعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيته، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي

---

(١) في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٦.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٦، ومسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٩٠٥، والنسائي في مناسك الحج ٢٩٦١، والترمذي في الحج ٨٦٢، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٤- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الاستئذان- كيف الاستئذان ٥١٧٦، والترمذي في الاستئذان- التسليم قبل الاستئذان ٢٧١٠، وأحمد ٣/ ٤١٤، وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الألباني.

ﷺ فدخل»[١].

وعن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «أألج- أو أنلج؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها: روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول: السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعها الرجل، فقالها، فدخل».[٢]

وعن خالد بن إياس قال: حدثتني جدتي أم إياس قالت: «كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة، فقلت: ندخل؟ قالت: لا، قلن لصاحبتكنَّ تستأذن، فقالت: السلام عليكم، أندخل؟ قالت: ادخلوا؟ ثم قالت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾»[٣].

وعن ثابت عن أنس بن مالك، أو غيره: أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد ابن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله. ولم يُسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثًا ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك، ومن البركة. ثم أدخله البيت، فقرب إليه زبيبًا، فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرارُ، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون»[٤].

وقد روي هذا الحديث عن قيس بن سعد بن عبادة بأطول من هذا.

فعن قيس بن سعد بن عبادة- رضي الله عنه- قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردًا خفيًا، قال قيس: فقلت: ألا تأذن لرسول الله ﷺ؟ فقال: ذره يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله ﷺ: «السلام

---

(١) أخرجه أبو داود في الموضع السابق ٥١٧٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤١- ٢٤٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٩، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٠.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٨ وأخرجه أبو داود في الأطعمة ٣٨٥٤ مختصرًا عن أنس أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة، فجاء بخبز وزيت فأكل، ثم قال النبي ﷺ: «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة»، وصححه الألباني.

عليكم ورحمة الله» فرد سعد ردًا خفيًا، ثم قال رسول الله ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله» ثم رجع رسول الله ﷺ، واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، إني كنت أسمع تسليمك، وأرد عليك ردًا خفيًا، لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ، فأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله ملْحَفَةً مصبوغة بزعفران- أو ورس- فاشتمل بها، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه، وهو يقول: «اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة» قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام. فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارًا قد وَطَّأَ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ فقال سعد: يا قيس اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «اركب» فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف» قال: فانصرفت»(١).

والاستئذان ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف؛ لما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «أنه استأذن على عمر ثلاثًا فلم يؤذن له، ثم انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال ما رجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف» فقال: لتأتينّ على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا. فذهب إلى ملإٍ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري، فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق»(٢).

والحكمة- والله أعلم- في كون الاستئذان ثلاثًا: أن صاحب البيت قد لا يسمع في الأولى فيسمع في الثانية أو الثالثة.

وعن قتادة قال في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ قال: «هو الاستئذان ثلاثًا من لم يؤذن له فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن

---

(١) أخرجه أبو داود في «الأدب» كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان ٥١٨٥، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٤٦٦. ونسبه ابن كثير أيضًا إلى النسائي انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٦ وقال بعد سياق الحديث: «وقد روي من وجه آخر فهو حديث جيد قوي» وقال الألباني: «ضعيف الإسناد».

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان- التسليم والاستئذان ثلاثًا ٢٠٦٢، ومسلم في الآداب- الاستئذان ٢١٥٤، وأبو داود في الأدب ٥١٨١.

شاؤوا أذنوا، وإن شاؤوا ردوا. ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر»[١].

والمقصود أن المستأذن إن أذن له في الأولى، أو الثانية، أو الثالثة دخل، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة فلينصرف، لكن لا يلزم إذا أذن له في المرة الأولى، أن يستأذن ثانية وثالثة. فإن استأذن ثلاثًا وعلم أنهم سمعوه، أو غلب على ظنه لا ينبغي أن يزيد على الثلاث وإن علم أنهم لم يسمعوه أو غلب على ظنه نظرًا لكبر المنزل، ونحو ذلك فقيل ليس له أن يزيد على الثلاث[٢].

والأظهر- والله أعلم- أن له أن يزيد على الثلاث؛ لأن المقصود بالاستئذان إسماع أهل البيت صوت المستأذن، ولهذا قال في الحديث: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له» فقوله: «فلم يؤذن له»، أي: بعد سماعهم لاستئذانه، فإذا لم يسمعوه، فكأنه لم يستأذن وإنما حدده الشرع بثلاث؛ لأن الغالب- والله أعلم- أن الثلاث كافية لإسماع أهل البيت وبخاصة إذا كان البيت صغيرًا كبيوت الصحابة- رضي الله عنهم- آنذاك. لئلا يحرج أهل البيت ويضايقهم ويزعجهم. أما إذا لم يسمعوه فلا بأس بالزيادة على الثلاث؛ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

وأيضًا فإن من كمال الاستئذان أن يُعرِّف المستأذن أهل البيت بنفسه، بقوله: أنا فلان ونحو ذلك؛ لأن لأهل البيت أن يأذنوا لمن شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، وقد يرغبون بدخول أحد دون أحد، وعلى هذا دلت السنة.

فعن جابر بن عبد الله- رضي الله تعالى عنه- قال: «أتيت النبي ﷺ في دَين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا»؟ قلت أنا. قال: «أنا، أنا» كأنه كرهه»[٣].

كما أن من آداب الاستئذان عدم وقوف المستأذن أمام الباب بحيث إذا فتح الباب

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٦- الأثر ١٤٣٤٧. والبيهقي في «شعب الإيمان» ٥/ ٣٩. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١.

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٦/ ١٧٥- ١٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان- باب: إذا قال: من ذا؟ قال: أنا ٦٢٥٠، ومسلم في الآداب- كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل له: من هذا؟ ٢١٥٥، وأبو داود في الأدب- الرجل يستأذن بالدق ٥١٨٧، وابن ماجه في الأدب ٣٧٠٩، وأحمد ٣/ ٣٦٣. وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٨.

يطلع على ما بداخل البيت.

فعن عبد الله بن بسر- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور»[١].

وعن هزيل قال جاء رجل، وعن عثمان بن أبي شيبة قال: سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب- قال عثمان: مستقبل الباب، فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك- أو: هكذا- فإنما الاستئذان من النظر»[٢].

وعن سهل بن سعد- رضي الله عنه- : أن رجلاً اطلع من جحر في دار النبي ﷺ، والنبي ﷺ يحك رأسه بالمدرَى[٣] فقال: «لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينك، إنما جعل الإذن من قبل الأبصار» وفي رواية: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»[٤].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح»[٥].

كما أن من آداب الاستئذان أن يكون في وقت مناسب، فلا يكون في وقت الصلاة ولا في وقت النوم في الليل أو في الظهيرة، ولا في وقت الغداء أو العشاء ونحو ذلك.

فهذا الذي ينبغي عند دخول بيوت الآخرين: السلام والاستئذان.

أما عند دخول الإنسان على أهل بيته، من والدين وزوجة وأولاد وغيرهم فإنه يسن أن يشعرهم بدخوله، بما يدل على ذلك من قول أو فعل أو كليهما؛ لئلا يقع نظره على عوراتهم.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عباس: «أستأذن على أخواتي أيتام في

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان ٥١٨٦ وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الاستئذان ٥١٧٤، ٥١٧٥، وصححه الألباني.

(٣) المِدْرَى: آلة يحك بها الرأس.

(٤) أخرجه البخاري في اللباس ٥٩٢٤، ومسلم في الآداب ٢١٥٦، والنسائي في القسامة ٤٨٥٩، والترمذي في الاستئذان ٢٠٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في الديات- من اطلع في بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ٦٨٨٨، ومسلم في الآداب- تحريم النظر في بيت غيره ٢١٥٨، وأبو داود في الأدب ٥١٧٢، والنسائي في القسامة ٤٨٦١.

حجري، معي في بيت واحد؟ قال: نعم فرددت ليرخص لي، فأبى. قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعته أيضًا، فقال أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن»(١).

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «عليكم الإذن على أمهاتكم»(٢).

وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وعنها- قالت: «كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه»(٣).

وعن أبي عبيدة قال: «كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم، ورفع صوته»(٤).

وعن الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- أنه قال: «إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه»(٥).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: « نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً»، وفي رواية: «يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم»(٦).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل، فقال: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً، أي: عشاءً كي تمتشط الشعثة وتستحد المُغِيبَة»(٧).

ولا منافاة بين هذين الحديثين وما جاء في معناهما من الأحاديث فالنهي فيها لمن طال سفره أن يباغت أهله في الدخول ليلاً وأما قوله ﷺ: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً أو عشاء»

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٠.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٥، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٥، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١ «إسناد صحيح».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٦٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤١.

(٦) أخرجه البخاري في العمرة ١٨٠١، ومسلم في الإمارة- كراهة الطروق وهو الدخول ليلاً- لمن ورد من سفره ٧١، وأبو داود في الجهاد ٢٧٧٦، والترمذي في الاستئذان- كراهية طروق الرجل أهله ليلاً ٢٧١٢.

(٧) أخرجه البخاري في النكاح- باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة ٥٠٧٩، ومسلم في الإمارة- كراهة الطروق- ٧١٥.

فهذا بعد قدومهم نهارًا: فأمرهم بالانتظار ليبلغ خبر قدومهم أهليهم ويستعدوا لهم[(١)].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الإشارة إلى عدم دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئناس والسلام أي: الاستئذان والسلام خير لكم أيها المؤمنون من الهجوم على البيوت دون استئذان وسلام، فالاستئذان والسلام خير للمستأذن ولأهل البيت، لما يترتب على الاستئذان والسلام من مصالح دينية ودنيوية، ولما يترتب على تركهما من مفاسد دينية ودنيوية.

وقوله: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ اسم تفضيل مقصود به تحقيق الوصف أي: أن الخير في الاستئذان والسلام، لا في الدخول دون ذلك.

وليس معنى ذلك أن في الدخول بلا استئذان وبلا سلام شيئًا من الخير، بل إن الاستئذان واجب، والدخول بلا استئذان لا يجوز؛ والتفضيل قد يكون بين طرفين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥] أي: هو العدل، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، أي: هو هين عليه سبحانه وتعالى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن تتذكروا وتتعظوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ الفاء: عاطفة أي: فإن لم تجدوا في بيوت الغير أحدًا منهم يأذن لكم بالدخول، أو لم يجبكم أحد.

﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والنهي هنا للتحريم فلا يجوز دخول بيوت الغير حتى في حال غيابهم إلا بإذنهم، لما في ذلك من التصرف في ملك الغير بغير إذنه.

﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، أي: حتى يؤذن لكم بالدخول بأن يحضر أهل البيت بعد غيابهم، فيأذنوا لكم.

---

(١) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي ١٣/ ٧١- ٧٢، «فتح الباري» ٩/ ١٢٣.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾، أي: وإن قيل لكم من قبل أهل البيت: ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾، ولم يأذنوا لكم بالدخول

قال ابن كثير[١]: «أي: إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده»

﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، أي: عودوا، وانصرفوا من حيث جئتم، ولا تقفوا على أبواب الناس، والأمر هنا للوجوب، فإذا استأذنوا ثلاثًا، ولم يؤذن لهم وجب عليهم الرجوع والانصراف، وعلى هذا دلت السنة- كما سبق.

بل إن في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾ بالبناء للمفعول ما يدل على أن على المستأذن الرجوع بمجرد سماعه من داخل البيت من يقول: ارجع أيًا كان القائل سواء كان ممن له حق الإذن أم لا.

والمعنى: فارجعوا من غير إلحاح، ولا مضايقة لأهل البيت، مع سلامة الصدور، وتقدير ظروف أهل البيت، والتماس العذر لهم، كما قال قتادة: «ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات، ولهم أشغال، والله أولى بالعذر»[٢].

فإن من الناس من إذا استأذن على أحد، ولم يؤذن له غضب وأرعد وأزبد، وتكلم في أهل البيت، وربما اتهمهم بأنهم يكرهونه، أو بما هو أسوأ من ذلك.

﴿هُوَ﴾، أي: رجوعكم ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، «أزكى»: أفعل تفضيل، وهو هنا لتحقيق الوصف، وليس فيه ما يدل على أن في عدم رجوعهم شيئًا من الزكاء.

ومعنى ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، أي: رجوعكم أطهر لكم أي: أطهر لقلوبكم وأعمالكم، وأعظم لثوابكم، وأكثر خيراً وبركة لكم، لما في ذلك من طاعة الله عز وجل وعدم مضايقة أهل البيت؛ ولأن الخيرة فيما يختاره الله عز وجل.

قال قتادة: «قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: «ارجع» فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾»[٣].

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٢.

وكما أن على المستأذن الرجوع، إذا لم يؤذن له مع سلامة الصدر على أهل البيت، وحسن الظن بهم، وتقدير ظروفهم، والتماس العذر لهم، فإن على أهل البيت وهم المستأذن عليهم تقدير ظرف المستأذِن، وتطييب خاطره، والإذن له ما أمكن ذلك، فإن ذلك لا شك أسلم للصدور، وأقرب للمودة والألفة، وأبعد عن الكراهة والجفوة، فإن للشيطان مداخله ووساوسه بين الناس. وقد يكون هذا المستأذن جاء من بعد، أو لصلة قرابة، أو صداقة أو لحاجة ملحّة ونحو ذلك.

والخلاصة أنه ينبغي على المستأذِن مراعاة الآداب التي دل عليها الكتاب والسنة، والحكمة فيها.

كما أن على المستَأذَن عليه مراعاة حقوق المستأذِن، وعلى كل منهما التسامح مع الآخر، والعفو عما قد يحصل منه من تقصير، وحسن الظن به والتماس العذر له.

وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه[1]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ «ما» مصدرية أو موصولة، أي: والله بعملكم، أو بالذي تعملون عليم، أي: وهو عليم بجميع أعمالكم؛ باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن امتثل أمر الله عز وجل بالاستئذان وغيره، ووعيد لمن خالف أمر الله بترك الاستئذان وغيره.

و﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة علم الله عز وجل وإحاطته بالأشياء كلها، في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ [طه:٩٨].

ولما سئل موسى- عليه السلام- عن القرون الأولى قال: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا

---

(١) البيت ليزيد بن محمد المهلبي. انظر: «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي ص٩٣، «زهر الآداب» للحصري ١/ ٥٥، «نهاية الأرب» للنويري ٣/ ٩٤.

تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

بعد ما نهى الله عز وجل في الآيتين السابقتين عن دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئذان، بيَّن في هذه الآية أنه لا حرج في دخول البيوت التي تكون غير مسكونة، كأنها مشاعة، إذا كان لهم فيها متاع بغير إذن، فكأن هذه الآية استثناء من الآية قبلها.

قال ابن كثير[1]: «هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت، التي ليس فيها أحد، إذا كان له فيها متاع بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أذن فيه أول مرة كفى».

سبب النـزول:

قال الواحدي[2]: «قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الآية، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾، الآية».

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، أي: ليس عليكم حرج ولا إثم، ولا تضييق.

﴿أَن تَدْخُلُواْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، والتقدير: ليس عليكم جناح في دخول بيوت غير مسكونة. وذلك لزوال المحذور.

﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، أي: ليس فيها ساكن.

﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾، أي: فدخولكم فيها لأجل المتاع، وليس لغير حاجة، والمراد بالمتاع هنا: المتعة، والتمتع فيها، وذلك بالاستكنان فيها من الحر والبرد والرياح والمطر ونحو ذلك.

وقيل المراد بالمتاع ما يتمتع به وينتفع به من مطعم أو مشرب أو ملبس أو فراش أو غير ذلك من الأثاث وغيره.

لكن الأظهر أن المراد بالمتاع التمتع بالنزول فيها، والاستكنان من الحر والبرد

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٢.

(٢) في «أسباب النزول» ص ٢١٩.

والرياح والمطر، والاستراحة فيها لأكل أو نوم ونحو ذلك[١].

ولا منافاة بين المعنيين لو حملت الآية عليهما معًا. وكل ذلك يسمى متاعًا؛ لأن الإنسان يتمتع به، أي: ينتفع وقتًا قد يطول أو يقصر، ثم ينتهي بزوال هذا المتاع وانتهائه، أو بزوال الإنسان وفنائه. والبقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال تعالى عن الدنيا كلها: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٧]، [النحل:١١٧].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾.

«ما» موصولة، أي: والله يعلم الذي تظهرون، والذي تخفون وتبطنون.

وقد تكون مصدرية، أي: والله يعلم إبداءكم، وكتمانكم، أي: إظهاركم، وإخفاءكم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء:١١٠].

فهو عز وجل يعلم ما يظهره الخلق من الأقوال والأفعال وما يكتمونه من ذلك وغيره، وعلمه عز وجل بما يُسر كعلمه بما يُبدى ويُظهر؛ لأن السر والعلانية عنده سواء.

قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى:٧]

وفي الآية وعد ووعيد، فمن علمه عز وجل بما يظهره العباد وما يخفونه، أنه سيحاسبهم على أعمالهم الظاهرة والخفية، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ولا يظلم ربك أحدًا.

فهذه الآية أظهر في الشمول وأشد في التوكيد وأعظم في الوعد والوعيد من قوله في الآية السابقة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفيه حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما جاء بعده من الطلب أمرًا كان أو نهيًا، أو كليهما يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٢١.

يعد نقصًا في الإيمان.

٣- عدم جواز دخول بيوت الغير إلا بعد الاستئذان والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾؛ حرمة لحقوق الآخرين وممتلكاتهم وأحوالهم وأسرارهم، ونحو ذلك.

عن أبي هريرة- رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ قال: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه»(١).

وفي رواية: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه فلا دية ولا قصاص»(٢).

فمن أراد دخول بيوت الغير وجب عليه الاستئذان.

٤- إذا استأذن الطارق على أهل البيت فأذنوا له جاز له الدخول، وجعل بعض أهل العلم مثل هذا في الحكم ما لو أرسل رسولاً لأحد يدعوه للحضور إلى بيته، فهذا بمثابة الإذن له؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه»(٣).

وهذا محمول قطعًا على حال لا يحتاج معها إلى الاستئذان، كأن يكون المدعو في مكان قريب، أو ضمن أناس ربما كانوا وقوفاً على الباب ونحو ذلك.

ولا يمكن أن يحمل الحديث على أن إرسال الرسول يكفي عن الإذن مطلقاً، حتى ولو طال الفصل، واختلف الوقت وتبدلت الأحوال، بل يجب الاستئذان على الرسول والمرسل إليه.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: دخلت مع رسول الله ﷺ، فوجد لبنًا في قدح، فقال: «أبا هر، الحق أهل الصفة، فادعهم، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا،

---

(١) أخرجه البخاري في الديات ٦٨٨٨، ومسلم في الآداب ٢١٥٨، وأبو داود في الأدب ٥١٧٢، والنسائي في القسامة ٤٨٦٠.

(٢) أخرجه النسائي في القسامة ٤٨٦٠، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه ٥١٨٩.

وأخرجه البخاري- معلقاً- في الاستئذان- باب إذا دعي الرجل فجاء هل يستأذن. انظر: «فتح الباري» ١١/ ٣١.

فاستأذنوا، فأذن لهم فدخلوا»[١].

٥- جواز دخول الناس بيوتهم بغير استئذان؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾.

أما السلام فإنه يسن عند دخول بيوتهم وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١].

٦- أن الاستئذان والسلام عند إرادة دخول بيوت الغير خير للمستأذِن ولأهل البيت؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وذلك لما فيه من احترام حقوق الآخرين، وعدم الاطلاع على أحوالهم إلا بإذنهم، إلى غير ذلك مما هو طاعة لله عز وجل، وسبب للألفة والمحبة بين المستأذِن وأهل البيت، وامتثال أمر الله واكتساب الأجر.

بخلاف ما لو فاجأ القادم أهل البيت بلا استئذان، فإنه قد يطلع على عوراتهم، أو على شيء من أحوالهم، التي لا يريدون الاطلاع عليها، وربما ظُن به إرادة الشر، كالسرقة، وهتك الأعراض، وغير ذلك. والسلامة لا يعدلها شيء.

٧- أن الله عز وجل شرع الاستئذان والسلام عند دخول بيوت الغير لأجل التذكر والاتعاظ، والتأدب بآداب الشرع، واحترام حقوق الآخرين، وعدم الاطلاع على عوراتهم وأسرارهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٨- عدم جواز دخول بيوت الغير إذا لم يكن فيها أحد منهم، حتى يأذنوا بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

٩- إذا لم يؤذن للمستأذِن من قبل أهل البيت، أو قيل له ارجع وجب عليه الرجوع والانصراف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾.

١٠- كما أن لأهل البيت أن يأذنوا لمن شاؤوا، فلهم أن يردوا من شاؤوا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾.

مع وجوب مراعاة حقوق القادم وحاجته ومشاعره، ما أمكن ذلك، فليس الأمر على إطلاقه.

---

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق ٦٢٤٦.

١١- أن رجوع المستأذِن إذا لم يؤذن له، وقيل له ارجع هو أطهر للمستأذِن، ولأهل البيت، لقلوبهم وأعمالهم، وأعظم لثوابهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

١٢- علم الله عز وجل التام المحيط بكل شيء من أعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء.

١٣- جواز دخول البيوت التي لا ساكن فيها، والتي فيها متاع للداخل بلا استئذان؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾.

١٤- أن دخول البيوت حتى غير المسكونة ينبغي أن يكون لحاجة، كوجود متاع للداخل فيها ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾.

١٥- علم الله عز وجل المحيط بما يظهره العباد، وما يخفونه ويبطنونه، وأنه عز وجل سيحاسبهم على ذلك ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

١٦- فيما شرعه الله عز وجل من أحكام الاستئذان وآدابه دليل على حرص الشرع المطهر، والدين الإسلامي الحنيف على حماية بيوت الآخرين وحقوقهم، وحفظ الأسرار والأحوال الخاصة بهم، وحرصه على أن تسود المحبة والألفة بين المسلمين، وعلى كل ما يقوي الروابط بين أفراد المجتمع، وصيانته عن كل ما يسبب التفكك بين أفراده، ويوجد العداوة والبغضاء بينهم، والقضاء على تلك الأسباب في مهدها، بل قبل وجودها بما شرعه من أحكام وآداب، فيها لمن أخذ بها السعادة في الدنيا والآخرة. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن دخول بيوت الغير دون استئذان، وذلك لئلا تقع أبصارهم وأسماعهم على ما لا يحب أهل البيت الاطلاع عليه، أو سماعه من أسرارهم وأحوالهم الخاصة وعوراتهم، وفي الحديث: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»[(١)].

ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين والمؤمنات عمومًا بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأمر المؤمنات خاصة بعدم إبداء زينتهن وبالحجاب والتستر وذلك من أعظم الأسباب للبعد عن الفاحشة والسلامة منها، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: قل يا محمد للمؤمنين المصدقين المنقادين بقلوبهم وجوارحهم، ظاهرًا وباطنًا.

﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الغض: القصر والنقص، وغض البصر بمعنى كفه ومنعه عن النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه، وذلك بخفضه إلى الأرض، أو صرفه يمينًا وشمالاً. وأصل غض البصر: إرخاء الجفن على الجفن بحيث يضعف النظر قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا[(٢)]

وقال عنترة[(٣)]:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لجرير يهجو الراعي النميري. انظر: «ديوانه» ٢/ ٨٢١ شرح محمد بن حبيب.

(٣) انظر: «شرح ديوان عنترة» للخطيب التبريزي ص٢٥.

وأغـض طـرفي إن بـدت ليَ جـارتي حتـى يـواري جـارتي مأواهـا

وغض البصر: كفه عن النظر إلى المحرمات من النساء الأجنبيات، والمرْدَان من الذكور، وغير ذلك من المحرمات، كالنظر إلى ما تبثه القنوات والفضائيات من أفلام الدعارة والعري والفحش، ومن صور فعل الفواحش بين الجنسين أو بين الجنس الواحد، أو بينهما وبين الحيوانات، وغير ذلك مما قد يؤدي إلى الفتنة، حتى ولو كان ذلك في الأصل مباحًا، كنظر المرأة إلى المرأة، والرجل إلى الرجل، والنظر إلى المملوك، ونحو ذلك، فمتى أدى النظر إلى خوف الوقوع في الفتنة وجب غضه.

و«من» للتبعيض، أي: يغضوا أبصارهم عما يحرم، ويقتصروا فيها على ما يحل، مما شرع الله أو أباح النظر إليه، ومن ذلك النظر في آيات الله، ونظر الخاطب إلى مخطوبته، ونحو ذلك[١].

عن جرير بن عبد الله البجلي، قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري»[٢].

وفي رواية لبعضهم: «أطرق بصرك»[٣] يعني انظر إلى الأرض.

قال ابن كثير[٤]: «والصرف أعم، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى».

وعن سليمان بن بريدة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»[٥].

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها. قال: «فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها» قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٣٦، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في الآداب- نظر الفجاءة ٢١٥٩، وأبو داود في النكاح- ما يؤمر به من غض البصر ٢١٤٨، والترمذي في الاستئذان- ما جاء في نظر الفجاءة ٢٧٧٦، وأحمد ٤/ ٣٦١.

(٣) ذكرها ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٣.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٤٣.

(٥) أخرجه أبو داود في النكاح- ما يؤمر به من غض البصر ٢١٤٩، والترمذي في الباب السابق ٢٧٧٧، وقال: «غريب» وحسنه الألباني.

البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر»[١].

وعن أبي أمامة الباهلي- رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم»[٢].

وإنما أمر الله عز وجل بالغض من الأبصار، بل وقدم ذلك على الأمر بحفظ الفروج؛ لأن غض البصر من أعظم الوسائل لحفظ الفروج؛ ولأن النظر داعية إلى فساد القلب، وفي الأثر: «النظر سهم من سهام إبليس مسموم»[٣].

فالنظر وإطلاق البصر هو أول وأعظم أسباب الفتنة والوقوع في المحرم، كما قيل:

ألم تر أن العين للقلب رائد ... فما تألف العينانِ فالقلب آلف[٤]

وكما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر[٥]

ولهذا يحرم أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد إذا كان ذلك يسبب الافتتان به[٦].

وما لهث لاهث وراء الفحش والجريمة إلا بسبب سعار النظر إلى الأجنبيات، أو متابعة ما تبثه القنوات والمواقع من الفحش والعري، وهابط المسلسلات.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات ٢٤٦٥، ومسلم في اللباس- النهي عن الجلوس في الطرقات ٢١٢١، وأبو داود في الأدب ٤٨١٥.

(٢) أخرجه أبو القاسم البغوي فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٤.

(٣) سيأتي بتمامه وتخريجه قريبًا.

(٤) البيت ينسب لمضرس الربعي. انظر: «الحماسة البصرية» ٢/ ٢٠٣٣. وينسب لعبد الله أو عبيد الله بن طاهر. انظر: «الدر الفريد» ٥/ ٦٥، ٦/ ١٧٧.

(٥) انظر: «التفسير القيم» ص ٦٢٤- ٦٢٩.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٥.

من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(١).

وقد ذكر ابن تيمية- رحمه الله- أن حفظ البصر عن الصور التي نهي عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ثلاث فوائد جليلة: حلاوة الإيمان التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وثانيها: نور القلب وفراسته، وثالثها: قوة القلب وثباته وشجاعته(٢).

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، أي: ويحفظوا فروجهم مطلقًا، من الفواحش كالزنا واللواط، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥- ١٦٦].

ويحفظوا فروجهم أيضًا من الاستمناء باليد ونحو ذلك، ومن مسها باليد لغير حاجة، ومن كشفها ينظر إليها بلا حاجة.

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك». فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «فإن استطعت ألا يراها أحد فافعل». قلت: الرجل يكون خاليًا؟ قال: «فالله أحق أن يستحيا منه»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان- زنا الجوارح دون الفرج ٦٢٤٣، ومسلم في القدر- قدر على ابن آدم حظه من الزنا ٢٦٥٧، وأبو داود في النكاح ما يؤمر به من غض البصر ٢١٥٢، وأحمد ٢/ ٢٧٦، ٣٤٣.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٦٦- ٤٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الحمام- ما جاء في التعري ٤٠١٧، والترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح- التستر عند الجماع ١٩٢٠، وأحمد ٥/ ٣، ٤ وقال الترمذي: «حديث حسن». وانظر: «تفسير ابن

وأمر هنا بحفظ الفروج مطلقًا، بينما أمر بالغض من الأبصار؛ لأن أمر النظر أوسع، وأما أمر الفروج فمضيق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للأمرين السابقين وهما غض الأبصار، وحفظ الفروج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، أي: أطهر لهم. و«أزكى» أفعل تفضيل، وهو هنا لتحقيق الوصف، وهو طهارتهم، إذ ليس في عدم غض الأبصار وعدم حفظ الفروج شيء من الفضل البتة.

والمعنى: أن غض الأبصار وحفظ الفروج أطهر لقلوبهم وأعمالهم، وأنقى لدينهم من رجس ونجاسة الذنوب، فإن في البعد عن المنهيات، مع فعل الطاعات زكاة القلوب والنفوس وطهرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩- ١٠].

وقد روي عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه خوفًا من الله آتاه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»[(١)].

وقد قيل: «من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته أي: في قلبه»[(٢)].

قال السعدي[(٣)]: «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره أنار الله بصيرته».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، ﴿خَبِيرٌۢ﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على سعة خبرته عز وجل واطلاعه على كل شيء؛ لأن الخبير هو المطلع على دقائق الأمور وبواطنها وخفياتها، وإذا كان مطلعًا على الدقائق والبواطن والخفيات فاطلاعه على الجلائل والظواهر والجليات من باب أولى.

«بما»: الباء حرف جر، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: إن الله خبير بالذي يصنعون، أو بصنعهم.

أي: إن الله عز وجل خبير بعملهم وقولهم، مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية،

كثير» ٦/ ٤٤ وحسنه الألباني.

(١) أخرجه الطبراني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٥. وروي أيضًا من حديث حذيفة- رضي الله عنه- انظر: «كشف الخفاء» ٢/ ٤٥٥.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٤.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٠٩.

من غض الأبصار، وحفظ الفروج وعدمه، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

قال الشاعر[١]:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

وفي الآية وعد لمن امتثلوا أمر الله عز وجل، فغضوا أبصارهم، وحفظوا فروجهم، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأنه عز وجل سيجازي كلاً بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

قال ابن كثير[٢]: «هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية، وفعال المشركات».

قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الواو: عاطفة، والأمر للنبي ﷺ.

و«المؤمنات»: المصدقات المنقادات لأمر الله. أي: وقل للنساء المؤمنات المصدقات المنقادات لشرع الله باطنًا وظاهرًا.

وقدم قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ الآية على قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، إشارة إلى فضل الذكور على الإناث، وأفرد النساء بخطاب خاص، فلم يقل: «قل للمؤمنين والمؤمنات» عناية بغض الأبصار، وحفظ الفروج، وتأكيدًا لوجوب ذلك.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٤٦.

وأفرد النساء بخطاب خاص أيضًا مع أنهن يدخلن في الخطاب العام للمؤمنين- غالبًا- للتوكيد على وجوب ذلك في حقهن، والإشارة إلى أهمية الأمر وخطورته بالنسبة لهن.

و«من» في قوله: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ للتبعيض كسابقتها، أي: يغضضن أبصارهن من النظر المحرم كالنظر إلى الرجال الأجانب، والنظر إلى صور الفجور والفحش والعري، مما يفعله من لا خلاق لهم من الرجال والنساء، وما يبثه دعاة الرذيلة والفساد في القنوات الفضائية وعبر الشاشات المدمرة.

فلا يجوز للنساء المؤمنات النظر إلى الرجال الأجانب، وتكرار النظر إليهم، وتحديد البصر فيهم، فإن ذلك من أعظم أسباب افتتانهن بالرجال.

فإن كان النظر من المرأة بشهوة، فهذا محرم بدليل الآية والإجماع، وإن كان نظر المرأة إلى الرجال بغير شهوة فقد اختلف أهل العلم في هذا: فذهب الأكثرون منهم إلى أنه لا يجوز أن تنظر المرأة إلى الرجال الأجانب، حتى ولو كان بغير شهوة مستدلين بقوله: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾

وبما روت أم سلمة- رضي الله عنها- أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى، لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه»[(١)].

وذهب طائفة من أهل العلم إلى جواز نظر النساء إلى الرجال الأجانب إذا كان بغير شهوة لما ثبت في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «رأيت النبي ﷺ يسترني، وأنا أنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون في المسجد»[(٢)].

وهذا هو الراجح- والله أعلم- ما لم يترتب على ذلك فتنة.

والحقيقة أن نظر النساء إلى الرجال، ونظر الرجال إلى النساء غالبًا قد يكون سببًا

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس- باب قول الله- عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ ٤١١٢ والترمذي في الأدب ٢٧٧٨ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٨٨ ومسلم في صلاة العيدين- الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ٨٩٢، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٩٥.

لافتتان كل منهما بالآخر، ولهذا فإن الفيصل في هذا كله- والله أعلم- في حكم نظر كل من الجنسين إلى الآخر هو قوله ﷺ: لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»(١).

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الفواحش من الزنا والسحاق، وعن مسها، وكشفها لغير أزواجهن، وبلا حاجة.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة:١٢].

وفي الحديث: «إذا صلت المرأة خمسها، وحجت فرضها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها ادخلي مع أي أبواب الجنة شئت»(٢).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، أي: ولا يظهرن زينتهن للأجانب، والزينة في الأصل كل ما يتزين به، من الزينة الخلقية، كالوجه ونحوه، مما هو من نفس البدن، والزينة المكتسبة، من الثياب والحلي كالسوار في المعصم والخاتم في الأصبع والقرط في الأذن والخلخال في الساق، والكحل والخضاب(٣)، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨]، أي: أومن ينشأ في الزينة، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

والمعنى: ولا يظهرن زينتهن سواء كانت خلقية أو مكتسبة.

ويخصص بعضهم الزينة بما كان مكتسباً، والحقيقة أن أصل الزينة وأهمها الزينة الخلقية، وأهمها زينة الوجه؛ لأنه يجمع المحاسن، إضافة إلى الزينة المكتسبة.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، وهو الثياب الظاهرة، كالرداء والعباءة، وغير ذلك من الملابس

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٩١- من حديث عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤/ ٣٠٦، وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح» ورجح أحمد شاكر أن في إسناد أحمد انقطاعًا.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٦، «الكشاف» ٣/ ٦١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٢٩.

الظاهرة، وما ظهر منها من غير قصد[١]. ويدل على إطلاق الزينة على الثياب الظاهرة قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١].

وقال بعضهم: المراد بـ«ما ظهر منها»: الوجه والكفان، وسيأتي تفصيل هذا في الفوائد والأحكام.

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام الأمر، ومعناه الوجوب.

و«الخُمُر» جمع خمار، وهو ما يُخمّر به، أي: يغطى به الرأس والوجه، كما في قول عائشة- رضي الله عنها- : «فخمرت وجهي بجلبابي وكان رآني قبل الحجاب»[٢].

﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «جِيوبهن» بكسر الجيم، وقرأ الباقون بضمها[٣].

والجيوب: جمع جيب، وهو شق في طول القميص من جهة الصدر يسمى طوق القميص[٤].

والمعنى: وليلقين بخمرهن ويسدلنها ويرخينها على جيوبهن؛ لستر وجوههن وأعناقهن ونحورهن وصدورهن، وعبر بالضرب مبالغة في الأمر بالتستر.

وهذا يؤكد وجوب ستر الوجه؛ لأن الخمار إذا كان على الرأس، وسدل على الجيب ستر الوجه، فدل هذا على أن الخمار يجب أن يستر الرأس والجيب وما بينهما وهو الوجه.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها».

وفي رواية عن عائشة- رضي الله عنها- أنها كانت تقول: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها»[٥].

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» ٤/ ١٧٨، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

(٢) تعني صفوان بن المعطل- رضي الله عنه- وقد سبق تخريج هذا.

(٣) انظر: «النشر» ٢/ ٢٢٦.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٠، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٨، «لسان العرب» مادة «جوب».

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور ٤٧٥٩، وأبو داود في اللباس باب قوله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ ٤١٠٢، والطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٩٤.

وفي رواية عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «إن لنساء قريش لفضلاً- وإني- والله- ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، وأشد تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به،[1] تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»[2].

وقال السعدي[3]: «﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها يدخل فيها جميع البدن».

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرر النهي عن إبداء الزينة للتوكيد، ونظراً لتنوع الاستثناء، فنهى أولاً عن إبداء الزينة، واستثنى من ذلك ما ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، ثم كرر النهي عن إبداء الزينة، واستثنى من ذلك بعض الأشخاص الذين يجوز إبداء الزينة لهم وهم المحارم.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: «إلا» أداة استثناء، والبعولة: جمع بعل، وهم الأزواج.

كما قالت سارة امرأة إبراهيم- عليه السلام- : ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود:٧٢] أي: وهذا زوجي شيخًا كبيرًا.

والمعنى: ولا يظهرن زينتهن الباطنة إلا لأزواجهن، وغيرهم ممن ذكروا في الآية.

أما الزوج فله النظر إلى جميع بدن زوجته بلا استثناء؛ ولهذا قدم «بعولتهن»، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كنت اغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه واحد، تختلف أيدينا فيه، فيبادرني، حتى أقول: دع لي، دع لي: وهما جنبان»[4].

---

(١) المرط: كساء من صوف، ومرحل: نقش عليه تصاوير الرحال، واعتجرت به، أي: شدته على رأسها، والمعجر: الثوب الذي يشد على الرأس انظر: «لسان العرب» مادة «مرط» و«رحل» و«عجر».

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس- باب ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩] ٤١٠٠، ٤١٠١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٨- ٤٩ وصححه الألباني.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١١.

(٤) أخرجه مسلم في الحيض ٣٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤١٤.

ومثله السيد؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن البعل يطلق على السيد واستدل بما رُوي في حديث جبريل- عليه السلام- في أمارات الساعة: «إذا ولدت الأمة بعلها»(١).

ويستأنس لهذا بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥- ٦]، [المعارج:٢٩- ٣٠].

أما غير الزوج من المحارم المذكورين في الآية فليس له النظر إلا إلى ما ليس بعورة.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ «أو» عاطفة، في هذا وما بعده و«آبائهن» يشمل الآباء، والأجداد وإن علوا، سواء كانوا من جهة الأب، أو من جهة الأم.

﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، أي: أو آباء أزواجهن، سواء كانوا آباءهم الأدنين أو أجدادهم، من جهة الآباء، أو من جهة الأمهات، وإن علوا.

﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ يشمل أبناءهن، وأبناء أولادهن، وإن نزلوا.

﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، أي: أو أبناء أزواجهن، ويشمل أبناء الأزواج، وأبناء أولادهم، وإن نزلوا، شريطة دخول أبيهم بهذه المرأة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣].

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾، أي: أو بني إخوانهن، وبني أولادهم، وإن نزلوا، سواء كان الإخوة أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، أي: أو بني أخواتهن، وبني أولادهن، وإن نزلوا، سواء كانت الأخوات شقيقات، أو لأب، أو لأم.

فهؤلاء المذكورون كلهم محارم للمرأة يجوز لها إبداء الزينة وإظهارها لهم من غير تبرج.

قال ابن كثير(٢): «كل هؤلاء محارم المرأة يجوز أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير تبرج».

ويختلف الأزواج عن غيرهم من هؤلاء المحارم- كما سبق بيانه- فإن للمرأة أن

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٤٩.

تبدي لزوجها من زينتها ما ظهر منها وما خفي، وجميع محاسن جسمها.

وليس بين الزوجين عورة يجب أن يسترها أحدهما عن الآخر، فلهما أن يجتمعا في لحاف وثوب واحد، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧].

كما أن المحارم غير الأزواج يختلفون فيما بينهم في درجة المحرمية، فالأب والابن والأخ أقوى محرمية من ابن الزوج وأبيه.

قال القرطبي(١): «وتختلف مراتب ما يبدى لهم، فيبدى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج».

ولم يذكر في هذه الآية، ولا في آية سورة الأحزاب وهي قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الآية:٥٥] العم والخال، مع أن العم والخال من المحارم، كما دل على ذلك حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «جاء عمي من الرضاعة فاستأذن عليَّ فأبيت أن آذن له، حتى أسأل رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فقال: «إنه عمك فأذني له» قالت: فقلت: يا رسول الله، وإنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «إنه عمك فليلج عليك».

وعمها المذكور هو أفلح أخو أبي القعيس، كما جاء في بعض روايات الحديث(٢).

قيل: وإنما لم يذكر العم والخال اكتفاء بقوله: ﴿أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فبنو إخوانهن هن عماتهم، وبنو أخواتهن هن خالاتهم.

فإذا ثبتت المحرمية للمرأة في حق من هي عمته وخالته، فثبوتها في حق من هو عمها أو خالها من باب أولى.

وأيضًا فإن العم بحكم الأب، لهذا قال ﷺ لعمر: «أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه»(٣).

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح- ما يحل من الدخول والنظر إلى النساء من الرضاع ٥٢٣٩، ومسلم في الرضاع- يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة ١٤٤٥، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٧، والنسائي في النكاح ٣٣١٥ والترمذي في الرضاع ١١٤٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة ـ٩٨٣، وأبو داود في الزكاة- تعجيل الزكاة ١٦٢٣، والنسائي في الزكاة ٢٤٦٦،

وقد سُمي إسماعيل- عليه السلام- في القرآن أبًا ليعقوب- عليه السلام- وهو عمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

فإسماعيل عم يعقوب؛ لأن إسماعيل وإسحاق من أبناء إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، المراد بهذا: ما يشمل جميع النساء مؤمنات أو غير مؤمنات؛ لأن للمرأة مطلقًا أن تنظر من المرأة ما ليس بعورة. كما أن للرجل أن ينظر من الرجل ما ليس بعورة، وهذا القول أظهر.

قال ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»(١).

وقيل: المراد: أو نسائهن المؤمنات فيجوز للمرأة أن تظهر زينتها عند غيرها من النساء المؤمنات، دون نساء المشركين والكفار، ونساء أهل الكتاب؛ لأنهن قد يصفنهن لرجالهن؛ لأنهن لا يرين في ذلك مانعًا. بخلاف النساء المؤمنات فلا يفعلن ذلك لعلمهن بحرمته في الإسلام(٢).

واستدل بعضهم على هذا بما رواه الحارث بن قيس، قال: كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي: «أما بعد، فإنه بلغني أن نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانْهَ من قبلك، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها»(٣).

فإن خيف افتتان النساء بعضهن ببعض، أو خيف أن تصف بعضهن صفات الأخريات للرجال، وجب عدم إظهار الزينة عندهن، حتى ولو كن مسلمات.

وأحمد ٢/ ٣٢٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح ١٩٢٠- من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن». وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٣، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١١.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٩- ٥٠.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٤٩، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٣.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها، كأنه ينظر إليها»(١).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أيمانهن: جمع يمين، واليمين في الأصل اليد اليمنى، والمراد: أو ما ملكن بأنفسهن؛ لأن اليمين وحدها لا تملك، وإنما أضيف الملك إلى اليمين تشريفًا لها؛ لأنها هي المنفقة، وهي المعطية الآخذة، كما في الحديث: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»(٢).

والمعنى: أو ما ملكن من الرقيق، من الرجال والنساء فيجوز لهن إظهار زينتهن أمامهم، كما يظهرنها لمحارمهن ونسائهن، وعلى هذا دلت السنة.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال: وعلى فاطمة رضي الله عنها ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك»(٣).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه»(٤).

ومفهوم هذا أنه إذا لم يكن له ما يؤدي فلا تحتجب منه؛ لأنه باق على أصل الرق، ومن باب أولى إذا كان مملوكًا لم يكاتب.

وعلى هذا القول دل ظاهر الآية، وهذه الأحاديث، وهو قول أكثر السلف وأهل العلم(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح- لا تباشر المرأة المرأة ٥٢٤٠، وأبو داود في النكاح ٢١٥٠، والترمذي في الأدب ٢٧٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس- في العبد ينظر إلى شعر مولاته ٤١٠٦ وصحح إسناده الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في العتق، في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت ٣٩٢٨، والترمذي في البيوع ١٢٦١، وابن ماجه في الأحكام ٢٥٢٠، وأحمد ٦/ ٢٨٩. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٥) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٦٥- ٢٦٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٣- ٢٣٤، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١١.

وقيل المراد بقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء خاصة دون الرجال المملوكين، فكأنه تبع؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ فيكون المعنى: «أو نسائهن» من الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء.

والأظهر القول الأول لكن لو خيفت الفتنة، من إظهار الزينة عند المملوك وجب سترها، بل لو خيفت الفتنة عند إظهار الزينة حتى عند المملوكة وجب سترها، كما هو الحال بالنسبة للمحارم ونساء المرأة الحرائر.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾، أي: أو التابعين لهن، أو لأهل بيوتهن من الأُجراء، أو البله وخفاف العقول، الذين لا ينتبهون لمحاسن النساء، وكالشيخ الكبير ونحوهم.

﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بنصب الراء من «غيرَ» على الاستثناء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿غَيْرِ﴾، على أنها صفة لـ«التابعين»[1].

﴿أُوْلِي﴾، أي: أصحاب، ﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾ هي في الأصل: الحاجة إلى الشيء، أَيَّ شيء كان[2]، وجمعها: إِرَب، ومنها: المَأْرُبَة، وجمعها: مآرب؛ كما في قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] أي: حاجات أخرى.

والمراد بـ«الإربة» في الآية: الحاجة إلى النساء، ومنه قول عائشة- رضي الله عنها- : «كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه»[3]، وفي رواية عنها: «فأيكم يملك إربه، كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه»[4].

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، أي: البالغين.

وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، أي: غير أصحاب الحاجة إلى

---

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص ٣٣٩، «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر مادة «أرب» في «النهاية»، «لسان العرب».

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٢٧، ومسلم في الصيام ١١٠٦، وأبو داود في الصوم ٢٣٨٢، والترمذي في الصوم ٧٢٨، وابن ماجه في الصوم ١٦٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في الحيض ٣٠٢.

النساء من الرجال، وهو الرجل الذي لا شهوة له، وليس لديه الداعي إلى النساء[١].

وعن أم سلمة- رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية، والمخنث يقول لعبد الله: يا عبدالله بن أبي أمية إن فتح الله عليكم الطائف غدًا، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخل هذا عليك»[٢].

ويؤخذ من قوله: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ أنه إذا خيفت الفتنة من إبداء الزينة لأي من المحارم المذكورين عدا الأزواج وجب سترها، حتى ولو كان ذلك عند بعض النساء[٣].

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الطفل: هو الذكر الصغير دون التمييز، وهو هنا اسم جنس يراد به الجمع، أي: الأطفال، بدليل وصفه بالجمع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧].

والعورات: جمع عورة، وهي في الأصل: كل ما يستحيا من إظهاره، ويسوء الإنسان اطلاع الآخرين عليه.

قال السعدي[٤]: «أو الطفل: الأطفال دون التمييز، دل على أن المميز يستتر عنه؛ لأنه يظهر على عورات النساء».

ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: لم يطلعوا بعد لصغرهم وعدم إدراكهم على عورات النساء، ومواضع نظر الرجال وسماعهم منهن، فيجوز لهن إظهار

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٢٤، ومسلم في السلام- منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب ٢١٨٠، وأبو داود في الأدب ٤٩٢٩ وابن ماجه في النكاح ١٩٠٢، وأحمد ٦/ ٢٩٠. وأخرجه مسلم أيضًا من حديث عائشة- رضي الله عنها- ٢١٨١، وأبو داود في اللباس، قوله: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ ٤١٠٧، ٤١٠٩، وأحمد ٦/ ١٥٢.

(٣) انظر: «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١٠٣.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٢.

الزينة لهم، ومفهوم قوله: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أنهم لو ظهروا على عورات النساء لم يجز إبداء الزينة لهم.

قال ابن كثير[١]: «يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية، وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا منه بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء» ثم ذكر ابن كثير قوله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» قالوا: يا رسول الله، أفرأيت الحمو[٢]؟ قال: «الحمو الموت»[٣].

قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

نهى الله عز وجل المؤمنات في أول الآية عن إظهار زينتهن إلا ما ظهر منها، مما لا تستطيع المرأة إخفاءه، وأن لا يبدين زينتهن إلا لمن ذكروا في الآية من المحارم، أو نسائهن وما ملكت أيمانهن، ومن لا حاجة لهم في النساء، أو الأطفال الصغار الذين لم يظهروا على عورات النساء. بعد هذا نهى النساء المؤمنات أن يعمدن إلى إظهار الزينة الخفية بالأرجل تحت الثياب ونحو ذلك فقال:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾، أي: ولا يضربن بأرجلهن عند المشي على الأرض بشدة وقوة، وليكن مشيهن مشيًا طبيعيًّا ومعتدلًا.

﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يعلم ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ «ما» موصولة، أي الذي يخفين من زينتهن من خلخال ونحو ذلك كما كانت تفعل ذلك نساء أهل الجاهلية، قال الشاعر:

تسمع للحلي وسواسًا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرقٌ زُجل[٤]

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٢.

(٢) أي: قريب الزوج كأخيه، وعمه ونحو ذلك.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح- لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة ٥٢٣٢، ومسلم في السلام- تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ٢١٧٢ والترمذي في الرضاع ١١٧١- من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» ص ١٤٥.

والمراد هنا: لا يضربن بأرجلهن وأقدامهن ضربًا بشدة وقوة لأجل أن يعلم الذي يخفينه من زينتهن الخفية المستورة تحت الثياب، لما في ذلك من أسباب الفتنة، وإظهار ما يجب ستره أصلاً، وسواء كان ذلك عند المحارم ومن ذكر معهم في الآية، أو عند غيرهم؛ لأن النهي في قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ مطلق.

لكن من المعلوم أن حصول ذلك منهن عند الرجال الأجانب أشد حرمة ونهيًا.

ويؤخذ من هذا أنه يجب على المرأة ستر زينتها ومحاسن جسمها التي الأصل فيها الستر، فلا يجوز لها لبس الثياب الرقيقة الشفافة التي تصف محاسن جسمها، ولا الثياب الضيقة التي تحدد أحجام جسمها، كثدييها، وإليتيها ونحو ذلك، وذلك كالبنطلون وغيره.

ولا الثياب القصيرة، التي تبدو منها بعض أعضاء المرأة، كالذراعين والعضدين والساقين والفخذين وغير ذلك.

وكذلك لا يجوز لها أن تتعطر وتتطيب عند خروجها من بيتها، سواء للمسجد، أو للمستشفى، أو لمناسبة، أو للسوق، أو لغير ذلك، لأن الضرب بالأرجل يحدث الفتنة بالسماع، والطيب يحرك الشهوة بالشم.

عن أبي موسى- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس، فهي كذا وكذا- يعني زانية»[(١)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب، ولذيلها إعصار[(٢)]، فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: وله تطيبت؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»[(٣)].

وعن أبي أسيد الأنصاري- رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو

---

(١) أخرجه أبو داود في الترجل- ما جاء في المرأة تتطيب للخروج ٤١٧٣، والترمذي في الاستئذان- ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة ٢٧٨٦، وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث «حسن صحيح»، وحسنه الألباني.

(٢) إعصار أي غبار.

(٣) أخرجه أبو داود في الترجل ٤١٧٤، وابن ماجه في الفتن- فتنة النساء ٤٠٠٢ وصححه الألباني.

خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق- فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكنَّ أن تَحْقُقْنَ الطريق، عليكن بحافات الطريق، فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به»(١).

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة جملة من الأحكام، وحث على جملة من الآداب، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين جميعًا بالتوبة، مما فرط منهم، أو قصروا فيه من ذلك وغيره، فقال:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواو عاطفة، والأمر للوجوب. والتوبة: الإنابة والرجوع إلى الله عز وجل، الرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى.

﴿جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلاً وإسكانها وقفًا «أيهُ».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَيُّهَ﴾(٢).

أي: توبوا إلى الله كلكم يا أيها المؤمنون، بفعل ما أمركم الله به، وترك ما نهاكم عنه، ومن ذلك ما أمر الله عز وجل به في هذه الآيات من الصفات والأخلاق الجميلة، وما نهى عنه من الصفات الذميمة والرذيلة.

فالتوبة إلى الله واجبة على جميع المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

ويتأكد وجوب التوبة في حق من ارتكب ذنبًا، وكلما كان الذنب أشد كالشرك والكفر، والكبائر، كان وجوب التوبة آكد.

ومن الذنوب التي تجب التوبة منها، بل وتتأكد عدم غض البصر عن المحرمات، وعدم حفظ الفروج، وإبداء النساء زينتهن لغير المحارم، ومن ذكر معهم ممن يجوز لهن إبداء الزينة لهم، وضربهن بأرجلهن لإبداء ما خفي من زينتهن، وإبداء محاسنهن وغير ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق ٥٢٧٢ وحسنه الألباني.

(٢) انظر: «الغاية في القراءات» ص ٣٣٩، «النشر» ٢/ ٣٣٢.

فالتوبة واجبة على جميع المؤمنين، بشروطها، وهي:

الأول: الإقلاع عن المعصية، ومن لازم ذلك رد حقوق المخلوقين إليهم، والثاني: الندم على فعلها، والثالث: العزم على عدم العودة إليها، والرابع: أن تكون في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- : أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١).

وعن أبي موسى- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

والشرط الخامس: أن تكون خالصة لله عز وجل لا خوفًا أو رجاءً من مخلوق.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر:٥٣- ٥٤].

وفي إيجاب التوبة إلى الله على جميع المؤمنين دلالة واضحة على أن الإنسان، لا يسلم من نقص وتقصير مهما قوي إيمانه ويقينه، ومهما احترز من الذنوب والمعاصي، ولهذا قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»، وفي رواية: «سددوا وقاربوا»(٣).

وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٥، وأحمد ٢/ ١٣٢، والحاكم ٢/ ٢٤٩، وصححه ووافقه الذهبي وصححه أحمد شاكر، والألباني.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطهارة- المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦- ٢٧٧، ٢٨٢- من حديث ثوبان- رضي الله عنه- وصححه الألباني في «إرواء الغليل» حديث ٤١٢.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لأجل أن تفلحوا[١]، أو رجاء أن تفلحوا. والفلاح: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، وذلك بدخول الجنة والنجاة من النار، نسأل الله تعالى من فضله.

أي: توبوا وارجعوا إلى الله كلكم أيها المؤمنون، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والاستغفار والإنابة عما فرط منكم، لأجل أن تفلحوا وتفوزوا وتظفروا بالمطلوب وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، والنجاة من الشقاء في الدنيا والآخرة ومن دخول النار.

قال ابن كثير[٢]: «أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله».

الفوائد والأحكام:

١- العناية والاهتمام بغض الأبصار وحفظ الفروج؛ لتصدير الخطاب في هذا بقوله تعالى: ﴿قُل﴾، زيادة على الأمر العام له ﷺ بالبلاغ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة:٦٧].

٢- تكريم المؤمنين والمؤمنات وتشريفهم بوصفهم باسم الإيمان في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وأن امتثال الطلب بعده من مقتضيات الإيمان، وعدمه يعد نقصًا في الإيمان.

٣- وجوب غض البصر عن النظر إلى المحرمات؛ لقوله تعالى: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ وقوله: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ وهذا مطلق يشمل: غض الرجال والنساء أبصارهم عن كل ما لا يجوز النظر إليه، مما يثير الفتنة.

٤- في قوله: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ وقوله: ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ إشارة إلى معنى قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة»[٣].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٤٩، «أضواء البيان» ٦/ ٢٠٣- ٢٠٤.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

فإذا وقع البصر على ما لا يجوز النظر إليه فجأة وجب غضه.

٥- وجوب حفظ الفروج عما حرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

٦- أن غض الأبصار وحفظ الفروج عما حرم الله أطهر للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ ويفهم من ذلك أن عدم غض الأبصار، وعدم حفظ الفروج سبب للرجس والنجس وعدم الطهارة.

٧- حرص الدين الإسلامي على تزكية النفوس وتطهيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.

٨- أن الله عز وجل خبير بكل ما يفعله العباد من الأمور الظاهرة والباطنة، والدقيقة والجليلة، والخفية والجلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وفي هذا وعد ووعيد، فهو عز وجل بخبرته وعلمه واطلاعه على أعمالهم سيجازيهم بها، ففيه وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء.

٩- إثبات صفة الخبرة والعلم الواسع لله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

١٠- في تقديم الرجال على النساء في الذكر إشارة لفضل الذكور على الإناث من حيث العموم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، فالرجال من حيث العموم أفضل من النساء كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

لكن قد تكون بعض النساء خيرًا من بعض الرجال، دينًا وخلقًا وأدبًا وعلمًا، بل وشجاعة وقوة، وهذا أمر مشاهد معلوم.

١١- عناية الشرع المطهر بغض الأبصار وحفظ الفروج عما حرم الله تعالى وتأكيده وجوب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ الآية، ثم قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

فأفرد كلاً من الجنسين بخطاب، عناية بذلك وتأكيدًا له، ولم يقل: قل للمؤمنين والمؤمنات يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم.

١٢- في إفراد النساء بخطاب بالأمر بغض أبصارهن وحفظ فروجهن زيادة تأكيد عليهن، في وجوب غض أبصارهن، وحفظ فروجهن، وإشارة إلى خطورة النظر والفروج بالنسبة لهن، إذ الغالب في خطابات القرآن الكريم الاكتفاء بخطاب الذكور، ويدخل معهم الإناث تبعًا تغليبًا للذكور على الإناث، لكن أفردهن هنا لهذا الغرض.

١٣- تحريم إبداء النساء المؤمنات زينتهن إلا ما ظهر منها، مما لا يمكن إخفاؤه، فلا حرج عليهن في ظهوره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وهي الثياب الظاهرة ونحو ذلك، على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وبهذا قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- وجمع من التابعين وغيرهم[١]، وكثير من الفقهاء والمحققين من أهل العلم.

قال ابن تيمية[٢]: «فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة، فهذا لا جناح عليها في إبدائها، إذا لم يكن في ذلك محذور آخر، فإن هذه لابد من إبدائها، وهذا قول ابن مسعود وغيره وهو المشهور عن أحمد».

ويدل على هذا القول قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾؛ لأن هذا يدل على وجوب إسدال الخمار على الرأس والوجه والصدر، وسترها، وأن الوجه ليس من الزينة الظاهرة كما قيل. ودلالة هذا على وجوب ستر الوجه أظهر من دلالة قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على جواز كشف الوجه واليدين.

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: «وجهها وكفيها»[٣].

وروي هذا عن ابن عمر- رضي الله عنهما- وبعض التابعين والفقهاء[٤].

ويحتمل أن مراد ابن عباس بقوله: «وجهها وكفيها»، أي: هذه الزينة التي نهى الله عز وجل عن إبدائها بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، وليس ذلك تفسيرًا؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٦- ٢٥٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٨، ٤٢٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٨-٢٦٠، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

(٤) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٥٨- ٢٦١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وعلى هذا فيبقى قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على أن المراد به- كما سبق- الثياب الظاهرة[١].

ويحتمل أن مراد ابن عباس- رضي الله عنهما- تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين.

قال ابن كثير[٢]: «وهذا هو المشهور عند الجمهور» يعني حمل قول ابن عباس على هذا المعنى.

لكن هذا يعارضه ما ثبت عن ابن عباس نفسه في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩] فيما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينًا واحدة»[٣].

وأيضًا هو معارض بقول صحابي آخر هو عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- كما سبق ذكره.

وأيضًا فإن الوجه والكفين من أعظم الزينة عند المرأة، فإن أول وأهم وأعظم ما ينظر إليه الرجل من المرأة وجهها وكفاها، وبخاصة الوجه فإنه أصل الزينة وموضع الجمال.

قال الشنقيطي[٤]: بعد ما ذكر قول ابن مسعود- رضي الله عنه- أن المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الثياب الظاهرة، قال: «وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها، وأبعدها عن الريبة، وأسباب الفتنة».

وقال أيضًا بعد أن ضعف قول من قال المراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الوجه

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٧.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٤٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ١٨١.

(٤) في «أضواء البيان» ٦/ ١٩٧، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٢٨- ٢٢٩.

والكفان، وبيَّن أنه خلاف ظاهر معنى لفظ الآية؛ لأن أصل الزينة في لغة العرب ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقها قال: «أظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود- رضي الله عنه- : أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا: إن هذا القول هو الأظهر لأنه أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها، كما هو معلوم»(١).

وقال أيضًا في «تفسير سورة النور»(٢): «والأقوى ما ذهب إليه ابن مسعود ومن تبعه: أن المراد به الملاءة التي تتغطى بها المرأة فوق ثيابها، ويدل على هذا ظاهر اللغة، واستقراء الشرع. فظاهر اللغة أن الزينة تطلق على ما تتزين به المرأة خارجًا عن بدنها، فإن إطلاقها على نفس البدن يحتاج إلى قرينة. وأما استقراء الشرع، فالمعروف منه الأمر بالتباعد عن أسباب الفتنة، والوجه محل الجمال، والافتتان من المرأة فالواجب ستره».

وقد قال الله تعالى في شأن أزواج النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

وإذا كان هذا خطابًا لمن سأل نساء النبي ﷺ، وهن من أطهر نساء العالمين، فغيرهن يجب عليهن الحجاب من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة بهن وعليهن أشد، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وبهذا نعلم أن الراجح وجوب ستر المرأة وجهها وعدم كشفه أمام الرجال الأجانب، كما دل عليه قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وقوله قبل ذلك: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وقوله في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ [الآية:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾ [الأحزاب:٥٩].

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة، الدالة على وجوب الحجاب، والتي سيأتي ذكرها

---

(١) «أضواء البيان» ٦/ ١٩٨.

(٢) ص ٩٩- ١٠٠.

مستوفاة بإذن الله عز وجل في تفسير سورة الأحزاب عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الآية.

وهذا القول هو الذي يقتضيه العقل الصحيح، وهو أبعد عن الفتنة وأسبابها، إذ لا خلاف أن الوجه هو أصل الزينة وأعظمها، وموضع الجمال من المرأة والافتتان بها. والله المستعان.

١٤- أن الشرع لا يكلف بما لا يستطاع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾، أي: مما لا يستطعن ستره وإخفاءه فلا حرج عليهن في ذلك.

١٥- وجوب ستر المؤمنة نحرها وصدرها، مع رأسها ووجهها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾.

قال ابن تيمية[1]: «وثبت في الصحيح أن المرأة المحرمة تنهى عن الانتقاب والقفازين، وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يُحرمن وذلك يقتضي ستر وجوههن».

وقال أيضًا: «وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما دخل بصفية قال أصحابه إن أرخى عليها الحجاب، فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يضرب عليها الحجاب فهي مما ملكت يمينه، فضرب عليها الحجاب».

وقال أيضًا: «إنما ضُرب الحجاب على النساء لئلا ترى وجوههن وأيديهن، والحجاب خاص بالحرائر دون الإماء، كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ وخلفائه أن الحرة تحتجب والأمة تبرز، وكان عمر- رضي الله عنه- إذا رأى أمة متخمرة ضربها، وقال: «أتتشبهين بالحرائر يا لكاع». فيظهر من الأمة رأسها ويداها ووجهها» لكن إن كانت الأمة يخاف بها الفتنة كان عليها أن ترخي من جلبابها وتحتجب ووجب غض البصر عنها ومنها».

١٦- جواز إظهار الزينة لمن ذُكروا في الآية من المحارم وغيرهم، وهم الأزواج، والآباء والأجداد وإن علوا، وآباء الأزواج وأجدادهم وإن علوا، وأبناؤهن وأبناء

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٩، ٤٣٠.

أولادهن وإن نزلوا، وأبناء أزواجهن وأبناء أولادهم وإن نزلوا، وإخوانهن من أي جهة كانوا، وبنو إخوانهن، وبنو أولادهم وإن نزلوا، وبنو أخواتهن من أي جهة كانت الأخوات، وبنو أولادهن وإن نزلوا. وكذا نساؤهن، وما ملكته أيمانهن من الرقيق ذكورًا وإناثًا، ومن لا حاجة لهم إلى النساء، والأطفال الصغار الذين لم يطلعوا بعد على عورات النساء، ومواضع نظر الرجال منهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

١٧- عدم وجوب الحجاب عمن ذكروا في الآية من المحارم، والنساء، وملك اليمين، ومن لا حاجة لهم إلى النساء، وكذا الأطفال؛ لأن الله أباح إظهار الزينة أمامهم، وأهم الزينة في المرأة وجهها.

١٨- إثبات الملكية الفردية؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

١٩- إثبات الرِّق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، أي: من الرقيق ذكورًا وإناثًا، والرّق سببه الكفر. وإنما يحصل بطريق السبي في القتال بين المسلمين والكفار؛ لإعلاء كلمة الله عز وجل فمن سبي من الكفار من الذكور والإناث فهو رقيق، حتى يمن عليه المسلمون بالعتق.

وليس من الرق في شيء اختطاف الأحرار واسترقاقهم وبيعهم، ولا ما يفعله بعض الناس من بيع أطفالهم بسبب الحاجة، كما يحصل في بعض الدول الإفريقية وغيرها؛ لأن السبب الوحيد للرق هو الكفر، ويحصل بطريق السبي فقط.

وقد قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه حقه»(١).

٢٠- تحريم إبداء الزينة الخفية من الخلخال وغيره، بالضرب بالأرجل على الأرض ونحو ذلك، وكذا غيره من محاسن المرأة، كشعرها ووجهها وذراعيها وعضديها

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ٢٢٧٠، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٢- من حديث أبي هريرة ﷺ.

وساقيها وفخذيها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، وسواء كان ذلك من طريق الإسماع، أو الكشف أو غير ذلك.

٢١- وجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل على جميع المؤمنين، ويتأكد ذلك في حق من ارتكب معصية كعدم غض البصر، وعدم حفظ الفرج، أو إبداء المرأة زينتها عند غير محارمها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أنه قلّ من يسلم من المعصية والذنب، فمن مستقل ومستكثر.

كما في حديث أبي ذر- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مئة مرة»(٢).

٢٢- تنبيه المؤمنين إلى عظم التوبة وفضلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. بالنداء لهم.

٢٣- أن التوبة من مقتضيات الإيمان وعدمها نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٢٤- أن الفلاح والنجاح والفوز بالمطلوب والسعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، والنجاة من المرهوب والسلامة من النار كل ذلك مترتب على التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فهي سبب لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

* * *

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ذم الله عز وجل في هذه السورة الزنا، وبين حرمته وما يترتب عليه من الحد والعقوبة في الدنيا والآخرة، وأمر بعد ذلك بغض الأبصار وحفظ الفروج، كل ذلك حفاظًا على الأعراض وصيانة لها، ثم أتبع ذلك بالأمر بالنكاح والترغيب فيه؛ لأنه أعظم سبب للوقاية من الزنا، وأعظم معين على غض الأبصار وحفظ الفروج.

قال ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١).

فلما ذم الزنا وبين حكمه وأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج عن الحرام، أمر بإشباع هذه الغريزة بالطريق الحلال، ورغب في ذلك، بل وأوجب ذلك. فسبحان العليم الحكيم.

قال ابن كثير(٢): «اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة».

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الواو: استئنافية، والخطاب للأحرار من المسلمين، وبخاصة الأولياء والسادة منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٣.

والنكاح لغة: الضم والجمع، ومنه يقال: تناكحت الأشجار إذا انضم بعضها إلى بعض.

والنكاح يطلق على الوطء، وعلى العقد[١] وهو المراد هنا فالمراد بالآية هنا العقد والتزويج أي: زوجوا الأيامى منكم.

و«الأَيَامَى »: جمع «أيم»، وهو من لا زوج له، رجلاً كان أو امرأة.

يقال: رجل أيِّم، وامرأة أيمة وأيم، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج[٢]. ويكثر استعمال «أيم» في المرأة وبخاصة من فقدت زوجها.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن في نفسها، وإذنها صماتها»[٣].

وفي حديث عمر- رضي الله عنه- قال: «لما تأيَّمت حفصة»[٤]، أي: أصبحت غير ذات زوج.

﴿مِنكُمْ﴾: أيها المسلمون، أي: زوجوا أيها المسلمون من لم يكن ذا زوج من رجالكم ونسائكم الأحرار، فابحثوا للرجل عن زوجة وأعينوه على تكاليف الزواج، وخفضوا عنه المهر وغيره من أعباء الزواج.

وعلى هذا فإذا تقدم لنا خاطبان لامرأة أحدهما ليس معه زوجة والآخر معه زوجة، وهما في الدين والخلق والأمانة والكفاءة سواء فالأولى تقديم من لا زوجة معه؛ لأنه أحوج إلى الزواج لتحصينه وإعفافه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وليس في ذلك ما يدل على عدم تزويج من معه زوجة أو أكثر، وإنما نص على الأيامى؛ لأنهم أحوج من غيرهم.

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة «نكح».

(٢) انظر مادة: «أيم» في «الصحاح»، «لسان العرب» وانظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٠، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في النكاح ١٤٢١، وأبو داود في النكاح ٢٠٩٨، والنسائي في النكاح ٣٢٦٠، والترمذي في النكاح ١١٠٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٧٠.

(٤) سيأتي تخريجه.

وزوجوا الأيامى من النساء بمن جاء يخطبهن إذا كان ممن ترضون دينه وأمانته وخلقه، كما قال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»(١).

بل وابحثوا للمرأة عن رجل، بعرضها على من ترضون دينه وأمانته كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن عمر رضي الله عنه قال: «تأيَّمت حفصة بنت عمر من خنيس- يعني: ابن حذافة- وكان من أصحاب النبي ﷺ، ممن شهد بدرًا، فتوفي بالمدينة، فلقيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: سأنظر في ذلك، فلبثت ليالي فلقيته، فقال: ما أريد أن أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق- رضي الله عنه- ، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فلم يرجع إليَّ شيئًا، فكنت عليه أوجد مني على عثمان رضي الله عنه، فلبثت ليالي، فخطبها إليّ رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا، قلت: نعم. قال: فإنه لم يمنعني حين عرضت عليَّ أن أرجع إليك شيئًا إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، ولم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها نكحتها»(٢).

ويفهم من هذا عدم تزويج الكفار رجالهم ونسائهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

و«الصالحين»: جمع صالح وصالحة، غلب فيه الذكور على الإناث أي: الصالحين في دينهم ودنياهم. والصلاح في الدين: الإخلاص لله عز وجل مع متابعة الرسول ﷺ،

---

(١) أخرجه الترمذي في النكاح ١٠٨٥- من حديث أبي حاتم المزني رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن» وأخرجه ابن ماجه في النكاح- باب الأكفاء ١٩٦٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح- عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير ٥١٢٢، والنسائي في النكاح ٣٢٤٨، وأحمد ١/ ١٢.

والصلاح في الدنيا: كونهم يحسنون التصرف في أمور دنياهم، وبخاصة ما يتعلق بأمور الزواج وأحواله، وحقوق الأزواج ونحو ذلك. وخص العباد والإماء باشتراط الصلاح؛ لكثرة الفساد فيهم[١].

﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ «عباد»: جمع عبد، يقال في جمعه: عباد، وعبيد، وأعبد، وغير ذلك[٢]، وهم المماليك الذكور.

﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾ «إماء»: جمع أمة، وهي المملوكة، وتطلق الأمة على المرأة مطلقًا، كما في قوله ﷺ: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك»[٣].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٤].

وما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»[٥] لا يعارض قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾؛ لأن النهي في الحديث عن قول السيد: عبدي وأمتي، وهو أن يضيف السيد العبودية والأُمُوَّةَ إلى نفسه بضمير المتكلم، ومثل هذا في النهي- والله أعلم- لو قال: عبدنا وأمتنا؛ وذلك لما فيه من التعاظم والعلو والتكبر على مملوكه، وإشعار المملوك بالذل والإهانة.

أما ما عدا ذلك فيجوز، كأن يقال: هذا عبد فلان، وهذه أمة فلان، كما قال تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

وخص الصالحين؛ لأنهم هم الذين ينبغي أن يحفظ عليهم صلاحهم؛ لأن

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٤.

(٢) انظر: «الصحاح» مادة «عبد».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، ٤٥٢ من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- وصحح إسناده أحمد شاكر ٣٧١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٩٠٠، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، وأبو داود في الصلاة ٥٦٦، والنسائي في المساجد ٧٠٦، والترمذي في الجمعة ٥٧٠، وابن ماجه في المقدمة ١٦.

(٥) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بتزويجهم حفظًا لشطر دينهم، وأيضًا فإن صلاحهم يوجب على أوليائهم وسادتهم العطف عليهم والعناية بهم. وهذا من حفظ الله عز وجل وقد قال ﷺ لابن عباس- رضي الله عنهما- : «احفظ الله يحفظك»[(١)].

وإنما سُمِّي المماليك عبادًا وإماءً لمالكيهم وأسيادهم؛ لأنهم ذليلون لأسيادهم شرعًا وقدْرًا، فهم ذليلون شرعًا؛ لأنهم ملك لأسيادهم لهم التصرف في أمرهم ونهيهم، وبيعهم وشرائهم، ولهم جميع منافعهم، وهم ذليلون لأسيادهم قدرًا؛ لأنهم أقل قدرًا من أسيادهم.

والأمر في قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ للوجوب- عند بعض أهل العلم؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب فيجب على الأولياء تزويج الأيامى ممن تحت ولايتهم، ويجب على السادة تزويج الصالحين من مماليكهم[(٢)]، وينبغي للمسلمين عمومًا التعاون في ذلك.

وقال بعض أهل العلم: هو محمول على الندب[(٣)].

ولا شك أن النكاح في الأصل مستحب وسنة من سنن المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد يجب إذا خاف الإنسان على نفسه الوقوع في الفاحشة، وبعض أهل العلم يوجبه مطلقًا على كل من قدر عليه.

ويؤكد مشروعية النكاح ما جاء في حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ١/ ٣٠٣، ٢٩٣- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه أحمد شاكر.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٢.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» ٣/ ٣٤١.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم- الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ١٩٠٥، وفي النكاح ٥٠٦٥، ومسلم في النكاح ١٤٠٠، وأبو داود في النكاح ٢٠٤٦، والنسائي في الصيام ٢٢٣٩، والترمذي في النكاح ١٠٨١، وابن ماجه في النكاح ١٨٤٥.

وقال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»(١).

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر، قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»(٢).

ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء، وأن تزويج العبيد والإماء إلى أسيادهم(٣).

ويؤخذ من الآية أن العبد إذا طلب التزويج ليعف نفسه، أنه ليس للسيد أن يمنعه، بل يجب عليه أن يأذن له بذلك.

وقال بعض العلماء: بل له أن يمنعه.

وهذا مخالف للأمر في قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِن يَكُونُواْ﴾ يعود إلى من سبق ذكرهم جميعًا، وهم: الأيامى والصالحون من عبادهم وإمائهم، فيشمل الأحرار والمماليك، وخصه بعضهم بالأحرار؛ لأنهم هم الذين يَملِكون. والأولى حمله على الجميع.

وقد ثبت أن سيرين، وكان مملوكًا لأنس بن مالك- رضي الله عنه- سأل أنسًا المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى فانطلق إلى عمر- رضي الله عنه- فقال: «كاتِبه، فأبى، فضربه بالدرة ويتلو عمر: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتَبه»(٤).

والمعنى: إن يكن هؤلاء الأيامى والصالحون من عبادكم وإمائكم فقراء حين تزويجهم. و«فقراء»: جمع فقير، وهو من لا يجد إلا بعض الكفاية، وقد يكون معدمًا لا

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح- النهي عن تزوج من لم يلد من النساء ٢٠٥٠، ٢٠٥٤ والنسائي في النكاح- كراهية تزويج العقيم ٣٢٢٧،- من حديث معقل بن يسار- رضي الله عنه وقال الألباني: «حسن صحيح». وأخرجه أحمد ٣/ ١٥٨، ٣٤٥- من حديث أنس- رضي الله عنه- وصححه ابن حبان ١٢٢٨، والبيهقي في «سننه» ٧/ ٨١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة- بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ١٠٠٦.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» ٣/ ٣٤١.

(٤) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم- المكاتب ونجومه في كل سنة نجم. انظر: «فتح الباري» ٥/ ١٨٤.

يجد شيئًا، وهو مأخوذ من انفصام فقار الظهر؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، أو من «القفر» وهي الأرض الخالية.

﴿يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يغنهم جواب الشرط في قوله: ﴿إِن يَكُونُوا۟﴾، وهو مجزوم بحذف حرف العلة وأصله: «يغنيهم».

والمعنى: أن الله يعطيهم ويمنحهم ما يستغنون به، ويندفع به فقرهم من فضله عز وجل وما عنده من الزيادة والخير الكثير فلا يمنعكم فقرهم من تزويجهم.

وهذا خلاف ما يعتقده الكثير من الناس من أن الزواج قد يُحمِّل الزوج مسؤوليات وتكاليف، يصعب عليه تحمُّلها والقيام بها، حتى إن بعض الناس يحجم عن الزواج لعلل واهية قائلاً: لا أتزوج حتى أؤمن مستقبلي، يعني بأن يحصل على شهادة عليا ووظيفة، وسيارة، وسكن، وغير ذلك.

وهذه كلها تبريرات لا حقيقة لها. وتأمين المستقبل أمره إلى الله عز وجل، والرزق على الله، وكل قادم من زوجة أو ولد يولد فرزقه يأتي معه بإذن الله عز وجل، وكم من أناس بارك الله لهم ورزقهم الشيء الكثير بسبب ما عندهم من أولاد وزوجات. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه، وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم»(٢).

وروي عن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: «أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز ما وعدكم من الغنى. قال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾»(٣).

وقال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- : «التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله

---

(١) أخرجه النسائي في النكاح- معونة الله الناكح الذي يريد العفاف ٣٢١٨، وفي الجهاد ٣١٢٠، والترمذي في فضائل الجهاد- ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ١٦٥٥، وابن ماجه في العتق- باب المكاتب ٢٥١٨، وأحمد ٢/ ٢٥١. وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨١- الأثر ١٤٤٤٥، وذكره ابن كثير ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٢- الأثر ١٤٤٤٩، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٤.

تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾»[١].

وروي عن عمر- رضي الله عنه- قال: «عجبت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح والله عز وجل يقول: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٢]».

فلا ينبغي أن يؤخر الشاب الزواج انتظارًا لمزيد من الغنى، أو لأجل الحصول على شهادة عليا وسيارة وسكن ونحو ذلك، بل يكتفي بما تيسر ويتوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

ولا ينبغي أن يُرد الخاطب لأجل فقره، فقد قال النبي ﷺ لرجل: «التمس ولو خاتمًا من حديد» فلما لم يجد قال له: «زوجتكها بما معك من القرآن»[٣].

فمن كرم الله عز وجل ولطفه وسعة فضله أن يرزق من تزوج يريد العفاف، والمقاصد الشريفة للنكاح، ويغنيه من فضله، وييسر له أمره[٤].

وهذا وعد من الله عز وجل لكنه مربوط بمشيئة الله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٢٨].

وقد يتخلف ذلك لسبب من الأسباب

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: إنه عز وجل واسع الغنى، عظيم الفضل، واسع الرحمة والمغفرة والإحسان وغير ذلك.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء. ومن سعته عز وجل وسعة غناه وسعة رزقه وفضله، وسعة علمه، يغني من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٥.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» ٣/ ٣٤٢، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٢١، ومسلم في النكاح ١٤٢٥، وأبو داود في النكاح ٢١١١، والنسائي في النكاح ٣٢٨٠، والترمذي في النكاح ١١١٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٨٩ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٥.

ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ الواو: عاطفة، واللام لام الأمر، و«يستعفف»، أي: يطلب العفة والكف عن الحرام، و«استعفف» أبلغ من «عفّ»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والعفاف: صون النفس وإكرامها ورفعها عما لا ينبغي، من الوقوع في الفواحش، كالزنا، ومقدماته، كالنظر المحرم، والسماع المحرم، والخلوة المحرمة، ونحو ذلك.

كما قال عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، وقال عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

ومن العفة والعفاف: الاستغناء عما في أيدي الناس.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، أي: الذين لا يجدون تزويجًا، بمعنى: لا يجدون من المال ما يتزوجون به؛ لشدة فقرهم، أو يخطب أحدُهم لكن لا يُقبل، أو لا يجدون نساءً يتزوجونهن- وإن كان هذا نادرًا- أو لا يستطيعون النكاح لامتناع أسيادهم من تزويجهم.

والمعنى: وليطلب العفاف من لا يجد ما يتزوج به من المال بأسباب العفاف المقدورة له، كالصيام، كما قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١).

وأيضًا بالاحتراز من النظر إلى النساء، وحمل النفس على الصبر، وانتظار اليسر من الله، فإنه لن يغلب عسر يسرين، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله.

قال ابن كثير(٢): «وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي

---

(١) سبق تخريجه

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥]. أي: صبركم عن تزوج الإماء خير لكم؛ لأن الولد يجيء رقيقًا».

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ حتى: لانتهاء الغاية، أي: حتى يرزقهم الله ما يستغنون به، ويقدرون به على الزواج من المال، وتيسر الزوجات الصالحات وغير ذلك، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾، أي: مما عنده عز وجل من الزيادة والخير الكثير والرزق الواسع.

قال السعدي[1]: «وعد من الله عز وجل للمستعفف أن الله سيغنيه وييسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج؛ لئلا يشق عليه ما هو فيه».

والعفاف أمر واجب وفرض على الدوام وفي كل وقت، ولا مفهوم للغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إذ ليس المراد أن الله إذا أغناهم من فضله فلا حاجة لهم إلى العفة، وإنما المعنى أن من أغناه الله من فضله، ووجد النكاح الشرعي، فقد أعفه الله بالحلال عن الحرام، بخلاف من لم يغنه الله، ولم يجد النكاح فهو الذي يحتاج إلى المجاهدة لإعفاف نفسه عن الحرام، حتى يرزقه الله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:٣٤]، فليس المراد أنه إذا بلغ أشده فاقربوه بغير التي هي أحسن؛ بل المعنى حتى يبلغ أشده فتعطوه ماله.

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إشارة إلى أن الاستعفاف كالنكاح سبب للغنى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

فمن استعف واتقى الله وأطاعه، يسر الله له أمره، ورزقه من حيث لا يحتسب.

كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٦.

[طه:١٣٢].

وقال هود- عليه السلام- لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود:٣]، وقال عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقال نوح- عليه السلام- لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠- ١٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

ذكر الواحدي: «أن هذه الآية نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى، يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه، فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية، وكاتبه حويطب على مئة دينار، ووهب له منها عشرين دينارًا، فأداها، وقتل يوم حنين في الحرب»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الواو: عاطفة و«الذين» مبتدأ، وخبره قوله: «فكاتبوهم»، أي: والذين يطلبون ويريدون الكتاب من مماليككم، و«الكتاب» والكتابة والمكاتبة: هي بيع السيد مملوكه على نفسه، أي بيع السيد نفس المملوك على المملوك، وهي عقد عتاقة على مال يدفعه المملوك نجومًا، أودفعة واحدة.

وسُمي كتابًا ومكاتبة؛ لأنه غالبًا يكتب؛ لأن المال فيه مؤجل. وفي هذا ترغيب بكتابته تفاديًا للاختلاف والنسيان والموت والفوت، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: من الذي ملكتموه من الأرقاء ذكورًا كانوا أو إناثًا،

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢١٩، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٤٦- ٢٤٧، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١١٥- ١١٦.

و«من» بيانية فيها بيان الموصول «الذين».

وأضيف الملك إلى اليمين مع أن الذي يملك الشخص نفسه تشريفًا لها؛ لأنها هي الآخذة المعطية.

وفي الآية إثبات الملك للبشر، وهو ملك إضافي نسبي، وإثبات الرق وملك اليمين، أما الملك المطلق فهو لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١] فحصر الملك لنفسه- عز وجل.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ خبر المبتدأ، ودخلت عليه الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، أي: فأجيبوا طلبهم وكاتبوهم.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾، أي: إن علمتم في هؤلاء المملوكين الذين يريدون الكتابة ﴿خَيْرًا﴾، أي: صلاحًا في دينهم ودنياهم، من الصدق والأمانة والقدرة على الكسب، وأداء ما كاتبتموهم عليه من المال، والإنفاق على أنفسهم، وتحمل المسؤولية بأنفسهم.

قال ابن كثير(١): «هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكاتبوا بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب، يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه».

وقال السعدي(٢): «لأن في الكتاب تحصيل المصلحتين مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه، وربما جد واجتهد وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل عليه في رقه».

ويفهم من الآية أنه إذا لم يتوفر هذا الشرط وهو قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فلا يؤمر بمكاتبتهم، سواء حمل الأمر على الوجوب، أو على الاستحباب، بل لا تنبغي مكاتبتهم، وذلك لئلا يضيع حق المالك، ويكون المملوك عالة على الغير، لكن إن علمنا فيهم شرًا لم تجز مكاتبتهم، وإن لم نعلم فيهم لا خيرًا ولا شرًا فقيل تجوز مكاتبتهم، وقيل: لا تجوز.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي: وأعطوهم أيها الأسياد من مال الله الذي أعطاكم، وذلك بالتخفيف عنهم في الكتابة، وعدم تكليفهم ما يشق عليهم، وأن

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٥.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤١٦.

يوضع عنهم شيء مما كوتبوا عليه، ويعينوهم على ذلك.

عن عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه كاتب عبدًا له يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه حين حل، فقال: «يا أبا أمية، اذهب فاستعن به في مكاتبتك. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف ألا أدرك ذلك» ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾. قال عكرمة: «كان أول نجم أدي في الإسلام»(١).

وهكذا ثبت عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يعني: «ضعوا عنهم من مكاتبتهم»(٢).

وكان ابن عمر- رضي الله عنهما- إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه، مخافة أن يعجز، فيرجع إليه صدقته، لكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب»(٣).

والأمر في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ عام يشمل جميع المؤمنين بأن يعينوا المكاتبين على أداء ما عليهم، ويعطوهم نصيبهم من الزكاة الذي فرضه الله لهم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ [التوبة:٦٠](٤).

ويدخل في عموم الأمر ولاة أمر الأمة، بأن يعتنوا بتخليص المكاتبين من الرق، ويساعدوهم على ذلك من بيت مال المسلمين؛ لأن الإسلام ندب إلى إعتاق الرقيق.

وفي إضافة المال إلى الله عز وجل في قوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ تنبيه إلى أن المال الذي بأيدي الناس كله لله عز وجل ومنه استخلفتم فيه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٧- الأثر ١٤٥١٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧، والسيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٤٦ وزاد نسبته لعبد الرزاق والبيهقي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٧- الأثر ١٤٥١١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٨٦، والبيهقي في «سننه» ١٠/ ٣٣٠ من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٥١- ٢٥٢، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٧.

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يومًا أن ترد الودائع[١]

وفي قوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم وإن آتيتموهم فالمنة والفضل لله سبحانه وتعالى؛ لأن المال مال الله قدرًا، فهو الذي أعطاكم المال، أو قدرًا وشرعًا إذا كان المراد بمال الله الزكاة.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

سبب نزول الآية:

عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «كان لعبد الله بن أبي ابن سلول جارية يقال لها مسيكة، وكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]».

وعن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما: «أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية، فولدت أولادًا من الزنا، فقال لها: مالك لا تزنين؟ قالت: لا، والله لا أزني، فضربها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[٣].

قال ابن كثير[٤]: «كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المسلمين عن ذلك».

قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: ناهية. والإكراه: حمل الإنسان على فعل الشيء، أو قوله بالقوة، وهو له كاره، وهو ضد الطواعية.

---

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ص١٧٠.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ ٣٠٢٩، وأبو داود في الطلاق ٢٣١١، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٠- ٢٩١، والحافظ أبو بكر البزار- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٨. وانظر: «أسد الغابة» ٥/ ٥٤٦، «أسباب النزول» للواحدي ص ٢١٩- ٢٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٨٩- الأثر ١٤٥٢٣، وانظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٢- ٢٩٣.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٥٧.

و﴿فَتَيَٰتِكُمُ﴾: جمع فتاة، وتطلق على الشابة، وعلى الأمة.

قال ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»(١).

والمراد: بالفتيات هنا الإماء، كما دل عليه سبب النزول.

﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، أي: على الزنا. والمرأة البغيّ: هي المرأة الزانية.

عن أبي مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغيّ، وحلوان الكاهن»(٢).

والبغيّ هي الزانية، ومهرها هو أجرة زناها.

وسُمي الزنا بالبغاء، ومعناه الطلب: لأن الزنا يُطلب ويُبتغى، يبتغيه ويطلبه الزناة والفساق(٣).

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا الشرط خرج مخرج الغالب، وحكايةً للواقع فالغالب والواقع أنهم يكرهونهنّ على الزنا وهن يردن التحصن، وعلى هذا فلا مفهوم لهذا الشرط(٤).

فلا يفهم منه أنهن إذا لم يردن التحصن يجوز إكراههن، وهذا بالإجماع. وإنما فيه زيادة التشنيع على السادة الذين يكرهون إماءهم على الفاحشة بدلاً من كونهم يحصنونهن، ويمنعونهن من الفساد، وفي هذا من الدياثة ما فيه.

والمراد بالتحصن: التعفف عن الفاحشة، والامتناع عنها، كما قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥] وقال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥]

قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٥٢، ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها ٢٢٤٩، وأبو داود في الأدب ٤٩٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٣٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٧، وأبو داود في البيوع ٣٤٢٨، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٢٩٢، والترمذي في النكاح ١١٣٣، وابن ماجه في التجارات ٢١٥٩.

(٣) انظر: «لسان العرب» مادة «بغى».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٩.

فـــلا تـــأمننَّ الحـــيّ قيسًـــا فـــإنهم بنـو مُحْصَـنَات لم تـدنس حجورهـا[١]

﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ اللام لام التعليل، أي: لتطلبوا بإكراههن على الزنا.

﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ العرض: ما يعرض ثم يزول، والمراد به هنا المال. والحياة الدنيا: هي الدار التي نحن فيها.

وفي تسميتها «الدنيا» إشارة إلى أن هناك حياة أخرى، وسميت دنيا؛ لأنها متقدمة في الزمن على الدار الآخرة؛ ولأنها دنيئة لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فهي متاع غرور، ومتاع قليل، كما وصفها الله في كتابه، وكما قال عز وجل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦- ١٧].

وقال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

فهي وما فيها من المتاع ظل حائل، وعرض زائل، إما تزول عنك أو تزول أنت عنها.

قال الشاعر:

نصـــيبك ممـــا تجمـــع الـــدهر كلـــه رداءان تلـــوى فـــيهما وحنـــوط[٣]

وقال الآخر:

لا شيءَ ممـــا تـــرى تبقـــى بشاشـــته يبقـــى الإلـــهُ ويفنـــى المـــالُ والولـــدُ[٤]

ومعنى الآية: لتطلبوا عرضًا دنيويًّا من المال مقابل ذلك، وهو أجرة الزنا وفداء أولاد الزنا[٥].

وفي هذا ذم لهم، وإشارة إلى انحطاط منزلتهم، حيث جعلوا من أنفسهم دعاة إلى الدعارة والفجور، وأكرهوا إماءهم على الزنا؛ لأجل العرض الدنيوي التافه الحقير.

وعن رافع بن خديج- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شر

---

(١) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» ص٨٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» ٢٧٩٦- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الدر المصون» ٦/ ٥٣٥.

(٤) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» ص٣٤٧.

(٥) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٥٨٩، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٥٥.

الكسب مهر البغي، وثمن الكلب، وكسب الحجام»[١]

وقال ﷺ: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»[٢].

وقوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لبيان الواقع وأنهم يكرهونهن على البغاء؛ لأجل العرض الدنيوي، ولا مفهوم له، فلو لم يريدوا العرض الدنيوي بإكراههن ما جاز لهم ذلك.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ الواو: عاطفة و«من» شرطية تفيد العموم، «يكرههن»، أي: يلزمهن بقوة بفعل الفاحشة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. جملة جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

وهنا عاد جواب الشرط إلى غير ما يعود إليه فعل الشرط، ففعل الشرط يعود إلى الأسياد الذين يُكرِهون إماءهم على الزنا، وجواب الشرط يعود على الإماء، اللاتي يُكرهن على الزنا، فعاد جواب الشرط على ملابس وملازم لفعل الشرط؛ لأنه لا مُكرِه إلا بمكرَه.

والمعنى: فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن، رحيم بهن، إذا كان ارتكابهن لها بسبب الإكراه المحض، دون أن يكون لهن أي ميل إلى الفاحشة؛ لأن المكرَه معفو عنه، كما في حديث أبي ذر الغفاري وابن عباس- رضي الله عنهم- أن رسول الله ﷺ قال: «عُفي لأُمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».[٣]

قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «فإن فعلتم- أي: أكرهتموهن- (فإن الله) لهن (غفور رحيم) وإثمهن على من أكرههن».[٤]

وفي قراءةٍ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة ١٥٦٨، وأبو داود في البيوع- كسب الحجام ٣٤٢١، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٢٩٤، والترمذي في البيوع- ما جاء في ثمن الكلب ١٢٧٥، وأحمد ٣/ ٤٦٤- ٤٦٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢١، ٣٩٩- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطلاق- طلاق المكره والناسي ٢٠٤٣، ٢٠٤٥. وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٩.

(٥) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩١- الأثر ١٤٥٣٦، وذكرها «ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٩.

وكذا قال الحسن البصري- رحمه الله: «فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم» لهن والله، لهن والله»[١]. وروي نحوه عن مجاهد وسعيد بن جبير وابن زيد[٢].

ففي الآية دليل على أن المكره لا مؤاخذة عليه، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦].

فبمغفرة الله لهن زوال المرهوب والعقوبة الدنيوية والأخروية، وبالرحمة حصول المطلوب لهن من الفرج في الدنيا، والأجر في الآخرة.

ومع هذا فلا يمتنع أن يشمل قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من تاب ممن أكرهوهن إذا صدقوا بالتوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾.

هذا توكيد لقوله أول السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:١]، إلا أن هذه الآية أعم من الآية أول السورة، فيدخل في عمومها ما ذكر الله عز وجل أول السورة وما بعده، وغير ذلك مما أنزله الله عز وجل من الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ الواو استئنافية، واللام واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله لقد أنزلنا. و«قد» للتحقيق، فالجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكدات، هي: القسم، واللام، و«قد».

والإنزال: هو إنزال الشيء من علو إلى أسفل.

﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ فيه تشريف وتكريم لأمة محمد ﷺ أمة الإجابة، وهم المؤمنون، فمن أجلهم أنزل الله الكتاب، وأرسل الرسول ﷺ.

﴿ءَايَٰتٖ﴾ هي آيات القرآن الكريم، الآيات الشرعية، فهي علامات على عظمة من أنزلها، وصدق من جاء بها، لما فيها من الأحكام العادلة، والأنباء الصادقة،

---

(١) أخرجه أبو عبيد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٩.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٩٢- ٢٩٤.

وصلاحيتها لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم «مبيِّنات» اسم فاعل من «بيَّن» اللازم، بمعنى «تبيَّن»، أي: أنهن بيِّنات واضحات ظاهرات، لا خفاء فيهن.

أو من «بيَّن» المتعدي، أي: أنهن موضحات ومظهرات للأحكام الشرعية، وللحق من الباطل، والهدى من الضلال.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم «مبيَّنات» اسم مفعول، أي: أن الله عز وجل بينهن وأوضحهن وأظهرهنّ لعباده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

فكلام الله عز وجل واضح بيِّن، لا إشكال فيه، ولا خفاء- ولله الحمد- وكذا عموم نصوص الشريعة، وأحكامها، لكن قد يقع الإشكال في بعض المسائل الشرعية بسبب سوء الفهم، أو التقصير في طلب العلم، أما مع العلم والفهم الصحيح التامين فلا يوجد إشكال في الشريعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في العقيدة الواسطية: «من تدبر القرآن طالبًا للهدى منه تبين له طريق الحق»[(١)].

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: وذكرنا لكم صفة، وأمثلة وقصصًا عجيبة غريبة[(٢)]، من أخبار الذين مضوا من قبلكم، مما حصل لرسل الله عز وجل وأوليائه من الابتلاء، ثم كانت العاقبة والتمكين والنصر لهم على أعدائهم.

فما حصل لأم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- ليس بدعًا في التاريخ، فقد قيل لمريم- عليها السلام- لما جاءت تحمل ابنها عيسى- عليه السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧-٢٨]. وهذا اتهام لها بالزنا، فبرأها الله عز وجل على لسان وليدها الصغير، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩- ٣٠].

---

(١) «مجموع الفتاوى» ٣/ ١٣٧.

(٢) انظر: «الكشاف» ٣/ ٧٦.

وقالت امرأة العزيز متهمة يوسف- عليه السلام: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥]. وسجن- عليه السلام- من أجل ذلك، حتى برأه الله عز وجل على ألسنة النسوة اللاتي جمعتهن، وعلى لسانها هي، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

كما ذكر الله عز وجل أمثلة من أخبار المكذبين للرسل، وما أحل بهم من العقوبات والنكال، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

ولما ذكر الله عز وجل قصة إهلاك قوم لوط- عليه السلام- بقلبها عليهم وإتباعها بالحجارة قال: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

فسنة الله عز وجل واحدة في إهلاك المكذبين.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾، أي: عظة وعبرة وزاجرًا عن التكذيب والمخالفة لأمر الله عز وجل، وعن ارتكاب المحرمات.

والموعظة: ذكر الأحكام والأوامر والنواهي مقرونة بالترغيب والترهيب، بذكر الجنة ونعيمها وصفات أهلها، والنار وعذابها وصفات أهلها، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧].

وقال عز وجل في سورة البقرة بعد أن ذكر كثيرًا من الأحكام في الطلاق والرجعة والنكاح: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢]، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨].

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: للذين يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وخصهم بالذكر؛ لأنهم هم المتعظون المنتفعون بمواعظ القرآن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ

وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥] وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى:١٠- ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر:١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥].

قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- في صفة القرآن الكريم: «فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله»(١).

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية النكاح والترغيب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء:٣].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» الحديث(٢).

وأجمع المسلمون على مشروعية النكاح، وأنه سنة من سنن المرسلين- عليهم الصلاة والسلام- رغبت فيه الشرائع والديانات كلها؛ لأنه سبب بقاء الإنسان، وعمران هذا الكون، وهو أفضل من نوافل العبادة على الصحيح.

ولهذا رد النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون، ونفر من الصحابة رضي الله عنهم، بل وعدّ ذلك ﷺ رغبةً عن سنته.

عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا»(٣).

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح- ما يكره من التبتل والخصاء ٥٠٧٤، ومسلم في النكاح- استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ١٤٠٢، والنسائي في النكاح ٣٢١٢، والترمذي في النكاح ١٠٨٣، وابن ماجه في النكاح ١٨٤٨.

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: «لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ النبي ﷺ ذلك، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)].

وجمهور أهل العلم على أن النكاح سنة ومندوب إليه، ومن أهل العلم من يرى وجوبه، ويتأكد الوجوب فيما إذا خاف الإنسان على نفسه الوقوع في الفاحشة رجلاً كان أو امرأة[(٢)].

٢- يجب على الأولياء تزويج من تحت ولايتهم من الأيامى من الذكور والإناث؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، والأمر للوجوب.

٣- ظاهر قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أنه يجب على السادة تزويج مماليكهم. وذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك ليس بواجب.

٤- فضل الصلاح؛ لأن الله خص الصالحين من العبيد والإماء بالأمر بتزويجهم فقال: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وذلك تكريمًا لهم، وتشجيعًا وحفاظًا على صلاحهم، فيزوجون مماليك مثلهم.

٥- أن الذي يتولى تزويج الأيامى من الأحرار من النساء والرجال القصار هم أولياؤهم، وأن الذي يتولى تزويج العبيد والإماء هم سادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فلا تزوج المرأة نفسها، ولا يزوج المملوك نفسه.

٦- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

٧- أن النكاح سبب للغنى بإذن الله عز وجل وتوفيقه، ووعده الذي لا يخلف؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٣١٩- ٣٢٠، «المغني» ٩/ ٣٤٠- ٣٤٤، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٣٩.

٨- لا ينبغي أن يكون الفقر مانعًا من الزواج، وينبغي أن يكون الإنسان أوثق بوعد الله، وبما عنده سبحانه مما في يده.

بل قد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ على أنه لا يفرق بين الزوجين من أجل إعسار الزوج، وأن الزوجة لا تخير في البقاء مع الزوج المعسر وعدمه، لأنه إذا لم يكن الفقر مانعًا في ابتداء النكاح، فلا يكون مانعًا في استدامته من باب أولى، والعلماء في هذا على قولين[1].

٩- إثبات سعته عز وجل وكرمه وسعة علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٠- وجوب الاستعفاف على الذين لا يجدون نكاحًا حتى يغنيهم الله من فضله، وأن الاستعفاف من أسباب الغنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

١١- الأمر بمكاتبة من يبتغي الكتابة من الأرقاء إذا علم أن فيهم خيرًا وقدرة على الكسب الوفاء، وصلاحًا لهم في ذلك، في أمر دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

وظاهر الآية أنه يجب على السادة إذا طلب منهم مماليكهم المكاتبة أن يكاتبوهم إن علموا فيهم خيرًا وبهذا قال جمع من أهل العلم.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: «أواجب عليّ إذا علمت له مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجبًا. قال عمروا بن دينار: أتأثره عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر بن الخطاب فقال: «كاتبه» فأبى، فضربه بالدرة، ويتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه»[2].

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن سيرين أراد أن يكاتبه، فتلكأ عليه فقال له عمر: «لتكاتبنه»[3].

---

(١) انظر: «المغني» ١١/ ٣٦٠- ٣٦٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٦، وعبد الرزاق في «المصنف» ٨/ ٣٧١- ٣٧٢، والبيهقي في

قالوا: فكما يجب على الإنسان إخراج الزكاة والكفارات والنفقات الواجبة من ماله لأمر الله بذلك، كذلك يجب عليه مكاتبة مملوكه لأمر الله بذلك.

وأيضًا فإن الشرع متطلع إلى العتق؛ لأن الأصل في بني آدم الحرية، والرق وارد عليه؛ ولهذا رغب الشرع المطهر في العتق.

وقال ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إربًا منه من النار»(١).

وأوجب عز وجل في عدد من الكفارات عتق رقبة مثل كفارة القتل والظهار واليمين.

واختار هذا القول ابن جرير الطبري(٢).

وجمهور أهل العلم على أن هذا الأمر للإرشاد والاستحباب والندب، فالسيد يندب إذا طلب منه عبده الكتابة أن يكاتبه، ولا يلزمه ذلك(٣).

وذلك أن ملك اليمين من مال السيد، وقد دل الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، كما قال ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»(٤).

فكما لا يُلزم السيد بإعتاق مملوكه أو بيعه، كذلك لا يُلزم بمكاتبته؛ لأن حقيقة المكاتبة لا تتعدى العتق أو البيع، فهي من حيث تخليص الرقبة من الرق عتق، ومن حيث أخذ العوض بيع.

وأيضًا فإن قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يؤيد القول بأن الأمر فيه للندب والاستحباب؛ لأن علم الخيرية فيهم أمر قد يُختلف فيه، ولا يكاد يُتفق عليه، لا فيما بين

«سننه» ١٠/ ٣٠٩. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٦. «إسناده صحيح».

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥١٧، ومسلم في العتق ١٥٠٩، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٤١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢٧٨.

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٤٥، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٥.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٧٢- عن أبي حرة الرقاشي عن عمه رضي الله عنه، و٥/ ١٧٢- من حديث عمرو بن يثربي رضي الله عنه.

الناس، ولا فيما بين السيد ومملوكه، ولو كان الأمر للوجوب لما وكل العلم إلى السادة(١).

١٢- إذا لم يُعلم بالمملوك خيرٌ بل خيف ألا يفي بما عليه، أو يكون عالة على الغير، ويتضرر في دينه فلا ينبغي أن يكاتب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

١٣- الترغيب في مساعدة المكاتبين، من قبل أسيادهم بحيث لا يثقلون عليهم في المكاتبة، وأن يضعوا عنهم شيئًا منها ويعينوهم على الأداء ما استطاعوا.

وهكذا ينبغي لولاة الأمر مساعدتهم من بيت مال المسلمين، وعلى غيرهم من المؤمنين أن يعينوهم، ويعطوهم نصيبهم من الزكاة الذي فرضه الله لهم بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة:٦٠].

بل ويتصدقون عليهم من الصدقة غير الواجبة. فإن عتق الرقاب من أفضل الأعمال، كما قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد:١١- ١٣].

١٤- عناية الإسلام بتحرير الأرقاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

ولهذا شرع في كثير من الكفارات عتق الرقيق، ككفارة القتل، والظهار، والجماع في نهار رمضان، واليمين وغير ذلك.

وقد روي أن النبي ﷺ أعتق ثلاثًا وستين رقبة، وأعتقت عائشة سبعًا وستين رقبة، وأعتق العباس سبعين رقبة، وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة، وأعتق ابن عمر ألف رقبة، وأعتق ذو الكلاع الحميري ثمانية آلاف رقبة، وأعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألف رقبة(٢).

١٥- أن ما بأيدينا من المال هو من مال الله عز وجل، منحنا الله إياه، فلا ينبغي أن نبخل في أداء حق الله فيه، والإنفاق منه في طرق الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

١٦- تحريم جعل الإماء سلعة للكسب الحرام بالزنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٦، «تفسير سورة النور» للشنقيطي ص ١٨٨.

(٢) انظر: «تفسير سورة النور» للمودودي ص ١٨٨- ١٨٩.

ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وسواء أردن التحصن أو لم يردنه فكل ذلك محرم لا يجوز؛ لأن الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لبيان الواقع، وهو أنهم كانوا يكرهونهن مع أنهن يردن التحصن والعفاف، وعلى هذا فلا مفهوم لهذا الشرط.

١٧- ينبغي أن يقول السيد لمملوكاته: «فتياتي» ولا يقول: «إمائي»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾، وفي الحديث: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي»[1].

١٨- لا ينبغي أن يكون العرض الدنيوي الزائف الزائل حاملاً على الوقوع في الفواحش وما حرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٩- التعريض بحقارة الدنيا كلها، وأنها بما فيها عرض زائل؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وسميت دنيا لدناءتها وحقارتها وقلة قيمتها بالنسبة للآخرة.

٢٠- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة ورحمة خاصة.

٢١- أن المكرَه على فعل المعصية أيًا كانت لا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: غفور لهن، رحيم بهن.

كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦].

٢٢- تعظيم الله عز وجل لنفسه ولما أنزل من الآيات البينات، فأقسم سبحانه بنفسه على أنه أنزل آيات بينات؛ إقامة للحجة على الخلق، وإعذارًا وإنذارًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، وقد أكدت هذه الجملة بالقسم، واللام، و«قد».

٢٣- إثبات علو الله عز وجل على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، والإنزال يكون من

---

(١) سبق تخريجه.

علو. فله عز وجل علو الذات، وعلو الصفات.

٢٤- إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾. وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٢٥- في تسمية الله عز وجل لما أنزله بالآيات الإشارة إلى دلالة هذه الآيات على أنها من عند الله لأنها تدل بعظمتها، وإعجازها بألفاظها ومعانيها وأحكامها وأخبارها وصلاحيتها لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة، على أنها من عند الله، الذي له الكمال في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته، وعلى صدق من جاء بها.

٢٦- بيان الله عز وجل لما أنزله من الآيات بيانًا تامًا شافيًا كافيًا، فهي بينة في نفسها ومبينة للحق من الباطل والهدى من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

٢٧- أن الله عز وجل هو الهادي الموفق لمن شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٢٨- إثبات المشيئة لله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٢٩- أن صراط الله عز وجل وطريقه هو أعدل الطرق وأقومها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾:

﴿ٱللَّهُ﴾ علَم على ذات الرب عز وجل، وهو أصل الأعلام، وأصل أسماء الله عز وجل، وتأتي أسماء الله عز وجل كلها تابعة له، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ﴾ [الحشر:٢٣]، وغيرها.

وقد يأتي تابعاً؛ كما في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [إبراهيم:١، ٢].

لكنه لا يعرب صفة وإنما يعرب عطف بيان.

ومعناه: المألوه المعبود بحق محبةً وتعظيماً.

﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خبر لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: نور السموات والأرض بذاته وصفاته وآياته، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، وذلك إذا جاء عز وجل لفصل القضاء.

وقال ﷺ: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن»(١).

ولما سئل ﷺ: هل رأيت ربك ؟ قال: « نور، أنى أراه»(٢).

وهو نور يليق بجلاله وعظمته، لا يكيف ولا يمثل.

وقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٢٠، ومسلم في صلاة المسافرين- الدعاء في صلاة الليل ٧٦٩، وأبو داود في الصلاة ٧٧١، والنسائي في قيام الليل ١٦١٩، والترمذي في الدعوات ٣٤١٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٥، وأحمد ١/ ٣٥٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٨- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: « نور أنى أراه» وأخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٨٢.

من خلقه »[١]، أي: كل شيء.

وقال عز وجل عن القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤] وقال عز وجل: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨].

فالقرآن روح به تحيا القلوب والأبدان وبدونه تموت، وهو نور في دياجير ظلمات الجهل والشك والكفر.

وأيضاً: هو سبحانه هادي أهل السموات والأرض، ومنوّر السموات والأرض، أي: موجد النور، وخالقه فيهما، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين معاً فهو عز وجل نور السموات والأرض، بذاته وصفاته وآياته، وهو هادي أهل السموات والأرض، ومنورهما، وخالق النور فيهما[٢].

فما في السموات والأرض والكون كله من نور، حسيًّا كان أو معنويًّا فهو منه عز وجل، ومن نوره.

ولا يجوز حمل الآية على المعنى الثاني وحده؛ لأن الله عز وجل وصف نفسه أنه نور السموات والأرض، وأن آياته نور، وصفاته نور، كما دلت على ذلك السنة، فوجب إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

وقصر الآية على المعنى الثاني تحريف للآية عن ظاهرها. وهذا منهج أهل البدع فرارا من وصفه عز وجل بالنور.

وينبغي أن يُعلم أن النور نوعان:

أ- نور ذاته عز وجل وصفاته وآياته. وهو صفة من صفاته عز وجل، وهذا غير مخلوق، قال ابن القيم[٣]: « فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- إثبات رؤية الله- سبحانه وتعالى ١٧٩ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) انظر: « دقائق التفسير » ٤/ ٤٧٠، « بدائع التفسير » ٣/ ٢٥٧

(٣) انظر: « بدائع التفسير » ٣/ ٢٥٦. وهكذا ذكر ابن تيمية- رحمه الله- أن مذهب السلف أن النور من

النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى ».

ب- ونور آخر مخلوق منفصل بائن عن الله عز وجل وهو أيضاً نوعان:

١- حسي كنور الشمس والقمر والكواكب والمصابيح كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥]، ومنه النور الأخروي، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢] وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨].

٢- ومعنوي وهو ما يلقيه الله في قلب المؤمن كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية، وقوله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

وذلك هو معرفة الله والعلم والإيمان(١).

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، أي: شبهه ونظيره وصفته.

والمعنى: مثل نوره عز وجل الذي يقذفه في قلب المؤمن من نور الفطرة والإيمان والهدى والقرآن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله»(٢).

وعن أبي بن كعب- رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ قال: «فهو

أسماء الله وحجتهم هذه الآية؛ لأن النور صفة كمال، خلافاً للجهمية. انظر: «تفسير سورة النور» لابن تيمية ص ١٦٦.

(١) انظر: «المفردات» مادة «نور».

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٦ مطولاً وصححه أحمد شاكر ٦٦٤٤، وأخرجه الترمذي في الإيمان- ما جاء في افتراق هذه الأمة ٢٦٤٢ وقال: «حديث حسن »، والحاكم في « المستدرك » ١/ ٣٠ وصححه وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد) ٧/ ١٩٣- ١٩٤: « رواه أحمد بإسناد ين والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات »، وصححه الألباني في « الصحيحة » ٣/ ٦٤ حديث ١٠٧٦.

المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره»[١].

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما- : «مثل هداه في قلب المؤمن»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: « وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه، من معرفته ومحبته، والإيمان به، وذكره، وهو النور الذي أنزله إليهم، فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصَّله في قلوبهم، ثم تقوى مادته، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم، وجوارحهم، وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكر، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا ».

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢]، وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨].

ولا يصح أن نقول مثل « نور الله » نور ذاته وصفاته وآياته كمشكاة؛ لأن الله لا مثل له لا في ذاته ولا في صفاته قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤].

فالدليل الشرعي وكذا العقل يمنع أن تشبّه صفاته عز وجل بصفات المخلوقين.

والمشكاة: هي الكوة في الحائط، وهي الطاقة غير النافذة، تجعل النور ينعكس ويجتمع ولا يتبدد.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، أي: في المشكاة مصباح، والمصباح هو النور الذي في الفتيلة (السراج)[٤].

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، أي: المصباح في زجاجة، تصفي نوره وتحميه وتقيه من الاضطراب وتزيده تألقاً، والزجاجة جرم شفاف.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٣٠٢، «وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩٥- ٢٥٩٧.

(٢) ذكره ابن كثير «في تفسيره » ٦/ ٦١

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٣- ٢٥٤.

(٤) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٠٧، «المعرب» للجواليقي ٣٥١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٢.

قوله ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾، الكاف للتشبيه، أي: كأنها في صفائها وإضاءتها.

﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قرأ الجمهور: (دُرِّيٌّ) بضم الدال وتشديد الياء، نسبة إلى الدُّر، وهو(اللؤلؤ والياقوت).

أي: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، أي: شديد الإضاءة كالدر والياقوت، واللؤلؤ في الصفاء واللمعان. ومنه سميت الكواكب الدراري الخمسة: المشتري وزحل والمريخ وعطارد والزهرة.

وقرأ الكسائي وأبو عمرو: (دِرِّئٌ) بكسر الدال مع المد والهمز.

وقرأ حمزة: (دُرِّيء) بضم الدال مع المد والهمز.[1]

والمعنى على القراءتين الأخيرتين مأخوذ من الدرء بمعنى الدفع؟[2].

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ [النور:٨]، أي: ويدفع عنها العذاب.

أي: كأنها كوكب دفع ورُمي به، والكوكب أشد ما يكون استنارة إذا رمي به، فهو يدفع الظلمة بشدة وقوة، لقوة نوره وشدة إضاءته، كما يدرأ ويدفع الشياطين.

والمعنى: أن الزجاجة في صفائها وإنارتها كالكوكب الدري، في شدة صفائه وقوة بياضه وإضاءته ولمعانه، والذي يدفع الظلمة بشدة وقوة، لأن قوله: «دُرِّيءٌ» على وزن (فُعِيِّل) صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة تدل على التعظيم.

﴿يُوقَدُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بتاء مفتوحة، مع فتح الواو والدال وتشديد القاف، فعلاً ماضياً: «تَوقَّدَ»، أي: تَوقَّدَ المصباحُ.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص بياء مضمومة، مع إسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدال على التذكير، فعلاً مضارعاً مبنياً للمجهول: ﴿يُوقَدُ﴾، أي: المصباح.

وقرأ الباقون كذلك إلا أنه بالتاء على التأنيث: «تُوقَدُ»، أي: الزجاجة[3].

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، «من» لابتداء الغاية، أي: يستمد وقوده من زيت شجرة

---

(١) انظر: «العناية في القراءات العشر» ص ٣، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٦١، «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٢.

(٣) انظر: «الغاية» ص ٣٣٩، «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٢.

مباركة[١]. ولابد من تقدير « زيت »، أي: من زيت شجرة، لأن الشجرة ليست هي الوقود، وإنما الوقود زيتها المعتَصر من ثمرها.

﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾، أي: ذات بركة كثيرة، وخير كثير، لأن الله بارك فيها. والبركة: الخير الكثير الثابت، ومنه سميت بركة الماء (بِركة) لكثرة مائها وثبوته.

ومنه قوله تعالى عن نفسه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، وقوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص:٢٩]، وقوله تعالى فيما حكاه عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، وقوله عن البيت: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]، وقوله- تعالى عن ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣].

﴿زَيْتُونَةٍ﴾: بدل، أو عطف بيان من «شجرة»، أي: زيتونة من شجر الزيتون المعروف الذي يتخذ زيته وقوداً، وإنما خص شجرة الزيتون، لأن زيتها هو أشد أنواع الوقود صفاء، وأعلاها وأقواها إضاءة ونورا.

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: وصف للزيتونة أي: إنها في أعدل الأماكن وأوسطها وأسلمها من الآفات.

أي: في مكان مرتفع من الأرض (ربوة)، أو (جبل)، فلا هي شرقية في منخفض من جهة الشرق، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية في منخفض من جهة الغرب، فلا تصيبها الشمس أول النهار، ولا هي في طرف من الأرض فتصيبها الآفات، كما يقال «الأطراف أتلاف».

بل هي شرقية وغربية في ربوة أو جبل تصيبها الشمس من شروقها إلى غروبها، أو عند شروقها وعند غروبها، فهي في أكمل الأجواء، لا يعرض لها حر ولا برد مُضِرين، تأخذ نصيبها كاملاً من منافع الشمس ودفئها، وتأخذ من كونها مرتفعة في ربوة أو جبل ما في ذلك من منافع، من التعرض للهواء، وطيب الأرض، وغير ذلك، فيجيء زيتها صافياً مشرقاً جيداً[٢].

وهذا أمر مشاهد معلوم، فكلما كانت الأشجار من النخيل وغيرها تصيبها

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٥٨.

(٢) انظر: « جامع البيان » ١٧/ ٣١١- ٣١٣، « تفسير ابن كثير » ٦/ ٦٢- ٦٤

الشمس عند غروبها وعند شروقها كان ثمرها أطيب وأجود.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾، «يكاد»، أي: يقارب زيتها يضيء، أي: يحدث إضاءة، وإنارة من شدة حسنه، وجودته وصفائه.

﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، أي: ولو لم يوقد هذا الزيت بنار، فكيف إذا أوقد بنار، فلا تسأل عن قوة إضاءته وإنارته.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، أي: نور المشكاة، على نور المصباح، على نور الزجاجة، على نور الزيت الذي يكاد يضيء دون إيقاد النار فيه، وكذلك نور القرآن، والوحي، والإيمان، على نور الفطرة الصحيحة، فهي أنوار متضاعفة يزيد بعضها بعضاً، مما ذكر، وغيره، مما لا يعلمه إلا الله.

قال ابن القيم[1]: «نور الوحي، ونور العقل، ونور الشريعة، ونور الفطرة، ونور الأدلة السمعية، ونور الأدلة العقلية».

وقال أيضًا: «فنور المصباح مستمد من نور هذا الزيت وتضاعفه المشكاة والزجاجة، ونور الإيمان في قلب المؤمن مستمد من القرآن والسنة ويضاعفه العلم النافع، والعمل الصالح.

فقد شبه الله عز وجل في هذه الآية: الإيمان الذي يقذفه في قلب المؤمن بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، كأنها في قوة إضاءتها وصفائها كوكب من الدر، وهو اللؤلؤ، يدفع الظلمة بشدة، من قوة إضاءته وبياضه وصفائه، هذا المصباح أو الكوكب الدري يوقد من زيت شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية، ولا غربية، يكاد زيتها من شدة صفائه يضيء دون إيقاد.

وهذا يسمى تشبيه تمثيل، وهو التشبيه المركب من عدة أشياء، فالمشكاة يقابلها الصدر، فكل منهما يحيط بالنور؛ المشكاة تحيط بالنور الحسي، والصدر يحيط بالنور المعنوي، والزجاجة يقابلها القلب في صفاء كل منهما ورقته وصلابته، والمصباح يقابله نور الإيمان في كون كل منهما يحصل به الاهتداء ومعرفة الطريق، فبالمصباح يعرف الطريق الحسي، وبنور الإيمان يعرف الطريق المعنوي.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

ومادة نور المصباح زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن، زيتها في غاية الصفاء، ومادة نور الإيمان في قلب المؤمن من شجرة الوحي المباركة المتضمنة للهدى ودين الحق»[١].

وهذا المثل للتقريب فقط؛ لأن تشبيه المعقول بالمحسوس يراد به تقريب المعنى المعقول للأذهان، لا أن وجه الشبه في المشبه به أقوى، إذ لا إشكال في أن نور الإيمان والعلم في قلب المؤمن أشد وأبلغ وأقوى من نور المشكاة، وقد روي أن أبا تمام الشاعر المعروف أنشد الأمير أحمد بن المعتصم قصيدة يمتدحه فيها[٢]،قال فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال له الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي وزير الأمير وخادمه: ما زدت على أن شبهت الأمير بأجلاف العرب، والأمير فوق ما وصفت، فأجابه أبو تمام على الفور:

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس[٣]

فلما أخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين، فقال الفيلسوف: هذا لا يعيش بل

---

(١) انظر: « بدائع التفسير » ٣/ ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٠.

(٢) أبوتمام اسمه حبيب بن أوس الطائي عاش (٤٣) سنة من ١٨٨- ٢٣١هـ. انظر: «ديوان أبي تمام» ص ١١٣- ١١٤، وانظر: «ديوانه بشرح التبريزى» ٢/ ٢٤٩- ٢٥٠، «وفيات الأعيان» ٢/ ١٥، «سير أعلام النبلاء» ١١/ ٦٣- ٦٩، «البداية والنهاية» ١٠/ ٣٠٠، «شذرات الذهب» ٢/ ٧٤.

ومعنى قوله: «إقدام عمرو... الخ البيت: تشبيه الأمير أحمد بن المعتصم بالشجاعة بعمرو بن معد يكرب من فرسان العرب، وشجعانهم، قدم على النبي ﷺ وأسلم، ثم ارتد مع الأسود العنسي فاستتابه أبو بكر رضي الله عنه، فتاب، وحسن إسلامه، مات سنة ٢١هـ، انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٤٥- ١٤٦.

ومعنى قوله: «في سماحة حاتم»، أي: في سماحة حاتم الطائي وكرمه. «في حلم أحنف»، أي: في حلم الأحنف بن قيس، الذي يضرب به المثل في الحلم والسؤدد. أسلم في حياة النبي ﷺ ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته. «في ذكاء إياس»، أي: في ذكاء القاضي إياس قاضي البصرة. أي: أن هذه الصفات الأربع كلها قد اجتمعت في الأمير.

(٣) أي: لا تنكروا تشبيهي له بمن هو دونه «مثلاً شرودا»، أي: مثلاً فيه بُعد «في الندى والباس»، أي: في الكرم والشجاعة في القتال «فالله قد ضرب الأقل...»الخ أي: أن الله عز وجل مثل نور الإيمان قي قلب المؤمن بالمشكاة فيها مصباح مع أن نور الإيمان في القلب أقوى وأعظم ونور المشكاة فيها المصباح أقل.

يأكل عقله جسمه[١].

قال ابن القيم[٢]: «وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان: أحدهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير أن تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن. فتأمل صفة المشكاة، وهي كوة لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودا، من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها. فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الإله تعالى الذي وصفه في قلب عبده المؤمن، وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة: قلبه، شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحس ويتحنن ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى.

قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفاها».

والمصباح: هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتّقد منها.

والنور على النور: هو نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي

---

(١) أي: أن هذين البيتين ليسا من ضمن القصيدة التي أعدها وإنما جاء بهما على البديهة. ولهذا قال الفيلسوف: هذا لا يعيش، بل يأكل عقله جسمه، أي: لفرط ذكائه وبديهته.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٩- ٢٦١.

والكتاب، فيضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نوراً على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق، والحكمة قبل أن يسمع ما فيها من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور».

والمقصود بهذا التشبيه: المؤمن الإيمان المطلق، أي: الإيمان الكامل، لا الذي عنده فقط مطلق الإيمان، وهو الذي إيمانه ناقص، فإن النور ينتقص عنده بمقدار ما عنده من نقص في الإيمان، ويزيد هذا النور بقدر زيادة الإيمان، فإذا كمل إيمان الشخص ظهر له الحق من الباطل والغث من السمين، وصار له بصيرة نافذة في الأمور وعواقبها لأنه ينظر بنور الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر في أمور الدين والدنيا.

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها » الحديث(١).

ولهذا كان ﷺ يقول: « اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، واجعل لي نوراً »(٢).

وكان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مستقيم»[١].

فنور الإيمان يزيد بقدر طلب العبد للهدى ودين الحق الذي أرسل الله به محمداً ﷺ.

كما قال عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩] وهو العلم النافع والعمل الصالح.

ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] أي: العلماء العارفون بالله وبشريعته.

وبقدر ما يضعف طلب العبد للعلم النافع والعمل الصالح يضعف نور الإيمان عنده، ولهذا قال الشافعي[٢] رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: الهداية في الأصل تنقسم إلى قسمين:

١- هداية التوفيق والإلهام والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل، كما قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦].

٢- وهداية البيان والدلالة والإرشاد، وهذه عامة، فالله هاد بهذا المعنى، وكذلك رسله والدعاة إليه هداة بهذا المعنى.

وهناك هداية قدرية أعم منهما جميعاً وهي هداية كل مخلوق لما قدر وخلق له وهي أيضاً خاصة بالله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣] أي: هدى كل مخلوق لما خلق له.

والمراد بقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ هداية التوفيق والقبول الخاصة بالله عز وجل.

﴿لِنُورِهِۦ﴾، أي: لنور الإيمان والقرآن.

﴿مَن يَشَآءُ﴾: «من» موصولة، أي: الذي يشاء، أي: يوفق الله للإيمان الذي يشاء،

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٧٦.

أي: الذي يريد كونًا توفيقه، ممن تقتضي حكمته توفيقه، ممن أقبل على الله وصدقت نيته واتقى الله، كما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]. ولهذا قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل:٥- ١٠] »(١).

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ لما ذكر عز وجل مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن بالمشكاة فيها مصباح ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾.

والأمثال: جمع «مَثَل» وهو الشَبَه، أو جمع «مِثْل» وهو الشّبْه، والأمثال: الأشباه والنظائر أي: كل شيء يشابه غيره.

والغرض من ضرب الأمثال تقريب الأمر إلى أذهان الناس، فَيُمثل الأمر المعنوي لتقريره وتقريبه بأمر حسي، كما في الآية هنا، حيث مثل الله الإيمان الذي يقذفه في قلب المؤمن، وهذا أمر معنوي بالمشكاة فيها مصباح.. الخ، وهو شيء حسي.

وهذا كثير في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٨، ١٧]، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾[البقرة:٢٦١]، وقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥].

وقد يمثل الأمر الحسي بأمر حسي آخر؛ لكون الأول غريباً أو منكراً أو مستبعداً، والثاني معلوماً.

وقد يمثل أمر معنوي خفي بأمر معنوي أظهر منه ونحو ذلك.

وضرب الأمثال وهي الأشباه والنظائر من نعم الله على العباد لزيادة الإيضاح والبيان للتذكر والتفكر والتعقل والاتعاظ والاعتبار وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١] وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه.

[العنكبوت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف:٣٢] وما بعدها.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: إنه عز وجل بكل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، قليلها وكثيرها عليم.

ومعنى (عليم)، أي: محيط به علماً، ومن تلك الأشياء علمه بمن يستحق الهداية والنور ممن لا يستحق ذلك.

و(عليم) على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة يدل على أنه ذو العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم؛ ولهذا لما سُئل موسى عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً، فمن قال: عدد الرسل في القرآن خمسة وعشرون رسولاً، فهو عالم مدرك يدري ويدري أنه يدري.

وأما من قال: لا أدري، أو قال: عددهم ثلاثون، فكلاهما ليس بعالم ولا مدرك.

فالأول جاهل جهلًا بسيطًا؛ لا يدري ويدري أنه لا يدري، والثاني جاهل جهلا مركبًا؛ لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

والأول كحمار «الحكيم توما»، والثاني كالحكيم توما، الذي قال عنه حماره فيما حكاه الشاعر:

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصف الناس كنت أرْكَبْ
لأنني جاهل بسيطٌ ... و صاحبي جاهل مُرَكَّبْ

وذلك لأن «الحكيم توما»- فيما يقال عنه تصدق- ببناته على رجال بطريق الحرام، يريد بذلك الجنة؛ كما قال عنه الشاعر:

ومن رام العلوم بغير شيخ ... يضل عن الصراط المستقيمِ
وتلتبس الأمور عليه حتى ... يصير أضل من «توما الحكيمِ»

تصـــدق بالبنـــات عـــلى رجـــال يريـد بـذاك جنـات النعـيمِ[1]

ويؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ عِلم الله الواسع الشامل لكل شيء، ومن ذلك علمه عز وجل بمطابقة مورد المثل لمضربه، أي: مطابقة المثل للممثل به، ومطابقة المشبه للمشبه به.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أن الله عز وجل نور السموات والأرض؛ بذاته وصفاته، وآياته، وهو عز وجل منور السموات والأرض، وخالق النور فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

٢- إثبات صفة النور لله عز وجل، وأنه نور السموات والأرض، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن «النور» اسم من أسمائه عز وجل، كما سبق بيانه.

٣- قوة نور الهداية في قلب المؤمن كامل الإيمان، ونفوذ بصيرته، ووضوح الطريق أمامه؛ لأنه يسير على نور من الله؛ لأن الله عز وجل شبه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح كامل الإضاءة والنور فقال عز وجل: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾.

٤- تشبيه الأمر المعنوي بأمر حسي لزيادة البيان والإيضاح؛ لأن الله عز وجل شبه نور الإيمان الذي يلقيه- سبحانه وتعالى- في قلب المؤمن بالمصباح.

٥- جواز تشبيه الشيء بما هو دونه في وجه الشبه، فإن الله عز وجل شبه الإيمان في قلب المؤمن بنور المصباح، مع أن نور الإيمان أقوى وأقوى.

٦- أن كون المصباح في مشكاة وفي زجاجة صافية، ووقوده من زيت شجرة مباركة زيتونة في وسط ربوة كل ذلك مما يزيد في نوره وإضاءته

٧- أن شجرة الزيتون من الأشجار المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾.

٨- أن كون شجرة الزيتون في وسط الربوة تصيبها الشمس عند شروقها وعند غروبها أجود لثمرها وأصفى لزيتها، وهكذا غيرها من الشجر كالنخيل وغيرها؛ لقوله

---

(١) انظر: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» ٢/ ٣٣٨، «الآداب» لابن مفلح ٢/ ١٢٦.

تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾

٩- في اجتماع هذه الأنوار الحسية وهي نور المشكاة، على نور المصباح، على نور الزجاجة، على نور الزيت الصافي يكون المصباح في أكمل إنارة؛ لقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

١٠- أن في اكتمال هذه الأنوار المعنوية نور القرآن، ونور الهداية والإيمان، ونور الفطرة في قلب المؤمن يكتمل نور الإيمان عنده؛ لقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

فتراه يسير بنور من الله، يتكلم بنور من الله، ويفعل بنور من الله، ويترك بنور من الله نسأل الله التوفيق والهداية. كما قال تعالى في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجل التي يمشي بها...» الحديث[1].

١١- اختصاصه عز وجل بالهداية والتوفيق لهذا النور؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فمن أقبل على الله عز وجل وسعى في تحصيل هذا النور، بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه منحه الله عز وجل هذا النور.

١٢- ضرب الأمثال للناس بتشبيه الأمر المعنوي بأمر حسي تقريباً للأذهان، وزيادة في الإيضاح والبيان؛ لإقامة الحجة على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾.

١٣- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل وأنه سبحانه أحاط علماً بكل شيء، لقوله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٤- الرد على القدرية الذين ينفون علم الله تعالى بأفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب الحضرمي، وورش عن نافع، وحفص عن عاصم «بُيوت» بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها في جميع القرآن[1].

وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾، وقيل: متعلق بما قبله، وهو قوله جل جلاله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية. وفيه قوة من حيث المعنى؛ لأن نور الإيمان يستمد من تعظيم الله عز وجل وشرعه، ومن أعظم ذلك الصلاة في المساجد، كما قال ﷺ في الحديث: «**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك**»[2].

والمراد بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾: بيوت الله: المساجد؛ كما جاء في الحديث: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم**»[3].

﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾: الإذن ينقسم إلى قسمين:

١- إذن كوني: يلزم فيه وقوع ما أذن الله به، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله، كالأمر الكوني، والإرادة الكونية، فلا يمكن على هذا تخلف ما أذن الله به، وما أمر به، وما أراده.

ومن الإذن الكوني قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥]، وقوله

---

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٢٢٦.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة- فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٢٦٩٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٦].

٢- إذن شرعي: لا يلزم فيه وقوع ما أذن به، ويلزم أن يكون محبوباً لله، كالأمر الشرعي، والإرادة الشرعية، وقد يتخلف متعلق كل منها.

ومن الإذن الشرعي قوله ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، وقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ [الحج:٣٩].

والمراد بالإذن في قوله هنا: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ الإذن الشرعي، أي: أمر الله شرعاً أن ترفع.

والإذن الشرعي في الأصل يشمل الواجب، والمندوب، والمباح. فالإذن، بمعنى الأمر واجب أو مندوب، وبمعنى الرخصة مباح.

و«أن» وما دخلت عليه في قوله: ﴿أَن تُرۡفَعَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: في أن ترفع، أي: أذِنَ برفعها.

ومعنى: ﴿أَن تُرۡفَعَ﴾، أي: تعظَّم ويُعلى شأنها وقدرها رفعاً معنوياً بتعظيمها، وعمارتها بالعبادة فيها، ورفعاً حسيا ببنائها، وعمارتها، وتجهيزها، وتنظيفها، وتطييبها، واحترامها وتوقيرها[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧].

فتعظَّم المساجد بالعبادة فيها، بأداء الصلوات الخمس جماعة فيها، وبالذكر وقراءة القرآن وأداء الأذكار الواردة عند دخولها، وعند الخروج منها، وأداء تحيتها بصلاة ركعتين عند دخولها.

وبأخذ الزينة عندها، لقوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]، وذلك بارتداء الملابس الجميلة والنظيفة عند الحضور إلى المساجد، واستشعار المسلم أنه سيقف في الصلاة أمام ملك الملوك، فلا يليق أن يأتي إليها بأثواب رثة غير نظيفة، أو يأتي إلى الصلاة بقميص النوم، كما يفعله الكثيرون، وبخاصة في الحرم، ممن لا يستشعرون هذه المعاني، ولو أن أحدهم أراد الخروج إلى السوق، أو مقابلة أحد الموظفين، أو الذهاب لأي مناسبة لاستعد بأحسن الملابس، وأي مناسبة تفوق مناسبة الوقوف أمام الخالق العظيم ومناجاته.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٦٦

بل إن الكثيرين يتهاونون في الحرم ما لا يتهاونون في غيره من المساجد في أماكن إقامتهم، لا لشيء، وإنما لأنهم في الحرم لا يُعرفون، بخلاف ما إذا كانوا في مساجدهم.

وترفع المساجد وتعظم حسياً ببنائها وتهيئتها للمصلين، وتنظيفها وتطييبها وتبخيرها وتوقيرها واحترامها ونحو ذلك.

عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بنى لله بيتاً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في(الدور)، وأن تنظف وتطيب »[(٢)].

ومعنى في(الدور) في الأحياء والحارات والديار، فعن سمرة- رضي الله عنه- قال: « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في ديارنا، وأمرنا أن ننظفها »[(٣)].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- : أن رجلاً أسود أو امرأة سوداء، كان يَقُم المسجد، فمات، فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات. قال: «أفلا كنتم آذنتموني به دُلوني على قبره، أو قال على قبرها، فأتى قبرها فصلى عليه»[(٤)].

فالمساجد بيوت الله، وهي أحب البلاد إلى الله[(٥)] وهي أشرف البقاع وأرفعها وأعلاها

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٤١ من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٣٨ من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- وأخرجه البخاري في الصلاة- من بنى لله مسجداً ٤٥٠، ومسلم في المساجد- فضل بناء المساجد والحث عليها ٥٣٣، والترمذي في الصلاة ٣١٨، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٣٦- من حديث عثمان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة».

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٢٧٩، وأبو داود في الصلاة- اتخاذ المساجد في الدور ٤٥٥، والترمذي في أبواب السفر- ما ذكر في تطييب المساجد ٥٩١، وفي الجمعة ٥٩٤، وابن ماجه في المساجد- تطهير المساجد وتطييبها ٧٥٨، ٧٥٩، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٧، وأبو داود في الصلاة- اتخاذ المساجد في الدور ٤٥٦، قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/ ٣٣٩: «أخرجه أحمد بسند صحيح، وكذا رواه غيره بأسانيد جيدة». وصححه الألباني

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٥٨، وفي الجنائز ١٣٣٧، ومسلم في الجنائز ٩٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٢٠٣، وابن ماجه في الجنائز ١٥٢٧.

(٥) أخرجه مسلم في المساجد ٦٧١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قدراً[١]، مما يوجب على المسلمين تعظيمها وعمارتها بالعبادة وبالبناء، وتطهيرها مما لا يليق بها وتنظيفها وتطييبها؛ لأن الله عز وجل أذن في رفعها وأمر به، وأمر بذكر اسمه فيها وذكر الله أشرف الأعمال، فشرف المساجد بشرف ذكر الله؛ لأنها مواضع الصلاة وذكر الله.

ومن العناية فيها أن توضع بجانبها وعلى أبوابها دورات المياه للوضوء والتطهر، مع العناية بنظافتها.

ومن رفع المساجد، وتعظيمها، وتوقيرها، واحترامها، ونظافتها، وصيانتها: تطهيرها مما لا يليق بها من النجاسات الحسية، والمعنوية، وغير ذلك، فتطهر من بناء القبور فيها، لما في ذلك من الوسيلة إلى الشرك الذي هو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩].

فإن كان المسجد بني على قبر هدم المسجد، وإن كان القبر حفر في المسجد نقل خارجه.

ومن ذلك منع الجنب والحائض من دخولها، كما في الحديث: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد، فإني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب»[٢].

ومن ذلك منع البيع والشراء وإنشاد الضالة فيها، فعن بريدة أن رجلاً أنشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبي ﷺ: «لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد

---

(١) ذكر في شرح معنى المثل « وافق شن طبقة » أن صاحب «شن» لما وصل إلى بلده وأراد أن يضيفه قال لـ«شن» أين أجدك ؟ لكي يحضره معه إلى بيته ليضيفه، فقال «شن» تجدني في أرفع وأعلى مكان- وبعد أن بحث عنه في جميع الجبال والمرتفعات في البلد ولم يجده قالت له ابنته «طبقة»: اذهب تجده في المسجد فهو أعلى وأرفع مكان فذهب فوجده في المسجد٠٠٠الخ القصة.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٣٢، من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/ ١٧٠- بعد أن ذكر حديث أم سلمة- رضي الله عنها- بهذا المعنى، وأخرجه ابن ماجه في الطهارة ٦٤٥- : «قال أبو زرعة «الصحيح حديث عائشة».

(٣) أخرجه مسلم في المساجد- النهي عن نشد الضالة في المسجد. وما يقوله من سمع الناشد ٥٦٩، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٦٥.

فقولوا: لا ردها الله عليك »[١].

ومن ذلك أن لا تتخذ طريقاً، ولا يشهر فيها السلاح، ولا تقام فيها الحدود، ولا القصاص، ولا تتخذ سوقاً، وأن تجنب الصبيان والمجانين، والخصومات، ورفع الأصوات، واستعمال الجوَّالات، التي تسمع منها النغمات الموسيقية، وأصوات الأجراس حتى حال الصلاة، كما يسمع فيها القيل والقال، والكلام الذي لا يليق ببيوت الله.

وما الفرق بين من يتكلم مع جليسه في المسجد وبين من يُكلم بالجوَّال شخصاً خارج المسجد أو داخله إذا كان الكلام كما هو الغالب في أمور الدنيا ويشوش على المصلين وعلى المشتغلين بالذكر وقراءة القرآن، كل هذا لا ينبغي.

بل إن رفع الصوت في المساجد حتى في القراءة والذكر زيادة عن الحاجة لا ينبغي كذلك، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١١].

وقال ﷺ لأصحابه: «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[٢].

وعلى هذا فلو كانت أصوات المكبرات في الأذان، والإقامة والصلاة بقدر الحاجة لكان أفضل وأسلم.

ولا ينبغي رفعها فوق الحاجة وبخاصة في الصلاة بما يشوش على المساجد الأخرى، ويؤذي جيران المسجد، فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

ولقد بلغ الحال ببعض أئمة المساجد إلى أنه لأجل المبالغة في رفع صوت المكبر يخل

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٦٨، وأبو داود في الصلاة ٤٧٣، والترمذي في أبواب البيوع- النهي عن البيع في المسجد ١٣٢١، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٦٧.

وكذا روي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: « نهى النبي ﷺ عن البيع والابتياع في المساجد وأن تنشد الأشعار في المساجد» رواه الترمذي في أبواب الصلاة- كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد ٣٢١، وأبو داود في الصلاة ١٠٧٩، وأحمد ٢/ ١٧٩، ٢١٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٩٢، ومسلم في الذكر ٢٧٠٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٢٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٤، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٤، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

بالطمأنينة التي هي ركن من أركان الصلاة فتراه يتحرك يميناً وشمالاً وإلى الأمام والخلف يتتبع اللاقطة ويترك مع ذلك سنة النظر إلى موضع سجوده، فتراه رافعاً نظره أمامه لأجل اللاقطة مع أنها تلتقط الصوت من بعيد ومن قريب، وليس هناك ما يستدعي هذه المخالفات التي تخل بالصلاة؛ لأن صوت المكبر يكاد يصخ الآذان ويسمعه القريب والبعيد.

وأخيراً فإن من تعظيم المساجد حقّاً ألا تكون متقاربة جدّاً، وألا يبنى مسجد بقرب مسجد، سواء كان عن حسن قصد، أو لأجل خلاف بين أهل الحي أو مضارة، أو لأجل رفع قيمة أرض يريد بيعها، أو لأجل تعيين الأبناء في وظائف المسجد، كما يفعله بعض الناس، أو غير ذلك.

والمصيبة أن بعض الناس يبني مسجداً في مثل هذه الأحوال، أو لمثل هذه الأغراض، ومع ذلك يغرر بالمحسنين من أهل الفضل والبذل، وهذا أمر لا يجوز.

كما أن من العناية بالمساجد، وتعظيمها ألا تكون متباعدة جدّاً، بحيث تجد أحياء كاملة ليس فيها مسجد، كما هو الحال بالنسبة لبعض البلدان والمدن، فإن بُعد المسجد عن المصلين مما يحمل على الكسل والتهاون في صلاة الجماعة.

ويجب على الجهات المسؤولة عن المساجد في البلاد الإسلامية وغيرها أن تتولى تنظيم وضع المساجد وأماكنها بدقة.

وليس من رفع المساجد أن تزخرف، فقد قال ﷺ: «ما أمرت بتشييد المساجد» قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى»(١).

أي: كما زخرف اليهود البيعَ، وزخرف النصارى الكنائس.

وعن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- بناء المساجد ٤٤٨، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٤٠- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما وذكره البخاري معلقاً في الصلاة- بنيان المسجد. انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩، وقال في «نيل الأوطار» ١/ ٣٣٦: «صححه ابن حبان. ورجاله رجال الصحيح». وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٤، ١٤٥، و أبو داود في الصلاة ٤٤٩، والنسائي في المساجد- باب المباهاة في المساجد ٦٨٩، وابن ماجه في المساجد- باب تشييد المساجد ٧٣٩، وذكره البخاري معلقاً- في الصلاة-

وأمر عمر- رضي الله عنه- رجلاً ببناء المسجد وقال: «أكنّ الناس من المطر، وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس»(١).

ومما يؤسف له أن عناية كثير من المسلمين في كثير من بقاع الأرض في المساجد انصبت على تشييدها وزخرفتها، مع ضعف شديد بالعناية بعمارتها بعبادة الله عز وجل، وهي العمارة المعنوية التي هي جل المقصود.

عن علي- رضي الله عنه- أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهي من ذكر الله خراب، شر أهل ذلك الزمن علماؤهم، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تعود»(٢).

أقول: رضي الله عنك يا أبا الحسن، كأنك تنظر لحال الأمة اليوم، فهاهي المساجد يتنافس في بنائها، وتشييدها، وزخرفتها، مع ضعف في عمارتها بالعبادة.

وهاهم بعض المنتسبين إلى العلم كانوا من أسباب فتنة الأمة، واختلافها بجرأتهم على الفتيا، ومخالفة ما عليه سلف الأمة.

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، أي: يذكر فيها اسم الله عز وجل، بذكره عز وجل بأسمائه وصفاته، والثناء عليه وتعظيمه وتمجيده بالقلب واللسان، بالقراءة، والصلاة، والتحميد، والتهليل، والتكبير وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ داخل ضمن قوله ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛لأن من رفعها رفعها بذكر الله وأسمائه وعبادته فيها، بل هذا أعظم جوانب رفعها، ولهذا عطفه على ما قبله، من باب عطف الخاص على العام، لبيان أن المقصود الأعظم من جوانب رفعها أن ترفع وتعظم ويعظم قدرها وشأنها بذكر الله فيها بالعبادة.

بنيان المسجد. انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩، وصححه ابن خزيمة كما ذكر الحافظ في «بلوغ المرام» ص١٨١، وصححه الألباني. قال أنس: «يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً» ذكره البخاري في الصلاة- بنيان المسجد.

(١) ذكره البخاري- معلقاً- في الصلاة- بنيان المسجد. قال: «وقال أبو سعيد كان سقف المسجد من جريد النخل، وأمر عمر ببناء المسجد، وقال: «أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس». انظر: «فتح الباري» ١/ ٥٣٩.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٨٠.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾:

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «يُسبَّح» بفتح الباء بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة يكون الوقف على قوله: ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ وقفاً تاماً[1].

وقرأ الباقون بكسرها بالبناء للفاعل[2].

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فاجتمع في الآية إثبات الكمال لله عز وجل بقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ونفي النقص عنه بقوله ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾.

والتسبيح كما أنه يدل على نفي النقص، وتنزيه الله عز وجل عن النقائص، والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، فقد يحمل على ما هو أعم من ذلك وهو العبادة كلها كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق:٤٠]، [الطور:٤٩] أي: صلِّ له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠] أي: صل صلاة الفجر وصلاة العصر، وكقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] فالمراد بالتسبيح هنا العبودية لله والانقياد له، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

وإذا حملنا التسبيح على معناه العام من تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وعلى الصلاة والذكر وقراءة القرآن وغير ذلك، فقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ الآية تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

﴿لَهُۥ﴾، أي: لله عز وجل. ﴿فِيهَا﴾، أي: في البيوت التي أذن الله أن ترفع، وهي المساجد.

﴿بالْغُدُوِّ﴾: الغدو أول النهار، ما قبل الزوال ﴿والآصال﴾: جمع أصيل، وهو

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣١٩- ٣٢٠، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧١، ٧٢.

(٢) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٢.

آخر النهار، ما بعد الزوال.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:٤١]، وقوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، والعشي آخر النهار، والإبكار أول النهار، ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف:٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، فيدخل في هذا صلاة الفجر، وصلاة العصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]، وقوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»(١)، والبردان: الفجر والعصر.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا»(٢) يعني: الفجر والعصر.

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»(٣) يعني: الفجر والعصر.

كما يدخل في ذلك سائر أذكار وتسبيحات الصباح والمساء.

وقد يحتمل قوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ جميع الأوقات، كما في قوله تعالى عن طعام أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢] فالمعنى لهم رزقهم فيها على الدوام في جميع الأوقات.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧- من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١- من حديث عُمارة بن رُؤيبة عن أبيه رضي الله عنه.

فيدخل في عموم التسبيح الصلوات الخمس المفروضة، وغيرها من النوافل والأذكار، في جميع الأوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه:١٣٠].

قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لقوله «يُسبِّح» على قراءة من قرأ بكسر الباء الموحدة، وعلى قراءة «يسبَّح» بفتح الباء الموحدة يكون هذا الفعل مبنياً للمفعول، ونائب الفاعل «له»، و«رجال» فاعل لفعل مقدر، دل عليه الفعل المذكور كأنه قيل: من يسبحه؟ فقال: يسبحه رجال.

والرجال: هم الذكور البالغون، وكلمة «رجال» تدل على المدح والثناء، أي: رجال، وأيّ رجال، رجال، ونعم الرجال، لأن قمة الرجولة، وذروتها معرفة حق الخالق سبحانه وتعظيمه، وتعظيم حقوقه وحرماته، وهذا قمة الفخر والعظمة الإنسانية.

قمة الرجولة أنه إذا سمع المؤمن حي على الصلاة، حي على الفلاح قام مسرعاً فرحاً نشيطاً منشرح الصدر لسان حاله يقول: نادى منادي العظيم، نادى منادي المنعم- وهكذا كلما حضر واجب لله من صلاة أو زكاة أو صيام أو بر للوالدين وغير ذلك.

وليست الرجولة بكثرة الأموال والأولاد ولا بالمفاخرة بالأحساب، والأنساب، والمناصب، والجاه ونحو ذلك- مع البرود والتبلد تجاه حقوق الله عز وجل، والتقصير فيها أو التفريط حتى إنه ليقال للرجل: «ما أعقله وما أظرفه، وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» كما قال ﷺ(١).

وأي رجولة فيمن لم يعرف حق ربه وخالقه والمنعم عليه بسائر النعم، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قال ابن كثير(٢) رحمه الله: «فقوله (رِجَالٌ) فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٧، ومسلم في الإيمان ١٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٧٩، وابن ماجه ٤٠٥٣- من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٧٢

وعزائمهم العالية، التي صاروا بها عمّاراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]».

وفي الآية دلالة على مشروعية صلاة الرجال جماعة في المساجد، وقد دل القرآن على وجوبها في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:١٠٢]، كما دلت على ذلك السنة في أحاديث متواترة(١).

وإن مما يؤسف له ويندى له جبين كل مسلم غيور على دينه وأمته أن ينادي منادي الله عز وجل: (الله أكبر) وتقام الصلاة وكثير من المسلمين على فرشهم أو في بيوتهم، أو مشغولون هنا وهناك، مما يجعل قلب المؤمن يتفطر وتفيض عيناه دماً لا دمعاً على ما آل إليه حال المسلمين من التفريط في جنب الله، خالقهم ومربيهم بنعمه التي لا تحصى.

كما قال الشاعر:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلب إسلام وإيمان(٢)

ويُفهم من قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ أن النساء يسبحن ويصلين في بيوتهن، فلا تجب عليهن صلاة الجماعة، بل ولا تسن لهن، لكن إن حضرن إلى المساجد وصلين فيها فلا بأس؛ لقوله ﷺ في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن»(٣).

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢].

(٢) هذا البيت من قصيدة مؤثرة لأبي البقاء الرندي يرثي بها الأندلس وأحوال المسلمين فيها لما ضيعوا أمر الله وسقطت على أيدي النصارى، فكانوا يبيعون ملوك المسلمين وهم يبكون كالرقيق، ويستبيحون نساءهم. وما أهون الخلق على الله إذا هم أضاعوا أمره. وكنت أتذكر هذه القصيدة وهذا البيت خصوصاً عندما أخرج إلى الصلاة وأرى شارع الحي يكتظ بالسيارات الواقفة أمام البيوت إضافة إلى ما في داخل البيوت من السيارات، فإذا دخلت المسجد لم أجد فيه إلا رجلاً أو رجلين، وتقام الصلاة على أفراد يعدون بالأصابع لا يتجاوزون الستة، يَصِلون إلى العشرة في نهاية الصلاة. ولو صلى كل أهل الحي لاحتجنا إلى توسعة بعض المساجد، والله المستعان.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٩٠٠، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، وأبو داود في الصلاة ٥٦٦، ٥٦٧، والنسائي في المساجد ٧٠٦، والترمذي في الجمعة ٥٧٠، وابن ماجه في المقدمة ١٦.

وفي رواية: «إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها»(١)، وفي رواية: «لا تمنعوا النساء أن يخرجن إلى المساجد»(٢).

وعلى هذا فيجوز خروجهن إلى المساجد، ولا يجوز للأزواج منعهن إلا إذا خيفت الفتنة بهن أو عليهن، فيجب عليهن ألا يخرجن ويجب على الأزواج منعهن. عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لو أدرك النبي ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن كما مُنعت نساء بني إسرائيل»(٣).

روي أن عاتكة بنت زيد زوجة الزبير بن العوام- رضي الله عنهما- كانت تتردد على المسجد، وكان الزبير لا يحب خروجها إلى المسجد، لكنه لم يمنعها لنهي الرسول ﷺ عن ذلك فاحتال عليها ذات يوم، وكمن لها في الطريق، فلما مرت به ضرب على عجيزتها. فلما رجعت لم تخرج بعد ذلك. فسألها عن ذلك فقالت: كنا نخرج والناس ناس»(٤).

قوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾: هذا وصف ل(رِجَالٌ) لأن الجمل بعد النكرات صفات.

ومعنى ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾أي: لا تشغلهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] أي: شغلكم عن طاعة الله.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يُطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك.

وتطلق التجارة على ما هو أغلى وأعلى من تلك الأرباح الدنيوية، وهي الجنة أغلى السلع قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر:٢٩- ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٣٨، ومسلم في الصلاة ٤٤٢، والنسائي في المساجد ٧٠٦- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٩٠، ١٤٠ من حديث ابن عمر- رضي الله عنه وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٩، ومسلم في الصلاة ٤٤٥، وأبو داود في الصلاة ٥٦٩.

(٤) انظر: «الإصابة» ٤/ ٣٤٦.

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- : « ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(١).

قال ابن القيم(٢) رحمه الله تعالى:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾: معطوف على تجارة من باب عطف الخاص على العام؛ لأن البيع والشراء من أهم أنواع التجارة، وأغلبها، وأكثرها ربحاً، بخلاف غيرها من أنواع التجارة كالإجارة ونحوها.

والمراد بالبيع ما يشمل البيع والشراء معاً، فلا تلهيهم التجارة بعقودها المختلفة، من بيع وشراء وإجارة وغير ذلك، ولا تلهيهم بحفظها وصيانتها، ونقلها، وتنظيمها وترتيبها، وعد أرباحها وغير ذلك.

وإذا كانت التجارة والبيع- وهي من أهم المطالب الدنيوية- لم تشغلهم عن طاعة الله فغيرها من أمور الدنيا لا يشغلهم من باب أولى.

وفي الآية ما يدل على جواز الاتجار ما لم يشغل ذلك عن طاعة الله؛ لأن الله ذكر ذلك في موطن الثناء على هؤلاء الرجال.

بل إن الاتجار والبيع إذا كان لطلب الكفاف والاستعانة بالمال على طاعة الله فهو أمر مشروع.

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ المراد بذكر الله: ما يعم جميع أنواع العبادات القولية، والفعلية، والبدنية، والمالية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠ وقال: «حسن غريب».

(٢) انظر: «النونية» ص ٢٤٨.

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هذا أيضًا من عطف الخاص على العام؛ لأن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة من ذكر الله عز وجل، وإنما خص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بعد قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والذي يعم كل ما يُتقرب به إلى الله لعِظم منزلة الصلاة والزكاة، فالصلاة عمود الإسلام، وأفضل العبادات البدنية وأوجبها، والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم، وهي أفضل العبادات المالية وأوجبها.

وحذفت الهاء من «إقام» تخفيفًا، «وإقام الصلاة» بمعنى إقامتها إقامة كاملة مستقيمة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وهذه هي الحكمة من التعبير في القرآن والسنة النبوية بالأمر بإقامة الصلاة ووصف المؤمنين والمتقين بأنهم يقيمون الصلاة ونحو ذلك دون التعبير بالأمر بالصلاة أو وصف المتقين المؤمنين بأنهم يصلون ونحو ذلك.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم.

ورُوِيَ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ قائلاً: هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال ﷺ: «نعم: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»(١).

والصلاة في الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس المفروضة التي يجب أداؤها جماعة في المساجد، وغيرها من النوافل التي يسن أداؤها في المساجد كتحية المسجد وغيرها.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾: إعطاؤها ودفعها لمستحقيها وإخراجها بطيب نفس بلا مَنٍّ ولا أذى.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة والتطهير، سُميت بذلك لأنها تنمي المال وتزيده وتطهره وتقيه الآفات، وتطهر نفوس الأغنياء من البخل والشح، وتطهر نفوس الفقراء من الضغينة على إخوانهم الأغنياء، ومن اللجوء إلى السرقة، والبحث عن المال بالطرق المحرمة.

والزكاة في الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٤٢، وابن ماجه في الأدب ٢٦٦٤، من حديث مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

مخصوص.

وقد ذكر المفسرون- رحمهم الله- أن هؤلاء الرجال الموصوفين بما ذُكر كان الواحد منهم إذا سمع النداء: حي على الصلاة، حي على الفلاح، والميزان في يده ألقاه وقام إلى الصلاة[1]. ولقد أحسن القائل:

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفرَ والإفلاس في الرجل[2]

فمع كونهم يشتغلون بالتجارة والبيع والشراء، ومع قوة الصارف لم يشغلهم ذلك عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لعظمة حق الله في نفوسهم، بخلاف من كان سائباً لا شغل له فإنه قد يأتي إلى المسجد لسد الفراغ فقط، ولو انشغل بأي أمر لرأيت منه تأخرًا وتشاغلاً عن الصلاة وغيرها، بل إن في عموم قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وقوله ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يدل على أن الرجال الموصوفين في الآية سخروا التجارة والبيع والشراء للاستعانة على طاعة الله، فإن قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يدخل تحته ذِكر ما لله عز وجل من الحقوق المالية الواجبة والمستحبة، ومن أهمها الزكاة المذكورة بقوله: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، فهؤلاء سعوا إلى كسب المال والأرباح، وجعلوا ذلك مطية لِلدار الآخرة، فربحوا الصَّفقتين.

أقول: الله المستعان! أين من هؤلاء الرجال الموصوفين بالآية من شغلتهم التجارة والأموال والأولاد عن ذكر الله فخسروا الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

بل أين من هؤلاء الرجال من يفرطون في الذكر، وما يقربهم إلى الله، وفي الصلاة ويؤخرونها عن وقتها، ولا يحضرون إلى المساجد حتى تُقام الصلاة ويفوت أكثرها، ممن لم يشتغلوا بتجارة، ولا بيع، ولا شراء، وإنما باللغو واللهو واللعب، ولقد استفحل هذا الأمر في المسلمين حتى شمل كثيرًا من المنتسبين إلى العلم، بل وبعض الأئمة والمؤذنين- حكمة بالغة- فاجتنب أخي- بارك الله فيك- مسلك هؤلاء ومن قبلهم،

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٢٧٩، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٤.

(٢) البيت لأبي دلامة. انظر: «ديوانه» ص٧٧.

ولا تغتر بما عليه أكثر الناس، والزم طريق من وُصفوا بالآية. وفقني الله وإياك وجميع المسلمين لما يحبه ويرضاه!.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ هذا كما تقدم مما وُصف به أولئك الرجال، والخوف: توقع الأمر المكروه لأمارة معلومة أو مظنونة، و«يومًا» منصوب مفعول لـ«يخافون»، ولا يصح أن يكون منصوبًا على الظرفية، فيكون المعنى: يخافون في يوم؛ لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم- كما سيأتي بيانه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧].

أي: يخافون يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والعذاب؛ لصدق إيمانهم ويقينهم بذلك اليوم الموعود، ونكّر «يومًا» للتعظيم والتخويف، أي: يومًا عظيمًا مخيفًا، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧]، ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٠]، ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾؛ لشدة أهواله، و«تتقلب»، أي: تتحول وتضطرب. والتقلب: التحول والاضطراب، والانتقال من حال إلى حال.

فالقلوب بين الخوف والرجاء، بين الهلاك والنجاة، قد انخلعت من الصدور وبلغت الحناجر من شدة الخوف، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠] وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:٨].

والأبصار: تتقلب وتضطرب بين اليمين والشمال، وهنا وهناك، ولا تستقر على حال، كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٢- ٤٣].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ [الأحزاب:١٠] وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات:٨- ٩].

وشدة هذا اليوم وأهواله إنما هي على الكافرين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦] وقال عز وجل: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠].

ولهذا قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢].

أي: فلا يخافون ذلك اليوم، بل هم في أمن وسعادة في الدنيا والآخرة. نسأل الله من فضله.

فهؤلاء الرجال مع كونهم يسبحون لله عز وجل في بيوت الله المساجد بالغدو والآصال، وكونهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هم مع ما هم عليه من هذه الصفات التي أثنى الله عز وجل بها عليهم، هم يخافون يوم القيامة، وما فيه من الأهوال، فجمعوا بين الإحسان والاستعداد بالعمل وبين الخوف، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠- ٦١].

بخلاف من جمعوا بين التفريط والإساءة مع الأمن من مكر الله كما هو حال الكثير من الناس.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أو بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أو بهما معًا. و«اللام» في «ليجزيهم» لام العاقبة أي: يسبحون ويخافون وتكون عاقبتهم أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، فعملوا ما عملوا خوفًا من الله، فكانت عاقبتهم هكذا.

ويحتمل أن تكون هذه اللام لام التعليل، أي: يسبحون ويخافون لأجل أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، فعملوا ما عملوا خوفًا من الله ورجاءً فيما عنده، وهذه أكمل الأحوال، وهي حال الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين لهم، يعبدون الله رجاءً في ثوابه، وخوفًا من عقابه رجاءً في جنته وخوفًا من ناره.

خلافًا لغلاة الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رجاءً في جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما نعبد الله لذاته. وهذا باطل.

ومعنى «يجزيهم»: يثيبهم ويجازيهم، ويكافئهم.

﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾: «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: ليجزيهم الله أحسن ثواب الذي

عملوا، أو أحسن ثوابِ عملهم، بمضاعفة أجورهم.

«وأحسن» أفعل تفضيل.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠] وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

وفي الحديث القدسي: « كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به »(١).

وإنما جعل الله الحُسن للعمل نفسه في ظاهر اللفظ مع أن المراد بالحُسن الثواب؛ للإشارة إلى أن الجزاء إنما هو على العمل نفسه وأنه من جنس العمل، وأن المرء كما يَدين يُدان. قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، أي: ويزيدهم على ثواب ما عملوه (من فضله) الفضل: الزيادة، وكل ما يحصل عليه الإنسان من دون مقابل يسمى فضلاً، أي: يزيدهم مما عنده من الفضل والزيادة في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا: زيادة الرزق وسعته ونحو ذلك، وفي الآخرة: النظر إلى وجهه الكريم كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالحسنى: الجنة والمثوبة الحسنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كما فسرها بذلك المصطفى ﷺ(٢).

وأيضاً الزيادة لهم في الأجور قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٤، ومسلم في الصيام ١١٥١، وأبو داود في الصوم ٢٣٦٣، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٣٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧- من حديث صهيب ﷺ. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ١٥٨، ١٦٠- ١٦٢ من حديث أبي موسى وكعب بن عجرة وأبي بن كعب رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ﴾: الرزق: هو العطاء، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ «من» موصولة، أي: الذي يشاء ويريد من عباده، وهذا يدل على أنه عز وجل يعطي ويمنع لحكمة؛ لأن مشيئته عز وجل مرتبطة بالحكمة.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾أي: أنه عز وجل يعطي من يشاء العطاء الكثير الجزيل، فلا يحسب عليهم ما أعطاهم، بل يعطيهم أكثر مما يستحقون، ولا حد لعطائه ولا حصر، ولا ينفد ما عنده. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

وليس معنى هذا أن الأرزاق غير مقدرة، بل الأرزاق والآجال، حتى ذرات المطر والهواء وغير ذلك. كل ذلك مقدر كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨] وسُمي «ميكائيل» وهو أحد الملائكة بهذا الاسم؛ لأنه مُوكل بتقدير المطر والرزق وكيله، قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١].

وقد يؤخذ من الآية أن الإنسان ينبغي أن لا يدقق في تعداد وحساب ما ينفق حتى يبارك الله له في رزقه، ويسلم من البخل والشح، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

وفي الحديث: «أَنفِق يا ابن آدم ينفق عليك»(١)، وفيه: «لا تُوعي فيُوعي الله عليك، ولا تُحصي فيُحصي الله عليك»(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «تُوفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رَفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٢، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٣٣، ١٤٣٤- من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس ٣٠٩٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٥.

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم شأن المساجد ورفعة مكانتها عند الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾. وقد أثنى الله عز وجل على عمار المساجد فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨].

كما توعد عز وجل من منع ذكر الله في المساجد وسعى في خرابها قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

٢- الأمر برفع المساجد، وإعلاء شأنها وتعظيمها، رفعًا معنويًّا بعمارتها بالعبادة فيها بالصلاة، والاعتكاف وقراءة القرآن وذكر الله عز وجل وغير ذلك.

وبتطهيرها عما لا يليق بها من النجاسات الحسية والمعنوية، وما لا يجوز فيها من الأفعال والأقوال ورفعًا حسيًّا ببنائها وتهيئتها للمصلين، وتنظفيها وتبخيرها وتطييبها ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

٣- أن الإذن يأتي بمعنى الأمر الشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾، أي: أمر شرعًا أن ترفع.

كما يأتي بمعنى الأمر الكوني، كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

٤- أن المقصود الأهم من رفع المساجد تعظيمها ورفعها بالعبادة، وذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ فعَطْفُه على ما سبق من عطف الخاص على العام تنبيهًا على أهمية الخاص؛ ولهذا قال عز وجل للمشركين: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التوبة:١٩].

وقال عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [التوبة:١٧].

٥- الحث والترغيب على تسبيح الله عز وجل، وذكره في المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ وفي هذا جمع بين إثبات الكمال له عز وجل بذكره

وعبادته، ونفي النقص عنه بتسبيحه.

٦- أن قمة الرجولة في القيام بحقوق الله عز وجل وعبادته، من الصلاة في المساجد وذكره عز وجل وتسبيحه، لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾، أي: رجال، وأي رجال، رجال بلغوا من الرجولة ذروتها، كما قال عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب:٢٣].

٧- الإشارة إلى أوقات الصلوات الخمس في اليوم والليلة، فمنها ما هو بالغدوّ وهو أول النهار، ومنها ما هو بالآصال، آخر النهار، وبالأخص صلاة الفجر، وصلاة العصر؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾، بل إن هذا قد ينتظم جميع الأوقات.

٨- مشروعية صلاة الرجال جماعة في المساجد، دون النساء لعدم ذكرهن.

٩- الثناء على هؤلاء الرجال المذكورين بعدم انشغالهم عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بتجارة أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

١٠- التعريض بذم الذين ينشغلون بالتجارة أو غير ذلك عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، ومن باب أولى التعريض بذم من ينشغلون عن الصلاة بلا شغل. والله المستعان.

١١- جواز الاتجار، وأن البيع من أعظم أنواع التجارة ومن أفضلها وأكثرها ربحًا، لهذا عطفه عليها من عطف الخاص على العام فقال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

١٢- فضل الصلاة والزكاة؛ لأن الله عطفهما على قوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فقال: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام؛ لبيان فضل الخاص.

١٣- أن المقصود الأعظم من الصلاة إقامتها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لا أن تصلى صلاة صورية فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

١٤- أن الصلاة أهم العبادات البدنية، لهذا خصت بالذكر من بينها، وأن الزكاة أهم العبادات المالية، لهذا خصت بالذكر من بينها، وأنهما القرينتان؛ فقد قرن الله بينهما

في القرآن في أكثر من اثنين وثمانين موضعًا.

١٥- في قوله: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ إشارة إلى أن الواجب على الغني أن يؤديها إلى الفقير وإلى غيره من أهلها، لا أن يأتي الفقير يطلبها هو أو غيره.

١٦- في تسمية الحق الواجب في المال زكاة إشارة إلى أن دفعه يزكي نفس الغني ويزكي المال ويزكي نفس الفقير.

١٧- جمع هؤلاء الرجال الذين امتدحهم الله في الآية بين تسبيح الله وذكره وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الخوف من يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وهذا غاية الكمال أن يجمع المسلم بين العبادة ورجاء الله عز وجل، وبين الخوف من الله عز وجل وعذابه، فيجمع بين الإحسان والخوف، بخلاف حال كثير من الناس اليوم الذين يجمعون بين التقصير والإساءة والأمن من مكر الله. نسأل الله السلامة.

١٨- عِظم يوم القيامة وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ بالتنكير، ولقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي: تضطرب فيه القلوب وتزيغ الأبصار من شدة أهواله.

١٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

٢٠- وجوب حسن الظن بالله عز وجل ورجائه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

٢١- وعْد الله للمؤمنين بالجزاء المضاعف والزيادة من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل يعطي من يشاء العطاء الجزيل من غير أن يحصي عليه ما أعطاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٢٤- يندب للإنسان في نفقته على نفسه وأهله ومن يعول أن لا يحصي ويعدد ما أنفق، فإن هذا قد يكون من أسباب قلة البركة، ولكن لينفق ويتوكل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أثنى الله عز وجل في الآيتين السابقتين على رجال بذكر ما هم عليه من جليل الصفات وفضائل الأعمال، وما أعد لهم من جزيل الثواب والزيادة والإفضال.

ثم أتبع ذلك بذكر أعمال أهل الكفر والضلال ونهايتها وبطلانها، كما هي طريقة القرآن، جمعًا بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء.

وقد ضرب الله عز وجل في هاتين الآيتين مثلين لأعمال الكفار: ـ

الأول: بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾.

والثاني: بقوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾: الواو استئنافية.

والكفر معناه لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

أي: أعجب الزُّرَّاع، ومنه سُميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسُمي وعاء طلْع النخل بالكافور أو بالكفر؛ لأنه يستر ما بداخله من الطلع، وسُمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، قال لبيد[1]:

يعلو طريقة متنها متواتراً ... في ليلة كفر النجومَ غمامُها

أي: سترها وغطاها.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٠٩.

والمراد بالكفر في الآية الكفر الأكبر، المخرج من الملة، الموجب للخلود في النار، وهو قسمان:

١- كفر استكبار وإباء مع التصديق؛ ككفر إبليس- لعنه الله- قال عز وجل: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

٢- وكفر جحود وتكذيب كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧]، ومنه كفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر النفاق.

وقد يطلق الكفر على ما لا يُخرج من الملة، كمن حكم بغير ما أنزل الله محاباة لقريب، ونحو ذلك، فهذا يشمله قوله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة:٤٤] لكنه كفر دون كفر.

كما يطلق الكفر والكفران على جحود النعمة وعدم شكرها(١).

﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾، أي: أعمالهم التي يعملونها، سواء ما كان منها موافقًا للشرع وما كان مخالفًا.

«كسراب»، أي: صفتها في اضمحلالها كسراب. والسراب: ما يتراءى للناظر عن بعد في وقت الظهيرة يسرب كأنه ماء يجري.

﴿بِقِيعَةٍ﴾: جمع قاع، وهي الفلاة المنبسطة من الأرض.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ أي يظنه «الظمآن»، أي: العطشان ماءً، و«ظمآن» على وزن «فعلان» من صيغ المبالغة يدل على الشدة، أي: الذي اشتد به العطش.

والسراب يراه الظمآن وغير الظمآن ويحسبه ماءً، لكن خص الظمآن؛ لشدة حاجته وتلهفه إلى الماء ليبل منه صداه، ويُذهب ما به من ظمأ، فهو يركض وراء هذا السراب، ويتبعه وكلما قَرُبَ منه تباعد عنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ «حتى» لانتهاء الغاية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، وضمير الهاء في «جاءه» «ولم يجده» يعود إلى قوله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾، أي: جاء إلى السراب، أي: إلى موضعه الذي كان يشاهده فيه.

---

(١) انظر: «المفردات»، «لسان العرب» مادة: «كفر».

والمعنى: حتى إذا جاء الظمآن إلى مكان ذلك السراب الذي يظنه ماءً لم يجده شيئًا من الأشياء لا ماء ولا غيره؛ لأن السراب مجرد تخيل يتخيله الناظر وليس له حقيقة، بل هو عدم محض، فإذا اقترب الإنسان من مكانه الذي يظنه فيه تباعد عنه السراب، وهكذا حتى يموت عطشًا.

كما قال الشاعر:

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم ... كلمح سراب في الفلا متألق(١)

ولك- أخي الكريم- أن تتخيل دقة التصوير القرآني لهذا المشهد، وما مدى خيبة أمل هذا العطشان، الذي يظن السراب ماء، ويركض وراءه ثم لا يجده شيئًا، وماذا يعتلج في نفسه من الآهات والحسرات.

وهكذا أعمال الكفار سواء ما كان منها مما يُؤجر عليه المؤمنون، كالصدقات وإكرام الضيف والجار ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة:١٩].

أو ما كان منها من أعمال كفرية كالشرك والمعاصي.

وسواء كانت مما يزعمون أنهم يتقربون به إلى الله كاتخاذ الشركاء، فإنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، أو مما لا يعتقدون فيه ذلك، فإنهم لا يجدونها شيئًا، بل تكون هباءً منثورًا.

كما قال عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٣- ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١٧٧].

ويتبرأ الشيطان وجميع المتبوعين من أتباعهم، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن

---

(١) البيت بلا نسبة. انظر: «جامع البيان» ١/ ٣٦٤، «أمالي ابن الشجري» ١/ ٧٧.

دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

بل قد جاء في الحديث الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن اليهود والنصارى بعدما يشتد عطشهم في الآخرة تمثل لهم النار كأنها سراب فيتساقطون فيها»(١).

ومن عدله عز وجل أن الكفار يجازون في الدنيا على ما يقومون به من أعمال البر كالصدقات، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، والجار ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٨].

وعن أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنةً يعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله، إن عبد الله بن جدعان كان في الجاهلية يقري الضيف ويفك العاني، ويصل الرحم، ويحسن الجوار فأثنيت عليه، فهل ينفعه ذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «لا، إنه لم يقل يومًا قط: اللهم اغفر لي يوم الدين»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية ٤٠ من سورة النساء ٤٥٨١، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨٠٨.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ١٢٠.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، «الواو»: عاطفة، أي: وجد الله عند عمله، فالضمير يعود إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾.

وقيل: وجد الله عند هذا السراب، على معنى أن مآل هذا الظمآن لَمَّا لم يجد الماء مع شدة العطش أن يموت فيلقى الله عز وجل، وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»(١)، أي: لقاء الله بعد الموت.

﴿فَوَفَّىٰهُ﴾، أي: أعطاه، ﴿حِسَابَهُۥ﴾ جزاء أعماله، أي: فأعطاه جزاء أعماله وافيًا غير منقوص، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ [هود:١٠٩].

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لأن أجله آتٍ، وكل آتٍ قريب، ولأن العمر قصير والموت قريب. قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء:٧٧].

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال ﷺ: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٢).

كما أن من سرعة حسابه عز وجل أن يجد الإنسان في حياته شيئًا من آثار أعماله وجزائها، وهو أيضًا يحاسب الخلائق على وجه السرعة فلا يحتاج لوقت طويل لمحاسبتهم، بل حسابه لهم سريع، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

لأنه لا تخفى عليه خافية من أعمالهم، فلا يحتاج في محاسبته إلى فكر وروية لكمال علمه إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

وقد أخذ بعض أهل العلم من قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر ٢٦٨٣، والنسائي في الجنائز ١٨٣٦، والترمذي في الجنائز ١٠٦٦- من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩. وصححه الألباني.

مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، أنه عز وجل يحاسب الخلائق في نصف يوم، ثم نصف اليوم الآخر يكون أهل الجنة في مقيلهم فيها. نسأل الله من فضله.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: آية ٤٠].

هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله عز وجل لأعمال الكفار. كما قال تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة:١٧- ١٩].

قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ «أو» عاطفة، وهي للتقسيم والتنويع، أي: إن أعمال الكفار منها ما يشبه السراب، ومنها ما يشبه الظلمات.

وقيل: إنها للتخيير، أي: إن شئت شبه أعمالهم بالسراب، وإن شئت شبهها بالظلمات.

وقيل: إنها بمعنى الواو تفيد معنى الجمع، أي: إن أعمالهم تشبه السراب والظلمات معًا.

ولا يمكن أن تكون «أو» للشك؛ لأنه عز وجل منزه عن الشك، بخلاف الإنسان المخلوق الضعيف، فهو لضعفه قد يشك في كثير من الأمور.

والكاف في قوله: «كظلمات» للتشبيه، والظلمات جمع ظلمة، وهي المكان الذي تضعف فيه الرؤية وقد تنعدم تمامًا مع شدة الظلمة، وهي ضد النور.

﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ البحر في الأصل: الماء الكثير، والمراد بالبحر هنا ما كان من البحار الكبيرة.

«لجي»، أي: عميق الغور، بعيد القعر، كثير الماء؛ لأنه كلما كان البحر أعمق غورًا، وأبعد قعرًا، وأكثر ماءً كانت ظلمته أشد، وهذا أمر معلوم للغواصين.

وسُمي «لجيًّا» نسبة إلى لُجة البحر، وهي قعره وبعده، وماؤه الكثير.

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ يغطيه موج، والموج: ما ارتفع من الماء على الماء بسبب الرياح.

﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، أي: يعلوه موج آخر من الأمواج المتلاحقة، أو المتلاطمة التي هي أشبه شيء بالجبال يعلو بعضها بعضًا(١).

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة: «موج».

﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، أي: من فوق الموج الثاني سحاب، أي: غيم كثيف متراكب، وسُمي سحابًا إما لجرّ الريح له، أو لجره الماء، أو لانجراره وانسحابه في مروره[1]، فلشدة ظلمته كأنه ملاصق لتلك الأمواج، فيكون ما بينه وبين البحر ظلمة كالضباب.

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وهي: ظلمة البحر العميق، وظلمة الموج الأول الذي يغطي البحر، وظلمة الموج الثاني الذي فوق الموج الأول، وظلمة السحاب والغيم، أربع ظلمات واحدة منها كافية في شدة الظلمة، فكيف إذا اجتمعت؟ وهذه الجملة لتوكيد الأمر وتعظيمه وتهويله.

وقد ضرب الله لأعمال الكفار في هاتين الآيتين مثلين:

أحدهما: بالسراب الذي يُظن أنه الماء مادة الحياة.

والثاني: بالظلمات المتراكمة المضادة للنور، ويحتمل أنهما مثلان لصنف واحد، أي: فأعمال الكفار كلها كالسراب، وكالظلمات المتراكمة، أو أن المراد أن أعمال الكفار منها ما يشبه السراب، ومنها ما يشبه الظلمات في بحر لجي.

ومع اختلاف المثلين فإن الثاني عائد إلى الأول من حيث المعنى، فإن أعمال الكفار كلها باطلة حابطة وهباء منثور.

وقد اختلف في كيفية تنزيل الأعمال على هذين المثلين، فقيل إن الذين شُبهت أعمالهم بالسراب هم أهل الضلال والجهل المركب، الذين يجهلون الحق ويعادون أولياءه ويناصرون الباطل ويوالون أهله.

والذين شبهت أعمالهم بالظلمات هم أهل الجهل البسيط.

أو بمعنى آخر أن المثل الأول للمتبوعين وأئمة الكفر والدعاة إليه، والثاني للتابعين المقلدين.

وقيل: العكس إن المثل الأول لأهل الجهل البسيط، والمثل الثاني لأهل الجهل المركب.

وقيل: المثل الأول في أعمال الخير فهي كالسراب، والمثل الثاني في أعمال الشر والمعاصي.

وقيل: المثل الأول لأعمال الكفار في الآخرة فهي كالسراب لا تنفعهم، والمثل

---

(١) انظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة: «سحب».

الثاني لأعمالهم في الدنيا فهم يتخبطون في ظلمات الشبه والشكوك والشهوات[١].

وحيث تعددت هذه الأقوال واختلفت ولا دليل على شيء منها فالأولى حمل الآية على الاحتمال الأول، وهو أن أعمال الكفار تشبه السراب وتشبه الظلمات، وهم في ذلك قسمان منهم من كان ضالاً، ومنهم من عرف الحق وتركه.

وقدَّم الله قبل هذا حال من عرف الحق ممن نوَّر الله قلبه بالهدى والإيمان وذلك بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية. أي: مثل نوره الذي يلقيه في قلب عبده المؤمن.

ففي هذه الآيات ضرب الله مثل الهدى والإيمان في قلب المؤمن بأنه كالمشكاة، وضرب مثل أعمال الذين كفروا بأنها كالسراب والظلمات. والكفار فيهم المعاند العارف للحق، وفيهم الجاهل، كما ذكر الله أقسام الناس في سورة الفاتحة: منهم منعَمٌ عليهم عرفوا الحق واتبعوه، ومغضوب عليهم عرفوا الحق وتركوه، وضالون عبدوا الله على جهل، فهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج الناس عنها.

﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾، أي: إذا أخرج الناظر وسط هذه الظلمات «يده» وهي أقرب شيء إليه.

﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، أي: لم يقرُب من رؤيتها، أو لم يقرُب أن يراها بسبب هذه الظلمات المتراكم بعضها فوق بعض، وإذا كان لم يقارب رؤيتها فرؤيتها أبعد؛ لأنه إذا انتفت المقاربة فانتفاء الرؤية من باب أولى.

وأفعال المقاربة كغيرها من سائر الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات.

فهؤلاء الكفار اجتمعت فيهم ظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والإعراض عن الحق والنور الذي أنزله الله، فشبَّه اجتماع هذه الظلمات وتلاطم أمواج الشبه والباطل في صدورهم بتلاطم أمواج هذا البحر.

وهكذا كل ما خالف الحق- وإن كان دون الكفر من البدع، والمعاصي- فذلك كله سراب وهباء وظلمات في طريق صاحبه، لكن بعضها أهون من بعض، وهو باطل مردود على صاحبه، كما جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» ٢٤/ ٨، «البحر المحيط» ٦/ ٤٦١، «بدائع التفسير» ٢٦٢-٢٦٤، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٦- ٧٧، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٢٧.

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(١).

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ «الواو»: عاطفة، و«من» شرطية، «لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يجعل» مجزوم بها، وحُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين وهو بمعنى يصير، والجعل ينقسم إلى قسمين:

كوني، ومنه قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

وشرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ [المائدة:٩٧].

وقوله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾: يشمل الجعل الكوني والشرعي.

لأن النور في الآية في الموضعين قد يُحمل على النور الحسي الذي هو ضد الظلمة، وهذا يناسب المشبه به في الآية، وهو الظلمات في بحر لجي، يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾، أي: نورًا حسيًّا يبصر به في هذه الظلمات ونحوها، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

وعلى هذا فيكون «الجعل» كونيًّا، لأن النور الحسي قد يعطيه الله من يحب ومن لا يحب، وقد يمنعه عمن شاء منهما كغيره من متاع الدنيا، وفي الحديث: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب»(٢).

وقد يُحمل النور في الآية في الموضعين أيضًا على النور المعنوي، وهو الهدى والإيمان، وهو يناسب المشبه، وهي أعمال الكفار فيكون الجعل شرعيًا، وهذا أظهر وأولى، فإن من لم يجعل الله له نورًا من الهدى والإيمان والبصيرة «فما له من نور» قال

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح- باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية- نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- ، والحاكم في الإيمان ١/ ٣٣ وصححه، ووافقه الذهبي. وقال أحمد شاكر في تخريجه للمسند: «إسناده ضعيف» ٣٦٧٢.

تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: جاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام و«بمن» المؤكدة، أي: فما له على الدوام أي نور وسط دياجير الجهل والكفر، ومن لم يهده الله ويوفقه إلى الطريق المستقيم فلا أحد يستطيع هدايته، كما قال عز وجل:

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال عز وجل: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨، ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، [غافر:٣٦]، وقال عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ويلاحظ أن القرآن يفرد النور ويجمع الظلمات؛ لأن طريق الحق واحد، وطرق الباطل كثيرة متعددة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال عز وجل: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، أي: مثل نور الله عز وجل الذي يقذفه في قلب المؤمن بالهدى والإيمان كمشكاة، ولهذا يجب على الإنسان أن يجتهد في طلب هذا النور بتحري مرضاة الله عز وجل والقيام بحقوقه وسؤاله.

وكان ﷺ يقول: « اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا ومن أمامي نورًا ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، واجعل لي نورًا »(١).

قال ابن تيمية(٢): «النور ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء، فإن حفظ الحدود بتقوى الله يجعل لصاحبه نورًا، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٣٨١.

ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨].

وضد النور الظلمة؛ ولهذا عقب ذكر النور لأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال، فإن للسيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق، كما روي عن ابن عباس، ويوضح ذلك أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ومثل أعمال الكفار بالظلمة.

وفي غير موضع من القرآن قرن الله أهل الهدى والضلال، وأهل الطاعة والمعصية، كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:١٩- ٢٢]، وقوله- تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود:٢٤]».

فمن جعل الله له النور المعنوي، وهو نور الهدى والإيمان والتوفيق، فلا تسأل عن حاله فهو في جميع تصرفاته وتقلباته ويقظته ومنامه، في سفره وإقامته وفي جميع أمور دينه ودنياه يسير على نور من الله، ويمنحه الله عز وجل من التسديد والتيسير وانشراح الصدر ما لا يخطر على البال.

إن حضر واجب لله أو لعباد الله وفقه الله للقيام به، وإن وقع الناس في منهي حفظه الله من الوقوع فيه، يصرِفه الله عز وجل عن مواطن الزلل والخطأ والخطر وإن لم يشعر، يصاب الناس بسبب ذنوبهم ومعاصيهم بالمصائب وينجيه الله منها، وإن أصابه شيء من المصائب- حيث لا يسلم غالبًا منها أحد- لطف الله به وهوَّن عليه مصابه وآجره عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢- ٣]، وفي الحديث القدسي قوله عز وجل: «وما تَقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

وما بالك بمن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله، وأعطاه ما سأل، وأعاذه مما

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

استعاذ منه، اللهم نسألك من فضلك.

لسان حاله كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء[1]

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، فقد ذكر الله عز وجل في الآيات ما أعده لأولئك الرجال المسبحين الذاكرين الله الخائفين من أهوال يوم القيامة من الجزاء الحسن والإفضال، ثم أتبع ذلك بذكر حبوط أعمال الكفار، وما هم فيه من الظلمات والشكوك والشبه والضلال.

٢- تشبيه أعمال الكفار في حبوطها واضمحلالها بالسراب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾.

٣- أن الكفار تضمحل أعمالهم ويفقدونها في ساعة هم أحوج إلى الأعمال مثلهم كمثل الظمآن يركض خلف السراب. وإنما خص الظمآن بالذكر مع أن السراب يراه كل أحد لشدة حاجة الظمآن وتلهفه إلى الماء؛ لقوله تعالى: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾.

٤- تشبيه القرآن للأمر المعنوي بالأمر الحسي، وضرب الأمثال لتقريب المعاني للأذهان.

٥- أن الله عز وجل حاضر وشهيد على أعمال العباد لا يخفى عليه منها شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾.

٦- أن الله عز وجل يوفي كل عامل حسابه وجزاء عمله كاملاً، من غير نقص؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾.

٧- سرعة حساب الله عز وجل ومجازاته لعباده؛ لأن حسابه وأجله آت، وكل آت قريب، ولأنه عز وجل محيط بأعمال العباد كلها، لا تخفى عليه منها خافية، فحسابه

---

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

لهم على وجه السرعة، لا يحتاج إلى مزيد وقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٨- تشبيه أعمال الكفار في تخبطهم في ظلمات الكفر والشبه والشكوك والشهوات بالظلمات في بحر عميق يعلوه موج، من فوقه موج، من فوقه سحاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾.

٩- أن النور يطلب من الله عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وهذا يشمل النور الحسي، والنور المعنوي، وهو الأهم للسلامة والنجاة من ظلمات الكفر والشكوك والشبه والشهوات. نسأله تعالى الهداية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة صفات الرجال المؤمنين الذين يسبحونه في المساجد. ثم ذكر في هذه الآية تسبيح كل من في السموات والأرض والطير صافات وهذا من ذكر العام بعد الخاص. وأيضًا فإنه لما ذكر ضياع أعمال الكفار وحالهم وضلالهم أتبع ذلك ببيان أن جميع المخلوقات تسبح له خاضعة منقادة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام، و«لم»حرف نفي وجزم وقلب، والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير والإثبات فالمعنى: قد رأيت، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] أي: قد شرحنا لك صدرك، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل:١] أي: قد رأيت كيف فعل ربك بهم.

فمعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: قد رأيت أن الله يسبح له من في السموات والأرض.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والمراد بالرؤية هنا الرؤية العلمية، أي: قد علمت سواء كان ذلك بطريق الوحي، أو عن طريق السماع.

والمصدر المؤول «أن الله يسبح» في محل نصب سد مسد مفعولي «ترى».

﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: «من» موصولة تفيد العموم، أي: جميع الذين في السموات والأرض من جميع المخلوقات من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات.

فكل مَن في السموات والأرض والطير يسبِّح الله- عز وجل- تسبيحاً حقيقيًّا بالقول، ومن ذلك: تسبيح الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن، وهذا معلوم لنا.

ومن ذلك: تسبيح الحصى في يده ﷺ، وتسبيح الطعام بين يديه ﷺ؛ كما في حديث

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»(١).

ومن ذلك: تسبيح جميع المخلوقات من الحيوانات والنباتات والجمادات، فكل ذلك تسبيح حقيقي وإن كنا لا نفقهه، كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١، التغابن:١]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠] أي: سبحي، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة:١١٦، الروم:٢٦].

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، وقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

وقد قيل: إن المراد بتسبيح مَن في السموات والأرض والطير وجميع المخلوقات انقيادها لأمر الله الكوني ودلالتها على وجوده عز وجل، وهذا خلاف ما دلَّ عليه ظاهر الكتاب والسُّنَّة.

قال القرطبي(٢): «فالصحيح أن الكل يسبح؛ للأخبار الدالة على ذلك. ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا، وقد دلَّت السُّنَّة على ما دلَّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب- علامات النبوة ٣٥٧٩، والنسائي في الطهارة ٧٧، والترمذي في المناقب ٣٩٣٣. ومثل هذا حنين الجذع كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح عليه» أخرجه البخاري في الموضع السابق ٣٥٨٣. والترمذي في الجمعة ٥٠٥.

وكما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبْعَث، إني لأعرفه الآن» أخرجه مسلم في الفضائل- فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٢٢٧٧.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٢٣٤.

كل شيء، فالقول به أولى».

وقال ابن تيمية[١]: «والصواب أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها».

وقد رد ابن القيم القول بأن المراد بالتسبيح دلالتها على صانعها من ثلاثين وجهاً[٢].

كما أنه عز وجل يسبح ويعظم نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور:٤].

كما أن أهل الجنة يسبحونه، قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

وجاء التعبير في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بـ«من» التي للعالم تغليبًا للعالم على غيره من سائر المخلوقات؛ لأن التسبيح عند العالم أظهر، ولما ميز الله به الإنسان عن غيره قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

والأولى أن يقال: «مِن» للعالِم، ولا يقال: للعاقل؛ لأن الله عز وجل أطلقها على نفسه قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، أي: ءأمنتم الله الذي في السماء سبحانه[٣].

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾، «الواو»: عاطفة، و«الطير» معطوف على «مَنْ»، أي: وتسبحه الطير، من عطف الخاص على العام.

و«الطير»: جمع طائر، كالركب: جمع راكب.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير، أي: حال كونهن صافات، أي: باسطات أجنحتهن بالطيران بين السماء والأرض. والطيران: صف وبسط للأجنحة، وقبض وضم لها.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١/ ٤٧.

(٢) انظر: (مفتاح دار السعادة» ١/ ٢٢٦.

(٣) انظر: «أوضح المسالك» ١/ ١٣٤، «ضياء السالك» ١/ ٤٢، «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء ١/ ٧٦.

وإنما خص الطير- والله أعلم- مع أنها تدخل في عموم قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للتنبيه على عظم قدرة الله عز وجل في تمكين هذا الطائر من الطيران وإمساكه بين السماء والأرض، وصموده أمام الرياح الشديدة والباردة، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩].

كما أنه عز وجل يذكر في كتابه الأنبياء بأسمائهم غير منسوبين، محمداً، وموسى، وإبراهيم، ونوحاً عليهم السلام وغيرهم، لكنه يذكر عيسى عليه السلام غالبًا منسوبًا لأمه «عيسى ابن مريم» للتنبيه على القدرة العظيمة في خلقه من أنثى بلا ذكر.

كما أن في ذكر الطير وهن صافات أجنحتهن بالطيران دلالة على أن ما بين السماء والأرض يسبحه أيضا.

وتسبيح الطير بالمنطق والحال، أي بأنواع التسبيح كلها قال سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، أي: كل قد علم الله صلاته وتسبيحه، أو كل من هذه المخلوقات قد علم صلاته وتسبيحه حسب حاله اللائقة به، وذلك بتعليم الله له إما بطريق الرسل والوحي كالإنس والجن والملائكة، أو بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

وهذا الاحتمال أرجح؛ لأن علم الله بأعمالهم مذكور في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

وكما أننا لا نفقه تسبيح هذه المخلوقات فكذلك لا نفقه صلاتها، المهم أنها قد علمها الله وألهمها صلاتها وتسبيحها، وقد يراد بصلاتها هنا الدعاء أو غيره.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله عليم بالذي يفعلون، أو والله عليم بفعلهم. أي: عليم بفعلهم وقولهم.

والواو في «يفعلون» للعالِم غُلِّب على غير العالم؛ لأن الصلاة والتسبيح في العالم أظهر، ولأن العالم هو المحاسب والمجازى على عمله خيره وشره.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٨، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٢٨.

والآية فيها وعد ووعيد، وعد لمن فعل الخير، ووعيد لمن فعل الشر. أي: إن الله لا تخفى عليه خافية من أفعال الخلق وأعمالهم وسيجازيهم عليها.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ «الواو» استئنافية، و«لله» جار ومجرور خبر مقدم، و«ملك» مبتدأ مؤخر، وإنما قدم الخبر مع أن حقه التأخير؛ لإفادة الحصر، أي: ولله وحده ملك السموات والأرض، فهو الخالق المالك لذلك، المدبر له سبحانه، وهو الذي منح الملوك ممالكهم، وهو المالك لهم ولممالكهم.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ هذا أيضًا فيه تقديم الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر.

أي: وإلى الله وحده المرجع والمآل والمآب، فمنه الابتداء فهو الخالق المالك المدبر، وإليه الانتهاء، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

وإذا كان عز وجل هو الخالق المالك المدبر منه البداية وإليه النهاية كان الواجب على الإنسان طاعته عز وجل وترك معصيته؛ إذ كيف يعصي الله من يرتع في ملكه، ويتقلب في نعمه، وإليه مصيره، ولهذا فإن في قوله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وعدًا لمن أطاعه ووعيدًا لمن عصاه.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير عظمة الله عز وجل، وأن كل من في السموات والأرض من المخلوقات يسبح له سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

٢- الإشارة إلى عظيم قدرة الله عز وجل في تمكين الطير من الطيران وإمساكه بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾.

٣- إلهام الله عز وجل وتعليمه لكل مخلوق صلاته وتسبيحه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، أي: كل مخلوق قد علم كيف يصلي وكيف يسبح لله بتعليم الله عز وجل له فعلَّمهم سبحانه، وعلم ما يعملون.

٤- علم الله عز وجل بما يفعله الخلق سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وفي

هذا إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء.

٥- أن لله عز وجل وحده ملك السموات والأرض ملكًا وخلقًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

٦- أن المرجع والمآب ومرد الخلائق كلهم إلى الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾، وإذا كان مصيرهم إليه فسيحاسبهم على أعمالهم، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحدًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ الاستفهام للتقرير، لاقترانه بالنفي، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

والمعنى: قد رأيت. والرؤية كسابقتها.

وجملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ في محل نصب في تأويل مصدر سد مسد مفعولي «ترى».

ومعنى ﴿يُزْجِى سَحَابًا﴾، أي: يسوقه، أو يسوقه برفق، ومنه قوله تعالى: ﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يوسف:٨٨] أي: قليلة. والسحاب أحيانًا يسير بسرعة، وأحيانًا رويدًا رويدًا. فالمثقل بالماء يسير ببطء، والذي لا ماء فيه يسير بسرعة، قال المتنبي[(١)]:

ومن الخير بُطء سَيْبِك عني ... أسرعُ السُّحْب في المسير الجَهَامُ

أي: الذي ليس فيه ماء.

وقال الآخر نثرًا: «وأثقل السحاب مشيًا أحفلها»، أي: المليئة بالماء.

﴿سَحَابًا﴾ جمع سحابة، وتجمع أيضاً على «سحب»، والسحاب: وعاء المطر.

قال ابن كثير[(٢)] في معنى قوله: ﴿يُزْجِى سَحَابًا﴾: « يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ».

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:٤٨].

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١٦٧.

(٢) في (تفسيره) ٦/ ٧٨، وانظر: «المفردات في غريب القرآن» مادة: «زجا» وكذا في «لسان العرب».

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [فاطر:٩](١).

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ قرأ أبو جعفر وورش عن نافع «يُوَلف» بالتسهيل دون همز، وقرأ الباقون: «يُؤَلِّف»(٢).

ومعنى ﴿يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أ ي: يجمع بينه، فيجمع بعضه إلى بعض، ويجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة، وهذا أمر مشاهد، ترى القطع من السحاب تنشأ في السماء ثم ينضم بعضها إلى بعض وتتوسع حتى تسد الأفق.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ الركام والمركوم: ما جعل بعضه على بعض، أي: فيجعل هذا السحاب متراكمًا متراكبًا بعضه على بعض كالجبال، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

وتراكم السحب يبدو ويظهر للناظر إليه من خلال منظر السحب الذي يشبه الجبال يعلو بعضها بعضًا، ومن كون بعض السحاب يسير بسرعة وبعضه يسير ببطء، ومن خلال حجب بعض السحب للكواكب دون بعض، ويظهر ذلك بجلاء لمن كان في الطائرة في الجو، يرى بعض السحاب تحته وبعضه فوقه.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾، أي: فتشاهد الودق يخرج من خلاله، وتعلم ذلك.

والودق: المطر، قال الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ... ولا أرض أبقل إبقالها(٣)

---

(١) ذكر الله عز وجل للرياح عدة منافع فيما يتعلق بالسحاب والمطر، منها التبشير به، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [الروم:٤٦]. ومنها تلقيح السحاب، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ [الحجر:٢٢].

قال عبيد بن عمير: « الرياح أربع: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب» أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٣٣٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٦١٧.

(٢) انظر: «المهذب» ٢/ ٧٦.

(٣) البيت لعامر بن جوين الطائي. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٢/ ٤٦، «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي: من خلال السحاب، و«خلال»: جمع خلل أي: من خلله وشقوقه وفتوقه، التي هي مخارج القطر من السحاب.

وقال الشاعر:

أثـــرن عجاجـــة فخـــرجن منهـــا خـروج الـودق مـن خلـل السـحاب(١)

وهذه المخارج هي أشبه شيء بالغرابيل ينزل منها المطر، والتي جعلها الله لينزل منها المطر على هذه الكيفية قطرات متفرقات، فينفع ولا يضر؛ لأنه لو انصب انصبابًا بكميات كبيرة لأحدث ضررًا فيما ينزل عليه ولهذا سمى الله عز وجل السحاب بالمعصرات، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ:١٤].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ «من» في قوله «من السماء» لابتداء الغاية.

﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ «من» أيضاً لابتداء الغاية، فهي بدل اشتمال من الأولى، أي: إن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ بدل من قوله ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقيل: إنها تبعيضية.

والمعنى- والله أعلم- وينزل من السحب التي في السماء، والتي تشبه الجبال كما يشاهد ذلك عند تراكم المزن بعضه على بعض للناظر من الأرض، أو في الطائرة.

وقيل: إنها جبال حقيقية خلقها الله كجبال الحجارة.

«مِنْ بَرَدٍ»: «من» صلة، أي: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى أي: وينزل من السماء من جبال فيها بردًا.

وقيل «من» تبعيضية أي: وينزل من السماء من جبال فيها بعضًا من برد.

وقيل «من» لبيان الجنس، أي: إن الجبال نفسها من برد.

وعلى هذا يكون مفعول ينزل محذوفًا، تقديره: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ بَرَدًا.

والبرد: هو الذي ينزل جامدًا، وسمي بردًا لبرودته، أو لأنه يبرد الأرض أي يزيل

٨/ ٢١٩.

(١) البيت لبشر بن أبي حازم الأسدي. انظر: «ديوانه» ص١٣٠، ورواية عجزه في «الديوان»: «كما خرجت من الغرض السهام». وانظر: «ديوان زيد الخيل» ص٧٤، «باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن» ٢/ ١٠٠٧، «النكت والعيون» ٤/ ١١٣.

ما عليها، ولهذا جاء في الحديث: «و اغسلني بالماء والثلج والبرد»[١].

فهو عز وجل ينزل من السماء من جبال فيها، أي: في السماء بردًا، وهذا البرد أحيانًا يكون كثيرًا، وأحيانًا يكون قليلاً، أحيانًا يكون صغيرًا، وأحيانًا يكون كبيرًا، إلا أنه من رحمة الله عز وجل- غالبًا- لا يكون كبيرًا جدًا بحيث يهدم البناء، ويقتل الإنسان والحيوان، وقد يوجد هذا لكنه- ولله الحمد- قليل، وأحيانًا يكون هذا القليل على الجبال، أو على أرضٍ ليس فيها بناء ولا إنسان، وهذا أيضًا من رحمة الله عز وجل.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ «الفاء» عاطفة، أي: فيصيب بهذا البرد؛ لأنه أقرب مذكور، الذي يشاء من عباده، فيتضررون بهذا البرد في حرثهم وممتلكاتهم وغير ذلك، ويصرفه بحكمه القدري وحكمته عن الذي يشاء من عباده، فيسلمون من ضرره.

فالآية سِيقت لبيان العقوبة لمن يصيبهم هذا البرد فيتضررون به والامتنان على من يصرفه عنهم فيسلمون من ضرره، وهذا ظاهر الآية، ويقويه قوله: ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ﴾ فإن هذه المادة غالبًا تستعمل لصرف الشر وما يضر، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، وقال عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان:٥٠].

وقال تعالى في عذاب يوم القيامة: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦].

ويحتمل أن المعنى: فيصيب بهذا المطر والبرد من يشاء رحمة لهم، ويصرفه عمن يشاء حرمانًا لهم[٢].

وعلى كلٍ قد يكون المصاب بالبرد أو بالمطر والبرد معًا معاقبًا من جهة وممتنًا عليه من جهة أخرى، فيضره ذلك من جهة بعض المحاصيل، وينتفع به من جهة ارتواء الأرض ونباتها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٨، وأبو داود في الصلاة ٧٨١، والنسائي في الافتتاح ٨٩٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٠٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٩، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٢٩.

وقد يكون من صرف عنه معاقبًا بصرفه عنه بحيث تجدب أرضه، وممتنًّا عليه من جهة سلامة الزروع والمحاصيل، فهو في آن واحد قد يكون نعمة ونقمة، والمهم:

أن نعلم أولًا: أن العقوبات والمصائب كلها بسبب الذنوب والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال عز وجل: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر:٤٥]، وقال: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨]، وقال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وهذا كله مما يوجب علينا أخذ العظة والعبرة من هذه المصائب بالرجوع إلى الله عز وجل.

وأن نعلم ثانيًا: أن الله عز وجل يختار لعباده ما يختار، فتارة يبتليهم بالنعم وتارة يبتليهم بالنقم؛ ليظهر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر، ومن يجزع، وليكون المؤمن دائمًا بين الخوف والرجاء، فلا تطغيه النعم، ولا يقنط ولا ييأس من روح الله، ولا يجزع لما يصيبه من النقم، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق:٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩- ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٥- ١٦].

وقال ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب»(١).

وقال ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تُفَيِّئُهُ، ولا يزال المؤمن يُصيبه بلاء، ومثل المنافق مثل شجرةِ الأَرْزِ لا تهتزُّ حتى تُحصد»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٤٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٠- من حديث عبدالله بن كعب عن أبيه رضي الله عنه.

وقال ﷺ: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط »(١).

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٢)

﴿يَكَادُ﴾: يقارب، ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾، أي: ضوء برق هذا السحاب.

والبرق: هو ما يظهر من السحاب من بريق وإضاءة خاطفة، بين حين وآخر، وقد يكون متواليًا أحيانًا.

وقد يكون سببه- والله أعلم- ضرب المَلَكِ الذي يسوق السحاب، كما جاء في بعض الآثار، وذلك لا يتنافى أن يكون أيضا بسبب اجتماع سالب وموجب وحصول شحنة كهربائية.

قوله: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الياء وكسر الهاء: «يُذهِب بالأبصار»، والباء على هذه القراءة صلة؛ كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠]، أي: تنبت الدهن. وقيل: بمعنى «من» والمفعول محذوف، والتقدير: يُذهِب النورَ من الأبصار؛ كقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨]، أي: منها.

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٣)، والباء على هذه القراءة للتعدية.

والمعنى: يكاد ضوء برقه من شدة إضاءته ولمعانه وبريقه يخطف الأبصار ويزيلها، كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة:٢٠].

والأبصار: جمع بصر، وهي: حاسة البصر.

وهذا أمر مشاهد أن السحاب الذي فيه برد يكون برقه أشد إضاءة ولمعانًا غالبًا.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ التقليب: تغيير الشيء من جهة إلى جهة.

وتقليب الليل والنهار منه ما هو حسي، ومنه ما هو معنوي.

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٩٦، و ابن ماجه في الفتن ٤٠٣١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «المحرر الوجيز» ٢/ ٤٣١.

(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٢.

فالتقليب الحسي: بالمعاقبة بينهما وإبدال أحدهما مكان الآخر، فالليل يعقبه النهار، والنهار يعقبه الليل، وبالزيادة في أحدهما والنقص من الآخر، أو جعلهما متساويين، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

والتقليب المعنوي: بتغيير الأحوال التي تقع فيهما، فمن حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن أمن إلى خوف، ومن خوف إلى أمن، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء، ومن عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، ومن صحة إلى سقم، ومن سقم إلى صحة، كما قال عز وجل: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦- ٢٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: إن في إزجاء السحاب، والتأليف بينه، وجعله متراكمًا، وإخراج الودق من خلاله، والإصابة به من يشاء، وصرفه عمن يشاء، وكون برقه يكاد يخطف الأبصار، وتقليب الليل والنهار «لعبرة»، أي: لدلالة وعظة، دلالة على قدرة الله تعالى التامة وعظمته، وعظة تبين أن دوام الحال من المحال، وأن كل شيء للزوال إلا الحي القيوم، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦- ٢٧]، وقال عز وجل: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

ففي تعاقب الليل والنهار عبرة وعظة ونعمة ومنة قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١- ٧٣].

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: لأصحاب البصائر والعقول السليمة، الذين يتفكرون في آيات الله الكونية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

وبين «الأبصار» في قوله «يذهب بالأبصار» وقوله هنا «لأولي الأبصار» جناس تام؛ لاتفاق الحروف واختلاف المعنى، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥].

وإنما خص أولي الأبصار؛ لأنهم هم الذين يتفكرون في آيات الله الكونية والشرعية. وأما من عداهم فإنهم لعدم انتفاعهم بعقولهم أشبه شيء بالأنعام، بل هم أضل منها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٠٤]

الفوائد والأحكام:

١- تقرير قدرة الله عز وجل العظيمة على سوق السحاب والتأليف بينه، وجعله متراكمًا بعضه فوق بعض، وإخراج المطر وإنزاله من خلاله، وإنزال البرد من جبال في السماء على من يشاء، وصرفه عمن يشاء، وما يخرج منه من نور البرق الذي يكاد لقوته يزيل الأبصار؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

٢- لله عز وجل الحكمة التامة في إنزال المطر والبرد على من يشاء، وصرفه عمن يشاء، ابتلاءً واختبارًا، وإنعامًا وانتقامًا، ورحمة وعذابًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾.

٣- قدرة الله عز وجل التامة وحكمته البالغة في تقليب الليل والنهار؛ لقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

٤- وجوب التأمل في عظيم قدرة الله عز وجل في سوق السحاب وتأليفه وتراكمه وإنزال المطر والبرد، وفي البرق، وفي تقليب الله الليل والنهار، وأخذ العبرة والعظة من ذلك، وأن كل شيء إلى الزوال إلا من له البقاء سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

فدوام الحال من المحال، وهذه الأيام والليالي إنما هي مطايا للارتحال، وخزائن للأعمال، وتُذَكِّر بتقليبها بأن مآل هذه الدنيا إلى الزوال. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

٥- أن الذين يعتبرون ويتعظون ويتأملون في آيات الله الكونية والشرعية هم أصحاب العقول السليمة الذين دلتهم عقولهم إلى معرفة الله عز وجل والقيام بحقوقه؛ لهذا خصهم بالذكر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل آياته في العالم العلوي في الآيتين السابقتين، ثم أتبع ذلك بذكر آياته في العالم السفلي، وفي ذلك كله تنبيه وتذكير ودلالة على عظيم قدرته وكمالها.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف: «خالق كل دابة».

وقرأ الباقون: «خلق كل دابة»(١).

أي: أوجد كل دابة، والدابة: تشمل كل ما يدب على الأرض من الحيوانات، وأصلها: « داب »، والهاء للمبالغة. وقيل: الهاء للواحدة، كبقرة وشاة.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿مِّن مَّآءٍ﴾ كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

أي: وخلقنا من الماء كل شيء حي. وإن كانت هذه الآية تشمل النبات أيضًا.

فما يتوالد من الدواب والحيوانات فمادته ماء النطفة حين يلقح الذكر الأنثى، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥- ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠].

وأما ما لا يتوالد، وإنما يتولّد فماؤه رطوبة؛ لأنه يتولّد من العفونات والرطوبات المائية كالحشرات والديدان ونحو ذلك(٢).

فكل ما يدب على الأرض من الحيوانات مخلوق من ماء، وأصل حياته من الماء على أي صفة كان خلقه.

وقد يكون هذا من باب التغليب فيخرج الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن

---

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٣٢.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣١.

مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]، وكذلك الملائكة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: « خلقت الملائكة من نور»(١).

﴿فَمِنْهُم﴾ بضمير العقلاء و«مَنْ» الموصولة التي تستعمل للعالم يدل على دخول «البشر» في عموم قوله (كل دابة) وجاء التعبير بضميرهم تغليبًا لهم على غيرهم من غير العقلاء ولو لم يدخل العقلاء لقال: (فَمِنْهُا ما يَمْشِي...الخ).

﴿مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ «من» موصولة، وهي في الأصل للعالم فجيء بها دون «ما» التي لغير العالم، إما تغليبًا للعالم على غيره، أو علي سبيل التبادل بينهما، ومجيء إحداهما مكان الأخرى.

والذي يمشي على بطنه من الدواب كالحيات والحيتان والديدان والزواحف. والمشي على البطن كما يسمى مشيًا يسمى أيضًا زحفًا وحبوًا(٢).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾: كالإنسان والطير.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام، الأزواج الثمانية: الإبل والبقر والضأن والماعز، وكالخيل والبغال والحمير والسباع ونحو ذلك.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يخلق الله الذي يشاء خلقه من المخلوقات مما يمشي على ما ذكر، ومما يختلف عنه، مما يمشي على أكثر مما ذكر أو أقل منه.

وهذا يدل على أن ما جاء في الآية من ذكر الأنواع الثلاثة إنما هو على سبيل التمثيل فقط، وليس على سبيل الحصر، فهناك من الدواب ما يمشي على أكثر من أربع، وهذا أمر مشاهد معلوم.

وقدم في الذكر من يمشي على بطنه؛ لأنه أدل على كمال القدرة وأعجب ممن يمشي على رجلين، ومن يمشي على رجلين أدل على ذلك وأعجب ممن يمشي على أربع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعدما ذكر عز وجل بعضًا من دلائل قدرته العلوية والسفلية، أكد عز وجل قدرته على كل شيء.

وأكد ذلك بـ«إن»، وهي حرف توكيد ونصب، وبكون الجملة اسمية، وبتقديم

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٦- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٧٩، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣١، وانظر: «لسان العرب» مادة «زحف».

المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به، وهو ﴿قَدِيرٌ﴾ إذ الأصل قدير على كل شيء.

و«القدير» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على كمال قدرته عز وجل على كل شيء، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[المرسلات:٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

الفوائد والأحكام:

١. أن الله خلق كل دابة مما يدب على الأرض من ماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾.

فأصل خلقة كل الدواب من الماء، فمنها ما هو من ماء النطفة، ومنها ما هو من الرطوبات والعفونات؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

فمعنى الآية: أن كل شيء خلق من الماء، وليس معناها أن الماء ضروري لبقاء الحياة، كما يفهمه كثير من الناس.

٢. قدرة الله عز وجل الباهرة، وحكمته الظاهرة في اختلاف مشية هذه الدواب فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

٣. إثبات المشيئة لله تعالى وأنه عز وجل يخلق ما يشاء من المخلوقات من غير ما ذكر، ومما يمشي على غير ما ذكر، وما ذكره في هذه الآية إنما هو أمثلة لبعض ما خلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

٤. إثبات قدرة الله عز وجل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة جملة من الآيات الكونية العلوية والسفلية في السموات والأرض والدواب أتبع ذلك ببيان أنه أنزل أعظم من ذلك، وهي الآيات الشرعية التي فيها الهداية للطريق المستقيم رحمة منه وامتناناً.

قوله: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: «اللام» واقعة في جواب القسم، و«قد» للتحقيق، والتقدير: والله لقد أنزلنا. والإنزال يكون من علو إلى أسفل، وضمير «نا» يعود إلى الله عز وجل فهو سبحانه وتعالى عالٍ فوق خلقه مستوٍ على عرشه.

﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة والدلالة، وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، وهي: القرآن الكريم. وهي المرادة هنا، وسُميت آيات لأنها علامة على وجود الله وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته وعلامة على صدق من جاء بها من عند الله ولما اشتملت عليه من الهدى الصالح لكل زمان ومكان، ولكل أمة، الدال على أنها من عند الله، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

كما أن الآية علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها.

والآية في الشرع: « القطعة من كلام الله عز وجل ذات بداية ونهاية منفصلة عما قبلها وعما بعدها، مندرجة تحت سورة من سور القرآن الكريم ».

﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وخلف وحفص عن عاصم: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياء مع التشديد اسم فاعل أي: بيّنات بأنفسهن، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد:٩]، ومبينات للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والخير من الشر، ولكل ما يحتاجه الخلق في أمور دينهم ودنياهم، كما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وقرأ أبو عمرو ويعقوب ونافع وأبو جعفر وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: «مبيَّنات» بفتح الياء وتشديدها[1]، اسم مفعول، أي: أن الله وضحها وبينها وفصلها،

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٢٤٨- ٢٤٩.

كما قال عز وجل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، كقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

المراد بالهداية هنا هداية التوفيق والقبول الخاصة بالله عز وجل، كما في قوله- تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: من يشاء الله هدايتهم، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

وقوله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يدل على أنه عز وجل يفعل لحكمة، فيهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وكل ذلك لحكمة؛ لأنه قيد الهداية بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

فعلى الإنسان أن يبحث عن أسباب الهداية فيوفق لها بإذن الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥- ٧].

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى طريق مستقيم، و«المستقيم» في الأصل هو أقصر خط يصل بين نقطتين، أي: يهدي إلى طريق لا عوج فيه ولا التواء، ويؤدي إلى السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة بأخصر طريق، وأقرب وقت، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به محمدًا ﷺ، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

ولهذا أمرنا الله بالدعاء بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة من الصلاة في سورة الفاتحة، وهو صراط الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل على عظم ما أنزل من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، أي: والله لقد أنزلنا.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، وفي هذا الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- أن آيات القرآن الكريم في غاية الوضوح والبيان بينات بأنفسهن، موضحات للحق من الباطل، والحلال من الحرام وغير ذلك لقوله: (مُّبَيِّنَاتٍ).

٥- أن هداية التوفيق إلى الصراط المستقيم خاصة بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٦- الترغيب في سؤال الهداية من الله عز وجل وحده؛ لأن الهداية بيده وحده.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٨- أن أقوم الطرق وأعدلها وأقربها للسعادة والنجاة هو طريق الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل صفات الرجال المؤمنين بقوله ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ الآية، ثم ذكر الله الكافرين وأعمالهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ الآيتين.

ثم أتبع ذلك بذكر حال الصنف الثالث المذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وهم المنافقون.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قوله ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ «الواو» استئنافية، أي: ويقول المنافقون، ومرضى القلوب، وضعاف الإيمان[1]، أي: ويقولون بألسنتهم. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾، أي: صدقنا بالله وبالرسول.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وشرعه.

والإيمان بالرسول ﷺ: شهادة أنه رسول الله ﷺ وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجرَ، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

وأعاد حرف الجر في قوله «وبالرسول»؛ لبيان أنه يجب الإيمان بالرسول ﷺ إيمانًا مستقلاً، فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله فليس بمؤمن.

و«ال» في قوله «وبالرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود بالأذهان، وهو محمد ﷺ.

﴿وَأَطَعْنَا﴾، أي: انقدنا بجوارحنا لله ورسوله، بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن معنى الطاعة: الامتثال وموافقة الطلب بفعله إن كان مأمورًا، أو تركه إن كان منهيًا.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٣.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، أي: ثم يعرض فريق وطائفة منهم عن الإيمان بالله والرسول فتُخالف أعمالهم أقوالهم، ويقولون ما لا يفعلون.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من بعد قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾.

ويفهم من قوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أن من القائلين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ فريقًا لا يتولى، بل يَصْدق بتلك المقالة.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ «الواو» حالية، و«ما» نافية والإشارة للفريق المتولي عن الإيمان، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الباء حرف جر زائد من حيث الإعراب مؤكد من حيث المعنى للنفي في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: توكيد نفي الإيمان عنهم.

أي: وما أولئك الذين يتولون عن الإيمان بالله والرسول، وعن طاعة الله والرسول بالمؤمنين حقًا؛ لأنهم يقولون مالا يفعلون، ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ويحتمل أن المراد نفي أصل الإيمان عنهم، وهذا إذا كان إعراضهم إعراضًا مطلقًا، أو مما يُكفَّر به المعرض.

ويحتمل أن المراد نفي كمال الإيمان الذي ادعوه، وهذا إذا كان إعراضهم بترك ما لا يخرجون بتركه عن أصل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

رُوي أن رجلاً من المنافقين يقال له بشر كانت بينه وبين يهودي خصومة، فقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، وقال اليهودي نتحاكم إلى محمد، فاتفقوا على التحاكم إلى عمر، ورُوي أن عمر- رضي الله عنه- قتل ذلك المنافق، وقيل غير ذلك[1].

قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ «الواو» عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة. «دعوا» الضمير الواو يعود إلى الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: إذا دعوا إلى كتاب الله تعالى وإلى حكمه عز وجل.

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢١، «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨١، «لباب النقول» ص ١٦٠.

«ورسوله»، أي: إليه ﷺ بنفسه في حياته، وإلى سنته ﷺ بعد وفاته.

وعطف بالواو في قوله «ورسوله»؛ لأن المقام مقام الطاعة والحكم والتشريع، وهذا لا مانع فيه من عطف اسم الرسول ﷺ، أو وصفه على اسم الله بالواو؛ لأن طاعة الرسول ﷺ وحكمه وشرعه من شرع الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه العطف بالواو؛ لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت »، «أو ما شاء الله وشاء محمد».

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت: فقال ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت. ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت(٢).

وعن قَتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: « ورب الكعبة؛ وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»(٣).

وعن حذيفة- رضي الله عنه- : أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. وذكر ذلك للنبي ﷺ. فقال: «أما والله إن كنت لأعْرِفها لكم. قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»(٤).

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قرأ أبوجعفر بضم الياء وفتح الكاف: «ليُحكَم».

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الكاف: ﴿لِيَحْكُمَ﴾.

و«اللام» في ﴿لِيَحْكُمَ﴾ لام التعليل، أي: دعوا لأجل أن يحكم بينهم والضمير في

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه أحمد شاكر في تخريجه للمسند ١٨٣٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الكفارات ٢١١٧. وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور ٣٧٧٣، وأحمد ٦/ ٣٧١- ٣٧٢. وصححه الألباني.

(٤) اخرجه ابن ماجه في الكفارات ٢١١٨. وصححه الألباني.

قوله: «ليحكم» يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه المباشر للحكم بينهم، وهو المبلغ عن الله عز وجل فحكمه ﷺ بينهم هو حكم الله، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣- ٤].

ولهذا قال ﷺ لسعد بن معاذ- رضي الله عنه- لما حكم ببني قريظة أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى ذراريهم: « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، أو من فوق سبع سموات»(١).

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ هذه الجملة جملة جواب الشرط المتقدم، وصدرت بإذا الفجائية؛ لأنها جملة اسمية، وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية فلا بد أن يصدر بالفاء أو بإذا الفجائية.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ يفهم منه أن منهم فريقًا يقبل حكم الله ورسوله.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾، أي: عن حكم الله ورسوله، لا يلتفتون إليه، فهم متولون بأجسامهم، معرضون بقلوبهم، لا ينظرون لما تولوا عنه، فالمتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، بخلاف المعرض، فإنه لا يلوي إلى ما أعرض عنه، ولا يلتفت إليه(٢).

وفي تصدير الجملة بإذا الفجائية التي تدل على المفاجأة دليل على استكبار هؤلاء وعنادهم، وأنهم يفاجئون من دعاهم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بالإعراض من أول وهلة دون تروٍ وتفكر في الأمر، فكأنهم بيّتوا في أنفسهم من ذي قبل رد حكم الله ورسوله والإعراض عنه؛ لأنهم مبطلون في دعواهم وظالمون، ويعلمون أنه ﷺ لا يحكم إلا بالحق، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦٠- ٦١]، إلى أن قال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: « تيسير الكريم الرحمن » ٥/ ٤٣٣.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾، أي: وإن يكن لهم الحق في حكم الله ورسوله لم يعرضوا ولم يتولوا بل ﴿ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾.

﴿ إِلَيْهِ ﴾، أي: إلى رسول الله ﷺ، أو إلى حكم الله ورسوله.

﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ مسرعين منقادين طائعين ذليلين، والإذعان: سهولة الانقياد(١).

فهم إن كان الحق ليس لهم- فيما حكم الله به ورسوله أعرضوا عنه سواء كان الحق عليهم أو لا عليهم ولا لهم، وإن كان لهم الحق في ذلك الحكم جاؤوا إليه مسرعين منقادين طائعين، ليس من باب الطاعة لحكم الله ورسوله والإيمان بذلك، وإنما لأن ذلك وافق أهواءهم حيث كان الحق فيه لهم، وهذا ليس من باب الانقياد لحكم الله ورسوله، وإنما من باب اتباع الهوى(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١].

وقال تعالى في المطففين: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:١- ٦].

قوله تعالى: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

والمرض قسمان: مرض حسي يصيب الجسم كله، ومرض معنوي يصيب القلوب والعقول، كما قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠].

---

(١) انظر: « المفردات في غريب القرآن »، « لسان العرب » مادة « ذعن ».

(٢) انظر: « تفسير ابن كثير » ٦/ ٨٠.

وهو أخطر الأمراض قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

والمرض المعنوي قد يكون:

مرض شهوة، وهو ثلاثة أنواع: مرض شهوة فرج، ومرض شهوة بطن، ومرض شهوة اتباع الهوى، وهو أشد أنواع مرض الشهوة، وهو المراد بقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

وقد يكون مرض شبهة وشك؛ وهو المراد بقوله: ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾، وهو أشد من مرض الشهوة بجميع أنواعه.

و«أم» في هذا الموضع والذي بعده هي المنقطعة التي بمعنى «بل» التي هي للإضراب الانتقالي من كلام إلى كلام آخر دون إبطال الأول مع همزة الاستفهام الإنكاري.

والتقدير: بل أَرْتابوا، أي: أشكوا في صحة نبوة محمد ﷺ، وفيما جاءهم به من عند الله، وفي صحة حكمه.

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾، أي: بل أيخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله يعني في الحكم، والحيف: الجور والظلم.

والمعنى: لماذا يعرضون عن حكم الله ورسوله إذا لم يكن الحق، لهم ويأتون إليه مسرعين منقادين طائعين إذا كان الحق لهم ؟ أفي قلوبهم مرض اتباع الشهوة والهوى، أم شكّوا في صحة نبوته ﷺ وفيما جاءهم به من عند الله، واشتبه الأمر عليهم، ولم يتبين لهم الحق، أم يخافون من الجور في حكم الله ورسوله عليهم(٢).

﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «بل» عاطفة، وهي للإضراب الانتقالي.

والمعنى: ليس الحيف في حكم الله ورسوله ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لإعراضهم عن حكم الله ورسوله، بسبب مرض قلوبهم بالشهوة واتباع الهوى والريب والشك واتهام حكم الله ورسوله بالجور والظلم، فهم بهذه الأعمال هم الذين بلغوا الغاية في

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) انظر: « تيسير الكريم الرحمن » ٥/ ٤٣٤.

الظلم[١].

ولهذا أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة جملة اسمية، معرّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

والظلم لغة: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣].

وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، أو على سبيل التعدي وهو نوعان:

١- ظلم الإنسان لنفسه بالمعاصي والذنوب وأعظمها الشرك بالله، وهو أظلم الظلم؛ لأن حق الله أوضح الحقوق وأبينها، قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

٢- وظلم الغير، وهو أيضًا داخل في ظلم النفس؛ لأن ظلم الغير من المعاصي.

الفوائد والأحكام:

١- فضح المنافقين ومرضى القلوب وذمهم وبيان ترددهم وتذبذبهم فهم يدّعون الإيمان بالله وبرسوله وطاعتهما ثم يتولى فريق منهم فتخالف أفعالُهم أقوالَهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٢- أن من ادعى الإيمان والطاعة بقوله وخالف ذلك بفعله فليس بمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالإيمان قول وعمل واعتقاد، وليس مجرد قول باللسان، مع الإعراض بالقلوب والتولي بالأبدان[٢].

٣- إعراض المنافقين ومرضى القلوب عن حكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

٤- وجوب الانقياد لحكم الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٤.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٥.

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل في مقام الطاعة والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

٦- قبول المنافقين لحكم الله ورسوله إذا كان الحق فيه لهم، ورده إذا كان الحق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

٧- جمع المنافقين بين مرض القلوب والريب والشك، وعدم الاطمئنان إلى حكم الله ورسوله والظلم؛ لقوله ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة المعرضين عن حكم الله ورسوله ما لم يكن الحق لهم، بيّن حال المؤمنين السامعين المطيعين لحكم الله ورسوله فيما لهم وفيما عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: إنما: أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة.

ونُصب «قولَ» على أنه خبر «كان» مقدم، واسمها «أن يقولوا»، أي: المصدر المقدر من «أن» والفعل بعدها، والتقدير: ما كان قولهم إلا هذا القول، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران:١٤٧].

والمعنى: إنما كان قول المؤمنين كاملي الإيمان الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم وأقوالهم بأفعالهم، وهو قولهم: سمعنا وأطعنا(١).

﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: كالجملة السابقة «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة «دعوا إلى الله»، أي: إلى كتاب الله عز وجل وحكمه، «ورسوله»، أي: إليه ﷺ بشخصه في حياته، وإلى حكمه وسنته بعد وفاته ﷺ.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الكاف: «ليُحكَم».

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الكاف: ﴿لِيَحْكُمَ﴾. و«اللام» للتعليل أي: لأجل أن يحكم بينهم، والضمير في قوله «ليحكم» كما سبق يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه المبلغ عن الله عز وجل والمباشر للحكم بينهم، وحكمه بينهم هو حكم الله عز وجل.

أي: ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من الخصومات، وفي الأحكام وغير ذلك، كما

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٣٥

قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩].

ومما يؤيد أن الضمير في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ قوله في الآيات بعد هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾.

﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أي: سمعنا بآذاننا، «وأطعنا»، أي: انقدنا بجوارحنا، بفعل ما نؤمر به وترك ما نُنهى عنه سواء كان الحكم لنا أو علينا.

وهذا بخلاف من قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، [البقرة:٩٣]، [النساء:٤٦]، وبخلاف الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وبخلاف الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

فالواجب على المؤمن إذا سمع حكم الله ورسوله أن يسمع ويطيع ويرضى ويسلم، فإن الآية وإن كان ظاهرها الخبر، فإن معناها الأمر وإيجاب التحاكم إلى الله ورسوله، وإلى من حكم بحكم الله ورسوله من حكام المسلمين وقضاتهم، والرضا بذلك.

والله المستعان، قلَّ أن تجد خصمًا يخرج من المحكمة الشرعية راضيًا إذا كان الحكم عليه، لاعن الحكم، ولاعن القاضي إلا من رحم ربك.

كما قال ابن الوردي[1]:

إن نصف الناس أعداء لمن ... ولي الحكم وهذا إن عدل

وقد قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

كما أنه أيضًا يجب التسليم والصبر والرضى لأحكام الله القدرية حتى يَسْلَمَ الإنسان من الجزع والقلق والاعتراض على قضاء الله وقدره.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٨٠.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الإشارة للمؤمنين القائلين سمعنا وأطعنا، وأشار إليهم بإشارة البعيد تشريفًا لهم، وأكد الفلاح وحصره فيهم بضمير الفصل وبالجملة الاسمية معرّفة الطرفين.

والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب[1]، والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأن من سمع لحكم الله ورسوله، وأطاع ورضي بذلك وسلَّم انشرح صدره واستنار قلبه لقبول الحق، واطمأن وسعد وأفلح في حياته، بخلاف من لم يسمع لحكم الله ورسوله، ولم يطع فإنه يضيق صدره ويظلم قلبه ويعيش في حيرة من أمره.

وهكذا الشأن بالنسبة لأحكام الله القدرية فمن رضي بها وصبر هان عليه أمرها واطمأن وسعد في حياته، ومن لم يرض بها وجزع كان نصيبه الجزع والقلق.

أما السعادة في الآخرة فبالنجاة من النار والفوز بالجنة ورؤية العزيز الجبار قال تعالى ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

لما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصًا ذكر فضلها عمومًا في جميع الأحوال فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، «الواو» عاطفة أو استئنافية و«من» شرطية جازمة «يطع» فعل الشرط مجزوم بها وعلامة جزمه السكون، وحذفت منه الياء لالتقاء الساكنين.

والطاعة: موافقة الطلب بفعله إن كان أمرًا، وتركه إن كان نهيًا، أي: فعل المأمور، وترك المنهي، أي: فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

ويحسن في مثل هذا المقام أن نحمل الطاعة على فعل الأوامر؛ لذكر التقوى بعدها.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله بالواو؛ لأن هذا في مقام الطاعة والأمر والنهي، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨١

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾: معطوف على «يطع». و«يخش» مجزوم بحذف حرف العلة الألف فأصله «يخشى»، و«يتقه» مجزوم بحذف حرف العلة الياء فأصله «يتقيه».

قرأ حفص عن عاصم: «ويتّقْهِ» بسكون القاف وكسر الهاء.

وقرأ قالون ويعقوب الحضرمي: «ويتّقِهِ» بكسر القاف والهاء.

وقرأ ورش وابن كثير وخلف عن حمزة، والكسائي وخلف: «ويتَّقِهِي» بكسر القاف والهاء مع إشباع كسرة الهاء.

وقرأ أبو عمرو وشعبة: «ويتّقِهْ» بكسر القاف وسكون الهاء[(١)].

والخشية: بمعنى الخوف، بل أخص منه فهي خوف مع هيبة وتعظيم وإجلال؛ لأن من شرطها- كما يقول بعض أهل العلم- عِظَم المخشي وعلم الخاشي كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] أي: يخافونه خوفًا مقرونًا بتعظيمهم له مع علم ومعرفة. وقيل: الخشية من مُنَزِّل المكروه، والخوف يكون من نفس المكروه.

والتقوى لغة: مأخوذة من الوقاية، وهي أن تجعل بينك وبين الأمر المخوف وقاية، تتقي البرد والحر والشوك ونحو ذلك.

وكلمة «تقوى» أصلها «وقوى» فقلبت الواو تاءً لعلة تصريفية، فقيل «تقوى».

وأجمع ما قيل في معناها: « أ ن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه».

وعطف «ويتقه» على قوله «ويخش الله» لأن التقوى نتيجة خشية الله، فعطفها على التقوى من باب التوكيد.

قال ابن كثير[(٢)]: «(وَيَخْشَ الله) فيما مضى (وَيَتَّقْهِ) فيما يستقبل».

وحيث ذكرت الطاعة قبل هذا ثم عطف عليها التقوى فيحسن في مثل هذا المقام أن تحمل التقوى على ترك النواهي[(٣)]؛ لأن الطاعة والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت كالفقير والمسكين، والإسلام والإيمان ونحو

---

(١) انظر: « التبصرة » ص ٦١١، «المهذب في القراءات العشر» ٢/ ٧٧.

(٢) في « تفسيره » ٦/ ٨١.

(٣) انظر: « تيسير الكريم الرحمن » ٥/ ٤٣٦

ذلك، وذلك لئلا يقال بالترادف، وتضيع فائدة العطف الذي هو في الأصل يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، سواء كانت المغايرة بين الذوات، أو بين الصفات، ولأن تأسيس معنى جديد أولى من التوكيد.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ جملة جواب الشرط، واقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية. والإشارة لمن جمعوا بين طاعة الله ورسوله وخشية الله وتقواه، وأكد الفوز لهم وحصره فيهم بضمير الفصل «هم» وبكون الجواب جملة اسمية معرّفة الطرفين.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ كقوله ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فالفوز والفلاح: النجاة من المرهوب والحصول على المطلوب.

والفائزون: الذين ظفروا بالسعادة في الدنيا بالحياة الطيبة، والسعادة في الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة ورؤية العزيز الجبار. نسأل الله الكريم من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- امتداح المؤمنين والثناء عليهم في سرعة الانقياد والاستجابة والقبول والسمع والطاعة لحكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

٢- وجوب السمع والطاعة لله وللرسول ﷺ في الحكم وفي جميع الأحوال، وخشية الله عز وجل وتقواه.

٣- أن الفلاح والفوز وحصول المطلوب والنجاة من المرهوب ودخول الجنة والنجاة من النار بالسمع والطاعة لحكم الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله في جميع الأحوال وخشية الله وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

٤- الترغيب والإغراء في طاعة الله ورسوله، وخشية الله وتقواه لحصر الفوز فيمن اتصف بهذه الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ «الواو» استئنافية، «أقسموا بالله» حلفوا به.

والمراد المتخلفون عن الجهاد من المنافقين ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان(١).

كما قال الله عز وجل عن الكفار: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩، ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر:٤٢].

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ جهد منصوب على الحالية أو المصدرية، أي: غاية أيمانهم.

أي: أقسموا بالله أوكد الأيمان وأغلظها، وطاقة ما في وسعهم وما يقدرون عليه.

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب القسم، واللام موطئة للقسم، أي: والله لئن أمرتهم في المستقبل بالجهاد في سبيل الله، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم الثاني وهو قوله: (لئن أمرتهم)، أي: والله لئن أمرتهم بالجهاد ليخرجنَّ إليه.

أي: إن هؤلاء حلفوا بالله الأيمان المؤكدة والمغلظة لئن أمرهم الرسول ﷺ بالجهاد ليخرجن إليه، كما قال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢].

وهذا ديدنهم اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المجادلة:١٦]، [المنافقون:٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٨٢، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٧٣٧.

[التوبة:٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة:٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ [التوبة:٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤]، ويُبعثون وهم على هذا، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨].

والقسم إذا تضمن التزامًا من الإنسان لله كان جامعًا بين القسم والنذر.

وأما إذا قصد بالقسم مجرد تحقيق شيء دون الالتزام فليس بنذر، كأن يقول: والله لأخرجن إلى السوق، ونحو ذلك.

﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾، أي: قل لهم يا محمد: لا حاجة أن تقسموا، أولا داعي للقسم ولا مبرر له، ويؤخذ من هذا كراهة القسم إذا لم تدعُ الحاجة إليه.

وفي الحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»(١).

كما يؤخذ من هذه الآية كراهة النذر مطلقًا، بل ظاهر الآية تحريم ذلك.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تحريم النذر، وقد قال ﷺ في ذم النذر «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»(٢)، والعقل والمعنى يقتضي ذلك؛ لأن العافية لا يعدلها شيء، فكيف يلزم الإنسان نفسه في أمر لم يلزمه الله به، بل بأمر قد يعجز عنه، وقد يندم عليه، كما هو حال كثير ممن ينذرون، ولا شك أن في هذا تكليفًا للنفس، بل وظلمًا لها، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي هريرة وسلمان رضي الله عنهما بسند صحيح- فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب التوحيد. انظر: «فتح المجيد» صـ٤١٦- ٤١٨.

(٢) أخرجه البخاري في القدر ٦٦٠٨، ومسلم في النذور ١٦٣٩، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠١، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة:٧٥- ٧٧].

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ طاعة: مبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: طاعتكم طاعة معروفة.

والمعنى: عليكم إذا أُمرتم «طاعة معروفة»، أي: أن تطيعوا إذا أُمرتم، ولا حاجة أن تقسموا أنكم إن أُمرتم ستمتثلون، بل امتثلوا ما أُمرتم به لأمر الله لكم بذلك ولا حاجة للقسم.

وأيضًا «طاعة معروفة» بأن تكون الطاعة بما عرف من الشرع من غير زيادة أو نقصان، وفي الحديث: « إنما الطاعة بالمعروف »(١).

وقيل معناه طاعتكم معروفة، أي: قد علمت طاعتكم، إنما هي طاعة نفاق قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٩٦].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون:٢].

فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر:١١، ١٢].

ولهذا قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة:٨٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «خبير» على وزن «فعيل»، صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة خبرته عز وجل.

والخبرة أخص من العلم، وهي: معرفة بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فالخبير

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٥، ومسلم في الإمارة ١٨٤٠، وأبو داود في الجهاد ٢٦٢٥، والنسائي في البيعة ٤٢٠٥- من حديث علي رضي الله عنه.

المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان عز وجل مطلعًا على البواطن والدقائق والخفيات، فاطلاعه على الظواهر وجلائل الأمور وجلياتها من باب أولى. ومن علمه بالبواطن علمه بما تخفيه صدور هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرهم الرسول ﷺ بالخروج للجهاد ليخرجن.

وقوله: «بما تعملون»، «ما» موصولة، أو مصدرية، والتقدير بالذي تعملون، أو بعملكم، أي: بأعمال القلب واللسان والجوارح.

وفي هذا ترغيب في عمل الخير وترهيب من عمل الشر، ووعد ووعيد، وأنه عز وجل سيجازي كلاً بما عمل، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، أي: ير عمله وجزاءه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ سبق بيان معنى الطاعة، وأنها امتثال الطلب بفعله إن كان مأمورًا، وتركه إن كان محظورًا، أي: أطيعوا الله والرسول بفعل ما أمركم الله به ورسوله وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وقوله: «وأطيعوا الرسول» بإعادة العامل، كما في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ [النساء:٥٩] يدل على أن طاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة بحيث تجب طاعته ﷺ فيما جاء في سنته وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم.

وطاعة الرسول ﷺ فيما جاء به من الكتاب أو السنة كل ذلك من طاعة الله عز وجل، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ أي: إن كل ما جاء به حق من عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣- ٤].

وعن المقدام بن معد يكرب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن

ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[١].

وفي هذا رد على الخوارج وبعض المعتزلة ومن سلك مسلكهم ممن يدعون إلى الاقتصار على القرآن دون السنة.

و «ال» في الرسول للعهد الذهني، أي الرسول المعهود المعروف بينكم، وهو محمد ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ «الفاء» استئنافية، «تولوا» أصلها «تتولوا» وحذفت منه إحدى التاءين تخفيفًا[٢].

والمعنى: فإن تعرضوا عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ «الفاء» رابطة لجواب الشرط، وضمير الهاء يعود إلى الرسول ﷺ و«ما» في الموضعين موصولة، أي: فإنما عليه الذي حمل وعليكم الذي حملتم، أو مصدرية أي: فإنما عليه حمله وعليكم حملكم.

وفي الآية مع بيان المطلوب منه ومنهم وعد لمن وفى بما عليه، ووعيد لمن خالف ولم يف بما عليه.

والذي حمله ﷺ هو تبليغ الرسالة، وبيان ما أُنزل إليه من ربه والدعوة إلى الله عز وجل كما قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

وليس عليه هداية القلوب وإنما ذلك بيد علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة- لزوم الجماعة ٤٦٠٤، والترمذي في العلم ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ١٢، وأحمد ٤/ ١٣١. وصححه الألباني.

(٢) انظر: « بدائع التفسير » ٣/ ٢٧٤

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده ﷺ، وقال ﷺ لأصحابه « ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد»(١).

وكادت نفسه أن تذهب حسرات على تكذيب قومه له حتى نهاه الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧] وقال تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

وبذلك حصل له في الدنيا السُّؤدد والعز والتمكين له ولدينه وأمته، وله عند الله في الآخرة الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة في جنات الخلود عليه صلوات الله وسلامه.

﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: وعليكم الذي حملتم، وهو الاتباع والطاعة لله ورسوله، وإن توليتم فضرر ذلك عليكم.

فاختلف الناس في هذا كما قال عز وجل: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣] وسيجد كل من الفريقين عمله وثمرته غداً، قال : عز وجل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، وقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٦-٨].

وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ما يشعر بعظم الحمل الذي حمله الرسول ﷺ في رسالته وبعثته إلى الناس عامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].

ويشعر بعظم الأمانة التي حملها الإنسان، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ «الواو»: عاطفة، و«إن»: شرطية، «تطيعوه»: فعل الشرط وجوابه: «تهتدوا»، وكلاهما مجزوم بحذف النون.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٧٤١، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

أي: وإن تطيعوا الرسول ﷺ بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه «تهتدوا» إلى الطريق المستقيم، فطاعته عين الهدى لكم، كما قال تعالى عنه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢- ٥٣].

والهداية إلى الطريق المستقيم بمعرفة الحق والعمل به، والعلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به محمدًا ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣] [الفتح:٢٨] [الصف:٩].

وهي النعمة الحقيقية والمطلب الأول لكل مسلم، كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، بأن عرفوا الحق واتبعوه.

وهي الاعتصام بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [آل عمران:١٠١].

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ هذا تفسير لقوله تعالى فيما سبق: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾.

والبلاغ: الوصول إلى الغاية، يقال: بلغ كذا بمعنى وصل إليه، وفي قصة الثلاثة «لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»(١).

والمعنى: ما على الرسول ﷺ إلا تبليغ رسالة الله عز وجل إلى المدعوين، والحصر هنا إضافي: أي ليس عليه فيما يتعلق بهم إلا تبليغهم الرسالة، أما هدايتهم فأمرها إلى الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

لكن عليه ﷺ الطاعة والامتثال بنفسه.

وأما الحصر الحقيقي فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة:٣٣]، أي: ما لهم جزاء إلا هذا.

«المبين»: اسم فاعل، من «أبان» الشيء بمعنى أظهره ووضحه، فـ«المبين»: المُظْهِر المُوَضّح لما دعا إليه وبلغه، ومن لازم ذلك أن يكون بينًا بنفسه، فهو بيِّن بنفسه مُبيِّن لغيره.

الفوائد والأحكام:

١- حَلِف المنافقين الأيمان المغلظة والمؤكدة للرسول ﷺ بالخروج إلى الجهاد إذا أمرهم

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- مطولاً.

بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

٢- أن من أبرز صفات المنافقين إظهار الإيمان والانقياد باللسان، مع ما في القلب من إضمار خلاف الظاهر، وتأكيد وعودهم وعهودهم بالأيمان الكاذبة وعدم الوفاء بذلك.

٣- النهي عن القسم على فعل الطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾؛ ولهذا نهى ﷺ عن النذر- كما سبق ذكر ذلك- فالمطلوب من المؤمن أن يمتثل أمر الله ورسوله دون أن يقسم على أنه سيمتثل ذلك.

٤- أن طاعة المنافقين المزعومة إنما هي طاعة نفاق في الظاهر مع المخالفة في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾.

٥- إثبات خبرة الله عز وجل بأعمال المنافقين وغيرها من الأعمال الظاهرة والخفية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٦- وجوب طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

٧- أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً حتى فيما لم يرد في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بإعادة الفعل.

٨- تهديد من تولى عن طاعة الله ورسوله من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾.

٩- أن مهمة الرسول ﷺ التي حمله الله إياها هي تبليغ رسالة ربه، وليس عليه هداية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾.

١٠- الإغراء والحث على طاعة الرسول ﷺ، وأنها هي الطريق الوحيد إلى الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

١١- تأكيد أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ المبين، وأن هداية القلوب بيد علام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

سبب النـزول:

عن أبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾»(١).

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعدهم وعده الصدق الذي لا يتخلف، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١].

والوعد: بما يرجى من المحبوب والخير غالبًا، يقال: وعد يعد وعدًا، وقد يستعمل فيما يكره، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج:٧٢]، وهذا بخلاف الوعيد فهو بما يخاف من المكروه والشر يقال أوعد يوعد وعيدًا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

قال الشاعر:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي ... ويـأمن منـي صـولة المتوعـد

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» كتاب التفسير ٢/ ٤٠١ وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨٣: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات». وانظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢١- ٢٢٢، «لباب النقول» ص ١٦٠، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص ١٥١- ١٥٢.

وإني وإن أوعدتـــــه أو وعدتـــــه لمخلـف إيعـادي ومنجـز موعـدي(١)

أي: لمخلف وعيدي بالشر، ومنجز موعدي بالخير، أي: إن نهاية أمري إلى العفو والمسامحة وفعل الذي هو خير.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك. وحذف الموصوف وهو الأعمال، وأقام الصفة مقامه إشارة إلى أن العمل ليس هو المهم، وإنما المهم أن يكون صالحًا مقبولاً، فكم من أعمال لا قيمة لها تذهب سدى وهباءً منثورًا؛ لفقدانها أحد شرطي صلاح العمل وهما: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، فلا يسمى العمل صالحًا إلا بهذين الشرطين، ويجمعهما قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]، أي: أخلص العمل لله، وهو محسن متبع ما جاء عن الرسول ﷺ.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: «اللام» واقعة في جواب قسم مقدر، والتقدير: والله ليستخلفنهم في الأرض، وقيل: إن اللام واقعة في جواب الوعد على أنه بمنزلة القسم في كونه واقعًا ومحققًا لا محالة، والنون للتوكيد، فأكد هذا الوعد لهم بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد.

والاستخلاف في الأرض: النيابة عن الغير؛ لغيبته أو لعجزه أو لموته، أو لتشريف النائب وتكريمه؛ ليقيم الحق في أرض الله، وهو المقصود من استخلاف المؤمنين.

ومعنى «يستخلفنهم في الأرض»، أي: يجعلهم خلفاء يخلفون غيرهم في أرض الله الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب:٢٧].

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: قرأ أبو بكر عن عاصم: «كما استُخلِف» بضم

---

(١) هذان البيتان لعامر بن الطفيل. انظر: «الصحاح» للجوهري مادة «وعد».

التاء وكسر اللام، على البناء للمفعول.

وقرأ الباقون بفتحهما على البناء للفاعل[(١)].

وهذا من باب التوكيد للوعد السابق.

«كما» نعت لمصدر محذوف، أي: استخلافًا كاستخلاف الذين من قبلهم من المؤمنين الصالحين من الأمم السابقة، ومن ذلك استخلاف بني إسرائيل بدلاً من الفراعنة.

كما قال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٧- ٥٩].

وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥- ٢٨].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾: «الواو» عاطفة، والتمكين التثبيت والتأييد والتقوية، «دينهم» أضاف الدين إليهم؛ لأنهم اختاروه واتبعوه، كما أنه دين الله؛ لأنه هو الذي شرعه. وفي إضافة الدين إليهم تشريف وتكريم لهم.

﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الذي ارتضاه واختاره لهم والذي هو أكمل الأديان.

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

والمعنى: أن يجعل لهم دينهم الذي رضوه واختاروه لأنفسهم واتبعوه ورضيه الله لهم متمكنًا قويًا ظاهرًا على الأديان كلها، كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

وعن تميم الداري- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن

---

(١) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص٣٤٠، «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٢.

هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو ذل ذليل عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»(١).

وعن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- أنه وفد على النبي ﷺ فقال له: «أتعرف الحيرة؟ قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: فوالذي نفسي بيده لَيُتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولَتُفتحن كنوز كسرى بن هرمز. قلت: كسرى بن هرمز ؟ قال: نعم، كسرى بن هرمز، ولَيُبذلن المال حتى لا يقبله أحد. قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها »(٢). وقد حصل هذا في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وعن أبي بن كعب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فماله في الآخرة من نصيب»(٣).

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وشعبة عن عاصم بتخفيف الدال: «وليُبْدِلنهم».

وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، والإبدال والتبديل: جعل شيء مكان شيء.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾، أي: من بعد أن كانوا في خوف، والخائف هو الذي لا يطمئن ولا يأمن على دينه أو نفسه أو ماله أو عرضه وغير ذلك، مما يتوقع من المكروه بأمارة معلومة أو مظنونة.

﴿أَمۡنٗا﴾ الأمن: ضد الخوف، أي: طمأنينةً وأمنًا على دينهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم وديارهم وغير ذلك.

وقال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾؛ لأن مجيء الأمن بعد الخوف المتحقق أظهر وأبين في

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب وعلامات النبوة في الإسلام ٣٥٩٥، ومسلم في الزكاة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢، والترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٤٠٢٩، وأحمد ٤/ ٢٥٧

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٤

نعمة الأمن وفائدته، وبضدها تتميز الأشياء، ولا يعرف قدر النعمة ويُقدّرها قدرها إلا من فقدها، ولهذا قالوا: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

والأمن من أكبر النعم، به تتحقق أمور الدين والدنيا، وبفقدانه تنعدم، ولهذا امتن الله على قريش بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقال ﷺ: «من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها»(١)

وقد أكد عز وجل وعده للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بثلاثة مؤكدات لفظية هي: القسم، واللام، ونون التوكيد، ومؤكد معنوي وهو أن هذه سنته عز وجل مع أوليائه، وهو الذي لا يخلف الميعاد، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]، وذلك؛ لأهمية هذا الموعود، لما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا والآخرة.

وقد تم هذا الوعد من الله عز وجل للمؤمنين باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم، وتبديل خوفهم بالأمن، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال:٢٦].

فبعد أن كان الرسول ﷺ وأصحابه بمكة خائفين، لما يلاقونه من الأذى والتنكيل على يدي كفار مكة، لصدهم عن دينهم ومنعهم من الطواف والصلاة عند البيت، والذي لم يسلم منه حتى سيد الخلق ﷺ، فقد وُضِع سلا الجزور على ظهره ﷺ وهو ساجد، وكفار قريش يضحكون منه ويسخرون، حتى جاءت فاطمة- رضي الله عنها-

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١- من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي- رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب». وقال الألباني في «صحيح الجامع الصغير» ٦٠٤٢ : «حسن».

فرفعته عن ظهره[١]، ورماه أهل الطائف بالحجارة حتى أدموا عقبيه[٢]، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته يوم أحد[٣]، وهكذا لقي أصحابه كبلال وخباب صنوف الأذى من قريش، حتى إنه ﷺ خرج من مكة للهجرة متخفيا خوفًا من قريش، وكذا فعل أصحابه بعده، ثم من الله عليهم باستخلافهم في الأرض، والتمكين لدينهم، وتبديل خوفهم بالأمن، ودخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً، ووقف على باب الكعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[٤].

فمكّن الله عز وجل له ولدينه غاية التمكين، ومكّن له من أعدائه حتى قال لهم مبينًا كرم خُلقه ﷺ وفضله عليهم: « ما ترون أني فاعل بكم؟»، قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: « ما أقول لكم إلا كما قال يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم»، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٥].

ثم اتسعت الفتوحات الإسلامية أيام الخلافة الراشدة وبعدها، فشملت سائر الجزيرة والشام ومصر وبلاد فارس، وامتدت إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، تحقيقًا لوعد الله عز وجل قال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها»[٦].

قال ابن كثير رحمه الله بعد ما ذكر ما فتحه الله على المسلمين[٧]: «فها نحن نتقلب

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٠، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٤، والنسائي في الطهارة ٣٠٧ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٦١.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق٣٢٣١، ومسلم في الجهاد ١٧٩٥، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد١٧٩١، والترمذي في التفسير٣٠٠٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في القسامة ٤٧٩٩، وابن ماجه في الديات ٢٦٢٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وحسنه الألباني في الإرواء ٧/ ٢٥٧. وانظر: «السيرة النبوية» ٤/ ٥٤.

(٥) أخرجه البيهقي في سننه ٩/ ١١٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر: «السيرة النبوية» ٤/ ٥٥.

(٦) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦، وابن ماجه في الفتن، ٣٩٥٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٧) في « تفسيره » ٦/ ٨٣- ٨٤.

فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا».

ويؤخذ من الآية أنه لا خلافة لأحد على شبر من الأرض خلافة شرعية بحق إلا للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، فلا حق في الخلافة على الأرض لكافر، ومن هنا يجب أن نعلم أنه لا حق لليهود في فلسطين الأرض المقدسة المباركة الآن، أما قبل مبعث محمد ﷺ ويوم أن كان بنو إسرائيل مؤمنين صالحين ودينهم لم ينسخ بالإسلام فقد كانوا أحق بها، قال موسى عليه السلام ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة:٢١].

أما الآن فالخلافة الشرعية على الأرض إنما هي للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ وأهل الإسلام الذي نسخ جميع الأديان قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]. فاليهود الآن في فلسطين محتلون ومغتصبون، لا قَدم لهم في هذه الأرض المباركة، وسيخرجون منها بإذن الله عز وجل أذلةً صاغرين بعدما يعود المسلمون إلى دينهم وتصلح أحوالهم، وعندما يأتي وعد الله.

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله»(١)

وليس ذلك على الله بعزيز، لكن على الأمة الإسلامية العودة إلى الله حقًا، وعلينا مراجعة حساباتنا في أداء حقوق الله وحقوق الخلق، وإصلاح أحوالنا العامة والخاصة، فإن وعد الله آت ونصره قريب، قال عز وجل: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج:٤٠- ٤١].

علينا إعداد العدة بإصلاح أحوالنا أفرادًا وجماعات، ومؤسسات ودولاً، ولنعلم أن هذا أعظم وأقوى وأهم سلاح على الأعداء، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٢٥، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٢١، والترمذي في الفتن ٢٢٣٦.

بأنفسهم، ولنعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه، وأن من خان حي على الفلاح خان حي على الكفاح، وأن النصر تخلف عن المسلمين يوم أحد؛ بسبب مخالفة واحدة من الرماة لأمره ﷺ، وحصل لهم ما حصل في حنين بسبب اعتمادهم على كثرتهم وقوتهم وقول بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فالأول بسبب نقص المتابعة والثاني بسبب نقص الاعتماد على الله عز وجل.

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ يحتمل أن تكون الجملة استئنافية للثناء عليهم، أو حالية أي: حال كونهم مستمرين على عبادة الله تعالى وعدم الإشراك به شيئًا، أي: على الإيمان والعمل الصالح، فالتمكين في الأرض ذُكر سببه في أول الآية وفي آخرها، وهذا هو حق الله على العباد كما جاء في حديث معاذ- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»(١).

وبهذا يتحقق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف بالأمن كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: لهم الأمن في الدنيا والآخرة، الأمن النفسي والأمن الاجتماعي للأفراد والجماعات والدول.

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع، ومنه يقال طريق مُعبَّد أي: مُذلل، ذللته الأقدام بالمشي، وبعير معبد أي: مذلل للركوب وحمل الأمتعة عليه غير صعب.

والعبادة في الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي تشمل: فعل المأمورات من الواجبات والمستحبات، وترك المنهيات من المحرمات والمكروهات، بل وتشمل فعل المباحات كالأكل والشرب والنوم والراحة وغير ذلك مع استحضار النية بحيث يكون المقصود من ذلك هو المحافظة على النفس التي هي وديعة عند الإنسان، والتقوِّي بذلك على طاعة الله عز وجل.

وهذا معنًى لا يدركه إلا المَوَفَّقون. نسأل الله التوفيق، أما المخذولون فلا، ولهذا قال أهل العلم: «المَوَفَّقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات » نعم.. يدخل

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٦، ومسلم في الإيمان ٣٠، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٩، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦، وأحمد ٥/ ٢٤٢.

الواحد منهم المسجد ويُهَمْهِمُ ويخرج وما يدري ماذا قال. حتى إنه قد يخرج الإنسان من الصلاة ما كتب له منها إلا عشرها أو أقل من ذلك وقد يخرج منها وما كتب له منها شيء.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ «لا» نافية، والشرك: اتخاذ شريك مع الله، يدعى ويعبد من دون الله، ويسوى في الله فيما هو من خصائص الله كالذبح والنذر والتوكل وغير ذلك، قال تعالى عن المشركين أنهم يقولون مخاطبين معبوداتهم من دون الله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨]،

وهو أقسام: شرك أصغر، ومنه الرياء قال ﷺ: « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء»، [(١)] وشرك أكبر كطلب الحاجات والمدد من أصحاب القبور وغير ذلك، ومنه شرك الطاعة قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

وفي حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ »، قال نعم: قال: «فتلك عبادتهم»[(٢)].

ومن ذلك عبادة الدنيا يحب من أجلها، ويبغض من أجلها، ويعادي ويوالي من أجلها، ويترك الواجبات من أجلها، ويرتكب الموبقات من أجلها. قال ﷺ: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[(٣)].

و﴿شَيْئًا﴾ مفعول ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في قوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾، وهو نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، أي لا يشركون بي شيئًا من الأشياء أيًا كان، أو: لا يشركون بي شيئًا من الشرك، أي: يعبدون الله عبادة خالصة له تعالى كما قال عز

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٠٩٥، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٠٦، والطبري في «جامع البيان» ١١/ ٤١٧ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٧٨٤، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجل ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

والشرك أمره خطير، وهو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ولهذا جاء في الدعاء «اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»(١).

وقال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص»، أي: إن أمر الإخلاص أمر عظيم، وليس هو بالأمر اليسير، بل لابد من مجاهدة النفس والتفتيش في خفاياها ومتابعة نظراتها وتصرفاتها وخطراتها.

فبالإيمان والعمل الصالح وعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له يحصل الاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين وتبديل الخوف بالأمن، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠- ٤١].

وبعد ما وعد الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم وتبديل خوفهم بالأمن، مع استمرارهم على عبادة الله وحده، وأن ذلك هو سبب الاستخلاف والتمكين والأمن، أتبع ذلك بالتهديد والوعيد لمن كفر بعد ذلك فقال:

﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾: «الواو» عاطفة و«من» شرطية، و«كفر» فعل الشرط وسبق بيان معنى الكفر.

ويحتمل أن المراد به هنا كفر النعمة، ويحتمل أن المراد به الكفر المخرج من الملة.

﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد الإيمان والعمل الصالح، وعبادة الله وحده دون شريك، أو بعد الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن، أو بعدهما معًا، أو بعد الوعد بذلك.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: «الفاء» رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية. والإشارة لمن كفر بعد

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ذلك وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾جمع فاسق، والفسق: الخروج للفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة؛ لخروجها لأجل الإفساد، فالمراد «الفاسقون» الخارجون عن طاعة الله ورسوله الذين بلغوا الغاية في الفسق؛ لأن الله أكد ذلك بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

ومن فسق وخرج عن طاعة الله عز وجل وعن الإيمان والعمل الصالح فليس أهلاً للاستخلاف والتمكين والأمن، بل هو أهل لنزع ذلك منه، فإن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت، قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

وأعظم النعم على الإطلاق نعمة الإيمان والاستخلاف والأمن.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله عز وجل الذي لا يتخلف للذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم في الأرض، كما استخلف من قبلهم، وتمكين دينهم وتبديلهم من بعد خوفهم أمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾.

وهكذا تحقق للمؤمنين هذا الوعد في عهد الرسول ﷺ والخلافة الراشدة والعهود الزاهية للإسلام.

٢- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، ويستخلف فيها من يشاء.

٣- أن الإيمان قول واعتقاد وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله عز وجل رتب عليه الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين، وتبديل الخوف بالأمن.

٥- أن الخلافة في الأرض إنما يستحقها أهل الإيمان والعمل الصالح.

٦- أن سنة الله عز وجل استخلاف من آمن به وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، وفي هذا تأكيد لتحقيق وعد الله للمؤمنين من هذه الأمة.

٧- أن الله عز وجل قد رضي للمؤمنين بهذا الدين ورضوه لأنفسهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

إنما يعرف قيمة الأمن من تجرع مرارة الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

٨- أن استمرار الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن لمن استمروا على الإيمان والعمل الصالح، وعبادة الله وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾.

٩- أن من كفر بعد الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله وحده لا شريك له وبعد الاستخلاف في الأرض والتمكين للدين والأمن، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

سبق الكلام عن معنى الصلاة وإقامتها، ومعنى الزكاة وإيتائها في الكلام على قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ﴾[النور ٣٧].

والصلاة تشمل الفروض والنوافل، كما قد تشمل الزكاة أيضًا الصدقة الواجبة والمستحبة.

والصلاة والزكاة أكبر الطاعات وأجلها، وهما جامعتان لحق الله عز وجل وحق خلقه؛ للإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد(١).

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: من عطف العام على الخاص؛ لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من طاعة الرسول ﷺ وإنما خصهما بالذكر لمزيَّتهما بين الطاعات؛ ولهذا تسميان القرينتين؛ لأن الله قرن بينهما في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعًا.

و«ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمدًا ﷺ، وطاعته بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وتصديقه فيما أخبر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

وذلك معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ. وسواء كان ذلك مما جاء في القرآن، أو مما جاء في السنة، فيجب طاعته في ذلك كله، وكله وَحْي من عند الله.

ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ وفضل الصلاة على الزكاة، وفضلهما على سائر العبادات.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله، وقيل: للرجاء، أي: رجاء أن يرحمكم الله، قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقال عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٤١.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وعن جرير بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[1].

٢- عِظم أمر الصلاة في الإسلام من بين سائر العبادات فهي عمود الإسلام؛ لهذا بدأ بالأمر بها فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣- أن المقصود الأعظم من الصلاة إقامتها إقامةً تامةً بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: (صلُّوا) وفرْق بين هذا وهذا.

٤- عِظم أمر الزكاة في الإسلام وأنها أهم العبادات المالية، وتأتي بعد الصلاة من بين سائر العبادات، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٥- أن الصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية؛ لهذا خصهما بالذكر بين سائر العبادات وقرن بينهما، وهما القرينتان في القرآن في نحو اثنين وثمانين موضعًا.

٦- وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به أو نهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

٧- أن رحمة الله عز وجل الخاصة لمن أطاع الرسول ﷺ وهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

٨- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٧، ومسلم في الإيمان ٥٦، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة بالياء وفتح السين: «لا يحسَبنَّ»، أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض، أو لا يحسبن حاسب، أو أحد، «الذين كفروا معجزين في الأرض» و«الذين»: مفعول أول، و«معجزين»: مفعول ثانٍ.

وقرأ عاصم بالتاء وفتح السين: ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وقرأ الباقون بالتاء وكسر السين: «تحسِبنَّ»[1].

والحسبان بمعنى الظن[2]، أي: لا تظنن يا محمد الذين كفروا وخالفوك وكذبوك معجزين الله في الأرض، وأنهم سيفوتونه فلا يدركهم أو يفلتون من عذابه[3]، أو يعملون ما يعجزه.

ولا ينبغي أن يظن هذا الظن أحد من المؤمنين، فالخطاب له ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، وقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت:٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١].

فهو عز وجل القوي القدير، الذي لا يعجزه شيء ولا يستعصي عليه؛ ولهذا قال

---

(١) انظر: «الغاية» ص ٣٤١، «التبصرة» ص ٦١٢، «النشر» ٢/ ٣٣٣، «المهذب» ٢/ ١٩.

(٢) انظر مادة «حسب» في «لسان العرب».

(٣) انظر: «اللسان» مادة «عجز».

مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن:١٢].

ولكن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤]، وقال ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]»(١).

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ المأوى: ما يأوي إليه الإنسان، أي: مرجعهم ومآلهم ومكانهم الذي يأوون إليه النار(٢)، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة:٨- ١١].

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الواو: استئنافية، واللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لبئس المصير النار، وبئس: فعل جامد يفيد الذم، بمعنى: قبح، وفاعلها قوله: «المصير» والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: ولبئس المصير هي، أو النار.

ولا يُقدِّر عظم ومدى تناهي ذم النار إلا من ذمها وهو العظيم سبحانه وتعالى.

و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: ما يصيرون إليه وهو المأوى والمآل والمآب، أي: بئس المآل مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والندامة، والعذاب الأبدي.

وفي قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: إيذان بفناء الدنيا وزوالها، وأن المرد والمرجع إلى الله عز وجل والدار الآخرة، ثم مصير كل إلى مأواه ومنزله الأخير ودار خلوده، فالكافرون إلى النار دار البوار، والمتقون إلى الجنة دار القرار، إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وكما قيل:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعريَ بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٦، ومسلم في «البر والصلة» ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- .

(٢) انظر: « تفسير ابن كثير » ٦/ ٨٨.

هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك ماذا أنت تختار[1]

الفوائد والأحكام:

١- وعيد الكافرين وتهديدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- قدرة الله التامة، وقوته وجبروته وقهره للكافرين والظالمين فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣- أن مصير الكافرين ومأواهم الذي يأوون إليه هو النار وبئس المأوى والمنقلب والمستقر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٤- إثبات النار، وأنها موجودة الآن، معدة للكافرين.

* * *

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾.

سبب النـزول:

روى عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «وجه رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له: مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل، فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته على ذلك، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية»(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها»: للتنبيه، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب صفة ل«أي»، أو بدل منها، و«آمنوا»: صلة الموصول.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(٢).

﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ «اللام»: لام الأمر، والأصل في الأمر الوجوب، والاستئذان: طلب الإذن بالدخول.

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٢٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤.

ووجه الخطاب للأولياء إشعارًا لهم بمسؤوليتهم تجاه مماليكهم وأطفالهم في وجوب توجيههم لالتزام هذه الأحكام.

ووجه الخطاب في قوله: «ليستأذنكم» للذكور تغليباً لهم على الإناث، وهو يشمل الأولياء من الذكور والإناث.

﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، أي: من العبيد والإماء، البالغ ومَن دون البلوغ.

وأضاف الملك لليمين مع أن المعنى: الذين ملكتم أنتم؛ لأن اليمين هي الآخذة والمعطية، وفي هذا إثبات الرق الذي سببه الكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وليستأذنكم أيضًا الذين لم يبلغوا الحلم منكم من الأحرار، والحلم: هو البلوغ والاحتلام، أي: الذين دون سن البلوغ من الأطفال ذكورًا وإناثًا.

وبلوغ الحلم له علامات عدة منها: إنزال المني في يقظة أو منام بالإجماع[(١)]، ومنها بلوغ خمس عشرة سنة عند الجمهور؛ لحديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «عرضت على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني»[(٢)].

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «فهذا هو الحد الفارق بين البالغ وغيره».

وذهب أبوحنيفة إلى أن حد البلوغ عند الذكر ثماني عشرة سنة وعند الأنثى سبع عشرة سنة[(٣)]، ومن علامات البلوغ عند الجمهور نبات شعر العانة؛ لحديث عطية القرظي قال «أمر النبي ﷺ بقتل من أنبت من بني قريظة، فنظروا إليّ فوجدوني لم أنبت فاستبقوني»[(٤)].

---

(١) انظر: «المغني» ٦/ ٥٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦٤، ومسلم في الإمارة ١٨٦٨، وأبو داود في الخراج والإمارة ٢٩٥٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٣١، والترمذي في الأحكام ١٣٦١، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٣.

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص ٣/ ٣٣١.

(٤) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٤، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٠، والترمذي في السير ١٥٨٤، وابن ماجه في الحدود ٢٥٤٣ وقال الترمذي «حديث حسن صحيح». وصححه الألباني.

وخص الشافعي في أحد قوليه الإنبات بأولاد الكفار، ولم يعتبر أبو حنيفة الإنبات من علامات البلوغ لعدم صحة الحديث عنده[١].

ومن علامات البلوغ عند النساء أيضًا: الحيض والحمل[٢].

واختلف في السن الذي يؤمر به من دون البلوغ بالاستئذان، فقال بعض أهل العلم يؤمر ببلوغه سن التمييز سبع سنوات[٣]، لأنه قبل ذلك لا يدري عن شيء، وقيل ببلوغه أربع سنوات.

وحيث لا دليل على التحديد وكون ذلك يختلف من شخص إلى آخر فبعض الأطفال يدرك هذه الأمور وهو ابن أربع أو خمس سنوات، وبعضهم قد لا يدركها إلا بعد سن التمييز سبع سنوات فينبغي تعليم الأطفال هذه الآداب في سن مبكر ما أمكن ليعتادوا عليها، ويلزمون ذلك عندما يظهر منهم التمييز بين الأشياء.

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ ثلاث: منصوبة على الظرفية، أي في ثلاثة أوقات.

﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ هذا وما بعده تفصيل وبيان لقوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾.

وسميت صلاة الفجر بهذا الاسم؛ لأن وقتها يدخل عند انفجار ضوء الصبح[٤].

وفي هذا الوقت قد يكون الشخص لم يستيقظ بعد من النوم، أو ما زال في ثياب النوم، أو مع أهله أو غير متهيئ لأن يراه أحد ونحو ذلك.

ولا يفهم من قوله ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أن ما قبله من الليل يباح الدخول فيه بلا استئذان بل إن ما قبل هذا الوقت من الليل أولى بوجوب الاستئذان، كما أن الأولى عدم طروق الناس فيه؛ لأنه وقت النوم إلا عند الضرورة.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ الحين: الوقت، أي: وقت وضع ثيابكم، والمراد: وضع بعض الثياب كما جرت به العادة، يتخفف الإنسان من بعض الملابس؛ لأجل الراحة أو النوم أو كونه مع زوجه، كأن يكون في إزار أو في لحاف ونحو ذلك، وهذا جائز إذا لم

---

(١) انظر: « أحكام القرآن » للجصاص ٣/ ٣٣١، ٣٣٢

(٢) انظر: « المغني » ٦/ ٥٩٧- ٦٠٠.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٨.

(٤) انظر: « لسان العرب » مادة « فجر ».

يكن عنده سوى زوجه، ولا يصح حمل الآية على وضع الثياب كلية بحيث يكون الشخص عريانًا فإن ذلك لا يجوز مطلقًا في أي حال، إلا لحاجة كالغسل ونحو ذلك مع وجوب التستر التام.

﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، أي: لأجل الظهيرة، أو في وقت الظهيرة، وهو وقت انتصاف النهار وارتفاع حرارة الشمس ووقت القيلولة.

قال السعدي[1]: «قيدت بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، أي: للقائلة؛ لأن العبد قد ينام بثيابه المعتادة».

أي: أن الحكمة من التقييد في قوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾؛ لأن العورة ليست حاصلة وقت الظهيرة لكل الناس، وإنما تكون عورة لمن يضع ثيابه؛ لينام عند الظهيرة، فبعض الناس لا يخلع ثيابه، بخلاف نوم الليل؛ فإن الناس يخلعون ثيابهم؛ لطول مدته، ولهذا لم يقيد قوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾؛ لأنه وقت النوم والراحة والتخفيف من الملابس، واحتمال كون الإنسان مع زوجه.

وسميت صلاة العشاء بهذا الاسم؛ لأنها تصلى في وقت العشاء حين يغيب الشفق الأحمر ويبدأ اشتداد ظلمة الليل.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ثلاثَ» بالنصب بدلاً من قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿ثَلَٰثُ﴾، خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي ثلاث عورات[2].

وقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ تعليل للأمر بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة، أي: أن هذه الأوقات أوقات ثلاث عورات لكم، أي مظنة انكشاف العورات والاطلاع عليها.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٤٢.

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٣٣.

والعورات: جمع عورة، والعورة في الأصل: الخلل، ومنه قيل لفاقد العين أعور؛ لاختلال عينه.

وسميت هذه الأوقات عورات؛ لأن السِّتر يختل فيها غالبًا. والعورة كل ما لا يجب الإنسان أن يُطَّلع عليه، ويحرم النظر إليها.

ولهذا أوجب الله الاستئذان على المماليك والأطفال في هذه الأوقات الثلاثة، وإن كانوا في الأصل ممن لا يجب عليهم الاستئذان مطلقًا، أما من عداهم فيجب عليهم الاستئذان في جميع الأوقات.

قال ابن تيمية: «وفي ذلك ما يدل على أن المملوك المميز، والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل، كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما»(١).

والمراد بالعورات هنا ما يشمل العورات المغلظة والمخففة، بل ويشمل كل ما لا يجب الإنسان الاطلاع عليه من الأحوال والأفعال والأقوال وغير ذلك.

والمرأة كلها عورة، وقال بعض أهل العلم إلا وجهها وكفيها، والراجح أن المرأة كلها عورة عند الأجانب أما عند محارمها وعند النساء فلها أن تكشف ما جرت العادة بكشفه، كرأسها ووجهها وكفيها وذراعيها وقدميها ونحو ذلك.

وينبغي أن تستر ما جرت العادة بستره كالعضدين والصدر والفخذين والساقين ونحو ذلك، مما قد يكون سببًا للفتنة.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»(٢).

وعنه- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٧٣، وابن خزيمة في صحيحه ١٦٨٥، وابن حبان في صحيحه ٥٥٩٨، ٥٥٩٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٤٠، وأبو داود في النكاح ٢١٥٠، والترمذي في الأدب ٢٧٩٢.

واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»[١].

وعورة الرجل من السرة إلى الركبة، وقال بعض أهل العلم إن الفخذ ليس بعورة بل السوأتان فقط هما العورة؛ لحديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «إن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني انظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه، فتحدث، فلما خرج قالت: عائشة دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» وفي رواية: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له وأنا على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته»[٣]

وذهب بعض المحققين إلى أن الفخذ عورة لحديث جرهد الأسلمي- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ مرَّ به وهو كاشف عن فخذه فقال النبي ﷺ: «غط فخذك فإنها من العورة»[٤].

وعن محمد بن جحش- رضي الله عنه- قال: مر النبي ﷺ وأنا معه على معمر، وفخذاه مكشوفتان، فقال: «يا معمر، غط فخذيك فإن الفخذين عورة»[٥].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: مر رسول الله ﷺ على رجل، وفخذه

---

(١) أخرجه مسلم في الحيض ٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٧١، ومسلم في النكاح ١٣٦٥، والنسائي في النكاح:٣٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠١، وأحمد ٦/ ٦٢، وانظر: «المحلى» ٣/ ٢١٠.

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب- ما جاء في حفظ العورة ٢٧٩٥، ٢٧٩٧، ٢٧٩٨، والحاكم في اللباس ٤/ ١٨٠. وقال الترمذي «حديث حسن» وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وصححه الألباني.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٢٩٠، والحاكم في اللباس ٤/ ١٨٠.

خارجة، فقال: «غط فخذك فإن فخذ الرجل من عورته»، [(١)]

قال البخاري: «حديث أنس أسند وحديث جرهد أحوط، حتى يُخرج من اختلافهم»[(٢)].

ولا شك أن الأحوط عدم كشف الفخذ إلا عند الحاجة؛ لأن كشفه قد يحصل بسببه فتنة.

ولكون هذه الأوقات الثلاثة مظنة انكشاف العورات والاطلاع على ما لا يجوز الاطلاع عليه أمر الله عز وجل المؤمنين بإلزام مماليكهم وأطفالهم بالاستئذان، والأصل في الأمر الوجوب، ولا صارف له هنا يصرفه عن الوجوب، فالآية حكمها باق، واستئذان المذكورين في الأوقات الثلاثة واجب ما وجدت العلة، وهي خوف كشف العورات، وقد كان الناس بالأمس القريب في هذه البلاد ليس لهم على الغرف داخل قصور الطين أبواب، وإنما الأبواب على الأسوار الخارجية، وهذا الأمر ما زال موجودًا الآن في بعض البلاد فمتى وجدت العلة وهي خوف كشف العورات ومفاجأة المدخول عليه وهو في حال لا يحب أن يراه عليها أحد كأن يكون مع أهله، أو متخففًا من بعض الثياب، ونحو ذلك، ففي هذه الحال يجب الاستئذان، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

أما إذا كانت هناك أبواب مغلقة فإن من أراد الدخول لا بد أن يستأذن بطرق الباب أيًا كان هذا المستأذن لكون الباب مغلقًا مقفلاً.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر في قوله ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ للاستحباب؛ لأنه من باب الآداب وليس للوجوب، وقيل: إن هذا الحكم منسوخ، أو لفترة معينة ثم انتهى العمل به، وكل هذه الأقوال لا دليل عليها، والصحيح القول الأول[(٣)].

وقد روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- بسند صحيح أنه قال: « كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٧٥، والترمذي في الأدب ٢٧٩٦، والحاكم في اللباس ٤/ ١٨١. وقال أحمد شاكر في تخريجه للمسند «إسناده صحيح» ٢٤٩٣.

(٢) انظر: «فتح الباري» باب ما يذكر في الفخذ ١/ ٤٧٨.

(٣) انظر: « المحرر الوجيز » ٤/ ١٩٤

يتيمه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط عليهم الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أُمروا به »[١].

وهذا من ابن عباس- رضي الله عنه- لا يدل على نسخ هذا الحكم وترك العمل به كلية وإنما يدل على بقائه عند الحاجة إلى الاستئذان.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: ليس عليكم أيها الأولياء ولا عليهم يعني المماليك والأطفال.

﴿جُنَاحٌ﴾، أي: حرج وإثم، وأصل الجُناح: الميل؛ سمي بذلك لأنه يميل بالإنسان كما يميل الجَناح بالطائر.

﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أي: بعد أوقات العورات الثلاث في دخولهم عليكم بلا استئذان.

ومفهوم الآية أن أولياء المماليك والأطفال يأثمون إذا دخل عليهم مماليكهم وأطفالهم في الأوقات الثلاثة المذكورة بلا استئذان، إذا كان ذلك بسبب تفريط من الأولياء في تعليمهم وتربيتهم، وأن الداخلين من المماليك والأطفال أيضًا يأثمون.

ولا إشكال في إثم المملوك البالغ؛ لأنه مكلف وقد ترك الاستئذان وهو واجب عليه.

أما الصبيان فلا إثم عليهم لعدم التكليف، ودلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم، فيخرج منها الصبيان لعموم الأدلة على عدم تكليفهم، وإنما يلحق الحرج والإثم أولياءهم إن فرطوا في تربيتهم وتأديبهم على الاستئذان.

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الجملة تعليل لقوله قبل هذا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾، أي: ليس عليكم ولا عليهم جناح في دخولهم بلا استئذان في غير الأوقات الثلاثة؛ لأنهم طوافون عليكم.

وطوافون: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم طوافون، أو خدمكم طوافون.

ومعنى «طوافون عليكم» مترددون عليكم للخدمة، ولو ألزموا بالاستئذان

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- الاستئذان في العورات الثلاث ٥١٩٢، وذكره ابن كثير في « تفسيره » ٦/ ٨٩- ٩٠ من رواية ابن أبي حاتم وصحح إسناده وحسن إسناده الألباني.

عليكم دائمًا لكان في ذلك مشقة عليهم وعليكم.

وقد رفع الله عز وجل الحرج عن هذه الأمة فرخص عز وجل في دخولهم بلا استئذان في غير الأوقات الثلاثة رفعًا للمشقة. ومن قواعد هذه الشريعة المطهرة أن المشقة تجلب التيسير.

والطائف والطوّاف: المتردد، ومنه سُمي الطواف بالبيت؛ لأن الطائف يتردد، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٧، ١٨]، وقوله ﷺ في الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات»(١).

﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله «طوافون عليكم»، فهي مؤكدة لقوله «طوافون عليكم»،

والمعنى: كما أنهم يطوفون عليكم لخدمتكم وقضاء حوائجكم أنتم تطوفون عليهم تنادونهم وتبحثون عنهم ليقوموا بحوائجكم.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «الكاف» اسم بمعنى «مثل» في محل نصب على أنه مفعول مطلق، والإشارة بقوله «ذلك» ترجع إلى مصدر الفعل «يبين» والتقدير: مثل ذلك البيان يبين الله لكم الآيات، ومعنى «يبين» يفصّل ويوضح. وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية، وقد بين الله ذلك كله أتم بيان:

قال عز وجل في بيان الآيات الشرعية آيات القرآن الكريم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦- ١٩]، وقال عز وجل ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣]، وقال عز وجل ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

وسُميت الآيات الشرعية آيات؛ لما فيها من الدلالة على أن القرآن الكريم من عند

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة- سؤر الهرة ٧٥، والنسائي في الطهارة- سؤر الهرة ٦٨، والترمذي في الطهارة ما جاء في سؤر الهرة ٩٢، وابن ماجه في الطهارة- الوضوء بسؤر الهرة ٣٦٧، وأحمد ٥/ ٢٩٦، من حديث أبي قتادة- رضي الله عنه- قال ابن حجر في «تلخيص الحبير» ١/ ٥٣- ٥٤: «صححه البخاري والترمذي والعقيلي والدارقطني. وأعله ابن منده» وقال الشوكاني في «نيل الأوطار» ١/ ٣٣: «وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم». وصححه الألباني.

الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

والدلالة على صدق من جاء بها من عند الله. ولكونها صالحة لكل زمان، ولكل مكان، ولكل أمة.

كما بين عز وجل آياته الكونية فبدت ظاهرة واضحة بينة في جميع مخلوقاته في السموات والأرض وما بينهما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٢- ٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١]، وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧]، وقال عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس:٣٧- ٣٩].

وهكذا كل ما خلق الله عز وجل من المخلوقات في هذا الكون علويه وسفليه من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات وغير ذلك كل ذلك من آيات الله عز وجل الكونية الدالة على وجوده وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قيل:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[1]

وبهذا البيان للآيات الشرعية والكونية تظهر عناية الله عز وجل بالخلق ونعمته ومنته عليهم، كما تقوم بذلك عليهم الحجة، كما يظهر بذلك كمال الدين الإسلامي

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

ورقيه، وأن ما شرعه الله عز وجل من الشرع صالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، فيه ضمان السعادة للبشرية في دينها ودنياها وأخراها، مما لا يستطيع البشر مهما بلغت أنظمتهم أن يأتوا بمثله.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

وعلم الله عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، فيما خلق، وفيما شرع، وفيما قدر.

وباجتماع العلم الواسع المحيط بكل شيء، والحكم التام والحكمة البالغة في حقه عز وجل، جاءت أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، على أكمل الوجوه وأتمها، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

ولله المثل الأعلى، قل أن تجد في الناس من جمع الله له بين العلم والحكمة، فأكثرهم حرم العلم أو الحكمة، أو حرمهما معًا، فتجده يتخبط في الأحكام إما بسبب جهله، وإما بسبب سفهه، وإما بسببهما معًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، «الأطفال» أي الذين أُمروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة ﴿مِنكُمُ﴾ أيها المؤمنون.

﴿ٱلْحُلُمَ﴾ سن الاحتلام والبلوغ.

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ «الفاء» رابطة لجواب الشرط، واللام لام الأمر، والأصل في الأمر الوجوب، أي: فليستأذنوا وجوبًا.

﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما استأذن الذين من قبلهم من البالغين والذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟

﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]، وكما استأذن الذين من قبلهم ممن بلغوا مبلغ الرجال قبلهم.

وقال هنا: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ بتوجيه الأمر إليهم؛ لبلوغهم، وقال في الآية قبلها: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ بتوجيه الخطاب إلى الأولياء؛ لأن الأطفال غير مخاطبين(١).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ أي مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في الآية السابقة.

وفي الآية دليل على وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث عند الدخول على أهليهم من الرجال والنساء في جميع الأوقات.

وقد رُوي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: « أَستأذِن على أمي؟ قال: «نعم» قال: إنه ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها؟ قال: «أتحب أن تراها عُريانة ؟ قال: لا، قال: إذنْ فاستأذِن عليها »(٢).

وقد قال ﷺ: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»(٣).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عباس، أستأذن على أخواتي أيتام في حجري، في بيت واحد؟ قال: «نعم، أتحب أن تراها عريانة»(٤).

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: «عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم»(٥).

وهذا محمول على تنبيه القادم لأهله بقدومه ودخوله، لا على الاستئذان المعروف.

ومثله ما رُوى عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه وعنها- قالت:

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الجامع ١٧٩٦، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٤- مرسلاً من حديث عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ- الحديث.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٤.

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٢.

«كان عبد الله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنه- قال: « إني آمر جاريتي تستأذن عليَّ»(٢).

قالوا: المراد زوجته، وهذا لا ينافي ما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك »(٣).

لأنه وإن كان هذا مباحًا ما بين الزوجين وما بين السيد وأمته في حال اجتماعهما وكونهما معًا لكن لا ينبغي أن يفاجئ أحدهما الآخر بالدخول عليه؛ لأنه قد يكون على حالٍ لا يحب أن يراه أحد وهو على تلك الحال، وكان ﷺ لا يطرق أهله ليلاً، لكن لو زال المحذور باتصال هاتفي فلا بأس- فيما يظهر- والله أعلم.

وإذا وجب أن يستأذن البالغ عند الدخول على أهله من رجال ونساء فوجوب الاستئذان إذا دخل على غيرهم من باب أولى- كما دلت عليه آية الاستئذان في أول السورة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ القواعد: جمع قاعد، وهي المرأة العجوز التي بلغت من الكبر عتيا، وقعدت عن الحيض والولد والزواج، فليس لها رغبة في الأزواج، ولا يُرغب بالزواج منها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾

وحذفت الهاء من مفرد «القواعد» فقيل «قاعد» للفرق بين قعود الكبر، والقعود بمعنى الجلوس، فيقال: قاعدة في بيتها(٤)، ويقال قاعد عن الحيض والولد والزواج.

و«ال» في القواعد اسم موصول، أي: اللاتي قعدن؛ ولهذا بينه بـ«من» البيانية في قوله: «من النساء».

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٤٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب الاستئذان في العورات الثلاث ٥١٩١. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٦٩، وابن ماجه في النكاح ١٩٢٠- من حديث معاوية بن حيدة القشيري- رضي الله عنه وحسنه الألباني.

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣٠٩.

﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ «اللاتي» صفة للقواعد، «لا يرجون»: «الواو» فيه واو الفعل، ونون النسوة فاعل.

والمعنى: لا يطمعن في النكاح لكبرهن، فلا هي ترغب في النكاح ولا يرغب بمثلها غالبًا.

و«نكاحًا» نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: أنهن بلغن سنًا كبيرًا لا يطمعن في شيء من ذلك، والمراد بالنكاح: الزواج.

﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾، أي: فليس عليهن حرج ولا إثم ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، «أن» والفعل في تأويل مصدر في محل جر، أي: في وضع ثيابهن، وليس المراد بهذا: التعري والتجرد من الثياب كلية، وإنما المراد به وضع بعض الثياب، وهي الثياب الظاهرة كالعباءة والجلباب والخمار[1]، بحيث تكتفي عند غير المحارم بالثياب التي تلبسها الشابة عند المحارم، وبهذا يكون غير المحارم بالنسبة للقواعد كالمحارم، فيجوز لهن كشف وجوههن[2]، ونحو ذلك، وذلك لزوال المفسدة الموجودة في غيرهن، وأمن الفتنة غالبًا، وهذا رخصة وليس بسنة؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾.

ويؤخذ من مفهوم الآية وجوب الحجاب والتستر الكامل على غير القواعد من الشابات وغيرهن[3]

﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ حال، أي: حال كونهن في وضع ثيابهن غير متبرجات بزينة، أي: غير مظهرات للزينة.

والتبرج بالزينة التكلف لإظهار الزينة، والباء في قوله: «بزينة» للتعدية، وقيل: بمعنى لام التعليل أي: لأجل الزينة، وإذا كان التبرج محرمًا على القواعد فتحريمه على غيرهن من باب أولى.

فبهذه الشروط الثلاثة وهي: كون المرأة قاعدًا عجوزًا كبيرة، وكونها لا ترجو

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩١

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٤٢٩- ٤٣٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٤٤٥

(٣) انظر: «رسالتان في الحجاب» لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وفضيلة الشيخ محمد العثيمين- رحمهما الله- ص ٩، ٢٦

النكاح ولا تطمع فيه، وألاّ تقصد التبرج بالزينة في وضع ثيابها بهذه الشروط الثلاثة يجوز للقواعد وضع ثيابهن رخصة من الله عز وجل لهن، وتخفيفًا عنهن إذ لم يوجب عليهن ما أوجبه على غيرهن من التستر التام.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، وخبره ما بعده، أي: واستعفافهن خير لهن.

والاستعفاف: طلب العفة، وهي: طلب الكف عما يحرم ولا يحل، وعما لا يجمل كالقبيح والمكروه.

والمعنى: وترك وضعهن لثيابهن- وإن كان جائزًا- خير لهن وأفضل احتياطًا؛ لئلا يجر ذلك إلى فتنة، وكما قيل: لكل ساقطة لاقطة.

فإن خيفت الفتنة بسبب ذلك كان الاستعفاف واجبًا، فالسلامة لا يعدلها شيء، وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(١)، وفيه: «ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»(٢).

وكما يقال: «ابتعد عن العيب ذراعًا ونم».

ولهذا أمر الرسول ﷺ من سمع بالدجال أن ينأى عنه؛ لأن الرجل يأتيه وهو يرى أنه مؤمن ثم ما يزال يقذف به بالشبهة حتى يفتنه، أو حتى يرتد عن دينه(٣).

وروي أن حفصة بنت سيرين- رحمها الله- كانت تتحجب وهي كبيرة، فدخل عليها بعض السلف فقال: يا أمة الله إن الله يقول: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾، فقالت: أكمل الآية ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، كما قالت عائشة رضي الله

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٨- من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣١٩، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ منه، ثلاثًا يقولها، فإن الرجل يأتيه يتبعه وهو يحسب أنه صادق بما يبعث به من الشبهات».

عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]»(١).

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

فهو عز وجل سميع الدعاء سميع لجميع الأقوال والأصوات، عليم بجميع الأشياء من الظواهر والخفيات، وبما يحصل بالقلب من قصد التبرج، وغير ذلك، وفي هذا وعد ووعيد يوجب على العبد مراقبة الله فيما يقول، وفيما يفعل.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، وفي هذا حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٣- مسؤولية الأولياء من السادة والآباء وغيرهم تجاه مماليكهم وأطفالهم في وجوب توجيهم وتعليمهم أحكام الاستئذان وآدابه وغيرها وإلزامهم بذلك؛ لأن الله وجه الخطاب لهم فقال: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ الآية.

٤- إثبات الرق في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وسببه الكفر.

٥- شرف اليمين؛ لإضافة الملك إلى الأيمان في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٦- إثبات الملكية الفردية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

وفي هذا الرد على الشيوعية الملحدة التي تمنع الملكية الفردية، وتجعل الناس شركاء في كل شيء حتى في النساء.

٧- أن من لم يبلغ الحلم ليس بمكلف ولا يوجه إليه الخطاب؛ لأن الله وجه الخطاب إلى الأولياء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ الآية.

٨- وجوب إلزام المماليك والأطفال دون الحلم بالاستئذان في الأوقات الثلاثة

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

٩- جواز وضع الثياب والتخفف منها عند النوم والراحة.

١٠- الإشارة إلى أن الحكمة في أمر المماليك والأطفال بالاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خاصة أنها أوقات عورات، أي: أوقات انكشاف العورات وإظهار ما لا يحب الناس الاطلاع عليه من الأحوال والأقوال والأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

١١- تحريم النظر إلى العورات، وأنه لا يجوز للأطفال المميزين ممن هم دون البلوغ النظر إلى عورة الرجل، كما لا يجوز للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

١٢- أن أولياء المماليك والصبيان يأثمون إذا لم يعلِّموهم الاستئذان في هذه الأوقات ويلزموهم بذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾.

فمفهوم هذا أن دخولهم بلا استئذان في الأوقات الثلاثة عليهم فيه جناح وإثم وهذا إذا فرطوا في تعليمهم وإلزامهم. كما أن المماليك البالغين يأثمون إذا دخلوا بلا استئذان في هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنهم مكلفون.

١٣- أن المشقة تجلب التيسير؛ لهذا رفع الحرج عن الناس في عدم إيجاب الاستئذان على المذكورين فيما عدا هذه الأوقات الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

كما أباح الله تعالى للقواعد من النساء وضع ثيابهن، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

١٤- الإشارة إلى وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث عند الدخول على أهليهم من الرجال والنساء في جميع الأوقات؛ لأنه لم يستثن من ذلك إلا المماليك والأطفال دون البلوغ، ووجوب الاستئذان عند الدخول على غير أهلهم من باب أولى كما دلت عليه آية الاستئذان في أول السورة.

١٥- اعتبار العلل في الأحكام، وأنه ينبغي للعالم أن يقرن الحكم بدليله وعلته فذلك

أبلغ؛ لقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٦- امتنان الله عز وجل على عباده ببيان الأحكام والآيات الشرعية والكونية بيانًا شافيًا كافيًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فأكد هذا في موضعين هنا؛ لبيان كمال عنايته ونعمته ومنته.

١٧- إثبات صفة العلم الواسع الله عز وجل وإثبات صفة الحكم التام لله عز وجل بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي والجزائي، وإثبات الحكمة البالغة لله عز وجل بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقد أكد هذا في موضعين من الآيات الكريمة.

١٨- وجوب الاستئذان على الأطفال عند بلوغهم الحلم كغيرهم من البالغين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١٩- يجوز للقواعد من النساء اللاتي لا يطمعن في الزواج ولا يرغب فيهن وضع الثياب الظاهرة كالعباءة، والجلباب، والخمار غير مظهرات للزينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

٢٠- لا يجوز للقواعد وضع الثياب بقصد التبرج بالزينة؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

٢١- أن استعفاف القواعد وعدم وضعهن لثيابهن خير لهن من وضعها، لما قد يترتب على وضعها من أمور لا تحمد عقباها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

٢٢- أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فإذا تحقق وجود الفتنة للقواعد أو بهن إذا وضعن ثيابهن وجب عليهن عدم وضعها.

٢٣- إثبات تفاضل الإيمان والأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

٢٤- يفهم من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ الآية وجوب الحجاب والتستر الكامل على جميع النساء أمام الرجال الأجانب.

٢٥- إثبات صفة السمع الواسع لله عز وجل وأنه يسمع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾.

٢٦- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٧- وجوب مراقبة الله عز وجل في جميع الأقوال والأعمال؛ لأنه سميع لأقوال العباد، عليم بأعمالهم وأحوالهم، وسيحاسبهم ويجازيهم على ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

سبب النزول:

عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يوعبون في النفير[1] مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمناهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم، وكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا، إنهم أذنوا عن غير طيب نفس فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾[2].

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ «أعمى» على وزن «أفعل» صفة مشبهة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء:٧٢].

والأعمى: هو فاقد البصر. والحرج في اللغة: الضيق، والمراد به في الآية: الإثم والذنب.

﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ الأعرج هو: الذي لا يمشي مشيًا مستقيمًا، لعلة في إحدى رجليه، أو كليهما.

﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ المريض: من به علة، أي: من خرجت صحته عن الاعتدال، وقد قالوا في تعريف المرض: هو عبارة عن خروج البدن عن الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ.

وكرر نفي الحرج؛ لتأكيد نفيه عن جميع المذكورين، ورفع توهم تعلقه بصنف واحد،

---

(١) أي: يخرجون بأجمعهم في الغزو.

(٢) أخرجه البزار، انظر: «كشف الأستار» ٣/ ٦١. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٨٤: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح»، وقال السيوطي في «لباب النقول» ص١٦٠: «سنده صحيح»، وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣١٢، «الصحيح المسند من أسباب النزول» ص١٥٢.

والمعنى ليس على هؤلاء الثلاثة حرج في ترك الجهاد، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧].

وذلك لضعفهم، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩١، ٩٢].

ويؤيد هذا المعنى أن الله ذكر في الآية بعد هذه الآية أمر الاستئذان حال الجهاد.

وقيل: لا حرج عليهم في الأكل مع غيرهم من الأصحاء، وقيل: غير ذلك[١].

والصحيح: أنه لا حرج عليهم في ترك أي عمل تحول هذه الأعذار بينهم وبينه، أو تكون سببًا لنقصه أو الإخلال فيه من جهاد أو غير ذلك، وهذا من رحمة الله عز وجل وسماحة هذه الشريعة.

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ «الواو» عاطفة، و«لا» نافية وقوله «على أنفسكم» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، والمبتدأ مقدر تقديره: ولا حرج على أنفسكم.

﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر تقديره: ولا حرج على أنفسكم في أكلكم من بيوتكم.

وذكر الأكل من بيوتهم مع أن الأصل جواز أكل الإنسان من بيته إما توطئة وتمهيدًا لذكر ما بعده، أو إشارة إلى أن الأكل من بيوت المذكورين كالأكل من بيوتهم، أو مراعاة لمعنى قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، أي: أن تأكلوا من بيوتكم جميعًا أو أشتاتًا، أي: جماعة، أو متفرقين.

وقوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ يشمل بيوت المخاطبين وبيوت أولادهم؛ لأن بيوت أولادهم كبيوتهم، يأكلون منها سواء رضي أولادهم أو لم يرضوا؛ ولهذا لم يذكر بيوت الأولاد[٢]، وفي الحديث: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٢.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٣، «البحر المحيط» ٦/ ٤٧٤.

كسبكم»[١].

وقال ﷺ للذي اشتكى أباه وقال: يا رسول الله، إن أبي يريد أن يجتاح مالي. قال ﷺ: «اذهب أنت ومالك لأبيك»[٢].

فللوالدين الأكل من بيوت أولادهما، بل ولهما الأخذ من مال أولادهما بالمعروف.

وهذا بخلاف الأكل من بيوت المذكورين فإنه إنما يجوز إذا لم نعلم عدم رضاهم، فإن علمنا عدم رضاهم فلا يجوز.

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ «أو» عاطفة هنا وفي المواضع التالية.

﴿ءَابَآئِكُمْ﴾، أي: الأدنى منهم، والأعلى، وهو الجد من أي جهة كان؛ لأن الله سماه أبًا قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الدنيا منهن، والعليا، وهي الجدة، من أي جهة كانت.

﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ من أي جهة كانوا، أشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ من أي جهة كنّ شقيقات أو لأب أو لأم.

لكن إذا كانت الأخت متزوجة والبيت لزوجها، فليس لإخوتها الأكل عندها إلا بإذن زوجها.

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ٤٤٥٠، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٠، وأحمد ٦/ ٣١، ٤٢- من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه في التجارات ٢٢٩١، والطحاوي في «مشكل الآثار» ١/ ٢٣٠- باب بيان مشكل ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»، وفي «شرح معاني الآثار» ٤/ ١٥٨، والإسماعيلي في «معجم شيوخه» ٣/ ١٦٤- ترجمة رقم ٤٠٨- كلهم من حديث جابر رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ٤٤٤٩- ٤٤٥٢، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، والدارمي في البيوع ٢٥٣٧- من حديث عائشة- رضي الله عنها- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وأخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٢، وأحمد ٢/ ١٧٩، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ٤/ ١٥٨، وقال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» ٥/ ١٨٣: «رجال إسناده ثقات»، وقال الزيلعي في «نصب الراية» ٣/ ٣٣٧، قال ابن القطان: «إسناده صحيح»، وصححه الألباني من حديث جابر- رضي الله عنه- انظر: «إرواء الغليل» حديث ٨٣٨.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ﴾ الأعمام إخوة الأب، وإخوة الجد وإن علا، من أي جهة كان الجد.

﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾ العمات: أخوات الأب، وأخوات الجد وإن علا، من أي جهة كان الجد فإن كانت العمة ذات زوج والبيت له لم يجز الأكل عندها إلا بإذن زوجها.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ﴾ الأخوال إخوة الأم، وإخوة الجدة، وإن علت، من أي جهة كانت الجدة.

﴿أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ الخالات أخوات الأم، وأخوات الجدة وإن علت، من أي جهة كانت الجدة، فإن كانت الخالة ذات زوج والبيت له لم يجز الأكل عندها إلا بإذنه.

قال ابن كثير[1] في كلامه على هذه الآية: « وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنهما».

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، أي: ما ملكتم مفاتحه من البيوت والخزائن، بأن كنتم أمناء عليه أو وكلاء عليه، مفاتيحه في أيديكم تتصرفون فيه.

ومفاتح: جمع مفتح، وهو ما تفتح به أغلاق الأبواب والخزائن والكنوز.

قال تعالى عن قارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦].

قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ «صديق»: بالإفراد اسم جنس، والصديق من صدقك في مودته وتصدقه في مودتك.

كما قال الشافعي[2] رحمه الله:

سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق صدوق صادق الوعد منصفا

وكما قال الشاعر محمد بن عثيمين[3]:

أخ كان لي نعم المعين على التقى ... به تنجلي عني الهموم وتذهب

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٤، ٩٣

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٨٥.

(٣) انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» ١/ ١٤٨، «ديوان الشعر العربي على مر العصور» ٨/ ٩١.

فطورًا بأخبار الرسول وصحبه ... وطورًا بآداب تلذ وتعذب
على ذا مضى عمري كذاك وعمره ... صفيين لا نجفو ولا نتعتَّبُ
لكل اجتماع من خليلين فُرقة ... ولو بينهم قد طاب عيش ومشرب

والإنسان في حاجة- كما قال الشافعي رحمه الله- إلى صديق صدوق صادق الوعد منصفا، يكون عونًا له على أمور دينه ودنياه، ويبثه ما في نفسه ولا يخشى غوائله، إن أصابك ما أصابك من أمور الدنيا وهمومها خفف عليك المصاب بقوله الطيب الذي يدخل عليك السرور وانشراح الصدر ويهون عليك المصاب، وبفعله الحقيقي الذي يواسيك به، كما قال أبو العتاهية(١):

صديقي من يقاسمني همومي ... ويرمي بالعداوة من رماني
ويصفو لي إذا ما غبت عنه ... وأرجوه لنائبة الزمان

لكن مثل هذا نادر جدا؛ ولهذا أفرد الصديق في قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ بينما جمع ما قبله، وكما في قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠، ١٠١] وفي هذا وذاك إشارة إلى ندرة الصديق حقاً، كما قال الشافعي(٢):

فما أكثر الإخوان حين تعدهم ... ولكنهم في النائبات قليل

وقال الآخر:

أريد صديقًا أطمئن لديه ... ولي ربع قرن ما عثرت عليه

وقال الآخر:

أأنت أخي ما لم يكن لي حاجة ... فإن وجدت أيقنت أن لا أخا لِيا(٣)

بل عده بعضهم من المستحيل فقال:

ولقد صحبت بني الزمان فلم أجد ... خلاً وفياً للشدائد أصطفي

---

(١) انظر: «ديوانه» ص ٤٢٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٩٩.

(٣) البيت لعبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب. انظر: «الكامل» للمبرد ١/ ١٧٢، «طبقات المحدثين» للأصبهاني ١/ ٣٠٣، «تاريخ دمشق» ٣٣/ ٢٢٠.

فعلمـــت أن المســـتحيل ثلاثـــة الغُـــول والعنقـــاء والخـــل الـــوفي[١]

وقال الآخر:

بحثـت عـن الصـديق فلـم أجـده عـلى التحقيـق يوجـد في الأنـام
وأحســـبه محـــالاً نمّقـــوه عـلى وجـه المجـاز مـن الكـلام[٢]

ولهذا فإن العاقل اللبيب من يحسن التعامل مع الآخرين من الأصدقاء وغيرهم، ويحسن الظن، ويجازي من أحسن إليه بالإحسان مضاعفاً، ويجازي المسيء بالإحسان ما استطاع ذلك، ويعرف أن الصديق حقًّا من كان عوناً لصديقه على أمر الدين والدنيا، فيختار من الأصدقاء من كان بهذه الصفة، وهم قليل، ولا يغتر بحلاوة ألسنة الكثيرين، ولا يعوِّل على أحد من الخلق أيًّا كان، فيتخلى عنه في أشد المواقف وأصعب الظروف، بل يكون تعويله واعتماده على ربه، فهو الذي مَن توكل عليه كفاه، فلا يخيب ولا يُضام ولا يُضار من توكل عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ «عليكم» جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل نصب خبر ليس، و«جناح» اسمها، والجناح: الحرج والإثم.

﴿أَن تَأْكُلُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: ليس عليكم حرج في أكلكم جميعًا أو أشتاتًا. و«جَمِيعًا» حال، أي: مجتمعين.

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ جمع شتيت، أي: متفرقين.

قال الشاعر:

وقـــد يجمـــع الله الشـــتيتين بعـــدما يظنـــان كـــل الظـــن أن لا تلاقيـــا[٣]

والمعنى: ليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوت من ذكروا حال كونكم مجتمعين أو متفرقين. وكان من كرم بعض العرب أنه لا يأكل وحده.

كما قال حاتم الطائي[٤]:

إذا مـــا صـــنعت الـــزاد فالتمســـنْ لـــه أكـــيلاً فـــإني لســـت آكلَـــه وحـــدي

---

(١) البيتان بدون نسبة. انظر: «الهدية الهادية» ص ٥٩.

(٢) البيتان للناشئ الأكبر. انظر: «ديوانه» بمجلة المورد، العدد ١، ص٦٠.

(٣) البيت ورد في «ديوان قيس بن الملوح» ص١٢٢، وفي «ديوان ابن خفاجة» ص٢٣٧.

(٤) انظر: «ديوانه» ص ٢٩٥.

فبين الله عز وجل جواز الأكل حال كونهم مجتمعين أو متفرقين، لكن الاجتماع على الأكل أفضل؛ لأنه سبب للألفة، وحصول البركة.

عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع؟ قال: «فلعلكم تفترقون». قالوا: نعم. قال: «فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»(١).

فيجوز الأكل من بيوت المذكورين بالمعروف بلا إذن، وإن لم نعلم رضاهم؛ لأن العرف والعادة رضاهم بذلك غالبًا، لما بينهم من صلة القرابة أو الائتمان والمعاملة، أو الصداقة كما إذا علمنا رضاهم، وفي هذا اعتبار العرف والعادة.

لكن إن علمنا عدم رضاهم فلا يجوز، اللهم إلا في حال تقصير من تجب عليه النفقة فللمنفَق عليه أن يأكل من ماله بالمعروف وإن لم يعلم ولم يرضَ لقوله ﷺ لما قالت امرأة أبي سفيان: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. فقال ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»(٢).

أما من عدا من ذكروا فلا يجوز الأكل من بيوتهم إلا بعد رضاهم كأولاد الإخوة وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال، والأقارب من جهة الرضاع وغيرهم.

ويؤخذ من الآية أهمية حقوق من ذكروا بعضهم على بعض، بل أخذ بعض أهل العلم من الآية وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما يؤخذ منها أن حق القرابة أعظم من حق الصديق؛ لتأخيره في الآية، ولهذا فإن من الجفاء وعدم الوفاء أن يَبَرَّ الرجل صديقه ويجفو أباه كما جاء في الحديث(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة- الاجتماع على الطعام ٣٧٦٤، وابن ماجه في الأطعمة- الاجتماع على الطعام ٣٢٨٦، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٤٦، ومسلم في الأقضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن- ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ٢٢١٠- مطولاً من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء» وذكر منهن: «وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه»... الحديث، وقال الترمذي: «حديث غريب».

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ بيوتًا: نكرة، يعم جميع البيوت، ما كان للإنسان أو لغيره، مسكونة أو غير مسكونة، وكذا بيوت الله المساجد(١).

﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإن كان في البيوت أحد فالسلام عليه بمثابة السلام على النفس؛ لأن المؤمنين كالجسد الواحد والنفس الواحدة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، المعنى هنا: لا يقتل بعضكم بعضا.

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»(٢).

فإن لم يكن في البيوت أحد قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين(٣)؛ لأن هذا هو السلام الذي علم النبي ﷺ أمته أن يسلموا به على أنفسهم وعلى من كان غائبًا عنهم- كما في التشهد في الصلاة.

وإن كان من في البيت كفارًا قال: «السلام على من اتبع الهدى» كما في كتابه ﷺ لهرقل(٤).

وإن كان لا يدري أهم مسلمون أم كفار، وهو في بلاد الإسلام سلم عليهم بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله.

﴿تَحِيَّةً﴾ تحية: مصدر، أي تحيونها تحية؛ لأن معنى السلام: الدعاء بالبقاء والحياة والسلامة لمن يُسلم عليهم، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: من لدنه عز وجل؛ لأنه سبحانه وتعالى هو المالك لها، فكأن المسلِّم يقول: أدعو الله لكم بالسلامة من عنده.

كما أنها من عنده عز وجل، هو الذي شرعها ويثيب عليها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٨٣- ٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ٨/ ٢٦٥٠- ٢٦٥١، «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣١٨، ٣١٩. «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٤.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٧٣، وأبو داود في الأدب ٥١٣٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧١٧- من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.

﴿مُبَٰرَكَةً﴾، أي: ذات بركة، والبركة الخير الكثير الثابت؛ لأنها طريق للتحابب والتآلف، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- : «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»(١).

﴿طَيِّبَةً﴾ بأن تكون خالصة لله عز وجل، وفق شرعه، مقبولة عنده عز وجل يثيب عليها، من الكلم الطيب المحبوب عند الله؛ لأنه لا يَقبل من الأعمال والأقوال إلا ما كان طيبًا صالحًا حسنًا، كما قال عز وجل: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

وقال عز وجل في رد التحية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء:٨٦].

وكما في التشهد: «التحيات لله والصلوات والطيبات...»(٢).

وطيبة أيضًا تطيب بها نفس المُسلِّم والمُسلَّمِ عليه، وتدخل المحبة والسرور على كل منهما.

ويؤخذ من الآية مشروعية السلام؛ لأن الله أمر به وهو من عنده عز وجل وفيه البركة والخير والعمل الطيب لما فيه من دعاء المسلمين بعضهم لبعض وإدخال المحبة والسرور فيما بينهم، لكن بما شرع الله من تحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا أن يقول لمن لقيه: مرحبًا أو أهلاً وسهلاً، أو يقول في المكالمة الهاتفية «ألو» فهذا ليس من التحية المشروعة، لكن إن سلم بالتحية المشروعة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم أتبع ذلك بقوله: «مرحبًا» ونحو ذلك فلا بأس، وهكذا حصل من الأنبياء مع نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، وذلك ليلة الإسراء والمعراج، فكان ﷺ يسلم عليهم واحدًا واحدًا، ثم بعد ردهم السلام عليه يتبعون ذلك بقولهم: «

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٥٤، وأبو داود في الأدب ٥١٩٣، والترمذي في الاستئذان ٢٦٨٨، وابن ماجه في المقدمة ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح»[(١)].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، أي: مثل ذلك البيان يبين الله لكم الآيات الشرعية والكونية، وقد تقدم الكلام على مثل هذا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ «لعل» للتعليل، وقيل: للرجاء، أي لأجل أن تعقلوا، أو رجاء أن تعقلوا. والمراد بالعقل هنا: الفهم وحسن التصرف، وليس عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف والذي بفقده يُرفع التكليف، كما قال ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ»[(٢)].

بل المراد العقل الذي هو مناط المدح والذم؛ والذي هو الاستفادة من العقل والانتفاع به في حسن التصرف والأخذ بالنافع وترك الضار في أمور الدين والدنيا، وهو الذي أثنى الله به على المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

وذم بفقده الكافرين في مواضع كثيرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤، ٧٦، آل عمران:٦٥، الأنعام:٣٢، الأعراف:١٦٩، يونس:١٦، هود:٥١، يوسف:١٠٩، الأنبياء:١٠، ٦٧، المؤمنون:٨٠، القصص:٦٠، الصافات:١٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- رفع الحرج والإثم عن الأعمى والأعرج والمريض في تركهم الجهاد، وفي أي عمل لا يستطيعونه بسبب هذه الأعذار؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٢- مراعاة الشرع لأهل الأعذار ورفع المشقة عنهم فعذَرهم الله عز وجل عن الجهاد

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٣، ومسلم في الإيمان ١٦٢، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦- من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٩٨، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٢، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث عائشة- رضي الله عنها. وصححه الألباني.

وغيره مما لا يستطيعون القيام به، بل أعطاهم مثل أجر من يعمل ذلك إذا صدقت نياتهم، كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٥].

٣- جواز الأكل من بيوت المذكورين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

والأكل من بيوت هؤلاء المذكورين يرجع إلى ثلاثة أسباب: قرابة، أو ائتمان، أو صداقة. والأكل من بيوتهم جائز، سواء علمنا رضاهم أو لم نعلم؛ لأن الغالب رضاهم. لكن لو علمنا عدم رضاهم لم يجز الأكل، إلا إذا كان الآكل ممن تجب عليهم نفقته.

٤- في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ توطئة لما بعده أو إشارة إلى أن الأكل من بيوت من ذكروا بعد كالأكل من بيوتهم أنفسهم.

٥- لم يذكر عز وجل الأكل من بيوت أولادهم؛ لأن بيوت أولادهم كبيوتهم.

٦- جواز الأكل من البيوت التي مفاتيحها عند الإنسان وهو مُوكَّل عليها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

٧- جواز الأكل من بيت الصديق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

٨- أهمية حقوق المذكورين في الآية بعضهم على بعض، وبخاصة الأقارب، وأن حقهم أعظم من حق الصديق؛ لهذا قدَّمهم عليه في الذكر، بل أخذ بعض أهل العلم من الآية وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض.

٩- يجوز الأكل من بيوت من ذكروا سواء كان الآكلون مجتمعين، أو متفرقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، وإن كان الأولى الأكل مجتمعين ففيه البركة كما دلت السنة على ذلك.

١٠- مشروعية السلام وفضيلته عند دخول البيوت سواء كانت للداخل أو لغيره مسكونة أو غير مسكونة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

١١- أن المسلمين كالجسد الواحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

١٢- امتنان الله عز وجل على عباده ببيان وإيضاح الآيات الكونية والشرعية والعناية بذلك؛ لأجل أن يعقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه ويتفكروا ويتدبروا في آياته، ويستدلوا بها على عظمته واستحقاقه للعبادة دون مَن سواه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أن العاقل حقًّا من دله عقله إلى التأمل في آيات الله وتعظيم حقوقه عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

لما ذكر الأمر بالاستئذان عمومًا عند دخول البيوت ذكر الأمر بالاستئذان عند الانصراف إذا كانوا على أمر جامع مع النبي ﷺ[(١)].

سبب النـزول:

رُوي أن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق، الذي حفره النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة بلا كلل منهم ولا ملل، مع ما هم فيه من الخوف والجوع والبرد والتعب، وإذا أراد أحد منهم الانصراف استأذن النبي ﷺ بينما أخذ المنافقون يتثاقلون في العمل ويتسللون خفية[(٢)].

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون كاملو الإيمان المتصفون بالصفات المذكورة.

ويفهم من حصر الإيمان في أهل هذه الصفات أن من لم يتصف بها فليس بمؤمن، أو هو ناقص الإيمان؛ لأن معنى الحصر إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

والإيمان في اللغة: التصديق، وشرعًا: قول باللسان واعتقاد بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذه هي الصفة الأولى، والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالرسول ﷺ هو طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ هذه هي الصفة الثانية أي: وإذا كانوا معه ﷺ على أمر جامع، أي: أمر عام وهام يستدعي اجتماع جميع المسلمين، كالجهاد، والمشورة ونشر سنة

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٥.

(٢) انظر: «لباب النقول» ص ١٦٢، «الدر المنثور» ٥/ ٦٠

في الدين، أو لترهيب عدو، وغير ذلك من الأمور المهمة التي يجتمع المسلمون لفعلها[١].

﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾، أي: لم ينصرفوا عما اجتمعوا عليه مع النبي ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾، أي: إلى غاية أن يستأذنوه، أي: يطلبوا منه الإذن بالذهاب.

لما يؤدي إليه ذهابهم بلا استئذان من الفوضى والإخلال بالنظام، وكون ذلك يَفُتُّ في عضد الجماعة، ويضعف رأيها وقوتها، ويضر بمصالح الأمة.

قال ابن القيم في كلامه على هذه الآية[٢]:

«فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لايذهبون مذهبا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه».

وصدق ابن القيم رحمه الله قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحُجُرات:١] وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، أي: إن الذين يستأذنونك عند إرادتهم الانصراف والذهاب في حال الاجتماع على أمر جامع ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أشار إليهم بالإشارة للبعيد، إشارة إلى فضلهم ورفعة مكانتهم وعلو منزلتهم، فحصر الإيمان فيهم أولاً، وأكده فيهم ثانيًا بمؤكدات ثلاثة «إن» والإشارة «أولئك» وكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين تدل على الثبوت والدوام.

أي: أولئك الذين يؤمنون حقًّا بالله ورسوله.

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ «الفاء» عاطفة، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا طلبوا منك الإذن لهم لبعض أمورهم.

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، أي: فأْذن للذي شئت منهم، ممن ترى قبول عذره، وحاجته للاستئذان. فجعله مخيرًا في الإذن لمن شاء منهم وعدمه، وذلك حسب المصلحة، فإذا كان الإذن لهم لا يضر بالمصلحة العامة وفيه مصلحة لهم تفوق مصلحة

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ١٢/ ٣٢٠- ٣٢١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٥.

بقائهم، ولا يخشى إذا أذن لهم أن يكثر المستأذنون أذن لهم، وإلا فلا.

فلا يجوز الانصراف إلا لحاجة بعد إذن الرسول ﷺ، أو إذن ولي الأمر من بعده.

وفي أمره ﷺ بالإذن لمن شاء منهم، وكذا ولاة الأمر من بعده تيسير من الله عز وجل على الأمة.

وعلى من أذن له بعد الاستئذان قبل أن ينصرف أن يُتْبع الاستئذان بالسلام، كما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»(١).

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾، أي: اطلب من الله عز جل المغفرة لهم؛ لتطيب قلوبهم بالانصراف بلا حرج حيث تأدبوا بأدب الله عز وجل ولم يذهبوا حتى أذِنت لهم.

وطلبًا من الله التجاوز عما قد يكون في استئذانهم من التقصير، وتعويضاً عما يخاف أن يفوتهم من أجر هذا الاجتماع بحسب ما يكون من نقص في عذرهم.

أما من كان معذوراً وحال بينه وبين المشاركة في هذا الأمر الجامع العذر فله أجره كاملاً.

كما يدل قوله ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾ على أن عدم الاستئذان والبقاء أولى.

كما يدل على الانتفاع بدعاء الغير، وهو محل إجماع قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: « يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي: رب أعرف، قال: فيقول:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- السلام إذا قام من المجلس ٥٢٠٨، والترمذي في أبواب الاستئذان- التسليم عند القيام والقعود ٢٧٠٦، وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[١].

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

وقال تعالى للجنة: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»[٢] وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم:٥٠].

وهي قسمان: رحمة عامة لجميع المخلوقات الناطق والبهيم، والمؤمن والكافر.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وحيث قرن عز وجل بين وصف نفسه بالمغفرة والرحمة فيؤخذ من المغفرة التخلية وزوال المرهوب، ومن الرحمة التحلية وحصول المطلوب.

الفوائد والأحكام:

١- أن المؤمنين حقًا الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانًا كاملاً سمعًا وطاعةً وانقيادًا لأمر الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٢- أن من صفات المؤمنين بالله ورسوله حقًا إذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر جامع لمصلحة الأمة لم ينصرفوا حتى يستأذنوه، وكذا حالهم مع ولاة أمر المسلمين بعده ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

٣- الإشارة إلى وجوب اجتماع كلمة المسلمين في القضايا التي تتعلق بمصالح الأمة كالجهاد والمشورة وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- التعريض بمن ينصرفون عند اجتماع المسلمين على أمر بلا استئذان من الرسول ﷺ أو أولي الأمر بعده.

٥- تأكيد الثناء على المؤمنين بالله ورسوله وأنهم لا ينصرفون إلا بعد إذنه ﷺ، وأن عدم انصرافهم إلا بعد الاستئذان يدل على قوة إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٦- أن الإذن لمن يريد الانصراف من المسلمين مفوّض له ﷺ فيأذن لمن شاء منهم، ويمنع من شاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، أي: وامنع من شئت منهم- وذلك كله حسب المصلحة والأمر بعده ﷺ موكول لولاة أمر المسلمين.

٧- أن على ولي الأمر التيسير على من تحت ولايته مع مراعاة المصلحة العامة.

٨- أن الاستئذان بدون عذر لا يقبل.

٩- الاستغفار لمن استأذنوا بعد الإذن لهم بالانصراف لما عساه أن يلحقهم من نقص أو تقصير في العذر ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن البقاء وعدم الاستئذان أولى.

١٠- الانتفاع بدعاء الغير واستغفارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

١١- إثبات صفة المغفرة التامة الواسعة لله عز وجل، وأنه يغفر لمن استغفر وتاب وأناب إليه، وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة عامة، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢- أن التخلية قبل التحلية؛ لأن الله عز وجل قدَّم المغفرة على الرحمة في الآية، فبالمغفرة يزول المرهوب، وبالرحمة يحصل المطلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

سبب النـزول:

رُوي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظامًا لنبيه ﷺ، قال: فقالوا: يا نبي الله؛ يا رسول الله»[(١)].

قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ «لا»: ناهية، و«دعاء»: مضاف إلى مفعوله، و الفاعل ضمير المخاطبين محذوف، والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول بينكم أي: نداءه بينكم.

﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ بأن تقولوا: يا محمد، أو يا محمد بن عبد الله، أو يا أبا القاسم، أو نحو ذلك، كما ينادي بعضكم بعضًا بقوله: يا فلان بن فلان، بل ينبغي أن تنادوه بوصف النبوة والرسالة فتقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، مع خفض الصوت، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢][(٢)]، تكريمًا له ﷺ واحترامًا وتوقيرًا.

قال ابن القيم رحمه الله [(٣)]: «وإذا كان هذا في خطابه فكذلك لا ينبغي أن يجعل ما يدعى له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض، بل يدعو له بأشرف الدعاء وهو الصلاة عليه».

ومن هنا يعلم خطأ ما يفعله كثير من الكتاب المتأثرين بالمستشرقين والغربيين من الاكتفاء بكتابة «محمد» في ذكر اسمه ﷺ وبكتابة: «ص» أو «صلعم» بدل: ﷺ.

ويحتمل أن المصدر «دعاء» مضاف إلى فاعله، أي: إلى الرسول، فيكون المعنى لا تجعلوا دعاء الرسول إذا دعاكم كدعاء بعضكم بعضًا، إن شئتم أجبتم وإن شئتم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٦٥٤- «الأثر» ١٤٩٢٤، وانظر: «لباب النقول» ص ١٦٢، «الدر المنثور» ٥/ ٦١.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٦.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

تركتم، بل إذا دعاكم الرسول ﷺ وجبت عليكم إجابته[١].

وعلى هذا فتكون الآية فيها الأمر بوجوب طاعة الرسول ﷺ والنهي عن معصيته، ويقوي هذا الاحتمال قوله بعد ذلك: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وإجابة دعوة الرسول ﷺ واجبة، حتى قال بعض أهل العلم: لو دعاه الرسول ﷺ وهو يصلي وجبت عليه إجابته[٢].

لما جاء في حديث أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دعاه وهو يصلي فلم يجبه، فقال له: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤][٣].

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين معاً إذ لا تنافي بينهما فهي في تعليم الأدب مع الرسول ﷺ في خطابه وندائه، وفي وجوب إجابة أمره ودعائه.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ «قد» للتحقيق، والمضارع هنا بمعنى الماضي، أي: علم الله الذين يتسللون منكم، وجاء بصيغة المضارع للدلالة على استمرار علمه في المستقبل.

ومعنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: يخرجون ويذهبون وينصرفون، ﴿لِوَاذًا﴾، أي: خفية، من لاذ بالشيء يلوذ به، أي: اختفى من ورائه، فهم عندما يريدون الانصراف يلوذ بعضهم ويتخفى في الآخرين، حتى لا يراهم الرسول ﷺ.

والمعنى: أن الله لا يخفى عليه الذين ينصرفون ويخرجون عما أجمع عليه المسلمون من الجهاد أو حفر الخندق أو غير ذلك وفي هذا وعيد وتهديد لهم بمجازاتهم على ذلك.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ «الفاء» رابطة لجواب شرط مقدر، و(اللام) لام الأمر؛ ولهذا سكنت بعد الفاء. والحذر: الاحتراز وأخذ الحيطة خشية وقوع المكروه.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٣٨٨- ٣٩٠، «بدائع التفسير» ٣/ ٣٧٥- ٣٧٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٤٧، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٨، والنسائي في الافتتاح ٩١٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٥.

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، أي: يصدون أو يخرجون عن أمره مخالفين له، وجاء التعبير بـ«عن» في قوله «عن أمره» لتضمن الفعل (يخالفون) معنى: (يصدون) أو (يخرجون) فجمعوا بين المخالفة والصد والخروج.

وقيل: يخالفون أمره و«عن» زائدة للتوكيد.

والمعنى: يصدون ويخرجون عن منهجه وطريقته ويعصون أمره، فيتخذون طريقًا ومنهجًا غير طريقه، ومنهجه ويخالفونه في قوله وفعله.

قال ابن كثير رحمه الله[1]: «أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا ما كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ، أنه قال: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

وقوله ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يحتمل أن الضمير يرجع إلى الله عز وجل بدليل قوله قبل هذا: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

ويحتمل أن يرجع إلى الرسول ﷺ؛ لقوله قبل هذا: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

ولا مانع من حمله على المعنيين إذ لا منافاة بينهما. وأمر الرسول ﷺ من أمر الله عز وجل قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يحذر».

والفتنة: الابتلاء والاختبار، والمراد من الفتنة هنا: الفتنة في الدين، قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، أي: الفتنة في قلوبهم من الشرك والزيغ والنفاق والبدع والمعاصي[3]، كما قال عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٩٧.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٩٧.

[الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥].

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله عز وجل يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»(١).

ففسر رحمه الله الفتنة بالشرك والصد عن سبيل الله؛ لأن الإنسان إذا رد بعض قول الله تعالى أو بعض قول الرسول ﷺ قد يكون ذلك سبباً لزيغ قلبه؛ لأن من عقوبة المعصية أن تجر إلى معصية أكبر منها، وهو- رحمه الله- يشير بهذا إلى معنى قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وغيرها من الآيات في هذا المعنى.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «أو» مانعة خلو، أي: لا يخلو حال من خالف أمر الله ورسوله أن يصاب بالفتنة، أو بالعذاب الأليم، أو يصاب بهما جميعًا.

والعذاب: العقوبة والنكال.

أي: أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا؛ لأن العذاب ذكر في مقابل الفتنة فيكون عقوبة معجلة لهم في الدنيا بالقتل وغيره.

ويحتمل أن العذاب في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة.

و﴿أَلِيمٌ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم حسًا ومعنى.

وهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد يدل على وجوب امتثال أمر الله ورسوله وأن الأصل في أمر الله ورسوله الوجوب وهكذا استدل أهل العلم من الأصوليين وغيرهم بهذه الآية على أن الأصل في الأمر الوجوب.

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص ٥٤٥.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب احترام الرسول ﷺ وتعظيمه وتوقيره، ودعائه وندائه بوصف النبوة والرسالة: يا نبي الله، يا رسول الله، كما دعاه الله عز وجل بذلك في القرآن الكريم، وعدم دعائه باسمه مجردًا؛ لأن الله تعالى نهى المؤمنين عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

٢- وجوب إجابة دعوة الرسول ﷺ إذا دعا أحدًا من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، أي: أن دعاء الرسول ونداءه يوجب على المدعو والمنادى الإجابة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

بخلاف دعاء الناس بعضهم بعضًا فهذا لا يوجب الإجابة مطلقًا.

٣- إثبات وتحقيق علم الله عز وجل بأولئك الذين يتسللون منصرفين خفية يلوذ بعضهم ببعضٍ من المنافقين ومرضى القلوب من غير إذنه ﷺ، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

٤- تحذير الذين يتسللون في الأمور الجامعة بدون عذر، ولا استئذان، ويفتُّون في عضد المسلمين.

٥- التحذير الشديد والوعيد الأكيد لمن يخالف أمر الرسول ﷺ من أن تصيبهم فتنة في الدين بالشرك والكفر والنفاق الاعتقادي، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٦- تعظيم مكانة الرسول ﷺ، وتعظيم أمره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾؛ لأن أمره ﷺ من أمر الله تعالى.

٧- أن الأصل في الأمر الوجوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

بعد ما حذر عز وجل من خالف أمره وأمر رسوله ﷺ بالفتنة أو العذاب الأليم أتبع ذلك ببيان أن له وحده ملك السموات والأرض فلا يعجزه شيء، وأنه يعلم ما هم عليه ومرجعهم جميعًا إليه فينبئهم بأعمالهم ويجازيهم عليها.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: «ألا» أداة استفتاح وتنبيه، و«إن» حرف توكيد ونصب، «لله» جار ومجرور خبرها مقدم، و«ما» اسم موصول، اسمها مؤخر، وقدّم الخبر؛ لإفادة الحصر، أي: إن لله عز وجل وحده ما في السموات والأرض.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد علم ما أنتم عليه أيها الناس في الماضي ويعلم ما أنتم عليه في المستقبل من امتثال أمر الله ورسوله أو مخالفة ذلك، وغير ذلك من أحوالكم في الدنيا حال العمل، فهو عالم بذلك كله مشاهد له، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ الواو عاطفة، و«يوم» منصوب عطفًا على «ما» في قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، وليس بظرف، و﴿يُرْجَعُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لتنبيه المخاطب، أي: ويعلم يوم يرجعون إليه، أي: ويعلم متى يرجعون إليه، ويعلم أحوالهم حين يرجعون إليه يوم القيامة حال الحساب والجزاء.

وفي هذا إثبات المعاد والحساب، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣].

فعلمه عز وجل محيط بأحوال الخلق في الدنيا والآخرة في الحاضر والمستقبل.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي عملوه، أو بعملهم كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا

يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

أي: فيخبرهم بالذي عملوه من خير أو شر؛ لتقريرهم بأعمالهم على سبيل العرض فقط بالنسبة للمؤمنين، ثم يجازيهم بفضله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ لأن من نُوقش الحساب عُذب، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقش الحساب عُذب» قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال: ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب عذب»(١).

ولهذا قال ﷺ «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(٢).

وكما رُويَ في قصة الإسرائيلي الذي عَبَد الله خمس مئة سنة وأخرج الله له الرمَّانة كل يوم، ولما قال الله تعالى له: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي قال: بل بعملي. فقال الله عز وجل ردوا عبدي فحاسبوه، فوجدوا أن أعماله كلها خلال خمس مئة سنة لا تكافئ نعمة البصر، فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب، بل أدخلني الجنة برحمتك»(٣).

وأما الكفار فتعرض عليهم أعمالهم على وجه المناقشة والمعاتبة والتقرير والتقريع والتوبيخ والحساب العسير، ويجازيهم عز وجل بعدله السيئة بمثلها ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، أي: والله عز وجل بكل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، من الأعمال والأقوال، وغير ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: محيط به علمًا.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٠٣، ومسلم في الجنة- إثبات الحساب ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦، وأحمد ٦/ ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢٥٠ من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات أن لله جميع ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢- علم الله عز وجل التام بما عليه العباد من أعمال وأحوال، ومتى يرجعون إليه، وحالهم حين يرجعون إليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

٣- إثبات المعاد، وأن مرجع الخلائق ومصيرهم إلى الله عز وجل فيخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

٤- إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾، وفي هذا حث على امتثال أمر الله ومراقبته، وتحذير من المخالفة.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْفُرْقَانِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الفرقان»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها...»[(١)].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الفرقان بذكر تعاليه عز وجل وتعاظمه، والثناء عليه بإنزاله الفرقان، واختصاصه بعموم ملك السموات والأرض، وتنزيهه عن الولد والشريك، وخلقه كل شيء وتقديره: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

٢- ذم المشركين الكافرين في اتخاذهم آلهة لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشوراً، وزعمهم أنه ﷺ افترى القرآن وأعانه عليه غيره؛ ظلمًا منهم وزوراً، وأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً، والرد عليهم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- أنزل القرآن على سبعة أحرف ٤٩٩٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨١٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٥، والنسائي في الافتتاح ٩٣٦، والترمذي في القراءات ٢٩٤٣.

٣- ذكر طعن المشركين في رسالته ﷺ لكونه بشراً وليس بملك، وإثارة الشبهات حوله بعد أن طعنوا في القرآن: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

٤- ذكر تكذيبهم بالساعة، والوعيد والتهديد لمن كذب بها بالسعير، وما لهم فيها من صنوف العذاب، وشتان بينها وبين جنة الخلد ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾.

٥- تبرؤ المشركين ومعبوداتهم بعضهم من بعض يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

٦- الرد على المشركين في طعنهم في رسالته ﷺ لكونه بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وبيان أن الرسل كلهم بهذه الشاكلة عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

٧- جرأة المكذبين بلقاء الله- لشدة كفرهم واستكبارهم وعتوهم- على اقتراح إنزال ملائكة عليهم، أو رؤيتهم ربهم تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً، وتهديد المجرمين ووعيدهم يوم رؤيتهم الملائكة: أن لا بشرى لهم، وإحباط أعمالهم.

٨- التنويه والإشادة بمستقر أصحاب الجنة وحسن مقيلهم: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

٩- عظم أهوال يوم القيامة، ففيه تشقق السماء بالغمام، ونزول الملائكة، وظهور أن الملك كله لله، وعسر ذلك اليوم على الظالمين، وندمهم على مجانبة طريق الرسول

ﷺ، وعلى مخالتهم أولياء الشيطان، وإضلالهم لهم، وخذلان الشيطان لهم.

١٠- شكوى الرسول إلى ربه هجران قومه للقرآن، وعدم أخذهم بما فيه من الأوامر والنواهي، وتركهم له.

١١- حكمة الله الكونية في تسليطه على كل نبي عدواً من المجرمين، وكفى به عز وجل هاديًا ونصيراً.

١٢- اقتراح الذين كفروا- عنادًا منهم- إنزال القرآن جملة واحدة على النبي ﷺ، وبيانه عز وجل الحكمة في إنزاله عليه ﷺ مفرقًا؛ وهي تثبيت قلبه ﷺ، وتوعده عز وجل وتهديده للمكذبين: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

١٣- ذكر شيء من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وإقامة الحجة عليهم وإهلاكهم كما كذبوا الرسل؛ ليعتبر بذلك المشركون المكذبون: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

١٤- تطاول المشركين الجاحدين على رسول الله ﷺ، واستهزاؤهم به، وتهديده عز وجل وتوعده لهم، وتسليته له ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إلى قوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

١٥- ذكر بعض مظاهر قدرة الله تعالى في الكون ونعمته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وقوله: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

١٦- ذم المشركين وتسفيههم في عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وإنكارهم اسم الرحمن، وامتناعهم من السجود له، ونفورهم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

١٧- بيان مهمته ﷺ وتسليته وتقوية قلبه تجاه المكذبين من قومه وأمره بالتوكل على الله وتسبيحه، فكفى به عز وجل بذنوب عباده خبيرا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

١٨- بيان صفات عباد الرحمن؛ ثناءً عليهم، وترغيبًا في الاتصاف بها، من التواضع ومسالمة الجاهلين، وقيام الليل، وسؤال ربهم صرف عذاب جهنم عنهم، وكون إنفاقهم قوامًا وسطًا بين الإسراف والتقتير، واجتنابهم الشرك بالله، وعدم قتلهم النفس المعصومة بغير حق، واجتنابهم الزنا وشهادة الزور، وإكرامهم أنفسهم عن اللغو، واتعاظهم بآيات ربهم، وسماعهم وتدبرهم لها، وسؤالهم ربهم أن يجعل لهم من ذرياتهم قرة أعين، ويجعلهم للمتقين إمامًا.

١٩- الوعيد والتهديد لمن أشرك بالله أو قتل النفس المعصومة، أو ارتكب فاحشة الزنا، والترغيب في التوبة: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢٠- وعد الله تعالى الذي لا يخلف وعده لعباده المتصفين بما ذكر بعظيم الثواب: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾.

٢١- وعيد الكافرين المكذبين بلزوم العذاب لهم بعد إقامة الحجة عليهم وكفرهم وتكذيبهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعاظم وكملت صفاته، وكثر خيره، وعمت بركته.

وفي هذا بيان وإخبار، وثناء على نفسه بعظمته وكمال صفاته وكثرة خيره وبركته؛ لأن البركة نوعان: بركة تضاف إليه عز وجل إضافة العزة والرحمة، ويوصف بها فيقال: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهي مختصة به[1]، وصف عز وجل بها نفسه في مواضع كثيرة من كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ؛ كما قال ﷺ: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[2].

وهي دالة على كمال بركته وعظمتها وسعتها.

وبركة: هي فعله، يبارك ما شاء، وعلى من شاء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣٢٨١.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٣٠٠، وأبو داود في الصلاة، ما يقول الرجل إذا سلم ١٥١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما يقال بعد التسليم ٩٢٨، وأحمد ٥٢٧٥؛ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى في ثنائه على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي: الذي نزل القرآن، وهو الله عز وجل، أي: نزل القرآن مفرقًا شيئًا فشيئًا، وسمي القرآن بـ«الفرقان»؛ لأنه الفارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، والسعادة والشقاوة؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل، وغير ذلك. ومن لازم كونه فارقًا بين الحق والباطل أن يكون بيِّنًا واضحًا في نفسه، كما وصفه الله عز وجل في مواضع كثيرة.

وقيل: لأنه نزل مفرقًا، ولم ينزل جملة واحدة؛ كما اقترح المشركون المكذبون، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فكان وصفه بالفرقان في أول السورة كالتوطئة والتمهيد لما يأتي بعد من ذكر اقتراح المكذبين والرد عليهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

فأخبر عز وجل عن بركته، وكمال صفاته، وكثرة خيراته، وأثنى على نفسه بتنزيل القرآن الذي هو من أعظم بركاته وأعم خيراته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، أي: على عبده ونبيه ورسوله محمد ﷺ، ووصفه بوصف العبودية دون وصف النبوة والرسالة؛ لأن أشرف صفة يتصف بها البشر هي العبودية لله تعالى؛ ولهذا وصفه بها في أشرف أحواله؛ في مقام القرب من ربه عز وجل ليلة الإسراء، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

كما وصفه بها في مقام دعائه إياه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾

[الجن: ١٩].

ووصفه بها هنا عند إنزال الكتاب عليه؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله وسوله**»(١).

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن يكون للعالمين من الإنس والجن كلهم نذيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**»، وذكر منها: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(٢).

وفي رواية: «بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود»(٣).

ومعنى ﴿نَذِيرًا﴾، أي: منذرًا ومحذرًا لهم من عذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة؛ كما قال ﷺ: «**أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء**»(٤).

ومن لازم النذارة تبليغ ما أرسل به مما يكون الأخذ به سببًا للنجاة، ومن مقتضى ذلك البشارة بالنجاة لمن أخذ بهذا السبب واتبع النذير.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: بدل من الموصول السابق، أو عطف بيان، أو نعت له، أي: الـمَلِك والمالك العظيم الذي له ملك السموات والأرض وجميع ما فيهما من المخلوقات العلوية والسفلية، المتفرد بذلك كله؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، أي: ولم يجعل له ولدًا؛ لكمال غناه عن الخلق، وعدم حاجته إلى الولد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، أي: ولم يكن له شريك في هذا الملك العظيم؛ لكمال عظمته عز وجل، وسعة علمه واطلاعه وقدرته على كل شيء، وتمام غناه عن الشريك

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٤٥، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجها أحمد ١٢٥٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

والظهير؛ كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: وأوجد كل شيء في هذا الكون.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: قدر كل شيء خلَقه، أي: سوّاه مقدرًا ﴿تَقْدِيرًا﴾، أي: تقديرًا دقيقًا يناسبه ويصلحه كما اقتضته حكمته عز وجل، بلا تفاوت ولا خلل؛ لتمام قدرته وعلمه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢- ٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾:

لما بين عظمته وكمال صفاته، وكثرة خيره وإحسانه، ومن أعظم ذلك تنزيله القرآن على محمد ﷺ؛ مما فيه إثبات التوحيد والنبوة، أتبعه بذكر البراهين على ذلك، وبيان ضلال المخالفين لذلك، وإبطال عبادة من سوى الله.

قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾، أي: واتخذ المشركون، أي: جعلوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: غير الله ﴿ءَالِهَةً﴾، أي: معبودات عبدوها من الأصنام والأوثان.

وسموا آلهة بحسب اعتقادهم الباطل.

﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾، الجملة في محل نصب صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لا يخلقون أيّ شيء، مهما صغر أو قَلَّ بسبب عجزهم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾

[الحج:٧٣]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»(١).

﴿وَهُمْ﴾، يعني: هؤلاء الآلهة ﴿يُخْلَقُونَ﴾، أي: وهم مخلوقون مربوبون لله تعالى، فكيف يُسوَّوْن بالخالق العظيم؟ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾، أي: ولا يملك هؤلاء المعبودون من دون الله لأنفسهم ﴿ضَرًّا﴾ يدفعونه عنها، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ يجلبونه لها، وإذا كانوا لا يملكون ذلك لأنفسهم، فكيف يملكونه لعابديهم؟!

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾، قدّم قوله: ﴿مَوْتًا﴾- والله أعلم- لمناسبة ومقابلة قوله: ﴿ضَرًّا﴾، أو لأن الموت- وهو العدم- كان أولًا.

أي: ولا يملكون ولا يستطيعون إماتة أحد أو إحيائه، ولا نشره وبعثه بعد موته، بل الذي يملك ذلك كله هو الله تعالى وحده؛ فهو الذي يحيي ويميت، ويعيد الخلائق يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الصافات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣].

وإذا كان هؤلاء الآلهة من دون الله بهذا الضعف، فكيف يتخذهم المشركون من دون الله آلهة؟! هذا من أعجب العجب! وأول دليل على سفههم ونقص عقولهم، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٥٩، ومسلم في اللباس والزينة ٢١١١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾.

لما قرر صحة التوحيد والنبوة، وضلال من اتخذوا من دون الله آلهة؛ شرع في إبطال قول من قدح في الرسالة والقرآن.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، والإشارة إلى القرآن، أي: ما هذا الذي جاء به محمد ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كذب بيِّن ظاهر اختلقه وتقوله محمد من عند نفسه.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾، أي: وساعده وظاهره على اختلاقه وجمعه قوم آخرون، من اليهود أو غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾، بهذا القول وهذا الزعم الباطل ﴿ظُلۡمٗا﴾، أي: ظلمًا عظيمًا، ﴿وَزُورٗا﴾، أي: كذبًا شنيعًا، بكفرهم وشركهم، وتكذيبهم القرآن والرسول ﷺ، والكذب عليه.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: وقال الذين كفروا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: هذا القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، «الأساطير» جمع أسطورة، أي: أقاصيص الأولين وحكاياتهم وأحاديثهم المسطرة في كتبهم مما لا أصل له.

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾، أي: استنسخها محمد، أي: أمر غيره بأن يكتبها وينسخها له؛ لأنهم يعلمون أنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾، أي: تقرأ عليه أول النهار وآخره.

﴿قُلۡ﴾، أي: قل يا محمد ردًّا عليهم، وتكذيبًا لقولهم:

﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: أنزل هذا القرآن العظيم، المشتمل على أخبار الأولين والآخرين، وعلى كل شيء، الذي يعلم السر والغيب في السموات والأرض، وعلمه بالجهر والشهادة من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى:

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

أي: أنزله الذي أحاط علمه بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٤].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع دلالة هذا الكتاب العظيم على كمال علمه عز وجل وحكمته: إشارة إلى أنه لا يمكن لأحد أن يتقول عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: إنه كان ذا مغفرة واسعة لذنوب عباده، وذا رحمة واسعة وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ ولهذا لم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة، بل فتح لهم باب التوبة والإنابة إلى الله تعالى، ووعدهم بالمغفرة والرحمة إن تابوا ورجعوا إليه.

الفوائد والأحكام:

١- بيان عظمته عز وجل، وكمال صفاته، وكثرة خيراته، وعموم بركته، وأن من أعظم ذلك تنزيله القرآن على محمد ﷺ، وثناؤه عز وجل على نفسه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

٢- إثبات وصفه عز وجل بهذا الوصف ﴿تَبَارَكَ﴾ الدال على عظيم صفاته، وكثرة خيراته، لوصفه عز وجل نفسه بذلك، ووصف الرسول ﷺ له بذلك.

٣- أن البركة إنما تكون فيما باركه الله، أو بارك فيه، أو عليه، فلا تطلب من غير الله تعالى.

٤- إثبات نبوته ﷺ بوحي الله تعالى إليه، وإنزال القرآن عليه.

٥- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، وفي هذا ردٌّ على القدرية القائلين بخلق القرآن.

٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فله عز وجل العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

٧- أن من أسماء القرآن الكريم: «الفرقان»؛ لأنه بيِّن واضح، وفيه بيان الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وأهل السعادة، وأهل الشقاوة.

٨- أن أشرف ما يتصف به البشر هو العبودية لله تعالى؛ لأن الله عز وجل وصف بها نبيه ﷺ في حال إنزال القرآن عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: على نبيه أو رسوله.

٩- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأن الحكمة من تنزيل القرآن الكريم على النبي ﷺ: لينذر به العالمين، ويخوفهم عذاب الله وعقابه في الدنيا والآخرة، لمن خالف أمره أو ارتكب نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ومن لازم هذا تبليغهم ما أمر الله به وما نهى عنه؛ ليمتثلوا ذلك، وثمرة ذلك: البشارة بالنجاة من المرهوب، وحصول المطلوب.

١٠- عموم رسالته ﷺ للإنس والجن كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

١١- بيان سعة ملكه عز وجل، وكمال تصرفه، وتفرده بملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٢- تنزيه نفسه عز وجل عن الولد والشريك؛ لكمال عظمته وقوته، وقدرته على كل شيء، وغناه عن الولد والشريك والظهير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

١٣- تفرده عز وجل بالخلق، وخلقه كل شيء وتسويته، وتقديره تقديرًا دقيقًا على ما يناسبه ويصلحه، وكما اقتضته حكمته، بلا نقص ولا خلل ولا تفاوت؛ لتمام قدرته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

١٤- ذم المشركين، وتسفيه عقولهم، وبيان ضلالهم في عبادتهم من دون الله آلهة لا يخلقون أي شيء بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم دفع ضر أو جلب نفع، ولا يملكون إماتة أحد، ولا إحياءه، ولا بعثه بعد الموت، ولا غير ذلك، بل

هم مربوبون لله تعالى، ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

١٥- تكذيب الكفار بالقرآن، وزعمهم أنه إفك وكذب بيِّن ظاهر، واتهامهم له ﷺ باختلاقه وتقوله، واستعانته على ذلك بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

١٦- ارتكابهم في تكذيبهم القرآن أعظم كتب الله وأصدقها، وفي اتهامهم الرسول ﷺ أفضل رسل الله وأصدقهم بافترائه أعظم الظلم والزور؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾.

١٧- جرأتهم على وصف القرآن بأساطير الأولين وحكاياتهم وخرافاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

١٨- زعمهم أن الرسول ﷺ اكتتبها واستنسخها، وهم يعلمون أنهم كاذبون؛ لعلمهم أنه لا يكتب.

١٩- إثبات أن القرآن منزل من عند الله عز وجل، الذي يعلم السر في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٠- إحاطة علمه عز وجل بالغيب والشهادة، والسر والجهر، في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وعلمه بالشهادة والجهر من باب أولى.

٢١- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل ؛ ولهذا لم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة، بل فتح لهم باب المغفرة والرحمة إن تابوا ورجعوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾.

٢٢- الوعد للتائبين بالنجاة من المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

لما ذكر طعنهم في القرآن وتكذيبهم له، أتبع ذلك بذكر طعنهم في الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، الاستفهام للاستهزاء والتهكم، أي: ما لهذا الذي يزعم أنه رسول، أو يدعي الرسالة ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ مثلنا، ويحتاج إلى الطعام كما نحتاج إليه.

﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، أي: ويسير في الأسواق، ويتردد فيها مثلنا طلبًا للتكسب والتجارة ولقمة العيش.

وهذا بزعمهم لا يليق بمن يكون رسولًا، وهذا زعم باطل، أبطله الله تعالى ورده بقوله بعد هذا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال ﷺ: «**ما من نبي من الأنبياء إلا رعى الغنم**». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**نعم؛ كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ «لولا» للتحضيض، أي: هلا أنزل إليه ملك من الملائكة الذين لا يأكلون الطعام ولا يمشون في الأسواق، يشهد على صدق رسالته، ويكون معه نذيرًا للناس. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام: ٨].

وكما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣].

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ من السماء ﴿كَنزٌ﴾، أي: مال كثير مجموع من غير تعب منه، ويستغني به عن المشي في الأسواق، وطلب الكسب، ويكون دليلًا على صدقه؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: ١٢].

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾، أي: بستان فيه أنواع الثمار.

﴿يَأْكُلُ مِنْهَاۚ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون: «نَأْكُلُ مِنْهَا»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَاۚ﴾.

أي: تغنيه عن المشي في الأسواق وطلب الكسب، وتدل على صدقه.

و«أو» في هذا الموضع والذي قبله: عاطفة، تفيد التدرج من الأشد إلى ما هو أيسر منه.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، بالكفر والشرك وتكذيب القرآن والرسول ﷺ مخاطبين المؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما تتبعون في تصديقكم محمدًا فيما جاء به.

﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رجلًا قد سُحر، فاختل عقله. وهم يعلمون حقيقة كذبهم؛ لعلمهم بتمام عقله.

وفي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وليشمل الوصف بالظلم كل من قال مثل قولهم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ الاستفهام للتعجب والإنكار، أي: انظر وتأمل وتعجب يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾، أي: كيف شبهوك

ووصفوك بالأوصاف الباطلة، بأنك مسحور، أو ساحر، أو شاعر، أو كاهن، أو مجنون، وغير ذلك.

أو كيف ضربوا لك الأمثال في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾، والأول أظهر. والأمثال: الأشباه والأوصاف.

﴿فَضَلُّوا۟﴾ الفاء عاطفة وتفيد السببية، أي: فضلوا عن طريق الحق والهدى، وعن الرشد والصواب، بسبب ما وصفوك به من الأوصاف الباطلة.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: فلا يجدون طريقًا إلى الحق بسبب ضلالهم، ولا يستطيعون سبيلًا للنيل منك، ولا من رسالتك ودعوتك.

﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعالى وتعاظم الله وكثر خيره، ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾، أي: خيرًا من ذلك الذي اقترحوه بقولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، ثم فسر هذا الخير بقوله:

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، «جنات» بدل من «خيرًا» منصوب، وتفسير له، أي: بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر برفع اللام: «وَيَجْعَلُ» على الاستئناف، وقرأ الباقون بجزمها: ﴿وَيَجْعَلْ﴾، وهو معطوف على جواب الشرط: ﴿جَعَلَ﴾.

أي: ويجعل لك قصورًا، أي: بيوتًا مشيدة مبنية من الحجارة.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: إنما يقول هؤلاء ما يقولون ويقترحون، ويضربون لك من الأمثال ما يضربون، تكذيبًا وعنادًا؛ لتكذيبهم بالساعة، أي: بالقيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وليس ذلك منهم استرشادًا أو طلبًا للحق.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا.

﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾، أي: لكل من كذب بالساعة ﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا

مستعرة متوقدة شديدة الحرارة.

وأظهر هنا في موضع الإضمار فلم يقل: وأعتدنا لهم؛ لبيان علة توعدهم بهذا الوعيد، وهو تكذيبهم بالساعة، وليشملهم هم وغيرهم ممن كذب بالساعة.

﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾، أي: إذا رأت هذه النار المستعرة هؤلاء المكذبين بالساعة في مقام الحشر.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قبل وصولهم إليها، وقبل وصولها إليهم.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾، التغيظ: شدة الغيظ. والغيظ: الغضب الشديد، أي: سمعوا لها غيظًا وغضبًا شديدًا وحنقًا عليهم.

﴿وَزَفِيرًا﴾، أي: صوتًا شديدًا من شدة الغيظ والحنق عليهم؛ ولهذا سمعوه من مكان بعيد، فكيف إذا قربوا منها وأُلقوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧- ٨]، أي: تكاد تَقَطَّع وينفصل بعضها عن بعض من شدة الغيظ والغضب.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، قرأ ابن كثير بسكون الياء: ﴿ضَيْقًا﴾.

وقرأ الباقون بكسرها وتشديدها: ﴿ضَيِّقًا﴾.

﴿أُلْقُوا مِنْهَا﴾، أي: طرحوا، ﴿مَكَانًا﴾، ظرف مكان منصوب على الظرفية، أو بنزع الخافض، أي: في مكان ضيق.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، حال، أي: حال كونهم مقرنين، أي: مكتفين مصفدين، قد قرنت وجمعت أيديهم بالسلاسل والأغلال إلى أعناقهم، وقرن بعضهم إلى بعض.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾ [إبراهيم: ٤٩].

والمقرَّن: المقرون، وصيغة التفعيل فيه للإشارة إلى شدة القرن.

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾، أي: دعوا في ذلك الموقف الشديد الخطير.

﴿ثُبُورًا﴾، أي: ويلًا وهلاكًا، أي: نادوا على أنفسهم بالثبور والويل والهلاك والحسرة والخسران والخيبة، والخزي والفضيحة؛ يدعون وينادون على أنفسهم بقولهم: واثبورنا! واهلاكنا! ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠

فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ [الانشقاق: ١٠- ١١]، وكما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ هذا توبيخ وتبكيت لهم، وعذاب معنوي لقلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي للأجساد، أي: أنكم مهما دعوتم وناديتم على أنفسكم بذلك، لن ينفعكم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

لما ذكر عذاب الظالمين المكذبين، بيَّن ما بَيْنَه وبَينَ ما أعد للمتقين في جنة الخلد من الثواب والنعيم المقيم، من البون الشاسع، والفرق الواسع.

قوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، والهمزة للاستفهام التقريعي، والإشارة إلى ما أعده الله وأرصده لمن كذب بالساعة من السعير، وتغيظها عليهم وزفيرها، وإلقائهم في أماكن ضيقة منها مقرنين، وندائهم على أنفسهم بالويل والثبور، أي: أذلك المذكور خير.

﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾، «أم» حرف عطف، وهي المتصلة، و﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: أم جنة الخلود والمكث الدائم في النعيم المقيم؟!

والمفاضلة قد ترد بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة؛ لأن النار شر محض لا خير فيها مطلقًا.

﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: التي وعدها الله عز وجل عباده المتقين، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾، أي: ثوابًا على تقواهم.

﴿وَمَصِيرًا﴾، أي: ومآلًا يرجعون إليها، ويستقرون فيها.

﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾، أي: لهم خاصة في جنة الخلد ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾، أي: الذين يشاؤون ويشتهون من ألوان النعيم وأصنافه، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والأزواج والمراكب والمناظر وغير ذلك، ولهم من الله المزيد على ذلك.

كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾ [النحل: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق: ٣٥].

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧][(١)].

وأعلى ذلك وأجله وأعظمه: التمتع برؤية وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضوانه.

﴿خَٰلِدِينَۚ﴾، أي: ماكثين فيها ومقيمين إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.

﴿كَانَ﴾، أي: كان وعد المتقين بجنة الخلد، وكونها لهم جزاء ومصيرًا، ومنحهم فيها ما يشاؤون من النعيم، وخلودهم فيها.

﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾، أي: وعدًا عليه حقًّا منجزًا واجبًا، لا بد أن يقع وأن يكون؛ لأنه لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ١١١]، أي: لا أحد أوفى بعهده منه عز وجل.

وهو أيضًا ﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ عنه، فيسأل المتقون ربهم بلسان حالهم ومقالهم أن ينجز لهم ما وعدهم.

الفوائد والأحكام:

١- طعن المشركين والمكذبين في رسالته ﷺ، بحجة أنه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق لطلب الكسب؛ كسائر البشر، وليس بملك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

٢- أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم من البشر، وإنما اختصهم الله من بين البشر بالوحي إليهم؛ ليبلغوا رسالاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ

---

(١) سبق تخريجه.

إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٣- تنقّص المكذبين له ﷺ بعدم كفايته وحده للإنذار، وتحمّل الرسالة، واقتراحهم أنه هلا أنزل معه ملك؛ ليكون نذيرًا معه، ومصدقًا له؛ لقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

٤- إثبات وجود الملائكة، وإيمان المشركين بذلك.

٥- اقتراحهم أن لو يلقى إليه كنز من السماء ينفق منه، أو تكون له جنة يأكل منها؛ ليستغني بهما عن المشي في الأسواق لطلب الكسب، ويُستدل بهما على صدقه؛ لقولهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾.

٦- سعي هؤلاء المشركين الظالمين في التحذير من اتباعه ﷺ، برميه بأنه رجل مسحور مغلوب على عقله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾، وهذا ديدن أعداء الرسل، وأعداء الحق ودعاته في كل زمان ومكان.

٧- أمر الله تعالى له بالنظر والتأمل والتعجب، كيف ضربوا له الأمثال، ووصفوه بأقبح الأوصاف، للتنفير منه ومن دعوته، والتحذير من اتباعه، فقالوا: مسحور، وقالوا: ساحر، وقالوا: شاعر، وقالوا: كاهن، وقالوا: مجنون، وقالوا غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾.

٨- بيان ضلالهم وحيرتهم، فلم يجدوا سبيلًا للنيل منه ﷺ ومن دعوته، ولم يجدوا طريقًا يهتدون به إلى الحق؛ لأن الله كتب عليهم الضلال.

٩- إثبات عظمته عز وجل وبركته وكثرة خيره، وأنه لو شاء جعل له ﷺ خيرًا مما اقترحوه، من أن يلقى إليه كنز؛ أو تكون له جنة يأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾.

وقال ﷺ: «**عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا. وقال ثلاثًا أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٤٥، وأحمد ٥٢٥٤؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال الترمذي:

وخيّر ﷺ بين أن يكون رسولًا ملكًا، وبين أن يكون عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا(١).

١٠- حكمة الله عز وجل البالغة بحبس الدنيا عن أنبيائه ورسله، لما كانت في غاية الحقارة، وجعلهم وسيدهم محمدًا ﷺ كغيرهم من البشر يمشون في الأسواق، ويسعون في طلب المعاش.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى، وأن ما شاء كان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾.

١٢- أن الذي حمل هؤلاء على اقتراح ما اقترحوه، وعلى ضرب هذه الأمثال له ﷺ؛ ليس الاسترشاد أو طلب الحق، وإنما هو العناد وتكذيبهم بالساعة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾

١٣- الوعيد والتهديد لمن كذب بالساعة بالنار المستعرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

١٤- أن النار موجودة الآن معدة مرصدة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ الآية.

١٥- شدة تغيظ النار وزفيرها عند رؤية المكذبين من بعيد قبل وصولهم إليها، وقبل وصولها إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

١٦- دعاؤهم على أنفسهم بالويل والثبور عند إلقائهم فيها في أماكن ضيقة مقرنين ومكتفين بالأغلال والسلاسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾.

١٧- تبكيتهم وتيئيسهم من أن ينفعهم دعاؤهم بالثبور ذلك اليوم مهما كثر؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

١٨- لا مقارنة ولا مقاربة بين ما أعده الله للمكذبين من السعير، وما فيها من أصناف العذاب الشديد، وبين ما أعده بفضله ورحمته من جنة الخلد للمتقين جزاء لهم

«حديث حسن».

(١) أخرجه أحمد ٢٢٣١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومآلًا، وما لهم فيها مما يشاؤون من أصناف النعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ﴾.

كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ [الصافات: ٤٠- ٦٢].

١٩- عظم نعيم أهل الجنة وتنوعه كما يشاؤون ويشتهون، وعدم انقطاعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

٢٠- تكفله عز وجل بما وعد به المتقين من جنة الخلد والجزاء العظيم، والمآل الكريم، وما لهم فيها من النعيم المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾، أي: لا بد من حصوله لهم.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٢- الترغيب بتقوى الله تعالى لما أعد الله للمتقين من الجنة وألوان النعيم، والتحذير من التكذيب بالحق، لما أعده الله للمكذبين من السعير والعذاب الأليم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب وحفص بالياء: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «نَحْشُرُهُمْ».

أي: واذكر يوم يحشرهم، أي: يوم يجمع الله المشركين المكذبين في الموقف العظيم يوم القيامة ويناقشهم الحساب.

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، «ما» اسم موصول مبني في محل نصب عطفًا على الضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، أي: والذي يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ الاستفهام للتقريع، أي: فيقول مخاطبًا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم من دون الله:

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: هل أنتم دعوتموهم وأمرتموهم

بعبادتكم وسعيتم في إضلالهم؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١].

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام، أي: بل أهم ضلوا السبيل، أي: تنكبوا الطريق من تلقاء أنفسهم.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا لك وتقديسًا وتعظيمًا.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، قرأ أبو جعفر بضم النون وفتح الخاء: «نُتَّخَذَ»، وقرأ الباقون بفتح النون وكسر الخاء: ﴿نَتَّخِذَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل على قراءة أبي جعفر ومن معه، أي: ما كان لائقًا بنا أن نُتخذ، أي: أن نُجعل من دونك أولياء؛ فإنا عبيدك، فقراء إليك.

وعلى قراءة الباقين يكون المصدر في محل رفع فاعل، أي: ما كان يليق بنا ولا يجوز لنا اتخاذ أولياء نعبدهم ونواليهم ﴿مِن دُونِكَ﴾، أي: غيرك، أي: لا ولي لنا ولا لجميع الخلائق سواك.

أي: أننا ما دعوناهم إلى ما هم فيه من الضلال، ولا أمرناهم بعبادتنا، وما كان لائقًا بنا نحن أن نتخذ من دونك من أولياء، فكيف نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء من دونك؛ كما قال عيسى جوابًا لقول الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، قال عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

لما تبرؤوا من أن يكونوا اتخذوا بأنفسهم أولياء من دونه، أو يكونوا أضلوا غيرهم

بدعوتهم إلى اتخاذ آلهة من دونه، ذكروا سبب ضلال هؤلاء المشركين، وهو ما متعوا به هم وآباؤهم من النعم.

قوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾، أي: ولكن ضلوا من تلقاء أنفسهم بسبب انشغالهم بما متعتهم به وآباءهم من النعم ولذات الدنيا وشهواتها.

﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾، الذي أنزلته على ألسنة رسلك، وغفلوا وأعرضوا عنه بسبب ذلك.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾، «بورًا» جمع بائر، أي: هالك خاسر، أي: وكانوا قومًا هالكين خاسرين لا خير فيهم. قال تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، أي: دار الهلاك والخسران والخيبة.

قال ابن الزبعرى حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجاري الشيطان في سنن الـ ... ـغي ومن مال ميله مثبور(١)

فكان سبب ضلالهم أمرين:

الأول: انشغالهم بمتاع الدنيا ولذاتها وشهواتها.

والثاني: عدم وجود المقتضي للهدى، وهو أنهم لا خير فيهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾، الفاء: استئنافية، و«قد» حرف تحقيق، والضمير الواو في «كذبوكم» يعود إلى المعبودين من دون الله، والخطاب فيه يعود إلى العابدين، أي: فقد كذبكم أيها المشركون هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾.

روي عن قنبل: «يقولون» بالياء على الغيبة، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَقُولُونَ﴾.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تقولونه، أو بقولكم: أنهم آلهة وشركاء لله، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، أو أنهم أمروكم بعبادتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٣/ ٦٦٩، «سيرة ابن هشام» ٢/ ٤١٩، «أسد الغابة» ٣/ ٢٣٩.

يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢].

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ﴾، قرأ حفص بتاء الخطاب: ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: فما تستطيعون صرفًا، أي: دفعًا للعذاب عنكم بأنفسكم، ولا نصرًا لها من خارج عنكم. وقرأ الباقون بياء الغيبة: «يستطيعون»، أي: فما يستطيع هؤلاء المعبودون صرفًا للعذاب عنكم، ولا نصرًا لكم، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصافات: ٢٥- ٢٦].

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾، بالشرك والكفر، وترك الحق بعد معرفته ظلمًا وعنادًا.

﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾، أي: عذابًا عظيمًا في النار، لا يقدر قدر كبره وعظمته إلا من وصفه بذلك؛ وهو الكبير المتعال.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾:

هذا رد على المشركين المكذبين في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: ٧].

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾، «إلا» أداة حصر، واللام في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ للتوكيد.

أي: إلا أنهم كغيرهم من البشر يحتاجون لأكل الطعام ليتغذوا به، وإلى المشي في الأسواق للتكسب والتجارة وطلب المعاش، وليس ذلك بمناف ولا قادح في رسالاتهم، فكيف يتعجب المشركون المكذبون من قومك من كونك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق؟ وهل كان جميع الرسل إلا بشرًا مثلك، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]،

أي: فما جعلناهم ملائكة.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾، أي: ابتلاءً واختبارًا، أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، وهذا عام في جميع الخلق، ابتلى الله بعضهم ببعض، فابتلى الرسل بالمرسل إليهم، ودعوتهم إلى الحق، والصبر على أذاهم وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم، أم يكفرون بهم ويقاتلونهم؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك**»(١).

وابتلى المؤمنين بالكافرين، وامتحن الكافرين بالمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩- ١١١].

وابتلى السادة والأقوياء والأغنياء بالأتباع والضعفاء والفقراء؛ كما ابتلى الأتباع والضعفاء والفقراء بالسادة والأقوياء والأغنياء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وكما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

كما امتحن العلماء بالجهال: هل يعلمونهم وينصحون لهم ويصبرون على ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء: هل يطيعونهم ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وامتحن الآمرين بالمعروف

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار ٢٨٦٥، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

بالمأمورين، والمأمورين بالآمرين، وهكذا[١]؛ ولهذا قال:

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾، أي: أتصبرون على ما ابتلاكم الله وامتحن به بعضكم ببعض، فيؤدي كل منكم ما عليه من حقوق، وتطيعوا الله، ولا تعصوه، أم لا تصبرون؟

وفي هذا تسلية له ﷺ وللمؤمنين، وعدة جميلة، فلا يضيق صدره، فالصبر جميل وعاقبته حميدة؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال ابن القيم: «قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر ها هنا وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ [النحل: ١١٠]، فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة من الذنوب؛ كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها»[٢].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾، أي: وكان ربك يا محمد بصيرًا، أي: ذا بصر وعلم واسع، واطلاع تام، يعلم من هو أهل للرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويعلم من يستحق الهداية فيهديه بفضله، ممن لا يستحق ذلك، فيضله بعدله، ويعلم أعمالهم فيجازي كلًّا بعمله.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٩٠).

هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: وقال الكافرون المكذبون الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا بلقاء الله تعالى، ولا بوعده ووعيده، ولا يرجون ثوابه، ولا يخافون عقابه، قالوا تعنتًا وعنادًا، وجرأة على الله تعالى:

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، «لولا» حرف تحضيض، أي: هلا أنزل علينا الملائكة بالرسالة، أي: هلا أرسل إلينا رسولًا من الملائكة؟

ويحتمل أن المعنى: هلا أنزل علينا الملائكة تشهد لك بالرسالة؟ كما في قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، وكما في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقولهم: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وهم في هذا كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، فتكون رؤيتنا له علامة على صدقك، أو فيخبرنا بأنك رسوله إلينا.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، والسين والتاء للمبالغة، أي: والله لقد بالغوا في التكبر في أنفسهم.

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، أي: تجاوزا الحد في الطغيان والظلم والعناد والمكابرة، ولهذا اجترؤوا هذه الجرأة العظيمة، فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: هم سيرون الملائكة، لكنها رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤيا تسوؤهم، وأول ذلك عند الاحتضار، فتبشرهم بالنار، وغضب الجبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٥٠- ٥١].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «**ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده**» الحديث(١).

ثم في القبر؛ كما في حديث البراء المذكور: «**فيأتيه ملكان، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه**».

وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة؛ فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**»(٢).

ثم يوم القيامة؛ حيث تسوقهم الملائكة إلى النار، ويتولى خزنتها تعذيبهم فيها، ففي كل هذه المواقف سيرون الملائكة رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤية تسوؤهم.

وهذا بخلاف حال المؤمنين؛ فإن الملائكة تبشرهم في جميع المواقف بما يسرهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه المتقدم: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «**اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان،**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٧٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٠، وأبو داود في السنة ٤٧٥١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥٠، ٢٠٥١.

ورب غير غضبان».

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، «حجرًا» مفعول مطلق لفعل محذوف، ﴿مَّحْجُورًا﴾، نعت لحجر منصوب، وهو مؤكد للمعنى، وجملة ﴿حِجْرًا﴾ في محل نصب مقول القول، و«الحجر»: المنع، ومنه سمي «الحِجْر» عند البيت؛ لأنه يُمنع الطواف به، وسمي «العقل» حِجْرًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ٥]؛ لأنه يمنع صاحبه من فعل ما لا يليق أو قوله.

أي: وتقول الملائكة للمجرمين: حرام محرم عليكم البشرى والفلاح ودخول الجنة، وقيل: وتقول الملائكة عوذًا معاذًا.

وقيل: ذلك من كلام المشركين؛ يتعوذون من الملائكة.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾، «ما» موصولة، و«من» بيانية، أي: وقصدنا وعمدنا إلى الذي عملوه من أي عمل كان، وأتينا عليه.

﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾، أي: فصيرناه ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، «الهباء»: ما يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة، مما لا يمكن قبضه، وهو أتفه الأشياء وأحقرها.

والمعنى: فجعلناه باطلًا مضمحلًّا زائلًا، لا قيمة له، لفقده الإيمان والإخلاص والمتابعة للشرع، وهذا كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝١٨﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾.

لما توعد الكافرين المجرمين بالعذاب وبإحباط أعمالهم؛ أتبع ذلك بوعد أهل الجنة المؤمنين بأنهم خير مستقرًّا وأحسن مقيلًا.

قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، أي: أهلها وساكنوها وملازموها؛ وهم المؤمنون.

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾، أي: خير مستقرًّا من أهل النار، و«المستقر»: مكان الاستقرار والمكث؛ كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، أي: وأحسن مقيلًا من أهل النار، و«المقيل»: مكان القيلولة والراحة والمنزل والمأوى.

فمستقرهم خير من مستقر أهل النار، ومقيلهم أحسن من مقيل أهل النار؛ لما في الجنة من ألوان النعيم والعيش الكريم، ولما في النار من أصناف العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾، ﴿وَأَحْسَنُ﴾ هنا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ كما في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل: ٥٩].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات حشر الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

٢- أن المشركين يحشرون هم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣- خطاب الله عز وجل للمعبودين وسؤاله إياهم؛ تقريعًا لعابديهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

٤- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾.

٥- تنزيه المعبودين لله تعالى، وتقديسهم إياه، وأنه ما كان لهم اتخاذ أولياء من دون الله بأنفسهم، أو الدعوة بأن يتخذوا أولياء من دون الله، أو الرضا بذلك؛ لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

٦- بيانهم أن سبب ضلال هؤلاء المشركين: انغماسهم فيما متعوا به من نعم الدنيا وملذاتها وشهواتها، ونسيانهم الذكر، وإعراضهم عنه، وغفلتهم؛ لقولهم: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

٧- أن من نسي ذكر الله تعالى وغفل عنه وأعرض؛ فمآله البوار والهلاك والخسار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

٨- تبكيت المشركين بتكذيب معبوديهم لهم بما يقولون ويزعمون أنهم شركاء مع الله، وأنهم يقربونهم إليه زلفى، وأنهم أمروهم بعبادتهم فأضلوهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾.

٩- عدم استطاعتهم صرف العذاب عنهم بأنفسهم، ولا الانتصار بغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

١٠- تهديد الظالمين المعاندين، ووعيدهم بالعذاب الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

١١- الرد على المكذبين الطاعنين في رسالته ﷺ بكونه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ بأن هذه حال وصفة المرسلين كلهم قبله، وفي هذا دفاع عنه ﷺ، وتسلية له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

١٢- أن الله جعل الناس بعضهم لبعض فتنة وابتلاء وامتحانًا، فامتحن المرسَل إليهم بالرسل، وامتحن الرسل بالمرسَل إليهم، وامتحن السادة والأقوياء والأغنياء بالأتباع والضعفاء والفقراء، وبالعكس، وامتحن المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

١٣- أن الحكمة من ابتلاء الناس وامتحان بعضهم ببعض؛ ليتميز ويظهر من يصبر، فيطيع الله ولا يعصيه، ويؤدي ما عليه من حقوق لله تعالى وللخلق، ممن ليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾.

١٤- علم الله تعالى الواسع، واطلاعه التام؛ وعلمه بمن هو أهل للرسالة، وبمن يستحق الهداية ممن ليس كذلك، وعلمه بأعمال العباد ومجازاتهم عليها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

١٥- جرأة المكذبين بالبعث ولقاء الله تعالى على الله تعالى، وشدة عنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

١٦- إثبات وجود الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقوله:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

١٨- شدة استكبارهم، وكبر عتوهم وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

١٩- أن الاستكبار والعناد من أعظم أسباب رد الحق وعدم قبوله، فيجب الحذر من ذلك.

٢٠- أن المكذبين والمجرمين سيرون الملائكة، لكنها رؤية لا تبشرهم بالخير، بل رؤية تسوؤهم، وذلك عند الاحتضار، وفي القبر، ويوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

٢١- حرمانهم من البشرى والفلاح والجنة، ومن كل خير، وتأكيد ذلك؛ لقول الملائكة لهم: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

٢٢- إحباط جميع أعمالهم، وعدم انتفاعهم بأي شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

٢٣- أن العمل لا يقبل بدون الإيمان والإخلاص والمتابعة للشرع.

٢٤- شتان بين مستقر أهل الجنة ومقيلهم في جنات النعيم، وبين مستقر أهل النار ومقيلهم في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

٢٥- أخذ بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: أن الله عز وجل يحاسب الخلائق في نصف النهار الأول ضحوة، وفي آخره يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم بتخفيف الشين: ﴿تَشَقَّقُ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «تَشَّقَّقُ».

أي: واذكر يوم القيامة ذلك اليوم العظيم، يوم تشقق السماء بالغمام، وهو السحاب الأبيض الرقيق، وتتفطر وتتفتح؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾، قرأ ابن كثير: «وَنُنْزِلُ المَلَائِكَةَ» بنونين: الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، مع تخفيف الزاي، ورفع اللام، ونصب الملائكة.

وقرأ الباقون بنون واحدة مضمومة، وتشديد الزاي، وفتح اللام ورفع الملائكة: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

أي: ونزل الملائكة من السماء، فيحيطون بالخلائق في أرض المحشر، ثم يجيء الرب

تبارك وتعالى لفصل القضاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٥- ١٧].

﴿ٱلْمُلْكُ﴾، أي: الملك كله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾، أي: الحق الثابت للرحمن وحده، لا يشاركه فيه أحد من الخلق.

كما قال تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩].

وليس معنى هذا: أنه كان له شريكٌ في الملك قبل ذلك؛ لأن الملك له عز وجل وحده من قبل ومن بعد، في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١].

وإنما معناه أنه يظهر في ذلك اليوم تمام الظهور، ويتبين ويتضح تفرده وحده عز وجل بالملك، حين تزول ملوك الأرض، وتتهاوى ممالك الجبابرة.

كما قال ﷺ: «**يطوي الله السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(١).

وفي إضافة الملك لاسم الرحمن طمأنة للنفوس، وشرح للصدور؛ بأن رحمته عز وجل سبقت غضبه، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾، نكَّرَ «يومًا» للتعظيم والتهويل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]،،وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ٤- ١٠].

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٨، وأبو داود في السنة، الرد على الجهمية ٤٧٣٢، وابن ماجه في المقدمة ١٩٨، وفي الزهد ٤٢٧٥، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

والمعنى: وكان هذا اليوم العظيم ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، أي: شديدًا صعبًا ثقيلًا طويلًا عليهم؛ لأنه يوم عدل، وقضاء فصل؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩- ١٠].

وهذا بخلاف حال المؤمنين؛ فإنه يسيرٌ خفيف عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم: ٨٥- ٨٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قيل: يا رسول الله: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»(١).

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «**كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ، فزجره عقبة بن أبي معيط، فنزل:** ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾، **قال:** ﴿ٱلظَّالِمُ﴾: **عقبة، و**﴿فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾: **أبي بن خلف**»(٢).

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾، أي: واذكر يوم القيامة العظيم، ﴿يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، والعض: الشد بالأسنان من حيث الأصل، ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ بالشرك والكفر وتكذيب الرسل، والمعاصي، ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، أي: على أصابع يديه؛ تأسفًا وتحسرًا وندمًا، ولات ساعة مندم.

﴿يَقُولُ﴾ متمنيًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾، قال رؤبة بن العجاج(٣):

---

(١) أخرجه أحمد ٣٧٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٤٤٠.

(٣) انظر: «ديوانه» ص١٧١.

ليت وهل ينفع شيئًا ليتُ ... ليتَ شبابًا بُوعَ فاشتريتُ

وقال أبو العتاهية[١]:

ألا ليت الشباب يعود يومًا ... فأخبره بما فعل المشيب

وفي المثل: «التمني: رأس مال المفاليس»، والياء في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ للتنبيه.

﴿ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، أي: ليتني جعلت مع الرسول طريقًا إلى الجنة بالإيمان به وتصديقه واتباعه، وهيهات ذلك.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾، نداء على نفسه بالويل والهلاك.

﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا﴾، أي: يا ليتني لم أجعل فلانًا؛ يعني: الذي أضله وصرفه عن الحق من شياطين الإنس أو الجن، ويسميه باسمه.

﴿خَلِيلٗا﴾، أي: صديقًا وحبيبًا وصفيًّا، والخلة أعلى أنواع المحبة، فالخليل الذي بلغت محبته غايتها، وتخللت نياط القلب، كما قال بشار بن برد[٢]:

قد تخلّلتَ مسلكَ الرُّوح مني ... وبذا سُمِّي الخليلُ خليلا

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾، تعليل للتمني السابق، واللام لام القسم لقسمٍ مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

وهو بهذا القسم والتأكيد يلوم نفسه بعد فوات الأوان، مما يزيده حسرة، أي: والله لقد أضلني هذا الخليل عن القرآن وما جاءت به الرسل من الحق بعد بلوغه إليَّ، بتزيينه لي ما هو عليه من الضلال، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

وسواء كان سبب نزول هذه الآية عقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف، أو غير ذلك، فإنها عامة، فكل ظالم إذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ٢/ ٤٧٥.

ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦- ٦٨].

قال ابن القيم: «فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول؛ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة، فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول»(١).

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾، أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويزهده فيه، ويزيّن له الباطل، ويدعوه إليه، ويَعِده الأماني الباطلة، ويخدعه بغروره، ويتبرأ منه.

وهذا من كلام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥- ٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾، من كلام الإنسان الظالم. والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي: وقال الرسول محمد ﷺ المعهود في الأذهان، مناديًا ربه عز وجل، وشاكيًا لربه إعراض قومه كفار قريش عما جاءهم به، ومتأسفًا على حصول ذلك منهم.

﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، أي: جعلوه مهجورًا، فأعرضوا عنه وهجروه وتركوه ولم يتدبروه، بل كذبوه وعارضوه، وتواصوا بعدم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٢.

سماعه، وباللغو واللغط عندما يتلى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

وهجر القرآن يكون بهجر تلاوته، وعدم تدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومواعظه وأخباره، وهجر العمل به، وترك تحكيمه واتباعه.

قال ابن القيم: «هجر القرآن أنواع؛ **أحدها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصّل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا دخَلَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾.

هذا فيه تسلية للنبي ﷺ تجاه عداوة من عاداه من قومه، وأذيتهم له، وهجرهم للقرآن، وتكذيبهم به، ومعارضتهم له، وصدهم عنه.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ الكاف للتشبيه، أي: مثل ما كذبك يا محمد المشركون من قومك وعادوك وآذوك، وهجروا القرآن الذي جئتهم به؛ كذلك جعلنا كونًا وقدرًا لكل نبي من الأنبياء قبلك عدوًّا من المجرمين يكذبونه ويؤذونه ويعارضون ما جاءهم به.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٢- ٢٩٣.

مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢- ١١٣].

والحكمة من ذلك: ليتبين الحق ويظهر، ويعلو على الباطل؛ لأن معارضة الباطل للحق تزيد الحق وضوحًا وظهورًا، وعلوًّا وتألقًا؛ كما أن فيه ابتلاءً لأهل الحق، وتمحيصًا لهم، كما قال أحدهم:

عِداي لهم فضل عليَّ ومنة ... فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا

همُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا(١)

وقال أبو تمام(٢):

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عَرْف العود

والمراد بذكر عداوة المجرمين للأنبياء من قبله ﷺ تسليته وتقوية قلبه وإلهامه الصبر، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾، أي: وكفى بربك يا محمد هاديًا لك ولمن شاء من عباده، يهدي من يشاء بفضله.

﴿وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ لك ولمن اتبعك من المؤمنين، فاستكف به وتوكل عليه، يكفك كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٢- ٣٤].

هذا من جملة اقتراحاتهم الباطلة، واعتراضاتهم وعنادهم؛ كما في قولهم قبل هذا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، أي: هلّا نزل عليه، أي: على محمد

---

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. انظر: «ديوانه» ص٢٤٢.

(٢) انظر: «ديوانه» ١/ ٣٩٧.

ﷺ ﴿ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: من غير تفريق؛ كما نزلت الكتب قبله: التوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم عز وجل بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ اللام للتعليل، أي: كذلك نزلناه عليك مفرقًا منجمًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والأحداث، وما يُحتاج إليه من الأحكام؛ لأجل تثبيت قلبك وتقويته، وتيسير حفظه وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، أي: قرأناه عليك مرتلًا ترتيلًا، في تَثبُّت وتَرسُّل، بعضُه يعقب بعضًا، وبيناه تبيينًا تامًّا، وأمرنا بقراءته مرتلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وأي محذور في نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله مفرقًا منجمًا أكمل وأحسن وأبلغ؛ لما فيه من معالجة الوقائع حال حدوثها، وهذا أشد تثبيتًا للقلوب، وطمأنة للنفوس.

قال ابن كثير[1]: «ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحًا ومساءً، وليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه أعظم نبي أرسله الله».

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: ولا يأتيك هؤلاء المكذبون للقرآن، المعاندون لك ﴿بِمَثَلٍ﴾، أي: بوصف عجيب من باطلهم مما يقترحونه، أو يعارضون به الحق ويقدحون به في رسالتك.

﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا أتيناك بالحق في القرآن الذي يدمغ ذلك الباطل ويزهقه، ويزيله ويمحقه؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١١٨.

ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: وأحسن وأتم بيانًا وإيضاحًا لألفاظه ومعانيه ودلالاته.

قال ابن القيم: «فالحق: هو المعنى المدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق؛ فهي تفسيره وبيانه»(١).

ومثال ذلك إبطال قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وإبطال قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٤]:

لما ذكر إبطال ما يعترض به الكفار من الاقتراحات والقوادح؛ توعدهم وهددهم بحشرهم إلى جهنم.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: يجمعون ويساقون على وجوههم إلى جهنم؛ إهانة لهم وإذلالًا، وتشديدًا في عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨].

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «**إن الذي أمشاه على رجليه، قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**»(٢).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أي: هم شر من كل أحد، ومكانهم جهنم شر مكان.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٦٠، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٦.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: وأضل طريقًا في الدنيا والآخرة؛ إذ لا أضل طريقًا في الدنيا ممن كفر وخالف طريق الرسل عليهم السلام، ولا أضل طريقًا في الآخرة ممن حشر على وجهه إلى جهنم، عياذًا بالله، فهم شر الناس منزلة، وأضلهم طريقًا في الدنيا والآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- عظم يوم القيامة، وشدة أهواله، ووجوب الاستعداد له، ففيه تشقق السماء بالغمام، ونزول الملائكة، ومجيء الرب تعالى لفصل القضاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠].

٢- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء. والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان الستة.

٣- ظهور تفرده عز وجل بالملك يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد للظالمين والجبابرة المتسلطين على العباد من الملوك والسلاطين.

٤- إثبات اسم الله «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ لقوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾.

٥- أن رحمة الله سبقت غضبه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ بإضافة «الملك» لاسمه «الرحمن»، وفي هذا طمأنة للنفوس، وشرح للصدور في ذلك الموقف العصيب، وبشارة للمؤمنين.

٦- شدة عسر ذلك اليوم على الكافرين، وثقله وطوله وصعوبته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، وفي هذا تحذير من الكفر، ومفهوم الآية: أنه يسير على المؤمنين، ويدل على هذا قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله...**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٧- تأسف الظالمين وندمهم على تفريطهم في جنب الله، ومخالفتهم سبيل الرسول ﷺ وطريق أهل الجنة حين لا ينفع الندم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، وفي هذا تحذير من الظلم.

٨- أن كل طريق إلى الجنة مسدود؛ إلا طريق الرسول ﷺ.

٩- نداء الظالم على نفسه بالويل، وتمنيه أنه لم يخالل أحدًا من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، وإقراره بالحق في ذلك اليوم حين لا ينفعه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾.

١٠- أن المرء على دين خليله، وأن الخليل والقرين الضال سبب لضلال خليله وقرينه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾، وفي الحديث: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[1]، وقال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير**» الحديث[2].

١١- أن الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، وكل خلة ليست في ذات الله فهي مضمحلة زائلة، أو وبال على صاحبها.

١٢- يجب الحذر كل الحذر من قرين السوء، وجليس السوء؛ لأنه شر ووبال على صاحبه، وسبب لهلاكه وضلاله. زالوحدة خير من جليس السوء. قال الشافعي[3]:

إذا لم أجد خلًّا تقيًّا فوحدتي ... ألذُّ وأشهى مِن غويٍّ أعاشرُهْ

وأجلسُ وحدي للعبادةِ آمنًا ... أقرُّ لعيني من جليسٍ أحاذرُهْ

١٣- إثبات اسم القرآن «الذكر»؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾.

١٤- خذلان الشيطان للإنسان وعداوته له، يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويزين

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٣٣، والترمذي في الزهد ٢٣٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥٣٤، ومسلم في الصلة والآداب ٢٦٢٨، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص٧.

له الباطل، ويدعوه إليه، ومن ثم يتبرأ منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾.

١٥- شكايته ﷺ إلى ربه هجران قومه للقرآن، وتكذيبهم به، وعدم إيمانهم به، وإعراضهم عنهم، وعدم تدبرهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

١٦- أن شكوى الحال في كل شيء ينبغي أن تكون للرب عز وجل، الذي يسمع النجوى، ويرفع البلوى.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰرَبِّ﴾.

١٨- إعراض مشركي مكة عن القرآن وهجرانهم إياه.

١٩- تحريم هجر القرآن، والإعراض عنه، وعدم تدبره والإيمان به.

٢٠- أن الله عز وجل جعل قدرًا لكل نبي من الأنبياء أعداء من المجرمين؛ كما جعل مشركي قريش أعداءً لنبينا ﷺ، وفي ذلك إظهار للحق، وابتلاء وتمحيص لأهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾.

٢١- تسليته ﷺ تجاه تكذيب المشركين لرسالته، وعداوتهم وأذيتهم له، وعناية الله تعالى به.

٢٢- إثبات الجعل والتقدير الكوني، وأن الله قدر جميع أعمال الخلق خيرها وشرها.

٢٣- ما أعظم كفاية الله تعالى في هدايته، يهدي من يشاء بفضله؛ كما يضل من يشاء بعدله، وما أعظم كفايته في نصرة رسله وأوليائه! وفي هذا تسلية له ﷺ تجاه كفر قومه وضلالهم، وصدهم عما جاء به، ووعد له بالنصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾.

٢٤- اقتراح الكفار- عنادًا منهم- هلا نزل عليه القرآن جملة واحدة؛ كما أنزلت الكتب قبله، ورده عز وجل عليهم مبينًا الحكمة في ذلك؛ وهي تثبيت قلبه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾.

٢٥- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

٢٦- امتنانه عز وجل بترتيله القرآن ترتيلًا، بترسل وتمهل ومكث، وبيانه بيانًا تامًّا، وأمره بترتيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

٢٧- عناية الله عز وجل بنبيه ﷺ، وبالوحي الذي أنزله إليه، وإبطال ما يورده المكذبون له عنادًا منهم من اقتراح أو قدح، بإظهار الحق وبيانه أتم بيان، ودمغ الباطل وإزهاقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

وفي هذا رد على الجهمية وغيرهم ممن يقولون: إن نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معانٍ غير ما يفهم منها؛ لأنه على قولهم هذا لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا.

٢٨- وعيد الكفار وتهديدهم بحشرهم على وجوههم إلى جهنم؛ إهانة وإذلالًا لهم، ونكاية في تعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٢٩- إثبات حشر الخلائق وجمعهم يوم القيامة، وإثبات جهنم، وأنها مرصدة للكافرين.

٣٠- ذمهم في مآلهم ومسلكهم، فمآلهم جهنم شر مآل، ومسلكهم أضل طريق: طريق الهلاك والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾:

لما ذكر ما لقيه ﷺ من المشركين من العناد والتكذيب والأذى، وتوعدهم بالقيامة وأهوالها وبجهنم، ذكر ما أحله بالأمم الماضية المكذبة للرسل من العقوبات الدنيوية، مع ما أعده للظالمين من العذاب الأليم في الآخرة؛ تهديدًا للمشركين، وتحذيرًا لهم من مخالفته ﷺ، وتسلية له.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة، أعظم كتب الله بعد القرآن الكريم.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾، أي: نبيًّا ورسولًا مؤازرًا ومؤيدًا وناصرًا ومعينًا، وذلك بدعوة ووجاهة من موسى؛ بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٩- ٣٢].

ولهذا قيل: إنه لا يوجد أحد من الإخوة أعظم فضلًا وأشد منة من موسى على أخيه هارون، حيث دعا الله أن يجعل أخاه هارون رسولًا- والرسالة أعلى المقامات- فاستجاب الله له.

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهم فرعون وقومه.

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾، أي: أهلكناهم إهلاكًا شديدًا بالغرق.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾، أي: وقوم نوح عليه السلام، أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: حين كذبوا الرسل، أي: كذبوا نوحًا عليه السلام، ومن كذب رسولًا فهو كمن كذب جميع الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة؛ هي توحيد الله تعالى، ولا فرق في هذا بين رسول ورسول.

وبدأ بذكر موسى عليه السلام مع أنه متأخر بالنسبة إلى قوم نوح؛ لأن موسى اقرب عهدا، وفرعون أشد عتوًّا. والله أعلم.

﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، أي: أغرقناهم جميعًا بالطوفان، إلا من آمن مع نوح عليه السلام، وهم قليل، أنجاهم الله معه في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾، أي: عظة وعبرة، يتعظ ويعتبر بها من وفقه الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١- ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر:١٣- ١٥].

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: وأعددنا وهيأنا وجهزنا في الآخرة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾، بالشرك والكفر ومخالفة الرسل من الأمم الماضية، ومن هذه الأمة.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، وهو عذاب النار.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: وأعتدنا لهم؛ لتسجيل وصف الظلم عليهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين، ولبيان علة هذا الوعيد وسببه، وهو الظلم، مع ما في ذلك من تنبيه للمخاطب، كما في الالتفات.

﴿وَعَادًا﴾، أي: وأهلكنا عادًا لما كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام.

﴿وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، أي: وأهلكنا ثمود وأصحاب الرس لما كذبوا الرسل. و«ثمود» هم قوم صالح عليه السلام، و«أصحاب الرس» نسبة إلى الرس؛ وهي البئر.

﴿وَقُرُونًا﴾، أي: وأهلكنا قرونًا، أي: أممًا ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بين تلك الأمم المذكورة، ﴿كَثِيرًا﴾، أي: قرونًا وأممًا كثيرة أهلكناهم لما كذبوا الرسل.

﴿وَكُلًّا﴾، أي: وكلًّا من هؤلاء الأقوام والقرون والأمم المكذبة.

﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾، أي: بينَّا ونوَّعنا لهم الحجج والدلائل، وقرَّبنا لهم المعاني، وأوضحنا لهم الحق، وأزحنا عنهم الأعذار، وأقمنا عليهم الحجة، وحذرناهم مما حل بالمكذبين قبلهم.

﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرًا﴾، أي: أهلكناهم إهلاكًا تامًّا عظيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، أي: ولقد أتى كفار مكة على القرية؛ أي: قرية قوم لوط، أي: مروا عليها، وهي قرية «سدوم».

﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، أي: مطر عذاب يسوء المُمطَرين؛ أمطرت بحجارة من السماء من سجيل فأهلكتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [الحجر: ٧٤- ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨].

﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾، الاستفهام للتوبيخ والتقرير، أي: أفلم يكونوا يرون هذه القرية في طريقهم في سفرهم إلى الشام، فيعتبرون بما حل بأهلها من العذاب والنكال، بسبب تكذيبهم رسولهم، ومخالفة أمر الله؟ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ

عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٧٩].

ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل هم يرونها، ولكن لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ولا يؤملون بالنشور، ولا يرجون لقاء الله، ولا يخشون عذابه، بل ينكرون ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

لما ذكر إعراضهم عن الاعتبار والاتعاظ بالأمم والقرى المكذبة بسبب تكذيبهم بالبعث، أتبع ذلك بذكر استهزائهم وسخريتهم به ﷺ.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: وإذا رآك يا محمد هؤلاء المكذبون المشركون من قومك ما يتخذونك ويجعلونك.

﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا محلًّا للاستهزاء والسخرية والتندر، قائلين على سبيل التنقص والاحتقار والازدراء:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ الاستفهام للتحقير، وهو متضمن للنفي، أي: إن هذا لا يستحق، ولا يناسب أن يبعثه الله رسولًا؛ وأشاروا إليه بإشارة القريب: «هذا» أيضا تحقيرًا له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أي: الذي يعيب آلهتكم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا ديدن المكذبين للرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢].

وصدق الله العظيم: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾، أي: إن كاد محمد، أي: قارب، ﴿لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ «إنْ» مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، تفيد التوكيد، أي: إنّه لَيصرفنا عن عبادة آلهتنا، أي: أصنامنا.

﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾، «لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، أي: لولا صبرُنا عليها، وتجلدنا وتمسكنا بها لأضلنا عنها، وهم بهذا يفتخرون بتمسكهم بما هم عليه من الباطل؛ كما في قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٥- ٧].

والصبر محمود في المواضع كلها إلا في مثل هذا الموضع الذي فيه الصبر على ما يكون سببًا للهلاك والعذاب، وهو الصبر على معصية الله، لا عن معصية الله.

﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾، تهديد ووعيد لهم، أي: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ علمًا حقيقيًّا ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ ويشاهدونه بعين اليقين.

﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: من أضل طريقًا وأخطأ منهجًا؟ أهم باختيارهم طريق الهلاك والعذاب، أم الرسول ﷺ الذي دعاهم إلى الإيمان والتوحيد وإلى طريق النجاة؟ لا شك أنهم سيعلمون ويتيقنون بعد أن يروا العذاب أنهم هم الأضل سبيلًا.

﴿أَرَءَيۡتَ﴾، أي: أخبرني، والخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أي: من جعل معبوده ﴿هَوَىٰهُ﴾، أي: ما تهواه نفسه فكل ما هوته نفسه الأمارة بالسوء عبده واستحله، وهذا تعجيب من حاله السيئة، وأنه لا أضل منه، ولا حيلة فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠]، ولهذا قال:

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لست عليه وكيلًا، مسيطرًا مسلطًا تلزمه الهداية وتحفظه من اتباع هواه؛ لأن هداية القلوب بيد

علام الغيوب.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي هي للإضراب، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتحسب، أي: أتظن أن أكثر الخلق يسمعون سماع تفهم وانتفاع، أو يعقلون عقل تفكر وتدبر، أي: لا تظن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هم إلا كالأنعام السارحة السائمة، تأكل وتشرب، ولا عقل لها ولا تكليف.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل هم أضل من الأنعام طريقًا وأخطأ مسلكًا؛ لأن الأنعام تهتدي لما خلقت له، فتأكل ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتعطف على أولادها، وتغدو أول النهار إلى مراعيها، وتروح آخر النهار إلى مراحها، إلى غير ذلك؛ كما قال ﷺ عن الطير: «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١).

وهم لم يهتدوا لما خلقوا له، خلقوا لعبادة الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فعبدوا غير الله وأشركوا به، مع ما كرمهم الله به من العقول التي ميزهم الله بها عن الأنعام، ومع قيام الحجة عليهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ ولهذا صاروا شر الدواب، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥].

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه، ونبوة هارون وجعله وزيرًا لموسى عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥﴾.

٢- أن هارون أخ شقيق لموسى عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ﴾.

٣- إرسالهما إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وتكذيبهم بآيات الله، وإهلاكهم إهلاكًا شديدًا بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦﴾.

٤- إثبات رسالة نوح عليه السلام، وتكذيب قومه له، وإهلاكهم بالطوفان، وجعلهم عظة وعبرة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

٥- أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، وهم إنما كذبوا نوحًا، وهو أول رسول.

٦- ينبغي الاعتبار والاتعاظ بما حل من العقوبات بالمكذبين، والحذر من مسالكهم، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

٧- الوعيد والتهديد للظالمين بالشرك والكفر ومخالفة الرسل من جميع الأمم بالعذاب الأليم في النار، والجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٨- أن النار موجودة مرصدة مهيأة لأهلها الآن.

٩- إهلاك عاد وثمود وأصحاب الرس وأمم كثيرة بين ذلك لما خالفوا أمر الله، وكذبوا رسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

١٠- إقامة الحجة وبيان الحق، وإيضاح المحجة لأولئك الأقوام، وإهلاكهم بعد الإعذار منهم، إهلاكًا شديدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا

تَبْرِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

١١- الإنكار على المشركين وتقريعهم؛ لعدم اعتبارهم بما حل من العقوبة الشديدة بقرية قوم لوط من إمطارها مطر السوء بالحجارة، وقد أتوا عليها ورأوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾.

١٢- عظم فاحشة اللواط، وأنها قد بلغت الغاية في الفحش؛ ولهذا عاقب الله تعالى قوم لوط بأشد العقوبات، فجعل عالي قريتهم سافلها، وأمطرهم مطر السوء؛ حجارة من سجيل.

١٣- إنكار المشركين للبعث، وأن الذي حملهم على عدم الاعتبار والاتعاظ هو كونهم لا يؤمنون بالبعث والنشور، ولقاء الله، والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

١٤- إثبات أن البعث والحساب و الجزاء حق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾.

١٥- سخريتهم واستهزاؤهم بالرسول ﷺ عند رؤيتهم إياه، وازدراؤهم واحتقارهم وتنقصهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

١٦- افتخارهم في تصلبهم وشدة تمسكهم بما هم عليه من الباطل والشرك بالله؛ لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

١٧- لا حيلة فيمن طمس الله بصيرته وأضله الله على علم، فرأى الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والهدى ضلالة، والضلالة هدى.

١٨- فرط مجاهدته ﷺ في دعوته لهم، وبذل قصارى وسعه في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم؛ لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾.

١٩- أن الصبر- وإن كان محمودًا في كل المواضع- فإنه لا يحمد في مثل هذه الحال أبدًا؛ لأنه صبر على ما يؤدي إلى الهلاك والخسران المبين.

٢٠- الوعيد والتهديد لهم بالعذاب، وأنهم سيعلمون عند رؤيتهم له أنهم هم الأضل

سبيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

٢١- التعجيب من حال من جعل إلهه ما تهواه نفسه، فكلما هوى شيئًا عبده؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

٢٢- أنه ﷺ ليس بوكيل على الخلق يلزمهم الاهتداء؛ لأن الهداية بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

٢٣- أن أكثر الخلق لا يسمعون ولا يعقلون، ما هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا منها؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

٢٤- أن الأنعام أهدى من كثير من الخلق؛ لأنها تهتدي لما خلقت له؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

بخلاف كثير من الخلق؛ لأن الخلق كلهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فضل كثير منهم عما خلقوا له وعبدوا غير الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب فلم يسجد لله، وهذا مصداق قوله عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾:

لما ذكر عز وجل عتو المشركين وعنادهم، وعدم اتعاظهم بما حل بالمكذبين قبلهم، واستهزاءهم به ﷺ، وعبادتهم أهواءهم، وكونهم أضل سبيلًا من الأنعام؛ أتبع ذلك بالأدلة الدالة على وجوده وكمال قدرته، وتمام نعمته.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، الاستفهام للتقرير والتعجب، أي: ألم تشاهد ببصرك وتتأمل ببصيرتك؟ والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، أي: كيف بسط الظل وجعله طويلا ممتدًّا من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، أي: من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس؟ فإنه في هذا الوقت يكون الظل مديدًا أطول ما يكون.

وسمي ظلًّا لأنه ذو نور، ولكن بدون شعاع شمس فكان ظلًّا.

و«الظل»: ما قبل الزوال، و«الفيء»: ما بعده، أي: الظل: ما نسخته الشمسُ، والفيء: ما نسخ الشمسَ.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، أي: ثابتًا مستقرًّا دائمًا على حالة واحدة غير ممتد، فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فلا تحصل المنافع المترتبة على مده وبسطه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القصص: ٧١]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [القصص: ٧٢].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾.

وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم، أي: ثم جعلنا الشمس دليلًا على الظل؛ لأنها هي التي تظهره وتبينه؛ لأنه يتبعها في حركتها تبعية المدلول لدليله، فلولا وجود الشمس لما عرف الظل، ولما عرف ما فيه من المصالح والفوائد، كما أنه لولا الظل ما عرف ما في الشمس من المصالح والفوائد، والضد يعرف بضده، وبضدها تتبيَّن الأشياء.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أي: ثم قبضنا الظل، أي: ثم كلما ارتفعت الشمس تقلص الظل وانقبض يسيرًا، شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئًا فشيئًا، حتى يصير كهيئته عند طلوعها.

قال ابن القيم: «ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال»(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، أي: ساترًا لكم بظلامه، كاللباس، بغشيانه الوجود؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، أي: قطعًا للحركة والتعب، وراحة لأبدانكم وأرواحكم.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: وقتًا للانتشار والسعي للكسب، وطلب المعاش والرزق، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩- ١١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٧.

كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠].

لما ذكر دلائل كمال قدرته ونعمته في مد الظل، وجعل الليل لباسًا، والنوم سباتًا، والنهار نشورًا؛ أتبع ذلك بذكر دلائل تمام قدرته ونعمته أيضًا في إرسال وإنزال المطر؛ لإحياء الأرض، وسقي الناس والأنعام، وتصريفه بينهم؛ ليذكروا.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، قرأ ابن كثير بالإفراد: «الرِّيحَ»، وقرأ الباقون بالجمع: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾.

وقرأ حفص: ﴿بُشْرًۢا﴾ بباء موحدة وسكون الشين، أي: أنها تبشر برحمة الله تعالى، أي: بالمطر، وقرأ الباقون بالنون على اختلاف بينهم، فقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين: «نُشْرًا»، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح النون وسكون الشين: «نَشْرًا».

وقرأ الباقون بضم النون والشين: «نُشُرًا».

والمعنى: أنها منتشرة ومتفرقة، وتثير السحاب وتنشره.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: قبلها وأمامها، فتثير السحاب وتنشره وتحمله وتسوقه وتلقحه، وتبشر بالرحمة؛ وهي المطر.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، إلى التكلم. أي: وأنزلنا من السحاب الذي في العلو، بين

السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿طَهُورًا﴾ «طَهور»- بفتح الطاء- : اسم لما يتطهر به، أي: لما تحصل به الطهارة؛ كقوله تعالى: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. وأما «طُهور»- بضم الطاء- : فهو التطهر.

﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ الباء للسببية، أي: لنحيي بسبب الماء بلدة ميتًا؛ فتنبت أرضها وتخضر وتكتسي وتزدهي بأصناف النباتات والأشجار مما يأكل الناس والأنعام.

كما قال تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾، قرأ أبو عمرو وحفص في رواية عنهما بفتح النون: «وَنَسْقِيَهُ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾، والواو: عاطفة، أي: ولنسقيه ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾، أي: من الذي خلقنا ﴿أَنْعَٰمًا﴾، أي: أنعامًا كثيرة العدد والأنواع والأجناس، تشمل بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوان والطير وغير ذلك.

﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾، «أناسي»: جمع «إنسان».

أي: ونسقيه أناسًا كثيرين، يشربون منه، ويسقون زروعهم وثمارهم، من الغدران التي تبقى على وجه الأرض، ومما يخزن فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقدّم إحياء الأرض، وسقي الأنعام على سقي الأناس والله أعلم؛ لأن حياتهم بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ما هو سبب لحياتهم، ولأنهم إذا ظفروا بسقيا أرضهم

وأنعامهم لم يعدموا سقياهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بسكون الذال وتخفيف الكاف مضمومة: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾، وقرأ الباقون بتشديد الذال والكاف: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، وأصلها: «ليتذكروا»، وأدغمت التاء في الذال.

أي: ولقد صرفنا المطر بينهم كما نشاء بحكمة بالغة، فأنزلناه على أرض دون أخرى، وأنزلناه عامًا على أرض، وعامًا على غيرها، وغير ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «ما عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: «ليس عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾»(٢).

وقيل: صرفنا القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]، والأظهر والأقرب من حيث السياق القول الأول.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، أي: ليتذكروا بذلك عظمة الله تعالى ونعمته، وتمام قدرته، وأنه عز وجل هو المتفرد وحده بإنزال المطر، لا الأنواء، قال ﷺ لأصحابه على أثر سماء كانت من الليل: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٣).

وليتذكروا أيضًا: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على بعث الخلائق وإحياء الموتى، وليتذكر من نزل عليه المطر نعمة الله تعالى عليه فيشكرها، ويتذكر من مُنع القطر أنه بذنب أصابه، فيتوب ويستغفر الله.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٤٦٨- ٤٦٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٦، ومسلم في الإيمان، بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء ٧١، وأبو داود في الطب ٣٩٠٦؛ من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾، أي: امتنع أكثر الناس وأصروا، ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا كفورًا بالله، وكفرانًا بنعمته، بنسبة المطر إلى الأنواء والأجواء ونحو ذلك، أو بالأشر والبطر وعدم الشكر، أو بالقنوط من رحمة الله إذا امتنع المطر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾:

قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾، الواو: حرف عطف، و«لو» شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: لو أردنا كونًا.

﴿لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ﴾، اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لأرسلنا في كل قرية من القرى ﴿نَّذِيرٗا﴾، أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم عذاب الله، ويدعوهم إلى الله تعالى، أي: ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس كلهم هذا القرآن؛ كما قال ﷺ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(١).

وقال: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»(١).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ الفاء: واقعة في جواب شرط مقدر.

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن، أي: ابذل جهدك ووسعك في مجاهدتهم بالقرآن، بتبليغه لهم والحجة والبيان.

﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾، «جهادًا» مفعول مطلق منصوب، أي: جهادًا عظيمًا لا يخالطه فتور؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ

---

(١) سبق تخريجه.

أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٣- ٥٤].

قوله: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، أي: أرسلهما في مجاريهما متلاصقين بحيث لا يتمازجان، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، أي: هذا حلو شديد العذوبة والحلاوة، وهي مياه الأنهار والعيون والآبار، ونحوها.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: شديد الملوحة والمرارة، وهي البحار والمحيطات الساكنة التي لا تجري.

قال ابن كثير[1]: «ولكن تتموج وتضطرب، وتغتلم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى- وله القدرة التامة- العادة بذلك».

وقال أيضًا: «فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء؛ لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوي الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا، وميتتها طيبة».

وفي كل من هذين البحرين: العذب والمالح، من المنافع والفوائد والمصالح الكثيرة للعباد ما لا يعد ولا يحصى؛ ولذا امتن الله عز وجل بهما على عباده.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾، أي: بين البحرين: العذب والمالح.

﴿بَرْزَخًا﴾، أي: حاجزًا، وهو اليبس من الأرض؛ يمنع وصول أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به وإفساد خاصيته؛ كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٠]، أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولا يطغى عليه، فيزيل خاصيته المقصودة منه. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ [النمل: ٦١].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: مانعًا وحاجزًا شديدًا يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر.

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٢٦.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، أي: من مني الرجل والمرأة ﴿بَشَرًا﴾، أي: إنسانًا سويًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٩].

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا﴾، أي: قرابة من جهة النسب، وهم: آباء، وأبناء، وإخوة، أي: أبوّة، وبنوّة، وأخوّة، وبنو أخوّة.

﴿وَصِهْرًا﴾، وهم قرابة المصاهرة، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها.

فالمرء في ابتداء أمره نسيب، ثم يتزوج، فيصير صهرًا، ويصير له أصهار.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وكان ربك عظيم القدرة على كل شيء، حيث خلق من هذا الماء بشرًا سويًّا، كامل القوى الجسدية والعقلية والفكرية.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقرير كمال قدرة الله تعالى ونعمته في مد الظل، والترغيب في النظر والتأمل، وشكر الله تعالى على ذلك؛ لما يترتب عليه من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، ومعرفة أوقات الصلوات وغير ذلك، ومن تعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الآية.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ والمؤمنين وتشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٣- أن الله عز وجل لو شاء لجعل الظل ساكنًا غير ممتد، فلا تحصل المصالح المترتبة على مده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٥- أن الشمس دليل على الظل، فلولا وجود الشمس ما عرف الظل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

٦- الاستدلال بالشيء على ضده، ومعرفة الشيء بضده، وأن قدر النعمة لا يعرف إلا بفقدها.

٧- الامتنان بقبضه عز وجل الظل وتقليصه قليلًا قليلًا بارتفاع الشمس، وما في ذلك من حصول المنافع وانتفاء المضار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

٨- تمام قدرته تعالى ومنته في جعل الليل لباسًا ساترًا للخليقة، والنوم راحة للأبدان، وجعل النهار وقتًا للانتشار والسعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

٩- قدرته تعالى التامة ونعمته العظيمة في إرسال الرياح مبشرات بالمطر، وإنزاله من السماء ماء طهورًا لحياة الأرض والبلاد، وسقي الأنعام والعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

١٠- أن من منافع الرياح سَوق السحاب وتلقيحه والبشارة بالمطر.

١١- أن المطر رحمة من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

١٢- حكمة الله تعالى في كون المطر ينزل من السماء؛ ليعم المرتفعات وسفوح الجبال والهضاب والأودية والسهول، وفي كونه طهورًا؛ ليطهر كل ما ينزل عليه.

١٣- أن الأصل في الماء الطهارة، فكل ما نزل من السماء أو نبع من الأرض فهو طهور أنزله الله من السماء.

١٤- إثبات الأسباب، وإثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

١٥- تصريفه عز وجل المطر بين العباد والبلاد بحكمته ومشيئته وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾.

١٦- أن الحكمة في تصريف المطر: لأجل أن يتذكر العباد عظمة الله تعالى، وتمام قدرته، وتفرده وحده بإنزال المطر، فلا ينسبوه إلى الأنواء، ولا إلى الأجواء، وليتذكروا أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، وليتذكر من مُنع القطر أن

ذلك بذنب أصابه، فيتوب إلى الله ويستغفره؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

١٧- إصرار أكثر الناس على كفر نعمة الله تعالى وعدم شكرها، ونسبة المطر إلى غيره؛ من الأنواء والأجواء، وغير ذلك، أو القنوط من رحمة الله عند امتناعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

١٨- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، أي أبوا بمحض اختيارهم، وفي هذا رد على الجبرية.

١٩- أن الله عز وجل لو شاء لأرسل في كل قرية نذيرًا لهم خاصة؛ كما هي حال النذر السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤].

ولكنه عز وجل شاء أن يخص محمدًا ﷺ بالرسالة العامة إلى جميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

أي: ولكن لم نشأ ذلك، بل شئنا إرسالك إلى جميع الناس.

٢٠- نهيه عز وجل له ﷺ عن طاعة الكافرين، وأمره بجهادهم بالقرآن بتبليغه لهم، وبالحجة والبرهان، وهو نهي وأمر لأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

٢١- قدرته عز وجل التامة ونعمته في إرسال البحرين: العذب الفرات، والملح الأجاج، وما فيهما من المنافع والمصالح للعباد، وحجز أحدهما حجزًا تامًّا عن الوصول إلى الآخر والاختلاط به وإذهاب خاصيته؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

٢٢- قدرته تعالى التامة ومنته في خلقه من ماء الرجل والمرأة بشرًا سويًّا، وجعله ذا نسب وصهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

٢٣- إثبات قدرته عز وجل العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾:

لما ذكر دلائل تمام قدرته ونعمه الموجبة لشكره وذكره وعبادته وحده، أتبع ذلك بذم المشركين وبيان سفاهتهم، الذين يعبدون من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم، ويمتنعون من السجود له، ثم أمره ﷺ بالتوكل عليه عز وجل وتسبيحه، وبيّن له كفايته عز وجل بذنوب عباده؛ تسلية له ﷺ.

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون ويدعون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

قال ابن القيم: «أي: يدعونهم دعاء مسألة للنفع والضرر، ودعاء خوف ورجاء وعبادة، وهما متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة

متضمن لدعاء العبادة»[١].

﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي لا ينفعهم ولا يضرهم من الأصنام والأوثان، أي: الذي لا يجلب لهم نفعًا، ولا يدفع عنهم ضرًّا، ولا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوه.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾، «ال»: للاستغراق، أي: كل كافر.

﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، أي: عونًا للشيطان على ربه بالشرك، مظاهرًا له بالمعصية، ومواليًا له، ومعاديًا لربه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾، «إلا» أداة حصر، أي: وما أرسلناك يا محمد إلا مبشرًا للمؤمنين بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة، ونذيرًا للكافرين من الشقاء في الدنيا والآخرة والنار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب:٤٧]، ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ [الكهف:٤].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿أَجْرٍ﴾ نكرة في سياق النفي، أي: ما أسألكم أيَّ أجر على تبليغ رسالة ربي إليكم، فتستثقلون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن»، و«من» موصولة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«شاء»، أي: إلا الذي شاء اتخاذ سبيل إلى ربه، أي: طريقًا إلى ربه بالاقتداء بما جئت به.

أي: لا أسألكم أجرًا على تبليغي إياكم رسالة ربي، إلا الاستجابة لما أدعوكم إليه، وسلوك صراط الله المستقيم، وإلا من شاء أن ينفق في مرضاة ربه وسبيله، وهذا لكم، وليس أجرًا لي.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٨- ٢٩٩.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، أي: اعتمد وفوِّض في أمورك كلها على «الحيِّ».

«الحي» من أسماء الله عز وجل، أي: ذي الحياة الكاملة التامة الدائمة، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، أي: الذي لا يموت أبدًا، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، أي: فتوكل في جميع أمورك على الحي الذي له الحياة الكاملة التامة من جميع الوجوه، وله البقاء الدائم، الذي لا يموت أبدًا، وهو الله عز وجل ؛ يكفك كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَسَبِّحْ﴾، التسبيح: التنزيه والتعظيم والتقديس.

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾، الباء للملابسة، أي: سبح الله تعالى ونزهه وقدسه متلبسًا بحمده، أي: قارنًا بين تسبيحه وحمده؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك**»(١).

أي: أخلص له العبادة والتوكل؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ [الملك: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩].

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾، أي: ذا خبرة تامة بها، واطلاع واسع عليها، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، سيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لسعة علمه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا يخفى عليه خافية.

أي: فليس عليك هداهم، ولا إليك حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١١٢٢، من حديث عائشة رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: أوجدهما بما فيهما وما بينهما من المخلوقات.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ من أيام الدنيا المعلومة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: ثم استوى بعد ذلك على العرش، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

والعرش: سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأكبرها وأجملها وأكملها.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بدل من الضمير في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، الباء بمعنى: «عن»، أي: فاسأل عنه عز وجل خبيرًا؛ وهو نفسه الكريمة؛ إذ لا أحد أعلم بأوصافه عز وجل من نفسه.

قال ابن جريج: «يقول لمحمد ﷺ: إذا أخبرتك شيئًا فاعلم أنه كما أخبرتك؛ فأنا الخبير»(١).

أي: أنه عز وجل قد أبان من أسمائه وأوصافه الجليلة، وأفعاله وأحكامه، ما يدل على كمال عظمته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره.

وقيل: المراد بقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، أي: استعلم عنه من هو خبير عالم به، فاتبعه، واقتد به، وهو نبيه ورسوله محمد ﷺ؛ إذ لا أحد من الخلق أعلم منه بربه عز وجل، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقيل: المراد بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

بعدما ذكر كمال حياته عز وجل، وتمام عظمته وعلوه، وعظيم قدرته، أتبع ذلك بذكر امتناع المكذبين من عبادته والخضوع له، وإنكارهم رحمته.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٤٨٠.

أي: وإذا قيل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون آلهة من دون الله: اسجدوا للرحمن الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، واعبدوه وحده لا شريك له.

﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، الاستفهام للتعجب والاستغراب والإنكار، أي: قالوا متعجبين ومنكرين وجاحدين: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: ما نعرف الرحمن، وما نقر به، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه «الرحمن»؛ كما قال سهيل بن عمرو يوم الحديبية لما قال النبي ﷺ للكاتب: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم. ولهذا أنزل الله قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠][1].

﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾، قرأ حمزة والكسائي بالغيب: «يَأْمُرُنَا»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَأۡمُرُنَا﴾.

والاستفهام استفهام امتناع واستكبار وتكذيب، و«ما» مصدرية، أي: أنسجد لأمرك؟ أو موصولة، أي: أنسجد للذي تأمرنا بالسجود له، أي: أننا لا نسجد لمجرد أمرك، ولا نسجد للذي تأمرنا بالسجود له.

﴿وَزَادَهُمۡ﴾، أي: وزادهم دعوتهم للسجود للرحمن ﴿نُفُورٗا﴾، أي: بعدًا عن الحق والإيمان، واستكبارًا.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعالى وتعاظم، وكثر خيره وإحسانه وبركته.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ المراد بالسماء: العلو، وليس المراد به السقف المحفوظ؛ لأن هذه البروج دونها، والبروج: جمع برج، وهو البناء العالي المرتفع.

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط، الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٧٣٤، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

واختلفوا في المراد بها في الآية، فقال بعضهم: هي الكواكب العظام، والنجوم الكبار، وقال بعضهم: هي منازل الشمس الاثني عشر التي تنتقل فيها؛ وهي: الميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، والحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة.

وهذه البروج تقطعها الشمس في السنة، والقمر يقطعها في الشهر، وله منازل؛ ثمان وعشرون منزلة، تشتمل على هذه البروج الاثني عشر.

قال السعدي[1]: «﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزل منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين».

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ بعدما ذكر البروج وهي المنازل الاثنا عشر- كما قال بعض أهل العلم- ذكر النازل فيها؛ وهو الشمس والقمر.

قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم السين من غير ألف على الجمع: «سُرُجًا».

وقرأ الباقون بكسر السين وفتح الراء وألف بعدها على الإفراد: ﴿سِرَٰجًا﴾، أي: شمسًا مضيئةً حارة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، فيه النور بلا حرارة، وهذا من دلائل عظمته عز وجل، وجليل نعمه؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح؛ ولهذا امتن الله به على العباد؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٥-١٦].

قال ابن القيم: «هو تعظيم وثناء منه تعالى على نفسه بجعل هذه البروج والشمس والقمر في السماء، وقد اختلف في البروج المذكورة في الآية، فأكثر السلف أنها القصور أو الكواكب العظام والنجوم الكبار، وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى البروج الاثني عشر، التي تنقسم عليها المنازل، كل برج منزلتان وثلث، وهذه المنازل

الثمانية والعشرون يبدو منها للناظر أربعة عشر منزلًا أبدًا، ويخفى منها أربعة عشر منزلًا؛ كما أن البروج يظهر منها أبدًا ستة، ويخفى ستة، والعرب تسمي أربعة عشر منزلًا منها شامية، وأربعة عشر يمانية، فأول الشامية: السرطان، وآخرها: السماك الأعزل، وأول اليمانية: العفر، وآخرها: الرشا، إذا طلع منها من المشرق غاب رقيبه من المغرب، وهو الخامس عشر. وبها تنقسم فصول السنة الأربعة، فللربيع منها: الحمل والثور والجوزاء، ومنازلها: الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع.

وللصيف منها: السرطان والأسد والسنبلة، ومنازلها: الثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك.

وللخريف منها: الميزان والعقرب والقوس، ومنازلها: الغفر والزبان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة.

وللشتاء منها: الجدي والدلو والحوت، ومنازلها: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرع المقدم، ويسمى الأول، والفرع المؤخر، ويسمى الثاني، والرشا.

ولما كان نزول القمر في هذه المنازل معلومًا بالعيان والمشاهدة، ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٨- ٣٩].

فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس، وإن كانت مقدرة المنازل؛ لظهور ذلك للحس في القمر، وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل مَنزِلٍ مَنزِلٍ.

ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم، وأبعد من الغلط، وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي؛ ولهذا قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، ولم يقل ذلك في الشمس؛ ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله، لا على حساب الشمس وسيرها؛ حكمة من الله ورحمة، وحفظًا لدينه؛ لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعذر الغلط

والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب، فهذا الذي أخبرنا تعالى به من شأن المنازل وسير القمر فيها، وجعل الشمس سراجًا وضياء يبصر به الحيوان، ولولا ذلك لم يبصر الحيوان»(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أي: وهو عز وجل الذي جعل الليل والنهار خلفة، أي: متعاقبين يخلف أحدهما الآخر باستمرار ولا يجتمع معه، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

ولو اجتمع أحدهما مع الآخر لفاتت مصالح كثيرة عظيمة رتبها الله عز وجل على تعاقبهما.

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال مسكنة، وتخفيف الكاف مضمومة: «يَذْكُرَ»، وقرأ الباقون بتشديدهما مفتوحتين: ﴿يَذَّكَّرَ﴾، واللام للتعليل، و«من» موصولة، أي: جعلهما خلفة متعاقبين للذي أراد أن يذكر، أي: يعتبر ويتذكر قدرة الله تعالى، وزوال الدنيا وفناءها، ويذكر الله تعالى بإقامة الصلوات المكتوبات ورواتبها في أوقاتها، وصلاة النوافل، وقيام الليل، فمن فاته ورد الليل قضاه في النهار، ومن فاته عمل في النهار قضاه في الليل، قال ﷺ: «**إن الله يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل**»(٢).

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أي: أو أراد شكورًا لله تعالى على نعمه العظيمة بطاعته؛ لأن في تعاقبهما تجدد النشاط والهمة في العبادة والحيوية.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٩٩- ٣٠١.

(٢) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين وبيان سفاهة عقولهم؛ لعبادتهم من دون الله ما لا يجلب لهم نفعًا ولا يدفع عنهم ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾

٢- أن الكافر ظهير للشيطان وعون له على ربه بالكفر والشرك والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

٤- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾.

٥- أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للمرسل إليهم هي البشارة لمن آمن منهم بالجنة، والنذارة لمن كفر بالنار، ومن لازم ذلك البلاغ، وبيان التكاليف الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾.

كما أنه مطالب كغيره من الأمة بالقيام بالتكاليف.

٦- أنه ﷺ لم يَسأل على تبليغ رسالة ربه أجرًا، فيحتج المكذبون بثقل هذا الغرم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

٧- أنه ﷺ ما يسألهم إلا اتباعه وسلوك صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

٨- أن من أنفق نفقة في سبيل الله فأجر نفقته لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أي: وليس ذلك أجرًا مقابل تبليغ الرسالة إليه.

٩- تقوية قلبه ﷺ، وتثبيته بأمره عز وجل له بالتوكل عليه، والتسبيح بحمده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وأنه عز وجل ذو الحياة التامة الكاملة من جميع الوجوه، الدائمة الباقية؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

١١- أن الواجب الجمع بين عبادته عز وجل والتسبيح بحمده والتوكل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

١٢- بيان تمام كفايته عز وجل خبيرًا بذنوب عباده، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم، وفي هذا تسلية له ﷺ ليكل أمرهم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

١٣- إثبات عظمته عز وجل، وتمام قدرته، وكمال خلقه، وسعة ملكه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

١٤- إثبات علوه عز وجل، واستوائه على العرش بعد خلق السموات والأرض وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

١٥- إثبات اسمه عز وجل «الرحمن»، وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية له عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وقوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

١٦- إثبات كمال الله عز وجل، وأنه لا أحد أعلم بالله، وأعرف به وبصفاته منه عز وجل ؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، أي: أن ما أخبر به عن نفسه هو كما أخبر.

١٧- إنكار المشركين اسم الله «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

١٨- استكبارهم وعتوهم وعنادهم وامتناعهم من السجود لله تعالى، والخضوع له وعبادته واحتقارهم للنبي ﷺ؛ لقولهم: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

١٩- ازديادهم بدعوتهم إلى السجود للرحمن نفورًا عن الحق وبعدًا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾؛ ولهذا يشرع السجود في هذا الموضع بالاتفاق، طاعةً وامتثالًا لأمر الله، ومخالفة للمشركين.

٢٠- إثبات كمال عظمته عز وجل، وتعاليه، وتمام قدرته، وكثرة خيره وبركته، والثناء على نفسه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾.

٢١- أن من أعظم دلائل قدرته وخيره وبركته: جعله في السماء بروجًا، وسراجًا

وقمرًا منيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

٢٢- قدرة الله التامة، ونعمته الجليلة، ومنته في مخالفته بين الليل والنهار؛ لما في ذلك من المنافع والمصالح للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

٢٣- أن منة الله تعالى ونعمته في تعاقب الليل والنهار؛ إنما ينتفع بها ويقدرها قدرها من اعتبر بذلك، واستدل به على عظمة الله وكمال قدرته، وشكر الله تعالى على ذلك، بالاستعانة به على ذكر الله وعبادته وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

٢٤- أن الأيام والليالي هي من أعظم ما منحه الله للعبد؛ فهي خزائن للأعمال الصالحة لمن وفقه الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾:

لما ذكر في الآيات السابقة عبادة المشركين من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وكونهم أعوانًا للشيطان على ربهم بالشرك والكفر والمعاصي، والنفور من الحق- أتبع ذلك بذكر صفات عباد الرحمن الحسنة الجميلة، وأعمالهم الجليلة، وأخلاقهم النبيلة؛ من التحلي بالكمالات الدينية، والاستقامة على شرائع الإسلام، والتطلع إلى الزيادة من صلاح الأحوال في هذه الحياة، والتخلي عن ضلالات أهل الشرك والذنوب والمعاصي؛ ثناء عليهم، وامتداحًا لهم، وترغيبًا في صفاتهم.

قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: الذين هم أهل عبوديته الخاصة عبودية الألوهية، وأهل رحمته الخاصة، وهم أنبياء الله تعالى، وأتباعهم المؤمنون، وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين، وأضافهم إلى اسمه «الرحمن» تشريفًا وتكريمًا لهم، وأنهم إنما بلغوا هذه المنزلة بسبب رحمته، وترجية لهم برحمته، وأنها تسبق غضبه.

وفي هذا تمييز لهم عن غيرهم من أهل عبوديته العامة عبودية الربوبية، وهم جميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، «هونًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته، أي: مشيًا هونًا، والهَون بفتح الهاء: الرفق واللين؛ وهو صفة أهل الإيمان، والهُون بضم الهاء: الهوان؛ وهو صفة أهل الكفر الذين مآلهم النيران.

والمعنى: الذين يمشون على الأرض بسكينة ووقار من غير مرح ولا تجبر، ولا أشر ولا بطر ولا استكبار؛ امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقوله ﷺ: «**إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**»(١).

وقوله ﷺ مخاطبًا جموع الحجاج في انصرافه من عرفات إلى المزدلفة: «**السكينة، عليكم السكينة**»(٢).

وليس معنى ذلك: أنهم يمشون مشية المتمارض المتصنع رياء، كلا، فقد كان قدوتهم أفضل الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم: «إذا مشى تكفأ تكفؤًا، كأنما ينحدر من صبب»(٣)، وفي حديث: «وكأنما الأرض تطوى له»(٤).

وقد رأى عمر رضي الله عنه شابًّا يمشي رويدًا، فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدِّرة، وأمره أن يمشي بقوة(٥).

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، الواو عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية، أي: وإذا خاطبهم ذوو الجهل والسفه بجهل وتطاول وسيئ من القول.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، المشي إلى الجمعة ٩٠٨، ومسلم في المساجد، استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٣٢٧، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد ٧٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٧١، ومسلم في الحج ١٢٨٢، وأبو داود في المناسك ١٩٢٠، والنسائي في مناسك الحج ٣٠١٨، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٣٧، من حديث علي رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٤٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث غريب».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٣١.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، «سلامًا» صفة لمحذوف، أي: قالوا قولًا سلامًا، أي: سدادًا وصوابًا، يَسلمون فيه من الإثم، ومن مقابلة الجاهل بجهله، فلا يقابلونه بجهله انتصارًا لأنفسهم فيزداد جهلًا وسفهًا، ولا يسكتون فيظن أنه على الحق وأنه غلبهم وأنهم ضعفاء، بل يقابلون جهله بالحلم، وسفهه بالعقل، وإساءته بالعفو والصفح وبالتي هي أحسن.

وهذا من هون المشي المعنوي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥].

وعن النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ، وسب رجل رجلًا عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: وعليك السلام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أما إن ملكًا بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام. قال: بل عليك، وأنت أحق به**»(١).

قال ابن القيم: «وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

أي: بسكينة ووقار، لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام، فهو نطق حلم وسكينة ووقار، لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾، أي: يبيتون الليل مخلصين لربهم، متذللين له.

﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾، أي: حال كونهم سجدًا وقيامًا في عبادته والصلاة له، أي: يصلون؛ كما قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

وخص السجود والقيام؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة، فالقيام أشرف ما في الصلاة من حيث الذكر وقراءة القرآن، والسجود أشرف ما في الصلاة من حيث الحال

---

(١) أخرجه أحمد ٥٤٤٥. قال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ١٣٢: «إسناده حسن».

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٠٢.

والهيئة؛ ولهذا قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(١).

وقدم السجود لمراعاة الفاصلة، مع الإشارة إلى أهمية السجود.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، أي: ادفعه عنا بحفظنا من موجباته، ومغفرة ذنوبنا.

و«جهنم»: اسم من أسماء النار سميت به؛ لجهمتها، أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، تعليل للدعاء قبله، أي: شديدًا لا يطاق، مستمرًّا دائمًا ملازمًا لأهلها ملازمة الغريم لغريمه.

وهذا بالنسبة للعذاب المطلق، وهو عذاب من مات على الكفر، أما مطلق العذاب وهو عذاب من دون الكفر، فليس بلازم، فقد يعذب العاصي في النار بحسب ذنبه، ثم يخرج إلى الجنة، وقد يعفو الله عنه.

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، تعليل بعد تعليل، أي: جهنم ﴿سَآءَتْ﴾، أي: بئست، ﴿مُسْتَقَرًّا﴾، تمييز، أي: مكان استقرار للعصاة الذين يعذبون فيها ثم يخرجون منها، ﴿وَمُقَامًا﴾، معطوف على ﴿مُسْتَقَرًّا﴾، أي: مكان إقامة أبدية للكفار المخلدين فيها.

ويجوز أن يكون ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مترادفين، أي: مكان استقرار وإقامة لمن دخلها، سواء كان من المخلدين فيها أو من غير المخلدين.

وهذا بخلاف الجنة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٦]، وبقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بضم الياء وكسر التاء: «يُقْتِرُوا».

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وكسر التاء: «يَقْتِرُوا».

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم التاء: ﴿يَقْتُرُوا۟﴾، أي: والذين أنفقوا في أي وجه من وجوه النفقة الواجبة والمستحبة.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾، أي: لم يتجاوزوا الحد وقدر الحاجة في إنفاقهم، لا كمية ولا كيفية، ولم ينفقوا في محرم ومعصية.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾، أي: ولم يضيقوا في الإنفاق.

أي: فليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء فيُقصّرون في ذلك؛ ولهذا قال:

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، «القوام»: العدل والقصد بين الطرفين، أي: وكان إنفاقهم مستقيمًا وسطًا بين الإسراف والتقتير، حسب ما تقوم به الحال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من فقه الرجل: رفقه في معيشته**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عال من اقتصد**»(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٧.

(٣) أخرجه أبو بكر البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ١٣٤.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

سبب النـزول:

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: «إن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزل: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]»(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «نزلت هذه الآية بمكة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام، وقد عدلنا بالله، وقد قتلنا النفس التي حرم الله، وأتينا الفواحش؟! فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾»(٢).

لما ذكر صفات المؤمنين التي يتخلقون بها قولًا وعملًا، أتبع ذلك بذكر الصفات التي يجتنبونها ويبتعدون عنها قولًا وعملًا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: لا يعبدون مع الله معبودًا غيره، بل يعبدونه وحده، ويدعونه وحده دعاء مسألة، ودعاء عبادة ورجاء.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب عند الله أكبر؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وقد خلقك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**». ونزلت هذه الآية،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١٠، ومسلم في الإيمان ١٢٢، والنسائي في تحريم الدم ٤٠٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٣٦٤٢، وفي التفسير ٤٧٦٥، ومسلم في الإيمان ٣٠٢٣، وأبو داود في الفتن والملاحم، تعظيم المؤمن ٤٢٧٣.

تصديقًا لقول الرسول ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾»(١).

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: التي حرمها الله، أو التي حرم الله قتلها، وهي النفس المعصومة، وهي أربعة أنفس: نفس المسلم، ونفس الذمي؛ وهو من عقد معه عهد على بذل الجزية والحماية، ونفس المعاهد؛ وهو من وقع بيننا وبينه عهد بعدم القتال، ونفس المستأمن؛ وهو من دخل من الكفار إلى بلاد المسلمين بأمان منهم.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، «إلا» أداة حصر، والباء للملابسة، أي: متلبسين بالحق، أي: إلا بما يوجب قتلها شرعًا؛ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، وقتل المرتد، قال ﷺ: «**لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٢).

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ لما ذكر انتهاك الأنفس ذكر انتهاك الأعراض، أي: ولا يرتكبون فاحشة الزنا التي هي من أعظم الفواحش.

وخص هذه الأفعال الثلاثة؛ لأنها أكبر الذنوب والموبقات والكبائر، فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، الإشارة تعود إلى دعاء إله آخر مع الله، وقتل النفس المعصومة، والزنا، أي: ومن يفعل ذلك المذكور، بأن يشرك بالله، أو يقتل نفسًا معصومة، أو يزني ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، «يلق» جواب الشرط «من» مجزوم بحذف حرف العلة الألف، ﴿أَثَامًا﴾، أي: عقابًا ونكالًا وجزاء.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾، تفسير وبيان؛

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ٤٧٦١، ومسلم في الإيمان- كون الشرك أقبح الذنوب ٨٦، وأبو داود في الطلاق- تعظيم الزنا ٢٣١٠، والترمذي في التفسير ٣١٨٣، وأحمد ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ٦٨٧٨، ومسلم في القسامة ١٦٧٦، وأبو داود في الحدود ٤٣٥٢، والنسائي في تحريم الدم ٤٠١٦، والترمذي في الديات ١٤٠٢، وابن ماجه في الحدود ٢٥٣٤، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿أَثَامًا﴾.

قرأ أبو بكر بضم الفاء والدال: «يُضَاعَفُ»، و«يَخْلُدُ»، وقرأ الباقون بجزمهما: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾، و﴿وَيَخۡلُدۡ﴾.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين، مع الجزم: «يُضَعَّفْ».

ومعنى ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: يزاد ويعاد ويكرر عليه العذاب والنكال ويغلظ يوم القيامة، ومضاعفة الشيء: تكثيره وتكريره، قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابًا ضِعۡفًا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾ [ص: ٦١].

﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾، أي: ويمكث ويقيم ويبقى في هذا العذاب المضاعف أبدًا، ﴿مُهَانًا﴾ حال، أي: محتقرًا ذليلًا.

فجمع له بين العذاب الحسي الجسدي في النار، وبين العذاب المعنوي القلبي، بالإهانة والتحقير والإذلال.

والوعيد بمضاعفة العذاب لمن ارتكب هذه الأفعال المذكورة أو واحدة منها؛ لأنها كلها من كبائر الذنوب.

والوعيد بالخلود لمن ارتكبها كلها، أو ارتكب الشرك وحده؛ لأن ما عدا الشرك من الذنوب، كالقتل العمد، والزنا، وغيرهما لا يخلد فاعله في النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو استثناء متصل، و«من» موصولة، أي: جزاء من ارتكب هذه الموبقات وعقابه مضاعفة العذاب له يوم القيامة، وخلوده فيه مهانًا، إلا الذي تاب من هذه الذنوب وغيرها ورجع وأناب إلى الله، وآمن وعمل صالحًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾، أي: إلا من تاب توبة صحيحة بشروطها الخمسة، وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم عليها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون في وقتها قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم، وأن تكون خالصة لله تعالى.

﴿وَءَامَنَ﴾، بترك الشرك والدخول في الإسلام والإيمان، وآمن أيضًا: بترك

المعصية كالقتل والزنا وغير ذلك؛ لأن مرتكب المعصية- وإن كانت دون الكفر- يرتفع عنه الإيمان؛ كما قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ينظر الناس إليه فيها وهو مؤمن**»(١).

﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ذكر الموصوف هنا- وهو قوله: ﴿عَمَلًا﴾- للتوكيد، والغالب حذفه، والاكتفاء بالصفة ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تعظيمًا ورفعة لشأنهم.

﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾، «التبديل»: جعل شيء ووضعه مكان شيء آخر.

ومعنى يبدل الله سيئاتهم حسنات: أن ما عملوه من سيئات ماضية يبدلها الله بالتوبة النصوح حسنات؛ لأن توبتهم منها بإقلاعهم عنها، وندمهم على فعلها، وعزمهم على عدم العود إليها، وكونها خالصة لله تعالى في وقتها المناسب: كل ذلك حسنات تسجل لهم مقابل تلك السيئات، فبدلت سيئاتهم وانقلبت حسنات بهذا الاعتبار، فهو تبديل جزئي.

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولًا إلى الجنة، يؤتى برجل، فيقول: نحُّو كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيقال: إن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها ههنا. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه**»(٢).

قال ابن القيم: «إن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب، من ذل وانكسار وخشية وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، أوفى أهل الجنة منزلة ١٩٠، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٦، وأحمد ٥١٧٠.

ليتني لم أوقعه فيها أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه، مما يوجب جعل مكان السيئة حسنة، بل حسنات. ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدَّل»[١].

وقيل: إن معنى ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾: أن الله أبدلهم مكان عمل السيئات عمل الحسنات، فهو تبديل قدري.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم المؤمنون، كانوا قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم إلى الحسنات، وأبدلهم مكان السيئات حسنات»[٢].

ومن هذا: ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: أنه يقال للمؤمن في قبره: «انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا»[٣].

وفي حديث البراء رضي الله عنه: «فيفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك، لو عصيت الله أبدلك الله به هذا»[٣].

والسياق أدل على المعنى الأول، فهو الأظهر والأقرب، وهو الأبلغ في الدلالة على عظيم فضل الله وعفوه، وكرمه وواسع رحمته؛ لأنه يدل على أن الله أبدلهم بالسيئات بعد أن عملوها حسنات، بخلاف المعنى الثاني؛ فإنه يدل على أن الله صرفهم عن السيئات قبل أن يعملوها إلى عمل الحسنات.

والتأمل في هذا المعنى من أعظم ما يحمل على تعظيم الله ومحبته، وبذل الجهد والوسع في عبادته وطاعته، واللياذ به، والطمع فيما عنده، فالله أكبر، ما أعظم إفضاله وإنعامه! وما أبلغ جوده وكرمه! «يبدل سيئات التائب حسنات»!

على أنه لا منافاة بين القولين، ولا مانع من حمل الآية عليهما؛ فمن تاب صرفه الله في الدنيا عن عمل السيئات إلى عمل الحسنات، وجازاه في الآخرة بدلًا من السيئات حسنات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه من

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣١٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٥١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٧٣٣.

(٣) سبق تخريجه.

عباده؛ يتجاوز عن ذنوبهم ويسترها.

وذا رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالتائبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾، أي: يرجع إلى الله رجوعًا صحيحًا عن قصد ونية وعزم وجزم وإخلاص لله تعالى وحده قولًا وعملًا، توبة عظيمة كاملة تقع موقعها؛ كما قال ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ثناء الله عز وجل على عباد الرحمن وامتداحه لهم بذكر صفاتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة، وأخلاقهم النبيلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ الآيات.

٢- إثبات اسمه عز وجل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية؛ عامة وخاصة.

٣- إثبات عبودية المؤمنين له عز وجل عبودية خاصة، عبودية الألوهية.

٤- في إضافة عباده عز وجل إلى اسمه «الرحمن» تشريف وتكريم لهم، وأنهم إنما بلغوا هذه المنزلة بسبب رحمته، وترجية لهم برحمته، وأنها تسبق غضبه.

---

(١) سبق تخريجه.

٥- أن من صفات عباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض بسكينة ووقار، من غير مرح ولا تجبر ولا استكبار؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾.

٦- مسالمتهم الجاهلين، وعدم مقابلتهم بمثل جهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾.

٧- أن من صفاتهم المداومة على العبادة وقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾.

وهذا مخصوص بما دلت عليه السنة من أن أفضل القيام قيام داود عليه السلام: «**كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه**»، وهكذا كان قيام نبينا محمد ﷺ[1].

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾، ﴿رَبَّنَا﴾.

٩- أن السجود والقيام من أعظم أركان الصلاة، واشرف أعمالها؛ لهذا خصهما تعالى بالذكر؛ لقوله تعالى: ﴿سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾.

١٠- في تقديم السجود إظهار للاهتمام به؛ لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، مع ما في ذلك من مراعاة فواصل الآي.

١١- دعاؤهم ربهم، وسؤالهم إياه أن يصرف عنهم عذاب جهنم بحفظهم من موجباته، ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ الآيات، وهذا يدل على أنهم لا يُدِلُّون على الله بأعمالهم، فهم مع عبادتهم لله خائفون من النار.

١٢- شدة عذاب جهنم وملازمته لأهلها دائمًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

١٣- أن جهنم ساءت وقبحت مستقرًّا ومقامًا لأهلها وسكانها من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾.

١٤- أن من صفات عباد الرحمن اعتدالهم وتوسطهم في الإنفاق من غير إسراف

---

(١) سيأتي تخريجهما في تفسير سورة المزمل.

ولا تقتير، وبقدر الحاجة وما تقوم به الحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾.

١٥- أن من أعظم الصفات التي يجتنبونها ويبتعدون عنها: الشرك بالله، وقتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها، والزنا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾.

١٦- تحريم الشرك، وأنه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر؛ لهذا بدأ الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

١٧- تحريم قتل النفس المعصومة؛ وهي نفس المؤمن، ونفس الذمي، ونفس الكافر المعاهد والمستأمن، وأن ذلك أكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ لهذا قرنه الله تعالى بالشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

١٨- أن النفس المعصومة التي حرم الله قتلها، إذا ارتكبت ما يوجب قتلها، مِن قَتْل نفس عمدًا، أو الردة عن الإسلام، أو الزنا بعد الإحصان؛ فإنها تقتل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

١٩- شدة فحش الزنا، وأنه من أكبر الكبائر؛ لأن الله قرنه مع القتل العمد بالشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾.

٢٠- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن فعل الموبقات الثلاث: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله قتلها بغير حق، والزنا، بالعقاب والنكال ومضاعفة العذاب وتخليده فيه مهانًا ذليلًا حقيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾.

٢١- يستثني من قوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ ما عدا المشرك، كالقاتل عمدًا، والزاني المحصن وغيرهما من أهل الكبائر؛ لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

٢٢- إثبات يوم القيامة وما فيه من الحساب والعذاب.

٢٣- أنه يجمع للمعذبين في النار بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي بالإهانة والإذلال والتحقير.

٢٤- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها.

٢٥- أن من تاب من الشرك، والقتل العمد والزنا، ورجع وأناب إلى الله تعالى، وآمن وعمل عملًا صالحًا تاب الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾الآية.

٢٦- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله، تبعًا لشرعه.

٢٧- أن من فضل الله تعالى وجوده وكرمه وسعة رحمته؛ تبديله سيئات التائبين حسنات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾.

٢٨- رفعة منزلة التائبين بالإشارة إليهم بإشارة البعيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

٢٩- إثبات سعة مغفرته عز وجل ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٣٠- ينبغي لمن تاب أن يتوب متابًا صحيحًا عن قصد ونية وعزم وحزم وجزم، وإخلاص لله تعالى وحده، قولًا وعملًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

هذا استمرار لذكر صفات عباد الرحمن.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: لا يحضرون مجالس الزور، والزور هو: الميل عن الحق الثابت إلى الباطل الزائل، فكل ما مال عن الحق فهو زور، أي: كذب وباطل، فإن كان قولًا فهو كذب، وإن كان فعلًا فهو باطل، كالشرك بالله، والخوض في آياته، والجدل بالباطل، والغيبة والنميمة، والفسق واللغو، والغناء وشرب الخمور، وغير ذلك من المعاصي، ولا يشهدون شهادة الزور؛ وهي الشهادة بالكذب متعمدًا.

فهم لا يحضرون مجالس الزور، ولا يقولونه ولا يفعلونه؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[النساء:١٤٠].

ولا يشهدون شهادة الزور، التي هي من أكبر الكبائر؛ كما في حديث أبي بكرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثًا. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!**»(١).

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾، اللغو: كل ما يلغى ويطرح، وما لا خير فيه ولا فائدة منه.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾، «كرامًا» حال، أي: معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن سماعه، والخوض فيه، أو الرضا به والجلوس مع أهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وأيضًا ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ محاولين الإصلاح والإفادة من وجودهم، وذلك بنقل هذا اللغو إلى أمر مفيد؛ لأن الكريم يعطي غيره فينفع نفسه وغيره، فيفيدون ويستفيدون، ويكونون مباركين أينما كانوا، وهذا حال المؤمن الموفق؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم:٣١].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: إذا ذكرهم أيُّ مذكِّر، أي: وعظهم بآيات ربهم الشرعية والكونية الدالة على عظمته.

﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: لم يخروا عند سماعهم إياها صمًّا لا يسمعونها، عميانًا لا يبصرونها، بل يسمعونها ويبصرونها، ويخرون عليها سجدًا وبكيًّا؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

والحكمة- والله أعلم- في اختيار الصفة السلبية في قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، دون أن يقول: وخروا عليها سامعين مبصرين مطيعين- : هي التعريض بالكافرين، أي: بخلاف الكفار؛ فإنهم إذا ذكروا بالآيات خروا عليها صمًّا وعميًا؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]،،وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ

رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

لما ذكر صلاحهم في أنفسهم ذكر سعيهم لإصلاح غيرهم من أزواجهم وذرياتهم بدعائهم لهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾، ﴿مِنْ﴾ بيانية، أي: هب لنا وأعطنا من أزواجنا. و«أزواج» جمع «زوج»، وكل من الرجل وامرأته زوج للآخر، فكل منهما يدعو بهذا الدعاء للآخر.

وقد يشمل قوله: ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ الأزواج والقرناء والأصحاب.

﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير ويعقوب وابن عامر وحفص، بالألف على الجمع: ﴿ذُرِّيَاتِنَا﴾، وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد: «ذُرِّيَّتِنَا».

والذرية: الأولاد، ذكورهم وإناثهم، وأولاد البنين وإن نزلوا، دون أولاد البنات، وقد تطلق على ما يشمل أولاد البنات أيضًا وإن نزلوا.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ «قرة العين» مأخوذة من «القر»، وهو البرد؛ لأن العين القريرة باردة، بخلاف العين الحزينة، فهي حارة، ودمعها حار، أي: وهب لنا من تقر بصلاحهم أعيننا من أزواج وذريات، بحيث نراهم مخلصين لك العبادة وحدك لا شريك لك، مطيعين لك، متبعين لشرعك، ونفرح بذلك ونأنس به ونسر ونتلذذ؛ فإنه لا شيء أقر لعين المسلم الموفق من أن يرى أولاده وأحفاده وأهل بيته مستقيمين على طاعة الله تعالى مطيعين لوالديهم.

ولك أن تتصور ما مدى شعور الوالد الصالح إذا دخل في الصلاة وبعض أولاده عن يمينه، وبعضهم عن يساره، وماذا يخالجه من الغبطة والفرح والأنس وقرة العين، مما لا يكاد يوصف، بل ولا يحيط به الوصف، حتى إنه لو كان يعاني من مرض السكري وضغط الدم، وأخذتَ قياسهما في هذه الحال لوجدتهما في أعدل الأحوال؛ لما هو فيه من الفرح والنشوة، وهذا التصور وهذا المعنى لا يدركه إلا من وفقه الله، وذاق حلاوة الإيمان.

بل إن من العجيب والغريب أن المسلم إذا رأى أزواجه وذريته مطيعين لله تعالى،

تقر عينه وإن كان هو نفسه فاسقًا، ولا يحب أن يكونوا مثله؛ لأن المسلم مفطور على محبة طاعة الله تعالى.

﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾، أي: نحن وأزواجنا وذرياتنا ﴿لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، «إمامًا» يصلح للواحد والجمع، كالأمة والأسوة، أي: قدوة يقتدى ويهتدى بنا في الدين والتقوى والعلم والخير والصلاح.

والمعنى: واجعلنا للمتقين أئمة، وهذا من أعلى المطالب، والتوفيق له من أعظم المناقب، وكما قال المتنبي(١):

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسام

وقال أيضًا(٢):

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

فسألوا الله لأنفسهم الإمامة في الدين؛ ليحصل لهم أجرهم وأجر من اهتدى بهم، وأجر من اهتدى على يد من اهتدى بهم، وهكذا.

وسألوا ذلك لأزواجهم وذرياتهم؛ ليحصل لهم أجرهم وأجر من اهتدى على أيديهم إلى آخر ذلك.

وقد قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية**»(٣).

ومن لوازم هذا وذاك اجتهادهم في تحصيل هذا المطلب لأنفسهم بالصبر واليقين والمجاهدة، واجتهادهم أيضًا في تحصيل ذلك لأزواجهم وذرياتهم بتربيتهم على المجاهدة والصبر واليقين؛ لأن الإمامة في الدين لا تنال إلا بذلك؛ كما قال تعالى:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٦١.

(٢) انظر: «ديوانه» ٣٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في الوصية، ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾:

لما ذكر صفات عباد الرحمن وأعمالهم الفاضلة الجليلة، وأخلاقهم العالية الرفيعة، ومطالبهم السامية النبيلة؛ أتبع ذلك بذكر ما أعد لهم من الجزاء العظيم في غرفات الجنات.

قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، الإشارة لعباد الرحمن الموصوفين بالصفات المذكورة العظيمة.

﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾، وهي أعلى منازل الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، الباء: للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب صبرهم على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء، وإسكان اللام، وتخفيف القاف: «وَيَلْقَوْنَ».

وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح اللام، وتشديد القاف: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾. أي: ويلقون في الجنة وغرفها، أو في غرف الجنات.

﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾، من الله عز وجل ؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨].

ومن الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

وسلام من بعضهم على بعض؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦].

فيلقون التحية والسلام قولًا؛ من الله عز وجل، ومن الملائكة، ومن بعضهم لبعض، ويلقون الحياة التامة والسلامة الدائمة من الله تعالى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا أهلها؛ كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

﴿حَسُنَتْ﴾، أي: طابت الجنة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، منصوبان على التمييز، أي: مكان استقرار وإقامة لهم على الدوام، وهذا في مقابل قوله عن النار: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾:

لما أثنى على المؤمنين بذكر صفاتهم العظيمة، وهممهم الرفيعة، ومطالبهم العالية، ونعمه وفضله عليهم وعظيم جزائه لهم، أخبر أنه لا يعبأ بغيرهم.

قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾، أي: قل يا محمد للمكذبين المشركين: ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾، أي: ما يكترث بكم ولا يبالي بإهلاككم والقضاء عليكم، ولا يعجزه ذلك.

﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾، «لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود.

﴿دُعَاؤُكُمْ﴾، «دعاء» مصدر مضاف إلى فاعله، أي: لولا دعاؤكم إياه وعبادتكم له، أي: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: فالذي يمنعه من إهلاككم هو دعاؤكم إياه.

ويحتمل: أن يكون المصدر مضافًا إلى مفعوله، أي: لولا دعاؤه إياكم إلى عبادته.

قال ابن القيم: «والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أيُّ شيء يعبؤه بكم لولا عبادتكم إياه، فيكون المصدر مضافًا إلى الفاعل».

وقال أيضًا: «وأصح الأقوال في الآية أن معناها: ما يصنع بكم ربي لولا عبادتكم

إياه؟»[١].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، الفاء: تعليلية، و«قد» حرف تحقيق، أي: لأنكم قد كذبتم ما دعاكم إليه من الحق ولم تدعوه ولم تعبدوه.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«سوف»: حرف استقبال، أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، أي: مقتضيًا لهلاككم وعذابكم، أو فسوف يكون العذاب لزامًا لكم في الدنيا والآخرة، في الدنيا كما حصل لهم يوم بدر، وفي الآخرة في النار وبئس القرار.

الفوائد والأحكام:

١- أن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون مجالس الزور والباطل، ولا يقولونه ولا يفعلونه، ولا يشهدون شهادة الزور بالكذب المتعمد على غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.

٢- أن من صفاتهم إكرام أنفسهم إذا مروا باللغو بالإعراض عن سماعه، وعدم الخوض فيه، أو الرضا به، أو الجلوس مع أهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

٣- أن المرء حيث يضع نفسه ويختار لها، فمن أكرم نفسه بطاعة الله تعالى والبعد عن اللغو ومجالس الردى؛ أكرمه الله تعالى وامتدحه وأثابه.

٤- أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم يستمعون إليها ويبصرونها، ويتأملون فيها، وينقادون لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

٥- إثبات ربوبية الله الخاصة بالمؤمنين وبه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿رَبِّي﴾.

٦- أن من صفاتهم دعاءهم بصلاح أزواجهم وذرياتهم؛ لتقر بهم أعينهم في الدنيا والآخرة، ويستمر لهم نفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٢٠- ٣٢١.

أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

٧- أنه لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى أزواجه وأولاده صالحين مطيعين لله تعالى، بل لا تقر عينه إلا بذلك، يدرك هذا من وفقه الله، ويعمى عنه الكثيرون.

٨- دعاؤهم لأنفسهم وأزواجهم وذرياتهم بالإمامة في الدين، التي هي من أعلى المطالب، مع بذلهم الأسباب لذلك؛ ليحصل لهم مثل أجر من اهتدى بهم؛ لقولهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

٩- فضيلة الإمامة في الدين بكون الإنسان قدوة في الخير والهدى والتقى والصلاح، والدعوة إلى الله عز وجل، وأنها من أجلِّ المناقب وأحسن الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]، ومن أفضل ذلك وأجله الإمامة في الصلاة في المساجد، لمن قدر لذلك قدره.

١٠- وعد الله تعالى لعباد الرحمن الموصوفين بهذه الصفات العظيمة بالجزاء العظيم في غرفات الجنة بسبب صبرهم، وابتدارهم بالتحية والسلام من ربهم ومن الملائكة، وفيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾.

١١- فضيلة الصبر بأنواعه الثلاثة، وأنه من أعظم أسباب دخول الجنة وتوفية الأجر بغير حساب.

١٢- أنه يجمع لأهل الجنة بين النعيم الحسي وبين النعيم المعنوي للقلوب بالتحية والسلام ونحو ذلك.

١٣- خلودهم فيها خلودًا أبديًّا بلا انقطاع، في أحسن مستقر وأطيب مقام؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

١٤- شتان بين الجنة أحسن مستقر وأحسن مقام، وبين النار أسوأ مستقر وأسوأ مقام.

١٥- أنه عز وجل لا يعبأ بالمكذبين، ولا يكترث بهم، لولا دعاؤهم إياه وعبادتهم له؛ لأنه لم يخلقهم وسائر الخلق إلا لعبادته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾.

١٦- أن الدعاء مانع من العقوبة وجالب للرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾.

١٧- تكذيب المشركين له ﷺ، وتهديدهم بلزوم العذاب لهم في الدنيا والآخرة، هم وأمثالهم من المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة النور ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- فضلها: ٧
د- موضوعاتها: ٨
تفسير قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا...﴾ الآيات [١-٣] ١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ الآيتان [٤، ٥] ٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ...﴾ الآيات [٦-١٠] ٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ الآيات [١١-٢٠] ٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ الآيتان [٢١، ٢٢]
..... ١٠٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ...﴾ الآيات [٢٣-٢٥] ١٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ الآية [٢٦] ١٣٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ الآيات [٢٧-٢٩] ١٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ الآيات [٣٠-٣١] ١٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ...﴾ الآيات [٣٢-٣٤] ١٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [٣٥] ٢١١
تفسير قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...﴾ الآيات [٣٦-٣٨]
..... ٢٢٦

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ...﴾ الآيتان [٣٩، ٤٠] ٢٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴾ الآيتان [٤١، ٤٢]
..... ٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ...﴾ الآيتان [٣٤، ٤٤] ٢٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ ...﴾ الآية [٤٥] ٢٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ....﴾ الآية [٤٦] ٢٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ ...﴾ الآيات [٤٧-٥٠] ٢٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ ...﴾ الآيتان [٥١، ٥٢] ٢٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ ...﴾ الآيتان [٥٣، ٥٤]
..... ٢٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ الآية [٥٥] ٣٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ الآية [٥٦] ٣١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ الآية [٥٧] ٣١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ ...﴾ الآيات [٥٨-٦٠] ٣٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ ...﴾ الآية [٦١] ٣٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ الآية [٦٢] ٣٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ...﴾ الآية [٦٣]
..... ٣٥٦

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّكَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية [٦٤] ٣٦١
تفسير سورة الفرقان ٣٦٥
المقدمة ٣٦٧
أ- اسم السورة: ٣٦٧
ب- مكان نزولها: ٣٦٧
جـ- موضوعاتها: ٣٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا...﴾ الآيات [١-٦] ٣٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ...﴾ الآيات [٧-١٦] ٣٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات [١٧-٢٤] ٣٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا...﴾ الآيات [٢٥-٣٤] ٤٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا...﴾ الآيات [٣٥-٤٤] ٤١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا...﴾ الآيات [٤٥-٥٤] ٤٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ...﴾ الآيات [٥٥-٦٢] ٤٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ الآيات [٦٣-٧١] ٤٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ...﴾ الآيات [٧٢-٧٧] ٤٥٩
فهرس الموضوعات ٤٦٩

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد السادس عشر

تفسير سورة الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

(١٦)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٤٩٣ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلشُّعَرَاءِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الشعراء»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الآية:٢٢٤]، ولم يرد ذكر كلمة «الشعراء» في غيرها من السور.

وتسمى: «سورة طسم»، كأنها سميت بهذا؛ لأنها الأولى في ترتيب المصحف، قبل سورة القصص التي افتتحت أيضًا: بـ «طسم».

وتسمى أيضًا: «الجامعة»[1]، وكأنها سميت بهذا؛ لأنها جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن وبيان إعجازه: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

٢- تسلية الرسول ﷺ، وتأييده وتقويته أمام موقف المشركين المكذبين المعرضين المستهزئين، وتهديدهم ووعيدهم، وتوبيخهم؛ لعدم تأملهم في الأرض كم أنبت الله فيها من كل زوج بهيج، ونعمة الله على العباد بذلك وغيره.

٣- ذكر نداء الله تعالى موسى عليه السلام، وإرساله وهارون إلى فرعون وقومه، وتأييده عز وجل لهما، ومجيئهما إلى فرعون وقولهما له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾، وتذكير فرعون لموسى بتربيته وليداً، وبقتله القبطي؛ وإعلان موسى له ربوبية الله العامة لجميع الخلق. ورمي فرعون له بالجنون، وتهديده له إن اتخذ إلها غيره بالسجن. وإتيان موسى عليه السلام بالآيات: العصا واليد. واتهام فرعون له بالسحر، وجمعه السحرة؛ ليكيد لموسى وما جاء به من الحق، وغلبة موسى عليه السلام لهم بما معه من الحق، وإيمان السحرة، وتهديد فرعون لهم: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير»» ٦/ ١٤٤.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ الآيات.

٤- وحيه عز وجل إلى موسى بالإسراء ببني إسرائيل، وخروج فرعون وقومه على أثرهم، ووحيه عز وجل إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجر، فانفلق فأزلف موسى وقومه، ثم أغرق الله فرعون وقومه، وفي ذلك آية من آيات الله، ودلائل على تمام قدرته وعزته ورحمته.

٥- ثم ذكر الله نبأ إبراهيم عليه السلام، ودعوته لأبيه وقومه إلى عبادة الله تعالى وحده، وبيان استحقاقه وحده للعبادة، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وإعلانه عليه السلام عداوته لها؛ إلا رب العالمين الذي بيده الخلق والهداية والأمر كله، والتجاؤه عليه السلام إليه وضراعته له: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾.

٦- الوعد بتقريب الجنة للمتقين، والوعيد بإبراز الجحيم للغاوين، وما لهم فيها من التقريع والعذاب المعنوي والحسي، والندم والحسرة والتلاوم، وفي ذلك آية من آيات الله الدالة على تمام قدرته وعزته ورحمته.

٧- ثم ذكر الله تعالى تكذيب قوم نوح عليه السلام له حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما كان بينه وبينهم، وتكذيبهم له، وتهديدهم إياه بالرجم، وسؤاله ربه الفتح بينه وبينهم، وإنجائه ومن معه من المؤمنين وإغراقهم: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾.

ثم ذكر تكذيب عاد لنبيهم هود عليه السلام، حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما جرى بينه وبينهم، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم وتخويفهم عذاب يوم القيامة وعتوهم وتكذيبهم له، وإهلاكهم.

ثم ذكر تكذيب ثمود لنبيهم صالح عليه السلام، حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما كان بينه وبينهم، وتذكيره إياهم ما هم فيه من الأمن ورغد العيش،

وإتيانه بالناقة آية لهم، وتكذيبهم له وعقرهم الناقة، وأخذ العذاب لهم.

ثم ذكر تكذيب قوم لوط عليه السلام له حين أمرهم بتقوى الله، وأنكر عليهم إتيان الذكران من العالمين، وتهديدهم له بإخراجه. وإنجائه وأهله إلا عجوزاً في الغابرين، وتدمير الآخرين بمطر الحجارة فساء مطر المنذرين.

ثم ذكر تكذيب أصحاب الأيكة نبيهم شعيب عليه السلام حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته والوفاء بالكيل والوزن بالقسط، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم والإفساد في الأرض. ورميهم له بالسحر، وتكذيبهم إياه، وطلبهم أن يسقط عليهم كسفًا من السماء؛ تكذيبًا له، وأخذهم بالعذاب وفي كل ما ذكر آيات من آيات الله ودلائل على تمام قدرته وعزته ورحمته.

ثم ختم الله الكلام عن الأنبياء ورسالاتهم بالثناء على أفضل كتبه عز وجل، وآخرها نزولاً: القرآن الكريم وأنه نزل من عند الله عز وجل، من أصح طريق، على قلب سيد الخلق، وبأفصح لسان ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

٨- شهادة الكتب السابقة بصحة القرآن الكريم، وعلم علماء بني إسرائيل بذلك وشهادتهم به، وبيان قيام الحجة على العرب بكونه بلسانهم، إذ لو كان أعجميا ما آمنوا به بحجة أنه أعجمي، وبيان عتو المشركين وإجرامهم، وأنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم، الذي يستعجلونه، فيأتيهم بغتة، فلا يمكن إنظارهم، ولا أغنى عنهم ما كانوا يمتعون. وبيان أنه عز وجل ما أهلك من قرية إلا ولها منذرون؛ ذكرى وما كان عز وجل ظالمًا لهم.

٩- حفظ القرآن الكريم من الشياطين: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

١٠- نهيه ﷺ أن يدعو مع الله إلهًا آخر- وحاشاه عن ذلك-وهو نهي له ولأمته وأمره بإنذار عشيرته الأقربين، وخفض جناحه للمؤمنين، والبراءة من عمل من عصاه، والتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراه حين يقوم وتقلبه في الساجدين.

١١- بيان أن الشياطين إنما تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون

وأن الشعراء يتبعهم الغاوون، لكونهم في كل واد يهمون ويقولون ما لا يفعلون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

١٢- التهديد والوعيد للظالمين ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾، سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في مطلع سورة البقرة، وبيان أنها حروف من حروف الهجاء لا معنى لها في حد ذاتها، لكن لها مغزى وحكمة، وهي التحدي وبيان إعجاز القرآن الكريم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾، أي: هذه آيات القرآن البين الواضح في نفسه، المبين صدق الرسول ﷺ والمرسلين قبله عليهم السلام، والمبين للهدى من الضلال، والحق من الباطل، والحلال من الحرام، ولأهل السعادة من أهل الشقاء، وغير ذلك.

وأشار إلى آيات الكتاب بإشارة البعيد ﴿تِلْكَ﴾، تعظيمًا لها. والخطاب: لكل من يصلح له.

و«ال» في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم، أفضل كتب الله تعالى وأعظمها، وأعظم الكتب على الإطلاق.

وسمي القرآن بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: ١٣- ١٦]؛ كما أنه مكتوب في المصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿لَعَلَّكَ﴾، «لعل» هنا للإشفاق، أي: لعلك يا محمد.

﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، أي: قاتلها ومهلكها غمًّا، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنًا وأسفًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من عدم إيمانهم، أو لعدم إيمانهم، واستمرارهم على الكفر.

وفي هذا تسلية له ﷺ، أي: أشفق على نفسك فلا تهلكها، لعدم إيمان هؤلاء الكفار، ولا تحزن عليهم، فالهداية بيد الله تعالى، وما عليك إلا البلاغ، وقد بلغت.

قال ذو الرمة(١):

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه ... لشيء نحته عن يديه المقادر

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتسكين النون الثانية، وتخفيف الزاي: «نُنْزِلْ»، وقرأ الباقون بفتح النون الثانية، وتشديد الزاي: ﴿نُنَزِّلْ﴾.

أي: إن نشأ ننزل على هؤلاء الكفار ﴿مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾، أي: علامة فيها تهديدهم بالعذاب عاجلًا، تهديدًا محسوسًا؛ ولهذا قال:

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾، أي: فتظل أعناقهم، أي: رقابهم ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾، أي: ذليلين منقادين إلى الإيمان اضطرارًا وقهرًا، لا اختيارًا.

أي: لو شئنا لأنزلنا عليهم من السماء آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنا لا نشاء ذلك؛ ليكون الإيمان اختياريًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

ولأن الإيمان عند رؤية العذاب لا ينفع؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾، أي: وما يأتي الكفار المكذبين ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما يأتيهم من أيِّ ذكر.

و«الذكر»: القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٤٩)، «أساس البلاغة» للزمخشري (ص٣١).

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٦].

لأنه تذكير للخلق بربهم وأسمائه وصفاته ووحدانيته وعظمته وما يجب له، وتذكير بالأحكام والأدلة والمواعظ والعبر، وغير ذلك، وذكر وشرف له ﷺ ولقومه؛ كما قال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، «من»: لابتداء الغاية، أو بيانية، أي: منزل من عند الرحمن، ومن كلامه عز وجل، وفيه إشارة إلى أن إنزال هذا الذكر رحمة منه عز وجل بعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿مُحْدَثٍ﴾ صفة لـ ﴿ذِكْرٍ﴾، أي: ذكر حديث النزول من عنده عز وجل.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كانوا باستمرار عن هذا الذكر معرضين بقلوبهم وأبدانهم؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾، الفاء: تعليلية، و«قد» حرف تحقيق، أي: كذبوا بما جاءهم من الذكر والحق.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والسين: حرف استقبال، و«ما»: موصولة، أي: فسوف يأتيهم ويظهر لهم صدق أخبار الذي كانوا به يستهزئون، أي: يسخرون ويكذبون، من الوعيد في القرآن الكريم، وعلى لسان الرسول ﷺ، ويحق عليهم، ويقع بهم، ومن الوعد بنصرة الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

وهذا دأب أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام: التكذيب والاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا۟ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾، الهمزة: للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة، وقدمت الهمزة على الواو؛ لأن الاستفهام له الصدارة، أي: أو لم ينظروا إلى الأرض، ويتأملوا ويتفكروا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾، «كم» خبرية دالة على الكثرة، أي: أنبتنا كثيرًا فيها، ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: من كل صنف ونوع من أصناف وأنواع النباتات والثمار.

﴿كَرِيمٍ﴾، نفيس حسن نافع؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إخراج النباتات الكثيرة من الأرض بأصنافها المتعددة وأنواعها المختلفة، وحسنها ومنافعها، ﴿لَآيَةً﴾، اللام: للتوكيد، وأفرد «آية» لإرادة الجنس، أي: لدلالة عظيمة على كمال قدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته، وقدرته التامة على إحياء الموتى بعد موتهم؛ كما أحيا الأرض بعد موتها.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر الكفار وأكثر الخلق مؤمنين، بل هم مصرون على الكفر مع بيان الآيات، وقيام الحجة عليهم بالأدلة والبراهين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أو: لكل من يصلح له.

﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، اللام: للتوكيد، و«العزيز» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

ومن عزته عز وجل أنه ينصر رسله وأتباعهم المؤمنين وينجيهم، وينتقم من

أعدائه المكذبين والكافرين ويهلكهم.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، اسم من أسمائه عز وجل، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يرحم بها عباده؛ رحمة خاصة، ورحمة عامة؛ فهو ذو الرحمة التي وسعت كل شيء، يتوب على من تاب وأناب إليه، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾.

٢- تعظيم آيات القرآن الكريم، والتنويه به وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أن «الكتاب» إذا أطلق، فالمراد به: القرآن الكريم، أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله عز وجل.

٤- امتداح الله عز وجل لكتابه العزيز بوصفه بالبيان والوضوح في نفسه، وتبيينه الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، وتبيين صدق من جاء به، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٥- عناية الله تعالى بالنبي ﷺ، ودفاعه عنه، وحفظه له، وتسليته له فلا تذهب نفسه حسرات وحزنًا على عدم إيمان كفار قومه؛ فليس عليه إلا البلاغ، وقد بلغ البلاغ المبين، وهداية القلوب بيد رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

٦- حرصه ﷺ على هداية قومه، وشدة ما يعانيه من المشقة والحزن وضيق الصدر بسبب عدم إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر:٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [النمل:٧٠].

٧- ينبغي للدعاة إلى الله والمربين والموجهين- بعد بذل جهدهم- ألا تذهب أنفسهم حسراتٍ وغمًّا وحزنًا، على عدم قبول الناس للحق؛ لأن من اغتم لأجل ذلك انشغل بغيره عن نفسه، وربما صار همه ولاء الناس، فأفسد عليه هذا عبادته ونيته.

٨- قدرة الله تعالى التامة على إنزال آية من السماء تلجئ هؤلاء الكفار للإيمان، وتخضعهم، لو شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝٤﴾.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأن ماشاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

١٠- إثبات العلو لله تعالى، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات على جميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١١- تهديد هؤلاء المكذبين بإنزال آية تخضعهم وتضطرهم إلى الإيمان.

١٢- أن الله عز وجل شاء وأراد بحكمته أن يكون الإيمان اختيارًا لا اضطرارًا؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾.

١٣- إعراض الكفار عن كل ما يأتيهم من ذكر من الرحمن حديث النزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾.

١٤- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية، ومن رحمته عز وجل بعباده إنزال الكتاب عليهم، وإرسال الذكر إليهم.

١٥- تكذيب الكفار بما جاءهم من الحق، والوعيد والتهديد لهم؛ بأنه سوف يأتيهم ويظهر لهم صدق الذي كانوا به يستهزئون من القرآن وكلام الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

١٦- الإنكار على هؤلاء الكفار عدم النظر والتأمل في إحياء الأرض بعد موتها بالنباتات الكثيرة ذات الأصناف والأنواع المختلفة؛ وذات الحسن والبهجة والمنافع العظيمة؛ ليستدلوا بذلك على وحدانية الله عز وجل وقدرته التامة على بعث الناس بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾.

١٧- أن في إحياء الأرض بعد موتها بالنباتات الكثيرة المختلفة الأصناف والحسن والمنافع ونحو ذلك؛ دلالة عظيمة على وحدانية الله عز وجل، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

١٨- عدم إيمان كثير من الناس، مع قيام الحجة عليهم بالأدلة والحجج والبراهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٩- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم غير مؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وما يدل عليه من صفة العزة التامة له عز وجل، ونصرته عز وجل لرسله وأوليائه، وإنجائهم، وانتقامه من أعدائه المكذبين الكافرين وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى: «الرحيم»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية، ومن رحمته سبحانه توبته على من تاب وأناب إليه، وعدم معاجلته من عصاه بالعقوبة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٣- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة في حقه زيادة كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾.

حذر عز وجل نبيه ﷺ من إهلاك نفسه، لعدم إيمان كثير من المشركين من قومه، وإعراضهم عن الذكر وتكذيبهم، وأنكر عز وجل عليهم، ووبخهم على عدم نظرهم في الآيات الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، وقدرته التامة على بعث الناس بعد موتهم، وتوعدهم وهددهم، ثم أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء وما لقوا من أممهم من التكذيب والأذى؛ ومن ثم إنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، تهديدًا للمشركين، وتسلية له ﷺ.

وقد ذكر الله عز وجل هذه القصص مبسوطة في سورة الأعراف وسورة هود؛ كما ذكرها في عدد من السور.

وبدأ هنا بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقد بسطها في سورة طه وسورة القصص؛ كما أعادها وثناها في القرآن أكثر من غيرها؛ لما فيها من الحكم والمواعظ والعبر العظيمة، ولا غرو في هذا، فكتاب موسى «التوراة» أفضل الكتب بعد القرآن الكريم، وشريعته أعظم الشرائع بعد شريعة الإسلام، وهو عليه السلام أفضل الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾، أي: واذكر يا محمد حين نادى ربك موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن، ودعاه وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم:٥٢].

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿وَإِذْ

نَادَىٰ﴾، أي: اذهب إلى القوم الظالمين، الذين تجاوزوا الحد في الظلم بالشرك والكفر والمعاصي، والاعتداء على عباد الله وظلمهم، وظلم أنفسهم، حتى صار الظلم سجية وصفة ثابتة لهم، وفي وصفهم بالظالمين تهيئة لموسى عليه السلام للاستعداد لهم ولمجادلتهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، بدل من قوله: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: قوم فرعون ملك مصر في عهد موسى عليه السلام، الذي ادعى الربوبية والإلهية، وعبّد قومه لغير الله، فاستخف بهم فأطاعوه.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، «ألا» أداة عرض وتحضيض، وفيها معنى التعجب، أي: قائلًا لهم: ألا يتقون؟ أي: ألا يتقون الله، ويخشون عذابه، فيتركوا ما هم عليه من الظلم؟ وقيل: الهمزة للاستفهام، و«لا» نافية.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: أخاف تكذيبهم لي، فلا يصدقوا أني رسول من عندك إليهم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، قرأ يعقوب بنصب القاف: «وَيَضِيقَ»، «وَلَا يَنْطَلِقَ»، وقرأ الباقون برفعهما: ﴿وَيَضِيقُ﴾، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾.

أي: ويضيق صدري بسبب تكذيبهم لي، وكوني وحدي، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾؛ لأنه كان في لسانه عليه السلام لثغة وعقدة؛ ولهذا قال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥- ٢٨].

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾، أي: فابعث إلى هارون أخي معي بالرسالة، أي: أرسله معي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٤]، ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٢٨- ٣٤].

وقد أجاب الله دعوته، وأعطاه سؤله، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ

يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦]، إلى قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٢- ٤٣].

ولهذا قالوا: إن أعظم الناس نفعًا لأخيه وشفاعة له موسى مع أخيه هارون عليهما السلام؛ حيث سأل الله أن يجعل أخاه هارون نبيًّا ورسولًا معه، ووزيرًا ومعينًا له، فأجاب الله دعوته، وآتاه ما سأل.

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾، أي: ولهم علي ذنب في قتلي الرجل القبطي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

فعد قتله لهذا القبطي ذنبًا؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٥- ١٦].

﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، الفاء عاطفة، أو رابطة لجواب شرط مقدر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: فأخاف قتلهم إياي قبل تبليغ الرسالة إليهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل له: ﴿كَلَّا﴾، كلمة إبطال ونفي، أي: لا يقتلونك، أو لا تخف أن يقتلوك؛ فإنهم لا يتمكنون من ذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى عليه السلام مع منابذته لفرعون غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه.

﴿فَٱذْهَبَا﴾، الخطاب لموسى وهارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، الباء: للمصاحبة، أي: مصاحبين لآياتنا ودلائلنا وحججنا الشرعية بالوحي، والكونية كالعصا واليد؛ الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدقكما وصحة ما أرسلتما به.

﴿إِنَّا مَعَكُم﴾، أي: إنا معكم معية خاصة بالكلاءة والحفظ والنصر والتأييد والتوفيق، ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾، أي: مستمعون لقولكما، وقول فرعون وقومه لكما، و﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أبلغ من «سامعون»؛ لما فيه من الدلالة على العناية بهما؛ ولهذا قالا؛ كما في الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ قال عز وجل: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، أي: أنا وأخي رسولا رب العالمين، أي: كل منا رسول إليك من رب العالمين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٢-٤٤].

وقوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لإشعار فرعون من أول وهلة أن الربوبية ليست له، بل هي لله تعالى وحده.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾، «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: أُرسلنا إليك: أن ترسل معنا بني إسرائيل.

ويجوز أن تكون «أن» مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر محذوف، والتقدير: بأن أرسل معنا بني إسرائيل، أي: أطلقهم من أسرك وقبضتك وقهرك وتعذيبك؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون معرضًا عن دعوة موسى وهارون له وطلبهما منه إرسال بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾، الاستفهام: للتقرير أو للتقريع، أي: ألم ننعم عليك بتربيتك في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾؟ أي: حين كنت وليدًا في مهدك.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أي: أقمت ومكثت فينا وعلى فراشنا من عمرك مدة من السنين أنعمنا عليك فيها.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾، الفعلة: المرة الواحدة من الفعل، وأبهم هذه الفعلة؛ للتعظيم، وأضافها إليه للتقرير، أي: قابلت إحساننا إليك، وإنعامنا عليك،

بفعلتك العظيمة التي لم يفعلها سواك؛ بأن قتلت منا رجلًا ظلمًا.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنك من الكافرين بنا، الجاحدين المنكرين لنعمتنا عليك.

والمعنى: أفبعد هذه النعمة عليك؛ بتربيتك فينا وليدًا، ولبثك فينا من عمرك سنينن، وبعد قتلك رجلًا منا- تأتي وتدعي أنك رسول رب العالمين، وتنكر ربوبيتي؟! وكان الأليق بك أن تأتي خاضعًا لنا، معترفًا بإفضالنا عليك، معتذرًا عن خطئك علينا.

﴿قَالَ﴾، موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾، «إذنْ» حرف جواب لا عمل له.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أني من الضالين، أي: من الجاهلين، أي: قبل أن ينعم الله علي بالرسالة والنبوة والوحي، وأعرف طريق الحق والهدى والرشاد؛ كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، أي: لم تهتد إلى هذا الشرع القويم.

وهذا اعتراف من موسى عليه السلام بأن ذلك حصل منه على وجه الضلال والجهل والخطأ، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦﴾ [القصص: ١٦].

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾، الفاء: عاطفة في الموضعين، أي: فهربت منكم، وخرجت من مصر إلى مدين، ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، «لما» ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط.

أي: حين خفتكم، أي: حين خفت منكم أن تقتلوني، والخطاب لفرعون وملئه الذين ائتمروا على قتل موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القصص: ٢٠- ٢٢].

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾، أي: فأعطاني ربي الحكم والعلم والنبوة.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: وجعلني قدرًا وشرعًا من المرسلين، الذين يبلغون رسالاته إلى الناس، وأرسلني إليك، أي: وليس لك أن تعترض وترد رسالتي إليك

بمجرد أنه وقع القتل مني ضلالًا وجهلًا قبل أن يرزقني ربي الحكم والرسالة.

ولم يقل: وجعلني رسولًا؛ لبيان أنه ليس بدعًا من الرسل.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾، الواو عاطفة، و«تلك» إشارة إلى مقالة فرعون مانًّا على موسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

وأشار إليها بإشارة البعيد تحقيرًا لها في مقابل ما لحق ببني إسرائيل منه من الأذى؛ ولهذا قال: ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾، أي: تُدِلّ بها علي، وتذكرني بها:

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «أن» والفعل «عبدت» في تأويل مصدر في محل رفع عطف بيان للمبتدأ «تلك»، أي: تعبيدك بني إسرائيل، أو هو بدل من الهاء في «تمنها»، أو في محل جر بباء أو لام محذوفة، أي: بأن عبدت بني إسرائيل.

أي: جعلتهم عبيدًا لك بإذلالهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو سبب إلقاء أمي إياي في البحر؛ للسلامة من شَرِّك حتى قدر الله وصولي إلى بيتك، فكيف تعتبر تربيتك لي والحال هذه نعمة تُدِلّ بها عليَّ؟! وقدَّر بعضهم همزة استفهام تفيد التوبيخ، أي: أتلك نعمة... أي: ليست بنعمة.

قال ابن كثير[1]: «أي: وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا تصرفهم في أعمالك، ومشاق رعيتك، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئًا بالنسبة إلى ما فعلته بهم».

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بقصة موسى عليه السلام، وما جرى له مع فرعون وقومه، وما لقي منهم من التكذيب والأذى، وإنجاء الله تعالى لموسى وقومه، وإهلاك فرعون وقومه، وفي ذلك تسلية له ﷺ تجاه من كذبه وكفر به من قومه، ووعيد وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ الآيات.

٢- إثبات نداء الله عز وجل، وتكليمه موسى عليه السلام؛ وإثبات نبوته

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٤٧.

ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٤- أن الله عز وجل أرسل موسى إلى فرعون وقومه؛ كما أرسله إلى بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾.

٥- بلوغ فرعون وقومه الغاية في الظلم؛ لوصف الله عز وجل لهم بـ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا أشد ظلمًا من دعوى الربوبية والألوهية، والكفر والشرك بالله، وعدم تقواه.

٦- أمره عز وجل موسى عليه السلام بالعرض على فرعون وقومه، وحضهما على التقوى، واستمالتهما إلى ذلك بالقول اللين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤].

٧- تخوف موسى عليه السلام أن يكذبه فرعون وقومه؛ لما عرف عنهم من التمرد والعتو والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى﴾.

٩- شكواه عليه السلام إلى ربه؛ خشية أن يضيق صدره بسبب تكذيبهم له وكونه وحده؛ لقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾.

١٠- شكواه عليه السلام إلى ربه عدم انطلاق لسانه؛ لما فيه من لثغة أو عقدة؛ لقوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾.

١١- أن شكوى الحال إنما تكون إلى الله تعالى، فهو الذي إليه المشتكى ويرفع البلوى.

١٢- سؤاله عليه السلام ربه أن يرسل إلى هارون أخيه؛ ليكون معه وزيرًا ومعينًا؛ لقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

١٣- اعترافه عليه السلام بما حصل منه من ذنب في قتل القبطي، وخوفه من قوم

فرعون أن يقتلوه بذلك القتيل؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

١٤- جواز الخوف الطبيعي؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

١٥- تكفله عز وجل لموسى عليه السلام بحفظه، وطمأنته إياه بعدم تمكنهم من قتله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا﴾.

١٦- استجابة الله تعالى لموسى، وإرساله إلى هارون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]، وإثبات نبوة هارون عليه السلام ورسالته؛ لأمر الله عز وجل له ولموسى بالذهاب بآياته إلى فرعون وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾.

١٧- إثبات معيته عز وجل الخاصة لموسى وهارون؛ معية الحفظ والعناية والنصر والتأييد والتوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

١٨- إثبات صفة السمع والاستماع لله عز وجل، واستماعه عز وجل لما يقوله موسى وهارون لفرعون وقومه، وما يقال لهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

١٩- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾ بضمير الجمع؛ لأنه سبحانه هو العظيم، ذو العظمة التامة.

٢٠- أمره عز وجل بإتيان فرعون، وإبلاغه أنهما رسولا رب العالمين، أرسلهما إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٢٢- أن مما أرسل به موسى وهارون إلى فرعون مع دعوته وتذكيره؛ مطالبته بإرسال بني إسرائيل، وإطلاقهم من أسره وقبضته وقهره وتعذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

٢٣- عناية الله تعالى ببني إسرائيل، وتخليصهم من إذلال فرعون وتعبيده إياهم.

٢٤- إعراض فرعون عن دعوة موسى وهارون، وسؤالهما إياه بني إسرائيل، إلى تقرير موسى للإدلال عليه بتربيته له وليدًا، وإقامته فيهم سنين من عمره، وقتله القبطي، وكفره نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

٢٥- أن موسى عليه السلام تربى في بيت فرعون حين كان وليدًا، ولبث فيهم من عمره سنين؛ لهذا لم ينكر موسى عليه السلام على فرعون قوله.

٢٦- فضيلة موسى عليه السلام وصدقه؛ لاعترافه على نفسه بقتل القبطي، واعتذاره أنه إنما فعل تلك الفعلة عن ضلال وجهل، قبل أن ينعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ويعرف طريق الهدى والرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾.

٢٧- عدم جواز القتل بغير حق، وأن من ارتكبه فهو من الضالين.

٢٨- فرار موسى عليه السلام بعد قتله القبطي، وخروجه من مصر إلى مدين خوفًا من فرعون وقومه أن يقتلوه؛ لقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

٢٩- منة الله تعالى على موسى بعد فراره من قوم فرعون، وخروجه من مصر إلى مدين؛ بالحكم والنبوة والرسالة؛ لقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٣٠- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وما كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فموسى عليه السلام لما خرج من مصر خوفًا من فرعون وقومه، عوضه ربه خيرًا من ذلك؛ فوهب له حكمًا وجعله من المرسلين؛ ليعود إليها نبيًّا رسولًا إلى فرعون وقومه وإلى بني إسرائيل.

٣١- تحقير ما من به فرعون على موسى عليه السلام، من تربيته له وليدًا، ولبثه فيهم من عمره سنين، وأن ذلك لا يعد نعمة في مقابل تعبيده لبني إسرائيل وإذلاله إياهم؛ لقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾.

٣٢- إذلال فرعون لبني إسرائيل وجعلهم عبيدًا له ولقومه يسومونهم سوء العذاب؛ يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: لما قال له موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ إنكارًا وجحودًا لربوبية الله تعالى ظلمًا وعلوًّا، أي: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟! أي: أنه لا رب ولا إله للعالمين غيري؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ومع جرأته على الله تعالى وتمرده وطغيانه، فهو يعلم بيقين صحة وصدق ما دعاه إليه موسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: رب العالمين هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: خالق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه ومدبره، فالجميع عبيده خاضعون له.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: فآمنوا وأيقنوا به وحده، واليقين: التصديق الجازم.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾، أي: قال فرعون لمن حوله من ملئه وجنوده متعجبًا، ومتهكمًا ومستهزئًا، ومكذبًا لموسى: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أي: ألا تستمعون وتعجبون مما يقول هذا في زعمه أن رب العالمين رب السموات والأرض، وأن لكم ربًّا وإلهًا غيري؟! وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم موسى مؤكدًا- في تحد صارخ لفرعون وملئه- عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: هو عز وجل رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما، ربكم ورب آبائكم الأولين، رغم أنوفكم، هو خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم، سواء أيقنتم أم تعجبتم وكذبتم.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، «إن» واللام: للتوكيد. وقصد بقوله: ﴿رَسُولَكُمُ﴾- مع تكذيبه برسالته- السخرية والتهكم به، بقرينة قوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾، أي: مصاب بمس من الجنون، يهذي بما لا يدري في دعواه أن ثم ربًّا وإلهًا غيري، وهذا ديدن المكذبين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقوله: ﴿رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ دون أن يقول: «رسولنا الذي أرسل إلينا» علو وتكبر منه، وزيادة في التهكم.

﴿قَالَ﴾ موسى مؤكدًا تأكيدًا تامًّا عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، أي: رب مشرق الشمس والقمر والنجوم وسائر الكواكب ومغربها، ورب ما بينهما من جميع المخلوقات، أي: خالق ذلك كله، ومالكه، والمتصرف فيه، فانتقل عليه السلام في إثبات عموم ربوبية الله تعالى من تأكيد إلى آخر، وكما قال تعالى في سورة طه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي عقول تهديكم إلى الحق، وإلى معرفة عموم ربوبية الله عز وجل لجميع الخلق، أي: فآمنوا به وحده.

وفي هذا إيماء وتنبيه إلى أن فرعون وملأه هم الذين لا يعقلون، وأن الذي رموا به موسى من الجنون هو داؤهم، وكما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

لما غُلب فرعون، وأسقط في يده، وقامت عليه الحجة بالبيان والعقل؛ عدل إلى التهديد والوعيد لموسى، باستعمال جاهه وقوته وسلطانه، معتقدًا أن ذلك نافع له، ونافذ في موسى عليه السلام، وهذا مسلك العاجزين عن رد الحجة بالحجة والبرهان، يعدلون إلى التهديد بالقوة والسلطان.

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون متهددًا ومتوعدًا موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن اتخذت إلهًا غيري، أي: جعلت وعبدت معبودًا غيري.

﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لأجعلنك من جملة المسجونين على الدوام، ولم يقل: « لأسجننك»؛ زيادة في تهديد موسى، بأن هناك سجناء، وأنه قادر على سجن الناس.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾، الهمزة للاستفهام، وهو مشوب بالإنكار والاستغراب، أي: أتتوعدني بالسجن وترد دعوتي ولو أتيتك ﴿بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي: ببرهان بيِّن قاطع واضح مظهر أني رسول الله، ودال على صحة وصدق ما جئت به.

كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

﴿قَالَ﴾ فرعون متحديًا لموسى: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: فأت بهذا الشيء المبين إن كنت من الصادقين فيما تقول، وما أظنك صادقًا.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾، أي: فألقى موسى عصاه من يده على الأرض.

﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، الفاء عاطفة في الموضعين، و«إذا» في الموضعين هي

الفجائية، و«الثعبان»: الحية، ونكر للتعظيم والتهويل، أي: فإذا هي حية ضخمة طويلة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن ظاهر واضح لكل أحد، لا لبس فيه ولا تخييل.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، أي: أخرجها من جيب قميصه.

﴿فَإِذَا هِيَ﴾، أي: فإذا هي فجأة ﴿بَيْضَآءُ﴾، أي: تتلألأ بياضًا ونورًا مخالفًا لون جلده، من غير برص؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾، أي: لكل ناظر.

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون مكذبًا ومعارضًا للحق ومن جاء به، ومعاندًا ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾، أي: لجنوده ومرؤوسيه وجلسائه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، يعني موسى عليه السلام ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، اللام للتوكيد، أي: عليم بالسحر، بارع فيه، فروَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر، لا من قبيل الآيات والمعجزات؛ ليصدهم عن التأمل فيها والتفكر، كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩].

أي: أنهم لما قال لهم فرعون ذلك، قالوه وأعادوه بلفظه للموافقة التامة له.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يريد»، أي: يريد إخراجكم من أرضكم، أي: أن قصده التوصل إلى إخراجكم من أرضكم ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾، الباء للسببية، أي: بسبب ما يموه به من سحره على قلوبكم وقلوب الناس؛ ليكثر أتباعه وأعوانه، فيغلبكم على أرضكم، ويخرجكم منها.

ولم يقل: يريد أن يخرجني، أو: أن يخرجنا؛ ترفعًا وتعاظمًا أن يبدو أمام موسى بمظهر الضعيف بل قال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾.

وقد عمد في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ إلى تهييجهم وتحريضهم على تكذيب موسى ومخالفته؛ بإثارة حمية الأوطان في نفوسهم؛ لأن حب الأوطان مركوز في الفطر، حتى قيل: إنه من الإيمان. وقد وقف المصطفى عليه السلام على

الحَزْوَرَة مخاطبًا مكة قائلًا: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(١).

قال الشاعر:

ولي وطـــن آليـــت ألا أبيعـــه ... ولا أرى غـيري لـه الـدهر مالكـا
عمـرت بـه شرخ الشـباب مـنعمًا ... بصـحبة قـوم أصـبحوا في ظلالكـا
وحبـب أوطـان الرجـال إلـيهم ... مـآرب قضـاها الشـباب هنالكـا
إذا ذكـروا أوطـانهم ذكـرتهمُ ... عهـود الصـبا فيهـا فحنـوا لـذالكا
فقـد ألفتـه الـنفس حتـى كأنـه ... لهـا جسـد إن بـان غـودر هالكـا(٢)

وقال الآخر:

بـلادي وإن جـارت عـلي عزيـزة ... وأهـلي وإن ضـنوا عـلي كـرام(٣)

وقال الآخر:

بـلادي هواهـا في لسـاني وفي دمـي ... يمجـدها قلبـي ويـدعو لهـا فمـي
ولا خـير فـيمن لا يحـب بـلاده ... ولا في حليـف الحـب إن لم يتـيم
ومـن تـؤوه دار فيجحـد فضـلها ... يكـن حيوانًـا فوقـه كـل أعجـم
ألم تـر أن الطـير إن جـاء عشـه ... فـآواه في أكنافـه يـترنم
وليس مـن الأوطـان مـن لم يكـن لهـا ... فـداء وإن أمسـى إلـيهن ينتمـي
عـلى أنهـا للنـاس كالشـمس لم تـزل ... تضـيء لهـم طرًّا وكـم فـيهمُ عمـي
ومن يظلـم الأوطـان أو ينس حقهـا ... تجئـه فنـون الحادثـات بـأظلم

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب صحيح».

(٢) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (٥/ ١٨٢٦).

(٣) هذا البيت بدون نسبة. انظر: «تفسير المراغي» (٢٨/ ٤٢)، «البلاغة الواضحة» (ص٨٧).

وما يرفع الأوطان إلا رجالها وهل يترقى الناس إلا بسلم؟
«ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم»(١)

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، الفاء عاطفة، و«ماذا»: اسم استفهام، أو: «ما» اسم استفهام، و«ذا» اسم موصول، أي: فما الذي تأمرون به؟ أشيروا عليَّ، ماذا أصنع به؟

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال الملأ لفرعون لما استشارهم ماذا يأمرونه أن يصنع بموسى؟

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، أي: أخره وأخاه، أي: أجل البت في أمرهما.

﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾، المدائن: جمع مدينة، أي: وأرسل في مدائن مملكتك وأقاليمها ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعين، أي: جنودًا يجمعون السحرة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الآية: ١١١]

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ جواب الأمر: «ابعث»، أي: يأتوك بكل سحار متخصص بالسحر، ممارس له.

﴿عَلِيمٍ﴾، أي: عليم بالسحر، ماهر به متقن له؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الآية: ١١٢].

والمعنى: أجله وأخاه، واجمع السحرة الممارسين للسحر، الماهرين به؛ لكي يغالبوا موسى، ويأتوا بمثل ما جاء به من السحر، فتغلبه أنت، وتكون لك النصرة والتأييد.

الفوائد والأحكام:

١- إنكار فرعون ربوبية الله تعالى للعالمين، زعمًا منه أنه لا رب غيره، ولا إله سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩].

٢- إثبات ربوبية الله تعالى للعالمين، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) هذه الأبيات لمصطفى صادق الرافعي، والبيت الأخير مضمن فيها من شعر زهير. انظر: «ديوان الرافعي» (ص٢٣).

٣- أنه إنما يقر بربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق وإلهيته أهل اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

٤- تعجيب فرعون لمن حوله من قول موسى لما سأله: وما رب العالمين؟ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وتهكمه واستهزاؤه به بقوله لمن حوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أي: ألا تستمعون إلى ما يقول هذا في زعمه أن له ربًّا وإلهًا غيري؟

٥- تأكيد موسى عليه السلام عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

٦- سخرية فرعون من موسى، ورميه له بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾، وهذا ديدن المكذبين للرسل عليهم السلام.

٧- تأكيد موسى عليه السلام مرة ثانية عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٨- أنه إنما يهتدي إلى الحق، ويعرف عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ ذوو العقول الذين ينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٩- أن فرعون وملأه أحق بوصف الجنون وعدم العقل؛ لعدم إيمانهم بربوبية الله تعالى وإلهيته لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فمفهوم هذا: أن من لم يؤمن بذلك فليس بعاقل.

١٠- لجوء فرعون لما غُلب، وأُسقط في يده، وانقطعت حجته؛ إلى تهديد موسى بأخذه بالقوة، وتوعده بالسجن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذه حيلة العاجز.

١١- إنكار موسى على فرعون توعده له بالسجن، ورد دعوته مع ما جاء به من الحجة والبيان والبرهان القاطع على أنه رسول الله، وعلى صحة ما جاء به وصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

١٢- مبادرة فرعون- لخبث نيته وسوء طويته- إلى التشكيك بما جاء به موسى من

الآيات والمعجزات قبل أن يُظهرها له؛ لقوله: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦﴾ [الأعراف: ١٠٦]، وكأنه يقول: وما إخالك من الصادقين.

١٣- أن من أعظم الآيات والمعجزات الكونية التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام: انقلاب عصاه حية عظيمة، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء تتلألأ لكل ناظر؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾.

١٤- اتهام فرعون لموسى عليه السلام بالسحر، وأنه عليم به، بارع فيه؛ ليصد الناس عن التأمل فيما جاء به من الآيات والمعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾.

١٥- إثارة فرعون في ملئه وقومه حمية الديار والأوطان، بزعمه أن موسى يريد بما جاء به إخراجهم من أرضهم وأوطانهم، بالتمويه على قلوب الناس بذلك؛ ليكثر أتباعه، وتكون له الغلبة عليهم، فيخرجهم من أوطانهم؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾.

١٦- استشارة فرعون ملأه: ماذا يأمرونه أن يفعل في موسى؟ لقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

١٧- إشارتهم عليه بتأجيل البت في أمر موسى وأخيه، وجمع السحرة المهرة من جميع مدائن مملكته؛ ليغالبوه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾.

١٨- كثرة السحرة، ورواج السحر في عهد موسى عليه السلام؛ ولهذا آتاه الله من الآيات والمعجزات ما هو من جنس ذلك؛ لإبطاله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٩ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾:

ذكر الله عز وجل هذه المناظرة بين موسى عليه السلام والسحرة في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وفي هذه السورة.

قوله: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨﴾، أي: فجمع السحرة بأمر فرعون من مدائن مصر وأقاليمها كلها، وكانوا جمعًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا.

﴿لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾، أي: لوقت يوم معلوم، وهو يوم زينتهم وعيدهم ضحى؛ كما حدد موسى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩﴾ [طه: ٥٩].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩﴾، «هل» للاستفهام، ومعناه الأمر بالاجتماع وطلب الإسراع فيه، أي: وقيل للناس كلهم: اجتمعوا في ذلك اليوم الموعود.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، أي: رجاء أن نتبع السحرة، أو: لأجل أن نتبع السحرة.

﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، «هم»: ضمير فصل للتوكيد والحصر، لا محل له من الإعراب، ولم يقولوا: لعلنا نتبع الحق، بل لم يقولوا: لعلنا نتبع الغالب.

وفي هذا تبييت منهم لعدم اتباع موسى وإن غَلَب، وفيه وفي قولهم: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ إشارة إلى ثقتهم العمياء بغلبة السحرة؛ فكأنهم يقولون: اجتمعوا لننظر غلبة السحرة فنتبعهم؛ إذ لو وفقوا للحق لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم ونعرف الصواب.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ لفرعون، أي: وصلوا إليه، واجتمعوا لديه.

﴿قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ﴾ غرورًا منهم وتعاليًا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؛ الهمزة للاستفهام، و«إن» حرف توكيد ونصب، واللام للابتداء والتوكيد، و«أجرًا»: اسم «إن» منصوب، وفي سورة الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: ١١٣] دون همزة الاستفهام.

والمعنى: أتجعل لنا أجرًا وجزاء إن كنا نحن الغالبين بسحرنا لما جاء به موسى؟

﴿قَالَ نَعَمْ﴾، أي: قال فرعون: ﴿نَعَمْ﴾، و«نعم» حرف جواب، أي: نعم، لكم أجر وجزاء وثواب، ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، بحذف «إذنْ»، واللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ للتوكيد.

والمعنى: وإنكم لمن المقربين عندي إذا غلبتموه. فوعدهم بالأجر، وتقريبهم عنده، وجعلهم من جلسائه؛ تشجيعًا لهم؛ ليزداد نشاطهم، ويبذلوا جهدهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٥- ١١٦]، وفي سورة طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ [طه: ٦٥- ٦٦].

أي: قال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، «ما» موصولة تفيد العموم، أي: ألقوا كل الذي تريدون إلقاءه، وكل ما في جعبتكم، والأمر للإذن لهم مع التحدي؛

لجزمه ببطلان كل ما جاؤوا به لمعارضة الحق.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. والحبال: جمع حبل، والعصي: جمع عصا، وهذه الحبال والعصي يلقونها ليوهموا الناس بسحرهم أنها حيات وثعابين، حتى موسى عليه السلام أوجس منها خيفة، لما رآها تقبل إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه:٦٦-٦٨].

﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾، الباء: للقسم، أي: نقسم بعزة فرعون، أي: بقوته وقهره، ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، اللام: للتوكيد.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ بأمر الله تعالى له، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾، قرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف: «تَلَقَّفُ»، أي: تبتلع بسرعة وتأخذ وتختطف.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: كل الذي يأفكونه، و«الإفك»: الكذب، أي: كل الذي يعملونه من الكذب والتزوير، والتمويه على الناس، والتخييل لهم، أي: كل ما ألقوه من الحبال والعصي؛ لأنها كلها إفك وكذب، وزور وباطل، لا يقاوم الحق، ولا يثبت أمامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٦- ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٦- ١١٩].

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾، لربهم، لما رأوا هذه الآية العظيمة، والمعجزة الباهرة؛ لتيقنهم- وهم أعلم الناس بالسحر- أن ما جاء به موسى ليس بسحر، وإنما هو من الآيات والمعجزات الكونية التي يؤيد الله بها رسله وأنبياءه عليهم السلام.

وفي قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾، ولم يقل: فسجد السحرة، إشارة إلى قوة

اندفاعهم إلى السجود، وسرعة مبادرتهم إليه، كأنهم ألقوا إلقاء بدون اختيار.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾، أي: صدقنا به، وانقدنا له ظاهرًا وباطنًا، بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا، وهو الله عز وجل، وبهذا أبطلوا ربوبية فرعون، كما يزعم بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]. وآمنوا برب موسى وهارون، وصدقوا برسالتهما.

فكان إيمانهم- في هذا المجمع العظيم- قاصمة الظهر لفرعون وملئه، وحجة دامغة، وبرهانًا قاطعًا على صدق موسى وصحة ما جاء به.

جمعهم فرعون وجاء بهم؛ ليغالب بهم موسى، ويبطل بهم الحق، فإذا هم يؤمنون وينتصر بهم الحق، كانوا في أول النهار يقسمون بعزة فرعون: إنا لنحن الغالبون، وفي آخره سجَّدًا مؤمنين برب العالمين، رب موسى وهارون.

جمع الناس كلهم؛ ليشهدوا غلبته وغلبة سحرته لموسى وما جاء به، فإذا هم يشهدون بطلان أمره، وغلبة موسى وصدقه، وصحة ما جاء به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٩ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء: ٤٩- ٥١].

لما آمن السحرة- وهم الذين جاء بهم فرعون لينتصر بهم ويغالب موسى- أُسقط في يد فرعون، وخرج من صوابه، فأرعد وأزبد، وتهدد وتوعد، فقال:

﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الآية: ١٢٣]، أي: آمنتم لموسى وصدقتموه فيما جاء به، وانقدتم له. والاستفهام: للإنكار والتوبيخ.

﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾، «أن» والفعل «آذن» في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى قبل، أي: قبل إذني لكم، وكأنهم عبيده أو عبيد أبيه؛ لأنه قد قهرهم واستذلهم بقولته وسلطانه وظلمه وغشمه.

﴿إِنَّهُۥ﴾، يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: إن موسى هو كبيركم أيها السحرة الذي علمكم السحر.

فيا سبحان الله! بالأمس يجمع السحرة ويشجعهم ليغالبوا موسى، ويفتخر بهم وينتصر، واليوم لما آمنوا بموسى وما جاء به من الحق نكص وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾!

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ﴾، الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم، لقسم مقدر، أي: فوالله لسوف تعلمون. وهذا وعيد منه وتهديد لهم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ عطف بيان على جملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ متخالفة؛ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ كما في حد الحرابة، أو العكس، و«التقطيع»: المبالغة في القطع، وكونه حتمًا بلا هوادة.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، «الصلب»: أن يربط المصلوب على جذع نخلة أو خشبة قائمًا ممدود اليدين حيًّا ويترك حتى يموت، أو يقتل ثم يصلب؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١].

والتصليب: المبالغة في الصلب بحيث يكون حتمًا وبلا هوادة.

فتوعَّدهم بأعظم العقوبات وأشدها، وهي تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٤]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَۖ﴾، الضير: الضر، أي: لا ضرر علينا، أي: لا يضرنا وعيدك، ولا نبالي به، افعل ما تريد.

وهذا من أعظم التحدي لفرعون أعتى أهل الأرض؛ وذلك لقوة إيمانهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٣]، ولهذا قالوا هنا:

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، تعليل لنفي الضر، أي: لأنا إلى ربنا منقلبون، أي:

راجعون فيجازينا أعظم الجزاء؛ وهذا كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الآية: ١٢٥- ١٢٦].

﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، «أن» والفعل «يغفر» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«نطمع»، أي: إنا نرجو أن يتجاوز لنا ربنا عن ذنوبنا وسيئاتنا ويسترها؛ من الكفر والسحر وغير ذلك؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: ٧٢- ٧٣].

وهذا هو المقصود من قولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، «أن» للسببية، أي: بسبب أن كنا أول المؤمنين من قومنا القبط، فلم يبالوا بفرعون ولا بوعيده وتهديده؛ لأن مرجعهم إلى الله تعالى، وما عنده خير وأبقى، وطمعًا أن يغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم على سبقهم قومهم للإيمان؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه: ٧٤- ٧٦].

وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب، قال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- جمع السحرة كلهم لوقت معلوم- هو يوم الزينة- لمناظرة موسى عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦، ومسلم في الإيمان ٤٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومغالبته؛ لقوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨﴾.

٢- جمع الناس كلهم ليشهدوا تلك المناظرة، ويشاهدوا غلبة السحرة لموسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾.

٣- أن هدف فرعون وأعوانه بالدعوة إلى هذا الجمع الكبير وهذه المناظرة: إبطال ما جاء به موسى، وإظهار غلبة السحرة، واتِّباعهم، وليس لمعرفة الحق والصواب؛ لقولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾.

٤- اغترار السحرة بادئ الأمر بما معهم من السحر، واعتقادهم أن الغلبة لهم؛ لطلبهم الأجر من فرعون على ذلك؛ لقولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾.

٥- وعْده لهم بالأجر، وتقريبهم عنده، حفزًا لهم؛ ليبذلوا قصارى جهدهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾.

٦- أمر موسى عليه السلام لهم بدءًا بإلقاء ما هم ملقون من السحر؛ ثقة بأن ما معه من الحق سيبطل كيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٤٣﴾.

٧- إلقاؤهم حبالهم وعصيهم، وإقسامهم بعزة فرعون أن الغلبة لهم؛ غرورًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾.

٨- إلقاؤه عليه السلام عصاه فإذا هي تبتلع كل ما اصطنعوه وموَّهوا به على الناس من السحر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥﴾.

٩- مبادرة السحرة إلى السجود لربهم تعظيمًا وخضوعًا له؛ لما رأوا هذه الآية العظيمة، والمعجزة الباهرة، الدالة على صدق موسى وصحة ما جاء به، وإعلانهم أمام الملأ، وهذا الجمع العظيم إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾.

١٠- قدرة الله تعالى التامة على تقليب القلوب؛ فهؤلاء أصبحوا كفارًا سحرة، وأمسوا أنقياء وشهداء بررة.

١١- أن الحق يعرف بضده، فهؤلاء السحرة لمعرفتهم بالسحر وضروبه، عرفوا

أن ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات ليس بسحر، وكما قيل:

..... وبضدها تتبين الأشياء(١)

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وربوبيته الخاصة لموسى وهارون وأوليائه المؤمنين؛ لقول السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ وقولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ [طه:٧٣].

١٣- غضب فرعون وسخطه الشديد على السحرة بسبب إيمانهم، وإنكاره ذلك عليهم؛ لقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

١٤- شدة تسلط فرعون على قومه، وقهره لهم، وتعبيدهم له بالقوة؛ لقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فحجر عليهم حتى في معتقدهم.

١٥- خروج فرعون من صوابه وعقله لما سجد السحرة لربهم رب العالمين وآمنوا به؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وهذا لا يقوله عاقل، كيف يكون كبيرهم موسى وهم سحرته، جمعهم؛ ليغالب بهم موسى، وموسى عليه السلام لا يعرفهم، ولم يلتق بهم قبل هذا؟!

١٦- شدة جبروت فرعون؛ لتوعده وتهديده إياهم بأغلظ العقوبات، بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم جميعًا؛ لقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١٧- عدم مبالاة السحرة بوعيده وتهديده؛ لإيمانهم بالبعث، ويقينهم بأنهم راجعون إلى الله، وبعظيم ما عنده لهم من أجر الإيمان والشهادة، وطمعهم بمغفرته خطاياهم، وبأن فرعون إن قتلهم إنما يقضي هذه الحياة الدنيا الفانية؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ

---

(١) هذا شطر بيت للمتنبي. انظر: «ديوانه»» ١/ ٢١ والبيت بتمامه:

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتبين الأشياء

ومعنى «ونذيمهم»، أي: ونعيبهم.

وانظر: «شرح ديوان المتنبي» (١/ ٢١٤)، «الحماسة المغربية» (١/ ٤٧٣).

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿٥١﴾﴾، وقولهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴿٧٢﴾﴾ [طه:٧٢].

١٨- أن الحذِر قد يؤتى من مأمنه؛ ففرعون كان معتمدًا على سحرته في مغالبته لموسى، آمنًا منهم مطمئنًا إليهم، فإذا هم يؤمنون، ويُسقَط في يده.

١٩- أن مرد الخلائق ومنقلبهم إلى الله تعالى؛ إليه إيابهم، وعليه حسابهم.

٢٠- أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب هان في سبيله كل شيء، فهؤلاء السحرة لما آمنوا أعلنوها صريحة، ولم يبالوا بفرعون مع شدة بطشه وظلمه، بل قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴿٧٢﴾﴾ [طه:٧٢].

٢١- إثبات صفة المغفرة لله تعالى، وأنه لا يغفر الذنوب إلا الله؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾.

٢٢- ينبغي للمؤمن إحسان الظن بربه، والتعلق به، ورجاء مغفرته ورحمته، مع إحسان العمل؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، وهذا يدل على رجائهم بالله.

٢٣- أن السبق إلى الإيمان من أسباب المغفرة، وأن هؤلاء السحرة هم أول المؤمنين من قوم فرعون «القبط»؛ لقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٤- حكمة الله تعالى ومشيئته النافذة ورحمته وتوفيقه لمن أراد هدايته، فقد كان هؤلاء السحرة في أول النهار يقسمون بعزة فرعون، وفي آخره سجدوا مؤمنين برب العالمين.

٢٥- فضل المبادرة إلى الإيمان والأعمال الصالحة؛ لأنها سبب لمغفرة الذنوب، وستر العيوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

قوله: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾، قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر: «أَنِ اسْرِ» بهمزة وصل، فعل أمر من «سَرَى»، وبكسر نون «أنِ» لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقون بهمزة القطع: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾، و«أن»: تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن أسر، أو في محل نصب مفعول لـ«أوحينا».

أي: وأوحينا إلى موسى وأمرناه أن سر ليلًا ببني إسرائيل من أرض مصر؛ لإخفاء أمرهم، وذلك لما أراد الله تخليصهم من قهر فرعون، وإهلاكه وقومه.

والمراد بالعبودية في قوله: «عبادي»: العبودية الخاصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، أي: إن فرعون وجنوده سيتبعونكم، ويسيرون على إثركم؛ طلبًا لكم؛ للانتقام منكم وعقابكم.

وفي هذا ما يشبه التعليل لكون السير أول الليل، وفيه ما يوحي بالحث على الإسراع في السير؛ خوفًا من الطلب؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: ٧٧- ٧٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ؛ ليجمعوا له الجيش؛ ليخرج بهم في طلب بني إسرائيل ويتبعهم ويوقع بهم، لما أخبر بسيرهم.

وقد جعل هؤلاء الحاشرين كالفزَّاعة، فبالأمس بعثهم ليجمعوا له السحرة ليُغالب بهم ما جاء به موسى من الحق ويبطله، ثم جمع الناس ليشهدوا غلبته وسحرته، فخاب ظنه، وبطل سعيه.

واليوم يرسلهم ليجمعوا له الجيش؛ ليخرج بهم في أثر بني إسرائيل، فيكون ذلك سببًا في هلاكه وجنوده.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾، أي: وقال لهؤلاء الحاشرين، أو لجنوده، أو لهما معًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني موسى وبني إسرائيل، ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾، اللام: للتوكيد، أي: إن هؤلاء لطائفة حقيرة ضعيفة.

﴿قَلِيلُونَ﴾، أي: قليل عددهم. وهذا من باب الإغراء، والتشجيع للخروج لطلبهم؛ لأنهم ضعيفون حقيرون من حيث الكيفية، وقليلون من حيث الكمية.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، اللام في قوله: ﴿لَغَآئِظُونَ﴾ لام الابتداء للتوكيد، و«غائظون»: جمع «غائظ»، والغيظ: أشد الغضب، قال تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أي: فاعلون ما يغيظنا بين وقت وآخر، وفي خروجهم من مصر، فلا بد من التخلص منهم.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن ذكوان عن عبدالله بن عامر بألف بعد الحاء: ﴿حَٰذِرُونَ﴾: جمع «حاذر» اسم فاعل، وقرأ الباقون بحذف الألف: «حَذِرُونَ»، جمع «حَذِرٍ» على وزن «فَعِلٍ» صيغة مبالغة.

أي: وإنا لجميع متيقظون مستعدون للحوادث، فطنون مما عسى أن يكون من سيئ العواقب، وهكذا يجب أن نكون على حذر كل وقت من هؤلاء، فهم أعداء

للجميع، والمصلحة مشتركة.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾، أي: فأخرجنا فرعون وقومه بأمرنا الكوني، وقدرتنا التامة، بسبب كفرهم وعتوهم وعنادهم وتكذيبهم موسى عليه السلام وما جاء به من الآيات البينات.

﴿مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: من بساتين مصر، وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة على ضفاف النيل..

﴿وَكُنُوزٍ﴾، أي: خزائن أموال كثيرة من الذهب والفضة.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، أي: إقامة في منازل حسان تعجب الناظرين، في مجتمع طيب حسن كثير الخير والنعم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: إخراجنا كذلك كما وصفنا.

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: وأورثنا هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم بني إسرائيل بعد إغراق فرعون وقومه؛ كما قال تعالى في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥- ٦].

ولا منافاة بين قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩﴾، وبين قوله ﷺ في الغنائم: «**ولم تحل لأحد قبلي**»(١)؛ لأن هذا توريث قدري لم يحصل بحرب، وإنما

---

(١) سبق تخريجه.

أهلك الله فرعون وقومه، فبقيت ديارهم لبني إسرائيل، ولا يسمى هذا غنيمة شرعًا.

وقد قيل: إن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها، وعليه يكون المعنى: أورثناهم جنات وعيونًا وكنوزًا ومقامًا كريمًا مثل ذلك في بلاد الشام.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾.

قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾، أي: فأتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل، وساروا في أثرهم، ولحقوهم، ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ ؛ حال، أي: وقت شروق الشمس وطلوعها، متجهين إلى المشرق جهة البحر.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾، أي: رأى كل فريق منهم الآخر، والمراد: جمع موسى، وجمع فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: سيدركنا فرعون وجنوده، ويلحق بنا، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سِيفِ البحر الأحمر «بحر القلزم»، فصار البحر أمامهم، وفرعون وجنوده من ورائهم؛ ولهذا قالوا شاكِينَ لموسى ومتخوفين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ بالتأكيد.

﴿قَالَ﴾ ؛ موسى بلسان المتوكل على ربه تمام التوكل، الواثق كل الثقة بمعيته له وهدايته ونصره، مثبتًا أصحابه ومطمئنًا لهم: ﴿كَلَّآ﴾، حرف ردع وزجر، ومفادها هنا: النفي، أي: إنكم لن تُدرَكوا.

﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، تعليل لقوله: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لأن معي ربي بمعيته الخاصة، بالنصر والتأييد والتوفيق، ﴿سَيَهْدِينِ﴾، أي: سيدلني إلى ما فيه نجاتي ونجاتكم، ويحفظني وإياكم، والسين للتحقيق والقرب.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾؛ «أن» تفسيرية، أو مصدرية،

أي: بأن اضرب.

﴿فَٱنفَلَقَ﴾، أي: فضربه، فانفلق، أي: انفرق اثني عشر طريقًا على عدد أسباط بني إسرائيل.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾؛ الفِرق بكسر الفاء وسكون الراء: الجزء المفروق منه، أي: فكان كل جزء وقطعة من البحر.

﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: كالجبل العظيم؛ لكبره وارتفاعه، ولعمق البحر، أي: وصار ما بين هذه الطرق من المياه كالأطواد، أي: كالجبال اليابسة، وصار كل ما بين كل فِرقين كالفج بين الجبلين يابسًا.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾، أي: قربنا وأدنينا، ﴿ثَمَّ﴾ هناك مكان انفلاق البحر، ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ فرعون وقومه، أي: قربنا فرعون وجنوده إلى مكان انفلاق البحر.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾، أي: وأنجينا موسى من الغرق والذين معه أجمعين، فلم يغرق منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾، أي: ثم بعد إنجاء موسى ومن معه وخروجهم من البحر سالمين أجمعين أغرقنا الآخرين؛ وهم فرعون وقومه، بعد أن اكتملوا في البحر داخلين، ارتطم عليهم البحر، فلم ينج منهم أحد من الغرق؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: ٢٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في فلق البحر، وإنجاء موسى ومن معه من المؤمنين، وإغراق فرعون ومن معه من الكفار المكذبين بإطباقه عليهم.

﴿لَءَايَةً﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على تمام قدرته تعالى وعظمته ووحدانيته، وصدق موسى عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها تحذير للمكذبين، وبشارة للمؤمنين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر الناس والخلق مؤمنين، بل

أكثرهم كفار ضلال، مع قيام الحجة عليهم، وبيان المحجة لهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾، اللام: للتوكيد، أي: وإن ربك يا محمد لهو العزيز الرحيم، فبعزته أهلك فرعون ومن معه، وبرحمته أنجى موسى ومن معه.

الفوائد والأحكام:

١- وحي الله عز وجل إلى موسى عليه السلام- بعد أن طال مقامه بمصر، وأقام على فرعون وملئه الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى، ولم ينجع ذلك فيهم- بالخروج ببني إسرائيل من مصر؛ إرهاصًا لإهلاك فرعون وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾.

٢- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِىٓ﴾.

٣- إعلام الله عز وجل لموسى وإخباره بأن فرعون سيتبعهم بجنوده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، وفي هذا حث لهم على الإسراع.

٤- حشر فرعون جميع جنوده؛ ليتبع بهم موسى وبني إسرائيل وينتقم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

٥- تحقير فرعون لبني إسرائيل، وتقليله لهم؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

٦- إغاظة بني إسرائيل لفرعون من وقت لآخر، وفي خروجهم من مصر وشدة غضبه عليهم؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٧- امتداح فرعون لنفسه وجنوده وملئه بالحذر، وتحريضهم عليه، وإيصاؤهم به؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ولم ينفعه ذلك.

٨- إخراج فرعون وجنوده مما هم فيه في مصر من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، وتوريث ذلك بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

٩- عقوبة الله تعالى للطاغين بإزالة النعم عنهم، أو إزالتهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾.

١٠- أن العقوبة بعد التنعيم أشد وقعًا، وأعظم ألمًا؛ لذكره عز وجل ما كان فيه فرعون وقومه من النعيم قبل أخذهم.

١١- اتباع فرعون وجنوده بني إسرائيل عند شروق الشمس، أو باتجاه جهة المشرق؛ للإيقاع بهم والانتقام منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾.

١٢- تخوّف أصحاب موسى لما تراءى الفريقان أن يدركهم فرعون وجنوده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾.

١٣- قوة توكل موسى عليه السلام على ربه، وتمام ثقته به وبمعيته له وهدايته ونصره، وطمأنته أصحابه، ونفيه بشدة أن يدركهم فرعون وجنوده؛ لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

١٤- إثبات معية الله تعالى الخاصة، وربوبيته الخاصة لموسى عليه السلام، وهدايته له؛ لقوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

١٥- وحيه عز وجل إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر؛ لينفلق بقدرة الله تعالى طريقًا يابسًا لبني إسرائيل، كل فرق كالجبل العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾.

١٦- عظم قدرة الله تعالى في فلق البحر، وجعله في وسطه طرقًا يابسة.

١٧- عظم ما أعطاه الله لموسى من المعجزات؛ منها: فلق البحر.

١٨- إثبات الأسباب؛ فإن الله عز وجل قادر على فلق البحر دون أن يضربه موسى بعصاه.

١٩- تقريب فرعون وجنوده إلى مكان انفلاق البحر تمهيدًا لإغراقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤﴾.

٢٠- إنجاء الله عز وجل موسى ومن معه جميعًا من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥﴾.

٢١- إغراق فرعون وجنوده ومن معه، فلم ينج منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦﴾.

٢٢- أن في فلق البحر وإنجائه عز وجل موسى ومن معه من المؤمنين، ومن ثم إطباقه وإغراق فرعون وجنوده ومن معه من الكافرين؛ دلالة على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، وعلى صدق موسى وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها تحذير للمكذبين، وبشارة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

٢٣- أن أكثر الخلق كفار ضلال غير مؤمنين ولا مهتدين، حكمة بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا يغتر بذلك.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٦- أنه عز وجل بعزته أغرق فرعون وجنوده، وبرحمته أنجى موسى وقومه.

٢٧- باقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الرحيم» وصفتي العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

سبق التماس الحكمة في تقديم ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون في هذه السورة، وقد أتبعها هنا بذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وقدِّمت هنا على قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام على خلاف المعتاد في ذكر قصصهم في القرآن، قيل: لشدة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام، وفي تمسكهم بضلال آبائهم، وفي أن قوم إبراهيم لم يسلط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سلط على أقوام الأنبياء المذكورين، فأشبهوا قريشًا في إمهالهم.

قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: واتل يا محمد على أمتك وعلى الناس، ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: نبأ عبده ونبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام، والنبأ: الخبر الهام.

أي: اقرأ عليهم خبره الهام جدًّا؛ لما تضمنه من المناظرة في التوحيد والجزاء؛ ليقتدوا به في التوحيد لله تعالى وحده لا شريك له، والبراءة من الشرك وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ

وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الممتحنة: ٤].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾، أي: حين قال لأبيه آزر وقومه، منكرًا عليهم منذ صغره عبادة الأصنام.

والضمير في ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ يحتمِلُ أن يعود إلى إبراهيم؛ لأنه المتحدَّث عنه، ويمكن عوده على أبيه، أي: وقوم أبيه؛ كما في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ «ما»: اسم استفهام: للإنكار والتعجب؛ كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الآية: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

﴿قَالُوا۟﴾؛ متباهين متبجحين بعبادتهم، ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ «أصنام» جمع: صنم، وهو ما نحت وعبد من دون الله، وقد يطلق على كل ما عبد من دون الله من شجر أو حجر أو غير ذلك.

﴿فَنَظَلُّ﴾ أي فندوم ونستمر في كثير من أوقاتنا، ﴿لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، أي: مقيمين على عبادتها ودعائها.

وفي هذا ابتهاج منهم وافتخار بهذا الفعل الذميم، فافتخروا بعبادتها، وبدوامهم على ذلك.

﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم عليه السلام مبينًا لهم عدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم؟ وهل يستجيبون لكم لو سمعوا؟

أي: إنهم لا يستطيعون هذا ولا هذا؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾؛ أو: عاطفة في الموضعين، أي: أو ينفعونكم بجلب الخير لكم ودفع الشر عنكم؟ أي: إنهم لا يملكون شيئًا من ذلك.

﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾، أي: أو يضرونكم؟ أي: إنهم لا يملكون جلب الضر لكم، ولا

دفعه عنكم.

ويحتمل أن المعنى: أو ينفعونكم إن عبدتموهم، أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟

ولم يقل: أو يضرونكم؛ مراعاة للفواصل.

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾، أي: أقروا أنهم لا يسمعونهم حين يدعون، ولا ينفعونهم ولا يضرون، وإنما عبدوهم لأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، أي: وجدنا آباءنا كذلك يعبدون هذه الأصنام، فنحن نعبدها اتباعًا وتقليدًا لهم، واقتداء بفعلهم؛ كما قال تعالى عن مشركي قريش: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٣].

﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾، الهمزة للاستفهام، أي: أأبصرتم ﴿مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي كنتم تعبدونه من الأصنام.

﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾؛ قبلكم، وأجدادكم وإن علوا.

﴿فَإِنَّهُمۡ﴾، أي: معبوداتكم. وأطلق عليهم ضمير العقلاء هنا وقبله حسب زعمهم: أن هذه المعبودات تنفع وتضر.

﴿عَدُوّٞ لِّيٓ﴾، «عدو» يطلق على المفرد وعلى الجمع، أي: فإنهم أعداء لي، أبغضهم، وأكشف عوارهم، وأُبيّن أنهم لا يستحقون العبادة، وأحذر من عبادتهم، وأتبرأ منهم، وأتحداهم أن يَخْلُصوا إليَّ بشيء من الضرر؛ كما قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال عليه السلام: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الأنعام: ٨١].

وكما قال نوح عليه السلام: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ

ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤- ٥٦].

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو منقطع، أي: لكن رب العالمين ليس بعدو لي، بل هو وليٌّ لي، وهو معبودي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨]؛ يعني: لا إله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

هذا بيان من إبراهيم عليه السلام أنه لا يستحق العبادة والإلهية إلا رب العالمين؛ لاختصاصه بصفات الربوبية، أي: استدلال بوحدانيته عز وجل بالربوبية على وحدانيته في الألوهية، وثناء عليه عز وجل وامتداح له بتلك الصفات.

قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾، «الذي» اسم موصول مبني، وهو وما عطف عليه من الموصولات في محل نصب صفات لرب العالمين، وهي صفات كاشفة، أي: لا أعبد إلا الذي خلقني ويهدين، ومن صفته هذه الصفات الدالة على كمال ربوبيته، واستحقاقه وحده الإفراد بالعبودية والإلهية.

أي: الذي أوجدني وأنشأني، ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أي: فهو يهديني، أي: يدلني ويرشدني إلى الحق، ويوفقني إليه وفيه، وإلى ما قدر لي، والذي خلق الخلائق كلهم، وقدر لهم أقدارًا، وهدى كل مخلوق لما قدر له؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣].

وحذفت الياء من الأفعال مراعاة للفواصل.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

أي: المتكفل بطعامي وشرابي، عليه رزقي ورزق جميع الخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾، أي: وإذا أصابني مرض فهو وحده الذي يشفيني ويعافيني.

وأسند المرض إلى نفسه- وإن كان بقدر الله وقضائه- تأدبًا مع الله تعالى؛ كما قال ﷺ: «**والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»(١).

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾، أي: والذي يميتني ويميت جميع الخلائق، ثم يحيينا، أي: بيده الموت والحياة، لا يقدر على ذلك أحد سواه.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ﴾، أي: أرجو وآمل ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ لأنه لا يغفر الخطايا والذنوب إلا هو؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

و«أن» والفعل «يغفر» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن يغفر لي.

أي: أطمع أن يتجاوز لي عن خطيئتي ويسترها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، يوم القيامة، يوم يحاسب الخلائق ويدانون بأعمالهم خيرها وشرها.

وقوله: ﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾، أي: ذنبي، قيل: المراد به قوله عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله عن سارة لما سأله فرعون مصر عنها: «إنها أختي»(٢)، وذلك مخافة أن يقتله لو قال: إنها زوجتي؛ لأنه قد طمع فيها، ولكن حفظها الله منه، ورد كيده عنها.

ويجوز أن يكون المراد بقوله: «خطيئتي» الجنس، أي: خطاياي.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) روي هذا عن مجاهد، أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٣، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٠.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

لما بين إخلاصه العبادة لرب العالمين المختص بصفات الربوبية كلها، الموجبة إفراده بالألوهية، أتبع ذلك بالدعاء لنفسه في الدنيا والآخرة، وسؤال المغفرة لأبيه.

قوله: ﴿رَبِّ هَبْ﴾، أي: يا رب أعطني وامنحني ﴿حُكْمًا﴾، أي: علمًا وفهمًا وحكمة أحكم بها بين الناس.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، أي: واجعلني ألحق بالصالحين وأكون منهم، في الدنيا والآخرة، من الأنبياء والمرسلين، المخلصين لك، المتبعين لشرعك، المصلحين للناس؛ كما قال ﷺ: «**اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين**»(١).

وكما قال ﷺ عند الاحتضار: «**الرفيقَ الأعلى**» قالها ثلاثًا(٢).

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾، أي: ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا في الدنيا فيمن يأتون بعدي إلى يوم القيامة أُذكر به، ويقتدى بي في الخير، ويثنى علي به.

والذكر الحسن للمرء بعد الموت محصلة لما قدم في حياته، واستمرار لثوابه، وقد أحسن القائل:

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثًا حسنًا لمن وعى(٣)

وقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤ من حديث عبدالله الزرقي، عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في السلام، فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (١/ ١٩٤)، «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٣٣٥).

حتى يقال إذا مروا على جدثي أرشده الله من غاز وقد رشدا[١]

وقال الآخر:

قد مات ناس وما ماتت مآثرهم ومات قوم وهم في الناس أحياء[٢]

وقد استجاب الله دعاءه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠﴾ [الصافات: ١٠٨- ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٢٢﴾ [النحل: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وأمرنا نبينا ﷺ أن نقول في التشهد: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد؛ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد**»[٣].

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾، أي: واجعلني في الآخرة من ورثة جنة النعيم، أي: من الذين تورثهم جنة النعيم.

فاستجاب الله دعاءه فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾، أي: واغفر لأبي ذنوبه وما كان عليه من الشرك والكفر، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝٨٦﴾ تعليل لطلب المغفرة له، أي: لأنه كان من الضالين المشركين.

وهذا كقوله عليه السلام في سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝٤١﴾ [الآية: ٤١].

وهذا الدعاء من إبراهيم بسبب وعده لأبيه بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ

---

(١) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (١٣/ ١٧٩)، «حلة الأولياء» (١/ ١١٩)، «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» (١/ ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٧٠، ومسلم في الصلاة ٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ٩٧٦، والنسائي في السهو ١٢٨٨، والترمذي في الصلاة ٤٨٣؛ من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد ترك إبراهيم عليه السلام الدعاء لأبيه، ورجع عنه لما تبين له عداوته لله، وموته على الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾، أي: أجرني من الخزي والفضيحة، واستر علي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق كلهم للحساب والجزاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين**»(١).

وفي رواية: «**يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ**(٢)**، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار**»(٣).

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾، «يوم»: بدل من قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي: يوم لا ينفع مال مهما كثر، فلو افتدى بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما تقبل منه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿وَلَا بَنُونَ﴾، «لا»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي من حيث المعنى.

---

(١) أخرجها البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٦٩.

(٢) الذيخ: الذكر من الضباع؛ كأنه مسخ آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته، فيلقى في النار كذلك.

(٣) أخرجها البخاري في أحاديث الأنبياء، قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ ٣٣٥٠.

أي: ولا ينفع بنون مهما كثروا، فلا يملكون لوالدهم نفعًا، ولا يدفعون عنه ضرًّا.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا من أتى الله، أي: وافاه ولقيه بقلب مؤمن مخلص العبادة لله تعالى وحده، سليم من جميع أمراض القلوب، من الشرك والشك، والنفاق والرياء، والشح والكبر، وحب الدنيا، وحب الرياسة، وغير ذلك.

ومن الغل والحقد، والحسد والعداوة والضغينة على عباد الله، يحب لهم ما يحب لنفسه، وينصح لهم؛ كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١).

وكما قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم**»(٢).

قال ابن القيم: «والقلب السليم: هو الذي سلم من الشرك والغل، والحقد والحسد، والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد، ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادًا لا تنحصر(٣)».

وسلامة القلب ليست بالأمر السهل، بل هي بعيدة المنال، إلا على من وفقه الله؛ لأنها تحتاج إلى مجاهدة عظيمة، فإن الإنسان قد يستطيع أن يقوم الليل، ويصوم النهار، ويبذل النفس والمال، والغالي والرخيص، ويهون عليه ذلك، لكن قد لا يستطيع علاج

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٣، ومسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٠١٥، وابن ماجه في المقدمة من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٧، ومسلم في الإيمان ٥٦، والنسائي في البيعة ٤١٥٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٢٧.

قلبه إلا بجهد جهيد؛ ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»(١). وهو معنى قول سفيان الثوري: «ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي؛ لأنها تنقلب علي»(٢).

وقال عبدالله بن أبي مُلَيكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»(٣).

وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً. فقال: «لو كنت منافقاً ما خفت أن تكون منافقاً، إن المنافق قد أمن النفاق»(٤).

وقال بعضهم: «ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه»(٥).

وقيل للحسن: «يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف»(٦).

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل للنبي صلى الله عليه أن يتلو على أمته نبأ إبراهيم عليه السلام وخبره الهام في إخلاص التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله؛ ليقتدوا ويتأسوا به في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ الآيات.

٢- فضيلة إبراهيم عليه السلام، حيث جعله الله قدوة وإمامًا في الدين، وأسوة في إخلاص التوحيد، واجتناب الشرك والبراءة منه وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وحكى عز وجل عن إبراهيم قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

٣- إنكاره عليه السلام على أبيه وقومه ما هم عليه من عبادة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» لابن عثيمين (١/ ٦٦).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٧٠).

(٣) ذكره البخاري في الإيمان، خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر، «فتح الباري» ١/ ١٠٩.

(٤) انظر: «قوت القلوب في معاملة المحبوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٢٢٩) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٢٣).

(٥) انظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص٢١).

(٦) انظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» (ص٢١)، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٦).

٤- تباهيهم بما هم عليه من عبادة الأصنام، وافتخارهم بملازمتهم العكوف عليها، جهلًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾.

٥- بيانه عليه السلام لهم أن معبوداتهم لا تستحق العبادة؛ فهي لا تسمع ولا تجيب، ولا تنفع ولا تضر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾.

٦- إقرارهم واعترافهم بأنها لا تسمع ولا تجيب، ولا تنفع ولا تضر، وأنهم إنما عبدوها اقتداءً بآبائهم، وتقليدًا لهم على جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾.

٧- بيانه عليه السلام عداوة معبوداتهم له، وبراءته منها، وبغضه لها، وكشفه عوارها، وتحذيره من عبادتها، وتحديه لها أن تَخْلُص إليه بسوء؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾.

٨- إثبات ربوبيته تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٩- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة لإبراهيم عليه السلام؛ لمفهوم قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾، أي: فهو وليٌّ لي؛ كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ وَلِيِّـَٔ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦].

١٠- بيانه عليه السلام أنه لا يستحق العبادة إلا رب العالمين وحده، المختص بصفات الربوبية؛ من الخلق والهداية، والرزق والشفاء، والإماتة والإحياء، ومغفرة الخطايا والذنوب وسترها؛ لقوله عليه السلام: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾، وفي هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

١١- ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه بصفات الربوبية التامة، وامتداحه بها، وإثباتها له.

١٢- أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه، في إسناده المرض إلى نفسه، مع أن ذلك كله بقضاء الله وقدره؛ لقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

١٣- أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين من الأخطاء والصغائر، لكنهم لا يقرون عليها وسرعان ما يتوبون منها؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

١٤- إثبات يوم الدين، وما فيه من الحساب والجزاء ومجازاة الخلق بأعمالهم؛ لقوله: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾.

١٥- سؤاله عليه السلام ربه أن يهب له ﴿حُكْمًا﴾، أي: علمًا وفهمًا وحكمة، وأن يلحقه بالصالحين من الأنبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

١٦- أن سؤال الله العلم والفهم والحكمة والصلاح في الدين من أفضل المطالب؛ لأنه مطلب الأنبياء والرسل عليهم السلام.

١٧- سؤاله عليه السلام ربه أن يجعل له في الدنيا ذكرًا حسنًا فيمن يأتون بعده إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

١٨- سؤاله عليه السلام ربه أن يورثه في الآخرة جنة النعيم، التي هي أعظم وأغلى المطالب، وأرفع وأعلى المراتب؛ لقوله: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾.

١٩- إثبات الجنة، وأنها معدة لأهلها.

٢٠- سؤاله عليه السلام المغفرة لأبيه لما هو عليه من الضلال والشرك، وذلك قبل أن يتبين له أنه عدو لله بموته على الكفر؛ لقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾.

٢١- عظم حق الأب، لهذا خص إبراهيم أباه بالدعاء له دون غيره.

٢٢- أن الشرك من أعظم الضلال؛ كما أنه من أعظم الظلم.

٢٣- سؤاله عليه السلام الستر وعدم الفضيحة يوم بعث الخلائق؛ لقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

٢٤- أن في ذلك اليوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من وافى الله ولقيه بقلب مؤمن،

مخلص العبادة لله تعالى وحده، سليم من جميع أمراض القلوب من الشرك والشك والنفاق، والغل والحقد والحسد، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾.

قال ابن القيم(١): «ولا تتم سلامة القلب حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى نفس يناقض التجرد من شهوات الدنيا، وهذه الخمسة حجب عن الله تعالى، لا بد للمسلم من التخلص منها، بالاستعانة بالله عز وجل».

٢٥- فضيلة القلب السليم، والإغراء بالحرص على سلامة القلب.

عن سفيان بن دينار قال: «قلت لأبي بشر: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا، قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا. قال سفيان: ولم ذاك؟ قال أبو بشر: لسلامة صدورهم»(٢).

وقال ابن رجب(٣): «فأفضل الأعمال: سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن على سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم، أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم، ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه».

ومن أهم أسباب سلامة القلب ما يلي:

أولًا: الإقبال على الله تعالى والتعلق به وحده والإخلاص له، ودعاؤه والتضرع إليه وسؤاله الهداية وانشراح الصدر، وسلامة القلب؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ثانيًا: إفشاء السلام؛ قال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى**

---

(١) في «الداء والدواء» ص١٥٢.

(٢) انظر: «الزهد لهناد بن السري ٦/ ٢٠٠.

(٣) في «لطائف المعارف» ص١٣٩.

تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم»[١].

ثالثًا: محبة الخير للمسلمين، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[١].

رابعًا: التماس الأعذار، وإقالة العثرات، والتغاضي والتغافل عن الزلات.

خامسًا: حسن الظن بالآخرين، وحمل ما يصدر منهم على أحسن المحامل، كما جاء في الأثر: «لا تحملن كلمة من أخيك على محمل السوء وأنت تجد لها في الخير محملًا»[١].

٢٦- حاجة الأنبياء عليهم السلام وافتقارهم إلى الله تعالى وسؤاله، وغيرهم من الخلق أحوج إلى سؤاله عز وجل من باب أولى.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾، أي: قربت وأدنيت يوم القيامة.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله، واتقوا سخطه وعذابه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه- تكريمًا لهم- كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٣].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾، أي: أظهرت وكشفت ﴿لِلْغَاوِينَ﴾، أي: لأهل الغي والشرك والكفر والضلال، تخويفًا وترهيبًا لهم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾، أي: وقيل لأهل الغي والكفر والشرك: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: قيل لهم تقريعًا وتوبيخًا: أين الذي كنتم تعبدونه غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد، وتعتقدون فيهم النفع ودفع الضر؟

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾، فيدفعون عنكم عذاب النار، ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾، أي: أو هل ينتصرون بأنفسهم فيدفعون عنها الأذى والضرر والعذاب، والاستفهام: للنفي، أي: لا هذا ولا هذا، فلا هم ينصرونكم ولا ينتصرون لأنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩].

وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ

ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾، أي: كبوا على وجوههم بعضهم على بعض فيها، أي: طرحوا وألقي بعضهم على بعض، وجمعوا في الجحيم.

﴿هُمْ﴾، أي: المعبودون من دون الله، ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾، أي: العابدون لها، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: أتباعه في الغواية والضلال والدعوة إلى ذلك، من الإنس والجن.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال الغاوون من المشركين وجنود إبليس أجمعين لمعبوداتهم من دون الله، ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾، أي: وهم في الجحيم ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: يتجادلون ويتنازعون: العابد والمعبود، التابع والمتبوع، نادمين متحسرين حين رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب.

﴿تَٱللَّهِ﴾، التاء: للقسم، جيء بها دون الواو؛ لأنها تختص بالقسم في شيء متعجب منه، ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، جواب القسم، و«إن» مخففة من الثقيلة مهملة، واللام: للتوكيد، أي: إن كنا لفي ضلال بيِّن واضح.

﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾، أي: حين نسويكم، ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: نجعلكم مثله في العبادة والمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه.

فتبين لهم حينئذٍ ضلالهم البين، وجهلهم، وظلمهم غاية الظلم، وأقروا باستحقاقهم ما هم فيه من العذاب، وعدل الله تعالى فيهم.

وقولهم: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يدل على إقرارهم بربوبيته عز وجل، وأنهم لم يسووا معبوداتهم به في الربوبية، وهو حجة عليهم؛ لأن من لازِمِ توحيد الربوبية: الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾، أي: وما أضلنا عن طريق الهدى والحق والرشاد﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا السادة والكبراء في الإجرام والكفر والضلال من شياطين الإنس والجن، فاغتررنا بهم وأطعناهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً

يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

وقال ﷺ لما قال له حذيفة رضي الله عنه في حديثه الطويل: وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال ﷺ: «**نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»(١).

﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، أي: فما لنا حينئذٍ من شافعين فيشفعون لنا لينقذونا من النار؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

و«من»: للتأكيد، أي: فما لنا من أي شافعين؛ وذلك لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له، وهؤلاء كفرة غير مرضيين عند الله. و«الشافع» في الأصل: من يتوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ معطوف على ما قبله، و«لا»: مؤكدة، و«صديق»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا لنا من أيِّ صديق قريب مشفق يهتم بأمرنا ويواسينا؛ كما هي الحال في الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال بعضهم: وفي جمع ﴿شَـٰفِعِينَ﴾ وإفراد ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إشارة إلى قلة الصديق الحميم؛ كما هو الواقع، قال الشاعر:

ولقد فحصت بني الزمان فلم أجد ... خلّا وفيًّا للمكارم أصطفي

فعلمت أن المستحيل ثلاثة ... ألغول والعنقاء والخل الوفي(٢)

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، «لو» حرف تمنٍّ، أي: ليت لنا ﴿كَرَّةً﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، و«الكرة»: مرة من «الكر» وهو الرجوع.

ولم يقولوا: «ليت لنا كرة» صراحة، بل قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، وهذا تمنٍّ فيه شيء من اللين واللطف والعرض، وذلك لما هم فيه من الخوف والذل، وقد صرحوا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) البيتان بدون نسبة. انظر: «الهدية الهادية» ص٥٩.

بالتمني في سورة الأنعام؛ بقولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الآية:٢٧]. وذلك بحسب اختلاف الأحوال والمواقف.

﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ الفاء: للسببية، و«نكون»: منصوب على التمني بأن مضمرة بعد الفاء، أي: فنكون من المصدقين المنقادين، أي: لو رجعنا إلى الدنيا لآمنا، وهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في محاجة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه وإقامته الحجج على وحدانية الله تعالى، ووجوب إخلاص العبادة له، وبطلان الشرك، والتحذير منه، والبراءة منه ومن أهله ومن معبوداتهم، والبشارة بالجنة للمتقين، والتهديد بالجحيم للغاوين.

﴿لَأٓيَةٗ﴾، أي: لدلالة واضحة جلية على وجوب توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وعظة وعبرة للمعتبرين؛ فيها بشارة للمتقين، وتحذير للغاوين.

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم إبراهيم، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم ضلال كافرون، مع وضوح الأدلة وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾؛ فبعزته عز وجل ورحمته جازى الخلائق بأعمالهم، فأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وجود الجنة وتقريبها للمتقين؛ إكرامًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾.

٢- الترغيب بتقوى الله تعالى؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

٣- أن من إكرام الضيف تقريب الضيافة إليه؛ كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام في إكرامه لضيوفه: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الذاريات: ٢٧]، وليس من إكرام الضيف- بل من إهانته- أن يوضع الطعام في إناء؛ ليأتي الضيوف كل واحد يغترف لنفسه كما يفعل أدعياء المدنية الحديثة بزعم الاقتصاد في الطعام.

٤- إثبات وجود النار، وإبرازها للغاوين من أهل الشرك والكفر والمعاصي إرهابًا

وتخويفًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾.

٥- التحذير من الغواية بالشرك والكفر والمعاصي.

٦- تقديم الترغيب بالجنة على الترهيب بالنار؛ لأن رحمة الله تعالى تسبق غضبه.

٧- تقريع المشركين الغاوين وتوبيخهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينصرهم، ولا ينتصر لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾.

٨- جمع المشركين الغاوين ومعبوداتهم، وطرح بعضهم على بعض في النار، هم وجنود إبليس وأتباعه أجمعون من الإنس والجن؛ إغاظة لهم، ونكاية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾.

٩- تخاصم أهل النار ومعبوداتهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾ [ص: ٦٤].

١٠- إقرار المشركين واعترافهم بضلالهم المبين، في تسويتهم معبوداتهم برب العالمين، وندمهم وتحسرهم على ذلك، حيث لا ينفع الندم؛ لقولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾.

١١- أن الشرك أعظم الضلال وأبينه؛ لما فيه من جعل الأنداد لله، وتسويتهم مع الله الذي لا يماثله شيء، وصرف حقه تعالى لهم.

١٢- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية؛ لقولهم: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم ينفعهم ذلك؛ لأنهم لم يقروا في الحياة بلازمه، وهو توحيد الألوهية، وإنما أقروا بذلك لما كبكبوا في النار، وليس ذلك بنافعهم.

١٣- أن سبب ضلال كثير من الناس: اتباعهم دعاة الضلال من السادة والكبراء المجرمين؛ لقولهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩﴾، مما يوجب الحذر منهم.

١٤- انتفاء الشفاعة عن أهل النار، فما لهم من شافعين يشفعون لهم برفع العذاب أو تخفيفه، ولا صديق حميم يواسيهم؛ لقولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾.

١٥- شدة ندمهم وتمنيهم الرجوع ليستدركوا ويؤمنوا؛ لقولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٢﴾، وهيهات لهم ذلك، مع أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه كما ذكر الله عز وجل.

١٦- أن في محاجة إبراهيم لأبيه وقومه، وإقامته الحجج على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، وبطلان ما هم عليه من الشرك في عبادة الله تعالى- دلالة واضحة على وجوب توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها بشارة للمتقين، ونذارة للغاوين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

١٧- أن أكثر الخلق غير مؤمنين، مع بيان الآيات والأدلة والبراهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾ [القمر: ٥].

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٩- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم» وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾.

٢٠- أنه عز وجل بعزته ورحمته جازى الخلائق بأعمالهم، فأزلفت الجنة للمتقين وأدخلوا فيها، وبرزت الجحيم للغاوين، فكبكبوا فيها هم ومعبوداتهم وجنود إبليس أجمعون.

٢١- في اقتران العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾:

ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام، وقدمها لما فيها من الآيات والعبر والعظات، والحكم العظيمة، ثم أتبعها بذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومحاجته لأبيه وقومه؛ لما فيها من إقامة الدلائل والحجج على وحدانية الله عز وجل، في ربوبيته وإلهيته، وعلى بطلان الشرك، وتقليد الآباء على جهل وضلال، ثم أتبع ذلك بقصة نوح أول الرسل، وقصص الأنبياء بعده: هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

ونوح هو أول الرسل، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[النساء:١٦٣].

وفي حديث الشفاعة: «**ولكن ائتوا نوحًا؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»(١).

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾، أي: كذبوا نبيهم نوحًا عليه السلام، فصاروا بتكذيبهم له مكذبين لجميع الرسل بعده؛ لأن من كذب رسولًا كمن كذب جميع الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك،

---

(١) سبق تخريجه.

والدعوة لكل خير، والتحذير من كل شر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾، أي: حين قال لهم أخوهم نوح، أي: أخوهم نسبًا؛ لأنه منهم؛ كما هو حال كثير من الرسل؛ لكي يطمئنوا إليه وينقادوا له.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، «ألا» أداة عرض وتحضيض، أي: ألا تتقون الله، بفعل ما يأمركم به من توحيده وعبادته، وترك ما ينهاكم عنه مما أنتم عليه من الشرك، وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما لا يخفى من التلطف في الخطاب؛ لاستمالة قلوبهم إلى الحق.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

تعليل لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وقدم المتعلِّق «لكم» للدلالة على الاختصاص، أي: إني لكم خاصة رسول من عند الله، فاشكروه وتلقوا رسالته بالقبول.

﴿أَمِينٌ﴾، أي: أمين على ما بعثني به إليكم، أبلغكم رسالة ربي، لا أزيد فيها ولا أنقص منها؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وكما قال عز وجل في وصف رسله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾، تأكيد لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: فاتقوا الله بترك ما نهاكم عنه والخوف من عذابه، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

لما ذكر السبب الموجب لطاعته- وهو أنه رسول لهم خاصة من عند الله، أمين على ما بعثه الله به- أتبع ذلك بذكر انتفاء المانع؛ فقال:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: وما أسألكم على إبلاغكم رسالة ربي إليكم ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: من أيّ أجر دنيوي مقابل ذلك، فتستثقلون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أجري وجزائي وثوابي- على تبليغكم رسالة ربي- إلا على رب العالمين،

أحتسب ذلك وأدخره عنده، وأرجو به منه الثواب الجزيل.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾، كرر؛ لزيادة التأكيد، بعد أن بين الموجب لذلك، وذكر انتفاء المانع منه، وبيّن لهم صدقه وأمانته ونصحه، فهو أشبه بالتأسيس.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾:

قوله: ﴿۞ قَالُوٓاْ﴾، أي: قال كبراء المكذبين من قوم نوح وساداتهم.

﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا يمكن أن نؤمن لك ونصدقك وننقاد لك.

﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾، قرأ يعقوب: «وَأَتْبَاعُكَ» بقطع الهمزة، وإسكان التاء مخففة، وضم العين، وألف قبلها، على الجمع.

وقرأ الباقون بوصل الهمزة، وتشديد التاء مفتوحة، وفتح العين، من غير ألف: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾.

والجملة حالية، أي: كيف نؤمن لك، ونصدقك فيما جئت به وننقاد لك، والحال أنه قد اتبعك، أو أن أتباعك هم الأرذلون؟ أي: أراذل الناس وأنقصهم وسفلتهم وسقطهم. يَصِمون بذلك من آمن من الفقراء والضعفاء منهم؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: ٢٧].

أي: أنؤمن لك ونتبعك ونتساوى مع هؤلاء الأراذل؟! وهذا كما يدل على شدة تكبرهم يدل على عدم صدقهم في تحري الحق، وأنه لا قيمة له عندهم، إذ كيف يعدلون عنه، ويأنفون من اتباع نوح؛ لمجرد أن الفقراء والضعفاء اتبعوه؟!.

وما علم هؤلاء المتجبرون المتكبرون أن الذين بادروا إلى تصديق نوح، والإيمان بما جاء به، وأمثالهم من اتباع الرسل هم الأكرمون، وأن من ردوا دعوة الرسل وكذبوهم هم الأرذلون، ولكن كما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، «ما» في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ موصولة،

أو مصدرية، أي: وما علمي بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم، في الماضي والحاضر والمستقبل، في الظاهر والباطن.

كما قال ﷺ حين سئل عن أولاد الكفار: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»(١).

أي: إن ما هم عليه من عمل ليس عليَّ أمر التمحيص فيه، والبحث عنه، ما عليَّ إلا قبول ظاهرهم، والله يتولى أعمالهم وسرائرهم.

وأيضًا أيُّ شيء يلحقني بعملهم وإن كانوا هم الأرذلين في زعمكم فلا يضرني ذلك ولا تبعة عليّ منه؛ ولهذا قال:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما حسابهم على أعمالهم إلا على ربي يجازيهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦]، وليس عليَّ من حسابهم شيء، وإنما عليَّ البلاغ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: لو تعلمون حقيقة أنه ليس عليّ تمحيص أعمالهم، ولا تبعة علي فيما يعملون، وأن حسابهم على الله، أي: لَمَا قلتم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، والمراد: اعلموا ذلك.

كما قال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»(٢).

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤﴾، كأنهم لكبرهم وتجبرهم طلبوا منه أن يطرد من آمن به من الفقراء والضعفاء؛ ليتبعوه، وهذا فحوى قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٨٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤، والنسائي في الجنائز ١٩٤٩، والترمذي في القدر ٢١٣٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأن هؤلاء يستحقون على سبقهم التحية والإكرام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾، «إن»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أي: محذر ومخوف، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بين واضح.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك وترك آلهتنا.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، جملة جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لتكونن من المقتولين رجمًا بالحجارة، أي: لنرجمنك بالحجارة فنقتلك شر قِتلة.

ولم يقولوا: لنرجمنّك،بل قالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، مبالغة في التخويف، أي: أنت لست أول من يرجم، بل هناك من رجم قبلك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

بعد أن طال مكث نوح عليه السلام فيهم، يدعوهم إلى الله تعالى بشتى الوسائل، وينوّع لهم في أساليب الدعوة، ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، مجتمعين وفرادى، وكلما كرر عليهم الدعوة، وطال عليهم الأمد، ازدادوا إصرارًا على كفرهم وتكذيبًا واستكبارًا، دعا عليهم فاستجاب الله دعوته.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾، قال نوح عليه السلام بعد أن أيس كل اليأس من إيمان قومه بعد طول لبثه فيهم يدعوهم إلى الله: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾، في هذا ما يشعر بتحسره وحزنه عليهم.

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، الفتح: الحكم، و«فتحًا» مفعول مطلق، أي: فاحكم بيني وبينهم حكمًا، أي: أهلكهم واستأصلهم؛ كما قال في سورة نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

وكما قال في سورة القمر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: وأنقذني وخلصني ومن معي من المؤمنين من العذاب، ومن هؤلاء القوم الكافرين.

وهذا يدل على أن مراده بقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، أي: أهلكهم واستأصلهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، من المؤمنين وهم قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود: ٤٠].

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: في السفينة التي صنعها نوح عليه السلام بأمر الله عز وجل له؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾، المملوء بالناس والدواب والمتاع من كل زوجين اثنين؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾، أي: ثم أغرقنا بعد إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في الفلك ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾، وهم جميع قومه عدا من كان معه في السفينة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في دعوة نوح عليه السلام قومه، وتكذيبهم له، مع طول لبثه فيهم، ومن ثم دعاؤه عليهم، وسؤاله النجاة له ولمن معه من المؤمنين، واستجابة الله دعوته، وإنجائه ومن معه، وإغراق المكذبين.

﴿لَآيَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وعلى صدق نوح عليه السلام وجميع رسل الله تعالى، وصحة ما بعثهم الله به، وبطلان ما عليه المكذبون لهم، وعظة وعبرة لمن يعتبر.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾، أي: وما كان أكثر قوم نوح، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كفار ضالون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾، أي: ذو العزة التامة، والرحمة الواسعة، فبعزته أغرق بالطوفان المكذبين، وبرحمته نصر أولياءه، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢- تكذيب قوم نوح له عليه السلام مع طول لبثه فيهم يدعوهم إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٣- أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، ومعلوم أن نوحًا عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض؛ وذلك لأن دين الرسل كلهم واحد، وهو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، فمن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل.

٤- أن نوحًا عليه السلام من قومه، ونسيب فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾.

٥- حثه عليه السلام قومه على تقوى الله تعالى بعبادته وحده، وترك ما هم عليه من الشرك؛ لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٦- بيانه لهم أنه رسول لهم خاصة، أمين على ما بعثه الله به إليهم؛ لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾، وفي هذا جواز وصف الإنسان نفسه بالأمانة ونحو ذلك، إذا كان على سبيل الإخبار الصادق، ولمصلحة، لا الافتخار، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»(٢).

٧- تأكيده أمرهم بتقوى الله، وحثهم على طاعته؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

٨- نفيه أن يسألهم أجرًا دنيويًّا مقابل تبليغه إياهم رسالة ربه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، لئلا يعتبروا ذلك غرمًا، فيمتنعون من الإيمان بسبب هذا الأجر والغرم.

٩- إخلاصه عليه السلام وبيانه أن أجره في تبليغ رسالة ربه على الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهكذا جميع الرسل يحتسبون أجرهم في ذلك على الله، لا على غيره.

١٠- وجوب إخلاص العمل لله تعالى طلبًا لثوابه، وابتغاء مرضاته.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

١٢- تأكيده ثالثة أمرهم بتقوى الله وطاعته، بعد أن بين لهم السبب الموجب لذلك، وانتفاء المانع؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

١٣- امتناعهم من الإيمان، ونفيهم أن يؤمنوا لعلة واهية باطلة؛ وهي أنه قد اتبعه الأرذلون، يعنون: الفقراء والضعفاء؛ لقولهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾.

١٤- عتو قوم نوح وتجبرهم وتكبرهم عن قبول الحق، وعلى فقرائهم وضعفائهم.

١٥- مبادرة الفقراء والضعفاء إلى الإيمان بالرسل واتباعهم، وتأخر ذوي الأموال والمناصب والجاه، بل وامتناع كثير منهم عن الإيمان، حكمة بالغة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، القراء من أصحاب رسول الله ﷺ ٥٠٠٢، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما ٢٤٦٣.

١٦- بيان نوح عليه السلام أنه ليس عليه التمحيص في أعمال من آمن به واتبعه، وإنما عليه قبول الإيمان الظاهر منهم، والله يتولى السرائر؛ لقوله: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١٧- أن حساب الخلائق على الله تعالى إليه إيابهم، وعليه حسابهم، وليس على الرسل إلا البلاغ؛ لقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

١٩- الإشارة إلى جهل قومه، وعدم علمهم؛ لقوله: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

٢٠- نفيه عليه السلام أن يطرد المؤمنين؛ لأجل هؤلاء المتجبرين المتكبرين من قومه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

٢١- وجوب التواضع للمؤمنين، وتقريبهم وموالاتهم ومحبتهم، وعدم سماع القالة فيهم.

٢٢- بيانه عليه السلام أنما هو نذير محذر من عذاب الله تعالى، بيِّن النذارة؛ لقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

٢٣- تهديدهم له إن لم ينته عن دعوتهم بالرجم والقتل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

وهذه طريقة المكذبين المستكبرين من أعداء الرسل وغيرهم من دعاة الحق، إذا أيسوا من إبطال الحق، لجؤوا إلى التهديد بالقوة.

٢٤- يأسه عليه السلام كل اليأس من إيمانهم بعد طول لبثه فيهم، ودعاؤه عليهم بالهلاك والاستئصال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

٢٥- سؤاله ربه النجاة له ولمن معه من المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٦- استجابة الله عز وجل له، وإنجاؤه ومن معه من المؤمنين في السفينة، وإغراق الباقين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ

أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

٢٧- نصرة الله تعالى لرسله وأوليائه ولو بعد حين، وإهلاك أعدائهم.

٢٨- أن في دعوة نوح عليه السلام لقومه وتكذيبهم له مع طول لبثه فيهم، ومن ثم دعاؤه عليهم، وسؤاله النجاة له ولمن معه من المؤمنين، واستجابته عز وجل له، وإنجاؤه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين- دلالةً عظيمة على تمام قدرة الله تعالى، ونصرته لرسله وأوليائه، وإهلاك أعدائه، وفي ذلك تسلية له ﷺ وتهديد للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

٢٩- أن أكثر قوم نوح، وأكثر الخلق غير مؤمنين، مع ظهور الحق، وقيام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٣١- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة، وأنه سبحانه بعزته أغرق المكذبين من قوم نوح، وبرحمته أنجى نوحًا ومن معه من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾:

ذكر الله تعالى قصة نوح وقومه، ثم أتبعها بذكر قصة هود وقومه؛ لأن زمانهم كان بعد قوم نوح، وقد جعلهم الله خلفاء من بعد قوم نوح؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، لتكذيبهم نبيهم هودًا عليه السلام، وكانت منازلهم في الأحقاف جنوب الجزيرة، وهي جبال الرمل قريبًا من حضر موت، متاخمة لليمن، وقد أعطاهم الله من القوة، وكبر الأجسام، وشدة الخلق والبطش ما لم يكن لغيرهم، فاغتروا بقوتهم وبأسهم، وكذبوا هودًا عليه السلام، وأصروا على عبادة الأوثان، فسلط الله عليهم الريح، ألطف مخلوقاته، فجعلها أعتى شيء عليهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، والريع: الطريق والمدخل والفج بين الجبال، وقيل: الشرف والمكان المرتفع.

﴿ءَايَةً﴾، أي: علامة ومَعْلمًا وبناء مشهورًا، دلالة على قوتكم وقدرتكم.

﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي: تبنون ذلك عبثًا، ولهوًا ولعبًا، واستعراضًا للقوة، وإظهارًا لها، وتضييعًا للزمان، وإتعابًا للأبدان، بلا حاجة، ومن غير فائدة، ولا مصلحة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، بروجًا مشيدة، وقصورًا رفيعة، وحصونًا منيعة، ومصانع كثيرة، ومخازن كبيرة للمياه تحت الأرض.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم، فنادى: «يا أهل دمشق»، فاجتمعوا إليه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «ألا تستحيون؟ ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعمان خيلًا وركابًا، من يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟!»(١).

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ﴾، البطش: الأخذ بشدة قتلًا وضربًا، وأخذًا للأموال، وغير ذلك، ﴿جَبَّارِينَ﴾ حال، والجبار: الشديد في البغي والظلم بغير رأفة.

والمعنى: وتبطشون بطش جبارين بشدة وبغي وظلم من غير رأفة.

فاغتروا بما أعطاهم من القوة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٣٧٩٩، وذكره ابن كثير ٦/ ١٦٢- ١٦٣.

وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، بترك ما أنتم عليه من عبادة غير الله، وتكذيب الحق، والعبث والانشغال بما لا ينفعكم، والظلم والجبروت، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما آمركم به.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾، تأكيد للأمر بتقوى الله، مع التذكير بنعم الله، ﴿بِمَا﴾، «ما»: موصولة، أي: اتقوا الذي أعطاكم وزودكم بالذي تعلمونه، وبما لا يجهل ولا ينكر؛ من النعم العظيمهْ، والآلاء الجسيمهْ، التي لا تحصى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨].

﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾، الجملة بدل من جملة: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾وتفصيل لها، وكرر الفعل «أمدكم» للتوكيد وزيادة الاهتمام بذلك الإمداد.

﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ﴾، أي: أعطاكم وزودكم بأنعام كثيرة؛ من إبل وبقر وغنم، وغير ذلك من بهيمة الأنعام، ﴿وَبَنِينَ﴾، أي: وأمدكم بـ«بنين» كثير، يخدمونكم، وبهم عزكم وفخركم، وهم زينة الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

وخص البنين؛ لأنهم هم وأبناؤهم وإن نزلوا يكونون عصبة وقبيلة دون أولاد البنات، فهم من غيرهم؛ قال الفرزدق(١):

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وقدم الأنعام وأخر «بنين» لمراعاة الفاصلة.

﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: وبساتين وعيون تنبع من الأرض وتجري.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾﴾، الجملة: تعليل لإنكاره عليهم عدم تقواهم، ولأمره إياهم بالتقوى.

أي: إني أخاف وأشفق أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم في الدنيا، أو عذاب يوم

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢١٧).

القيامة الذي لا أعظم ولا أشد ولا أكبر منه، بسبب كفركم وبطشكم وتجبركم وتكبركم، فدعاهم أولًا بالترغيب، ثم بالترهيب، فما نفعهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾:

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾، أي: قالوا معاندين للحق، مكذبين لهود عليه السلام، مؤيسين له من قبول ما يدعوهم إليه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾، أي: يستوي عندنا ﴿أَوَعَظْتَ﴾، أي: أخوفت وحذرت ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، أي: أم لم تكن من المخوفين والمحذرين.

أي: إننا لن نترك عبادة آلهتنا، ولن نؤمن لك لمجرد قولك؛ كما قالوا في الآية الأخرى في سورة هود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وكما قال تعالى عن كفار هذه الأمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وهذا غاية العتو والقسوة والشقاء؛ أن تبلغ الحال إلى أن تصير مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها كعدمها على حد سواء، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي بفتح الخاء وإسكان اللام: «خَلْقُ»، وقرأ الباقون بضمهما: ﴿خُلُقُ﴾.

والجملة: تعليل لقولهم: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، وخلق الأولين: عادتهم ودينهم.

أي: إن هذا الإمداد والنعم، وتغير الأحوال وتقلبها، من شدة إلى رخاء، ومن فقر إلى

غنى، أو العكس، ما هي إلا عادات الأولين؛ من الآباء والأجداد، وأحوال جرت عليهم، وتجري علينا مثلهم، ولا بعث ولا حساب ولا عذاب، فلِمَ تُخوِّفنا؟ كما قال المشركون الدهريون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويحتمل أن المعنى: ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، وافتراءاتهم وكذبهم وأساطيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل: ٢٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾، الباء: للتوكيد، أي: وما نحن بمعذبين أبدًا، وهذا إنكار منهم للبعث والحساب والجزاء على الأعمال، أو اغترار بما هم فيه من النعم في الدنيا، وأنه إن كان ثمة بعث، على سبيل الفرض، فلن نعذب، بل سننعم؛ كما هي حالنا في الدنيا.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فأصروا واستمروا على تكذيب هود عليه السلام فيما دعاهم إليه، وفيما خوفهم منه.

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فاستأصلناهم ودمرناهم بريح صرصر عاتية؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات: ٤١- ٤٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، ودعوته إياهم إلى

تقوى الله وطاعته، وإنكاره ما هم عليه من عبادة غير الله، والبطش والجبروت، وغير ذلك، وتذكيرهم بنعم الله، وتحذيرهم من عذابه، وعنادهم، وإنكارهم البعث والعذاب، وتكذيبهم، ومن ثم إهلاكهم وتدميرهم.

﴿لَآيَةً﴾، أي: لعظة وعبرة للمعتبرين، ودلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وعلى صدق هود وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والبطش والجبروت، وتسلية له ﷺ وتهديد للمكذبين له.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم هود، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كافرون ضالون مع بيان الأدلة، وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٨﴾﴾، فبعزته عز وجل ورحمته نصر هودًا ومن اتبعه، وأهلك المكذبين من قومه.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب عاد جميع المرسلين بتكذيبهم هود عليه السلام؛ لأن دين الرسل واحد، فمن كذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٢- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه عاد خاصة، وأنه ذو نسب فيهم، وأمين على ما بعثه الله به إليهم، وإنكاره عليهم ما هم عليه من عبادة غير الله، وأمره لهم بتقوى الله وطاعته، وترك ما هم عليه من الشرك ومخالفة أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾.

٣- نفيه عليه السلام أنه يسألهم أجرًا على تبليغهم رسالة ربه فيستثقلوا ذلك، وأن أجره كغيره من المرسلين على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥- إنكاره عليه السلام عليهم اشتغالهم عبثًا ببناء المعالم على الطرق، مما لا فائدة فيه، ولا حاجة بهم إليه؛ استعراضًا لقوتهم وقدرتهم واتخاذهم المصانع والقصور؛ كأنهم يخلدون؛ لقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

٦- إنكاره عليهم اغترارهم بما هم عليه من القوة والشدة في الخلق، وبطشهم وجبروتهم؛ لقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

٧- تأكيده لهم الأمر بتقوى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾.

٨- تذكيرهم بنعم الله تعالى الكثيرة عليهم مما لا يخفى عليهم؛ من الأنعام والبنين والعيون وغير ذلك؛ ليتَّقوه؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾.

٩- إن الإمداد بالنعم والأرزاق كله من الله عز وجل؛ مما يستوجب شكره وتقواه وطاعته، وذكر تلك النعم، والتذكير بها، وشكرها، وعدم كفرها.

١٠- شفقته عليه السلام وخوفه عليهم إن أصروا على ما هم عليه من الشرك والبطش والجبروت من عذاب يوم عظيم في الدنيا أو الآخرة؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

١١- جمعه عليه السلام لهم بين الترغيب والترهيب، ولكن ذلك لم ينجع فيهم. وهكذا ينبغي أن يُجمع في الدعوة إلى الله بين الترغيب والترهيب.

١٢- شدة عتو عاد، وإصرارهم على ما هم عليه من الكفر، ورفضهم وعظ هود لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

١٣- جهلهم ومكابرتهم، وظنهم الباطل: أن ما هم فيه من النعم، وتقلب الأحوال، وانتقالها من شدة إلى رخاء، ومن رخاء إلى شدة، إنما ذلك عادة الأولين من الآباء والأجداد، فتجري عليهم كما جرت على الأولين قبلهم. وفي هذا جمع بين كفر نعمة الله تعالى، والأمن من عقابه لهم بزوالها؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

١٤- إنكارهم البعث والحساب والجزاء على الأعمال، واغترارهم أنه إن كان ثمة بعث فسيُنَعَّمون كحالهم في الدنيا، ولن يعذبوا؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

١٥- إصرارهم واستمرارهم على تكذيب هود عليه السلام، وإهلاكهم واستئصالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

١٦- إثبات الأسباب، وأن سبب إهلاك قوم هود هو تكذيبهم له عليه السلام.

١٧- أن في قصة هود عليه السلام مع قومه عاد ودعوته لهم وما جرى بينه وبينهم، وإصرارهم على ما هم عليه من الشرك والبطش والعناد، وتكذيب هود، ومن ثم إهلاكهم وتدميرهم عظةً وعبرة- دلالةً على عظمة الله وتمام قدرته ونصرته لرسله وأوليائه، والانتقام من أعدائه وإهلاكهم، وفيها وعد له ﷺ وللمؤمنين، ووعيد وتهديد للكافرين.

١٨- أن أكثر عاد، وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي «العزة» و«الرحمة» له عز وجل، وأنه سبحانه بعزته ورحمته ينصر أولياءه، ويهلك أعداءهم؛ ولهذا نصر نبيه هودًا وأهلك عادًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

أتبع عز وجل قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام بقصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام؛ لأنهم بعد عاد في الزمن؛ كما قال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ولأنهم أيضًا كلهم في جزيرة العرب؛ فعاد في جنوبها بالأحقاف، وثمود في شمالها في «العُلا» قرب تبوك، مساكنهم الحجر المعروفة الآن بـ«مدائن صالح».

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾، سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، والتحذير، والتقريع والتوبيخ، أي: أتظنون أنكم ستتركون ﴿فِى مَا هَٰهُنَآ﴾، أي: في بلادكم، وفيما أنتم فيه

من النعم، سدًى، لا تؤمرون ولا تنهون، ولا تتبدل هذه النعم ولا تتغير، ولا تفارقكم، ولا تفارقونها، أي: لا تظنوا ذلك، فدوام الحال من المحال؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

﴿ءَامِنِينَ﴾، حال، بدأ بالامتنان بنعمة الأمن؛ لأنها من أعظم النعم، ولا يُتذوق طعم النعم الأخرى إلا بها؛ ولهذا امتن الله بها على قريش، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣- ٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال ﷺ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(١).

وليت من يغترون بنباح الكلاب من حسّاد هذه البلاد على ما هي فيه من نعمة الأمن يعون هذا المعنى، ويعلمون أن بلادهم مستهدفة من جميع أعداء الإسلام من الرافضة الصفويين واليهود والنصارى والكفرة الملحدين والمنافقين، وغيرهم.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾، أي: بساتين مليئة بالأشجار والثمار، وعيون نابعة بذاتها بالمياه العذبة تجري من غير كلفة.

﴿وَزُرُوعٍ﴾، تثمر أنواع الحبوب التي هي من أهم الأغذية.

﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، أي: ثمرها يانع لين نضيج، مهضوم، من أطيب الثمار.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، قرأ حمزة وعاصم وابن عامر بألف بعد الفاء: ﴿فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١؛ من حديث سلمة بن عبيدالله بن محصن الخطمي، عن أبيه رضي الله عنه.

وقرأ الباقون بغير ألف: «فَرِهِينَ»، أي: ماهرين بنحتها حاذقين عارفين، متقنين لها، أشرين بطرين؛ كما قال هود لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨- ١٢٩].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾، تأكيد للأمر بتقوى الله وطاعته شكرًا له بعد أن ذكرهم بنعمه.

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾، الإسراف: مجاوزة الحد، أي: ولا تطيعوا أمر المسرفين بالشرك، المتمادين في الكفر والمعاصي.

﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ صفة للمسرفين، وهي صفة كاشفة، أي: الذين وصفُهم ودأبهم وديدنهم الإفساد في الأرض بالشرك والكفر والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، تأكيد لشدة إفسادهم في الأرض؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

وبين قوله: ﴿يُفْسِدُونَ﴾ وقوله: ﴿يُصْلِحُونَ﴾، طباق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا من المسحرين، أي: من المسحورين، المغلوب على عقولهم بكثرة السحر، فأنت تهذي بما لا معنى له، وبما لا تدري.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا بشر مثلنا، فكيف

أوحي إليك دوننا؟! كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٥- ٢٦].

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ تدل على صحة ما جئت به وقصدهم بهذا التحدي؛ ولهذا قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ بأنك مرسل إلينا.

وكون الرسل من البشر لا بد منه؛ ليتمكنوا من تبليغ رسالات الله إلى بني جنسهم، وليس ذلك بقادح في رسالتهم؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١١].

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾، أي: قال لهم صالح: هذه ناقة هي لكم آية؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٧٣]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٦٤].

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾، أي: ترد ماءكم وتشربه يومًا، وتشربون من لبنها في ذلك اليوم.

﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، تردون فيه الماء وتشربونه أنتم، وفي ذلك ابتلاء وامتحان لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝٢٨﴾ [القمر: ٢٧- ٢٨].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، أي: ولا تصيبوها بعقر أو غيره.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، الفاء: للسببية، أي: فيأخذكم بسبب ذلك عذاب يوم عظيم في الدنيا، وفي هذا وعيد وتهديد وتحذير لهم.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: قتلوها؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٧٧]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾ [الآية: ٦٥].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ۝١٥٧﴾ على قتلها لما ينتظرهم من العذاب الذي تُوعدوا به،

وما فاتهم من شرب لبنها.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي توعدهم به هود عليه السلام بقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

وهي صيحة عظيمة أرجفت بهم، وصعقتهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم، فهلكوا عن آخرهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١- ١٥].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام، ودعوته لهم إلى تقوى الله تعالى وطاعته، وتذكيره إياهم بنعم الله تعالى عليهم، ونهيهم عن طاعة المفسدين. واتهامهم إياه بالسحر، ومطالبتهم له عنادًا منهم أن يأتيهم بآية، وإرسال الناقة لهم آية، وتكذيبهم له وعقر الناقة، ومن ثم أخذهم بالعذاب وإهلاكهم.

﴿لَأٓيَةً﴾، أي: لعظة وعبرة للمعتبرين، ودلالة على صدق صالح عليه السلام وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى ونصره لرسله وأوليائه، وانتقامه من المكذبين لهم وإهلاكهم، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر ثمود، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كفار مكذبون ضالون، مع وضوح الحق وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾، فبعزته عز وجل ورحمته أنجى صالحًا والذين آمنوا معه، وأهلك المكذبين له بالصيحة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٦- ٦٧].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب ثمود جميع الرسل؛ لتكذيبهم صالح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

٢- إثبات رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود خاصة، وأنه ذو نسب فيهم، أمين على ما بعثه به إليهم، وإنكاره عليهم ما هم عليه من الشرك، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾﴾.

٣- أنه عليه السلام لم يسأل قومه ثمود أجرًا على إبلاغهم رسالة ربه، وإنما أجره- كغيره من المرسلين- على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥- تذكير قومه بنعم الله تعالى العظيمة عليهم، وتخويفهم وتحذيرهم من زوالها، أو زوالهم عنها؛ لقوله: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

٦- أن نعمة الأمن من أعظم النعم؛ لهذا قدمها في الذكر على غيرها من النعم، ولا يعرف قدرها تمامًا إلا من فقدها.

٧- وجوب شكر النعم، ومن أهمها: نعمة الأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان، والرزق، وقبل ذلك كله نعمة الإسلام.

٨- أن طلع النخل وثمرها من أطيب الثمار وأنفعها؛ لأن الله امتدحه فقال: ﴿وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾﴾؛ ولهذا سأل ﷺ أصحابه عن الشجرة التي تشبه

المسلم، فقال لهم: «**هي النخلة**»(١).

٩- منة الله على ثمود بما أعطاهم من القوة والقدرة والمهارة في نحت البيوت من الجبال وإتقانها؛ وبطرهم وأشرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾، وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر: ٨٢].

١٠- تأكيد الأمر لهم بتقوى الله وطاعته، شكرًا لله تعالى بعد تذكيرهم بنعمه؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠﴾.

١١- نهيه إياهم عن طاعة أمر المسرفين، الذين دأبهم الإفساد في الأرض، بلا إصلاح؛ لقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾.

١٢- نصح صالح عليه السلام لقومه، فأمرهم بتقوى الله وطاعته، وحذرهم من طاعة المسرفين المفسدين، وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؛ كما قال ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقّاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم»(٢).

١٣- مكابرة ثمود وعنادهم، واتهامهم صالحًا عليه السلام بأنه مسحور، قد غلب السحر على عقله، يهذي بما لا يدري؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، وهذا شأن المكذبين للرسل.

١٤- قدحهم في رسالته، وتكذيبهم إياه بعلة أنه بشر مثلهم، وليس بملك، فكيف يوحى إله دونهم؟! لقولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، وقد ردت الرسل عليهم السلام على هذا بقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

١٥- اقتراحهم وطلبهم منه إتيانهم بآية تدل على صدقه؛ لقولهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٣١، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦).

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

١٦- إخراج الله لهم الناقة آية ودلالة بينة على صدقه عليه السلام، وابتلاؤهم بأن يكون لها شرب ولهم شرب يوم معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

١٧- تحذيره إياهم من أن يمسوها بسوء أو يتعرضوا لها بأذى، في بدنها أو شربها، فيصيبهم عذاب عظيم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

١٨- مخالفتهم وتكذيبهم له، وإقدامهم على عقرها وقتلها وأخذهم بالعذاب وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

١٩- أن في قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، ودعوته لهم، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم إياه، وعقرهم الناقة، وإهلاكهم- عبرةً وعظة، ودلالة على صدق صالح، وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى ونصرته لرسله وأوليائه، وإهلاك أعدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾، وفي هذا تهديد للمكذبين للنبي ﷺ وتسلية له.

٢٠- أن أكثر ثمود وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطابه عز وجل، وإضافة اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٢- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾:

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٦٠﴾، «لوط»: هو لوط بن هارون بن آزر، وهو ابن أخ إبراهيم الخليل عليه السلام، بعثه الله في حياة إبراهيم، وقومه كانوا يسكنون «سدوم» التي قلبها الله عليهم بسبب كفرهم وارتكابهم فاحشة اللواط، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

وقد سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾:

قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: كيف تأتون الذكران، أي: الذكور فيعلو الذكر منكم الذكر، وترتكبون الفاحشة العظيمة فاحشة اللواط، التي هي أعظم الفواحش؛ لمخالفتها للفطرة؟!

﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: شاذين ومخالفين في هذه الفعلة القبيحة الشنيعة جميع العالمين، حتى العجماوات! فإنه لا يوجد في الحيوانات كلها أن الذكر منها يعلو الذكر؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الآية: ٨٠]، وقال في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٢٨].

ويحتمل أن المعنى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: من الناس.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ اللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾: للإباحة، أو التعليل، أي: وتتركون نكاح الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من النساء اللاتي أباحهن الله لكم بعقد الزوجية الصحيح.

وفي قوله: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ إشارة إلى أن الله هيأ الزوجة للرجل يتمتع بها كما يشاء إلا ما حرم الله من الدبر، كما قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون:٥، ٦، المعارج:٢٩، ٣٠].

وبين قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾، و﴿تَذَرُونَ﴾ طباق إيجاب.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾، «بل» للإضراب الانتقالي. و«العادي»: من تجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، أي: بل أنتم قوم معتدون، متجاوزون ما أباح الله لكم من الحلال إلى الحرام، وفيه انتقال من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذم؛ تغليظًا للإنكار عليهم.

وفي قوله: ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون أن يقول: «بل أنتم عادون» إشارة إلى أن هذا العدوان قد صار سجية فيهم، وعادة لهم.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته يا لوط عن دعوتنا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإنكار ما نحن عليه من الشرك وارتكاب الفاحشة والمعاصي.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، جملة جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم،

أي: لتكونن من المخرجين من البلاد المنفيين المطرودين عنها، أي: لننفينك ونخرجنك من بين أظهرنا ومن بلدنا؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

وفي قولهم: ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ دون أن يقولوا: ﴿لنخرجنك﴾ زيادة في التهديد بأن لنا سلطانًا وقوة، وقد أخرجنا غيرك، وستكون أنت من جملة المخرجين.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾، أي: لما أنتم عليه من الكفر وفعل الفاحشة.

﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، أي: من المبغضين له بغضًا شديدًا، الناهين عنه، المحذرين منه، البريئين منه، وممن يعمله.

وفي هذا تحدٍّ لهم؛ أي : أني أبغض عملكم هذا، وأتبرأ منه، مهما كانت التبعة، ولا يهمني إن أخرجتموني.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾، أي: يا رب نجني وخلصني وأهلي من الذي يعملونه أو من عملهم، أي: من عملهم وعقوبته.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾، الفاء: عاطفة، أي: فاستجبنا له، فنجيناه وأهله أجمعين، أي: كلهم، بأمرنا له بالإسراء بهم؛ كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«عجوزًا»: منصوب على الاستثناء.

﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: في الباقين في العذاب، وهي امرأته؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الآية: ٨٣]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [الآية: ٨١]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الآية: ٦٠].

وكانت امرأة سوء كافرة تدل قومه على أضيافه، وتخونه؛ كما قال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ

عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الآية: ١٠].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾، أي: ثم بعد أن أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين بخروجهم من قرية قومهم، ﴿دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾، أي: أهلكنا الآخرين، وهم قومه الكافرين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، من السماء من الحجارة بعد قلب ديارهم وجعل عاليها سافلها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَسَآءَ﴾، أي: فبئس وقبح ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، مطرهم الذي أُمطروه بعد الإنذار لهم، وهي الحجارة.

وقوله: ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ دون أن يقول: مطرهم؛ لبيان أنهم قد أنذروا وحذروا وقامت عليهم الحجة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في إرسال لوط إلى قومه، ودعوته إياهم إلى تقوى الله وطاعته وعبادته وحده، وإنكاره ما هم عليه من الشرك وفعل الفاحشة، وتكذيبهم وتوعدهم إياه بالإخراج، وسؤاله ربه نجاته وأهله من فعلهم وعقوبتهم، واستجابته عز وجل له، وإنجائه وأهله المؤمنين وتدمير وإهلاك الكافرين.

﴿لَءَايَةً﴾، أي: لدلالة على صدق لوط وصحة ما جاء به، وعلى كمال قدرة الله تعالى، حيث أنجى لوطًا وأهله المؤمنين، وأهلك قومه المكذبين الكافرين، وفي ذلك عظة وعبرة للمعتبرين، ووعيد وتهديد للمعاندين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم لوط مؤمنين، بل أكثرهم كافرون؛ إذ لم يؤمن به إلا أهله، عدا امرأته؛ كما أن أكثر الخلق غير مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾، فبعزته عز وجل ورحمته أنجى لوطًا وأهله المؤمنين، وأهلك قومه الكافرين.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب قوم لوط له عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾، ومن كذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل.

٢- إثبات رسالة لوط إلى قومه خاصة، وإنكاره عليهم ما هم عليه من عبادة غير الله، وارتكاب الفاحشة، وبيان أمانته على ما بعثه الله به إليهم، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾.

٣- أنه عليه السلام كغيره من الرسل لم يسأل قومه أجرًا على تبليغهم رسالة ربه، وإنما أجره على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبُّكُم﴾.

٥- إنكاره على قومه إتيانهم الذكران، وارتكابهم فاحشة اللواط؛ وأنه ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾.

٦- إنكاره عليهم رغبتهم عما خلق الله لهم من الزوجات الحلال إلى المحرم شرعًا، والشاذ فطرة؛ لقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾.

٧- أن منهج التشريع الرباني إذا حظر شيئًا وحرمه أباح ما يغني عنه؛ ولهذا لما أنكر لوط عليه السلام على قومه إتيان الذكران، بين لهم ما يغني عنه من الحلال، وهو ما خلق الله لهم من الأزواج.

٨- تغليظه عليه السلام الإنكار عليهم، وذمهم بتجاوزهم الحلال إلى الحرام، وكون ذلك سجية لهم؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وفي هذا دلالة على أن من تجاوز الحلال إلى الحرام فهو عادٍ ظالم.

٩- شدة عتوهم وعنادهم، فبدل أن يجيبوا دعوته هددوه وتوعدوه بالإخراج من بلده إن لم يكف عن دعوتهم، وترك الإنكار عليهم؛ لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾.

١٠- أن منهج المكذبين للرسل ولدعاة الحق واحد، فإذا عجزوا عن معارضة الحق بالحجة لجؤوا إلى التهديد بالقوة؛ بالإخراج أو القتل ونحو ذلك: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨].

١١- إعلانه عليه السلام بغضه الشديد لعملهم، ونهيه عنه، وتحذيره منه وتحديه لهم في ذلك؛ لقوله: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾.

١٢- يجب على كل مؤمن أن يبغض هذا العمل؛ لأن الله شدد في تحريمه وغلَّظ عقوبته، وأبغضه رسله عليهم السلام.

١٣- سؤاله ربه نجاته وأهله من عمل قومه وعقوبته؛ لقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه لوط عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

١٥- استجابة الله تعالى لدعاء لوط، وإنجاؤه وأهله من العذاب إلا امرأته؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١﴾.

وهذا يتضمن إثبات علمه عز وجل وقدرته ورحمته.

١٦- أن القرب من الرسل والصالحين نسبًا أو مصاهرة مع الكفر والبعد عن الله، لا يغني صاحبه شيئًا، فهذه امرأة لوط هلكت مع من هلك.

١٧- تدمير المكذبين من قومه وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٧٢﴾.

١٨- أن تدمير قوم لوط وإهلاكهم كان بإمطارهم حجارة من السماء بعد قلب ديارهم، وجعل عليها سافلها، وبئس المطر الذي أمطروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣﴾. وقد استدل أهل العلم بالآية على أن حد اللوطي هو القتل.

١٩- أنهم قد أنذروا وحذوا وقامت الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

٢٠- أن في رسالة لوط عليه السلام إلى قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وإنكاره ما هم عليه من الشرك، وارتكاب الفاحشة والمعاصي، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم وتهديدهم له، وإنجائه وأهله المؤمنين وتدمير الكافرين- دلالةً على صدقه، وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى، وعظةً وعبرة للمعتبرين، وتهديدًا للمعاندين، وتحذيرًا من ارتكاب عملهم الشنيع.

٢١- أن أكثر قوم لوط غير مؤمنين، بل ما آمن معه إلا بعض أهله؛ كما أن أكثر الخلق عامة غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله عز وجل له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

٢٣- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

٢٤- أنه عز وجل بعزته أهلك المكذبين الكافرين من قوم لوط، ويهلك أمثالهم، وبرحمته أنجاه وأهله المؤمنين، وينجي غيرهم من المؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠﴾:

قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦﴾ الآيات؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بلام مفتوحة من غير ألف وصل، ولا همزة بعدها، وبفتح تاء التأنيث في الوصل: «لَيْكَةَ»، وقرأ الباقون بألف وصل مع إسكان اللام وهمزة مفتوحة بعدها وخفض تاء التأنيث: ﴿الأَيْكَةِ﴾.

والأيكة: الشجرة، أو الشجر الملتف؛ كالغيضة.

وأصحاب الأيكة: هم أهل «مدين» قوم شعيب عليه السلام، وكان شعيب عليه السلام منهم نسبًا، وإنما لم يقل هنا: «أخوهم شعيب»- والله أعلم- قيل: لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، ولهذا نسبه إليهم في سورة الأعراف وهود والعنكبوت، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤،، العنكبوت: ٣٦]، كما وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، ونهاهم عن الإفساد في الأرض كما في قصة مدين، سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة، واختار هذا ابن كثير(١).

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ١٦٨).

وقال بعض المفسرين: إن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، وإنهما أمتان، وإن شعيبًا أرسل إليهما جميعًا، واستدل من قال هذا بأنه لم يقل أخوهم، وقالها في قصة «مدين»، كما استدل من قال: إنهما أمتان باختلاف عذابهما، فمدين أخذوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة أخذوا بعذاب يوم الظلمة. واختار هذا ابن عثيمين(١)؛ وقد سبق الكلام على نظير هذه الآيات في الكلام على قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾.

بعد أن أنكر عليهم عدم تقوى الله، وما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله، وأمرهم بتقوى الله وطاعته، أمرهم بإيفاء الكيل والوزن بالعدل، ونهاهم عن نقصهما، وبخس الناس حقوقهم، وعن الإفساد في الأرض؛ لأن تخسير الكيل وبخس الوزن، وقطع الطريق كان ظاهرًا مشتهرًا فيهم.

قوله: ﴿۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾، أي: أتموا الكيل إذا كلتم للناس، وأكملوه.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾، تأكيد لما قبله، و«المخسرين»: جمع «مخسر»، وهو فاعل الخسارة لغيره، أي: المنقص، أي: ولا تكونوا من المطففين في الكيل، المخسرين المنقصين للناس.

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بكسر القاف: ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «بِالقُسْطَاسِ»، أي: بالميزان العدل السوي.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، أي: ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم وأموالهم.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، أي: ولا تسعوا في الأرض مفسدين بقطع الطريق، بالقتل وأخذ الأموال والصد عن سبيل الله؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَلَا

---

(١) في «تفسير القرآن الكريم» سورة الشعراء (ص٢٧٤).

تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الآية: ٨٦].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: والخلق الأولين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، أي: خلقًا كثيرًا.

وهذا تأكيد للأمر بتقوى الله، مع تذكيرهم بأنه سبحانه الذي خلقهم وخلق من قبلهم من الأمم، وذلك موجب لتقواه عليهم وشكره، وهذا كقول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، الله أكبر، إنها السنن، شابهوا بهذا جواب ثمود لنبيهم صالح بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٤].

أي: وما أنت يا شعيب إلا من المسحورين، وما أنت إلا بشر مثلنا، فما الذي فضلك بالرسالة دوننا، وقد سبق الكلام على الآيتين.

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، الواو عاطفة، و«إن» مخففة من الثقيلة مهملة، واللام: للتوكيد، أي: وإن نظنك لمن الكاذبين في زعمك أنك مرسل إلينا.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قرأ حفص بكسر الكاف وفتح السين: ﴿كِسَفًا﴾، وقرأ الباقون بسكون السين: «كِسْفًا»، أي: أسقط علينا قطعًا من العذاب من السماء تهلكنا، وتستأصلنا. وهذا أشد من قول قوم صالح: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ [الشعراء:١٥٤].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، في زعمك أنك رسول الله إلينا، وهذا تأكيد لتكذيبهم، ومكابرة وعناد منهم، وجهل وغرور؛ كما قال كفار قريش: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٢]، وكما قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكما قالوا: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾، أي: ربي أعلم بعملكم، أو بالذي تعملونه، فيجازيكم عليه بما تستحقون في الدنيا والآخرة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فأصروا واستمروا على تكذيبه.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فأصابهم وأهلكهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم ووجدوا تحتها برْدًا، بعد حر شديد أصابهم، فلما اجتمعوا أحرقتهم بنارها، ورجفت بهم الأرض؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الآية: ٩١]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الآية: ٣٧].

وجاءتهم صيحة عظيمة من السماء أسكتتهم؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الآية: ٩٤].

وهذا جنس ما سألوا من إسقاط كسف من السماء عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، اجتمع عليهم فيه حر النار وإحراقها، والرجفة، والصيحة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في قصة شعيب وأصحاب الأيكة، وإنكاره عليهم ما هم عليه من الشرك؛ وتطفيف الكيل والوزن، وتخسير الناس وبخسهم أشياءهم، والإفساد

في الأرض، ودعوته إياهم إلى تقوى الله وطاعته، وتكذيبهم إياه، وأخذهم بعذاب يوم الظلة العظيم.

﴿لَآيَةً﴾، أي: لدلالة على صدق شعيب عليه السلام، وصحة ما جاء به، وعلى كمال قدرة الله تعالى في إهلاك المكذبين، والانتصار لرسله وأوليائه، وفي ذلك عظة وعبرة للمعتبرين، ووعيد للمعاندين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم شعيب ولا أكثر الخلق مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فبعزته أهلك أصحاب الأيكة بالعذاب العظيم، وبرحمته انتصر لشعيب ونجاه ومن معه من المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب أصحاب الأيكة المرسلين بتكذيبهم نبيهم شعيبًا عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦﴾.

٢- إثبات رسالة شعيب عليه السلام، وأن الله أرسله إلى أصحاب الأيكة، وهم أهل مدين، فدعاهم إلى تقوى الله وترك ما هم عليه من عبادة غير الله، وبيّن لهم أمانته على ما أرسله الله به إليهم، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩﴾.

٣- بيانه عليه السلام لقومه أنه لا يسألهم أجرًا مقابل تبليغهم رسالة ربه، وإنما أجره على رب العالمين؛ كغيره من الرسل؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٠﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥- أمره عليه السلام لقومه بالوفاء بالكيل والوزن بالعدل، ونهيهم عن نقصهما، وبخس الناس حقوقهم؛ لقوله: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

٦- نهيه إياهم عن الإفساد في الأرض بقطع الطريق والصد عن سبيل الله؛ لقوله:

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٧- تأكيده أمرهم بتقوى الله، مع تذكيرهم بأنه خلقهم وخلق من قبلهم من الأمم، استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

٨- شدة عتوهم وعنادهم واتهامهم شعيبًا عليه السلام بأنه مسحور، قد غلب السحر على عقله، فلا يدري ما يقول؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

٩- قدحهم في رسالته، وتكذيبهم إياه؛ لأنه بشر مثلهم، فكيف خص بالرسالة دونهم؟! لقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾.

١٠- شدة تكذيبهم ومكابرتهم وجهلهم؛ لسؤالهم العذاب بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

١١- تفويضه عليه السلام أمر العلم بأعمالهم، وما يستحقون عليها من عقاب في الدنيا والآخرة إلى ربه؛ لقوله: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه شعيب عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّىٓ﴾.

١٣- إثبات علم الله تعالى بجميع أعمال العباد؛ لقوله: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٤- إصرار قوم شعيب على تكذيبه، واستمرارهم على ذلك، وأخذهم بعذاب يوم الظلة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾.

١٥- شدة عذاب ذلك اليوم وعظمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، اجتمع عليهم فيه حر النار التي أحرقتهم، ورجفة الأرض بهم، والصيحة التي أسكتتهم.

١٦- أن في قصة شعيب عليه السلام وقومه، ودعوته إياهم إلى توحيد الله تعالى وتقواه، وإنكاره ما هم عليه من الشرك، ونقص الكيل والوزن، وتخسير الناس وبخسهم أشياءهم، والإفساد في الأرض، وأمرهم بتقوى الله وطاعته، وتكذيبهم إياه، وأخذهم بعذاب يوم الظلة- دلالةً على صدق شعيب وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى، وعظةً وعبرة للمعتبرين، ووعيدًا وتهديدًا للمعاندين؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

١٧- أن أكثر قوم شعيب، وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٩- إثبات اسمي الله تعالى: «العزيز»، و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

٢٠- أنه عز وجل بعزته أهلك الكفار المكذبين من قوم شعيب، ويهلك غيرهم من الكافرين، وبرحمته انتصر لشعيب والذين آمنوا معه، وينتصر لغيرهم من أوليائه من رسله وأتباعهم المؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾:

ذكر الله عز وجل قصص عدد من الأنبياء، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وتكذيب كثير من أولئك الأقوام لرسلهم، وإنجاء الله تعالى لرسله، وإهلاك المكذبين، ثم ختم عز وجل بامتداح القرآن الذي ختمت الرسالات به، والثناء عليه، والتنويه به؛ كما افتتح هذه السور بذلك.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾، الواو: استئنافية، وضمير الهاء يعود إلى القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ، فهو عود إلى ما افتتحت به السورة من التنويه في قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾، بكون القرآن الآية العظمى، وذم المشركين المعرضين عنه، المكذبين به، ووعيدهم وتهديدهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾.

لتختتم السورة بإطنابِ التنويهَ بالقرآن؛ كما ابتدأت بإجمال التنويه به، والتنبيه على أنه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين، وبتأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين به في ختام السورة لما سبق في أولها.

أي: وإنه، أي: القرآن العظيم الذي هو أفضل كتب الله تعالى المهيمن على جميع الكتب قبله.

﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، اللام: للتوكيد، وفي إضافته إلى رب العالمين تعظيم له. وإشارة إلى أنه من مقتضى ربوبيته للعالمين تنزيله هذا الكتاب عليهم، كما أن فيه إشارة إلى أنه تشريع عام على العالمين.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾، قرأ يعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بتشديد الزاي ونصب «الروح الأمين»: «نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ».

وقرأ الباقون بتخفيف الزاي، ورفعهما: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾.

أي: نزل بهذا القرآن من عند الله عز وجل ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، «الروح»: جبريل عليه السلام أفضل الملائكة وأشدهم وأقواهم؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥]، وقال تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ٢٠].

و﴿ٱلْأَمِينُ﴾ صفة لـ«جبريل»؛ لأن الله أمنه على وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢١].

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي: على قلبك يا محمد؛ لتعيه وتحفظه، ويثبت ويرسخ، وهذا من تمام عنايته عز وجل بالقرآن، وبحفظه ﷺ له.

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فإسناد نزوله أصح الأسانيد: أوحاه الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل وبلغه إلى النبي ﷺ.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكون من المنذرين، أي: من الرسل المنذرين للناس من عذاب الله، المحذرين منه.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ﴾، الباء: للملابسة، و«اللسان»: اللغة، أي: بلسان العرب ولغتهم.

﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيّن واضح الدلالة على المعاني أتم الوضوح، مفصح عنها أتم الإفصاح؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ كما قال حافظ إبراهيم على لسان

اللغة العربية(١):

وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

فجمع هذا القرآن العظيم الفضائل كلها؛ فهو أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الرسل، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين، على أفضل الأمم، خير أمة أخرجت للناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾، الواو: عاطفة، وضمير الهاء يعود إلى القرآن، واللام: للتوكيد، و«زبر الأولين»: كتبهم.

والمعنى: وإنه، أي: القرآن؛ يعني: ذكره والتنويه به، لموجود في كتب الرسل الأولين؛ كالتوراة والإنجيل وغيرهما، أخذ الله الميثاق على النبيين ليؤمنن به، وبشروا به أممهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: ٦].

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾، قرأ ابن عامر: «تَكُنْ» بالتاء على التأنيث، و«آيةٌ» بالرفع فاعل، وقرأ الباقون بالياء على التذكير ﴿يَكُن﴾ ونصب ﴿ءَايَةً﴾ خبرًا لـ﴿يَكُن﴾.

والاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ. والمعنى: أولم يكن لهؤلاء المشركين المكذبين للقرآن وللنبي ﷺ ﴿ءَايَةً﴾، أي: علامة ودلالة على صحة القرآن، وأنه تنزيل

(١) انظر: «ديوانه» (ص٦٦).

من رب العالمين، وعلى صدق نبوتك؟

﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «يكن»، أي: أولم يكن لهم آية علم بني إسرائيل به؟ أي: العدول المنصفون منهم؛ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وورقة بن نوفل، وغيرهما؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾، جمع «أعجم»، وهم الذين لا يتكلمون العربية ولا يفهمونها، ولا يقرؤون بها.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾، أي: فقرأه الرسول المرسل به على هؤلاء الأعجمين.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لعدم فهمهم له.

والمراد: أن هؤلاء المشركين؛ لشدة كفرهم وعنادهم، وتكذيبهم لهذا القرآن مع بيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ كحال الأعجمين الذين لا يفهمونه بسبب عجمتهم؛ كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

وفي الآية تذكير لهؤلاء المكذبين بنعمة الله؛ أن جاء هذا القرآن باللسان العربي المبين على لسان أفصح الخلق، ولكنهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا

مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾، أي: كذلك سلكنا الكفر والتكذيب والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، فتوارثوه جيلًا بعد جيل، فصاروا وصفًا وسمة لهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: لا يؤمنون بما جاء من الحق على ألسنة الرسل.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، أي: إلى غاية أن يروا العذاب، فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾، أي: فيأتيهم العذاب فجأة، وعلى حين غفلة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، الجملة حالية، أي: وهم غافلون لا يشعرون بإتيان العذاب، ولا يحسون به؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم، والنكال بهم، كما قال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(١).

﴿فَيَقُولُواْ﴾ حين رؤيتهم العذاب: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، الاستفهام بمعنى: التحسر والتمني وطلب المحال، أي: هل نحن ممهَلون مؤخَّرون؟ أي: يتمنون ويطلبون حين يشاهدوا العذاب أن لو أنظروا وأمهلوا؛ ليؤمنوا ويعملوا صالحًا بعد فوات الأوان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي

---

(١) سبق تخريجه.

عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾، الاستفهام للإنكار والتهديد والتوبيخ، أي: أفبعذابنا الأليم الشديد العظيم ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾، إنكارًا له، وتكذيبًا به، واستبعادًا له.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾، الهمزة للاستفهام، أي: أخبرني إن أنظرناهم وأمهلناهم سنين طويلة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾، أي: ثم جاءهم الذي كانوا يوعدونه من العذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، «ما»: اسم استفهام يفيد النفي، ويجوز كونها نافية. والأول أولى؛ لأنه أبلغ، ﴿مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: أيُّ شيء يغني عنهم، أي: يدفع عنهم الذي كانوا يمتعونه أو تمتيعهم بالنعم سنين، أي: لا يغني ذلك عنهم شيئًا؛ لا في دفع العذاب عنهم، ولا في رفعه، ولا في تخفيفه ؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ١١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل**

النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له، يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»(١).

قال ابن كثير(٢): «أي: ما كأن شيء كان؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

كأنك لم تُوتَر من الدهر ليلة ... إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما أهلكنا ودمرنا أيَّ قرية من القرى، وأيَّ أمة من الأمم المكذبة.

﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بعد الإنذار لهم والإعذار إليهم، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب، وقيام الحجة عليهم عدلًا منا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: ٥٩].

﴿ذِكۡرَىٰ﴾، مفعول لأجله، أي: الإنذار، أو المنذِرون، لأجل الذكرى، أي: تذكيرًا وموعظة لهم.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، فنهلك القرى قبل إنذارهم، وقبل إقامة الحجة عليهم، وما كنا ظالمين في إهلاكهم بعد إنذارهم بسبب كفرهم وعصيانهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢﴾:

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨٠٧، والترمذي في الزهد ٤٣٢١، وأحمد ٣٢٠٣، ٢٣٥.

(٢) في «تفسيره»» ٦/ ١٧٥. وانظر: «سيرة عمر» لابن الجوزي (ص١٣٥)، «سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٨٤٢)، «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ٦٩)، «التذكرة الحمدونية» (٧/ ٨٣)، «خزانة الأدب» (٣/ ٣٠). والشطر الأول في أكثر هذه المصادر: «كأنك لم تسبق»، وفي بعضها: «كأنك لم تنصب...» وليس فيها: «توتر».

لما امتدح عز وجل القرآن وبيَّن كماله وجلالته، بيَّن حفظه له وقت نزوله وبعد نزوله، من شياطين الجن والإنس، فقال:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠﴾، أي: وما تنزلت بالقرآن الشياطينُ، بل هو محفوظ منهم وقت نزوله، وبعد نزوله؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾، أي: ليسوا أهلًا له، ولا يصلح لهم، ولا يليق أبدًا أن ينزلوا به؛ لأنه الداعي إلى كل خير، وهم دعاة لكل شر، فبينه وبين الشياطين أعظم المنافاة، وأشد النفرة.

﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ التنزل به، وما يمكنهم ذلك.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾، الجملة تعليل لما قبلها، أي: إنهم عن استماع القرآن من السماء، وعن سماع الملأ الأعلى ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لمحجوبون ممنوعون، مرجومون بالشهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٦- ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٧- ١٠].

وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨- ٩].

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم القرآن الكريم والتنويه بشأنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾.

٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ

لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥- أن الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل هو الروح الأمين «جبريل عليه السلام»، أفضل الملائكة وأقواهم وأشدهم خَلقًا، نزل به على قلب النبي ﷺ، وبلغه إياه، وأوحاه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

٦- فضيلة جبريل عليه السلام؛ لأن الله وصفه بـ«الأمين»، وجعله أمينًا على وحيه.

٧- أن الحكمة من إنزال القرآن على قلب النبي ﷺ: بعثه وإرساله به لإنذار الخلق من عذاب الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

ومن لازم ذلك تبليغهم ما أرسل به من التكاليف؛ ليمتثلوا ذلك فينجوا مما حذروا منه من العذاب، وتحصل لهم البشرى بالثواب.

٨- تشريف اللغة العربية بإنزال القرآن بها، والتنويه بها؛ لأنها أفصح اللغات وأبينها وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

٩- شهادة الكتب السابقة بصدق القرآن؛ لما فيها من أخذ الميثاق على النبيين بالإيمان بالرسول ﷺ والقرآن المصدق لما معهم، ومن البشارة بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

١٠- الإنكار على المشركين، وتقريعهم على تكذيبهم الرسول ﷺ والقرآن، مع علم بني إسرائيل وشهادة المنصفين منهم بصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

١١- فضيلة العلم وأهله الصادقين العاملين به؛ لأن الله جعل علم علماء بني إسرائيل بالقرآن آية ودلالة على صدقه، كما جعل العلماء شهداء على وحدانيته، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[آل عمران:١٨].

١٢- شدة كفر المشركين وعنادهم وتكذيبهم للقرآن، وبعدهم عن الإيمان به، وأنهم في ذلك كحال ما لو أنزل القرآن على بعض الأعجمين الذين لا يفهمون العربية فإنهم لا يؤمنون به؛ لعدم فهمهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

١٣- تذكيرهم بنعمة الله تعالى بمجيء القرآن الكريم باللسان العربي المبين، وعلى لسان أفصح الخلق، مما ييسر عليه فهمه؛ بخلاف الأعجمين؛ فإنهم لا يستطيعون فهمه.

١٤- أن نعمة الله تعالى على العرب في إنزال القرآن بلغتهم أعظم من غيرهم، والواجب عليهم في تصديقه والانقياد له وتعليمه والدعوة إليه أكثر من غيرهم.

١٥- إدخاله عز وجل الكفر والتكذيب والعناد قدرًا في قلوب المجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

١٦- إثبات القدر، وأن الله عز وجل قدّر مقادير كل شيء؛ من الكفر والإيمان وغير ذلك.

١٧- شدة كفرهم وعتوهم، وعدم إيمانهم إلا بعد رؤية العذاب الأليم، وفوات أوان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾.

١٨- أن الإيمان بعد رؤية العذاب لا ينفع صاحبه؛ لأنه إيمان اضطرار، لا اختيار.

١٩- أن العذاب يأتي بغتة وفجأة دون أن يشعر به المعذبون؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾، وذلك أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

٢٠- تمنيهم الإنظار والإمهال وتأخير العذاب عنهم؛ ليؤمنوا ويعملوا صالحًا، بعد فوات الأوان؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾، وهم كاذبون في ذلك، فلو أنظروا لما آمنوا وعملوا صالحًا؛ كما أخبر الله عنهم.

٢١- تقريعهم والإنكار عليهم في استعجالهم العذاب؛ إنكارًا له، وتكذيبًا به، واستبعادًا له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

٢٢- أنهم لو أنظروا وأمهلوا ومتعوا في الأرض سنين طويلة، ثم جاءهم ما توعدوا به من العذاب لم يغن عنهم ما متعوا به، ولم يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾.

٢٣- كمال عدل الله عز وجل، وإقامته الحجة على المكذبين قبل تعذيبهم وإهلاكهم، بإرسال الرسل والنذر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾.

٢٤- أن إرسال الرسل والنذر للتذكير والموعظة، والتحذير من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

٢٥- انتفاء الظلم عن الله عز وجل كلية؛ لكمال عدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ ولهذا لا يعذب أحدًا إلا بعد الإعذار إليه وإنذاره.

٢٦- حفظ الله عز وجل للقرآن وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الجن والإنس، وأنه ما ينبغي لهم ولا يليق بهم ولا يناسبهم. والحيلولة بينهم وبين استماع القرآن وخبر السماء، ومنعهم برميهم بالشهب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: فلا تعبد مع الله معبودًا آخر، وهذا نهي له ﷺ ولأمته.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فتكون- إن دعوت مع الله إلهًا آخر- من المعذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥- ٦٦].

وهذا النهي له ﷺ، والتحذير من العذاب؛ تأكيد على نهي أمته عن الشرك، وتحذير لها منه، ووعيد للمشركين.

أما هو ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فإنهم معصومون عن الخطأ في التبليغ مطلقًا، ومعصومون عن الوقوع في الكبائر أيضًا، وقد غفر له ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

عن عائشة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه،

فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟!**»(١).

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾، أي: وحذر وخوف من عذاب الله ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أي: الأدنين إليك، أي: الأقرب منهم فالأقرب، فكل من كان منهم أقرب فحقه في الإنذار والدعوة أعظم.

وأمَرَه عز وجل بإنذار الأقربين خاصة؛ لأنهم أولى، وحقهم أعظم، ولئلا يظن ظان أن قرابتهم له ﷺ تخلصهم من عذاب الله تعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: «**يا صباحاه!**» فاجتمع إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟**» قالوا: نعم. قال: «**فإني نذير لكن بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا، وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا، فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبدالمطلب، يا بني عبدالمطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ قال: «**يا معشر قريش**»، أو كلمة نحوها، «**اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ، سليني من مالي ما شئت، لا**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٧٠، ومسلم في الإيمان ٢٠٨، وأحمد ١/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٠٥، والنسائي في الوصايا ٣٦٤٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٠، وأحمد ٦/ ١٨٧.

أغني عنك من الله شيئًا»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعمّ وخص، فقال: «**يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها**(٢)»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبدالمطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشتريا أنفسكما من الله؛ لا أملك لكما من الله شيئًا، سلاني من مالي ما شئتما**»(٤).

وعن قبيصة بن مخارق، وزهير بن عمرو رضي الله عنهما، قالا: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل فعلا أعلاها حجرًا، ثم نادى: «**يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه!**»(٥).

وهذا لا ينافي دعوته وإنذاره لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، أي: ألن جانبك، وتواضع، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للذي اتبعك منهم.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٧١.

(٢) أي: سأصلها.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان٢٠٤ والنسائي في الوصايا ٣٦٤٤، والترمذي في تفسير سورة الشعراء ٣١٨٥، وأحمد ٢/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٢٧، وأحمد ٢/ ٤٤٨، ٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٠٧، وأحمد ٥/ ٦٠.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فإن عصاك عشيرتك وغيرهم ممن أنذرتهم ودعوتهم ولم يطيعوك.

﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، «ما» مصدرية أو موصولة، أي: فقل لهم: إني بريء من عملكم، أو من الذي تعملونه من الشرك والمعاصي.

ولم يقل: فقل إني بريء منكم؛ لأن معصيتهم لا تمنع من الاستمرار على نصحهم ووعظهم، ومن صلتهم لأجل الرحم؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث السابق: «**وإن منكم رحمًا سأبلها ببلالها**»؛ كما لا تمنع من خفض الجناح لهم ولين الجانب إن كانوا مؤمنين.

قال السعدي(١): «فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلًّا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه، وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق؟

قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد، وتعطل من المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرًا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وذكر نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل يعد هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له؟».

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ» بالفاء، وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾.

أي: اعتمد وفوّض في جميع أمورك، ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾، أي: على ذي العزة التامة، وذي الرحمة الواسعة ربك عز وجل؛ فإنه ناصرك ومؤيدك، وحافظك وموفقك ومسددك.

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾، أي: حين تقوم تصلي الليل وحدك.

﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾، أي: ويرى تقلبك، أي: انتقالك من حال إلى حال في الصلاة ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾، أي: في جمع المصلين، أي: يراك حين تقوم تصلي الليل وحدك، وحين تصلي في الجمع.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٥٥٢- ٥٥٣.

كما يراك في جميع مقاماتك وتقلباتك، وهو معتن بك وحافظك؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وإنما خص مقام الصلاة لشرفها وفضلها، وحثًّا على الخضوع والخشوع فيها، واستحضار قربه عز وجل من العبد فيها.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾، تعليل لما قبله، والضمير المنفصل «هو» للتوكيد.

أي: السميع المجيب للدعاء ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

فهو عز وجل السميع لدعاء عباده، ولجميع الأقوال والأصوات، العليم بأحوال عباده، وجميع الحركات والسكنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

مناسبة هذا- والله أعلم- أن المشركين اتهموا النبي ﷺ بأنه كاهن، أو شاعر، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، وكما قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾، الاستفهام للإخبار والتشويق، والخطاب لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ أتاه به رَئِيٌّ من الجن، أو أنه قول شاعر، أو كاهن، ونحو ذلك.

أي: هل أخبركم الخبر اليقين، على من تنزل الشيطان؟

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾، أي: على كل كذاب كثير الإفك والكذب، وقول الزور والباطل، ﴿أَثِيمٍ﴾، كثير الإثم والفسوق والفجور؛ كالكهان والسحرة والمشعوذين ونحوهم، ممن هم إخوان الشياطين وأشباههم، والطيور على أشباهها تقع.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، أي: يلقي الشياطين ما يسترقونه من السمع من السماء من كلمة من علم الغيب بعد أن يزيدوا معها مئة كذبة إلى أوليائهم من الكهان من الإنس، فيحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدق تلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾، أي: أكثر ما يلقونه كذب، وإنما يُصدَّقون بسبب تلك الكلمة، فيختلط الحق بالباطل.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «**إنهم ليسوا بشيء**»، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًّا؟ فقال النبي ﷺ: «**تلك من الحق يخطفها الجني، فيقرقرها في أذن وليه، كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مئة كذبة**»(١).

وفي لفظ عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**إن الملائكة تتحدث في العنان- والعنان الغمام- بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن؛ كما تقرّ القارورة، فيزيدون معها مئة كذبة**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فيسمعها مسترق السمع- ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصف سفيان بكفه فَحَرَّفَها، وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها،**

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، قراءة الفاجر والمنافق ٧٥٦١، ومسلم في السلام ٢٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، صفة إبليس وجنوده، باب ذكر الملائكة ٣٢٨٨.

وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء»(١).

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾، الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، أي: يتبعهم في شعرهم الضالون من الإنس والجن، فيقولون به ويروونه عنهم.

والغواية: الضلالة الشديدة عن طريق الهدى. ووصف الأتباع بالغواية يقتضي وصف المتبوعين بها من باب أولى. ففيه ذم لهم جميعاً.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، الاستفهام: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد وتعلم وتسمع؛ ﴿أَنَّهُمْ﴾؛لشدة ضلالهم وغوايتهم ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، أي: في كل واد من أودية الكلام وموضوعاته، وفي كل غرض من أغراض الشعر وفنونه الباطلة، من اللهو واللغو والسب والهجاء والمدح تزلفًا بالكذب، وغير ذلك.

﴿يَهِيمُونَ﴾، يمضون، ويخوضون بالباطل، ويجاوزون الحد مدحاً وقدحاً.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾، «ما»: موصولة، أي: يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا يستطيعونها؛ كما يبالغون في المدح لأنفسهم، أو لغيرهم، بما يخالف الواقع، ويقذعون بالسب والهجاء للآخرين بما ليس فيهم، وربما ذموا من كانوا يمدحونه، ومدحوا من كانوا يذمونه تبعًا لأهوائهم ومصالحهم؛ ولهذا قيل: «أصدق الشعر أكذبه»، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «**لأن يمتلئ جوف الرجل قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا**»(٢).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب على الاستثناء من «الشعراء»، أي: إلا الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، في كلامهم وشعرهم، وكان شعرهم لهذا الغرض، أي:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٨٠٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٥٥، ومسلم في الشعر ٢٢٥٧، وأبو داود في الأدب ٥٠٠٩، والترمذي في الأدب ٢٨٥١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لإقامة ذكر الله؛ في الدعوة إلى الله تعالى والثناء عليه، وتحبيب الناس في الخير ومحاسن الأخلاق والآداب ونحو ذلك، وتحذيرهم من ضد ذلك.

﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ﴾؛ الجملة معطوفة على «ذكروا»، و«ما»: مصدرية، أي: من بعد ظلمهم.

أي: وانتصروا في شعرهم لدين الله ولأنفسهم وللمؤمنين؛ بالرد على المشركين من بعد ما ظلموهم بالسب والشتم والهجاء والمحاربة لهم بالقول والفعل وأنواع الأذى.

كما قال ﷺ لحسان رضي الله عنه: «**اهجهم- أو هاجهم- وجبريل معك**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**اهجوا قريشًا؛ فإنه أشد عليها من رشق النبل**».

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله**».

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هجاهم حسان فشفى واشتفى**»(٢).

وعن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه؛ أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل**»(٣).

فالشعراء المذمومون: ما كان شعرهم مذمومًا لأغراض سيئة تتنافى مع أحكام الشريعة وآداب الإسلام.

والشعراء المحمودون: ما كان شعرهم محمودًا لأغراض حميدة من الدعوة إلى الإسلام، والمنافحة عن الرسول ﷺ، وعن دين الله، والحث على مكارم الأخلاق والآداب.

وقد كان الشعر في عهد النبوة من أعظم وأهم وسائل الدعوة إلى الله والدفاع عن

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ذكر الملائكة ٣٢١٣، ومسلم في فضائل الصحابة وفضائل حسان بن ثابت ٢٤٨٦؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٩٠، والترمذي في الأدب ٢٨٤٦.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣٨٧.

الإسلام، وكان شعر حسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم رضي الله عنهم أشد على المشركين من وقع النبل.

وناهيك بقول حسان رضي الله عنه، ينافح عن الرسول ﷺ، ويرد على أبي سفيان في هجائه للنبي ﷺ(١):

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوَّف نخب هواء
وإن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماء
كأن سبيئة من بيت رأس ... تعفيها الروامس والسماء
هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فخيركما لشركما الفداء
هجوت مباركًا برًّا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

وبقول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

يا هاشم الخير إن الله فضلكم ... على البرية فضلًا ما له غير
إني تفرست فيك الخير أعرفه ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم ... في حل أمرك ما ردوا ولا نصروا
أنت النبي ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب فقد أزرى به الكثر
فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذي نُصروا(٢)

---

(١) انظر: «ديوان حسان» (ص١)، «البداية والنهاية» (٤/ ٣١٠).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٣٤)، «أحاديث الشعر» لعبد الغني المقدسي (ص١٠٨).

وبقول كعب بن مالك رضي الله عنه مناقضًا لقول ضرار بن الخطاب بن مرداس من بني محارب، ينافح عن قتلى بدر من المشركين:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر ... عليهم غدًا والدهر فيه بصائر
وفخر بني النجار أن كان معشر ... أصيبوا ببدر كلهم ثَم صابر[1]

قال كعب رضي الله عنه:

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما أراد ليس لله قاهر
قضى الله بدرًا أن تلاقي معشرًا ... بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا ... بأجمعها كعب جميعًا وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه ... يمسون في الماذي والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عريت بيض خفاف كأنها ... مقابس يزهيها لعينيك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا ... وكان يلاقي الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعًا لوجهه ... وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغى ... وما منهم إلا بذي العرش كافر
فأمسوا وقود النار في مستقرها ... وكل كفور في جهنم صائر
تلظى عليهم وهْي قد شب حميها ... بزبر الحديد والحجارة ساجر

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٣)، «البداية والنهاية» (٣/ ٣٤١).

وكـان رسـول الله قـد قـال: أقبلـوا فولـوا وقـالوا: إنـما أنـت سـاحر
لأمـــر أراد الله أن يهلكـــوا بـــه ولـــيس لأمـــر حمَّـــه الله زاجـــر[1]

ولهذا لما قدم الأعشى ليعلن إسلامه قابله- فيما قيل- بعض المشركين أو اليهود والمنافقين، وعرضوا عليه مئة ناقة ليعود ليسلم بعد سنة- أي: مِن قابِلٍ- فأخذها ورجع، وسقط من ناقته في رجوعه على رقبته فمات.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، تهديد شديد ووعيد أكيد للظالمين، والسين للاستقبال، ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، أي: أيّ مرجع يرجعون إليه بعد الموت، وأيَّ مصير يصيرون إليه، أي: أن مصيرهم بئس المصير، إلى النار وبئس القرار.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم: الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهو نوعان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالاعتداء عليهم بدمائهم وأعراضهم وأموالهم، وهو أيضًا ظلم للنفس.

وقد توافرت النصوص من الكتاب والسنة على الوعيد للظالمين، والتحذير من الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾ [النساء: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

وقال ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[2].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل؛ أنه قال: «**إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»[3].

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٤)، «البداية والنهاية» (٣/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤٧، ومسلم في البر ٣٥٧٩، والترمذي في البر ٢٠٣٠، وأحمد ٢/ ٩٢، ١٠٥، ١٠٦، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم أيضًا ٣٥٧٨، وأحمد ٣/ ٣٢٣، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم ٣٥٧٧؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله له ﷺ عن دعوة غير الله، وتحذيره من العذاب، وفيه تأكيد لنهي أمته عن ذلك، وتحذيرهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾، وحاشاه ﷺ من ذلك؛ لأنه معصوم من الوقوع في الكبائر، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

٢- أمره بإنذار عشيرته الأقربين، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى؛ لعظم حقهم، وكونهم أولى من غيرهم، ولئلا يُظن أن قرابتهم منه ﷺ تغني عنهم من الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

٣- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عَشِيرَتَكَ﴾، وغيره من المواضع في الآيات.

٤- أن الأقربين أولى بالمعروف، وبالإنذار والدعوة وغير ذلك، الأقرب منهم فالأقرب.

٥- أمره عز وجل له ﷺ بخفض جناحه للمؤمنين، ولين جانبه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

وهكذا كان ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولنا فيه ﷺ أسوة وقدوة، توجب علينا خفض الجناح ولين الجانب فيما بيننا.

٦- أن الإيمان إنما يتحقق باتباعه ﷺ.

٧- البراءة من عمل من عصى وخالف أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

٨- أنه ﷺ لا يملك هداية أقاربه ولا غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٩- أن المعصية لا تمنع من الاستمرار على نصح العاصي ووعظه، ولا تمنع من

صلته لأجل الرحم، ولا من خفض الجناح له إذا كان مؤمنًا.

١٠- وجوب التوكل على الله عز وجل، وتفويض الأمور كلها إليه؛ مع تمام الثقة به في جلب النفع ودفع الضر؛ لقوله تعالى له ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾، ولنا به أسوة وقدوة.

١١- إثبات اسمي الله تعالى: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل.

١٢- إثبات رؤية الله عز وجل له ﷺ حين يقوم في صلاته، وفي تقلبه في الساجدين، وفي جميع أحواله؛ كما يرى سبحانه جميع الخلق، لا تخفى عليه منهم خافية.

١٣- تثبيت الله عز وجل للنبي ﷺ، وتقوية قلبه، وطمأنته وتسليته له، وإظهار عنايته به وحفظه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾.

١٤- شرف الصلاة وفضلها، والترغيب في الخضوع والخشوع فيها؛ لأن الله خصها بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾.

١٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي السمع والعلم الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾.

١٦- أن الشياطين إنما تنزل على كل أفاك أثيم؛ من الكهان والسحرة والمشعوذين، ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾.

١٧- كذب الكهان والسحرة ونحوهم في كل ما يدعونه من علم الغيب، وإنما تلقي إليهم الشياطين الكلمة يسترقونها من السماء، فيكذبون معها مئة كذبة؛ لقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾.

١٨- ذم الشعراء الذين هم أبواق بشعرهم للغواية والضلال والكفر والفسوق والفجور؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾، وإذا كان الأتباع غاوين، فالمتبوعون أشد غواية وأعظم.

١٩- تقرير شدة ضلالهم وغوايتهم بكونهم في كل وادٍ من أودية الشعر وفنونه الباطلة يخوضون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥﴾.

٢٠- مخالفة أفعالهم لأقوالهم، وشدة كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦﴾.

٢١- استثناء الشعراء المؤمنين الذاكرين الله كثيرًا، المنتصرين ممن ظلمهم، من الشعراء المذمومين، وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

٢٢- الانتصار ممن ظلم المسلمين بهجائه وسبه لهم، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

٢٣- لا بد من الجمع بين إيمان القلب واللسان، وعمل الأعمال الصالحات بالجوارح.

٢٤- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٥- الترغيب في الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله تعالى كثيرًا.

٢٦- جواز الانتصار من الظالم بالشعر والقول باللسان، أو بالسنان، وقد يندب ذلك أو يجب، إذا كان في سبيل الدفاع عن الحق، ونصرة الإسلام.

٢٧- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد، للذين ظلموا بالشرك والكفر، والاعتداء على العباد، بسوء المنقلب والمصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّمْلِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة النمل» وهو أشهر أسمائها؛ لقوله تعالى فيها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الآية: ١٨].

وتسمى أيضًا «سورة الهدهد»، لقوله تعالى فيها: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ [الآية: ٢٠].

كما تسمى: «سورة سليمان»؛ لأن ما ذكر فيها مفصلاً من ملك سليمان لم يذكر مثله في غيرها.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢- ثم ثنّت بالثناء على المؤمنين بجمعهم بين الإيمان والعمل الصالح من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإيقانهم بالآخرة.

٣- ذم الذين لا يؤمنون بالآخرة وتهديدهم ووعيدهم بسوء العذاب والخسران في الآخرة.

٤- إثبات أنه ﷺ يُلَقَّى القرآن من عند الله تعالى حقًا: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

٥- ذكر قصة وحيه عز وجل لموسى عليه السلام وما أيده به من الآيات، وتكذيب فرعون وقومه لما جاءهم به من الآيات، وزعمهم أنها سحر مبين، وجحودهم لها مع استيقان أنفسهم لها ظلمًا منهم وعلوا، وذكر عاقبتهم السيئة بإهلاكهم بسبب فسادهم.

٦- ذكر ما أمتن الله به على داود وسليمان من العلم وحمدهما الله على ما فضلهما به

على كثير من عباده المؤمنين ووارثة سليمان لعلم داود، وتعليمه منطق الطير، وإيتائه من كل شيء، وحشر جنوده له من الجن والإنس والطير، وذكر ما كان بينه وبين النملة، وما كان بينه وبين الهدهد، وما كان بينه وبين ملكة سبأ، وعظم ما أعطاه الله من العلم والملك والخير والفضل.

٧- ذكر إرساله عز وجل إلى ثمود أخاهم صالحًا ودعوته إياهم إلى عبادة الله وحده، وانقسامهم إلى فريقين فريق آمنوا به، وفريق كذبوه، وتطيروا به. وذكر ما جرى بينه وبينهم، ومحاولتهم المكر به وقتله، ومكر الله عز وجل بهم، وإهلاكهم، وإنجاؤه ومن معه من المؤمنين.

٨- ذكر تكذيب قوم لوط عليه السلام له وإنكاره عليهم فعل الفاحشة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، وجهلهم ومحاولتهم إخراجه وآله من قريتهم؛ لأنهم أناس يتطهرون، وإنجائه وأهله إلا امرأته وإهلاكها وقومه بمطر الحجارة.

٩- حمدا لله والسلام على عباده ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٠- إثبات وتقرير ربوبية الله تعالى والاستدلال بذلك على وحدانيته في الألوهية، فلا رب غيره ولا إله سواه؛ خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء، وأخرج به النبات والحدائق، وجعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسيًا، وجعل بين البحرين حاجزاً، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويستخلف عباده في الأرض، ويهديهم في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده، ويرزق عباده من الأرض والسماء، ويختص بعلم الغيب فلا يعلمه أحد سواه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

١١- إنكار المشركين للبعث بعد الموت، وأمرهم بالسير في الأرض والنظر والتأمل كيف كان عاقبة المجرمين، وتسليته ﷺ، فلا يكن في ضيق من مكرهم واستعجالهم العذاب؛ استبعاداً له وتكذيبًا به. وتهديدهم بقربه.

١٢- بيان عظيم فضله عز وجل على الناس، وعلمه بما تكن صدورهم وما

يعلنون، وإحصائه كل غائبة في السماء والأرض في كتاب مبين.

١٣- قصص القرآن الكريم على بني إسرائيل أكثر الذين هم فيه يختلفون، وكونه هدى ورحمة للمؤمنين.

١٤- تسليته ﷺ وتقوية قلبه وطمأنته، بوعده عز وجل بالقضاء بين العباد بحكمه العدل ومحاسبتهم، وأمره بالتوكل عليه، وأنه على الحق المبين، وبيان أن الهداية ليست إليه، فلا يسمع الصم، ولا يهدي العمي، ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٥- إثبات خروج الدابة عند وقوع القول على المكذبين وغلق باب التوبة، تسم الناس وتكلمهم: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

١٦- التذكير بقدرة الله تعالى ونعمته بجعل الليل مظلمًا؛ ليسكنوا فيه والنهار مبصراً مضيئًا؛ ليعملوا فيه.

١٧- ذكر علامات الساعة وأهوال القيامة من النفخ في الصور، وفزع من في السموات والأرض، وتسيير الجبال ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

١٨- عظم فضل الله تعالى بمجازاة من جاء بالحسنة بخير منها، وتأمينهم من فزع يوم القيامة، وتمام عدله بمجازاة من جاء بالسيئة بما كانوا يعملون.

١٩- بيان مهمته ﷺ وما أمره الله تعالى به، وهو عبادة الله تعالى وحده الذي حرم مكة، وله كل شيء، وأن يكون من المسلمين، وأن يقرأ القرآن على الناس، ويتبعه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فما هو ﷺ إلا من المنذرين.

٢٠- ختم السورة بأمره ﷺ بحمد الله تعالى، والتهديد للمكذبين. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

قوله: ﴿طسٓ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور، في مطلع سورة البقرة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ كقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: ١].

أي: هذه الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ وأشار إليها بإشارة البعيد: «تلك» تعظيمًا لها؛ فهي أعظم ما أنزل الله تعالى من الآيات، وأعلاها قدرًا، وأفضلها وأرفعها شأنًا، وأوسعها دلالة على الخير، وتحذيرًا من الشر، وأعدلها أحكامًا، وأصحها أخبارًا.

﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بين واضح لمن تدبره وتفكر فيه أنه من عند الله، ومبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والرشد من الغي؛ في العقائد والأعمال، والأخلاق والآداب، وغير ذلك.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾؛ حالان، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، اللام: للتخصيص، أي: حال كونه هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به ويتبعونه، ويصدقون ما وعدوا به من الجزاء، فيهديهم إلى الصراط المستقيم، ويبشرهم بالسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بجنات النعيم.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾؛ «الذين»: نعت للمؤمنين، أي: الذين من صفتهم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة.

أي: يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها وسننها، ويعطون الزكاة المفروضة لمستحقيها- وهم الأصناف الثمانية- من غير منٍّ ولا أذى.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، ﴿هُمْ

﴿يُوقِنُونَ﴾ ضمير الفصل: للتوكيد، أي: يصدقون تصديقًا جازمًا، يحملهم على العمل لتلك الدار.

وخص بالذكر هذه الصفات الثلاث: وهي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالآخرة؛ لأن الصلاة والزكاة أعظم العبادات بعد الشهادتين، والإيمان بالآخرة من أعظم ما يحفز على العمل؛ ولهذا يُقرن كثيرًا في القرآن الكريم بين الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر.

ويؤخذ من الآية: أنه ليس بهدى للكافرين؛ لأنهم لم يتبعوه، وليس بشرى لهم، بل فيه نذارة وتحذير لهم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة بقلوبهم، ولا يقرون بها بألسنتهم، ولا يعملون لها بجوارحهم، بل يكذبون بها، وبالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: حسَّنَّا لهم قدرًا وكونًا أعمالهم السيئة؛ من الشرك والكفر والمعاصي بسبب عدم إيمانهم، وهذه من أعظم المصائب: أن يزين للإنسان الباطل، فيرى أنه على حق؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨].

وقد أحسن القائل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسَنًا ما ليس بالحسن(١)

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: فهم في ضلالهم وتيههم وعماهم عن طريق الحق يترددون متحيرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ﴾، أي: لهم خاصة، ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أسوأ العذاب وأشده وأعظمه في الدنيا والآخرة.

---

(١) البيت ينسب للأمير يحيى بن علي باشا الإحسائي. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦). وانظر: «أبيات سارت بها الركبان» ص٤.

﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾، أي: الذين لا نصيب لهم في الآخرة.

وأكد الخسران وحصرهم فيه بكون الجملة اسمية معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، وبصيغة التفضيل «الأخسرون»، أي: وهم في الآخرة هم الأخسرون خاصة، الذين خسروا أشد الخسران، وأعظمه وأبينه، فخسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ اللام للتوكيد، أي: وإنك يا محمد لتُلَقى القرآن، أي: تلقنه وينزل عليك، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، أي: من عند ذي الحكم التام والحكمة البالغة، وذي العلم الواسع وهو الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

ولم يقل: من لدني، ولا من عندي، تعظيمًا لنفسه، وتنويهًا بتمام حكمه، وبالغ حكمته، وواسع علمه، وتشريفًا للقرآن الكريم؛ لما احتوى عليه من فنون الحكمة والعلم، ومراعاة مصالح العباد التي لا يعلمها إلا خالقهم، والصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طسٓ﴾.

٢- تعظيم آيات القرآن العظيم، والتنويه به، وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

٣- امتداح الله عز وجل للقرآن وكتابه الكريم بكونه بيِّنًا بنفسه، ومبينًا الحق من الباطل، ومبينًا صِدْق مَن جاء به، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

٤- إثبات قيام الحجة بالقرآن الكريم على الخلق؛ لما فيه من بيان الحق أتم بيان، والدعوة إليه، بشتى الوسائل، والتحذير من الشر كله، والنهي عنه.

٥- أن القرآن الكريم هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يأخذون به ويتبعونه، ويصدقون بموعوده؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، بخلاف

غير المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

٦- ثناء الله عز وجل على المؤمنين بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة، وأن هذه الصفات من أعظم وأخص صفاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

٧- عظم أمر الصلاة والزكاة، والإيمان بالدار الآخرة؛ لأن الله خصها بالذكر.

٨- أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وفي هذا رد على المرجئة الذين ينفون أن تكون الأعمال من الإيمان.

٩- عقوبة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويكذبون بالبعث والجزاء على الأعمال؛ باستحسانهم ما هم عليه من الضلال والعمى عن الحق، والتردد والحيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾، والجزاء من جنس العمل.

١٠- إثبات الدار الآخرة، ووجوب الإيمان بها، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ وذلك ركن من أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

١١- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء، وأن من كتب الله عليهم الضلال فلا سبيل لهم إلى السعادة؛ لقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله.

١٢- الرد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان مجبور على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فأضاف الأعمال إليهم.

١٣- الوعيد والتهديد للمكذبين بالآخرة بأسوأ العذاب وأشده، والخسران في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ

ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

١٤- تثبيت النبي ﷺ وتقوية قلبه وطمأنته، وتعظيم القرآن، ومن أنزله بحكمه وحكمته وعلمه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

١٥- إثبات رسالته ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

١٦- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، تلقاه ﷺ من ربه الحكيم العليم.

١٧- إثبات كمال حكم الله عز وجل، وبالغ حكمته، وواسع علمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾.

امتدح عز وجل القرآن الكريم وكتابه المبين، وعظَّمه ببيان نزوله من لدن حكيم عليم، ثم دلل على ذلك بذكر ما اشتمل عليه من أخبار الأنبياء السابقين وأممهم، ومن دلائل عظمته في آياته في الكون، وبدء الخلق وإعادته، وما فيه من القصص والهداية، والأخبار اللاحقة من خروج الدابة، ووقوع العذاب، وعلامات الساعة والقيامة، وغير ذلك.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: اذكر حين قال موسى لأهله، أي: لزوجته، والزوجة تكنى بالأهل؛ كما قال ﷺ: «**وما علمت على أهلي إلا خيرًا**»(١).

قيل: كان معه زوجه وابنان صغيران.

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: أبصرت ورأيت نارًا من بعيد. وكان في طريق عودته من مدين- بعد مكثه فيها عدة سنين- إلى مصر، وقبيل اصطفائه بالرسالة، وتكليم الله تعالى ومناجاته له، وبعثه إلى فرعون وملئه بالآيات العظيمة، والمعجزات الباهرة.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ السين: للاستقبال، أي: سأذهب إليها وآتيكم منها، أي: من أهلها، ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق إلى مصر، وكان قد ضل الطريق.

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بالتنوين: ﴿بِشِهَابٍ﴾، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة: «بِشِهَابِ».

و«أو» عاطفة، بمعنى: الواو، أي: وآتيكم بشهاب قبس، أي: بشعلة نار في رأس

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٣٧، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

فتيلة أو عود، ونحو ذلك، تشعلون بها ناركم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: لأجل أن تصطلوا بها، أي: تستدفئوا بها من البرد.

قال ابن كثير(١): «وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾».

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾، أي: فلما أتى موسى النار التي آنسها وأبصرها من بعد.

﴿نُودِىَ﴾، المنادي هو الله عز وجل؛ كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [الآية:٥٢].

﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ «أن» تفسيرية، أي: أن الله عز وجل بارك من في النار ومن حولها، أي: جعل هذا المكان مباركًا مقدسًا طاهرًا، ومن بركته أن جعله الله محلًّا لتكليم موسى وإرساله.

قيل: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: موسى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: الملائكة، وقيل: العكس، وقيل: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾: موسى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: البلاد التي حولها، لأن بلاد الشام مباركة، أو ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أهل موسى عليه السلام.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، وحجابه النور، أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(٢)، وفي رواية: «فقرأ أبو عبيدة: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾»(٣).

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى رب العالمين عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وعن أن يظن به شيء من ذلك، وإثبات لكماله في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته.

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٩، وأحمد ٤/ ٤٠٥.

(٣) أخرجها أحمد ٤/ ٤٠١.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؛ الضمير في قوله: «إنه» ضمير الشأن، وهذا إعلام منه عز وجل لموسى وإخبار له أن الذي يناجيه ويخاطبه هو الله، المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤].

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ ذو العزة التامة، الذي قهر كل شيء، وأذعنت له جميع المخلوقات.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة، في خلقه وأمره وشرعه، في أقواله وأفعاله.

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: وألق عصاك من يدك، أي: ضعها على الأرض.

وذلك لِيُبين له عز وجل كمال عزته وقدرته، وتمام حكمه وحكمته؛ ولتكون آية ومعجزة يؤيده بها، تدل على صدقه. وجواب الأمر محذوف، أي: فألقاها.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فحين رآها وشاهدها.

﴿تَهۡتَزُّ﴾؛ تتحرك وتضطرب في خفة وسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾، أي: كأنها حية حقيقية؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

والجان: نوع من الحيات، أسرعها حركة، وأكثرها اضطرابًا.

ويقال: هو ذكَر الحيات، وفي الحديث أنه ﷺ: «**نهى عن قتل جِنَّانِ البيوت**»(١).

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾؛ ذعر وخاف وفر هاربًا لما رآها تهتز كأنها حية، على مقتضى الطبائع البشرية، ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، أي: ولم يرجع، ولم يلتفت من شدة فرقه.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾، أي: قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ وفي هذا طمأنة له؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: إني لا يخاف عندي المرسلون، لحفظي لهم وعنايتي بهم، وعصمتي إياهم من كل سوء.

وفي هذا بشارة لموسى بأن الله سيصطفيه للرسالة والنبوة.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾؛ الاستثناء: منقطع، و«إلا» بمعنى:

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٧، ومسلم في السلام ٢٢٣٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

«لكن»، أي: من ظلم بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، أي: ثم استبدل حسنًا بعد سوء، أي: فعل وأتى حسنا بعد سوء؛ بأن تاب من الشرك وآمن، واستقام على طاعة الله تعالى.

﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة، أغفر ما وقع منه من الظلم، وأستر عليه وأتجاوز عن عقوبته، وذو رحمة واسعة، أشمله بواسع رحمتي التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وقيل: الاستثناء متصل، وفيه تعريض بقتله القبطي، وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؛ بأن تاب بعد قتله؛ كما قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

وفي هذا تذكير له بتوبة الله تعالى عليه، وأن ما وقع منه من هذا الظلم لا يمنع من أن يكون من المرسلين، لتوبته ومغفرة الله تعالى له وذلك لئلا يستبعد في نفسه أن يكون من المرسلين وقد وقع منه ذلك الظلم.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ هذه آية أخرى، ودليل باهر على تمام قدرة الله تعالى، ومعجزة أخرى دالة على صدق موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ٢٢-٢٣]، أي: وأدخل يدك في جيب درعك.

وهي: فتحة القميص وطوقه الذي يدخل منها الرأس.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ «تخرج» مجزوم، جواب الأمر: «أدخِل»؛ ولم يقل: وأخرجها؛ لأنها لا يمكن إبقاؤها داخل الجيب وتعطيل الانتفاع بها، أي: تخرج يدك حال كونها بيضاء، مغايرة للون الجسم.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير برص، ولا عيب.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾، أي: هاتان الآيتان: انقلاب عصاك حية، وإدخال يدك في

جيبك وخروجها بيضاء من غير سوء، في جملة تسع آيات أيدناك بها.

كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الآية: ١٠١]، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، وانفلاق البحر. وقيل غير ذلك.

وقد جمعها الفيروزبادي في بيت ذكره في مادة «تسع» في القاموس؛ وهو:

عصا، سَنَة، بحر، جراد، وقُمَّلٌ ... يد، ودم، بعد الضفادع، طوفانُ

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، أي: أرسلناك بها، أو اذهب بها إلى فرعون وقومه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: خارجين عن طاعة الله، بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق، وإنكارهم ربوبية الله تعالى وإلهيته، واعتقادهم ربوبية فرعون وإلهيته.

فذهب موسى عليه السلام بهذه الآيات إلى فرعون وقومه، وأراهم إياها، ودعاهم إلى الله تعالى؛ ولهذا قال:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾، أي: ظاهرة بينة واضحة وضوح الشمس في وسط النهار، دالة على صدق موسى وصحة ما جاء به.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: قالوا مكابرة وعنادًا: هذا سحر بيِّن ظاهر.

كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

وكما قال غيرهم؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾، أي: وكفروا وكذبوا بها، وأنكروها ظاهرًا.

﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، الجملة: حالية، أي: وقد استيقنتها أنفسهم، والسين والتاء للمبالغة، أي: أيقنت وصدقت بها أنفسهم باطنًا، تصديقًا جازمًا أنها حق من عند الله.

وأضاف الاستيقان إلى الأنفس؛ لأنه أبلغ من لو قيل: واستيقنوها.

﴿ظُلْمًا﴾؛ مصدر في موضع الحال، أي: ظالمين، أو مفعول لأجله، أي: لظلمهم والظلم: الاعتداء، أي: ظلمًا منهم؛ لجحودهم الآيات وردها، مكابرة وعنادًا؛ كما قال

تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

وأصل الظلم: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، فظلموا أنفسهم وغيرهم برد الحق وتكذيبه وتكذيب من جاء به.

﴿وَعُلُوّٗاۚ﴾؛ معطوف على ﴿ظُلۡمٗا﴾، والعلو: التكبر، أي: وتكبرًا عن الانقياد للحق، وعلى الخلق، والتقدير: وجحدوا بها ظلمًا وعلوًّا، وجملة «واستيقنتها أنفسهم» اعتراض؛ للتشنيع عليهم في جحدهم بها مع أن أنفسهم استيقنتها.

﴿فَٱنظُرۡ﴾، أي: فانظر يا محمد، ويا أيها الناظر، أي: انظر نظر أعتبار، وأبصر وتأمل ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أي: كيف كان سوء عاقبة المفسدين ونهايتهم؛ أن دمرهم الله وأهلكهم بالغرق، وأورث ديارهم المستضعفين من عباده.

وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين للنبي ﷺ، ولآيات القرآن والكتاب المبين.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته ببداية بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وما أعطاه الله تعالى من الآيات والمعجزات، وتكذيبهم له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾ الآيات.

٢- حسن خلق موسى عليه السلام في تعامله مع أهله ومراجعته إياهم فيما يهمهم جميعًا.

٣- أن زوجة الرجل من أهله، فعلى هذا يدخل في أهل بيته ﷺ أزواجه، وفي هذا رد على الرافضة- أخزاهم الله- الذين ينفون ذلك؛ ليقعوا في أزواجه ﷺ، ويتهموا عائشة رضي الله عنها.

٤- في قول موسى عليه السلام: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ دلالة على أنه عليه السلام قد ضل الطريق في مسيره؛ كما ذكر ذلك المفسرون؛ كما أن في قوله: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ ما يدل على أن ذلك كان في ليلة باردة.

٥- جواز اتخاذ الأسباب الواقية من البرد ونحوه.

٦- مناداة الله تعالى لما أتى موسى النار: أنه عز وجل بارك من في النار ومن حولها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

٧- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٩- مناداة الله تعالى لموسى عليه السلام، وبيانه له أن الذي يخاطبه هو الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٠- إثبات الكلام لله تعالى وتكليمه لموسى، وأنه عز وجل يتكلم بصوت يسمع، وليس كلامه معنى قائمًا بالنفس، كما يقول أهل البدع الذين ينفون عن الله صفة الكلام.

١١- إثبات ألوهيته عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٢- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة العزة والقوة، والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٣- أمره عز وجل لموسى بإلقاء عصاه، وانقلابها حية، آية من آيات الله تعالى الدالة على تمام قدرته، ومعجزة لموسى دالة على صدقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ الآية.

١٤- خوف موسى عليه السلام وفراره هاربًا بلا رجعة لما رآها تهتز كأنها حية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾؛ وهذا من مقتضى طبائع البشر.

١٥- طمأنة الله عز وجل له وتأمينه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾.

١٦- أن المرسلين لا يخافون لديه عز وجل؛ لحفظه لهم، وعنايته بهم، وعصمته لهم من كل سوء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١٧- في قوله تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بشارة لموسى عليه السلام باصطفائه تعالى له للرسالة.

١٨- أن الحسنات يذهبن السيئات، فمن ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء- بأن تاب وأناب إلى الله تعالى- فإن الله يغفر له ويرحمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾، وفي هذا دلالة على عظيم فضله عز وجل، ومغفرته ورحمته، وبشارة للتائبين.

١٩- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل.

٢٠- أمره عز وجل لموسى عليه السلام بإدخال يده في جيبه تخرج بيضاء من غير برص ولا عيب، آية أخرى من آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته عز وجل، ومعجزة دالة على صدق موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٢١- الاحتراز في الكلام مما يوهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٢٢- إرساله عز وجل موسى بهاتين الآيتين وغيرهما من الآيات التسع إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وترك ما هم عليه من الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى، بالشرك والعتو والعلو على عباد الله، والاستكبار في الأرض بغير الحق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

٢٣- شدة عنادهم؛ لوصفهم ما جاءهم به موسى من الآيات البينات بالسحر المبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

٢٤- كفرهم بآيات الله ظاهرًا، مع استيقان صدقها وصحتها في أنفسهم باطنًا؛ ظلمًا منهم، وتكبرًا عن الحق، وعلى الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

٢٥- ذم الظلم والعلو، ووجوب الحذر منهما؛ لما فيهما من الاعتداء ورد الحق والتكبر على الخلق.

٢٦- الحث على النظر والتأمل في سوء عاقبة المفسدين بالشرك والظلم والعلو في الأرض، وغير ذلك كفرعون وقومه، وما حل بهم من الهلاك بالغرق وغيره؛ لأخذ العبرة والعظة، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾:

بعدما ذكر بعثة موسى عليه السلام، وإرساله إلى فرعون، وما أعطاه الله من الآيات والمعجزات، أتبع ذلك بذكر ما أعطاه لداود وسليمان من العلم والنبوة والملك.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾؛ نكّر «علمًا» للتعظيم، أي: والله لقد أعطينا داود وسليمان علمًا عظيمًا كثيرًا، وهو علم النبوة والرسالة والحكمة.

وفي هذا تنويه بمنته عز وجل على داود وسليمان بما آتاهما من العلم الواسع، والحكم والحكمة؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ – ٧٩].

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: وقالا اعترافًا بنعمة الله تعالى عليهما، وشكرًا له عليها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده، ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾؛ بالنبوة والعلم والحكمة.

﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بجعلنا من خواص المؤمنين وأفضلهم؛ وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ الآية: امتدح الله داود وسليمان مشتركين بذكر ما آتاهما من العلم، وبثنائهما على الله تعالى وشكرهما، ثم ذكر ما خص به سليمان من عظيم العلم والحكمة والملك والفضل.

أي: وخلف سليمان أباه داود في النبوة والعلم والملك، وليس في وراثة المال؛ لأن

داود له أولاد كثيرون، فلو كان المراد وراثة المال لم يخص سليمان وحده من دونهم.

وأيضًا: فإن الأنبياء لا تورث أموالهم؛ كما قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركنا صدقة**»(١).

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أي: وقال سليمان مخبرًا بما وهبه الله له، وما خصه به من الملك التام والتمكين العظيم على سبيل الشكر لله، وكمال الاعتراف بنعمه، والتحدث بها: ﴿عُلِّمۡنَا﴾، أي: علمنا الله عز وجل.

﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾، أي: فهم كلامها وقولها، ومعرفة أصواتها ولغتها؛ ولهذا راجع عليه السلام الهدهد وراجعه، وفهم قول النملة للنمل، وهذا مما خصه الله به، ولم يكن لأحد غيره.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾؛ من النعم، وأسباب الملك، ومن السلطة والقهر، وتسخير الإنس والجن والطير والريح، وغير ذلك، مما لم يؤت لغيره؛ كما قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩﴾[ص: ٣٥-٣٩].

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ الإشارة لما علمه الله إياه من منطق الطير، ولما آتاه من كل شيء.

﴿لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«الفضل»: الزيادة من الخير والنعم.

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾؛ البين الواضح، الظاهر الجلي لله تعالى علينا.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾، أي: جُمعوا له، ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾.

قيل: وركب سليمان فيهم في أبهة وعظمة، يليه الإنس، ثم الجن بعدهم، والطير فوق رأسه تظله بأجنحتها.

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، أي: يحبس ويرد أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا وينتظموا، ثم يساقون، ولا يتقدم أحد عن منزلته؛ لتظهر عظمة الجيش.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾، أي: حتى إذا أتى سليمان وجنوده، ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾؛ قد يراد به الجنس؛ لأن للنمل شقوقًا ومسالك هي بالنسبة لها كالأودية للسالكين من الناس.

ويجوز أن يكون المراد به مكاناً مشتهراً بهذا الاسم؛ كما يقال: وادي السباع، ونحو ذلك.

﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ جواب «إذا»، أي: قالت منبهة لرفقتها وبني جنسها بعد أن أدركت قرب وصول سليمان وجنوده إليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، أي: ادخلوا بيوتكم لا يُهلِكنَّكُم سليمان وجنوده.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون ولا يعلمون بذلك. وهذا اعتذار منها لسليمان وجنوده.

وفي هذا آية من آيات الله تعالى وبديع صنعه في النمل، التي عظم الله شأنها بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ الآية؛ فإن هذه النملة ألهمها الله استفتاح خطابها بالنداء الذي يسمعه ويفهمه من خاطبته، وأدركت خطورة مرور جيش سليمان وجنوده، فحذرت النمل أن تصيبهم معرة الجيش، وعرفت اختصاص كل طائفة منهن بمسكن، واعتذرت عن سليمان وجنوده بقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وقد ضمنت كلامها هذا نداء وتنبيهًا؛ بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾، وأمرًا وإرشادًا بقولها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، وتحذيرًا بقولها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، وتعذيرًا بقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ فسبحان العليم الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

قال ابن القيم: «ومن عجيب هدايتها: أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه، واستدل بما روي أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد أسقيتم بدعوة غيركم»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ٨٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٨٥٨، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الباجي، وذكره ابن كثير ٦/ ١٥١٤، وانظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٥- ٣٣٦.

وقد صارت هذه المقالة: «سقيتم أو كفيتم بدعوة غيركم» مثلًا.

وقد ذكر من عجائب ما ألهمه الله تعالى هذه المخلوقات الصغيرة «النمل»: أنها تخزن في الصيف طعام الشتاء؛ لتعذر جمعه في الشتاء، وإذا أصابه بلل من مطر وغيره، أخرجته ونشرته على ظهر الأرض، فإذا يبس أدخلته؛ لئلا ينبت ويتلف.

وأنها تشم الطعام من مكان بعيد، وتدرك بالشم ما لا يدركه غيرها بالبصر والسمع، لو أخذت غصن كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبل النمل من مكان بعيد إليه فحملنه.

تأتي للسنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا تركتها.

إذا لم تستطع الواحدة منهن حمل ما وجدته من طعام استنجدت بأخواتها، فجئن سربًا كالخيط الأسود فحملنه جميعًا، تجتهد كل واحدة منهن في العمل للمصلحة العامة، غير مختلسة شيئًا لنفسها.

ليس لهن قيادة واحدة كالنحل، لكن لهن رائد لطلب الرزق، فإن وجده أخبرهن وتعاون على حمله، إلى غير ذلك مما قيل من عجائب النمل(١)؛ مما يدل على عظمة الخالق الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، أي: سمع قولها وفهمه، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، أي: ضحك مبتسمًا؛ إعجابًا منه بنصحها وتحذيرها لبني جنسها، وحسن تعبيرها، واعتذارها عنهم بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وهكذا كان ضحك الأنبياء عليهم السلام: التبسم. وفي الحديث: «ما ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسمًا»(٢).

لأن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ«أوزعني»، أي: يا رب أوزعني، أي: وفقني وألهمني شكر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٢٦٤٢؛ من حديث عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ رضي الله عنه، وقال: «صحيح غريب».

نعمتك الدينية والدنيوية.

﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، أي: التي أنعمتها عليّ وعلى والديّ من الهداية للإسلام، والتوفيق للإيمان، وغير ذلك.

والنعمة على الوالدين نعمة على الولد.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، أي: وأوزعني ووفقني وألهمني أن ﴿أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾، أي: أن أعمل عملًا صالحًا، خالصًا لوجهك، موافقًا لشرعك، ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ عني وتحبه، وتقبله مني.

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: وأدخلني برحمتك- لا بعملي- الجنة في جملة عبادك الصالحين.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على داود وسليمان بما آتاهما من العلم والنبوة والرسالة، وبيان فضله تعالى عليهما في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

٢- فضيلة داود وسليمان عليهما السلام؛ لعظم ما آتاهما الله عز وجل من العلم، وثنائهما على الله عز وجل، وشكرهما على تفضيله إياهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣- أن من توفيق الله تعالى العبد وعنوان سعادته: أن يكون شاكرًا لربه، معترفًا له بجميع نعمه الدينية والدنيوية؛ ولهذا قال بعض السلف: توفيق الله للحمد على النعمة أفضل من النعمة ذاتها.

٤- فضيلة العلم وأهله العاملين به الباذلين له.

٥- أن الحمد المطلق التام لله عز وجل وحده.

٦- أن الشكر يكون بالقول، كما يكون بالقلب والعمل.

٧- أن الفضل والنعم من الله يؤتي ذلك من يشاء؛ لقول داود وسليمان: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾.

٨- يجب على العبد أن يحمد الله ويشكره على نعمه وفضله عليه.

٩- جواز أن يذكر الإنسان مرتبته في العلم، ويذكر نعمة الله عليه في ذلك وفي غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقول سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، إذا كان ذلك من باب الشكر لله تعالى، والتحدث بنعمته، أو تحذير الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية العلم، أو غير ذلك، وقد قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١).

١٠- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١١- وراثة سليمان العلم والنبوة والملك عن داود عليهما السلام، وإضافة سليمان علم أبيه داود إلى علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.

١٢- تنويه سليمان عليه السلام بتعليم الله إياه منطق الطير، وإيتائه من كل شيء، واعترافه بفضل الله تعالى البين الظاهر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٣- أن الطير تنطق، ونطقها مفهوم ومعلوم فيما بينها، ولمن علّمه الله إياه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤].

١٤- عظمة جيش سليمان عليه السلام، وقوته، وكثرة جنوده من الجن والإنس والطير، وجمعه لهم، ومسيره بهم في أبهة وعظمة، بانتظام وانضباط وائتمار بأمره، لا يتقدم أحد عن منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

١٥- نداء النملة وأمرها للنمل وإرشادها لهم عند إتيان سليمان وجنوده على

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣١٤٨؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

واديهم بدخول مساكنهم حتى لا يحطمنهم الجيش، وهذا من عظيم قدرة الله تعالى، وتسخيره النمل لسليمان، إكرامًا له وكرامة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

١٦- إضافة المكان إلى ساكنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾.

١٧- اعتذار النملة لسليمان وجنوده؛ لقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

١٨- تمام قدرة الله تعالى في جعل هذه النملة المخلوق الصغير تنطق بهذه الفصاحة والذكاء والنصح والتحذير والتعذير وغير ذلك.

١٩- عدم جواز قتل النمل؛ لقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: أنهم لو شعروا بها ما قتلوها، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**قرصت نبيًّا من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟**»(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد»(٢).

لكن ما كان منها مؤذيًا فإنه يقتل؛ كغيره من المؤذيات.

٢٠- سماع سليمان عليه السلام لقولها، وفهمه له، وتبسمه ضاحكًا إعجابًا بقولها ونصحها وتحذيرها واعتذارها وحسن تعبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾.

٢١- جواز التبسم والضحك عند وجود سببه.

٢٢- في مقالة النمل وسماع سليمان وفهمه لها آية من آيات الله تعالى، ودلالة على تمام قدرته وبديع صنعه في مخلوقاته، وعظيم إفضاله على سليمان عليه السلام.

٢٣- اعتراف سليمان عليه السلام بنعمة الله تعالى، وعدم اغتراره بذلك، ودعاؤه

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١٩، ومسلم في السلام، قتل الحيات وغيرها، النهي عن قتل النمل ٢٢٤١، وأبو داود في الأدب ٥٢٦٦، وابن ماجه في الصيد ٣٢٢٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب قتل الذر ٥٢٦٧، وابن ماجه في الصيد، ما ينهى عن قتله ٣٢٢٤.

ربه أن يلهمه شكر نعمته التي أنعمها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضى به عز وجل ويحبه ويتقبله منه، وأن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٢٥- أن التوفيق بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾.

٢٦- حاجة الأنبياء كغيرهم الى توفيق الله، وسؤال الله تعالى ذلك، وفي هذا رد على القدرية الذين يرون استقلال الإنسان بعمله، وعدم حاجته إلى عون الله وتوفيقه.

٢٧- أن النعمة على الوالدين نعمة على الولد، وأن النعم كلها من الله عز وجل وحده.

٢٨- أن العمل إنما يقبل إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، مرضيًّا عنده عز وجل.

٢٩- الرد على الجبرية في زعمهم أن العبد مجبر على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾، فأضاف العمل إلى نفسه واختياره.

٣٠- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل، وأن من أعظم رحمته الجنة؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي مخاطبًا لها: «**أنت الجنة، رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(١).

٣١- أنه لا أحد ينال مقصوده ويدخل الجنة، إلا برحمة الله تعالى، وفي الحديث: «**لا يُدخل أحداً منكم عملُهُ الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(٢).

٣٢- جواز التوسل بصفات الله تعالى؛ لقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾.

٣٣- أن العبودية الخاصة لله تعالى أشرف المقامات، وأن منزلة الصالحين من

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

أعظم المنازل عند الله تعالى في الدنيا والآخرة.

٣٤- ينبغي سؤال الله عز وجل التوفيق لشكر نعمة الله تعالى، والعمل الصالح الذي يرضي الله عز وجل، والدخول برحمته وجنته في عباده الصالحين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾:

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾، أي: أجال نظره وبصره فيها، أو مشى بينها؛ ليعلم الحاضر منها والغائب، ويُنَظِّمها.

وهذا يدل على حزمه وعزمه، وتوليه بنفسه تدبير مملكته، وإشرافه التام على جنوده، وهكذا يجب على كل من تولى أمرًا من أمور المسلمين، صغيرًا كان أو كبيرًا.

﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ الهدهد: نوع من الطير، فوق رأسه قزعة سوداء، أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات الحبوب والدود.

قال ابن القيم: «وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره»(١).

وقد روي عن عكرمة، قال: سئل ابن عباس: كيف تفقد سليمان الهدهد بين الطير؟ قال: «إن سليمان نزل منزلًا، فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد مهندسًا، فأراد أن يسأله عنه ففقده. قلت: وكيف يكون مهندسًا، والصبي يضع له الحبالة فيغيبها فيصيده؟ قال: إذا جاء القدر حال دون البصر»(٢).

وصحيح والله: أنه إذا جاء القدر عمي البصر.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٨٥٩، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٥.

و«ما» في قوله: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾: اسم استفهام، أي: أين الهدهد؟ ولماذا لا أراه؟ هل هناك مانع منعني من رؤيته؟ وذكر هذا الاحتمال أولًا تقديمًا لحسن الظن، ثم قال:

﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أكان من الغائبين بدون إذني؟

وهذه معصية توجب عقابه، ولهذا توعده بقوله:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ اللام: في المواضع الثلاثة: لام القسم لقسم مقدر، والنون في المواضع الثلاثة للتوكيد، أي: والله لأعذبنه تعذيبًا شديدًا؛ لتغيبه بدون علمي وإذني، ومعصيته لي.

﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾؛ «أو» في الموضعين عاطفة، وتفيد معنى التقسيم، والتنويع، أي: إما هذا، أو هذا، والمعنى: لأذبحنه بقطع الحلقوم والمريء من عند رقبته، وهذا يدل على شدة غضبه وتغيظه على الهدهد.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾؛ قرأ ابن كثير بنونين الأولى مفتوحة مشددة، والثانية مكسورة مخففة: «لَيَأْتِيَنَّنِي»، وقرأ الباقون بنون واحدة مكسورة مشددة: ﴿لَيَأْتِيَنِّي﴾.

أي: أو ليأتيني ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة بيِّنة وبرهان واضح، وعذر بيِّن ظاهر، يُبرر سبب تغيبه، فينجو من العقاب.

وهذا يدل على ورع سليمان عليه السلام؛ إذ لم يقسم على مجرد عقوبته مطلقًا؛ لاحتمال كونه معذورًا؛ كما يدل على التزام جميع جنوده من الطير وغيرها بطاعته، وعدم الخروج عن أمره، وعدم تغيب أحد منها إلا بعلمه وإذنه، ووجوب طاعتها له طاعة خاصة؛ لتسخير الله إياها له.

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾:

قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ قرأ عاصم وروح بفتح الكاف: ﴿فَمَكَثَ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «فَمَكُثَ».

أي: فمكث الهدهد بعد تفقد سليمان للطير وسؤاله عنه، أي: لبث زمنًا يسيرًا غير طويل، ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه، وشدة ائتمارهم بأمره، واهتمامهم بأعمالهم.

﴿فَقَالَ﴾ لسليمان مبادرًا ببيان سبب غيابه بخطابٍ مهيجٍ على الإصغاء إليه والقبول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، أي: اطلعت وأحطت علمًا وخبرًا بالذي لم تحط به، أو بشيء لم تحط به، ولم تطلع عليه؛ كقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨].

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ قرأ أبو عمرو والبزي بفتح الهمزة من غير تنوين: «سَبَأَ»، وقرأ الباقون بالخفض والتنوين: ﴿سَبَإٍ﴾.

أي: من قبيلة سبأ وحمير ملوك اليمن، ومن ديارهم «مأرب» على ثلاثة أميال من صنعاء.

﴿بِنَبَإٍ﴾؛ النبأ: الخبر الهام الخطير، أي: بخبر هام، له شأن عظيم، تتطلع النفوس إلى معرفته، ﴿يَقِينٍ﴾، أي: حق وصدق وجزم، لا شك فيه ولا ريب.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾؛ تفسير للنبأ، ونكر «امرأة» ولم يقل: ملكة، للتعجب من كون ملكتهم امرأة، وهي: بلقيس بنت شراحيل.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وأعطيت من كل شيء من المقومات، مما يحتاج إليه الملك المتمكن من الجنود والسلاح والعتاد والقلاع والحصون، ومن النعم والمتاع والخيرات؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥].

﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾؛ وهو سرير ملكها وكرسيها الذي تجلس عليه.

﴿عَظِيمٌ﴾، أي: هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ؛ من الياقوت والزبرجد وغير ذلك.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ حذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها؛ إيذانًا بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة؛ لأن فيها الإخبار بما هم عليه من عبادة الشمس والشرك بالله؛ مما يوجب دعوتهم إلى الله، وقتالهم إن لم يؤمنوا(١)، أي: وجدتها وقومها مشركين بالله، يسجدون للشمس ويعبدونها من دون الله.

قيل: كان عرشها في قصر عظيم محكم رفيع البناء، وكان فيه ثلاثمئة وستون طاقة من شرقه، ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخله الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً(٢).

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم السيئة التي هم عليها؛ من عبادة الشمس والشرك بالله، وغير ذلك، فرأوا أنهم على الحق.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن الطريق المستقيم.

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾؛ للسجود لله وسلوك طريق الحق؛ لأنهم يرون أن ما هم عليه من الضلال هو الهدى.

وهذه مصيبة أعظم من مصيبة ضلالهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨].

وكما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن(٣)

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾؛ قرأ أبو جعفر والكسائي ورويس بتخفيف اللام: «أَلَا»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿أَلَّا﴾، ومعناها: الحث والتحضيض، أي: هلا يسجدوا لله، أو التعليل، أي: زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله.

والمراد: إنكار سجودهم لغير الله، وأمرهم بالسجود لله وحده.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٧.

(٣) انظر: «روح المعاني» (١/ ١٥٦).

وهذه الآية من مواضع السجود في القرآن، فيها الأمر بالسجود، والذم لتاركه.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يخرج ويظهر المخبوء في السموات والأرض؛ مما ينزل من السماء من المطر والأرزاق والأقدار وغير ذلك.

وما يُخرج من الأرض من الماء والنباتات والمعادن، والأموات يوم المعاد، وغير ذلك، ويعلم سبحانه كل خبيئة في السماء والأرض.

قال ابن القيم: «وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه؛ إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض»(١).

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ قرأ الكسائي وحفص بالخطاب: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيب: «مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

أي: يعلم الذي تسرون وتضمرون، والذي تظهرون وتبدون من الأقوال والأفعال؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

بعدما بين تفرده عز وجل بالربوبية بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أتبع ذلك بذكر تفرده بالألوهية، فقال:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ الذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وسقفها وأعلاها وأجملها، و«ال» للعهد الذهني، أي: العرش المعهود في الأذهان؛ والخَلْق العظيم، بخلاف عرش بلقيس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بالتنكير، وإذا كان عز وجل رب العرش الذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها وأعلاها، فربوبيته لما دونه من باب أولى.

الفوائد والأحكام:

١- حزم سليمان عليه السلام في ملكه؛ لتفقده لجنوده بنفسه، وإشرافه على تدبير

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٨.

وتنظيم أمور رعيته وأحوال مملكته وتنظيمها، وهكذا يجب على كل من يتولى أمرًا من أمور المسلمين صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ الآية.

٢- تسخير الطير له عليه السلام، وتبوؤ الهدهد مكانة بينها، وفقدانه له لما تفقدها؛ لقوله: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ الآية.

٣- تقديمه عليه السلام حسن الظن بالهدهد لمَّا فقده؛ لقوله: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾، وذلك من وجهين؛ الأول: أنه قدم هذه الجملة على قوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، الثاني: أن هذه المقالة فيها شيء من الاعتذار عن الهدهد؛ لاحتمال أنه لم يقع عليه بصره لمانع منعه من رؤيته، ونحو ذلك.

٤- توعده الهدهد وتهديده إياه بالعذاب الشديد أو القتل، ما لم يأت بعذر يبرر غيابه؛ لقوله عليه السلام: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

٥- ورعه عليه السلام؛ حيث لم يقسم على مجرد عقوبته مطلقًا؛ لاحتمال كونه معذورًا.

٦- التزام جميع جنوده من الطير وغيرها بطاعته، وعدم الخروج عن أمره، وعدم تغيب أحد منها إلا بعلمه وإذنه، ووجوب ذلك عليهم له عليه السلام، وإلا لما جاز معاقبة الهدهد على تغيبه.

٧- مجيء الهدهد بعد زمن يسير من توعد سليمان له، ومبادرته بذكر سبب تغيبه بخطاب مهيج على الإصغاء إليه والقبول منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الآية.

٨- شدة هيبة جنود سليمان له، وائتمارهم بأمره واهتمامهم بأعمالهم؛ لقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، فمع عذر الهدهد في غيابه لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا.

٩- أن سليمان عليه السلام وإن أعطي ملكًا عظيمًا لم يعطه أحد فهو لا يحيط بكل شيء ولا يخرج عن قوله عز وجل في وصف الإنسان: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:٢٨]، وغيره من باب أولى.

ولهذا فهو عليه السلام لم يعلم بأخبار سبأ وملكتهم وملكها العظيم، وما هي عليه هي وقومها من عبادة الشمس والشرك بالله؛ لأنه لم يعترض على قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الآية.

١٠- قوة هذا الهدهد في مخاطبة سليمان ذي الملك العظيم بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ وذلك لأنه محق، وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]، وقد تلطف كل منهما في مقالته فلم يقل الهدد لسليمان: إنك جاهل لا تدري، ولم يقل ذلك إبراهيم لأبيه.

١١- أن الأصل في مخاطبة المفرد أن تكون بضمير الإفراد، وحسب حاله، مهما علت مرتبته في المجتمع؛ ملكًا كان أو وزيرًا أو أميرًا أو عالمًا، ولا يلزم أن تكون بضمير التعظيم والجمع؛ نحو: جئتكم وأتيتكم، ونحو ذلك، ولم يكن هذا معهودًا في مخاطبة النبي ﷺ ولا في مخاطبة الصحابة له، ولا عند سلف الأمة.

١٢- إخبار الهدهد سليمان عن مجيئه من سبأ بنبأ يقين، فيه ما يثير العجب، وهو أن امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وفيه ما يجب إنكاره عليهم، وهو كونهم مشركين يعبدون الشمس من دون الله؛ مما يوجب دعوتهم إلى الله، وقتالهم إن لم يسلموا؛ لقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

١٣- تأكيد الهدهد صدق خبره وأهميته بقوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾.

١٤- أن ولاية الأمور الكبرى في المسلمين لا يجوز أن تكون في النساء؛ لهذا تعجب الهدهد من كون امرأة تملك سبأ؛ لقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وقد قال نبينا ﷺ: «**لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»(١).

وهذا لا ينافي أن تتولى المرأة مناصب قيادية بين النساء في الأعمال التي لا يقوم بها

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٨)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٢)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

سواهن، كالتعليم، والتطبيب الخاص بالنساء، ونحو ذلك.

١٥- عظم ملك ملكة سبأ، وعظم عرشها؛ لقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

١٦- أن الهدف المقصود من كل ما ذكره الهدهد لسليمان: هو بيان ما كانت عليه ملكة سبأ وقومها من عبادة الشمس والشرك بالله؛ لقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، بحذف حرف العطف، فدل على أن كل ما قبل هذا توطئة له.

١٧- تحريم السجود للشمس وغيرها من المخلوقات من دون الله؛ لأن ذلك أعظم الشرك بالله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

١٨- أن الخلق كلهم مفطورون على التوحيد، وإنكار الشرك؛ لأن الهدهد أنكر عليهم شركهم، مع أنه ليس من العقلاء وصدق الله العظيم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وبهذا صار المشركون بالله هم شر البرية وأضل من الأنعام كما ذكر الله عز وجل.

١٩- إثبات الاختيار للإنسان والرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذا بمحض اختيارهم.

٢٠- تحسين الشيطان لهؤلاء المشركين وأمثالهم أعمالهم، وصده لهم عن الصراط المستقيم؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢١- أن سبيل الله وصراطه واحد؛ لقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢٢- أن من زين له الشيطان عمله الباطل، وما هو عليه من الضلال، فرأى أنه على حق وهدى، فالغالب أنه لا يهتدي إلى الحق؛ لانطماس بصيرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢٣- إنكار الهدهد عليهم عدم السجود لله تعالى؛ لقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ الآية.

قال ابن كثير[١]: «ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له، نُهي عن قتله، وذكر الحديث: «**نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد**»[٢].

٢٤- وجوب عبادة الله تعالى والسجود له وحده، الذي يخرج كل مخبوء في السموات والأرض، ذي العلم الواسع، والذي لا معبود بحق سواه، رب العرش العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝٢٦﴾.

٢٥- سعة علم الله تعالى، وعلمه بالسر والعلانية، مما يوجب مراقبته عز وجل.

٢٦- أنه لا يجوز السجود والتعبد لغير الله؛ لأنه لا معبود بحق إلا الله، وهو رب العرش العظيم، ورب جميع المخلوقات.

٢٧- إثبات ربوبية الله تعالى للعرش العظيم، وربوبيته لما دونه من المخلوقات أولى؛ لقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

٢٨- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فمن لازم إفراد الله عز وجل بالربوبية: إفراده بالألوهية وحده لا شريك له.

٢٩- إثبات العرش، وأنه أعظم المخلوقات.

* * *

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٩٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٣٢، ٣٤٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح.

وأخرجه أبو داود في الصيد، باب قتل الذر ٥٢٦٧، وابن ماجه في الصيد، ما ينهى عن قتله ٣٢٢٣، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٣٢٢٤.

قال الله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

قوله: ﴿۞ قَالَ﴾، أي: قال سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾؛ السين: حرف استقبال، وتفيد التحقيق، والهمزة للاستفهام، أي: سنتأمل أصدقت فيما أخبرت به عن سبأ ومملكتهم، وما هم عليه من السجود للشمس من دون الله.

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ «أم» هي المتصلة، معادلة لهمزة الاستفهام، أي: أم كنت من الكاذبين في مقالتك؛ لتتخلص من الوعيد والعقوبة؟

ولم يقل: أم كذبت تلطفًا معه، كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[الذاريات:٢٥]، ولم يقل: أنكركم، وذلك من باب التلطف معهم.

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾، أي: فكتب سليمان إلى بلقيس وقومها كتابًا، وأعطاه للهدهد وقال له: اذهب بكتابي هذا. وهذا يحتمل أنه من جملة اختباره له، ويحتمل أنه صدقه، وهو الأظهر.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: إلى بلقيس وقومها، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: تنحَّ عنهم قريبًا، واستأخر عنهم غير بعيد، وتابعهم.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول.

والمعنى: فانظر وتأمل واسمع ماذا يردون به من الجواب، من قبول أو رفض.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾، أي: فلما ذهب فألقاه إليهم، ﴿قَالَتْ﴾ بلقيس مخاطبة كبراء مملكتها وأشرافها وأمراءها ووزراءها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾، أي: عظيم، جليل القدر، أخذت ذلك- والله أعلم- من ختم سليمان عليه، ومن كون الطائر أتى به وألقاه إليها، ومما تضمنه مما أفصحت عنه بقولها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فقد افتتح بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وقد قيل: إنه لم يكتب أحد: «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل سليمان، وأيضًا فقد كان غاية الإيجاز والبلاغة والفصاحة وقوة الأسلوب، وشدة التهديد والوعيد.

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾؛ «أن» تفسيرية، و«لا» ناهية، أي: لا تتكبروا عليَّ ولا تتجبروا، ولا تمتنعوا من الانقياد لما دعوتكم إليه.

ويجوز كون «أن» مصدرية، و«لا» نافية، أي: أطلب ألا تعلوا علي، أو هو ألا تعلو علي، ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، أي: منقادين، مستسلمين لله تعالى بالتوحيد، متبرئين من الشرك.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾، أي: قالت لأشراف قومها بعد أن أخبرتهم بكتاب سليمان ومضمونه، وفهمت ما فيه من روح التحدي والتهديد، وأحست بخطورة الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾، أي: أشيروا علي في شأني ماذا أفعل؟ فإن الأمر خطير جد خطير.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، أي: ما كنت قاضية ومستبدة بأمر وفاصلة به، وعازمة عليه، ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، أي: حتى تحضرون وأستشيركم.

وهذا يدل على حزمها ورجحان عقلها وحكمتها؛ لأنه ما ندم من استشار،

والمستشير يجمع إلى رأيه خلاصة آراء الآخرين، فيصل إلى أفضل النتائج، أو يعذر على الأقل، وقد أحسن القائل:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآةِ(١)

وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن القوافي قوة للقوادم(٢)

وقال حافظ إبراهيم في القصيدة العمرية(٣):

يا رافعًا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيرًا عن محبيها

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: قالوا لها إجابة على قولها: ﴿أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي﴾: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾، أي: ذوو وأصحاب قوة وبأس شديد في الحرب، أي: بعددنا وعدتنا وشجاعتنا ومستعدون للقتال، ويلحظ من قولهم هذا اغترارهم بقوتهم وبأسهم، وتعريضهم للأخذ بأصعب الأمرين وهو المجابهة والقتال، والذي لو حصل كان فيه دمارهم.

قال المتنبي(٤):

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني

وقال عمرو بن معديكرب أو امرؤ القيس(٥):

---

(١) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٦).

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (٤/ ١٧٣).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٩١).

(٤) انظر: «ديوانه» (ص١٣٩) بترقيم المكتبة الشاملة.

(٥) انظر: «ديوان عمرو بن معديكرب» (ص١٢)، «ديوان امرئ القيس» (ص١٤٩)، والأكثرون على أن البيتين لعمر وبن معديكرب. انظر: «العقد الفريد» (١/ ٨٦)، «الحماسه البصرية» (١/ ١٨)، «الذخائر

الحـــرب أول مـــا تكـــون فُتَيَّـــةً تبـــدو بزينتهـــا لكـــل جهـــول
حتـى إذا حميـت وشـب ضرامهـا عـادت عجـوزًا غـير ذات خليـل

ولكن من توفيق الله أنهم لم يستقروا على هذا الأمر؛ ولهذا قالوا لها:

﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، أي: والأمر مفوض إليك، وهذا من أدبهم معها، ردوا الأمر إليها، وهي التي استشارتهم.

﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فتأملي وتدبري ماذا تأمرين به؟ أو ما الذي تأمرين به؟ فنحن ممتثلون لأمرك، جاهزون لتنفيذ ما ترينه. وذلك لثقتهم بحزمها وحكمتها ورجحان عقلها.

﴿قَالَتْ﴾ لهم مبينة سوء مغبة القتال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾، أي: إذا دخلوها عنوة وغلبة، ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بالقتل والأسر، والنهب والسلب، وإهلاك الحرث والنسل، وتخريب البلاد، وإخافة العباد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾، أي: وجعلوا أشراف أهلها وساداتهم ورؤساءهم ﴿أَذِلَّةً﴾، أي: ذليلين صاغرين بقهرهم لهم، واسترقاقهم وأسرهم، وغير ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ تأكيد لما وصفت من حال الملوك إذا دخلوا القرى عنوة، وتقرير له، بأن ذلك عادتهم المستمرة.

وقيل: إن هذا استئناف من كلام الله تعالى تصديقًا لقولها، وتقريرًا له.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾؛ عظيمة، مصانعة واحتيالًا وخدعة لهم.

﴿فَنَاظِرَةٌ﴾، أي: فمتأملة ومتدبرة، أو فمنتظرة ومترقبة.

﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ «ما»: استفهامية، أي: بأي شيء يرجعون، أي: بم يعود المرسلون من عنده؟ وماذا يكون جوابه؟ وهل يقبل هذه الهدية، ويعدل إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة، أو يرد الهدية، ويستمر على رأيه، ويعزم على قتالنا؟ وهنا نرى رأينا. أي: أنه إن كان عنده طمع فإنه يقبل الهدية؛ لأنها غنيمة حاضرة باردة، وإن كان لا يريد

والعبقريات» (٢/ ٢٢٠).

دنيا وإنما يريد أمرًا آخر، وهو دعوتنا إلى دينه، فلن يقبل الهدية؛ وهذا ما أراده فعلًا بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

قال قتادة: «رحمها الله، إن كانت لَعاقلة في إسلامها وشركها، قد علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس»(١).

قال ابن كثير(٢): «قال ابن عباس وغير واحد: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه».

الفوائد والأحكام:

١- حكمة سليمان عليه السلام، وتأنيه، وتثبته في الأمور، والتزامه العدل، وتقديمه لحسن الظن؛ لقوله تعالى: ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢- وجوب التثبت في الأمور، وفي قبول الأخبار وتصديقها.

٣- إرساله الهدهد بكتاب منه إلى سبأ يدعوهم فيه إلى الانقياد له، والدخول في الإسلام، يلقيه إليهم، ثم يتنحى عنهم قليلًا ويتابعهم، فينظر بماذا يردون؛ لقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٤- تمام قدرة الله تعالى في جعله هذا الهدهد- وهو في الأصل حيوان لا يعقل- يفهم ما يوجه إليه من الأمر والنهي والاختبار والوعيد، وغير ذلك تسخيرًا لسليمان عليه السلام.

٥- إخبارها أشراف قومها ورجال دولتها، بأنه ألقي إليها كتاب كريم، أي: عظيم جليل القدر، وإفصاحها عن مرسله، وعن مضمون هذا الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

٦- استحباب بداءة الكتب والرسائل بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»؛ تبركًا باسم الله وتيمنًا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٨٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٠٠.

٧- حسن الإيجاز، وأن خير الكلام ما قل ودل.

٨- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «الرحمن» و«الرحيم»، وصفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة.

٩- تحذير سليمان عليه السلام لهم من العلو والتكبر عليه، وعدم الانقياد لطاعته؛ لقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾.

١٠- أمره لهم بالدخول بالإسلام، والإتيان إليه مستسلمين منقادين؛ لقوله: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، وهذا مشعر بقوته في مملكته وصرامته بالحق.

١١- حكمة بلقيس ورجحان عقلها، وحزمها؛ لاستشارتها أشراف قومها ورجال دولتها: ماذا تفعل؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾.

١٢- أهمية الشورى في صلاح أحوال الأمم والدول والمجتمعات كبيرها وصغيرها؛ ولهذا أمر الله تعالى بها رسولنا ﷺ، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وامتدح بها المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال ﷺ في غزوة الحديبية: «**أشيروا علي أيها الناس**»(١).

١٣- نفيها أن تكون مستبدة وفاصلة بأمر حتى يحضر الملأ من رجال دولتها، وتستشيرهم؛ لمعرفتها أن الاستبداد في الأمور وتحكيم رأي الفرد فيها سبب للفشل؛ لقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

١٤- اغترار ملئها ورجال دولتها بقوتهم وبأسهم الشديد، وميلهم إلى المجابهة والقتال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

١٥- قناعتهم بقوة رأيها وتفويضهم الأمر أخيرًا إليها لتنظر ماذا تفعل، وإعلانهم جاهزيتهم لامتثال أمرها وتنفيذه؛ لقولهم: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، وهذا من توفيق الله لهم.

١٦- بيانها لهم- بعقلها الراجح ودهائها وحكمتها، ونظرها في العواقب- سوء مغبة القتال، وما يحصل عند دخول الملوك وجيوشهم القرى عنوة من الفساد والخراب

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٦٧٩؛ من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم.

وإذلال أعزة أهلها.

ومفهوم هذا: أنها لا ترى رأيهم؛ لأنه غير سديد وهو كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

وفي هذا دلالة على أنه لا يلزم المستشير أن يأخذ بقول المستشار إذا لم يره صوابًا.

١٧- تأكيد مقالها بقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أي: أن هذا فعل الملوك وسيرتهم إذا دخلوا القرى، ويجوز كون هذا استئنافًا من كلام الله تعالى تصديقًا لقولها.

١٨- اختيارها طريق التأني والاختبار والمصانعة والمهادنة والمصالحة؛ بإرسالها هدية عظيمة لسليمان، لعل وعسى أن يقبلها ويسالم، وانتظارها وترقبها بم يرجع المرسلون من عنده، لترى رأيها بعد ذلك؛ لقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا يدل على جواز الاختبار لاستظهار الحق بالقرائن.

١٩- معرفتها بثاقب عقلها أن للهدية أثرها على القلوب، وأنها تسل السخيمة؛ كما قال ﷺ: «**تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وحر الصدر**»(١).

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الولاء والهبة ٢١٣٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فلما جاء رسولها بالهدية سليمان، أي: أتى بها سليمانَ.

﴿قَالَ﴾، أي: قال سليمان منكرًا عليهم، ومتغيظًا لعدم إجابتهم لقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتعجيب، أي: كيف تزودونني بمال، تصانعونني به؛ لأترككم على شرككم وملككم؟

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾؛ الفاء: تعليلية، و«ما»: موصولة، أي: فالذي أعطاني الله من النبوة والحكمة، والملك والمال وغير ذلك خير من الذي أعطاكم من الدنيا والمال، فليس لهديتكم عندي أي موقع ولا وزن ولا قيمة، ولهذا قال:

﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم بهديتكم

تسرون وتفخرون وتعظم عندكم؛ لحاجتكم إلى المال، وولعكم به، ونظرتكم الدنيوية المادية القاصرة، أي: تفرحون إذا أُهدي إليكم.

ويحتمل أن المعنى: تفرحون إذا أهديتم، وترون أن لكم فضلًا على المهدى إليه.

والأول أظهر، ولا مانع من حملها على المعنيين. ومفاد هذا: أنني لا أفرح بالهدية، ولا تهمني، ولكنكم أنتم الذين تفرحون بها. وقدم المسند «أنتم» على الخبر «تفرحون»؛ لإفادة القصر.

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: قال سليمان لرسول بلقيس: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: ارجع إلى الذين أرسلوك بهديتهم، وبهذا الخبر العظيم: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون فيهما للتوكيد، أي: فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها وقتالها.

﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: ووالله لنخرجنهم ﴿مِّنۡهَآ﴾، أي: من بلدتهم ومدينتهم «مأرب»، ﴿أَذِلَّةٗ﴾؛ حال، أي: ذليلين، ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم مهانون مدحورون.

وفي هذا استصغار لهم من الناحية العسكرية، بعد استصغاره لهم من الناحية المالية بقوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ٤٠﴾:

قوله: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾، أي: قال سليمان للملأ الذين سخرهم الله له من الإنس والجن.

﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، أي: بسرير ملكها الذي تجلس عليه.

﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف

إلى «قبل»، و«مسلمين»: حال، أي: قبل إتيانهم مستسلمين لله بالتوحيد، منقادين له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وعرف أنهم سيأتوه مسلمين- والله أعلم- إما أن الله تعالى أوحى إليه بذلك، أو أنه عرف ذلك بالقرائن؛ لأنه توعدهم وهددهم بقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ﴾ الآية، فعرف أنهم إذا سمعوا ذلك لا بد أن ينقادوا ويستسلموا.

قال ابن كثير[1]: «فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان، ناوية متابعته على الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره».

قال بعضهم: إنما طلب الإتيان بعرشها قبل إتيانهم مسلمين؛ ليجعل ذلك حجة له عليها في نبوته، وليريها بذلك قدرة الله تعالى وعظيم شأنه.

وقال بعضهم: إنما طلبه؛ ليختبر عقلها إذا رأته، وهل تثبته أم تنكره؟

وقيل: لأجل أن يتصرف فيه قبل أن يسلموا فتكون أموالهم محترمة. وفي هذا نظرمن وجهين:

الأول: أنها بمجرد مغادرتها إياه مسلمة قد أحرزت مالها قبل أن تصل إلى سليمان.

والثاني: أن سليمان في غنى عن عرشها بما آتاه الله مما لم يعط لأحد سواه، ولا يحسن أن يظن به هذه الظن.

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، أي: مارد قوي شديد من الجن:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾؛ «أن» والفعل «تقوم» في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى «قبل»، أي: أنا آتيك بعرشها قبل قيامك من مقامك، أي: من مجلسك، والمراد: أنا آتيك به بسرعة.

قيل: وكان يجلس للحكومات والقضاء بين الناس من أول النهار إلى زوال الشمس، بما يتراوح بين ثلث النهار إلى أقل من نصفه عادة.

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإني على هذا العرش لقوي على حمله،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٠١.

﴿أَمِينٌ﴾؛ على ما فيه من الجواهر، وغير ذلك.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وهو رجل أعطاه الله علمًا من الكتاب المنزل، ويعرف بما أعطاه من الإيمان والعلم ما يكون أقرب إلى الإجابة، وليس المراد بالكتاب: «التوراة».

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، أي: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى شيء، أي: بأسرع من طرفة العين، وطرفة العين أقل شيء، وفي الحديث: «**فلا تكلني إلى نفسي، طرفة عين**»(١).

قال الشاعر:

ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يبدل الله من حال إلى حال(٢)

قال ابن زيد: «فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه»(٣).

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، أي: فلما رأى سليمان عرشها حاضرًا لديه، مستقرًّا عنده ﴿قَالَ﴾؛ شكرًا لله تعالى واعترافًا بعظيم نعمه عليه:

﴿هَٰذَا﴾، أي: هذا التسخير والتيسير لي، وتهيئة أسباب الإتيان بعرشها، واستقراره بين يدي بهذه السرعة، وغير ذلك.

﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، أي: من نعم الله تعالى عليَّ، وزيادته لي، وتفضله عليَّ، لا لأني مستحق لذلك، وإنما ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾؛ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يختبرني ويمتحنني.

﴿ءَأَشْكُرُ﴾؛ الهمزة للاستفهام، أي: أأشكر نعمته وفضله وإفضاله عليَّ، فأعترف له بذلك، وأستعين به على عبادته وطاعته وذكره والثناء عليه؟ والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ «أم»: عاطفة، أي: أم أكفر نعمته وفضله، وأغتر بملكي وسلطاني

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٠؛ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» (٢/ ٢٠٤).

والشطر الثاني فيه: «يقلب الأمر من حال إلى حال».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٠٣.

وقدرتي؛ كما هو حال كثير من الملوك الجاهلين؟

فشكر عليه السلام ربه على نعمته، واعترف بفضله وإفضاله عليه، وعلم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف ألا يقوم بشكر هذه النعمة.

﴿وَمَن شَكَرَ﴾، أي: ومن شكر، فاعترف بنعمة الله تعالى عليه، واستعملها في طاعته، واستعان بها على ذلك.

﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأن ثمرة شكره وجزاءه وثوابه يعود إلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: ٤٤].

ومفهوم هذا: أن من لم يشكر وأساء فعلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

﴿وَمَن كَفَرَ﴾، أي: ومن كفر ولم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾،أي: غني عنه وعن شكره، وعن العباد كلهم وشكرهم وعبادتهم.

﴿كَرِيمٌ﴾ في نفسه، ليس مفتقرًا إلى أحد، فلا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

وهو عز وجل كريم، كثير الخير، عظيم الكرم في غناه؛ لأن الغِنى لا يحمد إلا إذا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

صاحبه الكرم؛ ولهذا يقرن عز وجل كثيرًا في القرآن بين اسميه «الغني والحميد»، وبين اتصافه بالغنى والحمد.

وهو عز وجل كريم، يعم بخيره الشاكر والكافر؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال سليمان لحاشيته: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾، أي: غيروه إلى حال تنكره إذا رأته، بزيادة أو نقص، أو تغيير بعض أجزائه، أو لونه أو فرشه، أو غير ذلك.

﴿نَنظُرْ﴾ جواب الأمر: ﴿نَكِّرُوا۟﴾، أي: ننظر ونتأمل مختبرين لها، ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به: الاستخبار، أي: أتهتدي فتعرف أنه عرشها، فيدل ذلك على ذكائها وفطنتها، وقوة معرفتها، ورجحان عقلها.

﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؛ فلا تعرفه، فيدل ذلك على خلاف ما ذكر؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾، أي: قدمت على سليمان عليه السلام، ونظرت إلى العرش.

﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾، أي: قيل لها: أهكذا عرشك؟ أي: أيشبه هذا عرشك؟

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾؛ أجابت بمثل ما سئلت عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، و«كأن» للتشبيه، فلم تقل: إنه هو، ولم تقل: ليس هو، أو: لا يشبهه؛ لأنه مشابه لعرشها من حيث الأصل، ومخالف له من حيث الصفة؛ لأنه غُيّر، فأجابت إجابة موفقة مسددة فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، أي: يشبهه ويقاربه.

وهذا دليل على غاية ذكائها، ورجحان عقلها؛ فلم تنف كونه عرشها أو يشبهه لقرب شبهه به، ولم تثبت أنه عرشها لكون عرشها محوطًا محروسًا، ولبعد المسافة بين اليمن والشام، فكيف يؤتى به في هذه السرعة الخاطفة؟! فدل جوابها على ذكائها من وجهين:

الأول: أنه مطابق للسؤال.

والثاني: أنه موافق لمقتضى الحال.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾، أي: فقال سليمان لما رأى فطنتها وذكاءها واهتداءها للإجابة السديدة، شاكرًا الله تعالى على إيتائه العلم والإسلام قبلها: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾، أي: وأعطينا العلم أكثر منها، ومن قبلها.

﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، أي: وكنا مسلمين من قبلها، وهذه هي النعمة الكبرى، والمفخرة العظمى، والعزة والسؤدد.

وكأنه عليه السلام لما ظهر من ذكائها وفطنتها أراد أن يذَكِّر قومه- حتى لا يغتروا بها- بما هو أعظم من ذلك، وهو ما آتاهم الله من العلم قبلها والإسلام.

قيل: ويحتمل أن هذه المقالة: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من قول ملكة سبأ، أي: وأعطينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة، التي رأينا فيها قدرته على الإتيان بالعرش من المسافة البعيدة، وكنا مسلمين لله تعالى، متابعين لسليمان قبل ذلك. والمعنى الأول أظهر وأقرب.

﴿وَصَدَّهَا﴾، أي: وصرفها عن الإسلام ومنعها من الدخول فيه، ومن عبادة الله تعالى وحده، ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: الذي كانت تعبده غير الله، وهو الشمس.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ الآية، أي: وصدها عن الإسلام وعن عبادة الله؛ لأنها كانت من قوم كافرين غير مؤمنين لأنها نشأت في بيئة كافرة، فاشتغلت بعبادة غير الله عن عبادة الله -ولم تنتفع بذكائها وفطنتها وعلمها والنفس إن لم تنشغل بالحق انشغلت بالباطل.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾، «الصرح»: القصر والبناء المرتفع؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

والمراد بالصرح هنا: القصر الذي بناه سليمان لها، وهو صرح من زجاج أبيض

شفاف، قيل تحته ماء جار.

وإنما قيل لها: ادخلي الصرح؛ ليريها عليه السلام عظم ما أعطاه الله تعالى من الملك والعز والسلطان، مما يفوق ملكها ومما لم يعط لغيره عليه السلام؛ ليختبر ذكائها وفطنتها وشجاعتها، فهو اختبار ثان لها.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾، أي: فلما رأت الصرح، ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، أي: ظنته ماءً كثيرًا؛ لأن الزجاج شفاف يُرى الماء تحته؛ كأنه ليس دونه شيء.

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾؛ روي عن قنبل أنه قرأ بهمز الألف: «سَأْقَيْهَا»، وقرأ الباقون بغير همز: ﴿سَاقَيْهَا﴾، أي: شمرت ثيابها عن ساقيها؛ لتخوضه.

وهذا يدل على حزمها وقوتها وشجاعتها، فلم تحجم عن دخول الصرح، بل أقدمت عليه، وعلمت أنه إنما قيل لها: ادخلي الصرح؛ لإكرامها، لا لإغراقها، لكنها احترزت عن الأذى، فكشفت عن ساقيها، ولو كانت جبانة لما دخلت أصلًا، ولو كانت غير حازمة لما رفعت ثيابها عن ساقيها.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾، أي: مملس.

﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾، أي: من زجاج، بحيث يرى الماء من تحته، ويظن الماشي عليه كأنه يمشي على الماء.

والمراد بهذا: أنه لا حاجة لك لكشف الساقين.

فتبين بهذا أمران: عظم ملك سليمان عليه السلام، وضعف هذه المرأة، وأنها مع ذكائها وفطنتها وحزمها وشجاعتها -خفي عليها الأمر فحسبت هذا الصرح لجة من الماء، وهو ليس كذلك، وحينئذ عرفت مكانتها، وعرفت مكانة سليمان.

ولهذا قالت لما تبين لها ما أعطي سليمان من النبوة والحكمة والملك والاقتدار العظيم: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: يا رب، إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك وذلك لأن عبادة غير الله أظلم الظلم؛ لأن حق الله تعالى أعظم الحقوق وأبينها. خلق ورزق، وأنعم على العباد بسائر النعم والتي أعظمها بيان طريق الحق والأمر باتباعه، وبيان طريق الباطل والأمر باجتنابه، ولهذا قال لقمان عليه السلام في وصيته لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا

تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وقدمت الاعتراف بظلمها لنفسها، وإعلان التوبة والإنابة إلى ربها؛ لأن التخلية قبل التحلية، ثم انتقلت إلى التحلية، فقالت:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: واستسلمت وانقدت مع سليمان لله رب العالمين، أي: آمنت بالله وحده إلهاً ومعبودًا وربًّا، ودخلت في الإسلام.

الفوائد والأحكام:

١- تغيظ سليمان عليه السلام وغضبه الشديد على ملكة سبأ وقومها؛ لعدم إجابتهم لدعوته، واحتيالهم لمصانعته بالهدية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ الآية.

٢- رفضه عليه السلام لهديتهم، التي أرادوا مصانعته فيها، وبيانه أن ما آتاه الله من النبوة والحكمة والخير خير مما آتاهم؛ اعترافًا بعظيم نعمة الله عليه، وبيانًا لعدم حاجته إلى هديتهم؛ لقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

٣- ذمه لهم بفرحهم بالهدية؛ لنظرتهم الدنيوية المادية القاصرة، وحاجتهم إلى المال وولعهم به؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ومفهوم هذا أنه لم يفرح بهديتهم له، ولم تسره؛ لأنها من باب المصانعة؛ لرد دعوته إياهم إلى الإسلام.

٤- أمره رسولها بالهدية بالرجوع إليهم، وتهديده إياهم بغزوهم بجيش لا طاقة لهم به، وإخراجهم من بلدهم أذلة صاغرين؛ لقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾.

٥- كثرة جنود سليمان عليه السلام لقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾.

٦- ينبغي إظهار القوة للأعداء، وتخويفهم وإرعابهم وإرهابهم.

٧- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، لا حق لكافر فيها.

٨- علمه عليه السلام أنهم سيأتون إليه مسلمين، إما بوحي من الله أو بفراسته ونظره في القرائن؛ ولهذا طلب من ملئه أيهم يأتيه بعرشها قبل ذلك؛ إظهارًا لما أعطاه

الله من العلم والنبوة والملك والقدرة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

٩- تسخير الجن لسليمان؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

١٠- عظم ما أعطاه إليه الجن من القوة والقدرة والسرعة وغير ذلك لقوله تعالى: :﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾[النمل: ٣٩].

١١- تنظيم سليمان عليه السلام وقت عمله وشؤون حياته، وأن له مقاماً ومجلساً مقدراً بمدة، يجلس فيه للقضاء والحكومات بين الناس؛ لقوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾. وهكذا ينبغي لذوي المسؤوليات في الأمة تنظيم أوقات جلوسهم للناس.

١٢- أن هذا العرش عظيم يحتاج إلى قوة من يحمله لثقله، وإلى أمانته لما احتوى عليه من الجواهر؛ لقوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾.

١٣- لا بد من اجتماع القوة والأمانة فيمن يتولى أيَّ عمل؛ لأن الضعيف لا يستطيع أن يعمل شيئاً؛ لعجزه، وغير الأمين لا يقوم بالعمل كما ينبغي، لخيانته؛ لقول العفريت: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، وكما قالت إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

١٤- تنافس العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب في الإتيان به، وغلبة الذي عنده علم من الكتاب، وإتيانه به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾.

١٥- أنه يتأتى بالعلم والحكمة ما لم يتأت بالقوة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

١٦- كمال وتمام قدرة الله تعالى مما لا يستطيع الإنسان تصوره وإدراكه إذا كيف يأت العرش من اليمن إلى الشام بهذه السرعة مع ما بينهما من المسافة الطويلة، وصدق

الله العظيم: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾[القمر: ٥٠].

١٧- فضل سليمان عليه السلام، وعظم ما سخر له من هذه القوى، وكرامته.

١٨- شكر سليمان واعترافه وتحدثه بعظيم فضل الله تعالى ونعمته عليه؛ بما سخر له من هذه القوى، والإتيان بالعرش بهذه السرعة واستقراره بين يديه؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

٢٠- عدم اغتراره عليه السلام بذلك، مع ما له من عظيم المنزلة عند الله، وعلمه أن ذلك من باب الابتلاء من ربه له أيشكر أم يكفر؟ وليس لكونه مستحقًّا لذلك؛ لقوله: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾.

٢١- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى وفي هذا رد على الجهمية الذين ينفقون الحكمة في أحكام الله وأفعاله، ويقولون أنه يفعل؛ لمجرد المشيئة تعالى الله عن قولهم.

٢٢- أن من شكر فإنما شكره لنفسه؛ لأن ثواب شكره وجزاءه يعود إليه في الدنيا والآخرة، ومن كفر فإنما كفره على نفسه؛ لأن عقاب كفره على نفسه؛ لقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، ومفهوم هذا: أن من كفر فإنما كفره على نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾[فصلت:٤٦].

٢٣- أن الله عز وجل غني كريم لا يضره كفر من كفر، كما لا ينفعه شكر من شكر؛ لتمام غناه وكرمه في نفسه؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾.

٢٤- الترغيب في شكر النعم، والتحذير من كفرها؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ لأن الشكر سبب لاستقرار النعم، والكفر سبب لزوالها؛ لأنها إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت فرّت، وكما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وحـــافظ عليهـــا بشـــكر الإلـــه فـــإن الإلـــه سريـــع الـــنقم

٢٥- أنه إنما يُمدح بالغنى إذا صاحبه الكرم؛ لقوله: ﴿غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

٢٦- سعة عطاء الله وفضله وكرمه، وعمومه بخيره الشاكر والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

٢٧- إثبات الاختيار للإنسان لقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

٢٨- أمر سليمان بتنكير عرشها بتغيير بعض أوصافه؛ اختبارًا لفطنتها وذكائها أتهتدي إلى أنه عرشها أم لا تهتدي لذلك؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٢٩- سؤالها اختباراً لها لَمَّا جاءت: أهكذا عرشك؟ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾.

٣٠- جواز امتحان الشخص لمعرفة ذكائه وفطنته إذا كان ذلك لمصلحة؛ لقوله تعالى: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾، وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ الآية. ومن المصلحة هنا- والله أعلم- التنبيه على كمال قدرة الله تعالى، وعظم ملك سليمان ونبوته وعظيم فضل الله عليه.

٣١- إجابتها إجابة موفقة مسددة تدل على فطنتها وذكائها ورجحان عقلها؛ لقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾؛ فلم تنف أنه هو؛ لتطابق جل صفاته مع صفات عرشها، ولم تقل: هو عرشي؛لأن عرشها محروس محفوظ، ولبعد المسافة بين اليمن والشام، فكيف ينقل بهذه السرعة الخاطفة؟! فأجابت بجواب مسدد مطابق للسؤال، وموافق لمقتضى الحال.

٣٢- ينبغي لمن سئل أن يكون جوابه مطابقًا للسؤال، موافقًا لمقتضى الحال، فكم من جانح بالجواب عن السؤال، وكم من مجيب لا يُقدِّر مقتضى الحال.

٣٣- اعتزاز سليمان عليه السلام وافتخاره بما آتاه الله من النبوة والعلم والحكمة، والدخول في الإسلام قبل ملكة سبأ؛ تحدثاً بنعمة الله تعالى عليه؛ لقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ

مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

٣٤- أن الذي صد هذه الملكة عن الإسلام، وجعلها تعبد من دون الله؛ أنها نشأت في بيئة كافرة وقومها الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

٣٥- أن الكفر والمعاصي من أعظم أسباب الصد عن الإيمان وعن اتباع الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

٣٦- أن النفس إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

٣٧- أن البيئة السيئة لها أعظم الأثر في الصد عن الحق، وفي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه**»(١).

وقال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير**»(١).

٣٨- اختبارها ثانيًا بأمرها بدخول الصرح والقصر الذي بناه لها سليمان؛ لترى عظم ما أعطي سليمان من الملك والسلطان، مما لا يدانيه ملكها وسلطانها؛ لترجع بالإكبار والتعظيم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ الآية.

٣٩- ظنها أن الصرح لجة ماء، وكشفها عن ساقيها لما رأته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾.

٤٠- أن المرأة شيمتها الستر، وجواز كشفها عن ساقيها عند الحاجة.

٤١- إخبارها بأن هذا صرح مملس من زجاج، فلا حاجة لها لكشف ساقيها؛ لقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

٤٢- اعترافها- لما رأت عظمة ملك سليمان وما أعطي من النبوة والعلم والحكمة- بظلم نفسها بما كانت عليه من عبادة الشمس والشرك بالله، وإعلانها توبتها وإنابتها، وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين وإقرارها بألوهية الله تعالى وربوبيته؛

---

(١) سبق تخريجه.

لقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤٣- إثباتها ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولها: ﴿رَبِّ﴾.

٤٤- أن الشرك بالله، والمعاصي ظلم للنفس؛ لقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

٤٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدمت الاعتراف بظلمها لنفسها بالشرك وتوبتها، ثم أتبعت ذلك بإعلان دخولها في الإسلام.

٤٦- إثباتها ربوبية الله تعالى العامة للعالمين، واستدلالها بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة والألوهية.

٤٧- في إسلام ملكة سبأ عبرة لمشركي قريش وغيرهم؛ إذ لم يمنعها عظم ملكها وسلطانها من التأمل بعقلها في دلائل وحدانية الله تعالى، وفساد الشرك، والدخول في الإسلام؛ ليعلموا أن امتناعهم من الدخول في الإسلام لسخافة عقولهم، وعمايتهم، وتمسكهم بالباطل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أتبع قصة سليمان بقصة ثمود ونبيهم صالح؛ لأن ديار ثمود على تخوم مملكة سليمان، وكانت في طريق السائرين من سبأ إلى فلسطين؛ ولهذا عقب ثمود بذكر قوم لوط؛ لأنهم أدنى إلى فلسطين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾؛ الواو استئنافية، واللام: موطئة للقسم، و«ثمود»: هم قبيلة ثمود، ومساكنهم في الحجر شمال الجزيرة.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، أي: أخاهم في النسب والقبيلة.

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ «أن» تفسيرية، أو هي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: قائلًا لهم، أو آمرًا لهم بأن اعبدوا الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«إذا» هي الفجائية، أي:

ففاجأوا بانقسامهم إلى فريقين يختصمون في الدين: فريق كفر به واستكبر؛ وهم الأكثرون الأقوياء، وفريق آمن به؛ وهم القلة الضعفاء؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ – ٧٦].

وهذه حال الخلق، أكثرهم أتباع كل ناعق بالباطل، والقلة الضعفاء منهم أتباع الحق، فلا يغتر بذلك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

«وقد أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين»(١).

فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ كما قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين».

وهذا معنى قول الفضيل بن عياض: «لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغتر بكثرة السالكين الهالكين»(٢)، وقول سفيان بن عيينة: «اسلكوا سبل الحق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها»(٣).

قال ابن دريد في المقصورة:

والنـــاس ألـــف مـــنهم كواحـــد ... وواحـد كـالألف إن أمـر عنـى(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأذكار» للنووي ص١٠٨، «مدارج السالكين»» ١/ ٤٦.

(٣) انظر: «حلية الأولياء»» ٧/ ٣٠٦، «الزهد الكبير» للبيهقي ص١٣١.

(٤) انظر: «ديوان ابن دريد» ص١٣٢.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾؛ الاستفهام للإنكار عليهم في استعجالهم السيئة قبل الحسنة، والتوبيخ لهم، والتعجب من حالهم، والتعريض بسفههم وعدم رشدهم.

والمعنى: لم تبادرون وتسارعون بفعل السيئات التي تسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، قبل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم في الدنيا والآخرة؟

وأيضًا: لِمَ تَدْعون بحضور العذاب وتعجيله، ولا تطلبون من الله رحمته؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ [الرعد: ٦].

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ١٦].

﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾؛ «لولا»: للتحضيض، أي: هلا تستغفرون الله، أي: تتوبون إليه من شرككم وعصيانكم، وتسألونه وتدعونه أن يغفر لكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، أي: رجاء أن ترحموا، أو لأجل أن ترحموا، أي: أن يرحمكم الله.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾، أي: تطيرنا بك، أي: تشاءمنا ﴿بِكَ﴾ يا صالح والتطير: التشاؤم، مأخوذ من الشؤم، وهو توقع الشر والتشاؤم يكون بمرئى أو مسموع أو زمان أو مكان أو حال .

والتطير: مأخوذ من الطير؛ لأنهم كانو في الجاهلية يتشائمون بالطيور، فإذا خرج أحدهم لسفر لتجارة أو غير ذلك فشاهد غرابًا أو غيره عن يساره تشاءم وعدل عن سفره ونحو ذلك.

﴿وَبِمَن مَّعَكَ﴾، أي: وتطيرنا بالذين معك من أتباعك، أي: أن ما يصيبنا من المصائب والبليات كالقحط والجدب وغور المياه، وغير ذلك؛ بسبب وجودك وأتباعك بيننا، وشؤمكم، فما رأينا على وجهك ووجوه أتباعك خيرًا؛ كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال تعالى عن كفار هذه الأمة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ [يس: ١٨ – ١٩].

وهكذا فيجعلون ما يصيبهم بسبب ذنوبهم وأفعالهم بأسباب أنبيائهم وصالحيهم؛ قلبًا للحقائق.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم صالح: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾، أي: ما أصابكم مما تشاءمتم به من القحط والجدب وغير ذلك. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: إنما هو بتقدير الله تعالى وحكمته، وبسبب ذنوبكم، وليس مني.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم قوم تُختبرون بالسراء والضراء، والخير والشر، هل تتوبون أم لا؟ ومفتونون ومستدرجون فيما أنتم عليه من الضلال، وفي نسبة الشؤم إلى صالح والمؤمنين.

وقد يكون من ذلك أنهم أصيبوا مع مجئ صالح إليهم بشيء من ذلك بسبب تكذيبهم له فتنة لهم، فنسبوه إلى صالح وأتباعه، وقد قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: مدينة صالح، أو مدينة ثمود وهي الحجر شمال الجزيرة العربية.

﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾؛ الإضافة هنا بيانية فرهط تفسير لتسعة كأنه قال: تسعةٌ رهطٌ. والرهط: العدد من الناس من ثلاثة إلى عشرة، أو من سبعة إلى عشرة، أو العدد حوالي العشرة، مثل: «النفر»، فالمعنى: تسعة نفر.

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ بالشرك والكفر والمعاصي، وتكذيب صالح والكيد له ولدعوته، ومعاداته وتحذير الناس من اتباعه، وغير ذلك.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ تأكيد لإفسادهم؛ لأن الجمل المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: أن سعيهم الإفساد في الأرض، ولا شأن لهم في الإصلاح البتة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١ – ١٥٢].

وقد غلب هؤلاء الرهط على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراءهم وساداتهم، وهم الذين صدر عن آرائهم ومشورتهم عقر الناقة، وأشقاهم: قدار بن سالف؛ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾[الشمس: ١٢ – ١٤].

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء على الخطاب، وضم التاء الثانية: «لَتُبَيِّتُنَّهُ»، وقرأ الباقون بالنون، وفتح التاء الثانية: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾.

أي: قال هؤلاء الرهط التسعة المفسدون في الأرض- فيما بينهم- بعضهم لبعض: ﴿تَقَاسَمُواْ﴾، أي: تحالفوا، أي: لِيقسم كل منكم للآخرين، أي: يحلف.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لنبيتنه والتبييت والبيات: مباغتة العدو ليلًا، وقتله غدرًا ومكرًا، أي: لنباغتنه ليلًا، ونقتلنه وأهله.

أي: طلب بعض من بعض أن يتعاهدوا، ويتحالفوا على أن يبيتوا صالحًا وأهله ويقتلوهم. وهذا من أعظم الغدر والمكر والخيانة، لأن الليل موضع السكينة والهدوء والطمأنينة.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء وضم اللام الثانية:

«لَتَقُولُنَّ»، وقرأ الباقون بالنون وفتح اللام الثانية: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾.

و«ثم» حرف عطف، واللام: للقسم، أي: ثم والله لنقولن لوليه، أي: لولي دمه وهم ورثته بفرض أو تعصيب.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام: ﴿مَهْلِكَ﴾.

وقرأ الباقون ما عدا أبا بكر عن عاصم: «مُهْلَكَ» بضم الميم وفتح اللام، وقرأ أبو بكر بفتحهما: «مَهْلَك» وهي مصدر الإهلاك أو مكانه أو زمانه.

أي: ما حضرنا هلاك أو إهلاك صالح وأهله، وضمير الهاء في «أهله» يعود إلى «وليه».

أي: ثم لنقولن لولي صالح: ما شهدنا مقتل أهلك، أي: ما شهدنا مقتل أهلك: صالح وأهله، أي: نقسم أننا ما شهدنا مقتل أهله، ولا حضرنا. وهذا كذب منهم، بل شهدوا وفعلوا ولكن من هان عليه القتل هان عليه الإنكار من باب أولى، وكأنهم بهذا الإنكار يقولون: ما شهدنا بل فعلنا.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام :لام الابتداء للتوكيد، فالجملة معطوفة على قولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ داخلة في جملة مقول القول، فهي من جملة دفاعهم عن أنفسهم.

ويحتمِل: أن تكون الواو حالية، فالجملة في محل نصب على الحال من فاعل «شهدنا»، فهي تقرير لقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، وتهوين للأمر فيما بينهم، وطمأنة من بعضهم لبعض.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾؛ «مكرًا» مفعول مطلق، ونكِّر للتعظيم، أي: ومكروا مكرًا شديدًا، بالإفساد في الأرض، والكيد لصالح ودعوته، وبإقسام بعضهم لبعض على تبييت صالح وأهله وقتلهم ليلًا، وقولهم لوليه: ما شهدنا مقتلهم، وإنا لصادقون.

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾؛ الله عز وجل لا يوصف بالمكر إلا على سبيل المجازاة والمعاقبة للماكرين، أي: ومكرنا بهم مكرًا شديدًا؛ أشد وأعظم من مكرهم، مجازاة على مكرهم، وجعلنا مكرهم سببًا لإهلاكهم. والجزاء من جنس العمل وكما يدين المرء يدان.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ باستدراجنا لهم، ومكرنا بهم؛ لانطماس بصائرهم، حتى أخذناهم على غرة وغفلة، فلا هم شعروا بعاقبة مكرهم وأنها إلى البوار، ولا بأن الله يستدرجهم بمكرهم، لأن الله أصمهم وأعمى أبصارهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: فتأمل وتفكر كيف كان سوء عاقبة مكرهم؟ والعاقبة: ما يعقب الشئ، أي: انظر ما يعقب مكرهم، أي: نتيجته ونهايته وما أدى إليه.

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بفتح الهمزة: ﴿أَنَّا﴾، بدل من عاقبة وبيان لها، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي وهي: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾. وقرأ الباقون بكسرها: «إِنَّا». فهي مستأنفة لبيان هذه العاقبة. والتدمير: الإهلاك الشديد، أي: أهلكنا هؤلاء الرهط إهلاكًا شديدًا، ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ «أجمعين»: توكيد، أي: وأهلكنا قومهم الكافرين جميعًا.

أي: استأصلنا شأفتهم كلهم عن آخرهم بالصيحة التي أرجفت بهم، وصعقتهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١] ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[الحجر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، أي: بالصيحة الشديدة، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾، أي: متهدمة جدرانها، ساقطة سقوفها، معطلة خالية من ساكنيها، موحشة أرجاؤها، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أي: متهدمة مدمرة.

﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب ظلمهم بالشرك

والكفر، وتكذيب صالح، وصد الناس عن اتباعه، وتبييت قتله وأهله، وعقر الناقة، وغير ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في قصة صالح عليه السلام وقومه وتكذيب أكثرهم له، وما دبره رؤوس الكفر منهم من المكر والكيد له، ورد الله كيدهم في نحورهم، وإهلاكهم عن آخرهم.

﴿لَآيَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته وحكمته ووحدانيته، وصدق رسله، وعبرة وعظة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لقوم يعلمون ذلك، وينتفعون بعلمهم، فيستدلون بذلك على الحق، ويتعظون ويعتبرون.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ بالله وبكل ما أوجب عز وجل الإيمان به، بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارهم.

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، أي: وكانوا يتقون الله بترك كل ما نهى الله عنه، وهم صالح وأتباعه المؤمنون.

والمعنى: أنجيناهم وعصمناهم وحفظناهم من العقوبة والتدمير والهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٦ – ٦٧].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إرسال صالح عليه السلام إلى قومه ثمود، ودعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢- أن صالحًا عليه السلام من قبيلة ثمود، وأخوهم في النسب، وفي هذا جواز إطلاق الأخوة النسبية بين المسلم والكافر.

٣- أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك الشرك هي أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام، وأن كلًا منهم يبعث إلى قومه خاصة، وفي الحديث: «**وكان النبي يبعث**

إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»(١).

٤- انقسام ثمود إلى فريقين: كفار، وهم الكثرة الكاثرة منهم، ومؤمنون، وهم القلة والضعفاء؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهذا حال الأمم كلها مع رسلهم مؤمن وكافر؛ حكمة من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن: ٢].

٥- وقوع الخصام بين المؤمنين والكافرين، وبين الرسل وأعدائهم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩]. وهذه سنة كونية، لا بد منها أن يحصل الخصام والقتال بين أهل الحق وأهل الباطل للتمحيص، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

٦- إنكار صالح عليه السلام على قومه استعجالهم بالكفر والمعاصي قبل الإيمان والطاعة، وبالعذاب قبل الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

٧- حضه إياهم وحثه لهم على الاستغفار والتوبة إلى الله مما هم عليه من الكفر، واستعجال السيئة قبل الحسنة؛ ليرحمهم الله؛ لقوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٨- فضيلة الاستغفار والتوبة وأن ذلك سبب للرحمة، ورفع العقوبة.

٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

١٠- تشاؤمهم بصالح وأتباعه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، فنسبوا ما أصابهم من قحط وجدب ونحو ذلك إلى صالح عليه السلام وأتباعه.

١١- رده عليه السلام عليهم بأن: طائركم عند الله، أي: ما يصيبكم بتقدير الله، وبسبب ذنوبكم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١٢- أن ما يصيب الإنسان كله من الله وبتقديره، وبسبب ذنوبه.

١٣- إرشاده وبيانه لهم أنهم يختبرون بما يصيبهم من السراء والضراء، وهل يتوبون أم لا؟ وأنهم مفتونون ومستدرجون بما هم عليه من الضلال؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

١٤- أن الله قد يحدث من الأمور الكونية ما يكون سببًا لافتتان بعض الناس فقد يكون وافق مجئ صالح عليه السلام إليهم حصول شيء من الجدب والقحط. كما افتتن بنو إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم، وابتُلي الصحابة وهم محرمون بالصيد تناله أيديهم ورماحهم.

١٥- تولي تسعة رهط في الحجر من أشقى ثمود كبر الإفساد في الأرض؛ بالشرك والمعاصي، وإظهار العداوة والكيد لصالح وتكذيبه، والصد عن دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

١٦- أن هؤلاء الرهط لا خير فيهم أبداً همهم الإفساد، ولا شأن لهم في الإصلاح البتة.

١٧- أنه قد يجتمع في الشخص كونه مفسدًا من جهة، ومصلحًا من جهة أخرى؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

١٨- أن المعاصي من أعظم أسباب الفساد في الأرض، وهو فساد معنوي يفوق الفساد الحسي، ويؤدي إليه.

١٩- إقسام هؤلاء الرهط فيما بينهم على تبييت صالح وأهله ليلًا، وقتلهم غدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، وهذا ما يعرف اليوم بحرب العصابات والاغتيالات.

٢٠- اتفاقهم على الإنكار، وعلى أن يقسموا لوليه المطالِب بدمه: ما شهدنا مقتل أهلك، وعلى صدقهم؛ لقولهم: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

٢١- أن من هان عليه القتل هان عليه الإنكار من باب أولى.

٢٢- أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر كما قال ﷺ: «**البينة على المدعي،**

واليمين على من أنكر»[١].

٢٣- مكرهم الشديد، وكيدهم لصالح عليه السلام ولدعوته؛ لصد الناس عنها، وتبييتهم قتله وأهله، ومكر الله بهم بإهلاكهم بسبب مكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾.

٢٤- أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وأن على الظالم تدور الدوائر، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

٢٥- أن الله عز وجل يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين، على سبيل المجازاة والمعاقبة لهم. وهو أعظم منهم مكراً، وهو خير الماكرين.

٢٦- أنه عند انطماس البصيرة لا يشعر الإنسان أن ما يصيبه بسبب ذنوبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فلا هم شعروا بسوء عاقبة مكرهم ولا بمكر الله بهم.

٢٧- ينبغي النظر والتأمل في مصارع المكذبين، وما حل بهم من العقوبات والمثلات، بسبب مكرهم، وأخذ العظة والعبرة مما حل بهم، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الآية.

٢٨- تدمير الله عز وجل لهؤلاء المفسدين الماكرين من قوم صالح وقومهم، وإهلاكهم أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢٩- شؤم العقوبات، وأنها إذا نزلت تعم لقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٥١].

٣٠- شهادة بيوتهم الخاوية المتهدمة، الخالية من السكان، الموحشة المكان، على ظلمهم بتكذيبهم رسل الله وكفرهم وعلى عدل الله فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾.

٣١- أن الظلم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله وتكذيب رسله سبب للعقوبات والهلاك والدمار، مما يوجب الحذر من ذلك.

٣٢- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله، لقوله تعالى: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾، وفي هذا

---

(١) سبق تخريجه.

رد على الجهمية الذين يقولون إن الله يفعل لمجرد المشئة لا لحكمة تعالى الله عن قولهم.

٣٣- أن في قصة صالح عليه السلام وقومه، وتكذيب أكثرهم له، ومكرهم وكيدهم له ولدعوته، وإبطال الله عز وجل مكرهم، ورد كيدهم في نحورهم- دلالةً على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ووحدانيته، وصدق رسله، وعظةً وعبرة لقوم يعلمون، أي: ينتفعون بعلمهم، فيستدلون به على الحق ويتعظون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٤- فضيلة العلم وأهله، لأنه لا ينتفع بالآيات إلا أهل العلم والمعرفة بالله.

٣٥- إنجاء الله عز وجل للذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم الطاعات، واتقوا المعاصي والمحرمات، وهم صالح عليه السلام وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

٣٦- الترغيب في الإيمان والتقوى، وأنهما من أسباب النجاة من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٣].

٣٧- في إهلاك المكذبين من قوم صالح، وإنجائه ومن معه من المؤمنين؛ تهديد ووعيد للمشركين المكذبين، وتسلية للنبي ﷺ، وبشارة له ولمن معه من المؤمنين.

٣٨- كمال عدل الله في مجازاة العباد كل بما يستحقه، وأن الجزاء من جنس العمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

يذكر الله عز وجل في القرآن لوطًا بعد صالح- والله أعلم- لقرب مدائن صالح من قرى قوم لوط، وكلها معلومة للناس على الطريق بين الحجاز والشام.

قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، أي: واذكر لوطًا حين قال لقومه منكرًا عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أترتكبون وتفعلون الفاحشة الشنيعة القبيحة، فاحشة اللواط، التي تستفحشها العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والشرائع كلها، وهي إتيان الذكران، والتي ما سبقهم بها أحد من العالمين، والتي هي أعظم من الزنا وجميع الفواحش؟.

ولهذا أطلق عليها في القرآن «الفاحشة» بالتعريف؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الآية: ٨٠]، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٢٨].

بينما أطلق على الزنا: «فاحشة» بالتنكير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

وإنما كان اللواط أشد وأعظم فحشًا- مع فحش الجريمتين- لأن اللواط شذوذ وخروج عن الفطرة السوية التي فطر الله الخلق عليها؛ إذ لم يوجد في البشر، ولا في الحيوانات كلها أن ذكرًا يعلو ذكرًا، إلا ما كان من قوم لوط؛ ولهذا روي أن الوليد بن عبد الملك قال: لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن

ذكرًا يعلو ذكرًا»(١).

وأيضًا: فإن اللواط- وهو إتيان الذكر الذكر- لا يجوز بحال من الأحوال؛ لمخالفته للفطرة.

وأما إتيان الذكر المرأة فإنه لا يجوز إذا كانت المرأة زوجته أو ملك يمينه.

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وأنتم تعلمون فحشها وخبثها وشدة قبحها، ويبصر بعضكم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾؛ الاستفهام: لتأكيد الإنكار والتقريع والتوبيخ، واللام: للتوكيد، و«شهوة»: حال، أي: قد انتكست فطركم، فأصبحتم تأتون الرجال في أدبارهم شهوة.

﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ اللاتي خلقهن الله لكم، وجعلهن محلًّا للشهوة والنكاح بالزواج أو ملك اليمين؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

أي: أن شهوتكم كانت في إتيان الرجال، وليسوا محلًا للشهوة، دون النساء اللاتي هن محل الشهوة، فاستحسنتم القبيح واستقبحتم الحسن، واسأتم فيما فعلتم وأسأتم فيما تركتم.

وهذه من العقوبات العاجلة؛ أن من ابتلي بإتيان الرجال لم يكن عنده ميل إلى النساء، حتى إن بعض من ابتلوا بذلك تركوا موضع الحرث من نسائهم، وأخذوا يكرهونهن على إتيانهن في أدبارهن.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ بفعلكم هذه الفاحشة؛ لاستبدالكم الحلال بالحرام، والطيب بالخبيث، والطهر بالنجاسة، والنافع بالضار، وما فيه الأجر والمثوبة، بما فيه الإثم والعقوبة.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾؛ الفاء: استئنافية، أي: فما كان جواب قومه له لمَّا

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ١٦٣).

أنكر عليهم هذه الفاحشة ونهاهم عنها- بدل أن ينقادوا له، أو يتركوه وشأنه- ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل «قالوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: إلا قولهم:

﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾، أي: لوط وأهل بيته، ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾؛ وهي: سدوم.

﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ تعليل لقولهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾، أي: لأنهم يتطهرون، أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الرجال، أي: يتطهرون عن فعلكم؛ لأن مرتكب الفاحشة لا يرضى إلا أن يكون الناس كلهم مثله؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧].

فيا سبحان الله! كأنهم يقولون: أخرجوهم لا لذنب إلا أنهم يتطهرون، ومتى كان التطهر يستوجب العقاب بالإخراج أو غيره؟! وهذا محض الزيغ والضلال.

وقولهم: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ يحتمل أنهم أردوا الحقيقة، وأن هذا الفعل خبيث، وهؤلاء يريدون التطهر منه.

ويحتمل- وهو الأقرب- أن قولهم: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من باب التهكم بهم والسخرية منهم.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾، أي: فأنجينا لوطًا وأهل بيته من العذاب بسبب إيمانهم.

كما قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا امرأته قدرنا عليها وكتبناها من الغابرين، أي: من الهالكين الباقين في العذاب مع قومها؛ لأنها كانت معهم على دينهم راضية بأفعالهم القبيحة، معينة لهم على ذلك، بدلالتها إياهم على ضيفان لوط.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، أي: وأنزلنا عليهم مطرًا، ونكَّر «مطرًا» للتعظيم والتهويل، أي: مطرًا من حجارة من سجيل منضود، وذلك بعد قلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، أي: فبئس مطر المنذرين مطرهم، حيث أمطروا عقوبة لهم بالحجارة المهلكة، بدل الماء الذي به الرحمة والحياة؛ لأنهم أنذروا وحذروا عقاب الله وأليم عذابه، فلم ينزجروا، ولم يرتدعوا.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بدعوة لوط عليه السلام لقومه، وإنكاره عليهم إتيان الفاحشة العظمى فاحشة اللواط؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

٢- إثبات رسالة لوط عليه السلام، وأنه أرسل إلى قومه خاصة كغيره من الرسل عليهم السلام، عدا محمد ﷺ فقد أرسل إلى الناس عامة.

٣- أن اللواط أشد الفواحش وأشنعها وأقبحها؛ فهو أشد فحشًا من الزنا- مع شناعة الجريمتين- ولهذا أطلق عليه في القرآن: «الفاحشة» بالتعريف، بينما أطلق على الزنا «فاحشة» بالتنكير، وذلك؛ لأن اللواط شذوذ ومخالفة للفطرة السوية؛ ولأن إتيان الذكرِ الذكرَ لا يجوز مطلقًا، بينما إتيان الرجل المرأة يجوز إذا كانت زوجته أو ملك يمينه.

ولهذا جعل الشرع عقوبة اللواط القتل بكل حال للفاعل والمفعول به، المحصن وغيره.

كما في الحديث: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١).

وذلك؛ لأنه يصعب التحرز منه؛ إذ لا يستنكر وجود الذكر مع الذكر، بخلاف وجود الرجل مع المرأة الأجنبية.

وأيضًا: فإنه سبب لاكتفاء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وذلك مخالف أشد المخالفة للحكمة التي أرادها الله من تكثير النسل وعمارة الكون.

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٤- ارتكاب قوم لوط هذه الفاحشة، مع علمهم بقبحها وشناعتها وفحشها، وعلى مرأى من بعضهم لبعض، مما يزيدها شناعة وفحشًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

٥- إنكار لوط عليهم انتكاس فطرهم في إتيانهم الرجال شهوة وترك ما أباح الله لهم من النساء؛ لقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٦- أن من أسباب التشديد في أمر هذه الفاحشة أن الرجال ليسوا محلًا للشهوة ولوجود البديل المباح من النساء.

٧- أن من يفعل هذه الفاحشة الشنيعة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء يبتلى عقوبة له بعدم الرغبة في النساء، والجزاء من جنس العمل، فحيث ارتكب الحرام وآثره، ابتلي بعدم الرغبة في الحلال، جزاء وفاقًا.

٨- جهل قوم لوط وسفههم وانحطاط أخلاقهم؛ لاستبدالهم الحلال بالحرام، والطيب بالخبيث، والنافع بالضار، وما فيه الأجر والمثوبة، بما فيه الإثم والعقوبة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

٩- وجوب الإنكار على من يفعل هذه الفاحشة وتنفيذ حكم الله تعالى فيه؛ لأن اللواط محرم بمقتضى الشريعة والطبيعة، وارتكابه من أعظم السفه والاعتداء؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٨١﴾﴾.

١٠- عتو قوم لوط، فلم يقتصروا على رد دعوته، بل قابلوا نصحه لهم بالعمل على إخراجه وآله من بلدهم، مقابلة منهم للإحسان بالإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

١١- شدة تحريضهم على لوط وآله؛ لقولهم: ﴿۞أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾. وذلك من وجهين:

الأول: قولهم: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، أي: أن هؤلاء ليسوا منكم فلا وجه لكونكم تسكتون عنهم.

والوجه الثاني: قولهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ففي هذا إلهاب حميتهم وعصبيتهم ليخرجوهم

من قريتهم.

١٢- أنه لا ذنب للوط وآله إلا أنهم يتطهرون عن الفاحشة التي عليها قومهم، ولا يرضون بها؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. وفي هذا قرن الحكم بسببه.

١٣- أن قول البعض إذا رضيه الباقون فهو ينسب للجميع، ولهذا نسب إليهم كلهم هذا القول وعذبوا جميعًا.

١٤- أنه عند انطماس البصائر، وغلبة الهوى والشهوات يكرم أهل الفسق، ويهان أصحاب الحق.

١٥- إنجاء الله تعالى للوط عليه السلام وأهله من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾.

١٦- استثناء امرأته من الناجين؛ لتقدير الله أنها من الباقين في العذاب؛ لكفرها وتواطئها مع قومها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

١٧- أن امرأة الرجل من أهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، وفي هذا رد على الرافضة -أخزاهم الله- في إخراجهم أزواج النبي ﷺ من أهله، ليقعوا فيهن، ويتهموهن، عليهم من الله ما يستحقون.

١٨- إثبات تقدير الله تعالى السابق لكل ما هو كائن.

١٩- أنه لا ينجي الفاسق انتسابه وارتباطه بقوم صالحين، حتى ولو كان ذلك لأفضل الخلق رسل الله عليهم السلام، فما نفع امرأة لوط كونها زوجًا له عليه السلام، كما قال عز وجل عنها وعن امرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

وقال تعالى لنوح في ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦].

٢٠- إهلاك قوم لوط بمطر الحجارة، واستئصالهم عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا﴾، وذلك بعد قلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وذلك لسفول أخلاقهم، وانتكاس فطرهم.

٢١- سوء المطر الذي أمطروا به، وشدة العذاب الذي أهلكوا به، بقلب ديارهم، وإمطارهم بالحجارة؛ لأنهم أنذروا وحذروا من عذاب الله وعقابه، فلم ينزجروا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

٢٢- إن المطر ليس خاصًا بالماء، بل كل ما حصب به الإنسان من فوق يسمى مطرًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ الأمر له ﷺ، ولكل مؤمن، و«ال» في «الحمد» للاستغراق والشمول، و«الحمد»: وصف المحمود والثناء عليه بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

واللام في قوله: «لله»، للاستحقاق والاختصاص، أي: الحمد الكامل المطلق مستحق لله تعالى وحده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى؛ من نصرة رسله وأتباعهم، وإهلاك المكذبين لهم وبيان الحق للخلق، وهداية من شاء وتوفيقهم إليه، وإدرار النعم عليهم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣].

فله الحمد عز وجل في الدنيا والآخرة، وفي جميع الأوقات، وفي الأرض والسموات؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال

تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[الروم: ١٨].

وله الحمد على ربوبيته للخلق أجمعين؛ كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾[الجاثية: ٣٦].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، أي: الذين اختارهم من أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ – ١٨٢].

وفي قوله ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾: حمد منه عز وجل لنفسه على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، والأسماء الحسنى، والصفات العلا، وسلام منه على صفوة عباده من رسله وأنبيائه وعباده المؤمنين.

وفيه أمر له ﷺ وللمؤمنين بحمده عز وجل بما حمد به نفسه، وأمر له ولهم بالسلام على صفوة عباده من رسله وأنبيائه والمؤمنين بما سلم به الله عز وجل عليهم، فنحن نقول كما أمرنا عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

وكما أمرنا ﷺ بأن نقول في التشهد: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**».

وقال: «**إنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض**»(١).

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم بالغيب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

وقرأ الباقون بالخطاب: «تُشْرِكُونَ».

والاستفهام للإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله غيره، وتقرير خيرية الله تعالى خيرية مطلقة في صفاته وفي ثوابه وجزائه لمن يعبده وفي كل شيء.

و«أم»: هي المتصلة، حرف عطف، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: آلله خير أم شركهم؟ أو: أم شركاؤهم؟ و«خير»: اسم تفضيل، وأصلها: «أَخْيَر» فحذفت الهمزة، واستعمال التفضيل هنا فيما ليس في الطرف الآخر شيء من الفضل؛ كما في قوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[الفرقان: ٢٤]؛ إذ ليس في النار خير البتة، بل هي شر محض، وكذلك هنا المعبودات من دون الله ليس في عبادتها خير البتة، بل هي شر محض.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

وهذا وما بعده تفصيل وبيان لقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: بيان لما به يُعرف كمال تفرده عز وجل بالربوبية والألوهية، وبطلان إلهية ما سواه.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾:

«أم» هنا وفي المواضع الأربعة بعده هي: المنقطعة، بمعنى: «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام التقريري، أي: بل، أمَنْ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ كمن لم يفعل ذلك؟؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟!

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أوجدهما وما فيهما وما بينهما.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: وأنزل لأجلكم من السماء ماء، وهو المطر، والمراد بالسماء العلو.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾؛ بساتين كثيرة، ملتفة الأشجار، طيبة الثمار، وفي الجملة إلتفات من الغيبة إلى التكلم.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: صاحبة منظر حسن، وشكل بهي، من كثرة أشجارها وتنوعها، وجودة ثمارها، تبهج الناظرين وتسرهم وتعجبهم، وتبتهج بها قلوبهم وتنشرح لها صدورهم.

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، أي: ما كان ممكنًا لكم، ولا في

استطاعتكم أيها الخلق ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾.

«أن» والفعل «تنبتوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: ما كان ممكنًا لكم إنبات شجرها، بل الله عز وجل هو الذي أنزل لكم الماء من السماء، وأنبت الأشجار والنبات من الأرض؛ كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ – ٦٥].

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؛ الاستفهام هنا وفي المواضع الأربعة بعده: للإنكار والنفي، أي: أإله مع الله فعل هذه الأفعال: خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، وأنبت به حدائق ذات بهجة، فيستحق أن يعبد مع الله ويشرك به؟! كلا، فلا أحد انفرد بشيء منها ولا أحد شارك الله في شيء منها أو أعانه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

وكقوله تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾[لقمان: ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣].

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، أي: ينحرفون عن طريق الحق، فيعدلون بربهم ويسوون به غيره من الأنداد والشركاء، ويشركون مع الله، مع اعترافهم بأنه الخالق الرازق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزمر: ٣٨، لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

فهم يعترفون بربوبيته، وأنه الرب الخالق المالك المتصرف، الرازق، لكنهم يعدلون به غيره في العبادة من لا يخلق ولا يرزق، ولا يملك من الأمر شيئًا، فيشركونهم معه؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وسيعترفون غدًا حين يرون العذاب بألوهيته، حين لا ينفعهم ذلك، ويعترفون بضلالهم في تسويتهم معبوداتهم به عز وجل، بقولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

قوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، أي: بل، أمَنْ ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ كمن لم يفعل ذلك؟؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟

وقوله: ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أي: جعلها قارة ساكنة، مذللة، صالحة للقرار والسكن والعيش عليها، وحرثها والبناء عليها، لا تضطرب ولا تميد بأهلها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، أي: وجعل في خلال الأرض، على ظهرها وفي جوفها أنهارًا عذبة طيبة الماء، سيّرها وصرّفها فيها تشقها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا وفي وسطها؛ تيسيرًا لمصالح العباد وأرزاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾، أي: وجعل لها جبالًا شامخات رواسي، ترسيها وتثبتها لئلا

تميد وتضطرب بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، أي: جعل بين البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾، أي: مانعًا من الأرض يمنع من اختلاط المياه العذبة بالمياه المالحة؛ مما يفسدهما ويذهب بخاصية كل منهما، بأن جعل الأنهار والعيون العذبة مجاريها بعيدة عن البحار المالحة؛ لتبقى عذبة زلالًا لسقي الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك، وتبقى البحار المالحة المحيطة بالأرجاء والأقطار ومن كل جانب على خاصيتها، وهو كون مائها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء بريحها، قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: أإله مع الله جعل هذا، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر الخلق لا يعلمون ما في هذه الآيات من العبر، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم في الآخرة، وهو العلم بالله تعالى، وما يجب له؛ ولهذا أشركوا معه غيره، وإن كان لديهم العلم الدنيوي؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾:

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾، أي: بل أمَنْ ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ كمن لا يفعل ذلك؟!؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟

وقوله: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: يستجيب دعاء المضطر؛ أي المكروب الذي نزل به الضر، وألمت به الخطوبْ، واشتدت عليه الكروبْ، وتعسر عليه المطلوبْ، واضطر للخلاص مما نزل به من مؤمن وكافر.

﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: إذا التجأ إليه ودعاه صادقًا من قلبه، مع سلامته من موانع

قبول الدعاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي: يزيل المكروه، ويرفع البلاء، ويدفع الشر، فيجيب دعاء المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عامة ممن دعا، وممن لم يدعو.

والسوء: كل ما يسوء حيًا: كالمرض والفقر، ونحو ذلك، أو معنويًا كالجهل، ونحو ذلك.

عن أبي تميمة الهجيمي، عن رجل من بلهجيم، قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «**أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك، والذي إذا أضللت بأرض قفر دعوته رد عليك، والذي إذا أصابتك سنة فدعوته أنبت عليك**»(١).

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويجعل بعضكم يخلف بعضًا في أرضه التي يورثها من يشاء، أمة بعد أمة، وقرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل؛ خلافة شرعية أو كونية كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: أإله مع الله يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو وهشام وروح بالغيب: «يَذَّكَّرُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾.

و«قليلًا»: مفعول مطلق، و«ما»: مصدرية، أي: قليلًا تذكركم واتعاظكم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٦٤.

وتفكركم فيما ينفعكم ويرشدكم إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم، قد غلبت عليكم الغفلة.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: بل أمَنْ ﴿يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ كمن لا يفعل ذلك ولا يقدر عليه؟؛ ولهذا قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟

أي: من يدلكم ويرشدكم في ظلمات البر والبحر، حيث لا معلم ولا دليل إلا هدايته لكم بما يسر لكم من الدلائل السماوية، كالقمر والنجوم في الليل، والشمس في النهار، والرياح، والدلائل الأرضية، والأسباب العلمية التي تهتدون بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾، [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: مبشرات بين يدي السحاب والمطر، تثير السحاب ثم تؤلفه وتجمعه، ثم تلقحه، ثم تسوقه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر.

والمراد بالرحمة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: المطر؛ كما قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[الروم: ٥٠]، أي: المطر.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا، ولهذا قال: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. أي: تعالى الله وتعاظم عن شركهم، وعن شركائهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: بل أمَنْ ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كمن لا يفعل ذلك، ولا يقدر عليه؟ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟

وقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، خلقًا آخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢ – ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بما ينزل من المطر وبركات السماء، وبما يقدره من الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[الذاريات: ٢٢].

وبما يخرج لكم من النبات وبركات الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾[الفرقان: ٤٨ – ٤٩]، وفي قوله تعالى هنا: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله قبله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾: تأكيد للامتنان عليهم بما وفر لهم من الرزق وأسبابه، والذي به حياتهم.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، أي: قل يا محمد لمن زعموا أن هناك آلهة مع الله، وأشركوهم مع الله: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، أي: أحضروا دليلكم وحجتكم، والأمر للتحدي.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ في دعواكم أن هناك ألهة مع الله.

وأنى لهم ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

لما بين عز وجل تفرده بالخلق، وإنزال المطر، وإنبات النبات، وجعل الأرض قرارًا، وخلالها أنهارًا، وتثبيتها بالرواسي، وجعله بين البحرين حاجزًا، وإجابته المضطر، وكشفه السوء، وجعل الخلائق خلفاء الأرض، وبدئه الخلق ثم إعادته، ورزقهم من السماء والأرض، أتبع ذلك ببيان اختصاصه وحده بعلم الغيب.

قوله: ﴿قُل﴾، أي: قل يا محمد للناس عامة، ولمن يدعي أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب من الشركاء وغيرهم:

﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾؛ «إلا»: للاستثناء، أي: لا يعلم الغيب أحد سوى الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾[يونس: ٢٠].

وقد قال عز وجل لأفضل الخلق وسيدهم ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «من زعم أنه يعلم- يعني: النبي ﷺ- ما يكون في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾» (١).

قال قتادة: «إن الله تبارك وتعالى إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجومًا للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناسًا جهلة بأمر الله، قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والذميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من الغيب، قضى الله أنه: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾» (٢).

قال ابن كثير (٣) بعد ذكره قول قتادة هذا: «وهو كلام جليل متين صحيح».

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: وما يعلمون وما يدرون متى يبعثون من القبور للحساب والجزاء.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر بقطع الهمزة مفتوحة وإسكان الدال من غير ألف بعدها: «أَدْرَكَ»، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وتشديد الدال مفتوحة وألف بعدها: ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾.

و﴿بَلْ﴾ في المواضع الثلاثة: للإضراب الانتقالي، أي: بل ضعف علمهم في الآخرة وغاب، فلم يؤمنوا بها، ولم يستعدوا لها، ولم يعلموا متى وقتها.

والضمير في قوله: ﴿عِلْمُهُمْ﴾ للكفار؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ﴾، أي: بل هم في شك من وقوعها؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾ [المؤمنون: ٨٢ – ٨٣].

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ «عمون» جمع «عمٍ» بالتنوين، وهو على وزن: «فَعِل»،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩١٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩١٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢١٦.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٢١٦.

صيغة مبالغة من العمى؛ للدلالة على شدة العمى؛ قال زهير[(١)]:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

والمعنى: بل هم من الآخرة عمون، لا علم لهم بها، فانتقلوا من عدم الشعور متى تكون، إلى ضعف العلم بها، إلى الشك بها، إلى أن بلغوا غاية المراتب وهي العمى، أي: عمى القلوب والبصائر عنها كلية؛ ولهذا لم يعملوا لها، بل أنكروها، واستبعدوا وقوعها.

الفوائد والأحكام:

١- حمد الله تعالى لنفسه، وسلامه على عباده الذين اصطفاهم من الرسل والأنبياء والمؤمنين، وأمره نبيه ﷺ بحمده عز وجل، والسلام على عباده الذين اصطفاهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

٢- في أمر الله عز وجل للنبي ﷺ بحمده والسلام على عباده الذين اصطفى؛ أمر للمؤمنين بحمد الله تعالى، والسلام على من اصطفاهم من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، ووجوب ذلك عليهم، فلك الحمد ربنا، وسلام على عبادك المصطفَيْنَ.

٣- أن الحمد المطلق، والوصف بصفات الكمال مع تمام المحبة والتعظيم؛ مستحَق لله تعالى وحده، خاص به؛ وأنه عز وجل يُحمد على كل حال، من إهلاك أعدائه وإنجاء أوليائه، وغير ذلك: لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٤- فضيلة الرسل والأنبياء ومن اصطفاهم الله تعالى من عباده، ورفعة منزلتهم؛ لأن الله تعالى سلم عليهم، وأمر نبيه والمؤمنين بالسلام عليهم.

٥- إثبات عبودية الرسل والأنبياء والمؤمنين لله عز وجل عبودية خاصة.

٦- اصطفاء الله تعالى واختياره من عباده من يشاء لرسالاته ولعبادته والإيمان به، كما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

٧- الإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله عز وجل- الذي له الخلق والأمر،

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٠).

وبيده الخير والنفع والضر- آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئًا من الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾.

٨- أن أفعل التفضيل قد يستعمل في المفاضلة فيما ليس في أحد الطرفين شيء من الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ إذ ليس في شرك المشركين وشركائهم خير البتة، بل ذلك شر محض.

٩- أن الله عز وجل خير من كل شيء خيرية مطلقة.

١٠- إثبات أن الله عز وجل وحده هو الذي خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء، وأنبت به حدائق ذات بهجة، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك، فيستحق أن يعبد معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

١١- إثبات كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ونعمته في خلقه السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإنبات الحدائق والأشجار والنبات، وما في ذلك من منافع للخلق.

١٢- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء ليسقي السهل والجبل.

١٣- إثبات الحكمة وربط الأسباب بمسبباتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾، ففي قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ إضافة الشيء إلى مسببه، لا إلى سببه، وفي قوله: «به» إثبات السبب.

١٤- إباحة التنزه في الحدائق والتأمل في عجيب ما أودع الله فيها مما يبهج القلب ويشرح الصدر، ويسر الناظرين، ويجدد النشاط للعبادة والعمل.

وكما جاء في حديث حنظلة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**»(١).

١٥- أنه ليس بإمكان الخلق، ولا في مقدورهم إنبات النبات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٤١، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٩.

١٦- تحدي المشركين المتخذين مع الله إلهة أن يكون لآلهتهم شيء مما ذكر فتستحق أن تعبد؛ لقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

١٧- عدول المشركين سفهاً منهم وانحرافهم عن الحق، وتسويتهم شركاءهم بالله، مع اعترافهم بأنه الرب الخالق الرازق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

١٨- إثبات أن الله عز وجل هو الذي جعل الأرض قرارًا، وجعل خلالها أنهارًا، وأرساها بالجبال الرواسي، وجعل بين البحرين حاجزًا، واستحقاقه وحده العبادة دون سواه، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق أن يعبد مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

١٩- إثبات تمام قدرة الله تعالى، ومنته على خلقه بجعل الأرض قرارًا، وجعله خلالها أنهارًا، وترسيتها بالجبال، وجعله بين البحرين حاجزًا؛ لمصالح عباده.

٢٠- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي يسعدهم حقًّا، وينفعهم في الآخرة، وهو العلم بالله وما يجب له؛ ولهذا أشركوا معه غيره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلا يغتر بما عليه أكثر الخلق.

٢١- إثبات أن الله عز وجل هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعل الخلائق يخلف بعضهم بعضًا في الأرض، وإثبات استحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق العبادة معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

٢٢- أنه عز وجل يجيب دعوة المضطر مؤمنًا كان أو كافرًا، وقد قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه داعيًا إلى اليمن: «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١)، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

٢٣- قدرة الله تعالى التامة، ونعمته العظيمة على العباد في إجابته دعوة المضطر

---

(١) سبق تخريجه.

منهم، وكشف السوء، واستخلافهم في الأرض.

٢٤- قلة تذكر الخلق واتعاظهم، وقلة المتذكر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

٢٥- ينبغي الالتجاء إلى الله تعالى وحده، ودعاؤه دون سواه؛ لرفع الضر وكشف السوء والبلاء، والإكثار من ذكره، والتذكر والاتعاظ بآياته.

٢٦- إثبات أن الله عز وجل هو الذي يهدي في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق العبادة مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

٢٧- منة الله تعالى العظيمة، وقدرته التامة في هدايته العباد في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح تبشرهم بالمطر.

٢٨- أن المطر من رحمة الله تعالى.

٢٩- تنزه الله عز وجل، وتعاليه، وتعاظمه عن شرك المشركين، وعن شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٣٠- إثبات أنه عز وجل هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزق الخلق من السماء والأرض، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك، فيستحق العبادة مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

٣١- كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته على العباد، في بدء الخلق وإعادته، ورزقهم من السماء والأرض بالمطر والنبات وغير ذلك.

٣٢- تحدي المشركين بالإتيان ببرهانهم ودليلهم وحجتهم على أن هناك آلهة مع الله، وعلى شركهم بالله؛ وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٣٣- اختصاص الله عز وجل، وتفرده وحده بعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

٣٤- جهل الخلائق بالقيامة، وعدم علمهم متى يبعثون؛ لأن ذلك مما انفرد الله تعالى بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عنها قال ﷺ: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»(١).

٣٥- غياب علم المشركين بالآخرة، ومتى وقتها، وشكهم فيها، وعمى بصائرهم عنها؛ ولهذا لم يستعدوا لها، بل أنكروها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وإنما يكمل علمهم بها يوم يرونها حقيقة يوم القيامة حين لا ينفعهم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر:٧].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ إنكارًا منهم للبعث، وتكذيبًا به: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار في الموضعين.

واللام في قوله: ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ للتوكيد.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هذا الوعد بالبعث ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ قصصهم وحكاياتهم الكاذبة، التي سطروها في كتبهم وتناقلوها بينهم للتسلية والتزجية.

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفار المنكرين للبعث، وما جاءت به الرسل.

﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: امشوا فيها، وتنقلوا بين جنباتها.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾؛ بأبصاركم، وتأملوا واعتبروا ببصائركم وقلوبكم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، أي: كيف كانت نهاية المجرمين المكذبين للرسل، وما

جاؤوا به من عند الله؟ حيث حلت بهم العقوبات والمثلات، وصاروا عبرة للمعتبرين، وخبرًا بعد عين؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تأسف ولا تأس على هؤلاء المكذبين؛ لعدم إيمانهم، فلو علم الله فيهم خيرًا لهداهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال:٢٣].

﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: من مكرهم، ويجوز كونها موصولة، أي: من الذي يمكرونه.

أي: لا يضيق صدرك بسبب مكرهم وكيدهم لك ولما جئتهم به من الحق؛ فإنهم إنما يمكرون بأنفسهم، ومكرهم عاقبته عليهم، والله معك، حافظك وناصرك ومظهر دينك؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قولهم: بأن الوعد بإخراجهم بعد كونهم ترابًا من قبورهم من أساطير الأولين، ثم ذكر هنا استعجالهم هذا الوعد ومتى يكون؛ تكذيبًا به، وإنكارًا له.

أي: ويقول الكفار المكذبون بالبعث: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، أي: متى البعث والقيامة؟ والاستفهام: للاستبعاد والتكذيب والاستعجال والتهكم؛ بدليل قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم أيها الرسل صادقين في زعمكم أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾، أي: عسى أن يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون من العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٥١ - ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾ [العنكبوت: ٥٣ - ٥٤].

وفي الآية تهديد لهم بقرب العذاب؛ لأن «عسى» من الله واجبة؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، ونكَّر «فضل»: للتعظيم، أي: لصاحب فضل عظيم، وكرم عميم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كلهم، في إسباغه النعم عليهم مع كفر كثير منهم وظلمهم لأنفسهم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله عليهم ونعمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«ما»: موصولة، أي: ليعلم الذي تكن صدورهم، أي: الذي تخفيه وتضمره وتنطوي عليه صدورهم.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: والذي يعلنون، أي: والذي يظهرونه ويبدونه ويجهرون به.

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾ [يس: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وما من شيء غائب عن أبصار الخلائق، ولا خبيئة في السماء والأرض ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، ونكَّر «كتاب»؛ للتعظيم، أي: إلا في كتاب عظيم؛ وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قول المكذبين للبعث، ولِمَا جاء به ﷺ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ثم ذكر في هذه الآيات عظمة القرآن، وما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة والهدى والرحمة الدالة على أنه من عند الله تعالى وأنه حق وصدق.

أي: إن هذا القرآن العظيم المنزل على النبي ﷺ ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: الموجودين في عهد النبي ﷺ ومن يأتي منهم بعد ذلك، أي: يبين لهم.

﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ مما يحتاج إلى بيان القول الفصل فيه؛ كما في اختلافهم في عيسى عليه السلام؛ فاليهود كذبوه وأنكروا رسالته، وافتروا عليه وعلى أمه، والنصارى عبدوه وغَلَوْا فيه، فقالوا: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا!

فجاء القرآن الكريم بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد الله ونبيه ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾[مريم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾[الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾ [مريم: ٣٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: وإن هذا القرآن لهدى، فيه بيان الحق، والدلالة عليه والهداية إليه، والعصمة من الغي والضلال بإذن الله.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: سبب لرحمتهم، فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم، ونجاتهم من العذاب.

وإنما خص بهداية القرآن ورحمته المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يهتدون به، وينتفعون بما فيه، ويعملون به بتوفيق الله وإلا فهو بيان وهدى للناس جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة: ١٨٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾، أي: إن ربك يا محمد يفصل يوم القيامة بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم، وبين الخلائق جميعًا ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾، أي: بحكمه وقضائه النافذ في ذلك اليوم، كما حكم بينهم في الدنيا بما قص عليهم في كتابه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة في حكمه وقضائه وانتقامه، وغير ذلك.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ ذو العلم الواسع لكل شيء من أعمال العباد وأقوالهم، وغير ذلك، فاجتمع في قضائه العزة والقوة، والعلم الواسع، فجاءت أحكامه أعدل الأحكام وأقومها.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: اعتمد على الله في تبليغ رسالة ربك ودينه، وفوض إليه في جميع أمورك، في جلب الخير ودفع الضر، وثق به يكفك كل شيء.

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾؛ الجملة: تعليل لأمره بالتوكل على الله، أي: لأنك على الحق المبين، أي: على الحق الثابت بصدق أخباره وعدل أحكامه، البين الواضح

الظاهر، ولا تكترث بمن خالفك؛ فلن يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم.

والتوكل نصف الدين قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة:٥].

قال ابن القيم: «وفي ذكر أمره بالتوكل مع إخباره بأنه على الحق؛ دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتماده ونيته، وأن يكون متوكلًا على الله، واثقًا به، فالدين كله في هذين المقامين»(١).

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ الإسماع: إبلاغ الكلام إلى المسامع.

والإسماع المنفي: إسماع الانتفاع، والموتى جمع: ميِّت، والمراد بـ«الموتى»: موتى القلوب؛ من المكذبين والكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، أي: حياة قلبية، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، أي: أن موتى القلوب كأصحاب القبور لا يمكن إسماعهم.

والمعنى: إنك لا تستطيع إسماع من ماتت قلوبهم من المكذبين والكفار إسماعًا ينتفعون به، وإن أسمعتهم حسيًّا إسماع إدراك؛ كما لا تستطيع إسماع الموتى الذين في قبورهم؛ لأن من مات قلبه لا ينتفع بما يسمع، فكأنه لا يسمع كميِّت القبر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير بالياء مضمومة، وفتح الميم، و«الصم» بالرفع:﴿وَلَا يُسْمَعُ الصُّمُّ﴾، وقرأ الباقون بالتاء مضمومة، وكسر الميم، ونصب «الصم»: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾.

والصم جمع: «أصم»، وهو من لا يسمع، والمراد: صم القلوب.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٤٤.

أي: ولا تستطيع إسماع صم القلوب الذين لا ينتفعون بسمعهم ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾، أي: النداء والدعوة إسماعًا ينفعهم، وإن أسمعتهم إسماعًا حسيًّا وإسماع إدراك.

﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ «مدبرين» حال، أي: إذا ولوا على أعقابهم مدبرين بأبدانهم، معرضين بقلوبهم عنك وعن دعائك.

كما لا تستطيع إسماع صم الآذان إذا ولوا مدبرين عنك وهذا غاية ما يكون من بُعْد السمع، صم الأذان، وولوا مدبرين، فلا أمل في أن يسمعوا.

وقوله: ﴿مُدْبِرِينَ﴾، أي: على أدبارهم، وفي هذا تشنيع عليهم.

فاجتمع فيهم ثلاثة موانع من الانتفاع بالسماع:

الأول: الصمم المعنوي؛ وهو عدم انتفاعهم بما يسمعون من الدعوة والموعظة.

الثاني: توليهم مدبرين بأبدانهم عنه.

الثالث: إعراضهم بقلوبهم عن دعوته. وهذا أشد.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾؛ قرأ حمزة بتاء مفتوحة، وسكون الهاء، دون ألف، ونصب «العمي»: «تَهْدِي العُمْيَ»، وقرأ الباقون بباء الجر، وفتح الهاء، وألف بعدها، وخفض «العمي»: ﴿بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾. والعمي جمع، أعمى.

أي: وما أنت بهادي عُمْي القلوب والبصائر وصارفهم عن ضلالتهم وغيهم وتيههم في الباطل إلى الحق، أي: أنك لا تستطيع ذلك.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما تسمع، و«إلا»: أداة حصر، و«من»: موصولة، أي: ما تسمع إلا الذي يؤمن بآياتنا، أي: يصدق بقلبه بآياتنا الشرعية والكونية.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ الجملة: تعليلية، أي: فهم مستسلمون مستجيبون لها، منقادون بجوارحهم لفعل الواجبات وترك المنهيات؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

الفوائد والأحكام:

١- إنكار الكفار للبعث، وتكذيبهم به واستبعادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٢- تلبيسهم الحق بالباطل بالشبهات والتمويه: لقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: ولم يروا شيئًا، وكأنهم وعدوا بذلك في الدنيا.

٣- زعمهم أن ما وعدوا به من البعث هم وآباؤهم، وما جاءت به الرسل من عند الله: من حكايات الأولين وقصصهم وخرافاتهم التي سطروها في كتبهم، وتناقلوها للتسلية وتزجية الأوقات؛ لقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

٤- الوعيد والتهديد لهم، وأمرهم بالسير في الأرض، والنظر بأبصارهم، والتأمل ببصائرهم وعقولهم: كيف كانت نهاية المجرمين المكذبين للرسل، وما حل بهم من العقوبات والدمار والهلاك؟ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

٥- أهمية السير في الأرض والنظر والتأمل في عقوبات الماضين من المكذبين ومصارعهم؛ لأن في ذلك عبرةً وعظة لمن يعتبر، والسعيد من وعظ بغيره فاتعظ.

٦- أن العبرة بعواقب الأمور ونهاياتها، وليست في بداياتها.

٧- تسلية الله تعالى لنبيه ﷺ، بألا يحزن على هؤلاء الكفار من قومه؛ لعدم إيمانهم؛ لأن الله لو علم فيهم خيرًا لهداهم، وألا يضيق صدره بسبب مكرهم؛ لأنهم إنما يمكرون بأنفسهم، والله حافظه وناصره ومؤيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾. وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله والمصلحين بأن عليهم الاستمرار في طريقهم، والنتائج على الله.

٨- أن الرسول ﷺ كغيره من البشر، ينتابه ما ينتابهم من الحزن وضيق الصدر؛ ولكن الله تعالى معه، يذهب حزنه، ويكشف كربه، ويشرح صدره.

٩- استعجالهم بما وعدوا به من البعث والعذاب؛ سفهاً منهم واستبعادًا له، وتكذيبًا به، وتهكمًا بالرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

١٠- التهديد لهم بقرب العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم

بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

١١- حلم الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، فتوعدهم ببعضه دون كله.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٣- عظم فضل الله تعالى وإنعامه على الناس، وقلة الشاكرين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

١٤- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم غير شاكرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

١٥- علم الله تعالى الواسع التام بما يخفيه الخلائق وما يظهرونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

١٦- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ لأن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وسيحاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

١٧- أن علم الله تعالى بما يسره الخلق كعلمه بما يعلنون؛ لهذا قدم قوله: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

١٨- إحصاء الله تعالى لكل شيء، وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ، وأنه لا يغيب عن علمه أيُّ شيء في السماء ولا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾. وفي هذا إثبات مرتبتين من مراتب القضاء والقدر، وهما: العلم والكتابة، والرد على القدرية الذين ينفون تقدير الله السابق، ويزعمون أن أعمال العبد ليست بمشيئة الله، تعالى عن قولهم.

١٩- بيان القرآن الكريم لبني إسرائيل القول الحق العدل في كثير مما اختلفوا فيه؛ كما في اختلافهم في عيسى عليه السلام؛ فاليهود كذبوه وافتروا عليه، والنصارى عبدوه وغلوا فيه، فجاء القرآن فبين القول الحق العدل فيه، وأنه عبد الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠].

٢٠- أن القرآن قص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وهو الذي في قصصه عليهم فائدة دون ما عدى ذلك.

٢١- هيمنة القرآن الكريم على الكتب السماوية السابقة، وأنه الحاكم عليها.

٢٢- التعريض بذم بني إسرائيل بسبب اختلافهم، لأن الخلاف شر ومذموم وغير محمود.

٢٣- أن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون به، وينتفعون بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾؛ كما أنه هدى هداية عامة، ورحمة عامة لجميع الخلق.

٢٤- فضيلة الإيمان، لأنه سبب للتوفيق للاهتداء بالقرآن، ونيل الرحمة به

٢٥- قضاء الله عز وجل يوم القيامة بين الخلائق بحكمه العدل، وقضائه الفصل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾، كما له القضاء بينهم في الدنيا، فله الحكم الشرعي بينهم في الدنيا، وله الحكم الجزائي بينهم في الآخرة، وله الحكم القدري في الدارين.

٢٦- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز»، و«العليم»، وصفتي: العزة التامة، والعلم الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٧- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«العليم»، وصفتي العزة والعلم في حقه كمال إلى كمال.

٢٨- حاجة الحاكم والقاضي إلى صفة القوة؛ ليكون حكمه زاجرًا نافذًا، وإلى صفة العلم؛ ليكون حكمه عدلًا صوابًا، موافقًا للحق والدليل.

٢٩- أمره تعالى للنبي ﷺ بالتوكل عليه، وتفويض أموره إليه في تبليغ رسالة ربه ودينه، والثقة بكفايته له ونصره؛ لأنه على الحق البين الواضح؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾.

٣٠- شهاة الله تعالى بأن ما جاء به ﷺ هو الحق، وأنه ﷺ على الحق المبين، ومفهوم هذا أن ما خالفه فهو باطل ظاهر

٣١- وجوب التوكل على الله، وأن من جمع بين الاستقامة على الحق، والتوكل على الله

تعالى، فهو محفوظ بحفظ الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

٣٢- أن الحق وإن كان بينًا واضحًا وضوح الشمس رابعة النهار، فإنه لا يظهر للخفافيش؛ لأن ضياء النهار يعميها؛ ولهذا عقب هذا بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

وكما قيل:

خفـافيش أعشـاها النهـار بضـوئه ... فوافقهـا مـن ظلمـة اليـل غيهـب

فظلـت تحـاكي الطـير في ظلمـة الـدجى ... وإن لاح ضوء الصبح للعش تهرب[1]

٣٣- أنه ﷺ لا يستطيع إسماع من ماتت قلوبهم إسماع انتفاع، وإن أسمعهم إسماع إدراك كما لا يستطيع لا هو ولا غيره إسماع موتى القبور إسماع إدراك كإسماع الأحياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٣٤- أن الموتى لا يسمعون في قبورهم كما يسمع الأحياء، وإن كان لهم سماع كما دلت عليه بعض الأحاديث دون ذلك والله أعلم.

٣٥-أنه ﷺ لا يستطيع إسماع الصم إسماع انتفاع بما يدعوهم إليه، إذا كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، وولوا مدبرين عن الحق معرضين عنه، كما لا يستطيع هو ولا غيره إسماع صم الآذان إذا ولوا مدبرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

٣٦- أن من كان أصمَّ حسيًّا فإنه لا يسمع النداء، ويزداد عدم سماعه إذا ولى مدبراً.

٣٧- أن من مات قلبه ولم يقبل الحق، ولم ينتفع به فهو منزلة الميت الذي لا يسمع وأن من لم ينتفع بسماع الحق فهو بمنزلة الأصم الذي لا يسمع.

٣٨- أنه ﷺ ليس بيده هداية من عميت بصائرهم وضلوا عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾.

٣٩- أن من لم يبصر الحق، ولم يهتد به، وضل عنه فهو بمنزلة الأعمى.

---

(١) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص٣٣.

٤٠- أنه إنما يسمع دعوته ﷺ، وينتفع بسماعه لها من آمن بقلبه بآيات الله، واستسلم وانقاد لها بجوارحه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٤١- أن هداية القلوب بيد الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٤٢- أن الإيمان يستلزم الإسلام فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وإذا وقع القول والقضاء على الناس، وحق عليهم العذاب، وذلك عند فساد الناس، وتبديلهم الدين الحق، وقرب الساعة.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ نكر دابة؛ لأنها غير معروفة، بل منفردة من نوعها، وللتهويل والتعظيم، وهي من علامات الساعة الكبرى.

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، أي: تحدثهم وتخاطبهم، فتقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح الهمزة: «أن»، وقرأ الباقون بكسرها: «إن».

أي: أن الناس لا يصدقون بآيات الله التصديق الجازم، ولا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها.

واليقين: التصديق الجازم.

وقال بعضهم: إن قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، تعليل من كلام الله تعالى؛ لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، وليس من كلام الدابة. فعلى هذا يكون تكليم الدابة لهم لما يُبيِّن.

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم، والدجال، وثلاث خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم حيث باتوا،**

وتقيل معهم حيث قالوا»(١).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾، أي: اذكر يوم نحشر، أي: نجمع، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: من كل أمة من الأمم، ﴿فَوْجًا﴾، أي: جماعة.

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: من الذين يكذبون بآياتنا الكونية والشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: نظراءهم وأشباههم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧]، أي: جمع وقرن كل نظير إلى نظيره.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يدفعون ويساقون، ويحبس أولهم على آخرهم؛ ليكونوا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة ٤٣١١، والترمذي في أبواب الفتن، ما جاء في الخسف ٢٢٧٤، ٢٢٧٨، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات ٤٠٥٥، وأحمد ٤/ ٧.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، خروج الدجال ومكثه في الأرض ٢٩٤١، وأبو داود في الملاحم ٤٣١٠، وابن ماجه ٤٠٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب بقية من حديث الدجال ٢٩٤٧.

زمرة واحدة، ويشتد خزيهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾، أي: حضروا وأُوقفوا بين يدي الله تعالى في مقام المساءلة والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٤].

﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾؛ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: قال الله عز وجل موبخًا ومقرعًا لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾، أي: أنكرتموها بقلوبكم، ولم تنقادوا لها بجوارحكم.

﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾؛ الجملة: حالية، أي: والحال أنكم لم تحيطوا بها علمًا، أي: بادرتم بالتكذيب بها من غير أن تتفهموها وتتأملوا فيها، وتدركوها. قال ابن القيم(١):

إن البدار برد شيء لم تحط علمًا به سبب إلى الحرمان

ويجوز كون الجملة معطوفة على مقول القول.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة بمعنى: «بل».

و«ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: بل ماذا كنتم تعملون؟ أو ما الذي كنتم تعملونه؟ أي: إن أعمالكم لا تدل إلا على تكذيبكم بآيات الله.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾؛ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: صدق القول عليهم وحقت كلمة العذاب عليهم بسبب ظلمهم بتكذيب الآيات، والكفر بها، والشرك بالله.

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾، أي: قد خرست ألسنتهم وبُهتوا، فلم يستطيعوا الجواب ولم يتكلموا بكلمة لدفع العذاب عنهم؛ لأنه لا حجة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: ٣٥ – ٣٦].

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾؛ الاستفهام للتوبيخ، والرؤية هنا علمية، أي: ألم يعلموا ويتأملوا ببصائرهم.

﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾، «جعل» بمعنى: «صير»، و«الليل»: مفعول أول، والمفعول

---

(١) في «النونية؛ الكافية الشافية» (ص٣٠٥).

الثاني محذوف، والتقدير: صيرنا الليل مظلماً.

﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يسكنوا فيه، ويناموا، ويستريحوا من نصب العمل في النهار.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، أي: وجعلنا النهار مبصرًا أي: صيرناه مبصراً، أي: مضيئًا بالشمس، يبصرون فيه؛ ليتصرفوا فيه في معاشهم ومكاسبهم وأسفارهم وتجاراتهم، وغير ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في جعل الليل سكنًا، والنهار مبصرًا، ﴿لَآيَٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: دلالات على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، وتمام نعمته على العباد.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لقوم يؤمنون بالله وآياته، ويصدقون بها، وينتفعون بالنظر والتأمل فيها، ويستفيدون منها، ويشكرون الله عليها.

الفوائد والأحكام:

١- ثبوت خروج الدابة- التي هي من علامات الساعة الكبرى- بعد فساد الناس، وتبديلهم الدين الحق، في آخر الزمان، واستحقاقهم للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- تكليم هذه الدابة ومخاطبتها للناس بما هم عليه من الكفر وعدم الإيمان بآيات الله؛ تقريعًا وإنذارًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

٣- قدرة الله تعالى التامة على تبديل الأحوال وتغييرها، وعلى كل شيء، فيجعل الدابة البهيم ناطقة؛ كما يجعل الناطق أخرس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ الآية.

٤- وجوب الإيمان بآيات الله تعالى ومراقبته وتقواه، والحذر من التفريط والغفلة قبل حلول العذاب.

٥- إثبات حشر الناس يوم القيامة، وجمع المكذبين بآيات الله من الأمم بعضهم إلى بعض، وحبس بعضهم على بعض؛ ليزداد خزيهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

٦- تقريع المكذبين وتوبيخهم على تكذيبهم بآيات الله من غير فهم لها، ولا تأمل

فيها؛ وعلى أعمالهم الباطلة الدالة على تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

٧- أن أعمال هؤلاء المكذبين تدل على تكذيبهم بآيات الله، وكفرهم.

٨- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٩- تهديدهم بوقوع القول عليهم وصدقه فيهم، ووجوب العذاب عليهم بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾.

١٠- التحذير من الظلم بالكفر، وتكذيب الآيات، وغير ذلك، وأنه سبب للعذاب.

١١- إثبات الأسباب، وإثبات الحكمة في أفعال الله تعالى.

١٢- عدم استطاعتهم النطق للجواب على تقريعهم وتبويخهم، ولدفع العذاب عنهم؛ لأنه لا حجة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

١٣- بيان كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته في جعل الليل وقتًا للسكن، وجعل النهار مبصرًا لأجل العمل، وما في ذلك من الآيات العظيمة والنعم الجليلة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

١٤- أنه إنما يستفيد من الآيات الكونية، ويستدل بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته؛ المؤمنون.

١٥- أن ما عليه كثير من المسلمين اليوم من جعل الليل وقتًا للسهر والحركة والعمل، وجعل النهار وقتًا للسكن والراحة والنوم مخالف للشرع والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو من أعظم أسباب انتكاس الأمة وضعفها، فهل يعي المسلمون هذه الحقيقة -نسأل الله تعالى أن يرد المسلمين إلى رشدهم، وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، «الصور»: هو القرن العظيم الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أي: واذكر يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، نفخة الفزع والصعق؛ ليموت كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٣ – ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾[النازعات: ٦ – ٧].

فالراجفة: النفخة الأولى، وهي نفخة الفزع والصعق، والرادفة: النفخة الثانية، نفخة البعث والنشور، وخروج الناس من قبورهم لموقف الحساب.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين- لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا- فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه، فيهلكه، ثم يمكث سبع**

سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبَل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ. قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصْغَى لِيتًا ورفَعَ لِيتًا[1]». قال: «وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله، أو قال: ينزل الله مطرًا كأنه الطل[2] فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلم إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٢٤]، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألفٍ تسعَمئة وتسعةً وتسعين، قال: فذاك يومَ يجعل الولدان شيبا،وذلك: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]»[3].

﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: خافوا وانزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم في بعض، وقلقوا خوفًا مما هي مقدمة له، وعبر بالماضي "فزع"، لتحقق وقوعه وقربه.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ «إلا» أداة استثناء، و«من» موصولة، أي: إلا الذي شاء الله أن يأمن من الفزع، فأكرمه وثبته وحفظه.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه أول من يفيق فيجد موسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش قال ﷺ: «فلا أدري أجوزي بصعقة الصور أم أفاق قبلي»[4].

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ لا يعلم هل موسى ممن استثنى الله في الآية أم لا، وإذا

---

(١) أي: أمال عنقه؛ ليستمعه من السماء جيدًا.

(٢) الطل: المطر الخفيف.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب في خروج الدجال ٢٩٤٠.

(٤) أخرجه البخاري في الديات ٦٥١٩، ومسلم في الفضائل- فضائل موسى عليه السلام ٢٣٧٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

كان ﷺ لا يعلم ذلك فغيره من باب أولى لا يعلم من الذي استثناه الله في الآية.

﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾؛ قرأ حمزة وخلف وحفص بفتح التاء وقصر الهمزة: ﴿أَتَوْهُ﴾، وقرأ الباقون بمد الهمزة وضم التاء: «آتُوهُ».

ومعنى القراءتين واحد، أي: وكل من في السموات ومن في الأرض جاؤوا إلى الله تعالى يوم القيامة.

﴿دَاخِرِينَ﴾؛ حال، أي: صاغرين ذليلين، منقادين مطيعين، لا يتخلف منهم أحد عن أمره؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[مريم: ٩٣ – ٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٣ – ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ – ٨].

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾، أي: وتشاهد أيها المشاهد يوم القيامة الجبال تظنها واقفة مستقرة ثابتة على ما كانت عليه.

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾، أي: والحال أنها تمر مر السحاب، أي: تسير بسرعة سير السحاب من خفتها وشدة الأهوال؛بعد أن اقتلعت من أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطور: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ «صنع»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: صنع الله ذلك صنعًا، وفي إضافة صنع إلى الله تعظيم له، أي: أن هذا من الأمور العظيمة التي هي من صنع الله.

وقيل: منصوب على الإغراء، أي: انظروا صنع الله وتأملوه وعليكم به.

﴿ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍۚ﴾؛ أي: أحكم كل شيء صنعه أو شرعه، فجاء خلقه وتقديره وشرعه في غاية الإتقانْ، من غير اختلاف ولا تفاوت ولا زيادة ولا نقصانْ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣ – ٤]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالغيب: «بِمَا يَفْعَلُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَفۡعَلُونَ﴾.

و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: إنه خبير بفعلكم، أو بالذي تفعلونه، مطلع على دقيق أفعالكم وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾، أي: من أتى بالحسنة يوم القيامة، قلبية، أو فعلية؛ قولًا أو فعلًا أو بذلًا.

﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ بمضاعفتها الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن: ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ۝١١﴾[الحديد: ١١].

﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتنوين: ﴿فَزَعٖ﴾.

وقرأ الباقون بدون تنوين على الإضافة: «فَزَعِ».

وقرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بفتح الميم.

وقرأ الباقون بكسرها: «يَوْمِئِذٍ».

أي: وهم بسبب إتيانهم بالحسنة، من كل فزعٍ يوم القيامة، أو من فزع يوم القيامة وخوفه وقلقه ووجله- آمنون؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، أي: ومن أتى يوم القيامة بالسيئة قلبية أو قولية أو فعلية، التي توجب النار كالشرك والمعاصي.

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: كبوا وألقوا على وجوههم في النار.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ الاستفهام بمعنى النفي، وفيه تقريع وتبكيت أي: ما تجزون إلا بما كنتم تعملون، و«إلا»: أداة حصر، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي كنتم تعملونه.

والمعنى: فيقال لهم: ما تجزون إلا الذي كنتم تعملونه أي: إلاجزاء الذي كنتم تعملونه من السيئات، لأن الجزاء من جنس العمل ؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، ولم يقل: من فعل الحسنة، ومن فعل السيئة؛ لأن الإنسان قد يفعل الحسنة ولا يثاب عليها، لارتكابه ما يحبطها ويبطل ثوابها، وقد يفعل السيئة ولا يعاقب عليها، لإتيانه بما يكفرها من التوبة والحسنات الماحية ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾:

أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾، أي: إنما أمرني الله عز وجل، ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر

محذوف، أي: بعبادة رب هذه البلدة، أي: مكة المكرمة، شرفها الله.

كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس: ١٠٤].

وأضاف الربوبية إلى البلدة تشريفًا لها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قريش: ٣].

﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، أي: الذي جعلها حرمًا يجب احترامها، وحرامًا، أي: محرمة فلا يدخلها مشرك ولا يسفك فيها دم، ولا ينفر صيدها، ولا يختلى خلاها، وفي هذا تعظيم لها، وامتنان على أهلها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه**»(١).

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾؛ من عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة ربوبية خاصة، ورب كل شيء ربوبية عامة أي: خالقه ومالكه والمتصرف فيه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: وأمرت بأن أكون من المسلمين.

أي: وأمرني ربي أن أكون من المسلمين المستسلمين له بتوحيده، والإخلاص له، المنقادين لطاعته.

كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الآية: ٣٦].

وهو ﷺ أول المسلمين؛ كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الآية:

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج، تحريم مكة وصيدها ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك، تحريم مكة ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢، وأحمد ١/ ٢٥٣، ٢٥٩.

١٦٣].

﴿وَأَنْ أَتْلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: وأمرت أن أتلو القرآن، أي: أمرت بتلاوة القرآن، أي: باتباعه وقراءته على الناس وتبليغه لهم، فما أنا بالنسبة لهم إلا مبلغ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فمن اهتدى من الناس بهدي القرآن إلى الصراط المستقيم.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما» أداة: حصر، أي: فإنما نفع اهتدائه يعود إلى نفسه دون غيره.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى وعن الصراط المستقيم بعد بلوغ القرآن إليه.

﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، أي: إنما أنا كغيري من المنذرين، أي: من المحذرين المخوفين من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

أي: ليس بيدي هداية من ضل، وليس عليَّ حسابه، وإنما ذلك على الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: احمد الله تعالى، وأخبر بأن الحمد المطلق والوصف بصفات الكمال لله تعالى وحده على تمام ربوبيته ووحدانيته، ووضوح سبيله، وبيان حجته، وكمال عدله.

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، السين تفيد تحقق وقوع الشيء وقربه أي: سيبين ويظهر لكم آياته الشرعية، وآياته الكونية في الآفاق وفي السماء والأرض والأنفس والأرزاق، وغير ذلك. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ تمام المعرفة؛ لتقوم عليكم الحجة بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾[فصلت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢٢].

وقد أراهم الله تعالى من الآيات ما أوقع بهم يوم بدر، وغير ذلك مما لا يخفى من الآيات الكونية والشرعية.

ومن عميت بصيرته عن رؤية الآيات في هذه الدنيا فسيراها في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾ [ص: ٨٨]، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالتاء: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما الله بغافل عن عملكم، أو عن الذي تعملونه، بل هو شهيد رقيب على أعمالكم، سيحصيها عليكم، ويحاسبكم ويجازيكم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾ [الأحزاب:٥٢].

قال ابن كثير(١): «ذُكر عن الإمام أحمد رحمه الله؛ أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

الفوائد والأحكام:

١- إثبات النفخ في الصور النفخة الأولى نفخة الفزع؛ ليصعق ويموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].

٢- إثبات الصور؛ وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، كما دلت على ذلك السنة.

٣- شدة النفخ في الصور، وفزع الخلائق وقلقهم وخوفهم وانزعاجهم عند النفخ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٢٩. والبيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٣٤).

في الصور؛ خوفًا مما هو مقدمة له، وهو الصعق؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية.

٥- إثبات البعث، ومجيء الخلائق كلهم يوم القيامة إلى الله تعالى صاغرين ذليلين منقادين، لا يتخلف منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

٦- تغيّر حال الجبال- مع عظمتها- وتسييرها بسرعة، بعد أن كانت ثابتة راسية، من شدة هول ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ﴾.

٧- عظمة خلق الله وبديع صنعه، وإتقانه كل شيء خلقه وقدره وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٨- علم الله تعالى التام، واطلاعه على أفعال العباد، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وإحصاؤه لها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء وحث على إحسان العمل وتحذير من إساءة العمل.

٩- فضل الله عز وجل بمجازاته الحسنة بخير منها ومضاعفتها؛ جودًا منه وكرمًا، وهذا في مقام الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

١٠- أن الجزاء أفضل من العمل وأعظم.

١١- أمن وطمأنينة من لقي الله تعالى يوم القيامة محسنًا قد عمل الصالحات من فزع ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

١٢- إثبات الفزع يوم القيامة، لشدة أهواله.

١٣- شدة عذاب من وافى ذلك الموقف بالسيئات، وإلقاؤهم على وجوههم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

١٤- أن المدار في الإثابة على الحسنات المجئ بها يوم القيامة سالمة من البطلان، وأن المدار في العقاب على السيئات المجيء بها من غير توبة.

١٥- إثبات النار وعذابها.

١٦- تبكيت من جاؤوا بالسيئات وتقريعهم بأن هذا جزاء عملهم، وأنهم لا يجازون إلا بما عملوه، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٧- أن الجزاء من جنس العمل وكما يدين المرأ يدان.

١٨- كمال عدل الله تعالى فلا يجازي أحدًا إلا بما عمل.

١٩- أنه ﷺ- كغيره من الأمة- مأمور بعبادة الله تعالى وحده، رب البلدة الحرام، الذي حرمها، ورب كل شيء ومليكه، وأن يكون من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾. وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الولي يصل إلى درجة يسقط بها عنه التكليف.

٢٠- شرف مكة وفضلها؛ لأن الله أضافها إلى ربوبيته الخاصة وحرمها.

٢١- أن الذي حرم مكة هو الله عز وجل فقوله ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة**»(١) أي: حرمها بتحريم الله، أي: أظهر وأبان تحريمها.

٢٢- أن لله عز وجل كل شيء، فهو خالق كل شيء، ومالكه، والمتصرف فيه وربه ربوبيته عامة.

٢٣- أن مهمته ﷺ في الدعوة: هي تلاوة القرآن على الناس، وتبليغهم رسالة ربه؛ لقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾.

٢٤- أن من اهتدى بهداية القرآن فإنما ثمرة هدايته لنفسه، ومن ضل فإنما ضلاله على نفسه؛ لمنطوق ومفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

٢٥- وجوب تلاوة القرآن واتباعه والعمل به.

٢٦- أنه ﷺ- مع تفضيله على جميع الرسل- هو منذر كغيره من المنذرين، وليس

---

(١) سبق تخريجه.

إليه هداية الناس إلى الحق، وعصمتهم من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

٢٧- الحث على حمد الله تعالى، والاعتراف باطنًا وظاهرًا بأن له وحده الحمد المطلق، والوصف التام؛ لتمام ربوبيته ووحدانيته، ووضوح سبيله، وكمال عدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٢٨- بيانه عز وجل وإظهاره آياته الشرعية والكونية، وإقامته الحجة على الخلق؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، فيعرفها المؤمن في الدنيا، ويعرفها غيره في الآخرة حين لا ينفعه ذلك.

٢٩- أن الله عز وجل رقيب على الخلائق، شهيد على أعمالهم، ليس بغافل عنها، بل يحصيها عليهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٣٠- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والحذر من التفريط والغفلة.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْقَصَص

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة القصص» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية: ٢٥].

والمراد بالقصص: ما قصه موسى عليه السلام على صاحب مدين مما لقيه عليه السلام في مصر قبل خروجه منها.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ كسورة الشعراء، تعظيمًا للقرآن العظيم وبيانًا لإعجازه؛ ولهذا قال بعده: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

٢- تحدثت عن قصة موسى مبسوطة، فذكرت ما جرى له، ولأمه، ولبني إسرائيل من أذى فرعون وجنوده، وما حصل منه من قتل الرجل القبطي، ومن الخوف، وخروجه من مصر، بعد نصح الرجل الذي جاء يسعى له بالخروج منها، وتوجهه صوب مدين، وما جرى له هناك إلى أن قضى الأجل الذي كان بينه وبين صاحب مدين وسار بأهله، ونداء الله تعالى له: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وإيتائه العصا واليد، برهانان من ربه إلى فرعون وملائه، وطلبه عليه السلام شد عضده بأخيه هارون، واستجابة الله تعالى له.

وتكذيب فرعون وملئه له، وزعمهم أن ما جاء به من الآيات ما هو إلا سحر مفتري، وتمادي فرعون بالطغيان وزعمه أنه لا إله غيره، واستكباره هو وجنوده. وأخذهم وإهلاكهم في أليم، وجعلهم يوم القيامة من المقبوحين.

٣- ذكر إيتائه عز وجل موسى عليه السلام التوراة بعد إهلاك القرون الأولى، بصائر للناس وهدى لعلهم يتذكرون.

٤- بيان أن ما جاء من ذكر خبر موسى عليه السلام وما جرى له، وإرساله، ونداء الله له ليس لكونه ﷺ شاهداً ذلك، ولكن بوحي الله تعالى إليه ﷺ وإرساله رحمة من الله

عز وجل له ﷺ وللأمة؛ لينذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يتذكرون، ولإقامة الحجة عليهم وقطع عذرهم إذا جاءهم العذاب، فلا يحتجوا أنه ما جاءهم رسول.

٥- تكذيب المشركين للرسول ﷺ، ولما جاءهم به من الآيات، واتباعهم أهواءهم بغير هدى من الله، وضلالهم مع بيان القول لهم وتفصيله لعلهم يتذكرون.

٦- إيمان أهل الكتاب المنصفين بالقرآن، وأنه الحق من ربهم، ووعد الله لهم بإيتائهم أجرهم مرتين بسبب صبرهم، ودرئهم بالحسنة السيئة، وإنفاقهم مما رزقهم الله، وإعراضهم عن اللغو، وعن الجاهلين.

٧- اختصاص الله عز وجل بهداية التوفيق لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

٨- زعم المشركين الباطل أنهم إن اتبعوا الهدى مع الرسول ﷺ تخطفوا من أرضهم، وتذكيرهم بمنته عز وجل عليهم بتمكينه لهم حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء، وتذكيرهم بكثرة القرى التي أهلكها الله لما بطرت معيشتها، وأنه ما كان مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياته، وأنه ما كان مهلك القرى إلا وأهلها ظالمون. وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

٩- بيان أن ما أوتي العباد من شيء، فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى، وأنه شتان بين من وعده الله وعداً حسنًا فهو لاقيه حقًا وحتمًا، وبين من متعه الله متاع الحياة الدنيا فعاش فيها كالبهيمة ثم هو يوم القيامة من المحضرين في العذاب.

١٠- فضح المشركين وتقريعهم يوم القيامة، وبراءتهم وشركاؤهم بعضهم من بعض ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

١١- تقريعهم بندائهم ماذا أجبتم المرسلين؟ وعمى الأخبار عليهم فهم لا يتساءلون.

١٢- البشارة بالفلاح لمن آمن وعمل صالحًا ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ

أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾.

١٣- بيان أن له عز وجل كامل الملك والخلق والتدبير يخلق ما يشاء ويختار، ويعلم ما تكن صدور الخلائق وما يعلنون، لا معبود بحق إلا هو، له الحمد في الدنيا والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

١٤- الامتنان على العباد برحمته لهم بإيجاد الليل وقتًا للسكن، والنهار وقتًا للعمل، فلا إله غير الله يقدر على الإتيان بذلك، مما يوجب شكره وعبادته وحده.

١٥- إخراجه عز وجل من كل أمة شهيداً يشهد عليهم وهو رسولهم، وإفحام المشركين بالإتيان ببرهانهم على صحة ما ادعوه من الشركاء لله وعلمهم آنذاك أن الحق لله، وغياب ما كانوا يفترون.

١٦- ذكر قصة قارون وبغيه على قوم موسى، وما آتاه الله من الكنوز العظيمة، وفرحه وبطره واختياله، ونهي قومه له عن ذلك، وأمرهم له أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ويحسن كما أحسن الله إليه ولا يبغ الفساد في الأرض، لأن الله لا يحب المفسدين.

وتماديه بالكفر والبغي والطغيان وكفره نعمة الله عليه ونسبته ما أعطاه الله إلى علم عنده. وتهديده بأن الله قد أهلك قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا.

١٧- خروجه على قومه في زينته بطراً وخيلاء، وتمني الذين يريدون الحياة الدنيا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، واستعظامهم حظه جهلاً منهم، ورد الذين أوتوا العلم عليهم بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

١٨- عقوبة الله تعالى له بخسف الأرض به وبداره، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين بنفسه، وإقرار الذين تمنوا مكانه بالأمس أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه لولا لطف الله بهم لخسف بهم مثله، وأنه لا يفلح الكافرون.

١٩- تعظيم الدار الآخرة وما فيها من النعيم، وأن الله جعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.

٢٠- بيان عظيم فضل الله تعالى، وتمام عدله، فمن جاء بالحسنة فله خير منها؛ فضلاً من الله عز وجل، ومن جاء بالسيئة جوزي بمثلها؛ عدلاً منه عز وجل.

٢١- إثبات المعاد والبعث والحساب والجزاء، وإثبات علمه عز وجل بمن جاء بالهدى ودعا إليه وهو هو ﷺ، ومن كان في ضلال مبين وهم المشركون المكذبون له.

٢٢- الامتنان عليه ﷺ بالرسالة، وبيان أنه ﷺ ما كان يرجو ويؤمل أن يلقى إليه القرآن ويوحى إليه ويكلف بالرسالة إلا رحمة من ربه عز وجل له وللأمة.

٢٣- نهيه ﷺ أن يكون ظهيراً للكافرين، وأن يصدوه عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليه، وأمره بالدعوة إلى ربه وتحذيره من الشرك وأهله، وهو نهي وأمر وتحذير له ولأمته.

٢٤- تقرير أن كل شيء هالك فان إلا وجهه عز وجل، له الحكم وحده، وإليه مرجع الخلائق وعليه حسابهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

قوله: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾؛ سبق الكلام على هذه الآية في أول سورة يوسف، أي: تلك آيات القرآن العظيم، البين الواضح، المبين للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولحقائق الأمور، ولكل ما يحتاج إليه العباد في طريقهم إلى الله تعالى.

وأشار إلى آيات القرآن الكريم بإشارة البعيد: «تلك» تعظيمًا لها.

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾، أي: نقرأ ونقص عليك يا محمد، ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾، أي: بعض نبأ موسى وفرعون، أي: خبرهما. والنبأ: الخبر العظيم المهم.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: بالحق الثابت والخبر الصادق؛ كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣]، أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهده، وكأنك حاضر.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل قوم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون بالقرآن بقلوبهم، وينقادون له بجوارحهم، ويصدقون أخباره الثابتة، ويعملون بأحكامه العادلة.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تكبر وتجبر وطغى في الأرض، فادعى الربوبية والألوهية، وآذى عباد الله.

والمراد بالأرض: أرض مصر، وأرض مملكته.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أي: وجعل أهل أرض مملكته طوائف متفرقة؛ ليضرب بعضهم ببعض؛ ليتم له ما يريد.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، أي: يذل ويقهر طائفة وجماعة منهم، وهم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على عالمي زمانهم، فكان يحتقرهم ويستغلهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ بدل من قوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، أي: يذبح أبناءهم، وهم الذكور من المواليد؛ لأجل إذلالهم بالقضاء على الرجال أو خوفًا أن يوجد غلام منهم يكون سبب هلاكه، وذهاب دولته على يديه.

﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، أي: يستبقيهن فلا يقتلهن؛ ليعملن في الخدمة وفي الأعمال الحقيرة والوضيعة والشاقة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: من المفسدين في الأرض، بتجبره وتكبره، وجعل أهل مملكته شيعًا، واستضعافه طائفة منهم يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«نريد»، أي: ونريد المن على الذين استضعفوا.

أي: ونريد أن ننعم ونتفضل على الذين استضعفهم فرعون في الأرض- وهم بنو إسرائيل- فنقويهم ونخرجهم من قبضته وحكمه.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾، أي: نصيِّرهم أئمة في الدين والدعوة إلى الله وقدوة في الخير في أهل زمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ للأرض بعد فرعون وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: نثبت سلطانهم في الأرض ونقويهم، والمراد: أرض مصر والشام.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء وفتحها، وإمالة فتحة الراء بعدها، ورفع الأسماء الثلاثة: «وَيَرَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا»، وقرأ الباقون بالنون، وضمها وكسر الراء، وفتح الياء، ونصب الأسماء الثلاثة: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾.

وقوله: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ﴾؛ معطوف على «نريد»، أي: ونريد أن نري فرعون، ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾؛ وهو وزير فرعون، ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾، أي: من هؤلاء المستضعفين، بني إسرائيل.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: الذي كانوا يحذرونه منهم؛ وهو ذهاب ملكهم على أيديهم، بل على يد رجل منهم؛ وهو موسى عليه السلام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- تعظيم القرآن العظيم وآياته؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- وضوح آيات القرآن الكريم، وبيانه للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولكل ما يحتاج إليه العباد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- أهمية قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وما فيها من العبر و العظات، مما لا يوجد في كثير من قصص الأنبياء عليهم السلام؛ لهذا تلاها عز وجل على نبيه محمد ﷺ، وكرر ذكرها في القرآن أكثر من غيرها من قصص الأنبياء.

٥- أن الحكمة من تلاوة نبأ موسى وفرعون وقصصه على النبي ﷺ؛ لأجل المؤمنين الذين يصدقون أخبار القرآن، ويعملون بأحكامه، ويتعظون به؛ لقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

٦- أن ما أخبر الله به في القرآن الكريم من الأخبار حق ثابت، وصدق لا شك فيه؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

[الأنعام: ١١٥].

٧- أنه إنما ينتفع بالوحي وبما جاء به الرسل المؤمنون فقط؛ لهذا خصهم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو منزل هداية لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٨٥].

٨- علو فرعون في الأرض وتجبره وتكبره وطغيانه، فادعى الربوبية والإلهية، وآذى العباد، وخرب البلاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٩- اتباعه سياسة «فرِّقْ تَسُدْ»، بجعله أهل مملكته شيعًا وطوائف وأحزابًا؛ ليضرب بعضهم ببعض، ويتم له ما يريد؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، وهذه سياسة الطغاة والمجرمين في كل عصر ومصر.

١٠- استضعافه بني إسرائيل، وإذلاله إياهم، واحتقاره لهم، وتسخيره إياهم بأخس الأعمال وأشقها، وتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم للخدمة والأعمال الوضيعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

١١- إفساده في الأرض غاية الإفساد بما ذكر وبغير ذلك من أوجه الفساد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٢- إثبات الإرادة الكونية والشرعية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

١٣- إثبات الجعل الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

١٤- قدرة الله تعالى التامة، ونعمته العظيمة على بني إسرائيل؛ بتقويتهم بعد الاستضعاف في الأرض، وجعلهم أئمة في الدين والدعوة، وتوريثهم الأرض وتمكينهم فيها وإظهارهم، وإهلاك فرعون وهامان وجنودهما، وزوال ملكهم على يد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

١٥- أنه بالاستقامة على أمر الله تعالى والصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ووراثة

الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة: ٢٤]، قال ابن تيمية: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

١٦- أنه لا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

١٧- انتقام الله تعالى من الظالم، ونصره للمظلوم ولو بعد حين، وأن العاقبة للمتقين.

١٨- أن الأمة المستضعفة مهما بلغت من الضعف وتسلط العدو عليها ظلمًا، لا ينبغي أن يستولي عليها اليأس من استعادة حقها، وتمكين الله تعالى لها؛ فالأيام دول.

١٩- أن الأمة الذليلة المغلوبة على أمرها، التي لا تأخذ حقها ولا تطالب به؛ لا يقوم لها أمر دينها، ولا يكون لها إمامة فيه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾:

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، أي: ألهمناها ونفثنا في روعها، وقيل: أوحينا إليها في المنام.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ تفسير لقوله: «أوحينا»، ويجوز أن تكون «أن»: مصدرية، والمصدر المؤول: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ في محل جر بباء محذوفة، أي: بأن أرضعيه.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾؛ من أن يعلم به فرعون وجنوده، الذين يتتبعون المواليد من الأبناء، حيث كان يقتل الغلمان عامًا، ويتركهم عامًا.

﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، أي: في النهر، والمراد: نهر النيل، الذي كانت أم موسى ساكنة على ضفافه.

﴿وَلَا تَخَافِى﴾؛ عليه من الغرق أو غير ذلك، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾؛ على فقده وفراقه،

بل اطمئني وثقي بحفظنا له.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، أي: مرجعوه إليك سالمًا من كيد فرعون، ومن كل شر

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: جاعلوه في عداد المرسلين، أي: سيكبر ويجعله الله رسولًا.

فبشرها ببشارتين: رده إليها سالمًا، وتشريفه بجعله رسولًا، ولا بشارة تفوق هذه البشارة.

وفي تقديم هذه البشارة طمأنة لقلبها، وتسكين لروعها؛ ولهذا خافت عليه ووضعته في تابوت مغلق، وألقته في النهر؛ تسليمًا لأمر الله تعالى، وثقة بحفظه لها.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: التقطوه من النهر، حيث حمله النهر إلى قريب من دارهم، فأخذوه لقيطاً واللقيط: هو الطفل المنبوذ؛ ولهذا قال: فالتقطه آل فرعون، ولم يقل: فأخذه.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الحاء وإسكان الزاي: «وَحُزْنًا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَحَزَنًا﴾.

واللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾: للتعليل؛ لأن الله قيضهم لالتقاطه؛ ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، وفي شدة حسرتهم؛ إذ كيف يلتقطونه لأجل أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، أي: يُظهر العداوة لهم، ويُحزنهم بهلاكهم وزوال ملكهم على يديه؟!

وقيل: اللام: لام العاقبة؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، وإنما كانت عاقبة التقاطهم له أن كان لهم عدوًّا وحزنًا.

قال ابن القيم في تأييد القول الأول:

«فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له؛ فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنا، وذكَرَ فعلهم دون قضائه؛ لأنه أبلغ في كونه حزنًا لهم وحسرة عليهم؛ فإن من اختار أخذ ما يكون

هلاكه على يديه إذا أصيب به، كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته.. فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه، وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فَذِكْر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يُذكر القضاء والقدر»(١).

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾، أي: متعمدين لارتكاب الخطايا والآثام، والإفساد في الأرض بالمكر والإجرام.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ولما هم فرعون بقتل موسى، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وهي: آسية بنت مزاحم، المؤمنة الفاضلة الجليلة، التي اختارت الجار قبل الدار؛ فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

وفي الحديث: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**»(٢).

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾، أي: هذا الطفل قرة عين لي ولك، أي: سبب قرة عين لي ولك، تحصل به المسرة لنا في حياتنا، وتقر به أعيننا، ونسعد به.

وذلك أنها لما رأته أعجبها، وأوقع الله محبته في قلبها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩].

وذلك من توفيق الله تعالى له ولها، وسعادتها، وشقاوة زوجها؛ ولهذا صار قرة عين لها كما قالت، ورفعة لها في الدنيا والآخرة، وصار عدوًا وحزنًا لفرعون وقومه.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: أبقوه، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾؛ الجملة موضع التعليل لقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: عسى أن ينفعنا بخدمته لنا أو غير ذلك.

وقد نفعها الله به أعظم نفع؛ حيث كان سببًا لإيمانها، وذلك لحسن نيتها وقولها

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤١١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٤، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الحق، ولزومها العدل، وعطفها ورحمتها.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أي: أو نجعله ولدًا لنا بالتبني ونكرمه، وذلك أنها- فيما ذكر- ليس لها ولد منه.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم لا يشعرون بعاقبة أمرهم معه، أي: وهم لا يدرون ولا يعلمون خفي إرادة الله تعالى، وما له من الحكمة البالغة في جعلهم يلتقطونه، ويتربى على أيديهم؛ ليكون هلاكهم وزوال ملكهم على يديه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، أي: صار قلبها ولبُّها حين ذهب النهر بولدها ﴿فَٰرِغًا﴾، أي: خاليًا من كل شيء إلا من هم موسى، وكيف يكون مصيره؟.

وقيل: خاليًا من العقل، أي: قد طار عقلها من شدة قلقها عليه.

﴿إِن كَادَتْ﴾، أي: قاربت وأوشكت من شدة وجدها وحزنها وقلقها، ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، أي: لتظهر ما في فؤادها، وتبوح بسرها، وتخبر أنه ذهب ولدها، وتخبر بحالها.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ «لولا»: حرف شرط غير جازم، أي: لولا أن ثبتناها، وقوينا قلبها، وألهمناها الصبر.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكون من المؤمنين الإيمان الكامل، بصبرها وثباتها، وتصديقها بوعد الله لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾؛ وقالت أم موسى لأخته: ﴿قُصِّيهِ﴾، أي: تتبعي

أثره، وابحثي عنه، وخذي خبره، وتطلبيه سرًّا.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾، أي: فخرجت تقص أثره، وتتبع خبره، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾، الفاء: للترتيب والتعقيب؛ أي: أنها ما ذهبت بعيدًا حتى رأته.

ومعنى ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: أبصرته عن بعد، ونظرت إليه خلسة ومسارقة وهي مارة، وكأنها لا تريده، مبالغة في التخفي، حتى لا يعرفوا علاقتها به، ومعرفتها بمن ألقاه بالنهر، فربما قتلوه عقوبة لهم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يدرون ولا يعلمون بأنها أخته، وأنها ترقبه عن بُعد؛ لأنه لم يظهر منها ما يشعر بصلتها به لذكائها.

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾، أي: وحرمنا عليه المراضع تحريمًا كونيًّا قدريًّا.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: في قدر الله السابق، أو من قبل رده إلى أمه، بأن منعناه قدَرًا من قبول ثُدِيِّ النساء كلهن فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة له؛ كرامة له، وليكون ذلك سببًا لرجوعه إلى أمه؛ لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة.

﴿فَقَالَتْ﴾، أي: فقالت أخته لما رأت حُنُوَّهم عليه، ورأتهم حائرين فيمن يرضعه:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾، أي: يتعهدون لكم بإرضاعه وحضانته، ويقومون بذلك أتم قيام، ولم تقل على أهله حتى لا يفتضح أمرها، ونكَّرت: ﴿بَيْتٍ﴾ حتى لا يعرفوها مع أنها أخت موسى، وصاحبة البيت هي أمه.

﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ في القيام عليه وحفظه ورعايته، والعناية به، فجاؤوا به إلى أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، فأكرموها وجعلوا لها أجرًا ونفقة، مقابل إرضاعها إياه، وتربيتها له، وقيامها عليه؛ ولهذا قال:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، أي: فأرجعناه إلى أمه؛ كما وعدناها بذلك؛ ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، أي: لكي تقر عينها به وتسعد، ولا تحزن عليه وعلى فقده.

قال ابن كثير[1]: «ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة، أو نحوه،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٣٤.

والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر! ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل همٍّ فرجًا، وبعد كل ضيق مخرجًا».

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، والمصدر المؤول: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ في محل نصب سد مسد مفعولي «تعلم».

أي: ولتعلم أن وعده الله برده إليها حق، أي: صدق، وأمر محقق واقع وثابت حق اليقين، بل عين اليقين، ويعقبه بعد كبره تحقق وعده بإرساله.

فجمع الله لها- بسبب قوة إيمانها وصبرها وتصديقها بوعد الله تعالى- بين رجوع ولدها إليها، وإرضاعها إياه، وحضانته في بيتها وهي آمنة مطمئنة، وبين الأجر والنفقة التي أَجْروها لها مقابل ذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير؛ كمثل أم موسى: ترضع ولدها، وتأخذ أجرها**»(١).

وهذا لعمر الله هو الموفق: صاد عصفورين بحجر واحد.

وفرق بين هذا وبين كثير من العاملين في أعمال الأمة من الموظفين كبيرهم وصغيرهم، ومن القضاة والمدرسين، وأئمة المساجد والمؤذنين، وغيرهم، ممن لا يخطر الاحتساب لهم على بال، نظرتهم مادية فقط، ونظرهم لا يتجاوز أقدامهم، حالهم كمن يسوق الإبل أو البقر أو غيرها من السواني بلا ماء، أو كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول(٢)

فهذا والله الغبن، والخسارة التي لا تشبهها خسارة؛ أن يظل الإنسان يكدح في العمل أكثر عمره دون أن يستحضر أن هذا العمل من دينه، فيحتسب في ذلك، ويحمد الله على ذلك، فيعطى أجره مرتين: أجر من الله تعالى على احتسابه وخدمته في مصالح الأمة، مع الأجر الذي يتقاضاه من بيت مال المسلمين، أو ممن استأجره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم حقًّا، وهو العلم بالله عز

---

(١) أخرجه أبو داود في «مراسيله»، والبيهقي في «سننه» عن جبير بن نفير مرسلًا. انظر: «الجامع الصغير» الحديث ٨١٤٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٤.

(٢) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» (ص١٢٦٨).

وجل، وما يجب له؛ كما أنهم لا يعلمون ما لله عز وجل من الحكم العظيمة في جعل كثير من النعم والمنن الجسيمة، والعواقب الحميدة في طي بعض المحن؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

الفوائد والأحكام:

١- عناية الله تعالى بموسى وأمه منذ كان وليدًا، وحفظه له، وإلهامها بإرضاعه، ووضعه في النهر إذا خافت عليه، وأنه عز وجل إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، وأتى بها شيئًا فشيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ الآية.

٢- لطف الله تعالى بأم موسى، وطمأنته لها بألا تخاف ولا تحزن على وليدها إذا ألقته في البحر، وبشارته لها برده إليها، وتشريفه بالرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٣- أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان؛ كما جرى لأم موسى، وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٤- قوة إيمان أم موسى وامتثالها لأمر الله، حيث أرضعت وليدها وألقته في البحر لما خافت عليه ثقة بوعد الله تعالى بحفظه.

٥- تقدير الله تعالى بحكمته لموسى أن يلتقطه آل فرعون ويأخذوه من النهر إلى دارهم؛ لأجل أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، بهلاكهم وزوال ملكهم على يديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾.

٦- عظم آيات الله ودلائل قدرته العجيبة أن تكون نجاة موسى عليه السلام بإلقائه في البحر مورد الهلاك، وأن تكون تربيته في حضن عدوه فرعون.

٧- أنه لا ينجي حذر من قدر، وأن الحذِرَ قد يؤتى من مأمنه؛ ففرعون يقتل أبناء بني إسرائيل حذرًا من مولود منهم يكون هلاكه وزوال ملكه على يديه، ويشاء الله

تعالى ويريد بحكمته البالغة أن يتربى هذا المولود على يديه.

٨- تعمد فرعون وهامان وجنودهما فعل الخطايا والآثام، والإفساد في الأرض بالمكر والإجرام، واستحقاقهم بذلك المكر بهم، وأخذهم بأنواع العقوبات والانتقام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

٩- تسخير الله تعالى لموسى امرأة فرعون؛ بإلقاء محبته في قلبها، وعطفها عليه، ورحمتها له، وتوسلها إلى فرعون بكون هذا الوليد قرة عين لهما، ونهيها لهم عن أن يقتلوه، رجاء أن ينفعهم أو يجعلوه لهم ولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

١٠- أن فرعون وأعوانه قد هموا بقتل موسى عليه السلام بدليل قول امرأته: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

١١- عدم إدراك فرعون وآله ما وراء التقاط هذا الوليد وتربيته على أيديهم؛ مما هو مخبوء لهم في طي القدر على يد هذا الوليد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١٢- فراغ قلب أم موسى لما ذهب النهر بولدها من كل شيء إلا من ذكره، وذهاب عقلها ولبها من شدة قلقها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ﴾.

١٣- تثبيت الله تعالى لأم موسى، وربطه على قلبها بعد أن كادت أن تفصح عن حالها، وتبوح بسرها، وتخبر بأن وليدها ذهب في النهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ وهذا من أعظم نعم الله على العبد؛ أن يثبته ويربط على قلبه في المواقف المذهلة.

١٤- إثبات القضاء والقدر؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

١٥- أن الصبر والثبات في الشدائد من أعظم دلائل الإيمان، والتصديق بوعد الله تعالى العاجل والآجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦- أن الإيمان يزيد وينقص، ومن أعظم ما يزيد الإيمان الصبر عند الشدائد، والتثبيت من الله على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليزداد

إيمانها ويطمئن قلبها.

١٧- إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٨- أمر أم موسى- شفقة منها عليه- لأخته بقص أثره وتتبعه؛ لعلها أن تجده، وتعرف خبره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾؛ وهذا من فعل الأسباب، ولا ينافي إيمانها بوعد الله لها برده إليها.

١٩- تتبع أخته لأثره، وسعيها في طلبه حتى بصرت به عن جنب، أي: وهي مارة حول بيت فرعون، من غير أن يعلموا بها، ولا بقصدها، ولا بكونها بصرت به، مبالغة منها في التخفي؛ حتى لا يعلموا بعلاقتها به فتكون تحت طائلة المساءلة عن خبره؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٠- جواز خروج المرأة في حوائجها بلا محذور.

٢١- حكمة الله تعالى في تقديره كونًا عدم قبول موسى ثُدِيَّ النساء؛ ليكون ذلك سببًا لرجوعه إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

٢٢- انتهاز أخته فرصة عدم قبوله ثُدِيِّ النساء؛ لتدلهم على أهل بيت يكفلونه، ويتعهدون لهم بإرضاعه وتربيته، وهم له ناصحون؛ لكي يرجع إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

٢٣- أنه لا أفضل ولا أنفع للمولود من رضاعة أمه، ولا أحسن رعاية له، وعناية به، ولا أنصح له من أمه؛ لقول أخت موسى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

٢٤- جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

٢٥- إرجاع موسى إلى أمه- كما وعدها الله عز وجل بذلك- لكي تقر عينها به وترضعه مطمئنة، وترعاه، ولا تحزن لفقده أو بعده عنها، ولتعلم أن وعد الله برده إليها حق، ويزداد إيمانها؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٦- أن الله عز وجل يبتلي العبد ببعض المشاق من الحزن الشديد، والهم البليغ،

وأسباب ذلك وغيره؛ ليوصله بالصبر على ذلك إلى ما هو خير له في دينه ودنياه وأخراه؛ كما حصل لأم موسى عليه السلام.

٢٧- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم حقًّا؛ وهو العلم بالله تعالى وما يجب له؛ كما لا يعلمون ما لله عز وجل من الحكم العظيمة في جعل كثير من النعم والمنن والمنح الجسيمة في طي بعض المحن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، أي: ولما كبر موسى وبلغ أشده، أي: اشتدت وتكاملت قواه البدنية والجسمية، وبلوغ الأشد، ببلوغ ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: قريبًا من الأربعين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ ١٥﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾، أي: تكاملت قواه العقلية والفكرية.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، أي: أعطيناه حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ الواو: اعتراضية، والكاف للتشبيه، أي: ومثل هذا الجزاء بإيتاء الحكم والعلم نجزي المحسنين، أمثال موسى عليه السلام، الذين يحسنون في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾، أي: ودخل موسى المدينة، أي: مدينة من مدن مصر يسكنها أقباط وإسرائيليون.

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، أي: في وقت غفلة من أهلها، إما وقت القيلولة، أو غير ذلك من الأوقات التي يغفل فيها الناس عن الانتشار.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا﴾، أي: في هذه المدينة، ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، أي: يتضاربان ويتصارعان ويتنازعان.

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، أي: أحدهما من شيعة موسى وقومه، أي: من بني إسرائيل، والآخر من عدوه، أي: من القبط قوم فرعون أعداء بني إسرائيل.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾، أي: طلب منه الغوث والعون، ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ الإسرائيلي.

﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، أي: على القبطي.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: فوكز موسى القبطي، أي: ضربه بجُمْع كفه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: فأماته بتلك الوكزة؛ لشدتها؛ لقوة موسى عليه السلام.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: ندم موسى على فعله، وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ الإشارة ترجع إلى ما حصل منه من وكز القبطي والقضاء عليه، وما لابس ذلك من الغضب، أي: هذا كله من تزيين الشيطان وتسويله ووسوسته.

وفي هذا دلالة على أنه إنما حمله الغضب على فعله، وأنه لم يقصد القتل.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لكون ما فعله من عمل الشيطان، أي: لأن الشيطان عدو لبني آدم ﴿مُّضِلٌّ﴾؛ ساع جهده في إضلالهم ما استطاع ذلك.

كما قال أعاذنا الله منه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧]، وقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: مبين عداوته لبني آدم ومظهرها، ومبين سعيه في إضلالهم وإهلاكهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى معترفًا بذنبه، مقرًّا بخطئه، نادمًا على فعله، تائبًا إلى ربه:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: يا رب، إني ظلمت نفسي بهذا الفعل، ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾، أي: فتجاوز عني واستر علي.

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾؛ الفاء: تفيد التعقيب. فاستجاب الله دعوته، فغفر له، وتجاوز عنه، وستر عليه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾، أي: لأنه عز وجل هو الغفور الرحيم، و«الغفور»: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، و«الرحيم»: ذو الرحمة الواسعة لكل شيء، العامة لكل حي، والرحمة الخاصة بأوليائه من رسله، وعباده المؤمنين.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾، أي: قال موسى عليه السلام اعترافًا بنعم الله تعالى عليه، وشكرًا لمننه وأفضاله إليه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: يا رب، بالذي أنعمت به عليّ، أو بإنعامك عليّ بالمغفرة وغير ذلك.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلن أكون نصيرًا ومعينًا للمجرمين المخالفين لأمرك.

وهذا وعد من موسى عليه السلام، وشكر منه لربه، بسبب منة الله تعالى وإنعامه عليه بالمغفرة وغير ذلك: ألا يعين مجرمًا؛ كما فعل في قتل القبطي.

ويحتمل كونه دعاء من موسى وسؤال منه لربه بعد أن غفر له ألا يكون بعد هذا ظهيرًا للمجرمين، أي: لا تجعلني بعد هذا ظهيرًا لهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾، أي: فصار في المدينة بعد قتله القبطي، أو دخل في صباح ليلته بعد أن قتل القبطي ﴿خَآئِفًا﴾؛ خبر أصبح، أي: خائفًا من مغبة ما فعل، وأن يقتاد بدم القبطي الذي قتله.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ خبر ثانٍ لـ«أصبح»، أي: ينتظر ما يناله بسبب القتيل، ويتوقع أن يؤخذ بذلك في أيِّ لحظة.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«إذا»: للمفاجأة، أي: فإذا الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس واستنصره على القبطي الذي قتله.

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾، أي: يستنصره اليوم، ويستغيثه مرة أخرى على قبطي آخر، والاستصراخ: المبالغة في الصراخ؛ لطلب الإنقاذ من الشدة.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾، أي: قال موسى للإسرائيلي المستغيث بالأمس، والمستصرخ اليوم، موبخًا له وزاجرًا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«غوي»، أي: شديد الغواية، ضال، بعيد عن الرشد، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بين الغواية؛ لما فعلته بالأمس واليوم، تورط نفسك بمشاكسة من لا تطيقه، ثم تروم الغوث مني يومًا بعد يوم.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، «أن» في قوله: ﴿أَنْ أَرَادَ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: فحين أراد موسى أن يبطش بالذي هو عدو لهما، أي: بالقبطي، عدوه وعدو الإسرائيلي.

و«أن» والفعل «يبطش» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أراد»، أي: فلما أراد البطش بالذي هو عدو لهما، أي: أراد ضربه بشدة وعنف، والبطش: الأخذ بقوة.

﴿قَالَ﴾ القبطي زاجرًا لموسى عن قتله، ومنكرًا عليه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَتُرِيدُ﴾ للإنكار، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«تريد»، أي: أتريد قتلي؟! والكاف: للتشبيه، و«ما»: مصدرية، أي: مثل قتلك نفسًا بالأمس. يريد: القبطي الأول.

وقد استنتج القبطي الثاني هذا من قول موسى للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فعرف أن موسى هو القاتل للقبطي بالأمس، ومن ثم سعى إلى فرعون وأخبره بذلك.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما تريد إلا أن تكون ﴿جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ بالقتل والبطش ونحو ذلك، والجبار: المتعالي المترفع على غيره.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ «أن» والفعل «تكون» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«تريد»، أي: وما تريد الإصلاح، أي: وإلا لو أردت أن تكون من المصلحين لأصلحت بيني وبين هذا الرجل من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره.

وذهب ابن كثير إلى أن الذي قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ هو الإسرائيلي، وذلك أنه لما عزم موسى على البطش بالقبطي اعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه أن موسى يريده؛ لقوله له قبل هذا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ فبادر بقوله دفاعًا عن نفسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى﴾ الآية.

قال ابن كثير[1]: «فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون، فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه وبعثوا وراءه؛ ليحضروه لذلك».

والراجح الذي يدل عليه سياق الآيات ومعناها هو القول الأول.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: من آخرها، وأبعد مكان فيها.

﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع ركضًا على قدميه من فرط عطفه على موسى، ونصحه له، وخوفه عليه.

وقدم هنا «رجل» فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾، بينما أخره في سورة يس فقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [الآية: ٢٠] والحكمة- الله أعلم- أنه في هذه السورة قدمه اهتمامًا بالخبر الذي جاء به فقدم ذكره على ذكر المكان.

وفي سورة يس قدم قوله: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ اهتمامًا بكون هذا الرجل بعيدًا عن الرسل، وما جاء إلا ليؤكد صحة ما جاؤوا به قبله.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾، أي: فرعون وملأه. وفي ندائه لموسى باسمه دلالة على أن له به معرفة.

﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، أي: يتشاورون فيك، ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾؛ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يقتلوك، أي: لأجل قتلك، ﴿فَٱخْرُجْ﴾؛ عن المدينة، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ تعليل لمجيئه إليه، وإخباره بائتمار الملأ لقتله، ولأمره له بالخروج، أي: إني لك من المخلصين بالنصح.

الفوائد والأحكام:

١- منة الله تعالى على موسى لما بلغ أشده واستوى بإيتائه الحكم والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٢- ثناء الله عز وجل على موسى بوصف الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٣- مجازاة الله تعالى المحسنين بالإحسان إليهم، والترغيب في الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

٤- ابتلاء موسى بوكز القبطي الذي من عدوه؛ انتصارًا للإسرائيلي الذي من شيعته، والقضاء عليه، بسبب تسويل الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وفي هذا دلالة على أنه عليه السلام إنما حمله على فعله الغضب، وأنه لم يقصد القتل، وهذا قبل بعثته.

٥- جواز الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، دون ما لا يقدر عليه، مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٦- إثبات الولاء والبراء في الدين، والولاية والعداوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

٧- قوة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

٨- حكمة الله تعالى في إجراء الأسباب من دخول موسى المدينة وقتله القبطي؛ ليكون ذلك سببًا لخروجه، ومن ثم وحي الله تعالى إليه وإرساله.

٩- إثبات الأسباب؛ لقول موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: بسببه.

١٠- عداوة الشيطان القديمة البينة الظاهرة لبني آدم، وحرصه على إضلالهم، وإيقاعهم في المعاصي؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

١١- اعتراف موسى عليه السلام بظلمه لنفسه بهذا الفعل، وسؤاله ربه أن يغفر له، ويتوب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.

١٢- سرعة استجابته عز وجل لموسى ومغفرته له؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ بفاء التعقيب.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

١٤- أن الاعتراف بالذنب توبة، وأن ارتكاب الذنب ظلم للنفس.

١٥- أن أفضل ما يكون الدعاء باسم الرب ووصف الربوبية؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾، وهكذا كان جل دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى «الرب»: الخالق المالك المدبر، الذي بيده العطاء والمنع، والضر والنفع.

١٦- إثبات اسمي الله عز وجل: «الغفور» و«الرحيم»، وصفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٧- اعتراف موسى عليه السلام بنعم الله تعالى عليه، وشكره لمن ربه وأفضاله عليه مذ كان وليدًا، ومغفرته له وتوبته عليه، وندمه عليه السلام على ما فرط منه من قتل القبطي، ووعده أو دعاؤه بسبب تلك النعم ألا يكون معينًا للمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

١٨- عدم جواز إعانة أهل الإجرام والشرور على إجرامهم وشرورهم؛ ولهذا قال ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا: يا رسول الله هذا الظالم فكيف ننصر المظلوم؟ قال: تمنعه من الظلم»(١).

١٩- أن المنعم بسائر النعم كلها، المستوجب للشكر؛ هو الله عز وجل وحده.

٢٠- أن شكر الله كما يكون بطاعته، يكون أيضًا باجتناب معصيته، وأن النعم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب، أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢٣١٢-٢٤٤٣، من حديث أنس رضي الله عنه.

تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

٢١- ملازمة الخوف لموسى بعد قتله القبطي، وتوقعه أن يؤخذ ويقتاد بدمه كل لحظة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

٢٢- مفاجأة موسى أن الرجل الذي استنصره بالأمس يستصرخه اليوم على قبطي آخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾، أي: يطلب منه النصرة.

٢٣- توبيخ موسى عليه السلام لهذا الرجل وزجره له؛ لما هو عليه من الغواية والضلال المبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

٢٤- إرادة موسى البطش بالقبطي نصرة للإسرائيلي؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾.

٢٥- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبور على أفعاله، مسلوب الإرادة.

٢٦- تأثر موسى عليه السلام بموعظة القبطي له، وامتناعه عن البطش به لما وعظه، واحترازه عما لاحظه عليه بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

٢٧- عدم جواز قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف؛ لندم موسى على قتله القبطي، وعده ذلك من عمل الشيطان، واعترافه بظلمه لنفسه بهذا الفعل، وقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وقوله للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، واتعاظه بقول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

٢٨- أن الذي يقتل النفوس بغير حق يكون من الجبارين المفسدين في الأرض.

٢٩- وصول خبر قتل موسى للقبطي إلى فرعون وملئه، وتشاورهم في قتله، ومنة الله تعالى عليه وحفظه منهم بتسخير ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، فأخبره بائتمارهم لقتله، ونصحه بالخروج من مصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠﴾.

٣٠- مشروعية النصيحة، والتحذير مما ينبغي التحذير منه، ولا يكون ذلك من الغيبة والنميمة.

٣١- صدق هذا الرجل الناصح، ومحبته لموسى، وحرصه على سلامته؛ لهذا جاء يسعى ركضًا على قدمه؛ خوفًا من أن يوقعوا بموسى قبل أن يحذره منهم، وهذا من تسخير الله تعالى لموسى، وحفظه له.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾، أي: فخرج من المدينة ومن مصر فرارًا من فرعون وقومه؛ امتثالًا لنصح ذلك الرجل الناصح له بالخروج.

﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ حالان، أي: حال كونه خائفًا من لحاق جنود فرعون به، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾، أي: يتلفت ويتوقع لحاقهم بهم ويترقب فرج الله له وغوثه.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: من فرعون وقومه الظالمين بتقتيلهم أبناء بني إسرائيل، واستحيائهم نساءهم، وبتآمرهم على قتله مع أنه قد تاب من ذنبه، ولم يقصد القتل.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾، أي: قصد بوجهه جهة «مدين» جنوب فلسطين، حيث لا سلطان لفرعون عليها.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: أن يدلني ويرشدني إلى قصد السبيل، أي: إلى وسط الطريق وأقومها وأخصرها إلى مدين، فهداه الله إليها، وإلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾، أي: ولما وصل إلى مدين، وورد ماءها، أي: بئرها الذي يرده الرعاة لسقي مواشيهم.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾، أي: وجد على مائها، ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، أي: جماعة من الناس يسقون مواشيهم.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾، أي: من دون تلك الجماعة؛ أي: سواهم من الناس الذين يسقون.

﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أي: تذودان أغنامهما عن الماء، أي: تحبسان أغنامهما وتمنعانهما أن ترد مع أغنام الرعاة؛ لعدم قدرتهما على مزاحمة الرجال الواردين، وخلو قلوبهم من المروءة والرقة والرحمة بهما، والسقي لهما، فهما ينتظران مهما طال الانتظار حتى يُصْدِروا.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾، أي: رق لهما موسى، وقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ولماذا لا تردان الماء مع الواردين؟

﴿قَالَتَا﴾؛ مبينتين لماذا لا يسقيان: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو عمرو بفتح الياء وضم الدال: «يَصْدُرَ»، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال: ﴿يُصْدِرَ﴾.

أي: جرت العادة بأنا لا نسقي أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، أي: إلى غاية أن يُصدر الرعاء، أي: ينتهوا من سقي مواشيهم، وينصرفوا بها عن الماء، فإذا خلا لنا الجو سقينا.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾؛ لا يستطيع بسبب الكبر والضعف أن يسقي ماشيته؛

لهذا وكَلَ ذلك إلينا.

فذكرتا لموسى أمرين:

الأول: أنهما لا يسقيان حتى يصدر الرعاة من سقي مواشيهم؛ لعدم استطاعتهما مزاحمتهم.

الثاني: أن أباهما شيخ كبير لا يستطيع سقي ماشيته؛ لكبره وضعفه، فوكَلَ ذلك لهما.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، أي: فرَقَّ لهما موسى عليه السلام، وسقى لهما غنمهما رحمة بهما من غير أجر.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذَنوبًا واحدًا، حتى رويت الغنم»(١).

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ ليستظل فيه من الشمس، ويستريح من التعب، وكان في وقت شدة الحر وسط النهار.

﴿فَقَالَ رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ اللام للتوكيد، و«ما» موصولة، أي: إني للذي ﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أي: محتاج، ومفتقر إلى الخير الذي تسوقه إلي، وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، وكما قيل:

حال المَقِلِّ ناطقٌ عما خفي من عيبه
فإن رأيت عاريًا فلا تسل عن ثوبه(٢)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا، فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه، وجلس في

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٧؛ من رواية أبي بكر بن أبي شيبة، وقال: «إسناد صحيح».

(٢) البيتان لبدر الدين الشافعي. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٨٧).

الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة»(١).

قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾:

قوله: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾، أي: إحدى البنتين اللتين سقى لهما.

﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾؛ الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونها تمشي على استحياء؛ لكرم عنصرها، وحسن خلقها، ولما رأته من حسن خلق موسى وكرمه.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: «جاءت مستترة بكم درعها، أو بكم قميصها»(٢).

﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ﴾؛ يظهر من هذا أنهما أخبرتا أباهما بأن موسى سقى لهما، واللام في قولها: ﴿لِيَجۡزِيَكَ﴾؛ للتعليل، أي: لأجل أن يجزيك، أي: يعطيك جزاء وأجر.

﴿مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾؛ «ما» مصدرية، أي: أجر سقيك لنا، أي: يكافئك على إحسانك إلينا بسقيك لنا.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾، أي: فاستجاب موسى لدعوة أبيهما، فلما

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٧، وأخرجه مختصرًا الطبري وابن أبي حاتم؛ انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢١٦، «تفسير ابن أبي حاتم» ٩/ ٢٩٦١، ٢٩٦٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢١٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٨- وقال: «هذا إسناد صحيح».

جاءه وقص عليه قصصه وخبره، وما جرى له في مصر، وسبب خروجه منها.

﴿قَالَ﴾؛ مطمئنًا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾، أي: كن آمنًا مطمئنًّا، وطب نفسًا، وقر عينًا.

﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، أي: لأنك نجوت من القوم الظالمين، أي: من فرعون وملئه، بوصولك إلى بلادنا «مدين»؛ لأنه لا سلطان لهم عليها.

ومن عجيب لطف الله ودقيق صنعه وتقديره أن يأت جواب صاحب مدين لقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موافقًا لسؤال موسى عليه السلام ودعائه لما خرج من المدينة خائفًا يترقب، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾، أي: إحدى ابنتيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء: «يَا أَبَتَ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

والمعنى: يا أبي، ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، أي: اجعله أجيرًا عندك يرعى الغنم ويسقيها.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾؛ تعليل لقولها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، أي: إن موسى خير من استأجرت ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، أي: الذي جمع بين القوة والأمانة.

وهذان الوصفان لا بد منهما لكل من يتولى عملًا من الأعمال؛ لأن الخلل إنما يكون بفقدهما أو فقد أحدهما، واجتماع هذين الوصفين ليس بالكثير.

ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال: «اللهم إليك أشكو جلَدَ الفاجر وعجز الثقة»(١).

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾؛ قال: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته وأمانته؟ قالت: أما قوته، فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانته، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إلي حتى بلغته رسالتك، ثم قال

---

(١) انظر «السياسة الشرعية» ص ١٥، «مجموع الفتاوى»» ٢٨/ ٦٨.

لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسرِّيَ عن أبيها، وصدقها، وظن به الذي قالت»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝٢٦﴾؛ قال: يا بنية، ما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته: فرفعه الحجر لا يرفعه إلا عشرة»(٢).

والأظهر: أنها أخذت وصفه بـ «القوي» من نشاطه في نزعه الدلو، وأخذت وصفه بـ «الأمين» من كونه سقى سقيًا كاملًا وأتى بذلك على وجهه وجعل الغنم ترتوي.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرّس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾»(٣).

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به للفعل «أريد»، أي: أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، وفي الإشارة بقوله: ﴿هَٰتَيْنِ﴾؛ دلالة على وجودهما معهما.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾، أي: على أن تكون أجيرًا عندي ثماني حجج، ترعى غنمي وتسقيها وتقوم عليها. و«على» من صيغ الشرط في العقود.

و«حجج»: جمع «حِجَّة» بكسر الحاء، وهي السَّنَة، أي: ثماني سنين، سميت السنة: حجة اشتقاقًا من الحج؛ لأن الحج يقع كل سنة، وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية.

والمعنى: إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن يكون صداقها ومهرها عملك أجيرًا عندي ثماني سنين.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٢٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٩٦٦، وانظر ٩/ ٢٩٦٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٦. وذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (ص٨٤)، ونسبه لابن سعد والحاكم.

وهذا التخيير قبل انعقاد النكاح، فليس فيه جهل المعقود عليها.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾، أي: فإن أتممت رعي عشر سنين فهو تبرع من عندك ليس بواجب عليك.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾، أي: وما أريد أن أشق عليك باشتراط العشر، وما أريد أن أكلفك مشقة في العمل، فهو سهل يسير.

وفي الحديث: «**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»(١).

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ السين: للاستقبال والتحقيق والتقريب، أي: ستجدني في معاملتي لك من الصالحين في حسن معاملتك، والرفق بك، والتيسير عليك، ونحو ذلك. وهذا ترغيب لموسى بقبول العمل عنده.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مخاطبًا لصهره: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، والإشارة تعود إلى قوله: ﴿أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ إلى آخر الآية، أي: قد تم الأمر بيني وبينك، وقبلته على ما شرطته علي وعليك، كل فيما هو من عمله، وبهذا تم العقد بينهما بحصول الإيجاب من صاحب مدين، والقبول من موسى عليه السلام.

﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾؛ «أي»: اسم شرط جازم، و«ما»: زائدة للتوكيد، أي: أيّ المدتين أتممت أجيرًا عندك، سواء قضيت ثماني سنين؛ كما هو الشرط الواجب بيني وبينك، أو تبرعت بسنتين فأتممتها من عندي عشر سنين.

﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾؛ بتجاوز الشرط، والمطالبة بزيادة على مدة العقد، وهي ثمان سنين. أو طلب أو فعل ما ينافي مطلق العقد، والعدوان: تجاوز الحد والحق.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾؛ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله على الذي نقوله أنا وأنت وسائر الخلق، أو على قولنا.

﴿وَكِيلٌ﴾، أي: شهيد مطلع حفيظ رقيب علينا في هذا العقد.

فاستشهد عليه السلام على نفسه وصهره بشهادة الله، ووعد بمراقبة الله تعالى في

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٦)، والترمذي في البيوع (١٣٢٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٣)؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

ذلك، وصدق عليه السلام، فقد وفّى وكفّى. وقد ذكر أنه أتم أطول الأجلين، تبرعًا منه وجودًا وكرمًا.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ متعلق بالخبر ﴿وَكِيلٌ﴾ وقدّم عليه؛ لتأكيد تمام وكالته عز وجل على كل قول، كما أنه عزوجل على كل شيء وكيل كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾[الزمر: ٦٢].

وإذا سبرت أحوال الناس وجدت كثيرًا منهم يتبجح بقوله بلسانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ ليخدع بذلك خصمه، وهو مضمر الخيانة، ولا شك أن الله وكيل على قوله، صدقًا كان أو كذبًا، لكن استشهاده بهذه الآية مع إضمار الخيانة استهزاءٌ بالله وآياته، يجب الحذر منه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾[البقرة: ٢٠٤].

الفوائد والأحكام:

١- خروج موسى عليه السلام من مصر خائفًا على نفسه، يترقب ويتلفت حذرًا من لحاق جند فرعون به، بعد إخبار الرجل الناصح له بتآمرهم لقتله، ونصحه له بالخروج، وفي هذا دلالة على مشروعية ترك الإنسان الإقامة والخروج؛ حفاظًا على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾.

٢- أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾.

٣- توجهه عليه السلام إلى ربه بالدعاء، وسؤاله أن ينجيه من فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

٥- دعاؤه عليه السلام وسؤاله الله بوصف الربوبية؛ كما هو أكثر دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى «الرب»: الخالق المالك المدبر؛ فكأن السائل بهذا الاسم يقول: يا من له الخلق والملك والتدبير، وبيده الأمر والنهي، والعطاء والمنع، استجب

دعائي، وأعطني سؤالي.

٦- أنه لا مُنْجي ولا منقذ من ظلم الظالمين، ومن الشدائد كلها، إلا الرب عز وجل، فيجب اللجوء إليه وحده، وسؤاله النجاة دون سواه.

٧- بلوغ فرعون وقومه الغاية في الظلم؛ لظلمهم بني إسرائيل والمستضعفين، وظلمهم لموسى عليه السلام، في تآمرهم لقتله، مع أن ما حصل منه من قتل القبطي وقع من غير قصد منه للقتل، وقد اعترف بظلمه، واستغفر ربه، فغفر له؛ ولهذا وصفهم بالظلم موسى في دعائه، كما وصفهم صاحب مدين بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٨- توجه موسى عليه السلام جهة مدين، وسؤاله ربه أن يهديه إلى وسط الطريق وأقومها وأخصرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

٩- أنه لا هادي إلى الطريق السوي المستقيم حسيًّا كان أو معنويًّا، ولا موفق للحق إلا الرب عز وجل، فيجب سؤاله الهداية وحده.

١٠- في خروج موسى عليه السلام وتوجهه إلى مدين- وهو لا يعرف الطريق- خوفًا من القتل، ارتكاب أخف الضررين؛ لأن خروجه أقرب لسلامته.

١١- وصول موسى عليه السلام إلى مدين، وورود ماءها، ووجوده عليها جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ومن دونهم امرأتين تذودان غنمهما، ومبادرته بسؤالهما عن شأنهما عطفًا عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.

١٢- إخبار المرأتين له عن حالهما، وأنهما ينتظران صدور الرعاء، ليسقيا غنمهما؛ لعدم استطاعتهما مزاحمة الرجال، ولأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع لضعفه وكبره سقي غنمه، فرَقَّ لهما موسى عليه السلام، ورحمهما وسقى لهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

١٣- بر هاتين المرأتين بوالدهما وخدمتهما له ورحمتهما به وعطفهما عليه وأدبهما

وتلطفهما معه؛ لقولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وقول إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾.

١٤- كرم خلق موسى عليه السلام، ونبل ما جبله الله عليه من جليل الصفات؛ من العطف على المساكين والمستضعفين، والرقة لهم، والرحمة بهم، وغير ذلك، وهذه أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

١٥- أن في الناس من ليس عنده أدنى مروءة، ولا في قلبه أي رحمة، أمثال هؤلاء الرعاة الجفاة الذين يسقون، ولا يلتفتون لهاتين المرأتين الضعيفتين، وقد قال ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(١)، وقال ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٢).

ولا عجب أن يحصل مثل هذا من غلاظ القلوب؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبِّلون أبناءكم؟ إن لي عشرة من الأبناء ما قبَّلت واحدًا منهم! قال النبي ﷺ أرحم الخلق بالخلق: «**أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!**»(٣).

١٦- تولي موسى عليه السلام بعد أن سقى لهما إلى الظل؛ ليستريح ويستظل من شدة حر الشمس، وتضرعه عليه السلام إلى ربه عز وجل، وتوسله إليه بحاله وفقره وحاجته إلى الخير من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

١٧- أن السؤال بالحال مع الرضا بما قسم الله تعالى، أبلغ من السؤال بلسان المقال.

١٨- فضيلة موسى عليه السلام، وقوة إيمانه ويقينه، وتعلقه بربه، وتضرعه إليه، وسؤاله إياه، ولجوؤه إليه في كل حال، فسأل ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، ثم سأله أن يهديه سواء السبيل، ثم سأله وتوسل إليه بفقره وحاجته إلى الخير من ربه؛ كما سأله

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨؛ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٤؛ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٨، ومسلم في الفضائل ٢٣١٧، وابن ماجه في الأدب ٣٦٦٥؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

قبل هذه الآيات أن يغفر له، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

١٩- شدة حاجة الإنسان إلى ربه، واستحباب دعائه وسؤاله بربوبيته، والتوسل إليه بإظهار المسكنة والافتقار إليه؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٢٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾.

٢١- كرم خلق هاتين المرأتين وأبيهما ووفاؤهم، وتقديرهم لجميل صنع موسى ومعروفه، حيث أخبرت البنتان أباهما بسقيه لهما، فأرسل إحداهما تدعوه؛ ليجزيه ويكافئه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

٢٢- تمام عفة هاتين البنتين، وشدة حيائهما؛ كما هو حال البيوت الصالحة الأصيلة العريقة، والحياء من الإيمان، ومن الأخلاق الممدوحة.

٢٣- ما كان عليه موسى عليه السلام من الوقار، حيث جاءت إليه إحداهما تمشي على استحياء توقيرًا واحتراماً له.

٢٤- أن الإنسان إذا عمل عملًا لأحد من الناس قاصدًا بذلك وجه الله تعالى، ثم حصل له مكافأة على ذلك من غير استشراف لها، فلا بأس بذلك.

٢٥- طمأنة أبيهما لموسى، وبشارته له بالنجاة لمَّا جاءه وقص عليه ما جرى له في مصر من قتل القبطي، وتآمر آل فرعون على قتله، وخروجه من مصر خائفًا يترقب بسبب ذلك؛ وذلك لأنه لا سلطان لفرعون وملئه على بلاد مدين.

وهذه أول بشائر الخير له عليه السلام، جزاء صبره، وصنيعه المعروف، وأول الغيث قطرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

٢٦- قوة موسى وأمانته؛ لهذا طلبت إحدى هاتين البنتين من أبيها استئجاره؛ لقوته وأمانته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ

ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٧- ينبغي لمن يتولى اختيار أرباب المسئوليات في الأمة أن يختار ممن تتوفر فيهم القوة والأمانة؛ لأنه لا بد لنجاح كل من يتولى عملًا من الأعمال أن يتوفر فيه هذان الوصفان: القوة، والأمانة؛ لأن الخلل إنما يكون بفقدهما، أو فقد أحدهما.

٢٨- جواز مشورة الصغير على الكبير والأدنى على الأعلى والولد على والديه.

٢٩- عرض أبيهما على موسى أن ينكحه إحدى ابنتيه مقابل أن يعمل أجيرًا عنده ثماني سنوات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾.

٣٠- جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة في صلاحه، ومراعاة لمصلحتها، وقد عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته حفصة رضي الله عنها لما تأيمت على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، ثم تزوجها النبي ﷺ(١).

٣١- جواز كون المهر منفعة أجرة أو غير ذلك، وقد قال ﷺ لرجل: «**زوجتكها بما معك من القرآن**»(٢).

٣٢- رغبة صهر موسى أن يزيد موسى في العمل أجيرًا عنده سنتين، فيتم عشر سنوات، دون إلزامه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾.

٣٣- حسن معاملة صاحب مدين، وترغيبه لموسى بالعمل أجيرًا عنده؛ لوعده له بعدم تكليفه ما يشق عليه، أو إلزامه بالزيادة على ما تم العقد عليه، وهو ثمان سنوات، وأن يكون من الصالحين في معاملته والتيسير عليه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ وهذا من مكارم الأخلاق؛ أن يحسن خلقه لخادمه وأجيره.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٠٥، والنسائي في النكاح ٣٢٤٨؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٢٩، ومسلم في النكاح، وأبو داود في النكاح ٢١١١، والنسائي في النكاح ٣٣٥٩، والترمذي في النكاح ١١١٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٨٩؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

٣٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن مشيئة الخلق كلهم تابعة لمشيئة الله تعالى؛ لقول موسى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٣٥- أن صاحب مدين مؤمن، وعلى ملة؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٣٦- أن الرجل الصالح يطلب منه ويؤمل فيه من حسن المعاملة أكثر من غيره.

٣٧- جواز مدح الإنسان لنفسه إذا كان لغرض في الدين أو المعاملة لداعٍ حسن؛ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: ٥٥].

٣٨- أن من الأدب أن يقرن ما وعد أن يفعله في المستقبل بالمشيئة؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل شيئًا إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٢٤﴾ [الكهف: ٢٣ – ٢٤].

ولهذا قال ﷺ في قصة سليمان عليه السلام: «**لو قال إن شاء الله لم يحنث، وكان دركًا لحاجته**»(١).

٣٩- قبول موسى لهذا العقد بينه وبين صهره بشروطه بينهما، على أن له أن يقضي أي الأجلين: ثماني سنين، أو عشر سنين، ولا يُعتدى عليه بإلزامه إتمام العشر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾.

٤٠- أن العقود عهود وأن المتشارطين على شروطهم إلا ما كان منها باطلًا، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا.

عن عوف المزني، قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون على شروطهم، إلا شرطًا حرم حلالًا، أو أحل حرامًا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان – الاستثناء في الإيمان ٣٦٤١، ومسلم في الإيمان- الاستثناء ١٦٥٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»(١).

٤١- جواز إشهاد الله على القول والعقد؛ لأن موسى عليه السلام أشهد الله على قوله هو وصهره، وما تم بينهما؛ لقول موسى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ وفي هذا وعد منه عليه السلام بالوفاء بهذا العقد، وهكذا فعل عليه السلام، بل الأظهر والأقرب أنه أتم أطول الأجلين، عشر سنين؛ كرمًا منه وتفضلًا.

٤٢- جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد، ما عدا عقد النكاح، فالإشهاد عليه شرط من شروط النكاح في شريعتنا.

٤٣- إحاطة علم الله تعالى واطلاعه وشهادته ووكالته على جميع الخلق وأقوالهم وأفعالهم.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٢١، ومسلم في النكاح ١٤١٨، وأبو داود في النكاح ٢٦٣٩، والنسائي في النكاح ٣٢٨١، والترمذي في النكاح ١١٢٧، وابن ماجه في النكاح ١٩٥٤.

قال الله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

قوله: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾، أي: فلما فرغ وأتم موسى الأجل الذي بينه وبين صهره في العمل عنده أجيرًا ثماني سنين، أو زاده سنتين فأتم عشرًا، وهو المتوقع من موسى؛ لكرمه وإحسانه ووفائه.

عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عباس: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال:

«خيرهما وأطيبهما»(١).

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، أي: وسار بزوجه إلى مصر، حيث اشتاق إلى أهله ووالدته وعشيرته، ووطنه، وعزم على زيارتهم على خفية من فرعون وملئه، ولعلهم من طول المدة قد نسوا ما صدر منه، وبينما هو في مسيره في ليلة مظلمة مطيرة باردة، وقد ضل الطريق، واحتاج إلى الدفء ومعرفة الطريق.

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، أي: أبصر ورأى من جانب جبل الطور، أي: من جهته نارًا تضيء من بُعْد، وهي ليست نارًا حقيقية، ولكنها نور.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾، أي: اجلسوا وأقيموا هنا، ﴿۞ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: أبصرت ورأيت نارًا، أي: حتى أذهب إليها، أو سأذهب إليها، أي: أرجو أن أجئكم من هذه النار، أي: من أهلها بخبر؛ أي: بخير.

﴿۞ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي: أرجو أن أجيئكم من هذه النار، أي: من أهلها بخبر نعرف به الطريق ونهتدي إليه، ونعرف ما تبقى منه، ونحو ذلك، ويظهر أن موسى قد ا شتبه عليه الطريق، واحتاج إلى دليل.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ قرأ عاصم بفتح الجيم: ﴿جَذْوَةٍ﴾، وقرأ حمزة وخلف بضمها: «جُذْوَةٍ»، وقرأ الباقون بكسرها: «جِذْوَةٍ».

و«أو» عاطفة، أي: أو آتيكم بجذوة، أي: بقطعة وشعلة من النار.

والجذوة: عود في طرفه نار مشتعلة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: لأجل أن تصطلوا، أي: تستدفئوا بها من البرد؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، وقال في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[النمل: ٧].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، أي: فلما أتى النار التي أبصرها من جانب الطور، أي: جاءها ووصل إليها.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨٤، والطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٢٣٥.

﴿نُودِيَ﴾، أي: ناداه الله، بدليل قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

﴿مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾، أي: من جانب الوادي الأيمن. وشاطئ الشيء: جانبه، يقال: شاطئ البحر، وشاطئ النهر، أي: جانبه.

والوادي: مجرى الماء، و«الأيمن»: صفة للوادي، أي: الأيمن بالنسبة لموسى، أي: شاطئ الوادي الأيمن أي: الذي على يمين موسى، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [الآية: ٥٢]، فناداه عز وجل من بُعد ثم قرّبه وناجاه.

﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾؛ البقعة: القطعة من الأرض، ﴿ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ ذات الخير الكثير، التي بارك الله فيها لموسى عليه السلام، واختارها لنزول الوحي عليه، وسماعه كلام الله تعالى فيها.

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ، فهو تخصيص بعد تخصيص، أي: من جانب الشاطئ الأيمن، ومن ناحية الشجرة وجهتها.

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾؛ «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير للنداء، أي: يا موسى إني أنا الله رب العالمين الذي أناديك وأكلمك وأخاطبك، لا رب لهم غيري، ولا معبود لهم سواي، فاعبدني، وادع إلى عبادتي؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾ [طه: ١١ – ١٤]، وقال تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: ٨ – ٩].

وبدأ بالألوهية؛ لأنها هي المقصود وثنى بالربوبية؛ لأنها وسيلة للألوهية، فمن أقر بالربوبية لزمه الإقرار بالألوهية.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾،معطوف على قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾، أي: وأن ألق عصاك من يدك، أي: ضعها على الأرض، فألقاها، كما قال في سورة طه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ

يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا﴾ [الآيات: ١٧ - ٢٠].

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: تتحرك وتضطرب وتسعى سعيًا شديدًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠].

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، أي: كأنها حية حقيقية في سرعة حركتها وصورتها المخيفة. والجان: ذكر الحيات، وهو الثعبان، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧].

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: ﴿مُدْبِرًا﴾: حال مؤكدة لعاملها، أي: ولاها دبره، أي: ظهره، هاربًا منها.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: ولم يلتفت، ولم يرجع، وهذا من مقتضى الطبيعة البشرية.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، أي: فقال الله له: يا موسى أقبل ولا تخف، أي: وكن آمنًا مطمئنًّا.

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، أي: لأنك من الآمنين وهم الرسل وأتباعهم؛ كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الآية: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فأقبل عليه السلام آمنًا مطمئنًّا غير خائف، واثقًا بوعد ربه، فقال الله له:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾، أي: أدخل يدك في جيب درعك، أي: في فتحة وطوق قميصك، أي: ثم أخرجها؛ ولهذا قال: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾؛ أي: شديدة البياض وكان موسى عليه السلام «آدَمَ» أي: بشرته بين البياض والسواد.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير برص، ولا عيب؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، أي: واضمم يدك إلى جنبك وصدرك.

﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن كثير بفتح الراء والهاء: «الرَّهَبِ»، وقرأ حفص بفتح الراء وإسكان الهاء: ﴿ٱلرَّهۡبِ﴾، وقرأ الباقون بضم الراء وإسكان الهاء: «الرُّهْبِ».

والرَّهْب: الخوف، والمعنى: لتأمن الرهب، أو ليزول عنك الرهب والخوف.

قال ابن كثير(١): «وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجد من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده يزول عنه ما يجد أو يخف إن شاء الله وبه الثقة».

﴿فَذَٰنِكَ﴾؛ قرأ أبو عمرو ورويس عن يعقوب بتشديد النون: «فَذَانِّكَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها على الأصل في التثنية: ﴿فَذَٰنِكَ﴾، أي: فهذان، أي: العصا، واليد، وكل منهما مؤنث، وإنما ذُكِّر المشار به إليهما «فذانك» مراعاة لخبره: «برهانان»، أي: انقلاب عصاك حية، وخروج يدك بيضاء من غير سوء.

﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: دليلان قاطعان، وحجتان ظاهرتان، وآيتان باهرتان من ربك على صدقك وصحة ما جئت به، وأنه حق وصدق.

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾، أي: أرسلك ربك بهما أو أرسلناك بهما إلى فرعون وملئه.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾، أي: لأنهم كانوا قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدين الله بالكفر والشرك والظلم والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾:

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾، أي: قال موسى: يا رب، ﴿إِنِّي قَتَلۡتُ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٤٥.

مِنْهُمْ﴾، أي: من آل فرعون ﴿نَفْسًا﴾؛ يعني: الرجل القبطي.

﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ إذا رأوني بدم ذلك القتيل؛ كما في سورة الشعراء: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ [الشعراء: ١٤].

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾أي: أبين مني منطقًا، وأوضح كلامًا؛ وذلك أن موسى كان في لسانه لثغة وثقل في التعبير؛ كما قال في سورة الشعراء: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾ [الشعراء: ١٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ۝٢٨﴾ [طه: ٢٧ – ٢٨].

﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر بالتخفيف: «رِدًا».

وقرأ الباقون بالهمز على الأصل: ﴿رِدْءًا﴾.

وقرأ عاصم وحمزة بضم القاف: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، وقرأ الباقون بجزمها: «يُصَدِّقْنِي».

أي: اجعله رسولًا معي، ﴿رِدْءًا﴾؛ حال، أي: مؤيدًا لي ومعينًا ومساعدًا ووزيرًا، ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، أي: يشهد بصدقي، ويفصح لهم من معنى الأدلة ما قصر عنه نطقي.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾؛ صريح في أن موسى لم يرد بكلامه السابق الاعتذار عن قبول الرسالة، ولكنه أراد أن يرسل الله معه أخاه هارون؛ ليكون مؤيدًا له ووزيرًا، ومعينًا له وظهيرًا؛ كما قال في سورة طه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه: ٢٩ – ٣٢].

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أي: يكون مصدقًا لي، يقوي كلامه كلامي ويصدقه.

وخص هارون وعينه؛ لعلمه بصدقه وأمانته وإخلاصه، وفصاحة لسانه، وغير ذلك، وفيه محض النصح لأخيه، حيث شفع فيه إلى ربه أن يجعله معه رسولًا.

ولهذا فإن أعظم منة منَّ بها أخ على أخيه هي منة موسى على أخيه هارون بوجاهته له عند الله أن يكون معه رسولًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ تعليل لسؤاله إرسال أخيه هارون معه، وتأكيد لقوله: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، أي: إني أخشى أن يكذبون.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله تعالى مجيبًا لسؤال موسى إرسال أخيه هارون معه.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، السين: للتوكيد والتقريب، أي: سنقويك ونعز جانبك بأخيك هارون، ونؤيدك به، ونرسله معك؛ كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣].

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، أي: ونجعل ونصيِّر لكما- شرعًا وكونًا- حجة ظاهرة، وتسلطًا وغلبةً وتمكنًا، وهذه بشرى ثانية لهما جميعًا.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾؛ بسوء، وهذا وعد من الله تعالى بحفظهما، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[طه: ٤٦].

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ الباء: سببية، أي: بسبب تأييدنا لكما بآياتنا، وتبليغكما إياها، وما دلت عليه من الحق المبين.

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ لكل من ناوأكم وخالفكم؛ كما قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

الفوائد والأحكام:

١- إكمال موسى الأجل الذي بينه وبين صهره، ومسيره بأهله قاصدًا مصر؛ حيث اشتاق إلى والدته وعشيرته ووطنه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾.

٢- في اشتغاله عليه السلام برعي الغنم طيلة هذه السنوات تهيئة من الله تعالى له للنبوة والرسالة ورعاية مصالح الخلق، وقد قال ﷺ: «**ما بعث الله نبيًا إلا راعي غنم**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ٢٢٦٢، وابن ماجه في التجارات ٢١٤٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- إبصاره وهو في مسيره وقد ضل الطريق في ليلة مظلمة باردة نارًا تضيء من بُعْد؛ لقوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾. وذلك من أسباب تهيئته للوصول إلى المكان الذي أراد الله أن يوحى إليه فيه.

٤- أمره أهله بالمكث، وذهابه صوب هذه النار؛ ليلتمس خبرًا عن الطريق، أو جذوة نار يستدفئون بها؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. وهذا يدل على أنه قد اشتبه عليه الطريق، وأنهم كانوا في الشتاء، وفي برد.

٥- حسن معاملته عليه السلام ومعاشرته لأهله، حيث أخبرهم سبب ذهابه ومقصده منه، وأنه لالتماس خبر، وجذوة من النار لتدفئتهم، وقد قال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١).

٦- نداء الله تعالى وتكليمه لموسى عليه السلام لما أتى النار من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وإعلامه بأن الذي يكلمه هو الله رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾.

٧- إثبات صفة النداء والتكليم لله عز وجل، وتكليمه عز وجل لموسى بحرف وصوت يسمعه كما يليق بجلال الله عز وجل وعظمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦].

وفي هذا رد على الجهمية والأشاعرة الذين ينفون أن يكون الله يتكلم بحرف وصوت مسموع، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

٨- فضيلة موسى عليه السلام وتشريفه وتكريمه من بين الرسل بتكليم الله تعالى له، وإثبات نبوته عليه السلام ورسالته.

---

(١) سبق تخريجه.

٩- مباركة الله تعالى في هذه البقعة التي نادى عز وجل فيها موسى وكلمه وأوحى إليه.

١٠- إثبات ألوهية الله عز وجل وربوبيته العامة للعالمين، والاستدلال بتفرده في الربوبية على تفرده بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

١١- أمره عز وجل لموسى بإلقاء عصاه؛ ليريه آية من آياته الكبرى التي سيؤيده بها، وامتثاله عليه السلام لذلك، وإلقاؤه إياها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾.

١٢- المعجزة الكبرى والآية العظمى في انقلاب عصاه بعد إلقائه إياها حية تهتز كأنها جان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾.

١٣- أن موسى عليه السلام، وكذا غيره من الرسل، يعتريهم الخوف الطبيعي كغيرهم من البشر، لكن الله يثبتهم ويطمئنهم ويسكن قلوبهم، ويؤمنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾.

١٤- طمأنة الله تعالى له، وأمره بالإقبال وعدم الخوف، وتأمينه وعنايته به؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

١٥- أمره عز وجل له بإدخال يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه: ٢٢].

١٦- أمره عز وجل له بأن يضمم يده إلى جنبه وصدره؛ ليزول عنه الرهب ويطمئن ويسكن قلبه؛ آية من آيات الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾.

١٧- أن هاتين المعجزتين الكبيرتين هما برهانان من الله عز وجل لموسى، للدلالة على صدقه، وصحة ما جاء به أرسله الله بهما إلى فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

١٩- عظم الآيات والمعجزات التي أيد الله تعالى بها موسى، الدالة على كمال قدرة الله عز وجل، وتمام حكمته في كونها مناسبة لحال المرسل إليهم.

٢٠- بلوغ فرعون وملئه الغاية بالفسق والكفر والخروج عن طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

٢١- إقامة الحجة على العباد بإرسال الرسل، وتأييدهم بالآيات والمعجزات، وتحذيرهم من الكفر والفسوق والخروج عن طاعة الله.

٢٢- إبداء موسى عليه السلام تخوفًا من أن يقتله فرعون وملؤه بدم القبطي الذي قتله منهم قبل خروجه من مصر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾، وهذا خوف طبيعي لا ينافي الإيمان.

٢٣- سؤاله عليه السلام ربه أن يرسل معه أخاه هارون؛ لأنه أفصح منه لسانًا؛ ليكون مؤيدًا له ومعينًا ومصدقًا له ووزيرًا؛ لقوله: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

٢٤- أن هارون أفصح من أخيه موسى، وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٣].

٢٥- إنصاف موسى عليه السلام وإقراره بالفصاحة لأخيه، فإن من الناس من يكون ناقصًا لكن لا يستطيع أن يقول الحق بكمال غيره ونقصه هو.

٢٦- أن فصاحة اللسان لها أثر قوي في الدعوة والتأثير على القلوب وفي الحديث: «**إن من البيان لسحرا**»(١).

٢٧- أن التعاون في الدعوة إلى الله من أعظم أسباب النجاح فيها.

٢٨- فضيلة موسى عليه السلام، وعظم منزلته، ووجاهته عند الله تعالى؛ حيث

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح - باب الخطبة ٤٨٥١، ومسلم في الجمعة - تخفيف الصلاة والخطبة ٨٦٩ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

أجاب عز وجل سؤاله، بل وأعطاه أكثر مما سأل وشد عضده بأخيه هارون رسولًا معه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ وهذا من توفيق الله وعونه لموسى؛ لأن ما خافه من فرعون وملئه من التكذيب وقع.

٢٩- أنه لا أحد أعظم منة على أخيه من موسى على أخيه هارون عليهما السلام؛ حيث شفع فيه فجعله الله نبيًّا رسولًا، وإنما اختار موسى أخاه هارون بعينه؛ لعلمه بصدقه وأمانته، وإخلاصه وفصاحته، ونحو ذلك.

٣٠- تكفله عز وجل لهما بجعل الحجة والسلطان لهما وحفظهما، فلا يصل فرعون وملؤه إليهما، بسبب ما يؤيدهما به عز وجل من الآيات والمعجزات، وأنهما ومن اتبعهما الغالبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

٣١- أن من أيده الله تعالى بالسلطان والحجة والآيات، واستقام على صراط الله المستقيم، ودعا إليه، فهو الغالب لا محالة، وهم الرسل عليهم السلام وأتباعهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، الباء للمصاحبة والملابسة أي: فلما جاء موسى إلى فرعون وملئه بآيات الله البينات، والحجج الواضحات والمعجزات الباهرات، والدلائل القاطعات، على صدقه وأخيه، وصحة ما جاءا به من إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

ولم يذكر «هارون»؛ لأن موسى هو الأصل في الرسالة.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال فرعون وملؤه عنادًا واستكبارًا، وظلمًا وطغيانًا: ﴿مَا هَٰذَآ﴾؛ الإشارة إلى ما جاءهم به موسى من الآيات البينات الحسية، كالعصا واليد، والآيات المعنوية.

﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا سحر مفتعل مختلق مكذوب بادعاء أنه من عند الله، وإخفاء كونه سحرًا؛ كما قالت قريش: ﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾؛ يعنون: ما جاءهم به موسى من الرسالة، وما دعاهم إليه من وجوب عبادة الله وحده.

﴿فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: في وقت أبائنا الأولين؛ أي: السابقين، وهذا كذب منهم فقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[غافر: ٣٤].

وأيضًا فإن الرسل من لدن نوح إلى موسى، بل وإلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلكم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وما هذا منهم إلا كإنكار ضوء الشمس في رابعة النهار، وقد قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(١)

وقال المتنبي(٢):

وهبني قلت: هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء؟!

وكون آبائهم كذبوا الرسل وعاشوا على الشرك والضلال ليس حجة لهم في رد ما جاءهم من الحق وإبطاله، وعلى فرض صحة أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين، فهذا لا يبرر رد ما جاءهم به موسى من الحق وإبطاله؛ لأن الحق إذا جاء وجب قبوله، وإن لم يكن موجودًا في الأولين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾؛ قرأ ابن كثير: «قَالَ» بغير واو، وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَقَالَ﴾.

﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ «من» موصولة، أي: ربي أعلم بالذي جاء بالهدى، أي: بالوحي.

﴿مِنْ عِندِهِۦ﴾، أي: من عند الله عز وجل، أهو أنا أو أنتم؟ وسيفصل بيني وبينكم؛ ولهذا قال:

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء: «يكون»،

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٧).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٢) بترقيم الشاملة.

وقرأ الباقون بالتاء: «تكون»، وهو معطوف على قوله: «من جاء بالهدى».

أي: وأعلم بمن تكون له عاقبة الدار، أي: وأعلم بالذي تكون له العاقبة المحمودة، من النصر والظفر والتأييد في الدنيا، والفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة، أي: أهو أنا أم أنتم. وهم في الحقيقة موسى وأتباعه، وجميع المؤمنين.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: من أيِّ الفريقين كانوا، أي: لا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب، فلا يسعدون في حياتهم، ولا ينجون من النار في آخرتهم، بل لهم سوء العاقبة، ولهم سوء الدار، وهم في الحقيقة فرعون وأتباعه، ومن سلك مسلكهم بالكفر والشرك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾؛ اجتراءً منه على الله، وطغيانًا وكفرًا، وعلوًّا واستكبارًا، وتمويهًا على ضعاف العقول والسفهاء من قومه:

﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، «من» لتأكيد عموم النفي، و«إله» نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ما علمت لكم أيّ إله غيري، أي: أنا إلهكم ومعبودكم، لا إله ولا معبود لكم سواي ولا رب لكم غيري، وليس ربكم«الله» كما يقول موسى ولا إلهكم.

ولهذا هدد موسى وتوعده بقوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]؛ كما قال لموسى منكرًا ربوبية الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: مخاطبًا قومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وبهذا استخف قومه فعبدوه وأطاعوه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ

فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؛ «هامان»: وزير فرعون، ومدبر رعيته، ومشير دولته، أي: فأشعل النار وأوقدها لي يا هامان على الطين، أي: اطبخه حتى يكون آجُرًّا وفخَّارًا.

﴿فَٱجۡعَل لِّي﴾، أي: فابن لي من هذا الطين بعد طبخه وصنع اللَّبِن منه ﴿صَرۡحٗا﴾، أي: قصرًا عاليًا منيفًا، وبناء شامخًا مرتفعًا.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، أي: لأجل أن أطلع إلى إله موسى الذي يدعيه، وانظر إليه وأقف عليه وهكذا قال المشركون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ الواو اعتراضية، أو عاطفة، واللام للتوكيد، أي: وإني لأظن موسى في زعمه أن له إلهًا غيري، أو أن للعالمين ربًّا ومعبودًا سواي، ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ الذين بلغوا الغاية في الكذب.

وهذا كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾﴾ [الآيتان: ٣٦، ٣٧].

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: استكبر هو وجنوده استكبارًا شديدًا، بلغ الغاية في الاستكبار والتعالي والتعاظم.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: في أرض مصر و«ال» للعهد الذهني.

ويجوز أن يراد بها: جنس الأرض؛ لأنهم كانوا يومئذٍ أعظم أمم الأرض، فادعى فرعون الربوبية والألوهية، واستكبر هو وجنوده عن قبول الحق، وعلى الخلق، وكذبوا موسى وطغوا وتجبروا، وساموا المستضعفين من العباد سوء العذاب، وأكثروا في الأرض الفساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾﴾

[الفجر: ١٠ - ١٤].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بالباطل وهذا بيان للواقع، ومبالغة في تقبيحه؛ لأن الاستكبار لا يكون بالحق.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، أي: اعتقدوا ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي بفتح ياء المضارع: «يَرْجِعُونَ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿يُرْجَعُونَ﴾.

أي: أنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وصرح بهذا؛ لإبطال هذا الاعتقاد، والتعريض بالمشركين الذين ينكرون البعث مثلهم.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾، الفاء: للسببية أي: فعاقبناه وجنوده، بسبب استكبارهم، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾، أي: فطرحناهم وألقيناهم في البحر وأغرقناهم على وجه الإذلال لهم والإهانة مقابل استكبارهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ الخطاب لكل من يصلح له.

أي: فانظر وتأمل بقلبك وفكرك كيف كانت عاقبة الظالمين بالكفر والاستكبار، ونهايتهم الأليمة، وعقوبتهم الوخيمة، فأجسادهم للغرَق، وأرواحهم للنار والحَرَق، متواصل عذابهم في الدنيا مع عذابهم في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ كونًا وقدرًا،أي: صيرناهم في الدنيا ﴿أَئِمَّةً﴾، أي: قادة يقتدى بهم في الكفر والشرك، ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: يدعون بأقوالهم وأفعالهم من اتبعهم إلى ما يوجب دخول النار من الكفر والاستكبار، ورد الحق، وتكذيب الرسل.

وإذا كانوا يدعون إلى النار فهم من أهلها ومرتكبون ما يوجب دخولها والخلود فيها.

وفي هذا تعريض بالمشركين، وما هم عليه من الكفر، والتكذيب للنبي ﷺ، وصد الناس عن دعوته.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصرهم فيدفع عنهم عذاب

الله، أو يرفعه، بل يتبرأ منهم القريب والبعيد؛ كما قال تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾، أي: وألحقناهم في هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾؛ من الله بطردهم وإبعادهم عن رحمته، ولعنة من خلق الله بالدعاء عليهم بطردهم عن رحمة الله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾، أي: من المذمومين، المستقذرة أفعالهم وصفاتهم، المطرودين المبعدين عن الجنة، المخلدين في النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٩].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب فرعون وملئه لِما جاءهم به موسى من الآيات البينات، وزعمهم أنها سحر مختلق؛ عنادًا منهم واستكبارًا، وطغيانًا وكفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

٢- مسارعة أهل الباطل عندما تدمغهم براهين الحق ودلائله وآياته ومعجزاته الواضحة البينة إلى المكابرة والعناد، ورمي الحق بأسوأ الأوصاف وأقبحها، كقولهم: سحر، ومفترى، ورمي ما جاء به بأنه ساحر، ونحو ذلك؛ كما قال فرعون للسحرة لما آمنوا وأسقط في يده: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩، طه: ٧١].

وصدق الله العظيم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

٣- نفي فرعون وملئه أن يكونوا سمعوا بما جاءهم به موسى من الدعوة إلى توحيد الله تعالى في آبائهم الأولين؛ لقولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

وهذا كذب؛ فإن الرسل منذ وقع الشرك في الأرض متتابعون في الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، من لدن نوح عليه السلام إلى أن ختموا بمحمد ﷺ.

وقد أرسل الله إليهم يوسف قبل موسى عليهما السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

وعلي تقدير صحة زعمهم أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين فليس ذلك بحجة لهم في رد ما جاءهم من الحق.

٤- جهلهم وسفههم؛ لاعتدادهم بما عليه آباؤهم ولو كان باطلًا، وتقليدهم لهم تقليدًا أعمى.

٥- صبرموسى عليه السلام ومضيه قُدمًا في دعوته لهم بعد تكذيبهم له، وتنزله معهم في الخطاب، وهو يعلم أنه هو الذي جاء بالحق من عند الله، ويعلم أن الله أعلم بذلك، وأن العاقبة له ولأتباعه، وهذا من باب إرخاء العنان للخصم؛ لعل ذلك ينجع فيه؛ لقوله عليه السلام: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ﴾.

٧- إثبات علم الله الواسع بالخلق وأحوالهم وأعمالهم ونياتهم، وأن ما جاء به موسى هو الهدى من عنده عز وجل، وأن عاقبة الدار الحسنى له ولأتباعه، وثقة موسى بوعد الله تعالى له بذلك.

٨- إثبات أن الهدى هدى الله، والتعريض بأن ما عليه فرعون وملؤه هو الضلال، وتهديدهم بأن العقبى السيئة لهم؛ لمفهوم قوله: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾.

٩- التعريض بما هم عليه من الظلم، والوعيد لهم ولغيرهم من الظالمين بالخيبة والخسران، وعدم الفلاح، والتحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٠- جراءة فرعون ومكابرته وزعمه الباطل أنه لا إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، وهذه أعظم كذبة كذبها الخلق كلهم.

١١- تمويهه على قومه وترويجه لزعمه الباطل بباطل آخر، وهو بناء صرح لكي

يطلع- بزعمه- إلى إله موسى، ليبين كذبه؛ لقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

١٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن قول فرعون هذا يدل على أن موسى قال له: إن الله في السماء.

١٣- أن هامان كان وزيرًا لفرعون، ومدبرًا لرعيته، ومشيرًا لدولته.

١٤- أن الطين إذا أوقد عليه في النار وطبخ قوي واشتد، وصار آجُرًّا وفخارًا يصنع منه اللَّبِن، ويتماسك به البناء الرفيع.

١٥- تنقُّص فرعون لله جل وعلا بقوله: ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بل وتكذيبه بوجود الرب الخالق الصانع المعبود وحده؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

١٦- تمادي فرعون وجنوده بالاستكبار والفساد في الأرض، بتكذيب موسى، ورد الحق، والتعالي على الخلق وأذيتهم، والطغيان والتجبر والتكبر بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

١٧- إنكارهم الرجوع إلى الله تعالى والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، ويفهم من هذا إثبات البعث والرجوع إلى الله.

١٨- عقوبة الله تعالى العاجلة لفرعون وجنوده؛ بإلقائهم في البحر وإغراقهم وإهلاكهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾.

١٩- حكمة الله تعالى التامة وقدرته في إهلاك فرعون وجنوده بالغرق في الماء الذي كان يفتخر به بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

٢٠- ينبغي النظر والتفكر في عقوبة الله تعالى لفرعون وجنوده، وإهلاكهم بالغرق؛ بسبب ظلمهم بتكذيب موسى، واستكبارهم عن قبول الحق وعلى الخلق، ففي ذلك عبرة وعظة لكل من ينظر ويتأمل، وتهديد والتحذير للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢١- بلوغ فرعون وجنوده الغاية في الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٢- قضاء الله عز وجل وتقديره الكوني عليهم؛ لكفرهم وعنادهم أن يكونوا في الدنيا أئمة وقادة يدعون إلى النار بأقوالهم وأفعالهم، ومصيرهم يوم القيامة إليها؛ حيث لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٢٣- إلحاقهم في هذه الدنيا لعنة من الله، وطردهم عن رحمته، وعن كل خير، ولعنة من الخلق بالدعاء عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

٢٤- تقبيحهم وذمهم في الآخرة بحرمانهم من الجنة وتخليدهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

٢٥- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطينا موسى الكتاب؛ يعني: التوراة.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: من بعد إهلاك القرون الأولى، أي: الأمم المكذبة؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وغيرهم من الأمم الماضية.

وفي هذا إشارة- كما قال المفسرون- إلى أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف، كما أن فيه إشارة إلي حاجة الناس إلى الرسالة بعد تطاول الزمن.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ «بصائر»: حال من الكتاب، أو مفعول لأجله، أي: ذا بصائر للناس، أو لأجل تبصرة الناس وهم قوم موسى خاصة، بنو إسرائيل.

و«بصائر»: جمع بصيرة وهي: نور القلب، كما أن البصر: نور العين، أي: دلائل وبينات يستبصرون بها من الضلال والغي؛ كما قال موسى مخاطبًا فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ معطوفان على «بصائر»، أي: ﴿وَهُدًى﴾؛ يهديهم ويدلهم ويرشدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

«لعل»: للتعليل أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون، ويعملون بما فيه من الأحكام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

لَمَّا ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ قصة موسى عليه السلام، وما اشتملت عليه من الأخبار الغيبية؛ أكد صحة هذه الأخبار، ودلالتها على صدق رسالته ﷺ؛ لأنها لا تعلم إلا من جهة الوحي.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، وقيل: الوادي الغربي، وقيل: المكان.

وموسى عليه السلام نودي من جانب جبل الطور، ونودي بالواد المقدس طوى.

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، أي: حين قضينا وأوحينا إلى موسى أمر الرسالة إلى فرعون؛ أي: فتسمع وحينا إليه.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي: وما كنت من الشاهدين الحاضرين لذلك، فترى خبر موسى عن معاينة، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق أو ذاك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾، أي: خلقنا وأوجدنا أممًا من بعد موسى.

﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، التاء والطاء في: ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ للمبالغة. والعمر:

الزمن. ومعنى «فتطاول»؛ أي: زاد في الطول، أي فطالت أعمارهم فنسوا العهود، واندرس العلم، وطمست آثاره، وانقطع الوحي، واحتاج الناس إلى الرسالة، فجئنا بك، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: وما كنت مقيمًا في أهل مدين، ونازلًا بينهم تقرأ وتقص عليهم آياتنا فتعرف قصتهم، فتخبر بها.

والمراد بأهل مدين القوم الذين أتى إليهم موسى واستأجره والد المرأتين وزوَّجه إحداهما؛ أي لم تكن يا محمد مقيمًا في أهل مدين حتى تخبر بذلك، وإنما جاءك ذلك عن طريق الوحي.

وقيل الضمير في «عليهم» يعود على المشركين، أي: وما كنت: تتلو على المشركين آياتنا.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾، أي: ولكنا أرسلناك وأوحينا إليك، وأخبرناك بذلك كله، بدءًا من أول إيحاء الله إلى موسى وتكليمه له إلى آخر قصته؛ كما أخبرناك بكثير من قصص الأنبياء السابقين وأممهم؛ كأنك شاهد وحاضر لها.

قال ابن القيم: «كأنه قال: وما كنت من الشاهدين لما جرى لموسى عليه السلام، ولكنا أوحينا إليك، وسبب هذا الوحي: أنا أنشأنا قرونًا إلى زمانك، فتطاول عليهم العمر، أي: مدة الفترة، فنُسي ما كان جرى، فأوحينا إليك، فيكون المحذوف هو السبب، والمذكور الدال عليه هو سببه»(١).

وهذا كما قال تعالى بعد ذكر قصة مريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال تعالى بعد أن أخبره بقصة نوح عليه السلام: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى بعد ذكر قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٠.

إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال تعالى في آخر سورة طه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩].

﴿وَمَا كُنتَ﴾، أي: وما كنت يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، أي: بجانب جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى،وهو الجبل المعروف في سيناء، وجانب الشيء جهته، ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾، أي: حين نادينا موسى وكلمناه، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: ١٦].

﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: وما كنت مشاهدًا لشيء من ذلك، ولكن ربك أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه عز وجل، و«رحمة»: مفعول لأجله، أي: ولكن أرسلناك رحمة من ربك بك، وبالعباد بإرسالك إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿لِتُنذِرَ﴾؛ اللام للتعليل، أي: أرسلناك لأجل أن تنذر.

﴿قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ وهم كفار قريش، الذين بلغوا حدًّا بعيدًا في الكفر، فهم أول من أنذرهم ﷺ، وإلا فقد بُعث لهم ولغيرهم، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

و«من» في قوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما أتاهم أيُّ نذير من قبلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون، فيمتثلون أمر الله، ويجتنبون نهيه، ويعبدون الله وحده، ويدعون ما هم عليه من الشرك.

وهو رسول عام لهم ولغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾؛ الواو عاطفة، و«لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: ولولا أن تنزل بهم عقوبة أو عذاب.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب الذي قدمته أيديهم، أي: بسبب الذي عملوه من الكفر والمعاصي.

﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾؛ الفاء عاطفة، و«لولا» حرف تحضيض، أي: فيقولوا: يا ربنا، هلا أرسلت إلينا رسولًا.

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ الفاء للسببية، أي: فنتبع آياتك التي أرسلت بها إلينا رسولك، ونعمل بها بجوارحنا.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ معطوف على جملة: «نتبع»، أي: ونكون من المؤمنين بك، المصدقين بما جاء به رسولك بقلوبنا، المنقادين له ظاهرًا وباطنًا.

وجوب الشرط محذوف؛ أي: لعاجلناهم بالعقوبة أو لما أرسلناك إليهم.

أي: فأرسلناك يا محمد إليهم؛ لنقيم الحجة عليهم، ولنقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب الله بسبب كفرهم وضلالهم، فلا يحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير.

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ﴾[الأنعام: ١٥٦ – ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فلما جاء المشركين القائلين: ﴿لَوْلَآ أُرْسِلَ إِلَيْنَا رَسُولٌ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾، أي: القرآن الكريم الذي أرسلنا به محمدًا ﷺ.

﴿قَالُوا۟﴾؛ على وجه التكذيب والتعنت والعناد، والكفر والجهل والإلحاد:

﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، «لولا»: تحريضية، أي: هلا أعطي محمد مثل الذي أعطي موسى من الآيات الظاهرة، مثل: العصا، واليد، والطوفان، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات الحسية الظاهرة.

وفي هذا تجاهل منهم عن كون القرآن أعظم الآيات، وأكبر المعجزات.

ويحتمل أيضًا: مثل ما أوتي موسى من كون التوراة أنزلت عليه جملة واحدة. فيرون لجهلهم المركب، وفهمهم الفاسد، ونظرهم القاصر؛ أن القرآن ما دام ينزل مفرقًا فليس من عند الله؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وما علموا أن من سر إعجاز القرآن، وكماله، وعناية الله تعالى به وبمن أنزله عليه؛ أن نزل مفرَّقًا؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ الاستفهام للإنكار، و«ما»

موصولة، أولم يكفروا بالكتاب الذي أوتي موسى من قبل؟!

والمراد: أولم يكفر فرعون وملؤه من المكذبين أمثالهم بالكتاب الذي أوتي موسى؟ أي: التوراة؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨﴾ [المؤمنون: ٤٨].

عن مجاهد: ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾؛ قال: يهود تأمر قريشًا أن تسأل محمدًا مثل ما أوتي موسى، يقول الله لمحمد ﷺ: قل لقريش يقولوا لهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾(١).

وقد قيل: إن الخطاب في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ﴾ لليهود، فقال الله لهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾، وهذا بعيد؛ لأن السورة مكية واليهود بالمدينة.

﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿سِحۡرَانِ﴾؛ بكسر السين وإسكان الحاء من غير ألف قبلها، وقرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء: «سَاحِرَانِ».

أي: قال المشركون- بعد الإنكار عليهم كيف يقولون: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾؛ وقد كفر المكذبون أمثالهم بما أوتي موسى من قبل:

﴿سِحۡرَانِ﴾؛ يعنون: التوراة والقرآن، ﴿تَظَٰهَرَا﴾، أي: تعاونا في سحرهما وإضلال الناس، وصدّق كل منهما الآخر في ذلك.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: قال المكذبون بكل من الكتابين؛ التوراة والقرآن: ﴿إِنَّا بِكُلّٖ﴾، «بكل» متعلق بالخبر «كافرون»، وقُدِّم لإفادة الحصر والتوكيد والإغاظة، ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون مكذبون.

وهذا على قراءة: ﴿سِحۡرَانِ﴾؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان»» ١٨/ ٢٦٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٨٤.

ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أما على قراءة: «ساحران» فقالوا: المراد محمد ﷺ وموسى عليه السلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو رزين وغيرهم: «ساحران تظاهرا» يعنون: موسى وهارون»(١).

قال ابن كثير(٢): «وهذا قول جيد».

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين وأمثالهم من المكذبين للتوراة والقرآن:

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: منزل من عند الله.

﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾، أي: هو أهدى من هذين الكتابين: التوراة والقرآن، أي: هو أعظم وأكمل هداية للخلق، وأشد تأثيرًا في قلوبهم منهما.

وهذا من باب التحدي والتعجيز لهم؛ إذ لا سبيل لهم إلى هذا.

ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين القرآن والتوراة؛ لأن القرآن الكريم أعظم وأشرف وأفضل كتب الله تعالى على الإطلاق، يليه في المرتبة الثانية التوراة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ إلى قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ في قولكم، هذا مبالغة في التعجيز لهم، وبيان أن تكذيبهم للتوراة والقرآن ليس طلبًا للحق والهدى، وإنما ذلك لمجرد اتباع الهوى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾، أي: فإن لم يجيبوك عما قلت لهم من الإتيان بكتاب هو أهدى منهما؛ لعدم استطاعتهم ذلك، ولم يجيبوك فيما دعوتهم إليه من اتباع الحق بعد قيام الحجة عليهم.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: فاعلم أنهم في عدم استجابتهم، وعدم اتباعهم لك، وفي كفرهم وردهم ما جئت به بلا حجة ولا دليل، ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

---

(١) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٢٦٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٨٥- ٢٩٨٦.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٥٢.

أَهْوَآءَهُمْۚ﴾ «أنما»: أداة حصر.

أي: ما يتبعون إلا ما تهواه نفوسهم، وليسوا يطلبون الحق والهدى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؛ الواو استئنافية، و«من» اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد ﴿أَضَلُّ﴾، أي: أشد ضلالًا.

﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي: من الذي اتبع ما تهواه نفسه الأمارة بالسوء.

﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بغير توفيق من الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يوفق القوم الظالمين بالكفر والمعاصي واتباع أهوائهم، وذلك لأن الهوى يعمي ويصم عن الحق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد أحسن القائل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾؛ الواو استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر؛ و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد وصلنا لهم القول، أي: بلغناهم القرآن، وفصلناه لهم وبيناه، وتابعناه شيئًا بعد شيء؛ رحمة بهم ولطفًا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون ويعملون به، أي: لأجل أن يتعظوا ويعتبروا ويعملوا به.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإيتائه التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا

مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- فضيلة التوراة وشرفها؛ لأنها أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالتنكير؛ تعظيمًا وتشريفًا لها.

٣- أن موسى إنما أوتي التوراة بعد إهلاك الأمم المكذبة؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ وفي هذا- والله أعلم كما قال المفسرون- : إشارة إلى أنه بعد نزول التوراة انقطع الإهلاك العام.

٤- أن في التوراة بصائر ودلالات يُستبصر بها من العمى، وهداية إلى طريق الحق، ورحمة للعباد؛ ليتذكروا ويتعظوا، ويعملوا بأحكامها؛ لقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٥- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى الكونية الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦- تقرير رسالة النبي ﷺ، وذلك بما أخبر به عن وقائع رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾. الآية.

٧- أن النبي ﷺ لم يكن بجانب الجبل الغربي حين أوحى الله إلى موسى وعهد إليه بالنبوة والرسالة، ولم يكن من الشاهدين لذلك، وإنما أخبره الله بوحيه إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾؛ الآية إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

٨- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن الشاهد لا تقبل شهادته إلا إذا كان حاضرًا يسمع، أو شاهدًا يرى.

١٠- أن الله عز وجل أرسل نبينا محمدًا ﷺ بعد فترة من الرسل، واندراس العلم، وانطماس السبل؛ لبيان الحق، وإقامة الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا

قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

١١- أنه ﷺ لم يكن مقيمًا في أهل مدين يتلو عليهم آيات الله تعالى، وإنما أخبر عنهم فيما أخبر؛ لوحي الله تعالى إليه بذلك بالرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

١٢- أنه ﷺ لم يكن حاضرًا بجانب جبل الطور حين نادى الله موسى وكلمه؛ فينقل لنا خبر ذلك عن معاينة، وإنما رحمة من الله تعالى به وبالعباد أوحى الله تعالى إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٣- الرد على المكذبين له ﷺ، المنكرين لرسالته، المدَّعين تقوله للقرآن من ذات نفسه؛ بما أخبر به ﷺ في القرآن مما لا يمكن معرفته إلا من طريق الوحي والرسالة؛ من أخبار بعثة موسى عليه السلام، ونداء الله تعالى له، وخبر أهل مدين، وغير ذلك.

١٤- الرد على الذين يزعمون أنه ﷺ يعلم الغيب؛ لأن ما أخبر به من الغيوب السابقة أو اللاحقة إنما أوحاه الله تعالى إليه.

١٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

١٧- أن الله تعالى أوحى إليه ﷺ وأرسله رحمة؛ لإنذار مشركي مكة الذين ما أتاهم من نذير من قبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وهو نذير لهم ولغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا ينافي أن إسماعيل عليه السلام قد أتاهم قبل النبي ﷺ، ولكن لما طال العهد، واندرست معالم رسالة إسماعيل وفشا الشرك فيهم، وصاروا محتاجين إلى النذر ما جاءهم طوال هذه الفترة نذير قبله ﷺ؛ فأرسله عز

وجل إليهم، وبه ختمت الرسالات، وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

١٨- أن الحكمة من إرساله ﷺ؛ ليتذكر الناس ويتعظوا بامتثال أمر الله، واجتناب نهيه، وطلب مرضاته، والحذر من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٩- أن هؤلاء المكذبين لو تصيبهم عقوبة بسبب ما هم عليه من الكفر والمعاصي قبل إنذارهم لقالوا: ربنا، هلا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع آياتك قبل أن تعذبنا ونكون من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٢٠- أن ما يقع من المصائب والعقوبات؛ إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا﴾.

٢٢- أنه بعد حلول العذاب لا مجال لاتباع الآيات والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

٢٣- كذبهم في دعواهم أنه لو أرسل الله إليهم رسولًا اتبعوا الآيات وآمنوا، وكفرهم بالقرآن لما جاءهم من عند الله، وعنادهم وتعنتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، أي: مثل ما أوتي موسى من الآيات والمعجزات الحسية الظاهرة، كالعصا واليد، ونحو ذلك، أو مثل ما أوتي موسى من كون التوراة أنزلت عليه جملة واحدة.

٢٤- تجاهل المشركين المكذبين أن القرآن الكريم أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، وفهمهم الفاسد، ونظرهم القاصر، وجهلهم، بطعنهم في كون القرآن منزلًا من عند الله، بسبب كونه ينزل مفرقًا، ولم ينزل جملة واحدة، وما علموا أن ذلك من أسرار

إعجازه.

٢٥- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق من عند الله.

٢٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وتأييد الله له بالآيات.

٢٧- أنه لا حجة للمشركين في تكذيبهم النبي ﷺ بدعوى أنه لم يؤت مثل ما أوتي موسى من الآيات الظاهرة؛ لأنه ﷺ أوتي القرآن الكريم، وهو الآية الكبرى، والمعجزة العظمى، ولأن موسى عليه السلام كُذِّب مع ما جاء به من الآيات الظاهرة؛ كما أنه لا حجة لهم في تكذيبهم بالقرآن؛ لكونه لم ينزل جملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، وفي هذا إفحام لهم بإبطال قولهم بفعلهم.

٢٨- جرأة المشركين والمكذبين على وصف القرآن والتوراة بأنهما سحران تعاونا، وإظهارهم كفرهم بكل منهما، وعلى وصف النبي ﷺ وموسى عليه السلام بأنهما ساحران تعاونا، وكفرهم بهما وهذا ديدن المكذبين للرسل وأتباعهم من الدعاة إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

٢٩- التنزل معهم، وتحديهم أن يأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن، ويتبعه ﷺ إن كانوا صادقين أن هناك ما هو أهدى منهما؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

٣٠- إثبات أن التوراة والقرآن كل منهما من عند الله.

٣١- إعلامه عز وجل له ﷺ بأنهم إن لم يستجيبوا له بالإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن؛ لعدم استطاعتهم ذلك، ولم يستجيبوا له باتباعه والإيمان بما جاء به بعد قيام الحجة عليهم؛ فإنهم إنما يتبعون أهواءهم، وليسوا يطلبون الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

وفي هذا دلالة على جواز التعليق بالشرط فيما هو محقق الوقوع، كما في الحديث: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز - ما يقال عن دخول القبور والدعاء لأهلها ٩٧٤- من حديث عائشة رضي الله عنها، ٩٧٥- من حديث بريدة رضي الله عنه.

٣٢- أن من لم يستجب للرسول ﷺ، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول ﷺ؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، بل ذهب إلى هوى.

٣٣- أنه لا أحد أضل طريقًا ممن اتبع هواه، وتنكب هدى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا دلالة على اختلاف مراتب الناس في الضلال.

٣٤- أنه لا هادي ولا موفق للحق وإلى الطريق المستقيم إلا الله عز وجل.

٣٥- أن الهوى قد يكون موافقًا للهدى، وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(١).

٣٦- حرمان الظالمين من هداية الله تعالى وتوفيقه؛ بسبب ظلمهم بالكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣٧- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لم يقدر أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفيها أيضًا: رد على الجبرية الذين يقولون بأن الإنسان مجبور على أفعاله وأقواله لا اختيار له؛ لأنه لو كان هذا صحيحًا لكانت نسبة الظلم إليهم ووصفهم به ظلمًا، والله تعالى لا يظلم أحدًا.

٣٨- إقامة الحجة على الخلق بتبليغهم القرآن وتفصيله وبيانه لهم؛ لعلهم يتذكرون ويتعظون، ويعملون بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٢ رقم (١٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾، أي: الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: هم بالقرآن يصدقون ويعملون به.

والمراد بهذا: العلماء الأولياء منهم، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، أمثال ورقة بن نوفل، وصهيب، وعبدالله بن سلام، ورفاعة القرظي وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: وإذا يقرأ عليهم القرآن، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾،قالوا ذلك مباشرة؛ أي: صدقنا به قولًا وعملًا واعتقادًا.

﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ تعليل لقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، أي: لأنه الحق الثابت المنزل من ربنا، أخباره صدق، وأحكامه عدل.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾، أي: إنا كنا من قبل القرآن ونزوله على محمد ﷺ.

﴿مُسْلِمِينَ﴾، أي: موحدين مستسلمين لله تعالى ظاهرًا وباطنًا، آمنا بالكتاب الأول، وآمنا بالقرآن؛ لأن كلًّا منهم مصدق للآخر، فالتوراة والإنجيل أخبرتا عن بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه، وهو مصدق لهما، ومصداق ما أخبرتا به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: الذين آمنوا من أهل الكتاب بكتابهم، وآمنوا بالقرآن.

﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، أي: يعطون أجرهم مرتين: أجر إيمانهم بكتابهم، وأجر إيمانهم بالقرآن الكريم.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب صبرهم على اتباع الحق، والانقياد له في كتابهم وفي القرآن، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على الطاعة، وعن معصية الله، وعلى أقداره المؤلمة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها وأحسن تأديبها، ثم أعتقها فتزوجها**»(١).

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أي: ويدفعون السيئة بالحسنة، فلا يقابلون السيئة

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، تعليم الرجل أمته وأهله ٩٧، ومسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته ١٥٤، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ١٩٥٦.

بالسيئة، بل إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالإحسان بالعفو والصفح عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

وأيضًا: يدرؤون بالحسنة السيئة من فعلهم بأنفسهم، فإذا فعلوا سيئة أتبعوها بفعل الحسنة، فتمحوها وتدفعها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ومن الذي رزقناهم وأعطيناهم ينفقون من النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغيرهم ممن تجب نفقتهم، ومن النفقات المستحبة كالصدقة والهدية.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ اللغو: الباطل، وما لا نفع فيه، ولا فائدة منه.

﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، بقلوبهم وأبدانهم، ولم يصغوا إليه، ولم يخالطوا أهله ولم يعاشروهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]

﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، أي: كل منا سيجازى بعمله الذي عمله وحده، فلا تُسئلون عن أعمالنا، ولا نُسئل عن أعمالكم، ونحن نتبرأ مما أنتم عليه من اللغو والباطل.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: سلام عليكم منا، ومفارقة لكم، فلا نستمع للغوكم.

﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: لا نريدهم ولا نسلك طريقهم، ولا نصحبهم، ولا نقابل جهلهم بمثله. والمراد بالجاهلين: السفهاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهذا يوحي بأن أهل اللغو يريدون منهم أن يصانعوهم ويوافقوهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾:

سبب النـزول:

عن المسيب رضي الله عنه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية، فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال آخر ما كلمهم: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «**والله، لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «**قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**». قال: لولا أن تعيرني قريش؛ يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك. فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾»(٢).

وعلى هذا جمهور الصحابة رضي الله عنهم: أنها نزلت في أبي طالب.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي: إنك يا محمد لا تستطيع هداية من أحببت هداية توفيق بجعل الإيمان في قلبه، لا أنت ولا غيرك من الخلق.

لأنه إذا كان ﷺ لا يستطيع هداية من أحب فغيره من الخلق لا يستطيع ذلك من باب أولى؛ لأن ذلك مما اختص الله تعالى به؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾، أي: يهدي هداية توفيق ﴿مَن يَشَآءُ ۚ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ ٤٧٧٢، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز، النهي عن الاستغفار للمشركين ٢٠٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥، والترمذي في تفسير سورة القصص ٣١٨٨، وأحمد ٢/ ٤٣٤.

هدايته وتوفيقه للإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فالمراد بالهداية في الآية: هداية التوفيق والقبول؛ كما أن المراد بالمحبة في قوله ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: المحبة الطبيعية، لا المحبة الشرعية.

قال ابن القيم: «وقد ثبت في «الصحيحين» أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه، ويحبه حبًّا طبيعيًّا لا شرعيًّا، فلما حضرته الوفاة، وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطفه من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة»(١).

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو عز وجل أعلم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الغواية، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾، أي: وقال كفار قريش: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من العرب المشركين الذين عادوك وخالفوك.

﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾، أي: أن نقصد بالقتل والأسر والأذى في أرضنا أينما كنا. والتخطف: سرعة أخذ الشيء وانتزاعه؛ والتاء فيه للمبالغة.

أي: فلا نأمن على أنفسنا ولا على أهلينا وأولادنا وأموالنا؛ لمعاداة الناس لنا، وهذا كذب واعتذار باطل؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ الاستفهام للإنكار، والتوبيخ والتقرير، أي: أولم نجعل لهم حرمًا آمنًا معظمًا منذ وضع، يأمنون فيه من الإغارة والقتل، مما يقع على غيرهم.

أي: أما قد مكنا لهم حرمًا آمنًا. فكيف يكون هذا الحرم آمنًا في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنًا وقد أسلموا واتبعوا الحق؟! وقد قال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بالتاء على التأنيث: «تُجْبَى»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، أي: يجلب إليه ويجمع

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٢.

ثمرات كل شيء، أي: من سائر الثمار من قريب ومن بعيد.

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: عطاءً لهم من عندنا؛ بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون؛ ولهذا قالوا ما قالوا؛ كما أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويرفعهم عند الله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- إيمان علماء أهل الكتاب المنصفين بالقرآن، وتصديقهم به؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾..

٢- إصغاؤهم واستماعهم لتلاوته، وإيمانهم به، عن اقتناع، وشهادتهم أنه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

وفي هذا كله شهادة ودلالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به، وتأنيب للجاهلين المكذبين على الكفر به، وثناء على الذين آمنوا به من أهل الكتاب ولم يستكبروا، وشهدوا بالحق ولم ينكروا.

٣- أن القرآن من عند الله تعالى، وهو الحق.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾.

٥- جمع أهل الكتاب بين الاستسلام والانقياد للكتاب الأول وللقرآن؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣﴾.

وفي هذا جواز الثناءعلى النفس إذا كان ذلك لمصلحة وعلى سبيل الإخبار، لا الافتخار.

٦- إعطاؤهم أجرهم مرتين بسبب صبرهم وانقيادهم لكتابهم وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

٧- أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما انقادوا للكتاب الأول والكتاب الثاني أوتوا أجرهم مرتين، وهذا من تمام عدل الله عز وجل.

٨- فضيلة الصبر والترغيب فيه؛ لأن عاقبته حميدة.

٩- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.

١٠- أن من صفاتهم الحميدة دفع السيئة بالحسنة، وعدم مقابلة المسيء بالإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

١١- الترغيب في درء السيئة بالحسنة، بمقابلة الإساءة بالإحسان، وإتباع السيئة الحسنة تمحها؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

١٢- امتداحهم بالانفاق مما رزقهم الله وأعطاهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١٣- أن الرزق كله من الله تعالى، لا رازق للخلق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾.

١٤- الترغيب في الانفاق من رزق الله وفضله.

١٥- إعراضهم عن اللغو إذا سمعوه، وتميزهم بأعمالهم عن أعمال أهل اللغو، ومسالمتهم لهم، وبعدهم عن الجاهلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

١٦- الترغيب في الإعراض عن اللغو وأهله، والبعد عن الجاهلين. قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(١).

١٧- أن النبي ﷺ لا يستطيع هداية من أحبه هداية توفيق، وغيره من الخلق من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإنما عليه ﷺ هداية البلاغ والإرشاد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

١٨- محبة النبي ﷺ لعمه أبي طالب محبة طبيعية لا شرعية؛ لما له عليه من الأيادي البيضاء في الدفاع عنه، وعن دعوته.

١٩- جواز محبة الكافر غير المحارب محبة طبيعية لا شرعية.

٢٠- أن الله عز وجل يهدي ويوفق من شاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق – حفظ اللسان ٦٤٧٥، ومسلم في الإيمان – الحث على اكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، وكون ذلك كله من الإيمان ٤٧ –من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، وله الحكمة التامة في ذلك كله.

ولعل من حكمة الله تعالى في عدم إيمان أبي طالب أنه لو آمن ما تمكن من الدفاع الذي حصل منه للرسول ﷺ، إذ لو آمن لكان محل إيذاء للمشركين، لكن لما بقي على ملتهم كانوا يحترمونه، فكان من حكمة الله في بقائه على الكفر ما هو ظاهر، وإلا لما استطاع أن يحمي الرسول ﷺ تلك الحماية.

٢١- أن الله تعالى أعلم بمن هو أهل للهداية فيهديه بفضله، ومن هو أهل للغواية فيغويه بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

٢٢- أن على المؤمن الدعوة إلى الله ما استطاع، وهداية القلوب بيد علام الغيوب، فلا تذهب نفسه حسرات على من لم يهتد.

٢٣- اعتذار المشركين المكذبين للنبي ﷺ عن اتباع ما جاء به من الهدى بعذر كاذب؛ وهو خشية تخطف الناس لهم من أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾؛ وفي هذا سوء ظن بالله أنه لا ينصر دينه وأولياءه، وأن الباطل سيعلو على الحق.

٢٤- إقرارهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ الهدى.

٢٥- إبطال عذرهم الكاذب؛ لأن الله قد مكن لهم حرمًا آمنًا منذ وضع، فكيف يكون آمنًا في حال كفرهم ولا يكون آمنًا لهم بعد أن أسلموا واتبعوا الحق؟! لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾.

٢٦- الامتنان على أهل الحرم بكونه آمنًا تُجلَب إليه ثمرات كل شيء رزقًا من الله عز وجل؛ لقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥].

٢٧- أن أكثر هؤلاء المشركين القائلين: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ لا يعلمون؛ ولهذا قالوا هذه المقالة؛ كما أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويرفعهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

لما ذكر زعم كفار قريش أن اتباعهم له ﷺ سبب لتخطفهم، وزوال أمنهم، أتبع ذلك ببيان أن الكفر والظلم ومخالفة الرسل هو سبب هلاك كثير من أهل القرى وزوال أمنهم؛ تحذيرًا لهم. وهكذا وقع فكان هلاك كفار مكة بسبب كفرهم.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ﴾؛ الواو: استئنافية، و«كم»: هي الخبرية، تفيد التكثير، أي: وكثيرًا من القرى أهلكنا، والمراد: أهلها.

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، أي: طغت وأشِرت وكفرت نعمة الله تعالى عليها.

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وفي الآيتين تعريض بأهل مكة، وتحذير لهم؛ ولهذا قال بعد آية النحل: ﴿وَلَقَدْ

جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٣].

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا زمنًا قليلًا، أو إلا ساكنًا قليلًا، أي: فتلك مساكنهم باقية، خاوية خالية؛ لهلاكهم عن بكرة أبيهم، موحشة لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا، فيها أكبر العظة والعبرة للمعتبرين.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ للأرض ومن عليها؛ كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ بسبب ظلمهم وكفرهم.

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ﴾، أي: حتى يقيم الحجة عليها بأن يبعث، أي: يرسل.

﴿فِىٓ أُمِّهَا﴾؛ وهي مكة أم القرى وأشرفها وأعظمها؛ كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وسميت مكة: أم القرى؛ لأنها هي القرية والمدينة التي يرجع إليها وينتجعها كل ما حولها من القرى للميرة وغير ذلك.

﴿رَسُولًا﴾ وهو النبي الهاشمي الخاتم، أفضل الرسل، وسيد الخلق، نبينا محمد ﷺ.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾، أي: يقرأ عليهم آياتنا القرآن الكريم.

وفي هذا دلالة على عموم رسالته ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: ١٧].

ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ٥٨].

أي: بعد قيام الحجة عليها ببعثة محمد ﷺ برسالته العامة لجميع القرى وعامة الخلق.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، والواو: حالية، أي: إلا والحال أن أهلها ظالمون، أي: بالكفر والمعاصي، وتكذيب الرسل، مستحقون للعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾، أي: وما أعطيتم أيها الناس ﴿مِّن شَيْءٍ﴾؛ تمييز «ما»، أي: من شيء من الأشياء أيًّا كان في هذه الحياة من المآكل والمشارب والملابس والأثاث والمراكب، وغير ذلك من الملذات.

﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾، أي: فهو كله متاع الحياة الدنيا وزينتها، يتمتع به ويتزين به في هذه الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة الفانية متاعًا قليلًا مَشُوبًا بالأكدار والمنغصات، ثم يزول سريعًا، وينقضي جميعًا، ولا يبقى إلا ما أريد به وجه الله؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والنعيم المقيم لعباده الصالحين.

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مطلقًا، أي: أفضل وأعظم وأدوم من الدنيا كلها ومتاعها وزينتها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه- يعني السبابة- في اليم، فلينظر بم ترجع؟**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٥٨، والترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ روى الدوري عن أبي عمرو: «يَعْقِلُونَ»؛ بياء الغيبة، وقرأ الباقون: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب.

والاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: أفلا تكون لكم عقول تدركون بها فرق ما بين الحياة الدنيا، والدار الآخرة، وتعرفون حقارة الدنيا وفناءها، فلا تغترون بها، وعظم منزلة الآخرة وبقاءها، فتعملون لها؟ وكيف تؤثرون الدنيا الحقيرة الفانية على الآخرة العظيمة الباقية؟! قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٧].

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، أفيستوي المؤمن الذي عمل صالحًا ووعدناه وعدًا حسنًا بالجنة وما فيها من النعيم المقيم.

﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ لا محالة؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: كالكافر المكذب بلقاء الله ووعده ووعيده، الذي متعناه المتاع الزائل في الحياة الدنيا، يأكل ويشرب كالبهيمة.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ للجزاء ومناقشة الحساب، وللخلود في النار والعذاب؟! كما قال تعالى إخبارًا عن ذلك المؤمن لما أشرف على صاحبه وهو في الدرجات، وذلك في الدركات: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ [الآية: ١٢].

وشتان شتان بين من آمن وعمل صالحًا ووعده الله وعدًا حسنًا بدخول الجنة فهو لاقيه وصائر إليها، وبين من كفر وتمتع في الحياة الدنيا كالبهيمة، ثم هو يوم القيامة من المحضرين إلى النار، شتان بين العاملين، وشتان بين الجزاءين.

٤١٠٨؛ من حديث المستورد رضي الله عنه.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

لما ذكر سوء حال المشركين والكفار، وتوعدهم بإحضارهم إلى النار، أتبع ذلك بذكر تقريعهم وتوبيخهم على اتخاذ الشركاء مع الله.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، أي: واذكر يوم ينادي الله عز وجل المشركين ويسألهم منكرًا عليهم، وموبخًا لهم، ومبينًا عجز شركائهم، ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم:

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، وفيه معنى النفي، أي: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم لي شركاء، واتخذتموهم آلهة من دوني، ترجون منهم جلب النفع لكم، ودفع الضر عنكم؟ أين هم بذواتهم؟ وأين هم بنفعهم لكم ودفعهم عنكم عذاب الله؟.

كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الآيتان: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: الذين وجب وتعين وتحتم وثبت عليهم القول، أي: الذين حقت عليهم كلمة العذاب الشديد في النار، وهم رؤوس الكفر

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).

ودعاة الضلال منهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: يا ربنا، هؤلاء، يشيرون إلى أتباعهم.

﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾، أي: الذين أوقعناهم في الغي والضلال.

﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾، أي: دعوناهم للغواية فاتبعونا؛ كما دعانا غواة قبلنا فاتبعناهم، وكلنا مشترك في الغواية وحق عليه كلمة العذاب، أي: أننا لم نكرههم على الغواية.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: نحن براء إليك منهم ومن عبادتهم وعملهم.

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾؛ «ما»: نافية، أي: ما كانوا يعبدوننا نحن.

فشهدوا أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرؤوا منهم ومن عبادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، أي: نادوهم واسألوهم أن يخلصوكم مما أنتم فيه من العذاب؛ كما كنتم ترجون ذلك منهم وتؤملونه فيهم.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فنادوهم وهتفوا بهم وسألوهم.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، والسين والتاء: للمبالغة، أي: فلم يجيبوهم، فيدفعوا عنهم عذاب الله.

﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ﴾، أي: وشاهدوا العذاب الذي كانوا يكذبون به، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾؛ «لو»: حرف شرط جازم، وجواب الشرط محذوف، تقديره: لو أنهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب في الآخرة.

وحمل بعضهم «لو» على أنها حرف تمنٍّ، أي: ودوا وتمنوا حين عاينوا العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: لو أنهم كانوا في الحياة الدنيا يهتدون إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، ويتحرونه ويتطلبونه، ويستمعون لمن يدعوهم إليه، فندموا حيث لا ينفع الندم، فلو كانوا يهتدون في الدنيا إلى طريق الحق، لاهتدوا في الآخرة إلى طريق الجنة، ونجوا من العذاب.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٢ – ٥٣].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ سألهم أولًا عن التوحيد، ثم سألهم هنا عن إثبات النبوات وتصديق المرسلين.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، أي: واذكر يوم يناديهم، أي: يسألهم.

﴿فَيَقُولُ﴾؛ في سؤاله إياهم: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي به أجبتم المرسلين الذين دعوكم إلى توحيد الله ونبذ الشرك؟ هل صدقتموهم واتبعتموهم، أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ كما يسأل الإنسان في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قعد المؤمن في قبره أُتِيَ ثم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**وأما المنافق والمرتاب**

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣، والترمذي في الزهد ٦٩، وأبو داود في السنة ٤٧٥٠.

فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»(١).

والمراد بالمرسلين: ما يعم جميع المرسلين سواء كان الخطاب لجميع المشركين من سائر الأمم، أم للمشركين من هذه الأمة؛ لأن من كذب محمدًا ﷺ أو غيره من الرسل فقد كذَّبَ جميع المرسلين، ومن صدقه أو غيره من الرسل فقد صدق جميع المرسلين.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾، أي: فخفيت عليهم الأخبار، وانطمست عليهم الحجج، فلم يجدوا جوابًا.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة في ذلك الموقف العصيب، فأخرسوا وسكتوا، فلم يحيروا جوابًا.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: لا يتساءلون عن الأنباء؛ لأنهم لو سألوا ما وجدوا خبرًا، ولا يتراجعون بينهم فيماذا يجيبون به ولو كان كذبًا؛ لشدة الهول والموقف، وعلمهم أنهم لم يقابلوا الرسل إلا بالتكذيب والعناد، فأي جواب يجيبونه؟ فآثروا السكوت.

وقيل: لا يتنادون بالقرابة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء: ٧٢].

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾، أي: رجع وأناب إلى الله تعالى مما هو عليه من الشرك والكفر، ﴿وَءَامَنَ﴾؛ بقلبه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما أوجب الله تعالى الإيمان به.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: وعمل عملًا صالحًا بجوارحه، فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج البيت الحرام، وغير ذلك مما أوجبه الله تعالى على المؤمن من الأعمال، كبر الوالدين، وصلة الأرحام وغير ذلك، مع القيام بما استطاع من الأعمال المندوبة.

وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ وأبقى الصفة؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؛ الفاء: واقعة في جواب الشرط «من»، أي: فعسى أن يكون من اتصف بهذه الصفات: التوبة والإيمان، والعمل الصالح.

﴿مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؛ الفائزين بالجنة والثواب، الناجين من النار والعذاب، السعداء في الدنيا والآخرة.

و«أن» والفعل «يكون» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «عسى» و.

و«عسى» من الله واجبة، أي: أن هذا وعد واقع بفضل الله ومنِّه لا محالة.

الفوائد والأحكام:

١- الإخبار بكثرة القرى التي أهلكها الله بسبب كفرها بنعم الله تعالى، فصارت مساكنهم خاوية خالية موحشة لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾.

٢- وجوب شكر النعم والتحذير من كفرها وتعريضها للزوال بالكفر أو المعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

٣- أن الله عز وجل هو الوارث للأرض ومن عليها، وإليه يرجعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

٤- إقامة الحجة على الخلق قبل إهلاكهم، وأن الله عز وجل ما كان مهلك القرى المشركة الكافرة حتى يبعث في أمها رسولًا يتلو عليهم آياته، ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له والإيمان به، ويقيم بذلك الحجة عليهم، وفي هذا تعريض بالمشركين وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾.

وقد بعث عز وجل في أم القرى مكة سيد الرسل وخاتمها نبيَّنا محمدًا ﷺ، فأقام به الحجة على الخلق جميعًا.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٦- إثبات رسالته ﷺ وبعثته في أم القرى مكة شرفها الله تعالى رسالة عامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل، وأنه ما كان مهلك القرى- بعد إقامة الحجة على أهلها- إلا بظلم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

٨- التحذير من الظلم بالكفر والشرك والمعاصي وغير ذلك؛ لأنه سبب هلاك العباد، وخراب البلاد.

٩- أن كل ما أوتيه الخلق في هذه الحياة من النعم فهو مجرد متاع الحياة الدنيا وزينتها الحقيرة الفانية الزائلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾.

١٠- أن ما عند الله من الأجر العظيم والنعيم المقيم لعباده الصالحين؛ أفضل وأعظم وأدوم من الدنيا كلها ومتاعها وزينتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

١١- التزهيد في الدنيا ومتاعها وزينتها الفانية، والترغيب في الآخرة وثوابها ونعيمها المقيم.

١٢- الإنكار والتقريع لمن كفر وأشرك بالله وآثر الدنيا وزينتها الزائلة، على الآخرة ونعيمها المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أن من اختار الكفر على الإيمان وآثر الدنيا على الآخرة فليس بعاقل وإن ادعى ذلك.

١٤- شتان بين من آمن وعمل صالحًا ووعده الله تعالى وعدًا حسنًا بالجنة ونعيمها، وهو لاقيه لا محالة، وبين من كفر ومتع متاع الحياة الدنيا كالبهيمة، وتُوعد بكونه يوم القيامة من المحضرين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

١٥- الترغيب والإغراء بالإيمان؛ لوعد الله الحسن المحقق للمؤمنين، والترهيب والتحذير من الكفر لما تُوعد به الكفار من إحضارهم إلى النار.

١٦- إثبات القيامة، والحساب والجزاء، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.

١٧- نداء الله عز وجل وسؤاله المشركين عن إثبات التوحيد، وسؤاله إياهم عن شركائه الذين أشركوهم معه بزعمهم: أين هم؟ وأين نفعهم لهم ودفعهم عنهم؟ وذلك إنكارًا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لبطلان شركهم، وعجز شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

١٨- إثبات النداء والكلام لله عز وجل بحرف وصوت يسمع؛ كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

١٩- تبرؤ الذين حق عليهم كلمة العذاب من دعاة الكفر ورؤساء الضلال ممن أغووهم من الأتباع، وأنهم أغووا هؤلاء الأتباع، كما غووا هم قبلهم، وكلهم مشترك في الغواية والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٢٠- إنكار المعبودين من دون الله عبادة عابديهم؛ لقولهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

٢١- أمرهم بدعاء شركائهم وسؤالهم أن يخلصوهم مما هم فيه من العذاب تبكيتًا لهم، وإظهارًا لعجزهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾.

٢٢- دعاؤهم وسؤالهم شركاءهم؛ ليخلصوهم من العذاب، وعدم استجابتهم لهم؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم نفعًا ولا ضرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾.

٢٣- رؤيتهم العذاب، وتيقنهم أنهم صائرون إلى النار لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

٢٤- تمنيهم ومودتهم لما رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون؛ لقوله تعالى:

﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾.

٢٥- نداء الله تعالى لهم، وسؤاله إياهم ثانيًا عن إثبات النبوات وتصديق المرسلين، وهو نداء لجميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾.

٢٦- خفاء الأنباء عليهم، وسكوتهم وعجزهم عن الجواب، وعن التساؤل والتراجع بينهم فيما يجيبون به؛ لهول الموقف وشدة الأمر، وعلمهم أنهم لم يقابلوا الأنبياء إلا بالتكذيب؛ ولهذا آثروا السكوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾.

٢٧- أنه في ذلك اليوم لا يسأل أحدٌ أحدًا، ولا يغني أحد عن أحد.

٢٨- وعد الله تعالى المحقق، الذي لا يخلف لمن تاب من الشرك والكفر، وآمن بقلبه، وعمل صالحًا بجوارحه بكونه من المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾.

٢٩- الترغيب في التوبة والإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله رتب على ذلك الفلاح.

٣٠- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾؛ الآية، فلا بد من التخلي أولًا عما يضاد الإيمان من الكفر والشرك، ونحو ذلك، ثم الدخول في الإيمان.

٣١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، والعمل الصالح بالجوارح الظاهرة.

٣٢- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة النبي ﷺ.

٣٣- أن «عسى» من الله واجبة، أي: دالة على الوعد المحقق من الله عز وجل؛ لأنه سبحانه لا يخلف وعده؛ كما قال عز وجل ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وربك يا محمد يخلق الذي يشاء خلقه من المخلوقات؛ لأنه الرب المتفرد بالخلق سبحانه وتعالى ﴿وَيَخْتَارُ﴾، أي: ويصطفي من خلقه ويجتبي الذي يشاء، من الأشخاص والأماكن والأزمان والأوامر والأحكام وغير ذلك؛ لأنه الرب المتفرد بالملك والتدبير: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، ولم يقل: «من يشاء» تغليبًا لغير العاقل؛ لأنه أكثر، أو لأنه روعيت الأوصاف.

قال ابن القيم: «وليس المراد ههنا بالاختيار: الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار ههنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ فإنه لا يخلق إلا باختياره، وداخل في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ فإن المشيئة هي الاختيار، وإنما المراد بالاختيار ههنا: الاجتباء

والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص، وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق»(١).

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ «ما»: نافية، أي: ما كان للخلق الاختيار لأنفسهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقيل: يجوز كون «ما»: موصولة، أي: ويختار الذي لهم الخيرة.

والصحيح: أنها نافية؛ لأن الآية في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له؛ ولهذا قال بعده: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال ابن القيم: «وأصح القولين: أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ ويكون: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ نفيًا، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده؛ فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه.

وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ موصولة، وهي مفعول «يختار»، أي: ويختار الذي لهم الخيرة. وهذا باطل»، ثم ذكر بطلانه من ستة أوجه(٢).

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تنزيهًا لله عز وجل ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: وتعاظم وتقدس.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: عن شركهم، أو موصولة، أي: عن الذي يشركون به من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، و«ما»: مصدرية، أي: وربك يعلم الذي تكنه صدورهم، أي: تخفيه وتضمره قلوبهم، وتستره من الكفر وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٣.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٣- ٣٥٥.

نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: ويعلم الذي يعلنونه ويظهرونه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو؛ كما لا رب يخلق ويختار سواه.

﴿لَهُ﴾، أي: له خاصة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ «ال» للاستغراق والاستحقاق، أي: له وحده جميع المحامد، ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فله عز وجل الحمد المطلق، وهو المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والكمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، أي: وله خاصة الحكم المطلق التام في الدنيا والآخرة، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون فيحاسبكم ويجازيكم بأعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾.

لما استدل على انفراده بالإلهية بصفات ذاته؛ أتبع ذلك بالاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته وجلائل نعمه ورحمته، مع التعريض بكفر المشركين.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ الاستفهام للتقرير في الموضعين؛ أي قل: أخبروني إن صيَّر الله عليكم الليل سرمدًا، أي: مستمرًّا دائمًا أبدًا بلا انقطاع؛ مما يضر بكم وبأبدانكم وحياتكم.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: من إله ومعبود سوى الله من آلهتكم ومعبوداتكم وغيرها، بزعمكم، يأتيكم بنهار ونور بتسخيره الشمس؟! كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥].

والجواب: لا إله غير الله يأتيكم به.

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ الاستفهام: إنكاري، أي: أفلا تسمعون سماع فهم وانتفاع ما يتلى عليكم من الآيات البينات، فتقرون بوحدانية الله تعالى، وأنه لا إله غيره؛ كما أنه لا رب سواه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي: إن صيّر الله عليكم النهار ﴿سَرْمَدًا﴾؛ مستمرًّا دائمًا بلا انقطاع إلى يوم القيامة.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: من إله غير الله من آلهتكم وغيرها.

﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، أي: تستريحون فيه من كثرة الحركة والعمل والأشغال بالنهار.

والجواب: لا إله غير الله يأتيكم به.

ووصف الليل بقوله: ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؛ ولم يصف النهار بشيء- والله أعلم- لكثرة منافعه، واختلاف أنواعها، وعدم حصرها.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا تبصرون هذه الأشياء الدالة على عظيم صنع الله إبصار تَفَهُّم وانتفاع، تهتدون به إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، وأنه لا إله غيره؛ كما أنه لا رب سواه.

وقال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقال في النهار: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ والله أعلم؛ لأن سلطان السمع في الليل أقوى من سلطان البصر، وسلطان البصر في النهار

أقوى من سلطان السمع.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

بعد أن ذكرهم بنعمة تعاقب الليل والنهار، وخوَّفهم من سلبها، بيَّن لهم أن ذلك من رحمته بهم.

قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ متعلق بـ«جعل»، وقُدِّم عليه للاهتمام بمنة الرحمة، و«من»: سببية؛ أي: وبسبب رحمته بكم وبجميع المخلوقات.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: خلق لكم الليل والنهار، وجعلهما يتعاقبان ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ اللام في الموضعين: للتعليل، أي: لتسكنوا في الليل، أي: تستريحوا فيه من النصب والتعب بعد العمل بالنهار.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: ولأجل أن تطلبوا من فضل الله؛ أي: من عطائه ورزقه في النهار، بالحركة والعمل والأشغال والأسفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وهذا من باب اللف والنشر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على إنعامه عليكم بتعاقب الليل والنهار، باستحضار هذه النعمة العظيمة ونسبتها إلى مسديها وهو الله عز وجل، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقال ﷺ: «**إن الله يبسط يه في الليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار؛ ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ

---

(١) سبق تخريجه.

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؛ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، وبيان بطلان شركهم، وعجز شركائهم.

ولأهمية هذا النداء، والتحذير من الشرك أكَّد هذا السؤال مرة ثانية في هذا الموضع، وقد سبق في الآية [٦٢].

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: وأخرجنا من كل أمة من الأمم المكذبة بعد جمعهم يوم القيامة ﴿شَهِيدًا﴾؛ يشهد عليهم، وعلى ما جرى منهم في الدنيا من الكفر، وتكذيب الرسل، والشرك بالله، وغير ذلك.

واختلف في المراد بهذا الشهيد، فقيل، هو نبيهم، وقيل: هو كبيرهم وزعيمهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي فقلنا تحديا لهم: أعطونا دليلكم وحجتكم على ما زعمتم من الشركاء لله، وهل أمرناكم بذلك؟ أو هل كان فيهم من يستحق العبادة من دون الله؟ أو يغني عنكم شيئًا؟

﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فعلموا أن الحق في العبادة لله تعالى وحده، حين لا ينفعهم ذلك، فأُخرسوا فلم يحيروا جوابًا، ولم ينطقوا بكلمة.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: وذهب وغاب عنهم الذي كانوا يفترونه في الدنيا، أي: الذي كانوا يختلقونه من الكذب والشرك والشركاء.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة وصف الربوبية إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾.

٢- إثبات تمام قدرته عز وجل، وأنه وحده الذي يخلق ما يشاء من المخلوقات؛ لأنه الرب المتفرد بالخلق وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

وهذا يوجب عبادته وحده، وبطلان عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]

٣- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾.

٤- اختياره عز وجل واصطفاؤه واجتباؤه ما يشاء من خلقه، من الأشخاص والأزمان والأماكن، والأوامر والأحكام، وغير ذلك؛ لأنه الرب المالك المدبر وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾.

٥- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لأن الاختيار مبني على الإرادة، كونية أو شرعية.

٦- أنه ليس لأحد أن يختار لنفسه إلا ما اختاره الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾.

والمعنى: ما كان لهم الخيرة المطلقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وليس في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفي أن يكون للإنسان اختيار- كما تقوله الجبرية. قال الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨].

فأثبت عز وجل للإنسان إرادة ومشيئة واختياراً. لكن اختيار الإنسان وإرادته ومشيئته وفق ما اختاره الله تعالى وأراده وشاءه له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

٧- تنزيهه عز وجل لنفسه، وتعظيمه لها، عما يشرك المشركون به من الأصنام والأنداد، وعن شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٨- علم الله تعالى التام بما يُسِر الخلائق في قلوبهم وما يعلنون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾. وهذا يوجب مراقبة الله في السر والعلن.

٩- إثبات تفرده عز وجل وحده بالألوهية، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- اختصاصه واستحقاقه عز وجل المحامد كلها في الدنيا والآخرة؛ لما له من صفات الكمال، ولما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾.

١١- تفرده عز وجل بالحكم في الدنيا والآخرة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

١٢- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٣- الامتنان على العباد بخلق الليل والنهار، وجعل النهار مضيئًا ووقتًا للعمل، والليل مظلمًا ساكنًا ووقتًا للراحة والسكون، وبين تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

١٤- تخويف العباد وتحذيرهم من تغيير هذه النعمة عليهم؛ بجعل الليل عليهم سرمدًا إلى يوم القيامة، فلا إله غيره يأتيهم بضياء، أو بجعل النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، فلا إله غيره يأتيهم بليل يسكنون فيه.

١٥- تحدي المشركين أن تجلب لهم معبوداتهم من دون الله نفعاً، أو تدفع عنهم ضرًّا.

١٦- الإنكار على المكذبين وتقريعهم وتوبيخهم على عدم سماعهم الآيات سماع تفهم وتدبر وانتفاع؛ وعدم تبصرهم وتأملهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

١٧- تفرده عز وجل وحده بالخلق والأمر، لكمال ربوبيته ووحدانيته؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

١٨- أن النعم إنما تقاس بضدها، وتعرف بفقدها، فلا يعرف قيمة الإنعام إلا من تذوق مرارة الحرمان، وكما قيل: «الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى»، «وبضدها تتميز الأشياء»؛ لهذا يجب على العبد أن يوازن بين ما هو فيه من

النعم بفقدها؛ ليعرف تمامًا موضع المنة وقدر النعمة، فيشكر الله تعالى على ذلك.

١٩- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ الآية.

٢٠- أن من رحمته عز وجل بعباده أن خلق لهم الليل والنهار؛ ليسكن الناس في الليل، وليطلبوا من فضله ورزقه في النهار، ويشكروه على تعاقب الليل والنهار، بطاعته، وطلب مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

٢١- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وأحكامه، وأن منها ما هو قدري، كالعلة في قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ومنها ما هو شرعي، كالعلة في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٢- أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها: أن جعل الليل وقتًا للسكن والراحة والنوم، وجعل النهار وقتًا للعمل وطلب المعاش، وهذا هو الأصلح والأصح لقوى الإنسان البدنية والعقلية والنفسية، فمن عكس الأمر أضر بجميع هذه القوى.

٢٣- إثبات صفة الرحمة الذاتية لله تعالى، والرحمة الفعلية التي يوصلها إلى عباده.

٢٤- أن الفضل والرزق والعطاء كله من الله تعالى.

٢٥- الترغيب بشكر نعمة الله عز وجل بجعل الليل والنهار خلفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

٢٦- نداء الله عز وجل للمشركين، وسؤاله إياهم عن شركائهم الذين أشركوهم معه: أين هم؟ وأين نفعهم لهم ودفعهم عنهم؟ إنكارًا عليهم، وتقريعًا وتبكيتاً لهم، وبيانًا لعجز شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٢٧- إخراجه عز وجل من كل أمة من الأمم المكذبة- بعد جمعهم يوم القيامة- شهيدًا عليهم بأعمالهم السيئة من تكذيب الرسل والكفر والشرك، وغير ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

٢٨- مطالبتهم بالإتيان ببرهانهم وحجتهم ودليلهم على ما زعموا من الشركاء لله؛ تحديًا لهم وتبكيتًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.

٢٩- عجزهم عن الإتيان ببرهان على ما زعموه من الشركاء لله تعالى، وعلمهم تمامًا ذلك اليوم أن الحق في العبادة لله تعالى وحده، وأن لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، وبطلان ما كانوا عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٣٠- ذهاب وغياب ما كانوا يفترونه ويختلقونه كذبًا من الشرك والشركاء، وشفاعتهم لهم، وتخليهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في تكذيبهم الحق، وتعاظمهم بجاههم وأموالهم؛ كما في قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقولهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

كما وبخهم على هذا في مواضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل: ١١]، وقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ﴾

[المدثر: ١١ - ١٦].

قوله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾، أي: من قوم موسى بني إسرائيل، صدقه وآمن به، قال أكثر المفسرين: هو ابن عم موسى.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: طغى وتجاوز حده في الكبر والعلو والتجبر عليهم؛ مغترًا بكثرة ماله.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾، أي: وأعطيناه من الخزائن والأموال الشيء الكثير العظيم.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾؛ «ما»: اسم موصول في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ«آتيناه»، أي: الذي إن مفاتحه، و«إن»: للتوكيد، و«مفاتح»: جمع «مِفْتَح» بكسر الميم وفتح التاء؛ وهو: آلة الفتح، ويسمى «مِفْتاحًا»، وجمعه: «مفاتيح».

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لَتَثْقُل بالعصبة؛ أي: تُثْقِلُهم، أي: يثْقُل حملها على العصبة، أي: على الجماعة الكثيرة، التي يعصب بعضها بعضا.

﴿أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، أي: أصحاب القوة، أي: على الجماعة الكثيرة القوية من ثقل حملها هذه المفاتح، فما بالك بالخزائن؟!

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾، أي: حين قال له قومه المؤمنون، ناصحين له، ومحذرين له من الطغيان: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾، أي: لا تفرح فرح بطر وأشر وتكبر، ومرح وفخر واختيال وبغي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾؛ تعليل للنهي عن الفرح، أي: لأن الله لا يحب الفرحين بما أوتوا فرح بطر وأشر واختيال، وانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى، وعن شكره.

وليس من هذا أن يفرح المؤمن بنعمة الله تعالى عليه الدينية والدنيوية؛ اغتباطا منه بذلك، واعترافًا بفضل الله ورحمته، وشكرا له على ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فهذا فرح محمود يؤجر عليه المؤمن.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾، أي: والتمس واطلب في الذي أعطاك الله من الأموال الكثيرة والكنوز العظيمة.

﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: ما يقربك إلى الله تعالى، وتنجو به من النار وتفوز به بالجنة.

وذلك باستعماله في طاعة الله تعالى، والاستعانة به على ذلك، والإنفاق منه في سبيل الله، والتصدق به في أنواع القربات.

قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] فالمراد بالدار الآخرة الجنة.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أي: ولا تترك حظك من الدنيا باستعمال بعض ما آتاك الله وصرفه فيما أباح الله لك من المآكل والمشارب، والملابس، والمساكن والمراكب، والمناكح، وغير ذلك.

كما في حديث أبي جحيفة رضي الله عنه: أن سلمان الفارسي قال لأبي الدرداء رضي الله عنهما: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»(١).

وقال ﷺ **لعبد الله بن** عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فاعط كل ذي حق حقه»(٢).

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾؛ «ما»: مصدرية، والكاف: للتعليل، أي: وأحسن في عبادة الله تعالى، وأحسن إلى عباد الله؛ كما أحسن الله إليك بما وهبك من هذه الأموال.

ويؤخذ من فحوى هذا: تحذيره من مقابلة الإحسان بالإساءة.

﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: ولا تبغ الفساد في الأرض بالعلو والتكبر، والأشر والبطر والاختيال، والمعاصي ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٥، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩١، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ تعليل للنهي عن ابتغاء الفساد في الأرض، أي: لأن الله لا يحب المفسدين.

وإذا كان عز وجل لا يحبهم فهو يبغضهم؛ لأن الصفات المنفية تدل على إثبات ضدها، ومن أبغضه الله عاقبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال قارون رادًّا لنصيحة قومه، كافرًا بنعمة ربه، مغترًّا بنفسه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: إن ما أعطيته من الكنوز والأموال الكثيرة، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، أي: على علم عندي بوجوه المكاسب، ومعرفتي وحذقي، وحولي وقوتي، وعلم الله أني مستحق لذلك؛ لفضلي ورضاه عني.

قال ابن القيم: «أي: على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك، وأستوجبه، وأستأهله»(١).

وهذا كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أستحقه.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقرير. وجملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ سدت مسد مفعولي

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٧- ٣٥٨.

«يعلم».

أي: أولم يعلم قارون أن الله قد أهلك من قبله من الأمم المكذبة الباغية.

﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ أي في بدنه، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾؟ أي: أكثر جمعًا للمال وتحصيلاً، وأكثر مالًا منه، أي: أنه قد علم ذلك، وتجاهله.

فلم يكن إعطاؤهم القوة والأموال دليلًا على رضا الله تعالى عنهم، ومنزلتهم عنده، واستحقاقهم لذلك، وإنما كان ابتلاءً واختبارًا لهم واستدراجًا؛ كما لم يمنع ما أعطوه من القوة والأموال من إهلاكهم لمَّا خالفوا أمر الله، وكذبوا رسله، وكفروا وطغوا وبغوا.

وفي هذا تهديد لقارون بسبب بغيه وطغيانه، وكفره وعدم شكره، ورد لزعمه كذبًا أن ما أوتيه من المال لعلمه وفضله، واستحقاقه لذلك.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المجرمون: مرتكبوا الجرائم، من الكفر والمعاصي، أي: لا يسألون سؤال استخبار؛ لعلم الله تعالى بهم وبذنوبهم؛ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن: ٣٩].

لكنهم يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ وتبكيت وتنديم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾.

قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: فخرج قارون ذات يوم على قومه من بيته.

﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾؛ في أبهى وأجمل وأرفع ما يكون من الملابس والمراكب؛ في خدمه وحشمه وغير ذلك؛ أي: في زينته التي كان يفخر بها على قومه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الذين منتهى إرادتهم وغاية مبتغاهم ورغبتهم ومطلبهم الحياة الدنيا وزينتها، ليس لهم إرادة سواها.

﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، أي: نتمنى أن يكون لنا مثل الذي أعطي قارون من الكنوز والأموال ومتاع الدنيا وزينتها.

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ تعليل لتمنيهم أن يكون لهم مثله، أي: لأنه ذو حظ عظيم، أي: إنه لصاحب نصيب عظيم، فغبطوه على ما هو فيه؛ مما لا يغبط عليه؛ بسبب نظرتهم القاصرة، وإرادتهم الدنيوية الحقيرة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: الذين أعطاهم الله العلم، وانتفعوا بعلمهم، وعرفوا حقائق الأشياء، وعرفوا عظم ما وعد الله به في الآخرة- مخاطبين الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون:

﴿وَيْلَكُمْ﴾؛ كلمة زجر وتعجب، ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾، أي: جزاء الله في الدنيا والآخرة مما لا يقدر قدره، أو جزاء الله في الآخرة في الجنة.

﴿خَيْرٌ﴾؛ مطلقًا مما أوتي قارون في الدنيا.

﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: للذي آمن بقلبه، وعمل عملًا صالحًا بجوارحه.

كما قال ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾** [السجدة: ١٧]» (١).

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾، أي: ولا يتقبل هذه النصيحة ويوفق للعمل بها، أو لا يوفق لهذه الخصلة، وهي الإيمان والعمل الصالح، أو لا يوفق للجنة التي هي أعظم ثواب الله.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾؛ الذين وفقهم الله للصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ

---

(١) سبق تخريجه.

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

لما ذكر ما وصل إليه حال قارون من البغي والاختيال بزينته والافتخار، أخبر بما أعقب ذلك من العقوبة والنكال.

قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ الفاء: عاطفة، والخسف: جعل بعض ظاهر الأرض في باطنها؛ أي: فخسفنا بـ «قارون» وبداره الأرض؛ أي: غيبناه وداره في الأرض.

وإنما كانت عقوبته بالخسف؛ لبغيه وعلوه وتكبره، والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**بينما رجل يجر إزاره خيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجِّل جمته؛ إذ خسف به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته؛ فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٣).

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي؛ أي: فما كان له أيُّ فئة، أي جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾، أي: يدفعون عنه عذاب الله قبل وقوعه ويمنعونه، ويرفعونه عنه بعد وقوعه، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله؛ لأنه هو الذي حكم عليه كوناً

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٨٥، والنسائي في الزينة ٥٣٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس ٥٧٨٩، ومسلم في اللباس والزينة ٢٠٨٨.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٠ بإسناد حسن.

بالعذاب وأوقعه فيه، فلا ناصر له من دونه.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أي: وما كان من المنتصرين بنفسه لنفسه، أي: فلا نُصِر من غيره، ولا انتصر لنفسه.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾، أي: وصار الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: بالزمن القريب بقولهم: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾؛ بعد أن خسف الله به وبداره الأرض متعظين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ «ويك»: كلمة تأسف وتوجع وتعجب، قال عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

أو: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: ألم تر أن الله، أو أوَلا ترى أن الله.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، أي: يوسع الرزق والعطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: للذي يشاء من عباده.

﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ معطوف على «يبسط»، أي: ويضيق الرزق على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: ضيق.

قال ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم؛ كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب**»(١).

والمعنى: نعلم ونقر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسب مقتضى حكمته، وأن ما أعطاه الله لقارون من الكنوز ليس دليلًا على فضله، وحسن حظه، ونأسف على تمنينا مثله، وقولنا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾؛ قرأ يعقوب وحفص بفتح الخاء والسين: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، وقرأ الباقون بضم الخاء وكسر السين: «لَخُسِفَ بِنَا».

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧؛ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

«لولا»: حرف شرط غير جازم، ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، أي: لولا منّ الله، أو منته علينا ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لولا مَنُّه عز وجل علينا ولطفه بنا وفضله علينا، لخسف بنا الأرض؛ كما خسف بقارون؛ لأننا تمنينا أن نكون مثله.

فصار هلاكه عبرة وعظة لهم، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: ألم تعلم أنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؟ بالله ونعمه، أي: أن قارون كان كافرًا، ولا يفلح الكافرون، أي: لا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا عوقب بالخسف.

الفوائد والأحكام:

١- الإخبار بحال قارون، وأنه كان من بني إسرائيل، فطغى وتجبر عليهم مغترًّا بما آتاه الله من الأموال الكثيرة، وضرب المثل به للمشركين في تعاظمهم بجاههم وأموالهم، وتكذيبهم الحق؛ تحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ الآية.

٢- أن الغنى سبب للطغيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧٦]. فالابتلاء كما يكون بالفقر يكون أيضًا بالغنى، بل الابتلاء بالغنى أشد، لأن المبتلى بالفقر قد يصبر، لكن المبتلى بالغنى قلَّ أن يشكر.

٣- عظم ما أعطاه الله لقارون من الكنوز وخزائن الأموال، حتى إن مفاتحه ليُثقل حملها الجماعة القوية من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

٤- تحذير قومه له من الفرح بما أوتي فرَحَ بطر وأشر واختيال وبغي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

٥- نفى محبة الله عن الفرحين فرح بطر وبغي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

٦- أن من حسن الدعوة إلى الله أن تقرن الأحكام بالدليل أو التعليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

٧- إثبات المحبة لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ فمفهوم هذا أنه عز وجل يحب من قيَّد نعمة الله تعالى بالشكر، ولم يطغ، ولم يتكبر.

٨- نصحهم وموعظتهم له بأن يطلب بما آتاه الله مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾. وفي هذا ما يشير إلى أنه كان ينفق المال في غير الوجه الشرعي، من الفساد والمعاصي وغير ذلك.

٩- ينبغي لمن أنعم الله عليه بالمال البذل والإنفاق منه في الوجوه المشروعة؛ طلبًا لرضا الله، والدار الآخرة.

١٠- أن المعطي والمانع للمال وغيره هو الله تعالى، فلا ينبغي أن يبخل العبد بما أتاه الله، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

١١- إثبات الدار الآخرة والجنة.

١٢- لا لوم على الإنسان أن يتمتع بشيء مما آتاه الله في المباحات؛ من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك، بل يجب ذلك في حدود الحفاظ على النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٣- نصحهم له بالإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله؛ شكراً لله تعالى على إحسانه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾. وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

١٤- نهيهم إياه عن ابتغاء الفساد في الأرض بما آتاه الله من الأموال؛ بالعلو والتكبر، والأشر والبطر والاختيال، والمعاصي والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٥- التحذير من الفساد، وبيان عدم محبة الله تعالى للمفسدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: بل يبغضهم ويكرههم.

١٦- إثبات محبة الله تعالى للمصلحين؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٧- كفر قارون بنعمة ربه وإنكاره فضل الله عليه، ورده موعظة قومه ونصيحتهم

له، واغتراره بنفسه، وأن ما أوتيه لعلمه بوجوه المكاسب وحذقه، واستحقاقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

١٨- إنكار الله تعالى على قارون زعمه أن ما أوتيه من مال على علم عنده؛ وتقريره عز وجل إياه، بأنه يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون المكذبة من هم أشد منه قوة وأكثر أموالًا، فلم يكن ما أعطوه دليلًا على رضا الله تعالى عنهم، ولم يمنع ذلك من إهلاكهم لمَّا كذبوا رسل الله وكفروا وطغوا وبغوا، وفي هذا تهديد ووعيد له؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾.

١٩- أن المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم سؤال استفسار، واستخبار؛ لأن الله أعلم بهم وبذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وفي هذا تهديد لهم.

٢٠- استمرار قارون في بغيه وطغيانه، وخروجه على قومه ذات يوم في كامل زينته، متكبرًا مختالًا، مظهراً العظمة والأُبَّهة؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾.

٢١- اغترار من قصرت هممهم على إرادة الحياة الدنيا بما أوتي قارون من المال والزينة، وتمنيهم أن يكون لهم مثله، وغبطتهم له في حظه، مما لا يغبط عليه، بل يرثَى لصاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

٢٢- زجر الذين أوتوا العلم، وعرفوا حقائق الأشياء، للذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، وبيانهم لهم أن ما عند الله من الثواب خير من ذلك وخير من الدنيا وما فيها، لمن آمن وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾.

٢٣- فضل العلم وأهله العارفين بالله، وما يجب له، وما أعده لأوليائه.

٢٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وبيان عظم ما أعد الله من الثواب، الذي لا يناله إلا من آمن وعمل صالحًا.

٢٥- شتان بين ثواب الله تعالى لمن آمن وعمل صالحًا، وبين من أعطي من زينة الدنيا وزهرتها الفانية ما أعطي، حتى لو ملك الدنيا بحذافيرها، وشتان بين من كانت غاية همه وإرادته الدنيا الحقيرة الزائلة، وبين من كان همه ومراده ما عند الله من الثواب العظيم في الآخرة.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم(٢)

٢٦- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح.

٢٧- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٨- أنه لا يتقبل النصيحة ويعمل بها، ولا يوفق للإيمان والعمل الصالح ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾؛ الذين وفقهم الله للصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

٢٩- عقاب الله تعالى وأخذه الشديد لقارون؛ بسبب بغيه وطغيانه، وأشره وبطره واختياله، بخسف الأرض به وبداره، وعظم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

٣٠- عدم وجود من ينتصر له لما أحل الله به عقوبته، وعدم قدرته على الانتصار لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

٣١- سوء عاقبة البغي والكبر والتجبر وكفر النعم، ووجوب الحذر من ذلك.

٣٢- اتعاظ واعتبار الذين تمنوا أن يكون لهم مثل قارون لما خسف الله به، وأحل به عقوبته، وندمهم على غبطتهم له، وتمنيهم مثله، وإقرارهم بأن الله يبسط الرزق لمن

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).

(٢) البيتان للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢٧٢).

يشاء، ويضيقه على من يشاء، وأن العطاء ليس دليل الرضا، وليس بحول الإنسان وقوته، واعترافهم بمنة الله تعالى وفضله، حيث لم يصبهم ما أصابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾.

٣٣- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٣٤- حكمة الله تعالى البالغة في بسط الرزق لمن يشاء من عباده، وتضييقه على من يشاء؛ وهو العليم الحكيم.

٣٥- أن الله يبتلي بالنعم والسراء؛ كما يبتلي بالنقم والضراء، وليس عطاؤه دليلًا على رضاه، ولا منعه دليلًا على سخطه.

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(١)

٣٦- إثبات كفر قارون، وأنه لا يفلح الكافرون، فلا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ومفهوم هذا أن الفلاح للمؤمنين.

* * *

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

لما ذكر قارون وما كان عليه من البغي والبطر والتجبر، والاختيال والعلو والتكبر، وعقوبته الدنيوية بخسف الأرض به وبداره بسبب بغيه وكفره، أتبع ذلك بذكر عقوبته الأخروية هو وغيره من أهل العلو في الأرض والفساد فيها؛ بما هو أشد وأعظم؛ وهو حرمانهم ثواب الآخرة في الجنة، وإذا حرموا في الآخرة الثواب فليس لهم فيها إلا النار والعذاب.

قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، أي: تلك الدار الآخرة العظيمة، أي: الجنة، دار السلام وما فيها من النعيم المقيم.

﴿نَجْعَلُهَا﴾، أي: نصيرها دارًا وقرارًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا يريدون بغيًا وتكبرً في الأرض، ببطر الحق، والتعاظم على الخلق.

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**وأن الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة ونعيمها ٢٨٦٥، وأبو داود في الأدب، باب التواضع ٤٨٩٥، وابن ماجه في الزهد، البراءة من الكبر ٤١٧٩.

﴿وَلَا فَسَادًا﴾، أي: ولا يريدون في الأرض فسادًا بالكفر والمعاصي؛ لأن الكفر والمعاصي سبب لفساد الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾، أي: والعاقبة المحمودة، العقبى، والنهاية الحسنة، عاجلاً وآجلاً، في الدنيا والآخرة، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: للذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، عاجلاً وآجلاً، وتواضعوا لله تعالى، ولم يتعالوا عن قبول الحق، ولا على الخلق.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ «من»: شرطية في الموضعين، والباء: للمصاحبة في الموضعين؛ أي: من جاء بالحسنة مصطحبًا لها يوم القيامة.

أي: من عمل الحسنة، بفعل مأمور، أو ترك محظور، قولًا أو فعلًا أو بذلًا، وجاء بذلك يوم القيامة، ولقي الله تعالى به، ولم يعمل ما يحبطه؛ لأن الأعمال بالخواتيم.

﴿فَلَهُۥ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فله ثواب وجزاء ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ خيرية مطلقة، كمية، بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، فضلًا منه عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ومضاعفتها أكثر من ذلك إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به**»(١).

وخير منها كيفية بدوام جزائها، ففعل الحسنة ليس بدائم، وجزاؤها دائم، لا ينقطع فضلاً من الله عز وجل.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، أي: ومن جاء بالسيئة مصطحبًا لها يوم القيامة من غير توبة. والسيئة: ضد الحسنة.

﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة، أو مصدرية، و«السيئات»: الأعمال السيئة، أي: فلا يجزى الذين عملوا الأعمال السيئات إلا الذي كانوا يعملونه، أو إلا الذي عملوا؛ عدلًا منه تعالى؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

والمعنى: ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل: ٩٠].

وقال ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتب الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إن الذي أنزل عليك القرآن، وأوجب عليك تلاوته، وتبليغه لأمتك، والعمل بما فيه.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمرجعك والخلائق كلهم إلى معاد، وهو يوم القيامة؛ للحساب والجزاء؛ ليجازي كلًّا بعمله؛ إذ لا يليق بحكمته عز وجل أن يكلف الخلائق بالقرآن والعمل به، ثم لا يحاسبهم فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ كما قال قبل هذه الآية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- من هم بحسنة أو بسيئة ٦٤٩١، ومسلم في الإيمان- باب إذا هم العبد بحسنة ١٣١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا معنى قول من قال من السلف: «لرادك إلى الجنة»؛ لأن معاده ﷺ- بلا شك- إليها.

وفي هذا إشارة إلى أنه عز وجل سيسأل النبي ﷺ عن تبليغ هذا القرآن، كغيره من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وحمل بعض المفسرين قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: إلى بلدك مكة فاتحًا بعد إخراجك.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ قال: إلى مكة»(١). وهذا القول بعيد؛ لأن السورة مكية، فكيف يقال له وهو في مكة: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: لرادك إلى مكة.

والقول الأول هو الصحيح وهو المناسب؛ لصدر الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أن الله لم ينزل عليك القرآن ويوجب عليك تلاوته وتبليغه واتباعه؛ عبثًا، بل؛ ليعيد الخلائق ويحاسبهم ويجازيهم.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين المكذبين لك: ربي أعلم بالذي جاء بالهدى من عنده: أهو أنا أم أنتم؟ وبمن هو المهتدي منا: أهو أنا أم أنتم؟

﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وهو عز وجل أعلم بمن هو منا في ضلال مبين، أي: في ضلال بين واضح، أهو أنا أم أنتم؟

وهذا من باب التنزل معهم، وإلا فهو ﷺ يعلم، ويعلم أن ربه يعلم أنه هو الذي جاء بالهدى من عنده، وأن المكذبين له هم الذين في ضلال مبين.

وهذا كقوله ﷺ فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٧٣، والطبري في «جامع البيان» ١٨، ٣٥٠.

ولم يقل: «ممن لم يأت بالهدى، أو ممن لم يأت به»، وأتى بـ «في» الدالة على الظرفية فقال: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منغمس في الضلال محيط به من كل جانب كقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وأيضا: فإنه ليس بعد الهدى إلا الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، أي: وما كنت تؤمل وتطمع أن ينزل عليك هذا القرآن العظيم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: لكن رحمة من ربك بك وبالأمة أنزله عليك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أي: فاغتبط بهذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة من ربك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فلا تكونن معينًا لهم على كفرهم، بل اصدع بما جاءك من الحق بينهم، وجاهدهم به جهادًا كبيرًا.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: ولا يصدنك هؤلاء الكفار، أي: لا يصرفنك عن آيات الله الشرعية وما جاءك فيها من الحق بعد إنزالها إليك، ولا تبالهم ولا تكترث بمخالفتهم لك، فإن الله معك ومؤيدك، ومظهر ما جئت به من الحق. وفي قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ تذكير له ﷺ بهذه الحجة، وهو أنها منزلة من عند الله، وتثبيت له ﷺ.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: واستمر في دعوة الناس إلى توحيد ربك، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ الذين أشركوا مع الله غيره.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: ولا تعبد مع الله معبودًا آخر، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لأنه لا إله إلا هو، أي: لا معبود بحق سواه.

وهذا بيان لحقيقة الشرك، وتأكيد للنهي عنه، وبيان لحقيقة التوحيد.

وليس في نهيه ﷺ عن أن يصدوه عن آيات الله، وعن أن يكون من المشركين، وعن أن يدعو مع الله إلهًا آخر، ليس في هذا كله ما يدل على حصول ذلك منه، ولا توقع حصوله ولا جواز حصوله لا شرعًا ولا كونًا؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك كله، وكذا غيره من الرسل عليهم السلام.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾؛ تعليل للنواهي السابقة، أي: كل شيء فانٍ زائل، ومضمحل ومعدوم بعد الوجود ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ «إلا» أداة استثناء، ﴿وَجْهَهُۥ﴾؛ مستثنى منصوب، أي: إلا إياه، أو: إلا هو عز وجل، فعبر بالوجه عن الذات.

فهو عز وجل الحي الذي لا يموت، القيوم الدائم الباقي وحده، والخلائق كلهم يموتون؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فهو عز وجل الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء.

كما أن كل شيء باطل إلا ما أريد به وجهه عز وجل؛ ولهذا قال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾، أي: مما كتب الله عليه الهلاك والفناء، دون ما كتب الله له البقاء وخلقه لذلك؛ كالجنة والنار؛ فإن الله خلقهما للبقاء لا للفناء.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، أي: له عز وجل وحده الحكم كله: الحكم الكوني بمعنى: التصرف والتدبير، وله الحكم الشرعي، وله الحكم الجزائي، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون بعد البعث يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، أيام الجاهلية ٣٨٤١، ومسلم في الشعر ٢٢٥٦، والترمذي في الأدب ٢٨٤٩، وابن ماجه في الأدب، باب الشعر ٣٧٥٧، وأحمد ٢/ ٢٤٨، ٣٩٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

كما أن إليه مصير الأمور كلها، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الدار الآخرة، وتعظيمها؛ لما فيها من الحساب والجزاء، وإثبات الجنة وتعظيمها لما فيها من الثواب العظيم والنعيم المقيم للمتقين المتذللين لربهم، المتواضعين لعباده، الذين لا يريدون علوًّا ولا فسادًا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

٢- امتداح أهل التذلل والإصلاح؛ لعظيم ما وعدهم الله به، وذم أهل العلو في الأرض والإفساد؛ لحرمانهم من ثواب الآخرة ونعيم الجنة، ومَن حرم من ذلك فليس له إلا النار وبئس القرار.

٣- أن مدار الأعمال على النيات.

٤- أن الكفر والمعاصي سبب لفساد الأرض، وخراب البلاد.

٥- أن العاقبة الحسنى، والمآل الحسن لمن اتقى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وفي هذا ترغيب بالتقوى، وبيان فضلها.

٦- فضل الله عز وجل وجوده وكرمه؛ لمجازاته من جاء بالحسنة بخير منها، كمية وكيفية، ومضاعفتها بما لا حد له ولا عد فضلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل؛ لمجازاته من جاء بالسيئة بمثلها فقط دون زيادة؛ عدلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٨- أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، وقوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾. فمن اتبع الحسنة بما يبطلها لم يجز عليها، ومن اتبع السيئة بما يمحها لم يعاقب عليها.

٩- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

١٠- الترغيب في عمل الحسنات، والترهيب من عمل السيئات.

١١- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ، وأوجب عليه تلاوته وتبليغه والعمل به هو وأمته؛ ليجازيهم على العمل به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١٢- إثبات رسالته ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ الآية.

١٣- إثبات البعث والمعاد، والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١٤- أن الله عز وجل أعلم بمن جاء بالهدى من عنده؛ وهو نبيه ﷺ، لا المكذبون له، وأعلم بمن هو في ضلال مبين؛ وهم المشركون المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ كما أنه ﷺ يعلم ذلك، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- ليس بعد الهدى إلا الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٧- أنه ﷺ ما كان يظن أو يؤمل أو يطمع أن ينزل عليه القرآن، ولكن رحمة من ربه عز وجل به وبالعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

وفي هذا رد على الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، إذ لو كان كما يقولون لكان متطلعًا إليه.

١٨- أن القرآ، رحمة من الله عز وجل للخلق في دنياهم وأخراهم، به حياة قلوبهم في الدنيا وصلاح أحوالهم، وبه نجاتهم من النار ودخولهم الجنة في الآخرة.

١٩- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يكون ظهيرًا للكافرين، وعن أن يصدوه عن

القرآن وتبليغه بعد أن منَّ الله عليه بإنزاله إليه، ونهيه عن أن يكون من المشركين، وعن أن يدعو من دون الله إلهًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وفي هذا كله تقوية لقلبه للثبات على دعوته، والصبر في مواجهة المكذبين له، والاستمرار في دعوته، وعدم الاكتراث ولا المبالاة بمن خالفه، وفي هذا كله نهي لأمته عن ذلك.

٢٠- تحريم مظاهرة الكافرين، ووجوب الحذر من محاولتهم صد المؤمنين عن دينهم، ووجوب الدعوة إلى الله، والحذر من الشرك؛ لأن الخطاب له ﷺ ولأمته.

٢١- أن حقيقة الشرك: دعوة إله آخر وعبادته مع الله تعالى.

٢٢- إثبات توحيد الألوهية، وأنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله؛ كما أنه لا رب للعالمين سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٣- أن كل شيء هالك فانٍ إلا الله عز وجل، فهو سبحانه الحي الذي لا يموت، الباقي الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وذلك من أعظم دلائل وحدانيته، وموجبات توحيده.

٢٤- إثبات صفة الوجه لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ وهذا لا ينافي أن يكون المراد بالوجه في الآية: ذاته كلها؛ لأن الوجه يطلق على الذات كلها.

٢٥- أن لله عز وجل وحده الحكم والتدبير والتصرف في الكون؛ كما أن له الحكم الشرعي، والحكم الجزائي، لا يسأل عما يفعل، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

٢٦- أن مرجع الخلائق كلهم ومردهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ ومصير أمورهم إليه لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْعَنْكَبُوت

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة العنكبوت»؛ لذكر العنكبوت فيها في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ للدلالة على إعجاز القرآن الكريم، ثم شرعت في الحديث عن تكاليف الإيمان، وما يترتب عليه من الابتلاء، كما هي سنة الله تعالى في السابقين لتمحيص المؤمنين؛ ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، وإبطال ظن الذين يعملون السيئات أنهم يسبقون الله أو يعجزونه، وبيان سوء حكمهم الجائر.

٢- بشارة من كان يرجو لقاء الله واستعد لذلك اللقاء، بأن أجل الله آت وهو السميع العليم؛ يسمع أقوال العباد، ويعلم أعمالهم وسيجازيهم عليها، وبيان أن من جاهد وبذل طاقته في طاعة الله تعالى وتقواه؛ بفعل المأمورات وترك المحظورات، فإنما جزاء جهاده لنفسه؛ لأن الله غني عن العالمين.

٣- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بتكفير سيئاتهم ومجازاتهم بأحسن الذي كانوا يعملونه، وإدخالهم في الصالحين.

٤- وصية الله عز وجل الإنسان بالإحسان إلى والديه، وعدم طاعتهما إن أمراه بالإشراك بالله ومصاحبتهما في الدنيا معروفًا، فإليه عز وجل مرجع الجميع، فينبئهم بأعمالهم ويجازيهم عليها.

٥- ذم فريق من الناس يقولون: آمنا بالله، فإذا أوذي في ذات الله تراجع؛ لضعف إيمانه، وجعل ما يصيبه من أذى الناس وفتنتهم له بسبب إيمانه كعذاب الله، ولئن جاء نصر من الله للمؤمنين ليقولن: إنا كنا معكم، وهو كاذب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

٦- بيان غرور الكافرين، وشدة ما هم عليه من التكذيب، والصد عن دين الله، وإنكار البعث والحساب والجزاء؛ لقولهم كذبا للذين آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ والرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

٧- ذكر قصص عدد من الأنبياء مع أقوامهم، منهم: نوح وإبراهيم ولوط وشعيب، عليهم السلام، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وإنجائهم وأتباعهم المؤمنين، وإهلاك المكذبين، مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم، وفي ذلك تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، وتحذير وتهديد للمكذبين له.

٨- ذكر عاد وثمود الذين تشهد مساكنهم على إهلاكهم بسبب ضلالهم، وذكر قارون وفرعون وهامان وقد جاءهم موسى عليه السلام بالبينات فاستكبروا في الأرض، فأهلكوا وما كانوا سابقين.

٩- بيان أخذه عز وجل كلًّا من المكذبين بالعقوبة المناسبة لذنبه؛ فمنهم من أرسل الله عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف الله به الأرض، ومنهم من أغرقه الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

١٠- تحقير آلهة المشركين التي اتخذوها من دون الله أولياء، والتهكم بها، وتشبيههم وضعف معبوداتهم بالعنكبوت التي تتخذ بيتًا هو أوهن البيوت، وبيان علمه عز وجل بما يدعون من دونه من شيء، وهو العزيز الحكيم، والتنويه بضربه عز وجل الأمثال للناس، وبيان أنه لا يعقلها إلا العالمون.

١١- بيان أنه عز وجل خلق السموات والأرض بالحق، وأن في خلقهما آية للمؤمنين على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

١٢- أمره عز وجل له ﷺ بتلاوة ما أوتي الكتاب وقراءته على الناس واتباعه، وإقام الصلاة، وبيان أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

١٣- نهي المؤمنين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

منهم، وأن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾، وبيان أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، كما أن من العرب من يؤمن به، وما يكفر به ويجحد إلا الكافرون من الفريقين.

١٤- الرد على من يزعمون أن النبي ﷺ افترى القرآن واختلقه من عنده، ويجحدون آيات الله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾.

١٥- اقتراح الكفار المكذبين المعاندين إنزال الله تعالى آيات على النبي ﷺ، وأمر الله عز وجل له أن يقول لهم: إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير مبين، وتوبيخهم لما لم يكفهم أن الله أنزل عليه ﷺ القرآن يتلى عليهم، فيه الرحمة والذكرى لقوم يؤمنون.

١٦- بيان كفايته عز وجل شهيداً بينه ﷺ وبينهم: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾.

١٧- استعجالهم بالعذاب تكذيباً به: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، وتأكيد إتيانه إليهم بغتة، وإحاطة جهنم بهم، وغشيان العذاب لهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وتقريعهم.

١٨- بيان سعة أرضه عز وجل؛ ترغيباً بالهجرة من الأرض التي لا يستطيع المسلم فيها إقامة شعائر دينه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾.

١٩- حكم الله وقضاؤه بالموت على كل نفس، ثم بعث الخلائق ورجوعهم إليه للحساب والجزاء، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإسكانهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار، وامتداح أجرهم والثناء عليهم بعملهم وصبرهم وتوكلهم على ربهم.

٢٠- تكفله عز وجل برزق جميع الدواب، وجميع الخلق: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾.

٢١- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وأنه عز وجل هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبيان تفرده عز وجل ببسط الرزق وتضييقه على من يشاء، وعلمه بكل شيء،

والتعجب كيف يُصرفون عن عبادته وحده، فيشركون معه غيره، مع إقرارهم بربوبيته! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٢- بيان حقارة الدنيا، وأن الدار الآخرة هي الدار الحقيقية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٣- إخلاص المشركين الدعاء لله حال الشدة إذا ركبوا في الفلك، فإذا نجاهم إلى البر رجعوا إلى الشرك وكفروا نعمة الله عليهم، وتهديدهم ووعيدهم.

٢٤ الامتنان على مشركي قريش بأن جعل عز وجل لهم حرمًا آمنًا، لا يُعتدى عليهم فيه، في حين يُتخطفُ الناس من حولهم قتلا وسلباً، والإنكار عليهم وتوبيخهم على إيمانهم بالباطل وكفرهم نعمة الله تعالى.

٢٥- لا أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذب بالحق لما جاءه، والوعيد والتهديد بكون جهنم مثوًى للكافرين.

٢٦- وعد الله عز وجل- الذي لا يُخلف وعده- للذين جاهدوا في الله، وأحسنوا بهدايتهم سبله الموصلة إلى مرضاته وجنته: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة، وبيان الحكمة فيها في الكلام على مطلع سورة البقرة.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾؛ الاستفهام للإنكار، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حسب»، أي: أظن الناس أن يتركوا، ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾؛ في تأويل مصدر في محل جر بلام أو بباء محذوفة، أي: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا.

﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا بقلوبنا، وانقدنا بجوارحنا، ودخلنا في الإسلام، واتبعنا الرسول.

﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يفتنون، أي: لا يختبرون، ولا يمتحنون بالشدائد؛ ليتبين المؤمن من المنافق.

أي: لا يحسبوا ذلك ولا يظنوه؛ إذ لا بد من الابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤١ – ١٤٢].

وقال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»(١).

وقال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(٢).

وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، والله إني لأحبك، فقال: «**انظر ماذا تقول**» قال: والله إني لأحبك. فقال: «**انظر ماذا تقول**»، قال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات، فقال: «**إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا؛ فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه**»(٣).

ولقد لاقى أصحاب رسول الله ﷺ صنوفًا من الابتلاء والأذى على أيدي المشركين؛ كما فُعل ببلال وخباب وعمار بن ياسر ووالديه رضي الله عنهم، وغيرهم.

واستمر المشركون في الأذى بالقول والفعل والتعذيب لكل من آمن والتضييق عليهم، حتى اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم الهجرة صحبة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: ولقد امتحنا وابتلينا الذين من قبلهم من الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكما فعل أصحاب الأخدود في تحريقهم المؤمنين في النار، قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، الصبر على البلاء ٢٣٩٨، وابن ماجه في الفتن، الصبر على البلاء ٤٠٢٣، وأحمد ١/ ١٧٢، ١٧٤، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٠، وقال: «حديث حسن غريب».

شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٤ – ٨].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض حفرة، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(١).

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ الفاء عاطفة، وكذلك الواو، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون فيهما للتوكيد، أي: فليعلمن الله الذين صدقوا في دعواهم الإيمان، وقولهم: ﴿آمَنَّا﴾، أي: يظهر علمه فيهم، فيثيبهم بما ظهر منهم، وينجيهم من الفتنة.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ في قولهم ودعواهم الإيمان، أي: يظهر علمه فيهم، فيعاقبهم بما ظهر منهم ويزيغ قلوبهم؛ لأن الله قد علم أزلًا ما هم عاملون، وكتبه وقدره قبل أن يعملوه، لكنه لا يجازيهم على ذلك إلا بعد أن يعلم وقوع ذلك منهم، أي: بعد أن يعملوه.

فالابتلاء بأنواع الفتن والمحن، وبالضراء والسراء، والشدة والرخاء، من سنن الله الكونية في الأمم السابقة وفي هذه الأمة؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، وليظهر الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، ومن يثبت على الحق أمام الفتن والشبهات والشهوات، ممن يزيغ ويتزلزل بسبب ذلك.

نسأل الله الثبات على دينه، وأن يثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب، أي: أظن الذين يعملون الأعمال السيئة؛ من الشرك والكفر، والصد عن دين الله، وأذية المؤمنين

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٢، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٩.

وتعذيبهم، وغير ذلك من الذنوب والمعاصي، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره؛ لما للمعاصي من آثار سيئة على العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿أَن يَسْبِقُونَآ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي: «حسب». ومعنى ﴿يَسْبِقُونَآ﴾: يعجزونا ويفوتونا بأنفسهم، ويفلتوا من عذابنا.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ «ساء»: فعل ماضٍ لإنشاء الذم، أي: بئس ما يحكمون، و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: ساء حكمهم، أو ساء الذي يحكمونه؛ من ظنهم أنهم سيعجزوننا ويفلتون من عذابنا، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الزمر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

فهذا ذم لحسبانهم، وإبطال له، وتقرير لمعنى الإنكار عليهم، وتوكيد له.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، أي: من كان يرجو ويؤمل لقاء الله رغبة وطمعًا في ثوابه، فاستعد للقاء ربه بالإيمان والأعمال الصالحة.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، واللام: للتوكيد، أي: فليبشر؛ فإن أجل الله والوقت الذي حدده للبعث ووعده ولقاءه آتٍ لا محالة، وكائن ولا بد، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، أي: وهو السميع لأقوال عباده المجيب لدعائهم، الذي وسع سمعه جميع الأصوات.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بهم وبأعمالهم وأحوالهم وبجميع المخلوقات، الذي وسع كل شيء علمًا.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، أي: ومن بذل جهده في فعل ما يقربه إلى الله تعالى من الطاعات، وفي الابتعاد عما يغضب الله من المعاصي والسيئات، وجاهد نفسه وشيطانه وأعداء الله.

﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، أي: فإنما جهاده لنفسه؛ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ الجملة تعليلية، واللام للتوكيد، أي: لأن الله غني عن العالمين، فمن جاهد منهم فنفْع جهاده وثمرته لنفسه؛ لأن الله غني عنهم، ليس به حاجة إليهم، ولا تنفعه طاعة المطيع منهم، ولا تضره معصية العاصي.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ اللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنمحونَّ عنهم سيئاتهم ونذهبها ونتجاوز عنها؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: ولنجزينهم ثواب أحسن الذي كانوا يعملونه، وهو كل ما عملوه ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته من الواجبات والمندوبات، وما تركوه خوفًا منه من المنهيات، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٢- لا بد من ابتلاء الناس، وبخاصة المؤمنين، وامتحانهم بالضراء والسراء والشدة والرخاء، وصنوف المحن؛ حكمة لله عز وجل؛ ليميز الخبيث من الطيب، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾.

٣- أن الابتلاء والامتحان من سنن الله الكونية في الأمم كلها؛ ليظهر الصادق من الكاذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

٤- إحاطة علم الله تعالى بالذين صدقوا وبالكاذبين، وأنه عز وجل لا يحاسب الخلائق على ما علمه أزلًا وكتبه وقدره عليهم، وإنما يحاسبهم بعد أن يظهر علمه فيهم فيثيبهم ويعاقبهم بما ظهر منهم.

٥- أن طريق الإيمان والجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل فيه العقبات والأشواك؛ ولهذا قال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

وقد أحسن القائل:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود

٦- الوعيد للذين يعملون السيئات، ويظنون أنهم سيفلتون من عذاب الله، وتهديدهم والإنكار عليهم، وأنهم لن يعجزوا الله هربًا، ولن يفلتوا من عذابه أو يفوتوه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾.

٧- ذم حسبانهم ذلك وإبطاله، وتقرير الإنكار عليهم وتوكيده؛ لقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٨- البشارة لمن كان يرجو لقاء الله رغبة في ثوابه، مع الاستعداد لذلك بالإيمان والعمل الصالح؛ بأن أجل الله آتٍ لا محالة، وكائن ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

٩- إثبات القيامة ولقاء الله تعالى، ومحاسبته العباد ومجازاته إياهم على أعمالهم.

١٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وأنه عز وجل ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١١- في اقتران صفة السمع الواسع، وصفة العلم الواسع في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٢- الترغيب في طاعة الله تعالى وعبادته، ومجاهدة النفس والشيطان والأعداء في طلب مرضاة الله، وأن ثمرة ذلك تعود للمرء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾.

١٣- غنى الله التام عن الخلق كلهم، وعدم حاجته إلى أحد منهم، وأنه لا تنفعه طاعة المطيع؛ كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٤- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بمحو سيئاتهم، ومجازاتهم أحسن الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾، وفي هذا ترغيب في الإيمان والعمل الصالح.

١٥- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح.

١٦- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

١٧- أن التخلية قبل التحلية، فتكفير السيئات والتطهير منها قبل الجزاء.

١٨- أن الجزاء من جنس العمل، بل أحسن منه وأفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾:

سبب النـزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: «حلفت أم سعد ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب؛ قالت: زعمتَ أن الله أوصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا.

قال: مكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد! فقام ابن لها، يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾»(١).

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ «حسنًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر، والتقدير: أحسن إليهما حسنًا، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إيصاء ذا حسن.

والوصية: العهد بأمر مهم، والمعنى: أمرنا الإنسان وأوجبنا عليه الإحسان بوالديه والبر بهما؛ قولًا وفعلًا وبذلًا، ومحبةً واحترامًا وتقديرًا وإجلالًا، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضائل سعد بن أبي وقاص ١٧٤٨، والترمذي في أبواب التفسير، باب ومن سورة العنكبوت ٣١٨٩، وأحمد ١/ ١٨١، ١٨٥ - ١٨٦.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وإنما عظّم الله تعالى حق الوالدين، وأكّده، وقرنه بحقه في مواضع كثيرة من كتابه؛ لعظم فضلهما وإحسانهما- بعد الله تعالى- إلى الولد، فهما سبب وجوده، وقد قاسى كل منهما من المشقة والتعب والعناء- وبخاصة الأم- ما لا يعلمه إلا الله.

وما يقدم لهما من البر والإحسان- مهما كان- ليس بكثير في حقهما؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا يجزي ولد والدًا، إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه، فيعتقه**»(١).

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ﴾.

أوصى عز وجل بالإحسان إلى الوالدين رأفة ورحمة بهما، وتعظيمًا لحقهما، ثم أتبع ذلك بنهيه عن طاعتهما إذا أمراه بالشرك بالله، تعظيمًا لأمر الشرك وخطورته، وحتى لا يظن ظان أن من برهما طاعتهما في هذا الأمر الخطير.

والمعنى: وإن بذلا جهدًا في دعوتهما لك؛ لأجل أن تشرك بي، أي: لأجل أن تدعو معي شريكًا آخر.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ «ما» موصولة، أي: الذي ليس لك به علم. أو نكرة موصوفة، أي: شيئًا ليس لك به علم، وهذا بيان للواقع، وهو أن كل شرك بالله لا علم للإنسان به.

والمعنى: وإن جاهداك لأجل أن تدعو معي شريكًا ليس لك به علم، أي: لا تعلم صحته ولا جوازه، بل تعلم بطلانه وحرمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

---

(١) أخرجه مسلم في العتق ١٥١٠، وأبو داود في الأدب ٥١٣٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٦، وابن ماجه في الأدب ٣٦٥٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الحج: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣].

﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فلا تطعهما في الإشراك بي؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: إلي مردكم أنتم وآباؤكم وجميع الخلائق.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فأخبركم بعملكم، أو بالذي كنتم تعملونه، وأحاسبكم وأجازيكم عليه.

وفي هذا وعد وترغيب بالإحسان إلى الوالدين وطاعتهما بالمعروف، ووعيد وترهيب من عقوقهما، أو طاعتهما في معصية الله تعالى، كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الآية:١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ بيّن عز وجل فيما سبق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يكفر الله عنهم سيئاتهم ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون، وذكر هنا جزاءً آخر؛ وهو إدخالهم في الصالحين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لندخلنهم في الجنة في جملة عباد الله الصالحين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ – ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، أي: ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم كذبًا: ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا وانقدنا، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ

ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فإذا حصل له أذى بسبب إيمانه بالله، بتعيير وسب، أو ضرب، أو أخذ مال، ونحو ذلك- ابتلاء وامتحانًا من الله له- لم يصبر ولم يثبت، بل: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: صيَّر واعتبر ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: عذابهم وأذاهم له ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: مثل عذاب الله الدنيوي والأخروي، فارتد عن دينه، أو ترك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعمل الخير.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ الواو عاطفة، واللام: موطئة للقسم، أي: ولئن جاء نصر من ربك يا محمد لك وللمؤمنين على أعدائكم؛ من فتح مكة، وتمكين وغلبة ومغانم، ونحو ذلك.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن هذا الفريق من الناس الذين آمنا بألسنتهم، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: معكم في الإيمان، فأشركونا في الغنيمة.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢-٧٣].

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ الاستفهام فيه معنى الإنكار عليهم في قولهم كذبًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، وفيه معنى

التقرير، أي: تقرير علم الله بها في صدور العالمين.

والمعنى: أوليس الله بأعلم بالذي في صدور العالمين؟ أي: بالذي في قلوبهم من صدق الإيمان أو عدمه، أي: بلى هو أعلم بها في صدورهم؛ ولهذا فضحهم وبين حالهم.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ الواو: عاطفة في الموضعين، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: وليعلمن الله الذين آمنوا باطنًا وظاهرًا، أي: بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وفي هذا وعد لهم.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ الذين يظهرون الإيمان بألسنتهم وجوارحهم، ويبطنون الكفر، وفي هذا وعيد لهم.

ومعنى «ليعلمن»، أي: يظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، وليس المراد: علمه السابق وكتابته ذلك وتقديره عليهم؛ لأنهم قد يحتجون على الله بأنهم لو ابتلوا لثبتوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾، أي: اتبعوا ديننا، واسلكوا طريقنا، أي: اكفروا وارجعوا عن دينكم.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ الواو عاطفة، واللام: لام الأمر، أي: ولنحمل نحن عنكم ذنوبكم وآثامكم، إن كان ثمة ذنوب وآثام. والمراد بالأمر هنا الخبر، أي: ونحن نحمل خطاياكم.

وإنما جعلوا الخبر بصيغة الأمر؛ لإظهار التزامهم بذلك، فكأنهم يقولون: ونحن نأمر أنفسنا ونلزمها بذلك، ومرادهم: اتبعوا سبيلنا، ولا شيء عليكم.

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ الجملة اعتراضية، و«مِن»- في قوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾- زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: وما هم بحاملين عنهم من خطاياهم أيّ شيء، مهما قل أو صغر؛ لأن ذلك ليس بأيديهم، فلا أحد يتحمل ذنب أحد فهذا ممتنع قدراً وغير جائز شرعاً.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: إنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، فأكد عز وجل كذبهم بكون الجملة اسمية وبـ«إن»، ولام التوكيد.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

لما كذبهم في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ الآية؛ لئلا يُتوهّم براءة هؤلاء المضلين من تبعة دعائهم إلى الضلال، فبين أنهم يحملون أثقال ضلالهم، ويحملون أثقال دعائهم إلى الضلال.

قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله ليحملن يوم القيامة ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾، أي: أوزارهم بسبب ذنوبهم التي ارتكبوها بأنفسهم، وسميت الذنوب أثقالاً؛ لشدة ثقلها على صاحبها.

﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، أي: وليحملن أثقالًا أخرى مع أثقالهم، أي: أوزارًا مع أوزارهم، بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥].

وقال ﷺ: «**ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا**»(١).

وقال ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٣٦، ومسلم في القسامة ١٦٧٧، والنسائي في تحريم الدم ٣٩٨٥، والترمذي في العلم ٢٦٧٣، وابن ماجه في الديات ٢٦١٦؛ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: وليسألن يوم القيامة، سؤال توبيخ وتقريع عن افترائهم، أو عن الذي كانوا يفترونه، أي: عن الذي كانوا يختلقون من الإفك والكذب والبهتان: من دعوى الإيمان مع ما هم عليه من الكفر، والصد عن سبيل الله، وزعمهم حمل أوزار من اتبعهم، وغير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- عظم حق الوالدين، ووجوب الإحسان إليهما، والبر بهما؛ قولًا وفعلًا وبذلًا ومحبة واحترامًا وتوقيرًا وإجلالًا، وطاعتهما بالمعروف، ولو كانا كافرين؛ لما أسديا إلى أولادهما من الإحسان والمعروف والجميل؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

٢- رحمة الله تعالى حيث أوصى الإنسان بوالديه، كما أوصى الوالدين بأولادهما.

٣- عظم أمر الشرك، وشدة خطره؛ لأن الله قرن الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالنهي عن الشرك تحذيرًا من طاعتهما إن أمرا الولد بالشرك؛ كما إذا كانا مشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

٤- لا طاعة للوالدين ولا لغيرهما من الخلق في معصية الله تعالى.

٥- بطلان الشرك، وأن من أشرك بالله فلا علم عنده، ولا حجة له، ولا برهان ولا دليل على صحة أو جواز الشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٦- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٧- إخبار كل عامل بعمله يوم القيامة من والد وولد وغيرهم، ومحاسبة ومجازاة كل منهم بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- إثبات علم الله تعالى، وإحاطته بالعباد وأعمالهم.

٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ وكما يدين المرء يدان.

١٠- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم الجنة في جملة الصالحين؛

لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾، وفي هذا فضيلة الصالحين.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وبين العمل بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٢- أن منزلة الصالحين من أعظم المنازل عند الله تعالى؛ ولهذا وعد الله تعالى بها من آمن وعمل صالحًا، ويدخل في الصالحين: الأنبياء والصديقين والشهداء، وغيرهم من المؤمنين على اختلاف درجاتهم.

١٣- فضح وذم فريق من الناس يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ بألسنتهم، مع عدم ثباتهم عند الابتلاء، وجعلهم ما يصيبهم في ذات الله من الناس من الأذى كعذاب الله، وارتدادهم عن دينهم، أو تركهم ما كانوا عليه من عمل الخير، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾.

١٤- حكمة الله تعالى في ابتلاء العباد؛ لأن الابتلاء هو المحك الذي يتبين به الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

١٥- شتان بين عذاب الناس وعذاب الله؛ فعذاب الله أشد وأشق وأكبر وأعظم وأدوم؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦].

١٦- أن النصر من الله، ومن عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٧- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بربوبيته عز وجل له ربوبية خاصة، وإضافة اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

١٨- مبادرة هذا الصنف من الناس عندما يحصل نصر للمؤمنين وفتح ومغنم- بقولهم كذبًا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾؛ ليشاركوا المؤمنين في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾.

١٩- تقرير وإثبات علم الله تعالى بما في صدور الخلائق كلهم، والإنكار على

هؤلاء المذكورين قولهم كذبًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقولهم للمؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، مع إضمارهم بقلوبهم خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٠- إحاطة علم الله تعالى بالذين آمنوا، وبالذين نافقوا، أي: بما في القلوب من الإيمان والكفر، ووعده للمؤمنين، ووعيده للمنافقين، وأنه سبحانه إنما يحاسب الخلائق بعد ظهور علمه الأزلي فيهم، فيثيبهم ويعاقبهم على ما ظهر منهم وعملوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾. فعلم في السابق ما سيقع منهم، وعلم في اللاحق أنه وقع، وجازاهم عليه.

٢١- أن الحكمة من الابتلاء تمييز المؤمن من الكافر.

٢٢- إثبات النفاق، وأنه خلاف الإيمان.

٢٣- الحث على الإيمان والإخلاص، والتحذير من النفاق.

٢٤- سعي الذين كفروا جهدهم لرد المؤمنين عن دينهم، وأمرهم لهم باتباع سبيلهم، ووعدهم إياهم كذبًا وزورًا بحمل خطاياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وفي قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ كذب وتهكم، أي: أنه لا شيء عليكم.

٢٥- نفي الله ما ادعوه من حمل خطايا المؤمنين، وبيان كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فليس ذلك بجائز شرعاً، ولا واقع قدراً.

٢٦- أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

٢٧- حمل هؤلاء الكفار يوم القيامة أوزارهم وأوزارًا أخرى بسبب من أضلوا من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾.

٢٨- كمال علم الله تعالى، وتمام عدله،؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾.

٢٩- خطورة الدعاء إلى الضلال؛ لأن الداعي إلى ذلك يحمل مع وزره وزر دعوته غيرَه إلى ذلك، ووزر دعوة من تبعهم إلى يوم القيامة.

٣٠- سؤالهم في ذلك اليوم سؤال تقريع وتوبيخ عما كانوا يختلقون من الإفك والبهتان، ودعوى الإيمان كذبًا، والكفر، ودعوة المؤمنين لاتباع سبيلهم، وزعمهم زورًا حمل خطاياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٣١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ * فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾:

لما ذكر عز وجل ما عليه الكفار من الكذب والافتراء، وتوعدهم بسؤالهم يوم القيامة عن ذلك، أتبع ذلك بالتسلية والبشارة له ﷺ؛ بذكر ما جرى للرسل عليهم السلام قبله من أممهم من التكذيب، وإنجائه رسله وأتباعهم المؤمنين، وإهلاكه أعداءهم المكذبين، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين له ﷺ، وبشارة وعدة للمؤمنين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: ولقد أرسلنا عبدنا ونبينا ورسولنا نوحًا عليه السلام إلى قومه، وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعد أن حدث فيها الشرك.

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، أي: فمكث وأقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وتقواه، وترك الشرك واجتنابه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤﴾ [نوح: ١- ٢٤].

إلى أن دعا عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧].

فمع طول لبثه عليه السلام فيهم، وتنويعه في أساليب دعوته لهم؛ لم ينجع ذلك فيهم، ولم يؤمن منهم إلا القليل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، أي: فأهلكهم وأغرقهم الطوفان، وهو الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، الذي غطى الأرض كلها، سهولها وأوديتها، ومرتفعاتها وجبالها؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر: ١١، ١٢].

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ الجملة حالية، أي: وهم ظالمون بكفرهم ومكرهم واستكبارهم

وفجورهم وضلالهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فأنجينا نوحًا من الغرق، ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ أي: وأنجينا أصحاب السفينة، أي: أهل السفينة، الذين ركبوا معه فيها ممن آمن به من أهله وغيرهم، وهم قليل، وممن حمل معه من الأزواج من الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: وجعلنا قصة إنجائه عليه السلام من الغرق، ومن ركب معه في السفينة، وإغراق قومه بالطوفان عظة وعبرة للعالمين، تدل على كمال قدرة الله تعالى، ونصرته لرسله وأوليائه المؤمنين، وانتقامه من أعدائه الكافرين.

ويحتمل: أن يعود الضمير في «جعلناها» إلى السفينة، أي: إلى نوع السفينة وتسخير السفن تجري في البحر على ظهر الماء، ولا تغرق مع ثقل حمولتها.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ ففي كل منهما دلالة على كمال قدرة الله، وعظة وعبرة، ونعمة من الله تعالى على العباد.

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾ [يس: ٤١ – ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقة: ١١ – ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن

قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، أي: واذكر إبراهيم عبدالله ورسوله وخليله حين قال لقومه ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له العبادة وأطيعوه، وامتثلوا أمره.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، أي: وخافوه بترك الشرك، واجتناب نهيه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: عبادة الله تعالى وتقواه خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم، وخير لكم مما أنتم عليه من الشرك؛ لأنه لا سبيل إلى نيل رضا الله والسعادة في الدنيا والآخرة إلا بعبادة الله تعالى وتقواه.

وهذا من استعمال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لأنه لا خير مطلقًا في ترك عبادة الله وتقواه، بل ذلك شر محض.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ العلم الذي تنتفعون به وتهتدون به إلى الحق، وتعلمون به أن عبادة الله تعالى وتقواه خير لكم. وفيه حث على هذا العلم، أي: اعلموا ذلك.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾؛ لما أمرهم بعبادة الله تعالى وتقواه، ونهاهم عن عبادة ما سواه، بيَّن لهم نقص ما يعبدونه من دون الله من الآلهة، وأنها لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تملك لهم رزقًا، ولا تملك من الأمر شيئًا، ولا تضر ولا تنفع.

قوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: ما تعبدون من دون الله إلا أوثانًا، أي: أصنامًا.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، أي: تفترون وتختلقون كذبًا، بصناعتكم هذه الأصنام بأيديكم وتسميتها آلهة، وإشراكها مع الله وعبادتها من دونه.

كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال هود عليه السلام: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم

مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ [الأعراف: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ «رزقًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لا يملكون أيّ رزق مهما قل؛ لأنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا.

﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، أي: فاطلبوا عند الله وحده الرزق؛ لأن الرزق بيده وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣].

﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾، أي: واعبدوه وتوكلوا عليه وحده يرزقكم، ويدر عليكم النعم، ويدفع عنكم النقم؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾، أي: واشكروا له على رزقه لكم، وما أولاكم من النعم، وما دفع عنكم من النقم، بنسبة ذلك إليه وحده، واستعماله في طاعته، والاستعانة به على ذلك.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: إليه وحده تردون يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾، أي: وإن تكذبوا بما جئتكم به من الحق، وما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتقواه، وأن ذلك خير لكم، وبطلان ما تعبدون من دونه، وأن رزقكم عليه عز وجل، ورجوعكم إليه.

﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾؛ فلستم بدعًا من المكذبين؛ فقد كذب أمم كثيرة من قبلكم لرسلهم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

هذا يحتمل أن يكون تتمة من كلام إبراهيم عليه السلام؛ لقوله في الآيات التالية: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ويحتمل أن يكون استئنافًا من كلام الله تعالى؛ تسلية للنبي ﷺ.

قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾، أي: وما على الرسول تجاه المرسل إليه.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البلاغ البين الواضح، أي: إلا إبلاغهم، أي: إيصالهم رسالة ربه، وأما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب؛ كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «تَرَوْا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَرَوْا﴾.

والاستفهام للإنكار، والكلام: إما مستأنف من كلام الله عز وجل، أو تتمة من

كلام إبراهيم عليه السلام، أي: أولم يشاهدوا في أنفسهم وفي غيرهم من المخلوقات، ويعلموا ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، أي: كيف ينشئ الله الخلق ويوجده من العدم؛ كما أنشأهم وأوجدهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا؟ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١].

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، أي: ثم يعيد الخلق مرة أخرى، وخلقًا آخر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [الروم: ١١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: بدءْ الخلق ثم إعادته، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل يسير عليه عز وجل؛ لتمام قدرته فلا يعجزه شيء؛ ولأنه هو الذي بدأ الخلق أول مرة، فهو على إعادته أقدر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات:١٩، النازعات:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ أنكر عليهم عدم النظر والتأمل في بدئه عز وجل الخلقَ وإعادته، وبيَّن يسر ذلك عليه، ثم أمرهم بالسير في الأرض والتأمل في ذلك، أي: سيروا في الأرض بأبدانكم ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾؛ بأبصاركم، وتأملوا واعتبروا ببصائركم وقلوبكم.

﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، أي: كيف أنشأ الله الخلق أول مرة شيئًا فشيئًا، وأوجد هذا الخلق العظيم: السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها: «النَّشَاءَةَ»، وقرأ الباقون بإسكان الشين من غير ألف: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

أي: ثم الله يخلق ويوجد ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي: الخلق الآخر، فيعيدهم مرة أخرى خلقًا جديدًا.

وسميت نشأة، وهي إعادة؛ لاختلاف حياة الآخرة اختلافاً كثيراً عن حياة الدنيا، وقد قال عز وجل في ذكر أطوار الجنين في بطن أمه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ الجملة تعليلية، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بالخبر «قدير»، وقدِّم عليه؛ لتأكيد شمول قدرته عز وجل لكل شيء؛ من بدء الخلق وإعادته وغير ذلك، وأنه لا يعجزه شيء؛ وكما قدر على ابتداء الخلق، فقدرته على إعادته من باب أولى.

والقدرة يقابلها العجز، ولا يوصف بها إلا ذو شعور، بخلاف القوة التي يقابلها الضعف، فإنه يوصف بها ذو الشعور وغيره، فيقال: رجل قوي، وحديد قوي، وبناء قوي، ونسيج قوي وغير ذلك.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ بعدله وحكمته، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾؛ بفضله وحكمته، له الخلق والملك والتدبير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو الحكم العدل، ذو الجود والفضل.

و«من» موصولة في الموضعين.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون وترجعون يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، فاستعدوا للقائه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الباء: زائدة للتوكيد، أي: وما أنتم أيها المكذبون بمعجزين الله، أي: بفائتين ومفلتين من عذابه في الأرض ولا في السماء، أي: في أيِّ مكان كنتم؛ كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن: ١٢]، وقال تعالى: ﴿* وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ «من» و«لا» كل منهما زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما لكم غير الله أيُّ ولي وأيُّ نصير، والولي: من يجلب النفع والخير، والنصير: من يدفع الضر والشر.

أي: وما لكم غير الله من ولي يجلب النفع والخير لكم، ولا نصير يدفع الضر والشر عنكم، فيدفع عنكم عذاب الله أو يرفعه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: جحدوا وكذبوا، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية والكونية ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾، أي: وكذبوا بلقائه؛ بإنكار القيامة والبعث والحساب، والجزاء على الأعمال. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق:٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾، أي: يئسوا وقنطوا من رحمتي، أي: من جنتي، ومن أن أرحمهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا بفقدان السعادة الحقيقية، وأنواع المصائب والعقوبات، وفي الآخرة في النار وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾:

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾، أي: فما كان جواب قوم إبراهيم عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله تعالى وتقواه، ومحضهم النصيحة، وأقام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾، أي: إلا أن أجابوه بشر جواب، وعدلوا إلى استعمال جاههم وقوتهم وجبروتهم؛ مما يدل على شدة كفرهم وعتوهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل، «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل «قالوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان» مؤخر، أي: إلا قولهم:

﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾؛ بالنار، فاقتلوه بأبشع وأشنع قتلة؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصافات: ٩٧].

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: فسلمه الله من النار، بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا،

فخاب سعيهم، وبطل كيدهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩ – ٧٠].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار، وجعلها عليه بردًا وسلامًا، وإبطال كيد قومه الكافرين.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لدلالات بينات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ بالله وبتمام قدرته ووحدانيته، وبصدق إبراهيم، وصحة ما جاءهم به.

﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال إبراهيم عليه السلام في جملة ما قاله في نصحه لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس: «مَوَدَّةُ»؛ بالرفع من غير تنوين، و«بَيْنِكُمْ»؛ بالجر على الإضافة إلى «مودة»، و«مَوَدَّةُ» على هذه القراءة مرفوعة خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا «مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ»، أي: هي مودة بينكم في الائتلاف والاجتماع على هذا الحنث العظيم.

وقرأ حمزة وحفص وروح: ﴿مَّوَدَّةَ﴾؛ بالنصب من غير تنوين، و﴿بَيْنِكُمْ﴾؛ بالجر على الإضافة، وقرأ الباقون: «مَوَدَّةً»؛ بالنصب مع التنوين، ونصب: «بَيْنَكُمْ». و«مودة»؛ على قراءتي النصب مفعول لأجله، أي: لأجل المودة بينكم.

و«ما» في قوله: ﴿إِنَّمَا﴾؛ كافة ومكفوفة، أي: إنما جعلتم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله ﴿أَوْثَٰنًا﴾، أي: أصنامًا وآلهة تعبدونها؛ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: محبة وألفة بينكم في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية، ثم سرعان ما تنتهي تلك المودة، وتنقطع وتضمحل، وتعقبها الحسرات والندامة والعداوة.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، أي: ثم نتيجة ذلك يوم القيامة يتبرأ بعضكم من بعض، وينكر بعضكم بعضًا، فيتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، وينكر كل منهما الآخر ويعاديه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا

يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ – ٦].

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، أي: ويلعن كل من العابدين والمعبودين، والأتباع والمتبوعين الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ [الأحزاب:٦٧، ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٦ – ١٦٧].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: ومصيركم جميعًا العابدين والمعبودين، ومستقركم النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٨ – ٩٩]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٢٢ – ٢٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى، أي: وما لكم أيّ ناصرين ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾:

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فآمن لإبراهيم لوط، أي: صدقه،

وهو ابن أخي إبراهيم هارون بن آزر- فيما ذكر أكثر المفسرين- ولم يؤمن بإبراهيم سواه، وسارة امرأة إبراهيم عليهم السلام.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: وقال إبراهيم: إني مهاجر إلى ربي، وذلك حين كذبه قومه وآذوه، اختار المهاجرة من بين أظهرهم، وترك أرضهم أرض السوء، إلى أرض الشام المباركة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: ابتغاء مرضاته، وفي سبيل الدعوة إلى توحيده، والتمكن من إظهار وإقامة شعائر دينه، قال ﷺ: «**من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»(١).

ومن حلمه عليه السلام ورحمته لم يدع على قومه كما دعا بعض الأنبياء، ولم يكن الله ليجري عليهم بسببه عذابًا عامًّا، ومما يدل على ذلك: أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه.

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى «لوط»؛ لأنه أقرب مذكور، وقد هاجر مع إبراهيم عليهما السلام.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾، أي: إن ربي هو العزيز، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فله عز وجل العزة التامة؛ يعز رسله وأولياءه، ويذل أعداءه وأعداءهم، وله الحكم التام، والحكمة البالغة في هداية من شاء، وإضلال من شاء، وفي جعل بعض الأرض أرض سوء، وجعل بعضها أرضًا مباركة، يختار ما يشاء من الأشخاص والأماكن والأزمان، فيبارك فيه، ويختار منها ما يشاء لغير ذلك، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، أي: ووهبنا لإبراهيم عليه السلام، أي:

---

(١) سبق تخريجه.

أعطيناه بعدما هاجر إلى الشام إسحاق ويعقوب.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: ٤٩]، فإسحاق ولد له لصلبه، و«يعقوب» ولد لابنه إسحاق في حياة جده إبراهيم.

ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ [الآية: ٧٢].

وقال تعالى مبشرًا لزوجته سارة: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**»(١).

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: وجعلنا في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب، وقدم الجار والمجرور: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾ للدلالة على الحصر، أي: جعلنا الأنبياء بعده كلهم من سلالته والكتب فيهم، فأنبياء بني إسرائيل كلهم إلى آخرهم عيسى بن مريم كلهم من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وآخر الرسل وخاتمهم وأفضلهم وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ ولهذا يكنى إبراهيم عليه السلام «أبو الأنبياء».

و«الكتاب» اسم جنس، أي: الكتب السماوية؛ كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ بإنجائه من النار، ونصره على أعدائه، وبالولد الصالح والزوجة الحسنة الصالحة، والرزق الواسع والثناء الجميل.

كما قال تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٩٠؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:٦٧].

وبالذكر الحسن؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

ومن ذلك أن كل مصلٍّ يذكر في التشهد صلاة الله تعالى وبركاته على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى(١)

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: أكمل الصالحين وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ، واللام: للتوكيد.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

٢- طيلة لبث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى توحيد الله، وترك الشرك، وشدة معاناته ومعالجته لهم؛ حيث لبث في دعوته إياهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، مما لم يلبثه نبي غيره، ومع ذلك لم ينجع ذلك فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

٣- شدة عتوهم وتماديهم بالاستكبار والكفر، والمكر والظلم، وإغراقهم وإهلاكهم بالطوفان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

٤- إنجاء الله عز وجل نوحًا من الغرق ومن معه في السفينة من أهله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾.

٥- جعله عز وجل إهلاك قوم نوح بالغرق، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة عبرة وعظة للعالمين؛ ليحذروا من سلوك طريق المكذبين، وليسلكوا طريق المهتدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (١/ ١٩٤).

٦- أن في إزجاء الفلك وتسييرها على ظهر البحر تمخر عبابه دون أن تغرق، مع ما تحمله من الأثقال العظام- آيةً من آيات الله الدالة على عظيم قدرته وتمام نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

٧- إثبات رسالة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ودعوته قومه لعبادة الله تعالى وحده، وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

وفي التذكير به عليه السلام وبغيره من الرسل ثناء عليهم، وإعلاء لمرتبتهم، ودعوة للاقتداء بهم واتباعهم، والصبر كما صبروا؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

٨- وجوب عبادة الله تعالى وحده وتقواه، وأن ذلك خير مطلقًا لمن وفقه الله، وكان ذا علم اهتدى به إلى عبادة الله وتقواه، ومعرفة أن ذلك خير له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٩- أن اسم التفضيل قد يستعمل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

١٠- توبيخ المشركين وتسفيه عقولهم في عبادتهم من دون الله أوثاناً لا تستحق العبادة، اختلقوها وصنعوها بأيديهم، وسموها آلهة، وأشركوها مع الله كذبًا وافتراءً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

١١- أن هذه المعبودات من دون الله لا تملك لعابديها رزقًا ولا غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾. وهذا استدلال بالمحسوس على المعقول.

١٢- أن الرزق كله بيد الله، فيجب طلب الرزق منه تعالى وحده؛ مع بذل السبب، وعبادته والتوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾.

١٣- وجوب شكر الله تعالى على رزقه، وعلى جميع نعمه الظاهرة والباطنة بنسبتها إلى الله، واستعمالها في طاعته، والاستعانة به على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾.

١٤- أن العبادة سبب للرزق، والشكر سبب لبقائه وزيادته وديمومته.

١٥- إثبات البعث والمعاد، والرجوع إلى رب العباد، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾.

١٦- بيان إطباق كثير من الأمم على تكذيب الرسل، والتحذير مما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾.

فليس تكذيب قوم إبراهيم له، ولا تكذيب المشركين للنبي ﷺ بدعًا في الأمم؛ فأكثرهم كذبوا رسلهم، وصار مصيرهم الهلاك.

١٧- أنه ليس على الرسول إلا إبلاغ أمته رسالة ربه بلاغًا بيِّنًا، وأما هداية القلوب فأمرها إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٨- الإنكار على المشركين تكذيبهم بالبعث، وإنكارهم قدرة الله تعالى عليه، مع أنهم يرون ويشاهدون كيف بدأ الله الخلق وأنشأه من العدم، فكيف ينكرون قدرته على الإعادة؟! لأنه إذا كان قدر على بدء الخلق فقدرته على إعادته خلقًا آخر من باب أولى لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾.

١٩- أن إعادة الخلق مرة أخرى أمر يسير على الله تعالى؛ كما بدأه أول مرة؛ لتمام قدرته، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٢٠- أمر العباد بالسير في الأرض بأبدانهم، والنظر بأبصارهم، والتأمل بقلوبهم، فيستدلوا بالمبدأ على المعاد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

٢١- إثبات قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢٢- أن الخلق والأمر لله تعالى، يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾، وفي هذا إثبات الأفعال

الاختيارية لله عز وجل.

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة.

٢٤- تهديد المكذبين ووعيدهم، وأنهم لن يعجزوا الله هربًا، ولن يفلتوا أو يفوتوا من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾.

٢٥- ضعف الخلق، وأنه لا ملجأ لهم ولا مفر من الله إلا إليه.

٢٦- أنه لا ولي للكفار من دون الله يجلب لهم النفع، ولا نصير لهم يدفع عنهم الضر، ويقيهم عذاب الله أو يرفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

٢٧- تيئيس الذين كفروا بآيات الله ولقائه من رحمة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾.

٢٩- إثبات رحمة الله تعالى وجنته.

٢٨- إثبات رؤية الله تعالى ولقائه يوم القيامة ووجوب الإيمان بذلك.

٣٠- تهديد الذين كفروا بآيات الله ولقائه بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

٣١- شدة عتو قوم إبراهيم واستكبارهم وعنادهم؛ لعدولهم- لما قامت عليهم الحجة فيما دعاهم إليه إبراهيم من عبادة الله تعالى وتقواه، وترك الشرك- إلى استعمال جاههم وقوتهم وجبروتهم؛ لقتله أو إحراقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾.

٣٢- عناية الله تعالى التامة بإبراهيم، وحفظه إياه، وإنجاؤه من النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾، بل جعلها الله عليه بردًا وسلامًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩].

٣٣- أن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار وجعلها عليه بردًا وسلامًا- وهي من طبيعتها الإحراق- دلالات واضحة لقوم يؤمنون، فيستدلون بذلك على تمام قدرة الله تعالى، وصدق إبراهيم عليه السلام وصحة ما جاء به من الحق، وإنجاء الله تعالى لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

٣٤- أن الأسباب لا تفعل فعلها إلا بارادة الله تعالى وإذنه، فمهما قويت الأسباب فإن الله قد يمنع تأثيرها، كما جعل النار برداً وسلامًا على إبراهيم.

٣٥- أنه لا ينتفع بالآيات الكونية والشرعية إلا المؤمنون.

٣٦- أن كل ما يعبده المشركون من دون الله من الأوثان وغيرها، غاية ما فيه الاجتماع والتواد على هذا الأمر الباطل في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية؛ ثم يوم القيامة يعقب ذلك الندامة والحسرات، والعداوة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين، ويكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

٣٧- انقلاب كل خلة في الدنيا عداوة إلا ما كان في الله ولله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

٣٨- أن مأوى المشركين ومعبوداتهم جميعًا النار وبئس القرار، ولا ناصر لهم يدفع عنهم عذاب الله أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٣٩- إيمان لوط لإبراهيم عليهما السلام، واتباعه إياه، ومهاجرته معه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ﴾.

٤٠- هجرة إبراهيم عليه السلام إلى ربه؛ ابتغاء مرضاته، وفي سبيل الدعوة إلى عبادته تعالى وحده، وإقامة شعائر دينه، إلى أرض الشام المباركة، وتركه أرض قومه؛ لأنها أرض سوء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ﴾.

٤١- وجوب الهجرة من بلد الشرك الذي لا يتمكن فيه المسلم من إظهار شعائر دينه إلى بلد الإسلام.

٤٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم ولوط عليهما السلام؛ لقوله تعال: ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ﴾.

٤٣- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وأنه عز وجل ذو العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٤٤- هبة الله تعالى لإبراهيم- بعد أن هاجر إلى الشام- ابنه إسحاق، ويعقوب بن إسحاق في حياة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٤٥- أن ابن الابن ابنٌ؛ لأن الله جعل «يعقوب» موهوباً لإبراهيم، وهو ابن ابنه إسحاق، وقد قال ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيداً**»(١).

٤٦- منة الله تعالى العظمى، ونعمته الكبرى، على إبراهيم بجعل الأنبياء بعده كلهم من سلالته، والكتب كلها فيهم؛ لفضله وعظم منزلته عند ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤٧- إيتاؤه أجره في الدنيا، بإنجائه من النار ونصره على أعدائه، والزوجة الحسنة الصالحة، والذرية الصالحة، والرزق الواسع، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

٤٨- جعله في الآخرة من الصالحين، بل أكملهم وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٤٩- إثبات الأجر والجزاء الدنيوي.

٥٠- إثبات الآخرة والجزاء الأخروي.

٥١- فضل الصلاح، وفضيلة الصالحين الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى، واتباع شرعه.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٥٥٧، من حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، أي: واذكر نبي الله وعبده ورسوله لوطًا عليه السلام حين قال لقومه، ناصحًا ومحذرًا لهم، وموبخًا لهم، ومنكرًا عليهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب بهمزة واحدة على الإخبار المستعمل في التوبيخ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾.

وقرأ الباقون بهمزتين: همزة الاستفهام الإنكاري، وهمزة «إن»: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ».

واللام في قوله: ﴿لَتَأْتُونَ﴾؛ للتوكيد، أي: لتفعلون وترتكبون الفاحشة الكبرى، التي هي أعظم الفواحش: «فاحشة اللواط».

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بالتعريف؛ لأنها كانت معلومة لديهم، ولتعظيم شناعتها وقبحها وفحشها عند الله، وعند الخلق كلهم؛ ولهذا قال تأكيداً لشناعتها:

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب،

مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما سبقكم إلى فعل هذه الفاحشة الشنيعة المخالفة للفطرة أيُّ أحد من العالمين كلهم؛ ولهذا قال الوليد بن عبدالملك بن مروان: «لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكرا»(١).

ولهذا لا يوجد في الحيوانات كلها- التي لم تخرج عن الفطرة السوية- أن ذكرًا منها يعلو ذكرًا مثله.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾؛ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، واللام للتوكيد، أي: أئنكم لتفعلون الفاحشة في أدبار الرجال؟!

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، أي: وتقطعون الطريق باعتراض المسافرين؛ لنهب أموالهم، وفعل الفاحشة بمن تختارون منهم، وقذف المارة وأذيتهم، وغير ذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾؛ النادي: المكان الذي ينتدي فيه الناس، أي: يجتمعون ويجلسون، أي: وتأتون في مجلسكم الذي تجتمعون فيه.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾، أي: ما ينكره الشرع والفِطَر السليمةْ، والعقول المستقيمةْ؛ من فعل الفاحشة، والسخرية بالناس، وقذف المارة وأذيتهم، وغير ذلك مما لا يليق.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، أي: فما كان جواب قومه له لما دعاهم إلى عبادة الله، وتصديقه عليه السلام فيما جاءهم به، وإنكاره عليهم فعل هذه الفاحشة العظيمة، وقطع السبيل، وفعل المنكر في مجالسهم.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان» مؤخر، أي: فما كان جواب قومه إلا قولُهم.

﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: عجِّل لنا عذاب الله إن كنت من الصادقين فيما تقول، يقولون هذا على سبيل التحدي والتعجيز.

وهذا يدل على شدة كفرهم، وتكذيبهم وعتوهم، وعنادهم واستكبارهم وسخريتهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لوط داعيًا الله عليهم، ومستنصرًا به.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ١٦٣).

﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾، أي: يا رب، انصرني ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ في الأرض بكفرهم وتكذيبهم، وفعلهم الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل.

أي: أظهرني واجعل الغلبة لي عليهم، وعذبهم وأهلكهم؛ ليظهر لهم صدقي، ويرتاح العباد والبلاد منهم ومن فسادهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ الواو: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين» متضمن معنى الشرط، أي: وحين جاءت رسلنا من الملائكة إبراهيم.

﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ الباء: للمصاحبة، أي: بالخبر السار، وهو البشارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، كما قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود:٧١].

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قالوا له فيما أخبروه من سبب مجيئهم.

﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾، أي: أهل قرية: «سدوم»؛ وهم قوم لوط عليه السلام، استجابة لدعاء لوط عليه السلام، وفي الإشارة إلى قريتهم بـ«هذه» دليل على قربها من إبراهيم.

﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ بالكفر والتكذيب للوط عليه السلام، وإتيان الفاحشة، وقطع السبيل، وفعل المنكر في مجالسهم، وغير ذلك، وهذا تعليل وبيان لسبب إهلاكهم.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾، أي: فكيف تهلكون أهلها

ولوط بين أظهرهم؟

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾، أي: قال الرسل من الملائكة: نحن أعلم بالذين فيها، ممن هم ظالمون يستحقون الإهلاك، وممن ليسوا كذلك؛ ولهذا قالوا:

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الجيم مع سكون النون الثانية: «لَنُنْجِيَنَّه»، وقرأ الباقون بتشديد الجيم وفتح النون: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لننجين لوطًا، أي: لننقذنه من الهلاك ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾؛ وهما ابنتاه، حيث أمره الله عز وجل أن يسري بهم بقطع من الليل.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا زوجته ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، أي: من الباقين في العذاب الهالكين؛ لكفرها، ومساعدتها قومها على فعل الفاحشة، وإخبارها لهم بأضياف لوط عليه السلام.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾«لما»:ظرفية شرطية، و«أن»: زائدة للتوكيد، والباء: للسببية، أي: سيء بسببهم، أي: ساءه مجيئهم.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾ «ذرعاً» تمييز، أي: ضاقت قوته وحيلته بهم؛ خوفًا عليهم من قومه؛ لأنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة الضيوف أبناء السبيل.

﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾، أي: أخبروه أنهم رسل الله، وقالوا له: لا تخف ولا تحزن.

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «مُنْجُوكَ» بسكون النون، وقرأ الباقون بفتحها وتشديد الجيم: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، والجملة تعليلية، أي: لا تخف ولاتحزن؛ لأنا منجوك وأهلك، وفي هذا إشارة أيضا إلى أن مما جعله يستاء لمجيئهم ويضيق بهم ذرعاً مخافة أن يعمه العذاب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ قرأ ابن عامر بتشديد الزاي: «مُنَزِّلُونَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿مُنزِلُونَ﴾.

﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: عذابًا شديدًا من السماء.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى؛ بكفرهم وتكذيبهم لوطًا، وارتكاب الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل.

فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [الآية: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾، أي: ولقد تركنا وأبقينا من عقوبتهم، وآثار قريتهم ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾، أي: علامة ظاهرة، وعظة وعبرة واضحة.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم ذوي عقول نيرة، تهديهم إلى التأمل والتفكر في الآيات والعظات والعبر، والانتفاع بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

حيث جعل الله مكان قريتهم بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلًا ونهارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ – ١٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، وفضله والثناء عليه.

٢- إنكاره المؤكد الشديد عليه السلام على قومه إتيان فاحشة اللواط، بإتيان الرجال في أدبارهم، وقطعهم السبيل، وإتيانهم في مجلسهم المنكر؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

٣- أن فاحشة اللواط أشد من فاحشة الزنا؛ لهذا لا تذكر فاحشة اللواط إلا معرفة بـ«ال»: «الفاحشة»، بينما تذكر فاحشة الزنا أحيانًا منكرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

٤- أنه لم يسبق قومَ لوط إلى فعل فاحشة اللواط بركوب الذكر الذكر أحد من بني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ بل ولم يعهد ذلك في سائر الحيوانات.

٥- شدة تكذيب قوم لوط وكفرهم، وعتوهم وعنادهم، واستكبارهم وسخريتهم؛ حيث قابلوا دعوة لوط لهم إلى عبادة الله تعالى، وتصديقه فيما جاءهم به، وإنكاره ما هم عليه من الأفعال القبيحة، بطلبهم منه إتيانهم بعذاب الله إن كان من الصادقين؛ تعجيزًا له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٦- أن لوطاً عليه السلام حذرهم وخوفهم عذاب الله؛ لقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٧- دعوة لوط عليه السلام عليهم؛ بسؤاله ربه أن ينصره عليهم، وتبرؤه منهم؛ لإفسادهم في الأرض بالكفر والتكذيب، وفعل الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾.

٨- أن المعاصي من أعظم أسباب الفساد في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: ٤١].

٩- جواز الدعاء على أهل الكفر والشر والفساد والعناد، وقد قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح: ٢٦].

وقال نبينا ﷺ: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف**»(١).

١٠- أن اللواط من أعظم الفساد في الأرض.

١١- حاجة الأنبياء- كغيرهم من البشر- إلى دعاء الله واللجوء إليه، وضرورتهم

---

(١) سبق تخريجه.

إليه، وغيرهم من باب أولى.

١٢- بشارة رسل الله تعالى من الملائكة لإبراهيم بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ الآية.

١٣- أن من طبيعة البشر الفرح بالولد؛ الأنبياء ومن دونهم.

١٤- إثبات أن من الملائكة رسلاً، وتشريفهم بإضافتهم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾.

١٥- استجابة الله تعالى لدعاء لوط عليه السلام بنصر الله تعالى له على قومه.

١٦- إخبارهم إبراهيم بأنهم جاؤوا لإهلاك قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، وفي هذا دلالة على فضيلة إبراهيم، وأنه أفضل من لوط عليه السلام.

١٧- إفصاح رسل الله من الملائكة لإبراهيم عن سبب إهلاكهم قوم لوط، وهو ظلمهم بالكفر، وتكذيب لوط، وإتيان الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل، ونحو ذلك؛ لقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

١٨- أن الهلاك إذا نزل قد يعم الصالح وغيره؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام للملائكة- شفقةً منه وحلمًا-: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾؛ كما قال عز وجل للنبي ﷺ: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون:٩٣، ٩٤].

١٩- طمأنة الملائكة لإبراهيم، بإخبارهم له بعلمهم عن القرية من يستحقون الإهلاك ومن لا يستحقون النجاة، وإخبارهم إياه بإنجاء إبراهيم وأهله إلا امرأته؛ لكونها من الباقين في العذاب المهلكين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

٢٠- إثبات القول والعلم للملائكة، وفي هذا دلالة على أن لهم عقولا ونطقاً، وأجساداً، خلافاً لمن نفى ذلك.

٢١- جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ

ٱلْقَرْيَةِ﴾، وقولهم: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾؛ فنسبوا الإهلاك والإنجاء إلى أنفسهم، مع أن المهلك والمنجي هو الله تعالى.

٢٢- أن زوجة الرجل داخلة في أهله؛ لقول الملائكة: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، ثم استثنوا من ذلك امرأته، فقالوا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

وفي هذا رد على الرافضة أخزاهم الله، الذين يخرجون أزواج النبي ﷺ من أهل بيته، ويقعون فيهن.

٢٣- أنه لا يشفع لأحد عند الله نسبُه ولا حسبُه، فامرأة لوط لم ينجها من العذاب كونها زوجته عليه السلام.

٢٤- أن العذاب إذا نزل عم الظالمين ومن أعانهم على ظلمهم وأيدهم؛ كما حصل لامرأة لوط عليه السلام.

٢٥- استياء لوط عليه السلام بمجيء الرسل من الملائكة إليه وضيقه بهم ذرعاً، وطمأنتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾.

٢٦- أن الرسل كغيرهم من البشر تعتريهم العوارض البشرية من الاستياء، وضيق الذرع ونحو ذلك.

٢٧- الاستدلال على الأحوال بالملامح، لقول الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ الآية؛ لأنه ظهر لهم من ملامحه- والله أعلم- أنه استاء منهم وضاق بهم.

٢٨- إهلاك قوم لوط بعذاب من السماء، بقلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وإتباعها بالحجارة، بسبب فسقهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

٢٩- أن من سنن الله الكونية إنجاء الرسل وأتباعهم المؤمنين، وإيقاع العذاب بالمكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٣٠- إثبات العلو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾.

٣١- إثبات الأسباب، وأن الفسق سبب للعقوبة.

٣٢- بقاء عقوبة قوم لوط وآثار قريتهم آية بينة، ودلالة واضحة على تمام قدرة الله تعالى، وعظة وعبرة للمعتبرين من ذوي العقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾؛ مما يوجب الحذر من هذه الفعلة الشنيعة، الموجبة لغضب الله وسخطه، وأليم عقابه.

وعلى من ابتلي بها التوبة والإنابة إلى الله، والخوف من عقابه، وسؤاله العصمة والحفظ منها ومن غيرها من الفواحش والذنوب.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

٣٣- شدة عقاب الله تعالى لقوم لوط؛ لما هم عليه من الإفساد في الأرض والكفر والظلم والفسق، وإتيان الفاحشة التي لم يسبقهم إلى فعلها أحد من العالمين، ووجوب الحذر من مسلكهم.

٣٤- أنه إنما ينتفع بالآيات، والعبر والعظات، ذوو العقول الراجحة، الذين تهديهم عقولهم إلى النظر والتأمل بالآيات وأخذ العظات والعبر منها؛ بخلاف غيرهم ممن لم ينتفعوا بذلك، وإن كانت لديهم العقول التي هي مناط الإدراك، فهم لا يعقلون.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، أي: وأرسلنا إلى أهل مدين البلدة المعروفة المشهورة، أو القبيلة المعروفة المشهورة، أخاهم شعيبًا.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، أي: وارجوا واطلبوا بعبادتكم ثواب الله، واخشوا وخافوا عقابه في اليوم الآخر يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تفسدوا في الأرض، أي: ولا تسعوا في الأرض مفسدين؛ بالبغي والكفر وبخس المكاييل والموازين، وقطع الطريق، وصد الناس عن سبيل الله وغير ذلك من الفساد الحسي، والفساد المعنوي المؤدي إلى الفساد الحسي؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الآية: ٨٥].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الآية: ٨٦].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوا شعيبًا في رسالته وفيما دعاهم إليه من عبادة الله تعالى وحده، رجاءً في ثوابه، وخوفًا من عقابه، وفيما نهاهم عنه من السعي بالإفساد في الأرض.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، أي: فأهلكتهم الزلزلة الشديدة، والصيحة التي رجفت منها الأرض لشدتها.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، أي: فصاروا في دارهم صرعى هالكين ميتين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾، أي: وأهلكنا عادًا وثمود، أو: واذكر عادًا وثمود.

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾؛ الواو: حالية، و«قد»: حرف تحقيق.

أي: والحال أنه قد تبين لكم من مساكنهم، أي: وقد تبين لكم إهلاكهم، وأخذنا إياهم من آثار مساكنهم التي لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: حسن لهم الشيطان أعمالهم السيئة؛ من الكفر والشرك بالله، وتكذيب رسله، والاستكبار والعناد، حتى ظنوا أنهم على الحق.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: فصرفهم عن سبيل الله وعن صراطه المستقيم، وطريقه القويم.

وعرّف السبيل وأفرده؛ لأن طريق الحق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣].

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، أي: وكانوا ذوي بصائر وعقول، يستطيعون أن ينظروا بها آيات الله ودلائل هدايته، ومعرفة الحق، لكنهم يتعامون عنها اتباعًا لأهوائهم، وتقديمًا لشهواتهم وملذاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧].

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ﴾.

ضرب الله مثلًا لقريش بالأمم المكذبة للرسل، وكيف انتقم الله منهم، ثم ضرب مثلًا لصناديد قريش، مثل: أبي جهل وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبي لهب، وأمثالهم، بصناديد الكفر في عهد موسى عليه السلام، كيف أهلكهم الله وانتقم منهم؟!

أي: وأهلكنا قارون، أو: واذكر قارون، الذي آتاه الله الكنوز العظيمة، وفرعون، وهو ملك مصر في عهد موسى عليه السلام، وهامان وزير فرعون.

قيل: وقدم «قارون»؛ لعلو نسبه؛ لأنه من بني إسرائيل، وهم أشرف من الأقباط الذين منهم فرعون وهامان.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والحجج والدلائل الواضحات، على صدقه وصحة ما جاء به من الحق، والباء: للمصاحبة.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ فكذبوا موسى ورموه بالسحر، وردوا ما جاء به من الحق، وتكبروا على الخلق، وآذوهم وأذلوهم.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾، أي: وما كانوا سابقين لله ولا معجزين له، ولا مفلتين من عذابه ولا فائتيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٥٧].

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾، أي: فكلًّا من هؤلاء وغيرهم من الأمم المكذبة، ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾، أي: عاقبناه عقوبة مناسبة بقدر ذنبه، وبسبب ذنبه، من الكفر والشرك وغير ذلك؛ لأنهم اجتمعوا كلهم على تكذيب الرسل، والكفر والشرك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ «من» في المواضع الأربعة موصولة، أي: فمنهم الذي أرسلنا عليه حاصبًا، أي: ريحًا ترميهم بالحصباء؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: ١٩ – ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ [الذاريات: ٤١ – ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ [الحاقة: ٦ – ٧].

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، أي: ومنهم الذي أهلكته الصيحة، وهم ثمود قوم صالح عليه السلام، أهلكوا بالصيحة، وهي صوت من السماء شديد، قطع قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: ٥]، أي: الصيحة الشديدة.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: ومنهم الذي خسفنا به الأرض، أي: غيبناه فيها، وهو قارون الذي طغى وبغى، ومشى في الأرض مرحًا، فعاقبه الله بإذلاله بخسف الأرض به.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾، أي: ومنهم الذي أغرقناه، وهو فرعون ووزيره هامان

وجنوده، حيث كان فرعون يفتخر بالأنهار والماء بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأهلكه الله ووزيره وجنوده بالماء.

والسياق بهذا الترتيب من باب اللف والنشر، فذكر عز وجل الأمم المكذبة وهم في هذا السياق: عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، ثم ذكر عقوباتهم.

وقد قيل: المراد بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: قوم لوط، وبقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾: قوم نوح، وبقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: قوم شعيب.

والأول أقرب وأظهر؛ لأن الله قد ذكر قوم نوح وقوم لوط وقوم شعيب وعقوباتهم كلًّا منهم على حدة قبل هذا في هذه السورة، وقد طال الفصل بينهما أيضًا.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ اللام: لام الجحود أو الإنكار، والمصدر المؤول: «أن يظلمهم» في محل جر باللام متعلق بمحذوف خبر «كان»، أي: وما كان الله في عقابه إياهم ظالمًا لهم، ولا يكون منه ذلك، ولا يليق به.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ بسبب كفرهم وشركهم، وتكذيبهم للرسل، واستكبارهم وعصيانهم؛ حيث عرضوها لعقاب الله تعالى.

و«أنفسهم»: مفعول لـ«يظلمون»، وقدم عليه؛ مراعاة للفواصل، ولإفادة الحصر، وأنهم ما ظلموا إلا أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف:٧٦].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة شعيب عليه السلام إلى مدين، وأنه أخوهم في النسب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢- دعوته عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ كما هي دعوة غيره من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾.

٣- إثبات اليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء، ووجوب الاستعداد له بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، رجاء ثواب الله، وخوفًا من عقابه.

٤- نهيه عليه السلام لهم عن السعي في الأرض بالبغي والفساد، بالكفر والشرك، ونقص المكاييل والموازين، وقطع الطريق، وصد الناس عن سبيل الله؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٥- أن الكفر والشرك والمعاصي من أعظم الفساد في الأرض؛ لأن ذلك سبب لخراب البلاد، وهلاك الحرث والنسل.

٦- تكذيبهم له، وإصرارهم على ما هم عليه من الكفر، وبخس الكيل والوزن، وغير ذلك، وإهلاكهم بالرجفة والصيحة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم، فصاروا في دارهم جثثًا هامدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

٧- التذكير بإهلاك عاد وثمود، بسبب تكذيبهم رسل الله، وبقاء آثار مساكنهم الخاوية- التي لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا- شاهدة على ما حل بهم من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾.

٨- تحسين الشيطان لهم ولغيرهم من المكذبين أعمالهم السيئة؛ من الكفر، وتكذيب الرسل، والاستكبار، ومخالفة أمر الله، وصدهم عن سبيل الله وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٩- الرد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان مجبر على أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، فنسب الأعمال إليهم، فدل على أنها باختيارهم.

١٠- أن الأعمال السيئة سبب للضلال عن طريق الحق؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤].

١١- ذم هؤلاء المكذبين؛ لاختيارهم الباطل على الحق؛ اتباعًا لأهواهم، وإيثارًا لشهواتهم، وعدم التأمل والانتفاع بما منحهم الله من البصائر والعقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

١٢- وجوب الاعتبار بأحوال الماضين من المكذبين وعقوباتهم، والحذر من الشيطان، وتزيينه الأعمال السيئة، ووجوب التأمل والتفكر في آيات الله، بما منحنا الله من العقول؛ لمعرفة الحق واتباعه، واجتناب الباطل.

١٣- التذكير بإهلاك قارون وفرعون وهامان وذمهم؛ لتكذيبهم ما جاء به موسى من البينات، واستكبارهم عن اتباع الحق، وعلوهم على الخلق، وأذيتهم لهم، وأنهم ما

كانوا معجزين لله، ولا مفلتين من عقابه، وفي هذا تهديد للطغاة من المشركين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

١٤- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وبني إسرائيل.

١٥- أن من أعظم أسباب الاستكبار: المال والجاه والرئاسة؛ فقارون استكبر بسبب المال، وفرعون وهامان استكبرا بسبب الرئاسة والجاه والمنصب.

١٦- أنه لا أحد يستطيع أن يعجز الله، أو يفوته، أو يفلت من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾.

١٧- عقوبة الله تعالى كل أمة بقدر ذنبها وبما يناسبه؛ عدلًا منه تعالى؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾.

١١٨- كمال عدل الله عز وجل في عقابه المكذبين، وأنه ما كان ظالمًا لهم حين عذبهم، ولا يكون منه الظلم لأحد من خلقه، ولا يليق به؛ لأنه سبحانه الحَكَم العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

١٩- أن سبب إهلاك الأمم المكذبة: هو ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل والكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فعاقبهم الله عز وجل بقدر ذنوبهم وبسببها.

٢٠- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد، للمكذبين الظالمين، من المشركين وغيرهم من هذه الأمة عامة، ولرؤوس الكفر منهم خاصة، أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم.

٢١- أن النفس وديعة عند الإنسان، يجب أن يحملها على ما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخراها، ويحرم عليه أن يظلمها ويوقعها فيما فيه هلاكها وشقاؤها بفعل المعاصي.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في عبادتهم من دون الله آلهة يوالونها، ويرجون نفعها لهم، ودفعها عنهم، وهي في غاية الضعف والعجز، أوهى من نسج العنكبوت؛ كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ «مَثَل»: بمعنى شَبَه، أي: مثل المشركين الذين جعلوا غير الله أولياء لهم، أي: آلهة يعبدونهم من دونه، ويوالونهم، ويرجون منهم جلب النفع لهم؛ من النصر والرزق وغير ذلك، ودفع الضر والشر عنهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، أي: كمثل العنكبوت، وهي: دويبة صغيرة ضعيفة، ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، أي: جعلت لنفسها بيتًا أشبه بالخيمة وبيت الشعر، من لعابها، يكون خيوطًا منسوجة مشدودة بين طرفين، تحتجب فيه، وتفرخ فيه.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، أي: أضعفها وأوهاها، ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾؛ اللام للتوكيد، وإنما كان بيت العنكبوت أوهن البيوت؛ لأنه لا يحتمل مس أدنى

الحيوانات، ولا أخف الرياح، ولا يقي من الآفات، ولا من حر ولا برد؛ ولهذا ما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا.

وكذلك هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم، ويوالونهم، ويستنصرون بهم، وهم في غاية الضعف والعجز، لا يملكون لهم نفعاً، ولا دفعاً، ولم يزدادوا بعبادتهم إياهم إلا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى وهنهم.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ «لو»: شرطية غير جازمة، أي: لو كانوا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويعلمون حقيقة ضعف هذه الآلهة ما اتخذوها أولياء من دون الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾؛ قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالغيب، وقرأ الباقون: «تَدْعُونَ» بالخطاب.

و«ما»: نافية، و«من» في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: إن الله يعلم أنهم ما يدعون ويعبدون من دونه عز وجل أيَّ شيء، وإنما يدعون عدمًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

وعلى هذا المعنى يكون السياق انتقل من بيان ضعف آلهتهم غاية الضعف إلى ما هو أبلغ، وهو أنها ليست بشيء؛ لأنه عند التحقيق يتبين بطلانها وعدمها.

ويحتمل أن تكون «ما»: موصولة، أي: إن الله يعلم الذي يدعون ويعبدون غيره من أي شيء كان من الأنداد والشركاء، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: وهو ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وفي هذا تهديد للمشركين بأخذه الشديد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، «الحكيم» في خلقه وقدره وشرعه، الذي يضع الأمور مواضعها، «الحكيم» في إمهاله المشركين والمكذبين، وعدم معاجلتهم بالعقوبة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ «الأمثال»: جمع «مثل».

و«ضرب المثل»: تشبيه أمر معنوي معقول بأمر حسي؛ لتقريب المعنى وزيادة الإيضاح والبيان؛ كما في تمثيل آلهة المشركين الذين اتخذوهم من دون الله أولياء بالعنكبوت باتخاذها بيتًا.

وكقوله تعالى في تمثيل مضاعفة أجر المنفقين أموالهم في سبيل الله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهي مما امتن الله به على الناس؛ لما فيها من تقريب المعاني وبيانها؛ ولهذا أشار إليها بإشارة البعيد: «تلك»؛ امتنانًا بها، وتعظيمًا لشأنها، أي: وتلك الأمثال العظيمة نضربها في القرآن، أي: نجعلها أمثالا لأجل الناس؛ تقريبًا للمعاني لهم، وإقامة للحجة عليهم.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾، أي: وما يعقل الأمثال ويتدبرها ويفهمها، ويطبقها على ما ضربت له.

﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أهل العلم الذين أنار الله بصائرهم بالعلم، ووفقهم للانتفاع بعلمهم، وفي هذا امتداح من الله تعالى لهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: «عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل»(١).

وعن عمرو بن مرة، قال: «ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأني

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٠٣.

سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: خلق الله السموات والأرض بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، أي: لعبادته وتوحيده وإقامة شرعه، وظهور تمام قدرته وحكمته وعدله في مجازاة كل بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ الإشارة إلى خلق السموات والأرض بالحق، واللام للتوكيد، أي: إن في خلق السموات والأرض دلالة بينة على تمام قدرة الله تعالى وعظمته وحكمته، ونعمته، وكمال ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يتأملون في آيات الله، وينتفعون بها، وتهديهم إلى الحق.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: اقرأ الذي أوحي إليك من القرآن واتبعه، وأمر أمتك بقراءته واتباعه، والاهتداء بهديه، والعمل به، بتطبيق أحكامه، وتدبر معانيه، وتصديق أخباره.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ هذا من عطف الخاص على العام؛ لعظم أمر الصلاة، فهي أعظم العبادات، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، والأمر له ﷺ ولأمته، أي: وأقم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٣٠٦٤.

الصلاة إقامة تامة، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها؛ الفرائض منها والنوافل.

والصلاة في اللغة: الدعاء.

في الشرع: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال مخصوصة، مبتدأة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ تعليل للأمر بإقامتها، أي: لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، إذا أقيمت كما شرعها الله عز وجل.

و«الفحشاء»: كل ما فحش وقبح في الشرع، وفي عرف المسلمين، وفي العقول السليمة، والفطر المستقيمة، كالزنا واللواط والسرقة وشرب الخمور، ونحو ذلك.

و«المنكر»: كل ما أنكره الشرع وعرف المسلمين، والعقول السليمة، والفطر المستقيمة، وهو أعم من الفحشاء، فعطفه عليها من عطف العام على الخاص، فكل فحشاء منكر، وليس كل منكر فحشاء.

فمن أعظم مقاصد الصلاة وأهم ثمراتها: أنها تحمل على فعل الخير، وترك الشر والفواحش والمنكرات إذا أقامها العبد كما شرعها الله، وذلك لأنها تنير قلب المؤمن، وتطهر فؤاده، وتزيد إيمانه، وتقوي رغبته في الخير، وتضعف داعي الشر في النفس، فهي بمثابة الواعظ الناهي المذكر بالله تعالى على الدوام.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر؛ لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدًا»(١).

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: ولذكر الله بالقلب واللسان والجوارح، والتعبد له في الصلاة التي هي أعظم العبادات، أو خارجها بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك، ﴿أَكْبَرُ﴾، أي: أعظم وأفضل من كل شيء.

وأيضًا: ولذكر الله تعالى للذاكرين له عز وجل أكبر وأعظم وأفضل من ذكرهم له؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني،**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٤٠٨.

فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(١).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾؛ «ما» موصولة، أي: والله يعلم الذي تصنعونه. أو مصدرية، أي: يعلم صنعكم.

أي: يعلم الذي تعملونه من الأعمال، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، خيرها وشرها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها أكمل الجزاء وأوفاه.

الفوائد والأحكام:

١- تحقير المشركين وما اتخذوه من دون الله من آلهة يوالونها، ويرجون نفعها وشفعها هي في غاية الضعف والعجز، ولا تجدي عنهم شيئًا؛ لأن الله مثَّلهم في اتخاذهم لها بالعنكبوت باتخاذها بيتًا هو أوهن البيوت وأضعفها؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾.

٢- لا ينبغي أن يقال: هذا البيت أوهن من بيت العنكبوت؛ لأن الله قال: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ لكن يجوز أن يقال: هذه الحجة أو هي، أو أوهن من بيت العنكبوت.

٣- ذم الشرك وأهله وتجهيلهم، وأنهم لو كانوا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويعلمون حقيقة ضعف هذه الآلهة ما اتخذوهم أولياء من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

٤- علم الله تعالى بأن المشركين ما يدعون من دونه أيّ شيء، وإنما يدعون عدمًا وباطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾؛ وهذا على اعتبار «ما»: نافية.

٥- تهديد المشركين بإحاطة علمه تعالى بكل الذي يدعون من دونه من أيّ شيء كان، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر ٢٦٧٥، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٣، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾؛ وهذا على اعتبار «ما»: موصولة.

٦- إثبات اسم الله عز وجل: «العزيز»، وأنه ذو العزة التامة، والقوة والقهر والغلبة والامتناع، وتحذير المشركين من أخذه عز وجل إياهم أخذ عزيز مقتدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وصفة الحكم التام له: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وصفة الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، وأنه عز وجل الحكيم في إمهاله المشركين والمكذبين، وعدم معاجلتهم بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٨- امتنان الله تعالى على العباد بضرب الأمثال في القرآن للناس، وتعظيم شأنها؛ لما فيها من تقريب المعاني المعقولة، وزيادة الإيضاح والبيان للناس، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾.

٩- أنه لا يعقل الأمثال ولا يتدبرها ويفهمها وينتفع بها إلا أهل العلم، الذين أنار الله بالعلم بصائرهم، ووفقهم للانتفاع بعلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾، وفي هذا ترغيب في العلم وفي تدبر الأمثال.

١٠- فضيلة العلم وأهله، الذين يتدبرون بعلمهم كلام الله، ويهتدون به وفضيلة العقل الذي يهتدي به صاحبه إلى الحق.

١١- إثبات أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وإثبات حكمته في خلقها، وأنه إنما خلقهما بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، ولعبادته وحده لا شريك له، وإقامة شرعه ومجازاة كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

١٢- استدلال المؤمنين بخلق السموات والأرض على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١٣- أنه لا يستفيد من الآيات، ولا يتأمل فيها وينتفع بها إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١٤- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه بوحي الله عز وجل إليه بالقرآن، وبخطابه عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

١٥- أمر الله عز وجل له ﷺ بقراءة القرآن، وتبليغه للناس واتباعه، والعمل به، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لأن لها به أسوة.

١٦- أمر الله تعالى له بإقام الصلاة: فرضها ونفلها، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٧- وجوب تلاوة القرآن والعمل به واتباعه، ووجوب إقامة الصلاة.

١٨- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لأن الله خصها بالذكر من بين سائر العبادات، ولهذا فإن من لم يصل فهو كافر، لا حظَّ له في الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال ﷺ: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(١).

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»(٣).

١٩- أن من حكمة الأمر بالصلاة وتخصيصها بالذكر: أنها تنهى من أقامها- كما شرعها الله تعالى- وحافظ عليها عن فعل الفواحش والمنكرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ ولهذا فإن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإنه لم يقمها كما أمر الله.

٢٠- أن ذكر الله تعالى بأنواع الذكر، بالقلب واللسان والجوارح، والتعبد له في

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨٢، وأبو داود في السنة ٤٦٧٨، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧٨؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٢١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧٩ من حديث بريدة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الطهارة ٨٤؛ من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

الصلاة التي هي أعظم العبادات، أو خارجها بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وغير ذلك، أكبر وأعظم وأفضل من كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٢١- إثبات علم الله تعالى الواسع بجميع أعمال العباد، وإحصائها عليهم، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم عليها، خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

٢٢- إثبات الاختيار والفعل للعبد؛ لقوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾ وفي هذا رد على الجبرية والقدرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾، أي: ولا تخاصموا وتنازعوا، والنهي للأمة كلها.

﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ اليهود والنصارى، أي: ولا تخاصموهم في سبيل بيان الحق لهم، والرد على باطلهم.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بالطريقة والصفة التي هي أحسن، وذلك بحسن القصد، بحيث يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق، ونقض الباطل؛ مع قوة الحجة في المناظرة التي تندفع بها حجة الخصم، وتقوم بها عليه الحجة من دلائل الكتاب والسنة والآيات الشرعية والكونية، مع أدب المناظرة، وكون ذلك بالقول اللين، والكلام الطيب اللطيف، دون مغالبة أو استعلاء.

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ «إلا»: للاستثناء، أي: إلا الذين ظلموا من أهل الكتاب، فسعوا إلى إبطال الحق، وكذبوا وعاندوا، وحاربوا أهله، فهؤلاء يعاملون بالقوة والجلاد، والقتال والجهاد، مع القدرة على ذلك، ومع عدم القدرة على ذلك يتركون ولا يجادلون؛ فلا فائدة من جدالهم؛ لأنه قد ظهر عنادهم وظلمهم.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، أي: لتكن مجادلتكم لهم مبنية على هذا القول؛ لأنه من أحسن المجادلة؛ لما فيه من التوطئة والتمهيد، والتهدئة، والترغيب، أو الإلزام لهم، وردم الهوة بينكم وبينهم في الاختلاف، وبيان أن الأصل بينكم وبينهم الاتفاق على الأصول المهمة، وذلك طريق بل سبب للاتفاق على ما عداها.

أي: وقولوا: صدقنا بالذي أنزل إلينا، أي: بالقرآن الكريم على وجه التفصيل، وصدقنا بالذي أنزل إليكم؛ وهما: التوراة والإنجيل على وجه الإجمال.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾، أي: ومعبودنا ومعبودكم واحد، هو الله عز وجل وحده لا شريك له.

وفي هذا إرغام للنصارى في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة:٧٣]، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: ونحن له وحده مسلمون، أي: مستسلمون له بالتوحيد، منقادون لطاعته، مخلصون له عن الشرك.

ومفاد هذا: أنهم إذا أخبروكم بما لا تعلمون صدقه ولا كذبه، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم؛ كما قال ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**

وَمَآ أُنزِلَ ....﴾ الآية»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: كما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، أي: القرآن الكريم، المصدق لجميع الكتب قبله، و«ال» في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد الذهني.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ من اليهود والنصارى، الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل قبل تحريفهما، وبما جاء فيهما من البشارة بمحمد ﷺ، أمثال: النجاشي وعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهم، الذين امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾[القصص: ٥٢ - ٥٤].

فالمراد بالإيتاء في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإيتاء الكوني والشرعي؛ لأن كثيرًا من أهل الكتاب وإن أوتوه كوناً فإنهم لم يؤتوه شرعاً؛ لأنهم كذبوا به؛ ولهذا كذبوا القرآن مع تصديق كتبهم به.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: يؤمنون ويصدقون بالقرآن ويتبعونه، ويحُكِّمونه؛ لتيقنهم بأنه مصداق ما أخبرت وبشرت به كتبهم، وأنه المصدق لها، وسلامتهم من الحسد والهوى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، أي: ومن هؤلاء العرب- من قريش وغيرهم-

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ٤٤٨٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من يؤمن ويصدق به، أي: بالقرآن.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: وما يكذب بآياتنا وينكرها، ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الكافرون بالله من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم، الذين دأبهم الكفر والجحود، وستر الحق بالباطل؛ عنادًا واستكبارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَا كُنتَ﴾، أي: وما كنت يا محمد، ﴿تَتْلُواْ﴾، أي: تقرأ، ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾، أي: من قبل إنزال القرآن عليك، ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما كنت تقرأ من قبل إنزال القرآن عليك أيَّ كتاب.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، أي: ولا تكتب أيّ كتاب بيمينك؛ لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ﷺ: «**نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»(١).

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ «إذًا»: حرف جواب، واللام: رابطة لجواب شرط مقدر بـ«لو»، أي: لو كنت تتلو قبله كتابًا أو تخطه لارتاب المبطلون،.

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والمعنى: لو كنت تقرأ وتكتب لارتاب المبطلون، أي: لشك الذين يريدون إبطال الحق ونصرة الباطل، وقالوا: إنما أخذ هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء.

مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩١٣، ومسلم في الصيام ١٠٨، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هذا القرآن آيات بينات، مفصلات واضحات الدلالة على الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا، وفي هذا امتداح للقرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦].

﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾، أي: في صدور الذين أعطاهم الله العلم، فمنّ عليهم بحفظ القرآن في صدورهم، وتلاوته، وتعلمه وفهمه، والعمل به؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم»(١).

وفي هذا ثناء على أهل العلم، الذين يحفظون القرآن ويتلونه، ويفهمون معانيه، ويعملون به، ويتدبرونه حق تدبره. وليس الذين يقرؤونه ولا يجاوز تراقيهم، وما أكثرهم!.

وفيه امتنان عليهم بتيسير حفظه وتلاوته، وتفسيره لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وقيل: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، والأول أظهر.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: وما يكفر بآياتنا ويكذب بها.

﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الظالمون الذين بلغوا الغاية في الظلم؛ لكفرهم وشركهم، وإنكار حق الله عليهم، بل وصرفه لغيره، وتكذيبهم بآياته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٥٢﴾.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٩٥.

قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «آيةٌ» بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع.

أي: وقال المشركون المكذبون: ﴿لَوْلَآ﴾للتحضيض، أي: هلَّا أنزل على محمد ﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: دلالات وحجج وبراهين من ربه نشاهدها، تدل على صدقه وصحة ما جاء به؛ كناقة صالح وعصا موسى، ونحو ذلك.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وهم في هذا كاذبون، فقد أراهم ﷺ عدداً من الآيات الحسية؛ كانشقاق القمر، وتسبيح الطعام بين يديه، وتسبيح الحصى في يده(١)، وغير ذلك.

كما جاءهم بأعظم الآيات المعنوية وأكبر الآيات السماوية القرآن الكريم، ولكنهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قل لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ «إنما»: أداة حصر في الموضعين، أي: ما الآيات إلا عند الله، هو الذي إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها بمقتضى علمه وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾، أي: وما أنا إلا نذير، أي: محذِّر ومخوِّف، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن النذارة والتحذير والتخويف.

والحصر هنا إضافي، أي: لا أستطيع أن آتيكم بالآيات، وإنما الذي أستطيعه هو

---

(١) سبق تخريجها.

إنذاركم وتحذيركم من عذاب الله إن عصيتم أمره، أو ارتكبتم نهيه، وليس عليّ من أمر الإتيان بالآيات شيء، وليس علي هدايتكم؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي: أولم يكف هؤلاء المكذبين- القائلين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾- آيةً على صدقك وصحة نبوءتك: إنزالنا عليك القرآن يتلى عليهم، ويقرأ على الدوام؟ فهو آية مستمرة إلى يوم القيامة، وهو أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، عجزوا عن معارضته مع تحديه لهم؛ لبلوغه غاية الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره. وفيه كفاية وغنية عن كل آية، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣].

ولهذا قال ﷺ: «**ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إنزال الكتاب عليك ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لرحمة خاصة لك وللمؤمنين، ورحمة عامة للعالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: تذكير وعظة لقوم يؤمنون؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكرى.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الباء: زائدة لإفادة التوكيد، أي: كفى الله ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾؛ عليَّ فيما بلغتكم من رسالته؛ ولهذا أيدني بالمعجزات، والدلائل الواضحات، ولو تقولت عليه لانتقم مني؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا

---

(١) سبق تخريجه.

مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧].

وشهيدًا عليكم فيما قابلتموني به من تكذيب رسالته إليكم وحاكمًا بيني وبينكم، وسيجازي كلًّا منا بما عمل.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم جميع الذي في السموات والأرض من المخلوقات، ومن الناس وأعمالهم ومنه حالي وحالكم، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيحاسبهم جميعًا على ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ الواو: استئنافية، و«الذين»: مبتدأ، وخبره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذا من الحكم بينه وبينهم.

و«الباطل»: ضد الحق، وهو كل ما عبد من دون الله؛ ولهذا قابله بقوله: ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

قال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ الجملة في محل رفع خبر «الذين»، وحصر الخسران وأكده فيهم بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين، مع ضمير الفصل «هم».

أي: الذين بلغوا الغاية في الخسران، في دينهم ودنياهم وأخراهم، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، ففاتهم المطلوب، ولم ينجو من المرهوب؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، أي: ويستعجلك المشركون المكذبون يا محمد بالعذاب، أي: يطلبون منك دعاء الله بتعجيله؛ تحدياً؛ لشدة تكذيبهم وعنادهم وجهلهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥].

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: ولولا وقت محدد معين مضروب، حدده الله تعالى ووقته لتعذيبهم في الدنيا، أو يوم القيامة.

﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ عاجلًا؛ كما استعجلوه. واللام: واقعة في جواب «لولا».

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: وليأتينهم فجأة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم لا يشعرون بمجيئه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ توكيد لما قبله، أي: يطلبون منك تعجيل العذاب، وهو واقع بهم لا محالة؛ ولهذا قال:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ الجملة تعليلية، واللام: للتوكيد، أي: وإن جهنم لمحيطة بالكافرين من كل جهة ومن كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، ولن يفلتوا منها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، أي: يغطيهم العذاب الحسي في جهنم من فوقهم ومن تحت أرجلهم؛ تشديداً عليهم.

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ قرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم بالياء: ﴿وَيَقُولُ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «وَنَقُولُ».

أي: ويقول الله تعالى تبكيتًا وتقريعًا وتوبيخًا لهم، وإهانة: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ذوقوا وتجرعوا جزاء الذي كنتم تعملونه، أو جزاء عملكم.

وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وما بعدها.

وإنما جعل الذوق للعمل في قوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

الفوائد والأحكام:

١- نهي المؤمنين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، أي: إلا بالطريق والصفة التي هي أحسن؛ لأن ذلك أدعى لقبول الحق ونبذ الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٢- وجوب المجادلة بالتي هي أحسن؛ لأن الله نهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وغيرهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾[النحل:١٢٥].

٣- بلوغ القرآن والتشريع الإسلامي الغاية في الحسن في دعوة الناس ومجادلة المخالفين؛ حتى مع أهل الكتاب أشد الناس عتوًّا ومخالفة للحق.

٤- حرص الشرع على تأليف القلوب للإسلام؛ لنهي القرآن عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فغيرهم من باب أولى.

٥- أن من ظلم من أهل الكتاب فسعى لإبطال الحق، وكذب به، وعاند وحارب أهله؛ لا يعامل بالتي هي أحسن، بل يعامل بالقوة والمحاربة والقتال مع القدرة على ذلك، أو يترك مع عدم القدرة على قتاله، فلا فائدة من جداله، وقد عاند وظلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾.

٦- عدل الإسلام في النهي عن مجادلة أهل الكتاب عامة إلا بالتي هي أحسن، ما عدا الذين ظلموا منهم، فيعاملون بما يردعهم ويرد ظلمهم، وهكذا غير أهل الكتاب من الكفار. وفي هذا دلالة على أن من أهل الكتاب من ليس بظالم بل يريد الحق، ومنهم الظالم المعاند، وهكذا غيرهم من الكفار.

٧- أن لكل شخص أو طائفة ما يناسبه في دعوته إلى الله، أو إنكار ما هو عليه من باطل، فلا يساوَى بين الظالم وغيره، ونحو ذلك.

٨- أن مما أوجبه الله على سائر الأمم: الإيمان بجميع الكتب المنزلة، والإيمان بألوهيته وحده لجميع الخلق، والاستسلام والانقياد له وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

٩- أن الواجب قبول ما مع الخصم من الحق حتى ولو كان كافرًا، وعدم القدح في شيء مما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب؛ كما أن من حسن المناظرة وآدابها ذكر المسائل المتفق عليها أولًا؛ لتقريب الفجوة بين المتجادلين، ولإخراج المتفق عليه من المجادلة، وحصرها في المختلف فيه؛ ليكون ذلك توطئة، بل سببًا للاتفاق على المسائل المختلف فيها.

١٠- أن أهل الكتاب يؤمنون بالله ويقرون بألوهيته.

١١- ينبغي إذا أخبرنا أهل الكتاب بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ألا نصدقهم ولا

نكذبهم، بل نقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ كما أمرنا الله بذلك ورسوله ﷺ.

١٢- إثبات علو الله على خلقه بذاته وصفاته، وإنزال القرآن الكريم والتوراة والإنجيل من عنده، وأن القرآن كلام الله عز وجل، والرد على القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

١٣- امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بإنزال القرآن عليه، وإثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بذلك وبخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، وقوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾.

١٤- إيمان المنصفين من أهل الكتاب بالقرآن، وتصديقهم به؛ لشهادة كتبهم وتصديقها له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾.

١٥- إيمان بعض العرب من قريش وغيرهم، وتصديقهم بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾.

١٦- وضوح آيات الله تعالى ودلالتها التامة على أنها من عند الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعلى صدق من جاء بها، وأنه لا يجحدها ولا يكذب بها وينكرها إلا الكافرون المعاندون، الذين ينكرون ضوء الشمس في وضح النهار، الظالمون المعتدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٧- أن النبي ﷺ ما كان يقرأ ولا يكتب قبل إنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾.

١٨- أنه لو كان ﷺ يقرأ ويكتب قبل إنزال القرآن عليه لارتاب المبطلون الذين يريدون إبطال الحق، ونصرة الباطل، ولقالوا: إنما أخذ هذا من كتب الأنبياء قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

١٩- امتداح الله تعالى لكتابه القرآن الكريم، وأنه آيات بينات واضحات الدلالة على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

٢٠- ثناؤه عز وجل على أهل العلم الحافظين لكتاب الله في صدورهم، المتدبرين لألفاظه ومعانيه، العاملين به؛ لقوله تعالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

٢١- فضيلة العلم وأهله والترغيب فيه وفي حفظ القرآن الكريم.

٢٢- تعنت المشركين المكذبين باقتراحهم وطلبهم الآيات، معرضين عما جاءهم من الآيات، وعن القرآن الكريم أعظم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وإقرار المشركين بذلك؛ لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٢٤- أن الآيات عند الله، وأمر إنزالها إلى الله تعالى وحده؛ لتمام قدرته، وعلمه وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٢٥- أنه ﷺ ما هو إلا نذير بيِّن النذارة والتحذير من عذاب الله تعالى، وليس إليه أمر الآيات، ولا هداية الخلق؛ لقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢٦- الاكتفاء بذكر الإنذار؛ لأن المقام مقام محاجة للكافرين، وأيضا فإن من لازم الإنذار التبليغ، ببيان التكاليف، التي ينذر من خالفها، وفي المقابل يبشر من امتثلها.

٢٧- أن في إنزال القرآن على النبي ﷺ يتلى عليهم كفايةً عن جميع الآيات؛ لأنه أجل الآيات، وأكبر المعجزات، وفيه دلالة واضحة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به؛ لأهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٨- أن في إنزال القرآن رحمة خاصة له ﷺ، وللمؤمنين، ورحمة عامة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾.

٢٩- أنه إنما يتذكر بالقرآن وينتفع به المؤمنون خاصة، دون غيرهم من المعرضين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣٠- كفاية الله عز وجل شهيدًا بينه ﷺ وبين المكذبين له، يشهد عز وجل على صدقه ﷺ فيما بلغهم من رسالة ربه، ويشهد على مقابلتهم له بالتكذيب، ويحكم بينه

وبينهم ويجازي كلًّا منهم بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

٣١- أن شهادة الله تعالى أعظم شهادة وأكبرها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩].

٣٢- أن شهادة الله تعالى تكون بالقول، كما قال عز وجل للنبي ﷺ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

وتكون بالفعل بالتأييد والتمكين والنصر.

٣٣- علم الله عز وجل الواسع المحيط بما في السموات والأرض وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣٤- خسارة الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله غاية الخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ومفهوم هذا أن من كفر بالباطل وآمن بالله فهو الرابح حقًّا.

٣٥- استعجال المشركين المكذبين بالعذاب؛ لجهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

٣٦- حكمة الله تعالى، وأن كل شيء عنده بقدر وأجل، وأنه لولا وقت حدده الله وعيَّنه وضربه لتعذيبهم في الدنيا أو يوم القيامة؛ لجاءهم العذاب عاجلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

٣٧- تهديدهم ووعيدهم بإتيان العذاب إليهم فجأة وهم لا يشعرون به، وذلك أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٣٨- استعجالهم بالعذاب مع أنه واقع بهم لا محالة؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة بجهنم المحيطة بجميع الكافرين من كل جانب؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

٣٩- غشيان العذاب الحسي لهم، وإحاطته بهم من فوقهم ومن تحتهم؛ لقوله

تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

٤٠- إثبات القيامة وجهنم وعذابها.

٤١- الجمع لهم بين العذاب الحسي في النار، وبين العذاب المعنوي المنصب على القلوب، بالتبكيت والتقريع والتوبيخ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٤٢- أن الجزاء من جنس العمل؛ وكما يدين المرء يدان؛ لقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا إثبات عدل الله تعالى.

٤٣- إطلاق السبب على المسبب؛ لقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهم يذوقون ما تسبب عن عملهم وهو العذاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾:

قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾؛ «يا»: حرف نداء، و«عباد»: منادى، وهو مضاف، وياء المتكلم مضاف إليه.

والمراد بالعبودية هنا: العبودية الخاصة لله تعالى، وهي أشرف ما يوصف به البشر.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ صفة لـ«عبادي»، أي: الذين آمنوا وصدقوا باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وفي نداء الله تعالى لهم بوصف عبوديتهم له، وبوصف الإيمان، تشريفٌ وتكريمٌ لهم.

﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ امتنان عليهم بسعة أرضه عز وجل، وإعذار إليهم بأنه ما ضيق عليهم.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾، أي: فاعبدوني وحدي، وهاجروا من الأرض التي لا تقدرون فيها على عبادتي وإقامة دينكم إلى أرضي الواسعة؛ حيث يمكنكم عبادتي وتوحيدي، وإظهار دينكم.

وهكذا فعل ﷺ وأصحابه الكرام حين كانت مكة دار شرك، فهاجر بعض

أصحابه الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم هاجر ﷺ وإياهم الهجرة الثانية إلى المدينة.

وقد توعد الله تعالى الذين تركوا الهجرة وأقاموا مع المشركين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

وقال ﷺ: «**أنا بريء من أي مسلم يقيم بين أظهر المشركين**»، قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»(١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ جاءت هذه الآية في سورة آل عمران: الآية:١٨٥، وفي سورة الأنبياء، الآية:٣٥، أي: كل نفس ميتة من بني آدم وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨].

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فلَّ من جمع وأفنى من دول(٢)

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ قرأ أبو بكر عن عاصم بالغيب: «يُرْجَعُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثم إلينا تردون بعد البعث للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ – ٢٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لابن دريد، من لاميته.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالثاء المثلثة، ساكنة بعد النون، وإبدال الهمزة ياء: «لَنُثْوِيَنَّهُمْ»؛ من الثواء، وهو الإقامة، وقرأ الباقون بالباء الموحدة والهمزة: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ من التبوء، وهو المنزل.

واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنسكننهم وننزلنهم من الجنة غرفًا، أي: منازل ومساكن عالية؛ كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة، السارحة بغير أخدود، يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾، أي: مقيمين وماكثين فيها إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها، ولا يهرمون، ولا يخرجون منها؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨].

﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أي: نعم هذه الغرف والمنازل العالية في الجنة والتي تجري من تحتها الأنهار وهم خالدون فيها.

﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أي: جزاؤهم، وهذه مدح من الله تعالى لها، فأنعِم بها من غرف! وأكرم بها من منازل! وفيه ثناء عليهم؛ ولهذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، أي: حبسوا أنفسهم على طاعة الله تعالى، فهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، ولازموا طاعته، وصبروا عن معصية الله تعالى، وصبروا على أقداره المؤلمة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: وعلى ربهم وحده دون سواه يعتمدون، ويفوضون أمورهم إليه في جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، مع تمام ثقتهم به عز وجل؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾، أي: وكم من دابة، أي: وكثير من الدواب.

﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾، أي: لا تستطيع أن تكتسب وتحصل رزقها، ولا تطيق جمعه وتحصيله، وادخار شيء منه لغد.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾، أي: يعطيها رزقها وييسره لها بأي سبب كان.

وقد ذكر أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض، وخرجوا وهم بيض، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحًا فاه يتفقد أبويه فيقيض الله له صغارًا من الحشرات كالبعوض، فيغشاه فيقتات منه تلك الأيام حتى يسود شعره، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رأياه أبيض الريش نفرا منه، فإذا اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق؛ ولهذا قال الشاعر:

يـــا رازق النعّـــاب[1] في عشـــه ... وجـابر العظـم الكسـير المهـيض

﴿وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، أي: ويرزقكم وييسر رزقكم، فمن هاجر ابتغاء مرضاة الله لإقامة دينه أدرّ الله عليه الرزق أينما كان، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: ٦].

وقد أحسن القائل:

وإذا رأيـت الـرزق ضـاق ببلـدة ... وخشـيت فيهـا أن يضـيق المـذهب

فارحـل فـأرض الله واسـعة الفضـا ... طـولًا وعرضًـا شرقهـا والمغـرب

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، أي: ذو السمع الذي يسمع ويجيب الدعاء، ويسمع جميع الأقوال والأصوات. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ ذو العلم الذي وسع كل شيء،، ويعلم أحوال جميع الدواب، وحوائج جميع الخلائق ويرزقهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾:

---

(١) «النعّاب»: فرخ الغراب، سمي بذلك لكثرة نعيبه.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ الواو في الموضعين: استئنافية، واللام فيهما: موطئة للقسم، أي: والله لئن سألت هؤلاء المشركين والمكذبين الذين آمنوا بالباطل، وكفروا بالله، واستعجلوا العذاب. والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: من الذي أنشأ السموات والأرض وأوجدهما، وأتقنهما، وما فيهما من العوالم والمخلوقات؟ و«من» في الموضعين: اسم استفهام.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: ومن الذي ذلل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب دقيق لمصالح العباد ومنافعهم؟ كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]، وقال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩].

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن: الله الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: فكيف يؤفكون؟!. ومعنى «يؤفكون»: يُصرفون، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾[غافر:٦٩].

أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله تعالى، ويجعلون إفكًا وكذبًا آلهة يعبدونها من دونه، وهم يعلمون ويعترفون بأنه الرب الخالق المالك المدبر، وأن هذه الآلهة لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا؟!

فإقرارهم بربوبية الله تعالى وحده يوجب عليهم أن يعبدوه وحده، واعترافهم بأن

آلهتهم لا تملك من الأمر شيئًا يوجب الإقرار ببطلان عبادتها.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: الله عز وجل وحده يوسع الرزق والعطاء للذي يشاء ويريد من عباده كلهم، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن المراد بالعبودية هنا: العبودية العامة، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾، أي: ويضيق الرزق للذي يشاء ويريد من عبادهم كلهم؛ لحكمة يعلمها، ابتلاءً وامتحانا، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل:٤٠].

وليس توسيعه الرزق دليلًا على رضاه، ولا تضييقه دليلًا على سخطه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ متعلق بالخبر «عليم»، وقُدِّم عليه؛ لتأكيد عموم علمه بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذبين: من الذي نزل من السماء ماءً وهو المطر.

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: فأحيا بهذا الماء- أي: بسببه- الأرض بالنبات والزروع والأشجار.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾، أي: من بعد قحطها وجدبها ويبسها؟

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الله الذي نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾؛ لما اعترف المشركون بتفرده عز وجل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وأنه ليس لآلهتهم شرك في ذلك، وكان ذلك موجبًا لإبطال إشراكهم مع الله بما لا يستطيعون إنكاره، والإقرار بالبعث؛ لأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لهذا أمر الله رسوله ﷺ بقوله:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، أي: الحمد لله على إقامته الحجة، وإيضاحه المحجة بأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وعلى قدرته التامة على البعث، وهو أمر له ﷺ ولكل مؤمن.

ومعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الثناء والوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، خاص بالله تعالى، مستحَق له وحده؛ لكمال ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثرهم لا يتأملون بعقولهم في آيات الله تعالى ودلائل وحدانيته وربوبيته؛ ليهتدوا بذلك إلى وحدانيته في ألوهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾.

٢- تشريف الله تعالى وتكريمه للمؤمنين بندائه لهم بوصف العبودية، الذي هو أجل وصف يوصف به البشر، وإضافتهم إليه في قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾.

٣- وصفه عز وجل لعباده بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وترغيبًا للاتصاف بهذا الوصف، وامتثال الأمر بعده، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ كما أن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٤- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة.

٥- امتنانه عز وجل على العباد بسعة أرضه، والإعذار إليهم، بأنه ما ضيق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾.

٦- وجوب الهجرة من الأرض التي لا يتمكن فيها الإنسان من إقامة دينه، إلى أرض يتمكن فيها من عبادة الله تعالى وإظهار دينه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾، وهكذا فعل ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؛ فهاجر بعضهم إلى الحبشة، ثم هاجر ﷺ بعد ذلك هو وكثير منهم إلى المدينة.

٧- وجوب إخلاص العبادة كلها لله تعالى وحده، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

٨- أن كل نفس ميتة لا محالة من جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٩- إثبات البعث والقيامة، ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، وفي هذا وعد ووعيد، وحث على

محاسبة النفس.

١٠- عظم ما أعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المنازل العالية، والغرف الرفيعة في الجنة، وما فيها من الأنهار والنعيم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

١١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٢- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، وسنة نبيه ﷺ.

١٣- امتداح الله تعالى لما أعده للمؤمنين من الأجر العظيم؛ جزاء عملهم وصبرهم وتوكلهم على ربهم، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن العمل، بأن آمن وعمل صالحًا وصبر وتوكل على ربه؛ جوزي بأحسن الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

١٥- تكفل الله عز وجل بهذا الثواب للمؤمنين؛ لإقسامه على ذلك بقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ وتسميته أجرًا في قوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، مع أنه سبحانه لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه تكفل بذلك وأوجبه على نفسه؛ تفضلًا منه وكرمًا.

١٦- فضيلة الصبر وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

١٧- وجوب التوكل على الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح والصبر والتوكل على الله عز وجل وحده؛ لعظم ما أعده عز وجل لمن آمن وعمل صالحًا، وصبر وتوكل على ربه.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

١٨- تكفل الله عز وجل برزق جميع الخلق، والدواب ضعيفها وقويها؛ لقوله

تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

١٩- أن الأرزاق كلها بيد الله، وهو الرزاق وحده، فيجب بذل السبب، والتوكل على الله.

عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب؛ فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم**»(١).

٢٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: السمع الواسع، والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فهو عز وجل يسمع الأقوال والأصوات، ودعاء السائلين ويجيبهم، ويعلم أحوال الخلق أجمعين ويرزقهم.

٢١- اعتراف المشركين بربوبية الله تعالى، وأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، ونزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢٢- إثبات ان الله هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها.

٢٣- الإنكار عليهم، والتعجب من صنيعهم؛ كيف يقرون بربوبية الله تعالى وحده، وأنه الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها دون آلهتهم، ومع ذلك يشركونها مع الله؟! لأن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٢٤- أن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي، فالمشركون مقرّون به ولم ينفعهم ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات ٢١٤٤.

٢٥- تفرده عز وجل واختصاصه بتقسيم الأرزاق على الخلق، يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحكمته البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٢٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٨- علم الله تعالى المحيط بكل شيء من أحوال الخلق، وما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، من بسط الرزق، أو تضييقه، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

٢٩- إقرار المشركين المكذبين بالبعث بأن الله يحيي الأرض من بعد موتها، وفي هذا حجة عليهم، على قدرته على بعث الأجساد بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾.

٣٠- قدرة الله تعالى التامة وحكمته، ورحمته في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به، وإحياء الموتى وبعثهم.

٣١- إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

٣٢- اختصاص الله عز وجل واستحقاقه للثناء والوصف بأكمل الصفات، ووجوب حمده؛ لإقامته الحجة، وإيضاحه المحجة، على وحدانيته في ألوهيته، وبطلان الشرك، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾.

٣٣- أن أكثر المشركين وأكثر الخلق لا ينتفعون بعقولهم في التأمل في آيات الله تعالى ودلائل وحدانيته وربوبيته، فلا يستدلون بها على وحدانيته في ألوهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ الحياة الدنيا: بدايتها منذ خلق الله الخليقة إلى قيام الساعة، أي: ما قبل الآخرة، وهي بالنسبة للفرد: منذ ولادته إلى أن يموت.

وسميت: «دنيا»؛ لأنها قبل الآخرة زمنًا؛ كما أنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة؛ ولهذا أشار إليها هنا بقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ للإشارة إلى حقارتها ودنو مرتبتها، كما وصفها عز وجل بأنها لهو ولعب، بينما وصف الآخرة بأنها الحيوان؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

والمعنى: وما الحياة الدنيا في حقيقتها وقيمتها، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا مجرد ﴿لَهْوٌ﴾؛ تلهو فيها القلوب، ﴿وَلَعِبٌ﴾؛ تلعب فيها الأبدان والجوارح؛ لما فيها من الفتنة والزينة واللذات والشهوات، وسرعان ما تزول وتنتهي.

كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ

وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٣٦].

فمن قصد الدنيا وأرادها فليس له منها إلا اللهو واللعب، لكن من عرف حقارتها، وجعلها مطية للعمل للآخرة، فهي نعمت المطية والمحل لعمارة الدار الآخرة.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لهي الحياة الكاملة حقًّا؛ لاكتمال حياة البدن والقلب والنفس فيها، وجميع القوى، ولأنها دائمة باقية أبد الآباد، لا زوال لها ولا انقضاء.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم، أي: لو كان الخلق يعلمون فرق ما بين الدارين، وحقارة الدنيا، وعظم منزلة الآخرة، لما اختار كثير منهم الدنيا على الآخرة، ولآثروا ما يبقى على ما يفنى، وجدّوا واجتهدوا للعمل للآخرة؛ كما قال الرجل المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

ذكر اعتراف المشركين فيما تقدم بأن الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر هو الله، وأن الذي ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها هو الله، ثم ذكر اعترافهم أيضاً بلسان حالهم ومقالهم أنه لا يفرج الكرب والشدة إلا الله دون آلهتهم.

قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: فإذا ركب المشركون في السفن، وأحاطت به أمواج البحر المتلاطمة وأحدق بهم الخطر والهلاك، واشتد بهم الحال، وضاق عليهم الأمر.

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: دعوا الله تعالى وسألوه وحده مخلصين له الدين اضطرارًا دون شركائهم؛ لعلمهم أنه لا ينجيهم في هذا الموقف إلا الله تعالى وحده.

كما ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل؛ أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة خرج فارًّا منها، فلما ركب البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال

أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا ينجي ههنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضًا، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا، وكان كذلك»(١).

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«لما» ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط، أي: فلما نجاهم عز وجل إلى البر، وزالت عنهم الشدة.

﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ «إذا»: هي الفجائية، أي: سرعان ما أعرضوا، ونسوا دعاءهم إياه، وإنجاءه إياهم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۚ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وقالون بإسكان اللام: «وَلْيَتَمَتَّعُوا»، وقرأ الباقون بكسر اللام: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۚ﴾.

واللام في الموضعين: لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يكفروا بما آتيناهم ويتمتعوا.

وقال بعضهم: هي لام التعليل، باعتبار أن الله قيض لهم ذلك.

أي: ليكفروا بالذي أعطيناهم من الأمن في البلد الحرام والرزق، وإنجائهم من الغرق، ومن بعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق، وأعظِمْ بها من نعمة لو عرفوا قدرها.

﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۚ﴾؛ أي وليتمتعوا في ملذاتهم وشهواتهم، وفسقهم وفجورهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ «سوف»: حرف استقبال، وهذا وعيد وتهديد لهم، أي: فسوف يعلمون عاقبة شركهم، وكفرهم بما آتاهم الله، وجحودهم نعمه، وإيثارهم التمتع

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٠٢.

باللذات والشهوات والفسق والفجور، وذلك حين يحل بهم عقاب الله عاجلًا أو آجلًا.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾؛ الاستفهام للإنكار، أي: أولم ير مشركو قريش، أي: يعلموا ويشاهدوا أنا صيرنا حرمًا آمنًا، وهو البلد الحرام، مكة شرفها الله تعالى؟!

﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، أي: ويؤخذ الناس من حولهم بالاعتداء عليهم بالقتل والنهب والسلب وغير ذلك، وهم آمنون مطمئنون، لا يعتدى عليهم في مقامهم لحرمة الحرم، ولا في أسفارهم لأنهم أهل الحرم.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ الاستفهام للإنكار، أي: أفبالباطل، وهو ما هم عليه من الشرك والكفر والفسوق والفجور، وكفر النعم ونحو ذلك، قال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .....(١)

﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون.

﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، أي: وبما أنعم الله به عليهم من الأمن في الحرم، وجلب الثمرات إليهم، وبعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق.

﴿يَكْفُرُونَ﴾، أي: يجحدون تلك النعم وينكرونها، ويكذبون بها، بإشراكهم مع الله غيره، وتكذيب رسوله. وفي هذا تهديد لهم مع الإنكار عليهم.

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: لا أحد أشد ظلمًا، أي: وأشد عقوبة.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: من الذي اختلق على الله كذبًا، بأن قال: إن الله أوحى إليّ، ولم يوح إليه شيء، أو قال على الله ما لا يعلم، أو نسب ما هو عليه من الضلال والشرك إلى الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾، أي: ولا أحد أشد ظلمًا من الذي كذب بالحق حين جاءه من عند الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ الاستفهام للتقرير، وفيه معنى الإنكار؛ كما في قول جرير(١):

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح؟!

أي: أليس في النار، وسميت النار بـ«جهنم»؛ لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٩٣).

﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: مأوى لهم ومستقرًّا ومسكنًا.

والمعنى: فيها مثوى ومأوى ومستقر لهم، ومحل إقامة، خالدين فيها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧].

وفي قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم، وأنه سبب دخولهم النار، وليعم هذا الوعيد كل كافر.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لما ذم المشركين المكذبين الكافرين، وأنكر عليهم كفرهم وعدم شكرهم، وتوعدهم بجهنم، أثنى على من جاهدوا في دينه عز وجل من المحسنين، ووعدهم بهدايتهم إلى سبيل مرضاته، ومعيته لهم معية خاصة؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟﴾، أي: والذين بذلوا جهدهم وطاقتهم ﴿فِينَا﴾، أي: في سبيل الله ودينه، وابتغاء مرضاته، فجاهدوا أعداءه بالسيف والسنان، والحجة والبرهان، وجاهدوا أنفسهم بلزوم طاعة الله تعالى، والبعد عن محارمه؛ وهم الرسول ﷺ، وأصحابه، وأتباعهم على الإيمان إلى يوم الدين.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنوفقنهم ونبصرنهم وندلنهم طرقنا الموصلة إلينا، وهي الأعمال الصالحة، الموصلة إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: وإن الله لمع المحسنين معية خاصة؛ بهدايته إياهم، وتوفيقه لهم، وعونه وتسديده، ونصره وتأييده.

و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ، ممتثلين قوله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وأحسنوا إلى عباد الله تعالى بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا، وجمعوا بين الإحسان القولي، والإحسان الفعلي وهذه الآية؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- حقارة الدنيا ودنو منزلتها؛ لأنها مجرد لهو ولعب، وسرعان ما تزول وتنقضي، وتعقبها الندامة والحسرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

مما يوجب الحذر منها، وعدم الاغترار بها، وأن يجعلها الإنسان مطية للآخرة، ويعمرها بالإيمان والأعمال الصالحة، فإن فعل ذلك أفلح ونجح، وكانت له نعم المطية.

٢- أن الدار الآخرة هي الحياة الحقة الكاملة، والحياة الدائمة الباقية، التي لا زوال لها ولا انقضاء؛ مما يوجب أن يحسب المرء لها كل حساب، ويستعد لها بكل استعداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾.

٣- أن الخلق لو كانوا يعلمون فرق ما بين الدارين، وحقارة الدنيا، وعظم منزلة الآخرة، لما اختار أحد منهم الدنيا على الآخرة، ولآثروا الحياة الباقية على الحياة الفانية؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٤- أن من آثر الدنيا على الآخرة فهو لا يعلم، وإن أرعد وأزبد وادعى أنه يعلم، بل هو جاهل مركب، وأجهل من حمار أهله، لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم.

٥- إخلاص المشركين الدعاء لله تعالى وحده إذا اشتد بهم الحال عند ركوبهم البحر وتلاطم أمواجه، وإحداق الخطر والهلاك بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وفي هذا اعتراف منهم بلسان الحال- إن لم يكن بلسان- المقال بأن آلهتهم لا تنفعهم.

٦- أن اللجوء إلى الله تعالى عند الشدة أمر فطري .

٧- أن دعاء المسألة من الدين والعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٨- ذم المشركين بمبادرتهم بالرجوع إلى الشرك بالله بعد إنجائه إياهم إلى البر، ونسيانهم ما كانوا يدعون من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

٩- رجوع المشركين بعد إخلاصهم الدعاء لله حال الشدة إلى الشرك- بعد إنجائه

إياهم- وكفرهم وجحودهم لما آتاهم الله وأنعم به عليهم؛ من الأمن في الحرم وفي أسفارهم، وجلب الأرزاق لهم، وإنجائهم من الغرق، وبما آتاهم الله على لسان رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق. وإيثارهم للتمتع بما هم فيه من الملذات والشهوات والفسق والفجور؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۚ﴾.

١٠- التهديد لهم بما يستقبلهم من العذاب الشديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

١١- أن المشركين المتأخرين أشد شركًا؛ لأنهم يشركون في الرخاء والشدة.

١٢- الإنكار على قريش عدم شكرهم لنعمة الله تعالى في جعل مكة حرمًا آمنًا، يأمنون بسببه في إقامتهم، وفي أسفارهم؛ لأنهم أهل الحرم وسكانه، بينما يتخطف الناس من حولهم، بالقتل والسلب والنهب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

١٣- الإنكار عليهم في إيمانهم بالباطل؛ مما هم عليه من الشرك والكفر والظلم والافتراء والتكذيب، وكفرهم بنعمة الله في جعلهم آمنين في مقامهم في الحرم، وفي أسفارهم، وجلب الثمرات إليهم، وأعظم من ذلك وأهم- لمن عرف قدر ذلك- بعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

١٤- أن نعمة الأمن من أعظم النعم؛ لهذا امتن الله بها على قريش.

١٥- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق على الله كذبًا بدعوى النبوة وهو كاذب، والقول على الله بلا علم، ونحو ذلك، أو كذب بالحق لما جاءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾.

١٦- تقرير وإثبات أن جهنم مثوى الكافرين، ومستقرهم ومأواهم، خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٧- وعد الله تعالى- الذي لا يخلف وعده- للذين بذلوا جهدهم وطاقتهم في جهاد أعدائه بالسيف والسنان، والحجة واللسان، وفي لزوم طاعته، والبعد عن محارمه؛ بتوفيقهم وهدايته سبل مرضاته الموصلة إليه وإلى جنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، وفي هذا ترغيب وحث على المجاهدة في الله؛ ابتغاء مرضاته.

١٨- إثبات معية الله الخاصة للمحسنين، الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى، وإلى عباده، وأنه عز وجل معهم معية خاصة بالتوفيق والنصر والحفظ والتأييد لهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وفي هذا إغراء وترغيب بالإحسان.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الشعراء ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢...﴾ الآيات [١-٩] ١١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ...﴾ الآيات [١٠-٢٢] ١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ...﴾ الآيات [٢٣-٣٧] ٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ...﴾ الآيات [٣٨-٥١] ٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ...﴾ الآيات [٥٢-٦٨] ٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ...﴾ الآيات [٦٩-٨٩] ٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ...﴾ الآيات [٩٠-١٠٤] ٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ...﴾ الآيات [١٠٥-١٢٢] ٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ...﴾ الآيات [١٢٣-١٤٠] ٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ...﴾ الآيات [١٤١-١٥٩] ٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ...﴾ الآيات [١٦٠-١٧٥] ٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ...﴾ الآيات [١٧٦-١٩١] ١٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ...﴾ الآيات [١٩٢-٢١٢] ١١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ الآيات [٢١٣-٢٢٧] ... ١٢٣

تفسير سورة النمل ١٣٧
المقدمة ١٣٩
أ- اسم السورة: ١٣٩
ب- مكان نزولها: ١٣٩
جـ- موضوعاتها: ١٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ...﴾ الآيات [١-٦] ١٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا...﴾ الآيات [٧-١٤] ١٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا...﴾ الآيات [١٥-١٩] ١٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ...﴾ الآيات [٢٠-٢٦] ١٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ...﴾ الآيات [٢٧-٣٥] ١٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ...﴾ الآيات [٣٦-٤٤] ١٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا...﴾ الآيات [٤٥-٥٣] ١٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ...﴾ الآيات [٥٤-٥٨] ٢٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ...﴾ الآيات [٥٩-٦٦] ٢١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ...﴾ الآيات [٦٧-٨١] ٢٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات [٨٢-٨٦] ٢٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ الآيات [٨٧-٩٣] ٢٤٦

تفسير سورة القصص ٢٥٧
المقدمة ٢٥٩
أ- اسم السورة: ٢٥٩
ب- مكان نزولها: ٢٥٩
جـ- موضوعاتها: ٢٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ...﴾ الآيات [١-٦] ٢٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ...﴾ الآيات [٧-١٣] ٢٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ...﴾ الآيات [١٤-٢٠] ٢٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ...﴾ الآيات [٢١-٢٨] ٢٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ...﴾ الآيات [٢٩-٣٥] ٣٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى...﴾ الآيات [٣٦-٤٢] ٣١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ...﴾ الآيات [٤٣-٥١] ٣٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ...﴾ الآيات [٥٢-٥٧] ٣٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ...﴾ الآيات [٥٨-٦٧] ٣٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ...﴾ الآيات [٦٨-٧٥] ... ٣٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ...﴾ الآيات [٧٦-٨٢] ٣٦٥

تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا...﴾ الآيات [٨٣-٨٨]..... ٣٧٨
تفسير سورة العنكبوت..... ٣٨٧
المقدمة ٣٨٩
أ- اسم السورة: ٣٨٩
ب- مكان نزولها:..... ٣٨٩
جـ-موضوعاتها:..... ٣٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ...﴾ الآيات [١-٧]..... ٣٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ الآيات [٨-١٣] ٤٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا...﴾ الآيات [١٤-٢٧]..... ٤١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ...﴾ الآيات [٢٨-٣٥] ٤٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآيات [٣٦-٤٠] .. ٤٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا...﴾ الآيات [٤١-٤٥]..... ٤٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ...﴾ الآيات [٤٦-٥٥]..... ٤٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ...﴾ الآيات [٥٦-٦٣]..... ٤٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ...﴾ الآيات [٦٤-٦٩] ٤٧٩
فهرس الموضوعات..... ٤٨٩

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد السابع عشر

تفسير سورة الروم ولقمان والسجدة والأحزاب

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٧

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٥١٥ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلرُّومِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الروم»؛ لأنه ذكر فيها اسم «الروم» ووقوع الغلبة عليهم، والبشارة بأنهم بعد غَلَبهم سيَغْلبون، في قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيب أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى الصبح فقرأ فيها الروم، فأوهم، فقال: إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقوامًا منكم يصلون معنا، لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا، فليحسن الوضوء[1]. قال ابن كثير[2]: «وهذا إسناد حسن، ومتن حسن».

د- موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة الروم» بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، ثم ذكر حصول الغلبة على الروم في أدنى الأرض ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾.

٢- إثبات أن وعده عز وجل حق، وخبره صدق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويقربهم إلى الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧١، ٥/ ٣٦٨.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٣٣٣.

٣- تقريع وتوبيخ الكافرين الغافلين عن الآخرة؛ لعدم تفكرهم في أنفسهم في خلق السموات والأرض وما بينهما وأن الله ما خلقهما إلا بالحق، أي: ما خلقهما إلا لأجل عبادته عز وجل، وأجل مسمى ينتهي بهم إلى البعث بعد الموت والحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

٤- تقريعهم وتوبيخهم لعدم تأملهم كيف كان عاقبة المكذبين قبلهم، وهم يسيرون في الأرض ويرون آثارهم، و﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

٥- أن السيئة سبب للسيئة بعدها ولما هو أسوأ منها، وأن الجزاء من جنس العمل ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾.

٦- إثبات البعث ورجوع الخلائق إلى الله تعالى، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك، وإبلاس المجرمين في ذلك اليوم، وتخلي شركائهم عنهم، وكفرهم بشركائهم. وتفرق الناس في ذلك اليوم، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾.

٧- مشروعية تسبيح الله تعالى في جميع الأوقات بتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وبأداء الصلوات في أوقاتها، والأذكار في الصباح والمساء. واختصاصه عز وجل بالحمد في السموات والأرض في جميع الأوقات ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾.

٨- بيان تمام قدرته عز وجل في إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وإحياء الأرض بعد موتها، وعلى إخراج الناس بعد الموت من قبورهم.

٩- بيان عظيم آياته وتمام نعمته، في خلق بني آدم من تراب، فإذا هم بشر ينتشرون، وفي خلقه لهم من أنفسهم أزواجًا؛ ليسكنوا إليها وجعله بينهم مودة ورحمة، وفي خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وفي منامهم بالليل والنهار وابتغاؤهم من فضله، وفي إراءتهم البرق خوفًا وطمعًا، وإنزال الماء من السماء، وإحياء

الأرض بعد موتها، وفي قيام السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاهم دعوة من الأرض إذا هم يخرجون.

١٠- بيان عموم ملكه عز وجل للسموات والأرض، وخضوع جميع الخلائق وطاعتهم له كونا، أو كونًا وشرعًا، وبدؤه الخلق ثم إعادته وهو أهون عليه، وله وحده المثل الأعلى في السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

١١- ضربه عز وجل للمشركين الذين أشركوا معه غيره مثلاً من أنفسهم، كيف يجعلون له شريكًا من خلقه ومملوكاته، وهم لا يرضون أن يكون مماليكهم لهم شركاء فيما رزقهم الله يستوون هم وإياهم في ذلك الرزق، وبيان أنهم ظلموا واتبعوا أهواءهم بغير علم، وأنه لا هادي لمن أضل الله، وما لهم من ناصرين.

١٢- أمره عز وجل له ﷺ بإقامة وجهه للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها، وبيان أن ذلك هو الدين القيم، وهو أمر له ولأمته؛ ولهذا قال: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٣- بيان أن من طبيعة الناس إذا مسهم الضر دعاء الله والإنابة إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة وكشف الضر عنهم إذا فريق منهم بربهم يشركون ويكفرون بنعمة الله تعالى، ووعيده وتهديده لهم.

١٤- بيان أن من طبيعة الناس الفرح عندما تصيبهم رحمة الله من الله تعالى، والقنوط عندما تصيبهم سيئة وشدة، بسبب ما قدمته أيديهم، وتوبيخهم في عدم تأملهم في أنه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وبيان أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

١٥- الحث على إيتاء صاحب القربى حقه والمسكين وابن السبيل ابتغاء وجه الله والترغيب في ذلك والتحذير من الربا ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

١٦- بيان تفرده عز وجل بالخلق والرزق والإماتة والإحياء، وإبطال ما يمليه المشركون من عبادة غير الله، ونفي أن يكون من شركائهم من يفعل من ذلك من شيء،

وتنزيهه عز وجل عن شركهم وشركائهم.

١٧- بيان أن ظهور الفساد في البر والبحر بسبب ما كسبته أيدي الناس من الكفر والشرك والمعاصي؛ لأجل أن يذيقهم عقوبة بعض الذي علموا لعلهم يرجعون، والأمر بالسير في الأرض والنظر والتأمل كيف كان عاقبة الذين من قبل الهلاك، لأن أكثرهم مشركون.

١٨- تأكيد أمره عز وجل له ﷺ بإقامة وجهه للدين حنيفًا، وهو أمر له ﷺ ولأمته، وذلك قبل إتيان يوم لا مرد له من الله، وهو يوم القيامة يومئذ يتصدعون ويتفرقون، فالكافر يحمل عاقبة كفره، ومن عمل صالحًا فقد مهد لنفسه ويجزيه الله تعالى من فضله لمحبته له، دون الكافرين.

١٩- بيان أن من آياته عز وجل، دلائل قدرته ورحمته إرسال الرياح بين يدي السحاب، تبشر بالمطر والرحمة؛ ولتجري الفلك بأمره؛ لابتغاء الرزق وشكره عز وجل، وتثير السحاب واستبشار الناس بنزول المطر، وإن كانوا قبل نزوله لمبلسين قانطين. والتوجيه إلى النظر والتأمل في آثار رحمة الله، كيف يحي الأرض بالمطر بعد موتها، والاستدلال بذلك على قدرته على إحياء الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وذكر عودة المشركين إلى الكفر بنعمة الله عندما يصفر هذا النبات ويموت.

٢٠- تسلية النبي ﷺ، وأنه كما لا يستطيع إسماع الموتى والصم الدعاء إذا ولو مدبرين، ولا يستطيع هداية العمي عن ضلالتهم، فهو لا يستطيع هداية من أضله الله ولا إسماعه. ما يُسمع إلا من يؤمن بآيات الله فهم مسلمون.

٢١- بيان أطوار خلق الإنسان، وأن الله عز وجل خلقه من ضعف ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾[الآية:٥٤].

٢٢- إقسام المجرمين يوم تقوم الساعة ما لبثوا في الدنيا غير ساعة، واستقلالهم لبثهم وتعميرهم فيها بسبب غفلتهم وعدم استعدادهم للآخرة. ورد الذين أوتوا العلم والإيمان عليهم بقولهم: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦﴾.

وبيان انقطاع المعاذير في ذلك اليوم فلا ينفع الذين كفروا معذرته ولا هم يستعتبون.

٢٣- بيان إقامته عز وجل الحجة على الناس بضربه في القرآن من كل مثل.

٢٤- تسليته ﷺ وتقوية قلبه، وأنه لو جاءهم بكل آية ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨﴾. فهذا ديدنهم؛ لطبعه عز وجل على قلوبهم كغيرهم من الذين لا يعلمون العلم الذي ينفعهم حقًا، وهو المعرفة بربهم ما يجب له، ثم أمره ﷺ بالصبر، وبيان أن وعده عز وجل حق، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۖ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾:

قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ سبق الكلام عن الحروف المقطعة أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، أي: هُزِمتْ وقُهرتْ دولة الروم، وهم أصحاب قيصر، وذلك بانتصار الفرس أصحاب كسرى؛ وهما الدولتان الكبيرتان في ذلك العهد، الروم من النصارى من أهل الكتاب، والفرس ليسوا أهل كتاب، بل يعبدون النار.

وبُني الفعل «غُلبت» للمفعول ولم يذكر الفاعل، والحكمة- والله أعلم- لسببين:

الأول: ليكون ذلك أعظم إهانة للفرس، وأنهم ليسوا أهلًا للذكر.

والثاني: ليكون هذا أخف بالنسبة لذل الروم وخذلانها، بحيث لم يقل: غلبت

فارس الروم.

والروم: من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، وكان مَن مَلَك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: «قيصر»، ودخلوا النصرانية بعد ذلك، واستمروا عليها، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم «هرقل»، فناوأه كسرى ملك الفرس وغزاه في بلاده فغلبه وقهره(١).

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: في أقرب أرض الروم من أرض الشام إلى فارس،، أي: استولى الفرس على الجزء المجاور لهم من أرض الروم، ففرح بذلك المشركون، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم وبشرهم بقوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

وإنما فرح كفار مكة بانتصار الفرس على الروم؛ لأن الفرس أهل أوثان مثلهم، والروم أهل كتاب، فتفاءلوا بذلك أن ينتصروا على المسلمين؛ لأن المسلمين أهل كتاب، وهم أهل أوثان كالفرس.

﴿وَهُم﴾، أي: الروم، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾، أي: من بعد هزيمة الفرس لهم، وظهورهم عليهم، وغلبتهم إياهم.

﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾، أي: سيغلبون الفرس، وينتصرون عليهم، وهذا خبر ووعد من الله بنصرهم.

وقد أكد هذا الوعد بغلبة الروم للفرس، بكون الجملة اسمية دالة على الثبوت والدوام، وبالسين الدالة على قربه وتحققه.

وفي قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾؛ تنبيه على عظم تلك الهزيمة عليهم؛ بحيث يظن أنه لا نصر لهم بعدها، ولتعظيم منة الله عليهم، وإظهار قوة وقع ذلك في نفوسهم، حيث صاروا غالبين، بعد أن كانوا مغلوبين، كما قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾[النور:٥٥].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٠٨).

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَۗ﴾؛ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى العشر، أي: في أمد غير طويل، والمعنى: خلال بضع سنين، في أولها، أو آخرها، أو في وسطها، وليس المعنى: بعد بضع سنين.

وفي الإخبار بهذا الأمر الغيبي معجزة من معجزات القرآن؛ كما أن فيه بشارة للمسلمين، وتحديًا للمشركين، وإرغامًا لأنوفهم؛ لكراهيتهم انتصار الروم.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ اللام في «لله»: للاختصاص، و«ال» في «الأمر» للاستغراق، أي: لله وحده الأمر من قبل ذلك ومن بعده، أي: من قبل غلبة الروم لفارسَ، ومن بعد غلبتهم إياهم.

والمراد بالأمر هنا: الأمر الكوني القدري، أي: أن الله قدر غَلَب الروم وقدر انتصارهم قبل أن يقعا، وله وحده الأمر كله، يقضي في خلقه ما يشاء، ويحكم ما يريد، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

وقد غَلب الروم وانتصروا على الفرس في مدة لا تتجاوز سبع سنين إلى تسع من غلبة الفرس لهم.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ قال: «غُلِبت وغَلَبت، كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، قال: «**أما إنهم سيغلبون**». فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**ألا جعلته إلى دون**» قال: أراه «العشر». قال سعيد بن جبير: والبضع: ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: وذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان فارس ظاهرًا على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ﴾، قالوا يا أبا بكر، صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق. قالوا: هل لك أن نقامرك بذلك. فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك، وشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**ما بضع السنين عندكم؟**» قالوا: دون العشر. قال: «**اذهب فزايدهم، وازدد سنتين في الأجل**» قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾»(٢).

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾، أي: ويوم يغلب الروم الفرس ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: بنصر الله تعالى للروم على الفرس؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة؛ لأنهم على دين النصارى، فهم أقرب من الفرس؛ لأنهم مجوس يعبدون النار؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣﴾ [المائدة:٨٢- ٨٣].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة في انتقامه من أعدائه، ونصره لأوليائه.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الروم ٣٢٤٥، وأحمد ١/ ٢٧٦، ٣٠٤، وقال الترمذي:«حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٤٥٥-٤٥٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٠٥.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة بجميع الخلق.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ «وعد»: مفعول مطلق منصوب، أي: هذا الذي أخبرناك به يا محمد من غلبة الروم وانتصارهم على الفرس، وفرح المؤمنون بذلك- وعد الله، وهو ما جرت به سنته الكونية من نصر من كان أقرب إلى الحق، وجعل العاقبة له.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، أي: أن وعده آتٍ لا بد من تحققه ووقوعه كما وعد عز وجل؛ لأنه لا يخلف وعده؛ لتمام صدقه في خبره، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥]، أي: صدقا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

ولكمال قدرته في تنفيذ وعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:٤٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[مريم:٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[يونس:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾[الزمر:٢٠].

ولهذا لما جاء الأجل الذي ضربه الله تعالى، انتصر الروم على الفرس وغلبوهم وأجلوهم عن البلاد التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله تعالى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا ما يهتدون به إلى الحق، ولا يعلمون بواطن الأمور وعواقبها، ولا حكمة الله تعالى في أحكامه وأفعاله؛ ولهذا قال:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ من وجوه كسب المعاش والمال فيها، والتمتع بلذاتها وشهواتها، وزينتها وزخارفها؛ لانصراف قلوبهم إليها، وتعلقهم بها، مع الجهل بباطنها وحقيقتها.

فهم إنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، ولا يعلمون كل ظاهرها. أما خفيها وباطنها فإنهم لا يعلمونه، ولا يعلمون أنها مجاز ومعبر إلى الآخرة، يُتزود منها بالطاعات، وأيامها ولياليها خزائن للأعمال الصالحات.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: ساهون عنها، متناسون لها، معرضون عنها، لا يعملون لها، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا

عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾[المؤمنون:٦٣].

قال الحسن البصري: «والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي»(١).

فعندهم من العلم والمعرفة والفطنة والذكاء في ظاهر أمر الدنيا ما يحير العقول، ويدهش الألباب من العجائب، والتفنن في أنواع الصناعات الذرية والكهربائية والآلية، مع الخواء الروحي، وعدم المعرفة بربهم وما يجب له، بل وعدم المعرفة بحقيقة أنفسهم، والغفلة عما خلقوا له؛ ولهذا بدل أن تثمر هذه العلوم والمعارف الرقي العالمي، والحياة الطيبة، ومساعدة البشرية أثمرت هبوط الأخلاق، وأسباب الفناء والتدمير؛ بسبب أن كثيرًا منها بني على الإلحاد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

لما بين أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في معادهم، وإنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا مع جهلهم بباطنها وحقيقتها، وغفلتهم عن الآخرة، أنكر عليهم عدم التفكر والتأمل في أنفسهم، وفي خلق السموات والأرض، والسير في الأرض، والنظر في عاقبة المكذبين.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ الاستفهام: للإنكار. و«التفكر»: إعمال الفكر، والنظر والتدبر والتأمل في الأدلة، أي: أولم يتفكر هؤلاء المشركون المكذبون لرسل الله ولقائه- في أنفسهم بما منحهم الله من عقول وأفهام- في خلق السموات والأرض، وفي آيات الله تعالى في أنفسهم في كيفية خلقهم وأطوار حياتهم، وما جعل الله لهم من

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣١٢.

السمع والأبصار والأفئدة، وتسوية خلقهم، وتعديل صورهم، وحكمة ذلك، فيستدلوا بذلك على وجود الله وعظمته ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وتمام قدرته على بعثهم بعد موتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤، التغابن:٣].

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، أي: ما أوجد عز وجل هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات العظيمة أيضًا، كالشمس والقمر والنجوم، والرياح والسحاب.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة، أي: إلا خلقًا ملابسًا ومصاحبًا للحق، أي: إلا بالأمر الثابت العدل الموافق للحكمة والصواب، أي: لم يخلق ذلك عبثًا ولا باطلًا، بل خلق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات لأمر عظيم، وحكمة بالغة، ومقصد جليل، وهو أن يعبده الخلق ويطيعوه؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، ثم يصيرون إليه فيجازيهم على أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ [هود:٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك:٢].

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾؛ معطوف على «الحق»، أي: ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وبأجل مسمى. والأجل: غاية الشيء، أي: وقت مقدر محدد معيَّن، بدءًا ونهاية، فابتداؤها بأجل؛ لأن الله أوجدها بعد أن كانت معدومة، وانتهاؤها بأجل؛ وهو انتهاء الدنيا وفناء هذه المخلوقات كلها، ومصير الخلائق كلهم إليه عز وجل للحساب

والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية:٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لجاحدون للقاء ربهم منكرون المقام بين يديه، مكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ ولهذا لم يستعدوا لهذا اللقاء الثابت العظيم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق:٦].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ الاستفهام: إنكاري، أي: أولم يسيروا في الأرض الواسعة بأقدامهم ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾، أي: فينظروا بأبصارهم، ويتأملوا ببصائرهم، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين من قبلهم من المكذبين؛ كعاد وثمود وقوم لوط وأمثالهم؛ حيث كانت عاقبتهم أسوأ عاقبة، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالهم، فيأخذوا من ذلك العظة والعبرة.

﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: وكان أولئك الأقوام- الذين أهلكهم الله ودمرهم بسبب تكذيبهم رسله- أشد من مشركي قريش قوة، كما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وقال تعالى في وصفهم ووصف ثمود وفرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر:٦-١٠].

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: حفروا فيها الآبار، وحرثوها وقلّبوها وزرعوها، وغرسوا فيها الأشجار، واستخرجوا خيراتها ومعادنها، وغير ذلك.

﴿وَعَمَرُوهَآ﴾، أي: شيدوا عليها المباني والقصور والمصانع، وغير ذلك.

﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، أي: أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون من أهل مكة؛ لما

أعطى الله أولئك الأمم من الشدة والقوة وطول الأعمار؛ مما لم يكن لهذه الأمة.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، والحجج الظاهرات، والبراهين القاطعات، وأنواع المعجزات، على صدقهم وصحة ما جاؤوا به من الحق، فكذبوا رسل الله فأهلكهم الله، فلم تغن عنهم شدة قوتهم، وإثارتهم الأرض، وكثرة عمرانهم لها، ولم تدفع عنهم عذاب الله.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ فيما أحل بهم من العذاب والنكال والهلاك، ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: ليهلكهم بلا سبب، وبلا جرم ارتكبوه، أي: هذا ممتنع غاية الامتناع.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ بتكذيبهم رسل الله وكفرهم، فكان سبب إهلاكهم ظلمهم لأنفسهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالرفع: «عَاقِبَةُ»: اسم «كان»، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿عَٰقِبَةَ﴾ على أنه خبر «كان» مقدم على اسمها.

﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾، أي: الذين عملوا الأعمال السيئة، أي: ثم كان عاقبة المسيئين، وهم كفار قريش، ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: مؤنث «الأسوأ»، وهي اسم «كان» مؤخر على قراءة الجمهور، أو خبرها على قراءة نافع ومن معه.

و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: العاقبة أو الحالة السيئة المتناهية في السوء، أي: أسوأ العواقب والأحوال، وهي تعذيبهم في الدنيا بالقتل، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس القرار.

﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية والكونية التي أنزلها على رسله وأيدهم بها، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف هو الباء أو اللام، أي: بتكذيبهم، أو لتكذيبهم، أي: بسبب تكذيبهم، أو لأجل تكذيبهم بآيات الله، وكفرهم بها وجحودها، وعدم الإيمان بها وتصديقها.

﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: يسخرون بها بأفعالهم وأقوالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان:٥].

والاستهزاء بالآيات أشد من التكذيب؛ لأنه جامع بين التكذيب والسخرية.

ويحتمل: أن تكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ منصوبة مفعولًا لـ«أساؤوا»، أي: ثم كان عاقبة الذين عملوا الأعمال السيئة ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: تكذيبهم بآيات الله فتكون جملة: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن كذبوا بآيات الله.

فيكون المعنى: أن عملهم السوأى كان سببًا لتكذيبهم واستهزائهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

والمعنى الأول أقرب؛ وهو الظاهر.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- هزيمة الروم في أول الأمر، وظهور الفرس عليهم باستيلائهم على أدنى أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣- إخباره عز وجل بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، ووقوع ذلك كما أخبر عز وجل، وفي ذلك إثبات علم الله بالغيب، وهو من معجزات القرآن، وفيه بشارة للمؤمنين، وتحدٍّ للمشركين وإرغام لأنوفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

٤- في ذكر هزيمة الروم وغَلبتهم إشارة إلى عظمة دولتهم في ذلك العهد، وفي ذكرهم دون الفرس إشارة إلى مزيتهم على الفرس؛ لأنهم أقرب إلى الحق لأنهم أهل كتاب؛ كما أن في تحاشي القرآن عن ذكر اسم الفرس إشارة إلى حقارتهم ودناءتهم؛ لما هم عليه من عبادة النار وشدة الكفر وغير ذلك.

ويظهر هذا جليًّا في موقف هرقل «الحميد» من كتاب رسول الله ﷺ ومن أصحابه[1]، وفي موقف كسرى «السيئ» الذي مزَّق كتاب رسول الله ﷺ، فدعا عليهم

---

(١) كما جاء في حديث أبي سفيان الطويل، الذي أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٧٣.

رسول الله ﷺ؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلًا، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزَّقوا كل ممزَّق»(١).

٥- الرد على الجبرية الذين يقولون: لا اختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فنسب الغَلَب لهم.

٦- أن لله تعالى وحده الأمر والتقدير، من قبل غلبة الروم لفارس، ومن بعد غلبتهم لهم، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾، وفي هذا الرد على القدرية الذين يزعمون استقلال العبد بفعله.

٧- فرح المؤمنين بنصر الروم على الفرس؛ لأن الروم أقرب إلى الحق؛ لأنهم أهل كتاب على دين النصارى، بخلاف الفرس فهم مجوس يعبدون النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ كما أغاظ ذلك المشركين وأحزنهم.

٨- جواز فرح المؤمنين بانتصار بعض الكفار على بعض، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين.

٩- جواز تسمية ذلك نصرًا؛ لقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- أن النصر بيد الله عز وجل ينصر من يشاء بمقتضى حكمته سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾.

١١- إثبات المشيئة له تعالى وهي الإرادة الكونية، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُۖ﴾.

١٢- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل؛ وهما: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ فبعزته عز وجل ينتقم من أعدائه، وبرحمته يرحم عباده المؤمنين.

١٣- أن ما أخبر به عز وجل عن غلبة الروم وظهورهم هو وعد الله المحقق؛ لأنه

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦٤.

عز وجل لا يخلف وعده، بل وعده آتٍ وحق وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

١٤- أن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا ما يهتدون به إلى الحق، ولا يعلمون بواطن الأمور وعواقبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٥- قصور علم الخلق، وأن أكثر الخلق إنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا: من وجوه الكسب والصناعات، والأعمال الدنيوية، والتمتع في الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات، ونحو ذلك، مع الجهل بباطنها وحقيقتها، وأنها مجاز إلى الآخرة، يجب أن تعمر بطاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٦- أن العلم الحقيقي هو العلم بالله وبما يجب له، والاستعداد للقائه والدار الآخرة.

١٧- غفلة كثير من الناس عن الآخرة، وعن الاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وفي هذا ذم لهم.

١٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

١٩- أن من آثر دنياه أضر بأخراه، وخسر دينه ودنياه وأخراه، فيجب الحذر من ذلك.

٢٠- الإنكار على المشركين عدم تفكرهم بما منحهم الله من العقول والأفهام في آيات الله تعالى في خلق السموات والأرض، وفي أنفسهم، وكيفية خلقهم وأطواره وتسويته، وما منحهم الله من الحواس والقوى، وعدم استدلالهم بذلك على كمال ربوبية الله تعالى وإلهيته وقدرته التامة على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾.

٢١- ينبغي أن يتفكر الإنسان في نفسه في خلق السموات والأرض، وفي خلقه، وما أعطاه الله من الحواس والقوى والقدرات البدنية والعقلية وغيرها؛ ففي ذلك أعظم العبرة لمن وفقه الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

٢٢- إثبات أن الله عز وجل هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، وأنه ما خلقهما وما بينهما إلا بالحق الثابت والعدل والحكمة عظيمة، وهي عبادته وذكره وشكره، ومجازاة الخلائق بأعمالهم: المحسن بالحسنى، والمسيء بعمله، ولم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- ينبغي للعاقل تدبر هذه الحكمة التي من أجلها خلق الخلق، وأن يأخذ بالجد في حياته، كما قيل:

الأمـــر جِـــدٌّ وهْـــو غـــير مـــزاحِ فاعمـل لنفسـك صـالحًا يـا صـاحِ(١)

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمرٍ لو فطِنتَ له فاربأ بنفسِك أن ترعى مع الهمَلِ(٢)

٢٤- أن الله عز وجل جعل لهذه المخلوقات كلها أجلًا مسمًّى، بداية؛ حيث ابتدأها من العدم، ونهاية؛ وهو انتهاء هذه الدنيا وفناؤها، ومن ثم بَعْث الخلائق كلهم ورجوعهم إليه للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٢٥- أن لكل شيء نهاية وأجلًا مسمًّى، ودوام الحال من المحال، والبقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى.

٢٦- أن أكثر الناس بلقاء ربهم كافرون، مكذبون بالبعث، منكرون للحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

٢٧- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس، فأكثرهم على ضلال.

٢٨- إثبات البعث ولقاء الله تعالى، والحساب والجزاء.

٢٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٣٠- الإنكار على المشركين المكذبين في عدم النظر والتأمل بما حل بالمكذبين قبلهم، وبما أخذوا به من العقوبات الشديدة، وعدم الاعتبار والاتعاظ بذلك، مع أن أولئك كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر منهم، فما نفعهم ذلك ولا دفع عنهم عذاب الله لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾.

٣١- أن كل قوة ليست بشيء أمام قوة الله تعالى ذي القوة المتين.

---

(١) البيت لنشوان الحميري، في «معجم الأدباء» ٥/ ٥٤٩.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

٣٢- أن إثارة الأرض وعمرانها من أسباب القوة.

٣٣- أن الله عز وجل كما أقام الحجة على المشركين المكذبين من قريش ببعثة النبي ﷺ، وإنزال القرآن عليه؛ فقد أقام الحجة على الأمم السابقة، بإرسال الرسل إليهم بالآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٣٤- أن الله عز وجل حين عذب أولئك المكذبين لم يكن ليظلمهم، فيعذبهم بلا جرم منهم، وإنما عذبهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بتكذيب رسلهم، والكفر بآيات الله البينات؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٣٥- كمال عدل الله عز وجل، وأنه لا يظلم أحدًا من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، فنفي الظلم عنه يدل على كمال عدله؛ لأن الصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

٣٦- أن نفس الإنسان أمانة ووديعة عنده يجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وينأى بها عن أسباب الهلاك، وإن لم يفعل فقد ظلمها.

٣٧- أن الإنسان بمعصيته لا يضر ولا يظلم إلا نفسه.

٣٨- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فأثبت الظلم منهم لأنفسهمن وفي هذا رد على الجبرية.

٣٩- عقوبة المسيئين بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة؛ بسبب تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

٤٠- عقوبة الذين عملوا السوء بأن حملهم ذلك على التكذيب بآيات الله، والاستهزاء بها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وكانت عاقبتهم النار وبئس القرار؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾:

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، أي: الله وحده الذي يبدأ الخلق، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: ثم هو يعيده، أي: يرجعه إلى ما كان عليه بعد فنائه خلقًا جديدًا، فكما قدر على بداءته فهو على إعادته أقدر؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقوله: ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾، ولم يقل: «بدأ»؛ لأن الخلق مستمر كل وقت، وكل آن يكون فيه ابتداءُ خلق، من الأجنة، وغير ذلك.

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو وأبو بكر وروح بالغيب: ﴿يرجعون﴾.

وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿ترجعون﴾.

أي: ثم إليه عز وجل وحده يوم القيامة تردون؛ ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، وفي هذا تنبيه على أنه إنما خلقهم؛ ليعبدوه ويجازيهم على أعمالهم، لم يخلقهم عبثًا، ولن يتركهم سدى؛ ولهذا قال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي:ويوم تقوم القيامة، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ييأس المجرمون بالكفر والشرك والمعاصي، من النجاة من العذاب، ويتيقنون بأنهم صائرون إلى النار.

والإبلاس: اليأس الشديد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾[الروم:٤٩].

ومنه سمي «إبليس»؛ لأنه أُبلس من رحمة الله، أي: يئس من رحمة الله.

وقيل: معنى ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: يسكتون؛ لانقطاع حجتهم، ولا منافاة بين القولين، أي: ييأسون فيسكتون.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾، أي: من آلهتهم الذين عبدوهم من دون الله، وأشركوهم مع الله، ﴿شُفَعَآؤُا۟﴾ يشفعون لهم في دفع العذاب عنهم، أو رفعه عنهم، أو تخفيفه عنهم؛ كما كانوا يزعمون أنهم إنما يعبدونهم؛ ليتوسلوا بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، أي: منكرين لشركائهم، جاحدين عبادتهم إياهم، متبرئين منهم؛ فكما تبرأ شركاؤهم منهم، ولم يشفعوا لهم، كذلك هم يتبرؤون من شركائهم، ويكفرون بهم، وينكرونهم.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص:٦٢- ٦٤].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ كرر لزيادة التهويل، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ «يومئذ»: تأكيد للظرف السابق، أي: وقتئذ يتفرق الخلائق من موقف الحساب، فُرقةً لا اجتماع بعدها، فسالك طريق اليمين إلى الجنة، وإلى أعلى عليين، وهم المؤمنون؛ نسأل الله من

فضله، وسالك- نسأل الله السلامة- طريق الشمال إلى النار، وإلى أسفل سافلين، وهم الكافرون؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ [الزلزلة:٦]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]؛ ولهذا قال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه الآية والتي بعدها تفصيل وبيان للتفرق و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، أي: فأما الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ الفاء في الموضعين: رابطة لجواب الشرط، و«روضة»: اسم جنس، وهي مفرد روضات؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى:٢٢].

قال الأعشى(١):

ما روضةٌ من رياض الحَسنِ مُعْشِبةٌ ... خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ ... مؤَزَّرٌ بعميمِ النَّبت مُكْتَهلُ
يومًا بأطيب منها نَشْر رائحةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ

والروضة: الأرض الطيبة المستوية التي يستقر فيها الماء مدة، ثم تعشب بعد ذلك، وتنبت مختلف النباتات، ذات الألوان البديعة، والثمار، والأزهار، والروائح الطيبة، ونحو ذلك.

﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ الحبور: الفرح والسرور، والغبطة، أي: فهم في روضة يسرون وينعمون، ويتلذذون بما فيها مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين؛ من المآكل والمشارب، والحور العين، والخدم والولدان، والمناظر البهيجة الخلابة والروائح الزكية، والأصوات الجميلة، بألحان الحور العين، وغير ذلك.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: جحدوا ألوهية الله تعالى وحدانيته، وأنكروا نعمته.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٥٧.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ الكونية والشرعية التي أرسلنا بها رسلنا الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به من عند الله تعالى.

﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: وكذبوا بلقاء الآخرة، فأنكروا البعث ولقاء الله تعالى يوم القيامة، والحساب والجزاء على الأعمال، والجنة والنار.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، أي: مأتيٌّ بهم إلى العذاب، مسوقون إليه، مقيمون فيه أبد الآباد، لا يغيبون عنه، ولا يخرجون منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ «سبحان»: مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف، أي: سبح سبحان، أو سبحوا سبحان. وفيه تنزيه من الله عز وجل لنفسه المقدسة، وأمر لعباده أن يسبحوه، بتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وبتعظيمه بعبادته بالصلاة، والذكر، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن، وغير ذلك.

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، أي: حين حلول وقت المساء باقتراب غروب الشمس، وحلول الليل، وهذا ينتظم صلاة المغرب والعشاء، والأذكار بعدهما، وسننهما، وأذكار المساء، وقيام الليل، وغير ذلك.

﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، أي: حين حلول وقت الصباح بطلوع الفجر، وقرب طلوع الشمس، ودخول النهار، وفيه صلاة الفجر والراتبة قبلها، والأذكار بعدها، وأذكار الصباح، وغير ذلك.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وله وحده ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، أي: الثناء التام والوصف بصفات الكمال على ما خلق في السموات والأرض، وهو وحده المحمود في السموات والأرض.

﴿وَعَشِيًّا﴾؛ العشي: ما بعد العصر، فيه صلاة العصر والأذكار بعدها، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ بحلول وقت الظهيرة بزوال الشمس وانتصاف النهار، وفيه صلاة الظهر، والراتبتان قبلها وبعدها، والنوافل والأذكار بعدها، وغير ذلك.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾؛ قرأ نافع وحفص وحمزة: ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ بتشديد الياء، وقرأ الباقون: ﴿الميْت﴾ بالتخفيف.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ كما في إخراج النبات من الأرض الميتة، وإخراج الزرع من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والإنسان من النطفة.

وهذا فيما يظهر لنا أن النطفة ميتة، لكنها في المجهر، وعند التحليل تحتوي على ما لا يحصى من الحيوانات المنوية، فهي فيما يظهر ميتة وجماد، لكن باعتبار الحقيقة- والله أعلم- ليست كذلك، وهكذا البيضة.

كما أنه عز وجل يخرج الحي من الميت إخراجًا معنويًّا، بإخراج المؤمن من الكافر.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾؛ بعكس المذكور، فيخرج الحب من النبات، والبيضة من الدجاجة، والنطفة من الإنسان؛ كما يخرج الكافر من المؤمن.

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ بإنزال المطر عليها، فتهتز وتربو وتُنبت أصناف النباتات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس:٣٣- ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق:٩- ١١]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

لما ذكر عز وجل قدرته على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، وإحياء الأرض بعد موتها، استدل بذلك على قدرته على البعث وإحياء الناس، وإخراجهم من قبورهم بعد موتهم.

قرأ حمزة والكسائي بفتح التاء: «تَخْرُجُونَ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

والواو: عاطفة، والكاف: للتشبيه بمعنى: مثل، أي: كما قدرنا على إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك نقدر على إخراجكم من قبوركم بعد موتكم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧]، وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الآيتان:٦، ٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية:٣٩]، وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [الآية:١١].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات قدرة الله تعالى التامة على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٢- ثبوت حدوث العالم بعد أن كان عدمًا، وفي هذا رد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

٣- إثبات البعث والمعاد، ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، وقوله: ﴿وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

٤- التنبيه على أنه عز وجل إنما خلق الخلق؛ ليعبدوه، ثم يجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٥- يأس المجرمين يوم القيامة من النجاة، وسكوتهم وانقطاع حجتهم، وتيقنهم بمصيرهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٦- تخلي شركائهم الذين كانوا يرجون شفاعتهم عنهم، وبراءتهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾.

٧- كفر هؤلاء المجرمين في ذلك اليوم بشركائهم، وبراءتهم منهم حيث لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

٨- تفرق الخلائق في ذلك اليوم حسب تفرق واختلاف أعمالهم تفرقًا لا اجتماع بعده، فسالكٌ ذات اليمين إلى الجنة- وهم المؤمنون- نسأل الله أن يجعلنا منهم وذريتنا وأزواجنا ووالدينا وأقاربنا وجميع المسلمين.

وآخذٌ ذات الشمال إلى النار- نسأل الله السلامة- وهم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٩- بشارة المؤمنين بمآلهم إلى روضات الجنات يُسَرُّون فيها، ويتنعمون فيها بألوان النعيم، وأصناف اللذات مما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ويطرب الأسماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

١٠- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، وعمل الأعمال الصالحة بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١١- لا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه وسنة نبيه ﷺ.

١٢- أن الجنات روضات معشبات، فيها أنواع النبات والثمار والزهور، وتمام الحبور والسرور.

١٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح.

١٤- الوعيد والتهديد للكافرين المكذبين بآيات الله ولقائه، والمعاد والحساب، والجزاء على الأعمال، بإحضارهم في العذاب قسرًا، وخلودهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

١٥- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

١٦- تقديم الوعد على الوعيد، والترغيب على الترهيب؛ لأن رحمة الله تعالى سبقت غضبه.

١٧- تسبيح الله تعالى وتنزيهه لنفسه المقدسة، وأمره عباده أن يسبحوه ويحمدوه ويعظموه، بأداء الصلوات الخمس في أوقاتها، والرواتب والنوافل، وبالأذكار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن، وغير ذلك في جميع الأوقات؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

١٨- أن لله عز وجل وحده الحمد والثناء التام، والوصف بصفات الكمال على كل ما خلق في السموات والأرض، وفي جميع الأماكن والأوقات على الدوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

١٩- بيان أوقات الصلوات الخمس مفصلة، وأوقات الأذكار، وحكمة الله تعالى في ذلك.

٢٠- كمال قدرة الله تعالى؛ حيث يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بالنبات بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٢١- الاستدلال بذلك على إثبات تمام قدرته عز وجل على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم، للحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾:

هذا شروع في ذكر عدد من أدلة وحدانيته عز وجل، وتمام قدرته ونعمته، وكمال عظمته، وتفرده بالإلهية، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، أي: ومن آياته الدالة على كمال عظمته، وتمام قدرته ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وقدرته على البعث: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلق أبيكم آدم من تراب، الذي هو أصلكم، ومنه تفرعتم وتناسلتم.

و«أنْ» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر، أي: ومن آياته خلقُكم من تراب.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، أي: تتكاثرون وتتوالدون وتنتشرون في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾[المؤمنون:١٢، ١٣].

وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك**»(١).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: أن خلق لكم من جنسكم أزواجًا.

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تسكنوا إليها، وتأنسوا بها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

فلو كانت الأزواج من جنس آخر غير بني آدم، إما من الجان، أو حيوان آخر، لم يسكنوا إليها، ولم يأنسوا بها، ولم يحصل الائتلاف بينهم.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾، أي: وصير بينكم وبين أزواجكم، ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، أي: محبة ورأفة وتعاطفًا وألفة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ الإشارة إلى خلق أبيهم من تراب، وانتشارهم وتفرعهم منه بشرًا ينتشرون في الأرض، وإلى خلقه لهم من أنفسهم أزواجًا، وجعله بينهم مودة ورحمة.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ اللام: للتوكيد في المواضع الأربعة، أي: لَدلائلُ على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعظمته وحكمته، وعنايته بعباده، ورحمته بهم.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يُعمِلون أفكارهم وعقولهم، ويتدبرون آيات الله، ويتأملونها، ويتفكرون في عظيم خلق الله وحكمته ورحمته وغير ذلك.

وخصهم دون غيرهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بأفكارهم وعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق؛ بخلاف غيرهم، فهم كالبهائم، بل هم أضل سبيلًا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب القدر ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٣٩٥٥، وأحمد ٤/ ٤٠٠، ٤٠٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: إيجادهما وما فيهما من المخلوقات وما بينهما، بتقدير ونظام بديع.

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، أي: ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم، أي: تغاير لغاتكم وتمايزها، فهذا يتكلم بالعربية، وهذا بالعجمية، وهذا بالحبشية، وهذا بالرومية، وهذا بالكردية، وهذا بالفارسية، وهذا بالهندية، وهذا بالأرمنية، إلى ما لا يحصى من اللغات.

وأيضًا: اختلاف ألسنتكم وتباينكم في النطق مع أن الأصل واحد، ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تكاد تجد صوتين متطابقين من كل وجه، مهما تقاربت الأصوات، واختلاف ألسنتهم فصاحة وبلاغة، وعِيًّا، واختلاف لهجاتهم وغير ذلك. ومن أعجب ذلك وأدقه أن الإنسان ينطق بخروج الهواء من الرئتين، ثم مروره بمخارج الحروف، كلما مرّ على مخرج تغيّر، والهواء واحد، فإذا مرّ على مخرج الصاد صار صادًا، وإذا مرّ على مخرج الدال صار دالًا، وإذا مرّ على مخرج القاف صار قافًا.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، أي: واختلاف ألوانكم، فهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أحمر، وهذا بين ذلك، وهذا طويل، وهذا قصير، وهذا ثخين، وهذا نحيف، وهذا جميل، وهذا دميم، وهذا بين ذلك، إلى غير ذلك، فلا تكاد تجد شخصين يشبه أحدهما الآخر من كل وجه مهما تقاربت صفاتهما، مع أن أصل خلقتهم جميعًا واحد، فأبوهم آدم وأمهم حواء عليهما السلام.

واكتفى بذكر الاختلاف في الألسن والألوان، دون ذكر الاختلاف بكبر أجسامهم وصغرها ونحو ذلك؛ لأن القدرة على خلقهم باختلاف ألسنتهم وألوانهم أبلغ في القدرة، فالقدرة على غيره من باب أولى.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنة بني آدم وألوانهم.

﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾؛ قرأ حفص بكسر اللام: ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾، وقرأ الباقون بفتحها:

«لِلْعَالِمِينَ».

أي: إن في ذلك لدلائل على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، وعنايته بعباده ورحمته بهم في إيجاد هذه المخلوقات العظيمة، وتقدير الاختلاف بينهم في ألسنتهم وألوانهم؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

والمراد بالعالِمين: ذوو العلم والفهم والبصيرة، الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وعلى القراءة بفتح اللام وكسرها يكون المعنى: إن في ذلك لآيات لجميع الخلق، وبخاصة أهل العلم الذين يتدبرون ويتأملون. ويكون في الآية ترغيب في التأمل في الآيات.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: ما جعل لكم من صفة النوم بالليل والنهار الذي تحصل فيه الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلل والتعب.

وقدم الليل؛ لأن الليل هو وقت النوم في الأصل، والنوم فيه أنفع، ولا يعوضه نوم النهار مهما طال وقته.

﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: طلبكم الرزق في النهار والليل من فضل الله عز وجل وعطائه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: في منامكم بالليل، وطلبكم الرزق في النهار من فضله عز وجل دلائل على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته، ورحمته بكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣].

وخص طلب الرزق في النهار لأنه هو الأصل؛ لأنه وقت الحركة والعمل.

وفي استعمال أسلوب اللف والنشر في الآية هنا، وفي آية سورة القصص ما يشير إلى أن الأولى أن يكون النوم بالليل، وطلب الرزق بالنهار، وفقًا للفطرة التي فطر الله الخلق عليها، وأنه لا بأس أن يكون النوم في النهار، وطلب الرزق في الليل خصوصًا عند الحاجة إلى ذلك.

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ سماع تدبر وفهم وانتفاع بما في الآيات من المعاني والدلائل

والعبر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ورحمته إراءتكم البرق، وهو النور الذي يسطع في السحاب ﴿خَوْفًا﴾؛ منصوب على المفعول لأجله، أي: إخافة أو تخويفًا لكم من خطف البرق لأبصاركم، ومن الصواعق، ومن أن يكون أرسل عقوبة.

﴿وَطَمَعًا﴾ معطوف على ﴿خَوْفًا﴾، أي: وإطماعًا لكم في الغيث والمطر.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ شيئًا فشيئًا، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من السحاب الذي في العلو ﴿مَآءً﴾؛ وهو المطر العذب الزلال.

﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾، أي: بسببه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بأنواع النباتات والأشجار والثمرات.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، أي: بعد أن كانت ميتة هامدة يابسة، لا نبات فيها ولا شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس:٣٣- ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في كونه يريكم البرق خوفًا وطمعًا، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لَدلائل على عظمة الله ووحدانيته ونعمته ورحمته.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: يتدبرون ويتفهمون بعقولهم وينتفعون بها، فيستدلون بهذه الآيات على تمام قدرة الله عز وجل ووحدانيته ورحمته وعظيم نعمته عليهم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، أي: ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره، أي: استقرارهما وثباتهما وبقاؤهما البقاء الكامل الدائم، فلا تزولان، ولا تتزلزلان، ولا تسقط السماء على الأرض، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: بأمره الكوني القدري، وتسخيره إياهما.

كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين يقول: «لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره»(١).

فالسماء والأرض قائمة بأمره عز وجل الكوني، وتسخيره، فإذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وبرز الخلائق من قبورهم للحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم:٤٨]؛ ولهذا قال هنا:

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ «دعوة»: مفعول مطلق منصوب، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ«دعاكم»، أي: ثم إذا دعاكم عز وجل دعوة واحدة وأنتم في الأرض.

﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ «إذا»: فجائية، أي: إذا أنتم تخرجون فجأة وبسرعة من قبوركم أحياء، وتتجهون لموقف الحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات:١٣ – ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨]، وقال تعالى:

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣١٧.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[القمر:٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

لما ذكر عز وجل آياته في خلقه، ودلائل قدرته ووحدانيته ونعمه عليهم، أتبع ذلك ببيان أن الخلق كلهم ملك له، منقادون لأمره، خاضعون له.

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وله عز وجل وحده كل الذي في السموات والأرض من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، أي: كل من في السموات والأرض له وحده قانتون، أي: مطيعون منقادون لأمره الكوني، خاضعون له على الدوام.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ كرر هذا اهتمامًا وتأكيدًا لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم:١١]، وليبني عليه قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، أي: وإعادة الخلق أهون عليه، وهذا بالنسبة للأذهان والعقول، وإلا فإنه سبحانه وتعالى ليس هناك شيء غير هيِّن عليه، بل كل شيء هين عليه؛ بدء الخلق وإعادته، وغير ذلك؛ لأنه لا يعجزه شيء، فاسم التفضيل «أهون» في حقه تعالى بمعنى «هيِّن».

وإنما قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ للرد على المشركين المنكرين للمعاد مع إقرارهم بابتدائه الخلق، أي: إذا كان قادرًا على الابتداء الذي تقرون به فقدرته على الإعادة أولى وأحرى؛ لأنها أهون.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي: فقوله: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾،**

وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»(١).

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وله عز وجل وحده الصفة العليا في السموات والأرض، أي: أن كل صفة كمال فله عز وجل أعلاها وأكملها، وكل صفة نقص فهو منزه عنها؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وبهذا نعلم أن كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال، وأن كل صفة كمال فالله مستحق لها، وأهل لها، وأولى بها، وأن كل صفة نقص فالله منزه عنها.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ «العزيز» و«الحكيم» من أسمائه عز وجل، أي: ذو العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة.

الفوائد والأحكام:

١- أن من آيات الله عز وجل الدالة على عظمته وكمال قدرته ووحدانيته وقدرته على البعث: أن خلق آدم أبا البشر من تراب، ثم تفرعوا منه وانتشروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾.

٢- أن أصل خلق البشر كلهم واحد، خلقهم الله من التراب بخلق أبيهم من ذلك، مما يوجب عليهم أن يؤدي بعضهم حق بعض، وألا يفخر أحد على أحد؛ كما قال ﷺ: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟**» قالوا: بلغ رسول الله ﷺ(٢).

٣- إبطال نظرية دارون- «نظرية النشوء والتطور»- التي يزعم فيها أن أصل الإنسان كان حشرة، ثم قردًا، ثم تطور بطول الزمن فصار إنسانًا. فالإنسان خلقه الله من التراب وسواه بشرًا سويًّا منذ خلقه.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإخلاص ٤٩٧٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٨، وأحمد ٢/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤١١، من حديث أبي نضرة:حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق.

٤- أن من آيات الله تعالى وحكمته، ونعمته على العباد، ورحمته بهم وعنايته: أن خلق لهم من جنسهم أزواجًا ليطمئنوا إليها، ويأنسوا بها، وجعل بينهم مودة ورحمة؛ لتتم الألفة بينهم، ويسعدوا في حياتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

٥- أنه لو كان الأزواج من غير جنس بني آدم، كأن يكنَّ من الجان أو حيوان آخر؛ ما سكن الأزواج بعضهم لبعض، وما أنس بعضهم ببعض، وما حصلت بينهم مودة ورحمة.

٦- أنه إنما ينتفع بالآيات في خلقه عز وجل آدم من تراب، وانتشار البشر من ذريته، وفي خلقه لهم من جنسهم أزواجًا؛ ليسكنوا إليها، وجعل المودة والرحمة بينهم: أهل التفكر، الذين يُعملون أفكارهم في آيات الله تعالى وينتفعون بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي هذا ترغيب وحث على التفكر في آيات الله.

٧- أن من أعظم آيات الله تعالى، ودلائل كمال قدرته ووحدانيته لذوي العلم والفهم والبصيرة وللخلق جميعًا: خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنة الخلق وألوانهم وأشكالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

٨- فضيلة العلم وأهله، والحث على التدبر في آيات الله.

٩- أن من آيات الله الدالة على كمال قدرته ومنته على العباد لمن يسمع الآيات سماع تدبر وفهم وانتفاع: جعل النوم في الليل فيه الراحة لهم، وسكون الحركة، وذهاب التعب، وجعل النهار يبتغون فيه الرزق من فضل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

١٠- جواز النوم نهارًا وطلب الرزق ليلًا، وبخاصة عند الحاجة.

١١- أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكذا البهائم والطيور وغير ذلك: كون النوم في الليل، وطلب الرزق والمعاش في النهار. وعكس ذلك تبديل للفطرة.

١٢- مشروعية طلب الرزق من الله تعالى، والسعي في ذلك، ووجوب الاستغناء عن الناس.

١٣- أن من آيات الله، ودلائل كمال قدرته ونعمته لذوي العقول، الذين يتأملون بعقولهم في الآيات وينتفعون بها: أنه عز وجل يُري العبادَ البرقَ خوفًا وطمعًا، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

١٤- إثبات تمام قدرته تعالى على البعث؛ لإحيائه الأرض بعد موتها.

١٥- أنه لا ينتفع بالآيات عمومًا إلا الذين يتفكرون فيها من ذوي العلم والفهم والبصيرة، ويسمعونها سماع تدبر وفهم، ويتأملونها بعقولهم.

١٦- أن من آيات الله تعالى الدالة على كمال ربوبيته وإلهيته وعظمته: قيام السماء والأرض، وثباتهما واستقرارهما، وديمومتهما بأمره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾.

١٧- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

١٨- إثبات بعث الخلائق، وإخراجهم من قبورهم بدعوته عز وجل إياهم دعوة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

١٩- عموم ملك الله، وسعته، وأن له عز وجل وحده كل ما في السموات والأرض من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، مطيعون له، منقادون لأمره الكوني على الدوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٠- تفرده عز وجل وحده ببدء الخلق ثم إعادته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٢١- أن الخلق حادث بعد أن لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، وفي هذا رد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

٢٢- أن إعادته عز وجل للخلق أهون عليه من بداءته؛ لأنه لا يعجزه شيء، ولأنه لما قدر على بدئه فقدرته على إعادته أولى وأحرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾.

٢٣- أن لله عز وجل المثل الأعلى، والوصف الأتم الأكمل في السموات والأرض وأن كل كمال فهو أولى به، وله أكمله، وأن كل نقص فهو منزه عنه، وفي هذا رد على من ينكرون صفات الله تعالى من المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٤- أن كل صفة وصف الله بها نفسه فهي صفة كمال.

٢٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز»، و«الحكيم»، وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢٦- في اقتران اسميه: «العزيز» و«الحكيم» وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة، في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾؛ الخطاب للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وضرب المثل تشبيه أمرٍ معنوي معقول بأمر محسوس؛ لتقريب فهم المعقول. وقد يكون بتشبيه أمر معنوي بأمر معنوي أظهر منه، أو بتشبيه أمر حسي بأمر حسي أوضح منه.

والمثل: الشَّبه، أي: ضرب لكم مثلًا؛ لبيان بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من ذات أنفسكم وأحوالكم، تشهدونه وتفهمونه.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«ما»: موصولة، أي: هل لكم من الذي ملكته أيمانكم من العبيد والإماء، أي: من الذين ملكتموهم ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة- من حيث المعنى- لعموم النفي، أي: من أيِّ شركاء.

﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي: في الذي رزقناكم من الأموال، وغير ذلك.

﴿فَأَنتُمْ فِيهِ﴾، أي: فأنتم ومماليككم في الذي رزقناكم ﴿سَوَاءٌ﴾، أي: شركاء متساوون في التصرف فيه من غير مزية، أي: فهل أنتم ومماليككم سواء فيما رزقناكم؟

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾، أي: تخافون هؤلاء المماليك أن ينازعوكم في قسمة ذلك الرزق.

﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾؛ الكاف: للتشبيه، أي: كخوفكم من ﴿أَنفُسَكُمْ﴾، أي: كخوفكم من منازعة الشركاء الأحرار مثلكم.

أي: ليس الأمر كذلك، فليس لكم مما ملكت أيمانكم أيّ شركاء فيما رزقناكم تستوون أنتم وهم فيه، بل أنتم تأنفون من أن يكون مماليككم شركاء لكم في رزقكم، ولا ترضون بذلك مع أنكم لستم الذين خلقتموهم، بل أنتم وهم مخلوقون لله، مملوكون مربوبون له، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شركاء من مماليكه وخلقه، تجعلونهم أندادًا له في العبادة، وأنتم لا ترضون مشاركة مماليككم لكم في رزقكم، ولا مساواتهم لكم في ذلك؟!

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، أي: مثلَ هذا التفصيل نفصل ونبين الآيات والأدلة والبراهين ونوضحها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم يتفكرون بعقولهم، ويتأملون في الآيات، وينتفعون بها ويتدبرون؛ بخلاف من عداهم ممن قال الله فيهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

لما بيّن بطلان ما هم عليه من الشرك، وأظهر سفاهة عقولهم في اتخاذ شركاء لله من خلقه، أتبع ذلك بيان أن الذي حملهم على ذلك هو اتباع الهوى بغير علم.

قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾؛ بالشرك والكفر والتكذيب للنبي ﷺ وإنكار البعث ﴿أَهْوَآءَهُم﴾، أي: ما تهواه وتميل إليه نفوسهم الأمارة بالسوء، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بغير هدى، ولا يقين، ولا برهان، بل جهلًا وسفهًا منهم.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؛ الفاء:عاطفة، والاستفهام للنفي، أي: لا أحد يهدي من أضل الله، أي: من كتب الله عليه الضلالة كونًا وقدرًا، فلا عجب من عدم هدايتهم؛ لأن الله أضلهم بسبب ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ

قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ ينصرونهم من دون الله، ويدفعون عنهم عذاب الله، حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتتقطع بهم الأسباب.

و«من»: زائدة؛ لتأكيد عموم النفي، أي: وما لهم أيّ ناصر ينصرهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

لما بيّن عز وجل اتباع الظالمين أهواءهم فيما هم عليه من الشرك وغيره، بغير علم؛ وأنه لا ناصر لهم يدفع عنهم عذاب الله، أمر النبي ﷺ بالاستقامة على دين الله، وهو أمر له ولأمته.

قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، أي: وجِّهْ وجهك والخطاب للنبي ﷺ ولأمته؛ لأن لهم به أسوة؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ بالجمع.

﴿لِلدِّينِ﴾، أي: لدين الإسلام، أي: توجه إليه بكليتك، بقلبك وقالبك، وقصدك وبدنك؛ مخلصًا لله، متبعًا لشرعه.

﴿حَنِيفًا﴾؛ مستقيمًا على التوحيد، مائلًا عن الشرك، مخلصًا لله تعالى، معرضًا عما سواه. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه، أي: استمر على ذلك، ولا تبالهم.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾؛ «فطرة»: مفعول به منصوب لفعل محذوف على الإغراء، أي: الزموا فطرة الله، ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ الاسم الموصول في محل نصب صفة لـ«فطرة»، أي: التي خلق الله الناس وطبعهم عليها، وهي معرفته وتوحيده ودينه

الحنيف، حيث فطر الله الناس وخلقهم على الإقرار بالخالق وتوحيده والتوجه إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»(١).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه، إما شاكرًا وإما كفورًا**»(٢).

قال ابن القيم: «فبين سبحانه أن إقامة الوجه، وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه، المتضمن محبته وعبادته حنيفًا مقبلًا عليه، معرضًا عما سواه، هو فطرته التي فطر الله عباده عليها، فلو خُلُّوا ودواعي فِطَرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه، ولكن غُيِّرت الفِطَر وأُفْسِدت»(٣).

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾؛ الجملة خبرية مبيِّنة لمعنى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾، أي: لا تبديل لدين الله، فهو الدين الحنيف الذي فطر الله الناس كلهم وخلقهم وطبعهم وجبلهم عليه، فلا تبديل له.

ويجوز كون الجملة خبرًا بمعنى الطلب، أي: لا تبدلوا خلق الله، أي: لا تبدلوا دين الله وما فطركم عليه، من التوحيد إلى الشرك، ولا تغيروا ما خلق الله عليه أبدانكم؛ كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:١١٩].

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «**إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم**

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٨٥، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤، والترمذي في القدر ٢١٣٨.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٩١.

عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»(١).

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: إقامة وجهك للدين حنيفا هو الدين القيم، الذي أمرناك به، والذي فطر الله الناس عليه، أي: الدين القيم، الكامل في قيامه، العدل المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه، ولا نقص، وهو عبادة الله تعالى وحده والإخلاص له، المتضمن للإحسان في عبادة الله تعالى إخلاصًا له، ومتابعة لشرعه، والإحسان إلى خلقه بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

كما قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف:٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾ [الأنعام:١٦١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف:١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في دينهم، ويسعدهم في دنياهم وأخرهم، وهو معرفة الله تعالى، وما يجب له، والاهتداء إلى الصراط المستقيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف:١٠٣].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ حال، أي: حال كونكم منيبين إليه، أي: راجعين إلى الله تعالى بالتوبة وإخلاص التوحيد له بقلوبكم.

وهذا تفسير وبيان لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، وأن الخطاب في هذا له ﷺ وللمؤمنين.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ بجوارحكم بفعل المأمورات، وترك المنهيات، وخافوه وراقبوه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ هذا من ذكر الخاص بعد العام، فأمر عز وجل بتقواه، وهي: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، ثم أمر

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥.

بإقام الصلاة؛ لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات، وهي سبب للتوفيق وصلاح بقية الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ونهى عن الشرك به؛ لأنه أعظم الذنوب.

مر عمر بن الخطاب بمعاذ بن جبل رضي الله عنهما، فقال: «ما قوام هذا الأمر؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاة، وهي الملة، والطاعة، وهي العصمة. فقال عمر: صدقت»(١).

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: من الذين فرقوا دينهم، فآمَنوا ببعض وكفروا ببعض، وتفرقوا فيه، فمنهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد شجرًا، ومنهم من يعبد حجرًا، وغير ذلك.

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾، أي: فرقًا، وأحزابًا، وجماعات.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي: كل حزب منهم، أي: كل طائفة بالذي عندهم وما هم عليه من الباطل ﴿فَرِحُونَ﴾ فَرَحَ تعصب ومنابذة لغيرهم، يرون أن ما هم عليه هو الحق، وأن ما عداهم على الباطل؛ ولهذا توعدهم الله تعالى في الآية الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام:١٥٩].

وفي هذا تحذير للمسلمين من التفرق بطريق التعريض؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وقال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٤٩٣-٤٩٤، وانظر «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٢٣.

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن؛ لتقريب المعاني، وزيادة الإيضاح والبيان، وإقامة الحجة؛ نعمة من الله تعالى ورحمة للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

٢- ضربه عز وجل للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره مثلًا من أنفسهم؛ لبيان بطلان ما هم عليه من جعل شركاء له من خلقه؛ إذ كيف يشركون مع الله بعض مخلوقاته وعبيده، وهم لا يقبلون أن يكون لهم شركاء من مماليكهم فيما رزقهم الله، يساوونهم فيه، يخافون منازعتهم لهم في القسمة؛ كخوفهم من الشركاء من أنفسهم، أي: الأحرار مثلهم؟ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٣- بلاغة القرآن الكريم بضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني؛ ولهذا امتن عز وجل على العباد بضربها، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

٤- تسفيه عقول المشركين، وإظهار عتوّهم وعنادهم ومكابرتهم.

٥- أن ضرب المثل من ذات نفس الشخص وأحواله أقرب للفهم، وأقوى للحجة.

٦- إثبات ملك اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾.

٧- أن الرزاق هو الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

٨- أن المماليك لا يَملِكون؛ لأنه إذا انتفت مشاركتهم لأسيادهم في أموالهم،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان، افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن، افتراق الأمة ٣٩٩١-٣٩٩٣، وأحمد ٢/ ٣٣٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضًا ٣/ ١٢٠؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

فانتفاء انفرادهم بالملك من باب أولى.

٩- أن هؤلاء كما أنهم لا يقبلون مشاركة مماليكهم ومساواتهم لهم فيما رزقهم الله؛ فإنه لو كان لهم شركاء في أموالهم من أنفسهم، أي: شركاء أحرار مثلهم لخافوا منازعتهم قسمتها؛ لقوله تعالى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٠- أنه عز وجل كما فصل هذه الآيات، فصل غيرها من آيات القرآن الكريم، لمن يتدبرون ويتأملون بعقولهم، إيضاحًا للمحجة، وإقامة للحجة؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

١١- أنه لا يستفيد من تفصيل الآيات، ويهتدي بها إلا أصحاب العقول النيرة، الذين ينتفعون بعقولهم بالنظر في الآيات؛ لهذا خصهم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

١٢- اتباع الظالمين من أهل الشرك والكفر والمعاصي ما تهواه أنفسهم بغير علم ولا هدى ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

١٣- أن من لم ينتفع بعلمه في معرفة ما يجب عليه لربه فليس بعالم، وإن حوى علوم الدنيا كلها، بل هو أجهل من حمار أهله.

١٤- ينبغي الحذر من اتباع الهوى؛ لأنه مُردٍ ومهلك.

١٥- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

وفي هذا رد على القدرية، وإثبات أن فعل العبد بتقدير الله تعالى.

١٦- أنه لا ناصر للظالمين المتبعين لأهوائهم بغير علم؛ يدفع عنهم العذاب عند حلوله بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

١٧- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بإقامة وجهه للدين مستقيمًا على التوحيد، مائلًا عن الشرك، متوجهًا إلى الله عز وجل بقلبه وبدنه، مخلصًا له، معرضًا عما سواه، وهو أمر له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، وفي هذا تثبيت له، وتقوية لقلبه، وتعريض له بعدم المبالاة بمن خالفه.

١٨- وجوب الإخلاص لله تعالى بعبادته وحده، والبعد عن الشرك.

١٩- أن الاستسلام لله تعالى، والانقياد له، وتوحيده، هو فطرة الله تعالى السوية، التي فطر الله الناس وخلقهم وطبّعهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾. كما قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»(١).

٢٠- إثبات أن الخلق لله، وأنه هو الخالق وحده.

٢١- لا تبديل لدين الله؛ فهو الدين الحنيف الذي فطر الله الناس وطبعهم عليه، ولا يجوز تبديل ما فطر الله الناس عليه من التوحيد إلى الشرك؛ كما لا يجوز تغيير خلق الله في الأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾.

٢٢- أن الدين الحنيف الذي فطر الله الناس عليه- وهو توحيد الله والإخلاص له- هو الدين القيّم الذي لا اعوجاج فيه، ولا نقص، وهو الذي أمر الله به الناس وفطرهم عليه.

٢٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في دينهم، ويسعدهم في دنياهم وأخراهم، وهو معرفة الله وما يجب له، والاهتداء إلى الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فلا يغتر بالكثرة، وما عليه الأكثرون.

٢٤- وجوب الإنابة إلى الله تعالى وتقواه، باطنًا وظاهرًا بالقلوب والجوارح؛ بفعل الأوامر وترك النواهي؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾.

٢٥- أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأمته؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ وقوله تعالى قبله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾.

٢٦- وجوب إقام الصلاة، بشروطها وأركانها وواجباتها، وأن المهم في أمر الصلاة إقامتها إقامة تامة كما شرعها الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٧- النهي عن الشرك، صغيره وكبيره، ووجوب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٢٨- عظم أمر الصلاة في الإسلام؛ لأنها أعظم أركانه بعد الشهادتين، وهي أعظم العبادات؛ ولهذا خصت في الآية بالأمر بإقامتها دون سائر العبادات.

٢٩- خطر الشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، ومنافٍ للإيمان، مبطل للأعمال؛ لهذا خصه الله تعالى بالنهي في الآية.

---

(١) سبق تخريجه.

٣٠- ذم المشركين بتفريقهم دينهم، والإيمان ببعض، والكفر ببعض، وتفرقهم في معبوداتهم، وتفرقهم جماعات وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، يرون أنهم على الحق، وغيرهم على الباطل، وجميعهم على الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾.

٣١- التعريض بتحذير المسلمين من التفرق في الدين؛ كما هو حال المشركين من أهل الكتاب وغيرهم؛ لأن التفرق في الدين قاصمة الظهر، وهو سبب ضعف المسلمين اليوم، وتسلط الأعداء عليهم، وغزوهم في عقر دارهم، ولن يعود لهم عزهم ومجدهم، وتكون لهم في المحافل الدولية كلمتهم؛ حتى يعودوا إلى دينهم، ويجتمعوا على كلمة سواء، ويعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾؛ ضرب عز وجل مثلًا للمشركين؛ لبيان بطلان ما هم عليه من اتخاذ الشركاء مع الله، ورغّب في الإنابة الاختيارية التي تكون في حال العسر واليسر، والسعة والضيق، والتي تنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، ثم نبّه عن الإنابة الاضطرارية التي تكون وقت الضيق فقط، والتي لا تنفع صاحبها، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهي حال كثير من الناس إلا من رحم الله تعالى.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾، أي: إذا أصابهم ضر من مرض، أو خوف، أو شدة وفقر، ونحو ذلك.

والمراد بالناس: الكفار، ويحتمل أن المراد بهم عموم الناس؛ المؤمنون والكفار؛ لقوله بعد هذا: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وهذاأولى.

و«الضُّرُّ» بضم الضاد: سوء الحال في البدن أو العيش أو المال ونحو ذلك؛ كالشِّدة

والقحط الذي أصاب قريشًا، حتى أكلوا العظام والميتة.

﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾، أي: ابتهلوا إلى ربهم وحده؛ لكشف ما أصابهم من ضر، ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ حال، أي: راجعين إليه وحده دون شركائهم؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فإذا أصيبوا بالشدة عرفوا الله، خلاف ما أمر به النبي ﷺ في قوله: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»(١).

لكنهم أخف حالًا من مشركي زماننا الذين شركهم في الرخاء والشدة.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾، أي: إذا أعطاهم منه رحمة بكشف ما بهم من ضر، وإزالة ما بهم من شدة، وجلب الخير لهم.

﴿إِذَا﴾ فجائية، ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، أي: طائفة منهم، ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، أي: يعودون إلى الشرك بربهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥﴾ [الدخان:١٥].

ومفهوم قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أن فريقًا منهم لا يشركون بربهم، بل يثبتون على الإخلاص لله، وهم المؤمنون.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، أي: ليكفروا بالذي أعطيناهم من الرحمة، من كشف الضر والشدة عنهم، وجلب الخير لهم، ويجحدوا ذلك، متناسين دعاءهم إياه حال الضر والشدة. واللام: للتعليل، أي: لتعليل تقييض الله لهم ذلك، وتقديره عليهم. ويقال لها: لام العاقبة.

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾؛ الأمر للتهديد والوعيد، و«التمتع»: الانتفاع بالنعم مدة تنقضي.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: معطوف على «تمتعوا»، و«سوف» تفيد التراخي والتحقيق، أي: فسوف تعلمون عاقبة شرككم وكفركم نعمة الله تعالى وتمتعكم.

وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه، وتأكيد الوعيد والتهديد وتشديده.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾؛ «أم»: هي المنقطعة، بمعنى: «بل» التي للإضراب

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أأنزلنا عليهم سلطانًا، أي: حجة واضحة، ودليلًا قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا.

﴿فَهُوَ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فهو، أي: ذلك السلطان، ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾، أي: ينطق، ويأمرهم بالشرك، أو يدل على الذي كانوا به يشركون؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل:٧٦].

والجواب: لا، فلم ينزل الله عليهم سلطانًا، وليس لديهم حجة ولا دليل، لا من الفطرة ولا من الشرع، على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام؛ كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم:٢٩].

بل السلطان المنزَّل يدل على بطلان شركهم، وكذا الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾، أي: نعمة من أهل وولد وصحة وسعة ورخاء وأمن وغير ذلك، ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ فرح بطر وأشر، وفخر واختيال، لا فرح حمد وشكر.

والمراد بهذا: الكفار.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، أي: شدة من مرض وفقر وحاجة، ونحو ذلك مما يسوؤهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي قدمته أيديهم، أو مصدرية، أي: بسبب تقديم أيديهم، أي: بسبب عملهم وكسبهم من الذنوب والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

وأضاف التقديم إلى الأيدي؛ لأنها الآخذة والمعطية، وآلة الفعل غالبًا، والمراد: بما قدموا وعملوا.

﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون: «يَقْنِطُونَ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَقْنَطُونَ﴾.

«إذا»: فجائية، أي: إذا هم ييأسون أشد اليأس من روح الله، ومن زوال ما هم فيه من الشدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [فصلت:٤٩، ٥٠].

وهذا بخلاف حال أهل الإيمان؛ ولهذا قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقرير، أي: توبيخ لهم كيف يفرحون عند النعمة فرح بطر واختيال، ويقنطون وييأسون عند السيئة، وهم يرون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؟!

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾؛ معطوف على مقدر، أي: أغفلوا ولم يروا، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «يروا».

أي: أولم يبصروا ويشاهدوا ويعلموا أن الله يوسع الرزق للذي يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾، أي: ويقدر الرزق، أي: يضيقه على من يشاء على مقتضى عدله وحكمته وعلمه بما هو أصلح لهم، فيختار عز وجل لعبده ما يختار، من بسط الرزق أو تضييقه ابتلاءً وامتحانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾[الأنبياء:٣٥]، وقال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾[النمل:٤٠].

والابتلاء ببسط الرزق يقتضي شكرًا، وبتضييقه يقتضي صبرًا، كما جاء في حديث صهيب رضي الله عنه المتقدم.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩، وأحمد ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

قال الشاعر:

جـلّ مـن قسَّـم الحظـوظ فهـذا يتغنـى وذاك يبكـي الـديارا[١]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في كونه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، ﴿لَآيَٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلائل على تمام قدرته، وبالغ حكمته، وواسع علمه ورحمته.

ولهذا ترى بعض الناس يكدح ليل نهار، ويطرق الأسفار، ويركب البحار، ويتحمل الأخطار؛ في طلب الرزق، فلا يكاد يجد قوته وقوت عياله وأهله. وتجد بعضهم يبذل بعض الأسباب، فيبارك له ويثري ثراءً عظيمًا، مما يدل على أن الأمور لا تنال بالسعي فقط، فالسعي سبب، وفوق ذلك كله إرادة الله تعالى وتقديره وتوفيقه، وكمال تدبيره.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خاصة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم:٣٨- ٤٠]:

قوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كان الرزق بيد الله فآتِ ذا القربى، والخطاب لكل من يصلح له، أي: فأعط صاحب القربى، أي: صاحب القرابة ﴿حَقَّهُۥ﴾ الواجب والمندوب، من البر بالوالدين والصلة لهما ولغيرهما من القرابة، بالنفقة والهدية والنصيحة والإكرام والزيارة والسلام، والعفو عن الزلة، والمسامحة عن الهفوة، وغير ذلك.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾، أي: وآتِ المسكين الذي لا يجد كفايته ﴿حَقَّهُۥ﴾، أي: ما يسد

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر:«ديوانه» ص٢٥٢.

خلته أو بعضها من الصدقة والمساعدة.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾؛ وهو المسافر المنقطع، وحقه ما يحتاج إليه في سفره.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: إيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل.

﴿خَيْرٌ﴾؛ خيريَّة مطلقة في الدنيا والآخرة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ﴾، أي: للذين يريدون بعملهم مرضاة الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة، الذي هو غاية المطالب، وأعلى وأفضل ما لأهل النعيم من المناقب والمراتب.

كما قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الذين عملوا هذه الأعمال ويريدون وجه الله.

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب، وأكد وحصر الفلاح فيهم بكون الجملة اسمية، معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ لما ذكر خيرية إيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل للذين يريدون وجه الله، وذكر فلاحهم، أتبع ذلك ببيان أنه لا يثاب من أعطى لأجل أن يزداد ماله، ويرد إليه الناس أكثر مما أعطى، وأن الذي يثاب على ذلك ويضاعف له الثواب هو الذي أراد بذلك وجه الله تعالى.

قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾، أي: وما أعطيتم من ربا، و«الربا»: الزيادة، و«ما»: شرطية في الموضعين، و«من»: بيانية في الموضعين.

﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب بالخطاب وضم التاء وإسكان الواو: «لِتُرْبُوا»، وقرأ الباقون بالغيب وفتح الياء: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾، واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يربو، أي: يزيد في أموال الناس، أي: ليردوا إليكم أكثر مما أعطيتموهم من مال، قرضًا كان أو بيعًا، أو هدية، أو هبة، وغير ذلك.

﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلا يزيد ولا يضاعف عند الله؛ لأنكم لم تقصدوا بذلك وجه الله، وإنما قصدتم بذلك زيادة أموالكم، وأن يرد الناس إليكم أكثر مما أعطيتموهم، وهذا دائر بين أمرين: إما أن يكون محرمًا، كربا الفضل والنسيئة في البيع، أو كالقرض الذي جر نفعًا، فهذا لا يربو ولا يزيد ولا يضاعف عند الله، بل يحصل به المحق والسحت للمال الطيب.

والربا من كبائر الذنوب، وهو محاربة لله تعالى ورسوله، ومن السبع الموبقات.

وإما أن يكون مباحًا، لكن لا ثواب فيه؛ كالهدية والإحسان بقصد نفع دنيوي، كأن يرد إليه المهدى إليه أكثر من هديته، أو يُحسن إليه بمنفعة من المنافع.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾؛ الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، و«من»: بيانية، أي: وما أعطيتم من صدقات ونفقات، واجبة أو مستحبة؛ لتزكية وتطهير أنفسكم وأموالكم، وأنفس من تدفعونها إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل:١٨]، أي: يتطهر.

﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، أي: تريدون بإيتائها وجه الله، أي: خالصة لوجه الله تعالى.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فأولئك الذين يؤتون الزكاة لوجه الله تعالى.

﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾، أي: الذين ضاعفوا ثوابهم وأجورهم بإيتاء الزكاة وإرادة وجه الله تعالى. وفي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، فلم يقل: فلأنتم المضعفون، وإنما قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾، وفي هذا- مع التنبيه- تعظيم لشأنهم.

والمراد: فأولئك الذين تضاعف لهم النفقات والحسنات والأجور؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقال ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن**

الله يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»(١).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، أي: الله وحده الذي خلقكم، أي: الذي أوجدكم من العدم؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١].

﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾، أي: ثم أعطاكم الرزق، منذ كنتم في بطون أمهاتكم، وبعد ولادتكم، وفي مدة حياتكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ أي: ثم بعد هذا الخلق والإعداد، والرزق والإمداد، وبعد انتهاء أعماركم، واستيفائكم أرزاقكم وأعمالكم وآجالكم يميتكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ خلقًا آخر يوم القيامة؛ للحساب والجزاء، حياة ليس بعدها فناء.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«مِن»: تبعيضية. ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾، «مَن»: موصولة.

﴿مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾، «مِن» في قوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: هل من شركائكم- الذين أشركتموهم، مع الله في العبادة- الذي يفعل من ذلكم أيَّ شيء.

والإشارة للخلق والرزق والإماتة والإحياء. والجواب: لا أحد من شركائكم يفعل شيئًا من ذلكم، وهذا على سبيل التحدي، أي: فإذا كان هؤلاء الشركاء لا يفعلون شيئًا من ذلك، فعبادتهم باطلة؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾[لقمان:٣٠].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تنزه عز وجل وتقدس ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: وتعاظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: عن الذي يشركونه.

الفوائد والأحكام:

١- إخلاص الناس الدعاء لربهم، والإنابة إليه في حال الشدة والاضطرار؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٠، ومسلم في الزكاة ١٠١٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

٢- رجوع فريق منهم ومبادرتهم إلى الشرك بالله بعد إذاقتهم رحمته بكشف الضر عنهم، وجلب الخير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، ومفهوم هذا أن فريقًا منهم يثبتون على الإخلاص؛ وهم المؤمنون.

٣- أن الشر ليس إلى الله تعالى، وأن الخير والرحمة بيديه، ومنه وإليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾، فلم ينسب ذلك عز وجل إليه، بينما نسب الرحمة إليه بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾؛ كما قال: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ فنسب الإيتاء إليه، وكذا في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾، وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾.

٥- أن الرحمة بكشف الضر، وإزالة المكروه، وجلب الخير من الله تعالى وحده تفضلًا منه وامتنانًا؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾، وقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾.

٦- تقييض الله لهؤلاء الفريق الرجوع إلى الشرك بعد إزالة الشدة عنهم، وتقديره ذلك عليهم؛ ليكفروا بما آتاهم الله من الرحمة، من كشف الضر عنهم، وجلب الخير لهم؛ ولتكون العاقبة كفرهم بما آتاهم الله، فتحل عليهم كلمة العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

٧- أن الله يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب والنقم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، وكما قيل:

قد يُنعم اللهُ بالبلوى وإن عظُمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنِّعَم(١)

٨- تهديد المشركين ووعيدهم بأمرهم بالتمتع وانتظار سوء العاقبة المحقق؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا إثبات الجزاء.

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

٩- أن الله لم ينزل على المشركين سلطانًا ولا كتابًا ينطق أو يدل على ما هم عليه من الشرك، ولا حجة، ولا برهانًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾، بل أنزل عز وجل السلطان والحجة في نفي الشرك، والنهي عنه، وتحريمه، والوعيد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، وقال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥].

١٠- أن من طبيعة الناس- من الكفار، ومن ضعاف الإيمان- الفرح بما يصيبهم من رحمة فرح بطر وأشر واختيال، والقنوط عندما تصيبهم شدة ومحنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

١١- ذم الفرح الذي يحمل على الأشر والبطر وكفر النعم، وتحريمه.

١٢- أن ما يصيب الناس من المصائب هو بسبب ما كسبت أيديهم من المعاصي والذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

١٣- ذم القنوط من رحمة الله تعالى،وتحريمه.

١٤- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبر على جميع تصرفاته وأفعاله.

١٥- توبيخ المشركين والإنكار عليهم في فرحهم عند النعمة فرح بطر واختيال، وقنوطهم عندما تصيبهم السيئة، مع أنهم يرون ويعلمون أن الله عز وجل يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٧- تقرير تفرده عز وجل ببسط الرزق وتقديره بعلمه وحكمته، وأن في كونه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، دلائل لأهل الإيمان على تمام قدرته، وبالغ حكمته، وواسع علمه ورحمته وكمال تدبيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٨- أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون؛ لهذا خصهم الله بالذكر.

١٩- أن لذي القربى، من الوالدين وغيرهما من القرابة، والمسكين وابن السبيل حقوقًا ينبغي أداؤها لهم، منها الواجب والمندوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾.

٢٠- أن إعطاء المذكورين حقوقهم خير خيرية مطلقًا في الدين والدنيا والآخرة، للذين يريدون بذلك وبأعمالهم الصالحة مرضاة الله تعالى ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ﴾.

٢١- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى طلبًا لمرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

٢٢- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾، ﴿تُرِيدُونَ﴾، وفي هذا رد على من يقولون بأنه مجبور على أفعاله.

٢٣- إثبات صفة الوجه والذات لله عز وجل، وإثبات رؤية المؤمنين له عز وجل يوم القيامة.

٢٤- بشارة المذكورين بالفلاح في الدنيا والآخرة، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٢٥- أن ما أعطي من زيادة في الأموال لأجل أن يزيد في أموال الناس، ويردوا أكثر منه، لا يزيد عند الله؛ لأنه لا يقصد به وجه الله، وقد يكون محرمًا كربا النسيئة والفضل، والقرض الذي جر نفعًا، وقد يكون مباحًا لكن لا ثواب فيه كالهدية والإحسان لأجل نفع دنيوي؛ كأن يرد إليه أكثر مما أهدى إليه، ونحو ذلك.

٢٦- أن ما أعطي من الأموال تزكية لها ولنفوس الباذلين لها والآخذين، مقصودًا

به وجه الله تعالى وحده؛ فهو المقبول المضاعَف ثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾.

٢٧- وجوب الإخلاص في اعطاء الزكاه وغيرها من الأعمال.

٢٨- الترغيب والإغراء والحث على إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقوقهم، وإعطاء الزكاة والصدقة تزكية للنفوس وللأموال؛ لما وعد الله تعالى على ذلك من الفلاح، ومضاعفة الأجور.

٢٩-كمال قدرة الله تعالى، وتفرده عز وجل بالخلق والرزق والتدبير، وأفعال الربوبية كلها، خلق الخلق ورزقهم، ثم يميتهم ثم يحييهم، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.

٣٠- عجز آلهة المشركين، وانتفاء قدرتها على أي شيء مما ذكر، وبطلانها والإنكار على المشركين وتقريعهم وتوبيخهم في عبادتهم مع الله شركاء لا يملكون من الأمر شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾.

٣١- ثبوت التلازم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وأن من أقر بتوحيد الربوبية لزمه الإقرار بتوحيد الألوهية، وأن من لا يملك شيئًا من أفعال الربوبية لا تجوز عبادته.

٣٢- أن الرازق هو الله تعالى وحده، ويجب طلب الرزق منه وحده، مع بذل الأسباب.

٣٣- تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعاليه وتعاظمه عن الذي يشركون به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: بان واتضح الفساد في البر والبحر، من القحط والجدب، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وكثرة الآفات والأمراض، ونفوق الحيوانات والطيور والحيتان، ونضوب مياه الآبار والأنهار، وغير ذلك من المصائب والآفات.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ الباء: للسببية، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بسبب الذي كسبته أيدي الناس، أو بسبب كسب أيديهم، أي: بسبب كسبهم من الذنوب والمعاصي(١).

وعن قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب**»(٢).

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ قرأ روح: ﴿لِنُذِيقَهُم﴾ بالنون.

وقرأ الباقون بالياء: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يذيقهم، أي: أن يُمِسَّهم جزاء وعقوبة بعض الذي عملوه واكتسبوه من المعاصي والذنوب، لا كله.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ١٢٨-١٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٢، ومسلم في الجنائز ٩٥٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٠.

والإذاقة أعلى أنواع الإدراك الحسي، فالإنسان يسمع بالشيء ثم يراه، ثم يشمه، ثم يمسه، ثم يذوقه، وهي بمعنى الإصابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

ليكون ذلك عظة وعبرة وتذكيرًا بما هو أشد منه من عذاب الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النحل:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فاطر:٤٥].

وقال تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ [الرعد:٣٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [القلم:٣٣].

وفي الحديث: «**ولم ينقصوا في المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطَروا**»(١).

وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، ولم يقل: ليذيقهم العقوبة؛ لبيان أن سبب العقوبة هو العمل، وأن الجزاء على قدر العمل.

وقوله: ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، ولم يقل: الذي عملوا، أو كل الذي عملوا؛ لأنه عز وجل لو عاقبهم بكل الذي عملوا لأهلكهم، ولكنه عز وجل يمهلهم ويعفو عن كثير.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا إلى الله تعالى، وينيبوا إليه، ويقلعوا عما هم عليه من الذنوب والمعاصي، التي كانت سببًا لخراب البلاد، وفساد العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠١٩؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

قال ابن القيم: «نَزِّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزروع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم».

وقال أيضًا: «فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارة بقحط وجدب، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم، لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًّا؛ لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له، والعاقل يسيِّر بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده وينظر مواقع عدل الله وحكمته»(١).

﴿قُلْ﴾ الخطابُ للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾، أي: سيروا في الأرض بأقدامكم وأبدانكم، وانظروا بأبصاركم، وتأملوا وتفكروا واعتبروا بقلوبكم وبصائركم، والخطاب للكفار، أو لعامة الناس.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين من قبلكم من المكذبين للرسل، المفسدين في الأرض؟ حيث كانت عاقبتهم أسوأ العواقب، ومآلهم شَرَّ المآلات، استأصلهم العذاب في الدنيا الموصول بعذاب الآخرة؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، أي: كان أكثرهم مشركين مثلكم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم، فلستم خيرًا منهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر:٤٣].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٩٤، ٣٩٥.

وكان المتوقع أن يقول: أهلكناهم أو دمرناهم، أي: عاقبتهم: أنا دمرناهم وأهلكناهم، كما ترون، لكنه عدل إلى قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، أي: عدل لبيان سبب إهلاكهم، وهو الأهم، وهو كون أكثرهم مشركين، ونُجِّي الرسل، وأتباعهم المؤمنون، كما هي سنة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾؛ هذا فيه تأكيد لما سبق في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ﴾ [الآية:٣٠] من هذه السورة.

وفيه- بعد تهديد المكذبين وتوعدهم بأن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم من العذاب-: تقوية لقلب النبي ﷺ، وتثبيت له على الدوام على الإسلام، وعدم المبالاة بمن خالفه.

أي: أقبل بوجهك وقصدك وبدنك، وقلبك وقالبك ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾، أي: للدين الكامل في قيامه، العدل المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا نقص، دين الإسلام وعبادة الله وحده والإخلاص له، وهذا أمر له ﷺ ولأفراد أمته.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ﴾؛ وهو: يوم القيامة الذي إذا أراد الله كونه، فلا أحد يقدر على رده، ولا بد من إتيانه، ونُكِّر للتعظيم، أي: يوم عظيم ثقيل، عبوس قمطرير.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أصلها: «يتصدعون»، فأدغمت التاء في الصاد.

و«التصدع»: التفرق والتمايز والتشتت، أي: يتفرقون بعد الحساب، فريق إلى الجنة، وفريق إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم:١٤-

١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ [الزلزلة:٦].

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝٤٤﴾: هذا كالتفسير لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أي: يتفرقون فريقين.

قوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾؛ «من»: شرطية، و«كفر»: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

والمعنى: فعليه وحده عاقبة كفره ووباله؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ الجملة شرطية كالأولى، أي: ومن عمل عملًا صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، جامعًا بين إيمان القلب، وعمل الجوارح.

﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾؛ متعلق بـ﴿يَمْهَدُونَ﴾؛ وقدم عليه لإفادة الحصر، ومراعاة الفاصلة. والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلأنفسهم خاصة، لا لغيرها.

﴿يَمْهَدُونَ﴾، أي: يجعلون لأنفسهم مهادًا، أي: فراشًا، والمهاد: الفراش، أي: يهيئون ويعمرون لهم منازلهم في الجنة، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها وقصورها.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يجزي ويثيب الذين آمنوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه وسنة نبيه ﷺ بجوارحهم.

﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: بالفضل والزيادة، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، لمحبته عز وجل لهم بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ تعليل لمقدر، أي: يجزي الكافرين بكفرهم، عدلًا منه؛ لأنه لا يحبهم، بل يبغضهم بسبب كفرهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن سبب كثرة المصائب والفساد في البر والبحر: من القحط والجدب، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ومحق البركات وقلة الخيرات، وكثرة

الأمراض والآفات، وهلاك الحرث والنسل، وجعل الديار بلاقعَ؛ هي ذنوب بني آدم ومعاصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

وكما أن المعاصي والذنوب سبب للمصائب الدنيوية، فهي أيضًا سبب للمصائب الدينية، من وقوع الفتن، والمشاكل والاختلاف، واستمراء المعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤].

٢- إثبات الأسباب، وأن الأمور مقرونة بأسبابها، وقد جعل الله لكل شيء سببًا؛ وأن أفعال الله تعالى كلها معللة ولحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، وقوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٣- إثبات الاختيار والكسب للإنسان، وأنه غير مجبر على فعله، كما تقول الجبرية؛ ولهذا يعاقب على عمله؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لعلهم يرجعون﴾.

٤- أن الإيمان والتقوى واكتساب الخير، سبب لصلاح البر والبحر، والعباد والبلاد؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

٥- حكمة الله تعالى البالغة في مؤاخذة العباد ببعض آثار ذنوبهم ومعاصيهم، بما يصيبهم من المصائب في أنفسهم وأموالهم وحروثهم، وغير ذلك؛ ليرجعوا ويتوبوا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٦- نعمة الله تعالى في تخفيف الابتلاء على العباد، وسعة رحمته، وأنها سبقت غضبه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، أي: بعض ما عملوه من المعاصي، لا كله.

٧- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، أي: جزاءه.

٨- أن الابتلاء بالعقوبات قد يكون سببًا للرجوع إلى الله، لمن وفقه الله، وفي الحديث: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**».

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(١).

وقد يكون الابتلاء بذلك سببًا للعتوّ والنفور، نسأل الله الهداية.

٩- أمر المشركين المكذبين له ﷺ بالسير في الأرض، والتأمل والتفكر والاعتبار، كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم السيئة، ونهايتهم المؤلمة؛ ليحذروا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾.

١٠- وجوب السير في الأرض والنظر والتفكر والاعتبار، كيف كانت نهاية المشركين المكذبين للرسل، وما حل بهم من العقوبات؛ للحذر من مسالكهم، والسعيد من وعظ بغيره.

١١- أنه إنما عوقب كثير من الأمم السابقة بأسوأ العواقب، وأهلكوا بأشد العقوبات؛ لأن أكثرهم مشركون بالله، مكذبون بما جاءت به الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

١٢- أن العقوبات قد تعم الصالح والطالح، وقد ينجي الله المؤمنين، كما أنجى الرسل ومن آمن معهم.

١٣- وجوب إقامة الوجه والاستقامة على الدين القيم، دين الإسلام، والمبادرة إلى ذلك في الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، وهذا أمر له ﷺ ولأمته.

١٤- أن الدين القيم العدل المستقيم الذي لا اعوجاج فيه هو دين الإسلام، الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام.

١٥- إثبات يوم القيامة وعظمته وشدة هوله، وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال، وأنه آت لا محالة، إذا أراد الله كونه فلا مرد له؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ

---

(١) سبق تخريجها.

يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

١٦-تفرد الله تعالى وحده بالملك والأمر والتدبير.

١٧- تصدع الناس في ذلك اليوم وتفرقهم تفرقًا لا لقاء بعده، فآخذ طريق اليمين إلى الجنة، نسأل الله التوفيق، وسالك طريق الشمال إلى النار، نسأل الله السلامة.

١٨- أن من كفر يجزى بكفره وحده دون غيره، عدلًا من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

١٩- أن من عمل صالحًا من الإيمان والطاعات؛ فإنهم إنما يمهدون لأنفسهم خاصة، ويهيئون منازلهم في الآخرة ويعمرونها، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

٢٠- التنويه بشأن من سلكوا طريق الحزم والكياسة بالاستعداد لما أمامهم، وتوطئة خير المنازل لأنفسهم، في ربوع الجنات، وأعلى المقامات، بجوار رب الأرض والسموات.

٢١- مجازاة الله عز وجل الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالفضل والزيادة والمضاعفة؛ كرمًا منه وجودًا؛ لأنه لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه أوجب ذلك على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٢٢- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح.

٢٣- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

٢٤- جمع القرآن بين الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وذم الكفر والتحذير منه.

٢٥- كمال عدل الله عز وجل بمجازاة كل على عمله، فالكافر يجازى على كفره، والمؤمن يثاب على إيمانه. ومن عمل الإنسان ما كان سببًا فيه؛ كما قال ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينتقص من أجورهم شيئًا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٢٦- أنه عز وجل لا يحب الكافرين، بل يبغضهم بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٧- إثبات المحبة لله تعالى، وأنه يحب عباده المؤمنين؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ «مِن»: تبعيضية، أي: ومن دلائل عظمته عز وجل ووحدانيته، وتمام قدرته، وواسع علمه، وحكمته، ورحمته، وسابغ نعمته على العباد: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ مؤخر، أي: ومن آياته إرسال الرياح.

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾: حال منصوبة، وعلامة النصب: الكسرة، أي: مبشرات برحمته والغيث والمطر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان:٤٨].

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل في المواضع الثلاثة، أي: وليذيقكم بإرسال الرياح مبشرات ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

والمراد برحمته هنا: المطر، أي: وليذيقكم من المطر والغيث، الذي به حياة العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾

[الشورى:٢٨].

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: ولأجل أن تجري السفن في البحر بأمره وقوله القدري ومشيئته، بسبب الرياح.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: ولأجل أن تطلبوا الرزق والمعاش من فضل الله عز وجل في التجارات والأسفار بين الأقاليم بواسطة السفن؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:١٤]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية:١٢].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم من إرسال الرياح، وإنزال المطر والغيث، وتسخير السفن تمخر عباب البحار، وتحملكم في أسفاركم وتجاراتكم، وغير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

والشكر: القيام بطاعة المنعم، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، وذلك بالاعتراف بها في القلب، ونسبتها باللسان إلى مسديها وهو الله عز وجل، والثناء عليه بها، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا﴾ كثيرين ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من الأمم السالفة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(١).

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الباء: للمصاحبة، أي: فجاؤوهم بالآيات البينات، والدلائل الظاهرات، والحجج والبراهين الواضحات، على وحدانية الله تعالى وصحة ما جاؤوا به.

---

(١) سبق تخريجه

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾، أي: فعاقبنا الذين أجرموا من أولئك الأقوام بسبب إجرامهم، بتكذيب رسلهم، والكفر والشرك بالله، وإنكار وحدانيته، وأخذناهم وأهلكناهم. والإجرام: فعل ما يكون سببًا في الإثم والعقوبة.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾، أي: واجبًا علينا ﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على من اعتدى عليهم، وإظهارهم على من خالفهم، وإنجاؤهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر:٥١].

وهذا حقٌّ أحقه الله عز وجل وأوجبه على نفسه تفضلًا وإحسانًا منه، وجودًا وكرمًا.

قال ابن القيم: «فهذا حق أحقه الله على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ: «الحق»، ولفظ: «على»»(١).

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(٢).

فهو عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، بل هو المنعم المتفضل عليهم؛ كما قال ابن القيم(٣):

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأمر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والفضل للمنان

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٩٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «النونية» ص١٤٩، ١٥٠.

وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾:

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، أي: الله وحده الذي بتدبيره وتمام قدرته ونعمته ورحمته يرسل الرياح.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، أي: تحركه وتنشئه وتسوقه وتنشره؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ [المرسلات:٣]، أي: الرياح تنشر السحاب، وهو الغيم.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: فيمده ويوسعه ويكثره وينشره في الجو الأعلى، فينشئ سحابًا فيُرى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطه ويمده حتى يملأ أرجاء الأفق.

﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾، أي: متراكبًا، قد طبق بعضه فوق بعض أسود مدلهمًّا ثقيلًا قريبًا من الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور:٤٣]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧].

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾، أي: المطر، وهو القطر، والخطاب لكل من يتأتى خطابه، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، أي: يخرج من خلال السحاب، أي: من فتوقه وشقوقه وخلله.

قال الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ... ولا أرض أبقل إبقالها(١)

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، أي: فإذا أصاب بالغيث والمطر الذي يشاؤه من عباده رحمةً بهم.

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ «إذا»: فجائية، أي: يبشر بعضهم بعضًا بنزوله؛ لشدة حاجتهم واضطرارهم إليه.

---

(١) البيت لعامر بن جوين الطائي. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٢/ ٤٦، «المحكم والمحيط الأعظم» ٨/ ٢١٩.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة، أي: وإنهم كانوا من قبل تنزيل الغيث والمطر عليهم.

﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾؛ تأكيد للأول، وعلى هذا يعود الضمير إلى الودق، أي: المطر، أي: من قبل إنزال المطر عليهم. ويحتمل عوده إلى الاستبشار المأخوذ من قوله: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، أي: من قبل الاستبشار، فيكون على هذا تأسيسًا لا توكيدًا.

﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ اللام: للتوكيد، ومعنى «مبلسين»، أي: قانطين يائسين من نزوله أزلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورى:٢٨].

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن كثير وأبو بكر عن عاصم بقصر الهمزة، وحذف الألف على الإفراد: «أَثَرِ».

وقرأ الباقون بمد الهمزة وألف بعد التاء على الجمع: ﴿ءَاثَٰرِ﴾.

والمراد برحمة الله هنا: المطر والغيث، أي: فانظر إلى آثار المطر والغيث. فأطلق عز وجل على المطر أنه رحمته في هذه الآية؛ كما أطلق ذلك على الجنة، فقال تعالى في الحديث القدسي للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**»(١)؛ لأن كلًّا من المطر والجنة أثر من آثار رحمته الفعلية.

وقيل: المراد برحمة الله الرحمة التي هي صفة من صفاته، والتي من آثارها المطر وإحياء الأرض بعد موتها.

والأول أظهر، أي: فانظر إلى آثار الغيث والمطر، الذي هو رحمة من الله عز وجل.

﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، أي: كيف يحيي الله به الأرض بالنبات والاخضرار ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، أي: بعد أن كانت ميتة يابسة جرداء؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: الذي أحيا الأرض بعد موتها وهو الله عز وجل، ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لقادر على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم أحياء.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو ذو القدرة التامة على كل شيء؛ كما قال تعالى في آية سورة فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾؛ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أرسلنا ريحًا مضرة متلفة على النبات وما زرعوه.

و«الريح» بالإفراد تطلق على ما يضر غالبًا كما في هذه الآية، وكما في كثير من مواضع ذكرها في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١- ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧]، وغير ذلك.

وقد تطلق «الريح» على ما ينفع؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، وفي الحديث: «**اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، ومن شر ما فيها، وشر ما أمرت به**»(١).

عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، قال: «الرياح ثمانية: أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب، فأما الرحمة: فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات، وأما العذاب: فالعقيم والصرصر، وهما في البر، والعاصف والقاصف، وهما في البحر»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٥٢؛ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٢٩.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: فرأوا ما حيي بالماء الذي نزل من السماء، وهو النبات مصفرًّا، بعد اخضراره، قد تداعى إلى التلف والفساد واليبوس والسواد والهلاك.

﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لظلوا من بعد اصفرار نباتهم وزروعهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾، أي: يجحدون ما تقدم من النعم وينسونها، ويبادرون إلى الكفر؛ كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة:٦٣- ٦٧].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: فإنك يا محمد لا تستطيع أن تسمع الموتى؛ لأنهم موتى لا يسمعون.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ» بالياء مفتوحة، وقرأ الباقون بالتاء مضمومة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على أنه خطاب للنبي ﷺ، أي: ولا تستطيع أن تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين؛ لأنهم لا يسمعون بسبب صممهم وإدبارهم عنك.

والمراد: أن هؤلاء الكافرين بالله ونعمه لا حيلة فيهم، ولا ينفع فيهم وعظ ولا زجر؛ لأنهم أشبه بالموتى الذين لا يسمعون، والصم إذا ولوا مدبرين.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾؛ قرأ حمزة: «تَهْدِي» بالتاء، وبدون ألف بعد الهاء على الخطاب، ونصب «العُمْيَ» على المفعولية، وقرأ الباقون: ﴿بِهَادِي﴾ بالباء الموحدة، وبألف بعدها مع إضافة «هادي» إلى ﴿العُمْيِ﴾.

أي: وما أنت يا محمد بهادي العمي الذين لا يبصرون عن ضلالتهم، أي: عن متاهتهم إذا تاهوا في الطريق، فكذلك ماأنت بقادر على هداية العمي عن الحق من الكافرين عن ضلالتهم.

فاجتمع فيهم أنهم لا يسمعون كالموتى والصم المدبرين، ولا يهتدون كالعمي

الضالين، فلا أمل فيهم، ولا مطمع بهدايتهم.

﴿إِن تُسْمِعُ﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما تسمع إسماع إفهام وانتفاع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي يؤمن، أي: يصدق بآياتنا، وينقاد لها، ويعمل بها.

﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي: مستسلمون لله بالتوحيد، منقادون لطاعته، مخلصون له العبادة وحده لا شريك له.

وهذا كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام:٣٦].

الفوائد والأحكام:

١- أن من آيات الله تعالى الدالة على تمام قدرته، ووحدانيته، وحكمته، وواسع علمه ورحمته، ونعمه على العباد: إرسال الرياح مبشرات بالمطر، ولإجراء السفن بأمره الكوني؛ لحملهم في أسفارهم في طلب معاشهم وتجارتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

٢- كثرة منافع الرياح وتعددها، فهي تنشئ السحاب وتلقحه، وتبشر بالمطر، وتجري السفن في البحر، بأمر الله الكوني، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾.

٣- إثبات أمر الله تعالى وقوله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾.

٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله، وأن الله تعالى أنعم على العباد بإرسال الرياح مبشرات، ويذيقهم من رحمته، بإنزال المطر، ويجري السفن في البحر تحملهم في أسفارهم في تنقلاتهم، وفي طلب معاشهم وتجاراتهم، وغير ذلك من النعم؛ ليشكروه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، بالاعتراف بهذه النعم، ونسبتها إليه عز وجل، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٥- تسلية النبي ﷺ، وتثبيت قلبه، وتهديد وتحذير المكذبين له؛ بإخباره بأنه عز وجل أرسل من قبله رسلًا كثيرين إلى قومهم وأيّدهم بالآيات البينات، ومع ذلك

كذبهم أقوامهم، فانتقم عز وجل من المجرمين، ونصر المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾.

٦- أن الله عز وجل ما أرسل رسولًا إلا أيده بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات.

٧- إحقاقه عز وجل على نفسه نصر المؤمنين، وإيجابه ذلك على نفسه؛ بسبب إيمانهم، تفضلًا منه وإحسانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨- إثبات تفرده عز وجل، وتمام قدرته، وعظيم منته، بإرسال الرياح تثير السحاب، وبسطه في السماء كيف يشاء، وجعله كسفًا، وإنزال المطر منه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾.

٩- أن السماء يطلق على كل ما علا؛ لأن السحاب ليس في السماء التي هي السقف المحفوظ، وإنما هو في العلوِ بين السماء والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

١٠- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء؛ ليعم المرتفعات دون أن يغرق المنخفضات.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

١٢- تصريفه عز وجل المطر بين العباد كيف يشاء بحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان:٥٠].

١٣- إثبات عبودية الخلق كلهم العامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

١٤- فرح العباد واستبشارهم بالمطر؛ لشدة حاجتهم إليه؛ لأنه سبب حياتهم وحياة أرضهم ومواشيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وهذا أمر فطري وجائز.

١٥- شدة يأس الناس وقنوطهم من نزول المطر إذا تأخر عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن

كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٦- الحث على النظر والتأمل في آثار رحمة الله بالمطر والغيث، وكيف يحيي الله الأرض بالنبات والاخضرار، بعد أن كانت يابسة هامدة جرداء، والامتنان على العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

١٧- إثبات تمام قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، والاستدلال على ذلك بإحيائه الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩].

١٨- عموم قدرته تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٩- مبادرة كثير من الخلق إلى كفر نعمة الله تعالى عليهم بإنزال المطر، وإحياء الأرض بالنبات، وجحودهم لها، عندما يبتلون بإرسال الريح فيصفر وييبس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

٢٠- أن الله يبتلي العباد بالنعم؛ كما يبتليهم بالنقم؛ لينظر من يشكر ومن يكفر، ومن يجزع ومن يصبر.

٢١- تسليته ﷺ والإعذار له، بأنه لا يستطيع إسماع الكافرين سماعًا ينتفعون به؛ كما أنه لا يستطيع إسماع الموتى؛ لأنهم موتى لا يسمعون، وكما أنه لا يستطيع إسماع الصم إذا ولوا مدبرين؛ لأنهم صم وقد تولوا مدبرين عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

٢٢- أنه ﷺ لا يقدر على هداية العميان عن الحق من الكفار عن ضلالتهم، وفي هذا أيضًا تسلية له ﷺ وإعذار، وإرشاد له بألا يجهد نفسه في طلب هدايتهم، فلا سبيل إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

٢٣- شدة عتو كفار قريش، وانسداد طرق الهداية لديهم، فهم صم عن الحق فلا يسمعونه، وعمي عنه فلا يبصرونه، فقلوبهم في أكنة لا يصل الهدى إليها، ولا

طريق له إليها.

٢٤- أنه ﷺ إنما يسمع الحق ويستجيب لداعيه الذين يؤمنون بآيات الله، ويصدقون بها، فهم مستسلمون لله تعالى، منقادون لطاعته، مخلصون له العبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الآية بيان كمال قدرة الله تعالى، وبيان حال الإنسان وضعفه.

قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾؛ قرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد في المواضع الثلاثة: ﴿ضَعْفٍ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «ضُعف».

أي: الله الذي أوجد أصلكم من تراب، ثم من نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم يكون جنينًا في بطن أمه، ثم طفلًا وليدًا، ثم صبيًّا صغيرًا، ثم حدثًا، ثم مراهقًا، ثم شابًّا، إلى أن يبلغ أشده.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾، أي: من بعد حالة الضعف منذ كان الإنسان نطفة وطفلًا ضعيف القوى البدنية والعقلية، إلى أن وصل إلى مرحلة الشباب وبلغ أشده، فكملت قوته، واكتملت عنده جميع القوى البدنية والعقلية، الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾؛ «شيبة»: اسم مصدر من «شاب»، أي: ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة، أي: رجع بعد اكتمال قوته إلى الضعف، فاكتنف قوته ضعفان، فهو من ضعف إلى ضعف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

[النساء:٢٨].

وهذا يوجب على الإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يطغى، ولا يتكبر، ولا يتجبر، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه، وقد أحسن القائل:

إذا كنت تبغي العز فابغ توسطا ... فعند التناهي يقصر المتطاول

توقى البدور النقص وهي أهلة ... ويدركها النقصان وهي كوامل(١)

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يخلق الذي يشاء، ويتصرف في خلقه كيف يشاء؛ لسعة علمه، وتمام قدرته؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

وذو القدرة التامة فلا يعجزه شيء؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤].

وباجتماع سعة العلم وتمام القدرة جاء خلقه على أكمل الوجوه وأتمها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: ويوم تقوم القيامة، ويبعث الناس من قبورهم.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: يحلف مرتكبو الجرائم من الكفر والشرك، وغير ذلك من الموبقات.

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر:«ديوانه» ص٣٢١، وروي الشطر الأول من البيت الأول بلفظ:«إذا كنت تبغي العيش...». انظر:«ربيع الأبرار» ٥/ ٣٤٥، «الحماسة المغربية» ٢/ ١٢٦٨.

﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾، أي: ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة واحدة، أي: فترة قصيرة، ومدة قليلة من الزمن، يعني: أنهم لم يمهلوا وينظروا مدة يُعذر فيها إليهم، وتقوم بها الحجة عليهم. وهم بهذا كاذبون؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾؛ الكاف: للتشبيه بمعنى: مثل، أي: مثل هذا الإفك الذي يصرفون به عن قول الحق يوم القيامة في إقسامهم أنهم ما لبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يصرفون عن اتباع الحق في الدنيا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، أي: الذين وفقوا للعلم النافع، والعمل الصالح، اللَّذَينِ أرسل الله رسوله ﷺ بهما؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في قضائه وحكمه وقدره الذي كتبه الله عليكم في سابق علمه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾، أي: من يوم خلقكم إلى أن بعثتم، أي: أنكم عمرتم عمرًا يتذكر فيه من وفق للتذكر؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر:٣٧].

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾؛ ها قد بعثتم فيه، وأوقفتم للحساب.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ العلم الذي فيه نجاتكم وسعادتكم في الدارين؛ ولهذا لعدم علمكم وجهلكم المركب أنكرتم البعث، ولم تستعدوا له في الدنيا، وأقسمتم في القيامة أنكم ما لبثتم في الدنيا غير ساعة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾، أي: ففي ذلك اليوم يوم القيامة ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالياء: ﴿لَّا يَنفَعُ﴾، وقرأ الباقون بالتاء: «لَا تَنْفَعُ».

أي: لا ينفع الذين ظلموا- بالكفر والشرك وارتكاب الجرائم والموبقات- ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾، أي: اعتذارهم عما قضوا به حياتهم، وضيعوا فيه أعمالهم من الباطل واللهو واللعب، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا ليستعتبوا؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ لبيان الحق وإيضاحه، وإقامة الحجة عليهم.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: من كل الأمثلة، مما يحتاج إليه في بيان الحق، وتقريب الأمور المعنوية المعقولة، بتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧]، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١].

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن جئتهم يا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، أي: بأي آية تدل على صدقك، وصحة ما جئت به من الحق، ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الذين كفروا منهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: ما أنتم أيها الرسل وأتباعكم ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أصحاب باطل، وما جئتم به باطل وكذب.

فهم كما قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: كذلك يختم الله كونًا وقدرًا على قلوب الذين لا يعلمون العلم الذي به نجاتهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم، فتكون قلوبهم غلفًا في أكنة، لا يصل إليها خير، كما ختم على قلوب هؤلاء الكافرين

المكذبين من قومك.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على ما أمرت به وعلى دعوتهم، وعلى تعنتهم ومخالفتهم وعنادهم.

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ تعليل للأمر بالصبر، أي: لأن وعد الله حق، أي: ثابت وواقع لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، أي: لا يحملنك على الاستعجال وترك الصبر الذين لا يوقنون بلقاء الله، ولا يصدقون بوعده، ولا وعيده، وبما جاءت به الرسل، بل اصبر على ما أنت عليه من الحق، واصبر على دعوتهم وعلى أذاهم؛ فإن العاقبة للمتقين.

الفوائد والأحكام:

١- تنبيه العباد وتذكيرهم بأطوار ومراحل خلقهم، وتفرده عز وجل بذلك، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته في التدرج بخلقهم، حيث خلقهم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم ردهم إلى ضعف وشيبة، فذكّرهم أن قوتهم محفوفة بضعفين؛ ليعلموا أن القوة لله جميعًا، ويستمدوا قوتهم من قوته عز وجل بتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾.

٢- التدرج في الأمور؛ لأن الله تعالى لو أراد خلق الإنسان كامل القوى في لحظة واحدة لفعل؛ لأنه لا يعجزه شيء، وإذا أراد شيئًا إنما يقول له: كن، فيكون.

٣- أن كل قوة آيلة إلى ضعف، وكل كمال آيل إلى نقص، إلا قوة الله القوي المتين، من له وحده الصفات الحسنى، والمثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، وأنه ما علا شيء وارتفع إلا كان على الله عز وجل أن يضعه.

٤- قدرته عز وجل التامة على خلق ما يشاء، وفعل ما يشاء، وأن له التصرف التام

في خلقه؛ لسعة علمه، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

٥- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «العليم» و«القدير»، وصفة العلم الواسع، والقدرة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

فالذي يخلق ويستحق اسم الخالق هو الله سبحانه وتعالى وحده؛ لأن من لازم ذلك سعة العلم وكماله، وتمام القدرة، وليس ذلك لأحد سواه عز وجل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

٦- إثبات القيامة والبعث، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾.

٧- إقسام المجرمين وحلفهم كذبًا يوم القيامة: أنهم ما لبثوا إلا ساعة واحدة، أي: مدة قصيرة غير كافية للإعذار إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

٨- أن الانشغال باللهو والمعاصي واتباع الشهوات والملذات يذهب بركة العمر؛ ولهذا قال ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»(١).

٩- صرفهم عن قول الحق يوم القيامة، بإقسامهم كذبًا أنهم ما لبثوا غير ساعة؛ كما صرفوا عن اتباع الحق في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾.

١٠- أن من مات على شيء بعث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾.

١١- رد الذين أوتوا العلم والإيمان على إقسام المكذبين بأنهم ما لبثوا غير ساعة، بالإقسام بأنهم لبثوا في كتاب الله إلى يوم البعث، أي: مدة طويلة كافية لإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ﴾.

١٢- فضيلة العلم وأهله، وأنه سبب لمعرفة الحق، والصدع به، ورد الباطل، بتوفيق الله تعالى.

١٣- أن العلم قبل الإيمان والعمل، وهو سبب لهما؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، فقدم العلم على الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

١٤- إثبات قدر الله تعالى، وحكمه الكوني وقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

١٥- جهل هؤلاء المكذبين وعدم علمهم؛ ولهذا أنكروا البعث، وزعموا أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

١٦- أنه في يوم القيامة لا تنفع الظالمين معذرتهم، ولا هم يرجعون إلى الدنيا؛ ليستعتبوا، ويطلبوا العفو؛ لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾.

١٧- الامتنان على الناس بضرب الأمثال الكثيرة المختلفة في القرآن؛ لزيادة الإيضاح والبيان، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾.

١٨- تكذيب المشركين بكل ما جاء به الرسول ﷺ من الآيات الدالة على صدقه، وصحة ما جاء به، واتهامهم الرسول ﷺ وغيره من المرسلين بأنهم من المبطلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾.

١٩- ختم الله عز وجل على قلوب الذين لا يعلمون من كفار قريش وغيرهم، فلا تؤمن قلوبهم بالحق، ولا تهتدي إليه، ولا تقبله؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩﴾.

٢٠- ذم الجهل وأهله، الذين لا يعلمون العلم الذي به سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، وهو معرفة ربهم وما يجب له، وأن ذلك هو سبب الطبع على قلوبهم.

٢١- تثبيت الله عز وجل لنبيه ﷺ، وتقوية قلبه، بأمره له بالصبر على ما أمره الله به، وعلى تعنت قومه وعنادهم، وتسليته له بأن وعده له بنصره والانتقام منهم حق آتٍ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٢- نهيه عز وجل له ﷺ أن يحمله تكذيب المشركين له- الذين لا يوقنون بلقاء الله، ولا يصدقون بوعده ولا وعيده، ولا بما جاءت به الرسل- على الاستعجال وترك الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ لُقْمَان

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة لقمان»؛ لتنويه الله عز وجل بذكر لقمان فيها، وما أعطاه الله من الحكمة، وأمره عز وجل إياه بشكره، وذكر جمل من مواعظه وحكمه التي أدب بها ابنه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [الآية:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [الآيات:١٦-١٩].

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة لقمان بمكة، وقيل: إلا ثلاث آيات منها؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الآيات:٢٧-٢٩].

والصحيح أنها كلها مكية؛ لأن السورة إذا كانت مكية أو مدنية لا يستثنى منها شيء إلا بنص صريح واضح؛ لأن الأصل أن السورة تكون متتالية، والرسول ﷺ يأمر بوضع كل آية في مكانها.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه وما فيه من الحكمة والهدى والرحمة، وبخاصة للمحسنين في عبادة الله تعالى بإقام الصلاة، وإلى عباد الله بإيتاء الزكاة، الذين يوقنون بالآخرة، وامتداح طريقهم وأنهم على هدى من ربهم، وحصر الفلاح فيهم.

٢- ذم فريق من الناس، وهم الكفرة والمشركون الذين يشترون لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله واتخاذ آيات الله هزواً، وإذا قرئت على أحدهم آيات الله ولى مستكبراً كأن لم يسمعها، وتوعدهم بالعذاب المهين، وبشارتهم بالعذاب الأليم.

٣- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح ببيان ما أعده الله عز وجل للذين آمنوا

وعملوا الصالحات من جنات النعيم والخلود فيها، وعداً عليه حقًّا وهو العزيز الحكيم.

٤- إثبات وحدانية الله تعالى وتمام قدرته وتفرده بالخلق، وذم الظالمين المشركين بالله لظلالهم المبين: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

٥- الامتنان على لقمان عليه السلام بإيتائه الحكمة؛ ليشكر لله، وبيان أن من يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

٦- ذكر وصية لقمان الكبرى لابنه ووعظه إياه بالموعظة العظمى: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

٧- وصية الله تعالى الإنسان بالإحسان إلى والديه، وبيان عظم معاناة أمه في حمله وفصاله في عامين، في إشارة لعظم حقها، وأمره بالشكر لله عز وجل، ولوالديه، ونهيه عن طاعتهما في الإشراك بالله ما ليس له به علم، وأمره بمصاحبتهما في الدنيا بالمعروف، وبيان أن مصير الخلق إليه ورجوعهم كلهم إليه، فينبئهم بأعمالهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

٨- بيان لقمان لابنه كمال عدل الله عز وجل في محاسبة الخلائق: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

٩- أمره لابنه بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصابه في سبيل ذلك، وأن ذلك من عزم الأمور.

١٠- نهيه لابنه عن الكبر وتصعير خده للناس كبراً، والمشي في الأرض مرحاً واختيالا؛ لأن الله لا يحب كل مختال فخور.

١١- أمره بالقصد في مشيه والغض من صوته؛ لأن أنكر الأصوات صوت الحمير.

١٢- التقرير والتذكير بتسخير الله تعالى للعباد كل ما في السموات وما في الأرض وإسباغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة.

١٣- ذم فريق من الناس ينكر هذه النعم ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ويعدلون عن اتباع ما أنزل الله، ويتبعون ما وجدوا عليه آباءهم مما يدعوهم

به الشيطان إلى عذاب السعير.

١٤- الثناء على من أخلص العمل لله واتبع شرعه باستمساكه بالعروة الوثقى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

١٥- تسليته ﷺ وطمأنة قلبه فلا يحزنه كفر من كفر، فمرجعهم إلى الله فينبئهم بالذي عملوا، ويحاسبهم ويجازيهم عليه؛ لأنه عليم بذات الصدور، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

١٦- ذمهم على عبادتهم غير الله مع إقرارهم بربوبيته، وأنه الذي خلق السموات والأرض، وله وحده الحمد، وبيان أن أكثرهم لا يعلمون؛ إذ كيف يعبدون غيره مع إقرارهم بربوبيته؟!

١٧- بيان سعة ملكه عز وجل وغناه، وأنه المحمود في غناه، وفي كل صفاته، وإثبات الكلام له عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته، وأن كلماته الشرعية لا تنفد؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

١٨- إثبات تمام قدرته على البعث: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

١٩- تقرير تمام قدرته ونعمته تعالى في إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر؛ كل يجري إلى أجل مسمى، وتمام علمه وخبرته بأعمال العباد، والاستدلال بذلك كله على أنه عز وجل هو الحق وأن ما يدعوه المشركون من دونه هو الباطل، وأنه عز وجل هو العلي الكبير.

٢٠- إثبات تمام قدرته تعالى في إجراء الفلك في البحر بنعمته؛ ليري العباد من آياته، وأن في ذلك آيات لكل صبار شكور.

٢١- دعاء المشركين الله مخلصين له الدين وقت الشدة، إذا غشيهم موج كالظلل في البحر، فإذا نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد، ومنهم جاحد لآيات الله ونعمه، ختار كفور.

٢٢- وجوب تقوى الله، وخشية يوم القيامة وأهواله، يوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، وبيان أن وعد الله حق، والتحذير من

الاغترار بالحياة الدنيا، ومن الاغترار بالشيطان.

٢٣- بيان اختصاص الله عز وجل بعلم الغيب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة يونس.

والإشارة لآيات القرآن العظيم، وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك» تعظيمًا لها.

و«ال» في «الكتاب» للعهد، وللتعظيم، أي: الكتاب المعهود المعلوم، الذي إذا أطلق اسم «الكتاب» انصرف الذهن إليه لعظمته، وكونه أفضل الكتب على الإطلاق.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ نعت لـ«الكتاب»، أي: المحكم المتقن، المشتمل على الحكم، وعلى الحكمة في ألفاظه ومعانيه، وهديه ومواعظه، وأوامره ونواهيه، وأحكامه وأخباره، الدال على أنه من عند العليم الحكيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ قرأ حمزة بالرفع: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» على أنه خبر ثانٍ عن اسم الإشارة، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ على الحال.

أي: فيه الهدى والنور والعلم، الذي يعصم بإذن الله من الضلال والعمى والجهل؛

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، [الفتح:٢٨]، [الصف:٩].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة:١٥- ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن:٨].

﴿وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ معطوف على «هدى»، أي: هدى ورحمة للمحسنين، هداية خاصة بهم، ورحمة خاصة لهم؛ لأنهم هم الذين يهتدون وينتفعون به، وهم المؤمنون الذين أحسنوا في عبادة ربهم بالإخلاص له، والمتابعة لشرعه وسنة نبيه ﷺ، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمندوبة، فاهتدوا إلى الصراط المستقيم، وسعدوا به في الدنيا والآخرة، وفازوا بالجنة والنجاة من النار.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ هذه نعوت للمحسنين، وخص هذه الصفات الثلاث؛ لأنها من أهم صفاتهم، ومن أعظم وأفضل العبادات.

أي: الذين يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ كما شرعها الله، واجبها ونفلها.

﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطون الزكاة المفروضة في أموالهم، ويدفعونها إلى مستحقيها.

وخص الصلاة والزكاة بالذكر من بين سائر العبادات؛ لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، ومن أقامها كما شرع الله وُفق لإقامة ما عداها من شعائر الدين، وقبلت وقبل سائر عمله، وخف حسابه.

ولأن الزكاة قرينة الصلاة، وهي أعظم أركان الإسلام بعد الصلاة، وأعظم

العبادات المالية.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: وهم بالدار الآخرة والقيامة، ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أي: يصدقون التصديق التام بها، وبما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

وقد أكد قوة يقينهم بالآخرة، وصدق إيمانهم بها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

فجمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وبين الإيمان الظاهر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وبين الإيمان الباطن باليقين والإيمان التام بالآخرة، والاستعداد لها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الإشارة إلى المحسنين، الموصوفين بالصفات المذكورة، وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» في الموضعين تنويهًا بهم، ورفعة لشأنهم.

﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ نكَّر «هدى» للتعظيم، أي: على هدى عظيم تام في دينهم، ويزيده تمامًا وكمالًا كونه من ربهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: هم الفائزون في دنياهم وأخراهم، الناجون من النار والعذاب، الظافرون بالجنة والثواب.

وأكَّد فلاحهم، بل وحصر الفلاح فيهم، بكون الجملة اسمية، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك هم المفلحون دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان:٦- ٧].

لما أثنى على القرآن الكريم، وامتدح المحسنين الذين يهتدون به، وينقادون له ظاهرًا وباطنًا، وأنهم على هدى من ربهم، ووعدهم بالفلاح في دنياهم وأخراهم، أتبع ذلك بذم المعرضين عنه، المستبدلين به لهو الحديث، المستهزئين به، المستكبرين عن اتباعه.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ الواو: عاطفة، و«من»: تبعيضية، أي: وبعض الناس.

﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾؛ «من»: موصولة، أي: الذي يشتري ما يلهي عن طاعة الله تعالى، فيشتري القينات، والجواري المغنيات؛ لاستماع الغناء والمزامير، ويختار

ويستبدل عن سماع القرآن بذلك وبسماع اللهو واللغو والأباطيل، والسمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات والمضحكات وفضول الكلام، وما لا ينبغي، مما يصرف عن استماع القرآن، وعن اتباع الحق، وعن الانتفاع بالوقت وعمارته بما ينفع في دينه ودنياه وأخراه، ولعل من أعظم ذلك وأخطره اليوم الانشغال بمتابعة ما تنقله وسائل الاتصال عبر بواباتها المختلفة، وما تبثه القنوات المرئية والمسموعة والمقروءة وغير ذلك، مما أهدر كثيرًا من الأوقات، وألهى عن كثير من الواجبات والمسؤوليات.

وهذا لا ينافي ما روي عن السلف من تفسير «لهو الحديث» بالغناء؛ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ قال: «الغناء، والذي لا إله إلا هو»، يرددها ثلاث مرات.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الغناء، وأشباهه، أو ونحوه»(١).

وكذا روي عن جمع من التابعين أنه الغناء(٢).

فكل ما ألهى وشغل عن طاعة الله تعالى، وعن سماع القرآن، من الغناء واللغو والباطل من قول أو فعل ؛ فهو من لهو الحديث، والغناء من أشد ذلك وأعظمه.

قال ابن القيم، بعد أن ذكر أن لهو الحديث يشمل الغناء وغيره من الباطل: «إذا عرف هذا، فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم، بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه، فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن؛ ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبرًا كأن لم يسمعه، كأن في أذنيه وقرًا وهو الثقل والصمم، وإذا علم منه شيئًا استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرًا، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم.

يوضحه أنك لا تجد أحدًا عُني بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علمًا وعملًا، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٥٣٥.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٨/ ٥٣٦-٥٣٨.

سماع الغناء وسماع القرآن، عدل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا أن يناله نصيب وافر من هذا الذم، إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها، فأما من مات قلبه، وعظمت فتنته، فقد سد على نفسه طريق النصيحة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٤١]»[1].

وقال رحمه الله في النونية[2]:

حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... في قلب عبدٍ ليس يجتمعانِ

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء: «لِيَضِلَّ»، أي: ليضل بنفسه عن سبيل الله، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لِيُضِلَّ﴾.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يضل غيره، بعد أن ضل بنفسه عن سبيل الله وصراطه المستقيم.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بجهل منه بربه، وما يجب له، وبحقيقة ما خلق له.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وحفص بالنصب: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾، عطفًا على ﴿لِيُضِلَّ﴾.

وقرأ الباقون بالرفع: ﴿ويتخذُها﴾ عطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾.

والضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يعود إلى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويجعل سبيل الله وآياته وما فيها من الحق سخرية يسخر بها، وبمن جاء بها من عند الله، وبمن تمسك بها.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أولئك اللاهون الضالون المضلون المستهزئون، لهم عذاب يوم القيامة في جهنم يهينهم ويذلهم؛ بسبب اشترائهم لهو الحديث،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٥.

(٢) ص٣٢٦.

وإعراضهم عن آيات الله، وضلالهم وإضلالهم عن سبيل الله، واستهزائهم بها، والجزاء من جنس العمل، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

وأتى بالجملة الاسمية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ﴾ للدلالة على الثبوت والدوام، وقدم الخبر وهو قوله: ﴿لَهُمۡ﴾؛ لإفادة الحصر والاستحقاق.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾، أي: وإذا تقرأ على هذا الذي اتخذ لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذها هزوًا ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، أي: آيات القرآن؛ ليتأمل فيها، ويؤمن بها، وينقاد لها.

﴿وَلَّىٰ﴾، أي: ولي عنها ببدنه، وأعرض عنها بقلبه، ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾: حال، أي: حال كونه مستكبرًا، أي: متعاليًا متعاظمًا في نفسه، عن قبول الحق، والانقياد له، والسين والتاء للمبالغة.

﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ الجملة: حالية، أي: كأنه لم يسمعها، وكأنها ما تليت عليه؛ لعدم انتفاعه بها بسبب توليه وإعراضه واستكباره.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾؛ قرأ نافع بسكون الذال: «أُذْنَيْهِ»، وقرأ الباقون بضم الذال على الأصل: ﴿أُذُنَيۡهِ﴾.

والجملة أيضا: حالية، وبيان للأولى، أي: كأن في أذنيه صممًا وثقلًا مانعًا من السماع.

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فبشره بعذاب مؤلم موجع؛ حسيًّا لبدنه، ومعنويًّا لقلبه يوم القيامة.

والبشارة في الأصل: الإخبار بما يسر، وأطلقت هنا على البشارة بما يحزن ولا يسر على طريق التهكم والسخرية به؛ كما سخر بآيات الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾:

لما توعَّدَ المكذبين بآيات الله، المعرضين عنها، بالعذاب المهين، والعذاب الأليم، ذكر ما أعدَّه للذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعيم المقيم، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم الأعمال الصالحات، التي جمعت بين الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ﴾، أي: لهم خاصة ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: التي فيها كل أنواع النعيم وألوانه: نعيم الروح والقلب والبدن، من المآكل والمشارب والملابس، والمساكن والمراكب والأزواج، والسماع والمناظر والبهجة والسرور، وغير ذلك.

كما قال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧][1].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، أي: مقيمين وماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا، ولا يُخرَجون منها.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾؛ «وعد»: مفعول مطلق، و«حقًّا»: مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة، أي: وعدًا من الله لهم ﴿حَقًّاۚ﴾، أي: محققًا ثابتًا آتيًا ولا بد، وواقعًا لا محالة؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وهذه بشارة لهم بما قدموه، وقِرًى لهم بما أسلفوه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة والقهر والامتناع، الذي قهر كل شيء، القادر على كل شيء.

وذو الحكم التام والحكمة البالغة في خلقه وقدره وشرعه وجزائه، في أقواله وأفعاله، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، يضع الأمور مواضعها، ويجازي كلًّا بما عمل.

ومع أن صفات المخلوق لا تقارن بصفات الخالق، فصفاته عز وجل أعلى وأجل، وأعظم وأكمل، فقل أن تجتمع هاتان الصفتان: العزة والحكمة في أحد من الخلق، فإن وجدتَ شخصًا قويًّا عزيزًا وجدته غشيمًا فاقدًا للحكمة غالبًا، وإن وجدت شخصًا حكيمًا وجدته ضعيفًا عاجزًا قليل الحيلة غالبًا.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

---

(١) سبق تخريجه.

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾:

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾، أي: أوجدها وجعلها سقفًا للمخلوقات، وأمسكها بقدرته بغير عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت وشوهدت. وقيل: لها عمد لكن لا تُرى(١).

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: وركز في الأرض ووضع فيها جبالًا.

﴿رَوَٰسِيَ﴾، أي: ثوابت، أرسى بها الأرض، وثبتها بها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النازعات:٣٢].

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، أي: لئلا تميد بكم، أي: لئلا تضطرب وتميل بكم وتتحرك.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ﴾، أي: ونشر في الأرض وفرَّق فيها وذرأ من كل أنواع الدواب وأصنافها، التي سخرها الله لبني آدم ومصالحهم ومنافعهم، مما تُعلم الحكمة من خلقه، ومما لا تعلم.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾.

لما قرر أنه الخالق، نبه على أنه الرازق، فقال: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ هو المطر، وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم، والمراد بالسماء: العلو.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، أي: فأنبتنا في الأرض من كل صنف من أصناف النباتات وأنواعها، ﴿كَرِيمٍ﴾ بهيج نافع حسن المنظر.

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾، أي: هذا مخلوق الله، أي: هذا المذكور من خلق السموات من غير عمد، وترسية الأرض بالجبال، وبث أنواع الدواب فيها، وإنزال المطر من السماء عليها، وإخراج أصناف النباتات النافعة منها، وغير ذلك، أي: هذا كله خلق الله تعالى

---

(١) انظر تحقيق القول في هذا في سورة الرعد.

وحده؛ ولهذا استحق العبادة دون غيره.

﴿فَأَرُونِي﴾، أيها المشركون، والأمر للتحدي والتعجيز، ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: استفهامية، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي خلق الذين تعبدونهم غيره من الشركاء؟ أي: أروني إياهم، وأحضروهم لي؛ كما قال الشاعر:

أريني جوادًا مات هزلًا لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلًا مخلَّدا(١)

والاستفهام للتهكم والنفي، أي: أنهم لم يخلقوا شيئًا، فلا يستحقون أن يعبدوا مع الله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾ [الروم:٤٠].

قال ابن القيم في كلامه على قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾: «فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه، وأدله على بطلان الشرك! فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئًا مع الله طولبوا بأن يُرُوه إياه، وإن اعترفوا بأنهم أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلًا ومحالًا»(٢).

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الظالمون بالشرك بالله وعبادة غيره معه ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: في جهل وعمى، وبُعد عن الحق شديد، وتيه بعيد، ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن واضح، ظاهر جلي في عبادتهم من دون الله شركاء لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

٢- تعظيم الله لآياته وكتابه المبين؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

---

(١) البيت لحاتم الطائي. انظر: «ديوانه» ص١٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٦.

٣- إثبات عظمة الله تعالى ووحدانيته وكمال حكمته، وصدق رسوله ﷺ؛ لدلالة القرآن الكريم على ذلك؛ ولهذا سماه الله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٤- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به: القرآن العظيم، أعظم الكتب على الإطلاق وأفضلها.

٥- إحكام القرآن الكريم وإتقانه، واشتماله على الحكم بين الناس، وعلى الحكمة في هديه ومواعظه وأحكامه وأخباره، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٦- أن القرآن هدى ورحمة للمحسنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به، وينقادون له، فيحسنون في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه، ويحسنون إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة والمندوبة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

٧- امتداح المحسنين بأعظم أعمالهم من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتصديق الجازم بالآخرة والاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

٨- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين أركان الإسلام وبين العبادات؛ لأن الله خصهما بالذكر، فالصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم العبادات البدنية، والزكاة قرينة الصلاة وأعظم العبادات المالية.

٩- إثبات الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

١٠- ثناء الله على المحسنين المتصفين بالصفات المذكورة بتوفيق ربهم تعالى لهم، وسيرهم على هداه، وبشارته لهم خاصة بالفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾. وفي هذا ترغيب وحث على الاتصاف بتلك الصفات.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٢- ذم الذين يشترون لهو الحديث من الغناء واللغو والباطل؛ ليَضلوا ويُضلوا عن سبيل الله، ويجعلونها هزوًا، وتوعدهم بالعذاب المهين المذل لهم؛ وفي هذا تعريض

بالمشركين، وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾.

١٣- تحريم الغناء؛ لأنه أول ما يدخل تحت لهو الحديث، والآية عامة له ولغيره.

١٤- أن كل ما ألهى وشغل عن طاعة الله تعالى من قول أو فعل، أو كان سببًا في تضييع الوقت بلا فائدة، أو شغل عما هو أهم وأوجب فهو من اللهو الذي يجب اجتنابه.

١٥- ذم كل ما يضل عن سبيل الله ويصد عن دينه.

١٦- تحريم الاستهزاء بآيات الله، وكفر من فعل ذلك، كما قال تعالى في المستهزئين به وبآياته: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾[التوبة:٦٦].

١٧- ذم هذا الصنف من الناس بتوليهم بأبدانهم عن آيات الله إذا تليت عليهم، وإعراضهم عنها بقلوبهم استكبارًا؛ كمن لم يسمعها، أو كمن في أذنيه صمم وثقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾.

١٨- بشارة هذا المتولي عن آيات الله استكبارًا، الأصم عن سماعها؛ بعذاب مؤلم موجع تهكمًا به، وهذا وعيد وتهديد له؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٩- وعد الله المؤكد الثابت المحقق للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ بأن لهم جنات النعيم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾.

٢٠- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

٢١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٢- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه وسنة نبيه ﷺ.

٢٣- إثبات الجنات، وأنها لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها، ولا يُخرَجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

والمراد بالخلود: الخلود الأبدي؛ كما دل على ذلك كثير من الآيات.

٢٤- أن وعد الله حق لا يمكن أن يُخلف؛ لقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، وذلك لتمام قدرته فلا يعجزه شيء، ولصدق وعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم:٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١].

٢٥- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

٢٦- في اجتماع كمال العزة وكمال الحكم والحكمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

٢٧- قدرة الله تعالى التامة على الخلق والرزق وغير ذلك، وعظيم خلقه وحكمته ونعمته، حيث خلق السموات وأمسكها بقدرته بغير عمد، وركز في الأرض جبالًا راسخة ثابتة؛ لئلا تضطرب بأهلها، ونشر فيها من كل أنواع الدواب، وأنزل من السماء ماءً فأنبت فيها من جميع أصناف النباتات النافعة؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

٢٨- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بقدرة الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

٢٩- إثبات كمال ربوبيته عز وجل، وتفرده بالخلق والرزق، وغير ذلك، والاستدلال بذلك على وجوب إفراده بالألوهية، وبطلان ما يعبد من دونه من آلهة لا تخلق شيئًا، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًّا ولا نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٣٠- إغراق الظالمين بشركهم بالله، وعبادتهم آلهة من دونه بالضلال البين الظاهر، وبعدهم كل البعد عن الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«لقمان»: هو لقمان بن عنقاء بن يثرون، والجمهور على أنه رجل حكيم صالح، أعطاه الله حكمة ودراية، ورأيًا سديدًا، وتصرفًا رشيدا، ويدل عليه ظاهر الآية.

وقيل: كان نبيًّا، ولا دليل على هذا.

قيل: كان عبدًا حبشيًّا، وقيل: من بلاد النوبة، وقيل: من سواد مصر.

أي: ولقد أعطينا لقمان الحكمة، والحكمة: موافقة الصواب والفقه والفهم والمعرفة بالأحكام، وما فيها من الأسرار والإحكام.

والحكمة مستلزمة للعلم النافع، والعمل الصالح؛ ولهذا قال:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ «أن»: تفسيرية، أي: وأمرناه أن يشكر لله على ما أعطاه ووهبه من الحكمة والعلم والفهم، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾: للاختصاص والاستحقاق، أي: أن اشكر لله وحده، بالاعتراف بنعمة الله تعالى بالقلب، والثناء عليه بها باللسان، واستعمال الجوارح في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فإنما يعود نفع شكره وثوابه على نفسه، والله غني عن شكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦، الجاثية:١٥].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، أي: ومن جحد نعمة الله تعالى عليه بنسبتها لغير الله، أو الاستعانة بها على معصية الله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، ﴿غَنِىٌّ﴾، أي: ذو الغنى التام عن خلقه، فلا تضره معصية العاصي؛ كما لا تنفعه طاعة المطيع؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

﴿حَمِيدٌ﴾، أي: محمود في غناه؛ لكرمه وجوده، يده سَحَّاء بالليل والنهار؛ كما قال ﷺ: «**يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده**»(٢).

ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين اسميه: «الغني» و«الحميد»؛ لأنه المحمود على غناه؛ لعظيم كرمه وجوده وإحسانه.

وهذا بخلاف كثير من الخلق؛ فإنه قد يُذم بسبب غناه؛ لشحه وبخله، وهو سبحانه محمود على جميع صفاته وأفعاله، وأقواله الشرعية والقدرية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾؛ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف بمعنى: «حين» متعلق بمحذوف، أي: واذكر حين قال لقمان لابنه، يقال اسم ابنه: «ثاران».

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾؛ الواو: حالية، أي: واعظًا له. والوعظ والموعظة: الأمر والنهي مقرون بالترغيب والترهيب.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾؛ النداء للتنبيه والاهتمام والتعظيم، والتصغير للشفقة عليه، والتحبب إليه.

﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، أي: لا تشرك بالله أيَّ شيء من الشرك، لا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، لا شركًا أكبر، ولا شركًا أصغر، ولا شركًا خفيًّا، ولا تشرك به أي شيء من الأشياء، أي: لا تعبد غير الله، بل أخلص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له.

وبدأ بالنهي عن الشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، وقدم ذلك على بقية النصائح والأوامر؛ لأن التخلية قبل التحلية.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ تعليل للنهي عن الشرك بالله، وبهذا جمع لقمان عليه السلام لابنه بين نهيه عن الشرك وبيان الحكمة في ذلك.

و«إنّ» واللام: للتوكيد، أي: إن الشرك بالله أظلم الظلم، وأعظمه وأفظعه، وأشده وأبشعه؛ لما فيه من صرف العبادة- التي هي حق الرب الخالق المالك المدبر العظيم- لمخلوق ضعيف، لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فلا أعظم ولا أشد ظلمًا ممن أشرك مع الله غيره.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس بذاك، ألا تسمعوا إلى قول لقمان:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»(١).

وفي لفظ قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحاب

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩١٨.

رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١).

وفي لفظ: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه** ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»(٢).

وفي لفظ: فقال رسول الله ﷺ: «**ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

هاتان الآيتان استئناف من كلام الله تعالى وليس من قول لقمان، ويقوي هذا اقتران شكر الله وشكر الوالدين في الأمر في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، ولأن لقمان على الصحيح ليس بنبي، وإنما هو رجل حكيم صالح.

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ الوصية: العهد بأمر هام، أي: عهدنا إليه وأمرناه وأوجبنا عليه الإحسان إليهما بعد شكر الله تعالى والقيام بعبادته وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾؛ اعترض بهذا بين قوله:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٢٩، والترمذي في التفسير ٣٠٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٣٧، ومسلم في الإيمان ١٢٤.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ لبيان السبب الموجب للوصية بهما، وذكر معاناة الأم خاصة للتدليل على عظيم حقها، وشدة معاناتها في أبلغ صورها.

أي: حملته أمه في بطنها ضَعفًا على ضعف، ومشقة على مشقة، وجهدًا على جهد، فلا تزال تعاني المشاق من حين كان نطفة، من الوحم والمرض والثقل، وتغير الحال، ثم مشقة الطلق، ثم الولادة وآلامها الشديدة؛ كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، أي: وتربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين فيهما من العناء والتعب ما لا يعلمه إلا الله، تسهر لسهره، وتتألم لألمه، وتحمله وتطوف به إذا بكى، وتقوم على إصلاح شأنه، وتنظيفه وتنظيف ثيابه، وغير ذلك، فهي في تعب من حين يحمل إلى أن يُفصل؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾؛ «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير لقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، ويجوز كون «أن» مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء محذوفة متعلق بـ«وصينا»؛ أي: وصيناه بالشكر لي ولوالديه.

أي: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ بإخلاص العبادة لي وطاعتي، والبعد عن معصيتي.

﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: واشكر لوالديك بالإحسان إليهما، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بحقوقهما وطاعتهما، والحذر من عقوقهما.

﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: إليَّ المرجع والمآب، فأجزيك على ذلك أوفر الجزاء.

وفصّل عز وجل في حق الأم دون حق الأب- وإن كان حقه عظيمًا- لأن الأم أشد معاناة، وأعظم شفقة ورحمة، وحقها أعظم؛ ولأنها لضعفها قد تؤذى ويعتدى عليها، ويضيع حقها.

ومثل هذا تقديم الوصية على الدَّين في آيات المواريث، مع أنه مقدم عليها في

الإخراج، وذلك عناية بها لأنها في الغالب لفقراءَ ومساكينَ، وربما تساهل فيها الورثة وربما جحدوها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

سبب النـزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «حلفت أم سعد ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله أوصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا. قال: مكثتْ ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها- يقال له: عمارة- فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ [العنكبوت:٨]، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾، وفيها ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾»(١).

وفي رواية: «فأنزلت: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾، وقرأ حتى بلغ: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾»(٢).

قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾؛ «أن» والفعل «تشرك» في تأويل مصدر في محل جر، أي: وإن جاهداك على الشرك بي.

والمعنى: وإن كان والداك مشركين، وجاهداك على أن تشرك بي، أي: بذلا جهدهما وحرصا على أن تشرك بي وتتبعهما على دينهما الباطل.

﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: الذي ليس لك به علم.

أي: على أن تجعل معي شريكًا لا علم لك به، أي: في إشراك ما لا تعلمه مستحِقًّا للعبادة، كما في قوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾[المؤمنون:١١٧].

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ١٧٤٨.

(٢) أخرجها أحمد ١/ ١٨١، ١٨٦.

أو في إشراك ما ليس بشيء من الأصنام ونحوها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [العنكبوت:٤٢].

﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، أي: فلا تطعهما في ذلك، أي: لا تشرك بالله طاعة لهما، فليس طاعتهما في هذا من البر؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت:٨].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(١).

ولم يقل: فاعصمهما؛ لأن قوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ أهون وأخف على النفس، كما لم يقل: «فلا تبرهما»، أو: «فعقهما»، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، أي: في الشرك، وأما بِرُّهما فواجب، فاستمر عليه؛ ولهذا قال:

﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: عاشرهما في هذه الحياة الدنيا، وشؤونها، ﴿مَعۡرُوفٗاۖ﴾، أي: صحبة معروف وإحسان إليهما، وبرٍّ بهما وصلة لهما.

فليس في كونهما مشركين وفي حرصهما على أن يتبعهما على الشرك بالله، مبرر لترك مصاحبتهما بالمعروف والإحسان إليهما؛ وذلك لعظم حقهما على الولد، وأنه ليس بالأمر الهيِّن.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾، أي: واسلك طريق الذي رجع وتاب إلي، وهم المؤمنون الموحدون، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

والإنابة إلى الله: الرجوع إليه؛ الرجوع من الشرك به إلى توحيده، ومن معصيته إلى طاعته.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ١٧٠ رقم ٣٨١. وقد سبق ذكر الأحاديث في هذا في تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [الآية:٥٩].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: ثم إليَّ وحدي مردكم جميعًا: الأولاد ووالديهم، والخلائق كلهم.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فأخبركم بالذي كنتم تعملونه كله، أو بعملكم وأحاسبكم وأجازيكم عليه. وفي هذا وعد لمن أطاع الله وبر بوالديه، ووعيد لمن عصا الله وعق والديه، وطمأنة لمن دعاه والداه إلى الشرك بالله فلم يطعهما.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ كرر النداء بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ لتأكيد تنبيهه له وشفقته عليه، وتحننه إليه.

﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر: «مِثْقَالُ» بالرفع على أنه فاعل «تك» من «كان» التامة.

وقرأ الباقون بنصب ﴿مِثْقَالَ﴾ على أنه خبر «تك» من «كان» الناقصة، واسمها ضمير مستتر، أي: إن تكن الخطيئة أو المظلمة والخصلة السيئة، أو الخصلة الحسنة﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾.

و«تك»: فعل مضارع مجزوم بـ«إنْ»، وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: زنة ومقدار حبة من خردل، والتي هي أصغر الأشياء، وأحقرها، وسمي الوزن مثقالًا؛ لأن الشيء، يوزن، لِيُعلم ثِقلُه من خِفّتِه.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾، أي: محجبة محصنة داخل صخرة.

﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض في هذا الكون العظيم.

﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ «يأت»: جواب الشرط «إنْ»، وعلامة جزمه حذف الياء.

أي: يحضرها الله، ويحاسب ويجازي عليها حين وضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تفوت عليه، ولاتهرب منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾؛ «اللطيف»: ذو المعرفة بأسرار الأمور وحكمها الدقيقة، وذو الإحسان إلى عباده، والتيسير عليهم؛ قال ابن القيم(١):

وهْو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعانِ

إدراك أسرار الأمور بحكمة ... واللطف عند مواقع الإحسانِ

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو الخبرة والاطلاع على بواطن الأمور وخفاياها، و«اللطيف» أخص منه، فاللطيف يدرك الدقيق، والخبير يدرك الخفي، وبلطفه عز وجل الدقيق، وخبرته بالخفي، يأتي بأعمال العباد ويبديها ويظهرها مهما دقت، ومهما خفيت، ولو كان مثقال ذرة في صخرة.

قال رسول الله ﷺ: «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة؛ لخرج عمله للناس كائنًا ما كان**»(٢).

وهذا يوجب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والإكثار من عمل الطاعات، والحذر من المعاصي.

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

---

(١) «النونية» ص١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٢٨؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بعد أن نهى ابنه عن الشرك وحذره منه، وبيَّن له ثبوت الحساب والجزاء على الأعمال ودقته، وهي أصول العقيدة، انتقل إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة، وبدأ بأمره بإقام الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات.

أي: أقم الصلاة بحدودها؛ كما شرعها الله تعالى، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، فرضها ونفلها.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: افعل المعروف بنفسك، وأْمر به غيرك.

والمعروف: ما أمر به الشرع من الطاعات وفعل الخيرات والقربات.

﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، أي: اجتنبه بنفسك، وانه غيرك عنه وحذره منه.

والمنكر: ما أنكره الشرع من المعاصي والشرور والموبقات.

قال ابن القيم: «فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمره غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي»(١).

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ بعد ما أمره بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمره بالصبر على ما أصابه؛ لأن من سلك هذا الطريق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر لا بد أن يؤذى ويعادى، فلا بد أن يتسلح بالصبر، أي: واصبر على الذي يصيبك في سبيل ذلك صبرًا على فعل ما أمر الله به، وعلى ترك ما نهى الله عنه، وعلى أقدار الله، وعلى ما يصيبك من الأذى.

قال ابن القيم: «فالصبر متعلق بالمأمور، والمحظور، والمقدور؛ بالخلق والأمر: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾»(٢).

أي: واصبر على ما أصابك في سبيل ذلك كله، فطريق الجنة ليس مفروشًا بالورود

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٧.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٦.

والرياحين، قال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

قال الشاعر:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ الإشارة إلى الأمورالأربعة التي أمره بها في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، وهي: إقام الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على ما أصابه.

﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، أي: من الأمور التي أمر الله بها عزيمة، أي: أوجبها، ومن الأمور التي يعزم عليها ويوفق لها أولو العزم وأصحاب الهمم العالية؛ كما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين الكبير العظائم(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ الآية.

بعدما أمر ابنه بإقام الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر في سبيل ذلك، وهي أصول الأعمال الصالحة، انتقل إلى تعليمه الأخلاق والآداب في معاملة الناس وفي نفسه.

قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب بتشديد العين من غير ألف: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ﴾.

وقرأ الباقون بتخفيفها وألف قبلها: ﴿وَلَا تُصَاعِرۡ﴾.

«التصعير»: الإمالة، أي: ولا تُمِلْ وجهك وتُعرض به عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك؛ استكبارًا وتعاظمًا واحتقارًا، قال عمرو بن حُنَيٍّ التغلبي:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا له من ميله فتقوما(٣)

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيتان للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» ٢/ ١٢٧، و«جامع البيان» ١٨/ ٥٥٩.

والمراد: ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم.

كما قال ﷺ: «**ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف**»(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: بطرًا مختالًا متبخترًا، متعاليًا متكبرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ تعليل للنهي قبله، أي: إن الله لا يحب كل مختال بمشيته، متكبر على الناس بفعله وهيئته، معجب بنفسه، ﴿فَخُورٍ﴾؛ متعاظم عليهم بقوله.

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

بعد أن بين له آداب حسن المعاملة مع الناس، قفاها ببيان حسن الآداب الخاصة في مشيه وكلامه.

قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ «القصد»: التوسط في الأمور كلها، كما قال ﷺ: «**وأسألك القصد في الفقر والغنى**»(٢).

قال الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طَرَفي قصد الأمور ذميم(٣)

والمعنى: خذ بالقصد والتوسط والاعتدال في مشيك؛ كما هو المعتاد بين الناس، الذي لا يلفت نظرهم، وسطًا بين مشي السريع المفرط المستخف، ومشي البطيء المثبط المتماوت، أي: ليكن مشيك وسطًا بين هذا وهذا، دالًّا على القوة والنشاط كما كان نبينا

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، ما جاء في إسبال الإزار ٤٠٨٤، وأحمد ٤/ ٦٥، ٥/ ٦٤؛ من حديث جابر بن سليم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في السهو، باب آخر من الدعاء ١٣٠٥، وأحمد ٤/ ٢٦٤، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

(٣) البيت لأبي سليمان الخطابي كما في «العزلة» له ص٩٧، ونسبه له ابن أبي الدنيا في« قرى الضيف» ٤/ ٣٨٥.

ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤًا؛ كأنما انحط من صبب[١].

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾، أي: اخفضه ولا ترفعه فوق الحاجة، ولم يقل: اغضض صوتك، بل قال: ﴿مِن صَوۡتِكَ﴾؛ لأن المطلوب حصول المقصود، فكما أن رفع الصوت عاليًا لا يحمد، فكذلك خفضه جدًّا لا يحمد، وإنما المحمود ما كان بقدر الحاجة، ولكل مقام مقال، فقد يستدعي الأمر رفع الصوت؛ لكثرة الناس وبُعدهم، وقد يستدعي الأمر ضد ذلك؛ لقلتهم وقربهم، ونحو ذلك.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾؛ تعليل للأمر قبله، يحتمل أن يكون تكملة من كلام لقمان، ويحتمل أن يكون مستأنفًا من كلام الله، ختمت به الآية.

أي: لأن أنكر الأصوات، أي: أقبحها وأبغضها، وأفظعها وأشنعها وأبشعها، وليس أعلاها؛ لأن في الحيوان ما هو أعلى صوتًا من صوت الحمير، واللام في قوله: ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾: للتوكيد.

والمراد: النهي عن رفع الصوت، وأنه منكر، وبيان أن غاية ما فيه التشبه بالحمير التي صوتها أنكر الأصوات وأبغضها.

وهذا يقتضي ذم رفع الصوت بلا حاجة، وذمه غاية الذم، وقد قال ﷺ: «**ليس لنا مثل السوء**»[٢]، وقال ﷺ: «**وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنها رأت شيطانًا**»[٣].

الفوائد والأحكام:

١ - امتنان الله تعالى على لقمان عليه السلام بإيتائه الحكمة المستلزمة للعلم النافع، والعمل الصالح، وأمره عز وجل له بشكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٣٧؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة، لا يحل لأحد أن يرجع في هبته ٢٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨، والترمذي في البيوع ١٢٩٨؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٣٠٣، ومسلم في الذكر -استحباب الدعاء عند صياح الديكة ٢٢٩، وأبو داود في الأدب ٥١٠٢، والترمذي في الدعوات -ما يقول إذا سمع نهيق الحمير ٣٤٥٩ -من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾.

٢- أن لقمان لم يكن نبيًّا ولا رسولًا؛ ولهذا لم يقل: «ولقد أرسلنا لقمان»؛ كما هي طريقة القرآن في إثبات الرسالات، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وإنما هو رجل حكيم صالح، وفي هذا دلالة على أن الحكمة قد ينالها من ليس بنبي. وقيل: إنه نبي. ولا دليل على هذا.

٣- وجوب شكر الله تعالى وحده؛ لأنه الجالب للنعم، والدافع للنقم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾، وقوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾.

٤- أن مَن شكر نعمة الله تعالى بنسبتها إلى الله عز وجل، واستعملها في طاعته، والاستعانة بها على ذلك، فإنما تعود منفعة شكره لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾.

٥- أن من كفر نعمة الله، فنسبها لغيره، أو استعملها في معصيته، أو استعان بها على ذلك؛ فإن الله غني عنه، ولن يضر إلا نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

٦- غنى الله التام عن جميع الخلق، وأنه لا ينفعه شكر الشاكر وطاعته، ولا يضره كفر الكافر ومعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾ [النمل:٤٠].

٧- امتداح الله تعالى نفسه بكونه المحمود على غناه؛ لعظيم جوده وكرمه، والمحمود على كل شيء، وإثبات صفتي الغنى والحمد له عزوجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

٨- كمال عدل الله عز وجل؛ حيث يجازي كلًّا بعمله، فمن شكر فله ثوابه لا لغيره، ومن كفر فعليه عقابه لا على غيره.

٩- الترغيب والحث على شكر الله تعالى وشكر نعمه، والترهيب والتحذير من الكفر بالله وكفر نعمه.

١٠- موعظة لقمان لابنه بنهيه عن الشرك بالله، مبينًا له الحكمة في نهيه عنه أولًا،

وهو كونه أظلم الظلم وأعظمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

١١- تصديره الخطاب لابنه بالنداء تنبيهًا له، ونداؤه له بلفظ التصغير: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ شفقة عليه، وتحببًا إليه وتلطفًا معه؛ لأن هذا أدعى لإصغائه إليه، وقبوله منه، وقد قال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»(١).

وفي رواية: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(٢).

وهكذا يحسن بالوالدين في ندائهم لأولادهم؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود:٤٢]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، وقال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف:٥].

١٢- أن من أعظم حقوق الأولاد على والديهم: تعليمهم أمر دينهم، وأمرهم ونهيهم، ونصحهم ووعظهم ترغيبًا وترهيبًا؛ ليسعدوا في دنياهم وأخراهم، وليس حقهم فقط العمل على تأمين حياتهم المادية؛ كما هو حال الكثيرين، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال:٢٧]، والأولاد من أعظم الأمانات.

١٣- أن الموعظة إنما تكون بذكر الأحكام من الأمر والنهي، مقرونة بالترغيب والترهيب، وقرن الأحكام بعللها.

١٤- وجوب الحذر من الشرك بالله، وأنه أعظم الذنوب، وأظلم الظلم وأعظمه، ووجوب توحيد الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ولهذا بدأ لقمان موعظته لابنه بنهيه عن الشرك بالله، وفي هذا أمر له بإخلاص

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، الرفق في الأمر كله ٦٠٢٤، ومسلم في البر والصلة، فضل الرفق ٢٥٩٣؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجها مسلم ٢٥٩٤، وأبو داود في الجهاد ٢٤٧٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

العبادة لله تعالى وحده.

١٥- وجوب العناية بالعقيدة أولًا؛ وأن التخلية قبل التحلية؛ فنهى عن الشرك أولًا؛ لأن العبادة لا تصح مع وجود الشرك بالله.

١٦- وصية الله تعالى الإنسان بالإحسان إلى والديه؛ لعظم حقهما عليه؛ ولهذا قرن عز وجل حقهما بحقه في مواضع كثيرة من كتابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

١٧- عظم ما عانته الأم من المشقة والجهد، والضعف والتعب في حمل الولد وفصاله؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

وهذا يدل على عظم حق الأم؛ ولهذا فهي أعظم حقًّا من الأب وأعظم أجرًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

وفي الحديث: أن رجلًا سأل النبي ﷺ، قال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(١).

١٨- رحمة الله تعالى بالأولاد ووالديهم، وأنه سبحانه أرحم بهم من أنفسهم، فأوصى الولد بوالديه؛ كما في هذه الآية وغيرها؛ كما أوصى الوالدين بأولادهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء:١١].

١٩- أن كمال فصال المولود وفطامه في عامين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومن هنا استنبط ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

٢٠- وجوب شكر الوالدين بعد شكر الله تعالى، وذلك بالإحسان إليهما، والبر

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة ٢٥٤٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بهما، وطاعتهما بالمعروف، والتواضع لهما؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

٢١- إثبات البعث والحساب والجزاء، وأن مصير الخلائق كلهم ومرجعهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا وعد لمن شكر الله وأطاعه، وشكر لوالديه، ووعيد لمن كفر بالله وعصاه، وجحد حق والديه.

٢٢- نهي الولد عن طاعة والديه بالشرك بالله إن جاهداه على ذلك، وتحريم ذلك؛ لأنه ليس ذلك من برهما، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

٢٣- أن كل ما يعبد من دون الله من الأصنام لا يستحق العبادة، وليس بشيء؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٢٤- أن كون الوالدين مشركين ويجاهدان ولدهما على أن يشرك بالله؛ لا يسقط حقهما في وجوب مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف وطاعتهما في غير معصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

وفي هذا تأكيد على عظم حق الوالدين، وتحريم عقوقهما حتى ولو كانا مشركين ويدعوانه إلى الشرك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، أي: في الإشراك بالله، ولم يقل: فعقهما.

٢٥- وجوب اتباع سبيل من أناب ورجع إلى الله تعالى؛ وهم المؤمنون الموحدون، السالكون صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾.

٢٦- أن مرجع جميع الخلائق ومردهم إلى الله تعالى وحده، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢٧- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾، والإنباء: الإخبار.

٢٨- تعظيم أمر الحساب والجزاء، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾، والنبأ: الخبر الهام؛ ولهذا لم يقل: فأخبركم.

٢٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا ترغيب في طاعة الله تعالى، وتحذير من معصيته.

٣٠- تأكيد لقمان النداء لابنه ثانية وثالثة، بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تنبيهًا له، وشفقة عليه، وتحببًا إليه.

٣١- إحاطة علم الله تعالى بجميع أعمال العباد وبكل شيء، وإحضارها يوم القيامة والمحاسبة والمجازاة عليها، وإن كان ذلك زنة حبة من خردل في وسط صخرة أو في أرجاء السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾.

٣٢- ينبغي عدم تهوين أمر المعصية مهما صغرت، وعدم تحقير أمر الطاعة مهما قلّت.

٣٣- إثبات سعة لطفه عز وجل، وإدراكه لأسرار الأمور وحكمها الدقيقة، وإحسانه إلى عباده والتيسير عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾.

٣٤- إثبات سعة خبرته عز وجل، واطلاعه على بواطن الأمور وخفاياها؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾.

٣٥- وجوب إقام الصلاة إقامة تامة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كما شرع الله تعالى؛ لقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٣٦- وجوب الصبر على ما يصيب المرء في ذات الله صبرًا على طاعة الله تعالى، وصبرًا عن معصيته، وصبرًا على أقدار الله المؤلمة؛ لقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

٣٧- أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله ما يناله من الأذى، فعليه التحلي بالصبر مع الحكمة، وعدم استعجال النتائج.

٣٨- أن هذه الخصال العظيمة الأربع، وهي: إقام الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر في سبيل ذلك؛ مما ينبغي أن يوصي به الآباء أبناءهم، ويتواصى به المسلمون فيما بينهم؛ لأنها من عزائم الأمور التي أمر الله بها وأوجبها، ومن عزائم الأمور التي يتحلى بها ذوو العزائم والنهى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

٣٩- ينبغي الإغراء بالأعمال الصالحة، والترغيب فيها، وامتداح أهلها؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

٤٠- النهي عن سوء الأخلاق مع الناس بالتكبر والتعاظم عليهم، والاحتقار لهم، وإمالة الوجه والإعراض عنهم عند التكلم معهم ونحو ذلك، ووجوب لين الجانب وبسط الوجه إليهم، والنهي عن المشي في الأرض مشية المرح البطر المختال؛ لقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

٤١- عدم محبة الله تعالى لمن كان مختالًا متكبرًا على الناس بفعله وهيئته، فخورًا عليهم بقوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

٤٢- إثبات المحبة لله تعالى، وأنه سبحانه يحب من كان متخلقًا بآداب الإسلام، غير مختال ولا فخور.

٤٣- الأمر بالقصد والاعتدال في المشي؛ بين مشي السرعة والخفة، ومشي البطء والتماوت، والأمر بالغض من الصوت وعدم رفعه فوق الحاجة؛ لما في ذلك من النكارة؛ لقوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

٤٤- ذم أصوات الحمير، وأنها أنكر الأصوات وأقبحها وأشنعها وأبشعها صوت نهيق الحمير؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، فأوله زفير وآخره شهيق.

كما قال تعالى عن النار وأهلها: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك:٧]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾[هود:١٠٦]، والزفير يكون خارجًا، والشهيق يكون باطنًا في الصدر.

٤٥- عظم ما أعطاه الله تعالى من الحكمة للقمان عليه السلام؛ فقد جمع في هذه المواعظ الجليلة لابنه أمهات الحكم، وأعظم الوصايا وأنفعها في الاعتقاد والأعمال، وآداب المعاملة، وآداب النفس، والتي تستلزم ما لم يذكر، ورتبها بالتدرج من الأهم فالمهم، فبدأ بالعقيدة، فنهى عن الشرك، ثم بين ثبوت الحساب والجزاء، ودقته، ثم أمر بإقام الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، ثم نهى عن سوء الأخلاق في المعاملة، وفي النفس، وأمر بحسنها.

وقد ورد عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، ذكر منها قوله: «يا بني، إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيه أناس كثيرون، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها

إيمان بالله، وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك تنجو، وما أراك ناجيًا!»[١].

وقوله: «من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده بذلك عزًّا، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية»[٢].

* * *

(١) انظر: «الزهد والرقائق» لابن المبارك، «الزهد» لنعيم بن حماد ١/ ١٩٠ (٥٣٧)، «الزهد» لابن أبي الدنيا ص٨٧ (١٧٩)، «الزهد الكبير» للبيهقي ص٣٣٥ (٩٠٢).

(٢) انظر: «الزهد» للإمام أحمد بن حنبل ص٨٧ (٥٣٤).

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾؛ الاستفهام: للتقرير، والخطاب عام لجميع الناس، أي: ألم تعلموا وتشاهدوا ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾؛ «أن» وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «تروا»، أي: ألم تعلموا ببصائركم، وتشاهدوا بأبصاركم، أن الله ذلل لأجلكم ولمصالحكم ومنافعكم.

﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾؛ «ما»: موصولة في الموضعين تفيد العموم، أي: جميع الذي في السموات من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤]، [النحل:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[البقرة:١٦٤].

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وسخر لكم جميع الذي في الأرض من الحيوانات والأشجار، والزروع والثمار والأنهار، والمعادن وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وحفص بفتح العين، وهاء مضمومة، على التذكير والجمع: ﴿نِعَمَهُۥ﴾، وقرأ الباقون بإسكان العين، وتاء منونة منصوبة، على التأنيث والإفراد: «نِعْمَةً»، والتنكير فيها للتعظيم، والمراد بها: الجنس، فاستوى فيها الواحد والجمع؛ أي: وأتم وأوسع عليكم نعمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ منصوبة على الحال على قراءة الجمع، وصفة لـ«نعمة» على قراءة الإفراد.

ومعنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾، أي: ظاهرة للعيان شاملة لجميع الخلق، مشاهَدة محسوسة واضحة، ﴿وَبَاطِنَةً﴾، أي: خفية معقولة، لا تشاهد، أو لا يعرفها إلا من أنعم الله عليه بها، أو لا يتبين أنها نعمة حتى يرى آثارها بعد ذلك.

ومن أعظم هذه النعم: إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والصحة في الأبدان، والأمن في الأوطان، وإدرار الخيرات والأرزاق، ودفع النقم، وغير ذلك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ الواو: استئنافية، و«من»: تبعيضية، أي: وبعض الناس الجاحدين لنعمة الله تعالى.

﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾؛ «من»: موصولة، أي: الذي يخاصم وينازع في ذات الله، وفي وحدانيته تعالى، في ربوبيته وإلهيّته وأسمائه وصفاته، وفي شرعه، وماجاءت به رسله من الحق، وفي قدره.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بلا علم عنده، ومن غير بصيرة ولا عقل.

﴿وَلَا هُدًى﴾؛ من غيره يهتدي به عن الرسل وأتباعهم.

﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، أي: مضيء للطريق، مبين للحق، منقذ من ظلمة الجهل

والضلال، من الكتب المنزلة من عند الله عز وجل.

فلا معقول، ولا منقول، ولا اقتداء بالمهتدين، بل بجهل وضلال، ومكابرة ومعاندة، وتقليد للضالين من الآباء وغيرهم، وجدالٍ بالباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر:٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، أي: لهؤلاء المجادلين في وحدانية الله تعالى، وفيما جاءت به الرسل: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، أي: اتبعوا الذي أنزل الله على رسوله ﷺ في القرآن الكريم والسنة.

﴿قَالُواْ﴾؛ معاندين ومعارضين: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل نتبع الذي وجدنا عليه آباءنا، فلم يكن لهم حجة إلا اتباع آبائهم، وتقليدهم إياهم تقليدًا أعمى على جهل وضلال.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة:١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف:٢٢- ٢٣].

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بتزيينه لهم اتباع آبائهم على جهل إلى موجبات عذاب السعير؟ أو ولو كان الشيطان يدعو آباءهم بتزيينه لهم ما هم عليه من الشرك والباطل إلى عذاب السعير؟ أي: فكيف يتبعون آباءهم الذين هم أتباع الشيطان، دعاهم إلى الباطل المفضي بهم إلى عذاب السعير فأطاعوه؟!

ويحتمل عود الضمير إليهم هم وآبائهم، أي: أولو كان الشيطان يدعوهم جميعًا إلى عذاب السعير، وفي هذا ذم لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات:٦٩- ٧٠].

و«السعير»: النار المستعرة المتوقدة، وهي «فعيل» بمعنى مفعول، أي: النار المسعورة الموقدة.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: يخلص قصده وعمله إلى الله، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:٢٠].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ في عمله، أي: متبع شرع الله وسنة نبيه ﷺ، محسن في عبادة الله تعالى بالقيام بحقوقه، ومحسن إلى عباد الله بإعطائهم حقوقهم الواجبة والمندوبة، يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

وهذان شرطا صلاح العمل وصحته وقبوله: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لشرعه وسنة نبيه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ [النساء:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة:١١٢].

﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد»، و«استمسك» أبلغ من «أمسك»، أي: فقد اعتصم وتعلق ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾، أي: بأوثق عرى الإيمان،

---

(١) سبق تخريجه.

وبـ«لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وبأعظم الأسباب الموصلة إلى رضوان الله تعالى وجنته، والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٦٥].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، أي: وإلى الله تعالى وحده نهاية الأمور ومآلها ومرجعها، فإليه عز وجل وحده مرجع الخلائق كلهم، وعليه حسابهم.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾؛ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي: «يُحْزِنْكَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي: ﴿يَحْزُنكَ﴾.

أي: ومن كفر بالله، وبما جئت به يا محمد، فلا يحزنك كفره، فليس عليك إلا البلاغ، وقد بلَّغْت، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

ولا تحزن أيضًا على إمهال الله لهم، وعدم مبادرتهم بالعذاب، مع ما هم عليه من شدة الكفر والعناد، والصد عن دين الله؛ فإن الله لهم بالمرصاد، ويمهلهم ولا يهملهم، وإذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: إلينا وحدنا مردهم ومصيرهم.

﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾، أي: فنخبرهم بعملهم، أو بالذي عملوه، ونحاسبهم ونجازيهم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية:٢٥- ٢٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾، أي: لأن الله عليم، أي: ذو علم واسع ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما تنطوي عليه من المعتقدات والأسرار، والمكنونات والمضمرات، وعلمه لما ظهر من باب أولى.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾، أي: نمتعهم في الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾، أي: تمتيعًا قليلًا، أي: نعطيهم ونمنحهم في الدنيا المتاع، أي: الشيء القليل قيمة وزمنًا، استدراجًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾

[الأعراف:١٨٢، ١٨٣].

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾، أي: ثم نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أي: فظيع عظيم شديد؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [يونس:٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾[محمد:١٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٦﴾:

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، أي: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان، ويشركونها مع الله؛ لتقيم عليهم الحجة في بطلان عبادتها، ووجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: من الذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من المخلوقات والعوالم؟

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن: الله الذي خلقهن، مقرين بربوبيته عز وجل لجميع الخلق، وخلقه السموات والأرض، وخلقهم وخلق معبوداتهم.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: قل الحمد لله وحده، الذي أبان الحق، وأقام الحجة باعترافكم، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، وجعل دلائل توحيده وبراهينه من الوضوح بحيث لا يستطاع إنكارها.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، ويهتدون به إلى الحق؛ إذ لو كانوا يعلمون لعرفوا بأن المتفرد بالخلق والملك والتدبير هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وهوالله عزوجل.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: لله تعالى وحده كل الذي في السموات

والأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فلا يستحق العبادة فيهما غيره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: الغني بنفسه؛ لأن كل شيء فهو له عز وجل، والغني عن غيره، أي: ذو الغنى الواسع، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، وكلهم فقراء إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٦- ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾[آل عمران:٩٧].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: المحمود بلسان الحال والمقال في غناه، وفي ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله، وفي خلقه وشرعه وقدره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾:

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾؛ الواو: عاطفة، و«لو»: حرف شرط غير جازم، «ما»: موصولة تفيد العموم ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾؛ «من»: بيانية، أي: ولو فرض أن جميع ما في الأرض من الأشجار أقلام يكتب بها.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾؛ قرأ أبو عمرو ويعقوب بنصب الراء: «وَالبَحْرَ»، عطفًا على اسم «إن»، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ على أن الواو للحال.

و«ال» في «البحر» للجنس، فالمراد بالبحر: جميع بحور الأرض.

﴿يَمُدُّهُۥ﴾، أي: يزيده، أي: يزيد هذا البحر الموجود مدادًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد نفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أخرى، وذكر السبعة للمبالغة في الكثرة، وليس للحصر، فالمعنى: والبحر يمده من بعد نفاده أبحر كثيرة مهما كثرت.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، أي: ما انتهت كلمات الله.

والمعنى: لو أن كل ما في الأرض من الشجر أقلام يكتب بها، والبحر الموجود مداد، يمده من بعد نفاده سبعة أبحر أخرى لكتابة كلمات الله تعالى؛ لفنيت تلك الأقلام، ونفدت مياه تلك البحار كلها، وما نفدت كلمات الله ولا انتهت؛ لأنها لا تنفد

ولا تنتهي؛ لأنه عز وجل الباقي بلا نهاية، فلا شيء بعده؛ كما أنه الأول فلا شيء قبله، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩].

قال ابن القيم: «ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مدادًا، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مدادًا، وجميع أشجار الأرض أقلامًا، وهو ما قام منها على ساق من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد، لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى، ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو العزة التامة، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، وذو الحكم التام، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وذو الحكمة البالغة في خلقه وشرعه وقدره، وغير ذلك.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾، أي: ما خلقكم أيها الناس، ولا بعثكم يوم القيامة بالنسبة لقدرة الله تعالى ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كخلق وبعث نفس واحدة؛لأن الكثرة والقلة عنده على حد سواء؛ لتمام قدرة الله تعالى، فلا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات:١٣- ١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، أي: ذو السمع الواسع لجميع الأصوات، المجيب الدعوات، وذو البصر العام لجميع المبصرات والمرئيات.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير العباد بما سخر الله لهم من المخلوقات في السموات والأرض، وبما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة؛ ليذكروه ويشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٠٧-٤٠٨.

سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

٢- أن كل ما في السموات والأرض مسخر لبني آدم، ومخلوق لهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

٣- توافر نعم الله تعالى على العباد ظاهرة وباطنة، مما لا يمكن حصره ولا تعداده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

٤- ذم الذين يجادلون في ذات الله ووحدانيته، وما جاءت به الرسل من الحق، مجادلة بالباطل، بلا علم ولا بصيرة، ولا عقل ولا نقل، ولا هدى، بل بجهل، وتقليد للضالين من الآباء وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

ومفهوم هذا أن من جادل بالعلم والهدى من الكتاب والسنة فليس بمذموم، وقد قال عز وجل: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

٥- أن الحق إنما يعرف من طريق العلم، والاقتداء بالمهتدين من الرسل وأتباعهم، والكتب المنزلة من عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

٦-تأكيد ذم هؤلاء المجادلين لرفضهم اتباع ما أنزل الله من الحق، واتباعهم ما كان عليه آباؤهم من الباطل على جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٧- أن القرآن منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٩- الإنكار عليهم، والتعجب منهم: كيف يتبعون آباءهم الذين دعاهم الشيطان إلى ما فيه هلاكهم وعذابهم فأجابوه؟ وكيف دعاهم هم بأنفسهم إلى تقليد آبائهم المفضي بهم إلى ذلك فأجابوه؟! لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

١٠- ذم الجدال بالباطل بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، وتقليد الآباء على

جهل وضلال، والتعصب لما هم عليه من الباطل مع ظهور الحق.

١١- وجوب الحذر من الشيطان ودعوته؛ لأنه عدو مبين، يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فمن أطاعه وخالف أمر الله دخل النار.

١٢- إثبات النار وسعيرها وعذابها، التي أعدها الله للكافرين.

١٣- امتداح من أخلص العمل لله تعالى، واتبع شرع الله وسنة رسوله ﷺ باعتصامه بأوثق عرى الإيمان، والأسباب الموصلة إلى رضوان الله تعالى وجنته والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾.

١٤- لا بد للاستمساك بالعروة الوثقى من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، وأن من لم يكن كذلك فهو هالك لا متمسَّك له.

١٥- أن عاقبة الأمور كلها ومآلها ومرجعها إلى الله تعالى، إليه وحده مرجع الخلائق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

١٦- تسلية الله تعالى للنبي ﷺ، وإرشاده له بألا يحزن على كفر من كفر من قومه؛ لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وقد بلّغ البلاغ المبين، وحسابهم على الله تعالى، إليه مرجعهم فيخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها؛ لأنه لا يخفى عليه منها شيء مهما أسروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣﴾.

١٧- أنه ﷺ كان يحزن لكفر من كفر؛ رحمة بأمته، وحزنًا على ما فات الإسلام من كثرة المتبعين.

١٨- إثبات البعث والمعاد ورجوع الخلائق إلى الله تعالى، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾، وقوله: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾.

١٩- إثبات سعة علم الله تعالى، ووجوب مراقبته في السر والعلن؛ لعلمه بما تنطوي عليه القلوب والضمائر، وما تكنه الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ

ٱلصُّدُورِ﴾.

٢٠- استدراج الكافرين بتمتيعهم في الدنيا قليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾.

٢١- قلة متاع الدنيا، قيمة وزمنًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس:٤٥].

وقال ﷺ: «**لموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**»، وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

٢٢- وعيدهم وتهديدهم بإلجائهم في الآخرة إلى عذاب غليظ شديد؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢٣- اعتراف الكفار وإقرارهم بربوبية الله تعالى، وأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وخلقهم وخلق معبوداتهم، وغير ذلك، لكن ذلك لا ينفعهم، بل هو حجة عليهم؛ لإنكارهم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢٤- حمد الله تعالى لنفسه إذ أبان الحق، وجعل دلائل التوحيد وبراهينه واضحة جلية، وأظهر الاستدلال على هؤلاء المشركين من أنفسهم بوجوب عبادته وحده باعترافهم بربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٢٥- أن المستحق للحمد بتمامه وكماله، والمختص بذلك وحده هو الله عز وجل؛ لما له من صفات الجلال والعظمة والكمال، كما قال ﷺ: «**أهل الثناء والمجد**»(٢).

٢٦- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم؛ إذ لو كانوا يعلمون؛ لعرفوا أن المتفرد بالخلق والملك والتدبير هو المستحق للعبادة وحده لا

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ٤٧٨، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

شريك له، وعبدوه دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢٧- سعة ملك الله عز وجل، واختصاصه سبحانه وحده بها في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله تعالى: «الغني»، وأنه سبحانه ذو الغنى الواسع في نفسه وعن غيره، فلا يحتاج لأحد سواه، والخلق كلهم فقراء إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله: «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في غناه، وفي ذاته وصفاته، وأفعاله وأقواله، وفي خلقه وقدره وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدُ﴾.

٣٠- إثبات عظمة الله تعالى وكبرياؤه، وجلالة أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وكلماته التامة، التي لا نفاد لها، ولا يحيط بها أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

وفي الحديث: «... **لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

٣١- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

٣٢- أن العدد قد يذكر للمبالغة والكثرة، لا لقصد تحديد عدد معين؛ لقوله تعالى: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾، فليس المراد به التحديد، وإنما المراد المبالغة والكثرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩]، أي: ولو جئنا بمثله وبمثله وبمثله إلى ما لا نهاية له.

٣٣- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

٣٤- أن الله- عز وجل- ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٣٥- باجتماع صفة العزة التامة والحكم التام والحكمة البالغة في حقه عز وجل

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة؛ الدعاء في السجود والركوع ٨٧٩، والنسائي في قيام الليل، الدعاء في الوتر ١١٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٤١، وأحمد ٦/ ٥٨؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

كمال إلى كمال.

٣٦- تمام قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء؛ وأن نسبة خلق الخلق كلهم وبعثهم بالنسبة إلى قدرته عز وجل كخلق نفس واحدة وبعثها؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

٣٧- أن الله تعالى كما قدر على الخلق أولًا فهو قادر على البعث ثانيًا.

٣٨- إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع، يسمع جميع الأقوال والأصوات ويجيب الدعوات، وذو البصر المحيط بجميع المبصرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾؛ الاستفهام: للتقرير، فيه تقرير لنعمة الله تعالى، ودلائل كمال عظمته، وتمام قدرته، والخطاب عام لكل من يصلح له، أي: ألم تعلم وتشاهد أن الله يدخل الليل في النهار، أي: يأخذ من ساعات الليل في النهار، فيطول النهار ويقصر الليل، وهذا في الصيف، ويدخل النهار في الليل، أي: يأخذ من ساعات النهار في الليل، فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا في الشتاء.

وهذا التبادل بين ساعات الليل والنهار زيادة ونقصانًا، يأتي تدريجيًّا بحكمة الله تعالى، بحيث لا يؤثر ذلك على الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك.

ومن إيلاج الليل في النهار والعكس: أنه إذا جاء أحدهما ذهب الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس:٤٠].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

لما ذكر الليل والنهار ذكر الشمس والقمر؛ لأنهما آيتا الليل والنهار؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

والمعنى: أي: وذلل عز وجل بقدرته الشمس والقمر، كل منهما يسير في فلكه بتدبير ونظام دقيق منذ خلقهما لمصالح العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ﴾ [إبراهيم:٣٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن:٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام:٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض، حتى تطلع الشمس من مشرقها، وكذلك القمر»(١).

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين محدد، وهو يوم القيامة حين تُكَوّر الشمس، ويخسف القمر ويذهب بنورهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة:٩].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، أي: وترى وتعلم أن الله بما تعملون، أي: بعملكم أو بالذي تعملونه.

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: مطلع على جميع عملكم، على بواطنه ودقائقه وخفاياه، واطلاعه على ظواهره وجلائله وجلياته من باب أولى، وسيحاسبكم ويجازيكم على ذلك؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك الذي قرركم الله به من بيان نعمته عليكم في إيلاج الليل بالنهار والنهار بالليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى، وخبرته بعملكم، وما في ذلك من دلائل عظمته وتمام قدرته.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٥٤ وقال: «إسناده صحيح».

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب أن الله هو الحق؛ ولتعلموا أن الله هو الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

فوجوده حق، وربوبيته حق، وإلهيته حق، وذاته حق، وأسماؤه وصفاته حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه وشرعه حق، وقدره حق، ووعده ووعيده حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وجنته حق، وناره حق، إلى غير ذلك، والحق ضدالباطل، كما قال لبيد(١):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وضمير الفصل «هو» للتأكيد والاختصاص، أي: هو وحده الحق، لا ما يعبد من دونه؛ ولهذا قال:

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالياء: ﴿يَدْعُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتاء: «تَدعون».

أي: وأن الذي يدعوه المشركون؛ أي: يعبدونه، ويسألونه من الأصنام والأوثان.

﴿مِن دُونِهِ﴾، أي: من دون الله، أي: غير الله عز وجل.

﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾، أي: المعبود الباطل، أي: فهو عز وجل المعبود الحق، وكل ما سواه باطل لا يستحق العبادة، ولا تجوز عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: وبسبب أن الله هو العلي الكبير، ولتعلموا أن الله هو العلي الكبير، وضمير الفصل للتأكيد والحصر، أي: وأن الله وحده هو العلي الكبير.

و«العلي»: اسم من أسماء الله تعالى، أي: العلي بذاته وصفاته، فوق جميع مخلوقاته، له علو الذات، وعلو الصفات.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٦.

و«الكبير»: من أسمائه عز وجل، أي: ذو الكبرياء في ذاته وصفاته، الذي هو أكبر من كل شيء؛ كما جاء في الحديث: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري**»(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ الاستفهام: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: ألم تشاهد ببصرك وتتأمل ببصيرتك ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾، أي: السفن.

﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي: تسير في البحر فوق ظهر الماء.

﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب نعمة الله تعالى وتسخيره ولطفه ومنته وإحسانه ورحمته؛ بما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن، بأمره القدري.

ويحتمل أن أن معنى ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: حاملة لنعم الله تعالى، ولا منافاة، فجريانها بسبب نعمة الله، وهي تحمل نعم الله.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يريكم ويظهر لكم من آياته الدالة على عظمته ونعمته، وتمام قدرته وعنايته بعباده.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في جعل الفلك تجري في البحر على ظهر الماء بنعمة الله تعالى.

﴿لَءَايَـٰتٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لدلائل على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ونعمته.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ «صبار» على وزن «فَعَّال»، أي: عظيم الصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

﴿شَكُورٍ﴾؛ على وزن «فَعُول»، أي: كثير الشكر لربه، بنسبة نعمه إليه عز وجل، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على ذلك.

أي: صبار شكور في الضراء والسراء، والشدة والرخاء، والعسر واليسر، وهذه

---

(١) سبق تخريجه.

صفة المؤمن؛ كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»(١).

﴿وَإِذَا﴾؛ الواو: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية، ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾، أي: علاهم وغطاهم وأحاط بهم، والضمير يعود إلى المشركين الذين يعبدون غير الله.

والموج: ما ارتفع من الماء على الماء بسبب الرياح.

﴿كَٱلظُّلَلِ﴾؛ كالسحاب أو الجبال المظلة.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾، أي: دعوا الله اضطرارًا لمَّا اشتد بهم الكرب.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: مخلصين لله وحده الدعاء دون معبوداتهم من دونه؛ لعلمهم أنها لا تملك لهم شيئًا، ولا تنفع ولا تضر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾، أي: فلما خلصهم عز وجل من الشدة، وخرجوا إلى البر.

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، أي: فمنهم فريق مقتصد، أي: متوسط في العمل، لم يقابل نعمة الله عليه بإنجائه بالشكر كما ينبغي.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: وما يكفر بآياتنا ويكذب بها وينكرها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، «إلا»: أداة حصر، و﴿خَتَّارٍ﴾ على وزن «فَعَّال»، أي: غدار كثير الغدر، كلما عاهد عهدًا نقضه وغدر، ومن غدره أنه عاهد الله لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم الله غدروا وكفروا، ولم يشكروا؛ كما قال تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢، ٢٣].

---

(١) سبق تخريجه.

و«الختر»: أشد الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معديكرب(١):

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

﴿كَفُورٍ﴾، أي: كثير الكفر لنعم الله تعالى، عظيم الجحود لها.

فانقسموا بعد أن أنجاهم الله إلى البر إلى فريقين: فريق مقتصد في العمل، وفريق جحود لآيات الله، غدار ناقض للعهد، كفور بنعمة الله جاحد لها؛ كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الآية:٦٧]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الآية:٦٥].

أي: يعودون إلى الشرك بالله والكفر.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ سبق الكلام على هذا مستوفًى في مطلع سورة النساء.

أي: اتقوا ربكم بفعل أوامره، واجتناب زواجره.

﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾؛ معطوف على ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، والخشية: أشد الخوف، ونكّر «يومًا» للتعظيم والتهويل، أي: واخشوا وخافوا يومًا عظيمًا خطيرًا ثقيلًا، عبوسًا قمطريرًا، وهو يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ الجملة صفة لـ«يومًا»، أي: يومًا من صفته: أنَّه لا يجزي فيه والد عن ولده، أي: لا يغني فيه والد عن ولده. و«والد»: نكرة في سياق النفي، فيشمل الأب والجد وإن علا من أي جهة كان.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾؛ الواو: عاطفة، و«لا»: زائدة مؤكدة للنفي، و«مولود»: معطوف

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١٠٥.

على «والد».

﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، أي: ولا ولد، ابنًا كان أو بنتًا وإن نزل، هو جازٍ عن والده شيئًا، أي: هو مغنٍ عن والده شيئًا.

و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي، فيعم نفي أي شيء مهما قل، من نفع أو دفع.

فكل واحد في ذلك اليوم العظيم، والموقف الرهيب، لا يلوي على أحد سواه، ولا يهمه إلا خلاص نفسه ونجاته، ولا يفكر بغيره، أيًّا كان والدًا أو ولدًا؛ لعظم الخطب، وشدة الكرب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس:٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج:٢].

فكلٌّ منشغل بنفسه لا يهمه سواها، ولو أراد أن يفتدي غيره ما قبل منه؛ لأن كلًّا مرتهن بعمله، ويجازى عليه وحده، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وقدّم قوله: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ على قوله: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ والله أعلم؛ لأن الوالد غالبًا أشفق على نجاة ولده من شفقة الولد على نجاة أبيه، وخصهما بالذكر دون بقية القرابات؛ لأنهما أشد محبة وحمية فيما بينهما من غيرهما، فيعلم أن غيرهما أولى بهذا النفي.

وأتى بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ الدالة على الثبوت والاستمرار- والله أعلم- لئلا يطمع أحد من المسلمين الذين أسلموا في كفايتهم عن آبائهم الكفار شيئًا.

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء بالثواب والعقاب ﴿حَقّٞۖ﴾، أي: أمر ثابت آتٍ لا محالة، وواقع كائن ولا بد؛ لكمال صدقه عز وجل، وتمام قدرته على تحقيق ما وعد به من غير عجز؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس:٥٣].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: فلا تخدعنكم ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وزخارفها، وما فيها من المغريات والمفاتن، وأكد الفعل ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾ بنون التوكيد للدلالة على شدة غرور الدنيا، ووجوب الحذر منها.

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع

كم واثق بالعمر واريته ... وجامع بددت ما يجمع(١)

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾، أي: ولا يخدعنكم ﴿بِٱللَّهِ﴾، أي: بحلمه وإمهاله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾[الانفطار:٦].

﴿ٱلْغَرُورُ﴾: الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ [النساء:١٢٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝٣٤﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، «إن»: للتوكيد، أي: إن الله عنده وحده علم الساعة، أي: القيامة، وسميت بـ«الساعة»؛ لأنها أعظم حدث يكون؛ ولأن فيها وعيدًا للمكذبين، أي: عنده وحده علم قيام الساعة وإتيانها، لا يعلمه غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا أحد من الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب:٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات:٤٢- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥].

ولهذا لما قال جبريل للنبي ﷺ: «**أخبرني عن الساعة**»، قال ﷺ: «**ما المسؤول عنها**

---

(١) انظر: «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للتنوخي ٤/ ١٩٨، «المجموع اللفيف» ص٤٦٤.

بأعلم من السائل»(١).

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، بفتح النون وتشديد الزاي: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها مع سكون النون: «وينْزِل».

أي: وينزل المطر في الوقت الذي قدره، وفي المكان الذي عينه بعلمه، فهو المتفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله، ومكانه.

وسمي المطر: غيثًا؛ لأن به تزول الشدة، والاستغاثة: طلب إزالة الشدة من القحط والجدب.

وما يتوصل إليه علماء الأرصاد في هذا هو من باب التحري والتوقع؛ ولهذا أحيانًا لا يحصل ما توقعوه، وأحيانًا يتوقعون نزول المطر في مكان فينزل في مكان آخر.

وما أصابوا فيه فهو من علم الله الذي أعلمهم الله به؛ بواسطة بعض الآلات الدقيقة التي يعلمون بها تكيف الجو وصلاحياته لأن يكون ممطرًا أو غير ممطر، بإيجاده عز وجل بعض الأسباب والدلائل والعلامات على ذلك.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ «ما»: موصولة، تفيد العموم، أي: ويعلم الذي في الأرحام من الأجنة قبل تخليقه وبعده، وأطوار خلقه، من نطفة ثم علقة ثم مضغة، ذكرًا كان أو أنثى، شقيًّا أو سعيدًا، وغير ذلك من الصفات الخِلقية، والخلقية، والذاتية والمعنوية، وغير ذلك.

وما توصل إليه الطب من معرفة كون الحمل ذكرًا أو أنثى بواسطة الأشعة والمناظير إنما يكون بعد تخليقه، وعلم الله سابق لذلك محيط بجميع أطواره وأحواله، وصفاته الخِلْقية والخُلُقية، والجسمية والعقلية والنفسية، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أي: وما تعلم أيّ نفس ما الذي تكسبه من خير أو شر في دينها ودنياها.

﴿غَدًا﴾، أي: بعد يومها الحاضر، أي: كل المستقبل، فلا تدري ماذا تكسب فيه،

---

(١) سبق تخريجه.

قريبًا كان أو بعيدًا، قال زهير[١]:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عمِ

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، أي: وما تعلم أيّ نفس بأي أرض يكون موتها، أفي بلدها أو غيره، في بر أو بحر أو جو، أو سهل أو جبل؟ وإنما علم ذلك عند الله عز وجل وحده، ومن باب أولى لا تعلم بأي وقت تموت، وهذا من رحمة الله بعباده فلو علم الإنسان متى يموت لقلق، وأصبح يعدد ما بقي من عمره، لا هم له إلا ذلك.

عن أبي عزة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها**- أو قال: بها- **حاجة**»[٢].

قال الشاعر:

مشيناها خطا كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطا مشاها

ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها[٣]

وقال الآخر:

فهن المنايا أي وادٍ سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها[٤]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾؛ لما ذكر اختصاصه بعلم مفاتح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا هو، أتبع ذلك ببيان إحاطة علمه وخبرته بالظواهر والبواطن، والجلائل والدقائق، والجليات والخفيات، وغير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع بجميع المخلوقات والكائنات، والوقائع

---

(١) البيت من معلقته المشهورة، انظر: «ديوانه» ص٧٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٩، والترمذي في القدر، ما جاء أن النفس تموت حيث كتب لها ٢١٤٧، وقال: «حديث صحيح».

(٣) البيتان ينسبان لأحمد بن فارس، وقيل: للمعري، وقيل: لعبد العزيز الدريني. انظر: «المستطرف» ١/ ٤٩١.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ١٥.

والأحداث وكل شيء.

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: مطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها.

وهذه الخمس التي ذكر الله اختصاصه عز وجل بعلمها هي مفاتح الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

وقال ﷺ: «مفاتح خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»(١).

وفي لفظ: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر**»(٢).

وعن بريدة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»(٤).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «**أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير الخمس:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام ٤٦٢٧؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٥٣، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٥٥: «صحيح الإسناد، ولم يخرجوه».

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٨٥-٨٦.

تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال: متى الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله**»، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية(٢).

الفوائد والأحكام:

١- تقرير العباد بنعمة الله تعالى العظيمة عليهم، ورحمته بهم، بإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، يزيد هذا وينقص هذا، وتسخير الشمس والقمر يجريان دائبين في بروجهما، تحقيقًا لمصالح العباد ومنافعهم، في أنفسهم ومواشيهم وحروثهم، وغير ذلك، ودلالة ذلك على كمال عظمة الله تعالى وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٢- إثبات جريان الشمس والقمر، وانقطاع جريانهما يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت محدد؛ وهو يوم القيامة. وفي هذا الرد على من قال بثبوت الشمس والقمر، وعدم جريانهما.

٣- دقة انتظام هذا الكون، وأن لكل شيء غاية، ولكل أجل كتابًا، ولكل شيء نهاية، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

٤- خبرة الله عز وجل، واطلاعه الواسع على أعمال العباد كلها، خيرها وشرها، ومحاسبته ومجازاته إياهم ووجوب مراقبته وخشيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

٥- أن في تقرير العباد بنعمة الله عليهم: بجعل التداخل بين الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وخبرته بعملهم، ودلالة ذلك على عظمته وتمام قدرته: بيان سبب ذلك، وهو أن الله هو الحق في ذاته وصفاته، وربوبيته وإلهيته، وقدره وشرعه، ولقائه وجزائه، وغير ذلك، وليعلموا بطلان ما يعبده المشركون من دونه، وأن الله هو العلي الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾.

٦- إثبات اسم الله: «العلي»، وصفة العلو له عز وجل، وأنه عالٍ فوق خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾.

٧- إثبات اسم الله: «الكبير»، وصفة الكبرياء له عز وجل، وأنه أكبر من كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾.

٨- تقرير العباد بنعمة الله تعالى عليهم: بجعل الفلك تجري في البحر على ظهر الماء؛ ليشاهدوا دلائل كمال عظمته وقدرته، ويعرفوا سابغ نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

٩- أنه إنما ينتفع بالآيات ويستفيد منها من كان صبارًا في الضراء، شكورًا في السراء، وهو المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

١٠- إخلاص المشركين الدعاء لله تعالى إذا اشتد بهم الكرب في البحر، وأحاطت بهم الأمواج؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. وهذا يدل على إقرارهم بربوبية الله تعالى، وأنه وحده القادر على إنقاذهم، وهم أحسن حالًا من مشركي زماننا الذين شركهم في الرخاء والشدة.

١١- أن الله قد يجيب دعاء المشركين مع علمه أنهم سيكفرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآية.

١٢- إجابة دعوة المضطر ولو كان كافرًا، كما قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن:

«واتقِ دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

١٣- إثبات سمعه عز وجل وعلمه وتمام قدرته؛ لقوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾.

١٤- انقسامهم بعد أن نجاهم الله إلى البر فريقين: فريق مقتصد في العمل، لم يقم بشكر الله كما ينبغي، وفريق جحود لآيات الله، غدَّار ناقض للعهد، كفور بنعمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾.

١٥-أنه لا يجحد آيات الله وينكرها إلا كل غدّار ناقض للعهد، كفور بنعمة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾.

١٦- التحذير من الغدر وكفر نعمة الله؛ لأن ذلك سبب لجحود آيات الله والكفر بها.

١٧- وجوب تقوى الله، وخشية يوم القيامة وأهواله، والاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ الآية.

١٨- عموم رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

٢٠- إثبات يوم القيامة، وعظمته وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾.

٢١- أنه في ذلك اليوم العظيم لا يغني أحد عن أحد أيَّ شيء مهما قل، لا نفعًا ولا دفعًا، فلا يجزي والد عن ولده، ولا مولود عن والده شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ﴾.

وإذا كان الوالد والولد- مع ما بينهما من شدة القرابة والحمية- لا يجزي أحدهما

---

(١) سبق تخريجه.

عن الآخر شيئًا، فغيرهما من باب أولى.

٢٢- انشغال الخلائق في ذلك اليوم العظيم كل بنفسه، يريد نجاتها، وعدم التفاته لغيره، أيًّا كان أبًا أو أمًّا، أو ابنًا أو أخًا، أو زوجًا، أو غير ذلك.

٢٣- أن شفقة الوالد على ولده وحرصه على سلامته، ونجاته أعظم من شفقة الولد على والده؛ لتقديم قوله: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ على قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وهذا أمر واقع ومشاهَد، رحم الله والدينا، وجزاهم عنا خير الجزاء.

٢٤- إثبات وعد الله تعالى بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٥- النهي عن الاغترار بالدنيا، والانخداع بزينتها وزخارفها ومتاعها الزائل، والانشغال بها عن الاستعداد للدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢٦- وجوب الحذر من الشيطان وخداعه، ومن كل خادع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

٢٧- اختصاص الله عز وجل بعلم مفاتح الغيب، فلا يعلمها أحد سواه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهي: علم متى تقوم الساعة، وإنزال الغيث، وعلم ما في الأرحام، وعلم ما تكسبه كل نفس في غدها، وعلم بأي أرض تموت ومتى تموت؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

٢٨- قصور علم الخلائق كلهم- مهما وصل إليه علمهم- عن معرفة متى تقوم الساعة، وعن إنزال الغيث، ومعرفة متى ينزل على سبيل الجزم، وتعيين الزمان والمكان، وعن العلم بما في الأرحام منذ كان نطفة، وأحواله وصفاته الخِلْقية والخُلُقية، والعقلية والنفسية، وهل هو شقي أو سعيد؟ وغير ذلك، وعن معرفة ماذا تكسب كل نفس غدًا؟ وبأي أرض تموت؟

٢٩- علم الله تعالى الواسع، وخبرته واطلاعه على كل شيء من الظواهر والبواطن، والجلائل والدقائق، والجليات والخفيات، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلسَّجْدَة

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة السجدة»، وهو أشهر أسمائها وأخصرها.

وتسمى أيضا: «ألم تنزيل»؛ فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» (١).

وتسمى: «﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة»؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر: «﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة» و«﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾»(٢).

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

جاء في حديث جابر رضي الله عنه -كما تقدم- أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأها مع سورة تبارك، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقرؤها في صلاة الفجر مع سورة «﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾».

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة السجدة بتعظيم القرآن، والإشارة إلى إعجازه، وإثبات تنزيله بلا ريب من رب العالمين، ورد قول المشركين: إن الرسول ﷺ افتراه، وإثبات أنه الحق من ربه عز وجل؛ لإنذار العرب الذين ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يهتدون.

٢- ذكر تمام قدرته عز وجل وعموم ملكه، ووحدانيته؛ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش، لا وليَّ للخلق من دونه ولا شفيع، وهو المتفرد بالتدبير، عالم الغيب والشهادة، العزيز الحكيم، الذي أحسن كل شيء خلقه.

٣- ذكر مراحل خلق الإنسان وأطواره، فبدأ خلقه من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٩٢، وأحمد ٣/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٨٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢٣.

سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

٤- إنكار المشركين البعث بعد الموت، وكفرهم بلقاء الله تعالى، وإثبات توفِّي ملكِ الموت لهم، ورجوعهم إلى ربهم للحساب والجزاء.

٥- تصوير سوء حالهم وذلهم وصغارهم وتنكيسهم رؤوسهم عند عرضهم على ربهم، وسؤالهم الرجعة؛ ليعملوا صالحا وهيهات! ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٦- بيان أنه تعالى لو شاء لآتى كل نفس هداها، وهدى الناس جميعاً، ولكنه تعالى كتب وقدر وأوجب ملء جهنم من الجن والناس أجمعين.

٧- تقريعهم وتبكيتهم وتوبيخهم بسبب نسيانهم لقاء يوم القيامة ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٨- بيان أنه لا يؤمن بآيات الله حقًّا إلا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً لله تعالى وهم لا يستكبرون، تتجافى جنوبهم عن لذيذ الفراش والنوم، يدعون ربهم خوفاً وطمعا، ومما رزقهم الله ينفقون.

٩- نفي استواء من كان مؤمناً ومن كان فاسقاً، لا في العمل ولا في الجزاء: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- الوعيد والتهديد للكفرة المجرمين الفاسقين بإذاقتهم من العذاب الأدنى في الدنيا بالقتل وغير ذلك، قبل العذاب الأكبر بالنار، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب والفسق.

١١- أنه لا أحد أظلم ممن ذكر ووعظ بآيات الله ثم أعرض عنها، والوعيد بالانتقام من المجرمين.

١٢- إثبات إيتاء الله تعالى موسى عليه السلام التوراة، وإثبات لقائه ﷺ بموسى، والامتنان على بني إسرائيل بجعله عز وجل التوراة هدى لهم، وأنه جعل منهم أئمة

يهدون بأمره عز وجل بسبب صبرهم ويقينهم.

١٣- ذكر فصله عز وجل بين الخلائق يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وتقريع المكذبين وتوبيخهم، لما لم يتأملوا كم أهلك الله من القرون من قبلهم، وهم يمشون في مساكنهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٤- التذكير بقدرة الله تعالى ونعمته في سوقه الماء والمطر إلى الأرض اليابسة الجرداء، وإخراج الزرع، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١٥- استعجال المكذبين العذاب والفتح بينهم وبين المؤمنين، وبيان أن يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون، وأمره ﷺ بالإعراض عنهم والانتظار، إنهم منتظرون.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ «تنزيل»: مبتدأ، و«الكتاب»: مضاف إليه، والمراد به: القرآن الكريم.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ «لا»: نافية للجنس، «ريب»: اسمها مبني في محل نصب، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بخبر «لا»، والجملة اعتراضية بين المبتدأ «تنزيل» وخبره، أو صفة لـ«كتاب»، والمعنى: لا شك فيه، ولا مرية.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ خبر المبتدأ «تنزيل»، أي: لا شك فيه، ولا مرية أنه نزل عليك يا محمد من رب العالمين؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

و«العالمين»: كل ما سوى الله عز وجل، و«من»: ابتدائية، أي: من كلامه عز وجل ووحيه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقول هؤلاء المشركون المكذبون:

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: اختلقه محمد من عند نفسه، وكذب في ادعائه أنه من عند الله، والافتراء: الكذب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ

وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٤- ٥]:

والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ للدلالة على تجدد مقالتهم هذه.

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ «بل»: للإضراب الإبطالي، ﴿هُوَ﴾، أي: القرآن، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: الحق الثابت من ربك، والصدق.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تنذر قومًا، وهم العرب، أي: تحذرهم وتخوفهم عذاب الله تعالى.

﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ «ما»: نافيه، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما جاءهم أيُّ نذير.

﴿مِّن قَبْلِكَ﴾، أي: فهم أحوج الأقوام إلى نذير، وفي هذا- مع بيان شدة حاجتهم إلى النذير- امتنان عليهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: لعلهم يهتدون إلى الحق ويتبعونه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾:

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: الله وحده الذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من المخلوقات.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ من أيام الدنيا، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة واحدة لو أراد ذلك.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾؛ استواءً يليق بجلاله وعظمته، وقد سبق الكلام على هذا في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية:٥٤]».

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: ما لكم غيره سبحانه وتعالى.

﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: ما لكم غيره أيّ ولي يتولى أموركم، بجلب نفع، أو دفع عذابه عنكم.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ «لا»: زائدة: للتوكيد، و«الشفيع»: الوسيط في قضاء الحوائج، من جلب نفع، أو دفع ضر، أي: ولا شفيع يشفع لكم عنده؛ لتنالوا ثوابه، أو يدفع عنكم عذابه؛ كما كنتم تقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وتقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا تتعظون وتعتبرون، أيها المشركون، فتعلموا أنه ليس لكم من دونه ولي ولا شفيع، وأنه لا يستحق العبادة سواه، فتعبدوه وحده لا شريك له.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ خبر آخر للمبتدأ «الله»، أي: يدبر عز وجل الأمر كله من أمر خلقه؛ كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

فله عز وجل الأمر الشرعي، يأمر وينهى، ويحل ويحرم، ويشرع ما يشاء، وله عز وجل الأمر القدري، يسعد ويشقي، ويغني ويفقر، ويعز ويذل، ويكرم ويهين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، إلى غير ذلك.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يتنزل أمره من السماء إلى الأرض، أي: من أعلى السموات إلى تخوم الأرض السابعة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢].

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾، أي: ثم يعرج الأمر إليه، أي: يصعد إليه، وهذا التدبير والعروج كله في الدنيا.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، أي: يتنزل الأمر من عنده عز وجل، ويصعد إليه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام

الدنيا وسنيها، وذلك أن ما بين السماء الدنيا والأرض مسيرة خمس مئة سنة، وسمك السماء مسيرة خمس مئة سنة، وهو ينزل منه عز وجل ويصعد إليه بقوله: «كن» فيكون، ولمحة بصر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر:٥٠].

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على عرشه، مدبر أمر هذا الكون.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: عالم ما غاب عن أعين الخلق، وما لا تدركه حواسهم مما كان ومما سيكون، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ كل ما هو مشاهد وتدركه الحواس، أي: عالم الغائب والحاضر سبحانه وتعالى.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة، أي: القوة والغلبة والقهر والامتناع، الذي قهر كل جبار عنيد.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ذو الرحمة بعباده المؤمنين خاصة، وبخلقه عامة، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، فهو عز وجل عزيز في رحمته، ورحيم في عزته.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ قرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفتح اللام، وقرأ الباقون بإسكانها: «خَلْقَهُ».

أي: الذي أتقن كل شيء خلقه وأحكمه، أي: أتقن وأحكم جميع مخلوقاته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك:٣- ٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾.

لما ذكر أنه عز وجل أحسن خلق جميع مخلوقاته عمومًا، خص خلق الإنسان من بينها بالتفصيل لشرفه وفضله، فقال:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾، أي: بخلق آدم أبي البشر من طين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات:١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:٥].

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾، أي: ذريته، أي: ذرية آدم وأولاده، ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾؛ تَنْسل وتنفصل عن الرجل والمرأة.

﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ «من ماء»: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ«سلالة»، أي: من سلالة منسلة من ماء مهين، أي: هي خلاصته وصفوته، و«مهين» صفة لـ«ماء».

ومعنى «مهين»، أي: ممتهن ضعيف حقير، رقيق مستقذر، وهو: النطفة «المني»؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات:٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة:٣٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، أي: ثم سوَّى نسل الإنسان الذي بدأ خلقه من طين خلقًا سويًّا معتدلًا قويًا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى:٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة:٣٨].

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾؛ بأن أرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح، فصار بإذن الله حيوانًا ناطقًا بعد أن كان جمادًا؛ كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ- وهو الصادق المصدوق- قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه**

الروح، ويكتب رزقه وأجله، وشقي أو سعيد»(١).

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والخطاب لعموم بني آدم، أي: وجعل لكم السمع؛ لتسمعوا فيه الأقوال والأصوات، والأبصار؛ لتبصروا فيها الأعيان والمبصرات، والأفئدة- وهي العقول- لتعقلوا فيها الخير والشر، وما ينفعكم وما يضركم في دينكم ودنياكم وأخراكم.

وأفرد «السمع»؛ لأنه مصدر لا يجمع، وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد الناس.

واكتفى بهذه الثلاثة؛ لأن السمع والبصر هما طريقا الفهم، والفؤاد- وهو القلب- محل الفهم والوعي، فالسمع والبصر قناتان تصبان فيه، وقدم السمع؛ لأنه أشمل وأعم؛ لأن الإنسان يسمع ما لا يراه.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته أن الابتلاء بفقدان السمع أقل بكثير من فقدان البصر؛ لأن السمع أهم.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ «قليلًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر، وفاعله: «تشكرون»، و«ما»: زائدة لتأكيد القلة، أي: قليلًا شكركم.

ويحتمل أن المراد: قلة شكرهم. ويحتمل أن المراد: عدم شكرهم بالكلية.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾.

٢- التنويه بشأن القرآن الكريم وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به: القرآن الكريم؛ لأنه أعظم الكتب على الإطلاق.

٤- أن القرآن الكريم حق وصدق، لا شك فيه ولا مرية بوجه من الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٥- إثبات تنزيل القرآن الكريم من عنده عز وجل، وأنه كلام الله عز وجل

---

(١) سبق تخريجه.

ووحيه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. وفي هذا الرد على القدرية القائلين بخلق القرآن.

٦- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته على خلقه؛ لأن التنزيل يكون من أعلى إلى أسفل.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٨- الإنكار على المشركين في زعمهم أن الرسول ﷺ اختلق القرآن من تلقاء نفسه، وإبطال قولهم، وبيان أنه الحق من عند الله، أنزله على رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وفي هذا إثبات رسالته ﷺ.

٩- إثبات رسالة النبي ﷺ بإنزال القرآن عليه، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

١٠- أن الحكمة من تنزيل الكتاب عليه ﷺ: لينذر قومه ويخوفهم ويحذرهم من عذاب الله، لعلهم يهتدون ويتبعون الحق؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

١١- أنه ﷺ أول نذير في قومه العرب، فلم يأتهم نذير قبله، وكانوا أحوج الناس إلى نذير؛ لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وفي هذا بيان شدة حاجتهم إلى النذير، وامتنان عليهم بإرساله إليهم.

١٢- حاجة الناس وضرورتهم إلى الرسل؛ لإنذارهم وهدايتهم، ورحمة الله تعالى بهم بإرسال الرسل.

١٣- إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، وتمام قدرته وسعة علمه، وعظمته؛ حيث خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ولو شاء لخلقها بلحظة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية.

١٤- إثبات علو الله تعالى، وعظمته، واستوائه عز وجل على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، من غير تحرف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

قال ابن القيم: «قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر، في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السموات، مستوٍ على عرشه»(١).

١٥- إثبات العرش، وهو سرير الملك، وأكبر المخلوقات.

١٦- أنه لا ولي للمشركين من دون الله تعالى يجلب لهم النفع، ولا شفيع لهم من دونه يدفع عنهم عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١].

وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

١٧- الإنكار على المشركين والمكذبين عدم اتعاظهم واعتبارهم؛ ليعلموا أنه لا ولي لهم ولا شفيع من دون الله، وأنه لا يستحق العبادة سواه، فيعبدوه وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٨- كمال سلطان الله، وتفرده عز وجل بتدبير الأمر كله- القدري والشرعي- من السماء إلى الأرض، وصعوده إليه في لمحة بصر ونحو ذلك في يوم في عد الخلق، يعدل ألف سنة؛ لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾.

١٩- إحاطة علمه عز وجل بكل ما غاب عن الخلائق، وبكل ما هو مشاهد، وفي هذا إشارة إلى علمه عز وجل بأعمال العباد، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها، وفي هذا وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن عصاه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٢٠- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢١- كمال خلق الله تعالى وإتقانه عز وجل وإحكامه جميع مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٤.

٢٢- أن من دلائل تمام قدرته عز وجل وإحسانه كل شيء خلقه، ومنته وعنايته بآدم وذريته: أنه بدأ خلق الإنسان من طين، بخلق آدم عليه السلام، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

وفي هذا إبطال لنظرية «دارون» الذي يقول فيها: «إن أصل الإنسان كان حشرة، ثم قردًا ثم تطور بطول الزمن فصار إنسانًا».

٢٣- أن الإنسان حادث بعد أن لم يكن، وكذا العالم كله، لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وفي هذا رد على الفلاسفة الذين يزعمون قدم العالم.

٢٤- حكمة الله تعالى في خلق آدم من طين وجعله عز وجل له نسلًا يتوالدون، ويتكاثرون لعمارة هذا الكون.

٢٥- أن الله عز وجل خلق الإنسان، وسوى خلقه، ونفخ فيه من روحه، وأتم خلقه، وجعل له الحواس، من السمع والبصر والعقل، وغير ذلك؛ ليشكر الله تعالى على ذلك بعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر إنعامه عليه بذلك: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

٢٦- قلة شكر العباد لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]. فقليل شكر الشاكر منهم، وقليل منهم الشاكر.

٢٧- الترغيب والحث على الشكر، والتحذير من الكفر وعدم الشكر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر بهمزة واحدة: «إِذَا ضَلَلْنَا»، وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾.

أي: وقال المشركون المكذبون بالبعث بعد الموت، المنكرون للمعاد: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار في الموضعين، أي: أإذا غِبْنا في الأرض وبلينا، وتمزقت أجسامنا وتفرقت، واختلطت في الأرض وصرنا ترابًا.

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؛ قرأ نافع والكسائي ويعقوب بهمزة واحدة: «إِنَّا».

وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِنَّا﴾.

أي: أنعود خلقًا جديدًا؟ والجديد: المحدَث، أي: أنخلق خلقًا جديدًا بعد فنائنا، أي: أن هذا مستحيل، ولن يكون.

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم بالمعاد والبعث بعد الموت، ولقاء ربهم ومحاسبته ومجازاته إياهم.

﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له، مكذبون به؛ كما قال تعالى عنهم:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام:٢٩].

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، أي: يقبض أرواحكم ملك الموت، ﴿ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾، أي: الذي وكله الله بقبض أرواحكم هو وأعوانه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: تردون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾:

قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

لما ذكر عز وجل رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم ومآلهم حين وقوفهم بين يديه، فقال:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ الواو: عاطفة، و«لو»: شرطية غير جازمة، أي: ولو تبصر وتشاهد. والخطاب لغير معين، وجواب الشرط محذوف؛ لتهويله، أي: ولو ترى أيها الرائي لرأيت أمرًا عظيمًا، وحالًا فظيعًا.

﴿إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ «إذ»: ظرف، وهو في الأصل للمُضِيِّ، واستعمل في المستقبل للدلالة على تحقق وقوع الرؤية.

﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: مرتكبو الجرائم، الموجبة للإثم والعقوبة، من الشرك والكفر، وإنكار البعث والمعاد، وتكذيب الرسل عليهم السلام.

﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾، أي: خافضوا رؤوسهم مطأطئوها إلى أسفل، من شدة الخزي والندم، والخوف والذل، ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بين يديه يوم القيامة.

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾، أي: يقولون: يا ربنا أبصرنا وسمعنا، أي: بان لنا الأمر،

واتضح الحق وأبصرناه عيانًا، وسمعناه ووعيناه، ونحن الآن نسمع قولك، ونطيع أمرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، أي: فردنا إلى الدنيا نعمل عملًا صالحًا، بالإخلاص لك، واتباع شرعك.

و«نعمل» مجزوم جواب الطلب، أي: إن ترجعنا نعمل صالحًا.

﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ تعليل لتحقيق ما وَعدوا به من العمل الصالح، أي: إنا الآن مصدقون تصديقًا جازمًا بما دعوتنا إليه من الحق، وأن وعدك حق، ولقاءك حق.

كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم:٤٤]. وهم كاذبون فيما وعدوا به من العمل الصالح؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٧- ٢٨].

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾، أي: ولو أردنا كونًا ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾؛ اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لأعطينا كل نفس هداها، أي: توفيقها للإيمان وتقواها.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[هود:١١٨].

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ﴾، أي: ثبت ووجب وتحقق ﴿الْقَوْلُ مِنِّي﴾، أي: القول الكوني القدري، والقضاء السابق مني.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله، لأملأن جهنم ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾، أي: من الجن، ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، أي: من الكفرة والعصاة من الثقلين جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص:٨٤- ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر:٦].

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ هذا خطاب من الله تعالى لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ والإهانة والإذلال لهم، أي: فذوقوا وتجرعوا وأحسوا بألم العذاب وشدته.

﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب نسيانكم لقاء يومكم هذا الذي أنتم الآن فيه، وتكذيبكم به، وإنكاركم له، وترككم العمل والاستعداد له.

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؛ هذا من باب المقابلة والمشاكلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١]، وقال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وقال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه:١٢٦].

ومعنى ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾، أي: تركناكم بالعذاب، جزاءً من جنس عملكم، فكما نَسيتم نُسيتم، أي: تُركتم، ولم يُكترث ولم يُبال بكم.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ التكرار: للتأكيد والتشديد، أي: وذوقوا عذاب الخلود، أي: العذاب المقيم الدائم، الذي لا ينقطع؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ:٣٠]، وفي هذا تيئيس لهم في قولهم: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بسبب عملكم، أو بسبب الذي كنتم تعملونه، أي: بسبب تكذيبكم وكفركم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

لما ذكر الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها حقًّا، وصفاتهم، وما أعد لهم من الثواب العظيم.

قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: إنما يصدق بآياتنا باطنًا، وينقاد لها ظاهرًا ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾، أي: الذين إذا وعظوا بها، وتليت عليهم؛ خضعوا وانقادوا لها.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾؛ «الخرور»: الهُويّ من علو إلى أسفل، ﴿سُجَّدًا﴾ حال، أي: خروا على وجوههم وجباههم سجدًا؛ تذللًا لله تعالى، وعبودية وتعظيمًا له، وطاعة وانقيادًا.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: وسبحوا بحمد ربهم، قارنين بين التسبيح والتحميد حال سجودهم بقولهم: «سبحان ربي الأعلى وبحمده»؛ كما هو المشروع في سجود التلاوة، وسجود الصلاة، وسجود الشكر.

وفي التسبيح التنزيه ونفي النقص، وفي التحميد إثبات الكمال.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: وهم لا يستكبرون ولا يستنكفون عن السجود لله تعالى، والخضوع والتذلل له، وعبادته وطاعته، والانقياد لأمره باطنًا وظاهرًا، وتلقي آياته بالقبول والانشراح، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

وهذا بخلاف المشركين الذين قال الله عنهم: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

ويشرع السجود عند تلاوة هذه الآية؛ رجاء أن يكون التالي من الذين أثنى الله عليهم بأنهم إذا ذكروا بآيات الله خروا سجودًا، وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

بعد ما حصر عز وجل الإيمان بآياته على الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم، وهم لايستكبرون، أتبع ذلك ببيان بعض صفاتهم.

قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾أي: ترتفع وتتنحى جنوبهم وتبتعد ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ «المضاجع»: جمع «مضجع»، وهو مكان الاضطجاع، والاضطجاع: النوم؛ أي: تتجافى جنوبهم عن مواضع الاضطجاع والنوم والراحة من الفرش الوطيئة الوثيرة؛ إيثارًا لمناجاة الله تعالى في جوف الليل، والقيام بين يديه للصلاة على النوم والراحة.

قدوتهم وأسوتهم في هذا المصطفى ﷺ، الذي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه.

فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟!**»(١).

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه(٢):

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار. قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**». ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل**». ثم

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠، والترمذي في الصلاة ٤١٨؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «ديوانه» ص١٦٢.

قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ الحديث(١).

وحمل الآية على قيام الليل- كما هو الظاهر- لا يمنع أن يشمل ذلك صلاة الليل كلها فرضها ونفلها؛ كما قال بعض المفسرين: المراد بذلك: الصلاة بين العشاءين، وقال بعضهم: انتظار العتمة، وقال بعضهم: صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة.

كما أن قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، مقيد بما جاءت به السنة في قوله ﷺ: «**وأفضل القيام قيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه**»، وهكذا كان قيام نبينا ﷺ(٢).

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ الجملة في محل نصب حال من الضمير في «جنوبهم»، أي: يدعون ربهم دعاء عبادة ودعاء مسألة؛ لجلب الخير لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، ودفع الشر عنهم، وكل ذلك عبادة.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ منصوبان على المفعول لأجله، أي: لأجل الخوف والطمع، أو على الحال، أي: خائفين وطامعين، أي: خوفًا من عذاب الله وعقابه وناره، وطمعًا ورجاء في رحمته وثوابه وجنته.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ومن الذي أعطيناهم من الرزق ﴿يُنفِقُونَ﴾، أي: يخرجونه في وجوه البر الواجبة والمستحبة، فجمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى بالصلاة وقيام الليل، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

لما ذكر خضوع المؤمنين لآيات الله، وانقيادهم لها، وسجودهم وتسبيحهم بحمد ربهم وقيامهم الليل ودعاءهم إياه خوفًا وطمعًا، وإنفاقهم من رزقه، أتبع ذلك بذكر جزائهم، وعظم ما أعد الله لهم من النعيم.

قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ قرأ حمزة ويعقوب بإسكان الياء: «أُخْفِيْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أُخْفِيَ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣١، والترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣.

(٢) سيأتي تخريجه.

و«نفس»: نكرة في سياق النفي فتعم، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: فلا تعلم أيُّ نفس حقيقة الذي أُخفي وأُعد وادُّخر لهم وعظمه، فلا هم يعلمونه، ولا غيرهم، أي: فلا يعلم أحد عظمة ذلك، إلا الذي أخفاه لهم؛ وهو ربهم عز وجل.

وفي إخفاء ما أعد وادخر لهم زيادة في تعظيمه، وزيادة في فرحهم به إذا أعطوه، وإغراء لهم بطلبه.

﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾، أي: مما تقر به الأعين، وتسر به القلوب، وتفرح به النفوس؛ من النعيم المقيم، في جنات النعيم.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ «جزاءً»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: جوزوا جزاءً، أو مفعول لأجله عامله «أخفي»، والباء: للسببية و«ما»: مصدرية أو موصولة.

أي: جزاءً بسبب عملهم، أو بسبب الذي كانوا يعملونه.

فلما اجتهدوا في هذا العمل وأخفوه؛ أخفى الله لهم هذا الثواب العظيم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وبسبب العمل.

قال ابن القيم: «وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم، مما لا تعلمه نفس؟ وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة؟!»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». قال أبو هريرة: فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(٣).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة السجدة ٤٧٧٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في تفسير سورة السجدة ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة، دوام نعيم أهل الجنة ٢٨٢٥.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم اقترأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾»(١).

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**سأل موسى عليه السلام ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملكِ ملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربي. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك. فيقول: رضيت رب. قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إنكار المشركين للبعث بعد الموت والحساب والجزاء على الأعمال، وجحودهم لقاء الله، وتكذيبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٢- إثبات البعث، وتمام قدرة الله تعالى عليه، وإثبات لقاء الله تعالى، وتوبيخ المكذبين بذلك، وأنه ليس لديهم حجة إلا مجرد الكفر بلقاء الله تعالى.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾، ﴿رَبَّنَآ﴾.

٤- قبض ملك الموت أرواح جميع الخلائق؛ لأن الله وكله بهم، فلا مناص لهم من

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، أدنى أهل الجنة منزلة ١٨٩.

الموت؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾.

٥- إثبات الملائكة، وهم عالم غيبي يجب الإيمان بهم على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل لما فصّل من أحوالهم وأعمالهم.

٦- إثبات لقاء الله تعالى، ورجوع الخلائق كلهم إليه يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

٧- تنكيس المجرمين رؤوسهم عند ربهم يوم القيامة؛ خزيًا وندمًا، وخوفًا وذلًّا؛ لفظاعة الحال، وشدة الموقف وعظم الأمر، مما لا يكاد يوصف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٨- ظهور حقيقة الأمر لهم بصدق ما دعتهم إليه الرسل، وسؤالهم الرجعة؛ ليعملوا صالحًا؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، وهيهات هيهات لهم ذلك، وفي الآية اعترافهم بأن عملهم السابق ليس بصالح.

٩- تعليلهم لتحقيق ما وعدوا به من العمل الصالح إن أرجعوا إلى الدنيا؛ بتصديقهم الجازم بالحق وبوعد الله؛ لقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وهم كاذبون، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

١٠- أن الهداية بيد الله تعالى، فلو شاء لهدى الخلق جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾. وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، ولا داخلة تحت مشيئته.

١١- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وهي مقترنة بالحكمة، فمن حكمته عز وجل أنه لم يشأ إيتاء كل نفس هداها.

١٢- أن الله قدر وقضى وأوجب ملء جهنم من الجن والإنس، وقضاؤه حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

١٣- إثبات القول لله تعالى والكلام.

١٤- إثبات وجود النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

١٥- أن من كتب الله عليهم الضلالة، وحقت عليهم كلمة العذاب، فلا سبيل إلى هدايتهم ونجاتهم.

١٦- أن الجن مكلفون ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم كالإنس، فمن كفر فمآله إلى النار، كما أن من آمن فمآله إلى الجنة.

١٧- تقريع وتوبيخ أهل النار بأن يذوقوا العذاب بسبب نسيانهم يوم القيامة، وتكذيبهم به، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾.

١٨- تركهم في العذاب، وعدم المبالاة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾.

١٩- تأكيد التقريع والتوبيخ لهم بذوق العذاب، وتيئيسهم من انقطاعه بسبب سوء أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢٠- أن عذاب النار دائم لا ينقطع، وأن أهلها مخلدون فيها.

٢١- أن الجزاء من جنس العمل.

٢٢- كمال عدل الله تعالى حيث يجازي العباد بأعمالهم، ولا يظلم أحدًا منهم.

٢٣- بيان أنه إنما يصدق بآيات الله الذين إذا ذكروا بها انقادوا لها ظاهرًا وباطنًا، وخروا سجدًا لله، وسبحوا بحمده، خاضعين له متذللين غير مستكبرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

وفي هذا مع حصر الإيمان بهم: امتداح لهم، وثناء عليهم بمبادرتهم للانقياد لآيات الله، والسجود له، والتسبيح بحمده، والتذلل له، وعدم الاستكبار عن عبادته وطاعته.

٢٤- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية؛ لأن الله جعل السجود له والتسبيح بحمده من صفات المؤمنين بآياته، وامتدحهم، وأثنى عليهم بذلك.

٢٥- الترغيب والحث على الاتعاظ بآيات الله تعالى؛ والسجود تذللًا وخضوعًا له، وتسبيحه وتحميده، والانقياد له، والتحذير من الاستكبار والإدبار.

٢٦- التعريض بالمشركين المستكبرين عن الإيمان بآيات الله، والانقياد لها، وعن السجود لله تعالى والتسبيح بحمده.

٢٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، و﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

٢٨- تعظيم المؤمنين ربهم بالتذلل والخضوع له بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وإثبات الكمال له عز وجل.

٢٩- امتداح المؤمنين بآيات الله، والثناء عليهم بمداومتهم على القيام والصلاة في جوف الليل، وإيثارهم ذلك على لذيذ المنام، ودعائهم ربهم خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، وإنفاقهم مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، وبهذا جمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى بقيام الليل، والإحسان إلى عباده بالإنفاق مما رزقهم الله.

٣٠- الترغيب في قيام الليل ودعاء الله تعالى، خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.

٣١- ينبغي أن يجمع المؤمن في مسيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، يخاف غضب الله وعقابه، ويرجو رحمته وثوابه.

٣٢- أن الرزق كله من الله تعالى، والمال كله مال الله، استودعه العباد، فلا ينبغي أن يُبخل به، أو يُمن بالإنفاق منه؛ كما قال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

٣٣- الحث على الإنفاق في سبيل الله في وجوه البر كلها.

٣٤- عظم ما ادخره الله تعالى لعباده المؤمنين الموصوفين بما ذكر من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، مما لا يعلمه ولا يقدر قدره إلا الله عز وجل، جزاء عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣٥- أن الجزاء بسبب العمل، ومن جنس العمل؛ فكما قام هؤلاء يصلون خفية في جنح الظلام، وأسهروا أعينهم، واجتهدوا في طلب مرضاة الملك العلام؛ ادخر لهم من الأجر العظيم ما تقر به أعينهم، وأخفاه عن سائر الأنام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٣٦- عظم نعيم الجنة، مما لا يعلم حقيقة عظمته إلا الله عز و جل الذي أعطاه لأهلها. نسأل الله من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، و«من» في الموضعين: موصولة، أي: أفمن كان مؤمنًا باطنًا بقلبه، منقادًا ظاهرًا بجوارحه، يكون كمن كان فاسقًا كافرًا بقلبه، خارجًا عن طاعة الله تعالى بجوارحه؟! أي: لا يمكن أن يكون هذا كهذا، وشتان ما بينهما؛ ولهذا قال:

﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾، أي: لا يستوي المؤمن والفاسق الكافر بحال من الأحوال، لا عقلًا ولا شرعًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن حكمة الله تعالى وحكمه العدل يقتضيان عدم تساويهما؛ كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأرض والسماء، والثرى والثريا، فالمؤمن طيب طاهر آمن بربه، وشكر نعمته، واهتدى بهداه.

والفاسق خبيث نجس، كفر بربه، وجحد نعمته وعصاه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر:٢٠].

ولما نفى التساوي بين المؤمن والفاسق؛ بيَّن حقيقة ما بينهما من البون الشاسع، والفرق الواسع في الجزاء في الآخرة؛ فقال:

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ «أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، أي: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه

بجوارحهم.

﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط في الموضعين، و«جنات»: مضاف، و«المأوى»: مضاف إليه، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: التي فيها المساكن والقصور والغرف الرفيعة، التي يأوون إليها، ويخلدون فيها، ويتمتعون فيها بأصناف اللذات، وألوان النعيم.

والتعريف في «المأوى» للعهد، أي: المكان الذي يؤوي ويرجع إليه، أي: مأوى المؤمنين، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم:١٥].

وقد تكون اللام عوضًا عن المضاف إليه، أي: مأواهم، بقرينة قوله مقابله: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

﴿نُزُلًا﴾: حال، أي: ضيافة لهم وقرى وكرامة، والنزل: ما يعد للضيف.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب عملهم الصالح.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾، أي: وأما الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى بالكفر والتكذيب.

﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: فمصيرهم ومقرهم ومحل خلودهم الأبدي النار.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ﴾؛ «كلما»: ظرف متضمن معنى الشرط، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أرادوا»، أي: كلما أرادوا الخروج منها، أي: كلما رفعهم لهبها وحدثتهم إرادتهم بالخروج منها؛ لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ.

﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، أي: ردوا وأركسوا فيها بمقامع الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج:٢٢].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ تقريعًا وتوبيخًا وتبكيتًا: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، أي: تجرعوا ألمه، وقاسوا شدته.

﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ في دار الدنيا، حيث يقولون: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، فيجتمع عليهم العذاب الحسي والمعنوي، عذاب البدن بالنار، وعذاب القلب بالتقريع والتوبيخ والتبكيت.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لنذيقنهم من العذاب الأدنى، أي: الأقرب؛ من المصائب والبلايا، والجوع والخوف، والقتل والأسر والذل؛ كالذي أصابهم يوم بدر، ويوم الفتح، وغير ذلك.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، أي: قبل العذاب الأكبر في النار يوم القيامة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا عن الكفر ويؤمنوا. وكذلك وقع؛ فقد آمن كثير من الناس بعد بدر وبعد فتح مكة.

وحمل بعض المفسرين وبعض أهل العلم قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ على عذاب البرزخ في القبر، وجعلوا المعنى: ولنذيقنهم قبل الموت بعضًا من العذاب الأدنى عذاب البرزخ؛ كما جرى لأهل بدر من المشركين من القتل ونحوه.

وكما يجري للكفار عامة عند الاحتضار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣].

ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

قال ابن القيم: «وقد احتج بهذه الآية جماعة، منهم: عبدالله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن؛ لكن من فقهه في القرآن، ودقة فهمه فيه، فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر أن له فيها عذابين: أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى؛ ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمله»(١).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: لا أحد أشد ظلمًا ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾، أي: من الذي ذكر بآيات ربه، أي: بينها الله له ووضحها، وتليت عليه ووعظ بها.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٦.

﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، أي: ثم تركها وجحدها، ولم يتأملها ولم يؤمن بها، ولم يَنْقَدْ لها.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: المعرضين عن آيات الله ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، أي: معاقبوهم ومعذبوهم أشد العذاب.

وأظهر في مقام الإضمار؛ للحكم عليهم بالإجرام، وبيان أنه سبب الانتقام منهم، وليعمهم الوعيد بالانتقام هم وغيرهم من المجرمين.

الفوائد والأحكام:

١- حكمة الله تعالى البالغة، وعدله التام؛ في نفي التساوي بين المؤمن والفاسق، وبيان أنه لا مساواة بينهما، لا عقلًا ولا شرعًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

٢- شتان بين مأوى كل من الفريقين؛ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات مأواهم جنات النعيم، والذين فسقوا مأواهم النار دار العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية.

٣- إثبات الدارين في الآخرة: الجنة التي أعدها للمؤمنين، والنار التي أعدها للفاسقين الكافرين.

٤- أن الجنة هي مأوى المؤمنين ومستقرهم الأبدي، لا يخرجون منها، ولا يبغون عنها حولًا؛ لأن الله سماها: جنات المأوى.

٥- كرامة الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم، وضيافته لهم، وإكرامهم بأعظم النزل والقرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا﴾.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وأن من أحسن العمل جازاه الله بالإحسان والإكرام؛ لقوله تعالى: ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

٧- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وتصديقه، وعمل الجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه وسنة نبيه ﷺ.

٨- أن مأوى الفاسقين الكافرين ومستقرهم الأبدي: النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا

ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾.

٩- إثبات النار وعذابها، وأن الله أعدها للفاسقين والكفار.

١٠- شدة عذابها وإرادتهم الخروج منها، وطمعهم في ذلك كلما ازداد عليهم غمها، أو ارتفع بهم لهيبها، وقمعهم وردهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المائدة:٣٧].

وكون الإنسان يؤمل ارتفاع العذاب ثم يعود أشد من كونه مستمرًّا آيسًا من زواله.

١١- تعذيبهم عذابًا معنويًّا ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي، بتقريعهم وتوبيخهم وتبكيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

١٢- تكذيبهم بعذاب النار، وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

١٣- إذاقتهم من العذاب الأدنى في الحياة، قبل العذاب الأكبر بالنار يوم القيامة؛ لعلهم يرجعون عما هم عليه من الفسق والكفر إلى الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾.

١٤- أن عذاب الدنيا لا ينسب إلى عذاب الآخرة، فعذاب الآخرة أكبر وأشد، وأعظم وأشق.

١٥- قبول التوبة من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

١٦- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

١٧- إثبات عذاب القبر في البرزخ، وهذا على قول من قال: إن المراد بالعذاب الأدنى: عذاب البرزخ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾.

قال السعدي(١): «وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتها ظاهرة؛ فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ١٨٧.

عذابًا أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا قد لا يتصل بها الموت، أخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]».

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الفسق والكفر.

١٩- أنه لا أحد أشد ظلمًا من الذي ذكر بآيات ربه، ووعظ بها وتليت عليه، ثم أعرض عنها، وكذب بها وجحدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾.

٢٠- أن الإنسان ينبغي أن يقبل التذكير من أي مذكر له بالحق.

٢١- أن الإعراض بعد التذكير والعلم إجرام، وأعظم وأشد من الإعراض حال الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾؛ ولهذا جعل الله الغضب في حق اليهود؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾.

٢٣- انتقام الله تعالى من المجرمين المعرضين عن آياته، المكذبين بها، الجاحدين لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطيناه التوراة، شرعًا وقدرًا، وأنزلناها عليه، وهي أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، أنزلها الله عليه بألواح جملة واحدة، و«ال» في «الكتاب» للعهد الذهني.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾، أي: في شك وريب، ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أي: من لقاء موسى عليه السلام، وقد لقيه ليلة الإسراء، وهكذا وقع، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلًا آدم طوالًا جعدًا؛ كأنه من رجال شنوءة...**» الحديث(١).

وقال بعض المفسرين: معنى: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أي: من لقاء مثل ما لقي موسى من فرعون وقومه من التكذيب والأذى، ومن ثم كانت العاقبة له.

وفي هذا تسلية له ﷺ فيما سيلاقيه من أذى قومه، وبشارة له ﷺ بالنصر وكون

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٩، ومسلم في الإيمان ١٦٥.

العاقبة له؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء:٧٦، ٧٧].

وقال بعضهم: الضمير في ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ يعود إلى الكتاب، والمراد غيره، أي: فلا تكن في مرية مما آتيناك من الكتاب من كونه وحيًا ملقًى من لدنه تعالى؛ كما آتينا موسى الكتاب فتلقاه من قبلك.

أو فلا تكن في مرية من أن تلقى من لقائك الكتاب- أي: من إيتائك الكتاب- الأذى من قومك، ومن ثم تكون لك العاقبة، مثل ما لقيه الرسل من قبلك من الأذى من أقوامهم، ثم كانت العاقبة لهم.

وفي هذا تسلية وبشارة له ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: وجعلنا الكتاب الذي آتيناه موسى هدى لبني إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء:٢].

وقال بعضهم: يحتمل أن يراد بالضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾: موسى عليه السلام.

وفي الآية تعريض بالمشركين الذين أُنزل عليهم القرآن، أفضل كتب الله على الإطلاق، فلم يهتدوا به، وأُرسل إليهم محمد ﷺ، أفضل رسل الله وسيد ولد آدم، فكذبوه ولم يطيعوه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾، أي: وجعلنا شرعًا وقدرًا من بني إسرائيل، أي: صيرنا منهم أعلامًا وقدوات وقادة في الخير، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يرشدون الناس إلى الحق، ويدعونهم إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر بأمر الله تعالى ووحيه الشرعي القدري.

﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي ورويس بكسر اللام وتخفيف الميم: «لِمَا»، مركبة من لام التعليل، و«ما» المصدرية، أي: لصبرهم ويقينهم.

وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم: ﴿لَمَّا﴾، أي: حين صبروا، أي: صبروا على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره، وما نالهم من الأذى في دينه، وصدقوا رسله، واتبعوهم فيما جاؤوا به من الهدى.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الشرعية والكونية، ﴿يُوقِنُونَ﴾، أي: يصدقون بها التصديق الجازم، الموصل إلى العلم اليقيني التام الذي هو أعلى درجات الإيمان، الموجب للعمل بها.

فجمعوا بين الصبر واليقين، وبهذا نالوا الإمامة في الدين.

قال ابن القيم: «فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات»(١).

ولكن لما بَدَّلوا وحرفوا وقست قلوبهم، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واختلفوا، سلبوا هذه المنزلة، وهذا المقام؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: إن ربك وحده يا محمد يقضي ويحكم بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه الجزائي ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: في اختلافهم، أو في الذي كانوا يختلفون فيه من أمر الدين، فيتبين من هو على حق منهم ومن هو على باطل، ويفصل بينهم، ففريق إلى الجنة، وفريق إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية:١٦- ١٧].

وكان اختلافهم في أصول الدين ومسائل الاعتقاد التي لا يسوغ الاختلاف فيها،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٦.

حتى كفر بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة:١١٣].

ولهذا حذر الله هذه الأمة أن يكونوا مثلهم؛ فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أولم يتبين لهؤلاء الكفار المكذبين للنبي ﷺ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ «كم»: خبرية تفيد التكثير، أي: أولم يهد لهم ويدلهم كثرة إهلاكنا من قبلهم من القرون، أي: إهلاكنا كثيرًا من الأمم الماضية بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم، ومخالفتهم أمر الله؛ كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، أي: فيحذرون من مسلكهم؟

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾؛ حال من الضمير في «لهم»، أي: يمشي هؤلاء المكذبون في مساكن تلك الأمم المهلكة، ويشاهدونها بأعينهم عين اليقين، خاوية موحشة، لم يبق فيها منهم عين ولا أثر، ويسمعون أخبارهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف:٩٢]، وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل:٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٥، ٤٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إهلاك كثير من الأمم الماضية قبلهم بسبب تكذيبهم وكفرهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لعظات وعبرًا، ودلائل ظاهرة، على شدة انتقامنا من المكذبين.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؛ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يسمعون- سماع تدبر وانتفاع- تذكير الله لهم بآياته وعظاته، وأخبار أولئك الأقوام، وما حل بهم، فيتعظوا

ويعتبروا، ويحذروا أن يصيبهم ما أصابهم؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقرير، أي: أولم يروا ويشاهدوا ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ بإزجاء السحاب الثقال المحمل بماء المزن وسوقه، أو بالأنهار.

﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، أي: اليابسة القاحلة الجرداء الخالية التي لا نبات فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف:٨]، أي: لا نبات فيها.

قال ابن كثير[1]: «وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثَّل بها كثير من المفسرين، فليست مقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعًا من هذه الآية؛ فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة، تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضًا؛ لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء».

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾، أي: من العشب والثمار والبقول مختلفة الأنواع؛ مما هو علف لدوابهم ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾؛ من الإبل والبقر والغنم، وكذا غيرها من الحيوان والطير. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾، أي: وتأكل منه أنفسهم مما هو طعام لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤- ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣- ٣٥].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا يشاهدون ويرون بأبصارهم،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٧٣.

ويتأملون ببصائرهم كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته عليهم، فيستدلوا بذلك على وجوب إفراده وحده بالعبادة؟ وعلى قدرته على إحياء الموتى.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾، أي: ويقول المشركون المكذبون مخاطبين الرسول ﷺ والمؤمنين؛ جهلًا منهم وعنادًا، واستبعادًا للعذاب، وتكذيبًا به: متى هذا الفتح الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا ونصركم علينا؛ كما تتوعدوننا بذلك؟

وهذا كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يونس:٤٨، الأنبياء:٣٨، النمل:٧١، سبأ:٢٩، يس:٤٨، الملك:٢٥].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ في دعواكم ووعيدكم لنا؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سبأ:٢٦]، وقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الشعراء:١١٨].

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾، أي: قل لهم يا محمد: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾، أي: يوم القضاء والفصل بحلول عقاب الله تعالى وعذابه بكم في الدنيا أو في الآخرة.

﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾؛ لأنه إن كان العذاب في الدنيا، فإيمانهم عند حلوله إيمان اضطرار، لا إيمان اختيار، وإن كان عذاب الآخرة، فإنها ليست دار إيمان ولا عمل، وإنما هي دار جزاء. وفي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾؛ لقصد التسجيل عليهم بأن كفرهم هو سبب عذابهم وخسرانهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا هم يمهلون ويؤجلون، فيؤخر عنهم العذاب؛ ليستدركوا أمرهم بالتوبة والاعتذار؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر:٨٤، ٨٥].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ [الروم:٥٧].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: اتركهم ولا تكترث بهم ولا تبالهم، واستمر في الدعوة إلى ربك، واتباع وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنعام:١٠٦].

﴿وَٱنتَظِرْ﴾؛ حذف مفعول «انتظر» للتهويل والتعظيم، أي: انتظر وترقب يا محمد ما وعدناك من النصر عليهم وعقابهم، والتمكين لك ولدعوتك؛ لأن العاقبة للمتقين.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، أي: إنهم منتظرون ومتربصون بك ريب المنون، ومتربصون الدوائر بك وبالمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة:٩٨].

هذا ما ينتظرونه به ﷺ، ويتمنونه، وهيهات لهم ذلك، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون الخيبة والخسران، والهلاك والعذاب؛ في الدنيا والآخرة، وهذا هو المعنى الثاني للآية، وهو أنهم منتظرون للعذاب الواقع بهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وإيتائه «التوراة» أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- وعد الله تعالى- الذي لا ريب فيه- للنبي ﷺ بلقاء موسى عليه السلام، وتحقيق ذلك له ليلة أسري به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

٣- منة الله تعالى على بني إسرائيل بجعله التوراة هدى لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- التعريض بذم المشركين الذين كذبوا بالقرآن أفضل كتب الله تعالى على الإطلاق، ولم يهتدوا به، وكذبوا محمدًا ﷺ أفضل رسل الله وعاندوه ولم يطيعوه.

٥- الثناء على بني إسرائيل، والتذكير بنعمة الله تعالى عليهم؛ حيث جعل منهم أئمة يهدون بأمره عز وجل، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ بسبب صبرهم ويقينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

٦- فضيلة الصبر واليقين، وأن الإمامة في الدين، إنما تنال بالصبر واليقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ ولهذا قال علي رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»(١).

٧- البشارة للصحابة رضي الله عنهم بنيلهم هذا المقام العظيم، وهذه المنزلة الرفيعة، وهي الإمامة في الدين، وكونهم أعلامًا يهتدى بهم؛ بسبب صبرهم على ما لحقهم من الأذى في سبيل نصر دين الله ورسوله، وبلوغهم أعلى مراتب الإيمان واليقين.

٨- اختلاف بني إسرائيل في دينهم وتفرقهم بعد أن غيروا وحرفوا في كتبهم، ووعد الله تعالى ووعيده لهم بالفصل والحكم بينهم يوم القيامة: فمن كان على الحق فسبيله إلى الجنة، ومن كان على الباطل فسبيله إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٠- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الفصل بين العباد، ومجازاتهم بأعمالهم.

١١- الإنكار على المشركين المكذبين للنبي ﷺ في عدم أخذ العظة والعبرة من إهلاك كثير من المكذبين قبلهم، وهم يمشون في مساكنهم ويرونها عين اليقين خاوية على عروشها، ليس فيها داع ولا مجيب، ويسمعون الآيات والعبر، ولا يحذرون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام، كأنهم لا يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٣٧٢.

١٢- ينبغي أخذ العظة والعبرة عند المرور بديار الأمم المكذبة الخاوية، لا أن تتخذ مزارًا أو نزهة.

١٣- تقريرهم وتنبيههم إلى نعمة الله تعالى عليهم، وحكمته في سوق الماء من المطر والأنهار إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، وإخراج الزرع به لأكلهم ومواشيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾.

١٤- الإنكار عليهم، وتوبيخهم في عدم تأملهم ببصائرهم وعقولهم فيما يرون ويشاهدون من دلائل كمال قدرة الله في ذلك، وتمام نعمته عليهم، فيستدلون بذلك على وحدانيته وقدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

١٥- أن الأصل فيما نبت في الأرض هو الحل؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾، ما لم يقم دليل على التحريم.

١٦- وجوب النظر والتبصر في آيات الله، ونعمه، ودلائل قدرته.

١٧- استعجالهم العذاب، والفصل بينهم وبين المؤمنين بذلك؛ جهلًا منهم وعنادًا، واستبعادًا له، وتكذيبًا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

١٨- أنه عند مجيء الفتح والفصل وحلول عقاب الله وعذابه الدنيوي أو الأخروي لا ينفع الكافرين إيمانهم، ولا هم يؤخرون ليؤمنوا ويتوبوا؛ لأن الإيمان حال نزول العذاب إنما هو إيمان اضطرار، لا إيمان اختيار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

١٩- أمر الله تعالى له ﷺ بانتظار وترقب وعد الله تعالى له بالنصر والتمكين له، وإهلاك المكذبين بشارة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرْ﴾.

٢٠- تربص المشركين به ﷺ ريب المنون، وانتظارهم الدوائر به وبالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، وفي الآية تهديد لهم بأنهم منتظرون للعذاب.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْأَحْزَاب

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الأحزاب» بهذا الاسم؛ لأن الله ذكر فيها قصة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ [الآية:٢٢وما بعدها].

ب- مكان نزولها:

مدنية، وهي من أوائل السور المدنية.

جـ- فضلها:

سورة الأحزاب سورة عظيمة، اشتملت على أحكام وآداب وتوجيهات تربوية، للفرد والمجتمع، للرجال والنساء؛ ولهذا كتب عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- «أن تعلَّموا سورة النساء والأحزاب والنور»(١).

وعن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأيِّن تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأيِّن تعدها؟ قلت: ثلاثًا وسبعين آية، فقال: قطِ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عليم حكيم»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتح الله- عز وجل- هذه السورة العظيمة بالأمر لنبيه ﷺ- وهو الأسوة لأمته- بتقوى الله، ونهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين، وأمره باتباع ما أوحى إليه من ربه، والتوكل عليه.

وعلى هذه الوصايا الأربع تتكون الركيزة والقاعدة العظمى التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي وتنظيمه.

٢- إبطال حكم الظهار والادعاء، مما كانوا عليه في الجاهلية وأول الإسلام- بعد التوطئة لذلك بأمر مسلّم يدل على وهن هذه العادات الجاهلية- وهو نفي أن يكون

---

(١) أخرجه أبوعبيدة في «فضائل القرآن» ص(١٢٨)-من رواية حارثة بن مضرب.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٢)، قال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٧٦):«ورواه النسائي من وجه آخر، وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضًا، والله أعلم».

للرجل قلبان في جوفه.

٣- بيان أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، في وجوب محبته وطاعته، وشفقته ﷺ عليهم، وبيان أن أزواجه أمهاتهم في وجوب احترامهن وتوقيرهن وحرمة نكاحهن، وأن أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث.

٤- ذكر أخذ الميثاق الغليظ من النبيين، وبخاصة أُولي العزم منهم في تبليغ ما أَمَرَهم الله بتبليغه والجهاد لنصرة دينه، لتقوم الحُجَّة على الخلق.

٥- الحديث- بنفس طويل- عن غزوة الأحزاب، بدأ ذلك بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم إذ جاءتهم الجنود من كل وجه، وتمالأ معهم المنافقون، وخَوَنة اليهود من داخل المدينة، حتى صار المسلمون بين فكي أسد، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:١٠-٢٧].

فأرسل الله عليهم ريحًا باردة شديدة وهي «الصبا» وجنودًا من الملائكة فتفرَّقت جموعهم، وهربوا كل مهرب، وكفى الله المؤمنين القتال.

٦- فضح المنافقين ومرضى القلوب، وظهور شكهم فيما وعد الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

وكشف مواقفهم المخزية من حث بعضهم بعضًا على الرجوع من المعركة، والاستئذان والفرار والمسارعة إلى الفتنة والكفر، وتولية الأدبار ونقض ما عاهدوا الله عليه، والتثبيط عن الخروج للجهاد، والشح على المؤمنين فلا يقاتلون معهم بأبدانهم ولا ينفقون في سبيل الله من أموالهم، وعند الخير والنصر والغنيمة يريدون المشاركة لهم، وإذا جاء الخوف صاروا من شدة الجبن والرعب ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، إلى قوله: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

٧- حث المؤمنين على التأسي بالنبي ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

٨- تمحيص المؤمنين وظهور صدق إيمانهم وتصديقهم بوعد الله ورسوله، وزيادة إيمانهم وتسليمهم، وصدقهم بما عاهدوا الله عليه؛ قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

٩- وعد الله للمؤمنين الصادقين، ووعيد المنافقين: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

١٠- الإخبار بردِّ الله الذين كفروا على أعقابهم خائبين خاسرين لم ينالوا خيرًا، وكفايته المؤمنين القتال، وأنزل الذين ظاهروهم، ونقضوا عهدهم مع رسول الله من أهل الكتاب، وهم يهود بني قريظة من حصونهم، وقذف الرعب في قلوبهم، فمنهم من قُتِل ومنهم من أُسِر، وتوريث الله المؤمنين أرضهم وديارهم.

١١- الحديث عن بيوت النبي ﷺ وأزواجه، بذكر أمر الله- عز وجل- للنبي ﷺ بتخيير أزواجه بين إرادة الحياة الدنيا، وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، والوعيد لمن تأتِ منهن بفاحشة بمضاعفة العذاب لها ضعفين، والوعد لمن تقنت منهن لله ورسوله وتعمل صالحًا بإيتائها أجرها مرتين، وبالرزق الكريم. وبيان أنهن لسن كغيرهن من النساء فلا ينبغي أن يخضعن بالقول فيطمع فيهن مَن في قلبه مرض، وأمرهن بالقرار في البيوت ونهيهن عن تبرج الجاهلية الأولى، وأمرهن بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، وذكر ما يتلى في بيوتهن من القرآن والسنة.

١٢- وعد المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات المتصفين بما ذكر من الصفات؛ ترغيبًا في تلك الصفات: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

١٣- الحديث عن مسألة تم التمهيد لها والتوطئة في إبطال حقيقة الادعاء في أول السورة وهي جواز نكاح الرجل لزوجة ابنه المدعى بعد فراقه لها، وذلك من خلال ذكر قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش- رضي الله عنهما- وقدم لذلك بأنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً شرعيًا أن يختاروا غير ما اختار الله ورسوله.

١٤- بيان أنه لا حرج على النبي ﷺ فيما فرضه الله وأباحه له، وهي سنة الله في الأنبياء قبله أن لا حرج على أحد منهم فيما فرض الله لهم، وثناؤه- عز وجل- على رسله وأنبيائه في كونهم يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا سواه: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

١٥- التأكيد على إبطال الادعاء بنفي أن يكون محمد أبا أحدٍ من رجالنا وتقرير رسالته ﷺ وكونه خاتم الأنبياء.

١٦- أمر الله- عز وجل- المؤمنين بذكره وتسبيحه، وبيان أن مهمة الرسول ﷺ هي البشارة والإنذار والدعوة إلى الله وبيان الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

١٧- بيان أنه لا عدة على المطلقات قبل المسيس، ولهن المتعة، وأن يسرحن سراحًا جميلًا.

١٨- بيان أن الله أحلَّ له أزواجه، وما ملكت يمينه، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ومَن وهبت نفسها له إن رغب فيها خالصةً له من دون المؤمنين، رفعًا للحرج عنه، وأن له القسم لمن شاء من زوجاته وعدمه، وقبول من شاء من الواهبات أنفسهن، ورد من شاء منهن لا جناح عليه في ذلك كله، لكي تقرَّ أعينهن ويرضين بما آتاهن كله، وبيان أنه لا يحل له النساء من بعدهن، ولا أن يتبدل بهن غيرهن إلا ما ملكت يمينه.

١٩- نهي المؤمنين عن دخول بيوت النبي ﷺ إلا بعد الإذن أو الدعوة للدخول، وأمرهم بالانتشار بعد الطعام، غير مستأنسين لحديثٍ، لما في ذلك من أذية النبي ﷺ، وأمرهم إذا سألوا أزواج النبي ﷺ أن يسألوهن من وراء حجاب، وبيان حرمة أذيته ﷺ ونكاح أزواجه من بعده، وأنه لا جناح على أزواج النبي ﷺ وغيرهن من النساء في عدم الحجاب من محارمهن ونسائهن ومماليكهن.

٢٠- الإخبار بأنه سبحانه يصلي وملائكته على النبي ﷺ، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، والوعيد لمن يؤذون الله ورسوله والمؤمنين.

٢١- أمره عز وجل لنبيه ﷺ أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين

عليهن من جلابيبهن ويحتجبن ليعرفن فلا يؤذين.

٢٢- وعيد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة- إن لم ينتهوا عما هم عليه- بتسليط الرسول ﷺ عليهم، وإخراجهم من المدينة، وعدم مجاورتهم له، ولعنهم وأخذهم وقتلهم أينما ثقفوا، كما هي سنة الله التي لا تتبدل في إهلاك المكذبين.

٢٣- ذكر الساعة وكثرة سؤال الناس عنها، وأمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ أن يرد علمها إلى الله، وأن وقوعها قد يكون قريبًا، والتهديد والوعيد للكافرين بالخلود في السعير والتقليب في النار، وندمهم حيث لا ينفع الندم.

٢٤- ثم نهي الله- عز وجل- المؤمنين عن أذية الرسول ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى- عليه السلام- وأمرهم بتقوى الله والقول السديد، وترغيبهم في طاعة الله ورسوله.

٢٥- ثم ختمت السورة بما يناسب ما بدأت به من الأمر بتقوى الله واتباع وحيه وشرعه، ببيان أنه سبحانه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان لظلمه وجهله؛ ليعذب الله أهل النفاق والشرك ويتوب على أهل الإيمان وهو الغفور الرحيم- سبحانه وتعالى.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، كما يقال: أدعوك. و«ها»: للتنبيه، و«النبي»: صفة لأي أو بدل منها.

والنبي: هو رسولنا ونبينا محمد ﷺ، و«ال» فيه للعهد الذهني فهو معهود معروف. و«النبي»: مشتق من النبأ، أبدلت الهمزة ياءً تخفيفًا، وأصله: «النبيء».

والنبأ هو الخبر؛ لأن النبي مُنْبَأ ومُخْبَر، من عند الله تعالى ومُنْبِئ ومُخْبِر للناس. فهو «فعيل» بمعنى فاعل، وبمعنى مفعول.

ومشتق من النَّبْوَة، وهي المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذوو شرف ومكانة عالية مرتفعة.

وفي ندائه ﷺ وخطابه من الله- عز وجل- في القرآن الكريم بوصف النبوة، وندائه بوصف الرسالة في مقام الرسالة، كما في قوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، دليل على ثبوت نبوته ورسالته ﷺ.

وفي تخصيصه ﷺ من بين الأنبياء بندائه بوصف النبوة والرسالة، دون أن يقول له: يا محمد، تكريم وتشريف له ﷺ، ودلالة على شرفه ﷺ وفضله على سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام؛ حيث يناديهم الله- عز وجل- بأسمائهم كقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١١، ١٢]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود:٤٨]. إلى غير ذلك.

ولهذا قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»(١).

وقد جاء في السُّنَّة النبوية نداء الله- عز وجل- له ﷺ باسمه «محمد» كما في بعض الأحاديث القدسية كما في حديث: «**يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى**» الحديث(٢).

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: **التقوى في اللغة**: مأخوذة من الوقاية من الشيء المخوف، بأن تجعل بينك وبينه وقاية، كالبرد والحر، والشوك، وغير ذلك.

وأصلها «وَقْوَىٰ» قلبت الواو تاءً لعله تصريفية فقيل: «تقوى». وهي في الشرع: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال طلق بن حبيب: «**التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله**»(٣).

وقال ابن القيم(٤) في حقيقة التقوى: «... المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه محبة له وخشية ورجاء، فإن التقوى لا تتم إلا بذلك».

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أمر للنبي ﷺ بتقوى الله، أي: اتق الله في كل حال وفي كل وقت، واثبت وداوم واستمر على تقوى الله.

وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بأن يقال: كيف يؤمر بتقوى الله، أو بالإيمان من هو متقٍ مؤمن، بل إن الرسول ﷺ وغيره من المؤمنين مأمورون بتقوى الله وبالإيمان لحاجتهم إلى تقوى الله والإيمان في كل لحظة وفي كل حال، وإلى الثبات على ذلك، والزيادة منه، والدوام والاستمرار عليه، ولهذا يقول الله- عز وجل- للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٤٨)، وفي المناقب (٣٦١٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)-من حديث أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-وقال الترمذي:«حديث حسن». وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٣٣، ٣٢٣٤)-من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-ومن حديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه-(٣٢٣٥). وقال عن حديث ابن عباس:«حديث حسن غريب»، وقال عن حديث معاذ:«حديث حسن صحيح».

(٣) انظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٧٦).

(٤) انظر:«بدائع التفسير» (٣/ ٤١٩).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦].

وأمر الله- عز وجل- المؤمنين أن يقولوا في كل ركعة من الصلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦] لحاجتهم إلى الهداية في كل وقت وفي كل حال، فإن الإنسان عندما يهديه الله للتكبير والدخول في الصلاة في حاجة إلى أن يهديه الله ليقرأ دعاء الاستفتاح، وهو بعد هدايته لذلك في حاجة إلى أن يهديه ليستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وبعد هدايته لذلك هو في حاجة إلى أن يهديه لقراءة البسملة، ثم هو بعد ذلك في حاجة إلى أن يهديه لقراءة الفاتحة وهكذا.

ومن هنا يتبين أنه ليس في أمره ﷺ بتقوى الله دليلٌ على وجود مخالفة منه ﷺ، وقد قال ﷺ: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»(١).

وفي أمره ﷺ بتقوى الله دليل على أن التكاليف لا تسقط عن أحد مهما بلغت منزلته فهذا رسول الله ﷺ وأفضل أنبيائه ورسله وسيد ولد آدم- عليه الصلاة والسلام- مأمور بتقوى الله.

وفي هذا رد على غُلاة الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان قد يصل إلى مرتبة يرتفع عنه بها التكليف، وهذا من تخريفاتهم. نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأن ترك طاعة الكافرين والمنافقين من تقوى الله- عز وجل- وقد أكد الله- عز وجل- هذا بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ الآية [الأحزاب:٤٨].

و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: الذين أظهروا الكفر وصرَّحوا به، ولهذا- والله أعلم- قدَّمهم في الذِّكر هنا على المنافقين مع أن المنافقين أشد كفرًا منهم.

والكفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)،-من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في الصيام (١١٠٨)-من حديث عمرو بن أبي سلمة-رضي الله عنه.

في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد:٢٠] أي: أعجب الزراع نباته، وسميت الكفّارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون ويغطيه بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل بالكفر أو بالكافور؛ لأنه يستر ويغطي الطلع الذي بداخله، وهكذا.

وهو: جحود وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وجحود شريعته أو شيء من ذلك، والتكذيب به، أو الاستكبار عن الانقياد له، أو الإعراض عنه، أو الشك فيه، وهو ضد الإيمان.

ووجه الربط بين الكفر بمعناه اللغوي والشرعي أن الكافر بإنكاره وجحده شيئًا مما ذكر ساتر للحق وساتر لنعم الله عز وجل التي أنعم الله بها عليه.

﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هم الذين يُظْهِرون الإيمان ويعلنونه، ويخفون الكفر ويبطنونه.

وسمي فعلهم هذا بالنفاق أخذًا من نافقاء «اليربوع»، وهو حيوان معروف يحفر جحرًا في الأرض، ويضع له بابًا، ويجعل في آخره «نافقاء» أي: مخرجًا عليه قشرة خفيفة من طبقة الأرض العليا بحيث إذا داهمه عدو من باب جحره دفعها برأسه وخرج منها.

فالمنافقون يظهرون أنهم مؤمنون وهم في الباطن كفار، بل أشد من الكفار الظاهرين، ولهذا كان عقابهم وعذابهم أشد من الكفار، يقابلون المؤمنين بوجه وهو دعوى أنهم مؤمنون، ويقابلون الكفار بوجه آخر، بقولهم: إنا معكم، ليخلصوا من ملامة هؤلاء وهؤلاء، كما قال الله- تعالى- عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:٨-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤]، وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء:١٤٣].

وبهذا النفاق الاعتقادي والعملي كانوا في الدرك الأسفل من النار، كما قال الله- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

ولهذا يقدم ذكرهم في باب الوعيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ

فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾[الفتح:٦].

والمراد: لا تطع الكافرين والمنافقين فيما يخالف الحق والشرع الذي جئت به؛ لأنهم غالبًا، بل واقعهم أنهم لا يأمرون إلا بما يخالف الحق والشرع، ولا يأمرون بخير.

قال ابن كثير(١): «أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم».

لكن لو أمر الكافر أو المنافق بما يوافق الشرع، فنطيعه؛ لأن ذلك مقتضى الشرع.

ولهذا لما قال اليهودي للنبي ﷺ: «إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة»، أمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»(٢).

فقبل النبي ﷺ هذا من اليهودي ونهى ﷺ أصحابه عن هذه المقالة، علمًا بأن اليهودي ما قصد بيان الحق، وإنما قصد تنقص المسلمين وعيب دينهم.

وأَمْره ﷺ بالتقوى أمر له ولأمته بطريق الأولى، كما أن نهيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين نهي له ولأمته بطريق الأولى.

قال ابن كثير(٣): «هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى».

وأيضًا فإن للأمة فيه أسوة كما قال عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

وكما ينبغي الحذر من طاعة الكافرين والمنافقين يجب الحذر من أفعالهم وصفاتهم، وبخاصة المنافقين الذين يتظاهرون بأنهم مؤمنون، وقد قال عبدالله بن أبي مليكة رضي

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٣)، وأحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢)-من حديث قتيلة-رضي الله عنها-وصححه النسائي وصححه الألباني. وانظر:«تيسير العزيز الحميد» ص(٥٩٨).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٦).

الله عنه: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»(١).

عن زيد بن وهب قال: «مات رجل من المنافقين، فلم يصل عليه حذيفة. فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم. قال: بالله منهم أنا؟ قال: لا، ولن أخبر به أحدًا بعدك»(٢).

ورُوي عن بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص»(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها من حيث المعنى؛ لأن الله- عز وجل- بعدما أمر نبيه ﷺ بتقواه ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين ختم الآية بما يدل على أن ذلك الأمر وذلك النهي كل منهما صادر عن علم تام بعواقب الأمور وغير ذلك، وعن حكم تام، وحكمة بالغة.

و﴿كَانَ﴾: مسلوبة الزمان، أي إنه كان وما زال عليمًا حكيمًا، فهي تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: تفيد هنا تحقيق اتصافه- عز وجل- بالعلم والحكم والحكمة في جميع الأوقات.

و﴿عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة، قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- لما سئل عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥٢].

يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ ولهذا قال عز وجل عن السموات والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]؛ فهذا من علمه- عز وجل- بمستحيل الوقوع، فيعلم سبحانه أنه لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله لفسد أمر السموات والأرض والكون كله.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان-باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر. «صحيح البخاري مع الفتح» (١/ ١٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٨١ (٣٧٣٩٠)، وأبو بكر الخلال في السنة ٤/ ١١١ (١٢٨٨).

(٣) سبق تخريجه.

والعلم معناه: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

وأقسام الناس تجاه العلم ثلاثة، فمثلًا من قال: عدد الرسل في القرآن خمسة وعشرون رسولًا فهذا عالم بالنسبة لهذه المسألة، ومن قال: لا أدري فهذا جاهل جهلًا بسيطًا لا يدري ويدري أنه لا يدري.

ومن قال عددهم ثلاثون فهذا جاهل جهلًا مركبًا لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

قال الخليل: «الرجال أربعة: رجل يدري، ويدري أنه يدري؛ فذلك عالم فاتبعوه. ورجل يدري، ولا يدري أنه يدري؛ فذلك نائم فأيقظوه. ورجل لا يدري، ويدري أنه لا يدري؛ فذلك مسترشد فأرشدوه. ورجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري؛ فذلك أحمق أو جاهل، فاجتنبوه فارفضوه»(١).

قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها(٢)

﴿حَكِيمًا﴾، أي: ذا الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذا الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فالحكم الكوني: كما في قول ولد يعقوب- عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف:٨٠].

والحكم الشرعي: كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة:١٠].

والحكم الجزائي: كما في مضاعفته- عز وجل- الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

ويجمع الأحكام الثلاثة قوله عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ﴾ [الأنعام:٥٧]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٨].

وذا الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، الحكمة الغائية بالنسبة لكل حكم من الأحكام الثلاثة المذكورة في كل جزئية من تلك الأحكام، أي: الغاية من وقوع كل

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» ١/ ٥٩.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٤٨٦، «العقد الفريد» ٢/ ٢٢٦، «المستطرف» ص٢٣.

حكم كوني، ومن مشروعية كل حكم شرعي، ومن الجزاء في كل حكم جزائي.

والحكمة الصورية: الحكمة من مجيء تلك الأحكام على صور معينة.

فهو- عز وجل- حكيم، له الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، فهو الحاكم، وله الحكم سبحانه، وهو حكيم له الحكمة فيما قدر وشرع وفي جزائه، فهو حاكم محكم متقن يضع الأمور مواضعها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ «الواو»: عاطفة، و﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم، أي: اتبع كل الذي يوحى إليك من ربك من الكتاب والسنة في كل وقت وحال، واثبت واستمر على ما أوحاه الله إليك، تبليغًا له ودعوة إليه وعملًا به.

وهو أمر له ﷺ ولأمته، والأصل في الأمر الوجوب، فيجب اتباع وحي الله، ويحرم العدول عنه إلى غيره من آراء الرجال.

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

وفي الشرع: ما أوحاه الله- عز وجل- إلى نبيه ﷺ سواء كان بواسطة أو بغير واسطة.

﴿مِن رَّبِّكَۚ﴾ المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة التي تتضمن معنى الربوبية العامة، وهي الخلق والملك، والتدبير، وزيادة الهداية والتوفيق، والعون والنصر والحفظ والتسديد، ونحو ذلك.

فكل ما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ يجب عليه وعلى الأمة اتباعه، واعتقاد مشروعيته، إن كان واجبًا فواجب، وإن كان محرمًا فمحرم، وإن كان مستحبًا فمستحب، وإن كان مكروهًا فمكروه، وإن كان مباحًا فمباح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢﴾ قرأ أبوعمرو بالياء: «يعملون»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾(١).

و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي:

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٧).

إنه- عز وجل- كان وما زال بما تعملون خبيرًا.

و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تعملون، أو بعملكم.

﴿خَبِيرًا﴾، أي: ذو الخبرة والعلم الواسع والاطلاع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وعلى ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

والمعنى على قراءة: «يعملون»: أنه- عز وجل- خبير بما يعمله الكفار والمنافقون، من الكيد للإسلام وأهله وغير ذلك.

والمعنى على قراءة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء: أنه- عز وجل- خبير بما تعملون كلكم أيها الناس، فهي أعم من قراءة «يعملون».

ويؤخذ من ذلك كله وجوب مراقبة الله- عز وجل- والرجاء في ثوابه والخوف من عقابه؛ لأن في ذلك وعدًا لمن اتقى الله، ووعيدًا لمن خالف أمر الله.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ الأمر للنبي ﷺ، والأصل في الأمر الوجوب، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لعدم الدليل على خصوصيته بذلك، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

والتوكل على الله: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار- مع تمام الثقة بالله- عز وجل- وسكون القلب إليه وحده دون غيره[1]- مع فعل الأسباب المشروعة، وأنه- عز وجل- الكافي لمن توكل عليه، كما قال عز وجل- هنا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق:٣].

أي: توكل على الله في جميع أمورك، وفي تركك طاعة الكافرين والمنافقين، ولا تبال بهم، فلن يستطيعوا أن يضروك، أو يمنعوا الناس من اتباعك.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ «الواو» عاطفة، و﴿وَكَفَىٰ﴾ فعل بمعنى: حسب، وهو يأتي لازمًا، وعلامة لزومه جر فاعله بالباء، كما في قوله هنا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤١٩).

ويأتي متعديًا كما في قوله عز وجل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥].

و«الباء» في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ قيل: إنها صلة، أي: زائدة من حيث الإعراب جيء بها لتحسين اللفظ، أي: كفى الله وكيلًا.

و﴿وَكِيلًا﴾ تمييز، وقيل: حال، وهو «فعيل» بمعنى «فاعل»، أي: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تُوكل إليه الأمور فيقوم بها، وحافظًا، وواقيًا، وكافيًا، لمن اعتمد عليه أعظم الحفظ والوقاية والكفاية، أو ما أعظم كفايته ووقايته وحفظه لمن توكل عليه.

والمعنى: وكفى بالله وكيلًا لمن توكل عليه وأناب إليه.

كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه ما أهمَّه من أمر دينه ودنياه.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٢- إثبات نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣- تخصيصه ﷺ من بين الأنبياء- عليهم السلام- بندائه بوصف النبوة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، كما ناداه بوصف الرسالة بقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، دون ندائه باسمه «محمد» مجردًا كما هو الحال بالنسبة لغيره من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك دال على شرفه وفضله على سائر الأنبياء.

٤- أن التكاليف لا تسقط عن أحد مهما بلغت منزلته، فأفضل الرسل وسيد ولد آدم أُمر بتقوى الله، ونُهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وفي هذا الرد على من يزعم من الصوفية وغيرهم أن الإنسان قد يصل إلى مرتبة يرتفع عنه بها التكليف؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

٥- التنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه- تعالى- إذا كان يأمر عبده ورسوله بتقوى الله وينهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فلأن يأتمر من دونه من سائر الأمة بذلك بطريق الأولى والأحرى.

٦- في أمره ﷺ بالتقوى وهو سيد المتقين دليل على أنه لا ينبغي أن يأنف الإنسان من الأمر له بتقوى الله، سواء كان الأمر صادرًا ممن هو أعلى منه أو ممن هو مساوٍ له أو دونه.

٧- وجوب تقوى الله؛ لأن الله أمر بها رسوله ﷺ بقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ كما أمر بها سائر الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، فهي وصية الله للأولين والآخرين، وهي خير زاد، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

٨- تحريم طاعة الكافرين والمنافقين؛ لأنهم غالبًا لا يأمرون بخير، وليسوا نصحة للمسلمين؛ لهذا نهى الله عن طاعتهم.

٩- إثبات علم الله الأزلي الواسع المحيط بكل شيء، وإثبات الحكم التام لله- عز وجل- بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وإثبات الحكمة البالغة له- عز وجل- بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

١٠- وجوب اتباع وحي الله، أي اتباع الكتاب والسُّنَّة، فكلاهما من وحي الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، والأمر له ﷺ ولأمته.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١٢- إثبات صفة الخبرة الواسعة لله عز وجل، واطلاعه التام على أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾.

١٣- في إثبات سعة خبرته، وإحاطته- عز وجل- بكل أعمال العباد ما يوجب مراقبته- عز وجل- وفي هذا وعد للمتبعين ووعيد للمخالفين.

١٤- وجوب التوكل على الله- عز وجل- وتفويض الأمور إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٥- إثبات وكالته- عز وجل- على كل شيء، وأنه سبحانه الكافي لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ ﴾، ﴿ مَّا ﴾: نافية، و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: «صير»، تنصيب مفعولين، ﴿لِرَجُلٍ﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾ مقدم.

﴿مِّن قَلْبَيْنِ ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿قَلْبَيْنِ ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾.

وقوله: ﴿لِرَجُلٍ﴾ من باب التمثيل فقط، والرجل هو: الذكر البالغ، وتخصيصه بالذكر من باب التغليب، أي: ما جعل الله للإنسان أيًّا كان ذكرًا أو أنثى صغيرًا كان أو كبيرًا من قلبين في جوفه.

والمراد بالقلب حاسة الإدراك والعقل الذي عليه مدار صلاح الجسد أو فساده، وهو المضغة، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

﴿فِى جَوْفِهِۦ ﴾ أي: في صدره وباطنه، وهذا قيد لبيان الواقع، كما قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

وليس المعنى أن هناك قلوبًا في غير الصدور والأجواف، وأيضًا الجوف الواحد لا يتناسب معه إلا قلب واحد يأتمر بأمره، إذ لو كان للإنسان قلبان ما استقام أمره على حال.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

والمراد بالجعل هنا: الجعل الكوني، أي: ما جعل الله- عز وجل- كونًا وخلقًا لرجل قلبين في جوفه، وهذا أمر مسلم وحقيقة ثابتة، ولكن ذكر هذا- والله أعلم- توطئة وتمهيدًا، وتوكيدًا ودليلًا، وبرهانًا قاطعًا على نفي الظهار والادعاء.

فجملة: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ليست مقصودة لذاتها، بل هي توطئة وتمهيد وتوكيد لما بعدها، أي: فكما أنه مسلم ومعلوم عندكم أن الله- عز وجل- ما جعل لرجل قلبين في جوفه، فكذلك لا يمكن أن يكون الظهار سببًا للتحريم، فتكون الزوجة المظاهر منها محرمة على زوجها بسبب الظهار، وأُمًّا له، فيكون له أُمَّان.

ولا يكون الادعاء سببًا للبنوة فيكون للرجل أبناء بالنسب، وأبناء بالادعاء، وهذا يدل على أن القرآن الكريم قد بلغ الغاية في الإقناع وإقامة البرهان.

وربط ابن القيم- رحمه الله- قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ بما بعده، وبما قبله فقال(١): «فأنت تجد تحت هذه اللفظة: أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى لربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه، ثم استطرد منه إلى أنه لم يجعل دَعِيَّه ابنه، فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب».

واعتبر ابن كثير- رحمه الله- أن قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ كل هذا توطئةً وتمهيدًا للنفي في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾(٢).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤١٩).

(٢) رُوي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-أنه سئل: «أرأيت قول الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ما عُني بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يومًا يصلي، فخطر خطرة، أي: حصل له شيء من الوسوسة التي تحصل للإنسان في صلاته، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قلب معكم، وقلب معهم، فأنزل الله-عز وجل: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾» أخرجه أحمد (١/ ٢٧٦-٢٦٨)، وقال: «حديث حسن»، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» (٢٤١٠). وأخرجه =

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ «الواو»: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى «صير» تنصب مفعولين الأول: أزواجكم، والثاني: أمهاتكم.

والمراد بالجعل هنا: الجعل الشرعي.

و﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾: جمع زوج، وزوج يطلق في القرآن الكريم واللغة الفصحى على الرجل والمرأة.

وبنو تميم تقول للمرأة: «زوجة»، فهي لغة، ولكنها دون الفصحى، وقد وردت في بعض الأحاديث والآثار، وبعض المأثور عن العرب نثرًا وشعرًا، قال الفرزدق(١):

وإن الذي يمشي يحرش زوجتي كساعٍ إلى أسد الشرى يستبيلها

وقد انتحل هذه اللغة الفرضيون؛ للتفريق بين ما إذا كان الهالك رجلًا أو امرأة، فيقولون إذا كان الميت امرأة: هلك هالك عن زوج وكذا وكذا، ويقولون إذا كان الميت رجلًا: هلك هالك عن زوجة وكذا وكذا.

والمراد بقوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ﴾ أي: زوجاتكم.

﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بإثبات ياء ساكنة بعد الهمزة، وقرأ الباقون بحذفها(٢).

﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ قرأ عاصم (تُظاهرون) بضم التاء.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف (تَظاهرون) بفتح التاء.

وقرأ ابن عامر (تَظَّاهرون) بفتح التاء وتشديد الظاء.

=

الترمذي في التفسير (٣١٩٩)، والحاكم (٢/ ٤١٥).

وقيل: إن رجلًا من الكفار زعم أن له قلبين، يعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ، فأنزل الله قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾» انظر: «جامع البيان» (١٩/ ٧-٨)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٧٧-٣٧٨).

(١) انظر «ديوانه» ص(٦٠٥)، «لسان العرب» مادة «زوج».

(٢) انظر: «الغاية في القراءات العشر» ص(٣٦١).

وقرأ الباقون (تَظَّهرون) بفتح التاء وتشديد الظاء دون ألف(١).

﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أمهات: جمع أم، أو جمع أمهة، والكاف: للخطاب، والميم للجماعة، والأم هي التي ولدت، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢].

ومعنى ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ أي تقولون: إنهن عليكم كظهور أمهاتكم، فإذا أراد الواحد منهم في الجاهلية أن يطلق امرأته طلاقًا بائنًا قال لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، أي: إنك عليَّ حرام في جميع الأحوال، كما أن ظهر أمي علي حرام في جميع الأحوال، أي: فلا يحل لي أن أركبك كما لا يحل لي أن أركب أمي، وخص الظهر؛ لأنه موضع الركوب، ومثله ما لو قال: أنتِ عليَّ كبطن أمي، وخُصت الأم لعظم حرمتها، ومثله لو قال: أنتِ عليَّ كظهر أختي، وكذا غيرها ممن يحرم عليه تحريمًا مؤبدًا.

فالظهار: أن يشبه الرجل زوجته بأمه أو بمن تحرم عليه على التأبيد.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: إنه- عز وجل- ما جعل شرعًا أن الزوجة تكون أُمًّا بمجرد قول الزوج لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فالزوجة لا تكون أُمًّا أبدًا، ولا تَطْلق ولا تَحْرم بمجرد الظهار.

وقد بيَّن الله عز وجل حكم الظهار في سورة المجادلة، وأنه منكر من القول وزور، يحرم التلفظ به، وأن الزوجة لا تكون أُمًّا بمجرد الظهار، وإنما الأم هي التي ولدت، كما بيَّن عز وجل أنه يجب على من ظاهر من زوجته ألا يمسها حتى يكفر فيعتق رقبة، فإن لم يستطع صام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة:٢-٤].

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٧).

قال ابن كثير[١]: «نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبنّاه قبل النبوة، وكان يقال له: «زيد بن محمد» فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق، وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، كما قال في أثناء السورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]».

وكان من قصة زيد بن حارثة أنه كان عند أخواله طيء، فأغار عليهم قوم من العرب، وسبوه فيمن سبوا وباعوه بمكة فاشتراه حكيم بن حزام- رضي الله عنه- وأهداه لعمته خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها، وأهدته خديجة للنبي ﷺ، فأعتقه وتبناه، وكان أبوه حارثة يبحث عنه ليل نهار، وينشد فيه الأشعار[٢]، من ذلك قوله:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
تُذكِّرُنيه الشمس عند طلوعها ... ويعرض ذكراه إذا نجمها أفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزني عليه وما وجل
سأعمل نصَّ العيس في الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي عليّ منيتي ... فكل امرئ فان وإن غره الأمل

فأُخبر أنه عند النبي ﷺ فجاء هو وعمه إلى النبي ﷺ، فقالا: دع زيدًا نفديه، فقال لهما النبي ﷺ: أعطيكما أكثر من ذلك، أَدعو زيدًا، فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء، وإن اختارني فلا أريد بمن اختارني بديلًا، فخيره رسول الله ﷺ أمامهم، فاختار رسول الله ﷺ، فقالا: تختار العبودية، ثم قال رسول الله ﷺ لقريش: «**أشهدكم أن زيدًا ابني أرثه ويرثني**»، فلما قال هذا طابت نفس أبيه وعمه وذهبا وتركاه.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الواو: عاطفة، والأدعياء: جمع دَعِيّ، وهو من يُدَّعى، أي: ينسب لغير أبيه، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: مدعوّ، مأخوذ من الدعاء، وهو الطلب والنداء، فيقول له مُدَّعِيه: يا ابني، ويناديه الناس بقولهم: يا ابن فلان، وليس

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٧)، وانظر: «جامع البيان» (١٩/ ١٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٦٤-٢٦٥)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ٢/ ٥٤٥، «أسد الغابة» ٢/ ٣٥٠، «الإصابة في تمييز الصحابة» ٢/ ٤٩٦، «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٢٠)-ترجمة رقم (٣٦).

هو ابنًا له على الحقيقة.

وقد كان هذا في الجاهلية، وفي أول الإسلام يتبنى الرجل ابنًا لغيره، يعجبه خلقه ونحو ذلك فينسب إليه، وكانوا يعاملون الأدعياء معاملة الأبناء من كل وجه؛ في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل لما حُرِّم التبني، وكان سالم مولى أبي حذيفة بالتبني: «إن سالمًا قد بلغ ما يبلغ الرجال، وعقل ما عقلوا وإنه يدخل علينا، وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا، فقال لها النبي ﷺ: «**أرضعيه تحرمي عليه، ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة**»، فرجعت فقالت: إني قد أرضعته، فذهب الذي في نفس أبي حذيفة»(١).

والمعنى: ما جعل أدعياءكم الذين تَدَّعونهم وتَتبنَّونهم من أولاد غيركم أبناءكم حقيقة لا قدرًا، ولا شرعًا، لأنهم قدرًا أبناء آبائهم الذين هم من أصلابهم لا أبناؤكم؛ ولأن الله- عز وجل- نفى أن يكون الأدعياء أبناءً شرعًا لمن ادعاهم، فليس المدعى ابنًا لمن ادعاه لا قدرًا ولا شرعًا، ولا يجوز أن ينسب إليه لما يترتب على ذلك من تحريم وتحليل وإرث ونفقات، وغير ذلك، مما يترتب على النسب أو السبب المباح.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾، الإشارة إلى الادعاء المفهوم من قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، والظهار المفهوم من قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، فالخطاب لمن يظاهر من زوجته، ولمن يدعي أبناء غيره.

﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾أي: قولكم بألسنتكم، مما لا حقيقة له، وقيل: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ للتأكيد كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]، فقوله:﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ توكيد لما قبله، وكقول القائل: أبصرت بعيني، وسمعت بأذني.

والمعنى: أن هذا الظهار مجرد قول بأفواهكم لا يجعل الزوجة أمًّا، ولا يحرمها. وهذا الادعاء إنما هو مجرد قول بأفواهكم لا يجعل ابن الغير ابنًا لمن ادعاه، ولا يُغيِّر من

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاع-رضاعة الكبير (١٤٥٣)، وأبوداود في النكاح (٢٠٦١)، والنسائي في النكاح-رضاع الكبير (٣٣٢٢)، وابن ماجه في النكاح (١٩٤٣)، وأحمد (٦/ ١٧٤، ٢٢٨، ٢٤٩، ٢٦٩)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.

الواقع شيئًا، فالابن المدعى ابن لأبيه من النسب قدرًا وشرعًا، وليس ابنًا لمن ادعاه لا قدرًا ولا شرعًا، ولا يجوز نسبته إليه.

قال ابن كثير[١]: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًّا، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان».

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾: توبيخ وتقريع لهم، كيف يقولون قولًا ليس له حقيقة.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: والله يقول القول الحق؛ فالحق صفة لمصدر محذوف مفعول به، أي: إن قوله- عز وجل- كله حق وصدق، وعدل، كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

وقال تعالى عن كلامه- عز وجل- وكتابه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢].

فقوله- عز وجل- حق دال بظاهره على الحق، محكمه ومتشابهه، ليس له باطن يخالف ظاهره، كما يقول الباطنية وأهل التحريف.

﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ لم يقل: (ويهدي السبيل)؛ لتأكيد ثبوت الهداية له، أي: وهو- عز وجل- يهدي من يشاء من عباده السبيل، أي: يهدي إليه، وفيه.

وهداية الله- عز وجل- تنقسم إلى قسمين:

١- هداية الدلالة والإرشاد إلى الحق، وهذه عامة لجميع الناس فأرسل الله- عز وجل- الرسل، وأنزل الكتب، وأقام بذلك الحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

٢- وهداية التوفيق إلى الحق، وهذه خاصة بالمؤمنين.

و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ هو: الطريق المستقيم الموصل إلى السعادة في الدارين، فهو- عز

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٧).

وجل- يبين ويُفصِّل ويرشد إلى الطريق المستقيم ويوفق إليه من شاء من عباده، وهو سبيل الله، كما قال عز وجل: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٥٣].

وهو معرفة الحق والعمل به، وهو العلم النافع والعمل الصالح، كما قال عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، وهو طريق واحد لا يتعدد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فقوله- عز وجل- هو الحق، وهو يهدي لطريق الحق، فيما حكم وشرع وقدر، ومن ذلك نفيه- عز وجل- أن تكون الزوجات المظاهر منهن أمهات، أو يكون الأدعياء أبناءً لمن ادعاهم، وغير ذلك؛ لهذا يجب لزوم قوله- عز وجل- وسؤاله الهداية ولزوم طريقه.

قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾.

لما نفى عز وجل أن يكون الأدعياء أبناءً لمن ادعاهم، أتبع ذلك بالأمر بدعوة الأبناء إلى آبائهم حقيقة.

قال ابن كثير[1]: «هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة وأن هذا هو العدل والقسط».

قوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ الأمر للوجوب، أي: انسبوهم لآبائهم، فقولوا: فلان ابن فلان لأبيه من النسب، وجده أبي أبيه وإن علا.

وجمع الآباء لاعتبارين:

١- اعتبار الأب والأجداد.

٢- واعتبار كثرة المدعوين فيُدعى كل منهم إلى أبيه.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٢٧٨).

فيجب دعوة الأبناء إلى آبائهم لفظًا وحقيقةً، ويحرم دعوتهم إلى غير آبائهم لفظًا وحقيقة؛ فهذا خلاف ما دلَّ عليه القرآن الكريم، وهم محرم بالإجماع، قال ﷺ: «**فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم**»(١).

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ الضمير يعود إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: دعاؤهم لآبائهم ونسبهم إليهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾.

و﴿أَقْسَطُ﴾: على وزن «أفعل» اسم تفضيل، مأخوذ من أقسط الرباعي، بمعنى عدل، واسم الفاعل منه «مقسط» أي: هو أعدل عند الله، أي: في حكمه وشرعه، وجاء التعبير باسم التفضيل مع أنه ليس في الطرف الآخر المقابل وهو دعوتهم لمن تبناهم شيء من الفضل ألبتة؛ لبيان أن دعوتهم إلى آبائهم هي غاية العدل عند الله.

وليس من لازم اسم التفضيل أن يكون في الطرف الآخر شيء من الفضل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم:٢٧]، مع أنه- عز وجل- ليس هناك شيء يصعب عليه، وقال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤]، مع أن النار ليس فيها أي معنى من معاني الحسن.

عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة بن شراحيل إلا زيد بن محمد، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لزيد: «**أنت زيد بن حارثة بن شراحيل**»(٢).

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾ «الفاء»: عاطفة، أي: فإن لم تعلموا الآباء الحقيقيين لهؤلاء الأدعياء؛ فهم إخوانكم في الدين ومواليكم، بمعنى أنه حتى في حال عدم علمكم بآبائهم لا يجوز لكم أن تنسبوهم لغير آبائهم، بل ادعوهم بقولكم: إخواننا في الدين، وموالينا، فهم إخوانكم في الدين، ومواليكم في الدين؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٨٣٠)، ومسلم في الإيمان (٦٢) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٢)، ومسلم في الفضائل-فضائل زيد بن حارثة (٢٤٢٥)، والترمذي في تفسير سورة الأحزاب (٣٢٠٩).

المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كما قال عز وجل: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١].

وقد يكونون مواليكم بالعتق إذا كنتم قد ملكتموهم ثم حررتموهم، كما قال النبي ﷺ لزيد بن حارثة: «**أنت أخونا ومولانا**»(١).

وكان يقال له قبل ذلك: زيد ابن محمد، فقال النبي ﷺ: «**أنت أخونا**»، أي: في الدين، «**ومولانا**»؛ لأن النبي ﷺ أعتقه، كما يقال: سالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن كثير(٢): «وأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهي عنه في هذه الآية».

واستدل ابن كثير لهذا بحديث أنس- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان يقول له: «**يا بُني**»(٣).

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ «الواو»: عاطفة، و«الجناح»: الحرج والإثم.

﴿فِيمَآ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: في الذي أخطأتم به، أو في خطئكم.

والمعنى: أنه لا حرج عليكم ولا إثم فيما أخطأتم به من دعوة الأبناء ونسبتهم إلى غير آبائهم خطأً ونسيانًا، أو غير ذلك.

وهذا في باب المنهيات لا حرج ولا إثم ولا تبعة فيه من كفارة أو فدية ونحو ذلك، فمن ارتكب مثلًا محظورًا من محظورات الإحرام ناسيًا أو جاهلًا أو مخطئًا فلا شيء عليه، وكذا في باب المأمورات لا إثم عليه، لكن عليه تبعة إعادة العمل الذي أخطأ فيه على وجه صحيح كما في أمره ﷺ للمسيء في صلاته بترك الطمأنينة أن يعيد الصلاة، ومثله لو ترك واجبًا من واجبات الحج فيجب عليه الإتيان به إن أمكن ذلك، وإلا

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٣)، وأبوداود في المناسك (١٨٣٢)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٤)-من حديث البراء بن عازب-رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في الأدب (٢١٥١)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٦)، والترمذي في الأدب (٢٨٣٣). وعن أنس-رضي الله عنه-أن النبي ﷺ قال للمغيرة:«أي:بني» أخرجه مسلم في الأدب (٢١٥٢).

فعليه الفدية، وهو في الحالين في فعل المحظور أو ترك المأمور بسبب الخطأ أو الجهل أو النسيان غير مؤاخذ؛ بدليل هذه الآية وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله: «**قد فعلت**»(١).

وقال ﷺ: «**عُفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(٢).

حتى لو حلف الإنسان على ألا يفعل شيئًا ففعله مخطئًا أو جاهلًا أو ناسيًا، فلا إثم عليه ولا تبعة، ومثله لو علق الطلاق على شيء ففعله مخطئًا أو جاهلًا أو ناسيًا فلا يقع الطلاق، وكذا لو فعل مكفرًا أو ما دونه مخطئًا أو جاهلًا أو ناسيًا أو مكرهًا، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

فكل ما فعله الإنسان من باب الخطأ فلا إثم عليه فيه لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦](٣).

وفي هذه الأحوال لا إثم ولا ضمان في حقوق الله- عز وجل- إلا في قتل الخطأ، فإنه لعظمه تجب فيه لله الكفارة: عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

وأما حقوق الآدميين فلا تسقط بحال.

كما أن الجاهل لا يعذر إذا كان مفرطًا في السؤال، وفي أمر لا يعذر مثله بجهله.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ «الواو» عاطفة، ﴿وَلَٰكِن﴾ أداة استدراك، و﴿مَّا﴾ موصولة، والتعمد: فعل الشيء عن قصد وعمد.

والمعنى: ولكن عليكم جناح وحرج وإثم فيما تعمدته قلوبكم، أي فعلتموه عن عمد وقصد من دعوة الأبناء إلى غير آبائهم، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)-من حديث أبي ذر الغفاري-رضي الله عنه-وصححه الألباني.

(٣) انظر:«دقائق التفسير» (٤/ ٤٩٧).

بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، وفي الآية الثانية: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة:٨٩].

ونسب التعمد إلى القلب؛ لأنه هو المدبر للجوارح كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

والقلب: هو محل العقل؛ لأن العقل- والله أعلم- دائر بين القلب الذي في الصدر، وبين المخ.

فمن تعمد نسبة أحد لغير أبيه، أو انتسب هو لغير أبيه فقد تعرض للوعيد الشديد في هذه الآية، وفي قوله ﷺ: «**فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم**»(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ «الواو» استئنافية، و«كان» مسلوبة الزمان، أي: كان الله وما زال غفورًا رحيمًا، ومن مغفرته عز وجل ورحمته عدم المؤاخذة على الخطأ.

﴿غَفُورًا﴾ أي: ذا المغفرة الواسعة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «**يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه- عز وجل- حتى يضع عليه كنفه**(٣)**، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله- عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(٤).

ومنه سُمي المغفر، وهو: البيضة التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الحدود (٢٦٠٩)، وصححه الألباني.

(٣) أي:ستره ورحمته.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣).

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا الرحمة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

ورحمته- عز وجل- تنقسم إلى قسمين:

رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل.

ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

والرحمة الفعلية تنقسم أيضًا إلى قسمين:

رحمة عامة لجميع الخلق في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- بلوغ القرآن الغاية القصوى في الإقناع وإقامة البرهان؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، توطئة و تمهيدًا لتحريم الظهار والادعاء وإبطالهما.

٢- أن الله- عز وجل- لم يجعل لأحد من الناس قلبين في جوفه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، وليس للقلب إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل بها إلى غيرها، فلا يجتمع في القلب حب الله وحب أعدائه، وطاعة الله وطاعة أعدائه.

٣- تحريم الظهار وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من التحريم بالظهار، ونفي أن تكون الأزواج اللاتي يظاهرون منهن أمهاتهم بمجرد الظهار لا قدرًا ولا شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

٤- إبطال عادة التبني وأن المتبنى ليس ابنًا لا قدرًا ولا شرعًا لمن تبناه، ولا يجوز أن ينسب إلى من تبناه، ولا تلحقه أحكام النسب، ولا يحرم نكاح امرأته؛ لقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

٥- أن دعوى تحريم الزوجة بالظهار، وتبني الأدعياء مجرد قول بالأفواه لا حقيقة له، ولا يغير من الواقع شيئًا، والحقائق لا تنقلب بمجرد الادعاء فالزوجة لا تكون أمًّا والمدعى بُنُوَّته لا يكون ابنًا، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

٦- التعريض بذم الظهار والادعاء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

٧- أن قول الله- عز وجل- كله حق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ فأخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]. أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

٨- أن القرآن دال بظاهره على الحق، وليس له باطن يخالف ظاهره، كما يزعم الباطنية وأهل التحريف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾.

٩- أن الله- عز وجل- يهدي إلى طريق الحق، أي: يدل ويُرشد إليه، بما أنزل من الآيات الشرعية، وبما خلق من آياته الكونية، وبما أرسل من الرسل وغيرهم، ويوفق من شاء ويقبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾. فيجب التوجه إليه وحده وسؤاله الهداية والتوفيق والقبول.

١٠- أن طريق الحق وسبيله واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ بخلاف طرق الباطل فهي كثيرة ومتشعبة متفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

١١- وجوب دعوة الأبناء إلى آبائهم ولادةً ونسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ وتحريم دعوتهم لغير آبائهم.

١٢- أن العدل كل العدل والخير كل الخير في اتباع حكم الله سواء في دعوة الأبناء لآبائهم، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١٣- إذا لم يُعلم أبو الشخص، فيقال: أخونا ومولانا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

١٤- لا إثم على الإنسان فيما يفعله خطأً، أما ما يفعله عن عمد وتصميم، ففيه الإثم

والتبعة، سواء كان ذلك في دعوة الأبناء إلى غير آبائهم أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

١٥- أن مدار الأحكام والمؤاخذة عليها على القلوب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

١٦- إثبات صفة المغفرة لله- عز وجل- أزلًا وأبدًا، الواسعة لذنوب عباده، سترًا لها عن الخلق، وتجاوزًا عن العقوبة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾.

١٧- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله- عز وجل- أزلًا وأبدًا؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾.

١٨- فضل الله- عز وجل- على العباد برفع الجناح والإثم فيما أخطؤوا به ومغفرته ورحمته لهم، فبمغفرته لهم يزول عنهم المرهوب، وبرحمته لهم يحصل لهم المطلوب، نسأل الله تعالى من فضله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: مبتدأ، و﴿أَوْلَىٰ﴾: خبره، و﴿أَوْلَىٰ﴾: اسم تفضيل من الولاية، ومعناه: أحق وأجدر.

والمعنى: أنه ﷺ أولى بالمؤمنين وأحق بهم وأجدر من أنفسهم ولاية مطلقة، فيجب على المؤمنين تقديم محبته على محبتهم لأنفسهم، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»(١).

ولما قال عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله، لأنت أحبّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي»، فقال ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده! حتى أكون أحبّ إليك من نفسك**». فقال له عمر: «فإنه الآن، والله! لأنت أحب إليَّ من نفسي»، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٢).

وإنما أوجب الله- عز وجل- تقديم محبته ﷺ على كل شيء حتى على محبة النفس؛ لأن كل ما وصل إلينا من الله تعالى من خير، وما اندفع عنا من شر من طريقه ﷺ وعلى يديه(٣).

ويجب على المؤمنين تقديم طاعته ﷺ على طاعتهم لأنفسهم، فإذا أمرتهم أنفسهم بشيء خلاف طاعة الرسول، وجب عليهم تقديم طاعته ﷺ على طاعتهم لأنفسهم، وإذا حكم لهم بأمر وجب تقديم حكمه على حكمهم لأنفسهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان-حب الرسول ﷺ (١٥)، ومسلم في الإيمان-وجوب محبة الرسول ﷺ (٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)-من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه-وأخرجه البخاري أيضًا (١٤)، والنسائي (٥٠١٥) من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٢)-من حديث عبدالله بن هشام-رضي الله عنه.

(٣) انظر:«تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ١٩٨).

وقال عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

فهو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم من حيث وجوب تقديم محبته على محبتهم لأنفسهم، ومن لوازم ذلك تقديم طاعته وحكمه على طاعة أنفسهم وحكمها.

وهو ﷺ أولى بهم من أنفسهم من حيث شفقته عليهم ونصحه لهم، فهو أشفق عليهم، وأنصح لهم من أنفسهم.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالًا فليرثه عصبته من كانوا، فإن ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه**»(١).

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك دينًا فإليَّ، ومن ترك مالًا فلورثته**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه دين، فيسأل هل ترك لدينه فضلًا؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال للمسلمين: صلوا على صاحبكم، فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المسلمين فترك دينًا فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالًا فلورثته**»(٣).

فهو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في كل شيء.

قال ابن القيم(٤): «وهذه الأولوية تتضمن أمورًا منها: أن يكون أحب إلى العبد

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض-الصلاة على من ترك دينًا (٢٣٩٩)، وفي تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨١)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩)، وأبوداود في الخراج (٢٩٥٥)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) أخرجه أبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٥٦). وأخرجه أبوداود أيضًا (٢٩٠٠)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٣٨)-من حديث المقدام الكندي-رضي الله عنه-بنحوه، وفيه زيادة:«والخال وارث من لا وارث له يعقل عنه ويرثه» وقال الألباني:«حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧١)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩)، والنسائي في الجنائز (١٩٦٣)، والترمذي في الجنائز (١٠٧٠)، وابن ماجه (٢٤١٥).

(٤) انظر:«بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٢-٤٢٣).

من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول ﷺ أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان، ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة، والرضا والتسليم، وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره، وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلًا، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول ﷺ الذي هو أولى به منها....

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان ردّه، وإن لم تتبين شهادته له بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب، ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى، فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة، واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الخلق إليه من كل جهة».

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أزواج: جمع زوج، أي: وأزواجه ﷺ كلهن أمهات المؤمنين من حيث حرمتهن عليهم بعده، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

ومن حيث وجوب أداء حقوقهن من الاحترام والإكرام والتوقير والإعظام ومحبتهن والدفاع عنهن، لا كما يفعل الرافضة- أخزاهم الله- في أذيتهم لهن وبغضهن، وأذيتهم لعائشة رضي الله عنها، وقذفهم إياها بالفاحشة.

ولهذا فإن من قذف زوجة من زوجات الرسول ﷺ فإنه يقتل كافرًا؛ لأن أذى هذا يتعدى إليه ﷺ؛ لأن الله قال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور:٢٦].

وهن أمهاتهم أيضًا: من حيث أنهن- رضي الله عنهن- ينظرن إلى المؤمنين من أمته ﷺ نظرة الأم الحنون النصوح لأولادها.

وليس أمومتهن لهم من حيث الميراث، ولا من حيث جواز خلوتهم بهن، ولا كونهم محارم لهن، بل حرمتهن عليهم أشد من حرمة غيرهن.

قال ابن كثير[١]: «﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة، والاحترام والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع».

وهن أمهات للمؤمنين جميعًا ذكورهم وإناثهم؛ لعموم قوله: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أنها قالت: «أنا أم لرجالكم ولنسائكم».

وقيل: إنهن أمهات للرجال فقط، وروي هذا عن عائشة- رضي الله عنها.

ولعل من أخذ بهذا نظر إلى تحريم نكاحهن من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، والصحيح الأول[٢].

وقد قرأ بعضهم: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ بزيادة: «وهو أب لهم»[٢].

ورُوي أنه ﷺ قال: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد**»[٣].

وقراءة من قرأ: «وهو أب لهم» شاذة سندًا ومتنًا، فإن قوله عز وجل: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أبلغ من قراءة «وهو أب لهم»؛ لأن الأب ليس أولى بالإنسان من نفسه، والنبي أولى بنا من أنفسنا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الواو: عاطفة، و(أُوْلُوا) بمعنى: أصحاب، و﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم، وهو في الأصل موضع تكوّن الجنين، ومستقره في بطن أمه.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٨١).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٢٣)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٣) أخرجه أبوداود في الطهارة-كراهة استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨)، والنسائي في الطهارة-النهي عن الاستطابة بالروث (٤٠)، وابن ماجه في الطهارة-الاستنجاء بالحجارة (٣١٣)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه. وقال الألباني: «حسن صحيح».

والمراد بـ«أولي الأرحام» القرابة، قيل: سُموا «أولي الأرحام»؛ لأنهم خرجوا من رحم واحد، وقيل: لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: أحق وأجدر ببعض في الميراث، كما أنهم أولى ببعض في الصلة والنصرة، وغير ذلك، وحيث علل الحكم بهذا الوصف «القرابة» فمن كان أقرب فهو في الميراث أولى، كما قال ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»(١).

وكما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧].

﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: مَكْتُوبه، وهو القرآن الكريم، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وبأيدي الملائكة والمؤمنين.

ويحتمل أن معنى ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: فرضه وإيجابه. والأول أظهر وأعم، فيشمل الثاني: أي: في كتابه القرآن الكريم الذي فرض الله فيه وأوجب هذه الفرائض.

وقيل: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المكتوب به مقادير كل شيء.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾، و﴿مِنَ﴾ هنا هي الدالة على المفضل عليه، أي: أصحاب القرابة بعضهم أحق بميراث بعض من المؤمنين والمهاجرين.

وفي عطف (المهاجرين) على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان فضل الهجرة وشرفها؛ لأن هذا من عطف الخاص على العام.

والمعنى: أن أصحاب القرابة من ذوي الفروض أو التعصيب أو مَن دونهم مِن ذوي الأرحام كالخال والخالة والعمة ونحوهم عند فقد ذوي الفروض والتعصيب هؤلاء أحق بالميراث من المهاجرين والأنصار، أي: أن الإرث بالقرابة أولى من الإرث

---

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٢)، ومسلم في الفرائض (١٦١٥)، وأبوداود في الفرائض (٢٨٩٨)، والترمذي في الفرائض (٢٠٩٨)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٤٠)-من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

بالإيمان والهجرة.

لأنه لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار فكان المهاجري يرث الأنصاري دون ذوي رحمه، ويرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمه للأخوّة التي آخى النبي ﷺ بينهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:«كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوّة التي آخى الرسول ﷺ بينهم»(١).

وفي رواية: «يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمة» الحديث(٢).

قال ابن كثير(٣): «وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف».

وهكذا رُوي عن الزبير بن العوام- رضي الله عنه- قال: «لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم، فواخى أبوبكر خارجة بن زيد، وواخى عمر فلانًا، إلى أن قال: وواخيت أنا كعب بن مالك، فوالله! لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى مواريثنا»(٤).

ويحتمل أن ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أحق ببعض في الميراث، وغيره.

وهذا المعنى صحيح، ولا إشكال فيه، ولا ينافي القول الأول، بل هو داخل فيه، فعلى القول الأول بيَّن الله- عز وجل- أن الميراث لذوي الأرحام فهم أولى به من

---

(١) أخرجه البخاري في الكفالة ٢٣٢٩، وفي التفسير ٤٥٨٠.

(٢) أخرجها البخاري في الفرائض ٦٧٤٧.

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٣٨٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٣١١٤)، الأثر (١٧٥٨٣)، وانظر:«تفسير ابن كثير» (/ ٣٨٢).

غيرهم، وعلى هذا القول بيَّن أن الميراث لذوي الأرحام المؤمنين منهم أو المؤمنين والمهاجرين، فالإرث إنما هو بين المؤمنين فيما بينهم كما قال ﷺ: «**لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر**»(١)، وعلى هذا ينبغي حمل الآية على المعنيين.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله(٢): «ويدخل في الآيتين- يعني: قوله هنا، وفي الأنفال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ سائر الولايات من المناكح والأموال والعقل والموت».

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء واستدراك بمعنى: «لكن»، فالاستثناء منقطع، وفيه احتراز مفاده أن الميراث وإن كان يخص ذوي الأرحام لكن لا مانع من فعل المعروف لمن بيننا وبينهم موالاة ونصرة، وهذا يُقوي أن المراد بقوله: ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الميراث فقط.

والأولياء: جمع «ولي» مأخوذ من الولاية بمعنى: النصرة والموالاة، أي: لا مانع أن تفعلوا إلى من بينكم وبينهم موالاة ومناصرة معروفًا بالإحسان إليهم، بالوصية لهم، وقيل: بالإحسان إليهم بالنصرة والبر والصلة والوصية وغير ذلك.

لكن حمل أكثر المفسرين- رحمهم الله- المعروف هنا على الوصية لهم؛ لأن الكلام في التوارث، وهو لا يكون إلا بعد الموت، فكذا المراد بالمعروف ما يفعل بعد الموت وهو الوصية.

وهذا يدل على جواز الوصية لمن بين الإنسان وبينه موالاة ونصرة، قال ابن تيمية(٢): «﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ دليل على الوصية كآيات النساء».

وحملها بعضهم على ما هو أعم من ذلك، قال ابن كثير(٣): «أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر، والصلة والإحسان والوصية».

---

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبوداود في الفرائض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٢٩)-من حديث أسامة بن زيد-رضي الله عنه.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» (٤/ ٤٩٣).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٣٨٢).

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى: نسخ التوارث بالإيمان والهجرة بالإرث بالرحم والقرابة، وكون ذوي الأرحام أولى ببعضهم البعض من غيرهم.

﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾أي: في اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء.

﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مسطرًا مكتوبًا ثابتًا، لا يغير ولا يبدل، وهذا يدل على عناية الله- عز وجل- بشرعه، وأن كل شيء مسطر عنده ومقدر، وليس الأمر ارتجاليًّا، قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد:٨].

فالفرض المستقر المسطر المكتوب في اللوح المحفوظ أن الميراث لذوي الأرحام، وهم أولى به، وإنما حصل التوارث في أول الهجرة بين المهاجرين والأنصار لعارض، وهو توكيد ثبوت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم زال هذا العارض.

قال ابن كثير(١): «أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يُبدل ولا يُغير، قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي».

وقيل: إن المراد بالكتاب: القرآن، والصحيح أنه اللوح المحفوظ.

الفوائد والأحكام:

١- أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولاية مطلقة، وأحق بهم وأجدر، فيجب تقديم محبته وطاعته، حتى على محبتهم لأنفسهم، وتقديم حكمه وطاعته على حكم أنفسهم، وطاعة أنفسهم، وهو أشفق عليهم وأرحم بهم وأنصح لهم من أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢- أن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين من حيث تحريم نكاحهن، ووجوب احترامهن وتوقيرهن وإكرامهن ومحبتهن والدفاع عنهن، لا من حيث الميراث والخلوة وانتشار التحريم وما إلى ذلك.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٣٨٢-٣٨).

٣- أن أولي الأرحام والأقارب بعضهم أولى ببعض في الإرث، وأن الإرث بالقرابة أولى من الإرث بالمؤاخاة والهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ فالتوارث بالمؤاخاة والهجرة نسخ بهذه الآية وآية سورة الأنفال[١].

٤- أن التوارث ثابت بين أهل الإيمان، ولا توارث بين الكافر والمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

٥- فضيلة الهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

٦- أن صلة الأرحام كما تكون في الحياة تكون بعد الممات بالوصية لمن لم يكن وارثًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾.

٧- أن الأصل في الميراث أنه لذوي القرابة وإنما كان الإرث بالمؤاخاة والهجرة لعارض، فلما زال ذلك العارض عاد الميراث للقرابة؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾.

٨- أن كل شيء مقدر ومسطر عند الله تعالى في اللوح المحفوظ حتى الناسخ والمنسوخ من الأحكام، وغير ذلك.

٩- توريث مَن لم يكن من أصحاب الفروض ولا العصبات من القرابة، وهم المسمون عند أهل الفرائض «ذوي الأرحام» كالخال والخالة والعمة وبنات الأخت ونحوهم إذا لم يكن هناك صاحب فرض ولا تعصيب. وإلى هذا ذهب أبوحنيفة[٢] وأحمد في المشهور عنه[٣]؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وهم القرابة عمومًا.

وقوله ﷺ: «**الخال وارث من لا وارث له**»[٤].

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٣٩٤-٣٩٦).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٦٩).

(٣) انظر: «المغني» ٩/ ٨٥.

(٤) أخرجه الترمذي في الفرائض (٢١٠٣)، وابن ماجه في الفرائض (٢٧٣٧)-من حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله[١]- فيرثون وينزلون منزلة من أدلوا به.

وذهب الإمام مالك[٢] والشافعي[٣] إلى عدم توريث ذوي الأرحام، وأن المال يكون لبيت المال. والأول أرجح للأدلة السابقة؛ ولأن ذوي الأرحام شاركوا غيرهم من المؤمنين بالإيمان وانفردوا بكونهم أقارب للميت فهم أحق، ولهذا الصدقة عليهم صدقة وصلة؛ لأنهم من الأقارب.

* * *

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «موطأ مالك» تحقيق عبد الباقي ٢/ ٥١٨، «المعونة على مذهب عالم المدينة» ص١٩٥٦.

(٣) انظر: «التفسير الكبير» ٩/ ١٥٨، «العذب الفائض» ٢/ ١٧.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾؛ الواو: استئنافية، و«إذ»: ظرف متعلق بفعل محذوف، أي: اذكر إذ أخذنا من جميع النبيين ميثاقهم، أي: اذكر في نفسك، واذكر للناس حين أخذنا من النبيين العهد المؤكد عند إرسالهم بإبلاغ رسالات الله تعالى، وإقامة دينه، وإيمان بعضهم ببعض، وشهادة بعضهم لبعض، والتعاون والتناصر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

وقيل: الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم.

والصحيح: أنه عند إرسالهم.

﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، أي: وأخذنا منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ميثاقكم، وهذا من عطف الخاص على العام.

وخص هؤلاء الخمسة بالذكر؛ لأنهم أولو العزم من الرسل، وأفضل الأنبياء عليهم السلام.

وقدَّم محمدًا ﷺ؛ لأنه سيدهم وأشرفهم وأفضلهم، وعطف عليه نوحًا عليه السلام؛ لأنه أول الرسل؛ جمعًا بين خاتمهم وأولهم.

ثم ذكر بقية أولي العزم؛ وهم: إبراهيم عليه السلام، أفضلهم بعد محمد ﷺ، ثم موسى عليه السلام، ثالثهم في الأفضلية بعد محمد وإبراهيم عليهما السلام، ثم عيسى ابن مريم آخر الأنبياء قبل محمد عليهما الصلاة والسلام.

قال ابن كثير(١): «فبدأ في هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم».

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٨٣.

وهكذا نوَّه بذكر هؤلاء الخمسة في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى:١٣].

قال ابن كثير(١) بعد ذكره آية الشورى: «فذكر الطرفين والوسط: الفاتح والخاتم، ومن بينهم على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها».

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، أي: عهدًا موثقًا مغلظًا قويًّا مؤكدًا.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: أخذ عز وجل الميثاق عليهم لكي يسأل الصادقين يوم القيامة عن صدقهم، وهم الرسل، فيسألهم- تبكيتا وتقريعًا للمكذبين- لهم: هل صدقوا عهودهم، وبلغوا رسالات ربهم؟ وهو سبحانه وتعالى أعلم بذلك منهم؛ ولهذا اختارهم لرسالاته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وامتدحهم بذلك؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾ [الأحزاب:٣٩].

ووضع «الصادقين» موضع ضميرهم؛ للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون.

كما يسأل المرسل إليهم، هل اتبعوا الرسل وبلغوا عنهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف:٦].

و عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**نضر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع**»(٢).

كما يسأل جميع الذين بلغتهم الرسالة: ماذا أجبتم المرسلين؟ تبكيتًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص:٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في العلم ٢٦٥٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٢، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة:١٠٩].

قال قتادة: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعملون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود، وعن العبادة»(١).

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: يصيرون إليه بعد سؤالهم، بل وبعد مناقشتهم الحساب مناقشة شديدة عسيرة؛ لتعذيبهم؛ كما قال ﷺ: «**من نوقش الحساب عذب**»(٢).

أي: وهيأ وجهز للكافرين من أمم الأنبياء﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، وهو عذاب النار الموجودة الآن، المعدة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤، [آل عمران:١٣١].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بأخذ ميثاق النبيين بإبلاغ رسالات ربهم، وإقامة دينه، وإيمان بعضهم ببعض، وشهادة بعضهم لبعض، والتناصر بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾.

٢- عظم المسؤولة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى أهل العلم بعدهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

٣- تخصيص هؤلاء الخمسة منهم- وهم أولو العزم من الرسل- بالذكر؛ لأنهم أشرف الرسل وأفضلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

٤- تقديم ذكر نبينا ﷺ؛ لأنه ﷺ سيد الرسل وأشرفهم وأفضلهم، وذُكر نوح عليه السلام بعده؛ جمعًا بين الفاتح والخاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

٥- أن إبراهيم أفضل من موسى؛ لهذا قدم عليه، وأن موسى أفضل من عيسى؛ لهذا قدم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

ويحتمل: أنه إنما قدم محمدًا ﷺ؛ لأنه أشرفهم وأفضلهم، ثم ذكر البقية حسب الترتيب الزمني وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى؛ لأن أفضلهم بعد محمد ﷺ إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى، على اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل: نوح، أم عيسى؟ عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

٦- التذكير بتمام قدرة الله تعالى في خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب؛ بذكره منسوبًا إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

٧- تأكيد وتشديد وتغليظ الميثاق والعهد الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء؛ لأنهم رسل الله عز وجل إلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

٨- أن الله عز وجل أرسل الرسل، وأخذ عليهم الميثاق الغليظ لتبليغ رسالاته إلى الناس؛ لأجل أن يحاسب الخلائق كلهم، فيسأل الصادقين عن صدقهم، ويثيبهم جزيل الثواب، ويحاسب الكاذبين الكافرين ويناقشهم؛ ليعذبهم عذابًا أليمًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٩- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء، وسؤال جميع الخلائق عما عملوه؛ لأنه إذا كان عز وجل يسأل الصادقين عن صدقهم، فسؤال المكذبين من باب أولى.

قال ابن القيم: «فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم، فما الظن بالمكذبين؟!»(١).

١٠- إثبات وجود النار، وأنها معدة للكافرين، بعذابها المؤلم الموجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

* * *

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٢٣.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ۝١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأَتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ۝١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝١٧ * قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝١٩ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٗا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾:

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقُرٌّ[1]، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة**»، فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا**

(١) أي: برد شديد.

بخبر القوم؟ **جعله الله معي يوم القيامة**»، فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة**»، فسكتنا، فلم يجبه أحد، فقال: «**قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم**»، فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «**اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي**»، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حَمَّام[1]، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**ولا تذعرهم علي**»، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحَمَّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت، قُرِرْتُ[2]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «**قم يا نومان**»»[3].

وفي رواية، قال حذيفة: والله، لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ من الليل هَوِيًّا، ثم التفت إلينا فقال: «**من رجل يقوم، فينظر لنا ما فعل القوم؟**» يشترط له أنه يرجع، «**أدخله الله الجنة**»، فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًّا من الليل، ثم التفت إلينا، فقال: «**من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ ثم يرجع**»- يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة- «**أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة**». فما قام رجل من القوم، مع شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «**يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ما يفعلون، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا**».

قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدر، ولا نار، ولا بناء، فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ مَن جليسه.

فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، بلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما

---

(١) من شدة الدفء. والمراد حمَّام الاغتسال الدافئ.

(٢) أي:أحسست بالبرد الشديد.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة الأحزاب ١٧٨٨.

ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ: «لا تحدث شيئًا حتى تأتيني»، ثم شئت لقتلته بسهم. قال حذيفة: ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحَّل(١)، فلما رآني أدخلني إلى رحله وطرح عليَّ طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا إلى بلادهم»(٢).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ﴾، أي: اذكروا نعمة الله تعالى ومنته وفضله عليكم يوم الأحزاب، حين جاءتكم.

﴿جُنُودٞ﴾، نكر للتعظيم، أي: جنود كثيرة عظيمة، وهم الأحزاب الذين تألبوا وتحزبوا من قريش وغطفان وكنانة وهوازن وغيرهم؛ لحرب الرسول ﷺ والمؤمنين، واستئصالهم، والقضاء على الإسلام، وكان سبب ذلك: أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير- الذين أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة إلى خيبر، لما غدروا ونقضوا العهد- اجتمعوا بأشراف قريش، وألَّبوهم على حرب الرسول ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك؛ كما اجتمعوا بغطفان فدعوهم إلى ذلك، فاستجابوا لهم أيضًا، فخرجت قريش وأحابيشها وبنو كنانة قائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، وعلى هوازن عامر بن الطفيل، وكان الجميع أكثر من عشرة آلاف، ولما علم النبي ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فحفروا الخندق، وكان النبي ﷺ معهم يحفر وينقل التراب، حتى إن التراب وارى جلدة بطنه عليه الصلاة والسلام، و كان يردد معهم:

اللهُـــمَّ إن العـــيش عـــيش الآخـــرهْ

---

(١) كساء من صوف فيه تصاوير.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣٩٢-٣٩٣، ٣٨٨، وانظر: «سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٣١-٢٣٢.

فـــاغفر للأنصـــار والمهـــاجرهْ[١]

ويردد أيضا معهم:

اللهُـــمَّ لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا
ولا تصـــــــدقنا ولا صـــــــلينا
فـــــأنزلن ســـــكينة علينـــــا
وثبـــــت الأقـــــدام إن لاقينـــــا
إن الألى قـــــد بغـــــوا علينـــــا
و إن أرادوا فتنتـــــة أبينـــــا[٢]

وجاء المشركون ونزلوا شرقي المدينة قريبًا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين نحو ثلاثة آلاف، وأسندوا ظهورهم إلى سلع، ووجهوهم إلى نحو العدو، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة، وذهب حيي بن أخطب إلى بني قريظة وكان لهم حصن شرقي المدينة، وبينهم وبين الرسول ﷺ عهد، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالئوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وأصحابه، ومكثوا محاصرين النبي ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر، حتى اشتد الأمر، وعظم الخطب، وضاق الحال؛ ليعقبه الفرج والنصر، وكان علامة ذلك: أن اقتحم أحد فرسان المشركين- وهو عمرو بن ود العامري- الخندق بفرسه، ومعه اثنان من الفرسان، فندب الندب ﷺ إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فتجاولا ساعةً، ثم قتله علي رضي الله عنه، وفر صاحباه، فكان ذلك علامة النصر، وأصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه في أكحله، وكان ذلك في شوال سنة خمس

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، حفر الخندق ٢٨٣٥، ومسلم في الجهاد والسير، غزوة الأحزاب ١٨٠٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الخندق ٤١٠٦، ومسلم في الجهاد والسير، غزوة الأحزاب ١٨٠٣، من حديث البراء رضي الله عنه.

من الهجرة، وقيل: سنة أربع من الهجرة(١).

قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ نكّر «ريحًا» للتعظيم، أي: ريحًا باردة شديدة الهبوب قوية، وهي الريح الشرقية «الصَّبا»؛ ولهذا قال ﷺ: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»(٢). فقوضت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وكفأت قدورهم، فاضطربوا، ولم يقر لهم قرار.

﴿وَجُنُودًا﴾ نكّر«جنودًا» للتعظيم والتكثير، أي: وأرسلنا عليهم جنودًا عظيمة كثيرة من جنودنا من الملائكة، ألقت الرعب والخوف والقلق في قلوبهم، وزلزلتهم، فارتحلوا خائبين خاسرين.

﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، أي: لم تشاهدوها؛ لأن الملائكة غالبًا لا يرون.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ قرأ أبو عمرو بياء الغيبة: «يَعْمَلُونَ»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وكان الله بعملكم، أو بالذي تعملونه أنتم وإياهم﴿بَصِيرًا﴾، أي: مطلعًا عليه ورقيبًا، لا تخفى عليه منه خافية، وسينصركم ويخذل أعداءكم، وسيحاسبكم وجميع الخلائق على أعمالكم يوم القيامة.

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ﴾؛ «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، أي: إذ جاءكم الأحزاب.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، أي: من أعلى المدينة ومن أسفلها؛ ليكونوا كفكي الأسد، حتى يطبقوا على المدينة، جاءهم من فوقهم أبو سفيان ومن معه من قريش وغيرهم من الأحزاب، من الجهة الشمالية الشرقية، وجاءهم من أسفل منهم بنو قريظة وغطفان، من الجهة الجنوبية الغربية. وقيل غير ذلك، فقيل: جاءتهم قريش من أسفل الوادي من جهة الغرب، وغطفان وهوازن من أعلى الوادي من جهة الشرق.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ منكم، أي: مالت عن سننها ومستوى نظرها، وشخصت من شدة القلق والحيرة، والذهول والدهشة.

---

(١) انظر:«تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٨٤- ٣٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في الاستسقاء ٩٠٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، أي: ارتفعت القلوب من شدة الخوف والرعب والفزع عن أماكنها حتى بلغت الحناجر؛ منتهى الحلقوم؛ قيل: لأن بالفزع تنتفخ الرئة فترتفع، وبارتفاعها ترتفع القلوب. أو هو مثل ضربه الله لاضطراب القلوب.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيء نقوله؟ قال: «**نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا**». قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح»(١).

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ بالألف، وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة: «الظُّنُونَ» بغير ألف في الحالين، وقرأ الباقون بالألف في الوقف دون الوصل.

و«الظنونا»: جمع «ظن»، أي: الظنون الكثيرة المختلفة، فمِن ظانٍّ أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولا يتم كلمته، ومن ظان استئصال الرسول ﷺ والمؤمنين، ومن ظان أن ما وعد الله به رسوله من النصر ليس بصحيح، إلى غير ذلك من الظنون الكاذبة.

ومن ظان- مع أن المقام حالك- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وهم الرسول ﷺ والمؤمنون.

قال الحسن: «ظنونًا مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا وأصحابه سيستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله به حق، أنه سيظهر على الدين كله، ولو كره المشركون»(٢).

قال السعدي(٣): «وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ؛ لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة».

﴿هُنَالِكَ﴾؛ اسم إشارة في محل نصب ظرف مكان، أي: في ذلك الموقف والمكان والزمان.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣، والطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٢٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٣٥-٣٦.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٢٠٢.

﴿ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أي: اختبروا وامتحنوا ومُحِّصوا.

﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾، أي: زلزلت نفوسهم زلزالًا قويًّا، واضطربوا اضطرابًا عظيمًا؛ بسبب هذه الفتنة العظيمة، فاجتمع عليهم أربع شدائد تنوء بحملها الجبال:

الأولى: الخوف والفزع والقلق؛ لمحاصرة الأحزاب لهم وتألبهم عليهم، من داخل المدينة وخارجها، ومن كل حدب وصوب.

والثانية: الجوع الشديد، وضيق الحال، وقد ربط ﷺ على بطنه الحجر من شدة الجوع(١).

الثالثة: التعب والنصب بسبب حفر الخندق.

والرابعة: البرد الشديد.

وواحدة من هذه المصائب كافية، فكيف إذا اجتمعت؟!

وبهذا الابتلاء الشديد، والمحنة العظيمة، محص الله تعالى المؤمنين من المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران:١٤١].

فنضح كل إناء بما فيه، ونجم وظهر نفاق المنافقين، وتبين ثبات المؤمنين.

قال الشاعر:

فحسبكم هذا التفرق بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح(٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾:

قوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾، أي: شك وشبهة، وضعف إيمان.

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ من النصر والتمكين، وهزيمة الكافرين.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٠١، وأحمد ٣/ ٣٠١؛ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) البيت لحيص بيص. انظر «حياة الحيوان الكبرى» ١/ ١٩٠.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا خداعًا وباطلًا.

قال قتادة: «قال ذلك أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا ههنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا»(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة في مكان الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ، ووضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول فقال: «**باسم الله**»، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأرى قصورها الحمر من مكاني هذا**»، ثم قال: «**باسم الله**»، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله أني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا**»، ثم قال: «**باسم الله**»، وضرب ضربة أخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**»(٢).

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: فريق وجماعة أخرى من المنافقين.

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾؛ نادوهم باسم الوطن؛ في دلالة على أنه ليس للأخوة الإيمانية عندهم قدر، ولا وزن. و«يثرب»: اسم من أسماء المدينة؛ كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلي الله عليه وسلم، قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلي أرض بها نخل، فذهب وهلي إلي أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب**»(٣).

وقال ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة**»(٤)، كأنه كره تسميتها «يثرب»؛ بتسمية المنافقين لها بذلك في قولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم بضم الميم: ﴿لَا مُقَامَ﴾، وقرأ الباقون

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٣٩.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٠٣، والنسائي في الكبرى رقم ٨٨٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٢٢، ومسلم في الرؤيا ٢٢٧٢، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٢١.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل المدينة ١٨٧١، ومسلم في الحج، المدينة تنفي شرارها ١٣٨٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بفتحها: «لَا مَقَامَ».

أي: لا إقامة لكم ولا مكان في معركة خاسرة، أي: لا تقيموا هنا. وكانوا عسكروا خارج المدينة دون الخندق.

﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾، أي: فعودوا إلى بيوتكم ومنازلكم في المدينة. وفي هذا من التخذيل للمؤمنين والإرجاف بهم ما لا يخفى.

ولهذا فإن هذه الطائفة شرُّ طوائف المنافقين، وأضرها على المؤمنين، تُخذِّلهم عن الجهاد، وتأمرهم بترك قتال عدوهم، وأنه لا طاقة لهم به.

﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: ويطلب فريق من المنافقين الإذن من النبي ﷺ في الانصراف إلى منازلهم؛﴿يَقُولُونَ﴾ معللين لطلبهم الانصراف ومعتذرين بقولهم:

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾، أي: مكشوفة غير محصنة، وعليها خطر، ونخاف أن يستبيحها الأعداء. وهم في هذا كذبة مبطلون؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾، أي: وليست بيوتهم بعورة كما يزعمون؛ لأن المدينة محصنة، وجيش المسلمين يحرسها.

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما يريدون باستئذانهم﴿إِلَّا فِرَارٗا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا فرارًا من الزحف، وهروبًا من لقاء العدو. وهؤلاء دون الطائفة الأولى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأَتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧﴾:

قوله: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾، أي: ولو دخلت المدينة عليهم من أقطارها، أي: ولو غزيت المدينة، ودخلها الكفار من جوانبها ونواحيها، واستولوا عليها، وصارت الغلبة لهم.

﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ﴾، أي: ثم سئل هؤلاء الذين يقولون: إن بيوتنا عورة، أي: سألهم الكفار الذين دخلوا عليهم، أي: طلبوا منهم ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾، أي: الشرك والكفر والرجوع عن الإسلام، والكيد له ومظاهرتهم على المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، أي: الشرك أشد من القتل.

قال الإمام أحمد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]، قال: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك»(١).

﴿لَأَتَوْهَا﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير: «لَأَتَوْهَا» من غير مد، وقرأ الباقون بالمد: ﴿لَآتَوْهَا﴾، واللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لأعطوها مبادرين، دون ممانعة.

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾، أي: وما تريثوا ﴿بِهَآ﴾، أي: بإعطاء الفتنة بالشرك والكفر والانحياز إلى الكفار.

﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا وقتًا يسيرًا، أي: قليلًا، أي: ريثما يكون السؤال والجواب؛ لأنهم لا ثبات عندهم، ولا إيمان لديهم، ولا مبدأ لهم يتمسكون به، بل يميلون مع الريح حيث مالت تبعًا لأهوائهم وشهواتهم.

﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾؛ الواو: حالية، أي: والحال أنهم قد كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، أي: لا يفرون من الزحف، ويهربون من المعركة. والأدبار: الظهور، وأطلق على الفرار من الزحف: «تولية الأدبار»؛ تقبيحًا وتشنيعًا له.

وهذا العهد بينهم وبين الرسول ﷺ، والمعاهدة مع الرسول ﷺ معاهدة مع الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠].

فهم عاهدوا الرسول ﷺ ألا يفروا، ولا يولوا الأدبار، ولكنهم نقضوا العهد؛ ولهذا توعدهم الله، فقال:

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، أي: مسؤولًا عنه، أي: أن الله سيسألهم عن ذلك

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» رقم ٩٧، وذكره ابن تيمية في «الصارم المسلول» ص٥٦.

العهد الذي نقضوه ولم يفوا به، وسيحاسبهم ويعاقبهم على نقضه. وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وحث على الوفاء بعهد الله، وتحذير من نقضه؛ كما قال ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**»(١).

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾، أي: قل لهم يا محمد: لن ينفعكم الفرار من الزحف، والهروب من القتال، والانصراف إلى بيوتكم، أي: لن يفيدكم شيئًا.

﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، أي: إن فررتم لتسلموا من الموت أو القتل، فلن يؤخر ذلك آجالكم، ولن يزيد في أعماركم، والحذر لا ينجي من القدر؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤].

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: وحين تفرون من الموت أو القتل لا تمتعون في الحياة إلا متاعًا ووقتًا قليلًا، وهو بقية أعماركم، ومتاع الدنيا كله قليل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، الاستفهام: للنفي، مشرب بالتحدي، و«ذا»: ملغاة، أي: من الذي يمنعكم ويجيركم من الله؟

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾؛ من قتل وبلاء، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ من سلامة وعافية، أي: أنه لا أحد يعصمكم من الله إن أراد بكم هذا أو هذا، فلا الفرار ينفعكم، ولا أحد من الخلق يمنعكم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله عز وجل ﴿وَلِيًّا﴾؛ يجلب لهم النفع والخير، ويغيثهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾؛ يدفع عنهم الشر والضير، ويجيرهم؛ لأنه عز وجل هو وحده المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو؛ كما جاء في الحديث: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا**

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٢٠٠، ومسلم في الإمارة ١٨٢٩، وأبو داود في الخراج ٢٩٢٨، والترمذي في الجهاد ١٧٠٥؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١).

قوله تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، أي: المثبطين عن الجهاد، المخذلين عن الخروج إليه منكم؛ وهم المنافقون، و«قد»: للتحقيق.

وجاء التعبير: «قد يعلم»، ولم يقل: قد علم؛ ليفيد أن علم الله بهم مستمر من ذلك الوقت إلى اليوم، وما بعده.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، أي: لأصحابهم وعشرائهم وخلطائهم من المنافقين.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أي: تعالوا إلينا، وإلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، أي: ارجعوا؛ كما تقدم من قولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣].

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ولا يأتون الحرب والقتال﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا إتيانًا قليلًا؛ رياءً، وتعذيرًا ودفعًا عن أنفسهم المؤمنين؛ لضعف الداعي عندهم، وانعدامه من الإيمان والصبر، ولجبنهم ونفاقهم، فهم لا يشهدون القتال، ولا يتركون غيرهم ليشهده.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ «أشحة»: حال، وهي جمع شحيح، والشح: المنع مع الحرص، أي: أشحة عليكم بالقتال معكم بأبدانهم، وبالإنفاق معكم من أموالهم، فلا يجاهدون بأموالهم، ولا بأنفسهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾، أي: إذا حضر القتال،﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ يمينًا وشمالًا، وهنا وهناك، لا تستقر على حال، من شدة الرعب والجبن، والهلع والجزع، والخوف من إجبارهم على القتال. والخطاب للرسول ﷺ، ولكل من يصلح له.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ٣٩١٩؛ من حديث عروة بن عامر رضي الله عنه.

﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، أي: كنظر، أو حال الذي يغشى، أي: يغمى عليه بسبب سكرات الموت، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾، أي: انتهى القتال، واطمأن الناس، وزال الخوف.

﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أي: رموكم وأصابوكم بألسنة ذربة فصيحة بليغة، حادة سليطة عالية؛ مدعين لأنفسهم كذبًا بأنهم أهل الشجاعة والنجدة والإقدام، وأنهم خرجوا معكم وشاركوكم وساعدوكم.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، أي: شديدي الحرص والطمع عند قسمة الغنائم، حريصين كل الحرص على المال، لا خير فيهم؛ كما قال الله تعالى عنهم في سورة النساء: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء:٧٢- ٧٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١].

قال قتادة: «أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأ مقاسمة: أعطونا أعطونا؛ فإنا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق»(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾، أي: أولئك المعوقون الموصوفون بما ذكر لم يؤمنوا، أي: ليسوا بمؤمنين، بل هم منافقون؛ ولو كانوا مؤمنين ما كانوا يُعَوِّقون عن الجهاد، ويخافون من البأس، ويدّعون ما لا يستحقون من الغنيمة عند انتهاء القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: فأبطل الله أعمالهم، أي: أبطل ثوابها، فلم ينتفعوا بها؛ لأن من شرط قبول العمل: الإيمان، وهم ليسوا بمؤمنين؛ ولهذا قال تعالى عن الكفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: وكان إحباط أعمالهم على الله سهلًا هينًا؛

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٥٤.

لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، وليس بينه وبين أحد من الخلق نسب، إنما هي أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾، أي: يظن هؤلاء المنافقون- من شدة جبنهم وخوفهم وحبهم للحياة وتعلقهم بالدنيا- أن الأحزاب الذين حاصروا المدينة ما زالوا باقين.

﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾، أي: لم ينصرفوا خائبين خاسرين.

وقال السعدي[1]: «أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب- الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه- لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم».

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾، أي: يرجعوا إلى حصار المدينة، وهذا على سبيل الفرض والتقدير.

﴿يَوَدُّوا۟﴾، أي: يود هؤلاء المنافقون، أي: يحبون ويتمنون﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ «لو»: حرف تمنٍّ، أي: لو أنهم ساكنون في البادية، بعيدون كل البعد عن المدينة، حتى لا يشاركوا في القتال مع المؤمنين، ولا يلامون في ترك ذلك؛ لبعدهم عنها.

﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؛ روى رويس عن يعقوب بتشديد السين وفتحها وألف بعدها: «يَسَّاءَلُونَ»، وقرأ الباقون بإسكانها من غير ألف: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾، أي: يسألون القادمين عن أخباركم، وما كان من أمركم وعدوكم، متربصين بكم الدوائر عسى أن يسمعوا خبرًا بانتصار عدوكم فيفرحوا ويشمتوا بكم.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: ولو كانوا فيكم، وبين أظهركم، ما قاتلوا معكم إلا قليلًا، رياءً ومخافة التعيير؛ لشدة جبنهم، وضعف يقينهم، وعدم إيمانهم؛ كما هو شأنهم في الصلاة؛ وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٢٠٧.

قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

والمراد: أن خروجهم معكم لا ينفعكم، بل قد يضركم، وعدمه أفضل لكم، فلا تبالوهم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وترغيبًا في الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- تذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم؛ بنصرهم على الأحزاب الذين تحزبوا وتعاهدوا على استئصال الرسول ﷺ وأصحابه، وذلك في غزوة الخندق، بإرسال ريح الصَّبا والملائكة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآيات.

والنعمة كما تكون في جلب الخير تكون في دفع الشر.

٤- أن النعمة على الرسول ﷺ والمؤمنين في عهده بالنصر، نعمة على اللاحقين من المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لأن الله امتن بهذا النصر على جميع المؤمنين.

٥- كثرة الأحزاب الذين تحزبوا على الرسول ﷺ وأصحابه، وجاؤوا إليهم وحاصروا المدينة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، أي: جنود كثيرون.

٦- أن أهل الكفر على اختلاف نحلهم ودياناتهم ملة واحدة ويد واحدة ضد الإسلام وأهله.

٧- تمام قدرة الله تعالى وقوته وعزته، وكثرة جنوده، وتسخيره ريحًا شديدة وجنودًا من ملائكته لهزيمة الأحزاب، ونصرة الرسول ﷺ وأصحابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٨- أن الريح من أعظم مخلوقات الله تعالى، يرسلها الله عز وجل لنصرة أوليائه، وإهلاك أعدائه؛ ولهذا قال ﷺ: «**نصرت بالصَّبَا، وأهلكت عاد بالدبور**»، وأنها تأتي عذابًا كما تأتي رحمةً.

٩- إثبات وجود الملائكة، وأنهم جنود الله، وأنهم غالبًا لا يشاهَدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

١٠- إحاطة علم الله تعالى، واطلاعه التام، وبصره بأعمال العباد كلها، ونصره لأوليائه في الدنيا، وهزيمة أعدائهم، ومحاسبته يوم القيامة لجميع الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

١١- إطباق الأحزاب على المدينة كفكي الأسد، ومحاصرتهم المؤمنين من فوقهم ومن أسفل منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

١٢- عظم ما أصاب المؤمنين من الكرب، وما ألم بهم من الخطب ذلك اليوم، فزاغت الأبصار وشخصت، وبلغت منهم القلوب الحناجر وارتفعت؛ من شدة الخوف والقلق والفزع؛ والحيرة والذهول والدهشة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾.

١٣- أن الخوف الطبيعي من مخلوق لا يؤاخذ به ولا يعد شركًا.

١٤- أن المخاوف تربك الإنسان، وتتوارد معها الظنون الكثيرة المختلفة، بل والسيئة أحيانًا، وبخاصة عند ضعاف الإيمان، والمنافقين الذين نجم نفاقهم وظهر، فظنوا أن الله لن ينصر دينه ورسوله، وأن ما وعد الله ورسوله غرور وباطل، وغير ذلك، بينما ظن المؤمنون أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

وقد ترد عند الضعف بعض الخواطر السيئة حتى عند بعض المؤمنين، من الصحابة وغيرهم، ولكنها سرعان ما تزول، وقد قال الله عز وجل عن الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠](١).

١٥- شدة ما حصل من الابتلاء والامتحان للمؤمنين، والاضطراب والفتنة العظيمة؛ لتمحيصهم وتميز المنافقين من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) انظر: ما سبق في الكلام على هذه الآية في سورة يوسف.

وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

١٦- أن الشر ليس إلى الله، والخير كله بيديه؛ لهذا ذكر الله النعمة مضافة إليه، وكذا إرسال الريح والجنود، وذكر فعل الابتلاء والزلزال مبنيًّا لما لم يسم فاعله فقال: ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟﴾.

١٧- حكمة الله تعالى في ابتلاء المؤمنين، وأن هذا من سنته الكونية؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

١٨- ظهور نفاق المنافقين ومرضى القلوب بسبب هذا الابتلاء، وانتهازهم الفرصة لتكذيب وعد الله ورسوله بنصر المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

١٩- أن الله ورسوله قد وعد المؤمنين بالنصر في القرآن والسنة.

٢٠- إرجاف المنافقين بالمؤمنين، وتخذيلهم إياهم، ودعوتهم لهم بالرجوع وترك الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾.

٢١- عدم اعتبار المنافقين رابطة الأخوة الإيمانية بينهم وبين غيرهم من المؤمنين؛ لما يضمرونه من الكفر؛ ولهذا نادوا المؤمنين باسم الوطن بقولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾.

٢٢- أن «يثرب» اسم من أسماء «المدينة»؛ للآية، وكما جاء في الحديث، لكن الأولى ألا تسمى به، بل يقال: «المدينة» كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «**يقولون يثرب وهي المدينة**»(١).

٢٣- استئذان فريق من المنافقين النبي ﷺ للانصراف إلى منازلهم؛ معللين لذلك ومعتذرين كذبًا بأن بيوتهم عورة، يخافون استباحة العدو لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

---

(١) سبق تخريجهما.

٢٤- إبطال زعمهم أن بيوتهم عورة، وبيان أن مرادهم بذلك الفرار من الزحف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

٢٥- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله؛ كما يقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾.

٢٦- إثبات علم الله تعالى بما في القلوب، وما تخفيه الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾.

٢٧- مسارعتهم للكفر والشرك، والاصطفاف مع العدو لو انتصر وطلب منهم ذلك؛ لضعف إيمانهم أو انعدامه وخيانتهم وغدرهم، وشدة خوفهم، وحرصهم على الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

٢٨- أن أعظم الفتنة: الكفر والشرك، ومظاهرة الكفار على المؤمنين.

٢٩- استهانة المنافقين بحق الله، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه من قبل، بأنهم لا يولون الأدبار، ونقضهم ذلك بفرارهم من الزحف بسبب جبنهم وخوفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾.

٣٠- توعدهم بأنهم مسؤولون عن هذا العهد الذي نقضوه، ومحاسبون عليه، وفي هذا إثبات البعث والحساب، وأن كل من عاهد الله سيسأل: هل وفى بعهده أو نقضه؟ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

٣١- تحريم الفرار من الزحف وتولية الأدبار.

٣٢- أنه لا ينجي حذر من قدر؛ فالفرار من الزحف لا ينجي من الموت والقتل، ولا يؤخر الأجل، ولا يزيد في العمر؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾.

٣٣- أن البقاء في الدنيا قليل، وأن من فر من الزحف فلن يمتع في الدنيا إلا قليلًا، وهو بقية عمره، وعمره كله مهما طال فهو قليل، بل الحياة الدنيا كلها في الآخرة قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وفي هذا توبيخ لهم.

٣٤- أنه لا عاصم لهؤلاء الفارين من الزحف، ولا لغيرهم من أمر الله؛ إن أراد بهم سوءًا من قتل وبلاء، أو أراد بهم رحمة من سلامة وعافية، وغير ذلك، فمراده عز وجل نافذ فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

كما قال ﷺ: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»(١).

٣٥- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ وهي المشيئة.

٣٦- أن كل ما يقع في الكون من سوء وشر، أو رحمة وخير؛ كل ذلك بتقدير الله تعالى وإرادته الكونية ومشيئته.

٣٧- أنه لا ولي ولا نصير لهؤلاء المنافقين ولا لغيرهم من الكفار من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

٣٨- إثبات ولاية الله للمؤمنين، وأن من لا يتولاه الله وينصره، فلا ولي له، ولا ناصر.

٣٩- علم الله تعالى التام بالمعوِّقين المخذلين عن الخروج للجهاد، والمرجفين الداعين للرجوع عنه، من المنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.

٤٠- سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء، مما كان ومما يكون، ومما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

٤١- أخوة المنافقين وغيرهم من الكفار فيما بينهم، بعضهم لبعض؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر:١١].

٤٢- عدم شهود المنافقين ومرضى القلوب القتال إلا قليلًا؛ رياءً، ودفعًا للتعيير عن أنفسهم؛ لجبنهم وضعف إيمانهم أو عدمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، الذكر بعد الصلاة ٨٤٤، ومسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٥٩٣؛ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

٤٣- شحهم على المؤمنين، فلا يعينونهم لا بأموالهم، ولا بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

٤٤- شدة هلعهم وخوفهم وفزعهم، ومحبتهم للحياة، فإذا حضر القتال رأيت نظرهم لا يستقر على حال، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

٤٥- شدة سكرات الموت، وقوة تصوير القرآن للأحوال.

٤٦- شجاعتهم بالقول إذا ذهب الخوف، وسلاطة ألسنتهم وحدتها، وادعاؤهم كذبًا أنهم أهل النجدة والإقدام؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

حالهم كما قال الشاعر:

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة فتخاء تَفْرَق من صفير الصافرِ(١)

٤٧- شدة طمعهم عند قسمة الغنائم، وحرصهم على المال، وانعدام الخير فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

٤٨- إثبات كفرهم وعدم إيمانهم؛ لأن صفاتهم هذه إنما هي صفات غير المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾.

٤٩- إحباط الله ثواب أعمالهم؛ لفقدانها شرط الإيمان، وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٥٠- أن إحباط أعمال هؤلاء المنافقين يسير سهل على الله تعالى؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب؛ إنما هي أعمالهم، فمن عمل خيرًا أثيب عليه، ومن عمل شرًّا عوقب به؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

٥١- بلوغ هؤلاء المعوقين والمنافقين الغاية في الجبن؛ فهم لشدة جبنهم بعد أن ذهب الأحزاب ورجعوا خائبين خاسرين: ما زالوا يظنون أنهم لم يذهبوا خوفًا منهم وحبًّا للحياة؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾.

---

(١) البيت ينسب لعمران بن حطان قاله للحجاج. انظر:عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٣٦٣، ربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ١٠٦، جمهرة اللغة ٢/ ٩٢٣.

٥٢- أنه لو جاء الأحزاب مرة أخرى- فرضًا وتقديرًا- لودوا أنهم من أهل البادية يسألون عن أخبار المؤمنين، وليسوا من سكان المدينة، حتى لا يشاركوا في القتال، ولا يلحقهم اللوم؛ لبعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾.

٥٣- تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر، وسؤالهم عن أخبارهم عسى أن يسمعوا خبرًا بانتصار عدوهم، فيفرحوا عليهم، ويشمتوا بهم.

٥٤- أن هؤلاء المنافقين لو لم يكونوا في البادية- بل بين ظهراني المؤمنين- ما قاتلوا معهم إلا قليلًا؛ رياءً، وخوفًا من افتضاح أمرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: فلا تكترثوا بهم، فوجودهم كعدمه، بل عدم وجودهم أفضل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ قرأ عاصم بضم الهمزة: ﴿أُسْوَةٌ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «إِسْوَةٌ».

أي: لقد كان لكم أيها المؤمنون في رسول الله ﷺ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أي: قدوة حسنة، فالأسوة: القدوة، وهي نوعان: أسوة حسنة، وهي القدوة بالرسول ﷺ، وأسوة سيئة، وهي: القدوة بغيره فيما خالف سنته ﷺ.

أي: لقد كان لكم في رسول الله قدوة حسنة، يجب أن تقتدوا به في أقواله وأفعاله، وفي إخلاصه، وأخلاقه وشمائله، وفي ثباته في الشدائد، وصبره في البأساء والضراء، وفي مصابرته يوم الأحزاب، ومرابطته ودعوته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، وفي جميع سنته؛ فمن تأسى به ﷺ فقد سلك الصراط المستقيم، المؤدي إلى مرضاة الله تعالى، وإلى العقبى الحسنة، والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾؛ «من»: اسم موصول بدل من الضمير في «لكم» مع إعادة الجار؛ بدل بعض من كل، أي: للذي كان منكم﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: يأمل لقاء الله تعالى، ويؤمن به، ويطمع في ثوابه، ويخشى عقابه.

﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾، أي: ويرجو اليوم الآخر، أي: ويؤمن باليوم الآخر يوم القيامة، ويؤمل الفوز فيه بالجنة، والنجاة من النار.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ بأنواع الذكر؛ بقلبه ولسانه وجوارحه، والتعبد لله تعالى بما شرع من العبادات القلبية والقولية والفعلة، الواجبة والمندوبة، في جميع أحيانه وأحواله، وابتعد عن كل ما نهى الله تعالى عنه.

فلا يوفق لهذه الأسوة الحسنة إلا من كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرًا؛ لأن رجاءه ثواب الله، وخوفه من عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ، وذكر الله عز وجل.

قال ابن كثير(١): «فهذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي به ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله».

وقال السعدي: «واستدل الأصوليون في هذه الآية: على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي على اختصاصه به».

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾:

لما ذكر حال المنافقين ومرضى القلوب، الذين نجم نفاقهم لما حصل لهم هذا الابتلاء، فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ ذكر حال المؤمنين، الذين استدلوا بذلك على صدق وعد الله ورسوله، بأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وأن العاقبة للتقوى، فازداد إيمانهم.

قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾، أي: ولما رأى المؤمنون المصدقون بوعد الله الأحزاب قد تحزبوا عليهم وحاصروهم.

﴿قَالُوا۟﴾ بيقين وثبات وتصديق لوعد الله ورسوله بما سيحصل لهم من الابتلاء والتمحيص، ثم تكون لهم العاقبة والنصر بإذن الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: هذا الذي وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٠٨.

تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢].

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ فقد رأينا ما أخبرنا الله به ورسوله حقًّا وصدقًا، والصدق: مطابقة الخبر للواقع.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، أي: وما زادهم رؤية الأحزاب وتألبهم عليهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا إيمانًا وتصديقًا بقلوبهم، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾؛ بجوارحهم لحكم الله وقضائه وقدره، وانقيادًا لأمره، وطاعة لرسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

لما ذم المنافقين ومرضى القلوب بفرارهم من الزحف، وتوليهم الأدبار، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه، امتدح المؤمنين، وأثنى عليهم بتصديقهم ما عاهدوا الله عليه، وثباتهم على العهد، ووفائهم به.

سبب النـزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني: أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة، ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نُرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية».

وفي بعض الروايات: «فأنزل الله هذه الآية»(١).

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ «من»: تبعيضية، ونكّر «رجال»: للتعظيم، أي: من المؤمنين رجال عظماء،﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، أي: وفوا بالذي عاهدوا الله عليه، وقاموا به وأتموه وأكملوه، بالصبر والثبات في القتال لإعلاء كلمة الله، وبذل مهجهم في مرضاة الله، ومسارعتهم إلى مغفرة الله تعالى وطاعته بالأعمال الصالحات، ومجانبة السيئات.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «لما نسخنا الصحف في المصاحف، فقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾»(٢).

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، أي: فمن هؤلاء الرجال العظماء﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، أي: الذي قضى نحبه، أي: وفى بنذره وعهده في نصرة دين الله، وقضى حياته وأجله، فقتل شهيدًا في سبيل الله، أو مات وهو على العهد مقيمًا على طاعة الله ودينه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء نحبه، بأن يستشهد في سبيل الله، أو يموت وهو ثابت على عهد الله ودينه وطاعته.

﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾؛ تأكيد لقوله: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وتعريض بالمنافقين الذين بدلوا ونقضوا ما عاهدوا الله عليه، و«تبديلًا»: مفعول مطلق.

والتبديل: التغيير، أي: وما غيروا ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه، بل وفوا به وأتموه، وثبتوا على عهدهم ودينهم، حتى لقوا الله وهم على العهد، وكفاهم ذلك شرفًا وفضلًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، قوله تعالى:﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ٢٨٠٦، ومسلم في الإمارة، ثبوت الجنة للشهيد ١٩٠٣، وأحمد ٤/ ١٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ٤٧٨٤، وأحمد ٥/ ١٨٨، ١٨٩.

من هؤلاء الرجال الذين ثبتوا في وجه العدو يوم أحد: أنس بن النضر؛ كما جاء في سبب النزول، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وحمزة، وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير رضي الله عنهم، فأما أنس بن النضر، وحمزة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهم، فقد استشهدوا يوم أحد، وأما طلحة فقد قطعت يده يومئذ وهو يدافع عن رسول الله ﷺ، وأما بقيتهم فقد قاتلوا ونجوا، وانتظروا نحبهم بعد ذلك.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طلحة ممن قضى نحبه**»(١).

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: وقع ما وقع من وفاء المؤمنين بما عاهدوا الله عليه، ونقض المنافقين، لأجل أن يجزي الله الصادقين بالأجر العظيم والثواب الجزيل.

﴿بِصِدْقِهِمْ﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب صدقهم بما عاهدوا الله عليه من الإيمان، والعمل الصالح، والجهاد في سبيله؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة:١١٩].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معطوف على «يجزي»؛ أي: ويعذب المنافقين بالنار، بسبب نفاقهم وكفرهم، ونقضهم ما عاهدوا الله عليه، ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم وأراده كونًا؛ بأن يميتهم على النفاق؛ لأن من مات على النفاق فهو معذب لا محالة وفي الدرك الأسفل من النار.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن شاء؛ بأن يوفقهم للإيمان والتوبة والإخلاص، والعمل الصالح، فيثيبهم ولا يعذبهم.

أي: أن الله عز وجل قدّر ما قدر من هذا الابتلاء والامتحان والزلزال؛ لتمحيص الصادقين من المنافقين، ومجازاة الصادقين وإثابتهم بسبب صدقهم وإيمانهم، وتعذيب

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأحزاب ٣٢٠٢، وابن ماجه في المقدمة ١٢٦، وقال الترمذي: «حديث غريب».

المنافقين بسبب نفاقهم وكفرهم ونقضهم عهد الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة، يستر ذنوب عباده عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعاقبهم عليها؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في تقرير العبد بذنوبه: «**فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

﴿رَّحِيمًا﴾، أي: ذا رحمة واسعة؛ رحمة: هي صفة من صفاته عز وجل الذاتية الثابتة له سبحانه، ورحمة: هي صفة من صفاته عز وجل الفعلية، التي يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

فبمغفرته عز وجل ورحمته وفق من شاء من هؤلاء المنافقين للتوبة، وقبلها منهم.

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: أرجع الله الأحزاب بسبب كفرهم وظلمهم واعتدائهم.

﴿بِغَيْظِهِمْ﴾؛ الباء: للملابسة، والغيظ: الحنق، وأشد الغضب، أي: مغتاظين مقهورين؛ لخيبتهم، وعدم تحقق مرادهم، مع ما أصابهم من الشدة والنصب والمشقة في أموالهم وأنفسهم.

﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ «خيرًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لم يصيبوا أيَّ خير مهما قل؛ من نصر، أو غنيمة، أو غير ذلك، بل نالوا الخيبة وخسروا الخسران المبين.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، أي: وأغنى الله المؤمنين وأراحهم وحده من

---

(١) سبق تخريجه.

كلفة القتال ومشقته، بما أرسل على الأحزاب من الريح والملائكة، فصدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده؛ كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**»(١).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»(٢).

وعن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه، قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**». وفي رواية: «**اللهم منزل الكتاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»(٣).

قال ابن كثير(٤): «فسلط الله عليهم هواء فرق شملهم؛ كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزابٍ وآراءَ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء، الذي فرق جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم، لم ينالوا خيرًا، لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة، بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن هم بشيء وصدق همه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله».

وفي قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾؛ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ حين أجلى الأحزاب عنه: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١١٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٧٩٧، ومسلم في الحج ١٣٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٧٧٠، والترمذي في الحج ٩٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٣٣، ٢٩٦٦، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٦٣١، والترمذي في الجهاد ١٦٧٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٩٦.

(٤) في «تفسيره» ٦/ ٣٩٦.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي ٤١١٠، وأحمد ٤/ ٢٦٢؛ من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أي: ذا القوة العظيمة، فلا يعارض قوته شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

والقوة: صفة يتمكن بها القوي من فعل ما يريد بدون ضعف، وهي أعلى من القدرة؛ لأن القدرة صفة يتمكن بها القادر من فعل ما يريد بدون عجز.

﴿عَزِيزًا﴾؛ ممتنعًا بنفسه، قاهرًا غالبًا على أمره؛ ولهذا رد هؤلاء الأحزاب بحوله وقوته خائبين خاسرين لم ينالوا خيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾:

لما ذكر ما أوقعه عز وجل بالأحزاب من الكفار؛ من ردهم بغيظهم وحنقهم لم ينالوا أيَّ خير، سوى الخيبة والخسران، أتبع ذلك بذكر ما أوقعه بالذين ظاهروهم من أهل الكتاب؛ وهم بنو قريظة.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾، أي: وأنزل الذين ظاهروا الأحزاب، أي: أعانوهم وناصروهم على النبي ﷺ وأصحابه﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وهم يهود بني قريظة، الذين لما جاءت الأحزاب وحاصروا المدينة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذلك حين جاءهم حيي بن أخطب النضري ودخل حصنهم، فلم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فشق عليه جدًّا وعلى المسلمين، فلما رجع ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا بعد أن رد الله الأحزاب خائبين خاسرين، ووضع السلاح أمره الله بالخروج إلى بني قريظة.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾، أي: من حصونهم المنيعة ومآمنهم، وكانت منازلهم وحصونهم في الجنوب الشرقي من المدينة.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، أي: وألقى في قلوبهم الخوف الشديد والهلع والفزع، فاستسلموا وخضعوا وذلوا كما فعل بإخوانهم بني النضير، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢].

وكما فعل بالمشركين يوم بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢].

وإذا وقع الرعب في القلب انهزم صاحبه من الداخل، ولا أشد فتكًا بالعدو منه؛ ولهذا قال ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١).

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ «فريقًا»: مفعول به مقدم لـ«تقتلون»، أي: فريقًا تقتلونهم وهم الرجال المقاتلون، وقد بلغ عددهم نحو سبع مئة رجل.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾؛ وهم النساء، والصبيان غير البالغين.

عن عطية القرظي، قال: «عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة، فشكوا فيَّ، فأمر النبي ﷺ أن ينظروا: هل أَنْبَتّ بعد؟ فنظروا، فلم يجدوني أَنْبَتّ، فخلى عني وألحقني بالسبي»(٢).

وقدم المفعول في قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ لأن هذا الحكم أشد وأبلغ، وأخره في قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾؛ لأن الأسر أخف، ربما يمن على الأسير بإطلاقه، مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾، أي: ملككم أرضهم وديارهم وأموالهم، وجعلها غنيمة لكم. والأرض: أعم من الديار، والديار: جمع دار، وهي المساكن والأحياء. والأموال: الأمتعة والدراهم والدنانير، والمواشي، وغير ذلك.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، أي: وأورثكم أرضًا لم تطؤوها، وهي أرض بني قريظة التي كانت من قبل من شرفها وعزتها عندهم لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله منها ومن أهلها.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾: أرضًا يفتحها المسلمون بعد.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، الغلام يصيب الحد ٤٤٠٤، والترمذي في أبواب السير، ما جاء في النزول على الحكم ١٥٨٤، وابن ماجه في الحدود، من لا يجب عليه الحد ٢٥٤٢، وأحمد ٥/ ٣١١، ٣١٢.

قيل: خيبر فتحها النبي ﷺ في السنة السابعة[١]، وقيل: مكة، وقيل: فارس، أو ذلك كله.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، أي: لا يعجزه شيء.

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿قَدِيرًا﴾، وقدم عليه لتأكيد عموم قدرته تعالى على كل شيء.

ومن تمام قدرته عز وجل على كل شيء أن قدر لكم ما قدر من قتلهم، وأسرهم، ووراثة أرضهم وأموالهم.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، قالت: فسمعت وئيد الأرض ورائي- يعني: حس الأرض- قالت: فالتفت، فإذا بسعد بن معاذ، إلى أن قالت: ويرمي سعدًا رجل من المشركين من قريش، يقال له: ابن العرفة بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العرفة، فأصاب أكحله فقطعه، فدعا الله عز وجل سعد، فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقأ كلمه، وبعث الله عز وجل الريح على المشركين، فكفى الله عز وجل المؤمنين القتال، وكان الله قويًّا عزيزًا، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فوضع السلاح، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاءه جبريل عليه السلام، وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: أقد وضعت السلاح؟ والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ، فمر على بني غَنْم- وهم جيران المسجد حوله- فقال: «**من مرّ بكم؟**»، فقالوا: مرّ بنا دحية الكلبي، وكان دحية الكلبي تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه السلام، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم، واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣٢٨.

فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ. فقال رسول الله ﷺ: «**انزلوا على حكم سعد بن معاذ**». فنزلوا، وبعث رسول الله صلى الله عله وسلم إلى سعد بن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف[١] من ليف قد حمل عليه، وحف به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية[٢]، ومن قد علمت. قالت: وأنّى لا يرجع إليهم شيئًا، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه، فقال: قد آن لي ألا أبالي في الله لومة لائم. قال: قال أبو سعيد: فلما طلع على رسول الله ﷺ، قال: «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**». فقال عمر: سيدنا الله عز وجل. قال: «**أنزلوه**». فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: «**احكم فيهم**». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل وحكم رسوله**». قالت: ثم دعا سعد، قال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك ﷺ من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلْمه، وكان قد برئ حتى لا يرى منه إلا مثل الخُرْص[٣]، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ، قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر، وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، قال علقمة: قلت: أيْ أمه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته»[٤].

الفوائد والأحكام:

١- وجوب التأسي والاقتداء بالرسول ﷺ في أقواله وأفعاله، وإخلاصه، وشمائله

---

(١) الإكاف: البرذعة.

(٢) أي: أهل البأس والشدة، والنكاية بالعدو قتلًا وجراحًا.

(٣) الخرص: الحلقة الصغيرة من الحلي، وهو من حلي الأذن.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ١٤١-١٤٢، ومسلم في الجهاد-جواز قتال من نقض العهد ١٧٦٩، وأخرجاه مختصرًا أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والبخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨.

وأخلاقه، وفي جهاده وصبره وثباته، وغير ذلك، واتباع سنته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وأن الأصل أن أمته ﷺ أسوته في الأحكام؛ إلا ما دل الدليل الشرعي على اختصاصه به.

٣- أن جميع سنة النبي ﷺ وطريقته حسنة، والواجب الاقتداء به اقتداء حسنًا، لا غلو فيه ولا تفريط.

٤- أنه لا يوفق للتأسي بالنبي ﷺ والاقتداء به إلا من كان يؤمن بلقاء الله تعالى، ويرجو ثوابه، ويؤمن باليوم الآخر، ويرجو الفوز فيه، وذكر الله كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٥- إثبات لقاء الله تعالى، واليوم الآخر، والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الإيمان بذلك.

٦- أهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لأنه من أعظم ما يحفز على العمل الصالح؛ لأن فيه الثواب والجزاء؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن في القرآن الكريم بالإيمان بالله تعالى.

٧- الترغيب بذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا، بالقلب واللسان والجوارح، بالعبادة وأنواع الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٨- قوة إيمان أصحاب النبي ﷺ، ويقينهم واستدلالهم بما حصل لهم من الابتلاء والشدة يوم الأحزاب على صدق وعد الله ورسوله، بأن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٩- ازديادهم بذلك إيمانًا بقلوبهم، وتسليمًا بجوارحهم لقضاء الله تعالى، وانقيادًا لأمره، وطاعة لرسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾؛ بخلاف المنافقين الذين ازدادوا بذلك شكًّا ونفاقًا.

١٠- أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١١- ثناء الله عز وجل على رجال من المؤمنين، وامتداحه لهم؛ لصدقهم ووفائهم

بما عاهدوا الله عليه، بالصبر والثبات في القتال لإعلاء كلمة الله، وبذل مهجهم في مرضاة الله، ومسارعتهم إلى مغفرة الله تعالى، وطاعته بالأعمال الصالحات؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

١٢- أن من هؤلاء الرجال العظماء من قضى نحبه وعهده فاستشهد في سبيل الله، أو مات وهو على العهد قبل نزول هذه الآيات، ومنهم من ينتظر قضاء نحبه وعهده بأن يقتل شهيدًا في سبيل الله، أو يموت وهو ثابت على العهد، من غير تبديل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

١٣- أن الله عز وجل قدّر صدق المؤمنين ووفاءهم بما عاهدوا الله عليه، وقدر نقض المنافقين لما عاهدوا الله عليه وتوليتهم الأدبار؛ ليجزي الصادقين بسبب صدقهم، ويعذب من شاء من المنافقين، ويتوب على من شاء منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٤- أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس عوضًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾، أي: بسبب صدقهم. وقد قال ﷺ: «**لن يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

١٥- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.

١٦- ذم النفاق، وأنه سبب للعذاب.

١٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأنه سبحانه يعذب من يشاء بعدله، ويتوب على من يشاء بفضله.

١٨- الترغيب في التوبة، وأن المنافق له توبة.

١٩- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل، وأن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢٠- رد الله عز وجل الذين كفروا من جنود الأحزاب بغيظهم خائبين خاسرين

---

(١) سبق تخريجه.

لم ينالوا أي خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ﴾.

٢١- كفايته عز وجل المؤمنين القتال بما أرسل من الريح والملائكة على الأحزاب؛ مما فرقهم شذر مذر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾.

وفي هذا إشارة إلى وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش، وهكذا وقع فلم تَغْزُ قريش بعدها، بل غزاهم المسلمون في عقر دارهم.

٢٢- إثبات تمام قوة الله تعالى وعزته وقهره فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

٢٣- إنزاله عز وجل يهود بني قريظة أذلة صاغرين من حصونهم؛ لغدرهم ونقضهم عهدهم مع الرسول ﷺ، ومظاهرتهم الأحزاب، وقذف الرعب في قلوبهم، وتمكين المسلمين من قتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم ونسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾، وفي هذا امتنان من الله تعالى على المؤمنين.

٢٤- أن الرعب إذا دخل القلوب من أعظم أسباب الهزيمة للعدو، فلا تنفع معه القوة والحصون والمنعة؛ لأنه هزيمة من الداخل.

٢٥- توريث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضًا لم يطأها المسلمون قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾.

وفي هذا دلالة على حل أموال الكفار المحاربين للمسلمين.

٢٦- شدة عقاب الله عز وجل لبني قريظة؛ لخيانتهم ونقضهم العهد، ولأنهم أهل كتاب، وليس من يعلم كمن لا يعلم، والعقوبة بقدر النعمة.

٢٧- تمام قدرة الله تعالى على كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾.

سبب النزول:

عن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «أقبل أبوبكر- رضي الله عنه- يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر، فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد- امرأة عمر- سألتني النفقة آنفًا فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه، وقال: «**هن حولي يسألنني النفقة**». فقام أبوبكر- رضي الله عنه- إلى عائشة- رضي الله عنها- ليضربها، وقام عمر- رضي الله عنه- إلى حفصة ليضربها، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله- عز وجل- الخيار...»(١).

وفي بعض الروايات: «فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا، فأنزل الله هذه الآيات»(٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الأزواج جمع زوج، والمراد: زوجاته ﷺ اللاتي اجتمعن في عصمته وطالبنه بزيادة النفقة مما ليس عنده.

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق-بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٤٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٨)، وأخرجه مسلم أيضًا (١٤٧٩)، والبخاري في المظالم (٢٤٦٨)-من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- عن عمر-رضي الله عنه-مطولًا.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٠٨٤)-من حديث جابر بن عبدالله-رضي الله عنه.

قال عكرمة: «وكان تحته تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النَّضريَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن»(١).

والأمر في قوله عز وجل: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ يقتضي الوجوب، أي: قل لهن مخيرًا: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، وهكذا فعل ﷺ.

﴿إِن كُنتُنَّ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿كُنتُنَّ﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾.

﴿تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: تطلبنها وتؤثرنها على الآخرة، وهي غاية مطلبكن وما فيها من العيش والمتاع.

والحياة الدنيا: هي هذه الدار التي أوجد الله فيها الحياة فيما خلق من الإنس والجن والحيوان والنبات، وهي ما قبل الموت.

وسُميت بـ(الدنيا)؛ لقربها زمنًا، فهي قبل الآخرة، فهي الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى:٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات:٢٥].

ولأنها دنيئة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة كما وصفها الله- عز وجل- ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(٢).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)-من حديث سهل بن سعد-رضي الله عنه، وقال الترمذي: «صحيح غريب»، وصححه الألباني.

فقام وقد أثَّر في جنبه. فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً فقال: «**مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

بينما قال الله- تعالى- في مدح الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

فهي أي الدنيا قبل الآخرة زمنًا، ودونها مقدارًا، بل لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، فأين المتأمل في هذا.

﴿وَزِينَتَهَا﴾ يجوز أن يكون هذا من عطف الخاص على العام، والمراد بزينتها: ما يُتزين به ما فيها من المظاهر والأموال، والأزواج، والأولاد، والقصور، والمراكب، والأنعام، والحروث، وغير ذلك (٢).

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف:٤٦]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [آل عمران:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ [النحل:٨].

﴿فَتَعَالَيْنَ﴾، أي: أقبلن إليَّ، فهو أمر لهن بالمجيء إليه ﷺ.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: جواب الأمر، أي: أعطيكن المتعة، وهي في حقه ﷺ واجبة لأمر الله- عز وجل- له بذلك في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة:٢٤١].

والمتعة: ما يتمتع به، من دراهم، أو طعام، أو أثاث، أو لباس، أو غير ذلك تُعطى للمطلقة جبرًا لخاطرها، وتطييبًا لقلبها.

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، أي: أطلقكن، وأُخلِ سبيلكن.

وأصل التسريح: الإرسال والإطلاق، والتخلية ضد التقييد والحبس، قال الله

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، وصححه الألباني.

(٢) انظر: «لسان العرب»، مادة: «زين».

تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة:٢٢٩] (١).

وقدَّم المتعة على التسريح مع أن الأصل أنها بعده؛ للتأكيد عليها والعناية بها، ولئلا يُتساهل فيها، لما فيها من جبر خاطر الزوجة وتطييب قلبها.

﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ ﴿سَرَاحٗا﴾: مفعول مطلق، و﴿جَمِيلٗا﴾: صفة له.

أي: طلاقًا وفراقًا جميلًا، من دون مغاضبة، ولا معاداة، ولا مشاتمة، ولا توبيخ، ولا عتاب، ولا هجر، ولا مضارة، ولا أذى، لا بقول ولا بفعل، بل بسعة صدر وانشراح بالٍ، ليذهب كلّ منهما إلى طريقه، لا يحمل في نفسه شيئًا على الآخر، ومن ذلك أنه لو طلقهن لكان لهن الزواج بعده؛ لأن هذا من السراح الجميل.

قال ابن كثير رحمه الله(٢): «وقد اختلف الناس في جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن على قولين، وأصحهما: نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم».

ويدل قوله: ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ على ما منحه الله عز وجل من الخُلق العظيم، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم:٤].

فلم يعاتبهن ﷺ أو يوبخهن أو يقل لهن: فتعالين أطلقكن؛ لأنه لا خير فيمن لا تريد إلا الدنيا، أو نحو ذلك، فصلوات الله وسلامه عليه.

وتأمل أخي الكريم كم هو البون الشاسع والفرق الواسع بين هديه ﷺ وبين تصرفات كثير من المسلمين عند طلاق زوجته، وقد قال الله- عز وجل: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب:٢١].

واسأل المحاكم الشرعية عما يصدر من كثير من الأزواج عند الطلاق من أقوالٍ وأفعالٍ لا تليق بمن كان له أدنى ضمير، فضلًا عن مسلم، من التلاعب بالطلاق والمشاتمات وهضم الحقوق، ونكران الجميل، والأذى للمطلقة، وقد قال الله- عز وجل: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ

---

(١) انظر: «لسان العرب»، مادة: «سرح».

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).

بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة:٢٣١].

ولما طلق ابن عمر- رضي الله عنهما- امرأته على خلاف السنة غضب النبي ﷺ وقال: «**أيلعب في كتاب الله تعالى وأنا بين أظهركم**»؟!(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: وإن كان هذا هو غاية مطلبكن ومرادكن، وقنعتن من الدنيا بما تيسر.

﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ هي: ما بعد الدنيا، والمراد: ما أعده الله- عز وجل- لأوليائه من الجنة دار السلام في الدار الآخرة دار القرار.

وإنما قدَّم- والله أعلم- ذِكْر إرادة الحياة الدنيا وزينتها بناءً على ما جاء في سبب النزول وهو المطالبة بزيادة النفقة، ولأن الحياة الدنيا هي الحاضرة القريبة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: جملة جواب الشرط السابق، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿أَعَدَّ﴾ أي: هيأ وجهَّز.

﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ المحسنات: اللاتي أحسنَّ في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله- عز وجل- ومتابعة لرسوله ﷺ، وإحسانًا إلى عباد الله بأداء حقوقهم.

وأظهر هنا في مقام الإضمار فقال: ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ ولم يقل أعد لَكُنَّ لبيان أن هذه الإرادة إحسان، ولحثهن على الإحسان، وليرتب عليه الأجر المذكور بعده،

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق (٣٤٠١)-من حديث محمود بن لبيد-رضي الله عنه.

فالإحسان هو سبب الأجر، وليس مجرد كونهن أزواجه ﷺ.

و«مِن» في قوله: ﴿مِنكُنَّ﴾: بيانية.

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الأجر: هو الثواب، وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم، مما لا يقدر قدر عظمته إلا من وصفه بأنه عظيم، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾»(١).

وقوله: ﴿مِنكُنَّ﴾ هذا يدل على ما خصَّ الله- عز وجل- به زوجات النبي ﷺ من الفضل، وأن الله يضاعف للمحسنات منهن أكثر من غيرهن من المحسنات من نساء الأمة، كما قال الله- عز وجل: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب:٣١].

ومما أعطاه الله تعالى لهن لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة: أن قصره عليهن، فقال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٢].

وقد خيَّر النبي ﷺ جميع زوجاته بما أمره الله به في هذه الآية، فاخترن كلهن- رضي الله عنهن وأرضاهن- الله ورسوله والدار الآخرة، مع ما كان عليه رسول الله ﷺ من شظف العيش، وقلة ذات اليد.

عن عائشة- رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخيّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «إني ذاكرٌ لكِ أمرًا، فلا عليكِ أن تستعجلي حتى تستأمري أبويكِ، وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: وإن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

أستأمر أبَويَّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»(١).

وفي حديث جابر- رضي الله عنه- الذي تقدم أوله في سبب نزول الآيتين نحو حديث عائشة، وفي آخره زيادة قول عائشة- رضي الله عنها: «وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال: «**إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا، لا تسألني امرأة منهن عمَّا اخترت إلا أخبرتها**»(٢).

قال العلَّامة السعدي- رحمه الله- تعالى(٣): «في هذا التخيير فوائد عدة منها: الاعتناء برسوله ﷺ، والغيرة عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾ [الأحزاب:٣٨].

ومنها: تنزيهه عمَّا لو كان فيهن من تُؤثِر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته- رضي الله عنهن وأرضاهن- عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول ﷺ الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن وبيان علو هممهن أن كان الله ورسوله مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر المختار للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٦)، ومسلم في الطلاق-باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٥)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٠٤)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٥٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٥-٢١٦).

مكملات، طيبات مطيبات ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور:٢٦].

ومنها: أن هذا التخيير داعٍ وموجب للقناعة، التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن، ومضاعفته، وأن يكنّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء؛ ولهذا قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى ﴿رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾».

وظاهر الآية والصحيح أن الله- عز وجل- أمر رسوله ﷺ أن يخيّر أزواجه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة.

ورتَّب على هذا وعقَّب عليه إن اخترن الحياة الدنيا وزينتها أن يعطيهن المتعة ويسرحهن سراحًا جميلًا، أي: يطلقهن، وهكذا خيّرهن ﷺ كما أمره الله عز وجل.

وقيل: خيَّرهن بين الطلاق وبقاء الزوجية(١)، فعلى هذا لو اخترن الطلاق لوقع، والصحيح القول الأول، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدَّها علينا شيئًا»(٢)، أي: فلم يعدَّها طلاقًا.

وهكذا إذا خيَّر زوجته بين البقاء معه أو الطلاق فإن اختارت البقاء أو سكتت، فلا يقع الطلاق، وإن اختارت نفسها فالراجح أنه لا يقع الطلاق إلا إذا نواه الزوج فتقع طلقة واحدة رجعية، وقيل: لا تقع الفرقة إلا بإيقاع الطلاق، وقيل غير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله- عز وجل- وإيجابه على نبيه ﷺ تخيير زوجاته بين إرادة الحياة الدنيا وزينتها، فيمتعهن ويسرحهن سراحًا جميلا، وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، وهكذا فعل ﷺ فقد خير نساءه وفق ما أمره الله عز وجل به فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق-باب من خير نساءه (٥٢٦٢)، ومسلم في الطلاق-بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٤٧٧)، والترمذي في الطلاق واللعان (١١٧٩)، وأحمد (٦/ ٤٥).

ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

٢- حماية الله تعالى رسوله ﷺ ودفاعه عنه حيث أمره بتخيير أزواجه لما ضيقن عليه وطلبن زيادة النفقة مع ما هو عليه ﷺ من قلة ذات اليد.

٣- أن من كانت إرادتها الحياة الدنيا وزينتها فلا يليق أن تكون فراشًا له ﷺ.

٤- أن التخيير لا يكون طلاقًا، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئًا»(١).

٥- تقديم أمر الآخرة على الدنيا وزينتها، والتعريض بحقارة الدنيا ودناءتها، وهوان طالبها.

٦- مشروعية المتعة للمطلقة جبرًا لخاطرها وتطييبًا لقلبها وعونًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾.

٧- حسن خلقه ﷺ؛ لقوله: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ ولهذا لو اخترن الحياة الدنيا وزينتها، وطلقهن، حل لغيره الزواج بهن.

٨- على الزوج إذا أراد طلاق زوجته أن يسرحها سراحًا جميلًا بإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ بلا إساءة ولا مضارة.

٩- فضل نساء النبي ﷺ وعلو شأنهن حيث اخترن كلهن- رضي الله عنهن- الله ورسوله والدار الآخرة، على الدنيا وزينتها ومباهجها.

١٠- التنويه بما أعدّه الله للمحسنات من أزواج النبي ﷺ من الأجر العظيم والثواب الجسيم بسبب إحسانهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ومن ذلك كونهن أزواجه ﷺ في الجنة.

١١- أن الأعمال بالنيات، وأن إرادة الله تعالى ورسوله والدار الآخرة من الإحسان.

١٢- الترغيب في الإحسان في عبادة الله، وإلى عباد الله.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾.

بعد أن خيَّر رسول الله ﷺ نساءه حسب أمر الله له بين إرادة الحياة الدنيا وزينتها وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، خاطبهن الله- عز وجل- بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، مما يدل على أنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وأنه استقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ وفي عصمته.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾.

قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ «يا»: حرف نداء، «نساء»: منادى منصوب وعلامة نصبه الفتحة، و«نساء»: مضاف و﴿ٱلنَّبِيِّ﴾: مضاف إليه، وتصدير الكلام لهن بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وإضافتهن إلى النبي ﷺ للتشريف والتكريم لهن وإشعارهن بعظم مكانتهن حيث إنهن فراش النبي ﷺ، وأن المخالفة منهن أعظم، والطاعة عليهن أوجب.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ ﴿مَن﴾: شرطية، ﴿يَأۡتِ﴾: فعل الشرط و«من» في قوله: ﴿مِنكُنَّ﴾: بيانية.

والفاحشة: ما فحش وساء وقبح في الشرع وفي عرف المسلمين، والمراد بالفاحشة هنا: بذاءة اللسان والتطاول على النبي ﷺ بذلك والإلحاح عليه بزيادة النفقة كما دل عليه سبب النزول.

وقيل: المراد بها الزنا، وقيل: المراد عموم الفاحشة.

وعلى اعتبار أن المراد بالفاحشة: الزنا أو ما يشمل الزنا وغيره؛ فإن الإتيان بالشيء معلقًا بالشرط لا يلزم منه جواز وقوع الشرط، كما قال الله- عز وجل: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وهذا غير ممكن وقوعه.

وهكذا الزنا غير ممكن وقوعه من أزواج النبي ﷺ، بل ولا من أزواج جميع الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وفي الأثر عن الشعبي قال: «ما زنت امرأة

نبي قط»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨]، وكقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف:٨١]، وكقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر:٤]».

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبوبكر عن عاصم: «مُبيَّنة» بفتح الياء وتشديدها، أي: موضحة، وعليها بينة.

وقرأ الباقون: «مبيِّنة» بكسر الياء وتشديدها، أي: أنها بينة في نفسها.

﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر بالنون وتشديد العين وكسرها من غير ألف قبلها ونصب «العذاب»: «نُضعِّف لها العذابَ».

وقرأ أبوجعفر وأبوعمر ويعقوب بالياء وتشديد العين وفتحها من غير ألف قبلها ورفع «العذاب»: «يُضعَّف لها العذابُ».

وقرأ الباقون كذلك، إلا أنهم بتخفيف العين وألف قبلها: «يُضاعف لها العذاب»[٣].

والمعنى: أن من أتت منكن بفاحشة فإن العذاب يضاعف لها، أي: يكون عذابها مضاعفًا في الدنيا والآخرة، فيكون عذابها ضعف عذاب غيرها، أي: مثليه، أي: كثره مرتين، حماية له ﷺ ولفراشه؛ ولأن الذنب منها أعظم من غيرها؛ لشرفها وعلو منزلتها، فالعقوبة على قدر النعمة؛ ولهذا كان حد الأَمة نصف حد الحُرّة؛ لعلو منزلة الحُرّة ودنو منزلة الأَمة، وكذا المحصن عقوبته أشد من غير المحصن؛ بسبب نعمة الإحصان.

قال ابن كثير[٤]: «فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن

---

(١) أخرجه في «أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» ٨/ ١٥٢٣.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).

(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٤٨، ٣٤٨).

(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).

مغلظًا، صيانةً لجنابهن وحجابهن الرفيع».

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ الإشارة إلى تضعيف العذاب على مَن تأتِ بفاحشة من نساء النبي ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا على الله- عز وجل- وليس بصعب عليه- عز وجل؛ لأنه- عز وجل- لا يعجزه شيء.

والمناسبة في ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾- والله أعلم- لئلا يظن ظان أو يتوهم متوهم أن هذا الأمر صعب على الله؛ لكونه يتعلق بأزواج النبي ﷺ، فبيَّن- عز وجل- أن ذلك عليه يسير؛ لأنه- عز وجل- ليس بينه وبين خلقه نسب، إنما هو العمل الصالح؛ ولهذا قال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ وأفضل رسله وسيد ولد آدم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥].

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

هذا من العدل والفضل في حق أزواج النبي ﷺ، فلما توعّد من تأت منهن بفاحشة بمضاعفة العذاب، جازى من تقنت منهن لله ورسوله وتعمل صالحًا بمضاعفة أجرها مرتين وبالرزق الكريم.

قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الواو: عاطفة، و«مَن» شرطية كسابقتها، و﴿يَقْنُتْ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿نُّؤْتِهَآ﴾. والقنوت: دوام الطاعة.

ويختلف القنوت لله والقنوت للرسول ﷺ، فالقنوت لله- عز وجل- قنوت عبادة وخضوع وتذلل وخشوع وتعظيم لله- عز وجل- بعبادته وامتثال أمره واجتناب نهيه.

والقنوت للرسول ﷺ قنوت طاعة له فيما يأمر به من الشرع وفيما ينهى عنه، وقنوت طاعة الزوج بأداء حقوقه التي تجب على الزوجة لزوجها، وعدم مطالبته بما يشق عليه من النفقة وغير ذلك.

﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ويعمل» بالياء.

وقرأ الباقون: ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء، أي: وتعمل عملًا صالحًا، وهو ما كان لله خالصًا،

وصوابًا موافقًا للشرع.

﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «يؤتها» بالياء، أي: يؤتها الله، أي: يعطها.

وقرأ الباقون: ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ بالنون[1]، أي: نعطها أجر قنوتها وعملها الصالح مرتين، أي: فنضاعف لها أجرها كثر ثواب غيرها من النساء مرتين.

وهذا من كمال عدله- عز وجل- فإنه لما توعَّد بمضاعفة العذاب على مَن تأتِ منهن بفاحشة، وَعَدَ بمضاعفة الأجر مرتين لمن يَقْنُت منهن لله ورسوله وتعمل عملًا صالحًا، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدَّى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدَّب أَمَته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»[2].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أعتدنا: هيأنا وأعددنا وجهزنا من العتاد، وهو ما يُعد للضيف، وما يُعد للمسافر، أي: أعتدنا لها في الجنة.

﴿رِزْقًا﴾ الرزق: العطاء، أي عطاءً ﴿كَرِيمًا﴾ كثيرًا واسعًا طيبًا حسنًا.

قال ابن كثير[3]: «أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١)، ومسلم في الإيمان-وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٤)، والنسائي في النكاح (٣٣٤٤)، والترمذي في النكاح (١١١٦).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٤).

منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش».

وقال السعدي[١]: «فَقَنَتْنَ لله ورسوله، وعملن صالحًا، فنِلْن بذلك أجرهن».

الفوائد والأحكام:

١- أن العقوبة تعظم بقدر النعمة، فحيث أنعم الله- عز وجل- على زوجات النبي ﷺ بكونهن فراشًا لأفضل الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين جعل عقوبة مَن تأتِ منهن بفاحشة مبينة مضاعفة العذاب لها ضعفين، وحاشاهن عن ذلك- رضي الله عنهن؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾.

وهكذا كلما كانت نعمة الله على العبد أعظم كان الواجب عليه من الشكر والطاعة والامتثال أعظم، وعقوبته على المخالفة أشد.

٢- العقوبة والعذاب لمن ارتكب فاحشة مبينة واضحة أيًّا كان؛ لأنه إذا كان هذا الوعيد لأزواج النبي ﷺ فغيرهن من باب أولى.

٣- أن العقوبة والمؤاخذة في الإسلام إنما تكون لمن تبين منه فعل الفاحشة؛ لقوله تعالى: ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾، فلا مجال للاتهام والظنون.

٤- ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب إنما هو العمل الصالح وطاعة الله تعالى وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾.

فمن أتت بفاحشة مبينة من أزواج النبي ﷺ ضوعف لها العذاب، ولم يدفع عنها ولا ينفعها كونها من أزواج النبي ﷺ.

٥- كمال عدله- عز وجل- فلما توعد من يأت بفاحشة مبينة من نساء النبي ﷺ بمضاعفة العذاب، وعد من تطيع الله ورسوله منهن وتعمل صالحًا بمضاعفة أجرها مرتين، وتهيئة الرزق الكريم الواسع لها في الجنة، وفي هذا مزية عظيمة لهن رضي الله عنهن.

٦- ترغيب أزواج النبي ﷺ بطاعة الله ورسوله والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٧).

وفي ذلك ترغيب لغيرهن من رجال الأُمة ونسائها من باب أولى.

٧- الحث على طاعة الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: يطع الله ورسوله، ومن طاعة الرسول ﷺ هنا الواجبة على أزواجه طاعته بأداء حقوق الزوجية.

٨- الإشارة إلى أن الجنة موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: أعددنا وهيأنا.

٩- العطاء العظيم والرزق الواسع الكريم لمن أطاع الله ورسوله وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: «هذه آداب أَمَرَ الله بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأُمة لهن تبع في ذلك».

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ كرَّر النداء لهن لمزيد التنبيه والعناية والاهتمام.

﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ ﴿لَسۡتُنَّ﴾ أصلها: ليس، وتاء الخطاب، ونون النسوة، فلما سُكِّنَت «السين» التقى ساكنان «السين» و«الياء»، فحذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وحرف اللين يحذف عند التقاء الساكنين، قال الناظم:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق ... وإن يكن لينًا فحذفه استحق

﴿كَأَحَدٖ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ليس، والكاف للتشبيه، أي: لستن تشبهن أحدًا من النساء.

والمعنى: أنكن يا نساء النبي لا تشبهن أحدًا من النساء سواكنّ في الفضيلة والمنزلة، فأنتن أزواج النبي ﷺ، وفي بيت النبوة، وأمهات المؤمنين، وهذا مما يُميزهن عن غيرهن من النساء، وهذا مع تقوى الله؛ لقوله بعده: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

والمعنى: لا تشبهن أحدًا من النساء مطلقًا، لكن لا يلزم من ذلك تفضيلهن على غيرهن من جميع الوجوه، وإنما هو تفضيل نسبي للتنبيه على علو مكانتهن، وحثهن على تقوى الله، كما يقال للشخص: أنت لست مثل غيرك، حثًّا له على الامتثال.

وذلك لأن أفضل النساء على الإطلاق: فاطمة بنت النبي ﷺ- رضي الله عنها؛ لما

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٥).

جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحبًا بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أَسَرَّ إليها حديثًا؛ فبكت، فقلت لها: لِمَ تبكين؟ ثم أَسَرَّ إليها حديثًا؛ فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن. فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ. حتى قُبِض النبي ﷺ، فسألتها، فقالت: أَسَرَّ إلي: «**إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي**» فبكيت، فقال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين**» فضحكت لذلك»(١).

ولأنها بضعة منه ﷺ كما قال ﷺ: «**فاطمة بضعة مني**»(٢).

ولأن الرسول ﷺ في ميزانها لأنها ماتت بعده. قال عمر بن عبدالعزيز لما توفي ابنه عبدالملك، وكان رجلًا صالحًا: «الحمد لله الذي جعلك في ميزاني، ولم يجعلني في ميزانك».

وأفضل النساء بعد فاطمة- رضي الله عنها- أزواجه ﷺ ورضي الله عنهن، وأفضلهن عائشة وخديجة- رضي الله عنهما؛ لقوله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»(٣).

ولأن خديجة رضي الله عنها آزرت النبي ﷺ وناصرته وكانت له نعم المعين في أول دعوته؛ ولأن أولاده ﷺ كلهم منها رضي الله عنها عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

وفي الحديث: «أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «**هذه خديجة جاءت فاقرأ عليها**

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٢٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري- في كتاب أصحاب النبي ﷺ، ٣٥١٠، ٣٥٢٣، ٣٥٥٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٩، وأبو داود في النكاح ٢٠٧١، والترمذي في المناقب ٣٨٦٧، وابن ماجه في النكاح ١٩٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١)، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٤٧)، والترمذي في الأطعمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٠)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

السلام من ربها ومني وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»(١).

وبعدهن في الفضل بقية أزواجه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾.

وأفضل النساء بعدهن مريم ابنة عمران؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران:٤٢]، أي: على نساء عالمي زمانها.

ثم آسية بنت مزاحم امرأة فرعون؛ لذكرها في الحديث فيمن كمل من النساء كما سبق؛ وذلك لثباتها وصبرها على أذى فرعون وشدة رغبتها فيما عند الله- عز وجل- حيث قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم:١١].

قال ابن كثير رحمه الله(٢): «قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار».

وقد روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون**»(٣).

ومن أفضل النساء نساء قريش؛ لقوله ﷺ: «**خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده**»(٤).

قوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ ﴿إِنِ﴾: شرطية، ﴿ٱتَّقَيْتُنَّ﴾: فعل الشرط، وجوابه دلَّ عليه ما قبله، أي: إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء، ويحتمل أن يكون جوابه قوله: ﴿فَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٨٢١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» (٨/ ١٩٩).

(٣) أخرجه ابن حبان وأحمد وأبويعلى والطبراني، وأبوداود في «كتاب الزهد»، والحاكم، وله شاهد من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-في الأوسط للطبراني. انظر:«فتح الباري» (٦/ ٤٤٧).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾.

والمعنى: إن اتقيتن الله كما أمر، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

والمراد بهذا الشرط: الحث والإغراء لهن على تقوى الله- عز وجل- أي: فلستن كأحد من النساء إن اتقيتن، فمنزلتكن أعظم وأفضل من منزلة غيركن من النساء، فلا تقسن أنفسكن بغيركن، فالواجب عليكن من التقوى وحق الزوج أعظم من غيركن.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ الفاء: عاطفة «لا»: ناهية، والجملة معطوفة على ما قبلها، ويحتمل أن تكون الفاء: رابطة لجواب الشرط، فتكون الجملة جواب الشرط ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾.

والخضوع بالقول بمعنى: لين الكلام وترقيقه وترخيمه، والتطامن والذل والخنوع بالقول، أي: لا يكن قولكن في مخاطبة الرجال الأجانب فيه شيء من التطامن والذل والخنوع وترقيق الكلام وترخيمه، مما قد يكون سببًا لفتنة الرجال(١).

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ جواب النهي، و«الفاء»: للسببية، أي: فيتسبب عن ذلك الخضوع بالقول أن يطمع الذي في قلبه مرض.

● **ومرض القلب نوعان:**

١- **مرض حسي عضوي**، ليس هو المقصود في مرض القلوب في القرآن الكريم.

٢- **مرض معنوي**، وهو المقصود في مرض القلوب في القرآن الكريم، وهو قسمان أيضًا:

* مرض شبهة وشك ونفاق وشرك وكفر.

* ومرض شهوة، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- مرض شهوة اتباع الهوى.

ب- ومرض شهوة البطن.

جـ- ومرض شهوة الفرج، وهو المراد بقوله هنا: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

فالمعنى: فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة في الحصول على مراده من النساء من

---

(١) انظر:«لسان العرب»، مادة:«خضع»، وانظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٥)، «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٧-٢١٨).

التلذذ بسماع صوت المرأة، أو بما هو أعظم من ذلك، وهو فعل الفاحشة، وذلك بالاسترسال معها في الكلام واستدراجها حتى يصل إلى مقصده، فكلام، ثم موعد، ثم لقاء... إلخ.

ويفهم من قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: أن مَن كان صحيح القلب فإنه أبعد عن الطمع في المرأة؛ لكن أين سليم القلب، ومَن يضمن سلامة قلبه، وقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**، ثم قال رسول الله ﷺ: **اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»(١).

وقال ﷺ: «**الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٢).

وقال ﷺ: «**من حام حول الحمىٰ يُوشك أن يرتع فيه**»(٣).

فعلى الإنسان أن ينأى بنفسه عن أسباب الفتنة، وعليه مراقبة نفسه وخطرات قلبه، وكم من رجل أو امرأة يظن أنه في منأى عن الفتنة، ثم لا يلبث أن يقع فيها، ولهذا قال ﷺ: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات**»(٤).

وروي أنه ﷺ قال: «**لا يخلون رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(٥).

وقال بعض السلف: «لا تخلون بامرأة ولو كنت تعلمها وتقرؤها القرآن»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٨)، ومسلم في السلام (٢١٧٥)، وأبوداود في الصوم (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩)-من حديث صفية-رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥١)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الملاحم (٤٣١٩)-من حديث عمران بن حصين-رضي الله عنه.

(٥) ذكره الترمذي في الرضاع مع حديث (١١٧١) «الحمو الموت» بقوله:على نحو ما رُوي عن النبي ﷺ قال:«**لا يخلون رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**».

(٦) روي هذا عن ميمون بن مهران، ويونس بن عبيد. انظر:«ذم الهوى» ص١٤٨، «الإبانة الكبرى» لابن =

ويخطئ أعظم الخطأ مَن يسترسل في مخاطبة النساء الأجانب، أو يبيح لنفسه الخلوة بالمرأة من خادمة أو غيرها، زاعمًا بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال أنه بعيد عن الوقوع في الفتنة، وهو في الحقيقة واقع فيها وفي المحرم، وقد يؤدي به ذلك إلى ما هو أشد وأعظم.

وما حال هذا إلا كما قيل:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء[1]

فاحذر يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة من التساهل في هذا الأمر، ولنعلم أن العصمة للرسل- عليهم الصلاة والسلام، وأن السلامة غنيمة، والعافية لا يعدلها شيء. نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾، ﴿قَوْلًا﴾: مفعول مطلق، وبينه وبين ﴿وَقُلْنَ﴾: جناس اشتقاق. ﴿مَّعْرُوفًا﴾ صفة له، أي: وقلن في مخاطبتكن الرجال قولًا معروفًا.

والقول المعروف: ما عُرف في الشرع، وفي عرف المسلمين، ولم يستنكر لا في الشرع ولا في عرف المسلمين، وهو ما لا خضوع فيه ولا انكسار ولا تطامن، مع الرجال الأجانب.

وفي المقابل أيضًا: لا غلظة فيه ولا فحش، ولا تعالي، بل قولًا وسطًا بين ذلك، مع كونه أيضًا بقدر الحاجة من غير زيادة ولا استرسال.

وهذا يدل على جواز مخاطبة المرأة للرجال، وأن صوتها ليس بعورة، لكن على الصفة المذكورة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[2]: «فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾».

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى[3]: «ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس

=
بطة ٢/ ٤٤٢، «حلية الأولياء» ٥/ ٣٤٥.

(١) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» ص٢٨.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٥).

فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها».

وقال السعدي- رحمه الله تعالى[١]: «المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يُطمع فيه، بخلاف من تكلم كلامًا لينًا ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:الآيتان:٤٣، ٤٤]».

وإذا كانت أزواج النبي ﷺ مع أنهن أطهر نساء الأمة وأبعدهن عن الفتنة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقد اختارهن الله- عز وجل- فراشًا لرسوله ﷺ، وهو سيد ولد آدم وأفضل الخلق وأطيبهم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

ومع ذلك نهين عن الخضوع بالقول، وأمرن بالقول المعروف في مخاطبة الرجال الأجانب، فإن غيرهن من نساء الأمة معنيات بذلك من باب أولى، فإن خوف الفتنة بهن أشد وأعظم، ولهذا يحرم عليهن الخضوع بالقول؛ لأن المرأة فتنة، كما قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**»[٢].

وقال ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[٣].

وقال ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل العاقل من**

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٨) من حديث أسامة بن زيد-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٢)، والترمذي في الفتن (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

إحداكن»[١].

ولهذا- والله أعلم- جعل الشرع التصفيق للنساء والتسبيح للرجال عندما ينتاب الإمام شيء في الصلاة كما في حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم بالتصفيق، إنما التصفيق للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء**»[٣].

وإذا كانت المرأة منهية عن الضرب برجلها في قوله: ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾ [النور:٣١] وذلك لئلا يسمع صوت الخلخال ونحوه من الزينة فهي منهية عن رفع صوتها من باب أولى؛ لأن رفع الصوت اقرب إلى الفتنة من صوت الخلخال.

فيجب على المرأة أن يكون كلامها مع غير المحارم عند الحاجة فقط، وعلى الصفة المذكورة، وهكذا عند كل من تخشى منه الفتنة- حتى ولو كان من بعض المحارم كمحارم الرضاع، والمصاهرة، بل ومحارم النسب ممن تخشى منه الفتنة، كيف لا وقد وجد من وقع على أخته بسبب ما يبث في القنوات الفضائية من الفسق والفجور والدعارة- نسال الله السلامة والعافية.

وعلى المرأة أن تحتاط لنفسها وتحذر من شراك مرضى القلوب، وخاصة بعدما توفرت وسائل المهاتفة حيث تجد بعض الفساق يتصل على أي رقم فإن أجابته امرأة أخذ يستدرجها في الكلام ليغريها في الوصول إلى مراد قلبه المريض.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (٨٠)-من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (١٢١٨)، ومسلم في الصلاة (٤٢١)، وأبوداود في الصلاة (٩٤٠)، والنسائي في الإمامة (٧٨٤).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١٢٠٣)، ومسلم في الصلاة (٤٢٢)، وأبوداود في الصلاة (٩٣٩)، والنسائي في السهو (١٢٠٧)، والترمذي في الصلاة (٣٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٣٤).

وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ عاصم ونافع وأبوجعفر: ﴿وَقَرْنَ﴾ بفتح القاف.

وقرأ الباقون: «وقِرن» بكسر القاف[١].

وأصلها: «واقررن» بفتح الراء وكسرها، يقال:اقَرَرْن واقِرِرْن.

وهو مأخوذ من القرار، وهو البقاء والمكث والسكون والاستقرار[٢].

فهو أمر لهن بالبقاء والسكون والاستقرار في بيوتهن، والأصل في الأمر الوجوب.

قال ابن كثير رحمه الله[٣]: «أي: إلزَمْنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تفلات، وبيوتهن خير لهن**»[٤].

وإضافة البيوت إليهن في قوله: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ إضافة تمليك، ويؤيد هذا أنهن- رضي الله عنهن- بقين في هذه البيوت بعد وفاته ﷺ، مع أنه ﷺ لا يورث، وكذا غيره من الأنبياء، كما قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**»[٥].

وقيل: إضافة البيوت إليهن في الآية إضافة اختصاص؛ لأن البيوت ملك له ﷺ كما يقال: «سرج الدابة» فأضيف السرج إلى الدابة إضافة اختصاص، وهي وسرجها

---

(١) انظر:«النشر» (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر:«لسان العرب»، مادة:«قرر».

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، وأبوداود في الصلاة (٥٦٦)، والنسائي في المساجد (٧٠٦)، والترمذي في الجمعة (٥٧٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٦)، وأحمد (٢/ ٧٢-٧٣)- من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما، وأخرجه أبوداود في الصلاة-ما جاء في خروج النساء إلى المسجد (٥٦٥)، وأحمد (٢/ ٤٣٨، ٤٧٥)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد أيضًا من حديث زيد بن خالد الجهني (٥/ ١٩٢-١٩٣)، ومن حديث عائشة-رضي الله عنها-(٦/ ٦٩-٧٠).

(٥) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٣، ٣٠٩٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٨، ١٧٥٩)-من حديث عائشة-رضي الله عنها، وأخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٧٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٠)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

ملك لصاحبها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] فهذه إضافة اختصاص، أي: البيوت التي تخصهن سكنًا لا ملكًا، إذ الغالب أن المرأة تكون في بيت يملكه زوجها، والصحيح الأول.

وفي إضافة البيوت إليهن إغراء لهن في لزوم بيوتهن فهو أستر وأحفظ لهن وأسلم، وهو الأصل، ولهذا يندب لهن القرار في البيوت، فإن خيفت الفتنة كان القرار عليهن واجبًا.

فلو كان في الخروج خير لهن بوجه من الوجوه لاستحب خروجهن لشهود الصلاة مع المسلمين.

ومن هنا يعلم أنه لا خير في خروج المرأة، بل ولا يجوز لها الخروج إلا للحاجة، وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: خرجت سودة بنت زمعة ليلًا فرآها عمر فعرفها، فقال: إنك والله يا سودة ما تخفين علينا، فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، وهو في حجرتي يتعشى، وإن في يده لعرقًا، فأنزل الله عليه، فرفع عنه، وهو يقول: «**قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن**»(١).

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ «الواو»: عاطفة، و«لا»: ناهية و﴿تَبَرَّجْنَ﴾ أصله تتبرجن. والتبرج: التكلف والتعالي لإظهار وكشف ما يجب إخفاؤه أمام الرجال، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]. أي: عالية مرتفعة، وقولهم «سفينةٌ بارجٌ» أي: مكشوفةٌ.

والتبرج إظهار المرأة محاسنها أمام الرجال الأجانب بكشف شيء من بدنها أو إظهار شيء من زينة اللباس والطيب والحلي وغير ذلك، قال الله- عز وجل: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿تَبَرُّجَ﴾: مصدر مضاف إلى الجاهلية، أي: تبرج أهل الجاهلية الأولى من حيث الزمن، وهي ما قبل الإسلام، قال مجاهد: «كانت المرأة تخرج

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٧)، ومسلم في السلام (٢١٧٠).

تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية»(١).

وعلى هذا فالجاهلية الأولى قبل الإسلام يقابلها جاهلية أخرى بعد الإسلام؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر في الربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سببت رجلًا فعيَّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «**يا أبا ذر أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٢).

والجاهلية الأخرى أشد وأعظم؛ لأنها بعدما شع نور الإسلام، فهي تَنَكُّبٌ للطريق- والطريق واضح، فهي تفوق الجاهلية الأولى المبنية على السذاجة أضعافًا مضاعفة، والواقع المرير يدل على هذا.

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الأولى من حيث المرتبة، فهي جاهلية دنيئة منحطة المرتبة، في أدنى درجة الانحطاط، كما يقال: جاهلية جهلاء، أي: مفرطة في الجهل والسفه والانحطاط.

والمعنيان يرجعان إلى معنى واحد، فالتبرج فعل أهل الجاهلية الأولى قبل الإسلام، وهو فعل أهل الجهل والسفه، قبل الإسلام وبعده، وهو منزلة دنيئة ومنحطة؛ ولذلك نهى الله عنه، والنهي يقتضي التحريم.

وليس في أمر الله- عز وجل- لأزواج النبي ﷺ بالقرار في بيوتهن، ونهيه لهن عن أن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ما يدل على عدم قرارهن في بيوتهن، ولا عن حصول شيء من التبرج منهن، وقد أمر الله- عز وجل- النبي ﷺ في مطلع هذه السورة بتقوى الله وهو إمام المتقين، كما قال ﷺ: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»(٣)، كما نهاه- عز وجل- عن طاعة الكافرين والمنافقين- وحاشاه ﷺ أن يطيعهم.

وإذا كانت أزواج النبي ﷺ- مع ما لهن من السبق والفضل وقوة الإيمان والمكانة الرفيعة، بكونهن فراش النبي ﷺ- إذا كن أمرن بالقرار في بيوتهن، ونهين عن أن

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٠)، ومسلم في الأيمان (١٦٦١)، وأبوداود في الأدب (٥١٥٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٠).

(٣) سبق تخريجه.

يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى فغيرهن من النساء مأمورات بالقرار في البيوت، ومنهيات عن التبرج من باب أولى.

فيجب على جميع المسلمات القرار في بيوتهن وعدم الخروج منها إلا لحاجة، ويحرم عليهن التبرج ومزاحمة الرجال في الأسواق، ومخالطتهم في الأعمال، لما في الخروج من البيوت والتبرج من الفتنة لهن وللرجال، كما قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**»(١).

وخير ما للمرأة قعر بيتها، فإنه أسلم لها وأحفظ من الشرور وأسبابها، وما يؤدي إليه ذلك من الخسارة في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

بعدما أمرهن بالقرار في البيوت ونهاهن عن التبرج وأسباب الشر أمرهن بالخير وأسبابه.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاة في اللغة: الدعاء، قال الله- عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم.

وهي في الشرع: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة هنا ما يشمل الفريضة والنافلة. أي: وأقمن الصلاة إقامة تامة، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

ويأتي دائمًا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية التعبير بالأمر بإقامة الصلاة دون الأمر بالصلاة؛ لأن المقصود الأعظم إقامتها إقامة تامة، لا أن تكون صلاة صورية فقط فهذه لا تنفع صاحبها، كما جاء في الحديث: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»(٢).

﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأعطين الزكاة وادفعنها لمستحقيها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة (٧٩٦)-من حديث عمّار بن ياسر-رضي الله عنه.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، سميت بذلك؛ لأنها تنمي المال وتزيده وتزكيه وتزكي نفس الغني والفقير على حد سواء.

وهي في الشرع: حق مالي مقدر في مال مخصوص في زمن مخصوص لطائفة مخصوصة، وهم أهل الزكاة الثمانية.

وقد تشمل الزكاة هنا ما يعم الواجب والصدقة، وأمرهن- رضي الله عنهن- بإيتاء الزكاة، إما إعطاءً بالفعل إذا كان عندهن مال، أو بالالتزام بدفعها إذا وجد عندهن مال.

وخص الصلاة والزكاة بالذكر من بين سائر العبادات؛ لأن في الصلاة الإخلاص للمعبود سبحانه، فهي أعظم العبادات البدنية؛ ولأن في الزكاة الإحسان إلى العبيد، فهي أعظم العبادات المالية.

﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فأمرهن أولًا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة- لفضلهما وشرفهما- ثم أمرهن بطاعة الله ورسوله عمومًا، والأمر للوجوب.

والطاعة: هي امتثال الطلب بفعل المأمور وترك المحظور، أي: أطعن الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله من الواجبات والمستحبات، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، ومن ذلك القيام بما أمر به ﷺ أو نهى عنه مما يتعلق بحقوق الزوجية.

وعطف الرسول ﷺ أو اسمه على لفظ الجلالة بالواو التي تقتضي الجمع والتشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله- تعالى، كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ إنما: أداة حصر، والحصر هو: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

وهو حصر إضافي لا يقتضي أن الله لا يريد بآل البيت إلا إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم، بل إن الله يريد بهم هذا وكل خير في الدنيا والآخرة.

والحصر الإضافي هو الذي لا يكون محصورًا بحسب الواقع في هذا الشيء.

والحصر الحقيقي هو الذي يكون محصورًا حسب الواقع بهذا الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء:١٧١].

فالألوهية مقصورة على الله- عز وجل- لا إله غيره ولا رب سواه.

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، فالزكاة صرفها محصور في الأصناف الثمانية المذكورة في هذه الآية، لا يجوز صرفها إلى غيرهم، وهكذا.

والمعنى: إنما يريد الله شرعًا بما أمركن به من القرار في البيوت، وترك التبرج، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله.

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ «اللام»: زائدة، بمعنى «أن»، أي: يريد الله أن يذهب عنكم الرجس. والرجس: النجس حسًّا ومعنى.

فالرجس النجس معنى: الشرك والكفر والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة:٩٠].

والرجس النجس حسًّا: القاذورات والأذى والحدث؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن الاستجمار بالروثة، وقال: «إنها رجس»(١).

والمراد في الآية هنا الرجس المعنوي، أي: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس المعنوي من الشرك والكفر والمعاصي وسيئ الأخلاق وقبيح الأعمال.

أما الرجس الحسي فإن أهل البيت كغيرهم يحصل لهم الأحداث والنجاسة الحسية ويتطهرون منها كغيرهم من المؤمنين.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، ﴿أَهْلَ﴾: منصوب على النداء، أي: يا أهل البيت، و«ال» في البيت للعهد الذهني، أي: البيت المعهود المعروف، الذي هو أفضل البيوت وهو بيت النبي ﷺ، كما في قوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود:٧٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٦)، والنسائي في الطهارة (٤٢)، والترمذي في الطهارة (١٧)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣١٤)-من حديث ابن مسعود-رضي الله عنه.

وتطلق «أهل» على زوج الرجل؛ ولهذا قال ﷺ لأحد أصحابه لما تزوج: «**بارك الله لك في أهلك**»(١)، وقال في قصة الإفك: «**من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت من أهلي إلا خيرًا**»(٢).

كما تطلق «أهل» على أهل بيت الرجل كلهم من أزواج وأولاد وغيرهم، كما قال ﷺ في الأضحية: «**اللهم هذا عني وعن أهل بيتي**».

والمراد بأهل البيت في الآية أزواج النبي ﷺ؛ لأن الخطاب والسياق معهن- رضي الله عنهن- قال عكرمة: «من شاء باهلته أنها في أزواج النبي ﷺ»(٣).

قال ابن كثير رحمه الله- تعالى(٤): «وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهم سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح».

وهذا لا ينافي ما ثبت في الأحاديث أن الرسول ﷺ وضع كساءً على فاطمة وعلي والحسن والحسين- رضي الله عنهم- ثم قرأ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، وقال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي**» كما في حديث واثلة بن الأسقع- رضي الله عنه- قال: «جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين آخذًا كل واحد بيده حتى دخل، فأدنى عليًّا وفاطمة، وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنًا وحسينًا كلًا منهما على فخذه، ثم لفَّ عليهما ثوبه، أو قال كساءه، وتلا هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ **اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٧٨٠)-من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٣٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر:«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣١٣٢)، «جامع البيان» (١٩/ ١٠٨)، «أسباب النزول» للواحدي ص(٢٤٠).

(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٠٧).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٦)، وأخرجه أيضًا =

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه «مِرْط مُرَحَّل» من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»(١).

وعن زيد بن أرقم قال: «قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا بماء يدعى خُمًّا- بين مكة والمدينة- فحمد الله وأثنىٰ عليه، ووعظ وذكَّر، ثم قال: «**أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**» فقال له حصين(٢): ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال:نعم».

وفي رواية: فقلنا له من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: «لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها، فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده»(٣).

قال ابن كثير(٤)ـ بعد هذه الرواية والتي قبلها: «وهكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى، والأخذ بها أحرى، وهذه الرواية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم الذين حرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل

=

أحمد (٦/ ٢٩٢-٢٩٦)، والطبري أيضًا ١٩/ ١٠٣-١٠٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة-فضائل أهل بيت النبي ﷺ (٢٤٢٤)، وأبوداود (٤٠٣٢)، والترمذي (٢٨١٣)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٢).

(٢) يعني:حصين بن سبرة.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة-فضائل علي-رضي الله عنه-(٢٤٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٦٦)، والدارمي في فضائل القرآن (٣٣١٦).

(٤) في تفسيره (٦/ ٤١١).

الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح جمعًا بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعًا أيضًا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحَّت؛ فإن في بعض أسانيدها نظرًا، والله أعلم. ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى- بعد هذا كله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤]».

فنساؤه ﷺ أهل بيته من حيث الزوجية، وعلي وفاطمة والحسن والحسين أهل بيته من حيث القرابة. وكذا كل من تحرم عليهم الصدقة، وهم بنو هاشم، كلهم من أهل بيته، وهم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، فكل هؤلاء من أهل بيته ﷺ، وفي هذا بيان بطلان قول الرافضة الذين يخصُّون آل البيت بعلي وفاطمة والحسن والحسين، ويقولون- أخزاهم الله: إن الله لم يرد أن يطهر أزواج النبي ﷺ، ويرمون عائشة- رضي الله عنها- بالزنا- عليهم من الله ما يستحقون- وهي الطاهرة المطهرة المبرأة من فوق سبع سموات.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي: ويطهركم من الرجس، ﴿تَطْهِيرًا﴾: مصدر مؤكد، أي: تطهيرًا بالغًا تامًّا.

وعطف التطهير على الإذهاب؛ لأن التطهير أبلغ من الإذهاب؛ لأنه بعد إذهاب الرجس قد يبقى له أثر، فأتبع ذلك بقوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي: ويطهركم منه تطهيرًا تامًّا بحيث لا يبقى له أثر.

وفي هذا فضل منه- عز وجل- وامتنان على أهل بيت النبي ﷺ وحث لهم وترغيب في حمده وذكره وشكره بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ حيث جعل بيته ﷺ أبعد البيوت عن الرجس وأطهرها.

ولهذا يكفر من قذف زوجة من أزواجه ﷺ كما يفعل الرافضة أخزاهم الله في قذفهم عائشة- رضي الله عنها. ويجب قتل من فعل ذلك حتى لو تاب، لما في ذلك من القدح في مقام النبوة؛ لأن الله- عز وجل- قال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور:٢٦].

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

لما أمر عز وجل نساء النبي ﷺ بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم وبيَّن طريقه فقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱذْكُرْنَ ﴾ الخطاب لنساء النبي ﷺ أي: تذكرن واقرأن وتدبرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة واعملن به واعرفن فضل الله ومنته العظيمة عليكن في ذلك وبلغنه للناس.

﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة، ومعنى ﴿يُتْلَىٰ﴾: يقرأ ويقص ويتّبع؛ لأن التلاوة نوعان:

١- تلاوة لفظية، وهي القراءة.

٢- وتلاوة معنوية بمعنى الاتباع، يقال: تلاه يتلوه، إذا اتبعه، وهي أهم، بل هي جل المقصود من التلاوة اللفظية.

و﴿ءَايَٰتِ﴾ جمع آية، وهي في اللغة: العلامة والدلالة، وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١- آيات كونية.

٢- آيات شرعية.

والمراد بها هنا الآيات الشرعية في القرآن الكريم، وسميت آيات لما فيها من الإعجاز اللفظي والمعنوي، وما فيها من الهدى، والتشريع الصالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، الدال على أنها من عند الله- عز وجل- كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]. ولما فيها من الدلالة على صدق من جاء بها من عند الله عز وجل.

والقرآن الكريم يتلى بمعنى يقرأ ويقص في بيوتهن بقراءة جبريل على النبي ﷺ حال نزول الوحي، ولم يكن ينزل عليه ﷺ الوحي في لحاف واحدة منهن سوى

عائشة- رضي الله عنها[١]، ويقرأ عليهن ويقص بقراءة النبي ﷺ عليهن وتعليمه لهن، وبقراءتهن هن فقد كان يسمع لبيوته ﷺ دوي بالقراءة كدوي النحل.

والقرآن أيضًا يتلى في بيوتهن بمعنى يُتبع وتطبق أحكامه وآدابه في بيوتهن فهو كتاب هداية ومنهج حياة.

﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ الحكمة: السنة النبوية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣].

ومن الحكمة أيضًا: ما يشتمل عليه القرآن الكريم من الحِكَم والأحكام والأمر والنهي.

ومنها أيضًا: معرفة العلة والسبب لمشروعية الأحكام، مما يرغب في الإيمان وقبول الحق، ويزيد في اليقين.

فالسُّنَّة حكمة منزلة من عند الله- عز وجل؛ لأنها وإن كانت من فعل الرسول ﷺ أو قوله أو تقريره، فهي وحي من عند الله- عز وجل- كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤].

كما أن القرآن الكريم كله حكمة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس:١].

وكذا ما يؤخذ من القرآن والسنة من الأحكام والحِكَم ومعرفة العلل لمشروعية الأحكام، كل ذلك من عند الله عز وجل.

والمعنى: تذكرنّ واعرفن فضل الله ونعمته عليكن، واشكرن الله على ذلك واحمدنه وتدبرن ما يقرأ ويقص في بيوتكن من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تدبرن ذلك لفظًا ومعنى، واتّبعنه، واعملن بما فيه من الأحكام والأخلاق والآداب والحِكَم، واذكرن ذلك للناس وبلغنه لهم.

ويدل هذا على أن المنعم عليه بنعمة يجب عليه شكرها، وأن عليه من الشكر ما ليس على غيره ممن لم تحصل له تلك النعمة، وأن الواجب على من أعطاه الله العلم

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١١).

والمعرفة أعظم من الواجب على غيره.

كما يدل على فضل البيوت التي يتلى فيها القرآن والسنة، وتطبق فيها أحكامهما وآدابهما، وفي الحديث يقول ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»(١)، أي: اجعلوا فيها شيئًا من العبادة، من الصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحو ذلك، ولهذا قال ﷺ: «**فصلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»(٢).

وإذا كانت أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن- مأمورات بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله- عز وجل- وسنة رسوله ﷺ، فالأمة كلها مأمورة بذلك من باب أولى، ذكورها وإناثها، فإن في ذلك الهدى والفلاح والسعادة والنجاح. نسأل الله الهداية والتوفيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾، ﴿كَانَ﴾: مسلوبة الزمان، أي: إنه- عز وجل- كان وما زال لطيفًا خبيرًا.

وقوله: ﴿لَطِيفًا﴾، أي: ذا اللطف الواسع التام، وله معنيان:

١- **اللطف بمعنى: معرفة أسرار الأمور وحكمها الدقيقة الخفية**، فهو أخص من الخبير، فاللطيف يدرك الدقيق، والخبير يدرك الخفي، ولهذا قُدم اللطيف على الخبير في جميع المواضع التي اقترنا فيها في القرآن، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج:٦٣، لقمان:١٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

٢- **واللطف بمعنى الإحسان إلى عباده والتيسير عليهم والتخفيف عنهم**، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٩]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ﴾ [يوسف:١٠٠]، فعدي «اللطيف» في الآية

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (٢٠٤٢)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٣١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨١)، وأبوداود في الصلاة (١٠٤٤)، والنسائي في قيام الليل (١٥٩٩)، والترمذي في الصلاة (٤٥٠)-من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

الأولى بالباء، وعدي في الآية الثانية باللام؛ ولهذا قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- في «النونية»(١):

وهـو اللطيـف بعبـده ولعبـده ... واللطـف في أوصـافه نوعـان
إدراك أسرار الأمـور بحكمـة ... واللطف عند مواقع الإحسان

قال السعدي- رحمه الله(٢)- بعد أن ذكر أن «اللطيف» الذي يدرك سرائر الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السموات والأرض، والأعمال التي تُبيَّن وتُسَر، قال: «ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير ويعصمه من الشر بطرق خفية لا يشعر بها ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقًا له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل».

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٣):

وكـم لله مـن لطـف خفـي ... يـدق خفـاه عـن فهـم الـذكيِّ
وكـم يسـر أتـى مـن بعـد عسـر ... ففـرج كربـة القلـب الشـجيِّ
وكـم أمـر تسـاء بـه صـباحًا ... وتأتيـك المسـرة بالعشـيِّ
إذا ضـاقت بـك الأحـوال يومًـا ... فثـق بالواحـد الفـرد العـليِّ
ولا تجـزع إذا مـا نـاب خطـب ... فكـم لله مـن لطـف خفـيِّ

وقوله ﴿خَبِيرًا﴾، أي: ذا الخبرة والاطلاع الواسع على بواطن الأمور وخفياتها ودقائقها، وهو أخص من العليم، وإذا كان عز وجل عالمًا بالبواطن والخفيات والدقائق فعلمه بالظواهر والجليات وجلائل الأمور من باب أولى.

ومن لطفه- عز وجل- بأزواج النبي ﷺ بلوغهن هذه المنزلة بأن جعلهن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة، ومن خبرته بهن اختيارهن لرسوله ﷺ

---

(١) ص(١٤٩).
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٠-٢٢١).
(٣) انظر: «ديوانه» ص١٦٠.

أزواجًا، وإعطاؤهن هذا الفضل، وتخصيصهن به.

وفي كونه- عز وجل- عالمًا بأسرار الأمور وحكمها، وبدقائقها وجلائلها، وبواطنها وظواهرها، وخفياتها وجلياتها، وكونه ذا لطف وإحسان إلى عباده: ترغيب وترهيب ووعد ووعيد، فعلينا جميعًا مراقبته في السر والعلانية، والبُعد عن معصيته، والتعرض لنفحات جوده وإحسانه بلزوم طاعته.

الفوائد والأحكام:

١- تميز نساء النبي ﷺ وعلو مكانتهن على سائر النساء، فهن فراش النبي ﷺ وأزواج أفضل الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين، وأمهات المؤمنين، فما عليهن من تقوى الله أعظم مما على من غيرهن؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

٢- أن الإنسان قد يشرف بشرف من اتصل به، فشرف أزواج النبي ﷺ بكونهن فراشه ﷺ، وهكذا يشرف الجليس بجليسه الصالح، ونحو ذلك.

٣- وجوب تقوى الله على أزواج النبي ﷺ كغيرهن.

٤- نهي نساء النبي ﷺ عن لين الكلام وترقيقه والخضوع بالقول عند مخاطبة الرجال الأجانب، وغيرهن من النساء يحرم عليهن ذلك من باب أولى؛ لضعف إيمانهن وخوف الفتنة بهن وعليهن من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾.

٥- أن من تقوى الله- عز وجل- عدم خضوع المرأة بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾.

٦- أن من الرجال مَن في قلبه مرض الشهوة، ومن النساء أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾؛ ولهذا يجب على المرء الاحتراز من هذا المرض بالابتعاد عن مواطن الفتنة وأسبابها، فمن ذا الذي يضمن سلامة قلبه من هذا المرض؟ ولهذا حرم الإسلام الخلوة بالأجنبية مطلقًا، وأمر بالبعد عن الوسائل والأسباب المؤدية إلى الزنا والفواحش، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾

[الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

ويظلم نفسه أشد الظلم مَن يعرضها لأسباب الفتنة ظانًّا أنه بمعزل عنها كما هو حال الكثيرين- والله المستعان.

٧- جواز مخاطبة المرأة للرجال عند الحاجة إلى ذلك بالقول المعروف من غير خضوع في ذلك، وأن صوتها ليس بعورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٨- وجوب قرار المرأة في بيتها وعدم الخروج إلا لحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ فهذا أستر وأحفظ لهن وأسلم، وهذا- وإن كان في أزواج النبي ﷺ فغيرهن مأمورات بذلك من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة عليهن وبهن أشد، فخير ما للمرأة قعر بيتها، وأن لا ترى الرجال ولا يرونها كما قالت عائشة- رضي الله عنها.

٩- نهي المرأة المسلمة من أن تتبرج تبرج الجاهلية الأولى بإظهار محاسنها أمام الرجال الأجانب ومخالطتهم؛ لقوله تعالى لنساء النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وغيرهن من النساء منهيات عن ذلك من باب أولى.

١٠- ذم الجهل، وذم الجاهلية الأولى- جاهلية ما قبل الإسلام، وفي هذا ذم للجاهلية المعاصرة من باب أولى؛ لأنها اختيار للجهل عن علم وبصيرة، لا عن سذاجة، وهي أشد وأنكى من الجاهلية الأولى، بل تفوقها أضعافًا مضاعفة؛ لأنه تهيأ لها من أسباب الفساد والفتنة ووسائلها ما لم يتهيأ لغيرها، نسأل الله العافية والسلامة.

١١- أمر الله- عز وجل- وإيجابه على نساء النبي ﷺ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وهو أمر لهن ولسائر الأمة رجالها ونسائها.

١٢- أن المطلوب إقام الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أقمنها إقامة تامة.

١٣- أن الصلاة أعظم من الزكاة؛ لهذا قدمت في الذكر على الزكاة بقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وهي أعظم العبادات البدنية، كما أن الزكاة أعظم

العبادات المالية؛ لهذا خصهما الله بالذكر من بين العبادات.

١٤- جواز عطف اسم الرسول ﷺ ووصفه على اسم الله- عز وجل- بالواو؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

١٥- تقديم الخاص وهو الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على العام وهو الأمر بطاعة الله ورسوله، وعطفه عليه لبيان أهمية الخاص.

١٦- عناية الله- عز وجل- بأهل بيت النبوة وإرادته إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم تطهيرًا كاملًا من الفواحش والذنوب والمعاصي ومن الخضوع بالقول، وتبرج الجاهلية الأولى، وغير ذلك، وذلك بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وفي هذا إظهار فضيلة أهل البيت؛ لأن الله خصهم هنا بإرادته شرعًا ومحبته إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم، وإلا فإنه عز وجل يريد ذلك لجميع العباد.

١٧- إثبات الإرادة الشرعية لله تعالى.

١٨- أن أزواج النبي ﷺ من أهل بيته؛ لأن الخطاب وسياق الآيات معهن، فلا يجوز إخراجهن من أهل بيته، ولهذا فإن من قذف واحدة منهن كفر؛ لأن بيت النبوة أطهر البيوت وأبعدها عن الرجس.

١٩- أمر الله- عز وجل- لأزواج النبي ﷺ بذكر ما يتلى في بيوتهن من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تذكيرًا لأنفسهن بذلك، وتدبرًا له، تلاوة ومعنى وأحكامًا، تعلمًا وتعليمًا لأنفسهن ولغيرهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، وغيرهن من الأمة مأمور بذلك من باب أولى.

٢٠- الامتنان على أزواج النبي ﷺ بما يتلى في بيوتهن من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ونعمت النعمة هذه لمن مَنَّ الله عليه بها وعرف قدرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

٢١- الرد على الذين ينكرون السنة، ويرون الاقتصار على العمل بالقرآن.

٢٢- أن مَن أنعم الله عليه بنعمة عظيمة يجب عليه شكرها بقدرها، وأن الواجب على مَن آتاه الله العلم والحكمة أعظم من الواجب على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

٢٣- فضل الله- عز وجل- على أمهات المؤمنين، ورفع شأنهن بما يسر لهن من نقل الكثير من السنة وشرائع الدين، وبخاصة ما يتعلق بأحوال النبي ﷺ الخاصة مع أهله وفي بيوته وبيوت زوجاته ﷺ، وغير ذلك.

٢٤- فضل البيوت التي يتلى فيها القرآن والسنة ويتدبر فيها ألفاظهما ومعانيهما وتطبق فيها أحكامهما وآدابهما.

٢٥- إثبات صفة اللطف التام له- سبحانه وتعالى-، بالإحسان لعباده وبهم، وإدراك أسرار الأمور وحِكَمها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾.

٢٦- إثبات صفة الخبرة التامة له- عز وجل- والعلم الشامل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة ما أعدّه لأزواج النبي ﷺ من الثواب، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لغيرهن من الرجال والنساء.

سبب النزول:

عن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذْكَر في القرآن كما يُذْكَر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أُسرِّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر: «**يا أيها الناس، إن الله يقول:** ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى آخر الآية»(١).

ولهذا- والله أعلم- جاء التفصيل في ذكر حكم الرجال والنساء في هذه الآية خلافًا لما عليه غالب خطابات القرآن الكريم، فهي توجه للذكور، من باب تغليبهم على الإناث؛ لأن الذكور على وجه العموم أشرف، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨]؛ ولأنهم قوامون على النساء يجب عليهم تعليمهن وتوجيههن، وإذا استقاموا في الغالب استقمن.

ومثل هذه الآية في التفصيل في ذكر حكم الرجال والنساء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [النساء:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧]، وقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران:١٩٥]. وهذه الآيات كلها نزلت لأسباب وأحوال لأجلها

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٥)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١١٠-١١١).

جاء التفصيل في ذكر حكم الرجال والنساء؛ تنبيهًا على العناية بالمرأة، وعظم مكانتها في الإسلام.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: اسمها منصوب بها وعلامة نصبه الياء؛ لأنه جمع مذكر سالم، ﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾: معطوف عليه منصوب بالكسرة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وكذا ما بعده معطوف عليه، وخبر ﴿إِنَّ﴾ هو قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقدَّم الذكور على الإناث في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ وما بعده؛ لأن الذكور أفضل من حيث العموم- كما تقدم.

أما من حيث الخصوص فكم من امرأة خير من زوجها بل من عشرات الرجال، ولهذا ينبغي أن نقدم في مخاطباتنا وكتاباتنا من قدّم الله- عز وجل- لا كما يقول بعضهم: سيداتي آنساتي سادتي.

كما أنه لا يجوز أن يفخر رجل على امرأة، سواء كانت زوجته أو غيرها؛ لأنها قد تكون خيرًا منه دينًا وخلقًا وكرمًا، بل وشجاعة، وهذا أمر مشاهد وواقع، والفخر كل الفخر والعز كل العز بتقوى الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

ومعنى الإسلام: الاستسلام لله ظاهرًا، أي: بفعل الجوارح الظاهرة، بأداء الأعمال الظاهرة من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك، كما جاء في حديث جبريل- عليه السلام- حين سأله النبي ﷺ عن الإسلام، فقال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلًا**»(١).

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يؤخذ من عطف هذا على ما قبله أن الإسلام غير الإيمان؛ لأن العطف في الأصل يقتضي المغايرة.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣)، من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

ومعنى الإيمان: هو الاستسلام لله باطنًا بتصديق القلب وإيمانه بكل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب التي أخبر الله بها في كتابه، أو في سنة رسوله ﷺ، ومن ذلك: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، كما جاء في حديث جبريل- عليه السلام- حين سأله النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى**»(١).

والإسلام والإيمان من الكلمات المترادفة التي إذا اجتمعت افترقت، أي: صار لكل منهما تعريف خاص، وإذا افترقت اجتمعت، أي: حمل كل منهما على معنى الآخر، كالبر والتقوى، والفقير والمسكين، ونحو ذلك.

والإيمان أعلى وأخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات:١٤].

ولما أعطى رسول الله ﷺ رهطًا وسعد جالس وترك رجلًا يقول سعد: هو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان؟ والله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مسلمًا**» ثلاث مرات، يقول ﷺ: «**أو مسلمًا**»(٢).

وإنما كان الإيمان أخص وأعلى؛ لأنه في القلب الذي عليه مدار صلاح الجسد كله وفساده، كما قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٣).

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي: والمطيعين والمطيعات، مع دوام الطاعة والذل والخضوع

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان-إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة (٢٧)، ومسلم في الإيمان-من يخاف على إيمانه لضعفه (١٥٠)، وأبوداود في السنة (٤٦٨٣)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٢)، وأحمد (١/ ١٧٦)-من حديث سعد بن أبي وقاص-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

والسكون؛ لأن القنوت في الأصل: دوام الطاعة والتذلل والخضوع لله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الروم:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٣].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى(١): «فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها- يعني الإيمان- ثم القنوت ناشئ عنهما».

أي: أن القنوت أعلى من الإسلام والإيمان؛ لأنه ناشئ عنهما، فالقانت معه الإسلام والإيمان مع زيادة القنوت.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ الصدق في الأصل: هو الإخبار بما يطابق الواقع، أي: الصادقين والصادقات بأقوالهم، بكونها مطابقة للواقع، وبإيمانهم بكونه خالصًا لله تعالى، وبأعمالهم بكونها خالصةً لوجه الله، موافقة لشرعه.

والصدق منجاة لصاحبه في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»(٢).

وفي قصة الثلاثة الذين خلِّفوا كما رواها البخاري وغيره أعظم شاهد على فضل الصدق وعظيم عاقبته، فبسبب الصدق خلد الله ذكرهم في القرآن الكريم، وأمر بالاقتداء بهم فقال في آخر قصتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب- باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (٦١٣٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب- باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧)، وأبوداود في الأدب (٤٩٨٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧١)-من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

[النور:١١٩].

قال مالك بن دينار رحمه الله: «قولوا لمن لم يكن صادقًا: لا تتعب»(١).

وروي عن ابن المبارك: «قل لمن لم يكن مخلصا لا تتعب».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «فإن الصدق خصلة محمودة، ولهذا كان بعض الصحابة لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا».

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ ذكر الله- عز وجل- الصبر وسط هذه الصفات العشر؛ لأنها كلها تحتاج إلى الصبر.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد»، ثم رفع صوته، فقال: «ألا لا إيمان لمن لا صبر له»(٣).

والصبر في اللغة: الحبس والمنع.

وهو حبس النَّفْس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله، وذلك بالصبر على أحكام الله الشرعية والكونية والجزائية، فلا يكرهها، ولا يتسخط لها أو يتضجر منها.

والصبر ثلاثة أنواع:

١- صبر على طاعة الله.

٢- وصبر عن معصية الله.

٣- وصبر على أقدار الله المؤلمة.

فأعظمها: الصبر على طاعة الله، ففيه تكليف وعمل، كأداء الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وغير ذلك. ومنه، بل ومن أعظمه صبر نبينا محمد ﷺ على ما لقي من أذى قومه في سبيل الله. وكذا غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) انظر: «تلبيس إبليس» ص١٣٧.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤١٤).

(٣) انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

ثم الصبر عن معصية الله، وهو: حبس النفس وكفها ومنعها عن بعض شهواتها المحرمة كالزنا والربا والاعتداء والسرقة ونحو ذلك.

فهو كف وحبس للنفس عن المحرمات، لا عمل فيه، ولهذا جاء في المرتبة الثانية بين أنواع الصبر عمومًا.

لكن بالنسبة للصابرين فقد يكون بعضهم الصبر على الطاعة أهون عليه من الصبر عن المعصية والفاحشة، ومن أعظم الصابرين عن المعصية والفاحشة نبي الله يوسف بن يعقوب- عليهما السلام. فقد ابتلي بذلك فصبر فصرف الله عنه السوء والفحشاء، ولهذا قال فيما حكى الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف:٩٠].

ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة حين وقوع المصيبة، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦].

قال ﷺ لإحدى بناته لما أخبر أن ابنًا لها في النزع، قال ﷺ: «**مرها فلتصبر وتحتسب فإن لله ما أخذ، وله ما أبقى، وكل شيء عنده بأجل مسمى**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري**» قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي. ولم تعرفه، فقيل لها إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٢).

ومنه صبر أيوب- عليه السلام- على المرض، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾ [ص:٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله(٣): «هذه سجية الثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)-من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٣)، ومسلم في الجنائز (٩٢٦)، وأبوداود في الجنائز (٣١٢٤)، والنسائي في الجنائز (١٨٦٩)، والترمذي في الجنائز (٩٨٨)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٩٦).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤١٤).

بأن المقدور كائن لا محالة، وتلقي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها».

وجاء الصبر على أقدار الله في المرتبة الثالثة؛ لأنه صبر على أمر ليس من مقدور الإنسان، قال ابن القيم: «ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم»، قال الأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا، وإلا سلوت سلو البهائم»(١).

وقال الشاعر:

أتصبر للبلوى رجاءً وحِسبةً ... فتؤجرَ أم تسلو سلو البهائمِ(٢)

والصبر منزلة عظيمة ودرجة عالية رفيعة أمر الله بها رسوله ﷺ سيد الخلق وأفضلهم فكانت من أخص صفاته ﷺ وصفات أولي العزم من الرسل- عليهم الصلاة والسلام- وصفات أنبياء الله وأصفيائه، ذكره الله- عز وجل- في أكثر من تسعين موضعًا في كتابه العزيز؛ لأنه من عزائم الأمور، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هو:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج:٥]، أي: لا جزع فيه.

وأمر الله به المؤمنين جميعًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

ومن ثمرات الصبر العظيمة أن الله يحب الصابرين وهو معهم كما قال عز وجل:

---

(١) انظر: «زاد المعاد» ٤/ ١٧٧، ١٧٨.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «الصناعتين» ص٢١٢.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

وهو سبب للإمامة في الدين والنصر على الأعداء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠].

وهو من أسباب التوفيق لخصال الخير والخلق الطيب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص:٨٠].

وهو سبب لمضاعفة الأجور، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص:٥٤].

وسبب للخيرية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وسبب للعقبى الحسنة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٩].

وسبب للمغفرة والرحمة والفوز والجزاء الحسن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٥، ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ

جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٢].

وإنما أطلت في موضوع الصبر لحاجة الأمة إليه وعظيم منزلته فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «**الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله**»(٢).

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ الخشوع: السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع الحامل عليه الخوف من الله ومراقبته في أداء العبادات كلها من صلاة وزكاة وصيام وحج وغير ذلك، كما في الحديث: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٣).

ومن أعظم ذلك الخشوع في الصلاة التي هي الصلة بين العبد وبين ربه، وعمود الإسلام، وأعظم أركانه بعد الشهادتين وذلك بحضور القلب فيها وسكون الجوارح، وتذكر المسلم أنه في هذا الموقف يناجي ربه ملك الملوك، فلا يترك قلبه سارحًا في الفلوات، ولا جوارحه تتحرك هنا وهناك، فرِجْل تقدم ورِجْل تؤخر، وامتخاط، ونظر في الساعة، والتفات يمينًا وشمالًا، ونحو ذلك.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ أي: والمتصدقين والمتصدقات من أموالهم فرضًا ونفلًا، والصدقة بذل المال تقربًا إلى الله- عز وجل- والإحسان إلى المحتاجين في وجوه الخير عامة. فهي تدل على صدق إيمان باذلها، ومن أهمها الزكاة الواجبة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة:٦٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)-من حديث أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني موقوفًا بإسناد صحيح، انظر:«مجمع الزوائد» (١/ ٥٧). وانظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان-سؤال جبريل النبي عليه السلام عن الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان-باب الإسلام ما هو؟ وبيان خصاله (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

وتشمل الصدقة أيضًا جميع النفقات الواجبة والمستحبة على الأقارب، وعلى الفقراء والمساكين والضيوف، قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

وقال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» فذكر منهم: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١)، وقال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(٢).

والتصدق أعم من إنفاق المال وبذله في سبيل الله، كما قال ﷺ: «**إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»(٣).

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصيام: هو الإمساك عن المفطرات الحسية والمعنوية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

ويشمل صوم الواجب كصوم رمضان والكفارات والنذور، والصوم المندوب كصيام أيام البيض والاثنين والخميس، وست من شوال، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، وصيام يوم وفطر يوم. وكذا صوم أيٍّ يوم من السنة ما لم يكن منهيًا عن صيامه، كالعيدين، وإفراد الجمعة بالصوم، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان-من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة-فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١)، وأبوداود في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)-من حديث أبي ذر-رضي الله عنه.

وفي الحديث: «الصوم نصف الصبر»(١)؛ لأن فيه أنواع الصبر الثلاثة كلها.

وأفرد الصيام بالذكر؛ لأنه عبادة مستقلة.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ لما ذكر الصائمين والصائمات أتبعه بقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾؛ لأن الصيام من أكبر العون على كسر الشهوة والغض من البصر وحفظ الفرج وتحصينه، كما في حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي ﷺ شباب لا نجد شيئًا، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(٢).

والمعنى: والحافظين فروجهم والحافظات فروجهن عن الفواحش وما حرم الله.

ومن أخص صفات المؤمنين والمؤمنات وأوجبها حفظ فروجهم عما حرم الله عليهم من الفواحش، من الزنا، واللواط، والاستمناء باليد، والسحاق، وما يؤدي إلى فعل الفواحش من الخلوة المحرمة والنظر المحرم والسماع المحرم وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون:٥-٧، المعارج:٢٩-٣١].

وقد جعل الله- عز وجل- غريزة الشهوة في الإنسان؛ ليحصل التزاوج بين الذكور والإناث للتناسل وعمارة الكون، وإشباع هذه الرغبة بالطريق الشرعي.

وفي ذلك أيضًا ابتلاء واختبار ليتميز من يتقي الله في استعمالها فيما أباح الله- عز وجل- ويجاهد النفس والهوى والشيطان عن استعمالها فيما حرم الله.

فعلى الإنسان المسلم أن يجاهد نفسه بغض بصره، وحفظ فرجه، ذكرًا كان أو أنثى، وليعلم أن هذه الغريزة موجودة عنده وعند غيره، ولكن الشأن كل الشأن في المجاهدة

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥١٩، والدارمي في الطهارة ٦٥٤-من حديث رجل من بني سليم عن رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٦)، ومسلم في النكاح (١٤٠٠)، وأبوداود في النكاح (٢٠٤٦)، والنسائي في الصيام (٢٢٣٩)، والترمذي في النكاح-ما جاء في فضل التزويج والحث عليه (١٠٨١)، وابن ماجه في النكاح (١٨٤٥).

في البعد بها عن أسباب الفتنة وما حرم الله، كما جاء في مقالة أحد النفر الثلاثة الذين أووا إلى غار، فانطبقت عليهم الصخرة، ولم يستطيعوا الخروج إلا بالتوسل إلى الله- عز وجل- بصالح أعمالهم حيث قال أحدهم: «اللهم إنه كانت لي ابنة عم، وكانت أحب الناس إليَّ، فراودتها عن نفسها، فامتنعت، حتى ألَّمت بها سنة، فجاءتني فأعطيتها شيئًا من المال على أن تخلي بيني وبين نفسها، فلما جلست منها مجلس الرجل من امرأته، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها وتركت المال الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه» الحديث(١).

واعلم أخي الكريم أنه كلما اشتد هذا الداعي عند الإنسان وجاهده، فإنه أعظم أجرًا من غيره.

وإن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يسلم من أسباب الفتن، وما يؤدي إلى الوقوع في الفواحش من الخلوة المحرمة والنظر المحرم، والسماع المحرم، ورؤية الأفلام المثيرة للغرائز في القنوات الفضائية وغيرها، ومن أعظم الابتلاء أن تعرض له تلك الأسباب مع ضعفه أمام نوازع النفس وشهواتها.

ولهذا يُجرم أعظم الإجرام في حق الأمة دعاة التغريب والفساد والانحلال، الذين ينادون بإخراج المجتمع عن تعاليم الإسلام السامية ومبادئه الرفيعة العالية، الداعية إلى غض الأبصار، وحفظ الفروج، والبعد عن أسباب الفتنة، حيث ينادي أولئك المستغربون الذين هم من جلدتنا ويتكلمون بلغتنا، ينادون بمقالاتهم وكتاباتهم بكشف المرأة عن وجهها ونبذ الحجاب، وبخروجها إلى العمل، والاختلاط بالرجال، ويقولون: «إن المجتمع يتنفس برئة واحدة».

وهم بهذا النداء يريدون إشباع رغباتهم وجر الأمة إلى أسباب الفتن والفواحش، وقد قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٦٥)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٤٣)، وأبوداود في البيوع (٣٣٨٧)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

ويا ليت هؤلاء المستغربين عندما ينادون بتقليد الغرب في الانحلال يُنْصِفون في ذلك فينادون في المقابل بتنظيم المؤسسات في العالم العربي والإسلامي والأخذ بأسباب التقدم الصناعي والتجاري والزراعي والإداري، وتنظيم الوقت والنوم المبكر والقيام المبكر- كما هو الحال عند الغربيين.

فالعجب كل العجب أن هؤلاء المستغربين ينادون بتقليد الغرب بالغث فقط، ويا ليتهم على الأقل أنصفوا بتقليدهم بالغث والسمين، إن كان لابد من ذلك، نسأل الله إصلاح الأحوال.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ختم الله- عز وجل- الصفات السابقة بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ لأن الذكر يشمل جميع الصفات المذكورة وغيرها من أنواع الطاعات الفعلية والقولية، الظاهرة والباطنة، من الواجبات والمستحبات، وغير ذلك.

فهو أشبه بعطف العام على الخاص، وبالخاتم على تلك الصفات؛ لفضله وشموله لها، ولهذا أكَّده بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾.

وقد أمر الله- عز وجل- بالذكر ورغَّب فيه وحثَّ عليه، وبيَّن فضله، وأثنىٰ على الذاكرين، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران:٤١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

ورتَّب عليه الفلاح، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥، الجمعة:١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى:١٤، ١٥].

وذكر أنه من أسباب الثبات والفلاح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥].

وأثنى عز وجل على أولي الألباب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران:١٩١].

وجعل عز وجل وجل القلوب واطمئنانها عند ذكر الله من شرط الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢، الحج:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

وقال عز وجل في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

وقال عن الكافرين: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر:٤٥].

وهكذا بيَّن المصطفى ﷺ فضل الذكر والذاكرين، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له: جَمْدان، فقال: «**سيروا هذا جَمْدان، سبق المفردون، قالوا: وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**»(١).

وعن معاذ بن جبل- رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عمل آدمي عملًا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله**»، وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غدًا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله عز وجل**»(٢).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ: أن رجلًا سأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجرًا يا رسول الله؟ قال: «**أكثرهم لله ذكرًا**».

قال: فأي الصائمين أكثر أجرًا؟ قال: «**أكثرهم لله ذكرًا**»، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**أكثرهم لله ذكرًا**»، فقال أبوبكر- رضي الله عنه- لعمر رضي الله عنه: ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله ﷺ: «**أجل**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله، أي العباد أفضل

---

(١) أخرجه مسلم، في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٧٦)، وأحمد (٢/ ٤١١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٩)، وأخرجه أيضًا (٦/ ٤٤٧)-من حديث أبي الدرداء-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨).

درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا**»، قال: قلت: يا رسول الله، ومِن الغازي في سبيل الله؟ قال: «**لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دمًا لكان الذاكرون الله أفضل منه درجة**»(١).

والذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح.

والذكر بالقلب هو أهم أنواع الذكر، ومن أعظم ذلك التفكير في عظمة الله عز وجل وآياته الكونية والشرعية، ومن ذلك كون القلب حاضرًا مواطئًا للذكر باللسان والجوارح.

والذكر باللسان بقراءة القرآن الكريم، والأذكار والأوراد الواردة، وتعليم الخير وبيان الحق، والدعوة إلى الله- تعالى- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسلام، وغير ذلك، ولابد فيه من مواطأة القلب للسان.

والذكر بالجوارح يكون باستعمال جميع الجوارح من اليدين والرجلين وجميع أجزاء الجسم، وحواسه في طاعة الله عز وجل بفعل ما أمر الله به من العبادات البدنية والمالية وغيرها.

وكف هذه الجوارح، وحفظها عما نهى الله عنه، مع حضور القلب ومواطأته للجوارح في ذلك كله.

قال النبي ﷺ: «**إذا استيقظ الرجل من الليل، وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**»(٢).

والذكر بالجوارح يشمل جميع الطاعات الفعلية سواء ما كان منها مؤقتًا بوقت معين كالصلوات الخمس، والسنن الرواتب، والزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام وما كان منها مطلقًا كبر الوالدين، وصلة الأرحام ونوافل العبادات من الصلاة، والصدقة، والصيام وغير ذلك، وما كان منها مقيدًا بوجود سببه كصلاة الكسوف، والاستسقاء، والجهاد في سبيل الله وغير ذلك.

كما يشمل الذكر بالجوارح ترك جميع المنهيات سواء ما كان منها النهي عنه مقيدًا

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٦)، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) أخرجه أبوداود في التطوع-قيام الليل (١٣٠٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة-ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل (١٣٣٥)-من حديث أبي سعيد وأبي هريرة-رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

بوقت معين كالكلام حال الصلاة، والخطبة، وحلق الشعر، والطيب وغير ذلك من محظورات الإحرام حال الإحرام. وكذا ما كان النهي عنه مقيدًا بمكان معين كقتل الصيد في الحرم وغير ذلك.

والذكر باللسان من أيسر أنواع الذكر ويشمل جميع الأذكار من قراءة القرآن الكريم الذي هو أصل الذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران:٥٨]، وقال تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص:١]. وكذا غيره من الأذكار النبوية؛ لأن السنة كلها ذكر قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، أي: أنزلنا إليك السنة لتبين للناس القرآن الكريم.

والذكر باللسان: منه المقيد بزمان كالذكر أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥﴾ [الإنسان:٢٥]، والذكر أيام عشر ذي الحجة، كما قال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة:٢٠٣].

ومنه المقيد بمكان كالذكر عند المشعر الحرام، وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند دخول البيت والخروج منه وعند دخول الخلاء والخروج منه، وعند رمي الجمار وغير ذلك.

ومنه المقيد بحال كالذكر عند الأذان والوضوء، والنوم، وعند الأكل والشرب واللبس، وعند الجماع، والسفر، والنزول وهبوب الرياح، وعند الهم والحزن، وغير ذلك.

ومنه الذكر المطلق في جميع الأوقات، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»(١)، أي: في جميع الأوقات، وفي أنواع الذكر كلها من التسبيح،

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٧)-من حديث عبدالله بن بسر- رضي الله عنه-وقال الترمذي:«حسن غريب»..

والتحميد، والتهليل، والتكبير وغير ذلك.

قال ﷺ: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات**»(١).

وقال ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»(٢).

وقال ﷺ: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت**»(٣).

وقال ﷺ: «**أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٤).

وقال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(٥).

إلى غير ذلك من أنواع الذكر التي لا تكاد تحصى.

والحكمة من تنوع الذكر- والله أعلم- أمور ثلاثة:

الأول: عدم الملل.

الثاني: ألا يكون القلب غافلا فيكون الذكر كالآلة يحركه.

الثالث: اختلاف معانيها وفوائدها، وذلك لا يحصل بنوع واحد.

هذا من حيث العموم، وهناك فائدة الاقتداء بالنبي ﷺ واتباع السنة بجميع أنواعها.

ومع لزوم المسلم لذكر الله- عز وجل- ينبغي أن يقر ويعترف بالتقصير، ويقول

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٨)-من حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٩٧)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الآداب (٢١٣٧)-من حديث سمرة بن جندب-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري-معلقًا-في الأيمان والنذور-باب إذا قال:والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ.. «صحيح البخاري مع الفتح» (١١/ ٥٦٦) من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦)-من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قال أعرف الخلق بربه ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

ومما يجب التنبيه عليه وهو من الأهمية بمكان أنه ينبغي للمسلم أن يحرص كل الحرص على الأذكار والأدعية الواردة في القرآن الكريم، وفي سنة المصطفى ﷺ الذي أعطى جوامع الكلم، فإن هذه الأذكار والأدعية جامعة مانعة، ومن دعا بها فهو حري بالإجابة بإذن الله- عز وجل- مع انتفاء الموانع.

وينبغي عدم الاغترار بما أحدثه الناس من تخصيص بعض الأدعية، ومن أذكار وأدعية مسجوعة متكلفة لا يخلو الكثير منها من الاعتداء بالدعاء الذي نهى الله عنه ورسوله، كما يفعل الكثير من أئمة المساجد في القنوت، وعند ختم القرآن، إضافة إلى المبالغة في رفع أصواتهم في الدعاء- مما يؤدي إلى مبالغة المأمومين برفع أصواتهم في التأمين- وكذا الإطالة في ذلك مما لا نسبة بينه وبين الصلاة، وكل هذا مما يخالف السنة، قال الله- تعالى- لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥] أي: المعتدين في الدعاء.

ولما رفع الصحابة أصواتهم بالدعاء قال ﷺ: «**أيها الناس، أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إن الذي تدعونه سميع بصير، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**» وفي رواية: «**إنه معكم إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده**»(٢).

ولهذا ينبغي لأئمة المساجد وفَّقهم الله وهداهم أن يتقوا الله في أنفسهم وفيمن يصلون خلفهم، فيحرصوا على أدعية الكتاب والسُّنة، والمأثور عن سلف الأمة، ويلزموا طريق القصد، فإن ذلك أحرى بالقبول والإجابة.

كما ينبغي أن يعلم أن الشرع كله مبني على الاتباع لا على الابتداع، ولهذا لما علَّم

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي ي الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٤)، وأبوداود في الصلاة (١٥٢٦)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٤)-من حديث أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه.

النبي ﷺ البراء بن عازب- رضي الله عنه- الدعاء الذي يُقال عند النوم: «**اللهم أسلمت نفسي إليك..**- إلى قوله: **آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت**» قال البراء: ورسولك الذي أرسلت، فقال النبي ﷺ: «**لا، ونبيك الذي أرسلت**»(١).

ومن هنا يعلم أهمية الاتباع في الأذكار والأدعية وغيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والمشروع للإنسان أن يدعو بالأدعية المأثورة؛ فإن الدعاء من أفضل العبادات، وقد نهانا الله عن الاعتداء فيه، فينبغي لنا أن نتبع فيه ما شرع وسن، كما أنه ينبغي لنا ذلك في غيره من العبادات، والذي يعدل عن الدعاء المشروع إلى غيره- وإن كان من أحزاب بعض المشايخ- الأحسن له أن لا يفوته الأكمل الأفضل، وهي الأدعية النبوية، فإنها أفضل وأكمل باتفاق المسلمين من الأدعية التي ليست كذلك، وإن قالها بعض الشيوخ، فكيف وقد يكون في عَيْنِ الأدعية ما هو خطأ أو إثم، أو غير ذلك.

ومن أشد الناس عيبًا من يتخذ حزبًا ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان حزبًا لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم، وإمام الخلق، وحجة الله على عباده، والله أعلم»(٢).

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا هو خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

﴿أَعَدَّ﴾ بمعنى هيَّأ وجهَّز- فالجنة الآن موجودة مهيأة لأهلها.

﴿لَهُم﴾، أي: للموصوفين بالصفات المذكورة خاصة، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ وغلب هنا الذكور على الإناث كما هو الغالب.

﴿مَّغْفِرَةً﴾ جاءت منكرة للتعظيم بدليل قوله عطفًا عليها: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٠)، وأبوداود في الأدب (٥٠٤٦)، والترمذي في الدعوات (٣٥٧٤)-من حديث البراء بن عازب-رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٢٥).

مغفرة عظيمة وأجرًا عظيمًا.

و«المغفرة» ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- في المناجاة: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله- عز وجل- يدني المؤمن يوم القيامة، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي. حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هالك، قال الله- عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

ومنه سُمي «المِغْفَر» وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

أي: أعد الله وهيأ لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا عظيمًا، والأجر في الأصل ما يؤخذ مقابل العمل، والعمل في الحقيقة إنما هو سبب للمغفرة والأجر العظيم، وليس عوضًا عنهما، وإنما سماه الله- عز وجل- «أجرًا»؛ لبيان تكفله عز وجل به، وأنه لا يضيع عنده، وإلا فهو- سبحانه وتعالى- لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه بفضله وكرمه ألزم به نفسه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿عَظِيمًا﴾ صفة لـ(أجرًا)، أي: ثوابًا عظيمًا في الجنة.

وإذا كان عز وجل وصف هذا الأجر بأنه «أجر عظيم» فلا يمكن أن يقدر أحد عظمة هذا الأجر إلا من وصفه بذلك وهو العظيم سبحانه قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨).

وقدَّم عز وجل المغفرة للذنوب على الأجر العظيم؛ لأن التخلية قبل التحلية، فيزيل عنهم المكروه، ثم يمنحهم ويعطيهم المحبوب.

وفي ذكره- عز وجل- لهذه الصفات وما أعدَّه الله للمتصفين بها من الذكور والإناث بيان فضل الله- عز وجل- على الجنسين معًا، والحث والإغراء على الاتصاف بهذه الصفات التي يترتب عليها ما أعده الله لأهلها من المغفرة والأجر العظيم.

الفوائد والأحكام:

١- بيان ما أعدَّه الله- عز وجل- للمتصفين بالصفات العشر المذكورة في الآية من الذكور والإناث على حد سواء من المغفرة والأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢- التأكيد على أن النساء يشتركن في هذه الصفات كالرجال، وأن لهن من المغفرة والأجر العظيم مثلهم؛ لهذا كرر ذكرهن مع كل صفة ترغيبًا لهن في الخير، ورفعة لشأنهن في الإسلام في الدنيا والآخرة.

٣- الحث والإغراء على الاتصاف بالصفات العشر المذكورة وبيان فضلها، وتعظيمها، وهي الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفروج، وذكر الله- تعالى؛ لأن الله- عز وجل- ذكر المتصفين بها على وجه الثناء عليهم وامتداحهم، وذكر عظيم ما أعده الله لهم من المغفرة والأجر العظيم، وذلك لأنها صفات جامعة عظيمة ترتكز عليها مقومات الدين كلها.

٤- فضل الذكور من حيث العموم على الإناث؛ لأن الله قدمهم في الذِّكر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، وكذا ما بعده، وهذا لا يمنع أن تكون بعض النساء خيرًا من بعض الرجال كما هو الواقع وليس لرجل أن يفخر على امرأة فقد تكون خيرًا منه في خلقها ودينها ودنياها وآخرتها.

٥- ينبغي أن نقدم في كتاباتنا ومخاطباتنا الذكور؛ لأن الله قدمهم.

٦- أن الإسلام غير الإيمان إذا ذكرا معًا؛ لأن الله- عز وجل- عطف قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾أما إذا ذكر أحدهما منفردًا فإنه يتضمن الآخر.

٧- ختم الصفات المذكورة بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ لأن الذِّكر يشمل ما ذُكِر من الصفات؛ ليكون أشبه بعطف العام على الخاص وكالخاتم على تلك الصفات.

٨- أن الجنة موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هيأ هذا وأعده لهم الآن في الدار الآخرة.

٩- لا يستطيع أحد أن يُقدِّر قدر عظم الأجر الذي أعده الله للموصوفين بالصفات المذكورة إلا العظيم سبحانه الذي وصف هذا الأجر بأنه عظيم.

١٠- تكفُّل الله- عز وجل- بثواب المذكورين، وأنه لا يضيع عنده، لهذا سمّاه أجرًا، وأوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا وامتنانًا.

١١- أن التخلية قبل التحلية فمغفرة الذنوب قبل الأجر والثواب؛ ولهذا قدم المغفرة على الأجر فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

سبب النزول:

رُويَ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسبًا- وكانت امرأة فيها حدة- فأنزل الله- عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها»(١).

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ «الواو»: عاطفة. و«ما»: نافية. و﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾: جار ومجرور خبر ليس مقدم، واسمها جملة: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ مؤخر.

وقوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ كل منهما نكرة في سياق النفي فيعم كل مؤمن ومؤمنة؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ بضمير الجمع.

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي: إذا حكم الله ورسوله بأمر، إيجابًا أو تحريمًا. و﴿أَمْرًا﴾ واحد الأمور، أي: شأنًا سواء كان أمرًا، أو نهيًا.

والقضاء إذا أضيف إلى الله- عز وجل- في الأصل احتمل أن يراد به القضاء الكوني، أو القضاء الشرعي، أو هما معًا، وإذا أضيف إلى الرسول ﷺ فالمراد به القضاء والأمر الشرعي لا غير؛ لأن القضاء والأمر الكوني إلى الله- عز وجل- وحيث عطف وصف الرسول أو اسمه على اسم الله- عز وجل- حمل القضاء والأمر هنا على القضاء والأمر الشرعي؛ لأن القضاء والأمر الكوني لا يضاف إلى الرسول ﷺ، وأيضًا فإن القضاء الكوني لا خيرة فيه لا للمؤمن ولا لغيره، بل لابد أن يقع.

ويدل قوله: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ على إثبات رسالة النبي ﷺ، وأن ما قضى به

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١١٢-١١٣) من طريق العوفي، ومن طريق ابن لهيعة عن ابن عباس-رضي الله عنهما-وهكذا رُويَ عن مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان وغيرهم أنها نزلت في زينب بنت جحش، وقيل:إنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة بعد فراقه زينب فسخطت. انظر:«جامع البيان» (١٩/ ١١٤)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١٧).

الرسول ﷺ هو من قضاء الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿أَن يَكُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بالياء «أن يكون»، وقرأ الباقون بالتاء «أن تكون»(١).

﴿ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الاختيار من أمرهم وشأنهم، ولو خالف ذلك قضاء وأمر الله ورسوله.

ويحتمل أن قوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ من إضافة الشيء إلى مفعوله، أي: أن يكون لهم الخيرة مما أمروا به.

ويحتمل أنه من إضافة الشيء إلى فاعله، أي: من أمر الله ورسوله إياهم.

والمعنى: وما كان جائزًا شرعًا لأي مؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسوله شأنًا شرعيًّا أمرًا أو نهيًا، أن يكون لهم الاختيار خلاف أمر الله ورسوله، أو الاختيار في امتثال ذلك أو عدمه، بل يجب عليهم الامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢] أي: ما كان ذلك جائزًا له في شرع الله.

ولهذا جاء في الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**» بمعنى أن إيمانه يحجزه عن ذلك، وإذا وقع منه ذلك فبسبب ضعف الإيمان أو ارتفاعه في تلك الحال.

قال ابن القيم رحمه الله(٢): «فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلًا، فدل على أن ذلك منافٍ للإيمان.

وقد حكى الشافعي- رضي الله عنه- إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقوله أحد. ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه».

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٧).

وقد استُدل بهذه الآية على أن الأمر للوجوب إذا تجرد عن القرائن، فإذا أمر الله ورسوله بأمر وجب امتثاله، وأن الخيرة فيما اختاره وقضاه الله ورسوله.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ «الواو»: عاطفة، و«من»: شرطية، و﴿يَعْصِ﴾: فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، وجواب الشرط جملة: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ واقترن الجواب بالفاء؛ لكونه جملة فعلية اقترنت بـ«قد».

والمعصية: مخالفة الأمر، أو عدم امتثال الطلب أمرًا كان أو نهيًا،و هي ضد الطاعة، أي: ومن يعص الله ورسوله بمخالفة ما جاء في الكتاب والسنة، أو في أحدهما. فمَن خالف ما جاء فيهما معًا فهو عاصٍ لله ورسوله، وهذا ظاهر، ومن خالف ما جاء في أحدهما فهو أيضًا عاص لله ورسوله:

عاصٍ لله؛ لأن القرآن والسُّنَّة كل منهما وحي من عند الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤].

وعاصٍ للرسول ﷺ؛ لأنه هو المرسل من عند الله- عز وجل- بالوحيين الكتاب والسنة، وطاعته طاعة لله- عز وجل- ومعصيته معصية لله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ومفهوم هذا أن معصية الرسول ﷺ معصية لله.

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ الضلال: بمعنى التيه والبُعد عن الطريق الحق. ﴿مُّبِينًا﴾ أي: بينًا ظاهرًا واضحًا من «أبان» اللازم بمعنى «بان».

وهذا يدل على عظم جرم مخالفة أمر الله ورسوله، فمعصية الله ورسوله ضلال بيِّن، وبقدر ما تكون المعصية ومخالفة أمر الله ورسوله يكون الضلال البيِّن. كما أنه بقدر ما تكون الطاعة، وامتثال أمر الله ورسوله يكون الإيمان واليقين.

وفي حديث أنس- رضي الله عنه- قال: «خطب النبي ﷺ لجليبيب امرأة من الأنصار من أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها، فامتنعت أمها، فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، قال أنس: فكأنها جَلَّت عن أبويها، وقالا: صدقت، فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال: فإني قد رضيته، قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جليبيب فوجوده قد قتل، وحوله أناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس: فلقد رأيتها وإنها

لَـمِن أنفق بيت بالمدينة»(١).

وروي من حديث أبي برزة الأسلمي بأطول من هذا، وفي آخره: «**فما كان في الأنصار أيم أنفق منها**»، وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ دعا لها فقال: «**اللهم صب عليها الخير صبًّا، ولا تجعل عيشها كدًّا**» فما كان في الأنصار أَيِّمٌ أنفق منها»(٢).

وذكر ابن عبدالبر في الاستيعاب(٣): «أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره، تلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

ومع هذا ومع ما رُوي في سبب نزول الآية فإن الآية أعم من ذلك كله، ولهذا رُويَ عن طاوُس أنه سأل ابن عباس- رضي الله عنهما- عن ركعتين بعد العصر فنهاه، وقرأ ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٤).

قال ابن كثير رحمه الله(٥): «فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد، ولا رأي ولا قول، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]».

وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٢).

(٣) (٤/ ٢٧٢).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤١٩.

(٥) في «تفسيره» (٦/ ٤١٩).

(٦) أخرجه الشيخ أبوالفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في «كتاب التوحيد»: قال النووي: «حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح». وقال في «فتح المجيد»: «رواه الطبراني وأبوبكر بن عاصم والحافظ أبونعيم في الأربعين، التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار». انظر: «فتح المجيد» ص٣٣١-٣٣٢.

ولهذا شدد في مخالفة ذلك فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾، كقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣].

الفوائد والأحكام:

١- وجوب تقديم قضاء الله ورسوله على كل أمر وعلى مراد النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ وأن ما قضى به ﷺ فهو قضاء الله- تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ فيجب طاعته في ذلك، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

٣- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله- عز وجل- بالواو في مقام التشريع والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾؛ لأن ما شرعه الرسول هو من شرع الله وطاعته طاعة لله.

٤- أن الخيرة والخير كل الخير فيما اختاره الله وفيما قضاه الله ورسوله فيجب الامتثال والتسليم لأمر الله ورسوله ﷺ.

٥- أن الأصل في الأمر الوجوب إذا تجرد عن القرائن؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾.

٦- أن مخالفة ما قضى الله ورسوله عصيان لله ولرسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٧- أن معصية الله ورسوله ضلال مبين وبعد عن طريق الحق والصراط السوي وعن سبيل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾؛ لأن مَن ضل عن الصراط المستقيم في الدنيا ضل في الآخرة عن طريق الجنة إلى طريق النار، نسأل الله السلامة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «إن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة- رضي الله عنهما»(١).

قال العلامة السعدي رحمه الله(٢): «وكان سبب نزول هذه الآيات أن الله- تعالى- أراد أن يشرع شرعًا عامًّا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم في نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد الله أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا».

قوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ «الواو»: استئنافية، و«إذ»: ظرف منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر إذ تقول. والخطاب للنبي ﷺ، أي: اذكر يا محمد حين تقول.

وأَمَرَ الله- عز وجل- نبيه ﷺ بذكر ما قاله وما حصل منه، تذكيرًا له ﷺ بذلك ليكون لوعظ الله- عز وجل- له موقعه من نفسه؛ لأن الله- عز وجل- وعظه في هذه الآيات موعظة عظيمة على مقالته المذكورة، حتى قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحى الله إليه من كتاب الله لكتم هذه الآية»(٣).

﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: لمن أنعم الله عليه، وهو زيد بن حارثة- رضي الله عنه، أنعم الله عليه بالإسلام، الذي هو أعظم نعمة كما قال الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٧).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٣).

(٣) سيأتي تخريجه.

[النساء:٦٩]، فأعظم نعمة أنعم الله بها على العباد نعمة الإسلام والإيمان. نسأل الله الهداية والثبات على الحق.

قال السعدي رحمه الله(١): «وهذه شهادة من الله له- يعني لزيد- أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، إلا أن المراد بها النعمة الخاصة».

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: وأنعمت عليه يا محمد بالعتق من الرق والتربية والرعاية، ولهذا يقول الفرضيون: «العتاقة: عصوبة سببها نعمة المعتق على رقيقه بالعتق»(٢).

وجاء العطف بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن النعمتين مختلفتان، والنعمة الأولى من الله وهي الإسلام، والنعمة الثانية من الرسول ﷺ وهي العتق، فلما اختلفت النعمتان صارت الواو لا تدل على الاشتراك لامتناع الاشتراك بين شيئين مختلفين، ولهذا جاز العطف بها هنا.

وذلك؛ لأن الأمور غير الشرعية لا يجوز العطف فيها بالواو إلا إذا اختلف المعنى كما في هذا الموضع.

أما الأمور الشرعية فيجوز فيها عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه أو ضميره على اسم الله؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

والمراد بالآية: زيد بن حارثة- رضي الله عنه، كما دل عليه سبب النزول، وكان من سبي الجاهلية، وكان عند خديجة- رضي الله عنها- فوهبته للنبي ﷺ فأعتقه وتبناه، فكان يُدعى زيد بن محمد، حتى أبطل الله- عز وجل- التبني، وأنزل قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٦).

(٢) انظر:«الإحكام شرح أصول الأحكام» لابن قاسم ٣/ ٤٦٣، «توضيح الأحكام من بلوغ المرام» ٤/ ٢٤٩.

[الأحزاب:٤، ٥].

وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وكان زيد زوجًا لزينب بنت جحش- رضي الله عنها- وكان تزوجها بمشورة النبي ﷺ، وكان فيها شمم وترفع عليه فشاور النبي ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»(١).

قال ابن كثير رحمه الله(٢): «وكان سيدًا كبير الشأن جليل القدر، حبيبًا إلى النبي ﷺ، يقال له الحِبُّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبُّ بن الحِبُّ، وكان رسول الله ﷺ زوّج زيدًا بابنة عمه زينب بنت جحش الأسدية، فمكثت عنده قريبًا من سنة، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى النبي ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**».

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ عُدي الفعل ﴿أَمْسِكْ ﴾ بـ«على»؛ لأنه ضمن معنى الضم، أي: اضمم عليك زوجك.

فمعنى «الإمساك» عدم المفارقة، أي: لا تفارق زوجك، واضممها إليك، أي: لا تطلقها.

والمراد بقوله: ﴿زَوْجَكَ ﴾: زينب بنت جحش- رضي الله عنها.

﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه عامة، وفي أمر زوجك خاصة.

وأمْره ﷺ زيدًا بتقوى الله لا يلزم منه أن يكون زيد فعل خطأ كما قال بعضهم: إنه ربما عاب زينب، وهذا لا دليل عليه، فلا يجوز أن يقال هذا بمحض الخرص والتخمين.

وما الذي يمنع أن يقال اتق الله لمن كان متقيًا، فقد قالها المولى- عز وجل- لخير المتقين وقدوة الناس أجمعين محمد ﷺ، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب:١] ولم يكن ذلك؛ لأنه ﷺ أطاع الكافرين والمنافقين.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٦).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤١٩).

فقوله ﷺ لزيد: «**اتق الله**» حث وإغراء له على تقوى الله وإمساك زوجه وعدم طلاقها.

ويؤخذ من الآية كراهية الطلاق كما في الحديث: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١).

وفي حديث بعث الشيطان سراياه وجنوده للإفساد في الأرض قوله ﷺ: «**فيأتيه أحدهم فيقول: ما زلت بفلان، حتى شرب الخمر، فيقول: لم تفعل شيئًا، يستغفر الله ثم يتوب، ويأتيه الآخر فيقول: ما زلت بفلان، حتى زنى، فيقول: لم تفعل شيئًا، يستغفر الله ثم يتوب، فأتاه الثالث فقال: مازلت بفلان بينه وبين امرأته حتى طلقها، فيدنيه الشيطان، ويقول له: أنت أنت**»(٢).

وحيث كان الطلاق محبوبًا للشيطان ومن تزيينه، فهو أمر مبغض عند الله- تعالى.

ويؤخذ من الآية: أنه ينبغي لمن بدا له طلاق زوجته أن لا يتعجل، وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة، كما يؤخذ منها أن المستشار مؤتمن يجب عليه أن يقدم محض النصيحة، وأن من النصيحة لمن استشار في فراق زوجه أن يؤمر بإمساكها، مهما أمكن صلاح الحال، فهو خير من الفرقة(٣).

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ «الواو»: عاطفة، و«تخفي»: معطوف على قوله: ﴿تَقُولُ﴾ أي: واذكر أيضًا إذ تخفي ﴿فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

ومعنى ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أي: وتضمر وتسر في نفسك.

﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى «الذي» في محل نصب مفعول «تخفي» أي: وتخفي في نفسك الذي الله مبديه، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، و«مبديه» خبره، ومعنى ﴿مُبْدِيهِ﴾: مظهره ومبينه.

---

(١) أخرجه أبوداود في الطلاق (٢١٧٨)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠١٨)-من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وضعفه كثير من أهل العلم، وقد حسنه بعضهم، ويدل على صحة معناه حديث جابر المذكور بعده.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة (٢٨١٣)-من حديث جابر-رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٦).

ولم يقل: «ما يبديه الله» بل قال: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فجاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على التحقق والثبوت: أي أن هذا أمر: لابد أن يبديه الله- عز وجل- وهذا هو الذي وقع فعلًا.

وبين قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾، وقوله: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ طباق.

والذي أخفاه النبي ﷺ وأبداه الله وأظهره، هو علمه ﷺ أن الله سيزوجه إياها بعد طلاق زيد بن حارثة لها وانتهاء عدتها[1]، خلافًا لما زعمه بعضهم من أن الذي أخفاه هو حبه لها، وأن لو فارقها زيد تزوجها.

قال ابن القيم رحمه الله بعدما رد هذا الزعم وأبطله[2]: «وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس: أنه تزوج امرأة ابنه؛ لأن زيدًا كان يدعى ابنه، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له، ولهذا ذكر- سبحانه وتعالى- هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج ما أحله له؛ لأجل قول الناس».

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي: وتخاف الناس، فالخشية بمعنى الخوف لكنها أخص منه.

ومعنى ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: وتخاف الناس، وتخشى من قولهم: تزوج امرأة ابنه الذي تبناه، وخالف ما عليه العرب حيث يعدون هذا عيبًا.

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ، وكذا غيره من الأنبياء من باب أولى ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، ومن ذلك الخوف من الناس، لكنهم يُنَبَّهون إلى ذلك ولا يُقَرُّون عليه، بل سرعان ما يحدثون توبة منه.

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي: إن الله- عز وجل- أولى وأوجب أن تخشاه وتخافه وحده.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٢٠)، «فتح الباري» (٨/ ٥٢٤).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٦).

فهو ﷺ لما جاءه زيد بن حارثة يستشيره في طلاق زينب قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ وأخفى في نفسه ما أعلمه الله من أنه سيزوجه إياها بعد طلاق زيد لها واعتدادها، وذلك منه ﷺ خشية أن يقول الناس تزوج محمد امرأة ابنه الذي تبناه فيعيبونه بذلك.

وكان الذي ينبغي ألا يقول ﷺ قولًا يظهر منه خلاف ما أعلمه الله، فكان الأولى أن يسكت، أو يقول: أنت وذاك، أو أنت وشأنك، أو أنت أدرى بحالك، أو انظر ما يبدو لك في هذا الأمر أو نحو ذلك، بدل أن يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ خشية أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه.

قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحى إليه من كتاب الله لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾»(١).

وهذا يدل على ثبوت رسالته ﷺ، وعلى أنه ﷺ قد بلَّغ الرسالة كما أوحى الله إليه، وأدى الأمانة، وبلغ البلاغ المبين.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ «الفاء»: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى «حين»، متضمن معنى الشرط.

﴿وَطَرًا﴾، أي: حاجة، أي: قضى حاجته، وفرغ منها.

والمعنى: فلما قضى زيد بن حارثة منها- أي: من زينب بنت جحش- حاجته، فلم يبق له فيها رغبة ولا حاجة، بل رغب عنها، وطلقها وانتهت عدتها.

وهذا يدل على أن زيدًا طلقها من ذات نفسه، ولم يكره على ذلك، وأن الزوج لا يعتبر قضى وطره وحاجته من زوجته إلا بعد طلاقه لها وانتهاء عدتها، فهنا يعتبر قضى وطره منها بالكلية(٢).

وفي ذكر زيد- رضي الله عنه- باسمه بيان شرفه وفضله، إذ لم يذكر في القرآن

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٨)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١١٧).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٧).

الكريم اسم صحابي سواه- رضي الله عنه- وعن الصحابة أجمعين.

﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ كاف الخطاب: مفعول أول لـ«زوج»، و«ها»: مفعول ثانٍ، أي: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قدرًا كبقية أزواج النبي ﷺ، و﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ خاصة شرعًا حيث تولى الله- عز وجل- تزويجه إياها من فوق سبع سموات، ولهذا كانت زينب رضي الله عنها تفتخر على بقية أزواج النبي ﷺ بذلك، فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «إن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، فتقول: «**زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات**»(١).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: **اذهب فاذكرها عليّ**، فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري- حتى ما أستطيع أن أنظر إليها- أن رسول الله ﷺ ذكرها، فولَّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخَلتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أُخبر- قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقي الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية»(٢).

وعن الشعبي قال: «كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهن: أن جدي وجدك واحد، وأني أنكحنيك الله من السماء، وأن السفير جبريل- عليه السلام»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في النكاح-زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (١٤٢٨)، وأحمد (٣/ ١٩٥-١٩٦).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١١٨-١١٩)، والحاكم (٤/ ٢٥).

قال ابن كثير رحمه الله- تعالى[١]: «وكان الذي تولى تزويجها منه هو الله- عز وجل- بمعنى أنه أوحى إليه، أن يدخل عليها بلا ولي، ولا مهر، ولا عقد، ولا شهود من البشر».

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ هذا فيه بيان الحكمة من أمر الله- عز جل- رسوله ﷺ بالزواج من زينب- رضي الله عنها- بعد طلاق زيد لها.

﴿لِكَيْ﴾ «اللام»: للتعليل، و«كي»: حرف مصدري، و﴿لَا﴾: نافية.

﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيق ومشقة ومانع.

﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أي: في نكاح أزواج أدعيائهم أي: الأبناء الذين ادعوهم وتبنوهم ونسبوهم إلى أنفسهم، وهم من أبناء غيرهم لا من أبنائهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ [الأحزاب:٤].

وفي تسميتهم أدعياء تأكيد لبطلان دعوى نسبتهم أبناء لغير آبائهم، وأنهم لا ينسبون إلى من ادعاهم.

﴿إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ أي: إذا قضى الأدعياء من أزواجهم حاجة، وفرغوا منهن، ورغبوا عنهن وطلقوهن وانتهت عدتهن.

وقوله هنا: ﴿إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ فيه تأكيد لما سبق بيانه من أن زيدًا- رضي الله عنه- طلق زينب رغبة عنها، من غير أن يُكره على ذلك.

قال ابن القيم[٢]: «لتقتدي أمته به في ذلك، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني، لا امرأة ابنه من الصلب».

وقال ابن كثير[٣]: «أي: إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء».

فكان من الحكمة من تزويجه ﷺ من زينب: إبطال ما كان مشهورًا في الجاهلية من

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٠).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٦).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٢١).

أن ابن التبني لا يجوز لمن تبناه أن يتزوج بامرأته من بعده، من باب البيان بالفعل الذي هو أبلغ من القول، خصوصًا إذا اقترن بالقول[١]. وقد مُهد لذلك بإبطال التبني في أول السورة.

ويؤخذ من الآية أن ما ثبت في حقه ﷺ ثابت في حق الأمة إلا ما دل الدليل على تخصيصه به[٢]، كما يؤخذ منها توكيد بطلان الادعاء والتبني.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أمر الله ينقسم إلى قسمين: أمر كوني- وأمر شرعي.

والمراد بالأمر هنا الأمر الكوني؛ لأنه هو الذي لابد أن يفعل، ولابد أن يقع، أما الأمر الشرعي فإنه قد يفعل وقد لا يفعل.

قال ابن كثير[٣]: «أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ».

وفي الآية منقبة عظيمة لزينب بنت جحش- رضي الله عنها- تدل على فضلها حيث تولى الله- عز وجل- تزويجها لنبيه ﷺ، وكان- والله أعلم- من أسباب ذلك: طاعتها لرسول الله ﷺ لما أشار عليها أن تتزوج زيدًا وهو من الموالي، وهي من أعلى أصول العرب نسبًا، لكنها- رضي الله عنها- آثرت طاعة رسول الله ﷺ ورضيت بزيد نزولًا عند مشورته ﷺ، وإن كان في ذلك غض من مرتبتها، ولهذا رفع الله شأنها وأعلى قدرها وزوجها برسول الله ﷺ، وكفاها ذلك فخرًا.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله- عز وجل- لنبيه ﷺ ووعظه له بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

٢- نعمة الله تعالى على زيد بن حارثة بالإسلام التي هي أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد.

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٦).

(٢) انظر: «دقائق التفسير» (٤/ ٤٩٣-٤٩٥).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٢١).

٣- أن المنعم بجميع النعم هو الله- عز وجل- وأن أكبر نعمة أنعم الله بها على المؤمن نعمة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: بالإيمان قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء:٦٩]، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

٤- جواز نسبة النعمة إلى المتسبب بها وإن كانت كل النعم من الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: وأنعمت عليه يا محمد بالتحرير من الرق، فالإعتاق من الرق نعمة من المعتِق على عتيقه.

وإنما جاز العطف في قوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾؛ لاختلاف النعمتين، فالنعمة الأولى: الإسلام، والثانية: العتق.

٥- الإشارة إلى دنو منزلة الرقيق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ فإن من يكون تحت إنعام الخلق فهو ذليل.

٦- ينبغي لمن أراد طلاق زوجته أن لا يتعجل وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة لخطورة الأمر، وهكذا تنبغي الاستشارة في الأمور المهمة؛ لأن زيدًا استشار النبي ﷺ أنصح الناس للخلق أجمعين. وقد أحسن القائل:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشوراتِ

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآةِ(١)

قال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازمِ

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادمِ(٢)

وقد قيل: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»(٣).

---

(١) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» ١/ ٢٤٦.

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» ٤/ ١٧٣.

(٣) انظر: «أدب الدنيا والدين» ص٣٠٠.

٧- أن المستشار مؤتمن يجب عليه أن يقدم محض النصيحة لمن استشاره، وأن من النصيحة لمن استشار في فراق زوجه أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال فهو خير من الفرقة؛ لقوله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

٨- الترغيب والإغراء بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

٩- أن الله لا تخفى عليه خافية مما تخفيه النفوس بين جوانحها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

١٠- لا ينبغي إخفاء ما سيبديه الله، ولا خشية الناس في فعل ما أباح الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

والذي أخفاه في نفسه وخشي من إظهاره للناس أن الله سيزوجه زينب بعد فراق زيد لها خوفًا من أن يقال تزوج امرأة ابنه وتحرجًا من ذلك.

ومثل هذا قد يقع من الأنبياء، لكنهم لا يُقَرّون عليه.

١١- وجوب خشية الله وحده دون الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

١٢- أمانته ﷺ في تبليغ ما أوحى إليه، قالت عائشة- رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحى الله إليه من كتاب الله لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾».

١٣- منقبة عظيمة وشرف كبير لزيد بن حارثة رضي الله عنه: حيث ذكر الله اسمه في القرآن الكريم دون غيره.

١٤- أن زيدًا- رضي الله عنه- هو الذي طلق زينب بنت جحش بطواعية من نفسه بعد أن قضى حاجته منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: قضى حاجته منها فلم يبق له فيها من حاجة. وفي هذا رد على من يزعم كذبًا أن الرسول ﷺ أكرهه على طلاقها.

١٥- جواز الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: وطلقها وفارقها وانتهت عدتها.

١٦- أنه لا يصح تزويج المطلقه حتى ينتهي حق الزوج الأول؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ

مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾.

١٧- منقبة عظيمة لزينب بنت جحش- رضي الله عنها- ورفعة لها وإعلاء لشأنها حيث تولى الله- عز وجل- تزويجها بنفسه لرسوله ﷺ بسبب طاعتها لرسول الله ﷺ لما أمرها بالزواج من زيد وهو مولى من الموالي وهي من أعلى أصول العرب نسبًا؛ لقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

١٨- جواز الزواج بزوجة الابن المدعى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾، والبيان بالفعل أقوى من البيان بالقول.

١٩- أن زواج النبي ﷺ بزينب لحكمة دينية شرعية وهي بيان جواز نكاح زوجة الابن المدعى إذا فارقها.

٢٠- رفع الحرج عن المؤمنين في جواز زواج الرجل بامرأة ابنه المدعى؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾.

فالادعاء والتبني لا أثر له، وقد أبطله الإسلام.

٢١- أن ما ثبت في حقه ﷺ من الأحكام ثابت في حق الأمة ما لم يقم الدليل على تخصيصه بذلك.

٢٢- أن أمر الله- عز وجل- وقضاءه الكوني واقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾، ﴿ مَّا ﴾: نافية، أي: ليس على النبي من حرج، وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر كان مقدم، واسمها قوله: ﴿مِنْ حَرَجٍ ﴾، والتقدير: ما كان على النبي حرج، و﴿مِنْ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما كان عليه أيّ حرج.

والحرج في الأصل: الضيق والشدة، والمعنى لا إثم عليه ولا ذنب، ولا لوم.

﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، والتقدير: في الذي فرض الله له عمومًا أو في فرض الله له عمومًا، وإن كان مخالفًا لما اعتاده الناس.

ومعنى الفرض في الأصل: التقدير، فإن عدي الفعل ﴿فَرَضَ﴾ بـ«على»، فهو بمعنى: الإيجاب.

وإن عُدِّي باللام كما في قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾ [التحريم:٢]، وقوله هنا: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ فهو بمعنى: أحل وأباح له، أي: لا إثم عليه ولا ذنب ولا يلام على فعل أمر أحله الله له، وأمره به كزواجه بزينب التي طلقها دَعِيّه زيد بن حارثة وزواجه بتسع من الزوجات.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ ﴿سُنَّةَ ﴾ منصوب على المصدر، وسنة الله طريقته ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ ﴾ أي: سبقوا من قبل من الأنبياء- عليهم السلام- أن لا حرج على أحد منهم فيما أحله الله له ولأمته.

وبهذا قطع الله- عز وجل- الطريق على من يعيبون النبي ﷺ بزواجه من زينب بعد طلاق زيد لها. والذي كان النبي ﷺ قد تبناه قبل إبطال حكم التبني.

قال ابن كثير[١]: «أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه».

وقال السعدي[٢]: «وفي هذا رد على من طعن بزواجه بزينب بعد أن طلقها زيد، وعلى من طعن في كثرة أزواجه».

كما أن في هذه الآية ردًّا على الذين يغلون بالنبي ﷺ ويصرفون له شيئًا من العبودية الخاصة بالله- عز وجل- فهو ﷺ عبد من عباد الله تعالى مكلف بفعل الطاعات وترك المنهيات، عبد لا يُعْبَد، ورسول لا يكذب.

وفي الآية أيضًا رد على غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الإنسان يصل إلى مقام يخرج به من التكاليف وهذا باطل، ولو كان أحد يصل إلى مقام رفع التكاليف لوصل إليه نبينا محمد ﷺ القائل: «**والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»[٣].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: وكان أمر الله وقضاؤه وحكمه الكوني. ﴿قَدَرًا﴾ أي: أمرًا وقضاءً وحكمًا، ﴿مَّقْدُورًا﴾ أي: مقضيًا وكائنًا لا محالة، محددًا وقت وقوعه، وكيفية وقوعه، لا يتأخر، ولا يتقدم، ولا يتغير.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله قبل هذا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: «هم».

﴿يُبَلِّغُونَ﴾ التبليغ: الإيصال، ومنه ما جاء في حديث الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى، قال السائل: «رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢١).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٧).

(٣) سبق تخريجه.

بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»(١) أي: لا أستطيع الوصول إلى بلدي إلا بالله ثم بك.

﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ جمع رسالة، أي: يبلغون ويوصلون ما أرسلهم الله به من الوحي إلى عباد الله بأمانة.

﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ أي: يخافونه، والخشية أشد وأخص من الخوف، فهي خوف ورهبة مع تعظيم، ولهذا قالوا: الخشية لا تكون إلا مع عظم المخشي وعلم الخاشي؛ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨].

﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ هذا لتأكيد ما سبق؛ لأن الخشية عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، أي: ولا يخافون أحدًا سواه في تبليغ رسالاته، فلا تمنعهم سطوة أحد أيًّا كان عن تبليغ رسالات الله، ولا يخشون ما قالت الناس في تناول ما أحلّ الله لهم.

ففي الآية امتداح لأنبيائه، وأتباعهم الذين يبلغون شرع الله ويخشونه، ولا يخشون أحدًا سواه. وفي مقدمتهم أفضلهم وأشرفهم نبينا محمد ﷺ.

فقد قام ﷺ بالبلاغ والدعوة خير قيام فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فما ترك خيرًا إلا دلّ الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذّرها منه، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، ممتثلًا قول الله- عز وجل: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨].

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم»(٢).

ثم قام بالبلاغ بعده أصحابه- رضي الله عنهم، فكانوا- رضي الله عنهم وأرضاهم- خير صحب، وأفضل مَن قام بدعوته بعده، فنقلوا رسالته وسنته إلى مَن بعدهم بأمانة وإخلاص، ونقلها بعدهم كل جيل عن سلفهم حتى يومنا هذا وما تزال

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٤)-من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» ١/ ٢٦٧.

ولله الحمد.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحقرن أحدكم نفسه**» قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «**يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله- عز وجل- له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى**»(١).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ «كفى» هنا فعل لازم، جُرّ فاعله بالباء، ﴿حَسِيبًا﴾ تمييز، أي: حافظًا لأعمال عباده، ومحاسبًا ومجازيًا لهم عليها.

ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: ما أعظم كفاية الله- عز وجل- في حسابه الخلائق، وحفظ أعمالهم، ومجازاتهم عليها.

الفوائد والأحكام:

١- لا حرج ولا إثم ولا لوم على النبي ﷺ ولا على أحد من أمته في فعل ما أباحه الله لهم. وما أمرهم الله به حتى- وإن كان مخالفًا لما عليه الناس؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾.

٢- أن النبي ﷺ مكلف كغيره من الأمة، ويلحقه الحرج فيما لم يحله الله تعالى له.

وفي هذا الرد على من طعن في زواجه ﷺ من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة وقد كان ﷺ تبناه قبل إبطال حكم التبني، وعلى من طعن بزواجه ﷺ بتسع زوجات.

٣- الرد على مَن زعم من غُلاة الصوفية وغيرهم، بأن الإنسان قد يصل إلى مقام يخرج به من التكاليف، ولو كان ذلك لأحد من الخلق لكان لسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾.

٤- الرد على مَن يغلون بالنبي ﷺ ويرفعونه إلى مقام الربوبية الخاصة بالله- عز وجل- فهو مكلف كغيره وعبد لا يعبد ورسول لا يكذب شرفه الله بالنبوة والرسالة؛

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠، ٧٣)، وابن ماجه في الفتن-باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٨)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٢٢).

لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾.

٥- أن سنة الله- عز وجل- في أنبيائه ورسله وأتباعهم واحدة أن لا حرج على أحد منهم في فعل ما أباحه الله لهم أو أمرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾.

٦- أن أمر الله- عز وجل- وقضاءه قدرٌ مقدورٌ لابد من وقوعه كما قدر الله- عز وجل- على الكيفية التي قدره الله عليها وفي الوقت الذي قدره الله فيه من غير أن يتقدم أو يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

٧- امتداح الله- عز وجل- لأنبيائه وثناؤه عليهم في تبليغهم رسالات الله وخشيته وحده دون غيره، وكذا من سلك طريقهم في تبليغ دعوة الحق وخشية الله وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

٨- إثبات الرسالات فيمن سبق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:٢٤].

٩- أن إبلاغ الرسالة من خشية الله.

١٠- أن الله- عز وجل- نعم الكافي في حفظ أعمال العباد ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾، وفي هذا إثبات سعة علمه وإحاطته بالعباد وأعمالهم وبكل شيء، ومحاسبة العباد ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ﴿ مَّا ﴾ نافية، ﴿مُحَمَّدٌ﴾ يعني رسول الله ﷺ، وإنما عبر عنه باسمه ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مجردًا باعتباره شخصًا من الناس، لمزيد الإيضاح والبيان؛ لأنهم كانوا يقولون لزيد بن حارثة: زيد بن محمد.

أي: ما كان محمد رسول الله ﷺ أبا أحد من رجالكم تبنيًا، وقيل: ولادة ونسبًا، وقيل: لا هذا ولا هذا.

فالمعنى على القول الأول: ما كان محمد رسول الله أبا أحد من رجالكم تبنيًا؛ لأنه قال: ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضاف الرجال إلى نفس المخاطبين، ولو قال: ما كان محمد أبا أحد من الرجال، لانتفى أن يكون أبًا لأحد من الرجال لا نسبًا ولا تبنيًا.

وعلى هذا فيكون المراد بالآية نفي ما كان مشهورًا عندهم من أن زيد بن حارثة زيد بن محمد، وفي هذا توكيد إبطال بنوة التبني والادعاء. ونهي أن يقال: زيد بن محمد.

والمعنى على القول الثاني: ما كان محمد رسول الله ﷺ أبا أحد من رجالكم ولادة ونسبًا، قالوا: لأن أبناء النبي ﷺ الذكور ماتوا صغارًا قبل بلوغ سن الرجولة.

قال ابن كثير[1]: «وقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهي أن يقال بعد هذا «زيد بن محمد»، أي: لم يكن أباه، وإن كان قد تبناه، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يعش له ولد حتى بلغ الحلم، فإنه وُلِد له القاسم والطيب والطاهر، من خديجة فماتوا صغارًا، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضًا رضيعًا، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن أجمعين. فمات في حياته ثلاث، وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعد ستة أشهر».

ويظهر من كلام ابن كثير- رحمه الله- حمل الآية على القولين؛ ولهذا قال السعدي[2] رحمه الله: «لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء».

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) في «تفسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٢٨).

ولا يمنع من حمل الآية على ما يشمل نفي أبوة النسب كون الحسن والحسين- رضي الله عنهما- أبناء ابنته فاطمة- رضي الله عنها- وقد بلغا مبلغ الرجال؛ لأنهما ليسا من صلبه مباشرة، ولا ينسبون إليه، وإنما هما أبناء علي- رضي الله عنه- من ابنته ﷺ فاطمة- رضي الله عنها- وإن كان ﷺ يناديهما باسم البنوة كما قال ﷺ عن الحسن: «**إن ابني هذا سيد**»(١).

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بعدما نفى أن يكون محمد ﷺ أبا أحد من رجالهم أثبت له الرسالة وخَتْم النبوة به، أي: ولكنه رسول الله، مرسل من عند الله- عز وجل- وخاتم النبيين.

قرأ عاصم: ﴿وَخَاتَمَ﴾ بفتح التاء، وقرأ بقية السبعة: «وخاتِم» بكسر التاء اسم فاعل.

«والخاتَم» بفتح التاء في الأصل: ما يختم به على الشيء، ومنه الخاتم الذي يوضع في الإصبع، ويكتب عليه اسم صاحبه، فإذا كتب كتابًا ختمه بهذا الخاتم، وقد كان للنبي ﷺ خاتم في خنصر يده اليسرى مكتوب عليه محمد رسول الله، يختم به كتبه للملوك وغيرهم.

و«الخاتِم» بكسر التاء في الأصل، ما يكون ختامًا للشيء.

وهو ﷺ خاتَم الأنبياء- عليهم السلام- به خُتموا، فهو كآلة الختم والطابع عليهم.

وهو ﷺ خاتِم الأنبياء عليهم السلام، أي: آخرهم.

وإذا كان ﷺ كالخاتم على الأنبياء، وهو آخرهم فيؤخذ من القراءتين أنه أفضل الأنبياء، وأن دينه أفضل الأديان.

ولهذا كان دينه مهيمنًا على الأديان كلها مشتملًا على جميع محاسنها وزيادة، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤)، وأبوداود في السنة (٤٦٦٢)، والنسائي في الجمعة (١٤١٠)، والترمذي في المناقب (٣٧٧٣)-من حديث أبي بكرة-رضي الله عنه.

[المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

كما يؤخذ من ذلك أنه لا نبي بعده ﷺ.

قال ابن كثير(١): «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس».

وعلى ذلك دلت السنة النبوية المطهرة، فعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا فأحسن بناءها إلا موضع لبنة فكان الناس يمرون، فيقولون: ما أحسن هذا لولا موضع هذه اللبنة. قال ﷺ: وأنا موضع تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»(٢).

وفي حديث ثوبان- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض- إلى أن قال- وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون**»(٤).

وعن جبير بن مطعم- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر**

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب-باب خاتم النبيين (٣٥٣٤)، ومسلم في الفضائل-ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٧)، والترمذي في الأمثال-باب مثل النبي والأنبياء (٢٨٦٢)، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦)، وأحمد (٢/ ٣١٢).

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبوداود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٥٢٣)، والترمذي في السير-ما جاء في الغنيمة (١٥٥٣).

الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي**»(٢).

وعن العرباض بن سارية- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم- عليه السلام- لمنجدل في طينته**»(٣).

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا كالمودع، فقال: «**أنا محمد النبي الأمي- ثلاثًا- ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتُجُوِّز بي**(٤)**، وعُوفيتُ، وعُوفيتْ أمتي، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم، فإذا ذُهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه**»(٥).

قال ابن كثير رحمه الله(٦): «وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليُعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم، والنَّيْرجيّات(٧)، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب».

ولا ينافي كونه خاتم الأنبياء وآخرهم نزول عيسى ابن مريم- عليه السلام- في آخر الزمان؛ لأنه لا يأتي بشريعة جديدة، بل يحكم بشريعة محمد ﷺ.

ويؤخذ من الآية: إثبات النبوات السابقة، وقد جاء في الحديث أن عدد الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٩٦)، ومسلم في الفضائل-باب في أسمائه ﷺ (٢٣٥٤)، والترمذي في الأدب (٢٨٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٧)، والترمذي في الرؤيا-باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات (٢٢٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧).

(٤) أي:إن الله خفف عن أمتي بسببي.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٢، ٢١٢).

(٦) في «تفسيره» (٦/ ٤٢٥).

(٧) النَّيْرجيّات:أخذ كالسحر ونحو ذلك، انظر:«القاموس المحيط»، «تاج العروس» مادة:«نيرج».

مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا؛ الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا أو ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا»(١).

وقد ذُكر من الرسل في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولًا، قال الله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ «كان»: مسلوبة الزمان، تفيد اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كان الله ومازال بكل شيء عليمًا.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء صغيرًا كان أو كبيرًا، خفيًّا كان أو جليًّا.

﴿عَلِيمًا﴾ أي: ذا العلم الواسع المحيط بجميع الأشياء في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال- عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨].

ولما سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

ومن علمه- عز وجل- المحيط بكل شيء علمه بأن محمدًا ﷺ ليس أبًا لأحد من رجالهم، وأنه رسول الله وخاتم النبيين لا نبي بعده.

كما أن من علمه- عز وجل- المحيط بكل شيء علمه بأفعال العباد قبل وقوعها وما تخفيه صدورهم، وما توسوس به نفوسهم، مما يوجب مراقبة الله.

وفي هذا رد على المعتزلة والقدرية الذين ينفون علمه- عز وجل- بأفعال العباد قبل وقوعها- تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. و(٥/ ١٧٨، ١٧٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- نفي أن يكون نبينا محمد ﷺ أبًا لزيد بن حارثة، وإن كان قد تبناه في الجاهلية؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾.

وفي هذا الرد على من زعم أن محمدًا تزوج امرأة ابنه، والتأكيد على إبطال حكم التبني، والذي أبطله الله- عز وجل- بقوله: أول هذه السورة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الآية:٤].

٢- أن أبناءه ﷺ كلهم ماتوا صغارًا لم يبلغ أحد منهم مبلغ الرجال، ولله في ذلك حكمة.

٣- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ، وأنه مرسل من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾.

٤- أن نبينا محمد ﷺ هو خاتم النبيين وآخرهم، وهو ﷺ أفضلهم كالخاتم عليهم ودينه مهيمن على جميع الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

٥- أن كل مَن ادَّعى النبوة بعده ﷺ فهو كذاب أفَّاك دجال ضال مضل، ومن صدقه فهو كافر مكذِّب للقرآن، فخاتم النبيين هو محمد ﷺ لا نبي بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، وقوله ﷺ في حديث ثوبان: «**وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**».

٦- عموم علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، وهذا يوجب مراقبة الله تعالى على الدوام وفي كل حال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤﴾:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾، أي: اذكروا الله بأنواع الذكر وأنواع العبادة، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم،﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾؛ «ذكرًا»: مفعول مطلق،﴿كَثِيرٗا﴾: صفة له، أي: ذكرًا كثيرًا من حيث كمه وعدده؛ لأن الذكر يشمل الذكر الخاص المقيد بأوقات؛ كالصلوات الخمس وسننها والأذكار بعدها، وكأذكار الصباح والمساء، وأذكار العوارض والأسباب، وغير ذلك؛ كما يشمل الذكر المطلق في جميع الأوقات.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾؛ التسبيح: تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وما لا يليق به سبحانه.

﴿بُكۡرَةٗ﴾؛ أول النهار،﴿وَأَصِيلًا﴾؛ آخر النهار، أي: في الصباح والمساء، والإبكار والعشي، وخص هذين الوقتين؛ لفضلهما وشرفهما، أو باعتبار شمولهما- كما قال بعض أهل العلم- لجميع الأوقات الفاضلة: من أوقات الصلوات المكتوبات وغيرها، قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم:١٧].

أو باعتبار إطلاقهما على جميع الوقت؛ كما قال تعالى عن رزق أهل الجنة: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم:٦٢]، ومعلوم أن رزق أهل الجنة مستمر على الدوام في جميع الأوقات لا ينقطع.

ومن أخص ما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾: ذكر الله بالقلب واللسان، بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وغير ذلك من الأذكار الموظفة في الصباح والمساء، وأدبار الصلوات، وعند العوارض والأسباب، والذكر المطلق في جميع الأوقات والأحوال، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء:١٠٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**ذكر الله تعالى**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء الفقراء إلى النبي ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال، يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون! قال: «**ألا أحدثكم، إن أخذتم أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين...** »(٢).

وعن عبدالله بن بسر رضي الله عنه؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»(٣).

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

لما أمر عز وجل بذكره ذكرًا كثيرًا، وتسبيحه بكرة وأصيلًا، أتبع بذكر جزاء ذلك وثوابه؛ ترغيبًا فيه.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٥، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٧، وابن ماجه في الأدب، فضل الذكر ٣٧٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٣، ومسلم في المساجد ٥٩٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٠، والترمذي في الدعوات، ما جاء في فضل الذكر، وابن ماجه في الأدب، فضل الذكر ٣٧٩٣، وقال الترمذي: «حسن غريب».

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾؛ صلاة الله على المؤمنين: ذكرهم والثناء عليهم عند ملائكته في الملأ الأعلى، وقيل: رحمته إياهم، فمن ذكر الله وسبحه صلى عليه الله وذكره؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم**»(١).

﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، أي: وملائكته يصلون عليكم، بدعائهم واستغفارهم لكم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾[غافر:٧- ٩].

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾، أي: ليخرجكم بسبب رحمته بكم، وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته واستغفارهم لكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى واليقين.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، أي: وكان عز وجل ذا رحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، فهداهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وهداهم في الآخرة إلى جنات النعيم.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًّا لها فألصقته إلى صدرها، وأرضعته، فقال: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه. قال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٢).

وهو عز وجل رحيم رحمة عامة بجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر، الحث على ذكر الله ٢٦٧٥، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٣، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الوالد ٥٩٩٩، ومسلم في التوبة ٢٧٥٤.

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾؛ التحية: ما يحيَّا به الضيف والقادم، وهي من المخلوقين: الدعاء بالسلامة والبقاء. ومن الله عز وجل: الوعد والبشارة بالسلامة والبقاء، ومنح ذلك بفضله عز وجل.

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: تحيتهم يوم يلقون ربهم عز وجل سلام منه عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس:٥٨].

وسلام من ملائكته أيضًا عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد:٢٣- ٢٤].

ويجوز أن يكون﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله، فيكون المعنى: تحية بعضهم بعضًا: سلام؛ كما قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس:١٠].

والمعنى الأول أظهر من حيث السياق، وأقوى من حيث المعنى، ولا منافاة بين القولين من حيث المعنى؛ فتحيتهم يوم يلقون ربهم سلام منه تعالى عليهم، ومن ملائكته أيضًا، وسلام من بعضهم على بعض.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة:٢٥- ٢٦]، أي: سلامًا من ربهم ومن ملائكته، ومن بعضهم على بعض.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، أي: وهيأ عز وجل وجهز لهم في الجنة﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾، أي: جزاءً وثوابًا واسعًا كثيرًا عظيمًا، لا يقدر قدره إلا من أعده لهم- وهو أكرم الأكرمين- مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:١٧].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾:

هذا هو النداء الثالث للنبي ﷺ في هذه السورة الكريمة، ففي النداء الأول أبلغه عز وجل ما هو متعلق بذاته، وبالنداء الثاني ما هو متعلق بأزواجه، وما تخلل ذلك من التكليف والتذكير، ثم أبلغه وبين له في هذا النداء مهام وأركان رسالته في خمسة أوصاف وصفه بها في هذه الآيات.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، أي: بعثناك برسالتنا إلى الناس؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨].

وقد جمع الله له هنا بين وصف النبوة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ووصف الرسالة بقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

كما جاء في الدعاء: «**آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت**»(١).

﴿شَٰهِدٗا﴾: حال، أي: شاهدًا لله تعالى بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران:١٨].

وشاهدًا على الناس بأعمالهم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء:٤١]، وقال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿وَمُبَشِّرٗا﴾: معطوف على «شاهدًا»، أي: ومبشرًا للمؤمنين بالجنة، والثواب الجزيل، والفضل الكبير؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧﴾ [الأحزاب:٤٧].

﴿وَنَذِيرٗا﴾، أي: ونذيرًا للكافرين والمنافقين والمكذبين، أي: مخوفًا لهم من النار والعذاب الأليم.

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، فضل من بات على وضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء، ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٧١٠، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وعن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: «أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلى الله. ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»(١).

وكان ﷺ يقول: «**أنا النذير العريان**»(٢)، وكان ﷺ إذا خطب كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم(٣).

وقدم البشارة على الإنذار؛ لأن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ كما قال تعالى: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»(٤).

ولأن النبي ﷺ أرسل رحمة للعالمين، والتبشير هو الأصل؛ ولهذا قال ﷺ: «**بشروا، ولا تنفروا**»(٥).

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾، أي: وداعيًا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾، أي: بأمره عز وجل الكوني والشرعي لك بذلك.

﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ يستضاء به في ظلمات الجهل والضلال، ويهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، صراط الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى:٥٢- ٥٣].

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، كراهية السخب في الأسواق ٢١٢٥، وأحمد ٢/ ١٧٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة، تخفيف الصلاة والخطبة ٨٦٧، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٢٢، ومسلم في التوبة ٢٧٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٨٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٣٢؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

قال ابن كثير[١]: «وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق؛ كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند».

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ سبق الكلام عليه في مطلع السورة، وفي هذا تأكيد لما سبق.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: واترك أذاهم لك، أي: لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك، واتركه، ولا تهتم به، وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه، وتهديد لهم؛ بدليل قوله بعده: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

وقيل: إن قوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: دع أذاك إياهم، أي: لا تؤذهم، ولا تعاقبهم، واصفح وتجاوز عنهم، والصحيح الأول.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: واعتمد على الله تعالى، وفوض إليه في جميع أمورك، وفي متاركتك لهم، وعدم مبالاتك فيهم، وفي كفايته إياك من شرهم، وغير ذلك.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ الباء زائدة للتوكيد، أي: وكفى الله وكيلًا لك، ولكل من توكل عليه، يكفيك شر أعدائك، وكل ما أهمك، ويصلح شأنك؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ للحث على الاتصاف بهذا الوصف، والتشريف والتكريم لهم، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- مشروعية الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه، وفضيلة ذلك؛ لأن الله عز وجل أمر بذكره ذكرًا كثيرًا، وتسبيحه بكرة وأصيلًا، وحث على ذلك، ورغب فيه، بذكر صلاته عز وجل وملائكته على المؤمنين المسبحين، وما أعد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٣١.

كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ الآية.

٣- ينبغي أن يجمع العبد بين تعظيم الله تعالى بذكره وعبادته، وبين تنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وما لا يليق به.

٤- ينبغي الإكثار من ذكر الله تعالى على الدوام في جميع الأوقات؛ لأن الله لم يجعل للذكر حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا على تركه إلا مغلوبًا على عقله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر؛ فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته، قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾»(١).

٥- ثناؤه عز وجل على المؤمنين الذاكرين المسبحين عند ملائكته في الملأ الأعلى، ورحمته بهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾.

٦- إثبات وجود الملائكة، وصلاتهم على المؤمنين بالدعاء والاستغفار لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، أي: وملائكته يصلون عليكم، أي: يدعون ويستغفرون لكم.

٧- أن صلاته عز وجل على المؤمنين هو و ملائكته، وثناؤه عليهم، ورحمته بهم؛ لإخراجهم من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور العلم والهدى واليقين؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٨- إثبات العلة والحكمة في أفعاله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعال الله، الذين يقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة.

٩- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ١٢٤.

رَحِيمًا﴾، وذلك بهدايتهم في الدنيا إلى سلوك الصراط المستقيم، وهدايتهم في الآخرة إلى جنات النعيم، وفي هذا بيان فضيلتهم، وحث على الإيمان وترغيب فيه.

١٠- بشارة المؤمنين بما لهم عند لقاء الله عز وجل من التحية والسلام والإكرام، وبما أعد لهم من الأجر الكريم الواسع العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

١١- إثبات لقاء الله تعالى، والبعث والمعاد، والحساب والجزاء على الأعمال.

١٢- عظم ما للمؤمنين عند الله عز وجل من الأجر وسعته وكثرته، وأنه معَدٌّ الآن مجهز في جنات النعيم، التي أعدت للمتقين.

١٣- أن التخلية بالتسليم من الآفات قبل التحلية بإعطاء الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

١٤- تكفله عز وجل بهذا الأجر، وضمانه له؛ ولهذا سماه عز وجل أجرًا، مع أنه عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه.

١٥- تشريف الله عز وجل وتكريمه للنبي ﷺ بندائه له باسم النبوة، وتخصيصه بذلك من بين الأنبياء عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

١٦- إثبات نبوته ﷺ ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

١٧- إثبات شهادته ﷺ على الناس يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾.

١٨- أن الله عز وجل أرسله ﷺ بشيرًا للمؤمنين بالسعادة في الدنيا والآخرة، ونذيرًا للكافرين والمنافقين من الشقاء في الدنيا والآخرة، والنار؛ وداعيًا إلى عبادته عز وجل وحده لا شريك له، وهاديًا إلى صراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

١٩- إثبات الإذن لله تعالى، بقسميه: الإذن الكوني، والإذن الشرعي، وأن إرساله ﷺ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله، كل ذلك بإذن الله الكوني والشرعي.

٢٠- في وصفه ﷺ بهذه الأوصاف الخمسة العظيمة تنويه بشأنه، ورفعة لقدره ﷺ، وبيان لمنهجه وأصول دعوته.

٢١- أنه ﷺ بما جاء به من الوحي نور كالسراج يضيء للناس طريقهم وسط دياجير الظلم، كما قال كعب بن زهير(١):

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

٢٢- في تقديم البشارة على الإنذار إشارة إلى أن رحمة الله عز وجل سبقت غضبه، وأنه ﷺ بعث رحمة للعالمين، والتبشير هو الأصل.

٢٣- تبشير المؤمنين بما لهم من الله من الفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾.

٢٤- نهيه ﷺ عن أن يطيع الكافرين والمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وليس في هذا دلالة على طاعته ﷺ لهم، وحاشاه من ذلك، وليس في نهي الله عز وجل له عن ذلك غضاضة عليه ﷺ، وهو نهي له ولأمته.

٢٥- تسلية الله تعالى له ﷺ بأمره بترك أذاهم، والصبر عليه، وعدم المبالاة به، وتقوية قلبه، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

٢٦- أمره له بالتوكل عليه عز وجل في ذلك، والاعتماد عليه والتفويض له في دعوته، وفي جميع أموره، ووعده له بكفايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

٢٧- افتقاره ﷺ إلى ربه، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

٢٨- وجوب التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه في جميع الأمور، وعظم كفايته عز وجل لمن توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، لأن الأمر له ولأمته.

* * *

(١) انظر: «جمهرة أشعار العرب» ص٦٤٠.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها»: للتنبيه، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي، أو بدل منها.

والإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ﴿إِذَا﴾: ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿نَكَحۡتُمُ﴾ فعل الشرط، وجوابه قوله: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾.

والنكاح في اللغة: الضم والجمع، ويطلق في الشرع: على عقد الزوجية الصحيح، وعلى الجماع، فإذا أضيف إلى أجنبية، فقيل: نكح فلان بنت فلان، فالمعنى: عقد عليها وتزوجها.

وإذا أضيف إلى الزوجة، فقيل: نكح فلان زوجته، فالمعنى: وطئها وجامعها.

والمراد بالنكاح هنا العقد؛ لقوله بعد ذلك: ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: من قبل أن تجامعوهن. بل إن النكاح في القرآن كله، إنما هو بمعنى العقد، اللهم إلا في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠] فجمهور أهل العلم على أن المعنى: حتى يطأها ويجامعها بدليل قوله ﷺ: «**حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتك**»(١).

قال ابن كثير(٢): «هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال. واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٣٩)، ومسلم في النكاح (١٤٣٣)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٣)، والترمذي في النكاح (١١١٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٣٢)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٣١).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾».

﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: اللاتي صدّقن بقلوبهن وانقدن بجوارحهن لما جاء عن الله ورسوله قولًا وعملًا، وبحكمهن نساء أهل الكتاب؛ لأن الله أباحهن للمؤمنين قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة:٥].

﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ تدل على أن الطلاق إنما يكون بعد النكاح، ولا يكون قبله، وفي حديث المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا طلاق قبل النكاح**»(١).

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق له فيما لا يملك، ولا طلاق له فيما لا يملك**»(٢).

فالطلاق لا يكون قبل النكاح، وهذا هو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف لهذه الآية، وهذه الأحاديث.

وقيل: يصح الطلاق قبل النكاح، كأن يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، والصحيح القول الأول(٣).

وإذا كان الطلاق لا يصح ولا يكون قبل النكاح فالظهار لا يصح ولا يكون قبل النكاح من باب أولى(٤).

كما تدل ﴿ثُمَّ﴾ على أن الطلاق وإن تأخر بعد العقد فالحكم لا يتغير مادام قبل

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطلاق-لا طلاق قبل النكاح (٢٠٤٨، ٢٠٤٩). وبوَّب البخاري له بباب:لا طلاق قبل النكاح، وقوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية، انظر:«فتح الباري» (٩/ ٣٨١). وقال الألباني:«حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٩-١٩٠)، وأبوداود في الطلاق-الطلاق قبل النكاح (٢١٩٠)، والترمذي في الطلاق-لا طلاق قبل النكاح (١١٨١)، وابن ماجه في الطلاق-لا طلاق قبل النكاح (٢٠٤٧). وقال الألباني:«حسن صحيح».

(٣) انظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣١-٤٣٢).

(٤) انظر:«تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٣٤).

المسيس؛ لأن ﴿ثُمَّ﴾ تدل على التراخي، فسواء طلقها بعد العقد مباشرة أو تأخر.

والخطاب في قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ للأزواج الذكور؛ لأنهم هم الذين بأيديهم عقدة النكاح والطلاق.

والطلاق في اللغة: حل قيد البعير ونحوه. وفي الشرع: حل عقدة النكاح أو بعضه، فإن كان الطلاق بائنًا لا تحل الزوجة بعده فهو حل لقيد النكاح كله، وإن كان الطلاق رجعيًا يجوز للزوج مراجعتها بعده فهو حل لبعض قيد النكاح.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وألف بعد الميم: «تُماسوهن» وقرأ الباقون بفتح التاء وبدون ألف: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾(١).

والمعنى: من قبل أن تجامعوهن وتطؤوهن.

وكنى عن الجماع بالمس، كما كنى عنه بالإتيان والإفضاء والملامسة، من باب الكناية عما يستقبح ذكره، قال ابن عباس- رضي الله عنهما -: «و«المس» و«اللمس» و«المباشرة»: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء»(٢).

وقال في قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٢١]: «والإفضاء: الجماع، ولكن الله حيي كريم يكني عما يشاء»(٣).

ويؤخذ من الآية إباحة الطلاق، وإباحة كونه قبل المسيس؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلمهم ولم يؤنبهم عليه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة:٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ «الفاء»: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، و«ما»: نافية، و﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم.

---

(١) انظر: «المهذب في القراءات العشر» (٢/ ١٤٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ ٦٤-٦٧)-تحقيق أحمد شاكر، والبيهقي في «سننه» (١/ ١٢٥)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٨).

﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ ﴿مِنْ﴾: حرف جر زائد من حيث الإعراب مؤكد من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿عِدَّةٍ﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

والعدة في اللغة: مأخوذة من العدد. وفي الشرع: تربص مفارقة في الحياة، أو بعد الممات، مدة محدودة شرعًا. فلا تتزوج سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها حتى تنتهي عدتها، وإن كانت متوفى عنها فتجتنب مع ذلك الخروج لغير حاجة، والطيب ولبس الحلي، والزينة ونحو ذلك مما يجب عليها اجتنابه في عدتها.

﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾، الخطاب: للأزواج، أي: فما لكم أيها الأزواج عليهن أيّ عدة تعتدونها.

وفي خطاب الأزواج في هذا دلالة على أن العدة حق للأزواج أوجبها الله- عز وجل- على الزوجات احترامًا وتعظيمًا لحق الأزواج، فهي بهذا حق لله- عز وجل- وحق للأزواج، ولهذا ليس للزوج إسقاطها عن زوجته.

ومعنى ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾، أي: تحصونها وتضبطونها بالحساب، بثلاثة قروء إن كانت من ذوات الأقراء وهي الحيض على الصحيح، أو بثلاثة أشهر إن كانت لا تحيض لصغر أو إياس.

فإذا طلقت المرأة قبل المسيس، وهو الجماع فلا عدة عليها، لكن الخلفاء الراشدين- رضي الله عنهم- جعلوا للخلوة بها حكم الجماع، فإذا خلا بها وجبت عليها العدة جامع أو لم يجامع، وعلى هذا جمهور أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله[1]: «وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها إن شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا».

ويفهم من قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٢)، وانظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٣٥).

أنه إذا كان الطلاق بعد المسيس فعليها العدة.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن ما يتمتعن به من المال، من دراهم أو أثاث، أو لباس، أو عقار أو غير ذلك، والأمر للوجوب، فالمتعة واجبة حسب يسر الرجل وعسره وليس لها حد من حيث الكيفية ولا الكمية، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦].

وعن سهل بن سعد وأبي أسيد- رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أُدْخِلَت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازِقِيَّيْنِ»(١).

وهذا إن لم يسم لها صداق، فإن سُمي لها صداق فلها نصف المسمى ولا متعة لها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «**إن كان سَمى لها صداقًا، فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقًا، فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل**»(٢).

وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ كما يدل على أنها لها المتعة يدل أيضًا على أنه ليس لها غير ذلك من النفقة والسكنى ونحو ذلك.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ السراح والتسريح قد يطلق على الطلاق، قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة:٢٢٩].

والمراد بالسراح هنا هو تخلية سبيلهن، لذكر الطلاق قبله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق-من طلق وهو يواجه امرأته بالطلاق (٥٢٥٧)، ومسلم في الأشربة (٢٠٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٢)-الأثر (١٧٧١٧).

إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية.

والجميل: الطيب الذي لا مضارة فيه.

أي: خلوا سبيلهن من غير مضارة لهن ولا أذى، وذلك بأن يكون عن رضىً، وبالكلام الطيب اللين، كأن يقول: ما أراد الله بيننا شيئًا، وأنا لم أر منك ولم أسمع منك إلا خيرًا ونحو ذلك، وسيرزقك الله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء:١٣٠].

ويكون ذلك مع المعاملة الحسنة وطلاقة الوجه وانبساط القلب؛ لأن المطلقة عمومًا تتأثر بسبب الطلاق، فكيف بمن طلقت قبل الدخول بها، وخصوصًا إذا كانت راغبة في الزوج، يضاف إلى ذلك أن أهل القالة من الناس سيطلقون ألسنتهم، لماذا طلقت؟ ماذا فيها؟ ما سبب ذلك؟ إلخ. فكان من رحمة الله- عز وجل- أن أمر المطلق قبل المسيس بأمرين جبرًا لخاطر المطلقة وتخفيفًا للأمر عليها، ولينشرح صدرها لما قدره الله:

الأول: أن يمتعها بشيء من المال أيًّا كان نوعًا وكثرةً وقلةً.

والثاني: السراح الجميل، والقول الطيب اللين، وعدم المضارة.

وفي هذين الأمرين ما يطيب القلوب، ويسل السخائم، ويجعل كلًّا منهما يذكر صاحبه بالخير، بدل أن يقدح كل منهما بالآخر، كما أن في ذلك سدًّا للطريق أمام أهل القالة من الناس الذين قد يطلقون ألسنتهم فيها وفي زوجها- والله المستعان.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم، وحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

٣- أن النكاح قد يطلق على العقد وحده، كما في قوله في هذه الآية: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٤- لا طلاق قبل النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ومن باب أولى: لا إيلاء، ولا ظهار، ولا تحريم؛ قبل النكاح.

٥- أن عقدة النكاح والطلاق بأيدي الأزواج؛ لأن الله وجَّه الخطاب في الآية للذكور من المؤمنين.

٦- مشروعية النكاح، وإباحة الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، وإباحة كونه قبل المسيس؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

٧- لا عدة على المطلقة قبل المسيس والجماع؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، وسواء كان الطلاق بعد النكاح مباشرة أو تأخر بعد ذلك؛ لأن ﴿ثُمَّ﴾ تدل على التراخي، لكن الخلفاء الراشدين- رضي الله عنهم- جعلوا للخلوة بها حكم الجماع، فإذا خلا بها وجبت عليها العدة جامع أو لم يجامع، وعلى هذا جمهور العلماء.

٨- أن المطلقة بعد المسيس عليها العدة؛ لمفهوم قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

٩- أن العدة حق للأزواج؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وقد أوجبها الله- عز وجل- عليهن احترامًا وتعظيمًا لحقهم، فهي أيضًا حق لله- عز وجل- ولهذا فليس للزوج إسقاطها عن زوجته.

١٠- وجوب المتعة للمطلقة قبل المسيس جبرًا لخاطرها بقدر يُسر الزوج وعُسره، وليس لها سوى ذلك لا نفقة ولا سكن؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

وهذا إذا لم يُفرض لها مهر، فإن فُرض لها مهر فلها نصفه دون المتعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

١١- يجب على الزوج إذا طلق زوجته أن يخلي سبيلها من غير مضارة لها، وأن يكون بالكلام الطيب اللين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾، فيجمع لها بين الإحسان الفعلي بالمتعة، والإحسان القولي بالسراح الجميل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ سبق الكلام عليه إعرابًا ومعنى في مطلع السورة.

ونداؤه ﷺ بوصف النبوة فيه إثبات نبوته والدلالة على فضله ﷺ.

﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ﴾ المتكلم هو الله- عز وجل- بضمير العظمة (إنا)؛ لأنه- عز وجل- هو العظيم الذي له كمال العظمة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**العزة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته**»(١).

ومعنى قوله: ﴿أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ﴾ أي: جعلناهن حلالًا لك، والإحلال ضد التحريم، وقوله: ﴿أَحۡلَلۡنَا ﴾ يدل على أن التحليل والتحريم إلى الله- عز وجل- وما أحله الرسول ﷺ أو حرمه فهو بوحي الله- عز وجل- إليه كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٣، ٤].

والمراد بأزواجه اللاتي أحلهن له: أزواجه اللاتي معه قد تزوج بهن واللاتي في عصمته وقت نزول الآية، بدليل قوله: ﴿أَحۡلَلۡنَا ﴾ بصيغة الماضي، وبدليل أن الله سماهن أزواجه، فهن اللاتي معه وبعصمته حال نزول الآية، كما يدل على هذا قوله بعد ذلك: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: فيما مضى، ويكون المراد بذكر إحلالهن له توكيد حلهن له، والامتنان عليه بذلك ودفع ما يمكن أن يعاب به من اجتماع تسع نسوة في عصمته.

وقيل: المراد بذلك أزواجك اللاتي تريد أن تتزوج بهن وتؤتيهن أجورهن، والصحيح القول الأول، وهو الذي يدل عليه ظاهر الآية.

﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: اللاتي أعطيتهن مهورهن، وسمي المهر أجرًا؛ لأنه

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٢٠)، وأبوداود في اللباس (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤)-من حديث أبي سعيد وأبي هريرة-رضي الله عنهما.

في مقابل الانتفاع والاستمتاع بالزوجة، وهو واجب، بل من شرط صحة النكاح.

قال ابن كثير[١]: «يقول تعالى مخاطبًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه- بأنه أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور هاهنا كما قاله مجاهد وغير واحد، وكان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشًا، وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي- رحمه الله- أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حُيَيّ فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل عتقها صداقها، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها- رضي الله عن جميعهنّ».

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وأحللنا لك اللاتي ملكت يمينك من الإماء، تنتفع وتستمتع بهنّ.

والمعنى: وما ملكت من السراري والإماء، وإنما أضيف الملك إلى اليمين؛ لشرفها؛ ولأنها هي الآخذة والمعطية كما في الحديث: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[٢].

ولا يقال: إن هذا من باب المجاز، إذ من المعلوم أن اليد بمفردها لا تملك، وإنما الذي يملك هو الشخص نفسه، يملك ذات المملوك ومنافعه ومنها منفعة الاستمتاع بالبضع إذا كان المملوك أمة.

﴿مِمَّآ﴾ «من»: بيانية، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: من الذي، ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

وهذه الجملة بيان للاسم الموصول «ما» في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، أي: وما ملكته يمينك من الذي أفاء الله عليك.

ومعنى ﴿أَفَآءَ﴾: رد، ومنه الفيء، وهو: ظل الزوال بعد الشمس، سمي بذلك؛ لأنه رجع إلى حاله بعد ذهاب الشمس فصار ظلًّا.

والمعنى: من الذي رد الله عليك وأنعم به عليك من الغنيمة؛ لأن ذلك رد للمال،

---

(١) في تفسيره (٦/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠)، والترمذي في الزهد (٢٣٩١)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

ممن لا يستحقه، وليس هو أهلًا له إلى من يستحقه، وهو أهل له، وهم المؤمنون، فالمال والأرض والتخويل إنما يستحقه أهل الإيمان، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

ومما أفاء الله ورد على رسوله ﷺ من الغنيمة والسبي صفية بنت حُييّ ابن أخطب اليهودي من سبايا غزوة خيبر، أعتقها ﷺ وجعل عتقها صداقها، وجويرية بنت الحارث المصطلقية من سبايا غزوة بني المصطلق أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها ﷺ.

فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته عن نفسها، وذكر أنها ذهبت إلى رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أقضي عنك، وأتزوجك؟**» قالت: نعم يا رسول الله، قال: «**قد فعلت**»(١).

وخص الفيء بالذكر؛ لأنه سبب ملك اليمين، ومما أباحه الله- عز وجل- له ﷺ مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس ملك مصر، فقبلها النبي ﷺ فاستحلها وأتت منه بولده إبراهيم، كما ملك ﷺ ريحانة بنت شمعون النضرية(٢).

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ الواو: عاطفة، ﴿وَبَنَاتِ﴾ وما بعده معطوف على قوله: ﴿أَزْوَاجَكَ﴾ أي: إنا أحللنا لك أزواجك، وما ملكت

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. انظر:«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٩٤-٢٩٥). وأخرجه أبوداود في العتق (٣٩٣١)، وحسنه الألباني.

(٢) انظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٣).

يمينك وبنات عمك.

أي: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ وإن نزلن، والعم أخو الأب والجد.

﴿وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ﴾ وإن نزلن، والعمة أخت الأب والجد.

﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ﴾ وإن نزلن، والخال أخ الأم والجدة.

﴿وَبَنَاتِ خَالَتِكَ﴾ وإن نزلن والخالة أخت الأم والجدة.

وأفرد في ذكر الذكور فقال: ﴿عَمِّكَ﴾ و﴿خَالِكَ﴾ بينما جمع في ذكر الإناث فقال: ﴿عَمَّتِكَ﴾، ﴿خَالَتِكَ﴾.

قال ابن كثير[1]: «لشرف الذكور كقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]».

وقيل: لأن العم والخال جنس، فيشمل الواحد والجمع، وجمع العمة والخالة؛ لأنهما مختومتان بتاء الواحدة، فلو أفرد لأشعر أنهما عمة واحدة وخالة واحدة، وقيل: أفردهما لحسن النظم والسبك.

وهؤلاء الأربع المذكورات في هذه الآية هن الحلال من الأقارب، وما عداهن من الأقارب محرمات، وهن سبع، وهن المذكورات في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ [النساء:٢٣].

قال السعدي[2] في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ الآية. قال: «شمل العم والعمة والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٣).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٣٦-٢٣٧).

الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه فإنه لا يباح».

﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ أي: هاجرن معك من مكة إلى المدينة، أي: اجتمعن معك في دار الهجرة، وهي المدينة، سواءٌ هاجرن قبله أو بعده.

وليس معنى قوله: ﴿هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ أن يكنّ هاجرن بصحبته، فقد هاجر ﷺ وحده ليس معه إلا صاحبه أبوبكر الصديق- رضي الله عنه.

والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

فلا يحل له من هؤلاء الأربع المذكورات إلا من هاجرن معه، أما من لم يهاجرن معه فيحرمن عليه ﷺ، وهذا من خصائصه ﷺ في النكاح، وهي خصوصية تضييق.

عن أم هانئ قالت: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه بعذري، ثم أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إلى ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء»(١).

قال السعدي(٢): «﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره- عليه الصلاة والسلام- فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة».

وقيل: إن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ليس قيدًا للحل، إنما هو فقط لبيان الأفضل.

وقال ابن كثير(٣): في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ قال: «هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدًا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأحزاب (٣٢١٤)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٠-١٣١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٣٣٧). ومعنى قوله: «قيد لغير الصحة» أي: أن هذا قيد للكمال.

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٣).

العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع».

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ الواو: عاطفة، و«امرأة»: معطوف على قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ الآية، أي: وأحللنا لك امرأة ﴿مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾.

فالمحللات له ﷺ أزواجه اللاتي آتاهن أجورهن، وما ملكت يمينه، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، وامرأة مؤمنة وهبت نفسها له إن أراد نكاحها فهي له حلال بدون صداق.

و«امرأة» نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات لا تقتضي العموم في الأصل، لكنها هنا أفادت العموم.

أي: وأحللنا لك أيَّ امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك؛ لأن المقام مقام امتنان، إذ لو قيدت بواحدة لم تكتمل بها المنة فلو وهبت أكثر من امرأة أنفسهن للنبي ﷺ وقبلهن حل له ذلك.

و﴿مُّؤْمِنَةً﴾ صفة لـ«امرأة» وهي قيد يُخرج غير المؤمنة، حتى ولو كانت كتابية، مما أباحه الله للأمة، فإنها لا تحل له ﷺ، وقد عُد هذا من خصائصه ﷺ: أنه لا يجوز له أن يتزوج بكتابية، بخلاف أمته، ولم يقع هذا منه فعلًا، فلم يتزوج كتابية، وهذه خصوصية تضييق في حقه ﷺ، كما أنها أيضًا خصوصية تكريم ورفعة لمقامه ﷺ؛ لأن الكتابية دون المؤمنة.

﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ﴿إِن﴾: شرطية، ﴿وَهَبَتْ﴾: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن وهبت نفسها للنبي فهي حل له.

والهبة: إعطاء الشيء والتبرع به وبذله بلا عوض ومن دون مقابل.

والمعنى: إن أعطت وبذلت نفسها للنبي ﷺ بغير عوض ومن دون ولي.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ للإشارة إلى أن العلة في إباحتها له كونه نبي الله؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما أن في ذلك إشارة إلى علو شأنه ﷺ ومكانته.

﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أظهر هنا أيضًا في مقام الإضمار فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ دون أن يقول: «إن أردت» إشارة وتنبيهًا على علو شأنه ﷺ ورفعة مكانته، وعظيم منزلته.

والضمير في قوله: ﴿يَسۡتَنكِحَهَا﴾ يعود على المرأة الواهبة نفسها له ﷺ، والمراد أنه ﷺ له الخيار في قبولها وعدمه، فإن أراد أن يستنكحها، أي: يقبل نكاحها ويتزوجها فله ذلك، وإن لم يرد نكاحها ردها.

وهذه الجملة ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ ذكرت مع الواهبة نفسها له ﷺ دون ما قبلها مما أحل الله له في الآية لرفع الحرج عنه ﷺ لو ردّها؛ لأن رده ﷺ لها من أشد الأمور عليه لما جبل عليه ﷺ من جليل الصفات وعظيم الأخلاق وشدة الحياء، كما قال أبوسعيد رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها»(١) فخلقه ﷺ يأبى أن يرد امرأة وهبت نفسها له ﷺ لما جبل عليه ﷺ من الخُلق والحياء، ولهذا رفع الله- عز وجل- عنه الحرج في ذلك، بجعل الخيار له في قبولها وعدمه، فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: إن شئت فاقبلها وإن شئت فردها، ولا حياء في الدين.

﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾: حال من امرأة.

والخالص من الشيء الذي لا يخالطه غيره، أي: أن هذا الحكم خاص بك لا يشاركك فيه أحد من الأمة، فلو أن امرأة وهبت نفسها لغيرك لم تحل له، حتى يعطيها شيئًا مع موافقة وليها وحضور الشهود.

فمن خصائصه ﷺ أن تهب المرأة نفسها له، ويتزوجها بلا مهر ولا ولي ولا شهود(٢).

﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ ﴿دُونِ﴾ بمعنى: سوى، أي: من سوى المؤمنين، فلا يحل أن تهب المرأة نفسها لأحد من المؤمنين، ولا يحل لهم الزواج منها بالهبة. وإذا لم يحل لها أن تهب نفسها لأحد من المؤمنين فيتزوجها، فمن باب أولى لا يحل لها أن تهب نفسها لأحد

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٠).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٦).

من الكافرين؛ لأن الكافر لا يحل له الزواج بمؤمنة مطلقًا كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٢١].

ويؤخذ من قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ أن ما لم يدل الدليل على تخصيصه ﷺ به من الأحكام فهو وأمته به سواء.

كما يؤخذ من ذلك أن الله- عز وجل- يختص بأحكامه من يشاء، مع ما سبقت الإشارة إليه من علو شأنه ﷺ وعظيم منزلته.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها، قالت: يا رسول الله، ألك بي حاجة، فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها، واسوأتاه واسوأتاه. قال: «**هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها**»(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: «يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا، فذكرت من حسنها وجمالها، فآثرتك بها، فقال: قد قبلتها، فلم تزل تمدحها، حتى ذكرت أنها لم تصدع، ولم تشتك شيئًا قط، فقال: لا حاجة لي في ابنتك»(٢).

وعن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قيامًا طويلًا، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: هل عندك من شيء تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئًا. فقال: لا أجد شيئًا. فقال: التمس ولو خاتمًا من حديد، فالتمس، فلم يجد شيئًا. فقال له النبي ﷺ: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم سورة كذا، وسورة كذا، لسور يسميها. فقال له رسول الله ﷺ: «**زوجتكها بما معك من القرآن**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح-عرض المرأة نفسها (٥١٢٠)، والنسائي في النكاح (٣٢٤٩)، وابن ماجه في النكاح (٢٠٠١)، وأحمد (٣/ ٢٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٠)، ومسلم في النكاح-باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم (١٤٢٥)، وأبوداود في النكاح (٢١١١)، والنسائي في النكاح (٣٢٨٠)، والترمذي في النكاح =

واختلف في الواهبات أنفسهن له ﷺ من هن؟

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال في قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: «هي ميمونة بنت الحارث»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «التي وهبت نفسها للنبي ﷺ: خولة بنت حكيم»(٢).

وروي عن محمد بن كعب وعمرو بن الحكم وعبدالله بن عبيدة، قالوا: «تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ست من قريش: خديجة وعائشة وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال ابن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين- امرأة من بني أبي بكر بن كلاب، من القرطاء، وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيّتان: صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية»(٣).

قال ابن كثير(٤) بعد سياقه لهذا الأثر: «وفيه انقطاع، هذا مرسل، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي: زينب بنت خزيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته».

وقال أيضا بعد ذكره بعض الأحاديث والآثار في الواهبات أنفسهن: «والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي كثير».

ولم يكن في عصمته ﷺ شيء من الواهبات أنفسهن؛ لأنه ﷺ لم يقبل واحدة منهن، عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت

=

(١١١٤)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨٩)، وأحمد (٥/ ٣٣٦).

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٤)-الأثر (١٧٧٢٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٣)-الأثران (١٧٧٢٦، ١٧٧٢٧).

(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٦).

نفسها له»[١].

قال ابن كثير[٢] بعد ذكر هذا عن ابن عباس: «أي: أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحًا له ومخصوصًا به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إن اختار ذلك.

وقيل من الواهبات أنفسهن له: زوجه ميمونة بنت الحارث- رضي الله عنها- وهو مروي عن ابن عباس أيضًا»[٣].

والصحيح الأول.

ومع أنه ﷺ لم يقبل واحدة من الواهبات أنفسهن نجد أن بعض أزواجه يَغَرْنَ من كون المرأة تهب نفسها له ﷺ، فعن عائشة- رضي الله عنها: «أنها كانت تُعيّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله- عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب:٥١] قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك»[٤].

وعنها قالت: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ، وأقول: أتهب امرأة نفسها؟ فلما أنزل الله ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب:٥١] قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[٥].

وفي حديث أنس لما عرضت المرأة نفسها عليه ﷺ، فقالت ابنته: ما أقل حياءها. فقال ﷺ: «**هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها**»[٦].

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾، ﴿قَدْ﴾: للتحقيق و﴿مَا﴾: موصولة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٤)-الأثر (١٧٧٢٩).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٨).

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٨)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٤)، والنسائي في النكاح (٣٩٩).

(٦) سبق تخريجه.

بمعنى «الذي» تفيد العموم، أي: قد علمنا كل الذي فرضنا عليهم؛ لأن علمه- عز وجل- وسع كل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨].

و﴿فَرَضْنَا﴾ بمعنى: أوجبنا. أي: قد علمنا كل الذي فرضناه وأوجبناه على المؤمنين من أحكام في أزواجهم، فهي معلومة لنا، وفرضناها عليهم عن علم أن المصلحة تقتضي فرضها عليهم دون سواهم.

من أمرهم بالنكاح وإيجابه عليهم- كما قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢].

ومن وجوب الصداق فيه، كما قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

ومن وجوب الولي، كما قال ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي**»(١).

ومن وجوب الشاهدين، ومن تحريم الزيادة على أربع زوجات حرائر، وإباحة وطء ملك اليمين مطلقًا، كما قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣].

ومن إباحة نكاح المؤمنات والكتابيات، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥].

ومن تحريم نكاح المشركات والكافرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

إلى غير ذلك مما فرضه الله عز وجل وأوجبه، أو حرمه على المؤمنين في أنكحتهم.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: معطوفة على ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ وهي اسم موصول بمعنى «الذي» يفيد العموم.

---

(١) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٨٥)، والترمذي في النكاح (١١٠١، ١١٠٢)، وابن ماجه في النكاح (١٨٨١)، وأحمد (٤/ ٣٩٨، ٤١٣، ٤١٨)-من حديث أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-وصححه ابن حبان (١٢٤٣-١٢٤٥)، والحاكم (٢/ ١٦٩). والألباني.

والمراد بقوله هنا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء خاصة بقرينة قوله: ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ فالكلام فيما فرضه الله من أحكام الزوجية، فلهم أن يطؤوا منهن ما شاؤوا من غير تحديد بعدد ومن غير قيد ولا شروط إلا الاستبراء، وأداء ما عليهم لهن من حقوق ملك اليمين.

وإنما أضاف الملك إلى اليمين، وهي اليد اليمنى؛ لأنها الآخذة المعطية، كما قال ﷺ: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١). وفي هذا تشريف لها.

والمعنى: وما ملكوه بأنفسهم؛ لأن اليد وحدها لا تملك، وليس هذا من باب المجاز، كما يقول بعضهم، بل السياق يدل على هذا المعنى بلا إشكال.

وسواء ملكوا هذه الإماء بطريق السبي أو الشراء، أو الهبة، أو بالإرث أو غير ذلك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٥، ٦]، [المعارج:٢٩، ٣٠].

وذلك بعد استبرائها بحيضة أو بوضع الحمل إن كانت حاملًا؛ لقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض حيضة**»(٢).

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ﴿لِكَيْلَا﴾ متعلق بما سبق، إما بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا﴾ وما بعده، وإما بقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

واللام في قوله: ﴿لِكَيْلَا﴾: للتعليل، و«كي»: مصدرية، و«لا»: نافية.

والخطاب للرسول ﷺ، و﴿حَرَجٌ﴾ بمعنى ضيق ومشقة في النكاح.

أي: لكيلا يكون عليك ضيق ومشقة في هذا النكاح، وذلك أن النساء كن يأتين يهبن أنفسهن له، ويعرضن أنفسهن عليه ﷺ، فإذا لم تحل له الواهبة نفسها كان عليه ضيق في ذلك من وجهين: إن رغب فيها كان عليه ضيق أن لا يتزوجها، وإن لم يرغب فيها كان

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٥٦)، وأبوداود في النكاح (٢١٥٧)، والنسائي في النكاح (٣٣٣٣)، والترمذي في النكاح (١١٣٢).

عليه ضيق وحرج في ردها وقد جادت بنفسها له، فأحلها الله- عز وجل- له، وجعل له الخيار في ذلك، فلا يلام على الزواج بها ولا على ردها، فالله جعل له ذلك كله.

وأيضًا لكيلا يكون عليك ضيق ومشقة لو حصرت في أربع زوجات، وذلك لما في كثرة أزواجه من المصالح العظيمة لهن، ولأهلهن، وللأُمة كلها، فذلك مصلحة لهن ظاهرة، وشرف لأهلهن، ومصلحة تفوق ذلك للمسلمين جميعًا، فهن اللاتي نقلن سنته ﷺ وسيرته الخاصة إلى الناس- رضي الله عنهن.

وأيضًا لكيلا يكون عليك ضيق ومشقة بأن يقال: كيف أحل لنفسه الواهبة والتسع دون الأمة؟ فبين الله- عز وجل- أن الأمر له سبحانه في ذلك فهو الذي أحل لرسوله ﷺ ما أحل، وخصه بما خصه به، وفرض على المؤمنين ما فرض، وأحل لهم ما أحل بعلم منه- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾.

فالعلة في إحلال الله- عز وجل- لنبيه ﷺ ما أحل، وتخصيصه بذلك من دون المؤمنين دفع الحرج والضيق والمشقة عنه ﷺ.

كما أنه أيضًا لا حرج عليه، ولا على أمته فيما فرض الله له في اتباعه والاقتداء به؛ لأن لها به الأسوة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١] إلا ما دل الدليل على خصوصيته بذلك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ «كان»: مسلوبة الزمان تفيد تحقيق اتصاف اسمها بخبرها في جميع الأوقات، أي: كان الله وما زال غفورًا رحيمًا.

و﴿غَفُورًا﴾ على وزن «فعول» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة مغفرته- عز وجل- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد:٦]، والمغفرة: ستر الذنوب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة.

﴿رَّحِيمًا﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة رحمته، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ورحمته- عز وجل- تنقسم إلى قسمين: رحمة هي صفة من صفاته

الذاتية الثابتة له عز وجل.

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت:٢١]. وتنقسم إلى قسمين:

رحمة عامة لجميع الخلق المؤمن والكافر والبر والفاجر والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فما هم فيه من نعم الله- تعالى- وأما في الآخرة فالعدل في حسابهم حتى إنه ليقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء كما قال ﷺ: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١).

ورحمة خاصة بالمؤمنين بتوفيقهم للطريق المستقيم في الدنيا، وحفظهم ورعايتهم، وتوفيقهم لطريق الجنة وإدخالهم إياها في الآخرة نسأل الله- تعالى- من فضله، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

ومن مقتضى رحمته- عز وجل- الإحسان إلى خلقه والإنعام عليهم، وليست هي الإحسان والإنعام كما يقول نفاة الصفات.

فبالمغفرة التخلية وزوال المرهوب، وبالرحمة التحلية وحصول المطلوب. نسأل الله التوفيق.

الفوائد والأحكام:

١- تخصيصه ﷺ من بين الأنبياء بندائه بوصف النبوة تشريف وتكريم له وبيان؛ لفضله على سائر الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ كما ناداه- عز وجل- بوصف الرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١].

٢- إثبات العظمة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا﴾ بضمير العظمة.

٣- أن التحليل والتحريم إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾.

٤- وجوب المهور للنساء؛ لأن الله سماها أجورًا؛ لأنها في مقابل الاستمتاع بهن؛ لقوله

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

٥- أن الله- عز وجل- أحل لنبيه الزواج بأكثر من أربع نسوة إكرامًا له ﷺ، ولحكم بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

والمراد بهن التسع اللاتي اجتمعن في عصمته ﷺ.

٦- أن الله- عز وجل- أباح لنبيه ﷺ ما ملكت يمينه من الإماء، يملك رقابهن ومنافعهن ومن ذلك الاستمتاع بمنفعة البضع مما أفاءه الله عليه في قتال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾.

وكذا ما ملكه بغير السبي كمارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس.

وإنما خص الله في الآية ما جاء بطريق الفيء؛ لأن هذا هو السبب المشروع للرق.

وهكذا أمته ﷺ أسوة به في إباحة ملك اليمين لهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾.

٧- إثبات الرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾

٨- فضل اليمين؛ لأن الله أضاف الملك إليها فقال: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾.

٩- أن الطريق المشروع للرق هو السبي وأخذ الفيء من الكفار في الحرب بينهم وبين المسلمين؛ لإعلاء كلمة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾.

فلا يجوز الاسترقاق بغير هذا السبب، فلا يجوز سرقة الأطفال وبيعهم على أنهم أرقاء.

ولا يجوز للناس بيع أولادهم عند الحاجة على أنهم أرقاء، فهؤلاء كلهم أحرار.

١٠- أنه لا يباح من الأقارب من النساء إلا أربع: بنات العم، وبنات العمة، وبنات الخال، وبنات الخالة، فما عداهن من الفروع والأصول لا يحل نكاحهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾.

١١- أنه لا يحل له ﷺ من قراباته المذكورة إلا من هاجرن معه، وهذه خصوصية من خصائصه ﷺ ولكنها خصوصية تضييق.

١٢- لا تحل غير المؤمنة للنبي ﷺ حتى ولو كانت كتابية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ وهذه أيضًا خصوصية تضييق.

وفيها أيضًا تكريم له ﷺ؛ لأن الكتابية دون المؤمنة.

١٣- إباحة الواهبة نفسها للنبي ﷺ، يتزوجها بلا مهر ولا ولي ولا شهود، خصوصية خصه الله عز وجل بها؛ لقوله ﷺ: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ خَالِصَةً لَّكَ﴾.

١٤- علو منزلة النبي ﷺ وعظمها عند ربه- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ فأظهر في مقام الإضمار وفي هذا دلالة على تعظيم الله- عز وجل- لنبيه ﷺ.

١٥- أن النبي ﷺ له الخيار في قبول ورد من تهب نفسها له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وفي هذا رفع للحرج عنه ﷺ في حال قبوله أو رده لها؛ لأن الله جعل ذلك له فلا يلام على قبولها؛ لأن الله أباح ذلك له ولا على ردها؛ لأن الله خيره في ذلك.

١٦- إثبات الإرادة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور على أفعاله لا اختيار له.

١٧- لا يحل للمرأة أن تهب نفسها لأحد من المؤمنين غير النبي ﷺ، ولا يحل لأحد منهم الزواج منها بالهبة؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل يصح النكاح بلفظ الهبة، كأن يقول الولي: وهبتك ابنتي على صداق قدره كذا وكذا، ونحو ذلك، أو لابد أن يكون النكاح بلفظ التزويج، أو الإنكاح، والظاهر- والله أعلم- أن النكاح يصح وينعقد بكل ما دل عليه من عبارات إذا تمت شروطه من فرض الصداق، ووجود الولي والشاهدين، وغير ذلك.

١٨- أن ما لم يدل الدليل على تخصيصه ﷺ به من الأحكام فهو وأمته فيه سواء وهذا يفهم من قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾.

١٩- أنه- عز وجل- يختص بأحكامه من يشاء لا يسأل عما يفعل؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٠- تقرير علمه عز وجل بما فرضه على المؤمنين من أحكام النكاح وملك اليمين ووجوب مراعاتها، كما شرعها الله- عز وجل- وبينها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

٢١- رفع الحرج عن النبي ﷺ والضيق والشدة في النكاح؛ لهذا أباح الله له الواهبة نفسها له وجعل الخيار له في قبولها وردها كما أباح له الزواج بأكثر من أربع زوجات توسيعًا عليه ﷺ، ولحكم عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٢- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله- تعالى، والرد على نفاتها من أهل البدع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٣- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل فهو يستر ذنوب التائبين من عباده، ويتجاوز عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾.

٢٤- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر ويعقوب وأبوبكر «ترجىء» بهمزة مضمومة وقرأ الباقون: ﴿تُرْجِي﴾ بغير همز(١).

ومعنى القراءتين واحد، ومعنى ﴿تُرْجِي﴾: تؤخر، و﴿مَن﴾: اسم موصول، بمعنى الذي ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي: من أزواجك.

والمعنى: تؤخر من تشاء من أزواجك، فلا تقسم لها.

﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ بمعنى: تضم، أي: وتضم إليك من تشاء من أزواجك فتقسم لها.

أي: فلك الخيار في القسم وتركه لمن شئت من أزواجك، وفي هذا توسعة عليه ﷺ.

ويدل على هذا القول قوله في الآية قبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

ويدل عليه قول عائشة- رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعدما أنزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فقيل لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا»(٢).

ومع هذا كان صلوات الله وسلامه عليه يقسم لهن، وإن لم يكن القسم عليه واجبًا بدليل هذه الآية.

---

(١) انظر: «الغاية في القراءة العشر» ص(٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٨٩)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٦)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٦).

ويحتمل أن المعنى ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تؤخر التي تشاء من الواهبات أنفسهن لك فلا تقبلها، بل تردها.

﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فتقبلها وتتزوجها، فلك الخيار في قبول ورد من شئت من الواهبات أنفسهن لك، وفي هذا أيضًا توسعة عليه ﷺ ورفع للحرج عنه، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

ويدل على هذا قول عائشة- رضي الله عنها: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ، وأقول: أتهب امرأة نفسها، فلما أنزل الله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»(١).

قال ابن كثير(٢) بعد أن ذكر حديث عائشة- رضي الله عنها- الدال على عدم وجوب القسم، وحديثها هذا الذي يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات أنفسهن قال: «ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات، وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن، إن شاء قسم، وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث».

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: اسم موصول بمعنى «الذي»، ومعنى ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾: طلبت وأردت من أزواجك، فقسمت لها، ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ ممن لم تقسم لها.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ الجناح: الحرج والضيق والإثم.

أي: فلا حرج عليك ولا تضييق ولا إثم بأن تعود إلى القسم لمن لم تقسم لها، كما أنه لا حرج عليك ولا تضييق ولا إثم في ترك القسم لمن قسمت لها.

والمعنى: أن له الخيار في القسم وتركه لمن شاء من أزواجه فيقسم لهذه ويترك هذه، ويعود للقسم لمن لم يقسم لها، ويترك القسم لمن كان قد قسم لها، فهو بالخيار في ذلك كله.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٧).

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي: طلبت وأردت من الواهبات أنفسهن لك ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: ممن عزلت منهن ورددتها ولم تقبلها، بأن بدا لك رغبة فيها بعد عزلها وردها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: فلا حرج ولا تضييق ولا إثم عليك في طلب وقبول من رددتها بادئ الأمر.

فخير الله- عز وجل- رسوله ﷺ- بين القسم وعدمه بعد أن كان واجبًا عليه، كما هو الحال بالنسبة للأمة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء:٣]، وأن له إن اختار عدم القسم أن يعود فيقسم لمن لم يقسم لها، وليس لها حق أن تمتنع من القسم بسبب أنه اختار بادئ الأمر عدم القسم لها؛ لأن الله خيره في ذلك، إلا أنه لما جبل عليه من كريم الأخلاق كان يقسم لهن، وإن لم يكن القسم واجبًا في حقه، ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(١) يعني المحبة والميل القلبي ونحو ذلك.

كما خيَّره الله- عز وجل- في قبول من تهب نفسها له أو ردها، وأن له أن يعود إلى قبول من رد منهن وفي ذلك كله توسعة له ﷺ ورفع للحرج عنه.

ويؤخذ من قوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أنه يجوز للإنسان أن يرجع بطلب حقه بعد إسقاطه بشرط أن يكون الحق متجددًا، كما إذا أسقطت المرأة حقها من زوجها ثم بدا لها أن تأخذ حقها، فيجب عليه إعطاؤها حقها فيما يستقبل؛ لأنه متجدد، أما ما مضى فليس لها المطالبة به وقد أسقطته؛ لأنه قد مضى ولا يتجدد.

وفي قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ دليل على أنه مكلف كغيره من الأمة، إذ لو لم يكن مكلفًا ما احتيج إلى نفي الجناح عنه، وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يقولون إن العبد قد يصل إلى منزلة يرفع عنه فيها التكليف، وهذا من تحريفاتهم إذ لو كان ذلك لأحد لكان لرسول الله ﷺ سيد ولد آدم وأفضل البشرية على الإطلاق.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ الإشارة للتخيير له ﷺ بين أن يرجي من يشاء من أزواجه، ويؤوي إليه من يشاء منهن.

---

(١) سيأتي تخريجه.

وهذه الجملة وما بعدها تعليل لما سبق من تخيير الله- عز وجل- لرسوله ﷺ بين أن يرجي من أزواجه من شاء ويؤوي إليه منهن من شاء.

وفي هذا دلالة على أن أفعال الله- عز وجل- وأحكامه الكونية والشرعية معللة، أي: أنه- عز وجل- يفعل ويحكم لحكمة سواء علمنا تلك الحكمة أو لم نعلمها، وفي هذا رد على المبتدعة القائلين بأن أفعاله وأحكامه ليست مبنية على الحكمة والعلة، وإنما يفعل ويحكم بمجرد المشيئة تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب.

﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ تقر: مأخوذ من القرار، وهو السكون، أو من القر، وهو البرد، أو منهما جميعًا: أي من القرار والقر. يقال: أقر الله عينك، أو قرت عينك- بمعنى سكنت أو بردت؛ لأن العين إذا بردت دل ذلك على الفرح والسرور، فإذا دمعت كان دمعها باردًا؛ بخلاف ما إذا حميت العين فإن ذلك يدل على الحزن، فيكون دمعها حارًا.

﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ معطوف على قوله ﴿تَقَرَّ﴾ والحزن: ضد الفرح والسرور.

﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ معطوف أيضًا على ﴿تَقَرَّ﴾.

واعترض بجملة ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بين قوله: ﴿تَقَرَّ﴾ وقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾؛ لأن صلة جملة ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بقوله: ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أقوى؛ لأن قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ لإثبات كمال ضده وهو قرار العين.

﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ «ما»: اسم موصول، أي: بالذي آتيتهن، أي: أعطيتهن، وهي تنصب مفعولين، الأول: الهاء، والثاني محذوف والتقدير: بالذي أعطيتهن من التخيير في القسم وعدمه.

﴿كُلُّهُنَّ﴾: توكيد للفاعل في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ ولهذا جاء مرفوعًا، ولو كان توكيدًا للهاء في ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ لكان منصوبًا.

والمعنى: ذلك التخيير من الله- عز وجل- لك في القسم وعدمه أقرب أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما أعطيتهن كلهن؛ لأنهن إذا علمن أن التخيير في ذلك من الله- عز وجل- قرت أعينهن ولم يحزن ورضين بحكم الله- عز وجل- بخلاف ما لو كان هذا من النبي ﷺ بلا تخيير من الله- عز وجل- له فقد يكون في نفوسهن بعض

الشيء، وأن هذا ليس من شرع الله، ففي هذا التخيير من الله- عز وجل- لنبيه ﷺ مراعاة شعور أزواجه ﷺ وتطييب خواطرهن وتطمين قلوبهن، وأن الإسلام بأحكامه العادلة وتعاليمه السمحة جاء بما يشرح الصدور ويطمئن القلوب ويسعدها في دينها ودنياها وآخرتها.

قال ابن كثير[1]: «﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، إن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارًا منك لا أنه على سبيل الوجوب».

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول يفيد العموم، والقلوب: جمع قلب، وهي محل العقول والإرادات الباطنة وعليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، ومحلها الصدور. قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

وقال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، إذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[2].

ولا ينافي كون القلب في الصدر أن يكون بينه وبين المخ والدماغ اتصال كما قال بعض المحققين، وأثبت ذلك علم الطب.

والمعنى: والله يعلم الذي في قلوبكم كله لا تخفى عليه منه خافية، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:١٥٤].

أي: بما تخفيه الصدور والقلوب من المكنونات، ومن ذلك الميل إلى بعض النساء دون بعض مما قد لا يستطيعه الزوج، كما قال عز وجل: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾ [النساء:١٢٩].

وكما جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٧).

(٢) سبق تخريجه.

فيعدل، ويقول: «**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(١).

قال أبوداود بعد قوله: «**فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»: «يعني القلب».

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ من باب بيان العفو والتجاوز، والعذر عما لا يملكونه، ولا يستطيعونه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ هذا كالتعليل لما قبله. و«كان»: مسلوبة الزمان، أي: كان وما زال عليمًا حليمًا- سبحانه وتعالى.

وقوله ﴿عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥٢].

فهو- عز وجل- يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يتعلق علمه بالواجب وهو ما يستحقه من صفات الكمال، وبالمستحيل الوقوع كما في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وبالممكن الوقوع وهو سائر المعلومات كأفعال العباد وأقوالهم وغير ذلك.

والعلم في الأصل: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

﴿حَلِيمًا﴾، أي: ذا الحلم الواسع، فلا يعاجل مَن عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، قال ابن القيم(٢):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

الفوائد والأحكام:

١- التوسعة من الله عز وجل على النبي ﷺ، بأن جعل الله الخيار له في القسم وتركه لمن

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٤)، وأبوداود في النكاح-باب في القسم بين النساء (٢١٣٤)، والنسائي في عشرة النساء-ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض (٣٩٤٣)، والترمذي في النكاح-ما جاء في التسوية بين الضرائر (١١٤٠)، وابن ماجه في النكاح-القسمة بين النساء (١٩٧١).

قال ابن كثير (٦/ ٤٣٨):«وإسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات».

(٢) في «النونية» ص(١٤٨).

شاء من أزواجه؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

ومع هذا فقد كان ﷺ يقسم لهن كرمًا منه وتفضلًا- وإن لم يكن القسم عليه واجبًا.

٢- تخصيصه ﷺ دون الأمة في قبول نكاح الواهبات أنفسهن له أو ردهن توسعة عليه ورفعًا للحرج عنه؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

٣- إباحة الله- عز وجل- لنبيه ﷺ أن يعود فيقسم لمن اختار أولًا عدم القسم لهن من زوجاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ وذلك من تمام تخيير الله- عز وجل- له ﷺ والتوسعة عليه ودفع الحرج عنه.

٤- إباحته- عز وجل- له ﷺ نكاح من رد من الواهبات أنفسهن إن بدا له رغبة فيهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

٥- أنه ﷺ مكلف كغيره من الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

وفي هذا الرد على مَن يزعم من غلاة الصوفية أن الإنسان قد يصل إلى منزلة ترفع عنه فيها التكاليف ولو كان ذلك الأمر لأحد لكان للنبي ﷺ.

٦- أن أفعال الله- عز وجل- وأحكامه الكونية والشرعية كلها لحكم عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

٧- أن في هذا التخيير للنبي ﷺ مراعاة لشعور أزواجه وتطييبًا لخواطرهن وتطمينًا لقلوبهن إذا علمن أن التخيير من الله عز وجل.

٨- علم الله- عز وجل- بما في القلوب من الأسرار والمكنونات والمعتقدات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وعلمه بما ظهر أولى.

وفي هذا إشارة إلى أن ما في القلب مما لا يملكه الإنسان لا يؤاخذ عليه، كالميل والمحبة؛ ولهذا قال ﷺ: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك**»(١).

٩- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- أزلًا وأبدًا المحيط بكل شيء؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

١٠- إثبات صفة الحلم الواسع لله- عز وجل- وأنه سبحانه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾.

قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتاء التأنيث: «لا تحل». وقرأ الباقون: ﴿لَّا يَحِلُّ﴾[1]، وذكَّر الفعل مع أن الفاعل مؤنث لوجود الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾.

ومعنى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ أي: تحرم عليك النساء، فالقرآن تارة يعبر بالتحريم، وتارة بنفي الحل.

﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعد أزواجك الموجودات، وهن التسع اللاتي اجتمعن في عصمتك، واللاتي خيرتهن بأمر الله فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فلا يجوز لك أن تتزوج غيرهن ولا أن تزيد عليهم.

ويحتمل أن المعنى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: تحرم عليك النساء من بعد اللاتي ذكرن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وبهذا قال جماعة من مفسري السلف، واختاره الطبري[2].

وعلى هذا فيحرم عليه ما لم يذكر في هذه الآية من النساء، ومن ذلك نساء أهل الكتاب وهن حلال لأمته.

قال ابن كثير[3] بعدما ذكر اختيار الطبري: «وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإن كثيرًا منهم رُويَ عنه هذا وهذا ولا منافاة، والله أعلم».

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٩)، «الغاية» ص(٢٦٥).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٩/ ١٤٦-١٥٠).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٨-٤٣٩).

ويظهر الفرق بين القولين فيما لو قدر فرضًا أن أزواجه توفين في حياته ﷺ أو بعضهن، فليس له أن يتزوج سوى هؤلاء اللاتي أحل الله له بقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: لتأكيد النفي.

و﴿تَبَدَّلَ﴾ وإن كانت بصورة الفعل الماضي، فإن أصلها فعل مضارع؛ لأن أصلها «تتبدل»، فأدغمت إحدى التاءين في الأخرى، ولهذا دخلت عليه ﴿أَن﴾ ونصبته، ولو كان فعلًا ماضيًا ما صح دخولها عليه ولا نصبها له.

ومعنى: ﴿تَبَدَّلَ﴾: تستبدل، أي: ولا يحل لك أن تستبدل أزواجك اللاتي معك بأزواج أخر، بأن تطلق اللاتي معك وتستبدلهن بغيرهن.

وهل له أن يطلق من شاء منهن دون استبدال. قال ابن كثير(١): «فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال».

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ الواو: للحال، أي: ولو في حال إعجاب الأزواج الأخر لك بحسنهن وجمالهن، فهذا لا يبرر لك الزواج بغير أزواجك اللاتي معك، وهن اللاتي اجتمعن في عصمته ﷺ: عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة، وزينب بنت جحش وميمونة وجويرية، وسودة، وصفية. حتى لو ماتت واحدة منهن أو أكثر في حياته ﷺ لم يجز له أن يستبدلها بغيرها، وهذا من الجزاء العاجل من الله لهن لَـمَّـا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وآثرن البقاء معه ﷺ مع شظف العيش، فحرم الله عليه أن يزيد عليهن، أو يستبدل بهن غيرهن.

قال السعدي(٢): «وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكورًا لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة أن رحمهن، وقصر رسوله عليهن،

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٩).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٠).

فحصل بهذا أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق؛ لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة».

ومن هنا نعلم أنه ﷺ حصر في العدد، وهو تسع زوجات، وفي المعدود وهن التسع المذكورات، بخلاف أمته ﷺ فقد حصروا في العدد أربع زوجات ولم يحصروا في المعدود، فللإنسان إذا كان بعصمته أربع زوجات أن يطلق من شاء منهن ويستبدلها بغيرها، وكذا لو ماتت واحدة منهن فله أن يستبدلها بغيرها.

فقد وسع عليه ﷺ من جهة جواز الزواج بتسع زوجات لمصالح معلومة وضيق عليه من جهة عدم جواز استبدالهن بغيرهن. كما حصرت الأمة على أربع زوجات وفي ذلك الكفاية، ووسع عليهم في جواز استبدالهن بغيرهن.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، ﴿إِلَّا﴾أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن ما ملكت يمينك من الإماء فهن حلال لك من غير حصر بعدد معين؛ لأن الإماء ليس لهن حق في القسم كالحرائر، فلا يُثرن غيرة الزوجات، وإن كان لهن حق المملوك على مالكه كما هو معلوم.

وأضاف الملك إلى اليمين مع أن المعنى: إلا ما ملكت أنت؛ لشرف اليمين فهي الآخذة والمعطية، كما في الحديث: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾، أي: حفيظًا ومطلعًا وشهيدًا على كل شيء، خفيًّا كان أو جليًّا، ظاهرًا أو باطنًا، كبيرًا أو صغيرًا، خاصًّا بالرسول ﷺ أو عامًّا له وللأمة، مما يوجب على العبد مراقبة الله- عز وجل- في جميع أحواله الظاهره والباطنة.

الفوائد والأحكام:

١- تحريم الله- عز وجل- على نبيه ﷺ النساء غير أزواجه التسع اللاتي اجتمعن في عصمته وأنه لا يجوز أن يتبدل بهن غيرهن جزاء لهن- رضي الله عنهن- حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الله رفع

---

(١) سبق تخريجه.

هذا التحريم.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي من بعد اللاتي ذكرهن الله- عز وجل- في قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وعلى هذا فيكون المحرم عليه الزواج بغير من ذُكرن في هذه الآية، وهن التسع اللاتي في عصمته، والأربع بعدهن بنات العم وبنات العمات وبنات الخال وبنات الخالات، ومن وهبت نفسها له.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء»(١).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله- عز وجل: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾»(٢).

قال ابن كثير(٣) بعد ذكر ما رُوي عن أم سلمة- رضي الله عنها: «فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها»(٤).

وقال أيضًا حكاية عن بعض المفسرين من السلف: «ثم إن الله تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك

---

(١) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٠٤)، والترمذي في تفسير سورة الأحزاب (٣٢١٦)، والدارمي في النكاح (٢٢٤١). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٤٥)-الأثر (١٧٧٣٧).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٣٨).

(٤) جمهور العلماء على أن آيتي عدة الوفاة الأولى منهما ناسخة للتي بعدها، واختار بعض المحققين كابن تيمية وابن كثير والسعدي أنهما محكمتان. انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٨٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٥٧١).

تزوج؛ لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن».

وقد رجح الطبري أن الآيتين محكمتان، وأن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك بقولي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾(١).

٢- أنه ﷺ مكلف كغيره من البشر، وأن التكليف لا يسقط عن أحد مهما بلغت منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، وفي هذا رد على غلاة الصوفية ونحوهم الذين يزعمون أن الأولياء قد يصلون إلى مرتبة يسقط عنهم بها التكليف.

٣- أن النبي ﷺ كغيره من البشر يعجبه الحسن والجمال في النساء، في الظاهر والباطن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾؛ ولهذا قال ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب**»(٢).

٤- جواز النظر إلى المخطوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾، وجواز تزوجها لحسنها.

وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]. وقوله ﷺ للمغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- لما خطب امرأة: «**انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»(٣).

٥- أن مما يرغب في المرأة حسنها، كما أن مما يرغب فيها دينها وأخلاقها وحسبها ومالها، كما قال ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها. فاظفر بذات**

---

(١) انظر:«جامع البيان» (١٠/ ١٥٠)، وانظر:«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٩٣)، «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» (ص٣٣٦).

(٢) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الألباني:«حسن صحيح».

(٣) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٣٥)، والترمذي في النكاح (١٠٨٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٦)- من حديث المغيرة بن شعبة-رضي الله عنه-وصححه الألباني.

الدين تربت يداك»(١).

٦- إباحة الإماء للنبي ﷺ بلا حصر ولا عدد كغيره من الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

٧- أن الوطء بملك اليمين أهون على المرأة من الوطء بالزواج؛ لأن الغيرة بين الزوجات وملك اليمين أقل.

٨- ثبوت الرق إذا وجد سببه الشرعي، وهو السبي في القتال بين المسلمين والكفار؛ لإعلاء كلمة الله لا لغير ذلك، وفي الحديث يقول ﷺ: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»(٢).

٩- شرف اليد اليمنى؛ لأن الله أضاف الملك إليها فقال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

١٠- إثبات رقابته- عز وجل- على كل شيء شهادة واطلاعًا وحفظًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ وعلى هذا فيجب على العبد مراقبة الله- عز وجل- في جميع أحواله الظاهرة والباطنة، على الدوام، في السر والعلن.

* * *

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، وأبوداود في النكاح (٢٠٤٧)، والنسائي في النكاح (٣٢٣٠)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٨)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٤٤٢)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

سبب النزول:

عن أنس- رضي الله عنه- قال: «لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام معه، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية»(١).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى لم أجد أحدًا أدعوه، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه، قال: ارفعوا طعامكم، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ إلى حجرة عائشة، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، كيف وجدت أهلك؟ بارك الله لك، فتقرَّى(٢) حجر نسائه كلهن يقول لهن كما قال لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة- رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٩١)، ومسلم في النكاح-زواج زينب بنت جحش (١٤٢٨).

(٢) تقرّي:أي:تتبع.

عنها، فما أدري أَخبرته أو أُخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة البيت داخلة وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأُنزلت آية الحجاب»(١).

وكان زواجه ﷺ بزينب في السنة الخامسة من الهجرة وقيل في السنة الثالثة(٢).

قال ابن كثير(٣): «هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ثم ذكر قول عمر رضي الله عنه: «وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة:١٢٥]، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم:٥] فنزلت كذلك»(٤) وفي رواية ذكر أسارى بدر»(٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، والأصل في النهي التحريم، وبيوت النبي ﷺ هي منازل نسائه ﷺ التسع لكل امرأة منهن بيت يقال: «بُيوت» بضم الباء، و«بِيوت» بكسرها، وهما قراءتان سبعيتان.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٣)، ومسلم في النكاح (١٤٢٨)، والترمذي في التفسير (٣٢١٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٦٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٤٠).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٠-٤٤١).

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٩)-من حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة-فضائل عمر بن الخطاب (٢٣٩٩).

وأضاف البيوت إليه ﷺ؛ لأنه ﷺ يسكن فيها ويأوي إليها، وأضافهن في قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤] إلى نسائه؛ لأن هذه البيوت ملك لهن فكل امرأة من نسائه ﷺ جعل لها ﷺ بيتًا ملكًا لها وخاصًا بها؛ ولهذا لما توفي ﷺ بقيت زوجاته في هذه البيوت، ولو كانت هذه البيوت ملكًا له لما بقين فيها؛ لقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا صدقة**»(١).

وقيل العكس، وهو أن البيوت له ﷺ حقيقة، ولهذا أضيفت إليه، وإنما أضيفت لنسائه في الآية الأخرى لسكناهن في هذه البيوت.

﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم.

و﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ بالبناء للمفعول ليشمل ذلك ما إذا كان الإذن من الرسول ﷺ أو من بعض أزواجه وأهله وخدمه.

وأطلق الإذن؛ لبيان أنه معتبر بكل ما دل عليه من قول، كأن يُقال للمستأذن: ادخل، ونحو ذلك، وبكل ما دل عليه من فعل، كفتح الباب له، ونحو ذلك.

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي: إلا أن يؤذن لكم بالدخول إلى طعام، والأصل أن يعدّى الفعل ﴿يُؤْذَنَ﴾ بـ«في» أو بـ«الباء» فيقال: يؤذن في الدخول، أو بالدخول، لكنه هنا عُدّي بـ«إلى»؛ لأنه ضمن معنى الدعاء، أي: إلا أن تدعوا إلى طعام ويؤذن لكم بالدخول، وفيه إشارة إلى أن الأصل في المجيء إلى الطعام الدعوة، وذم الطفيليين الذين يأتون على رائحة الطعام بدون دعوة، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾.

وإنما حسن تضمين الفعل «أذن» معنى الفعل «دعا» دون تضمين الحرف «إلى» معنى الحرف «في» أو «الباء»؛ لأن الأكثر ورودًا في القرآن الكريم أن يضمن الفعل معنى فعل آخر، لا أن يضمن الحرف معنى حرف آخر- مع أن كلًا منهما وارد في القرآن الكريم، وحمل ما جاء مثل هذا على الأكثر أولى.

﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قيد: لبيان الواقع، وهو أن دخولهم؛ لأجل الطعام، وإذا كان القيد لبيان

---

(١) سبق تخريجه.

الواقع فلا مفهوم له، وعلى هذا فيجوز الدخول بعد الإذن ولو لم يكن ذلك؛ لأجل الطعام.

﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ﴿غَيْرَ﴾: حال، ﴿نَٰظِرِينَ﴾ أي: منتظرين ومتحينين، من «نَظَرَ» المتعدي بنفسه، يقال: نظرته؛ بمعنى انتظرته، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، أي: هل ينتظرون إلا تأويله، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام:١٥٨] [النحل:٣٣].

وليس ذلك من النظر بالعين المتعدي بـ«إلى» كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٣].

﴿إِنَىٰهُ﴾ أي: نضجه واستواءه وإدراكه.

والمعنى: حال كونكم غير منتظرين ومتحرين ومتحينين نضجه واستواءه وإدراكه، وهذا يحتمل أنهم يتحينون وقت نضج الطعام فإذا نضج وأوشك أن يقدّم فاجؤوا بالدخول ليأكلوا، كما يفعل الطفيليون والضيفنن(١).

أو أنهم يدخلون مبكرين ويجلسون ينتظرون نضج الطعام واستواءه، وهذا وذاك كل منهما فيه مشقة وتثقيل على النبي ﷺ.

فمن شروط الدخول الإذن، وألا يكونوا منتظرين ومتحينين نضج الطعام واستواءه. وهذا أدب قرآني كريم من آداب الضيافة والدخول على الآخرين، فلابد من الإذن مع مراعاة عدم المشقة على صاحب البيت بمفاجأته بالدخول عند تقديم الطعام، أو بإطالة الجلوس عنده والتثقيل عليه انتظارًا لنضج الطعام، وبعد الأكل.

ومثل هذا التأخر بالمجيء من بعض المدعوين، فيحبس الناس، إما لعدم المبالاة، أو ليظهر قدره.

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، و﴿إِذَا﴾: ظرفية شرطية غير عاملة، بمعنى «حين» أي: ولكن حين تدعون فادخلوا، وهذا تصريح بما فهم من الجملة قبلها لئلا يتوهم أن في النهي عن دخول بيت النبي ﷺ إلا بعد الإذن؛ أنهم لا يدخلونها أبدًا، فقال: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾.

---

(١) الضيفنن: الذي يأتي مع الضيف بلا دعوة.

وقوله: ﴿دُعِيتُمْ﴾ بالبناء للمفعول؛ ليشمل ما إذا كانت الدعوة من الرسول ﷺ أو ممن لهم الإذن في الدعوة في بيوته من أزواجه وأهله وخدمه، وكان ﷺ جوادًا كريمًا، يكثر من دعوة الناس إلى طعامه.

والمعنى: إذا دعيتم للمجيء والحضور لتناول الطعام أو لغير ذلك فادخلوا، والدخول أخص من الإجابة، فإذا وجد المدعو الباب مفتوحًا فلا يلزم الاستئذان ويكفي السلام.

وإجابة الدعوة في الأصل واجبة، قال ﷺ: «**ومن دعاكم فأجيبوه**»(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو غيره**»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت**»(٣).

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿طَعِمْتُمْ﴾ أي: أكلتم من الطعام، ولم يقل: شبعتم؛ لأن الطعام قد يكون قليلًا فلا يشبع.

﴿فَانتَشِرُوا﴾ أي: تفرقوا، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١٠].

فإذا قضى الإنسان حاجته من الطعام ينبغي أن ينصرف؛ لأن حاجته والمقصود الذي دعي إليه انتهى.

﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هذا تأكيد لقوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، بل تصريح بما فهم منه. والواو في قوله: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عاطفة، و«لا» مؤكدة للنفي، وهو

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٠٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما-وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٧٣)، ومسلم في النكاح (١٤٢٩)، وأبوداود في الأطعمة (٣٧٣٦)، والترمذي في النكاح (١٠٩٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩١٤).

(٣) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها والتحريض عليها (٢٥٦٨).

معطوف على قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

و﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ حال، والتقدير: ولا تمكثوا حال كونكم مستأنسين لحديث، واللام في قوله: ﴿لِحَدِيثٍۚ﴾؛ للتعليل، أي: لأجل الحديث، والاستئناس: استفعال من الأنس الذي هو ضد الوحشة، أي: طلب الأنس والارتياح.

والمعنى: ولا حال كونكم مستأنسين مطمئنين منبسطين لحديث تتحدثون به أو تسمعونه وترتاحون له، مما يطول ويكون فيه ثقل على النبي ﷺ.

ويفهم من ذلك أن الحديث العابر الخفيف بعد الأكل لا بأس به حسب المقتضى وما جرت به العادة والعرف.

قال ابن كثير[1]: «﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ﴾.

وقيل: إن المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه، ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه- عليه الصلاة والسلام- حتى أنزل الله النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ ولهذا نهاكم وزجركم عنه».

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ هذا تعليل للنهي السابق، والإشارة لما تضمنه النهي السابق من الدخول بلا إذن، أو تحري نضج الطعام ثم المفاجأة بالدخول، أو التبكير في المجيء وإطالة الجلوس انتظارًا لنضج الطعام، أو الاستئناس والجلوس للحديث بعده، فكل هذا مما يؤذي النبي ﷺ.

والخطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ للمؤمنين المخاطبين بهذه الآية ويدخل تحته دخولًا أوليًّا أولئك النفر الذين ذكروا في سبب النزول.

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ ولم يقل: «يؤذيه» تنبيهًا لعلو شأنه ورفعته وفضله ﷺ.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٥).

ومعنى: ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ أي: يضايقه ويشق عليه، لما في الدخول دون إذن والمفاجأة بذلك من المشقة، ولما في إطالة الجلوس عنده بلا حاجة من تثقيل عليه وحبسه عن شؤونه وأعماله مع كثرة مشاغله ﷺ؛ لأنه رسول الأمة وقائدها، فإطالة الجلوس عنده تكون على حساب مصالح الأمة.

ولهذا أمرهم بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ تخفيفًا عليه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:١٢].

وهو ﷺ كغيره من البشر يتأذى، لكنه ﷺ أشد صبرًا وتحملًا، وأكرم الناس خلقًا، ولهذا لم ينههم هو بنفسه ﷺ حتى نهاهم الله- عز وجل- دفاعًا عن نبيه ﷺ ورفعًا للحرج عنه.

﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيستحيي منكم أن يمنعكم من الدخول، أو يخرجكم، أو يذهب لشؤونه ويترك الجلوس معكم ونحو ذلك.

وقد كان ﷺ أشد الناس حياءً، كما قال أبوسعيد رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها»(١).

والحياء خلق عظيم يؤدي إلى أحسن العواقب، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلًا يعظ أخاه في الحياء قال: «**دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير**»(٢).

لكن ليس من الحياء أن يقصر الإنسان فيما يجب عليه، أو لا يسأل عما يهمه في أمر دينه، فلا حياء في الدين، فعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: جاءت أم سليم امرأة أبي طلحة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، إذا هي رأت الماء**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٧)، ومسلم في الإيمان (٣٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٩٦)-من حديث عمران بن حصين-رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الغسل (٢٨٢)، ومسلم في الحيض (٣١٣)، والنسائي في الطهارة (١٩٧)، والترمذي في الطهارة (١٢٢)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٦٠٠).

قال السعدي[١]: «فالأمر الشرعي، لو كان يتوهم أن في تركه أدبًا وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء».

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: إن الله- عز وجل- لا يستحيي من فعل الحق وقول الحق وبيان الحق لكم؛ لأن الحياء من الحق معناه: ترك الحق، أو يستلزم ترك الحق، والله- عز وجل- ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ فعلًا له وقولًا له وبيانًا، وهو سبحانه ﴿يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ٤﴾ [الأحزاب:٤].

والحق هو: الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٥]. أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

فهو- عز وجل- لا يستحيي من الحق، فعلًا وقولًا له وبيانًا، ومن ذلك نهيه- عز وجل- عن دخول بيوت النبي ﷺ بلا إذن، وإطالة الجلوس عنده انتظارًا لنضج الطعام، أو استئناسًا للحديث بعد الأكل، فلا حياء في الدين، وفي بيان الحق.

وإذا كانت الآية بمنطوقها تدل على أن الله- عز وجل- لا يستحيي من الحق، فإنها تدل بمفهومها على أنه- عز وجل- يستحيي من غير الحق.

وهذه الآداب والشروط كما ينبغي مراعاتها عند دخول بيوت النبي ﷺ ينبغي مراعاتها في دخول بيوت غيره من المسلمين، فلا ينبغي دخول بيوت الغير إلا بعد إذنهم، أو دعوتهم، ولا ينبغي التثقيل على صاحب المنزل بإطالة الجلوس سواء قبل الأكل أو بعده.

﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾ الواو: للاستئناف، و«إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة.

والهاء في قوله: ﴿سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾ ضمير مفعول أول لـ«سأل» يعود إلى أزواج النبي ﷺ، ولم يسبق لهن ذكر في هذه الآية، لكن سبق ذكر النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ، وهن في هذه البيوت، والخطاب للمؤمنين، كما هو في أول الآية.

﴿مَتَٰعٗا﴾ مفعول ثانٍ لـ«سأل». والمتاع: كل ما يتمتع به من مطعم أو مشرب أو ملبس أو أثاث أو نقود أو غير ذلك، والمعنى: إذا طلبتم منهن متاعًا أيًّا كان.

وهذا يدل على جواز سؤالهن سؤال استجداء، ومن باب أولى جواز سؤالهن سؤال

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤١-٢٤٢).

استفهام واستخبار وفتوى.

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ أي: فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب أي: من خلف ستار، منفصل غير متصل بهن يفصل بينكم وبينهن ويحول بينكم وبين رؤيتهن، كأن تكون داخل غرفة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت:٥]. فلا يكفي حجاب غيرهن من النساء من خمار وملحفة ونحو ذلك.

قال ابن كثير[١]: «أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو أن لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب».

ويحتمل أن المراد بالحجاب حجاب البدن كحجاب غيرهن من النساء، فقد كن يخرجن للجهاد والحج ولحاجاتهن، وفي الحديث: «**قد أذن الله لكنَّ في الخروج لحوائجكن**»[٢].

وسواء حملناه على هذا أو على هذا فإنه يؤخذ من الآية أنه لا يجوز سؤال أزواجه ﷺ إلا من وراء حجاب، ولا يجوز سؤالهن إلا لحاجة لقوله: ﴿مَتَٰعٗا﴾[٣].

وإذا جاز تكليم أزواج النبي ﷺ عند الحاجة، فمن باب أولى يجوز تكليم غيرهن من النساء عند الحاجة إذا أمنت الفتنة.

كما يؤخذ من الآية وجوب الحجاب على أزواج النبي ﷺ، ولهذا قالت عائشة- رضي الله عنها- في ذكرها حديث الإفك: «فخمرت وجهي بجلبابي» يعني لما رأت صفوان[٤].

﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾: تعليل للأمر بكون سؤالهن من وراء حجاب يدل على تعليل الأحكام؛ للاطمئنان وزيادة الإيمان.

والإشارة في قوله ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ لمصدر الفعل ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ أي: سؤالهن من وراء

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في الفضائل (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن. والخطاب للمؤمنين، وبخاصة من يسأل أزواج النبي ﷺ.

و﴿أَطْهَرُ﴾ على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: أبلغ في طهارة قلوبكم وقلوبهن، وأنقى وأسلم وأبعد عن الفتنة والشر، إذ لا عصمة في هذا الباب إلا للرسل- عليهم صلوات الله وسلامه- فهم المعصومون من الفواحش ومقدماتها ودواعيها.

وإذا كان هذا الخطاب لأفضل الأمة بعد نبيها ﷺ وأبرها قلوبًا وأزكاها نفوسًا، وهم صحابة رسول الله ﷺ، ومع أفضل نساء الأمة وأعفها أزواجه ﷺ، وهم الصفوة المختارة، وخير القرون(١)، فمن دونهم من الأمة من باب أولى في وجوب البعد عن أسباب الفتنة، وأن يكون سؤالهم للنساء وتكليمهم لهن عند الحاجة من وراء حجاب حفاظًا على طهارة القلوب؛ لأن خواطر الريبة والفاحشة إلى قلوبهم أقرب لضعف الإيمان واليقين عندهم.

ومن العجب كل العجب أن يرفع أناس عقيرتهم ويمدوا ألسنتهم ويتطاولوا بها قائلين: إن الحجاب إنما هو خاص بأمهات المؤمنين. وإذا كانت العلة لأجل طهارة القلوب والخوف من تدنسها فإن وجوب الحجاب على من سوى أمهات المؤمنين من باب أولى وأحرى.

ويؤخذ من الآية حرص الشرع على طهارة القلوب وتزكية النفوس والبعد بها عما يكون سببًا للوقوع فيما يشينها ويدنسها، وذلك أن في مشروعية الحجاب سدًّا لكثير من أبواب الشر وذرائع الفساد، والنظر سهم من سهام إبليس كما جاء في الحديث(٢).

وقد قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر(٣)

---

(١) قال ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» الحديث أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢)-من حديث عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني-من حديث ابن مسعود رضي الله عنه-كما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٤٥)، ورُوِيَ أيضًا من حديث حذيفة-رضي الله عنه، انظر: «كشف الخفاء» (٢/ ٤٥٥).

(٣) انظر: «التفسير القيم» ص(٦٢٤-٦٢٩).

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان، والخطاب للمؤمنين، ﴿أَن تُؤْذُوا۟﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخر، وخبرها ﴿لَكُمْ﴾ مقدم.

أي: ما كان أذى رسول الله ﷺ جائزًا لكم، ولا لائقًا بكم يا معشر المؤمنين بأي نوع من الأذى، وفي أي وقت من الأوقات، لا بقول ولا بفعل، لا لشخصه ﷺ ودعوته في حياته، ولا لسنته بعد مماته.

أي: أن أذيته ﷺ بأي نوع من الأذى في حياته أو بعد مماته أمر محرم شرعًا ولا يليق بمسلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢].

وفي وصفه ﷺ في أول الآية بوصف النبوة، ووصفه هنا بوصف الرسالة تشريف له ﷺ، وتحذير من أذيته في شخصه ببدنه وعرضه وأهله وماله، ومن أذيته في دينه، في حياته وبعد مماته.

وفي هذا ما يدل على شناعة ما يقول الرافضة في حق زوجه عائشة- رضي الله عنها- وأنهم بذلك يرتكبون أعظم الأذية له ﷺ، كما يدل على شدة حرمة ما يرتكبه بعض من ينتسبون إلى الإسلام من أهل البدع وغيرهم من الأذية له ﷺ لشخصه، أو لدينه، وأن ذلك ينافي الإيمان. ناهيك عن الحملة المسعورة التي يشنها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وأهل الإلحاد والزندقة للنيل من رسول الله ﷺ ودين الإسلام ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢]، وليس بعد الكفر ذنب، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: لتأكيد النفي، ﴿أَن تَنكِحُوٓا۟﴾: ﴿أَن﴾ والفعل بعده في تأويل مصدر في محل رفع معطوف على قوله: ﴿أَن تُؤْذُوا۟﴾ أي: ما كان أذى رسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده جائزًا لكم.

و«النكاح» في اللغة: الضم والجمع، ويطلق في الشرع على العقد وعلى الوطء، والمراد به هنا: العقد، أي: لا يجوز لكم شرعًا، ولا يليق بكم نكاح أزواجه ﷺ من بعده أبدًا في أي حال من الأحوال، وفي أي وقت من الأوقات؛ لأن ذلك مما يؤذيه؛ فنكاح أزواجه ﷺ من بعده محرم على الأمة تحريمًا مؤبدًا؛ احترامًا له ﷺ.

قال ابن كثير(١): «أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره- والحالة هذه- نزاعًا والله أعلم».

وقال السعدي(٢): «فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته».

وهكذا وقع كونا فلم يتزوج أحد من بعده زوجاته ﷺ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أي: إن ذلكم يعني أذية رسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده.

﴿كَانَ﴾: مسلوبة الزمان، أي: كان وما زال عند الله عظيمًا.

أي: إن أذية رسول الله ﷺ ونكاح أزواجه من بعده أمر في غاية النكارة وإثم كبير، وذنب، عظّمه الله- تبارك وتعالى- وشدد فيه وتوعد عليه.

وإذا كان الله- عز وجل- وصف هذا الأمر بأنه عظيم فلا يعرف كنه عظمته ومقدارها إلا العظيم سبحانه، فليحذر الذين يقعون في أذية رسول الله ﷺ من هذا الوعيد الشديد، فإن الله لهم بالمرصاد.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾.

قوله: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، و﴿تُبۡدُواْ﴾: فعل الشرط، أي: إن تظهروا، ﴿شَيۡـًٔا﴾: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل شيء مما يتعلق بأذية رسول الله ﷺ، أو نكاح أزواجه من بعده، أو غير ذلك من أي شيء كان.

﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي: أو تسروه في أنفسكم وتكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم،

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٥).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٣).

فلا تظهروه لأحد من الناس مطلقًا، أو تخفوه عن عامة الناس فقط دون خاصتكم من أقاربكم أو أصحابكم فلا تخفونه عنهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: جملة جواب الشرط المتقدم، واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، و﴿كَانَ﴾ مسلوبة الزمان، أي: كان الله عز وجل وما زال بكل شيء عليمًا.

فعلمه- عز وجل- محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، كما قال موسى- عليه السلام- عندما سئل عن القرون الأولى قال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

وسواء كان ذلك الشيء مما أبداه الناس، وأظهروه، أو مما أخفوه، وأضمروه، وغير ذلك قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه:٧].

وفي الآية وعد ووعيد؛ لأنه إذا كان ما يظهرونه، وما يخفونه عنده عز وجل سواء؛ لإحاطة علمه- عز وجل- بكل شيء، فإنه سيجازى كلًا بعمله، وفي هذا وعد للمحسن بالثواب ووعيد للمسيء بالعقاب، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفيه حث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

٣- عدم جواز دخول بيوت النبي ﷺ إلا بإذن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

٤- أن البيت ينسب لساكنه كما ينسب لمالكه؛ لقوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾.

٥- أن الإذن بالدخول معتبر بكل ما دل عليه من قول أو فعل، ومن كل من له حق

الإذن؛ لإطلاق قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

٦- من أُذن له بالدخول جاز له الدخول، سواء كان ذلك لأجل الطعام أو لغير ذلك؛ لأن قوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قيد لبيان الواقع فلا مفهوم له.

٧- التعريض بمن يتحينون وقت نضج الطعام واستوائه، فيفاجئون بالدخول، أو يدخلون مبكرين ويجلسون انتظارًا لنضج الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾.

٨- إذا دعي المسلم للطعام أو لغيره ينبغي أن يجيب الدعوة وهي في الأصل واجبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ وسواء كان الداعي صاحب البيت أو من يقوم مقامه من أهل وولد وخدم وغيرهم.

٩- التعريض بذم الطفيليين والضيفنن الذين يأتون من دون دعوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾.

١٠- ينبغي للمدعوين الانتشار بعد تناول الطعام وعدم الجلوس للحديث، والتثقيل على النبي ﷺ، فليس هذا وقت الجلوس والاستئناس للحديث؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾.

١١- أن الله عز وجل إنما نهى عن دخول بيوت النبي ﷺ- بلا إذن، أو تحري نضج الطعام ثم المفاجأة بالدخول بلا إذن، أو التبكير بالمجيء وإطالة الجلوس انتظارًا لنضج الطعام، أو الاستئناس والجلوس للحديث بعد الطعام- دفاعًا عن النبي ﷺ؛ لأن هذا كله مما يؤذيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾.

١٢- إثبات الحكمة و العلة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

١٣- أنه ﷺ كغيره من الرسل يتأذى بما يتأذى منه البشر، لكنه يختلف عن غيره بقوة صبره وشدة تحمله ﷺ، بما فاق به جميع الرسل فضلًا عن جميع البشر.

١٤- شدة حيائه ﷺ وما جبل عليه من كريم الأخلاق وعظيم السجايا؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ أي: فيستحيي منكم أن يمنعكم من الدخول، أو يأمركم

بالخروج، أو يترك الجلوس معكم ويذهب لشأنه.

١٥- هذه الآداب التي أمر الله بمراعاتها عند دخول بيوت النبي ﷺ، وعند الدعوة إلى الطعام، يجب مراعاتها عند المسلمين فيما بينهم عند دخول البيوت وعند الدعوة إلى الطعام.

١٦- أن الله- عز وجل- لا يستحيي من الحق؛ فعلًا له وقولًا وبيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ومفهوم هذا أنه- عز وجل- يستحيي من غير الحق.

١٧- عدم جواز سؤال أزواج النبي ﷺ إلا من وراء حجاب، ولحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ وإذا كان هذا مع أزواج النبي ﷺ فغيرهن من النساء من باب أولى.

١٨- جواز تكليم النساء الأجانب عند الحاجة إذا أمنت الفتنة، ومن وراء حجاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

١٩- أن الفتنة في مخاطبة النساء قد تكون من الرجل وحده، أو من المرأة وحدها، أو منهما معًا.

٢٠- حرص الشرع على طهارة القلوب وتزكية النفوس والبُعد بها عما يكون سببًا للوقوع فيما يشينها ويدنسها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

٢١- وجوب الحجاب على المرأة المسلمة؛ لقوله- تعالى- عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وهذه الآية وإن كانت في أزواج النبي ﷺ باتفاق أهل العلم، إلا أنها عامة لهن ولغيرهن من نساء الأمة؛ لأن طهارة القلوب كما أنها مطلب بالنسبة لأزواج النبي ﷺ ولمن يخاطبونهن، فهي بالنسبة لغيرهن ولمن يخاطبون غيرهن مطلوبة من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة عليهم أشد.

ولهذا قال ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت يا رسول الله الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢)، ومسلم في السلام (٢١٧٢)، والترمذي في الرضاع (١١٧١)- =

وهذا عام في جميع النساء، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ومن أجل هذا لم تُوجَب عليهن صلاة الجماعة؛ بل لم تستحب منهن مع ما فيها من الفضل[(١)]. قال ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن**»[(٢)].

٢٢- تحريم أذية النبي ﷺ بأي نوع من الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ سواء كان ذلك في حياته أو بعد مماته.

٢٣- تحريم نكاح أزواجه ﷺ من بعده تحريمًا مؤبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك احترامًا له ﷺ، ولأنهن أمهات المؤمنين وزوجاته في الدنيا والآخرة.

٢٤- أن أذى النبي ﷺ ونكاح أزواجه ﷺ من بعده أمر في غاية النكارة وإثم كبير وذنب عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

٢٥- أن الذنوب تتفاوت في العظم، فمنها كبائر، ومنها صغائر ومنها عظائم، ومنها دون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

٢٦- عناية الله- عز وجل- برسوله ﷺ ودفاعه عنه وحمايته له ولفراشه، مما يدل على علو مكانته ﷺ وشرفه عند ربه.

٢٧- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء أزلًا وأبدًا، وأن السر والجهر عنده سواء؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

وفي هذا ما يوجب مراقبة الله تعالى، ووعد لمن اتقى الله وامتثل أمره، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

٢٨- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، المحيط بكل شيء.

* * *

=

من حديث عقبة بن عامر-رضي الله عنه.

(١) انظر: «أضواء البيان» (٦/ ٥٨٤، ٥٩٢-٥٩٣، ٥٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، والنسائي في المساجد (٧٠٦)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: «لما أمر الله- تعالى- النساء بالحجاب من الأجانب، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور، عند قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ [النور:٣١] إلى آخرها، وفيها زيادات على هذه».

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ ﴿لَّا﴾: نافية، والجناح: هو الحرج والضيق والإثم، ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: أي:على أزواجه ﷺ اللاتي قال الله عنهن: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب:٥٣].

أي: لا حرج ولا ضيق ولا إثم عليهن في عدم الاحتجاب عمن ذكروا في هذه الآية، ومن باب أولى ليس على غيرهن من نساء الأمة حرج في عدم الاحتجاب عنهم.

﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي: في عدم الاحتجاب عنهم، وهكذا من ذكر بعدهم. والآباء: يشمل الأجداد من جهة الأب ومن جهة الأم وإن علوا.

﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ أي: ولا حرج عليهن في عدم الاحتجاب عن أبنائهن، ويشمل ذلك أبناءهن مباشرة، وأبناء أولادهن وإن نزلوا.

﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يشمل أبناء الإخوة وإن نزلوا؛ لأنهن عمات لابن الأخ المباشر، وعمات لأولاده وإن نزلوا، فعمة الرجل عمة لأولاده ذكورهم وإناثهم وإن نزلوا.

﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ يشمل أيضًا أبناء الأخوات وإن نزلوا؛ لأنهن خالات لابن الأخت المباشر، وخالة الرجل خالة لأولاده ذكورهم وإناثهم، وإن نزلوا.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٦)، وانظر:«تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٤).

قال السعدي[١]: «ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هن عماته وخالاته من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى المصرحة بذكر العم والخال[٢] مقدّم على ما يفهم من هذه الآية».

كما لم يذكر هنا البعولة وآباء البعولة وأبناءهم لذكرهم في آية سورة النور. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: ولا جناح عليهن ولا حرج في عدم الاحتجاب عن غيرهن من النساء أمثالهن في الأنوثة، وقيل: نسائهن من المؤمنات فقط، فلا يجوز ترك الحجاب عند الكافرات؛ لأنهن قد يصفن المرأة للآخرين، والصحيح الأول فلا تحتجب المرأة عن غيرها من النساء مؤمنات كنّ أو كافرات.

﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: ولا جناح عليهن في ترك الحجاب عمَّا ملكت أيمانهن من الأرقاء ذكورهم وإناثهم، فإذا ملكت المرأة الرقيق ملكًا تامًّا فلا حرج عليها في عدم الاحتجاب عنه.

عن أنس- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى، قال: «**إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك**»[٣].

وعن أم- سلمة رضي الله- عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان عنده ما يؤدي فلتحتجب منه»[٤].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٤).

(٢) أي:في قوله تعالى في سورة النساء:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣].

(٣) أخرجه أبوداود في اللباس-في العبد ينظر إلى شعر مولاته (٤٠٦)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبوداود في العتق (٣٩٢٨)، والترمذي في البيوع (١٢٦١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٥٢٠)، وقال الترمذي:«حديث حسن صحيح».

ومفهوم هذا أنه إذا لم يكن عنده ما يؤدي فلا تحتجب عنه، والمملوك أولى.

ومما ينبغي أن يعلم أن المرأة إنما يجوز لها ترك الحجاب مع مملوكها هي إذا كانت تملكه ملكًا تامًّا، فإن كانت تملك بعضه، أو هو ملك لزوجها أو لغيره وجب عليها الاحتجاب عنه.

وما عدا من ذكروا في هذه الآية وآية سورة النور يجب الاحتجاب منهم، وفي ترك الحجاب عنهم جناح وحرج وإثم كما هو مفهوم الآية.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والهدف منه لفت انتباه المخاطب، كما أن في توجيه الخطاب والأمر إليهن توكيدًا على وجوب تقوى الله عليهن وتجديدها والاستمرار عليها في جميع أحوالهن وأمورهن عامة وفيما ذكر قبل هذا خاصة من الحجاب عن غير المحارم.

وإذا كان هذا الأمر بتقوى الله- عز وجل- لأزواج النبي ﷺ وهنّ الطاهرات المطهرات الطيبات فغيرهن من النساء مأمورات بذلك من باب أولى وأحرى.

وليس في أمر الله لنساء نبيه ﷺ بالتقوى ما يدل على حصول مخالفة منهن- رضي الله عنهن- مع أنهن غير معصومات، فقد أمر الله بالتقوى من هو أتقى الناس وأخشاهم لله نبينا محمد بن عبدالله سيد الأولين والآخرين، وأفضل رسل رب العالمين، والقائل ﷺ: «**والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**»(١).

ولله در الخليفة الراشد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لما قيل له: اتق الله، قال بلسان المؤمن حقًّا العارف بقيمة هذه الوصية وثمرتها: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم»(٢).

وتجد الكثير من الناس يأنف أن يقال له: اتق الله، وربما وجد في نفسه غضاضة أن يقال له ذلك، وكأنه يزكي نفسه، وقد قال الله- عز وجل- عن صنف من الناس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِۚ﴾ [البقرة:٢٠٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر:«تاريخ المدينة» لابن شبة ٢/ ٧٧٣، « الخراج »لأبي يوسف ص٢٢.

دخل أحد الزائرين على مريض فقال له: «طهور إن شاء الله»، فرد عليه المريض بغضب: ماذا تقول، ماذا عملت أنا... إلخ.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فقال له: «لا بأس طهور إن شاء الله» قال: قلت طهور، كلا، بل هي حمى تفور أو تثور على شيخ كبير تزيره القبور. فقال النبي ﷺ: «فنعم إذًا»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: إن الله- عز وجل- كان على كل شيء من الأشياء صغيرها وكبيرها، خفيها وجليها، باطنها وظاهرها ﴿شَهِيدًا﴾أي: مطلعًا حاضرًا، رقيبًا حفيظًا.

و﴿شَهِيدًا﴾ على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، يدل على سعة وكمال اطلاعه على كل شيء، وأنه لا تخفى عليه خافية، في الأرض ولا في السماء، مما يوجب مراقبته- عز وجل- في كل شيء، ومن ذلك الاحتجاب عن غير المحارم، وتقواه في كل شيء.

وفي الآية وعد لمن أطاع الله واتقاه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

الفوائد والأحكام:

١- لا حرج ولا إثم على النساء في عدم الاحتجاب عمن ذكروا في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

٢- وجوب الاحتجاب على النساء عمن لم يذكروا في هذه الآية وفي آية سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

٣- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ وإذا كان هذا الأمر لنساء النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٦).

فغيرهن من الأمة ذكورًا وإناثًا مأمورون بذلك من باب أولى وأحرى.

٤- إثبات شهادته- عز وجل- واطلاعه على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

وفي هذا دلالة على وجوب مراقبة الله تعالى، ووعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ هذه جملة خبرية. والملائكة: جمع ملك، وهم خلق من خلق الله- عز وجل- خلقهم الله من نور، يعبدون الله- عز وجل- ويفعلون ما يؤمرون، كما قال عز وجل: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وقال عز وجل: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، وجاز عطف قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ على اسمه- عز وجل- بالواو، لأنهم مشاركون بالفعل، وهو الصلاة على النبي ﷺ، وفي إضافتهم إلى الله- عز وجل- إشارة إلى شرفهم وفضلهم وتكريم لهم.

والإيمان بالملائكة؛ بوجودهم وأعمالهم وأحوالهم على جهة الإجمال والتفصيل، كما ورد في الكتاب والسنة ركن من أركان الإيمان الستة.

والصلاة في اللغة: الدعاء.

ومعنى صلاة الله- عز وجل- على نبيه ﷺ: ثناؤه عليه بين الملائكة في الملأ الأعلى.

قال أبو العالية: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء».

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: «﴿يُصَلُّونَ﴾: يُبَرِّكون»(١).

قال الترمذي: «وروي عن سفيان الثوري، وغير واحد من أهل العلم، قالوا: «صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار»(٢).

ولا يمتنع أن يكون معنى صلاة الله على الرسول ﷺ بمعنى الثناء والتبريك والرحمة، وهكذا معنى صلاته- عز وجل- على المؤمنين، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة:١٥٧].

---

(١) ذكره البخاري عنهما معلقًا في تفسير سورة الأحزاب-باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ «فتح الباري» (٨/ ٥٣٢)، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٧٤).

(٢) ذكره الترمذي في الوتر-فضل الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٥).

ومعنى صلاة الملائكة عليه ﷺ: دعاؤهم واستغفارهم له، وهكذا صلاة الملائكة على المؤمنين دعاؤهم واستغفارهم لهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقال ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف**»(١).

أما السلام من الله على رسوله فهو تسليمه لنبيه ﷺ وحفظه له من الآفات والشرور ومن كل سوء ومكروه، وهكذا السلام من الله على المؤمنين أن يسلمهم من الآفات والشرور ونحو ذلك، قال تعالى في سلامه على عباده: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

بعدما أخبر عز وجل أنه هو وملائكته يصلون على النبي، أمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه ترغيبًا لهم بذلك وحثًّا وبيانًا لفضل الصلاة والسلام عليه ﷺ وشرفه وفضله وعلو مكانته عند الله وملائكته والمؤمنين.

وقوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أمر، والأصل في الأمر الوجوب، ولهذا فإن الصلاة على النبي ﷺ وإن كانت مستحبة في جميع الأوقات فإنها تجب في بعض الأحوال، كما في التشهد في الصلاة، كما في حديث فضالة بن عبيد- رضي الله عنه- قال: سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته، لم يمجد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**عجل هذا**»، ثم دعاه وقال له ولغيره: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله- عز وجل- والثناء عليه، ثم ليصل على النبي، ثم ليدع بعد بما شاء**»(٢).

وهكذا علّم ﷺ أصحابه في الصلاة أن يصلوا عليه في التشهد، كما سيأتي في صفة

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة-من يستحب أن يلي الإمام (٦٧٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٠٥)-من حديث عائشة-رضي الله عنها. وحسَّنه الألباني بلفظ:«إن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف».

(٢) أخرجه أبوداود في الوتر-باب الدعاء (١٤٨١)، والنسائي في السهو (١٢٨٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧)، وأحمد (٦/ ١٨)، وصححه الألباني.

الصلاة عليه ﷺ وقال لهم: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(١).

وأكد السلام توكيدًا لفظيًّا بالمصدر، فقال: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾؛ لأنه لم يتقدم ما يؤكده بخلاف الصلاة، فقد تقدم تأكيدها معنويًّا بذكر أن الله يصلي عليه وملائكته، وهذا أبلغ من التأكيد اللفظي.

والصلاة والسلام من المؤمنين على الرسول ﷺ: دعاؤهم الله أن يصلي ويسلم عليه.

وتصح الصلاة والسلام على النبي ﷺ بأي صيغة كانت، وفي أي وقت؛ لأن الله أطلق ذلك.

عن كعب بن عجرة- رضي الله عنه- قال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت. فإن الله علمنا كيف نسلم عليكم؟ قال: «**قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(٢).

وصفة السلام عليه ﷺ، كما أمر الله- عز وجل- في قوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أن نقول: اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد، أو صلى الله وسلم على نبينا محمد، ونحو ذلك.

ومن ذلك ما جاء في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»(٣).

والمشروع الجمع بين الصلاة والسلام عليه ﷺ كما أمر الله- عز وجل- وكما جاء

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٨)-من حديث مالك بن الحويرث-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٧٠)، ومسلم في الصلاة (٤٠٦)، وأبوداود في الصلاة-الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٩٧٦)، والنسائي في السهو-كيف الصلاة على النبي ﷺ (١٢٨٧)، والترمذي في الوتر-صفة الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة-الصلاة على النبي ﷺ (٩٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، وأبوداود في الصلاة (٩٦٨)، والنسائي في التطبيق (١١٦٢)، والترمذي في الصلاة (٢٨٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٩٩)-من حديث عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه.

في التشهد في الصلاة، لكن في التشهد في الصلاة يقدم السلام، كما جاء في صفة التشهد، وفي خارج الصلاة تقدم الصلاة على السلام، كما جاء في الآية: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

والصلاة على النبي ﷺ مشروعة كل وقت، بل ومستحبة(١)، وتتأكد يوم الجمعة للأحاديث الواردة في ذلك، وتجب في بعض الأحوال كما في التشهد في الصلاة عند طائفة من أهل العلم، بل عدَّها بعض أهل العلم ركنًا من أركان الصلاة وشرطًا لصحتها(٢).

كما تتأكد أو تجب عند ذكره ﷺ، يدل على هذا قوله ﷺ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده، فلم يصلِّ عليَّ**»(٣)، وقوله في الحديث الآخر: «**البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ**»(٤).

فالصلاة عليه ﷺ واجبة، أمر الله- عز وجل- المؤمنين بها، وشرعها لهم رسوله ﷺ، وهي من أفضل الأعمال؛ ولهذا قدَّم- عز وجل- الخبر بأنه وملائكته يصلون على النبي على أمر المؤمنين بذلك بيانًا لفضل الصلاة عليه ﷺ، وعلو مكانته عند الله وفي الملأ الأعلى، وترغيبًا للمؤمنين على امتثال الأمر بالصلاة والسلام عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا**»(٥).

---

(١) تكره الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح؛ لأنه مقام توحيد وعبادة، فيقول الذابح فقط: بسم الله والله أكبر، ولا يصلي على النبي ﷺ في هذا المقام؛ لأن الصلاة عليه في هذا المقام تُشعر بإشراكه مع الله في الذبح، والذبح من أنواع العبادة التي يجب أن تكون خالصة لله-عز وجل-وكذلك لا تشرع في المواضع التي لا يشرع فيها السلام كحال الخطبة، إلا عند ذكره ﷺ، وكذا حال قضاء الحاجة ونحو ذلك.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٥٠، ٤٥١-٤٦٢)، «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٥)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٦)-من حديث علي بن أبي طالب-رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة-الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٤٠٨)، وأبوداود في الوتر-في الاستغفار (١٥٣٠)، والنسائي في السهو-الفضل في الصلاة على النبي ﷺ (١٢٩٦)، والترمذي في الوتر-فضل =

وعن عمر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات**»(١).

والصلاة عليه ﷺ تبلغه من البعيد والقريب، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم**»(٢).

والصلاة على غيره ﷺ من المؤمنين تشرع مع الصلاة عليه تبعًا لا استقلالًا كأن يقال: اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم إلى يوم الدين، ونحو ذلك.

ومعنى: صلاة المؤمنين بعضهم على بعض: الدعاء من بعضهم لبعض.

ومعنى سلام بعضهم على بعض: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات والشرور والفتن ومن كل سوء ومكروه.

وهذا مما يؤكد على أنه ينبغي للمسلِّم والمسلَّم عليه أن يستحضروا هذا المعنى، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم، وقال ﷺ: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»(٣).

وسأل النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما**»(٤).

أي: الدعاء والاستغفار لهما.

=

الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٥).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٩).

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك-باب زيارة القبور (٢٠٤٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٨)، ومسلم في الزكاة (١٧٨)، وأبوداود في الزكاة-دعاء المصدق لأهل الصدقة (١٥٩٠)، والنسائي في الزكاة-صلاة الإمام على صاحب الصدقة (٢٤٥٩)، وابن ماجه في الزكاة-ما يقال عند إخراج الزكاة (١٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥)-من حديث عبدالله بن أبي أوفى-رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه (٢٦٦٤) من حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وجود الملائكة، وهم عالم غيبي خلقوا من نور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الآية.

٢- الإخبار بأن الله- عز وجل- وملائكته الكرام يصلون على النبي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾.

٣- شرف الملائكة عند الله- عز وجل- حيث أضافهم لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾.

٤- مشروعية الصلاة والسلام على النبي ﷺ وتأكيد ذلك وأنها من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾، وهي من واجبات الصلاة، وذلك في التشهد.

٥- إثبات نبوته ﷺ، وعلوُّ منزلته ﷺ ورفعة قدره عند ربه، وفي الملأ الأعلى، وعند المؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ جملة خبرية، ومعنى ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يصفونه بما هو منزه عنه، وما لا يليق به، ويعصونه ويخالفون أمره ويصدون الناس عن دينه وغير ذلك.

ومن ذلك جعل الشركاء معه، كما قال المشركون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وجعْل الولد له، كما قالت اليهود والنصارى فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة:٣٠]، وكما قال عز وجل عن المشركين: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم:٨٨]، [الأنبياء:٢٦].

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل، إنهم ليدعون له ولدًا وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**قال الله- عز وجل: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٧٤، ٤٩٧٥)، والنسائي في الجنائز (٢٠٧٨).

ومن ذلك وصفه بالنقص، كالفقر والتعب وغير ذلك، كما قالت اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقولهم: إنه عندما خلق السموات والأرض تعب فاستراح يوم السبت، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨] أي: من تعب أو نصب أو إعياء.

وكإنكار صفات كماله أو بعضها، كما فعلت المعطلة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم.

وكتمثيل صفاته بصفات المخلوقين، كما فعل أهل التمثيل والتشبيه.

ومن ذلك سب الدهر، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار**»(١).

ومن ذلك مضاهاة خلق الله- عز وجل- بالتصوير، قال تعالى في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»(٢).

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ويؤذون رسوله، وفي عطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله- عز وجل- بالواو التي تقتضي الجمع والتشريك دليل على أن أذية الرسول ﷺ أذية لله، كما قال ﷺ: «**ومن آذاني فقد آذى الله**»(٣)، كما أن طاعته ﷺ طاعة لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وأذية الرسول ﷺ تكون بالأذية لشخصه في حياته بالقول والفعل؛ فالأذية بالقول كرمْيه ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كما ذكر الله- عز وجل- بالقرآن، ومن ذلك الطعن في أزواجه ﷺ كعائشة- رضي الله عنها- وفي تزويجه صفية بنت حيي- رضي الله عنها- وفي إمرة أسامة بن زيد وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجاثية (٤٨٢٦)، ومسلم في كتاب الألفاظ في الأدب-باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦)، وأبوداود في الأدب (٥٢٧٤)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٣)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١١١)-من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سيأتي تخريجه قريبًا.

والأذية له بالفعل كما في وضع سفهاء قريش سلى الجزور على ظهره وهو ساجد ووضع القاذورات على عتبة بابه، ووضع الشوك في طريقه، كما فعلت أم جميل، ورمي سفهاء أهل الطائف له بالحجارة حتى أدموا عقبيه، وكسر رباعيته وشجه في رأسه ووجنتيه يوم أُحد، ومحاولة اليهود إلقاء الحجر عليه من أعلى، ومحاولة قتله أكثر من مرة، ومحاربته ودينه والتحزب ضده وغير ذلك.

كما تكون أذيته ﷺ بمعصيته ومخالفة أمره والصد عن اتباعه، فكل ذلك مما يتأذى به ﷺ حتى إنه ليخشى عليه من ذلك، ولهذا يسليه الله- عز وجل- ويطمئنه بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء:٣]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢].

عن عبدالله بن مغفل المزني قال: قال النبي ﷺ: «**الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه**»(١).

والآية عامة في كل أذية له ﷺ لشخصه أو لدينه، بقول أو فعل، فمن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ هذا خبر «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وفي هذا أعظم التهديد والوعيد لمن آذى الله ورسوله»؛ لأن الله توعده باللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب المهين مما يدل على أن هذا من أكبر الكبائر.

واللعن من الله- عز وجل- هو الطرد والإبعاد عن رحمته.

فالمعنى: أبعدهم الله عن رحمته في الدنيا والآخرة، وإذا طردهم الله- عز وجل- عن رحمته في الدنيا والآخرة فليس لهم إلا عذابه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالشقاء والمصائب وقتالهم ومعاقبتهم وتحتم قتل من سب الرسول ﷺ وآذاه منهم(٢)، وفي

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٨٧)، والترمذي في المناقب، باب فيمن سب النبي ﷺ (٣٨٦٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٦).

الآخرة في النار، ولهذا قال بعد هذا:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، و«أعد» بمعنى: جهز.

﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: عذابًا وعقوبة تهينهم وتذلهم حسًّا ومعنى؛ حسًّا بما يقاسونه من حر النار ولهيبها وجحيمها وزقومها وزمهريرها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

وتهينهم معنًى، أي: إهانة معنوية تحطم معنوياتهم من التقريع لهم والتوبيخ والتبكيت وتيئيسهم من الخروج منها، كقوله عز وجل: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام:١٣٠]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر:٧١]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك:٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧]، وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٧-٥٠]، أي: ذق العذاب والإهانة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، أي: في زعمك، وفي هذا غاية التهكم به، والإهانة له.

حتى إن إبليس لعنه الله يتبرأ منهم وهو معهم في النار، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي، بل هو أشد منه؛ لأن العذاب المعنوي ينصب على القلب، ويحطم المعنويات.

ولو أن شخصين فعلا خطأ فجيء بهما إلى الحاكم فضرب أحدهما خمسين سوطًا، وأطلق سراحه، وأجلس الآخر عنده، فكان بين آونة وأخرى يلحظه بعينيه، ويقول: أنت فعلت كذا، وأنت فعلت كذا، يوبخه، لكان هذا أشد عليه مما لو ضُرب مائة

سوط، وأطلق سراحه مع صاحبه، ولهذا المعنى استحب أهل العلم أن يختن الطفل وهو صغير في المهد؛ لأنه في هذا السن لا يشعر إلا بالألم الحسي، فإذا خف الألم نام، فيشفى سريعًا بإذن الله- عز وجل- بخلاف ما لو أُخِّر ختانه حتى كبر فإنه يجتمع عليه مع الألم الحسي الألم المعنوي والتخوف، مما يسبب بطء الشفاء.

وهذا اللعن والعذاب المهين مجازاة لهم على أذيتهم لله ورسوله وتكبرهم عن الحق وعصيانهم ومخالفتهم أمر الله ورسوله؛ ولهذا يقال لأحدهم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان:٤٩] أي: ذق العذاب والإهانة الحسية والمعنوية؛ لأنك خالفت أمر الله ورسوله تكبرًا وزعمًا منك إنك أنت العزيز الكريم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

بعد ما ذكر الله- عز وجل- الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله وذلك بطردهم عن رحمته في الدنيا والآخرة، وإعداد العذاب المهين لهم، ذكر حكم الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ «الذين» اسم موصول في محل رفع مبتدأ يفيد العموم فكل من آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فهو داخل تحت الوعيد المذكور سواء كان مؤمنًا أو كافرًا.

وأذية المؤمنين قد تكون بالقول باللسان من السب والشتم والكذب وشهادة الزور عليهم والقذف لهم ونحو ذلك.

وقد تكون بالفعل بالضرب أو القتل أو الاعتداء على ممتلكاتهم بالغصب أو السرقة أو الغش، أو التقصير فيما يتولاه من أعمال المسلمين، كما هو حال الكثيرين، ونحو ذلك.

وكأن يؤذي جيرانه بتتبع عوراتهم أو أن يضع في داره ما يؤذي جيرانه من رحى أو نار تكون خطرًا على جيرانه أو تؤذيهم بدخانها ونحو ذلك.

وذكر الله المؤمنات؛ لزيادة التأكيد وبيان أن أذية المؤمنين ذكورهم وإناثهم سواء في التحريم والجرم والعقوبة، لكن كلما كان المؤمن أو المؤمنة حقه أعظم كانت أذيته أشد

كالقريب والجار.

﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى «الذي» أي: بغير الذي اكتسبوه، أو مصدرية، أي: بغير اكتسابهم، والمعنى: بغير جرم ارتكبوه، أو ظلم واعتداء فعلوه وفي هذا الرد على الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور على أفعاله، لا اختيار له.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ الجملة في محل رفع خبر المبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾.

والبهتان: هو الكذب الذي يبهت صاحبه، يقال: بُهت الرجل، أي: انقطع وتحير، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨] فالكذب يبهت قائله ويحيرهويبهت المرمي به ويحيره.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**». فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه**»(١).

ومعنى بهتَّه: كذبت عليه.

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**أي الربا أربى عند الله**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **أربى الربا استحلال عرض امرئ مسلم**، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾»(٢).

ووصف الأذى سواء كان بقول أو بفعل بالبهتان وهو الكذب، أما الأذى بالقول فلا إشكال في وصفه بالبهتان، وأما الأذى بالفعل فكأن صاحبه يرى أنه محق بما فعل وهو كاذب، ومن هنا وُصف بالبهتان.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ذنبًا بينًا ظاهرًا، قال ابن كثير(٣): «وهذا هو البهت البيّن، أن

---

(١) أخرجه مسلم في البر-باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، وأبوداود في الأدب-باب الغيبة (٤٨٧٤)، والترمذي في أبواب البر-ما جاء في الغيبة (١٩٣٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٣)-الأثر (١٧٧٨).

(٣) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٠).

يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله- عز وجل- قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن، ولا فعلوه أبدًا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين».

فأذية المؤمنين والمؤمنات بغير جرم اكتسبوه بهتان وكذب وذنب بيّن محرم غاية التحريم، كما تحرم أيضًا أذية من دخل في حكم المؤمنين من ذمي ومعاهد ومستأمن.

لكن إن كانت أذية المؤمنين والمؤمنات أو من دخل في حكمهم بسبب جرم كان منهم ومن باب معاقبتهم، أو أخذ الحق منهم، أو إقامة الحد عليهم، أو لأجل منعهم من ظلم أنفسهم أو غيرهم ونحو ذلك، فليس ذلك من البهتان والإثم، بل إن هذا قد يكون واجبًا لمنعهم من ظلم أنفسهم وظلم غيرهم شريطة ألا يزيد ذلك عن جرمهم، ولا يسمى هذا أذية إلا من باب المشاكلة كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [٤٠]، وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل:١٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للذين يؤذون الله ورسوله، وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ فهم ملعونون مبعدون عن رحمة الله في الدنيا والآخرة ولهم العذاب المهين في النار.

٢- أن من آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله؛ لأن الله- عز وجل- عطف اسم الرسول أو وصفه على اسمه- عز وجل- فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣- وجوب تعظيم الله- تعالى- وتعظيم رسوله ﷺ.

٤- دفاع الله- عز وجل- عن رسوله ﷺ.

٥- إثبات الآخرة، والنار وأنها معدة لتعذيب الكفار وإهانتهم.

٦- تحريم أذية المؤمنين والمؤمنات بغير جرم كان منهم بأي نوع من الأذى، قولًا كان

أو فعلًا، أو غير ذلك، والتحذير الشديد من ذلك، وأن من آذاهم فقد احتمل بهتانا عظيمًا، وذنبًا بيِّنًا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾، وفي هذا وعيد وتهديد لمن آذى المؤمنين.

٧- دفاع الله- عز وجل- عن المؤمنين.

٨- أن أذية من ارتكب جرمًا من المؤمنين وعقوبته على ذلك ليست من الأذى المتوعد عليه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

٩- الرد على الجبرية الذين يقولون إن الإنسان مجبور على أفعاله لا اختيار له؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ تصدير الخطاب بالنداء له ﷺ، ونداؤه بوصف النبوة، وأمره بقوله تعالى: ﴿قُل﴾: مع أنه مأمور بتبليغ القرآن كله، وهو واجب عليه، بل هو رسالته ومهمته التي بعثه الله بها؛ كل هذا يدل على العناية والاهتمام بما بعد هذا الخطاب والنداء والأمر.

وقدّم أزواجه ﷺ؛ لأن الغيرة عليهن أشد، ومسؤولية الزوج عنهن أعظم، وهن اللاتي كن في عصمته ﷺ حال نزول الآية، رضي الله عنهنّ.

﴿وَبَنَاتِكَ﴾: وهن أربع: فاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم- رضي الله عنهن- والمقصود من كان منهن موجودًا حال نزول الآية؛ لأنه إذا كانت الآية نزلت في السنة السادسة من الهجرة فإن بعضهن قد مات.

وقدمهن على نساء المؤمنين؛ لأن مسؤولية الوالد عن أولاده من بنين وبنات أعظم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [الأحزاب:٦].

وقال ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول**»(١).

﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من زوجات وبنات، وأمهات وأخوات، وعمات وخالات وغيرهن.

وفي إضافة النساء إلى المؤمنين حث وإغراء على الامتثال؛ ولأن المؤمنين هم الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه وتنفعهم الذكرى، كما قال عز وجل: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات:٥٥].

كما أنه يجب على من كان في حكم المؤمنين من الذميات والمعاهدات والمستأمنات أن يلتزمن ذلك من حيث الظاهر لئلا يُفتتن بهن.

كما أن في إضافتهن إلى المؤمنين إشارة إلى مسؤولية الرجال المؤمنين عن نسائهم كما

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٦)، وأبوداود في الزكاة (١٦٧٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

قال عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، وقال ﷺ: «**والرجل راعٍ في أهل بيته ومسؤول عن رعيته**»(١).

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ هذه الجملة في محل جزم جواب الأمر ﴿قُل﴾.

ويحتمل أن تكون الجملة في محل نصب مقول القول ﴿قُل﴾.

ومعنى ﴿يُدْنِينَ﴾ يقربن ويرخين، و﴿مِن﴾: للتبعيض، أي: يقربن ويرخين عليهن بعض جلابيبهن.

والجلابيب: جمع جلباب، وهو الرداء والملحفة قال الجوهري في «الصحاح»(٢): الجلباب: الملحفة. وأنشد:

تمشي النسور إليه وهي لاهية ... مشي العذارى عليهن الجلابيب

أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن، وهو شبه العباءة يغطي جميع بدن المرأة.

وقال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ولم يقل: «يدنين إليهن جلابيبهن»؛ ليكون الجلباب عليها وملاصقًا لبدنها شاملًا له.

والمعنى: يقربن ويرخين عليهن بعض جلابيبهن وأرديتهن اللاتي يرتدينها ويلبسنها، بحيث تغطي الوجه والصدر والنحر مع بقية الجسم إذا خرجن لحاجاتهن، أو كن بحضرة رجال أجانب.

عن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: «لما نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، وأبوداود في الخراج (٢٩٢٨)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٥)-من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما.

(٢) انظر:«الصحاح» مادة:«جلب»، وقد نسب الجوهري البيت المذكور لـ «جنوب» أخت عمرو ذي الكلب في رثائها له.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٤)-الأثر (١٧٧٨٥)، وانظر:«تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧١).

ولما أمر ﷺ بخروج النساء إلى العيد للصلاة قالت أم عطية: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلباب؟ قال: «**تلبسها أختها من جلبابها**»(١).

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أمر أزواج النبي ﷺ وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن.

﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أقرب، ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾، أي: يميزن عن غيرهن من نساء الجاهلية، وذلك بأن يعرفن ويميزن بأنهن مؤمنات متحجبات عفيفات محتشمات، بعيدات عن الريبة، فلا يطمع بهن مَن في قلبه مرض.

وكذا ليميزن عن الإماء، ويعرفن بأنهن حرائر؛ لأن الحرائر أبعد عن الريبة والفاحشة من الإماء.

ولهذا رُوي أن هندًا امرأة أبي سفيان لما أُخذ عليهن البيعة بأن لا يسرقن ولا يزنين إلى غير ذلك قالت: «وهل تزني الحرة؟»(٢).

فدلت الآية على وجوب ستر المرأة وجهها عند الرجال الأجانب ولهذا قالت عائشة- رضي الله عنها- في ذكرها حديث الإفك: «فخمرت وجهي» يعني: لما رأت صفوان(٣).

وقد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الآية على أن الحجاب خاص بالحرائر دون الإماء؛ لأنه لم يقل: «وما ملكت يمينك»، والإماء لا يدخلن في نساء المؤمنين، قال: مع ما في الصحيح أنه لما اصطفى صفية بنت حيي قالوا: «إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإلا فهي مما ملكت يمينه»(٤).

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٥١٢) من طريق العوفي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-من أثر طويل. وهذا الطريق ضعيف، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٢٥). وقال:«وهذا أثر غريب وفي بعض ألفاظه نكارة».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢١٣)-من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه.

وهذا يدل على أن الحجاب عندهم مختص بالحرائر(١).

وهكذا كانت الإماء في عهده ﷺ وفي عهد خلفائه لا يحتجبن؛ نظرًا لابتذالهن في الخدمة، ودنو مكانتهن، فلا يُتبعهن نفسه إلا رديء النفس ضعيف الإيمان، لكن إذا خيفت الفتنة، وضعف داعي الإيمان، بل وضعفت النفوس، فإنه يجب على الإماء من الخدم وغيرهن الحجاب، كما هو الحال بالنسبة للقواعد من النساء اللاتي قال الله فيهن بعدما أباح لهن وضع الثياب، قال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور:٦٠] بل إذا خيفت الفتنة وجب عليهنّ الاستعفاف.

﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: فلا يتعرض لهن أحد بأذى ممن في قلوبهم مرض لمعرفتهم أنهن حرائر مؤمنات محجبات عفيفات محتشمات بعيدات عن الريبة والسوء.

وهذا من عناية الله- عز وجل- بأزواجه ﷺ وبناته ونساء المؤمنين وحفظه لهن؛ لأن في الحجاب لهن عزة ورفعة وكرامة وصيانة وحفظًا وسلامة من الفتن والشرور، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ «كان»: مسلوبة الزمان، أي: كان الله- عز وجل- وما زال غفورًا رحيمًا، أي: ذا مغفرة واسعة، يستر الذنب ويتجاوز عن العقوبة. وذا رحمة واسعة عامة وخاصة.

وكثيرًا ما يقرن- عز وجل- بين صفة المغفرة وصفة الرحمة؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب، وغالبًا ما يقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- وجوب الحجاب على أزواج النبي ﷺ وبناته ونساء المؤمنين، وذلك بأن تغطي المرأة وجهها وجميع بدنها أمام الرجال الأجانب؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٩٥).

والأدلة على وجوب الحجاب على المرأة كثيرة معلومة، منها:

قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

وإذا كان هذا خطابا لمن سأل أزواج النبي ﷺ وهن أطهر نساء العالمين، فغيرهن يجب عليهن الحجاب من باب أولى؛ لأن خوف الفتنة بهن وعليهن أشد.

ومنها هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

ففي هذه الآية الكريمة أَمَرَ الله- عز وجل- نبيه ﷺ بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، وذلك عند الخروج من البيت للحاجة ولهذا تسمى هذه الآية آية الحجاب.

قال ابن عباس- رضي الله عنهما- في تفسير الآية: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة»(١).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من أكسية يلبسنها»(٢).

وهكذا رُوِيَ عن جمع من السلف تفسير الآية بنحو من هذا(٣).

واختاره جمع من المفسرين منهم: الطبري(٤)، والجصاص(٥)، والزمخشري(٦)،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٨١)-من طريق علي بن أبي طلحة-عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣١٥٤.

(٣) انظر:«جامع البيان» (١٩/ ١٨١-١٨١)، «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣١٥٤-٣١٥٥)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٠-٤٧١)، «الدر المنثور» (٥/ ٢٢١).

(٤) في «جامع البيان» (٢١/ ٣٣).

(٥) في «أحكام القرآن» (٥/ ٢٥٤).

(٦) في «الكشاف» (٣/ ٢٧٤).

والقرطبي[١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «ثم لما أنزل الله- عز وجل- آية الحجاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ حجب النساء عن الرجال».

ومنها قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ [النور:٣١]. فإن الوجه من أعظم الزينة المنهي عن إبدائها، بل هو أصل الزينة وموضع الجمال من المرأة وعدمه، وماذا عساه أن يُخفى من الزينة إذا انكشف الوجه، وماذا بقي مستورًا إذا كشف الوجه، لم يبق إلا ما كان من العورة.

أما قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾، فالمراد به ما لا يمكن ستره وإخفاؤه كالثياب الظاهرة ونحو ذلك، كما سبق بيانه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النور:٣١]، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها» وفي رواية أنها كانت تقول: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها»[٣].

وهذه الآية من أقوى الأدلة على وجوب ستر الوجه؛ لأن الخمار وهو ما يوضع على الرأس إذا أسدل وأرخي على الجيب ستر الوجه والنحر من باب أولى.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور:٣١]. فإظهار الزينة- ومن أهمها كشف الوجه- لا يجوز إلا لمن استثنى الله- عز وجل- في هذه الآية.

ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١١٠).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٩)، وأبوداود في اللباس (٤١٠٢).

وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٥٥].

قال ابن كثير(١): «لما أمر تعالى بالحجاب من الأجانب بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم».

ومنها قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] فإذا نهين عن الضرب بأرجلهن؛ لئلا يعلم ما يخفين من زينتهن من الخلاخل ونحوها، فهن منهيات عن كشف وجوههن من باب أولى وأحرى لأنها أصل الزينة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور:٦٠].

فيجوز للقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا وضع الثياب وكشف الوجه والكفين والرأس، ونحو ذلك، ما لم يردن بذلك التبرج بالزينة.

وفي ذلك دلالة على وجوب الحجاب مطلقًا بالنسبة لغير القواعد، وكذا بالنسبة للقواعد إذا قصدن بذلك التبرج بالزينة(٢).

ومنها ما جاء في حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات مع رسول الله ﷺ، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها على وجهها من رأسها، فإذا جاوزونا كشفناه»(٣).

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٤٦).

(٢) انظر:«أضواء البيان» (٦/ ٥٩١، ٥٩٢)، «رسالتان في الحجاب» لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وفضيلة الشيخ محمد بن عثيمين-رحمهما الله تعالى. وانظر:«حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار» لسماحة الشيخ ابن باز رحمه الله، ص(١٥-٢٣).

(٣) أخرجه أبوداود في المناسك-المحرمة تغطي وجهها (١٨٣٣)، وابن ماجه في المناسك-المحرمة تسدل الثوب (٢٩٣٥)، وفي إسناده:يزيد بن أبي زياد، قال ابن حجر:«ويشهد له ما روي عن فاطمة بنت المنذر قالت:«كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات، ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق» أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب الحج-تخمير المحرم وجهه، ص(٤١٥)، حديث (١٠٥٠)-وإسناده صحيح. وهذا- والله أعلم-يحتمل أنهن يفعلن ذلك عند الحاجة، كما أشار إليه ابن قدامة في «المغني» (٣/ ٣٢٦).

وهذا من أقوى الأدلة على وجوب الحجاب، إذ لو لم يكن الحجاب واجبًا لما احتجبن عند مرور الركبان وهن محرمات؛ لأن الواجب على المحرمة كشف وجهها ما لم تكن بحضرة رجال أجانب، وهذا باتفاق أهل العلم(١).

ومنها قول عائشة- رضي الله عنها- في ذكر حديث الإفك: «**فخمرت وجهي وكان قد رآني قبل الحجاب**» تعني صفوان بن المعطل- رضي الله عنه(٢).

وقولها في قصة خروج سودة- رضي الله عنها، ورؤية عمر- رضي الله عنه- إياها قالت عائشة: «خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب، فرآها عمر...» الحديث(٣).

ومنها: حديث أم سلمة- رضي الله عنها- قالت: بينما نحن عند رسول الله ﷺ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب» الحديث(٤).

فهذا من عائشة وأم سلمة- رضي الله عنهما- يدل على وجوب الحجاب.

ومنها: أن النبي ﷺ لما أمر بإخراج النساء إلى مصلى العيد. قالت أم عطية: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال النبي ﷺ: «**لتلبسها أختها من جلبابها**»(٥).

ففي هذا الحديث دليل على اعتياد النساء عدم الخروج بلا جلباب.

وفي قوله ﷺ: «**لتلبسها أختها من جلبابها**» دليل على وجوب التستر.

ومنها: قوله ﷺ: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟ قال: «**يرخينه شبرًا**» قالت: إذن تنكشف أقدامهن. قال: «**يرخينه ذراعًا ولا يزدن عليه**»(٦).

---

(١) انظر: «المغني» (٣/ ٣٢٦)، وانظر: «رسالتان في الحجاب» ص(٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في فضائل الصحابة-فضل عائشة-رضي الله عنها- (٢٤٨٨)، وأبوداود في النكاح (٢١٣٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠)، وأحمد (٦/ ١٩٤)-من حديث عائشة-رضي الله عنها.

(٣) سيأتي تخريجه بتمامه.

(٤) أخرجه أبوداود في اللباس (٤١١٢)، والترمذي في الأدب (٢٧٧٨)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٥) أخرجه البخاري في الحيض-شهود الحائض العيدين (٣٢٤)، ومسلم في العيدين-إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى (٨٩٠)-من حديث أم عطية-رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه النسائي في الزينة-ذيول النساء (٥٣٣٨)، والترمذي في اللباس-ما جاء في ذيول النساء =

فإذا وجب ستر القدمين فستر الوجه أوجب من باب أولى وأحرى.

ومنها: قوله ﷺ: «**إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان عنده ما يؤدي فلتحتجب منه**»(١)؛ وذلك لأن المملوك لا يجب على سيدته الاحتجاب منه.

فإذا كان هذا في المكاتب يجب الاحتجاب عنه إذا كان عنده ما يؤدي فغيره يجب الاحتجاب عنه من باب أولى وأحرى.

هذه أهم الأدلة التي استُدل بها على وجوب الحجاب على المرأة المسلمة وهي أدلة واضحة ولله الحمد، وهناك أحاديث أخرى ذكروها لكنها ليست بواضحة الدلالة، أو ضعيفة فآثرت تركها وفيما ذكر كفاية وغنية لطالب الحق.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى جواز كشف المرأة وجهها عند الرجال الأجانب مستدلين بعدد من الأدلة لا يسلم لهم منها دليل واحد، إما لضعفها، أو لعدم دلالتها على ما ذهبوا إليه، ومنها ما يلي:

ما رواه خالد بن دريك عن عائشة- رضي الله عنها- أن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنها- دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ، وقال: «**يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه**»(٢).

=

(١٧٣١)-من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال:«حسن صحيح».

(١) أخرجه أبوداود في العتق-المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت (٣٩٢٨)، والترمذي في البيوع- ما جاء في المكاتب.

(٢) أخرجه أبوداود في اللباس-باب فيما تبدي المرأة من زينتها (٤١٠٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٨٦) قال أبوداود:«وهذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة-رضي الله عنها».

وكذا قال أبوحاتم الرازي ذكره ابن كثير عنه في «تفسيره» (٦/ ٤٧-٤٨).

وقد رواه البيهقي من طريق خالد بن دريك وسكت عنه، ورواه من طريق آخر فيه عبدالله بن لهيعة، وقال:«إسناده ضعيف».

وقال صاحب الجوهر النقي عن الطريق الأول:«فيه الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير، والوليد بن مسلم مدلس، وابن بشير قال يحيى:ليس بشيء، زاد ابن نمير منكر الحديث، وضعفه النسائي وقال ابن حبان فاحش الخطأ».

=

وهذا الحديث فيه أكثر من علة فهو مرسل؛ لأن خالد بن دريك لم يدرك عائشة- رضي الله عنها- كما ذكر ذلك أبوداود بعد سياقه هذا الحديث وكذا ذكره غيره من الأئمة كأبي حاتم الرازي وغيره. وكذا ضعف إسناده البيهقي؛ لأن فيه عبدالله بن لهيعة.

وأيضًا في إسناده «سعيد بن بشير» ضعيف، كما ذكر ذلك ابن حجر وغيره.

فهذا الحديث هو أقوى وأصرح حديث يستدل به من أجاز كشف المرأة وجهها عند الأجانب، فيه ثلاث علل، تكفي واحدة منها لتضعيفه، فكيف إذا اجتمعت. إضافة إلى احتمال كونه قبل نزول الحجاب.

ومن أدلتهم: ما رواه ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان الفضل رديف النبي ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: إن فريضة الله أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع» وفي بعض الروايات: «فجاءت امرأة وضيئة، أوحسناء من خثعم»(١).

قالوا: فكون الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، ووصفها بأنها وضيئة أو حسناء يدل على أنها كاشفة عن وجهها.

وقد أجيب عن هذا بأنه ليس في شيء من روايات الحديث التصريح بأنها كاشفة عن وجهها، وأن النبي ﷺ رآها على ذلك وأقرها عليه، ومجرد كونه ينظر إليها وتنظر إليه لا يدل على ذلك إذ قد تكون منتقبة، كما أن وصفها بأنها وضيئة أو حسناء لا يستلزم كونها كاشفة لوجهها إذ قد يعرف حسنها من النظر إلى قدها وقوامها، بل قد يعرف من رؤية بنانها فقط، ولهذا منعه النبي ﷺ من ذلك(٢).

وقد تكون محرمة فلم يأمرها النبي ﷺ بتغطية وجهها وقد يكون النبي ﷺ أمرها

=

وقال ابن حجر في «التقريب» (١/ ٢٩٢):«ضعيف». وانظر:«أضواء البيان» (٦/ ٥٩٧).

(١) أخرجه البخاري في الحج-حج المرأة عن الرجل (١٨٥٥)، ومسلم في الحج-الحج عن العاجز لزَمَانَةٍ وَهَرَمٍ ونحوهما أو للموت (١٣٣٤)، وأبوداود في المناسك (١٨٠٩)، والنسائي في «مناسك الحج» (٢٦٣٥)، والترمذي في الحج (٩٢٨)، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٧).

(٢) انظر:«أضواء البيان» (٦/ ٥٩٩-٦٠٢).

بتغطية وجهها، ولم ينقل.

ومنها ما رواه جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئًا على بلال، فأمر بتقوى الله وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكَّرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكَّرهن، فقال: «**تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم**» فقامت امرأة من النساء، سفعاء الخدين[1] فقالت: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «**لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير**» قال: فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتمهن»[2].

قالوا: فقول جابر: «سفعاء الخدين» يدل على أنها كانت كاشفة عن وجهها، إذ لو كانت محتجبة لما علم أنها سفعاء الخدين.

وأجيب عن هذا: بأنه ليس في الحديث ما يدل على أن النبي ﷺ رآها كاشفة عن وجهها، وأقرها على ذلك. ولا سبيل إلى إثبات ذلك، وكون جابر وصفها بأنها سفعاء الخدين يحتمل أن وجهها انكشف من غير قصد فرآها جابر وحده.

ولهذا روى الحديث عدد من الصحابة منهم أبوسعيد الخدري وابن عباس وابن عمر- رضي الله عنهم- كما روى ذلك عنهم الإمام مسلم وغيره، كما رواه غيرهم من الصحابة ولم يذكر واحد منهم أنها سفعاء الخدين سوى جابر.

ويحتمل أيضًا أن المرأة المذكورة كبيرة في حكم القواعد من النساء لا يجب عليها الحجاب، وقد يكون ذلك قبل نزول آية الحجاب، فإن صلاة العيد شرعت في السنة الثانية من الهجرة وآية الحجاب في سورة الأحزاب نزلت سنة خمس أو ست من الهجرة. وعلى كلٍّ فليس في الحديث ما يدل على أن الرسول ﷺ رآها كاشفة عن وجهها وأقرها على ذلك[3].

ومنها: ما روته عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كن نساء المؤمنات يشهدن مع

---

(١) سفعاء الخدين: أي في خديها تغير وسواد- انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة: «سفع»، «أضواء البيان» (٦/ ٥٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة العيدين (٨٨٥)، والنسائي في صلاة العيدين (١٥٧٥).

(٣) انظر: «أضواء البيان» (٦/ ٥٩٨-٥٩٩).

رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن، ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة ما يعرفهن أحد من الغلس»(١).

ووجه استدلالهم من هذا الحديث قول عائشة: «ما يعرفهن أحد من الغلس» بمعنى أنهن لولا الغلس والظلمة لعرفن، ولا يمكن معرفتهن إلا إذا كن كاشفات لوجوههن.

وأجيب عن هذا بأنه ليس بمسلم لهم؛ لأن المرأة قد تعرف وهي ليست كاشفة لوجهها، فتعرف بمشيتها وطولها أو قصرها، ونحافتها أو جسامتها ونحو ذلك.

فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على مَن يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين. قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عَرْق، فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: «**إنه قد أُذن لكن أن تخرجن لحاجتكن**»(٢).

وأيضًا فإن عائشة التي روت هذا الحديث الحجاب واجب عليها وعلى جميع أزواج النبي ﷺ بالإجماع فكيف يستدل به على جواز كشف الوجه بالنسبة لعموم النساء؟! وإذا سقط الاستدلال به في حق عائشة وأزواج النبي ﷺ فلماذا لا يسقط الاستدلال به في حق غيرهن؟!

ومنها: ما رواه سهل بن سعد- رضي الله عنه- «أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعَّد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة-في كم تصلي المرأة من الثياب (٥٧٨)، ومسلم في المساجد-استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها (٦٤٥)، وأبوداود في الصلاة (٤٢٣)، والنسائي في المواقيت (٥٤٦)، والترمذي في الصلاة (١٥٣)، وابن ماجه في الصلاة (٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (٤٧٩٥)، ومسلم في السلام (٢١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٠)، ومسلم في النكاح-باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن =

قالوا: فكون النبي ﷺ نظر إليها وصعَّد النظر فيها وصوَّبه يدل على أنها كاشفة وجهها.

وأجيب أن هذا ليس بمسلم، وليس في الحديث ما يدل على أنها كاشفة وجهها.

وليس في كونه ﷺ نظر إليها وصعد فيها النظر وصوبه ما يدل على ذلك لا من قريب ولا من بعيد، بل ينبغي أن يحمل على إطلاقه من حيث النظر إلى مجمل جسمها كطولها وقصرها ونحو ذلك.

وأيضًا فإنه لو أعجبته لقبلها، والخاطب يجوز له أن ينظر من مخطوبته ما يرَغِّبه في نكاحها من وجهها ورأسها وكفيها ونحو ذلك كما في حديث المغيرة- رضي الله عنه- أنه خطب امرأة، فقال له النبي ﷺ: «**انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»(١).

وفي حديث جابر- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**». فَخَطَبْتُ جارية، فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها وَتَزَوُّجِهَا، فتزوجتها»(٢).

كما استدلوا بما روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١] أنه فسر قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين(٣)، وقد ذكرت في تفسير هذه الآية في سورة النور ما يعارض هذا، أولًا: من الآية نفسها، وهو قوله بعد ذلك: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وهذا يدل على وجوب ستر الوجه؛ لأن الخمار إذا سدل على الجيب ستر الوجه من باب أولى.

وثانيًا: من قول ابن عباس نفسه، وكذا قول ابن مسعود- رضي الله عنهم، وجمع من السلف، وأن الراجح في معنى الآية ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ مما لا يمكن إخفاؤه

=

وخاتم حديد (١٤٢٥).

(١) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٣٥)، والترمذي في النكاح (١٠٨٧)، وابن ماجه في النكاح (١٨٦٦). وحسنه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبوداود في النكاح (٢٠٨٢)، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٨، ٢٦٠).

كالعباءة والثياب الظاهرة ونحو ذلك.

قال العلامة الشنقيطي- رحمه الله -[١] بعد أن ذكر كثيرًا من الأدلة السابقة وفندها: «وبالجملة فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء في الكشف عن الوجه أمام الرجال الأجانب، مع أن الوجه هو أصل الجمال، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية، وداع إلى الفتنة، والوقوع فيما لا ينبغي».

وهذا أمر يدركه كل من اعتبر من ذوي الأبصار، ومن الذي يرضى أن يقلب الرجال أنظارهم في وجه زوجته وابنته وأخته وهو يعد نفسه من ذوي الشيمة والوقار، وليس هناك في الحقيقة دليل واحد صريح صحيح يدل على جواز كشف المرأة وجهها حتى مع أمن الفتنة لو كان ممكنًا فكيف وأمن الفتنة بين الرجال والنساء أشبه بالمستحيل؟! وفي الحديث: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»[٢].

وقال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين- رحمه الله[٣]: «اعلم أيها المسلم أن احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب، وتغطية وجهها أمر واجب، دل على وجوبه كتاب ربك تعالى، وسنة نبيك محمد ﷺ، والاعتبار الصحيح، والقياس المطرد».

ولا ينبغي أن يُغتَّر بما عليه الكثير من نساء البلاد الإسلامية وغيرها من كشف الوجه والتبرج فإن الحق أحق أن يُتَّبع ويكفيك دليلًا على وجوب الحجاب أن الدعاة إلى نزعه وكشف المرأة وجهها هم دعاة التغريب الذين لا بصيرة لهم ولا عقول، بل هدفهم جر المجتمع الإسلامي إلى مستنقع الرذيلة، وإخراج المرأة المسلمة من بيتها، ومخالطتها للرجال ونزعها ثوب الستر والخلق والعفاف لتبقى دمية لهم وأُلعوبة ودعاية لبرامجهم وبضاعتهم الكاسدة، فيا ويلهم ثم ويلهم، ثم ويلهم، إذ خدعوا المرأة، وظلموها وأهانوها وأنزلوها من العز المكين الذي أراده الله لها في الحياء والستر والعفاف إلى الذل والمكان الحضيض بالتبذل والسفور والفجور.

٣- الإشارة إلى مسؤولية الرجال وقوامتهم على النساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ

---

(١) في «أضواء البيان» (٦/ ٦٠٢).

(٢) ذكره الترمذي في الرضاع بعد حديث «الحمو الموت» (١١٧١).

(٣) في مقدمة رسالته في الحجاب ص(٧)، وانظر ما بعدها إلى ص(٣٧).

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فأضاف النساء إلى الرجال المؤمنين إشارة إلى مسؤوليتهم عنهن.

٤- أن من الحكمة في إيجاب الحجاب على النساء حمايتهن وحفظهن من أن يتعرض لهن بالأذى أو يطمع فيهن مَن في قلبه مرض؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

٥- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى.

٦- لا يجب الحجاب على الإماء؛ لعدم ذكرهن في الآية، لكن إن خيفت الفتنة بهن أو عليهن وجب عليهن الحجاب.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- والرحمة الواسعة له- سبحانه، رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٨- بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب؛ لهذا جمع الله- عز وجل- بينهما، وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

أمر الله- عز وجل- في الآية السابقة رسوله ﷺ بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن لكي يعرفن فلا يتعرض لهن بأذى سدًّا لذريعة الفساد، ثم توعد عز وجل المنافقين ومرضى القلوب من الزناة وغيرهم، والمرجفين في المدينة فسدّ باب الشر والفساد من الجهتين.

قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ اللام: موطئة للقسم، والتقدير: والله لئن لم ينته المنافقون، و«إن»: شرطية، و﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَنتَهِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة الياء، إذ أصله «ينتهي».

و﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: جمع منافق، وهو من يظهر الإيمان ويبطن الكفر، مشتق من نافقاء اليربوع، وهو المخرج الذي يجعله في آخر جحره، عليه قشرة من التراب، فإذا داهمه عدو من باب جحره، ضرب النافقاء بأعلى رأسه، وخرج منها ونجا.

والمنافقون أعظم أهل الكفر جرمًا، وأعظمهم خطرًا على المسلمين؛ لأنهم بين ظهراني المسلمين؛ ولهذا كان عذابهم أشد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء:١٤٥].

ولم يذكر متعلق قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فلم يقل: لئن لم ينته المنافقون عن كذا وكذا، أو عما هم عليه من كذا وكذا؛ ليعم كل ما هم عليه مما يخالف أمر الله من النفاق والكيد للإسلام ومخالفة أمر الله وأذية المؤمنين والمؤمنات، وغير ذلك مما هم عليه وما يصدر عنهم من الفساد والشرور قولًا أو فعلًا.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: ولم ينته الذين في قلوبهم مرض.

ومرض القلوب نوعان: مرض حسي جسدي، وهو اعتلال صحتها، ومرض معنوي وهو أشد، وهو قسمان: مرض شبهة وشك ونفاق وكفر، وهو ما عليه المنافقون. ومرض شهوة وينقسم إلى ثلاثة أقسام: شهوة فرج، وشهوة بطن، وشهوة اتباع الهوى. ويحتمل أن المراد بمرض القلوب هنا مرض شهوة الفرج وفعل الفاحشة؛ لقوله قبل هذا: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ولهذا قال عكرمة وغيره: «هم الزناة ههنا»(١).

ويقوي ذلك أن الله ذكر المنافقين، ثم عطف عليهم الذين في قلوبهم مرض، والعطف في الأصل يقتضي المغايرة.

ويحتمل أن المراد بالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، فهم مرضى القلوب بلا شك، وقد يجتمع فيهم مع مرض الشبهة مرض الشهوة، وعلى هذا فيكون العطف للتوكيد. والأول أولى.

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المرجفون: جمع مرجف، والإرجاف، التزلزل. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة:١] أي: ارتجفت ارتجافها الشديد.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ [النازعات:٦] أي: النفخة الأولى في الصور التي يتزلزل منها كل شيء، ويموت كل حي إلا من شاء الله.

فالمرجفون هم الذين يعملون على إرجاف الناس وزلزلتهم، وعلى تخويفهم ونشر الرعب بينهم، يقول قائلهم: جاءتكم الحرب، العدو كثير العدد والعدة، سيُهزم جيش المسلمين، لا إسلام بعد اليوم، هلك الناس، ونحو ذلك.

وفي الحديث: «**من قال هلك الناس فهو أهلَكُهم**»(٢) بفتح الكاف، أي تسبب في هلاكهم، وبضم الكاف، أي: أشدهم هلاكًا.

وسمي من يقول تلك المقالات مرجفًا؛ لأنه يدخل الخوف والرعب في قلوب الناس فيزعزع ثقة الإنسان بالنصر والتمكين للدين والخيرية التي في الأمة، وثقة

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧١).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلاة والآداب (٢٦٣٣)، وأبوداود في الآداب (٤٩٨٣)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

الإنسان بنفسه وبمقدرات الأمة، ويزلزل ما في نفوس الناس من الأمن والطمأنينة، والواجب زرع الثقة في نفوس المؤمنين، والتفاؤل بالخير وحُسن الظن بالله- عز وجل- وتقوية العزائم

كما أن من أسباب تسمية هذه الأقاويل بالأراجيف؛ أنها لا ثبات لها ولا حقيقة، بل هي محض الكذب والباطل.

وهذه الأوصاف الثلاثة: النفاق، ومرض القلوب، والإرجاف في المدينة، يحتمل أن تكون صفات لموصوف واحد كما قيل:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المعترك

ويحتمل أن يكون كل وصف منها لطائفة؛ لأن العطف في الأصل يقتضي المغايرة وهذا أولى.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: جواب القسم في قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ واللام في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: واقعة في جواب القسم. والإغراء بمعنى الحث والتحريض على التسلط عليهم والتنكيل بهم، بالتعزير أو التأديب أو القتل، أو غير ذلك.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾. ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي.

أي: لا يساكنونك ﴿فِيهَا﴾ أي في المدينة بعد إغرائك بهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿إِلَّا﴾: للحصر، أي: إلا وقتًا قليلًا، أو إلا قليلًا منهم بحيث يتضايقون من السكنى في المدينة ومجاورتك ويضطرون للخروج منها؛ لأنهم ليسوا أهلًا لمجاورتك والسكن معك في المدينة، بل ليس لهم في الأرض كلها مقر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف:١٢٨].

فمن كان في بقائه بين ظهراني المؤمنين ضرر عليهم ينبغي إجلاؤه.

قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾.

قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال: أي: حال كونهم ملعونين، أي: مطرودين مبعدين من رحمة الله- عز وجل- فلا يألفهم أحد، ولا يحب قربهم وجوارهم أحد، لما هم عليه من

النفاق، وسيئ الأخلاق.

﴿أَيْنَمَا﴾: أداة شرط تفيد العموم في المكان، أي: في أي مكان.

﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ :فعل الشرط، أي: في أي مكان وجدوا.

﴿أُخِذُواْ﴾: جواب الشرط، ومعناه: الإمساك بهم، أي: في أي مكان وجدوا أخذوا وأمسك بهم، قال ابن كثير[1]: «لذلتهم وقلتهم».

﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ أي: إن الحكم فيهم هكذا أن يؤخذوا في أي مكان وجدوا، ويُقَتَّلوا تقتيلًا، فهي جملة خبرية بمعنى الإنشاء والأمر، أي: إن الحكم فيهم أن يؤخذوا في أي مكان وجدوا ويقتّلوا تقتيلًا.

﴿وَقُتِّلُوا۟﴾ مبالغة (قُتِلوا)، و﴿تَقْتِيلًا﴾ مصدر منه، وجاء الفعل ومصدره بصيغة المبالغة لتأكيد وجوب قتلهم وأنه حتم لا هوادة فيه.

وهذا من أشد الوعيد لأهل هذه الصفات من المنافقين ومرضى القلوب وأهل الإرجاف، مما يوجب البُعد والحذر من صفاتهم المذمومة، وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الوعيد بإغراء الرسول ﷺ بهم وتسليطه عليهم لم يقع، فلم يُخرجوا من المدينة، ولم يقتّلوا، وقد اختلف أهل العلم في سبب ذلك:

فمن أهل العلم من قال: إن هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة انتهوا عما هم عليهم من إظهار هذه الأمور، فلهذا لم يقع ما توعدهم الله به.

وقال بعض أهل العلم: إنهم لم ينتهوا عما هم عليه، ولكن لم يقع هذا الوعيد عليهم، لحكمة اقتضت ذلك، وهذا من باب إخلاف الوعيد، وهو غير مذموم، بل إنه من مكارم الأخلاق بخلاف إخلاف الوعد فإنه مذموم.

قال الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقد ترك ﷺ في أكثر من موقع قتل أفراد من المنافقين، ممن قد يستحقون القتل درءًا للفتنة، ولئلا يقال: إن محمدًا يقتل أصحابه.

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: سن الله ذلك سنة و﴿ سُنَّةَ ﴾ مضاف، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه أي: سنن الله، والسنة الطريقة.

وسنة الله- عز وجل- وسننه تنقسم إلى قسمين: **سنن شرعية**، شرعها الله- عز وجل- لعباده على ألسن رسله وفيما أنزله من كتبه- عز وجل- وهي تتفق في أصولها، كالدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، والنهي عن الشرك، وتحريم الفواحش والإثم والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وتختلف هذه السنن الشرعية في فروعها باختلاف الأمم والأزمان، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨].

والقسم الثاني: السنن الكونية، وهي ما يجريه الله- عز وجل- قدرًا وكونًا من أحوال لا تتبدل ولا تتغير كنصر المؤمنين، وعقوبة المكذبين، ونصر المظلوم، والانتقام من الظالم.

والمراد بقوله هنا ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سنته وسننه الكونية، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي: في الذين مضوا من قبل من الأمم في إيقاع العقوبات في المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين وغيرهم من الكفرة والمكذبين وفي تسليط رسله وأوليائه المؤمنين عليهم، وقهرهم لهم، وإيقاع العقوبات فيهم.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ الواو: عاطفة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابه.

والمعنى: ولن تجد لسنة الله الكونية تبديلًا، لا منه عز وجل، ولا من غيره، أي: إن سنن الله- عز وجل- الكونية لا يمكن أن تتبدل ولا تتغير، بل هي ثابتة، ولابد من

وقوع ما قدره الله وقضاه كونًا، ومن ذلك نزول العقوبات على من يستحقها من المكذبين وإن كانت قد تختلف كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

بخلاف السنن الشرعية فإن الله- عز وجل- قد يبدلها بغيرها كما قال عز وجل: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ [البقرة:١٠٦]. وقال عز وجل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ﴾ [الرعد:٣٩]، وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

وربما تُبدل من الخلق بحيث يبدلون ويغيرون فيما شرع الله- عز وجل- من السنن الشرعية، وربما جعلوا مكان السنة بدعة.

الفوائد والأحكام:

١- توعد الله- عز وجل- للمنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين يحاولون زعزعة الثقة في نفوس المؤمنين، وزرع الخوف والرعب في قلوبهم بتسليط الرسول ﷺ عليهم وإغرائه بهم قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

٢- أن المنافقين ومرضى القلوب وأهل الإرجاف ليسو أهلًا لمجاورة النبي ﷺ.

٣- جواز النفي والإخراج لمن في بقائه بين ظهراني المسلمين ضرر عليهم من أهل النفاق والإرجاف، ففي هذا حسم لمادة شرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال السعدي رحمه الله(١): «وهذا فيه دليل على نفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه».

٤- أن الله يسلط رسله على من يشاء لقوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٤٩).

٥- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه ﷺ، ودينه.

٦- التحذير من صفات المنافقين ومرضى القلوب وأهل الإرجاف وبخاصة الذين يسعون إلى زعزعة الثقة بمقدرات الأمة الإسلامية.

٧- طرد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين عن رحمة الله، وإبعادهم، وأخذهم وتقتيلهم أينما وجدوا؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾.

٨- سنة الله تعالى الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل، في إيقاع العقوبات على المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين وغيرهم من الكفرة والمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ: وقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ بالمضارع ولم يقل: سألك؛ دليل على كثرة هذا السؤال وتكرره منهم في الماضي والحاضر، وأنه مازال مستمرًا وروده منهم، وأن السؤال عنها يكثر، وذلك لعظمتها، وشدة أهوالها، ولهذا جاء السؤال عنها في سورة الأعراف، وفي سورة النازعات، وهما مكيتان، وفي هذه السورة سورة الأحزاب، وهي مدنية.

﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ أي: عن القيامة والنفخ في الصور، وقيام الناس من قبورهم إلى المحشر.

والسؤال عن الساعة يحتمل أن يكون الحامل عليه التكذيب بها واستبعادها وهذا يصدر من الكفار المنكرين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

ويحتمل أن يكون السؤال عن الساعة سؤال استفهام عنها متى تكون مع الإيمان بها وبالبعث وبالجزاء على الأعمال، وهذا قد يصدر من بعض المؤمنين.

كما جاء في حديث أنس- رضي الله عنه- أن رجلًا سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ فقال ﷺ له: «**ماذا أعددت لها؟**» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «**المرء مع من أحب**»(١).

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: قل لهم يا محمد، فلقنه الله- عز وجل- جواب سؤالهم، أي: استمر في رد علمها إلى الله الذي يقيمها، وصدر هذا الجواب بقوله: ﴿قُلْ﴾؛ ليتبين للناس أن هذا الجواب وهو قوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ صادر من الله- عز وجل-

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

وليس من الرسول نفسه فيقتنعوا بذلك ويوقنوا به.

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وهي: كافة ومكفوفة، أي: ما علمها إلا عند الله، كما قال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٥]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ [فصلت:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥].

والمراد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: علم قيامها عند الله تعالى، فلا يعلمه إلا الله وحده، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: علم قيامها عند ربي وحده فلا يعلمه إلا ربي؛ ولهذا لما سأل النبي ﷺ جبريلُ عنها قال له: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(١).

والمعنى: فإن كنت يا جبريل لا تعلم متى تكون، فأنا لا أعلم ذلك من باب أولى.

وفي هذا دليل على أنه ﷺ لا يعلم الغيب، والذي منه البعث، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل:٦٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» يحتمل أن تكون: نافية، أي: إنك لا علم عندك عنها، بل علمها عند الله عز وجل.

ويحتمل أن تكون «ما»: استفهامية بمعنى: أيّ شيء يعلمك بها حتى تُسأل عنها، أو حتى يسألوك عنها، والمقصود نفي علمه ﷺ بها؛ لأن الله طوى علمها عنده فلا يعلمها إلا هو- سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩، ١٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه، وأخرجه من حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه، ومسلم في الإيمان (٨)، وأبوداود في السنة (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، وابن ماجه في المقدمة (٦٣).

ولهذا يقولون: إذا قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لا يدريه، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس:٣].

وإذا قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فإنه يدريه، كقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد:١٢] ثم قال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد:١٣]، وكقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ [القارعة:١٠]، ثم قال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة:١١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ [الهمزة:٥]، ثم قال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة:٦، ٧].

قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿لَعَلَّ﴾: للتوقع، أي: وما يعلمك عنها، ويتوقع أن توجد وتقع قريبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشورى:١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر:١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١].

فالساعة قريب؛ لأن عمر الدنيا كلها مهما طال فهو قليل بالنسبة للآخرة، وأيضًا: فإن من مات قامت قيامته.

وعلى هذا تكون جملة: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ جملة مستأنفة.

وقال بعضهم: إن قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ سد مسد مفعولي ﴿يُدْرِيكَ﴾ الثاني والثالث، لكنه علق بـ﴿لَعَلَّ﴾ أي: وما يدريك عن موقع قربها، أي: لا تدري عن قربها أيضًا، ومن لا يدري عن قربها لا يدري وقت وقوعها من باب أولى.

فنفى الله- عز وجل- أن يكون الرسول ﷺ عالمًا بها أو بقربها، وإذا انتفى علم الرسول ﷺ بذلك فانتفاء علم غيره من باب أولى.

وبهذا يرد على من يضربون مددًا لقيام الساعة، وأنها مجرد تخمينات وتخرصات، إذ اختص الله- عز وجل- بعلمها.

وقد أخفى الله- عز وجل- وقوعها عن الخلق جميعًا، بما فيهم الرسل- عليهم الصلاة والسلام- ومن بينهم أشرفهم وأفضلهم رسولنا- عليه الصلاة والسلام-.

كما أخفى ليلة القدر، وأخفى على الإنسان ما قدره له ومتى يموت- وذلك لحكم عظيمة منها الاجتهاد في العمل استعدادًا لها خوف وقوعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ

ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥].

وهذا بخلاف ما لو ضرب لها أو حدد لها وقت معين، فقد يستبعد البعض مدة وقوعها فيكون ذلك سببًا للفتور وعدم الاجتهاد.

كما قد يكون ذلك سببًا لحصول القنوط واليأس ممن يكونون موجودين قبيل قيامها، خوفًا من قرب آجالهم ونقص أعمارهم.

ولهذا أخفاها الله عز وجل؛ ليجتهد السابق واللاحق من الناس في الاستعداد لها، ويكونوا بين الخوف والرجاء إلى لحظة قيامها، حتى لا يشعر من تقوم عليهم الساعة إلا وقد قامت، وذلك أن الإنسان إذا انقطع عنه الأمل في الحياة لا يعمل لدينه ولا لدنياه، بل يستسلم للموت قبل الموت.

ويؤخذ من الآية قرب قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]. وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧].

وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**. وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»(١).

وليس في السؤال عنها فائدة.

ولهذا لما سأل رجل رسول الله ﷺ عن الساعة وجهه لما هو أهم، وما فيه الفائدة: فقال له: «**وماذا أعددت لها**» كما في حديث أنس رضي الله عنه: «أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها**»؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»(٢).

وفي مضمون هذا: أنها آتية لا محالة، وليس المهم متى تكون، بل المهم الاستعداد لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

أي: اعلم أيها السائل واحذر أن تقوم الساعة عليك وأنت من هؤلاء.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق-قول النبي ﷺ:«**بعثت أنا والساعة كهاتين**» (٥٣٠١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٥٠)، وأحمد (٣٨٨)-من حديث سهل بن سعد-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٨٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩)، والترمذي في الزهد (٢٣٨٥).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف توكيد ونصب، واللعن من الله: هو الطرد والإبعاد عن رحمته، فمعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الإخبار بأن الله طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته.

و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: هم الذين جحدوا وجود الله أو ربوبيته أو ألوهيته، أو أسماءه وصفاته، أو جحدوا ذلك كله وكذبوا به، وضد الكفر الإيمان.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾: معطوف على قوله: ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هيأ لهم، فهي معدة مهيأة موجودة تنتظر الكفرة والعصاة. نسأل الله السلامة.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مستعرة متوقدة مشتعلة، تسعَّر بهم يوم القيامة، وهم من وقودها كما قال عز وجل: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

فجمع الله لهم بين العقوبتين: إبعادهم وطردهم من رحمته، وإدخالهم النار المستعرة، وتعذيبهم فيها.

وفي هذا وما بعده وعيد وتهديد للكافرين الذين الساعة موعدهم، كما قال عز وجل: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٦] وتحذير للسائل عنها وغيره من سلوك طريقهم.

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: حال كونهم خالدين فيها أبدًا، أي: ماكثين في النار مقيمين فيها باستمرار فلا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧].

والخلود: يطلق على المكث المستمر، وهو المراد هنا، ويطلق على المكث الطويل.

﴿أَبَدًا﴾، أي: خلودًا مستمرًّا أبد الآباد بلا انقطاع، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩].

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن:٢٣].

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها، وهو اختيار أكثر محققي أهل العلم، بل هذه عقيدة أهل السنة والجماعة أن النار والجنة كل منهما مؤبدة لا تفنى.

﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يغيثهم، ويتولاهم ويحقق لهم ما يطلبون.

﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم وينقذهم من النار، ويبعد عنهم ما يكرهون. كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨].

قال ابن كثير[1]: «أي: ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان، متعلق إما: بـ«أعد»، أو بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، أو بـ﴿يَجِدُونَ﴾، أو متعلق بمحذوف، أي: اذكر ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

وتقليب الشيء صرفه من جهة إلى جهة أخرى.

فمعنى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: تصرف من جهة إلى جهة أخرى؛ لتذوق كل جهة من أجسادهم وكل عضو منهم نصيبه من عذاب النار، كما يُقَلَّب اللحم على النار لينضج جميعه، وهذا يدل على شدة عذابهم والعياذ بالله.

وخص الوجه بالذكر مع أن التعذيب لجميع البدن؛ لأن تقليب الوجه يدل على تقليب بقية الجسم؛ ولأن تعذيب الوجه أعظم إهانة وأشد ألمًا من بقية البدن، ففي تقليبه وتعذيبه ألم حسي ومعنوي، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر:٤٨].

﴿يَقُولُونَ﴾ حال: أي: حال كونهم ﴿يَقُولُونَ﴾. ويحتمل أن تكون ﴿يَقُولُونَ﴾ جملة مستأنفة حكاية من الله- عز وجل- عن قولهم، أي: إنهم يقولون: كذا وكذا.

﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ «يا»: حرف تنبيه، أو حرف نداء والمنادى محذوف،

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٢).

والتقدير: يا ربنا ليتنا﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

أي إنهم يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول، وهذا يدل على شدة حسرتهم وندمهم.

ومما يدل على زيادة حسرتهم وبلوغهم غاية التحسر تصديرهم الكلام بـ«يا» التي قد يراد بها التنبيه على زيادة حسرتهم، وقد يراد بها التمني، وحذفوا المنادى مبادرة لذكر التمني والأسى.

والتمني: طلب ما يظن أو يعلم عدم حصوله وتعذره واستحالته كما في قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب(١)

وهيهات أن يعود الشباب يا شيخ.

وما تمناه الكفار بعد دخولهم النار من كونهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ضرب من المستحيل، كما قال الله عنهم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]. وقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر:٢].

وقوله: ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ بحذف الألف من ﴿أَطَعْنَا﴾ لفظًا في الموضعين، وهي ثابتة في الخط ولا يشتبه هنا ضمير المتكلم بنون النسوة؛ لأن السياق يدل على المعنى.

والطاعة: فعل المأمور وترك المحظور، وضدها المعصية: ترك المأمور وارتكاب المحظور.

﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: معطوف على ما قبله بتكرار العامل؛ لأن طاعة الرسول ﷺ واجبة استقلالًا بما جاء في سنته المطهرة، مما لم يرد في القرآن الكريم، وكل ذلك وحي من عند الله- عز وجل- كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر:«ديوانه» ص٣٢.

يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣، ٤].

والألف في قوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾؛ للإطلاق، كما في قوله فيما سبق في السورة: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب:١٠]، وكما في قوله في الآية التالية لهذه الآية: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾.

وفي هذه الألف في المواضع الثلاثة ثلاث قراءات:

قراءة بإثباتها وصلًا ووقفًا، وقراءة بحذفها وصلًا ووقفًا، وقراءة بحذفها وصلًا وإثباتها وقفًا.

و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود نبينا محمد ﷺ، أي: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسولنا محمد ﷺ، بفعل الأوامر وترك النواهي.

ويحتمل أن يكون ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ هنا اسم جنس يشمل كل الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيتمنى كفرة كل أمة أنهم أطاعوا رسولهم الذي أرسل إليهم، أي: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله إلينا، بفعل الأوامر وترك النواهي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ﴾ أي: قال الأتباع: ﴿رَبَّنَآ﴾ منصوب على النداء، أي: يا ربنا، وحذف حرف النداء.

﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ قرأ يعقوب وابن عامر: «ساداتنا» بالجمع وكسر التاء. وقرا الباقون: ﴿سَادَتَنَا﴾ بالإفراد وفتح التاء(١).

والمفرد منها: «سيد» وجمعه: «سادة»، وجمع الجمع: «سادات» والسيد: هو ذو الشرف والقدر والمكانة في قومه المقدم فيهم.

وجاء بالجمع، بل وبجمع الجمع؛ إشارة لكثرة هؤلاء السادة، وما أكثرهم عند أهل البدع والكفر والضلال- لا كثّرهم الله- يلبس أحدهم عمامة ورداء ويقال له السيد وهو أجهل من حمار أهله فيَضل ويُضل الناس.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٩).

وفي حديث مطرّف عن أبيه- رضي الله عنه- قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «**السيد الله- تبارك وتعالى**» قلنا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا. فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»(١).

﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾: جمع «كبير»، وهم من فوق الأسياد، كالأمراء والسلاطين ونحوهم.

أي: إنا أطعنا هؤلاء السادة والكبراء فيما يأمروننا به وينهوننا عنه، وقلدناهم فيه.

﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: فبسبب طاعتنا لهم أضلونا السبيلا، أي أبعدونا وتيّهونا وضيعونا عن سبيل الحق، والطريق المستقيم.

و«ال» في ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ للعهد الذهني أي: السبيل المعهود المعروف، صراط الله وسبيله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر:٤١].

وهو سبيل الحق الموصول إلى الله، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

قال ابن كثير(٢): «أي: اتبعنا السادة، وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء».

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: يا ربنا أعط هؤلاء السادة والكبراء ضعفين من العذاب، أي: مثلي عذابنا، أي: كثر عذابنا مرتين، وذلك بسبب كفرهم وإغوائهم إيانا. وضعف الشيء: كثره مرتين.

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ عاصم ﴿كَبِيرًا﴾ بالباء، وقرأ الباقون: «كثيرًا» بالثاء(٣).

فيحتمل أن بعضهم يقول: «كبيرًا» وبعضهم يقول: «كثيرًا»، أو أنهم أحيانًا

---

(١) أخرجه أبوداود في الأدب (٤٨٠٦).

(٢) «تفسيره» (٦/ ٤٧٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٣)، «النشر» (٢/ ٣٤٩).

يقولون: «كبيرًا» وأحيانًا يقولون: «كثيرًا». و«كبيرًا» من حيث الكيفية، و«كثيرًا» من حيث الكمية.

واللعن من بني آدم معناه: الدعاء بالطرد والإبعاد عن رحمة الله- عز وجل- فهؤلاء يدعون الله- عز وجل- على سادتهم وكبرائهم، أن يطردهم ويبعدهم من رحمته وجنته، طردًا وإبعادًا كبيرًا وكثيرًا.

وهؤلاء الأسياد والكبراء مستحقون لهذا الدعاء، وسيضاعف لهم العذاب؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقال ﷺ: «**ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص من أوزارهم شيئًا**»(١).

فيا سبحان الله، كيف كان هؤلاء الأتباع يُعظِّمون هؤلاء السادة والكبراء ويجلّونهم ويحترمونهم ويحبونهم في الدنيا، ثم انقلبوا عليهم في الآخرة، أشد ما يكون عداوة، يدعون عليهم بمضاعفة العذاب والطرد والإبعاد الكبير عن رحمة الله، وهذا مصداق قول الله- عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وقوله تعالى عن وليِّهم الشيطان: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم في العلم (١٠٧١)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)-من حديث جابر بن عبدالله-رضي الله عنه.

قال ابن القيم[١]: «تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية».

الفوائد والأحكام:

١- كثرة سؤال الناس عن الساعة متى تكون؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ فالمسلمون يسألون عنها سؤال استفهام واستعلام. والكفار يسألون سؤال استبعاد وتكذيب.

٢- أن علم الساعة ومتى تكون وكيف تكون من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وإنما أخفاها الله- عز وجل- ليجتهد الناس بالاستعداد لها.

٣- قرب وقوع الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

٤- أن الرسول ﷺ مع عظم منزلته عند ربه لا يعلم متى تكون الساعة؛ لأنها من علم الغيب الذي اختص الله به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

ولهذا قال ﷺ فيما حكى الله عنه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وفي هذا الرد على من يخمنون ويتخرصون ويضربون مددًا وهمية لقيام الساعة.

٥- لعنة الله للكافرين وإبعادهم من رحمته وجنته وتهيئة النار المستعرة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

٦- أن النار مخلوقة موجودة الآن معدة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٤٢٩).

٧- تخليد الكافرين في النار خلودًا أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾.

٨- أنه لا ولي للكافرين يتولاهم ولا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

٩- شدة عذاب الكفار في النار، وأنه يجمع لهم فيها بين الإهانة المعنوية والعذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

١٠- تحسر الكافرين وهم في النار، وتمنيهم وهم في غمرات العذاب أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول؛ لينجوا من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

١١- أن طاعة الرسول ﷺ واجبة استقلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ بتكرار العامل فما أمر الرسول به يجب طاعته فيه وإن لم يرد في القرآن الكريم.

١٢- أن ضلال أكثر مَن ضل مِن الناس بسبب طاعة الأسياد والكبراء من السلاطين وعلماء السوء ودعاة الضلال والتقليد الأعمى لهم، مما يوجب الحذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾.

١٤- أن سبيل الله وطريق الحق واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾.

١٥- تبرؤ التابعين من المتبوعين يوم القيامة يوم لا ينفعهم ذلك، ودعاؤهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ كما يتبرأ المتبوعون من تابعيهم.

١٦- ينبغي الحذر من طاعة السلاطين والكبراء في معصية الله تعالى، والحذر من قرناء السوء ودعاة الشر والضلال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ ﴿لَا﴾: ناهية، و﴿تَكُونُواْ﴾ مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف النون، ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ الكاف: للتشبيه بمعنى «مثل».

أي: لا تكونوا مثل الذين آذوا موسى. وموسى: هو نبي الله موسى بن عمران- عليه الصلاة والسلام- كليم الله، وأفضل أنبياء بني إسرائيل وأحد أُولي العزم من الرسل- عليهم الصلاة والسلام.

والذين آذوا موسى هم بنو إسرائيل، وأذاهم له- عليه السلام- بمخالفته، وبأنواع الأذى بالقول والفعل، كما هو حالهم مع رسل الله عامة، كما قال الله عنهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

ويدل قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ على أن أذيتهم له بقولهم فيه ما ليس فيه، وما هو بريء منه، وقولهم: «إنه آدر» أي: كبير الخصيتين، أو منتفخ الخصيتين، أو به برص ونحو ذلك.

وذلك أنهم كانوا لا يستحون فيغتسلون عراة، وكان موسى- عليه الصلاة والسلام- حييًّا، فيغتسل وحده، فقالوا: ما منعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، أو فيه برص أو نحو ذلك.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ أي: برأه الله من الذي قالوه، أو من قولهم، بالفعل حتى رأوا بعيونهم سلامته مما عابوه به، وأنه من أحسنهم وأسلمهم خلقة، فكان يغتسل ذات يوم وحده، ووضع ثوبه على حجر، فلما اغتسل وأتى ليلبس ثوبه فرّ الحجر بثوبه، فكان يتبعه، ويقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى وقف على ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا، وإذا هو من أحسن الناس خلقة وأسلمهم من العيب، فبرأه الله مما قالوا فيه وعابوه به، أي: أظهر لهم براءته من ذلك.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى- عليه السلام- كان رجلًا حييًّا ستِّيرًا، لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه من آذاه من**

بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أُدْرة[١]. وإما آفة، وإن الله- عز وجل- أراد أن يبرئه مما قالوا، وإن موسى- عليه السلام- خلا يومًا وحده فوضع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن الناس خلقًا وأبرأه مما كانوا يقولون: قال: وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر عصاه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا- قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾»[٢].

وعن ابن عباس عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ قال: «صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون- عليه السلام- فقال بنو إسرائيل لموسى- عليه السلام- أنت قتلته، كان ألين منك، وأشد حياءً، فآذوه في ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرخم، وإن الله جعله أصم أبكم»[٣].

قال ابن كثير[٤] بعد ذكر القصتين: «يحتمل أن يكون الكل مرادًا، وأن يكون معه غيره، والله أعلم».

وقد أوذي موسى عليه السلام بأمور كثيرة، منها قول بني إسرائيل له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤]، وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة:٦١]، وقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣]، ومجادلتهم إياه في ذبح البقرة، وغير ذلك كثير.

---

(١) الأَدَرة: كبر وانتفاخ الخصيتين. انظر: «لسان العرب» مادة: «أدر».

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٠٤)، ومسلم في الفضائل (٣٣٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٢١)، وأحمد (٢/ ٥١٤-٥١٥)، والطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٢-١٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٨)-الأثر (١٧٨٠٢).

(٤) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٥).

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسمًا، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت. قال: فذكر ذلك للنبي ﷺ، فاحمر وجهه، ثم قال: «**رحمة الله على موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١).

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: وكان موسى- عليه السلام- ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وقدم قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿وَجِيهًا﴾ إشارة إلى أن العبرة بوجاهة الإنسان عند الله، لا عند الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قال ابن كثير(٢) في معنى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾: «أي: له وجاهة وجاه عند الله عز وجل».

والجاه والوجاهة: القدر والمكانة الرفيعة، أي: إنه- عليه السلام- ذو قدر ومكانة رفيعة عند الله- عز وجل-.

فهو كليم الرحمن، كما قال عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤].

ومن أولي العزم من الرسل، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل.

وكان مستجاب الدعوة، شفع في أخيه هارون بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٩-٣٥] فأجاب الله سؤاله بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس:٨٩].

وليس معنى كونه وجيهًا أن يُتوسل به وتطلب منه الأمور التي لا تطلب إلا من الله.

وإذا كان نبي الله موسى- عليه السلام- عند الله وجيهًا، وكذا نبيه عيسى ابن مريم- عليه السلام- كما قال عز وجل عنه: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٠٥)، ومسلم في الزكاة-إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦٢)، وأحمد (١/ ٣٨٠، ٣٩٥-٣٩٦).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٧٦).

عمران:٤٥] فإن نبينا محمدًا ﷺ أعظم جاهًا عند الله منهما ومن جميع الأنبياء والمرسلين، فهو خليل الله، وسيد الأولين والآخرين، وأفضل أولي العزم، وصاحب الحوض المورود والشفاعة الكبرى والمقام المحمود، ومع ذلك فقد أوذي ﷺ بأنواع كثيرة من الأذى، فوضع السَلى على ظهره وهو ساجد، وشج رأسه ووجهه وكسرت رباعيته في أُحد، ورمي بالحجارة حتى أدميت قدماه، وأريد اغتياله أكثر من مرة، ورمي بالسحر والشعر والكهانة والجنون إلى غير ذلك، فصبر الصبر الجميل، وكان يقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحض على الاتصاف بهذا الوصف، وأن اجتناب النهي بعده من مقتضيات الإيمان وأن عدم اجتنابه يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٣- تحريم أذية الرسول ﷺ؛ لنهي الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا نبي الله موسى- عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ﴾[الأحزاب:٥٧].

٤- أذية بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وتبرئة الله عز وجل له عليه السلام مما رموه به من قولهم: إنه آدر، أو أنه قتل هارون، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾.

٥- مكانة موسى- عليه السلام- العظيمة ووجاهته عند ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾، ولهذا دافع الله عنه وبرأه مما رماه به بنو إسرائيل.

٦- عناية الله تعالى بنبيه ﷺ، ودفاعه عنه، وتسليته له ﷺ، وتخفيف الأمر عليه، وأنه قد أوذي موسى والرسل من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٥)-من حديث عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه.

عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

ولهذا قال ﷺ لما آذاه قومه: «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ الواو: عاطفة، ﴿قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾: معطوف على ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأنه من تقوى الله، وبيْن: «قولوا»، و﴿قَوۡلٗا﴾: جناس اشتقاق، و﴿قَوۡلٗا﴾ مفعول مطلق و﴿سَدِيدٗا﴾ صفة له.

والقول السديد: الذي يسد مكانه؛ لأن لكل مقام مقالًا، فلا الشدة في موضع اللين، ولا اللين في موضع الشدة، بل لكل منهما موضعه المناسب.

وهو القول الصواب الموافق للشرع والعقل، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء:١٤٨].

وقال ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١).

ولما قال معاذ: يا نبي الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ﷺ: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»(٢).

وسمي القول المناسب سديدًا؛ لأنه يسد مكانه، ومنه يقال: سد مجرى الماء أي: وضع فيه سدة تمنع تسرب الماء.

فالقول المناسب في المكان المناسب هو القول السديد، فللصغير قول يناسبه سواءً

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٦٠٧)، وأبوداود في الأدب (٤٩٨٩)، والترمذي في البر والصلة (١٩٧١)، وابن ماجه في المقدمة من حديث عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن (٢٩٧٣)-من حديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه-وقال الترمذي:«حديث حسن صحيح».

كان توجيهًا أو عتابًا، وللكبير كذلك كلام يناسبه، ولصاحب المكانة كعالم أو أمير أو شيخ كبير كلام يناسبه، وللمحسن كلام يناسبه، وللمسيء كلام يناسبه، وللمُصِر على المعصية كلام يناسبه، ولغير المُصِرّ كلام يناسبه وهكذا.

ولهذا رُوي أن النبي ﷺ لما أنشده النابغة الجعدي قصيدته التي منها قوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له: «لا فُضَّ فوك» قالوا: فعاش مائة وثمانين سنة لم يسقط له سن(١).

قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هذا وعد من الله- عز وجل- لمن اتقاه وقال قولًا سديدًا بإصلاح عمله ومغفرة ذنوبه. نسأل الله التوفيق.

ومعنى قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: يجعلها صالحة مشتملة على شرطي صلاح العمل، وهما: إخلاص العمل لله- عز وجل- ومتابعة الرسول ﷺ.

أي: يصلح لكم أعمالكم الدينية والدنيوية، وييسر أموركم كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يسترها عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة، فلا يعاقبكم عليها.

ولكي تنال- أخي الكريم- هذا الوعد من الله- عز وجل- عليك بتقوى الله في جميع أمورك، واجعل قولك سديدًا، تأمل فيما تقول قبل أن تقول، اختر من العبارات أنسبها ومن الكلام أطيبه، لا تأخذك المواقف، أو الحماس، أو الغضب، عالج الأمور بحكمة.

---

(١) انظر: «ديوان النابغة الجعدي» ص(٦٩)، «الإصابة» (٣/ ٥٣٩).

واعلم أن الشيطان كما قال ابن القيم- رحمه الله: «قد يأمر بسبعين بابًا من الخير ليصل إلى باب من الشر أعظم من ذلك، أو ليمنع بابًا من الخير أعظم من ذلك»(١). وكما قيل:

وقد يأمر الشيطان بالخير قاصدًا وصولًا إلى شر من الخير أعظم

واعرف الفرق بين التعبير الحسن وخلافه كما حكى الله عن امرأة فرعون آسية بنت مزاحم رضي الله عنها أنها قالت في دعائها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] ولم تقل (بيتًا عندك) قال ابن كثير رحمه الله(٢) تنويهًا بتعبيرها الحسن: «قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار».

وكما حكى الله عن بلقيس ملكة سبأ لما قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل:٤٢] فلم تنف أن يكون هو؛ لأن أوصافه أوصاف عرشها، ولم تقل: إنه هو لبُعد المسافة بين مُلكها في اليمن وبين ملك سليمان في فلسطين في الشام(٣). وكان عرشها محروسًا بحراسة شديدة.

فالقول السديد خير وأفضل من الصمت، والصمت خير من القول غير السديد، وقد قال ﷺ: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(٤).

وقد قيل: «الصمت حكمة وقليل فاعله»(٥)، وقال الشاعر:

ولئن ندمت على سكوتك مرة فلتندمن على الكلام مرارًا(٦)

وقال الآخر:

---

(١) انظر: «التفسير القيم» ص(٦١٣).

(٢) في «تفسيره» (٨/ ١٩٩).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٠٤).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٧)، وأبوداود في الأدب (٦٠١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) تنسب هذه المقالة للقمان. انظر «الجامع» لابن وهب ص٥٠٧ (٣٩٤)، و«الزهد والرقائق» لابن المبارك، و«الزهد» لنعيم بن حماد ١/ ٢٨٩ (٨٤١)، وقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ٧/ ٧٤ (٤٦٧٢) مرفوعًا إلى النبي ﷺ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٥٤٢.

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان(١)

وقال الآخر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقول تودي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرى على مهل(٢)

وقال الآخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران(٣)

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ الواو: استئنافية، و«من»: شرطية، ﴿يُطِعِ﴾ فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه السكون، وحذف منه حرف العلة الياء؛ لالتقاء الساكنين، قال الناظم:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق ... وإن يكن لينًا فحذفه استحق

والطاعة: بمعنى الموافقة، فطاعة الله ورسوله بفعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي الجمع والتشريك؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله- تعالى- كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠].

﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«قد»: للتحقيق، والفوز معناه: السلامة من المرهوب، والحصول على المطلوب، والنجاة من النار، ودخول الجنة.

﴿فَوۡزًا﴾: مفعول مطلق، و﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، ولا يمكن أن يقدِّر عظمة هذا الفوز إلا الذي وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

---

(١) البيت منسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر:«فيض القدير» للمناوي ٦/ ١٣٩، «روح البيان» للمولى أبي الفداء ٩/ ٥٠٦.

(٢) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر:«ديوانه» ص١٦٠.

(٣) البيتان للشافعي. انظر:«ديوانه» ص١١٦.

والمعنى: ومن يطع الله ورسوله فقد فاز وربح بالنجاة من النار ودخول الجنة والتنعم بما فيها من النعيم العظيم، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ومن أعظم هذا الفوز والنعيم: النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم- نسأل الله من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- تكرار النداء للمؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لتوكيد التنبيه والعناية والاهتمام والتشريف والتكريم لهم، وأن ما أمر الله به بعد هذا، وهو تقوى الله من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان.

٢- وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والأمر للوجوب.

٣- وجوب تحري القول السديد الصواب الذي يسد مكانه ويوافق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

٤- أن من جزاء تقوى الله وتحري السداد في القول توفيق الله للعباد وإصلاح أعمالهم ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

٥- إثبات صفة المغفرة لله تعالى.

٦- أن صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب مطلب لكل مؤمن.

٧- الترغيب في طاعة الله- تعالى- ورسوله، وأنها سبب للفوز العظيم؛ بالسلامة من المرهوب، والحصول على المطلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، ولا يقدر قدر عظم هذا الفوز إلا العظيم سبحانه وتعالى.

٨- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم «الله»- عز وجل- في باب الطاعة؛ لأن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ ﴿ إِنَّا ﴾ المتكلم هو الله- عز وجل- بضمير العظمة؛ لأنه العظيم- سبحانه وتعالى.

أي: إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض عرض تخيير، لا إيجاب.

و﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾: كل ما ائتمن عليه الإنسان من الأعمال والأقوال والأموال والأحوال، مأخوذة من «الأمن»، وهو طمأنينة النفس وعدم الخوف، قال تعالى عن يعقوب- عليه السلام- أنه قال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران:٧٥].

وسواء كانت الأمانات مما بين الله وبين خلقه، وهي الأمانة العظمى، أو مما بين الخلق بعضهم مع بعض.

ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا أمانات الولايات، كما جاء في سبب نزول قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] حيث كان سبب نزولها أخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «أما أداء الأمانات ففيه نوعان: أحدهما: الولايات، وهو كان سبب نزول الآية(٣).. والقسم الثاني من الأمانات: أمانات الأموال.. من الأعيان والديون الخاصة والعامة، مثل رد الودائع، ومال الشريك،

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٨/ ٤٩١-٤٩٢)-تحقيق أحمد شاكر، «أسباب النزول» للواحدي، ص(١٠٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٦-٢٦٥).

(٣) يعني آية النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [الآية:٥٨].

والموكل والمضارب، ومال اليتيم، ووفاء الديون، وبدل القرض، وصدقات النساء، وأجور المنافع ونحو ذلك...».

وقال ابن كثير(١) في كلامه على قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨]: «وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله- عز وجل- على عباده من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك».

ويدخل في ذلك أيضًا: أمانة تعليم العلم الذي علمه الله الإنسان، بل إن هذا من أعظم الأمانات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

ومن أعظم الأمانات: الولايات على مصالح المسلمين، عن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا مَن أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها**»(٢).

قال ﷺ: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**»، قيل: يا رسول الله، وما إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(٣).

ومن كان مؤتمنًا على عمل من أعمال الأمة ومصالحها وجب عليه أن يؤدي ما ائتمن عليه بالقيام به على الوجه المطلوب، كالحكام والقضاة والأمراء والمدرسين والموظفين وغيرهم، فيجب إسناد الأعمال في مصالح الأمة إلى أهلها والحذر كل الحذر من أن تسند لمن لا يصلح لذلك؛ لأن من أعظم الخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أن يسند الأمر إلى غير أهله، وذلك من علامات الساعة.

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٥٩)، وأحمد (٢/ ٣٦١)-من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه، وانظر: «السياسة الشرعية»، ص(١٦)، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٧-٢٦٢).

ومن أعظم الأمانات أيضًا: أداء الشهادة، وكذا كل ما ائتمن عليه الإنسان من عمل، أو سر، أو وديعة استودعها، أو غير ذلك. فإذا ائتمنك زيد أو عمرو على عمل وجب أن تؤديه إليه بأن تقوم به على الوجه المطلوب.

وإن ائتمنك على قول كسرٍّ أفضى به إليك وجب أن تحفظه، قال ﷺ: «**إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي للمرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**»(١).

وكذا إذا ائتمنك على قول تحملته كشهادة، أو سلام أو نحو ذلك، وجب تأديته كما تحملته.

وإن ائتمنك على مال من نقود أو غير ذلك وجب أداؤه إليه من الديون وغيرها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا به، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني: غِرًا بأمر الله»(٢).

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: إن هذه المخلوقات العظيمة وهي السموات والأرض والجبال امتنعت من تحمل هذه الأمانة العظيمة؛ إيثارًا للسلامة.

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خفن من عدم القدرة على القيام بها، وإعطائها حقها إذا تحملنها؛ ولهذا امتنعن من حملها إشفاقًا منها لا معصية لله عز وجل واستكبارًا، كما فعل إبليس- لعنه الله- ولكن تعظيمًا لله عز وجل ولدينه، وخوفًا ألا يقمن بها لعظم مسؤوليتها.

وعلى هذا فعرض الأمانة على هذه المخلوقات العظيمة عرض حقيقي، بكيفية لا نعلم كنهها، الله يعلمها.

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٣٧)، وأبوداود في الأدب (٤٨٧٠)، وأحمد (٣/ ٦٩)-من حديث أبي سعيد-رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٧-١٩٨).

وقيل: إن هذا من ضرب المثل، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

والمعنى على هذا: أن السموات والأرض والجبال لو كانت مكلفة، وطلب منها حمل الأمانة لأبت وامتنعت لما في حملها من المشقة(١).

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: جنس الإنسان، وهو آدم وذريته؛ رغبة وطمعًا في الثواب والجزاء.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: الجملة تعليلية، فيها بيان أن سبب حمل الإنسان لهذه الأمانة العظيمة التي امتنعت من حملها السموات والأرض والجبال على عظم خلقها كونه ﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾. والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وهو نوعان: ظلم الإنسان لنفسه بالكفر والمعاصي، وظلم الآخرين بالتعدي عليهم وعلى حقوقهم.

والإنسان لا يخلو من ظلم لنفسه ولغيره إلا من رحم ربك.

والجهل: يطلق على ما يضاد العلم، وعلى السفه المنافي للحكمة. والإنسان غالبًا لا يخلو من هذا ومن هذا.

قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ اللام: لام التعليل أي: إن الله- عز وجل- جعل هذه الأمانة وهذه التكاليف؛ لأجل أن يثيب المطيع ويعاقب العاصي. والعذاب: هو العقوبة والنكال، ويكون حسيًّا ومعنويًّا في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، قال ابن كثير(٢): «وهم الذين يظهرون الإيمان خوفًا من أهله، ويبطنون الكفر متابعة لأهله».

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٢٥٤).

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٤٨١).

وقدمهم لأنهم أشد كفرًا من المشركين وغيرهم من الكفار، وخطرهم أعظم، وعذابهم أشد.

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ هم الذين أشركوا مع الله غيره في الدعاء والعبادة، فسووا غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، كالعبادة والذبح والنذر والاستغاثة ونحو ذلك كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٨، ٩٨]، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم الكفر بالله.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الواو: عاطفة. و«يتوب»: معطوف على ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾.

والتوبة من المخلوق معناها: الرجوع إلى الحق والإنابة إلى الله، والرجوع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة.

والتوبة من الله معناها: توفيقه لعبده أن يتوب، وقبول توبته إذا تاب، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٨] أي: ثم وفقهم للتوبة ليتوبوا فيقبلها منهم.

أي: ليتوب الله على المصدقين والمصدقات، المنقادين لله ظاهرًا وباطنًا.

فلله الحكمة البالغة أن حمّل الإنسان هذه الأمانة؛ ليتميز من يقوم بها في الظاهر دون الباطن؛ وهم المنافقون والمنافقات، ومن لا يقوم بها لا ظاهرًا ولا باطنًا؛ وهم المشركون والمشركات؛ ليحق على الفريقين عذاب الله- عز وجل.

ويتميز من يقوم بها ظاهرًا وباطنًا؛ وهم المؤمنون والمؤمنات؛ ليتوب الله عليهم ويغفر لهم ويرحمهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الواو: مستأنفة، و«كان»: مسلوبة الزمان، أي: كان الله وما زال غفورًا رحيمًا، أي :ذا المغفرة الواسعة، وهي: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، وذا الرحمة الواسعة؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

الفوائد والأحكام:

١- عظم الأمانة، ولهذا عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾.

٢- حمل الإنسان لهذه الأمانة العظيمة لظلمه وجهله؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

٣- عموم الأمانة لجميع التكاليف فيما بين الله- عز وجل- وبين خلقه، وفيما بين الخلق بعضهم مع بعض.

٤- أن الله جعل التكاليف وهي الأمانة التي حملها الإنسان؛ لأجل أن يثيب المطيع ويعاقب العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.

٥- تهديد المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات؛ لقوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾. وأن المنافقين وعيدهم أوكد، وعذابهم أشد؛ لأن الله قدمهم بالذكر في الآية.

٦- وعد الله المؤمنين والمؤمنات بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- والرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له سبحانه، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه؛ رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

٨- جمعه عز وجل للمؤمنين بين المغفرة التي بها زوال المرهوب، والرحمة التي بها حصول المطلوب.

٩- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الرحمة.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسـير سورة الروم ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- فضلها: ٧
د- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢...﴾ الآيات [١-١٠] ١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١...﴾ الآيات [١١-١٩] ٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ...﴾ الآيات [٢٠-٢٧] ٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ...﴾ الآيات [٢٨-٣٢] ٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ...﴾ الآيات [٣٣-٤٠] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ...﴾ الآيات [٤١-٤٥] ٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ...﴾ الآيات [٤٦-٥٣] ٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ...﴾ الآيات [٥٤-٦٠] ٨٧
تفسـير سورة لقمان ٩٥
المقدمة ٩٧

أ- اسم السورة: ٩٧
ب- مكان نزولها: ٩٧
جـ- موضوعاتها: ٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ...﴾ الآيات [١-١١] ١٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ...﴾ الآيات [١٢-١٩] ١١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ...﴾ الآيات [٢٠-٢٨] ١٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ...﴾ الآيات [٢٩-٣٤] ١٤٦
تفسير سورة السجدة ١٦٣
المقدمة ١٦٥
أ- اسم السورة: ١٦٥
ب- مكان نزولها: ١٦٥
جـ- فضلها: ١٦٥
د- موضوعاتها: ١٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...﴾ الآيات [١-٩] ١٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ...﴾ الآيات [١٠-١٧] ١٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ...﴾ الآيات [١٨-٢٢] ١٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ الآيات [٢٣-٣٠] ١٩٥
تفسير سورة الأحزاب ٢٠٥
المقدمة ٢٠٧

أ- اسم السورة: ٢٠٧
ب- مكان نزولها: ٢٠٧
جـ- فضلها: ٢٠٧
د- موضوعاتها: ٢٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ الآيات [١-٣] ٢١٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ...﴾ الآيتين [٤، ٥] ٢٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآية [٦] ٢٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ...﴾ الآيتين [٧، ٨] ٢٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآيات [٩-٢٠]
..... ٢٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ...﴾ الآيات [٢١-٢٧]
..... ٢٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
فَتَعَالَيْنَ ...﴾ الآيتين [٢٨، ٢٩] ٢٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ ...﴾ الآيتين [٣٠، ٣١] ٢٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ الآيات [٣٢-٣٤] ٣٠٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...﴾ الآية [٣٥] ٣٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ ...﴾ الآية [٣٦] ٣٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ...﴾ الآية [٣٧] ٣٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ...﴾ الآيتين [٣٨، ٣٩] ٣٦٦

تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ...﴾ الآية [٤٠] ٣٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ...﴾ الآيات [٤١-٤٨] ٣٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ...﴾ الآية [٤٩] ٣٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ...﴾ الآية [٥٠] ٣٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ...﴾ الآية [٥١] ٤١١
تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ...﴾ الآية [٥٢] ٤١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ...﴾ الآيتين [٥٣، ٥٤] ٤٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ ...﴾ الآية [٥٥] ٤٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ...﴾ الآية [٥٦] ٤٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ...﴾ الآيتين [٥٧، ٥٨] ٤٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية [٥٩] ٤٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾ الآيات [٦٠-٦٢] ٤٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٦٣-٦٨] ٤٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ ...﴾ الآية [٦٩]

..... ٤٩٤

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا...﴾ الآيتين [٧٠، ٧١]

..... ٤٩٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا ...﴾

الآية [٧٢، ٧٣]..... ٥٠٤

فهرس الموضوعات..... ٥١١

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثامن عشر

تفسير سورة سبأ وفاطر ويس والصافات وص

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٨

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٤٣٩ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ سَبَأ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سُميت: هذه السورة «سورة سبأ»؛ لذكر قصة سبأ فيها، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [الآيات:١٥-٢١].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة سبأ بالحمد والثناء على الله تعالى، وبيان اختصاصه وحده بما في السموات وما في الأرض، وبالحمد في الآخرة، وبيان سعة علمه جل شأنه؛ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

٢- ذكر إنكار الكفار للساعة والقيامة والبعث، والرد عليهم، وبيان إحاطته عز وجل بعلم الغيب، وكتابته كل شيء، وبيان المقصود من البعث، وهو مجازاة العباد بأعمالهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

٣- الثناء على أهل العلم بمعرفتهم أن ما أنزل إليه ﷺ من ربه هو الحق ويهدي إلى صراط الله المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

٤- سخرية الكفار واستهزاؤهم بالرسول ﷺ وتهكمهم به، لما أخبرهم بالبعث استبعادًا له وتكذيبًا به، واتهامهم له ﷺ بالافتراء على الله كذبًا، أو الجنون، وبيان تمام قدرة الله تعالى على البعث، وتهديدهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

٥- ذكر قصة داود عليه الصلاة والسلام، وما آتاه الله من الفضل، وتسخير الجبال والطير تسبح معه، وإلانة الحديد له؛ قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

٦- ذكر قصة سليمان عليه الصلاة والسلام، وتسخير الريح له، وإسالة عين القطر له، وتسخير الجن يعملون بين يديه؛ قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

٧- حكاية قصة سبأ، وما أنعم الله به عليهم، وإعراضهم وكفرهم نعمة الله، وسلبها منهم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

٨- تحدي المشركين بأن يدعوا ما زعموه من الشركاء من دون الله، وبيان عجزهم، وأنهم لا يملكون شيئًا، وبيان تفرده عزوجل بالملك، والرزق ومحاسبة الخلائق كل بعمله، وجمعهم والفتح بينهم بالحق؛ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

٩- بيان عموم رسالته ﷺ، وأن مهمته البشارة والإنذار، وليس إليه الإتيان بما يستعجلونه من العذاب، وأن لذلك موعدًا لا بد من وقوعه فيه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

١٠- بيان تكذيب الذين كفروا بالقرآن، وبكتب الله تعالى وبيان سوء حال

الظالمين يوم القيامة، وتراجعهم القول، وإسرارهم الندامة لما رأوا العذاب ومجازاتهم بما كانوا يعملون؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

١١- بيان حال الأمم الماضية المكذبة للرسل واغترارهم بكثرة أموالهم وأولادهم؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

١٢- بيان أن بسط الرزق وكثرة الأموال والأولاد ليس دليلًا على ما زعمه الكفار من أن ذلك يقربهم إلى الله زلفى، من غير إيمان ولا عمل صالح، والتهديد للمكذبين، والترغيب في الإنفاق لمن بسط الله له الرزق؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

١٣- توبيخ المشركين يوم القيامة، وتقريعهم وتبكيتهم، وبراءة معبوداتهم منهم، وتهديدهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

١٤- تكذيب المشركين بآيات الله إذا تتلى عليهم، واتهامهم للرسول ﷺ بأنه يريد صدهم عما كان يعبد آباؤهم، وإن القرآن ما هو إلا كذب مفترى وسحر مبين، بلا حجة عندهم ولا دليل، وتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

١٥- دعوة الكفار إلى التفكير والتدبر في دعوة الرسول ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

بيان فزع الكفار عند أخذهم بالعذاب، وإيمانهم حين لا ينفعهم ذلك والحيلولة بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بالمكذبين قبلهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «ال» للجنس، وتفيد الاستغراق والاستقصاء والشمول؛ أي: الحمد المطلق لله.

و«الحمد»: وصف المحمود بصفات الكمال، والثناء عليه بذلك مع المحبة والتعظيم.

﴿لِلَّهِ﴾ اللام: للاختصاص والاستحقاق؛ أي: أن جميع أنواع الحمد، وأصناف المحامد مستحق لله تعالى، وواجب له لذاته.

وفي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إخبار باستحقاقه جميع أنواع الحمد، وحمد منه عز وجل لنفسه، وأمر لعباده أن يحمدوه.

وقد افتتح الله عز وجل بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خمس سور، هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، كلهن مكيات، وقد وضعت في ترتيب القرآن الكريم في أوله، ووسطه، والربع الأخير منه، فكانت أرباع القرآن مفتتحة بـ«الحمد لله».

﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ «الذي»: نعت للفظ الجلالة؛ أي: الذي من أعظم ما يحمد عليه ويوصف به ويثنى عليه به: سعة ملكه، واختصاصه بجميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فله الحمد على ذلك

كله في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: وله الحمد أيضًا في الآخرة على إقامة القيامة، وعلى ظهور كمال تفرده بالملك، وفي مجازاة الخلائق على أعمالهم، دون منازع، وعلى حكمته وكمال عدله، فيحمده المؤمنون على جزائه لهم بالفضل، ويحمده من سواهم على مجازاته إياهم بالعدل.

فله عز وجل الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعِم المتفضِّل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠].

قال ابن القيم: «وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا، والحمد مع الملك غاية الكمال، ونظير هذا: العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم. فوسَّط الملك بين الجملتين فجعله محفوفًا بحمد قبله وحمد بعده»(١).

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التامِّ في قدَره وشرعه وجزائه، في أقواله وأفعاله، وذو الحكمة البالغة، المتقن لكل ما خلقه وشرعه، ولكل ما حكم به وقدره.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى، الخبير بخلقه، فلا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ ولهذا قال:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم كل الذي يدخل في الأرض، من الأمطار والمياه، والبذور والكنوز والدفائن والحيوانات، والأموات وغير ذلك، ويعلم جميع ما أُودِعَ فيها من المعادن، ودُحِيَ فيها من الخيرات.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي: ويعلم الذي يخرج من الأرض من النباتات والأشجار

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٣.

والثمار، والعيون والمعادن والخيرات، والدواب، وغير ذلك.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: ويعلم الذي ينزل من السماء، من وحيه إلى أنبيائه، ومن الملائكة والأرزاق والأقدار، والأمطار والثلوج والبرد والصواعق، وغير ذلك.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، أي: ويعلم الذي يعرج في السماء؛ أي: يصعد فيها، من الملائكة، والأعمال الصالحة، وأرواح الشهداء والمؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه؛ أي: ذو الرحمة الواسعة، التي هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، وصفة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع خلقه.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، فيغفر ذنوب التائبين إليه، ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾[طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾[الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾[النساء: ١١٦].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما قال ﷺ: «**يدني الله المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

قال ابن القيم: «وقدم «الرحيم» في هذا الموضع؛ لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر «الرحيم» بعده؛ ليقترن به، فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر: ٧].

ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة؛ لتضمنها دفع الشر، وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم «الغفور» على «الرحيم» حيث وقع، ولمَّا كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه «الرحيم»؛ لأجل ما قبله قدم على «الغفور»»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾، أي: لا تأتينا القيامة؛ أي: لا بعث ولا معاد، ولا حساب ولا جزاء.

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾، أي: قل لهم يا محمد: بلى، ﴿وَرَبِّي﴾.

الواو: للقسم؛ أي: أقسم بربي.

﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، وقوله: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ بالخطاب مع أنها آتية لجميع الناس؛ لأنها في مقابل قولهم: ﴿لَا تَأۡتِينَا﴾، ولتهديدهم؛ لأن إتيانها مؤذن بعذابهم.

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس بالرفع: «عَالِمُ»، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بالخفض: ﴿عَٰلِمِ﴾، وقرأ حمزة والكسائي بحذف الألف بعد العين وفتح اللام وتشديدها: «علّام» على وزن «فعَّال».

والغيب: ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم.

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاي: «لَا يَعْزِبُ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾، والجملة: حال مؤكدة للضمير في ﴿عَٰلِمِ﴾.

أي: لا يغيب عنه وعن علمه زِنَة ﴿ذَرَّةٖ﴾ وهي: النملة الصغيرة، أو بيضتها.

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ الإشارة إلى ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾، أي: ولا أصغر من مثقال الذرة، ولا أكبر منه.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مثبَت ومدوَّن ومضبوط ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ وهو اللوح المحفوظ، ﴿مُّبِينٖ﴾، أي: بين واضح ظاهر، مبين ما كتب فيه.

فالأجسام والعظام وإن بليت وتمزقت وتفرقت، فهو عالم بجميع أجزائها، يعيدها كما بدأها أول مرة؛ كما قال تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤﴾

[ق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ﴾ الآية.

لَمَّا أثبت وأكد قيام الساعة بيّن الحكمة من ذلك؛ وهي مجازاة الخلائق بأعمالهم.

قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يجزي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ﴾، أي: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم﴾ خاصة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهًا بهم، ورفعة لشأنهم.

﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، أي: مغفرة واسعة من ربهم لذنوبهم، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها، ونكّر «مغفرة»: للتعظيم؛ أي: مغفرة عظيمة واسعة.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: ولهم رزق كريم، ونكّر «رزق» ووصفه بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ تعظيمًا له، والرزق: العطاء؛ أي: وعطاء واسع من ألوان النعيم في الجنة، لا يقدر قدر كميته وكيفيته إلَّا من وهبهم إياه، ووصفه بأنه كريم، وهو الكريم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[السجدة: ١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بحذف الألف بعد العين مع تشديد الجيم: «مُعَجِّزِينَ»، وقرأ الباقون بإثبات الألف وتخفيف الجيم: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾.

أي: والذين سعوا في إبطال آياتنا، والصد عنها، والتكذيب بها، زاعمين بأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها؛ كما في قولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقد تحدَّاهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا.

ومعاجزين الله بأن يَفُوتوا ويُفْلِتوا من عذابه، وهيهات لهم ذلك!

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بضم الميم: ﴿أَلِيمٌ﴾، صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، وقرأ الباقون بخفضها: «أَلِيمٍ» صفة لـ﴿رِّجْزٍ﴾.

أي: أولئك لهم خاصَّة عذاب من أسوأ العذاب وأشده ألمًا، والرجز: أسوأ العذاب

وأشده ألمًا.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ لما ذكر إنكار الذين كفروا قيام الساعة؛ لتكذيبهم بما أنزل الله على رسوله، ذكر أن الذين أوتوا العلم- وهم المؤمنون بالله وآياته- يرون أن ما أنزل الله على رسوله ﷺ هو الحق.

قوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾، أي: ويعلم؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾[المعارج: ٦، ٧]؛ أي: ونعلمه قريبًا.

فالمعنى: ويعلم الذين أعطاهم الله العلم والمعرفة به وبآياته.

واختير «يرى» هنا دون «يعلم»؛ للتنبيه على أنه علم يقيني بمنزلة العلم بالمرئيات التي عِلْمُها ضروري؛ لأنه إذا جاءت «يرى» بمعنى: «يعلم» دلت على أن العلم في أعلى مقامات العلم، وأنه صار كالعلم بالمشاهدات.

﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾، أي: الذي أنزل إليك يا محمد من ربك من الوحي في الكتاب والسنة.

﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ «هو» ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد؛ أي: هو الحق الثابت؛ لصدق من جاء به، وصدق أخباره، وعدل أحكامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾[الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، دون ما عليه أهل الشرك فهو باطل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢].

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ عام في كل من أعطاهم الله العلم من علماء أهل الكتاب المنصفين، وعلماء هذه الأمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ [الحج: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فهم يعلمون أنه الحق، ويتبعونه، ويدعون إليه، ويشهدون بذلك في الآخرة تبكيتًا للمكذبين؛ كما في قولهم: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، وقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:

٥٢]، وقولهم: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

أي: ويدل ويرشد إلى صراط الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ذي العزة والقوة والقهر والغلبة والامتناع، الذي لا يغالَب ولا يمانَع.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، المحمود في ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: سخرية واستهزاءً بالرسول ﷺ، وتكذيبًا لرسالته، واستبعادًا لما أخبر به من إتيان الساعة، وبعث الأجساد.

أي: يقول هذا رؤساؤهم لعامتهم ودهمائهم، ولمن لم يبلغه قول النبي ﷺ منهم، وللوافدين عليهم في الموسم؛ كما كانوا يعمدون في المواسم إلى تحذير الوافدين إليهم منه ﷺ ومن دعوته بقولهم: ساحر، ونحو ذلك.

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ الاستفهام: للتعجب والسخرية؛ أي: هل نرشدكم ونعرفكم ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون النبي ﷺ، والتنكير للتحقير.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾، أي: يخبركم، والنبأ: الخبر العظيم الهام.

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾، أي: إذا متم وتمزقت أجسادكم، وتفرقت في الأرض.

﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ «كل» للتكثير؛ كما في قوله: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٧]؛ أي: تمزقت أوصالكم وأجزاؤكم كل تمزق، وتفرقت كل تفرق، وصارت ترابًا ورميمًا.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: إنكم تخلقون خلقًا جديدًا، وتعودون أحياء ترزقون بعد ذلك.

وكأنه ﷺ بإخباره إياهم ببعثهم بعد الموت والبلى، صار في نظرهم فرجة يتفرجون

عليه، وأعجوبة يسخرون منه؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ الاستفهام للاستغراب والتعجب؛ أي: إنه في إخباره بهذا الخبر العجيب لا يخلو حاله من أمرين: إما أن يكون ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: اختلق على الله كذبًا؛ تعمُّدًا منه وجرأة على الله، فزعم أن الله أوحى إليه بذلك، وهو كاذب.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ «أم»: حرف عطف؛ أي: أم به جنون، فلا يستغرب منه ذلك؛ كما في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ «بل» للإضراب الإبطالي؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل هو ﷺ الصادق المصدوق فيما أخبرهم به، اللبيب الرشيد في عقله؛ كما قال تعالى: ﴿۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وإنما حملهم على هذا الزعم الباطل كونهم لا يؤمنون بالآخرة؛ أي: كفار لا يصدقون بالآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء، الأمر الذي جعلهم في العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة، وجعلهم تائهين عن الحق، بعيدين عنه كل البعد في الدنيا، وتائهين عن طريق الجنة في الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ الاستفهام: للتقريع؛ أي: أفلم ينظروا ويتفكروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾، أي: إلى الذي أمامهم، وإلى الذي خلفهم، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: من السماء المظلة عليهم، والأرض الممهدة لهم، وما فيهما من المخلوقات الدالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[الذاريات: ٤٧- ٤٨].

أي: فيستدلون بذلك على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على بعث الناس خلقًا جديدًا.

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي

وخلف بالياء المثناة في الثلاثة: «يَشَأْ»، «يَخْسِفْ»، «يُسْقِطْ»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نَشَأْ﴾، ﴿نَخْسِفْ﴾، ﴿نُسْقِطْ﴾.

أي: إن نشأ ونريد كونًا ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ من تحتهم، فنغيبهم فيها.

﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾، أي: قطعًا من العذاب ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من فوقهم، بسبب كفرهم وضلالهم وعدم إيمانهم، وسخريتهم بالرسول ﷺ، وإنكارهم البعث.

أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك؛ لتمام قدرتنا عليهم، ولكنا نمهلهم؛ لحلمنا، ولا نهملهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في النظر والتأمل فيما أمامهم وما خلفهم، مما يشاهدونه من السماء والأرض من هذه المخلوقات العظيمة، وما بينهما من المخلوقات، وما هم فيه من النعم ﴿لَءَايَةً﴾ اللام: للتوكيد؛ أي: لدلالة واضحة ظاهرة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته على بعث الأجساد وإعادتها خلقًا جديدًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: تائب مقبل على الله عز وجل بطاعته.

الفوائد والأحكام:

١- ثبوت الحمد الكامل لله تعالى، واختصاصه باستحقاق ذلك وحده في الدنيا والآخرة؛ لواسع ملكه، وتفرده بالملك والخلق والتدبير، وبصفات الكمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾.

وفي هذا إثبات حمده عز وجل لنفسه، وأمر عباده أن يحمدوه.

٢- إثبات سعة ملك الله عز وجل، واختصاصه بجميع ما في السموات وما في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣- شرف السماء على الأرض؛ لهذا تقدم السماء في الذكر على الأرض غالبًا.

٤- ظهور استحقاقه واختصاصه بالحمد الكامل في الآخرة؛ لظهور كمال تفرده

بالملك، ومجازاته الخلائق بأعمالهم، والاقتصاص للمظلوم من الظالم، وجزائه المؤمنين بفضله، ومجازاة الكافرين بعدله، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٥- إثبات الدار الآخرة، وبعث الناس خلقًا جديدًا بعد الموت والبلى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿يُنَبَّـُٔكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم له عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الخبير»، وصفة الخبرة والاطلاع والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾.

٨- علم الله تعالى الواسع المحيط بكل ما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ لأنه الخالق المالك المدبر لذلك كله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٩- إثبات اسم الله عز وجل «الرحيم»، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ رحمة خاصة بعباده المؤمنين، ورحمة عامة لجميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، وصفة المغفرة الواسعة لذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾.

١١- جمعه عز وجل لعباده المؤمنين بين إعطائهم المطلوب برحمته لهم، وإزالة المرهوب بمغفرته لذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

١٢- إنكار الذين كفروا للبعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

١٣- أن إنكار البعث والتكذيب به كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٤- إثبات قيام الساعة، وأمره له ﷺ بالإقسام بربوبيته تعالى له على ذلك تأكيدًا لقيامها، وتعظيمًا لشأنها، وأنها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ

وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره، وخطاب الله عز وجل له.

١٦- إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء، فلا يغيب عنه شيء قل أو صغر، وكتابته ذلك كله في اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

١٧- إثبات اللوح المحفوظ؛ وأن الله كتب فيه كل شيء وأبانه.

١٨- إثبات الحكمة في أفعال الله، وأن الحكمة من إتيان الساعة وإقامتها مجازاة الناس بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾.

١٩- أنه لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٠- فضل الإيمان والعمل الصالح، والترغيب في ذلك؛ لأن الله نوَّه بشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم المغفرة والرزق الكريم الواسع في الجنة، بزوال المرهوب، وحصول المطلوب.

٢١- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الرزق الكريم في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢٢-سعي الكفار الحثيث؛ لإبطال آيات الله، وإطفاء نوره، وهيهات لهم ذلك.

٢٣- الوعيد والتهديد للذين يسعون لإبطال آيات الله، والصد عن دين الله بالعذاب الشديد.

٢٤- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

٢٥- علم الذين أعطاهم الله تعالى العلم والمعرفة به وبآياته؛ أن ما أنزله على رسوله ﷺ من الوحي هو الحق الثابت والصدق، الهادي إلى صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾.

٢٦- أن من عارض ما أنزل على الرسول ﷺ من الكتاب والسنة، وقدم العقل على ذلك، فليس من أهل العلم لا في قليل ولا كثير.

٢٧- فضل العلم وأهله العارفين بالله وما يجب له؛ لأنهم هم الذين يعرفون الحق من الباطل.

٢٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٩- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾.

٣٠- إثبات رسالته ﷺ، ووحي الله تعالى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣١- الترغيب في اتباع ما أنزل عليه ﷺ من الوحي؛ لأنه هو الحق، ويهدي إلى صراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «العزيز»، وأنه سبحانه ذو العزة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٣٣- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد»، وأنه سبحانه الحميد في صفاته وأقواله وأفعاله، وفي شرعه وقدره، المحمود في ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾.

٣٤- سخرية الذين كفروا بالنبي ﷺ، وتحقيرهم له، وتكذيبهم برسالته، وإنكارهم ما أخبرهم به من بعثهم بعد البلى خلقًا جديدًا؛ استبعادًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨].

٣٥- اتهامهم له ﷺ بالافتراء والكذب على الله تعالى فيما أخبر به من البعث، أو بالجنون؛ لقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، وهذا ما درج عليه أعداء الرسل منذ القدم وإلى قيام الساعة.

٣٦- إقرار كفار قريش بالله؛ لقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣٧- إبطال ما اتهموه به ﷺ، وأنه ليس الأمر كما زعموا، وأنه إنما حملهم على هذا

الزعم الباطل عدم إيمانهم بالآخرة، الذي جعلهم في العذاب، وأضلهم وأبعدهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

٣٨- الإنكار عليهم في عدم نظرهم وتأملهم فيما أمامهم وما خلفهم من السماء والأرض وما فيهما من المخلوقات، ودلائل عظمة الله تعالى، وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣٩- تهديدهم بالعذاب، من تحتهم بخسف الأرض بهم، أو من فوقهم بإرسال قطع من السماء عليهم، فلا مفر لهم ولا مناص، ولا محيد ولا محيص؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤٠- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية.

٤١- وجوب النظر والتأمل في آيات الله في السماء والأرض، وما فيهما من المخلوقات العظيمة، وأن ما يحصل من الخسف والزلازل والنوازل كل ذلك بأمر الله تعالى ومما يخوف الله به عباده.

٤٢- أن في النظر والتأمل في السماء والأرض وما فيهما من المخلوقات لدلالة واضحة لكل عبد منيب إلى ربه، على عظمته عز وجل، ووحدانيته، وتمام قدرته على بعث الأجساد وإعادتها خلقًا جديدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

٤٣- إثبات عبودية المنيبين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

٤٤- أنه لا يعتبر بالآيات وينتفع بها إلا من وفقه الله تعالى للإنابة إليه وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ داود: هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو بعد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، إلى قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

أي: ولقد أعطينا عبدنا ونبينا ورسولنا داود ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾.

قدم نسبة الفضل إليه بقوله: ﴿مِنَّا﴾ تعظيمًا له؛ لأن العطاء يكون على قدر من أعطاه، ولا أعظم منه عز وجل، ولا أفضل من عطائه؛ ولهذا نكَّر «فضلًا»؛ أي: فضلًا عظيمًا في كميته وكيفيته؛ لأنه من العظيم سبحانه.

والفضل: الزيادة من الخير والإحسان؛ من النبوة والملك، والعلم النافع والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ روي عن روح وعن يعقوب: «وَالطَّيْرُ» بالرفع، ووردت عن عاصم وأبي عمرو، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ على المعية.

وهذا نداء منه عز وجل للجبال والطير، وأمر وتسخير منه لها بالتأويب معه؛ أي: وقلنا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

والتأويب: ترجيع التسبيح؛ أي: سبحي ورجعي مسبحة معه إذا سبح، وقد كان الله أعطاه صوتًا حسنًا جميلًا يطرب الأسماع، ويشنِّف الآذان؛ ولهذا قال ﷺ لما سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ القرآن من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، قال: «**لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**»(١).

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، أي: وجعلنا له الحديد ليِّنًا يصنع منه ما يشاء من الدروع وغير ذلك.

قال المفسرون: كأنه لا يحتاج إلى أن يدخله نارًا، أو يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، وهذا أدل على عظمة الله، وتمام نعمته على داود؛ لأن فيه معجزة وآية.

وقيل: المراد: يسرنا له الأسباب التي تلين الحديد، وهيأناها له.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ هذه هي الحكمة من كونه عز وجل ألان له الحديد.

و«أن» تفسيرية؛ أي: وأوحينا إليه ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، أي: أن اصنع دروعًا تامات واسعات من الحديد للمجاهدين في سبيل الله.

قيل: وكان هو أول من صنع الدروع.

والدرع: عبارة عن قميص يُلبس كما يلبس الثوب، يصل كمه إلى العضد فقط، ينسج من حِلَق صغيرة متداخلة مشبوك بعضها ببعض.

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ التقدير: جعل الشيء على مقدار وقدر مناسب.

والسرد: نسج دروع الحديد وصنعها، وتقدير مساميرها وحلقها؛ بحيث تكون متناسبة، وتركيب بعضها ببعض لتسد شقق الدرع، فهي للحديد كالخياطة للثوب، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

والدرع توصف بالمسرودة، كما توصف بالسابغة، قال أبو ذؤيب الهذلي(٢):

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين، استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان الهذليين» ١/ ١٩.

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صَنَعُ السوابغ تبع

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أمر لآل داود كلهم؛ كما في قوله بعد هذا: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣]، أي: واعملوا عملًا صالحًا خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ شكرًا لله تعالى على ما أعطاكم من الفضل الكبير والنعم.

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: بعملكم، أو بالذي تعملونه ﴿بَصِيرٞ﴾، أي: مطلع عليه، عالم به، لا يخفى علي منه شيء، وفي هذا وعد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾.

لما ذكر عز وجل ما أعطاه لداود عليه السلام من الفضل، أتبع ذلك بذكر ما أعطاه لابنه سليمان عليه السلام.

قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ روى أبو بكر عن عاصم: «الرِّيحُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿ٱلرِّيحَ﴾.

أي: وسخرنا لسليمان بن داود عبدالله ونبيه ورسوله ﴿ٱلرِّيحَ﴾ وهي الهواء، وذللناها له تجري بأمره، وتحمله وبساطه وجنوده، وجميع ما معه، يأمرها فتتجه به إلى أي وجهة أراد شمالًا أو جنوبًا، شرقًا أو غربًا، يأمرها فتسرع، ويأمرها فتتئد؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: ٣٦].

﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾، أي: غدوها وذهابها أول النهار حتى الزوال ومنتصف النهار مسيرة شهر، ورواحها ورجوعها من الزوال ومنتصف النهار حتى الليل مسيرة شهر، فتسير في اليوم مسيرة شهرين للسير المعتاد، وتقطع المسافة البعيدة جدًّا في مدة يسيرة جدًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١].

﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ «أسلنا»: أذبنا، و«القطر»: النحاس؛ كما في قوله: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦]؛ أي: نحاسًا مذابًا.

والمعنى: وأذبنا له عين النحاس، وجعلناه يسيل يصنع منه ما يشاء من الأواني وغيرها، وهذا قد يفوق ما أعطيه داود في قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: وسخرنا له بعض الجن، و«الجن»: عالم غيبي خلقهم الله من مارج من نار؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾[الرحمن: ١٥].

﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ «من»: موصولة؛ أي: الذين يعملون بين يديه؛ أي: بين يدي سليمان؛ أي: أمامه، يخدمونه ويطيعونه.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، أي: بأمر ربه عز وجل الكوني، وتسخيره إياهم له عليه السلام، أو بأمره الشرعي؛ لقوله: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾، أي: ومن يعدل ويمل من الجن عن أمرنا الشرعي، ويخرج عن طاعتنا.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: نذقه من عذاب النار المستعرة في الآخرة، وقيل: في الدنيا عقوبة عاجلة له.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ هذا كالتفصيل لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: يعملون له الذي يشاؤه من الأعمال والصناعات.

﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ «من» بيانية، و«محاريب»: جمع «محراب»، وهي: القصور الحصينة والمساكن الحسنة، ومساجد العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾[ص: ٢١- ٢٢].

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾، أي: صورًا من نحاس وزجاج ورخام، وغير ذلك.

ولا يلزم أن تكون هذه التماثيل صورًا لذوات الأرواح كالإنسان والحيوان، حتى يقال: إنها كانت مباحة عندهم؛ لأنها مطلقة، وقد حرم الإسلام تصوير تماثيل لذوات الأرواح؛ قطعًا لدابر الشرك.

﴿وَجِفَانٍ﴾: جمع «جفنة»، وهي الصحفة والقصعة التي يقدم فيها الطعام للضيوف.

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«الجواب»: جمع «جابية»، وهي البركة والحوض الذي يجبى فيه الماء.

﴿وَقُدُورٍ﴾، أي: وقدور كبيرة عظيمة لطبخ الطعام، ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾: ثابتات لا تتحرك

ولا تنزل من فوق أثافيها؛ لعظمها، وتدارك الطبخ فيها صباح مساء؛ لكرمه عليه السلام.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾، أي: وقلنا: اعملوا يا آل داود، والمراد بهم: داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة عليهم جميعًا؛ أي: اعملوا الطاعات والأعمال الصالحة.

﴿شُكۡرٗاۚ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مصدر في موضع الحال، أو مفعول لأجله؛ أي: لأجل شكر الله على ما أنعم به عليكم من النعم الدينية والدنيوية.

والشكر يكون بالعمل بالجوارح، وبالقول، وبالقلب؛ كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا(١)

وفي قوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ إشارة إلى أنهم قائمون بالعمل شكرًا لله تعالى؛ كما كان هذا حال داود عليه السلام؛ ولهذا قال نبينا ﷺ: «**إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه. وإن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود؛ كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفر إذ لاقى**»(٢).

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ لنعمتي، العامل فيها بطاعتي، وهذا إخبار عن الواقع؛ فإن الشكور لنعم الله تعالى بنسبتها إليه، واستعمالها في طاعته قليل من الخلق.

وأكثر الخلق على الكفر بنعم الله تعالى بنسبتها إلى غيره، واستعمالها في معصيته، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾[ص: ٢٤].

وقال بعض السلف: «ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ

---

(١) البيت في «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» ٥/ ٢٧٧ بلا نسبة، ونسب في «المفضليات» ص٣٤٤ لبشر.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣١، ومسلم في الصيام، النهي عن صوم الدهر ١١٥٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٤٨، وابن ماجه في الصيام ١٧١٢؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾، أي: قدرنا عليه الموت فمات.

﴿مَا دَلَّهُمْ﴾، أي: ما دل الجن الذين كانوا يدعون علم الغيب،وما عرّفهم.

﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾، أي: على أنه مات ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«دابة الأرض»: هي الأرضة التي تأكل الخشب وتنخرها وتتلفها.

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بألف بعد السين من غير همز: «مِنْسَاتَهُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾.

أي: تأكل عصاه التي كان متوكئًا عليها.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾، أي: وقع وسقط على الأرض بعد أن أكلت الأرضة عصاه.

قيل: وكان ذلك بعد مضي نحو سنة على موته؛ ولهذا قال:

﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ روى رويس بضم التاء والباء وكسر الياء على ما لم يسم فاعله: «تُبُيِّنَتِ»، وقرأ الباقون بفتح التاء والباء والياء: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾، أي: تبين وظهر للجن وانكشف لهم وعلموا:

﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ «أن» وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿تَبَيَّنَتِ﴾.

أي: تبين للجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ويتوهمون، ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾، أي: ما مكثوا وبقوا واستمروا، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، أي: في العمل الشاق المذل في خدمة سليمان عليه السلام، يحسبونه حيًّا وقد مات منذ مدة طويلة.

أي: لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أن سليمان قد مات، وما لبثوا في العذاب المهين، فأراد الله عز وجل أن يبين لهم ولغيرهم أنهم لا يعلمون الغيب.

الفوائد والأحكام:

١ - التنويه بعظم ما أعطاه الله عز وجل لعبده ونبيه ورسوله داود عليه السلام من الفضل؛ من النبوة والملك العظيم، والنعم الدينية والدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ الآية.

٢- تسخير الجبال والطير تُرَجِّع التسبيح معه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

٣- إلانة الحديد وتطويعه له؛ يصنع منه ما يشاء، وتعليمه صنع الدروع السابغات، والتقدير في سردها وإحكامها، وفي ذلك دلالة على تمام قدرة الله تعالى وعظيم فضله ومنته على داود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾.

٤- ينبغي لمن عمل عملًا أن يتمه ويتقنه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، ورُوِيَ في الحديث: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»(١).

٥- وجوب شكر نعم الله تعالى بالعمل الصالح؛ لأن الله أمر آل داود بذلك؛ لما أولاهم من الفضل والنعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

٦- أنه لا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله عز وجل، موافقًا لشرعه.

٧- علم الله تعالى واطلاعه وبصره التام بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن عمل صالحًا، ووعيد لمن عمل بخلاف ذلك.

٨- التنويه بشأن سليمان نبي الله تعالى ورسوله عليه السلام، وما منحه الله من الملك العظيم الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وتسخير الريح له تحمله وبساطه ومن معه، وتقطع به المسافات الطويلة في مدة يسيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

٩- إسالة عين النحاس وإذابتها له؛ يعمل منها ما يشاء من الأواني، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

١٠- تسخير الجن له، يعملون تحت خدمته بإذن ربه، وتهديد من يعدل عن أمره عز وجل ويخرج عن طاعته بعذاب السعير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» ١/ ٢٧٥ (٨٩٧)، وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» ٧/ ٣٤٩ (٤٣٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٧/ ٢٣٢ (٤٩٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. قال بعضهم: «وفي إسناده لين».

١١- إثبات وجود الجن، وما أعطاهم الله من القدرات العظيمة، وتسخيرهم للعمل للإنس، إما بالخير، وإما بالشر، وأنهم قد يشاهَدون أحيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

١٢- إثبات إذن الله تعالى الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وهو محتمل للكوني والشرعي.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦ﴾.

١٤- أن الجن مكلفون ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم كالإنس، فمن خالف أمر الله دخل النار، ومن أطاع الله دخل الجنة، وهم في أصول الدين كالتوحيد مكلفون كالإنس بلا خلاف، أما في فروع الشرائع فقد يختلفون عن الإنس.

١٥- إثبات وجود النار، وإعدادها لمن خالف أمر الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

١٦- إثبات المشيئة للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور على أفعاله.

١٧- قيام الجن بتسخير الله تعالى وإقداره لهم بعمل ما يشاؤه سليمان عليه السلام من محاريب ضخمة، وتماثيل جميلة، وجفان واسعة، وقدور ثابتة، وغير ذلك؛ لما أعطاه الله من ملك لا ينبغي لأحد من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

١٨- كرم سليمان عليه السلام، وبذله الطعام والضيافة للناس، بدلالة قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

وهذا أدل على الكرم من قولهم عن الكريم: «كثير الرماد».

١٩- كمال قدرة الله تعالى وعظم فضله على داود وسليمان عليهما السلام، فسخر لداود الجبال الجامدة، والطيور السابحة، تسبح معه، وألان له الحديد يعمل منه الدروع السابغات، ويُحكِم صنعها، وسخر لسليمان الريح تغدو وتروح به وبمن معه، وتقطع بهم المسافات الطويلة بمدة يسيرة، وأذاب له عين النحاس، وسخر الجن في خدمته يعملون بين يديه ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كبيرة، وقدور راسية عظيمة.

٢٠- فضل داود وسليمان عليهما السلام؛ حيث من الله عليهما بالنبوة والملك، وأعطاهما من النعم الدينية والدنيوية ما يجل عن الحصر؛ لشكرهما نعم الله تعالى.

٢١- وجوب شكر نعم الله تعالى بالاعتراف له بها باطنًا وظاهرًا، واستعمالها في طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

٢٢- أن العمل بطاعة الله تعالى وشكر نعمه من أعظم أسباب ترادفها وكثرتها وقرارها، وهكذا كان حال آل داود عليهم السلام، قابلوا نعم الله بالطاعة والشكر، فأدرها الله عليهم وغمرهم بها.

٢٣- أن الشكر يكون بالعمل؛ كما يكون بالقول وبالقلب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

٢٤- قلة الشكور من الخلق لنعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، فلا ينبغي أن يغتر بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على الكفر والضلال.

٢٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِيَ﴾.

٢٦- أن كل نفس ذائقة الموت؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾.

٢٧- إبطال زعم الجن أنهم يعلمون الغيب، وتبينهم بأنفسهم بطلان ذلك؛ للبثهم في خدمة سليمان عليه السلام بالعمل المهين بعد موته، حتى أكلت الأرضة عصاه فسقط على الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

٢٨- تسمية العمل الشاق عذابًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

وفي الحديث: «**السفر قطعة من العذاب**»(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٠٤، ومسلم في الإمارة ١٩٣٧، وابن ماجه في المناسك ٢٨٨٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

أتبع ما أخبر به عن سليمان بذكر قصة سبأ؛ لِمَا بين ملك سليمان ومملكة سبأ من الاتصال بسبب قصة بلقيس؛ ولأن في أحوال آل داود مثلًا في إسباغ النعمة على الشاكرين، وفي أحوال أهل سبأ مثلًا في سلب النعمة عن الكافرين، وفي هذا وذاك موعظة للمشركين، وترغيب وترهيب لهم، ولغيرهم.

قال ابن كثير(١): «كانت سبأ من ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أُمروا به فعوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر».

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ «سبأ»: اسم قبيلة عظيمة في اليمن، سُموا باسم جدهم، قال ابن إسحاق: اسم «سبأ»: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٩١.

قحطان، وإنما سمي «سبأ»؛ لأنه أول من سبأ من العرب، وذُكر أنه بشَّرَ برسول الله ﷺ في زمانه، وقال في ذلك شعرًا:

سيملك بعدنا ملكًا عظيمًا ... نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعد قحطانٍ نبي ... تقي خَبْتة خير الأنام
وسميَ أحمدًا يا ليت أني ... أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامي(١)

وتنقسم قبيلة سبأ إلى عشرة أفخاذ، وهم: الأزد، وكندة، ومذحج، والأشعريون، وأنمار، وبجيلة، وعاملة وهم خزاعة، وغسان، ولخم، وجذام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن سبأ، ما هو؟ رجل أم امرأة، أم أرض؟ قال: «**بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، عربًا كلها، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان**»(٢).

وليسوا من صلبه، بل فيهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر، وإنما من نسله هؤلاء العشرة الذين ترجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن.

﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ قرأ حمزة وحفص: ﴿مَسۡكَنِهِمۡ﴾ بغير ألف على الإفراد، مع إسكان السين، وفتح الكاف، وقرأ الكسائي وخلف بكسر الكاف: «مَسْكِنِهِمْ»، وقرأ الباقون بألف على الجمع مع فتح السين وكسر الكاف: «مَسَاكِنِهِمْ»، جمع «مسكن».

والمسكن: ما يسكنه الإنسان ويطمئن فيه؛ أي: في بلدهم وبيوتهم وبساتينهم ونحو ذلك.

﴿ءَايَةٞ﴾، أي: عظة وعبرة لمن يعتبر من هؤلاء المشركين وغيرهم، ودلالة على تمام

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣١٦. وقد أخرج الترمذي نحوه في تفسير القرآن ٣٢٢٢، من حديث فروة بن مسيك رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

قدرة الله تعالى ونعمته وحكمته، وعلى تبدل الأحوال، وحلول النقمة مكان النعمة إذا كفرت.

﴿جَنَّتَانِ﴾: بدل من آية؛ أي: بستانان عظيمان.

قال المفسرون: وكانت بساتين كثيرة متواصلة عن يمين وشمال، فأطلق عليها: ﴿جَنَّتَانِ﴾.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ عن يمين واديهم وشماله، وكان واديهم بين الجبال، وعلى أطراف الوادي هذه الجنان العظيمة، ذات الأشجار المتنوعة، والثمار الكبيرة، وكانوا في أحسن ما يكون من رغد العيش، والهناء والأمن؛ ولهذا قال تعالى ممتنًّا عليهم: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الأمر للإباحة والامتنان.

أي: وقلنا لهم امتنانًا عليهم: كلوا من رزق ربكم؛ أي: من عطائه العظيم الواسع.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ عظيم نعمته، وعطاءه لكم، بالاعتراف له بذلك بقلوبكم، والثناء عليه بألسنتكم، واستعماله في طاعته بجوارحكم.

﴿بَلْدَةٌ﴾، نكرت: للتعظيم، ﴿طَيِّبَةٌ﴾، أي: طيبة الأرض والماء والهواء والثمار، ملائمة لساكنها ومستثمرها، فيها الرزق والعيش الرغيد وهي بلدتهم: «سبأ»؛ كما يقال لها: «مأرب»، وهي بين حضرموت وصنعاء.

﴿وَرَبٌّ﴾؛ أي: ورب عظيم ﴿غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده الشاكرين، يستر ذنوبهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعاقبهم عليها، فامتن عليهم بنعمتين: نعمة السكن الطيب الذي به حصول المطلوب في الدنيا، ونعمة المغفرة التي بها زوال المرهوب في الآخرة.

﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فأعرضوا بقلوبهم، وتولوا بأبدانهم عن شكر الله تعالى وطاعته والاعتراف بنعمته، وعبادته وحده لا شريك له، وعدلوا إلى الشرك وعبادة الشمس من دون الله؛ كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[النمل: ٢٢- ٢٤].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الفاء: عاطفة، وتفيد السببية؛ أي: فبسبب إعراضهم أرسلنا عليهم سيل العرم، عقوبة لهم على إعراضهم وكفرهم، وانتقامًا منهم؛ ولهذا عدي الفعل «أرسلنا» بـ«على».

والعرم: الشديد الكثير الغزير، وإضافته إلى «سيل» من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أي: السيل الغزير الجارف الشديد، الذي خرب سد مأرب العظيم، فانطلق ما كان محبوسًا فيه من المياه الكثيرة، وأتلف وأغرق ما بين يديه من البساتين والزروع والحروث والأشجار، وهدم الأبنية، وخرب الديار.

وقد كان لأهل سبأ سد عظيم قرب بلاد مأرب يسمى: «سد مأرب».

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ اللتين كانتا من أعظم الجنات، وكانتا آية من آيات الله في الزهو والاخضرار والأشجار، والزروع والفواكه والثمار، والمناظر الحسنة، والظلال الوارفة، والأنهار.

﴿جَنَّتَيْنِ﴾ دون الأوليين وأدنى وأقل منهما.

﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الكاف مع الإضافة من غير تنوين: «أُكُلِ خَمْطٍ»، وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف والتنوين: : «أُكْلٍ خَمْطٍ»، وقرأ الباقون بضم الكاف مع التنوين: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾، أي: صاحبتي مأكول قليل، ليس بالكثير، ﴿خَمْطٍ﴾، أي: يخمط خمطًا مر غير لذيذ، وهو الأراك.

﴿وَأَثْلٍ﴾ هو شجر معروف لا ثمر له، وقيل: هو الطرفاء.

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق، كثير الشوك، قليل الثمر.

ولما كان السدر أحسن هذه الأنواع لم يعطوا منه إلا أقل القليل؛ ولهذا قال: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ وهذا يدل على قلته، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿قَلِيلٍ﴾.

قال ابن كثير[1]: «وقوله: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٤٩٦.

إليه بعد الثمار النضجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء، والسدر، ذي الشوك الكثير، والثمر القليل».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى إرسال سيل العرم عليهم، وتبديل جنتيهم العظيمتين بجنتين ذواتي أكل خمط وأثل، وشيء من سدر قليل.

﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ هذا الجزاء بإغراق جنتيهم، وإتلاف أموالهم، وهدم بنائهم.

﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية؛ أي: بسبب كفرهم وشركهم بالله بعبادتهم الشمس من دونه، وكفرهم بنعمته، فصارت بلادهم قاحلة بلا ماء ولا ثمر ولا مرعى، فاضطروا إلى مفارقتها والتفرق في غيرها من البلاد.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وحفص بالنون: ﴿نُجَٰزِيٓ﴾، و﴿ٱلْكَفُورَ﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بالياء وفتح الزاي: «يُجَازَى»، و«الكَفُورُ» بالرفع.

و«هل»: حرف استفهام، ومعناه هنا النفي؛ أي: وما نجازي؛ أي: وما نناقش ونجازي بالعقوبة.

﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، أي: إلا ذا الكفر، الذي كفر بالله، وأشرك به، وجحد نعمه وبطرها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ الآية.

بعدما ذكر نعمة الله عليهم بالرخاء والبهجة وطيب الإقامة، ذكر نعمته عليهم بالأمن في أسفارهم وترحالهم، وتيسيرها عليهم.

أي: ومن إنعامنا على سبأ جعلنا؛ أي: صيرنا ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الخيرات والثمرات والأرزاق، و«القرية»: البلدة، صغيرة كانت أو كبيرة.

قيل: المراد: قرى اليمن، كصنعاء، وقيل: قرى الشام، وكل منهما، قد بارك فيها،

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وقال ﷺ: «**اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا**»(١).

وكونها قرى الشام أعظم في الامتنان عليهم؛ لأنها أبعد مسافة.

ومن رجح أنها قرى اليمن قال: لأنه لا يعلم بين اليمن والشام قرى ظاهرة.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، أي: ظاهرة للعيان متواصلة، يرى بعضها من بعض، يطمئن المسافر بينها ويأمن، ولا يتيه.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، أي: جعلنا السير بين هذه القرى مقدرًا على مراحل متقاربة ومتعادلة، يقطعها المسافر مرحلة مرحلة، دون مشقة شديدة، فيقيل في قرية، ويبيت في أخرى، مع كثرة أشجارها وثمارها وزروعها وثمارها بحيث لا يحتاج المسافر إلى حمل زاد ولا ماء، ولا غير ذلك، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، وكل ما يحتاجه.

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾، أي: وقلنا لهم امتنانًا عليهم: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾، وهو قول قدري.

﴿ءَامِنِينَ﴾: حال؛ أي: آمنين في سيركم وسفركم في هذه القرى لا تخافون، لا في ليل ولا نهار، لا من عدو، ولا من تلف، أو فقد ماء أو طعام ولا غير ذلك.

وقدم «ليالي» للاهتمام في مقام الامتنان؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن فيها منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القُطَّاع والسباع.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير وهشام بكسر العين المشددة، من غير ألف: «بَعِّدْ»، وقرأ الباقون بالألف مع تخفيف العين: ﴿بَٰعِدْ﴾.

فملُّوا هذه النعمة العظيمة، وقابلوها بالأشر والبطر ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: يا ربنا باعد بين مراحل أسفارنا؛ أي: اجعل بينها مفاوز بعيدة، ليس فيها هذه القرى الظاهرة، بحيث تكون أسفارًا شاقة فيها التعب والنصب، ومعاناة الحر

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٥٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وأخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٧ موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما.

والبرد والمخاوف، وحمل الزاد والمزاد، وغير ذلك.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بإعراضهم، وكفرهم بالله، وكفران نعمته، وبطرها، بطلبهم المباعدة بين أسفارهم.

وهذا نظير قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وقد كانوا في عيش رغيد، وطيبات من الرزق، من المن والسلوى وغير ذلك: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فصيرناهم عبرًا، وخبرًا بعد عين، وأحاديث يتناقلها الناس ويتحدثون بها، قرنًا بعد قرن، وكيف تبدلت حالهم وسلبوا ما هم فيه من النعم العظيمة بسبب كفرهم بالله ونعمه، قال التاجي(١):

بينا يرى الإنسان فيها مخبرًا ... حتى يرى خبرًا من الأخبار

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، أي: وفرقناهم في البلاد كل مفرق، فذهبوا في الأرض في كل وجه، هلك منهم من هلك، وصاروا شذر مذر.

قال الشعبي: «أما غسان فقد لحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق»(٢).

ولهذا يقال في المثل: «تفرقوا أيدي سبأ، أو أيادي سبأ(٣)»؛ أي: تفرقوا كتفرق سبأ.

قال ذو الرمة(٤):

فيا لك من دار تفرق أهلها ... أيادي سبا عنها وطال انتقالها

وقال كثير عزة(٥):

---

(١) قال هذا في رثاء صغير له. انظر: «تاريخ دمشق» ٤٣/ ٢٢٢، و«فوات الوفيات» ٢/ ٢٦٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٢٦٧.

(٣) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» ٢/ ٨٨.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٥٠١، «لسان العرب» مادة «يدي».

(٥) انظر: «ديوانه» ص٣٢٨، «شرح شواهد المغني» ٢/ ٦٨٧.

أيادي سَبَا يا عَزَّ ما كنتُ بعدكم فلم يَحْلُ بالعينين بعدَكِ منظرُ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في الذي حلَّ بسبأ من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وسلبها منهم، وتفريقهم بعد الوحدة والاجتماع، بسبب إعراضهم وكفرهم بالله، وبطرهم نعمته، وظلمهم لأنفسهم؛ كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾[القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الأعراف: ٩٦].

﴿لَآيَاتٍ﴾ لدلالات وعبر وعظات، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾، «صبار» صيغة مبالغة؛ أي: ذي صبر على طاعة الله تعالى وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله تعالى، بنسبتها إليه عز وجل، واستعمالها في طاعته.

عن صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبت من قضاء الله للمؤمن؛ إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتشديد الدال: ﴿صَدَّقَ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «صَدَقَ».

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله خير ٢٩٩٩.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٣.

قال السعدي[١]: «ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ثم ابتدأ، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾، أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه».

وهذا- والله أعلم- هو الظاهر، وعلى احتمال أن هاتين الآيتين تتمة لقصة سبأ، فمعناهما عام لهم ولغيرهم.

وعلى هذا فالضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود على بني آدم كلهم، أو على الكفار منهم، أو على سبأ.

أي: ولقد حقق عليهم إبليس ظنه، وصدق فيهم حدسه في استجابتهم واتباعهم له، في تزيينه وإغوائه لهم؛ كما قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]، وقال: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ في تزيينه لهم الكفر وإغوائهم.

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «إلا»: للاستثناء، ﴿فَرِيقًا﴾ منصوب على الاستثناء، ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعًا، وتكون «إلا» بمعنى: «لكن». و«من»: بيانية.

أي: فاتبعوه إلا فريقًا وهم المؤمنون لم يصدق عليهم ظنه ولم يتبعوه، بل حفظهم الله منه، فلم يستطع إغواءهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم﴾، أي: وما كان له على الذين اتبعوه.

﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما كان له عليهم أيُّ سلطان؛ أي: أيُّ تسلط بقسرهم وقهرهم على الكفر،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٢٧٣.

وإنما زين وحسن لهم الكفر والمعاصي فاتبعوه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لكن سُلطانه عليهم بتزيين الكفر لهم وإغوائهم؛ ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾.

أي: لنعلم الذي يصدق بالدار الآخرة والبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، ويستعد لذلك بالإيمان والعمل الصالح.

﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾، أي: من الذي هو من الآخرة في شك وتكذيب، لا يؤمن بها، ولا بما فيها من الحساب والجزاء، واتبع الشيطان. ومن كان من الآخرة في شك فهو كالمكذب بها سواء بسواء.

والمعنى: إلا لأجل أن يظهر ذلك في علمنا بعد وقوعه منهم، فنجازيهم عليه؛ لأنه عز وجل- وإن كان يعلم ذلك منهم قبل أن يعملوه، وهو الذي قدره عليهم- فإنه لا يجازيهم إلا بعد علمه بوقوع ذلك منهم؛ إقامة للحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[آل عمران: ١٤٢].

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، أي: مطلع ورقيب، لا يغيب عنه شيء؛ لسعة علمه، وتمام قدرته، يحفظ الخلائق، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ جزاءها فيوفيهم إياه كا ملًا وافرًا، وغير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة سبأ، وما امتن الله به عليهم من البساتين والفواكه، والزروع والثمار، ورغد العيش، وطيب البلد، والوعد بالمغفرة، وما أعقب ذلك لما أعرضوا عن طاعة ربهم وشكره، وكفروا به وجحدوا نعمته- من النقمة وتبديل حالهم، وما في ذلك من العظة والعبرة، والدلالة على عظيم قدرة الله تعالى وحكمته.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ الآيات.

٢- عظم ما أعطاه الله تعالى لسبأ من النعم والخيرات والأرزاق، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

٣- وجوب شكر الله تعالى على العباد؛ لما أولاهم من النعم الظاهرة والباطنة.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وربوبيته الخاصة للشاكرين؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

٥- أن البلاد منها ما هو طيب، ومنها ما هو خبيث؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره.

٧- إثبات الأسباب والحكمة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الآية، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾، فعاقبهم الله بهذا العقاب بسبب إعراضهم وكفرهم، وصار هذا السيل الذي هو في الأصل نعمة ورحمة صار عليهم وبالًا ونقمة.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، فهؤلاء لما بطروا نعمة الله تعالى وكفروها ولم يشكروه: سلبها منهم، وبدلهم بما هو أدنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

٩- أن النعم إذا شكرت قرت، وإذا كفرت فرت، وأن الكفر والمعاصي سبب لزوال النعم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

١٠- أن ما حصل لسبأ من إرسال سيل العرم عليهم، وتبديل جنتيهم بجنتين أدنى وأقل، إنما هو بسبب كفرهم بالله، وكفرانهم نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾.

١١- أن الله لا يجازي بالعقوبة إلا الكفور، ولا يجازي أحدًا إلا بفعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

١٢- التحذير للمشركين وغيرهم ممن كفر نعمة الله، أن يبدل ما هم فيه من النعم؛ كما فعل بسبأ، والسعيد من وعظ بغيره.

١٣- أن من نعمة الله تعالى على سبأ أن يسر لهم سبل التنقل بين مسكنهم والقرى المباركة في اليمن أو الشام، بقرى بين ذلك ظاهرة متواصلة، يرى بعضها من بعض، فيأمنون في سفرهم، ولا يحتاجون لحمل الماء والطعام، ولا يشق عليهم السفر بينها؛ لتقاربها، فيقطعونها مرحلة مرحلة، يقيلون في قرية، ويبيتون في أخرى، ولهذا امتن الله عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

١٤- أن الله قد بارك بالشام واليمن.

١٥- أن المسافر أحوج إلى الأمن في الليل؛ لأن فيه تسلط القطاع والسباع؛ بخلاف النهار؛ لهذا قدم الليالي في قوله: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

١٦- أن الأمن من أكبر النعم في الحضر والسفر، ولا يعرف قدره إلا من فقده؛ لهذا خُص بالذكر في الآية؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور: ٥٥].

١٧- مقابلتهم نعمة الله عليهم بتيسير أسفارهم بالأشر والبطر، وطلبهم المباعدة بين أسفارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا هذا بلسان حالهم بكفرهم هذه النعمة، وبلسان مقالهم.

١٨- ظلمهم لأنفسهم بكفرهم نعم الله تعالى عليهم، وطلبهم المباعدة بين أسفارهم، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٩- أن ارتكاب الذنوب والمعاصي ظلم من الإنسان لنفسه؛ لأنها وديعة عنده، لا يجوز له إيقاعها في التهلكة.

٢٠- عقوبة الله تعالى سبأ، بجعلهم خبرًا بعد عين، وأحاديث يتناقلها الناس، وتفريقهم في البلاد كل مفرّق، وذمهم وفضيحتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

٢١- أن فيما حل بهم من النقمة، وتبديل نعمتهم، وتفريقهم بسبب إعراضهم، وكفرهم، وبطرهم نعمة الله، وظلمهم لأنفسهم، لدلالاتٍ على قدرة الله تعالى، وعظاتٍ وعِبرًا لمن يتعظ ويعتبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٢- أنه لا يستفيد من الآيات والعظات والعبر إلا من كان ذا صبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، شكورًا لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٣- فضيلة الصبر والشكر؛ والصبر على الضراء، والشكر على السراء، فمن وفق لهما وفق لكل خير، قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له**»(١).

٢٤- تحقق ظن إبليس وصدق حدسه في كثير من الخلق، في استجابتهم واتباعهم له، في تزيينه وإغوائه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾.

٢٥- حفظ الله تعالى عباده المؤمنين من إبليس، فلم يصدق عليهم ظنه، ولم يتبعوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٦- أنه لا سلطان للشيطان على الذين اتبعوه بقسر وقهر على الكفر، وإنما دعاهم، فاستجابوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾.

٢٧- أن من تسلط عليه الشيطان ووقع في شراكه من المؤمنين، بارتكاب المعاصي، فإنما هو بسبب ضعف إيمانه؛ لأن الله لم يجعل له سلطانًا على المؤمنين؛ كما لم يجعل له

---

(١) سبق تخريجه.

تسلطًا بالقهر على أيّ من الخلق أجمعين. وفي الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(١).

٢٨حكمة الله تعالى في تسليط الشيطان على بني آدم، يزين لهم الكفر ويدعوهم إليه، وهي أن يعلم؛ أي: يظهر في علمه عز وجل- ظهورًا يترتب عليه الجزاء- من يصدق بالآخرة ويعمل لها، ممن يشك بها ويكذب، فلا يعمل لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾.

٢٩- إثبات الدار الآخرة، والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الإيمان بذلك.

٣٠- أن الشك فيما يجب فيه اليقين كفر، فمن شك في الآخرة كفر، كمن كذب بها؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾.

٣١- حفظ الله تعالى ورعايته لكل شيء: الخلائق وأعمالهم وجزاءهم، وغير ذلك؛ لسعة علمه وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٣٣- الترغيب في طاعة الله تعالى، والتحذير من معصيته؛ لأنه حفيظ على أعمال العباد، وسيجازيهم عليها.

* * *

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ * قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾:

لما ذكر عز وجل قصة سبأ وما حل بهم من النقمة بسبب إعراضهم وكفرهم بالله، وعدم شكرهم نعمته، واتباعهم للشيطان، وفي ذلك ما لا يخفى من التعريض بأمثالهم من المشركين وغيرهم، أتبع ذلك بإبطال ما هم عليه من الشرك.

قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لمشركي قريش ولغيرهم ممن يدعو غير الله.

والخطاب له ﷺ ولكل من يتوجه إليه الخطاب من أمته.

﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: اسألوا الآلهة الذين زعمتم كذبًا أنهم شركاء ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، واطلبوا منهم حوائجكم، هل يستجيبون لكم وينفعونكم أم لا؟

ويحتمل أيضًا: أن معنى ادعوهم؛ أي: نادوهم واحضروهم لنناقشهم، وهذا لا ينافي الأول.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا يملك هؤلاء الآلهة الذين زعمتم من دون الله وعبدتموهم مع الله ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: زنة ذرة، وهي النملة الصغيرة، أو بيضة النملة التي تبدو حبيبة صغيرة بيضاء.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا يملكون زنة ذرة في ملك الله تعالى الواسع العظيم في السموات ولا في الأرض. وأعاد حرف النفي «لا»؛ للتوكيد والاهتمام.

والتقدير في قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ للمبالغة في القلة؛ أي: أنهم لا يملكون مثقال ذرة ولا ما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾، أي: وما لهؤلاء الآلهة في السموات والأرض.

﴿مِن شِرْكٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما لهؤلاء الآلهة في السموات والأرض أيُّ شرك؛ أي: أيُّ شراكة في الخلق، فهم لا يملكون زنة ذرة ولا ما دونها استقلالًا، ولا على سبيل الشراكة.

﴿وَمَا لَهُۥ﴾ عز وجل ﴿مِنْهُم﴾، أي: من هؤلاء الآلهة ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾، أي: من معين، بل هو سبحانه المتفرد وحده بالخلق دون أيِّ شريك، وأيِّ معين، والخلق كلهم فقراء إليه، عبيد له.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾، أي: ولا تنفع الشفاعة عند الله عز وجل.

وفي هذا نفي الشفاعة من الشافع، ونفي نفعها للمشفوع له؛ أي: فلا أحد يشفع عنده، ولا أحد يُشفع له عنده.

والشفاعة: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بضم الهمزة: «أُذِنَ لَهُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَذِنَ لَهُۥ﴾.

أي: إلا لمن أذن الله له بالشفاعة كونًا وشرعًا، مع رضاه عن المشفوع له؛ لعظمته عز وجل وكبريائه، وتفرده بالخلق والملك والتدبير؛ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

ولهذا فإن سيد الخلق وهو أكبر شفيع عند الله عز وجل حين يقوم المقام المحمود؛ ليشفع في الخلق كلهم؛ لفصل القضاء بينهم، ويسجد تحت العرش ويدعو، لا يشفع

حتى يقال له: «**يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع**»(١).

قال ابن القيم(٢): «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له ظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشراكة والمظاهرة والشفاعة، التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة، لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «فَزَّع» بفتح الفاء والزاي بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بضم الفاء وكسر الزاي: ﴿فُزِّعَ﴾ بالبناء للمفعول.

أي: حتى إذا أزال الله الخوف ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، أي: عن قلوب الملائكة؛ كما دلت على ذلك السنة، وذلك أنه إذا تكلم الله بالوحي أخذت السموات منه رجفة من خوف الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا، فإذا زال الفزع عن قلوبهم ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ما الذي قاله ربكم؟ ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾، أي: قال القول الحق؛ أي: القول الثابت والصدق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، أي: العلي فوق خلقه بذاته وصفاته، ذو العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته، ذو الكبرياء الذي هو أكبر من كل شيء، وكل المخلوقات بالنسبة له ليست بشيء.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٥.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة- أو قال: رعدة شديدة- من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فيقولون كلهم مثل ما قاله جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمر الله من السماء والأرض**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر من السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان، فإذا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فيستمع مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- ووصف سفيان بيده فحرّفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة، فيلقي إلى من تحته، ثم يلقي الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة، التي سمعت من السماء**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ هذه الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم: فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن، فيرمون، فما**

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد ص٩٥، والطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٢٧٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٧٠١، وأبو داود في الحروف ٣٩٨٩، والترمذي في تفسير سورة سبأ ٣٢٢٣، وابن ماجه في المقدمة ١٩٤.

جاؤوا به على وجهه، فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق**»(٢).

وقيل: الضمير في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ يعود إلى المشفوع لهم؛ أي: حتى إذا زال الفزع والخوف من العذاب من قلوب المشفوع لهم بعد الإذن بالشفاعة لهم، ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ما الذي قال ربكم؟ ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾، أي: قال القول الحق؛ أي: أذن بالشفاعة.

وقيل: معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾، أي: حتى إذا كشف الغطاء عن قلوب الكفار والمشركين يوم القيامة، وتجلى لهم الأمر وزال ما كان على قلوبهم من الرين والغفلة ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾، فقيل لهم: ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له؛ أي: قل لهؤلاء المشركين وغيرهم ممن يعبدون غير الله: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، الاستفهام: للتقرير المشرب بالتحدي؛ أي: من الذي ﴿يَرۡزُقُكُم﴾، أي: يعطيكم ويمنحكم الرزق ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بإنزال المطر وغير ذلك، وتقدير الرزق؛

---

(١) أخرجه مسلم في السلام، تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٢٢٢٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢٤، وأحمد ١/ ٢١٨.
(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٨.

كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾[الذاريات: ٢٢].

﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بإخراج الزرع منها والنبات والمعادن، وكثير من الخيرات.

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، أي: قل الله الذي يرزقكم من السموات والأرض، وبادر بإجابتهم بنفسه؛ لأنهم يقرون ويعترفون بأن الله هو الرزاق لهم وحده، ولا ينكرون ذلك؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: ٣١].

أي: قل الله يرزقكم من السموات والأرض، فلم تعبدون من دونه من لا يملك لكم رزقًا؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾[النحل: ٧٣].

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا من باب التنزل والتلطف معهم في الخطاب؛ ليقروا، ولثقته أنه ومن معه على الحق والصواب، وأن المشركين على الباطل؛ ولهذا قال: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وقال: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ لأن المهتدي مستعلٍ بهداه، بينما قال: ﴿أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ لأن صاحب الضلال منغمر في ضلاله، تائه حائر.

والكلام من باب اللف والنشر؛ أي: لا نخرج عن إحدى هاتين الحالتين: إما الهدى، وإما الضلال، ولا يمكن أن نكون كلنا على الهدى، ولا كلنا على الضلال؛ لتناقض ما بيننا، فلم يبق إلا أن نكون نحن على هدى، وأنتم في ضلال مبين، أو أنتم على هدى، ونحن في ضلال مبين، وليس هناك سبيل ثالث.

ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك، وظهر أننا نحن الذين على الهدى والحق، وأنتم الذين في ضلال مبين، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ «ما» في الموضعين موصولة.

والجرم والإجرام بمعنى: الذنب؛ أي: لا تسألون عن الذي وقعنا فيه من الإجرام والذنوب، بل نسأل عنها وحدنا.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: ولا نسأل عن الذي تعملونه من إجرام أو غيره، بل تسألون عن ذلك وحدكم، فكل يُسأل عما اكتسب من جرم أو غيره؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١] وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لكن من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا؛ كما أن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا؛ كما قال ﷺ(١).

وفي التعبير بقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الغضاضة على النفس والتنزل مع الخصم أشد مما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وذلك أولًا: من حيث اللفظ؛ ففي قوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ جاء التعبير بفعل الماضي «أجرمنا»، الدال على الوقوع، بينما جاء التعبير في قوله: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالمضارع «تعملون»، والمضارع قد يقع وقد لا يقع.

وثانيًا من حيث المعنى: فإن قوله: ﴿أَجْرَمْنَا﴾ وصف لعملهم بأنه إجرام، بينما قال بالنسبة للخصم ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: عما تجرمون. والعمل قد يكون إجرامًا، وقد يكون غير إجرام.

والمراد: أننا ندعوكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، أي: يوم القيامة، يوم يجمع الله الخلائق كلهم في صعيد واحد.

﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة؛ أي: ثم يقضي ويفصل ويحكم بيننا بالعدل، فيجزي كلًّا منا بعمله، خيرًا كان أو شرًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤- ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦- ٨].

ويحتمل أن يكون الجمع في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ في الدنيا أيضًا، في القتال، والفتح بينهم بالحق بنصر أوليائه وهزيمة أعدائهم؛ كما حصل في بدر وغيرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[الأنفال: ٤١]، ولا تنافي بين المعنيين.

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الذي يفتح بين عباده بالحق، ويفصل بينهم بالعدل، ويفتح لهم أبواب الرحمة والتوفيق والبركات والخيرات والنصر والعلم والفهم وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦].

وقال ﷺ في حديث الشفاعة: «**ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي**»(١).

﴿الْعَلِيمُ﴾، أي: ذو العلم الواسع بخلقه وبأعمالهم وأحوالهم، وبكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[طه: ٩٨].

﴿قُلْ أَرُونِيَ﴾ الأمر للتعجيز والتحدي، ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾، أي: الآلهة الذين ألحقتموهم بالله، وجعلتموهم شركاء معه في العبادة؛ أي: هاتوهم وأحضروهم،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأروني وأعلموني: ماذا خلقوا؟ وماذا قدموا لكم من نفع؟ وماذا دفعوا عنكم من ضر؟

﴿كَلَّآ﴾: كلمة ردع وزجر؛ أي: ليس له شريك ولا نظير، ولا يملك الشركاء من دونه لا نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠- ٢١]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل هو الله وحده المعبود، لا شريك له.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ذو العزة والقوة، والقهر والغلبة والامتناع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ذو الحكم التام، والحكمة البالغة في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾.

لما أبطل ما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله، وأثبت الألوهية لله وحده، أتبع ذلك بإثبات صدق الرسول ﷺ، وإبطال طعنهم في رسالته.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، «إلا»: أداة حصر؛ أي: وما أرسلناك إلا للناس كافة؛ أي: إلا للناس جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

وقال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»(١).

وقال ﷺ: «**بعثت إلى كل أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين والعصاة من النار.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم عند الله، وما في رسالتك من البشارة والإنذار؛ ولهذا ضل أكثرهم، ولم يؤمنوا.

ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول المشركون المكذبون للرسول ﷺ، ولما جاءهم به من الحق من إثبات البعث، والتبشير للمؤمنين، والإنذار للمكذبين، وغير ذلك؛ استبعادًا لذلك، وإنكارًا له، وتكذيبًا به.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الاستفهام للإنكار والتحدي؛ أي: متى يأتي هذا الوعد بالعذاب الذي تتوعدوننا به؟

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن العذاب سيحل بنا، وأن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصافات: ١٧٦- ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: ٣٤- ٣٦].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾، أي: لكم وعد يوم مؤجل محدد معين، لعذابكم في الدنيا، أو عند الموت، أو يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ

=

وأخرجه أحمد ٤/ ٤١٦؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، و٥/ ١٤٥، ١٤٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، السين والتاء في الفعلين للمبالغة؛ أي: لا تستطيعون التأخر عنه ساعة، ولا التقدم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

وفي الآية تهديد لهم ووعيد ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

ولهذا قدَّم قوله: ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ﴾ إيماء إلى أنه ميعاد بأس وعذاب؛ من شأنه أن يتمنوا تأخيره.

الفوائد والأحكام:

١- إبطال ما عليه المشركون من عبادة غير الله، وتحديهم أن تستجيب هذه الآلهة لدعائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

٢- أن هذه الآلهة المدعوة من دون الله لا تستحق شيئًا من العبادة بوجه من الوجوه، فهم لا يملكون شيئًا لأنفسهم ولا لغيرهم، وما لهم أيّ شرك في الملك مع الله، وما له منهم أيّ معين، ولا يشفعون عنده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

٣- إثبات تفرده عز وجل وحده بالملك، بلا شريك، ولا معين، ولا شفيع إلا بإذنه، وقطع كل سبب يتعلق به المشركون، حتى دعوى شفاعة هذه الآلهة لهم.

٤- إثبات الشفاعة بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

٥- إثبات عظمة الله تعالى وقوة سلطانه، فلا أحد يشفع، بل ولا يتقدم للشفاعة إلا بإذنه ورضاه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٦- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه يتكلم بكلام مسموع تسمعه الملائكة، ومن شاء

من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾.

وفي الحديث: «**إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة**- أو قال: **رعدة شديدة- فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا**»(١).

٧- عظمة كلامه عز وجل؛ حيث ترجف له السموات، ويصعق أهلها.

٨- أن قوله عز وجل كله حق، وعدل وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه، والعامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾.

١٠- إثبات وجود الملائكة، وشدة خوفهم من الله، وسماعهم لكلام الله، وفهمهم وعقلهم له، وأنهم يتكلمون؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

١١- إثبات اسم الله تعالى: «العلي»، وأنه عز وجل عالٍ فوق خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، فله عز وجل علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

١٢- إثبات اسم الله: «الكبير»، وأنه الكبير بذاته وصفاته، له الكبرياء وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾.

١٣- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية الذي يعترفون به؛ لإلزامهم بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾.

١٤- أن مِن لازم الإقرار لله بالربوبية: الإقرار له بالألوهية، والانقياد له.

١٥- أن الرزق من أبين مظاهر ربوبية الله تعالى للناس بعد خلقهم؛ ولهذا استدل به في الآية، ومثل به، وجاء هذا كثيرًا في القرآن.

١٦- أن المشركين يعترفون بأن الرازق هو الله وحده، وهم مع ذلك يعبدون من دونه من لا يملك لهم رزقًا؛ ولهذا أجاب عنهم في الآية بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، أي: فلم

---

(١) سبق تخريجه.

تعبدون غير الله، وأنتم تقرون بأنه وحده الرازق لكم؟!

١٧- التنزل مع الخصم والتلطف معه؛ ليقر بالحق ويعترف به؛ لقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وإلا فالحقيقة أنه ﷺ يعلم أنه هو وأصحابه هم الذين على الحق، وأن الكافرين في ضلال مبين.

١٨- أنه لا يسأل أحد عن عمل غيره، ولا تزر وازرة وزر أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾.

١٩- إثبات السؤال عن العمل، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، ومحاسب عليه، خيرًا كان أو شرًّا؛ لمفهوم قوله: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف: ٦].

٢٠- تحمل الغضاضة والتنزل مع الخصم من المكذبين وغيرهم؛ للوصول إلى المقصود؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾.

٢١- إثبات البعث، والجمع بين الخلائق بالحق يوم القيامة، والفصل بينهم بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لكل من يخاصم ويناظر بالباطل، من المشركين وغيرهم، وبشارة ووعد لمن هم على الهدى والحق.

٢٢- أن حكم الله تعالى كله حق، وقضاءه كله عدل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الفتاح»، وصفة الفتح، وأنه سبحانه يفتح على من يشاء من عباده ما يشاء من أسباب التوفيق، وأبواب الرحمة والخيرات، من النصر والعلم والفهم والبر والبركات وغير ذلك؛ كما يفتح بين العباد بالفصل بينهم يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾.

٢٤- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ دلالة على أن أسماء الله تعالى إذا ذكرت وكانت متعدية؛ كالفتاح، والغفور، والرحيم، وغير ذلك يؤخذ منها إثبات الاسم وما تضمنه من الصفة والحكم والأثر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ

رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨]، وغير ذلك.

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وأنه عز وجل ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٦- تحدي المشركين أن يحضروا آلهتهم الذين جعلوهم شركاء مع الله، وعبدوهم من دون الله، وماذا خلقوا؟ وماذا قدموا لهم من نفع، أو دفعوا عنهم من ضر؟ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾.

٢٧- ردع المشركين وزجرهم في إلحاقهم شركاء مع الله، ونفي أن يكون له شريك أو نظير؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾.

٢٨- إثبات اسم الله: «العزيز»، وصفة العزة له عز وجل بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله: «الحكيم»، وأنه سبحانه ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣٠- إثبات رسالة النبي ﷺ، وعمومها لجميع الناس، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وتفضيله على الأنبياء بعموم رسالته، والرد على منكري رسالته من العرب وغيرهم، وعلى منكري عمومها من أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

٣١- أن الحكمة من إرساله ﷺ- كغيره من الرسل- البشارة للمؤمنين بالجنة، والإنذار للكافرين والعصاة من النار، وإقامة الحجة على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥].

وليس إليه أمر إنزال الآيات، ولا هداية القلوب، فذلك إلى الله عز وجل.

٣٢- أن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من إرسال الرسول ﷺ، بل لا يعلمون حقيقة العلم الذي ينفعهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على جهل وضلال.

٣٣- استعجال المشركين لِما توُعِّدوا به من العذاب في الدنيا والآخرة؛ استبعادًا

لذلك، وإنكارًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

٣٤- تكذيبهم للرسل عليهم السلام؛ لقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٣٥- تهديدهم بالعذاب، وأن له ميعاد يوم مؤقت، لا يتأخر ولا يتقدم، سواء كان عذاب الدنيا، أو عذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٣٦- إثبات المعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

٣٧- أن كل شيء عند الله عز وجل بميعاد، وبمقدار، وأجل مسمى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ متمادين في كفرهم وطغيانهم وعنادهم وتكذيبهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أي: لن نصدق بهذا القرآن، وبما جاء به من أمر المعاد وغير ذلك، وعبروا بـ«لن» الدالة على تأكيد النفي، ولم يقولوا: «لا نؤمن بهذا القرآن»؛ تأكيدًا على انتفاء حصول الإيمان منهم به في المستقبل، وأشاروا إليه بقولهم: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ تحقيرًا له، ﴿وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي؛ أي: ولا نؤمن؛ أي: ولا

نصدق بالذي تقدمه من الكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل والزبور.

ويحتمل أن يكون المراد بالذي بين يديه: ما يأتي بعده مما أخبر به، ومما ينزل منه بعد مقالتهم هذه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ «لو»: شرطية غير جازمة؛ أي: ولو ترى يا محمد ويا أيها الرائي والمشاهد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: الكافرون المشركون، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين».

وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بوصف الظلم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: محبوسون في موقف الحساب عند ربهم، وجواب الشرط محذوف؛ أي: لرأيت أمرًا عظيمًا فظيعًا.

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾، أي: يرد بعضهم إلى بعض القول، يلقي كل منهم التبعة على الآخر، وقد فصله بقوله:

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم، وهم الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم قادتهم وسادتهم وكبراؤهم.

﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ «لولا»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع؛ أي: لولا أنتم صددتمونا عن الإيمان، وأضللتمونا، وزينتم لنا الكفر.

﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ اللام: رابطة لجواب الشرط؛ أي: لكنا مؤمنين مصدقين بما جاءت به الرسل من الحق، منقادين له. ومقصودهم بذلك: أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ ردوا عليهم القول منكرين قولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ الاستفهام للإنكار والنفي؛ أي: لسنا الذين صددناكم عن الهدى حين جاءكم بقوتنا وقهرنا إياكم، وما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاخترتم الكفر واتبعتمونا، بلا برهان ولا دليل.

﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل كنتم بأنفسكم قومًا مجرمين، مختارين الإجرام، متعمدين له بالشرك والكفر، واتباع شهواتكم. والإجرام: ارتكاب الجرائم؛ أي: الذنوب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ «بل»: للإضراب؛ أي: بل صدنا عن الهدى مكركم بنا الليل والنهار؛ أي: احتيالكم علينا، وكيدكم وتدبيركم الشر لنا بالليل والنهار، وخديعتكم لنا.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ تفسير وبيان للمكر، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين»؛ أي: حين تأمروننا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ «أن» والفعل «نكفر» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف؛ أي: إذ تأمروننا بالكفر بالله.

والكفر بالله يكون بإنكار وجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، أو التكذيب بشيء من ذلك.

﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، أي: ونصير له أشباهًا ونظراء بشبه توردونها علينا تضلوننا بها. وفي هذا دلالة على أنهم يؤمنون بوجود الله وربوبيته، لكنهم يشركون به.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، أي: وأسر الفريقان السادة المستكبرون، والأتباع المستضعفون؛ أي: أخفوا في أنفسهم الندامة والحسرة على كفرهم؛ لئلا يظهر للناس أنهم نادمون على ما صنعوا، فيعيبوهم ويعيروهم بذلك، على حد قول أبي ذؤيب الهذلي(١):

وتجلدي للشامتين أريهمُ ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

وقول الآخر:

كل المصائب قد تمر على الفتى ... وتهون غير شماتة الأعداء(٢)

﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: حين أبصروا العذاب وشاهدوه، وأيقنوا أن لا خلاص لهم منه ولا مناص.

وقد يظهر منهم التحسر في بعض مواقف القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١٠- ١١]؛ ولهذا فسر بعضهم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ بمعنى: أظهروا، واعتبروا الفعل «أسرَّ» من

---

(١) انظر: «ديوان الهذليين» ١/ ٣، «نهاية الأرب» ٣/ ٧٢.

(٢) البيت أنشده ابن الأعرابي؛ كما في «الكشف والبيان» ٢/ ٣٠٩، ونسب في «محاضرات الأدباء» ١/ ٣١٤ لابن أبي عيينة.

الأضداد يأتي بمعنى «أخفى»، وبمعنى «أظهر».

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «الأغلال»: جمع «غُلّ» وهي السلاسل، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم الفريقان: المستكبرون المتبوعون، والضعفاء التابعون، ولم يقل: وجعلنا الأغلال في أعناقهم، للتسجيل عليهم بالكفر؛ أي: وصيرنا الأغلال في أعناق الذين كفروا إهانة وتعذيبًا لهم، حيث تربط أيديهم إحداهما بالأخرى وتعلق في رقابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: ٧١].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الاستفهام: للنفي؛ أي: لا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: موصولة؛ أي: إلا الذي كانوا يعملونه، أو مصدرية؛ أي: إلا عملهم؛ أي: جزاء عملهم، ولا يُظلم أحد منهم، فللقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع عذاب بحسبهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ولم يقل: إلا جزاء ما كانوا يعملون، بل قال: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾:

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ بما جاء به من الوعيد، وتكذيبهم بالقرآن، وتوعدهم، أتبع ذلك بتسليته ﷺ ببيان أنه ما أرسل في قرية من نذير إلا كذبه مترفوها، وكفروا بما جاءهم به.

قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ «قرية»: نكرة في سياق النفي، فتعم؛ أي: وما أرسلنا في أيِّ قرية من القرى السابقة، والقرية: البلد، صغيرًا كان أو كبيرًا، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣] فسمى مكة، وهي أم القرى وأكبرها آنذاك.

﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: أيِّ نذير؛ أي: رسول ينذرهم ويحذرهم عذاب الله في الدنيا والآخرة.

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا قال أهل الترف والمنعمون فيها لرسلهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الجملة في محل نصب مقول القول، و«بما»: متعلق بالخبر: «كافرون»، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر- كأنهم يقولون: لا نكفر إلا بالذي أرسلتم به- مع مراعاة الفواصل.

ومعنى ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له، لا نؤمن به ولا نتبعه.

وإنما يتفوَّه بهذا المترفون والكبراء وأولو النعمة؛ أشرًا وبطرًا منهم؛ كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٦].

وقال تعالى: ﴿* قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، وقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[هود: ٢٧].

وقال المستكبرون من قوم صالح عليه السلام، لمن آمن من المستضعفين منهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥- ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «أأشراف الناس اتبعوه- يعني النبي ﷺ- أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل»(١).

﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال المترفون مفتخرين على من دونهم:

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾، أي: أكثر أموالًا وأولادًا ممن آمن.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنه لا بعث ولا حساب ولا عذاب، وأيضًا فعلى سبيل الفرض لو كان هناك بعث فلن نعذب، بل سننعم كما نعمنا في الدنيا.

فاغتروا بكثرة أموالهم وأولادهم، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم، ورضاه عنهم، وأنهم على حق، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ [المدثر: ١١- ١٧].

وقال تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢﴾ [الكهف: ٣٥- ٤٢].

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المترفين الذين يفتخرون بأموالهم وأولادهم: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: يوسع الرزق، وهو العطاء؛ ابتلاء وامتحانًا للذي يشاء من عباده من مؤمن وكافر، ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أي: ويضيق الرزق والعطاء على من يشاء منهم، وله في ذلك الحكمة البالغة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾ [الإسراء: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

ومن أعظم الحكم في ذلك: الابتلاء والامتحان؛ كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ومن ذلك أن الله يختار للعبد ما هو أصلح له، فمن الناس من لا يصلحه إلا الغنى، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر.

ومن ذلك قيام مصالح الخلق، فلو كان الناس كلهم على حد سواء في الغنى والفقر لم يخدم بعضهم بعضًا، ولا قام بعضهم بمصالح بعض؛ كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الزخرف: ٣٢].

قال الشاعر:

جل من قسّم الحظوظ فهذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا(١)

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك، والحكمة فيه؛ ولهذا يعتقد كثير منهم أن بسط الرزق دليل على محبة الله ورضاه، وأن تضييقه دليل على عدم محبته ورضاه، والصحيح: أن ذلك خاضع لمشيئته عز وجل وحكمته، ولا ارتباط له بمحبته ورضاه، أو عدم ذلك، فإنه عز وجل يهب الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يهب الدين إلا لمن أحب؛ ولهذا قال ﷺ: «**قد أفلح من رزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»(٢).

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ التي تفتخرون بها، ﴿بِالَّتِي﴾ الباء: زائدة لفظًا، مؤكدة من حيث المعنى ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾، أي: تدنيكم عندنا منزلة ودرجة وقربى؛ أي: ليست دليلًا على محبتنا لكم، ورضانا عنكم، بل قد تكون سببًا لفتنتكم وبُعدكم عنا.

﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الاستثناء: منقطع، «من»: موصولة؛ أي: لكن الذي آمن وعمل عملًا صالحًا هو القريب عندنا؛ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح.

وإذا جعل الضمير في قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ لجميع الناس، كان الاستثناء متصلًا.

---

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، الكفاف والقناعة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ روى رويس: «جَزَاءً» بالنصب على الحال مع النصب، وكسره وصلًا، ورفع «الضِّعْفُ» بالابتداء، وقرأ الباقون برفع: ﴿جَزَآءُ﴾ من غير تنوين، وخفض ﴿ٱلضِّعۡفِ﴾: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ على الإضافة، من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: فأولئك الذين آمنوا وعملوا صالحًا لهم الثواب المضاعف، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية أو موصولة؛ أي: بسبب عملهم، أو بسبب الذي عملوه.

﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الراء من غير ألف على الإفراد: «الغُرْفَةِ»، وقرأ الباقون بضمها مع الألف على الجمع: ﴿ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾، وهي: جمع «غرفة»، وهي: المنازل العالية الرفيعة في الجنة، والغرفة: المنزل العالي، والحجرة: المنزل في الأرض.

﴿ءَامِنُونَ﴾، أي: مطمئنون آمنون من الموت، ومن الخروج منها، ومن كل بأس وخوف وأذى، ومن المكدرات والمنغصات من الحزن والغل والمرض وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [العنكبوت: ٥٨] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: ٣٤- ٣٥]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر، تحريم ظلم المسلم ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٣، وأحمد ٢/ ٥٣٩.

تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾[الحجر: ٤٧].

عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لغرفًا ترى ظاهرها من بطونها، وبطونها من ظهورها**»، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام**»(١).

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾.

لما ذكر جزاء المؤمنين وما أعد لهم من السكن الطيب والنعيم في الأرض، أتبع ذلك بذكر ما أعد لغيرهم من العذاب، جمعًا بين الوعد والعيد، والترغيب والترهيب، وهذا كقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥].

أي: والذين يسعون جاهدين على وجه التعجيز لنا، والتكذيب في آياتنا ورسلنا، والصد عن ديننا، ظانين أنهم سيفوتوننا ويعجزوننا.

﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ خبر المبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿مُحْضَرُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ لزيادة التهديد والوعيد والتحذير؛ أي: تحضرهم الزبانية إلى جهنم.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أعاد هذا- والله أعلم- ليرتب عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

ولما كان هذا الثاني موجهًا للمؤمنين، أشير إلى تشريفهم بزيادة قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي: المؤمنين، وضمير «له» عائد إلى «من».

قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و«شيء» نكرة في سياق النفي فتعم أيضًا؛ أي: وما أنفقتم من أيِّ شيء، قليلًا كان أو كثيرًا، من النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كالصدقات، والهدايا، ونحو ذلك، والنفقات المباحة.

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و﴿يُخْلِفُهُ﴾ من «أخلف» الرباعي؛

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٠٩، ونسبه لابن أبي حاتم.

أي: أعطى الخُلف، وليس من «خَلَف» الثلاثي، بمعنى خلف غيره؛ أي: فهو عز وجل يأتي بخلفه، ويعطيكم ما يخلف عنه كمية بأن يزيد في أموالكم وأرباحها، وكيفية بأن يبارك لكم في أموالكم، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(١). وقال ﷺ: «**أنفق ينفق عليك**»(١). وقال ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يناديان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»(١).

فلا ينبغي أن يتوهم المنفق في الوجوه المشروعة أن الإنفاق ينقص الرزق؛ لأن الله عز وجل وعد المنفقين بالخلف؛ قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فالأرزاق كلها منه وبيده، فيجب طلب الرزق منه، والتوكل عليه، مع بذل الأسباب.

وجمع «الرازقين»؛ لأن المخلوق قد يكون سببًا للرزق، فيسمى بهذا الاعتبار: رازقًا، وإلا فإن الرازق في الحقيقة هو الله تعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾:

قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾، أي: واذكر يوم القيامة، يوم يحشر الله الخلائق ويجمعهم جميعًا، ويحشر المشركين وآلهتهم التي عبدوها من دون الله من الملائكة وغيرهم، في ذلك اليوم العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠].

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على وجه التقريع لمن عبدوهم من دون الله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين الذين يزعمون أنهم كانوا يعبدون

---

(١) سبق تخريجه.

الملائكة؛ أي: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم.

كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا وتقديسًا لك عن النقص، وعن مشابهة المخلوقين، ومن أن يكون لك شريك، لا منا ولا من غيرنا.

كما قال عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦].

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ أي: أنت وحدك ولينا: ربنا وإلهنا، ولا موالاة بيننا وبينهم، ونحن عبيدك مفتقرون إليك، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح أن نُتخذ من دونك أولياء وشركاء؟

﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل كان هؤلاء المشركون، ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، أي: يعبدون الشياطين ويطيعونهم؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة غير الله، ويضلونهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي قال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

ولهذا حذر عز وجل بني آدم من عبادة الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[يس: ٦٠- ٦١].

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، أي: أكثر المشركين بالجن ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾، أي: مصدقون بهم، يصدقونهم فيما يقولون، وينقادون لهم، ويعوذون بهم، ويعتقدون فيهم جلب

---

(١) سبق تخريجه.

النفع ودفع الضر؛ كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لأن منهم سادة وأتباعًا، فالسادة مصدقون للجن، والأتباع مقلدون لسادتهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ «ال»: للعهد الذكري؛ أي: اليوم المذكور في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الخطاب للمشركين ومعبوداتهم من الجن وغيرهم، ﴿نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا يقدر بعضكم أن يقدم لبعض نفعًا، من شفاعة ولا غيرها، ولا يدفع عنه ضرًّا برفع العذاب، وتتقطع بكم الأسباب، فلا المعبود المؤمل فيه النفع ينفع عابده؛ كما أن العابد لا ينفع معبوده؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: معطوف على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾، أي: واليوم نقول للذين ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ أي: بشرك.

أي: ونقول لهم؛ تبكيتًا وتقريعًا وتوبيخًا وإهانة لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، أي: تجرعوا عذاب النار وقاسوه، وأحسوا بالألم الشديد.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: ونقول لكم، بل قال: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ للتسجيل عليهم بالظلم، وليعمهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: في الدنيا بقولكم: لا بعث، ولا حساب، ولا عذاب، ولا جنة، ولا نار؛ كما قال في سورة السجدة: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو كفار مكة وعنادهم؛ لنفيهم أن يؤمنوا بالقرآن، ولا بالذي بين يديه،

لا في الحال، ولا في الاستقبال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾.

٢- تقليلهم من شأن القرآن، وتحقيرهم له؛ لقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، ولم يقولوا: «لن نؤمن بالقرآن»، بل قالوا: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فأشاروا إليه بإشارة القريب تحقيرًا وانتقاصًا له.

٣- كفرهم بالكتب السابقة، وتماديهم بالطغيان؛ لقولهم: ﴿وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ لأن هذا يحتمل نفيهم الإيمان بما سبق القرآن من الكتب، ويحتمل نفيهم الإيمان بما يأتي مما أخبر به، ومما لم ينزل بعد منه.

٤- شدة حال الكافرين والظالمين المكذبين عند وقوفهم عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، أي: لرأيت أمرًا عظيمًا، وهولًا جسيمًا.

٥- إثبات البعث والحشر، والوقوف بين يدي الله تعالى، والحساب والجزاء بالعذاب أو الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ الآية، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

٧- تَرَادُّ الظالمين والكفرة القول بينهم، واتهام الأتباع منهم للمتبوعين، بأنهم هم الذين حالوا بينهم وبين الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾.

٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ فهم سبب كفرهم وضلالهم، لكنهم لا يعذرون بهذا؛ لقيام الحجة عليهم بمجيء الهدى إليهم، مع ما أعطاهم الله من العقول والقدرة والاختيار.

٩- تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، وإنكارهم أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الهدى، وأنه إنما صدهم عن ذلك كونهم مجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ

ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٠- إقرارهم بمجيء الهدى إليهم، ولكن في وقت لا ينفعهم ذلك؛ لقولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾.

١١- مكر المستكبرين الكبَّار بالمستضعفين، وجرأتهم على أمرهم بالكفر بالله، وجعل الأنداد والشركاء له؛ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

١٢- وجوب الحذر من المستكبرين ودعاة الكفر والشرك والضلال؛ لأنهم سبب للحيلولة بين الإنسان وبين الإيمان والهدى، ووقوعه في الكفر والشرك والردى، وزعيمهم في ذلك إبليس الذي أخرج الأبوين من الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[الأعراف: ٢١- ٢٢].

ولهذا حذرنا الله منه ومن جنوده وذريته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

١٣- تقطع الأسباب بالكفار يوم القيامة، من الأتباع والمتبوعين والأخلاء، وتبرؤ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦- ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٤- إسرارهم الندامة والحسرة على كفرهم في أنفسهم يوم القيامة؛ خوف الخزي والفضيحة حين رؤيتهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

١٥- أن الندم لا ينفع عند معاينة العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

١٦- الجمع للكفار بين العذاب والإهانة؛ بربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال؛

لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٧- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ولا يجازى أحد إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فالمؤمنون يجازون بالفضل، والكفار يجازون بالعدل، ولا يظلم ربك أحدًا.

١٨- إرسال الرسل إلى جميع الأمم وأهل القرى؛ إعذارًا وإنذارًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

١٩- أن من حكمة إرسال الرسل: الإنذار والتحذير من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾، أي: من رسول ينذر من عصى منهم عذاب الله، ومن لازم ذلك أن يبلغهم رسالة الله، وأوامره ونواهيه، ويبشر من أطاع منهم بثواب الله.

٢٠- تكذيب المترفين في كل قرية للرسل، وكفرهم بما أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

٢١- التحذير من الترف؛ لأنه يحمل على الأشر والبطر والاستكبار، والطغيان ورد الحق، وعدم الإيمان بالرسل.

٢٢- اغترار المترفين وافتخارهم على غيرهم بكثرة أموالهم وأولادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾.

٢٣- أن كثرة الأموال والأولاد من أسباب الافتتان، ومما يحمل على الطغيان.

٢٤- نفيهم أن يعذبوا؛ زعمًا منهم أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، أو أنهم إن كان ثمة بعث فسينعَّمون في الآخرة كما نُعِّموا في الدنيا؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى﴾.

٢٦- حكمة الله تعالى البالغة في توسيع الرزق لمن يشاء من عباده، وتضييقه على من

يشاء، وأنه لا دلالة في ذلك على رضا الله ومحبته، أو عدم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾.

٢٧- أن الرزق كله بيد الله، ومنه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فيجب طلب الرزق منه وحده مع بذل الأسباب.

٢٨- إثبات الأفعال الاختيارية والمشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ﴾، وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾.

٢٩- أن كثيرًا من الناس يجهلون حقيقة ما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم؛ كما يجهلون حكمة الله في توسيع الرزق وتضييقه بمشيئته، وأنه لا ارتباط له برضا الله ومحبته، أو عدم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٣٠- نفي أن تكون كثرة الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله زلفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٧- ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر: ١١- ١٧].

٣١- أن الذي يقرب إلى الله تعالى زلفى هو الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٣٢- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح، وكون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٣٣- أن الذي يقربه ماله وولده إلى الله هو من آمن وعمل صالحًا، فعمل بالمال وفق شرع الله، وربى أولاده على طاعة الله؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

ولهذا قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم**

ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(١).

٣٤- مضاعفة جزاء وثواب من آمن وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ الآية.

٣٥- علو منازلهم ومساكنهم في الجنة، وأمنهم فيها من جميع المخاوف: من الموت، ومن المرض، ومن الهرم، ومن انقطاع النعيم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف: ٤٣]»(٢).

٣٦- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة ومضاعفة الأجور، والتنعم بمنازلها العالية والأمن فيها، وليس عوضًا عن ذلك، كما يقول المعتزلة.

قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة**»(٣).

٣٧- الوعيد والتهديد للذين يسعون في آيات الله معاجزين؛ لإبطالها، مغالبين لله، بأنهم لن يفلتوا من عقابه، وسيُحضرون في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٣٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

٣٩- الترغيب بالإنفاق والحث عليه؛ لوعده عز وجل للمنفقين بضمان خلف ما

---

(١) أخرجه مسلم في التوحيد، ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى، تمني المريض الموت ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة، لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنفقوه من قليل أو كثير في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾.

٤٠- أنه يجوز أن يطلق على من كان سببًا في الرزق من المخلوقين أنه «رازق»، وإن كان الرزق كله من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

٤١- التذكير بيوم القيامة يوم الحشر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾.

٤٢- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الآية.

٤٣- إثبات وجود الملائكة، ومخاطبته عز وجل لهم، وتكليمهم له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية.

٤٤- تنزيه الملائكة لله عز وجل، وتقديسهم له أن يكون له شريك لا منهم ولا من غيرهم، وتبرؤهم من المشركين ومن عبادتهم لهم؛ لقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

٤٥- إثباتهم ولاية الله تعالى وربوبيته لهم دون سواه؛ لقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾.

٤٦- عبادة المشركين للجن والشياطين بطاعتهم لهم، باتخاذ الأنداد والشركاء مع الله، وتصديقهم والانقياد لهم، واعتقادهم أنهم يقدرون على جلب النفع، ودفع الضر؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾.

٤٧- إثبات وجود الجن، وهم عالم غيبي خلقوا من نار؛ لقوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾، فيجب الإيمان بوجودهم، لكن لا تجوز عبادتهم.

٤٨- عدم قدرة المشركين ومعبوداتهم يوم القيامة على جلب نفع أو دفع ضر لبعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾.

٤٩- تقريع الظالمين وتبكيتهم؛ لتعذيب قلوبهم عذابًا معنويًّا مع ما هم فيه من العذاب الحسي في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

٥٠- تكذيب الظالمين بالبعث والحساب، وبالنار وعذابها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾:

لما ذكر ما أعده للظالمين من العذاب الحسي والمعنوي في النار، بيَّن استحقاقهم لذلك بسبب تكذيبهم الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وإذا تقرأ على هؤلاء الظالمين المكذبين.

﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: آيات القرآن الكريم واضحات، في ألفاظها ومعانيها وأحكامها وإعجازها، وأنها ليست من كلام البشر.

﴿قَالُوا۟﴾ تكذيبًا للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ يعنون النبي ﷺ، وأشاروا إليه بقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ كأنه قريب حاضر احتقارًا له، وتقليلًا لشأنه.

﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«يريد»، و«ما» موصولة، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ بصيغة الإنكار كأنهم لا يعرفونه.

أي: ما هذا إلا رجل يريد صرفكم عن الذي كان يعبده آباؤكم وأجدادكم من الآلهة، وليس مراده الصلاح لكم، ولا الهداية والإصلاح، وإنما يريد صرفكم عن دين آبائكم، فاتهموه ﷺ بسوء القصد، ولم يقولوا: «يصدكم عما كنتم تعبدون»، بل قالوا:

﴿يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ لإثارة الحمية والعصبية في نفوسهم؛ للتمسك بما عليه آباؤهم، ولو كان باطلًا؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣].

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾، أي: ما هذا القرآن، فطعنوا في الرسول ﷺ وفي قصده، وطعنوا في القرآن.

و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾، أي: كذب بنفسه، ﴿مُّفْتَرًى﴾، أي: مختلق؛ أي: أنه ﷺ اختلقه من عند نفسه، وافتراه وتقوله على الله، وليس فيه شيء من الصدق، وليس من عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾[الطور: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وقالوا»، بل قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لتسجيل الكذب عليهم، وليشملهم الوصف بالكفر هم وغيرهم ممن سلك سبيلهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[الذاريات: ٥٢].

أي: وقال الذين كفروا للحق، وهو القرآن حين جاءهم من عند الله تعالى على لسان الرسول ﷺ.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «إن»: نافية، بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هذا إلا سحر بيّن واضح ظاهر.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ الضمير يعود إلى مشركي العرب؛ أي: وما أنزلنا عليهم.

﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ «من» في الموضعين زائدة، من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما آتيناهم من أيّ كتب يقرؤونها؛ أي: لم نؤتهم أيّ كتاب يقرؤونه قبل القرآن.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، أي: وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد أيّ نذير.

أي: أن الله بعثه ﷺ في قوم أميين لا يقرؤون، ولم ينزل عليهم كتابًا قبل القرآن، ولم يرسل إليهم قبله ﷺ نذيرًا، وكانوا في أشد الحاجة إلى ذلك.

كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣]؛ ولهذا امتن الله عليهم بذلك فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

فكان الأليق بهم أن يفرحوا بإنزال القرآن، وبإرسالك إليهم، ويصدقوك، ويقبلوا ما جئت به، ولا يكذبوك، وقد كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]؛ أي: أهدى من غيرنا.

فالآية على هذا المعنى فيها توبيخ لهم على تكذيبهم له ﷺ وللقرآن.

ويحتمل أن المراد: أن هؤلاء المكذبين من قومك لم يستندوا في تكذيبهم لك ولما جئتهم به على وحي منا، لا على كتب أنزلناها عليهم يدرسونها، ولا على علم من نذر أرسلناهم إليهم، وإنما مستندهم الجهل المركب، والتقليد الأعمى لآبائهم.

ولا تنافي بين المعنيين.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ ولرسالته، أتبع ذلك بذكر تكذيب الذين من قبلهم لرسلهم، وعقابه إياهم، تسلية له ﷺ، وتهديدًا للمكذبين.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأمم؛ أي: كذبوا رسلهم، وما جاؤوا به من الحق من عند الله، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وفرعون، وغيرهم.

﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ «المعشار»: واحد من عشرة؛ أي: العشر، و«ما» موصولة؛ أي: وما بلغ المكذبون من قومك يا محمد عشر الذي آتينا أولئك الأقوام، من القوة والأموال والأولاد، وطول الأعمار؛ أي: ولم ينفعهم ذلك أو يدفع عنهم عذاب الله؛ ولهذا قال:

﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ إليهم؛ أي: كذبوهم بما أرسلتهم به من الحق، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ونكالي بهم، وانتصاري لرسلي؛

أي: ما أشد إنكاري عليهم، وعقابي إياهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢].

أي: وما دفع عنهم ما مكنوا فيه وما أعطوه من القوة والنعم عذاب الله، وما رده، بل دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لك، الزاعمين أنك مجنون.

﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ﴾ «إنما»: أداة حصر، ﴿أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ﴾، أي: آمركم بخصلة واحدة فقط؛ أي: ما آمركم- لتقريب شقة الخلاف بيننا وبينكم، وطي بساط

المناظرة- إلا بخصلة واحدة، وهي طريقة نصف: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ «أن» والفعل «تقوموا» في تأويل مصدر في محل جر بدل من «واحدة»، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي واحدة، والجملة صفة لواحدة.

﴿لِلَّهِ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: قيامًا خالصًا لله تعالى، وبحثًا عن الحق والصواب، من غير هوى ولا عصبية، ولا مراعاة لي، ولا لأحد من الخلق، والمراد بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾، أي: أن تثبتوا على شيء.

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ حال؛ أي: حال كونكم مثنى وفرادى؛ أي: اثنين اثنين فأكثر، وجماعات، وفردًا فردًا؛ أي: واحدًا واحدًا.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تتأملوا فيما بينكم مجتمعين، وكل فرد مع نفسه خاصة.

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما بصاحبكم محمد أيّ جنة كما تزعمون؛ كما في قولهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: ٨].

وفي قوله: ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ زيادة في التشنيع عليهم، والتوبيخ لهم، كيف يصفونه بالجنون والسحر ونحو ذلك وهو صاحبهم، يعرفون عقله وصدقه وأمانته؟! وكان الأجدر بهم أن يكونوا أول من يصدقه ويؤازره، ويؤمن بما جاء به.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يحتمل أن يكون معناه: نفي وإبطال قولهم؛ أي: ثم تتفكروا وتتأملوا أنه ما بصاحبكم من جنة.

ويحتمل أن المعنى: ثم تتفكروا وتتأملوا، فيظهر لكم أنه ما بصاحبكم من جنة، فيكون قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ نتيجة تفكرهم.

قال ابن القيم: «فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة، وفرادى إلى النظر والتفكر.

وكل منها ينقسم إلى محمود ومذموم؛ فالنظر المحمود: النظر في الطريق الصحيح؛ ليتوصل به إلى معرفة الحق.

والنظر المذموم نوعان: أحدهما النظر في الطريق الباطل- وإن قصد به التوصل إلى الحق- فإن الطريق الباطل لا يفضي إلى الحق.

والثاني: النظر والتفكر الذي يقصد به رد قول خصمه مطلقًا، حقًّا أو باطلًا، فهو ينظر نظرًا يرد به قول من يبغضه ويعاديه بأي وجه كان.

فأما المناظرة فتنقسم إلى محمودة ومذمومة، والمحمودة نوعان، والمذمومة نوعان، وبيان ذلك: أن المناظر إما أن يكون عالمًا بالحق، وإما أن يكون طالبًا له، وإما ألا يكون عالمًا به ولا طالبًا له، وهذا الثالث هو المذموم، وأما الأولان: فمن كان عالمًا بالحق فمناظرته التي تحمد: أن يبين لغيره الحجة التي تهديه، إن كان مسترشدًا طالبًا للحق، أو تقطعه أو تكسره إن كان معاندًا غير طالب للحق، ولا متبع له، أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق، إن كان يظن أنه على الحق وقصده الحق»(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

لَمَّا نفى أن يكون به ﷺ جنة كما زعموا، بيَّن لهم حقيقة أمره، فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هو ﷺ إلا نذير لكم، ينذركم ويحذركم عذاب الله؛ ولهذا قال:

﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ﴾، أي: قبل عذاب قريب في الدنيا والآخرة، في الدنيا كما حصل لهم في بدر وغيرها من القتل والسبي والأسر والإذلال، وفي الآخرة بعذاب النار، وهو آتٍ، وكل آتٍ قريب، ﴿شَدِيدٍ﴾ قوي شاق، لا يطاق.

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «**يا صباحاه**». فاجتمعت إليه قريش، قالوا: ما لك؟ قال: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم ويمسيكم، أما كنتم تصدقوني؟**»، قالوا: بلى. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(٢).

وعن بريدة رضي الله عنه، قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات،

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٨٠١، والترمذي في التفسير ٣٣٦٣.

فقال: «**أيها الناس، تدرون ما مثلي ومثلكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءى لهم، فبينما هم كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس، أُتِيتم، أيها الناس، أُتِيتم، ثلاث مرات**»(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

لما نفى ما زعموه من أن به جنة، وبيَّن لهم حقيقة أمره، وأنه إنما هو نذير لهم بين يدي عذاب شديد، أتبع ذلك ببيان أنه ما سألهم على ذلك أجرًا، فيستثقلوا المغرم، بل الأجر في ذلك لهم، وأجره على الله.

قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ «ما»: شرطية؛ أي: أيُّ أجر سألته منكم فهو لكم. أو موصولة؛ أي: الذي سألته منكم ﴿مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

و«من»: بيانية؛ أي: قل يا محمد للمكذبين لك: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري لكم، وتبليغي رسالة الله إليكم ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾.

والأجر هو: ما يعطى مقابل عمل أو استيفاء نفع؛ أي: لا أريد منكم مقابل ذلك أجرًا وجعلًا وعطاءً، فتعدون ذلك غرمًا مانعًا لكم من تصديقي واتباعي؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا على سبيل التنزل مع الخصم؛ أي: على فرض أني سألتكم أجرًا فهو لكم، علمًا أنه لم يسألهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما أجري وثوابي في تبليغكم رسالة ربي إلا على الله تعالى وحده.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٨.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: محيط بكل شيء، عليم به، مطلع عليه، يشهد على تبليغي رسالته إليكم، وعلى تكذيبكم إياي، وعلى جميع أعمالكم يحصيها ويحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «الغِيُوبِ» بكسر الغين، وقرأ الباقون بضمها: ﴿الْغُيُوبِ﴾.

أي: قل يا محمد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾، أي: يرمي بقوة بالقول الحق وحججه وبراهينه على الباطل فيمحوه ويزهقه؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨].

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ «علّام» على وزن «فعّال» صيغة مبالغة، وفيه دلالة على سعة علمه وإحاطته بالغيوب كلها على كثرتها، ودقة علمه فيها.

و«الغيوب»: جمع «غيب»؛ وهو: كل ما غاب عن الناس فلم يدركوه بحواسهم؛ في الحاضر والماضي والمستقبل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾[النمل: ٧٥].

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾، أي: الأمر الثابت والدين الحق الذي بعث الله به محمدًا ﷺ بالكتاب والسنة.

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ «الباطل»: ضد الحق، وهو الكفر، كذب في الأخبار، وظلم في الأحكام. والإبداء: الإتيان بالشيء ابتداء. والإعادة: الإتيان به مرة أخرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧].

ومعنى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: أن الباطل ينهار أمام قوة الحق، فلا يبدئ ولا يعيد، ولا يُقدم ولا يُؤخر، فلا يقوى على مقاومة الحق ولو لحظة، بل يزهق ويضمحل ويذهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١].

ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعنها بعود معه ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، ﴿جَاءَ

ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩][(١)].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾، أي: إن ضللت عن الحق كما تزعمون، وهذا من باب التنزل مع الخصم، وإلا فهو ﷺ يعلم أنه أهدى الناس، ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾، أي: فإنما إثم ضلالي على نفسي، وليس عليكم من ذلك من شيء.

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحق، ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية؛ أي: فبسبب الذي يوحيه إلي ربي، أو فبسبب وحي ربي إلي من القرآن والسنة، ففي ذلك الهدى والنور.

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

قال ابن القيم: «فهذا نص صريح في أن هدى الرسول إنما يحصل بالوحي، فيا عجبًا كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول والأقوال المضطربة، ولكن من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا.

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها إلى عقل فلان ورأي فلان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين»[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾، أي: إنه سميع مجيب لدعائي، ودعاء عباده، ذو السمع الواسع،

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٢٨٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٨١، والترمذي في التفسير ٣١٣٨، وأحمد ١/ ٣٧٧، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم بمعناه ١٧٨٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٠.

الذي يسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿قَرِيبٌ﴾ إلى عباده، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه؛ كما قال ﷺ في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «**أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، لكن تدعون سميعًا بصيرًا**»(١).

وفي رواية: «**إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على المشركين المكذبين للنبي ﷺ وما جاء به، بتلاوة آيات الله تعالى البينات عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾.

٢- شدة عتوهم وتكذيبهم له ﷺ، واحتقارهم له، واتهامهم إياه بسوء القصد، وأنه إنما يريد أن يصدهم عما يعبد آباؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

٣- تقليدهم آباءهم على جهل وضلال، وإثارتهم الحمية في التمسك بما هم عليه من الباطل وعبادة غير الله؛ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

٤- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾.

٥- تكذيبهم القرآن، وزعمهم بأن الرسول ﷺ اختلقه من عند نفسه وافتراه على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

٦- زعمهم أن ما جاءهم به الرسول ﷺ ما هو إلا سحر بين واضح؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٧- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، دون سواه.

٨- جمعهم أوصاف الكفر كلها من تكذيبه ﷺ، وتكذيب القرآن، وزعمهم بأنه سحر؛ ولهذا أظهر في مقام الإضمار، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية؛ لتسجيل

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، الدعاء إذا علا عقبة ٦٣٨٤، ومسلم في الذكر، استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٧٠٤.

(٢) جاء هذا في إحدى روايات مسلم لحديث أبي موسى رضي الله عنه ٢٧٠٤.

الكفر عليهم، وليعمهم وصف الكفر ومن سلك مسلكهم.

٩- أن أهل الباطل لا يتورعون من وصف الحق ومن جاء به بأبشع الأوصاف للتنفير من ذلك، فوصفوا الرسول ﷺ بسوء القصد، وبأنه مفترٍ، ووصفوا القرآن بأنه كذب مفترى وسحر.

١٠- أن الله عز وجل لم ينزل على العرب كتابًا قبل القرآن، ولم يرسل إليهم رسولًا قبل محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾.

١١- الامتنان عليهم بإنزال القرآن عليهم، وبعثه فيهم رسولًا منهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[آل عمران: ١٦٤].

١٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾، وقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾، وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

١٣- أن الله لم يبعث في العرب رسولًا إلا محمدًا ﷺ.

١٤- أن من أعظم مهمات الرسل عليهم السلام: الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى. ومن لازم ذلك: بيان الأوامر والنواهي التي يُنذر ويحذر من عدم امتثالها، ويبشر من امتثلها؛ لقوله تعالى: ﴿مِن نَّذِيرٖ﴾، وقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ الآية.

١٥- أنه ليس لدى من كذب الرسول ﷺ من مشركي مكة، وطعن في رسالته وما جاء به: مستند من كتاب، ولا أثرة من علم رسول؛ لأنه لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولا رسول قبل محمد ﷺ، فيزعموا أنه ﷺ خالف ما جاءهم قبله.

١٦- تسليته ﷺ بذكر تكذيب الأمم السابقة لرسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ الآية.

١٧- تهديد المكذبين له ﷺ بذكر شدة عقابه للمكذبين قبلهم، مع أن أولئك الأقوام أقوى منهم، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأطول أعمارًا، وما نفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾.

١٨- تشريف الله عز وجل للرسل بإضافتهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلِي﴾.

١٩- أن السعيد من وعظ بغيره فاتعظ.

٢٠- إثبات قياس الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ الآية، فإذا كان عز وجل أخذ أولئك الأقوام مع قوتهم وشدتهم وكثرة أموالهم وأولادهم لما كذبوا، ولم ينفعهم ذلك، فمن دونهم من باب أولى.

٢١- دعوة المعاندين له ﷺ دعوة إنصاف بخصلة واحدة فقط؛ تقريبًا لشقة الخلاف، وهي أن يقوموا قومة خالصة لله جماعات وفرادى، ثم يتفكروا فيما رموه به ﷺ من الجنون؛ لتظهر لهم حقيقة الأمر، وأنه العاقل الرشيد، وما به من جنة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

٢٢- ينبغي لمن يطلب الحق في أيّ خلاف يحصل، أن يكون مخلصًا لله تعالى متجردًا من الهوى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾.

٢٣- مشروعية التعاون، وإعمال الفكر للوصول إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

٢٤- نفي اتصافه ﷺ بالجنون؛ كما كانوا يزعمون، والإشارة إلى أنهم يعلمون أنه الرشيد العاقل الأمين؛ لأنه صاحبهم يعرفونه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

٢٥- إثبات الآخرة والحساب، والتحذير للمكذبين من عذاب قريب شديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

٢٦- أن من بلاغة القرآن الاكتفاء بما يناسب المقام؛ فقد اكتفى في هذه الآيات بذكر الإنذار؛ لأن المقام مقام تحذير وتخويف.

٢٧- أنه ﷺ لم يطلب من أحد أجرًا على تبليغ الرسالة والإنذار، وكذا غيره من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

٢٨- سد الذرائع التي قد يتعلل بها من أراد رد دعوة الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

٢٩- أنه لا يجوز أخذ الأجر على الدعوة إلى الله ونشر العلم الشرعي الواجب نشره.

٣٠- إخلاصه ﷺ في دعوته وتبليغ رسالة ربه، وطلبه الأجر من الله، وضمان الله

عز وجل له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٣١- إثبات علم الله تعالى الواسع، واطلاعه وشهادته على كل شيء، ومن ذلك شهادته عز وجل على صدقه في تبليغ رسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وفي هذا تقوية وتأييد له.

كما يشهد عز وجل على تكذيب المشركين له، وفي هذا تهديد لهم.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

٣٣- قذفه عز وجل بقوة وشدة بالحق- وهو ما أرسل به رسله- على الباطل؛ فإذا هو زاهق زائل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾.

٣٤- علم الله تعالى وإحاطته بجميع الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

٣٥- زهوق الباطل وزواله، وعدم ثباته أمام قوة الحق، واضمحلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

٣٦- التنزل مع الخصم ولو كان في ذلك غضاضة على النفس بقصد الوصول إلى المقصود؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾، أي: فإنما إثم ضلالي على نفسي، وليس ذلك عليكم، وحاشاه ﷺ من الضلال.

٣٧- أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى، وباتباع وحيه؛ لقوله ﷺ: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

٣٨- أن ما يصيب الإنسان من حسنة فمن الله، وما يصيبه من سيئة فمن نفسه، فمن ضل فضلاله من نفسه، ومن اهتدى فهدايته من الله.

٣٩- أن هدى الله هو الهدى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وهو سبب الاهتداء، لمن تدبره واتبعه.

٤٠- إثبات الأسباب وتأثيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

٤١- إثبات صفة السمع الواسع لله تعالى، وقربه بذاته من عباده وسماعه دعاءهم واستجابته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾.

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ ولما جاء به من الآيات البينات، وزعمهم أن ذلك ما هو إلا إفك مفترى، وسحر مبين، أتبع ذلك بذكر شدة فزعهم عند الموت، ويوم القيامة وأخذهم بالعذاب.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾، أي: خافوا أشد الخوف، وذلك عند الموت، ويوم القيامة حين ينفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥١- ٥٢].

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ الفاء: تعليلية، و«لا»: نافية للجنس، ﴿فَوْتَ﴾: اسمها منصوب، وخبرها محذوف؛ أي: فلا يفوتون الله، ولا يعجزونه ولا مفر لهم ولا مهرب، ولا محيد ولا مناص؛ كما قال تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وجواب «لو» محذوف للتهويل والتعظيم؛ أي: لرأيت أمرًا عظيمًا، ومنظرًا فظيعًا، وهولًا جسيمًا.

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أي: وأخذوا بالعذاب من مكان قريب، ليس ببعيد؛ أي: أخذوا من الدنيا بالموت، أو من قبورهم، أو من المحشر.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾، أي: عند فزعهم وأخذهم بالعذاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: آمنا وصدقنا بما كنا مكذبين به من الحق، فآمنا بالله وبكتبه ورسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالمد والهمز: «التَّنَاؤُش»، وقرأ الباقون بالواو بعد الألف من غير همز: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾.

﴿وَأَنَّىٰ﴾ استفهام بمعنى الاستبعاد، و﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ معناه: أخذ الشيء وتناوله من بعيد؛ أي: وأنى لهم تناوش الإيمان وتناوله ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: عند الموت، أو يوم القيامة؛ لأن ما عند الموت حالة اضطرار لا يقبل فيها الإيمان ولا ينفع، ولأن القيامة دار جزاء لا دار عمل.

وبين قوله: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، وقوله قبله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ طباق.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ الواو: حالية؛ أي: كيف يحصل لهم الإيمان عند الموت أو يوم القيامة، والحال أنهم قد كفروا به قبل الموت، وفي الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَيَقْذِفُونَ﴾، أي: ويرمون ويرجمون ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: بالظن الكاذب؛ كما قال تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾[الكهف: ٢٢].

وفي هذا إشارة إلى أنهم لم يحاولوا الدنو والقرب والنظر والتأمل فيه، وفيما جاء به ﷺ، فتارة يقولون عن النبي ﷺ: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، وتارة: مجنون؛ كما قالوا عن القرآن تارة: إنه سحر، وتارة: إفك مفترى، وتارة: أساطير الأولين، وغير ذلك.

كما كذبوا بالبعث والحساب، وبالجنة والنار، وغير ذلك، وقالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢].

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، أي: جعل حائلًا بينهم وبين الذي يشتهونه من النجاة وقبول الإيمان والتوبة عند الموت، أو يوم القيامة؛ لفوات وقت ذلك؛ كما حيل بينهم وبين شهواتهم وملذاتهم الدنيوية، وارتهنوا بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، أي: كما فعل بأشباههم وأمثالهم في الكفر والتكذيب من الأمم الماضية؛ حيث حيل بينهم وبين شهواتهم وارتهنوا بأعمالهم، ولم ينفعهم الإيمان حين جاءهم بأس الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾: تعليل لما قبلها؛ أي: إنهم كانوا في الدنيا هم وأشياعهم من قبل ﴿فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾، أي: في شك محدث للريبة، وتكذيب وكفر.

الفوائد والأحكام:

١- شدة فزع المكذبين والكفار عند الموت ويوم القيامة؛ لعظم الهول وفظاعة الخطب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾.

٢- أنهم لا يفوتون الله ولا يعجزونه، ولا مفر لهم ولا مهرب من أمر الله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾.

٣- أخذهم بالعذاب من مكان قريب؛ لأنهم لا يقدرون على الهروب والفوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

٤- إيمانهم عند رؤية العذاب بعد فوات وقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

٥- هيهات أن يقبل منهم الإيمان، وأن ينفعهم آنذاك؛ لأنه إن كان عند الموت فهو إيمان اضطرار لا اختيار، وإن كان في الآخرة فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٦- التبكيت والتنديم لهم، وأن سبب عدم قبول الإيمان لما رأوا العذاب هو كفرهم من قبل في الدنيا حين كان الإيمان مقبولًا ونافعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾.

٧- شدة جهلهم وكفرهم ورجمهم بالغيب والظنون الكاذبة، والأقاويل الباطلة؛ في تنقصه ﷺ، وما جاء به، من غير أن يحاولوا القرب والنظر؛ ليتفهموا ما جاء به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٨- الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون ويتمنون من الإيمان عند الموت؛ كما حيل بينهم وبين شهواتهم وملذاتهم الدنيوية، وارتهنوا بأعمالهم؛ كما حيل بينهم يوم القيامة وبين الرجوع إلى الدنيا بعد معاينتهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، وهم في هذا كاذبون؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٩- عدل الله عز وجل في مجازاة المكذبين سابقهم ولاحقهم، ووجوب الاعتبار

بأحوال السابقين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

١٠- أن هؤلاء المذكورين إنما أخذوا بالعذاب، ولم يقبل منهم الإيمان، وحيل بينهم وبين ما يشتهون؛ كما فعل بأمثالهم من قبل؛ لأنهم كانوا في شك وريب وتكذيب وكفر في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

١١- أن من شك فيما يجب الإيمان به، فهو كافر وليس بمؤمن.

١٢- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وإثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ فَاطِر

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة فاطر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة الملائكة»؛ لأنه ذكر في أولها وصف الملائكة في قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [الآية: ١].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى، وبيان اختصاصه عز وجل بالحمد وصفات الكمال، وذكر مظاهر تمام قدرته ورحمته ونعمته، في خلق السموات والأرض والملائكة وتمام تدبيره وعزته وحكمته، وتفرده بالخلق والرزق، والألوهية وتوبيخ المشركين.

٢- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

٣- بيان أن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء حق، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ومن غرور الشيطان، وبيان عداوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥-، ٦].

٤- وعيد الكافرين بالعذاب الشديد، ووعد الذين عملوا الصالحات بالمغفرة والأجر الكبير.

٥- شتان بين من زين له عمله فرآه حسنًا وأضله الله، وبين من هداه الله تعالى ووفقه.

٦- بيان مظاهر قدرة الله تعالى ونعمته في إرسال الرياح تثير السحاب، وسوقه إلى بلد ميت وإحياء الأرض به بعد موتها، والاستدلال بذلك على البعث والنشور.

٧- تفرده عز وجل بالعزة إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، والوعيد للذين يمكرون السيئات بالعذاب الشديد والبوار.

٨- تذكير العباد بأصل خلقهم، وتمام علمه عز وجل وقدرته: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

٩- بيان مظاهر قدرته عز وجل ونعمته في إيجاد البحرين لا يستويان، هذا عذاب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج، وما فيهما من المنافع، من الحيتان والحلية، وجريان الفلك. وفي إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، وما في ذلك من المصالح العظيمة للعباد، ومن الدلالة على كمال ربوبية الله تعالى، واختصاصه بالملك- دون ما يعبده المشركون من دونه، ممن لا يملكون شيئًا، ولا يسمعون ولا يستجيبون، بل يكفرون بهم، ويشركهم يوم القيامة.

١٠- بيان حاجة الناس وافتقارهم إلى الله عز وجل، وغناه عز وجل عن جميع الخلق، وقدرته على إذهابهم، واستبدالهم بخلق جديد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧].

١١- تمام عدله عز وجل، فلا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى، ولا أحد يحمل ذنب أحد، ولو كان ذا قربى، وإنما يجازى كل بعمله، وبيان أنه إنما ينتفع بالإنذار الذين يخشون ربهم وأقاموا الصلاة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

١٢- شتان بين المؤمن والكافر، وبين من كان على هدى ومن كان على ضلال، فلا يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، ولا الأحياء والأموات.

١٣- تسليته ﷺ، وبيان أن الله يسمع ويهدي من يشاء، وأنه ﷺ لا يستطيع إسماع المكذبين وهدايتهم، وهم كالموتى في القبور، وأن مهمته الإنذار والبشارة، وأنه ليس أول من كذبه قومه، فقد كذب الذين من قبلهم، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، فأخذهم الله وعاقبهم.

١٤- بيان وتقرير مظاهر قدرته ونعمته في إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات، وفي إيجاد الجبال المختلفة الألوان، وكذا الناس والدواب والأنعام، وبيان أنه إنما يخشى الله من عباده العلماء الذين يتفكرون في آيات الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

١٥- التنويه بشأن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقهم الله سرا وعلانية وعظم ما أعد لهم من التجارة الرابحة ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٠].

١٦- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم، وبيان أنه هو الحق مصدقًا للكتب قبله، وبيان انقسام الناس في العمل به إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذنه وذلك الفضل الكبير، لما أعد لأهله من الجنات وما فيها من النعيم المقيم، وذهاب الحزن، والسلامة من النصب والتعب.

١٧- الوعيد والتهديد للذين كفروا بذكر ما أعد لهم من عذاب جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦- ٣٧].

١٨- بيان سعة علمه عز وجل، وشموله غيب السموات والأرض وعلمه بذات الصدور.

١٩- الامتنان على الناس بجعلهم خلائف في الأرض، والوعيد لمن كفر منهم، ومقتهم وخسرانهم، والتقريع لهم في عبادتهم من دون الله آلهة لم تخلق شيئا من الأرض، وما لهم شرك في السموات، وبلا كتاب ولا دليل ولا برهان، بل ظلمًا منهم وغرورًا من بعضهم لبعض.

٢٠- بيان عظيم قدرته عز وجل وواسع حلمه ومغفرته في إمساك السموات والأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

٢١- إقسام المشركين غاية الأيمان- جهلًا منهم- لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من غيرهم، وكذبهم ونفورهم لما جاءهم واستكبارهم ومكرهم، وتهديدهم ووعيدهم بانتظار العذاب كما هي سنته عز وجل في المكذبين الأولين، وعاقبتهم الوخيمة، وكانوا أشد منهم قوة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

٢٢- بيان سعة حلمه عز وجل، وعدم معاجلته الناس بكسبهم، وأنه يمهل ولا يهمل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ سبق الكلام عليه في مطلع سورة سبأ.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: خالق السموات والأرض ومبدعها على غير مثال سبق.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال: ابتدأتها».

وعنه أيضًا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: «بديع السموات والأرض»(١).

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: مصيّر الملائكة كونًا وقدرًا ﴿رُسُلًا﴾: مفعول به لـ«جاعل»؛ أي: جاعل الملائكة رسلًا في تدبير أوامره القدرية؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]؛ أي: رسلنا من الملائكة، وهم: ملك الموت، وأعوانه.

وأيضًا: رسلًا ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

والمراد بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: جاعل منهم رسلًا، وليس كلهم؛ بدليل

---

(١) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣١٧٠.

قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾: نعت لـ«رسلًا»؛ أي: أصحاب أجنحة يطيرون بها بسرعة فائقة- لتنفيذ ما يأمرهم الله به- تفوق سرعة الجن وغيرهم.

﴿مَّثۡنَىٰ﴾: نعت لـ«أجنحة»، وكذلك: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾، وهي ألفاظ ممنوعة من الصرف للوصفية والعدل؛ لأنها معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة، وتدل على المكرر من نوعها؛ أي: اثنين اثنين بلا حصر، وثلاثة ثلاثة بلا حصر، وأربعة أربعة بلا حصر؛ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، بحسب ما اقتضته حكمته، ومنهم من له أكثر من ذلك؛ لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل له ستمئة جناح»(١).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾، أي: يزيد في خلق الملائكة الذي يشاؤه من الأجنحة أكثر من أربعة وغير ذلك؛ كما يزيد في المخلوقات كلها الذي يشاؤه من الزيادة في بعضها على بعض، في صفتها وقوتها، وكثرة أعضائها، وفي حسنها وجمالها، وحسن صوتها، وغير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تعليل لما قبله؛ أي: لا يعجزه شيء؛ لكمال قدرته، وسعة علمه.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ بعدما ذكر تفرده بالخلق والتدبير، ذكر تفرده بالعطاء والمنع، والبسط والقبض.

قوله: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ «ما» في الموضعين: اسم شرط جازم.

﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾ «من»: بيان لـ«ما»؛ أي: ما يفتح الله للناس من أيِّ رحمة دينية أو دنيوية، من علم وعبادة، وولد ومال، وغير ذلك.

﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ أي: فلا أحد يستطيع إمساك رحمته

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٢، ومسلم في الإيمان ١٧٤، والترمذي في التفسير ٣٢٧٧، وأحمد ١/ ٣٩٥.

وردها عمن فتحها الله تعالى عليه، مهما حاول منعها بالحسد والتشويه.

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ حذف متعلق: «يمسك»، فلم يقل: «وما يمسك من رحمة»؛ ليفيد العموم؛ أي: وما يمسك من أيِّ شيء، من رحمة أو نقمة، من خير أو شر، نفع أو ضرر.

﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ الإرسال: ضد الإمساك، وجاء الضمير في «لَهُۥ» مذكرًا؛ مراعاة للفظ «ما»؛ أي: فلا مرسل ولا جالب لما أمسكه الله ومنعه، مهما بذل في ذلك من الأسباب.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الضمير يعود إلى الله عز وجل؛ أي: فلا مرسل له من بعد الله؛ أي: غير الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات**، ومنع وهات»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(٢).

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٣، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأحمد ٤/ ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨.

(٣) سبق تخريجه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة والقهر والغلبة والامتناع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ذو الحكم التام، والحكمة البالغة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: اذكروا نعمة الله تعالى عليكم، واشكروها بقلوبكم؛ اعترافًا بها، وبألسنتكم ثناءً على الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]، وبجوارحكم انقيادًا له عز وجل.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «أفضل مِن ذكر الله باللسان، ذكر الله عند أمره ونهيه»(١).

ومن ذكر النعمة وشكرها بالجوارح: أن يظهر أثر نعمة الله على العبد؛ كما قال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(٢).

و«نعمة»: مفرد مضاف إلى معرفة، وهو لفظ الجلالة «الله»، فيعم كل نعم الله التي لا تحصى، من نعمة الإيجاد والإعداد والإمداد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لما أمرهم بذكر نعمته عليهم، التي تعم جميع نعمه عليهم، نبه على أصول النعم، وهي: نعمة الخلق والرزق.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بكسر الراء: «غَيْرِ الله»؛ نعت لـ«خالق» على اللفظ، وقرأ الباقون برفعها: ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ نعت لـ«خالق» على المَحل.

والاستفهام بمعنى النفي المشرب بالتحدي، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: لا خالق إلا الله.

---

(١) انظر: «الرسالة» للقيرواني ص١٦١، «التحرير والتنوير» ١/ ٤٥١.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٤٣٨؛ من حديث عمر ان بن حصين رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في الأدب ٢٨١٩؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الرزق: العطاء؛ أي: يرزقكم من السماء بإنزال المطر، وبتقدير أرزاقكم في السماء.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويرزقكم من الأرض بإخراج النبات منها، والأشجار والثمار والمعادن، وغير ذلك من خيراتها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو عز وجل؛ لانفراده بالخلق والرزق، وغير ذلك من أفعال الربوبية، وإنما خص بالذكر الخلق والرزق؛ لأنهما أظهر دلائل إلهيته عند الناس.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«أنى»: اسم استفهام للتعجب والتقريع والتوبيخ؛ أي: فكيف تصرفون عن عبادة الخالق الرازق، الذي تُقرون وتعترفون به ربًّا إلى عبادة المخلوق المرزوق، الذي لا يملك من الأمر شيئًا؟!

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، أي: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون؛ أي: ينسبوك إلى الكذب فيما دعوتهم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وفيما أخبرتهم به من البعث والحساب والجزاء، فيقولوا: لست برسول، بل أنت كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون، ولا بعث ولا حساب، ونحو ذلك.

﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ أي: فقد كُذب رسل كثيرون من قبلك، كذبهم أقوامهم فيما جاؤوهم به من الدعوة إلى توحيد الله، فلك فيهم سلوة، فلست أول من كُذِّب، قال ﷺ: «**عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»(١).

وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، وما آمن معه إلا قليل.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي: وإلى الله وحده تصير الأمور كلها في الدنيا والآخرة، فينصر رسله وأولياءه، ويجازي كلًّا بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ الشورى: ٥٣، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٠٥، ومسلم في الإيمان ٢٢٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كرر النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ للتأكيد والعناية والاهتمام.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، ونصر أوليائه، وخذلان أعدائه، وغير ذلك، كله ﴿حَقٌّ﴾، أي: ثابت وصادق، كائن لا محالة ولا بد، لا شك فيه ولا مرية؛ كما دلت على ذلك الأدلة السمعيهْ، والبراهين العقليهْ.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فلا تخدعنكم الحياة الدنيا، ولا تفتننكم وتلهينكم بشهواتها ولذاتها وزخارفها وزهرتها الفانية، عما خلقتم له، وعن الاستعداد لوعد الله ولقائه.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، أي: ولا يخدعنكم بالله في حلمه وإمهاله، وما يجب له من التعظيم والطاعة، والتصديق بوعده، والاستعداد للقائه، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾، أي: الشيطان، بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

قال تعالى في آخر سورة لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الآية: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ «إن» للتوكيد، وقدم الخبر ﴿لَكُمْ﴾ لإفادة الحصر؛ أي: لكم يا بني آدم خاصة، فعداوته لكم متأصلة وقديمة؛ لعداوته لأبويكم، وسعيه في إخراجهما من الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧].

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي: فاجعلوه عدوًّا؛ أي: فعادوه أنتم أشد العداوة، وأبغضوه، وأطيعوا الله وحده، وخالفوا الشيطان، ولا تطيعوه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ

إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨ ، البقرة ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

قال ابن القيم: «والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته؛ كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر في محاربة العبد على عدد الأنفاس»(١).

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تعليل لما سبق من النهي عن غرور الشيطان، وبيان عداوته، والأمر باتخاذه عدوًّا.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ أي: ما يدعو حزبه إلا ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، واللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يكونوا من أصحاب السعير، وهي النار المستعرة المتوقدة الشديدة.

أي: إنما يدعو أتباعه؛ ليضلوا كما ضل، فيكونوا معه من أصحاب السعير؛ كما قال تعالى محذرًا عنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾:

لما ذكر عداوة الشيطان لبني آدم، وحذرهم منه، أتبع ذلك ببيان انقسامهم في ذلك إلى قسمين: كفار اتبعوا الشيطان، فلهم عذاب شديد، ومؤمنون خالفوه وعملوا الصالحات، فلهم مغفرة وأجر كبير.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الذين جحدوا ما جاءت به الرسل، وما دلت عليه الكتب، واتبعوا الشيطان، وعصوا الرحمن.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: لهم خاصة عذاب شديد؛ أي: قوي، مخلدون فيه في نار جهنم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٣.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه، بجوارحهم.

﴿لَهُم﴾ خاصة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ بستر ذنوبهم عن الخلق، والتجاوز عن عقوبتها.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب كبير في ذاته وفي صفته، لا يَقْدر قَدْر كبره إلا من منحهم إياه، ووصفه بذلك، وهو العلي الكبير.

وفي تسمية جزائهم وثوابهم «أجرًا»، إخبار بتكفله عز وجل بذلك، وضمانه لهم، وإيجابه عز وجل ذلك على نفسه.

وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية قبل التحلية.

فجازى عز وجل الكافرين بالعذاب الشديد؛ بسبب كفرهم، وجازى المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير؛ لإيمانهم وعملهم الصالحات.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه: الإنكار، و«من»: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: كمن لم يزين له سوء عمله، وهداه الله إلى الصراط المستقيم؟ يدل على هذا قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

و﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: عمله السيئ، و«عمل»: مفرد مضاف، فيعم جميع أعماله السيئة من الكفر والشرك والظلم والمعاصي.

و«التزيين»: التحسين؛ أي: أفمن حُسِّن له سوء عمله؛ أي: حُسِّن له عمله السيئ، وبني الفعل لما لم يسم فاعله ليعم، فيحتمل أن يكون المعنى: أفمن زين الله له قدرًا وكونًا سوء عمله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾ [النمل: ٤].

ويحتمل أن يكون التقدير: أفمن زين له الشيطان أو نفسه الأمارة بالسوء أو الهوى، أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، أي: فرأى عمله السيئ حسنًا، وهذا من أعظم البليات، وأشد المصائب، أن يزين للمرء عمله السيئ فيراه حسنًا، فيتمادى في الباطل، ولا يستمع لقول ناصح أو عذل عاذل، فيبوء بالصفقة الخاسرة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤].

قال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الجملة مستأنفة، أو تعليلية؛ أي: فلا تأسف على ذلك، فكل ذلك كائن بقدر الله تعالى، يضل الذي يشاء من الخلق بعدله، ويهدي الذي يشاء منهم؛ أي: يوفقه بفضله، له الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء ونصب السين: «فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ»، وقرأ الباقون بفتح التاء والهاء وضم السين: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾.

والفاء: رابطة لجواب شرط مقدر؛ أي: فلا تهلك نفسك على هؤلاء المكذبين.

و﴿حَسَرَٰتٍ﴾ منصوب على المفعول لأجله؛ أي: لأجل الحسرات؛ أي: حزنًا وهمًّا وغمًّا على كفر هؤلاء الضالين؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تعليل للنهي السابق، و«ما»: موصولة أو مصدرية؛ أي: عليم بالذي يصنعونه؛ أي: بالذي يفعلونه، أو عليم بصنعهم؛ أي: بفعلهم.

أي: فيجازيهم بأعمالهم، فليس عليك هدايتهم ولا حسابهم، ما عليك إلا البلاغ.

الفوائد والأحكام:

١- ثبوت الحمد الكامل لله تعالى، واختصاصه باستحقاق ذلك وحده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وفي هذا حمد منه عز وجل لنفسه، وأمر لعباده أن يحمدوه.

٢- تفرده عز وجل بخلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات، وتمام قدرته وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣- إثبات وجود الملائكة، وتسخير الله تعالى لهم، بجعلهم رسلًا لتنفيذ أوامره القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية، وكمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره؛ لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

٤- عظمة قوة الملائكة وقدراتهم، وشدة خلقهم، وأن الله جعل لهم أجنحة

يطيرون فيها بسرعة فائقة؛ لتنفيذ أوامره الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾.

٥- اختلاف الملائكة في قوتهم، وعدد أجنحتهم، وأشكالهم، وقدراتهم، وفق ما وُكل إليهم من الأعمال.

٦- أن له عز وجل التصرف التام، والتدبير المطلق في الخلق، يزيد فيه ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص: ٦٨].

٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي: الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾.

٨- قدرته تعالى التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى، ولا مقدرة له.

٩- تفرده عز وجل بالعطاء والمنع، والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾.

١٠- وجوب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه دون سواه؛ لأن بيده القبض والبسط، والعطاء والمنع.

١١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، وأنه سبحانه ذو العزة والقوة والقهر، والغلبة والامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

١٣- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبه والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٤- إثبات عموم رسالته ﷺ لجميع الناس، وتأكيد ذلك؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٥- وجوب ذكر نعمة الله تعالى وشكرها اعترافًا بها في القلوب، وثناء على الله تعالى بها بالألسن، وانقيادًا له تعالى بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

١٦- تقرير وإثبات ربوبية الله تعالى، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٧- أن من أعظم نعم الله تعالى على الناس، وأظهرها، وأدلها على تمام ربوبيته، وكمال ألوهيته: نعمة الخلق والرزق؛ ولهذا خصها بالذكر، ودلل بها على تفرده بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١٩- أن الاسم المفرد إذا أضيف إلى معرفة أفاد العموم؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: جميع نعمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٢٠- أن رزق الله للخلق من السماء والأرض؛ بإنزال المطر من السماء، وتقدير الأرزاق فيها، وبإنبات النبات والأشجار والزروع والثمار من الأرض والمعادن، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢١- أنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٢- الإنكار على المشركين، وتسفيههم في انصرافهم عن عبادة الله تعالى الخالق الرازق، وعبادة آلهة من دونه لا يملكون شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

٢٣- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له، بذكر تكذيب الأمم السابقة للرسل من قبله، فله بهم أسوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢٤- أن المصائب إذا عمت خفت، فإذا علم ﷺ أن الرسل كُذبت من قبله، خف عليه وهان تكذيب قومه له، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر(١):

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

---

(١) انظر: «ديوانها» ص٨٤.

٢٥- أن مرجع الأمور كلها، ومصيرها إلى الله عز وجل وحده، ينصر رسله وأولياءه في الدنيا والآخرة، ويهلك أعداءه، ويجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٢٦- أن شكوى الحال ينبغي أن يكون إلى الله تعالى وحده؛ لأن بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

٢٧- إثبات وتأكيد أن وعد الله تعالى بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، ولقاء الله تعالى، كل ذلك حق وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٨- النهي عن الاغترار بالحياة الدنيا، وشهواتها، ولذاتها، وزينتها الفانية، والانشغال بها عن طاعة الله تعالى، وعن الاستعداد لوعده ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقد قال ﷺ: «**فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

٢٩- التحذير من الشيطان وغروره وخداعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

٣٠- إثبات عداوة الشيطان الشديدة القديمة لبني آدم، ووجوب اتخاذه عدوًّا، والحذر منه، ومن طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

٣١- أنه إنما يدعو أتباعه؛ ليضلهم عن طريق الحق؛ ليكونوا معه في النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٣٢- التحذير من الكفر، والوعيد للكفار ببيان ما أعد لهم من العذاب الشديد، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح ببيان ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ وفي هذا جمع بين الترغيب والترهيب.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧؛ من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

٣٣- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا؛ أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٣٤- تكفله عز وجل بثواب من آمن وعمل صالحًا، وضمانه له؛ ولهذا سماه أجرًا.

٣٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الأجر.

٣٦- أنه لا حيلة فيمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا؛ لقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٣٧- شتان بين من زين له سوء عمله فرآه حسنًا، وبين من هداه الله إلى الصراط المستقيم، فلا يستوي هذا وذاك، شتان بين مشرِّق ومغرِّب.

٣٨- نفوذ مشيئة الله تعالى في العباد، يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي هذا رد على القدرية، الذين يقولون: إن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله.

٣٩- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يهلك نفسه حسرات وحزنًا على ضلال من ضل من الكفار؛ لأن مهمته البلاغ، وليس عليه هداية القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

وفي هذا درس للدعاة إلى الله، والمربين والمصلحين من الآباء والأمهات والمعلمين وغيرهم، فلا يحزنهم، ولا يفت في عضدهم من لم يستجب لدعوتهم.

٤٠- شدة شفقته ﷺ على أمته، وحزنه الشديد على ضلال من ضل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣].

٤١- أنه ﷺ كغيره من البشر، ينتابه الحزن والفرح والسرور، وفي هذا رد على الذين يغلون به، ويصرفون له شيئًا من خصائص الإلهية.

٤٢- إثبات وتأكيد علم الله عز وجل التام بالذي يفعله الكفار من الضلال والكفر، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف: «الرِّيحَ»؛ بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

و«الريح» بالإفراد هي بمعنى الجمع؛ لأن «أل» للاستغراق والشمول، فتشمل كل الرياح.

وتستعمل «الرياح» غالبًا في الخير، و«الريح» بالإفراد بضد ذلك، وقد روي أن النبي ﷺ قال في دعاء الريح: «**اللهم اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا**»(١).

أي: الله وحده الذي أرسل الرياح وسخرها.

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ٥٠٢، وأبو يعلى في «المسند» ٢٤٥٦، والطبراني في «المعجم الكبير» ١١/ ٢١٣ رقم ١١٥٣٣؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ الفاء: عاطفة في المواضع الثلاثة؛ أي: فتثير سحابًا وتحركه، و«السحاب» هو: المزن والغيم في الجو، وسمي سحابًا؛ لانسحابه في الجو، وسحب الرياح له.

﴿فَسُقْنَاهُ﴾، نحن، بتسخيرنا الرياح لسوقه؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بسكون الياء: «مَيْتٍ»، وقرأ الباقون بكسرها مشددة: ﴿مَّيِّتٍ﴾، أي: مجدب، لا نبات فيه.

﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الباء: للسببية؛ أي: فأحيينا بسببه.

﴿الْأَرْضَ﴾، أي: أرض البلد الميت، بالنبات والزرع والكلأ.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعد يبسها وجدبها، وخلوها من النبات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾، الكاف: للتشبيه، والنشور: بعث الخلائق من قبورهم يوم القيامة، ونشرهم على وجه الأرض أحياء؛ أي: كما سقنا السحاب إلى بلد ميت وأنزلنا منه الماء فأحيينا به الأرض بعد موتها بالنبات والأشجار والزروع والثمار.

كذلك النشور، وبعث الأجساد حية من القبور، إذا أراد الله بعثها ونشرها، أنزل من تحت العرش مطرًا يعم الأرض جميعًا، فتنبت الأجساد في قبورها؛ كما ينبت الحب في الأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا وهو: عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»(١).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ «من»: اسم شرط جازم، يفيد العموم، و«كان» فعل الشرط، والعزة: القوة والغلبة والمنعة والشرف والسؤدد؛ أي: أيُّ أحد، أو أيُّ إنسانٍ يريد العزة؛ أي: يطلبها ويحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٥، ومسلم في الفتن ٢٩٥٥، وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والجملة تعليل للجواب المقدر، واللام في «لله» للاختصاص، وهو متعلق بمحذوف خبر قُدّم؛ لإفادة الحصر، و«العزة»: مبتدأ، و«جميعًا»: حال.

أي: من كان يريد العزة فليطلبها من الله تعالى وحده بطاعته، فإنها لا تطلب إلا منه، ولا تنال إلا بطاعته؛ لأن له عز وجل العزة جميعًا؛ أي: بجميع أنواعها ملكًا وتصرفًا في السموات والأرض، وفي الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ ولهذا قال هنا بعد هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

أي: فليطلب العزة من الله بالكلم الطيب والعمل الصالح؛ لأنها منه، وتنال بطاعته؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وفي هذا رد على الذين يعبدون من دون الله آلهة ليتعززوا بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

فالعز كل العز، ورفع الرأس عاليًا فوق هام السحاب وفوق الثريّا، يكون بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل، وتنكيس الرأس في الثرى، يكون بمعصية الله تعالى؛ ولهذا كان من دعاء الإمام أحمد وبعض السلف: «اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك»(١).

وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: «اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة من غيره أذلنا الله»(٣).

وقال الحسن البصري: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن

---

(١) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب ص٦٤، «حلية الأولياء» ٣/ ١٩٦، «الجواب الكافي» ص٥٩.

(٢) انظر: «لطائف المعارف» ص٦٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٨/ ٣٢٠، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٦٢.

ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه»(١).

وقال عبدالله بن المبارك»(٢):

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، أي: بهذا تكون العزة، بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

أي: إليه عز وجل يرتفع ويعرج الكلم الطيب الحسن، وهو ذكر الله؛ بتلاوة القرآن، والتسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير، والدعاء، ونحو ذلك.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ الذي توفر فيه الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، من صلاة وزكاة وصوم وحج، وبر للوالدين، وصلة للأرحام، وجهاد في سبيل الله، وغير ذلك.

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾، أي: يرفعه الله عز وجل إليه كالكلم الطيب.

ويحتمل أن المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ أي: أن الكلم الطيب لا يرفع إلا إذا عمل صاحبه أعمالًا صالحة، فلا يقبل قول بلا عمل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالكفر والشرك والرياء والمعاصي، وكل ما يسوء فعله، ويضر بفاعله أو غيره في الدنيا والآخرة.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: لهم خاصة عذاب شديد قوي حسيًّا على الأبدان في إيلامه، وفي كثرته وتنوعه وغير ذلك، ومعنويًّا على القلوب يذلهم ويهينهم؛ لأنهم طلبوا العزة من غير الله.

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: يبطل، ويضمحل، ويهلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيرًا لهم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ الآية.

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» ص٥٩، «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» ١/ ٨٩.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٢٢. بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٣.

ذكر عز وجل دلائل قدرته في الآفاق بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الآية، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته في الأنفس؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، أي: ابتدأ خلقكم من تراب بخلق أبيكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ من ماء قليل، وهي المني؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾ [النجم: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ﴾، أي: ثم لم يزل عز وجل ينقلكم طورًا بعد طور بقدرته؛ لطفًا منه ورحمة حتى ﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: ذكورًا وإناثًا، يتزوج الذكر الأنثى، فيحصل بينهما- بتوفيق الله- الأنس والمودة، وإنجاب الذرية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و«أنثى» نكرة في سياق النفي، فتعم، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: وما تحمل أيُّ أنثى من النساء، وغيرها من إناث الحيوانات.

﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، أي: ولا تضع حملها إلا بعلمه، فيعلم متى تحمل، ويعلم متى تضع حملها؛ كما يعلم حملها وأحواله وأطواره؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾: معطوفة على «خلقكم»، أو: على «تحمل»، ومعنى ﴿يُعَمَّرُ﴾، أي: يزاد في عمره، ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي،

و«معمر»: نكرة في سياق النفي، فتعم؛ أي: وما يعمر أيّ معمر، ومعنى «معمر»؛ أي: طويل العمر.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ قرأ روح عن يعقوب بفتح الياء وضم القاف: «يَنْقُصُ»، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح القاف: ﴿يُنقَصُ﴾، أي: فلا يعمر؛ أي: فلا يزاد في عمره.

والمعنى: وما يعمر من أحد ولا ينقص من عمره.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»(١).

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مكتوب مسطور محفوظ ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ وهو اللوح المحفوظ؛ أي: فكل ذلك معلوم لله تعالى، ومكتوب عنده قبل كونه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق من الزيادة في العمر، والنقص، وكتابة ذلك كله في اللوح المحفوظ.

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل، هين؛ لسعة علمه، وإحاطته بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾، أي: وما يتساوى ويتماثل ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾ مثنى «بحر»، والبحر: الماء الكثير، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ﴾ تفسير وبيان لـ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، أي: أحدهما عذب حلو، ﴿فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة والحلاوة، ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾، أي: مستساغ شربه، سهل ميسر مروره في الحلق، وفي عروق النباتات والغراس.

﴿وَهَٰذَا﴾، أي: والثاني ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌۖ﴾، أي: شديد الملوحة مرٌّ زعاف، وهو ماء البحار الكبيرة الساكنة، جعله الله مالحًا لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بسبب روائح

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٨٦، ومسلم في البر، صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة، صلة الرحم ١٦٩٣.

ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ وأطيب.

والجواب: أنه لا يستوي البحر العذب الفرات السائغ شرابه، والبحر الملح الشديد الملوحة، وشتان ما بينهما؛ كما لا يستوي المؤمن والكافر.

﴿وَمِن كُلٍّ﴾، أي: ومن كل من البحرين العذب والمالح.

﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك، ﴿طَرِيًّا﴾، أي: لم يتغير بنتن، وإن مات فإنه طري؛ لأن الله أحل صيد البحر، وهو ما أخذ منه حيًّا، وطعامه، وهو ما أخذ منه ميتًا، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ معطوف على «تأكلون»؛ أي: وتستخرجون من كل منهما حلية من اللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾، أي: تتحلون وتتجملون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢].

قيل: الحلية إنما تخرج من الملح فقط، أو منهما بعد اختلاط الملح بالعذب، ولا تخرج من العذب وحده، وظاهر القرآن أنها تخرج منهما؛ أي: من كل منهما(١).

وقال هنا ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ بينما قال في أخذ السمك: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا﴾؛ لأن أخذ السمك سهل لا يحتاج إلى كلفة؛ ولهذا عبر بالأكل مباشرة بينما الحلية يُحتاج للحصول عليها إلى كلفة وغوص وتعب؛ ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ الخطاب عام؛ أي: وترى- أيها المشاهد- السفن، أي: وتبصرها ﴿فِيهِ﴾، أي: في كل من البحرين.

﴿مَوَاخِرَ﴾، أي: تمخر عباب البحر وماءه؛ أي: تشقه في مقدمها المسنَّم، وتجري على ظهره مقبلة ومدبرة، مع كبرها وسعتها وثقلها؛ لكثرة ما على ظهرها من الناس والبضائع والأرزاق وغير ذلك؛ وذلك من أكبر وأعظم الآيات؛ ولهذا قال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢].

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن تبتغوا؛ أي: تطلبوا من فضله تعالى الرزق والتجارة، بالتنقل عبر البحر على ظهور هذه السفن في تجاراتكم وأسفاركم من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، ومن بلد إلى آخر، وهذا من أعظم النعم على العباد؛ لما فيه من المصالح والمنافع لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على هذه النعم بالاعتراف بها بقلوبكم، وأنها من الله عز وجل وحده، والثناء على الله عز وجل بها بألسنتكم، واستعمالها في طاعته بجوارحكم، والاستعانة بها على ذلك.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ الآية.

لما ذكر دلائل قدرته ونعمته في تسخير البحر يأكلون ويلبسون مما فيه ويركبونه، أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته ونعمته في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر.

قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، أي: يدخل عز وجل شيئًا فشيئًا وبنظام محكم دقيق من ساعات الليل في النهار، فيقصر الليل ويطول النهار، وهذا في الصيف، ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، أي: ويدخل من ساعات النهار في الليل، فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا في الشتاء.

وفي هذا من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة ما لا يعلمه إلا الله لبني آدم في أبدانهم، وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم وحروثهم وثمارهم وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾.

لما ذكر إيلاجه الليل في النهار والعكس، ذكر ما جعله الله سببًا لذلك، وهو جريان الشمس، وذكر القمر بالتبع لما يحصل به من نور الليل، والعلم بالحساب وعدد السنين، وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: سخرهما لمصالح عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ

لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]؛ أي: مستمرين.

﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أي: كل من الشمس والقمر يسير في فلكه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: ٣٨- ٣٩].

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين محدد مقدر؛ كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].

أي: إلى يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر، وتلفان ويذهب بنورهما؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: ٩].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الذي انفرد بخلق هذه المخلوقات، وسخرها بقدرته، وأنعم عليكم بها ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود بحق محبة وتعظيمًا، الذي يجب أن تعبدوه وحده، ﴿رَبُّكُمْ﴾، أي: خالقكم ومالككم ومدبركم.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: له وحده الملك كله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، أي: والذين تعبدون من الأوثان والأصنام، وتدعونهم دعاء مسألة، ودعاء عبادة، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، أي: من دون الله؛ أي: غير الله.

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما يملكون أيَّ قطمير. و«القطمير»: هو اللفافة والقشرة الرقيقة البيضاء على النواة. والمعنى: لا يملكون شيئًا مهما قل.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾، أي: ومع كون هؤلاء الذين تدعون من دون الله ما يملكون من قطمير، فهم ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾؛ لأنهم جمادات وأموات، وعن دعاء من دعاهم غافلون؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠- ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ

عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾، أي: على وجه الفرض والتقدير.

﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾، أي: ما أجابوكم؛ لأنهم لا يملكون من الأمر شيئًا، فلا يقدرون على ما تطلبون منهم، بل ولا رضوا بعبادتكم إياهم؛ ولهذا قال:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١]، ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١- ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾، أي: ولا أحد يخبرك بأحوال الدنيا والآخرة، وبأحوال هؤلاء العابدين ومعبوداتهم خاصة، وأنهم لا يملكون شيئًا، ولا يسمعون دعاءهم، ولو سمعوا ما استجابوا لهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم.

﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أي: مثل خبير بذلك كله، مطلع عليه، عالم به، وهو الله عز وجل، الخبير ببواطن الأمور وظواهرها، ودقائقها وجلائلها، وخفياتها وجلياتها.

ولهذا يقولون في المثل: «على الخبير سقطت»؛ أي: على الخبير الذي يخبرك الخبر اليقيني.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والمعاد، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك، والتدليل على ذلك بقياسه على قدرته على إحيائه الأرض بعد موتها بإرسال الرياح تثير السحاب، وسوقه إلى بلد ميت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

٢- أن من منافع الرياح وفوائدها: إثارتها للسحاب، وسوقها إياه حيث شاء الله

من البلاد.

٣- كمال قدرة الله تعالى وعظمته، ونعمته على العباد، بإرسال الرياح تثير السحاب وتسوقه، وإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها.

٤- إثبات الأسباب، وأن الله قد جعل لكل شيء سببًا، وجواز إضافة الشيء إلى سببه المعلوم، فالرياح سبب لإثارة السحاب، والمطر سبب لحياة الأرض ونباتها.

٥- الحث على طلب العزة من الله عز وجل وحده، وأنها لا تطلب إلا منه عز وجل دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٦- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله؛ كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾.

٧- أن لله تعالى وحده العزة جميعًا، يعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٨- أن العزة لا تنال إلا بطاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

٩- إثبات علو الله تعالى، على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾.

١٠- أن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبًا.

١١- أنه لا يصعد إليه عز وجل من الكلم إلا ما كان طيبًا، ولا يرفع إليه من الأعمال إلا ما كان صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١٢- أن الكلم منه ما هو طيب، ومنه ما هو خبيث، وليس بطيب؛ كما أن العمل منه ما هو صالح، ومنه ما هو فاسد، وليس بصالح.

١٣- الترغيب في الكلم الطيب: من الذكر، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وغير ذلك، وفي العمل الصالح: من الصلاة، والصدقة، والبر، والإحسان، وغير ذلك.

١٤- أن العزة مطلب لكل أحد، لكن أكثر الخلق يطلبها من غير طريقها، فمنهم من يطلبها بالمال وما أكثرهم، ومنهم من يطلبها بالمناصب والجاه، ومنهم من يطلبها بغير ذلك من مُتع الدنيا، وأبى الله أن تكون العزة إلا بطاعته.

١٥- التهديد والوعيد للذين يمكرون السيئات بالكفر والشرك والمعاصي؛ بالعذاب الشديد، وبوار مكرهم واضمحلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

١٦- أن السيئات كلها مكر وخداع وباطل، سواء ما كان منها خفية أو علانية.

١٧- بيان تمام قدرة الله تعالى في ابتداء خلق بني آدم من تراب، ثم من نطفة، إلى أن جعلهم أزواجًا، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.

١٨- أن من حكمة الله تعالى ورحمته، ونعمته على بني آدم؛ أن جعلهم أزواجًا، يسكن بعضهم إلى بعض، ويأنس بعضهم ببعض، وجعل بينهم مودة ورحمة؛ لتطيب الحياة، ويحصل النسل ويبقى ويتكاثر.

١٩- إحاطة علم الله بالحمل والأجنة حملًا ووضعًا، وغير ذلك، وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

٢٠- تقدير الله عز وجل للأعمار طويلها وقصيرها، وما فيها من الزيادة والنقصان، وكتابة ذلك كله باللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾.

٢١- أن خلقه عز وجل لبني آدم وغيرهم، وإحاطة علمه بما تحمل كل أنثى وما تضعه، وبكل شيء، وكتابته الأعمار كلها، طويلها وقصيرها، وغير ذلك في اللوح المحفوظ، كل ذلك عليه يسير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٢٢- بيان قدرة الله تعالى التامة، ونعمته في إيجاده من الماء هذين البحرين: العذب والمالح، وكونهما لا يستويان، فهذا في غاية العذوبة مستساغ شربه، وهذا في غاية الملوحة لا يطاق شربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهكذا فلا يستوي المؤمن والكافر، والحق والباطل.

٢٣- حكمة الله تعالى ورحمته في جعله لكل من البحرين خاصيته؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة للعباد.

٢٤- الامتنان على العباد بما أودع عز وجل في هذين البحرين من المنافع؛ يأكلون

مما فيهما من الحيتان، ويستخرجون منهما حلية يلبسونها، ويركبون ظهر البحر على الفلك، في أسفارهم وتجاراتهم؛ طلبًا للرزق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾.

٢٥- مشروعية طلب الرزق، وبذل الأسباب في ذلك؛ بل ذلك واجب في حدود ما يُستغنى به عن الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾.

٢٦- وجوب شكر نعمة الله عز وجل على إيجاد هذين البحرين، وما فيهما من المنافع والمصالح، وعلى جميع نعمه بالقلب واللسان والجوارح، ونسبة هذه النعم إليه وحده، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٧- بيان قدرة الله تعالى وحكمته ونعمته، بإدخال الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان في فلكهما، وما في ذلك من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة، للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٢٨- أن تعاقب الليل والنهار، واختلافهما طولًا وقصرًا، بسبب جريان الشمس.

٢٩- أن لكل من الشمس والقمر أجلًا محددًا ووقتًا معينًا يتوقف فيه جريانهما، وينقطع فيه سلطانهما، وذلك عند قيام الساعة، وانتهاء هذه الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣٠- التدليل بإيجاد هذه المخلوقات العظيمة- الليل والنهار، وتعاقبهما زيادة ونقصًا، وتسخير الشمس والقمر يجريان في منازلهما- على وحدانيته عز وجل في ألوهيته وربوبيته العامة لجميع الخلق، وتفرده واختصاصه وحده بالملك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٣٢- تحقير جميع ما يدعى من دون الله من الآلهة والأنداد والأوثان والأصنام، وأنها لا تملك أقل الأشياء وأحقرها وهو القطمير؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن

دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾.

٣٣- بلوغ القرآن الكريم الغاية في تحقير ما يريد التنفير منه.

٣٤- تسفيه عقول المشركين في عبادتهم من دون الله من لا يسمعون دعاءهم؛ لأنهم أموات وجمادات، وغافلون عنهم، ولو سمعوا- على الفرض والتقدير- ما استجابوا لهم؛ لأنهم لا يملكون من الأمر شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾.

٣٥- كفر هؤلاء المعبودين وجحودهم شرك من أشرك بهم، وتبرؤهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾.

٣٦- إثبات القيامة والبعث والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾.

٣٧- أنه لا أحد أصدق خبرًا من الله تعالى؛ لإحاطة علمه بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: المحتاجون إلى الله من جميع الوجوه، وفي جميع الأحوال، والخلق كلهم مفتقرون إلى الله.

وإنما خص الناس؛ لأنهم هم العقلاء المكلفون، المخاطبون بالشرع، ولأن منهم من قد يطغيه ما أعطي من الدنيا- بخلاف سائر المخلوقات- فيظن أنه في غنى عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

بل لقد قال اليهود لعنة الله عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، والله وحده هو الغني؛ أي: ذو الغنى الواسع التام من جميع الوجوه، الغني عما سواه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ﴾ [التغابن: ٦].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: الحميد في ذاته وصفاته، وفي شرعه وقدره وجزائه، المحمود على غناه؛ لجوده وكرمه وإحسانه، فهو عز وجل الحميد في غناه، الغني في حمده.

قال ابن القيم: «بيّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم؛ كما أن كونه غنيًّا حميدًا ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر

سواه إليه ثابت لذاته، لا لأمر أوجبه؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

فالفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالعالم كله فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى، وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيًّا؛ كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا، والرب إلا ربًّا»(١).

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: إن يشأ عز وجل يذهبكم أيها الناس ويهلككم، ويأتِ بآخرين أطوع لله منكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ويحتمل أن المراد: إثبات البعث والنشور؛ أي: ويبعثكم خلقًا جديدًا يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٩- ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

ويدل على هذا المعنى قوله بعده: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾، أي: وما إذهابكم وإهلاككم والإتيان بخلق جديد ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، أي: بممتنع ولا معجز له؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء؛ لتمام قدرته، وسعة علمه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَازِرَةٌ﴾ تحتمل معنيين: إما أن تكون بمعنى: مذنبة، أو بمعنى: أنها من ذوات الوزر؛ أي: مكلَّفة. فالمعنى: ولا تحمل نفس مذنبة أو مكلفة- وإن لم تذنب- ذنب نفس أخرى يوم القيامة، بل يجازَى كلٌّ بعمله، ولا يحمل أحد ذنب

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٤.

أحد، ولا يُحمَّل أحد ذنب غيره.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لما ذكر أنه لا تحمل نفس وازرة وزر نفس أخرى ابتداءً، أتبع ذلك بذكر أنه حتى لو كان ذلك بطلبٍ منها لثقل حملها؛ فإنه لا يحمل منه شيء.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ الواو: عاطفة، ﴿مُثْقَلَةٌ﴾: نكرة في سياق الشرط فتعم؛ أي: وإن تدع أيّ نفس مثقلة بالأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾؛ ليحمل عنها أو بعضه.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ جواب الشرط؛ أي: لا يحمل من حملها ووزرها شيء.

و«شيء»: نكرة في سياق الشرط، فتعم؛ أي: لا يحمل منه أيّ شيء مهما قل؛ لأن كل إنسان مرتهن بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩].

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: ولو كان المدعو للحمل عنها ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: ذا قرابة منها، أبًا أو ابنًا أو غير ذلك، فإنه لا يحمل عنها شيئًا؛ لانشغال كل بنفسه وحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

والناس في الدنيا يتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويقول قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بدون سلاح(١)

ولكن في الآخرة هيهات لهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾: «إنما» أداة حصر. والحصر: إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه؛ أي: إنما تنذر يا محمد؛ أي: تخوف وتحذر من عذاب الله.

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾، أي: يخافون ربهم ويعظمونه في قلوبهم؛ لعلمهم ومعرفتهم به.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: وهو عز وجل غيب لم يروه، وإنما استدلوا عليه بآياته الكونية والشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

وهذا غاية الإحسان؛ كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وأيضًا: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: وهم في غيبة عن أعين الناس. فهم في خشيتهم لله تعالى ومراقبتهم له في حال سرهم وغيبتهم عن الناس؛ كحال علانيتهم وكونهم في مشهد من الناس.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، أي: وأقاموا الصلاة فرضها ونفلها بجوارحهم، إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها وسننها، وحافظوا عليها.

وخص الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وعمود الإسلام، وقاعدته التي يدور عليها رحاه، وميزان الأعمال، ونور المسلم.

وإنما خص بالإنذار الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار دون من عداهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وإلا فهو ﷺ نذير للناس كافة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ «من»: شرطية؛ أي: ومن تزكى؛ أي: ومن تطهر من الشرك والمعاصي والرياء، وغير ذلك من أمراض القلوب والجوارح، وزكى باطنه بخشية الله تعالى في السر والعلانية، وظاهره بإيتاء الزكاة والأعمال الصالحة.

﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما»: أداة حصر؛ أي: فإنما يعود نفع تزكيه لنفسه هو، لا إلى غيره، والله عز وجل لا ينتفع بذلك؛ كما قال تعالى:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع والمآل والمآب؛ أي: إليه وحده مصير الأمور كلها، في الدنيا والآخرة، ومرجع الخلائق كلهم يوم القيامة إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

وفي هذا وعد لمن خشي الله وأطاعه، ووعيد لمن كفر به وعصاه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾:

في هذه الآيات ضرب الله أربعة أمثال؛ لبيان الفرق الشاسع، والبون الواسع، بين المؤمن والكافر، وبين الإيمان والكفر.

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾، أي: وما يستوي الأعمى، فاقد البصر، الذي لا يرى طريقه، ولا يشاهد ما حوله، ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يبصر طريقه، ويرى ويشاهد ما حوله، وكذلك لا يستوي المؤمن الذي اهتدى للطريق المستقيم فهو على نور من ربه، والكافر الذي يتخبط في ظلمات الجهل والكفر حائرًا مذبذبًا؛ كما قال تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه يمتدح النبي ﷺ:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع[1]

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ «لا»: زائدة لتأكيد النفي في المواضع الخمسة؛ أي: ولا تستوي الظلمات التي تجعل المرء حائرًا لا يدري أيّ طريق يسلك، ولا بأي اتجاه يسير.

﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الذي يستنير به صاحبه، ويعرف به الطريق الموصل إلى مقصوده، وكذلك لا يستوي الكفر ولا الإيمان، فالكفر جهل وظلام وحيرة وقلق وتذبذب، والإيمان علم ونور وبصيرة، وطمأنينة وثبات؛ كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

ولهذا جمع الظلمات؛ لأن طرق الكفر كثيرة متشعبة، يسير فيها الكافر على غير هدى متشعب القلب في اتجاهات متعددة منحرفة في كل وادٍ.

وأفرد النور؛ لأن طريق الإيمان واحد، وهو صراط الله المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، أي: ولا يستوي الظل ولا الحرور، وهو حر الشمس أو الريح الحارة والسموم، فالظل بارد مريح لمن جلس فيه، والحرور مزعج متعب لمن ابتلي به، وكذلك لا يستوي الإيمان والكفر، فالإيمان طمأنينة وسعادة لأهله، والكفر قلق وشقاء لأهله.

ولا يستوي المؤمن والكافر، لا في ذاتيتهما، ولا في عملهما ومنهجهما، ولا في مآلهما ومستقرهما.

وقدم الظل على الحرور- والله أعلم- لمراعاة الفاصلة.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ﴾؛ لأن الأحياء يتحركون ويذهبون ويجيئون

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد ١١٥٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويسمعون ويعقلون ويأكلون ويشربون وغير ذلك، والأموات كالجمادات لا شيء عندهم من ذلك، وكذلك لا يستوي المؤمنون، الذين أحيا الله قلوبهم بالإيمان، والكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن القيم: «فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرًا حيًّا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيرًا بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حر الكفر والشرك والضلال، منغمسًا في الظلمات»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: إن الله يسمع الذي يشاء من عباده؛ أي: يسمعهم الحق سماع فهم وقبول؛ لأنه سبحانه هو الهادي الموفق.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ الباء: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ أي: وما أنت بمسمع الذين في القبور؛ لأنهم موتى لا يسمعون ولا يعقلون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٨٠].

أي: وما أنت بمسمع موتى القلوب من الكفار؛ لأنهم كالأموات.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما أنت إلا نذير، وليس عليك أن توصل الهداية إلى قلوب الكفار، واقتصر على الإنذار؛ لأن السياق مع الكفار.

وأيضًا: فإن من لازم الإنذار تبليغ الأوامر والنواهي، التي يُنذر ويحذر من مخالفتها، ومفهوم ذلك أن من امتثلها فله البشارة؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: إنا أرسلناك يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة؛ أي: بالدين الحق والعدل والصدق والهدى؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار والشقاء في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٥.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: نافية، بمعنى: «ما»، و«من»: زائدة للتوكيد؛ أي: وما من أمة من الأمم الخالية الماضية.

﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مضى فيها نذير، إقامة للحجة عليهم، فلست بدعًا من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، أي: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك.

﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم، فليس ببدع أن يكذبك قومك؛ لأن الذين من قبلهم كذبوا الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الباء في المواضع الثلاثة للمصاحبة؛ أي: جاءتهم رسلهم مصطحبين الآيات البينات، والدلائل الواضحات، والمعجزات الظاهرات، الدالة على صدقهم وصدق ما جاؤوا به من الحق.

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾، أي: وجاءتهم بالزبر، و«الزبر»: جمع «زبور» وهي: الكتب المجموع فيها كثير من الأحكام كزبور داود، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، أي: وجاءتهم بالكتاب المنير، والكتاب: اسم جنس، يشمل كل كتاب بعث به عز وجل أحدًا من رسله؛ كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿ٱلْمُنِيرِ﴾: المضيء الواضح البين الذي لا لبس فيه، الهادي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم؛ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم، فيما جاؤوهم به.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: ثم عاقبت الذين كفروا من أولئك الأقوام بسبب تكذيبهم رسلهم، وما جاؤوهم به من الآيات والبراهين والمعجزات.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الاستفهام للتقرير؛ أي: فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم؟ أي: ما أشد إنكاري عليهم وعقابي لهم؛ أي: أنه واقع موقعه، وعين الحكمة والصواب؛ لشدة كفرهم.

أي: فليحذر قومك من تكذيبك فيما جئتهم به من الحق، فيصيبهم ما أصاب أولئك الأقوام من النكال والعذاب الأليم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- أن رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي عام لجميع الناس؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٣- افتقار الناس كلهم إلى الله تعالى، وحاجتهم المطلقة إليه عز وجل من جميع الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٤- إثبات اسم الله تعالى: «الغني»، وأنه سبحانه بذاته ذو الغنى الواسع الكامل المطلق، المختص بذلك من جميع الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ وأنه سبحانه الحميد في أسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله، وفي قدره وشرعه وجزائه، وفي غناه.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «الغني» و«الحميد» في الآية، وفي مواضع عدة في القرآن الكريم دلالة على كمال غناه؛ لأنه عز وجل المحمود في غناه لكرمه وجوده وإحسانه.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ﴾، وقوله: ﴿يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾.

٨- إثبات تمام قدرته تعالى على إذهاب الناس وإعادتهم خلقًا جديدًا يوم القيامة، وعلى إهلاك المكذبين والإتيان بخير منهم، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

٩- أن إذهاب الناس وإهلاكهم، والإتيان بخلق جديد ليس بممتنع على الله تعالى

ولا معجز له؛ لأنه على كل شيء قدير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

١٠- التحذير من مخالفة أمر الله تعالى، والتولي عنه؛ كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

١١- كمال عدل الله عز وجل بين الخلائق يوم القيامة، فلا تحمل نفس وزر نفس أخرى، بل كل يجازى بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

١٢- أنه لا يقبل التحميل إلا من كان أهلًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَازِرَةٌ﴾ لأن غير الوازرة لا تحمل إثم نفسها فضلًا عن إثم غيرها.

١٣- أنه لو سألت نفس مثقلة بالأوزار أن يحمل عنها من ذلك، لم يحمل عنها أحد شيئًا من ذلك، ولو كان من أقرب الناس إليها، فكل مرتهن بعمله، وكل مشغول بخلاص نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، فلا يستطيع أحد أن يحمل عن أحد، ولا هو يقبل ذلك لو مُكِّن منه.

١٤- أنه إنما ينتفع بالإنذار الذين جمعوا بين صلاح الباطن، بخشية ربهم وهو غيب لم يروه، وهم غُيَّبٌ عن أعين الناس، وصلاح الظاهر، بإقام الصلاة؛ لأن الله خصهم بالذكر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ علمًا أنه ﷺ نذير للناس جميعًا.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأهل خشيته وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

١٦- أهمية صلاح القلب والباطن، وأنه سبب لصلاح الظاهر؛ لهذا قدمت الخشية في الآية.

١٧- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، وأنها أعظم العبادات البدنية؛ لهذا خصت بالذكر في الآية من بين العبادات.

١٨- أن من تزكى وتطهر بخشية الله تعالى بالغيب، وصلاح الباطن، وبإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من الأعمال الظاهرة، فإنما يعود نفع ذلك لنفسه، ولا ينال الله من ذلك شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى**

قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا»(١).

١٩- الترغيب والحث على تزكية النفس باطنًا وظاهرًا بالإخلاص والأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة، والبعد عنها.

٢٠- أن مصير الأمور، ومرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وفي هذا وعد لمن زكى نفسه بالأعمال الصالحة، ووعيد لمن دنسها بالكفر والمعاصي.

٢١- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا الأحياء ولا الأموات؛ فإنه لا يستوي الكافر والمؤمن، ولا يستوي الكفر والإيمان، ولا يستوي مستقر المؤمنين الجنة، ومستقر الكافرين النار، ولا يستوي أهل العلم والمعرفة بالله أحياء القلوب، وأهل الجهل والسفه موتى القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾.

٢٢- أن طريق الإيمان والحق واحد، وطرق الكفر والباطل كثيرة متشعبة؛ لهذا جمع الظلمات وأفرد النور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾.

٢٣- أن الله يُسمع الحق من يشاء من عباده سماع فهم وقبول؛ لأن التوفيق بيده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، فيجب طلب الهداية منه وحده.

٢٤- أن أفعال العباد واقعة بتقدير الله تعالى ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، وفي هذا رد على القدرية المنكرين لذلك.

٢٥- أن موتى القلوب من الكفار، لا يمكن أن يسمعوا سماع فهم؛ لأنهم كأصحاب القبور الذين لا يسمعون مطلقًا.

٢٦- أن إسماع الناس الحق، سماع فهم وهدايتهم ليست إليه ﷺ، إنما هو نذير محذر من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

---

(١) سبق تخريجه.

٢٧- إثبات وتأكيد رسالته ﷺ من عند الله عز وجل، بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين من النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾.

٢٨- تشريفه ﷺ، وتكريمه بخطاب الله تعالى له، واصطفائه للرسالة.

٢٩- أن ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن والسنة هو الحق الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، صدقٌ في الأخبار، وعدلٌ في الأحكام.

٣٠- رحمة الله تعالى بالعباد، وإقامته الحجة عليهم، بإرسال الرسل إلى جميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾.

٣١- أنه ﷺ ليس بدعًا من الرسل، فقد خلت من قبله الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

٣٢- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له، ولما جاء به من الحق بذكر تكذيب الأمم لرسلهم من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

٣٣- أن المكذبين من الأمم السابقة كذبوا رسلهم بعدما أقاموا عليهم الحجة بالآيات البينات والزبر والكتاب المنير، ولم ينجع ذلك فيهم؛ كما كذبه المشركون وقد جاءهم بالقرآن الكريم، أفصح كتب الله تعالى، وأبينها وأفضلها؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾.

٣٤- اشتمال الكتب السماوية على ما فيه هداية الناس من الآيات البينات، والأحكام والمواعظ، والهدى والنور.

٣٥- شدة أخذه عز وجل وعقابه للذين كفروا، وإنكاره عليهم، وتحذير المكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له؛ أي: ألم تشاهد وتبصر أن الله أنزل من السماء؛ أي: من السحاب الذي في العلو، ﴿مَآءً﴾ وهو المطر.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ الفاء: عاطفة، وفي «أخرجنا» التفات من الغيبة إلى التكلم؛ لتنبيه المخاطب، ولتعظيم نفسه عز وجل؛ لأن إخراج الثمرات بالماء أعظم من إنزاله بالنسبة للنعمة على العباد؛ فإنه لو نزل المطر ولم يخرج النبات لم ينتفع الناس؛ ولهذا قال ﷺ: «**ليست السنة بألا تمطروا، ولكن السنة أن تمطرا وتمطروا، ولا ينبت لكم**»(١).

والباء في قوله ﴿بِهِۦ﴾: للسببية؛ أي: فأخرجنا بسبب الماء الذي أنزلناه من السماء ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿مُّخْتَلِفًا﴾ صفة لـ«ثمرات» منصوب، ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾ فاعل لاسم الفاعل «مختلفًا»؛ أي: مختلفًا ألوانها أحمر وأصفر وأخضر، وغير ذلك، ومختلفًا أصنافها وأشكالها وطعومها وروائحها ومنافعها؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، باب في سكنى المدينة ٢٩٠٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿جُدَدٌ﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ﴾ صفات لـ«جدد»، ﴿أَلْوَانُهَا﴾ فاعل لاسم الفاعل «مختلف».

و«جدد»: جمع «جُدَّة»؛ وهي الطرق في الجبل والخطوط المختلفة عنه في لونها: بيض وحمر وصفر وغير ذلك، وفي ماهيتها.

﴿وَغَرَابِيبُ﴾: معطوف على ﴿جُدَدٌ﴾، و«غرابيب»: جمع غربيب، والغربيب: الشيء الأسود الحالك؛ أي: شديد السواد.

﴿سُودٌ﴾: بدل من «غربيب»، أو عطف بيان على نية التأكيد، وهي جمع «أسود».

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾.

و«الناس»: البشر، بنو آدم.

﴿وَالدَّوَابِّ﴾ كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوانات، والطيور، والحشرات، وغير ذلك.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: الإبل والبقر والضأن والمعز، وكل ما ينتفع به؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١].

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ فالناس منهم الأبيض والأسود والأحمر، وما بين ذلك، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والدواب كذلك مختلفة الألوان والأشكال، وكذلك الأنعام منها الأبيض والأسود والأحمر وغير ذلك، ومنها ما يجمع بين لونين كالأبلق، الذي يجمع بين البياض والسواد.

كما تختلف أجناس الناس وأشكالهم وصفاتهم وغير ذلك، وكذلك الدواب

والأنعام، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

لما ذكر دلائل كمال قدرته وعظمته في إنزال المطر، وإخراج الثمرات المختلفة، وإيجاد الجبال مختلفة الألوان، والناس والدواب والأنعام، ذكر أنه إنما يخشى الله بالتأمل في دلائل قدرته العلماء.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، ﴿يَخْشَى ٱللَّهَ﴾، أي: يخافه أشد الخوف ويعظمه، ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، أي: العلماء العارفون بالله، وما يجب له، العالمون بشرعه، العاملون به، فمن كان بالله أعلم كان له أخشى.

ولهذا كان ﷺ أتقى الناس لربه، وأخشاهم لله(١).

وليس المراد بالعلماء: طلاب المناصب والأموال والبدلات، الذين يرون أنفسهم كالأُجراء، ولا يحتسبون لله شيئًا في عملهم، وتثور حفيظتهم لو تأخرت مرتباتهم، أو انتقص منها درهم.

قال ابن القيم: «يقتضي الحصر من الطرفين: ألا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم».

وقال أيضًا: «ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته لله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته»(٢).

قال بعضهم: العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله.

فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض. قلت: وما أقل هؤلاء!

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨؛ من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٥، ٤٤٨.

والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود والفرائض.

والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله عز وجل(١).

قلت: وما أكثر هؤلاء، لا كثّرهم الله، وهم أول من تسعر بهم النار؛ كما جاء في الحديث(٢).

قال الشاعر:

وعـــالم بعلمـــه لم يعملـــنْ معـذب مـن قبـل عبـاد الـوثنْ(٣)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾، أي: له العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

﴿غَفُورٌ﴾، أي: واسع المغفرة، يغفر ذنوب عباده، بسترها، والتجاوز عنها.

فمن تاب إليه من أي ذنب حتى الشرك غفر له، ومن لقيه لا يشرك به شيئًا غفر له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾:

امتدح الله عز وجل في الآية السابقة العلماء، فحصر خشيته فيهم، ثم أبان عن صفتهم وأعمالهم، عما أعده لهم من الأجور والزيادة من فضله في هاتين الآيتين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، أي: يقرؤون كتاب الله القرآن الكريم، ويتبعونه، فيتدبرون ألفاظه ومعانيه، ويصدقون أخباره، ويعملون بأحكامه، وهم المؤمنون أهل العلم والمعرفة بالله؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وعن أبي عبدالرحمن السلمي، قال: حدثنا من كان يقرئنا القرآن من أصحاب النبي الله ﷺ أنهم كانوا يقترؤن من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يتعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: «فعلمنا العلم والعمل»(٤).

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٣١.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان شرح زبد ابن رسلان» ص٤.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٤١٠.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إقامة تامة كما شرعها الله عز وجل، فرضها ونفلها، وحافظوا عليها.

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ «من»: تبعيضية، أو للجنس؛ أي: وأخرجوا من الذي أعطيناهم من الأموال النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، والنفقات المستحبة من الصدقات والهدايا ونحو ذلك.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، أي: خفيةً وجهرًا، حسب مقتضى الحال، فقد يكون الإسرار أفضل؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص وأسلم من الرياء، وقد يكون الإعلان أولى إذا كان بقصد تشجيع الآخرين على الصدقة والمنافسة، وغير ذلك، وقدّم الإسرار؛ لأنه أفضل وأولى من حيث العموم، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال ﷺ: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن»؛ أي: يطلبون ويؤملون تجارة.

والتجارة في الأصل: اسم يقع على عقود المعاوضات التي تطلب بها الأرباح، كالبيع والشراء والإجارة وغير ذلك.

والمراد بها هنا: المتاجرة مع الله بالأعمال الصالحة، التي هي سبب لنيل ثوابه عز وجل وجنته، والتي لا تقدر بعوض.

﴿لَّن تَبُورَ﴾، أي: لن تكسد ولن تفسد، بل هي أجلُّ التجارات وأعلاها، وأربحها وأعظمها وأبقاها؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الصف: ١٠- ١٢].

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

قال ابن القيم(٢):

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... بالألف إلا واحد لا اثنان

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يعطيهم الله أجورهم وافية كاملة من غير نقص، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

أي: أجور وثواب أعمالهم الصالحة، من تلاوة كتاب الله تعالى، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله سرًّا وعلانية.

وسُمي ثواب أعمالهم أجورًا- مع أنه لا يجب على الله تعالى شيء لخلقه- إيذانًا بضمان ذلك لهم؛ لأن الأجر لا بد أن يدفع لمن قام بالعمل؛ كما قال عز وجل في الحديث **ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»(٣).

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: ويزيدهم على أجورهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، أي: مما عنده من الفضل العظيم، والزيادة والإحسان لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»(٤).

ويزيدهم من فضله في دينهم؛ بأن يحبب إليهم الازدياد من العمل الصالح؛ لأن

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٢) «النونية» ص ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، إثم من باع حرًّا ٢٢٢٧، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

الحسنة سبب لعمل الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

ويزيدهم من فضله أيضًا في دنياهم بالخلف العاجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: تعليل لما قبله؛ أي: لأنه عز وجل ذو مغفرة واسعة لمن تاب إليه.

﴿شَكُورٌ﴾، أي: يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، ويعطي العامل أجره ويزيده من فضله، ويجازي من أحسن العمل بإحسان الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: والذي أوحينا إليك يا محمد من الكتاب؛ أي: القرآن.

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، فالجملة فيها توكيد وحصر بكونها اسمية معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق وحده دون ما عداه؛ أي: هو الحق الثابت والصدق والعدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: لما سبقه من الكتب والرسل؛ لأنها بشرت وأخبرت به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ أي: وإنه لمذكور في كتب الأولين، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

فلما جاء ظهر به صدقها، فكان مصداق ما أخبرت؛ كما أنه شاهد بصدقها؛ لما فيه من ذكر الرسل وكتبهم التي أنزلت عليهم؛ كما أنه شاهد بصدقها، وهي شاهدة بصدقه؛ لتطابق أخبارهما، وتطابقهما في أصول الشرائع، من الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك ونحو ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ «الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، و«البصير»: المطلع على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها، والأمور المبصرة والمحسوسة؛ فهو عز وجل خبير بصير بأحوالهم وأعمالهم، يعطي كلًّا منهم ما يستحق، ويجازي كلًّا منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن صدّق بالقرآن وآمن به، ووعيد لمن كذبه وكفر به.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: ثم أعطينا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: الكتاب العظيم المهيمن على جميع الكتب قبله، وهو القرآن الكريم، المصدق لما بين يديه من الكتاب.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾، أي: الذين اخترناهم واجتبيناهم من عبادنا، وهم أمة محمد ﷺ، اصطفاهم الله تعالى، واختارهم من بين الأمم، وجعلهم يرثون الكتاب المهيمن على جميع الكتب قبله.

﴿فَمِنْهُمْ﴾، أي: فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا، وهم هذه الأمة.

﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ منتقص بعض حقها، مفرط في فعل بعض الواجبات، مرتكب لبعض المحرمات، قال بعضهم: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مكتفٍ بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: مجتهد بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بأمر الله تعالى الكوني، يعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

﴿ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾، قال: هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»(١).

قال ابن كثير(٢): «فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة». ثم ذكر حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**»(٣).

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى توريث الكتاب العظيم لمن اصطفاهم الله تعالى من عباده، وهم هذه الأمة، وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد «ذلك» تعظيمًا له.

﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر، فالجملة فيها توكيد وحصر بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هو»؛ أي: ذلك هو العطاء الكبير في كيفيته الكثير في كميته وعدده، الذي لا فضل أكبر منه على الإطلاق، ولا نعمة أعظم منه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾.

لما ذكر توريثه الكتاب للذين اصطفاهم الله تعالى من هذه الأمة، ونيلهم بذلك

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٣٦٨، وروي بأطول من هذا من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أخرجه أحمد ٥/ ١٩٨.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٥٣٦.

(٣) أخرجه أبو داود في العلم، الحث على طلب العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم، فضل الفقه في العبادة ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة، فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

الفضل الكبير، ذكر ما أعد لهم من الثواب العظيم. نسأل الله من فضله.

قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ «جنات»: جمع «جنة» وهي ما أعده الله تعالى لأوليائه يوم القيامة من البساتين العظيمة، والمنازل الرفيعة، والغرفات العالية.

و﴿عَدۡنٖ﴾ بمعنى: «إقامة»؛ أي: جنات الإقامة والخلود الأبدي التي لا يظعن أهلها، ولا يخرجون منها، ولا يفنون، ولا يبغون عنها حولًا.

﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ الضمير يعود للذين أورثهم الله تعالى الكتاب، واصطفاهم من عباده من هذه الأمة الذين نالوا الفضل الكبير.

وقدّم- والله أعلم- وصفها بـ«عدن» قبل ذكر دخولهم إياها؛ تعظيمًا لشأنها، وبشارة لهم بالخلود فيها.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ قرأ عاصم وأبو جعفر: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ بالنصب معطوفة على محل ﴿أَسَاوِرَ﴾ وقرأ الباقون بالجر: «وَلُؤْلُؤٍ»؛ معطوفة على «ذَهَبٍ».

أي: يحلون في الجنان؛ أي: يزينون ويلبسون فيها ذكورهم وإناثهم.

﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ «من» تبعيضية، و«أساور»: جمع سوار، وهو ما تسور وتزين به الأيدي. وفي الحديث: «**تبلغ الحلية من المؤمن كما يبلغ الوضوء**»(١).

﴿مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ «اللؤلؤ»: الدر والجمان والجوهر. فحليتهم فيها من الذهب واللؤلؤ، ومن الفضة أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١].

﴿وَلِبَاسُهُمۡ﴾ ذكورهم وإناثهم، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿حَرِيرٞ﴾ من سندس وإستبرق أخضر، من أنعم اللباس وأرقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣].

وقد كان الذهب والحرير في الدنيا محرمًا على الذكور؛ كما قال ﷺ: «**هذان**- يعني:

---

(١) سبق تخريجه.

الذهب والحرير- **حرام على ذكور أمتي**»[١] فأحلهما الله لهم كرامة لأهل الجنة.

﴿وَقَالُواْ﴾، أي: وقال أهل الجنات بعد دخولهم الجنات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، أي: الذي أزال وأبعد عنا الحزن، و«أل» في «الحزن» للاستغراق، و«الحزن»: الأسى والغمّ على ما مضى، والهمّ والخوف مما يستقبل.

أي: الحمد لله الذي أزال عنا الحزن، بإكمال النعمة علينا، وسلامتنا من جميع الأكدار والمنغصات، فلا نأسى على شيء، وهذا من أعظم نعيم أهل الجنة؛ لأن الحزن هو الذي نكّد على أهل الدنيا حياتهم، وكدر صفو عيشهم.

قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم[٢]

وفي الحديث: «**يؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»[٣].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ اللام: للتوكيد؛ أي: لذو مغفرة واسعة، يغفر ما دون الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب حتى الشرك.

﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاعه وامتثل أمره، يعطي العطاء الجزيل على العمل القليل، ويضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «غفر الله لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات»[٤].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾، أي: الذي أنزلنا وأسكننا دار الإقامة الدائمة، التي لا

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٥٧، والنسائي في الزينة ٥١٤٤؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٤٢.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، صبغ أنعم أهل الدنيا في النار ٢٨٠٧.

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٣٧.

يرغب ساكنها التحول عنها، ولا يُخرج منها.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ «من»: سببية؛ أي: بسبب فضله علينا، وعطائه لنا، وجوده وكرمه وإحسانه إلينا، لا بعملنا؛ كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحد منكم عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، أي: إننا في راحة تامة تامة، لا يصيبنا فيها ﴿نَصَبٌ﴾، أي: تعب ومشقة، بسبب حر أو برد، أو غير ذلك.

﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أعاد النفي والفعل للتأكيد؛ أي: ولا يصيبنا فيها لغوب؛ أي: إعياء وفتور، وهو ما يحصل أحيانًا نتيجة التعب، وأحيانًا بدون ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- التقرير والتنبيه والبيان لكمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، وبديع حكمته، في إنزاله من السماء ماء، وإخراجه به النباتات المتنوعة، المختلفة الألوان والطعوم، مع اتحاد مادتها: ماء واحد، وأرض واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٣- كمال عظمته عز وجل وبديع صنعه في خلق الجبال العظيمة، مختلفة الألوان والطرائق والأشكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

٤- تمام قدرته تعالى ونعمته، وبالغ حكمته في خلق الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان والأشكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾.

٥- أنه إنما يخشى الله ويخافه العلماء العارفون بالله وما يجب له، فهم الذين يتأملون

---

(١) سبق تخريجه.

في آيات الله، وكمال قدرته، وتمام نعمته، وبديع صنعه في إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفة، وخلق الجبال والناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

٦- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ﴾.

٧- فضيلة العلم وأهله العاملين به؛ لأن الله امتدحهم وأثنى عليهم، وخصهم بخشيته؛ لأن العلم سبب لخشيته عز وجل.

٨- أن من خشي الله فآمن وعمل صالحًا فهو عالم مهما قلّ علمه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٧، ٨].

٩- أن من لم يخش الله فهو جاهل، جهلًا مركبًا، أجهل من حمار أهله، مهما بلغ من العلم؛ لأن ثمرة العلم هي خشية الله تعالى، وماذا علم من لم يعرف قدر ربه، خالقه ومالكه ومدبر أمره.

١٠- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

١١- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾.

١٢- امتداح الله عز وجل للذين يتلون كتابه، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، وبيان عظم ما أعد لهم من الأجور والزيادة من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

١٣- الترغيب في اتباع كتاب الله تعالى، وقراءته وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، والعمل به؛ وإقام الصلاة، والإنفاق من رزق الله عز وجل في الوجوه الواجبة والمستحبة؛ لأن الله امتدح المتصفين بذلك، ووعدهم عليه بالأجر العظيم.

١٤- أنه إنما يمدح من جمع بين تلاوة القرآن والعمل به، بإقام الصلاة، والإنفاق من رزق الله، وغير ذلك؛ أي: من أقام حروفه وحدوده، لا من أقام حروفه وضيع

حدوده؛ كما هو حال كثير من القراء اليوم، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في ذكر الثلاثة الذين أول ما يقضى يوم القيامة عليهم، وأول من تسعر بهم النار، قال: رجل استشهد- فذكره- ثم قال: «**ورجل تعلم العلم، وقرأ القرآن، فأتي به، وعرفه نعمه، فعرفها، قال، فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**» الحديث(١).

١٥- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لأن الله قدّم ذكرها في الآية.

١٦- فضيلة الإنفاق في الوجوه الواجبة كالزكاة وغيرها، والمستحبة كالصدقة، ونحو ذلك؛ لأن الله ذكر ذلك بعد الصلاة.

١٧- أن الرزق كله من الله تعالى، فلا ينبغي البخل في الإنفاق منه ولا طلبه من غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

١٨- جواز الإنفاق وإخراج الزكاة والصدقات ونحو ذلك سرًّا وعلانية، والإسرار أفضل؛ ولهذا قُدِّم في الآية، ما لم تدع حاجة إلى الإعلان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

١٩- أن التجارة مع الله تعالى هي التجارة الرابحة، التي لا تكسد ولا تخسر، ولا ينقطع ربحها وثوابها، وذلك بالأعمال الصالحة ابتغاء جنته وثوابه العظيم، وفضله العميم؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٢٠- وجوب الإخلاص لله تعالى في العمل، وطلب الأجر والثواب منه، وابتغاء مرضاته، بلا رياء ولا سمعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ﴾.

٢١- فضيلة الرجاء وحسن الظن بالله، إذا قارن ذلك الإيمان والعمل الصالح، بل الواجب أن يجمع المؤمن بينهما.

٢٢- أن طلب الفضل والأجر من الله غاية عظيمة؛ كما قال تعالى في وصف نبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٠٥، والنسائي في الجهاد ٣١٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٨٢.

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يقولون: نعبد الله لله، لا رجاءً في ثوابه، ولا خوفًا من عقابه.

٢٣- توفية المؤمنين أجورهم تامة غير ناقصة، وضمانه عز وجل إياها لهم؛ لهذا سماها: «أجورهم»، وزيادتهم على ذلك من فضله عليها.

٢٤- أن الله عز وجل شكور يعطي الأجر والثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿شَكُورٌ﴾.

٢٥- إثبات أن القرآن هو كلام الله، أوحاه إلى نبيه ﷺ، وأنه هو الحق الثابت المصدق لما سبقه من كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهو مصداق ما أخبرت وبشرت به، وهو شاهد على صدقها.

٢٦- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وبما أوحي إليه من هذا القرآن العظيم.

٢٧- اطلاع الله عز وجل التام على أحوال العباد، بواطنها ودقائقها وخفياتها، وعلى ظواهرها وجلائلها وجلياتها، وتمام خبرته وبصره بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن آمن بالقرآن وعمل بما فيه، ووعيد لمن كفر به، وخالفه.

٢٨- امتنان الله عز وجل على هذه الأمة بتوريثهم الكتاب العظيم: «القرآن الكريم» أفضل كتب الله عز وجل، المهيمن على جميع الكتب السابقة، والحاكم عليها، واختيارهم واجتباؤهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٢٩- أن هذه الأمة أفضل الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣٠- الإشارة لطول الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾.

٣١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٣٢- انقسام الذين أورثهم الله تعالى الكتاب إلى أقسام ثلاثة: ظالم لنفسه بالتفريط في بعض الواجبات، وارتكاب بعض المحرمات، ومقتصد مكتفٍ بفعل الواجبات، وترك

المحرمات، وسابق بالخيرات بإذن الله، مجتهد بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٣٣- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن تفاضل الأعمال يدل على تفاضل الإيمان وزيادته ونقصانه.

٣٤- إثبات الإذن الكوني لله تعالى، وأن كل ما يفعله المرء من خير أو شر، فهو بإذن الله الكوني وإرادته الكونية ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد ليست بتقدير الله، ولا مخلوقة له، بل ولا معلومة له قبل فعلهم لها. تعالى الله عن قولهم.

٣٥- أن ما ييسر للإنسان من سبق في الخير فهو بتوفيق الله وتقديره، فلا ينبغي أن يفخر بذلك وينسبه إلى نفسه، أو يمنَّ به.

٣٦- أن أكبر فضل يتفضل الله به على عبده: أن يوفقه للإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

٣٧- عظم ما أعده الله تعالى لمن أورثهم الكتاب واصطفاهم من عباده، من دخولهم جنات عدن يقيمون فيها ولا يظعنون، ويتنعمون بما فيها من أنواع الفواكه وأصناف الثمار، ويتجملون فيها بالحلي، ولبس الحرير، والناعم من الثياب؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٣٨- أن الجنة دار ثواب وجزاء، وليست دار تكليف وعمل؛ ولهذا يتنعم أهلها بكل ما شاؤوا من أنواع المآكل والمشارب، والحلية واللباس، وغير ذلك، ولا يمنعون من شيء مما كان محرمًا على أهل الدنيا كالتحلي بالذهب ولبس الحرير للرجال.

٣٩- اغتباط أهل الجنة، وثناؤهم على الله تعالى الذي أذهب عنهم الحزن، وأولاهم النعم، ودفع عنهم النقم، وغفر لهم، وجازاهم بالثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

٤٠- كمال الفرح والسرور لأهل الجنة؛ لقولهم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ والصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فهم في غاية السرور، فلا يأسون على

ما مضى، ولا يغتمون ولا يهتمون لما يستقبل، وهذا من أعظم نعيم أهل الجنة.

٤١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾.

٤٢- ثناؤهم على الله تعالى بأن أسكنهم الجنة دار المقامة بفضله، لا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء؛ لقولهم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

٤٣- أن دار الجنة دار إقامة، من دخلها لا يريد الظعن منها، ولا التحول عنها، ويخلد فيها أبدًا.

٤٤- أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله، وإنما بفضل الله عز وجل ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

٤٥- كمال راحة أهل الجنة، فلا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

٤٦- أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم إنما يحتاج إليه لنقض التعب والإعياء، وهم لا يحصل لهم تعب ولا إعياء؛ كما أن النوم نقص؛ لأنه أخو الموت، فهو الموتة الصغرى.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

هذا من أظهر الأدلة على أن الأقسام الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن الله؛ كلهم من المؤمنين من هذه الأمة؛ لأن الله قابل بينهم وبين جزائهم بذكر الكافرين وجزائهم، فبعد أن ذكر ما أعده لأوليائه من الجنات والنعيم وطيب المقام، أتبع ذلك بذكر ما أعد للكفار، من النار، والعذاب الشديد، والتقريع، وسوء المقام، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: كفروا بالله، وكذبوا رسله، وجحدوا آياته، وأنكروا لقاءه ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ ليس لهم سواها، يعذبون فيها أشد العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

و«نار جهنم»: من إضافة الموصوف إلى صفته، وسميت «جهنم»؛ لجهمتها؛ أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت؛ أي: لا يحكم عليهم كونًا بالموت.

﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ الفاء للسببية؛ أي: فيموتوا ويستريحوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١٢، ١٣].

وقال ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون**»(١).

فلا هم يموتون فيستريحون، ولا يحيون حياة طيبة، بل هم في عذاب دائم يتمنون الموت فلا يحصل لهم.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ لا من شدته، ولا من دوامه واستمراره، ولو يومًا أو لحظة، بل هو شديد ومستمر لا ينقطع أبدًا؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء في: «يُجْزَى»، ورفع «كلٌّ».

وقرأ الباقون بالنون وفتحها وكسر الزاي ونصب «كلَّ»: ﴿نَجْزِى كُلَّ﴾.

أي: مثل هذا الجزاء الشديد الأليم بنار جهنم نجزي كل كفور، و«كفور» صفة مشبهة؛ أي: كل متصف بالكفر.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾: مبالغة من «يصرخون»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، و«الصراخ»: الصياح الشديد؛ أي: يصيحون في النار بشدة، ويصرخون فيها أشد الصراخ ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا، فاستغاثوا به عز وجل؛ لأنهم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٠٩، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

عرفوا أنه لا مُنجي إلا الله، وقد كانوا بالأمس يستغيثون بغير الله، من الأصنام والأوثان: ﴿أَخْرِجْنَا﴾ من النار.

﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، ﴿نَعْمَلْ﴾ مجزوم؛ لأنه جواب الطلب؛ أي: إن تخرجنا نعمل؛ أي: إن تخرجنا من النار نعمل عملًا صالحًا خالصًا لوجهك، موافقًا لشرعك.

﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي: غير العمل الذي كنا نعمل قبل ذلك؛ أي: فاعترفوا بذنبهم، وأن الله عدل معهم ولم يظلمهم، وسألوا الرجعة، ولكن هيهات، وقد علم الله أنهم كاذبون، وأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١٠- ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولهذا وبّخهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتنديم والتقرير، و«ما»: موصولة؛ أي: أولم نعمركم الذي يتذكر فيه من تذكر؟ و«التعمير»: تطويل العمر.

أي: أولم نعمركم؛ أي: نعطيكم من العمر والحياة الوقت الذي يتمكن فيه من أراد التذكر من التذكر والعمل؟

وقد اختلف في مدة العمر المراد هنا، فقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: أقل من ذلك، ولا دليل على شيء من ذلك، ولا مصلحة للأمة في تحديده.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعذر الله إلى امرئ، أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة**»(١).

وهذا هو الغالب على أعمار الأمة؛ ولهذا قال ﷺ: «**أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**»(٢).

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، أي: الرسول المنذر والمحذر لكم من عذاب الله تعالى؛ كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه ٦٤١٩، وأحمد ٢/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٢٤٣٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ [النجم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [الملك: ٨- ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والمعنى: قد عمرناكم الوقت الذي يتمكن فيه من أراد التذكر من التذكر، وأرسلنا إليكم الرسل، وأقمنا عليكم الحجة بذلك.

﴿فَذُوقُوا۟﴾ الأمر للإهانة؛ أي: فذوقوا عاقبة تكذيبكم، أو فذوقوا العذاب؛ أي: تجرعوا العذاب وغصصه بسبب كفركم.

﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فما لكم، بل قال: فما للظالمين؛ ليبين أن سبب تعذيبهم في النار، وانتفاء النصير لهم هو ظلمهم بالكفر والشرك، وليشملهم هذا العذاب هم وغيرهم من الظالمين.

و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى؛ أي: فما للظالمين أيّ نصير ينصرهم، فيخرجهم من النار، أو يخفف عنهم من عذابها، ويدفع الشر عنهم، أو يجلب لهم الخير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾:

لما ذكر عز وجل الفريقين من أهل الإيمان والكفر، وجزاء كل منهم، أخبر عن سعة علمه واطلاعه على غيب السموات والأرض وعلمه بما في الصدور، فيهدي كلًّا لما خلق له، ويجازي كلًّا بما عمل.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: عالم كل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق، فلم يدركوه بأبصارهم، ولا بأسماعهم، ولا بغير ذلك من حواسهم، من الغيوب السابقة والحاضرة والمستقبلة.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما فيها من الأسرار والمكنونات، وما تنطوي عليه من المضمرات، وسيجازى كلًّا بعمله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾، أي: هو وحده عز وجل الذي صيركم.

﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «خلائف»: جمع «خليفة»؛ أي: يخلف بعضكم بعضًا في الأرض، فيذهب قرن وجيل، ويأتي بعده قرن وجيل آخر، ويذهب ملك، ويأتي بعده ملك آخر، وهكذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، أي: فإنما يعود وبال كفره على نفسه، ويعذب به وحده، دون غيره، ولا يضر الله شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ «إلا» في الموضعين: أداة حصر؛ أي: إلا بغضًا وغضبًا شديدًا بسبب كفرهم، واستمرارهم على الكفر، فكلما استمروا على الكفر ازداد مقت الله تعالى لهم، وبغضه لهم، وغضبه الشديد عليهم، فيزداد بذلك انتقامه منهم، وعذابه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ وهذا نتيجة لشدة بغض الله إياهم، فبسبب كفرهم واستمرارهم على الكفر، مقتهم الله، وأبغضهم بغضًا شديدًا، فازداد خسرانهم، وخاب سعيهم، فخسروا دينهم، ودنياهم وأنفسهم وأهليهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل يا محمد للمشركين مبينًا بطلان آلهتهم وكمال نقصها وضعفها.

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ الاستفهام للتقرير؛ أي: أخبروني.

﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: شركاءكم من الأصنام والأنداد الذين تعبدون؛ أي: الذين تدعونهم دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿أَرُونِى﴾ الأمر للتعجيز والتحدي؛ أي: أخبروني.

﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول؛ أي: ما الذي خلقوه من الأرض؟

ويحتمل كون «ماذا» كلها اسم استفهام في محل نصب مفعول به لـ«خلقوا».

أي: ما الذي خلقوه من الأرض؟ هل خلقوا الجبال، أو الرمال، أو القفار، أو الأشجار، أو الأنهار، أو البحار؟ والاستفهام بمعنى النفي؛ أي: أنهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

لما نفى أن يكونوا خلقوا شيئًا من الأرض في العالم السفلي، أتبع ذلك بنفي مشاركتهم في السموات في العالم العلوي.

﴿أَمْ﴾ في الموضعين هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل ألهم ﴿شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: ألهم مشاركة في السموات، خلقًا أو ملكًا أو غير ذلك؟ والجواب: ليس لهم شرك في السموات.

ولم يقل هنا: ماذا خلقوا من السموات؟ بل قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأن السموات ليست في متناول أحد من الخلق.

والمشركون يقرون بهذا وذاك، فيقرون أن معبوداتهم من دون الله لم يخلقوا شيئًا من الأرض، وليس لهم شرك في خلق السموات، وأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى وحده، ومع ذلك يشركون به غيره، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩].

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾.

لما ذكر الدليل العقلي على وجوب عبادته تعالى وحده، وبطلان عبادة من سواه، أتبع ذلك بذكر الدليل السمعي على ذلك، فقال:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾، أي: بل آتيناهم كتابًا من عندنا بأن معبوداتهم شركاء لله؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾ [الروم: ٣٥]؛ أي: لم ننزل عليهم سلطانًا بذلك.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وخلف وحفص بغير ألف

على الإفراد: ﴿بِيِّنَتٍ﴾، وقرأ الباقون بالألف على الجمع: «بَيِّنَاتٍ».

أي: فهم على حجة منه بأن معبوداتهم شريكة لله؛ أي: ليس الأمر كذلك، فلم نؤتهم كتابًا بذلك، بل رسلنا إلى جميع الأمم كلهم دعوا إلى توحيد الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فإذا كان هؤلاء الشركاء من دون الله لم يخلقوا من الأرض شيئًا، وليس لهم شرك في خلق السموات، ولم نؤتهم كتابًا بأنهم شركاء لله، فعبادتهم إياهم باطلة؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»؛ أي: ما يَعد الظالمون بعضهم بعضًا ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا وعدًا غرورًا، وخداعًا باطلًا، بقول بعضهم لبعض: هذه الأصنام تشفع لكم عند الله، وتزيين بعضهم لبعض الكفر والشرك والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

لما نفى أن يكون لمعبودات المشركين شرك في خلق السموات والأرض وتدبيرهما، أتبع ذلك ببيان أنه القيوم وحده على السموات والأرض.

أي: إن الله عز وجل- بقوته العظيمة، وقدرته التامة، وعظيم سلطانه، وإحكامه مخلوقاته، ورحمته وحلمه ومغفرته- ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي من أكبر المخلوقات وأعظمها.

﴿أَن تَزُولَا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف؛

أي: من الزوال؛ أي: من أن تتحركا وتضطربا، وتزولا عن أماكنهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم؛ أي: والله لئن زالتا؛ أي: لئن زالت السموات والأرض.

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ «إن»: حرف نفي بمعنى: «ما»؛ أي: ما أمسكهما؛ أي: ما يمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما يمسكهما أيُّ أحد.

﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، أي: من بعد الله؛ أي: غيره عز وجل؛ أي: أنه لا يستطيع أحد أيًّا كان إمساكهما وإرجاعهما وإبقاءهما غيره عز وجل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾، أي: ذا حلم واسع، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل. والجملة تعليل لما قبلها، قال ابن القيم(١):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب إليه.

ومن حلمه عز وجل الواسع، ومغفرته، عدم معاجلته العباد بالعقوبة، وهم يكفرون به ويعصونه، ولولا ذلك لأطبق السماء على الأرض، وأهلكهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: وأقسم مشركو العرب؛ أي: حلفوا بالله، ﴿جَهْدَ

---

(١) «النونية» ص ١٤٨.

﴿أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: غاية الأيمان وأغلظها وأشدها وآكدها.

﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ اللام: موطئة للقسم؛ أي: والله لئن جاءهم نذير؛ أي: لئن أتاهم نذير؛ أي: رسول من عند الله عز وجل.

﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم؛ أي: ليكونن أعظم هداية.

﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾، أي: من اليهود والنصارى، أو من جميع الأمم السابقة.

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٧- ١٧٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: شرطية؛ أي: فلما جاء هؤلاء المشركين نذير، وهو محمد ﷺ أفضل رسل الله عز وجل، الذي أنزل الله تعالى عليه أفضل كتبه القرآن الكريم.

﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ جواب الشرط، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: لم يهتدوا، فضلًا عن أن يكونوا أهدى الأمم كما قالوا، بل ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيء الرسول ﷺ إليهم إلا نفورًا عن الهدى، وبعدًا عن الحق، وزيادة ضلال على ضلالهم، وكفرًا إلى كفرهم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، «استكبارًا» بدل من ﴿نُفُورًا﴾، وتفسير له، أو مفعول لأجله، أو مصدر في موضع الحال؛ أي: ما زادهم مجيء النذير إليهم إلا استكبارًا في الأرض. والسين والتاء للمبالغة؛ أي: تكبرًا في الأرض عن اتباع لحق، وعلى الخلق.

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ قرأ حمزة بإسكان الهمزة في الوصل: «السَّيِّئْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿ٱلسَّيِّئِ﴾.

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾: معطوف على ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛

أي: المكر السيئ، أو مكر العمل السيئ، فتكون «السيئ» صفة لمحذوف، وهو «العمل». ومكر السيئ: الخديعة وتدبير الكيد الخفي للرسول ﷺ ولدعوته، وصد الناس عن دين الله.

وخص هذا؛ لأنه أشنع وأعظم قبحًا؛ لأن فيه جمعًا بين عمل السوء والكذب والمكر والخداع، وإلا فإنهم قد جمعوا بين محاربة الرسول ﷺ ودعوته، والصد عن دين الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾، أي: ولا يحيط المكر السيئ ولا ينزل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: ما يعود وباله وضرره إلا على أهله، دون غيرهم.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥١].

رُوي أن كعب الأحبار قال لابن عباس رضي الله عنهما: «من حفر حفرة وقع فيها». فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا أجد ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾»(١).

وفي المثل: «من حفر بئرًا لأخيه أوقعه الله فيه»، «ومن حفر لأخيه قليبا، أوقعه الله فيه قريبا»(٢).

ومفهوم قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أن المكر قد يكون حسنًا، وذلك كمكر الله عز وجل بالماكرين مجازاة لهم على مكرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، وهل: للاستفهام، ومعناه: النفي؛ أي: فما ينتظرون ويترقبون.

﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا سنة الله تعالى الكونية في أمثالهم من

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» ٨/ ١١٦، «تفسير ابن جزي» ٢/ ١٧٧.

(٢) انظر: «كشف الخفا» ٢/ ٢٩٢ (٢٤٦٤)، «المقاصد الحسنة» ص٦٤٤ (١١١٤)، «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» ص٢٢٨ (٥٠٦، ٥٠٧).

المكذبين الأولين، وهي أخذهم وإهلاكهم، بسبب تكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾، أي: فلن تجد لسنة الله تعالى الكونية في إهلاك المكذبين وتعذيبهم، ﴿تَبْدِيلًا﴾، أي: تغييرًا، بأن ينجوا من العذاب، أو ينعموا بدل أن يعذبوا.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أعاد النفي للتأكيد؛ أي: ولن تجد لسنة الله في إهلاك المكذبين تحويلًا، بأن يحوّل العذاب عنهم إلى غيرهم.

أي: أن سنته عز وجل ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول، يُهلك المكذبين، وينجي أولياءه المؤمنين؛ لكمال حكمته وعدله، وتمام سلطانه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أولم يسر هؤلاء المكذبون لك يا محمد في الأرض، بأقدامهم، وأبدانهم، وقلوبهم.

﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ بأبصارهم، ويتأملوا ويتفكروا ببصائرهم وعقولهم، ويعتبروا، فكم من سائر في الأرض ناظر فيها لم ينتفع بذلك؛ لعمى قلبه وغفلته؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كيف كان مآل ونهاية الذين من قبلهم من المكذبين للرسل، كانت عاقبتهم أسوأ العواقب، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: وكان أولئك المكذبون ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: أقوى منهم قوة؛ كعاد الذين قالوا: من أشد منا قوة، فما نفعتهم قوتهم، وما منعت ولا دفعت عنهم عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام الجحود، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما كان الله ليعجزه أيُّ شيء في السموات ولا في الأرض؛ أي: لا يحول بينه وبين ما يريد عجزٌ في قدرته، بل هو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء ولا يفوته ولا يسبقه، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ تعليل لكونه عز وجل لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض؛ أي: لكونه عليمًا قديرًا؛ أي: ذا علم واسع بكل شيء، وقدرة تامة على كل شيء، فلسعة علمه عز وجل وتمام قدرته، يخلق ما يشاء ويختار، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، والقدرة: التمكن من الفعل بلا عجز.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

لما حذر المكذبين له ﷺ وهددهم بما حل بالمكذبين قبلهم، أتبع ذلك بذكر حلمه وإنظاره لهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا لأهلكهم جميعًا، ولكنه يمهل ولا يهمل، ويؤخرهم إلى أجل مسمى.

الواو: استئنافية، ولو: حرف شرط غير جازم؛ أي: ولو يعاقب الله الناس.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة؛ أي: بسبب كسبهم، أو بسبب الذي كسبوه من الكفر والذنوب والمعاصي.

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما ترك على ظهر الأرض أيَّ دابة؛ أي: لأهلك الناس والدواب جميعًا بسبب شؤم الكفر والذنوب والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: يُنظرهم ويمهلهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾، أي: إلى مدة ووقت وزمن ﴿مُّسَمًّى﴾، أي: معين، محدد عند الله تعالى، وهو يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤]؛ أي: إلى أجل مسمى لا بد من مجيئه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: فإذا انتهت المدة، وقامت القيامة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ جواب الشرط «إذا»؛ أي: بصيرًا بهم وبأعمالهم وأحوالهم، تام الإحاطة بهم في ذلك الوقت وقبله وبعده، فيعاقب من يشاء بعدله، ويعفو عمن يشاء بفضله، ويثيب المؤمنين، ويعذب الكافرين، ويجازي كلًّا بما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للكافرين بنار جهنم التي أعدت لهم، وعذابها الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الآية.

٢- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، فبعد أن ذكر أولياءه المؤمنين وما أعد لهم من الثواب العظيم، ذكر الكفار وما أعد لهم من العذاب الأليم.

٣- أن أهل النار لا يموتون، ولا يخفف عنهم من عذابها، بل هم في عذاب مقيم شديد مستمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

وفي هذا رد على من يقول من المعتزلة وغيرهم أن أهل النار يكونون فيها جهنميين

لا يتألمون.

٤- أن هذا العذاب العظيم أعده الله لكل كفور، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

٥- شدة عذاب الكفار في النار، وصراخهم فيها واستغاثتهم للخروج منها، وهيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٧- إقرارهم واعترافهم وهم في النار بربوبية الله تعالى، وأنه بأنه لا يملك دفع الضرر عنهم إلا الله؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

٨- اعترافهم بما كانوا عليه من عمل غير صالح، وندمهم حين لا ينفع الندم، وزعمهم أنهم سيعملون صالحًا لو أخرجوا منها، وهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٩- تقريعهم وتوبيخهم وتيئيسهم من الخروج من النار وتنديمهم؛ لأن الله قد أقام الحجة عليهم، وأعذر منهم، بتعميرهم في الدنيا ما فيه كفاية للتذكر، وبإرسال الرسل إليهم، ينذرونهم ويحذرونهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يحتجون بالقدر على المعاصي، ويقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

١٠- ينبغي اغتنام الفرص المناسبة؛ لأنها إذا فاتت قد لا تعود.

١١- أن من بلغته الرسالة وعمر ما يمكنه فيه التذكر؛ فقد قامت عليه الحجة.

١٢- إهانة الظالمين وتبكيتهم في النار، وتعذيبهم عذابًا معنويًا ينصبُّ على قلوبهم، وتيئيسهم من الخلاص من النار، ومن النصير والشفيع؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

١٣- أن الكفر ظلم، وأن نار جهنم مثوى الكافرين والظالمين.

١٤- إثبات سعة علم الله عز وجل، وإحاطته بغيب السموات والأرض، وما تخفيه الصدور، فيهدي كل مخلوق، فييسره لما خلق له، ويجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾.

وفي هذا وعد لمن أطاع الله واتقاه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

١٥- الإشارة إلى أن مدار صلاح الجسد، وصلاح الأعمال على القلوب، مما يوجب تعاهدها، والعمل على صلاحها وسلامتها، ففي ذلك صلاح الظاهر والباطن.

١٦- تفرده عز وجل بتدبير الخلق؛ لتمام قدرته، وعظم سلطانه، وامتنانه على العباد بجعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

١٧- أن من كفر فعليه إثم كفره وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾.

١٨- أن كفر الكافرين لا يزيدهم عند ربهم إلا مقتًا وبغضًا، يترتب عليه انتقامه منهم، وكلما ازداد كفرهم ازداد مقت الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتًاۖ﴾.

١٩- إثبات صفة المقت لله تعالى وهي البغض الشديد، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية لله عز وجل التي تتعلق بمشيئة الله تعالى، وتقترن بسببها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [غافر: ١٠].

٢٠- أن كفر الكافرين لا يزيدهم إلا خسارًا في الدنيا والآخرة، خسارًا لأنفسهم وأهليهم، ودينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾، أي: أنهم خاسرون كل الخسران بسبب كفرهم، وكلما ازداد كفرهم ازداد خسرانهم.

٢١- الإنكار على المشركين وتحديهم، وبيان بطلان عبادتهم من دون الله معبودات لا يستحقون- عقلًا- أن يعبدوا؛ لأنهم لم يخلقوا من الأرض شيئًا، وليس لهم شرك في خلق السموات، ولم يدل دليل سمعي على صحة عبادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾.

٢٢- أن وعود الظالمين بعضهم لبعض ما هي إلا غرور وخداع وباطل بتزيين بعضهم لبعض الكفر والشرك، وأن شركاءهم يشفعون لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

٢٣- عظمة الله تعالى، وكمال قوته وسلطانه، وتمام قدرته؛ لقيام السماء والأرض بأمره، وإمساكه إياهما من الزوال إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

٢٤- أن السموات والأرض لو زالتا لم يستطع أيّ أحد أن يمسكهما غير الله إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾.

ويتفرع على هذا أن ما يقع في هذه المخلوقات العظيمة من كسوف وصواعق وزلازل وبراكين، وغير ذلك هو من الآيات التي يخوف الله بها عباده، فيجب اللجوء إلى الله تعالى وحده، والتضرع إليه بالصلاة والدعاء لرفع ذلك.

٢٥- إثبات سعة حلم الله عز وجل، فلا يعاجل من عصاه بالعقوبة، وسعة مغفرته، فيغفر للتائبين، ولمن لقيه لا يشرك به شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

٢٦- إقسام المشركين من قريش الأيمان المؤكدة المغلظة: لئن أتاهم رسول ليكونن أعظم هداية من اليهود والنصارى، أو الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾.

٢٧- كذبهم وحنثهم في أيمانهم، وازديادهم نفورًا عن الهدى، وبعدًا عن الحق؛ لما جاءهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

٢٨- لا ينبغي للإنسان أن يلزم نفسه ما قد لا يستطيع القيام به، من نذر أو غير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٦].

٢٩- لا ينبغي للإنسان أن يعتد بنفسه ويفتخر إذا رأى من ابتلي بالتقصير، فيقول: لو كنت مكانه لعملت كذا وكذا، فإنه قد يبتلى بذلك التقصير أو بأشد منه، وفي الأثر:

«لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه، أو فيرحمه الله ويبتليك»(١).

قال الشاعر:

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق(٢)

٣٠- استكبارهم في الأرض عن اتباع الحق، وعلى الخلق، ومكرهم السيئ، بكيدهم للنبي ﷺ ولدعوته، وصدهم الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾.

٣١- أن الاستكبار من أعظم أسباب رد الحق وغمط الخلق.

٣٢- أن المكر السيئ لا يحيق ولا ينزل إلا بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، فمن مَكر مُكِر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

٣٣- أن المكر قد يكون حسنًا؛ لمفهوم قوله: ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾، وذلك كمكر الله بالماكرين.

٣٤- تهديد المكذبين للنبي ﷺ، وأنهم ما ينتظرون في استمرارهم على الكفر وتكذيب الرسول ﷺ إلا أن تحل بهم سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٣٥- أن سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين، وإنجاء الرسل وأتباعهم ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

٣٦- تقريع المشركين وتوبيخهم لما لم يعتبروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم لما كذبوا رسل الله، وكانوا أشد منهم قوة، فلم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عذاب الله، لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٦، والطبراني في «المعجم الكبير» ١٢٧، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٦٣٥٥، من حديث واثلة بن الأسقع. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) البيت ينسب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر: «العقد الفريد» ٣/ ١٦.

مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾.

٣٧- أن في التاريخ عبرًا، وأن في الأرض خبرًا، لمن يعتبر ويعقل.

٣٨- إثبات علم الله عز وجل وتمام قدرته وأنه سبحانه لا يعجزه أيُّ شيء في السموات ولا في الأرض؛ لسعة علمه، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾.

٣٩- سعة حلم الله عز وجل، مع تمام قدرته على العقوبة، فلو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الظلم والآثام لعجل لهم العذاب، ولأهلك كل من على ظهر الأرض من الدواب، ولكنه حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

٤٠- شؤم الذنوب والمعاصي، وأنها سبب لهلاك العباد والبلاد، والحرث والنسل.

٤١- إثبات الكسب للناس، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبر على فعله، لا اختيار ولا كسب له.

٤٢- أنه عز وجل يمهل ولا يهمل، ويؤخر عقوبة المكذبين إلى أجل مسمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

٤٣- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

٤٤- إحاطة الله تعالى التامة بالعباد وأعمالهم، ومجازاة كل منهم بما عمل يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾.

٤٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾.

* * *

تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ يٰسٓ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة يس»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يسٓ﴾؛ لأنها انفردت في مطلعها من بين السور بهذين الحرفين، من الحروف المقطعة أوائل السور.

ويقال لها: «قلب القرآن».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ «يس» في ليلة أصبح مغفورًا له، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفورًا له**»(١).

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ «يس» في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له**»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه، وتأكيد صدق الرسول ﷺ، وبيان الحكمة من إرساله وهي الإنذار وتخويف المكذبين الغافلين، وتأكيد أنه قد حق القول كونا على أكثرهم بعدم الإيمان، والحيلولة بينهم وبينه، فلا يبصرون الحق، ولا يؤمنون به، ولا ينفعهم الإنذار، وبيان أنه لا ينتفع بالإنذار إلا من خشى الرحمن بالغيب، وبشارتهم بمغفرة وأجر كريم.

٢- إثبات وتأكيد تمام قدرته عز وجل على الإحياء والإماتة، وكتابته ما قدّم العباد وآثارهم وإحصائه في اللوح المحفوظ.

٣- ضرب المثل لمشركي مكة بقصة أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم عددًا من الرسل، فطعنوا في رسالتهم لكونهم بشرًا، وتطيروا بهم؛ وهددوهم برجمهم

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٤٧- وقال ابن كثير: «إسناد جيد».

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٤٧.

وتعذيبهم. وتأكيد رسلهم أنهم رسل الله إليهم، وما عليهم إلا البلاغ المبين.

٤- ذكر قصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ناصحًا لهم باتباع المرسلين ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٢٠- ٣٠].

٥- توبيخ المكذبين وتقريرهم بما أهلك من القرون قبلهم، لا يرجعون إليهم، وإثبات وتأكيد بعثهم وإحضارهم للحساب كلهم جميعًا.

٦- الاستدلال على إحياء الموتى وتمام قدرته عز وجل على ذلك، وسابغ نعمته من آياته العظيمة في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج النبات منها والجنات، وخلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، وسلخ النهار من الليل، وجريان الشمس والقمر، وحمل ذريتهم في الفلك المشحون، وجعله لهم من مثله ما يركبون. قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يس: ٣٣- ٤٤].

٧- تقريع المكذبين وتوبيخهم لعدم تقواهم، ولإعراضهم عن الآيات، وعدم إطعامهم مما رزقهم الله، ولكفرهم، وتكذيبهم وتضليلهم من يدعوهم إلى الحق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ٤٥- ٤٧].

٨- استبعادهم البعث والحساب تكذيبًا به، وتهديدهم بقربه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ

تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٤٨- ٥٤]

٩- بشارة المؤمنين بما أعد لهم من النعيم الحسي والمعنوي ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٥- ٥٨].

١٠- تقريع المجرمين وتوبيخهم؛ لعبادتهم الشيطان، وعدو لهم عن عبادة الرحمن. وتوعدهم وتهديدهم بجهنم واصطلائها بسبب كفرهم، والختم على أفواههم، وتكليم أيديهم وشهادة أرجلهم بما كانوا يكسبون. ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٩- ٦٧].

١١- حقارة الدنيا، وأن الإنسان لو عمر فيها رجع إلى أرذل العمر ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

١٢- الرد على المكذبين في زعمهم أن الرسول ﷺ شاعر، وأن ما جاء به من قبيل الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

١٣- الامتنان على العباد بما خلق الله لهم من الأنعام وذللها لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١- ٧٣].

١٤- ذم المشركين في اتخاذهم من دون الله آلهة لينتصروا بهم، لا يستطيعون نصرهم ولا نصر أنفسهم.

١٥- تسليته ﷺ وتقوية قلبه فلا يأسى لقولهم؛ لأن الله محيط بهم يعلم سرهم

وعلانيتهم وسيعصمه منهم.

١٦- تذكير الإنسان بأصل خلقه وأن الذي خلقه من العدم والضعف، وأوجد من الشجر الأخضر نارًا، وخلق السموات والأرض قادر على إحيائه بعد موته ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾.

قوله: ﴿يسٓ ۝١﴾ من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم، ليس لها معنى في ذاتها؛ لأنها كغيرها من حروف الهجاء، لكن لها مغزى وحكمة، وهي إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به. وقد سبق الكلام عليها مستوفى في مطلع سورة البقرة.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ الواو: للقسم، أي: وأقسم بالقرآن الكريم. والقرآن مشتق من «قرأ» بمعنى: تلا؛ لأنه متلو، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، أي: يتبعونه.

أو: من «قرى» بمعنى: «جمع»؛ لأنه مجموع وجامع لسور وآيات كثيرة، ومنه سميت «القرية»؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين، وسمي مجمع الماء: «قَرْوًا»؛ لاجتماع الماء فيه.

وهو كلام الله عز وجل، المنزل على رسوله ﷺ، المتعبد بتلاوته، والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة للقرآن، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١، لقمان: ٢].

أي: ذي الإحكام والحكمة والحكم:

ذو الإحكام، أي: المحكم؛ لأن الله أحكمه، أي: أتقنه وحفظه، وصانه عن التبديل والتغيير، والاختلاف والباطل، قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وذو الحكمة، أي: الذي وَصْفه الحكمة، وهي: وضع كل شيء موضعه من الأوامر والنواهي، وذكر الأحكام الشرعية والكونية والجزائية مقرونة بالحكمة، وغير ذلك.

وذو الحكم، أي: الحاكم على غيره، الذي يجب الرجوع إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩].

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ جواب القسم، و«إن» حرف توكيد، واللام: للقسم، أي: إنك يا محمد لمن جملة المرسلين، فلست بدعًا من الرسل، وفي هذا رد لقول الذين كفروا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾[الرعد: ٤٣].

قال ابن القيم: «وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله، وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به، والمقسم عليه»(١).

فما أعظم هذا القسم وأجله! لأنه قسم من العظيم، بكتابه العظيم، على صحة نبوة أفضل الرسل وسيد الخلق أجمعين.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ خبر ثانٍ لـ«إن»، أي: على طريق معتدل، ودين قويم، موصل إلى الله تعالى، وإلى مرضاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى﴾[الشورى: ٥٢؛٥٣].

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بنصب اللام: ﴿تَنزِيلَ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف؛

وقرأ الباقون برفع اللام: «تَنْزِيلُ» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا تنزيلُ.

أي: هذا القرآن الحكيم والصراط المستقيم الذي أنت عليه، ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾، وفي هذا تشريف للقرآن الكريم، ولما يهدي إليه من الصراط المستقيم.

و«تنزيل»: مصدر «نزَّلَ يُنَزِّلُ»؛ لأنه نزل مفرقًا، شيئًا فشيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾[الإسراء: ١٠٦].

أي: أن الذي نزله عليك ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٣.

والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿الرَّحِيمِ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة الذاتية الثابتة صفة له عز وجل، وذو الرحمة الفعلية التي يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾[العنكبوت: ٢١].

فبعزته عز وجل نزَّلَ القرآن الحكيم، وبعث به محمدًا يهدي إلى الصراط المستقيم، وأحكمه وصانه عن التبديل والتغيير والباطل.

وبرحمته عز وجل جعل إرسال محمد ﷺ بهذا الكتاب رحمة للعالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[الأنبياء: ١٠٧].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾.

لما أقسم على صدق رسالته ﷺ، وأقام الأدلة عليها، بيَّنَ شدة الحاجة إليها، واقتضاء الضرورة لها.

قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تنذر، أي: تخوِّف وتحذر.

والإنذار: الإخبار المقرون، أو المتضمن للتخويف والتحذير، ﴿قَوْمًا﴾ هم العرب الأميون.

﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ «ما» نافية، أي: لم ينذر آباؤهم في زمن الفترة، وأما قبل ذلك فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام؛ فإنه مرسل للعرب إلى قومه، وبعد ذلك ما جاءهم نذير من قبلك؛ كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٦].

فبعثته ﷺ منة من الله تعالى عليهم خصوصًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[الجمعة: ٢- ٤].

كما أنها منة على الناس عمومًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨].

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: فهم غافلون عما خلقوا له، ساهون لاهون فيما هم فيه من الجهل والفجور، وشرب الخمور، واللهو والميسر، والكفر والشرك والضلال، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢].

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد حق القول على أكثرهم.

أي: لقد وجب وتحتم القول كونًا وقدرًا على أكثرهم، أي: على أكثر الذين بعث فيهم الرسول ﷺ، بالكفر والعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾[النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الزمر: ٧١]

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾[غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ۝١٩﴾[الزمر: ١٩].

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء تعليلية، أي: فهم لا يؤمنون؛ لأن الله كتب عليهم الكفر وأوجب عليهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:٩٦].

قال السعدي(١): «﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾، أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة: أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم.

وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذٍ عوقبوا بالطبع على قلوبهم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّٗا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّٗا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٖ وَأَجْرٖ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلٗا﴾ «أعناق»: جمع «عنق» وهو: الرقبة، و«أغلالًا»: جمع «غُلّ»، وهي القيود والأوثاق، أي: إنا صيرنا في أعناقهم أغلالًا جمعت بين أيديهم

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٣٣٤- ٣٣٥.

وأعناقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[الإسراء: ٢٩].

﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ الضمير يعود إلى الأغلال، أي: فأغلالهم واصلة إلى الأذقان قد أحاطت بها؛ لعِرَضها وسمكها، و«الأذقان»: جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين.

وقيل: الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها، فالغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد، فالمعنى: فأيديهم مغلولة إلى أذقانهم.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جمع «مقمح»، و«المقمح»: من جعل في عنقه غل، فجُمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه، فصار مقمحًا لا يستطيع خفض رأسه.

فرؤوسهم مقمحة مرتفعة بسبب غل أيديهم مع أعناقهم تحت أذقانهم، فلا يستطيعون خفضها ولا تحريكها، ولا التصرف فيها.

وأيديهم مغلولة موثوقة بأعناقهم لا يستطيعون بسطها إلى أيِّ خير.

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف ﴿سَدًّا﴾ بفتح السين، وقرأ الباقون بضمها: «سُدًّا».

أي: وجعلنا أمامهم حاجزًا ومانعًا، ومن خلفهم حاجزًا ومانعًا، يمنعانهم عن الإيمان، وعن معرفة الحق.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾، أي: فأغشينا أبصارهم وغطيناها، وأعمينا بصائرهم عن الحق.

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أي: فهم عمي الأبصار والبصائر، لا يرون الآيات بأبصارهم، ولا يتفكرون فيها ببصائرهم، ولا يعرفون طريق الحق، ولا يهتدون إليه.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«سواء»: خبر مقدم، بمعنى: «مستوٍ».

﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، و«أم»: حرف عطف معادلة للهمزة، والتقدير: إنذارك وعدمه سواء عليهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم قد غشيت أبصارهم، وختم على قلوبهم بالضلالة؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[البقرة: ٦- ٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٩٧﴾[يونس: ٩٦؛٩٧].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما تنذر إلا من اتبع الذكر، و«من» موصولة، و«الذكر»: القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

لأن الله ذكر فيه المواعظ والأحكام والأخبار والجزاء على الأعمال، وشرَّف فيه النبي ﷺ والعرب.

أي: إنما ينتفع بإنذارك وتخويفك، ويستفيد منه الذين اتبعوا القرآن الكريم وهم المؤمنون، الذين صدقوا أخباره، وعملوا بأحكامه.

﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾، أي: خافه عن علم به، وتعظيم له، وفي اختيار اسم «الرحمن» هنا إشارة إلى رحمته لمن خشيه.

﴿بِٱلْغَيْبِ ۖ ﴾، أي: وهو عز وجل غيب لم يره، لكن استدل عليه بآياته البينة الظاهرة؛ كأنه يراه؛ كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وخشي الرحمن أيضًا وخافه بالغيب، أي: وهو في غيبة عن أعين الناس، لا يراه إلا الله، الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿فَبَشِّرْهُ ﴾ الضمير الهاء عائد إلى «من» باعتبار لفظها، أي: فبشر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ من الله تعالى لذنوبه، بسترها عن الخلق، والتجاوز عن عقوبتها.

﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾، أي: وثواب واسع كبير، مضاعف حسن جميل؛ كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ ﴾[الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ ﴾[فاطر: ٣٠].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ ﴾.

لما ذكر انقسام المنذَرين إلى فريق حق عليه القول فهم لا يؤمنون، وفريق آمن واتبع الذكر، ذكر أنه يحيي الموتى ويكتب أعمالهم وآثارهم، وسيجازيهم بها، وفي هذا بشارة

---

(١) سبق تخريجه.

ووعد لمن آمن، وتحذير ووعيد لمن كفر.

قوله: ﴿إِنَّا﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع تعظيمًا لنفسه؛ لكمال عظمته، ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فصل يفيد التخصيص، أي: نحن خاصة، لا غيرنا.

﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: نبعثهم من قبورهم يوم القيامة؛ لنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم.

قال ابن كثير(١): «وفيه إشارة إلى أن الله يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق؛ كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾[الحديد: ١٧]».

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ «ما»: موصولة، أي: ونكتب الذي قدموه من الأعمال في صحائف الأعمال، ونحفظه؛ لنحاسبهم ونجازيهم عليه خيرًا كان أو شرًّا.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، أي: ونكتب آثارهم. والآثار: جمع «أثر»، والأثر: ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي؛ فإنه يعقبه.

والمراد بآثارهم: ما يجري ويستمر لهم أجره أو وزره بعد وفاتهم مما عملوه في حياتهم، أو سنوه وكانوا قدوة فيه، خيرًا كانت أو شرًّا.

كما قال ﷺ فيما رواه جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(٢).

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٥١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، الحث على الصدقة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم =

وفي رواية زيادة: «وتلا هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

فما عَلَّمه الإنسان من علم، ودعاء إليه من خير، من صلاة وزكاة وصدقة وبر وإحسان، وغير ذلك، أو عمله فاقتدى به غيره، فله أجر ذلك بلا انقطاع.

وما ألَّفه من كتب ينتفع بها، وما بناه من مساجد ومرافق ينتفع بها، وما أوقفه من أعمال بر وخير، وما خلفه من ذرية صالحة يدعون له، كل ذلك أجره مستمر له.

كما أن من كان قدوة في الشر بعلمه وعمله ودعوته ونفقاته وأوقافه، وكتاباته، وفساد ذريته، فوزر ذلك مستمر عليه.

وقيل: المراد بآثارهم: آثار مشي أقدامهم إلى الطاعات؛ كالمشي إلى الصلوات؛ كما قال ﷺ لبني سلمة: «**دياركم تكتب آثاركم**»(٣).

والصحيح: أن كل ما عملوه في حياتهم هو مما قدموه، فهو داخل في قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ ﴿وَكُلَّ﴾: مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده، أي: أحصينا كل شيء، أي: عددناه وضبطناه، وكتبناه وأثبتناه، وسمي العد والضبط إحصاءً؛ لأن العرب كانوا يعدون الشيء ويضبطونه بالحصى، قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر(٤)

﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في كتاب مرجع جامع، بيّن واضح، مبين عن كل شيء، مظهر للحقائق، وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب، والذكر؛ كما قال تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

=

٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.

(١) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣١٩٠- ٣١٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٦٥، من حديث جابر ين عبد الله رضي الله عنه.

(٤) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» ص١٤٣.

[البروج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويجوز أن يكون المراد بـ«إمام»: كتاب وصحائف الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي: بكتاب أعمالهم. وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر: ٦٩].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾.

٢- تعظيم الله عز وجل للقرآن، وإقسامه به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

٣- ثناء الله عز وجل على القرآن، بتسميته ووصفه: «الحكيم»، وأنه ذو الإحكام، والحكمة، والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٤- إثبات وتأكيد رسالته ﷺ، وأنه من جملة المرسلين، وليس بدعًا من الرسل؛ لإقسامه عز وجل على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾.

٥- إثبات استقامة طريقه ﷺ فيما يدعو إليه، واعتدال منهجه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

٦- إثبات علوه عز وجل على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾.

٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٨- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي: العزة التامة، بأقسامها، والرحمة الواسعة بأنواعها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فبعزته عز وجل ورحمته أنزل القرآن وصانه من التغيير والتبديل، وبعث به محمدًا ﷺ رحمة للعالمين.

٩- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي: العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٠- أن الحكمة من إرساله ﷺ إنذار قومه وأمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾، ومعلوم أن من لازم ذلك التبليغ، والتحذير من الطريق الموجب للعذاب، والترغيب في طريق السلامة، بل والبشارة لمن سلك ذلك.

١١- أنه لم يأت العرب نذير ولا رسول من قبله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

١٢- غفلة العرب قبل بعثته ﷺ، وسهوهم عما خلقوا له، وانشغالهم بما هم عليه من الشرك والكفر والضلال والفجور، وشرب الخمور، واللهو والميسر، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

١٣- نفوذ قضاء الله وقدره بكفر أكثرهم، وعدم إيمانهم، وفي تعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

ومفهوم هذا: أن منهم من يؤمن وينجو من العذاب.

١٤- أن من وجب عليهم القول الكوني القدري بالكفر والعذاب لا يؤمنون أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- الحيلولة بينهم وبين الإيمان، بسبب إعراضهم بما جعل الله من الأسباب والموانع القدرية، فهم كمن غلت أيديهم وأعناقهم، فجمعت أيديهم إلى أعناقهم تحت أذقانهم فهم مقمحون، رافعو رؤوسهم، لا يستطيعون تحريك رؤوسهم، ولا بسط أيديهم، وجعل بينهم وبين الإيمان حاجزًا أمامهم، وآخر خلفهم، وأغشيت أبصارهم، وعميت بصائرهم، فانسدت سبل الهداية والإيمان في وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

١٦- أن من أراد الله إضلاله، وحال بينه وبين الهدى والإيمان قدرًا، فلا سبيل له إلى إبصار الحق، والاهتداء؛ ولهذا يجب على العبد صدق اللجوء إلى ربه، وسؤاله الهداية.

١٧- أنه يستوي بالنسبة لهؤلاء- الذين حال الله بينهم وبين الإيمان، وأعمى عنه

بصائرهم وأبصارهم- الإنذار وعدمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

١٨- تسليته ﷺ، فلا يضيق صدره ويأسى على عدم إيمانهم؛ لأن الله كتب عليهم الضلال.

١٩- أنه إنما ينتفع بإنذاره ﷺ من اتبع القرآن، وخشي الرحمن وخافه وهو غيب لم يره وكأنه يراه، وخشيه وهو في غيبة عن أعين الناس لا يراه إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٢٠- أن من أسماء القرآن: «الذكر»؛ لما تضمنه من المواعظ والعبر والحكم، والأحكام والأخبار، والجزاء على الأعمال، والشرف للنبي ﷺ ولقومه.

٢١- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾.

٢٢- البشارة لمن اتبع القرآن وخشي ربه بالغيب، بما أعد الله له من مغفرة لذنوبه، وأجر واسع عظيم، مقابل عمله الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

٢٣- أن من اتبع القرآن قاده إلى الحذر مما أنذر منه، وإلى خشية الله بالغيب؛ كما أن من خشي الله تأثر بالقرآن، وانتفع به.

٢٤- الترغيب في اتباع القرآن وخشية الله تعالى والثناء على من اتصف بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

٢٥- إثبات بعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٢٦- الإشارة إلى قدرته عز وجل على إحياء القلوب الميتة بالكفر، بردها إلى الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٢٧- كتابة كل ما قدم العباد من أعمال في الخير أو الشر، قليلة أو كثيرة، وحسابهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾.

٢٨- كتابة آثارهم بعد الموت مما عملوه من أعمال يستمر لهم أجرها؛ كالصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والولد الصالح يدعو لهم، وما أحيوه من سنن حسنة

يتبعهم الناس عليها، وكذا ما عملوه من أعمال سيئة يستمر عليهم وزرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾، أي: ونكتب آثارهم.

٢٩- أن الأعمال لا تنقطع بالموت.

٣٠- إحصاؤه عز وجل كل شيء من أعمال العباد وغيرها، وضبطه وكتابته وإثباته في إمام مبين، وهو اللوح المحفوظ وصحائف الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَاضْرِبْ﴾، أي: واضرب يا محمد، أي: اتخذ واجعل للمكذبين من قومك ﴿مَّثَلًا﴾؛«المثل»: الشبه، أي: واضرب لهم في تكذيبهم ما أرسلناك به إليهم مثلًا يكون عظة وعبرة لهم.

﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ «أصحاب» بدل من «مثلًا»، أو مفعول ثانٍ لـ«اضرب»، أي: أهل القرية.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، والضمير الهاء يعود إلى ﴿الْقَرْيَةِ﴾، أي: حين جاءها المرسلون الثلاثة من عند الله عز وجل يأمرونهم بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، ويحذرونهم من الشرك بالله ومعصيته.

وما جرى منهم من تكذيب رسلهم، وما حل بهم من عقاب الله ونكاله؛ ليحذر المكذبون من قومك أن يحل بهم من العقوبة مثل ما حل بأصحاب هذه القرية، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ «إذ»: بدل من التي قبلها، أي: حين أرسلنا إليهم رسولين اثنين في بداية الأمر.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، أي: فبادروا إلى تكذيبهما، ونفي صحة إرسالهما، ورد خبرهما.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاي الأولى: «فَعَزَزْنَا»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، أي: فقويناهما وأيدناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ [طه: ٢٩- ٣١].

﴿فَقَالُوٓاْ﴾، أي: فقال الرسل الثلاثة لأصحاب القرية:

﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، أي: من عند الله عز وجل، ندعوكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال أصحاب القرية لرسلهم مكذبين لهم ومعاندين ومكابرين: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم مثلنا؟ ولم يوحَ إلينا مثلكم؟ وما الذي فضّلكم علينا، ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة؟

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال بعض المكذبين لرسلهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال بعضهم: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

كما قال كفار قريش: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما أنزل الرحمن أيّ شيء. وهذا منهم إنكار لعموم الرسالات والكتب.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعونه من الرسالة، فكذبوا رسلهم المرسلين لهم خاصة، بعدما أنكروا عموم الرسالات والكتب.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال لهم رسلهم:

﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ الأول: كونها جارية مجرى القسم؛ فكأنهم قالوا: ربنا يعلم والله إنا إليكم لمرسلون، والثاني: «إنا»، والثالث: لام التوكيد في قولهم: ﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾.

أي: لمرسلون حقًّا من عنده، وسينصرنا ويظهرنا عليكم، ولو كنا كاذبين لانتقم منا وبادرنا بالعقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦].

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما علينا بالنسبة لكم إلا البلاغ المبين، أي: إلا إبلاغكم الرسالة البلاغ البيِّن الواضح، المبين للحق بالأدلة الظاهرة، وقد قمنا بذلك، فبلغناكم رسالة الله بلاغًا بيِّنًا واضحًا، وأوصلناها إليكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ﴾، أي: تشاءمنا بكم، أي: لم نر في قدومكم علينا خيرًا، ولا على وجوهكم إلا شرًّا.

وتطيرهم بالرسل لا لشيء، وإنما لمجرد تشويه صورتهم وما جاءوا به من الحق، ولما يصيبهم من العقوبات من أجل مخالفتهم، ولحد الشرائع لهم من بلوغ مآربهم في اتباع أهوائهم وشهواتهم.

ثم أقسموا متوعدين لهم بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنتهوا عن دعوتنا إلى اتباعكم، وترك ما نحن عليه، ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لنرمينكم بالحجارة، ونقتلنكم رجمًا بها أشنع القتلات.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: وليصيبنكم منا عذاب مؤلم موجع، وعقاب شديد.

وهذا من أعظم المصائب، وغاية الخذلان؛ أن تنقلب المفاهيم، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨].

﴿قَالُوا۟﴾، أي: قالت لهم رسلهم:

﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ﴾، أي: شؤمكم معكم، ملازم لكم، ومحيط بكم، بسبب كفركم المقتضي لزوال الخير عنكم، ونزول الشر والعقوبة بكم؛ كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال قوم صالح: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال تعالى:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية: «أَأَنْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿أَيْنَ﴾.

وقرأ أبو جعفر بتخفيف الكاف: «ذُكِرْتُمْ»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾.

والهمزة الأولى في قوله: ﴿أَيْنَ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي، و«إن»: شرطية، وفعل الشرط: «ذكرتم»، وجوابه محذوف، تقديره: تطيرتم وتوعدتم.

أي: أبسبب أنا ذكَّرناكم، ووعظناكم، ودعوناكم إلى توحيد الله تعالى، تشاءمتم بنا، وتوعدتمونا؟!

والاستفهام منصب على جواب الشرط المحذوف، وهو تطيرهم بالرسل، وتوعدهم لهم.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم قوم متجاوزون للحد في كفركم وإجرامكم، وعتوكم وعنادكم، كذبتم الرسل بلا حجة ولا دليل، وتطيرتم بهم وهددتموهم.

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن للعظة والاعتبار، والترغيب في الخير، والتحذير من الشر، وهذا من رحمة الله ومنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ الآيات.

٢- إقامة الله عز وجل الحجة على أصحاب هذه القرية، فقد أرسل إليهم رسولين، ثم عززهما بثالث لما كذبوهما، ولم ينجع ذلك فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٣- أن الله عز وجل قد يرسل للقرية الواحدة أكثر من رسول؛ تقوية وتعزيزًا للرسالة.

٤- طعن أصحاب هذه القرية في رسلهم بكونهم بشرًا مثلهم، وليسوا بملائكة؛ كما هي عادة المكذبين قبلهم؛ لقولهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

٥- شدة مكابرتهم بإنكارهم الرسالات، وإنزال الكتب عمومًا، وتكذيبهم لرسلهم؛ لقولهم: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة: ذاتية وفعلية، عامة وخاصة.

٧- إقرار هؤلاء المكذبين من أصحاب القرية باسم «الرحمن».

٨- تأكيد هؤلاء الرسل لقومهم أنهم مرسلون إليهم بما يشبه القسم، وبـ«إنا»، ولام التوكيد؛ لقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة برسله؛ لقول الرسل: ﴿رَبُّنَا﴾.

١٠- إثبات علم الله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقول الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ الآية.

١١- أن مهمة الرسل بالنسبة لأقوامهم هي إبلاغهم رسالات ربهم البلاغ المبين، وليس عليهم هداية الخلق؛ لقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

١٢- تشاؤم أصحاب هذه القرية وتطيرهم برسلهم، وتوعدهم لهم، وتهديدهم إياهم إن لم يكفوا عن دعوتهم، برجمهم وقتلهم أو تعذيبهم؛ لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٣- جرأة أعداء الرسل على القول عليهم ما لم يكن منهم؛ تشويها لهم، وتنفيرًا من دعوتهم، وجرأتهم على أذيتهم وقتلهم.

١٤- ثقة هؤلاء الرسل بنصر الله لهم، وأن تطير هؤلاء المكذبين ملازم لهم أنفسهم، ومحيط بهم؛ لما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

١٥- إنكار هؤلاء الرسل على قومهم تطيرهم بهم، وتهديدهم لهم، لا لشيء إلى أنهم ذكروهم ووعظوهم، ودلوهم على الخير؛ لقولهم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾.

١٦- الإنكار على من ذُكِّر ووُعِظ ودُعِي إلى الخير، فقابل ذلك بالإعراض والإساءة لمن دعاه.

١٧- إسراف هؤلاء المكذبين ومجاوزتهم الحد في الكفر والعناد؛ إذ كيف يكذبون من يذكرهم ويعظهم، بل ويتشاءمون به ويهددونه بالرجم والقتل؟! لقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾:

قوله: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾، أي: من أبعدها طرفًا. والمراد بالمدينة: القرية المذكورة في قوله: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾.

﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾، أي: يشتد ويركض ويسرع في مشيته؛ لئلا تفوته الفرصة؛ حرصًا منه على نصح قومه، حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم.

﴿قَالَ ﴾ ناصحًا لقومه، ومشفقًا عليهم، وحاضًّا لهم، ومتوددًا إليهم.

﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ «ال»: للعهد، أي: المرسلين إليكم، أي: صدقوهم بما جاؤوكم به، وما دعوكم إليه من الإيمان وعبادة الله وحده، وانقادوا لهم.

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ كرر الأمر بالاتباع من باب التوكيد؛ معللًا لذلك، ومرغبًا فيه، بذكر انتفاء المانع من ذلك، والموجب له؛ فقال: ﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، أي: الذي لا يسألكم أجرًا، من دنيا أو رياسة على إبلاغكم رسالة الله، وهم الرسل عليهم السلام.

﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، أي: وهم مهتدون على صراط مستقيم فيما يدعون إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وفي هذا بيان الموجب لاتباعهم.

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أيّ شيء يمنعني أن أعبد الله وحده الذي خلقني؟ أي: المستحق للعبادة وحده، دون سواه، أي: وأنتم كذلك لم لا

تعبدونه؟ أو لم تعبدون غيره؟

وإنما لم يقل: ما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟ بل أضاف الأمر إلى نفسه تلطفًا معهم.

قال ابن القيم: «أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه؛ تأليفًا لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإضلال بها، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلها تابعة لإيجاده وخلقه، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم، ومحبة المحسن»(١).

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون يوم القيامة، وجميع الخلائق، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها، وهذا مما يؤيد أنه يريد قومه بقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الاستفهام: للنفي والإنكار، أي: لا أجعل من دون الله، أي: غير الله، آلهة أعبدهم، لا يملكون من الأمر شيئًا؛ ولهذا قال:

﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ تعليل لما قبلها، أي: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ دنيوي من مرض أو فقر أو غير ذلك، أو ضر أخروي بعذاب.

﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾، أي: لا تنفعني ولا تدفع عني شفاعتهم التي زعموها، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم أيَّ شيء مهما قل.

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾، أي: ولا ينقذوني، وحذفت الياء لمراعاة الفاصلة، أي: ولا يخلصوني مما أراده الله بي من ضر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ «إذن»: حرف جواب، واللام للتوكيد.

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾، أي: إني إذن إن اتخذت من دون الله آلهة أعبدهم هذه صفتهم، ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: لفي بعد وتيه عن الحق.

﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن واضح.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٧.

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾، أي: بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وانقدت له ظاهرًا وباطنًا، والخطاب لقومه، ولم يقل: «بربي»، بل قال: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ مع أن رب الجميع واحد، هو الله عز وجل؛ ليذكرهم بنعمة ربوبية الله تعالى عليهم؛ ليشكروه ويؤمنوا به.

﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاسمعوا قولي: إني آمنت بربكم.

وفي هذا الإعلان منه بإيمانه مراغمة لقومه، وإقامة للحجة عليهم، وعدم اكتراثه بما سيصدر منهم تجاهه؛ ولهذا قتلوه.

ويحتمل: أن يكون خطابه بقوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ للرسل، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾، أي: فاسمعوا قولي؛ لتشهدوا لي عند ربي بما أقول لكم: إني آمنت بربكم واتبعتكم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾:

﴿قِيلَ﴾، أي: قيل تكريمًا له بعد أن قتله قومه واستشهد: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

وهذا من نعيم القبر، كما جاء في الحديث: «**أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تأكل من ثمار الجنة**»(١).

وأغمض عن كونهم قتلوه؛ كي لا يسر المشركين أن قومه قتلوه، فيطمعوا في قتله ﷺ.

ولم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، وما تمنى هلاكهم، ولا الشماتة بهم، بل قال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

قال السعدي(٢): «قيل له في الحال: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، ﴿قَالَ﴾ مخبرًا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحًا لقومه بعد وفاته؛ كما نصح لهم في حياته».

﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ «يا»: حرف تنبيه، و«ليت» للتمني، ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، أي: يعرفون.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٣٤٢.

أو «يا»: حرف نداء، والمنادى محذوف، والتقدير: يا رب، ليت قومي يعلمون.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ «ما»: مصدرية، أي: بغفران ربي لي، أو موصولة، أي: بالذي غفر لي ربي، أي: بستر ذنوبي، والتجاوز عني.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بإدخالي الجنة دار كرامته، ومنحي من فضله المطلوب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نصح قومه في حياته بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته بقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾»(١).

ومقصوده: لعلهم إذا علموا ما منَّ الله به عليه من المغفرة والكرامة أن يؤمنوا ويتبعوا المرسلين.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «ما»: نافية، وفي الإتيان بـ«من» ثلاث مرات محسن جناس.

أي: وما أنزلنا على قومه من بعد هلاكه وموته على أيديهم ﴿مِن جُندٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «من»: لابتداء الغاية.

أي: وما أنزلنا على قومه بعد قتلهم له وموته، لما أردنا إهلاكهم، أيَّ جند من السماء، أي: ملائكة.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أيَّ جند لإهلاكهم؛ لعدم حاجتنا إلى ذلك؛ لأنهم أضعف وأقل، والأمر علينا أيسر وأسهل من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قرأ أبو جعفر: «صَيْحَةٌ»؛ بالرفع في الموضعين، وقرأ الباقون بالنصب فيهما.

و«إن»: نافية؛ بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما كانت إلا صيحة واحدة شديدة أهلكتهم، فقطعت قلوبهم في أجوافهم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ الفاء:

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٥٧، ونسبه لابن أبي حاتم.

عاطفة، و«إذا»: هي الفجائية، أي: فإذا هم فجأة خامدون، أي: ميتون هامدون، قد سكنت جميع حركاتهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾.

قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ هذا وما بعده من كلام الله تعالى، أي: ما أشد حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذ عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله؟ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ «من»: مزيدة مؤكدة للنفي، أي: ما يأتيهم أيّ رسول.

﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كانوا به يسخرون تكذيبًا به، وجحودًا لما جاء به من الحق.

و«به» متعلق بـ«يستهزئون»، وقدم عليه لإفادة الحصر، ومراعاة فواصل الآيات.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ الاستفهام: للتقرير والإنكار، و«كم»: خبرية للتكثير، أي: أولم يعلم هؤلاء المكذبون للنبي ﷺ كثرة ما أهلكنا قبلهم ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾؟ أي: من الأمم المكذبة للرسل.

﴿أَنَّهُمۡ﴾، أي: المهلكين، ﴿إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ الضمير في «إليهم» يعود إلى المكذبين، و«إليهم» متعلق بـ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، وقدم مراعاة للفاصلة، والمصدر المؤول ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأنهم بعد إهلاكهم لا يرجعون إليهم في هذه الدنيا.

أي: هم يعلمون كثرة من أهلكنا من القرون المكذبة من قبلهم، وأنهم إليهم لا يرجعون، فلم لا يعتبرون ويتعظون بذلك؟

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«لما» بمعنى: «إلا»، أي: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، أي: وما كل القرون والأمم السابقة واللاحقة إلا جميعهم عندنا ﴿مُحۡضَرُونَ﴾، أي: مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء، وتوفيتهم أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ [هود: ١١١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الدين النصيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ الآية.

٢- إطلاق المدينة على القرية والعكس؛ لأن الله قال في أول القصة: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: ١٣]، وقال هنا: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

٣- حرص هذا الرجل الناصح على هداية قومه لو كانوا يعلمون؛ لتجشمه المجيء إليهم من أقصى المدينة، وإسراعه السعي للمبادرة إلى ذلك.

٤- ينبغي المبادرة بالنصيحة في وقتها، وقبل فوات أوانها، واغتنام الفرص.

٥- حسن نصح هذا الرجل لقومه في عرضه عليهم، واحتجاجه لذلك؛ فخاطبهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تألُّفًا لهم، وأمرهم باتباع المرسلين مؤكدًا لذلك، ومبينًا لهم انتفاء المانع من ذلك، ووجود الموجب له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾، وهكذا ينبغي لمن يتصدى للدعوة أن يختار من الأساليب أحسنها، ومن الطرق والحجج أوضحها وأبينها.

٦- أن الرسل عليهم السلام لا يسألون أجرًا على تبليغ رسالات ربهم، فيقول قائل: إن هذا عزم ثقيل علينا، وهكذا ينبغي لمن يدعو إلى الله أن يترفع عن أخذ مال من الناس، حتى وإن أعطوه فلا يقبله.

٧- أن الرسل على هدى من ربهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

٨- تلطف هذا الرجل الناصح مع قومه، بجعله الإنكار على نفسه لو لم يعبد الله الذي خلقه، وعبد من دونه آلهة لا يملكون من الأمر شيئًا، وأنه إذن لو فعل ذلك لفي ضلال مبين، وجواز مثل هذا بقصد استمالة المدعوين؛ لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

٩- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ ففي هذه إثبات أنه الخالق المستحق للعبلادة وحده.

١٠- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى؛ إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١١- إنكار اتخاذ الشركاء مع الله، وتسفيه المشركين؛ لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾.

١٢- إثبات صفة الإرادة والمشيئة لله تعالى، وإثبات اسمه: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾.

١٣- أن إرادة الله تعالى الضر بالإنسان لا تنافي الرحمة؛ لأن إرادته عز وجل الضر بالإنسان قد تكون من رحمته عز وجل به؛ ليتنبه من غفلة، أو لزيادة حسناته، أو تكفير سيئاته، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾.

١٤- أن ما يقع من خير أو شر هو بإرادة الله تعالى ومشيئته.

١٥- قرن الحكم بعلته، وبيان بطلان شفاعة الشركاء التي يزعم المشركون، وأنهم لا يدفعون ضرًّا أراده الله، ولا هم ينقذون منه؛ لأنهم لا يملكون شيئًا؛ لقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

١٦- أن من أعظم الضلال وأشده ترك عبادة الله، وعبادة آلهة غيره، لا تملك من الأمر شيئًا؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ومفهوم هذا: أن الهدى كل الهدى في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

١٧- تمام معرفة هذا الرجل الناصح؛ فإنه جمع في نصحه لقومه لب العلم والمعرفة، فأمرهم باتباع المرسلين، وبين لهم أنهم لا يسألون أجرًا وأنهم مهتدون، وأنكر على نفسه وعليهم أن يعبدوا غير خالقهم، ومن إليه مرجعهم، وبيَّن بطلان شفاعة الشركاء، وأنهم لن يغنوا من الله شيئًا، وأن من ترك عبادة الله تعالى وعبد غيره فهو في ضلال مبين.

١٨- إثباته القدوة لهم ولغيرهم؛ بإعلان إيمانه أمامهم، وتحديه لهم بذلك؛ إقامة للحجة عليهم، مع علمه بأنهم سيقتلونه؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾، أي: فاسمعوا قولي، لا أُبا لكم، ولعلكم تقتدون بي.

ويحتمل: أن يكون الخطاب منه للرسل، فيكون المعنى: فاسمعوا قولي، واشهدوا لي بذلك عند ربكم.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾، ويحتمل: أن

يكون المراد الربوبية: الخاصة إذا كان الخطاب للرسل عليهم السلام.

٢٠- إكرام الله عز وجل لهذا الرجل المؤمن الناصح، بإدخاله الجنة، بعد أن قتله قومه شهيدًا في سبيل الله، وفي هذا إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ وهذا في البرزخ قبل القيامة.

٢١- إثبات وجود الجنة، وأنها موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٢٢- شفقة هذا الرجل على قومه ونصحه لهم حتى بعد مماته، وتمنيه لو يعلم قومه بمغفرة الله تعالى له، وجعله من المكرمين؛ لعلهم أن يؤمنوا ويتبعوا المرسلين؛ لقوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

٢٤- فضيلة الإيمان والترغيب فيه؛ لعظم ما أعده للمؤمنين، حيث جمع لهم بين التخلية بإزالة المرهوب بمغفرة ذنوبهم، والتحلية بحصول المطلوب بجعلهم من المكرمين بجنته.

٢٥- أن الله عز وجل لما أراد إهلاك قومه من بعده، لم ينزل عليهم جندًا من الملائكة؛ لأنهم أضعف وأقل، ولعظمته عز وجل، فالأمر عليه أيسر وأسهل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

٢٦- أن جند الله هم الملائكة، وأنهم في السماء، وينزلون بأمر الله تعالى.

٢٧- أن إهلاكهم ما كان إلا بصيحة واحدة، قطعت قلوبهم في أجوافهم، فإذا هم موتى هامدون؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾.

٢٨- ما أعظم قدرة الله تعالى، وما أهون الخلق عليه إذا هم عصوه، وخالفوا أمره.

٢٩- شدة حسرة وندامة المكذبين لرسل الله المستهزئين بهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾.

٣٠- أن الاستهزاء بالرسل كفر موجب للنار، وللحسرة والندامة؛ كما قال تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦].

٣١- استهزاء أكثر الأمم برسلهم، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ

إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٣].

٣٢- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

٣٣- تقرير المكذبين بما يقرون به ويعلمونه من إهلاك كثير من القرون المكذبين قبلهم، ولا يرجعون إليهم، والإنكار عليهم في عدم الاتعاظ والاعتبار بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٣٤- أنه لا رجوع لمن مات قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

٣٥- إبطال زعم الدهرية القائلين بالدور، الذي يعتقدون جهلًا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

٣٦- إثبات البعث وأن كل الأمم وجميع الخلائق محضرون عند الله يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ الآية: العلامة والدلالة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: علامة ملكه.

وقال الشاعر:

فواعجبًا كيف يعصى الإلـ ـهُ أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد؟!(١)

أي: وآية لهم، أي: للناس جميعًا، دالة على وجود الخالق، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وكمال عظمته، وقدرته على إحياء الموتى، وسعة علمه وحكمته، ورحمته ونعمته.

﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «المَيِّتَةُ»؛ بتشديد الياء، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾، والمعنى واحد.

أي: الأرض الهامدة اليابسة الجرداء أحييناها بإنزال المطر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بالنباتات والأشجار بإنزال المطر عليها بعد أن كانت يابسة جرداء، فالذي أحياها قادر على إحياء الموتى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾، أي: جميع أصناف الحبوب؛ كالحنطة والذرة والشعير وغير ذلك؛ رزقًا لهم ولأنعامهم؛ ولهذا قال:

﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم المعمول؛ لإفادة الحصر، ومراعاة للفاصلة، أي: فمنه يأكلون هم وأنعامهم.

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠- ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩- ١١].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، أي: وجعلنا في تلك الأرض الميتة بساتين من نخيل وأعناب.

وجمع «نخيل» و«أعناب» باعتبار أنواع شجرهما المثمر أصنافًا من الثمر، ولكثرتها.

وخصهما بالذكر؛ لأنهما طعام وقوت حلو لا يحتاج إلى طبخ ومؤونة، وينتفع به رطبًا ويابسًا، ولأنهما أشرف وأنفع الأشجار.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾، أي: وفجرنا في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ الكثيرة المختلفة التي تسيل منها الأنهار السارحة، والتي تنفجر من رؤوس الجبال، وما يستخرج بواسطة الأنابيب وغير ذلك.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ثُمُرِهِ»؛ بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون بفتحهما: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يأكلوا من ثمره قوتًا وأدمًا، وفاكهة ولذة.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «عَمِلَتْ» بدون هاء، وقرأ الباقون بإثبات الهاء: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ عائد إلى المذكور: الحب والنخيل والأعناب.

والواو: حالية، أي: والحال أن ذلك الثمر ما عملته أيديهم، وليس لهم فيه صنع ولا عمل، وأكثره يؤكل مباشرة، لا يحتاج إلى طبخ ونحو ذلك.

ويحتمل: إن «ما» في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ موصولة معطوفة على «ثمره» في محل جر، أي: ويأكلوا من الذي عملته أيديهم.

فامتن الله عليهم بما أخرجه لهم من الثمار الطازجة، وبما أقدرهم عليه وعلمهم مما يعملونه بأيديهم من المأكولات.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا يشكرون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من هذه النعم العظيمة، بنسبتها إليه، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؟!

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، أي: تنزيهًا لله عن النقائص والعيوب، وتعظيمًا له، الذي خلق وأوجد الأصناف والأنواع كلها، مما لا يمكن حصره وتعداده.

وتفرد بالوحدانية، فهو سبحانه الفرد، وما عداه من المخلوقات لا بد فيه من زوجين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، أي: مما تخرجه الأرض من أصناف وأنواع النباتات، من الزروع والحبوب، والأشجار مختلفة الثمار؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث مع التفاوت بين خَلْقهم وخُلُقهم، وصفاتهم الظاهرة والباطنة.

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ومن الذي لا يعلمونه من مخلوقات شتى لا يعرفونها.

قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾، أي: وآية لهم، دالة على عظمة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وكمال قدرته، وإحيائه الخلق بعد موتهم.

﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، أي: ننزع ونفصل منه النهار؛ كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم داخلون في الظلام؛ لأن الأصل هو الظلام والليل، والنهار بنوره أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الظلام والليل، فإذا ذهب النهار ونوره بقي الظلام والليل.

وفي الحديث: «**إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم**»(١).

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ الواو: عاطفة، أي: وآية لهم الشمس تجري وتسير على الدوام، ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، أي: لمكان استقرارها، أو لوقت استقرارها، فهي آية في جريانها ومسيرها، وآية بما فيها من المنافع العظيمة، والمصالح الكثيرة.

ومكان استقرارها تحت العرش مما يلي الأرض، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «**يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾**»(٢).

وفي رواية: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ قال: «**مستقرها: تحت العرش**»(٣).

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها: منتهى وقت سيرها؛ وهو يوم القيامة، حينما تكوَّر ويذهب بنورها؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير: ١].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٥٤، ومسلم في الصيام، بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار ١١٠٠، وأبو داود في الصوم ٢٣٥١؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٩، ومسلم في الإيمان ١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة يس ٤٨٠٣، ومسلم في الإيمان ١٥٩.

وقيل المراد بمستقرها: منتهى تنقلها في البروج شمالًا وجنوبًا، فلها حد تنتهي إليه من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وعلى هذا فيكون المستقر زمانيًّا ومكانيًّا، فغاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى جريان الشمس، ﴿تَقْدِيرُ﴾، أي: تدبير وتقنين.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ذو العزة التامة: عزة القوة، والغلبة والقهر، والامتناع.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، فبعزته عز وجل التي لا تخالف ولا تمانع، وبعلمه الواسع الذي أحاط بكل شيء، أوجد هذه الشمس العظيمة، تجري في فلكها منذ خلقها الله بنظام بالغ تام، متقن دقيق، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ترتفع ولا تنخفض، وأوجد ما فيها من المصالح والمنافع للعباد مما لا يعد ولا يحصى، الدالة على عظمته عز وجل، وكمال قدرته وتمام نعمته؛ كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب: «وَالقَمَرُ» بالرفع، عطفًا على الشمس، وقرأ الباقون: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب على الاشتغال، أي: وقدرنا القمر منازل، أي: قدرنا سيره منازل، من أول الشهر إلى آخره، ينزل كل ليلة منزلة؛ لمعرفة الشهور والأعوام والحساب.

كما قال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة على حسب النجوم المعروفة عند العرب، ففي كل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحدة إن كان الشهر تسعًا وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتسمى: ليالي السرار، أي: الاختفاء؛ لاختفاء القمر فيها، إما في آخر الشهر، أو في أول الذي يليه.

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، أي: رجع بعد أن استتم وصار بدرًا إلى الضعف شيئًا

فشيئًا، إلى أن صار ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، أي: مثل عذق النخل إذا يبس يتقوس ويصفر، ويبدو دقيقًا.

قال ابن كثير(١): «وأما القمر فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء، وإن كان مقتبسًا من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم».

وبما أن نور القمر مستمد من الشمس؛ فإنه كلما ارتفع وبعد عن الشمس زادت المقابلة بينهما؛ لأن سيرهما كروي، فيزداد نوره حتى يكون بدرًا كاملًا، وذلك حين يكون في المشرق، وتكون الشمس في المغرب، ويتم التقابل بينهما.

وكلما دنا وقرب من الشمس قلَّت المقابلة بينهما، وضعف نوره شيئًا فشيئًا، والجزء المنير منه هو الذي يلي الشمس؛ لهذا في أيام الشتاء عندما تكون الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف عندما تكون الشمس عنه شمالًا تكون فتحة قوسه نحو الجنوب.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري لمستقر لها بتقدير العزيز العليم، وأنه قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود كالعرجون القديم، بيَّن أن هذا النظام في غاية الإحكام، لا يمكن أن يتصادم، أو يختل، أو يتفاوت، أو يضطرب.

قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ «لا»: نافية، و«أن» والفعل «تدرك» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ«ينبغي»، أي: لا الشمس ينبغي لها إدراك القمر، أي: لا يمكن لها إدراك القمر واللحاق به، والاجتماع معه في الليل؛ لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها.

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، أي: ولا الليل يسبق النهار، بل لا يأتي الليل إلا بعد النهار، فالشمس لا يمكن أن تطلع في الليل فتدرك القمر، ولا الليل يأتي في زمن النهار،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٥٦٤.

فيسبقه في بعض أجزائه، أو يحل محله فيتوالى ليلتين.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، أي: وكل من الليل والنهار والشمس والقمر في ﴿فَلَكٍ﴾ الفلك: الشيء المستدير، ﴿يَسْبَحُونَ﴾: يدورون، أي: كل منهما يسبح ويدور في فلكه على الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾، أي: ودلالة لهم، أي: للناس أيضًا على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وسعة رحمته، ونعمته وفضله.

﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «ذُرِّيَّاتِهِمْ» بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

أي: حملنا ما بقي من ذرية نوح عليه السلام على وجه الأرض ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، أي: في سفينة نوح التي أمره الله بصنعها؛ كما قال تعالى: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿الْمَشْحُونِ﴾، أي: المملوء ممن أمره الله بحملهم فيها من كل زوجين اثنين؛ من الحيوانات والأمتعة، وأهله إلا امرأته، ومن آمن معه وهم قليل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]، أي: ذرية نوح عليه السلام.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ معطوف على «حملنا»، أي: وآية لهم أنا خلقنا لهم، أي: أوجدنا لهم بتعليمنا إياهم.

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾، أي: من جنس فلك نوح وسفينته، أي: أوجدنا لهم من مثل الفلك المشحون الذي صنعه نوح سفنًا يركبونها في البحر، صغارًا وكبارًا على غرار سفينة نوح عليه السلام، حيث كانت أول سفينة صنعت.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١؛١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥].

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أتدرون ما: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾؟ قلنا: لا، قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها»(١).

وقيل: المراد بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: الإبل وغيرها من المراكب البرية والجوية.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ هذا يقوي أن المراد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾: السفن، أي: وإن نشأ نغرقهم في البحر، وهم على ظهور هذه السفن.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى: ٣٢- ٣٤].

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«صريخ»: «فعيل» بمعنى فاعل، أي: فلا صارخ لهم، ولا مستغيث، ولا مستنجد.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾، أي: ولا هم يُخلّصون من الغرق.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ «إلا»: للاستثناء، بمعنى: «لكن»، أي: لكن رحمة منا لهم، ولطفًا بهم، لم نغرقهم في البحر.

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ «متاعًا»: معطوف على رحمة، أي: إلا رحمة منا بهم، وتمتيعًا لهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت انتهاء آجالهم.

الفوائد والأحكام:

١- التنبيه على عظمة الله تعالى ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وتمام قدرته على إحياء الموتى، وسعة علمه وحكمته ورحمته في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراجه الحب منها، وجعله فيها بساتين من نخيل وأعناب، وتفجيره فيها العيون؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

٢- أن من أفضل ما أخرج الله من الأرض وجعل فيها: الحبوب، وبساتين النخيل والأعناب؛ لأن الله خصها بالذكر.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٤٤٤.

٣- امتنان الله عز وجل على العباد بما أخرج لهم من الأرض من الحبوب، وما جعل فيها من بساتين النخيل والأعناب، وغير ذلك، وما فجر فيها من العيون؛ ليأكلوا من ثمار ذلك مما لم تعمله أيديهم، أو مما عملته بتعليم الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ﴾.

٤- أهمية الحبوب وثمر النخيل والأعناب في حياة الإنسان، غذاء وفاكهة، وفضلها على سائر الثمار؛ لتخصيصها بالذكر.

٥- قدرة الله تعالى وتمام نعمته بتفجير عيون الماء من الأرض، الذي به حياة الإنسان والحيوان والنبات.

٦- عدم قدرة الخلق على صنع وإيجاد شيء مما به حياتهم، إلا ما علمهم الله وأقدرهم على صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ﴾.

٧- وجوب شكر نعم الله تعالى، والإنكار على من كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

٨- تنزيه الله عز وجل وتقديسه وتعظيمه، وإثبات وحدانيته، وتفرده في خلق الأزواج والأصناف والأنواع من نبات الأرض، ومن الناس، ومما لا يعلمه الخلق كلهم من مخلوقات شتى؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

٩- أنه ما من شيء من المخلوقات إلا منه زوجان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٠- قصور علم البشر، وعدم علمهم بكثير من الأشياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

١١- التنبيه على آيات الله تعالى في الليل والنهار، وتعاقبهما ضياءً وظلمةً، والشمس والقمر وجريانهما، وما في ذلك من الدلالة على عظمته عز وجل ووحدانيته، وتمام قدرته، وسعة علمه، وحكمته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

١٢- أن الأصل هو الظلام والليل، وأن النهار طارئ بنوره؛ لقوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

١٣- إثبات جريان الشمس وعدم ثبوتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي﴾.

١٤- أن للشمس مستقرًّا مكانيًّا، وهو تحت العرش؛ كما قال ﷺ؛ كما أن لها مستقرًّا زمانيًّا ينتهي إليه سيرها، وذلك يوم القيامة، منتهى هذه الدنيا وجميع ما فيها من الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

وذلك حين تجمع مع القمر، وتكور ويذهب بنورها؛ كما أن لها غاية تنتهي إليها ارتفاعًا في الصيف، وانخفاضًا في الشتاء، فيكون لها على هذا مستقرها زمانيًّا مكانيًّا.

١٥- التنويه بعظمته عز وجل، وعظمة تقديره لجريان الشمس في نظام بالغ دقيق، وتمام خلقه، وحسن تدبيره؛ لقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

١٦- إثبات اسمي الله: «العزيز»، و«العليم»، وصفتي العزة التامة، والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

١٧- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز»، و«العليم» كمال إلى كمال.

١٨- حكمة الله تعالى، وتمام قدرته، وسعة علمه ورحمته، ومنته في تقديره القمر منازل، كل ليلة ينزل فيها منزلة؛ يبدأ هلالًا ضئيلًا، ثم يزداد نوره وكماله حتى يكون بدرًا تامًّا، ثم يأخذ في النقصان حتى يصير كالعرجون القديم، وما في ذلك من المصالح للعباد من معرفة الشهور والأعوام والحساب، وغير ذلك.

١٩- إثبات القياس، وهو: إلحاق شيء بشيء لعلة؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

٢٠- أنه ليس بعد التمام إلا النقصان، وفي هذا عبرة لمن يعتبر؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وقد أحسن القائل:

إذا كنت تهوى العيشَ فاقنع توسطًا ... فعند التناهي يقصر المتطاول

تُـوَقّ البـدورُ الـنقصَ وهـي أهلـةٌ ويـدركها النقصـان وهـي كوامـلُ[١]

قال الشافعي في الرجز[٢]:

مـا طـار طـير فـارتفع إلا كـما طـار وقـع

ويقولون في المثل: «ما زم هضم».

٢١- أن سنن الله تعالى الكونية لا تتبدل ولا تتغير، في الشمس والقمر، والليل والنهار، وغيرها، فلا الشمس يمكن أن تدرك القمر، فتخرج ليلًا، ولا القمر يسبق النهار، فيأتي قبله، أو قبل انتهاء زمنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾.

٢٢- تعاقب الشمس والقمر والليل والنهار، ودوران كل منهما في فلكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

٢٣- أن من آيات الله ودلائل عظمته وتمام قدرته، ورحمته ونعمته، حمل ما بقي من ذرية نوح عليه السلام، التي تناسل منها الناس بعد ذلك في سفينة نوح عليه السلام، وإنجاءهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

٢٤- أن من آيات الله تعالى ونعمه على العباد، إيجاد هذه السفن التي يركبها الناس على ظهر البحر، وتحملهم من مكان إلى مكان؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وقيل: المراد السفن وغيرها من المراكب البرية والجوية.

٢٥- تهديدهم بأن الله عز وجل لو شاء لأغرقهم وهم على ظهور هذه المراكب في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ومفهوم هذا الامتنان عليهم بإنجائهم من الغرق.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي: الإرادة الكونية.

٢٧- أن ما شاءه الله وأراده كونًا نافذ لا محالة، فلا مستنجد لأحد منه، ولا منقذ؛

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «نهج البلاغة» ص١٦٣.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٩٤. ونسب في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٦٢٩ لابن المبارك، ونصه:

مـا طـار شـيء فـارتفع إلا كـما طـار وقـع

لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

٢٨- إثبات رحمة الله تعالى، ولطفه بالعباد في حملهم على هذه المراكب، وإنجائهم من الغرق، وتمتيعهم في الحياة إلى حلول آجالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

٢٩- أنه لن يموت أحد حتى يستوفي رزقه وأجله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٣٠- أنه لا خلود في هذه الدنيا، وكل من عليها فانٍ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، أي: وإذا قيل للمشركين المكذبين المتمادين في غيهم وضلالهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ «ما»: موصولة في الموضعين، أي: اتقوا الذي بين أيديكم من عذاب الدنيا مما هو حاضر أو منتظر قريبًا، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، أي: واتقوا الذي خلفكم، أي: الذي أمامكم من عذاب الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، أي: أمامه.

أو: اتقوا ما بين أيديكم من المعاصي؛ السابق منها أو اللاحق، وما خلفكم، أي: ما أمامكم من عذاب الآخرة.

أو: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من المعاصي اللاحق منها والسابق.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لأجل أن يرحمكم الله، فيقيكم عذابه، وينيلكم ثوابه. فجمعت الآية بين الترهيب والترغيب.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما تأتي هؤلاء المكذبين للرسل، أيّ آية.

﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الشرعية والكونية، البينة الواضحة الدالة على عظمته تعالى، ووحدانيته، وصدق رسله.

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما يقابلونها إلا بالإعراض والصدود، بقلوبهم وأبدانهم، فالإعراض عن الآيات الشرعية بالتكذيب بما فيها من الأخبار،

والاستكبار عن العمل بما فيها من الأحكام.

والإعراض عن الآيات الكونية: عدم التفكر فيها، والاتعاظ بها، وتفسير ما يحدث منها، من كسوف، وزلازل، وبراكين، وأعاصير مدمرة، وغير ذلك، بأنها أمور طبيعية، مع نسيان الحكمة من ذلك، وأنها نذر يحذر عز وجل بها عباده، وعقوبات يبتليهم بها؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[الروم: ٤١].

وقال ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم**»(١).

وكونهم يعرضون عن جميع الآيات دليل على أنهم لم يتقوا ما بين أيديهم وما خلفهم؛ كما أمروا بذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟﴾، أي: أعطوا وابذلوا، ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: من رزق الله، أو من الذي رزقكم الله، أي: من الذي أعطاكم الله من المال والخير على الفقراء والمحتاجين.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ للتصريح بكفرهم، وأنه سبب قولهم هذه المقالة، أي: قالوا معارضين للحق، محتجين بالمشيئة والقدر، مما لا حجة لهم به:

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ الاستفهام للإنكار، و«من»: موصولة، أي: أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمه وأغناه من رزقه، أي: لو شاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله لم يشأ أن يطعمهم فلا نطعمهم.

أي: أن الله شاء ألا يُطعم هؤلاء، وأن يكونوا فقراء، فنحن لا نطعمهم؛ لئلا نخالف مشيئة الله.

ويحتمل أنهم أرادوا بقولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾: الاستهزاء بمن يأمرهم بذلك، أي: أنطعم قومًا لو شاء الله أطعمهم، فإطعامهم إلى الله، لا إلينا.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما أنتم- أيها المؤمنون- في

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٦١، ومسلم في الكسوف ٩١٥؛ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أمركم لنا بذلك ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: في ضلال وبُعد عن الحق بيِّن واضح.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار المكذبون بوعد الله والبعث والحساب، على وجه الاستعجال، والاستبعاد والإنكار: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الاستفهام: للاستهزاء والتهكم والاستبعاد والإنكار.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: في قولكم: إن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾[الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾، فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٥؛٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فأجابهم بقوله: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩؛٣٠].

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الأولى في الصور، نفخة الفزع والموت عند قيام الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

أي: ففزع كل من في السموات والأرض، وصعقوا وماتوا من شدة النفخة والصيحة إلا من شاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهي الراجفة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾ [النازعات: ٦].

﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ بشدة وسرعة، وتفاجئهم ولا تمهلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠].

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ قرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد: «يَخْصِمُونَ»، وقرأ الباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾.

والواو حالية، أي: وهم يتخاصمون ويتشاجرون في أسواقهم وبيعهم وأكلهم وشربهم، لاهون غافلون في أمور دنياهم، يتخاصم بعضهم مع بعض.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ «توصية»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فلا يستطيعون أيَّ توصية مهما قلت، بأولادهم وأموالهم؛ لأنهم لا يستطيعون الكلام من شدة الفزع.

وهذه الآية كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٨- ٤٠].

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: ولا يستطيعون الرجوع إلى أهلهم؛ ليشاهدوهم ويودعوهم؛ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ «نفخ» بالبناء للمجهول؛ لأن الإيهام أبلغ في التهويل والتعظيم.

والصور: «القرن»؛ كما قال ﷺ: «**كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟!**». قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**»(١).

وصاحب القرن: هو إسرافيل عليه السلام، الذي وكل بالنفخ في الصور.

والمراد: النفخة الثانية، الرادفة، نفخة البعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦- ٧].

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم من القبور.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ«ينسلون»، وقدم عليه لإفادة الحصر،

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٤٣؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن».

أي: إلى ربهم وحده، مع مراعاة الفواصل.

﴿يَنسِلُونَ﴾ «النسلان»: المشي السريع، أي: فإذا هم من القبور يخرجون إلى ربهم مسرعين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧].

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾، أي: يا هلاكنا، ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: من الذي بعثنا من قبورنا، وأخرجنا منها؟! لأنهم كانوا يعتقدون في الدنيا أنهم لا يبعثون من قبورهم.

وهذا لا ينافي عذاب القبر؛ لأن عذاب القبر بالنسبة لما بعده كالرقاد؛ لأن ما بعده أشد وأعظم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: فيجيبهم المؤمنون أو الملائكة توبيخًا لهم بقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾.

و«هذا»: إشارة إلى بعثهم من قبورهم، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: هذا الذي وعد به الرحمن، أو هذا وعد الرحمن، بأن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً على الأعمال.

﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: أخبروا بالصدق فيما أخبروا به عن البعث والحساب والجزاء على الأعمال وغير ذلك، وفيما جاؤوا به من الشرع؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ويحتمل أن قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ من قول الكفار أنفسهم، اعترافًا منهم ذلك اليوم بصدق وعد الله وصدق الرسل حين لا ينفعهم ذلك.

والأول أظهر، وهو كقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الآيتان: ٢٠؛٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٦].

وفي ذكر «الرحمن» إشارة إلى أنه يحصل من رحمته عز وجل في ذلك اليوم ما لا تحيط به الظنون، ولا يصفه الواصفون؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما كانت النفخة في الصور، أو البعثة من القبور، إلا صيحة واحدة، ينفخ إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم جميع، أي: الأولون والآخرون، الإنس والجن ﴿لَّدَيْنَا﴾، أي: عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾، أي: ماثلون للحساب.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣؛١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الفاء: عاطفة، و«نفس» و«شيئًا» كل منهما نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فيوم القيامة لا تظلم أيُّ نفس أيَّ شيء من الظلم، لا قليلًا ولا كثيرًا، فلا ينقص من حسناتها، ولا يزاد في سيئاته.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، أي: فلا يخاف ظلمًا بزيادة السيئات، أو هضمًا بنقص الحسنات.

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال ابن القيم: «فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه في سيئاته، أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينفِ أن ينتفع بعمل غيره»(١).

﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية أو

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٩.

موصولة، أي: ولا تجزون إلا عملكم، أو إلا الذي كنتم تعملونه، قولًا أو فعلًا أو تركًا، من عمل القلب واللسان والجوارح.

والمجازاة: المكافأة، وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، أي: ولا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون، من خير أو شر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

الفوائد والأحكام:

١- تمادي الكفار والمكذبين في غيهم وضلالهم، وعدم تقواهم ما بين أيديهم من عذاب الدنيا، وما أمامهم من عذاب الآخرة، وزهدهم في رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، أي: لم يستجيبوا، بدليل قوله بعده: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٢- أن الإقبال على الله، وتقواه والحذر من عذابه، سبب لرحمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لعل الله يرحمكم، ففي هذا إثبات رحمته.

٣- إثبات العلل والأسباب، وأن لها تأثيرًا في المعلولات والمسببات بإذن الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٤- إعراضهم عن جميع الآيات بقلوبهم، وتوليهم بأبدانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٥- إثبات الربوبية العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٦- معارضتهم- بسبب كفرهم- أمر الله لهم بالإنفاق مما رزقهم الله، بالاحتجاج بالمشيئة والقدر، مما لا حجة لهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٧- بخل الكفار الشديد، وشحهم في الإنفاق من رزق الله.

٨- أن الرزق كله من الله، فلا ينبغي أن يُمنَّ بالإنفاق منه.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن المشركين يقرون بها ولا ينكرونها.

١٠- أنه قد يقول قائل كلمة الحق، ويريد بها الباطل، فقولهم: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ هذا حق، وهم ما أرادوا إثبات هذا الحق، وإنما أرادوا الاحتجاج بالمشيئة لترك إطعامهم والإنفاق عليهم.

١١- تجهيل المشركين للمؤمنين الذين يأمرونهم بالإنفاق من رزق الله؛ لقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: ما أنتم إلا في ضلال بيِّن واضح.

١٢- جرأة أهل الباطل على وصف أهل الحق بأبشع الأوصاف؛ للتنفير منهم ومن الحق.

١٣- أن الإنسان عدو لما يجهله، وهذا ما جعل هؤلاء يرمون من يأمرهم بالخير بالضلال المبين.

١٤- استعجالهم ما تُوعدوا به؛ تكذيبًا به واستبعادًا له، وتكذيبًا للرسل واستهزاءً بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

١٥- أن الرسل عليهم السلام قد بلغوا البلاغ المبين، وبيَّنوا ثبوت وعد الله بالبعث والجزاء على الأعمال بشهادة هؤلاء المكذبين، والحق ما شهدت به الأعداء.

١٦- تهديدهم بقرب ما تُوعدوا به من العذاب، وأنهم ما ينتظرون إلا صيحة الفزع تأخذهم وهم في غفلة يختصمون في أمور دنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٧- قدرة الله تعالى التامة؛ حيث يأخذهم كلهم بصيحة واحدة، لا ثانية معها.

١٨- أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأهل النزاع والخلاف والاختصام؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

وكما في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يبعث الله ريحًا كريح المسك، مسها مس الحرير، فلا تترك نفسًا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة**»(١).

١٩- سرعة أخذ الصيحة لهم، وشدة صدمتها عليهم، فيعجم على ألسنتهم فلا

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٢٤.

يستطيعون الكلام، ولا يستطيعون التحرك من أماكنهم ليوصوا أو ليرجعوا إلى أهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٢٠- إثبات النفخة الثانية في الصور، وبعث الناس وقيامهم من قبورهم مسرعين للوقوف بين يدي الله تعالى للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

٢١- ما أيسر أمر البعث على الله تعالى؛ فإنه بالنفخ في الصور نفخة واحدة يخرج الناس من قبورهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

٢٢- دعاء الكفار والمكذبين بالويل، وشدة تحسرهم، وتعجبهم من بعثهم من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾.

٢٣- أن البقاء في القبور ما هو إلا كما ينام النائم ثم يستيقظ، وأن عذاب القبر بالنسبة لما بعده كالرقاد؛ لأن عذاب الآخرة أشد وأعظم.

٢٤- إقرارهم واعترافهم في ذلك اليوم بتحقق وعد الله، وصدق الرسل فيما أخبروا به، وبلغوا عن الله تعالى؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولكن لا ينفعهم ذلك؛ لفوات أوانه.

٢٥- توبيخ المؤمنين أو الملائكة لهؤلاء المكذبين؛ لقولهم لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا على الاحتمال الثاني في معنى الآية.

٢٦- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وفي ذكر اسم الرحمن في هذا السياق إشارة إلى سعة رحمة الله عز وجل في ذلك اليوم العظيم.

٢٧- إثبات صدق وعده، وصدق رسله؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

٢٨- أن النفخة الثانية في الصور، والبعثة من القبور، ما هي إلا صيحة واحدة،

فإذا جميع الخلائق أولهم وآخرهم، وإنسهم وجنهم، لدى ربهم ماثلون للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وذلك لكمال قدرته عز وجل.

٢٩- كمال عدل الله عز وجل في حساب الخلائق يوم القيامة، فلا تظلم نفس أيًّا كانت أي شيء من الظلم، لا بنقص من الحسنات، ولا بزيادة في السيئات، ولا يجزى أحد إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن جُوزي بالإحسان، ومن أساء جُوزيَ بمثل ما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

لما ذكر أن كل أحد لا يجزى إلا بعمله، ذكر جزاء الفريقين، وبدأ بجزاء المؤمنين تكريمًا لهم وتشريفًا.

قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: «شُغْلٍ»؛ بإسكان الغين، وقرأ الباقون بضمها: ﴿شُغُلٍ﴾.

وقرأ أبو جعفر: «فَكِهُونَ»؛ بدون ألف، وقرأ الباقون بالألف: ﴿فَٰكِهُونَ﴾.

أي: إن أصحاب الجنّة، أي: أهلها وملازموها ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، فـ«ال» للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكره قريبًا في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [يس: ٥٤].

﴿فِى شُغُلٍ﴾، أي: في شغل بما هم فيه من النعيم والتلذذ بالنساء والحور العين، وأصناف المآكل والمشارب، وغير ذلك، عن كل شيء آخر، لأنهم في أوج النعيم وأعلاه، فلا يلتفتون إلى غيره؛ كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٨].

﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: متفكهون متلذذون ناعمون.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ظُلُلٍ»؛ بضم الظاء من غير ألف، جمع: «ظُلَّة»، وقرأ الباقون بكسر الظاء وألف: ﴿ظِلَٰلٍ﴾ جمع: «ظِلٍّ»، وجمع «ظلة»، فهم في ظلال دائمًا؛ لأنه ليس في الجنة شمس ولا زمهرير؛ كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، وقدم عليه مراعاة للفاصلة.

و«أرائك» جمع: «أريكة»، وهي الأَسِرَّة المزينة تحت الحجال التي تنصب على الأسرة أشبه بالخيمة الصغيرة، تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل، أو بالمرأة.

والاتكاء يدل على كمال الراحة والطمأنينة والاستقرار، وراحة البال، وتمام اللذة.

﴿لَهُمْ﴾، أي: لأصحاب الجنة، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ اسم جنس، أي: لهم في الجنة جميع أنواع الفواكه، من عنب وتين ونخل ورمان؛ لأن جميع أكل أهل الجنة يأكلونه على سبيل التفكه والتلذذ، لا على سبيل الحاجة والضرورة؛ بخلاف أهل الدنيا فقد يأكلون تلذذًا، وقد يأكلون للحاجة، أو للضرورة.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، أي: ولهم كل الذي يطلبونه، فمهما طلبوه وجدوه من أصناف النعيم، وكل ما اشتهوه حصل لهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة: نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في مقام أبدًا، في حبرة ونضرة، في دور سليمة عالية بهية**». قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله. قال: «**قولوا: إن شاء الله**». ثم ذكر الجهاد، وحض عليه(١).

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ «سلام»: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أو هو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام؛ يعني: الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

و«قولًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، وفيه تأكيد سلام الله تعالى لأهل الجنة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية ١٨٤.

بقول وكلام، فلهم في الجنة كل ما يدعونه؛ لأنها دار السلام، ومن أجلِّ ذلك سلام الله تعالى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. قال: وذلك قول الله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

لما ذكر ما أعد لأهل الجنة من النعيم الحسي والمعنوي، أتبعه بذكر ما أعد للمجرمين من العذاب في نار جهنم، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: يقال للمجرمين يوم القيامة؛ للإهانة والإذلال والطرد لهم على رؤوس الأشهاد قبل إدخالهم النار:

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: تميزوا وانفصلوا اليوم أيها المجرمون المذنبون عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥- ٨٦].

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتقريع، أي: ألم آمركم وآخذ عليكم الميثاق المؤكد على ألسنة رسلي، وفيما أنزلت عليكم من كتبي؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية ١٨٤.

والمراد ببني آدم: الجنس والقبيلة، فيشمل الذكور والإناث.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ «أن» تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء مقدرة، أي: بألا تعبدوا الشيطان، أي: بألا تطيعوا الشيطان؛ لأن طاعته نوع من العبادة؛ لما فيها من الخضوع والتذلل له، مما ينبغي ألا يكون إلا لله تعالى.

كما رُوي في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال عدي: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. قال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: نعم، قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الجملة تعليل للنهي عن عبادته، أي: لأن الشيطان لكم عدو بيِّن العداوة ظاهرها، لا يأمركم إلا بشر، ولا ينهاكم إلا عن خير.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ معطوف على قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، أي: وعهدت إليكم بأن اعبدوني وحدي، أو بعبادتي وحدي.

﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى ترك عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده.

أي: هذا طريق مستقيم، عدل قويم، موصل إلى الله تعالى وإلى جنته، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بضم الجيم والباء: «جُبُلًّا»، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم، وإسكان الباء: «جُبْلًا»، وقرأ الباقون بكسر الجيم والباء، وتشديد اللام: ﴿جِبِلًّا﴾.

والواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ عاطفة، واللام: لام القسم، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد أضل الشيطان منكم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، أي: خلقًا كثيرًا، أي: أكثر الخلق. و«الجبل»: الجمع العظيم، مشتق من الجبل، أي: ولقد أضل منكم خلقًا كثيرًا، أي: صرفهم عن الصراط المستقيم، وقادهم إلى الضلال، فلم يحفظوا عهد الله وميثاقه إليهم بألا يعبدوا الشيطان، وأن يعبدوه عز وجل وحده، وصدق فيهم ظنه حين قال: ﴿ثُمَّ

---

(١) سبق تخريجه.

لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧]، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أين عقولكم؟ كيف تعبدون عدوكم المبين الشيطان، وتعدلون عن عبادة ربكم الرحمن؟ أي: أفما كان لكم عقول تهتدون بها إلى معرفة الحق، والتمييز بينه وبين الباطل؟!

وصدق الله العظيم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد أحسن القائل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: يقال للذين عبدوا الشيطان وأضلهم، وتركوا عبادة الرحمن، تقريعًا لهم وتوبيخًا، وتعذيبًا لقلوبهم:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: هذه نار جهنم التي كنتم في الدنيا توعدون بها، وتحذرون منها على ألسنة الرسل، وكذبتم بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّٗا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٣ - ١٥].

﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾؛«ال» للعهد الذكري أو الحضوري.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: يقال لهم إهانة وإذلالًا لهم: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾، أي: ادخلوها وقاسوا حرها ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: يوم القيامة، بسبب كفركم وجحودكم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، أي: نلجمها ونغلقها ونسدها، بأن نجعلهم خرسًا لا

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

ينطقون ولا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما هم عليه من الكفر والباطل، والدفاع عن أنفسهم.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤]؛ لأنهم في بعض المواقف يحال بينهم وبين الكلام، ويختم على أفواههم، وفي بعض المواقف يخلى بينهم وبين الكلام.

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: وتنطق أيديهم وتخبر بما بطشت، وبما عملت.

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾، أي: وتشهد عليهم أرجلهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: بالذي كانوا يكسبونه، أو: بكسبهم، وبما مشت إليه من المعاصي والآثام، والموبقات والإجرام.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢٠- ٢١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «**كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدرون مما أضحك؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب، ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز عليّ إلا شاهدًا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لكنَّ وسحقًا، فعنكنَّ كنت أناضل**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**فيقول: يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليَّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه**

(١) سبق تخريجه.

بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه: فَخِذه من الرِّجلِ الشِّمال**»(٢).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، أي: أعميناهم وطمسنا على أعينهم وأبصارهم وأزلناها، فانسد أمامهم طريق الدلالة، واللام واقعة في جواب «لو» في الموضعين.

﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾، أي: فابتدروا وتسابقوا إلى الطريق؛ ليصلوا إلى مقصودهم.

﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: فكيف يبصرون الطريق، وقد طمسنا أعينهم وأزلنا أبصارهم؟ أي: أنهم لا يمكن أن يبصروا.

والمقصود: أن الله طمس على بصائرهم وقلوبهم، فلا تهتدي إلى الحق، ولو يشاء لطمس على أعينهم طمسًا حسيًّا مشاهَدًا؛ فكما أن من طمست عيناه لا يبصر الطريق، فكذلك من طمست بصيرته لا يهتدي إلى الحق.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، أي: لأبقيناهم على مكانتهم، وأذهبنا حركتهم، فانسد أمامهم طريق السير.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾، أي: فما استطاعوا أن يسيروا قدمًا إلى الأمام.

﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الوراء؛ لعدم استطاعتهم ذلك، وذلك لسيرهم في الحياة عكس الاتجاه الصحيح وضده.

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾، قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية، وكسر الكاف وتشديدها: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، وقرأ الباقون بفتح النون الأولى وإسكان الثانية وضم الكاف مخففة: «نَنْكُسْهُ».

أي: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾، أي: نجعل عمره طويلًا، ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ التنكيس

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٥١، قال ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧٣: «وقد جود إسناده الإمام أحمد رحمه الله».

والإنكاس: الرد من حالة كاملة إلى حالة ناقصة، أي: نرده ونعيده في الخلق إلى الحالة التي ابتدأ منها، وهي حالة الضعف، ضعف القوة البدنية، وضعف القوة العقلية والفكرية؛ كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤]

وقال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [النحل: ٧٠].

فكلما طال عمر الإنسان فإنه يرجع إلى الوراء، فيرد إلى الضعف بعد القوة، وإلى العجز بعد القدرة، ويزداد ضعفه وعجزه، حتى يُرد إلى الخَلق الأول، وإلى أرذل العمر.

ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادِّكار الموت والهرم

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر وأبو جعفر بالخطاب: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم من ضعف، وانتهائهم إلى ضعف، وأنهم لا يزدادون مع طول العمر إلا ضعفًا وعجزًا، فيستدلون بذلك على حقارة الدنيا وزوالها وفنائها، وعلى إثبات البعث والدار الآخرة، وعظم مكانتها وبقائها وقربها، فيستعدوا لها بمبادرة الأعمار بالإيمان والأعمال الصالحة؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، أي: وما علمنا محمدًا ﷺ الشعر.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ﴾، أي: ولا يصلح له، ولا يليق به، لا طبعًا ولا شرعًا، ولا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر، لا إنشاء ولا إنشادًا.

وفي هذا رد على الذين يزعمون أنه ﷺ شاعر، وأن ما جاء به شعر؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ «إن»: نافية بمعنى: ما، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما الذي علمناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾، أي: تذكير بالله تعالى وموعظة وشرف لمن اتبعه؛ كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: ١].

و﴿مُّبِينٞ﴾، أي: بين واضح جلي ظاهر لمن تأمله وتدبره أنه ليس بشعر، ولا بقول شاعر، ومبين مظهر للهدى من الضلال، وللحق من الباطل، وللحلال والحرام، وجميع الأحكام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

فهو عز وجل علم رسوله ﷺ القرآن، ولم يعلمه الشعر، وما يليق به الشعر. ولا ينافي هذا أنه قد يتمثل أو يرتجز شطر بيت من الشعر، أو بعض الأبيات، أو يستمع شيئًا منه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر[1] تمثل فيه بيت طرفة:

..... ويأتيك بالأخبار من لم تزود»[2]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق وهو يرتجز برجز عبدالله:

والله لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا

---

(١) أي: استبطأه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب، ما جاء في إنشاد الشعر ٢٨٤٨، وأحمد ٦/ ٣١، ١٤٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ورواه أبو بكر البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٧٦.

وصدر الشطر المذكور:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا

وهو من معلقة طرفة المشهورة، انظر: «ديوان طرفة بن العبد» ص ٦٦.

وإن أرادوا فتنـــــــة أبينـــــــا

وكان يرفع صوته بقوله: «أبينا»(١).

وكان يقول يوم حنين:

أنـــــا النبـــــي لا كـــــذب

أنـــا ابـــن عبـــد المطلـــب(٢)

وعن جندب بن سفيان؛ أن رسول الله ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت إصبعه، فقال:

هـــل أنـــت إلا إصـــبع دميـــت

وفي ســـبيل الله مـــا لقيـــت(٣)

وعن الشريد بن سويد رضي الله عنه، قال: «**ردفت رسول الله ﷺ يومًا، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**» قلت: نعم. قال: «**هيه**»، فأنشدته بيتًا، فقال: «**هيه**»، ثم أنشدته بيتًا، فقال: «**هيه**»، حتى أنشدته مئة بيت(٤).

وتمثله ﷺ بشيء مما ذكر، أو وقوع ذلك منه اتفاقًا من غير قصد لوزن الشعر، أو استماعه لشيء منه، لا ينافي كما تقدم كونه ما عُلِّم الشعر، وما ينبغي له؛ ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كان أبغض الحديث إليه- تعني: الشعر- وكان يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، حفر الخندق ٣٠٣٤، ومسلم في الجهاد، غزوة الأحزاب ١٨٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: من قاد دابة غيره في الحرب ٢٨٦٤، ومسلم في الجهاد، غزوة حنين ١٧٧٦، والترمذي في الجهاد ١٦٨٨؛ من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، من نكب في سبيل الله ٢٨٠٢، ومسلم في الجهاد، ما نال رسول الله ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٦، والترمذي في التفسير ٣٣٤٥.

(٤) أخرجه مسلم في الشعر ٢٢٥٥، وابن ماجه في الأدب، باب: الشعر ٣٧٥٨، وأحمد ٤/ ٣٨٨/ ٣٨٩، ٣٩٠.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ١٤٨.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: «لِتُنْذِرَ»؛ بتاء الخطاب، فالضمير يعود إلى الرسول ﷺ، وقرأ الباقون: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بياء الغيبة، فالضمير يعود إلى القرآن.

اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر هذا الذكر والقرآن، أو تنذر بهذا الذكر والقرآن من كان حي القلب والبصيرة، وهو الذي يتذكر ويتعظ بالقرآن وينتفع به.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وهو إنذار لجميع الأحياء، أي: لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

لكن لا ينتفع بإنذاره إلا من أحيا الله قلبه وبصيرته، وهم المؤمنون على تفاوت بينهم في ذلك؛ لهذا خص بالإنذار من كان حيًّا، وتوعد بالعذاب الكافرين، فقال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: ويحق القول على الكافرين بكفرهم وعدم إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ٣٣].

ويحق القول عليهم بالعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية، ولا قابلة للخير البتة، فيحق عليه القول بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه».

وفي قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون أن يقول: ويحق القول على من كان ميتًا؛ لبيان أن من كان ميت القلب فهو كافر، وأن الكافر لا ينتفع بالقرآن.

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين: أصحاب الجنة وهم المؤمنون، وأصحاب النار وهم المجرمون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

٢- كمال نعيم أهل الجنة، وتمام تفكههم وتلذذهم فيها وتنعمهم، وانشغالهم بذلك يوم القيامة عن كل ما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٣- أن لأهل الجنة زوجات؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٤٨- ٤٩]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧].

٤- أن الجنة ظلال لا شمس فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾.

٥- كمال راحة أهل الجنة، وطمأنينتهم، وراحة بالهم، وتمام لذتهم في مجالسهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.

٦- أن لأهل الجنة فيها كل أنواع الفاكهة، والتفكه والتلذذ بكل ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾.

٧- أن لهم فيها كل ما يطلبونه، وكل ما يشتهونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

٨- أن من أعظم نعيم أهل الجنة: سلام الله عليهم، وإخباره إياهم بالسلامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

٩- إثبات القول والكلام لله عز وجل، وأنه سبحانه يقول ويتكلم بحرف وصوت مسموع كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه، ورحمته الخاصة بهم؛ وأن أهل الجنة إنما دخلوها ونالوا هذه المنزلة برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

وقد قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

١١- إهانة المجرمين وإذلالهم يوم القيامة بطردهم وإفرادهم وإبعادهم عن

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤمنين؛ كما يبعد البعير الأجرب بسبب إجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

١٢- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، بذكر أهل الجنة، وما أعد لهم من النعيم، وذكر المجرمين، وما أعد لهم من العذاب الأليم.

١٣- المايزة والتفريق بين المؤمنين والمجرمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤].

١٤- تقرير عهد الله عز وجل إلى بني آدم ألا يعبدوا الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

١٥- تقريع المجرمين وتوبيخهم على نقضهم عهد الله وميثاقه، وعدم وفائهم بما عهد الله به إلى بني آدم؛ من عدم عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾.

١٦- أن الله تعالى قد أقام الحجة على الخلق، وأعذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن﴾ الآية.

١٧- أن من أطاع الشيطان فيما يأمر به من معصية الله تعالى فقد عبده؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾.

١٨- عداوة الشيطان لبني آدم؛ عداوة بينة ظاهرة؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٩- وجوب عبادة الله تعالى وحده؛ لأن الله قد أخذ الميثاق على بني آدم أن يعبدوه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾.

٢٠- أن الوفاء بعهد الله بعدم عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده هو الصراط المستقيم، والطريق القويم، الموصل إلى السعادة، وإلى مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

٢١- تقريع وتوبيخ بني آدم: كيف أضل الشيطان كثيرًا منهم، كأنهم لا يعقلون؟! لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٢٢- التحذير من طاعة الشيطان، وأن من انخدع للشيطان فاتبعه وأضله؛ فهو غير عاقل.

٢٣- تهديد ووعيد الذين عبدوا الشيطان، وتركوا عبادة الله، وكذبوا وعده، وتبكيتهم، وتقريعهم وإهانتهم وإذلالهم بأمرهم بدخول جهنم واصطلائها يوم القيامة بكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٤- إثبات نار جهنم، وأنها معدة للمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾.

٢٥- إثبات الأسباب، وأن سبب دخول المذكورين جهنم، واصطلائهم بحرها: كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ جزاء وفاقًا.

٢٦- ختم الله تعالى على أفواههم ذلك اليوم، فلا تستطيع ألسنتهم أن تتكلم وتدافع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾.

٢٧- تكلم أيديهم بما عملت وبطشت، وشهادة أرجلهم بما مشت وبما كانوا يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

وهذا لا ينافي شهادة ألسنتهم عليهم في بعض المواقف؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

لأنهم في بعض المواقف يختم على ألسنتهم، ويحال بينهم وبين الكلام، وفي بعضها يخلى بينهم وبين الكلام.

٢٨- قدرة الله تعالى على الختم على الأفواه والألسنة، وإنطاق الجوارح، من الأيدي والأرجل والجلود وغيرها، وإشهادها على العباد بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢٠- ٢١].

٢٩- يجب على العبد التحرز من الإخلال بالعبادات، ومن ارتكاب المعاصي؛ لأن جوارحه ستشهد له أو عليه بما عمل.

٣٠- تهديدهم بالطمس على أعينهم، وأنه عز وجل لو شاء لطمس على أعينهم، فابتدروا الطريق فلا يبصرونه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ

فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

٣١- أن من طمس الله بصيرته لا يستطيع الاهتداء إلى الحق؛ كمن طمس على عينيه وأزيل بصره، لا يستطيع معرفة الطريق.

٣٢- تهديدهم بأنه عز وجل لو شاء لمسخهم على مكانتهم، وأفقدهم حركتهم، فلا يستطيعون المضي قدمًا، ولا الرجوع إلى الوراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٣٣- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وإثبات تمام قدرته.

٣٤- أن الإنسان لا يزداد مع طول العمر إلا ضعفًا وعجزًا، ورجوعًا إلى بدء الخلق، وردًّا إلى أرذل العمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

٣٥- الإنكار والتقريع لمن لم يتفكر بذلك، ويستدل به على حقارة الدنيا وفنائها، وعلى إثبات الآخرة، وعظم مكانتها، وبقائها، وقربها، ووجوب الاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

٣٦- ينبغي مبادرة الأعمار بالأعمال الصالحة، واغتنام فرص العمر وشبابه وقوته قبل فواتها.

٣٧- أن الله عز وجل ما علّم نبيه الشعر، وما كان لائقًا به ﷺ لا طبعًا، ولا شرعًا، لا إنشاءً له، ولا إنشادًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

وفي هذا رد وتكذيب لزعم المشركين أنه ﷺ شاعر، وأن ما جاء به شعر.

٣٨- أن الذي علمه الله عز وجل لنبيه ﷺ وأوحاه إليه: ما هو إلا ذكر وقرآن بيِّن واضح، مبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس بشعر، ولا بقول شاعر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

٣٩- أن الحكمة من بعثته ﷺ، وإنزال الذكر والقرآن عليه؛ لأجل إنذار وتحذير من كان قلبه حيًّا، يتذكر ويعتبر ويتعظ، ولتقوم به الحجة على الكافرين موتى القلوب، ويحق القول عليهم بالكفر والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

٤٠- أنه لا ينتفع بالإنذار إلا أحياء القلوب؛ لهذا خصهم بذلك، وهم المؤمنون، دون الكافرين، وإلا فإن القرآن إنذار لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

٤١- إثبات القدر، وأن من كتب الله عليهم الضلال والعذاب، فلا سبيل إلى هدايتهم، ولا نجاة لهم من العذاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ الاستفهام: للتقرير والتوبيخ، أي: أولم ينظروا ويتأملوا ويتفكروا أنا خلقنا وأوجدنا لأجلهم.

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾، أي: من الذي عملته أيدينا، أي: من الذي عملنا أنعامًا من الإبل والبقر والغنم، وغير ذلك من بهيمة الأنعام.

﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ملكًا خاصًّا، خلقناها لهم، وملكناهم إياها، يتصرفون فيها كما شاؤوا في حدود الشرع.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾، أي: سخرناها لهم، وجعلناها ذليلة منقادة لهم، يقودونها ويُصرفونها حيث شاؤوا، ولا تمتنع عليهم، ترى الطفل الصغير ينيخ البعير الكبير، ويقيمه، ويسوقه، ويسير بسيره أكثر من مئة بعير، وذلك بتسخير العليم الخبير.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، أي: فمن هذه الأنعام ما يركبونه في أسفارهم، ويحملون عليه الأثقال في تنقلهم بين البلدان والأقطار، وهي: الإبل، و«رَكوب»: فعول بمعنى «مفعول»، أي: مركوب.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، أي: ومن هذه الأنعام يأكلون اللحم، من الإبل والبقر والغنم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، والسقي والحرث عليها، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ

إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَمَشَارِبُ﴾ جمع «مشرب»، أي: شرب، أي: ولهم فيها مشارب مختلفة متنوعة، فيشربون من ألبان الإبل، ومن ألبان البقر، ومن ألبان الغنم.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ.

أي: أفلا يشكرون الله تعالى على خلق هذه الأنعام وتذليلها وتسخيرها لهم، بأن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به غيره؟

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾، أي: واتخذ المشركون غير الله آلهة يعبدونهم معه.

﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لعلهم يُنصرون بهم، أي: لأجل أن ينصروهم، ويشفعوا لهم. وهذا إنكار من الله تعالى عليهم؛ ولهذا قال:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أي: لا يستطيع هؤلاء الآلهة نصر عابديهم، ولا يقدرون على ذلك، بل هم أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر؛ لأنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: ١٩٧].

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ الواو: عاطفة، والضمير «هم» يعود على العابدين، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الآلهة، أي: وهؤلاء العابدون لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، أي: حاضرون ينتصرون لهم، ويدافعون عنهم.

فالمعنى: أن هذه الآلهة التي يعبدونها لأجل أن تنصرهم وتشفع لهم لا تستطيع نصرهم، وهم الذين أعدوا أنفسهم جنودًا حاضرين لنصرها والدعوة لعبادتها؛ كما قال قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقيل: الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على الأصنام، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يعود على العابدين، فالمعنى: والأصنام لعابديهم جند ينصرونهم حسب زعمهم، ﴿مُّحْضَرُونَ﴾

معهم في النار يوم القيامة.

والصحيح: القول الأول؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على أقرب مذكور، وهم العابدون؛ فالضمير لهم في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

ومعنى الآية على هذا أظهر وأقوى، وعليه يدل الواقع، فإن الأصنام لا تنصر عابديها، وإنما هم ينتصرون لها.

وفيه: إظهار سفاهة المشركين، وشدة ضلالهم، حيث عبدوا ما لا يستطيع نصرهم، وانتصروا لما لا ينفعهم.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي: «يُحْزِنْكَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم الزاي: ﴿يَحْزُنكَ﴾.

﴿قَوْلُهُمْ﴾ اسم جنس، أي: لا تحزنك أقوالهم، من وصفهم لك ولما جئت به بالكذب والسحر والشعر والكهانة، ونحو ذلك، أي: لا تحزن ولا تأس لذلك ولا تباله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ الجملة تعليلية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: لأنا نعلم الذي يسرونه ويخفونه في أنفسهم وفيما بينهم، والذي يعلنونه ويظهرونه فيما بينهم أو للناس، أي: نعلم إسرارهم وإعلانهم، وسنجزيهم وصفهم، ونجازيهم على جميع أعمالهم، سرها وعلانيتها.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

وقدّم الإسرار؛ لأنه أدل على إحاطة علم الله بأحوالهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففته بيده، فقال: يا محمد، أيحيي الله تعالى هذا بعد ما أرى؟ قال: «**نعم، يبعث الله**

هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم».

فنزلت الآيات من آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى آخر السورة(١).

وروى مجاهد وقتادة: «أنها نزلت في أُبيّ بن خلف، أتى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته»(٢).

قال ابن كثير(٣): «وعلى كل تقدير، سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث».

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتعجيب، و«ال» للجنس، أي: أولم ير الإنسان، أي: كل منكر للبعث، أي: يعلم ويتفكر، أنا خلقناه من نطفة، وهي الماء المهين الضعيف «المني»؟ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

أي: أولم ير الإنسان أنا ابتدأنا خلقه من نطفة، أي: من سلالة من ماء مهين ضعيف، فيتواضع لله تعالى ويعرف أصل خلقه، ولا يتجبر، ولا يتكبر، ويستدل بذلك على قدرة الله تعالى على إعادته وبعثه بعد موته من باب أولى.

عن بسر بن جحاش القرشي رضي الله عنه، قال: بزق النبي ﷺ في كفه، ثم وضع أصبعه السبابة، وقال: يقول الله عز وجل: أنى تعجزني يا ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟»(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٠٢، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٨٠، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٤٨٧، عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ١٩/ ٤٨٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٠٢ عن مجاهد والسدي وعكرمة.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٥٨٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الوصايا، النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧، وأحمد ٤/ ٢٦٠.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فيترقى في الخلق من هذا الضعف، فإذا ﴿هُوَ خَصِيمٌ﴾، أي: شديد الخصومة، متجبر شديد الشكيمة، كثير الخصام، ﴿مُّبِينٌ﴾: للخصومة والتجبر.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ «المثل»: الشبه، أي: وضرب هذا الإنسان لنا مثلًا، لا ينبغي لأحد أن يضربه، ولا يستقيم أبدًا، مستبعدًا ومنكرًا البعث والمعاد، وإعادة الحياة إلى الأجساد.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، أي: ونسي ابتداء خلقه، وأن الله خلقه من العدم، وفي خلقه من العدم ما هو أعظم من إعادة خلقه، ولو ذكر خلقه الأول لما ضرب هذا المثل.

﴿قَالَ﴾ في ضربه هذا المثل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيز والنفي، أي: لا أحد يحييها، أي: يستطيع ويقدر على إحيائها.

﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، أي: وهي بالية متفتتة، فقاس قدرة الخالق العظيم القدير، بقدرة المخلوق الضعيف العاجز، وقد قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: قل يا محمد؛ إجابةً عن سؤال هذا المنكر للبعث، وإحياء العظام وهي رميم.

﴿يُحْيِيهَا﴾، أي: يحيي العظام بعد كونها رميمًا.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لم يقل: يحييها الله؛ ليكون الجواب متضمنًا للدليل، أي: يحييها الذي خلقها وأوجدها من العدم أول مرة، وهو الله عز وجل، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، فمن قدر على الإبداء والنشأة الأولى، فهو على الإعادة والنشأة الأخرى أقدر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وقال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩- ٢٢].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع بكل خلق، و«خلق»: مصدر، أي: عليم كيف يخلق، وكيف ينشئ الخلق.

فأثبت له عز وجل القدرة، ونفى عنه العجز بقوله: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وأثبت له تمام علمه بالخلق، ونفى عنه الجهل بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وبثبوت تمام قدرته وتمام علمه بالخلق إثبات تمام قدرته على إحياء الموتى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن رجلًا حضره الموت، لما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا، ثم أوروا نارًا، حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي، فخذوها فاطحنوها، فذرّوني في اليم في يوم حار، أو راحٍ. فجمعه الله، فقال: لم فعلت؟ قال: خشْيَتك. فغفر له**»(١).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، أي: الذي صيّر لكم من الشجر الأخضر نارًا، وهو الله عز وجل. فهذا الشجر الأخضر أعاده الله إلى أن صار حطبًا يابسًا توقد به النار، ولا يخفى ما بين الشجر الأخضر الذي فيه الرطوبة والبرودة، وبين النار التي فيها اليبوسة والحرارة؛ من التنافر والتضاد، فخلق عز وجل الشيء من ضده.

وإذا كان عز وجل قادرًا على خلق الشيء من ضده، فهو على خلق الشيء من لا ضد وإحياء الموتى أقدر، من باب أولى.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ الفاء عاطفة، و«إذا» فجائية، أي: فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار وتقدحونها، بضرب عود بعود آخر من بعض الشجر، فتقدح النار، وتشعلونها في الحطب اليابس من هذا الشجر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١؛٧٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٩.

دلل عز وجل على قدرته التامة على المعاد وإحياء الموتى بالخلق الأول، وبعلمه عز وجل بجميع الخلق، وبإخراج النار من الشجر الأخضر، ثم دلل على ذلك بخلقه السموات والأرض، الذي هو أكبر من خلق الناس، وأوضح للعقول من كل دليل.

قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: أوليس الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة: السموات السبع، وما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع، وما فيها من الجبال والرمال، والقفار والبحار، وغير ذلك.

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ قرأ رويس عن يعقوب: «يَقْدِرُ» بصيغة المضارع، وقرأ الباقون: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ بالباء الموحدة، وبألف بعد القاف.

والباء في قوله: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، و«أن» والفعل «يخلق» في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على خلق مثلهم، أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم؟

﴿بَلَىٰ﴾ أجاب عز وجل نفسه بنفسه؛ لظهور الأمر ووضوحه، أي: بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾، أي: ذو الخلق المتقن من جميع الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بالنصب: «فَيَكُونَ»؛ عطفًا على ﴿يَقُولَ﴾، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿فَيَكُونُ﴾، أي: فهو يكون.

الفاء: للتعقيب، و«إنما»: أداة حصر، و«أن» والفعل «يقول» في تأويل مصدر في محل رفع خبر المبتدأ «أمره»، و«شيئًا»: نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء.

أي: ما أمره إذا أراد شيئًا من الأشياء إلا قوله له: كن، فيكون في الحال من غير تمنُّع، ولا تأخر، أي: إلا أن يأمر بالشيء أمرًا واحدًا، من غير حاجة إلى تكرار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات: ١٣- ١٤].

إذا مـــا أراد الله أمـــرًا فـــإنما يقـول لـه: «كـن» قولـة فيكـون(١)

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، وإذا أردت شيئًا فإنما أقول: «كن» فيكون**»(٢).

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«سبحان»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: تنزيهًا لله تعالى عن النقائص، وعن مماثلة المخلوقين، ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: الذي بيده ملك كل شيء؛ فهو سبحانه الرب الخالق المالك المتصرف بكل شيء، ذو القدرة التامة على إحياء الموتى.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

و«ملكوت» بمعنى: «ملك»، لكن زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قال: «**الحمد لله ذي الملكوت والجبروت، والكبرياء والعظمة**»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصَرَفَ وقد كادت تنكسر رجلاي»(٣).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٨٢.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٧.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٨.

فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة**»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ آل عمران، ثم قرأ سورة سورة»(١).

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده مرجعكم في دينكم ودنياكم، ومردكم في أخراكم، فيحييكم بعد الموت، ويبعثكم من قبوركم؛ ليحاسبكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير نعمة الله تعالى على العباد بما خلق لهم من الأنعام، وملَّكهم إياها، وذللها لهم، منها ركوبهم، ويأكلون منها، وينتفعون بها، ويشربون من ألبانها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾.

٢- أن ما خلق الله من الأنعام وغيرها هو لأجل بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، فلا ينبغي أن ينشغلوا بذلك عما خلقوا من أجله.

٣- جواز نسبة العمل إلى الله تعالى ووصفه به؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، أي: مما عملنا.

٤- إثبات اليدين لله تعالى؛ كما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْدِينَآ﴾، وقوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٥- إثبات الملكية الفردية للإنسان، وأنه يملك شرعًا ما ملَّكه الله من الأنعام وغير ذلك، وله حق التصرف في ذلك في حدود ما أباحه الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، ما يقول في ركوعه وسجوده ٨٧٣، والنسائي في التطبيق ١١٣٢.

٦- منة الله تعالى على العباد بتذليل هذه الأنعام لهم، تنقاد لهم، ويتصرفون بها من غير أن تمتنع عليهم، حتى ولا في الانقياد لنحرها وذبحها، ولو استعصت عليهم ما استطاعوا تذليلها.

٧- جواز ركوب ما يركب من هذه الأنعام؛ كالإبل من غير أن يكون في ذلك مشقة عليها، وتعذيب لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾.

٨- حل الأكل مما أباحه الله من هذه الأنعام؛ كالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

٩- إباحة الانتفاع بهذه الأنعام بشتى أنواع المنافع: بأصوافها وأوبارها وأشعارها، والسقي عليها، والحرث، وغير ذلك مما ليس فيه تعذيب لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، أي: منافع كثيرة.

١٠- حل شرب ألبان ما يؤكل لحمه منها؛ كالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَشَارِبُ﴾.

١١- الإنكار على المشركين عدم شكرهم هذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

١٢- وجوب شكر نعم الله تعالى بخلق هذه الأنعام وغيرها؛ لأن الله أنكر على من كفروها، ووبخهم.

١٣- الإنكار على المشركين في اتخاذهم من دون الله آلهة يرجون نصرهم وشفاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

١٤- أن هؤلاء الآلهة الذين يعبدهم المشركون لا يستطيعون نصرهم؛ لأنهم أضعف وأقل وأحقر من أن ينصروا أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟! لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

١٥- أن هؤلاء المشركين قد أعدوا أنفسهم جنودًا حاضرين لنصرة آلهتهم، والدفاع عنها، فانقلب السحر على الساحر، عبدوها لأجل أن تنصرهم، فكانوا هم المنتصرين لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. وفي هذا تسفيه لهم، وبيان شدة

جهلهم حيث عبدوا وانتصروا لمن لا يستطيع نصرهم.

١٦- تسلية النبي ﷺ، وتقوية قلبه تجاه أقوال المشركين في وصفه ووصف ما جاء به بالكذب والسحر والشعر والكهانة، ونحو ذلك، ونهيه أن يحزنه ذلك، أو يبتئس به، وأنه سيكفيه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الآية.

١٧- تهديد المشركين والمكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١٨- وجوب مراقبة الله تعالى؛ لعلمه بما يسره العباد وما يظهرونه، ومحاسبته لهم على ذلك.

١٩- تقرير أن الله عز وجل خلق الإنسان من ضعف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

٢٠- ترقي الإنسان في الخلق من هذا الضعف حتى يكون خصيمًا مبينًا لربه، مكابرًا جبارًا عنيدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٢١- ذم الخصومة بالباطل، لرد الحق، وإظهار الباطل؛ لأن الآية سيقت مساق الذم.

٢٢- جرأة المجادل بالباطل على ضرب المثل لله، وإنكار قدرته على البعث، وعلى إحياء العظام وهي رميم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٣- أن هذا المنكر للبعث ولقدرة الله تعالى على إحياء العظام وهي رميم، لو ذكر خلقه الأول وتفكر فيه، ما ضرب هذا المثل.

٢٤- شدة جهل منكر إحياء الله العظام وهي رميم، في ضربه المثل لله، وقياسه قدرة الخالق العظيم على قدرة المخلوق الضعيف؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٥- قدرة الله تعالى التامة على إحياء العظام وهي رميم؛ لأنه هو الذي أوجدها من العدم أول مرة، فهو على إحيائها وإعادتها مرة أخرى أقدر من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٢٦- قوة القرآن في الإقناع وإقامة الحجة، والاستدلال بالأشد على إمكان الأخف،

والاستدلال على الخصم بما لا ينكره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٢٧- علم الله الواسع بكل خلق، فيخلق سبحانه كيف يشاء، وعلمه بكل المخلوقات من باب أولى؛ لأنه خالقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٢٨- منة الله تعالى على العباد في جعله لهم من الشجر الأخضر نارًا يوقدون منه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

٢٩- أن من قدر على جعل النار من الشجر الأخضر، وخلق الضد من الضد، فهو قادر على إحياء الموتى مرة أخرى.

٣٠- تقرير وإثبات أن من خلق السموات والأرض- هذه المخلوقات العظيمة- قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾.

٣١- كمال قدرة الله تعالى وعظمته؛ حيث خلق هذه السموات والأرض العظيمة، وما فيهما من المخلوقات الكثيرة.

٣٢- أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

٣٣- جواز إجابة السائل نفسه إذا كان ذلك من باب تقرير أمر ثابت معلوم للمخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.

٣٤- إثبات اسم: «الخلاق» لله عز وجل، وصفة الخلق، وأنه سبحانه المتفرد بالخلق، الخالق لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾.

٣٥- إثبات اسم الله: «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣٦- أنه عز وجل لا يعجزه ولا يمتنع عليه أي شيء، من إحياء الموتى أو غير ذلك؛ لتمام قدرته، وسعة علمه، فما أمره إذا أراد شيئًا إلا أن يقول له: كن، فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

٣٧- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾.

٣٨- إثبات القول لله تعالى، وأنه يقول ويتكلم بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٣٩- تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وتقديسه وتعظيمه من أن تقاس قدرته بقدرة المخلوق الضعيف؛ كما يعتقد منكرو البعث؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٤٠- سعة ملك الله تعالى، فبيده عز وجل ملك كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٤١- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى في دينهم ودنياهم، وفي أخراهم بعد موتهم وإحيائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٤٢- تأكيد وإثبات البعث، وإحياء العظام وهي رميم، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ فقد تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة على ذلك:

الأول: الاستدلال بخلق الإنسان الأول، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى.

الثاني: عموم علم الله عز وجل التام بكل خلق.

الثالث: قدرته على إخراج النار من الشجر الأخضر.

الرابع: خلقه السموات والأرض.

الخامس: كونه الخلاق.

السادس: كونه العليم.

السابع: كونه لا يعجزه ولا يمتنع عليه شيء، إذا أراد أمرًا إنما يقول له: كن، فيكون.

الثامن: تنزيهه عن كل نقص، وهذا يقتضي كماله وتمام قدرته على إحياء الموتى وعلى كل شيء.

التاسع: أن بيده ملكوت كل شيء وتدبيره، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء.

العاشر: أن مرجع الخلائق كلهم إليه يوم القيامة، وذلك لا يكون إلا بعد بعثهم وإحيائهم بعد موتهم.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلصَّافَّات

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الصافات»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة الذبيح»؛ لأن قصة الذبيح لم تذكر في غيرها من السور.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «**كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويَؤُمُّنا بالصافات**»(١).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بإقسامه عز وجل بالصافات والزاجرات والتاليات، وهي الملائكة على وحدانيته عز وجل في ألوهيته وإثبات عموم ربوبيته، ورب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق، زين السماء الدنيا وحفظها بالكواكب ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾.

٢- الرد على المشركين المكذبين بالبعث، وإثبات أنه حق، وتهديدهم بما أعد لهم فيه من عذاب الجحيم، والتقريع والتوبيخ لهم: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ

---

(١) أخرجه النسائي في الإمامة- الرخصة للإمام في التطويل ٨٢٦.

ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٣- بيان ما أعده الله لعباده المخلصين، نزلًا لهم من ألوان الملذات والفوز العظيم في جنات النعيم. قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٤- شتان بين هذا المنزل العظيم وبين ما أعد نزلًا للظالمين الضالين من شجرة الزقوم والحميم وعذاب الجحيم. قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

٥- ذم المشركين في تقليدهم آباءهم على الضلال، كما ضل قبلهم أكثر الأولين، ولم ينتفعوا بالنذر إلا من وفقه الله من عباده المخلصين ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

٦- ذِكر طرفٍ من قصة نوح عليه السلام وهو دعاؤه على قومه لما يأس من هدايتهم وإيمانهم، واستجابة الله تعالى له، وإنجائه وأهله، وإغراق الآخرين ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

٧- ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه وإنكاره عليهم عبادة غير الله وتحطيمه أصنامهم، وإلقائهم إياه في النار، وإبطال الله تعالى كيدهم، وبشارته بغلام حليم، وابتلائه بأمره في المنام بذبحه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا

وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾.

٨- ذكر منته عز وجل على موسى وهارون وإنجائهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرهما وجعل الغلبة لهما وإيتائهما الكتاب المستبين وهدايتهما الصراط المستقيم ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

٩- ذكر رسالة إلياس عليه السلام وأمره قومه بتقوى الله، وإنكاره عليهم دعاء غير الله، وترك عبادة أحسن الخالقين الله ربهم ورب آبائهم الأولين، وتكذيبهم له: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

١٠- ذكر رسالة لوط عليه السلام وإنجائه وأهله أجمعين وإهلاك المكذبين ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

١١- ذكر رسالة يونس عليه السلام وما جرى له ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

١٢- الإنكار على المشركين في نسبتهم الولد لله تعالى وتخصيصه بالبنات، ولهم البنون، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، بلا حجة، ولا كتاب، ولا سلطان مبين، وفي جعلهم بين الله عز وجل وبين الجنة نسبًا تعالى الله عن ذلك وتوعدهم باصطلاء

الجحيم: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)﴾.

١٣- فضيلة الملائكة ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾.

١٤- شدة عناد المشركين وتكذيبهم بالقرآن، وتوعدهم ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾.

١٥- تسلية الرسول ﷺ وتقوية قلبه، وتهديد المكذبين له ببيان حكمه السابق بنصر رسله وأوليائه، وإهلاك المكذبين وتعذيبهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ الواو: حرف قسم وجر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أقسم. و«صفًّا»: مفعول مطلق.

والمراد بـ«الصافات صفًّا»: الملائكة تصف صفوفًا عند ربها في الصلاة والعبادة والعمل، وتصف أجنحتها في الهواء؛ كما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الصافات: ١٦٥]، وقال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**»، قالوا: كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يُتمون الصفوف الأولى، ويتراصون في الصف**»(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهورًا، إذا لم نجد الماء**»(٢).

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾ الجملتان معطوفتان على «الصافات صفًّا». و«زجرًا» و«ذكرًا»؛ كل منهما مفعول مطلق، والعطف من عطف الصفات.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأبو داود في الصلاة ٦٦١، والنسائي في الإمامة ٨١٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٩٢، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد وموضع الصلاة ٥٢٢.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢﴾ الملائكة تزجر السحاب، أي: تسوقه، وتزجر أرواح الكفار عند استخراجها، وغير ذلك.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾: الملائكة تتلو الذكر، أي: القرآن وكلام الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦﴾ [المرسلات: ٥- ٦].

فأقسم عز وجل بالملائكة التي تصف صفوفًا عند ربها في الصلاة والعبادة، والتي تزجر السحاب وما أمرت بزجره، والتي تتلو كلام الله تعالى وذكره، أقسم بها على وحدانيته في إلهيته، فقال:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالملائكة بصفاتها الثلاث: إن إلهكم- أيها الخلق- لواحد.

و«إنَّ» واللام: للتوكيد، أي: إن إلهكم ومعبودكم الذي يجب أن تعبدوه دون سواه، ﴿لَوَٰحِدٞ﴾، أي: واحد، أحد، فرد، لا شريك له في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥﴾، أي: هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: وخالق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، أي: خالق مشارق الشمس والقمر والكواكب، في الصيف والشتاء، ومالكها، والمتصرف فيها.

واكتفى بذكر المشارق؛ لدلالتها على المغارب، وقد صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وأيضًا: فإن المشارق أدل على تمام قدرة الله من المغارب؛ لأن الشروق ابتداء، والغروب انتهاء.

قال ابن القيم: «وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته، وقرَّرَ توحيد ربوبيته، فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾. وهذه قاعدة القرآن: يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبودًا بكونه خالقًا رازقًا وحده».

وقال أيضًا: «وخص المشارق ههنا بالذكر: إما لدلالتها على المغارب؛ إذ الأمران المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب، ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها: من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظًا من كل شيطان، فذكْر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق. والله تعالى أعلم»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾:

قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: زينا السماء القربى إلى الأرض، وجعلناها للناظرين إليها من أهل الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦﴾ [الحجر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦].

﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالتنوين: ﴿بِزِينَةٍ﴾؛ وجر ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾، على البدل أو عطف البيان، والمعنى: بزينةٍ هي الكواكب.

وقرأ الباقون بغير تنوين بإضافة «زينة» إلى «الكواكب»: «بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ»، أي: بالكواكب المزينة للسماء.

وقرأ أبو بكر عن عاصم بنصب «الكَوَاكِبَ»؛ على تقدير: أعني: الكواكبَ. وقيل غير ذلك.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ الواو: عاطفة، و«حفظًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وحفظناها حفظًا.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٨.

﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾، أي: من كل شيطان متمرد عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم بتشديد السين والميم: ﴿لَّايَسَّمَّعُونَ﴾ وقرأ الباقون بتخفيفهما: «لَا يَسْمَعُونَ».

و«لا»: نافية، و﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الملائكة وأهل السماء، فهم الأعلى مكانًا؛ لأنهم في السماء، وهم الأعلى شرفًا ومنزلة؛ لأنهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

أي: لا يستطيع الشياطين الاستماع إلى الملائكة الأشراف في الملأ الأعلى في السماء، إذا تكلموا بما يوحيه الله من شرعه وقدَرِه، وذلك لحفظ الله تعالى السماء منهم.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، أي: يُرمَوْن ويُرجمون بالشهب الثواقب، من كل جانب من آفاق السماء، ومن كل جهة يقصدون السماء منها، فلا يستطيعون الوصول إلى مقصودهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٧- ١٨].

﴿دُحُورًا﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: طردًا للشياطين، وإبعادًا لهم عن استماع ما يقول الملأ الأعلى، أو حال، أو مفعول لأجله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم موجع مستمر في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥].

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ «إلا» للاستثناء، و«مَن» موصولة، أي: إلا الذي مِن الشياطين ﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، أي: اختلس الكلمة مسارَقة بسرعة، وهي الكلمة التي يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه شهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها- بقدَرِ الله- قبل أن يدركه الشهاب، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن؛ كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره، عند تفسير قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾، أي: فلحقه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، أي: شهاب مضيء، مستنير، نافذ، ينفذ فيه فيخرقه، أو يحرقه، أو يخبله، وهو ما يرى كالكوكب، ينقض من السماء بسرعة.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾:

قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾، أي: فاسأل منكري البعث بعد الموت:

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الاستفهام للتقرير، أي: أخلقهم وإيجادهم بعد موتهم أشد خلقًا وأشق وأصعب.

﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ﴾ «أم»: حرف عطف، و«من»: موصولة، أي: أو الذي خلقنا من هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما من الملائكة والإنس والجن، وسائر المخلوقات.

وغلب في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ﴾ جانب العقلاء؛ لأنهم أفضل وأشرف.

أي: استفتهم في هذا، فلا بد أن يقروا بأن خلق الله لهذه المخلوقات العظيمة- السموات والأرض وما بينهما- أكبر من خلقهم، أي: أكبر من خلق الناس.

كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، فيلزمهم على هذا الإقرار بتمام قدرته تعالى على البعث، بل لو تأملوا في أصل خلقهم لأقروا بذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم ﴾، أي: خلقنا أباهم آدم عليه السلام، ﴿مِّن طِينٍ﴾ «الطين»: التراب المخلوط بالماء، ﴿لَّازِبٍ ﴾: لزج يلتصق باليد، ويلتصق ويلزق بعضه ببعض، قوي شديد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

فابتداء خلقهم من طين لازب، أشد من إعادة خلقهم أحياء بعد موتهم.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء: «عَجِبْتُ»؛ فالضمير يعود إلى الله تعالى، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿عَجِبْتَ ﴾ فالضمير يعود إلى النبي ﷺ، ومن يصلح خطابه.

«بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل عجبت يا محمد، ويا أيها المخاطب، من إنكار

هؤلاء المكذبين للبعث، مع بيان الأدلة العظيمة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك، وأعجب من ذلك أنهم يسخرون، أي: يستهزئون بالرسول ﷺ، وبما جاء به من الوحي الدال على ذلك؛ كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[هود: ٣٨؛٣٩].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾، أي: وإذا ذُكِّروا بما يعرفونه بفطرهم وعقولهم، ووعظوا به، وفُطِّنوا له ونُبِّهوا، لا يذكرون ذلك، ولا ينتفعون، ولا يعتبرون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ «آية»: نكرة في سياق الشرط، فتعم كل آية، والسين والتاء للمبالغة، أي: وإذا شاهدوا وعلموا أيَّ آية دالة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك يستهزئون مستكبرين.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر بيِّن ظاهر واضح.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ الاستفهام للإنكار.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قرأ نافع بهمزة واحدة، هي همزة «إن»: «إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»؛ وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، أي: بالاستفهام؛ تأكيدًا للإنكار، واللام للتوكيد.

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وقالون بإسكان الواو: «أَوْ آبَاؤُنَا»؛ وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ وهو معطوف على الضمير «نا» في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾، أي: أئذا متنا وآباؤنا الأولون، وكانت أجسادنا ترابًا وعظامًا بالية، أئنا لمبعوثون أحياءً بعد ذلك؟! هذا أمر بعيد مستنكر.

وكل هذا مما يثير العجب من تكذيبهم البعث، وسخريتهم بمن جاءهم به، وعدم ذكرهم إذا ذكروا، وسخريتهم بالآيات، وزعمهم أن ما جاءهم به الرسول ﷺ سحر بين، واعتبارهم أن بعثهم بعد موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا ضرب من المستحيل.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥].

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ «نعم»: حرف جواب للتصديق، أي: قل لهم يا محمد: نعم،

ستبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابًا. وصدر الجواب بـ«قل»؛ للاهتمام بهذا الجواب.

﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وأنتم صاغرون ذليلون، لا تستعصون على قدرة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ الفاء: تعليلية، ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: نفخة واحدة في الصور، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم خارجون من قبورهم، قيام بين يدي الله تعالى.

﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما يفعل بهم، أو ينتظرون ما يفعل بهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٣- ١٤].

والمراد بهذا النفخة الثانية؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالملائكة باعتبار صفاتهم الثلاث العظيمة: الصافات، والزاجرات، والتاليات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها تعظيم لنفسه هو؛ لأنه يقسم بما خلق.

٣- إثبات وجود الملائكة، وفضيلتهم، وعظيم منزلتهم عند الله تعالى، وجليل صفاتهم؛ حيث أقسم عز وجل بهم، وبصفاتهم.

٤- إثبات وتأكيد وحدانية الله تعالى في ألوهيته لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا: السموات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، والمشارق والمغارب، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾.

٦- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية: الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾.

٧- إبطال الشرك، وأنه لا إله للخلق كلهم إلا الله تعالى وحده.

٨- تزيين السماء الدنيا وتجميلها بالكواكب والنجوم للناظرين إليها من أهل الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾.

٩- أن الله جميل يحب الجمال؛ لهذا زين السماء للناظرين إليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦﴾ [الحجر: ١٦].

١٠- حفظ السماء من مردة الشياطين، والحيلولة بينهم وبين استراق السمع، ورميهم بالشهب، وطردهم وإبعادهم، مع ما أُعد لهم من العذاب الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾.

١١- تفضيل الملائكة؛ لأن الله سماهم: الملأ الأعلى، فهم الأعلى مكانًا؛ لأنهم في السماء، وهم الأعلى منزلة وشرفًا بعد الرسل والمؤمنين على الصحيح.

١٢- تعدد منافع الكواكب والنجوم؛ فهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين؛ كما أنها علامات يهتدى بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين،

وعلامات يهتدى بها»(١).

١٣- إتباع مسترقي السمع بالشهب الثاقبة، وإهلاكهم، وقلَّ من يخطف الكلمة منهم فينجو؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

١٤- أمر الله عز وجل له ﷺ بسؤال المكذبين بالبعث؛ تحديًا لهم: أهم أشد خلقًا أم من خلق الله من جميع المخلوقات؟ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ الآية.

١٥- مشروعية مجادلة أهل الباطل؛ لإقامة الحجة عليهم، وبيان الحق، ودحض الباطل؛ لأن هذا منهج الرسول ﷺ، والرسل قبله، وأتباعهم.

١٦- تقرير وإثبات أن خلق السموات والأرض وما بينهما، أشد من خلق الناس، وإحيائهم بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾، أي: بل من خلقنا.

١٧- تمام قدرة الله تعالى؛ حيث ابتدأ خلق بني آدم من طين لازب، وهو أشد من إعادة خلقهم بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

فإعادة خلقهم بعد موتهم أيسر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

١٨- جمع هؤلاء المكذبين بين التكذيب بالحق وإنكار البعث، والسخرية من ذلك وممن قال به، مما يثير العجب؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

١٩- إثبات العجب لله تعالى، وهذا على قراءة الضم: «بَلْ عَجِبْتُ».

٢٠- شدة عتوهم، وعدم ذكرهم لما يُذكَّرون به، ويُفَطَّنون له، وعدم اتعاظهم وانتفاعهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٢١- سخريتهم بما يرون من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم؛ وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في بدء الخلق، وانظر: «تيسير العزيز الحميد»، ص٤٤٢.

٢٢- جرأة المكذبين على وصف الآيات وما جاءهم من الحق، بأقبح الأوصاف كالسحر ونحو ذلك، ذلك تنفيرًا منه؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢٣- استبعادهم، بل إنكارهم، للبعث بعد موتهم، وكونهم ترابًا وعظامًا، هم وآباؤهم الأولون؛ لقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

٢٤- أن الأجداد يسمون آباءً؛ لقولهم: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٢٥- إثبات بعثهم بعد موتهم صاغرين ذليلين، وكذا جميع الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٢٦- قدرة الله تعالى التامة، فبزجرة واحدة دون تكرار، يخرج الناس كلهم سراعًا من قبورهم، فإذا هم قيام ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾، أي: قال المشركون المكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال- بعد بعثهم من قبورهم، ومشاهدتهم أهوال القيامة- تحسرًا وندمًا:

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾: دعاء بالويل. و«الويل»: شدة التحسر والعذاب، أي: يا حسرتنا، ويا عذابنا وهلاكنا.

فهذا دعاء بالويل والثبور والهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٤].

وعبَّر بالماضي في قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ مع أنه لم يأت بعد؛ لتحقق وقوعه.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أي: هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال، وهذا إقرار منهم، واعتراف بهذا اليوم، ورجوع على أنفسهم بالملامة والندم، حين لا ينفعهم ذلك؛ ولهذا تقول لهم الملائكة:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: هذا يوم الفصل بين الخلائق فيما بينهم من حقوق، وبمجازاة كل منهم بعمله، وانقسامهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: الذي كنتم في الدنيا به تكذبون، وتنكرونه، وهذا لزيادة حسرتهم، ولومهم وتوبيخهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من كلام المنكرين

للبعث بعضهم لبعض.

﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: ويقال للملائكة: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

أي: اجمعوا الذين ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب بالبعث، وظلم العباد؛ إهانة لهم، ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، أي: قرناءَهم ونظراءَهم، وأشكالهم وأمثالهم وأشباههم، فيقرن الرجل السوء مع الرجل السوء؛ كما يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ [التكوير: ٧].

﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم والذي كانوا يعبدونه.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، من الأصنام والأوثان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩].

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: فدلوهم وسوقوهم سوقًا عنيفًا شديدًا إلى طريق الجحيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦﴾ [مريم: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤﴾، أي: أوقفوهم إهانة لهم، واحبسوهم للحساب عند الصراط، قبل إدخالهم النار.

﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾، أي: عن أعمالهم وأقوالهم، وما كانوا يفترونه في الدنيا، ومحاسبون؛ ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم، وأن الله لم يظلمهم، ويجازون وفاقًا لأعمالهم.

﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ قرأ البزي عن ابن كثير وأبو جعفر بتشديد النون: «لَا تَنَّاصَرُونَ»؛ وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

والاستفهام للتوبيخ والتهكم والتعجيز والإهانة، أي: ما الذي جرى لكم لا تناصرون، ولم لا ينصر بعضكم بعضًا؛ كما كنتم تقولون: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ [القمر: ٤٤]؟

ولم لا تنتصرون لمعبوداتكم؟

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم اليوم أذلاء منقادون لحكم الله وجزائه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: وأقبل بعض الكفار والمكذبين على بعض يتساءلون، أي: يسأل بعضهم بعضًا على وجه التلاوم والتخاصم والتوبيخ والإنكار؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال الأتباع للمتبوعين: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾، أي: في الدنيا.

﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: من الجهة التي نأمنكم منها، بإقسامكم لنا أنكم على الحق، أو: بوعدكم لنا بالخير والعز والكرامة في اتباعكم، أو بالقوة والغلبة؛ لقوتكم وضعفنا، أو بذلك كله، أي: حتى أضللتمونا عن الحق.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال المتبوعون: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَل﴾ في الموضعين للإضراب الإبطالي، أي: قال المتبوعون للأتباع: ليس الأمر كما تزعمون، فلم نكن نأتيكم عن اليمين، فأضللناكم، بل لم تكونوا مؤمنين في الأصل، فكيف تزعمون أننا أضللناكم؟

فتبرأ المتبوعون من الأتباع، وجعلوا اللوم على الأتباع أنفسهم؛ كما قال الشيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه ما كان لنا عليكم من

سلطان، و«من»: زائدة في سياق النفي، فتعم، أي: وما كان لنا عليكم أيُّ سلطان، أي: أيّ حجة وبرهان، وأيّ تسلط وقهر لكم على اختيار الكفر؛ كما قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، أي: متجاوزين الحد والحق في الكفر والضلال؛ ولهذا اخترتم الكفر واتبعتمونا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم؛ كما قال الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾، أي: فوجب وتحقق علينا جميعًا- نحن وإياكم- قول ربنا الكوني، وحكمه القدري: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب جميعًا؛ كما قال تعالى لإبليس: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، أي: فدعوناكم إلى الغواية والضلال، فأضللناكم.

﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: فأغويناكم؛ لأنا كنا غاوين، أي: ضالين.

وهذا يدل على أن اللوم يقع على المتبوعين؛ لدعائهم إلى الضلال، ويقع على الأتباع؛ لاختيارهم بأنفسهم الضلال من غير إكراه.

كما يدل أيضًا على تحقق قول الله تعالى عليهم جميعًا بالكفر، والعذاب؛ ولهذا قال:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: فإنهم جميعًا يوم القيامة، الأتباع والمتبوعون.

﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لاشتراكهم في الضلال والكفر، وإن تفاوتت مقادير عذابهم حسب ضلالهم وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: إنا كما جعلنا هؤلاء يشتركون في العذاب- الأتباع والمتبوعون- لإجرامهم، ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ غيرهم، بأن نجعلهم يشتركون جميعًا في العذاب.

وهذه الآيات كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [الآيتان: ٤٧؛ ٤٨].

وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات: ٣١- ٣٣].

الفوائد والأحكام:

١- ندامة المشركين والمكذبين بالبعث، وحسرتهم، ورجوعهم بالملامة على أنفسهم، ودعاؤهم عليها بالويل والثبور، واعترافهم بيوم الدين، حين لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾.

٢- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء، والفصل بين العباد، وتقريع وتوبيخ وتقرير الكفار المكذبين به في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٣- جمع الظالمين المكذبين ونظرائهم؛ تقريعًا وتوبيخًا لهم هم ومعبوداتهم، وسوقهم إلى النار، وإهانتهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ جزاء وفاقًا؛ لاختيارهم في الدنيا طريق الكفر.

٤- حبسهم عند الصراط دون جهنم؛ لإهانتهم، وسؤالهم عن أعمالهم، ومناقشتهم الحساب، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وأن الله لم يظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

٥- إثبات السؤال، ومناقشة الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾.

٦- إظهار عجز الظالمين المكذبين عن التناصر فيما بينهم ذلك اليوم؛ إهانة وتوبيخًا لهم، وتهكمًا بهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

٧- استسلامهم في ذلك اليوم، وانقيادهم أذلاء لحكم الله وجزائه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٨- إقبال بعضهم على بعض في التساؤل والتلاوم بينهم، وإلقاء الأتباع المسؤولية فيما وصلوا إليه على المتبوعين، وتبرؤ المتبوعين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٩- تنوع وتعدد أساليب دعاة الكفر والضلال؛ لترويج باطلهم؛ بين التغرير والخداع، والترغيب والترهيب، ونحو ذلك.

١٠- أن من لم يكن مؤمنًا إيمانًا راسخًا، فعليه خطر من التأثر بدعوات المضلين، فعلى المؤمن الاعتصام بالله، وسؤاله الثبات.

١١- أنه لا عذر لمن يختار طريق الضلال، بحجة أنه دُعي إليه، ما لم يُلزم بذلك أو يُكره عليه.

١٢- اشتراك الأتباع والمتبوعين في اللوم، فالأتباع لاختيارهم الضلال، والمتبوعون لدعوتهم إليه، وكونهم قدوة فيه.

١٣- نفوذ قول الله تعالى الكوني، وقضائه القدري فيهم جميعًا بالكفر والعذاب؛ لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١٤- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء، وأن كلًّا ميسر لما خلق وقدر له.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلائق؛ لقولهم: ﴿رَبِّنَا﴾.

١٦- اعتراف المتبوعين بأنهم ضالون، وأنهم دعوا هؤلاء الأتباع إلى ما هم عليه من الضلال، فأضلوهم؛ لقولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٧- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: بسبب أنا كنا غاوين.

١٨- اشتراكهم في العذاب يوم القيامة؛ لاشتراكهم بالضلال والكفر، ولكل منهم نصيبه من ذلك حسب ضلاله وكفره؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

١٩- إهانة المتبوعين، وإذلالهم، في إشراكهم مع الأتباع في العذاب.

٢٠- التسجيل على هؤلاء الضلال بالإجرام، وأن عقبى المجرمين الاشتراك بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

٢١- إثبات الفعل لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٢٢- وجوب الحذر من قرناء السوء، ودعاة الضلال، ومن مصاحبة الأشرار، قبل أن يقول قائل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٨- ٢٩].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إن هؤلاء الغاوين المجرمين المكذبين.

﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: إذا قال لهم الرسول- أو أي قائل من المؤمنين- كلمةَ التوحيد: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛«لا»: نافية للجنس، و«إلا»: أداة استثناء، أي: لا معبود بحق إلا الله تعالى.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: يستكبرون عن قول: «لا إله إلا الله»، وعن الإيمان بها، واعتقاد معناها، فيرون أنهم أكبر من أن يقال لهم: لا إله إلا الله، وأكبر من أن يقولوها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله. وأنزل الله في كتابه وذكر قومًا استكبروا، فقال:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾»(١).

وعنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»(٢).

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لذلك، وتكذيبًا به، وإنكارًا له:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧.

﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، واللام في قوله: ﴿لَتَارِكُوٓاْ﴾: للتوكيد، واللام في قوله: ﴿لِشَاعِرٍ﴾: للأجل والعلة، أي: لا يمكن أن نترك عبادة آلهتنا لأجل قول شاعر مجنون؛ يعنون: النبي ﷺ.

والشاعر: من يقول الشعر. والمجنون: من لا يعقل. وهذا كذب وتناقض منهم؛ لأن المجنون لا يقول الشعر، بل لا يقول كلامًا نثرًا منتظمًا، فكيف يقول شعرًا؟!

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢]؛ ولهذا رد الله عليهم وأبطل قولهم، فقال:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، والباء: للمصاحبة والملابسة.

أي: بل جاء ﷺ بالقول الحق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وبالشرع الحق العدل، والخبر الصدق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: ظهر بمجيئه صدق الرسل فيما أخبروا وبشروا به من بعثته ﷺ؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فكانت بعثته ﷺ مصداق ما أخبروا وبشروا به.

كما صدَّقَ المرسلين بأن دعا إلى ما دعوا إليه، وأخبر بما أخبروا به، وآمن برسالاتهم وشرعهم، وشهد بصدقهم؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾:

قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ للزجر، والخطاب للمشركين المستكبرين، واللام في قوله: ﴿لَذَآئِقُوا۟﴾: للتوكيد، أي: لذائقو العذاب المؤلم الموجع؛ حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب في نار جهنم.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، أي: وما تجزون إلا عملكم. أو موصولة، أي: وما تجزون إلا الذي كنتم تعملونه.

والمعنى: وما تجزون إلا جزاء وعقوبة ما كنتم تعملون، فلم نظلمكم.

وفي قوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ دون أن يقول: «جزاء ما كنتم تعملون»: دلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، مع ما في ذلك من شدة التوبيخ لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب، بكسر اللام: «الْمُخْلِصِينَ»، أي: الذين أخلصوا لله تعالى العبادة والعمل.

وقرأ الباقون بفتح اللام: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أي: الذين أخلصهم الله، واختصهم برحمته.

«إلا»: أداة استثناء، و«عباد»: منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصوا في عبادة الله تعالى، فأخلصهم الله، واختصهم برحمته، أي: لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يُتجاوز عن سيئاتهم، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المدثر: ٣٨- ٤٠]، أي: لكن أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون.

ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ الإشارة تعود إلى عباد الله المخلصين، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ رفعة لشأنهم.

﴿لَهُمْ رِزْقٌ﴾، أي: لهم خاصة رزق. ونُكِّر للتعظيم.

والرزق: العطاء، أي: لهم عطاء عظيم واسع.

﴿مَّعْلُومٌ﴾ قد بشروا به ووعدوا، وهو الجنة وما فيها من ألوان وأصناف النعيم،

التي لا يحيط بحقائقها، وكنهها، وكمّيّتها وكيفيّتها، ذلك إلا الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١).

﴿فَوَٰكِهُ﴾: بدل من «رزق»، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو فواكه، والجملة نعت لـ«رزق»، أي: فواكه متنوعة من كل ما تتفكه فيه النفوس، وتلتذ به، وتشتهيه.

وهكذا كل طعام أهل الجنة، يأكلونه على سبيل التفكه والتلذذ والتنعم، لا لحفظ النفس والصحة؛ لأن الله قد ضمن ذلك لهم.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى غاية الإكرام، في دار كرامته، يطوف عليهم الولدان والغلمان، ويُلقَّوْن فيها التحية والسلام من ربهم عز وجل، ومن الملائكة الكرام، ومن بعضهم لبعض، وأعلى ذلك وأجله: مناجاة الله عز وجل، والنظر إلى وجهه الكريم.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ «جنات»: جمع جنة، و«جنات» مضاف، و«النعيم» مضاف إليه، من إضافة الشيء إلى نوعه، أي: نعيم القلب، ونعيم البدن.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾، أي: جالسين متنعمين على سرر، وهي المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجملة، قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة:١٥]، أي: مصفوفة.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ بينهم بأبدانهم ووجوههم في غاية الأدب، قد صفت قلوبهم، وصدقت محبة بعضهم بعضًا، لا يستدبر أحدهم أخاه، ولا يوليه ظهره، ولا يدير له قفاه.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾، أي: يطوف عليهم غلمان لهم، وولدان مخلدون؛ كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿بِكَأْسٍ﴾، أي: بكأس خمر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، أي: من أنهار جارية لا تنضب، ولا تنقطع؛

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧؛١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

﴿بَيْضَاءَ﴾، أي: بيضاء اللون، لونها مشرقٌ بهيٌّ، من أحسن الألوان.

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾، أي: لذيذة الطعم، يلتذ بها شاربها حال شربها، بخلاف خمر الدنيا؛ فهي كريهة عند الشرب.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، أي: لا يحصل بسببها وجع البطن أو الصداع، أو لا تغتال عقولهم وتذهب بها؛ كما قال قائلهم:

فما زالت الخمر تغتالنا ... وتذهب بالأول الأول[1]

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الزاي: «ينزِفون».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يُنزَفُونَ﴾.

أي: لا تذهب عقولهم وتسكرهم، أو لا يحصل لهم بسببها وجع البطن، أو الصداع.

فميز الله خمر الجنة عن خمر الدنيا بكونها لا تنقطع أبدًا، وكونها لذيذة الطعم والرائحة، ونفى عنها ما يحصل بسبب شرب خمر الدنيا؛ من ذهاب العقل، والنزيف، والصداع، وألم البطن، وغير ذلك من المكروه والأذى.

﴿وَعِندَهُمْ﴾، أي: وعند أهل جنات النعيم، عباد الله المخلصين.

﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ الطرف: العَين، أي: قاصرات الأعين، أي: الأزواج اللاتي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم؛ لعفتهن، ولجمال أزواجهن، وتمام قناعتهن بهم، فلا يطمحن إلى غيرهم؛ كما قصرن طرف أزواجهن عليهن، فلا ينظرون إلى غيرهن، ولا يعدلون بهن سواهن؛ لكمال جمالهن.

فهن وهم في غاية الجمال؛ جمال الأبدان وعفتها وطهارتها، وجمال النفوس والقلوب ومحبتها وصفائها وسلامتها.

﴿عِينٌ﴾ جمع: «عَيْناء»، أي: واسعات الأعين، حسانها، جميلات ملامح الحدق.

---

(١) انظر: «المخصص» ١٧/ ١٦؛«لسان العرب» مادة (غول)؛«المعجم المفصل في شواهد العربية» ٦/ ٥٦٥.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾، أي: كأنهن- لرقتهن وبياضهن، ونعومة ملمسهن، وصونهن عن المس ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، أي: كأنهن البياض الذي في البيض المكنون بقشره.

أي: أنهن أبكار لم يطمثهن أحد قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٦].

الفوائد والأحكام:

١- استكبار المشركين عن توحيد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٢- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، وأنه لا معبود بحق سواه.

٣- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه سبب لرد الحق، وعدم قبوله؛ كما قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»(١)، أي: رد الحق، واحتقار الناس.

٤- تكذيب المشركين للنبي ﷺ، ورميهم له بالشعر والجنون، وتناقضهم، وتشبثهم بآلهتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾.

٥- إبطال قولهم ونفيه، وإثبات أن ما جاء به ﷺ هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- تصديقه ﷺ للمرسلين، بكونه مصداق ما أخبروا وبشروا به، وشهادته بصدق رسالاتهم وما جاؤوا به من الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٧- تهديد المكذبين وتوعدهم بالعذاب المؤلم الشديد، حسيًّا ومعنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، وكل يجازى بعمله، بلا ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٩- إثبات البعث والجزاء، والترغيب في إحسان العمل، والترهيب من إساءة العمل؛ لأن كلًّا سيجازى بما عمل.

---

(١) سبق تخريجه.

١٠- في نسبة العمل إلى المذكورين الرد على الجبرية، الذين يقولون: إن عمل الإنسان لا ينسب إليه؛ لأنه مجبور عليه.

١١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وفي هذا تكريم وتشريف لهم؛ لوصفهم بالعبودية له عز وجل، وقد أحسن القائل:

ومما زادني شرفًا وفخرًا ... وكدت بأخمصي أطأ الثريَّا

دخولي تحت قولك: «يا عبادي» ... وأن صيرت أحمد لي نبيَّا(١)

١٢- وعد الله تعالى لعباده المخلصين- الذين أخلصوا له العبادة، وأخلصهم واختصهم برحمته- بالنجاة من العذاب، وبما لهم من الرزق المعلوم، والفواكه والكرامة، ونعيم البدن والقلب، والراحة في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الآيات.

١٣- إعلاء شأن عباد الله المخلصين، ورفعتهم، والتنويه بهم، بالإشارة إليهم بإشارة البعيد، والتنويه بعظم ما أعد لهم من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ الآيات.

١٤- سلامة صدور أهل الجنة، وصفاء نفوسهم، ومحبة بعضهم لبعض، وأدبهم فيما بينهم، وجلوسهم متقابلين بوجوههم وقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا من أعظم نعيمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

١٥- أن من نعيم أهل الجنة: أنه يطاف عليهم بكأس الخمر التي لا ينضب معينها، في غاية البياض والصفاء، واللذة حال شربها، مع خلوها من جميع منغصات خمر الدنيا ومكدراتها: من ذهاب العقول، والنزيف، والصداع، وألم البطن وغير ذلك؛ لقوله

---

(١) هذان البيتان للقاضي عياض. انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٣٧٢؛«المفاخرة بين الماء والهواء» ص٤٦.

تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

١٥- تمتعهم وتلذذهم بالأزواج من الحور العين والنساء، اللاتي قصرن طرفهن على أزواجهن؛ لعفتهن، وقصرن طرفهم عليهن؛ لجمالهن، واسعات الأعين حسانها؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

١٦- أن نساء أهل الجنة كلهن أبكار مصونات كالبيض المكنون؛ كرامة لهم لم يطمثهن قبلهم إنس ولا جان؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

لما ذكر ما أعده لعباده المخلصين من ألوان النعيم؛ من المآكل، والمشارب، والأزواج، والجلوس على السرر متقابلين، ذكر تبادلهم الأحاديث والأسئلة فيما بينهم، وهذا من تمام نعيمهم ولذتهم وسرورهم.

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾، أي: فأقبل بعض أهل الجنة على بعض، يسأل بعضهم بعضًا عن أحوال كانت في الدنيا؛ تحدُّثًا بنعمة الله عليهم بهدايته إياهم صراطه المستقيم، وإدخالهم جنات النعيم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾، أي: كان لي في الدنيا قرين ملازم، ينكر البعث، ويدعوني إلى إنكاره.

وهذا القرين قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس؛ كما قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٤- ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

﴿يَقُولُ﴾، أي: يقول هذا القرين- منكرًا عليَّ التصديق بالبعث، ولائمًا لي على ذلك ومتعجبًا-:

﴿أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، والتوبيخ واللوم، واللام: للتوكيد، أي: كيف تصدق بالبعث والنشور والحساب؟ أي: لا تصدق بذلك. ولهذا قال:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ قرأ ابن عامر بهمزة واحدة: «إِذَا مِتْنَا»، وقرأ الباقون بزيادة همزة الاستفهام: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾.

أي: أإذا متنا وصارت أجسادنا ترابًا وعظامًا نخرة بالية.

﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قرأ نافع بهمزة واحدة: «إِنَّا لَمَدِينُونَ»؛ وقرأ الباقون بزيادة همزة الاستفهام: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ والاستفهام: للإنكار، واللام: للتوكيد، أي: لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا، أي: هذا أمر في غاية البعد والغرابة، والاستحالة والنكارة.

وهذا مما يوجب الحذر من قرين السوء؛ فإن صحبته شر ووبال، قبل أن يقول قائل: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان: ٢٨- ٢٩].

قال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء؛ كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة**»(١).

وقد قيل:

إذا ما صحبت القوم فاصحب ... ولا تصحب الأردا فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي(٢)

وقال الآخر:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد(٣)

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾:

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥٣٤، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) البيتان لعدي بن زيد. انظر: «بهجة المجالس» ص١٥١.

(٣) البيت لأبي بكر الخوارزمي. انظر: «روضة الأخيار» ص٣٨٨.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال هذا المؤمن الذي يتساءل مع إخوانه في الجنة، بعد أن ذكر لهم خبر قرينه الذي كان ينكر عليه التصديق بالبعث:

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، أي: هل أنتم مشرفون في النار؟ لننظر منزلة قريني هذا، وما صار إليه. والاستفهام للعرض، أي: للعرض عليهم؛ ليتبين قدر نعمة الله تعالى عليهم بهدايتهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى جنات النعيم، بخلاف هذا القرين المكذب، الذي اختار في الدنيا طريق الضلال، فهدي في الآخرة إلى سواء الجحيم؛ فيزداد شكرهم لله تعالى على توفيقه لهم، وبضدها تتميز الأشياء.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾، أي: فاطلع هذا المؤمن فرأى قرينه في وسط الجحيم، في غمرات النار والعذاب.

﴿قَالَ﴾، أي: قال المؤمن مخاطبًا قرينه، مقرعًا له وموبخًا، ومتحدثًا بنعمة الله عليه: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

التاء: للقسم، أي: تالله إن قاربت لتردين، أي: لتهلكني بضلالك وإغوائك لو أطعتك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالإيمان، ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لكنت من المحضرين معك في النار والعذاب؛ كما قال المؤمنون: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الاستفهام للتقرير، وفيه معنى الفرح والسرور والاغتباط بانتفاء الموت عنهم.

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ «إلا»: أداة استثناء، بمعنى: «لكن»، أي: لكن موتتنا الأولى، وقد متناها، وبعثنا بعدها؛ لننعم بدار الخلد.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ لأن الله نجانا من العذاب. وهذا يقوله المؤمن ابتهاجًا بما أعطاه الله لأهل الجنة من الخلود فيها، والسلامة من العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان: ٥٦]، فانتفاء الموت يستلزم التأبيد، وانتفاء العذاب يستلزم التنعيم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ الإشارة تعود إلى ما ذكر في الآيات السابقة مما أعد لعباد الله المخلصين من الجنة وما فيها من النعيم الحسي والمعنوي، مع الخلود الأبدي والنجاة من العذاب، واللام: للتوكيد، والفوز: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية ونوعية، ومن كل وجه، الذي لا يقدر قدر عظمته إلا الذي منحه لعباده المخلصين، ووصفه بالعظيم، وهو الرب العظيم سبحانه وتعالى.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾، أي: لمثل هذا الفوز العظيم.

﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: من أراد الفوز بالآخرة فليعمل له مثل ذلك في الدنيا؛ ليصيروا إليه في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- كمال أدب أهل الجنة، وإقبال بعضهم على بعض عند التساؤل والمحادثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ويؤخذ من مفهوم هذا: أن من سوء الأدب أن يحدث المرء أخاه وهو صاد عنه، أو متغافل، أو مدير له ظهره.

٢- تمام سرورهم، وإقبال بعضهم على بعض، والتحدث فيما بينهم، وسؤال بعضهم بعضًا عن أحوال كانت في الدنيا، تحدثًا بنعمة الله تعالى عليهم، أن وفقهم في الدنيا إلى سلوك صراطه الذي أدخلهم بسببه جنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الآيات.

٣- أن في الكلام عن الذكريات وما جرى للإنسان فيما مضى، لذة ومتعة وراحة للنفس، مثل: كلام الإنسان عن صباه، أو عن مواقف مرت عليه، ونحو ذلك.

٤- الاغتباط بنعمة الله تعالى وشكره في التخليص من الشر؛ لذكر هذا القائل نعمة الله تعالى عليه في تخليصه من شر قرين له منكر للبعث، ويدعوه إلى إنكاره، وينكر عليه التصديق به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾.

٥- اجتهاد دعاة الكفر وأئمة الضلال في التشكيك بالحق، بإيراد الشبه، والتلبيس على الناس؛ لقول هذا القرين: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾، أي: كيف تصدق بهذا؟ أو لا تصدق بهذا.

٦- إثبات البعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

٧- وجوب الحذر كل الحذر من قرين السوء؛ فإنه لا يفتأ يدعو قرينه إلى ما هو عليه من الضلال والشر.

٨- جواز غيبة الداعي إلى الضلال في الدنيا، إذا كان ذلك للتحذير من شره.

٩- أن الأشياء تتميز بضدها، ويُعرف قدر النعمة بالتأمل في حال من فقدها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾، أي: لنرى حال قريني في النار.

١٠- اطلاع هذا القائل ورؤيته قرينه في النار، ومخاطبته إياه؛ مقرعًا وموبخًا له، ومذكرًا بفضل الله تعالى ونعمته عليه أن أعاذه من شره، وأنعم عليه بالهداية، والنجاة من النار والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

١١- التحدث والاعتراف بنعمة الهداية وغيرها من نعم الله تعالى، وشكر الله تعالى عليها.

١٢- أن الردى والهلاك الحقيقي هو الهلاك في الدين، وهو الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾.

وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه؛ لقوله: ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾.

١٤- تقرير وإثبات أن أهل الجنة لا يموتون، بل مخلدون أبدًا، واغتباطهم بذلك وسرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾.

١٥- أن من دخل الجنة فقد اقتحم العقبة، ونجا من العذاب؛ لقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ

---

(١) البيت لأبي البقاء الرندي. انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» ٤/ ٩٧.

بِمُعَذَّبِينَ﴾.

١٦- كمال نعيم أهل الجنة بانتفاء الموت عنهم، وانتفاء العذاب.

١٧- أن الفوز العظيم حقًّا هو الفوز بدخول جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولا يقدر قدر هذا الفوز إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو الرب العظيم سبحانه وتعالى.

١٨- أن هذا الفوز العظيم بجنات النعيم، هو الذي ينبغي أن يعمل له العاملون، ويجدّ في طلبه المشمرون؛ لأنه غاية المطالب وأعلاها وأبقاها؛ لقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

مع أخذ الإنسان نصيبه من الدنيا، وجعلها مطية لهذا الفوز العظيم.

١٩- سفه من جعل همه الدنيا- كما هو حال كثير من الناس- فأفنى عمره وحياته في طلبها، وجعل عمله وجهده في جمع حطامها، وغفل عن طلب هذا الفوز العظيم في الآخرة.

٢٠- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ الاستفهام: للتهكم، والإشارة إلى ما أعده الله لعباده المخلصين في الجنة من النعيم، والفوز العظيم.

«نزلًا»: تمييز، أي: ضيافة، والنزل: ما يعد للنازل والضيف من الكرامة؛ من الأكل والشرب، والمسكن والفراش، ونحو ذلك.

﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ «أم»: حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام، أي: أو شجرة الزقوم، وهي: شجرة خبيثة المنظر، مرة الطعم، كريهة الرائحة.

يتزقمونها تزقمًا، أي: يبتلعونها ابتلاعًا مكروهًا؛ لقبح منظرها، وكراهة رائحتها، ومرارة طعمها؛ وهي طعام أهل النار، تغلي في بطونهم كالحميم، ملعونة في القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة: ٥١- ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

أي: أذلك النعيم الذي أعده الله لأهل الجنة خير نزلًا وضيافة، أم شجرة الزقوم التي أُعدت طعامًا وضيافة لأهل النار؟

أي: لا شك أن ذلك النعيم الذي أعده الله نزلًا لأهل الجنة هو الخير كل الخير، لا ما أُعد من شجرة الزقوم لأهل النار؛ فهو شر محض، وشتان ما بين الضيافتين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: ابتلاءً للظالمين بالشرك، واختبارًا لهم؛ لأنهم لو آمنوا لصدَّقوا، ولم يعترضوا، وسببًا لضلالهم؛ لأنهم جعلوا من ذلك مطعنًا فيما أخبر به الرسول ﷺ، فقالوا: كيف يزعم محمد أن الشجر ينبت في النار؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ كما أنها عذاب لهم ونكال، يأكلونها كالمهل تغلي في بطونهم.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾، أي: أصل منبتها في قعر الجحيم وقرارها، منبتها شر المنابت، خلقت من النار، وغذيت النار.

ويحتمل: أنها شجرة واحدة كبيرة تملأ النار كلها بأغصانها، ويحتمل أن المراد بـ«شجرة»: الجنس والنوع، فهي كثيرة متعددة في النار.

﴿طَلْعُهَا﴾، أي: ثمرها وجناها، ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: يشبه رؤوس الشياطين، وهذا تقبيح وتبشيع لطلعها؛ لأن رؤوس الشياطين ليست معروفة عند المخاطبين، وإنما استقر في النفوس قبح مناظرهم وأوصافهم.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾، أي: الظالمون، ﴿لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ اللام: للتوكيد، أي: لآكلون من شجرة الزقوم مع قبحها وقبح طلعها؛ لشدة جوعهم، واضطرارهم وإجبارهم على الأكل منها من غير شهوة، ولا لذة؛ تعذيبًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الصافات: ٦٣].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمالئون منها بطونهم؛ لكونهم لا يشبعون، ولاضطرارهم إلى ذلك، وإجبارهم عليه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «**اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا**

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص١١.

معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!»(١).

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾، أي: ثم إن لهم بعد أكلهم من شجرة الزقوم، وملء بطونهم منها، ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب: وهج النار، ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء حار بالغ غاية الحرارة، إذا قربوه من وجوههم ليشربوه شوى وجوههم، فتتساقط لحومهم من شدة حرارته، فإذا شربوه قطع أمعاءهم.

والشوب أيضًا: الخلط، أي: ثم إن لهم بعد أكلهم من هذه الشجرة الخبيثة وشدة عطشهم، ماء قد بلغ غاية الحرارة، يشربونه فيختلط بالمأكول منها، فيصير شوبًا له.

فالوهج يكون قبل الشرب وعنده، والشوب يكون بعد الشرب، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

فيشربون من هذا الماء الذي قد بلغ غاية الحرارة شرب الإبل العطاش؛ لشدة عطشهم، وإجبارهم على ذلك، تعذيبًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة: ٥٤- ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾، أي: مردهم ومصيرهم ومآلهم.

﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لإلى النار المتوهجة المتأججة، المتوقدة المستعرة، لا يخرجون منها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ تعليل لجعل شجرة الزقوم ابتلاءً للظالمين، وعذابًا لهم، بأكلهم منها، حتى ملء بطونهم، وإتباع ذلك بشوب من حميم.

أي: جازيناهم بذلك؛ لأنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم ضالين، أي: تائهين عن الحق، وعلى غير هدى.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾، أي: فهم على مسالكهم وطرقهم في الضلال،

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة جهنم، ما جاء في شراب أهل النار ٢٥٨٥، وابن ماجه في الزهد، صفة النار ٤٣٢٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

يسرعون في تقليدهم ومتابعتهم، من غير دليل ولا برهان؛ كما قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر.

أي: والله لقد ضل قبل هؤلاء الضالين من قومك يا محمد، الذين اتبعوا آباءهم في الضلال.

﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: أكثر الأمم الماضية، ولم يهتد منهم إلا القليل، فليس قومك يا محمد بدعًا في الضلال. وفي هذا تسلية له ﷺ.

وقد عرضت عليه ﷺ الأمم، فرأى النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾، أي: ولقد أرسلنا في تلك الأمم الماضية ﴿مُّنذِرِينَ﴾، أي: رسلًا يحذرونهم من الضلال، ويخوفونهم من عذاب الله تعالى وحرمان ثوابه؛ كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥]، فما نجع ذلك فيهم. ولم يذكر البشارة هنا؛ لأن المقام مقام تهديد؛ ولهذا قال:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولكل من يصح خطابه.

أي: فانظر وتأمل ببصرك وبصيرتك كيف كانت عاقبة المنذرين، الذين أنذروا وحذروا عذاب الله، ولم ينجع ذلك فيهم، فلم يحذروا ولم يخافوا، أي: كيف كان عاقبتهم ونهايتهم المؤلمة، وما حل بهم من العذاب والهلاك، والخزي والفضيحة؟

ولم يقل: انظر ماذا كان عاقبة المنذرين؟ بل قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ﴾، أي: انظر إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كيفية عاقبتهم، وشدة عقابهم، وبماذا كان، ومناسبته لذنبهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ومن نظر إلى الكيفية نظر إلى الغاية، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين له ﷺ مما حل بالمكذبين قبلهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«عباد»: منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وأخلصهم عز وجل لنفسه، واصطفاهم، واختصهم برحمته، أي: فلهم العاقبة الحسنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

لما ذكر ضلال أكثر الأولين، وسوء عاقبة المكذبين، وإهلاكهم، إلا من أنجى الله من المؤمنين، شرع في تفصيل ما وقع لبعض الأمم، وبدأ بنوح عليه السلام؛ لبيان أن الضلال بدأ منذ أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾، أي: نادانا ودعانا نوح عليه السلام، بعد أن لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، واشتد عليه تكذيبهم، وأيس منهم، وأعلمه الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، نادى ودعا ربه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم للقسم المقدر في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾.

أي: فلنعم المجيبون نحن له ولدعاء الداعين، إذا اقتضت الحكمة ذلك، بوجود الشروط، وانتفاء الموانع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ في السفينة، ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ خاصة، وكذا من آمن معه، وهم قليل.

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ «الكرب»: الشدة والضيق، ضد السعة.

والمراد بـ﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: كرب الموت بالغرق بالطوفان، ولا شيء في الدنيا أعظم من كرب الموت، ومن أشد ذلك وأعظمه: الموت بالغرق؛ لأن الغريق يؤمل النجاة، ويحاول بكل قواه أن ينجو، ويدافع الموت وكأنه ينظر إليه، ولهذا صار كربه عظيمًا، ومثله الحريق، ونحوه.

واستثنى الله عز وجل من أهل نوح ابنه وامرأته، فكانوا في عداد المغرقين الهالكين؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾، أي: وصيرنا ذريته، أي: نسله.

﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ «هم»: ضمير فصل، يفيد التوكيد والحصر، أي: هم الباقين وحدهم، حيث هلك كل من على وجه الأرض بالطوفان، فلم يبق بعد ذلك إلا ذرية نوح الذين حملهم معه في السفينة، ثم تناسل الناس منهم بعد ذلك. قيل: من أولاد نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث.

عن سمرة؛ أن النبي ﷺ، قال: «**سام: أبو العرب، وحام: أبو الحبش، ويافث: أبو الروم**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٩، والترمذي في التفسير ٣٢٣١.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، أي: على نوح، أي: أبقينا عليه، ونشرنا له ذكرًا جميلًا، وثناءً حسنًا، ولسان صدق ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وهم كل من يأتي بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة؛ ولهذا خلد الله ذكره، وأثنى عليه أعظم الثناء في القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

وفي هذا أعظم الثناء وأبلغه، جمع الله له فيه بين وصف القيام بالعبودية، والشكر لله عز وجل.

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ «سلام»: مبتدأ، ونكّر للتعظيم، أي: سلام عظيم؛ لأنه سلام من الله تعالى، وهو مبيِّن لما أبقى الله عليه، ونشَرَ له من الذكر الجميل، والثناء الحسن، ولسان الصدق، والسلامة من الشرور.

كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩].

وقال عن موسى وهارون: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات: ١١٩- ١٢٠].

وقال عن إلياس: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصافات: ١٢٩- ١٣٠].

وزيد في السلام على نوح قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ والمراد بهم: كل من جاء بعده من القرون والأمم؛ لأنهم ينتمون إليه ومن ذريته، فالسلام عليه منهم على الدوام.

كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ تعليل لما قبله، أي: مثل ما جزينا نوحًا بأن أبقينا عليه، ونشرنا له ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا، ولسان صدق في الآخرين، وسلامًا في العالمين؛ لأنه كان محسنًا في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، فكذلك نجزي غيره من المحسنين؛ بأن نجعل لهم لسان صدق، وذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا بحسب مراتبهم في الإحسان، وناهيك عما جعل الله عز وجل من الذكر الحسن، والثناء الجميل في قلوب الناس، وعلى ألسنتهم؛ لأتباع الرسل عليهم السلام، وبخاصة أصحاب النبي ﷺ،

وعلماء الإسلام الذين كتب الله لهم القبول عند الناس، ولا يقدح في هذا عداوة من عاداهم من شذاذ الخلق؛ إذ لم يسلم من ذلك الأنبياء عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ تعليل لكونه من المحسنين؛ كما أن كونه من المحسنين تعليل لما قبله، أي: لأنه من عبادنا المصدقين باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، الذين جمعوا بين أكمل الأوصاف وأشرفها؛ وهما: العبودية، والإيمان.

أي: جزيناه بهذا الجزاء العظيم؛ لجمعه بين كمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وهذا كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١١٠- ١١١].

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات: ١٢١- ١٢٢].

وقال تعالى عن إلياس عليه السلام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٣١- ١٣٢].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: من عداه وعدا أهله، ومن آمن به، أي: بقية قومه جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١١- ١٤].

وفي التعبير بقوله: ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾: احتقار لهم، وتقليل لشأنهم.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلما ذكر ما أعد لأهل الجنة من النعيم، ذكر ما أعد لأهل النار من العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ الآيات.

٢- شتان بين ما أعده الله لعباده المخلصين؛ من الجنات، وما فيها من ألوان النعيم، وبين ما أُعد للظالمين المشركين المكذبين؛ من الزقوم والحميم، والمرجع إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ الآيات.

٣- إثبات الجزاء يوم القيامة، والتهكم بمن آثروا الدنيا على الآخرة، وفرطوا في طلب الجنة والنعيم، واختاروا طريق العذاب والجحيم.

٤- ابتلاء الظالمين المكذبين بذكر شجرة الزقوم، التي تخرج في أصل الجحيم؛ ليظهر عدم إيمانهم، وتكون زيادة في ضلالهم، وتعذيبهم بالأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

٥- قدرة الله تعالى التامة، وحكمته في إخراج شجرة الزقوم في أصل الجحيم، والجمع بين المتضادات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

وكما قال تعالى للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

قال المفسرون: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأضرَّ به بردها.

قال الشاعر:

من ظاهر الحكم الكبرى وباطنها ... هذا السحاب به ماء به نار(١)

٦- ضلال من يعتمد على العقل فقط، أو الحس في إثبات الأشياء أو نفيها.

٧- بلوغ القرآن الغاية في التنفير مما يريد التنفير منه، في تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين، التي وإن لم تكن معلومة في الحس، فإنها أقبح شيء في التصور؛ لقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥].

٨- إثبات أن للشياطين أجسامًا محسوسة، ورؤوسًا، والرد على من يقول: إنهم قوى الشر، وليس لهم أجسام ولا أبدان تحس.

٩- اضطرار أهل النار للأكل من شجرة الزقوم؛ لشدة جوعهم، وملء بطونهم منها لكونهم لا يشبعون، والشرب عليها من شَوبٍ من حميم؛ لشدة عطشهم، وإجبارهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

١٠- أن مرجع الظالمين والمشركين المكذبين، ومآلهم إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

---

(١) هذا البيت لوليد الأعظمي، شاعر عراقي، من ديوانه «الزوابع».

إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ وفي هذا إشارة إلى تأبيد النار، وخلود أهلها فيها.

١١- أن سبب جعل شجرة الزقوم ابتلاءً للظالمين، وعذابًا ونكالًا لهم، مع شوب الحميم: أنهم وجدوا آباءهم ضالين، فاتبعوهم على ما هم عليه من الضلال، من غير دليل ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

١٢- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

١٣- ذم التقليد الأعمى، والتحذير من تقليد الآباء أو غيرهم على جهل وضلال.

١٤- إطلاق اسم الآباء على الأجداد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ وهذا يشمل الآباء الأدنَيْنَ ومن فوقهم.

١٥- بيان ضلال أكثر الأولين من القرون والأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ بأن قومه ليسوا بِدْعًا في الضلال.

١٦- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٧- إقامة الحجة على أولئك الأقوام بالإنذار والتحذير، لكن ذلك لم ينجع فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

١٨- أن الحجة لا تقوم على الناس إلا بإرسال الرسل والنذر؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولهذا اختلف أهل العلم في أهل الفترة، والذين لم تبلغهم الرسالة، وأصح الأقوال في ذلك- والله أعلم- أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، فمن أطاع دخل الجنة، ومن كفر دخل النار.

١٩- الحث على النظر والتأمل كيف كانت عاقبة المكذبين، وكيفية عقوبتهم، وشدتها، ومناسبتها لذنبهم، والحذر مما أصابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ.

٢٠- حسن عاقبة عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، فأخلصهم

تعالى لنفسه، واختصهم برحمته، وأنْ عاقبتهم النجاة والفوز؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ وفي هذا ترغيب وحث على الإخلاص.

٢١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة.

٢٢- أن من حسن عرض الأخبار والحقائق: التفصيل بعد الإجمال؛ فقد ذكر الله ضلال كثير من الأولين، وسوء عاقبة المكذبين وإهلاكهم، إلا من أنجى الله من المؤمنين، ثم شرع في تفصيل أحوال عدد من الرسل وأممهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ والآيات بعدها.

٢٣- فضيلة نوح عليه السلام، وثناء الله تعالى عليه بلجوئه إلى ربه، ودعائه إياه بنصره على قومه، بعد أن طال مكثه فيهم يدعوهم إلى الله، وأيس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾.

٢٤- امتداحه عز وجل لنفسه في استجابته دعاء نوح، ودعاء الداعين، وكمال إجابته، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾.

٢٥- إثبات السمع لله تعالى، وأنه سميع مجيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ ولا إجابة إلا بعد السمع.

٢٦- الحث على دعاء الله تعالى، والترغيب فيه.

٢٧- امتنان الله تعالى على نوح عليه السلام بإنجائه وأهله من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

٢٨- لا أشد في الدنيا من كرب الموت، ومن أشد ذلك وأعظمه كربًا: الموت غرقًا، ونحو ذلك.

٢٩- أن من بقي من الناس بعد نوح عليه السلام كلهم من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

٣٠- تكرمة الله عز وجل لنوح عليه السلام، بجعل ذريته الذين حملهم معه في السفينة هم الباقين فقط، وتناسل الناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

٣١- إفضاله عز وجل على نوح عليه السلام بما أبقى عليه، ونشر له فيمن بعده

من الذكر الجميل، والثناء الحسن، ولسان الصدق، والسلام عليه في العالمين بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

٣٢- الثناء على نوح عليه السلام بكمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وأن الله عز وجل امتن عليه بما ذكر، وأعطاه من الفضل ما أعطاه؛ لأنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وكان من عباد الله المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

٣٣- وعد الله تعالى للمحسنين بإبقاء الذكر الجميل والثناء الحسن لهم، ولسان الصدق، حسب مراتبهم في الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

٣٤- إثبات عبودية نوح، والرسل عليهم السلام، والمؤمنين لله تعالى، عبودية خاصة.

٣٥- الترغيب في الإحسان، والعبودية لله تعالى والإيمان، والتنويه بشأن المحسنين، وعباد الله المؤمنين.

٣٦- أن الله عز وجل يُرتب الثناء والثواب، والذم والعقاب على الأوصاف، لا على الأشخاص، فمن أحسن وآمن فهو ممدوح مثاب أيًّا كان، ومن أساء وكفر فهو مذموم معاقب كائنًا من كان.

٣٧- انتصار الله عز وجل لنوح عليه السلام، وإغراق المكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

٣٨- كمال وعد الله تعالى بإنجائه نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين؛ وإغراق المكذبين وإهلاكهم، وفي هذا بشارة للنبي ﷺ وتسلية، ووعيد وتهديد للمكذبين من قومه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

لما ذكر قصة نوح عليه السلام، أول الرسل، وأحد أولي العزم من الرسل، أتبع ذلك بذكر قصة إبراهيم، أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد ﷺ، وإمام الحنفاء.

قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام، أي: من أتباعه، وعلى منهاجه في الدعوة إلى الله تعالى.

﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لإبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ «إذ» في الموضعين: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، أي: حين أتى ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الباء: للمصاحبة، أي: بقلب بريء من الشرك، ومن كل اعتقاد باطل، وخلق ذميم، سليم من الشكوك والشبهات والشهوات.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾، أي: حين قال لأبيه آزر وقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي تعبدونه؟

أو «ماذا» كلها اسم استفهام. والاستفهام: للتوبيخ والإنكار.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ الاستفهام: للتوبيخ وتأكيد الإنكار، و«إفكًا»: مفعول به منصوب مقدم لـ«تريدون»، و«آلهة»: بدل من «إفكًا»، ومعنى «إفكًا»، أي: كذبًا، ﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

أي: أتريدون وتطلبون وتبتغون آلهة إفكًا وكذبًا غير الله تعبدونها؟! وفي هذا أيضًا تسفيه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: للاستفهام، أي: فما ظنكم برب العالمين أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ والاستفهام على هذا للتهديد والوعيد.

أو فما ظنكم برب العالمين؟ هل يرضى أن تعبدوا معه غيره؟ والاستفهام على هذا للنفي والإنكار.

أو فما ظنكم برب العالمين حين عبدتم معه غيره، ولم تقدروه عز وجل حق قدره، فلو ظننتم به ما هو أهله من الكمال والعظمة ما عبدتم غيره؟ وكل هذا من سوء الظن بالله، وعدم تقديره حق قدره.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾، أي: رفع بصره إلى النجوم متفكِّرًا فيما يعتذر به عن الخروج معهم إلى عيدهم؛ بغية أن ينفرد بأصنامهم.

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، أي: فقال لهم معرِّضًا بما يمنعه من الخروج: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، أي: مريض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ**

﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله في سارة: «هي أختي»»[١].

قال ابن كثير[٢]: «هذا ليس هنا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزًا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني؛ كما جاء في الأثر: «إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب»[٣]».

﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾، أي: فذهبوا عنه وتركوه، وخرجوا إلى عيدهم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، أي: فمال مسرعًا خفيةً إلى أصنامهم التي يعبدونها.

﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«ألا»: أداة عرض، أي: كلوا. قيل: وكانوا يضعون الطعام عندها للتبرك بها ثم يأكلونه، أو باعتقاد إطعامها وإكرامها.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ «ما»: اسم استفهام، أي: أي شيء يمنعكم من النطق؟ وهذا الاستفهام والعرض قبله للتهكم والتحقير والاستهزاء والسخرية، وإلزام عابديها بأنها لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تأكل ولا تتكلم، ولا تعقل ولا تعلم، فهي أنقص من الحيوان الذي يأكل وينطق، فكيف تعبد من دون الله؟

وإنما خاطب هذه الآلهة مخاطبة من يعقل في قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ تنزلًا مع اعتقادهم فيها أنها تعقل وتنفع وتضر.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فمال وأقبل على هذه الآلهة ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ «ضربًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مصدر في موضع الحال، أي: يضربها ضربًا قويًّا شديدًا، ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾، أي: بيده اليمنى؛ لأنها أشد وأقوى؛ كقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]، قال الشَّمَّاخ[٤]:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] ٣٣٥٨، ومسلم في الفضائل ٢٣٧١، وأبو داود في الطلاق ٢٢١٢، والترمذي في التفسير ٣١٦٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٢٦٠٩ عن عمران بن حصين رضي الله عنه، موقوفًا عليه. وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ص٣٠٥، والبيهقي في «السنن الكبرى» ١٠/ ٣٣٦ (٢٠٨٤٢).

(٤) انظر: «ديوانه» ص٧١.

إذا مـــا رايـــة رفعـــت لمجـــد تلقاهـــا عَرَابـــة بـــاليمين

فكسرها وحطمها؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ قرأ حمزة بضم الياء: «يُزِفُّونَ»؛ وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَزِفُّونَ﴾.

أي: فأقبلوا إلى إبراهيم يَعْدون مسرعين غاضبين، يريدون أن يوقعوا به، وينتصروا لآلهتهم، بعدما بحثوا عمن فعل ذلك، وعرفوا أنه إبراهيم؛ كما جاء ذلك مبسوطًا في سورة الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩- ٦٧].

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، و«ما»: موصولة.

أي: قال إبراهيم عليه السلام لقومه- لما جاؤوا إليه ليعاتبوه على تحطيم أصنامهم- منكرًا عليهم عبادتهم إياها، ومقرعًا لهم وموبخًا، وعائبًا عليهم: أتعبدون الذي تنحتونه؟! أي: كيف تعبدون الذي تصنعونه بأيديكم؟! وهل يليق عقلًا أن يكون المعبود مصنوعًا لعابده؟!

هذا لا يليق، يصنع الرجل بيده الصنم، ثم يعبده، ويتضرع إليه، ويتعلق به، ويرجو منه جلب النفع ودفع الضرر، هذا من أسفه السفه! وصدق الله العظيم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الواو حالية، أي: والحال أن الله خلقكم.

﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وخلق الذي تعملونه. أو مصدرية، أي: وعملكم، أي: فهو عز وجل أحق بالعبادة وحده؛ لكونه خلقكم وخلق ما تعملون.

فلما قامت عليهم الحجة، عدلوا إلى أخذه بالقوة والقهر: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجله ﴿بُنْيَٰنًا﴾ نُكِّر للتعظيم، أي: بنيانًا عظيمًا عاليًا، وذلك ليجمعوا فيه حطبًا كثيرًا، ويوقدوا فيه نارًا عظيمةً؛ ولهذا قال: ﴿فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي: فاطرحوه في النار الشديدة الوقود؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ «الكيد» في الأصل: تدبير الأذى خفية، وإيقاع الخصم من حيث لا يشعر، والمعنى هنا: فأرادوا إيقاع الأذى والضرر به خفية وعلنًا، وليقتلوه أشنع قتلة بإحراقه بالنار.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، أي: المغلوبين الأخسرين. والأسفل: الذي بلغ غاية السفل والحقارة، والنزول والدنو.

أي: رددنا كيدهم في نحورهم، وجعلنا النار على إبراهيم بردًا وسلامًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩- ٧٠].

فجعله الله تعالى هو الأعلى؛ بأن سلمه مما أرادوا به من إهلاكه، وأكرمه بأمر خارق للعادة؛ بأن جعل النار عليه بردًا وسلامًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال إبراهيم عليه السلام لما نصره الله تعالى على قومه، وأنجاه الله من النار، وأيس من إيمانهم:

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: إني مهاجر إلى ربي، قاصدًا الأرض المباركة أرض الشام.

وهذه أول هجرة في سبيل الله، والإضافة في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ إضافة تعطف وتحنن وتضرع إلى ربه عز وجل أن يدبره إلى ما فيه مصلحته، بعدما لقي من قومه من التكذيب والأذى؛ ولهذا قال:

﴿سَيَهْدِينِ﴾، أي: سيرشدني ويوفقني إلى ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي؛ كما قال في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [الآية: ٤٨].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، أي: يا رب، أعطني ولدًا يكون من الصالحين، المخلصين لك، المتبعين شرعك. وذلك ليستعين به ويأنس، عوضًا من قومه وعشيرته الذين كانوا غير صالحين، وناصبوه العداء وآذوه، ففارقهم، فاستجاب الله له، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ الفاء: للتعقيب، والبشارة: الخبر السار، أي: فاستجبنا دعاءه، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

والمراد به: إسماعيل عليه السلام، أكبر ولد إبراهيم، ولد له على كبر سن، وهو أبو العرب.

ووصفه هنا بقوله: ﴿حَلِيمٍ﴾ لأنه أنسب في هذا المقام، أي: ذي حلم وتأنٍّ، وعقل ورشد.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾، أي: بلغ هذا الغلام- وهو إسماعيل- مع أبيه إبراهيم ﴿ٱلسَّعْيَ﴾، أي: المشي معه، ومصاحبته، وليس له حينذاك ولد سواه، ابتلاه الله تعالى بأمره بذبحه أشد ما كان تعلقًا به، قيل: كان عمره ثلاث عشرة سنة، وقيل: سبع سنين، أو بين ذلك.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ بالتصغير تلطفًا معه، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾، أي: إن الله أراني في المنام أني أذبحك، أي: أخبرني وأمرني بالمنام أني أذبحك؛ ولهذا قال إسماعيل: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

روى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رؤيا الأنبياء وحي**»(١).

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء، فيصير بعدها ياء: «تُرِي»؛ وقرأ الباقون بفتحها، فيكون بعد الراء ألف: ﴿تَرَىٰۚ﴾.

لم ينزعج إبراهيم عليه السلام لِمَا رأى لقوة يقينه، لكنه عرض ذلك على ابنه؛ ليختبر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم، وليستعد له ويتجلد، ويتذرع بالصبر الجميل، وليظهر تقبله لأمر الله، ويكون شريكًا لأبيه في الأجر، ويكون أهون عليه، وليس ذلك لاستشارته؛ إذ لا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه في فعل ما أمره الله به وتنفيذه؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، أي: سأنفذ حكم ما رأيت، ولم يقل: «إني رأيت»؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، وفعلهم بأمر الله تعالى؛ لأنهم معصومون.

فقوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، أي: فكر في أمرك، واستعد لذلك، فأجاب الابن جوابًا عجيبًا عظيمًا.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، أي: افعل ونفذ الذي تؤمر به، أي: امض لما أمرك الله به، ولا تتردد. ولم يقل: افعل ما رأيت، أو لا مانع عندي، ونحو ذلك، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ تذكيرًا لأبيه بأمر الله له بذلك، وحثًّا له على تنفيذه.

قيل: خاف إسماعيل أن تدرك أباه رحمة الولد، فيراجع الله عز وجل في ذلك.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ السين: للتنفيس، وتفيد تحقق وقوع الشيء وقربه، أي: ستجدني إن شاء الله من الصابرين على هذا البلاء العظيم، أي: من جملة المتصفين بالصبر حقًّا.

وبدأ بالاستثناء وقدَّمَه على قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أدبًا مع الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله عز وجل.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾، أي: استسلما وانقادا لأمر الله، فلم يبق هناك منازعة، لا من الأب، ولا من الابن، بل استسلام صِرف، وتسليم محض، وهذا استسلام القلب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٢١.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ هذا استسلام الجوارح، واللام: بمعنى «على»، أي: صرع إبراهيم ابنه على الأرض على جبينه؛ وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم؛ ليذبحه.

وإنما صرعه على الأرض على جبينه؛ من أجل ألا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع؛ لأن رؤية المذبوح السكين تروعه.

وجواب الشرط لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ محذوف، تقديره: ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما الأجر، ونحو ذلك.

قال عز وجل: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ «أن»: تفسيرية، أي: يا إبراهيم، ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، أي: صدقت ما أريناك وأمرناك به في المنام، أي: فعلت ما يقتضي تصديق هذه الرؤيا.

وهذا امتداح من الله تعالى لإبراهيم، وثناء عليه، فقد عزم على ذبح ابنه، وقام بمقدمات ذلك، وصرع ابنه على جبينه على الأرض؛ ليذبحه، فجعل الله عز وجل ذلك تصديقًا.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾، أي: رفعنا عن إبراهيم هذه الشدة والمحنة، وجعلنا له خرجًا ومخرجًا؛ لأنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

وكذلك نجزي المحسنين؛ بأن ندفع عنهم الخطوب، ونفرج لهم الكروب، ونجعل لهم من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ الجملة مؤكدة بـ«إنَّ» واللام، وضمير الفصل، والإشارة تعود إلى ما أُمر به إبراهيم في المنام من ذبح ابنه، أي: إن هذا لهو الابتلاء والاختبار الشاق، الواضح الجلي، حيث أمر عليه السلام بذبح ابنه وفلذة كبده، وثمرة فؤاده ووحيده، وأول وولده، والذي أبان صدق إيمانه عليه السلام، وقوة يقينه، وخالص محبته وخلته لربه، وتقديمها على كل محبوب.

فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر ربه، منقادًا لطاعته؛ ولهذا امتدحه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، وجعله الله تعالى له خليلًا.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾، أي: وفدينا الابن المأمور بذبحه.

﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، أي: بكبش عظيم، جعلناه فداءً للذبيح يذبح بدلًا عنه، وقربانًا وسنة إلى يوم القيامة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، أي: أبقينا عليه، ونشرنا له ذكرًا جميلًا، وثناءً حسنًا، ولسان صدق ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾، أي: فيمن جاؤوا بعده إلى يوم القيامة؛ استجابة لدعائه بقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤] فكان إمام الحنفاء، خلد الله ذكره، وأثنى عليه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

إلى غير ذلك من الآيات في ذكره عليه السلام والثناء عليه؛ كما أثنى عليه المصطفى ﷺ في السنة المطهرة، في أحاديث كثيرة، ولهذا أمرنا بالتشهد أن نقول: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، في العالمين؛ إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد؛ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٧٠، والنسائي في السهو ١٢٨٨؛ من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ نكَّر «سلام» للتعظيم، وهو مفسر لما أبقى الله تعالى عليه، ونشر له في الآخرين، أي: أبقينا عليه في الآخرين الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلامة من القدح والنقص، الذي يعتري البشر.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ تعليل لما قبله، والإشارة لما جزاه الله به من فداء ابنه بالذبح العظيم، والإبقاء عليه في الآخرين بالسلام، والذكر الجميل، والثناء الحسن، أي: جزيناه بذلك؛ لأنه من المحسنين، وبمثل هذا الجزاء نجزي المحسنين.

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾ تعليل لكونه من المحسنين؛ كما أن كونه من المحسنين تعليل لما قبله، أي: جزيناه بهذا الجزاء العظيم؛ لجمعه بين كمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان.

﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح- وهو إسماعيل- عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق عليهما السلام.

أي: وبشرنا إبراهيم عليه السلام بابنه إسحاق، بشارة كرامة منا له، أي: من غير أن يسألنا ذلك.

﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: حال كونه نبيًّا من الصالحين، أي: بشرناه بولادته، وبكونه نبيًّا من الصالحين.

وهذا يبين أن المبشَّر به قبل هذا، والذي رأى إبراهيم في المنام أن يذبحه، ليس هو إسحاق، بل هو إسماعيل عليهما السلام.

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾، أي: على إبراهيم، فجعلنا في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء بعده من ذريته.

﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾، أي: وباركنا على إسحاق، فجعلنا أنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل إسحاق، وليس من ولد إسماعيل إلا محمد ﷺ.

والبركة: كثرة الخير؛ من العلم، والنبوة، والذرية، وغير ذلك.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾، أي: ومن ذرية إبراهيم وإسحاق عليهما السلام.

﴿مُحۡسِنٞ﴾ في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، أي: مؤمن.

﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي؛ والاعتداء على الحق، وعلى الخلق.

﴿مُبِينٌ﴾ بيِّن ظاهر ظلمه، ومبين: مظهر لظلمه.

أي: ومن ذريتهما الصالح والطالح، والعادل والظالم، ولهذا لما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أجابه عز وجل بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفي هذا إشارة إلى أنه سيكون في ذرية إبراهيم من هو ظالم لا يستحق الإمامة في الدين.

الفوائد والأحكام:

١- أن إبراهيم من شيعة نوح عليهما السلام، وأن الأنبياء عليهم السلام كلهم بعضهم تبع لبعض، فأصل دينهم واحد، وهو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢- ثناء الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام في إخلاصه الدين لله تعالى وامتداحه له بسلامة قلبه من الشرك، وبراءته من الشبهات والشهوات، ومن كل اعتقاد باطل، وخلق ذميم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٤- إنكاره عليه السلام على أبيه وقومه عبادة الأصنام، وابتغاءَهم إفكًا وكذبًا آلهة غير الله، وتسفيهًا لهم، وقوته عليه السلام في ذات الله، وصدعه بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

٥- أن كل ما عبد من دون الله فهو إفك وكذب.

٦- تهديده لهم، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى وعقابه إذا لقوه وهم على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٧- تقريعهم وتوبيخهم في عبادتهم مع الله غيره، وتنقصهم كمال ربوبيته وإلهيته، وإنزال حاجاتهم بغيره، وهذا على المعنى الثاني لقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والاحتجاج على المشركين بتوحيد الربوبية، الذي يثبتونه بإلزامهم توحيد الألوهية.

٩- التماس إبراهيم عليه السلام العذر في عدم الخروج مع قومه لعيدهم، بحجة أنه مريض؛ لأجل أن يَخلوَ بأصنامهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

١٠- إباحة التورية إذا كانت لمقصد شرعي، وقد تكون مستحبة، أو واجبة، أما إذا كانت لغير مقصد شرعي؛ فقد تكون مكروهة، أو محرمة.

قال ابن كثير[1]: «وهذا ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، وإنما هو من باب المعاريض في الكلام؛ لمقصد شرعي ديني».

١١- توليهم عنه مدبرين، وتركهم إياه، لمَّا أبدى لهم عذره؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

١٢- ميله على آلهتهم مسرعًا خفية بعد أن خلا له الجو، وتهكمه بهم، وسخريته منهم؛ لعدم أكلهم، وعدم نطقهم؛ تحقيرًا لهم، وإلزامًا لعابديهم بعدم استحقاقهم للعبادة.

١٣- إقباله عليهم بضربهم بيمينه ضربًا شديدًا، وتحطيمهم؛ انتصارًا لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾، ويؤخذ من هذا: قوة إبراهيم في الحق، وقوته في بدنه.

١٤- شدة انتصار قومه لآلهتهم، وغضبهم لما فعل بها، وإقبالهم على إبراهيم مسرعين؛ بغية الانتقام منه، والإيقاع به؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وهذا من أعجب العجب، يعبدون هذه الآلهة بدعوى أنها تنفع وتدفع، وهم الذين يدافعون عنها.

١٥- انتهازه عليه السلام إقبالهم عليه، وحماسهم للانتصار لآلهتهم؛ لتجديد الإنكار عليهم، وتقريعهم، وتوبيخهم، وكيف يعبدون آلهة مخلوقة، هم ينحتونها، ويتركون عبادة

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢١.

الله الذي خلقهم وخلق معبوداتهم؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

١٦- إثبات أنه عز وجل هو وحده خالق كل شيء، المستحق للعبادة وحده، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١٧- أن أعمال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أعمال العباد مخلوقة لهم، لا شأن لله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ كما أن فيها ردًّا على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله؛ لأن الله أضاف العمل إليهم، فقال: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فأعمال العباد مضافة إلى الله خلقًا وتقديرًا، ومضافة إليهم فعلًا ومباشرة، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة(١).

١٨- لجوءهم إلى أخذه بالقوة، وإلقائه في النار، لمَّا أقام عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾.

١٩- إرادتهم الكيد له، وإلحاق الضرر به، وقتله بالإحراق بالنار أشنع قتلة، ونصر الله تعالى له، وإنجاؤه، ورد كيدهم في نحورهم، وجعل النار عليه بردًا وسلامًا، وجعلهم المغلوبين الأسفلين، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وهذه سنة الله عز وجل في نصر رسله وأوليائه.

٢٠- إثبات الإرادة للإنسان، والاختيار. وفي هذا رد على الجبرية الذين يسلبون ذلك منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾.

٢١- إعلانه عليه السلام- بعد أن أقام الحجة على قومه، ونصره الله عليهم وأنجاه من كيدهم- الخروج من أرضهم، والهجرة إلى الله وفي سبيله، إلى أرض الشام المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾.

٢٢- إخلاصه عليه السلام لربه، وقوة توكله عليه، وتمام ثقته بهدايته له وتوفيقه؛ لقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(١) انظر: «الطحاوية» ٢/ ٦٤١.

٢٣- سؤاله ربه أن يهب له ولدًا من الصالحين؛ يأنس به ويطمئن بعد أن ناصبه قومه العداء، وخرج من أرضهم فرارًا بدينه؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٢٤- حاجة الإنسان إلى من يستعين به من الصالحين من ولد أو غيره.

٢٥- أنه إنما ينفع من الأولاد والقرناء من كان صالحًا، مؤديًا لحق الله وحقوق الخلق؛ لقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

٢٦- إجابة الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام، وبشارته له بغلام حليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهو إسماعيل عليه السلام، بِكْر إبراهيم، أي: أكبر أولاده، وهو أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق، وهو أبو العرب، وهو «الذبيح» الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وهذا ظاهر من سياق الآيات؛ فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١٠١- ١١١]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢].

فدل على أن البشارة بإسحاق بعد ذلك، وأيضًا: فالبشارة بنبوته تدل على أنه غير الذبيح؛ لأنها لا تتفق مع الأمر بذبحه.

وقد جاءت لإبراهيم البشارة بإسحاق أيضًا في آيات أخرى؛ كما في قول الملائكة: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

كما بشرت أمه سارة، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له ولد في حياتهما، يسمى: يعقوب، فيكون له ذرية ونسل، وهذا لا يتفق مع الأمر بذبحه وهو صغير.

كما أن الله وصف إسحاق بقوله: ﴿عَلِيمٍ﴾ بينما وصف الذبيح بقوله: ﴿حَلِيمٍ﴾ وهذا غير هذا؛ لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح، وهو إسماعيل؛ لأن الله وصفه بأنه من الصابرين، ولم يصف بذلك إسحاق؛ فقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]؛ كما وصفه بأنه صادق الوعد،

فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وذلك لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ ووفاؤه بذلك.

وإلى هذا القول- وهو أن الذبيح إسماعيل عليه السلام- ذهب أكثر السلف من الصحابة والتابعين وأهل العلم، واختاره ابن تيمية وابن القيم(١)، وابن كثير والسعدي، وذهب طائفة من السلف من الصحابة والتابعين وبعض أهل العلم، إلى أنه إسحاق، والراجح القول الأول.

قال ابن كثير(٢): «وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام؛ فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم: أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: «بكره»، فأقحموا هنا كذبًا وبهتانًا: «إسحاق». وهذا لا يجوز؛ لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، و«إسماعيل» أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك، وحرّفوا «وحيدك»، بمعنى: الذي ليس عندك غيره؛ فإن إسماعيل كان قد ذهب به وبأمه إلى جنب مكة. وهذا تأويل وتحريف باطل؛ فإنه لا يقال: «وحيدك» إلا لمن ليس له غيره، وأيضًا: فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقِّي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ مسلمًا من غير حجة».

ثم ذكر دلالة الكتاب على ذلك.

وقال السعدي(٣): «وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة

---

(١) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٧١.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٢٣، وانظر: ٥/ ٢٦٥- ٢٦٦.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٣٨٨.

بإسحاق، ولأن الله تعالى قال في بشراه بإسحاق: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فدل على أن إسحاق غير الذبيح».

٢٦- ثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام بوصفه بالحلم، وهو من أنبل الأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

٢٧- مشروعية البشارة لمن ولد له ولد، وبخاصة إذا كان ذكرًا.

٢٨- رؤيا إبراهيم في المنام لما بلغ إسماعيل معه السعي، واشتد تعلقه به ومحبته له؛ أنه يذبحه، وإخباره بذلك؛ ليختبر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم، وليستعد له ويتجلد ويصبر، ويظهر تقبله لذلك، فيكون شريكًا لأبيه في الأجر، وليكون ذلك أهون عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

٢٩- تلطف إبراهيم مع ابنه بقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾؛ ليبعد عن نفسه تهمة أنه لا يحبه، أو يريد الإضرار به.

٣٠- أنه يجوز أن يوَرِّيَ الإنسان بالشيء؛ لاستطلاع الأمر واستظهاره؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال لابنه: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ لم يرد أن يستشيره، وإنما أراد أن يختبره؛ لينظر مدى قبوله لذلك، ويستعد له.

٣١- أن رؤيا الأنبياء حق؛ ولهذا اعتمدها إبراهيم وصدقها بفعله.

٣٢- تلطف إسماعيل وحسن أدبه مع أبيه عليهما السلام في هذا الموقف الصعب؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

٣٣- حثه لأبيه على فعل ما أمره الله به وتنفيذه؛ مخافة أن تدرك أباه رحمة الوالد، فيراجع ربه في ذلك؛ لقوله عليه السلام: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

ويؤخذ من هذا: أنه لا غضاضة في أمر الإنسان بالخير لمن هو أفضل منه.

٣٤- أدب إسماعيل عليه السلام مع ربه؛ حيث علق تمكنه من الصبر على مشيئة الله تعالى؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهكذا ينبغي للمسلم أن يعلق ما يريد أن يفعله في المستقبل على مشيئة الله تعالى.

٣٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٣٦- عزم إسماعيل عليه السلام على الصبر على الذبح بمشيئة الله تعالى، وعونه له.

٣٧- استسلام إبراهيم وإسماعيل، وانقيادهما لأمر الله تعالى، وصرع إبراهيم ابنه إسماعيل على جبينه ليذبحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

٣٨- فضيلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ حيث استسلما لأمر الله تعالى في هذا الأمر العظيم، الذي لا يقدم عليه إلا أمثالهما.

٣٩- إدراك العناية الربانية لهما بعدما عزما وصمما وفعلا ما أمرا به، ونداء الله عز وجل لإبراهيم، ورفع هذا الابتلاء عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ الآيات.

٤٠- إثبات الكلام لله عز وجل بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾.

٤١- وفاء إبراهيم عليه السلام في فعل ما أمر به، وصدق إسماعيل فيما وعد به من الصبر؛ ولهذا امتدحهما الله تعالى، فقال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: ٥٤- ٥٥].

٤٢- امتداح الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، وثناؤه عليه بتصديق الرؤيا وفعل ما أمره الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾.

٤٣- مجازاته عز وجل له- لكونه من المحسنين- برفع هذا الابتلاء، وفدائه بذبح عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الآية.

٤٤- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ كما جاء في الحديث(١).

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٤٥- جواز النسخ قبل التمكن من الفعل؛ خلافًا للمعتزلة؛ لأن الله أمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نسخه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه: إثابته على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

٤٦- أن الإنسان إذا قصد العمل، وسعى له؛ كتب له أجره وإن لم يتمكن من فعله؛ كما في حديث: «**وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان. فهو بنيته، فأجرهما سواء**»(١).

وقال ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»(٢).

٤٧- وعد الله تعالى للمحسنين بمجازاتهم، بتنفيس الكروب، ودفع الخطوب، وتفريج الهموم، واحتساب ما قصدوه، وفعلوا أسبابه من الخير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والجزاء من جنس العمل.

٤٨- أنما ابتلي به إبراهيم عليه السلام من أمره بذبح ابنه إسماعيل، لهو البلاء المبين، والمصاب العظيم؛ لأن المصائب وإن كانت كلها من الابتلاء؛ إلا أن أشدها ما يبتلى به العبد بأن يؤمر أن يفعلها هو بنفسه؛ كما في أمر إبراهيم عليه السلام، بأن يذبح ابنه وحيده، وفلذة كبده، فهذا من أشق الأشياء وأصعبها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾.

٤٩- حكمة الله تعالى فيما يقدره على أنبيائه وأصفيائه وعباده المؤمنين، من الابتلاء والمصائب؛ لتمحيصهم ورفعة منازلهم، وقد لقي إبراهيم عليه السلام من ذلك ما لم يقع لغيره من الرسل وغيرهم؛ فابتلي بإلقائه في النار، وابتلي بأمره بذبح ابنه، وهذه أشد.

وظهر بذلك خلوص قلبه ومحبته لله تعالى؛ ولهذا اتخذه الله خليلًا.

٥٠- فداؤه عز وجل إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم، جعله تعالى بديلًا عنه، وقربانا وسنة إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٨، من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٩٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩١، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٥١- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام على إبراهيم ونشره فيمن بعده؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

٥٢- الثناء على إبراهيم بكمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وأنه عليه السلام إنما نشر له الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام عليه في الآخرين؛ لكونه من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباده، ولكونه من عباد الله المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

٥٣- مجازاة المحسنين بإبقاء الثناء الجميل من الذكر الحسن، والسلام عليهم فيمن بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

٥٤- تأكيد الحث على الإحسان، والترغيب في العبودية والإيمان، والتنويه بشأن المحسنين، وعباد الله المؤمنين.

٥٥- إثبات عبودية إبراهيم والرسل والمؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

٥٦- بشارة إبراهيم عليه السلام بشارة ثانية بابنه إسحاق عليه السلام بولادته، وإثبات كونه نبيًّا من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ وهذا دليل ظاهر على أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل، وليس إسحاق؛ كما تقدم بيانه.

٥٧- مشروعية البشارة بالولد؛ لأن هذا مما يسر به والده وأهله، والتبشير أمر مستحسن شرعًا، وهذه البشارة تكرمة لإبراهيم من غير دعاء منه لذلك، بخلاف البشارة بإسماعيل؛ فهي بشارة باستجابة دعائه.

٥٨- مباركة الله تعالى على إبراهيم وإسحاق بالنبوة والعلم، وكثرة الذرية؛ لقوله تعالى: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، فأنبياء بني إسرائيل كلهم من ذرية ابنه إسحاق، ومحمد من ذرية ابنه إسماعيل.

٥٩- انقسام ذريتهما إلى محسن في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وإلى ظالم لنفسه بالشرك والكفر والمعاصي، بيّن الظلم ظاهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ فمنهم: المحسن المطلق؛ وهو المؤمن الذي إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه استغفر الله، ومنهم الظالم المطلق، وهو الكافر، ومنهم من عنده مطلق الإحسان

ومطلق الظلم، وهذا تارة يكون إلى الإحسان أقرب، وتارة إلى الظلم أقرب، حسب كثرة إحسانه، أو ظلمه.

٦٠- فضل المحسن؛ ولهذا قدم في الذكر على الظالم لنفسه.

٦١- أن من أحسن فإحسانه لنفسه، ومن ظلم فظلمه على نفسه.

٦٢- أنه لا نسب بين الله وبين الخلق، فمن ظلم نفسه لم ينفعه كونه من ذرية الأنبياء عليهم السلام.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾:

بعدما ذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام، أتبعها بذكر قصة موسى وهارون؛ لأن موسى عليه السلام أفضل أولي العزم بعد محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكتابه أفضل الكتب بعد القرآن الكريم، وهارون عليه السلام كان وزيرًا لموسى عليه السلام.

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾﴾، أي: بالنبوة والرسالة، وهما وكل أنبياء بني إسرائيل من ذرية إسحاق عليهم السلام.

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾، أي: وخلصناهما ومن آمن معهما من قهر فرعون وبطشه وقومه، وسومهم لهم سوء العذاب؛ بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، واستعبادهم في الخدمة، وأخس الأشياء، وإهانتهم وإذلالهم، وخلصناهم أيضًا من الغرق الذي أهلك الله به فرعون وقومه.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾، أي: وقويناهم وأظهرناهم، هما وقومهما على فرعون وقومه، بإغراقه وقومه وإهلاكهم، وإنجاء موسى وهارون وقومهما.

﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾، أي: فكانت لهم الغلبة والظفر والظهور على عدوهم في النهاية.

﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾، أي: وأعطيناهما الكتاب، وهو التوراة، أفضل كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: البين الواضح الجلي، الذي فيه بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وسمي بـ«الكتاب»؛ لأن الله كتبه بيده؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال آدم في حجاجه مع موسى عليهما السلام: «وأنت موسى الذي كلمه الله، وكتب له التوراة بيده»(١).

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾، أي: أرشدناهما ووفقناهما إلى الطريق العدل المستقيم في الاعتقاد والأقوال والأفعال، الموصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾، أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا، ولسان صدق فيمن جاؤوا بعدهما.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ تفسير لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: تركنا عليهما ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا، ومنه السلام عليهما.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾، أي: جزيناهما بما ذكر؛ لأنهما من المحسنين، وكذلك نجزي جميع المحسنين.

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ تعليل لما قبله، أي: جازيناهما بما ذكر؛ لأنهما جمعا بين كمال الإحسان، والعبودية والإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾:

---

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٦١٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، وابن ماجه في المقدمة ٨٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ اللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ هنا، وفي الموضعين بعده، للتوكيد، يقال: «إلياس»، ويقال: «إلياسين»؛ كما في الآية الأخرى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ وهو من أنبياء بني إسرائيل، يقال: أرسله الله إلى أهل «بعلبك».

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، و«ألا»: حرف عرض، واستمالة، وتحضيض، أي: ألا تتقون الله وعذابه، والقيامة وأهوالها في عبادتكم غير الله؟

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتسفيه، أي: أتعبدون صنمًا، قيل: كان لقومه صنم يعبدونه، يسمى: «بعلًا».

والدعاء: عبادة، سواء كان ركوعًا وسجودًا، أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، أي: وتتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي خلقكم، فلا تعبدونه.

وهذا يحتمل: أنهم لا يعبدون الله أبدًا ولا يعرفونه، ويحتمل: أنهم يعبدون مع الله غيره، ومن عبد مع الله غيره فهو كمن لم يعبد الله؛ لأن الله عز وجل غني عن عبادة من أشرك معه غيره؛ كما قال في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه**»(١).

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص بنصب الأسماء الثلاثة: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وقرأ الباقون برفعها: «اللهُ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين».

أي: وهو سبحانه ربكم ورب آبائكم الأولين، أي: ورب أجدادكم الأولين، المستحق وحده للعبادة دون غيره.

ولم يقل: وتذرون الله، بل قال: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ الآية؛ استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، أي: أتعبدون من لا يخلق، وتتركون عبادة الخالق سبحانه؟!

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للتوكيد، أي: لمحضرون يوم القيامة لدينا؛ لمناقشة الحساب، والعذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: لكن عباد الله المخلصين، من قوم إلياس وغيرهم، الذين أخلصوا لله تعالى العبادة، وأخلصهم واختصهم برحمته، فإنهم لا يحضرون للعذاب، بل لهم الأجر والثواب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾، أي: وأبقينا له فيمن جاؤوا بعده ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة والمد وقطع اللام من الياء: «آلِ يَاسِينَ»؛ مثلَ: «آل يعقوبَ».

وقرأ الباقون بكسر الهمزة وإسكان اللام، ووصلها بالياء كلمة واحدة: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ فيقال له: «إلياس»، ويقال له: «إلياسين»؛ كما يقال: «ميكال» و«ميكائيل»، أي: سلام عليه وعلى آله، وهو تفسير لما أُبقي عليه من الذكر الجميل، والثناء الحسن.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ تقدم الكلام عليه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتأكيد نبوة موسى وهارون عليهما السلام، وامتنان الله تعالى عليهما بذلك، وبإنجائه إياهما ومن تبعهما من بطش فرعون وآله بهم، قتلًا واستحياءً واستذلالًا، ومن الغرق، ونصرهم، وجعل الغلبة لهما وقومهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

٢- شدة ما لقي موسى وهارون وبنو إسرائيل من فرعون وقومه.

٣- منة الله تعالى عليهما بإيتائهما الكتاب البين الواضح الجلي، المشتمل على بيان الهدى من الضلال، والحق من الباطل، وهي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ وفي هذا امتداح من الله تعالى للتوراة؛

لأنها أفضل كتبه عز وجل بعد القرآن الكريم.

٤- أنه قد يجتمع أكثر من رسول في وقت واحد، ولأمة واحدة، وبكتاب واحد، وشرع واحد، فموسى وهارون عليهما السلام كانا في وقت واحد، وأرسلا معًا إلى فرعون وقومه، وإلى بني إسرائيل، وكتابهما التوراة، وشرعهما ما جاء فيه، بل إن أكثر أنبياء بني إسرائيل كانت شريعتهم التوراة؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ ولهذا فإن الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام يعتبر مكملًا للتوراة.

٥- منة الله عز وجل على موسى وهارون عليهما السلام، بهدايتهما الصراط المستقيم، الموصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

٦- أن كل إنسان محتاج إلى هداية الله له إلى الصراط المستقيم، وكل من هداه الله الصراط المستقيم فلله عليه نعمة ومنة، يجب أن يذكرها ويشكرها.

٧- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام عليهما فيمن بعدهما؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

٨- أن الله عز وجل جازاهما بما ذكر؛ لأنهما من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين، جمعًا بين كمال الإحسان، والعبودية والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

٩- وعد الله تعالى بمثل هذا الجزاء لجميع المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

١٠- إثبات عبودية موسى وهارون وإلياس عليهم السلام، وغيرهم من الرسل والمؤمنين، لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

١١- فضيلة الإحسان والعبودية لله تعالى والإيمان، والترغيب بالاتصاف بذلك.

١٢- أن العبودية لله تعالى أشرف ما يوصف به البشر؛ ولهذا وصف الله بها رسله وأنبياءه.

١٣- إثبات رسالة «إلياس» عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٤- دعوته عليه السلام قومه إلى تقوى الله عز وجل، وإنكاره ما هم عليه من عبادة الأصنام، وترك عبادة ربهم وخالقهم، وتوبيخهم وتسفيههم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

١٥- وجوب تقوى الله تعالى على العباد، بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

١٦- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

فتفرده بالخلق والربوبية، يوجب إفراده بالعبادة والألوهية.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

١٨- تكذيبهم لإلياس عليه السلام، وتوعدهم بإحضارهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى؛ لمناقشة الحساب والعذاب، وإدخالهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

١٩- سلامة عباد الله الذين أخلصوا العبادة لله، وأخلصهم واختصهم برحمته من العذاب، وفوزهم بالثواب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

٢٠- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام على إلياس عليه السلام فيمن جاؤوا بعده؛ لأنه من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل.

﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾، أي: حين نجيناه وأهله أجمعين. قيل: هو وابنتاه.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«عجوزًا»: منصوب على الاستثناء المتصل، وهي زوجته، كانت كافرة على دين قومها، وكانت تظاهرهم على لوط. قيل: اسمها: «وارهة».

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الباقين في العذاب، الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، أي: أهلكنا بقية قومه ودمرناهم تدميرًا عظيمًا، بأن قلبنا عليهم ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها، وأتبعناهم حجارة من سجيل منضود؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢- ٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

فصارت محلتهم بحيرة منتنة قبيحة المنظر، يمر عليها المسافرون في طريقهم بين الحجاز والشام، ولهذا قال:

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنكم لتمرون على ديارهم وآثارهم، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال، أي: حال الصباح في النهار، ﴿وَبِٱلَّيْلِ ۗ﴾.

أي: وتمرون عليهم بالليل، أي: لتمرون عليهم بالنهار والليل في سفركم، ذهابًا

وإيابًا؛ لكون ديارهم على الطريق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا تتفكرون وتنتفعون بعقولكم، فتعتبروا بحال هؤلاء، وكيف دمر الله عليهم بسبب كفرهم وإجرامهم، وللكافرين أمثالها؟

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ هو يونس بن متى؛ كما قال ﷺ: «**ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**». ونسبه إلى أبيه(١).

أرسل إلى قومه، وهو من رسل بني إسرائيل.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾، أي: حين خرج من بين ظهراني قومه مستعجلًا مسرعًا مغاضبًا لهم، ولم يصبر حين استعصوا على الاستجابة له لأول وهلة، ولم ينزل بهم العذاب الذي توعدهم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿إِلَى الْفُلْكِ﴾، أي: السفينة، ﴿الْمَشْحُونِ﴾: المملوء من الركاب.

﴿فَسَاهَمَ﴾، أي: اقترع مع ركاب السفينة: أيهم ينزل منها؟ لتخفيف حمولتها حين أخذت الأمواج تلعب بها، وأشرفوا على الغرق كلهم.

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، أي: من المغلوبين الذين وقعت عليهم القرعة؛ ليلقوا أنفسهم بالبحر، حتى لا تغرق السفينة وكل من فيها، ارتكابًا لأخف الضررين. وقد قيل: إن أصحاب السفينة أعادوا الاقتراع ثلاث مرات؛ ضنًّا بيونس أن يلقى في البحر،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ ٣٣٩٦، ٣٣٩٥، ومسلم في الفضائل، ذكر يونس عليه السلام ٣٣٧٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

لكنها كانت تقع عليه.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾، أي: فابتلعه الحوت، وهو سمك عظيم، ولم يمضغه، فلم يهشم له لحمًا، ولم يكسر لهم عظمًا.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو يعني يونس عليه السلام، ﴿مُلِيمٌ﴾، أي: آتٍ بما يلام عليه، والذي يلام عليه هو خروجه من قومه مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له، وكان من الواجب عليه أن يصبر؛ ولهذا قال الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨- ٥٠].

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ «لولا»: شرطية غير عاملة؛ وهي حرف امتناع لوجود، أي: فلولا أنه كان من المصلين المتعبدين الذاكرين الله المسبحين بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لمكث في بطن الحوت إلى يوم البعث، يوم القيامة، لكن بسبب تسبيحه وعبادته نجاه الله تعالى، وقد قال ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما: «**تعرَّفْ إلى الله في الرخاء، يعرِفْك في الشدة**»(١).

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ﴾، أي: طرحناه من بطن الحوت وألقيناه، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ «العراء»: وجه الأرض، أي: بالأرض الفضاء، الخالية من الشجر والبناء.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ الجملة حالية، أي: وهو مريض ضعيف البدن، بسبب حبسه في بطن الحوت.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾، أي: وأنبتنا عليه في هذه الأرض العراء- لطفًا به ورحمة- ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ وهي شجرة القرع سريعة نمو الورق باردة؛ لتظله؛ لشدة حاجته إلى الظل؛

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧.

ولهذا قال: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ ولم يقل: «وأنبتنا له».

قيل: إنه لا يقع عليها الذباب.

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ ﴾، أي: أرسله الله تعالى، وأتم رسالته إلى مئة ألف، ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ «أو» بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، أي: بل يزيدون. ويحتمل: أن تكون «أو» للتحقيق، أي: لتحقيق العدد السابق، وهو مئة ألف، أي: إن لم يزيدوا على مئة ألف فلا ينقصون عنها، فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فَـَٔامَنُواْ ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فبادر هؤلاء المئة ألف كلهم جميعًا إلى الإيمان، والتصديق به وبما دعاهم إليه.

﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ أي: فكشفنا عنهم العذاب، وصرفناه عنهم بعد ما انعقدت أسبابه، وأبقيناهم متمتعين إلى بلوغ آجالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [يونس:٩٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.

٢- امتنان الله على لوط عليه السلام، بإنجائه وأهله من العذاب والهلاك، إلا زوجته، فكانت في الهالكين؛ لكفرها ومظاهرتها قومها على لوط؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾.

٣- تدمير وإهلاك الآخرين من قومه؛ لكفرهم وإجرامهم، وشناعة فعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾.

٤- وجوب الحذر من ارتكاب فاحشتهم؛ لأنها سبب للتدمير حسيًّا، وهو الهلاك، ومعنويًّا، بتدمير الرجولة، بانقلاب الذكور إناثًا.

٥- سنة الله تعالى الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول بإنجاء رسله والمؤمنين، وإهلاك المكذبين.

٦- أن آثار ما أوقعه الله بقوم لوط وبديارهم ظاهرة للعيان، على طريق المسافرين بين الحجاز والشام، يمرون عليها، نهارًا وليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾.

٧- تقريع وتوبيخ المشركين المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم، والإنكار عليهم، كيف لا يتفكرون بعقولهم بما حل بقوم لوط بسبب كفرهم وإجرامهم، فيحذرون أن يحل بهم مثله؟! لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٨- أن من لم ينتفع بعقله بمعرفة طريق النجاة من العذاب فليس بعاقل.

٩- إثبات رسالة يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

١٠- استعجال يونس عليه السلام، وعدم صبره، وخروجه من قومه مغاضبًا لهم، قبل أن يأذن الله له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

١١- أن الأنبياء والرسل عليهم السلام ليسوا معصومين من الصغائر، التي لا تتعلق بالتبليغ، ولا تخل بالشرف، لكنهم لا يستمرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾، أي: هرب قبل إذن الله له.

١٢- ابتلاء الله تعالى، وامتحانه ليونس لما أبق وخرج من عند قومه بركوب الفلك المشحون، وما جرى له من المساهمة والاقتراع بينه وبين أهل الفلك، وكونه من المدحضين، ثم نزوله في البحر، والتقام الحوت له؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾.

١٣- مشروعية القرعة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا اقترع بين نسائه، فأيتهن وقعت عليها القرعة خرج بها.

١٤- ارتكاب أخف الضررين؛ لدفع أعلاهما؛ لأن غرق البعض أخف وأهون من غرق الجميع.

١٥- آية من آيات الله الدالة على عظمته وتمام قدرته أن جعل هذا الحوت يلتقم يونس، أي: يبتلعه، دون أن يمزق له لحمًا أو يكسر له عظمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾.

١٦- أن يونس عليه السلام حين التقمه الحوت قد أتى بما يلام عليه، وهو غضبه على قومه، وعدم صبره، واستعجاله في الخروج من بينهم قبل إذن الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

وفي هذا حب الإعذار من الله. وفي الحديث: «لا أحد أحب إليه العذر من الله»(١).

١٧- فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على يونس وعلى غيره من الأنبياء عليهم السلام؛ لما كان عليه من الصبر على قومه- مع شدة أذاهم له، فقد لبث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو بالتي هي أحسن، وبالصفح ويقول: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»(٢).

١٨- أن التسبيح والصلاة وعبادة الله تعالى، والطاعة السابقة من أسباب النجاة من الغم وكشف الكروب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

١٩- إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢٠- قدرة الله تعالى على جعل الحوت قبرًا ليونس؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢١- إلقاء الحوت له، ونبذه في الأرض الفضاء، وهو سقيم، بتقدير الله تعالى، ولطفه به، بإنباته عليه شجرة من يقطين تظله؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾.

٢٢- لا ينبغي اليأس من الشفاء مهما بلغ المرض بالإنسان؛ لتمام قدرة الله تعالى ولطفه.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩)- من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

٢٣- إرساله بعد هذا إلى مئة ألف أو يزيدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

٢٤- إيمانهم كلهم جميعًا، وتصديقهم به وبما دعاهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾.

٢٥- كشف العذاب عنهم بعد أن رأوه، وصرفه لما آمنوا، وتمتيعهم إلى بلوغ آجالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٦- أن الإيمان سبب لطول العمر، كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٤، ٣].

٢٧- أن من نجى من الأسباب المهلكة فلن ينجو من الموت:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قصص عدد من الرسل وأممهم، وما آل إليه أمرهم؛ من إنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين؛ تسلية للنبي ﷺ، وتحذيرًا للمكذبين والمشركين من قومه، ثم انتقل إلى الإنكار عليهم.

قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فاسأل يا محمد هؤلاء المشركين. وهذا من باب التهكم بهم؛ كأنهم نصبوا أنفسهم يحكمون بما يشاؤون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٩].

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: كيف يجعلون لله البنات اللاتي يكرهون، ويختارون لهم البنين؟ كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل:٥٧]، وذلك بزعمهم أن الملائكة بنات الله، أي: أن هذا حكم باطل جائر؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم:٢١- ٢٢].

ولهذا قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أخلقنا الملائكة إناثًا؟

﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ الجملة حالية، أي: وهم حاضرون خلقهم، أي: ليس الأمر

كذلك؛ فالملائكة ليسوا إناثًا ولا ذكورًا؛ لأنهم لا يتوالدون، ولا يأكلون، ولا يشربون، فكيف حكموا بأنهم إناث وهم ما شاهدوا خلقهم وما حضروه؟

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩]، أي: ويُسألون عن ذلك يوم القيامة.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ «ألا»: حرف استفتاح يفيد التنبيه والتوكيد، أي: ألا إنهم من كذبهم الواضح، وافترائهم الظاهر، و«مِن»: سببية، أي: بسبب إفكهم.

وقدَّمَ السبب- وهو قوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾- على المسبب- وهو قوله: ﴿لَيَقُولُونَ ﴾- تأكيدًا لبطلان قولهم وكذبهم.

واللام في قوله: ﴿لَيَقُولُونَ ﴾: للتوكيد.

﴿وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾، أي: ينسبون الولد إلى الله، تعالى الله عن ذلك، فيقولون: الملائكة بنات الله.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ الجملة معطوفة على التي قبلها، ومؤكدة بـ«إنَّ» واللام، فأكد عز وجل بطلان قولهم وكذبه قبل ذكره وبعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٠- ١٠١].

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ قرأ أبو جعفر: «اصْطَفَى»؛ بوصل الهمزة، وكسرها في الابتداء، وقرأ الباقون بقطع الهمزة وفتحها مطلقًا: ﴿ أَصْطَفَى﴾ والاستفهام للنفي، أي: أيختار الله عز وجل- على سبيل الفرض والتقدير الممتنع أن يتخذ ولدًا- البنات على البنين، أي: لا يمكن أن يختار البنات دون البنين؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ «ما» و«كيف»: كل منهما اسم استفهام، والاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: كيف تقولون هذا القول العظيم، وتحكمون هذا الحكم الفاسد الجائر؟! كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم: ٢١؛٢٢].

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتخفيف الذال:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وقرأ الباقون بتشديدها: «تَذَّكَّرُونَ».

والاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: أفلا تتعظون، وتعتبرون، وتميزون، فتعرفوا بطلان هذا القول، وأنه عز وجل منزه عن الولد بدليل العقل والنقل؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ «أم» كالتي قبلها، أي: بل ألكم سلطان مبين؟ أي: برهان بيِّن وحجة ظاهرة، من نقل أو عقل، على قولكم هذا يبين أنه حق؛ ولهذا قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والأمر هنا للتحدي والتعجيز، أي: فأتوا بكتابكم المنزل من عند الله، الذي يدل على ما قلتم، إن كنتم صادقين، أي: إن كنتم صادقين في قولكم ذلك، أي: إنكم لا يمكن أن تأتوا بكتاب يدل على أن الله جعل الملائكة بناتًا له؛ كما تزعمون، فقولكم باطل لا مستند له من نقل ولا عقل، بل لا يُجوِّزه العقل.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾، أي: بين الله عز وجل، ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾، أي: صلة؛ حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم سروات الجن.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد علمت الجن.

﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إنهم لمحضرون بين يدي الله تعالى يوم القيامة؛ ليجازيهم على أعمالهم، فلو كان بينهم وبين الله نسب- كما زعم المشركون- لكان لهم حال آخر.

وقيل: المعنى: ولقد علمت الجن أن هؤلاء المشركين لمحضرون للحساب؛ لكذبهم وزعمهم الباطل أن بينه عز وجل وبين الجنة نسبًا.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: تنزيهًا لله تعالى عن وصفهم، أو عن الذي يصفونه به من الصاحبة والولد، والشريك، ومماثلة المخلوقين، وغير ذلك مما لا يليق به سبحانه.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء بمعنى: «لكن»، و«عباد» منصوب على الاستثناء المنقطع.

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وأخلصهم واختصهم برحمته.

فنزه عز وجل نفسه عما يصفه به كل الخلق إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل وأتباعهم؛ لأنهم لا يصفونه إلا بما يليق به من صفات الكمال والجلال.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

لما أبطل نسبتهم الولد لله، وجعْلَ الإناث له دون الذكور، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، وجعلهم بينه وبين الجن نسبًا، انتقل إلى إبطال ما هم عليه من الشرك، فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ «ما»: موصولة، أي: إنكم أيها المشركون، والذي تعبدونه من دون الله من الأصنام.

وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور؛ للتنبيه، وللتحدي للمشركين وإهانتهم وإذلالهم.

﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ «ما»: نافية، والضمير في «عليه» يعود إلى «ما» الموصولة في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾.

أي: إنكم أيها المشركون، ومعبوداتكم من دون الله، ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: ما أنتم على الذي تعبدون ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾، أي: بمضلين أحدًا، أي: لا تقدرون على أن تفتنوا، أي: تضلوا أحدًا، وتصدوه عن دين الله، فيعبد أصنامكم.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، و«مَن»: موصولة، أي: إلا الذي سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم، أي: يدخلها ويقاسي حرها، فهو الذي يفتتن بفتنتكم إياه؛ لنفوذ قضاء الله تعالى فيه؛ كما قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٩]، أي: يُصرَف عن الحق ويضل عنه من قُضي عليه بالخذلان، واتباع الباطل.

﴿وَمَا مِنَّآ﴾ هذا من كلامه عز وجل على لسان الملائكة؛ للرد على من زعم أنهم بنات الله، أي: وما منا نحن الملائكة، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، أي: له مكان وزمان قيام وعبادة وعمل وتدبير معلوم، أمره الله به؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧].

فلا يخرجون عن طاعة الله، ولا يتجاوزون ما أمرهم الله تعالى به، وليس لهم من الأمر شيء، فكيف يُعبدون مع الله عز وجل؟

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ اللام في الموضعين: للتوكيد، أي: وإنا لنحن الصافون صفوفًا في الصلاة والعبادة، والعمل بين يدي الله تعالى، وفي طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ [الصافات: ١].

وقال ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**»، قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمون الصفوف الأُوَل، ويتراصون**»(١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ المقدسون لله، المنزهون له عن الشريك، وعن كل ما لا يليق به، فكيف نُجعل شركاء معه؟! كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩].

عن عبدالرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه- وكان ممن بايع يوم الفتح- أن رسول الله ﷺ قال يومًا لجلسائه: «**أطت السماء وحق لها أن تئط؛ ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك راكع أو ساجد. ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾**»(٢).

ورُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما من السماء من موضع شبر إلا عليه جبهة ملك، أو قدماه. ثم قرأ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾**»(٣).

عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلنا بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدًا، وتربتها طهورًا**»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٨ نقلًا عن ابن عساكر، وأخرجه الترمذي في الزهد بمعناه دون قوله: «ثم قرأ...» إلى آخره ٢٣١٢؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٨.

(٤) سبق تخريجه.

﴿وَإِن كَانُوا﴾ «إنْ»: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن محذوف، أي: وإن كان المشركون المكذبون للنبي ﷺ.

﴿لَيَقُولُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: ليقولون قبل بعثة محمد ﷺ فيهم، ونزول القرآن الكريم عليه.

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ «لو»: شرطية غير عاملة، أي: لو أن عندنا كتابًا من كتب الأنبياء السابقين، وتذكيرًا مما ذُكِّر به الأولون.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لكنا نحن عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا له العبادة والعمل، دون غيرنا.

﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾، أي: فكفروا بالقرآن لما جاءهم، وكذبوا الرسول ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم. وهذا تهديد ووعيد لهم، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥- ١٥٧].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين في كذبهم وجورهم بنسبتهم الولد لله تعالى، وجعل البنات له ولهم البنون؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾، أي: سلهم منكرًا عليهم، ومبطلًا زعمهم: كيف تجعلون لله البنات ولكم البنون؟!

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له بقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾.

٣- جهل مشركي العرب في كراهتهم للبنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨].

٤- الإنكار عليهم؛ كيف حكموا على الملائكة بأنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم، ولا حضروه؟! لقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، أي: أنهم لم يشاهدوا خلقهم، فكيف حكموا بأنهم إناث، والبينة على المدعي؟!

٥- إثبات وجود الملائكة، وهم خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله من نور.

٦- التنبيه على شدة إفكهم وكذبهم، في نسبتهم الولد لله، تعالى الله عن قولهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾.

٧- تأكيد كذبهم، وإبطال قولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فأكد عز وجل كذب قولهم قبل ذكره وبعده؛ تنزيهًا لنفسه عن الولد.

٨- الإنكار عليهم؛ كيف يزعمون اختيار الله لنفسه البنات وإيثارهم بالبنين؟ وهل يعقل هذا أو يليق؟! لقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

٩- التسفيه لهم؛ كيف يحكمون هذا الحكم الجائر؛ بنسبة الولد لله، ومن جعل البنات له ولهم البنون؟ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١- ٢٢].

١٠- الإنكار عليهم، وتوبيخهم؛ لعدم تذكرهم؛ إذ لو تذكروا واعتبروا وميزوا لم يقولوا هذا القول؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

١١- نَفْي أن يكون لهم برهان بيِّن، وحجة ظاهرة، من نقل أو عقل، على قولهم هذا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾، أي: ليس لكم سلطان مبين على ما تقولون.

١٢- تحديهم وتعجيزهم أن يأتوا بكتاب منزل من الله يدل على صدقهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

١٣- كذبهم وجرأتهم في نسبة الصاحبة لله، وجعلهم بينه وبين الجن نسبًا، تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.

١٤- إثبات وجود الجن، وهم خلق من خلق الله، خلقوا من نار؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥].

١٥- علم الجن؛ أنهم لمحضرون بين يدي الله تعالى للحساب، وأنهم خلق من خلق الله ضعاف، سيجازون كغيرهم على أعمالهم، ولا نسب ولا حسب بينهم وبين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

كما أنهم يتبرؤون من دعوى هؤلاء المشركين، الذين جعلوا بين الله وبين الجِنَّة نسبًا، ويعلمون أن هؤلاء سيحضرون ويحاسبون على قولهم هذا.

١٦- أن الجن كالإنس مبعوثون ومحضرون يوم القيامة، ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم.

١٧- إثبات البعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

١٨- تنزيه الله تعالى وتقديسه عما يصفه به المشركون والمبطلون؛ من الشريك، والصاحبة، والولد، وكل ما لا يليق به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

١٩- امتداح الله عز وجل لعباده المخلصين، وأنهم لا يصفونه إلا بما يليق به من صفات الكمال والجلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

٢٠- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٢١- تحدي المشركين، ونفي أن يقدروا هم ومعبوداتهم من دون الله على فتنة أحد وإضلاله، إلا من سبق في علم الله أنه من أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

٢٢- إثبات القدر، وأن الله قدر في الأزل مقادير كل شيء من الهداية والضلال، وغير ذلك، وأن من كتب الله له الهداية فلا سبيل إلى إضلاله، وأن من كتب عليه الضلال فهو ضال لا محالة، لكن على المرء أن يحذر من فتنة أهل الشر والفساد؛ لئلا يكون ممن هو صالِ الجحيم.

٢٣- إثبات وجود النار، وأنها معدة للكافرين.

٢٤- أن الملائكة عليهم السلام خلق من خلق الله مدبرون، لكل منهم مقامه وعبادته وعمله، وما وكل إليه، وليسوا بنات الله؛ كما يزعمه المشركون؛ لقولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾.

٢٥- تمدح الملائكة بما لكل منهم من مقام معلوم، وبما هم عليه من الصفات العظيمة، في تعظيمهم لله تعالى، ووقوفهم أمامه صفوفًا في الصلاة والعبادة والعمل، وتسبيحهم وتعظيمهم له على الدوام؛ لقولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

٢٦- أهمية النظام والانتظام؛ لأن ذلك أساس النجاح.

٢٧- دعوى المشركين كذبًا ومكابرة؛ أنه لو كان عندهم كتاب وتذكير مما ذُكر به الأولون، لكانوا أخلص الناس عبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾.

٢٨- كفرهم بالقرآن لما جاءهم، وتكذيبهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

٢٩- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١)﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: ولقد سبقت وتقدمت كلمتنا الكونية والقدرية في الأزل في الكتاب الأول «اللوح المحفوظ».

﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لرسلنا وأتباعهم المؤمنين. ووصف الرسل بالعبودية له عز وجل؛ لأنها أفضل وصف يتصف به البشر.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)﴾ الجملة جواب القسم المقدر، واللام في الموضعين، وكذا ضمير الفصل «هم» للتوكيد والحصر، أي: إنهم لهم المنصورون من ربهم، في الدنيا والآخرة، دون غيرهم.

﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾، أي: وإن جندنا، أي: جند الله عز وجل، وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون، وما يؤيدهم الله به من الملائكة والأسباب الكونية من الرياح والمطر وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤].

﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، أي: الغالبون لغيرهم من الكفار، إما غَلَبًا حسيًّا ومعنويًّا، وإما غَلَبًا معنويًّا، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فهم الغالبون مطلقًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن هؤلاء المشركين المعاندين، واصبر على أذاهم.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى أجل ووقت حلول عقاب الله ونكاله العاجل بهم، أو إلى حين الأمر بقتالهم.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، أي: أنظرهم، وارتقب ما يحل بهم من العقاب؛ لمخالفتهم لك وتكذيبك، وانظر إليهم إذا نزل بهم العذاب.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، أي: فسوف يبصرون ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وينتظرونه. وهذا تهديد ووعيد لهم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم في استعجالهم العذاب؛ تكذيبًا به، وإنكارًا له بكفرهم وعنادهم، وتماديهم في طغيانهم، وبقولهم وطلبهم تعجيل العذاب؛ كما في قولهم للنبي ﷺ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾، أي: فإذا نزل عذابنا بفنائهم ومقامهم وأرضهم؛ لإهلاكهم ودمارهم، أي: أنه نازل بهم لا محالة؛ ولهذا قال:

﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾، أي: فبئس ذاك الصباح صباحهم؛ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال!

ولم يقل: فساء صباحهم، بل قال: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ بالإظهار بدل الإضمار؛ لتبكيتهم، وتذكيرهم بالإعذار منهم وإنذارهم، وقيام الحجة عليهم؛ وليشملهم هذا الوعيد والتهديد وغيرهم من المكذبين.

عن أنس رضي الله عنه، قال: صبَّحَ رسول الله صلى اله عليه وسلم خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم، ورأوا الجيش، رجعوا يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذَرين**»(١).

عن أبي طلحة رضي الله عنه، قال: لما صبَّحَ نبي الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيَهم،

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، ما يحقن بالأذان من الدماء ٦١٠، ومسلم في النكاح ١٣٦٥.

وغدوا إلى حروثهم وأراضيهم، فلما رأوا نبي الله ﷺ معه الجيش، ركضوا مدبرين، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذَرين**»(١).

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كرر هذا تأكيدًا لتهديدهم بوقوع العذاب، وتسلية للرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾، أي: تنزيهًا لربك يا محمد، وتعظيمًا وتقديسًا منه عز وجل لنفسه الكريمة، ودعوة إلى تنزيهه وتقديسه عن النقائص والعيوب، وعما يقوله الظالمون المكذبون، وعن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته.

﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾، أي: ذي العزة، أي: القوة والغلبة والقهر والامتناع.

و«رب» في الأصل بمعنى: الخالق المالك المدبر، ولكنها هنا بمعنى: «صاحب»، أي: صاحب العزة؛ لأن العزة صفة من صفات الله تعالى، وصفاته عز وجل غير مخلوقة.

وأضاف هنا اسم «الرب» إلى صفة «العزة» دون غيرها من الصفات؛ لاقتضاء المقام ذلك؛ لأن السياق في ذكر النصر والغلبة للرسول ﷺ، والذل والخذلان لأعدائه.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن وصف المفترين والمكذبين له، أو عن الذي يصفونه به مما لا يليق به؛ من الشريك، والصاحبة، والولد، وغير ذلك.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ نكر «سلام» للتعظيم، أي: سلام من الله تعالى على جميع رسله عمومًا في الدنيا والآخرة.

وسلام من عباده المؤمنين عليهم؛ كما نقول في التشهد: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨، ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وهذا عام للرسل وغيرهم.

وذلك لسلامة ما وصفوا به ربهم من النقص، وصحته، ووصْفِهم له بصفات الكمال والجلال، وسلامة ما دعوا إليه العباد؛ من توحيد الله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: له الحمد وحده على نصره رسله وأولياءه، وخذلان أعدائه، وعلى كل شيء، وعلى كل حال في الأولى والآخرة، وفي السموات والأرض، وعلى الدوام؛ لأنه المنزه عن النقائص والعيوب، الموصوف بصفات الكمال والجلال.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم، لا رب لهم غيره، ولا معبود لهم سواه.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى الأزلي السابق لرسله وأتباعهم بالنصر لهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

٢- البشارة للنبي ﷺ بنصر الله تعالى له، وكون الغلبة له وللمؤمنين، وتهديد ووعيد المكذبين له.

٣- إثبات القدر، وكتابة كل شيء في اللوح المحفوظ من نصر وغلبة، وغير ذلك.

٤- أن كلمات الله تنقسم إلى كلمات كونية قدرية، وكلمات شرعية.

٥- إثبات عبودية الرسل عليهم السلام، وأتباعهم المؤمنين لله تعالى، عبودية خاصة.

٦- تسلية الرسول ﷺ، وتهديد المكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، أي: أن عقوبة من الله تنتظرهم عاجلًا أو آجلًا.

٧- تحقيق رؤيته ﷺ عذابهم عن قريب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾.

٨- تهديدهم ووعيدهم بقرب عذابهم وتحققه؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

٩- الإنكار عليهم في استعجالهم عذاب الله؛ تكذيبًا به، وإنكارًا له، بقولهم وفعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

١٠- تخويفهم نزول العذاب بساحتهم، وسوء صباحهم يوم نزوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

١١- تبكيتهم لما لم يستجيبوا للرسل والنذر، وأنهم لم يعذبوا إلا بعد قيام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿الْمُنذَرِينَ﴾.

١٢- تأكيد التسلية له ﷺ، وتهديد المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

١٣- تنزيه الله عز وجل لنفسه عما يصفه به المشركون والمكذبون؛ مما لا يليق به، وأمره عباده بتنزيهه عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ وتشريفه وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

١٥- إثبات أن الله عز وجل هو صاحب العزة، ذو القوة والغلبة، والقهر والامتناع، يعز من يشاء بفضله، ويذل من يشاء بعدله.

١٦- سلامه عز وجل على جميع رسله، وسلام عباده المؤمنين عليهم؛ لسلامة ما وصفوا به ربهم من النقص، ووصفهم له بصفات الكمال، وسلامة ما دعوا إليه العباد من توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

١٧- اختصاصه عز وجل بكمال الحمد، وصفات الكمال على الدوام في كل زمان ومكان، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

١٨- إثبات ربوبيته عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ صٓ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة ص» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿صٓ﴾ [الآية: ١].

و«ص» من الحروف المقطعة أوائل بعض السور، وهي كغيرها من حروف الهجاء وتسمى أيضًا: «سورة داوود».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة ص» بقوله تعالى في مطلعها ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن، وتعظيمًا له بالقسم به على صدق النبي ﷺ.

٢- شدة عناد الكفار وشقاقهم وتعجبهم من أن يأتيهم منذر منهم، ومن أمره ﷺ لهم بعبادة الله وحده، ووصية بعضهم لبعض، بالصبر على عبادة الأصنام. واتهامهم له ﷺ بالسحر والكذب، واختلاق ما جاء به، وتشكيكهم بالذكر وكيف يُنزل عليه من بينهم، وتوعدهم بالعذاب، وأنه لا مناص لهم عنه ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [ص: ٨- ١١].

٣- التذكير بتكذيب الأمم قبلهم رسلهم؛ قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب وعقاب الله لهم، وتهديد المشركين أنهم ما ينتظرون إلا أن يحل بهم عقاب الله كالذين من قبلهم: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥﴾.

٤- استعجال الكفار بالعذاب تكذيبًا به، واستبعادًا له، وأمره عز وجل له ﷺ بالصبر على قولهم ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٧﴾.

٥- التذكير بما أعطاه الله عز وجل لعبده داود عليه السلام من تسخير الجبال

والطير، وتقوية ملكه وإيتائه الحكمة وفصل الخطاب، والفصل بين الخصوم، وجعله خليفة في الأرض. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ إلى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

٦- بيان أنه عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلًا، وإنما خلقهما لحكمة عظيمة ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

٧- تعظيم القرآن والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ، وبيان الحكمة من ذلك ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

٨- الامتنان على داود عليه السلام بهبته عز وجل له ابنه سليمان، وذكر ما من الله به على سليمان من العبودية لله تعالى والأوب إليه، والخير والملك العظيم الذي لم يعط لأحد مثله، وتسخير الريح والشياطين له، وما له عند الله من الزلفى وحسن المآب. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

٩- ذكر أيوب عليه السلام وابتهاله إلى الله عز وجل لكشف ضره، واستجابة الله تعالى له، وثناؤه عليه بصبره ورجوعه إلى ربه ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

١٠- ذكر عباده عز وجل ورسله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وليسع وذا الكفل والثناء عليهم بالذكر الحسن، وبأعظم ما أعد لهم عنده من حسن المآب ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

١١- ذكر ما أعد للطاغين من شر المآب، وأصناف العذاب، وسوء الحساب، والخصام

في النار: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

١٢- بيانه أنه ﷺ إنما هو منذر، وأنه لا إله إلا الله الواحد القهار ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

١٣- ذكر خلق آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له بعد تسويته ونفخه عز وجل به روحه، وسجود الملائكة له كلهم أجمعون، وامتناع إبليس من السجود له استكبارًا وكفرًا وإخراجه من الجنة ولعنه إلى يوم الدين، وإنظاره إلى يوم يبعثون ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ إلى قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

١٤- أمْر الله عز وجل له ﷺ ببيان أنه ﷺ لم يسأل على ما جاء به من ربه أجرًا، ولم يكن من المتكلفين في ذلك، وأنه إنما هو ذكر للعالمين وليعلمن نبأه بعد حين. ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «مرض أبو طالب، فأتته قريش، وأتاه رسول الله ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعد فيه، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا. وقال: ما شأن قومك يشكونك؟ قال: «**يا عم، أريدهم على كلمة واحدة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي العجم إليهم الجزية**». قال: ما هي؟ قال: «**لا إله إلا الله**». فقاموا، فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! قال: ونزل: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾»(١).

وفي رواية: «إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾»(٢).

قوله: ﴿صٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة، وبيان الحكمة فيها، في مطلع سورة البقرة.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ الواو: للقسم، أي: وأُقسم بالقرآن. وقد أَقسم عز وجل بالقرآن؛ تعظيمًا له، وتنويهًا بشأنه، وتشريفًا له، وإثباتًا لإعجازه.

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ صفة للقرآن، و«ذي» بمعنى: «صاحب»، أي: ذي التذكير للعباد

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٦٢، والنسائي في «الكبرى» ١١٤٣٦.

(٢) أخرجها الترمذي في تفسير سورة ص ٣٢٣٢، وقال: «حديث حسن».

والموعظة، وبيان ما فيه النفع لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: تذكيركم.

وأيضًا ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، أي: ذي القدر العظيم والشرف والمكانة، المستحق للمدح والثناء، أفضل كتب الله تعالى، الحاكم والمهيمن على جميع الكتب قبله.

وأيضًا ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، أي: الذي فيه الشرف للنبي ﷺ وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله: ﴿صٓ﴾، تقديره: إن القرآن لحق، ونحو ذلك.

قال ابن القيم: «فإن المقسَم به؛ من تعظيم القرآن، ووصفه بأنه ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر، ما يدل على المقسَم عليه، وكونه حقًّا من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم: إن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق. وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك».

وبعد أن استبعد ابن القيم كل ما قيل: إنه جواب القسم من جمل الآيات وألفاظها، قال: «وأقرب ما قيل في الجواب لفظًا- وإن كان بعيدًا معنًى- عن قتادة وغيره؛ أنه في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢]؛ كما قال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ١- ٢]، وذلك على تقدير بعضهم «بل» بمعنى: «إنَّ»، أي: إن الذين كفروا في عزة وشقاق»(١).

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي.

﴿فِى عِزَّةٍ﴾، أي: في تكبر وحمية، وأنفة جاهلية؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

﴿وَشِقَاقٍ﴾، أي: ومشاقة ومخالفة لله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥.

وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤].

والمعنى: إن في هذا القرآن ذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، لكن الذين كفروا لم ينتفعوا بهذا القرآن، ولم يتذكروا به؛ لما في قرارة نفوسهم من الكبر وحمية الجاهلية، والشقاق والمخالفة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ «كم»: خبرية للتكثير، و«قرن» بمعنى: أمة، أي: كثيرًا من الأمم السابقة قبل كفار مكة أهلكناهم، بسبب تكذيبهم للرسل، وما جاؤوا به من الحق. وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين أن يحل بهم من الهلاك ما حل بمن قبلهم.

﴿فَنَادَوا۟﴾، أي: استغاثوا وتضرعوا، وأظهروا التوبة والإنابة لما رأوا العذاب، والضمير يعود على القرون والأمم المهلكة.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ الواو: حالية، والحال أنه لات حين مناص، و«لات»: حرف نفي، بمعنى: «لا» العاملة عمل «ليس»، والتاء فيها زائدة؛ كما تزاد في «ثم»، و«رب»، فيقال: «ثمت» و«ربت»، واسمها محذوف تقديره: «الحين»، و﴿حِينَ﴾ خبرها منصوب بالفتحة، و«المناص»: النجاء والفوت.

والمعنى: وليس الوقت وقت فرار وخلاص من العذاب، ولا وقت توبة وإجابة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٢- ١٣]، أي: إذا هم منها يهربون.

وقالوا حين رأوا الدخان: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المؤمنون: ٦٤- ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير: أي: وعجبوا من مجيء المنذر منهم، وأنكروه، وأحالوه.

أي: وعجبوا أن جاءهم رسول مخبر ومخوف لهم عذاب الله ﴿مِّنْهُمْ ۖ﴾، أي: بشر منهم، أي: ليس من الملائكة.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ [ق: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

وما علموا حكمة الله تعالى في كونه لم يكن ملكًا، بل بشرًا منهم جنسًا ونسبًا، ويتكلم بلسانهم؛ ليتمكنوا من الأخذ والتلقي عنه؛ وليعرفوه، ولا تأخذهم النخوة عن اتباعه.

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: وقالوا، بل قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لوصفهم بالكفر، ومن سلك مسلكهم.

﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أشاروا إليه بإشارة القريب «هذا»؛ تحقيرًا له؛ كما في قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

أي: هذا ساحر كذاب، وما جاء به سحر؛ لشدة تأثيره، وكذب لا حقيقة له.

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: كيف صيَّر محمد الآلهة، أي: المعبودين ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾، أي: معبودًا واحدًا؟ وذلك لأنه قال لهم: «**قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**»(١)؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١، من حديث ربيعة بن عباد الديلي رضي الله عنه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ الإشارة بـ«هذا» في المواضع الأربعة إلى جعل الآلهة إلهًا واحدًا، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له.

أي: إنَّ جَعْلَ الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ اللام: للتوكيد في الموضعين، أي: لشيء عجيب يتعجب منه عجبًا عظيمًا كثيرًا؛ لأن «عجاب» أبلغ من «عجيب».

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، أي: سعى ومشى سادتهم وأشرافهم وكبراؤهم ورؤساؤهم- كعقبة بن أبي معيط، وأبي جهل، والعاص بن وائل، والأسود بن يغوث، وغيرهم- محرضين على التمسك بما هم عليه من الشرك، قائلين: ﴿أَنِ امْشُوا﴾، «أن»: تفسيرية، أي: أن استمروا على شرككم ودينكم وطريقتكم.

﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم، واحبسوا أنفسكم عليها، ولا تحيدوا عنها، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد ﷺ من عبادة الله وحده.

كما في قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أي: إن جعل الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾، أي: يراد منه شيء خفي وراء ذلك، أي: يريد منه محمد الترؤس والسيادة عليكم، لا النصح لكم، ولسنا مجيبين له.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، أي: بجعل الآلهة إلهًا واحدًا، وأنه لا إله إلا الله.

﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ الملة: الدين، أي: ما سمعنا بهذا في ملة عيسى ودينه آخر الملل؛ لأن النصارى يقولون: إن الله ثالث ثلاثة. أو ما سمعنا بهذا في ملة أخرى، لا في النصرانية، ولا في دين آبائنا، ولا في غير ذلك. وهذا أعم وأولى.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هذا الذي جاء به محمد من جعل الآلهة إلهًا واحدًا إلا اختلاق، أي: كذب وافتراء، اختلقه محمد وافتراه من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة:٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣].

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ هذا مبني على قولهم: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾،

وعلى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

والاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: كيف يخص بإنزال القرآن عليه من بيننا، أي: لمْ يُنزَلْ عليه ولا يمكن ذلك؛ كما في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىٓ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي في الموضعين، أي: بل هم في شك من إنزال القرآن، وكفر وتكذيب به، وتردد فيما يصفونه به، هل هو سحر أو شعر أو كهانة؟

وفي قوله: ﴿ذِكْرِىٓ﴾ تشريف القرآن وتعظيمه بإضافته إلى ضمير المتكلم؛ وهو الله عز وجل، وتحقيق كونه من عند الله عز وجل.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ «لَمَّا»: حرف نفي، يفيد عدم وقوع المنفي حتى صدور هذا النفي، مع قرب وقوعه.

وحذفت ياء المتكلم من ﴿عَذَابِ﴾؛ تخفيفًا ومراعاة للفاصلة.

أي: بل الذي جرأهم على التكبر والشقاق ووصف القرآن بأنه اختلاق، وإنكارهم أن ينزل عليه ﷺ من بينهم، والشك فيه هو أنهم إلى حين قولهم هذا ما ذاقوا عذاب الله تعالى ونقمته، أي: لما تأخر حلول العذاب بهم، ظنوا الوعيد بذلك كذبًا. وهذا وعيد وتهديد لهم بأنهم سيذوقون العذاب عن قريب، أي: سيصيبهم، ويحسون بآلامه ويتجرعونها.

وهم إذا أصابهم العذاب وذاقوه صدقوا، ولكن لا ينفعهم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وهذا كما قالت ثمود لصالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾، فتوعدهم الله بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٥- ٢٦].

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ «أم» في هذا الموضع والذي بعده هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: بل أعندهم خزائن رحمة ربك؟ أي: ليس عندهم خزائن رحمة ربك، فيعطوا منها من يريدون، ويمنعوها عمن يريدون، ويجعلون الرسالة فيمن يريدون دون من لا يريدون؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ فقال عز وجل ردًّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: ٣١- ٣٢] .

و«خزائن»: جمع «خزانة»، أو «خزينة»، وهي في الأصل: البيت الذي يخزن فيه المال، أو الطعام، أو الصندوق الذي يخزن فيه المال.

وخزائن رحمته عز وجل: كل ما يكون برحمته التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي من الأرزاق المعنوية والحسية؛ ولهذا خص من شاء من عباده بالرسالات، وخص محمدًا ﷺ من بين الرسل بأعظم الرسالات، فأنزل عليه القرآن الكريم أفضل كتبه عز وجل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كما يهدي عز وجل من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بعدله، ويعطي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾، أي: ذو العز التام، الذي لا يرام ولا يضام، ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾، أي: ذو العطاء الجزيل، والهبات العظام من النبوة وغيرها.

أي: ليس عندهم شيء من خزائن رحمته وهباته، ولو كان عندهم شيء من ذلك لبخلوا بأقل القليل منها وأمسكوا؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٣- ٥٥].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

و«العزيز»، و«الوهاب»: من أسماء الله عز وجل، ويؤخذ من اقترانهما هنا أنه عز

وجل بعزته يمنح القوة والنصر والتأييد والعز والتمكين، ونحو ذلك.

وأنه بهباته الجزيلة، وعطاياه الواسعة العظيمة، يعطي ما يشاء لمن يشاء، فيعطي النبوة والرسالة، ويعطي العلم، ويعطي الملك، ويعطي الخير من المال والأهل والولد والصحة والأمن، وسائر النعم، وغير ذلك.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: بل، ألهم ملك السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وما بينهما من المخلوقات العظيمة؛ كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله؟

﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للأمر، أي: إذا كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما، فليصعدوا، ويأخذوا بالأسباب الموصلة إلى السماء، فليأتوا بالوحي، ويخصوا به من شاؤوا، أو يقطعوه عن النبي ﷺ، ويمنعوا فضل الله تعالى عليه، ونصره له؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥].

والمعنى: أنهم ليس لهم من الملك شيء، فلا يستطيعون الصعود إلى السماء، وقطع الوحي عن رسول الله ﷺ، وفي هذا تحدٍّ لهم، وإرغام لأنوفهم.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ نكر «جند» للتحقير والتقليل، وهو خبر لمبتدأ، أي: هم جند؛ يعني: المكذبين للنبي ﷺ، أو مبتدأ خبره: «مهزوم»، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، أو صفة لـ«جند» للتحقير، والهزء بهم، أي: جند قليلون حقيرون.

﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة للمكان، واللام: للبعد، أي: في ذلك المكان البعيد.

﴿مَّهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ «مهزوم»: خبر لـ«جند»، أو صفة، أي: مهزومون مغلوبون؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

وهكذا حصل لهم يوم بدر، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

وفي هذا وعد للنبي ﷺ بالنصر عليهم، وتهديد ووعيد للمكذبين له.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿صٓۚ﴾.

٢- إقسام الله عز وجل بالقرآن تعظيمًا وتشريفًا له، وتنويهًا بشأنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾، أي: إنه لحق من عند الله.

٣- ثناء الله عز وجل على القرآن الكريم، وامتداحه له؛ لما فيه من التذكير للعباد والموعظة، وبيان ما فيه النفع لهم في الدين والدنيا والآخرة، وكونه ذا القدر العظيم والشرف والمكانة، فهو أفضل كتب الله تعالى، وكونه شرفًا للنبي ﷺ وقومه.

٤- عدم انتفاع الكفار بالقرآن وما فيه من الذكر؛ لما في نفوسهم من الكبر والحمية، والأنفة الجاهلية، والمخالفة لله ولرسوله؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

٥- التهديد والوعيد للكفار المستكبرين عن اتباع القرآن، المخالفين لله ورسوله ﷺ؛ أن يحل بهم من الهلاك ما حل بكثير من الأمم قبلهم مما لم يكن لهم منه مناص ولا مهرب، والتسلية للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

٦- أن أكثر الأمم كذبوا رسلهم، وكانت عاقبتهم الهلاك.

٧- أن التضرع، والتوبة والإنابة، وطلب المهرب والمفر حين نزول العذاب لا ينفع ولا يجدي شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

٨- تعجب الكفار المكذبين للنبي ﷺ مما لا يثير عجبًا؛ وهو كونه ﷺ بشرًا مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٩- أن من حكمة الله تعالى، وتمام نعمته، كون الرسل عليهم السلام ليسوا ملائكة، بل من البشر؛ ليتمكنوا من الأخذ عنهم، ومن نعمة الله على العرب كونه ﷺ منهم، ويتكلم بلسانهم.

١٠- أن من أعظم مهمات الرسل: الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى، ومن لازم ذلك: التبليغ، بل والتبشير؛ لقوله تعالى: ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

١١- جرأة كفار مكة على اتهامه ﷺ بالسحر والكذب، ووصفهم إياه بأنه ساحر كذاب؛ تنفيرًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

وهذا ديدن المكذبين للرسل عليهم السلام.

١٢- أن الذي حملهم على التعجب من كون الرسول منهم، ووصفه بالسحر؛ هو كفرهم؛ ولهذا أظهر في مقام الإضمار؛ فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ ليشملهم وصف الكفر هم وغيرهم ممن قال بقولهم.

١٣- إنكارهم وتعجبهم من دعوته ﷺ إلى عبادة الله تعالى وحده، ونبذ الشرك والشركاء؛ لقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

١٤- وجوب عبادة الله تعالى وحده، وأنه هو وحده إله الخلائق كلهم، ومعبودهم، وإلى هذا دعا ﷺ والمرسلون قبله.

١٥- دعوة سادة المشركين وأشرافهم لهم بالثبات على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾.

١٦- أن الصبر قد يكون غير محمود، وهو الصبر على فعل ما يخالف أمر الله؛ من الشرك والمعاصي.

١٧- اتهامهم النبي ﷺ بأنه في دعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى وحده يريد الترؤس والسيادة عليهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

١٨- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ وفي هذا رد على الجبرية الذين ينكرون ذلك.

١٩- أنه لا دليل للمشركين المكذبين له ﷺ، ولهذا قالوا: ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: في النصرانية المحرفة، أو في دين آبائهم الباطل. وكونهم لم يسمعوا به لا يعتبر دليلًا لهم.

٢٠- اتهامهم له ﷺ أنه اختلق الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده من عند نفسه؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٢١- إنكارهم وتعجبهم من تخصيصه ﷺ بإنزال القرآن عليه من بينهم، وحسدهم له؛ لقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

٢٢- خطر السادة والكبراء من دعاة الضلال على عامة الناس ودهمائهم.

٢٣- أن الذي حملهم على التكبر عن اتباع القرآن والشقاق والتعجب من كون الرسول بشرًا منهم، ورميهم إياه بالسحر والكذب، وإنكارهم وتعجبهم من دعوته إياهم إلى التوحيد، واستمرارهم على الشرك، واتهامهم له ﷺ أنه يريد السيادة عليهم، وإنكارهم وتعجبهم أن ينزل القرآن عليه من بينهم؛ هو شكهم في القرآن، وتكذيبهم به، وكونهم بعدُ لم يذوقوا عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

٢٤- تهديدهم بوقوع العذاب بهم عن قريب؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

٢٥- أنهم لا يملكون خزائن رحمة الله عز وجل؛ فيعطوا منها من يريدون، ويمنعوها عمن لا يريدون، ويجعلوا الرسالة فيمن يريدون دون من لا يريدون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، أي: ليس عندهم خزائن رحمته عز وجل، فخزائن رحمته كلها بيده، وقد وسعت كل شيء.

٢٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ والمؤمنين؛ لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٧- إثبات اسم الله عز وجل: «العزيز»، وصفة العزة التامة من جميع الوجوه له سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ﴾.

٢٨- إثبات اسمه عز وجل: «الوهاب»، وأنه سبحانه ذو العطاء الجزيل، والهبات الواسعة العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿الْوَهَّابِ﴾.

٢٩- أنه عز وجل بعزته يمنح القوة والنصر والتمكين، وبهباته الجزيلة يعطي ما يشاء لمن يشاء.

٣٠- اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض وما بينهما دون الخلق كلهم، فليس لهؤلاء المكذبين المعترضين على رسالته ﷺ ولا لغيرهم شيء من الملك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾.

٣١- تحديهم أن يصعدوا في أسباب السماء، فيقطعوا رحمة الله ووحيه عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾.

٣٢- تحقير المكذبين له ﷺ، وتقليل شأنهم، والبشارة له ﷺ، ووعده بنصره عليهم، وتهديدهم بالهزيمة والخذلان؛ لقوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾:

ذكر في الآيات السابقة كثرة القرون الذين أهلكوا إجمالًا، ثم عدد كثيرًا منهم بأسمائهم، مبينًا السبب الموجب لعقابهم، وهو تكذيبهم الرسل.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، أي: قبل كفار مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ وهم: قوم هود عليه السلام.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾، أي: ذو الجنود والقوة والأبنية الشاهقة، والملك العظيم الثابت؛ قال الشاعر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتادِ(١)

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم: قوم صالح عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾، أي: وأصحاب الغيضة والأشجار الكثيرة الملتفة والبساتين، وهم قوم شعيب عليه السلام.

﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾، أي: الطوائف والأمم القوية الكثيرة، الذين طغوا وبغوا، وكذبوا رسل الله، فلم تنفعهم قوتهم ولا كثرتهم لما جاء أمر الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا

---

(١) البيت للأسود بن يعفر النهشلي. انظر: «الأغاني» ١٣/ ٢٢، «نهاية الأرب» ٣/ ٦٦، «لباب الآداب» للثعالبي ص١١٤.

أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢].

وفي هذا تعريض بتهديد وتخويف المكذبين للرسول ﷺ؛ بأنه قد عذب وأهلك من هم أكثر وأشد وأقوى منهم، فما أغنت عنهم كثرتهم وشدتهم وقوتهم لما جاءهم أمر الله.

﴿إِن كُلٌّ﴾ «إن» حرف نفي بمعنى «ما»، أي: ما كل من هؤلاء الأحزاب.

﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب رسوله، ومن كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾، أي: فحق عقابي عليهم، أي: وجب ووقع.

وحذفت ياء المتكلم من «عقاب»؛ للتخفيف ومراعاة الفواصل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: وما ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون للنبي ﷺ.

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: صيحة واحدة تصاح بهم، أي: نفخة واحدة، وهي نفخة الفزع؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الفاء: «فُوَاقٍ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿فَوَاقٍ﴾.

و«الفواق»: ما بين الحلبتين، أو ما بين الرضعتين، فحالب الناقة يعصر الثدي ثم يتوقف، ثم يعود ويعصره، والرضيع يمص الثدي، ثم يطلقه، ثم يعود ويلتقمه.

ومعنى قوله: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾، أي: ليس بعدها إمهال بقدر الفواق، ولا مثنوية لها.

﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال المشركون المكذبون بوعد الله ووعيده- من شدة تكذيبهم واستبعادهم لذلك وعنادهم- داعين على أنفسهم بتعجيل العذاب: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا

ربنا، ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾، أي: عجل لنا قسطنا ونصيبنا وحظنا من العذاب، أي: أوقعه علينا عاجلًا في الدنيا؛ كما قال بعضهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: قبل يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء على الأعمال.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي: اصبر يا محمد على قولهم، أو على الذي يقولونه من التكذيب والاستهزاء والسخرية وغير ذلك؛ فإن النصر والعاقبة لك.

ولهذا ذكّره بعبده ورسوله داود عليه السلام، وسيرته، وما كان عليه من العبادة والصبر؛ للتأسي به.

كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾، أي: واذكر عبدنا ونبينا ورسولنا داود عليه السلام.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ «ذا» نعت لـ«داود» منصوب، وعلامة نصبه الألف، أي: صاحب الأيد، أي: القوى والقوة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أي: بقوة، وقال تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦]، أي: قواكم بنصره.

وقد كان داود عليه السلام صاحب الأيد، أي: القوى في تنفيذ أمر الله، والقوة في العلم والعمل والطاعة والعبادة والدعوة والحرب، والثبات عند اللقاء، قال ﷺ: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى**»(١).

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: إنه كثير الأوب، أي: كثير الرجوع إلى الله عز وجل في جميع أموره، وطلب مرضاته، وتدارك ما فاته.

والجملة تعليل لما قبلها، وفيه إيماء إلى أن القصد الاقتداء به عليه السلام؛ كما قال عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٧، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩٩، والترمذي في الصوم ٧٧٠؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾، أي: ذللنا الجبال مع داود عليه السلام، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ آخر النهار.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي**»(١)؛ يعني: الظهر أو العصر.

﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أول النهار وقت إشراق الشمس، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ «الطير»: منصوب عطفًا على «الجبال».

﴿مَحْشُورَةً﴾: حال، أي: وسخرنا الطير معه حال كونها محشورة، أي: مجموعة، يسبحن بتسبيحه بالعشي والإشراق؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، أي: سبحي معه.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ﴾، أي: كل من الجبال والطير لداود عليه السلام، ﴿أَوَّابٌ﴾، أي: رجَّاع إلى طاعته، يطيعه ويسبح بتسبيحه، ويرجِّع معه.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ ذكر عز وجل منته عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بتقوية ملكه وتمكينه، أي: وقوينا ملكه بما وهبنا له من أسباب قوة الملك المادية من الحراس والجنود والأموال وغير ذلك، والمعنوية من الحزم والعزم، وقوة السلطان.

ثم ذكر منته عليه بالنبوة والعلم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: النبوة والعلم، وسداد الرأي.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ بالحكم بالصواب والحق والعدل في الخصومات إذا حكم، وفصل الخطاب بالبيان والفصاحة والبلاغة إذا تكلم؛ كما أوتي نبينا ﷺ جوامع الكلم(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٨٢، ومسلم في المساجد ٥٧٣، وأبو داود في الصلاة ١٠٠٨، والنسائي في السهو ١٢٢٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٧٧، ومسلم في المساجد ٥٢٣، والنسائي في الجهاد ٣٠٨٧، والترمذي في السير ١٥٥٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت أو بعثت بجوامع الكلم».

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين له بذكر تكذيب الأمم قبلهم لرسلهم، قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وعقاب الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

٢- إثبات رسالة نوح ولوط عليهما السلام، ورسل من ذكر من الأقوام، وهم هود وموسى وصالح وشعيب عليهما السلام.

٣- أن السعيد من وعظ بغيره.

٤- عظم ما أعطيه فرعون من القوة والجنود والملك، ولم يدفع عنه ذلك عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾.

٥- أن قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب أشجار وبساتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ﴾.

٦- قوة أولئك الأقوام وشدتهم وكثرتهم، ومع ذلك لم تنفعهم ولم تدفع عنهم عقاب الله لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

٧- إثبات الأسباب وترتب مسبباتها عليها بإذن الله، فأولئك الأقوام إنما عوقبوا بسبب تكذيبهم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فأثنى على داود عليه السلام؛ لأنه أواب رجَّاع إلى ربه.

٨- أن من كذب رسولًا، فقد كذب جميع الرسل.

٩- يجب عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثر الأمم كذبوا رسلهم.

١٠- الاعتبار بالأغلب؛ وأن الكل قد يطلق على الأغلب، فكل الأقوام المذكورين آمن منهم من آمن ونجا.

١١- التهديد والوعيد للمكذبين للنبي ﷺ بقرب حلول العذاب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

١٢- سفه المشركين المكذبين، وجهلهم؛ لدعائهم بتعجيل عذابهم في الدنيا قبل يوم القيامة؛ إمعانًا في التكذيب، واستبعاد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، واعتراف المشركين بذلك؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

١٤- إثبات يوم القيامة، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وإظهار المشركين الإيمان بذلك، وإن كانوا في الحقيقة يكذبون به.

١٥- أمره عز وجل له ﷺ بالصبر على قول قومه وأذاهم، وفي ذلك إشارة وبشارة إلى أن النصر والعاقبة له؛ لأن النصر مع الصبر، والعاقبة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

١٦- أنه ﷺ كغيره من البشر يتأثر ويتألم؛ ولهذا أمره الله بالصبر على ما يقوله المشركون.

١٧- أن طريق الرسل وأتباعهم ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل لا بد فيه من الأذى بالقول والفعل، فلا بد فيه من الصبر.

١٨- تذكير الله عز وجل له ﷺ بعبده ورسوله داود عليه السلام وسيرته، وما كان عليه من الصبر على العبادة والطاعة وغير ذلك؛ لتثبيت فؤاده ﷺ، وطمأنة نفسه، والتأسي به في العبادة والصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ الآية.

١٩- إثبات نبوة داود عليه السلام ورسالته، وتشريفه وتكريمه بوصفه بالعبودية لله تعالى، أفضل ما يوصف به البشر، وإضافته إلى ضمير المتكلم وهو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا﴾ وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي النبوة والعلم.

٢٠- فضيلة داود عليه السلام؛ لأن الله عز وجل امتدحه وأثنى عليه، وأمر النبي ﷺ بذكره؛ للاقتداء به.

٢١- عظم ما أعطيه داود عليه السلام من القوة في العلم والعمل والطاعة والعبادة والحرب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾.

٢٢- الترغيب في القوة في الله، قوة القلب والبدن، والعلم والعمل؛ لأن الله أثنى

على داود عليه السلام بذلك، وفي الحديث: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**»(١).

٢٣- اتصافه عليه السلام بكثرة الرجوع إلى الله، والإنابة إليه، وتدارك ما فاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

٢٤- الحث على الرجوع إلى الله تعالى في جميع الأمور، والتوبة والإنابة إليه؛ لثنائه عز وجل على داود بذلك.

٢٥- امتنان الله عز وجل على داود عليه السلام بتسخير الجبال والطير يسبحن معه أول النهار وآخره تسبيحًا خاصًّا، وطاعته، والرجوع إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

٢٦- نعمة الله تعالى على داود بما أكرمه به من حسن الصوت، الذي جعل الجبال والطير يرجِّعْن معه، ويجاوبنه بالتسبيح.

٢٧- فضل هذين الوقتين: العشي، والإشراق؛ لأنهما أوقات الصلاة والتسبيح والأذكار والأوراد.

٢٨- قدرة الله تعالى على جعل الجبال وغيرها من الجمادات، والطيور وغيرها من العجماوات، وكل شيء يسبحه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٢٩- فضل الله عز وجل على سليمان عليه السلام بتقوية ملكه، وتمكينه بما وهبه من أسباب قوة الملك المادية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

٣٠- امتنان الله عز وجل على داود بإيتائه النبوة والعلم، وفصل الخطاب في الخصومات، والفصاحة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

٣١- أن من نعم الله تعالى على العبد أن يرزقه العلم وفصل الخطاب؛ لأن الله امتن على نبيه داود عليه السلام بذلك.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾:

قال السعدي[1]: «لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفًا بذلك، مقصودًا، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها الله فتنة لداود وموعظة؛ لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقيَّض له هذه القضية؛ فقال لنبيه ﷺ: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ فإنه نبأ عجيب».

قوله: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ الاستفهام للتعجيب والتشويق، أي: وهل أتاك يا محمد، خبر الخصم؟ وهو خطاب له، ولكل من يصلح خطابه. والنبأ: الخبر الهام، و﴿ٱلْخَصْمِ﴾، أي: المتخاصمين؛ ولهذا قال: ﴿ ۞ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾، أي: حين تسوروا على داود المحراب، وهو مكان عبادته، و«التَّسَوُّر»: الاعتلاء والصعود على السُّور.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ «إذ»: بدل من «إذ» الأولى، أي: حين دخلوا على داود في محرابه- وكان قد أغلق عليه بابه للعبادة- باعتلاء السور عليه.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤١٤.

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: خاف وارتاع منهم؛ لتسورهم المحراب عليه وهم جماعة، وهذا خوف طبيعي تقتضيه الطبيعة والجبلة.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾، أي: اطمئن ولا تخش شرًّا، أي: أننا ما جئنا لقتل أو نهب، ونحو ذلك.

﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تعليل للنهي عن الخوف، أي: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، أي: اعتدى بعضنا على بعض وظلمه.

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل.

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾، أي: ولا تمل في الحكم على أحدنا، ولا تجر ولا تظلم.

و«الشطط»: الميل عن الحق، والجور والظلم والميل إلى أحد الخصمين.

﴿وَاهْدِنَا﴾، أي: ودلنا وأرشدنا.

﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾، أي: إلى وسط الطريق، أي: إلى الطريق السوي، طريق العدل، والحق، والصواب.

﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾، أي: فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾، وجائز أن يكون أخاه في الدين، أو في النسب، أو الصداقة، أو في ذلك كله؛ مما يقتضي مراعاة هذه الأخوة فيما بينهما.

﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ مما يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، و«النعجة»: أنثى الضأن.

﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لا تعدل شيئًا بالنسبة لما عنده، فطمع فيها.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾، أي: اجعلني كافلها، وأعطنيها، وذلك لتصير في ملكه، وهو الكافل لها.

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، أي: وغلبني في الجدال، أي: صار يجادلني ويحاجني حتى غلبني.

﴿قَالَ﴾ داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، أي: اعتدى عليك بسؤال ضم نعجتك إلى نعاجه.

ووجه الظلم ظاهر: لأن هذه النعجة ملك له، وهو أيضًا فقير معدِم، لا يملك

غيرها، وأخوه عنده ما يغنيه عنها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾، أي: الشركاء في المواشي كالإبل والبقر والغنم، أو في الأموال عامة.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ اللام: للتوكيد، والبغي: الاعتداء والظلم، أي: ليعتدي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضًا، في أخذ بعضهم من نصيب بعض، بأي وسيلة من الوسائل؛ لأن الظلم من صفة النفوس، وهو ديدن كثير من الخلق؛ قال المتنبي(١):

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلةٍ لا يَظلِمُ

ويقال في المثل: «لا يترك الظلم إلا عاجز».

وهذا غير مسلَّم على الإطلاق؛ ولهذا قال تعالى:

﴿۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الذين آمنوا من الخلطاء وغيرهم، أي: صدقوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، أي: فهم لا يبغي ولا يعتدي بعضهم على بعض في أخذ نصيبه أو ظلمه؛ لأن الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من البغي والظلم، وبقدر نقص الإيمان والعمل الصالح عندهم، يحصل منهم البغي والظلم.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما»: زائدة إعرابًا، مؤكدة للقلة من حيث المعنى، أي: وقليل من الخلطاء، ومن الخلق كلهم، المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ولا يقعون في البغي والاعتداء والظلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾، أي: وأيقن داود عليه السلام، وعلم.

﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ «أنما»: كافة ومكفوفة، وتفيد الحصر، أي: اختبرناه وامتحناه، ودبرنا عليه هذه القضية والخصومة؛ لينتبه.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ الفاء: عاطفة، أي: طلب من ربه المغفرة لما صدر منه.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، أي: خر على الأرض ساجدًا لله تعالى.

---

(١) انظر: «ديوانه» ١/ ١٦٦.

﴿وَأَنَابَ﴾، أي: وتاب ورجع إلى الله تعالى خشية له.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فغفرنا له ذلك الذي صدر منه، بستره والتجاوز عنه.

قال السعدي(١): «وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به، وتوبته، وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها».

﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ الواو: عاطفة، أي: وإن له مع المغفرة ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإن له عندنا لدرجة رفيعة، ومنزلة عالية، وقربًا منَّا.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: وله عندنا «حسن مآب»، أي: حسن منقلب، وطيب مأوى في الجنة؛ لتوبته وإنابته، وعدله التام في ملكه، وقوته في الطاعة والعبادة، وثباته عند اللقاء، وغير ذلك.

قال ابن القيم: «فزاده الله على المغفرة أمرين: الزلفى، وهي درجة القرب منه... والثاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب، وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا: وأن العبد بعد التوبة يعود خيرًا مما كان»(٢).

قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾:

قوله: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ﴾، أي: صيرناك ﴿خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنفذ أحكام الله، وتحكم بين الناس في أمور دينهم ودنياهم.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ الأمر للوجوب، أي: فاحكم بين الناس بالعدل.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: ولا تتبع في حكمك بين الناس ﴿ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: ما تهواه نفسك.

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فيضلك الهوى، أي: يبعدك ويحيد بك، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: عن صراط الله وطريقه وشرعه.

قال ابن القيم: «فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق، وهو الوحي الذي أنزل الله على رسوله، وإلى الهوى، وهو ما خالفه»(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذين يتعمدون الخروج عن سبيل الله، ومخالفة حكمه، ولم يقل: «إنك إن تضل»؛ تفاديًا من مخاطبة داود بذلك، وليكون الكلام أعم.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾، أي: عظيم من حيث كيفه وكمه.

﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب نسيانهم يوم القيامة؛ يوم الحساب والجزاء، وترك الاستعداد والعمل له.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر قصة الخصم الذين تسوروا المحراب على داود عليه السلام، والتشويق إليها؛ لما فيها من العجَب والعبر والعظات.

٢- ملازمة داود عليه السلام محرابه للعبادة، مع ما هو فيه من الملك الكبير، وكثرة ما يرد عليه من الأحكام.

ويؤخذ من هذا: حاجة كل من يتولى شيئًا من مسؤوليات الأمة، أن يجعل له وقتًا يخلو فيه بربه للعبادة؛ ليكون غذاءً روحيًّا له، وقربة له عند الله، وسببًا لتوفيقه في أعماله، وعونًا له عليها.

٣- تشريف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾.

٤- فزع داود عليه السلام من هؤلاء الخصم؛ لأنهم تسوروا عليه محرابه، وكان لا يأتيه فيه أحد، ودخلوه من غير بابه، ومن غير استئذان، مفاجأة، ومباغتة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ﴾.

٥- أن الأنبياء عليهم السلام بشر، يعتريهم ما يعتري غيرهم من البشر من الخوف الطبيعي ونحو ذلك.

٦- ينبغي الاستئذان ومراعاة لآداب عند الدخول على الحكام وغيرهم، وأن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨.

تؤتى البيوت من أبوابها.

٧- حلم داود عليه السلام؛ فإنه ما غضب عليهما، ولا انتهرهما، ولا وبخهما حين تسورا عليه المحراب.

٨- طمأنتهم له بأنهم ما جاؤوا لأمر يخاف منه، بل لخصومة بينهم، وهكذا ينبغي لمن قدم ففزع المقدوم عليه منه أن يطمئنه، ويبين له سبب قدومه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٩- جواز نسبة البغي والظلم لمن حصل منه ذلك؛ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

١٠- مطالبتهم إياه بالحكم بينهم بالعدل، من غير ميل لأحدهم، أو جور وظلم، ودلالتهم إلى الصواب؛ لقولهم: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

١١- حسن خلق داود عليه السلام، وعدم اشمئزازه من نصيحتهما، وقبوله ذلك منهما.

١٢- ينبغي ألا تؤثر الخصومة على الخصمين بترك الأدب فيما بينهما؛ لقول هذين الخصمين معًا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، مع أن الباغي واحد، وقول الذي عرض القصة: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾.

١٣- يجب احترام حق الأخوة، سواء كانت في الدين، أو في النسب، أو الصداقة، أو في ذلك كله؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ فهذا تذكير بحق الأخوة بينهما.

١٤- أن المال كلما كثر عند الإنسان كان مدعاة إلى طمعه وجشعه، فهذا الذي عنده تسع وتسعون نعجة لم تقنعه، بل طمع في نعجة أخيه الواحدة، وقد قال ﷺ: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولا يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(١).

١٥- أن بعض الخصوم قد يكون أقوى حجة من بعض؛ لقوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٩، ومسلم في الزكاة ١٠٤٨، والترمذي في الزهد ٢٣٣٧؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد قال ﷺ: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار**»(١).

١٦- أن قوة حجة الخصم أمر مطلوب، بل ومحمود إذا كان بحق، لكن إن كان لقلب الموازين، وبغير حق فهو مذموم.

١٧- قضاؤه عليه السلام بينهما بالعدل، دون ميل لأحدهما أو ظلم؛ لقوله لصاحب النعجة الواحدة: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾، وإنما حكم داود عليه السلام- والله أعلم- دون أن يسمع كلام الخصم الآخر؛ لأنه ظهر من السياق السابق من كلامهما أن هذا هو الواقع.

قال السعدي(٢): «ومن المعلوم من السياق من كلامهما أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟».

١٨- يجب ألا يَمنع الحاكمَ من الحكم بالحق والعدل سوءُ أدب الخصم، فداود عليه السلام حكم بينهم بالعدل، مع أنهم تسوروا عليه المحراب وأفزعوه.

١٩- أن كثيرًا من الخلطاء والشركاء في المواشي والأموال قد يعتدي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضًا، بانتقاص حقه، ونحو ذلك؛ لقول داود: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ﴾.

٢٠- استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات- وهم قليل- من بين الخلطاء، من بغي بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

٢١- فضيلة الإيمان والعمل الصالح؛ لأن ذلك يمنع صاحبه من الاعتداء والظلم؛ وقد رُوي في الحديث القدسي: «**أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه،**

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨٠، ومسلم في الأقضية، الحكم بالظاهر ١٧١٣، وأبو داود في الأقضية ٣٥٨٣، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠١، والترمذي في الأحكام ١٣٣٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣١٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤١٥.

فإذا خانه خرجت من بينهما»(١).

٢٢- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب وتصديقه، وعمل الصالحات بالجوارح الظاهرة، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٣- أن أهل الإيمان والعمل الصالح قليل بالنسبة لأهل الكفر والبغي والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فلا يغتر بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال.

ولهذا قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»(٢).

٢٤- تنبه داود عليه السلام من خلال تسور الخصم محرابه عليه، وخصومتهما، واعتقاده بأن الله إنما اختبره وامتحنه بذلك، واستغفاره ربه، وخروره ساجدًا، وإنابته إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ويشرع السجود عند قراءة هذه الآية من «ص»، لكنها ليست من عزائم السجود، فعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه قال في السجود في «ص»: «ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»(٣).

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ سجد في «ص»، وقال «**سجد داود توبة، ونحن نسجدها شكرًا**»(٤).

وعن مجاهد قال: سألت ابن عباس- يعني: عن سجدة «ص»- من أين سجدت؟ فقال: «أوما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾؟ فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، في الشركة ٣٣٨٣، وضعفه الألباني، وأخرجه الحاكم ٢/ ٦٠ وصححه، ووافقه الذهبي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة، في أبواب سجود القرآن ١٠٦٩، وأبو داود في الصلاة، السجود في «ص» ١٤٠٩، والترمذي في أبواب السفر، ما جاء في سجدة «ص» ٥٧٧، وأحمد ١/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» في التفسير، فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٥٢، وقال ابن كثير: «تفرد به النسائي، ورجال إسناده كلهم ثقات».

ﷺ»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل وسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ الناس للسجود، فقال: «**إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم**» فنزل وسجد وسجدوا»(٢).

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لداود عليه السلام، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾.

٢٦- مغفرة الله تعالى لداود ما صدر منه- مما استوجب ابتلاءه وامتحانه- بعد استغفاره ربه، وإنابته إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

٢٧- أن الاستغفار والصلاة والعبادة والإنابة والتوبة، من أسباب مكفرات الذنوب.

٢٨- عظم ما عند الله تعالى لداود من الكرامة: من المنزلة الرفيعة عنده تعالى، والقرب منه، وحسن المرجع، وطيب المأوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

٢٩- أن حال التائب من الذنب بعد التوبة والإنابة خير من حاله قبل الذنب؛ لما أعطاه الله تعالى لداود بعد توبته من الكرامة، وكحال آدم قبل معصيته بالأكل من الشجرة، وبعد أكله منها وتوبته، وتوبة الله تعالى عليه.

٣٠- إثبات الكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع؛ لقوله: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ﴾ الآية.

٣١- امتنان الله تعالى على داود بجعله خليفة في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٣٢- أمر الله تعالى لداود بالحكم بين الناس بالحق، أي: بالعدل، ونهيه عن اتباع الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ الآية.

وليس في هذا دلالة على أنه قد يقع منه ذلك؛ لأن الأنبياء عليهم السلام

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «ص»، ٤٨٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة-السجود في «ص» ١٤١٠ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٥٣: «تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح».

معصومون عن الخطأ في التبليغ، وعن الوقوع في الكبائر.

٣٣- أنه يجب على الحاكم بين الناس أن يحكم بينهم بالحق والعدل، ويَحذَر من اتباع الهوى.

٣٤- أن من اتبع الهوى في حكمه بين الناس أضله عن سبيل الله القويم، وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

٣٥- الوعيد والتهديد لمن ضلوا عن سبيل الله، وصراطه المستقيم؛ بالعذاب الشديد، بسبب نسيانهم يوم الحساب، والعمل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

٣٦- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله تعالى.

٣٧- إثبات يوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الاستعداد والعمل له، والحذر من نسيانه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ «باطلًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: خلقًا باطلًا، أي: عبثًا ولهوًا ولعبًا، من غير فائدة ولا مصلحة، أي: ما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات إلا بالحق والعدل، ولعبادة الخلائق لله تعالى وحده، ومجازاتهم على أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ الإشارة إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾، أي: ذلك الظن بأنا خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا، هو ظن الذين كفروا، أي: اعتقادهم، فيعتقدون أنه ليس هناك بعث ولا معاد ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

قال ابن القيم: «والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين، بل الذي ظنوه: أنه لا شرع ولا جزاء، ولا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، فأخبر أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه، وذلك هو الحق الذي خلقت به، وهو التوحيد وحقه وجزاؤه، وجزاء من جحده وأشرك به»(١).

﴿فَوَيْلٌ﴾، أي: وعيد شديد وهلاك ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: أنها هي مصيرهم؛ لأنهم ظنوا بربهم ما لا يليق بجلاله، فأنكروا البعث والمعاد والحساب، ومجازاة العباد، ظنوا أنه خلق الخلق باطلًا، وتركهم سدى؛ ولهذا قال:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ «أم»: في الموضعين هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أي: أنصيّر الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والأعمال السيئات، أي: لا نجعل هؤلاء كهؤلاء، فشتان بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأصلحوا في الأرض، وبين الذين كفروا وعملوا السيئات، وأفسدوا في الأرض، شتان بينهم في الدنيا والآخرة، فالمؤمنون سعداء بإيمانهم في الدنيا والآخرة، ومآلهم إلى الجنات، والكفار أشقياء بكفرهم في الدنيا والآخرة، ومآلهم إلى النار والدركات.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: بل أنجعل المتقين الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾، أي: كأهل الفجور والمعاصي. وهذا تأكيد للإنكار، وزيادة تشنيع على منكري البعث والجزاء؛ لأن إنكار البعث والجزاء يقتضي المساواة بين المختلفين؛ كالتسوية بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار. فهذا حكم في غاية السوء والقبح، يتنزه الله عنه، ولا يجوز نسبته إليه؛ لمنافاته لحكمته وعدله وكماله، فلا يليق به أن يجعل المؤمن كالمفسد، والبر كالفاجر، والمحسن كالمسيء؛ لأن هذا قبيح في نفسه، يتعالى الله عن فعله، وينكره الشرع، وتنكره العقول والفطر وتستقبحه، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

والمعنى: إنا لا نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ولا نجعل المتقين كالفجار، ولا يستوون عند الله، وحكمتنا تأبى ذلك وعدلنا؛ ولهذا لا بد من البعث والمعاد؛ لمحاسبة العباد، ومجازاتهم على أعمالهم، والاقتصاص للمظلوم من الظالم، وهذا تدل عليه العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: هذا كتاب، ونكَّر «كتاب» للتعظيم، والمراد به: القرآن الكريم، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ صفة لـ«كتاب»، أي: أنزلناه من عندنا، فهو كلامنا.

﴿إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، أي: كثير البركة والخير، فيه بيان كل خير، والدعوة إليه، والتحذير من كل شر.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قرأ أبو جعفر بتاء الخطاب مع تخفيف الدال: «لِتَدَبَّرُوا»، وقرأ الباقون بياء الغيبة، مع تشديد الدال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾.

واللام في الموضعين للتعليل، أي: لأجل أن يتدبروا آيات هذا الكتاب العظيم: بتلاوة ألفاظها وحفظها، وفهم معانيها، وتطبيق أحكامها، والعمل بها.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، أي: ولأجل أن يتعظ ويعتبر بآيات هذا الكتاب أصحاب العقول النيِّرة، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق، بعد تدبر ألفاظ هذه الآيات ومعانيها وأحكامها.

الفوائد والأحكام:

١- أن الله عز وجل خلق السماء والأرض والمخلوقات كلها بعد العدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾.

٢- النفي القاطع أن يكون عز وجل خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا وعبثًا ولهوًا ولعبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾.

٣- إثبات أن الله عز وجل خلق السماء والأرض وما بينهما بالحق، ولإقامة الحق والعدل، ولحكمة عظيمة؛ وهي أن يعبده الخلائق ويوحدوه، ويجازيهم على أعمالهم؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾.

٤- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى.

٥- لا أحد يعتقد أن الله خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا وعبثًا، وترك الخلائق سدى، إلا الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾.

٦- أن من اعتقد بأن الله خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا، فهو كافر.

٧- التهديد والوعيد للذين كفروا واعتقدوا أن الله خلق الخلق باطلًا، بالنار وعذابها الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

٨- إثبات وجود النار، وأنها أعدت للكافرين.

٩- أن حكمة الله تعالى تأبى، ولا يليق بعدله وكماله أن يجعل الذين آمنوا كالمفسدين في الأرض، ويجعل المتقين كالفجار، فلا يستوون عند الله، فالمؤمنون المتقون لهم الثواب، والمفسدون الفجار لهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، أي: لا نجعل هؤلاء كهؤلاء، ولا يستوون عندنا.

١٠- أنه لا بد من البعث والمعاد، ومحاسبة العباد بأعمالهم، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والاقتصاص من الظالم للمظلوم.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٢- أن من كفر وعمل السيئات فهو من المفسدين في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

كما أن من آمن وعمل الصالحات فهو من المصلحين في الأرض؛ لأن صلاح الأرض بالإيمان والعمل الصالح، وفسادها بالكفر والمعاصي.

١٣- الحث والترغيب بالإيمان والعمل الصالح، وتقوى الله، والتحذير والترهيب من الإفساد في الأرض والفجور.

١٤- تعظيم القرآن، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

١٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

١٦- أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وهو كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وفي هذا الرد على القدرية القائلين بخلق القرآن.

١٧- أن القرآن مكتوب باللوح المحفوظ، وبالصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾.

١٨- إثبات رسالته ﷺ بإنزال الكتاب عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله

تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

١٩- ثناء الله تعالى على القرآن الكريم، وامتداحه له بقوله: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، أي: كثير الخير والبركة، فيه تبيان كل شيء، والدعوة لكل خير، والتحذير من كل شر.

٢٠- أن الحكمة من إنزال القرآن الكريم: ليتدبر العباد آياته؛ بتلاوته وحفظه، وفهم معانيه، وتطبيق أحكامه، والعمل به، والتذكر والاتعاظ به؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قال الحسن البصري: «والله ما تَدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل»(١).

٢١- أن التذكر هو ثمرة التدبر، ولهذا قدم التدبر على التذكر.

٢٢- أنه لا يتذكر ويتعظ بالقرآن إلا أصحاب العقول، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق، والتي هي مناط المدح؛ بخلاف غيرهم الذين عندهم العقول التي هي مناط التكليف، لكنهم لم ينتفعوا بها.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٥٥.

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾، أي: آتينا لداود ابنه سليمان وارثًا للنبوة بعده.

كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل: ١٦]، أي: في النبوة. وقد كان له أبناء كثيرون غيره.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ﴾ سليمان عليه السلام، و«نعم»: لإنشاء لمدح، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، أي: كثير الأوب والرجوع إلى الله تعالى في جميع أموره، والإنابة إليه، والطاعة والعبادة، والذكر والتسبيح.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ «إذ»: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر.

أي: إذ عرض عليه سُوَّاس خيله ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾، أي: ما بعد العصر، أو ما بعد الزوال إلى الغروب، ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، أي: الخيل الصافنات، جمع «صافنة»، وهي الخيل التي تقف على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة، وذلك علامة أصالتها ونجابتها وخفتها وقوتها، وهو أجمل عند رؤيتها.

وأنشد بعضهم في صفة فرس:

أَلِفَ الصُّفونَ فلا يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا[1]

---

(١) انظر: «أمالي ابن الحاجب» ٢/ ٦٣٥، شرح شواهد المغني ٢/ ٧٢٩، «لسان العرب» مادة (صفن)، =

﴿ٱلْجِيَادُ﴾، أي: ذوات الجود، والسبق في السير، أو: جمع «جواد» وهو: اسم الفرس ذكرًا كان أو أنثى.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: أحببت الخير، و«حب» للتأكيد، و«الخير»: يطلق على المال عمومًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

والمراد بالخير في الآية هنا: «الخيل»، وهي من أنفس المال.

أي: إني آثرت حب الخيل، وانشغلت بالنظر إليها ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، أي: عن أذكار المساء وصلاة العصر.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، أي: حتى غابت الشمس، أي: استترت واختفت عن الأبصار، أو حتى توارت الخيل واستترت عنه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الخطاب لسُوَّاس خيله، وضمير الهاء للخيل، أي: أرجعوا الخيل إليَّ.

وقيل: الخطاب للملائكة، والضمير للشمس.

﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ قرأ أبو جعفر، وقنبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بعد السين: «بِالسُّؤْقِ»، وقرأ الباقون بدون همز: ﴿بِٱلسُّوقِ﴾.

وقوله: ﴿فَطَفِقَ﴾، أي: شرع، ﴿مَسْحًۢا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: يمسحها مسحًا.

و«السوق»: جمع ساق، و«الأعناق»: جمع عنق، وهي الرقاب.

قال بعض المفسرين: شرع يعقرها ويضربها بالسيف في سيقانها، وفي رقابها؛ غضبًا لله تعالى، وتقربًا إليه؛ لأنها شغلته عن ذكر ربه(١).

قال السعدي(٢): «فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته

=

«مغني اللبيب» ١/ ٣١٨، «المعجم في شواهد العربية» ٣/ ١٦٤.

(١) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٨٦- ٨٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٥٧.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤١٩، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٥٧.

عن صلاة المساء وذكره، فقال ندمًا على ما مضى منه، وتقربًا إلى الله بها ألهاه عن ذكره، وتقديمًا لحب الله على حب غيره: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾، وضمن «أحببت» معنى «آثرت»، أي: آثرت حب الخير، الذي هو المال عمومًا، وفي هذا الموضع المراد: الخيل، ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، أي: غابت عن عينيه، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ فردوها، ﴿فَطَفِقَ﴾، أي: شرع فيها، ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، أي: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها».

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها»(١).

واختار هذا الطبري(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾، أي: ابتليناه واختبرناه؛ بأن سلبناه ملكه.

﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وكثير من التابعين: «أي: شيطانًا»(٣).

قال الطبري(٤): «ولقد ابتلينا سليمان، وألقينا على كرسيه جسد شيطان ممثل بإنسان».

وقال السعدي(٥): «أي: شيطانًا، قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في مدة فتنة سليمان».

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٨٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٨٧

(٣) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٨٨، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٥٧.

(٤) في «جامع البيان» ٢٠/ ٨٧.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٦٢٠.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، أي: رجع وتاب إلى ربه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، أي: يا رب، اغفر لي، أي: استر علي، وتجاوز عني.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾، أي: أعطني ملكًا، ونكّر «ملكًا»: للتعظيم، أي: ملكًا عظيمًا كبيرًا، وقدّم طلب المغفرة؛ لأنها أهم، والتخلية قبل التحلية.

﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ الجملة في محل نصب نعت لـ«ملكًا»، أي: ملكًا لا يكون مثله لأحد من البشر من بعدي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن عفريتًا من الجن تفلَّت عليَّ البارحة**- أو كلمة نحوها- **ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان**: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾» فرده خاسئًا(١).

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، وفيها توكيد وتخصيص وحصر بـ«إنَّ»، وضمير الفصل «أنت»، وكون الجملة اسمية، أي: لأنك أنت وحدك الوهاب، أي: الجواد الكريم، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ أبو جعفر: «الرِّيَاحَ» بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد. والفاء عاطفة، أي: فاستجبنا له وغفرنا له، فسخرنا له الريح، أي: الهواء، التي هي خير وأسرع من الخيل.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: تسير وفق أمره، ﴿رُخَآءً﴾، أي: لينة في سيرها وهبوبها، ليّنة في طاعتها، لا تستعصي.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أي: حيث قصد وأراد من الجهات والبلاد.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ منصوب عطفًا على «الريح»، أي: وسخرنا له الشياطين؛ وهم عفاريت الجن.

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ «كل»: بدل من «الشياطين»، ﴿بَنَّآءٍ﴾ مسخر يبني الأبنية العظيمة

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦١، ومسلم في المساجد، جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة ٥٤١.

العجيبة، من محاريب وتماثيل، وغير ذلك.

﴿وَغَوَّاصٍ﴾، أي: مسخر في الغوص في البحار؛ لاستخراج اللؤلؤ والمرجان والدرر والجواهر، التي لا توجد إلا في قعر البحار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

﴿وَءَاخَرِينَ﴾، أي: وآخرين من الشياطين ممن تمردوا وعصوا وامتنعوا عن العمل، أو أساؤوا في صنيعهم، وآذوا واعتدوا.

﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾، أي: موثقين بالقيود والأغلال في أيديهم وأعناقهم، وذلك من تمام قوة سلطانه وملكه.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾، أي: قال عز وجل لسليمان: هذا عطاؤنا العظيم لك، من تسخير الريح والشياطين، والملك العظيم، والسلطان التام؛ كما سألتنا. وفي هذا امتنان عليه بذلك.

﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ «أو» عاطفة للتخيير، أي: أعط من شئت، أو امنع من شئت. أو بمعنى الواو، أي: أعط من شئت، وامنع من شئت.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: فلا حساب عليك في ذلك، ولا حرج؛ لعلمه تعالى بكمال عدله عليه السلام، وحسن أحكامه.

قال ابن القيم: «أي: أعط من شئت، وامنع من شئت، لا نحاسبك، وهذه المرتبة هي التي عرضت على نبينا ﷺ، فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها، وهي مرتبة العبودية المحضة، التي تصرُّف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد في كل دقيق وجليل»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل، قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: «**بل عبدًا رسولًا**»»(٢).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٣١، وصحح إسناده أحمد شاكر، وقال الهيثمي ٩/ ١٩: «رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، =

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ اللام: للتوكيد، وإن له عندنا في الآخرة لدرجة رفيعة، ومنزلة عالية، وقربى وكرامة.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: حسن مرجع، وطيب مأوى، وهي الجنة.

الفوائد والأحكام:

١- نعمة الله تعالى على داود بهبته سليمان عليهما السلام وارثًا للنبوة بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ وفي هذا إثبات نبوة سليمان عليه السلام، ورسالته.

٢- امتداح الله تعالى لسليمان بوصفه بالعبودية، التي هي أجل وصف يوصف به البشر؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ وفي هذا إثبات عبودية الأنبياء لله تعالى عبودية خاصة.

٣- ثناء الله تعالى عليه بكثرة الإنابة، والرجوع إلى الله، والعبادة والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

٤- إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فامتدحه عز وجل؛ لأنه أواب. وفيه ترغيب في الإنابة والرجوع إلى الله.

٥- عظمة ملك سليمان، وقوة جيشه، وتمتعه بعرض الخيل عليه بالعشي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

٦- لا بأس باستعراض ولي الأمر خيله وجنوده وجيشه؛ إظهارًا لقوة الأمة، وإعدادًا لذلك، بل إن ذلك أمر مطلوب.

٧- أن أحسن الأوقات لاستعراض الخيل وسباقها، واستعراض الجيوش، آخر النهار.

٨- أن مما أعطيه سليمان من الملك العظيم: قوة الجيش، من الخيل الأصيلة الصافنات الجياد؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

٩- يجب على الأمة الإسلامية أن تستعد بالقوة في كل عصر بما يناسبه.

=

ورجال الأولين رجال الصحيح».

١٠- أن من علامات أصالة الخيل ونجابتها وخفتها وسرعتها وجودتها: أن تقف على ثلاث قوائم، وطرف حافر القائمة الرابعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

١١- انشغاله عليه السلام بها حبًّا للمال، وحبًّا لها، عن أذكار المساء، وصلاة العصر، حتى توارت عن عينيه، أو حتى غابت الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

١٢- غضبه عليها؛ حيث كانت سببًا لانشغاله عن الصلاة وذكر الله، وأمره الساسة بردها عليه، وشروعه بضربها بالسيف بسيقانها ورقابها وعقرها؛ لقوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

وذلك غضبًا لله تعالى، وتقديمًا لمحبته عز وجل على محبتها.

١٣- استدل بالآية من يقول بجواز التعزير بإتلاف المال.

وقيل: لا يجوز ذلك؛ لأنه إفساد.

١٤- يجب الحذر من الانشغال عن ذكر الله بالدنيا ومتاعها وزينتها.

١٥- ابتلاء الله تعالى لسليمان عليه السلام، واختباره إياه بسلب ملكه، وإلقائه على كرسي ملكه شيطانًا يتصرف فيه وقت فتنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾.

١٦- أن الله عز وجل قد يبتلي أصفياء عباده بما يمحصهم، وينالون به أعلى المنازل والدرجات، وقد قال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم**» الحديث(١).

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»(١).

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلى الله بعض القوم بالنعم(٢)

١٧- إنابته عليه السلام إلى الله تعالى، ورجوعه إليه بعد فتنته بما ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، وهكذا جميع الأنبياء معصومون عن الاستمرار على الخطأ والذنب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

١٨- دعاؤه عليه السلام ربه- بعد ابتلائه إيَّاه بذهاب ملكه، وبعد إنابته- بأن يغفر له، ويهب له ملكًا لا يكون لأحد من بعده مثله، وتقديمه طلب المغفرة؛ لأنها أهم، والتخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾.

١٩- أن الأنبياء عليهم السلام في حاجة إلى سؤال المغفرة من ربهم كسائر الخلق، وليسوا معصومين من صغائر الذنوب؛ مما لا يتعلق بالتبليغ.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٢١- أن الدعاء باسم الرب وصفة الربوبية من أقرب الأسباب لإجابة الدعاء، ولهذا دعا بذلك سليمان، وكان عامة دعاء الأنبياء والصالحين بذلك.

٢٢- جواز الدعاء بطلب الملك، وأن يهبه الله ملكًا لا يكون لأحد من البشر مثله؛ لقول سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾.

وقد اختلف العلماء في حكم سؤال الإمارة وما أشبهها من الولايات، فمنهم من أجاز ذلك، مستدلًّا بسؤال سليمان عليه السلام الملك، وقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، وغير ذلك.

ومنهم من قال: لا يجوز، واستدل بقوله ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «**لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة**»(٢).

واستدلوا بحديث أبي موسى رضي الله عنه، أن رجلين قالا: أمرنا يا رسول الله، فقال: «**إنا لا نولي هذا من سأله وحرص عليه**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٦، ومسلم في الإيمان ١٦٥٢، وأبو داود في الخراج ٢٩٢٩، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٤، والترمذي في النذور ١٥٢٩، من حديث عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٨، والنسائي في البيعة ٤٢١١.

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٩، ومسلم في الإمارة ١٧٣٣، وأبو داود في الأقضية ٣٥٧٩.

ومنهم من قال: إن سألها بقصد إصلاح ما فسد منها، مع علمه بقدرته على القيام بمسؤوليتها، جاز له ذلك، وهو حري بأن يعان عليها؛ لحسن قصده، وعلى هذا يُنزَّل سؤال سليمان ويوسف عليهما السلام.

وأما من سألها مع علمه بعدم قدرته على القيام بها، أو لمجرد غرض في نفسه ولمصلحته؛ فإنه لا يجوز له سؤالها حتى وإن ظن قدرته عليها؛ فإنه لن يعان عليها، بل سيوكل إليها، والسلامة غنيمة، والعافية لا يعدلها شيء، وهذا هو الصحيح.

٢٣- ثناؤه عليه السلام على ربه، وتوسله إليه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وفي هذا توكيد وتخصيص وحصر، بأنه سبحانه وتعالى هو وحده الوهاب، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة.

٢٤- جمعه عليه السلام في دعائه بين أعظم أسباب إجابة الدعاء، وهما: الدعاء باسم الرب عز وجل ووصفه، والثناء على المدعو بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، وقد قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرُّضه الثناء(١)

٢٥- إثبات اسم الله تعالى «الوهاب»، وأنه سبحانه ذو الهبات والعطايا.

٢٦- استجابة الله تعالى دعاء سليمان، وتسخيره له الريح تجري بأمره رخاء حيث قصد وأراد، والشياطين في البناء والغوص، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٢٧- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فترك سليمان الخيل تقديمًا لمحبة الله تعالى؛ فسخر الله له الريح والشياطين.

٢٨- قدرة الله تعالى التامة على تسخير الريح- وهي جماد- لسليمان عليه السلام، تجري وتأتمر بأمره، وتسخير الشياطين- الذين هم شر وضرر محض- يعملون له ما ينفع من الأبنية والغوص في البحار؛ لاستخراج اللؤلؤ والجواهر، وغير ذلك.

٢٩- حسن تدبير سليمان عليه السلام، وقوة سلطانه، بتوزيع الشياطين في البناء والغوص، وتوثيق وتقييد المتمردين منهم بالقيود والأغلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» ص١٧.

بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

٣٠- امتنان الله تعالى على سليمان عليه السلام بعطائه العظيم له، بتسخير الريح والشياطين، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾.

٣١- تخييره بين أن يعطي- مما أعطاه الله- من يشاء، ويمنع من يشاء، لا حساب عليه في ذلك، ولا حرج؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وفي هذا دلالة على حسن تصرفه.

٣٢- عظم ما أعده الله تعالى لسليمان عنده في الجنة من الدرجة العالية، والمنزلة الرفيعة، والقرب منه والكرامة، وحسن المآب وطيب المأوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾، أي: واذكر يا محمد عبدنا ونبينا ورسولنا أيوب عليه السلام، أي: اذكره بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء على صبره الجميل على ما أصابه من ضر، وهو خطاب له ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، أي: حين دعا ربه رافعًا صوته، متضرعًا إليه، شاكيًا حاله إليه لا إلى غيره.

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: بأني مسني وأصابني الشيطان بمس نفسي أو حسي.

﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد: «بِنُصُبٍ»، وقرأ يعقوب بفتحهما: «بِنَصَبٍ»، وقرأ الباقون بضم النون وإسكان الصاد: ﴿بِنُصْبٍ﴾.

وتنوين «نُصْب» و«عذاب» وتنكيرهما، للتعظيم ﴿بِنُصْبٍ﴾، أي: ضرر وتعب عظيم.

﴿وَعَذَابٍ﴾، أي: ألم شديد، وذلك في جسده ونفسه، وفي أهله وماله.

قال ابن كثير[1]: «يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليمًا سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته

(١) في «تفسيره» ٧/ ٦٥.

حفظت ودّه؛ لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحوًا من ثمان عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل، وأولاد، وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن أُلقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد، سوى زوجته رضي الله عنها؛ فإنها كانت لا تفارقه، صباحًا ومساءً، إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين، وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾».

ونسب ما أصابه إلى الشيطان؛ لأنه هو السبب المباشر، وهو يعلم أن ما أصابه بقدر الله، وأن الشيطان إنما سلط عليه بقضاء الله وقدره.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾، أي: فاستجبنا له، وقلنا له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾، أي: اضرب برجلك الأرض.

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾، أي: فركض برجله الأرض، فنبع الماء، فقلنا له:

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ نكّر «مغتسل» و«شراب» للتعظيم، أي: هذا مغتسل بارد تغتسل به، وشراب تشرب منه.

فاغتسل به، وشرب منه، فذهب وزال ما به من الضر ظاهرًا وباطنًا؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أيوب يغتسل عريانًا، خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى، ولكني لا غنى لي عن بركتك**»(١).

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾، أي: آتيناه أهله، حيث أووا إليه بعد أن شردوا منه، وعجزوا أن يعيشوا معه بسبب شدة ما أصابه من الضر والمرض البدني والنفسي، فلما كشف الله ما

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل، من اغتسل عريانًا في الخلوة ٢٧٩، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٠٩، وأحمد ٢/ ٣١٤.

به وعافاه، أووا إليه.

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، أي: ووهبنا له مثل أهله معهم، بأن رزقه الله أولادًا وأهلًا آخرين.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ «رحمة»: منصوب مفعول لأجله، أي: رحمة منا بعبدنا أيوب، أي: لرحمتنا له؛ لصبره، وثباته، وإنابته، وتضرعه، واستكانته.

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «ذكرى»: معطوف على «رحمة»، أي: ولأجل تذكير أولي الألباب، أي: أصحاب العقول النيرة الذين ينتفعون بعقولهم؛ ليعلموا تمام قدرة الله تعالى، ولطفه، ورحمته، وفضله، وأنه عز وجل يجيب دعوة المضطر، ولا يخيب دعاء من دعاه، وليعلموا حسن عاقبة الصبر، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ كما جاء في الحديث(١).

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ الضغث: عثكال النخل الذي فيه حزمة شماريخ، أي: خذ بيدك عثكالًا فيه مئة شِمْراخ، أو خذ بيدك حزمة من حشيش، أو قضبان فيها مئة قضيب.

﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ حذف مفعول: ﴿فَٱضْرِب﴾ والله أعلم؛ للستر.

﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، أي: ولا تنتقض يمينك التي حلفت بضرب زوجتك مئة جلدة.

قال ابن كثير(٢): «وذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: لإبطائها عليه، وقيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله؛ ليضربنها مئة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة، والرحمة والشفقة والإحسان، أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثًا، وهو الشِّمْراخ فيه مئة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة، وقد برَّت يمينه، وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله، وأناب إليه».

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، أي: ابتليناه بالضر العظيم فصبر، أي: ألفيناه صابرًا محتسبًا لوجه الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٦٦.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، أي: نعم العبد أيوب عليه السلام، فامتدحه عز وجل بوصف العبودية، الذي هو أشرف ما يوصف به البشر.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبله، أي: نعم العبد؛ لأنه أواب، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى في جميع أموره، والإنابة إليه، وعبادته، وطاعته، والتضرع إليه، أي: فجعلنا له مخرجًا مما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾:

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ﴾، أي: واذكر يا محمد ذكرًا حسنًا، والخطاب له ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قرأ ابن كثير: «عَبْدَنَا» على الإفراد، وقرأ الباقون: ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ على الجمع.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾، أي: أصحاب القوى في تنفيذ الحق، والقوة في الطاعة والعبادة والدعوة إلى الله تعالى.

﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: وأولي البصائر والفقه في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه، والجمع بين العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾، أي: خصصناهم.

﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «بِخَالِصَةِ»؛ بغير تنوين على الإضافة، وقرأ الباقون: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بالتنوين.

والتنكير للتعظيم، أي: أخلصناهم بخالصة عظيمة، وخصصناهم بخصيصة وخصلة كبيرة.

﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ «ذكرى» بدل من «خالصة»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي ذكرى الدار، أي: تذكرهم الدار الآخرة، والتذكير بها، وإيثارها، والعمل لها، ونزع

حب الدنيا من قلوبهم، والذكر الحسن لهم في هذه الدار، والثناء الجميل عليهم، ولسان الصدق، وتخصيصهم بأفضل ما في الدار الآخرة من الثواب.

قال ابن القيم: «فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبياءه من اختصاصهم بالآخرة، وفيها قولان: أحدهما: إن المعنى: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وإيثارها، والعمل بها. والقول الثاني: إنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة، واختصصناهم به عن العاملين».

وقال أيضًا: «أي: خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق، الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح: ٤] »(١).

﴿وَإِنَّهُمۡ﴾، أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

﴿عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾ الذين اصطفيناهم من صفوة خلقنا، ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ جمع «خيِّر» بالتشديد، وهو كثير الخير، أي: الذين هم من خيرة خلقنا؛ لاتصافهم بالصفات الخيِّرة، من العلم النافع، والعمل الصالح، والفضل، والخلق الكريم، وغير ذلك.

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾، أي: اذكرهم ذكرًا حسنًا.

وإسماعيل هو: إسماعيل بن إبراهيم، وهو أبو العرب؛ ولهذا أفرده عن إسحاق ويعقوب؛ لأن سلالتهما بنو إسرائيل.

و«اليسع» قالوا: أصله: «يسع»، واللام فيه زائدة.

﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾، أي: وصاحب الكفل، وكلهم من أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، أي: كل هؤلاء الثلاثة من الأخيار، أي: من خيار خلق الله، وذوي الصفات الخيِّرة.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢- ٤٣.

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾:

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾، أي: هذا المذكور في هذه الآيات، أو هذا القرآن ذكر للناس؛ كما قال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١].

أو هذا ذكر لهؤلاء الأنبياء الأخيار، والرسل الأطهار، بحسن الثناء.

والأول أصح؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

لما أمر بذكر الرسل المذكورين، والثناء عليهم باصطفائهم واختيارهم وخيريتهم، أتبع ذلك بالوعد بحسن المآب لعموم المتقين، من الرسل وأتباعهم.

أي: وإن للمتقين لحسن مرجع في الآخرة. واللام في قوله: ﴿لَحُسْنَ﴾: للتوكيد.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ تفسير لقوله: ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي: جنات إقامة أبدية.

﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ «مفتحة»: حال، أي: مفتحة لهم منها الأبواب، أو مفتحة لهم أبوابها.

أي: مفتحة لهم الأبواب عند مجيئهم إليها؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

ومفتحة لهم الأبواب طيلة إقامتهم فيها؛ لأمنهم فيها، وأخذهم راحتهم فيها؛ يذهبون ويجيئون، ويتصرفون حيث شاؤوا، والملائكة يدخلون عليهم في كل وقت، ومن كل باب، ويهنئونهم، ويسلمون عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، أي: متكئين في تلك الجنات، على الأرائك والسرر المزينات، مرتاحين، مطمئنين، مخدومين؛ ولهذا قال:

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾، أي: يطلبون فيها فاكهة كثيرة الأنواع، كثيرة الأعداد.

﴿وَشَرَابٍ﴾ مختلف الأنواع؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ

يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

والمراد: أنهم مهما طلبوا، أحضره لهم خدمهم من الفواكه الكثيرة والشراب.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أي: عندهم زوجات قاصرات الطرف، أي: حابسات الطرف، أي: النظر، أي: اللاتي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، وقصرن طرف أزواجهن عليهن؛ لجمالهم كلهم وعفافهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي به بديلًا، ولا عنه عوضًا.

﴿أَتْرَابٌ﴾، أي: متساويات في العمر والجمال، على سن الشباب، وأحسنه، وألذِّه، ثلاث وثلاثين سنة.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة: «يُوعَدُونَ»، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تُوعَدُونَ﴾.

أي: يقال لهم: هذا ما توعدون، والإشارة في الموضعين إلى ما أعده الله للمتقين، من جنات عدن، وما فيها من النعيم المذكور.

أي: هذا الذي توعدون، ليوم الحساب، أي: هذا الذي وعدناكم به في الدنيا من الثواب والجزاء على إيمانكم وأعمالكم الصالحة، ليوم القيامة والحساب والجزاء.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ اللام: للتوكيد، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: إن هذا لرزقنا ما له أيُّ نفاد، أي: إن هذا المآل الحسن، من جنات عدن وما فيها من ألوان النعيم، لعطاؤنا الذي لا نفاد له ولا انقطاع، ولا انقضاء ولا زوال؛ كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨، الانشقاق: ٢٥].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بقصة أيوب عليه السلام، وابتلائه بالضر؛ لما في قصته من العبر والمواعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة أيوب عليه السلام، ونبوته.

٣- أن أشرف ما يوصف به البشر هي العبودية لله تعالى؛ لهذا وصف الله بها رسله وأنبياءه، ووصف بها أيوب هنا، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ فأضافه إلى نفسه، وامتدحه بقوله: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ كما وصف بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأضافهم إلى نفسه؛ فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾.

٤- فضيلة أيوب عليه السلام؛ لتضرعه وشكواه ما أصابه إلى ربه لا إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأيوب عليه السلام، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾.

٦- أن الأنبياء عليهم السلام كغيرهم من البشر، يصيبهم الابتلاء، بل هم أشد بلاءً من غيرهم، وقد يتسلط الشيطان عليهم بالأذى، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا.

٧- ينبغي شكوى الحال إلى الله تعالى وحده في كل ما يصيب العبد، فهو وحده سامع النجوى، وكاشف الضر والبلوى، قال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

وقد أحسن القائل:

وإذا شكوتَ إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم(١)

وقال الآخر:

لا تشكوَنَّ لمخلوقٍ فتُشمتَه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم(٢)

٨- أن من أنواع التوسل: توسل العبد إلى الله تعالى بحاله؛ لقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وكما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

---

(١) البيت ينسب للشافعي، ولزين العابدين. انظر: «عيون الأخبار» ٢/ ٢٨٤، «الكشكول» ١/ ٥٧، وانظر: «بصائر ذوي التمييز» ٣/ ٣٨١، «ربيع الأبرار» ٥/ ٢٧٧.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٦٢.

٩- جواز إضافة الشيء إلى سببه المباشر؛ لأن أيوب أضاف ما أصابه إلى الشيطان، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، وهذا لا ينافي كون ذلك بتقدير الله وإرادته.

١٠- استجابة الله تعالى لنداء أيوب عليه السلام ودعائه، وأمره بركض الأرض برجله؛ لينبع ماء يغتسل منه ويشرب فيشفى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾.

١١- قدرة الله تعالى التامة؛ حيث أنبع بضرب أيوب برجله الأرض ماءًا باردًا صالحًا للاغتسال والشراب، بل ودواء.

١٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ ولو شاء الله لأنبع له الماء بدون ذلك، ولكن الله جعل لكل شيء سببًا.

١٣- مشروعية فعل الأسباب، وأن الله جعل لكل داء دواء، فأمره عز وجل بضرب رجله في الأرض، ومن ثم الاغتسال والشرب من الماء.

١٤- هبه الله عز وجل له أهله ومثلهم معهم؛ رحمة منه عز وجل به عليه السلام؛ لصبره وثباته، وتضرعه إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾.

١٥- سعة فضل الله تعالى ورحمته، فيعطي العبد إذا صبر واحتسب أكثر مما فقد، وأضعاف ما أمَّل.

١٦- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها سبحانه إلى من شاء من خلقه.

١٧- أن فيما ذكره الله في هذه القصة تذكيرًا لأصحاب العقول الذين ينتفعون بعقولهم؛ ليعلموا تمام قدرة الله تعالى ورحمته، وإجابته دعوة المضطر، وحسن عاقبة الصبر، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

١٨- أنه إنما يتذكر ويتعظ بالذكرى والمواعظ أصحاب العقول النيِّرة، الذين ينتفعون بعقولهم، دون غيرهم.

١٩- عناية الله تعالى بأيوب عليه السلام، بجعله له فرجًا ومخرجًا بالتخفيف والتيسير عليه في يمينه بجلد زوجته، رحمة بها، بأمره أن يأخذ عثكالًا أو حزمة فيها مئة شمراخ أو قضيب، فيضربها بها ضربةً واحدةً، فيكون قد برَّ في يمينه، ولم يحنث؛ لقوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾.

قال ابن القيم: «فمن تأمل الآية علم أن هذه الفتيا خاصة الحكم، فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة، فإنما يقص ما خرج من نظائره لنعتبر به، ونستدل به على حكمة الله فيما قصه علينا.

أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص، ويدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل؛ كما في نظائرها، فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذا جزاءً له على صبره، وتخفيفًا عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه اليمين، وأيضًا: فإن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث؛ كما أخبر تعالى»(١).

وفي حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه في قصة الرجل الذي زنى بأمَةٍ، وكان رجلًا ضعيفًا، فقال النبي ﷺ: «**اضربوه حده**»، فقالوا: يا رسول الله، إنه أضعف مما تحسب، لو ضربناه مئة قتلناه. فقال: «**خذوا عثكالًا فيه مئة شمراخ، ثم اضربوه ضربة واحدة**» ففعلوا»(٢).

قال ابن القيم بعد ذكره لهذا الحديث: «وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة، التي لا تستحق العقوبة، فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة في شأن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، إقامة الحد على المريض ٤٤٧٢، وابن ماجه في الحدود، الكبير والمريض يجب عليه الحد ٢٥٧٤، وأحمد ٥/ ٢٢٢.

الضعيف الذي زنى، فلا يتعدى بها عن محلها»(١).

٢٠- تحريم الحنث باليمين، ووجوب الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾.

٢١- أن من اتقى الله جعل الله له فرجًا ومخرجًا، وأبدله بعد العسر يسرًا.

٢٢- ثناء الله عز وجل على أيوب عليه السلام، وامتداحه له بأنه ابتلاه فوجده صابرًا محتسبًا، نعم العبد، كثير الرجوع والإنابة إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

٢٣- إثبات الأسباب، وترتب مسبباتها عليها بإذن الله.

٢٤- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بذكر عباده ورسله وأنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ تذكيرًا بفضلهم، وللاقتداء بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٢٥- ثناء الله تعالى على إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بأنهم أصحاب القوى في تنفيذ أمر الله تعالى، والقوة في عبادته وطاعته، والدعوة إليه، وأصحاب البصائر والفقه في دينه؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

٢٦- إخلاصه وتخصيصه إياهم بخصيصة ذكرى الدار الآخرة، والعمل لها، وبأفضل ما فيها من الثواب، وبالذكر الحسن ولسان الصدق في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

٢٧- اصطفاء الله تعالى لهم، واختياره إياهم ممن اصطفى؛ ليكونوا من الأصفياء الأخيار عنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

٢٨- في اختلاف مراتب العمال دليل على اختلاف مراتب العمل، وزيادة الإيمان ونقصانه.

٢٩- أمره عز وجل له ﷺ بذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم السلام، وأنهم كلهم من الأخيار عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١- ٤٢.

ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

٣٠- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ فهو تذكير بما يحتاجه العباد، وذكرى وموعظة لهم، وشرف لمن آمن به واتبعه، وفيه التذكير بالأنبياء الأخيار، والرسل الأطهار، ممن يُتذكر بذكراهم.

٣١- وعد الله تعالى المؤكد للذين اتقوا الله، واتبعوا رسله، بحسن المآب، وطيب المأوى في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

٣٢- عظم ما أعد الله تعالى للمتقين عنده من النعيم الحسي والمعنوي في جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ الآيات.

٣٣- إثبات وجود الجنات التي أعدت للمتقين، وأن إقامة أهلها فيها إقامة أبدية، ورزقها لا ينفد؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

٣٤- إكرام أهل الجنة بفتح أبوابها لهم عند سوقهم إليها، وعلى الدوام؛ لكمال أمنهم فيها، وراحتهم في ذهابهم ومجيئهم، ودخول الملائكة عليهم وتهنئتهم؛ لقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

٣٥- كمال راحتهم فيها، وأن لهم فيها كل ما يطلبون ويريدون من الفواكه الكثيرة والشراب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

٣٦- تنعمهم فيها بما عندهم من الزوجات الجميلات العفيفات، اللاتي قصرن طرفهن عليهم، وقصرن طرفهم عليهن؛ لجمالهم كلهم وعفتهم، ومحبة كل منهم للآخر، وعدم طموحه لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾.

٣٧- أن هذه الزوجات من الحور العين، ومن نساء الجنة، كلهن على سن واحدة هي سن الشباب، وأحسنه وألذه؛ لقوله تعالى: ﴿أَتْرَابٌ﴾.

٣٨- تهنئتهم وهم في هذا النعيم العظيم، وبيان أن هذا هو مصداق ما وُعدوا به يوم الحساب على إيمانهم وعملهم الصالح في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾، وهذا من النعيم المعنوي الذي يُدخل السرور على قلوبهم، وقد يفوق النعيم الحسي.

٣٩- الامتنان عليهم بما أعطوا من الرزق والنعيم، وبشارتهم بعدم نفاده وانقطاعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

٤٠- إثبات البعث والمعاد، ويوم الحساب والجزاء، وإعداد جنات عدن للمتقين وما فيها من النعيم.

٤١- تفرده عز وجل بالرزق في الدنيا والآخرة، ومن أعظم ذلك ما أعده لعباده من الجنات، وما فيها من النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾:

لما ذكر ما أعد للمتقين من حسن المآب في جنات عدن، وما فيها من ألوان النعيم، أتبع ذلك بذكر الوعيد للطاغين، بشر المآب في جهنم، وما فيها من أصناف العذاب؛ جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ «هذا»: مبتدأ، وخبره محذوف، أي: هذا للمتقين، والإشارة إلى ما تقدم مما أعده الله للمتقين من حسن المآب في جنات عدن، وما فيها من النعيم والثواب؛ إشادة به، وتوطئة لذكر ما أعد للطاغين، وتحقيرًا له.

و«الطاغين»: جمع «طاغٍ» و«طاغية»، والطاغي: من تجاوز ما حده الله بترك ما أمر الله به، أو ارتكاب ما نهى الله عنه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٣].

والمعنى: وإن للطاغين، أي: المتجاوزين الحد في الكفر والمعاصي.

﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لشر مرجع ومنقلب، وأسوأ مصير في الآخرة. ثم فصَّله بقوله:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ «جهنم»: بدل من «شر»، أو عطف بيان عليه منصوب، أي: جهنم يدخلونها ويقاسون حرها، وتغمرهم من كل جهة، ومن كل جانب.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فبئس الفراش والمسكن والمستقر.

﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، وخبره: «حميم»، ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ الفاء: للتنبيه، واللام: للأمر، واعترض بهذه الجملة بين المبتدأ والخبر، وقدمت على الخبر للمبادرة بإهانتهم، أي: فليكتووا بحره، ويحسوا بآلامه.

﴿حَمِيمٌ﴾، أي: ماء حار قد بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: قد بلغ غاية الحرارة.

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَغَسَّاقٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بتشديد السين: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «وَغَسَاقٌ».

وهو ما يسيل من صديد وقيح أجساد أهل النار. وقيل: الغساق: ضد الحميم، أي: الماء البارد الذي لا يستطاع من شدة برودته، قال تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة من غير مد على الجمع: «وَأُخَرُ»، وقرأ الباقون بمد الهمزة وألف بعدها على الإفراد: ﴿وَءَاخَرُ﴾.

أي: وعذاب آخر من جنسه ومثله، ﴿أَزْوَٰجٌ﴾، أي: أصناف وألوان.

أي: من هذا القبيل، أي: الشيء وضده، كالزمهرير والسموم، وأكل الزقوم وشرب الحميم، والصعود والهُوِيّ في النار، وغير ذلك.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾، أي: تقول كل طائفة دخلت النار للتي تأتي بعدها: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾، أي: طائفة كبيرة وجماعة.

﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، أي: داخل النار معكم بمشقة وازدحام، ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾، أي: لا سعة لهم، ولا نرحب بهم، ولا نريدهم.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ الجملة تعليلية، أي: لأنهم صالو النار، أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون حرها كما نقاسيه.

﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، أي: قال الأتباع- وهم الفوج الذي سيقتحم النار- قالوا لمن قبلهم، أي: للمتبوعين:

﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، أي: أنتم قدمتم العذاب لنا بدعوتكم إيانا إلى الكفر والضلال، أو قدمتم لنا الكفر والضلال، وزينتم ذلك لنا، مما أفضى بنا إلى العذاب.

﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، أي: المستقر لنا ولكم النار؛ كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٩].

وهكذا يساق أهل النار إليها أفواجًا؛ فوجًا فوجًا، ويشتم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الملك: ٨].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿قَالُوا﴾، أي: قال الأتباع داعين على سادتهم وكبرائهم، أو قال أهل النار كلهم داعين على الشياطين الذين أضلوهم:

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ الكفر والشرك وتكذيب الرسل، وزينه لنا، وحسن لنا الضلال، وأوصلنا بسبب ذلك إلى العذاب. يعنون سادتهم.

﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، ومعنى ﴿ضِعْفًا﴾، أي: مضاعفًا؛ أي: ضاعف لهم العذاب؛ فعذبهم لأنهم كفروا، وعذبهم لكونهم قدموا لنا هذا الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالُوا﴾ وهم في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ الاستفهام للتعجب والاستغراب، أي: ما لنا لا نشاهد رجالًا معنا في النار؟

﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾، أي: كنا في الدنيا نعتبرهم ونزعم أنهم من الأشرار المستحقين للنار؛ يعنون: المؤمنين؛ لأنهم يعتقدون أن المؤمنين على ضلالة، وأنهم أشرار، ومآلهم إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ

لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٢].

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف بوصل الهمزة وكسرها على الخبر والابتداء: «اتَّخَذْنَاهُمْ».

وقرأ الباقون بقطع الهمزة مفتوحة على الاستفهام: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾.

أي: أنحن اتخذناهم وعددناهم من الأشرار سخريًّا؟ أي: كنا نسخر منهم في الدنيا، وهم على الحق، ولهذا لم يدخلوا النار؟!

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ «أم»: عاطفة، وهي المتصلة، أي: أم مالت عنهم الأبصار فلم تقع عليهم، مع أنهم موجودون معنا في النار؟!

أي: أن عدم رؤيتنا لهم معنا في النار: إما لأننا عددناهم من الأشرار، وسخرنا منهم وهم ليسوا كذلك، وإما لأن أبصارنا زاغت عنهم، وهم معنا في النار.

والصحيح الأول؛ كما قال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨- ١١١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن هذا الذي أخبرناكم به من تخاصم أهل النار، وتنازع بعضهم مع بعض، وتجادلهم؛ لحقٌّ ثابت، وأمر واقع، لا مرية فيه ولا شك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين المكذبين لك:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا منذر، أي: محذر ومخوف لكم من عذاب الله، وليس لي من الأمر والحكم شيء، فذلك كله لله تعالى؛ كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ

وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠].

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ «ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، و«إله»: نكرة في سياق النفي فتعم، و«إلا»: أداة حصر، أي: وما من أيّ معبود بحق إلا الله عز وجل.

وفي هذا نفي الألوهية مطلقًا عن غير الله، وإثباتها لله تعالى وحده؛ كما في شهادة التوحيد: «لا إله إلا الله».

﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله»، أي: الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو الوحدانية التامة في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء وغلبه.

و«الواحد»، و«القهار» من أسماء الله تعالى، والوحدانية والقهر متلازمان، فالقهار: الذي يقهر كل شيء، هو الواحد الذي يستحق أن يعبد وحده، ويذل له كل شيء.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

لما ذكر تفرده بالألوهية، أتبع ذلك بذكر تفرده بالربوبية، استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

أي: خالق السموات والأرض وما بينهما، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: ذو العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وفي اقتران العزة والمغفرة في أوصافه عز وجل، كمال إلى كمال، فهو سبحانه يغفر ويتجاوز ويستر، مع عزته وقوته وقهره وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

لما بيَّن لهم أنه ﷺ ما هو إلا منذر، وأنه لا معبود إلا الله، وأن الأمر لله وحده، نبههم إلى عظمة القرآن الذي أرسل به، وما دل عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة.

أي: قل لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾، أي: القرآن الكريم، الذي أرسلت به إليكم، وما دل عليه من البعث والحساب، وغير ذلك.

﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾، أي: خبر عظيم القدر، بليغ الشأن، جليل النفع؛ كما قال تعالى: ﴿عَمَّ

يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١، ٢].

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ﴿مُعْرِضُونَ﴾، وقُدِّم عليه للاهتمام بهذا النبأ، أي: أنتم عن هذا النبأ العظيم معرضون بقلوبكم، متولون بأبدانكم، مكذبون بما فيه من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والإخبار بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما كان لي من أيِّ علم ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾، أي: بالملائكة.

﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: إذ يتجادلون ويتنازعون في شأن خلق آدم عليه السلام، وامتناع إبليس من السجود له؛ كما ذكر الله ذلك في عدد من السور، وذكره في الآيات التالية من هذه السورة.

أي: فلولا وحي الله تعالى إليَّ ما علمت بشيء من ذلك، وهو دليل على أن ما جئتكم به حق وصدق؛ لأنه لا يُعلم ذلك إلا بوحي من الله تعالى، ولهذا قال:

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾، قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة على الحكاية: «إِنَّما»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنَّمَآ﴾.

«إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، و«أنما»: كافة ومكفوفة، أي: ما يوحى إلي إلا أنما أنا نذير، أي: مُخوِّف ومُحذِّر، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن ظاهر النذارة.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والإشادة بما أُعد للمتقين من حسن المآب، والجنات وعظيم الثواب، في مقابل ما أُعد للطاغين من شر المآب والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾.

٢- الوعيد الشديد للطاغين بالكفر والمعاصي، بشر المآب، وسوء المنقلب، جهنم يصلونها، وأنها بئس القرار والمنزل والفراش؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

٣- الجمع لهم بين هذا العذاب العظيم باصطلاء جهنم، وبين شرب الحميم والغساق؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾.

٤- تنويع العذاب للطغاة، بأصناف وألوان العذاب؛ حيث يجمع لهم بين الشيء وضده؛ كالزمهرير والسموم، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

٥- سوق أهل النار إليها أفواجًا؛ فوجًا بعد فوج، يشتم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ المتبوعون والأتباع بعضهم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

٦- أن مصير المتبوعين المضلين، والأتباع الضالين جميعًا النار، وبئس القرار.

٧- دعاء الأتباع على سادتهم وكبرائهم، الذين أضلوهم وتسببوا في دخولهم النار، ودعاء أهل النار على الشياطين، الذين أغووهم، بمضاعفة عذاب النار عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾.

٩- مضاعفة عذاب النار على من كانوا دعاة وقدوة في الضلال والكفر.

١٠- تعجب أهل النار من عدم مشاهدتهم معهم في النار أناسًا كانوا يعتقدون في الدنيا أنهم من الأشرار، ومآلهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾.

١١- معرفتهم أنهم في عدهم المؤمنين من الأشرار، إنما ذلك سخرية منهم بهم مع كونهم على الحق، ولهذا لم يدخلوا معهم النار ولم يروهم فيها؛ لقولهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

١٢- تذكر أهل الآخرة من الكفار وغيرهم أحوالهم في الدنيا.

١٣- أن تخاصم أهل النار وتنازعهم أمر محقق وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

١٤- إثبات رسالته ﷺ، وأنه إنما هو منذر ومحذر من عذاب الله، وليس له من الأمر شيء، والأمر كله لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

١٥- أنه لا معبود للخلائق بحق إلا الله عز وجل وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

١٦- إثبات اسم الله تعالى: «الواحد»، وأنه عز وجل ذو الوحدانية التامة في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾.

وفي هذا رد على النصارى، وعلى المشركين.

١٧- إثبات اسم الله تعالى: «القهار»، وأنه سبحانه ذو القهر والغلبة، الذي دان لقهره كل شيء، وغلب بقوته كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للسموات والأرض وما فيهما، وما بينهما من جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

١٩- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأن من لازم توحيد الربوبية توحيد الألوهية.

٢٠- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وأنه سبحانه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ وأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

٢٢- أن القرآن نبأ عظيم القدر، بليغ الشأن، جليل النفع؛ لأنه كلام الله تعالى اشتمل على بيان الحق والعدل في الأحكام، والصدق في الأخبار، كأخبار الملأ الأعلى، والبعث، والمعاد، والحساب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

٢٣- إعراض المكذبين عن القرآن وما تضمنه من الهداية، وبيان الحق، وأخبار الصدق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾، وفي هذا ذم لهم.

٢٤- أنه لولا وحي الله تعالى إليه ﷺ بهذا النبأ العظيم، ما كان له من علم بخصام الملائكة في شأن خلق آدم عليه السلام وغير ذلك؛ لأنه ﷺ لا يعلم الغيب.

وفي إخباره بهذا دليل على أن ما جاء به حق وصدق؛ لأنه لا يُعلم إلا بالوحي؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢٥- إثبات وجود الملائكة وعلوهم، وعلو مرتبتهم، وإثبات اختصامهم في شأن خلق آدم، وامتناع إبليس من السجود له، وقد دل على هذا القرآن في مواضع عدة.

٢٦- تأكيد أنه ﷺ إنما هو نذير بيّن النذارة والتحذير والتخويف من عقاب الله؛ لقوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ ومن لازم الإنذار: التبليغ، وبيان الأحكام، والأمر والنهي؛ ليحذر الناس من ترك المأمور، أو ارتكاب المنهي.

بل إن من لازم ذلك: البشارة، فهو نذير لمن عصى، وبشير لمن أطاع، لكن إنما يخص في بعض المواضع ذكر الإنذار فقط، أو التبشير فقط؛ مراعاة لسياق الآيات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

ذكر في الآيات السابقة أنه ما كان له ﷺ من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون، إلا أن الله أوحى إليه بالنذارة. ثم أتبع ذلك بذكر بعض ما أوحاه الله تعالى إليه في ذلك.

وقد ذكر الله عز وجل هذه القصة في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سورة الإسراء، وسورة الكهف، وطه، وفي هذه السورة، وأبينها ما في سورة البقرة، وأشبهها بما هنا ما جاء في سورة الحجر.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: اذكر إذ قال ربك للملائكة إخبارًا لهم:

﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ وهو آدم عليه السلام ﴿مِّن طِينٍ﴾، أي: مادة خلقه من طين وتراب.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾، أي: فإذا سويت خلق جسمه وأتممته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، أي: فأوجدت فيه الحياة والروح. وأضاف الروح إليه تشريفًا لآدم.

والمراد بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾، أي: من الأرواح التي خلقتها، وأضافها إليه تشريفًا وتعظيمًا؛ كما أضاف البيت إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]، وأضاف المساجد إليه في قوله: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، وكما أضاف الناقة إليه في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

و«الروح»: جسم لطيف، يحيا به الكائن الحي، تُقبض وتتوفى عند الموت؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، أي: تقبض أرواحهم،

وتكفن وتلف؛ كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «**إذا كان العبد في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة...**» الحديث(١).

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فخروا على الأرض له ساجدين، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ «كلهم»: توكيد معنوي، ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد ثانٍ، أي: سجدوا كلهم جميعًا.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع، أي: لكن إبليس استكبر، ويجوز كون الاستثناء متصلًا(٢).

أي: إلا إبليس استكبر عن أمر ربه، واستكبر على آدم، فلم يسجد؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]، وقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦].

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: من المتصفين بالكفر.

قال عز وجل موبخًا له ومعاتبًا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ «ما»: اسم استفهام، أي: ما منعك من السجود؟

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ «ما»: موصولة، أي: للذي خلقته بيديَّ، فشرفته وكرمته بذلك، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه وتكريمه.

قال قتادة: «**خلق الله آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده**»(٣).

﴿ٱسْتَكْبَرْتَ﴾ الاستفهام للتوبيخ، والسين والتاء للمبالغة، أي: أتكبرت عن السجود، ورأيت نفسك كبيرًا، وأنت صغير حقير؟!

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ «أم»: هي المتصلة، عاطفة، أي: أو كنت من العالمين الذين

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: تفسير الآية «٣٤» من سورة البقرة.

(٣) انظر: «الزهد والرقائق» لابن المبارك و«الزهد» لنعيم بن حماد ١/ ٥١٢ (١٤٥٨).

منزلتهم أعلى، فلا يوجه لهم الأمر بالسجود لمن هو دونهم؟

والصحيح: أن الذي منعه من السجود ليس كونه من العالين، وإنما منعه الاستكبار؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [ص: ٧٤]؛ ولهذا قال:

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ﴾، أي: خير من آدم، ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ الجملة استئنافية، أو تعليل لقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ﴾.

قال السعدي[1]: «وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد؛ فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة.

وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه».

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾، أي: من الجنة والسموات، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ الفاء: تعليلية، أي: فإنك مرجوم، أي: مطرود عن رحمة الله، مبعد مدحور.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾، أي: حاقة وواجبة عليك لعنتي، أي: طردي وإبعادي لك.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: إلى يوم الجزاء يوم القيامة، ومن امتدت معه اللعنة إلى يوم القيامة فهو ملعون أبدًا، لا يمكن أن تناله الرحمة أبدًا.

﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: قال إبليس: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب.

﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فأخرني وأمهلني.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، أي: إلى يوم بعث الخلائق، وإخراجهم من قبورهم.

وهذا اعتراف منه بالبعث، وإقرار به، فكان كفره كفر عناد محض، لا كفر جهل.

وإنما طلب الإنظار لشدة عداوته لآدم وذريته؛ ليسعى في إغواء أكبر قدر منهم، وإدخالهم معه في النار.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤٣٩.

أي: فاستجاب الله دعاءه بطلب إنظاره وإمهاله؛ حكمة لله تعالى، وابتلاءً للعباد.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فإنك من المؤخرين الممهلين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾، أي: إلى يوم القيامة، يوم الوقت المحدد المعلوم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩- ٥٠].

﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الفاء: عاطفة، والباء: للقسم، أي: فأقسم بعزتك، أي: بقوتك وقهرك، وسلطانك وعظمتك.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: أسلك بهم طريق الغي، وأضلنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أي: كلهم جميعًا.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء، ﴿عِبَادَكَ﴾: منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتصل، أي: إلا عبادك الذين أخلصتهم واصطفيتهم لعبادتك؛ فإني لا أتمكن من إغوائهم.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وذلك لعلمه أنه لا سلطان له عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩- ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ قرأ عاصم وحمزة وخلف: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾، وقرأ الباقون بالنصب: «فَالحَقَّ». والفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«الحق»: مبتدأ.

﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ «الحق» مفعول به مقدم منصوب للفعل «أقول».

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأملأن جهنم ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، أي: من الناس، ومن الجن؛ وهم ذريته، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾:

قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لا أسألكم على دعوتي إياكم، وتبليغكم رسالة ربي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: من أيِّ أجر دنيوي، وغرم مالي.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصنعين المتقولين على الله؛ بأن أدعي أمرًا ليس لي، أو أزيد على ما أرسلني الله به إليكم، أو أقفو ما ليس لي به علم.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما يعلم: الله أعلم. فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾»(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هو إلا ذكر للعالمين، أي: ما هذا القرآن إلا ذكر للعالمين، أي: تذكير وعظة وعبرة لجميع المكلفين من الإنس والجن، فيه ذكر ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، والرفعة والشرف لمن اتبعه، وإقامة الحجة والإنذار؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتعلمن نبأه، أي: نبأ القرآن وصدق خبره، ومصداق ما أخبر به من الوعد والوعيد.

﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ بعد زمن عاجل أو آجل في الدنيا؛ كما حصل في بدر وغيرها من

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٤٨٠٩، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٩٨، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٤.

الغزوات، أو آجل في الآخرة حين يقع عليهم العذاب، وتتقطع بهم الأسباب.

قال الحسن البصري: «يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين»(١).

وهكذا اختتم عز وجل هذه السورة العظيمة بالتنويه بالقرآن وتعظيمه؛ كما افتتحها بالإقسام به وتعظيمه، وأقام الحجج والبراهين على من كذب به وعارضه، وكذب من جاء به.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة خلق آدم عليه السلام، وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس من السجود؛ لما فيها من العبر والمواعظ والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

٢- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع مفهوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٤- إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلق من خلق الله تعالى، يسمعون ويفهمون الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ الآية.

٥- إثبات صفة الخلق لله تعالى، وأنه سبحانه هو الخالق وحده.

٦- أن أصل خلق آدم عليه السلام ومادته من الطين والتراب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾. وهذا يوجب على الإنسان التذلل لربه، والخضوع له، والتواضع، وعدم التكبر على خلقه.

٧- نعمة الله على آدم بتسوية خلقه، وتعديل وتحسين صورته، وتشريفه عز وجل له بنفخه فيه من روحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ١٥١.

٨- أمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم بعد كمال خلقه، ونفخ الروح فيه، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

٩- امتثال الملائكة أمر الله لهم بالسجود لآدم، وسجودهم كلهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

١٠- امتناع إبليس عن السجود استكبارًا عن أمر ربه، واستكبارًا على آدم، وكفره؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

١١- ذم الاستكبار عن امتثال أمر الله، وعن قبول الحق، وأن ذلك كفر.

١٢- توبيخ إبليس؛ لتركه السجود لآدم، الذي شرفه الله بأن خلقه بيديه، وأمر الملائكة بالسجود له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

١٣- تشريف الله تعالى لآدم عليه السلام، وتكريمه له بخلقه بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وهذا يقتضي عدم التكبر عليه، واحترامه.

١٤- إثبات اليدين لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وفي هذا رد على من فسر اليد بالنعمة من أهل البدع، أو نفى إثبات اليدين لله عز وجل.

١٥- استكبار إبليس عن امتثال أمر الله، وتعاليه على آدم؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾.

١٦- زعمه أنه خير من آدم كذبًا، وافتخاره بما لا فخر فيه، وهو كونه خلق من نار، وخلق آدم من طين؛ لقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهذه حجة عليه، وليست له؛ لأن عنصر الطين خير من عنصر النار.

١٧- إقراره بأن الله هو الخالق؛ لقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

١٨- إخراجه من الجنة، وطرده وإبعاده من ملكوت السماء، وإحقاق لعنة الله عليه إلى يوم القيامة وإلى الأبد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

ويتفرع عن هذا: أنه لا حاجة إلى لعن الشيطان؛ لأن الله أحق عليه لعنته إلى يوم الدين، وإنما المشروع الاستعاذة منه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٦].

١٩- إثبات يوم الدين والحساب والجزاء، والبعث يوم القيامة، وإقرار إبليس بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾.

٢٠- طلبه من ربه الإنظار إلى يوم البعث؛ ليسعى في إغواء أكبر عدد من بني آدم؛ لشدة عداوته لآدم وذريته؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله العامة لإبليس وجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ﴾.

٢٢- استجابة الله تعالى له، وإنظاره إياه؛ حكمة لله عز وجل، وابتلاءً للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾.

٢٣- إقسام إبليس لعنه الله تعالى على إغواء بني آدم جميعهم؛ لشدة عداوته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وهذا يوجب الحذر منه، ومن وساوسه.

٢٤- إثبات عزة الله تعالى التامة، وقهره وقوته، وعظمته وسلطانه، واعتراف إبليس بذلك.

٢٥- أنه لا قدرة لإبليس على إغواء عباد الله المخلصين، واعترافه بذلك؛ لقوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

وكلما كان الإنسان لله أعبد، كان من الشيطان أبعد.

٢٦- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة، الذين أخلصهم الله، واختصهم لعبادته.

٢٧- يجب الاحتماء بجناب الله تعالى بعبادته والإخلاص له، من شرور إبليس

وتسلطه؛ كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»(١).

٢٨- أن الله تعالى هو الحق، ووصفه الحق، وقوله الحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

٢٩- إقسامه عز وجل على ملء جهنم من إبليس وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

٣٠- الإعذار من المكذبين والمشركين بأنه ﷺ لم يسألهم على دعوته إياهم، وتبليغهم رسالة ربه أيّ أجر دنيوي مهما قل، فيستثقلوا ذلك، ويعدوه غرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

٣١- أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الدعوة، وتعليم الواجب من أمر الدين لمن لا يعلمه.

٣٢- إثبات صدقه ﷺ فيما أخبره به من الوحي، ونفيه أن يكون من المتكلفين بأن يزيد على ما أرسله به، أو ينتقص منه، أو يدعي أمرًا ليس له، أو يتقول على الله بلا علم؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

٣٣- أن سنته ﷺ وهديه وسط لا تكلف فيه، ولا تفريط، وسط بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط.

٣٤- شرف القرآن وعظمته، وأنه إنما هو عظة وعبرة، وتذكير للعالمين كلهم جميعًا من الإنس والجن بما ينفعهم، وشرف لمن اتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٣٥- التهديد والوعيد للمكذبين بالقرآن، وما فيه من الوعد والوعيد، وإثبات البعث والحساب، وأنهم سيعلمون مصداق خبره بعد زمان عاجلًا أو آجلًا، في الدنيا كما حصل لهم في بدر وغيرها من الغزوات، وغير ذلك، وفي الآخرة عند معاينة الأهوال ودخولهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

فهرس الموضوعات

تفسـير سورة سبأ ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات [١-٩] ١١
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا...﴾ الآيات [١٠-١٤] ٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ...﴾ الآيات [١٥-٢١] ٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات [٢٢-٣٠] ٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ...﴾ الآيات [٣١-٤٢] ٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ...﴾ الآيات [٤٣-٥٠] ٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ...﴾ الآيات [٥١-٥٤] ٩٣
تفسـير سورة فاطر ٩٧
المقدمة ٩٩
أ- اسم السورة: ٩٩
ب- مكان نزولها: ٩٩
جـ- موضوعاتها: ٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات [١-٨] ١٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...﴾ الآيات [٩-١٤] ١١٦

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [١٥-٢٦] ١٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾ الآيات [٢٧-٣٥] ١٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ...﴾ الآيات [٣٦-٤٥] ١٥٩
تفسير سورة يس ١٧٧
المقدمة ١٧٩
أ- اسم السورة: ١٧٩
ب- مكان نزولها: ١٧٩
جـ- فضلها: ١٧٩
د- موضوعاتها: ١٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ...﴾ الآيات [١-١٢] ١٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ...﴾ الآيات [١٣-١٩] ١٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ...﴾ الآيات [٢٠-٣٢] ٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ...﴾ الآيات [٣٣-٤٤] ٢٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ...﴾ الآيات [٤٥-٥٤] ٢٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ...﴾ الآيات [٥٥-٧٠] ٢٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ...﴾ الآيات [٧١-٨٣] ٢٤٧
تفسير سورة الصافات ٢٦١
المقدمة ٢٦٣
أ- اسم السورة: ٢٦٣
ب- مكان نزولها: ٢٦٣
جـ- فضلها: ٢٦٣
د- موضوعاتها: ٢٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ ...﴾ الآيات [١-١٩] ٢٦٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ...﴾ الآيات [٢٠-٣٤] ٢٧٧

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ...﴾ الآيات [٣٥-٤٩] ٢٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ...﴾ الآيات [٥٠-٦١] ٢٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ...﴾ الآيات [٦٢-٨٢] ٢٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ...﴾ الآيات [٨٣-١١٣]..... ٣١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ...﴾ الآيات [١١٤-١٣٢]..... ٣٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾ الآيات [١٣٣-١٤٨]..... ٣٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ...﴾ الآيات [١٤٩-١٧٠]
..... ٣٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾ الآيات [١٧١-١٨٢] ٣٥٢
تفسـير سورة ص ٣٥٧
المقدمة..... ٣٥٩
أ- اسم السورة: ٣٥٩
ب- مكان نزولها: ٣٥٩
جـ- موضوعاتها:..... ٣٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ...﴾ الآيات [١-١١]..... ٣٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ...﴾ الآيات [١٢-٢٠] ٣٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ...﴾ الآيات [٢١-٢٦] ٣٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ...﴾ الآيات [٢٧-٢٩]..... ٣٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ ...﴾ الآيات [٣٠-٤٠]..... ٣٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ...﴾ الآيات
[٤١-٥٤]..... ٤٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ...﴾ الآيات [٥٥-٧٠]..... ٤١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ...﴾ الآيات [٧١-٨٨] ٤٢٧
فهرس الموضوعات ٤٣٧

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146

9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد التاسع عشر

تفسير سورة الزمر وغافر وفصلت والشورى

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

١٩

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ
٤٢٥ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلزُّمَر

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الزمر»؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الآية: ٧١]، وقوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الآية: ٧٣].

وتسمى: «سورة الغُرَف»، لقوله تعالى فيها: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ﴾ [الزمر: ٢٠].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «وإن أكثر آية في القرآن فرجًا في سورة الغرف: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣]»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الزمر بتعظيم القرآن الكريم والثناء على الله عز وجل وإثبات تنزيله القرآن من عنده، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ بالحق ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾.

٢- وجوب عبادة الله تعالى، وإخلاص الدين له، لاختصاصه بذلك، وبطلان ما يتخذه المشركون من دونه من أولياء يعبدونهم ويزعمون أنهم وسائط بينهم وبين الله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٠٥، وأحمد ٦/ ١٨٩.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٩- ونسبه للطبراني.

هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾.

٣- الإنكار على المشركين في نسبتهم الولد لله تعالى وتخصيصه بالإناث ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

٤- إثبات عظمته عز وجل، وتمام قدرته، وواسع ملكه، وسابغ نعمته ووحدانيته ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

٥- إثبات غناه عن خلقه فلا يضره كفر من كفر، ولا ينفعه إيمان من آمن، وإثبات عدله بين الخلائق ورجوعهم إليه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

٦- بيان أن من طبيعة الإنسان إلا من هداه الله اللجوء إلى الله في الضراء، ونسيان ذلك في السراء: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

٧- لا يستوي من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه؛ لإيمانه بالله ووعده، وبين من ليس كذلك؛ لكفره بالله وتكذيبه بوعده ووعيده: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

٨- ترغيب المؤمنين بتقوى الله والإحسان والصبر ووعدهم بالأجر في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

٩- تأكيد الأمر بعبادة الله تعالى، وإخلاص الدين له، وتهديد المشركين، وبيان خسرانهم الخسران المبين وما لهم من شديد العذاب في النار ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ

ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

١٠- البشارة للذين اجتنبوا الشرك وأنابوا إلى الله تعالى ووحدوه واتقوه والثناء عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾، وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية:٢٠].

١١- تقرير قدرته عز وجل على إنزال الماء من السماء، وإخراج الزرع به والنبات، ثم هيجان ذلك واصفراره وتحطمه، ودلالة ذلك على تمام قدرته تعالى على إحياء الموتى، وعلى زوال الدنيا وفنائها، وذكرى لأولي الألباب.

١٢- شتان بين من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وبين من قسى قلبه من ذكر الله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

١٣- امتنانه عز وجل بإنزال القرآن أحسن الحديث وامتداحه له، والثناء على من ينتفعون به ويهتدون: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

١٤- تهديد ووعيد المكذبين الظالمين بشدة عذابهم يوم القيامة وتقريعهم وتوبيخهم كما عذب الله المكذبين قبلهم: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٥- الامتنان على الناس بضرب الأمثال في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

١٦- أن الموت مكتوب على كل حي من الخلق، ثم يبعثون يوم القيامة، وعند ربهم يختصمون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١٧- ذم من كذب على الله وكذب بالصدق، وتوعده بجهنم مثوى الكافرين، وامتداح الذي جاء بالصدق صلوات الله وسلامه عليه، والذي صدق به وهم المتقون المحسنون، وبيان عظم ما أعد لهم: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١٨- تقرير كفايته عز وجل لرسوله ﷺ وحفظه له: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ﴾ [الزمر: ٣٦].

١٩- من يضلل الله فلا هادي له ومن يهد الله فلا مضل له: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٢٠- الإنكار على المشركين عبادتهم آلهة من دون الله مع إقرارهم بربوبيته، وأنه الذي خلق السموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

٢١- تسليته ﷺ وأن مهمته إبلاغ الكتاب، وليس إليه هداية الخلق: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

٢٢- تصرف الله عز وجل بأنفس العباد وأرواحهم: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

٢٣- الإنكار على المشركين اتخاذهم من دون الله شفعاء لا يملكون شيئًا ولا يعقلون، وبيان ملكه عز وجل للشفاعة جميعًا، وللسموات والأرض: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٢٤- تفرده عز وجل بالخلق، وعلم الغيب والشهادة، والحكم بين العباد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

٢٥- سوء عذاب الظالمين يوم القيامة وشدته: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٢٦- أن من طبيعة الإنسان إلا من هداه أنه إذا أصابه ضر دعا الله فإذا خوله نعمة وكشف ضره نسب ذلك لعلمه: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

٢٧- بيان سعة رحمة الله تعالى، ودعوته لمن أسرف من عباده على نفسه بعدم القنوط من رحمته عز وجل، والإنابة إليه: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ

كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٢٨- تأكد كمال عظمته عز وجل وتمام قدرته: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٩- الإنكار على دعاة الشرك وذمهم، وبيان وجوب عبادة الله تعالى وحده وشكره، وخسران الذين كفروا بآيات الله وأشركوا به: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٣٠- إثبات النفخ في الصور مرتين، الأولى: نفخة الصعق والموت، والثانية لقيام الناس من قبورهم للحساب والجزاء: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا
لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا
إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ
وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ
دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن
سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ «تنزيل»: مبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، و«تنزيل»: مضاف و«الكتاب»: مضاف إليه، و«الكتاب»: القرآن الكريم، و«ال» في «الكتاب» للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود في الأذهان، الذي إذا أطلق انصرف الذهن إلى القرآن الكريم؛ لأنه أعظم كتب الله تعالى، وأشرف الكتب على الإطلاق.

وسمي بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بأيدي المؤمنين بالمصاحف.

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ«تنزيل»، أو بخبره، أي: من عند الله عز وجل.

فهو كلامه عز وجل تكلم به سبحانه بحرف مقروء، وصوت مسموع، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤١، ٤٢].

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله»، مجروران، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ولما ذكر عظمة القرآن، وعظمة من أنزله، ذكر شرف من أنزل إليه فقال:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: أنزلنا إليك القرآن

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: متلبسًا بالحق مصاحبًا له في طريق وصوله إليك بأصح إسناد، تلقاه الروح الأمين جبريل عليه السلام عن الله عز وجل وأداه إلى النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

فليس في سنده انقطاع، ولا إرسال ولا غير ذلك، ولم يتعرض إلى أي تغيير وتبديل لحفظ الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥].

ومتلبسًا بالحق داعيًا إليه، ومشتملًا عليه؛ أخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام:١١٥].

﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط المسبب بالسبب، أي: فاعبد الله حال

كونك مخلصًا له وحده ﴿ٱلدِّينَ﴾، أي: التوحيد والعبادة والطاعة.

والإخلاص: التنقية، أي: مخلصًا له الدين من الشرك وشوائبه، داعيًا الناس إلى عبادته وحده والإخلاص له؛ ولهذا قال:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ «ألا» للتنبيه، والاهتمام، أي: ألا لله وحده استحقاقًا، واختصاصًا ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، أي: العبادة والطاعة والتوحيد الخالص النقي من الشرك وشوائبه، وهذا تقرير للأمر بالإخلاص.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

لما أمر بالتوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده نهى عن الشرك وذم المشركين وتوعدهم.

أي: والذين جعلوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: غيره ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أي: آلهة من الأصنام والأوثان يعبدونهم ويوالونهم ويدعونهم.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، أي: معتذرين ومعللين لعبادتهم بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، «ما»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، واللام: للتعليل، أي: إلا لأجل أن يقربونا ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، أي: قربى، أي: ما نعبدهم إلا لأجل التقرب بهم إلى الله.

أي: لأجل أن يكونوا وسائط بيننا وبين الله، فيرفعوا حوائجنا إليه من طلب الرزق، والنصر، وكل ما ينوبنا، ويقربونا إليه ويشفعوا لنا عنده، وليست عبادتنا إياهم لاعتقاد منا أنهم يملكون من الأمر شيئًا، من خلق أو رزق أو غير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين المشركين، وبين الخلائق كلهم.

﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من العقائد والأحكام وغير ذلك وأخذ حقوق بعضهم من بعض ومجازاة كل منهم بعمله، كما يفصل بين المشركين وبين معبوداتهم، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾، أي: لا يوفق لسلوك الصراط المستقيم، والطريق القويم.

﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ «من»: موصولة، أي: الذي هو كاذب في قوله، مكذب للآيات، ﴿كَفَّارٌ﴾ بها، منكر جاحد لها.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، وأن الفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«أراد»، أي: لو أراد الله اتخاذ، أي: لو أراد الله كونًا، أي: لو شاء أن يجعل ولدًا- كما قال المشركون: الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء:٢٦].

وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبة:٣٠].

﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، و«ما»: موصولة، أي: لاختار من الذي يخلقه، أي: من مخلوقاته.

﴿مَا يَشَآءُ ۚ﴾، أي: الذي يشاؤه؛ لأنه لا أحد يمنعه، له الخلق والأمر.

قال ابن كثير(١): «أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه، ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء:١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف:٨١].

كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم».

﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: تنزيهًا لله عز وجل وتقديسًا وتعظيمًا عن الشريك والصاحبة والولد، وعن النقائص والعيوب.

﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ «هو»: ضمير فصل للتأكيد والحصر، أي: هو المألوه المعبود حقًا وحده لا شريك له.

﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله» مرفوعان.

﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾، أي: الأحد الفرد الصمد، ذو الوحدانية التامة في ربوبيته وألوهيته

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٧٥.

وأسمائه وصفاته.

ولو كان له ولد لشاركه في الألوهية، والألوهية ليست إلا له وحده، ولو كان له ولد لكان اثنين؛ لأن الولد يماثل أباه، والله تعالى واحد لا ثاني له عز وجل.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء، ودان وخضع وذل له كل شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

نزه عز وجل نفسه عن الشريك والولد، وذكر تفرده بالوحدانية والقهر، ثم استدل على ذلك وبيَّنه بذكر تفرده بالخلق، وغناه عن الولد.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالعدل والحكمة، ولعبادته وحده لا شريك له؛ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧].

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾، أي: يُدوِّر ويَطْوي الليل على النهار، ويُدوِّر ويَطْوي النهار على الليل؛ لمصالح الخلق، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: وذلل الشمس والقمر؛ لمصالح العباد.

﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾، أي: كل منهما يسير في فلكه بنظام متقن مقنن.

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى أجل، أي: غاية ووقت معلوم محدد، وهو انقضاء هذه الدنيا وخرابها يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة:٧-٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾

[التكوير:١، ٢].

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ «ألا» للتنبيه والاهتمام، أي: ألا هو ذو العزة التامة والقوة والغلبة.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة للتائبين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

وفي اقتران «العزيز» و«الغفار» كمال إلى كمال في أوصافه عز وجل، فمع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الخطاب لبني آدم، أي: قدّركم وأنشأكم أيها الناس من نفس واحدة، هي نفس أبيكم آدم عليه السلام، مع كثرتكم، واختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أي: ثم خلق منها زوجها حواء عليها السلام، خلقها عز وجل من نفس آدم، فهي مخلوقة منه.

وهي أيضًا: من جنسه، كل منهما بشر من البشر؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فلو كان أحدهما من فصيلة غير فصيلة الآخر ما حصل السكون بينهما.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١]، وقال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف:١٨٩، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وخلق وأوجد لكم من الأنعام، بقدره النازل منه رحمة بكم، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] أي: من المطر، وما يقدره الله لكم من الرزق وغير ذلك.

وسميت الأنعام بهذا الاسم؛ لما فيها من النعومة، ولما في مشيها من اللين.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، أي: ثمانية أصناف، ذكورًا وإناثًا، من الإبل، والبقر والضأن

والمعز، كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ [الأنعام:١٤٣، ١٤٤].

وخص الأزواج الثمانية- مع أنه عز وجل خلق وأوجد لمصالح عباده كثيرًا من البهائم غيرها- لكثرة منافعها، ولشرفها، واختصاصها بأشياء لا يصلح لها غيرها كالأضحية والهدي والعقيقة، والدية، ووجوب الزكاة فيها دون غيرها من البهائم.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

لما ذكر ابتداء خلقهم من نفس واحدة، ذكر كيف تسلسل خلقهم.

أي: يقدِّركم وينشئكم في بطون أمهاتكم. والبطون: جمع بطن، سميت بذلك لخفائها، مقابل الظهور، و «أمهات»: جمع أم، وأمهة.

﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ «خلقًا»: مفعول مطلق، أي: خلقًا متطورًا، ينتقل من خلق إلى خلق آخر، أي: طورًا من بعد طور، من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم يكسو العظام لحمًا، ثم ينشئه خلقًا آخر.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد**»(١).

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ﴾ لا يصل إليها الضوء، وهي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ذكر الملائكة ٣٢٠٨، ومسلم في القدر- كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ٢٦٤٣.

وظلمة المشيمة، التي تكون كالغشاوة على الجنين؛ لوقايته وحمايته.

وهذا من عظيم عناية الله عز وجل به وحفظه له؛ لأن أشعة الضوء لو وصلت إليه لأثرت عليه وأفسدته.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الذي خلق السموات والأرض، ويكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر، والذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، ونقلكم في مراحل خلقكم طورًا من بعد طور، واعتنى بكم ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود ﴿رَبُّكُمْ﴾: خالقكم ومالككم، والمتصرف فيكم، ذو العناية العظيمة التامة بكم.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: له وحده خاصة الملك والتدبير؛ لأن من له الملك يملك الأعيان، والتصرف فيها وتدبيرها.

وأشار إلى نفسه عز وجل بإشارة البعيد «ذلكم»؛ تعظيمًا لنفسه، وبيانًا لعلو شأنه، وكماله في ذاته وصفاته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود حق إلا هو، فكما أنه الواحد في خلقه وملكه وربوبيته، لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته، لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: فكيف تُصرفون عن عبادته، وتعبدون معه غيره، مع قيام الأدلة والبراهين على وحدانيته- أين يُذهب بعقولكم؟

﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾، أي: إن تكفروا أيها الناس بالله، وبما أوجب عز وجل الإيمان به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾، أي: لا يضره كفركم، كما لا ينفعه إيمانكم؛ لأنه سبحانه الغني عما سواه من الخلق كلهم، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل**

واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»(١).

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، أي: لا يرضى ولا يحب لعباده عامة الكفر، ولا يريده منهم شرعًا؛ لأنه سبب للشقاء في الدنيا والآخرة؛ ولهذا نهاهم عنه، رحمة بهم ومحبة للإحسان إليهم، وهذا لا ينافي تقديره الكفر على من كفر منهم، وإرادته منهم كونًا.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ فتؤمنوا بالله وتطيعوه، ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ «يرضه»: جواب الشرط «إن» مجزوم بحرف العلة، وأصله: «يرضاه»، وضمير الهاء يعود إلى الشكر، أي: وإن تشكروا بالإيمان والطاعة يرضى ذلك لكم؛ لأنه خلقكم لذلك، ولأن فيه سعادتكم في دينكم ودنياكم وأخراكم؛ ولهذا أمركم بذلك رحمةً بكم ومحبةً للإحسان إليكم، وإثابتكم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة:٧-٨].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: ولا تحمل أيُّ نفس، ﴿وَازِرَةٌ﴾، أي: مكلفة قابلة لحمل الوزر وهو الإثم والذنب ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: إثم وذنب أيّ نفس أخرى.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ وحده ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ كلكم، من كفر منكم، ومن شكر، أي: مصيركم ومردكم بعد موتكم وبعثكم يوم القيامة.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملونه، أو بعملكم، أي: فيخبركم بأعمالكم وجزائها.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله، أي: لعلمه بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما تكنه وتسره من المعتقدات والمضمرات.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق:٩]، وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات:١٠].

---

(١) سبق تخريجه.

وعلمه عز وجل بالظاهر من باب أولى.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: وإذا أصاب الإنسان، أي: الكافر.

﴿ضُرٌّ﴾ نكرة في سياق الشرط، أي: أيَّ ضر، من مرض أو فقر، وشدة وكرب، ونحو ذلك، في نفسه أو أهله أو ولده.

﴿دَعَانَا﴾، أي: تضرع إلى ربه وحده، لكشف ضره.

﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، أي: راجعًا تائبًا إليه، مستعينًا به وحده على إزالة ما أصابه.

ودعاه بوصف الربوبية معتقدًا أنه وحده الرب الذي يملك جلب النفع وكشف الضر، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ النمل:٦٢.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾، أي: إذا أعطاه ومنحه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ بأن كشف عز وجل ما أصابه من ضر، وأسبغ عليه نعمته.

﴿نَسِيَ﴾، أي: ترك ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ «ما»: اسم موصول يعود إلى الله، وكذا الضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى الله، أي: نسي وترك الذي كان يدعو إليه من قبل؛ لكشف ضره، وهو «الله»، وغفل عنه.

ونسي أيضًا ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: شركاء وأمثالًا، فلم ينسهم، ولم يغفل عنهم، يعبدهم من دون الله.

﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء: ﴿ليَضل﴾، أي: ليضل بنفسه، وهو إذا ضل أضل الناس بدعوتهم إلى الضلال، إما بمقاله، أو بحاله.

وقرأ الباقون بضم الياء: ﴿ليُضل﴾، أي: ليضل الناس بعدما ضل بنفسه.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يَضل ويُضل الناس عن سبيل الله، أي: عن صراطه المستقيم، وطريقه القويم، الموصل إليه، وإلى مرضاته وجنته، وهو دين

الإسلام.

﴿قُلْ﴾ الأمر له ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ الخطاب لمن حاله ما ذكر: الإخلاص والإنابة حال الضراء، والشرك في حالة السراء.

والتمتع: الانتفاع المؤقت، أي: تمتع متلبسًا بكفرك، أو بسبب كفرك.

﴿قَلِيلًا﴾، أي: مدة حياتك القليلة في هذه الدنيا الحقيرة الفانية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

والمراد بالأمر في قوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾: التهديد والوعيد؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تعليل لما قبله، أي: فلا يغنيك ولا ينفعك ما تتمتع به؛ لأنك من أصحاب النار الملازمين لها الخالدين فيها.

وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لكل من كان هذا طريقه ومسلكه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات تنزيل القرآن من الله عز وجل، وأنه كلامه سبحانه، وتعظيمه، وأنه نزل مفرقًا؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

٣- الرد على المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

٤- أن القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ وفي الكتب التي بأيدي الملائكة كما أنه مكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لهذا سمي: «الكتاب».

٥- أن القرآن الكريم هو أفضل الكتب على الإطلاق؛ لأنه إذا أطلق اسم الكتاب انصرف إلى القرآن الكريم.

٦- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، بالإظهار مقام الإضمار بقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، ووصف نفسه بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بضمير الجمع؛ تعظيمًا لنفسه.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز» وأنه سبحانه ذو العزة التامة: عزة القوة وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٨- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وأنه سبحانه ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٩- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الحكيم» كمال إلى كمال، فعزته وقوته مقترنة بالحكمة، وحكمته وحكمه كل منهما مقترن بالعزة والقوة.

بخلاف الخلق الضعاف، فإن وجدت فيهم من فيه شيء من العزة والقوة، وجدته غشيمًا غير حكيم، وإن وجدت فيهم حكيمًا، وجدته ضعيفًا، وقل منهم من تجتمع فيه القوة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

١٠- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بإنزال الكتاب إليه، وخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١١- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ متلبسًا بالحق، فسنده أصح الأسانيد، تلقاه جبريل عليه السلام من الله عز وجل، وأداه إلى النبي ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل، وهو مشتمل على الحق في دعوته وأخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

١٢- وجوب عبادة الله تعالى وإخلاص العبادة والطاعة له وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا أمر له ﷺ، وهو العابد المخلص، ولا غضاضة في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١].

والأمر في الآية له ﷺ ولأمته.

١٣- أن لله عز وجل- وحده- الدين والتوحيد الخالص من الشرك وشوائبه، فمن أشرك مع الله غيره فعبادته باطلة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١).

١٤- ذم الذين اتخذوا غير الله أولياء يعبدونهم ويوالونهم ويدعونهم، ويزعمون أنهم يقربونهم إلى الله ويشفعون لهم عنده، وإيذانهم، وتهديدهم بحكمه عز وجل بينهم فيما هم فيه يختلفون، ومجازاتهم بأعمالهم، والفصل بينهم وبين معبوداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

١٥- إقرار المشركين بأنهم يعبدون أصنامهم؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

١٦- اعترافهم بوجود الله، وأنه أعظم من معبوداتهم، وأنه الذي بيده النفع والضر.

١٧- حرمانه عز وجل من هداية التوفيق من كان وصفه الكذب والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وفي هذا تحذير من الكذب والكفر، وترغيب بالصدق والإيمان.

١٨- نفي أن يكون له تعالى ولد، وبيان أنه سبحانه لو أراد أن يجعل له ولدًا لاختار من خلقه الذي يشاؤه، لكنه عز وجل لا يريد ذلك؛ لكمال غناه، لعدم حاجته إلى أحد من خلقه، وافتقار الخلق كلهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

١٩- إثبات صفة الإرادة الكونية والمشيئة لله تعالى، وهما بمعنى واحد؛ لقوله

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

٢٠- كمال سلطانه عز وجل وتفرده بالخلق والملك والتدبير؛ لقوله تعالى: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

٢١- تنزيه الله تعالى عن الشريك، وعن الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

٢٢- إثبات أنه- عز وجل- هو المعبود حقًا وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى «الواحد»، وأنه سبحانه ذو الوحدانية، الواحد الأحد الفرد الصمد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾.

٢٤- إثبات اسم الله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، وأنه سبحانه ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء، وخضع ودان له كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾.

٢٥- في اقتران اسميه عز وجل: «الواحد»، و«القهار» إشارة إلى تلازم هذين الوصفين في حقه عز وجل؛ لأن من يتصف وحده بالوحدانية لا بد أن يكون قهارًا، ومن يتصف وحده بالقهر لا بد أن يكون واحدًا.

٢٦- إثبات تفرده عز وجل بالخلق والتدبير والملك، وعظمته وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

٢٧- أن السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من الأشياء كلها مخلوقة، خلقها الله وأوجدها بعد العدم، وليس منها شيء أزلي، كما يقول الفلاسفة والطبائعيون.

٢٨- أن الله خلق السموات والأرض، والخلق كله بالحق والعدل؛ ليعبده الخلائق، ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيات.

٢٩- أن من أعظم المخلوقات السموات والأرض؛ لهذا قدمت في الذكر في الآية.

٣٠- نعمة الله تعالى وتمام قدرته في تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى يوم القيامة، وما في ذلك من المصالح العظيمة للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ

ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾.

٣١- إثبات كروية الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ فإذا كان تعاقب الليل والنهار على الأرض وسيرهما يسمى تكويرًا دل على أنها كروية، وهذا هو الصحيح.

٣٢- إثبات جريان الشمس والقمر، والرد على من قال: بأن الشمس والقمر ثابتان.

٣٣- الإشارة إلى فناء الدنيا وزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾.

٣٤- إثبات اسم الله «الغفار»، وأنه- عز وجل- ذو المغفرة الواسعة لذنوب التائبين من عباده مهما كثرت وعظمت؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

٣٥- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الغفار» دلالة على كمال أوصافه وعظمته، فمع عزته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

٣٦- أن الناس خلقوا كلهم من نفس واحدة، أي: من آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

٣٧- أن حواء- عليها السلام- خلقت من آدم، وجعلت من جنسه، من تمام قدرته عز وجل، وعظيم منته على العباد؛ ليسكن كل من الزوجين إلى الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

٣٨- امتنانه عز وجل في خلق الأزواج الثمانية من الأنعام، وما فيها من المصالح والمنافع العظيمة للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ﴾.

٣٩- عناية الله تعالى في خلق الإنسان، ونقله في مراحل وأطوار خلقه، من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا إلى أن تم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

٤٠- حفظه عز وجل للإنسان في بطن أمه من كل شيء يؤثر عليه، حتى من الضوء؛ لقوله تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾.

٤١- تفرده عز وجل بالربوبية واختصاصه بالملك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ﴾.

٤٢- إثبات تفرده عز وجل وحده بالألوهية، ووجوب عبادته وحده، وأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٤٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾، وقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾.

٤٤- الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله، ربهم؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

٤٥- غنى الله عز وجل التام عن خلقه، فلا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾، وإنما أمرهم عز وجل بعبادته لحاجتهم إلى ذلك ومنفعتهم.

٤٦- أن الله عز وجل لا يرضى ولا يحب لعباده الكفر؛ لأن فيه شقاءهم وعدم سعادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾.

٤٧- إثبات صفة الرضا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

٤٨- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِهِ﴾.

٤٩- رضاه عز وجل لعباده أن يشكروه، فيؤمنوا به ويطيعوه؛ لمحبته الخير والسعادة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

٥٠- التحذير من الكفر والترغيب في الشكر، وذم الكفر، وبيان فضيلة الشكر.

٥١- تمام عدل الله عز وجل في حساب الخلائق، فلا تحمل نفس إثم نفس أخرى، بل يجازى كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٥٢- أن الإثم إنما يتحمله من كان قابلًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ والوازرة هي التي تكون أهلًا لتحمل الوزر، وهي المكلفة.

وفي الحديث: «**رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق،**

والصغير حتى يبلغ»(١).

٥٣- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى ربهم، وإخباره إياهم بأعمالهم كلها، ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾،.

ولم يقل: فينبئكم بجزاء ما كنتم تعملون، أو بجزائكم؛ لإفادة أن الجزاء من جنس العمل.

٥٥- علم الله تعالى التام بما تكنه الصدور والقلوب من المعتقدات والأسرار والمضمرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وعلمه عز وجل بالظواهر من باب أولى.

٥٦- الإشارة إلى أن العبرة بصلاح القلوب، إذ بصلاحها تصلح الأجساد.

٥٧- ذم الكافر؛ لأنه لا يعرف ربه إلا عند الضرورة، فإذا مسه ضر دعا ربه، وتضرع إليه؛ لكشف ضره، منيبًا إليه، وإذا أنعم عليه، وكشف عنه ضره نسيه، ونسي ما كشفه عنه من الضر، وارتكس بالشرك؛ ليَضل ويُضل عن سبيل الله وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٥٨- أن الكفار يؤمنون بالله وبربوبيته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

٥٩- أن الله عز وجل يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا؛ لأن رحمته عز وجل تسبق غضبه، كما يجيب دعوة المظلوم ولو كان كافرًا؛ إحقاقًا للحق والعدل، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**»(٢).

٦٠- أن الله تعالى هو وحده كاشف الضر، ودافع النقم، وجالب الخير، ومسبغ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤٨، ومسلم في الإيمان ١٩، وأبو داود في الزكاة ١٥٨٤، والترمذي في الزكاة ٦٢٥، وابن ماجه في الزكاة ١٧٨٣- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

النعم.

٦١- أن الشر ليس إليه عز وجل، والخير كله بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ فنسب المس إلى الضر نفسه، ولم ينسبه إلى الله تعالى مع أنه بتقديره عز وجل، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾، فنسب النعمة إليه عز وجل.

٦٢- أن جعل الأنداد لله تعالى ضلال وكفر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾.

٦٣- الحذر من أهل الضلال؛ لأنهم قدوات سيئة بأقوالهم وأفعالهم.

٦٤- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لمن سلك هذا المسلك وأشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

٦٥- أن من كان مصيره النار والخلود فيها لا يغنيه ولا ينفعه ما تمتع به من متاع الدنيا.

وفي الحديث: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله، يا رب**»(١).

٦٦- أن الدنيا كلها ومتاعها قليل بالنسبة إلى الآخرة.

٦٧- إثبات وجود النار وعذابها، وملازمة أهلها لها، وخلودهم فيها.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢١- من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وحمزة بتخفيف الميم: ﴿أَمَنْ﴾.

وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿ أَمَّنْ﴾: مركبة من «أم» المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ومِنْ «مَنِ»: الموصولة.

أي: أمّن هو قانت: مطيع خاشع خاضع لله تعالى، ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾، أي: أوقات الليل وساعاته، كما شرع الله تعالى، بقيام الليل كله، كما في العشر الأخيرة من رمضان، وبقيام ثلث الليل وسدسه، كما هو قيام داود وقيام نبينا عليهما الصلاة والسلام(١).

﴿سَاجِدًا﴾ حال، أي: مصليًا، ساجدًا على أعضائه السبعة، خاضعًا لله متذللًا له.

﴿وَقَآئِمًا﴾ معطوف على ﴿سَاجِدًا﴾، أي: قائمًا لله تعالى يصلي.

وخص السجود والقيام؛ لأن السجود والقيام؛ لأن السجود أشرف أعمال الصلاة

---

(١) انظر تفسير مطلع سورة المزمل.

من حيث هيئته، والقيام أفضلها من حيث ذكره.

﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ الجملة: حالية، أي: حال كونه يحذر الآخرة، أي: يخاف الدار الآخرة والقيامة وأهوالها، والنار وعذابها.

﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، أي: ويؤمّل أن يرحمه ربه برحمته الواسعة، فيزحزحه عن النار، ويدخله الجنة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»(١).

وهذه الحال- وهي الجمع بين الخوف والرجاء- أفضل الأحوال.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك**»؟ قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمّنه مما يخاف**»(٢).

وقد أحسن القائل:

أسير الخطايا عند بابك واقف ... على وجل مما به أنت عارف

يخاف ذنوبًا لم يغب عنك غيبها ... ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائف(٣)

والمراد: أفمن هذه صفته، كمن هو كافر مشرك، عاص لله، مكذب بالآخرة، لا يخاف عذابها ولا يؤمن بربه ولا يرجو رحمته، شتان بين هذا وهذا.

كما قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران:١١٣]؛ ولهذا قال:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز ٩٨٣، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت والاستعداد له ٤٢٦١-وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) البيتان لابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف القرطبي. انظر: «نفح الطيب» ٢/ ١٢٩، «مجاني الأدب» ٣/ ١٤.

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا يستوي الذين يعلمون وهم أهل العلم بالكتاب والسنة، والفقه في الدين، العارفون بالله وما يجب له، العاملون بعلمهم، الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه.

وليس المراد بالذين يعلمون الذين حفظوا كثيرًا من العلوم والمتون الشرعية وغيرها وأحاطوا بكثير من المعارف، مع الجهل بربهم، وعدم المعرفة بحقه وما يجب له، كما هو حال كثير من المتشبعين بالعلم، علماء الشهرة والدرهم والدينار، وما أكثرهم، والذين هم أول من تسعر بهم النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جرئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.**

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن؛ ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ثم ذكر الثالث، وهو: رجل وسع الله عليه في المال، فكان ينفق؛ ليقال: جواد. قال: فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»(١).

وفي رواية قال ﷺ: «**يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة**»(٢).

وقد أحسن القائل:

وعالم بعلمه لم يعملن ... معذب من قبل عبّاد الوثن(٣)

وقال الآخر:

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٠٥، والنسائي في الجهاد ٣١٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٨٢.

(٢) أخرجها الترمذي، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان شرح زبد ابن رسلان» (ص٤).

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما(١)

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ وهم أهل الجهل بالله وحقوقه وما يجب له، المشركون به، المكذبون بالآخرة، المنكرون رحمة الله وجنته.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما يتذكر إلا أولو الألباب، ومعنى ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: يعتبر وينتفع بالمواعظ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، أي: أصحاب العقول السليمة، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها- بتوفيق الله- إلى الحق، فيكونون في طليعة الذين يعلمون.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿قُلۡ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: قل يا محمد مبلغًا عني: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ بجوارحكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وذلك لأن الإنسان في كل لحظة في حاجة إلى الإيمان والتقوى، والثبات على ذلك والاستزادة منه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء:١٣٦].

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: للذين أحسنوا خاصة، في هذه الدنيا، بالإخلاص بعبادة الله تعالى، واتباع شرعه، كما قال ﷺ في حديث جبريل: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٢).

---

(١) البيتان للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٥٢، «ربيع الأبرار» ٤/ ٣٥، «المستطرف» ١/ ٥٠.

(٢) سبق تخريجه.

أي: أن تعبد الله كأنك تراه، طمعًا ورجاء فيما عنده، وتعبده لأنه يراك رهبة وخوفًا منه.

وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا -مع بذل الندى، وطلاقة الوجه، وكف الأذى.

﴿حَسَنَةٌ﴾ نكِّرت: للتعظيم، أي: حسنة عظيمة، من التوفيق، والسعادة، وسعة الرزق وانشراح الصدر وطمأنينة النفس، وطيب الحياة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: تعريض بالحث على الهجرة، وهي من جملة الإحسان المذكور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

والإخبار بسعة أرضه عز وجل من جملة الحسنة التي وعد بها بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، أي: فمن خرج مهاجرًا من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، فسيجد سعة في الأرض وسعة في الرزق، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠](١).

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾، أي: إنما يعطى الصابرون، الذين صبروا على طاعة الله تعالى، وعلى الهجرة في سبيله، وعن معصيته، وعلى أقداره ﴿أَجْرَهُم﴾، أي: ثوابهم في الآخرة، تامًا وافيًا.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وذلك؛ لفضيلة الصبر وعظم منزلته عند الله؛ لأنه عون على كل الأمور.

فوعدهم الله بالحسنة في الدنيا والأجر في الآخرة كما قال تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ

---

(١) راجع تفسير هذه الآية في سورة النساء.

ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾ [النحل:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾، أي: قل يا محمد: إني أمرت، أي: أمرني ربي، فأنا عبد مأمور له.

و«أن»، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بعبادة الله ﴿مُخْلِصًا﴾: حال، أي: حال كوني ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك وشوائبه.

أي: مخلصًا له التوحيد والعبادة والطاعة، وحده لا شريك له، كما في قوله تعالى له في أول السورة: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾، أي: أقوى المسلمين إسلامًا من جميع الأمم، وأسبق المسلمين من هذه الأمة وأقواهم إسلامًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

ولهذا قال ﷺ: «**أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له**»(١).

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، أي: قل يا محمد إني أخشى.

﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، المعصية: ترك المأمور، أو ارتكاب المحظور، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، والشرط لا يدل على وقوع المشروط ولا على تحققه، وفيه تحذير لأمته من معصية الله تعالى.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ وحده ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ «مخلصًا»: حال، أي: منقيًا له ﴿دِينِي﴾، أي: عبادتي وتوحيدي وطاعتي، من الشرك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون:١-٦].

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨- من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾ «ما»: موصولة، أي: فاعبدوا الذي شئتم ﴿مِّن دُونِهِۦۗ﴾، أي: غيره من المخلوقات، وهذا تبرؤ منهم وتهديد لهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ حقيقة هم: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث حرموها بسبب كفرهم الثواب، وأوبقوها في العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس:١٠] وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها**»(١).

﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾، أي: وخسروا أهليهم من أولادهم وأزواجهم؛ لكفرهم بسببهم.

ولا ينفعهم كونهم كلهم في النار؛ لأن أهل النار قد تقطعت بهم الأسباب فلا تواصل بينهم.

ويحتمل أن يكون سبب خسرانهم أهليهم كونهم في النار وأهليهم في الجنة.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ يوم يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، و﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ:٣٨]، يوم قيام الحساب، وقيام الأشهاد، وقيام العدل الحقيقي بين العباد.

﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ «ألا»: حرف تنبيه، والإشارة للمصدر المفهوم مما سبق، أي: لخسران الأنفس والأهل يوم القيامة.

﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ «هو»: ضمير فصل؛ للتوكيد والحصر، أي: هو الخسران البين الظاهر الواضح، الذي لا خسران أبين منه، ولا أظهر، الذي لا ربح بعده، بل، ولا سلامة.

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾.

لما ذكر شدة خسران الكفار الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، أتبع ذلك بذكر ما يحصل لهم من ألوان العذاب والشقاء في النار.

و﴿ظُلَلٞ﴾: جمع «ظلة»، كظلل الغمام والسحاب والدخان، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

أي: لهم من فوق رءوسهم أطباق محيطة بهم من النار، ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، أي: ولهم من تحت أرجلهم ظلل، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت:٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

أي: ذِكْر ما أعد لهم من هذا العذاب مما يخوف الله به عباده، ويحذرهم به ليتقوه ويطيعوه؛ ولهذا قال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ بفعل ما أمرتكم به وترك ما نهيتكم عنه، واخشوني واحذروا عذابي ونقمتي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

لما ذكر ما أعد للمشركين الخاسرين من العذاب الأليم، أتبعه بذكر ما أعد للموحدين المنيبين من البشرى بالجنة والنعيم، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أي: تركوا الطاغوت وابتعدوا عنها.

والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع[1] في غير طاعة الله ورسوله. فيدخل فيه: الأصنام والأوثان، وكل من عبد من دون الله وهو راض، ونحو ذلك.

﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من ﴿الطَّاغُوتَ﴾.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: تابوا ورجعوا إلى الله بإخلاص الدين له وحده لا شريك له.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾، أي: لهم خاصة البشرى، و«البشرى»: الإخبار بما يسر القلب ويفرح النفس، أي: البشارة العظيمة التي لا يقدر قدرها إلا من بشرهم بها وأكرمهم بها، في الدنيا

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» ١/ ٤٠.

والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٣-٦٤].

فلهم البشرى في الدنيا بالتوفيق والسعادة، والحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [النحل:٩٧] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(١).

ولهم البشرى عند الموت والاحتضار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

ولهم البشرى في القبر والبرزخ، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «ويأتيه رجل حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: «أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد»(٢).

ولهم البشرى في القيامة بالجنات، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ لما ذكر أن البشرى للذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله خاصة، أمر بالتبشير لهم فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، أي: فبشر عبادي، وحذفت الياء للتخفيف.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾، أي: يصغون إليه، والاستماع: متابعة المتكلم والإنصات والإصغاء إليه.

والمراد بـ«القول»: القرآن، و«ال»: للتعريف والعهد، أي: الذين يستمعون القرآن

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥.

(٢) سبق تخريجه.

المعروف المعهود، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، يعني القرآن، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص:٥١-٥٣].

وهؤلاء هم الذين عناهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧، ١٠٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف:٢٩].

﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ القرآن كله أحسن، قد بلغ غاية الحسن، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣].

ومعنى قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، أي: فيعملون بأحسن ما أمرهم به.

وذلك أن مقتضى ما أمر به القرآن الكريم فيه حسن وأحسن، فالقرآن أمر بفعل الواجبات والمستحبات، فالاقتصار على فعل الواجبات حسن، وفعل المستحبات مع الواجبات أحسن.

ونهى القرآن عن المحرمات والمكروهات، فترك المحرمات حسن، وأحسن منه ترك المكروهات مع المحرمات وهكذا.

وسلوك طريق الأبرار حسن، وأحسن منه سلوك طريق المقربين.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٥].

ومعنى قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك»؛ لعلو مرتبتهم ورفعة شأنهم، أي: أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم وحدهم:

﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: الذين أرشدهم الله، وخصهم بهدايته الخاصة: هداية التوفيق، فوفقهم للإيمان واتباع القرآن؛ للعلم النافع والعمل الصالح، لأحسن الأقوال والأعمال والأخلاق.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كرر الإشارة إليهم بإشارة البعيد تأكيدًا لعلو شأنهم وفضلهم. و«هم» ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر، فالجملة مؤكدة بتكرار الإشارة، وبكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك المتصفون بما ذكر الذين هداهم الله ووفقهم، هم أصحاب العقول السليمة الذين هدتهم عقولهم بتوفيق الله إلى الحق، وتغلبوا بها على أهوائهم وشهواتهم فنجوا وأفلحوا- كما قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا(١)

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الاستفهام في الموضعين: للإنكار والنفي. أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب، وكتب الله عليه الضلال والشقاء والهلاك.

، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: أفأنت يا محمد تستطيع إنقاذ من في النار وتخليصه وإنجاءه منها؟

والجواب: أنت لا تستطيع هداية من كتب عليه الضلال والشقاء والعذاب، كما لا تستطيع تخليص الذي في النار وإنقاذه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٦].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ «لكن»: حرف استدراك مهمل، وفيه معنى الإضراب، أي:

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ٢/ ١١٣.

لكن الذين اتقوا ربهم بفعل ما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه.

﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ لهم خاصة منازل عالية واسعة في الجنة.

﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، أي: من فوقها طبقات قصور عالية، بعضها فوق بعض مبنية، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، تُرى من علوها وارتفاعها كما يُرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»(١).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تتراءون الكوكب في السماء، وفي رواية: كما تراءون الكوكب الغابر في الأفق الشرقي والغربي**»(٢).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾، أي: من تحت هذه الغرف والمنازل والقصور.

﴿الْأَنْهَارُ﴾ من الماء واللبن والخمر والعسل، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها وجمالها، ويصرفونها كيف شاءوا في غير أخدود.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ «وعد»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وعد الله للذين اتقوا ربهم بهذه الغرف والمنازل العظيمة، ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾، أي: لا يخلف الله وعده لكمال صدقه، وتمام قدرته، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم:٦].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٦، ومسلم في الموضع السابق ٢٨٣٠، وأحمد ٥/ ٣٤٠.

وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه الترمذي في صفة الجنة- ترائي أهل الجنة الغرف ٢٥٥٦، وأحمد ٢/ ٣٣٩- وقال الترمذي: «حسن صحيح».

الفوائد والأحكام:

١- شتان بين من هو قانت مطيع لله، آناء الليل مصليًا ساجدًا وقائمًا، يحذر الآخرة وأهوالها وعذابها، ويجو رحمة ربه وجنته، وبين من هو مشرك عاص مكذب بالآخرة وعذابها، لا يؤمن بربه، ولا يرجو رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

٢- الترغيب بالقنوت والطاعة والعبادة وقيام الليل، قال ﷺ: «**أفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل**»(١).

٣- إطلاق السجود والقيام على الصلاة كلها؛ لأنهما من أعظم أركانها، فالسجود أعظمها من حيث الهيئة، والقيام أعظمها من حيث الذكر.

٤- ينبغي أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء، فيخاف الآخرة وعذابها، ويرجو رحمة ربه، وجنته ونعيمها.

٥- إثبات الدار الآخرة ويوم القيامة وأهواله وعذابه العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٦- إثبات صفة الرحمة الذاتية لله تعالى، والرحمة الفعلية، التي يوصلها إلى من شاء من خلقه.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾، وقوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- أنه لا يستوي الذين يعلمون عظمة الله تعالى وما يجب له ويؤمنون به وينقادون لأمره، والذين لا يعلمون عظمته تعالى، ويكفرون به، ولا يقدرون الله حق

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٦٣، وأبو داود في الصوم ٢٤٢٩، والترمذي في الصلاة ٤٣٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قدره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء.

٩- فضيلة العلم والفقه في الدين إذا صاحبه العمل، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١).

وقد أحسن القائل:

تفقه فإن الفقه أفضل قائد ... إلى البر والتقوى وأعدل قاصد
فإن فقيهًا واحدًا متورعًا ... أشد على الشيطان من ألف عابد(٢)

أما إذا لم يصاحبه العمل فالجهل خير منه، كما قال أحدهم:

وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ ... فليتك ثم ليتك ما فهمتا(٣)

١٠- أنه إنما يتذكر وينتفع بالمواعظ أصحاب العقول السليمة، الذين يعلمون، وتهديهم عقولهم إلى المعرفة بالله، وما يجب له، والإيمان به وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وفي هذا ثناء عليهم، وتعريض بغيرهم.

١١- حث المؤمنين على تقوى ربهم، والجمع بين الإيمان والتصديق في الباطن، والعمل في الظاهر، بفعل الأوامر، وترك النواهي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾.

١٢- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم- من يرد الله به خيرًا ٧١، ومسلم في الزكاة- النهي عن المسألة ١٠٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٢١- من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) البيتان ينسبان لمحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي حنيفة. انظر: «الدر المختار وحاشية ابن عابدين رد المحتار» ١/ ٤٠، «نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» ص١٩٩، «حسن التنبه فيما ورد في التشبه» ٦/ ١٢٢.

(٣) البيت لأبي إسحاق الألبيري. انظر: «ديوانه» ص٢٧.

١٣- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب، وعمل الجوارح، بفعل المأمورات وترك المحظورات.

١٤- وعد الله تعالى لمن أحسنوا في هذه الدنيا، بإخلاصهم لله تعالى ومتابعة شرعه، والإحسان إلى عباده، في القول والعمل والبذل، بتوفيقهم وإسعادهم، وطيب الحياة، بسعة الرزق، وانشراح الصدر، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

١٥- التعريض بالهجرة والترغيب فيها، بل ووجوبها على من ضيق عليه في دينه، وبيان سعة أرض الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

١٦- أن الأرض كلها لله تعالى يورثها من شاء من عباده.

١٧- فضيلة الصبر والحث عليه؛ لوعده عز وجل للصابرين بتوفيتهم أجورهم بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٨- أمر الله تعالى له ﷺ بعبادة الله تعالى، وإخلاص التوحيد والعبادة والطاعة له وحده لا شريك له، وإعلان ذلك وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

١٩- وجوب عبادة الله تعالى وإخلاص الدين له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ وهذا أمر له صلى الله عله وسلم ولأمته.

٢٠- أمر الله تعالى له ﷺ أن يكون أول المسلمين، أي: أقوى المسلمين كلهم إسلامًا، وأسبق المسلمين من هذه الأمة وأقواهم إسلامًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾، وهذا يدل على وجوب المبادرة إلى الإسلام، والمنافسة فيه.

٢١- أمر الله تعالى له ﷺ أن يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ردًا على المشركين في دعوتهم إياه إلى الشرك- وحاشاه من ذلك- وتحذيرًا للأمة من ذلك.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٢٣- إثبات يوم القيامة وشدة أهواله وعذابه، مما يوجب الحذر منه والاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٢٤- أمره عز وجل له ﷺ بإعلان عبادته لله تعالى مخلصًا له دينه، والاعتزاز بذلك، والبراءة من الشرك وأهله وتهديدهم، وعدم المبالاة بهم، وما يعبدون من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾.

٢٥- حاجة الرسول ﷺ، وكذا غيره من الرسل لعبادة الله تعالى والإخلاص له للنجاة من عذاب الله، ودخول الجنة، بل الأمر في ذلك عليهم أوجب، وهم أشد امتثالًا لذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحدًا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

وقال ﷺ: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»(٢).

٢٦- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا شِئْتُم﴾ وفي هذا الرد على الجبرية، الذين ينفون ذلك.

٢٧- أن الخاسرين حقيقة الخسران المبين هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بموتهم على الشرك، واستحقاقهم الخلود في النار، وافتراقهم فرقةً لا اجتماع بعدها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٢٨- أن كل خسارة في الدنيا تهون، دون الخسارة في الدين، بالموت على الكفر والشرك.

٢٩- أن عمر الإنسان حقيقة هو ما أمضاه في طاعة الله تعالى؛ ولهذا وصف المشركين بأنهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يعملوا خيرًا.

٣٠- شدة عذاب الخاسرين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

٣١- أن الحكمة من ذكر شدة عذاب أهل النار تخويف عباده، وحثهم على تقوى

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى- تمني المريض الموت ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة- لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١١١٠، وأبو داود في الصوم ٢٣٨٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

٣٢- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

٣٣- وجوب تقوى الله تعالى على جميع العباد، بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

٣٤- التنويه بالذين اجتنبوا عبادة غير الله، وأنابوا إلى الله وحده، والثناء عليهم، وتخصيصهم بالبشرى العظيمة، بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ﴾.

٣٥- التحذير من عبادة غير الله، وأنها كلها من الطاغوت، والترغيب في الإنابة إلى الله تعالى وعبادته وحده.

٣٦- البشارة لعباد الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ﴾.

٣٧- أن مقتضى ما أمر به القرآن الكريم وكذا السنة النبوية، فيه حسن وأحسن، فالحسن الإتيان بالواجب، والأحسن الإتيان بالواجب والمستحب، والحسن: ترك المحرم، والأحسن: ترك المحرم والمكروه.

٣٨- امتداح الذين يستمعون القول سماع فهم وتدبر، ويتبعون أحسنه، وإظهار منة الله تعالى عليهم بهدايته تعالى إياهم، وبكونهم هم أصحاب العقول حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

٣٩- التهديد للمكذبين والمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

٤٠- أن من كتب الله عليه الكفر والشقاء والعذاب ودخول النار فلا سبيل إلى هدايته وإنقاذه من العذاب والنار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

٤١- إثبات القدر السابق، وأن الله قدر مقادير كل شيء في الأزل قبل خلق

السموات والأرض.

٤٢- أن الرسول ﷺ لا يملك هداية أحد من الخلق، ولا إنقاذه من النار، وغيره من الخلق من باب أولى، وإنما الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل.

٤٣- إثبات النار، وأنها موجودة الآن، معدة للكافرين.

٤٤- فضيلة التقوى، وعظم ما وعد الله به الذين اتقوا ربهم من الغرف والقصور العالية، المبنية بعضها فوق بعض، الدالة على علو منزلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

٤٥- إثبات تحقق موعود الله للمتقين؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَٰقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، الاستفهام للتقرير، أي: ألم تشاهد ببصرك، وتعلم ببصيرتك. والخطاب لكل من يصلح له.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي: من السحاب الذي في السماء، أي: في العلو ﴿مَآءً ﴾ وهو المطر الطهور، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان:٤٨].

﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أي: أدخله في ينابيع وعيون ومجارٍ في الأرض، يستخرج منها بيسر وسهولة- حسب الحاجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر:٢٢].

قال ابن تيمية: «فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع، والينابيع: جمع «ينبوع»، وهو منبع الماء، كالعين والبئر، فدل القرآن على أن ماء السماء ينبع من الأرض، والاعتبار يدل على ذلك، فإنه إذا كثر ماء السماء كثرت الينابيع، وإذا قلّ قلّت. وماء السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه في الجو، وما يتصاعد من الأبخرة.

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء، ولا هذا أيضًا معلومًا في الاعتبار، فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال، ويكون فيه أبخرة يخلق منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد يستحيل- إلى أن قال: فعلم أنه ممكن أن يكون في الأرض ماء ليس من السماء، فلا يجزم أن جميع المياه من ماء السماء، وإن كان غالبها من ماء السماء»(١).

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾، أي: بسبب هذا الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض.

﴿زَرْعًا﴾، أي: أنواعًا كثيرةً من الزرع والنباتات ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أي: مختلف الألوان والأشكال، والثمار، والطعوم، والروائح، والمنافع الكثيرة.

ولهذا شبه ﷺ ما بعثه الله به من الوحي والهدى والعلم بالغيث في عموم نفعه، فقال ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث كثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا..**»(٢).

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، أي: يستكمل عمره أو تصيبه آفة من ريح أو برد، أو عطش أو غير ذلك.

﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: قد ذهبت نضارته واصفر ويبس بعد اخضراره.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ متكسرًا متفتتًا بعد أن يبس.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في إنزال الماء من السماء وإخراج الزرع به مختلف الألوان نضرًا، ثم هيجانه واصفراره ويبوسه وتكسره.

﴿لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: لأصحاب العقول السليمة يتذكرون عظيم نعمة الله تعالى عليهم، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه، ويتذكرون أن حال الدنيا كلها هكذا تكون خضرة نضرة حلوة، ثم تنتهي إلى الزول والفناء، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٠٥- ٥٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٧٩، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٢- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ٱلرِّيَٰحُۖ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس:٢٤].

وليس بعد الكمال إلا النقص، فالصحة مآلها إلى المرض، والحياة مآلها إلى الموت، وهكذا. قال الشاعر:

إذا كنت تهوى العيش فاقنع توسطًا ... فعند التناهي يقصر المتطاول

تُوَقّى البدورُ النقصَ وهي أهلةٌ ... ويدركها النقصان وهي كوامل(١)

ويتذكرون بذلك تمام قدرة الله تعالى على إحياء الخلق بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن شرح الله صدره ووسعه للإسلام ، فوفقه للإيمان والعمل الصالح، والمنافسة فيما يقرب إلى الله تعالى، منشرح الصدر، مطمئن القلب، قرير العين.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، أي: فهو على علم وهدى، وإيمان ويقين، وبصيرة من ربه، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب من ذكر الله، بعيد عن الحق، قد ضاق صدره بالإسلام، أي: لا يستوي هذا وهذا؛ ولهذا قال:

﴿فَوَيۡلٞ﴾، أي: هلاك وحسرة، وعذاب ووعيد، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩] .

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «شرح نهج البلاغة» ٣/ ١٦٣، «حياة الحيوان الكبرى» ٢/ ١٧٣، «زهر الأكم في الأمثال والحكم» ٢/ ٢٠٣.

﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: للذين قلوبهم قاسية، لا تلين ولا تخشع عند ذكر الله، ولا تطمئن به، ولا تتذكر، ولا تعتبر ولا تتعظ، من المشركين وأهل الكتاب ونحوهم، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة تعود إلى القاسية قلوبهم من ذكر الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في تيه وبعد عن الحق بيِّن واضح ظاهر، ولا ضلال أبين وأظهر من ضلال من قست قلوبهم من ذكر الله، وأعرضوا عن الحق، وأوبقوا أنفسهم في النار والعذاب.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن الكريم، حديثه عز وجل وكلامه نزله من عنده على رسوله ﷺ، وهو أحسن الحديث، وأحسن الكلام، على الإطلاق، في نظمه، وفي أخباره، وأحكامه، ومواعظه، وغير ذلك.

﴿كِتَٰبًا﴾ بدل من «أحسن»، ونكر للتعظيم؛ لأن القرآن الكريم أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله.

﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ نعت لـ«كتابًا»، أي: يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإحكام، والاتفاق والانتظام، في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

ولهذا كلما تدبر فيه المتدبر، وتفكر فيه المتفكر رأى من حسن نظمه ودقة معانيه وتوافقها ما يبهر العقول، ويخرس ألسنة الفصحاء والبلغاء.

﴿مَّثَانِيَ﴾ نعت ثانٍ لـ«كتابًا» أي: تثنى فيه المعاني، فيقرن فيه المعنى بما يقابله،

كالوعد والوعيد والجنة والنار، والدنيا والآخرة والحياة والموت، وغير ذلك.

كما تثنى فيه وتكرر أسماء الله وصفاته، والأحكام والحجج، والحكم والمواعظ، والقصص والأخبار، وغير ذلك؛ لأنه كتاب ترسيخ عقيدة، وتثبيت منهج يسير عليه المؤمن حتى يلقى الله. ومعانيه للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، كلما تكرر سقيها حسنت وأينعت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: ترتعد وترتجف وتضطرب.

﴿مِنْهُ﴾، أي: عند قراءته وسماعه ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لما فيه من الوعيد، والتخويف والتهديد، بذكر ما حل بالمكذبين، وذكر النار وأهوال القيامة وعذابها وغير ذلك.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾، أي: تطمئن وتهدأ وتسكن جلودهم وقلوبهم.

﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لما فيه من البشارة والترغيب، والوعد بالجنات والنعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال:٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

وقوله: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: إلى ما ذكَّرهم الله به وهو القرآن الكريم.

ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: إلى ذكرهم الله.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي ذلك توفيق الله، ووصف من هداه الله وحاله، أو ذلك القرآن الكريم الذي له أثره العظيم في القلوب ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، أي: طريقه الموصل إليه، والدال عليه.

﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ الباء: للسببية، أي: يدل ويوفق بسبب القرآن الكريم وهديه.

﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء توفيقه من عباده، ممن حسن قصدهم، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، أي: ومن يضلل الله كونًا وقدرًا، فلم يهتد بالقرآن.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: فما له من أيّ هادٍ يهديه إلى الحق.

كما قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف:١٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أفمن يلقى في النار مهانًا، يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه.

﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: العذاب السيئ، أو شدة العذاب ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

والمعنى: يلق سوء العذاب بوجهه أي: لا يستطيع اتقاء ذلك ووقفه بغير وجهه، إما لكون يديه ورجليه مغلولة، كما قيل، أو لغير ذلك.

والمراد: لا يستوي من يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، ومن أمن من العذاب ولم يتقه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [فصلت:٤٠] أي: لا يستوي هذا وهذا.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي تقريعًا وتوبيخًا لهم:

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، أي: قاسوا عقوبة الذي كنتم تكسبونه، أو عقوبة كسبكم، أي: عملكم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر:٤٨].

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: كذب الذين من قبل كفار قريش من الأمم الماضية.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: وهم في غفلة، ولم يخطر ببالهم حتى نزل بهم.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما آتاهم من ألوان العذاب المختلفة بحسب ذنوبهم.

﴿ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الذل والهوان في الحياة الدنيا.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا كيفية، وأكثر كمية؛ لأنه عذاب أبدي سرمدي.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي: لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة لما كذبوا.

الفوائد والأحكام:

١- بيان عظمة الله تعالى وتمام قدرته، والامتنان على العباد وتقريرهم، بإنزاله من السماء ماء، وسلكه ينابيع في الأرض، وإخراجه به الزرع والنبات، مختلفًا ألوانه، وما في ذلك من مصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾.

٢- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء؛ ليعم الجبال والوهاد، والمرتفع والمنخفض، وليعم الأرض كلها.

٣- أن الماء الموجود في الأرض كله أو غالبه من ماء السماء.

٤- حكمة الله تعالى وعنايته بخلقه، بخزن الماء في الأرض، وإخراجه منها لهم ينابيع.

٥- إثبات الأسباب وتأثيرها بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي: بسببه.

٦- حكمة الله تعالى في عود الزرع بعد اخضراره ونضارته واستكماله إلى الاصفرار والتحطم والتكسر؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقص؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾.

٧- أن في إنزال الماء من السماء وإخراج الزرع به مختلفًا ألوانه ثم هيجانه واصفراره وتحطمه عبرة لأصحاب العقول السليمة يتذكرون فيه عظمة الله واستحقاقه للعبادة وحده، ويتذكرون به سرعة فناء الدنيا، كما يتذكرون بذلك قدرة الله تعالى التامة على إحياء الخلق بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٨- أنه إنما يتذكر بالآيات الكونية والشرعية أصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بعقولهم ويعتبرون بها، ويهتدون بها إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهذا ثناء عليهم.

٩- شتان بين من شرح الله صدره للإسلام، فوفقه للإيمان والعمل الصالح، فصار على نور من ربه، وهدى وبصيرة، وبين من جعل الله صدره ضيقًا حرجًا، وأضله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

١٠- أن من لم يجعل الله نورًا فما له من نور؛ لهذا يجب سؤاله تعالى وحده الهداية، وسؤاله الثبات على الهدى.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾.

١٢- الوعيد بالويل والهلاك والحسرة للقاسية قلوبهم من ذكر الله، الذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع لذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

١٣- تحقير القاسية قلوبهم من ذكر الله، وذمهم، وبيان شدة ضلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

١٤- الامتنان على العباد بفضله عز وجل عليهم بإنزال القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية.

١٥- إثبات علو الله تعالى وأنه عالٍ على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ والإنزال يكون من أعلى.

١٦- أن القرآن الكريم منزل من عندل الله تعالى والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

١٧- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم بوصفه بأنه أحسن الحديث، فلا حديث ولا كلام أحسن منه؛ لأنه كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

١٨- تعظيم القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابًا﴾، أي: كتابًا عظيمًا لا كتاب أعظم منه.

١٩- تشابه القرآن في الحسن والإحكام والاتفاق والانتظام، في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره؛ ولهذا أثنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾.

٢٠- امتداح القرآن الكريم بكونه: «مثاني»، يثني فيه ويقرن بين الوعد والوعيد، والجنة والنار ونحو ذلك، وتثنى وتكرر فيه أسماء الله وصفاته، والأحكام والحج، والحكم والمواعظ، والقصص والأخبار، وغير ذلك؛ لأنه كتاب ترسيخ عقيدة، وتثبيت منهج حياة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾.

٢١- تأثر جلود المؤمنين وقلوبهم عند قراءة القرآن وسماعه خوفًا ورجاءً؛ لقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٢٢- أن كلام الله عز وجل أعظم واعظ، وأشد مؤثر تقشعر منه جلود الذين آمنوا، وتطمئن به قلوبهم؛ لما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وغير ذلك.

٢٣- أن القرآن الكريم هو هدى الله الموصل إليه، وإلى مرضاته، وأن هداه عز وجل هو الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ نسأل الله الهداية والتوفيق.

٢٤- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٢٥- من يضلل الله كونًا وقدرًا فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٢٦- أن أفعال العباد كلها واقعة بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية، سواءً منهم من اهتدى ومن ضل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩] وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون مشيئة الله تعالى لأفعال العباد، ويرون استقلالهم بها مشيئة وخلقًا، كما أن فيه ردًا على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على أفعاله.

٢٧- شتان بين من يلقى في النار مهانًا، يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، وبين من هو مكرّم آمن في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: أيستوي من هذه حاله بمن هو مكرّم آمن؟ لا يستويان أبدًا.

٢٨- إثبات القيامة وسوء عذابها، والدار الآخرة وكبر عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿سُوٓءَ

ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾، وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾.

٢٩- تقريع الظالمين بالكفر والشرك وتوبيخهم، وأن ما جوزوا به من العذاب هو بسبب كسبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولم يقل: «جزاء ما كنتم تعملون».

٣١- الإخبار بتكذيب الأمم السابقة لرسلهم، ومباغتتهم بالعذاب، وإذلالهم في الحياة الدنيا؛ تحذيرًا وتهديدًا للمشركين المكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم مثل ما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

٣٢- أن العذاب يأتي على غرة وغفلة، ومن حيث لا يخطر بالبال.

٣٣- أنه يجمع للمعذبين بين العذاب الحسي البدني والعذاب المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

٣٤- أن عذاب الآخرة في النار أكبر وأشد وأعظم من عذاب الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

٣٥- أن السعيد من وعظ بغيره.

٣٦- أن المكذبين للرسل لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة حقيقة ما كذبوا رسلهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، أي: بينا لهم في هذا القرآن ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من أمثال التوحيد والشرك، والقرون الخالية، وأهل الخير، وأهل الشر، وغير ذلك؛ لتقريب المعاني، وبيان حقائق الأشياء.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويعتبروا، ويفهموا معاني القرآن ويعملوا به؛ لأن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ «قرآنًا»: حال، و«عربيًّا»: صفة له، أي: حال كونه قرآنًا عربيًّا، ويجوز أن يكون «قرآنًا» مفعولًا به لـ«يتذكرون».

وفي هذا امتداح للقرآن، وامتنان على العباد من العرب وغيرهم بكونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أي: بلسان عربي مبين.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: الجملة في محل نصب: صفة ثانية لـ«قرآنًا»، أو حال.

أي: غير ذي انحراف، ولا لبس، ولا خلل، ولا اضطراب، بل قيِّمًا ومعتدلًا غاية

الاعتدال، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١، ٢].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله بفعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، في هذا القرآن العظيم، رجاء ما فيه من الوعد، وحذرًا مما فيه من الوعيد.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ في هذا القرآن الذي ضرب الله للناس فيه من كل مثل ﴿مَثَلًا﴾ لقبح الشرك وفضية التوحيد.

﴿رَّجُلًا﴾: بدل من «مثلًا» ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، أي: يشترك في ملكه عدة شركاء

﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾، أي: متنازعون مختلفون كل له مطلب، يريد من هذا المملوك تنفيذه، يخالف مطلب الآخر، هذا يأمر بأمر، وهذا ينهاه عنه، فهو مضطرب متحير متشتت، لا يدري من يرضى منهم وينفذ أمره.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿سالِمًا﴾ بالألف بعد السين، وكسر اللام، وقرأ الباقون بدون ألف مع فتح اللام: ﴿سَلَمًا﴾.

﴿وَرَجُلًا﴾ الواو: عاطفة، و«رجلًا» معطوف على «رجلًا» في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾.

﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي: خالصًا لرجل، أي: لمالك واحد لا يشاركه فيه أحد، يأمره فينفذ أمره، وهو مطمئن مرتاح البال.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، و«مثلًا»: تمييز، أي: لا يستوي هذا وهذا.

والمراد بهذا المثل بيان أن المشرك الذي يعبد آلهة مع الله تعالى، لا يستوي بحال من الأحوال مع المؤمن المخلص الذي يعبد الله تعالى وحده.

قال ابن القيم: «فهذا مثل ضربه يتضمن قياس الأول- يعني إذا كان المملوك فيكم له مُلّاك مشتركون فيه، وهم متنازعون، ومملوك آخر له مالك واحد، فهل يكون هذا وهذا سواء، فإذا كان هذا ليس عندكم كمن له رب واحد، ومالك واحد، فكيف ترضون أن تجعلوا لأنفسكم آلهة متعددة تجعلونها شركاء لله، تحبونها كما تحبونه،

وتخافونها كما تخافونه، وترجونها كما ترجونه»(١).

فشتان بين المشرك الذي هو مضطرب قلق متذبذب متشعب القلب بين عدة معبودات، وبين المؤمن المخلص المطمئن الذي يعبد الله وحده لا شريك له، وشتان بين الشرك والتوحيد، وبين الموت والحياة، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ لما بيّن أتم بيان أنه لا يستوي المشرك والمؤمن المخلص بحال من الأحوال، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾، أي: الحمد لله على إقامة الحجة وبيان المحجة، وظهور الحق، وزهوق الباطل.

فالحمد التام والوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم مستحق لله تعالى وحده، وخاص به.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر الناس لا يعلمون ذلة المشرك، وبطلان الشرك، وعزة المؤمن المخلص، وأحقية التوحيد.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إنك لا بد أن تموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ آل عمران:١٤٤ وفي الحديث: «**يا محمد عش ما شئت فإنك ميت**»(٢).

﴿وَإِنَّهُم﴾، أي: المكذبون لك، وجميع الخلائق ﴿مَّيِّتُونَ﴾، أي: لا بد أن يموتوا.

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥] [الأنبياء:٣٥] [العنكبوت:٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٥٩.

(٢) سبق تخريجه.

ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

قال الشاعر:

فهـــن المنايـــا أي واد ســـلكته عليهـا طريقـي أو عـليّ طريقهـا(١)

وأكدت جملتا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مع أن الموت حق؛ لأن عمل كثير من الناس عمل من لم يوقن بالموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أنت وإياهم، وجميع الخلائق ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، أي: تجتمعون وتختصمون عند ربكم فيما اختلفتم فيه في الدنيا، من التوحيد والشرك، وغير ذلك، بين يدي الله عز وجل فيفصل ويفتح بينكم بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي الله رسوله والمؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين المشركين المكذبين وفي هذا تسلية وطمأنة له ﷺ، وتحذير وتهديد للمشركين.

عن عبدالله بن الزبير عن أبيه رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ بعد الذي كان بيننا في الدنيا، قال: «**نعم**». فقال: إن الأمر إذًا لشديد»(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر:٨] قال الزبير: يا رسول الله، فأي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «**أما إنه سيكون**»(٣).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول الخصمين يوم القيامة: جاران**»(٤).

قوله تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ١٥.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٣٢٣٦، وأحمد ١/ ١٦٧، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التكاثر ٣٣٥٦، وأحمد ١/ ١٦٤، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٥١.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاستفهام: للنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: أشد ظلمًا ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: من الذي كذب على الله بنسبة الشريك والصاحبة والولد له، والقول على الله بلا علم.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ﴾ معطوف على قوله: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن كذب على الله، وممن كذَّب بالصدق إذ جاءه.

أي: وكذب بالحق حين جاءه في كتب الله تعالى وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

فمن اتصف بهذين الوصفين، فقد جمع بين قول الباطل، ورد الحق، وهذا أظلم الظلم؛ ولهذا قال تعالى متوعدًا ومهددًا لهم:

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس في جهنم مأوى ومسكن ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: للجاحدين المكذبين.

والجواب: بلى، فيها مثوى ومأوى ومصير لهم، وبئس المصير.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: أليس في جهنم مثوى له، بل قال: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لإثبات وصفهم بالكفر، وعموم هذا الوعيد لهم ولغيرهم من الكافرين، وبيان علة استحقاقهم هذا الوعيد وهي كفرهم.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في قوله، وهم الأنبياء وأتباعهم المؤمنون.

﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾، أي: صدق بالصدق الذي قامت البينة على صدقه، كما قال ﷺ: «**وأشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**»(١).

فقد جاء بالتوحيد وشهد به، وصدق أنه رسول الله.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- من لقي ربه بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة ٢٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ذُكر له ما أخبر به الرسول ﷺ مما رآه ليلة الإسراء، قال: «إن كان قد قال ذلك فهو صادق»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: أولئك الذين جمعوا بين الأمرين: قول الصدق والحق، والتصديق به، هم المتقون دون غيرهم، أي: الذين اتقوا الله فانقادوا لأمره واجتنبوا نهيه، وخافوا عذابه.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: لهم خاصة الذي يشاءونه عند ربهم في الجنة، من ألوان النعيم، وأصناف اللذات، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣١-٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإشارة إلى إعطائهم ما يشاءون عند ربهم في الجنة.

أي: ذلك جزاء وثواب الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعةً لرسله عليهم الصلاة والسلام، وأحسنوا إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا.

والحكمة من الإظهار في قوله: ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دون الإضمار، فلم يقل ذلك جزاؤهم؛ لمدحهم والثناء عليهم بهذا الوصف، وليشمل هذا الجزاء كل من كان من المحسنين غيرهم، ولبيان السبب في مجازاتهم بهذا الجزاء، وهو إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: اتقوا الله لأجل أن يكفر الله عنهم، أي: يتجاوز ويمحو عنهم.

﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، أي: أشد الذي عملوه سوءًا، وهذا يشمل المعاصي كلها، فيكفرها الله ويتجاوز عنها، بسبب تقواهم وإحسانهم، فإذا كفر عنهم أسوأ الذي عملوا فتكفيره لما دونه من باب أولى.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» ١/ ٣٩٩.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾، أي: ثوابهم على ما عملوا من الحسنات .

﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: بأحسن جزاء الذي كانوا يعملون، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٦].

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان على الناس بضرب الأمثال المتنوعة لهم في القرآن؛ لتقريب المعاني وإيضاحها، وبيان الحق، وإقامة الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

٢- أن القرآن الكريم أنزل للناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥].

٣- أن الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن، وتقريب المعاني وإيضاحها: أن يفهم الناس معاني القرآن فيعتبروا ويتعظوا ويعملوا به؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٤- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ﴾، وفي هذا الرد على من ينكرون حكمة الله تعالى، ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة كالجهمية ونحوهم.

٥- امتداح القرآن، والامتنان على العباد من العرب وغيرهم بكونه عربيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

٦- اعتدال القرآن، وسلامته من أيّ عوج وانحراف، ومن أيّ خلل واضطراب في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه ومواعظه، وأخباره، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾.

٧- أن الحكمة في إنزال القرآن الكريم عربيًّا، قيمًا، غير ذي عوجٍ؛ لأجل دعوة الناس إلى تقوى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٨- أنه لا يستوي رجل مملوك لعدة شركاء متنازعون فيه، كل يريد منه غير ما يريده الآخر، فهو مضطرب متشتت بينهم لا يدري من يُرضي، ومن ينفذ أمره منهم.

لا يستوي هذا مع رجل مملوك لمالك واحد، لا مشارك له فيه، يعرف ما يريده منه مالكه، وينفذه فهو مطمئن مرتاح البال؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾.

٩- أنه لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي يعبد الله وحده، وشتان بينهما، فالمشرك متذبذب متشعب القلب بين الشركاء، والمؤمن مطمئن؛ لأنه يعبد الله وحده لا شريك له.

١٠- بلاغة القرآن الكريم وإعجازه في ضرب الأمثال.

١١- اختصاصه عز وجل، واستحقاقه لكمال الحمد؛ لإقامته الحجة وبيانه للمحجة، وإظهار الفرق الشاسع والبون الواسع بين التوحيد والشرك، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾.

١٢- إثبات الرق، وفق سببه الشرعي، وأحكامه.

١٣- أن أكثر المشركين، بل أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وهو معرفة الله، وما يجب له، والعلم بوحدانيته، والفرق بين الشرك والتوحيد؛ ولهذا يقعون في الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

١٤- أن كل نفس ذائقة الموت، والموت سبيل كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

١٥- اختصام الخلائق يوم القيامة عند ربهم فيما اختلفوا فيه في الدنيا، من التوحيد والشرك وغير ذلك، فيفصل عز وجل بينهم بالحق، فينجي الرسول والمؤمنين، ويعذب الكافرين، وفي هذا تسلية وطمأنة له ﷺ، وتحذير وتهديد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾.

١٦- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والحساب والجزاء على الأعمال.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ﴾.

١٨- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والصاحبة والولد، وغير ذلك، أو كذب بالصدق والحق لم جاءه، في كتب الله تعالى، وعلى ألسنة رسله عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾.

١٩- اختلاف مراتب الكفر والذنوب، وأنها تتفاوت، وبعضها أعظم وأشد من بعض، ومثل ذلك الإيمان والحسنات، فالإيمان يزيد وينقص والحسنات تتفاضل.

٢٠- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه بنار جهنم والخلود فيها، والتحذير من ذلك أشد التحذير؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾، ومفهوم هذا أن غير الكافرين، من عصاة المؤمنين لا يخلدون فيها.

٢١- أن من كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه كافر ومصيره النار.

٢٢- فضيلة من جاء بالصدق وصدق به والثناء عليه بوصف التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

٢٣- عظم ما أعد الله من الثواب للمتقين الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾.

٢٤- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَشَآءُونَ ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه من الرسل وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ﴾.

٢٦- التنويه بجزاء المتقين الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به، والثناء عليهم بوصفهم بالمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

٢٧- أن هذا الجزاء لكل من كان من المحسنين؛ لأن الحكمة من الإظهار بدل الإضمار امتداح المذكورين بذلك، وبيان أن هذا الجزاء لهم ولكل من كان من المحسنين، وبيان سبب استحقاقهم له، وهو كونهم من المحسنين، وفي هذا ترغيب بالإحسان.

٢٨- وعد الله تعالى بتكفير سيئاتهم ومحوها، والتجاوز عنها، وجزائهم بأحسن الذي كانوا يعملونه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم

بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وذلك بمضاعفة أجورهم.

٢٩- تكفل الله عز وجل بثواب المحسنين، وإيجابه ذلك على نفسه فضلًا منه وكرمًا؛ لهذا سماه أجرًا، مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل فمن أحسن العمل أُحسن له الجزاء.

٣١- أن الأعمال منها ما هو أسوأ، وهي المعاصي كلها، ومنها ما هو أحسن، وهي الطاعات كلها، ومنها ما هو بين ذلك، لا أسوأ ولا أحسن، وهي المباحات كلها، التي لا ثواب عليها ولا عقاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف: ﴿عباده﴾ بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿عبده﴾ بالإفراد.

والاستفهام: للتقرير، أي: بلى، إن الله كاف عبده ورسوله ﷺ، وكل من عبده

وتوكل عليه، أي: حافظ لنبيه ﷺ ومتوليه وناصره، ولكل مؤمن عبد الله وتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧].

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه**»(١).

وفي وصفه عز وجل لرسوله بقوله: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ دون أن يقول «رسوله» دلالة على أن العبودية أشرف وصف يتصف به البشر، إضافة إلى شمول هذا الوصف لكل عبد مخلص لله.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: ويخوفك يا محمد المشركون ويتوعدونك ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: بالذين يعبدون من دونه من الآلهة والأصنام، وبأوليائهم من شياطين الجن والإنس وذوي السلطان فيهم، أن يقتلوك أو ينالوا منك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥] وذلك جهل منهم وضلال؛ ولهذا قال:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، أي: يكتب عليه الضلال كونًا وقدرًا.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، أي: فما له أيُّ هادٍ يهديه بعد إضلال الله تعالى له، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣].

ولهذا حرص ﷺ غاية الحرص على هداية عمه أبي طالب لِما أسداه إليه من الأيادي البيضاء في كفالته، وذود المشركين عنه فلم يستطع هدايته، ومات وهو يقول: «بل على ملة عبد المطلب»، وأنزل الله تعالى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦](٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة القصص ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، ٤٧٧٢، ومسلم في الإيمان- الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥- من =

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ ﴾، أي: يكتب له الهداية كونًا وقدرًا ويوفقه.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: فما له أيّ مضل يضله بعد هداية الله تعالى له، كما جاء في حديث خطبة الحاجة: «من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له»(١).

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس الله بعزيز، أي: قوي قاهر غالب، له العزة التامة، منيع الجانب، فلا يضام من لاذ بجنابه، ولجأ إلى بابه.

﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ ذي: بمعنى: صاحب، أي: ذي انتقام شديد ممن كفر وأشرك به وعصاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:٤].

والجواب: بلى هو سبحانه عزيز ذو انتقام.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن سألت هؤلاء المشركين من الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهما من العدم على غير مثال سبق؟ والخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الذي خلقهن الله وحده، فيعترفون بأن الله هو الخالق وحده، ويقرون بتوحيد الربوبية، وهم مع ذلك يعبدون مع الله آلهة أخرى، لا تخلق شيئًا ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، أي: إذا أقروا أن الذي خلق السموات والأرض هو الله، فاسألهم سؤالًا آخر ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم ﴾ الهمزة: للاستفهام، أي: أخبروني، ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذين تدعون وتعبدون غير الله من

=

حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٨، والنسائي في النكاح ٣٢٧٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٣ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأصنام والأنداد، أي: أخبروني عنها.

﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتنوين: ﴿كاشفاتٌ﴾ و﴿ممسكاتٌ﴾، ونصب ﴿ضره﴾، و﴿رحمته﴾.

وقرأ الباقون بغير تنوين فيهما وخفض ضره ورحمته بالإضافة: ﴿كاشفات ضره﴾، و﴿ممسكات رحمته﴾.

أي: إن أرادني الله كونًا وقدرًا ﴿بِضُرٍّ﴾، «ضر»: نكره في سياق الشرط، تفيد العموم، أي: بأيِّ ضر كان، من مرض أو فقر، أو غير ذلك.

﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ «هل»: للاستفهام في الموضعين أي: هل هذه المعبودات التي تدعونها من دون الله ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، أي: مزيلات ضره الذي أراده عز وجل بي؟

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أو أرادني كونًا وقدرًا برحمة، ساق إليّ بسببها خيرًا، في ديني أو دنياي.

﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: هل هذه المعبودات والآلهة مانعات رحمته عني؟

والجواب عن هذا وذاك: سيقولون: لا تستطيع هذه الآلهة والمعبودات كشف ضر أراده الله بالعبد، ولا إمساك رحمة أرادها الله للعبد؛ لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئًا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف**»(١).

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾، أي: كافيني كل شيء، فلا يهمني ما تخوفونني به من الذين تدعونهم من دونه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ١/ ٣٠٧، ٣٠٨- وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٦٢].

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: عليه وحده يعتمد المعتمدون في جلب كل خير، ونفع، ودفع كل شر وضر- مع تمام الثقة به عز وجل؛ لأنه القادر على ذلك وحده.

كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦].

روى محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس- رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: «**من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله**»(١).

والله أعلم بصحة هذا، لكن معناه صحيح، والأقرب وقفه على ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ الذين كذبوه وعاندوه من قومه.

﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على ما أنتم عليه، وعلى حالتكم التي اخترتموها ورضيتموها لأنفسكم، من الكفر والشرك بالله، والعداوة والإيذاء.

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾، أي: إني عامل على مكانتي وما أنا عليه من عبادة الله تعالى وحده، والدعوة إلى ذلك، ولن أبالي أو أهتم بكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد وتهديد لهم، أي: فسوف تعلمون غب ذلك ووباله، ولمن تكون العاقبة.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب مفعول لـ«تعلمون»، أي: فسوف تعلمون الذي ﴿يَأْتِيهِ﴾ في الدنيا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٥٢.

﴿عَذَابٌ﴾ التنوين في الموضعين: للتعظيم ﴿يُخْزِيهِ﴾، أي: يذله ويهينه في الدنيا، كما جعل لهم يوم بدر، حيث قتل أشرافهم، وسحبوا وألقوا في قليب بدر، وأسر منهم من أسر.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: مستمر دائم وهو عذاب النار.

وهكذا قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود:٣٩].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن الكريم، أفضل كتب الله عز وجل ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: لهداية جميع الناس، وبشارتهم وإنذارهم، وإقامة الحجة عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: متلبسًا بالحق، مصاحبًا له. وقد سبق الكلام على هذا في الكلام على قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢].

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمن اهتدى بهدي هذا الكتاب ونوره.

أي: استرشد به فعلم وعمل، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]،

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فاهتداؤه لنفسه، أي: فإنما يعود نفع اهتدائه لنفسه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾، أي: تنكب الطريق بعد ما تبين له الهدى.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: فإنما يرجع وبال ضلاله على نفسه.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وما أنت على الخلق بوكيل تلزمهم أن يهتدوا، أو تراقبهم، وتحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥].

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، أي: الله وحده الذي يقبض الأنفس والأرواح حين موتها، الموتة الكبرى، بإرسال ملك الموت وأعوانه من الملائكة لقبضها من الأبدان.

﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، بالنوم، وهو الموتة الصغرى.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿قُضِيَ﴾ بضم القاف، وكسر الضاد وفتح الياء، و﴿الموتُ﴾ بالرفع.

وقرأ الباقون بفتح القاف والضاد، فتصير الباء ألفًا، ونصب الموت: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾.

أي: فيقبض التي قضى كونًا عليها الموت، أي: التي حضر أجلها، فلا ترجع إلى جسدها، إلى أن يأتي البعث.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، أي: النفس الأخرى التي لم يحضر أجلها.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت محدد معين بعد استكمال رزقها وعملها وأجلها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ

وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ [الأنعام:٦٠، ٦١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط»(١).

وكلام المفسرين على الآية على قولين:

القول الأول: أن المُمسَكة هي من توفيت وفاة الموت أولًا، والمرسلة من توفيت وفاة النوم.

والمعنى على هذا القول: أنه يتوفى نفس الميت، فيمسكها ولا يرسلها إلى جسده قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسده إلى بقية أجلها، فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية: أن الممسكة والمرسلة كلاهما قد توفي وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده، فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمله ردها إلى جسدها لتستكمله.

واختار ابن تيمية هذا القول، ورجح ابن القيم القول الأول(٢)؛ وهو الأظهر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل: باسمك اللهم ربي وضعت جنبي، وباسمك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾، أي: إن في توفّيه عز وجل الأنفس حين موتها وإمساكه إياها، وإرسال التي لم تمت في منامها إلى أجل مسمى، دلائل على عظمته، وكمال تصرفه، وتمام قدرته على إحياء الموتى، وغير ذلك.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات- التعوذ ٦٣٢٠، ومسلم في الذكر- ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٧١٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٥٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٠١، وابن ماجه في الدعاء ٢٨٧٤.

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: يُعملون أفكارهم وعقولهم في آيات الله، ويتأملون فيها.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ «أم» هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل اتخذ هؤلاء المشركون غير الله شفعاء من الأصنام والأنداد، يعبدونهم مع الله، يرجون شفاعتهم في زعمهم، ويقولون: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣].

و﴿شُفَعَاءَ﴾: جمع «شفيع»، و«الشفيع»: من يتوسط لغيره بجلب نفع أو دفع ضر.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء من الأصنام والأنداد أتتخذونهم شفعاء، وتزعمون أنهم يشفهون لكم، والحال أنهم لا يملكون شيئًا.

و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا يملكون أيّ شيء، لا شفاعة ولا نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا.

﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: ولا عقول لهم، فلا يعقلون شيئًا من العقل، ولا شيئًا من الأشياء، فلا يعقلون عبادتكم لهم، ولا يعقلون شفاعة ولا غيرها، ولا أسماع لهم، ولا أبصار، بل هم جمادات أسوأ حالًا من الحيوان، كما قال الخليل عليه السلام لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم:٤٢].

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

بعدما أنكر عليهم اتخاذهم من دون الله شفعاء وهم لا يملكون شيئًا ولا يعقلون بيَّن أن لله وحده الشفاعة جميعًا.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: قل لله تعالى وحده ملك الشفاعة جميعًا، فهو وحده الذي يملك الإذن فيها، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ورضاه.

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦] .

فلا بد في الشفاعة من إذن الله للشافع، ورضاه عنه وعن المشفوع له.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: له وحده ملك السموات والأرض، وله الخلق والأمر كله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] .

فله عز وجل ملك السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: تردون يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلًا منكم بعمله.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا قيل: لا إله إلا الله، وذكرت وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: كرهت ذلك قلوبهم أشد الكراهية، ونفرت وانقبضت واستكبرت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات:٣٥].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة ولا يقرون بالبعث والحساب والجزاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩]، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧]، وقالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: وإذا ذكر غيره من الأصنام والأنداد، وأُثني عليهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

«إذا» هي الفجائية، أي: إذا هم يفرحون ويسرون.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ

لَافْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: قل داعيًا: يا الله يا فاطر السموات والأرض، أو يا فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: عالم ما غاب عن أبصار الخلائق وحواسهم، وعلمهم، وعالم ما يشاهدونه ويعلمونه، أي: عالم السر والعلانية.

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، أي: أنت وحدك تفصل بين عبادك عامة يوم القيامة.

﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: في الذي كانوا في الدنيا فيه يختلفون من التوحيد والشرك والبعث والحساب، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج:١٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

فله عز وجل الحكم الجزائي بين عباده يوم القيامة، كما أن له الحكم الشرعي بينهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠].

كما أن له الحكم الكوني في الدنيا والآخرة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا افتتح صلاته من الليل قال: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والشرك والمعاصي، أي: ولو ثبت أن للذين ظلموا.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧.

﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: الذي في الأرض جميعًا مما يملك، من ذهب وغيره، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾، أي: ولهم مثله معه.

﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لقدموه ودفعوه كله فدية ونظير الخلاص.

﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: من شدة العذاب يوم القيامة، أو من العذاب السيئ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد:١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران:٩١].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: وظهر لهم من الله الذي لم يكونوا يحتسبونه، أي: الذي لم يكونوا يظنونه ويتوقعونه، وما لم يكن في حسبانهم، من السخط العظيم، والمقت الشديد، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك، من أن لهم المنزلة عند الله، أو أن الأصنام تشفع لهم ونحو ذلك.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: وظهر لهم سيئات الذي كسبوا، أو سيئات كسبهم، أي: وظهر لهم جزاء سيئات ما كسبوا في الدنيا من الموبقات والآثام، أي: الجزاء الذي يسوءهم؛ لسوء عملهم، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: وأحاط بهم من كل جانب، وألمّ ونزل بهم من العذاب.

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي كانوا به يستهزئون، في الدنيا، أي: يسخرون ويكذبون، ويقولون: لا بعث، ولا حساب ولا جزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير كفايته عز وجل لعبده ورسوله محمد ﷺ وتوليه ونصرته له، ولكل عبد أخلص لله تعالى وتوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

٢- أن العبودية لله تعالى أشرف وصف يتصف به البشر؛ لهذا وصف به رسوله ﷺ.

٣- كمال قوته عز وجل، وتمام قدرته، وعظيم عنايته ودفاعه عن رسله وعباده المؤمنين، وكفايته وحفظه لهم.

٤- تخويف المشركين له ﷺ ولأتباعه بمعبوداتهم من دون الله من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٥- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾.

٦- أن من يضلله الله كونًا وقدرًا فلا هادي له؛- لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٧- أن من يهده الله كونًا وقدرًا فلا مضل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، وهذا يوجب طلب الهداية وسؤالها من الله وحده.

٨- الرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يستقلون بخلق أفعالهم، ومشيئتها دون الله تعالى.

٩- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء في الأزل قبل خلق السموات والأرض.

١٠- تقرير وإثبات كمال عزته عز وجل وقوته وقهره وغلبته وانتقامه ممن عصاه، وتهديد المكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

١١- إقرار المشركين بربوبية الله تعالى وأنه هو الذي خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

١٢- الإنكار عليهم كيف يدعون ويعبدون آلهة من دونه- مع إقرارهم بربوبيته وخلقه السموات والأرض، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى:

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟

١٣- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، والتي هي بمعنى المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾.

١٤- أن ما يعبده المشركون من دون الله من المعبودات لا تستطيع كشف ضر أراده الله بالعبد، ولا منع رحمة أرادها الله له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، أي: لا تستطيع جلب نفع ولا دفع ضر.

١٥- كفايته عز وجل لنبيه ﷺ وحفظه ونصره له، وعنايته به، وتمام توكله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ الآية.

١٦- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه وحده في جلب النفع ودفع الضر- مع تمام الثقة به، وأنه الكافي لكل من توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ﴿٣٨﴾﴾.

١٧- أمر الله تعالى له ﷺ بمتاركة المشركين يعملون على ما هم عليه، وعمله على ما هو عليه؛ تحديًا لهم، وإظهارًا لعدم مبالاته وعدم اهتمامه بهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾، وهكذا ينبغي لصاحب الحق الاعتزاز بما هو عليه من الحق، وعدم الاهتمام بمن خالفه وخذله- وفي هذا تسلية له ﷺ.

١٨- تهديده للمشركين وتوعده إياهم بعذاب الدنيا المذلِّ المهين، وعذاب الآخرة الأليم المقيم؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

١٩- شدة وقع ألم العذاب المعنوي على النفوس من الخزي والإهانة والإذلال وأنه قد يفوق العذاب الحسي؛ لأنه ينصب على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٢٠- إثبات النار وعذابها، وأنه أبدي سرمدي؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

٢١- إثبات رسالته ﷺ وإنزال الكتاب عليه، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى

له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ بالحق، فطريق وصوله إليه حق، لم يتطرق إليه الباطل، وهو مشتمل على الحق في دعوته وأخباره وأحكامه، وبه قامت الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا﴾.

٢٤- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى منزل غير مخلوق، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٢٥- عظمة القرآن وفضله؛ لإطلاق اسم «الكتاب» عليه بالتعريف؛ لأنه أعظم كتب الله تعالى، وأفضل الكتب على الإطلاق.

٢٦- أن القرآن أنزل لجميع الناس، ورسالته ﷺ عامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾.

٢٧- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ بالحق، فطريق وصوله إليه حق، لم يتطرق إليه الباطل، وهو مشتمل على الحق، في دعوته وأخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٨- أن من اهتدى بهدي القرآن ونوره فنفْع هدايته لنفسه، ومن ضل عنه فإنما ضرر ضلاله على نفسه، والله غني عن الخلق، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ وفي هذا رد على الجبرية؛ لأن الله أضاف الاهتداء والضلال إلى العبد.

٢٩- قيام الحجة بهذا القرآن على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ الآية.

٣٠- تسلية النبي ﷺ، وإخباره أنه ليس بوكيل يلزمهم الهداية، أو يحصي عليهم أعمالهم، ويحاسبهم عليها، فذلك إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

٣١- عظمة سلطان الله، وعموم تدبيره، وتصرفه في أنفس العباد حال يقظتهم

ومنامهم، وحياتهم وموتهم، يتوفى نفس من قضى عليه الموت فيمسكها، ويتوفى التي لم تمت بالنوم ثم يرسلها إلى جسدها إلى أجل موتها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾.

٣٢- أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله تعالى فيها بالوفاة والإمساك والإرسال(١).

٣٣- أن النوم يسمى وفاة، وهو الوفاة والموتة الصغرى؛ ولهذا لا يؤاخذ النائم بعمله، وفي الحديث: «**رفع القلم عن ثلاثة**»: وذكر منهم «**النائم حتى يستيقظ**»(٢).

٣٤- أن كل نفس ذائقة الموت، ولكل نفس أجل مسمى ووقت محدد لموتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾.

٣٥- أن في توفيه عز وجل الأنفس حين موتها، وإمساكه إياها، وإرساله التي لم تمت في منامها إلى أجل مسمى دلائل على عظمة الله تعالى، وكمال تصرفه، وتمام قدرته على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٣٦- الحث على التفكر والتأمل في الآيات؛ لأنه لا ينتفع بالآيات إلا الذين يتفكرون ويتأملون فيها.

٣٧- الإنكار على المشركين وتسفيههم في اتخاذهم من دون الله شفعاء، من الأصنام والأوثان، الذين لا يملكون أي شيء، ولا يعقلون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

٣٨- إثبات الشفاعة، وأنها كلها لله جميعًا، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ورضاه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾.

٣٩- أن له عز وجل خاصة ملك السموات والأرض، وهو عز وجل الخالق

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤٧٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٩٨، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٢، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤١- من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمدبر لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤٠- أن مرجع الخلائق كلهم ومردهم إلى الله عز وجل، إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٤١- اشمئزاز ونفور الكفار الذين لا يصدقون بالآخرة من ذكر الله وحده؛ لشدة كراهتهم لذكر الله وتوحيده، واستبشارهم وفرحهم عند ذكر الذين يعبدونهم من دونه من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٤٢- إثبات الدار الآخرة والقيامة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٤٣- التوسل إلى الله تعالى بأفعاله، بكونه مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سبق، عالم ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم، وعن علمهم، وعالم ما يشاهد، الذي يحكم بين العباد يوم القيامة ويفصل بينهم، فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

٤٤- إثبات عموم خلق الله، وعموم علمه، وعموم حكمه.

٤٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾.

٤٦- شدة عذاب الظالمين، حتى أنه لو كان لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه لقدموه فدية مقابل الخلاص من سوء عذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٤٧- أنه في ذلك اليوم يظهر للظالمين من الله ما لم يكونوا يظنون ويتوقعون وما لم يدر في حسبانهم من شدة غضبه عز وجل وسخطه عليهم، وشدة عذابه، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

٤٨- ظهور جزائهم السيئ على سيئات كسبهم من الموبقات والآثام؛ لقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾.

٤٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ ولم يقل: جزاء سيئات ما كسبوا- مع أن المراد هو الجزاء.

٥٠- إثبات الكسب للإنسان، والرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله لا اختيار له.

٥١- إحاطة الذي كانوا يسخرون به من العذاب في الدنيا بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: فإذا أصاب الإنسان الذين لا إيمان عنده ﴿ضُرٌّ﴾ من مرض أو فقر، أو شدة أو كرب، ﴿دَعَانَا﴾، أي: دعا الله تعالى وأناب إليه، وتضرع إليه؛ فيكشف عنه ما أصابه من ضر.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾، أي: ثم إذا أعطيناه نعمة منا، فكشفنا ما أصابه من ضر، ومنحناه نعمة منا وخيرًا.

﴿قَالَ﴾ كافرًا بالله منكرًا نعمة الله عليه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾، أي: إنما أعطيته وخوّلته من النعمة من زوال الضر عني، وحصول الخير لي.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾، أي: على علم من الله أني أهل لذلك، ومستحق له، أو على علم مني وحذق ومعرفة بوجوه المكاسب وتحصيلها، وسواء كان هذا أو هذا أو كلاهما، فهذا

كله من كفر النعمة ونكران فضل الله تعالى، والاعتداد بالنفس، ونسبة ما أسداه إليه، استحقاقًا أو حذقًا.

وهذه حال الإنسان وطبيعته يضرع إلى الله وينيب إليه ويدعوه في حال الضراء، ويطغى في حال السراء، إلا من هداه الله ووفقه، بل إن من الناس من يطغى حتى في حال الضراء.

﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي، ﴿هِيَ﴾، أي: تخويلنا إياه النعمة ﴿فِتْنَةٌ﴾، أي: ابتلاء واختبار وامتحان له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] أي: ليس الأمر كما زعم، بل خولناه هذه النعمة لنختبره ونبتليه أيشكر أم يكفر، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة فيما يقدره الله للإنسان، وأن المنحة والنعمة قد تكون فتنة واستدراجًا، وابتلاء ومحنة، كما أن المحنة قد تكون منحة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر:١٥-١٧].

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلى الله بعض القوم بالنعم[1]

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: قد قال مقالتهم: «إنما أوتيته على علم»، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف قبلهم من الأمم، وتوارثوها بينهم، يكفرون نعم ربهم ولا يشكرونها، حتى أهلكوا، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم عذاب الله ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، أي: كسبهم أو الذي يكسبونه من الأموال والأعمال والدعوى الباطلة، حين حل بهم عذاب الله وعقابه، كما قال تعالى مخبرًا عن قارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٦-٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ﴾، أي: فحل بهم جزاء وعقوبات سيئات كسبهم، أو سيئات الذي كسبوه، من الكفر والشرك والمعاصي.

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين للنبي ﷺ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾، أي: سيصيبهم جزاء سيئات ما كسبوا، ويحل بهم من العقوبات مثل ما حل بالذين من قبلهم، وهذا تهديد ووعيد لهم؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: وما هم بمعجزين الله، ولا فائتين ولا مفلتين من عذابه ولا سابقيه.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾.

لما ذكر اغترار كثير من الخلق من السابقين واللاحقين بما آتاهم الله من نعمة المال وغير ذلك، وأنهم إنما أوتوا ذلك على علم من الله بأهليتهم واستحقاقهم لذلك، أو لحذقهم ونحو ذلك، أنكر عز وجل عليهم ذلك، وأخبر أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء لحكمة يعلمها، لا لكون هذا أهلًا للرزق، وهذا ليس له بأهل.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ الاستفهام: للإنكار والتقرير، أي: أو لم يعلم هؤلاء الذين يزعمون أن الله خولهم النعم وآتاهم إياها على علم منه أنهم لها أهل، أو لحذقهم ومهارتهم في الكسب ونحو ذلك.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، أي: يوسع الرزق والعطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: للذي يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾، أي: ويقدر الرزق، أي: يضيقه على من يشاء منهم، من مؤمن وكافر، وصالح وطالح، وحاذق وأخرق.

كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ

مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في بسطه عز وجل الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء ﴿لَآيَاتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالات واضحات على سعة فضل الله تعالى وحكمته.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون بقلوبهم بما جاءهم من الحق وينقادون له بجوارحهم، ويصدقون بأن لله الحكمة في بسط الرزق أو تضييقه على من يشاء من عباده من مؤمن وكافر.

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان:٦٨] ونزل: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ﴾»(١).

﴿۞ قُلْ﴾، أي: قل يا محمد مبلغًا عن الله تعالى قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٠، ومسلم في الإيمان- كون الإسلام يهدم ما كان قبله ١٢٢، والنسائي في التحريم- تعظيم الدم ٤٠٠٣.

أَنفُسِهِمْ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بإسكان ياء الإضافة ﴿يا عباديْ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

و«الإسراف»: مجاوزة الحد، أي: الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فالمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تيأسوا من رحمة الله، وقبوله توبة من تاب وأناب إليه، ومغفرة ذنوبه، مهما عظمت وكثرت، والقنوط: أشد اليأس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾: تعليل للنهي السابق، أي: يستر الذنوب ويتجاوز عنها كلها من كفر وشرك وكبائر وغير ذلك لمن تاب وأناب إليه، فلا يستعظمه ذنب أن يغفره لمن تاب، ولا تتكاثره ذنوب مهما بلغت أن يغفرها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وقال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها**»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية**». فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «**ألا ومن أشرك**» **ثلاث مرات**»(٢).

فمن تاب من أيّ ذنب، وإن كان أعظم الذنوب، كالشرك بالله، ومهما بلغت ذنوبه، ولو كانت كزبد البحر، فإن الله يتوب عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٢١- من حديث عمرو رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٢٩.

لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾ [النساء:١٤٥، ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٣، ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج:١٠].

ودعا عز وجل إلى التوبة فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

فقال عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣، ٤٤]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٧-١٩].

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه في قصة «الذي قتل مائة نفس، ثم تاب، وتاب الله عليه»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجًا في سورة الغرف: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣] وإن أشد آية في كتاب الله تصريفًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]»(٢).

قال علي رضي الله عنه: «إن أرجة آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٩- ونسبه للطبراني، وأخرج الطبري بعضه في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٢٧.

ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣]»(١).

أما من مات ولم يتب فإن جميع ذنوبه تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفرها وإن شاء عذبه بها، ما عدا الشرك بالله، فإنه لا يغفر إذا مات صاحبه من غير توبة، وصاحبه خالد مخلد في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: تعليل لما قبله، أي: لأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة، والرحمة الواسعة. والجملة مؤكدة بـ«إن»، وضمير الفصل «هو».

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: توبوا وارجعوا إلى ربكم، وأخلصوا له بقلوبكم، ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾، أي: أخلصوا له العمل، واستسلموا له، واخضعوا وانقادوا له بجوارحكم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ «أن» والفعل بعدها في الموضعين في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى «قبل» أي: من قبل إتيان العذاب من الله.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: ثم لا تمنعون من عذاب الله، أي: ثم لا أحد ينصركم بعد مجيء العذاب إليكم، لأن عذاب الله ليس له دافع، ولا مانع، ولا رافع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، أي: واتبعوا أحسن الذي أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن الكريم، أي اعملوا به باطنًا وظاهرًا، عقيدة وقولًا وعملًا. و«أحسن»: اسم تفضيل مستعمل في كامل الحسن، أي: أحسن ما أنزل إليكم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحِكَمه ومواعظه، وأخباره وآثاره وغير ذلك.

وليس في معنى تفضيل بعضه على بعض، وقد يحمل «أحسن» على الأخذ بالعزيمة بفعل المندوب مع الواجب، وعدم الاكتفاء بالواجب.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾، أي: فجأة، وعلى غرةٍ.

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٣٢٣.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: وأنتم لا تعلمون بمجيئه ولا تحسون به، وعنه غافلون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿يا حسرتايَ﴾ بياء مفتوحة بعد الألف، وقرأ الباقون: ﴿يا حسرتا﴾ بدون ياء.

أي: بادروا إلى الإنابة إلى ربكم والاستسلام له، واتباع أحسن ما أنزل إليكم من ربكم؛ قبل أن تقول، أو لئلا تقول نفس: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾، أي: يا ندامتي الشديدة، وأسفي وحزني.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾، أي: على الذي ضيعت وأهملت ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، أي: في حقه وطاعته.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ «إن»: مخففة من الثقيلة، واللام: للتوكيد، أي: وإن كنت في الدنيا لمن المستهزئين بالله وآياته ورسله، وبالحق وأهله، وبالعذاب والوعيد.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٩، ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ [ص:٦٢، ٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ «أو»: عاطفة في الموضعين، أي: أو تقول نفس.

﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ للتمني، «لو»: شرطية غير جازمة، أي: لو ثبت أن الله هداني، أي: وفقني:

﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾: جواب الشرط.

«لو»، واللام: واقعة في جواب الشرط، أي: لكنت من المتقين الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فأسلم من العذاب وأستحق الثواب.

وهذا احتجاج منهم بالقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة.

وجوز بعضهم أن تكون «لو» للتمني، أي: ليت أن الله هداني فكنت من المتقين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فتكون عليه حسرة. قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني**»(١).

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾، أي: أو تقول نفس حين ترى العذاب، أي: حين تشاهد العذاب عيانًا، وتجزم بوروده: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ «لو»: للتمني، أي: ليت أن لي كرة، أي: رجعة إلى الدنيا.

﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فأكون من الذين أحسنوا بالإنابة إلى الله تعالى، والإخلاص له، والاستسلام له، واتباع شرعه، والإحسان في عبادته، وإلى عباده.

وهيهات لهم الرجوع، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٧، ٢٨].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبر الله ما العباد قائلوه قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ إلى ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: من المهتدين، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

وقال: «ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٣٦.

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ «بلى»: حرف جواب، يجاب بها عن النفي؛ لإثباته، والنفي هنا في قول هذه النفس المكذبة: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾؛ لأن هذا يتضمن أن الله لم يهدها؛ لهذا قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ الشرعية والكونية وحججي التي فيها الهداية والدلالة على الحق، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، أي: جحدتها، ولم تصدق بها ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ عن الانقياد لها واتباعها، أي: فكذبت ما جاء فيها من الأخبار، واستكبرت عن الانقياد لما فيها من الأحكام.

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بالله الجاحدين المنكرين لآياته وشرعه.

الفوائد والأحكام:

١- أن من طبيعة الإنسان التضرع إلى الله تعالى ودعائه في الضراء، وكفر نعمة ربه وإنكارها في السراء، بنسبتها إلى نفسه هو، وعدم شكر الله تعالى، إلا من هداه الله ووفقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾.

٢- أن الشر ليس إليه عز وجل، والخير كله بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾، مع أنه عز وجل هو الذي قدره، ونسب النعمة إلى نفسه عز وجل فقال: ﴿إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾.

٣- أن النعم كلها من الله تعالى هو جالبها ومقدرها، ومقدر النقم، وجميع المقادير.

٤- تميّز المؤمن عن غيره بالصبر، وعدم الجزع عند الضراء، مع التضرع إلى الله تعالى، والشكر عند السراء، وعدم الطغيان والبطر وكفر النعمة.

٥- أن الله يبتلي بالنعم كما يبتلي بالنقم، فتخويل الإنسان النعم مع كفره بها وإنكاره لها، قد يكون ابتلاءً واختبارًا له أيشكر أم يكفر؟ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾، أي: ابتلاءً واختبارًا له، وليس كما يزعم لاستحقاقه لها، أو لحذقه.

٦- أن أكثر الخلق لا يعلم أن منحه النعمة قد يكون فتنةً له، وابتلاءً، فيغتر بها.

٧- أن هذه المقالة ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾، وهذه الدعوى قد قالها الكفار الجاحدون لنعم الله تعالى من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

٨- أن قائلي هذه المقالة من الأمم السابقة لم ينفعهم، ولم يدفع عنهم عذاب الله ما كانوا يكسبونه من الأموال والأعمال والدعاوى الباطلة، وهكذا من جاءوا بعدهم لن تنفعهم هذه المقالة، ولا كسبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ.

٩- الرد على الجبرية الذين يقولون: إن عمل الإنسان ليس كسبًا له، فلا يضاف إليه؛ لأنه مجبر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾، ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾.

١٠- حلول العقوبات بالمكذبين السابقين بسبب سيئات ما كسبوه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

١١- الوعيد والتهديد للذين ظلموا من هذه الأمة بأنه سيصيبهم عقاب سيئات ما كسبوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل فمن أساء العمل فله العقاب الذي يسوءه.

١٣- كمال عدل الله تعالى بين السابقين واللاحقين بمجازاة كل منهم بكسبه.

١٤- أن الظالمين لن يعجزوا الله أو يسبقوه أو يفلتوا من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

١٥- تقرير وإثبات أنه عز وجل هو الرزاق، وأنه يبسط الرزق والعطاء لمن يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء من مؤمن وكافر، حاذق أو غير حاذق، وله الفضل والحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٧- أن في بسطه عز وجل الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء آيات واضحات ودلالات بينات على سعة ملكه، وتمام سلطانه وحكمته، لأهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٨- أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون دون من عداهم، وفي هذا ثناء عليهم وترغيب في الإيمان.

١٩- إثبات سعة رحمة الله تعالى ومغفرته، ووعده بمغفرة الذنوب لمن تابوا وأنابوا

إليه، مهما عظمت ذنوبهم وكثرت؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾.

٢٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢١- إثبات رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

٢٢- تحريم القنوط من رحمة الله تعالى؛ لنهيه عز وجل عن ذلك.

٢٣- أن الله لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه مهما عظم حتى الشرك بالله، الذي هو الحنث العظيم، وأعظم الذنوب، ولا يتعاظمه كثرة الذنوب، أن يغفرها، ولو بلغت عدد زبد البحر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**»(١).

وقال ﷺ: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفر لهم**»(٢).

٢٤- إثبات اسم الله تعالى: «الغفور»، وصفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: «الرحيم»، وأنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة، ذاتية وفعليه، عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٦- في اقتران اسميه عز وجل «الغفور» و«الرحيم» الوعد بزوال المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

٢٧- في تقديم «الغفور» على «الرحيم» إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

٢٨- وجوب إنابة العباد إلى ربهم والإخلاص له في القلوب، والاستسلام والانقياد له بالجوارح، والمبادرة بذلك، قبل حلول العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة- سقوط التوبة بالاستغفار ٢٧٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في الباب السابق ٢٧٤٨، والترمذي في الدعوات ٣٥٣٩، وأحمد ٥/ ٤١٤- من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾.

٢٩- أن عذاب الله تعالى إذا نزل، فلا ناصر منه ولا دافع له ولا رافع؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُم ﴾.

٣١- وجوب اتباع القرآن الكريم، والمبادرة إلى ذلك قبل حلول العذاب فجأة بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٣٢- أن القرآن الكريم أحسن ما نزل إلى العباد، في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره وآثاره، وغير ذلك، فهو أفضل كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

٣٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

٣٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، وغير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

٣٥- عظم منة الله تعالى ونعمته على هذه الأمة، وفضيلتها، حيث أنزل إليها أحسن كتبه وأفضلها.

٣٦- التحذير من حلول العذاب فجأة وعلى غرة، من غير شعور به ولا علم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾.

٣٧- تحسر المفرّط على تفريطه في جنب الله، وعلى سخريته بالله ورسله وآياته وبالمؤمنين، وبالوعيد والعذاب، وإقراره بذلك وندامته؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

٣٨- التحذير من التفريط في جنب الله، ووجوب طاعته، والقيام بحقه.

٣٩- تحريم السخرية بالله وآياته ورسله والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

٤٠- احتجاج المفرط في جنب الله بقضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

٤١- فضيلة التقوى، وأنها سبب للنجاة من العذاب، والفوز بالثواب.

٤٢- تمني المفرط في جنب الله عند رؤية العذاب الرجوع إلى الدنيا؛ ليكون من المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾، وهيهات ذلك، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠١].

٤٣- تكذيب دعوى المفرط في جنب الله، وإبطال احتجاجه بقضاء الله وقدره، بإقامته عز وجل عليه الحجة بالآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

٤٤- إقامة الله عز وجل الحجة على العباد إقامة تامة بإرسال الرسل وإنزال الآيات، وبيان الحجج والدلائل على الحق والإعذار من الخلق.

٤٥- أن التكذيب بالحق، والاستكبار عن الانقياد له، وعلى الخلق كفر، فيجب الحذر من ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي: يوم قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وقيام الأشهاد، وقيام الحساب، وقيام العدل الحقيقي، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ الخطاب لكل راء ومشاهد لهؤلاء المكذبين، أي: تشاهد الذين كذبوا على الله، وافتروا عليه بنسبة الشريك والصاحبة والولد والجور والظلم، والقول على الله بلا علم، والابتداع في الدين، وغير ذلك.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كون وجوههم مسودة- يعرفهم بذلك أهل الموقف- من شدة الخوف والذل والفضيحة والخزي.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس في جهنم مأوى ومصيرًا للمتكبرين عن اتباع الحق، وعلى الخلق؟ والجواب: بلى فيها مثوى

وسجنًا ومصيرًا لهم وبئس المصير، فيه الخزي لهم والهوان، والعذاب الأليم، بسبب تكبرهم وتجبرهم.

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

لما ذكر الله سبحانه وتعالى عقاب الذين كذبوا على الله تعالى، بين ثواب الذين اتقوا الله عز وجل، جمعًا بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليسير العبد في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ﴾ معطوف على «ترى» أي: ويوم القيامة ينجي الله.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾، أي: الذين اتقوا الله عز وجل واتقوا عذابه.

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالألف على الجمع: ﴿بمفازاتهم﴾.

وقرأ الباقون بالإفراد ﴿بمفازتهم﴾، أي: بفوزهم وظفرهم بالمطلوب، أي: بالجنة وبياض الوجوه، وغير ذلك، ونجاتهم من المرهوب، من سواد الوجوه، ومن نار جهنم، وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: لا يصيبهم السوء، أي: ما يسوءهم في المستقبل.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم لم يفرطوا فيه ولأن الله أعطاهم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، فهو وحده الخالق بذاته وصفاته، وما سواه كله مخلوق.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أي: حفيظ ورقيب ومطلع ومدبر؛ لإحاطة علمه بكل

شيء وكمال قدرته على كل شيء، وبلوغ حكمته.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: له وحده ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: مفاتيح علمها وخزائنها، وتدبيرها، وأزمة الأمور كلها بيده له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر:٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية والكونية وحججه وبراهينه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الجملة مؤكدة بكونها اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، الذي يفيد التوكيد والحصر، أي: هم الخاسرون حقًا، لا غيرهم، الذين بلغوا غاية الخسران.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بتخفيف النون: ﴿تأمروني﴾.

وقرأ ابن عامر بنونين خفيفتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة: ﴿تأمرونَني﴾.

وقرأ الباقون بنون واحدة مشددة مكسورة: ﴿تأمرونِّي﴾.

والاستفهام: للإنكار، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى عبادة آلهتهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾، أي: أتأمروني أعبد غير الله.

﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، أي: يا أيها الجاهلون بعظمة الله تعالى وما يجب له، وما له من الكمال، والجلال، واستحقاقه وحده العبادة دون سواه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدون معه آلهته، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾»(١).

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والرسل.

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أشركت.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٠٢.

وحاشاه ﷺ من الشرك، والشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، كما سبق بيان ذلك في الكلام على قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤].

﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليبطلن جميع عملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة جواب القسم: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾، أي: ولتكون من الخاسرين غاية الخسران. وحاشاه ﷺ من الشرك.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: اعبد الله تعالى وحده، وأخلص له وحده، لا شريك له، أنت ومن اتبعك.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لما أنعم به عليك من النبوة والرسالة، وذلك بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، وهكذا كان ﷺ يقوم حتى تفطرت قدماه، فقيل له لم تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، أي: وما قدر المشركون الله حق قدره، أي: وما عظموه حق تعظيمه حين عبدوا معه غيره، وأمروا النبي ﷺ أن يعبد غير الله، وسووا به هذه المخلوقات الناقصة من جميع الوجوه، وهو سبحانه الرب الخالق العظيم، خالق الأشياء كلها، ومالكها ومدبرها، كما يعترفون بذلك يوم القيامة بقولهم لمعبوداتهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤١٩ - من حديث المغيرة رضي الله عنه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره»(١).

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ القبضة: ما يقبض باليد. قال الشاعر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع(٢)

أي: والأرضين جميعًا قبضته يوم القيامة، أي: يقبضها جميعًا بيده يوم القيامة.

﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ﴾، أي: ملفوفات بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

﴿بِيَمِينِهِۦ﴾، أي: بيده اليمنى، وكلتا يديه يمين، كما جاء في الحديث(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**»(٤).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(٥).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٤٥.

(٢) البيت لأبي نواس. انظر: «العقد الفريد» ٣/ ٤٧، «التمثيل والمحاضرة» ص٢٥٧، «نهاية الأرب» ١/ ٢٨٠، «مجاني الأدب» ٤/ ١٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩- من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٨٢، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٧، وابن ماجه في المقدمة ١٩٢.

(٥) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨.

فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ، حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية»(١).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، أي: تنزه وتقدس، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: وتعاظم.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: عن الذي يشركون به من الأصنام والأنداد، وعن كل عيب ونقص.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية.

٢- اسوداد وجوه الذين كذبوا على الله، علامة لهم يعرفهم بها أهل الموقف خزيًا لهم وتعذيبًا معنويًا؛ لأن الوجه أشرف أعضاء الجسم الظاهرة، وذلك من شدة ما هم فيه من الخوف والذل والفضيحة؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

٣- التحذير من الكذب على الله والقول عليه بلا علم، وشدة تحريم ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

٤- أن اسوداد الوجه أوضح علامة على شدة ما يعانيه الإنسان من ألم حسي ومعنوي؛ لأن الوجه تبدو على ملامحه وقسماته آثار المعاناة أكثر من غيره، كما تبدو عليه آثار الفرح والسرور.

٥- تقرير وإثبات أن في جهنم مثوى ومصيرًا للمتكبرين عن الانقياد للحق، وعلى الخلق، الكاذبين على الله، وتوعدهم بها، وأنها لهم بالمرصاد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥١٣ ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٦، وأحمد ١/ ٤٢٩ وانظر ١/ ٣٧٨.

٦- خطر الكبر ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق، ومفض بصاحبه إلى جهنم.

٧- وعد الله تعالى للمتقين بإنجائهم بفوزهم بالمطلوب والنجاة من المرهوب، بالفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾.

٨- صرف السوء عنهم، فلا يخافونه في المستقبل، وسلامتهم من الحزن، فلا يحزنون على شيء مضى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٩- فضيلة التقوى، والترغيب بها، لما رتب الله عليها من النجاة والفوز، وصرف السوء، والسلامة من الحزن.

١٠- أن الله سبحانه خالق الأشياء كلها ومليكها ومدبرها، فهو سبحانه الخالق بذاته وصفاته، وما سواه كله مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

١١- الرد على القدرية القائلين بأن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وأنها مخلوقة لهم، وهذا باطل فهو سبحانه خالقها، الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، ولو لم يشأها الله ويخلقها، لاستحال وقوعها منهم؛ لأنه لا شيء يقع إلا بمشيئة الله وخلقه.

١٢- الرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وبقدم الأرواح، وهذا باطل؛ لأن الله خلق الأشياء كلها وأوجدها بعد العدم.

١٣- أن الله عز وجل على كل شيء وكيل، وحفيظ ورقيب؛ لإحاطة علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وتمام تدبيره وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

١٤- اختصاصه عز وجل بمفاتيح علم السموات والأرض وخزائنها وتدبيرها، وبأزمة الأمور كلها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٥- تأكيد خسران الذين كفروا بآيات الله، الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

١٦- وجوب الإيمان بآيات الله، وأن المؤمنين بها هم الرابحون الربح العظيم.

١٧- الإنكار على المشركين أمرهم له ﷺ بعبادة غير الله، جهلًا منهم بعظمة الله

وما يجب له من الكمال والجلال، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾.

١٨- أن عبادة الله تعالى وحده علم ورشد وهدى وعقل، وعبادة غيره جهل وسفه وضلال وغي.

١٩- أن الشرك محبط للعمل وسبب للخسران المبين في الدنيا والآخرة، ولو وقع من أفضل الخلق، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وغيرهم من باب أولى، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

وحاشاه ﷺ وغيره من الأنبياء من الشرك، والشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه.

قال ابن تيمية: «الأنبياء معصومون عن الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها، وقد أخبر الله عنهم بالتوبة والاستغفار، وهي من أفضل الكمالات»(١).

٢٠- إثبات الوحي للرسول ﷺ وإلى الذين من قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢١- الرد الذين يغلون في النبي ﷺ، ويرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.

٢٢- وجوب إخلاص العبادة لله وحده وشكره وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٢٣- ذم المشركين بالله، وأنهم ما عظموا الله حق تعظيمه حين أشركوا معه غيره من المخلوقات الضعيفة الناقصة وسووها بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، وهذا يدل على وجوب تعظيمه عز وجل وعبادته وحده.

٢٤- عظمة الله تعالى، وكمال قدرته وقوته وسلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٥/ ٥١-٥٣، وانظر: «زاد المعاد» ٣/ ١٧٠.

٢٥- إثبات اليدين لله عز وجل، وقبضه الأرض جميعًا بقبضته، وطيه السموات بيمينه.

٢٦- تنزيه الله تعالى وتقديسه عن الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، أي: النفخة الأولى نفخة الفزع والصعق لموت من كان حيًا من الخلق.

و«الصور»: قرن عظيم، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى له، وأبهم للتعظيم والتهويل؛ كما قال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨].

وعبر بالماضي في: «نفخ»، وأكثر الأفعال بعده إلى آخر السورة لتأكيد تحقق وقوع ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١].

﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: فمات كل الذي في السموات والأرض من الأحياء، من شدة النفخة والصعقة وعظمتها.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي شاء الله ألا يصعق ولا يموت، كالذين في الجنة من الحور العين، والولدان، وغيرهم.

قيل: ومنهم الشهداء، وجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وخزنة الجنة،

وخزنة النار.

قال ابن تيمية: «الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة، وحتى ملك الموت... وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى آخذًا بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي، أم كان ممن استثناه الله**»(١).

قال ابن تيمية: وبكل حال النبي ﷺ قد توقف في موسى، هل هو داخل في الاستثناء، فيمن استثناه الله أم لا؟ فإذا كان النبي ﷺ لم يجزم بكل من استثناه الله، لم يمكنا أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة، وأعيان الأنبياء»(٢).

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾، أي: ثم نفخ في الصور نفخة أخرى: نفخة البعث؛ ليحيا جميع الأموات، فالنفخة الأولى لموت من كان حيًا، والثانية ليحيا جميع الأموات.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات:٦-٧] «الراجفة»: النفخة الأولى، و«الرادفة»: النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ «إذا»: هي الفجائية، أي: فإذا جميع الخلائق الموتى ﴿قِيَامٌ﴾، أي: قد قاموا من قبورهم، بين يدي الله تعالى.

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: ينتظرون ماذا يفعل بهم، وينظرون إلى أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء:٥٢].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين- لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين عامًا، أو أربعين شهرًا، أو**

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١١، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٣، وأبو داود في السنة ٤٦٧١، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٤٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥١٥، ٥١٦.

أربعين ليلة.

فيبعث الله عيسى بن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر، فيهلكه الله، ثم يلبث الناس سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه، قال سمعتها من رسول الله ﷺ، وتبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، قال: فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله أو ينزل الله مطرًا كأنه الطلّ، فتنبت منه أجساد الناس، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٤] قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار. قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شيبًا، ويومئذ يكشف عن ساق»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون». قالوا يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت. ويَبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق»(٢).

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، أي: أضاءت الأرض بنور ربها إذ تجلى الحق تبارك وتعالى للخلائق، لفصل القضاء بينهم.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، أي: أحضر ونشر كتاب الأعمال لكل فرد؛ ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا

(١) أخرجه مسلم في الفتن- باب خروج الدجال ٢٩٤٠، وأحمد ٢/ ١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٤، ومسلم في الفتن ٢٩٥٥.

وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

فآخذ كتابه بيمينه نسأل الله التوفيق، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره- نسأل الله العافية، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق:٧-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٩].

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جميعًا من أرسل منهم ومن لم يرسل؛ لحضور القضاء بين الخلائق، وليشهد الذين أرسلوا منهم على أممهم بإبلاغهم إياهم رسالات الله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

ويشهدوا عليهم بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١].

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يشهدون على أعمال العباد من الملاكة الحفظة الكرام الكاتبين، وأعضاء الإنسان، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق:٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور:٢٤].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠].

ومن شهادة هذه الأمة للرسل بالبلاغ، وعلى الأمم قبلهم بقيام الحجة عليهم كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾، أي: حُكم وفُصل بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل التام، والقسطاس

المستقيم، فأُخذ لكل منهم حقه من الآخر.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون شيئًا، بنقص من حسناتهم أو زيادة على سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [النساء:٤٠].

حتى أنه في ذلك اليوم يقتضي للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، كما جاء في الحديث(١)؛ إحقاقًا للحق والعدل.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ «ما» في الموضعين: موصولة، أو مصدرية، أي: وفيت وأعطيت كل نفس جزاء الذي عملته، أو جزاء عملها وكسبها، خيرًا كان أو شرًا.

كما قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧، الأحقاف:١٤، الواقعة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨٢].

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ دون أن يقول: جزاء ما عملت؛ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُوَ﴾ عز وجل ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، أي: أعلم بفعلهم، أو بالذي يفعلونه، فقضاؤه عز وجل بين الخلائق وتوفيته إياهم جزاء أعمالهم عن علم تام بهم وبأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ سوقًا عنيفًا بزجر وضرب، وتهديد ووعيد.

---

(١) أخرجه مسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٨٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] أي: يدفعون إليها دفعًا بشدة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٦].

﴿زُمَرًا﴾، أي: أفواجًا وجماعات، جماعات، كل جماعة يشاكل ويناسب بعضها بعضًا في العمل، والعذاب، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الآية:٣٨].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في الموضعين: ﴿فتحت﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الباقون بتشديدها: «فتِّحت».

و«فتحت»: جواب الشرط «إذا»، ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾، أي: أبوابها السبعة، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر:٤٤].

أي: فتحت أبوابها فجأة بوجوههم، لحظة وصولهم إليها؛ تهويلًا ورعبًا، وتعجيلًا لعذابهم.

قال ابن القيم: «السر في حذف الواو في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١] ففاجأهم وبغتهم عذابها، وما أعد الله فيها....».

وقال أيضًا: «تفتيح أبوب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت في وجوههم؛ لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه»(١).

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ «خزنة»: جمع «خازن»، وهم الملائكة الموكلون بها، وبتعذيب أهلها، غلاظ القلوب والطباع، شداد الأجسام، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٣، ٧٤- ٧٥.

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتقرير، أي: ألم يأتكم رسل كثيرون ﴿مِّنكُمْ﴾، أي: من جنسكم، تعرفونهم، وتعرفون صدقهم، وبلغتكم تتمكنون من الأخذ عنهم، والفهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم:٤]، وكما قال تعالى ممتنًا على العرب وعلى هذه الأمة: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، أي: يقرءون عليكم آيات ربكم التي أرسلهم الله بها إليكم، المشتملة على الدلائل والبراهين والحجج الدالة على الحق.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾، أي: ويخوفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، أي: لقاء هذا اليوم العظيم يوم القيامة، وما فيه من الأهوال.

﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال الذين كفروا: ﴿بَلَىٰ﴾، «بلى»: حرف جواب، لإيجاب السؤال المنفي، أي: بلى، قد جاءتنا رسل كثيرون تلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا وحذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: ولكن لم نستجب لهم وكذبناهم؛ لأن الكفر وكلمة العذاب وجبت وثبتت علينا، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك:٨-١٠].

أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة فاعترفوا بذنبهم، واستحقاقهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

قال ابن القيم: «وكلمته سبحانه إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته»(١).

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٤.

﴿قِيلَ﴾ لم يعين القائل، كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم[١]، شهادة عليهم باستحقاقهم العذاب، وتقريعًا وتوبيخًا لهم: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر: للإهانة والإذلال.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، أي: ماكثين مقيمين في جهنم إقامة أبدية، كما دل على ذلك القرآن في أكثر موضع، وهو الصحيح من أقوال أهل العلم.

﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فبئس وقبح مأوى ومصير المتكبرين عن اتباع الحق والانقياد له، والمتكبرين على الخلق، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: هي، أي: جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، سوق إكرام وإعزاز وإجلال وفودًا إلى الرحمن على النجائب، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم:٨٥].

﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾، أي: جماعات جماعات، كل طائفة مع من يناسبهم، حسب أعمالهم وثوابهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة**» الحديث[٢].

وعنه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون**

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ٣٢٥٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧.

ألفًا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**اللهم اجعله منهم**». ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «**سبقك بها عكاشة**»(١).

وعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا، أو سبعمائة ألف، آخذ بعضهم ببعض، حتى يُدخل أولهم آخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**»(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ الواو: عاطفة، وحذف جواب الشرط «إذا» تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، أي: حتى إذا جاءوها، نُقُّوا وهُذِّبوا، وشُفِّع فيهم ﷺ؛ لدخول الجنة، وفرحوا واستبشروا بما هم مقبلون عليه من النعيم، ونحو ذلك.

﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، أي: وفتحت أبوابها بشفاعته ﷺ، كما دلت على ذلك السنة.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول شفيع في الجنة**»، وفي رواية: «**وأنا أول من يقرع أبواب الجنة**».

وفي رواية: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، قال: يقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**»(٣).

قال السعدي(٤): «وأما الجنة فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها، ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك فيحتاجون لدخولها إلا الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع فيشفعه الله تعالى».

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٥٨١١، ومسلم في الإيمان- الدليل على دخول طوائف من المسلمين بغير حساب ٢١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٣، ومسلم في الباب السابق ٢١٩.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٩٦، ١٩٧.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤٩٩.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين[١]: «ثم إنهم أيضًا إذا وصلوا الجنة لا يجدون أبوابها مفتوحة، بل يجدونها مغلقة، حتى يشفع النبي ﷺ، فيفتح الله تعالى أبوابها، هذا هو القول الراجح المتعين لدلالة السنة عليه»

وذكر بعض أهل العلم أن الواو العاطفة أتي بها للدلالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها؛ ولهذا يسميها بعضهم: «واو الكرامة».

قال ابن القيم- بعد أن ذكر السر في حذف الواو من الموضع الأول: «وهذا بخلاف أهل الجنة، فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار، فيجيء فيلقاه مفتوحًا، فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وحذف الجواب تفخيمًا لأمره، وتعظيمًا لشأنه».

وقال أيضًا: «وأما الجنة فلما كانت ذات الكرامة وهي مأدبة الله، وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرّع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب، أتى بالواو العاطفة هنا، الدالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تفخيمًا لشأنه، وتعظيمًا لقدره»[٢].

وعلى هذا القول، وهو أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها يكون افتتاحه ﷺ سبق مجيئهم؛ لأن شفاعته ﷺ للمؤمنين لدخول الجنة، وفتح أبوابها لهم ثابتة وفي عقيدة أهل السنة.

وأبواب الجنة ثمانية، كما دلت على ذلك السنة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»[٣].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا**

---

(١) «تفسير سورة الزمر» للشيخ محمد العثيمين في شرحه على الجلالين ص ٤٩٨، ٥٠١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٣، ٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٧.

فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أنفق زوجين من مال في سبيل الله دعي من أبواب الجنة فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد**».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة، دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كل أحد يا رسول الله؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، لكما بين مكة وهجر**»، وفي رواية «**مكة وبصرى**»(٣).

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أنه خطب، فقال: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم، وهو كظيظ من الزحام»(٤).

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، أي: وقال لهم خزنتها، وهم الملائكة الموكلون بالجنة ونعيمها- تحية وتهنئة لهم وترحيبًا بهم، وإخبارًا لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: سلام عليكم دائم ومستمر، من كل آفة وشر ومكروه.

قال ابن القيم: «فبدؤهم بالسلام، المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة- الذكر المستحب عقب الوضوء ٢٣٤، والنسائي في الطهارة ١٤٨، والترمذي في الطهارة ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم- باب الريان للصائمين ١٨٩٧، ومسلم في الزكاة- من جمع الصدقة وأعمال البر ١٠٢٧، والنسائي في الزكاة ٢٤٣٩، والترمذي في المناقب ٣٦٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان- أدنى أهل الجنة منزلة ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٧.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٧.

﴿طِبْتُمْ﴾، أي: طابت قلوبكم وأعمالكم وأقوالكم وسعيكم بطاعة الله تعالى، وطهرت من دنس المعاصي نفوسكم، فطاب جزاؤكم، وطابت حالكم.

﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، الأمر: للإكرام، أي: ادخلوا الجنة حال كونكم خالدين فيها، أي: ماكثين مقيمين فيها أبدًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة:٢١].

ولا خلاف في أبدية خلود أهل الجنة فيها، كما دل على ذلك القرآن في مواضع كثيرة جدًا.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله تعالى وحده استحقاقًا واختصاصًا.

﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، أي: حقق وأنجز لنا وعده على ألسنة رسله، ووفى لنا ما وعدنا، وحقق لنا ما سألناه، كما في قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٤].

وهذا كقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر:٣٤، ٣٥].

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾، أي: أنزلنا وأسكننا أرض الجنة، كما أورثهم أرض الدنيا فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، أي: ننزل ونسكن منها حيث نشاء، وكل أحد من أهل الجنة لا يشاء سوى الذي هو فيه، ولا يرى أن أحدًا أفضل منه منزلًا ونعيمًا.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ**(١) **اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك**»(٢).

---

(١) الجنابذ: جمع «جنبذة»، وهي: القبة.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٢، والترمذي ٢١٣.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «**درمكة بيضاء، مسك خالص**»(١).

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ يحتمل أن يكون هذا كلامًا مبدئيًا من الله تعالى، فيه حث على العمل، أي: اعملوا مثل هذا العمل، لتؤجروا مثل هذا الأجر.

ويحتمل أن يكون من بقية كلام أهل الجنة، زيادة ثناء على الله تعالى، أي: فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَرَى﴾، أي: ترى وتشاهد أيها المخاطب في ذلك اليوم العظيم.

﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾، أي: محدقين من حول العرش الذي هو أكبر المخلوقات محيطين به.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: الجملة حالية، والباء: للملابسة، أي: حال كونهم يسبحون متلبسين بحمد ربهم، أي: ينزهونه عن النقائص والعيوب مع وصفه بصفات الكمال، وتمجيده وتعظيمه وتقديسه عن النقص والجور، قارنين بين تسبيحه عز وجل وحمده: سبحانك ربنا وبحمدك، كما جاء في دعاء ختم المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك»(٢).

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الزمر:٦٩ أي: فُصل وحُكم بين الخلائق، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، الذي لا اشتباه فيه، ولا إنكار ممن عليه الحق، فأدخل المؤمنون الجنة، وأدخل الكافرون النار.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «ال» في الحمد للاستغراق، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾: للاختصاص والاستحقاق.

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، و«العالمين»: كل ما سوى الله.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣٣- وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

ولم يسند القول إلى قائل؛ ليدل على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم، وحكمته، على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار.

قال ابن القيم: «فحذف فاعل القول؛ لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم، الذي حكم فيه، فيحمده أهل السموات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن، حتى أهل النار».

وقال: فأخبر عن حمد الكون أجمعه له عقيب قضائه بالحق بين الخلائق، وإدخال هؤلاء إلى جنته، وهؤلاء إلى ناره، وحذف فاعل الحمد، إرادة لعمومه وإطلاقه، حتى لا يسمع إلا حامد، من أوليائه وأعدائه.

كما قال الحسن البصري: «لقد دخلوا النار، وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه ولا سبيلًا»(١).

قال قتادة: «فتح أول الخلق بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] وختم بالحمد فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات النفخ في الصور النفخة الأولى لصعق وموت كل حي من الخلق إلا من استثنى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية.

٣- إثبات النفخة الثانية في الصور لحياة جميع الأموات، وخروجهم من قبورهم، وقيامهم بين يدي الله ينتظرون ماذا سيفعل بهم وينظرون إلى أهوال القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

٤- إشراق الأرض وإضاءتها بنور ربها عندما يتجلى لفصل القضاء بين العباد؛

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٧، ٧٨.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٧٣.

لقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

٥- إثبات صفة النور لله تعالى فهو عز وجل نور السموات والأرض بذاته وصفاته، وقد ذهب بعض أهل العلم، كابن تيمية وابن القيم إلى أن «النور» من أسماء الله تعالى(١).

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾، وقوله: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٧- إحضار كتب أعمال الخلائق، ونشر لكل فرد منهم كتاب أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

٨- الإتيان بالنبيين عليهم السلام في ذلك الموقف العظيم؛ ليشهدوا على أممهم، بأنهم بلغوهم رسالات ربهم، وليشهدوا على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٩- الإتيان بالشهداء على أعمال العباد، من الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين، والجوارح، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

١٠- القضاء والفصل بين الخلائق بالحق والعدل، من غير ظلم لهم ولا جور؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١١- كمال عدل الله- عز وجل- فلا يظلم أحد من خلقه مثقال ذرة.

١٢- موافاة كل نفس بجزاء عملها، خيرًا كان أو شرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فأخبر بتوفيتها عملها مع أن المراد توفيتها جزاء عملها للدلالة على ما ذكر.

١٤- تمام علم الله عز وجل بأفعال العباد وأقوالهم الظاهرة والباطنة؛ ولهذا حكم بينهم بالحق والعدل، ووفى كلًا منهم جزاء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير سورة النور» لابن تيمية ص ١٦٦، وراجع «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٦، انظر «تفسير الآية: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]».

١٥- وجوب مراقبة الله تعالى والحذر من العمل بما لا يرضيه.

١٦- إهانة الكفار وسوقهم بعنف وشدة إلى جهنم جماعات جماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.

١٧- مفاجأتهم بفتح أبواب جهنم في وجوههم لحظة وصولهم إليهم لمفاجأتهم بالعذاب وتعجيله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾.

١٨- تعدد أبواب جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾، وهي سبعة كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر:٤٤].

١٩- تقريع خزنة جهنم وتوبيخهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾.

وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي المنصب على أبدانهم.

٢٠- إثبات خزنة النار، وهم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.

٢١- قيام الحجة على المكذبين والكفار وعلى جميع الخلق بإتيان الرسل منهم إليهم، وتلاوتهم عليهم آيات ربهم، وإنذارهم لقاء يوم القيامة، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

٢٢- إثبات الرسالات والنبوات، وأن الله أرسل الرسل في جميع الأمم وأنزل عليهم الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة:٢١٣].

٢٣- إثبات قدر الله السابق، وإقرار الكفار بذلك؛ لقولهم: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: حق علينا الكفر والشقاء والعذاب بالقدر السابق.

٢٤- إهانتهم بأمرهم بدخول أبوب جهنم، وتخليدهم فيها، وتقريعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾.

٢٥- أن النار لا تفنى، ولا يفنى أهلها، بل هي خالدة، وهم مخلدون فيها أبدًا.

٢٦- أن جهنم بئس المثوى والمصير للمتكبرين عن اتباع الحق والانقياد له، المتكبرين على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد للمتكبرين، يوجب الحذر من الكبر.

٢٧- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الآيات، فبعد أن ذكر مآل الكافرين وحالهم ذكر مآل المتقين وحالهم.

٢٨- سوق المتقين لربهم سوق إعزاز وإكرام إلى الجنة جماعات جماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

٢٩- فضيلة التقوى، وأنها سبب لدخول الجنة والكرامة.

٣٠- فتح أبواب الجنة لهم إذا جاءوها؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وذلك بشفاعته ﷺ لهم.

٣١- تعدد أبواب الجنة، وهي ثمانية كما دلت السنة على ذلك.

٣٢- إثبات خزنة الجنة وهم الملائكة الموكلون بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٣٣- سلام خزنة الجنة على أهلها، وإخبارهم لهم بالسلامة في دار السلام، وترحيبهم بهم وتهنئتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾.

٣٤- ثناء خزنة الجنة على أهلها بطيبهم وطيب سعيهم وأعمالهم، وطيب مقامهم، وطيب ما أعد لهم، والإذن لهم بدخول الجنة على وجه الإكرام، والبشارة لهم بالخلود فيها، فجمع الله لهم بين نفي الآفات، وطيب الأحوال والأوقات.

٣٥- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى أهلها، وهذا بالإجماع.

٣٦- شتان بين ما يقابل به أهل الجنة وأهل النار، فأهل النار يقابلون بالتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات، وأهل الجنة يقابلون بالسلام والتكريم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ نسأل الله من فضله.

٣٧- ثناء أهل الجنة على الله عز وجل بالكمال والإفضال بتحقيقه ما وعدهم به،

وتوريثهم أرض الجنة ونعيمها، يتبوءون منها حيث شاءوا، ويتناولون من نعيمها أيّ نعيم أرادوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

٣٨- صدق الله تعالى وعده لأهل الجنة؛ لأنه لا أحد أصدق بوعده ولا أوفى بعهده من الله؛ لقولهم: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾.

٣٩- إثبات المشيئة للعباد والاختيار؛ لقولهم: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

٤٠- امتداح ما أعد للمتقين العاملين من عظيم الأجر والثواب، وطيب المقام والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

٤١- منة الله تعالى على أهل الجنة بتسمية ثوابهم أجرًا، وإيجابه ذلك على نفسه- كرمًا منه وفضلًا.

٤٢- إحاطة الملائكة وإحداقهم بالعرش، وتسبيحهم بحمد الله، وتعظيمهم وتقديسهم وتنزيهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٤٣- إثبات وجود الملائكة، وتسبيحهم بحمد الله تعالى وتعظيمهم وعبادتهم له وقيامهم بما وكل إليهم من أعمال.

٤٤- إثبات العرش، الذي هو أكبر المخلوقات.

٤٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للملائكة.

٤٦- تأكيد قضائه- عز وجل- بين الخلائق بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

٤٧- حمد الله تعالى لنفسه، وحمد الخلائق كلهم له عز وجل على حكمته وقضائه بينهم بالحق، وتوفيته كل منهم جزاء عملهم، وإخال الكفار النار، وإدخال المتقين الجنة دار القرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٤٨- اختصاص الله تعالى واستحقاقه لكمال الحمد.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِر

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة غافر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [الآية: ٣].

وتسمى: «سورة المؤمِن»؛ لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] والآيات بعدها. ويقال: «حم المؤمن».

كما تسمى: «سورة الطَول»؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [الآية: ٣].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: «**إن بيّتم فليكن شعاركم: «حم»، لا ينصرون**»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ «حم المؤمن» إلى (إليه المصير)، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى، ومن قرأ بهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح**»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل: «سورة غافر» بتعظيم كتابه، وبيان إعجازه، وإثبات تنزيله من عنده عز وجل، والثناء على نفسه، وإثبات وحدانيته: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- الرجل ينادي في الشعار ٢٥٩٧، والترمذي في الجهاد- ما جاء في الشعار ١٦٨٢. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١١٧: «وهذا إسناد صحيح». وأخرجه أحمد ٤/ ٦٥، ٥/ ٣٧٧.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٧٨٩- وقال: «حديث غريب»، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١١٦- ١١٧- من رواية أبي بكر البزار.

٢- تسلية النبي ﷺ، وتقوية قلبه، وذم الذين كفروا، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

٣- إثبات حملة العرش من الملائكة، وتسبيحهم بحمد ربهم، وإيمانهم به، وثنائهم عليه، واستغفارهم للمؤمنين، ودعائهم لهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

٤- النداء على الذين كفروا وهم في النار بشدة مقت الله لهم لكفرهم وشركهم وعدم إيمانهم، واعترافهم آنذاك بذنوبهم وطلبهم الخروج من النار وهيهات لهم ذلك وتقريعهم وتوبيخهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

٥- إقامته عز وجل الحجة على العباد بوجوب إخلاص الدين له؛ بما يريهم من الآيات، ونعمته عليهم بما ينزل لهم من رزق، وتذكيرهم وتخويفهم أهوال يوم القيامة والحساب والجزاء، وإبطال ما يدعى من دونه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

٦- توبيخ المكذبين لما لم يعتبروا- وهم يسيرون في الأرض ويرون آثار المكذبين قبلهم كيف أهلكهم الله، وهم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

٧- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام بالآيات البينات إلى فرعون وهامان وقارون، ورميهم إياه بالسحر وتكذيبهم له، وإيذائهم لبني إسرائيل، وتهديد فرعون لموسى بالقتل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

٨- نصح الرجل المؤمن من آل فرعون لهم، ونهيه إياهم عن قتل موسى، وتخويفه لهم من بأس الله، وزوال ملكهم، وأن يحل بهم ما حل بالأحزاب والمكذبين قبلهم، ودعوته لهم أن يتبعوه؛ ليهديهم سبيل الرشاد، وتزهيدهم في الدنيا، وترغيبهم في الآخرة والجنة، وتخويفهم يوم القيامة: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الآية: ٢٨] إلى قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي

لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

٩- ذكر رسالة يوسف عليه السلام ومجيئه قومه بالبينات، وشكهم فيما جاءهم به وإضلال الله لهم بسبب إسرافهم وإرتيابهم ومجادلتهم بآيات بغير سلطان آتاهم، ومقت الله والذين آمنوا لهم، وطبعه عز وجل على قلوبهم لتكبرهم وجبروتهم.

١٠- شدة طغيان فرعون وجبروته وجرأته على الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

١١- وقاية الله عز وجل لهذا الرجل المؤمن الناصح سيئات مكرهم، وإحاطة سوء العذاب بهم: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وتحاجهم وتخاصمهم في النار، وسؤالهم تخفيف العذاب عنه، وتقريعهم وتيئيسهم من ذلك ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الآية:٤٧] إلى قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

١٢- تكفله عز وجل ووعده بنصرة رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتهديد الظالمين ووعيدهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

١٣- التذكير بما أتاه الله تعالى موسى من الهدى وما أورثه لبني إسرائيل من الكتاب «التوراة»: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

١٤- ذم المجادلين في آيات بغير سلطان آتاهم لكبر في صدورهم، ومقتهم،

والاستدلال على بعث الناس بخلق السموات والأرض: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

١٥- شتان بين الأعمى والبصير والمؤمن والكافر: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

١٦- إثبات البعث وقيام الساعة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الآية: ٥٩].

١٧- وجوب دعوة الله تعالى وعبادته وذم المستكبرين عن عبادته وتهديدهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للناس، والامتنان عليهم بذلك؛ وجعل الله الليل سكنًا، والنهار مبصراً، وخلق كل شيء لا إله إلا هو، وجعل الأرض لهم قراراً، والسماء بناء وصورهم فأحسن صورهم ورزقهم من الطيبات، خلقهم من تراب، ونقلهم في مراحل خلقهم من طور إلى طور، بيده الحياة والموت، والأمر كله، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

١٩- ذم المجادلين في آيات الله، المكذبين بكتب الله وبما أرسل به رسله، ووعيدهم بما أعد لهم من العذاب الحسي والمعنوي: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ

أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٠- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بأمره بالصبر ووعيد المكذبين له، وبيان أحوال الرسل من قبله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ﴾ [الآية:٧٧] إلى قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

٢١- الامتنان على العباد بما جعل الله لهم من الأنعام، وإظهار آياته لهم مما لا يستطيعون إنكاره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

٢٢- تأكيد توبيخ المكذبين كيف لا يعتبرون وهم يسيرون في الأرض ويرون آثار عقوبات المكذبين قبلهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

قوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة، وبيان أنها حروف من حروف الهجاء، لا معنى لها في ذاتها، لكن لها مغزى وحكمة، وهي التحدي بالقرآن، وإثبات إعجازه بألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وأخباره، وغير ذلك.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الزمر.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ صفة ثالثة للفظ الجلالة «الله»، و«ال» في «الذنب»: للجنس، أي: غافر الذنوب.

و«المغفرة»: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة قوله عز وجل لعبده: «**أتذكر ذنب كذا وكذا؟**» فيقول: نعم يا رب. فيقول الله عز وجل: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

فهو عز وجل ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، فيغفر ما دون الشرك لمن يشاء، ويغفر الذنوب كلها، بما فيها الشرك لمن تاب وأناب إليه؛ ولهذا قال:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ معطوف على ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، وحسن العطف هنا؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب صفتان وفعلان متغايران، فالأول يتعلق بالإساءة والإعراض، وهو المغفرة، والثاني يتعلق بالإحسان والإقبال على الله، والرجوع إليه، وهو التوبة(١).

أي: وقابل التوبة والرجوع ممن تاب وأناب إليه، فرجع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الإباق عن ربه إلى الرجوع إليه.

فيغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل ممن تاب، بشروط التوبة الخمسة، وهي: الإخلاص لله، والإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن تمرد وطغى، وأصر على الكفر والمعاصي ولم يتب.

وفي هذا جمع بين الترغيب والترهيب؛ كما قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فعقابه مؤلم شديد من حيث كيفه وكمه ومدته؛ كما أن مغفرته واسعة.

وهذا يوجب على العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، فلا يغلِّب أحدهما على الآخر.

وقال بعضهم: يغلب الخوف حال الصحة، ويغلب الرجاء حال المرض.

وقال بعضهم: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة، ويغلب الخوف إذا هم بمعصية.

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، أي: صاحب الغنى الواسع، والتفضل والإنعام التام، والإحسان الشامل على الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

قال ابن القيم: «وأما ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي: الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له»(١).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٨١.

ووقوع وصفه بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله، وصفة رحمة بعده- فقبله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وبعده: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾- فيه تصديق وشاهد لقوله عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»(١).

وفي لفظ: «**سبقت غضبي**»(٢).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه آية أرجى من قوله تعالى: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾؛ قدم غفران الذنوب على قبول التوبة»(٣).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: إليه وحده المرجع والمآل، أي: مآل جميع الخلائق، فإليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ كما أن إليه مآلات الأمور كلها؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: ما يجادل ويخاصم وينازع في آيات الله الكونية والشرعية، ويدفع ما دلت عليه من الحق بالباطل بعد البيان وظهور البرهان؛ كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، ٧٤٠٤، ومسلم في التوبة، سعة رحمة الله تعالى، ٢٧٥١، والترمذي في الدعوات، ٣٥٤٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء، ٧٤٢٢، ومسلم في الباب السابق، ٢٧٥١، وابن ماجه، في المقدمة، ١٨٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٨٣.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/ ٣٢٢.

تعالى بعد هذا: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته وكذبوها.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: فلا يغرك ولا يخدعنك تنقلهم وترددهم في البلاد بأموالهم وتجاراتهم، وما هم فيه من نعيم الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: ٢٤].

أي: فليس في ذلك دلالة على محبة الله لهم، ولا أنهم على الحق كما يزعمون، بل ذلك استدراج لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾، أي: قبل الذين كذبوا النبي ﷺ من قومه.

﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ «نوح»: أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن الشرك.

﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ الأحزاب: جمع «حزب»، وهي: الطائفة، أي: الطوائف والأمم من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا ضد رسلهم؛ ليبطلوا ما جاؤوا به من الحق، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم.

﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ﴾ الذي أرسل إليهم ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾، أي: ليقتلوه.

أي: عزمت وحرصت كل أمة من هذه الأحزاب والأمم على قتل رسولهم بكل ممكن؛ كما قال الله تعالى عن ثمود: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩﴾ [النمل: ٤٩].

وقال تعالى عن قريش: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قتل بنو إسرائيل كثيرًا من أنبيائهم؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدحضوا، أي: يزيلوا ويبطلوا به الحق؛ كما قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، أي: باطلة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من أعان باطلًا ليدحض بباطله حقًا، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله**»(١).

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ الفاء: للسببية، أي: فعاقبتهم وأهلكتهم بسبب تكذيبهم رسلي، وما جاؤوا به من الحق، ومجادلتهم بالباطل؛ ليدحضوا به الحق.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام: للتعجب والتقرير والتعظيم، أي: فكيف كان عقابي لهم؟ أي: ما أشد عقابي لهم وآلمه وأوجعه! حيث استأصلهم عن آخرهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالجمع: «كَلِمَاتُ رَبِّكَ»، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾. والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: كما وجبت وثبتت كلمة ربك القدرية الكونية بأخذ المكذبين السابقين وإهلاكهم، كذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا من قومك وكذبوك بتعذيبهم، وأنهم من أصحاب النار.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾.

٢- إثبات تنزيل القرآن من الله عز وجل، وأنه كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١١٩ ونسبه لأبي القاسم الطبراني.

ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته.

٤- الرد على المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق.

٥- تعظيم القرآن الكريم؛ لأن «الكتاب» إذا أطلق فالمراد به: القرآن الكريم أفضل كتب الله تعالى، وأعظم الكتب على الإطلاق.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وصفة العزة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾.

٨- إثبات صفة المغفرة وصفة التوبة لله عز وجل، وأنه سبحانه يغفر ذنوب المذنبين، ويقبل توبة التائبين؛ لقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وهذا يوجب علينا أن نتعرض لأسباب مغفرته، ونتوب إليه.

٩- شدة عقابه تعالى لمن كفر به وخالف أمره وعصاه من غير توبة؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، وهذا يوجب الحذر من التعرض لأسباب عقابه.

١٠- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾؛ مما يوجب أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء في طريقه إلى الله.

١١- سعة غناه عز وجل وفضله وإفضاله، وإنعامه وإحسانه التام على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

١٢- إثبات وحدانية الله تعالى في ألوهيته، وأنه لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

١٣- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٤- ظهور آيات الله وحججه الدالة على الحق، ووضوحها تمام الوضوح، وأنه ما

يجادل فيها إلا الكافرون بالله، الجاحدون لآياته، المكذبون بها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

١٥- أن الكفر سبب للمجادلة في آيات الله، والتكذيب بها، وجحودها.

١٦- لا ينبغي الاغترار بما عليه الكفار من النعيم الدنيوي والتقلب في البلاد، والتنقل فيها بأموالهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.

١٧- أن إدرار النعم في الدنيا ليس دليلًا على محبة الله ورضاه، ولا على استحقاق تلك النعم، وقد يكون استدراجًا.

١٨- تسلية النبي ﷺ بذكر تكذيب الأمم السابقة لرسلهم، وهمهم بقتلهم، ومجادلتهم بالباطل؛ لإبطال الحق، وعقابه الشديد لهم، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

١٩- أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾.

٢٠- شدة ما لقي الرسل عليهم السلام من التكذيب والأذى من أممهم، حتى همت كل أمة بقتل رسولها، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

وفي هذا درس للمربين من الآباء والأمهات، والمعلمين والدعاة والمصلحين وغيرهم؛ ليتحلوا بالصبر الجميل، ويعلموا أن طريق الدعوة إلى الله تعالى ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل لا بد فيه من الابتلاء.

٢١- إثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأن الفاء للسببية.

٢٢- شدة عقاب الله تعالى وأخذه للظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

٢٣- إثبات قدر الله السابق في إهلاك المكذبين وأخذهم بالعقوبات في الدنيا، وتعذيبهم في الآخرة بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

٢٤- إثبات الكلام لله تعالى كما يليق بجلاله، وكلماته كونية وشرعية.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطابه له؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

٢٦- خلود الكفار في النار، وملازمتهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾، أي: الملائكة المقربون الذين اختارهم الله تعالى؛ لشرفهم وفضلهم، وقوتهم وشدتهم، وجعلهم ﴿يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾: عرش الرحمن الذي هو سقف المخلوقات وأكبرها وأعظمها وأوسعها، وعددهم فيما ذكر أربعة(١)، أما يوم القيامة فحملة العرش ثمانية؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧].

قال شهر بن حوشب: «حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة يقولون: سبحانك اللهم

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٢٠.

وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»(١).

﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ «من»: موصولة، أي: والذين حول العرش من الملائكة المقربين الكروبيين الحافين من حول العرش؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خبر الموصول «الذين»، والباء: للملابسة، أي: يقرنون بين تسبيح ربهم، بعبادته وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وبين حمده بالثناء عليه، ووصفه بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم؛ كما جاء في دعاء ختم المجلس: «**سبحانك ربنا وبحمدك**»، أو: «**سبحانك اللهم وبحمدك**»(٢).

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، أي: ويؤمنون بربهم، أي: يصدقون به باطنًا، وينقادون له ظاهرًا بجوارحهم.

والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وإلهيته، وأسمائه، وصفاته.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قدَّم لذكر استغفار هؤلاء الملائكة للذين آمنوا؛ بذكر شرفهم وفضلهم، ورفعة شأنهم، وعظيم منزلتهم باختيارهم لحمل عرش الرحمن، وكونهم حول العرش، والثناء عليهم بالتسبيح بحمد ربهم والإيمان به؛ لأن هذا كله من أسباب قبول استغفارهم ودعائهم للمؤمنين.

وفيه التنويه بشأن المستغفَر لهم، وهم المؤمنون.

أي: ويطلبون من الله تعالى المغفرة للذين آمنوا، أي: للمؤمنين من أهل الأرض، الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، أي: والملائكة من حملة العرش ومن حوله وغيرهم، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين؛ لأن استغفار الملائكة للمؤمنين إنما

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره».

(٢) سبق تخريجه.

هو بسبب إيمانهم، وهذا من فضائل الإيمان وثمراته؛ إذ لو لم يكونوا مؤمنين لما استغفرت لهم الملائكة، وما جاز الاستغفار لهم؛ كما قال عز وجل لسيد الخلق:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فرحمته عز وجل وسعت كل شيء، وعمت كل حي، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة للمؤمنين.

﴿وَعِلْمًا﴾: معطوف على ﴿رَّحْمَةً﴾، أي: وسعت كل شيء علمًا، أي: أحاط علمك بكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال شعيب عليه السلام: ﴿قَدِ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ بعد أن نادى الملائكةُ ربَّهم ودعوه، وتوسلوا إليه بوصف الربوبية، وبالثناء عليه، وبسعة رحمته وعلمه، سألوه المغفرة للتائبين، فقالوا: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾، أي: فاغفر للذين تابوا وأنابوا إليك من الشرك والمعاصي.

﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، أي: واتبعوا طريقك، وسلكوا صراطك المستقيم، بالإيمان والعمل الصالح، أي: فاغفر لهم ذنوبهم، بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ «الجحيم»: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لشدة توقدها وحرها، أي: جنبهم عذاب النار المؤلم الموجع، واجعلهم في وقاية منه.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ قدّموا طلب المغفرة لهم ووقايتهم عذاب الجحيم على هذا؛ لأنه لا يُلتذُّ بحصول المطلوب، إلا بعد النجاة من المرهوب، والتخلية قبل التحلية.

وأعادوا التوسل إلى الله تعالى بندائه بوصف الربوبية استجلابًا لرحمته، أي: يا ربنا ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، أي: جنات الإقامة الأبدية.

﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ «التي»: صفة لـ«جنات»، أي: التي وعدتهم في كتبك وعلى ألسنة رسلك، ووعدك الحق، فتوسلوا بوعده عز وجل إلى تحقيق موعوده.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ الواو: عاطفة، و«من» اسم موصول في محل نصب معطوف على ضمير المفعول في «أدخلهم».

أي: وأدخل الذي صلح بالإيمان والعمل الصالح- من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم- جنات عدن التي وعدتهم؛ كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿ءَابَآئِهِمْ﴾ جمع «أب»، يشمل الآباء والأجداد من أي جهة؛ لأن الجد يسمى أبًا؛ كما يشمل الأمهات والجدات؛ لأن قوله: ﴿ءَابَآئِهِمْ﴾ من باب تغليب الآباء على الأمهات؛ كما هي طريقة القرآن في تغليب الذكور على الإناث.

والشفاعة للأم أولى من الشفاعة للأب؛ لأن الأم حقها أعظم وأعظم وأعظم.

﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾: جمع «زوج»، فتشفع الزوجة للزوج، ويشفع الزوج لزوجته.

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾: جمع «ذرية»، ويشمل ذلك أولادهم، وأولاد الأبناء وإن نزلوا، وقد يشمل ذلك أولاد البنات، وفضل الله واسع.

وقد رُتب المذكورون في الآية ترتيبًا وجوديًّا، أي: على ترتب وجودهم: أب، ثم زوج، ثم ذرية.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: تعليل للدعاء قبله، وتوسل إلى الله تعالى بهذين الاسمين، أي: إنك أنت وحدك ذو العزة التامة، لا تمانع ولا تغالب، ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن.

وذو الحكم التام، تحكم وتقضي بالحق في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك.

وذو الحكمة البالغة، تضع الأمور مواضعها، فاستجب دعاءنا لهم، واغفر لهم.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: وجنبهم ما يسوء من الأعمال، في الحال والمآل، واصرفهم عنها، واحفظهم منها، ومن عقوباتها وعذابها.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: ومن تصرف عنه سوء عاقبة السيئات ووبالها وعقابها يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ [غافر: ٤٥]، أي: فصرف الله عنه سوء عاقبة سيئات مكرهم، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، أي: وإن تصبهم مصيبة وعقوبة.

﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾: جواب الشرط «من»، والفاء : رابطة لجواب الشرط؛ لاقترانه بـ«قد»، أي: فقد أنلته رحمتك، فنجا من المرهوب، وظفر بالمطلوب؛ ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة تعود إلى الوقاية من السيئات وعقوباتها، والدخول تحت رحمة الله عز وجل، أي: إلى زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المطلوب برحمة الله.

وضمير الفصل «هو»؛ لإفادة الحصر والتوكيد، و«الفوز»: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أي: فقد فاز بالنجاة من النار، ودخول الجنة، والتنعم بما فيها من ألوان النعيم ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا أعظم منه، ولا يقدر قدره إلا من وصفه بـ«الفوز العظيم»، وهو العلي العظيم، وأعظم ذلك وأجله: رؤية الرب العظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، النداء: هو الكلام من بعيد، والمناجاة: الكلام من قريب، أي: ينادون وهم في جهنم في غمرات النار والعذاب، من قبل الملائكة خزنة جهنم؛ تبكيتًا لهم وتقريعًا.

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمقت الله إياكم، من إضافة المقت إلى فاعله، أي: لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم لأنفسكم اليوم.

ويحتمل أن المقت مضاف إلى مفعوله، أي: لمقتكم الله أكبر من مقتكم لأنفسكم اليوم.

والمقت: أشد البغض. والمقت والبغض من الصفات الاختيارية الفعلية لله تعالى؛ كما قال ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١)، وقال ﷺ: «**وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**»(٢).

﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: أكبر وأعظم من مقتكم وبغضكم أنفسكم، التي أوردتكم النار، وأوبقتكم في العذاب.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾، أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم البينات على ما دعوكم إليه من الحق.

﴿فَتَكْفُرُونَ﴾، أي: فتجحدون وتُكذِّبون، وتأبون الإيمان.

والمعنى: لمقت الله إياكم في الدنيا؛ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن وأنتم في النار.

قال قتادة: «يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه، وأبوا أن يقبلوا، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة»(٣).

وعلى ما قيل من احتمال كون المصدر في قوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مضافًا إلى مفعوله، يكون المعنى: لمقتكم الله في الدنيا وبغضكم له حين تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإماتة الأولى حين كانوا عدمًا، وقبل نفخ الأرواح في الأجنة؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢١٧٨، وابن ماجه في الطلاق ٢٠١٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢؛ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٨٨.

١]، أي: قد أتى عليه وقت كان عدمًا.

والإماتة الثانية بعد الحياة الدنيا، فالإماتة الأولى ما قبل الحياة، والإماتة الثانية ما بعد الحياة، والإماتة الأولى ليست إماتة بعد حياة، ولكنها عدم حياة، فصح أن يطلق عليها الموت.

﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الحياة الأولى في الدنيا، والحياة الثانية في الأخرى، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

ومقصودهم من قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾: الإقرار بأن الأمر حق، أي: فكما أننا ندرك أنه مرت بنا هذه الأطوار الأربعة: موت فحياة، ثم موت فحياة، فإنا أدركنا خطأنا.

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾، أي: أقررنا بذنوبنا، أي: بكفرنا وإنكارنا للبعث وخطأنا.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ «هل»: للاستفهام، أو للتمني، و«خروج»: نكرة تفيد العموم، أي: فهل إلى أيِّ خروج من النار.

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث العموم، أي: من أيِّ سبيل، أي: من أيِّ طريق للخروج من النار؛ لنرجع إلى الدنيا؛ لنؤمن ونعمل صالحًا.

وقد أجيبوا بالتوبيخ والتبكيت، وزيادة تيئيسهم من الخروج بقوله:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ﴾ الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب، والباء: للسببية، أي: بسبب أنه في الدنيا.

﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا دعي الله وعبد وحده، ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده، وأنكرتم وحدانيته.

﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾، أي: يجعل له شركاء ﴿تُؤْمِنُوا﴾، أي: تؤمنوا بالشرك وتصدقوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

أي: فهذه حالكم في السابق، وهي حالكم لو أخرجتم من النار، ورددتم إلى الدنيا؛

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

ولهذا أجيبوا في آيات أخرى بما هو أقسى وأشد توبيخًا وتبكيتًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦- ١١٠].

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، أي: فالحكم في أمركم وفي تعذيبكم، وفي كل شيء: مستحَق لله وحده؛ فهو الحكم العدل الذي لا يحيف ولا يجور، ولا يغيِّر حكمه ولا يبدل، له الحكم الشرعي، والحكم الكوني، والحكم الجزائي، يهدي ويرحم من يشاء بفضله، ويضل ويعذب من يشاء بعدله، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿ٱلْعَلِىِّ﴾، أي: ذو العلو المطلق على خلقه من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو الصفات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ ذو الكبرياء والعظمة، الذي هو أكبر وأعظم من كل شيء؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري**»(١).

و«العلي» و«الكبير»: من أسمائه عز وجل، وفي اقترانهما في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: هو عز وجل الذي يظهر ويبين لكم آياته العظيمة في هذا الكون علويِّه وسُفْليِّه، وفي أنفسكم حتى تروها عيانًا؛ لتستدلوا بها على كمال قدرة الله تعالى وعظمته، واستحقاقه العبادة وحده دون غيره.

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فكل ما في الكون من آياته عز وجل، الدالة على عظمته وتمام ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره.

وقد أحسن القائل:

فواعجبًا كيف يعصى الإله ... أو كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد؟(١)

كما أظهر عز وجل وبيَّن الآيات الشرعية التي أنزلها على رسله وأراها العباد، وفصّلها لهم؛ ليعملوا بها.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ لما ذكر منته عليهم، بإشهاده إياهم آياته الدالة على كمال قدرته وعظمته، أتبع ذلك بذكر منته ونعمته عليهم بالرزق.

وقدم الامتنان بإظهار الآيات على إنزال الرزق؛ لأن النعمة الدينية أهم وأكبر وأعظم من النعمة الدنيوية.

والمراد بالسماء: العلو، وليس السقف المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والرزق: هو العطاء، والمراد به هنا: المطر، أي: ونزل لكم من السماء مطرًا يخرج لكم به الجنات والزروع، والنخيل والأعناب، وأنواع الثمار وغير ذلك؛ كما قال تعالى:

---

(١) البيتان لأبي العتاهية.انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩- ١١].

كما يُقدِّر عز وجل أرزاقكم وغير ذلك بأمره النازل من السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: وما يعتبر ويتعظ ويتفكر ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، «إلا»: أداة حصر، و«من»: اسم موصول، أي: إلا الذي ينيب ويتوب من الكفر والفسوق والعصيان، ويرجع إلى الله تعالى، وإلى طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٨].

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤﴾.

لما بين عز وجل أنه أرانا آياته، وأقام علينا الحجة، وتكفل لنا بالرزق: أمرنا أن ندعوه مخلصين له الدين.

قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾: دعاء عبادة ودعاء مسألة، أي: اعبدوه، بأداء ما أمركم به؛ من الصلاة والزكاة والصوم والحج، وبر الوالدين، وغير ذلك، وقد قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

وادعوه واسألوه من خيري الدنيا والآخرة، فذلك عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي: مخلصين له العمل من الشرك، سواء كان عبادة، أم دعاءً وسؤالًا.

والإخلاص: التنقية، أي: منقِّين دينكم من الشرك.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، أي: ولو كره الكافرون إخلاصكم لله تعالى الدين والعمل، والدعاء والعبادة، فلا تبالوهم، ولا تكترثوا بهم.

---

(١) سبق تخريجه.

عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**»(١).

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رفيع الدرجات، العلي الأعلى فوق خلقه بذاته وصفاته، له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والصفات العلا؛ كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٣، ٤].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، أي: صاحب العرش، الذي على العرش استوى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: ينزل الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، أي: قوله، على الذي يشاء من عباده من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بواسطة جبريل عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وسمي الوحي بـ«الروح»؛ لأن الوحي به حياة القلوب؛ كما أن الروح بها حياة الأجساد؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٥٩٤، وأبو داود في الصلاة، ما يقول الرجل إذا سلم ١٥٠٦، والنسائي في السهو، التهليل بعد التسليم ١٣٣٩، وأحمد ٤/ ٤.

[الأنعام: ١٢٢].

قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، أي: على الذي يشاء من عباده؛ ممن اختارهم بعلمه وحكمته لحمل رسالاته، وتبليغ وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر عز وجل، أو رسوله الملقى إليه الوحي: يوم التلاق.

والإنذار: الإعلام المقرون بالتحذير والتخويف، أي: ليحذر ويخوف الناس يوم التلاق، أي: يوم القيامة، وشدته وعذابه وأهواله، ويحث على الاستعداد له.

عن علي بن طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يوم التلاق»: اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده»(١).

وسمي يوم القيامة: «يوم التلاق»؛ لأنه يوم لقاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥].

كما يلتقي فيه الأولون والآخرون، وأهل السماء وأهل الأرض، وجميع الخلائق، ويلقى كل عامل عمله وجزاءه.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ «يوم»: بدل من «يوم» في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

أي: يوم هم ظاهرون بادون، لا شيء يحجبهم ولا يسترهم، في صعيد واحد، وأرض بارزة لا عوج فيها ولا أمت، يُسمعهم الداعي، ويَنْفذُهم البصر؛ كما جاء في الحديث(٢).

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ﴾ بيان لجملة ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾، و﴿شَيْءٌۚ﴾: نكرة في سياق النفي، يفيد العموم، أي: لا يخفى على الله منهم أيُّ شيء، أي: لا يستتر ولا يغيب عن علمه منهم أي شيء، بل هو محيط بهم إحاطة تامة؛ لأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٢٩٦.

(٢) سبق تخريجه.

﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: فيقال: لمن الملك اليوم- يعني: يوم القيامة- والقائل هو الله عز وجل، أي: من المالك الذي له جميع الملك، المتصرف الذي له التصرف التام؟ فيجيب عز وجل بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾، أي: لله عز وجل خاصة؛ كما جاء في الحديث: «**يطوي الله السموات بيمينه والأرضين بشماله، فيهزهن ويقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الدنيا**»(١).

﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾، أي: الواحد الأحد الفرد في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر جميع المخلوقات، وذلت وخضعت لقهره جميع الكائنات.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ﴾، أي: تجازى وتثاب وتكافأ كل نفس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كسبته، أو بكسبها، أي: بعملها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، أي: موافقًا لأعمالهم، فيجازي الله المؤمنين بالفضل: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويجازي الكافرين بالعدل، السيئة بمثلها؛ كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، وكرر للتأكيد، و«لا»: نافية للجنس، و«ظلم»: اسمها، وهو نكرة في سياق النفي، فيعم نفي أيِّ شيء من الظلم مهما قل، أي: فلا شيء من الظلم، لأي أحد من الخلق، لا بنقص من حسناته، ولا بزيادة في سيئاته.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ

---

(١) سبق تخريجه.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال ﷺ في الحديث القدسي، فيما يرويه عن ربه عز وجل؛ أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: حسابه آتٍ، وكل آتٍ قريب، وعمر الإنسان مهما طال فهو قصير، بل الدنيا كلها قليل بالنسبة للآخرة؛ كما أن الإنسان يجد عاجلًا في الدنيا شيئًا من جزاء عمله خيرًا كان أو شرًّا.

كما أنه لكمال علمه بهم وبأعمالهم وجزائهم، وتمام قدرته، يحاسب الخلائق بأسرع وأقل وقت؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

وقد استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤] على أن الله عز وجل يحاسب الخلائق في نصف يوم، ثم في النصف الآخر يقيل أهل الجنة فيها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العرش وعظمته، وحملته من الملائكة ومن حوله، والتنويه بهم، وبفضلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾.

٢- تسبيح حملة العرش من الملائكة ومن حوله بحمد ربهم، وإيمانهم به، والثناء عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٣- فضيلة الجمع بين تسبيح الله تعالى وحمده؛ لأن في الجمع بينهما وصفه عز وجل بكمال الكمال؛ لأن في التسبيح التنزيه عن النقائص والعيوب، وفي الحمد الثناء على الله ووصفه بصفات الكمال.

---

(١) سبق تخريجه.

٤- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم التسبيح على الحمد.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لحملة العرش من الملائكة ومن حوله؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

٦- لا بد من الجمع بين عمل الجوارح؛ من العبادة والتسبيح والتحميد، وبين الإيمان الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٧- استغفار حملة العرش ومن حوله من الملائكة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذا من تسخير الله تعالى للمؤمنين، وبركة الإيمان.

٨- إثبات سعة رحمة الله تعالى، وعلمه لكل شيء؛ لقول الملائكة: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

٩- التوسل إلى الله تعالى بصفاته، وأن ذلك من أسباب إجابة الدعاء؛ لقول الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، فتوسلوا إليه بربوبيته، وسعة رحمته وعلمه.

١٠- دعاء الملائكة بالمغفرة للذين تابوا إلى الله، واتبعوا سبيله، وبوقايتهم عذاب الجحيم؛ لقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

١١- أن من تمام تحقيق التوبة: اتباع سبيل الله بالإيمان والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

١٢- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، فأضاف ذلك إليهم، وفي هذا الرد على الجبرية.

١٣- أن زوال المكروه مقدم على جلب المحبوب؛ لقول الملائكة: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾.

١٤- إثبات النار وعذابها، وتسميتها الجحيم؛ لشدة توقدها وحرها.

١٥- دعاء الملائكة للتائبين المتبعين سبيل الله، بإدخالهم جنات عدن ومن صلح بالإيمان والإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ

وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾.

١٦- إثبات جنات عدن التي وعد الله بها عباده الصالحين، وأنها دار إقامة لا ظعن منها.

١٧- صدق وعده عز وجل المؤمنين بجنات عدن، وأنه عز وجل لا يخلف الميعاد؛ لهذا توسل الملائكة بوعده بقولهم: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾.

١٨- شفاعة المؤمنين في الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وغيرهم.

١٩- فضيلة الصلاح، وأنه سبب لشفاعة أهله بعضهم لبعض.

٢٠- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٢١- إثبات اسم الله: «العزيز»، وأنه سبحانه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله «الحكيم»، وأنه عز وجل ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٢٣- دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين سبيل الله بوقايتهم من السيئات وعقابها؛ لقولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

٢٤- أن من وقاه الله السيئات فقد رحمه؛ لقول الملائكة: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾.

٢٥- أن الرحمة كما تكون في جلب المحبوب والمرغوب، تكون في دفع المكروه، وأن من وقي النار والعذاب، فمآله الجنة والثواب.

٢٦- إثبات القيامة وما فيها من الجزاء بالثواب والعقاب، والأهوال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ الآية، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

٢٧- إثبات رحمة الله الخاصة لأوليائه؛ لقول الملائكة: ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾، أي: برحمتك الخاصة.

٢٨- أن الفوز العظيم، الذي لا أعظم منه أن يقي الله العبد من عمل السيئات

وعقابها، ويشمله برحمته، ويدخله جنته، وينيله نعيمها؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢٩- فضيلة الإيمان والتوبة واتباع سبيل الله، وأن ذلك سبب لاستغفار الملائكة وسؤالهم المغفرة لهم، وإدخالهم وصالحيهم جنات عدن، ووقايتهم عذاب الجحيم والسيئات وعقوباتها، ورحمة الله إياهم، وحصولهم على الفوز العظيم.

٣٠- مناداة خزنة النار للذين كفروا وهم في غمرات النار؛ تبكيتًا لهم وتوبيخًا وتقريعًا: لمقت الله إياكم في الدنيا حين تدعوكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم لأنفسكم التي أدخلتكم النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٣١- مقت الكفار وهم في غمرات النار لأنفسهم التي أوردتهم النار، وأوبقتهم في العذاب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٣٢- إثبات صفة المقت لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾.

٣٣- إثبات إقامة الحجة على هؤلاء المكذبين المعذبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

٣٤- شدة حسرتهم، وتوسلهم بربوبية الله تعالى، وكمال قدرته؛ حيث أماتهم مرتين وأحياهم، وإقرارهم أن الأمر حق، واعترافهم بذنوبهم عسى أن يجابوا في الخروج من النار والعودة إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحًا كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

٣٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ﴾.

٣٦- تقريعهم وتوبيخهم، وزيادة تيئيسهم من الخروج من النار؛ لكفرهم في الدنيا بوحدانية الله تعالى، وإيمانهم بالشرك به؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ

﴿كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، أي: فما حكم به عز وجل من خلودكم في النار لا يبدل ولا يعدل.

٣٧- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبَّباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ الآية.

٣٨- أن الحكم كله لله تعالى كونًا وشرعًا وجزاءً؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله: «العلي»، وصفة العلو المطلق له تعالى: علو الذات، وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾.

٤٠- إثبات اسم الله: «الكبير»، وأنه سبحانه ذو الكبرياء والعظمة.

٤١- امتنانه عز وجل على العباد بإظهار آياته الكونية لهم، الدالة على كمال قدرته وعظمته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره، وإنزاله لهم من السماء الرزق.

فالأولى منة دينية، والثانية منة دنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾.

٤٢- أن الرزق كله من الله تعالى، ينزله الله تعالى من السماء بإنزال المطر، الذي به حياة البلاد والعباد، وبما يقدره من الأرزاق بأمره النازل من السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

٤٣- أن من حكمة الله تعالى كون المطر ينزل من السماء؛ ليعم جميع أجزاء الأرض: جبالها ومرتفعاتها وشعابها وأوديتها ومنخفضاتها وسهولها.

٤٤- أن النعمة الدينية أهم وأعظم من النعمة الدنيوية؛ لهذا قدم إظهار الآيات على إنزال الرزق من السماء.

٤٥- أنه لا يعتبر بالآيات ويتعظ بها، ويعرف قدر النعم إلا أهل الإنابة والتوبة إلى الله، وإلى طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

٤٦- وجوب دعاء الله وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له، ومراغمة الكافرين في ذلك، وعدم المبالاة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٤٧- إغراق الكافرين بالشرك بالله، وكراهتهم توحيده وإخلاص الدين له.

٤٨- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته وعظمته، وإثبات عرشه العظيم، واستوائه عز وجل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

٤٩- امتنانه عز وجل بإلقاء الوحي على من يختاره من الرسل؛ لتحذير الناس وتخويفهم يوم القيامة، وشدائده وأهواله وعذابه، ووجوب الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

٥٠- أن الوحي روح به حياة القلوب؛ كما أن الروح بها حياة الأبدان؛ لهذا سمَّى الوحي: «روحًا»؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

٥١- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٥٢- إثبات عبودية الرسل والأنبياء لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٥٣- الله أعلم حيث يجعل رسالته، فيلقي الروح على من يشاء من عباده، ومشيئته مقرونة بحكمته وعلمه.

٥٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

٥٥- إثبات لقاء الله تعالى، والتقاء الخلائق بعضهم ببعض؛ للفصل بينهم.

٥٦- بروز الخلائق كلهم يوم القيامة في صعيد واحد، لا يخفى على الله منهم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ﴾.

٥٧- ظهور تفرده عز وجل بالملك يوم القيامة تمام الظهور، ملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ﴾.

٥٨- إثبات اسم الله: «الواحد»، وأنه سبحانه ذو الوحدانية في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾.

٥٩- إثبات اسم الله «القهار»، وأنه عز وجل ذو القهر والغلبة، الذي ذلت لقهره وغلبته جميع المخلوقات والكائنات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾.

٦٠- في اقتران اسميه عز وجل: «الواحد» و«القهار» إشارة إلى تلازم هذين الوصفين في حقه عز وجل، فمن لازم وحدانيته كونه القهار، ومن لازم كونه القهار كونه «الواحد».

٦١- إثبات مجازاة كل نفس يوم القيامة بعملها وكسبها، خيرًا كان أو شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٦٢- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، دون أن يقول: بجزاء ما كسبت، مع أن المراد مجازاتها بجزاء ما كسبت.

٦٣- أن حديث النفس لا يجازى عليه؛ لأنه ليس بكسب؛ لأن الكسب يكون بالقول والعمل، وقد قال ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»(١).

٦٤- انتفاء الظلم يوم القيامة انتفاءً تامًّا، فلا أحد يُظلم شيئًا مهما قل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾.

٦٥- إثبات كمال عدل الله تعالى في مجازاته الخلائق.

٦٦- سرعة حسابه عز وجل للخلائق؛ لأن حسابه آتٍ قريب، ولعلمه التام بالخلائق، وأعمالهم وجزائهم، ولأن الإنسان قد يجد شيئًا من جزاء عمله عاجلًا في الدنيا، ولغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾، أي: وأنذر يا محمد الناس، أي: حذرهم وخوفهم.

﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾، أي: يوم القيامة وأهواله وشدائده وعذابه.

وسميت القيامة بـ«الآزفة»؛ لاقترابها ودنوها؛ كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: ٥٧]، أي: قربت القيامة وآن قيامها ووقوعها، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الملك: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

فالقيامة قريبة مهما طال الوقت؛ لأنها آتية، وكل آتٍ قريب؛ كما أن كل ماضٍ بعيد؛ لأنه لا يمكن أن يرجع.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾، أي: حين القلوب من شدة الخوف والروع والكرب.

﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾، أي: قد ارتفعت عند الحناجر والحلوق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

و«الحناجر»: جمع «حنجرة»، وهي ما بين الترقوتين.

﴿كَٰظِمِينَ﴾ حال، أي: ممتلئين غمًّا وهمًّا.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾، أي: من قريب أو صديق وصاحب ينتصر لهم.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾، أي: ولا شفيع يشفع لهم، فيخلصهم من عذاب الله؛ كما حكى تعالى عن الظالمين قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠١].

والشفيع: من يتوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

﴿يُطَاعُ﴾ جملة فعلية في محل جر صفة لـ«شفيع»، والمعنى: ولا شفيع مطاع.

وهذه الصفة يحتمل أن تكون بيانًا للواقع، والمراد: نفي الشفيع، أي: ليس لهم شفيع مطلقًا.

ويحتمل أن يكون المعنى: لو قدر أن لهم شفعاء كما يزعمون، فإن هؤلاء الشفعاء لا يطاعون؛ لأنه لا بد في الشفاعة من إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

﴿يَعْلَمُ﴾، أي: يعلم عز وجل ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾؛ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: يعلم الأعين الخائنة، وخيانة الأعين: مسارقتها النظر إلى الشيء المحرم خفية عن الآخرين.

﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾، أي: ويعلم ما تخفيه وتكنه الصدور والقلوب من الأسرار والمضمرات في المعتقدات وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يحكم بالحق في جميع أحكامه: القدرية والشرعية والجزائية، فما قدره فهو حق، وما شرعه فهو حق، وما جازى به العباد على أعمالهم فهو حق، وقوله حق، وفعله حق، وهو الحق سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: قرأ نافع وهشام عن ابن عامر بالخطاب: «تدعون»، وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يَدْعُونَ﴾.

أي: وجميع الذين يدعوهم ويعبدهم المشركون من دون الله، أي: غير الله، من الأصنام وغيرها.

﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ «شيء»: نكرة في سياق النفي، أي: لا يقضون بأيِّ شيء مهما كان؛ لا بحق ولا بباطل؛ لعجزهم التام، وعدم استطاعتهم فعل أيّ شيء، أي: فكيف يدعونهم ويعبدونهم من دون الله؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، أي: ذو السمع الواسع الذي يسمع الدعاء ويجيبه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ الذي أحاط بصرًا وعلمًا بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام: للتقرير والإنكار، أي: أولم يسر هؤلاء المشركون المكذبون برسالتك يا محمد في الأرض بأبدانهم على أقدامهم؟

﴿فَيَنظُرُوا۟﴾، أي: فينظروا بأبصارهم، ويعتبروا ويتفكروا بقلوبهم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لأنبياء الله، وما حل بهم من العذاب والعقوبات والهلاك والخزي والفضيحة بسبب تكذيبهم لرسل الله؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

﴿كَانُوا۟ هُمْ﴾، أي: كان أولئك المكذبون من الأمم السابقة.

﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾: قرأ ابن عامر بكاف الخطاب: «منكم»، وقرأ الباقون بهاء الغيبة: ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: أشد من المكذبين له ﷺ، من كفار قريش وغيرهم.

﴿قُوَّةً﴾ في كبر الأجسام وقوتها، وفي العدد والعدة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ٦- ١٤].

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ من العمران والغراس، واتخاذ المصانع، وبناء المعالم، ونحت البيوت من الجبال، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦﴾ [الأنعام: ٦].

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الباء: للسببية، أي: فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم؛ لتكذيبهم رسل الله وكفرهم وتوليهم، ولم تنفعهم شدة قوتهم، وآثارهم في الأرض.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: وما كان لهم من الله ومن عذابه ﴿مِن وَاقٍ﴾.

«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: وما كان لهم من الله من أيِّ واقٍ يقيهم عذابه، فيدفعه ويمنعه عنهم قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله؛ كما قال نوح عليه السلام لابنه لما قال: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، قال له عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى أخذه عز وجل إياهم بذنوبهم، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم:

﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، والبراهين الساطعات، والحجج القاطعات، على وجوب الإيمان بالله وعبادته وحده.

قال ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان ١٥٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَكَفَرُواْ﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فكفروا بالله تعالى، وأشركوا معه غيره، وكذبوا رسله، وجحدوا ما جاؤوهم به من الآيات البينات، من غير تأمل ولا نظر.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾، أي: فأهلكهم الله.

﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾، أي: ذو قوة عظيمة كاملة تامة.

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: ذو العقاب الشديد المؤلم الموجع، الذي لا عقاب أشد منه، ولا طاقة لأحد به؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: عقابه شديد.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أعظم ما كلف الله به الرسول ﷺ وغيره من الرسل: إنذار الناس وتخويفهم يوم القيامة وشدائده وأهواله وعذابه، ووجوب الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾.

٢- قرب القيامة ودنوها؛ لهذا سميت الآزفة؛ لقرب قيامها ووقوعها.

٣- شدة أهوال القيامة، وبلوغ القلوب فيها الحناجر من شدة الروع والكرب والخوف؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾.

٤- امتلاء القلوب غمًّا وهمًّا في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾.

٥- تقطع الأسباب بالظالمين بالكفر والشرك في ذلك اليوم، فلا قريب أو صديق ينتصر لهم؛ فيخلصهم من العذاب، ولا شفيع يشفع لهم فيطاع؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

٦- ثبوت الشفاعة للمؤمنين بإذن الله تعالى ورضاه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، فنفاها عن الظالمين الكافرين، ومفهوم هذا: ثبوتها للمؤمنين.

٧- سعة علم الله عز وجل بكل شيء مهما دق وخفي، فيعلم خائنة الأعين ومسارقتها النظر إلى ما لا ينبغي، ويعلم ما تكنه الصدور والقلوب؛ لقوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

٨- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، في لحظات الأعين، ومضمرات الصدور، وفي كل شيء.

٩- امتداح الله تعالى لنفسه لقضائه وحكمه بالحق في جميع أحكامه الكونية والشرعية والجزائية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾.

١٠- ذم الأصنام والأوثان والأنداد التي يعبدها المشركون من دون الله، وأنهم لا يقضون بشيء؛ لعجزهم التام وضعفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾.

١١- تسفيه عقول المشركين؛ حيث يعبدون من دون الله معبودات لا تقضي لهم بشيء، ولا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

١٢- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه عز وجل ذو السمع الواسع، يسمع الدعاء ويجيبه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

١٣- إثبات اسم الله: «البصير»، وأنه سبحانه قد أحاط بصرًا وعلمًا بكل شيء.

١٤- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وصفتي السمع الواسع لجميع الأصوات، والبصر المحيط بكل شيء في حقه عز وجل، كمال إلى كمال.

١٥- تقرير المشركين المكذبين للنبي ﷺ بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات بسبب ذنوبهم، والإنكار عليهم، كيف لا يعتبرون ولا يتعظون بسوء عاقبة أولئك الأقوام؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١٦- أن أولئك الأقوام مع ما كانوا عليه من شدة قوتهم، وعظم آثارهم في الأرض، لم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عقاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

وفي هذا تهديد للمكذبين للنبي ﷺ، الذين هم أضعف بكثير من أولئك المهلكين.

١٧- أن عذاب الله تعالى إذا نزل فلا واقي منه، ولا دافع له، ولا رافع له من دونه؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرعد: ١١].

١٨- ينبغي النظر والتأمل والاعتبار فيما حل بالمكذبين من العقوبات، والسعيد من وعظ بغيره.

١٩- أن سبب أخذ الأمم السابقة وإهلاكهم: ذنوبهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله، وجحودهم لما جاؤوهم به من الآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ﴾.

٢٠- إقامة الحجة على الأمم المكذبة بإرسال الرسل وإنزال الآيات البينات عليهم.

٢١- إثبات الأسباب وأثرها في المسبَّبات بإذن الله تعالى، وإثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾.

٢٢- إثبات كمال عدل الله تعالى، وأنه لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنب.

٢٣- إثبات كمال قوة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

٢٤- شدة عقاب الله تعالى لمن عصاه، فلا عقاب أشد منه، ولا طاقة لأحد به؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

٢٥- ينبغي الحذر من مخالفة أمر الله تعالى؛ لأنه قوي شديد العقاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ البينات، ودلائلنا الواضحات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وحجة بينة، وبرهان ظاهر دال على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من الحق، من ذلك: العصا، والحية، وغير ذلك من الآيات والحجج

والدلائل التي أيد الله بها موسى عليه السلام.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط في مصر.

﴿وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وزير فرعون في مملكته.

﴿وَقَـٰرُونَ﴾ وهو رجل من قوم موسى، آتاه الله الأموال والكنوز، من الذهب والفضة، ففرح بذلك فرح اختيال وبطر، وأفسد في الأرض، وكفر نعمة الله، ونسبها إلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٦- ٧٨] فخسف الله به وبداره الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿فَقَالُوا۟﴾، أي: فقال فرعون ووزيره هامان وقارون صاحب الكنوز لموسى: ﴿سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، أي: هو ساحر كذاب، أي: هو ساحر في آياته، كذاب في دعواه الرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ الباء: للمصاحبة والملابسة، أي: فلما جاءهم موسى بالحق والصدق الذي أرسلناه به من عندنا، وهو توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، الذي عجزوا أن يدحضوه بحججهم الباطلة، لجؤوا إلى الوعيد والتهديد بالقوة.

﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، أي: لم يكتفوا بمجرد رميه بالسحر وتكذيبه، وصد الناس عنه، بل أمروا بقتل أبناء الذين آمنوا معه من بني إسرائيل؛ تنكيلًا بهم، أي: اقتلوا أبناءهم الذكور.

﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾، أي: واستبقوا نساءهم، أي: الإناث.

وهذا أمر ثانٍ من فرعون بعد بعثة موسى، غير الأمر الأول الذي كان قبل بعثة موسى، وكان القصد من الأمر الأول: الاحتراز من وجوده، مع إذلال بني إسرائيل،

وتقليل عددهم.

وهذا الأمر الثاني؛ لإهانة بني إسرائيل وإذلالهم، وتقليلهم، ولكي يتشاءم بنو إسرائيل بموسى عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: وما مكر الكافرين وخداعهم، وتدبيرهم الخفي والجلي في تكذيب رسل الله واتهامهم بالسحر، ورد الحق وإبطاله.

وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: وما كيدهم؛ لتسجيل وصفهم بالكفر، وليشملهم هذا الحكم هم وغيرهم من الكفار.

﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا في ضياع واضمحلال، وذهاب وهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ «أقتل»: فعل مضارع مجزوم بالسكون، جواب الأمر «ذروني»، أي: اتركوني أقتل موسى.

وهذا من فرعون من باب التمويه؛ كأن الناس يمنعونه من قتل موسى، مع أنه لا يستطيع أحد منهم منعه من ذلك، كيف وهو يقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولكنه يموه ويكذب على الناس بقوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾؛ لأنه لا يستطيع قتله.

﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، و«يدع»: فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة الواو. والأصل: «يدعو».

أي: وليدع ربه إن كان صادقًا؛ ليمنعه مني. وفي هذا تحدٍّ سافر لموسى، ولربه عز وجل الذي أرسله، وجرأة وسوء أدب، يدل على شدة تمرد فرعون وعتوه وعناده.

وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓۖ﴾، ولم يقل: ربنا؛ لأنه ينكر ربوبية الله ظاهرًا، ويزعم أنه هو الرب الأعلى.

وإنما أضاف الربوبية لموسى من باب التبكيت والتحقير؛ كأنه يقول لموسى: هذا ربك الذي زعمت، إن كنت صادقًا فليمنعك مني.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب

مفعول به لـ«أخاف»، أي: أخاف أن يبدل موسى دينكم فتتركوا عبادتي وتعبدوا رب موسى، أي: يخاف من موسى أن يرد الناس إلى الدين الحق، وهو عبادة الله وحده، وترك الدين الباطل وهو عبادة فرعون.

﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بزيادة همزة مفتوحة قبل الواو وإسكان الواو: ﴿أَوۡ أَن﴾.

والمعنى على هذه القراءة، أي: إني أخاف منه أحد الأمرين: إما تبديل دينكم، وإما إظهار الفساد في الأرض، ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو، فتكون بمعنى القراءة التي بعدها.

وقرأ الباقون بغير ألف: «وَأَنْ يُظْهِرَ»، والمعنى: إني أخاف أن يحصل منه الأمران: تبديل دينكم، وإظهار الفساد في الأرض.

ومؤدى القراءتين واحد؛ لأن القراءتين بمثابة آيتين، فيكون فرعون خاف من موسى الأمرين.

وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وحفص: ﴿يُظۡهِرَ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ونصب ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾، والتقدير: أو أن يظهر- يعني: موسى- في الأرض الفساد.

وقرأ الباقون: «يَظْهَرَ» بفتح الياء والهاء، و«الفَسَادُ» بالرفع فاعل.

والفساد على زعم فرعون: هو صرف الناس عن عبادته إلى عبادة الله تعالى هذا من وجه، ومن وجه آخر: تفريق الناس، فيكون بعضهم تابعًا له، وبعضهم تابعًا لموسى؛ مما يسبب الاختلاف وربما الاقتتال.

وهذا من أعجب وأشد ما يكون في قلب الحقائق، ولا ينطلي إلا على من أعمى الله بصيرته ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، أي: وقال موسى لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾، قال: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، أي: استجرت واعتصمت بربي وربكم.

وخطاب موسى يحتمل أنه لقومه، أو لفرعون وقومه.

وفي قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ بيان منه عليه السلام: أن ربه هو رب الجميع، لا كما قال فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ إنكارًا لربوبية الله، وزعمًا منه أنه هو ربهم؛ كما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول الحق وعلى الخلق، طاغٍ عاتٍ، قال ﷺ: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»(١)، أي: رد الحق، واحتقار الناس.

﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، أي: لا يصدق بيوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال.

وأول من ينطبق عليه هذا الوصف فرعون وقومه.

وفي هذا تطمين من موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وتسكين لهم؛ لإشفاقهم عليه من بطش فرعون، وقد أعاذه وحفظه.

عن أبي موسى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «**اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾، أي: مؤمن بالله، مصدق بما جاء به موسى من الحق، ولم يعين هذا الرجل باسمه؛ لأنه لا يترتب عليه فائدة.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: من قرابة فرعون، أو من قومه القبط، قال ابن عباس

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، ما يقول إذا خاف قومًا ١٥٣٧، وأحمد ٤/ ٤١٤، ٤١٥.

رضي الله عنهما: «لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى عليه السلام، الذي قال: «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك»(١).

﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، أي: يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خوفًا منهم، ولكنه لما وصل الأمر بفرعون إلى العزم على قتل موسى أظهر إيمانه، وانبرى للدفاع عن موسى عليه السلام؛ غضبًا لله تعالى، ونصرة للحق، وقد قال النبي ﷺ: «**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»(٢).

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم، وهذا من أول ألطاف الله بموسى، وحفظه له وإعاذته أن سخر له هذا الرجل المؤمن.

و«أن» والفعل «يقولون» في تأويل مصدر في محل جر بلام مقدرة، أي: أتقتلون رجلًا؛ لقوله: ربي الله، أي: بسبب قوله: ربي الله، أي: كيف تقتلون رجلًا لم يرتكب جرمًا، إلا أنه يقول: ربي الله؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، ولم يقل: أتقتلون موسى؛ إبعادًا للتهمة عن نفسه؛ لئلا يُظن أنه يعرف موسى، ويدافع عنه عن معرفة.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الواو: حالية، والباء للمصاحبة، أي: والحال أنه قد جاءكم بالبينات، أي: بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات، من ربكم على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من الحق.

عن عروة بن الزبير، قال: سألت عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم، الأمر والنهي ٤٣٤٤، والترمذي في الفتن، أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ٢١٧٤، وابن ماجه في الفتن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠١١- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾»(١).

وقد فاق أبو بكر رضي الله عنه مؤمنَ آل فرعون من جهتين:

الأولى: أن دفاعه رضي الله عنه كان عن أفضل الخلق وسيد ولد آدم ﷺ، ودفاع مؤمن آل فرعون عن موسى عليه السلام، وهو في المرتبة الثالثة بعد نبينا وإبراهيم عليهم السلام.

الثانية: أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، بينما أظهر أبو بكر إيمانه رضي الله عنهما.

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾.

هذا تنزل من هذا الرجل المؤمن معهم في المخاطبة لاستمالتهم واستعطافهم، لعلهم ينظرون في آيات موسى، ولا يعجلوا في قتله، ولا في اتباعه، وليس شكًّا منه في صدق موسى عليه السلام.

أي: فإن يك كاذبًا في دعواه الرسالة وصدقتموه فعليه ضرر كذبه، ولا يضركم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾، أي: وإن يكن صادقًا في رسالته، وكذبتموه ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾، أي: يصبكم بعض الذي يتوعدكم به من العذاب، عاجلًا وآجلًا.

وقدّم احتمال كذبه على احتمال صدقه تنزلًا ثانيًا معهم، وزيادة في التباعد عن ظنهم أنه يريد الانتصار لموسى، فأراد أن يظهر بمظهر المهتم بأمرهم ابتداءً، وتنزل معهم ثالثًا، فلم يقل: يصبكم الذي يعدكم، بل قال: بعض الذي يعدكم، وهذا من حسن عقله، وتلطفه في دفعه عن موسى عليه السلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ الجملة: تعليلية، أي: إن الله لا يوفق الذي هو ﴿مُسْرِفٌ﴾، أي: متجاوز الحد في أقواله وأفعاله.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٢٦٧٨.

﴿كَذَّابٌ﴾ ذو كذب، أو كثير الكذب.

وهذا ذم لفرعون؛ لأن هذا الوصف ينطبق عليه؛ فإنه مسرف متجاوز للحد، كذاب مدَّع للربوبية والألوهية؛ ولهذا فهو أبعد الناس عن هداية الله وتوفيقه.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾: الشهادة لموسى بالصدق، وأنه لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله وأرشده ووفقه إلى ما جاء به من الحق الظاهر بالآيات البينات، والحجج والبراهين القاطعات؛ لأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، فانتقل هذا الرجل المؤمن رحمه الله من التنزلات السابقة في وصف موسى إلى قرب التصريح بأنه على الحق والهدى، ثم انتقل بعد ذلك إلى ما هو أبين وأوضح وهو تخويفهم زوال ملكهم، وعذاب الدنيا والآخرة إن ردوا دعوة موسى ولم يتبعوه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾.

بعدما أنكر عليهم قتل موسى بلا مبرر ولا سبب يوجب ذلك، ولَّمح لهم بأن موسى على الحق والهدى، أتبع ذلك بتذكيرهم ما هم فيه من نعمة الملك والظهور في الأرض، ومحذرًا من زوالها وحلول عذاب الله فيهم.

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: لكم الملك الآن.

﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ «ال»: للعهد الذهني، أي: غالبين عالين في أرض مصر على أهلها، لكم التصرف التام والتدبير فيها.

وفي هذا من حسن الخطاب والتودد إلى قومه، والإشارة إلى التخوف من زوال ملكهم في المستقبل إن لم يشكروا- ما لا يخفى.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«من»: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: فمن الذي ينصرنا من عذاب الله، أي: فمن الذي يدفع عنا عذاب الله ويمنعنا منه في الدنيا والآخرة؟ ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾، أي: إن نزل بنا بسبب كفرنا وقتلنا لأوليائه، أي: لا أحد يدفع عنا عذاب الله ويمنعنا منه إن جاءنا، حتى ولو كنا اليوم ظاهرين في الأرض، وكنا ملوكًا، فكل ذلك لا ينفع ولا يدفع.

وفي قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ تنزل معهم؛ حيث جعل الأمر

مشتركًا بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾؛ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لقول الرجل المؤمن، ومغررًا بقومه.

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ «ما» الأولى: نافية، والثانية: موصولة، أي: ما أريكم وما أختار لكم إلا الرأي الذي أراه وأختاره لنفسي، وما أشير علكم إلا بما أراه هو الحق.

وصدق في أنه لا يشير عليهم إلا بما يراه، وهو الاستخفاف بهم، والغش لهم، والكذب عليهم؛ ليؤمنوا بربوبيته وألوهيته، لتبقى رياسته وملكه.

وكذب في زعمه أنه ما يريهم إلا ما يراه حقًّا، وما يهديهم إلا سبيل الرشاد، بل إنه يعلم أن ما هو عليه هو الباطل، وأن ما جاء به موسى هو الحق، لكنه غش رعيته، وما نصحهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، أي: وما أدلكم ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا إلى طريق الحق والرشد والصواب والسداد.

وكذب أيضًا في هذا؛ فهو إنما يدعوهم إلى طريق الغي والضلال والفساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ قال قبل هذا: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾، وقال هنا وفي الذي

بعده: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ تحقيقًا لإيمانه، وأنه مؤمن حقًّا.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ كرر دعوة قومه رجاء أن يهديهم الله، غير آيس من هدايتهم.

﴿يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ «يوم» اسم جنس، أي: مثل أيام الأحزاب، أي: أيام وقائع الله تعالى فيهم، وعقوباته إياهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [يونس: ١٠٢].

والأحزاب: جمع حزب؛ يعني: المكذبين من الأمم السابقة، الذين تحزبوا واجتمعوا على تكذيب أنبيائهم وعداوتهم، ورد ما جاؤوا به من الحق.

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ «مثل»: بدل من «مثل» التي قبلها، أي: مثل عادة قوم نوح، وعادة عاد وثمود، أي: مثل عادة هؤلاء الأقوام بالكفر والتكذيب؛ كما قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٢] وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٤].

أي: مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بالكفر والتكذيب، وعادة الله بهم بأخذهم بالعقوبات العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، أي: إني أخاف أن يحل بكم مثل ما حل بأولئك الأقوام من العقوبات.

وذكر قوم نوح؛ لأنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾؛ لأنهما بعد قوم نوح.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ «ظلمًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أيِّ ظلم مهما قل، أي: وما الله يريد أيَّ ظلم للعباد، فلا يعذبهم إلا بذنب أذنبوه، وجرم أسلفوه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ قرأ ابن كثير بإثبات الياء على الأصل: «التَّنَادِي»، وقرأ الباقون بدون ياء: ﴿ٱلتَّنَادِ﴾.

و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾: يوم القيامة، فبعد أن خوفهم العقوبات الدنيوية خوفهم العقوبات الأخروية، أي: إني أخاف عليكم يوم القيامة وما فيه من الأهوال والعذاب.

وسمي يوم القيامة: يوم التناد؛ لمناداة الناس فيه بعضهم بعضًا، ففيه ينادي أهل الجنة أهل النار، وينادي أهل النار أهل الجنة، وينادي أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، وينادي أهل النار ربهم لإخراجهم منها، وينادى كل قوم بأعمالهم، وينادي الشركاء شركاءهم، وغير ذلك؛ كما دل على ذلك القرآن والسنة.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، و«التولي»: الرجوع.

﴿مُدْبِرِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها؛ لأن التولي هو الإدبار، أي: يوم تولون وترجعون حال كونكم مدبرين، أي: تولون مدبرين إلى النار.

﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما لكم من الله ومن بأسه وعذابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾.

«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لكم من الله أيّ عاصم، أي: أيّ مانع يمنعكم من عذاب الله، ويرده عنكم، لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه أحد؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة: ١٠- ١٢].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ هذا يحتمل أنه من تتمة كلام الرجل المؤمن، ويحتمل أن يكون مستأنفًا من كلام الله، أي: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ كونًا وقدرًا بحكمته وعدله.

﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من» كالتي قبلها، أي: فما له أيّ هاد يهديه من بعد الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقول هذا الرجل في ختام نصحه لقومه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، أي: إني قد بذلت النصح لكم، والهداية بيد الله، فمن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فما له من هادٍ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾ هذا من كلام الرجل المؤمن لقومه، أي: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾، أي: جاء أسلافكم ﴿يُوسُفُ﴾، أي: يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بعثة موسى بزمن بعيد.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات، على صدقه، وصحة ما جاء به من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ﴾، أي: فما زلتم في ريب ﴿مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾، أي: من الذي جاءكم به يوسف من الرسالة منذ بعثته فيكم إلى زمن موسى وآل فرعون، فلم يصدقه في رسالته سلفهم ولا خلفهم، ولم يؤمنوا به.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾، أي: مات ولم يعقب ذرية، ﴿قُلْتُمْ﴾، أي: من غير دليل ولا برهان، بل بناءً على أمانيكم الكاذبة: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، أي: قالت لكم نفوسكم: استرحتم وكفيتم، هلك من أرسل إليكم فكذبتموه وتوعدكم، فاطمئنوا؛ لن يبعث الله من بعده رسولًا، أي: فلن تزالوا كافرين بيوسف وغيره من الرسل بعده.

قال ابن كثير[1]: «يعني: أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى وهو يوسف عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولًا يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾».

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾، أي: مثل ذلك يضل الله ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ متجاوز الحد إلى الكفر والشرك، ﴿مُّرْتَابٌ﴾، أي: شاكّ، راكن للشك والريبة، مكذب بالحق.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: يخاصمون ويحاجون في آيات الله، ودلائل وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته؛ لردها وإبطالها.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، أي: بغير حجة، ولا برهان جاءهم، ولا دليل.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ١٣٣.

وهذا القيد لبيان الواقع فلا مفهوم له؛ لأن المجادلين في آيات الله لردها وإبطالها لا يمكن أن يكون لهم سلطان مطلقًا.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ «مقتًا»: تمييز، والمقت: البغض الشديد، أي: عظم بغضا عند الله الجدال في آيات الله بغير سلطان.

﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: وكبر مقتًا عند الذين آمنوا هذا الفعل، أي: الجدال في آيات الله بالباطل؛ لأنهم يمقتون ويبغضون كل ما مقته الله وأبغضه.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قرأ أبو عمرو: «قَلْبٍ» بتنوين الباء، وقرأ الباقون بغير تنوين: ﴿قَلْبِ﴾.

أي: كما طبع الله، أي: ختم على قلوب هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، الذين يمقتهم الله أشد المقت، ويمقتهم المؤمنون، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾، أي: يختم الله، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن اتباع الحق، ومتكبر على الخلق محتقر لهم؛ كما قال ﷺ: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»(١)، أي: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس وازدراؤهم.

﴿جَبَّارٍ﴾ قاسي القلب، كثير الاعتداء على الخلق، وظلمهم بغير حق.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وتأييده بالآيات البينات، والحجج والبراهين القاطعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

٢- تكذيب فرعون وهامان وقارون وآل فرعون لموسى عليه السلام، وعنادهم ومكابرتهم، واتهامهم له بالسحر والكذب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب المشركين له، ووصفه بالسحر، وغير ذلك.

٣- اعترافهم في داخل أنفسهم بعجزهم عن مدافعة ما جاءهم به موسى من

---

(١) سبق تخريجه.

الآيات والحجج والبراهين؛ ولهذا اتهموه بالسحر والكذب.

٤- التلازم بين السحر والكذب؛ لأن السحر كله مبني على الكذب.

٥- أن ما جاء به موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه هو الحق من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾.

٦- تنكيلهم بمن آمن من بني إسرائيل معه بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾.

٧- شدة حقدهم وعداوتهم للمؤمنين خاصة؛ لقولهم: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ الآية.

٨- أن الله قد يبتلي المؤمنين بتسليط الكفار عليهم؛ لحكمة يعلمها من تمحيصهم، وغير ذلك.

٩- ضلال وضياع كيد الكافرين ومكرهم، كفرعون وقومه وغيرهم في تكذيب رسل الله، واتهامهم بالسحر ورد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾، وفي هذا بشارة للمؤمنين، وتثبيت لقلوبهم، وتقوية لعزائمهم.

١٠- تهديد فرعون بقتل موسى عليه السلام، وعزمه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾.

١١- تمويهه وخداعه للناس بقوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كأنهم يمنعونه، مع أنهم لا يستطيعون منعه؛ لعلمه بنفسه أنه لا يستطيع قتله.

١٢- شدة عتو فرعون وتمرده ومكابرته، وتحديه لموسى وربه؛ لقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

١٣- معرفة فرعون في قرارة نفسه أن الدعاء سلاح المؤمن، وإن كابر وتحدى.

١٤- تخوف فرعون من موسى أن يبدل دين الناس، فيصرفهم عن عبادته إلى عبادة الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾.

١٥- قلب فرعون للحقائق، وتغريره بقومه بزعمه الكاذب التخوّف من موسى أن يبدل دينهم، أو يظهر الفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن

يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾.

١٦- أن الفساد في نظر فرعون وغيره من دعاة الكفر: هو ما خالف دينهم الباطل، ولو كان بالإيمان بالله.

١٧- لا عجب إذا كان فرعون- وهو أشد الناس كفرًا، وزعيم دعاة الكفر ورأس المفسدين في الأرض- يخاف من موسى رسول الله وكليمه أن يظهر الفساد في الأرض، فلا عجب أن يرفع أناس عقائرهم باسم الدين والإصلاح، وهم أفجر خلق الله وأشدهم فسادًا؛ كما يفعل المنافقون، وأهل البدع والأهواء من الرافضة والخوارج وغيرهم من غلاة أهل البدع.

١٨- قوة توكل موسى على ربه، واعتصامه واستجارته به من فرعون، ومن كل متكبر مكذب بالقيامة والمعاد، وطمأنته لبني إسرائيل بأن الله مجيره وحافظه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام، وللمؤمنين؛ لقوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وقول فرعون قبل هذا: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقول موسى: ﴿وَرَبِّكُم﴾ على اعتبار الخطاب لفرعون وقومه، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢١- ذم فرعون؛ لاتصافه بهذين الوصفين الذميمين: التكبر، وعدم الإيمان بيوم الحساب.

٢٢- خطر الكبر، وأنه يحمل صاحبه على رد الحق، والتكذيب به، وإنكار البعث والحساب؛ لقول موسى: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

٢٣- إثبات القيامة، والحساب، والجزاء على الأعمال.

٢٤- تسخير الله عز وجل ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون، وإنكاره على فرعون أشد الإنكار ما عزم عليه من قتل موسى، وهذا من دلائل استجابة الله تعالى لموسى وإعاذته إياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ

رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٥- فطنة هذا الرجل المؤمن في العدول عن التعيين في قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، فلم يقل: أتقتلون موسى؟ لئلا يتهم بانحيازه إليه، مع أنه آمن به ويعرفه.

٢٦- أن من كتب الله له الإيمان والهداية آمن واهتدى ولو كان من بين قوم كفار، فهذا الرجل وفقه الله للإيمان مع أنه في وسط قوم كلهم كفار.

٢٧- جواز كتمان المؤمن إيمانه إذا كان يخاف على نفسه.

٢٨- حرمة النفوس وعصمتها، فلا يجوز قتلها إلا بما يبيح ذلك شرعًا.

٢٩- شهادة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون لموسى عليه السلام، بتبليغه رسالة ربه لفرعون وقومه، وإقامة الحجة عليهم بمجيئه إليهم بالآيات والبينات من ربهم؛ لقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

٣٠- قوة إيمان هذا الرجل وشجاعته في الحق؛ لقوله لفرعون وقومه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، وهذا يتضمن إنكاره ربوبية فرعون، وإثبات أن لهم ربًّا سوى فرعون؛ كما يدل على قوة إيمانه قوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾. وفي هذا تحذير وتهديد لفرعون وقومه.

٣١- حكمة هذا الرجل المؤمن، وعقله، وبعد نظره؛ لتنزله في الخطاب مع قومه مرة تلو أخرى؛ عسى أن يتأملوا ويتفكروا فيما يدعوهم إليه موسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

فتنزل معهم في ذكر هذه المعادلة، مع أنه يعلم أن موسى صادق، وتنزل معهم أيضًا في تقديم احتمال كونه كاذبًا؛ حتى لا يتهم بالانتصار لموسى، وتنزل معهم أيضًا في قوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، ولم يقل: يصبكم الذي يعدكم.

وفي هذا كله دلالة على جواز التورية.

٣٢- أن إثم الكاذب وضرر كذبه إنما يعود على نفسه، وأن خبر الصادق إذا كُذِّب

يعود ضرر تكذيبه على من كذبه.

٣٣- ذم هذا الرجل المؤمن لفرعون؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ ومفهوم هذا: الشهادة بصدق موسى عليه السلام، أي: أنه لو كان موسى بهذا الوصف لما هداه الله ووفقه لبيان الحق على أحسن وجه وأتمه من غير اختلاف ولا اضطراب.

٣٤- الحذر من الإسراف والكذب؛ لأن ذلك سبب للحيلولة دون هداية الله وتوفيقه.

٣٥- الإشارة للتلازم- ولو من بعض الوجوه- بين الإسراف والكذب.

٣٦- تذكير هذا الرجل المؤمن لقومه ما هم فيه من نعمة الملك، والظهور في أرض مصر بلا منازع، وتحذيرهم من حلول عذاب الله فيهم، وزوال ملكهم، إن استمروا على مخالفة أمر الله، وتكذيب موسى؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾.

٣٧- أن الظهور والغلبة قد يكونان سببًا للأشر والبطر، ومخالفة أمر الله، وكفر نعمه، إلا من وفقه الله وهداه، وأن الكفر والمعاصي من أسباب زوال النعم.

٣٨- أنه لا دافع لعذاب الله إذا جاء، ولا رافع له إذا نزل.

٣٩- تنزل هذا الرجل في الخطاب مع قومه في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾؛ حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم؛ لِيُفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضاه لنفسه.

٤٠- تمادي فرعون في غيه وطغيانه، والتمويه على قومه وخداعهم، والكذب عليهم وغشهم؛ لقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وكَذَبَ والله، فما هداهم إلا سبيل الضلال والنار؛ كما قال تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: ٩٨].

وفي الحديث: «**ما من والٍ يلي رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم**

الله عليه الجنة»(١).

٤١- شدة إشفاق هذا الرجل من عقاب الله تعالى، وخوفه على قومه، ومعرفته ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات، وتحذيرهم من مثل تلك العقوبات؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ الآية.

٤٢- أن سنن الله وعادته في إهلاك المكذبين ثابتة لا تتغير؛ كما أن دأب الأمم وعادتهم تكذيبُ الرسل، وتقليد بعهم بعضًا في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾.

٤٣- ينبغي أخذ العظة والعبرة من أحوال السابقين وما حل بهم من العقوبات.

٤٤- أن الله لا يظلم أحدًا من خلقه أيَّ ظلم مهما قل، ولا يريد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾.

٤٥- إثبات كمال عدل الله تعالى؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

٤٦- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فإذا كان لا يريد ظلمًا للعباد، فإنه يريد العدل فيهم.

٤٧- إيمان هذا الرجل بيوم القيامة، وإشفاقه من أهواله وعذابه، وتخوفه على قومه من ذلك؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾.

٤٨- مناداة الخلائق بعضهم بعضًا يوم القيامة، والمناداة عليهم بأعمالهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

٤٩- تولي المكذبين يوم القيامة مدبرين إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾.

٥٠- لا عاصم من أمر الله إلا من رحم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾.

٥١- أن من يضلله الله كونًا وقدرًا فلا هادي له من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٥١، ومسلم في الإيمان ١٤٢؛ من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

٥٢- إثبات رسالة يوسف عليه السلام، وأنه أرسل إلى أهل مصر القبط قبل موسى بالآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٥٣- مخاطبة القرآن الكريم للخلف من أيِّ أمة من الأمم بما حصل للسلف منهم، فآل فرعون الموجودون في عهد موسى ليسوا هم الموجودين في عهد يوسف، بل بينهم مدة طويلة.

٥٤- شك آل فرعون فيما جاءهم به يوسف، واستمرارهم على ذلك، وعلى الكفر في حياته وبعد مماته إلى عهد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

٥٥- كراهتهم ليوسف، ولما جاءهم به؛ ولهذا لما مات، كأنه زال عن كواهلهم حمل ثقيل، وقالوا بناء على ظنونهم الكاذبة، وأمانيهم الباطلة: لن يبعث الله من بعده رسولًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾.

٥٦- إضلال الله عز وجل كونًا وقدرًا لكل مسرف مرتاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

٥٧- التلازم بين الإسراف والشك والارتياب ولو من بعض الوجوه.

٥٨- ينبغي الحذر من الإسراف والارتياب؛ لأن ذلك سبب للضلال.

٥٩- مقت الله وبغضه للذين يجادلون في آيات بغير حجة ولا برهان؛ لإبطالها وردها، ومقت المؤمنين لذلك؛ لأنهم يمقتون ما مقته الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٦٠- أنه لا حجة ولا سلطان، ولا دليل ولا برهان لمن يجادل في آيات الله لإبطالها وردها.

٦١- إثبات صفة المقت لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يتفاضل، وهو من الصفات الفعلية الاختيارية عند وجود سببه، فيمقت الله المجادلين في آياته بغير حجة ولا برهان، ويمقت الظلم وأهله، والكفر وأهله.

٦٢- محبة الله تعالى لمن يجادل في آياته بالحجة والبرهان؛ لإحقاق الحق، ومحبة المؤمنين لذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ﴾ الآية.

٦٣- طبع الله وختمه على كل قلب متكبر جبار؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

٦٤- الحذر من التكبر والجبروت؛ لختمه عز وجل على قلوب المتكبرين عن الحق وعلى الخلق، المتجبرين بالاعتداء على الناس وظلمهم بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(١).

٦٥- الإشارة إلى التلازم بين الكبر والجبروت ولو من بعض الوجوه.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، تحريم الكبر وبيانه ٩١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متماديًا في طغيانه وتمرده وعتوه وعناده لموسى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾، أي: قصرًا عاليًا عظيمًا مرتفعًا شامخًا مبنيًّا من الطين المشوي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ «لعل»: للتعليل، و«الأسباب»: جمع «سبب»، وهي الطرق المؤدية إلى المقصود، أي: لعلي أصل وأبلغ الأسباب.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل من «الأسباب»، أي: طرق الوصول إلى السموات وأبوابها.

قال زهير[(١)]:

ومـن هـاب أسـباب المنايـا ينلنـه وإن يـرق أسـباب السـماء بسـلم

أي: لعلي أبلغ وأصل إلى طرق السموات وأبوابها، وأنّى له ذلك؟ وإنما هذا من باب التمويه والكذب على قومه.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قرأ حفص بنصب العين: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾.

وقرأ الباقون بضمها: «فَأَطَّلِعُ».

والفاء: للسببية، والمعنى: فأصل إلى إله موسى، أي: فأنظر هل هو حق أو غير حق؟ ثم استدرك خوفًا من أن يقال: إنه في شك من أمره، فقال:

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، أي: لأظن أن موسى كاذبًا في أن له إلهًا غيري هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] كما يقول.

وإنما قال هذا فرعون تمويهًا على أصحابه، وخوفًا من أن يقع في نفوسهم شك في ربوبيته وألوهيته لهم حين أمر وزيره ببناء الصرح.

وهو في الحقيقة يعلم أن موسى صادق؛ كما يعلم أنه هو الكاذب، وأنه لا سبيل له إلى بلوغ أسباب السموات، ولا إلى الاطلاع إلى إله موسى؛ كما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، أي: مثل هذا التزيين زين لفرعون كونًا وقدرًا سوء عمله، أي: عمله السيئ الذي بلغ غاية السوء، من الكذب والتمويه على قومه.

ويحتمل أن يكون المعنى: وكذلك زين لفرعون سوء عمله، أي: زين له ذلك الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، مع حب الرياسة والتسلط.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بضم الصاد بالبناء للمفعول:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١١١، «المعلقات العشر» ٧/ ٣.

﴿وَصُدَّ﴾، وقرأ الباقون بفتح الصاد والبناء للفاعل: «وَصَدَّ»، أي: أعرض بنفسه، وصد غيره بالتغرير بهم وإيهامهم.

و«ال» في «السبيل» للعهد الذهني، أي: صد عن السبيل المعهود، وسبيل الحق، وطريق الهدى، وعن الصراط المستقيم.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: مكره وخداعه، وتدبيره الخفي والجلي لموسى، ولما جاء به من الحق، والتمويه على الناس، بإظهار أنه على الحق، وأن موسى على الباطل.

﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا في خسار وبوار، وهلاك وضياع ودمار؛ كما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

انتقل هذا الرجل المؤمن وتدرج- بتوفيق الله له ومنته عليه- من منكر على فرعون وقومه قتل موسى، إلى محذر لهم عقاب الله لهم في الدنيا، وزوال ملكهم إن خالفوا موسى وكذبوه، ثم إلى محذر لهم يوم القيامة وأهواله وعذابه، إلى أن صار داعية يدعو قومه إلى اتباعه؛ ليبين لهم طريق الحق والصواب.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾، أي: أدلكم وأرشدكم إلى طريق الحق والرشد والصواب، حقًّا وصدقًا، لا كما كذب عليكم فرعون بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ وهو إنما يهديكم إلى طريق الغي والضلال، ويقودكم إلى النار.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

لما حثهم على اتباعه؛ ليهديهم طريق الحق، زهدهم في الدنيا، ورغبهم في الآخرة؛ لأن سبب ضلال كثير من الخلق الافتتان بالدنيا، ونسيان الآخرة.

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع، أي: يُتمتع بها ويتنعم قليلًا، ثم تذهب وتضمحل وتزول، فلا تغرنكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، [الحديد: ٢٠] فهي متاع غرور، ودار عبور؛ كما قال ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»(١).

﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ لما بين لهم حقارة الدنيا، أتبع ذلك ببيان قيمة الآخرة.

والآخرة: هي ما بعد الدنيا، وضمير الفصل «هي»: للتوكيد والحصر.

﴿دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾، أي: دار المستقر، التي لا زوال لها، ولا ظعن منها إلى غيرها، إما نعيم أبدي، وإما عذاب سرمدي؛ ولهذا يؤتى بالموت على هيئة كبش، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح، ويقال: «**يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت**»(٢).

ولما بين قيمة الدار الآخرة أتبع ذلك بالتحذير من العمل السيئ، والترغيب بالعمل الصالح؛ استعدادًا لتلك الدار التي هي الحيوان، وهي دار القرار، فقال:

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾، أي: من عمل عملًا سيئًا يسوءه في الحال والمآل، من شرك أو فسوق أو عصيان.

﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾، أي: فلا يعاقب إلا بسيئة واحدة مثلها، بقدر ما تستحقه سيئته؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ [النبأ: ٢٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٣٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٩؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: ومن عمل عملًا صالحًا بجوارحه، خالصًا لله عز وجل، موافقًا لشرعه، وهدي رسله.

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ «من»: بيانية، أي: لا فرق بينهما في مضاعفة الأجر لكل منهما؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو مصدق بقلبه بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، فمن لم يكن مؤمنًا لم ينفعه عمله الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»(١).

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح الخاء: «يُدْخَلُونَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء: ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

والجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، دار السلام والأمن والنعيم التام.

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» إشارة إلى علو مرتبتهم وشرفهم.

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: يعطون فيها من جزيل الثواب وعظيم الأجور بلا حد ولا عد، مما لم تبلغه أعمالهم، ولم يخطر على بالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ في وصف الجنة: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٢١٤.

قلب بشر»[١].

وهكذا لخص هذا الرجل المؤمن الموفق سبيل الرشاد الذي دعا قومه إليه، بالأخذ بأربع وصايا، الأولى: الحذر من الاغترار بالدنيا، والثانية: الاستعداد للآخرة، والثالثة: البعد عن السيئات، والرابعة: الإيمان وعمل الصالحات مع البشارة بدخول الجنة والرزق بغير حساب. فيا لها من وصايا!

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، أي: إلى النجاة من النار، وذلك بدعوتي إياكم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له، وتصديق رسوله واتباعه.

﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: معطوف على «أدعوكم»، أي: وما بالكم تدعونني إلى النار، أي: إلى ما يكون سببًا لدخولي النار، ثم فسر ذلك بقوله:

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن أكفر بالله، أي: لأجحد ربوبيته وإلهيته، وما يجب له، ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾، أي: وأشرك بالله من الشركاء.

﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، «ما»: موصولة، أو نكرة موصوفة في محل نصب مفعول لـ«أشرك»، أي: الذي ليس لي به علم، وهذا قيد لبيان الواقع؛ لأن كل من كفر بالله وأشرك به، فليس له علم بما أشرك به، ولا أصل لما فعل؛ لأنه على جهل وضلال وبلا دليل.

---

(١) سبق تخريجه.

والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب، إن لم يكن أكبرها؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾، أي: وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز الغفار، ذي العزة التامة، والمغفرة الواسعة.

وبدأ هنا باسم «العزيز»؛ لأن المقام يقتضيه؛ لأن فرعون وقومه يرون أن العزة لهم- مع ما فيه تهديد ووعيد لهم، إن استمروا على كفرهم وشركهم.

﴿ لَا جَرَمَ﴾، أي: لا شك ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ «ما»: موصولة، أي: أن الذي تدعونني إليه من عبادة الأصنام والأنداد، والكفر بالله.

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ «دعوة»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ليس له أيُّ دعوة، أي: لا يستحق العبادة والدعوة والالتجاء إليه، ولا يستجيب لداعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: معطوف على قوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾، أي: ولا جرم، ولا شك أن مردنا إلى الله، أي: مرجعنا ومصيرنا إلى الله في الآخرة، إليه إيابنا، وعليه حسابنا، ومجازاة كل منا بعمله؛ كما أن مردنا إليه في الدنيا في جميع أمورنا؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾: معطوف على ما قبله، أي: ولا جرم ولا شك أن المسرفين الذين أسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا الحد بالكفر والمعاصي.

﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ «هم»: ضمير فصل؛ للتوكيد والحصر، أي: هم دون غيرهم أهل النار، وملازموها الخالدون فيها.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«السين»: للتحقيق والقرب، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فستذكرون ولا بد عن قريب الذي أقوله لكم، أو قولي لكم، عند حلول آجالكم، ومعاينة العذاب، وحرمانكم الثواب، وتندمون حين لا ينفعكم الندم، وكل ذلك آتٍ، وكل آتٍ قريب.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: أكل أمري كله إلى الله، وأعتمد عليه، وأعتصم به من شركم، ومن شر كل ذي شر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، أي: عليم بهم، مطلع على أحوالهم، وبواطنهم وظواهرهم، يعلم من يستحق الهداية فيهديه بفضله، ويعلم من يستحق الغواية فيضله بعدله، يحفظ أولياءه وينجيهم، وينتقم من أعدائه ويهلكهم؛ ولهذا قال:

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ الضمير يعود إلى الرجل المؤمن الناصح لقومه، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فوقاه سيئات مكرهم، أو سيئات الذي مكروا، أي: حفظه ووقاه سوء عاقبة مكرهم، من إرادة قتله وإهلاكه، ونجاه مع موسى من الغرق، ومآله في الآخرة إلى جنات النعيم.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: وأحاط ونزل بفرعون وقومه.

﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب السيئ، بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأخيرًا بإغراقهم جميعًا في اليم في صبيحة واحدة، ثم نقلهم إلى النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق.

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، أي: يعرضون على النار صباحًا ومساءً في البرزخ في قبورهم، فيأتيهم من سَمومها وعذابها ما لا يطيقون.

وقوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يحتمل أن المراد: على الدوام، ويحتمل أن المراد به: في هذين الوقتين فقط.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**»(١).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: ويوم تقوم القيامة، ويبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بوصل الهمز وضم الخاء: «ادْخُلُوا»، والابتداء لهم بضم الهمزة، أي: ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب، والأمر للإهانة والإذلال.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة وكسر الخاء: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾، أي: يقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أعظم العذاب، وأغلظه، وأقواه ألمًا، وهو عذاب جهنم.

الفوائد والأحكام:

١- تمادي فرعون في غيه وطغيانه وتكبره وعلوه، وكذبه وتمويهه على قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى بذاته؛ لقول فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، فهذا يدل على أن موسى أبلغه أن الله في السماء.

٣- احتراز فرعون من تشكيك قومه بربوبيته وإلهيته بعد أمره هامان ببناء صرح له، بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وهذا من التمويه والكذب على قومه؛ لأنه يعلم أن موسى صادق، ويعلم في قرارة نفسه أنه هو الكاذب؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ١٣٧٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٦، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٠، والترمذي في الجنائز ١٠٧٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٠.

٤- تزيين الشيطان والنفس الأمارة- مع حب الرياسة والتسلط- لفرعون سوء عمله والصد عن طريق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٥- أن من كتب عليه كونًا وقدرًا الضلال، والصد عن طريق الحق وقع في ذلك ولا بد؛ لأن قدر الله نافذ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذا على اعتبار التزيين قدريًّا.

٦- إعراض فرعون وصده بنفسه عن طريق الحق، وصده الناس عن ذلك؛ لقوله تعالى: «وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ» على قراءة فتح الصاد.

٧- أن كيد فرعون ومكره وتدبيره الخفي والجلي لتكذيب موسى وما جاء به من الحق في فساد وبوار، وهلاك وضياع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾، وهكذا كل داعٍ للشر فكيده في تباب وخسار.

٨- تلطف هذا الرجل المؤمن في دعوته قومه إلى الله؛ لقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

٩- تدرج هذا الرجل المؤمن من الإنكار على قومه قتل موسى بغير حق، ومن تحذيرهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، إلى دعوتهم إلى اتباعه؛ ليهديهم طريق الرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

١٠- شجاعة هذا الرجل وقوته في الحق، في دعوته قومه إلى اتباعه، وتعريضه بقوله لهم: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ بكذب فرعون عليهم، وتضليله لهم بقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

١١- أن سبيل الحق والرشد واحد، لا ثاني معه.

١٢- تزهيده قومه في الدنيا وبيان حقارتها، وأنها مجرد متاع سرعان ما تضمحل وتزول، فلا يغتروا بها، وينشغلوا عما خلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، وقد قال ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما**

أهلكتهم»(١).

١٣- ترغيبهم في الدار الآخرة، وبيان أنها دار الاستقرار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ويجب الاستعداد والعمل لها؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

١٤- وجوب الحذر من الدنيا وفتنتها؛ فإنها سبب هلاك وضلال كثير من الخلق، ووجوب الاستعداد للآخرة والعمل لها.

١٥- إثبات الدار الآخرة، وقيام الساعة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا فِى ٱلْآخِرَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٦- التحذير من عمل السيئات، وأن من عمل سيئة جوزي بمثلها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

١٧- كمال عدل الله تعالى، فمن عمل سيئة جوزي بسيئة واحدة مثلها، من غير زيادة.

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وبيان ما أعده الله لمن عمل صالحًا وهو مؤمن من دخول الجنة، وما لهم فيها من واسع الرزق بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

١٩- لا بد لقبول العمل من كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٠- لا فرق بين الذكر والأنثى في الثواب والعقاب، فكل منهما يجازى بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

٢١- أن العمل الصالح لا ينفع إلا مع الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

٢٢- التنويه بشأن من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن؛ للإشارة إليهم

---

(١) سبق تخريجه.

بإشارة البعيد: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ رفعة لهم وتنويهًا بقدرهم.

٢٣- إثبات وجود الجنة، وأن الله أعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٢٤- كرم الله عز وجل وواسع جوده وعطائه؛ حيث يعطي أهل الجنة بلا حساب، ولا عد، ولا حد.

٢٥- تعجب هذا الرجل المؤمن وإنكاره على قومه، كيف يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم من الإيمان والعمل الصالح، وعبادة العزيز الغفار، وتصديق رسوله واتباعه، ويدعونه إلى ما يكون سببًا لدخول النار من الكفر بالله والشرك؛ لقوله: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

٢٦- أن من دعا إلى اتباع الحق فهو داعٍ إلى النجاة في الدنيا والآخرة، ومن دعا إلى الباطل فهو داعٍ إلى الهلاك والشقاء في الدنيا وإلى النار في الآخرة.

٢٧- إثبات وجود النار، وأن الله أعدها لمن كفر وأشرك وأسرف؛ لقوله: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾.

٢٨- أن كل من كفر بالله وأشرك به، فليس له علم بذلك، وإنما تعبد على جهل وضلال.

٢٩- إثبات اسم: «العزيز»، وأنه ذو العزة التامة، لا يضام من لاذ بجنابه واحتمى بحماه؛ لقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾.

٣٠- إثبات اسم الله: «الغفار»، وأنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة لعباده، يستر ذنوبهم ويتجاوز عنها؛ لقوله: ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾.

٣١- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الغفار»، وصفتي العزة التامة، والمغفرة الواسعة في حقه كمال إلى كمال.

٣٢- أن الدعوة إلى الكفر والشرك بالله دعوة باطلة؛ لأن الشركاء لا يستحقون العبادة والدعاء من دون الله، ولا يستجيبون لداعيهم ولا ينفعونه؛ لأنهم لا يملكون

لأنفسهم ولا لغيرهم شيئًا؛ لقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

٣٣- أن مرد الخلائق في جميع أمورهم إلى الله تعالى، وإليه إيابهم في الآخرة، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقول هذا الرجل المؤمن مذكرًا قومه بذلك: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٣٤- تهديد المسرفين بالكفر والشرك والمعاصي، ووعيدهم بالخلود في النار، والتحذير من ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وفي هذا تعريض بما عليه قومه من الكفر والشرك والإسراف، وتحذير لهم.

٣٥- تهييجه مشاعر قومه، وأنهم سيذكرون قوله ونصحه لهم، وسيندمون حين لا ينفع الندم، عندما يحل بهم العقاب، ويُحرَمون الثواب، وفي هذا تحذير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾.

٣٦- تفويضه أمره إلى الله واعتماده عليه واعتصامه به؛ ليمنعه من شرهم ومن شر كل ذي شر؛ لقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٣٧- إحاطة علم الله تعالى وبصره بالعباد، وأحوالهم الظاهرة والباطنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

٣٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة.

٣٩- حفظ الله تعالى إياه، ووقايته له من سوء مكرهم وكيدهم، وإنجاؤه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ وهو الواقي والكافي سبحانه لمن توكل عليه.

٤٠- إحاطة سوء العذاب بأصنافه المختلفة بآل فرعون، وفي النهاية إغراقهم في اليم في صبيحة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

٤١- تعذيبهم في البرزخ بعرضهم على النار صباحًا ومساءً؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

٤٢- إثبات عذاب القبر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فقالت لها: أعاذك الله من

عذاب القبر. فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «**نعم، عذاب القبر حق**». قالت عائشة: «فما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر»(١).

قال رسول الله ﷺ: «**فأوحي إلى أنكم تفتنون في قبوركم**»(٢).

فعذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٤٣- إدخال آل فرعون يوم القيامة أشد العذاب، والجمع لهم بين العذاب المعنوي بالإهانة والإذلال، والعذاب الحسي في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

٤٤- أن النار هي أشد العذاب، وأن شدة العذاب فيها بقدر شدة الكفر، فلما كان فرعون وآله من أطغى الخلق جوزوا بأشد العذاب.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، ما جاء في عذاب القبر ١٣٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥، والنسائي في الجنائز ٢٠٦٢- من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾ «إذ»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: اذكر إذ يتحاجون، أي: حين يتحاج أهل النار ويتخاصمون فيها.

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ ﴾ الفاء: عاطفة، و«الضعفاء» جمع: «ضعيف»: ضد القوي، والضعف يكون في البدن؛ كما يكون في المال والشرف والسيادة، وغير ذلك، والمراد بهم: لأتباع.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: للذين استكبروا عن الحق، وعلى الخلق، من السادة والكبراء ونحوهم، وهم المتبوعون.

﴿إِنَّا كُنَّا﴾، أي: في الدنيا، ﴿لَكُمْ تَبَعًا ﴾ جمع: «تابع»، أي: مُتَّبعين.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: فهل أنتم دافعون ومتحملون عنا نصيبًا من النار، أي: جزءًا أو قسطًا من النار؛ جزاء متابعتنا لكم في الدنيا.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾، أي: كلنا نحن وأنتم في النار، فكيف نغني وندفع عنكم نصيبًا منها ونحن كلنا فيها؟

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

لكن شتان ما بين عذاب الأتباع وعذاب المتبوعين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨ ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال ﷺ: «**من دعا إلى ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ ﴾، أي: قد قضى بحكمه القدري الجزائي.

﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾، أي: بين الناس عمومًا، أي: بين أهل الجنة وأهل النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ من الضعفاء والمستكبرين، والأتباع والمتبوعين.

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾، أي: لخزنة النار، وسميت النار بجهنم؛ لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

وخزنتها: هم الملائكة الموكلون عليها، وهم من الغلظة والشدة كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وهم كثرة كاثرة؛ كما دل عليه حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك**

---

(١) سبق تخريجه.

يجرونها»(١).

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أي: اسألوا ربكم واطلبوا منه.

﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمًا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: قدر يوم من العذاب؛ لأن يوم القيامة يوم واحد، ليس فيه ليل ولا نهار، ولا شمس ولا قمر.

وإنما طلبوا التخفيف؛ لشدة ما هم فيه من العذاب، واكتفوا بطلب تخفيف العذاب لا رفعه، وتخفيف يوم واحد فقط؛ لشدة يأسهم من ذلك كله.

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قال الخزنة للذين في النار موبخين لهم.

﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع والتقرير، أي: أولم تك تأتيكم رسلكم بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات، التي فيها بيان الحق وتحذيركم من النار؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ «بلى»: حرف جواب، أي: قال الذين في النار: بلى قد جاءتنا رسلنا بالبينات، وقامت علينا الحجة، لكننا كذبنا رسلنا وعاندناهم، وكفرنا بما جاؤوا به من البينات وخالفناهم.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال الخزنة لهم تهكمًا بهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ أنتم، فلن ندعوا لكم؛ لأن الدعاء والشفاعة للكفار مما لا يجوز ولا يقبل.

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ هذا من تتمة كلام الخزنة لهم، أي: وما دعاء الكافرين إلا في ضياع واضمحلال، فلن يستجاب لكم، ولن يخفف عنكم العذاب. ويحتمل: أنه استئناف من كلام الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٣.

يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۙ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: إنا لننصر رسلنا وننصر الذين آمنوا في الحياة الدنيا بالحجة والبرهان، ببيان الحق وإظهاره، بالآيات البينات، والحجج والبراهين الواضحات، وإزهاق الباطل وإبطاله.

وننصرهم بالانتصار لهم ممن آذاهم؛ بجعل الغلبة والظفر لهم بالقتال في الميدان، وهزيمة أعدائهم وإهلاكهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»(١).

ولهذا أهلك الله المكذبين من الأمم السابقة بأنواع العقوبات، وأنجى رسله والمؤمنين، ومكن لرسوله محمد ﷺ وأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ونصرهم في بدر وفي فتح مكة، وجعل لهم العز والسؤدد، ونصر خلفاءه وأصحابه، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، أي: وننصر رسلنا والذين آمنوا نصرًا أعظم وأكبر وأجل يوم يقوم الأشهاد، أي: يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والرسل والمؤمنين وغيرهم على الخلائق بأعمالهم، وذلك بالفصل بينهم وبين من خالفهم وحاربهم، بإدخالهم جنات النعيم، وإدخال من خالفهم نار الجحيم.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم بالياء على التذكير: ﴿يَنفَعُ﴾، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «تَنْفَعُ»، و«يوم» بدل من «يوم» في

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، أي: يوم لا ينفع الظالمين بالشرك والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾، أي: اعتذارهم، أي: لا ينفعهم اعتذارهم، ولا يقبل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٦].

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ اللام: للاستحقاق، أي: ولهم اللعنة من الله، بطردهم وإبعادهم من رحمته وجنته، ولهم اللعنة من الملائكة والناس أجمعين، ومن عامة اللاعنين بالدعاء عليهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

﴿وَلَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وهي النار التي تسوء ساكنيها من شدة عذابها.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ [الملك: ٦].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: ولقد أعطينا موسى: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: التوراة، والآيات البينات التي اهتدى بها بنفسه، وهدى بها الناس وأرشدهم إلى الحق، فصار بذلك هاديًا مهديًّا.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: جعلناهم من بعد موسى يتوارثون الكتاب، أي: التوراة، وعلمها، والعمل بأحكامها.

﴿هُدًى﴾: مصدر في موضع الحال، أي: هاديًا ومرشدًا، أو مفعول لأجله، أي: لأجل أن يكون هدى.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: معطوف على «هدى»، أي: وتذكرة وعظة وعبرة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾المائدة: ٤٤، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: لأصحاب العقول الصحيحة السليمة؛ لأنهم هم الذين

ينتفعون بالآيات الشرعية والكونية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، [آل عمران: ٧].

﴿فَٱصْبِرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ كما في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: اصبر على حكم الله الشرعي والكوني؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]، أي: اصبر على دعوة قومك، وعلى ما تلقاه منهم من التكذيب، وما ينالك منهم من الأذى والعناء.

وقد صبر ﷺ صبر الجبال الراسيات، فوضع سلى الجزور على ظهره وهو ساجد، وأدميت قدماه، وشج في وجهه، وكسرت رباعيته، ورمي بالسحر والشعر والكهانة والكذب والجنون، وعاداه أقرب الناس إليه، وتحزب الناس عليه، وقُدح في رسالته، واتهم في أهله، ولقي ﷺ من أنواع الابتلاء ومن صنوف الأذى من قومه ما لم يلقه نبي قط، وهو مع ذلك صابر محتسب، يردد قوله: «**رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»(١).

فصلوات الله وسلامه عليه، وجزاه عن أمته خير الجزاء.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله لك بالنصر والتمكين، وجعل العاقبة لك في الدنيا والآخرة وللمؤمنين.

﴿حَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت لا مرية فيه ولا شك؛ لأن الله لا يخلف الميعاد؛ لتمام قدرته، وصدق وعده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرن بين تسبيح ربك وحمده؛ ولهذا جاء الترغيب في أن يقال في ختام المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك**»(١).

وذلك؛ لأن في التسبيح تنزيهَ الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين،

---

(١) سبق تخريجه.

وفي الحمد إثبات وصفه عز وجل بصفات الكمال.

﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، أي: في آخر النهار وأوله، اللذين هما من أفضل الأوقات، فالعشي: ما بعد الزوال، والإبكار: ما قبل الزوال.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة ذي اليدين، قال: «**صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي**»(١).

والتسبيح بمعناه العام يشمل أداء العبادة من الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك، وفي حديث أم هانئ رضي الله عنها قالت: «صلى النبي ﷺ في بيته سبحة الضحى»(٢).

ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما: «لو كنت مسبحًا لأتممت»(٣).

أي: لو كنت مصليًا نافلة في السفر لأتممت الصلاة وما قصرتها؛ لأن السنن الرواتب تسقط في السفر ما عدا راتبة الفجر.

ولهذا حمل كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ [الروم: ١٧، ١٨] على أن المراد به: أوقات الصلوات الخمس.

والأمر بالآية بالصبر والاستغفار والتسبيح لا شك أنه أمر له ﷺ ولأمته؛ لأن لها فيه الأسوة والقدوة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾، أي: بغير حجة ولا برهان أتاهم من كتاب أو سنة. وهذا قيد بيان للواقع، وهو أن كل مجادل في آيات الله إنما يجادل بغير سلطان وبغير حجة.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، تشبيك الأصابع في المسجد ٤٨٢، ومسلم في المساجد، السهو في الصلاة والسجود له ٥٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في الحيض، تستر المغتسل بثوب ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة ١٢٩٠.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٦٨٩، وأبو داود في الصلاة ١٢٢٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧١.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما في صدورهم ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما في صدورهم وقلوبهم إلا كبر عن اتباع الحق، وتكبر على من جاءهم به، واحتقار للخلق. ونكر «كبر» للتعظيم.

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ الجملة مستأنفة، والضمير يعود إلى «كبر»، أي: ما هم ببالغين في هذه المجادلة مرادهم من الكبر الذي في صدورهم، والتعالي على الحق وعلى من جاء به، وإخمال الحق، وإظهار الباطل، بل سيزيدهم ذلك ذلًّا ومهانة واحتقارًا، ويبقى الحق هو الثابت المرفوع، والباطل هو الزاهق الموضوع؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، أي: استجر بالله واعتصم به من شر هؤلاء المجادلين المتكبرين وحالهم، ومن شر كل ذي شر من شياطين الإنس والجن وغير ذلك، ومن كل مكروه؛ فإنه حافظك وعاصمك.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، أي: إنه هو وحده السميع المجيب لدعاء من دعاه، الذي وسع سمعه الدعاء، وجميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ ذو البصر الذي أحاط رؤية وعلمًا بكل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- تخاصم أهل النار فيها، وعداوتهم فيما بينهم؛ الضعفاء والمستكبرين، والأتباع والمتبوعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ الآية.

٢- تسلط الأقوياء على الضعفاء، وخضوع الضعفاء للأقوياء، واتباعهم لهم وتقليدهم، مما يوجب على المسلمين أفرادًا وجماعات ودولًا أخذ زمام القوة، في جميع نواحي الحياة، ماديًّا وعسكريًّا، وغير ذلك؛ لأنهم يملكون أعظم قوة معنوية، وهو كونهم على الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]،

وقال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»(١).

٣- ندم المستضعفين وتمنيهم وطلبهم من المستكبرين الذين أضلوهم أن يدفعوا ويتحملوا عنهم نصيبًا- ولو قليلًا- من النار، مقابل اتباعهم لهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

٤- اعتذار المستكبرين المتبوعين بقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾، أي: فلا يمكن أن نتحمل عنكم نصيبًا من النار ما دمنا جميعًا فيها.

٥- خنوع المستكبرين وصَغارهم وذلهم يوم القيامة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾، أي: فلا فضل لأحد منا على الآخر؛ كلنا في النار.

٦- إقرارهم بحكم الله العدل بين العباد، وقضائه الفصل بينهم بمجازاة كل بعمله، وإدخال الكفار النار، وإدخال المؤمنين الجنة دار القرار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

٧- أن حكم الله إذا نفذ فلا يمكن دفعه ولا رفعه؛ ولا معقب له؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩].

٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

٩- سؤال أهل النار خزنة جهنم الدعاء لهم بتخفيف العذاب عنهم يومًا واحدًا؛ لشدة حسرتهم، وشدة ما هم فيه من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾.

ولشدة يأسهم من التخفيف سألوا فقط تخفيف العذاب عنهم يومًا واحدًا.

١٠- إثبات خزنة النار الموكلين عليها، وعلى تعذيب أهلها.

١١- إثبات ربوبية الله الخاصة لخزنة النار وغيرهم من الملائكة.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢- توبيخ الخزنة وتقريعهم لأهل النار، وتقريرهم بقيام الحجة عليهم؛ بإرسال الرسل إليهم بالبينات، يحذرونهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

وفي هذا تعذيب معنوي ينصب على قلوبهم قد يفوق العذاب الحسي.

١٣- إقرار أهل النار واعترافهم بقيام الحجة عليهم، ولكنهم لم يستجيبوا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١٠، ١١].

١٤- إقامة الحجة على الأمم بإرسال الرسل إليهم بالبينات، وأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير.

١٥- تهكم الخزنة بأهل النار؛ لقولهم لهم: ﴿فَٱدْعُواْ﴾، أي: فادعوا أنتم.

١٦- ضياع دعاء الكافرين واضمحلاله، وأنه لا يستجاب، ولا قيمة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

ويستثنى من هذا في الدنيا دعوة المضطر، ودعوة المظلوم؛ فإنهما يستجابان ولو من كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥] ولقوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

وذلك أن المضطر يكون مخلصًا لله في الدعاء، مظهرًا لكمال افتقاره إلى الله، ولأن المظلوم طالب لإقامة العدل.

١٧- وعد الله تعالى الذي لا يُخلف وعده بنصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٨- نصر الله تعالى لرسله والمؤمنين نصرًا أجلَّ وأعظم يوم القيامة عند قيام الأشهاد بالفصل بينهم وبين من خالفهم وحاربهم وعاداهم، بإدخال الرسل والمؤمنين

---

(١) سبق تخريجه.

جنات النعيم، وإدخال من خالفهم وحاربهم نار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

١٩- إثبات قيام الأشهاد يوم القيامة من الملائكة والرسل والمؤمنين وغيرهم على الخلائق بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

٢٠- التحذير من مخالفة الرسل وسلوك غير سبيل المؤمنين؛ لأن من فعل ذلك فهو مغلوب مخذول في الدنيا والآخرة.

٢١- نفي انتفاع الظالمين بمعذرتهم في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

٢٢- لعنهم وطردهم وإبعادهم عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار أسوأ دار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

٢٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وبعثه بالهدى والنور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٤- الامتنان على بني إسرائيل بتوريثهم التوراة: علمها والعمل بها بعد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولم يقوموا بها، بل حرفوها وبدلوها.

٢٥- اشتمال التوراة على الهدى والنور والضياء، والذكرى والموعظة والعبرة، لأصحاب العقول الصحيحة السليمة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾.

٢٦- أنه لا ينتفع بالهدى والذكرى إلا أصحاب القلوب السليمة الصحيحة.

٢٧- الثناء على أهل العقول الذين ينتفعون بعقولهم، ويتذكرون ويعتبرون بالآيات، وأن من لم يتذكر بالآيات فليس بعاقل.

٢٨- وجوب الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٢٩- تأكيد أن ما وعد الله تعالى به من النصر والتمكين له ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت وتقوية لقلبه، ولأتباعه، وتحذير لأعدائه.

٣٠- وجوب الاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وهو أمر له ﷺ ولأمته.

وهو ﷺ وغيره من الرسل من باب أولى- ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، على الصحيح من أقوال أهل العلم، لكنهم لا يُقرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم: ١].

وقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ [عبس: ١- ٤].

لكنهم معصومون من الخطأ في التبليغ، ومن الوقوع في الكبائر.

٣١- مشروعية التسبيح بحمد الرب عز وجل بآخر النهار وأوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٣٢- فضيلة القِران بين التسبيح والتحميد؛ لأن التسبيح فيه التنزيه لله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، والتحميد فيه إثبات الوصف بالكمال لله تعالى.

٣٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٣٤- فضيلة هذين الوقتين: العشي والإبكار؛ لأنهما ينتظمان أوقات الصلوات الخمس كلها.

٣٥- ذم المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان أتاهم من كتاب أو سنة،

وبيان أن ما حملهم على ذلك إنما هو الكبر الذي في قلوبهم عن اتباع الحق، وعلى من جاءهم بالحق، وعلى الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾.

٣٦- أن المجادلين في آيات الله لردها وإبطالها ليس لديهم حجة ولا دليل، بل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، وهيهات لهم ذلك.

٣٧- خطر الكبر، وأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق.

٣٨- تحقير هؤلاء المجادلين المتكبرين، وتيئيسهم من بلوغ مرادهم، من رد الحق وإخماله، وإعلاء الباطل وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾.

وفي هذا تثبيت للنبي ﷺ، وبشارة له.

٣٩- مشروعية الاستعاذة بالله من جميع الشرور وأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٤٠- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع الذي وسع دعاء الداعين وإجاباتهم، ووسع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٤١- إثبات اسم الله: «البصير»، وأنه عز وجل ذو البصر الذي أحاط بكل شيء بصرًا وعلمًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾.

٤٢- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وصفتي السمع الواسع والبصر المحيط بكل شيء كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ اللام: لام الابتداء والتوكيد، أي: لخلق السموات والأرض والتي هي من أكبر المخلوقات.

﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: أكبر وأعظم من خلق الناس ابتداءً، ومن إعادتهم أحياءً بعد موتهم الذي ينكره المشركون، وهو على الله يسير، فمن قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق ما دونه من باب أولى.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْىِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

قال ابن القيم: «وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد، أي: أن الذي خلق السموات والأرض. وخلْقهما أكبر من خلقكم، كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقًا

جديدًا؟!»[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: جاهلون، لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، فلا يتفكرون في خلق السموات والأرض، ولا يتأملون في الأدلة البينة، والحجج الظاهرة على كمال قدرة الله تعالى؛ ولهذا ينكرون المعاد والبعث؛ استبعادًا وكفرًا وعنادًا، مع اعترافهم بما هو أولى مما أنكروا.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأن الأعمى لا يرى شيئًا مما أمامه، وكثيرًا ما يصطدم بما يؤذيه.

والبصير يرى ويشاهد كل ما أمامه، فيتجنب غالبًا كل ما يؤذيه، فلا يستوي هذا وهذا، وهذا أمر معلوم لكل أحد، وإنما ذكر توكيدًا لنفي الاستواء بين المؤمن وغيره؛ لقوله بعده:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، أي: ولا يستوي الذين ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، فأحسنوا بالإيمان بالله، والإخلاص له، ومتابعة شرعه.

﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾ اللام: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ولا المسيء الذي لم يؤمن ولم يعمل الصالحات، بل كفر وعمل السيئات، فالذي آمن وعمل الصالحات كالبصير، يرى الطريق، ويمشي على بصيرة من أمره، والمسيء كالأعمى، لا يرى الطريق، ويتخبط في مشيته، وحال الاثنين كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

فشتان بين الطريقين، وشتان بين سالكيهما؛ ولهذا قال تعالى مخاطبًا المؤمنين ومرغبًا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٠

لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتاء الخطاب: ﴿تذكرون﴾، وقرأ الباقون بياء الغيبة ﴿يذكرون﴾، أي: قليلًا ما تتعظون وتعتبرون.

و«قليلًا»: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته، عامله: «تتذكرون».

و«ما»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للقلة، أي: تتذكرون تذكرًا قليلًا قليلًا، وقيل: «ما»: مصدرية، أي: قليلًا تذكركم واتعاظكم.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: لكائنة وواقعة لا محالة.

﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ توكيد معنوي لإتيانها، أي: لا ريب ولا شك في إتيانها ووقوعها قريبًا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧﴾ [النجم: ٥٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لا يؤمنون بإتيان الساعة، ولا يصدقون بها، بل يكذبون بها.

ولهذا صار أكثر الناس كافرين؛ لأن الإيمان بها وباليوم الآخر والحساب من أعظم ما يحفز ويحمل على الإيمان والعمل.

ولهذا يربط القرآن الكريم كثيرًا بين الإيمان بالله واليوم الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ﴾ الدعاء هو العبادة، وهو شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

قال ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء ١٤٧٩، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٢، وابن ماجه في الدعاء، =

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أي: أستجب لكم دعاءكم، فأتقبل عبادتكم، وأعطيكم سؤلكم، فمن فضله عز وجل أمر بالدعاء وتكفل بالإجابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم**». فقال رجل من القوم: إذن نكثر؟ قال: «**الله أكثر**»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: «**أربع خصال، واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي. فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئًا، وأما التي لك علي: فما عملت جزيتك به، وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء، وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي: فارض لهم ما ترضى لنفسك**»(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء، فإن الإجابة معه»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يدع الله سبحانه غضب الله عليه**»(٤)، وفي رواية: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(٥).

قال الشاعر:

=

فضل الدعاء ٣٨٢٨، وأحمد ٤/ ٢٧١، والحاكم ١/ ٤٩٠- ٤٩١، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد».

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٧٣.

(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٤٢.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٦٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الباب السابق ٣٨٢٧، وأحمد ٢/ ٤٧٧، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٤٣: «إسناده لا بأس به».

(٥) أخرجها أحمد ٢/ ٤٤٢، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٣.

الله يغضب إن تركت سؤاله وترى ابن آدم حين يُسأل يَغضَب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾، أي: عن دعائي وعبادتي وحدي بلا شريك.

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضم الياء وفتح الخاء على البناء للمفعول: «سَيُدْخَلُونَ»، أي: سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء: ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾.

﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين حقيرين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾، أي: صيَّر كونًا وقدرًا لأجلكم، ولمصالحكم ومنافعكم، ﴿ٱلَّيْلَ﴾ يغشاكم بظلامه ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أي: لأجل أن تسكنوا فيه، فتسكن جوارحكم وقلوبكم ونفوسكم، وينتقض عنكم تعب العمل في النهار، ويتجدد نشاطكم.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، أي: وجعل النهار مبصرًا، أي: صيَّره مضيئًا بالشمس، وموضع إبصار تتحركون فيه بأعمالكم وطلب معاشكم، وفي أسفاركم وتجاراتكم.

وفي هذا دلالة على كمال ربوبية الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته وعظيم منته؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، اللام: للتوكيد، ونكَّر «فضل»؛ للتعظيم، أي: إن الله لذو فضل عظيم، أي: صاحب إفضال عظيم على الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: مع عظيم فضله عليهم أكثرهم لا يشكرون الله على ما أولاهم من النعم؛ من جعل الليل سكنًا من أجل راحتهم، وجعل

النهار مضيئًا من أجل تصرفهم في أعمالهم ومعاشهم، وغير ذلك.

أي: لا يشكرون الله، لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولا بجوارحهم، بنسبة النعم إليه، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لجهلهم وظلمهم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الذي جعل لكم ما ذكر وامتن به عليكم ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول لـ«ذلكم»، أي: المألوه المعبود، المتفرد وحده بالألوهية ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثانٍ لـ«ذلكم»، أي: المتفرد بالربوبية، أي: بالخلق والملك والتدبير.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر ثالث لـ«ذلكم»، أي: خالق جميع الأشياء، وفي هذا تقرير وتوكيد لكمال ربوبيته.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو، وفي هذا تقرير وتوكيد لكمال ألوهيته، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: فكيف تُصرفون عن الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده إلى عبادة غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، مع قيام البرهان على وحدانيته، وتفرده بالخلق دون غيره؟!

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، أي: كما أفك هؤلاء وصرفوا عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره بسبب تكذيبهم آيات الله ورسوله، كذلك يصرف عن عبادة الله الذين كانوا بآيات الله يجحدون بسبب كفرهم وجحودهم لآيات الله.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: الذي صير لكم الأرض.

﴿قَرَارًا﴾، أي: ذات قرار، أي: مستقر، بجعلها ساكنة، وإرسائها بالجبال؛ لئلا تميد بكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].

وجعلها مذللة مهيأة للاستقرار والعيش والبناء عليها، والزرع فيها، واستخراج خيراتها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، أي: وجعل السماء بناءً عاليًا، وسقفًا محفوظًا للأرض، وللمخلوقات كلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، أي: جعل صوركم على أحسن الأشكال، فليس في الحيوانات كلها أحسن صورة من بني آدم.

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: وأعطاكم من الطيبات كلها، مما لذ وطاب، من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وغير ذلك.

فامتن عز وجل عليهم بجعل الأرض قرارًا وسكنًا لهم، وبجعل السماء تظلهم، وبخلقهم وإحسان صورهم، وبتأمين أرزاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي جعل لكم الأرض قرارًا وسكنًا، والسماء بناءً، وخلقكم وأحسن صوركم، ورزقكم من جميع الطيبات.

﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود الذي يجب أن تعبدوه وحده دون سواه.

﴿رَبُّكُمْ﴾ المتفرد بربوبيتكم وربوبية جميع الخلق، خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: فتعالى الله وتقدس وتعاظم، وكثر خيره وفضله، أي: أنه ذو البركة الثابتة العظيمة العامة.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلهم، خالقهم ومالكهم ومدبرهم، من عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الحيوان، وعالم الجماد، وغير ذلك.

﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هو عز وجل وحده ذو الحياة التامة أزلًا وأبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو؛ لكمال حياته ودوامها أزلًا وأبدًا.

﴿فَٱدْعُوهُ﴾ دعاء عبادة، ودعاء مسألة، أي: اعبدوه واسألوه.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حال، أي: مخلصين له وحده العمل، أي: العبادة والدعاء دون شريك.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أعقب وصفه عز وجل بالحياة الكاملة، وتفرده بالألوهية بلا شريك، والأمر بإخلاص الدعاء والدين له، بحمد نفسه على كمال حياته، وتمام وحدانيته في إلهيته وربوبيته، فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الوصف بصفات الكمال، مع المحبة والتعظيم، مستحَق لله وحده، خاص به.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ خالقهم ومالكهم، ومدبرهم؛ لكمال صفاته وتمام نعمه.

عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «من قال: لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: فذلك قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»(١).

وروي عن سعيد بن جبير؛ أنه كان يستحب ذلك، ويأمر به(٢).

الفوائد والأحكام:

١- أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، بدءًا وإعادة؛ لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، بل إن الناس جزء من الأرض؛

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٣٥٧.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٥٨.

لأنهم خلقوا من طين.

٢- إثبات البعث بعد الموت، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض فهو على إعادة الناس أحياءً بعد موتهم أقدر من باب أولى.

٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، فلا يتأملون في الأدلة البينة، والحجج الظاهرة؛ ولهذا ينكرون البعث تكذيبًا به واستبعادًا، مع اعترافهم بما هو أولى مما أنكروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس؛ فأكثرهم على جهل وضلال.

٥- أنه لا يستوي الأعمى الذي لا يشاهد ما أمامه، ويسير في الطريق على غير هدى، والبصير الذي يشاهد ما حوله، ويسير في الطريق على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

٦- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي المؤمن وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾.

فالمؤمن يسير على نور من ربه، وبصيرة من أمر دينه، وغيره يتخبط في ظلمات الجهل والكفر، وشتان بين هذا وذاك؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

٧- تقريب القرآن للمعاني بضرب الأمثلة الحسية، فقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لتقريب المعنى الذي بعده، وهو عدم استواء المؤمن وغيره.

٨- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح.

٩- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله، موافقًا لشرعه.

١٠- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الكفر والعمل السيئ.

١١- قلة التذكر والاتعاظ عند كثير من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، فقليل تذكرهم، وقليل المتذكر منهم.

١٢- إثبات وتأكيد إتيان الساعة، وقيام القيامة بلا شك، ووجوب الإيمان بها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

١٣- تكذيب كثير من الناس بالساعة والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٤- يجب الحذر من الاغترار بما عليه أكثر الناس من التكذيب بالساعة، ورد الحق.

١٥- إثبات القول والكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٧- وجوب دعاء الله تعالى؛ دعاء عبادة، ودعاء مسألة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

١٨- تكفله عز وجل ووعده بإجابة دعاء من دعاه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

١٩- قرب الإجابة من الله عز وجل إذا تحقق الدعاء على وجه صحيح؛ لأن الله رتب الإجابة على الدعاء ترتب الجواب على الشرط؛ فقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

أي: إن تدعوني أستجب لكم.

٢٠- أن الدعاء هو العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

٢١- التهديد والوعيد بجهنم للمستكبرين عن عبادة الله تعالى ودعائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٢٢- التحذير من الكبر؛ لأنه يحمل صاحبه على التكبر عن قول الحق، وعلى التعالي على الخلق.

٢٣- الجمع للمتكبرين عن عبادة الله تعالى في جهنم بين العذاب الحسي بالنار، والعذاب والمعنوي بالإذلال لهم والإهانة.

٢٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن استكبر عن عبادة الله تعالى سيدخل جهنم صاغرًا ذليلًا.

٢٥- إثبات جهنم، وأنها موجودة الآن، معدة لأهلها.

٢٦- الامتنان على العباد، وبيان تمام قدرة الله تعالى بجعل الليل مظلمًا؛ ليكون وقتًا للسكن، وجعل النهار مبصرًا؛ ليكون وقتًا للعمل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

٢٧- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأحكامه القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾.

٢٨- فضل الله العظيم على الناس، وقلة الشاكر فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٢٩- وجوب شكر الله على نعمه، وعدم الاغترار بما عليه كثير من الناس، فأكثرهم غير شكور لنعم الله وفضله، بل كفور بذلك، ينسب ذلك إلى غير الله، ويستعمله في معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

٣٠- إثبات وحدانية الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣١- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأنه الرب الخالق لكل شيء، المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

٣٢- التعجب والإنكار على المشركين في انصرافهم عن عبادة الله تعالى الرب الخالق لكل شيء، إلى عبادة الأصنام والأوثان، مع قيام البرهان على تفرده بالخلق ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

٣٣- أنه كما أُفك هؤلاء وصُرفوا عن عبادة الرب الخالق، إلى عبادة آلهة لا تخلق شيئًا، بسبب تكذيبهم الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق؛ كذلك يصرف عن عبادة الله الذين كانوا بآيات الله يجحدون؛ بسبب كفرهم وجحودهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٣٤- أن الذنوب والمعاصيَ تحول دون رؤية الحق ومعرفته؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٣٥- بيان تمام قدرته عز وجل، والامتنان على العباد بجعل الأرض قرارًا لهم، يسكنون ويعيشون عليها، والسماء بناءً وسقفًا للمخلوقات، وتصويرهم وتحسين صورهم، ورزقهم من الطيبات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾.

٣٦- تأكيد إثبات وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته، والاستدلال على ألوهيته، بربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، والتذكير بعظيم إنعامه وإفضاله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أي: الذي أنعم عليكم بهذه الأشياء الأربعة.

٣٧- تعاليه عز وجل، وتعاظُمُه، وأنه سبحانه ذو البركة العامة، والإفضال والخير الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٣٨- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وأنه سبحانه ذو الحياة الكاملة أزلًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾.

٣٩- وجوب دعاء الله تعالى، وإخلاص العبادة والدين له وحده؛ لأنه لا معبود بحق إلا هو؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٤٠- استحقاقه عز وجل لكمال الحمد، واختصاصه بذلك؛ لكماله في ذاته وصفاته وفي إنعامه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده، وذكر الأدلة والبيِّنات على ذلك، أتبع ذلك بذكر النهي عن عبادة غير الله، والأدلة على ذلك، فالأول أعظم مأمور على الإطلاق، والثاني أعظم منهي على الإطلاق.

قوله: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله نهاني أن أعبد الذين تدعون وتعبدون غير الله على جهل منكم وضلال؛ من الأصنام، والأوثان، والأنداد.

﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾، أي: حين جاءني الآيات البينات، والحجج والأدلة الواضحات، والبراهين القاطعات من ربي على أنه لا يستحق العبادة سواه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾، أي: أمرني ربي أن أستسلم وأخضع وأنقاد على علم وبصيرة، بالطاعة باطنًا وظاهرًا، بقلبي ولساني وجوارحي.

﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: لرب جميع العالمين؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له، لا رب لهم غيره، ولا معبود لهم سواه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية.

لما ذكر أنه نُهي عن عبادة غير الله، ذكر الموجب لهذا النهي، وهو كونه عز وجل المستحق للعبادة وحده؛ لأنه الرب الخالق المحيي المميت.

ومعنى ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، أي: ابتدأ خلقكم من تراب بخلق أبيكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: ثم ابتدأ خلق سائر النوع الإنساني في بطن أمه من نطفة، وهي «المني»، الماء المهين؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي: دم غليظ تعلق في جدار الرحم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد اكتمال أطوار خلقكم في بطون أمهاتكم من علقة إلى مضغة إلى عظام، إلى أن كسا العظام لحمًا، وأنشأه خلقًا آخر﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: أطفالًا، أو ثم يخرج كل واحد منكم طفلًا.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟﴾ اللام في المواضع الثلاثة: للتعليل.

﴿أَشُدَّكُمْ﴾، أي: غاية قوتكم وشدتكم، وتكامل قواكم البدنية والعقلية، وذلك ما بين الثلاثين سنة إلى الأربعين.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن ذكوان وحمزة والكسائي بكسر الشين «شِيُوخًا»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿شُيُوخًا﴾، أي: تبلغوا سن الشيخوخة.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بلوغ الأشد والشيخوخة.

﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ﴾، أي: ولأجل أن تبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، أي: وقتًا محددًا معينًا، ومدة تنتهي بها أعماركم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: ولأجل أن تعقلوا وتتفكروا في أطوار خلقكم، وأن الذي نقلكم في هذه الأطوار، من طور إلى طور، هو المستحق وحده للعبادة الذي لا يجوز صرف العبادة لغيره، وهو قادر تمام القدرة على بعثكم بعد موتكم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: هو وحده الذي يحيي ويميت، أي: المتفرد بالإحياء والإماتة، يجعل الحياة في الميت، والموت في الحي؛ كما ذكر تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله للذي حاجه في ربه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾، أي: إذا أراد أمرًا وحكم به وقدَّره.

و﴿أَمْرًا﴾: واحد الأمور، لا واحد الأوامر، أي: إذا قضى شأنًا من الشؤون.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر: «فَيَكُونَ» بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿فَيَكُونُ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾: رابطة لجواب الشرط «إذا»، والفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ للتعقيب، أي: فيكون من غير تأخر، ولا ممانعة؛ لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

ولهذا وُصِف عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا۠ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ

يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الاستفهام: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تر إلى الذين يجادلون ويخاصمون من المشركين والمكذبين في آيات الله؛ لردها وإبطالها.

﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾، الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: كيف يُصرفون عن الإيمان بها وتصديقها، إلى المجادلة بها وتكذيبها، مع وضوحها وظهورها، ودلالتها على الحق؟!

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ «الذين»: بدل من الموصول الأول، و«ال» في «الكتاب» يحتمل أن تكون للعهد الذهني، أي: الذين كذبوا بالكتاب المعهود «القرآن الكريم»، ويحتمل أن تكون للجنس، فيكون المراد به: جنس الكتاب، فيشمل جميع كتب الله.

﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾، أي: وبالذي أرسلنا به رسلنا من الكتب، أو من الدعوة للإيمان بالله وتوحيده ونبذ الشرك، والإيمان بالبعث، وغير ذلك.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون عاقبة مجادلتهم بآيات الله وتكذيبهم بالكتاب، وبالذي أرسلنا به رسلنا، وهذا تهديد ووعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ «الأغلال»: جمع «غُل»، وهي القيود في الأيدي والأعناق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ [يس: ٨]، وقال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ الواو: استئنافية، و«السلاسل»: مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: في أرجلهم، أو خبره: ﴿يُسْحَبُونَ﴾، أي: يسحبون بها.

ويجوز كون «السلاسل» معطوفة على «الأغلال»، فتكون في الأعناق، أي: تغل

أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل.

و«السلاسل»: جمع: «سلسلة»، وهي القيود في الأرجل، وقد تجعل في الأعناق.

﴿يُسْحَبُونَ﴾، أي: يجرون بهذه السلاسل التي في أرجلهم على وجوههم إهانة وإذلالًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨].

﴿فِي الْحَمِيمِ﴾، أي: في الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة.

﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، أي: يوقد عليهم فيها اللهب العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ٦]، أي: أشعلت وأوقدت نارًا تتأجج، وقال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور: ٦]، أي: المؤجج نارًا.

أي: يسحبهم الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى النار الملتهبة.

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥١- ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٣- ٥٠].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ من قبل الملائكة أو غيرهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع والتبكيت لهم، والتحقير لمعبوداتهم، أي: أين الذين كنتم تشركونهم.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: مع الله، أي: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ لمَ لم ينصروكم اليوم، ويدفعوا عنكم بعض العذاب، وينفعوكم؟ كما قال تعالى:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾، أي: غابوا عنا، وذهبوا فلا نراهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠].

أي: غابوا عنا أحوج ما كنا إليهم، فلن ينفعونا.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: لم نكن ندع ونعبد من قبل شيئًا، فأنكروا عبادتهم إياهم ظنًّا منهم أن ذلك يفيدهم وينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

كما ينكر الشركاء في المقابل عبادة المشركين لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦].

ويحتمل أن مرادهم بقولهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾: الإقرار ببطلان عبادتهم إياهم، وأنها لا قيمة لها؛ لأنهم ليسوا بشيء؛ كما قال ﷺ وقد سئل عن الكهان: «**ليسوا بشيء**»(١)، أي: ليسوا بشيء يعتد به فيما يقصدهم الناس لأجله.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: مثل ذلك الإضلال يضل الله الكافرين، حتى إنهم يوم القيامة يقرون بضلالهم، وبطلان ما كانوا عليه.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: كذلك يضلهم الله؛ للتسجيل عليهم بالكفر،

---

(١) أخرجه البخاري في الآداب ٦٢١٣، ومسلم في السلام ٢٢٢٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأنه سبب إضلالهم وعذابهم، وليعم هذا الوصف بالكفر واستحقاق العذاب كل من سلك مسلكهم.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: ويقال لهم أيضًا من الملائكة أو غيرهم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾، الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الباء: للسببية في الموضعين، و«ما»: مصدرية في الموضعين، أي: بسبب كونكم تفرحون في الأرض، أي: بسبب فرحكم في الأرض.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بالباطل، فرح أشر وبطر واختيال، وهذا هو الفرح المذموم؛ كما قال قوم قارون محذرين له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

وهذا بخلاف الفرح المحمود، وهو الفرح بالخير والعلم والهدى والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم تمرحون، أي: تتوسعون في الفرح.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر للإذلال والإهانة والإلزام، أي: ادخلوا أبواب جهنم أذلاء صاغرين حقيرين.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها مكثًا أبديًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فقبِّح وساء مأوى ومسكن المتكبرين ومقيلهم جهنم.

وأظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: فبئس مثواكم؛ لتسجيل التكبر عليهم، وأنه سبب دخولهم النار، وليعمهم هذا العذاب وغيرهم من المتكبرين.

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله عز وجل للنبي ﷺ عن عبادة غير الله بما أنزل الله عليه من الآيات

البينات، والدلائل والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات على بطلان عبادة غير الله، وأنه لا يستحق العبادة سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾.

٢- أنه ﷺ في هديه فيما يأمر به أو ينهى عنه على بصيرة ووحي من ربه، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣- ٤].

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّي ﴾.

٤- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى والاستسلام له، والانقياد والخضوع له عز وجل ظاهرًا وباطنًا؛ لقوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

٦- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدم النهي عن الشرك على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

٧- إثبات كمال قدرته عز وجل، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وتمام قدرته على البعث؛ لابتدائه خلق آدم أبي البشر من تراب، وخلقه النوع الإنساني من نطفة ونقله في مراحل خلقه من طور إلى طور، إلى بلوغ أجله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

٨- أن أصل خلق الإنسان من التراب بخلق آدم عليه السلام؛ مما يوجب عليه التواضع والخضوع لله تعالى، وعدم التكبر عن قبول الحق، وعلى الخلق.

٩- عناية الله تعالى بالإنسان في جميع أطوار خلقه، ومراحل حياته إلى بلوغ أجله.

١٠- حكمة الله تعالى البالغة في كون بعض بني آدم يتوفى، وهو في بعض أطوار خلقه، ومراحل حياته، وبعضهم يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا.

١١- بلوغ كل مخلوق الأجل المسمى له، والمدة التي ينتهي بها عمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، فلا أحد يموت قبل أجله، ولا أحد يتأخر عن أجله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

١٢- أن كل يوم يمر على الإنسان ينقص من عمره؛ لأن عمره معدود له غاية ونهاية؛ مما يوجب على المرء تدارك أيام حياته؛ للاستعداد لما أمامه.

قال الشاعر:

المـــرء يفـــرح بالأيـــام يقطعهـــا وكـل يـوم مضى ـ يـدني مـن الأجـل[1]

وقال الآخر:

يســـر المـــرء مـــا ذهـــب الليـــالي وكـــان ذهـــابهن لـــه ذهـــاب[2]

١٣- في ذكر أصل خلق الإنسان، وأطوار خلقه، ومراحل حياته، تذكير للعباد ليتفكروا ويتأملوا بعقولهم كمال قدرة الله تعالى، ووحدانيته، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى.

١٥- تفرده عز وجل بالإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

١٦- نفوذ قضائه عز وجل وأمره بقوله للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ دون تأخر، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء من إحياء أو إماتة أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

١٧- إثبات تمام قدرته عز وجل على البعث؛ لأن بيده عز وجل الحياة والموت: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وفي هذا الرد على منكري البعث.

١٨- التعجب من حال المكذبين المجادلين بآيات الله لردها وإبطالها، كيف يصرفون عن الإيمان بها وتصديقها إلى المجادلة بها وتكذيبها؟ أين عقولهم؟ وأين تدبرهم الآيات؟ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

١٩- ينبغي سؤال الله الثبات على الحق، والخوف من صرف القلب عن الهدى:

---

(١) انظر: «البصائر والذخائر» ٥/ ١٠٢، «زهر الآداب» ١/ ٣٦٧.

(٢) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/ ١٠٥، «شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية» ١/ ١٠٢.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

٢٠- تهديد المكذبين بالقرآن، وبما أرسل الله به رسله من الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٢١- شدة عذاب المجادلين في آيات الله، المكذبين بالكتاب، وما أعد لهم من الأغلال في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، وسحبهم بين الحميم والنار المسجورة الموقدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

٢٢- تعذيبهم عذابًا معنويًّا لا يقل عن العذاب الحسي، بتوبيخهم وتقريعهم على إشراكهم مع الله آلهة لا تنفعهم ولا تدفع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾.

٢٣- إقرارهم بتخلي هؤلاء الشركاء عنهم أحوج ما كانوا إليهم، وأنهم لم ينفعوهم؛ لقولهم: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾.

٢٤- إنكارهم أنهم كان يدعون من دون الله شيئًا؛ ظنًّا أن ذلك ينفعهم ذلك اليوم؛ لقولهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ﴾.

٢٥- إقرارهم ببطلان عبادتهم آلهة من دون الله، وأنها كالعدم لا قيمة لها، وهذا على الاحتمال الثاني في معنى قولهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ﴾.

٢٦- أنه كما أضل الله هؤلاء الكافرين الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم وما ليس بشيء، كذلك يضل الله الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢٧- أن الكفر سبب الإضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥].

٢٨- إثبات القدر، وأن من كتب عليه الضلال فهو ضال لا محالة.

٢٩- توبيخ المجادلين بآيات الله، المكذبين بالكتاب وبهدي الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتقريعهم، بأن ما حل بهم من العذاب والنكال إنما هو بسبب فرحهم في

الأرض بغير الحق، ومرحهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

٣٠- جواز الفرح بحق؛ كالفرح بحصول الخير والنصر للمسلمين، والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح وبالرزق من أهل وأولاد صالحين، ومال حلال يعفه عن السؤال، ونحو ذلك؛ لمفهوم الآية، بل هو مأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤- ٥] وقال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**من سرته حسنته، وساءته سيئته، فذلك المؤمن**»(١).

٣١- إثبات الأسباب وتأثيرها في المسبَّبات بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

٣٢- إهانة الكافرين وإذلالهم، وتعذيبهم معنويًّا وحسيًّا؛ بأمرهم بدخول أبواب جهنم والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٣٣- إثبات وجود جهنم، وتعدد أبوابها، وخلود أهلها فيها.

٣٤- أن جهنم بئس المأوى والمسكن للمتكبرين المكذبين لرسل الله تعالى وآياته؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٣٥- التحذير من التكبر عن الانقياد للحق، والتكبر على الخلق؛ لأن ذلك هو سبب المجادلة في آيات الله والتكذيب بها، وتكذيب الرسل، المفضي بصاحبه إلى جهنم وبئس المصير.

* * *

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٨، والترمذي في الفتن، ما جاء في لزوم الجماعة ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٣.

قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ ﴿غافر: ٥٥]، فيه تأكيد لأهمية الاستعانة بالصبر، وتأكيد لتحقق وعد الله تعالى له ﷺ بالنصر.

والأمر بالصبر يشمل: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، أي: فاصبر على دعوة قومك، وما ينالك منهم من التكذيب والأذى.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالنصر والتمكين، وجَعْلِ العاقبة لك في الدنيا والآخرة ﴿حَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت واقع، لا مرية فيه، ولا شك؛ لكمال صدقه عز وجل، وتمام قدرته.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، الفاء: عاطفة، و«إن»: شرطية، و«ما»: زائدة للتوكيد، أي: فإما

نرينك في حياتك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، أي: بعض الذي نتوعدهم به من العذاب والنكال الدنيوي، وهكذا وقع؛ فإن الله أقر عينه بقتل كبرائهم وسادتهم في يوم بدر، وهزيمتهم شر هزيمة، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته صلى الله عيه وسلم.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، أي: قبل أن نرينك ذلك.

﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، أي: فإلينا يردون، وسنريك بهم، ونذيقهم ما توعدناهم به من عذاب الآخرة الذي هو أشد وأبقى وأكبر من عذاب الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ نكّر «رسلًا»: للتكثير، أي: رسلًا كثيرين من قبلك.

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ «من»: تبعيضية في الموضعين، أي: بعضهم الذين قصصناهم عليك، وأخبرناك خبرهم، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وصبرهم على ما حصل لهم من الأذى، وما انتهى إليه أمرهم: من إهلاك المكذبين، وإنجاء الرسل ونصرهم وأتباعهم، وجعل العاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وبشارة بإهلاك المكذبين له، ونصره عليهم، وجعل العاقبة له وللمؤمنين في الدنيا والآخرة، وتهديد للمكذبين.

﴿وَمِنْهُم﴾، أي: وبعض الرسل ﴿مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، أي: الذين لم نقصصهم عليك ولم نخبرك خبرهم، وهم الأكثر؛ كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

والذين قصهم الله عليه في القرآن وسماهم خمسة وعشرون رسولًا، منهم ثمانية عشر رسولًا مذكورون في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ

كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٦].

وسبعة ذكروا في آيات متفرقة، وهم: إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، ومحمد.

قال الناظم:

في «تلك حجتنا» منهم ثمانية ... من بعد عشر، وبعد سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا(١)

والعرب منهم أربعة: إسماعيل، وشعيب، وصالح، ومحمد، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾، أي: وما كان لرسول من هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله تعالى على كثرتهم.

﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: وما كان لرسول الإتيان بآية، أي: المجيء بآية من الآيات السمعية أو العقلية التي جاؤوا بها.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: بأمر الله الكوني ومشيئته.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الكوني بنزول النصر للرسل وأتباعهم المؤمنين، وحلول العذاب على الكافرين.

﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: حكم بالعدل بين الرسل وبين المكذبين، فينجي الله الرسل وأتباعهم، ويهلك المكذبين الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾، أي: وخسر وقت مجيء أمر الله وقضائه بالحق ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: أهل الباطل وأربابه ودعاته.

---

(١) البيتان للبيجوري. انظر: «جوهرة التوحيد» ص١٨٥.

والباطل: ضد الحق، فإذا قُضيَ بالحق زال الباطل، وإذا جاء الحق زهق الباطل، وإذا زال الباطل وزهق خسر أهله.

وفي هذا تهديد وتحذير للمكذبين له ﷺ من الاستمرار على باطلهم فيخسرون؛ كما خسر المبطلون قبلهم.

وفي الإظهار بقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ دون الإضمار بأن يقول: «وخسروا هنالك» تسجيل عليهم بهذا الوصف، وأنه سبب خسرانهم، وأن كل مبطل فهو خاسر.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، أي: الذي جعل لأجلكم الأنعام وخلقها لكم، وهي: الإبل والبقر والغنم.

﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾، أي: لأجل أن تركبوا منها الذي يُركَب ويُحمَل عليه، وهي الإبل.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: ومنها جميعًا: إبلها وبقرها وغنمها تأكلون لحمًا.

كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كثيرة لا تحصى؛ من شرب لبنها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها؛ في صنع الأثاث والأمتعة، وغير ذلك.

ومن الحرث والسقي على البقر، وعلى الإبل أحيانًا، وغير ذلك.

﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ معطوف على «تركبوا»، أي: ولأجل أن تبلغوا عليها حاجة في صدوركم؛ من حمل الأثقال عليها إلى البلاد البعيدة، والمتاجرة بها، وكونها جمالًا وزينة لكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٦، ٧].

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فالإبل والرواحل تحملكم في البر، والفلك والسفن تحملكم في البحر؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: ويظهر لكم آياته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، حتى تروها وتعقلوها.

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتحدي والنفي، أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آيات الله؛ لظهورها.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيد لما سبق في قوله في أول السورة: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقد سبق بيان معاني مفردات هاتين الآيتين في الكلام على الآية الأولى منهما.

وقوله هنا: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾، أي: أكثر منهم عددًا وعدة.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم عذاب الله وبأسه.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: الذي كانوا يكسبونه، أو كسبهم، من كثرة العدد والعدة والقوة والآثار، وما جمعوه من الأموال وغير ذلك.

ويحتمل كون «ما» في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ استفهامية، أي: فما الذي أغنى عنهم كسبهم؟ والاستفهامية أبلغ؛ لأنها تتضمن النفي مع التحدي، أي: أيّ شيء أغنى عنهم

كسبهم لما دمرهم الله وأهلكهم؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: فلما جاءت هؤلاء المكذبين رسلُهم بالآيات البينات، والحجج الواضحات، الدالة على صدقهم، وصحة ما أرسلوا به.

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي: فرح هؤلاء المكذبون بالذي عندهم من العلم، وهو ما هم عليه من التقليد لآبائهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط ونزل وحلّ بهم.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: العذاب الذي كانوا به يسخرون ويكذبون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾، أي: فلما أبصروا عذابنا بأعينهم.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾، أي: صدقنا بوحدانية الله تعالى إلهًا لا شريك له.

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ هذا تأكيد لما قبله، أي: وكفرنا بكل الذي كنا به مشركين مع الله من الأصنام والأوثان والأنداد، أي: جحدنا ذلك وأنكرناه.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ﴾، أي: فلم يكن ينفعهم إيمانهم حين رأوا بأسنا وشاهدوه؛ لأنه إيمان عن مشاهدة، لا إيمان بالغيب، وإيمان اضطرار لا اختيار؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ «سنة» مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مفعول

به لفعل محذوف، أي: احذروا سنة الله، أي: طريقته الكونية التي قد مضت في إهلاك المكذبين، وعدم قبول توبة من لم يتب إلا بعد معاينة العذاب؛ كما قال تعالى لفرعون لما قال حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، فقال الله تعالى له: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أي: خسر وقت رؤية بأسنا الكافرون، أي: ظهر حقيقة خسرانهم، حيث خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم؛ لبطلان ما هم عليه وكفرهم.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد الأمر له ﷺ بالصبر؛ لأهميته، وتأكيد تحقق وعد الله له بالنصر؛ ليطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

٢- فضيلة الصبر؛ لأن الله أمر به رسوله ﷺ، وأكد الأمر له بذلك، وهو أمر له ولأمته.

٣- أن وعد الله حق ثابت لا شك فيه؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وفي هذا بشارة له ﷺ ولأمته.

٤- وعد الله عز وجل له ﷺ بالانتقام له وللمؤمنين من المكذبين، إما في حياته في الدنيا، وإما في الآخرة، والتهديد والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾.

وقد أراه الله عز وجل فيهم ما شفا صدره والمؤمنين في بدر وغيرها من الغزوات، ولعذاب الآخرة أشق.

٥- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٦- أن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، بل الأمر كله لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ الآية.

٧- أن مرجع الخلائق ومردهم إلى الله تعالى، فيجازي كلًّا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾.

٨- تهديد المكذبين له ﷺ بأنهم لن ينجوا من العذاب، فإن نجوا من عذاب الدنيا فلن ينجوا من عذاب الآخرة.

٩- إخباره ﷺ بكثرة الرسل قبله، وما جرى لهم مع أقوامهم، وصبرهم على ما نالهم من الأذى من أقوامهم، ممن قصهم الله تعالى عليه، وممن لم يقصصهم عليه تسلية له وتثبيتًا لقلبه، وتهديدًا للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

١٠- أن الرسل على كثرتهم فإن كل ما جاؤوا به من الآيات إنما هو بإذن الله عز وجل، وليس لأحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله؛ لأن ذلك إلى الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وفي هذا رد على الذين يكذبون بما جاءت به الرسل من الآيات من عند الله، أو يقترحون عليهم الإتيان بآيات من عند أنفسهم.

١١- إثبات الإذن الكوني لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

١٢- التهديد والتحذير للمكذبين المبطلين من مجيء أمر الله بتعذيبهم، والقضاء بالحق بإهلاكهم وخسرانهم، وإنجاء الرسول ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

١٣- خسران أهل الباطل عند نزول العذاب وهلاكهم، وربح أهل الحق ونجاتهم.

١٤- الامتنان على العباد بخلق الأنعام لهم؛ لركوبهم، وأكلهم، والانتفاع بمنافعها الكثيرة، وبلوغ حاجات في صدورهم، وحملهم عليها في أسفارهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

١٥- جواز التمتع بجمال وزينة هذه الأنعام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٦].

١٦- نعمة الله تعالى على العباد بتسخير الفلك تحملهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

١٧- الامتنان على العباد بإظهاره آياته الدالة على كمال قدرته، وعظيم خلقه في الأنعام وغيرها، وتحديهم بها؛ مما لا يستطيعون إنكار آية منها إلا على سبيل العناد والمكابرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

١٨- تقرير المشركين المكذبين بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالمكذبين من قبلهم من العقوبات بسبب ذنوبهم، والإنكار عليهم: كيف لا يعتبرون ولا يتعظون بذلك؟ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١٩- أن أولئك الأقوام كانوا أكثر من كفار قريش، وأشد منهم قوة وآثارًا في الأرض، فما نفعهم ولا دفع عنهم ما كانوا يكسبون عذاب الله حين نزل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٢٠- أن عذاب الله إذا نزل بقوم لم ينفعهم، ولم يدفعه عنهم شدة قوتهم وما كانوا يكسبونه من المال والعدد والعدة.

٢١- ردهم ما جاءتهم به رسلهم من البينات، وفرحهم بما عندهم من العلم بما ورثوه عن آبائهم من الجهالات والأباطيل التي يحاجون بها لإدحاض الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٢٢- إقامة الحجة على أولئك الأقوام بما جاءتهم به الرسل من البينات.

٢٣- إحاطة العذاب- الذي كانوا به يسخرون ويكذبون- بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وفي هذا تحذير من مخالفة الرسل وردِّ ما جاؤوا به من البينات.

٢٤- إيمانهم بوحدانية الله تعالى، وبراءتهم من الشرك وأهله حين لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

٢٥- أن الإيمان عند مشاهدة العذاب، وفي حالة الاضطرار لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾.

٢٦- أن سنة الله الكونية الماضية في عباده التي لا تتبدل ولا تتحول: إهلاك المكذبين، وعدم قبول توبة من لم يتب إلا بعد معاينة العذاب لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾.

٢٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي عِبَادِهِۦۖ﴾.

٢٨- خسارة الكافرين عند حلول العذاب وهم على الكفر خسارة تامة في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ فُصِّلَتْ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة فصلت» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [الآية: ٣].

وتسمى: «سورة حم السجدة»؛ لجمعها بين بدئها بـ «حم» ووجود السجدة فيها دون بقية الحواميم.

وتسمى: «سورة المصابيح»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظًا﴾ [الآية: ١٢].

كما تسمى: «سورة الأقوات»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [الآية: ١٠].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن جابر رضي الله عنه (**أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «ألم تنزيل»، و«تبارك الذي بيده الملك»**)[1].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت: «سورة فصلت» بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه، وإثبات تنزيله من عنده عز وجل رحمة للعالمين، وامتداحه بتفصيله وكونه قرآنا عربيا مشتملاً على التبشير والإنذار ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾.

٢- إعراض كثير من المشركين عن القرآن فلا يسمعونه بآذانهم، ولا يتعقلونه بقلوبهم. وتوعدهم بالويل، ووعد المؤمنين بأجر غير ممنون: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، ٢٨٩٢.

فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

٣- الإنكار على المشركين كفرهم بالله تعالى مع كمال ربوبيته، وعظيم خلقه، وواسع ملكه، وتمام تدبيره: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

٤- إنذار المعرضين عما جاء به ﷺ من الحق أن يحل بهم من العذاب ما حل بعاد وثمود، بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بما أرسلوا به، وبيان ما أُخذوا به من العقوبات، وإنجاء المؤمنين المتقين ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٥- تهديد ووعيد أعداء الله من الكفرة المكذبين والمشركين بحشرهم إلى النار وشهادة جلودهم عليهم، وما لهم فيها من العذاب الحسي والمعنوي: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

٦- تقييضه عز وجل للمشركين قرناء زيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحق عليهم قول الله تعالى في الكفر والخسران والعذاب كالمكذبين قبلهم: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا

لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٧- وعد الله تعالى العظيم للذين آمنوا بالله واستقاموا على طاعته بتنزل الملائكة عليهم عند الاحتضار وطمأنتهم بأن لا يخافوا ولا يحزنوا، وبشارتهم بالجنة التي كانوا يوعدون، وما لهم فيها من النزل العظيم، وتوليهم إياهم في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

٨- لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين.

٩- بيان عدم استواء الحسنة والسيئة، والحث على دفع السيئة بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

١٠- بيان عظيم آيات الله تعالى الكونية الدالة على وجوب عبادته تعالى وحده، وتمام قدرته على البعث: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

١١- تهديد ووعيد الملحدين بآيات الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

١٢- ذم الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، وامتداحه والثناء عليه، وتمام حفظه عز وجل له: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

١٣- تسليته ﷺ، وبيان أن ما يقال له من التكذيب قد قاله المكذبون للرسل من قبله: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

١٤ - إقامة الحجة على المشركين بكون القرآن عربيًا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

١٥ - التذكير برسالة موسى عليه السلام وإيتائه الكتاب واختلاف قومه وتشكيكهم وارتيابهم فيه وتهديدهم.

١٦ - تمام عدل الله تعالى فمن عمل صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

١٧- اختصاصه عز وجل بعلم الساعة، وإحاطة علمه بكل ما تخرجه الثمرات من أكمامها وما تحمل حق أنثى ولا تضع إلا بعلمه.

١٨ - توبيخ المشركين يوم القيامة بندائه تعالى إياهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾.

١٩- بيان أن من طبيعة الإنسان أنه لا يسأم من طلب الخير، وإن مسه الشر أيس وقنط ولئن أذاقه الله رحمة منه بعد ضراء مسته قال هذا لي، وإنكاره الساعة، وإدلاله على الله، وإعراضه عند النعمة، ودعائه العريض إذا مسه الشر، وتهديده عز وجل الكافرين بالعذاب الغليظ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

٢٠- إثبات أن القرآن من عند الله حقًا، ووعيد وتهديد الكافرين به، وبيان إغراقهم بالضلال والشقاق البعيد، والشك في لقاء ربهم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾.

قوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ سبق الكلام عليه.

﴿تَنزِيلٌ﴾: مبتدأ، وخبره: «كتاب»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا القرآن تنزيل، ونُكِّر للتعظيم.

﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، أي: من عند الرحمن الرحيم، وفي هذا إشارة إلى أن تنزيله بمقتضى رحمته عز وجل، رحمة منه بعباده، بل هو أجل رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُكِّر «كتاب» للتعظيم، أي: كتاب عظيم ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ تفصيلًا لفظيًّا؛ بأن جعلت كل آية مستقلة عن الأخرى، مفصولًا بعضها عن بعض، وتفصيلًا معنويًّا ببيان معاني آياته وإيضاحها، وما فيها من الحكم والأحكام؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال، ونُكِّر «قرآنًا»: للتعظيم، أي: حال كونه قرآنًا عربيًّا بأعظم اللغات وأفصحها وأوسعها ألفاظًا ومعانيَ؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وصدق حافظ إبراهيم في قوله على لسان اللغة العربية(١):

وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آيٍ به وعظات

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون ويفهمون معناه، وهم العرب، وينتفعون بعلمهم، فيعملون بالقرآن، فيكون حجة لهم لا حجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: صفة ثانية لـ«قرآنًا»، أو حال، أي: حال كونه بشيرًا ونذيرًا.

أي: بشيرًا للمؤمنين بما يسرهم من الثواب العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، ببيان ما أعد الله لمن اتبعه من الحياة الطيبة والجزاء العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَنَذِيرًا﴾، أي: ونذيرًا للكافرين، أي: محذرًا لهم من العقاب العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

وبين قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: طباق، وقدم البشارة على الإنذار؛ لأن رحمة الله تغلب غضبه.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾: معطوف على قوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾، أي: فأعرض أكثر أهل مكة، وأكثر الخلق، أي: انصرفوا عن القرآن.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٣.

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: لا يسمعون سماع فهم وانتفاع وقبول وإجابة؛ بسبب إعراضهم.

﴿وَقَالُوا﴾ الواو: عاطفة في المواضع الأربعة، أي: وقال هؤلاء المعرضون، من شدة عنادهم وكفرهم:

﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾، أي: في أغطية، وفي أغلفة مغشاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾، أي: مانعة من فهم الذي تدعونا إليه يا محمد؛ من توحيد الله تعالى وتصديقك، وتصديق القرآن.

﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أي: صمم وثقل، فلا نسمعه.

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، أي: حاجز وساتر وحائل يحول بيننا وبينك فلا نراك، وهذا مبالغة منهم في عدم قبول ما يدعوهم إليه؛ لأنه إذا انسد طريق السمع، وطريق البصر، وهما طريقا وصول المعرفة والعلم والهدى إلى القلب، صار القلب مغلقًا لا ينفذ إليه هدى؛ ولهذا قالوا قبل هذا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾؛ لأنهم أصموا أسماعهم عن سماعه، وتعاموا بأبصارهم عن رؤيته.

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾، أي: فاعمل أنت على دينك وشاكلتك، ونحن نعمل على ديننا وشاكلتنا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقد يُشعر قولهم هذا بالتحدي له ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين وغيرهم:

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ «إنما»: أداة حصر، ﴿مِثْلُكُمْ﴾: للتوكيد، أي: ما أنا إلا بشر مثلكم، ولست بملك، وليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به.

والبشر: هم بنو آدم، وسموا بذلك؛ لظهور بشرتهم عارية غير مكسوة؛ بخلاف

الحيوانات الأخرى، فهي مكسوة إما بالوبر، أو بالصوف، أو بالشعر، أو بالريش، أو بغير ذلك.

ولعل الحكمة في هذا: ليعلم الإنسان أنه كما أنه محتاج إلى اللباس الحسي، فهو أعظم حاجة منه إلى اللباس المعنوي لباس التقوى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«بشر»، أي: خصني الله وفضلني عليكم بوحيه إليَّ.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ مصدر مؤول في محل رفع نائب فاعل للفعل «يوحى»، أي: أنما يوحي إليّ وحدانية إلهكم.

والإيحاء: هو الإعلام بسرعة وخفاء، والوحي: ما ينزله الله تعالى من كلامه وشرعه على رسله.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستقيموا على دينه علمًا وعملًا، واقصدوا إليه، وأخلصوا له، ودوموا على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»(١).

﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ لما أمر بالاستقامة، أتبع ذلك بالأمر بالاستغفار؛ لأن العبد مهما حرص على الاستقامة، فلا بد أن يحصل منه خلل؛ بتقصير بمأمور، أو ارتكاب لمحظور، وقد قال ﷺ: «**استقيموا، ولن تحصوا**»(٢).

وقد قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ كفى المرء نبلًا أن تعد معايبه[١]

والمعنى: واطلبوا منه عز وجل المغفرة لذنوبكم وما يقع منكم من خلل أو تقصير؛ بستره والتجاوز عنه.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: ويل وهلاك وعذاب للمشركين بالله؛ لعدم استقامتهم على أمر الله، ولهذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: لا يزكون أنفسهم بالتوحيد والإيمان، وتطهيرها من الشرك، ولا يزكون أموالهم بالصدقة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [النازعات: ١٧، ١٨].

وقال ﷺ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها**»[٢].

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله»[٣].

قال ابن القيم: «أي: لا يأتون ما تزكى به أنفسهم من التوحيد والإيمان؛ ولهذا فسرها غير واحد من السلف بأن قالوا: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: لا يقولون: لا إله إلا الله. فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه، هو أعظم وصية جاءت بها الرسل، ودعوا إليها الأمم».

وقال أيضًا: «وقال كثير من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب،

---

(١) البيت ليزيد بن محمد المهلبي. انظر: «التمثيل والمحاضرة» ص٩٣، «زهر الآداب» ١/ ٥٥، «نهاية الأرب» ٣/ ٩٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٥.

وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي- وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة- فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد».

﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة والمعاد والحساب والجزاء.

﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ «هم»: تأكيد للأول، أي: هم جاحدون للآخرة، غير مؤمنين بها؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

لما توعد المشركين أتبع بوعد المؤمنين؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب؛ ليكون العبد بين الخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بالقرآن، وبكل ما أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات القائمة على الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ بجوارحهم.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾، أي: لهم خاصة أجر عظيم، وهو ثواب وجزاء إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع ولا ممنوع؛ كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، أي: في جميع الأوقات.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وتحدي العرب به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات نزوله من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

٤- الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، هما: «الرحمن» و«الرحيم»، وصفة الرحمة الذاتية له عز وجل، والرحمة الفعلية؛ العامة والخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٦- أن «الرحمن» أبلغ من «الرحيم»؛ لهذا قدم عليه.

٧- الامتنان على العباد بإنزال القرآن، وأن ذلك من رحمته بهم، بل هو أجل رحمته.

٨- أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما أنه مكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾.

٩- الامتنان على العباد بتفصيل آيات القرآن وبيانها، وكونه بلغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

١٠- أنه إنما يستفيد من إنزال القرآن، وتفصيل آياته، وكونه عربيًّا: أهل العلم الذين ينتفعون بعلمهم، ويهتدون به إلى الحق، دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

١١- فضل العلم؛ لأنه هو سبب معرفة الحق، والاهتداء إليه بتوفيق الله، وفضيلة أهله المنتفعين به.

١٢- تضمن القرآن الكريم البشارة للمؤمنين الذين يصدقون به ويتبعونه، والنذارة للكافرين الذين يكذبون به ويخالفونه؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾.

١٣- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ لتقديم البشارة في الآية على الإنذار.

١٤- إعراض كثير من قريش وكثير من الخلق عن القرآن، وانصرافهم عنه، وعدم سماعهم له سماع فهم وانتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾.

١٥- شدة عتو وعناد المشركين، وإغلاقهم قلوبهم، وصممهم آذانهم، وحجبهم أبصارهم عما يدعوهم إليه ﷺ، والقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾.

١٦- أن السمع والبصر هما طريقا وصول العلم والمعرفة إلى القلب، فإذا انسد هذان الطريقان لم يصل الهدى إلى القلب.

١٧- شدة تشبثهم بما هم عليه من الشرك والكفر والضلال؛ لقولهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

١٨- بيان أنما هو ﷺ بشر مثلهم، يعتريه غالبًا ما يعتري البشر، فليس بملك، ولا بيده من الأمر شيء، ولا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

١٩- أن ما خصه الله تعالى به دونهم، وفضله به عليهم هو الوحي إليه؛ لقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٢٠- إثبات رسالته ﷺ بوحي الله تعالى إليه.

٢١- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، وأن ذلك أهم وأعظم ما جاءت به الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

٢٢- وجوب الاستقامة على دين الله علمًا وعملًا، والإخلاص له، والدوام على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

٢٣- أن من امتثل أمر الله، واجتنب نهيه، وأخلص له العبادة والطاعة، فالأولى أن يوصف بكونه «مستقيمًا»، لا «ملتزمًا» كما درج على ألسنة كثير من الناس.

٢٤- وجوب سؤال الله مغفرة الذنوب والتوبة منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾.

٢٥- أن العبد مهما حرص على الاستقامة على أمر الله فإنه لا يخلو من نقص وتقصير، ولهذا أمر بالاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾.

٢٦- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للمشركين بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٢٧- ذم المشركين، وبيان سبب توعدهم بالعذاب، وهو عدم تزكيتهم لأنفسهم بالتوحيد، وعدم تطهيرها من الشرك، بالإيمان بالله، والإخلاص له، والاستقامة على أمره، وعدم تزكيتهم أموالهم بالصدقة، وكفرهم بالآخرة، وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾.

٢٨- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

٢٩- وعد الله تعالى للمؤمنين الذين عملوا الصالحات بالأجر والثواب العظيم الذي لا انقطاع له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

٣٠- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

٣١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والأعمال الصالحة بالجوارح.

٣٢- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه.

٣٣- ضمانه عز وجل لثواب أهل الجنة وجزائهم؛ لهذا سماه أجرًا.

٣٤- أن نعيم الجنة لا يفنى ولا ينقطع.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

بعدما ذكر إعراض المشركين عن القرآن، وما فيه من البشارة والنذارة، وعن الآيات الشرعية، أتبع ذلك بذكر كفرهم بالله، وعدم تأملهم في الآيات الكونية، وإنكار ذلك عليهم.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله غيره؛ منكرًا عليهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، واللام: للتوكيد، أي: أئنكم أيها المشركون لتكفرون بالخالق العظيم، الذي خلق الأرض في يومين، والذي خلق الأشياء كلها؟ أي: تجحدون إلهيته وتنكرونها، وتستكبرون عن عبادته؟

وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، أي: أوجد السبع الأرضين على عظمتها وسعتها في يومين. وبدأ بخلق الأرض؛ لأنها كالأساس.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، أي: وتصيرون له شركاء ونظراء وأمثالًا تعبدونهم من دونه، لا يخلقون شيئًا، بل هم مخلوقون لله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى الذي خلق الأرض في يومين، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له عز وجل، أي: ذلك الذي خلق الأرض في يومين هو سبحانه.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلهم: خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم.

و«العالمين»: كل ما سوى الله تعالى من المخلوقات.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ الواو: عاطفة، أي: وجعل في الأرض، أي: أوجد فيها ﴿رَوَٰسِيَ﴾، أي: جبالًا ثوابت.

﴿مِن فَوْقِهَا﴾ تشاهد منتصبة فوق الأرض، لها فوائد عظيمة، ولها أصول ثابتة في عمق الأرض، قد تزيد على ما يشاهد منها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] [لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾، أي: جعلها كثيرة البركات والخيرات، من الزروع والأشجار والثمار والمياه والمعادن، وغير ذلك، مما لا يحصى من بركاتها.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، أي: وقدر وقسم في الأرض أقواتها، أي: أرزاق أهلها، وما يقتاتون به ويعتاشون عليه هم وأنعامهم، أي: قدر ذلك وحدده من حيث النوع والكمية والكيفية والمكان والزمان، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تامة: يومان لخلق الأرض، ويومان لجعل الرواسي فيها من فوقها، والمباركة فيها، وتقدير أقواتها.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قرأ أبو جعفر: «سَوَاءٌ» بالرفع، وقرأ يعقوب: «سَوَاءٍ» بالخفض، وقرأ الباقون: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب.

أي: في أربعة أيام كاملة مستوية، بلا زيادة ولا نقصان، لمن أراد السؤال عن ذلك.

أو سواء للسائلين، أي: تقديرًا على وفق مصالح طالبي الحاجات من الرزق ونحوه؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: ثم بعد أن خلق الأرض قصد إلى خلق السماء.

فخَلْق السماء كان بعد خلق الأرض.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾: الجملة حالية، أي: وهي بخار مرتفع تصاعد من الماء الذي كان قبل أن تخلق الأرض.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾، أي: استجيبا وانقادا لأمري وإلى مرادي منكما.

﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: طائعتين أو مكرهتين.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، أي: جئنا طائعين، أي: طائعين لأمرك، مستجيبين له عن طواعية لا إكراه.

وجمع «طائعين» باعتبار جمع سبع السموات وسبع الأرضين.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾، أي: خلقهن وأوجدهن، وفرغ من تسويتهن سبع سموات ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ آخرين.

فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٥٤].

وقد خلق عز وجل الأرض أولًا في يومين؛ لأنها كالأساس، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين؛ لأنها سقف المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وأما دحو الأرض بإخراج مائها ومرعاها، وترسيتها بالجبال فهو بعد خلق السماء؛ كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات: ٢٧- ٣٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة

أيام، وخلقت السموات في يومين»(١).

وبهذا الجمع بين الآيات يتبين أن المراد بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠]: أن مجموع أيام خلق الأرض وما يتعلق بها هو أربعة أيام.

وليس المراد: أن يومي ترسيتها بالجبال والمباركة فيها وتقدير أقواتها جاءا بعد يومي خلقها.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، أي: وأوحى في كل سماء شأنها الخاص بها، وبأحوال أهلها.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، أي: وجملنا السماء الدنيا، أي: القربى إلى الأرض ﴿بِمَصَابِيحَ﴾، أي: بنجوم وكواكب مشرقة مضيئة يستنار بها ويهتدى، وزينة وجمالًا للسماء ظاهرًا.

﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وجعلنا هذه المصابيح حفظًا من استراق الشياطين السمع بالشهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٦-٩].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى المذكور من خلق الأرض وما فيها، والسماء وما فيها.

﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أي: تقدير وخلق وتدبير ذي العزة التامة، الذي قهر بعزته الأشياء كلها، وخلق بها المخلوقات ودبرها.

﴿الْعَلِيمِ﴾، أي: ذي العلم الواسع، المحيط بجميع المخلوقات.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في تفسير سورة حم السجدة، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «فتح الباري» ص٨/ ٥٥٥.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

بعدما ذكَّرهم بالآيات الشرعية والكونية، وذكر إعراضهم عنها وكفرهم، أتبع ذلك بتهديدهم- إن استمروا في إعراضهم- بعقوبات مَن قبلهم.

قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾، أي: فإن أعرض هؤلاء المشركون عن الإيمان بالله، والانقياد لأمره، والتأمل في آياته الشرعية والكونية، واستمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر.

﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فقل لهم يا محمد: خوفتكم وحذرتكم ﴿صَاعِقَةً﴾، أي: عقوبة شديدة تصعقكم، أي: تهلككم، ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ﴾: وهم قوم هود عليه السلام الذين أهلكوا بالريح العقيم.

﴿وَثَمُودَ﴾: معطوف على «عاد»، أي: ومثل صاعقة ثمود قوم صالح عليه السلام الذين أهلكوا بالصيحة. وتخصيص عاد وثمود بالذكر بين الأمم المهلكة؛ لأنهم في الجزيرة، وآثارهم معلومة عند العرب، ولشدة عقاب الله لهم.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين جاءتهم الرسل، وجمع الضمير في قوله: ﴿جَاءَتْهُمُ﴾ باعتبار مجموع أفراد عاد وثمود، وجمع «الرسل» باعتبار أن هودًا وصالحًا جاءا بما جاء به المرسلون قبلهم وبعدهم؛ كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١] وهم إنما كذبوا هودًا وصالحًا، ولكن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين.

﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، أي: يتبع بعضهم بعضًا متوالين، ودعوتهم واحدة، فهود وصالح جاءا بما جاءت به الرسل قبلهم من الدعوة إلى الله، والتذكير بآياته الكونية والشرعية، المبينة للحق أتم بيان؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ «أن»: يحتمل أن تكون مصدرية، أي: بألا تعبدوا إلا الله، أي: إذ جاءتهم الرسل بعدم عبادة غير الله. وتكون «لا» على هذا نافية.

ويحتمل أن تكون «أن» تفسيرية، أي: إذ جاءتهم الرسل قائلين لهم: لا تعبدوا إلا الله، وتكون «لا» على هذا ناهية.

وهذا معنى: لا إله إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، أي: فردوا رسالتهم وقالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لو شاء ربنا ألا نعبد إلا إياه لأنزل رسلًا من الملائكة، وهكذا قال كفار مكة كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: ٨].

وهذه حجة باطلة؛ لأن المرسل إليهم بشر، فكيف ينزل الله ملائكة على بشر؟ ولو فرض أن الله أنزل ملكًا لجعله بصورة بشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: ٩].

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الفاء: عاطفة لربط المسبب بالسبب، أي: فبسبب أنكم لم تكونوا ملائكة فإنا بما أرسلتم به ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: مكذبون به، جاحدون له؛ لأنكم بشر مثلنا؛ كما في قولهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾ [يس: ١٥].

وقولهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ هذا على سبيل التنزل، لا على سبيل الإقرار؛ لأنهم لا يصدقون بأنهم رسل، وهو متعلق بالخبر: ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ لإفادة الحصر، مع

مراعاة الفواصل.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية:

لما ذكر عن عاد وثمود ما اشتركا فيه من المكابرة والإصرار على الكفر، فصَّل هنا ما اختصت به كل أمة منهما من صور الكفر، وما حل بهما من العذاب.

قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، والسين والتاء للمبالغة، أي: تكبروا تكبرًا عظيمًا عن قبول الحق، وتعالوا على الخلق، وبغوا وطغوا وتجبروا في الأرض.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: حال من فاعل «استكبروا»، وفيه زيادة تشنيع عليهم لاستكبارهم؛ لأن الاستكبار لا يكون بحق أبدًا، لأن الكبر من خصائص الله تعالى، قال تعالى في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**»(١).

وفي حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**»(٢).

﴿وَقَالُوا۟﴾: معطوف على «استكبروا»، أي: وقالوا من شدة استكبارهم، مغترين بقوة تركيبهم، وشدة قواهم، معتقدين أنهم يمتنعون بها من بأس الله.

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ «من»: اسم استفهام، ومعناه النفي، أي: لا أحد أشد منا قوة؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الاستفهام: للتقريع والإنكار والتقرير، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم وأوجدهم من العدم هو أشد منهم قوة، فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا؟ فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا لم يغتروا بقوتهم.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معطوف على «استكبروا»، أي: وكانوا بآياتنا الدالة على وحدانية الله تعالى، والمذكرة لهم بنعم الله تعالى عليهم، والمحذرة لهم من عذاب الله؛ كقول هود عليه

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠.

السلام لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢- ١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

﴿يَجْحَدُونَ﴾، أي: يكفرون بها ويكذبونها وينكرونها.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فسخرنا وسلطنا عليهم ﴿رِيحًا﴾، نُكِّرت للتعظيم، أي: ريحًا عظيمة عاتية.

﴿صَرْصَرًا﴾، أي: شديدة البرد، شديدة الصوت؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوتهم، وهي الريح العقيم، وهي الدبور؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١- ٤٢]. وقال ﷺ: «**نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور**»(١).

﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم بكسر الحاء: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾، وقرأ الباقون بإسكانها: «نَحْسَاتٍ»، أي: مشؤومات.

وهذا على سبيل الإخبار عنهن لا على سبيل السب لهن، وهن ثمانية أيام، وسبع ليال متتابعات، ابتدأت بفجر اليوم الأول، وانتهت بغروب شمس اليوم الثامن؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ

---

(١) سبق تخريجه.

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نذيقهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: عذاب الهون والذل في الحياة الدنيا، أي: العذاب الذي يذلهم ويهينهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فاجتمع عليهم مع العذاب الحسي بالتدمير والإهلاك، العذاب المعنوي بالخزي الذي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿أَخْزَىٰ﴾، أي: أشد خزيًا من خزي عذاب الدنيا؛ لأن عذاب الآخرة على رؤوس الخلائق ومشهدهم كلهم، وهو أشد من عذاب الدنيا وأبقى وأكبر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله، أو يرفعه عنهم، ولا هم ينتصرون بأنفسهم؛ كما كانوا يعتدُّون بشدتهم وقوتهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، أي: أرشدناهم إلى طريق الحق والهدى، ودللناهم عليه، وبيَّناه لهم بيانًا ظاهرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

أي: آية مبصرة بيّنة واضحة على صدق صالح عليه السلام، وصحة ما جاءهم به.

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: فاختاروا الجهل والكفر والضلال ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: على العلم والإيمان، وكذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام وخالفوه، وعقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، أي: فأصابتهم وأهلكتهم صاعقة العذاب المهين المذل لهم، وهي الصيحة الشديدة التي رجفت بهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يكسبونه، أو بسبب كسبهم من اختيار الجهل والكفر والضلال على العلم والإيمان والهدى- مع ما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة.

﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ من عاد وثمود، أي: خلصناهم من العذاب بسبب إيمانهم بقلوبهم، وتقوى الله بجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٦٦].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين كفرهم بالخالق العظيم رب العالمين، الذي خلق الأرض وما فيها، والسماء وما عليها، وجعْلهم له أندادًا لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ الآيات.

٢- أن الله تعالى خلق الأرض في يومين؛ لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

٣- تحريم الشرك واتخاذ الأنداد مع الله؛ لأن الله أنكر ذلك على المشركين، ودلل على امتناع الند له عز وجل بكونه سبحانه هو رب العالمين.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع العالمين؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾.

٥- أن الله عز وجل جعل في الأرض رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فيكون خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام تامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

٦- الامتنان على العباد بخلق الأرض، وترسيتها بالجبال حتى لا تميد بهم، ونشر البركة والخير فيها، وتقدير أقواتها حسب حاجاتهم ومصالحهم.

٧- التنبيه والتذكير بنعمة الله تعالى بترسية الأرض بالجبال من فوقها؛ لما في ذلك من الفوائد العظيمة من حفظ توازن الأرض، ومن كونها أعلامًا يُهتدى بها، ودرئها العواصف، ووجود المغارات والملاجئ فيها، وانحدار السيول من سفوحها وقممها وخدودها بشدة إلى الرياض الخصبة المنبتة، وما جعل الله تعالى في قممها من أنواع

المعادن الجيدة، وغير ذلك.

٨- أن كل شيء عند الله عز وجل بمقدار من الأقوات والأرزاق وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

٩- أن خلق السماء بعد خلق الأرض، وكانت دخانًا قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾، أي: قصد وعمد إلى خلقها؛ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

١٠- أمره عز وجل للسماء والأرض بالإتيان طوعًا أو كرها، وانقيادهما لأمره، وإتيانهما طائعتين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

١١- انقياد جميع المخلوقات وتسليمها التام لأمر الله تعالى الكوني.

١٢- أن الله عز وجل خلق السموات السبع، وفرغ منها في يومين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

١٣- أن خلق السموات والأرض وما فيهما كان في ستة أيام، وفي ذلك دلالة على كمال وعموم ربوبيته، وتمام قدرته تعالى وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

١٤- إيحاؤه عز وجل في كل سماء أمرها وشأنها، وما تحتاجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

١٥- تزيينه السماء الدنيا بنجوم وكواكب مضيئة على أهل الأرض، وحرسًا لها من استراق الشياطين السمع من الملأ الأعلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾.

١٦- التنويه بعظمته عز وجل، وعظمة خلقه وتقديره وإتقانه، وكمال عزته، وسعة علمه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

١٧- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «العزيز» و«العليم»، وصفتي:

العزة والعلم التامتين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

١٨- في اقتران اسميه العزيز والعليم، وصفتي «العزة» و«العلم» في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٩- إنذار المعرضين عن الإيمان، وعن الانقياد لأمر الله تعالى، وعن التأمل في آياته، وتحذيرهم من عقوبات المكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.

٢٠- ينبغي التأمل فيما حل بالمكذبين من العقوبات بسبب إعراضهم وتكذيبهم، والحذر من ذلك، والسعيد من وعظ بغيره.

٢١- أن من أشد عقوبات المكذبين ما حل بـ«عاد وثمود» من قبائل الجزيرة.

٢٢- إقامة الحجة على عاد وثمود بمجيء الرسل إليهم، من بين أيديهم ومن خلفهم، يأمرونهم بعبادة الله تعالى وحده، وترك عبادة ما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٢٣- تكذيبهم وكفرهم بما جاءتهم به رسلهم بحجة أنهم بشر، وليسوا بملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

٢٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإقرار الكفار بها، وبربوبية الله تعالى لهم ربوبية عامة؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾.

٢٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه، وإثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء، وإقرار الكفار بذلك؛ لقولهم: ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

٢٦- استكبار عاد في الأرض بغير الحق، واغترارهم بقوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

٢٧- أن الاستكبار لا يكون بحق أبدًا؛ لأن الكبر من خصائص الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٢٨- الإنكار عليهم وتقريعهم في زعمهم أنه لا أحد أشد منهم قوة، وتقريرهم بأن الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ

يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾.

٢٩- كفرهم بآيات الله، وتكذيبهم بها، وإنكارهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، فجمعوا بين الاستكبار والتكذيب.

٣٠- إهلاكهم بالريح الصرصر العاتية، شديدة البرد، شديدة الصوت؛ تعذيبًا لهم، وخزيًا في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣١- جواز نسبة النحس إلى الأيام على سبيل الإخبار، لا على سبيل السب والشؤم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾.

قال ابن القيم: «فلا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أيامًا نحسات عليهم؛ لأن النحس أصابهم فيها، وإن كانت أيام خير لأوليائه المؤمنين، فهي نحس على المكذبين، سعد للمؤمنين، وهذا كيوم القيامة؛ فإنه عسير على الكافرين، يوم نحس لهم، يسير على المؤمنين، يوم سعد لهم»(١).

٣٢- الجمع للمكذبين من عاد بين العذاب الحسي المهلك، وبين العذاب المعنوي المخزي المذل المهين في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣٣- الجمع لهم ولغيرهم من المكذبين بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشد وأخزى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾.

٣٤- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الثواب والعذاب.

٣٥- أنه لا ناصر لهم لا من أنفسهم، ولا من غيرهم، يدفع عنهم عذاب الله أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

٣٦- إقامة الحجة على ثمود بدلالتهم وإرشادهم إلى الحق، وإيتائهم الناقة آية مبصرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾.

٣٧- اختيارهم العمى والجهل، والكفر والضلال، على العلم والإيمان والهدى؛

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٦.

لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

٣٨- أن من كتب عليه الضلال فلن يهتديَ مهما بُيِّن له الحق وأرشد إليه.

٣٩- أن هداية الدلالة والإرشاد عامة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم.

٤٠- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبرًا على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٤١- إهلاك ثمود بصاعقة العذاب الهون، وهي صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم، وأذلتهم، وأهانتهم، فاجتمع لهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، مع ما ينتظرهم كنظرائهم عاد وغيرهم من المكذبين من عذاب الآخرة، الذي هو أشد وأكبر إيلامًا، وأعظم خزيًا وهوانًا.

٤٢- التحذير من إيثار العمى على الهدى، وأن ذلك سبب للعقوبة العاجلة.

٤٣- إثبات الأسباب، وأن ما حل بهؤلاء المكذبين بسبب كسبهم، وهو اختيارهم الكفر على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

٤٤- إنجاء المؤمنين المتقين من العذاب؛ لإيمانهم وتقواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٤٥- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، وتقوى الله بعمل الجوارح.

٤٦- فضيلة الإيمان والتقوى والترغيب فيهما؛ لأنهما سببا النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة.

٤٧- كمال عدل الله عز وجل؛ حيث أهلك المكذبين، وأنجى المؤمنين المتقين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ قرأ نافع ويعقوب بالنون وفتحها، وضم الشين: «نَحْشُرُ»، ونصب: «أَعْدَاءَ»، وقرأ الباقون بالياء وضمها، وفتح الشين: ﴿يُحْشَرُ﴾، ورفع: ﴿أَعْدَآءُ﴾.

و«يوم»: متعلق بفعل محذوف، أي: اذكر لهؤلاء المكذبين وغيرهم يوم يحشر أعداء الله، أي: يوم يجمعون ويساقون إلى النار.

وأعداء الله هم الكفار؛ كما أن أولياءه هم المؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يرد أولهم على آخرهم ويساقون إلى النار سوقًا عنيفًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: حتى إذا جاؤوها ووردوها ووصلوها.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم من الكفر والشرك والمعاصي، وهم ينكرون ذلك؛ كما في قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فتشهد عليهم أسماعهم بما سمعت من الباطل، وتشهد عليهم أبصارهم بما أبصرت من ذلك، وتشهد عليهم جلودهم بما مست.

وقوله: ﴿وَجُلُودُهُم﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن الجلود تحوي جميع الأعضاء والجوارح والحواس، فشهادتها عليهم بمثابة شهادة جميع أعضائهم.

فذَكَر السمع والبصر من بينها؛ لأن أكثر الذنوب تقع بسببها، وذَكَر الجلود؛ لأنها تعم جميع الجوارح.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ الاستفهام: للتوبيخ واللوم والعتاب، أي: لاموا جلودهم وعاتبوها: لم شهدتم علينا، ونحن ندافع عنكم؟ وخصوا الجلود؛ لأن لومها لوم لجميع الأعضاء.

﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: قالت الجلود وغيرها من الأعضاء: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ بالشهادة عليكم، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ﴾ بقدرته التامة، ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ فلا يستعصي عليه شيء، ولا يخرج عن إرادته وتقديره شيء.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: وهو لكمال قدرته أوجدكم من العدم أول مرة، وبقدرته أنطقنا، وبقدرته يبعثكم خلقًا جديدًا؛ ولهذا قالوا:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: تُردون خلقًا جديدًا للحساب والجزاء على أعمالكم.

والتعبير بالمضارع ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لاستحضار حالتهم ووقوفهم بين يدي الله، وما

ينتظرهم من العذاب.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من كلام الله تعالى، وليس من تتمة كلام الجلود.

أي: أنه عز وجل لما ذكر حشرهم وجمعهم يوم القيامة دلل عليهم بالخلق الأول، فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾؛ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾»(١).

قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾، أي: وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي، ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ «أن» والفعل «يشهد» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله بحذف مضاف، أي: مخافة أن يشهد، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن يشهد، و«لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي في الموضعين.

أي: وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي خوفًا من أن يشهد عليكم بذلك سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم؛ لأن هذه الجوارح لا انفكاك لكم عنها، ولأنكم لم توقنوا بالبعث، ولم يطرأ على بالكم أن هذه الجوارح ستشهد عليكم يومًا من الأيام.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «لكن»: حرف استدراك لا عمل له، والمصدر المؤول: «أن الله لا يعلم» في محل نصب سد مسد مفعولي «ظننتم»، أي: ولكن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ ٤٨١٧، ومسلم في صفات المنافقين ٢٧٧٥، والترمذي في تفسير سورة حم السجدة ٣٢٤٨، وأحمد ١/ ٣٨١، ٤٠٨.

ظننتم بارتكابكم الكفر والمعاصي، واستتاركم عن الخلق.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أن الله لا يعلم كثيرًا من الذي تعملونه، أو من عملكم، وأنكم تستطيعون الاستتار عنه كما استترتم عن الخلق.

وهذا من أعظم سوء الظن بالله؛ ولهذا قال:

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ﴾ السيئ الفاسد ﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ مما لا يليق بجلاله، وهو اعتقادكم الباطل أنه لا يعلم كثيرًا مما تعلمون، ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾، أي: أهلككم.

﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أي: فصرتم بسبب هذا الظن السيئ من الخاسرين، الذين خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾ على العذاب ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾، أي: مأوى ومسكن لهم، لا مفر لهم منها، ولا محيد لهم عنها، أي: فليس لهم إلا النار صبروا أو لم يصبروا، وهذا من باب التيئيس لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [هود: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطور: ١٦].

﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾، أي: وإن يطلبوا ويسألوا العتبى، وقبول عذرهم، والرضا عنهم، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾، أي: فما هم من المجابين إلى ما طلبوا من قبول عذرهم، وإزالة عتبنا عليهم والرضا عنهم؛ لفوات الأوان؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

قال ابن القيم: «أي: وإن يطلبوا إعتابنا، وهو إزالة عتبنا عليهم، فما هم من المزال

عنهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم، ولا يقبل فيها توبتهم»(١).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾، أي: وهيأنا وقدرنا لهؤلاء المشركين المكذبين، وسلطنا عليهم ﴿قُرَنَاءَ﴾، أي: أصحاب سوء ملازمين لهم من شياطين الإنس والجن، فشياطين الإنس من دعاة الكفر والضلال يتولونهم في الظاهر، وشياطين الجن يتولونهم في الباطن بالوسوسة ونحو ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾، أي: فحسنوا لهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: الذي بين أيديهم مما ليس بحسن، مما هم عليه من الكفر والشرك والمعاصي، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: وحسنوا لهم الذي أمامهم، من الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والشرك في المستقبل.

أو: فحسنوا لهم الذي بين أيديهم من زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها وشهواتها الفانية، فانشغلوا بها عما خلقوا له، وحسنوا لهم الذي أمامهم من أمر الآخرة بأن قالوا لهم: لا بعث ولا حساب، أو: أنه إن كان ثمَّةَ بعث فسيكون حالهم أحسن من غيرهم؛ كقول بعضهم: ﴿هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وكقول صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٧.

[الكهف: ٣٦].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: وجب عليهم القول بالكفر وعدم الإيمان، ووجبت عليهم كلمة العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال الظالمون وهم في دركات الجحيم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات: ٣١].

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، أي: في جملة أمم قد مضت من قبلهم، من الجن والإنس، ممن زينت لهم الشياطين أعمالهم، فحق عليهم القول بالكفر وعدم الإيمان، وحقت عليهم كلمة العذاب فأهلكوا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى مخاطبًا الشيطان: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾، أي: استووا هم وإياهم في الخسران؛ حيث خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهليهم، وذلك هو الخسران المبين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: لا تصغوا إليه، ولا تنصتوا له، ولا تنقادوا له.

﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه عند قراءته؛ من اللغط والصياح والجلبة وغير ذلك؛ لتحولوا بين الناس وبين سماعه، ولتخلطوا على القارئ قراءته سواء كان النبي ﷺ أو غيره.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، أي: لأجل أن تكون لكم الغلبة بالحيلولة دون سماع القرآن،

والتشويش على من يقرؤه.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الفاء: استئنافية، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، أي: فوالله لنذيقن الذين كفروا.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: ولنذيقنهم، لذكر علة إذاقتهم العذاب وهو الكفر، ولتسجيله عليهم، وليعمهم هذا الوعيد وغيرهم من الكفار، أي: ولنعذبن الذين كفروا عذابًا شديدًا، أي: قويًّا عظيمًا، كيفًا وكمًّا ونوعًا، يذوقون ألمه في الدنيا كما حصل في بدر وغيرها.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، أي: والله لنجزينهم في الآخرة.

﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: جزاء أسوأ وأقبح وأشرَّ الذي كانوا يعملونه، من الكفر والشرك، أي: شر الجزاء وأسوأه؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى إذاقتهم العذاب الشديد، ومجازاتهم بأسوأ أعمالهم، أي: ذلك العذاب والجزاء.

﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾، أي: جزاء الذين عادوا الله وحاربوه بالكفر والمعاصي، وحاربوا دينه وأولياءه.

﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي النار، أو مبتدأ وخبره ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: في النار ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: دار الخلود الدائم الأبدي؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

﴿جَزَآءًۢ﴾ مفعول مطلق ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كونهم بآياتنا يجحدون، أي: يكفرون بها، ويكذبونها، وينكرونها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قرأ ابن عامر والسوسي عن أبي عمرو، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بسكون الراء: «أَرْنَا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿أَرِنَا﴾.

أي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم الأتباع: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا، ﴿أَرِنَا﴾، أي:

اجعلنا نرى ﴿ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾، أي: اللذين كانا سبب ضلالنا ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، أي: من شياطين الجن وشياطين الإنس.

﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾: جواب الأمر، أي: إن أريتنا إياهما ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ في النار؛ إهانة لهما، وليكونا أشد عذابًا منا.

﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾، أي: لأجل أن يكونا من الأذلين المهانين في الدرك الأسفل من النار.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بحشر أعداء الله من الكفار والمكذبين، وسوقهم إلى النار، وتهديدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

٢- أن الكفار أعداء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾، وهو تعالى عدو لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣- إثبات المعاد والقيامة والحشر والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾.

٤- إثبات وجود النار، وأنها أعدت للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارِ﴾.

٥- رد أول الكفار على آخرهم، وجمعهم وسوقهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾.

٦- شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك، فقال: «**هل تدرون مم أضحك؟**» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**من مخاطبة العبد ربه،**

يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول، فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بعدًا لكُنَّ وسحقًا؛ فعنكن كنت أناضل»(١).

٧- في عطف الجلود على السمع والأبصار- وهو من عطف العام على الخاص- دلالة على أن جميع الأعضاء والجوارح تشهد بما عملت، وإنما خص السمع والبصر إشارة إلى أن أكثر الذنوب تقع بسببهما.

٨- معاتبتهم لجلودهم وأعضائهم، ولومهم لها: لمَ شهدت عليهم وهم يدافعون عنها؟ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ﴾.

٩- قدرة الله التامة على إنطاق هذه الجوارح؛ كما أنطق كل شيء، وبدأ الخلق أول مرة، وإليه مرجعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٠- إثبات البعث والمعاد إلى الله تعالى، وأن من خلق الخلق أول مرة فهو على إعادتهم أقدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١١- توبيخهم على مجاهرتهم بالكفر والمعاصي، وعدم استتارهم خوفًا من شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم؛ حيث لا انفكاك لهم عنها، وذلك؛ لعدم إيمانهم بالبعث، وبشهادة الأعضاء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

١٢- ظنهم السيئ الفاسد: أن الله لا يعلم كثيرًا من أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٣- تبكيتهم وتوبيخهم على هذا الظن بربهم، وأنه سبب هلاكهم وخسرانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٩.

١٤- إثبات علم الله التام بجميع أعمال العباد وبكل شيء، ووجوب الإيمان بذلك؛ لأن الله أنكر عليهم هذا الظن وعاقبهم بسببه.

١٥- وجوب حسن الظن بالله تعالى، عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله؛ فإن قومًا قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾**»(١).

١٦- الحذر من سوء الظن بالله، وأنه سبب للهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

١٧- أن النار مثوى الكافرين سواء صبروا أو لم يصبروا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

١٨- الإشارة إلى أن النار لا تفنى؛ كما دل على ذلك القرآن صراحة في عدة مواضع.

١٩- أن الكافرين لو استعتبوا فلن يجابوا ولن يقبل عتبهم، ولا ينفعهم اعتذارهم؛ لفوات الأوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

٢٠- تقدير الله وتسليطه على الكافرين والمكذبين قرناء من شياطين الإنس والجن، يزينون لهم الكفر والمعاصي، والانغماس في الدنيا وشهواتها، والتكذيب بالآخرة والإعراض عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٢١- إثبات القدر السابق، وأن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء من الكفر والإيمان وغير ذلك.

٢٢- وجوب الحذر من قرناء السوء من شياطين الجن والإنس؛ لأنهم يزينون

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٩٠- ٣٩١، وأخرجه بدون ذكر قوله: «فإن قومًا» إلى آخره مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٧، وأبو داود في الجنائز ٣١١٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٧.

للناس الباطل، ويزهدونهم في الحق.

٢٣- تحقق قول الله تعالى وكلمته في عدم إيمان الكافرين، وفي عذابهم وخسرانهم في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الكافرين، من الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

٢٤- كثرة الضالين والهالكين الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾، أي: في أمم كثيرة.

٢٥- إثبات وجود الجن وتكليفهم، وتعلق الثواب والعقاب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾.

٢٦- تواصي الكفار فيما بينهم بعدم الإصغاء للقرآن، وعدم الانقياد له واتباعه، وباللغو والتخليط والتشويش عند قراءته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٧- حرص الكفار على إطفاء نور الله بأفواههم، والحيلولة دون سماع الناس للقرآن، والتشويش على من يقرؤه؛ لتكون الغلبة لهم، ولهذا يجب على المؤمنين الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن، والبعد عن التشبه بالكفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٢٨- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للكفار المكذبين بالقرآن المعرضين عنه؛ بالعذاب الشديد في الدنيا، ومجازاتهم في الآخرة بأسوأ عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: جزاء أسوأ أعمالهم، فيجازون بأسوأ العذاب لعملهم أسوأ الأعمال.

٣٠- أن عذاب الآخرة أسوأ وأشد من عذاب الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

وأخبر ﷺ المتلاعنين: «أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»(١).

٣١- تهويل وتعظيم ما أعد الله لأعدائه المكذبين الكافرين من العذاب الشديد في النار؛ بسبب جحودهم آيات الله، وكفرهم بها، وتكذيبهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

٣٢- إثبات خلود أهل النار فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ﴾.

٣٣- إثبات عدل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

٣٤- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

٣٥- شدة حنق الأتباع على الذين أضلوهم من شياطين الجن والإنس، وسؤالهم ربهم أن يريهم إياهما؛ لينتقموا منهما بجعلهما تحت أقدامهم؛ ليكونا من الأسفلين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾.

٣٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ﴾.

٣٧- إقرار الكفار بربوبية الله تعالى لهم، لكن ذلك لا ينفعهم؛ لإنكارهم ألوهيته.

٣٨- أن الإضلال يكون من الجن والإنس؛ كما يكون من النفس الأمارة بالسوء.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، أي: آمنوا بربوبية الله تعالى لهم بقلوبهم، وأقروا واعترفوا ونطقوا بذلك بألسنتهم.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على صراط الله المستقيم، بإخلاص العبادة لله تعالى، واتباع شرعه، فجمعوا بين الإخلاص والعمل، وثبتوا على ذلك علمًا وعملًا حتى الممات.

عن سفيان الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»(١).

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ «تتنزل»: تدل على تكرار التنزل، أي: تتنزل عليهم الملائكة عند الموت وفي القبر، وعند اللقاء والخوف، وفي عرصات القيامة، وكلما اقتضى الحال تنزلهم.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾، أي: بألا تخافوا مما يستقبلكم، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾، أي: ولا تحزنوا على ما مضى. وقدم الخوف من المستقبل على الحزن على ما مضى؛ لأن المستقبل أهم.

---

(١) سبق تخريجه.

وبهذا تتبدد أمامهم المخاوف والأحزان، فلا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على من خلفهم.

كما قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما قيل له: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم- وكان في مرض موته- فقال: أدخلوهم علي. فأدخلوهم، وهم بضعة عشر ذكرًا ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: «يا بَنيَّ، والله ما منعتكم حقًّا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أُخَلِّف له ما يستعين به على معصية الله»(١).

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**».

قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه»(٢).

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أي: التي وعدكم الله بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: نحن أنصاركم وأعوانكم، نثبتكم عند اللقاء، ونقاتل معكم، ونثبتكم عند الشدائد والمصائب، ونسددكم للخير، ونحذركم من الشر، وندعو ونستغفر لكم، ونحفظكم ونحفظ أعمالكم.

قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: ٩].

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر، من أحب لقاء الله ٢٦٨٦، وأحمد ٣/ ١٠٧.

٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧- ٩].

وقال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار**» الحديث[1].

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ونحن أولياؤكم في الآخرة، نثبتكم عند الموت وشدته، وفي القبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وعند تطاير الصحف، وعند الإتيان بالنار تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ومرورها على أهل الموقف، وغير ذلك.

كما نبشركم بالجنة وما فيها من النعيم والخلود، ونحييكم ونهنئكم بكرامة الله تعالى لكم، وإدخالكم جنته.

كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾، أي: ولكم في الآخرة في الجنة: ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾.

أي: الذي تشتهي أنفسكم، من أنواع المشتهيات والملذات؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، أي: كل الذي تطلبون من أنواع اللذات، وأصناف النعيم؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٥، ومسلم في المساجد ٦٣٢، والنسائي في الصلاة ٤٨٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»، ثم قال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾**»(١).

﴿ نُزُلًا ﴾ حال، أي: ضيافة وإنعامًا وكرامة.

﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، أي: من رب ذي مغفرة لذنوب عباده، بسترها والتجاوز عنها.

﴿رَّحِيمٍ ﴾ رحمة عامة بجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، وفي هذا امتنان عليهم بتوفيقهم للإيمان والاستقامة، وما أعد لهم في الجنة من ألوان النعيم، وكريم الضيافة، بمغفرته التي بها أزال عنهم المرهوب، وبرحمته التي أنالهم فيها المطلوب. نسأل الله من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أحسن قولًا.

﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: لا أحد أحسن ولا أفضل قولًا من الذي دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين.

وقوله: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: دعا عباد الله إلى الله، أي: إلى الإيمان بالله وتوحيده، والاستقامة على دينه، والإخلاص له وطاعته؛ ولهذا قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٣٧٠١، ومسلم في الفضائل، من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١، من حديث =

وأول من يدخل تحت هذه الآية: إمام المتقين، وقدوة الداعين، نبينا محمد ﷺ، وبعده سائر المرسلين، وغيرهم من الدعاة إلى الله، ومن المؤذنين وغيرهم.

قال ﷺ: «**المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة**»(١).

وقال: «**اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين**»(٢).

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: وعمل عملًا صالحًا، اجتمع فيه الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَقَالَ﴾ معتزًّا بدينه مفتخرًا به، بلسانه وقلبه: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: من المستسلمين لله بالتوحيد، المنقادين لطاعته، المخلصين له، المتبعين دين الإسلام.

وهذا عمل صالح، وخص لغيظ الكفار؛ كما قال ﷺ لما قال أبو سفيان: اعلُ هبل. قال ﷺ: «**ألا تجيبوه؟**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ﷺ: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»(٣).

وحق لكل مسلم أن يعتز بدين الإسلام ويفتخر به، وقد أحسن القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء

النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء؟(٤)

وقال الآخر:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم(٥)

سهل بن سعد رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، فضل الأذان ٣٨٧، وابن ماجه في فضل الأذان ٧٢٥، وأحمد ٤/ ٩٥، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ٥١٧، والترمذي في الصلاة ٢٠٧، وأحمد ٢/ ٢٣٢، ٢٨٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومن حديث أبي أمامة رضي الله عنه ٥/ ٢٦٠، ومن حديث عائشة رضي الله عنها ٦/ ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٩، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

(٥) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

وفي قوله: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: «إنني مسلم» احتراز من التزكية للنفس، أي: أنا واحد من المسلمين.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الحسنة: ما يحسن ذكره وأثره، وهي: اسم جنس يعم جميع أفراد جنسه، فالحسنة تعم جميع أفراد الحسنات، من الدعوة إلى الله تعالى، والأعمال الصالحة والطاعات، وفعل المأمولات وترك المحظورات، والإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي، والسيئة: ما يسوء ذكره وعاقبته، وهي أيضا اسم جنس يعم جميع أفراد السيئات؛ من ترك المأمورات، وارتكاب المحظورات، والتقصير في حق الله، والإساءة إلى عباد الله.

فلا تستوي الحسنة ولا السيئة بوجه من الوجوه، لا في ذاتهما، ولا في صفاتهما، ولا في جزائهما؛ كما أنه لا يستوي المحسن ولا المسيء؛ ولهذا قال:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: ادفع السيئة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: بالحسنة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

وذلك بمقابلة الأذى بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، ونحو ذلك.

والأمر في قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ للندب، لا للوجوب؛ لأنه يجوز دفع السيئة بمثلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

ولكن الأولى دفع السيئة بالحسنة، وأفضل من ذلك وأكمل دفعها بالتي هي أحسن.

فالمعنى: قابل إساءة من أساء إليك بما هو أحسن ما استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقد جاء في صفته ﷺ: «أنه لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر»(١).

«وما انتقم ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله»(٢).

﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ الفاء: تعليلية، و«إذا»: فجائية للدلالة على سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقًا.

أي: فإذا دفعت السيئة بالحسنة تفاجأت بأن الذي بينك وبينه عداوة ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، أي: كأنه قريب صديق.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾، أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة، وهي دفع السيئة بالتي هي أحسن، ومقابلة الإساءة بما هو أحسن.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ «إلا» في الموضعين: أداة حصر، أي: إلا الذين حبسوا أنفسهم وألزموها تحمل هذا الأمر ابتغاء مرضاة الله، مع شدة كراهية النفوس لذلك؛ لأنها مجبولة على حب الانتقام ممن أساء إليها، وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان إليه؟!

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أعاد هذا للاهتمام، أي: وما يوفق لهذه الخصلة الكريمة.

﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: إلا صاحب نصيب عظيم من التوفيق لجميل الأخلاق، وحميد الخصال، من الصبر والأناة والحلم، ومن الفوز بالثواب العظيم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾.

لما ذكر تعالى ما يدافع به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان؛ لأن ذلك غالبًا يحجزه عن الإساءة، ذكر ما يدفع به العدو من الجن، وهو الاستعاذة بالله تعالى منه؛ لأنه لا يقدر على دفعه والإعاذة منه إلا الله؛ لأنه لا يريد إلا إغواء بني آدم وإهلاكهم، ولا يكفيه إلا ذلك.

وأيضًا ففي هذا تحذير من ترك الدفع بالتي هي أحسن، ومقابلة السيئة بالسيئة بسبب نزغ الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢١٢٥، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٢٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٢٧، وأبو داود في الأدب ٤٧٨٥، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: حرف شرط جازم، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإما يصيبنك من الشيطان نزغ، والنزغ: هو الوسوسة بالنفس، للصرف عن الخير، أو تزيين الشر.

أي: وإما يزينن لك الشيطان مقابلة السيئة بمثلها، وترك مقابلتها بالإحسان، وغير ذلك من التزهيد في الخير وتحسين الشر.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فاعتصم بالله والتجئ إليه، قائلًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ونحو ذلك. يعيذك ويعصمك منه؛ ولهذا قال ﷺ لعثمان بن أبي العاص رضي الله عنه لما قال: «يا رسول الله، إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي، يلبسها علي. فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثًا**». قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»(١).

وقال ﷺ: «فمن رأى شيئًا يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثًا، وليتعوذ من الشيطان؛ فإنها لا تضره»(٢).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: إنه هو ذو السمع الذي وسع كل شيء، يسمع دعاء الداعين ويجيبهم، ويسمع استعاذة المستعيذين ويعيذهم، ويسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] يعلم جميع أحوال عباده، ويعلم حال المضطرين إلى عصمته وحمايته، فيعصمهم ويحميهم من الشيطان، ومن كل شر.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى للذين آمنوا به واستقاموا على صراطه بإخلاص العبادة له، واتباع شرعه؛ بتنزل الملائكة عليهم، تثبتهم عند الموت وعند الخوف والشدة وفي

---

(١) أخرجه مسلم في السلام ٢٢٠٣، من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٦٩٩٥، ومسلم في الرؤيا ٢٢٦١، وأبو داود في الأدب ٥٠٢١، والترمذي في الرؤيا ٢٢٧٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

عرصات القيامة: ألا تخافوا ولا تحزنوا، وتبشرهم بالجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٢- وجوب الإيمان بالله والعمل الصالح، والاستقامة على دين الله وشرعه حتى الممات.

٣- أن الإيمان تصديق واعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين.

٥- أن الأولى أن يقال لمن آمن بالله واستقام على شرعه: «مستقيم»؛ لأن هذا هو الوصف الذي جاء في الكتاب والسنة، ولا يقال له: «ملتزم» كما درج على الألسنة.

٦- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء، وتنزلهم بأمر الله على المؤمنين عند الاحتضار وفي مواقف الشدة والخوف، ونحو ذلك.

٧- أن من أشد ما يقلق الإنسان: الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى؛ لقول الملائكة: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾، فطمأنوا المؤمنين بسلامتهم من الخوف والحزن؛ ولهذا فإن من أعظم نعيم أهل الجنة إذهاب ذلك عنهم؛ كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤- ٣٥].

٨- إثبات وجود الجنة، وهي الدار التي أعد الله للمتقين.

٩- إثبات صدق وعده عز وجل للمؤمنين بالجنة، وتحقق ذلك لهم.

١٠- تسخير الله تعالى الملائكة للمؤمنين يوالونهم وينصرونهم ويحفظونهم، ويسددونهم للخير، ويحذرونهم من الشر، ويستغفرون لهم، ويدعون لهم ويثبتونهم عند اللقاء، وفي مواقف الشدة في الدنيا والآخرة، ويبشرونهم بالجنة، ويحيونهم، ويهنئونهم بكرامة ربهم؛ لقولهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

١١- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء، والثواب والعقاب.

١٢- بشارة الملائكة للمؤمنين بما أعد لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، ومن

كل ما يطلبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

١٣- عظم ما أعد للمؤمنين من الضيافة والكرامة؛ لأنها ضيافة من غفور رحيم، جواد كريم؛ لقوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، فأكرم بهذا من نزل، وأعظم بها من ضيافة!

١٤- أن الضيافة تعظم على قدر المضيف؛ كما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم (١)

١٥- إثبات صفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله: ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

١٦- أن التخلية بإزالة المكروه، قبل التحلية بإعطاء المطلوب؛ لتقديم المغفرة على الرحمة.

١٧- أنه لا أحد أحسن وأفضل قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وفي المقابل فإن من أسوأ الناس وأشرهم قولًا من كان بضد ذلك، وهم دعاة الكفر والضلال، الذين ذمهم الله وتوعدهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١٨- إثبات تفاضل الأعمال، وأن بعضها أفضل وأحب إلى الله من بعض، وحسب تفاضل الأعمال يتفاضل العمال.

١٩- فضيلة الدعوة إلى الله تعالى، وأنها من أفضل الأعمال؛ ولهذا بدأ بها، كيف وهي طريقة الرسل عليهم السلام؟

٢٠- فضيلة العمل الصالح، الخالص لله تعالى، الموافق لشرعه وسنة رسوله ﷺ؛

---

(١) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٢١- وجوب اعتزاز المسلم بدينه، وإعلانه وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٢- الاحتراز من التزكية لذات النفس؛ لقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: «إنني مسلم»، أي: أنا واحد من المسلمين.

٢٣- إثبات الأخوة بين المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- عموم مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى، والاهتمام بأمر المسلمين، وفي الحديث: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمسِ ناصحًا لله ورسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»(١).

٢٥- شتان بين الحسنة والسيئة، فالحسنة يسعد بها فاعلها في الدنيا والآخرة، والسيئة تشقي مرتكبها في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾.

٢٦- الترغيب في فعل الحسنات، والتحذير من ارتكاب السيئات.

٢٧- الحث على دفع السيئة بالتي هي أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، والحذر من أن تأخذ المرءَ العزةُ بالإثم فيحرم خيرًا كثيرًا.

٢٨- أن من دفع الإساءة بما هو أحسن، انقلب فجأة من كان بينه وبينه عداوة كأنه ولي حميم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، فسبحان مقلب القلوب!

٢٩- قدرة الله تعالى التامة على تقليب القلوب؛ كما قال ﷺ: «**إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء**»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» ٧/ ٢٧٠ (٧٤٧٣)، وأخرجه في «تاريخ أصبهان» ٢/ ٢٢٢-من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٤٠، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٣٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

٣٠- أن الدنيا دار كدر وكبد لا تستقيم على حال، بل هي مليئة بالعداوات والأكدار.

٣١- عظم أثر الإحسان وسرعته في إزالة العداوة ومحوها بتوفيق الله.

٣٢- أن المدافعة بالتي هي أحسن شاقة على النفس، عزيزة المنال، لا يوفق لها إلا الذين صبروا أنفسهم على ما تكره، ابتغاء مرضاة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

٣٣- فضيلة الصبر، والترغيب فيه، وأن عاقبته إلى خير؛ فمن صبر فقد امتثل أمر ربه، وفاز بثوابه، وأطفأ عداوة خصمه، ولم يضع ذلك من قدره؛ لأن من تواضع لله رفعه.

٣٤- أنه لا يلقى هذه الخصلة ولا يوفق لها إلا ذو نصيب عظيم من التوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

٣٥- إرشاد المسلم إذا نزغه من الشيطان نزغ بتزيين ترك الإحسان، أو مقابلة الإساءة بمثلها، أو غير ذلك إلى الاستعاذة بالله منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

٣٦- حرص الشيطان على الحيلولة بين المسلم وبين الخير، وعلى إيقاعه في الشر؛ مما يوجب الحذر منه.

٣٧- أن شيطان الإنس قد يندفع بالإحسان إليه، فتنفع فيه المداراة والإحسان، وأما شيطان الجن فلا يندفع إلا بالاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يريد إلا إهلاك الإنسان.

٣٨- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، يسمع دعاء الداعين ويجيبهم، واستعاذة المستعيذين ويعيذهم، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله: «العليم»، وأنه ذو العلم الذي وسع كل شيء.

٤٠- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفة السمع والعلم في حقه كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾، أي: ومن آيات الله عز وجل الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على وجوده، ومعرفته، وكمال قدرته، ووحدانيته في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له: ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾.

فالليل بظلامه وسكون الخلق فيه، والنهار بضيائه وتصرف العباد فيه، فلا أحد يستطيع أن يأتي بذلك إلا الله عز وجل؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ بضيائها وحرارتها، ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ بنوره، وجريانهما بحساب دقيق؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥].

وما في ذلك كله من الآيات والعبر والمنافع والمصالح للعباد مما لا يحصى، ولا يعلمه إلا الله.

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، أي: لا تعبدوا الشمس والقمر؛ لأنهما مخلوقان لله مدبران، وفي هذا تعريض بمن يعبدون الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب والمخلوقات. قال ﷺ: «**إن الشمس تطلع بين قرني شيطان، وحينئذٍ يسجد لها الكفار**»(١).

﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، أي: واعبدوا الله وحده، والتعبير بالسجود؛ لأنه من أعظم العبادة؛ لما فيه من الذل والخضوع لله.

ولهذا قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(٢).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾، أي: الذي خلق هذه الآيات الأربع وغيرها؛ لأنه هو الرب الخالق العظيم المستحق للعبادة وحده.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قَدّم المفعول «إياه»؛ لإفادة الحصر، أي: إن كنتم تعبدون الله حقًّا فخصوه بالعبادة وحده، ولا تعبدوا معه هذه المخلوقات، فإن عبدتموها معه، فإنكم لم تعبدوه، والله غني عن عبادتكم هذه؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٣).

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادة الله تعالى والسجود له وحده، فإنهم لن يضروا الله

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٨٣٢، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شيئًا، والله غني عنهم؛ ولهذا قال:

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: من الملائكة الكرام المقربين، وفي وصفهم بأنهم عنده عز وجل تشريف لهم.

﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾، أي: ينزهونه عن الشرك، وعن النقائص والعيوب، ويصلون له، ويعبدونه وحده.

﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: في آناء الليل والنهار؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ الواو: حالية، أو عاطفة، أي: لا يملون ولا يفترون؛ لشدة الداعي منهم إلى ذلك، ولا يتعبون؛ لقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾.

قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾، أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، وسعة رحمته، وقدرته على إحياء الموتى: ﴿أَنَّكَ﴾ الخطاب عام لكل من يصلح له.

﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾، أي: تشاهدها وتبصرها ميتة يابسة هامدة، لا نبات فيها ولا حياة.

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا﴾، أي: المطر، ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾، أي: دبت فيها الحياة، وتحركت بالنبات.

﴿وَرَبَتۡۚ﴾ قرأ أبو جعفر: «وَرَبَأَتْ» بهمزة بعد الباء، وقرأ الباقون بدون همز: ﴿وَرَبَتۡۚ﴾.

والمعنى: زادت وانتفخت وعلت بالنبات، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ

أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾، أي: إن الذي أحيا الأرض بقدرته العظيمة بعد خشوعها وموتها، ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لباعثهم أحياء من قبورهم يوم معادهم ونشورهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩-١١].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الجملة: تعليلية، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بالخبر «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء، وأنه كما أحيا الأرض بعد موتها بالنبات فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة، وعلى كل شيء.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ الإلحاد: الميل عن الاستقامة، والإلحاد في آيات الله: الميل والعدول بها عن الصواب، وعما دلت عليه من الحق بأيِّ وجه كان.

فالإلحاد في آيات الله الكونية بنسبتها إلى غير الله، أو اعتقاد مشارك لله فيها، أو معين له عليها؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

والإلحاد في آيات الله الشرعية يكون بتكذيبها؛ كما في قول المكذبين للرسل: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ [يس: ١٥]، وكما زعم المشركون أن الرسول ﷺ افترى القرآن وتقوله، وإنما يعلمه بشر.

ويكون بتحريفها عن ألفاظها أو معانيها الحقيقية إلى ألفاظ ومعانٍ باطلة.

ويكون بمخالفتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾، أي: لا يخفى علينا أمرهم، بل نعلمهم ونعلم ظاهرهم وباطنهم، وسنحاسبهم ونجازيهم. وفي هذا إثبات كمال علمه عز وجل، وتهديد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن يطرح في النار من الملحدين في آيات الله الكافرين بها.

والتعبير بـ«يلقى» للإهانة والإذلال والتحقير.

﴿أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ «أم»: عاطفة معادلة للهمزة، و«من»: موصولة.

أي: أم الذي يأتي آمنًا يوم القيامة؟ أي: لا يستوي هذا وهذا، بل الذي يأتي آمنًا يوم القيامة هو خير، وهم الذين آمنوا بآيات الله، ولم يلحدوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي: لهم الأمن في الدنيا والآخرة.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ الأمر: للتهديد، أي: اعملوا الذي شئتم من الإلحاد وغيره.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي تعملونه، أو بعملكم بصير، أي: مطلع عليه، عالم به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه، وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بالخبر «بصير»، وقدم عليه؛ ليكون أشد تهديدًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المراد بـ«الذكر»: القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم، وأنكروه، وزعموا أنه سحر أو شعر أو قول كاهن، وأساطير الأولين.

وسمي القرآن بـ«الذكر»؛ لما فيه من التذكير والموعظة، وذكر الأحكام والأوامر والنواهي والأخبار، وذكر صفات المؤمنين وثوابهم، وصفات الكافرين وعقابهم، والبعث والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك.

كما أنه ذكر وشرف لمن أنزل عليه ولقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولم يذكر خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب. والمعنى: سيجازون، أو سيعذبون، أو لهم نار جهنم، ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ الواو: حالية، أو استئنافية، والضمير يعود إلى «الذكر»، أي: القرآن، واللام: للتوكيد، ﴿عَزِيزٞ﴾ صفة لـ«كتاب»، أي: قوي الحجة، غالب على غيره؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

منيع الجانب محفوظ من التحريف والتبديل والتغيير، والزيادة والنقصان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«كتاب»، أي: أنه حق، لا يتطرق إليه الباطل من أي سبيل، لا في أخباره، ولا في أحكامه، فأخباره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ﴾ الجملة: تعليلية، أو صفة ثالثة لـ«كتاب»، أي: تنزيل من رب حكيم في أقواله وأفعاله، وفي شرعه وقدره، ذي الحكم التام، والحكمة البالغة، ﴿حَمِيدٖ﴾، أي: محمود في تنزيله، وفي حكمه وحكمته، وفي جميع أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وعلى ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وما له من العدل والإفضال.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾، أي: ما يقال لك يا محمد من التكذيب والاستهزاء والسخرية من قومك؛ كقولهم: ساحر، ومجنون، وشاعر، وغير ذلك.

﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كما قيل للرسل من قبلك، فقد كُذبوا، واستهزئ بهم، وسُخر منهم، ورُموا بالسحر والجنون وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وفي هذا تسلية له ﷺ، وإرشاد له إلى الصبر كما صبر الرسل من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ اللام: للتوكيد، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: إن ربك يا محمد لصاحب مغفرة لمن تاب وأناب إليه؛ يستر ذنبه، ويتجاوز عن عقوبته، وفي هذا ترغيب بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: مؤلم موجع شديد لمن أصر على كفره وطغيانه وعناده، وشقاقه واستكباره، وفي هذا تحذير من الاستمرار على الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾، أي: ولو صيرنا هذا القرآن ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾، أي: بلغة العجم.

﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، و«لولا»: حرف تحضيض، أي: لقال المكذبون للرسول ﷺ: هلا فُصلت آيات هذا القرآن، وبُينت ووضحت، وجُعلت عربية نفهمها.

ولا حجة لهم في هذا؛ لأن الله جعل القرآن عربيًّا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢].

﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الاستفهام: للإنكار، والجملة استئنافية في حيز القول، بمعنى: ولقالوا: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾، أي: أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ أي: كيف يكون القرآن أعجميًّا، وقد أنزل على نبي عربي؟ وهذا لم يكن، فالقرآن عربي، والمنزَّل عليه عربي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وفي هذا امتنان بإنزال القرآن بأفصح اللغات وأظهرها وأبينها وأوسعها لغة العرب، وكونه في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والإعجاز، بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره.

كما أن فيه بيان أن كفر المشركين به، وعدم إيمانهم، إنما هو كفر تعنت وعناد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٩٨- ٢٠١].

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد في جوابهم: ﴿هُوَ﴾، أي: هذا القرآن.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خاصة، ﴿هُدًى﴾ من الجهل والضلالة، يهدي إلى الرشد والحق، وإلى طريق مستقيم؛ كما قال الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقالوا في الآية الأخرى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَشِفَآءٌ﴾، أي: من أمراض القلوب والصدور، من الشكوك والريب والنفاق وغير ذلك، ومن أمراض الأبدان؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وكما ثبت من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة اللديغ الذي قرأ عليه أحد الصحابة رضي الله عنهم سورة الفاتحة، فقام كأنما نشط من عقال، وفيه قول

النبي ﷺ: «**وما يدريك أنها رقية؟! خذوها واضربوا لي معكم بسهم**»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾، أي: صمم وثقل، فلا يسمعونه سماع تفهم وانتفاع.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فلا يفقهونه؛ لعمى قلوبهم وإعراضهم، ولا يهتدون إلى ما فيه من الهدى والبيان؛ لصمم آذانهم وعمى قلوبهم وأبصارهم، بل لا يزيدهم إلا ضلالًا وخسارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الحاقة: ٥٠].

وفي الحديث: «**القرآن حجة لك أو عليك**»(٢).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فلا يسمعون داعيًا، ولا يجيبون مناديًا، ولا يفهمون، كالذي ينادى من مكان بعيد، وكالبهيمة لا تفهم إلا دعاءً ونداءً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

والمراد: أنهم لا ينتفعون بالقرآن ولا يهتدون بهداه؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: ولقد أعطينا موسى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة، أنزلها الله عليه مكتوبة بألواح، وهي أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، وموسى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٧/ ٩٢- ٩٣.

عليه السلام ثالث أولي العزم بعد نبينا وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأكثر الرسل أتباعًا بعد نبينا ﷺ؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنه ﷺ رأى سوادًا قد سد الأفق، فقال: «**من هذا؟ فقيل: هذا موسى وقومه**»(١).

﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾، أي: فاختلف فيه بنو إسرائيل، فمنهم من آمن به واهتدى، ومنهم من كفر به وكذبه وضل، وهذا قبل نسخ التوراة وغيرها بالقرآن.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، أي: ولقد آتينا موسى الكتاب من قبلك، فاختلف قومه فيه بين مصدق به ومكذب، ومؤمن به وكافر، فليس ما حصل من قومك من اختلاف في القرآن ببدع من فعل الأمم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَوۡلَا﴾ الواو: عاطفة، و«لولا»: حرف شرط غيرجازم، ﴿كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ يا محمد في قضائه الكوني القدري الأزلي، بتأجيل العذاب إلى أجل مسمى، وتأخير الحساب إلى يوم المعاد.

﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لقضي بينهم بتعجيل العذاب وإهلاك المكذبين لك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾ [طه: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَإِنَّهُمۡ﴾، أي: المشركين، ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾، أي: من القرآن أو البعث، ﴿مُرِيبٖ﴾: موقِع في الريبة والقلق.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أعظم آيات الله الكونية التي لا حصر لها، الدالة على وجود الله ومعرفته، وتمام قدرته، وكمال وحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ورحمته

---

(١) أخرجه البخاري في في الطب ٥٧٠٥، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦.

بعباده: الليل والنهار، والشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

٢- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والنهي عن عبادة الشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٣- التعريض بالذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب من دون الله.

٤- أن السجود من أعظم أنواع العبادة؛ لهذا خص بالذكر.

٥- أن الذي يستحق العبادة هو الخالق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وفي هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

٦- أن من يعبد الله حقًّا لا يسجد لغيره من المخلوقات؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٧- غِنى الله تعالى عن المستكبرين عن عبادته، وأنهم لن يضروا الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الآية.

٨- إثبات وجود الملائكة، وتشريفهم بكونهم عند الله عز وجل، والثناء عليهم بتسبيحهم له على الدوام، بلا سأم ولا ملل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾.

٩- تحدي هؤلاء المستكبرين عن عبادة الله بأنهم إن استكبروا عن عبادته، فهناك من يعبده.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١١- أن من آيات الله الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، ورحمته، وقدرته على إحياء الموتى: إحياؤه الأرض بعد موتها بالنبات بإنزال المطر عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ﴾.

١٢- إثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها بإذن الله، فحياة الأرض بسبب إنزال المطر عليها.

١٣- إثبات القياس؛ لأن الله قاس إحياء الموتى على إحياء الأرض بعد موتها.

١٤- عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فيوجد المعدوم، ويعدم الموجود، ويغيِّر الثابت، ويثبت المتغير، وغير ذلك.

١٥- تهديد الملحدين بآيات الله بعلمه تعالى بهم وبإلحادهم، وأنه سيجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾.

١٦- إثبات كمال وسعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء.

١٧- شتان بين من يطرح في النار بسبب الإلحاد في آيات الله ونحو ذلك، وبين من يأتي آمنًا يوم القيامة من العذاب لإيمانه بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٨- التحذير من الإلحاد في آيات الله، وأنه سبب للإلقاء في النار.

١٩- أن المفاضلة قد ترد بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

٢٠- إثبات النار، وأن الله أعدها للكافرين.

٢١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٢- تهديد المكذبين والكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة للعبد والاختيار، والرد على الجبرية.

٢٤- علم الله تعالى التام وإحاطته بأعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٥- التنديد بالذين كفروا بالقرآن لما جاءهم، وذمهم، وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ الآية.

٢٦- أن من أسماء القرآن الكريم: «الذكر»؛ لما فيه من التذكير والعبر والعظات، وكونه شرفًا له ﷺ ولقومه.

٢٧- تعظيم الله تعالى للقرآن؛ لما فيه من التذكير، وقوة الحجة، والإعجاز، وكونه منيع الجانب محفوظًا من التبديل والتغيير والتحريف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾.

٢٨- حفظ الله تعالى التام للقرآن الكريم من تطرق الباطل إليه بأي وجه من الوجوه، وتكفله عز وجل بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾.

٢٩- إثبات نزول القرآن من عند الله عز وجل، وأنه كلامه منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾، وفي هذا الرد على القائلين بخلق القرآن من أهل البدع والضلال.

٣٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله عز وجل الذات وعلو الصفات.

٣١- إثبات صفتي الحكم والحكمة لله تعالى، وأنه سبحانه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۡ حَكِيمٍ﴾.

٣٢- إثبات أنه عز وجل حميد، أي: محمود في أقواله وأفعاله، في شرعه وقدره، وعلى ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وما له من العدل والإفضال؛ لقوله تعالى: ﴿حَمِيدٖ﴾.

٣٣- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يلقاه من قومه من التكذيب والسخرية والاستهزاء، بأن ذلك لقيه الرسل قبله من أقوامهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾.

٣٤- أن المصائب إذا عمت هانت وخفت.

٣٥- إثبات أنه ﷺ خاتم المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾.

٣٦- توافق الأمم واجتماعهم على تكذيب الرسل والسخرية والاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣].

٣٧- إثبات أنه عز وجل ذو مغفرة واسعة للتائبين، وذو عقاب أليم للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾، وفي هذا ترغيب بالتوبة، وتحذير من

الإصرار على الكفر.

٣٨- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء على حد سواء، ويكونا له كجناحي الطائر.

قيل: ويغلب في حال الصحة جانب الخوف، وفي حال المرض، وعند الموت يغلب جانب الرجاء. قال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»(١).

ودخل ﷺ على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟». قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمَنه مما يخاف»(٢).

وقيل: يغلب عند فعل المعصية جانب الخوف ليرتدع، وعند فعل الطاعة جانب الرجاء؛ ليقبل عليها، وتعظم رغبته فيها، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»(٣).

٣٩- الامتنان على العباد بكون القرآن عربيًّا بأشرف اللغات وأوسعها وأفصحها، وتفصيله وتبيينه، وبيان أن كفر المشركين وعدم إيمانهم عن عتو وعناد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۟عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾.

٤٠- حكمة الله تعالى في أنه ما أرسل رسولًا إلا بلسان قومه، فلا يصح أن يكون الكتاب أعجميًّا مع أن المرسل إليه عربي.

٤١- أن القرآن هدى للذين آمنوا خاصة من الجهل والضلالة، وشفاء لأمراض القلوب والأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾.

٤٢- عدم انتفاع غير المؤمنين من القرآن؛ لما في آذانهم من الصمم، ولما في قلوبهم من العمى فلا يفهمونه، ولا يفقهونه بسبب إعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٧٧-من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز ٩٨٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦١؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٧٩، وأحمد ٢/ ١٧٧-من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

٤٣- إثبات القدر؛ لأن من كتبت له الهداية انتفع بالقرآن، ومن كتب عليه الضلال عمي عنه؛ ولقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية.

٤٤- تحقير شأن الذين لم ينتفعوا بالقرآن، وأنهم أشبه بالذي ينادى من مكان بعيد، لا يسمعون داعيًا، ولا يجيبون مناديًا، ولا يفهمون؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٤٥- تذكير النبي ﷺ تسلية له، وتثبيتًا لقلبه، بإيتائه عز وجل موسى الكتاب، واختلاف قومه فيه؛ كحال المشركين من قومه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

٤٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإنزال الكتاب عليه.

٤٧- تهديد المشركين وتوعدهم بالعذاب، وأن لذلك أجلًا مسمى عند الله في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

٤٨- شك المشركين وتكذيبهم بالقرآن، وبالرسول ﷺ، وبالوعيد والبعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾، أي: من عمل عملًا صالحًا، وهو ما جمع الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه.

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء في الموضعين رابطة لجواب الشرط، أي: فلنفسه عمل، أي: فنَفْع عمله لنفسه، والله غني عن عمله.

﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾، أي: ومن أساء العمل، أي: عمل عملًا سيئًا، من الشرك والبدع وغير ذلك من السيئات.

﴿فَعَلَيْهَا﴾، أي: فإساءته على نفسه، أي: فضرر إساءته على نفسه، ولن يضر الله شيئًا، فهو عز وجل لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: وما ربك يا محمد بذي ظلم لأحد من عبيده وخلقه؛ لأن كل الخلق عبيد له عز وجل؛ كما قال:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

فلا يمنع عز وجل أحدًا ثواب عمل استحقه، ولا يعاقب أحدًا إلا بذنب، ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال ابن القيم: «ولا يُحمَّل المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله»(١).

﴿إِلَيْهِ﴾ وحده لا إلى غيره ﴿يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: يرجع ويفوض علم الساعة، لا يعلمه إلا هو؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ: «**متى الساعة؟**» قال ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(٢).

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ثَمَرَةٍ» من غير ألف على الإفراد، وقرأ الباقون بالألف على

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجمع: ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾.

الواو: استئنافية، أو عاطفة، و«ما»: نافية، و«من» في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما يخرج أيّ ثمرات.

﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾، أي: من أوعيتها، فيعلم جميع ما تخرجه أكمام الأشجار من نخل وغيره من الثمر؛ قدره وكيفه وجودته، وغير ذلك؛ لأنه الخالق له، وقد قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وما تحمل أيُّ أنثى؛ من بني آدم ومن الحيوان، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ معطوف على ﴿تَحْمِلُ﴾، أي: ولا تضع حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بعلمه السابق، فيعلم متى تحمل، وما هو حملها، ويعلم متى تضع، وكيف تضع؛ لأن علمه عز وجل محيط بكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الواو: عاطفة، و«يوم»: متعلق بمحذوف، أي: اذكر يوم يناديهم، أي: اذكر يوم القيامة يوم ينادي ربك المشركين ويفضحهم على رؤوس الخلائق، فيقول:

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الاستفهام للتعجيز والتوبيخ، أي: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ وفي هذا تهديد للمشركين، وتسلية له ﷺ.

﴿قَالُوٓاْ﴾ مقرين ببطلان شركهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾، أي: أعلمناك.

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما منا أيّ شهيد يشهد أن معك شريكًا، فأبطلوا إلهية شركائهم، وتبرؤوا منهم، حين لا ينفعهم ذلك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾، أي: ذهب وغاب عنهم الذين كانوا يدعونهم من دون الله ويعبدونهم من قبل، من الشركاء من الأصنام والأنداد، فلم ينفعوهم.

﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لهم أيّ محيص، أي: أيقنوا ما لهم أيُّ مهرب ولا مفر ولا محيد من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: لا يمل الإنسان ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: من طلب الخير، من المال والغنى، والولد، والصحة، والجاه والشرف، وغير ذلك، ولا يكتفي ولا يقتنع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٨] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(١).

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، أي: وإن أصابه المكروه كالفقر والمرض والخوف، وغير ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢٦، وأخرجه بمعناه مسلم في الزكاة ١٠٤٩، والترمذي في المناقب ٣٧٩٣.

من أنواع الابتلاء والمصائب، ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط.

واليأس: انقطاع الرجاء، والقنوط: أشد اليأس، أي: فهو يؤوس قنوط من رحمة الله، يظن أن ما أصابه من هذا الشر وهذا الابتلاء هو القاضي عليه، وأنه لا خير بعده، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال ﷺ لابن عباس: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»(١).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ الواو: عاطفة في المواضع الأربعة، واللام: موطئة للقسم في الموضعين.

أي: ولئن أذقنا الإنسان الكافر، أي: أعطيناه ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ من خير ورزق، وغنى وولد، وأمن وصحة، ونحو ذلك.

والتعبير بالإذاقة دون الإيتاء؛ لأن الإذاقة أبلغ؛ لدلالتها على الانتفاع بالشيء.

﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾، أي: من بعد شدة أصابته من فقر وخوف ومرض، وغير ذلك من أنواع الابتلاء.

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: هذا من عندي وبعملي، وأنا أستحقه؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أي: وما أعتقد أن الساعة قائمة، فكفر نعمة الله عليه، ونسبها إلى نفسه، وأنكر قيام الساعة والبعث والحساب والجزاء، وظن أنه سيخلد؛ كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ٣].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾، أي: وعلى فرض أن تقوم الساعة، وسأرد إلى ربي.

﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ اللام في قوله: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ واقعة في جواب القسم، أي: إن لي عند ربي ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾، أي: الجنة، وما هو أحسن؛ كما قال ﷺ في تفسير قوله تعالى

---

(١) سبق تخريجه.

في سورة يونس: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «**الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله**»(١).

وهذا من أعظم الغرور، والجرأة على الله، والقول عليه بلا علم؛ ولهذا توعده الله بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فوالله لننبئن الذين كفروا بعملهم أو بالذي عملوه؛ لفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، ومحاسبتهم ومجازاتهم على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولنذيقنهم من عذاب شديد.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بحصول المطلوب من الخير والرزق والصحة ونحو ذلك، أو بالنجاة من المرهوب من مرض أو عدو، ونحو ذلك.

﴿أَعْرَضَ﴾، أي: انصرف عن طاعة ربه وشكره، غير متفكر في نعمته عليه.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، أي: وتباعد وثنى عطفه متبخترًا ومتعاظمًا ومستكبرًا عن اتباع الحق، وعلى الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، أي: وإذا أصابه الشر، من فقر أو مرض أو خوف، ونحو ذلك.

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، أي: صاحب دعاء كثير؛ لكشف الضر عنه؛ لعدم صبره.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

خُتمت السورة بمثل ما بُدئت به من تعظيم القرآن الكريم، وبيان صدقه، وصدق من جاء به، وذم وتحذير المعرضين عنه، الكافرين به.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: إن كان هذا القرآن من عند الله، أي: كلامه ووحيه من غير شك ولا ارتياب؛ كما قال عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ٢].

أي: أرأيتم إن كان من عند الله وتبين واتضح لكم ذلك ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، أي: كذبتم به وأنكرتموه وجحدتموه.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أضل من الذي هو ﴿فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: في شقاق وخلاف بعيد عن الحق، ومعاندة ومخالفة له. والمراد: لا أحد أضل منكم. وإنما أظهر في مقام الإضمار؛ لتسجيل هذا الوصف عليهم، وأنهم في شقاق بعيد عن الحق، ويشمل هذا الوصف غيرهم ممن كفر بالقرآن وكذبه.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ السين: للتنفيس، وهي تفيد تحقق وقوع الشيء مع القرب، أي: سنظهر لهم قريبًا آياتنا الكونية الدالة على أن القرآن الكريم حق، منزل من عند الله عز وجل على رسوله ﷺ.

﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾، أي: في آفاق السموات والأرض وأقطارهما، حتى يروها بأبصارهم وبصائرهم، وذلك بما جعل الله في السماء من الكواكب كالشمس والقمر والنجوم، وما فيها من السحاب والرعد والبرق وغير ذلك، وما في الأرض من الجبال والبحار والأنهار والنباتات والمعادن وغير ذلك.

ومن ذلك: ظهور إعجازه بما أخبر به من الغيب، فوقع كما أخبر، من النصر له ﷺ

ولدينه، وتمكينه، وإقبال الناس عليه، وانتشار الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الإسلام، وظهوره على الأديان كلها، وخذلان الشرك وأهله، إلى غير ذلك مما يحصل في الآفاق من الحوادث والوقائع والمصائب والشدة والرخاء، وغير ذلك.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: ونريهم آياتنا في أنفسهم في تركيب خلقهم العجيب، وما أودع الله فيهم من القوى العقلية والبدنية والحواس وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١] وأيضًا: فيما يقع عليهم من المصائب والعقوبات؛ كمصرع كبرائهم في بدر وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

قال الشاعر:

وإذا نظـــرت تريـــد معتـــبرًا ... فـــانظر إليـــك ففيـــك معتـــبر
أنـت الـذي يمسـي ويصبح في الـد ... دنيـــا وكـــل أمـــوره عـــبر
أنـــت المصـــرّف كـــان في صـــغر ... ثـــم اســـتقل بشخصـــه الكـــبر
أنـــت الـــذي تنعـــاه خلقتـــه ... ينعـــاه منـــه الشـــعر والبشـــر
أنـــت الـــذي تعطـــى وتســـلب لا ... ينجيـــه مـــن أن يســـلب الحـــذر
أنـــت الـــذي لا شيء منـــه لـــه ... وأحـــق منـــه بمالـــه القـــدر(١)

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾، أي: إلى غاية أن يتبين لهم أن القرآن هو الحق، وأنه ﷺ جاء بالصدق، وأن ما أخبر به من النصر والتمكين له ﷺ، والبعث والحساب، وغير ذلك، كله حق.

وقد أرى عز وجل عباده من الآيات ما به تبين أن القرآن حق، وأن ما جاء به من الهدى والدين هو الحق؛ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال: ٤٢].

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٧٥- ١٧٦، نقلًا عن كتاب «التفكر والاعتبار» لابن أبي الدنيا عن شيخه أبي جعفر القرشي.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ الاستفهام: للتقرير، والباء: زائدة لتحسين اللفظ، أي: أولم يكفهم دلالة على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق: شهادة ربك يا محمد لهما بذلك؟ كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فكفى به عز وجل شهيدًا على أن القرآن حق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وكفى به سبحانه شهيدًا على صدق الرسول ﷺ، وأن ما جاء به حق، بتأييده عز وجل، ونصره له، وذلك أعظم شهادة منه عز وجل على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به.

وكفى به عز وجل شهيدًا على كل شيء من أفعال العباد وأقوالهم، وغير ذلك، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ «ألا» في الموضعين: أداة تنبيه، وكررت للتوكيد، أي: ألا إن هؤلاء المشركين في شك عظيم من لقاء الله تعالى، وقيام الساعة، ومحاسبته عز وجل لهم، ومجازاته إياهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾، أي: ألا إنه عز وجل بكل شيء محيط علمًا وقدرة، فلا يفوته شيء، ولا يعجزه أحد، وسيجازيهم بكفرهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن من عمل صالحًا فثواب عمله لنفسه، ومن أساء فعقوبة إساءته على نفسه، والله غني عن العباد وأعمالهم، فلا تنفعه طاعة المطيع؛ كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

٢- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لوجه الله، تبعًا لشرعه.

٣- الترغيب في الأعمال الصالحة، والتحذير من الأعمال السيئة.

٤- كمال عدل الله عز وجل بمجازاة كلٍ بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء

بإساءته.

٥- انتفاء الظلم عنه عز وجل لعباده بالكلية، فلا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد في سيئاتهم، ولا يُجازى أحد بغير ما عمل أو بعمل غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾.

٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لعبيده.

٨- اختصاص الله عز وجل، وتفرده بعلم الساعة، ومتى تقوم؛ لقوله عز وجل: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

٩- إثبات القيامة، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

١٠- عموم علمه وإحاطته بجميع الذي تخرجه الأشجار من ثمرات من أوعيتها: قدره وجودته، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾.

١١- علمه عز وجل الواسع بكل ما تحمله من أنثى من بني آدم، ومن سائر الحيوانات، ومتى تضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

١٢- مناداته عز وجل المشركين يوم القيامة، وفضيحتهم على رؤوس الخلائق: أين شركائي؟ توبيخًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾.

١٣- إثبات النداء والكلام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾.

١٤- إقرارهم ببطلان إلهية شركائهم، وتبرؤهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

١٥- ذهاب ما كانوا يدعونه من قبل من الشركاء من الأصنام والأنداد، وغيابهم

عنهم، وعدم نفعهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

وهكذا فكل ما عبد من دون الله فهو هلاك وضلال.

١٦- تيقنهم أنه لا محيص لهم ولا مهرب، ولا مفر ولا محيد من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

١٧- أن من طبيعة الإنسان أنه لا يمل من طلب الخير، وإن أصابه الشر يئس وقنط من حصول الخير، إلا من رحمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

١٨- إنكار الكافر فضل الله تعالى عليه بإعطائه النعمة بعد الضراء، ونسبته ذلك إلى حذقه وجهده، واستحقاقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾.

١٩- إثبات رحمة الله تعالى العامة لجميع الخلق بما في ذلك الكفار.

٢٠- إنكار الكافر قيام الساعة، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

٢١- اغتراره بما أوتي من نعمة الله وإحسانه إليه في الدنيا، وأنه سيحصل له مثل ذلك في الآخرة إن كان ثمة رجوع إلى ربه كما يزعم؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾، وقوله: ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للكفار بإخبارهم بأعمالهم الباطلة، وتعذيبهم العذاب الشديد عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢٤- إثبات علم الله التام بجميع أعمال العباد، وكتابتها عليهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

٢٥- إعراض الإنسان وانصرافه عن طاعة ربه وشكره حال النعمة، وتباعده

بجانبه، واستكباره عن الحق وعلى الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

٢٦- إقباله على دعاء ربه، والتضرع إليه، وعدم صبره إذا مسه الشر والضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، فلا شكر في السراء، ولا صبر في الضراء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢٧- أن النعم كلها من الله تعالى، والخير بيديه، والشر ليس إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الآية.

٢٨- الإنكار على المكذبين كفرهم بالقرآن بعد معرفتهم أنه من عند الله، وتهويل عاقبتهم وسوء منقلبهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾.

٢٩- إثبات أن القرآن الكريم من عند الله، وكلامه أنزله على رسوله ﷺ.

٣٠- أنه لا أحد أضل ممن كفر بالقرآن، وكان في شقاق بعيد عن الحق، ومعاندة ومخالفة له مع وضوحه وظهوره؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٣١- وعده عز وجل بإظهار آياته للعباد، الدالة على أن القرآن حق، وأنه ﷺ جاء بالحق من الآيات الكونية في آفاق السموات والأرض، ومن النصر والتمكين له ﷺ ولأصحابه، وظهور الإسلام على الأديان كلها وغير ذلك.

ومن الآيات في أنفسهم مما يصيبهم في ذواتهم من المصائب والعقوبات المتتابعة؛ كمصارع كبرائهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

٣٢- أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

٣٣- كفاية الله تعالى بشهادته على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق،

وبشهادته عز وجل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣، الإسراء: ٩٦].

٣٤- وجوب مراقبة الله تعالى، والحذر من مخالفته؛ لأنه على كل شيء شهيد، وبكل شيء محيط.

٣٥- شك المشركين وتكذيبهم بلقاء ربهم، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾.

٣٦- إحاطته عز وجل بكل شيء: خلقًا وملكًا وتدبيرًا وعلمًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلشُّورَىٰ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الشورى»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية: ٣٨].

وتسمى أيضًا: «سورة حم عسق»؛ لافتتاحها بذلك وتسمى: «سورة عسق».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ - موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة الشورى» بقوله تعالى في مطلعها: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ خمسة حروف من حروف الهجاء، وهي أقص ما جاءت عليه الحروف المقطعة أوائل السور، كقوله: (كهيعص)، والحكمة من ذكر هذه الحروف الدلالة على إعجاز القرآن والتحدي به -كما سبق بيانه.

٢- تعظيم الله عز وجل لوحيه، وبيانه سعة ملكه عز وجل وعلوه وعظمته ومغفرته ورحمته: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

٣ - تهديد المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء، والانكار عليهم، وتسليته ﷺ، وبيان أنه ليس وكيلاً عليهم، وأن مهمته الإنذار فمن أطاع فله الجنة ومن عصا فله السعير، وفق مشيئة الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾.

٤ - وجوب رد المختلف فيه إلى الله عز وجل، المتفرد بالألوهية، والربوبية، فاطر

السموات والأرض جعل للعباد من أنفسهم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا، ذو الكمال والملك والتدبير: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

٥- الامتنان على هذه الأمة بأنه عز وجل شرع لهم من الدين ما وصى به الأنبياء السابقين وهو إقامة الدين وإخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، والحذر من التفرق في الدين: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

٦ - عنايته عز وجل بنبيه ﷺ وتأييده له وتقويته لقلبه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

٧ - بيان بطلان حجة الذين يحاجون في الله، ووحدانيته، وغضب الله عليهم، وتوعدهم بعذاب شديد.

٨ - الامتنان على العباد بإنزاله عز وجل الكتاب بالحق والعدل، والتحذير من قرب الساعة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

٩ - بيان الطفه عز وجل بعباده وتكفله بأرزاقهم، ومجازاته كلًّا بعمله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى

حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- ذم المشركين وتهديدهم بالعذاب الأليم، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبشارتهم بالثواب العظيم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

١١- إبطال دعوى المشركين أن الرسول ﷺ افترى على الله كذبًا فيما جاء به ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

١٢- بيان سعة رحمة الله تعالى وعفوه وعلمه وفضله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

١٣- حكمة الله تعالى في إنزاله الرزق بقدر ما يشاء: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

١٤- امتنانه عز وجل بإنزال الغيث، ونشر رحمته على العباد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

١٥- أن من آياته عز وجل الدالة على عظمته ووحدانيته وقدرته على البعث: خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة.

١٦- بيان أن ما يصيب العباد من مصائب بسبب كسبهم، ويعفو عز وجل عن كثير.

١٧- إثبات تمام قدرة الله تعالى، وأن الخلق لا يعجزونه، وما لهم من دونه من ولي ولا نصير.

١٨- بيان أن من آياته عز وجل الدالة على تمام قدرته وسابغ نعمته جريان السفن في البحر كالأعلام: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ۚ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

١٩- امتداح المؤمنين والثناء عليهم باجتناب الكبائر والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة (بهم) وإقام الصلاة، وكون أمرهم شوري بينهم، والانفاق مما رزقهم الله إلى غير ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٢٠- مشروعية الانتصار ممن بغى وظلم والإغراء والحث على العفو والصلح والصبر والمغفرة: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

٢١- من يضلل الله كونًا وقدرًا فلا ولي له من بعده، والوعيد الشديد للظالمين: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

٢٢- الأمر بالاستجابة لله عز وجل قبل يوم القيامة، وتهديد المعرضين وتسلية النبي ﷺ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٢٣- أن من طبيعة الإنسان الفرح بالرحمة، والكفر عند حصول النقمة: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

٢٤- اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض والخلق وبمنح الذرية ومنعها: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

٢٥- بيان أنواع تكليمه عز وجل لرسله ووحيه إليهم: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

٢٦- الامتنان على الرسول ﷺ بما أوحاه الله تعالى إليه من القرآن الكريم، والنور المبين، والشهادة له ﷺ بأنه يهدي إلى صراط الله المستقيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٢٧- بيان أن مرد الأمور كلها في الدنيا والآخرة إلى الله عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ ﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾.

قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل بعض السور في مطلع سورة البقرة، وبيان أن الحكمة منها التحدي بالقرآن الكريم، وبيان إعجازه.

وهذه الحروف في أوائل السور منها ما جاء على حرف واحد، ومنها ما جاء على حرفين، ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف، ومنها ما جاء على أربعة أحرف، ومنها ما جاء على خمسة أحرف، وهو الحد الأعلى لها، وهما: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ مطلع سورة مريم، و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ مطلع هذه السورة.

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ قرأ ابن كثير: «يُوحَى» بفتح الحاء، وألف بعدها، وقرأ الباقون بكسرها، وياء بعدها: ﴿يُوحِيٓ﴾.

والكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل»، والإشارة إلى الإيحاء المأخوذ من الفعل

«يوحي»، أي: مثل هذا الإيحاء، يوحي إليك بإنزال هذا القرآن العظيم عليك، ويوحي إلى الذين من قبلك من الأنبياء والمرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني، فأعي ما يقول**»، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض**»(٢).

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء. وفي الشرع: إعلام الله تعالى بالشرع لأنبيائه ورسله.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، «الله»: فاعل لـ«يوحي»، و«العزيز» و«الحكيم»: نعتان له، أي: ذو العزة والقوة والغلبة والقهر والامتناع، وذو الحكم والحكمة في قدره وشرعه وجزائه، وفي أقواله وأفعاله.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: له خاصة، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، جميع الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، أي: ذو العلو المطلق على خلقه، له علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾، أي: ذو العظمة في علوه وكبريائه، وسلطانه وعلمه، وقوته وقدرته،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣٤، وأحمد ٦/ ١٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

وفي كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قرأ نافع والكسائي بالياء: «يَكَادُ».

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تَكَادُ﴾.

أي: تكاد السموات على كبرها وعلوها وكونها جمادات.

﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بنون ساكنة بين الياء والفاء، وكسر الطاء وتخفيفها: «يَنْفَطِرْنَ»، وقرأ الباقون بتاء مفتوحة، وفتح الطاء وتشديدها: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾.

أي: يتشققن من فوقهن؛ فَرَقًا من عظمته عز وجل، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، أي: انشقت، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: معطوف على «تكاد»، أي: والملائكة الكرام المقربون ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، الباء: للملابسة، أي: يقرنون بين تسبيحه بتعظيمه بعبادته والخضوع له، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وبين حمده بوصفه بصفات الكمال.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يطلبون من ربهم المغفرة للذين في الأرض من المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، و«هو»: ضمير فصل؛ للتوكيد، «الغفور»: ذو المغفرة الواسعة للتائبين من عباده، يستر ذنوبهم، ويتجاوز عنها، فلا يعاقبهم عليها؛ ولهذا طلبت الملائكة منه المغفرة للمؤمنين؛ لأنه أهل لذلك؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة الواسعة العامة لجميع خلقه، التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، وذو الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾.

لما بين عظمته عز وجل ومغفرته ورحمته، أتبع ذلك بذم المشركين الذين لم يقدروا عظمته، ولم يتعرضوا لمغفرته ورحمته، وتوعدهم مبينًا للنبي ﷺ أنه ليس وكيلًا عليهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: جعلوا من دون الله شركاء من الأصنام يتولونهم ويعبدونهم.

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: رقيب وشهيد عليهم، يحفظ أعمالهم ويحصيها، ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾، أي: وما أنت يا محمد على هؤلاء المشركين بوكيل، تلزمهم الهداية والإيمان، أو تحفظ أعمالهم وتحصيها عليهم؛ كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل هذا الإيحاء، ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿قُرۡءَانًا﴾ مفعول لـ«أوحينا»، وهو بيان لمفعول «يوحي» في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾، ونكّر «قرآنًا» للتعظيم، ﴿عَرَبِيّٗا﴾ نعت لـ«قرآنًا»، أي: بلسان العرب ولغتهم، أفصح اللغات وأبينها؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥].

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تنذر، أي: تخوف

وتحذر ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة شرفها الله، والمراد: لتنذر أهلها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية.

و«تنذر» ينصب مفعولين، الأول قوله: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، والثاني: محذوف، أي: العذاب العظيم ونحو ذلك، وقد يقدر بـ«يوم الجمع»؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾.

وسميت «مكة»: أم القرى؛ لأن جميع القرى تأوي إليها، والمسلمون في كل مكان يتجهون في الصلاة إليها، ويحجون إليها، ولأنها من أقدم القرى، وهي أشرف القرى والمدن، وأعظم البلاد والبقاع، فعن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحَزْوَرَة[1] في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**»[2].

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: ومن حول مكة من القرى شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾: معطوف على الجملة التعليلية، والمفعول الأول محذوف، أي: ولتنذر وتخوف وتحذر الناس: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، سمي يوم الجمع؛ لجمع الخلائق كلهم فيه، الأولين والآخرين، في صعيد واحد؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ «لا»: نافية، والجملة خبرية، أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

﴿فَرِيقٌ﴾، أي: قسم من الناس، وهم المؤمنون، ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ دار النعيم والتكريم.

﴿وَفَرِيقٌ﴾، أي: وقسم منهم، وهم الكافرون الأكثرون، ﴿فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: في

---

(١) الحَزْوَرَة: موضع في مكة، والحزورة في الأصل: التل الصغير، سميت بذلك لوجود تلٍّ صغيرٍ فيها.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، فضل مكة ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك، فضل مكة ٣١٠٨، وأحمد ٤/ ٣٠٥، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

النار المسعورة المتوقدة والجحيم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: ولو شاء الله لجعل الناس فرقة واحدة، مجتمعة على الهدى والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

ويحتمل أن المعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، إما على الهدى، وإما على الضلال، ولكنه عز وجل لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة على دين واحد، بل شاء أن يجعلهم متفرقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن يدخل الذي يشاء منهم في رحمته بهدايته إياهم في الدنيا وتوفيقهم للإيمان، وهدايتهم في الآخرة إلى الجنة دار السلام.

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالكفر والشرك ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ «من»: لتوكيد النفي، أي: ما لهم أيّ ولي يتولاهم، فيجلب لهم الخير، ولا نصير ينصرهم فيدفع عنهم الشر والضير.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾.

٢- أن إيحاءه عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ مثل إيحائه إلى الذين من قبله من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾.

٣- إثبات رسالته ﷺ؛ وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات نبوة الرسل من قبله، ووحي الله إليهم.

٤- إثبات اسم الله: «العزيز»، وأنه سبحانه ذو القوة والقهر والغلبة والامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

٥- إثبات اسم الله: «الحكيم»، وأنه عز وجل ذو الحكم والحكمة في شرعه وقدره وجزائه، في أقواله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم» كمال إلى كمال، فكم من إنسان عنده شيء من العزة لكنه يفقد الحكمة، وكم من آخر عنده شيء من الحكمة، لكنه يفقد العزة والقوة، وصدق الله العظيم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

٧- إثبات سعة ملكه عز وجل، وأن له وحده خاصةً جميع الذي في السموات والذي في الأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٨- إثبات اسمه عز وجل: «العلي»، وأن له عز وجل العلو المطلق على خلقه، علو الذات، وعلو الصفات، علو القدر، وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾، وقوله: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾.

٩- إثبات اسمه تعالى: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، وأنه سبحانه ذو العظمة التامة في جميع صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٠- إثبات عظمة الله تعالى، وخضوع جميع المخلوقات وفَرَقها من شدة عظمته، بما في ذلك السموات التي هي من أعظم المخلوقات وأعلاها، والملائكة المقربون؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

١١- إثبات وجود الملائكة، وتسبيحهم بحمد ربهم، واستغفارهم للمؤمنين.

١٢- استحباب قرن التسبيح بالتحميد؛ لما في التسبيح من تنزيه الله وتعظيمه، ولما في الحمد من وصفه عز وجل بصفات الكمال، ففي التسبيح نفي النقص عنه، وفي الحمد إثبات الكمال له سبحانه وتعالى.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

١٤- منة الله تعالى على المؤمنين بتسخيره الملائكة يستغفرون لهم.

١٥- فضيلة الإيمان وأهله؛ لتسخير الله عز وجل لهم الملائكة تستغفر لهم.

١٦- إثبات اسم الله عز وجل: «الغفور»، وأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، يغفر ذنوب التائبين كلها، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾.

١٧- إثبات اسم الله: «الرحيم»، وإثبات رحمته العامة لجميع الخلق، ورحمته الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٨- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدّم «الغفور» على «الرحيم»، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

١٩- ذم المشركين الذين لم يقدروا عظمة الله تعالى، ولم يتعرضوا لمغفرته ونفحات رحمته، وتهديدهم بحفظه عز وجل لأعمالهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

٢٠- سعة علم الله، وأنه عز وجل حفيظ على العباد وعلى أعمالهم؛ مما يوجب عليهم مراقبته في السر والعلن.

٢١- تسليته عز وجل للنبي ﷺ وطمأنته له، ببيان أنه عز وجل حفيظ على المشركين وتهديده إياهم، وبيان أنه ﷺ ليس بوكيل عليهم يلزمهم الهداية، أو يحفظ أعمالهم ويحصيها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾، وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله تعالى.

٢٢- أنه ﷺ ليس عليه بالنسبة للناس إلا إبلاغهم رسالة ربه، وأما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب سبحانه وتعالى.

٢٣- امتنانه عز وجل عليه ﷺ بوحيه إليه هذا القرآن، وكونه عربيًّا بأفصح اللغات وأبينها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

٢٤- أن القرآن كلام الله تعالى؛ لأن الله أضافه إلى نفسه، فقال: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا﴾، والقرآن كلام، فهو كلام الله منزل غير مخلوق.

٢٥- تعظيم الله عز وجل لكتابه «القرآن»، والتنويه بكونه بلسان العرب ولغتهم أفصح اللغات؛ لقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

٢٦- شرف وفخر للعرب أن يكون القرآن بلغتهم، فعليهم شكر الله تعالى على هذه النعمة الكبرى، والمنة العظمى، والقيام بمسؤوليتهم، ونشر رسالته في العالم أجمع، والحفاظ على لغتهم، لغة القرآن الخالدة بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

٢٧- حكمة الله تعالى في إرساله الرسل، وإنزاله عليهم الكتب بلغتهم ولغة أقوامهم؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

٢٨- وجوب الحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن، والتأكيد على تعلمها بقدر ما يفهم الإنسان به القرآن وأمر دينه.

٢٩- أن الحكمة من إنزال القرآن إنذار الناس وتحذيرهم من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وفي طي هذا الإنذار لا بد من بيان التكاليف التي بامتثالها تحصل السلامة مما أُنذر وحُذّر منه، بل وتحصل به البشارة.

٣٠- فضل مكة وشرفها على سائر القرى والبلدان، بتشريفه عز وجل لها، وجعلها أم القرى.

٣١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والقدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعاله، وزعمهم أنه يفعل لمجرد المشيئة، تعالى الله عن ذلك.

٣٢- إثبات يوم القيامة، وجمع الخلائق فيه، وأن من حكمة إنزال القرآن: الإنذار والتحذير من ذلك اليوم وأهواله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾.

٣٣- أن يوم جمع الخلائق كائن لا شك فيه، وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٣٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: فريق في الجنة وهم المؤمنون، وفريق في النار وهم الكافرون الأكثرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

٣٥- إثبات تمام قدرته تعالى على جعل الناس- لو شاء- أمة واحدة كلهم على الإيمان، أو على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، وفي هذا تسلية له ﷺ، فلا يحزن على ضلال من ضل.

٣٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾.

٣٧- الرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم، وإن الله لا يشاؤها ولا يخلقها، ولا يعلم بها إلا إذا صدرت منهم. تعالى الله عن ذلك.

٣٨- أنه عز وجل شاء ألا يكون الناس أمة واحدة، بل شاء بحكمته أن يكونوا فريقين، مؤمنين يدخلهم في رحمته الفعلية فضلًا منه، وظالمين ما لهم من ولي ولا نصير، عدلًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٣٩- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة، وجنته.

٤٠- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير الخلق في الأزل، وكل ميسر لما خلق له.

٤١- التحذير من الظلم بالكفر والشرك؛ لأنه لا ولي للظالمين يجلب لهم الخير والرحمة، ولا نصير لهم يدفع عنهم العذاب والنقمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

ومفهوم هذا: أنه سبحانه ولي المؤمنين العادلين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتخذوا من دونه، أي: جعل هؤلاء المشركون غير الله ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾، أي: آلهة يوالونهم ويعبدونهم، ويستغيثون بهم ويستنصرون.

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الفاء: تعليلية، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: فالله وحده هو الولي الحق، ولاية عامة لجميع الخلق، يدبرهم ويتولى شؤونهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وولاية خاصة للمؤمنين؛ يوفقهم، وينصرهم، ويؤيدهم، ويسددهم، والذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، ولا الاستغاثة إلا به.

﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: معطوفة على جملة: «الله هو الولي»، وضمير الفصل «هو» يفيد الحصر والتوكيد، أي: هو وحده القادر على إحياء الموتى.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: معطوفة على جملة: «هو يحيي الموتى».

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بالخبر «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء، فلا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢].

فأنكر عز وجل على المشركين اتخاذهم آلهة يوالونهم ويعبدونهم من دونه، وهو سبحانه المستحق للعبادة وحده؛ لأنه الولي الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ذو القدرة التامة على إحياء الموتى، وذو القدرة على كل شيء.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ «من»: بيان لإبهام «ما»، أي: وما اختلفتم فيه من أيِّ شيء من الدين وغيره.

﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي: فحكمه مردود إلى الله وحده في الدنيا والآخرة، أي: إلى كتابه، وسنة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الله الذي أمرتكم برد ما اختلفتم فيه من شيء إليه.

﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿رَبِّي﴾ لا رب لي غيره، ولا معبود بحق سواه.

وأشار إليه بإشارة البعيد للتعظيم، أي: ذلكم الله العظيم ربي.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت، وفوضت أمري كله عليه، تفويضًا تامًّا، مع صدق الاعتماد عليه، والثقة به في جلب النفع، ودفع الضر.

﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، أي: وإليه وحده أتوجه بقلبي وبدني؛ إخلاصًا وطاعة له، وأرجع إليه في جميع أموري وأحوالي، فلا أعبد سواه، ولا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: هو فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما بقدرته ومشيئته وحكمته، وما بينهما على غير مثال سبق؛ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ١١٧، الأنعام: ١٠١].

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، أي: خلق لكم من جنسكم أزواجًا، فجعلكم ذكرًا وأنثى؛ ليحصل بينكم التزاوج، ويسكن بعضكم إلى بعض، ويحصل بينكم التناسل، منة منه تعالى عليكم، ودلالة على كمال قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، أي: وخلق لكم من الأنعام ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾، أي: ثمانية أواج، ذكر وأنثى؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: ١٤٤] وذلك لكي تبقى وتتناسل وتنمو وتتكاثر؛ لمنافعكم ومصالحكم.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ الضمير في «يذرؤكم» يعود إلى الأناسي والأنعام بتغليب العقلاء.

والهاء في قوله: «فيه» ضمير يعود إلى «الجعل»، المفهوم من قوله: «جعل لكم».

ومعنى الذرء: الخلق والبث والنشر الكثير، أي: يخلقكم ويبثكم وينشركم فيه؛ كما

قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، أي: خلق وذرأ ونشر منهما، وقال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، أي: خلق وبث ونشر.

والمعنى: يذرؤكم بسبب جعله لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا، أي: يخلقكم ويبثكم ويكثركم بسبب ذلك.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الكاف: زائدة للتوكيد، أي: ليس مثله عز وجل شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لتفرده بصفات الكمال، ونعوت الجلال؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

قال السعدي(١): «أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه».

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لما نفى أن يكون كمثله شيء من أي وجه ردًّا على الممثلة، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردًّا على المعطلة.

و«السميع»: اسم من أسمائه عز وجل، يدل على أنه ذو السمع الواسع الذي يدرك جميع المسموعات، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] إلى آخر الآية»(٢).

و«السميع»: الذي يستجيب الدعاء؛ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مستجيب الدعاء، واستجابته تستلزم سماعه بلا شك، وكما

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٥٩٧.

(٢) سبق تخريجه.

في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب، فهو عز وجل السميع الذي يسمع جميع الأصوات، ويجيب الدعوات.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ من أسمائه عز وجل، أي: الذي يرى ويدرك ببصره جميع المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أي: يحيط بها ويراها.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١)، أي: لأحرقت سبحات وجهه- يعني: بهاءه وعظمته- كل شيء؛ لأن بصره ينتهي إلى كل شيء.

ومن معاني «البصير»: «العليم»؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، أي: عليم بهم، مطلع عليهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، أي: بصير بجميع الذي تعملونه مما يرى، ومما لا يرى، بل يعلم كل أعمال القلوب.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: له وحده أزمة الأمور في السموات والأرض، وبيده تدبيرهما ومفاتيح خزائنهما؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢].

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يوسع العطاء للذي يشاؤه من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أي: ويضيقه على من يشاء بحكمته وعدله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾ [العنكبوت: ٦٢].

فيعلم سبحانه أحوال عباده، فيعطي كلًّا منهم ما يليق بحكمته وما تقتضيه مشيئته؛ ليظهر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن لا يصبر؛ كما جاء في الأثر: «**من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا**

---

(١) سبق تخريجه.

يصلحه إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه»(١).

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: تعليل لبسطه الرزق لمن يشاء، وتضييقه على من يشاء، وذلك لعلمه بكل شيء، وبأحوال عباده، واللائق بكل منهم من بسط الرزق أو تضييقه، وهو سبحانه الحكيم العليم.

قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمته.

أي: شرع لكم من الدين الذي وصى به نوحًا عليه السلام، أول الرسل عليهم السلام.

كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [النساء: ١٦٣]من الدين والشرع. والوصية: العهد بأمر هام.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الواو: عاطفة، والموصول في محل نصب عطفًا على «ما»، أي: وشرع لكم الذي أوحينا إليك، وهو القرآن الكريم والسنة، وما اشتملا عليه من الشرع.

﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ «ما» في محل نصب عطفًا على «ما» في قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، أي: وشرع لكم الذي وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى.

وهؤلاء الرسل الخمسة هم أولو العزم من الرسل، فذكر أولهم وهو نوح عليه السلام، ثم ذكر آخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر ما بين ذلك وهم: إبراهيم وموسى

---

(١) سبق تخريجه.

وعيسى عليهم السلام؛ كما ذكرهم في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وأفضلهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى عليهما السلام، واختلف في نوح وعيسى عليهما السلام: أيهما أفضل؟

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ «أن» والفعل «أقيموا» في تأويل مصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو، أي: هو إقامة الدين، أو في محل جر بحرف محذوف، أي: بإقامة الدين، أو في محل نصب بدل من الموصول في قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ﴾ وما عطف عليه.

ويجوز كون «أن» تفسيرية.

ومعنى «أقيموا الدين»: ائتوا به مستقيمًا كما شرعه الله بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وطاعته بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد**»(١)، أي: ديننا واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته، وإن اختلفت الشرائع والمناهج؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قال السعدي(٢): «هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده: أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، فلولا الدين الإسلامي ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٥٩٩.

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، أي: ولا تتفرقوا في الدين، فتكونوا شيعًا وأحزابًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، أي: عظم واشتد عليهم غاية الشدة الذي تدعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث، والإيمان بالغيب، وأنكروا ذلك أشد الإنكار؛ كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٥، ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٢، ٣].

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾، أي: يختار ويصطفي إلى نفسه، وإلى توحيده ودينه؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ﴾ [النمل: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿مَن يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاؤه عز وجل من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: ويوفق إليه عز وجل، وإلى دينه ﴿مَن يُنِيبُ﴾، أي: الذي ينيب ويرجع إليه، ويستقيم على طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها**» الحديث(١).

وقال عز وجل أيضًا في الحديث القدسي: «**من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(٢).

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما» في قوله: ﴿بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾: مصدرية، أي: من بعد مجيء العلم إليهم، أي: وما تفرق أهل الكتاب وغيرهم من الأمم، فآمن بعضهم بوحدانية الله، وكفر بعضهم، إلا من بعد مجيء العلم إليهم على ألسنة الرسل، وقيام الحجة عليهم، الموجبة للاجتماع والائتلاف، لا التفرق والاختلاف؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤].

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ «بغيًا»: مفعول لأجله، أي: بسبب البغي بينهم، والعدوان من بعضهم على بعض، والتباغض والتحاسد والمشاحنة، والعناد والمشاقة.

وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يختلفوا كما اختلف أهل الكتاب وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بين أظهرهم؛ بسبب اختلاف المذاهب والآراء واتباع الأهواء، وعدم التحاكم إلى الكتاب والسنة، كما هو حالهم اليوم، وصدق المصطفى ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»(٣).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الواو: عاطفة في الموضعين،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء، الحث على ذكر الله تعالى ٢٦٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٥٦، ومسلم في العلم ٢٦٦٩، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

و«لولا»: شرطية غير عاملة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك بإنظار الخلائق، وتأخير الحساب والجزاء ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين وهو يوم القيامة.

﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لفصل وحكم بينهم في الدنيا، بإهلاك المشركين المكذبين، وإنجاء المؤمنين الموحدين.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: القرآن، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لفي شك شديد ﴿مِّنْهُ﴾، أي: من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة والقلق؛ لشدته.

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، أي: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد أسلافهم، أي: الذين خلفوهم في الكتاب.

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾، أي: من كتابهم، ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة الشديدة والاختلاف، فكما اختلف سلفهم فيه بغيًا وعدوانًا، اختلف خلفهم فيه شكًّا وارتيابًا.

وقيل: لفي شك من الرسول ﷺ، أو القرآن.

والأظهر أن المراد بالكتاب: القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى المفهوم من قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، أي: إلى إقامة الدين وعدم التفرق فيه، والخطاب للنبي ﷺ.

أي: فلإقامة الدين، وعدم التفرق فيه، يا محمد ﴿فَٱدْعُ﴾ أمتك.

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، أي: واستقم بنفسك على ذلك الدين؛ كما أمرناك، أي: استقم استقامة موافقة لأمر الله لك أنت ومن اتبعك؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] فأمره أن يستقيم بنفسه، وأن يدعو

غيره للاستقامة على ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: ولا تتبع أهواء المكذبين والكفار، فيما يطلبون منك من الميل عن طريق الاستقامة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

﴿وَقُلْ﴾ لأهل الكتاب وغيرهم: ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾، أي: صدقت بجميع الذي أنزل الله من الكتب على الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، أي: وأمرت بما أمرت به من الشرع والحق؛ لأجل أن أعدل بينكم، أو: وأمرت بأن أعدل بينكم في الحكم فيما اختلفتم فيه.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أي: الله ربنا جميعًا، نحن وإياكم، ورب الخلائق كلهم، وذلك يوجب علينا وعليكم عبادته وحده، لا شريك له.

﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نحاسب ونجازى عليها، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تحاسبون وتجازون عليها، وكل منا بريء من عمل الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١].

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، أي: لا خصومة ولا جدال بيننا بعد أن تبين الحق من

الباطل، والهدى من الضلال، وكابرتم وعاندتم، أي: أن الجدال معكم ليس بذي جدوى، ولا فائدة، بعد ردكم الحق بعد ظهوره.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾، أي: يوم القيامة، فيفصل بيننا ويجازي كلًّا بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: وإليه وحده المرجع والمآل في جميع الأمور والأحوال، وإليه الإياب، وعليه الحساب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾، أي: يجادلون ويخاصمون في الله، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وفي دينه وشرعه، وقدره، وغير ذلك.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ «ما»: مصدرية، أي: من بعد استجابة المؤمنين له، ودخولهم في دين الله، لمَّا تبين لهم بالآيات البينات أنه الحق.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، أي: باطلة أشد البطلان، زاهقة زائلة ذاهبة عند ربهم؛ لأن الحق أبلج، وهو أبين من الشمس في رابعة النهار، والباطل لجلج، حالك كالليل؛ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وكما قال المتنبي لما عاتبه صديق له قد وُشي إليه أنه قد هجاه، قال(١):

وهبني قلت: هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء؟

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ من الله، ومن أوليائه؛ من رسله وأنبيائه، وعباده المؤمنين.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾، أي: قوي في الدنيا والآخرة، بسبب محاجتهم بالباطل،

---

(١) انظر: «ديوان المتنبي» ص٢.

وغضب الله عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ «ال»: للجنس، أي: الذي نزل الكتب السماوية ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: أنها نزلت ملابسة ومصاحبة للحق، أي: نزلت حقًّا من عند الله، وجاءت مشتملة على الحق.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: العدل؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧- ٩].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: وما يعلمك أيها المخاطب، ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، أي: قريبة، قال بعض أهل العلم: ولم يقل: «قريبة»؛ لأن «قريب» يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويحتمل أن التقدير: لعل إتيان الساعة وقيامها قريب.

وفي هذا تخويف للمستعجلين بقيام الساعة المنكرين لها.

وهي قريبة حقًّا؛ لأن كل آتٍ قريب، وكل من مات قامت ساعته وقيامته، والدنيا قليل بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

ولهذا قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾، أي: يطلب تعجيل قيامها، قائلين: متى الساعة؟ أيان مرساها؟ استبطاءً وإنكارًا لها؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧، النازعات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: الذين لا يصدقون بها، بل يكذبون بها وينكرونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: الذين آمنوا بالله وبما أوجب الإيمان به، من أركان الإيمان الستة وغيرها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ الإشفاق: أشد الخوف، أي: خائفون منها خوفًا شديدًا، وجلون من وقوعها مع استعدادهم لها.

فهم بين الخوف والرجاء؛ لمعرفتهم بربهم، وأنه لا ينجو في ذلك اليوم أحد بعمله، ولكن برحمة أرحم الراحمين، وفضله.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه، وأنها كائنة لا محالة؛ ولهذا استعدوا لها.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا إن الذين يجادلون ويحاجون في الساعة، في قيامها ووقوعها؛ إنكارًا واستبعادًا لها، وتكذيبًا بها.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لفي ضلال بعيد كل البعد عن الحق والهدى، وفي جهل مطبق؛ إذ كيف يمارون فيها وقد أخبر الله عز وجل في كتابه عن قيامها ووقوعها، وتمام قدرته عز وجل على ذلك؟ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين الذين جعلوا من دون الله آلهة يوالونهم ويعبدونهم؛

---

(١) سبق تخريجه.

لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

٢- أن الولي الحق هو الله تعالى وحده، فهو ولي جميع الخلق ولاية عامة، وهو ولي المؤمنين ولاية خاصة، وهو المستحق للعبادة وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾.

٣- إثبات قدرة الله التامة على إحياء الموتى، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٤- وجوب رد ما اختلف فيه من شيء إلى حكم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٥- أن الاختلاف أمر كائن بين الناس قدرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

٦- أن إجماع الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ، وتعظيمه ﷺ لربه، وتوكله عليه، وإنابته إليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٨- وجوب الإقرار بربوبية الله تعالى، والتوكل عليه، والإنابة إليه وحده، أسوة به ﷺ.

٩- إثبات عظمة الله تعالى، وكمال قدرته، الذي فطر السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال سبق؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٠- الامتنان على العباد، وبيان تمام قدرته عز وجل، وحكمته بجعله لهم من جنسهم أزواجًا؛ ليسكن بعضهم إلى بعض، ويحصل التناسل بينهم وتكثيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

١١- نعمة الله تعالى على العباد؛ حيث جعل لهم من الأنعام أزواجًا، تتوالد وتتكاثر، يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويركبون ما يركب منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾.

١٢- إثبات كماله عز وجل في ذاته وأسمائه وصفاته، وأنه لا مثل له ولا ند ولا عديل؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وفي هذا دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة في نفي مماثلة المخلوقات له عز وجل، ورد على المشبهة.

١٣- إثبات اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وأنه السميع الذي يجيب الدعاء، ويسمع جميع الأقوال والأصوات، وذو البصر الذي يبصر ويرى ويحيط علمًا وبصرًا بجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وفي هذا دلالة على إثبات الصفات له عز وجل؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، والرد على الجهمية المعطلة.

١٤- أن لله عز وجل وحده مقاليد السموات والأرض، وأزمة تدبيرها ومفاتيح خزائنها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٥- تفرده عز وجل بأرزاق الخلق كلهم، يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء بعلمه وحكمته وعدله ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

١٧- أن تقسيم الله عز وجل للأرزاق بين العباد وفق مشيئته وحكمته، وليس مقرونًا بمحبته، فيبسط الرزق لمن يحب، ولمن لا يحب، ويضيقه على من يحب، وعلى من لا يحب.

١٨- سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٩- أن الدين هو ما شرعه الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾؛ ولهذا أنكر عز وجل على المشركين؛ فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٢٠- أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد، من أولهم نوح عليه السلام، إلى خاتمهم

محمد ﷺ، ووصية الله لهم جميعًا بإقامة الدين؛ بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وعدم التفرق فيه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾.

٢١- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ووحيه، أوحاه إلى النبي ﷺ.

٢٢- إثبات رسالة نوح عليه السلام أول الرسل، وأحد أولي العزم، ورسالة محمد ﷺ خاتمهم، وأفضل أولي العزم، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات رسالة إبراهيم عليه السلام ثاني أولي العزم، ورسالة موسى عليه السلام ثالثهم، ورسالة عيسى عليه السلام آخر الرسل قبل محمد ﷺ، وأحد أولي العزم.

٢٣- وجوب إقامة الدين؛ كما شرع الله، والحذر كل الحذر من التفرق فيه.

٢٤- خطر التفرق في الدين؛ لهذا نهى الله عنه الرسل وأممهم، وحذرهم منه، فما هلك كثير من الأمم إلا بسبب تفرقهم في الدين، وعدم إقامتهم له كما شرعه الله تعالى؛ فمنهم من غلا في الدين، وتجاوز ما حده الله، فألّهوا الرسل والأولياء، وعبدوهم من دون الله، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والرافضة غلوا في آل البيت وعبدوهم من دون الله، والمشركون عبدوا أصحاب القبور، وزعموا أنهم يقربونهم إلى الله، والخوارج أخرجوا أصحاب الكبائر من الملة، واستحلوا- هم والرافضة أخزاهم الله- دماء المسلمين، إلى غير ذلك من الفرق التي هي أبعد ما يكون عن الدين، كل ذلك بسبب الغلو والاختلاف.

وقد قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»(١).

وقال: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»(٢).

وأعظم من هذا كله وأشد: ما وقع من الاختلاف والتفرق بين المنتسبين إلى أهل السنة والجماعة، والذين يُعَدُّون هم البقية الباقية، فما أصاب الأمة الإسلامية ما أصابها

---

(١) أخرجه النسائي في المناسك، باب: التقاط الحصا ٣٠٥٧، وابن ماجه في المناسك، قدر حصا الرمي ٣٠٢٩، وأحمد ١/ ٢١٥؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

من الضعف والذل والهوان، وتسلط الأعداء من الرافضة ومن خلفهم، إلا بعد أن تفرق أهل السنة شِيَعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، حتى إن منهم من مالأ الرافضة، وهم أشد أعداء الإسلام والمسلمين اليوم، طعنوا في ربوبية الله، فادعوا أن تدبير الكون لآل البيت، واتهموا جبريل عليه السلام بالخيانة لإعطائه الرسالة لمحمد وقد كانت لعلي- كما يزعمون- وكذَّبوا القرآن، وقالوا: إنه محرَّف، واتهموا النبي ﷺ بالتقصير والعجز عن أداء الرسالة، وحكموا على الصحابة بالكفر والردة، وأخذوا يلعنونهم، واتهموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة، وقتلوا وحدهم من المسلمين ما لم يقتله جميع أعداء الإسلام غيرهم، وبأشنع القتلات، فمن والاهم فهو محارب لله ولرسوله وللمؤمنين.

٢٥- إنكار المشركين ما يدعوهم إليه ﷺ من توحيد الله تعالى، ومشقة ذلك عليهم غاية المشقة؛ لقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

٢٦- اصطفاء الله تعالى لنفسه ولدينه وتوحيده من يشاء من عباده، وهدايته وتوفيقه إليه من ينيب منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

٢٧- إثبات القدر، وأن من شاء الله هدايته هداه، ومن شاء أضله، وفي هذا رد على القدرية.

٢٨- الترغيب والحث على الإنابة إلى الله تعالى.

٢٩- أن من التمس طريق الهداية، وأناب إلى الله تعالى، وقصد وجهه، وحسن قصده، واجتهد في ذلك هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

وفي هذا رد على الجبرية.

٣٠- ذم المكذبين من أهل الكتاب وغيرهم، وأنهم لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم على ألسنة الرسل، وقامت الحجة عليهم؛ بغيًا بينهم، وعدوانًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

٣١- أن من حُرم التوفيق لا ينفعه ما أوتيه من العلم، فلا يغتر بعلمه، فكم من شخص غير متعلم يفوق كثيرًا ممن ينتسبون إلى العلم في زهده واستقامته ودينه.

٣٢- استحقاقهم للعذاب العاجل، وتوعدهم وتهديدهم بالعذاب الآجل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٣- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، وأن لذلك أجلًا لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٣٤- إثبات كلام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣٥- إثبات تقدير الآجال، وأن الله جعل لكل أجل كتابًا.

٣٦- شك الذين أُورثوا الكتاب من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم في القرآن، شكًّا عظيمًا موقعًا في الريبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

٣٧- أمر الله عز وجل له ﷺ بالدعوة إلى الدين القويم الذي شرعه له، والاستقامة كما أمره تعالى، وهو أمر له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾.

٣٨- نهي الله عز وجل له ﷺ عن اتباع أهواء أهل الكتاب، وهو نهي له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾.

٣٩- أنه ﷺ ليس له من الأمر شيء، وإنما هو مبلغ عن الله تعالى، يؤمَر ويُنهَى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ﴾ الآية. وفي هذا رد على من يرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.

٤٠- أمره بإعلان إيمانه بجميع ما أنزل الله من الكتب؛ لأن القرآن مصدق لها جميعًا، ومهيمن عليها، والإيمان بها واجب عليه وعلى أمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ﴾.

٤١- إثبات أن الكتب السماوية كلها منزلة من عند الله وكلامه، وغير مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من أعلى.

٤٣- أمره عز وجل له ﷺ بالعدل بين أهل الكتاب وغيرهم، فلا تحمله عداوة من عاداه ومخالفتهم له على ترك العدل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾.

٤٤- تقريرهم بربوبية الله تعالى له ولهم ولجميع الخلائق، فلا رب غيره؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾، ومِن لازِمِ هذا أن يعبده الجميع وحده، دون سواه.

٤٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ وبالمؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

٤٦- أن لكلٍّ عمَلَه من خير أو شر، وجزاءَه؛ لقوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾.

٤٧- لا جدوى ولا فائدة من الجدال مع من تبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وكابر وعاند؛ لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾.

٤٨- إثبات جمعه عز وجل بين الخلائق يوم القيامة، والمصير إليه، وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

٤٩- بطلان جميع حجج المجادلين في الله وفي دينه، بعد ظهور الحق، واستجابة الناس له، ودخولهم في دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وكما قال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

٥٠- غضب الله عليهم، وتهديدهم بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وفي هذا تحذير من المجادلة في دين الله بالباطل.

٥١- إثبات صفة الغضب لله عز وجل على ما يليق بجلاله، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾.

٥٢- أن مَن غَضِبَ الله عليه عذبه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٥٣- تعظيمه عز وجل لنفسه، وثناؤه عليها، بإنزاله كتبه بالحق، وشرعه بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾.

٥٤- التهديد بقرب قيام الساعة، والتخويف للمستعجلين بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾.

٥٥- أنه ﷺ لا يعلم متى قيام الساعة.

٥٦- استعجال المكذبين بالساعة؛ استبعادًا وإنكارًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾.

٥٧- إشفاق المؤمنين وخوفهم منها؛ لعلمهم أنها الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾.

٥٨- أن المؤمن مهما عمل فهو بين الخوف والرجاء، يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، ويعلم أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، وإنما برحمة أرحم الراحمين وفضله.

٥٩- إغراق المجادلين في الساعة ووقوعها- تكذيبًا بها وإنكارًا لها- في الضلال، والبعد عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، أي: ذو لطف عظيم بعباده، يدرك أسرار الأمور وحكمها الدقيقة، ويحسن إلى عباده وييسر لهم، ويرفق بهم، ويوصل لهم الخير من حيث لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم.

قال ابن القيم:

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمـــور بحكمـــة واللطـف عنـد مواقـع الإحسـان[١]

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يعطي الذي يشاء من عباده الرزق، ويوسع عليهم بحكمته ولطفه.

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾، أي: شديد القوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، أي: الشديد القوة، الذي لا حول ولا قوة إلا به.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾، أي: من كان يريد بعمله ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾، أي: أجرها وثوابها، بالسعي لها.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، أي: في عمله وثوابه، فنوفقه لزيادة العمل الصالح، بإتباع الحسنة الحسنة بعدها، ونؤته نصيبه من الدنيا وافيًا، ونضاعف له أجر الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعَدْل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل**»[٢].

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: من كان يريد بسعيه وعمله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾،

---

(١) النونية ص ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٠، ومسلم في الزكاة ١٠١٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٥، والترمذي في الزكاة ٦٦١، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٢.

أي: نفعها العاجل، والتنعم فيها، وكانت غاية همه، ومبلغ علمه، وسعى لها وحدها، وليس له أي همة في الآخرة.

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، أي: نعطه من الدنيا ما قُسِم له، لا كل ما أراد؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما له في الآخرة أيّ نصيب- أي: من الأجر والثواب، قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب**»(١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل ألهم شركاء من شياطين الجن، ومن شياطين الإنس، من دعاة الكفر والضلال؟

﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، أي: شرعوا لهم من الشرك والبدع، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام.

﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ شرعًا، بل حرمه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا

---

(١) سبق تخريجه.

وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحج: ٧١].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قُصْبه**(١) **في النار، وكان أول من سيب السوائب**»(٢).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: القضاء السابق بتأجيل الحساب والجزاء والفصل إلى يوم القيامة.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المؤمنين بتعجيل عقابهم في الدنيا؛ لاستحقاقهم لذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩، هود: ١١٠، فصلت: ٤٥].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في نار جهنم.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخطاب لغير معين، أي: ترى الظالمين في عرصات القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾، أي: خائفين أشد الخوف.

﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾، أي: من كسبهم، أو من الذي كسبوه من الظلم والشرك والكفر، أن يجازوا عليه، ويعذبوا به.

﴿وَهُوَ﴾، أي: والذي يخافون منه وهو مجازاتهم على كسبهم، ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ لا محالة في ذلك اليوم؛ لانعقاد أسبابه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

لما ذكر حال الظالمين، وشدة خوفهم من سوء عملهم، وتوعدهم، ذكر حسن حال المؤمنين وما هم فيه من النعيم؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب.

---

(١) أي: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٢١، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٥٦.

أي: والذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الأعمال الصالحة، الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه بجوارحهم.

﴿فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾، «روضات»: جمع «روضة»، وهي الأراضي والغياض الخصبة، التي تتدفق إليها السيول من المرتفعات والجبال، وتجتمع فيها، فترتوي، فتنبت أنواع النباتات والأشجار المختلفة المثمرة، ذات الخضرة والألوان الجميلة، والزهور المتفتحة والمناظر، وشتان بين هذا وبين ﴿رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ التي يكفيها إضافتها إلى الجنات، فلا تسأل عما فيها من بهجة الرياض المونقة، والأنهار المتدفقة، والنبات والأشجار المثمرة، والمناظر الخلابة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، وغير ذلك.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، أي: لهم الذي يشاؤونه من ألوان النعيم، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب، والمناكح والمناظر، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»(١).

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: من ربهم وعنده، فأعظِم بهذا النعيم، وأكرم به. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما أُعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من حسن المقام في روضات الجنات، وإعطائهم ما يشاؤون من النعيم عند ربهم.

﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا أكبر منه ولا أعظم، ولا أتم ولا أكمل؛ لأن الذي منحه لهم ووصفه بذلك هو ذو الفضل الكبير.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «يَبْشُرُ» بفتح الياء، وسكون الباء، وضم الشين مخففة، وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح الباء، وتشديد الشين مكسورة: ﴿يُبَشِّرُ﴾.

والإشارة لقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، أي: ذلك الفضل الكبير الذي يبشر الله به عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ﴾، أي: حاصل وكائن لهم لا محالة.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: قل يا محمد لمشركي قريش: لا أسألكم على تبليغي إياكم رسالة ربكم ونصحي لكم ﴿أَجْرًا﴾، أي: أجرًا دنيويًّا من مال أو غيره.

﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ «إلا»: أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن أسألكم المودة في القربى، أي: ألا تؤذوني، وأن تَدَعوني أبلغ رسالة ربي؛ لما بيني وبينكم من القرابة، أي: إن لم تنصروني، فلا تؤذوني لقرابتي منكم.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: ومن يكتسب عملًا صالحًا وطاعة؛ من صلاة وزكاة، وصيام وحج، وبر بالوالدين، وصدقة، وغير ذلك.

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: نوفقه لكسب الحسنة بعدها؛ كما قال بعض السلف: «من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها»(١).

وأيضًا: نزد له فيها حُسنًا بمضاعفة أجرها وثوابها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة، يغفر ذنوب التائبين كلها بسترها والتجاوز

---

(١) ذكره ابن تيمية، ونسبه لسعيد بن جبير. انظر: «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١١. وانظر: «طريق الهجرتين» ص٢٧٣، «شعب الإيمان» ٩/ ٣٨٤ (٦٨٢٩).

عنها، ويغفر ما دون الشرك لمن شاء من عباده.

﴿شَكُورٌ﴾ يعطي الأجر الجزيل على العمل القليل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم»: هي المنقطعة بمعنى «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقول هؤلاء المشركون المكذبون: افترى محمد، أي: اختلق على الله كذبًا، أي: كذب على الله بقوله: إن القرآن كلام الله؟ أي: فليس القرآن كلام الله، وإنما هو مفترٍ كاذب.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي: يطبع على قلبك، وينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي؛ كما قال قتادة: «إن يشأ الله ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي»(١).

يعني: لو افتريت على الله كذبًا، وهذا على سبيل الفرض والتقدير؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧].

وقال مجاهد: «إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك». ذكر هذا ابن القيم، ورجحه من وجوه(٢). والأظهر القول الأول.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾، أي: يزهقه، ويمحقه، ويزيله، ويذهبه.

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾، أي: ويثبت الحق ويبينه، ويظهره ويوضحه، بكلماته الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥، الكهف: ٢٧]، وبكلماته الشرعية الدينية، الدالة على الحق، التي أوحى الله بها إلى نبيه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الجملة تعليلية، أي: ذو علم واسع تام بما تكنه الصدور والقلوب والسرائر، من المضمرات والأسرار.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٥٠٤.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١١٦.

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: يقبل توبتهم بعد أن وفقهم إليها، ويستر ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**»(١).

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: يمحوها ويتجاوز عنها، فلا يعاقب عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

والسيئات: جمع «سيئة»، وهي: كل ما خالف الشرع، من ترك واجب، أو ارتكاب محرم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالخطاب، على الالتفات: ﴿تَفْعَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيبة: «يَفْعَلُونَ».

أي: ويعلم فعلكم، أو: الذي تفعلونه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة، خيرها وشرها.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الواو: عاطفة، والسين والتاء للمبالغة، و«يستجيب» أبلغ من «يجيب»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

أي: يستجيب دعاء الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات، الخالصة لله، الموافقة لشرعه، بجوارحهم، فيعطيهم ما يسألون؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٤٧، وأخرجه البخاري مختصرًا في الدعوات ٦٣٠٩.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فيعطيهم فوق ما يسألون وأضعافه، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ مما لم يستحقوه بأعمالهم، وما لم يخطر ببالهم؛ من الأجر الجزيل، والثواب العظيم، فضلًا منه وجودًا وكرمًا.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر ما أعد للمؤمنين من الاستجابة والزيادة والفضل، ذكر ما للكافرين من العذاب الشديد.

أي: لهم عذاب قوي مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا والآخرة، وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

الفوائد والأحكام:

١- لطف الله عز وجل التام بعباده، ولطفه لهم بالإحسان إليهم، والرفق بهم، والتيسير عليهم، وإدراكه أسرار الأمور وحكمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

٢- إثبات صفة اللطف لله عز وجل؛ كما أن من أسمائه عز وجل: «اللطيف».

٣- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾.

٤- تكفله عز وجل بأرزاق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي: الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾.

٦- أن رزق الله تعالى للخلائق مقرون بمشيئته وحكمته، وليس مقرونًا بمحبته، فيرزق عز وجل بمشيئته وحكمته البر والفاجر، وقد يمنع الرزق عمن يشاء منها.

٧- إثبات اسمي الله عز وجل: «القوي»، و«العزيز»، وصفتي: «القوة» و«العزة» التامتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٨- كرم الله عز وجل ووعده الذي لا يُخلَف لمن كان يريد بعمله وسعيه ثواب الآخرة وجزاءها، بإخلاصه وقصده وجه الله، بالزيادة والمضاعفة لعمله وثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾.

٩- أن من قصد بعمله وسعيه مجرد الحياة الدنيا ومنفعتها العاجلة، ولا هم له في

الآخرة، أعطاه الله ما قسم له منها، وليس له في نعيم الآخرة والجنة أيُّ نصيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

١٠- أن ما قُسم للإنسان من الدنيا آتيه لا محالة، لا يأتي به حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، سواء أراد بعمله الدنيا أو الآخرة.

١١- إثبات الدار الآخرة، والحساب والجزاء على الأعمال.

١٢- الترغيب والحث على أن يريد الإنسان بعمله الآخرة، والتحذير من إرادة الدنيا فقط.

١٣- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، مما يوجب أن يحسن الإنسان نيته وقصده.

١٤- إثبات الإرادة والمشيئة والاختيار للإنسان، والرد على الجبرية الذين يقولون: إنه مجبور على أفعاله وأقواله؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾.

١٥- الإنكار على المشركين اتخاذهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؛ من الشرك والتحليل والتحريم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

١٦- أن ما شُرع ووُضع من أنظمة دنيوية لا علاقة لها بالدين- كنظام المرور والأحوال الشخصية- فلا بأس به؛ لمفهوم قوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾.

١٧- تهديدهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا، وأنهم مستحقون لها عاجلًا، لولا أن الله بحكمته جعل للفصل بينهم أجلًا وهو يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

١٨- إثبات الأسباب، فتأخير عقابهم بسبب كلمته عز وجل بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة.

١٩- تهديد ووعيد الظالمين بالكفر والشرك والمعاصي بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٠- إشفاقهم وخوفهم من عقاب كسبهم، وهو واقع بهم لا محالة؛ لانعقاد

أسبابه؛ لقوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ ﴾.

٢١- التنويه بما أُعد للمؤمنين من روضات الجنات لهم فيها ما يشاؤون من ألوان النعيم وأنواعه عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ﴾.

٢٢- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٣- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، والعمل والصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

٢٤- إثبات الجنات، وأن فيها روضات، وما يشاؤه أهلها من النعيم.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ ﴾.

٢٦- عظم ما أعد الله للمؤمنين من هذا النعيم من وجوه عدة، وهو أنه من ربهم، وعنده، ووصفه عز وجل بالفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾.

٢٧- بشارة المؤمنين بهذا النعيم، والفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ﴾.

٢٨- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادَهُ﴾.

٢٩- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ﴾، وقوله: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ ﴾ الآية.

٣٠- أنه ﷺ لم يسأل مشركي قريش أجرًا على إبلاغهم رسالة ربه ونصحه لهم؛

إلا أن يَوَدُّوه، ولا يؤذوه لقرابته منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾.

٣١- أن من حقه ﷺ وتعظيمه ومحبته تعظيمَ حق قرابته ومحبتَهم؛ كما قال ﷺ في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: «**وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به**»، فحث على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»(١).

وعن العباس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال له: «**والله لا يَدخل قلبَ امرئ إيمانٌ حتى يحبكم لله عز وجل ولقرابتي**»(٢).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: «ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن أبا بكر قال لعلي رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي»(٤).

وقال عمر للعباس رضي الله عنهما: «والله، لإسلامك يوم أسلمت كان أحب من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب»(٥).

قال ابن كثير(٦): «فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين».

٣٢- وعد الله تعالى لمن اكتسب حسنة بزيادته له فيها حُسنًا، والمضاعفة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٨، وأحمد ٤/ ٣٦٦- ٣٦٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٠٧- ٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ ٣٧١٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٧١٢، ومسلم في الجهاد ١٧٥٩.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١٩٠.

(٦) في «تفسيره» ٧/ ١٩٠.

٣٣- أنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة لمن تاب إليه، والشكور بإعطاء الثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

٣٤- الإنكار على المشركين اتهامهم له ﷺ بافتراء القرآن، واختلاقه على الله كذبًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣٥- إبطال زعم المشركين باتهامهم له ﷺ بافتراء الكذب على الله، ببيان أنه لو فعل- وحاشاه من ذلك؛ لختم الله على قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

٣٦- إزالته عز وجل للباطل، وإحقاقه الحق بكلماته الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

٣٧- إثبات كلمات الله الكونية والشرعية، وإثبات الكلام له؛ كما يليق بجلاله وعظمته.

٣٨- إثبات علم الله التام بما في الصدور والقلوب والسرائر من المضمرات والأسرار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وعلمه بما سوى ذلك من باب أولى.

٣٩- التنبيه إلى أن مدار الأعمال على القلوب، مما يوجب مراقبتها وإصلاحها.

٤٠- امتنانه عز وجل بقبول توبة عباده، وترغيبهم بالتوبة، وعفوه وتجاوزه عن السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٤١- علم الله تعالى الواسع بجميع أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وهذا يوجب على العبد مراقبة الله فيما يأتي وما يَذَر.

٤٢- استجابته عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإعطاؤهم ما يسألون، وزيادته إياهم من فضله ومضاعفته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وفي هذا ترغيب في الإيمان والعمل الصالح.

٤٣- وعيد الكافرين وتهديدهم بالعذاب الشديد، والتحذير من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم، أي: ولو وسَّع الله الرزق لعباده، وأعطاهم فوق حاجتهم.

﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لبغوا في الأرض فسادًا وطغوا وتجبروا، أشرًا وبطرًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقال ﷺ: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُفتَح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ الباقون: «يُنْزِلُ» بإسكان النون، وتخفيف الزاي.

أي: ولكن ينزل من الرزق ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، أي: بالقدر الذي يشاؤه بحكمته وعلمه مما فيه صلاحهم، فيعطي كلًّا منهم ما يناسب حاله من الغنى أو الفقر؛ كما جاء

---

(١) سبق تخريجه.

في الأثر: «من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه»(١).

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ الجملة تعليلة، واللام للتوكيد، أي: لذو علم تام وبصر وإحاطة بهم وبأحوالهم، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيِّها وجليِّها، وما يصلحهم، وما يضرهم، فكم من أناس صار الابتلاء بالفقر وغيره سببًا لهدايتهم، وكم من أناس صار الابتلاء بالغنى ونحوه سببًا لضلالهم، وقد أحسن القائل:

قد يُنعِم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٢)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، أي: وهو وحده الذي ينزل المطر، وسمي المطر بـ«الغيث»؛ لأن الله يغيث به البلاد والعباد، أي: يرفع ما بهم من الشدة.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾، أي: من بعد ما قنط العباد، أي: من بعد ما اشتد يأسهم من نزوله؛ لتأخره عن وقته، وهذا بيان للواقع، وليس تقريرًا للقنوط، فهو محرم، ومن كبائر الذنوب؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الروم: ٤٩].

وإنزال المطر على حين قنوط من نزوله وشفقة له يكون أشد وقعًا في النفوس، وأبين لرحمة الله تعالى وفضله؛ لقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، أي: ويبسط رحمته، وهي المطر، وما يحصل بسببه من نبات الأرض، وسعة الرزق، وحياة العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

قال قتادة: «ذُكر لنا أن رجلًا أتى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، قحط المطر، وقنط الناس. فقال: مطرتم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

رَحْمَتَهُۥ﴾»[١].

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ وهو وحده الولي حقًّا لجميع الخلق ولاية عامة، والولي للمؤمنين ولاية خاصة، وولايته دائرة بين الإحسان والعدل، لا ظلم فيها، فيوفق بفضله من يشاء في أمر دينه ودنياه، ويحرم من يشاء.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: المحمود في ولايته، وفي جميع أفعاله وأقواله، وأمره ونهيه، وشرعه وقدره وجزائه، وفي كل شيء، وكان ﷺ يقول: «**الحمد لله على كل حال**»[٢]، وكان ﷺ إذا رأى ما يحب قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، وإذا رأى ما يكره قال: «**الحمد لله على كل حال**»[٣].

وكم من ولي من الخلق- ولله المثل الأعلى- لا يُحمَد في ولايته، بل يذم أشد الذم؛ لتفريطه فيما ولاه الله عليه، وظلمه وغشمه، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الواو: عاطفة، أي: ومن آياته الدالة على كمال عظمته، وتمام قدرته، وعلى قدرته على إحياء الموتى، وجمعهم يوم القيامة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هذه المخلوقات العظيمة.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ الواو: عاطفة، و«ما» موصولة، تفيد العموم، أي: وخلق جميع الذي نشر وفرّق في السموات والأرض.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: من كل ما يدب عليهما من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٥١١.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٥١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب، فضل الحامدين ٣٨٠٣؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٣، ٤] .

فأتى بالماضي، وأتى بالمضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهو عز وجل على جمع ما بث وما نشر في السموات والأرض من هذه الدواب الكثيرة والخلائق كلهم.

﴿إِذَا يَشَآءُ﴾، أي: إذا يشاء جمعهم، وذلك يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: لا يعجزه شيء.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ «ما»: شرطية، أي: وما أصابكم من مصيبة دينية، أو دنيوية.

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «بما» بغير فاء.

وقرأ الباقون بالفاء: ﴿فبما﴾، والفاء على هذا رابطة لجواب الشرط، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فهو بسبب الذي كسبته أيديكم، أو بسبب كسب أيديكم، أي: بسبب كسبكم الذنوب والمعاصي؛ لأن الذنوب والمعاصيَ سبب لكل مصيبة وبلية، فهي سبب لفعل المعاصي بعدها؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

كما أنها سبب للشدة والقحط ونزع البركات وغير ذلك من المصائب الدنيوية؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

والكسب يضاف للأيدي؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وغير ذلك؛ لأن كثيرًا من

الأعمال تزاول بها، وهي الآخذة المعطية؛ كما قال ﷺ: «**حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»(١).

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، أي: ويتجاوز عز وجل عن كثير مما كسبته أيديكم من السيئات، فلا يؤاخذكم به، ولا يعاقبكم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

فيعفو عز وجل عن كثير من ذنوب عباده ويمحوها عنهم فضلًا منه وإحسانًا.

أو بما يقدر عليهم من المكفرات؛ كما قال ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكُها إلا كفر الله بها من خطاياه**»(٢).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وما أنتم بفائتين الله، ولا مفلتين من عذابه.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ «من»: لتوكيد عموم النفي، أي: وما لكم من دون الله أيُّ ولي يتولاكم ويجلب لكم الخير، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم، ويدفع عنكم الضر، وعذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾، أي: ومن آياته الدالة على عظمته ونعمته عز وجل، وتمام قدرته وسلطانه: ﴿ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ﴾، أي: السفن الجارية العظيمة الكبيرة التي سخرها الله وسخر البحر لتجري فيه بأمره عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، ما جاء في كفارة المرض ٥٦٤٢، ومسلم في البر، ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ٢٥٧٣، والترمذي في الجنائز ٩٦٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿بِأَمْرِهِۦۚ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾ [لقمان: ٣١] وأطلق عليها: «الجواري» دون «الفلك» إيماءً إلى العبرة في جريها على الماء وعدم غرقها مع عظمها وكبرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١].

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، أي: كالجبال من عظمها وكبرها.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ نافع: «الرِّيَاحَ» بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ٱلرِّيحَ﴾، أي: إن يشأ يقطع هبوبها.

﴿فَيَظْلَلْنَ﴾، أي: فيصرن هذه الجواري ويبقين ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ﴾، أي: ثوابت على سطح البحر والماء، لا يتحركن، وفي هذا تهديد وتخويف لهم؛ ليشكروا الله على هذه النعمة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أي: لدلائل على عظمة الله تعالى، وتمام نعمته، وعظيم سلطانه وقدرته.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ «صبار»: صيغة مبالغة، أي: كثير الصبر في الشدائد، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته.

﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء لنعم ربه، بنسبتها إليه عز وجل، والثناء عليه بها، وصرفها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته.

ووجه الجمع بين الشكر والصبر: أن الإنسان وهو على ظهر هذه السفن؛ إن جرت الأقدار بما يحب فالواجب عليه الشكر، وإن جرت الأقدار بما لا يحب فالواجب عليه الصبر.

وهذه هي صفة المؤمن؛ كما قال ﷺ: «**إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له**»(١).

أما غير المؤمن فإنه إن صبر في الضراء مكرهًا لم يشكر في السراء.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ «أو»: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾، أي: أو إن يشأ يوبقهن، أي: يهلكهن بالغرق بأهلهن، أو إن يشأ يصرفهن عن وجهة قصدهن بسبب قوة الريح، فيسرن على غير هدى كالآبق، فيهلكن بمن فيهن.

﴿بِمَا كَسَبُوا﴾، أي: بسبب الذي كسبوه، أو بسبب كسبهم، أي: بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾، أي: ويعف عن كثير مما اكتسبوه من الذنوب، ولو آخذهم بذنوبهم لأهلك أكثر من ركب البحر.

ولكنه عز وجل من لطفه ورحمته يرسل الريح بحسب الحاجة؛ كما ينزل المطر بقدر الكفاية.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالرفع: «وَيَعْلَمُ»، على الاستئناف، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ عطفًا على محذوف منصوب للتعليل، أي: يغرقهم؛ لينتقم منهم ويعلم.

والمعنى: ويعلمَ الذين يحاجون ويخاصمون بآياتنا بغير الحق؛ ليبطلوها، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لهم أيّ محيص، أي: أيّ مفر ولا مهرب من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١٢١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الأرزاق كلها بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية.

٢- حكمة الله تعالى في قسمة الأرزاق بين عباده، فينزل بقدرٍ الذي يشاؤه، مما يصلحهم، ولا يطغيهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾.

٣- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِهِ﴾،

وقوله: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾.

٤- أن من طبيعة الإنسان أنْ تُبْطِرَه النعمة فيطغى ويبغي في الأرض، إلا من رحم الله؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فينبغي الحذر من ذلك.

٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿يَشَآءُ﴾.

٦- تمام خبرته عز وجل وعلمه، وبصره واطلاعه على عباده وأحوالهم، وما يناسبهم ويصلحهم وما يضرهم، من بسط الرزق وعدمه وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٧- امتنانه على العباد بإنزال الغيث عليهم من بعد قنوطهم وشدة يأسهم، ونشره رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

٨- أن المطر رحمة من رحمة الله تعالى؛ يحيي به العباد والبلاد.

٩- أن من طبيعة الإنسان الاستعجالَ في طلب الخير من الغيث وغيره، واليأسَ والقنوط عند تأخره عن وقته.

١٠- ينبغي على المؤمن تغليب جانب الرجاء وقت الشدة، وأن يكون رجاؤه بما عند الله أقوى من رجائه بما في يده، والحذر من القنوط من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

١١- إثبات اسم الله: «الولي»، وأنه سبحانه ذو الولاية العامة لجميع الخلق، وذو الولاية الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد»، وأنه عز وجل المحمود في ولايته، وفي جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره وجزائه، وفي كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾.

١٣- أن من آيات الله الدالة على عظمته، وتمام قدرته على إحياء الموتى وبعثهم وجمعهم ليوم القيامة إذا شاء: خلق السموات والأرض وما بث فيهما من الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا

يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

١٤- إثبات المعاد، وبعث الخلائق، وجمعهم ليوم الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

١٥- تمام قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾.

١٦- أن ما يصيب العباد من مصائب دينية ودنيوية، فهو بسبب ما اكتسبوه من الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٧- إثبات الأسباب، وتأثيرها في المسببات.

١٨- عفو الله تعالى عن كثير من ذنوب العباد، وعدم مؤاخذتهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ لكن ذلك مقيد بمشيئته؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

١٩- تهديد المكذبين، وأنهم لن يعجزوا الله، ولن يفلتوا من عذابه، وما لهم غيره أيُّ ولي يتولاهم بجلب الخير لهم، ولا أيُّ نصير ينصرهم ويدفع عذاب الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

٢٠- أن من آيات الله الدالة على عظمته ونعمته، وتمام سلطانه وقدرته: تسخيرَ البحر لتجري فيه السفن العظيمة التي تشبه الجبال في كبرها وعظمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾.

٢١- التهديد بأنه تعالى لو شاء لأسكن الريح، فظلت هذه السفن رواكد على سطح البحر لا تتحرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾.

٢٢- أنه لا يتأمل في هذه الآيات وينتفع بها إلا من كان عظيم الصبر على الشدائد، وعلى فعل الطاعات، وترك المعاصي، كثير الشكر لله تعالى بنسبة نعمه إليه عز وجل واستعمالها في طاعته، وهذا هو المؤمن حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٣- فضيلة الصبر والشكر، والترغيب فيهما.

٢٤- التهديد بأنه عز وجل لو شاء لأهلك هذه السفن بالغرق بمن فيها، بسبب

ذنوبهم ومعاصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾، وفي هذا تحذير من السيئات، وأنها سبب للعقوبات.

٢٥- الوعيد للمجادلين في آيات الله بالباطل، بأنه لا محيص لهم ولا محيد من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

٢٦- ذم المجادلة لإبطال الحق، والتحذير منها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ «ما»: شرطية، و«من»: بيانية، أي: فما أعطيتم من أيِّ شيء، قليلًا كان أو كثيرًا، من ملك ورياسة ومال وبنين وصحة وغير ذلك. والخطاب عام لجميع الناس.

﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«متاع»: خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو متاع الحياة الدنيا، الحقيرة الفانية، يُتمتع به، ثم سرعان ما ينقطع ويزول، أو يزول الإنسان عنه، فلا يغتر به؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، ﴿خَيْرٌ ﴾ خيرية مطلقة من متاع

الدنيا، ومن الدنيا كلها، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وأدوم؛ لأن الدنيا كلها زائلة، وما عند الله لا يَحُول ولا يزول، بل هو نعيم سرمدي أبدي. نسأل الله من فضله.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: للذين آمنوا خاصة، الذين صدقوا بقلوبهم، وانقادوا لطاعة الله تعالى وعبادته بجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: وعلى ربهم خاصة يعتمدون اعتمادًا كليًّا في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة بالله، وصدق الاعتماد عليه، والتفويض إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «كَبِيرَ» بالإفراد.

وقرأ الباقون: ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بالجمع.

والواو: عاطفة في المواضع الثلاثة، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل جر عطفًا على الموصول السابق، أي: والذين يجتنبون كبائر الذنوب التي تؤثم مرتكبها، أي: توقعه في الإثم، واستحقاقه العقوبة.

والكبيرة: كل ما نص الشرع على أنها كبيرة، أو رتب عليها عقوبة خاصة دينية، أو دنيوية، أو أخروية، فهي محدودة، لا معدودة(١).

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، أي: ويجتنبون الفواحش، وهي: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمين؛ كالشرك والزنا وقول الزور، وغير ذلك.

والتعبير بـ«يجتنبون»؛ لأنه أبلغ من «يتركون»، أي: يجتنبون الكبائر والفواحش، وكل ما يؤدي إليها، ويبتعدون منها؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإذا غضبوا هم يغفرون، أي: يملكون أنفسهم عند الغضب، ويغفرون لمن

---

(١) انظر تفسير قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

أغضبهم، أي: يسترون عليه ويعفون ويتجاوزون عنه؛ كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ لما ذكر صلاح باطنهم بالإيمان والتوكل على ربهم، والعفو والصفح، أتبع ذلك بذكر ظاهرهم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾.

﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾ السين والتاء: للمبالغة، فـ«استجابوا» أبلغ من «أجابوا».

أي: والذين استجابوا لربهم، أي: أجابوه باتباع رسله، وفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا وما بعده معطوف على قوله: ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وأقاموا الصلاة إقامة تامة كما شرعها الله تعالى.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، أي: وشأنهم العام الذي يهم الجميع يتشاورون فيه بينهم، فلا يستبد أحد منهم برأيه في الأمور المشتركة بينهم، بل يتشاورون، ويتبادلون الرأي فيها؛ كما كان ﷺ يستشير أصحابه، ويقول: «**أشيروا علي أيها الناس**»(٣)، استجابة لقول الله تعالى له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحضرته الوفاة، جعل الأمر شورى بين ستة من الصحابة رضي الله عنهم، فاجتمعوا على عثمان رضي الله عنه، واجتمع على

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، قول النبي ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا**» ٦١٢٦، ومسلم في الفضائل، مباعدته ﷺ للآثام ٢٣٢٧، وأبو داود في الأدب ٤٧٨٥.

(٣) سبق تخريجه.

ذلك الصحابة رضوان الله عليهم.

ولهذا فإن الشورى في الإسلام إنما تكون بين أهل الحل والعقد، من أهل العلم والعقل والفضل والحكمة والحنكة والدهاء والسياسة والتجربة، وليست الشورى أن يوكل الأمر في الأمة إلى غوغاء الناس ودهمائهم؛ ليصوتوا ويختاروا من يريدون؛ كما يزعم أدعياء الديمقراطية الكاذبة الزائفة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ «من»: للجنس، أو تبعيضية، و«ما»: موصولة، أي: ومن الذي رزقناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾، أي: يخرجون المال في طرقه المشروعة: الواجبة كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، والمستحبة كالصدقة والهدية ونحو ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾: معطوف على الموصول الأول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾. والبغي: الظلم والعدوان، أي: والذين إذا بُغِيَ واعتُدي عليهم ينتصرون ممن بغى واعتدى عليهم؛ لشجاعتهم وقوتهم وقدرتهم على الانتصار ممن ظلمهم.

وهذا مدح لهم على قوتهم وقدرتهم على الانتصار، وأنهم ليسوا بعاجزين، ولا ضعفاء ولا أذلاء، وليس مدحًا لهم على الانتقام واستيفاء حقهم، وإن كان ذلك جائزًا لهم.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبرا: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل؛ فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٦٢٧، وأحمد ٢/ ٢٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في القدر، لا تعجزن عن مأمور، ولا تجزعن من مقدور ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، وأحمد ٢/ ٢٦٦.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

لما مدحهم بالقدرة على الانتصار أمرهم بالعدل والمماثلة في المجازاة، وحرم الزيادة؛ لأن الانتصار قد لا تقف فيه النفوس عند العدل غالبًا، بل لا بد أن تتجاوز.

والمعنى: وجزاء سيئة من أساء أن يجازى بسيئة، أي: بعقوبة مثلها، أي: بمقدارها من غير زيادة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: ١٢٦]، أي: بمثل ما عوقبتم به كمًّا وكيفًا ونوعًا.

وإنما سميت مجازاة المسيئ ومعاقبته: سيئة، من باب المشاكلة لما قبلها، ولأنها تسوء الذي عوقب بها.

فأمرهم بالعدل في القصاص إن اختاروا الانتصار، ورغبوا في استيفاء حقهم، سواء كان ذلك بالأنفس أو الجراحات أو الأموال أو غير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: ٤٥].

ثم ندبهم إلى العفو والإصلاح بعد المقدرة، فقال:

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾، أي: فمن عفا عمن أساء إليه، و﴿وَأَصۡلَحَ﴾، أي: قصد بعفوه الإصلاح، ووضعه فيمن يُصلحه العفو.

﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فأجره على الله قد تكفل عز وجل به، وأكرِمْ به من أجر، وأعظم به من جزاء، يعطيه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، بلا حساب، ولا يضيع عنده شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

قال الفضيل بن عياض: «إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا، فقل: «يا أخي، اعف

عنه؛ فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر، وإلا فارجع إلى باب العفو؛ فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلِّب الأمور»(١).

وقال ابن القيم: «ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط»(٢).

قال الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من هم العداوات(٣)

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: لا يحب الظالمين المعتدين، وهم الذين يبتدئون بالسيئة، والذين يعاقبون عليها بأشد من مثلها.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد في الموضعين، أي: ولمن انتصر من ظالمه، واستوفى منه حقه، والضمير في ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾ يعود إلى المظلوم، أي: بعد أن ظلم.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة لـ«من» في قوله: ﴿وَلَمَنِ﴾ على اعتبار معناها وهو الجمع، أي: فأولئك المنتصرون بعد ظلمهم، أي: بعد أن ظُلموا.

﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: ما عليهم أيّ سبيل، أي: ما عليهم أيّ حرج ولا مؤاخذة؛ لأنهم إنما أخذوا حقهم.

ولهذا قال ﷺ: «**المُسْتبّان ما قالا فعلى البادي منهما، ما لم يَعتَدِ المظلوم**»(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٢٠٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢١.

(٣) البيت للشافعي. انظر: «روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار» ص١٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر، النهي عن السباب ٢٥٨٧، وأبو داود في الأدب ٤٨٩٤، والترمذي في البر، ما جاء في الشتم ١٩٨١، وأحمد ٢/ ٢٥٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد ٤/ ١١٦؛ من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: ما السبيل إلا على الذين يظلمون الناس، أي: إنما السبيل أي: الحرج والإثم والمؤاخذة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾، أي: يعتدون عليهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وغير ذلك.

﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويعتدون في الأرض ويتجاوزون الحد في حق الله بالمعاصي، وفي حقوق الخلق.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيان للواقع؛ لأن البغي كله بغير الحق.

قال ابن القيم: «فذكر المقامات الثلاثة في الآية: مقام العدل، وأذن فيه، ومقام الفضل، وندب إليه، ومقام الظلم وحرمه»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ الإشارة للذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، ﴿أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم شديد موجع معنويًّا للقلوب، وحسيًّا للأبدان، بحسب مقدار ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ بعد أن توعد أهل الظلم والبغي ابتداءً، أو في المقاصة، أكد الأمر بالصبر والمغفرة والعفو، أي: ولمن صبر على إساءة من أساء إليه وآذاه، فلم ينتصر.

﴿وَغَفَرَ﴾، أي: ستر ما حصل له من إساءة وأذى وتجاوز وعفا بعد القدرة على الانتصار والانتقام، لا عن عجز وذل وضعف.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: إن ذلك الصبر على إساءة من أساء، وستر إساءته، والتجاوز والعفو عنه بعد القدرة.

﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمن الذي يُعزَم عليه من الأمور، ودليل على أن من فعل ذلك، فصبر وستر، وعفا وغفر، فهو من ذوي العزم، ذوي الصفات العظيمة، التي عظمها الله، وأكبر شأن أهلها، وأنه لا يوفق لها إلا أهل الصبر والهمم العالية، والحظ العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢١.

[فصلت: ٣٤- ٣٥].

وذلك لأن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل أو بهما من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، إلا على من وفقه الله، ولقّاه هذه الخصلة العظيمة، فوفقه للصبر، وأعظم حظه، ويسر له ذلك، وأعانه عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ «من»: شرطية، أي: ومن يصرفه الله عن الهدى كونًا وقدرًا بسبب ظلمه.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: فما له أيّ ولي يتولى أمره ويهديه ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد الله.

كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣، غافر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخطاب في الموضعين لغير معين، أي: وترى وتبصر الظالمين بالكفر والشرك.

﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: حين رأوا العذاب يوم القيامة وشاهدوه بأعينهم.

﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، أي: يظهرون الأسى والندم العظيم على ما سلف منهم، والاستفهام للتمني، أي: هل من طريق أو حيلة إلى مرجع إلى الدنيا لنعمل غير الذي كنا نعمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧] وهم كاذبون، ولهذا رد عز وجل عليهم بقوله: ﴿بَلْ

بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، أي: على النار، وهذا تفسير للعذاب في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

﴿خَاشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متضائلين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ «من»: سببية، أي: بسبب الذل والهوان الذي في قلوبهم من شدة الهول.

﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: ينظرون إلى النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، أي: من بصر ضعيف مسارقة، ولا ينظرون إليها بملء أعينهم؛ لشدة انزعاجهم وخوفهم منها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تحدثًا بما أنعم الله به عليهم، واغتباطًا بالسلامة؛ مما لحق الظالمين من العذاب، وذلك حين ظهر مآل كل فريق.

﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: إن الخاسرين الخسران المبين، الذين خسروا أنفسهم بحرمانها من الجنة وما فيها من النعيم، وأوبقوا أنفسهم في النار والعذاب الأليم، وخسروا أهليهم حيث فرق بينهم وبينهم، فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم؛ لأنهم إن كانوا كلهم في النار، فأهل النار لا يجتمعون أبدًا، وإن كان أهلوهم في الجنة؛ فقد حيل بينهم وبينهم.

﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: في عذاب دائم أبدي سرمدي.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: وما كان لهم أي أولياء ﴿يَنصُرُونَهُم﴾، أي: يدفعون عنهم العذاب ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: ومن يضلل الله كونًا وقدرًا فما له أيّ سبيل، أي: أيّ طريق يهتدي به إلى الحق، ويخلص به من الضلال، وهذا تأكيد لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾، وكقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٨٨].

الفوائد والأحكام:

١- التزهيد في الدنيا وتحقيرها، وأنها متاع زائل، وظل حائل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢- أن ما عند الله من الثواب العظيم، والنعيم المقيم خير من الدنيا كلها وأبقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٣- أن ما وعد الله به عنده مما هو خير وأبقى، إنما هو للمؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٤- التحذير من الافتتان بالدنيا والاغترار بها، والترغيب بما عند الله؛ مما هو خير وأبقى.

٥- أن الجنة لا تفنى، ولا ينقطع نعيمها، ولا يفنى أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾.

٦- امتداح المؤمنين والثناء عليهم بالصفات المذكورة، والترغيب فيها من الإيمان، والتوكل على ربهم، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لربهم، وإقام الصلاة، وكون أمرهم شورى بينهم، والإنفاق مما رزقهم الله، والانتصار بأنفسهم ممن بغى عليهم.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾.

٨- وجوب الإيمان والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش.

٩- فضيلة العفو بعد المقدرة، والمغفرة عند الغضب، والإصلاح والصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال ﷺ: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**»(١).

فالعفو من المخلوق ظاهره: ضيم وذل ومهانة، وباطنه: عز وانتقام ورفعة.

وقد كان العفو من أخص صفات الأنبياء عليهم السلام؛ فقد قال يوسف عليه السلام لإخوته لما قالوا له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، قال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١، ٩٢].

وقال ﷺ لأهل مكة بعد أن فتحها، ومكنه الله منهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(٢).

وعفا ﷺ عن غَوْرَث بن الحارث الذي اخترط سيفه، وهو نائم، وأراد قتله(٣).

وعفا عن لبيد بن الأعظم الذي سحره(٤)، وعن المرأة التي سمت له الذراع يوم خيبر(٥).

١٠- وجوب الاستجابة لله تعالى، في فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

١١- الحث على إقام الصلاة، فرضها، ونفلها، إقامة تامة؛ كما شرعها الله تعالى.

١٢- فضيلة الشورى؛ لأن الله امتدح بها المؤمنين، فقال: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾، وهي مفخرة من مفاخر الإسلام، فاق بها جميع النظم والمذاهب والأديان، قال أحمد شوقي:

الدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء(٦)

---

(١) أخرجه مسلم في البر، استحباب العفو والتواضع ٢٥٨٨، والترمذي في البر، ما جاء في التواضع ٢٠٢٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة ذات الرقاع ٤١٣٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٨٤٣- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٦٨، ومسلم في السلام ٢١٨٩، وابن ماجه في الطب ٣٥٤٥؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه أبو داود في الديات ٤٥١٠؛ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٦) هذا البيت من قصيدة لأحمد شوقي في مدح الرسول ﷺ مطلعها:

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وسناء

انظر: «الشوقيات» ص٤٤

وقد أحسن حافظ إبراهيم في قوله من قصيدة له في مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١]:

يا رافعًا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربي خيرًا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها ... وللمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله ... إلى الجماعة إنذارًا وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رأيهم شعبًا ... فجرد السيف واضرب في نواحيها
فاعجب بقوة نفس ليس يصرفها ... طعم المنية مرًّا عن مراميها
درى عميد بني الشورى بموضعها ... فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأي في حكومته ... إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم[٢]

وقال الآخر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآة[٣]

١٣- الترغيب في الإنفاق من رزق الله في وجوه البر الواجبة والمستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١٤- أن الرزق كله من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى

(١) انظر: «ديوان حافظ إبراهيم» ص٩١.
(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» ٤/ ١٧٣.
(٣) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» ١/ ٢٤٦.

ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

١٥- ينبغي أن يكون المؤمن قويًّا بربه، ثم بإيمانه، فلا يقبل الضيم والذل والهوان لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].

١٦- وجوب العدل في القصاص واستيفاء الحقوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، أي: بمقدارها من غير زيادة؛ كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨].

١٧- الحث على العفو بعد القدرة، والإصلاح، والإغراء في ذلك، ببيان تكفله عز وجل بأجر من فعل ذلك، بلا حد ولا عد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

١٨- شتان بين من عفا عمن ظلمه بعد المقدرة وأصلح، رجاء الأجر من الله، وبين من آثر عدم العفو سواء أخذ حقه في الدنيا، أو في الآخرة، فبينهما مثل ما بين الثرى والثريا، والأرض والسماء، والمشرق والمغرب، فلا يقارن من آثر الورود على الجواد الكريم ليجزيه من فضله بلا حساب، وبين من آثر الورود على الخلق ليقتص منهم سواء في الدنيا أو في الآخرة.

١٩- أن العفو إنما يندب إليه، ويرغب فيه، إذا كان فيه إصلاح للمعفو عنه، أما إذا لم يكن فيه إصلاح له، بل كان فيه ما يزيده جرأة على ارتكاب الإساءة مرة أخرى، أو أكثر، فلا يندب العفو عنه.

٢٠- تحريم الظلم بالاعتداء والإساءة إلى الآخرين، أو بالمعاقبة على السيئة بأشد منها، أو بغير ذلك؛ لأن الله نفى محبته للظالمين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢١- إثبات محبة الله تعالى للمؤمنين العادلين؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٢- أن من انتصر بعد أن ظُلم باستيفاء حقه، فلا حرج عليه ولا مؤاخذة؛ لأنه إنما أخذ بحقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

٢٣- أن المؤاخذة والحرج والإثم على الذين يظلمون الناس بالاعتداء والإساءة إليهم ابتداءً، أو بالمعاقبة على الإساءة بأشد منها، وعلى الذين يبغون في الأرض بغير الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٢٤- التهديد والوعيد للذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٥- الترغيب في الصبر على أذى الخلق، والعفو عنهم، وبيان أن ذلك من عزائم الأمور، ومن أعظم الخصال التي لا يوفق لها إلا أهل الصبر والهمم العالية، والحظوظ العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقد أحسن القائل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم(١)

٢٦- لا تنافي بين إباحة المجازاة بالمثل، واستيفاء الحق بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، وتأكيد ذلك، بقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾، وبين الندب إلى العفو بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وتأكيد ذلك بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾، فاستيفاء الحق جائز، والعفو أولى.

٢٧- أن من أضله الله كونًا وقدرًا فما له من ولي من بعده يهديه إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٢٨- أن من هداه الله فقد تولاه ولاية خاصة.

٢٩- شدة أسى الظالمين وندمهم على ما سلف منهم من الظلم والشرك، وتمنيهم حين رؤيتهم العذاب أن يكون لهم حيلة للرجوع إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحًا كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

---

(١) البيتان للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

٣٠- شدة خضوعهم حين عرضهم على النار؛ بسبب الذل والخوف والهوان الذي في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾.

٣١- نظرهم إلى النار مسارقة ومن طَرْف خفي؛ لشدة خوفهم وانزعاجهم منها؛ ليقينهم أنهم صائرون إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، فاجتمع عليهم ذل الظاهر بهذا النظر الخفي، وذل الباطن بكونهم خاشعين من الذل.

٣٢- اغتباط المؤمنين وتحدثهم بما أنعم الله به عليهم من السلامة مما لحق الظالمين من الخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

٣٣- أن الخاسرين الخسران المبين: هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها من الجنة ونعيمها، وإيباقها في النار وجحيمها، وخسروا أهليهم حيث فُرِّق بينهم وبينهم إلى آخر ما عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣٤- إثبات يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء، والربح والخسران.

٣٥- أن عذاب الظالمين بالشرك والكفر عذاب مقيم أبدي سرمدي، لا انقضاء له، ولا نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

٣٦- عدم وجود أولياء لهم ينصرونهم غير الله يدفعون عنهم عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٣٧- أن من أضله الله كونًا وقدرًا فلا طريق له إلى الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ الآية.

لما ذكر حال الظالمين يوم القيامة، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا، وندمهم حين رؤية العذاب، وعظم ما أعد لهم من العذاب، أمر بالاستعداد لذلك اليوم وحذرهم منه.

أي: أجيبوا لربكم بالإيمان به وتوحيده، وطاعته بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه. والسين والتاء: للمبالغة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ «أن» والفعل «يأتي» في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى ﴿قَبْلِ﴾، أي: من قبل إتيان يوم، أي: من قبل مجيء يوم؛ يعني: يوم القيامة. ونكّر للتعظيم.

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، أي: لا يمكن لأحد رده ومنعه إذا أتى الله به، وهو

سبحانه لا يرده إذا أتى به؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي في الموضعين، أي: ما لكم أيّ ملجأٍ، أي: أيّ معاذ أو ملاذ تلجؤون إليه، وتلوذون به من عذاب الله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم إتيان ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١٠- ١٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾، أي: وما لكم أيّ نكير، أي: أيّ قدرة على إنكار ما وقع منكم من الظلم والتكذيب، أي: لا يسعكم إلا الاعتراف، أو ما لكم أيّ منكِر يُنكِر ما نزل بكم ويدافع عنكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾؛ يعني: المشركين والمكذبين له ﷺ، أي: فإن أعرضوا عن الاستجابة لربهم، والإيمان به وتوحيده وطاعته، واستمروا على شركهم وظلمهم، فلا لوم عليك، أو فلا تحزن.

﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فما أرسلناك يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم، وتُسأل عنها، أو تُلزِمهم الاستجابة والإيمان، وفي هذا تسلية له ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، أي: ما عليك إلا البلاغ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وصبر وصابر وجاهد في الله حق جهاده، وناله من الأذى من قومه ما تنوء بحمله الجبال، وهو صابر محتسب، يقول:

هل أنت إلا أصبع دَمِيتِ ... وفي سبيل الله ما لَقِيتِ[1]

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، من ينكب في سبيل الله ٢٨٠٢، ومسلم في الجهاد والسير، ما لقي النبي ﷺ =

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾، أي: إذا أعطيناه منا رحمة وأوصلناها إليه، من صحة في بدنه، ورزق ورخاء، وأهل وولد، وغير ذلك من نعمنا التي لا تحصى.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: ١٨].

﴿فَرِحَ بِهَاۖ﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح اغتباط بنعمة الله تعالى وشكر.

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾؛ يعني: الناس ﴿سَيِّئَةُۢ﴾، أي: ما يسوء من قحط وجدب وفقر وشدة ومرض، ونحو ذلك، وهي ضد الرحمة والنعمة، أي: وإن يصبهم بلاء.

﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥].

والتعبير بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تزاوَل بها.

﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾، أي: جَحود لنعم الله تعالى، ينسى النعم السابقة، ويتسخط لما أصابه، وييأس ويقنط، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**أُريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن**». قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**»(١).

=

من أذى المشركين ١٧٩٦؛ من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، كفر العشير ٢٩، ومسلم في الكسوف، صلاة الكسوف ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣، وأحمد ١/ ٢٩٨.

قال ابن كثير[١]: «وهذا حال أكثر الناس، إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «**إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»[٢].

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: لله وحده ملك السموات والأرض؛ فهو خالقهما وما فيهما من المخلوقات، ومالكهما، والمتصرف فيهما.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾، أي: يخلق الذي يشاؤه من المخلوقات، أي: يوجده من العدم.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، أي: يعطي تفضلًا منه للذي يشاؤه من عباده ﴿إِنَٰثًا﴾، أي: بنات.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: ويعطي تفضلًا منه للذي يشاؤه من عباده الذكور.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث جبرًا لهن، وتقديمًا لما كانت تؤخره الجاهلية، وتقديمًا لما يشاؤه على ما يشاؤه الأبوان غالبًا، قال ابن القيم: «وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث، وعرّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف»[٣].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾، أي: يعطي تفضلًا منه من يشاء الزوجين: الذكور والإناث.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾، أي: ويجعل بعدله الذي يشاؤه من عباده ﴿عَقِيمًا ۚ﴾، أي: فلا يلد ولا يولد له.

فجعل عز وجل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه الذكور، ومنهم من يعطيه النوعين، ومنهم من يحرمه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا يولد له.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله خير ٢٩٩٩، وأحمد ٤/ ٣٣٢؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢٣.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع محيط بكل شيء.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة على كل شيء.

ولسعة علمه عز وجل، وتمام قدرته على كل شيء، يخلق ما يشاء من المخلوقات، ويعطي من يشاء الإناث، ويعطي من يشاء الذكور، ويعطي من يشاء النوعين: ذكورًا وإناثًا، ويجعل من يشاء عقيمًا، لا يولد له، وله في ذلك الحكمة البالغة.

قال ابن كثير[1]: «وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس؛ حيث خلق الخلق على أربعة أقسام: فآدم عليه السلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى من ذكر وأنثى، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، فتمت الدلالة بخلق عيسى بن مريم عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير».

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: ما كان لبشر تكليم الله له إلا وحيًا، «إلا»: أداة حصر، أو استثناء، ﴿وَحْيًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر، أي: إلا أن يوحي إليه وحيًا. والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾، أي: أن يلقي الوحي في قلب الرسول ويلهمه من غير إرسال ملك أو مخاطبة منه شفاهًا.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٣.

قال ابن كثير[١]: «وهو أنه تعالى يقذف في روع النبي ﷺ شيئًا، لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل؛ كما جاء في «صحيح ابن حبان» عن رسول الله صلى الله عله وسلم أنه قال: «**إن روح القدس نفث في روعي؛ أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب**»[٢].

﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، أي: أو يكلمه منه شفاهًا، لكن من وراء حجاب؛ كما كلم موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقد سأله موسى عليه السلام الرؤية بعد التكليم، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، فقال عز وجل: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وكما حصل للنبي ﷺ ليلة المعراج، فإن الله تعالى كلمه من وراء حجاب وفرض عليه الصلاة،

وحجابه النور؛ كما قال ﷺ: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٣].

وقال ﷺ لما قيل له: هل رأيت ربك؟ قال: «**رأيت نورًا**»[٣]، وفي رواية: «**نور؛ أنى أراه؟**»[٣].

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: «**ما كلم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا**»[٤].

قال ابن كثير[٥] بعد سوقه هذا الحديث: «قد قُتل يوم أحد- يعني: والد جابر- ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا».

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم» ٨/ ١٦٦- «٧٦٩٤»، وأبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٢٦؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة آل عمران ٣٠١٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٠، وفي الجهاد، فضل الشهادة في سبيل الله ٢٨٠٠، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٢٠٤.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ قرأ نافع برفع اللام: «أَوْ يُرْسِلُ»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾.

أي: أو يكلمه بأن يرسل رسولًا من الملائكة؛ وهو جبريل عليه السلام الموكل بالوحي.

﴿فَيُوحِيَ﴾ قرأ نافع بإسكان الياء: «فَيُوحِيْ»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿فَيُوحِيَ﴾، أي: فيوحيَ إلى الرسول ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، أي: بإذن الله عز وجل الكوني.

﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاؤه الله عز وجل من الوحي.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾، أي: إنه عز وجل ذو العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ في خلقه وقدره وشرعه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: مثل إحيائنا إلى غيرك من الرسل ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿رُوحًا﴾، أي: قرآنًا تحيا به القلوب، ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾، أي: من أمرنا الشرعي.

فالقرآن به حياة القلوب؛ كما أن بـ«الروح» حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي هذا امتنان منه عز وجل في ختام السورة على النبي ﷺ بالوحي إليه وتعظيمه؛ كما ابتدأها عز وجل بذلك في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ٣].

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾، أي: ما كنت تعلم وتعرف قبل وحينا إليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾، أي: ما القرآن؟

ويحتمل أن المعنى: ما كنت تدري ما الكتابة؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فلم يكن ﷺ قبل الوحي إليه يعرف الكتابة، ولا الوحي والكتب السابقة.

﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ «لا»: لتأكيد النفي، أي: وما كنت تدري ما الإيمان؟ أي: ما شرائع الإيمان؟ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾، أي: ولكن صيرنا شرعًا هذا الكتاب والروح ﴿نُورًا نَّهْدِى﴾، أي: نرشد ونوفق ﴿بِهِۦ﴾ الباء: للسببية، أي: بسببه ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، أي: الذي نشاء ونريد هدايته من عبادنا؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

قال ابن القيم: «فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين معًا؛ فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به»(١).

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: تدل وترشد إلى طريق عدل مستقيم، لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: صراط الله وطريقه وشرعه.

وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه هو الذي شرعه ووضعه، وهو موصل إليه؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: الذي له وحده جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا إلى الله وحده ترجع الأمور كلها، فيفصلها ويحكم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠، آل عمران: ١٠٩، الأنفال: ٤٤، الحج: ٧٦، فاطر: ٤، الحديد: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وإليه يرجع الخلائق كلهم يوم القيامة، فيفصل بينهم، ويجازيهم بأعمالهم؛ كما قال

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢٦- ١٢٧.

تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الاستجابة لله تعالى فورًا، بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا ترغيب بالمبادرة بالعمل، وذم للأمل؛ فإن للتأخير آفات.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكُم﴾.

٣- التحذير من يوم القيامة وأهواله وعذابه، والحث على الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٤- أنه لا راد ولا دافع ولا مانع لذلك اليوم إذا أمر الله بإتيانه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥- وعيد المكذبين وتهديدهم، وأنه ليس لهم أي ملجأ ولا مفر في ذلك اليوم، ولا يستطيعون أيّ نكير لما ارتكبوه من الظلم والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

٦- تسليته ﷺ، وبيان أنه ليس حفيظًا على من أعرض واستمر على تكذيبه وكفره، يحفظ أعمالهم أو يلزمهم الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله تعالى من بعده.

٧- أنه ليس عليه ﷺ بالنسبة للناس إلا إبلاغهم رسالة ربه، وكذا الدعاة بعده، أما هداية القلوب فبيد علّام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

وقد بلّغ صلوات الله وسلامه عليه البلاغ المبين.

٨- أن من طبيعة الإنسان- إلا من هداه الله ووفقه- أنه إذا آتاه الله رحمة منه من نعمة ورخاء، فرح بذلك فرح بطر وأشر، ونسي شكر المنعم عليه، وإن أصابته سيئة، من شدة وابتلاء، كفر نعمة الله السابقة وجحدها وتسخط مما أصابه وأيس وقنط؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

٩- أن الرحمة، وآثارها من جلب النعم ودفع النقم، كلها من الله تعالى.

١٠- أن ما يصيب الناس من المصائب إنما هو بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

١١- إضافة الكسب والعمل إلى اليد؛ لأنها هي الآخذة والمعطية، وأكثر الأعمال تزاول بها.

١٢- اختصاص الله عز وجل بجميع ملك السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وتدبيره ذلك كله وتصريفه على ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٣- قدرة الله التامة على خلق ما يشاء من المخلوقات؛ لسعة علمه، وقدرته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي: الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَن نَّشَآءُ﴾.

١٥- حكمة الله تعالى في هبته لمن يشاء من عباده إناثًا، وهبته لمن يشاء الذكور، وهبته لمن يشاء الذكور والإناث، وجعله من يشاء عقيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

١٦- يجب ألا ييأس من كان عقيمًا أن يرزقه الله الولد، ولا من كان نسله إناثًا ويريد الذكور، أو من كان نسله ذكورًا ويريد الإناث؛ أن يهبه الله ما يريد؛ لأن الله يخلق ما يشاء.

١٧- يجب على الإنسان أن يرضى بما قسم الله له وقدر من الذرية أو عدمها، فلا يسخط لكونه عقيمًا، ولا لكون نسله إناثًا، فلله الحكمة في ذلك، وليعلم علمًا يقينيًّا أن الخيرة فيما اختاره الله له.

كما ينبغي ألا يغتر من رزقه الله الذكور، أو الذكور والإناث، وليحذر أن يكون ذلك استدراجًا له، وتكليفًا لا تشريفًا.

١٨- في تقديم الإناث في الآية جبر لهن، ومخالفة لنظرة الجاهلية الدون لهن، وإظهار

أنه لا اختيار للزوجين، فما اختاره الله وشاءه وهبه لهما ولو خالف رغبتهما وإرادتهما.

١٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾.

٢٠- أنه عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾.

٢١- في اقتران صفة العلم الواسع والقدرة التامة في حقه عز وجل إثبات كمال خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

٢٢- أنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا من طريق الوحي، بأن يلقي ويقذف في قلب الرسول ويلهمه ما يعلم يقينًا أنه من عند الله، أو يكلمه من وراء حجاب؛ كما كلم موسى عليه السلام، أو يرسل رسولًا من الملائكة كجبريل عليه السلام أو غيره، فيوحي بإذنه تعالى إلى الرسول ما يشاؤه سبحانه من الوحي، وليس ثمة طريق غير هذه الطرق الثلاث؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

٢٣- إثبات عظمة الله تعالى، وأنه لا يستطيع أحد من البشر تلقيَ كلامه عز وجل إلا وحيًا، أو من وراء حجاب، أو بواسطة رسول يرسله من الملائكة.

٢٤- إثبات تكليم الله تعالى للرسل بالطرق الثلاث، وإثبات كون الرسل من البشر؛ خلافًا لمن أنكر ذلك من الأمم المكذبة للرسل.

٢٥- إثبات وجود الملائكة، وأن منهم الرسل بينه وبين الرسل من البشر، وبينه وبين خلقه.

٢٦- إثبات صفة العلو المطلق لله تعالى: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾.

٢٧- إثبات أنه سبحانه ذو الحكم التام: الكوني، والشرعي، والجزائي. وذو الحكمة البالغة: الغائية، والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٢٨- امتنان الله بإنزال الوحي عليه ﷺ في ختام هذه السورة؛ كما امتن عليه بذلك في أولها، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛

كما قال في أولها: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾ [الشورى: ٣].

٢٩- أن القرآن الكريم روح من أمر الله تعالى به حياة القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾.

٣٠- أنه ﷺ قبل وحي الله تعالى إليه ما كان عنده علم بالكتاب، لا بالقرآن ولا بالكتابة، ولا بالإيمان، حتى أنزل الله عليه القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

٣١- منة الله تعالى ونعمته في جعله القرآن نورًا وهدى يوفق بسببه الذي يشاء هدايته وتوفيقه من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾.

٣٢- أن الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾.

٣٣- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة، وعبودية من اهتدى منهم عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾.

٣٤- تشريفه عز وجل لنبيه ﷺ بخطابه له، وشهادته له، وثناؤه عليه وعلى هديه، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وهو صراط الله ودين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

٣٥- امتداحه عز وجل لصراطه ودينه، والإغراء باتباعه وتعظيمه لنفسه بعموم ملكه وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

٣٦- أن مصير جميع لأمور ومردها إلى الله تعالى، يفصل ويحكم فيها، وأن مرجع جميع الخلائق إليه تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسـير سورة الزمر ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- فضلها: ٧
د- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١...﴾ الآيات [١-٨] ١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ...﴾ الآيات [٩-٢٠] ٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات [٢١-٢٦] ٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ...﴾ الآيات [٢٧-٣٥] ٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ...﴾ الآيات [٣٦-٤٨] ٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ...﴾ الآيات [٤٩-٥٩] ٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ...﴾ الآيات [٦٠-٦٧] ١٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ الآيات [٦٨-٧٥] ١١٠
تفسـير سورة غافر ١٢٩
المقدمة ١٣١
أ- اسم السورة: ١٣١

ب- مكان نزولها: ١٣١
جـ- فضلها: ١٣١
د- موضوعاتها: ١٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ...﴾ الآيات [١-٦] ١٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴾ الآيات [٧-١٧] ١٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ...﴾ الآيات [١٨-٢٢] ١٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ...﴾ الآيات [٢٣-٣٥] ١٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ...﴾ الآيات [٣٦-٤٦] ١٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ...﴾ الآيات [٤٧-٥٦] ٢٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ...﴾ الآيات [٥٧-٦٥] ٢١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٦٦-٧٦] ٢٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ...﴾ الآيات [٧٧-٨٥] ٢٤٢
تفسير سورة فصلت ٢٥٣
المقدمة ٢٥٥
أ- اسم السورة: ٢٥٥
ب- مكان نزولها: ٢٥٥
جـ- فضلها: ٢٥٥
د- موضوعاتها: ٢٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ...﴾ الآيات [١-٨] ٢٦٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... ﴾ الآيات [٩-١٨] ٢٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ... ﴾ الآيات [١٩-٢٩] ٢٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ... ﴾ الآيات [٣٠-٣٦] . ٢٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ... ﴾ الآيات [٣٧-٤٥] ٣٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ... ﴾ الآيات [٤٦-٥٤] ٣٢٢
تفسـير سورة الشورى ٣٣٥
المقدمة ٣٣٧
أ- اسم السورة: ٣٣٧
ب- مكان نزولها: ٣٣٧
جـ - موضوعاتها: ٣٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ... ﴾ الآيات [١-٨] ٣٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ... ﴾ الآيات [٩-١٨] ٣٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ... ﴾ الآيات [١٩-٢٦] ٣٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ الآيات [٢٧-٣٥] ٣٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ الآيات [٣٦-٤٦] ٣٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ... ﴾ الآيات [٤٧-٥٣] ٤١١
فهرس الموضوعات ٤٢٣

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد العشرون

تفسير سورة الزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٢٠

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٤٠٠ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلزُّخْرُف

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الزخرف» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾.

وتسمى. سورة: «حم الزخرف».

ب- مكان نزولها:

مكية

جـ - موضوعاتها:

١ - افتتحت «سورة الزخرف» بقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ بيانًا لإعجاز القرآن وتعظيمًا له.

٢ - الامتنان بجعل القرآن عربيًا ليتعقله العرب، وبيان عظم مكانته عند الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

٣ - إقامة الحجة على المشركين وإن كانوا مسرفين، كما أرسل عز وجل كثيرًا من الرسل في الأولين، مع إطباقهم على الاستهزاء بالرسل، وأهلكهم مع شدة بطشهم ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

٤ - إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وجعل الأرض لهم مهدًا، وسلك لكم فيها السبل، وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض إلى غير ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٥- ذم المشركين في نسبتهم الولد لله، وجعل البنات له ولهم البنون، وتشاؤمهم بالأنثى، وجعلهم الملائكة بنات الله، وعبادتهم إياهم، واحتجاجهم بالقدر وتقليدهم آباءهم على جهل، والرد عليهم، وانتقام الله منهم وإهلاكهم: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٦- التذكير بإبراهيم عليه السلام وبراءته مما يعبده أبوه وقومه، وإخلاصه العبادة لله تعالى وحده: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٧- نكران المشركين لنعمة الله تعالى عليهم في تمتيعهم وآباءهم، بتكذيبهم الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق، وزعمهم أنه سحر وكفرهم به، وازدراؤهم للرسول ﷺ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

٨- معاقبة الله تعالى لمن يعش عن القرآن وذكر الله تعالى بتسليط الشيطان عليه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٩- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين له، وتقوية جنانه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ

نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

١٠- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه بالآيات العظيمة وتكذيبهم بها وضحكهم منها، وأخذهم بالعقوبات وما لقيه موسى عليه السلام من فرعون من الأذى، واستخفافه قومه وطاعتهم له، وغضب الله عليهم وانتقامه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

١١- ضرب المشركين المثل بعيسى بن مريم في كونه عبد من دون الله، ومعارضتهم بذلك القرآن وإعراضهم بسبب ذلك وخصامهم: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

١٢- التهديد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ بإتيان الساعة وعداوة بعضهم لبعض ووعيدهم بعذاب جهنم خالدين فيه، لا يفتر عنهم وهم فيها مبلسون، والوعد لعباد الله المتقين بالسلامة من الخوف والحزن وبدخول الجنة لهم فيها ألوان النعيم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ

جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

١٣- تنزيه الله عز وجل عن الولد، وإثبات عموم ربوبيته، وتهديد الكافرين ووعيدعم: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

١٤- إثبات عموم ألوهيته في السماء والأرض، وتمام حكمه وحكمته، وواسع علمه وتعاليه، وكثرة بركته، واختصاصه بملك السموات والأرض وما بينهما، وبعلم الساعة، ورجوع الخلائق إليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

١٥- بطلاب عبادة كل من يُدعى من دون الله، لأنهم لا يملكون الشفاعة، وليس لهم من الأمر شيء: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

١٦- الانكار على المشركين والتعجب من عبادتهم غير الله وكفرهم وعدم إيمانهم مع إقرارهم بربوبية الله تعالى لهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ
عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ
فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ
أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ
كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ
تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا
كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ
صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن
نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

قوله: ﴿حمٓ ۝١﴾ سبق الكلام عليه.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الواو: واو القسم، و«الكتاب»: مقسم به مجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: أقسم، والمراد به: «القرآن الكريم»؛ لأنه مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي المصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾: صفة لـ«الكتاب»، أي: البين الواضح الجلي في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، المبين للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولكل شيء يحتاج إليه العباد، من أمور الدين والدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جملة جواب القسم، ﴿قُرْءَٰنًا﴾: مفعول به ثانٍ منصوب لـ«جعل»، و﴿عَرَبِيًّا﴾: صفة لـ«قرآنًا».

والمعنى: إنا أنزلناه وأوحيناه وصيرناه قرآنًا عربيًّا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف:٢] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى:٧].

والمعنى: جعلناه بلغة العرب، التي هي أفصح اللغات وأبينها وأوضحها وأوسعها، وفي هذا ثناء على القرآن، وامتداح له؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٥]، وإقامة للحجة على المعاندين له، وهو بلغتهم، وتحدٍّ لهم؛ كما في قوله: ﴿حمٓ ۝١﴾.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لعلكم تعقلونه وتتفهمونه وتتدبرونه، فتنتفعوا بعقولكم.

فامتن عليهم بجعل القرآن عربيًّا بألفاظه ومعانيه وأحكامه؛ ليعقلوه؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت:٣]، وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [الزمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ [طه:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا الكتاب المبين: «القرآن الكريم» ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، أي: وإنه في اللوح المحفوظ لدينا، أي: عند الله في الملأ الأعلى، وسمي اللوح المحفوظ: أم الكتاب؛ لأنه مرجع لجميع ما يكتب من بعده.

﴿لَعَلِىٌّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لذو مكانة عالية، وشأن عظيم، وشرف رفيع.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو حُكْم وحِكْمة، مشتمل على الأحكام التامة المحكمة: الشرعية والجزائية والقدرية.

قال ابن القيم: «والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات

والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج:٢١-٢٢] وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح المحفوظ أفعاله وكلامه، فـ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب»(١).

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به: النفي، ﴿ٱلذِّكْرَ﴾: القرآن الكريم.

﴿صَفْحًا﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، أو مصدر في موضع الحال، أي: أفنصرف عنكم الذكر، ونترك تذكيركم بالقرآن إعراضًا عنكم؟

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة: «إِنْ» على أنها شرطية.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة: ﴿أَن﴾ على أنها مصدرية.

أي: بسبب كونكم قومًا مسرفين، أي: متجاوزين الحد في الكفر والإعراض عن القرآن.

وفي إقحام ﴿قَوْمًا﴾ في قوله: ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ دلالة على أن ذلك كان طبعًا لهم.

قال ابن القيم: «أي: نترككم، فلا ننصحكم، ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم»(٢).

والمعنى: أنه عز وجل يقول للمسرفين: لا نترك تذكيركم بالقرآن بسبب كونكم قومًا مسرفين معرضين عنه، بل اقتضت حكمتنا أن نذكركم به؛ رحمة ولطفًا بالعباد؛ ليهتدي من قدَّر الله هدايته، وتقوم الحجة على من ضل.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣١- ١٣٢.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

لما ذكر إسراف المشركين في الإعراض عن القرآن، والتكذيب له ﷺ، أتبع ذلك بذكر ما حصل لكثير من الأنبياء السابقين من الاستهزاء والتكذيب من أقوامهم، وإهلاكهم؛ تسلية له ﷺ، وتشجيعًا له على الصبر، وتهديدًا للمكذبين من قومه.

قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾، «كم»: خبرية تفيد التكثير، أي: وكثيرًا من الأنبياء أرسلنا في الأولين، أي: في الأمم السابقة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾، «من» لتوكيد عموم النفي.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: وما يأتيهم أيُّ نبي إلا كانوا به يستهزئون؛ تكذيبًا له، وبما جاءهم به من الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١﴾ [الصافات:٧١].

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، «بطشًا»: تمييز، أي: فأهلكنا المكذبين للرسل بالعذاب وأنواع العقوبات، وهم أشد من المكذبين لك يا محمد قوة وآثارًا في الأرض، فما أغناهم ذلك، ولا دفع عنهم عذاب الله.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الروم:٩]، وقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١﴾ [غافر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾ [غافر:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾ [ق:٣٦].

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: مضت سنة الله في إهلاك المكذبين، وجعلهم عبرة

لمن بعدهم من أمثالهم؛ كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ﴾ [الرعد:٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣٨]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢].

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «ومضى مثلهم»، مع أنه سبق قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾؛ ليكون الإخبار عنهم صريحًا، وجاريًا مجرى المثل.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الواو: استئنافية، واللام: موطئة للقسم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: والله لئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين، الذين يعبدون غير الله من الأصنام والأنداد:

﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: من الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهما على غير مثال سبق؟

﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، والنون للتوكيد، أي: ليقولن: خلقهن العزيز العليم، أي: الله وحده لا شريك له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان:٢٥، الزمر:٣٨].

فاعترفوا بأن الخالق لهن ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي: الله العزيز العليم، وفي قولهم: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى كمال عزته عز وجل، وَسعة علمه، وتعريض بنقص أصنامهم، فلا عزة ولا علم.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ الجملة مستأنفة، من كلام الله عز وجل، وليست من كلام المسؤولين عن خلق السموات والأرض.

قرأ عاصم: ﴿مَهْدًا﴾ بدون ألف بعد الهاء، وقرأ الباقون: «مِهَادًا» بالألف بعد الهاء.

أي: هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: فراشًا ممهدة، وقرارًا منبسطة مذللة، تتمكنون من السكن والبناء عليها، والسير والتصرف فيها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: طرقًا تسلكونها لمعاشكم بين الجبال والأودية، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن تهتدوا وتعرفوا الطرق في أسفاركم من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، فلا تتيهون الطريق.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، فانتقل من الامتنان عليهم بالسكن، إلى الامتنان عليهم بالرزق، وأعيد الموصول للاهتمام.

أي: والذي نزل شيئًا فشيئًا من السحاب الذي في العلو بين السماء والأرض- كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، أي: مطرًا بتقدير معلوم، وقدر الحاجة؛ لسقي الناس والأنعام، والزروع والثمار، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾، أي: فأحيينا بهذا الماء؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس:٢١، ٢٢].

﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، أي: بلدة أرضها مقفرة من النبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:٩].

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ [يس:٣٣-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر: «تَخْرُجُونَ» بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بالبناء للمفعول: ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

أي: كما أحيينا بالمطر الأرض بعد موتها، كذلك نخرجكم من قبوركم أحياء يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق:٩-١١].

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، «الذي»: معطوف على الموصول الأول في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: والذي خلق الأصناف كلها، من الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الأنعام:١٤٣].

ومن النباتات، ومن كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات:٤٩]، كالأرض والسماء، والشمس والقمر، والليل والنهار، والحر والبرد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾، أي: السفن البحرية بأنواعها المختلفة، الشراعية والبخارية، وغير ذلك.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي: وجعل لكم من الأنعام ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي تركبونه في البحر، وهي السفن، وفي البر الإبل التي تسمى: «سفائن الصحراء».

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس:٤١، ٤٢].

﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ اللام: للتعليل، أي: لتستووا على ظهور هذا المركوب من الفلك والأنعام، أو لتستووا على ظهور ما جعله الله لكم من الفلك والأنعام ركوبًا، أي: تعلوا عليه وتستقروا عليه.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: إذا استويتم على ظهر هذا المركوب بالاعتراف له بها بقلوبكم، ونسبتها إلى الله وحده، والثناء على الله بها، وشكره عليها بطاعته بجوارحكم.

﴿وَتَقُولُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿تَذْكُرُوا۟﴾، أي: وتقولوا بعد ركوبكم: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى، وتقديسًا له وتعظيمًا، الذي ذلل لنا هذا المركوب، وذلك لإبعاد الزهو والخيلاء عن النفوس حال الركوب.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، أي: وما كنا لهذا المركوب مطيقين وقادرين على تسخيره، لولا تسخير الله وتذليله لنا ذلك.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنا إلى ربنا وحده لراجعون وصائرون.

وهذا أيضًا تأكيد لإبعاد الخيلاء والكبر عن النفوس؛ لما فيه من التذكر للآخرة، والاستحضار في هذا السفر الدنيوي السفر الأخروي إلى الله تعالى، وإلى الدار الآخرة، مع بعد الشقة، وقلة الزاد.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ

رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، **اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل**»، وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: «**آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- إقسام الله عز وجل بالقرآن؛ تعظيمًا له، وتنويهًا ببيانه ووضوحه، وتبيينه لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

٣- الامتنان على العرب وغيرهم بجعل القرآن عربيًّا بأفصح اللغات، وأوسعها، وأكثرها ألفاظًا، وأوضحها معانيَ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

٤- أن الحكمة من جعل القرآن عربيًّا بأفصح اللغات وأوسعها؛ لأجل أن يتدبر العرب وغيرهم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره ويتفهموه، ويعقلوه، وتقوم عليهم الحجة بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾.

٥- أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

٦- أن القرآن عند الله عز وجل، وفي الملأ الأعلى ذو مكانة عالية، وشأن عظيم، وشرف رفيع؛ لما اشتمل عليه من أحكام وحكم، ولإحكامه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾

---

(١) أخرجه مسلم في الحج، ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ١٣٤٢، وأبو داود، في الجهاد، ما يقول إذا سافر ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات، ما يقول إذا ركب الدابة ٣٤٤٧، وأحمد ٢/ ١٤٤.

[عبس:١١-١٤].

٧- أن الله عز وجل لم يترك تذكير العباد بالقرآن- رحمة منه ولطفًا بهم- وإن أسرفوا في الإعراض عنه؛ ليهدي عز وجل بذلك من كتبت له الهداية، ويُصِر من كتبت عليه الشقاوة، وتقوم الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾.

٨- كثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله في الأولين إقامة للحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

٩- استهزاء الأمم السابقة بجميع أنبيائهم، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾.

١٠- إهلاك المكذبين من الأمم السابقة، وقد كانوا أشد قوة من كفار قريش، ولم تغن أو تدفع عنهم قوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

١١- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه بذكر ما لقي الأنبياء- مع كثرتهم- من أقوامهم من الاستهزاء بهم، والتكذيب لهم، وإهلاكه عز وجل للمكذبين.

١٢- تهديد ووعيد المكذبين له ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين للرسل من قبلهم؛ مما يوجب عليهم أخذ العظة والعبرة، فهذه سنة الله في المكذبين، والسعيد من وعظ بغيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٣- إقرار المشركين واعترافهم بربوبية الله تعالى، وأنه الذي خلق السموات والأرض، ومع ذلك يعبدون غيره من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

١٤- إثبات اسمين من أسمائه عز وجل، هما: «العزيز العليم»، وصفة العزة التامة، والعلم الواسع له عز وجل، واعتراف المشركين بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٥- إثبات اختصاصه عز وجل بالخلق؛ لكمال عزته وعلمه، والتعريض بنقصان الأصنام والأنداد، فلا عزة لها ولا علم.

١٦- الامتنان بجعل الأرض ممهدة مذللة صالحة للعيش والبناء والسكن عليها، وجعل السبل فيها، يهتدي فيها السائرون والمسافرون، وبيان تمام قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

١٧- أن الله عز وجل لو لم يجعل الأرض ممهدة لم يستطع الإنسان العيش عليها، ولو لم يجعل الله فيها السبل ما استطاع الإنسان الاهتداء فيها، وفي هذا إشارة لما هو أعظم، وهو الاهتداء إلى جنته بما نصبه من الصراط المستقيم.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٩- بيان تمام قدرته تعالى وسابغ نعمته في تنزيل المطر من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

٢٠- حكمة الله تعالى في تقدير كل ما ينزل من السماء من مطر وغيره، فهو ينزل بقدره عز وجل وتقديره، فلا يزيد عن الحاجة فيضر، ولا ينقص عنها فيقل نفعه؛ لقوله تعالى: ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾.

٢١- إثبات البعث بعد الموت، وقدرته عز وجل التامة على ذلك؛ كما أحيا الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

٢٢- كمال عظمته عز وجل وقدرته في خلق الأصناف من الحيوان والنبات ومن كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

٢٣- الامتنان على العباد بجعله وتسخيره لهم من الفلك ما يركبونه في البحر، وهي السفن بأنواعها، ومن الأنعام ما يركبونه في البر، وهي الإبل سفن الصحراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

يضاف إلى ذلك ما هيأه الله لهم، وأنعم به عليهم، وأقدرهم عليه، وعلمهم صنعه، من المراكب؛ كالطائرات والسيارات، وغير ذلك، فكل ذلك بتسخيره وفضله ومنته ونعمته؛ كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٨].

٢٤- أن ما امتن الله به على العباد من الفلك والأنعام لركوبهم؛ لينتفعوا بذلك، ويذكروا نعمته عز وجل عليهم بذلك، ويشكروه بنسبة ذلك إليه، وطاعته، بعيدًا عن الزهو والفخر، والاغترار بالنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾.

٢٥- الترغيب بذكر الله تعالى عند الاستواء على المركوب، وقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا، ثم قال: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾» الحديث(١).

٢٦- الحث على تعظيم الله تعالى وتقديسه، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وطاعته وشكره على تسخير هذه المركوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾.

٢٧- الإقرار والاعتراف بأنه لولا تسخير الله تعالى لهذه المركوبات، ما استطاع العباد تسخيرها بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

٢٨- ضعف الإنسان وقصوره ونقصه أمام كثير من المخلوقات لولا لطف الله تعالى به.

٢٩- إثبات البعث والرجوع إلى الله تعالى، وتذكر الآخرة والردِّ إليه عز وجل في حال الركوب؛ بُعدًا عن الكبر والخيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين.

* * *

(١) سبق قريبًا ذكره بتمامه وتخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ﴾، أي: وجعل المشركون لله تعالى عز وجل من عباده ومخلوقاته بعضًا ونصيبًا بنسبتهم الولد إليه عز وجل، وقولهم: الملائكة بنات الله؛ كما قال اليهود: عزير ابن الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله. والولد جزء من والده، تعالى الله عن ذلك.

وبجعلهم بعض ما أعطاهم الله من الحروث والأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله بزعمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان، ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لجحود بيِّن الكفر والجحود لربه، أو لنعمه، إلا من هداه الله.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾، «أم» في الموضعين: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتخذ الله، أي: جعل ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾، أي: من الذي يخلق ﴿بَنَاتٍ﴾؛ يعني: الملائكة؟ لأنهم يقولون: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم.

﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، أي: أخلصكم وخصكم بالبنين الذكور؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل:٥٧].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين الذين نسبوا لله تعالى الولد وخصوه بالبنات، تعالى الله عن ذلك كله.

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾، أي: بالذي ضربه للرحمن مثلًا، أي: بالأنثى التي نسبها للرحمن، حين زعم أن الملائكة بنات الله، أي: إذا أخبر بأنه ولد له بنت.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: صار وجهه مسودًّا.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: كئيب حزين ممتلئ غمًّا، من شدة الغضب والغيظ، والأنفة من كون المولود له أنثى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٨، ٥٩].

قال ابن القيم: «يعني: أن أحدكم لا يرضى أن يكون له بنت، فكيف تجعلون لله ما لا ترضونه لأنفسكم؟»(١).

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بضم الياء، وفتح النون، وتشديد الشين: ﴿يُنَشَّؤُا۟﴾، وقرأ الباقون: بفتح الياء، وإسكان النون، وتخفيف

(١) «بدائع التفسير» ٤/ ١٣٢.

الشين: «يَنْشَأُ».

والهمزة في قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾ للاستفهام الإنكاري، و«مَن»: اسم موصول في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره: يجعلون، أي: أيجعلون الذي ينشأ في الحلية، أي: يربى في الزينة، وهي الأنثى التي تربى في الزينة تكميلًا وتجميلًا لها.

﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ﴾، أي: في الخصومة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾، أي: غير مظهر لحجته ومفصح عنها، وهي الأنثى؛ لأن المرأة غالبًا لا تستطيع الإبانة عن حجتها في الخصومة، وعاجزة عن الانتصار لنفسها. قال قتادة: «قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها، إلا تكلمت بالحجة عليها»(١).

والمعنى: أيجعلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين، وهي الأنثى، كالذكر الذي ليس كذلك؟

﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بنون ساكنة، ودال مفتوحة، من غير ألف: «عِنْدَ» على أنه ظرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء:١٩].

وقرأ الباقون بالباء وألف بعدها، وضم الدال: ﴿عِبَٰدُ﴾، جمع: «عبد».

والواو استئنافية، أي: وجعل المشركون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، أي: اعتقدوا فيهم أنهم إناث، وقالوا: إنهم بنات الله. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين، الأولى مفتوحة، والثانية مضمومة، مع إسكان الشين: «أَأُشْهِدُوا».

وقرأ الباقون بهمزة واحدة مفتوحة، مع فتح الشين: ﴿ أَشَهِدُواْ ﴾.

والاستفهام للإنكار، أي: أشهد هؤلاء المفترون الذين جعلوا الملائكة إناثًا، وحضروا خلقه عز وجعل الملائكة، وقد خلقهم إناثًا؟

والمعنى: أأشهدهم الله خلق الملائكة؟ كما قال تعالى في سورة الصافات:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠/ ٥٦٤.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات:١٤٩-١٥٤].

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بأن الملائكة إناث، أي: سيكتبها عليهم الحفظة الكرام الكاتبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لهم.

والمراد: أنهم ما شهدوا وما حضروا خلق الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الصافات:١٥٠] وقال تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف:٥١].

﴿وَقَالُوا۟﴾ وقال المشركون الذين عبدوا الملائكة، وجعلوا لهم أصنامًا يعبدونها، يزعمون أنها على صور الملائكة:

﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، أي: لو شاء الرحمن وأراد كونًا ما عبدنا الملائكة.

فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة والقدر، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلًا وشرعًا؛ كما في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨] وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ [النحل:٣٥].

وقد جمعوا بفعلهم هذا بين عدد من الموبقات؛ الأولى: نسبتهم الولد لله عز وجل، وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

الثانية: عدم إنصافهم في نسبتهم له البنات خاصة؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وآثروا أنفسهم بالبنين، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:٢١-٢٢].

الثالثة: عبادتهم الملائكة بلا حجة، ولا دليل، ولا برهان.

الرابعة: احتجاجهم بالقدر، وزعمهم أن الله أقرهم على ذلك، ولو شاء لحال بينهم وبين عبادتهم.

والاحتجاج بالقدر باطل، فكونه تعالى قدر ذلك وشاءه لا حجة لهم فيه؛ لأن الله قدر وشاء كلًّا من الإيمان والكفر، وأمر شرعًا بالإيمان به، وعبادته وحده، ونهى عن عبادة ما سواه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف:٤٥].

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ ﴾، أي: ما لهم بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ﴾، ﴿مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾، «من»: مؤكدة، أي: ما لهم بهذا القول- أي: بالرضا بعبادتهم الملائكة- أيُّ علم؛ لأن العلم بأن الله شاءه لا يحصل لهم إلا بعد وقوع ذلك منهم- فضلاً من أن يكون رضيه- فلماذا لم يتركوا عبادتهم ويقولوا: إن الله شاء ألا نعبدهم؟

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾، «إن»: نافية، بمعنى «ما»، أي: ما هم إلا يخرصون، أي: يُخمنون ويَتخرصون بلا علم، وبلا عقل.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

لما نفى أن يكون قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۗ﴾ مستندًا إلى علم أو عقل،

انتقل إلى نفي أن يكون مستندًا إلى نقل.

قوله: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: بل آتيناهم كتابًا ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: من قبل القرآن، أو من قبل شركهم، يدعوهم إلى عبادة الملائكة وغيرها من المعبودات من دون الله.

﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾، أي: فهم بهذا الكتاب مستمسكون؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم:٣٥].

أي: ليس الأمر كذلك، فلم يأتهم كتاب قبل القرآن، وقبل إشراكهم بالله يستمسكون به فيما هم عليه من الشرك، أي: فلم يعتمدوا في ذلك لا على عقل ولا نقل؛ ولهذا قال:

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، فاحتجوا أولًا بالقدر، ثم انتقلوا للاحتجاج بالقدوة، فقالوا في تبريرهم لشركهم، وذكر ما اعتمدوا عليه في ذلك:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾، أي: على دين وملة وطريقة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢]، أي: ملتكم ملة واحدة، وهي دين الإسلام.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: على خطاهم وعلى أثرهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، أي: متبعون ومقلدون لهم.

فليس لهم مستند فيما هم عليه من الشرك سوى التقليد الأعمى لآبائهم وأجدادهم، والتعصب لهم، ولو كان آباؤهم هم الآخرون لا مستند ولا دليل لهم لا من علم ولا من عقل ولا من نقل فيما هم عليه من الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ

إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ [هود:١٠٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذا تسلية له ﷺ، وبيان لإطباق المكذبين قبل قومه على هذا المسلك، وترديد هذه المقالة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:٤٣].

وقال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٣].

وفيه تهديد للمكذبين من قومه بالانتقام منهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل هذا الذي قيل لك يا محمد قيل لمن قبلك، أي: مثل ما قال المشركون من قومك من تقليدهم لآبائهم.

﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، أي: منعَّموها وأهل الثراء فيها:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، أي: متبعون مقلدون.

أي: فالمشركون من قومك يا محمد ليسوا ببدع من هؤلاء، وليسوا بأول من قال هذه المقالة، بل كل القرى التي أرسلنا إليهم النذر قال مترفوها هذه المقالة.

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿قَٰلَ﴾ على الخبر، وقرأ الباقون: «قُلْ» على الأمر.

وقرأ أبو جعفر: «جِئْنَاكُمْ» بنون وألف على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿جِئْتُكُم﴾ بالتاء مضمومة على الإفراد.

والاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَوْ﴾ تقريري مشوب بالإنكار، أي: قال الرسول للمشركين من قومه: أتقلدون آباءكم ولو جئتكم بأهدى من الذي وجدتم عليه آباءكم؟!

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أي: إنا بالذي أرسلتم به أنت ومن قبلك كافرون، أي: جاحدون له، غير مؤمنين به- وهذا دليل على إيثارهم للباطل والهوى، على الحق والهدى، وعلى شدة عنادهم ومكابرتهم للحق، ولمن جاء به، وشدة تعصبهم وتقليدهم لما عليه آباؤهم، ولو كان آباؤهم على ضلال، لا يعقلون شيئًا، ولا يعلمون، ولا يهتدون.

وفي قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ تنزل معهم؛ إذ لا شك أن ما جاءهم به هو عين الهدى، وليس فقط أهدى مما كان عليه آباؤهم؛ لأن آباءهم ليسوا على هدى بل على باطل وضلال، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أي: فعاقبناهم بأنواع العقوبات بسبب تكذيبهم وكفرهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: فانظر أيها المخاطب كيف كانت عاقبة تكذيبهم وكفرهم، وكيف كانت نهايتهم المؤلمة وهي إهلاكهم بأنواع العقوبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين في نسبتهم الولد إلى الله تعالى، وجعلهم له نصيبًا من عباده ومخلوقاته، وكفرهم البين بالله تعالى، وجحودهم لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

٢- إثبات عبودية الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٣- أن الولد جزء من والده؛ ولهذا قُدِّم الولد على الوالد في التعصيب في الميراث، فإذا هلك هالك عن أبيه وابنه فلأبيه السدس فرضًا، والباقي للابن تعصيبًا، فسهم الأب واحد من ستة والباقي خمسة أسهم للابن؛ كما أنه يجوز للأب أن يتملك من مال ابنه ما لا يضره، وهذا وذاك؛ لأن الولد جزء من والده.

٤- أن من طبيعة الإنسان إلا من هدى الله الكفر بربه وجحود نعمه؛ مما يوجب الحذر من ذلك.

٥- الإنكار على المشركين جورهم في القسمة بعد أن نسبوا الولد لله- تعالى الله عن ذلك- بجعل البنات له، وتخصيص أنفسهم بالبنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

٦- شدة امتعاض واستياء من وُلدت له أنثى من هؤلاء الذين ينسبونها لله تعالى، واسوداد وجهه، وامتلاء قلبه حزنًا وغمًّا من شدة الغضب والغيظ، والأنفة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

٧- تأثر ظاهر جسم الإنسان وبشرته بما يعتلج في قلبه من فرح وسرور، وضد ذلك.

٨- إثبات اسم الله «الرحمن»، وأنه سبحانه ذو الرحمة الذاتية الثابتة له عز وجل، وذو الرحمة الفعلية التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٩- حكمة الله تعالى في المفاضلة بين الجنسين الذكر والأنثى في القدرات البدنية، والعقلية، والمشاعر، وغير ذلك، وجعل الذكر من حيث العموم أكمل الجنسين في كثير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

وكما قالت امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦].

١٠- إباحة التحلي بأنواع الحلي كلها للمرأة من الذهب والفضة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾.

١١- أن المرأة من حيث العموم قد لا تستطيع الإبانة عن حجتها في الخصومة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. وهذا لا يمنع أن يكون من بين النساء من هي أفصح من كثير من الرجال؛ كما هو مشاهد.

١٢- إبطال دعوى المساواة بين الرجل والمرأة، وما جبل عليه كل منهما، ولو جعلهما الله على السوية في القدرات كلها ما التأما ولا انقاد كل منهما للآخر وأنس به، فلا يجتمع سيفان في غمد، ولا أميران في بلد واحد، وهذا من السنن الكونية.

١٣- زعم المشركين واعتقادهم ودعواهم أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾.

١٤- إنكاره تعالى عليهم هذا الزعم الكاذب، وأنهم لم يشهدوا ولم يحضروا خلق الملائكة، فكيف يزعمون هذا الزعم الباطل؟ لقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾.

١٥- تهديدهم بكتابة شهاداتهم، وسؤالهم عنها، ومعاقبتهم عليها؛ لقوله تعالى:

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

١٦- إثبات كتابة أعمال العباد.

١٧- إثبات البعث والمعاد والحساب، والجزاء على الأعمال.

١٨- احتجاجهم بالقدر، وأن الله لو شاء ما عبدوا الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

١٩- بطلان حجتهم هذه؛ لأنه لا حجة لأحد بالمشيئة والقدر، فكل ما يجري في الكون هو مما شاءه الله وقدره، بما في ذلك الشرك والتوحيد، والكفر والإيمان، وغير ذلك، فلماذا لم يتركوا عبادة الملائكة وغيرها من المعبودات، ويقولوا: لو شاء الله ما تركنا عبادتهم، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وتقديره مقادير كل شيء.

٢١- أن هؤلاء المحتجين بالقدر لا علم عندهم؛ لأنهم احتجوا بالمشيئة على ما حصل منهم بعد وقوعه، فعلمهم لاحق، وليس بسابق، وإنما يعتمدون على الكذب والتخمين.

٢٢- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يشاء أفعال العباد، وإنهم مستقلون بخلق أفعالهم ومشيئتها.

٢٣- أن الله لم يؤتهم كتابًا قبل القرآن، وقبل شركهم يدل على جواز ما هم عليه من الشرك، فيَدَّعوا أنهم به مستمسكون، ولم ينزل على العرب كتابًا سوى القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فلا حجة لهم فيما هم عليه لا من علم، ولا عقل، ولا نقل.

٢٤- أن قصارى ما لديهم هو التعصب لآبائهم، والتقليد الأعمى لهم فيما هم عليه من الشرك والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٢٥- تسليته ﷺ ببيان أن هذا هو ديدن المكذبين للرسل: التعصب لآبائهم، وتقليدهم فيما هم عليه من الجهل والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

٢٦- ذم الترف، ووجوب الحذر منه؛ لأنه يحمل أصحابه على رد الحق، وعلى الأشر والبطر والكفر.

٢٧- خطر التعصب للآباء، وتحريم التقليد لهم أو لغيرهم على جهل وضلال؛ لأنه كان سبب ضلال كثير من الخلق.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «أن المنافق أو المرتاب عندما يسأل في قبره يقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»(١).

٢٨- الإنكار على هؤلاء المقلدين لآبائهم: كيف يتركون ما جاءهم من الحق على لسان الرسول ﷺ، ويتبعون آباءهم على جهل وضلال؟ لقوله تعالى: ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾.

٢٩- جواز المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل، والتنزل مع الخصم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾.

ومعلوم أنه ليس فيما هم عليه شيء من الفضل البتة.

٣٠- شدة ما هم عليه من العناد والمكابرة للحق، ولمن جاء به، وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

٣١- إقرارهم برسالة الرسل مع مخالفتهم لهم؛ لقولهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾.

٣٢- انتقام الله عز وجل من الأمم السابقة، بسبب تكذيبهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين للنبي ﷺ أن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم.

٣٣- وجوب النظر والتأمل فيما حل بالمكذبين السابقين من العقوبات، وأخذ العظة والعبرة من ذلك، والحذر مما حل بهم، فالسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

لما ذكر ما عليه المشركون من التعصب لآبائهم، والتقليد لهم على جهل وضلال؛ كحال المكذبين قبلهم، أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يتخذ أسوة، وهو إبراهيم عليه السلام في براءته من أبيه وقومه لما أصروا على الاستمرار على الشرك.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بفعل محذوف، أي: واذكر إذ قال إبراهيم خليل الرحمن، وإمام الحنفاء، لأبيه آزر، وقومه المشركين.

﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، أي: إنني بريء على الدوام من الذي تعبدونه من دون الله من الأصنام التي تنحتونها وتعبدونها؛ كما قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٥-٩٦].

فلم يقلد أباه وقومه على ما هم عليه من الشرك والضلال، بل أعلن لهم البراءة مما هم عليه من الشرك، بل منهم ما داموا على الشرك؛ كما قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الذي خلقني، وهو ربي عز وجل الذي يستحق العبادة دون سواه، فإني أعبده وحده وأتولاه.

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ الفاء: تعليلية، والسين: للاستقبال، أي: فإنه بإذنه وتوفيقه سيهديني إلى العلم بالحق، والعمل به.

﴿وَجَعَلَهَا﴾، أي: وجعل عز وجل شرعًا كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وعبادته تعالى وحده لا شريك له، وموالاته وحده، والبراءة مما سواه:

﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾، أي: دائمة ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾، أي: في ذرية إبراهيم عليه السلام.

أي: عهِدَ عز وجل إليهم بها، يَقتدي به عليه السلام فيها، ويسير عليها من هداه الله من ذريته عليه السلام، ويتوارثها الأنبياء من ذريته وأتباعهم، بعضهم عن بعض، إلى يوم القيامة؛ أسوة به؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ودعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

وقيل: الضمير المستتر في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعود إلى إبراهيم، بمعنى أنه عليه السلام وصى بها بنيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢] والأظهر القول الأول.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يرجع إلى عقبه، أي: لأجل أن يرجعوا إليها، ويتمسكوا بها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل متعت هؤلاء المشركين وآباءهم بأنواع النعم، وأمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة- مع ما هم عليه من الشرك والكفر- فتطاول عليهم العمر، فتمادوا في طغيانهم وضلالهم.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: إلى غاية أن جاءهم الحق؛ يعني: القرآن الكريم، ووصف القرآن بـ«الحق»؛ لأنه أنزل ملابسًا للحق في طريق وصوله إلى النبي ﷺ، وجاء مشتملًا على الحق في أحكامه، وعلى الصدق في أخباره؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ورسول بيّن الرسالة، وهو محمد ﷺ، مبين للقرآن بما أوحاه إليه من السنة، ومبين الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

ومبين الأحكام الشرعية؛ من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الواو: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط، والمراد بـ«الحق»: القرآن.

﴿قَالُوا۟﴾ مكابرة وعنادًا، وبغيًا وعدوانًا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾؛ كما قال الوليد بن المغيرة لما قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤].

﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له.

﴿وَقَالُوا۟﴾ معطوف على ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾، أي: وقالوا أيضًا معترضين على الله في اصطفائه محمدًا ﷺ للرسالة، ومقترحين على الله بعقولهم الفاسدة:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، أي: هلَّا نزل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾؛ يعنون: مكة والطائف، ﴿عَظِيمٍ﴾، أي: ذي مكانة عظيمة، أي: لكنا قبلناه، ولكنه لم ينزل على رجل من القريتين عظيم، فلا نقبله.

قيل: أرادوا بالرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي، وقيل غير ذلك.

وفي هذا سوء أدب منهم مع الله تعالى، واعتراض على اختياره وحكمه، واحتقار

للنبي ﷺ، وتنقص له- بأبي وأمي- وهو أفضل الخلق على الإطلاق، وسيد ولد آدم.

وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:١٢٤].

كما أن في هذا إبطالًا لقولهم: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾؛ لأنهم هنا أقروا بأنه قرآن، وإنما اعترضوا على المنزَل عليه، وهو النبي ﷺ.

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ الاستفهام: للإنكار، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: أهم يقسمون رحمة ربك يا محمد؟ يعني: النبوة؛ لأنها أعظم رحمة رحم الله بها العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والمعنى: ليسوا هم الخزنة لرحمة ربك يقسمونها على ما يريدون، فيعطوا النبوة لمن شاؤوا، ويمنعوها عمن شاؤوا.

﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، أي: أرزاقهم وما فيه عيشهم في الحياة الدنيا.

﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ﴾، أي: فضلنا بعضهم على بعض.

﴿دَرَجَٰتٖ﴾، أي: منازل ورتب متفاوتة؛ في أرزاقهم، وأحوالهم، وقدراتهم، وغير ذلك.

فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وهذا صحيح وهذا مريض، وهذا عالم وهذا جاهل، ونحو ذلك.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾، أي: لحكمة عظيمة، وهي أن يجعل بعضهم بعضًا سخريًّا، أي: ليُسخِّر بعضهم بعضًا في الأعمال، والحرف والصنائع؛ لاحتياج بعضهم إلى بعض؛ كما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم(١)

ولو لم يجعل الله بعضهم فوق بعض، ويسخِّرْ بعضهم لبعض؛ لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري. انظر: «ديوانه» (ص١٢٠٣)، «السحر الحلال» (ص١٠٢).

وإذا كان الله عز وجل قسم بينهم معيشتهم وأرزاقهم الدنيوية، وفاوت بحكمته بينهم في ذلك، فكيف يتطاولون بالاعتراض على الله في قسمة رحمته التي هي النبوة، واصطفائه من خيرة عباده من يعلم أنه أهل لها، أزكى الخلق قلبًا ونفسًا، وأفضلهم خلقًا، ظاهرًا وباطنًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا ومنبتًا.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ بالتوفيق للإيمان به، وطاعته، والفوز بجنته.

﴿خَيْرٌ﴾ خيرية مطلقة من جميع الوجوه.

﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: خير من جمعهم، أو من الذي يجمعونه من حطام الدنيا الفاني؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨].

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾، «لولا»: حرف شرط غير جازم، و«أن» والفعل «يكون» في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ بحذف مضاف، أي: لولا كراهة كون الناس.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: جماعة واحدة على الكفر، أي: لولا كراهة أن يجتمع الناس كلهم على الكفر حبًّا للمال والدنيا، أو اعتقادًا أن إعطاءنا المال والدنيا دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر.

﴿لَّجَعَلْنَا﴾ اللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لجعلنا كونًا، وصيَّرْنا.

﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، «مَن»: موصولة، أي: للذي يكفر بالرحمن.

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف: «سَقْفًا»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿سُقُفًا﴾، واللام: رابطة لجواب «لولا».

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾: بدل من قوله: ﴿لِمَن﴾، أي: لبيوت من يكفر بالرحمن.

﴿سُقُفًا﴾: مفعول أول لـ«جعل»، وهو جمع: «سَقْف»، وهو أعلى البيت وغطاؤه.

﴿مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: مبنية من فضة، وهي المعدن الثمين المعروف، وأحد النقدين: الذهب والفضة.

﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على «سُقفًا»، أي: ومعارج من فضة، أي: ومصاعد وسلالم ودرجًا من فضة.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: يصعدون ويعلون إلى أعلى بيوتهم وسطوحها؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]، أي: يعلوه.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ معطوفة على ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: ولجعلنا لبيوتهم أبوابًا من فضة، أي: مداخل وأغلاقًا لبيوتهم مصنوعة من فضة.

﴿وَسُرُرًا﴾ معطوف على ﴿أَبْوَٰبًا﴾، أي: وسررًا من فضة.

ويجوز أن يكون «سررًا» مفعول به لفعل محذوف تقديره: «جعلنا»، فتكون الجملة معطوفة على «جعلنا» الأولى.

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ نعت لـ«سررًا».

﴿وَزُخْرُفًا﴾ الواو: عاطفة، و«زخرفًا»: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: «جعلنا»، معطوف على جواب الشرط: «جعل»، أي: وجعلنا زخرفًا، أي: ذهبًا، أو أنواع الزخارف الدنيوية.

أي: لولا لطفه عز وجل ورحمته بعباده، وكراهية أن يتسارعوا إلى الكفر والمعاصي، ويجتمعوا على ذلك إيثارًا للحظوظ الدنيوية، أو اعتقادًا أن ذلك دليل رضا الله، لولا ذلك لأعطيناهم كل ما ذكر، ووسعنا عليهم الدنيا توسيعًا عظيمًا.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الواو: استئنافية، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: وما كل ذلك، والإشارة لكل ما ذكر من السقف، والمعارج، والأبواب، والسرر من الفضة، والزخرف.

﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم، وهي للحصر، أي: وإن كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

وقرأ الباقون بتخفيف الميم: «لَمَا»، فتكون «إنْ» مخففة من «إنَّ» المشددة التي للتوكيد، وتكون اللام الداخلة على «لما»: للتوكيد، و«ما»: زائدة للتوكيد أيضًا، أي: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا.

والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية الحقيرة عند الله تعالى، يُتمتع به ثم يزول، وهو من تعجيل حسناتهم بما وسع عليهم في الدنيا؛ ليوافوا الله وليس لهم عنده حسنة.

قال ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطَى بها في الدنيا، ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَمُ بحسناتِ ما عمِلَ بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**»(١).

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(٢).

﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: والآخرة والجنة ونعيمها عند ربك للمتقين خاصة، الذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

عن عمر رضي الله عنه؛ أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على رمال(٣) حصير قد أثَّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان ﷺ متكئًا فجلس، وقال: «**أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟!**» ثم قال: «**أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا**».

وفي رواية: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»(٤).

وقال ﷺ: «**لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في**

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر ٢٨٠٨، وأحمد ٣/ ١٢٣، ١٢٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، ما جاء في هوان الدنيا على الله ٢٣٢٠، وابن ماجه، باب مثل الدنيا ٤١١٠، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٣) أي: نسج.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٦٨، وفي تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ومسلم في الطلاق، الإيلاء واعتزال النساء ١٤٧٩، والترمذي في التفسير ٣٣١٨.

الدنيا، ولنا في الآخرة»[١].

الفوائد والأحكام:

١- فضيلة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وثناء الله تعالى عليه، وامتداحه له في براءته من أبيه وقومه ومعبوداتهم لما أصروا على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢- شدة إخلاصه عليه السلام لربه، وعبادته له وحده لا شريك له؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

٣- وجوب البراءة من الشرك وأهله، وأن الشرك والتوحيد لا يجتمعان أبدًا.

٤- إثبات أنه عز وجل هو الخالق وحده؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

٥- أن مِن لازِم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية.

٦- قوة رجاء إبراهيم عليه السلام، وحسن ظنه بربه وهدايته له؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

٧- أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى، فينبغي اللجوء إليه وحده، وسؤاله الهداية والتوفيق، ورجاؤه، وحسن الظن به عز وجل.

٨- فضل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وذريته، في جعله كلمة التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله كلمة باقية فيهم إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾.

٩- أن الله عز وجل جعل كلمة التوحيد في ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لأجل أن يرجعوا ويتوبوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة، الأكل في إناء مفضض ٥٤٢٦، ومسلم في اللباس والزينة، تحريم استعمال إناء الذهب والفضة ٢٠٦٧، وأبو داود في الأشربة ٣٧٢٣، والنسائي في الزينة ٥٣٠١، والترمذي في الأشربة ١٨٧٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤١٤، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

١٠- وصية إبراهيم عليه السلام بكلمة التوحيد بنيه، ودعاؤه لهم بالتمسك بها، ومجانبة الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وقوله عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

١١- اغترار المشركين المكذبين بما متعهم الله به من النعم، وما أغدق عليهم من الخيرات والمنن، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، وتماديهم في الغي والطغيان والضلال حتى جاءهم الحق، بإنزال القرآن، وبعثة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

١٢- أن القرآن الكريم حق، وجاء ملابسًا للحق، ومشتملًا على الحق.

١٣- أن الرسول ﷺ بيِّنُ الرسالة، مبيِّن للقرآن، ومبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، وللأحكام الشرعية.

١٤- شدة مكابرة المشركين وعنادهم، وبغيهم وعدوانهم؛ لوصفهم القرآن بالسحر، وكفرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

١٥- سوء أدبهم مع الله، واعتراضهم عليه سبحانه باصطفائه محمدًا ﷺ، واقتراحهم على الله عز وجل بعقولهم الفاسدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

١٦- أن القرية تطلق على المدينة الكبيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣].

١٧- تناقضهم؛ فمرة يصفون القرآن بالسحر، ومرة يعترضون على من أُنزل عليه القرآن، وفحوى هذا: أنهم يعترفون بأنه قرآن وليس بسحر.

١٨- عظم جهلهم وسفههم، وحسدهم وحقدهم؛ حيث اعترضوا على إنزال القرآن على محمد ﷺ احتقارًا وتنقصًا له ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأفضل الخلق وأزكاهم على الإطلاق من جميع الوجوه؛ في أخلاقه وصفاته، وشمائله الخَلقية والخُلقية، الظاهرة والباطنة، وفضلوا عليه من لا وزن له عند الله، من الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥].

قال السعدي[١]: «وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه إلا من ضل وكابر، فكيف يفضِّل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟».

١٩- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته فوق خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾.

٢٠- إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق، والرد على القدرية.

٢١- إنكاره عز وجل على المشركين اعتراضهم على اصطفائه عز وجل محمدًا ﷺ للرسالة، وإنزال القرآن عليه، واقتراحهم من ليس أهلًا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٢٢- التعجب من تطاولهم في الاعتراض على قسمته عز وجل النبوة، وهم عاجزون عن قسمة معيشتهم وجلبها؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية.

٢٣- أن القرآن الكريم رحمة من الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ وعلى عباده، بل هو أعظم الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾.

٢٥- أن الرحمة كلها بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بفضله وعدله وحكمته.

٢٦- أن الأرزاق كلها من الله، وهو الذي قسم بين العباد معيشتهم في الدنيا، بحكمته وعدله وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢٧- حكمة الله تعالى في المفاضلة بين العباد في أرزاقهم ومعاشهم وأحوالهم؛ ليجعل بعضهم بعضًا سخريًّا في الأعمال والصناعات، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٦٤٤.

٢٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ الآية.

٢٩- أن الناس لو كانوا كلهم طبقة واحدة، وعلى مستوى واحد من الغنى أو الفقر، ما سخَّر بعضهم بعضًا، وما خدم بعضهم بعضًا، ولما استقام أمرهم، وانتظمت أحوالهم، ولما عمر الكون.

٣٠- أن رحمة الله تعالى بالتوفيق للإيمان به وطاعته، والفوز بجنته، خير مطلقًا من جميع ما يجمعه الناس من حطام الدنيا الفاني، وأن النعمة الدينية خير من النعمة الدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٣١- أن الجنة رحمة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧]، أي: في جنته.

وفي الحديث القدسي: قوله عز وجل للجنة: «**أنت الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(١).

٣٢- حقارة الدنيا، وكل ما يجمع منها، وأنها لا تعدل شيئًا بالنسبة للآخرة وما عند الله من الرحمة والجنة.

٣٣- أن إعطاء الله الدنيا والمال ليس دليلًا على رضاه، ولولا لطفه بعباده ورحمته بهم لئلا يجتمعوا على الكفر؛ حبًّا للدنيا، أو اعتقادًا بأن إعطاء الله المال دليل محبته، لزاد في زخرفها لكل من يكفر به؛ لهوانها وهوانهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾.

٣٤- أن الله لو وسع الدنيا على الناس، وأغدق عليهم من ملذاتها وشهواتها وزينتها وزخارفها أكثر من حاجتهم، لطغوا وبغوا وتكالبوا على الكفر، وتسارعوا إليه،

---

(١) سبق تخريجه.

واجتمعوا عليه؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦، ٧].

٣٥- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة لله تعالى، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من عباده.

٣٦- أن كل ما يعطاه الناس من زينة الدنيا وزخارفها وملذاتها ونحو ذلك، ما هو إلا متاع الحياة الدنيا يزول بزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٣٧- أن الدار الآخرة وما فيها من الجنان والنعيم، إنما هي للمتقين خاصة دون غيرهم، الذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

٣٩- الترغيب بتقوى الله تعالى، والحث عليها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾، لما ذكر خطر الدنيا وزخارفها، وأن فتنتها قد تؤدي إلى الكفر، حذر وتوعد من ينشغل بها ويعرض عن ذكر الله.

قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾، أي: يتعامى ويعرض ويصد عن ذكر الله تعالى: القرآن الكريم الذي هو أعظم رحمة أنزلها الله تعالى على العباد، ورحمهم بها، ويعرض ويغفل عن ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن كثير(١): «والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هنا: عشا البصيرة».

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قرأ يعقوب: «يُقَيِّضْ» بالياء، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نُقَيِّضْ﴾، أي: نهيئ له، ونسلط عليه شيطانًا مريدًا.

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: جملة جواب الشرط «من»، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، والضمير في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ يعود إلى الشيطان، والضمير في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ يعود إلى المعرض عن ذكر الله.

أي: فهو له مقارن، مصاحب على الدوام، يؤزه إلى المعاصي أزًّا؛ كما قال تعالى:

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢١٤.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت:٢٥].

﴿وَإِنَّهُمْ﴾، أي: وإن هؤلاء القرناء من الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾، اللام: للتوكيد، أي: ليصرفون من سُلطوا عليهم ممن تعامَوْا عن ذكر الله وأعرضوا عنه.

﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن الصراط المستقيم، والطريق القويم.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: ويظن هؤلاء الذين صُدُّوا عن السبيل بسبب تزيين قرنائهم من الشياطين لهم الباطل وتحسينه، وتزهيدهم بالحق وتشويهه، وبسبب إعراضهم عن ذكر الله.

﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: ويظنون أنهم على هدى، وأنهم على الحق.

وهذه قاصمة الظهر، والمصيبة الكبرى، والبلية العظمى، أن يكون الإنسان على ضلال، ويظن أنه على هدى، فيستمرئ ما هو عليه من الضلال، ولا يطرق باب الهدى، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤].

وقد أحسن القائل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسَنِ

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم بألف بعد الهمزة على التثنية: «جَاءَانَا»، أي: المعرض عن ذكر الله، وقرينه من الشياطين. وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد: ﴿جَآءَنَا﴾، أي: حتى إذا وافانا يوم القيامة المعرض عن ذكر الله، الذي سُلِّط عليه قرينه من الشياطين بسبب إعراضه.

﴿قَالَ﴾، أي: قال هذا المعرض مخاطبًا لقرينه متبرئًا منه، متحسرًا متندمًا: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾.

«يا»: للتنبيه، و«ليت»: للتمني، أي: أتمنى أنه كان بيني وبينك أيها القرين.

﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بُعد ما بين المشرق والمغرب. وإنما يقال: «المشرقان» من باب التغليب؛ كما يقال: «القمران» للشمس والقمر، و«العُمَران» لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ونحو ذلك.

وقيل: المراد مشرقي الشمس في الشتاء والصيف؛ لأن بينهما مسافة بعيدة جدًّا.

والمعنى: ليت أني كنت بعيدًا عنك كل البعد؛ حتى أسلم من صدك إياي عن سبيل الحق، وغرورك لي.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا؛ صددتني عن الحق، وأضللتني وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

فكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، بأن يُخفّف العذاب عنكم. والخطاب للذين تعاموا عن ذكر الله، ولقرنائهم الذين صدوهم عن السبيل.

﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ بكفركم وضلالكم أنتم وقرناؤكم، ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

قرأ ابن عامر بكسر الهمزة على الاستئناف: «إِنَّكُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنَّكُمْ﴾.

والمصدر المؤول: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ في محل رفع فاعل ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، أي: ولن ينفعكم اشتراككم أنتم وقرناؤكم جميعًا في العذاب في النار؛ لأن كلًّا منكم له نصيبه من العذاب، ولا يخفِّف عذابُ فريق منكم عذابَ الفريق الآخر.

فأنتم لكم نصيبكم من العذاب بسبب إعراضكم عن ذكر الله، وطاعة قرنائكم في الضلال، وهم لهم نصيبهم من العذاب بسبب ضلالهم وإضلالهم لكم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا

نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

فلا يتسلى أحد منكم بمشاركة الآخر له بالعذاب؛ كما هو حال أهل المصائب في الدنيا، يتسلى المصاب بمصاب غيره؛ كما قالت الخنساء(١):

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكين مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الاستفهام: للتعجب والنفي، أي: أفأنت يا محمد تسمع الصم الذين لا يسمعون، ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ الذين لا يبصرون؟

أي: أنك يا محمد لا تستطيع إسماع الصم عن سماع الحق إسماع تدبر وفهم وانتفاع، ولا هداية العمي عن طريق الحق بقلوبهم وبصائرهم، أي: لا تستطيع إسماعهم الحق سماع انتفاع، ولا هدايتهم إليه هداية قبول واتباع.

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الواو: عاطفة، و«مَن»: اسم موصول في محل نصب معطوف على «العمي»، أي: أو تهدي من كان في ضلال مبين؟ أي: الذي كان في ضلال عن الحق بيِّن ظاهر.

أي: أنك لا تستطيع هداية من هو أصم أعمى لا يسمع الحق، ولا يبصره، ولا يفقهه، ومن كان في ضلال بيِّن ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة:١٨]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

وفي هذا تسلية له ﷺ، فلا ييأس ولا يحزن على ضلال من ضل، ممن أصم الله آذانهم، وأعمى أبصارهم عن الحق، وختم على قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة:٧].

أي: أن هؤلاء ليس لهم إلا العذاب عاجلًا أو آجلًا؛ ولهذا قال:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ

(١) انظر: «ديوانها» (ص٨٤).

﴿٤٢﴾.

الفاء: استئنافية، و«إن»: شرطية، و«ما»: مؤكدة، والفاء: رابطة لجواب الشرط في الجملتين، و«أو»: عاطفة، أي: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾، أي: نتوفينك قبل تعذيبهم، ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة، أي: فلا بد من الانتقام منهم وإن ذهبت أنت، وفي هذا تأكيد لعقابهم وإن توفاه الله قبل ذلك.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾، أي: أو نرينك الذي وعدناهم، أي: الذي توعدناهم به من العذاب بالانتقام منهم في حياتك.

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ الاقتدار: شدة القدرة وتمامها، أي: فإنا عليهم قادرون تمام القدرة، فإما أن نأخذهم بالعذاب العاجل، أو بالعذاب الآجل؛ كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠].

وكأنه ﷺ والمؤمنون استبطؤوا تأخير الانتقام من المشركين.

وقد أراه الله عز وجل في حياته ما أقر عينه، وشفى صدور المؤمنين، وأذهب غيظ قلوبهم، في بدر الكبرى؛ حيث نصرهم الله تعالى، فقتلوا من صناديد المشركين سبعين، وأسروا سبعين، وأظهر الله دينه، وأعلى كلمته، وتوالت الهزائم على المشركين، إلى أن تُوج ذلك بفتح الله عز وجل له ﷺ مكة، وتمكينه من رقاب المشركين، فمَنَّ عليهم صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم: «**اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء**»(١).

وليس في قوله ﷺ في الحديث: «**أنا أَمَنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون**»(٢)، ما يدل على أن الله لم يُرِ نبيه ﷺ ما وعده من الانتقام من المشركين في حياته؛ لأن هذا الحديث فيه: «أنه ﷺ أمنة لأصحابه»، أي: أمنة لهم من الفتن.

والآية إنما هي في المشركين المستحقين للانتقام والعذاب، وقد انتقم الله منهم في

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٠٠) (١٨٢٧٦)، وفي «معرفة السنن والآثار» (١٣/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣١، وأحمد ٤/ ٣٩٨- ٣٩٩، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

بدر وغيرها، وأراه ذلك.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«استمسك»: أبلغ من «أَمسِكْ»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا.

أي: فاستمسك بالذي أوحي إليك من القرآن والسنة، وخذ به واتبعه، عملًا به، ودعوة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأحزاب:٢].

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الجملة: تعليلية؛ لتثبيته ﷺ، أي: لأنك على صراط مستقيم، أي: على طريق عدل قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى الله، وإلى دار كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل:٧٩].

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾؛ يعني: القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنه لتذكير لك ولقومك، أي: عظة وعبرة لكم، وتذكير لكم بالأحكام والأوامر والنواهي؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٤].

وأيضًا شرف لك ولقومك؛ لأنه أنزل بلغتكم التي هي أفصح اللغات وأوسعها، فكان به شرفها وخلودها، وشرفكم.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ عن هذا القرآن، وعن الاستجابة له، والعمل به، والدعوة إليه، فالمسؤولية عليكم أعظم من غيركم.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي بتخفيف الهمزة: «وَسَلْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ وَسْـَٔلْ ﴾.

أي: واسأل جميع الذين أرسلنا قبلك من رسلنا؛ لتقوم الحجة على المشركين، أي: استقرئ شرائع من أرسلنا من قبلك من رسلنا.

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الاستفهام للنفي، أي: أجعلنا غير الرحمن آلهة يعبدون؟

أي: أن جميع الرسل لم يقروا الشرك بالله، بل دعوا إلى ما دعوت إليه من توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ونهوا عن الشرك وعبادة الأصنام والأنداد.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

فقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩] وهكذا قال هود وصالح وشعيب عليهم السلام لأقوامهم، وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فلا مستند للمشركين في إشراكهم من دون الله، لا من عقل، ولا نقل.

الفوائد والأحكام:

١- عقوبة الله تعالى لمن تعامى عن القرآن الكريم وأعرض عنه؛ بتسليطه عز وجل عليه شيطانًا يقارنه ويلازمه، ويضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٧].

٢- وجوب الحذر من الغفلة والإعراض عن القرآن، وعن ذكر الله تعالى.

٣- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾.

٤- صد هؤلاء القرناء من الشياطين وصرفهم لمن سلطوا عليه عن الصراط المستقيم، والطريق القويم، وتضليلهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٥- عظم مصيبة الذين أعرضوا عن ذكر الله، وصدهم قرناؤهم من الشياطين عن السبيل، حيث تعمى قلوبهم، ويظنون أنهم على هدى، وهذه والله قاصمة الظهر: أن يكون الإنسان ضالًّا ويظن أنه على هدى، فيركن إلى ما هو عليه من الضلال، ولا

يبحث عن طريق الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

٦- الحذر من قرناء السوء، وتزيينهم الباطل، وصدهم عن الحق.

٧- إثبات البعث والمعاد، ولقاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾.

٨- تبرؤ المعرض عن ذكر الله يوم القيامة من قرينه، وتحسره وندامته على مصاحبته له، وتمنيه أن لو كان بينهما بُعد ما بين المشرق والمغرب، وذمه له، وهيهات أن ينفعه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

٩- أنه لا ينفع المعذبين من الضالين والمضلين، والأتباع والمتبوعين، اشتراكهم في العذاب بأن يخفِّف عذابُ فريق منهم عذابَ الفريق الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي هذا تهديد بشدة عذابهم، دون أي تخفيف، ولو بالتسلي بمن هو أشد منهم عذابًا، أو بمن هو مثلهم؛ كما هو الحال في مصائب الدنيا.

١٠- أن المعذبين في النار يعلمون أنهم مشتركون في العذاب، ولكن ذلك لا يسليهم، ولا يهون عليهم المصاب.

١١- أن مصير الظالمين بالكفر والشرك واحد هو العذاب في النار، واشتراكهم في ذلك، على اختلاف منازلهم في دركات النار.

١٢- تسليته ﷺ؛ لئلا ييأس ويحزن على ضلال من ضل ممن أصم الله سمعه، وأعمى بصره وبصيرته عن الحق، فضل الضلال المبين، فمهمته ﷺ البلاغ فقط، والهداية والإضلال بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢].

١٣- أنه لا سبيل إلى هداية من أضله الله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، ومن كان في ضلال مبين؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[الجاثية:٢٣].

١٤- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾، وقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وما بعد ذلك.

١٥- وعد الله تعالى له ﷺ بالانتقام من أعدائه المشركين لا محالة، إما عاجلًا في حياته، وإما آجلًا بعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾.

وقد أراه عز وجل في بدر من الانتقام منهم والنصر عليهم ما أقر عينه، وشفى صدور المؤمنين، وكذا ما بعدها، إلى أن فتح الله له مكة، ودانت له رقاب العرب قاطبة.

١٦- أن الوعد كما يكون في الخير يكون في الشر أحيانًا.

١٧- أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وليس له من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

١٨- أنه لا ضير على الرسول ﷺ في تأخير الانتقام من أعدائه إلى ما بعد وفاته، بل ولا في تأخير النصر أيضًا؛ لأن لله تعالى وحده الحكمة في ذلك كله.

وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله تعالى والمصلحين أن يعملوا، ويَدَعوا أمر النتائج إلى الله تعالى.

١٩- الوعيد للمكذبين بالانتقام منهم إما في الدنيا أو في الآخرة، وبيان تمام قدرة الله تعالى.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على الانتقام منهم عاجلًا أو آجلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

٢١- تثبيت الله تعالى له ﷺ؛ بأمره بالتمسك بوحيه إليه، والثناء عليه وعلى هديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

وغيره من أتباعه المؤمنين مأمورون من باب أولى.

٢٢- إثبات وحيه تعالى إليه ﷺ، وإثبات رسالته، واستقامة طريقه.

٢٣- أن القرآن الكريم تذكير وعظة وعبرة له ﷺ ولقومه، ولكل من اتبعه؛ فهو

بيان الأحكام والأوامر والنواهي، وغير ذلك؛ كما أنه شرف له ﷺ ولقومه؛ لأنه أنزل بلغتهم أفصح اللغات وأوسعها، فكان به شرفها وخلودها.

٢٤- مسؤولية الأمة عن الاستجابة لهذا القرآن، والعمل به، والدعوة إليه، ونشره، ومسؤولية العرب أشد وأعظم، الذين أنزل القرآن بلغتهم، وشرّفهم الله به؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

٢٥- إفحام المشركين، وإقامة الحجة عليهم في بطلان ما هم عليه من الشرك، الذي لم تقره جميع الرسالات والشرائع السابقة، بل أكدت كلها على النهي عنه، وعلى بطلانه، وعلى وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٢٦- إثبات الرسل والرسالات السابقة، واتفاقها على التوحيد، وأنه ﷺ هو خاتم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: ولقد ابتعثنا موسى بآياتنا الكونية العظيمة الدالة على صدقه، من الآيات التسع؛ كاليد، والعصا، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: إلى فرعون وأشراف قومه.

﴿فَقَالَ﴾ موسى عليه السلام لهم: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: أرسلني رب العالمين إليكم، أدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له دون سواه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، مضمن معنى الشرط، و«إذا»: فجائية، أي: إذا هم منها يضحكون استهزاءً وتكذيبًا بها، وجحودًا لها؛ ظلمًا وعلوًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وما نريهم أيَّ آية.

﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا هي أكبر من الآية التي قبلها؛ تدرجًا في تأكيد صحة دعوته؛ لإقامة الحجة عليهم.

﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، أي: عاقبناهم بالعذاب؛ من تسليط الجراد والقمل والضفادع والدم عليهم، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا ويتوبوا عن تكذيب آيات الله وجحودها، والاستهزاء بها، وعن الشرك، ويسلموا وينقادوا للحق.

﴿وَقَالُوا﴾ لموسى عليه السلام لما نزل بهم العذاب:

﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ هذا إما على سبيل الذم لموسى والتنقص له، والتهكم به، وتشويه دعوته، وأنه ساحر، وما جاء به سحر.

وإما على سبيل المدح والتعظيم له، أي: يا أيها العالم بالسحر؛ لأن السحر عندهم لم يكن مذمومًا، وكانوا يسمون الساحر بـ«العالم»، ويقوي هذا: أن الحال حال ضرورة وتضرع منهم لدفع العذاب عنهم.

﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لم يقولوا: ربنا، أو: ربنا وربك؛ لأنهم لا يؤمنون برب موسى، وهو الله عز وجل، وإنما يؤمنون بربوبية فرعون لهم وألوهيته.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بسبب عهده عندك، أو بسبب الذي عهده عندك.

أي: بما عهده إليك، وخصك به من الفضائل والمناقب.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إننا إن كشف عنا العذاب لمهتدون ومؤمنون.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلما أزلنا عنهم العذاب ورفعناه.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، «إذا»: فجائية، أي: إذا هم ينقضون عهدهم وقولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ويستمرون على ما هم عليه من الاستهزاء بآيات الله، والكفر بها، وجحودها؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ

ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الآيات:١٣٣-١٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾، أي: جمعهم ونادى فيهم مستعليًا بباطله، مغترًّا بملكه وسلطانه قائلًا:

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: ألست المالك لذلك، المتصرف فيه؟

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ يعني: نهر النيل والترع المتفرعة منه في وسط القصور والبساتين.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾، أي: في مملكتي وتحت تصرفي، أو تجري بأمري وتسخيري لها. وهذا لا يستبعد؛ لأنه ادعى الربوبية؛ كما ادعى الألوهية، قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفلا تبصرون ما أنا فيه من القوة والملك العظيم.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾، «أم»: هي المنقطعة، التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل أنا خير، وقيل: «أم» عاطفة، والجملة معطوفة على جملة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ يشير إلى موسى عليه السلام، وأشار إليه بإشارة القريب «هذا» احتقارًا له وتقليلًا من شأنه.

﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾، أي: حقير ذليل ضعيف؛ لا عز له، ولا ملك، ولا سلطان.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، أي: ولا يكاد يفصح عما في ضميره من الكلام، أي: ليس بفصيح اللسان.

وكذَبَ عدو الله، وإنما حمله على هذا الكفرُ والعتو والعناد والحقد والحسد لموسى عليه السلام والتخوف على ملكه وأُبَّهته منه، فموسى عليه السلام كليم الرحمن، الوجيه عند الله تعالى، ثالث أولي العزم من الرسل، وقد بلغ رسالته أتم بلاغ، وما ضره في ذلك ما أصاب لسانه من أثر تلك الجمرة التي تناولها في صغره، وقد سأل الله تعالى فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٧-٢٨] وقد استجاب الله له فقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦].

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

هذا من بقية كلام فرعون.

قرأ يعقوب وحفص: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ بإسكان السين من غير ألف.

وقرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها: «أَسَاوِرَةٌ».

قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدرة، و«لولا»: حرف تحضيض، أي:فهلا، ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾، أي: على موسى عليه السلام.

﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ الأسورة: ما يجعل في الأيدي من الحلي.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، أي: مقرونين معه يحفون به ويكتنفونه، يخدمونه ويصدقونه.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ الفاء: عاطفة في الموضعين، أي: فاستخف عقول قومه بترويج هذه الشبه، وتكذيب موسى، ودعوتهم إلى الضلال.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾، أي: فاستجابوا له فكذبوا موسى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ الجملة تعليلية، أي: لأنهم كانوا قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله تعالى، فقيض الله لهم فرعون، فاستخفهم بهذه الشبه، فأطاعوه، فصدهم عن الحق، فضلوا الضلال المبين.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾، أي: أغضبونا وأسخطونا بكفرهم وضلالهم وتكذيبهم بآياتنا.

﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، أي: عاقبناهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ في اليم وأهلكناهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴾، فلم ينج منهم أحد، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق.

كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام: «سُلُفًا»، وقرأ الباقون بفتحهما: ﴿سَلَفًا ﴾.

أي: فجعلناهم عظة وعبرة لمن يعمل مثل عملهم ممن جاؤوا بعدهم، والسعيد من وعظ بغيره.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إرساله عز وجل موسى بآياته إلى فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾.

٢- تبليغ موسى عليه السلام فرعون وملأه أنه مرسل إليهم من رب العالمين، وإقامته الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٤- استهزاء فرعون وملئه بآيات الله، وجحودهم وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٥- تتابع الآيات عليهم، كل آية أكبر من التي قبلها؛ تدرجًا في إقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ﴾.

٦- أخذهم بالعقوبات والعذاب؛ من تسليط الجراد والضفادع والدم وغير ذلك؛ لأجل أن يرجعوا ويتوبوا عما هم عليه من الجحود لآيات الله، والاستهزاء بها، ويسلموا وينقادوا للحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

٧- إثبات العلة والحكمة في أحكام الله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

٨- توسلهم إلى موسى أن يدعو ربه بما عهد إليه وفضَّله به أن يكشف عنهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾.

٩- وعدهم وتأكيدهم له أنهم لمهتدون إن دعا لهم وكشف العذاب عنهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾.

١٠- كذبهم ونقضهم ما وعدوا به من الاهتداء، واستمرارهم- بعد كشف العذاب عنهم- على الكفر والشرك والتكذيب بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

١١- استعلاء فرعون بباطله، واغتراره وافتخاره بملكه وسلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

١٢- افتخاره بما ليس له فيه يد بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ ﴾.

والذي أجرى هذه الأنهار هو الله عز وجل، فكيف يفتخر بجريانها من تحته، أو يدعي تسخيره لها؟!

١٣- ادعاؤه الخيرية لنفسه، واحتقاره لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾.

١٤- لمزه موسى بأنه لا يكاد يفصح عما في ضميره؛ لقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾.

وهذا باطل؛ لأن ما كان في لسانه عليه السلام من عقدة دعا الله عز وجل فحلها، فبلغ رسالة ربه على أكمل وجه، ولا يعاب في الأشياء الخلقية التي ليست من فعل الإنسان، ولا يذم بها.

١٥- طعنه في رسالة موسى، وانتقاصه لما جاء به من الآيات، وقوله عنادًا ومكابرة: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

١٦- استخفافه بعقول قومه بهذه الشبهات، وطاعتهم له، وإضلاله إياهم بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

١٧- أن الفسق والمعاصي سبب لما هو أعظم منها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

١٨- أن الكفر والمعاصي سببان لسخط الله وغضبه، وأن غضبه عز وجل سبب لانتقامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

١٩- إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿ءَاسَفُونَا﴾.

٢٠- إهلاكهم جميعًا بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢١- جعلهم عبرة وعظة لمن فعل مثل فعلهم ممن جاء بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «**إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير**». فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّا وعبدًا من عباد الله صالحًا، وقد عبدته النصارى؟ فإن كنت صادقًا، فإنه كآلهتهم. فأنزل الله: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ قال: يضجون. ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: «**هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة**»(١).

وفي رواية: «قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير**» فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّا، وعبدًا من عباد الله صالحًا؟ فقد كان يعبد من دون الله. فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾» (٢).

قوله: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾، «ابن»: نائب فاعل، «مثلًا»: مفعول به منصوب بتضمين «ضُرب» معنى «جُعل»، أي: ولما ضرب المشركون عيسى بن مريم مثلًا في كونه عُبِدَ من دون الله، وعارضوا به قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣١٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٤.

قال ابن تيمية: «ضارِبه هو الذي عارض به قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨].

فلما قال ابن الزبعرى: لأخصمن محمدًا، فعارضه بالمسيح، وناقضه به، كان قد ضربه مثلًا قاس الآلهة عليه، ويرجح هذا قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾. فعلم أنهم هم الذين ضربوه- يعني: المشركين- لا النصارى»(١).

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمزة بكسر الصاد: ﴿يَصِدُّونَ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «يَصُدُّونَ».

«إذا» فجائية، أي: إذا قومك يا محمد ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، «من» سببية، أي: بسبب هذا المثل الذي ضربوه يلِجُّون في خصومتهم ويضجون ويضحكون فرحًا وجذَلًا؛ اعتقادًا منهم أنهم غلبوا وأفلحوا في حجتهم، ويعرضون بسبب ذلك عن القرآن.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري.

أي: وقال المشركون: آلهتنا من الأصنام والأوثان خير.

﴿أَمْ هُوَ﴾؟ الهمزة للاستفهام، «أم»: حرف عطف، أي: أم عيسى بن مريم؟

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾، أي: ما ضرب المشركون هذا المثل لك يا محمد وعارضوا به.

﴿إِلَّا جَدَلًۢا﴾؛ إلا: أداة حصر، «جدلًا»: مفعول لأجله، أي: إلا لأجل الجدل، أو مصدر في موضع الحال منصوب، أي: إلا مجادلين، أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلا مراء وخصامًا بالباطل؛ لأن عيسى عليه السلام وكل من عبد من العقلاء وهو غير راضٍ أن يعبد من دون الله؛ كالعزير والملائكة والصالحين، فهو غير داخل قطعًا في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء:١٠١].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿خَصِمُونَ﴾ جمع: «خصم»،

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٢٢.

أي: شديدو الخصومة بالباطل.

عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾(١).

وفي رواية عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضبًا شديدًا، حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ: «**لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل**»، ثم تلا: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾(٢).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، أي: ما هو، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما عيسى بن مريم إلا عبد من عبادنا أنعمنا ومننا عليه بالنبوة والرسالة، وليس كما زعمت النصارى أنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: وجعلناه عظة وعبرة وآية ودلالة على تمام قدرتنا لبني إسرائيل في خلقه من أم بلا أب.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾، أي: بدلكم، ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، أي: يخلفونكم فيها، ويخلف بعضهم بعضًا، ولو فعلنا ذلك، لأرسلنا إليهم ملائكة منهم رحمة بهم؛ ليتمكنوا من الأخذ منهم؛ كما أرسلنا رسلًا منكم رحمة بكم؛ لكي تتمكنوا من الأخذ منهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ الضمير يعود إلى عيسى عليه السلام، واللام: للتوكيد، أي: وإن نزول عيسى عليه السلام علامة وآية وأمارة ودليل على قرب قيام الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الزخرف ٣٢٥٣، وابن ماجه في المقدمة ٤٨، وأحمد ٥/ ٢٥٢، ٢٥٦، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٢٨.

[النساء:١٥٩].

وقد ثبت وتواتر عن النبي ﷺ الخبر بنزول عيسى بن مريم قبل يوم القيامة إمامًا عدلًا، وحكمًا مقسطًا(١).

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، أي: فلا تشكُّنَّ بها؛ فإنها واقعة وكائنة لا محالة.

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، تنجوا وتفوزوا.

﴿هَٰذَا﴾، أي: الإيمان بقيام الساعة، وما آمركم باتباعي عليه وسلوكه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: طريق عدل قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾ عن اتباعي وسلوك الطريق المستقيم.

﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: عدو ظاهر العداوة، حريص على صدكم عن الحق وإغوائكم؛ كما أخرج أبويكم من الجنة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ لبني إسرائيل ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات الدالة على صدقه وصحة نبوته؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾، «قد»: حرف تحقيق، أي: قد جئتكم بالنبوة والعلم والهدى.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن أبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمر دينكم، أي: لأبين لكم الحق والصواب في ذلك؛ لأنه عليه السلام جاء مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة، وجاء ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاء به.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك ما أنهاكم عنه من الشرك بالله، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ بفعل ما آمركم به من طاعته عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٢٢، ومسلم في الإيمان ١٥٥، والترمذي في الفتن ٢٢٣٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: تعليل لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، يفيد الحصر والتوكيد، أي: إن الله وحده ربي وربكم، الذي يجب أن نعبده وحده دون سواه.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له، وأخلصوا له، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي: ما أمرتكم به من تقوى الله وطاعته، والإقرار بربوبيته وعبادته وحده لا شريك له: طريق عدل مستقيم، ومنهج قويم، يجب اتباعه وسلوكه، ولا ينبغي العدول عنه.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾، «الأحزاب» جمع: حزب، أي: الفرق.

﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾، أي: من بين بني إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام بالبينات، أي: اختلفت مواقفهم منه، ومقالاتهم فيه، فمنهم من أقر بأنه عبد الله ورسوله، وشهدوا له بذلك، وصدقوا ما جاء به.

ومنهم من غلا فيه وعبده من دون الله، وهم ثلاث فرق من النصارى: منهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة.

ومن بني إسرائيل من كذبه، وهم اليهود لعنهم الله.

﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: خسار وهلاك ودمار ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: بالإشراك بالله وتكذيب رسله.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فويل لهم؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وأنه سبب هلاكهم وخسارهم ودمارهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، أي: من عذاب يوم القيامة المؤلم الموجع، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

الفوائد والأحكام:

١- ضرب بعض المشركين مثلًا بعيسى بن مريم، ومعارضتهم ما توعدهم الله به من أنهم ومعبوداتهم حصب جهنم، بقياسهم آلهتهم على عيسى بن مريم الذي عُبد من

دون الله، وفرحهم بذلك، وصدهم وإعراضهم بسبب هذا المثل؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٢- دعواهم الباطلة أن آلهتهم من الأصنام والأوثان خير من عيسى عليه السلام؛ لقولهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾.

٣- أنهم ما ضربوا هذا المثل له ﷺ إلا مجادلة ومخاصمة بالباطل؛ لأنهم أهل خصومة وجدال بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٤- أن عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد من عباد الله، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، وجعله عبرة وعظة ودلالة على تمام قدرة الله تعالى في خلقه من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

٥- الرد على المشركين الذين استدلوا بعبادة من عبد عيسى بجواز عبادة الأصنام، وعلى النصارى الذين قالوا: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وعلى اليهود الذين أنكروا رسالته وكذبوه، ببيان أنه عبد من عباد الله لا يعبد، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة.

٦- بيان أنه عز وجل لو شاء لجعل بدل بني آدم ملائكة في الأرض يخلفونهم، ويخلف بعضها بعضًا، وأرسل إليهم رسلًا منهم، وفي هذا رد على من يطعنون بكون الرسل من البشر، وتهديد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

٧- إثبات مشيئة الله تعالى، وتمام قدرته، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٨- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في العالم العلوي.

٩- أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان علامة وآية ودلالة على قرب قيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾.

١٠- وجوب الإيمان بقيام الساعة، والمعاد والبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾.

١١- وجوب اتباع الرسول ﷺ بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه؛ لقوله:

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾.

١٢- أن الإيمان بقيام الساعة، واتباع الرسول ﷺ هو الصراط العدل القويم؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

١٣- تحذير العباد من أن يصدهم الشيطان عن اتباع الرسول، وسلوك الصراط المستقيم، وبيان شدة عداوته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٤- إثبات رسالة عيسى عليه السلام، وإتيانه لبني إسرائيل بالآيات البينات الشرعية والكونية الدالة على صدقه، وبالحكمة والعلم، وبيان بعض الذي يختلفون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾.

١٥- أن عيسى عليه السلام جاء مكملًا ومتممًا لشريعة موسى ولأحكام التوراة؛ لقوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾.

١٦- أمره لقومه بتقوى الله تعالى، وطاعته؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

١٧- إثباته وتأكيده ربوبية الله له ولهم، ووجوب عبادته وحده؛ لأن مِن لازِم الإقرار بربوبيته عز وجل الإقرار بألوهيته، وعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لعيسى عليه السلام وللمؤمنين، وربوبيته العامة لجميع خلقه.

١٩- بيانه عليه السلام أن ما أمرهم به من تقوى الله وطاعته، والإقرار بربوبيته وعبادته وحده لا شريك له طريق عدل مستقيم يجب سلوكه، ولا ينبغي العدول عنه؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

٢٠- اختلاف الأحزاب من بني إسرائيل في مقالاتهم في عيسى؛ فمن النصارى من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة. وكذبه اليهود وأنكروا رسالته، وأقر المؤمنون برسالته، وآمنوا به وهم قليل؛ منهم: زكريا ومريم أمه عليهما السلام، ومنهم الحواريون؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾.

٢٢- التهديد والوعيد بالعذاب للظالمين بالشرك بالله، وتكذيب رسله، بعذاب يوم القيامة الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

٢١- شدة عذاب يوم القيامة، وأنه مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ الاستفهام بمعنى النفي، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا الساعة، أي: إلا قيام الساعة؛ فإنها قريبة وواقعة لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر:٤٦].

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من «الساعة»، أي: أن تأتيهم فجأة، وعلى غرة، ومن غير ترقب.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، أي: وهم غافلون، غير مستعدين لها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء:١].

﴿ ٱلْأَخِلَّاءُ ﴾، أي: الأصدقاء والأصحاب والأحباب، ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾، أي: يوم قيام الساعة والقيامة.

﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾؛ لأن خلتهم لغير الله؛ إما لأهداف دنيوية، أو لمقاصد سيئة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف:٣٨].

﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا المتقين الذين كانت خلتهم في الله، ولله؛ فإن خلتهم تدوم وتبقى ولا تنقطع، ويلتقون عليها في الجنة.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ قرأ حفص والكسائي: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ بحذف ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإثباتها على الأصل: «يَا عِبَادِي».

أي: يقول الله لهم، بشارة وتكريمًا لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، أي: لا خوف عليكم اليوم مما تستقبلون، ولا أنتم تحزنون على ما مضى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، «الذين»: في محل نصب نعت لـ«عبادي»، أي: يا عبادي الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وكانوا مسلمين منقادين لشرع الله بجوارحهم الظاهرة.

وإذا انتفى المكروه من كل وجه بانتفاء الخوف والحزن ثبت المحبوب؛ ولهذا قال:

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة.

﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، أي: أنتم ونظراؤكم وقرناؤكم، من الزوجات والأولاد والأصحاب وغيرهم ممن عمل مثل عملكم.

﴿تُحۡبَرُونَ﴾، أي: تُنعمون وتكرمون، وتسعدون وتسرون.

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾، أي: يطاف على أهل الجنة ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾، «صحاف»: جمع «صَحْفة»، وهي: أواني الطعام، أي: يدار عليهم بأوان من ذهب، فيها أنواع الطعام وألوانه.

﴿وَأَكۡوَابٖ﴾: معطوف على «صحاف»، أي: وأكواب من ذهب.

و«الأكواب»: جمع «كوب»، وهي: أواني الشراب، فيها أنواع الشراب من ماء ولبن وخمر، وغير ذلك.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا

نَقِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان:١٥، ١٦].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...**» الحديث(١). وفضل الله واسع.

وقد جاء في رواية عن أبي موسى- قال حماد: «لا أعلمه إلا قد رفعه»- في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾، قال: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»(٢).

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحفص: ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بزيادة هاء ضمير مذكر بعد الياء، وقرأ الباقون بحذف الهاء «تَشْتَهِي».

أي: وفي الجنة كل الذي تشتهيه وتحبه الأنفس من أنواع المآكل والمشارب والمناكح، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس:٥٧].

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: معطوف على «تشتهي»، أي: وفيها كل الذي تلتذ به الأعين، وتبتهج به ويعجبها؛ من المناظر الحسنة الخلابة الجميلة؛ من القصور والأنهار، والأشجار والخضرة، والمجالس والسرر المزخرفة المزينة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧].

وقال ﷺ: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(٣).

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿خَٰلِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيها، ماكثون أبد الآباد، لا تُخرجون منها، ولا تبغون عنها حولًا، وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، وهو الاطمئنان إلى دوامه وعدم انقطاعه، نسأل الله من فضله.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات وأعظمها.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان، رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٤٨، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، والبيهقي في «البعث والنشور» ص٢٤٢.

(٣) سبق تخريجه.

﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾، أي: التي أورثكم الله إياها، وجعلها دارًا لنعيمكم وخلودكم.

وفي قوله: ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ إشارة إلى أن دخولهم الجنة ليس عوضًا عن عملهم؛ لأن الميراث ينتقل إلى الوارث بدون عوض، وإنما العمل سبب لدخول الجنة، وهو ما بينه بقوله:

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الباء: سببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملونه، أو بسبب عملكم الصالح.

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

لما ذكر أنه يطاف عليهم في الجنة بصحاف من ذهب فيها ما يشتهونه من الطعام، وبأكواب من فضة فيها ما يشتهونه من الشراب، ذكر تفكههم بعد ذلك بأكلهم من أنواع الفواكه؛ لتتم النعمة والغبطة.

قوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ﴾ من جميع أنواع الفواكه؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢﴾ [الرحمن:٥٢].

﴿مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، أي: من جميع أنواع هذه الفواكه تأكلون، حسب اختياركم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾.

لما ذكر ما أعد للمؤمنين في الجنة من النعيم، أتبع ذلك بذكر ما أعد للمجرمين في جهنم من العذاب الأليم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بكفرهم وتكذيبهم، ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾، أي: مغمورون في عذاب جهنم، محيط بهم عذابها من كل جانب.

﴿خَٰلِدُونَ﴾ في عذابها، لا يخرجون منها.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ عذابها؛ لا بانقطاعه ساعة، ولا بتخفيفه.

﴿وَهُمۡ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، أي: وهم في العذاب.

﴿مُبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من رحمة الله، ومن الفرج، ومن كل خير، ينادون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون:١٠٧] فيناديهم بقوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في تعذيبهم في جهنم وتخليدهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، «هم»: ضمير فصل؛ لتأكيد القصر في «لكن»، أي: ولكن كانوا هم الظالمين بإجرامهم وكفرهم وتكذيبهم، فظلموا باختيارهم الكفر والإجرام على الإيمان والإسلام، وظلموا أنفسهم فأوبقوها بالكفر، وأوقعوها في عذاب جهنم.

﴿وَنَادَوْا۟﴾ وهم في النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازن النار.

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾، أي: ليقبض أرواحنا ويمتنا، ويرحنا مما نحن فيه من العذاب الأليم، والكرب الشديد.

﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار تيئيسًا لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، أي: مقيمون فيها، لا تحيون ولا تموتون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى:١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦].

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: لقد أتيناكم بالحق وبيناه لكم وأظهرناه؛ لتتبعوه فتسعدوا وتفوزوا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ ولهذا لم تقبلوه، ولم تنقادوا له، وأعرضتم عنه، وآثرتم عليه الباطل وانقدتم له، فكان هذا جزاؤكم.

وفي هذا توبيخ لهم، أي: فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾، «أم» في الموضعين هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام.

أي: أم أبرم هؤلاء المكذبون بالحق المعاندون له أمرًا، أي: أحكموا ودبروا كيدًا ومكرًا للنبي ﷺ ولما جاء به من الحق.

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، أي: فإنا مُحكِمون ومدبرون كيدًا ومكرًا يبطل كيدهم ومكرهم. وفي هذا تهديد ووعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٥-١٧].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾، أي: بل أيحسبون، أي: أيظنون بجهلهم وظلمهم.

﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾، أي: ما يسرونه في أنفسهم، ولم يتكلموا به.

﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾، أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به بينهم، فأقدموا على إضمار الشر والكيد، وفعل المعاصي.

﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب، أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم، ونعلم أحوالهم وما هم عليه، وسنحاسبهم ونجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: وملائكتنا الحفظة الكرام البررة.

﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: عندهم يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

وسيحاسبون على ذلك كله ويجازون؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

الفوائد والأحكام:

١- تهديد المشركين المكذبين بقرب قيام الساعة، وإتيانها بغتة وهم لا يشعرون،

وما فيها من الأهوال والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

٢- إثبات القيامة وقربها وما فيها من الحساب والجزاء، وأنها تأتي بغتة، ولا يعلم متى قيامها إلا الله عز وجل.

٣- انقطاع كل خلة وصداقة يوم القيامة، وانقلابها إلى عداوة، إلا ما كان بين المتقين، أي: في الله، ولله؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

٤- فضيلة الخلة والمحبة في الله، وأن آثارها وثمارها تظهر يوم القيامة.

٥- نداء الله تعالى لعباده المؤمنين المسلمين، وبشارته لهم يوم القيامة بانتفاء الخوف والحزن عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

٦- إثبات عبودية المؤمنين المسلمين لله تعالى عبودية خاصة.

٧- فضيلة الإيمان بآيات الله والإسلام، وأن من أعظم نعيم المؤمنين المسلمين: أمنهم وسلامتهم من الخوف والحزن؛ لأنهما يكدران كل نعيم.

٨- تكريم الله تعالى المؤمنين بأمرهم بدخول الجنة هم وأزواجهم، وتهنئته لهم بما لهم فيها من النعيم والتكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الآية.

٩- عظم ما أُعد للمؤمنين في الجنة من أصناف النعيم من الحبرة والسرور، وأنواع الطعام والشراب، وما تشتهيه نفوسهم، وتلذه عيونهم، مع خلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

١٠- امتداح الله تعالى وتعظيمه للجنة التي أورثها لعباده بسبب أعمالهم الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

١١- الترغيب في الإيمان والأعمال الصالحة، وأنهما سبب لتوريث الجنة والخلود

فيها، وليست عوضًا لها؛ كما يقول المعتزلة.

١٢- أن من تمام نعيم أهل الجنة- بعد طعامهم وشرابهم: تفكُّهُهم بأنواع الفواكه الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

١٣- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للمجرمين بعذاب جهنم، خالدين فيه أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

١٤- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن بين الرجاء والخوف.

١٥- أن العذاب لا يفتر عن أهل النار بانقطاع أو تخفيف ولو لحظة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾.

١٦- يأسهم أشد اليأس من رحمة الله، ومن الفرج، ومن كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

١٧- عدل الله تعالى فيهم، وأنه سبحانه لم يظلمهم، لكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم، فأوبقوها في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

١٨- نداؤهم لمالك خازن النار؛ ليدعو الله بأن يميتهم ويريحهم مما هم فيه من العذاب؛ لشدته وقسوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

١٩- أن أهل النار يتكلمون فيها ويستغيثون؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧].

٢٠- أن من ملائكة العذاب «مالك»، وهو من أعظم الملائكة؛ فهو خازن النار.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.

٢٢- تيئيس مالك لهم من الخروج من النار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

٢٣- توبيخهم بتذكيرهم بقيام الحجة عليهم بمجيء الرسل إليهم بالحق، وكراهتهم له، وإعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٤- أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، وبيان الحق له.

٢٥- مكر المكذبين وكيدهم للنبي ﷺ، ولما جاء به من الحق؛ وتهديدهم بالكيد

لهم، والمكر بهم، وإبطال كيدهم ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

٢٦- ظنهم الباطل أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم؛ ولهذا أقدموا على ما أقدموا عليه من المكر والكيد للرسول ﷺ، وللحق، ومن الأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ﴾.

٢٧- إثبات سماعه عز وجل لسرهم ونجواهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.

٢٨- إثبات كتابة أعمال العباد كلها باطنها وظاهرها، وسرها وجهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

٢٩- إثبات رسل الله تعالى من الملائكة المكلفين بكتابة أعمال الخلائق.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين ينسبون الولد لله، تعالى الله عن قولهم:

﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، أي: لو فرض هذا جدلًا كما تزعمون كذبًا أن الملائكة بنات الله، وأن له ولدًا.

﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لله تعالى؛ لأني عبد من عبيده، منقاد له.

أو: فأنا أول العابدين لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، ولم تسبقوني إلى عبادته.

قال ابن كثير(١): «أي: لو فرض هذا لعبدته على ذلك؛ لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار، ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع، ولا الجواز أيضًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر:٤]».

وقال السعدي(٢): «﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقيادًا للأوامر المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفيًا. فعلم بذلك بطلانه.

قال: فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل- إلى أن قال: فلو كان للرحمن ولد حقًّا لكان محمد بن عبدالله أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٢٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٦٦٤.

المشركون».

قال: «ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله إثبات ما أثبته ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا لو كان حقًّا لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين، وفسادها عقلًا ونقلًا».

وعن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين»(١).

وهذا على اعتبار «إنْ» نافية، والأقرب: أنها شرطية، فهو شرط وجزاء، لكنه ممتنع في حق الله عز وجل؛ كما اختار هذا الطبري وابن كثير(٢)، وغيرهما.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، «الفاء»: رابطة لجواب شرط مقدر، «أنى»: اسم استفهام، أي: فكيف يُصرفون عن عبادة الله تعالى، وإفراده بالألوهية، مع إقرارهم بأنه الخالق المتفرد بالربوبية؟ فإن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ قرأ حمزة وعاصم بكسر اللام والهاء: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، وهو على هذه القراءة مجرور عطفًا على «الساعة» في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: وعنده علم قيله، والضمير للنبي ﷺ، أي: وعنده علم قيله ﷺ شاكيًا إلى ربه قومه الذين كذبوه.

وقرأ الباقون بفتح اللام، وضم الهاء: «وَقِيلَهُ»، وهو منصوب بفعل مقدر، أي: وقال قيلَه، وقيل غير ذلك.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، أي: يا رب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن أذاهم لك، واصبر على ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٥٦- ٦٥٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٠/ ٦٥٧- ٦٥٨، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٢٢٩.

﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾، أي: سالمهم وتاركهم وتألفهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وهذا قبل الأمر بالجهاد.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالخطاب: «تَعْلَمُونَ».

وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وهذا تهديد ووعيد لهم، أي: وسوف يعلمون مستقبلًا عاقبة كفرهم وإجرامهم.

وقد شرع الله الجهاد، وأحل بهم بأسه ونقمته في بدر الكبرى وغيرها من الوقائع، مع ما لهم في الآخرة من عذاب النار.

الفوائد والأحكام:

١- إبطال نسبة المشركين الولد لله تعالى، وإنكار ذلك أشد الإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

٢- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٣- تقديسه عز وجل وتعظيمه؛ فهو رب السموات والأرض، ورب العرش، ورب جميع المخلوقات، وتنزيهه عما يصفه به المشركون من الشريك والصاحبة والولد، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.

٥- إثبات العرش الذي هو أكبر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾.

٦- تسليته ﷺ، وتهديد المشركين المكذبين بعذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

٧- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

٨- تفرده عز وجل بالإلهية في السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

٩- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وصفة الحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وصفة العلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾.

١١- تعاليه عز وجل وتعاظمه، وكثرة بركته وخيره وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

١٢- تفرده عز وجل بملك السموات والأرض وسعة ملكه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٣- اختصاصه وحده عز وجل بملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

١٤- إثبات معاد الخلائق ورجوعهم إليه تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٥- كمال عظمته، وعموم ربوبيته وإلهيته، وعظيم ملكه، وواسع علمه، وعموم سلطانه وتدبيره لأمر الدنيا والآخرة، فبداية الخلق منه، ونهايتهم إليه.

١٦- تسفيه عقول المشركين، وبيان ضعف وحقارة كل ما يدعون من دون الله من الأصنام والأنداد، وأنهم لا يملكون الشفاعة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

١٧- أنه إنما يملك الشفاعة- بعد إذن الله ورضاه- من شهد بالحق، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقر بتوحيد الله، وبنبوة محمد ﷺ عن علم ومعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

١٨- فضيلة الإيمان بالله ورسوله، والشهادة بالحق عن علم ومعرفة؛ لأن الله خص أهل ذلك بالشفاعة.

١٩- إقرار المشركين بأن الله هو الخالق، واعترافهم بتوحيد الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢٠- الإنكار عليهم في تكذيبهم بتوحيد الألوهية، وإشراكهم مع الله غيره، مع إقرارهم بالربوبية التي تستلزم الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٢١- شكواه ﷺ إلى ربه كفر قومه وعدم إيمانهم؛ أسفًا وتحسرًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٢٣- شدة عتو المشركين وعنادهم وتمردهم.

٢٤- أمر الله تعالى له ﷺ بالصفح عنهم ومسالمتهم ومتاركتهم تألفًا لهم، وكان هذا قبل الأمر بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد لهم بما يستقبلونه من العذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلدُّخَان

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الدخان»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان:١٠، ١١] والمراد: الدخان الذي هو آية من آيات الله تعالى أيَّد بها نبيه ﷺ سميت به -والله أعلم- اهتمامًا بشأنه.

ويقال لها: «حم الدخان».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ - موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ تعظيمًا للقرآن الكريم، وتبنيها على إعجازه، وتفصيله وبيانه.

٢- تعظيم ليلة القدر التي أنزل الله بها القرآن وبركتها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾.

٣- بيان أن رسالته ﷺ للعالمين: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وألوهيته: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

٥- تشكيك المشركين وتكذيبهم رسالته ﷺ، وما جاءهم به من الوحي، وتوعدهم وتهديدهم بعذاب الدنيا والآخرة. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٢- تذكير المشركين بفتنة قوم فرعون قبلهم وتكذيبهم موسى عليه السلام،

وإنجاء موسى عليه السلام ومن معه، وإغراق فرعون وقومه، وتوريث بني إسرائيل ما هم فيه من الجنات والزروع والمقام الكريم والنعيم ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٣- تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم بإنجائهم من فرعون وعذابه المهين، واختيارهم وإيتائهم الآيات: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٤- إنكار المشركين البعث بعد الموت، وتوعدهم بالإهلاك كما أهلك الله تُبَّعًا والذين من قبلهم بسبب إجرامهم، وإثبات البعث، وأنه عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما لعبا، وإنما خلقهما لعبادته ومجازاة الخلائق بأعمالهم.

وتأكيد أن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، ووعيدهم بما أعدلهم من الزقوم والحميم وعذاب الجحيم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٥- وعد المتقين وبشارتهم بما أعدلهم من المقام الأمين في جنات النعيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

٦- الامتنان بتيسير القرآن بلسانه ﷺ العربي المبين؛ ليتذكر العباد ويتعظوا، وتسليته، وتهديد المكذبين له ﷺ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾:

قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ سبق الكلام عليه.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، أي: إنا أنزلنا الكتاب المبين «القرآن العظيم»، أي: ابتدأنا إنزاله.

﴿فِى لَيْلَةٍ﴾ نكرت للتعظيم، ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾، أي: كثيرة البركة والخير، وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

وهي في شهر رمضان المبارك؛ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وهي في العشر الأواخر منه، وفي أوتارها آكد؛ لقوله ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها، وغيره: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**»(١).

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، أي: محذرين ومخوفين العباد من عذاب الله؛ إقامة للحجة عليهم، بإنزال القرآن، الذي هو تبيان لكل شيء، فيه أمر الناس بما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم، وتخويف من خالف منهم، وتبشير من أطاع.

﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الليلة المباركة ليلة القدر.

﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي: يفصل من اللوح المحفوظ إلى الصحف التي بأيدي الملائكة كل أمر محكم مبرم متقن، مما يجري في السنة من الأرزاق والأقدار والأعمال والآجال، وغير ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يُكتَب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يُكتَب الحاج: يحج فلان، ويحج فلان»(٢).

ومعنى ﴿حَكِيمٍ﴾، أي: محكم متقن لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، ولا يتقدم ولا يتأخر.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، أي: جميع ما يفرق في هذه الليلة المباركة ويفصل ويقدر من الأوامر المحكمة، وما يحصل فيها من البركة والخير، كل ذلك صادر بأمرنا وإذننا الكوني.

فمن بركتها: إنزال القرآن الكريم فيها، وأنه يفرق ويفصل فيها من اللوح المحفوظ كل أمر حكيم مما يقع في تلك السنة إلى الصحف التي تكون بأيدي الملائكة.

ومن بركتها: مضاعفة العمل فيها والأجور، وتنزل الملائكة والروح فيها بكل أمر يكون في تلك الليلة، وتسليمهم على المؤمنين، ودعاؤهم لهم بالسلامة، وكونها سلامًا إلى مطلع الفجر.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: مرسلين للرسل، ومنزلين للكتب؛ إقامة للحجة على الخلائق.

---

(١) سيأتي تخريجه وغيره من الأحاديث في هذا في تفسير سورة القدر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٨٧.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، «رحمة» منصوب مفعول لأجله، أي: بسبب رحمة ربك للناس أرسل الرسل، وأرسل محمدًا ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فأعظم وأجل نعمة رحم الله بها الخلائق هي إرسال الرسل، الذين أفضلهم وأشرفهم محمد ﷺ، وإنزال الكتب التي أعظمها وأجلها القرآن الكريم.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: رحمة منا، ونحو ذلك؛ للإشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين، مع ما في ذلك من إضافة ضميره ﷺ إلى اسم الرب، وخطابه له تشريفًا وتكريمًا له.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، «هو» ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، أي: هو وحده ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات والأقوال، المجيب دعاء من دعاه.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ذو العلم بأحوال العباد، الذي وسع علمه كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الباء: ﴿رَبِّ﴾ بدل من قوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

وقرأ الباقون برفعها: «رَبُّ» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب السموات والأرض.

أي: الذي أنزل هذا الكتاب المبين هو الرب العظيم، خالق السموات والأرض ومالكها ومدبرهما وما بينهما.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مؤمنين إيمانًا جازمًا بربوبيته العامة لجميع الخلق، فاعلموا أنه لا إله لهم سواه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو.

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: بيده الحياة والموت، وبتدبيره الإحياء والإماتة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: فكيف تعبدون غيره أنتم وآباؤكم؟ وكيف

تقتدون بآبائكم وتقلدونهم في عبادتهم غيره وهو ربكم وربهم؟

وقوله: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنهم يرون الاقتداء بالأقدم فالأقدم من آبائهم؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾:

قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هؤلاء المشركون.

﴿فِى شَكٍّ﴾، أي: في ريب وتشكيك وتكذيب بصحة القرآن، وصدق من جاء به.

﴿يَلْعَبُونَ﴾، أي: منشغلون في حياتهم بما لا فائدة فيه من اللعب والباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف:٥١].

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ الفاء: عاطفة، والأمر للتسلية والتثبيت له ﷺ، وفيه وعيد وتهديد للمشركين وجحودهم وشركهم، أي: فانتظر بهؤلاء المشركين ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، «يوم»: مفعول به منصوب لـ«ارتقب»، وليس ظرفًا، أي: يوم تجيء السماء بدخان بيِّن ظاهر.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾، أي: يعمهم ويعلوهم ويحيط بهم.

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: هذا الدخان عذاب أليم، أي: مؤلم موجع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور:١٣، ١٤].

﴿رَّبَّنَا﴾، أي: يقول المشركون والكفار، وهم في العذاب أو إذا عاينوه: ﴿رَّبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾، أي: ارفعه وأزله عنا.

﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ إن كشفت العذاب عنا، ورددتنا إلى الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ

ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم:٤٤].

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، «أنى»: اسم استفهام بمعنى: كيف، للإنكار، أي: كيف يكون لهم التذكير والاتعاظ؟ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر:٢٣، ٢٤].

﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه قد جاءهم رسول مبين، أي: بين الرسالة والنذارة، مبين لهم ما به يتذكرون، وهو محمد ﷺ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾، أي: تولوا عنه بأبدانهم، وأعرضوا عما جاء به بقلوبهم، وكذبوه.

﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ المعلَّم: الذي يُعلِّمه غيره، أي: علَّمه بشر أو شيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وهذا كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ:٥١-٥٤].

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ﴾، أي: لو كشفنا عنكم العذاب قليلًا ورددناكم إلى الدنيا.

﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، أي: راجعون إلى ما أنتم عليه من الكفر والتكذيب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون:٧٥].

قال ابن كثير(١) بعد أن ذكر هذا المعنى واعتبره الاحتمال الأول في معنى الآية، قال: «والثاني: أن يكون: مؤخرو العذاب عنكم قليلًا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢٣٦.

أن يكون باشرهم؛ كقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]».

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ البطش: الأخذ بشدة، والبطشة الكبرى: الأَخْذة، وهي يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات:٣٤].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بـ«البطشة الكبرى»: يوم بدر.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال ابن مسعود: «البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: يوم القيامة»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يوم بدر: يوم البطشة الكبرى»(٢).

﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، أي: منتقمون من الكفار المكذبين المعرضين بالعذاب الأليم في النار.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- إقسام الله تعالى بالقرآن؛ تعظيمًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- امتداح الله عز وجل لكتابه بكونه بينًا ظاهرًا واضحًا، مبينًا لكل ما يحتاجه العباد في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- أن ابتداء نزول القرآن الكريم كان في ليلة القدر، وهي في رمضان، في العشر الأواخر منه على الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾.

٥- إثبات صفة العظمة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بضمير التعظيم.

٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٢٣٧، وقال: «هذا إسناد صحيح».

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٧، ٢٥.

٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، غير مخلوق، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٨- شرف ليلة القدر وعظمتها وبركتها، وكثرة خيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾.

ومن بركتها: إنزال القرآن الكريم فيها، وكون العمل فيها خيرًا من العمل في ألف شهر خالية منها، وتنزل الملائكة والروح فيها في تلك الليلة من كل أمر، وكونها سلامًا حتى مطلع الفجر.

٩- تمام عدل الله عز وجل وحكمته، فلا يعذِّب أحدًا إلا بعد الإنذار لهم، والإعذار إليهم، وإقامة الحجة عليهم؛ ولهذا أنزل القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة؛ إنذارًا للناس وتحذيرًا لهم من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

١٠- أن من لازم الإنذار تبليغ التكاليف، التي من خالفها استحق ما أنذر وحذر منه من الوعيد والعذاب، ومن امتثلها نجا من ذلك، بل وفاز بالبشرى والثواب؛ ولهذا اكتفى هنا بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

١١- عظم شأن ليلة القدر، ومن ذلك أنه يفرق ويفصل فيها من اللوح المحفوظ إلى الصحف التي بأيدي الملائكة كل أمر محكم متقن مما يجري في السنة؛ من الأرزاق والأقدار والأعمال والآجال، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

١٢- أن كل ما يفرق ويفصل في هذه الليلة المباركة، ويقدر من الأوامر، هو محكم متقن، وبأمر الله تعالى وإذنه الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾.

١٣- الامتنان بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ رحمة منه عز وجل للخلائق، وإقامة للحجة على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٤- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- إثبات اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: «السمع» و«العلم» الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٧- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: «السمع» و«العلم» له عز وجل كمال إلى كمال.

١٨- أن السمع من أعظم وسائل العلم؛ لهذا قُدِّم عليه.

١٩- إثبات ربوبيته عز وجل العامة لجميع المخلوقات، وذلك يستلزم إفراده عز وجل بالإلهية؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٠- أنه إنما يَستدل بربوبية الله تعالى لجميع المخلوقات على إلهيته لها أهل اليقين والتصديق الجازم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

٢١- أنه لا إله ولا معبود للخلق بحق سوى ربهم الذي خلقهم وخلق جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٢- قدرته عز وجل التامة على الإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾.

٢٣- التعريض بتقليد المشركين لآبائهم الأولين في عبادة الأصنام، وترك عبادة الله، وهم وإياهم كلهم مربوبون لله.

٢٤- ذم المشركين لما هم عليه من الشك والتكذيب، واعتبار الحياة لعبًا ولهوًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

٢٥- تسلية النبي ﷺ، وتثبيت قلبه، وأمره بترقب تعذيب المكذبين له بدخان مبين، يغشى الناس، وعذاب أليم، وتهديدهم ووعيدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٢٦- إثبات الدخان، وهو من علامات الساعة كما جاء في الأحاديث الصحيحة، مثل: حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «**إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن**

مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»(١).

وقد اختلف المفسرون: متى ذلك؟ فمنهم من قال: إنه وقع في عهد النبي ﷺ.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللِّزام»(٢).

وعن مسروق قال: جاء إلى عبدالله رجل، فقال: تركت في المسجد رجلًا يفسر القرآن برأيه، يفسر هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، قال: يأتي الناسَ يوم القيامة دخان، فيأخذ بأنفاسهم، حتى يأخذهم منه كهيئة الزكام، فقال عبدالله: من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم، إنما كان هذا أن قريشًا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قحط وجدب، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، حتى أكلوا العظام! فأتى النبيَّ ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، استغفر الله لمضر؛ فإنهم قد هلكوا. فقال: «**لمضر؟! إنك لجريء**». قال: فدعا الله لهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾. قال: فمطروا، فلما أصابتهم الرفاهية قال: عادوا إلى ما كانوا عليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾، قال: يعني: يوم بدر»(٣).

وفي رواية: «ثم قرأ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة ٤٣١١، والترمذي في أبواب الفتن، ما جاء في الخسف ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات ٤٠٥٥، وأحمد ٤/ ٦، ٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٤٨٢٥، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان ٢٧٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٤٨٢١، ومسلم في صفة القيامة، باب الدخان ٢٧٩٨.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾، قال عبدالله: أفيُكشَف عنهم العذاب يوم القيامة؟ والبطشة الكبرى: يوم بدر»[١].

وقد ذهب إلى أن: الدخان قد مضى جمع من التابعين وغيرهم، واختاره الطبري[٢].

وقال بعضهم: إن الدخان من الآيات المنتظرة التي تسبق قيام الساعة، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح؛ كما قال عبدالله بن أبي مُلَيْكة، قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم، فقال: «ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت»[٣].

وهذا القول مروي عن علي[٤] وحذيفة وأبي مالك الأشعري رضي الله عنهم، وطائفة من التابعين[٥].

قال ابن كثير[٦]: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أورثناها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، أي: بيِّن واضح يراه كل أحد.

وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾، أي: يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾».

والأظهر- والله أعلم- أن الدخان من أمارات الساعة المنتظرة، وعليه يدل ظاهر

---

(١) أخرجه البخاري ٤٨٢٣.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ١٤- ١٨، و«تفسير ابن كثير» ٧/ ٢٣٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ١٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٨.

(٥) أخرجه عنهم الطبري ٢/ ١٩، ٢٠.

(٦) في «تفسيره» ٧/ ٢٣٥، وانظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦- ٧.

سياق الآيات مع الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك.

٢٧- شدة عذاب هذا الدخان، وغشيانه للناس، وعلوه عليهم، وإحاطته بهم، وإيلامه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٢٨- سؤال المعذَّبين كشف العذاب عنهم، ووعدهم بأن يؤمنوا؛ لقولهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾، وهذا يحتمل طلبهم كشف العذاب عنهم، وإرجاعهم إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات لهم ذلك.

ويحتمل أنهم لما رأوا العذاب في الدنيا طلبوا كشفه. والأول أولى؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

٢٩- بُعد من كذب بالحق وأصر على ذلك عن الإيمان حتى بعد رؤية العذاب، سواء كان ذلك في القيامة، أو عند رؤية علامات الساعة، أو قبل ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

٣٠- بيان رسالته ﷺ، وإبانته للحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

٣١- تولي المشركين عن اتباعه بأبدانهم، وإعراضهم عما جاءهم به بقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾.

٣٢- زعمهم أنه ﷺ يُعلَّم القرآن من غيره، يُعلِّمه بشر أو شيطان، وأنه مجنون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

٣٣- أن الله عز وجل لو كشف العذاب عنهم لعادوا لما نُهوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٣٤- وعيد المشركين المكذبين وتهديدهم بالقيامة وعذابها، والانتقام منهم ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾. وقيل: تُوعدوا بيوم بدر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾:

لما توعد المشركين بالعذاب الأليم، والانتقام منهم بالبطشة الكبرى، ذكر ما أوقعه من العذاب في قوم فرعون بسبب تكذيبهم، بإهلاكهم بالغرق الموصول بعذاب النار، وإخراجهم من ديارهم، وما هم فيه من النعيم، وتوريثها بني إسرائيل. وفيه تهديد وتحذير للمشركين.

قوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ ﴾، أي: ابتلينا واختبرنا قبل مشركي مكة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهم قبط مصر، والمراد: فرعون وقومه.

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾؛ يعني: موسى بن عمران- ذو المكانة والشرف والوجاهة عند الله، وثالث أولي العزم من الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾، «أن»: تفسيرية أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء محذوفة، أي: بأن أدوا إلي عباد الله؛ يعني: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم معي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ جِئْنَاكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

[الأعراف:١٠٥]، وقال تعالى مخاطبًا موسى وهارون: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه:٤٧].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: تعليل للأمر قبله، أو استئناف بياني، أي: إني رسول لكم أمين على إبلاغكم ما أرسلت به إليكم، من غير زيادة ولا نقصان؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الجملة: معطوفة على الجملة التفسيرية: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾. والمعنى: أدوا إلي عباد الله، ولا تعلوا على الله، أي: ولا تتكبروا على الله بمخالفة أمره، وعدم الانقياد له.

﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة واضحة، وبرهان ظاهر، وهي ما أرسله الله به من الآيات التسع البينات، وغيرها.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾، أي: استجرت واعتصمت بربي وربكم، ورب جميع الخلائق.

﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾، «أن» والفعل «ترجمون» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن ترجمون، أي: أن ترجمونِ بالقول بالسب والشتم، أو بالفعل بالقتل.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾، أي: وإن لم تصدقوني وتؤمنوا بما جئتكم به.

﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾، أي: فاتركوني وشأني ولا تتعرضوا لي، وسالموني إلى أن يقضي الله بيننا.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلما أيس منهم، بعد أن طال مقامه بين أظهرهم، وأقام عليهم الحجج، ولم يزدهم ذلك إلا كفرًا واستكبارًا وعنادًا، دعا ربه عليهم:

﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: مصدر مؤول في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن هؤلاء قوم مجرمون، أي: متمادون في الإجرام والكفر؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا

لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

لما أيس موسى عليه السلام من إيمان آل فرعون، ورأى تماديهم على الإجرام ودعا عليهم، أمره الله عز وجل- استجابة لدعائه- بالخروج ببني إسرائيل والإسراء بهم، فقال:

﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «فَاسْرِ» بهمزة وصل من «سرى».

وقرأ الباقون بهمزة قطع: ﴿فَأَسۡرِ﴾ من «أسرى». يقال: «أسرى». ويقال: «سرى»، أي: سار ليلًا، وفي المثل: «عند الصباح يحمد القوم السُّرَى».

والفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، ﴿لَيۡلًا﴾ ظرف زمان.

والمعنى: فسِرْ بعبادي بني إسرائيل ليلًا؛ خفية من فرعون وجنوده.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: تعليل للأمر بالإسراء بهم ليلًا، أو في أول الليل، أي: لأنكم متبعون، أي: سيتبعكم فرعون وجنوده، فخروجكم في الليل أخفى لكم، وكونه أول الليل حتى لا يتمكنوا من إدراككم واللحاق بكم.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء:٥٢-٦٠].

﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾، «رهوًا»: مصدر في موضع الحال، أي: حال كونه رهوًا، أي: ساكنًا منفلقًا.

قال ابن القيم: «الرهو: الساكن، شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل عند سكونها، تقول العرب: جاءت الخيل رهوًا، أي: ساكنة، فشبه البحر بها، وذلك أنه قام فِرقاه ساكنين، فقال لموسى عليه الصلاة والسلام: دع البحر ساكنًا ماؤه»(١).

---

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/ ١٣٩.

وذلك بعد أن أوحى الله إليه بعدما خرج ببني إسرائيل أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، فانفلق طريقًا يبسًا، فأزلف واجتاز هو وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه:٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء:٦٠-٦٦].

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾: تعليل للأمر قبله، أي: لأنهم جند مغرقون، أي: حتى يروا البحر منفلقًا منفرجًا، فيدخلوا على إثركم، فنغرقهم.

وذلك أنه لما تكامل موسى وقومه خارجين من البحر، وتكامل فرعون وقومه داخلين فيه، أمره الله فالتطم عليهم وعاد إلى حاله، فغرقوا جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه:٧٨، ٧٩].

قيل: إن موسى عليه السلام لما جاوز البحر هو وقومه أراد أن يضربه ليعود كما كان، فيكون حائلًا بينهم وبين فرعون وجنوده أن يلحقوا بهم، فأمره الله بتركه على حاله، وبشره بأنهم مغرقون.

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين مزهرة، كثيرة الأشجار والثمار.

﴿وَعُيُونٍ﴾، أي: وعيون المياه من الأنهار والآبار.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: دور إقامة نفيسة واسعة، فيها المساكن والمنازل الجميلة الأنيقة، والأماكن الحسنة، وغير ذلك.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: وعيشة كريمة هنية كانوا فيها يتفكهون ويتنعمون بأنواع المآكل والمشارب والملابس، والمساكن والمراكب، والجاه والمال والملك العريض، وغير ذلك.

فسُلبوا ذلك كله في صبيحة واحدة، وصارت أجسادهم للغرق، وأرواحهم

للنار والحرق.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: كذلك تركوا هذه الجنات والعيون والمقام الكريم والنعمة التي كانوا فيها فاكهين، وسلبناها منهم، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾، أي: ملكناها.

﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾: هم بنو إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الآيات:٥٧-٥٩]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الآية:١٣٧].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لما أغرقهم الله وأهلكهم؛ لأنهم لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي السماء على فقدها، ولا لهم أعمال صالحة في الأرض فتفقدها، ولم يُحزن عليهم، ولم يأس أحد لفراقهم وهلاكهم؛ لأن فيه راحة للعباد والبلاد؛ كما قال ﷺ: «**أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم**»(١).

وعن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مُرَّ بجنازة، فقال: «**مستريح ومستراح منه**». قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»(٢).

وعن سعيد بن جبير، قال: أتى ابن عباس رجل، فقال: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن، فأغلق بابه من السماء، الذي يصعد فيه عمله،

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣١٥، ومسلم في الجنائز ٩٤٤، وأبو داود في الجنائز ٣١٨١، والنسائي في الجنائز ١٩١٠، والترمذي في الجنائز ١٠١٥، وابن ماجه في الجنائز ١٤٧٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٣، ومسلم في الجنائز ٩٥٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٠.

وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض»(١).

﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾، أي: ما كانوا ممهلين ومؤخرين عن العقوبة، بل عوجلوا بها؛ لشدة كفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أنقذناهم وخلصناهم.

﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، أي: من العذاب المذل الذي كانوا فيه ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾، بدل من العذاب بإعادة حرف الجر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾، أي: مستكبرًا جبارًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون:٤٦].

﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الجرأة على الله، حيث ادعى الربوبية والألوهية، وفي الأذية لعباد الله، حيث سام بني إسرائيل سوء العذاب؛ يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويسخرهم في الأعمال المهينة والشاقة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾، أي: ولقد اخترنا بني إسرائيل واصطفيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم منا بأنهم أهل للاختيار، وبحكمة منا.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: على عالمي زمانهم؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]، وقال تعالى لمريم عليها السلام: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢]، أي: في زمانها.

قال ابن القيم: «لا خلاف بين الناس أن المعنى: على علم منا بأنهم أهل الاختيار،

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٢، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٣٢٨٨.

فالجملة في موضع نصب على الحال، أي: اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم»[١].

فاختارهم الله وفضلهم على أهل زمانهم ومن قبلهم ومن بعدهم، حتى جاء الله بأمة محمد ﷺ، ففُضِّلوا على العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

ولا ينافي اختيار الله لبني إسرائيل في زمانهم ضلال كثير منهم سلفًا وخلفًا؛ كما لا ينافي تفضيل الله لهذه الأمة ضلال كثير منهم، فالمختارون المفضلون هم من كانوا على الحق من الأمتين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: وأعطيناهم من الآيات البينات، والحجج الظاهرات، والمعجزات الباهرات.

﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي فيه بلاء مبين، أي: منة عظيمة عليهم، واختبار بيِّن ظاهر لمن يبحث عن الحق، ودلالة واضحة على صدق موسى عليه السلام وصحة ما جاء به.

الفوائد والأحكام:

١- تهديد المشركين ووعيدهم بتذكيره عز وجل إياهم ابتلاءه قبلهم قوم فرعون بإرسال نبيه موسى عليه السلام إليهم بالبينات، وتكذيبهم له، وإهلاكهم بالغرق، وسلب ما هم فيه من النعم. والسعيد من وُعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ الآيات.

٢- ابتلاء قوم فرعون واختبارهم بإرساله عز وجل موسى عليه السلام إليهم: هل يؤمنون به أو يكفرون به ويكذبونه؟ وهو ما حصل.

٣- أن الابتلاء والامتحان يكون في الخير كما يكون في الشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

٤- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وشرفه وكرمه ومكانته عند الله؛ لوصفه عز

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣٩.

وجل له بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾.

٥- طلبه عليه السلام من فرعون وقومه إرسال بني إسرائيل معه؛ لقوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ لتخليصهم من ظلم فرعون وقومه.

٦- تشريفه عز وجل لبني إسرائيل بوصفهم بعبوديته الخاصة.

٧- بيان موسى عليه السلام أمانته فيما أرسل به. وفيه: أنه لا مانع من ثناء الرسول على نفسه بالأمانة ونحو ذلك؛ ليصدقه قومه؛ لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

وقد يجوز ذلك لغير الرسول إذا كان فيه مصلحة، ولم يترتب عليه محذور.

٨- تحذيره عليه السلام قوم فرعون من العلو والتكبر على الله ومخالفة أمره؛ لقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٩- إقامته عليه السلام الحجة عليهم بالآيات البينات، والبراهين القاطعات؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

١٠- تعوذه عليه السلام بربه وربهم منهم أن يرجموه سبًّا وشتمًا أو قتلًا؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

١١- أنه لا معاذ ولا ملاذ من جميع الشرور إلا بالله عز وجل.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾.

١٣- تنازله عليه السلام بطلبه منهم- إن لم يؤمنوا به ويصدقوه- أن يعتزلوه، ويتركوه، ولا يتعرضوا له؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

١٤- يأسه عليه السلام منهم، ودعاؤه عليهم بسبب تماديهم بكفرهم وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٥- جواز الدعاء على المجرمين المستكبرين الصادين عن دين الله، المؤذين لأولياء الله.

١٦- استجابته عز وجل دعاء موسى عليه، وأمره بالإسراء ببني إسرائيل ليلًا وخفية، وإخباره باتباع فرعون وجنوده لهم؛ تحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

١٧- أمره عز وجل له بترك البحر ساكنًا منفلقًا على حاله بعد أن أزلف وجاوز هو وقومه؛ ليكون مصيدة لفرعون وجنوده يدخلونه على أثرهم فيلتطم عليهم فيغرقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

١٨- قدرة الله تعالى التامة، وآية من آياته العظيمة، التي آتاها لموسى عليه السلام بأمره له أن يضرب البحر بعصاه فينفلق ويصير طريقًا يبسًا؛ ليعبر موسى وقومه، ومن ثم أطبقه على فرعون وقومه.

١٩- سلب قوم فرعون كل ما كانوا فيه من النعيم، من الجنات والعيون، والزروع والمقام الكريم، والعيش الذي كانوا فيه فاكهين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٠- توريث بني إسرائيل كل ما كان فيه قوم فرعون من النعيم والجنات، والملك والخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

٢١- حقارة قوم فرعون وهوانهم على الله تعالى، فلم تبك على هلاكهم السماء والأرض، ولم يأس أحد عليهم، بل استراح منهم العباد والبلاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

وهكذا حال كل من مات من أهل الكفر والضلال، فهو كما يقال: حجر أو حصاة زالت عن درب المسلمين.

٢٢- أن السماء والأرض تبكي على فقدان أهل الإيمان والخير؛ لمفهوم قوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

ولهذا فسر بعض المفسرين قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:٤١] بموت العلماء.

٢٣- تعجيل عقاب فرعون وقومه وإهلاكهم، وعدم تأجيلهم وإنظارهم؛ لشدة كفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

٢٤- الامتنان على بني إسرائيل بإنقاذهم وتخليصهم من العذاب المذل لهم، الذي

كان يسومهم به فرعون؛ من تقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم، وتسخيرهم بالأعمال الحقيرة والشاقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ﴾.

٢٥- شدة علو فرعون واستكباره وكفره، ومجاوزته الحد في الجرأة على الله، وفي الأذية لعباد الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

٢٦- اختيار الله واصطفاؤه لبني إسرائيل بعلمه وحكمته على عالمي زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٢٧- إعطاؤهم من الآيات البينات، والحجج الظاهرات، ما فيه منة عظيمة عليهم، واختبار بيِّن لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٢٨- أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن هؤلاء المشركين المكذبين المنكرين للبعث والمعاد ليقولون:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، «إن»: نافية، بمعنى «ما»: و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة أخرى بعد الممات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:٢٩]، وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، أي: وما نحن بمبعوثين، أي: فلا حياة سوى هذه الحياة الدنيا، ولا معاد، ولا بعث، ولا نشور، ولا حياة أخرى، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾، أي: أحيوا لنا آباءنا وأجدادنا الميتين السابقين.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن هناك نشورًا وبعثًا وحياة أخرى.

وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة؛ فإن المعاد الموعود به إنما هو يوم القيامة، لا في هذه الحياة الدنيا، بل بعد انقضائها، وموت جميع أهلها، يعيدهم الله خلقًا جديدًا.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتهديد والتحذير، و«أم»: حرف عطف.

﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هم: حمير وسبأ سكان اليمن وحضرموت، و«تبع»: ملكهم، قيل: إنه

قد أسلم. وكانوا كلما ملك فيهم رجل سموه: «تبعًا»؛ كما يقال قيصر: لمن ملك الروم، وكسرى: لمن ملك الفرس، وفرعون: لمن ملك مصر، والنجاشي: لمن ملك الحبشة.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ بأنواع العقوبات، فقوم تبع- وهم سبأ- أرسل عليهم سيل العرم فخرب بلادهم، فتشردوا في البلاد كل مشرد، وتفرقوا شذر مذر.

وأُخذ غيرهم من الأمم كل منهم بذنبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ الجملة: مستأنفة، وفيها معنى السببية، أي: بسبب أنهم كانوا مجرمين، أي: مرتكبين للإجرام والكفر، والتكذيب للرسل، والإنكار للبعث، وغير ذلك.

والمراد: أن مشركي قريش ليسوا خيرًا من قوم تبع ومن قبلهم من الأمم الذين أهلكهم الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ [القمر:٤٣]، أي: أن كفاركم ليسوا خيرًا من أولئك المهلَكين والمعذبين قبلهم من الأمم بسبب كفرهم وتكذيبهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٤٢﴾:

لما ذكر إنكار المشركين للبعث والنشور والحساب، أتبع ذلك ببيان كمال قدرته وحكمته وعدله، وتنزهه عن اللعب والعبث واللهو والباطل، وأنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، ولإقامة الحق والعدل.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، أي: ما أوجدنا السموات والأرض على عظمهما وما بينهما من المخلوقات.

﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال، أي: ما خلقناهما لعبًا وعبثًا وباطلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص:٢٧].

﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة، أي: إلا بالحق والعدل، وهو أن يُعبَد الله وحده لا شريك له، ويُتَّقى بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى

عنه، ويثيب العباد ويجازيهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر:٨٥].

قال ابن القيم بعدما ذكر الأقوال في تفسير «الحق»: «والصواب: أن الحق هو إلهيته وحكمته المتضمنة للخلق والأمر والثواب والعقاب، فمصدر ذلك كله الحق، وبالحق وجد، وبالحق قام، وغايته الحق، وبه قيامه، فمحال أن يكون على غير هذا الوجه؛ فإنه يكون باطلًا وعبثًا، فتعالى الله عنه لمنافاته إلهيته وحكمته، وكمال ملكه وحمده»(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ولكن أكثر الخلائق لا يعلمون ولا يفهمون ولا يعون هذه الحقيقة، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيعتقدون أن الأمر لعب وعبث وهزل، وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين الذين أنكروا البعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٤].

وما أكثرَ الخلقَ الذين حسبوا الأمر عبثًا وهزلًا وباطلًا ولهوًا، وغفلوا عما خلقوا من أجله، وعاشوا حياتهم كالبهائم بل هم أضل، وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى من الهمل(٢)

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٣)

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، أي: يوم القيامة، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، فيقتص فيه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٤٢، وانظر: ٤/ ١٣٩.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٣) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

للمظلوم من الظالم، ويجازيهم جميعًا بأعمالهم، ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، أي: وقت جمعهم أجمعين، الأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠].

﴿يَوۡمَ﴾، «يوم»: بدل من «يوم الفصل»، ﴿يُغۡنِي﴾: ينفع ويشفع، ﴿مَوۡلًى﴾: قريب أو حليف أو صديق وصاحب، ﴿عَن مَّوۡلًى﴾، أي: عن قريبه وحليفه وصديقه وصاحبه، أي: يوم لا ينفع قريب قريبه، ولا حليف حليفه، ولا صديق صديقه، ولا صاحب صاحبه.

﴿شَيۡـٔٗا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا يغني مولى عن مولى أيَّ شيء من الغناء، لا قليلًا ولا كثيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ [المعارج:١٠، ١١].

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم، أو منعه، أو رفعه، لا من قريب ولا بعيد، ولا من صديق ولا حبيب.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«مَن»: موصولة، أي: إلا الذي رحمه الله من عباده فوفقه للإيمان به وطاعته؛ فإنه ينتفع ويرتفع برحمة الله، وينصره ويقيه عذابه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الجملة: تعليل لقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: إنه ذو العزة التامة والقوة والقهر والغلبة، الذي لا يمتنع عليه شيء، وذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

الفوائد والأحكام:

١- إنكار المشركين للبعث والنشور، والدار الآخرة والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥﴾.

٢- بطلان احتجاجهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾، وتحديهم للرسل بذلك؛ لأن البعث الموعود به ليس في الدنيا، بل يوم القيامة، بعد انقضاء الدنيا كلها.

٣- تهديدهم بما وقع لقوم تبع والذين من قبلهم؛ حيث أهلكهم الله بسبب

إجرامهم، وليسوا خيرًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾، والسعيد من وُعظ بغيره.

٤- التحذير من الإجرام والكفر، وأن ذلك سبب الإهلاك.

٥- انتفاء أن يكون عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما لعبًا وعبثًا وباطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

٦- تنزهه عز وجل عن اللعب والعبث واللهو والباطل.

٧- أنه عز وجل إنما خلق السموات والأرض بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، وهو أن يُعبَد وحده لا شريك له، ويُتَّقى ويطاع، ويجازي العباد على أعمالهم خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

٨- أن أكثر الخلائق لا يفهمون ولا يعون ولا يتفكرون في حقيقة حكمة الله في خلق السموات والأرض وما بينهما، ولا في حكمة خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم لا يعلم حقيقة ما خُلقوا له.

١٠- إثبات يوم القيامة، وأنه ميقات الخلائق أجمعين للفصل بينهم، ومجازاة كل منهم بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

١١- أنه في ذلك اليوم لا ينفع قريب قريبه، ولا صديق صديقه، ولا حليف حليفه، ولا ناصر للمعذبين يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

١٢- أن من رحمه الله فوفقه للإيمان والعمل الصالح فهو المنتفع، المنصور بنصر الله، الناجي من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾.

١٣- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين.

١٤- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وتمام عزته، وواسع رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر فريق المكذبين المعذبين، وفريق المرحومين الناجين، وبيَّن أن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، شرع في تفصيل جزاء كل منهم، فقال:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ شجرة الزقوم: شجرة تخرج في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٤، ٦٥].

﴿طَعَامُ﴾، أي: غذاء ومأكل ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾، أي: الكافر الفاجر، ذي الإثم الكبير، والذنوب الكثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات:٦٦].

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾، أي: كالمعدن المذاب أو عكر ودُرْدِيِّ الزيت المغلي.

﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ قرأ ابن كثير وحفص ورويس بالياء على التذكير: ﴿يَغْلِي﴾، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «تَغْلِي».

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، أي: كغليان الحميم، وهو الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات:٦٧].

﴿خُذُوهُ﴾، أي: يقال للملائكة من زبانية جهنم: ﴿خُذُوهُ﴾، أي: خذوه بقوة وشدة.

﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب بضم التاء: «فَاعْتُلُوهُ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾، أي: فجروه وسوقوه وقودوه وادفعوه بعنف، بلا هوادة ولا رحمة.

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: إلى وسط الجحيم، وأشدها حرارة.

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨﴾، أي: الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ [الحج:١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾ [الرحمن:٤٣، ٤٤]، أي: ماء بلغ غاية الحرارة.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ قرأ الكسائي بفتح الهمزة: «أَنَّكَ»، على تقدير لام التعليل، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنَّكَ﴾، أي: قولوا له، أو يقال له:

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾، الأمر للتقريع والتوبيخ والتهكم والسخرية، أي: ذق هذا العذاب الأليم؛ ﴿إِنَّكَ﴾ بزعمك ﴿أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الممتنع من عذاب الله، ﴿ٱلۡكَرِيمُ﴾ على الله فلا يعذبك، أي: لست بعزيز ولا كريم، بل إنك أنت الذليل الحقير المهين الخسيس.

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾، أي: يقال لهم هذا على سبيل التقريع والتوبيخ، أي: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي كنتم به تشكّون؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ [الطور:١٣-١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾:

لما ذكر عذاب الكفرة الآثمين، أتبع ذلك بذكر نعيم المتقين، على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بقلوبهم وجوارحهم، وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «مُقَامٍ» بضم الميم، وقرأ الباقون بفتح الميم: ﴿مَقَامٍ﴾.

﴿أَمِينٍ﴾، أي: آمن، قد جمع صفات الأمن كلها، وانتفت عنه جميع المخاوف، فلا موت ولا هرم ولا مرض، ولا جوع ولا عطش، ولا هم ولا غم ولا حزن، ولا خروج منه، ولا زوال له. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ بدل من ﴿فِى مَقَامٍ﴾ مع إعادة الجار، وهو تفسير وبيان له، أي: في مقام أمين، وهي جنات وعيون.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ بعدما ذكر نعيم مكانهم بأمنه، ذكر نعيم أجسادهم. والسندس: رقيق الديباج والحرير، يُلبس مما يلي الجسم؛ لنعومته، والإستبرق: غليظ الديباج والحرير، يلبس ظاهرًا فوق السندس.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، أي: يقابل بعضهم بعضًا في مجالسهم على السرر بقلوبهم ووجوههم وأبدانهم؛ لتمام ألفتهم، ومحبة بعضهم لبعض، وحسن أدبهم وطمأنينتهم، فلا أحد يدير ظهره وقفاه لأخيه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: ومع هذا النعيم العظيم، والسرور التام ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

حور: جمع حَوْراء، و«الحَوَر»: مأخوذ من الحور في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها.

و«العِين»: جمع عَيْناء، أي: اللاتي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة.

فالحوراء: المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء، شديدة سواد العين وبياضها، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ [الرحمن:٧٢].

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ الجملة حالية، أي: يدعون في الجنة، أي: يطلبون فيها ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، أي: فمهما طلبوا من أنواع الفواكه والثمار أُحضر لهم.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم آمنين من انقطاع ما هم فيه من التفكه، وآمنين من ضرره، وآمنين من كل مكدِّر من الخروج منها أو الموت، وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ حال أخرى، أي: لا يذوقون في الجنة الموت، أي: لا يموتون؛ كما جاء في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**»(١).

وفي الحديث الآخر: أنه يؤتى بالموت فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: «**يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**»(٢).

﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، «إلا»: أداة استثناء، ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن الموتة الأولى، وقد ذاقوها في الدنيا، وفي هذا تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وتنصيص على العموم.

قال ابن القيم: «فهذا الاستثناء لتحقيق دوام الحياة، وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النص العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة.

وقال أيضًا: «فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد والتنصيص على حفظ العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع»(٣).

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: ووقاهم ربهم- مع هذا النعيم العظيم المقيم- أي: سلمهم ونجاهم وكفاهم، عذاب الجحيم، فجمع لهم بين حصول المطلوب والمحبوب، وزوال المكروه والمرهوب، فكمل بذلك نعيمهم؛ ولهذا قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٤٤.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا النعيم والوقاية من عذاب الجحيم تفضلًا وتكرمًا عليهم، وإحسانًا منه إليهم، لا باستحقاقهم ذلك بعملهم، فهو الذي وفقهم للإيمان والعمل الصالح، وأثابهم عليه بالثواب الجزيل.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فضلا مني؛ تعظيمًا لنفسه عز وجل، وتشريفًا له ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك التفضل منه عز وجل ، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾و«هو»: ضمير فصل للتوكيد والحصر، أي: ذلك الفضل هو الفوز العظيم وحده، الذي لا أعظم منه، وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والنجاة من سخطه وعذابه.

و«الفوز»: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا يعلم قدر عظمته إلا من تفضل به عليهم. ووصفه بالعظيم، وهو العلي العظيم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، «إنما»: كافة ومكفوفة، أي: فإنما يسرنا القرآن الذي أنزلناه عليك ﴿بِلِسَانِكَ﴾، أي: جعلناه ميسرًا سهلًا، واضحًا بيّنًا ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الذي هو أفصح اللغات وأعلاها وأوسعها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويتفهموا ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، ويعملوا به.

وقد بدأ عز وجل السورة بالامتنان بإنزال القرآن الكريم، وختمها بالامتنان بتيسيره؛ تعظيمًا له، وتنويهًا بشأنه.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾، أي: انتظر وعد ربك بالنصر والتمكين لك، وإهلاكهم.

﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾، أي: منتظرون موتك ليتخلصوا منك، ومنتظرون ما سيحل بهم من عذاب الله تعالى الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

وفي ختام السورة بهذا: إشارةٌ إلى أنه مع تيسير القرآن ووضوحه وبيانه، فقد كذب الكثيرون منهم وعاندوا؛ كما أن فيه تسلية له ﷺ، ووعيدًا وتهديدًا للمكذبين من قومه.

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١، ٥٢].

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للكفار الآثمين بأن طعامهم في النار شجرة الزقوم، كالمهل تغلي في بطونهم غليان الماء الحار الذي قد بلغ غاية الحرارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ الآية.

٢- آية من آيات الله تعالى، ودلالة عظيمة على قدرته التامة: نبات شجرة الزقوم وخروجها في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٤].

وقد أحسن الشاعر في قوله:

من ظاهر الحكم الكبرى وباطنها ... هذا السحاب به ماء به نار(١)

٣- أخذهم وسحبهم وإهانتهم، وسَوْقهم بقوة وعنف إلى وسط النار، وصب عذاب الحميم فوق رؤوسهم؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾.

٤- تقريعهم وتوبيخهم والتهكم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

٥- إذلالهم وإهانتهم، وتحطيم معنوياتهم، وإسقاط ما كانوا يزعمون لأنفسهم من العزة والكرامة؛ لقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

وهذا عذاب معنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

٦- تبكيتهم وتقريعهم بوعيد الله لهم بالعذاب، وتكذيبهم بذلك؛ ليزدادوا حسرة وندامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) البيت لوليد الأعظمي، شاعر عراقي من قصيدة له في كتابه «الزوابع».

٧- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فبعد أن ذكر عذاب الكفرة الآثمين، ذكر نعيم المتقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ الآيات.

٨- بشارة المتقين في مقام أمين، يأمنون به من جميع المخاوف والشرور، ويتنعمون فيه بأصناف النعيم، وهو الجنات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾.

٩- عظم أمر الأمن في المقام؛ لهذا قدمه في الذكر على أنواع النعيم الأخرى؛ لأن النعيم كله لا قيمة له بدون الأمن، فليت قومي يعلمون.

١٠- تنعم أجسادهم بأفضل اللباس وأنعمه، وأجمله وأحسنه؛ لباس السندس والإستبرق؛ لقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

١١- سلامة قلوبهم، وتمام ألفتهم، ومحبة بعضهم بعضًا، وجلوسهم متقابلين بقلوبهم ووجوههم وأبدانهم، فلا أحد منهم يدير قفاه وظهره للآخر؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

١٢- أن من تمام نعمة الله تعالى عليهم: تزويجهم بحور عين في غاية الحسن والجمال؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

١٣- أنهم مهما طلبوا من أنواع الفواكه والثمار أُحضر لهم مع الأمن من انقطاعه وضرره، ومن جميع المخاوف؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

١٤- خلودهم الأبدي في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وقد أخذ بعض أهل العلم من هذا: أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، وهو الموتة الصغرى. وهذا قريب.

١٥- وقايته عز وجل إياهم من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

١٦- أن تمام الفوز إنما يكون بحصول المطلوب؛ مِن أَمْنِ المكان، وتوافر النعم ودوامها، وبزوال المرهوب، وهو الخوف من الموت أو العذاب، أو انقطاع النعم، وهو

ما وعد الله به المتقين في هذه الآيات.

١٧- أن ما مَنَّ الله به على المتقين بحصولهم على كل مطلوب محبوب، وسلامتهم ونجاتهم من كل مكروه مرهوب، هو بفضله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٨- أن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب للفوز بالنعيم والثواب، وليس هو عوضًا عن ذلك كما يقول المعتزلة؛ لأن حصول الفوز إنما هو برحمة أرحم الراحمين عز وجل؛ كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» إليه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

٢٠- أن الفوز العظيم الذي لا أعظم منه: تفضله عز وجل على العبد بإدخاله الجنة، يتمتع فيها بأصناف النعيم، ووقايته إياه من عذاب الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢١- أنه لا يَقْدُر قدر هذا الفوز العظيم إلا من وصفه بـ«العظيم»، وهو العلي العظيم سبحانه وتعالى.

٢٢- الامتنان على العباد بتيسير القرآن الكريم وتسهيله بلسانه ﷺ العربي المبين؛ لأجل أن يتذكروا ويتفهموا ألفاظه ومعانيه وأحكامه، ويعملوا به؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٢٣- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له، وجعل القرآن بلسانه ولسان قومه العربي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

٢٤- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وأحكامه الشرعية والقدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٥- تسليته ﷺ، وتثبيت قلبه بحصول ما وعده الله به من النصر والتمكين، وإهلاك المكذبين له، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩ ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الجَاثِيَة

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الجاثية»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ويقال لها: سورة «حم الجاثية».

وتسمى: «سورة شريعة»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:١٨]، و «سورة الدهر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:].

ب- مكان نزولها:

مكية

جـ - موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن وبيان إعجازه، وتعظيم مُنَزِّله عز وجل: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

٢- التنبيه على آيات الله تعالى المنتشرة في الكون في السموات والأرض، وفي خلق بني أدم وجميع الدواب، وفي اختلاف الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وتصريف الرياح: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

٣- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لكل أفاك أثيم مستكبر يسمع الآيات وكأنه لم يسمعها، ويستهزئ بها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٤- تعداد بعض نعمه تعالى على العباد سخر لهم البحر والسموات والأرض: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٥- أمر الذين آمنوا بالمغفرة للذين لا يرجون أيام الله ولا يؤمنون، وبيان أن كلاً سيجازي بعمله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٦- ذكر نعمته عز وجل على بني إسرائيل بما آتاهم من الكتاب والحكم والنبوة وغير ذلك، واختلافهم من بعد ما جاء العلم بغيًا بينهم والوعيد لهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٧- الامتنان على النبي ﷺ بما أعطاه الله من الشريعة السمحة، والقرآن الذي هو بصائر للناس وهدي ورحمة لقوم يوقنون: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- كمال عدل الله تعالى، خلق السموات والأرض بالحق والعدل؛ ولإقامة العدل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٩- لا هادي من بعد الله لمن اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ

ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٠- بيان اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض، وخسران المبطلين يوم القيامة، وشدة ذلك اليوم، وجثو الأمم فيه، ووعد الذين آمنوا بالفوز العظيم ووعيد الذين كفروا بالتوبيخ والخلود في النار: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

١١- اختصاص الله عز وجل بالحمد والكبرياء في السموات والأرض؛ لكمال ربوبيته، وعزته، وتمام حكمه، وبالغ حكمته: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾:

قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ سبق الكلام على هذا في سورة غافر.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة.

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: إن في السموات والأرض التي هي من أعظم المخلوقات، وما بينهما وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والحيوانات والجمادات، وغير ذلك من الليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال والأشجار، والمعادن والنباتات، والبحار والأنهار، وغير ذلك.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لدلائل واضحات على تمام قدرة الله تعالى، وعظيم آلائه ونعمه، وصحة كتابه، ووحدانيته.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للمؤمنين خاصة، الذين يصدقون بآيات الله وينتفعون بها؛ ولهذا خصهم الله دون غيرهم.

﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وفي خلقكم أيها

الناس ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾، «ما»: اسم موصول في محل جر معطوف على «خلقكم»،، أي: وخلق الذي يبث، أي: ينشر ويفرق ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ الدابة: اسم لكل ما يدب على الأرض من الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بكسر التاء في الموضعين: «آيَاتٍ»، وقرأ الباقون برفعها: ﴿ءَايَٰتٌ﴾.

أي: وفي خلقكم أيها الناس، وخلق الذي يبث وينشر في الأرض من جميع الدواب، دلائل على كمال عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام نعمته وقدرته على البعث.

﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي: لقوم يصدقون تصديقًا جازمًا بآيات الله تعالى، ويعتبرون بها، ويعملون بها.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على «خلقكم»، أي: وفي اختلاف الليل والنهار، أي: تعاقبهما دائبين لا يفتران؛ هذا بظلامه، وهذا بضيائه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، «ما»: اسم موصول في محل جر، عطفًا على «خلقكم»، أي: وفي الذي أنزل الله، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من السحاب، ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ من مطر، وسماه: رزقًا؛ لأنه سبب الرزق؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢].

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ الباء: للسببية، أي: فأحيا بسببه الأرض بالنبات والخضرة.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعد أن كانت ميتة يابسة هامدة جرداء، لا نبات فيها ولا شيء.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ معطوف على «خلقكم»، أي: وتقليب الرياح في مهابها من اتجاه إلى آخر، لمصالح العباد ومنافعهم، في أنفسهم، ومواشيهم، وحروثهم، وغير ذلك.

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: دلائل على وحدانية الله تعالى ونعمته وقدرته على البعث، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: يتفكرون ويتأملون بعقولهم في آيات الله، وينتفعون بها، وهم

المؤمنون الموقنون.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾:

قوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾؛ يعني: القرآن الكريم بما فيه من الحجج والبينات، والتنبيه على آيات الله الكونية في السموات والأرض، وفي سائر المخلوقات.

وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك»؛ تعظيمًا لها.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ الباء: للملابسة، أي: نقرؤها ونقصها عليك متلبسة بالحق، ومتضمنة له، ودالة عليه. والخطاب للنبي ﷺ.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: فبأي كلام ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: دون الله وآياته.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وروح وحفص بالغيب: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب: «تُؤْمِنُونَ».

والمعنى: إن لم يؤمنوا ويصدقوا بالله وآياته، فبأي حديث يؤمنون ويصدقون؟! أي: أنهم لن يؤمنوا بأي حديث بعد القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٥، المرسلات:٥٠]، أي: بعد القرآن الكريم.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ أثنى على المؤمنين الموقنين الذين يتفكرون ويتعقلون في الآيات، ثم ذم وتوعد المكذبين بالآيات، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ الآية.

قوله: ﴿وَيْلٌ﴾، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: هلاك ودمار.

﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب كثير الإفك والكذب في مقاله، ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الآثام في فعاله.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سماعًا تقوم الحجة عليه، ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ تقرأ عليه.

﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾، أي: ثم يعرض عنها، ويستمر على كفره وجحوده، مستكبرًا عن الإيمان بها وتصديقها.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، أي: كأنه لم يسمعها.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فأخبره بعذاب مؤلم موجع له حسيًّا ومعنويًّا يوم القيامة، وسَمَّى إخباره بذلك: بشارة، على سبيل التهكم به.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾، أي: وإذا عرف من آيات القرآن شيئًا.

﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، أي: جعلها سخرية واستهزاءً؛ كما في قول أبي جهل لما أنزل الله قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ قال: «الزقوم: التمر والزبد، أتزقمه»(١).

ولما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل: «يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبوهم؟»(٢).

وقال أبو الأشدين، كلدة بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم سبعة عشر»(٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ الإشارة لمن اتصفوا بما ذُكر من الإفك في المقال، والإثم في الفعال، والإصرار على الاستكبار والإعراض، والسخرية بآيات الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: لهم خاصة عذاب يهينهم ويذلهم مقابل استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها. والجزاء من جنس العمل.

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٩/ ٥٥٢، «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٣) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي ١/ ٢٠٠، وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٨٤، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٩٤.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: تفسير وبيان للعذاب المهين، أي: أمامهم جهنم يوم القيامة سيصيرون إليها ويخلدون فيها.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا يغني عنهم، أي: ولا ينفعهم كسبهم أو الذي كسبوه من الأموال والأولاد وغير ذلك أيَّ شيء مهما قل؛ كما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٠، آل عمران:١١٦]، وقال تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المجادلة:١٧].

﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾: معطوف على قوله: ﴿مَّا كَسَبُوا﴾، أي: ولا يغني عنهم، أي: ولا ينفعهم ولا يدفع عنهم عذاب الله.

﴿مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذين جعلوا غير الله أولياء من الأصنام والأنداد. أو مصدرية، أي: اتخاذهم وجعلهم غير الله أولياء.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة، لا يقدر قدر عظمته إلا الذي وصفه بذلك.

﴿هَٰذَا هُدًى﴾ الإشارة للقرآن الكريم، أي: هذا القرآن هدى للناس كلهم، يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم؛ كما قال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: جحدوها، وكذبوا بها، ولم يهتدوا بها.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، «الرجز»: أشد العذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٩].

﴿أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ويعقوب بالرفع: ﴿أَلِيمٌ﴾: وصف لـ«عذاب»، وقرأ الباقون بالجر، وصفًا لـ«رجز»، أي: لهم عذاب شديد مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، وحِكمه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، منزل من عنده، وتعظيمه، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وصفة العزة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وأنه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة: «العزة» و«الحكم» و«الحكمة» في حقه كمال إلى كمال.

٧- عظم آيات الله ودلائل قدرته ونعمته في السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما بينهما، لكن لا ينتفع بها إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

٨- أن في خلق بني آدم، وخلق جميع ما يدب على الأرض من الحيوانات: دلائل على تمام قدرته عز وجل ونعمته لأهل اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

٩- نعمة الله على العباد في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وإنزاله عز وجل المطر من السماء، وإحيائه به الأرض بعد موتها، وتقليب الرياح في مهابها، وما في ذلك من الآيات للذين يتفكرون ويتأملون وينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾.

١٠- كمال عظمة الله تعالى وقدرته، وتمام خلقه ونعمته في كل ما خلق في هذا

الكون الواسع العظيم، ودلالة ذلك كله على وحدانية الله تعالى في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على البعث، وعلى كل شيء.

١١- فضيلة الإيمان واليقين والعقل؛ لأن الله خص أهل الإيمان واليقين، وأهل العقول الذين ينتفعون بعقولهم، بالانتفاع بالآيات، وأثنى عليهم وامتدحهم بذلك دون غيرهم.

١٢- تعظيم الله عز وجل لآياته، وأنها تليت عليه ﷺ بالحق، ونزلت متلبسة بالحق، فطريق وصولها إليه حق، وهي مشتملة على الحق، ودالة عليه، وداعية إليه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٣- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٤- ذم المشركين؛ لتكذيبهم بالقرآن أحق كتب الله وأصدقها، ونفي أن يؤمنوا بأي حديث بعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- التهديد والوعيد لكل أفاك كثير الكذب في مقاله، أثيم كثير الإثم في فعاله، يسمع آيات القرآن تقرأ عليه، ثم يصر على تكذيبه واستكباره؛ كأنه ما سمعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

١٦- أن من سمع الآيات ولم ينتفع بها فهو كمن لم يسمعها، إلا أن الحجة تقوم عليه بسماعه لها.

١٧- بشارته- تهكمًا به- بعذاب أليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٨- شدة كفر هذا المُصِرِّ المستكبر؛ حيث لم يكتف بالإصرار على تكذيب الآيات والإعراض عنها، والاستكبار، بل جعلها هزوًا وتنفيرًا للناس منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾.

١٩- وعيد هذا المستهزئ بآيات الله، وتهديده بعذاب يهينه ويذله؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٢٠- أن وراءه جهنم، هي مصيره، وستحيط به؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾.

٢١- أنه لا ينفع المشركين المكذبين، ولا يدفع عنهم ما كسبوه من الأموال والأولاد وغير ذلك أيّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾.

٢٢- عدم استطاعة ما اتخذوه من دون الله أولياء من الأصنام والأنداد نَفْعَهم، ولا دَفْعَ عذاب الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾.

٢٣- تهديدهم ووعيدهم بالعذاب العظيم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٤- امتداح الله عز وجل للقرآن، وأنه أعظم هدى أنزله سبحانه لهداية الناس إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد بالعذاب الشديد للذين كفروا بآيات الله، مع قيام الحجة، ووضوح المحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

٢٦- أن الآيات والنُّذُر لا تغني عن قوم لا يؤمنون، فمع كون القرآن أعظم كتب الله تعالى هداية، فإن كثيرًا من الناس لا ينتفعون بذلك، حكمة بالغة فما تغن النذر.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾:

قوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾، أي: الله وحده ذو القدرة العظيمة، والفضل والمنة، الذي سخر لكم البحر وهيأه.

﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجري الفلك- وهي السفن- ﴿ فِيهِ ﴾، أي: في البحر.

﴿ بِأَمْرِهِۦ ﴾ عز وجل الكوني، وقدرته وحكمته، فيحملها البحر على ظهره ولا تغوص فتغرق في أعماقه مع ما تحمله من الأثقال العظيمة.

﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: معطوف على قوله: ﴿ لِتَجْرِىَ ﴾، أي: ولتطلبوا من فضل الله عز وجل بالأسفار على السفن عبر البحار العيش والرزق والاتجار.

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله عز وجل على ما سخر وهيأ ويسر لكم من أسباب التنقل لطلب العيش والرزق، بنسبة ذلك إلى الله عز وجل، واستعماله

في طاعته، والاستعانة به على مرضاته.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على «سخر» الأولى، أي: وهو عز وجل وحده الذي سخر لكم جميع الذي في السموات، وجميع الذي في الأرض من المخلوقات؛ من الشمس والقمر والكواكب، والحيوان والنبات، والمعادن والجبال، والبحار والأنهار، وغير ذلك مما ينتفع به العباد.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، «جميعًا»: توكيد، أي: جميع ذلك من عنده عز وجل وحده، وبفضله وإحسانه وامتنانه؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل:٥٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في ذلك المذكور؛ من تسخير البحر لجريان الفلك، والابتغاء من فضله، وتسخير ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه عز وجل.

﴿لَأَيَٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لَدلائل واضحات، وحجج بينات، وبراهين ظاهرات، على عظمة الله تعالى، وكمال قدرته، وسابغ نعمته، ووحدانيته.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يتفكرون في الآيات، ويتأملون فيها، ويتفهمونها، وينتفعون بها، ويعتبرون.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾، أي: يعفوا ويصفحوا ويتجاوزوا.

﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾، أي: للمشركين من أهل مكة الذين لا يرجون ثواب الله، ولا يخافون وقائعه في العاصين وعذابه إياهم، ولا يذكرون نعمه ولا يشكرونها.

وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمر الله المؤمنين بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب والعفو والصفح عنهم؛ لتأليف قلوبهم للإسلام، ولضعف المؤمنين آنذاك، ولما قويت شوكتهم شرع الله لهم الجهاد وأمرهم به.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٦٦.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بالنون: «لِنَجْزِيَ»، وقرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الزاي على البناء للمفعول: «لِيُجْزَى»، وقرأ الباقون بفتح الياء، وكسر الزاي؛ على البناء للفاعل: ﴿لِيَجْزِيَ﴾.

واللام: للتعليل، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: لأجل أن يجزي الله قومًا بكسبهم، أو بالذي كانوا يكسبونه؛ يعني: من الفريقين المؤمنين والكافرين، فيجزي المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعذاب، ففيه وعد للمؤمنين، ووعيد للمشركين؛ ولهذا قال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ هذا كالتفصيل للإجمال في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: من عمل عملًا صالحًا خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، فلنفسه عمله وثوابه.

﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾، أي: ومن أساء، أي: عمل عملًا سيئًا، ﴿فَعَلَيْهَا﴾، أي: فعلى نفسه إساءته وعقابها.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، أي: ثم إلى ربكم وحده تردون يوم القيامة، وتعرضون عليه بأعمالكم، فيحاسبكم ويجازيكم عليها صالحها وسيئها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

ذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما أنعم الله به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، واختلافهم بعد أن جاءهم العلم بغيًا بينهم، ووعيده إياهم بالقضاء بينهم يوم القيامة؛ تحذيرًا للمكذبين من هذه الأمة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم

السلام ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة والإنجيل، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾، أي: والحكم بالكتاب بين الناس، وجعل الملك فيهم، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كانت النبوة في ذرية إبراهيم أكثرها في بني إسرائيل.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [طه:٨٠، ٨١].

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: على عالمي زمانهم، أو فضلناهم على العالمين كلهم قبلهم وبعدهم، ويخرج من هذا العموم اللفظي أمة محمد ﷺ(١)؛ فإنها خير الأمم على الإطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وكل الفضائل التي أعطاها الله لبني إسرائيل أعطاها عز وجل لهذه الأمة، وزادها عليها فضائل كثيرة، من أعظمها أنه أنزل عليها القرآن أشرف كتبه وأعظمها، وأرسل إليها محمدًا ﷺ أفضل رسله وأشرفهم.

ويقوي القول الثاني: أن بني إسرائيل- والله أعلم- هم أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ؛ كما أن كتابهم «التوراة» أفضل الكتب بعد القرآن الكريم؛ ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠].

وعندما يقال: إن هذه الأمة هي خير الأمم، وإن بني إسرائيل هم أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ، فالمراد بذلك من الأمتين: أمة الإجابة، لا من كفر وغيّر وبدل منهما، فليسوا في الحسبان وإن كثروا.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، أي: وأعطيناهم دلالات تبين الحق من الباطل من الأمر القدري، وهي الآيات التسع التي رأوها على يد موسى عليه السلام.

وأعطيناهم بينات من الأمر الشرعي، تبين الحلال من الحرام، والمأمور من

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٤.

المحظور، وغير ذلك مما جاءهم في التوراة.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، ﴿بَغْيَۢا﴾: مفعول لأجله، أي: فما اختلفوا إلا من بعد مجيء العلم إليهم، الموجب لعدم الاختلاف ﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾، أي: حسدًا وظلمًا وعداوة بينهم، بعد قيام الحجة عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: إن ربك يا محمد يفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العدل في الذي كانوا فيه يختلفون، فيميز المحق من المبطل، ويجازي كلًّا بما عمل؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الآية:٩٣].

وهذا تحذير لهذه الأمة من اتباع سننهم وسلوك مسلكهم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾، أي: ثم جعلناك يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾، أي: على ملة ودين ومنهاج واضح. والتنوين للتعظيم، أي: على شريعة عظيمة.

﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، أي: من الأمر الشرعي الذي أوحيناه إليك.

﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، أي: فالزمها واثبت واستمر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب:٢].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أهواءهم مخالفة لدين الله وشرعه، صادرة عن جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾

[الشورى:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٠].

وكل من خالف شرع الله واتبع ما تحبه نفسه وتهواه، وجعل ذلك عقيدة له ودينًا، فهو ممن اتبع هواه بلا علم وبغير هدى من الله وعلى ضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠].

ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع: أهل الأهواء؛ لخروجهم عن الشريعة بمعتقدات باطلة، ويحذرون منهم.

﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليل للنهي السابق، أي: إن هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم بلا علم، إن اتبعتهم ﴿لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن يغنوا عنك من الله أيَّ شيء، لا بجلب نفع، ولا بدفع ضر.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾، أي: بعضهم أنصار بعض، أي: يوالي بعضهم بعضًا على الشر ويتعاونون على الإثم والعدوان، ويضل بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧].

﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده، ﴿وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوه بفعل أوامره، وترك نواهيه؛ يوفقهم ويعينهم ويحفظهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وينصرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»(١).

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾، أي: هذا القرآن بصائر وهداية عامة للناس؛ كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ خاصة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنهم يصدقون به تصديقًا جازمًا، وينتفعون به، ويتبعونه، ويعملون به. نسأل الله التوفيق.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على العباد بتسخير البحر بقدرته العظيمة؛ لتجري السفن فيه بأمره الكوني، مع ما تحمله من الأثقال، وليطلبوا من فضله الرزق والاتجار بالأسفار على ظهورها عبر البحار؛ لقوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٢- ينبغي شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة؛ حيث سخر البحر بقدرته لحمل هذه السفن، للتنقل عليها طلبًا للرزق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: على هذه النعمة وعلى غيرها من النعم الكثيرة.

٣- تسخيره عز وجل لبني آدم بقدرته التامة جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات؛ تفضلًا منه وامتنانًا وإحسانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

٤- أن في تسخيره عز وجل هذه المخلوقات العظيمة والمختلفة: آيات بينات، ودلائل واضحات، على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته، وسابغ نعمته، ووحدانيته، لمن تفكر فيها وتأمل، واعتبر بها وانتفع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٥- أمره عز وجل المؤمنين في أول الإسلام بالمغفرة والعفو عن المشركين، الذين لا يرجون أيام الله؛ تأليفًا لهم على الإسلام، ونظرًا لضعف المسلمين آنذاك؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾.

٦- أن على من وفقه الله وهداه وشرح صدره للإسلام والإيمان: الرفق بغيره في حدود الشرع، فليس من يعلم كمن لا يعلم.

٧- وعد الله للمؤمنين، ووعيده للمشركين، بمجازاة كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

٨- أن من عمل صالحًا فلنفسه عمله وثوابه، ومن أساء فعلى نفسه إساءته وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

٩- كمال عدل الله تعالى ومجازاته كلًّا بعمله، وبجنس ما عمل.

١٠- الترغيب في العمل الصالح، الذي يثاب صاحبه، وهو ما كان خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١١- التحذير من العمل السيئ الذي يعاقب مرتكبه.

١٢- إثبات البعث والمعاد إلى رب العباد، وأن إليه وحده إياب الخلائق، وعليه حسابهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

١٤- ذكر ما امتن الله به على بني إسرائيل؛ من إيتائهم التوراة والإنجيل، والحكم بهما بين الناس، وجعلهم ملوكًا، وجعل النبوة من ذرية إبراهيم عليه السلام أكثرها فيهم، ورزقهم من الطيبات، وتفضيلهم على العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

١٥- أن النعم كلها من الله عز وجل: الدينية والدنيوية؛ من إيتاء الكتاب والحكم والنبوة والرزق والفضل، وغير ذلك.

١٦- أن الإنعام بالفضائل الدينية أعظم وأهم؛ ولهذا قدم على الإنعام بالفضائل الدنيوية.

١٧- إقامة الحجة عليهم بإيتائهم بينات من الأمر الكوني، فيها بيان الحق من

الباطل، منها الآيات التسع على يد موسى عليه السلام، وبينات من الأمر الشرعي، فيها بيان الحلال والحرام، والأوامر والنواهي في التوراة.

١٨- أن بني إسرائيل ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بالكتب، وعلى أيدي الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

١٩- أن العلم ما لم يقارنه توفيق من الله تعالى إلى العمل، قد يكون وبالًا على صاحبه، وسببًا لهلاكه، وما حال صاحبه إلا كما قال الشاعر:

كـالعيس في البيـداء يقتلهـا الظـما والماء فوق ظهورها محمول(١)

وما أكثر هذا في كثير من المنتسبين إلى العلم الذين جعلوا العلم مطية لجمع المال، ولم يؤدوا حقه لا عملاً به ولا تعليمًا له.

٢٠- أن الذي حمل بني إسرائيل على الاختلاف بعدما جاءهم العلم هو البغي والعدوان، والظلم والحسد بينهم.

٢١- خطر الحسد ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب للبغي والعدوان والظلم، والاختلاف والتفرق، والعدول عن الحق.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وتشريفه أيضًا بخطابه تعالى في هذا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾.

٢٣- تهديد بني إسرائيل ووعيدهم بقضائه عز وجل وفصله بينهم يوم القيامة في اختلافهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٢٤- تحذير هذه الأمة من اتباع سنن بني إسرائيل، وسلوك مسلكهم؛ لأن ذكر ما أنعم الله به عليهم واختلافهم بعدما جاءهم العلم بغيًا بينهم، ووعيده عز وجل لهم، كل ذلك سيق لأجل تحذير هذه الأمة من سلوك طريقهم.

٢٥- الامتنان عليه ﷺ بجعله على شريعة عظيمة هي دين الإسلام، وأمره

---

(١) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» ص١٢٦٨.

باتباعها ولزومها، وتحذيره من اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وفي هذا امتنان على أمته، وأمر لهم باتباع هذه الشريعة، وتحذير لهم من اتباع أهل الأهواء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٢٦- أن كل من خالف شرع الله، واتبع ما تحبه نفسه وتهواه، وجعل ذلك له عقيدة ودينًا؛ فقد اتبع هواه بلا علم.

٢٧- أنه لا يؤمن أحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

٢٨- أن الذين يتبعون أهواءهم بلا علم لا ينفعون من اتبعهم بأيِّ شيء، لا بجلب نفع، ولا بدفع ضر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

٢٩- تولي الظالمين بعضهم بعضًا بالباطل، والتعاون على الإثم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

٣٠- أن الله عز وجل ولي المتقين خاصة، يوفقهم ويحفظهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣١- فضيلة تقوى الله، والترغيب فيها؛ لأن من اتقى الله فالله وليه، ونعم المولى ونعم النصير.

٣٢- ثناء الله عز وجل على كتابه وامتداحه له بأنه بصائر وهدى للناس عامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾.

٣٣- أن القرآن الكريم هدى ورحمة خاصة للموقنين؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به ويصدقونه، ويهتدون بهديه، ويعملون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب الذين اجترحوا السيئات.

والاجتراح: الاكتساب، ومنه تسمى السباع والطيور التي تستخدم للصيد: جوارح وكواسب؛ لأنها تكسب وتصيد لأصحابها.

والمعنى: أم ظن الذين عملوا السيئات واكتسبوها، من أهل الكفر والشرك والمعاصي.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي: «حسب»، أي: أحسب الذين عملوا السيئات وظنوا أن نصيرهم.

﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: كالذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالنصب: ﴿سَوَآءً﴾.

وقرأ الباقون بالرفع: «سَوَاءٌ»، أي: سواءً حياتهم وموتهم، أي: حالة محياهم وحالة مماتهم، أي: أحسبوا أن نساويهم بهم في الدنيا والآخرة؟ كلا، ولهذا قال:

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: ساء حكمهم، أو ساء الذي يحكمونه من هذا الحكم الجائر، والظن الباطل: أن نساوي بين الأبرار والفجار، في هذه الدار وفي الآخرة دار القرار.

كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر:٢٠].

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

لما نفى وأبطل ظن الذين اكتسبوا السيئات بالكفر والمعاصي المساواةَ بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبيَّن سوء حكمهم هذا، أتبع ذلك ببيان أنه عز وجل خلق هذا الكون كله وأقامه على الحق والعدل؛ ليُجزَى كل بما عمل من غير ظلم.

قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة، أي: خلقًا متلبسًا بالحق، أي: قائمًا على الحق والعدل، وعدم الظلم؛ ليُعبَد الله وحده لا شريك له، ويجازي كلًّا بما عمل؛ ولهذا قال:

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تُجزَى كل نفس بعملها، أو بالذي عملته من غير نقص في حسناتها، ولا زيادة في سيئاتها.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هذا تأكيد لما قبل، لإثبات كما عدله عز وجل، أي: وهم لا يظلمون أي شيء من الظلم.

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: أخبرني.

﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، «من»: موصولة، أي: الذي جعل إلهه هواه، يأتمر بما تهواه نفسه الأمارة بالسوء، فما أمره به هواه من شيء فعله، حسنًا كان أو قبيحًا.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، «على علم»: حال من الفاعل، أي: وأضل الله عز وجل هذا الذي اتخذ إلهه هواه عالمًا عز وجل بأنه يستحق الإضلال، وليس أهلًا للهداية.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حالًا من المفعول، أي: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه؛ كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل:١٤].

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾، أي: وطبع على سمعه، فلا يسمع ما ينفعه، ولو سمع ما انتفع، ولا يفقه ما يرد على قلبه؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «غَشْوَةً» بفتح الغين، وإسكان الشين من غير ألف، وقرأ الباقون بكسر العين، وفتح الشين، وألف بعدها: ﴿غِشَٰوَةً﴾، والغشاوة: غطاء العين.

أي: وجعل على بصره غطاءً فلا يبصر الآيات، ولا يرى الحق، ولا يهتدي إليه.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الاستفهام: للنفي، و«ما»: موصولة، أي: فمن الذي يهديه غير الله؟ أي: فلا أحد يهديه غير الله.

وقد أضله عز وجل وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، ولم يرد هدايته، بل سد عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية؛ كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف:١٨٦].

وقال ﷺ في خطبة الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١١٨، والنسائي في الجمعة ١٤٠٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٢ من =

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ عاصم بتخفيف الذال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾.

والاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفحوى هذا الأمر بالتذكر، أي: تذكروا، واعتبروا، واتعظوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال الكفرة المشركون الدهريون منكرو البعث والمعاد:

﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ما هناك حياة إلا حياتنا الدنيا.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أي: يموت أناس، ويحيا آخرون، أي: يولدون، ومن مات فليس براجع، ولا بعث، ولا معاد، ولا حساب، ولا جزاء.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، «إلا»: أداة حصر، والدهر: الزمان، أي: إن أحياءنا يصيرون إلى الموت بفعل الدهر وتأثير تقادم الزمان.

﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ الإشارة إلى قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

و«من»: زائدة لتوكيد النفي، أي: وما لهم بهذا القول أيُّ علم مهما قل، بل كذبوا الوحي والرسل بلا دليل ولا برهان.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هم إلا يظنون، أي: يُخمنون ويتخرصون ويتوهمون، والظن لا يغني من الحق شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦، يونس:٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦]،

=

حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: وإذا تُقرأ على هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث آياتنا الشرعية والكونية، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ظاهرات في الدلالة على أن البعث حق، وعلى تمام قدرة الله تعالى عليه.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ في إنكار البعث، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: إلا قولهم: ائتوا بآبائنا، أي: أحيوهم لنا.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إن هناك بعثًا ومعادًا وحسابًا وجزاءً.

﴿قُلِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالبعث القائلين: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ مبينًا بطلان قولهم.

﴿ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾، بخلقكم وإيجادكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: ثم يميتكم بعد انقضاء أعماركم، وحلول آجالكم.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: ثم يبعثكم بعد موتكم، ويجمعكم إلى يوم القيامة للحساب والجزاء، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه.

كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن:٩]، وقال تعالى: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ [المرسلات:١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود:١٠٤].

وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إبطال لقولهم: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لبيان أن البعث يوم القيامة، وليس في الدنيا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق؛ ولهذا ينكرون المعاد ويستبعدونه.

الفوائد والأحكام:

١- ظن الذين اكتسبوا السيئات من أهل الكفر والشرك والمعاصي غرورًا منهم، أن يجعلهم الله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويساويهم بهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

٢- سوء حكمهم في ظنهم هذا الظن الجائر؛ لقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٣- شتان بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين الذين كفروا واجترحوا السيئات، في الحياة وبعد الممات، فالمؤمنون سعدوا في الحياة بإيمانهم، وسعوا في إعتاق رقابهم، ففازوا في الآخرة بالجنات، والكافرون شقوا في الدنيا بكفرهم، وسعوا في إيباق أنفسهم، فصار مآلهم في الآخرة إلى النار والدركات.

٤- أن الخبيث لا يستوي مع الطيب بحال من الأحوال؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠]، فالكافر خبيث، والمؤمن طيب، والكفر خبيث، والإيمان طيب، وهكذا.

٥- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٦- إثبات الدار الآخرة، وأن القيامة لا شك فيها؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل، وأنه سبحانه خلق السموات والأرض بالحق، وأقامهن على العدل؛ ليُعبَد وحده لا شريك له، ولتُجزَى كل نفس بعملها من غير ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٩- ذم من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل

على بصره غشاوة، والإنكار عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾.

١٠- عقوبة من اتخذ إلهه هواه بإضلاله، والختم على قلبه، وتغشية بصره، وسد أبواب الهداية أمامه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

١١- إثبات القدر السابق، وأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى.

١٢- أن الله يضل من يشاء بعدله وحكمته، وعلمه بمن يستحق الإضلال، وليس أهلًا للهداية.

١٣- أن الله لا يضل أحدًا إلا بعد بيان الحق له، وإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

١٤- أن من أضله الله، وختم على سمعه وقلبه، وأغشى بصره عن الحق، فلا أحد يستطيع هدايته بعد الله؛ لأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾.

١٥- تسلية النبي ﷺ تجاه ضلال من ضل من قومه، واتخذ إلهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣].

١٦- الإنكار على من عبد هواه ولم يتذكر ولم يتعظ، والترغيب في التذكر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٧- إنكار المشركين المكذبين الدهريين البعث والمعاد، والدار الآخرة والحساب، وسبهم الدهر، وزعمهم أنه هو الذي يهلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾.

ومن سب الدهر ونسب إليه فعل الأشياء فكأنما سب الله؛ لأن الله هو الفاعل لذلك على الحقيقة، ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب**

الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»(١).

وعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**»(٢).

وليس معنى ذلك: أن «الدهر» من أسماء الله، وإنما المعنى: أنه هو المتصرف في الدهر.

١٨- إبطال معتقدهم الفاسد، وزعمهم الكاذب، وبيان أنهم يقولون بلا علم ولا دليل ولا برهان، ظنًّا كاذبًا، وتخرصًا وتخمينًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

١٩- أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، بل هو أكذب الحديث؛ كما قال ﷺ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**»(٣).

٢٠- تكذيبهم ما دلت عليه الآيات البينات الشرعية والكونية، من كون البعث حقًّا، واحتجاجهم على إنكار ذلك بما لا حجة لهم فيه، وهو قولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٢١- إبطال حجتهم بقولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ببيان أنه عز وجل هو الذي يحييهم بخلقهم من العدم، ويميتهم بانتهاء آجالهم، ثم يبعثهم يوم القيامة ويجمعهم بعد انقضاء الدنيا وزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وليس المراد بالبعث الموعود به: بعثهم في الدنيا.

٢٢- أن الله أحيا الخلق اثنتين؛ الأولى: بخلقهم من العدم، والثانية: ببعثهم يوم القيامة. وأماتهم اثنتين؛ الأولى: لما كانوا عدمًا، والثانية: بعد انقضاء آجالهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٢٦، ومسلم في الألفاظ، النهي عن سب الدهر ٢٢٤٦، وأبو داود في الأدب، في الرجل يسب الدهر ٥٢٧٤.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٩٩، ٣١١.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق؛ ولهذا أنكر كثير منهم المعاد واستبعدوه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾، أي: ولله عز وجل وحده ملك السموات والأرض، وهو سبحانه الخالق لذلك كله، المتصرف فيه في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: وفي الآخرة، يوم تقوم الساعة، أي: يوم القيامة، أي: له الملك في الدنيا والآخرة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، «يومئذ»: بدل من «يوم تقوم الساعة»، أو توكيد له.

أي: يوم يخسر في ذلك اليوم المبطلون، أي أهل الباطل، وهم الكفرة والمكذبون.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وترى يومئذٍ كل أمة من الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتاب.

﴿جَاثِيَةً﴾ على الركب من شدة الكرب، وعظم الهول، متميزة منفردة.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ قرأ يعقوب بنصب اللام: «كُلَّ»، وقرأ الباقون برفعها: ﴿كُلُّ﴾، أي: كل أمة تدعى إلى كتاب شريعتها الذي أنزل عليها؛ لتُعرض أعمالها على ما أُمرت به في كتابها، وهل أعمالها موافقة لما جاء في كتابها فتفلح وتربح، أم مخالفة لكتابها

فتخيب وتخسر؟

وفي الحديث: «**والقرآن حجة لك أو عليك**»(١).

ويدل على هذا الاحتمال قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ على أن معناه: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصل بالحق والعدل.

ويحتمل أن المراد بكتابها: كتاب أعمالها، أي: كتاب الأعمال لكل أحد، وما سطر فيه من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩].

ويدل على هذا الاحتمال قوله بعد هذا: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أي: يقال لها بشارة للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: تجزون جزاء عملكم، أي: جزاء الذي كنتم تعملونه، خيرًا كان أو شرًّا.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ الذي كتبنا فيه أعمالكم، وهو يشمل جميع الكتب التي أُحْصِيت فيها أعمالهم، ولكل واحد كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء:٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩، الانشقاق:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق:١٠].

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣؛ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يشهد ويستحضر جميع أعمالكم بالحق والعدل، من غير زيادة ولا نقصان؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: كتابنا الذي أنزلناه عليكم يفصل ويقضي بالحق والعدل. والأول أقرب؛ لقوله:

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: إنا ننسخ ونكتب عملكم، أي: الذي كنتم تعملونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار:١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق:١٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٠ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾:

لما ذكر استنساخ وكتابة جميع أعمال العباد، وشهادة كتبهم عليهم بأعمالهم، أتبع ذلك بتفصيل جزائهم؛ من آمن منهم ومن كفر.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» في الموضعين: حرف شرط وتفصيل، أي: فأما الذين آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فيدخلهم ربهم في جنته؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنت الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لإدخالهم في رحمته عز وجل وجنته.

﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ أي: هو الظفر والنجاح والفلاح، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البيِّن الظاهر الواضح.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: فيقال لهم؛ تقريعًا وتوبيخًا وتقريرًا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تقرأ عليكم.

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستكبرتم عن الانقياد لها، وكذبتم بها بقلوبكم.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بأفعالكم بالكفر والشرك.

وفي قوله: ﴿قَوْمًا﴾ إشارة إلى أن الإجرام صار خلقًا لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: وإذا قيل لكم: إن وعد الله بالحساب والجزاء والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾، أي: واقع لا محالة.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة بنصب: «الساعة»: «وَالسَّاعَةَ»؛ عطفًا على ﴿وَعْدَ﴾، وقرأ الباقون برفعها: ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ على الابتداء، أي: والقيامة لا شك فيها، أي: آتية ولا بد.

﴿قُلْتُم﴾ منكرين لذلك: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: لا نعرفها، ولا نؤمن بها، ولا نصدق بوقوعها.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، «إن» نافية، بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما نظن إلا ظنًّا، أي: ما نتوقع وقوعها إلا توهمًا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ توكيد لما قبله، والسين والتاء للمبالغة، أي: وما نحن بمتيقنين، أي: بمتحققين.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾، أي: ظهر لهم يوم القيامة جزاء وعقوبة سيئات الذي عملوه، أي: سيئات عملهم.

ولم يقل: وبدا لهم عقوبات سيئات ما عملوا، بل قال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ للدلالة على أن العقوبة سببها السيئات، وأن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط ونزل بهم.

﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما» اسم موصول مبني في محل رفع فاعل، أي: وأحاط

بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا به يستهزئون؛ تكذيبًا بوقوعه، ولمن توعدهم به.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾، أي: نترككم في العذاب في نار جهنم.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾، «ما»: مصدرية، أي: نسيانًا كنسيانكم لقاء يومكم هذا، وترككم العمل له، وتكذيبكم به، والجزاء من جنس العمل.

وجاء في الحديث القدسي أن الله عز وجل يقول للعبد: «**ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني**»(١).

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: ومصيركم ومنزلكم ومقركم النار.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونكم ويدفعون عنكم عذاب الله.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ الإشارة تعود إلى نسيانهم وجعل مصيرهم النار، والباء: للسببية، أي: ذلكم الوعيد بنسيانكم، وجعل مأواكم النار، وعدم نصركم، بسبب أنكم جعلتم آيات الله هزوًا، تستهزئون بها، وتسخرون منها.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأننتم وركنتم إليها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء، وضم الراء: ﴿يَخْرُجُونَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿يُخْرَجُونَ﴾ ﴿يُخرجون﴾ بضم الياء، وفتح الراء، أي: فاليوم لا يُخرَجون من النار.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: ولا يطلب منهم العُتبى، بأن يُرْضوا ربهم بالتوبة والطاعة، بل يعذبون بغير استعتاب؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار استعتاب وعمل.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾، أي: فلله وحده الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وهو الوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، على ربوبيته لجميع الخلق؛ ولهذا قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾، «رب»: بدل من لفظ الجلالة في المواضع الثلاثة، أو نعت له، أي: خالقهما ومالكهما، والمتصرف فيهما.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، ويجب عليهم أن يحمدوه.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ في السموات والأرض، أي: وله وحده الكبرياء في السموات والأرض، أي: العظمة والجلال والمجد، والسلطان والقدرة؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**»(١).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع، الذي لا يُغالَب ولا يُمانَع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات سعة ملكه عز وجل، واختصاصه بملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

٢- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

٣- خسارة أهل الباطل في ذلك اليوم الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

٤- جُثُوُّ الأمم على الركب، وتمايز كل أمة من شدة الكرب وعظم الهول في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾.

٥- دعوة كل أمة إلى كتابها الذي أُنزل عليها؛ لعرض أعمالها عليه، وهل هي موافقة لما جاء فيه أو مخالفة؟ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، وقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا

---

(١) سبق تخريجه.

يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- عرض كتب أعمال كل أمة عليها؛ ليرى كل فرد منها ما سطره فيه من خير وشر؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ وهذا على الاحتمال الثاني أن المراد: كتاب أعمالها.

٧- مجازاة كل بما عمل من غير زيادة في سيئاته، ولا نقصان من حسناته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾.

٩- إثبات كتابة الأعمال، وأن لكل أمة، أي: لكل فرد منها، كتابًا يستحضر ويشهد بالحق والعدل على جميع أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله قبل هذا: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

١٠- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: أهل الإيمان والعمل الصالح الذين يدخلهم ربهم في رحمته وجنته، ولهم الفوز المبين، وكفار مستكبرون، لهم التوبيخ والتقريع، ومأواهم النار وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ الآيات.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى، ورحمته الخاصة بالمؤمنين.

١٣- لا فوز أبين وأظهر وأعلى من الدخول في رحمة الله تعالى وجنته، والتمتع بما فيها من ألوان النعيم، ورؤية الرب الكريم.

١٤- توبيخ الكفار وتقريعهم على كفرهم واستكبارهم عن الانقياد لآيات الله، وتكذيبهم بها، وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

١٥- توبيخهم وتقريعهم على تكذيبهم بوعد الله بالجزاء، وإنكارهم قيام الساعة، وتشكيكهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٦- إثبات أن وعد الله بالحساب والجزاء، والثواب والعقاب، حق لا مرية فيه.

١٧- أن الظن لا ينفع صاحبه، ولا يغني من الحق واليقين شيئًا.

١٨- معاينتهم ومشاهدتهم في ذلك اليوم عقوبات ما عملوه من السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾.

١٩- إحاطة العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا، ونزوله بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٢٠- تبكيتهم بنسيانهم وتركهم في العذاب؛ كما نسوا لقاء يوم القيامة ولم يعملوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

٢١- وعيدهم وتهديدهم بأن مأواهم ومنزلهم ومصيرهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٢٢- أنه لا نصير لهم في ذلك اليوم ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٢٣- توبيخهم وتبكيتهم ببيان أن سبب نسيانهم في العذاب وجعل النار مصيرهم: هو جعلهم آيات الله هزوًا وسخريةً، والاغترار بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢٤- يجب الحذر من الاستهزاء بآيات الله ودينه، والحذر من الاغترار بالدنيا وزخارفها، وزينتها الفانية.

٢٥- خلود الكفرة والمجرمين في النار، فلا خروج لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾.

٢٦- تعذيبهم في ذلك اليوم بلا استعتاب؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار استعتاب وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

٢٧- اختصاص الله تعالى بكمال الحمد، والوصف بكمال الصفات على ربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

٢٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للسموات والأرض، والعالمين كلهم.

٢٩- اختصاصه عز وجل بالكبرياء والعظمة والسلطان في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣٠- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة «العزة» التامة، و«الحكم» التام، و«الحكمة» البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣١- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز»، و«الحكيم»، وصفة «العزة» التامة، و«الحكم» التام، و«الحكمة» البالغة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْأَحْقَاف

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الأحقاف» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل «سورة الأحقاف» بمثل ما افتتح به «سورة الجاثية»: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾؛ تعظيمًا للقرآن وبيانًا لإعجازه، وتعظيمًا لنفسه عز وجل.

٢- بيان أنه عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما لحكمة عظيمة، وهي عبادته، ومجازاة العباد بأعمالهم: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

٣- بيان بطلان ما يعبده المشركون من دون الله من آلهة، ومدى ضلال من يدعوها من دون الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

٤- تكذيب الذين كفروا بما يُتلى عليهم من آيات الله البينات، وزعمهم أنه سحر مبين، ومما افتراه محمد، والرد عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

٥- وعد الله عز وجل للذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا بانتفاء المرهوب، وحصول المطلوب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٦- وصية الإنسان بالإحسان إلى والديه، وسؤال الله تعالى أن يلهمه شكر نعمة الله عز وجل عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضاه الله، ويصلح له في ذريته: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٧- التهديد والوعيد لمن ينكر البعث، ويكفر بالله، وينكر وعده: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- التذكير بهود عليه السلام وإنذاره قومه عادًا بالأحقاف وقد خلت النُّذُر من بين يديه ومن خلفه: ألا يعبدوا إلا الله، وتخويفهم عذاب يوم القيامة، وتكذيبهم له، واستعجال العذاب، وإهلاكهم بالريح: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ۗ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ

بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٩- تذكير المشركين بإهلاك مَن حولهم مِن القرى، وتصريف الآيات لهم لعلهم يرجعون، وبيان غياب آلهتهم التي تقربوا إليهم من دون الله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

١٠- ذكر استماع نفر من الجن إلى قراءته ﷺ القرآنَ، وإنذارِهم قومَهم، وشهادتهم بتصديق القرآن لما قبله، وهدايته إلى الحق والطريق المستقيم، وأمرهم قومهم بإجابة داعي الله، وتحذيرهم من عدم الإجابة: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

١١- بيان تمام قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، والتهديد والوعيد للمكذبين: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

١٢- تقوية قلبه ﷺ، وتسليته تجاه تكذيب قومه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾:

قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ سبق الكلام عليه في سورة غافر، وسورة الجاثية.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة والمصاحبة، أي: إلا بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، وهو: أن يُعبَدَ الله وحده لا شريك له، لا على وجه العبث والباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۗ﴾ [الحجر:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: وإلى وقت محدد، ومدة مضروبة؛ لا تزيد ولا تنقص، وهو

وقت انتهاء الدنيا، وتبدلها وبعث الخلائق للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الروم:٨].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: عن الذي أنذروه وخُوِّفوا به وحُذِّروا منه ﴿مُعْرِضُونَ ﴾ بقلوبهم، متولُّون بأبدانهم، لاهون غافلون، حالهم كما قال الشاعر:

والنـــاس في غفلـــة عـــما يـــراد بهـــم ... كـــأنهم غـــنم في حـــوش جـــزارِ

والمقصود: التهديد والوعيد لهم، أي: وسيعلمون غب ذلك.

﴿ قُلْ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره؛ مبينًا لهم عجز آلهتهم، وعدم استحقاقهم للعبادة.

﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والسخرية، و«ما»: موصولة، أي: الذي تدعونه غير الله من الأصنام والأوثان.

﴿أَرُونِى ﴾، أي: أخبروني، والأمر للتحدي والتعجيز.

﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، «ماذا»: استفهامية، أو «ما»: استفهامية، و«ذا»: بمعنى «الذي»، أي: ما الذي خَلَقوا من الأرض؟ أي: هل خلقوا جبالًا، أو أجروا أنهارًا، أو نشروا حيوانًا، أو أنبتوا أشجارًا، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: أنهم لم يخلقوا من الأرض شيئًا.

وإذا لم يكن شيء من الأرض مخلوقًا لهم بطل أن يكونوا آلهة؛ لخروج المخلوقات عن خلقهم وتصرفهم؛ كما قال تعالى منكرًا على المشركين: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢].

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ﴾، «أم» في الموضعين: هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل ألهؤلاء الآلهة شركة ونصيب

مع الله في السموات؟

أي: أنهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض، ولا شرك لهم في السموات، ولا في الأرض، فكيف تدعونهم من دون الله؟!

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

لما ذكر انتفاء الدليل العقلي لهم على دعوتهم الأصنام والأوثان من دون الله، أتبع ذلك بذكر انتفاء الدليل النقلي لهم على ذلك؛ كما قال في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر:٤٠].

أي: ائتوني بكتاب من كتب الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة الأصنام. والأمر- كالذي قبله- للتحدي والتعجيز.

﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾، أي: من قبل القرآن، الذي أمر بعبادة الله تعالى وحده، ونهى عن الشرك.

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، أي: أو ائتوني بأثارة من علم، أي: بقية وموروث من علم الرسل يأمر بذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في أن هذه الأصنام والأوثان لها شرك مع الله، وتستحق العبادة من دونه.

وفي هذا إفحام لهم، فلا يستطيعون أن يأتوا بدليل؛ لا معقول ولا منقول على ما هم عليه من الشرك بالله، وقد أجمع الرسل عليهم السلام على الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

فكل رسول يقول لقومه: اعبدوا الله؛ ما لكم من إله غيره؛ كما جاء في ذكر قصصهم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أشد ضلالًا

وأعظم جهلًا من الذي يدعو ويعبد غير الله.

﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، «من» موصولة، أي: الذي لا يستجيب له إلى يوم القيامة، أي: لا يستجيب له أبدًا، وهي الأصنام والأوثان، فهي لا تسمع دعاء من دعاها ولا تستجيب له؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر:١٤].

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: وهؤلاء الآلهة عن دعاء المشركين إياهم وعبادتهم لهم في الدنيا غافلون؛ لأنهم جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢].

هذه حال آلهتهم في الدنيا، وهم في الآخرة كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾، أي: وإذا جُمع الناس بعد البعث يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾، أي: كان هؤلاء الآلهة لعابديهم أعداءً، يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥].

﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، أي: وكان هؤلاء الآلهة بعبادة المشركين إياهم كافرين، أي: منكرين جاحدين لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان:١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: وإذا تتلى على المشركين المكذبين، أي: تُقْرأ عليهم آيات الله واضحاتٍ ظاهراتٍ جلياتٍ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مكذبين ومكابرين ومعاندين.

﴿لِلْحَقِّ﴾، وهو القرآن وما جاء فيه من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، أي: حين جاءهم.

﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن واضح ظاهر، وكذبوا، وهذا من قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعاف العقول، وهو من أشد وجوه فرط ضلالهم.

وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وأنه سبب قولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: بل أيقولون افتراه؟ أي: افترى محمد هذا القرآن، أي: اختلقه وتَقوَّلَه من عند نفسه، فليس هو من عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور:٣٣]، وهذا ضرب آخر من ضروب ضلالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان:٤].

ولهذا تحداهم الله في زعمهم أنه افتراه: أن يأتوا هم بأنفسهم بسورة أو بعشر سور مثله، أو يأتوا بمثله.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾، أي: قل لهم يا محمد: إن كنت افتريت هذا القرآن من عند نفسي، وزعمت أنه من عند الله، فقد تعرضت لأشد العقاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

لأن التقوّل على الله أعظم أنواع الافتراء، وأشد الموبقات وأعظمها، وأعمها فسادًا؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فجعل عز وجل القول على الله بلا علم أعظم من الشرك وغيره من الذنوب؛ لشدته، وعظم جرمه، وانتظامه لجميع الذنوب؛ ولهذا قال هنا:

﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: فلا تقدرون، لا أنتم ولا غيركم على دفع عقوبة الله عني؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود:٣٥].

والمعنى: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ﴾؛ تعليل للنفي قبله، و«ما»: موصولة، أي: هو سبحانه أعلم بالذي تفيضون فيه، وضمير الهاء يعود إلى القرآن.

والإفاضة هنا بمعنى: إطالة القول والكلام، أي: هو أعلم بما تفيضون وتطيلون من القول في القرآن، قدحًا وطعنًا فيه، من قولكم: سحر، أو شعر، أو مفترى، أو غير ذلك.

ويجوز كون ضمير الهاء يعود إلى الرسول، أي: هو أعلم بما تفيضون من الطعن والقدح في الرسول ﷺ، من قولكم: ساحر، أو شاعر، أو مفترٍ، أو كاهن، أو مجنون، أو غير ذلك.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ﴾، أي: كفى به عز وجل شاهدًا ومطلعًا ورقيبًا وحاكمًا بيني وبينكم. وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: وهو ذو المغفرة الواسعة لمن تاب إليه، يستر ذنوبهم، ويتجاوز عنهم.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع الخلق.

وفي هذا ترغيب لهم بالتوبة، ووعد لهم بالمغفرة والرحمة، إن تابوا وأنابوا إليه مع ما

صدر منهم من التكذيب والعناد، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان:٥، ٦].

﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: لست بأول رسل الله إلى خلقه، حتى تستنكروا وتستبعدوا بعثي إليكم، فقد سبقني جميع الرسل والأنبياء، وما كنت بدعًا من الرسل في دعوتي لكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فهذا ما دعت إليه الرسل كلهم قبلي.

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾، «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي، أي: وما أعلم ما الذي يفعله الله بي ولا بكم في هذه الدنيا، وما الذي قدره علي وعليكم فيها؛ لأني لا أعلم الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨].

أما في الآخرة فإنه ﷺ يعلم ما يُفعَل به في الآخرة، وأنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وقد قال ﷺ: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة..»(١).

وشهد ﷺ لعدد من الصحابة رضي الله عنهم بالجنة؛ كالعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم(٢).

كما يعلم ﷺ أن الكفرة والمشركين في النار، ويعلم كل ما أخبره الله به وأعلمه.

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، و«ما»: موصولة، أي: ما أتبع إلا الذي يوحيه الله تعالى إلي من الوحي؛ دعوةً إليه، وعملًا به.

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: وما أنا إلا نذير بيِّن النذارة، وأمري بيِّن ظاهر، وليس بيدي شيء من الأمر، بل الأمر كله لله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف:٥٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٢١؛ من حديث حسناء بنت معاوية الصريمية، عن عمها رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٤٧؛ من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، وحِكمه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى منزل من عنده، وتعظيمُه، وإبطال القول بخلق القرآن.

٤- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز»، و«الحكيم»، وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٥- حكمة الله تعالى البالغة، وقدرته العظيمة في خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه ما خلقهما وما بينهما إلا بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، لا عبثًا ولا باطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٦- أن الله جعل للسموات والأرض وما بينهما من المخلوقات أجلًا مسمى، ووقتًا محددًا تفنى عند حلوله، وهو انتهاء هذه الدنيا، ومصير الخلائق ومعادهم إلى الله تعالى؛ ليجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٧- إعراض الذين كفروا عما أُنذروا، وخُوِّفوا منه، ولهوهم وغفلتهم عما خُلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

٨- توبيخ المشركين، والإنكار عليهم في عبادتهم آلهة من دون الله ، وتحديهم أن يكون لهؤلاء المعبودين خلقُ شيءٍ من الأرض، أو شرك في السموات، وإثبات عجزهم، وعدم استحقاقهم للعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٩- أن المستحق للعبادة هو الله تعالى وحده، المتفرد بخلق السموات والأرض وجميع المخلوقات، لا شريك له في ذلك كله، ولا مُعين، ولا ظهير.

١٠- أنه لا دليل ولا برهان للمشركين على اتخاذهم هذه الآلهة لا من عقل ولا نقل،

ولا مصداق لزعمهم أن لها شركًا مع الله، وأنها تستحق العبادة، وأنها تنفع وتشفع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

١١- أن العقل، والنقل في جميع الكتب السماوية، وعلى ألسنة جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام دل على وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

١٢- أنه لا أحد أشد ضلالًا وجهلًا ممن يعبد من دون الله أصنامًا وأوثانًا لا تسمع ولا تستجيب له أبدًا، بل هي جمادات غافلة عن دعائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

١٣- إثبات يوم القيامة، وحشر الناس فيه للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾.

١٤- عداوة هؤلاء المعبودين من دون الله يوم القيامة لعابديهم، وكفرهم بعبادتهم، وتبرؤهم منهم ومن عبادتهم إياهم، أحوج ما يكونون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

١٥- شدة كفرهم وعنادهم، وجرأتهم على وصف كتاب الله وما جاءهم فيه من الآيات البينات والحق بأنه سحر بيِّن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

١٦- قيام الحجة عليهم بالآيات البينات، وبيان الحق لهم، والإعذار منهم.

١٧- أن الذي حملهم على وصفهم القرآن بأنه سحر مبين، هو كفرهم؛ بدلالة الإظهار في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدل الإضمار.

١٨- زعمهم الكاذب، وافتراؤهم الباطل عليه ﷺ بأنه اختلق القرآن من عند نفسه وليس هو من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

١٩- عِظَم شأن الافتراء على الله، وأن من افترى على الله، وتقوَّلَ عليه ما لم يقل، وزعم أن الله أرسله كذبًا عاجله الله بالعقوبة الشديدة، التي لا يستطيع أحد دفعها عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

٢٠- علم الله تعالى المحيط بهم، وبما يفيضون من القول في الطعن بالقرآن،

وبالرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد لهم بكفايته عز وجل شهيدًا ومطلعًا عليهم، وحاكمًا بينه ﷺ وبينهم، ومجازيًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

٢٢- أنه لا أعظم كفاية من الله عز وجل في الشهادة على العباد، ومحاسبته إياهم.

٢٣- إثبات اسميه عز وجل: «الغفور» و«الرحيم»، وصفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل، وترغيب هؤلاء المكذبين وغيرهم بالتوبة والإنابة؛ ليغفر لهم ويرحمهم. وفي هذا دلالة على واسع حلمه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٤- الجمع لمن تاب وأناب إلى الله بين زوال المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

٢٥- أنه ﷺ ما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وليس هو أول رسول، وليس ما جاء به من الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الشرك بدعًا في الرسالات، بل كل الرسل قبله دعوا إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٢٦- أنه ﷺ كغيره من البشر؛ لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما أخفاه القدر له ولا لغيره في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

٢٧- أنه ليس إليه ﷺ إلا اتباع ما أوحاه الله تعالى إليه؛ دعوةً إليه، وعملًا به، وليس له من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

٢٨- أنه ﷺ ما هو إلا نذير بيِّن، ينذر ويحذر من عذاب الله، وفي طي ذلك بلا شك تبليغ التكاليف؛ ليترتب على ذلك الإنذار لمن خالفها، والبشارة لمن امتثلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني، والاستفهام للتقرير والتوبيخ.

﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: إن كان هذا القرآن منزلًا من عند الله تعالى وكلامه.

﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾، أي: كذبتم به وجحدتموه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: معطوف على «كان»، أي: وشهد شاهد من علماء بني إسرائيل على مثل القرآن، تصديقًا له ولما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء:١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:٤٣].

ومعنى ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، أي: على مثل القرآن؛ كالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، فهي مثل القرآن في كونها منزلة من عند الله تعالى، ودعت إلى ما دعا إليه من توحيد الله ونبذ الشرك، وأخبرت بمثل ما أخبر به من البعث والحساب والجزاء، وشهدت بصدقه وصحته، وبشرت به.

﴿فَـَٔامَنَ﴾ هذا الذي شهد من بني إسرائيل، على مثل القرآن، أي: آمن بالقرآن؛ لمعرفته بصحته وصدقه؛ كما آمن بكتابه قبل ذلك؛ لعلمه أن كتب الله أولها يبشر بآخرها، ويشهد بصدقه، وآخرها مصداق ما أخبر به أولها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص:٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الآية:١٧]، والشاهد: القرآن.

فهذه الآيات كلها تدل على إيمان أهل الكتاب بالقرآن، وشهادتهم بصدقه، خصوصًا من وفَّقه الله منهم للحق.

وليس المراد بالشاهد في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ شخصًا معينًا، لا عبدالله بن سلام، ولا غيره، بل كل من وفقه الله منهم لقول الحق شهد بذلك.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجمع من التابعين: أنها نزلت في عبد الله بن سلام(١).

والصحيح: أن سورة الأحقاف كلها مكية، وعبدالله بن سلام إنما أسلم في المدينة.

وأما حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام، قال وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾»(٢).

فقد قال ابن حجر(٣): «إن ذكر النزول مُدرَج من بعض الرواة»؛ يعني: نزول قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾».

﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ﴾ الخطاب لمشركي قريش، أي: واستكبرتم أنتم عن الإيمان بالقرآن واتباعه، وكذبتم وكفرتم به، فكان هذا الشاهد من بني إسرائيل أسعد منكم آمن بكتابه وآمن بكتابكم ولم يذكر مفعولي: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ تهويلًا له؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، والتقدير: أرأيتم حالكم إن كان من عند الله وكفرتم به، أي: ألستم ظالمين ضالين؟ كما قال في سورة فصلت: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٢﴾ [فصلت:٥٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تعليل لما قبله، أي: لا يهديهم للإيمان بالقرآن واتباعه، بسبب ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

---

(١) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ١٢٦- ١٣١.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، مناقب عبدالله بن سلام ٣٨١٢، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل عبدالله بن سلام ٢٤٨٣.

(٣) «فتح الباري» ٧/ ١٦٢.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: إن الله لا يهديكم، بل قال: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وبيان أنه سبب عدم هدايتهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ إعجابًا منهم بأنفسهم وغرورًا.

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾، أي: لو كان القرآن وما دعا إليه خيرًا.

﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ يعنون: الذين بادروا إلى الإسلام من الضعفاء؛ كبلال وعمار وصهيب وخباب وأمثالهم من الضعفاء والمماليك، أي: ما سبقنا هؤلاء إلى الإسلام اغترارًا منهم بأنفسهم وتزكية لها، واحتقارًا لمن بادر إلى الإسلام من الضعفاء؛ كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود:٢٧].

وما علموا أن إيمان هؤلاء إنما هو فتنة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: وإذا لم يهتدِ هؤلاء الكفار المكذبون بالقرآن، وفاتهم هذا الفضل العظيم.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ كبرًا منهم، واستمرارًا على كفرهم وتكذيبهم، وانتقاصًا للقرآن: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، أي: هذا القرآن كذب قديم، أي: مأثور عن الأقدمين.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٥].

وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ خلاف قول المؤمنين الصادقين المستمسكين بهدي النبي ﷺ وأصحابه: أن كل ما لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه من قول أو فعل

فهو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾، أي: ومن قبل القرآن الكريم، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، «التوراة» أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

﴿إِمَامًا﴾، أي: قدوة يقتدي به بنو إسرائيل، ويأتمُّون به، ويعملون بما فيه من الأحكام والشرائع قبل نسخه بالقرآن.

وقوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، ولم يقل: التوراة؛ للتذكير بأنه أُنزل على بشر؛ كما أنزل القرآن على محمد ﷺ.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، أي: وهذا القرآن كتاب عظيم، ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لما قبله من الكتب، أي: مخبر وشاهد بصدقها، بإخباره بنزولها من عند الله، وموافقته لها، وبكونه مصداق ما أخبرت وبَشَّرت به.

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: حال كونه لسانًا عربيًّا، أي: بلغة العرب، فصيحًا واضحًا لتيسير ذكره وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالخطاب: ﴿لتنذر﴾، وقرأ الباقون بالغيب: ﴿لينذر﴾. واللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر، أي: يحذر ويخوف الذين ظلموا بالشرك والكفر والفسق والمعاصي من عذاب الله.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾: معطوف على «ينذر»، أي: وليكون بشرى للمحسنين، وهم المؤمنون الذين جمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى، بالإيمان به، والإخلاص له، واتباع شرعه، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، أي: بشرى لهم بالسعادة في الدنيا والآخرة، وبالجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، أي: أقروا بألسنتهم بربوبية الله وألوهيته، واعترفوا بذلك بقلوبهم، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على ذلك بعبادته عز وجل وحده بالعمل بجوارحهم؛ فعلًا للمأمورات، وتركًا للمحظورات، مدة حياتهم.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ﴾، أي: أولئك أهل الجنة الملازمون لها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين ومقيمين فيها إقامة أبدية؛ لا تحول، ولا تزول.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، «جزاء»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: يُجْزَوْن جزاءً، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، من الإيمان بالله والاستقامة على دينه.

وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تنويهًا بهم، ورفعة لشأنهم.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾:

لما ذكر في الآية السابقة التوحيد، وإخلاص العبادة لله، والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين؛ لأن حقهما أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى؛ ولهذا قرن الله تعالى بين حقه وحقهما في آيات عدة في القرآن الكريم.

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ﴾؛ قرأ حمزة وعاصم والكسائي: ﴿إِحْسَٰنًاۖ﴾ بزيادة همزة مكسورة قبل الحاء، وإسكان الحاء، وفتح السين، وألف بعدها.

وقرأ الباقون: ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء، وإسكان السين، من غير همزة ولا ألف.

أي: أمرنا الإنسان وأوجبنا عليه أن يحسن بوالديه إحسانًا، ببرهما والحنو والعطف عليهما، وخدمتهما، وطاعتهما، والقيام بحقوقهما.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ﴾؛ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب: ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف في الموضعين.

وقرأ الباقون: ﴿كَرْهًا﴾ بفتحها في الموضعين.

أي: قاست أمه في حال حمله مشقة عظيمة وتعبًا شديدًا، من وحامٍ وغثيان، وثقل

وكُرَبٍ، إلى غير ذلك مما ينتاب الحامل من أنواع التعب والمشقة.

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي: وولدته كرها، أي: بمشقة عظيمة من كُرَب الطلق وشدته.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾؛ قرأ يعقوب بفتح الفاء، وإسكان الصاد من غير ألف: ﴿وفَصْله﴾، وقرأ الباقون بكسر الفاء، وفتح الصاد، وألف بعدها: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾، أي: ومدة حمله في بطن أمه، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾، أي: فطامه.

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، تسعة أشهر- غالبًا- حمله، ورضاعه بقية الثلاثين، واحد وعشرون شهرًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى إذا بلغ اشتداد قوته البدنية والعقلية واستواءه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١٤].

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهي نهاية تكامل القوى غالبًا.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾، أي: ألهمني ووفقني.

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«أوزعني»، أي: أوزعني شكر نعمتك.

ونعمة: مفرد مضاف إلى معرفة فيعم جميع النعم، أي: رب ألهمني ووفقني شكر جميع نعمك، وذلك بالاعتراف بها لك، واستعمالها في طاعتك، والاستعانة بها على مرضاتك.

﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾؛ من جميع النعم الدينية والدنيوية، وكان من دعاء النبي ﷺ في التشهد: «**واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا**»(١).

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾؛ لأن النعمة على الوالدين نعمة على الأولاد.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ الواو: عاطفة، و«أن» والفعل «أعمل» في تأويل مصدر في محل نصب معطوف على المصدر السابق، أي: وأوزعني أن أعمل في المستقبل عملًا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، التشهد ٩٦٩؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

صالحًا، خالصًا لوجهك، موافقًا لشرعك، ترضاه عني، وتقبله مني.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾؛ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته؛ لأنهم أحق من غيرهم، أي: اجعل ذريتي ذرية صالحة، مخلصة لك، متبعة لشرعك.

وفي قوله: «لي» إشارة إلى أن صلاح الذرية يعود بالنفع على والديهم.

﴿إِنِّي تُبْتُ﴾، أي: رجعت وأَنَبتُ إليك، ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين استسلموا لك بالتوحيد، وانقادوا لطاعتك، وأخلصوا لك من الشرك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بنون مفتوحة ﴿نَتَقَبَّلُ﴾، و﴿نَتَجَاوَزُ﴾، و﴿أَحْسَنَ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بياء مضمومة: ﴿يُتَقَبَّلُ﴾، و﴿يُتَجَاوَزُ﴾، و﴿أَحْسَنُ﴾ بالرفع.

أي: أولئك الموصوفون بما ذكر، التائبون إلى الله، المسلمون له ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: أحسن الذي عملوه، أو أحسن عملهم، أي: جميع الطاعات؛ لأنها أحسن الأعمال.

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي: نعفو عن سيئاتهم، فنغفر لهم الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل.

﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: في جملة أصحاب الجنة، أي: أهلها وساكنيها.

﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، ﴿وَعْدَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف مؤكد لمضمون الجملة السابقة، أي: وعد الصدق والحق الثابت، الذي كانوا يوعدون به من ربهم، الذي لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ الآية.

أوصى عز وجل بالإحسان إلى الوالدين، وأثنى على البارين بوالديهم، الداعين لهم، ووعدهم بالقبول والعفو والجنة، ثم أتبع ذلك بذكر حال الأشقياء العاقين لوالديهم، وتوعدهم بالعذاب والخسران والنار.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِى ﴾: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، والمراد به: الجنس، وخبره: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾.

﴿قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾ لما دَعَواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوَّفاه الحساب والجزاء: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾، «أف»: كلمة تضجر.

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ قرأ هشام بإدغام النونين: ﴿أَتَعِدَانِّي﴾، وقرأ الباقون بالنونين: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ ﴾. وفتح نافع وأبو جعفر وابن كثير الياء. والاستفهام للإنكار.

﴿أَنْ أُخْرَجَ ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثانٍ لـ«تعدانني»، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن أخرج، أي: أتعدانني أن أخرج، أي: أن أبعث حيًّا من قبري يوم القيامة.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه قد خلت القرون، أي: قد مضت الأمم السابقة من قبلي على إنكار البعث، والتكذيب به، ولم يبعثوا.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾، أي: ووالداه يستغيثان الله، أي: يدعوان الله ويسألانه هداية ولدهما.

﴿وَيْلَكَ ﴾، أي: يقولان: ﴿وَيْلَكَ ﴾، وهي كلمة تهديد وتخويف وتحذير من الهلاك، وتوجُّع.

﴿ءَامِنْ ﴾، أي: آمِنْ بالله، وصَدِّق بما أخبر به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء؛ لتنجو من عذاب الله.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الجملة: استئنافية، أو تعليلية، أي: إن وعد الله بلقائه والبعث والحساب والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ ﴾، أي: ثابت وصدق، وآتٍ لا مَحالة، وكائن ولا بد.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ الذي تعدانني به وتقولانه، وتخوفانني به.

﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: حكايات الأولين وخرافاتهم التي سطروها في كتبهم من الأكاذيب، وتناقلوها بينهم، وليس من عند الله، ولا أوحاه إلى رسوله.

عن يوسف بن ماهك، قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر زيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾.

فقالت عائشة من وراء الحجاب: «ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري»(١).

والصحيح: أن الآية عامة في كل من قال هذا القول، وأنكر البعث وكذب به.

قال ابن كثير(٢): «وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبدالرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك العاقون لوالديهم، المنكرون للبعث والحساب والجزاء، المكذبون بوعد الله.

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: الذين وجب عليهم القول بالكفر والعذاب.

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، أي: في عداد وجملة أمم كافرة مضت من قبلهم من الجن والإنس على الكفر والتكذيب، فسيدخلون في غمارهم، ويُحشَرون في لوائهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم، وفاتهم النعيم وتبوأوا الجحيم، وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحقاف ٤٨٢٧.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٢٦٦.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾، أي: ولكل من المؤمنين بالله ووعده، والمكذبين به ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، أي: منازل في القيامة.

﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، أي: من الذي عملوه، أو من عملهم، أي: بحسب أعمالهم، فالمؤمنون يتفاوتون في الدرجات في الجنات؛ كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٣]، والكافرون يتفاوتون في الدركات في النار.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم بالياء: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾، وقرأ الباقون بالنون «ولنوفيهم».

والواو في قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن يوفيهم أعمالهم، أي: يعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا.

وأضيفت التوفية للأعمال، مع أن المراد: يوفيهم جزاء أعمالهم؛ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون، فلا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد في سيئاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: واذكر يوم يعرض الذين كفروا على النار، يوم القيامة.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ قرأ ابن كثير: ﴿أَأَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزتين على الاستفهام التوبيخي، وقرأ الباقون: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزة واحدة على أنه خبر مستعمل في التوبيخ، أي: يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ في الآخرة، وأضعتموها، واستعضتم عنها بالحقير.

﴿فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بالركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها، والاغترار بنعيمها الزائل، وزينتها وزخارفها الفانية.

﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾، أي: بما فيها من الملذات والشهوات البهيمية، فكانت حظكم، وخسرتم طيبات الجنات في آخرتكم.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾: «عذاب الهون» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب المهين الذي يهينكم ويذلكم ويخزيكم.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية في الموضعين، أي: بسبب كونكم تستكبرون في الأرض، أي: تتعالَوْن وتأنفون من اتباع الحق، وتتعاظمون على الخلق. والسين والتاء للمبالغة.

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بحال من فاعل «تستكبرون»، والاستكبار لا يكون إلا بغير حق.

﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم تفسقون، أي: تخرجون عن دين الله وطاعته بالكفر والشرك والمعاصي.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير أن القرآن الكريم من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ الآية.

٢- توبيخ المشركين المكذبين بالقرآن، الكافرين به، المستكبرين عن الإيمان به، وبيان ظلمهم وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾.

٣- شهادة علماء بني إسرائيل على صدق القرآن وعلى مثله من كتبهم كالتوراة والإنجيل، في كونها كلها منزلة من عند الله، وأنها حق وصدق، وإيمانهم به وبكتبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ﴾.

٤- حرمان الظالمين من هداية الله الخاصة وتوفيقه؛ بسبب ظلمهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥- قدح الكفار في خيرية القرآن، واغترارهم بأنفسهم، وتزكيتهم لها، واحتقارهم للمستضعفين من المؤمنين، ونقمتهم عليهم، وحسدهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾.

٦- جرأتهم على وصف القرآن - لمّا لم يهتدوا به؛ بسبب كفرهم واستكبارهم وظلمهم- بقولهم: هذا إفك قديم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

٧- أن الهداية بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وأن أقرب الناس إلى الهداية واتباع الحق الضعفاء والمساكين، وأبعدهم من ذلك ذوو الجاه والغنى؛ حكمة بالغة.

٨- أن أكثر الناس أعداء لما جهلوا، ولما لم يحصلوا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

٩- إبطال تكذيبهم بالقرآن، وإحالتهم أن يوحي الله إلى النبي ﷺ بالاستدلال بوحيه عز وجل إلى موسى بكتابه التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾.

١٠- عظم منزلة كتاب موسى «التوراة» بين كتب الله؛ لأنه أعظمها بعد القرآن الكريم؛ لامتداحه عز وجل له بقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾، أي: إمامًا لبني إسرائيل يقتدون به، ورحمة لهم، وذلك قبل نسخه بالقرآن الكريم.

١١- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وفضله.

١٢- تعظيم الله عز وجل للقرآن الكريم، والتنويه بكونه مصدقًا لما قبله من الكتب، وبلغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾.

١٣- أن الله عز وجل أنزل هذا القرآن العظيم؛ لإنذار الظالمين، والبشارة للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾.

١٤- فضيلة الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على طاعته، وعظم ما أعد الله لهم من النعيم، من انتفاء الخوف والحزن عنهم، وتخليدهم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾.

١٦- لا بد من الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾؛ كما قال ﷺ: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**»(١).

١٧- أن النعيم لا يتم إلا بزوال المرهوب من الخوف والحزن ونحو ذلك.

١٨- إثبات وجود الجنة، وأن نعيمها لا ينقطع، وأهلها مخلدون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

١٩- أن الجزاء من جنس العمل، وأنه بسبب العمل، وليس عوضًا عنه؛ كما يقول المعتزلة؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

٢٠- تعظيم الله عز وجل لحق الوالدين، ووصيته الإنسان بالإحسان بوالديه، وتذكيره بما لاقته أمه من مشقة الحمل والولادة، والإرضاع والتربية، والحضانة والفطام طيلة ثلاثين شهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾.

٢١- عظم ما تلاقيه الأم من المشقة والتعب خلال حملها، وعند وضعها، وخلال تربيتها لمولودها، وإرضاعه وحضانته، وخدمته حتى فطامه؛ ولهذا لما سأل رجل النبي ﷺ: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال في الرابعة: «**ثم أبوك**»(٢).

وجاء جاهمة السلمي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئتك أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإن الجنة تحت

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢؛ من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٤٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رجليها»(١).

فجزى الله عنا أمهاتنا خير الجزاء، وأجزل لهن الأجر والمثوبة، ورزقنا البر بهن وبآبائنا أحياءً وأمواتًا.

٢٢- أخذ أهل العلم من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، مع قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع- وهي سنتان- إذا أسقطت من الثلاثين شهرًا بقي ستة أشهر هي مدة الحمل.

٢٣- الإرشاد للإنسان إذا بلغ أشده، واكتملت قواه البدنية والعقلية، وبلغ أربعين سنة أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله تعالى، والإسلام له، ويسأل الله أن يلهمه ويوفقه لشكر نعمته عليه وعلى والديه، وأن يوفقه ليعمل صالحًا يرضاه الله، ويصلح له ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- أن بلوغ الأَشُد واكتمال القوى البدنية والعقلية ببلوغ أربعين سنة غالبًا.

٢٥- في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الآية، رد على القدرية الذين ينفون قدرة الله على أفعال العبد، وأنها ليست مخلوقة لله.

٢٦- أن النعمة على الوالدين نعمة على الأولاد؛ لأنه سينال الأولاد- غالبًا- من آثار نعمة الله على والديهم، دينية أو دنيوية.

٢٧- أن من أهم ما ينبغي للمسلم أن يسأله ربه أن يوفقه لشكر نعمته، وللعمل الصالح الذي يرضاه سبحانه، وأن يصلح له ذريته؛ لأن في صلاحهم منفعةً له ولهم.

٢٨- لا بد من كون العمل صالحًا: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، مرادًا به رضا الله.

٢٩- أن الدعاء للذرية بالصلاح أولى من غيرهم، وقد قال الله تعالى للنبي ﷺ:

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد ٣١٠٤، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨١؛ من حديث جاهمة بن معاوية السلمي، عن أبيه جاهمة رضي الله عنه.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤]، وقال ﷺ: «**ابدأ بمن تعول**»(١).

٣٠- أن لدعاء الوالدين بالصلاح لذريتهما أعظمَ الأثر في صلاحهم، ويعود بالنفع على والديهم، بل هو من أعظم النعم التي يسعد بها الوالدان في دنياهما وأخراهما؛ لهذا ندب لهما الدعاء لهم.

٣١- التنويه بشأن المتضرعين إلى ربهم أن يوفقهم لشكر نعمته، ولعمل صالح يرضاه، ويصلح ذرياتهم، التائبين إليه، المسلمين له، ووعده عز وجل لهم بقبول أعمالهم، والتجاوز عن سيئاتهم، في جملة أهل الجنة، وتأكيد صدق وعده لهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٣٢- أن وعد الله تعالى هو وعد الصدق الذي لا خُلف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، [الرعد:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:١١١].

٣٣- ذم المنكر للبعث المتأفف من دعوة والديه له للإيمان بذلك، مع حرصهما على هدايته، واستغاثتهما اللهَ أن يهديه، وتحذيرهما إياه، وشدة عناده وتكذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

٣٤- حرص الوالدَينِ الموفَّقَينِ على صلاح أولادهما، ودعوتهما إياهم إلى الإيمان والاهتداء، وتلك- والله- مسؤولية عظيمة واجبة عليهما.

٣٥- ذم عقوق الوالدين والتأفف منهما، وعدم طاعتهما في طاعة الله ورسوله.

٣٦- لا ينبغي الاغترار بكثرة الهالكين من المكذبين، فليسوا بقدوة مهما كثروا،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٨، ومسلم في الزكاة ١٠٣٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤؛ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

فبعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون، وواحد إلى الجنة؛ كما جاء في الحديث(١).

وقد قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٢).

وقال الشاعر:

والنـــاس ألـــف مـــنهم كواحـــد ... وواحـــد كـــالألف إنْ أمْـــرٌ عَنَـــا(٣)

٣٧- جرأة المكذبين بالبعث على وصف الوعد بذلك، والتخويف به بالأساطير المكذوبة؛ لقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٣٨- الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، للمنكرين للبعث المكذبين به، بالعذاب والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٣٩- إثبات القدر السابق، وأن من كتب الله عليه الضلال والشقاء فلا سبيل إلى هدايته، فعلى الوالدين دعوة أولادهما إلى الإيمان وسلوك الطريق المستقيم، وبذل الجهد في ذلك ما استطاعا، والإلحاح على الله في الدعاء، وسؤال الهداية لهم.

فإن لم يستجيبوا فليعلم الوالدان أن الهداية بيد الله، فلا تذهب نفساهما حسراتٍ عليهم، فإن نوحًا عليه السلام لم يستطع هداية ابنه، وإبراهيم عليه السلام لم يستطع هداية أبيه، ومحمد ﷺ لم يستطع هداية عمه. وقد قال الله عز وجل له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء:٣].

٤٠- أن لكل من المؤمنين بالله ووعده ووعيده، والمكذبين بذلك منازلَ يوم القيامة، فالمؤمنون تتفاوت درجاتهم في جنات النعيم، والمكذبون تتفاوت منازلهم في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «ديوانه» ص١٣٢، «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٤.

٤١- إعطاء كل عامل جزاء عمله وافيًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٤٢- كمال عدل الله عز وجل في مجازاة الخلائق، فلا يُظلم أحد منهم بنقص من الحسنات، أو بزيادة في السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٤٣- جمع القرآن بين ذكر حال المؤمنين السعداء، وحال الكافرين الأشقياء، والوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين؛ ترغيبًا وترهيبًا.

٤٤- عرض الكفار يوم القيامة على النار، وتقريعهم وتوبيخهم على إذهاب طيباتهم في حياتهم الدنيا بركونهم إلى الاستمتاع بملذاتها وشهواتها الفانية، ونسيان العمل للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.

٤٥- إثبات القيامة، ووجود النار، وعرض الكفار عليها ذلك اليوم.

٤٦- أن الدنيا والآخرة ضَرَّتان، فمن مال إلى إحداهما أضر بالأخرى، والواجب أن يعمل الإنسان للآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص:٧٧].

٤٧- التحذير من الاغترار بالدنيا وزينتها ومتاعها، وتحقيرها، فهي ظل حائل، ومتاع زائل.

٤٨- مجازاة الكفار ذلك اليومَ بالعذاب المهين، الذي يهينهم ويذلهم ويخزيهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وعلى الخلق، وبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

٤٩- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق، وأنه إنما يكون بغير الحق، والحذر من الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

قوله: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: واذكر يا محمد بنفسك ولقومك ﴿أَخَا عَادٍ﴾، وهو نبي الله تعالى وعبده هود عليه السلام.

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾، أي: حين حذَّرَ وخوف قومه عادًا عذاب الله تعالى. ومن لازم ذلك بلا شك أن يكون بلغهم وأمرهم ونهاهم، ثم أنذرهم وحذرهم من مخالفة أمر الله وارتكاب نهيه.

﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾، «الأحقاف»: جمع «حِقْف»، وهو الرمل العظيم الرفيع المستطيل. وكانت منازلهم بالأحقاف، وهي رمال عظيمة في أرض اليمن جنوب الجزيرة.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾، أي: مضت الرسل والأنبياء.

﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾، أي: قريبًا منه في الزمن؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]، أي: قبل العذاب قريبًا منه.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾، أي: بعيدًا منه في الزمن؛ ولهذا قال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وأيضًا: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ فيما حول بلادهم من القرى، فلم يكن هود عليه السلام بدعًا من الرسل، ولم تكن بلادهم أول بلاد يُرسَل إليها النُّذُر؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [فصلت:١٣، ١٤].

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: قائلًا لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تعليل للنهي قبله، أي: لأني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة؛ بسبب شرككم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أجئتنا لأجل أن تصدنا وتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ أي: لنترك عبادة آلهتنا؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣].

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: فأتنا بالذي تعدنا به من العذاب العظيم، أي: عجله لنا، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوتك إيانا، وفيما تتوعدنا به من العذاب في الدنيا والآخرة، فاستعجلوا عذاب الله وعقوبته؛ جهلًا منهم وعنادًا، واستبعادًا لذلك، وتكذيبًا به؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:١٨].

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: علم وقت إتيان العذاب، وعلم الساعة، وعلم المغيبات كلها عند الله وحده، لا يعلم ذلك كله أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي

مرسل، والحصر حقيقي؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف:١٨٧].

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾، أي: وأوصل إليكم الذي أرسلت به إليكم من عند الله، أي: هذا شأني، والذي أقدر عليه؛ كما قال في سورة الأعراف للملأ من قومه لما رَمَوْه بالسفاهة قال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٧، ٦٨].

وكما قال نوح عليه السلام قبله لقومه لمّا رموه بالضلال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٦١، ٦٢]، وكما قال تعالى عن الرسل عمومًا: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٣٩].

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، أي: تجهلون عظمة الله تعالى، واستحقاقه وحده للعبادة، وحكمته في إرسال الرسل، وصدق وعده، وشدة عذابه؛ ولهذا استعجلتم العذاب؛ كما قال بعض مشركي قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢].

وكان الأولى أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾، أي: فلما رأوا العذاب الذي تُوعِّدوا به ﴿عَارِضًا﴾: حال، و«العارض»: هو السحاب العظيم الذي يعترض في أفق السماء كالجبال.

﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾، «مستقبل»: صفة لـ«عارضًا»، أو حال ثانية، أي: مقبلًا على أوديتهم، والسين والتاء: للمبالغة.

﴿قَالُوا۟﴾ فرحين مستبشرين: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾، أي: هذا سحاب سيمطرنا.

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾، أي: قال الله لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾، «بل»: للإضراب، أي: بل هو الذي استعجلتم به من العذاب بقولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ريح صرصر شديدة البرودة، عاتية شديدة الهبوب، فيها عذاب شديد مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت:١٦].

وهي «الريح العقيم»؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤١، ٤٢].

وهي «الدبور»؛ كما قال ﷺ: «**نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهْلِكتْ عادٌ بالدَّبور**»(١)، وهي الريح الغربية.

﴿تُدَمِّرُ﴾ التدمير: الإهلاك والتخريب والإفساد.

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ أُمِرت بتدميره من الديار والنبات والإنسان والحيوان وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤٢]، أي: لا تذر من شيء أُمرت بتدميره.

﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الكوني، وإذنه ومشيئته.

﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾؛ قرأ يعقوب وعاصم وحمزة وخلف: ﴿يُرَىٰٓ﴾ بياء مضمومة على الغيب، و﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالرفع، وقرأ الباقون بالتاء وفتحها على الخطاب: ﴿تَرَىٰٓ﴾، ونصب ﴿مَسَٰكِنَهُمْ﴾.

أي: فصاروا لا تشاهِدُ إلا مساكنهم، قد بادوا عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء الشديد، والعقاب الأليم، الذي جازينا به عادًا بسبب إجرامهم.

﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: نجزي ونعاقب أمثالهم من المجرمين. وفي هذا تهديد لمشركي قريش، وتحذير لهم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**». قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم هود: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**»(١).

وفي رواية عنها رضي الله عنها، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيمًا- أو ريحًا- عُرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله، أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عَرَفتُ في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال: «**يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**»(٢).

وعنها؛ أن رسول الله ﷺ: كان إذا رأى ناشئًا في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه**». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «**اللهم اجعله صيِّبًا نافعًا**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم

(١) أخرجه مسلم في الاستسقاء، التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر ٨٩٩.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحقاف ٤٨٢٩، ومسلم ٨٩٩، وأحمد ٦/ ٦٦.
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٩، وأحمد ٦/ ١٩٠.

مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۖ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، «مكناهم»: جواب القسم المقدر.

أي: ولقد مكنا عادًا والأمم السابقة الذين أهلكناهم، أي: أعطيناهم القوة والقدرة، وبسطنا لهم في الأموال والأولاد.

﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾، «ما»: موصولة، و«إن»: نافية، أي: في الذي لم نمكنكم فيه، والخطاب لمشركي قريش؛ ليعلموا أن الذي قدر على إهلاك عاد مع قوتهم وشدتهم، قادر على إهلاكهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام:٦].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾، أي: خلقنا لهم كامل الحواس والقوى العقلية والفكرية؛ من السمع والأبصار والعقول؛ كما جعلنا لكم ذلك.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: فما نفعهم، ولا دفع عنهم عذاب الله.

﴿سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾، أي: من أيِّ شيء، لا قليل ولا كثير.

﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين كانوا يكذبون بآيات الله، ودلائل قدرته الدالة على وحدانيته، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: وأحاط ونزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون ويكذبون، ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المشركون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الخطاب لمشركي قريش، و«ما»: موصولة، أي: ولقد أهلكنا الذي حولكم من القرى، أي: أهلكنا أهلها بسبب تكذيبهم رسلهم، كعاد، وكانت مساكنهم في الأحقاف في اليمن جنوب الجزيرة، وثمود وكانت مساكنهم

في شمال الجزيرة، بين الحجاز والشام، وكذا سبأ في اليمن.

﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾، أي: نوعناها وبيناها ووضحناها، وكررناها لهم، تارة بالحجج والمجادلة والنظر، وتارة بالتذكير بالنعم، وتارة بالوعد والوعيد، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب والضلال.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ الفاء: عاطفة، و«لولا»: للتوبيخ، أي: فهلا نصرهم الآلهة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذين جعلوا غير الله ﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ يتقربون بهم إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل غابوا عنهم وذهبوا أحوج ما كانوا إليهم، فلم ينصروهم.

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾، أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: والذي كانوا يفترونه، أو- وافتراؤهم، أي: وما كانوا يكذبون في زعمهم أن هؤلاء الآلهة يُقرِّبونهم إلى الله.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وإنذاره إياهم، وأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتحذيرهم من عذاب يوم القيامة، ومحاجتهم وتكذيبهم له وإهلاكهم؛ تسلية للنبي ﷺ، وتحذيرًا للمكذبين له من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه عاد، وإنذاره لهم، وأنه أخوهم، أي: منهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء:١٢٣، ١٢٤].

٣- أن منازلهم كانت بالأحقاف، وهي رمال ممتدة في اليمن جنوب الجزيرة.

٤- أن النذر قد مضت قبل هود من بين يديه ومن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ

ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾.

٥- نهيه قومه عن عبادة غير الله، وتخويفهم العذاب؛ لقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

٦- عظم يوم القيامة وشدته، وشدة عذابه وأهواله.

٧- محاجتهم ومجادلتهم بالباطل، وتمسكهم بآلهتهم، واستعجالهم بما توعدهم به من العذاب؛ إنكارًا له، وتكذيبًا لهود عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾.

٨- أن العلم بإتيان العذاب في الدنيا والآخرة، وإتيان الساعة؛ من خصائص الله عز وجل، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٩- أن مهمة الرسل عليهم السلام هي إبلاغ رسالات ربهم، وليس إليهم الإتيان بالعذاب، ولا يعلمون متى يكون؛ لقول هود عليه السلام: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾.

١٠- جهل عاد؛ حيث أبوا إلا الشرك بالله، واستعجلوا العذاب، وكذبوا رسولهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

١١- أن الجهل داء قاتل، يورد أهله موارد البوار والخسار، وقد أحسن القائل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه(١)

١٢- ظنهم أن العذاب- لما رأوه مقبلًا على أوديتهم- عارض ممطرهم استبشارًا به؛ غرورًا منهم، وأمنًا من عقاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾.

١٣- تبكيتهم وتقريعهم بأن هذا العارض هو ما استعجلوا به من العذاب، وهي ريح فيها عذاب مؤلم لهم، تدمر كل شيء أمرها الله بتدميره، وتسخيرها عليهم، واستئصالهم عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾.

---

(١) البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحلاج. انظر: «الإعجاز والإيجاز» ص١٦١.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهَا﴾.

١٥- أن ما أوقعه الله بهم من العذاب إنما هو بسبب إجرامهم، وفي هذا تحذير من الإجرام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

١٦- أن عادًا- مع ما أعطاهم الله من التمكين والقوة، واكتمال الحواس والقوى العقلية- لم ينفعهم ذلك شيئًا، ولم يدفع عنهم عذاب الله، لمّا جحدوا آيات الله، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون ويكذبون.

وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ، وهم أقل من عاد قوة، وأضعف أسماعًا وأبصارًا وأفئدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٧- تذكير المشركين بإهلاك ما حولهم من القرى، وتصريف الآيات وتنويعها لأولئك المهلَكِين ليرجعوا، وتحذير المشركين أن يصيبهم مثل ما أصابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١٨- أن الله لا يهلك قومًا حتى يُعذِرَ إليهم، ويقيم الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

١٩- تخلي آلهة المشركين عن نصرتهم، وغيابهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ﴾.

٢٠- بطلان زعمهم- إفكًا وكذبًا وافتراءً- أن هذه الآلهة تشفع لهم، وتقربهم إلى الله زلفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾:

ذكر عز وجل هودًا عليه السلام وإنذاره لقومه، وتكذيبهم له، وإهلاكهم؛ موعظة للمشركين، وتهديدًا وتحذيرًا لهم، ثم ذكر صرف الجن إليه ﷺ، واستماعهم إلى قراءته، وإيمانهم، ورجوعهم إلى قومهم دعاة منذرين؛ موعظة للمشركين، وتوبيخًا لهم، وترغيبًا لهم بالإيمان.

قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: واذكر حين صرفنا إليك نفرًا من الجن، أي: بعثناهم ووجهناهم إليك، والنفر: الجماعة والعدد من عشرة فما دونها. قيل: وكان عددهم تسعة.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: يستمعون قراءتك القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، أي: فلما حضروا قراءتك القرآن.

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُواْۖ﴾، أي: أصغوا واستمعوا للقرآن؛ استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف:٢٠٤].

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾، أي: فُرغ من قراءته، ووَعَوْه وآمنوا به؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجن:١-٢].

﴿وَلَّوۡاْ﴾، أي: انصرفوا ورجعوا ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، أي: محذِّرين لهم ومخوفينهم عذاب الله وعقابه.

عن علقمة، قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، لكنا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح- أو قال في السحر- إذا نحن به يجيء من قبل حِراء، فقلنا: يا رسول الله- فذكروا له الذي كانوا فيه- فقال: «**إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم**». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم.

وفي رواية: «**أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن**»، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «**كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم**». قال رسول الله: «**فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما طعام إخوانكم**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن، ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسِلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة الجن.

الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، واستمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم: «قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا»، وأنزل على نبيه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ [الجن:١]، وإنما أوحي إليه قول الجن»(١).

قال ابن كثير(٢) بعد أن ذكر الروايات في صرف الجن إليه ﷺ، وقراءته عليهم، ومنها الرواية عن ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما؛ قال: «فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل، وشرع لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود».

﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾، أي: قائلين: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ﴾؛ يعنون: القرآن الكريم، ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، أي: من بعد موسى وكتابه الذي أنزل عليه، وهو التوراة، ولم يذكروا عيسى عليه السلام؛ لأن رسالة عيسى وكتابه الإنجيل، متممان لرسالة موسى عليه السلام وكتابه التوراة.

وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه، أول أمره قال: «هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى»(٣).

ولما سمع النجاشي القرآن قال: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»(٤).

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة الجن.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٢٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٥٢٥.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، «مصدقًا»: حال من «كتابًا»، أي: مصدقًا لما سبقه من كتب الله تعالى، شاهدًا بصدقها وصحتها، ومصداق ما أخبرت وبشرت به من نزوله على النبي ﷺ، ومصدقًا لما دعت إليه من عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك، وغير ذلك؛ لموافقته لها بذلك.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، أي: يدل ويرشد إلى الحق في الاعتقاد، بالتصديق والإيمان بالقلب.

﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: عدل لا اعوجاج فيه في العمل، بكونه خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، وهو صراط الله وطريق السائرين إليه، الموصل إلى مرضاته وجناته؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، فالهدى: العلم النافع، ودين الحق: العمل الصالح.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ لما امتدحوا القرآن، وبيَّنوا عظمته، دعوا قومهم إلى الاستجابة له بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والإيمان به.

ويحتمل أن يكون المراد بـ«داعي الله»: الرسول ﷺ، فهو داعي الله إلى العمل بالقرآن.

وفي هذا دلالة على أن الله عز وجل أرسل محمدًا ﷺ إلى الثَّقلَينِ: الإنس والجن؛ حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليمهم، ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: ويقكم من عذاب مؤلم موجع شديد، وهو عذاب النار.

وإذا غفر الله لهم ذنوبهم، وأجارهم من العذاب الأليم، فما ثم إلا إدخالهم جنات النعيم؛ لأنه ما ثمة بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر:٧١-٧٢]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ﴾ [الزمر:٧٣].

قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعريَ بعد الموت ما الدارُ؟

الدار جنة عَدْن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرَّطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار(١)

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾: بعد أن رَغَّبوا من أجاب داعي الله من قومهم بمغفرة الله له، ووقايته من عذاب أليم، أتبعوا ذلك بترهيب من لم يجب داعي الله منهم، فجمعوا لهم بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾، أي: بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: فليس بفائت من عذاب الله بالهرب في الأرض؛ لكمال قدرة الله تعالى، فلا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب.

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: وليس له غير الله ﴿أَوْلِيَآءُ ۚ﴾، أي: أنصار ينصرونه، ويمنعون عنه عذاب الله، ويدفعونه أو يرفعونه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ الإشارة لمن لم يجب داعي الله، وكفر بالله. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا.

﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بعيد كل البعد عن الهدى والحق.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

خُتمت السورة بإثبات البعث والاحتجاج عليه في هذه الآيات؛ كما بُدئت بذلك في قوله تعالى في أولها: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف:٣].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أولم يعلم هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، أن الله الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهن على غير مثال سبق.

﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، أي: ولم يعجز ولم يكترث أو يتعب بخلقهن، بل قال لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾؛ قرأ يعقوب: ﴿يَقْدِرُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: بقادر على إحياء الموتى.

أي: أن الذي قدر على خلق السموات والأرض ولم يعجز ولم يكترث بذلك، فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، «يوم»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: يقال يوم يعرض الذين كفروا على النار: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ﴾؟ أو اذكر يوم يعرض الذين كفروا، أي: يوم القيامة، يوم يعرض الذين كفروا على النار.

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ﴾: الاستفهام: للتقرير والتوبيخ والتنديم؛ أي يقال لهم: أليس هذا الذي تشاهدونه وترونه عيانًا؛ من إحيائكم بعد موتكم، وعرضكم على النار، ﴿بِٱلْحَقِّۖ﴾، أي: هو الحق المبطل لقولكم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾

[الدخان:٣٥] ، وقولكم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾، [الصافات:٥٨، ٥٩]، وزعمكم أن ذلك سحر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور:١٥].

وأظهَرَ في مقام الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم، وأنه سبب عرضهم على النار، وقولِ هذه المقالة لهم.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، «بلى»: حرف جواب، أي: بلى هذا هو الحق، فلم يَسَعْهم إلا الاعتراف بالحق، والإقرار بتكذيبهم.

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الأمر للإهانة، أي: فأَحسّوا بالعذاب وتَجرَّعوه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفركم.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فاصبر على أذى قومك وعنادهم وتكذيبهم.

﴿كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ الكاف: للتشبيه، أي: مثل صبر أولي العزم.

و﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾: ذوو الثبات والصبر، والتوكل على الله، وعدم التردد، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣].

﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، «من»: تبعيضية، أي: من الرسل قبلك، وهم: إبراهيم وموسى ونوح وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وقد فاقهم ﷺ في ذلك، فكان- وهو خاتم الرسل- أول أولي العزم؛ كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧]، فبدأ به ﷺ من بينهم.

ويحتمل أن تكون «من»: بيانية، فيكون قوله: ﴿كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ مرادًا به جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، أي: ولا تطلب منا تعجيل العذاب لهم، لطلبهم ذلك جهلًا منهم وحمقًا، أي: ولا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم؛ كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل:١١]، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾: تعليل للنهي السابق، أو استئناف بياني، و«ما» موصولة، أي: كأنهم يوم يشاهدون الذي يوعدون، أي: الذي تُوعِّدوا به من العذاب يوم القيامة.

﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: لم يمكثوا في الدنيا ويتنعموا فيها إلا ساعة واحدة قليلة من نهار، أي: يستقلون أعمارهم مهما طالت في حياتهم الدنيا؛ من عِظَم ما يشاهدون من العذاب الذي وُعِدوا به، وشدةِ الهول والكرب؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب**» الحديث(١).

﴿بَلَاغٌ﴾، أي: هذا القرآن بلاغ، فيه تبليغ الناس رسالة ربهم، وموصل إلى مرضاته وجنته؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء:١٠٦].

وأيضًا فإن لبث الخلائق في الدنيا كله بلاغ، أي: بُلْغة، وسرعان ما ينقضي.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الاستفهام: للنفي، و«إلا»: أداة حصر، أي: لا يهلك ويعذب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى بالكفر والشرك، وإنكار البعث وتكذيب وعد الله تعالى؛ لاستحقاقهم ذلك. وهذا من عدله عز وجل؛ فإنه لا يَهْلِك على الله إلا هالك.

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢١.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٢- إثبات وجود الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

٣- إثبات شهود نفر منهم لقراءته ﷺ، واستماعهم لها، والتذكير بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٤- أن تدبير الجن وتصريفهم، بيد الله، وأعمالهم كغيرهم من الخلق مخلوقة لله وبمشيئته. وفي هذا رد على المعتزلة الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم.

٥- حسن أدب الجن مع القرآن لمّا شهدوا قراءته؛ لأمر بعضهم بعضًا بالإنصات له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾.

٦- وعيُهم وفهمهم للقرآن لمّا سمعوه، ومبادرتهم بالإيمان به، والإنذار به، والدعوة إليه بعد فراغ قراءته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٧- أن الجن فيهم نُذُرٌ منهم، لكن ليس فيهم رسل؛ لأن الرسل كلهم من الإنس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وأما قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما، وهم الإنس؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢]، أي: من أحدهما.

٨- تعظيمهم للقرآن، وتأثرهم به، وامتداحهم له، ولما اشتمل عليه من الهداية؛ لقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ

وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٩- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإنزال التوراة عليه، وإيمان الجن بذلك؛ لقولهم: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.

١٠- إثبات أن القرآن منزل من عند الله، غير مخلوق، وكذا التوراة، وجميع كتب الله تعالى.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

١٢- أن القرآن يهدي إلى الحق، وإلى التي هي أقوم في الاعتقاد والعمل؛ لقولهم: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٣- تلطفهم مع قومهم في دعوتهم إلى إجابة الرسول ﷺ، والعمل بالقرآن، والإيمان بالله؛ لقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

١٤- ترغيبهم قومَهم بقولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٥- أن من استجاب للرسول ﷺ، وعمل بالقرآن، وآمن بالله من الثقلين، غَفَر الله له ذنوبه، وأجاره من عذاب النار، وأدخله جنته؛ لأنه ليس في الآخرة من دار إلا الجنة أو النار، فمن زُحْزِح عن النار أُدخِلَ الجنة.

أما الاستدلال بهذه الآية على أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإنما يجارون من عذاب النار يوم القيامة، فإنه ليس بصحيح؛ للأدلة الثابتة على دخولهم الجنة، وتنعيمهم؛ كما سيأتي.

١٦- تهديدهم ووعيدهم لمن لم يجب داعي الله بأنه لن يعجز الله هربًا في الأرض، وليس له من دونه أولياء، وهو في ضلال مبين؛ لقولهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

١٧- جمعهم في دعوتهم لقومهم بعد التلطف معهم بين الترغيب لهم والترهيب؛ ولهذا نجع ذلك في كثير من قومهم، فجاؤوا إلى النبي ﷺ وفودًا وفودًا.

١٨- أن الجن مكلَّفون بفعل المأمورات، وترك المنهيات، مجازَوْن على أعمالهم، مثابُون، أو معاقَبُون؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن:١، ٢]، وقال تعالى مخاطبًا الإنس والجن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن:٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ [الرحمن:٥٦، ٥٧، ٧٤، ٧٥]؛ ولهذا قالت الجن: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»(١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ﴾ [الأعراف:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقد استدل ابن القيم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ على تكليف الجن من سبعة أوجه(٢).

١٩- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث والمعاد، وإحياء الأجساد؛ لقدرته التامة دون عجز أو تعب على خلق السموات والأرض التي من أعظم المخلوقات، وأكبر من خلق الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾.

٢٠- قدرته عز وجل التامة على كل شيء؛ لكمال قدرته، وتمام علمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢١- التذكير بعرض الذين كفروا على النار، وتقريرهم وتوبيخهم على تكذيبهم بالبعث والحساب والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾.

٢٢- إقرارهم واعترافهم بأن البعث والعرض على النار حق بعدما شاهدوا الأمر

---

(١) سيأتي تخريجه في سورة الرحمن.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٥٦.

عيانًا لا مجال لإنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾.

٢٤- تبكيتهم وتقريعهم وإهانتهم بأمرهم بذوق العذاب بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٢٥- تسليته عز وجل للنبي ﷺ، وتقوية قلبه بأمره بالصبر على أذى قومه وعنادهم؛ كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٢٦- التنويه بصبر أولي العزم من الرسل قبله، وهم: إبراهيم وموسى ونوح وعيسى عليهم السلام، أو جميع الرسل.

٢٧- نهيه عز وجل له ﷺ عن استعجال العذاب لهم؛ لطلبهم ذلك؛ جهلًا منهم وحُمقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾.

٢٨- استقلالهم مدة لبثهم وتنعمهم في الدنيا عند رؤيتهم ما يوعَدون من العذاب، من عظم الخطب، وشدة الهول والكرب؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ﴾.

٢٩- أن القرآن بلاغ للناس، فيه إبلاغهم رسالة الله، وإيصالهم إلى مرضاته وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌۚ﴾؛ كما أن الحياة الدنيا كلها بلاغ، أي: بُلْغة، وسرعان ما تنقضي.

٣٠- أنه لا يهلك ولا يعذب إلا القوم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله تعالى بالكفر، وإنكار البعث، وتكذيب وعد الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٣١- التحذير من الفسق، وأنه سبب الهلاك والعذاب، وأنه لا يهلك على الله إلا هالك.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة محمد»؛ لقوله تعالى في الآية الثانية منها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [الآية:٢].

وتسمى: «سورة القتال»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ [الآية:٢٠].

ويقال لها: «سورة الذين كفروا».

ب- مكان نزولها:

مدينة.

جـ - موضوعاتها:

١- بدئت السورة بذم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وبيان إضلاله أعمالهم، بسبب اتباعهم الباطل، والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، بسبب اتباع الحق من ربهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾.

٢ - التهيج على قتال الكفار وضرب رقابهم وأسرهم، ووعد الله تعالى لمن قُتلوا في سبيل الله بهدايتهم وإصلاح بالهم وإدخالهم الجنة، ووعد المؤمنين بالنصر وتثبيت أقدامهم، ووعيد الذين كفروا بالشقاء وإضلال أعمالهم وإحباطها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾.

٣ - توبيخ المكذبين للنبي ﷺ كيف لم يتأملوا ويعتبروا بعاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [محمد:١٠].

٤ - إثبات ولاية الله للمؤمنين، وإدخالهم الجنات، وبيان أن الكافرين لا مولى لهم ومصيرهم إلى النار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

٥ - التهديد للمشركين بالهلاك كما أهلك كثير من القرى فلا ناصر لهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

٦ - شتان بين من كان على بينة من ربه مآله إلى الجنة وما فيها من الأنهار والثمرات ومغفرة الرب العظيم، وبين من زين له سوء عمله واتبع هواه، ومصيره إلى الخلود في النار والحميم: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

٨ - ذم الذين كفروا في عدم انتفاعهم من سماع القرآن ودعوة الرسول ﷺ ومعاقبتهم بالطبع على قلوبهم، واتباعهم أهواءهم، وتهديدهم بقرب قيام الساعة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

٩ - التنويه بشأن الذين اتقوا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

١٠- وجوب العلم أنه لا إله بحق إلا الله عز وجل والاستغفار، وبيان أن العلم قبل القول والعمل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

١١- تمنى بعض المؤمنين شرعية الجهاد واستعجالهم ذلك جهلاً منهم، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

١٢- التحذير من قطيعة الأرحام، وأنها من أعظم الفساد في الأرض، والذم والوعيد لمن قطع رحمه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

١٣- الوعيد للمعرضين عن تدبر القرآن والعمل به المرتدين على أدبارهم، وذمهم، وبيان سوء حالهم عند توفي الملائكة لهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

١٤- التهديد للمنافقين ومرضى القلوب بفضيحتهم: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

١٥- الوعيد للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

١٦- حث المؤمنين على طاعة الله والرسول، ونهيهم عن الوهن والمسالمة للأعداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

١٧- التزهيد في الدنيا وبيان حقارتها والترغيب في الإيمان والتقوى والإنفاق في سبيل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين كفروا بالله، وجحدوا ألوهيته، وكذبوا رسوله فيما جاء به.

أو علموا بصدقه ولم يتبعوه، قال ابن تيمية(١): «الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم».

﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم عن دين الله وصراطه المستقيم، وصرفوا غيرهم عنه من رؤساء الكفر وأئمة الضلال ونحوهم؛ كما في نهيهم عن سماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت:٢٦].

---

(١) في «درء تعارض العقل والنقل» ١/ ٢٤٢.

وفي إنفاقهم ليصدوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ [الأنفال:٣٦]، وغير ذلك.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أحبطها وأبطلها، سواء كانت من الأعمال السيئة التي يكيدون بها للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين، فخيَّب الله سعيهم ولم يحصلوا على مرادهم.

أو من الأعمال التي يعتقدون أنهم يثابون عليها، كالكرم والنجدة، وحفظ الجوار، وصلة الأرحام ونحو ذلك، فلم يؤجروا عليها؛ وذلك لفقدان شرط قبولها، وهو الإيمان.

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدقوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرع الله تعالى بجوارحهم.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هذا من عطف الخاص على العام، أي: وآمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على محمد، أي: آمنوا بما أنزل على رسل الله عمومًا، وبالذي أنزل على محمد خصوصًا؛ لأنه لا يصح الإيمان إلا بالإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوح إلى محمد سيدهم وخاتمهم؛ ولهذا فإن من كذَّب من أهل الكتاب وغيرهم برسالته ﷺ، وأنكرها أو زعم أنها خاصة بالعرب، فليس بمؤمن.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ الجملة: حالية، أو اعتراضية، والضمير «هو» يعود إلى «ما» الموصولة في قوله: ﴿بِمَا نُزِّلَ﴾، أي: إلى الذي أنزل على محمد، وهو القرآن الكريم.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي: تجاوز ومحا عنهم سيئاتهم، أي: ذنوبهم وخطاياهم، صغارها وكبارها، فنجاهم من عذابه في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: وأصلح شأنهم، وأمْر دينهم ودنياهم، فأسعدهم في دنياهم، وأنالهم أعظم السعادة والثواب في أخراهم بجنته ورضوانه.

ولهذا جاء في تشميت العاطس الدعاء له بقوله: «**يهديكم الله ويصلح بالكم**»(١).

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للمفهوم مما سبق، وهو إضلاله عز وجل أعمال الكافرين الصادين عن سبيله، وتكفيره سيئات الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد، وإصلاحه بالهم.

﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل، وسلكوا طريقه بالكفر والصد عن سبيل الله.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، بالإيمان والعمل الصالح والإيمان بما أنزل على محمد.

وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: تنويه به، وتشريف لهم.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة لما تقدم من ذكر الكفار وأعمالهم وبطلانها، وذكر المؤمنين وأعمالهم وثوابها، أي: مثل هذا البيان يبين الله للناس وصف أهل الخير، وأهل الشر، ومآل أعمالهم وجزائها؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أي: فإذا لقيتم- أيها المؤمنون- الذين كفروا في الحرب، وفي ميدان المعركة، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«ضرب»: مفعول مطلق، أي: فاضربوا رقابهم، أي: أعناقهم، واقتلوهم بلا هوادة،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٥٢٤، وأبو داود في الأدب، ما جاء في تشميت العاطس ٥٠٣٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا تحريض وتهييج للمسلمين على قتال الكفار المحاربين دين الله وأولياءه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾، أي: حتى إذا أرهقتموهم وأوهنتموهم وأضعفتموهم بكثرة القتل فيهم، وكسرتم شوكتهم، ورأيتم الأسر أولى وأصلح.

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾، أي: فَأْسِروا من أمكنكم أسرهم منهم، وشدوا وثاقهم.

والوثاق: القيد والرباط، أي: أحكموا أسرهم وقيودهم؛ لئلا ينفلتوا ويهربوا.

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: حرف تخيير في الموضعين، «منًّا»: مفعول مطلق، ومثله: «فداءً».

أي: فأنتم مخيرون فيهم بعد انتهاء الحرب، إن شئتم مننتم عليهم وأطلقتموهم بدون فداء، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء من مال أو عرض، أو غير ذلك، وأطلقتموهم.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾، أي: حتى تضع الحرب أثقالها، أي: تنتهي وتنقضي، وتتم المفاصلة بينكم وبينهم.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ الإشارة لما سبق من الأمر بقتل الكفار وأسرهم، أي: أمركم الله بذلك؛ لحكمة، ولو يشاء لانتصر منهم بنفسه، وأهلكهم، وأباد خضراءهم، دون قتال منكم.

﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ الله الانتصار منهم بنفسه عز وجل، بل شرع الجهاد والقتال.

﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلو، أي: يمتحن ويختبر بعضكم ببعض، أي: ليبتلي المؤمنين بالكافرين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾[التوبة:١٤، ١٥].

فابتلى الله المؤمنين بفرض الجهاد والقتال في سبيله ليتبين ويظهر من يجاهد في سبيله ويصبر ممن ينكل عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

وليُجزل للمؤمنين المجاهدين في سبيله الأجر، ويتخذ منهم شهداء، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٥، ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٩، ١٧٠].

وقال ﷺ: «تكفل الله لمن خرج، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»(١).

وقال ﷺ: «**إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»(١).

ولهذا قال هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم: ﴿قُتِلُواْ﴾ بضم القاف، وكسر التاء، من غير ألف بينهما.

وقرأ الباقون: «قَاتَلُوا» بفتح القاف والتاء وألف بينهما.

أي: والذين قتلوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خبر «والذين»، أي: فلن يحبط أعمالهم، ويبطل ثوابها، بل يقبلها منهم، ويحفظها لهم، ويضاعفها وينميها لهم.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ السين: للاستقبال وتحقق الوعد، أي: سيدلهم إلى طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، أي: ويصلح شأنهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس:٩].

---

(١) سبق تخريجه.

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، أي: عرفها لهم في الدنيا، وبيَّن لهم طريقها في كتبه وعلى ألسنة رسله، ورغبهم فيها، بذكر صفاتها العظيمة، وما فيها من ألوان النعيم، وذكر الأعمال الموصلة إليها، ووفقهم إلى ذلك.

وعرفها لهم في الآخرة بتقريبها لهم، ومعرفة منازلهم فيها ومساكنهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير:١٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخْلُص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**»(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ بنصر دينه وشرعه بأقوالكم وأفعالكم، بالحجة واللسان، والسيف والسِّنان.

﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ على الحق في الحرب والسلم، ويقوي قلوبكم، ويربط عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾ هذا بخلاف ما وعد الله به المؤمنين من النصر والتثبيت؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، «تعسًا»: مفعول مطلق، أي: خيبة لهم وشقاءً، وهلاكًا وخذلانًا وانتكاسًا؛ كما قال ﷺ: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة؛ إن أُعْطِيَ رضي وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(٢).

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أحبط وأبطل أعمالهم مما يكيدون به للحق وأهله، فلم يبلغوا بها قصدهم، بل رد الله كيدهم في نحورهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، القصاص يوم القيامة ٦٥٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، وابن ماجه في الزهد، باب في المكثرين ٤١٣٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومما يزعمون طلبهم بها مرضاة الله، فلا يثابون عليها، ورُدت إليهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الإشارة إلى تَعْسهم، وإضلال أعمالهم، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: ذلك بسبب أنهم كرهوا، أي: أبغضوا القرآن الذي أنزله الله، ولم يقبلوه، لما اشتمل عليه من الدعوة إلى التوحيد، وتقرير رسالته ﷺ، وإثبات البعث وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣].

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أبطلها.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وتحقيرهم، وبيان بطلان أعمالهم؛ توطئة لتحريض المؤمنين على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾.

٢- بطلان سعي الكافرين، وحبوط أعمالهم، وخيبة مسعاهم؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين.

٣- امتداح الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ، بتكفير سيئاتهم، وإصلاح بالهم وأحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾.

٤- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه.

٥- إثبات رسالته ﷺ ونزول القرآن عليه، ووجوب الإيمان بذلك، وأنه الحق من عند الله تعالى.

٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ وأن القرآن كلامه، منزل من عنده، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وقوله: ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٨- الجمع للمؤمنين بين زوال المرهوب بتكفير سيئاتهم، وحصول المطلوب بإصلاح بالهم وأحوالهم؛ إذ لا يتم النعيم إلا بهذين الأمرين: حصول المطلوب،

والنجاة من المرهوب.

٩- أن الإيمان والأعمال الصالحة سبب لتكفير السيئات، وصلاح البال والحال.

١٠- أن الجزاء من جنس العمل، وأن الله جعل لكل شيء سببًا، فالسبب في إضلال أعمال الذين كفروا هو: كفرهم وصدهم عن سبيل الله واتباعهم الباطل.

والسبب في تكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم هو: إيمانهم وعملهم الصالحات، وإيمانهم بما نزل على محمد ﷺ، واتباعهم الحق من ربهم.

١١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب بذكر المؤمنين وأعمالهم، وما وُعدوا به، وذكر الكافرين وأعمالهم، وما تُوعّدوا به؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء، وللتحذير من الكافرين وأعمالهم، والترغيب في سبيل المؤمنين وأعمالهم.

١٢- ضرب الأمثال للناس بذكر الكافرين وأعمالهم، ووعيدهم؛ للحذر منهم ومن أعمالهم، وذكر المؤمنين وأعمالهم ووعد الله لهم؛ لاتباع سبيلهم، والعمل بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

١٣- تحريض المؤمنين وتهييجهم على قتل الكفار المحاربين لدين الله ولأوليائه، وضرب أعناقهم بلا هوادة؛ لكفرهم بالله، وصدهم عن سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

١٤- أن اتخاذ أسرى من الكفار لا يكون إلا بعد الإثخان بهم قتلًا، وخَضْدِ شوكتهم، مع شد وَثاقهم وأسرهم لئلا ينفلتوا ويهربوا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾.

وقد عاتب الله النبي ﷺ والمؤمنين في بدر، في اتخاذ الأسرى، حتى يثخن في الأرض، فقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨].

١٥- تخيير المؤمنين بعد انتهاء الحرب بين المن على الأسرى بالإفراج عنهم بدون فداء، وبين الإفراج عنهم بفداء؛ من مال أو عرض أو غير ذلك، حسب الأصلح

والحال والحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

وقد يكون المن عليهم أولى؛ لتقديمه في الذكر، ما لم تدعُ الحاجة إلى الفداء، أو تكون المصلحة في أخذه.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

١٧- أن الله لو شاء لانتصر من الكفار دون أن يوجب الجهاد والقتال على المسلمين.

١٨- أن الحكمة في فرض الجهاد والقتال: الابتلاء والامتحان للمؤمنين بالكافرين؛ ليظهر من المؤمنين من يجاهد حقًّا ويصبر، ممن ليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

١٩- وعد الله تعالى الذي لا يُخلف وعده لمن قاتل أو قُتل في سبيل الله بقبول أعمالهم ومضاعفتها، وهدايتهم وإصلاح بالهم في الدنيا والآخرة، وإدخالهم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

٢٠- أن الجهاد والقتال ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله، وموافقًا لشرعه، أي: كما جاء في الكتاب والسنة، ومن أهم ذلك: قوة المسلمين وقدرتهم على القتال، وأن يكون بإذن ولي أمر المسلمين، وليس تحت راية عمياء، وألا يقتل النساء والصبيان والرهبان ومن لم يقاتل، إلى غير ذلك.

٢١- إثبات وجود الجنة، وأن الله أعدها لأوليائه.

٢٢- منة الله تعالى على الذين قاتلوا أو قتلوا في سبيل الله، بتعريفهم بالجنة وصفاتها ونعيمها، والطريق الموصلة إليها، في الدنيا قبل قتلهم وقتالهم، مما رغبهم فيها وفي طلبها، وفي الآخرة بعد قتلهم وقتالهم بتقريبها لهم وتعريفهم منازلهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

٢٣- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما

بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢٤- الإغراء والترغيب بنصر دين الله، بالحجة واللسان، والسيف والسِّنان، وأن من ينصر الله ينصره الله وثبت قدميه ويقويه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾.

٢٥- خيبة الذين كفروا وشقاؤهم، وخذلانهم وهلاكهم، وضلال أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾.

٢٦- أن سبب تعاستهم وشقائهم وخسرانهم وهلاكهم وإضلال أعمالهم وإحباطها هو: كراهتهم وبغضهم للقرآن الذي أنزله الله، وما دعا إليه من توحيد الله، وإثبات رسالته ﷺ، والبعث بعد الموت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ الاستفهام: للتقرير والتوبيخ والإنكار، أي: أفلم يسر هؤلاء الكفار المكذبون في الأرض بأبدانهم.

﴿فَيَنظُرُوا ﴾ بأبصارهم، ويتأملوا ببصائرهم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين من قبلهم من الأمم لما كذبوا رسل الله، وكفروا بالله وبآياته.

﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: أهلكهم الله ودمر أموالهم وأعمالهم ومكرهم، وخرب ديارهم ومساكنهم وهدمها، وأنجى عباده المؤمنين من بينهم.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، أي: وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال تلك العواقب الوخيمة، والعقوبات العظيمة، مما يوجب أخذ العظة والعبرة مما حل بأولئك، والسعيدُ من وُعظ بغيره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الإشارة إلى مضمون ما سبق وهو تدمير الكافرين وإنجاء المؤمنين، والباء: للسببية، أي: بسبب أن الله:

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ناصرهم ومعينهم ومتوليهم بولايته الخاصة، ولاية التوفيق والحفظ والتأييد، والعون والتسديد.

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أن الكافرين لا مولى لهم، أي: لا ناصر لهم ولا معين؛ لتخليه عز وجل عنهم، وخذلانهم، وعدم توفيقه لهم، ومن لم ينصره الله فلا ناصر له سواه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران:١٦٠].

فلا هادي لهم، ولا ناصر، ولا منقذ لهم من عذاب الله، وإنما وليهم الشيطان يدعوهم إلى الكفر، ويقودهم إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

ولهذا لما أخذ أبو سفيان يرتجز يوم أحد من نشوة النصر قائلًا: اعْلُ هبل، اعل هبل، قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ألا تجيبوا له؟**» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». قال: إن لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبوا له؟**» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ لما ذكر أنه تعالى مولى الذين آمنوا ذكر أعظم ما يتفضل به عليهم، وهو إدخالهم الجنات، وما فيها من الأنهار وألوان النعيم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٩؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

أي: إن الله يدخل الذين آمنوا باطنًا وظاهرًا جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها الأنهار.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾.

ذكر عز وجل أن الكافرين لا مولى لهم، ثم ذكر سوء حالهم، حيث وُكلوا إلى أنفسهم، فصاروا في الدنيا كالأنعام، وفي الآخرة مثواهم النار.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾، أي: في الدنيا بشهواتها وملذاتها وزينتها.

﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، «ما»: مصدرية، أي: كأكل الأنعام، ليس لهم همة إلا الأكل، قضمًا وهضمًا، ولا يكادون يشبعون.

قال ﷺ: «**المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأتي في سبعة أمعاء**»(١).

﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾، أي: مقرًّا ومسكنًا ومأوى لهم، في الآخرة، وبئس المهاد.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وكثير من القرى، ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ﴾، أي: أهلها أشد قوة وبأسًا، وعددًا وعدة، وأموالًا وأولادًا.

﴿مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ مكة، والمراد: أهلها، ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾، أي: أخرجك أهلها، أي: اضطروك وألجؤوك للخروج.

﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ بأنواع العقوبات، لما كذبوا رسلنا، وكفروا بآياتنا، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ يدفع عنهم عذاب الله لما حل بهم، وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمشركي مكة المكذبين للرسول ﷺ، وهو أفضل الرسل وخاتمهم، فإذا كان الله قد أهلك الأمم قبلهم بسبب تكذيبهم رسلهم، وقد كانوا أشد قوة منهم، فهم بالعذاب والإهلاك أولى وأحرى وأجدر، فلا يغتروا بأنفسهم ويأمنوا عذاب الله- مع تكذيبهم محمدًا ﷺ سيد الخلق، الذي أنزل عليه القرآن الكريم أعظم كتب الله وأفضلها وأجلها.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٩٣، ومسلم في الأشربة ٣٠٦٠، والترمذي في الأطعمة ١٨١٨، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٥٧؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾:

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن كان في دينه على علم وبصيرة ونور.

﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بما أنزله عز وجل في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من الهدى والعلم ودين الحق؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الكاف: للتشبيه، و«من»: موصولة، أي: كالذي زُيِّن له سوء عمله، أي: زُيِّن وحُسِّن له عمله السيئ، من الكفر والتكذيب وارتكاب الموبقات، أي: زَيَّن له ذلك شيطانه وهواه ونفسه الأمارة بالسوء، وقرناء السوء من شياطين الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤، العنكبوت:٣٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥].

أو زين الله له ذلك كونًا وقدرًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل:٤].

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾، أي: واتبعوا ما تهواه نفوسهم الأمارة بالسوء؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣].

فلا أضل ولا أردى ولا أبعد عن الهدى ممن اتبع هواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٦].

والمعنى: لا يستوي من كان على بينة ونور وهدى وبصيرة من ربه في أمر دينه، ومن زُيِّن له سوء عمله واتبع هواه، أي: ليس هذا كهذا؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد:١٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥، ٣٦].

فما أبعد ما بين الفريقين، وشتان شتان ما بين الطائفتين، شتان بين الثرى والثريا!

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان (١)

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، «مثل»: مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يتلى عليكم مثل الجنة، أي: صفة الجنة العظيمة، ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: التي وعد الله بها من اتقاه بفعل ما أمره الله به، واجتناب ما عنه نهاه.

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾، «فيها»: متعلق بخبر مقدم للمبتدأ: ﴿أَنْهَٰرٌ﴾، أي: موجود فيها، أي: في الجنة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾، أي: أنهار عظيمة، يصرفها أهل الجنة كيف شاؤوا، تجري بغير أخدود؛ قال ابن القيم:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان (٢)

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ قرأ ابن كثير بغير مد بعد الهمزة: «أَسِنٍ»، وقرأ الباقون بالمد: ﴿ءَاسِنٍ﴾، أي: غير متغير، ولا منتن، بل هو من أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا،

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص١١.

(٢) انظر: «النونية» ص٢٢٩.

وألذها شربًا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لا بحموضة، ولا بغيرها، بل هو في غاية البياض والحلاوة والدسومة.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، أي: لذيذ شربها، يلتذ بها الشاربون؛ لحسن طعمها، وطيب رائحتها، وبياض لونها، ونشوة شاربيها، وليست كخمر الدنيا كريهة الطعم والرائحة، تغتال العقول، وتصدع الرؤوس، قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات:٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة:١٩].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، أي: من عسل مصفى من شمعه ومن جميع الشوائب، فهو في غاية الصفاء.

وهذه الأنهار تفجر من الفردوس؛ كما قال ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن**»(١).

وعن حكيم بن معاوية، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**»(٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ﴾، أي: وللمتقين في الجنة- مع تنوع مشروباتهم فيها- أنواع المأكولات من كل الثمرات؛ كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان:٥٥]، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن:٥٢]، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن:٦٨].

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بستر ذنوبهم والتجاوز عنهم، فجمع الله لهم بين حصول المطلوب بالتنعم بأفضل المشروبات، وأطيب المأكولات، وزوال المرهوب بالمغفرة

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٢/ ٣٣٥؛ من حديث أبي هريرة، وأخرجه الترمذي في صفة الجنة، ما جاء في صفة درجات أهل الجنة ٢٥٢٩؛ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة أنهار الجنة ٢٥٧١، وأحمد ٥/ ٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

والتجاوز عما ارتكبوه من الذنوب والسيئات.

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«من»: موصولة، أي: كالكافر، الذي هو خالد في النار، لا يخرج منها.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾، أي: ماء في غاية الحرارة، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، أي: فقطع أمعاءهم وأحشاءهم من شدة حرارته.

فجُمع لهم بين العذاب لظاهر أجسامهم بالنار، والعذاب لباطنهم بشرب الماء الحار؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن:٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤]، وقال تعالى: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر:٧٢].

والمعنى: أنه لا يستوي المتقون الذين وعدهم الله الجنة وما فيها من الأنهار والثمار، بمن في النار ويسقى الحميم من الكفار، ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هم في رفيع الدرجات، كمن هم في حضيض الدركات.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أي: ومن المنافقين من يستمع إليك، أي: يجلسون إليك، ويستمعون قراءتك القرآن وكلامك، استماعًا لا يتجاوز آذانهم، من غير رغبة، ولا تدبر، ولا تفهُّم.

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]؛ ولهذا قال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾، أي: من مجلسك.

﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: للذين أعطاهم الله تعالى العلم به، وبما ينزل على

رسوله ﷺ، من الصحابة رضي الله عنه.

﴿مَاذَا قَالَ﴾، «ماذا»: اسم استفهام، أي: ماذا قال محمد؟ أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي قاله محمد.

﴿ءَانِفًا﴾ ظرف متعلق بـ«قال»، أي: ماذا قال الساعة؟ أو حال.

وهذا يدل على عدم اهتمامهم بسماع ما قال، وعدم اكتراثهم به؛ تقليلًا لشأنه، وتشكيكًا لغيرهم به، وأنه لا معنى له، ولا قيمة، وتهكمًا به ﷺ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: الذين ختم على قلوبهم، وسد منافذ وصول الخير إليها، فلا تقبل الحق ولا تعيه ولا تفهمه، بسبب نفاقهم، واتباعهم أهواءهم الباطلة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ سلكوا طريق الهدى، بالإيمان والإخلاص، واتباع ما يرضي الله، وانتفعوا بسماع قراءته ﷺ القرآن وكلامه.

﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾، أي: زادهم هداية وتوفيقًا تفضلًا منه وكرمًا؛ لإخلاصهم وسلوكهم طريق الهدى، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، أي: وأعطاهم تقواهم، فألهمهم رشدهم، ووفقهم للخير، وحفظهم من الشر؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»(١).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ الاستفهام: للنفي، و«إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من «الساعة»، «بغتة»: حال، أي: ما ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون، المتبعون لأهوائهم، إلا القيامة أن تأتيهم فجأة

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨؛ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وهم غافلون عنها؛ لأنها لا تأتي إلا بغتة، وقد قرب إتيانها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۝٥٦ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النجم:٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر:١].

وقال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١].

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ الفاء: تعليلية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: فقد ظهرت علاماتها الدالة على قربها، ومن أول علاماتها: بعثته ﷺ.

قال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى(١).

ولهذا قال ﷺ: «**وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي**»(٢).

فهددهم عز وجل بقرب الساعة؛ لأن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: فكيف للكافرين إذا جاءتهم الساعة، وانقضت آجالهم أن يتذكروا؟ وأين لهم التذكر، حين لا ينفعهم ذلك؟ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ [سبأ:٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، أي: أنه لا معبود بحق إلا الله.

قال ابن كثير(٣): «وهذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمرًا بعلم ذلك».

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٦، ومسلم في الفتن ٢٩٥٠؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠؛ من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٢٩٨.

وقال السعدي[١]: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنى ما طُلب منه علمه، وتمامه: أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به- وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك».

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾، أي: اطلب من الله تعالى المغفرة لذنبك ولذنوب المؤمنين والمؤمنات، وقد كان ﷺ يقول: «اللهم اغفر لي خطئي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»[٢].

وكان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة**»[٥].

وعن عبدالله بن سرجس رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ، وأكلت معه خبزًا ولحمًا، أو قال: ثريدًا. قال: فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾»[٦].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ص٧/ ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت**» ٦٣٩٩، ومسلم في الذكر ٢٧١٩.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٩.

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢.

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٤٦.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾، أي: تصرفكم في نهاركم ويقظتكم.

و﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾: مستقركم في ليلكم ومنامكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود:٦].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير المشركين المكذبين للنبي ﷺ بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالكافرين من الأمم قبلهم، والإنكار عليهم كيف لا يتعظون بسوء عاقبة أولئك الأقوام؟ لقوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾.

٢- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للكافرين، بأن لهم أمثال عقوبات الكافرين قبلهم ممن دمر الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

٣- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للذين آمنوا وتوفيقه لهم ونصرهم وحفظهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٤- نفي ولايته الخاصة عن الكافرين، وأن من لم يتوله الله فلا مولى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾. وهذا لا ينافي ولايته العامة لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام:٦٢].

٥- إثبات الأسباب وتعلق مسبباتها بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

٦- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح الخالص لله تعالى، الموافق لشرعه، بالجوارح.

٨- ذم الكافرين في تمتعهم في الدنيا وأكلهم كالأنعام، وتهديدهم ووعيدهم بالمستقر في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

٩- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح بذكر ما أعد للمؤمنين من دخول الجنات، وما فيها من النعيم، والتحذير من الكفر؛ لذم الكافرين، وتوعدهم بالنار وعذابها الأليم.

١٠- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾.

١١- أن القرية تطلق على المدينة الكبيرة، مأخوذة من «القرى»؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين؛ كما تطلق القرية على أهلها؛ لأن المراد بالقرية هنا: أهلها.

١٢- أن كفار مكة ألجؤوا النبي ﷺ واضطروه للخروج منها، والهجرة إلى المدينة هو وأصحابه.

١٣- إهلاك كثير من القرى المكذبة للرسل فلا ناصر لهم، مع أنهم أشد قوة من كفار مكة، فلم تنفعهم قوتهم، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد للمشركين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

١٤- أنه لا ناصر من عذاب الله، ولا واقي منه، ولا عاصم ولا دافع، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

١٥- شتان بين من كان مؤمنًا وعلى بينة وبصيرة ونور من ربه، وبين من زين له عمله السيئ من الكفر والتكذيب واتبعوا أهواءهم، فلا يستوي هذا وهذا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه المؤمنين؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

١٧- أن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

١٨- ينبغي الحذر من تسويل الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، ومن اتباع الهوى.

١٩- إثبات وجود الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، وعظم صفتها، وما فيها من الأنهار، وما لهم فيها من الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ الآية.

٢٠- تعدد أنهار الجنة وكثرتها وتنوعها وحسنها وطيبها، ففيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر في غاية اللذة، وأنهار من عسل في غاية الصفاء؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

٢١- أن ما في الجنة من الشراب والطعام وغير ذلك من ألوان النعيم لا يقاس به ما في الدنيا؛ لأن كل ما في الدنيا يعتريه التغير والنقص والفناء، فالماء يأسن، واللبن يتغير طعمه، وخمرها كريهة الطعم والرائحة، تغتال العقول، وتصدع الرؤوس، وعسلها لا يخلو من الكدر، وجميع ما فيها يبلى ويفنى، والإنسان فيها عرضة للأمراض والآفات، والهرم ثم الموت.

٢٢- الجمع لأهل الجنة بين أنواع الشراب، وأصناف المآكل من كل الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد:٣٥].

٢٣- الجمع لهم بين حصول المطلوب بالجنة وما فيها من ألوان النعيم، وبين النجاة من المرهوب بمغفرة الذنوب.

٢٤- شتان بين ما وعد الله به المتقين من الجنة وما فيها من النعيم، وبين ما توعد به

الكفار من الخلود في النار وشرب الحميم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

٢٥- الجمع لأهل النار بين عذابها وحرها الشديد، وبين الحميم الشديد الذي يقطع أمعاءهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن:٤٤].

٢٦- استماع بعض المنافقين إلى قراءته ﷺ وكلامه، وجلوسهم إليه من غير رغبة، ولا تفهم لما يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

٢٧- إظهارهم عدم اهتمامهم بما سمعوا؛ تقليلًا لشأنه، وتشكيكًا لغيرهم به، وأنه لا معنى له ولا قيمة، وتهكمًا به ﷺ وبقوله؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

٢٨- عقوبة الله لهم بالطبع على قلوبهم فلا يصل إليها خير، واتباعهم أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

٢٩- إثبات القدر، وأن من كتب الله عليهم الكفر والضلال فلا سبيل إلى هدايتهم.

٣٠- ذم اتباع الأهواء؛ لأن الهوى يُعْمي ويُصم عن الحق والهدى.

٣١- التنويه بشأن الذين سلكوا طريق الهدى بالإيمان والإخلاص، وانتفعوا بسماع القرآن واتبعوا هدى الله، وزيادتهم هدى، وإيتاؤهم تقواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

٣٢- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أعرض عن استماع القرآن طبع الله على قلبه فاتبع هواه، ومن اهتدى زاده الله هدى وتقوى.

٣٣- تهديد الكفار بقرب الساعة وعذابها، لظهور علاماتها، وإتيانها بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٦].

٣٤- إثبات الساعة والقيامة، وبعث الخلائق، وحسابهم وجزائهم، وأن علاماتها قد ظهرت، وأولها: بعثته ﷺ، والحث على الاستعداد لها.

٣٥- أنه بعد إتيان الساعة، لا ينفع نفسًا تذكرها ولا إيمانها؛ لفوات وقته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

٣٦- أنه لا معبود بحق إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٣٧- الحث على سؤال مغفرة الذنوب؛ لأن الله أمر النبي ﷺ بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، وهو أمر له ولأمته، بل الأمة مأمورة بذلك من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وفيه مشروعية استغفار المؤمن لإخوانه المؤمنين.

٣٨- فضل العلم، وأنه مقدم على القول والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

قال البخاري: «باب العلم قبل القول والعمل؛ لقوله الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم»(١).

٣٩- علم الله التام بتصرفات العباد في نهارهم ويقظتهم، ومستقرهم في ليلهم، وجميع أحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

٤٠- وجوب مراقبة الله في جميع الأوقات والأحوال، في السر والعلن.

* * *

(١) انظر: «فتح الباري»، كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل ١/ ١٥٩.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾، أي: هلا نزلت سورة وذكر فيها القتال، بدليل قوله بعده: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾.

والمعنى: أنهم تمنوا شرعية الجهاد، واستعجلوا ذلك.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها ولا تشابه، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾، أي: مشروعيته والأمر به.

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك ونفاق، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ﴾، «نظر»: مفعول مطلق، أي: نظر المغمى عليه ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، أي: لأجل الموت، وذلك بسبب شدة خوفهم وجبنهم من لقاء العدو، ونكلوا عن القتال وكرهوه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، أي: فأولى لهم من النكول عن القتال والتخوف منه.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: أن يسمعوا ويطيعوا، ويقولوا قولًا معروفًا؛ كما قال تعالى عن المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ﴾ [النور:٥١].

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: جد الحال، وحضر القتال.

﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له النية، وصدقوا في القتال ابتغاء مرضاته.

﴿لَكَانَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لكان صدقهم مع الله ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ خيرية مطلقة في الدنيا والآخرة.

قال السعدي(١): «﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المتحتم عليهم، ويجمعوا عليهم هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله وعفوه. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: جاءهم أمر جد، وأمر حتم، ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ في هذه الحال بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من حالهم الأولى».

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ قرأ نافع بكسر السين: «عَسِيتُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿عَسَيْتُمْ﴾.

وروى رويس: «تُوُلِّيتُمْ» بضم التاء والواو وكسر اللام، وقرأ الباقون بفتحهن: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾.

أي: فلعلكم إن أعرضتم بقلوبكم عن الإيمان، وتوليتم بأبدانكم عن الجهاد، وعن العمل بشرائع الإسلام.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧/ ٧٨.

﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان، فتعودوا إلى ما كنتم عليه من الجاهلية الجهلاء.

﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ قرأ يعقوب بفتح التاء، وإسكان القاف، وفتح الطاء وتخفيفها: «وَتَقْطَعُوا».

وقرأ الباقون بضم التاء، وفتح القاف، وكسر الطاء وتشديدها: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾.

وهذا أشبه بعطف الخاص على العام؛ لأن من أعظم الفساد في الأرض قطيعة الأرحام.

قال ابن كثير(١): «وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا».

وهو أيضًا: من ذكر السبب والمسبب، فإن الإفساد في الأرض بالكفر وسفك الدماء والفجور وشرب الخمور ونحو ذلك من أعظم أسباب قطيعة الأرحام،

كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى في الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٩١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧].

فمن تولى وأعرض عن طاعة الله تعالى حرم كل خير، وما ثم أمامه إلا الإفساد في الأرض وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحَقْو الرحمن- عز وجل، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ فقالت: بلى. قال: فذاك، قال: اقرؤوا**

(١) في تفسيره ٧/ ٣٠٠.

إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾»(١).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الإشارة للذين تولوا وأفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم. وأشار لهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم من رحمته وجنته، فاستحقوا سخطه وأليم عقابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾، أي: عن سماع الحق والإصغاء إلى سماعه سماع فهم وتدبر وانتفاع، ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن النظر في آيات الله والتأمل فيها، وعن رؤية الحق، وسلوك طريقه، فلا يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرونه. وتلك والله قاصمة الظهر، وأعظم المصائب.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يتفكرون في القرآن وألفاظه ومعانيه ويتفهمونه، ويعملون بأحكامه.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، «أم»: هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أعلى قلوبهم أقفالهم؟ أي: أغلاقها وأغطيتها، فهي مقفلة مغلقة، لا تتدبر القرآن، ولا يصل إليها بسبب غفلتها وإعراضها.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت:٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام:٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة محمد ﷺ ٤٨٣٢، ومسلم في البر، صلة الرحم وتحريم قطيعتها ٢٥٥٤.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾، أي: رجعوا كفارًا بعد إسلامهم وإيمانهم.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾، «ما»: مصدرية، أي: من بعد تبيُّن الهدى لهم وظهوره، ومعرفتهم طريق الحق والهدى من طريق الباطل والضلال.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، أي: زين لهم ذلك وحسنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال:٤٨].

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة، وكسر اللام: «وَأُمْلِي لَهُمْ»، وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللام، وقلب الياء ألفًا: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: مدّ لهم في الأمل، وخدعهم وغرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء:١٢٠].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ الآية، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: ارتداد هؤلاء المنافقين بسبب أنهم:

﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾، «ما»: موصولة، أي: قالوا لإخوانهم من اليهود الذين كرهوا الذي أنزل الله من القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر:١١].

ويحتمل أيضًا أن يراد بهم: المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد:٩].

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وهو ما يوافق أهواءهم من الكيد للمسلمين،

وإفشاء أسرارهم، ونحو ذلك، فتمالأ هؤلاء المنافقون في الباطن على الباطل مع هؤلاء الكفار، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولكن الله فضحهم، وهتك أستارهم، وأظهر للمؤمنين عوارهم حتى لا يغتروا بهم؛ ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بكسر الهمزة: ﴿إِسۡرَارَهُمۡ﴾، مصدر: «أسر»، وقرأ الباقون بفتح الهمزة: «أَسْرَارَهُمْ»: جمع «سِر».

أي: والله يعلم ما يسرونه ويخفونه من الكفر والخبث والكيد للحق وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ [النساء:٨١].

﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم.

﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، أي: يضربون وجوههم، وأقفيتهم وظهورهم بالمقامع بعنف وشدة، عندما تستعصي أرواحهم عن الخروج من أجسادهم؛ لإخراجها بالقوة والقهر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لتوفي الملائكة لهم على هذه الكيفية من ضرب وجوههم وأدبارهم ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم:

﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾، «ما»: موصولة، أي: اتبعوا الذي أسخط الله من الكفر والنفاق والفسوق والعصيان، ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، أي: وكرهوا الذي يرضيه من الإيمان والإخلاص والطاعة، فلم يرغبوا فيه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۙ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال:٥٠، ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وبين قوله: ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ مقابلة.

﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، أي: أبطلها، فلم يثابوا على شيء منها، ولم يبلغوا فيها مرادهم.

الفوائد والأحكام:

١- العتاب للمؤمنين في تمنيهم واستعجالهم مشروعية القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾، والمعنى: لولا نُزِّلت سورة فيها ذكر القتال ومشروعيته، بدليل ما بعدها.

٢- تفسير القرآن بالقرآن، وأنه قد يُحذَف من الجملة ما تبينه الجملة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾، أي: وذكر فيها القتال؛ لقوله في التي بعدها: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾، ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النساء:١٧٦].

٣- أن لله وحده الحكم، والحكمة فيما حكم، وفيما يحكم به من أحكام شرعية، أو كونية، أو جزائية، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، وأنه غير مخلوق.

٥- نكول كثير ممن في قلوبهم شك ونفاق عن القتال بعد فرضه، وشدة فزعهم وفَرَقهم من لقاء العدو؛ لقوله تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٧- بلاغة القرآن، ودقة تصويره لحال هؤلاء الجبناء.

٨- أن الأولى لهؤلاء أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولًا معروفًا، فيقولوا: سمعنا وأطعنا، فإذا حضر القتال صدقوا الله في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١﴾.

كما أن الأولى لهم امتثال الأمر الحاضر الواجب عليهم، وألا يطلبوا شرع ما هو شاق عليهم، فإذا أمروا بذلك فعليهم أن يصدقوا الله ويستعينوا به على امتثال ذلك.

٩- وجوب الصدق والإخلاص لله في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وأن الخير كل الخير في ذلك.

١٠- أن من تولى وأعرض عن الإيمان وعن الجهاد والعمل بشرائع الإسلام حُرم من كل خير، فما ثم أمامه إلا الإفساد في الأرض بالكفر والفجور وقطيعة الأرحام؛ لقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾.

١١- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن فعل ذلك بلعنة الله تعالى لهم، والحيلولة دون وصول الحق إليهم؛ بالصمم في آذانهم، والعمى في أبصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾.

١٢- التحذير من الإفساد، وذم المفسدين في الأرض.

١٣- التحذير من قطيعة الأرحام، وأنها من أعظم الفساد في الأرض، والتأكيد على وجوب صلة الأرحام.

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بَتَتُّه**»(١).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم: شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله**»(٢).

وعن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»(٣).

١٤- الإنكار على المفسدين في الأرض بقطيعة الرحم وغير ذلك، وتقريعهم وتوبيخهم؛ لعدم تدبرهم القرآن، وإقفالهم قلوبهم عن وصوله إليها بسبب غفلتهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، صلة الرحم ١٦٩٤، والترمذي في البر، ما جاء في قطيعة الرحم ١، وأحمد ١/ ١٩١، وقال الترمذي: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٢٤، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، ليس الواصل بالمكافئ ٥٩٩١، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٨.

١٥- وجوب تدبر القرآن الكريم؛ ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وأهم ذلك ولُبُّه: العمل به، فكم من زاعم أنه متدبر للقرآن، يعتقد أن التدبر ثقافة تدور حول بعض ألفاظه ومعانيه، وليس معه من تدبر القرآن إلا إقامة الحجة عليه؛ لأنه لم يعمل به، وما أكثر هؤلاء في هذا الزمن، وما أكثر الدعاة إليه.

١٦- التحذير من الردة عن الإسلام، واتباع الشيطان، وذم الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الضلال بعد الهدى، وأن ذلك من تسويل الشيطان، وإمداده لهم في الأمل وغرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

١٧- أن ارتداد هؤلاء المنافقين بسبب تمالئهم في الباطن على الباطل مع الذين كرهوا ما أنزل الله من اليهود والمشركين بطاعتهم لهم فيما يوافق أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾.

١٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

١٩- علم الله تعالى بالسرائر، وما تخفيه الضمائر، من الكفر والنفاق، والكيد والخداع، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، وفي هذا تهديد لهم.

٢٠- التحذير من إضمار الشر، ووجوب مراقبة الله في السر والعلن؛ لأنه عز وجل يعلم السر وأخفى.

٢١- تهديدهم ووعيدهم بسوء حالهم عند توفي الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم لهم؛ بضربهم وجوههم وأدبارهم بمقامع الحديد بعنف وشدة عندما تستعصي أرواحهم عن الخروج من أجسادهم؛ لإخراجها بالقوة والقهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٢- أن توفي الملائكة لهم على هذه الكيفية من الإهانة والضرب، إنما هو بسبب اتباعهم الذي أسخط الله من الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان، وكراهتهم ما

يرضيه من الإيمان والإخلاص والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾﴾.

٢٣- بطلان أعمال الكفار وحبوطها، فلا يثابون على شيء منها، ولا يصلون بها إلى مرادهم.

٢٤- التحذير من اتباع وارتكاب ما يسخط الله بالكفر والمعاصي، وكراهية ما فيه رضاه من الطاعات، من الإيمان والطاعات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾:

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب، أي: بل أظن ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شك ونفاق.

﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾، «أن» والفعل «يُخْرِج» في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مُفعولَيْ «حَسِب».

أي: أظن هؤلاء المنافقون أن لن يظهر الله أحقادهم، وما في قلوبهم من العداوة للحق وأهله؟ أي: بل سيظهر أحقادهم ويكشفها لعباده المؤمنين، ويفضحهم، وقد جلَّى حقيقتهم، وعدد فضائحهم وقبائحهم في كيدهم للإسلام وأهله في سورة براءة؛ ولهذا سماها بعض أهل العلم: «الفاضحة»؛ لكثرة ما جاء فيها من فضائحهم، وهذا ما كانوا يحذرونه؛ كما قال تعالى فيها: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم

بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«لو»: حرف شرط غير جازم، واللام في قوله: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ واقعة في جواب «لو»، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلعرفتهم بعلاماتهم الظاهرة، التي لا يستطيعون إخفاءها.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتعرفنهم في لحن القول، وهو تعريض الخطاب وإشارته، وفحوى الكلام ومغزاه، فيظهر ما في قلوبهم من كلامهم، وفلتات ألسنتهم.

قال ابن القيم: «واللحن ضربان: صواب، وخطأ، فلحن الصواب نوعان؛ أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «**ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض**»(١).

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية». قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن الخطاب على شرط، بل أخبر به خبرًا مؤكدًا بالقسم، فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه»(٢).

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه»(٣).

وقد قالوا في المثل: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

وقال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

قال ابن القيم: «والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن الخطاب، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨، ومسلم في الأقضية ١٧١٣، وأبو داود في الأقضية ٣٥٨٣، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠١، وابن ماجه في الأحكام ٢٣١٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٢.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٠٤، ٣٤٣.

معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه، وما في وجهه؛ فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السماء المرئية، والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر، والسماع»(١).

وقد عرف ﷺ جماعة من المنافقين، وأخبر بهم صاحب السر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**في أصحابي اثنا عشر منافقًا...**» الحديث(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، أي: لا يخفى عليه شيء منها، قبل فعلها وبعده.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بالياء: «وَلَيَبْلُونَّكُمْ»، «حَتَّى يَعْلَمَ»، «وَيَبْلُوَ»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾، ﴿وَنَبْلُوَا۟﴾.

أي: ولنختبرنكم ونمتحن إيمانكم وصبركم بإيجاب الجهاد عليكم؛ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾، أي: علمًا يترتب عليه الجزاء والثواب، وذلك بعد حصول الجهاد منهم، وإلا فهو سبحانه قد علم في الأزل قبل أن يخلقهم من سيجاهد منهم من غيره.

﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ روى رويس بإسكان الواو: ﴿وَنَبْلُوْ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَنَبْلُوَا۟﴾، أي: ونختبر أقوالكم وأفعالكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسوله، ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم عن دين الله عز وجل، وصدوا الناس وصرفوهم عنه، بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وتزيينه لهم.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٧٧٩.

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: وخالفوا الرسول وحاربوه وكذبوه، عن عمد وعناد، لا عن جهل وضلال؛ لقوله:

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، «ما»: مصدرية، أي: من بعد تبيُّن الهدى وظهوره لهم.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأن الله عز وجل غني عن الخلق كلهم، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر:٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»(١).

وإنما ضرر ذلك عائد إليهم، ووباله واقع عليهم؛ ولهذا قال:

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، أي: وسيبطل أعمالهم ومساعيهم للنيل من الحق ونصرة الباطل، فلا تُثمر لهم إلا الخيبة والخسران.

وسيبطل أعمالهم التي يرجون بها الثواب، فلا يثابون عليها بسبب كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وردتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمد:٢٥-٢٨].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ بامتثال ما أمركم الله به ورسوله، واجتناب ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وفي إعادة الفعل «أطيعوا»: دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالًا، فيطاع ﷺ في امتثال أمره ونهيه وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم؛ لأن الكل من عند الله تعالى؛

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤].

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالردة عن الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

أو بفعل ما يبطل الأعمال ويفسدها، من الإعجاب والفخر، والسمعة والرياء، وقد قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر**»، فسئل عنه، فقال: «**الرياء**»(١).

أو بإتباع الصدقة بالمن والأذى؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

أو بعمل الموبقات والمعاصي التي تضمحل معها الأعمال الصالحة، ويخف وزنها، ويحبط أجرها.

أو بالخروج من الفرض بعد الدخول فيه؛ كقطع صلاة الفريضة، وصوم رمضان، والحج والعمرة بعد الدخول فيهما فرضًا كانا أو نفلًا.

ومفهوم هذا كله: الأمر بإصلاح الأعمال وإكمالها وإتمامها علمًا وعملًا، إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الجملة حالية، أي: وماتوا حال كونهم كفارًا من غير توبة.

﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن»، أي: فلن يغفر الله لهم؛ لأنهم ماتوا على الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝١٦٢﴾ [البقرة:١٦١، ١٦٢]. ومفهوم هذه الآيات: أنهم إن تابوا قبل موتهم فإن الله يغفر لهم.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾، أي: فلا تضعفوا ولا تجبنوا عن مقاتلة أعدائكم الكفار.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، أي: ولا تدعوا إلى المسالمة والمصالحة والمهادنة بينكم وبين عدوكم، ووضع القتال بينكم وبينهم طلبًا للراحة.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الجملة: حالية، أي: والحال أنكم أنتم الأعلون، أي: لكم الظهور عليهم بقوتكم وعددكم وعدتكم، كما أنكم الأعلون بدينكم وإيمانكم.

قال ابن كثير(١): «فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك؛ كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك».

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بمعيته الخاصة لأوليائه المتقين، وجنده المفلحين، معية النصر والعون والتوفيق، والتسديد والحفظ والتأييد.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، أي: ولن ينقصكم ثواب أعمالكم، بل سيؤتيكم أجوركم، ويضاعفها لكم، ويزيدكم من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا لعب، أي: لعب في الأبدان، لا فائدة منه، تنشغل به عن الطاعات، والعمل لدينها ودنياها.

﴿وَلَهْوٌ﴾ للقلوب تنشغل به عن التفكر في آيات الله وعظمته، والإخلاص له.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

وفي هذا تزهيد في الدنيا، وبيان لحقارتها، وأن حاصلها لعب ولهو، فلا ينبغي أن

---

(١) في «تفسيره» ص٧/ ٣٠٦.

يُغتر بها؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد:٢٠].

وفي الحديث: «**ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم**»(١).

وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»(٢).

ولهذا قال هنا: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ فبعد أن زَهَّد في الدنيا رغب في الإيمان والتقوى، والعمل للآخرة.

أي: وإن تؤمنوا وتصدقوا بقلوبكم، وتتقوا بجوارحكم بفعل المأمورات، وترك المحظورات.

﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: يعطكم ثواب إيمانكم وتقواكم من غير نقص، وأعظم ذلك وأجله: إدخالهم جنات النعيم، والنظر إلى وجهه الكريم.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾، أي: ولا يسألكم أموالكم مقابل دعوته إياكم للإيمان والتقوى، ومقابل قبوله منكم ذلك؛ لكمال غناه عز وجل عن خلقه؛ ولهذا أمر عز وجل رسوله محمدًا ﷺ أن يقول لقومه ذلك، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان:٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص:٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

وهكذا نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، كل منهم قال لقومه: ﴿وَمَآ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٢، وقال الترمذي: «حسن غريب».
(٢) سبق تخريجه.

أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء:١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

فما سأل عز وجل العباد أموالهم على دعوته إياهم للإيمان والتقوى، وقبول ذلك منهم، وأمر رسله أن يقولوا ذلك لأممهم؛ لئلا يجعلوا ذلك ذريعة لعدم الانقياد لرسله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القلم:٤٦].

كما أن ما أوجبه الله من الحقوق في المال، إنما هو لمواساة المسلم لإخوانه الفقراء، ويعود نفعه عليه، ويرجع ثوابه إليه، وهو قليل من كثير.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾، أي: إن يسألكم أموالكم.

﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيحرجكم ويجهدكم، تبخلوا.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ قرأ يعقوب بالنون: «وَنُخْرِجْ»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿وَيُخْرِجْ﴾، أي: ويظهر أحقادكم لحبكم للمال، وكراهيتكم بذله.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، أي: فمنكم الذي يبخل ويمتنع عن الإنفاق في سبيل الله، فكيف لو طلب منكم أموالكم؟ لكان ذلك أحرى بامتناعكم منه.

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: فإنما يعود وبال وضرر بخله على نفسه؛ لأنه حرمها الأجر والثواب، ولن يضر الله شيئًا؛ ولهذا قال:

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن جميع خلقه غنى تامًّا مطلقًا؛ لأن الغنى وصف لازم له.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون إليه عز وجل في جميع أموركم وأوقاتكم وأحوالكم، لا غنى لكم عنه طرفة عين؛ لأن الفقر وصف لازم للخلق لا ينفكون عنه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾، أي: وإن تعرضوا عن الإيمان بقلوبكم، وتتولوا عن تقوى الله وعن الإنفاق في سبيله والعمل بطاعته بجوارحكم.

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، أي: يذهبكم ويأتي بغيركم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣]، وقال

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ في التولي والإعراض، بل يؤمنون بالله، ويتقونه، وينفقون في سبيله، ويسمعون، ويطيعون.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المنافقين ومرضى القلوب ظنهم الباطل: أن الله لن يظهر ما في قلوبهم من الأحقاد على الحق وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ ﴾.

٢- إظهاره عز وجل أضغانهم وأحقادهم، وفضحهم بذكر صفاتهم القبيحة، ومواقفهم المخزية، في سورة براءة، وسورة المنافقين، وفي غير ذلك من سور القرآن الكريم.

٣- حقد المنافقين وعداوتهم وكيدهم للحق وأهله، وهذا ديدنهم في كل زمان ومكان، مما يوجب الحذر منهم؛ كما قال عز وجل: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾ [المنافقون:٤].

٤- علم الله التام بما تنطوي عليه الصدور والقلوب من المضمرات والسرائر؛ مما يوجب مراقبته عز وجل في السر والعلن.

٥- أن الله عز وجل لو شاء لأرى النبي ﷺ هؤلاء المنافقين بأشخاصهم وأعيانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ ﴾، وله الحكمة في عدم مشيئته ذلك.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٧- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له.

٨- معرفته ﷺ المنافقين بعلاماتهم الظاهرة، ومن كلامهم وفلتات ألسنتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾.

٩- أن معرفتهم بلحن القول أظهر وآكد؛ لهذا أقسم الله تعالى عليه، بخلاف معرفتهم بالسيماء والنظر، فقد علقه على المشيئة.

١٠- علم الله تعالى التام بأعمال العباد، فلا تخفى عليه منها خافية؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ مما يوجب مراقبته.

١١- ابتلاء الله تعالى العباد بفرض الجهاد؛ ليظهر المجاهدون منهم والصابرون، من غيرهم، وابتلاء أقوالهم وأفعالهم؛ لمجازاتهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾.

١٢- أن الجنة حُفّت بالمكاره، وأن سلعة الله غالية، فلا بد لنيل ذلك من الابتلاء والجهاد والصبر؛ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران:١٤٢].

١٣- تحقير شأن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وخالفوا رسوله بعد تبين الهدى لهم، وأنهم لن يضروا الله شيئًا، بل ضررهم على أنفسهم، وسيبطل أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾.

١٤- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية.

١٥- وجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، وأن طاعته ﷺ تجب استقلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وفي هذا رد على الذين يرون الاستدلال بالقرآن دون السنة.

١٦- نهي المؤمنين عن إبطالهم أعمالهم بالردة عن الإسلام، أو بفعل ما يبطلها كالمن والأذى بالصدقة، والإعجاب بالعمل، والسمعة والرياء، أو ارتكاب الموبقات والمعاصي التي تطيش بالحسنات، أو قطع العبادة الواجبة بعد الدخول فيها؛ كقطع صلاة الفريضة وصوم رمضان، والحج والعمرة بعد الإحرام بهما، فرضًا كانتا أو نفلًا، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، ومفهوم هذا: وجوب إصلاحها.

١٧- حرمان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وماتوا على الكفر من مغفرة الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤﴾.

١٨- أن كل وعيد بإحباط العمل مقيَّد بموت صاحبه على الكفر؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٧].

١٩- نهي المؤمنين عن الوهن والضعف أمام الكفار، والدعوة إلى السلم، مع أنهم هم الأعلون، ووعده عز وجل لهم بأنه معهم بتوفيقه ونصره وعونه، وبإيتائهم أجور أعمالهم ومضاعفتها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

٢٠- إثبات معية الله تعالى الخاصة للمؤمنين، معية النصر والعون والتوفيق، والحفظ والتأييد والتسديد.

٢١- تحقير الحياة الدنيا، وأن حاصلها لعب في الأبدان، ولهو للقلوب، والتحذير من الاغترار بها، ونسيان الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

٢٢- الحث على الإيمان والتقوى، والاستعداد للآخرة، والترغيب في ذلك بالوعد على ذلك بإيتاء الأجور العظيمة، من غير غرم مالي؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

٢٣- تسميته عز وجل ثواب المؤمنين المتقين أجرًا؛ تفضلًا منه؛ لأنه عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه.

٢٤- أن الناس لو سئلوا أموالهم مقابل دعوتهم إلى الإيمان والتقوى، ومقابل قبول ذلك منهم، لامتنع كثير منهم من ذلك بخلًا بالمال، وظهرت أضغانهم بسبب طلب أموالهم؛ ولهذا لم يسألهم عز وجل أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

٢٥- شدة محبة الإنسان للمال، وبخله به، وتشبثه فيه، حتى ولو كان على حساب دينه، وموالاته ومعاداته من أجله، إلا من رحم الله ووفقه.

٢٦- أن الله عز وجل إنما دعا العباد إلى الإنفاق في سبيله- ومع ذلك يبخل الكثير منهم- فكيف لو سألهم أموالهم؟ لقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾.

٢٧- أن من بخل وامتنع عن الإنفاق في سبيل الله، فإنما وبال وضرر بخله على نفسه، بحرمانها من ثواب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾.

٢٨- إثبات اسم الله: «الغني»، وغناه التام المطلق عن جميع خلقه، وأن الغنى صفة لازمة له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾.

٢٩- إثبات فقر الخلائق كلهم، وحاجتهم إلى الله تعالى، وأن افتقارهم إليه صفة لازمة لهم لا تنفك عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾.

٣٠- التحذير من التولي والإعراض عن الإيمان بالله وتقواه، وتهديد من تولوا باستبدالهم بقوم غيرهم، يؤمنون ويتقون، ولا يكونون أمثالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْفَتْحِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الفتح بهذا الاسم»، لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١] وتضمنها هذا الفتح العظيم وقصته.

ب- مكان نزولها:

مدنية

جـ - فضلها:

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة «سورة الفتح» فرجّع فيها»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد أنزلت علي الليل سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح:١](٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢-٥] مرجعه من الحديبية، وهم يخالطون الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية. فقال: «**لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا**»(٣).

د- موضوعاتها:

١- ابتدأ الله عز وجل هذه السورة بالأخبار والبشارة للنبي ﷺ بالفتح المبين والمغفرة له وإتمام نعمته تعالى عليه، وهدايته صراطه المستقيم ونصره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح ٤٨٣٥، ومسلم في الصلاة ٧٩٤، وأحمد ٤/ ٨٥- ٦٨، ٥/ ٤٤ ومعنى «فرجع فيها»، أي: ردد القراءة.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٧٧، والترمذي في تفسير سورة الفتح ٣٢٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٦٣.

٢ - الامتنان على المؤمنين بإنزاله عز وجل السكينة في قلوبهم؛ ليزداد إيمانهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾.

٣ - وعد المؤمنين والمؤمنات بإدخالهم الجنات والفوز العظيم، ووعيد المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات بالغضب واللعنة، وبجهنم وساءت مصيرا.

٤ - بيان عظمة ملكه عز وجل، وقوة سلطانه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

٥ - بيان الحكمة من إرساله ﷺ وهي الشهادة على الأمة، والبشارة والإنذار: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

٦ - أن مبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

٧ - كشف نفاق المخلفين من الأعراب، وفضحهم، وقولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وظنهم ظن السوء، بهلاك الرسول والمؤمنين، وطمعهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾، إلى قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

٨- بيان ما يعذر فيه بترك الجهاد: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

٩- ذكر رضاه عز وجل عن المؤمنين أهل بيعة الشجرة وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة وكف أيدي الناس عنهم، وهدايتهم صراطًا مستقيمًا: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

١٠- امتنانه تعالى بكف أيدي المشركين عن المؤمنين، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين ببطن مكة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

١١- تهييج المؤمنين على قتال المشركين: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

١٢- تأكيد صدق الله عز وجل رسوله ﷺ رؤياه في دخول البيت الحرام: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

١٣- امتنانه عز وجل على العباد بإرسال محمد ﷺ بالهدى ودين الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

١٤- ثناء الله عز وجل على النبي ﷺ وصحابته الكرام، وامتداحهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

سبب النـزول:

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: «أيها الناس، اتهموا أنفسكم؛ فإنا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا. فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا. فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال: أوفتح هو؟ قال: نعم»(١).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلًا، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يجبه

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية، إثم من عاهد ثم غدر ٣١٨٢، ومسلم في الجهاد والسير، صلح الحديبية ١٧٨٥.

رسول الله ﷺ، ثم سأله، فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر: نَزَرْتَ(١) رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخًا يصرخ بي، قال: فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، وجئت رسول الله ﷺ، فسلمت عليه، فقال: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾**»»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾، قال المسلمون: يا رسول الله، هنيئًا لك ما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح:٥]»(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾:

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، أي: إنا فتحنا لك يا محمد وللمؤمنين فتحًا عظيمًا بيِّنًا ظاهرًا جليًّا، وأكّد ذلك بقوله: «إنا»، وعظّمه بتنكير «فتحًا»، وبوصفه بقوله: «مبينًا».

و«الفتح»: النصر، والمراد به هنا: صلح الحديبية، وقد جعل الله هذا الصلح العظيم فتحًا ونصرًا؛ لما ترتب عليه من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة، والعاقبة الحميدة، والمآل الحسن؛ كما قال ﷺ لما سأله عمر رضي الله عنه: أوفتح هو؟ قال: «**نعم**».

وعن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ على الناس:

---

(١) أي: ألححت عليه بالمسألة. انظر: «النهاية»، مادة: «نزر».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٧٧، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة الفتح ٣٢٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٣٩٣٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٨٦، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الفتح ٣٢٦٣.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، فقال رجل من أصحاب رسول الله: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: «**والذي نفسي بيده إنه لفتح**»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه: «وما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية»(٣).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «وتعدون الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»(٤).

قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك، أو أكثر»(٥).

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اللام: للتعليل، و«ما» في الموضعين: موصولة، أي: لأجل أن يغفر لك الله الذي تقدم من ذنبك والذي تأخر منه؛ وذلك لتعظيمه ﷺ أوامر الله ونواهيه، وشعائره وحرماته؛ ولهذا قال ﷺ حين بركت الناقة: «**حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يعظمون به حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها**»(٦).

ولهذا أجابهم إلى الصلح مع ما رأى فيه بعض أصحابه من غضاضة عليهم، وكان من ثمرة ذلك أن رتب الله عليه ما لا يحصى من الأجور والمصالح الدينية والدنيوية

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب فيمن أسهم سهمًا ٢٧٣٦، وأحمد ٣/ ٤٢٠.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٤١٥٠.

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٣٦، وانظر: «الأم» ٤/ ١٨٩، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٧.

(٦) أخرجه البخاري في الشروط في الجهاد ٢٧٣٤، وأبو داود في الجهاد، صلح العدو ٢٧٦٥، وأحمد ٢/ ٣٢٣، ٣٢٩، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

والأخروية.

قال ابن كثير[١]: «هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره: «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ».

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفطر رجلاه، فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[٣].

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾، «نعمة» مفرد مضاف، فيعم جميع النعم، الدينية والدنيوية والأخروية.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: طريقًا عدلًا لا اعوجاج فيه، بما يشرعه لك من الشرع العظيم، والدين القويم.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾، أي: قويًّا مؤزرًا تامًّا، لا يتضعضع.

فجمع عز وجل له ﷺ في هذه الآية خمس عطايا عظيمة، الأولى: الفتح المبين، والثانية: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والثالثة: إتمام نعمته عليه، والرابعة: هدايته الصراط المستقيم، والخامسة: نصره نصرًا مؤزرًا.

وجمع له بين الهدى والنصر، وهذان الأصلان بهما كمال السعادة والفلاح، فالهدى: العلم النافع بالله ودينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع، والعمل الصالح.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣٠، ومسلم في صفة القيامة، إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة، ما جاء في الاجتهاد في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقام الصلاة، ما جاء في طول القيام في الصلاة ١٤١٩.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠، وأحمد ٦/ ١١٥.

والنصر: القدرة التامة على تنفيذ دينه. وهو عز وجل كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة، وظهور دينه على الدين كله؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩](١).

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾، أي: الطمأنينة والثبات، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فاستسلموا لحكم الله ورسوله، وانقادوا له، مع ما في هذا الصلح وشروطه في الظاهر من شدة وثقل عليهم؛ طاعة لله ورسوله، وإيقانًا منهم بأن الخيرة فيما يختاره الله لهم ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يزدادوا إيمانًا، أي: ليزيدهم الله تعالى إيمانًا مع إيمانهم، بسبب ثباتهم، وتوطينهم أنفسهم، وصبرهم على تلك الشروط التي في ظاهرها غضاضة عليهم، وإجحاف في حقهم، مما لا تكاد تصبر عليه النفوس، فأثابهم الله تعالى على ذلك بأن زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾، أي: ولله وحده- خلقًا وملكًا وتدبيرًا- جميع جنود السموات والأرض، من الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن، والريح والمطر وغير ذلك، ولو شاء لأرسل جندًا من جنوده، فانتصر من هؤلاء الكافرين، وأباد خضراءهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾، أي: ذا العلم الواسع المحيط بكل شيء، ﴿حَكِيمًا ﴾، أي: ذا الحكم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٧.

التام، والحكمة البالغة.

ولسعة علمه عز وجل، وتمام حكمه وحكمته، شرع الجهاد والقتال، وجعل الأيام دولًا بين الناس، للابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم﴾ [محمد:٤].

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

سبق في ذكر سبب نزول هذه السورة قول أنس رضي الله عنه: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾، قال المسلمون: يا رسول الله، هنيئًا لك ما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾»(١).

قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدخل الله المؤمنين والمؤمنات ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها الأنهار المختلفة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يُخرجون منها، ولا يبغون عنها حولًا.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي: يمحو ويزيل عنهم خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يغفرها لهم، ويتجاوز ويعفو ويصفح عنهم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إدخالهم الجنات وخلودهم فيها، وتكفير سيئاتهم.

﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾، الفوز: الفلاح والظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، و﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ«فوزًا»، أي: فوزًا وفلاحًا لا أعظم منه، ولا يقدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العلي العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عذابًا حسيًّا ومعنويًّا في الدنيا، بقتل المشركين، وفضح المنافقين، وإقامة الحجة عليهم، وإغاظتهم جميعًا بنصر المسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ [آل عمران:١١٩].

وعذابًا في الآخرة بالنار، وبئس القرار؛ كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦].

وقدم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات؛ لأن المنافقين جمعوا الكفر في الباطن والمخادعة في الظاهر، فهم أشد كفرًا، وأشد ضررًا على الإسلام وأهله، وأشد عذابًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾: صفة للمنافقين.

و﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الظانين بالله الظن السيئ، أي: بأنه لا ينصر دينه ونبيه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه سيُقتلون ويُستأصلون، ونحو ذلك.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «السُّوءِ» بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ٱلسَّوْءِۖ﴾.

أي: عليهم تدور دائرة العذاب والدائرة السيئة، وعليهم تدور الدوائر.

وهذا حكم من الله عليهم بذلك، وإخبار منه بذلك، وليس دعاء عليهم.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وسخط الله عليهم فاستحقوا نقمته؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم عن رحمته، وطردهم من جنته؛ ولهذا قال:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾، أي: هيأ وجهز لهم نار جهنم، هي مصيرهم ومثواهم؛ لأن من طُرد من الجنة ليس له في الآخرة إلا النار؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود:١٦].

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، أي: وقبحت مستقرًّا ومثوى لهم.

فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وقد أحسن القائل:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار(١)

وقد ذُكر أن الإمام أحمد كثيرًا ما كان يتمثل بهذه الأبيات.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كرر الإخبار بهذا؛ لتأكيد كمال عظمته وقوته وقدرته على إهلاك أعدائه، ونصر أوليائه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾، أي: ذا العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمًا﴾ ذا الحكم التام، والحكمة البالغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾، «شاهدًا»: حال، أي: إنا أرسلناك شاهدًا لله تعالى

---

(١) الأبيات سبق تخريجها.

بالوحدانية؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، وشاهدًا على أمتك بإبلاغك إياهم رسالة ربك، وعلى أعمالهم خيرها وشرها.

كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وشاهدًا للرسل بصدقهم، وتبليغهم رسالات ربهم إلى أقوامهم.

وشاهدًا على الخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وهذا يشمله هو وأمته عليه الصلاة والسلام؛ لأن شهادة أمته على الناس شهادة بما أخبرهم به ﷺ عن الناس من الأمم قبلهم.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن آمن وأطاع الله بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة.

والتبشير: الإخبار بما يسر.

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كفر وعصى الله من الشقاء في الدنيا والآخرة، والنار. والإنذار: التحذير والتخويف مما يضر.

ومن لازم كونه مبشرًا ونذيرًا: تبليغ التكاليف والأوامر والنواهي، ومن ثم البشارة لمن امتثل ذلك، والنذارة لمن خالفه؛ ولهذا قال:

﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في: «لِيُؤْمِنُوا» وما عطف عليه، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾، وكذا ما عطف عليه.

واللام: للتعليل، أي: إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا؛ لأجل أن تؤمنوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالرسول ﷺ: شهادة أنه رسول الله، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ الضمير يعود إلى الرسول ﷺ، أي: وتناصروه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، أي: وتعظموه وتحترموه وتتأدبوا معه.

ويحتمل عود الضمير إلى الله، أي: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾، أي: وتعزروا الله، أي: تنصروه بنصر دينه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، أي: وتعظموا الله وتجلوه.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ الضمير يعود إلى الله تعالى، أي: وتنزهوا الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وتعبدوه وتذكروه.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، وهذا ينتظم الصلوات الخمس وأذكار الصباح والمساء، والتعبد لله وتسبيحه في جميع أوقات الليل والنهار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والذين بايعوه هم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إن مبايعتهم لك ما هي إلا مبايعة لله.

كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]؛ ولهذا قال:

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: هو معهم، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وبواطنهم وظواهرهم، فهو المبايع لهم بواسطة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١](١).

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمن نكث البيعة، أي: نقضها، ولم يف بما عاهد عليه الله.

﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط في الموضعين، و«إنما»: أداة حصر، أي: فإنما يعود وبال وضرر نكثه البيعة على نفسه، وعقوبته واقعة عليه، والله غني عنه.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾، أي: ومن أتم الذي عاهد عليه الله، أي: أتى به تامًّا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣١٢.

وافيًا كاملًا.

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم ورويس بالياء: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «فَسَنُؤْتِيهِ».

أي: فسيعطيه الله ثوابًا جزيلًا، وجزاءً عظيمًا، لا يقدر قدر عظمته إلا من منحه لهم، ووصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

والمراد بهذه البيعة: «بيعة الرضوان»، التي بايع بها الصحابة رسول الله ﷺ يوم الحديبية تحت الشجرة، وكان سبب هذه البيعة العظيمة: أنه لما أرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش؛ ليبلغهم أنه ﷺ لم يأتِ لحرب، وأنه إنما جاء معتمرًا زائرًا لهذا البيت، معظمًا حرمته، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت «بيعة الرضوان» تحت شجرة سمرة في الحديبية؛ كما قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨](١).

وكان عدد الصحابة رضي الله عنهم الذين شهدوا هذه البيعة العظيمة ألفًا وأربع مئة، أو ألفًا وخمس مئة، وقيل غير ذلك.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة»(٢).

وعنه رضي الله عنه: «كنا خمس عشرة مئة»(٣).

وعن قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: بلغني أن جابر بن عبدالله كان يقول: «كانوا أربع عشرة مئة. فقال لي سعيد: حدثني جابر: كانوا خمس عشرة مئة الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية»(٤).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣١٥- ٣١٦، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣١٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح ٤٨٤٠، ومسلم في الإمارة، استحباب مبايعة الإمام الجند عند إرادة القتال وبيعة الرضوان ١٨٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٤١٥٢، ومسلم في الباب السابق ١٨٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في الباب السابق ٤١٥٣.

ونحن أربع عشرة مئة»[١].

وعن عبدالله بن أبي أوفى، قال: «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاث مئة»[٢].

قال ابن كثير[٣] بعدما ذكر قول سعيد بن المسيب أن جابرًا حدثه أنهم كانوا خمس عشرة مئة: «والمشهور الذي رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مئة، وهذا هو الذي رواه البيهقي... عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفًا وأربع مئة». وكذا هو في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والبراء بن عازب، وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي».

واختلف: هل مبايعتهم رسول الله ﷺ كانت على ألا يفروا، أو كانت على الموت؟ فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون؟ قال: على الموت»[٤].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت»[٥].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه، قال: «لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر»[٦].

والخُلف في هذا يسير، والمراد: أنهم بايعوا رسول الله ﷺ ألا يفروا ولو هلكوا عن آخرهم.

وقد بايع ﷺ بيده الشريفة عن عثمان رضي الله عنه، فعن أنس بن مالك رضي الله

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة ذي قرد ١٨٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٥٥، ومسلم في الموضع السابق ١٨٥٧.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٣١٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٦٠، ومسلم في الموضع السابق ١٨٦٠، والنسائي في البيعة ٤١٥٩، والترمذي في السير ١٥٩٢.

(٥) أخرجه مسلم في الموضع السابق ١٨٥٦، والنسائي في البيعة ٤١٥٨، والترمذي في السير ١٥٩١.

(٦) أخرجه مسلم ١٨٥٨.

عنه، قال: «لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، كان عثمان بن عفان رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين بصلح الحديبية، وأنه فتح عظيم بيِّن ظاهر جلي؛ لما ترتب عليه من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الآيات.

٢- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له، وتكريمه بما أجزل عز وجل له من العطايا في هذه الآيات، من الفتح المبين، ومغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عز وجل عليه، وهدايته إياه الصراط المستقيم، ونصره نصرًا مؤزرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

٣- أن فتح القلوب للإيمان أعظم من فتح البلدان؛ حيث كان هذا سببًا في دخول كثير من الناس في الإسلام.

٤- اختصاص الله عز وجل له ﷺ من بين سائر الخلق بمغفرته له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

٥- إتمام نعمته عليه في الدين والدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

٦- هدايته له الصراط المستقيم، بما شرع له من الشرع العظيم، والدين القويم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾.

٧- نصر الله عز وجل له ﷺ نصرًا قويًّا مؤزَّرًا، وإظهاره لدينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

٨- نعمة الله تعالى العظيمة على المؤمنين في إنزال السكينة والطمأنينة عليهم،

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٠٢، وذكره ابن كثير من رواية البيهقي ٧/ ٣١٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

وتثبيت قلوبهم في هذا الموقف الصعب؛ حيث صدهم المشركون عن البيت، واشترطوا في الصلح تلك الشروط التي في ظاهرها غضاضة عليهم، فاستسلموا وانقادوا لحكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٩- زيادة إيمانهم بسبب ثباتهم وتوطينهم أنفسهم وصبرهم، واستسلامهم وانقيادهم لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

١٠- إثبات أن الإيمان يزيد وينقص؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة وغيرهم ممن ينفون زيادة الإيمان ونقصانه.

١١- كمال قوة الله وتمام قدرته؛ فله جنود السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فلو شاء أرسل على هؤلاء الكافرين جندًا من جنده فأهلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٢- إثبات سعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾.

١٣- إثبات صفة الحكم والحكمة له عز وجل، وأنه سبحانه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

١٤- أن الله عز وجل أنزل السكينة في قلوب المؤمنين، وثبتهم ليزداد إيمانهم؛ ليدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ويمحو ذنوبهم، وعدًا عليه حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

١٥- أن هذا هو الفوز العظيم عند الله؛ لأن الله جمع لهم فيه بين حصول المطلوب، بدخول الجنات، والتمتع بما فيها من النعيم، وبين السلامة من المرهوب، بتكفير سيئاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

١٦- أن الفوز لا يتم إلا بحصول المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

١٧- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للمنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات

ذوي الظن السيئ بالله، بأنه لا ينصر دينه ونبيه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه سيُقتلون ويُستأصلون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

١٨- أن المنافقين أشد كفرًا وخطرًا على الإسلام وأهله، وأشد عذابًا؛ ولهذا قدمهم على المشركين.

١٩- التحذير من النفاق والشرك وسوء الظن بالله؛ لأن ذلك موجب للعذاب.

٢٠- حكم الله تعالى وقضاؤه بأن الدائرة السيئة عليهم، عقوبة لهم، وتخييبًا لظنهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

٢١- غضب الله تعالى عليهم، وطردهم من رحمته وجنته، وإعداده نار جهنم منزلًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾.

٢٢- أن جهنم موجودة الآن معدة للكافرين، وأنها بئس المصير والمنزل والمثوى لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

٢٣- تأكيد قوته عز وجل وكثرة جنده، وتمام قدرته على إهلاك الكافرين، ونصرة المؤمنين، وكمال عزته وتمام حكمه وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

٢٤- إثبات صفة العزة لله تعالى بأقسامها: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

٢٥- إثبات رسالته ﷺ، وأن الله أرسله شاهدًا بوحدانيته عز وجل، وشاهدًا على أمته بإبلاغهم رسالة ربه، وعلى أعمالهم، وعلى الرسل بصدقهم وتبليغهم رسالات ربهم، وشاهدًا هو وأمته على الأمم السابقة، ومبشرًا لمن أطاعه بالجنة، ونذيرًا لمن عصاه بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾.

٢٦- أن الحكمة من إرساله ﷺ دعوة الناس إلى الإيمان بالله، وعبادته وتسبيحه، وتصديقه ﷺ، ونصرته، وتوقيره؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

٢٧- مشروعية تسبيح الله تعالى وعبادته بكرة وأصيلًا، وفي جميع الأوقات.

٢٨- تعظيم شأن مبايعة المؤمنين له ﷺ، وأنها مبايعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

٢٩- إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

٣٠- التحذير من نقض البيعة، وأن من نقضها فوبال وضرر نقضه على نفسه، والله غني عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

٣١- فضيلة أهل بيعة الرضوان، وعظم ما أعد الله لهم من الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٢- الترغيب بالوفاء بعهد الله، والتنويه بشأن من أتم ما عاهد عليه الله، ووعد الله له بإيتائه أجرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٣- تكفله عز وجل بثواب من أوفى بما عاهد عليه الله؛ لتسميته له أجرًا.

٣٤- أخذ بعض أهل العلم من الآية استحباب مبايعة الإمام الجند عند إرادة القتال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾، أي: سيقول لك يا محمد، والسين: للاستقبال.

﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾، أي: الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى مكة، عند رجوعك إلى المدينة، معتذرين عن تخلفهم كذبًا ونفاقًا.

وأطلق عليهم: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾، ولم يقل: «المتخلفون»؛ تحقيرًا لهم.

﴿شَغَلَتْنَآ﴾، أي: شغلتنا عن الخروج معك ﴿أَمْوَٰلُنَا﴾، أي: انشغلنا بأموالنا، من المواشي والمزارع والتجارة وغير ذلك، ﴿وَأَهْلُونَا﴾ من الأزواج والأولاد.

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: فاطلب من الله واسأله المغفرة لنا، وهذا منهم ليس على سبيل الاعتقاد، وإنما على سبيل النفاق والمصانعة؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ ظاهرًا ﴿مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، «ما»: مصدرية، أي: قولًا ليس في قلوبهم.

أي: قولًا مخالفًا لما في قلوبهم، فظاهر قولهم هذا: الاعتذار والتوبة والندم بطلب الاستغفار، ولكن الذي في قلوبهم وباطنهم: الشك والنفاق وسوء الظن والكفر الكُبّار.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الاستفهام للنفي، و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا أحد يملك لكم من الله أيَّ شيء.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الضاد: «ضُرًّا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ضَرًّا﴾.

أي: لا أحد يقدر على دفع ما أراد الله بكم، فإن أراد بكم ضرًّا فلا أحد يدفعه، وإن أراد بكم نفعًا فلا أحد يمنعه.

والضر: كل ما يُتضرر به، والنفع: كل ما يُنتفع به.

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، «بل»: للإضراب في الموضعين، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بل كان الله بعملكم، أو بالذي تعملونه.

﴿خَبِيرًا﴾، أي: عليمًا مطلعًا على باطنه وظاهره، ودقيقه وجليله، وخفيِّه وجليِّه، فهو أعلم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمونا، وأظهرتم لنا خلاف ذلك.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: بل اعتقدتم أن لن

يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا، أي: أنهم سيُقتلون ويُستأصلون، ولا يرجع منهم مخبر، وأن الله لن ينصر رسوله ودينه.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: وزيَّن ذلك الظن السيئ في قلوبكم الشيطان والأنفس الأمارة بالسوء.

أو زُين ذلك قدرًا في قلوبكم، أي: قدر الله ذلك عليكم وزينه في قلوبكم، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تحقيرًا له.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾، أي: الظن السيئ، وهو أن الله لن ينصر دينه ورسوله ومن معه من المؤمنين، وأنهم سيقتلون، وتُستباد خضراؤهم.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾: البُور، والبَوار: الهلاك والخسار، أي: قومًا هالكين خاسرين، لا خير فيكم.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: ويَنقَدْ لما أمر الله به ورسوله.

﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: فإنا أعددنا وهيأنا وجهزنا للكافرين أمثالِه.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مسعورة متوقدة. وفي هذا تهديد ووعيد له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ولله وحده جميع الذي في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾، أي: يغفر للذي يشاؤه من عباده بفضله عز وجل، وهم الذين آمنوا به واتقوه، فيستر ذنوبهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعذبهم بها.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾، أي: ويعذب الذي يشاؤه من عباده بعدله، وهم الذين كفروا به وعصوه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه، وذا رحمة واسعة لعباده.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾:

قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾، أي: الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية.

﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعنون: مغانم خيبر التي وعد الله بها أهل الحديبية خاصة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، أي: اتركونا نتبعكم ونخرج معكم، أي: لنشارككم المغنم، وفي هذا ما يشعر أن الرسول ﷺ وأصحابه منعوهم من الخروج معهم.

تخلفوا عن الجهاد والقتال، ومبايعة الرسول ﷺ على الثبات وعدم الفرار حتى الموت، ويطمعون في مغنم خيبر، يريدون مغنمًا بلا مغرم!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «كَلِمَ» بكسر اللام من غير ألف، وقرأ الباقون: ﴿كَلَٰمَ﴾ بفتح اللام وألف بعدها.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريدون»، أي: يريدون تبديل كلام الله، وهو وعده أهل الحديبية خاصة بمغانم خيبر.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، أي: لن يقع ذلك؛ لأن الله لم يأذن بذلك لا شرعًا ولا قدرًا، ولن يأذن به، وذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فحيث تخلفوا عن الجهاد والقتال، عوقبوا بحرمانهم من الغنيمة.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: وعد أهل الحديبية مغانم خيبر، وخصهم بها قبل سؤالكم اتباعهم ومشاركتهم المغانم.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، «بل»: للإضراب في الموضعين، أي: بل تحسدوننا أن نشارككم في المغانم، أي: ليس السبب في منعكم لنا من اتباعكم قول الله، بل حسد منكم لنا أن نشارككم في المغانم.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ليس الأمر كما يزعمون أن منعنا إياهم حسدًا لهم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يفهمون إلا قليلًا، ولهذا لم يعرفوا الحكمة في منعهم من المشاركة في المغانم، وأن ذلك بسبب امتناعهم من الجهاد والقتال.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ مستقبلًا ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: أصحاب قوة وشدة في الحرب.

﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ إن لم يسلموا، ولم يدفعوا الجزية، ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ فتتركون قتالهم.

وقد اختلف المفسرون في المراد بهؤلاء القوم على أقوال، ليس على شيء منها دليل ولا برهان، فهم قوم أولو بأس شديد، وكفى.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾، أي: وإن تمتثلوا وتستجيبوا لأمر الله ورسوله، وتنفروا للجهاد مع المؤمنين.

﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو ما وعد به عز وجل المجاهدين في سبيله من الأجر العظيم.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾، أي: وإن تعرضوا بقلوبكم، وتتولوا بأبدانكم عن طاعة الله ورسوله، والجهاد في سبيله.

﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾، أي: كما توليتم وأعرضتم عن ذلك ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي: زمن الحديبية، حيث دُعيتم للجهاد فتخلفتم.

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا، حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا والآخرة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، أي: ليس على هؤلاء الثلاثة إثم ولا ذنب في ترك الجهاد بسبب هذه العلل، وهي: العمى وفقدان البصر، والعرج الذي لا يستطيع صاحبه معه مجابهة الأصحاء، والمرض الذي لا يستطيع صاحبه معه القتال.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بفعل ما أمر الله به ورسوله، والجهاد في سبيل الله.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون، وقرأ

الباقون بالياء: ﴿يُدْخِلْهُ﴾. وفي هذا ترغيب في الجهاد وطاعة الله ورسوله.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون: «نُعَذِّبْهُ»، وقرأ الباقون: ﴿يُعَذِّبْهُ﴾، أي: ومن يتول وينكل عن الجهاد، ويعرض عن طاعة الله تعالى ورسوله، يعذبه الله في الدنيا والآخرة.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلمًا موجعًا، ومنه المذلة في الدنيا، والنار في الآخرة. وفي هذا تحذير من ترك الجهاد، والتولي عن طاعة الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

أي: والله لقد رضي الله عن المؤمنين، أي: أحل رضاه عليهم، وكانوا- كما تقدم- ألفًا وأربع مئة.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾، «إذ»: ظرف في محل نصب، والخطاب للنبي ﷺ، أي: إذ يبايعونك على ألا يفروا ولو هلكوا عن آخرهم.

﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، «تحت»: ظرف في محل نصب، أي: في ظل الشجرة، وهي: سمرة في الحديبية.

فأخبر عز وجل برضاه عنهم، وأقسم على ذلك؛ ولهذا سُمِّيت: «بيعة الرضوان»، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وأذل الرافضة ولعنهم، وأهلكهم وأخزاهم. كما يقال لها أيضًا: بيعة أهل الشجرة؛ لأنها وقعت في ظل شجرة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة في الموضعين، و«ما»: موصولة، أي: فعلم الذي في قلوبهم من قوة الإيمان واليقين، والإخلاص والصدق، والوفاء والسمع والطاعة، والثقة بوعد الله ونصره.

وعلم ما في قلوبهم أيضًا: من الغيظ والقلق والاضطراب بسبب منع المشركين لهم

من دخول البيت، وحبس الهدي، ومنعه من بلوغ محله، واشتراطهم في الصلح تلك الشروط الجائرة الظالمة، التي يصعب تحملها، والصبر عليها، لولا لطف الله بهم، وعونه لهم بإنزاله السكينة عليهم، فشهد عز وجل لهم بالإخلاص له، وبما ألمَّ بقلوبهم بسبب انتهاك حرماته، وصدهم عن الحرم، ومنع الهدي من وصول مَحِلِّه.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فأنزل الطمأنينة والثبات على قلوبهم؛ كما قال في أول السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٤].

﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾، أي: وأعطاهم ثوابًا وجزاءً عاجلًا على يقينهم وثباتهم وصبرهم، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر، فخصهم بها وبمغانمها؛ ولهذا قال:

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، أي: من خيبر وأرضها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر هذا في السورة؛ لتأكيد أنه عز وجل ذو العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة، وأنه لو شاء لانتصر من الكفار، ولكنه أراد ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران:١٤١].

ومما ينبغي أن يُعلَم: أن الحكمة في تكرار ذكر أسماء الله تعالى وصفاته، وبعض الأحكام والأخبار والقصص وغير ذلك: هي ترسيخ وتثبيت المعاني العظيمة المستخلصة من تلك النصوص في القلوب والأذهان، وأهمها عظمة الله وكمال أسمائه وصفاته، وتربية النفوس بذلك؛ لأن القرآن منهج حياة؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خُلُقِه ﷺ، قالت: «كان خُلُقُه القرآن»(١).

الفوائد والأحكام:

١- اعتذار الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج إلى مكة من النبي ﷺ عند رجوعه، بانشغالهم بأموالهم وأهليهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾، وقد جمعوا في هذا بين الكذب، والاعتذار بما ليس بعذر.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١.

٢- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾.

٣- علم الله تعالى الغيب، وما سيكون؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية، وقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الآية.

٤- أن الأعراب سكان البوادي أقرب إلى الجفاء وضعف الإيمان؛ لبعدهم عن العلم وأهله.

٥- لا يجوز الانشغال بالأموال والأهل وغير ذلك عن طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله.

٦- طلب هؤلاء المتخلفين من النبي ﷺ الاستغفار لهم؛ إمعانًا منهم في النفاق؛ لقولهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

٧- فضح الله لهم، وبيانه نفاقهم، وأنهم يقولون بألسنتهم قولًا يخالف ما في قلوبهم، من الكفر والنفاق والكذب؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٨- وجوب الإخلاص لله، والحذر من النفاق ومخالفة الباطن للظاهر.

٩- أنه لا أحد يملك لأحد من الله شيئًا، لا دفع ضر، ولا جلب نفع؛ لأن جلب الضر ودفعه، وجلب النفع ومنعه كل ذلك بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.

١٠- ذم هؤلاء المخلفين وتحقيرهم؛ حيث يظهرون الحسن للناس الذين لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًّا، ويجاهرون الله بالنفاق والكفر والكذب في قلوبهم؛ لأن الله يعلم سرهم ونجواهم؛ ولهذا سماهم الله: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ ولم يقل: «المتخلفون».

١١- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، وهي المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

١٢- علم الله تعالى التام بأعمالهم، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم.

١٣- ظنهم السيئ بأن الله لن ينصر رسوله ودينه، وأن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهليهم أبدًا، بل سيقتلون ويستأصلون، وتزيين ذلك في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

١٤- توبيخهم على هذا الظن السيئ الباطل، وذمهم ونعتهم بالبوار والهلاك والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

١٥- الترغيب بالإيمان بالله ورسوله، وتحذير من لم يؤمن بالله ورسوله، وأنه كافر، ومصيره النار المسعورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

١٦- أن النار موجودة مسعرة الآن، أعدها الله للكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

١٧- سعة ملك الله عز وجل، وأن له وحده جميع الذي في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٨- مغفرته عز وجل لمن يشاء من عباده بفضله، وتعذيبه من يشاء منهم بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

١٩- إثبات صفتي: «المغفرة» و«الرحمة» الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢٠- طلب هؤلاء المخلفين المشاركة في المغانم مع تخلفهم عن الجهاد؛ طمعًا في المغنم دون الغرم؛ لقولهم للمؤمنين: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾.

٢١- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبور على أفعاله وأقواله.

٢٢- وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر، وأنها لهم خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وهو وعده لهم بذلك؛ لقوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

٢٣- أنه لا تبديل لكلمات الله، ولا خُلف لوعده.

٢٤- أمر الله للنبي ﷺ بمنعهم من اتباعهم؛ لأنه عز وجل لن يأذن لهم بذلك، لا قدرًا ولا شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

٢٥- زعمهم أن منع المؤمنين لهم من اتباعهم حسد من المؤمنين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

٢٦- قلة فقههم وفهمهم، وعظم جهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٢٧- إخبارهم بأنهم سيُدْعَوْن مستقبلًا امتحانًا لهم إلى قوم أصحاب قوة وشدة في الحرب، يقاتلونهم إن لم يسلموا، أو يسلمون فلا يقاتلونهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

٢٨- حثهم على طاعة الله والجهاد في سبيله، ووعدهم بالأجر الحسن، وتحذيرهم من التولي والإعراض عن ذلك كما تولوا من قبل، وتهديدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٩- تكفله عز وجل بأجرهم إن هم أطاعوا؛ لتسميته له: «أجرًا».

٣٠- أنه لا حرج ولا إثم على الأعمى والأعرج والمريض في تركهم الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٣١- رفع الحرج عن هذه الأمة بهذه الشريعة المطهرة، وأن المشقة تجلب التيسير.

٣٢- الترغيب بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، بذكر ما أعد الله لمن امتثل ذلك من الجنات، وما فيها من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٣٣- الترهيب من التولي عن طاعة الله ورسوله، وعن الجهاد في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٣٤- إخباره عز وجل برضاه عن المؤمنين حين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة على الثبات وعدم الفرار، وتأكيده عز وجل رضاه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

ورضاه عز وجل من أعظم وأفضل ما أعطاه لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

٣٥- علمه عز وجل ما في قلوبهم من الإيمان واليقين، والإخلاص والصدق، والوفاء، والثقة بنصر الله ووعده، وما فيها من الغيظ والقلق بسبب منع المشركين لهم عن البيت، وحبسهم الهدي، وامتنانه بإنزال السكينة والطمأنينة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

٣٦- إثابته عز وجل ومجازاته إياهم على ذلك بفتح قريب، هو فتح خيبر ومغانمها، وتخصيص ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

٣٧- إثبات صفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٩، ومسلم في الإيمان ١٨٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي كل غنيمة يغنمها المسلمون في حروبهم إلى يوم القيامة؛ لأن الله اختص هذه الأمة لشرف نبيها، وفضلها بالغنائم من

بين الأمم؛ كما قال ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي**»(١).

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ وهي فتح خيبر وغنيمتها.

قال ابن كثير(٢): «فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه، بعضها عَنْوة وبعضها صلحًا، وهي إقليم عظيم، كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم، إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبو موسى الأشعري وأصحابه».

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، أي: منع أيدي الناس من مشركي مكة وغيرهم من أن تمتد لقتالكم أو أذاكم بسبب هذا الفتح المبين، والصلح العظيم المبارك، وهذا تنبيه على نعمة عظيمة غفلوا عنها، وهي نعمة السلم، وامتنان عليهم بها.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولتكون هذه الغنيمة التي عجلها الله للمؤمنين، وهي غنيمة خيبر ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: علامة لهم على صدق وعد الله عز وجل لهم بالمغانم الكثيرة.

وأيضًا: لتكون هذه المنة من الله عليهم بكف أيدي الناس عنهم آية وعلامة لهم على عناية الله بهم، وحفظه ونصره لهم، وأنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لهم، وإن كرهوه في الظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: ويهديكم طريقًا عدلًا قويمًا، يدلكم عليه، ويوفقكم إليه وفيه، بسبب طاعتكم، وانقيادكم لأمر الله ورسوله.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾، أي: ووعدكم غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، ولم تحصل لكم الآن.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٣٧.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَآ﴾، أي: علمها، وقدر عليها، وأعدها لكم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، أي: لا يعجزه شيء.

واختلف المفسرون في المراد بهذه الغنيمة الموعود بها، فمنهم من قال: فتح مكة، ومنهم من قال: فارس والروم، ومنهم من قال: كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وهذا أعم وأشمل.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم. ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لانهزموا وولوكم ظهورهم؛ لإلقائه عز وجل الرعب في قلوبهم، وجبنهم وشدة خوفهم، وتأييده عز وجل ونصره لكم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولاهم ويجلب لهم النفع والخير، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويدفع عنهم الضر والشر؛ لخذلان الله عز وجل لهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾، أي: هذه سنة الله وطريقته وعادته التي قد مضت من قبل بنصرة أوليائه المؤمنين، وهزيمة أعدائه الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أي: فسنته ثابتة لن تتبدل ولن تتغير، بنصرة أوليائه، وهزيمة أعدائه، وإنجاء المؤمنين، وإهلاك المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

سبب النـزول:

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مئة- ثم ذكر دعوة النبي ﷺ للبيعة، ومبايعته أول من بايع.. إلى أن قال: «فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فكسحت

شوكها[١]، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قُتل ابن زُنَيم. قال: فاخترطت سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثًا في يدي[٢]. قال: والذي كرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه. قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات، يقال له: مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّف[٣] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «**دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثِناه**[٤]»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾» [٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾» [٦].

وفي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: أن سبب نزول هذه الآية: قصة أبي جندل، قالا: «خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق».

فذكرا الحديث، إلى أن قالا: «وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي

---

(١) أي: كنست وأزلت شوكها.

(٢) أي: حزمة في يدي.

(٣) أي: عليه تَجْفاف، وهو شيء من سلاح يترك على الفرس يقيه الأذى.

(٤) أي: أوله وآخره.

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة ذي قرد وغيرها ١٨٠٧.

(٦) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ١٨٠٨، وأبو داود في الجهاد، المن على الأسير بغير فداء ٢٦٨٨، والترمذي في التفسير، تفسير سورة الفتح ٣٢٦٤، وأحمد ٣/ ١٢٢.

بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم: لما أرسل: فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت»[1].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، أي: وهو سبحانه الذي كف أيدي المشركين عنكم، أي: منع أيديهم أن تمتد إليكم بقتل أو أذى، والمراد بهم: الذين هبطوا من التنعيم يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، وكانوا ثمانين رجلًا، وقيل: أقل من ذلك.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، أي: وكف أيديكم عنهم، أي: منع أيديكم أن تمتد إليهم بقتل أو أذى؛ حيث أخذهم النبي ﷺ سلمًا فاستحياهم، وعفا عنهم.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، أي: بالحديبية أسفل مكة[2]. و«البطن»: يطلق على أسفل المكان.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: من بعد أن أقدركم عليهم، وأمسكتم بهم.

وفي هذا امتنان على المؤمنين في كف أيدي المشركين عنهم، وكف أيديهم عن المشركين، ومن ثم الصلح بينهم، مما كان فيه الخيرة والعاقبة الحسنة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، أي: بعملكم أو بالذي تعملونه، بصيرًا، أي: عالمًا به مطلعًا عليه، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ

(١) أخرجه البخاري في الشروط في الجهاد ٢٧٣٤، وأحمد ٢/ ٣٢٣- ٣٢٩.

(٢) الحديبية موضع مشهور بين مكة وجدة في طريق جدة القديم، ويعرف اليوم بالشميسي، وهي ليست من الحرم، وتبعد عن حدود الحرم حوالي:١.٥ كم، وتبعد عن الحرم قرابة ٢٥ كم.

لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، «هم» يعني: مشركي قريش، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ بالله وبكل ما أوجب الله الإيمان به، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: ومنعوكم من دخول المسجد الحرام، وأداء مناسك العمرة، بغيًا وعدوانًا، وأنتم أهل الحرم وأحق به.

﴿وَٱلْهَدْىَ﴾، أي: وصدوا الهدي، وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ؛ ليهديها في الحرم.

﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، أي: محبوسًا ممنوعًا، ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾: «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من بلوغ محله، الذي يحل به نحره، وهو الحرم.

﴿وَلَوْلَا﴾، أي: ولولا وجود ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ مستضعفون مستَخْفون بإيمانهم بين أظهر المشركين خوفًا على أنفسهم منهم.

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، أي: لم تعلموا أعيانهم وأماكنهم من بين الكفار، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: خشية أن تطؤوهم، أي: تتعرضوا لهم بقتل أو أذى؛ لعدم تميزهم عن الكفار.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: إثم وذنب وتبعة وغرم بغير علم منكم بذلك، وبغير قصد.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدخل الله في رحمته الذي يشاء منهم، فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، والهدى بعد الضلال.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾، أي: لو تزيل الكفار من المؤمنين، أي: تميزوا، وانفصل بعضهم عن بعض بأعيانهم وأماكنهم.

﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لعذبنا الذين كفروا عذابًا مؤلمًا موجعًا، بتسليطكم عليهم، وقتلهم وإهلاكهم.

فمنع الله العذاب عنهم، وأخَّر عقوبتهم؛ لوجود بعض المؤمنين والمؤمنات بين ظهرانَيْهم، وليدخل عز وجل في رحمته من يشاء منهم، فيمن عليهم بالهداية والإيمان.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾، أي: الأنفة القبيحة السيئة.

﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الباطلة المقيتة، وذلك بصدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام في تلك السنة؛ لئلا يقال: إن محمدًا دخلها هو وأصحابه قهرًا عن قريش، وامتناعهم من كتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ومن كتابة «محمد رسول الله».

كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: فقال النبي ﷺ: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»؛ كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: هذا ما قاضى عليه رسول الله** ﷺ». قال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبدالله**»(١).

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أنزل عليهم السكينة في قلوبهم، وهي الطمأنينة والثبات والأناة والتعقل، ودفع عنهم العجلة والانتقام.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بألسنتهم، وهي قول: لا إله إلا الله، وامتثال ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله بجوارحهم، فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله ورسوله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله، مع ما فيها من غضاضة عليهم.

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾، أي: وكان المؤمنون أحق وأجدر بكلمة التقوى ولزومها، ﴿وَأَهْلَهَا﴾، أي: وكانوا أهلها خاصة دون غيرهم.

---

(١) سبق تخريجه.

فبسبب إنزاله عز وجل سكينته عليهم، وإلزامهم كلمة التقوى، وكونهم أحق بها وأهلها، اهتدوا بها إلى كل خير، وبسبب جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية، صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، ولم يقروا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، ولا بأنه ﷺ رسول الله، فقادتهم إلى كل شر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

ومن واسع علمه عز وجل علمه بأن المؤمنين أحق وأولى وأجدر بكلمة التقوى من غيرهم، وأنهم هم أهلها دون من سواهم.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾:

قال ابن كثير(١): «كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو في المدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك، على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء».

كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: قال عمر: «أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «**بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قلت: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوِّف به**». فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر... أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنت آتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه وتطوف به» (٢).

قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: صدق الله رسوله الرؤيا التي أراه إياها في المنام من دخوله

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٣٧.

(٢) سبق تخريجه.

البيت والطواف به، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالحق الثابت الواقع، أي: لا بد من وقوعها وصدقها.

﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونكم آمنين في حال دخولكم.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، أي: حال كون بعضكم محلقين رؤوسهم، وبعضكم مقصرين لها، وقدَّم التحليق؛ لأنه أفضل وأولى من التقصير.

قال ﷺ: «**اللهم اغفر للمحلقين**». قالوا: وللمقصرين. قال: «**اللهم اغفر للمحلقين**». قالوا: وللمقصرين. قال: «**اللهم اغفر للمحلقين**». قالوا: وللمقصرين. قال: «**وللمقصرين**»(١).

وفي ذكر التحليق والتقصير فقط دون بقية مناسك العمرة إشارة إلى تمكنهم من إتمام عمرتهم؛ لأن الحلق أو التقصير آخر أعمال العمرة.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير «مقصرين»، وهي مؤكدة في المعنى للحال «آمنين».

فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال أدائهم عمرتهم، وإتمامهم لها، وحال مكثهم في الحرم، وكان هذا في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أقام بها ثلاثًا أمروه أن يخرج، فخرج»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، الحلق والتقصير ١٧٢٨، ومسلم في الحج، تفضيل الحلق على التقصير، وجواز التقصير ١٣٠٢، وابن ماجه في المناسك ٣٠٤٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح ٢٧٠١.

قال ابن كثير[١]: «فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون، فلما كان قريبًا من مر الظهران، بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رُعبوا رعبًا شديدًا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه نكث العهد الذي بينه وبينهم، من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم[٢]، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج[٣]، وسار بالسيوف مغمدة في قُرُبها؛ كما شارطهم عليه، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «**وما ذاك؟**» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «**لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج**». فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفر من مكة؛ لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه غيظًا وحنقًا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى[٤]، وهو راكب ناقته القصواء، التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبدالله بن رواحة آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها».

﴿فَعَلِمَ﴾، أي: فعلم الله ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، «ما»: موصولة، أي: ما لم تعلموه من الحكمة والخيرة والمصلحة والمنافع العظيمة.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: من دون ذلك الدخول، أي: قبل دخولكم الذي وعدكم الله به فيما أراه لنبيه ﷺ.

﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو: صلح الحديبية الذي كان بينكم وبين أعدائكم المشركين، ومن ثم فتح خيبر.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٣٧- ٣٣٨.

(٢) علامات حدود الحرم.

(٣) يأجج على ثمانية أميال من مكة.

(٤) موضع عند مكة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾، أي: بالبيان والعلم النافع.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو العمل الصالح، فمن وفق للأخذ بهذين الأمرين فهو الموفق حقًّا؛ لأنهما رأس مال المؤمن في هذه الحياة.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ اللام: للتعليل، أي: ليعلي ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق على الأديان كلها.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق رسالته ﷺ، وأنه جاء بالهدى ودين الحق.

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾:

هذه الآية مع قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [الآية:١٥٤]، هما أجمع آيتين لحروف الهجاء.

قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أي: أعزة أقوياء على الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ [التوبة:١٢٣].

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾، أي: متراحمون فيما بينهم، متحابون متعاطفون.

كما قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة، تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» وشبك بين أصابعه(١).

﴿تَرَىٰهُمْ﴾ الخطاب لغير معين، أي: تشاهدهم.

﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أي: حال كونهم ركعًا سجدًا، أي: تراهم في أكثر الأحوال يصلون ويتعبدون.

وذكر حالة الركوع والسجود؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة؛ ففي الركوع تعظيم الرب، وفي السجود القرب منه.

وذكَرَ الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وسبب للقيام بما دونها من العبادات.

﴿يَبْتَغُونَ﴾، أي: مخلصون لله، يطلبون ويريدون في شدتهم على الكافرين، ورحمتهم فيما بينهم، وكثرة صلاتهم وعبادتهم.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: ثوابًا من الله وأجرًا في الدنيا بالحياة الطيبة وسعة الرزق، وفي الآخرة الجنة ونعيمها.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾، أي: ورضاه عز وجل، وهو أكبر من الأول؛ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

فغايتهم ومقصودهم: بلوغ رضا ربهم وفضله وثوابه.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾، أي: علاماتهم ظاهرة في وجوههم حُسنًا وضياءً.

﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ على جباههم، والخشوع والخضوع لربهم.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، أي: ذلك المذكور وصفهم الذي وصفهم الله به في التوراة، فوُصفوا بهذا الوصف في القرآن؛ كما وُصفوا به قبل ذلك في التوراة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، أي: ووصفهم الذي وصفوا به في الإنجيل.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء: «شَطَأَهُ»، وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾، أي: كمثل زرع أخرج فراخه وفروعه.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم، نصر المظلوم ٢٤٤٦، ومسلم في الباب السابق ٢٥٨٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾، أي: فشده وقواه، ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾، أي: غلظ وقوي، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، أي: اعتدل واستقام على سيقانه وأصوله.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من كثرة فراخه، وشدته وقوته واستوائه، واكتماله وحسنه وجودته.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ اللام: للتعليل، أي: جعل الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ بهذه المثابة والأوصاف العظيمة كالشطء مع الزرع؛ آمنوا به، وعزروه، وآزروه، ونصروه، ووقروه، وعظموه؛ ليغتاظ بهم الكفار حين يرون اجتماعهم وشدتهم وقوتهم على أعدائهم الكفار، وتراحمهم فيما بينهم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾، «من»: لبيان الجنس؛ لأنهم كلهم مؤمنون.

﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لذنوبهم، بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾، أي: وثوابًا جزيلًا، ورزقًا كريمًا واسعًا، لا يناله أحد سواهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى وبشارته للمؤمنين بما أعد لهم من المغانم، وامتنانه عليهم بتعجيل غنيمة خيبر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾.

٢- فضل الله تعالى على هذه الأمة بإحلال الغنائم لهم خاصة من بين سائر الأمم.

٣- امتنانه عز وجل على المؤمنين بكف أيدي المشركين والكفار عن قتالهم وأذاهم بهذا الفتح المبين، والصلح العظيم، وبنعمة السلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾.

٤- أن في تعجيل غنيمة خيبر للمؤمنين علامةً على صدق وعده عز وجل لهم

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٢٥٤٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالمغانم الكثيرة، وفي كفه أيديَ المشركين عنهم علامة على عنايته تعالى بهم، وحفظه ونصره لهم، وعلى علمه بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لهم وإن كرهوه في الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- أن الله عز وجل أراد بهذا الفتح والصلح العظيم: هداية المؤمنين صراطه المستقيم؛ وتوفيقهم بسبب طاعتهم وانقيادهم لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

٦- وعد الله تعالى لهم بغنيمة أخرى بعد خيبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾.

٧- تشجيع المؤمنين على الجهاد في سبيله؛ بوعده عز وجل وبشارته لهم بما لهم من المغانم الكثيرة، وأنه لا بأس أن يستبشر المؤمنون بها ما دام أن قتالهم خالص لله تعالى، لإعلاء كلمته.

٨- علمه عز وجل التام بالغيب، وتقديره كل شيء عنده؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، أي: علمها وقدرها وكتبها لكم.

٩- قدرته تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

١٠- تقوية قلوب المؤمنين على القتال ببيان جبن الكفار، وأنهم لا يصمدون أمامهم، بل يولون الأدبار، وليس لهم ولي ولا نصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

١١- أن العامل المعنوي بتقوية قلوب المقاتلين، ببيان ضعف عدوهم ونحو ذلك، من أعظم أسباب إقدامهم ونصرهم.

١٢- أن من لم يتوله الله وينصره، فليس له من دون الله ولي ولا نصير.

١٣- أن سنة الله تعالى وطريقته في نصر أوليائه وهزيمة أعدائه ثابتة لا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

١٤- امتنانه عز وجل على المؤمنين بكفه أيديَ المشركين الذين أرادوا غرتهم في

الحديبية، وتمكينه ﷺ من أخذهم سلمًا وعفوه عنهم، فكف أيدي كل من الفريقين عن الآخر؛ ليتم ما أراد الله من أمر الصلح والفتح المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

١٥- علم الله الواسع، واطلاعه التام على أعمال العباد، ومحاسبته ومجازاته إياهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

١٦- أن الله عز وجل أخَّر تعذيب الكافرين وقتلهم على أيدي المؤمنين لحكمتين عظيمتين؛ الأولى: وجود رجال ونساء بين ظهرانَيْهم، يُخفون إيمانهم، لم يعلمهم المؤمنون؛ خشية أن ينالوهم بقتل أو أذى، فيكون بذلك معرة على المؤمنين.

والحكمة الثانية: أن الله أخَّر عقوبتهم؛ ليدخل في رحمته من يشاء منهم، فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٧- حرمة قتل الأنفس المعصومة بالإيمان، أو غير ذلك، وأن قتلها بغير حق معرة وإثم وذنب وغرم، ووجوب التحرز في القتال من قتل الأنفس المعصومة التي لا تقاتل، وهي نفس المؤمن والمعاهد والذمي والمستأمن.

١٨- الوعيد والتهديد للكافرين، باستحقاقهم العذاب الأليم.

١٩- فضل الله تعالى، وسعة رحمته، وعظيم عفوه؛ حيث أخَّر عقوبة الكافرين؛ ليتوب على من شاء منهم.

٢٠- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢١- أنفة المشركين والكفار المقيتة، وحميتهم حمية الجاهلية الباطلة، في صدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام وهم أهله، وامتناعهم من كتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ومن كتابة: «محمد رسول الله»؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٢٢- منة الله تعالى على المؤمنين في تثبيت قلوبهم، وإنزال الطمأنينة عليهم، وإلزامهم كلمة التقوى، وطاعة الله ورسوله، والانقياد لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

٢٣- أن الرسول ﷺ والمؤمنين أحق وأجدر بكلمة التقوى، وطاعة الله عز وجل، وهم أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾.

٢٤- إثبات علم الله تعالى الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

٢٥- تحقيق الله تعالى وعده لرسوله ﷺ الرؤيا التي أراه إياها في دخوله وأصحابه المسجد الحرام، وإتمامهم مناسك العمرة آمنين غير خائفين؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ﴾.

٢٦- أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حق وصدق؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «رؤيا الأنبياء وحي»(١).

٢٧- مشروعية الحلق أو التقصير للمعتمر، وأنهما من أحكام العمرة.

٢٨- أهمية نعمة الأمن؛ لأن بها يستطيع الناس القيام بأمور دينهم ودنياهم؛ ولهذا امتن الله به على الناس بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش:٣، ٤].

٢٩- حكمة الله تعالى التامة، وعلمه- بعلمه الواسع- ما لم يعلمه المؤمنون من المصالح والمنافع، بجعله من قبل دخولهم المسجد الحرام وأدائهم العمرة فتحًا قريبًا، وهو صلح الحديبية وفتح خيبر؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

٣٠- أن على المؤمن أن يعلم ويتيقن أن الخيرة فيما يختاره الله له، فيطمئن ويُسَلِّم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٢١.

لأمر الله، ويرضى به، ولو لم يعلم وجه الحكمة فيه.

٣١- إثبات تمام قدرته عز وجل، وعظيم نعمته بإرساله رسوله بالهدى ودين الحق، أي: بالبيان والعلم النافع والعمل الصالح؛ ليظهره على الأديان كلها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

٣٢- أن دين الإسلام هو أعلى الأديان وأكملها وأتمها؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

٣٣- كفى به عز وجل شهيدًا على صدق رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به من الهدى والدين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٣٤- ثناء الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ والذين آمنوا معه بقوتهم في الحق، وشدتهم على الكفار، وغلظتهم عليهم، وتراحمهم وتعاطفهم فيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٥- مداومتهم على الصلاة والعبادة، وإخلاصهم لله تعالى؛ طلبًا لفضله تعالى ومرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

٣٦- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾.

٣٧- ظهور آثار وعلامات السجود والعبادة والخضوع والخشوع نورًا وضياءً وحسنًا في وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٣٨- أن ما وصفهم الله به في هذه الآيات هو مَثَلهم في التوراة، أعظم كتب الله بعد القرآن؛ حيث وصفهم الله فيها وامتدحهم بهذا الوصف العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

٣٩- أن الله مدحهم ووصفهم في الإنجيل، فشبههم بتعاضدهم وتعاونهم، وشدتهم وغلظتهم على الكفار، واكتمال قوتهم بزرع أخرج فراخه، فاشتد وقوي بها، وغلظ واستوى على أصوله وسيقانه، يعجب الزراع بكثرة فراخه وشدته وقوته وغلظته، واستوائه واستقامته على سيقانه وأصوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

٤٠- إثبات أن من كُتب الله عز وجل: «التوراة»، و«الإنجيل».

٤١- أن الله عز وجل جعل الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بهذه المثابة، ووصفهم بهذين المثلين والوصفين العظيمين؛ لإغاظة الكفار بهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

ومن هذا يؤخذ: كفر الرافضة الذين يبغضون الصحابة ويغتاظون منهم، ويسبونهم ويكفرون. قطع الله دابرهم، وأراح الإسلام والمسلمين من شرهم.

٤٢- وعده عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واسعة منه، وأجرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، وفي هذا ترغيب بالاقتداء بهم.

٤٣- لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٤٤- تكفله عز وجل بثوابهم؛ لأنه سماه: أجرًا مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

٤٥- جمعه لهم بين زوال المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالأجر العظيم، وبهذا تمام النعيم.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْحُجُرَاتِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الحجرات»؛ لذكر الحجرات فيها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- نهي المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وأَمْرهم بتقوى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾.

٢- نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض توقيرًا واحترامًا له ﷺ، والثناء على الذين يغضون أصواتهم عنده ﷺ، وتسفيه عقول الذين ينادونه من وراء الحجرات، وبيان أنهم لو صبروا لكان خيرًا لهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

٣- بيان وجوب تبين خبر الفاسق والتثبت في صحة الأخبار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

٤- بيان فضل الله على المؤمنين بوجود الرسول فيهم وما جاء به من الحنيفية السمحة، ورفع الحرج عنهم، وتحبيب الإيمان إليهم وتزيينه في قلوبهم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليهم: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

٥- بيان وجوب الإصلاح بين طوائف المسلمين، ومقاتلة الفئة الباغية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٦- نهى المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن

قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

٧- أمر المؤمنين باجتناب كثير من الظن؛ لأن بعض الظن إثم، ونهيهم عن التجسس والغيبة والتنفير منها وأمرهم بتقوى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

٨- إخبار الناس أنه- عز وجل- خلقهم من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبًا ليتعارفوا، لا ليتفاخروا، وبيان أن أكرمهم على الله أتقاهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

٩- ذكر دعوى الأعراب الإيمان ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، والرد عليهم: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، إذ أن المنادى في الأصل مفعول به، فمعنى (يا فلان): أدعوك، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح صفة لـ «أي» أو بدل، و«آمنوا» صلة الموصول.

والحكمة من نداء المؤمنين بوصف الإيمان: الحث والإغراء على الاتصاف بهذا الوصف، وتكريم المؤمنين وتشريفهم بهذا الوصف- كما يقال للجواد: يا جواد، وللشجاع: يا شجاع. وبيان أن امتثال ما بعده إن كان أمرًا، والانتهاء عنه إن كان نهيًا، وتصديقه إن كان خبرًا كل ذلك من مقتضيات الإيمان، وأن عدم ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه» (١).

والقرآن كله دائر بين أمر ونهي، أو خبر مقتضاه الأمر والنهي كأخبار السابقين وأخبار القيامة فمقتضى ذلك سلوك طريق الأنبياء وأتباعهم، وما فيه النجاة من أهوال يوم القيامة، وهذا معناه الأمر، كما أن من مقتضى هذه الأخبار التحذير من سلوك طرق المكذبين وأعداء الرسل، وما فيه الهلاك في الدنيا والآخرة، وهذا معناه النهي.

والإيمان في اللغة: التصديق، كما قال تعالى ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١] وقال إخوة يوسف لأبيهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [يوسف:١٧] أي : وما أنت بمصدق لنا.

والإيمان في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

بهذا قال أكثر الأئمة، بل حكى الإجماع عليه عدد من الأئمة منهم الشافعي وأحمد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ٣/ ٩٠٢- الأثر ٩٠٢٧.

وأبوعبيد- رحمهم الله- : فالإيمان: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(١).

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ يعقوب: (لا تَقَدَّموا) بفتح التاء والقاف والدال، وقرأ الباقون: (لا تُقَدِّموا) بضم التاء وكسر الدال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»(٢).

أي: لا تتعجلوا ولا تتسرعوا في الأشياء لا بقول ولا بفعل قبل أن يقول الله ورسوله، فلا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يحكم، ولا تفعلوا حتى يفعل رسول الله، ولا تقطعوا أمرًا حتى يحكم الله فيه ورسوله.

كما قال ﷺ: «لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين»(٣) .

وقال ﷺ: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ»(٤).

قال ابن القيم(٥): «والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل».

وفي حديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ قال له: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي: فضرب في صدره. وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»(٦).

فأخّر معاذ رضي الله عنه اجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة.

---

(١) انظر (تفسير ابن كثير) ١/ ٦٢-٦٣.

(٢) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ١١٦.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم- لا يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين ١٩١٤، ومسلم في الصيام- لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ١٠٨٢، وأبو داود في الصوم ٢٣٣٥، والنسائي في الصيام ٢١٧٢، والترمذي في الصوم ٦٨٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٥٠- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم- إذا رأيتم الهلال فصوموا- معلقاً، وأخرجه موصولاً أبو داود في الصوم ٢٣٣٤، والنسائي في الصيام ٢١٨٨، والترمذي في الصوم ٦٨٦- من حديث عمار بن ياسر- رضي الله عنه.

(٥) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٧٨.

(٦) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧.

وقال ﷺ: «إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال: رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا: فقال رسول الله ﷺ:«لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرما رجل سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته»(٢).

فكل من خالف أمر الله ورسوله ﷺ من أهل الكفر والنفاق، وكذا أهل البدع والمعاصي فهو ممن تقدم بين يدي الله ورسوله وكل منهم بحسب عظم مخالفته، قد يخرج بذلك من الملة، وقد لا يخرج.

وقد عطف قوله (ورسوله) على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن هذا من باب التشريع والطاعة، فطاعة الرسول ﷺ طاعة لله- عز وجل -، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] .

بخلاف باب المشيئة فلا يجوز العطف فيه بالواو في هذا المقام؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ ومشيئة جميع الخلق تابعة لمشيئة الله- عز وجل- ولهذا قال ﷺ للرجل الذي قال له: ما شاء وشئت: «أجعلتني لله نداً ما شاء الله وحده»(٣)

ويؤخذ من الآية تحريم اتباع الأهواء وآراء الرجال والقوانين الوضعية ووجوب اتباع الكتاب والسنة، والرد على جميع طوائف الضلال.

قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ١، ٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة- لزوم السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم- ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب =

كما يؤخذ من الآية مشروعية الأدب مع الوالد والعالم والأمير والكبير وغيرهم من ذوي المكانة، وعدم التقدم بين يديهم، وفي الحديث: «كبر كبر»(١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون.

أي: ذو السمع الذي يسمع الدعاء ويجيبه ويسمع جميع الأقوال والأصوات ما خفي منها وما ظهر، كما قالت عائشة- رضي الله عنها-: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾»(٢).

وإثبات السمع لله عز وجل يتضمن وعداً ووعيداً، وعداً لمن أحسن كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ففي هذه الآية وعد بالحفظ، وكما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] ففي هذه الآية وعد بالإجابة، أي: يسمع الدعاء ويجيبه. ومثل هذا قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»(٣) أي: سمع واستجاب. ويتضمن وعيداً لمن أساء كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، والعلم أشمل وأعم من السمع، لأن السمع يتعلق بالمسموعات، أما

=

البدع ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة- اتباع سنة الخلفاء الراشدين ٤٢- من حديث العرباض بن سارية- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(١) قاله ﷺ لمحيصة بن سهل لما ذهب يتكلم قبل أخيه حويّصة وكان حويصة أكبر منه، أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٢، ومسلم في القسامة ١٦٦٩، وأبو داود في الديات ٤٥٢٠، والنسائي في القسامة ٤٧١٤، والترمذي في الديات ١٤٢٢، وابن ماجه في الديات ٢٦٧٧- من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٦٨٩، ومسلم في الصلاة ٤١١، وأبو داود في الصلاة ٦٠١، والنسائي في الإمامة ٧٩٤، والترمذي في الصلاة ٣٦١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٧٦- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

العلم فيتعلق بكل شيء؛ لأن الله عز وجل أحاط بكل شيء علماً ومن ذلك أيضاً المسموعات فهو يعلمها. قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء، كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. ولهذا لما سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فلا يعتري علمه- عز وجل- جهل سابق، ولا نسيان لاحق. وفي إثبات سعة علمه- عز وجل- وعد لمن أطاع الله ورسوله واتقى، ووعيد لمن خالف وعصى.

والعلم: إدراك الأشياء على ما هي عليه، إدراكًا جازمًا.

والناس في ذلك أقسام ثلاثة: عالم، وجاهل جهلاً بسيطًا، وجاهل جهلاً مركبًا، فمثلاً من قال: عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، فهذا عالم- يعني بالنسبة لهذه المسألة فهذا يدري ويدري أنه يدري.

ومن قال: لا أدري، فهذا جاهل جهلاً بسيطًا، لا يدري، ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: بل عددها مائة وعشرون سورة، فهذا جاهل جهلاً مركبًا، لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وما أكثر هذا الصنف

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣- الترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٤- أن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٥- تحريم مخالفة أمر الله ورسوله بقول أو بفعل، ووجوب طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٦- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله بالواو التي تقتضي

التشريك في باب الطاعة، بخلاف باب المشيئة.

٧- وجوب تقوى الله - بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٨- إثبات أنه- عز وجل- ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء وفي ذلك وعد لمن لم يتقدم بين يدي الله ورسوله واتقى الله، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٩- في اقتران وصفه عز وجل بكمال السمع، وكمال العلم، كمال إلى كمال.

١٠- في تقديم السمع على العلم إشارة إلى أن السمع هو أحد وسائل العلم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.

سبب النزول:

عن عبد الله بن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره: «أنه قدم على النبي ﷺ ركب من بنى تميم، فقال أبو بكر: يا رسول الله أمِّر عليهم الأقرع بن حابس، وقال عمر: أمِّر عليهم القعقاع بن معبد، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، وارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ، فأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾».

قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية- حتى يستفهمه»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: لا تجعلوا أصواتكم عند مخاطبتكم للنبي ﷺ وفي مجلسه أعلى وأجهر من صوت النبي ﷺ، بل لتكن أصواتكم أغض من صوته ﷺ.

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ كقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور:٦٣]، أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبته وخاطبوه بسكينة ووقار؛ تعظيمًا وتوقيرًا واحترامًا له ﷺ.

وهكذا يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ؛ لأنه محترم حيًا وميتًا صلوات الله وسلامه عليه، كما يكره رفع الصوت في مسجده ﷺ، وفي سائر المساجد.

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أي: إنما نهيناكم عن رفع أصواتكم فوق صوت النبي، وعن الجهر له بالقول، كما يجهر بعضكم لبعض لئلا تحبط أعمالكم أو خشية أن تحبط أعمالكم، أي: يبطل ثوابها فحبوط العمل معناه: بطلان ثوابه، كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٥، وفي الاعتصام ٦٨٧٢، النسائي في آداب القضاة ٥٣٨٦٥، والترمذي في التفسير ٣٢٦٦.

عز وجل ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] أي: بطل.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون بذلك، ولا تعلمون عظم الذنب في رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وفي الجهر له بالقول، وأنه يحبط العمل.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»(١).

وهكذا ينبغي عدم رفع الصوت، وعدم الجهر بالقول مع الوالد والعالم والكبير والأمير ونحوهم من ذوي المكانة في الأمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ بعد ما نهى الله عز وجل المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ وعن الجهر له بالقول؛ أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، ترغيبًا في ذلك وندباً إليه وحثًا عليه.

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله تعظيماً له وتوقيراً واحتراماً وتقديراً.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها وجعلها محلاً للتقوى، فغضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وبخاصة بعد نزول هذه الآية، منهم أبو بكر وعمر وثابت بن قيس رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين المتقين بعدهم.

رُويَ أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- حفظ اللسان ٦٤٧٨.

(٢) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٦ من حديث حصين بن عُمر، عن مخارق عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال ابن كثير: «حصين بن عمر- هذا ضعيف- لكن رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ - فأخبره أنه قال: كذا وكذا، فقال: اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»(١).

وفي رواية: «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعَوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل»(٢).

وفي رواية فقال له النبي ﷺ : «أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ»(٣).

ولهذا يشهد لثابت بن قيس- رضي الله عنه بالجنة لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

قال مجاهد: «كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾».(٤)

والتكاليف الشرعية كلها امتحان واختبار للقلوب قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك:٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٥٤].

قوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة قال ﷺ: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه- عز وجل-

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٣، وفي تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٦، ومسلم في الإيمان ١١٩، وأحمد ٣/ ١٣٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٥.

(٢) جاءت هذه الزيادة عند أحمد، وبعضها عند مسلم.

(٣) جاءت هذه الزيادة عند الطبري.

(٤) أخرجه أحمد في كتاب الزهد- فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٨.

حتى يضع عليه كنفه[١] فيقرره بذنوبه، فيقول:أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟، فيقول: أي رب، فيقول الله عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم[٢]».

ومنه سمي «المغفر» وهو: البيضة، التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: وثواب عظيم، وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية والتطهير قبل التحلية والتزيين، وسمي ثوابهم أجرًا لأن الله- عز وجل- تكفل به وأوجبه على نفسه، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، مع أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه.

وإنما أوجب ذلك على نفسه، تفضلاً منه وكرمًا، كما قال عز وجل :﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله (عظيم) أي: عظيم في كيفيته، وفي كميته، وفي غير ذلك، وإذا كان العظيم سبحانه وصف هذا الأجر بأنه عظيم، فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل :﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة :١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾».[٣]

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾.

---

(١) أي: ستره ورحمته: انظر (النهاية) مادة (كنف).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

٣- نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجهر له بالقول، ووجوب غض الصوت عنده، والتأدب معه ﷺ واحترامه في حياته وبعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

٤- جواز رفع الناس أصواتهم فيما بينهم وجهر بعضهم لبعض مالم يكن في ذلك أذى، أو ما يستنكر قال لقمان لابنه فيما ذكر الله عنه ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

٥- أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول سبب لحبوط العمل وبطلانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

٦- أن عمل الإنسان قد يحبط من حيث لا يشعر مما يوجب الحذر من محبطات الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

٧- ينبغي عدم رفع الصوت والجهر بالقول مع ذوي المكانة في الأمة كالوالد والعالم والكبير والأمير، ونحوهم.

٨- تكريم الله- عز وجل- وتشريفه لنبيه ﷺ ودفاعه عنه.

٩- ثناء الله- عز وجل- على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بأن الله أخلص قلوبهم للتقوى وفي مقدمتهم الصحابة- رضوان الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

١٠- عظم ما أعد الله لمن يغضون أصواتهم عنده ﷺ وخلصت قلوبهم للتقوى من المغفرة الواسعة، والأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

١١- أن التخلية تكون قبل التحلية.

١٢- تأكيد تكفله- عز وجل- بهذا الجزاء، لهذا سماه أجراً، وأوجبه على نفسه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

لما نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، أتبع ذلك بذم الذين ينادونه من وراء الحجرات؛ لما في ذلك من رفع الصوت عنده، وعدم مراعاة ظروفه وأحواله.

سبب النـزول:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أنه نادى رسول الله ﷺ - فقال: يا محمد، يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال النبي ﷺ: «ذاك هو الله».(١)

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين قال النبي ﷺ: «ذاك هو الله عز وجل»(٢).

وعن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب، فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكًا نعش بجناحه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا. فجاؤوا إلى حجرته، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ - بأذني فمدها فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد»(٣).

قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ قرأ أبو جعفر «الحجَرات» بفتح الجيم، وقرأ الباقون بضمها، أي: إن الذين ينادونك ويدعونك من خلف حجرات أزواجك

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٨، ٦/ ٣٩٣- ٣٩٤.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٦٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧ وقال الترمذي (حديث حسن غريب).

(٣) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٢- الأثر ١٨٦٠٧، وذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٩.

بقولهم: يا محمد، يا محمد، أي: اخرج إلينا.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثرهم لم ينتفعوا بعقولهم، وذلك بأن تحملهم وتدلهم على الأدب مع رسول الله ﷺ، الذي يجب عليهم احترامه وتوقيره والتأدب معه ﷺ، لما له من المكانة العظيمة عند الله.

ولما لم ينتفعوا بعقولهم نفى عنهم العقل، فكأنهم لا عقول لهم، مع أنهم عندهم العقل الذي هو مناط التكليف قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ والصغير حتى يبلغ والمجنون حتى يفيق»(١).

فالمجنون والمغمى عليه لا تكليف عليهم؛ لأن الله إذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب.

فالعقل المنفي عن أكثرهم في الآية هو العقل الذي هو مناط المدح والذم كما قال عز وجل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فالعقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، ففاقده لا يكلف، وهو المثبت للكفار والعصاة وغيرهم، ولولاه ما كلفوا.

وعقل هو مناط المدح والذم، وهو الذي يثبته الله عز وجل للمؤمنين كما في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨] لأنهم انتفعوا بعقولهم، فعرفوا بها الحق واتبعوه، ففازوا الفوز العظيم.

وينفيه عن الكافرين والمجرمين، لأنهم لم ينتفعوا بعقولهم فيما يقربهم إلى الله عز وجل ففاتهم النصيب الأوفر، وخسروا الخسران المبين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الواو: عاطفة و«لو»: حرف امتناع لامتناع وهي شرطية غير جازمة.

أي: ولو أن هؤلاء الذين أخذوا ينادونك من وراء الحجرات.

﴿صَبَرُوا﴾ فلم ينادوك ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ ولم يؤذوك بهذا النداء، أو يلجئوك

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

للخروج في وقت أوحال غير مناسب ويشقوا عليك.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان صبرهم وعدم ندائهم لك من وراء الحجرات خيرًا لهم، لأدبهم مع رسول الله ﷺ في عدم رفع الصوت عنده، ومراعاة ظروفه وأحواله وتقدير مكانته القيادية في الأمة، فيكونوا بهذا ممّن امتحن الله قلوبهم للتقوى، وأعد لهم المغفرة والأجر العظيم.

وأيضًا يكون خيرًا لهم بأن يخرج إليهم ﷺ وقت خروجه المناسب فيجيبهم على ما عنه يسألون، ويعطيهم ما يطلبون، وبهذا يحصلون على خيري الدنيا والآخرة.

وهكذا ينبغي للأمة أن تقدر لأهل المكانة، وذوي المسؤوليات الكبيرة فيها ظروفهم وأحوالهم من العلماء والملوك والرؤساء والأمراء والوزراء ونحوهم.

فإن بعض الناس قد ينغص على بعض المسؤولين حياتهم، ويضايقهم في مراجعتهم في بيوتهم، وربما في أوقات نومهم وراحتهم، أو في وقت لا يحبون مقابلة أحد فيه ونحو ذلك.

وعلى ذوي المسؤوليات في الأمة في المقابل أن يخصصوا من وقت دوامهم وعملهم اليومي وقتًا لمقابلة الناس، وقضاء حوائجهم، والإجابة على أسئلتهم، ومعرفة متطلباتهم، واستماع شكاواهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب التائبين من عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج :٦٥]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقدم «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية، وقرن بينهما؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

الفوائد والأحكام:

١- ذم الذين ينادون الرسول ﷺ من وراء الحجرات بنفي العقل عنهم، وأن الخير كل الخير لهم لو صبروا حتى يخرج إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٢- وجوب التأدب مع الرسول ﷺ ومراعاة ظروفه وأحواله، وعدم الجهر في مناداته، وتحاشي أذيته.

٣- عناية الله تعالى برسوله ﷺ ودفاعه عنه.

٤- أن من لم ينتفع بعقله كمن لا عقل له.

٥- ينبغي للأمة تقدير ظروف ذوي المسؤوليات الكبيرة فيها، وعدم التضييق عليهم في بيوتهم.

٦- فضيلة الصبر، وأن عقباه خير.

٧- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨- الإشارة إلى أن التخلية قبل التحلية بتقديم المغفرة على الرحمة، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

٩- في اقتران صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين في حقه عز وجل، كمال إلى كمال، وبفوز العبد بهما كمال النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾.

سبب النـزول:

عن الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنه قال: «قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته. ويرسل إليَّ رسول الله ﷺ رسولاً لإبّان كذا وكذا، ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ - أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سَخْطةٌ من الله عز وجل ورسوله، فدعا بسروات قومه [1] فقال لهم: إن رسول الله- ﷺ - وقت لي وقتًا يرسل إليَّ رسوله ؛ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ- الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ. وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ، أي: خاف- فرجع فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي.

فضرب[2] رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا

---

(١) أي: أشرافهم.

(٢) أي: بعث.

حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ- خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله ﷺ. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله عز وجل، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فتعرضت للفساد.

ويطلق الفسق على الكفر، وعلى ما دونه من المعاصي، والمراد بالفاسق هنا مرتكب المعاصي دون الكفر.

﴿بِنَبَإٖ﴾ النبأ: هو الخبر الهام، الذي له شأن قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ:١، ٢].

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف «فتثبتوا» من التثبت، وقرأ الباقون: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ من التبين. ومعنى القراءتين واحد أي: فتبينوا وتثبتوا وتأكدوا.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله. أي: خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة، أي: أن تقعوا فيهم، بأذيتهم بقول أو بفعل بجهل منكم وعدم علم، وإنما بناءً على أخبار كاذبة وشائعات باطلة، مع براءتهم مما نسب إليهم.

﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾ الإصباح في الأصل الدخول في الصباح، وليس مرادًا هنا، وإنما المراد ما هو أعم من ذلك، أي: فتصيروا.

﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فتصبحوا على الذي فعلتم، أو على فعلكم (نادمين) أي: متأسفين متحسرين على ما مضى من فعلكم، ممّا لا يمكن رده، وليس هو في محله بل هو خطأ وظلم وعدوان، فتندموا ولات حين مندم،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٩، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٣- الأثر ١٨٦٠٨، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥١ وأخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٨ مختصرًا- بمعناه- من حديث أم سلمة وابن عباس رضي الله عنهما.

فإذا وقع الفأس بالرأس- كما يقال- لا ينفع الندم، وإذا فات الفوت، ما ينفع الصوت.

ولله ما أعظم هذه التوجيهات الربانية التي بها سعادة المرء في دنياه وأخراه، والتي تحفظه بإذن الله عز وجل من أسباب الشقاء في الدنيا والآخرة، فإن الظلم والتعدي سبب للشقاء والندم والحسرة والأسى في الدنيا والآخرة.

ويؤخذ من الآية وجوب التثبت في قبول خبر الفاسق، فلا نقبله مطلقاً، ولا نرده مطلقاً، بل نتثبت فيه فإن دل قرينة على صدقه قبلناه، وإن دل قرينة على كذبه رددناه. وإلا توقفنا فيه.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون في رواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يردُّ خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله».

وإذا وجب التثبت في خبر الفاسق في عهد الرسالة فيجب التثبت والتأكد في قبول خبره في هذا العصر من باب أولى، والذي تعددت وتنوعت فيه وسائل النشر والإعلان مرئية ومسموعة ومقروءة وتسابق الكثيرون ممن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم إلى تلفيق الأخبار ونشر الإشاعات في هذه الوسائل وبخاصة في شبكة المعلومات الإنترنت، ورسائل الجوالات، والقنوات الفضائية التي يمول أكثرها اليهود، والرافضة أخزاهم الله، وخصصت لحرب الإسلام وضرب المسلمين بعضهم ببعض.

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٠.

وكل هذا يوجب علينا تمحيص الأخبار والتثبت فيها والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها، وبخاصة ما ينشر في هذه الوسائل المشبوهة والتي استغلها كثير من ضعاف الإيمان وضعاف النفوس، حتى ممن يحسبون على الإسلام ويالأسف، بل ممّن يزعمون ويدعون تبني قضايا الأمة والدفاع عنها، وهم أعظم بلية بليت بها الأمة، ضربوها في أغلى شيء لديها، وهو وحدتها وتضامنها، واجتماع كلمتها، فقدموا أعظم خدمة لأعداء الإسلام بما ينشرون في هذه الوسائل من أخبار كاذبة، وافتراءات باطلة، وإشاعات مغرضة، تحت شعارات مختلفة تارة دينية، وتارة سياسية، وتارة اقتصادية للتفريق بين المسلمين، وإيجاد العداء والضغائن بين الأمة وحكامها وعلمائها وذوي المسؤوليات فيها، بل بين الأولاد ووالديهم.

ويبدو بعض هؤلاء على هذه الشبكات والقنوات، وكأنه المنقذ للأمة والناصح لها والمدافع عن قضاياها دون غيره وهو- في الحقيقة- من ألد أعدائها.

ويبث بعضهم سمومهم في الخفاء وراء رموز وأسماء مستعارة في السوق السوداء، وفي الحراج العام، لعلمهم أن بضاعتهم مزجاة، وأكثرها سرقات ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء:١٠٨].

خفافيش أعشاها النهار بضوئه فوافقها من ظلمة الليل غيهب(١).

وقد اغتر الكثيرون وانشغلوا بما ينشر في هذه الوسائل من هذه الأخبار الكاذبة، والتحليلات الخاطئة والإشاعات الباطلة فتناقلوها في مجالسهم وكأنها حقائق ومسلمات. فحذار حذار أخي المسلم من وحل هذه المستنقعات.

وعليك بالاحتياط لدينك، وإمساك اللسان والقلم والبنان عما لا يعني قال ﷺ «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»(٢) واعلم أن العافية لا يعدلها شيء، وأن السلامة غنيمة.

ويفهم من قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ قبول خبر العدل، لكن لابد من

---

(١) البيت لابن مشرّف، انظر «ديوانه» ص٣٢.

(٢) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٥١٨ وقال: «حديث حسن صحيح».

اكتمال نصاب الشهود حسب الأمر المشهود عليه.

ففي الشهادة على رؤية هلال رمضان يكفي خبر الشاهد الواحد العدل، كما في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما قال: «تراءى الناس الهلال، فرأيته فأخبرت النبي، ﷺ- فصامه وأمر الناس بصيامه»(١).

ولابد في الشهادة على السرقة والقتل ونحو ذلك من شاهدين لقوله تعالى ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وفي الشهادة على من أصابته جائحة لا بد من ثلاثة شهود؛ لحديث قبيصة: «حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أن فلاناً قد أصابته جائحة»(٢).

وفي الشهادة على الزنا لابد من أربعة شهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:١٣].

قوله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وأطيعوه، ولا تتقدموا بين يديه بقول ولا فعل، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، «لو»: حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير عاملة، ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ العنت: المشقة.

والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تختارونه لأنفسكم وتطلبونه، لأوقعكم ذلك في المشقة والحرج.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصوم- شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان ٢٣٤٢، والدارمي في الصوم ١٦٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة- من تحل له المسألة ١٠٤٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٩١- من حديث قبيصة بن مخارق- رضي الله عنه.

وفي هذا إشارة إلى ضعف آراء البشر وعدم معرفتهم لوجوه المصالح، ما لم يُربطوا بوحي السماء قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١].

ولما قال ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» قام الأقرع بن حابس رضي الله عنه فقال: أفي كل سنة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، الحج مرة فما زاد فهو تطوع»(١).

وقال ﷺ : «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»(١).

وقال ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته»(١).

ولهذا أنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه التبتل والانقطاع للعبادة وقال ﷺ: «أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢).

وكذلك أنكر ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: «لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت»(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: ألقى محبته في قلوبكم، وهذا أمر خاص به عز وجل، فلا أحد يستطيع تحبيب الإيمان إلى القلوب ووضعه فيها، ولا هدايتها هداية التوفيق والقبول سوى الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسَّنه في قلوبكم، بذكر شرف الإيمان وفضله وحسَّن صفات أهله وما وعد الله به المؤمنين من الفوز بالجنات والأجر العظيم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٦، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٢٧، والنسائي في الصيام ٢٣٩١- من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه.

والقلوب: جمع قلب، وهو الذي عليه مدار صلاح العمل قال ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

وعن أنس: رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى ههنا، التقوى ههنا»(٢).

وقال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» (٣).

ومحل القلب هو الصدر كما قال عز وجل﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] وهو أداة ومحل العقل مع ارتباط ذلك بالمخ.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾، «كرَّه إليكم»: أي جعل ذلك مكروهًا ومبغضًا عندكم.

و«الكفر» في اللغة: الستر، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون ويغطيه بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل كفْرًا؛ لأنه يستر الثمر الذي بداخله ويغطيه، إلى غير ذلك.

وهو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، أو الاستكبار عن الانقياد لشرعه، أو الإعراض عنه، والشك فيه، وهو ضد الإيمان.

والمراد بالكفر هنا: الكفر المخرج من الملة.

وقد يكون الكفر دون المخرج من الملة كما في قوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٤- ١٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٣، وأحمد ١/ ١٨، ٢٦- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال الترمذي (حسن صحيح غريب). وأخرجه أحمد أيضًا٣/ ٤٤٦- من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه.

كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت[١]» ومنه كفران النعم.

والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى وعن الإصلاح إلى الإفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد.

والفسق والفسوق قد يطلق على الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة:٢٠].

وقد يطلق على ما دون الكفر كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:٩٧].

والمراد به في الآية هنا: الذنوب الكبار خاصة لذكر الكفر قبله، والعصيان بعده.

والعصيان والمعاصي: عدم الطاعة، والمراد بالعصيان هنا: الذنوب الصغار لذكر الكفر والفسوق قبله. وقد يحمل العصيان هنا على ما يشمل الكفر والفسوق وغير ذلك.

قال ابن كثير[٢]: «أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار والعصيان وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الإشارة لمن حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بعلو منزلتهم ورفعة مكانتهم. و«هم»: ضمير منفصل للتوكيد.

فأكد هذه الجملة بثلاثة مؤكدات، وهي: كونها جملة اسمية، معرّفة الطرفين وضمير الفصل؛ لتأكيد أن هؤلاء هم الراشدون حقًا الذين بلغوا من الرشد غايته.

والرشد: الاهتداء إلى طرق الخير عامة، وهو بالنسبة لكل شيء بحسبه، فالرشد في الدين: الاستقامة عليه، والرشد في المال: حسن التصرف فيه، والرشد في الولاية: حسن التصرف فيما ولِّي عليه، وهكذا. فالمراد بـ «الراشدون» هنا الذين بلغوا من الرشد غايته في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم ولهذا جاء في الدعاء في حديث عبيد الله بن عبد

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٦٧، والترمذي في الجنائز ١٠٠١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٢.

الله الزرقي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين»(١).

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، «فضلا»: مفعول مطلق، نائب عن المصدر. والفضل: الزيادة والتفضل.

«ونعمة» أي: ونعمة منه عز وجل أي: ما حصل لكم من تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوبكم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليكم، وجعلكم من الراشدين هو زيادة وتفضل من الله وإنعام منه عليكم، لا باستحقاقكم ذلك، ولا بحولكم وقوتكم.

فيا له من فضل ويا لها من نعمة لمن عرف قدر ذلك. نسأل الله التوفيق.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، الذي يعلم ويدرك الأشياء كلها على ما هي عليه إدراكًا جازمًا في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة:

الحكم الكوني، وهو: كل ما يقع في الكون من حركة أو سكون، ومنه قول أكبر أولاد يعقوب فيما حكى الله عنه أنه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠]، أي: أو يحكم الله لي حكمًا كونيًا.

والحكم الشرعي: هو ما شرعه الله من أحكام شرعية كأحكام الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠]، أي: حكمه الشرعي.

والحكم الجزائي وهي أحكامه الجزائية في الآخرة، حيث يجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

ويجمع الأحكام الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠] أي: بأقسامه

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤.

الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

و﴿حَكِيمٌ﴾ أيضًا، أي: ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية. فالحكمة الغائية: هي الغاية من حدوث حكم ما من الأحكام الكونية، أو من مشروعية حكم من الأحكام الشرعية أو الجزائية.

والحكمة الصورية هي: الحكمة من مجيء الحكم سواء الحكم الكوني أو الشرعي أو الجزائي على هذه الصورة، إذ لكل حكم من الأحكام حكمة غائية وحكمة صورية.

فهو عز وجل عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

ويؤخذ من اقتران صفتيه عز وجل: «عليم» و«حكيم» كماله عز وجل، وكمال صفاته؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين هذين الوصفين؛ لأن اجتماعهما- مع كمالهما في حقه عز وجل يزيد كماله إلى كمال.

ولهذا نشاهد- ولله المثل الأعلى- أن من توفيق الله للعالم أن يجمع الله له بين العلم والحكمة، فتأتي أحكامه وفتاواه وتوجيهاته بإذن الله وتوفيقه أسد وأصوب، ويكون لها قبول عند الناس لما عرفوا عنه من العلم والحكمة ويحبونه ويشهدون له بذلك وأحسب أن ممن جمع الله له بين هاتين الصفتين في هذا العصر، فأحبه الناس، وشهدوا له بالفضل، ولقيت فتاواه قبولاً عندهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فأوصي جميع المسلمين بالاستفادة من آثاره العلمية وفتاويه- ولا أزكي على الله أحدًا.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب بهذا الوصف وأن امتثال ما بعد هذا النداء من أمر وتوجيهات من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٣- وجوب التثبت في خبر الفاسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

٤- وجوب تمحيص الأخبار والتثبت فيها، والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها وتنزيه الأسماع والأبصار مما تبثّه وسائل الإعلام المشبوهة.

٥- التحذير الشديد من أذية الآخرين والوقوع فيهم بقول أو فعل بغير جرم منهم، وإنما بناء على وشايات فيهم وإشاعات كاذبة مغرضة؛ ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.

٦- التثبت في الأمور وعدم التسرع لئلا يندم الإنسان حين لا ينفع الندم.

٧- حفظ الإسلام لحقوق الآخرين، وحرصه على إبعاد المسلم عمّا يضره ويندم عليه.

٨- قبول خبر العدل؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية.

٩- امتنان الله- عز وجل- على المؤمنين بوجود الرسول ﷺ في حياته بينهم يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر، وما يشق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

١٠- إثبات رسالته ﷺ.

١١- لو تُرك الناس لأنفسهم، أو أطاعهم الرسول ﷺ في كثير من الأمر لشقوا على أنفسهم، ولما عرفوا مصالحهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾.

١٢- حرصه ﷺ على أمته وشفقته عليهم ونصحه لهم وعلمه بما يصلحهم.

٣١- فضل الله- عز وجل- ونعمته على المؤمنين حيث حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾.

٤١- أن هداية القلوب بيد الله- عز وجل-.

٥١- امتداح الله- عز وجل- للراشدين وثناؤه عليهم، والإشارة لرفعة منزلتهم، وعلو مكانتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

١٦- إثبات أنه- عز وجل- ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبيّ؟ فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله قد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾»(١).

قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الطائفة: المجموعة من الناس قليلة كانت أو كثيرة.

﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: حصل بينهم اقتتال، والاقتتال: ما كان بين طرفين.

وإن مما يحز في قلب كل مسلم ويندى له الجبين أن الاقتتال اليوم بين المسلمين أنفسهم أكثر من الاقتتال مع أعدائهم الكفار، وأن دماء المسلمين التي تراق على أيدٍ مسلمة أضعاف أضعاف الدماء التي تراق منهم على أيدي الكفار وكما قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه(٢)

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أي: أصلحوا بين الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين بالأخذ بالطرق التي يكون بها الصلح، والتوسط للقضاء على أسباب هذا الاقتتال، وما ينتج عنه من الاختلاف، وفساد ذات البين التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين كما قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»؟ قالوا: بلى. قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٩، وأحمد ٣/ ١٥٧، ٢١٩.

(٢) البيت لعبد الملك الحلاج. انظر: «الإيجاز والإعجاز» ص١٦١.

«إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»(١).

قال الترمذي ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: فإن لم تستطيعوا الإصلاح بينهما، أو بغت إحداهما على الأخرى بعد الصلح.

ومعنى «بغت»: تعدت وتطاولت على الأخرى وظلمتها. والبغي: العدوان والتطاول والظلم.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي: فقاتلوا الطائفة الباغية التي تبغي على الأخرى. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حتى ترجع الفئة الباغية إلى أمر الله وحكمه الشرعي فتكف عن البغي والعدوان.

ويؤخذ من الآية قتال الفئة الباغية وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قال يا رسول الله هذا أنصره مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: تكفه عن الظلم، فذاك نصرك إياه»(٢).

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ أي: فإن رجعت الطائفة الباغية عن البغي ولزمت حكم الله وشرعه.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فيما تقولون لهما وفيما تطالبون به كلا منهما من التنازل عن شيء من حقه للطائفة الأخرى وغير ذلك.

فالإصلاح الأول لوقف القتال بينهما، والإصلاح الثاني للتسوية بينهما فيما لكل منهما على الأخرى من حقوق أو متلفات.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٩- من حديث أبي الدرداء- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب- أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه وأخرجه البخاري أيضًا من حديث جابر رضي الله عنه في المناقب ٣٥١٨، ومسلم في البر والصلة- نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ٢٥٨٤، والترمذي ٣٣١٥.

﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾: أي: اعدلوا بينهما، وهذا تأكيد لما قبله، واعدلوا أيضًا في جميع أموركم، مأخوذ من «أقسط» الرباعي الذي معناه: عدل وأنصف، واسم الفاعل منه مقسط، وليس من «قسط» الثلاثي الذي معناه: جار وظلم، واسم الفاعل منه «قاسط» ومنه قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥].

فإن لم يكن الإصلاح بالعدل والقسط بل كان بالجور والظلم فلا يعد ذلك من الإصلاح، بل هو من الإفساد، كما في بعض الإصلاحات بين الأطراف التي لا تقوم على العدل بل على الضغط على أحد الخصمين، أو إماتة القضية حتى يرضى صاحب الحق ببعض حقه ليأسه من وصول حقه إليه، فهذا صلح حرم حلالاً أو أحل حرامًا.

وفي حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:« الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، أي: الذين يعدلون في أنفسهم وأهليهم وما ولوا، كما جاء في الحديث.

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو عز وجل يحب المؤمنين العادلين، وإذا كان عز وجل يحبهم فلا تسأل عما أعد لهم من الفضل.

قال ﷺ: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »(٢).

ويفهم من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، عدم محبته للظالمين الجائرين، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:٥٧، ١٤٠].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا كالتعليل لقوله:﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ الآية.

«إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون كلهم إخوة في الدين

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة- فضل الحاكم العادل ٥٣٧٩- من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

تربطهم أخوة الإيمان.

وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(٢).

وعن صفوان بن عبد الله عن أم الدرداء رضي الله عنها أنها قالت له: أتريد الحج العام فقلت: نعم: قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه، قال الملك الموكل: آمين، ولك بمثله، قال صفوان: فخرجت إلى السوق، فلقيت أبا الدرداء، فقال لي مثل ذلك يرويه عن النبي ﷺ(٣)».

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(٤).

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب- الستر على المسلم ٤٩١٠. والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر- فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥ وفي الأدب ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود- ما جاء في الستر على المسلم ١٤٢٥، وابن ماجه في المقدمة- فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٥ وأحمد ٢/ ٢٥٢، ٢٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٧٣٣، وأبو داود في الوتر- الدعاء بظهر الغيب ١٥٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب- رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر- تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦، وأحمد ٤/ ٢٦٨- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة- تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ٤٨١، ومسلم في البر- تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٥، والنسائي في الزكاة- أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه ٢٥٦٥، والترمذي في البر- ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ١٩٢٨، وأحمد ٤/ ٤٠٤- ٤٠٥- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»(١).

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ قرأ يعقوب: ﴿بَيْنَ إِخْوَتِكم﴾ بكسر الهمزة وإسكان الخاء وتاء مكسورة على الجمع، وقرأ الباقون ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بفتح الهمزة والخاء، وياء ساكنة على التثنية.

أي: فأصلحوا بين أخويكم، أي: بين إخوتكم المتقاتلين، والأمر للوجوب، فلا يجوز أن يقف المسلمون من الفئات المتقاتلة من إخوانهم المسلمين موقف المتفرج كما هو حال كثير من المسلمين اليوم، أو ربما يعمد بعضهم ويعمل على إشعال تلك الفتنة. نسأل الله العافية.

ولا شك أن الاستعمار جنى ثمار تمزيقه للمسلمين وتفريقهم إلى دويلات بل وإيجاده روح العداء بين الدول الإسلامية فأصبح حال المسلمين اليوم كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعًا فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر(٢)

ولكن هذا لا يعفي المسلمين من التبعة والمسؤولية أمام الله- عز وجل- فإنهم- وهم أكثر من مليار ونصف مليار مسلم- لو صدقوا الله لنصرهم الله، ولما استطاع أن ينال منهم العدو مهما كان. نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين في كل مكان.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الواسعة التي بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذا وعد من الله، ووعده حق وصدق، فبالقيام بحقوق المؤمنين والإصلاح بينهم وتقوى الله تحصل لنا الرحمة من الله عز وجل.

ويؤخذ من الآية أن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من كبائر الذنوب التي هي دون الشرك، وعلى هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوراج والمعتزلة.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠ وقال ابن كثير في (تفسيره) ٨/ ٣٥٥: «تفرد به، ولا بأس بإسناده».

(٢) انظر: «ديوان الحماسة» ١/ ١٧٦.

ومن هذا قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(١)، أي: كفر دون كفر، وقوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت»(٢).

قال ابن كثير:(٣) «فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، ثم ذكر حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يومًا، ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين(٤)» فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة».

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الإصلاح بين الطوائف المتقاتلة من المؤمنين ولا يجوز للمسلمين الوقوف منها موقف المتفرج كما هو حال المسلمين اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

٢- أن التقاتل بين المؤمنين لا يخرجهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

٣- وجوب قتال الطائفة الباغية حتى ترجع إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر ٤٨، ومسلم في الإيمان- قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ٦٤، والنسائي في تحريم الدم ٤١٠٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٣، وابن ماجه في المقدمة ٦٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان- إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ٩٣٤- من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٣٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في الصلح- باب قول النبي ﷺ للحسن: إن ابني هذا سيد ٢٧٠٤، وأبو داود في السنة ٤٦٦٢ والنسائي في الجمعة ١٤١٠، والترمذي في المناقب ٣٧٧٣.

٤- تأكيد أمر الصلح بين المسلمين وأهميته، وأنه يجب كونه بالعدل والقسط؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟﴾.

٥- إثبات صفة المحبة لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٦- فضل المقسطين ويكفيهم شرفاً أن الله يحبهم. ويفهم من ذلك ذم الظالمين وعدم محبة الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٧- إثبات الأخوة بين المؤمنين، وأنها لا تزول بالتقاتل بينهم لكن يجب إصلاح ذات بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. وفي هذا رد على المعتزلة والخوارج، الذين يكفرون مرتكب الكبيرة، أو يقولون: هو بمنزلة بين المنزلتين.

٨- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأنها سبب لرحمة أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

أمر الله عز وجل في الآيتين السابقتين بالإصلاح بين المؤمنين والمحافظة على الأخوة بينهم ثم نهى عمّا يكون سبباً في العداوة بينهم من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والظن السيء والتجسس والغيبة في هذه الآية وما بعدها إلى قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ السخرية: هي الاستهزاء والازدراء والاحتقار للآخرين واستصغارهم وهو من الإعجاب بالنفس والكبر الذي هو من أعظم الكبائر والمحرمات.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: **بَطَر الحق وغَمْط الناس**(١)»(٢)

والقوم: هم الجماعة من الناس الذكور والإناث في الأصل، لكن المراد بقوله هنا ﴿قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ الرجال خاصة لذكر النساء بعدهم منفردات فالمعنى هنا: لا يسخر رجال من رجال.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: عسى أن يكون القوم المسخور منهم خيرًا وأفضل من القوم الساخرين بهم- كما هو الواقع غالبًا؛ لأن السخرية بالناس تدل على نقص في الساخر فهو بسخريته من الآخرين يريد تكميل ما فيه من نقص، كما تدل على أنه بلغ من الشر نهايته، كما قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»(٣).

---

(١) بَطَر الحق: رده. وغَمْط الناس: احتقارهم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، وأبو داود في اللباس ٤٠٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٤. من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون النساء المسخور منهن خيرًا وأفضل من النساء الساخرات بهن.

وخص النساء بالذكر بعد قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ والذي إذا أطلق وحده يشمل الجنسين إشارة- والله أعلم- إلى كثرة السخرية بين النساء- كما هو واقع- لضعف عقولهن ودينهن.

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين، وأن المسخور منه حري أن يكون خيرًا وأفضل من الساخر؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وعسى من الله واجبة كما قال ابن عباس وغيره. وهذا يؤكد أن المسخور منه خير من الساخر غالبًا.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: هو التنقص للآخرين بالقول. والهمز هو التنقص للآخرين وعيبهم بالفعل بالإشارة باليد والحواجب ونحو ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، وقال تعالى ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، أي: همّاز للناس يحتقرهم ويزدريهم وينتقصهم بفعله، ومشاء بالنميمة بينهم بقوله.

ومعنى قوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلمز بعضكم بعضًا. ولمز المؤمن لأخيه المؤمن بمثابة لمزه لنفسه لهذا قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال تعالى ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، أي ليسلم بعضكم على بعضكم، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

وأيضاً فإن لمز الإنسان لأخيه سبب لأن يلمزه أخوه، كما في الحديث: «لعن الله من لعن والديه. قيل كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه»(١).

واللمّاز الهمّاز مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، لأن الله توعده بالعذاب فقال ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٩٠، وأبو داود في الأدب ٥١٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٢- من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما.

واللمز والتنقص إن كان لعيب خِلْقي فهذا فيه تنقص للخالق سبحانه وتعالى. وإن كان لعيب خُلقي فقد يعافيه الله ويبتليك. والواجب على المؤمن عون أخيه المؤمن والدفاع عنه ونصحه إذا وقع في مخالفة.

قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»(١).

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه(٢)».

وقال ﷺ:«من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولايبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(٤).

وإذا كان هذا هو واجب المسلم على المسلم بل الواجب عليه ما هو أعظم من ذلك وهو أن يحب له ما يحب لنفسه، الأمر الذي لا يتم إيمان العبد إلا به كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٥).

فكيف يليق به أن يسخر منه أو يلمزه ويتنقصه؛ ولهذا سمى الله الأخ المسلم نفسًا لأخيه المسلم لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هذا حالهم.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٣١- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٤) سبق تخريجه قريباً.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦- من حديث أنس رضي الله عنه.

فيا لها من مبادئ سامية وآداب عظمية وأخلاق كريمة- لو أخذنا بها لكان لنا شأن- فالله المستعان.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ التنابز: التداعي والتنادي على وجه يشعر بالكراهة. والألقاب: جمع لقب، واللقب: اسم لما يسمى به المرء غير اسمه الأول- مشعرًا بمدح أو ذم. والمراد به هنا ما أشعر بذم.

والمعنى: لا يُعيِّر أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكرهه ويسوؤه سماعه فهذا محرم ولا يجوز، بل يجب أن يدعو المسلم أخاه بأحب الأسماء إليه.

قيل: إنهم كانوا يقولون لمن أسلم من أهل الكتاب: يا يهودي أو يا نصراني.

لكن إن كان اللقب غير مذموم، بل مما يميزه عن غيره ونحو ذلك على سبيل التعريف، لا على سبيل التنقص والاحتقار فهذا لا بأس به كما جاء في ذكر بعض رواة الحديث : «الأعمش» و«الأعرج» ونحو ذلك.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ﴾ بئس: أي : قبح، والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى بالسخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بعد الإيمان الذي حرم عليكم هذه الأشياء، وأوجب عليكم الأخوّة في الله.

أي: قبح وساء أن تنتقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسق بارتكابكم هذه الأعمال.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾، «من» شرطية، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يتب» فعل الشرط.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية. أي: ومن لم يتب من تلك الأعمال التي هي من الفسوق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين بلغوا مبلغًا عظيمًا في الظلم، وأكد هذا المعنى بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة. قال ابن القيم[1]: «والتائب: هو الراجع إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته».

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨١، ١٨٢.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله عز وجل، فلا تكون خوفاً من الخلق أو طمعاً فيما عندهم.

الثاني: الإقلاع عن المعصية وتركها فإن كان فيها حق لآدمي رده؛ لأنه لا يُعد مقلعاً عن المعصية في هذه الحال حتى يرد حقوق الآدميين إليهم، إن أمكن ردها، وإن لم يمكن ردها كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب والغيبة والنميمة ونحو ذلك وجب أن يتحللهم منها إن أمكن ذلك بلا ضرر، فإن لم يمكن ذلك أو خيف أن يؤدي ذلك إلى زيادة الشر وبخاصة إذا علم أنهم لم يعلموا بذلك، ونحو ذلك، فإنه يستغفر لهم، ويثني عليهم في المجالس التي اغتابهم فيها، ويدفع عن أعراضهم إذا تُكُلِّم فيهم، فتكون هذه بتلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما من امرئ يخذل امرأً مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرأً مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته»(١).

الثالث: الندم على فعل المعصية والتحسر، والحياء من الله- عز وجل.

الرابع: العزم على عدم العودة إلى المعصية، فإن لم يعزم على تركها لم تصح توبته، وإن عزم على تركها لكنه وقع فيها مرة أخرى فعليه تجديد التوبة.

الخامس: أن تكون في وقتها، قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم.

و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: جمع ظالم. والظلم وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وهو النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]؛ أي ولم تنقص.

وأظلم الظلم: الشرك بالله، كما قال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- باب من رد عن مسلم غيبته ٤٨٩٣.

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله أعظم الحقوق وأوضحها؛ فإنه تعالى خلق ورزق وأنعم على الخلق بسائر النعم وأعظمها نعمة الإسلام.

أي: ومن لم يتب ويرجع عما اقترفه من المعاصي من ترك واجب أو ارتكاب محرم ومن السخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب والفسوق بعد الإيمان وغير ذلك فأولئك الذين بلغوا الغاية في الظلم، فالناس قسمان: تائب وظالم.

قال ابن القيم(١): «وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله».

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين ولمزهم، وتحريم التنابز بالألقاب، وأنواع الفسوق وأن ذلك من الظلم، ووجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢) وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما «فإني أتوب في اليوم مائة مرة»(٣) وكان يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- مناداة المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى اجتناب ما بعده من نواهٍ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- تحريم السخرية بين المؤمنين رجالاً ونساءً، وتأكيد ذلك في حق النساء، لكثرة السخرية بينهن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات.- استغفار- النبي ﷺ في اليوم والليلة ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

٤- أن المسخور منه غالباً خير من الساخر، لأن الساخر لولا نقصه ما سخر بالآخرين، فهو يريد تكميل نقصه بهذه السخرية؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾.

٥- النهي عن تنقص المؤمنين بعضهم بعضاً، وأن تنقص المؤمن لأخيه بمثابة تنقصه لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

٦- تحريم التنابز بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾.

٧- التنفير من السخرية بالمؤمنين وتنقصهم ونبز بعضهم بعضاً بالألقاب وتقبيح ذلك وأنه من الفسوق بعد الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾.

٨- وجوب شكر نعمة الإيمان والابتعاد عما يشينها ويدنسها.

٩- وجوب التوبة من هذه الأعمال السيئة، ومن جميع الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٠- من لم يتب من هذه الذنوب وغيرها فهو الظالم لنفسه ولغيره غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١١- حرص الدين الإسلامي على صفاء القلوب والتأليف بين المؤمنين، وتجنيبهم كل ما يسبب الفرقة والاختلاف بينهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾.

قوله: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾: أي: ابتعدوا عن كثير من الظن، وهو الاتهام للآخرين بلا علم ولا دليل، بل بمجرد الظن.

وإذا وجب اجتناب كثير من الظن- مع أن الظن هو الاحتمال الراجح فمِن باب أولى يجب الابتعاد عن الشك وهو ما كان متردد الطرفين لا رجحان فيه.

قال ابن كثير(١): «هو الاتهام والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله».

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ أي: ذنب محض - وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك. وإذا كان بعض الظن إثمًا فليجتنب كثير منه احتياطًا لئلا يقع المؤمن في هذا البعض الذي هو إثم وذنب وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»(٢).

وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يُخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»(٤).

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ٦٠٦٤ ومسلم في البر- تحريم الظن والتجسس ٢٥٦٣، والترمذي في البر ١٩٨٨.

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا- انظر «الجامع الصغير» ٣٤٦٦.

وقد رُوي: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يعس ومعه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وبينما هما يطوفان في شوارع المدينة وجدا باباً مجافا على قوم ولهم أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن: «أتدري بيت من هذا؟ قال: قلت: لا. قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن في شرب فما ترى؟ قال عبدالرحمن: أرى قد أتينا ما نهانا الله عنه؛ نهانا الله فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ فقد تجسسنا. فانصرف عنهم عمر وتركهم»(١).

فيجب على المؤمن اجتناب كثير من الظن، وهو الظن السيء بمن هم ليسوا محلاً لذلك، فإن سوء الظن بهم من الإثم والذنب، بل يجب حسن الظن بمن هم كذلك من المؤمنين وغيرهم، وحمل ما يصدر منهم على أحسن محمل ما أمكن ذلك.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا»(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً»(٣).

ويفهم من قوله: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أن ما عدا الكثير منه لا يؤمر باجتنابه، وهو ما لا يكون إثما بدليل قوله: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾. فالبعض الآخر وهو ما عدا الكثير منه ليس بإثم.

فالظن الذي في محله جائز، كأن يوجد له قرائن ودلائل ممن هم أهل لذلك من أهل الشر والسوء، وممن ليسوا محلاً لحسن الظن بهم، احتياطًا واحترازًا منهم ومن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»١٠/ ٢٣١ (١٨٩٤٣)، والبيهقي في «سننه» ٨/ ٥٨٧ (١٧٦٢٥)، والحاكم في «المستدرك» ٤/ ٤١٩ (٨١٣٦) وصححه، ووافقه الذهبي، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص١٥٢ (٤٤٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن- حرمة دم المؤمن وماله ٣٩٣٢، قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧: «تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧.

شرورهم.

وإذا كان الحال وصل بالبعض إلى تهريب المخدرات في أحشائهم وفروجهم فليس هناك محل لحسن الظن بمثل هؤلاء، والله المستعان.

(ولا تجسسوا) التجسس غالبًا يطلق في الشر، والتحسس في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧] وقد يطلق التحسس في الشر كما في الحديث : «لا تجسسوا ولا تحسسوا»(١) ومن التحسس: الاستماع إلى حديث قوم وهم له كارهون كأن يستمع على أبوابهم ونحو ذلك.

والتجسس: هو تتبع عورات المسلمين والتنقيب والتفتيش عنها(٢) .

قال ﷺ: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»(٣).

فيجب حمل الناس على ما يظهر منهم، والحكم عليهم ومعاملتهم بذلك.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»(٤).

أما ما خفي من أحوال الناس فلا ينبغي البحث عنه، بل ينبغي التغافل ما أمكن عن زلاتهم التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها»(٥).

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) وقيل التجسس بالجيم أن يطلب العيب بنفسه، والتحسس بالحاء أن يلتمسه من غيره، وقيل التجسس أن يطلبه لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه. وقيل معناهما واحد. انظر «النهاية» مادة «جسس».

(٣) سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٤، ٣٨٣، والبيهقي ٨/ ٣٣٠. وقال الحاكم : «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب- النهي عن التجسس ٤٨٨٨.

وعن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»(١).

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: لا يخبرني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»(٢).

وروي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أُتي برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: «إنما نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به»(٣).

لكن من كان يتعدى ضرره مباشرة إلى الآخرين ويعظم خطره كمروجي المخدرات والمتفجرات فتجب متابعته والتجسس والتحسس عليه، لأنه من المفسدين في الأرض، بخلاف من يعمل معصية في بيته فيما لا يتعدى ضرره مباشرة إلى غيره فلا يجوز التجسس عليه.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره.

كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»(٤).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتعجب، أي: هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا، والجواب: لا ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: بل أنتم تكرهون ذلك غاية الكراهة، فلا يمكن أن يأكل الإنسان لحم أخيه الميت.

والمراد بهذا أن اغتياب المسلم لأخيه بمثابة أكله للحمه ميتًا، فكيف يقع ذلك من

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- النهي عن التجسس ٤٨٨٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- رفع الحديث من المجلس ٤٨٦٠، والترمذي في المناقب- فضل أزواج النبي ﷺ ٣٨٩٦-. وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه أبو داود في الموضع السابق ٤٨٩٠.

(٤) أخرجه مسلم في البر ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة- ما جاء في الغيبة ١٩٣٤.

الكثيرين.

وفي قوله (ميتًا)- إضافة إلى دلالته على شدة الكراهة- إشارة إلى أن الذي اغتيب- لكونه غائبًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه- أشبه بالميت فاقد الروح.

وقد بلغ القرآن الكريم الغاية في التنفير عن الغيبة بهذا التشبيه، إذ لا يتصور منظر أبشع من أكل المسلم للحم أخيه الميت.

قال ابن كثير(١): «والغيبة محرمة بالإجماع. وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت» كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعًا؛ فاكرهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: «ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يقيء، ثم يعود في قيئه» (٢).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»(٤).

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٩- ٣٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٦٢٢ ومسلم في الهبات ١٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨. والترمذي في البيوع ١٢٩٨- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الحج ١٧٤١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في التجارات ٢١٧٢، وفي الزهد ٤١٤٣.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ «حسبك من صفية أنها كذا وكذا- تعني أنها قصيرة- فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»(١).

ومر ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»(٢).

بل إن تتبع عورات المسلمين واغتيابهم من أعظم الدلائل على ضعف الإيمان.

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولمّا يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(٤).

ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»(٥).

ولا يستثنى من تحريم الغيبة إلا ما كان لمصلحة، كما إذا كان ذلك لرفع الظلم، قال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨].

كما في قول هند امرأة أبي سفيان: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٧٥، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ٢١٨، ومسلم في الطهارة، ٢٩٢، وأبو داود في ا لطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة ٣٤٧- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الغيبة ٤٨٨٠، وأخرجه أبو يعلى في مسنده من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. انظر (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٢٣٥، وأحمد ٣/ ٢٢٤.

(٥) أخرجه الترمذي في البر- عظم حرمة المؤمن ٢٠٣٢ وقال: (حسن غريب).

وولدي، فقال لها رسول الله ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»(١).

وكما إذا كان ذلك لمشورة في زواج أو غير ذلك، كما في قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس لما جاءت تستشيره فيمن تتزوج قال لها ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه انكحي أسامة بن زيد»(٢).

وكما إذا كان ذلك بغرض دراسة الأسانيد والحكم على الأحاديث، كقولهم: فلان كذاب، فلان سيء الحفظ، ونحو ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾«تواب»: صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة على وزن «فعّال» تدل على أنه عز وجل ذو التوبة الكثيرة الواسعة بقسميها، وهما:

توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

وقبولها منه كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿رَّحِيمٌ﴾ على وزن «فعيل» يدل على أنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة؛ الرحمة الذاتية التي هي صفة من صفاته الثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

والرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٦٤، ومسلم في الأقضية- قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق- المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥ من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

ومن رحمته عز وجل أن شرع التوبة، ووفق لها من شاء من عباده، وقبلها منهم ممن تتوفر فيهم شروط التوبة.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً لهم وتكريماً، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعده من أوامر ونواهٍ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- وجوب اجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وهو الظن السيء في غير محله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾.

٤- تحريم الظن السيء بالمؤمنين، ووجوب حسن الظن بهم.

٥- تحريم التجسس والتحسس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

٦- جواز الظن بمن ليسوا محلاً لحسن الظن والاحتراز منهم والتجسس عليهم لدرء شرورهم عن المسلمين.

٧- تحريم الغيبة بين المؤمنين والتنفير منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾.

٨- بلوغ القرآن الغاية في التنفير فيما يراد التنفير منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾.

٩- حرص الدين الإسلامي على سلامة الصدور بين المؤمنين والحفاظ على أسرارهم وأحوالهم وصيانة أعراضهم.

١٠- وجوب تقوى الله، باجتناب ما نهى عنه في الآية، وبفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١١- إثبات صفة التوبة لله - عز وجل- وتوفيق عباده لها وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَّابٞ﴾.

١٢- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٞ﴾؛ صفة ذاتية، وصفة فعلية، عامة وخاصة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة المؤمنين أن يسخر بعضهم من بعض أو يلمز بعضهم بعضًا، وعن التنابز بالألقاب، وأمرهم باجتناب كثير من الظن، ونهاهم عن التجسس وعن أن يغتاب بعضهم بعضًا، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم خلقوا من أصل واحد وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يقال في إعرابه كما قيل في إعراب (يا أيها الذين آمنوا) وقد سبق.

والناس: هم بنو آدم الموجودون وقت نزول الآيات، ومن سيوجد إلى قيام الساعة.

وعمومات الكتاب والسنة كما يدخل فيها عموم الإنس يدخل فيها أيضاً عموم الجن للإجماع على أنهم مكلفون كما كلف الإنس من حيث أصول الشرائع، أما في الفروع فقد قال بعض أهل العلم: إنه لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بما كلف به الإنس في جميع الفروع على حد سواء.

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع والعظمة (إنا)؛ لأنه العظيم سبحانه الذي له العظمة التامة، كما قال عز وجل عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:قال الله تعالى «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»(١).

(خلقناكم) أي: أوجدناكم وأنشأناكم، وأصل الخلق التقدير.

كما قال زهير(٢):

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

فالمتفرد بالخلق هو الله عز وجل الذي له تمام القدرة وتمام العلم، قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٨٦.

﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وقد يطلق الخلق بمعنى تحويل الشيء إلى شيء آخر كتحويل الحديد أو الخشب الذي أوجده الله عز وجل إلى مصنوعات حديدية وخشبية. ولهذا جمع الله كلمة (الخالق) في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، إذ لا خالق في الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، أو من جنس ذكر وأنثى أب وأم.

فهم من أصل واحد وجنس واحد مما يوجب على كل منهم أداء حق الآخر عليه ذكورهم وإناثهم، الأزواج، والوالدين والأولاد والإخوة والأخوات وسائر القرابات، ويوجب على كل منهم أداء حقوق إخوانه المسلمين، وكذا أداء حقوق غير المسلمين ممن ليسوا بمحاربين.

وقدم (الذكر)؛ لأنه من حيث العموم أفضل من الأنثى، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

قال ابن القيم(١): «ولأنه هو الأصل فمنه البذر والسقي، والأنثى وعاء ومستودع للولد تربيه في بطنها كما تربيه في حجرها، ولهذا كان الولد للأب حكمًا ونسبًا، وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلأنه إنما تكوَّن وصار ولدًا في بطنها، وغذته بلبانها، مع الجزء الذي فيه منها. وكان الأب أحق بنسبه وتعصيبه؛ لأنه أصله ومادته ونسخته، وكان أشرفهما ديناً أولى به، تغليبًا لدين الله وشرعه».

على أن التفضيل إنما هو لجنس الرجال على جنس النساء، وإلا فإن من بين النساء من تكون أفضل من زوجها، بل ومن عشرات الرجال، ويكفي النساء أن منهن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون رضي الله عنهن.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾«شعوبا»: جمع شعب، سموا شعوبًا؛ لأنهم تشعبوا عمن قبلهم، كما يتشعب عنهم من بعدهم كما قال عز وجل: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١]، أي: فرّق ونشر وذرأ من آدم وحواء رجالاً كثيرًا ونساءً.

---

(١) في (التبيان في أحكام القرآن) صـ ٣٥٢- ٣٥٣.

و«قبائل»: جمع قبيلة، والقبيلة دون الشعب.

ويتفرع عن القبائل: الفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تتعارفوا فيما بينكم، فَيُدْعى الإنسان باسمه واسم أبيه وجده، فيقال فلان بن فلان بن فلان.

ولتعرفوا أنسابكم؛ ليؤدي بعضكم حقوق بعض من صلة الأرحام والتوارث وغير ذلك، فمعرفة الأنساب أمرٌ مطلوب شرعًا، لأن الله جعل الناس شعوبًا وقبائل لأجل ذلك، لما يلزم عليه من أداء حقوق بعضهم على بعض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»(١).

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما جعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا؛ ليؤدي بعضكم حقوق بعض، لا لتتفاخروا بالأحساب والأنساب وكثرة العدد، فإن أكرمكم عند الله وأرفعكم منزلة عنده ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ لله عز وجل؛ بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وفي الحديث: «فمن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار إلى صدره.

وفي رواية: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في البر- ما جاء في تعليم النسب ١٩٧٩- وقال: (حديث غريب).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨.

(٤) سبق تخريجه قريباً.

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «انظر فإنك لست بخير من أحمر، ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : «لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه. إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية(٢)، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل، فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ - خطبهم على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ ثم قال: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم»(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما أعجب رسول الله ﷺ - شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تُقى»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٨.

(٢) عُبِّيَّة الجاهلية: أي: تكبرها.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١١٦، والترمذي في المناقب ٣٩٥٥.

(٤) أخرجه البزار في مسنده- فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٦٦.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٧، وقال : (حديث غريب). وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٦- الأثر ١٨٦٢٢.

(٦) أخرجه أحمد ٦/ ٦٩.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع، المطلع على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها.

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو الخبرة الواسعة، المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها.

فبعلمه- عز وجل- وخبرته خلق الناس، وجعلهم شعوبًا وقبائل؛ ليتعارفوا، وجعل التفاضل بينهم بالتقوى.

فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع[٢] لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[٣]».

وعن أبي نضرة: «حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، أبلغت؟**»، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ» [٤].

قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه[٥]:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهُمُ آدمٌ والأم حواء
فإن يكن لهمُ من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

فالفضل إنما هو بالتقوى فمن اتقى الله فهو الأكرم عند الله، ولو كان عبدًا حبشيًا كبلال وسلمان رضي الله عنهما، ومن لم يتق الله فهو الأذل المهان عند الله ولو كان حرًا قرشيًا كأبي جهل وأبي لهب وغيرهما.

---

(١) في «مجموع الفتاوى» ١١/ ٢٩٨.

(٢) طفّ الصاع: أي: قريب بعضهم من بعض وبمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ٨٩.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٤١١.

(٥) انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» ٢/ ١٠٨.

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم(١)

وقد قيل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اعتماداً على النسبْ
فقد رفع الإسلام سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهبْ(٢)

وقد استدل بهذه الآية على عدم اشتراط الكفاءة في النكاح، قالوا: فلا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للناس بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- عموم القرآن الكريم والرسالة المحمدية لجميع الناس.

٣- تذكير الناس بأصل خلقهم وأنهم خلقوا من ذكر وأنثى؛ ليؤدي بعضهم حقوق بعض، وليعلموا حاجة بعضهم إلى بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

٤- فضل الذكر على الأنثى؛ لتقديمه في الآية. وهذا من حيث العموم، لا من حيث الأفراد، فكم من امرأة خير من كثير من الرجال.

٥- أن الأولى أن يقدم في الكلام والخطاب الذكر على الأنثى.

٦- أن الحكمة من جعل الناس شعوباً وقبائل: هي أن يتعارفوا بينهم ويعرفوا أنسابهم ليتواصلوا ويتوارثوا، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.

٧- أن معرفة الأنساب أمر مطلوب شرعاً.

٨- أن أكرم الناس عند الله أتقاهم لله- عز وجل -، فلا فضل لعربي على أعجمي،

---

(١) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

(٢) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٤١٤.

ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

٩- إثبات سعة علمه- عز وجل- وكمال خبرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾.

قال السعدي رحمه الله[1]: «يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم مع هذا ادعوا وقالوا: آمنا، أي إيمانًا كاملاً مستوفيًا لجميع أموره».

والأعراب: هم سكان البادية، وهم أقرب إلى الجهل والجفاء كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩٧].

﴿ءَامَنَّا﴾، أي: آمنا الإيمان الكامل المطلق، ظاهرًا وباطنًا.

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، أي: قل لهم يا محمد لم تؤمنوا بعد، أي: لم تؤمنوا الإيمان المطلق، الذي يحمل صاحبه على الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ في فعل الواجبات والبعد عن المنهيات، كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع إليه فيها الناس أعناقهم وهو مؤمن[2]».

وكقوله ﷺ: «و الله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[3].

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، أي: دخلنا في الإسلام، بمعنى استسلمنا وانقدنا ظاهرًا.

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق. ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٥٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٦- من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

وأَمْرُهم بهذا وعدم وصفهم بالنفاق والكذب، كما وصف الله المنافقين في آيات عدة، وقوله بعد ذلك: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، وقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾.

كل هذا وغيره يدل على أن المذكورين ليسوا بمنافقين. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ولمّا يباشر الإيمان قلوبكم فتذوقوا طعمه وحلاوته وبشاشته، وتسعدوا به ويهون عليكم بَذْلُ كل غال ورخيص في سبيله من المال والنفس، والوقت، وغير ذلك.

قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»(١).

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾. دون أن يقول: «ولم يدخل» إشارة إلى قرب دخول الإيمان في قلوبهم.

فالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان المطلق، والإسلام المثبت لهم هو الإسلام الشرعي ومطلق الإيمان الذي يثابون عليه وبهذا فسر الآية كثير من السلف واختاره جمع من المحققين منهم الطبري، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم.

وذهب طائفة من المفسرين من السلف وغيرهم إلى أن المنفي عنهم هو الإيمان الشرعي الصحيح، والمثبت لهم هو الإسلام اللغوي، وهو الاستسلام خوف السبي والقتل، فعل المنافقين، واختار هذا بعض أهل العلم منهم البخاري، والصحيح الأول(٢).

قال ابن القيم(٣): «﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ نفيًا للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه منها:

أنه أمرهم وأذن لهم أن يقولوا: أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك.

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

(٢) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٨٩- ٩٠، (فتح الباري) ١/ ٩٩، (التمهيد) لابن عبد البر ٩/ ٢٤٨، (الوسيط) للواحدي ٤/ ١٦٠، (الجامع لأحكام القرآن) ١٦/ ٣٤٨، (الإيمان) لابن تيمية صـ ٢٢٥- ٢٣٩، (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٨، (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٤٠، (أضواء البيان) ٧/ ٦٣٧- ٦٣٩.

(٣) في (بدائع الفوائد) ٤/ ١٧.

ومنها أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاءً لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان.

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون؛ كما كذبهم في قولهم: (نشهد إنك لرسول الله) لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ ولو كانوا منافقين لما منَّ عليهم.

ومنها أنه قال: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، ولا ينافي هذا قوله (قل لم تؤمنوا) فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنّ عليهم بهدايتهم للإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا، وتركت فلانًا وهو مؤمن. فقال: أو مسلم ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان.

والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان. فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها».

ويؤخذ من الآية أن الإيمان أخص من الإسلام فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً. كما أن الإحسان أخص من الإيمان- كما دل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

ويدل عليه أيضًا حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» فسكتُّ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، فقلت: مالك عن فلان، فوالله إني لآراه مؤمنًا فقال: «أو مسلمًا» ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا سعد إني

لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار»[١].

فقوله ﷺ: «أو مسلمًا» يدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

كما يدل أيضًا على أن هذا الرجل ليس بمنافق، بل هو مسلم لأنه ﷺ تركه من العطاء ووكله إلى إسلامه.

قال ابن كثير[٢]: «فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك- وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير[٣]- قال: «وإنما قلنا هذا لأن البخاري- رحمه الله - ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله (ولكن قولوا أسلمنا) أي: استسلمنا خوف القتل والسباء». قال ابن كثير: والصحيح الأول: أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدِّبُوا وأُعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد».

والإيمان، في اللغة: التصديق. وفي الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان. والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. والإسلام والإيمان من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت،وإذا افترقت اجتمعت.

فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمعا حمل الإسلام على الأعمال الظاهرة، وحمل الإيمان على الأعمال الباطنة كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- باب إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة ٢٧، ومسلم في الإيمان- تألف من يخاف على إيمانه لضعفه ١٥٠، وأبو داود في السنة ٤٦٨٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٢، وأحمد ١/ ١٧٦.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٦٨.

(٣) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٩٠.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٥، ٣٦].

وكما دل عليه حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وجعل يديه على فخذيه فسأله عن الإسلام، فقال له: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. فقال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإيمان فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإحسان فقال: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث(١).

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الطاعة فعل المأمور واجتناب المحذور أي: وإن تطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسمه عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم؛ لأن هذا في باب التشريع؛ وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ بل هي طاعة لله كما قال عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

بخلاف باب المشيئة والإرادة فلا يجوز العطف فيه بالواو.

﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم من أعمالكم وأجورها شيئًا ولو كان مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الآية:٢١].

والمعنى: وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من أعمالكم وثوابها شيئًا، بل ستجدون ثوابها عند الله كاملاً أوفر ما يكون، بل ومضاعفًا الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

فهو عز وجل غفور لمن تاب وأناب إليه يستر ذنبه ويتجاوز عن عقوبته. رحيم به حيث وفقه للتوبة وقبلها منه.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة لقرب مغفرة الله منهم.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.

«إنما»: أداة حصر - والحصر، معناه: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

فاسم المؤمنين ووصفهم محصور بمن اتصفوا بهذه الصفات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والمعنى: إنما المؤمنون الكُمَّل، الذين يستحقون وصف الإيمان المطلق ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: آمنوا بالله فشهدوا أن لا إله إلا الله، فآمنوا بوجوده وبربو بيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: وآمنوا برسوله أي: صدقوا برسوله محمد ﷺ، فشهدوا أن محمدًا رسول الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، واجتنبوا ما عنه نهى وزجر، ولم يعبدوا الله إلا بما شرع. فلا يتم الإيمان إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ومن لازم الإيمان بالله ورسوله الإيمان بكل ما جاء عن الله ورسوله من الأوامر

والنواهي وغير ذلك كبقية أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره وغير ذلك، فهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، «ثم» للترتيب والتراخي والمهلة.

والريب: الشك، أي: ثم استمروا على الإيمان مع طول المدة، ولم يحصل عندهم ريب ولا شك في إيمانهم بالله ورسوله، وما جاءهم عن الله ورسوله، بل عندهم اليقين والتصديق الجازم في ذلك مع الثبات عليه.

كما قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان:٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

﴿وَجَاهَدُوا﴾ الجهاد: بذل الجهد وما يستطيعه الإنسان.

﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ الأموال كل ما يتمول من النقود والأثاث والمراكب وغير ذلك.

﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: بذلوا أنفسهم ومهجهم رخيصة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فبذلوا جهدهم بالمال والنفس والنفيس في سبيل الله لإعلاء كلمة الله عز وجل قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

وقدَّم الجهاد بالأموال لأهميته؛ لأن الجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالمال لتمويل المجاهدين بالغذاء والمراكب والسلاح وغير ذلك.

ولأن الجهاد بالمال يسبق الجهاد بالنفس إذ لا بد من تهيئة المجاهدين وإعدادهم وإمدادهم قبل دخول المعركة؛ ولأن المجاهد بالمال قد يجهز عددًا كبيرًا من المجاهدين إلى غير ذلك.

لهذا نجد القرآن الكريم يقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس في جميع

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

المواضع التي ورد فيها عدا قوله تعالى في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الآية:١١١].

وجعل عز وجل كلا من بذل المال والنفس في سبيل الله جهادًا؛ ليأخذ كل نصيبه من الجهاد، فهناك من يستطيع الجهادين، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالنفس لكنه يستطيع الجهاد بالمال، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالمال ولكنه يستطيع الجهاد بالنفس.

وذكر الجهاد بالأموال والأنفس- بعد الإيمان بالله ورسوله، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام كما قال ﷺ في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»(١).

فالقيام بالجهاد، من أعظم الأدلة على قوة الإيمان؛ فإن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه من باب أولى وأحرى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم، الذي صدقوا مقالهم بفعالهم فجمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به رسوله كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

كما قال الحسن رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»(٢).

فتجد الكثير من الناس يهمهم ويحوقل، ويقول: يا الله التوبة، وهو غارق في المعاصي مفرّط في جنب الله، ومقصر في حقوق الخلق، وإذا سمعت كلامه قلت ما شاء الله هذا من صفوة الأخيار لكن إذا سبرت أحواله في تعامله سواء في القيام بحقوق الله أو حقوق الخلق زهدت فيه.

وما أكثر هؤلاء. وقد قيل:

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن٣٩٧٣ .

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

وكـل يـدعي وصـلاً بلـيلى ... ولـيلى لا تقـر لهـم بـذاكا(١)

وقيل:

والـدعاوى إن لم يقيمـوا عليهـا ... بينـات أبناؤهـا أدعيـاء

وقيل أيضًا:

لـولا المشـقة سـاد النـاس كلهـم ... الجـود يفقـر والإقـدام قتـال(٢)

قوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الآية، الأمر للنبي ﷺ - وهذا في معرض الرد على الأعراب في دعواهم وقولهم آمنا، وعلى غيرهم ممن يحذو حذوهم في مثل هذه المقالة، أي: أتعلمون الله وتخبرونه بما في قلوبكم وما تنطوي عليه ضمائركم.

والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار.

ويؤخذ من هذا الإنكار على من ينطق بالنية، فيقول: اللهم إني أريد أن أتوضأ، اللهم إني أريد أن أصلي، اللهم إني أريد أن أصوم ونحو ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ العلم هو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا و(ما) موصولة- تفيد العموم، أي: يعلم الذي في السموات والذي في الأرض ولهذا قال بعده توكيدًا:

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء قل أو كثر، صغر أو كبر، خفي أو ظهر، بما في ذلك ما تنطوي عليه القلوب والضمائر كما قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر :١٩].

وقال عز وجل ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

---

(١) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

(٢) البيت للمتنبي. انظر «ديوانه» ص٥٣١.

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما قال «قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ، فتكلموا، فقالوا: قاتلتك مضر ولم نقاتلك ولسنا بأقلهم عدداً، ولا أكلِّهم شوكة، وصلنا رحمك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر- رضي الله عنهما: أتقولان هكذا؟ فقالا: لا. قال: «إن فقه هؤلاء قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم». قال عطاء في حديثه: فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾»(١).

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يمن عليك يا محمد هؤلاء الأعراب ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ويغترون بذلك ويُدِلُّون به.

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: يمنون عليك بأن أسلموا، أي: يمنون عليك بإسلامهم ويُدِلُّون به.

ومعنى ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾، أي: أن دخلوا في الإسلام ظاهرًا.

لأن قولهم: ﴿آمَنَّا﴾: إما من باب التعليم لله، وهذا سوء أدب مع الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالهم وغيرها.

وإما من باب الإدلال على الله بذلك، والمنة بذلك، وأنهم كذا وكذا: تكثرًا بما ليس فيهم، وذلك مذموم؛ لأن المنة تبطِل وتفسد الصنيعة وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر:٦].

﴿قُل﴾ يا محمد ردًا عليهم في دعواهم: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

أي: بل المنة والفضل لله عز وجل عليكم بذلك أن هداكم للإيمان الذي هو أعظم

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» في التفسير- قوله تعالى: (يمنون عليك أن أسلموا) ٦/ ٤٦٧ رقم ١١٥١٩، وأبو يعلى في مسنده ٤/ ٢٥٠ رقم ٢٣٦٣، والضياء المقدسي في «المختارة» ١٠/ ٣٤٥ رقم ٣٧٣، والطبراني في «الأوسط» ٧/ ١٩٦ (٧٢٥٦).

نعمة وأكبر منة منه عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٦٩، ٧٠].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم الإيمان. والله بذلك أعلم سبحانه.

كما قال النبي ﷺ للأنصار: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الغيب في الأصل ما غاب عن الأعين، ولم تدركه الحواس.والله عز وجل لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فكل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق هو عنده سبحانه ظاهر معلوم، لأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٨].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير: «يعملون» بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

(ما): مصدرية، أو موصولة، أي: بصير بعملكم، أو بالذي تعملون.

أي: والله بصير بأعمالكم، مطلع عليها يحصيها عليكم، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهذا فيه وعيد وتهديد لمن خالف أمر الله عز وجل، ووعد لمن امتثل أمر لله وأطاعه.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على هؤلاء الأعراب ونفي ما ادعوه لأنفسهم من الإيمان كأنهم يعلِّمون الله بدينهم وليس معهم في الحقيقة إلا الإسلام الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤/ ٤٢ من حديث زيد بن عاصم رضي الله عنه.

٢- أن الأعراب سكان البادية هم أقرب إلى الجفاء والجهل.

٣- أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وأن الإيمان في البواطن والقلوب والإسلام علانية.

٤- أن الحقائق لا تثبت بالدعاوى والأمانيّ.

٥- أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا منافقين، إذ لو كانوا منافقين لما أثبت لهم الإسلام ولنفاه عنهم، كما نفى عنهم الإيمان.

٦- أن هؤلاء الأعراب لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولم يتمكن منها وقت نزول هذه الآيات وإن كان قارب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٧- الترغيب في طاعة الله ورسوله، وأن من أطاع الله ورسوله سيوفّى أجره تاماً لا ينقص منه شيء وفاءً منه- عز وجل- وعدلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾.

٨- وجوب طاعة الرسول ﷺ، وأنها من طاعة الله- عز وجل.

٩- إثبات أنه عز وجل ذو المغفرة وذو الرحمة الواسعتين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٠- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدَّم صفة المغفرة؛ لأن بها زوال المرهوب، ثم أتبعها بصفة الرحمة التي بها حصول المطلوب.

١١- أن المؤمنين الصادقين حقًّا هم الذين آمنوا بالله ورسوله من غير شك، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

وفي هذا وصف لهم وثناء من الله- عز وجل- عليهم، كما أن فيه إشارة لبعد هؤلاء الأعراب عن منزلتهم.

١٢- تلازم الإيمان بالله ورسوله، فلا يصح الإيمان بالله دون الإيمان بالرسول، ولا الإيمان بالرسول دون الإيمان بالله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

١٣- التحذير من الارتياب والشك في الدين، وأنه منافٍ للإيمان بالله ورسوله؛

لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.

١٤- عظمة مكانة الجهاد بالأموال والأنفس في الإسلام، لأن الله خصه هنا بالذكر من بين أعمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٥١- أهمية الجهاد بالأموال، لأن الله قدمه على الجهاد بالأنفس؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

١٦- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله، أي: خالصًا لله تعالى؛ لإعلاء كلمته، وموافقًا لشرعه.

١٧- الإنكار على هؤلاء الأعراب تعليمهم الله بدينهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

١٨- علم الله- عز وجل- المحيط بما في السموات والأرض وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٩- منة هؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم جهلاً منهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

٢٠- تشريفه عز وجل للنبي ﷺ بخطابه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾.

٢١- وجوب الأدب مع الله- عز وجل- ومع رسوله ﷺ وتحريم المنة والإدلال بالعمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾.

٢٢- لا منة لهؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم بل المنة لله- عز وجل عليهم وعلى الخلق كلهم، وعلى المؤمنين خاصة بهدايتهم للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

٢٣- أن الهداية للإيمان والتوفيق إليه، بيد الله تعالى وحده، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

٢٤- إثبات إحاطة علمه عز وجل بغيب السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢٥- بصره عز وجل واطلاعه على العباد وأعمالهم، وإحصاؤه إياها ومجازاتهم عليها.

وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا يوجب مراقبة الله تعالى على الدوام في جميع الأحوال والأعمال.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسـير سورة الزخرف ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ - موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ...﴾ الآيات [١-١٤] ١١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ...﴾ الآيات [١٥-٢٥] ٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ...﴾ الآيات [٢٦-٣٥] ٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ...﴾ الآيات [٣٦-٤٥] ٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ...﴾ الآيات [٤٦-٥٦] ٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ...﴾ الآيات [٥٧-٦٥] ٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ...﴾ الآيات [٦٦-٨٠] ٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ...﴾ الآيات [٨١-٨٩] ٨٠
تفسـير سورة الدخان ٨٥
المقدمة ٨٧
أ- اسم السورة: ٨٧
ب- مكان نزولها: ٨٧

جـ - موضوعاتها: ٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ...﴾ الآيات [١-١٦] ٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ...﴾ الآيات [١٧-٣٣] ١٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ...﴾ الآيات [٣٤-٤٢] ١١١
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ...﴾ الآيات [٤٣-٥٩] ١١٦
تفسير سورة الجاثية ١٢٥
المقدمة ١٢٧
أ- اسم السورة: ١٢٧
ب- مكان نزولها: ١٢٧
جـ - موضوعاتها: ١٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ...﴾ الآيات [١-١١] ١٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ ...﴾ الآيات [١٢-٢٠] ١٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ ...﴾ الآيات [٢١-٢٦] ١٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ...﴾ الآيات [٢٧-٣٧] ١٥٧
تفسير سورة الأحقاف ١٦٧
المقدمة ١٦٩
أ- اسم السورة: ١٦٩
ب- مكان نزولها: ١٦٩
جـ- موضوعاتها: ١٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ...﴾ الآيات [١-٩] .. ١٧٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ...﴾ الآيات [١٠-٢٠] ١٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ...﴾ الآيات [٢١-٢٨] ٢٠٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ...﴾ الآيات [٢٩-٣٥] ٢٠٩
تفسير سورة محمد ﷺ ٢٢١
المقدمة ٢٢٣
أ- اسم السورة: ٢٢٣
ب- مكان نزولها: ٢٢٣
جـ- موضوعاتها: ٢٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ...﴾ الآيات [١-٩] ٢٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ الآيات [١٠-١٩] ٢٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ...﴾ الآيات [٢٠-٢٨] ٢٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ...﴾ الآيات [٢٩-٣٨] ٢٦١
تفسير سورة الفتح ٢٧٣
المقدمة ٢٧٥
أ- اسم السورة: ٢٧٥
ب- مكان نزولها: ٢٧٥
جـ- فضلها: ٢٧٥
د- موضوعاتها: ٢٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...﴾ الآيات [١-١٠] ٢٧٨

تفسير قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ...﴾ الآيات [١١-١٩]..... ٢٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ...﴾ الآيات [٢٠-٢٩]. ٣٠٥
تفسير سورة الحجرات..... ٣٢٣
المقدمة ٣٢٥
أ- اسم السورة:..... ٣٢٥
ب- مكان نزولها:..... ٣٢٥
جـ- موضوعاتها: ٣٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ الآية [١]٣٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾ الآيتان [٢، ٣]..... ٣٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ...﴾ الآيتان [٤، ٥]..... ٣٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ...﴾ الآيات [٦-٨] ٣٤٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ...﴾ الآيتان [٩، ١٠]..... ٣٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ...﴾ الآية [١١]..... ٣٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ...﴾ الآية [١٢]..... ٣٦٧
تفسير قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ...﴾ الآية [١٣]..... ٣٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ...﴾ الآيات [١٤-١٨] ٣٨٢
فهرس الموضوعات ٣٩٧

* * *

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الحادي والعشرون

تفسير سورة ق والذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والحديد

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

(٢١)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٠٩ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ قٓ

وهي أول حزب المفصل على الصحيح وأول طواله

المقدمة

عن أوس بن حذيفة رضي الله عنه قال: «سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده»[١].

قال ابن كثير رحمه الله[٢] في مطلع كلامه على سورة ﴿قٓ﴾: «وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح»، واستدل بحديث أوس بن حذيفة رضي الله عنه ثم قال مفصلاً لما جاء في هذا الحديث:

«فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ﴿قٓ﴾، بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء، وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، وألم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة ﴿قٓ﴾، وهو الذي قلناه ولله الحمد والمنة».

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة ق»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿قٓ﴾، وتسمى أيضًا: «سورة الباسقات»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [١٠].

ب- مكان نزولها:

مكية.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة – باب تحزيب القرآن ١٣٩٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ في كم يستحب ختم القرآن ١٣٤٥، وأحمد ٤/ ٩.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٠ – ٣٧١.

جـ- فضلها:

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر: بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وكانت صلاته بعدُ تخفيفًا»(١).

وعن قطبة بن مالك رضي الله عنه: «أنه صلى مع النبي ﷺ الصبح، فقرأ في أول ركعة: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق:١٠] وربما قال «ق»»(٢).

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها قالت: «ما حفظت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا من فِي رسول الله ﷺ؛ يخطب بها كل جمعة»(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل أبا واقد الليثي: «ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بـ﴿قٓ﴾ و«اقتربت»»(٤).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة «ق» ببيان إعجاز القرآن الكريم وتعظيمه: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾.

٢- تعجب الكفار أن جاءهم منذر منهم، وإنكارهم للبعث، وتكذيبهم بالحق والرد عليهم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

٣- توبيخ المكذبين بالبعث؛ كيف لم ينظروا ويتأملوا في آيات الله المنتشرة في الكون، وفي نعمه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٥٨، وأحمد ٥/ ٩١، ١٠١، ١٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٥٧، والنسائي في الافتتاح ٩٥٠.

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة تحقيق الصلاة والخطبة ٨٧٣، وأبو داود في الصلاة الرجل يخطب على قوس ١١٠٠، والنسائي في الافتتاح ٩٤٩، وأحمد ٦/ ٤٣٥- ٤٣٦.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة العيدين ٨٩١، وأبو داود في الصلاة- ما يقرأ في الأضحى والفطر ١١٥٤، والنسائي في العيدين ١٥٦٧، والترمذي في الجمعة ٥٣٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة- القراءة في صلاة العيدين ٢٨٢، وأحمد ٥/ ٢١٧- ٢١٨.

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

٤- ذكر تكذيب الأمم قبلهم لرسلهم وإهلاكهم بما توعدوا به من العذاب: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

٥- أن من قدر على الخلق الأول فهو على الخلق الثاني أقدر: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

٦- بيان تمام قدرة الله تعالى في خلق الإنسان، وعلمه بما توسوس به نفسه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٧- شهادة القرين على الإنسان بأعماله السيئة من الكفر والشرك ومعاندة الحق، ومنع الخير، والاعتداء، والريب، وغير ذلك: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

٨- الترهيب من جهنم وعذابها، والترغيب بالجنة ونعيمها: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

٩- التذكير- لأخذ العظة والعبرة- بإهلاك كثير من القرون قبلهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

١٠- بيان عظمته تعالى وتمام قدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

١١- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بأمره بالصبر والتسبيح بحمد ربه في جميع الأوقات، وتهديد المكذبين بالقيامة وأهوالها: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾:

قوله: ﴿قٓ﴾، «ق»: من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها بعض السور. وقد افتتح الله عز وجل تسعًا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كقوله: «الم، المص، الر، المر، كهيعص، طه، طسم، طس، يس، ص، حم، حم عسق، ق، ن».

واختلفوا هل تعد هذه الحروف آيات أو لا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء، وإنما يعدها آيات الكوفيون».

قلت: وعلى قول الكوفيين جاء ترقيم وعد آيات المصحف حيث عدت هذه الحروف آية من السورة التي جاءت فيها عدا: «حم، عسق» فعدوها آيتين من السورة، وعدا: «الر، المر، طس، ص، ق، ن» فعدوها بعض آية من السورة.

كما اختلفوا في إعرابها.

فذهب الخليل وسيبويه وأكثر المعربين إلى أنها حروف هجاء محكية لا محل لها من الإعراب.

وذهب بعضهم إلى أنها معربة ومحلها الرفع على الابتداء لخبر مقدر، أو على الخبر لمبتدأ مقدر، وقيل: محلها النصب على المفعول به بتقدير: اقرأ «الم» ونحو ذلك، وقيل: محلها الجر بالقسم.

والراجح القول الأول: أنها لا محل لها من الإعراب.

---

(١) في (مجموع الفتاوي) ٢٠/ ٤٢٠.

كما اختلف المفسرون سلفًا وخلفًا في المراد بهذه الحروف.

فذهب جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، واختار هذا بعض المفسرين، منهم جلال الدين السيوطي[١] والشوكاني[٢]، والسعدي، وغيرهم قال السعدي[٣]: «وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثًا، بل لحكمة لا نعلمها».

وذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الحروف ليست من المتشابه لكنهم اختلفوا في المراد بها اختلافًا كثيرًا وحكي في ذلك نحو ثلاثين قولاً.

فقيل: هي حروف يتكون منها اسم الله الأعظم، وقيل: هي أسماء للسور المفتتحة بها، وقيل: هي من أسماء القرآن، وقيل: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها.

وقيل: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها. وقيل: هي فواتح يفتتح الله بها القرآن، وقيل: للدلالة على انتهاء السورة التي قبلها، وافتتاح ما بعدها. وقيل هي حروف يشتمل كل حرف منها على معانٍ شتى مختلفة، وقيل: هي أسماء للرسول ﷺ. وقيل: هي لصرف أسماع المشركين إلى القرآن الكريم، لما تواصوا بعدم سماع القرآن، وقيل: هي حروف من حساب الجمل. وقيل: هي تنبيه كـ «يا» النداء.

وأقرب الأقوال في المراد بها: القول بأنها حروف من حروف الهجاء كما قال مجاهد[٤]. فهي حروف هجائية لا معنى لها بحد ذاتها لكن لذكرها مغزى وحكمة، وهي بيان إعجاز القرآن الكريم، وبيان أن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من هذه الحروف الهجائية التي يتخاطبون بها، ويؤيد صحة هذا القول أمران:

الأول: أن القول بأن لها مغزى وحكمة فيه بيان أن لها فائدة عظيمة- وإن كانت في حد ذاتها حروفًا من حروف الهجاء المعروفة ليس لها معنى؛ بخلاف القول بأنها من

---

(١) انظر (الإتقان) ٤/ ٣، ١٨.

(٢) انظر (فتح القدير) ١/ ٣٢.

(٣) في (تيسير الكريم الرحمن) ١/ ٣٩.

(٤) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ١/ ٢٠٨.

المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ لأن الله عز وجل خاطب العرب بما يعرفون وبذلك قامت عليهم الحجة كما قال سبحانه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، كما أن بقية الأقوال التي قيلت في المراد بها لا دليل عليها، ولا حكمة تظهر منها ولا فائدة.

الثاني: أن جميع السور المفتتحة بالحروف المقطعة يذكر فيها بعد هذه الحروف غالبًا: الثناء على القرآن الكريم وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه، كقوله في مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وكقوله: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، وكقوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

وبهذا قال جمع من أهل اللغة واختاره الزمخشري[١]، والرازي[٢]، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمزيّ وابن القيم[٣] وابن كثير[٤]، ومحمد رشيد رضا[٥]، والشنقيطي[٦] والعثيمين[٧] وغيرهم.

قال ابن كثير[٨]: «وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، قال: وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في (كشافه) ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية».

قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ الواو حرف قسم وجر، و(القرآن) مقسم به مجرور،

---

(١) انظر (الكشاف) ١/ ١٣- ١٨.

(٢) انظر (التفسير الكبير) ١/ ٣- ١٢.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩.

(٤) انظر (تفسير ابن كثير) ٧/ ٥٩.

(٥) انظر (تفسير المنار) ٨/ ٢٩٦.

(٦) انظر (أضواء البيان) ٣/ ٥.

(٧) انظر «تفسير القرآن الكريم» للشيخ العثيمين ١/ ٢٢ـ ٢٣.

(٨) في (تفسيره) ١/ ٣٨ في الكلام على مطلع سورة البقرة. وانظر الكلام على مطلع سورة «ن».

والمقسِم بالقرآن هو الله عز وجل.فأقسم عز وجل بالقرآن وهو كلامه وصفة من صفاته.

وسمي القرآن بهذا الاسم لأنه مقروء متلو أخذاً من «قرأ» إذا تلا، ولأنه أيضا مجموع آيات وسور أخذاً من «قَرَى» إذا جمع، ومنه سميت القرية لأنها تجمع أُناساً كثيرين، وسمي مجمع الماء «قَرْواً» لاجتماع الماء فيه.

و«القرآن» في الشرع: كلام الله- عز وجل- المنزل على الرسول ﷺ المتعبد بتلاوته والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

و﴿ٱلْمَجِيدِ﴾: العظيم الواسع الكريم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١] والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها. فهو الكتاب العظيم الواسع الكريم، واسع الأوصاف، عظيم المعاني، ذو السلطان المطلق، والهيمنة التامة على جميع الكتب يهدي للتي هي أقوم، وفيه البشارة والدعوة إلى كل خير، والنذارة والتحذير من كل شر، والأخبار والغيوب السابقة واللاحقة.

قال ابن القيم(١): «وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده؛ ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه؛ أو لأن المقصود نفس المقسم به».

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾، أي: بل عجب المكذبون للرسول ﷺ، عجب استغراب وإنكار وتكذيب.﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: أن جاءهم رسول منهم ينذرهم عذاب النار لمن كفر وخالف أمر الله- مع البشارة بالجنة لمن آمن وأطاع الله؛ لأن مهمة الرسل هي البشارة والنذارة كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٧.

وإنما اكتفى - هنا - بذكر النذارة فقط - والله أعلم - لأن الكلام مع الكافرين المكذبين.

وقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾، أي: لا من غيرهم، بل منهم وبلسانهم؛ لتقوم الحجة عليهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

وقال عز وجل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨، ١٩٩].

ولا شك أن من نعمة الله عز وجل عليهم كون القرآن بلغتهم، والرسول بلسانهم؛ ليتبعوه، لا ليتعجبوا ويستغربوا وينكروا ويكذبوا، ولا ليحتقروه ويحسدوه، كما قال الله عز وجل عن قوم صالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٣- ٢٥].

وقال تعالى: عن قريش أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

وجعله منهم لا لأجل أن يطالبوه بما ليس في مقدوره، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: الجاحدون لتوحيد الله وشريعته، جهلاً منهم وظلمًا.

﴿شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ يشيرون إلى مجيء المنذر لهم بالبعث والحساب بعد الموت أي: هذا الأمر وهو أن نبعث بعد الموت أمر وشيء في غاية العجب، كيف يحصل هذا؟؟

فتعجبوا من غير عجيب، واستغربوا أمرًا غير غريب، كما قال عز وجل: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ

ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:١، ٢].

فكيف يتعجبون من رحمة الله تعالى، للخلق بإرسال الرسل، وإنزال الكتب لهدايتهم لما فيه سعادتهم في أمر دينهم ودنياهم، وذلك ببيان طريق الخير، والأمر باتباعه، والبشارة لمن اتبعه، وبيان طريق الشر، والنهي عن اتباعه، والنذارة لمن اتبعه

. فليس في هذا ما يثير العجب، ويجعلهم ينسبون ذلك إلى السحر، لولا كفرهم وعنادهم، بل إن العجب كل العجب هو كفرهم وتكذيبهم بالبعث كما قال عز وجل: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد:٥].

ثم ذكر عز وجل وجه تعجبهم وهو قولهم:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾.الاستفهام للإنكار والتكذيب، فهم ينكرون البعث ويرونه ضربًا من المستحيل.

والموت: هو خروج الروح ومفارقتها للجسد.

﴿وَكُنَّا تُرَابًا ﴾، أي: وبلينا وتقطعت الأوصال منا وتحولت أجسامنا إلى تراب.

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ﴾ الإشارة للبعث الذي يوعدون به وأشاروا إليه بإشارة البعيد «ذلك» استبعاداً له.

والمراد بالرجع: الرجوع، أي: رجوع الحياة إلى الأجسام وإلى هذه البنية والتركيب وبعثها بعد الموت وبعد كونها ترابًا.

﴿بَعِيدٌ ﴾ أي: بعيد الوقوع، مستحيل غير ممكن؛ لأنهم ينكرون البعث، كما حكى الله عنهم ذلك في أكثر من موضع، قال تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٣٨].

فرد الله عليهم بقوله:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ (قد) للتحقيق، أي: تحقيق علمه- عز وجل، أي: قد علمنا الذي تأكل الأرض من أجسادهم بعد البلى مدة مقامهم في البرزخ، وأين تفرقت، وإلى أي شيء صارت وتحولت.

وفي قوله: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن الأرض لا تأكل كل الأجساد. فالأنبياء- عليهم السلام- حرم الله على الأرض أكل أجسادهم، كما قال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»(١).

كما يبقى من جميع الأجساد عجب الذنب، لا تأكله الأرض، منه يركب الإنسان ويعاد خلقه كما قال ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»(٢).

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، أي: وعندنا كتاب يحفظ ذلك كله، وهو اللوح المحفوظ، و(حفيظ) على وزن (فعيل) صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حفيظ لكل شيء من أجسادهم وأعمالهم وأحوالهم وغير ذلك، محفوظ عن التغيير والتبديل.

فعلمه عز وجل شامل، وكتابه حافظ، وهذا يدل على أنه عز وجل لكمال وسعة علمه وتمام قدرته قادر على بعث الخلق بعد الموت والبلى، وأن البعث أيضًا لهذه الأجساد والأرواح التي عاشت في الدنيا فأطاعت أو عصت لِتُنَعَّمَ أو تعذب، لا أن البعث خَلْقٌ لأجساد وأرواح أخرى كما زعم بعض منكري البعث.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بل: للإضراب الانتقالي، أي: إن الذي حملهم على التعجب مما لا يثير العجب، وإنكار البعث بعد الموت والكفر هو تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند الله في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ الفاء للتعقيب والسببية، أي: فهم بسبب تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند الله في أمر مختلط غاية الاختلاط مختلف مضطرب ملتبس لا يحصلون منه على شيء، بل هم مضطربون مختلفون بسبب ذلك، لا يثبتون على أمر، ولا يستقرون على حال، كما قال عز وجل عنهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٠٤٧، والنسائي في الجمعة- إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة ١٣٧٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة- فضل الجمعة ١٠٨٥، من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١٤، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٥، وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الذاريات:٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ:١- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

فتارة يقولون عن الرسول الله ﷺ: ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.

وكذا قالوا في القرآن فجعلوه (عضين) أي: أجزاء بعضها صدق وبعضها باطل- كما زعموا.

وكذا اختلفوا في البعث بعد الموت والحساب بعده بين مصدق ومكذب.

وهكذا فإن الكفر والبعد عن الحق حيرة واضطراب وتذبذب وشقاء في الدنيا والآخرة.

كما أن الإيمان واتباع الحق طمأنينة وثبات وسعادة في الدنيا والآخرة، نسأل الله الهداية والتوفيق.

قال ﷺ: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إعجاز القرآن وبلوغه أعلى درجات الفصاحة والبلاغة بألفاظه ومعانيه وأحكامه وحِكمه وأخباره، وتحدي العرب به؛ لقوله تعالى: ﴿قٓ﴾.

٢- إقسام الله- عز وجل- بالقرآن المجيد- تعظيماً له، وبياناً لسعة أوصافه، وما اشتمل عليه من الهدى، وأنه حق وصدق من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

٣- عظم منزلة القرآن الكريم وعلو مكانته عند الله- عز وجل- مما يوجب على الأمة تعظيمه والاهتداء بهديه واتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧، من حديث عائشة رضي الله عنها.

٤- جواز الإقسام بالقرآن؛ لأنه كلام الله تعالى، وصفة من صفاته. أما الإقسام بحق القرآن- كما يفعله الكثيرون- فلا يجوز؛ لأن حق القرآن هو عمل المقسِم.

٥-تعجب الكافرين من أمر لا يثير العجب وهو مجيء الرسول ﷺ يخبرهم بالبعث وينذرهم عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

٦- نعمة الله- عز وجل- على العرب بجعل الرسول منهم، ويتكلم بلسانهم، وإنزال القرآن بلغتهم، وهذا أقوم للحجة عليهم.

٧- إنكار الكافرين للبعث بعد الموت واستبعادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

٨- علم الله- عز وجل- التام بما تنقص الأرض من الأجساد بعد البلى وقدرته التامة على جمعها بعد التفرق وبعثها بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

٩- الإشارة إلى أن من الأجساد ما لا تأكله الأرض، وهي أجساد الأنبياء عليهم السلام، وعجب الذنب من كل إنسان؛ لقوله: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

١٠- إثبات اللوح المحفوظ الذي يحفظ كل شيء من أعمال الخلق وأحوالهم، وأين كانت أجزاؤهم، وغير ذلك، والمحفوظ من التبديل والتغيير؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾.

١١- تكذيب الكفار بالحق الذي جاءهم في القرآن وعلى لسان الرسول ﷺ، واختلافهم واضطرابهم بسبب ذلك، وهذه عقوبة من كذب بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

ذَكَر الله- عز وجل- استبعاد الكافرين للبعث بعد الموت بعد أن كانوا ترابًا، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته التامة، من خلق السموات والأرض والجبال، وإنزال الماء المبارك من السماء، وإنبات النبات بأنواعه وأشكاله المختلفة، رزقًا للعباد وإحياءً للبلدة الميتة؛ تبصرة وذكرى ودلالة على صحة آياته الشرعية وصدق رسوله ﷺ وعلى قدرته سبحانه على إحياء الأجساد بعد موتها.

وكثيرًا ما يوجه عز وجل الأنظار للتأمل في آياته الكونية الدالة على صحة آياته الشرعية، وعلى قدرته التامة على البعث وعلى كماله سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون ما سواه مما يوجب على الإنسان التأمل في هذه الآيات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧- ٣٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي: أعموا أو أغفلوا فلم ينظروا إلى السماء نظر بصر بالعين، ونظر تفكر بالقلب.

﴿فَوْقَهُمْ﴾ فيه إشارة إلى علوها وارتفاعها وسعتها وعظمتها.

﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: كيف بنيناها بقوة كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقوة، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢].

وجعلناها قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: وجملناها بالنجوم والمصابيح. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ الفروج: الشقوق والصدوع والفتوق.

والمعنى: أغفلوا فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وجملناها بالنجوم والمصابيح، وما لها من فتوق أو صدوع أو شقوق، بل هي على أكمل وأقوى وأجمل خلقة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٣- ٥].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها ممتدة مفروشة مبسوطة واسعة قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الرعد:٣]، وقال تعالى في سورة الحجر ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الآية:١٩]، وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الآية:٤٨].

وتذكر السماء- غالباً- قبل الأرض لعلو السماء وارتفاعها وصغر الأرض بالنسبة لها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، أي: جعلنا فيها، أي: في الأرض رواسي وهي الجبال، التي ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بأهلها.

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات:٢٧].

قال ابن كثير[1]: «﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب،

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٤.

فإنها مُقَرَّة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها».

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ الزوج: هو الشفع ضد الوتر، أي: أنبتنا فيها من كل صنف من أنواع النباتات والزروع والثمار والفواكه وغيرها.

كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

﴿بَهِيجٖ﴾، أي: حسن نضر جميل، يبهج القلب والنفس مرآه، من الحدائق ذات الأشجار والأزهار والثمار مما يحار الطرف في حسنه.

كما قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل:٦٠]، البهجة حسن اللون وظهور السرور، أي: ذات جمال وحسن يبهج النفوس ويسر القلوب.

﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ التبصرة: ما يجعل الإنسان يتبصر باستمرار من عمى الجهل ويتفكر ويتأمل، ويستعمل بصره الظاهر وبصيرته الباطنة، فيتأمل في هذه المخلوقات العظيمة، فهي من آيات الله العظيمة الدالة على عظمته واستحقاقه للعبادة كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ الذكرى: ما يجعل الإنسان يتذكر ويتعظ، فلا يغفل ولا ينسى، أي: يتذكر بها عظيم حق الله تعالى عليه، وتمام قدرته على البعث ووجوب الإقبال على طاعته عز وجل.

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾، أي: لكل عبد من عباد الله منيب، أي: خاضع خائف وجل رجَّاع إلى الله عز وجل مقبل على الله تائب إليه، بخلاف المكذب المعرض فلا ينتفع بهذه الآيات.

قال ابن القيم[1]: «تبصرة- إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها- تذكر ما دلت عليه، مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه».

والمعنى: أن النظر إلى هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والجبال

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٨، ١٩٥.

والنبات وما هي عليه من الإحكام فيه أعظم معين على التبصر والتذكر في عظيم خلق الله عز وجل، وكمال قدرته، وأن ذلك من آكد الأدلة وأقواها على قدرته عز وجل التامة على البعث بعد الموت، لمن وفقه الله عز وجل إلى التوبة والإنابة من العباد.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ يتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ وكذا ما قبله وما بعده من الضمائر؛ لأنه عز وجل هو العظيم حقًّا كما قال سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥، الشورى:٤].

وقوله ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ بتشديد الزاي؛ لأن المطر ينزل شيئاً فشيئاً لكي تتبلغ به الأرض وترتوي، ولأنه لو انصب بقوة لأضر بما ينزل عليه.

ويأتي ﴿أَنزَلْنَا﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨].

وذلك لأن المطر يتكاثر حتى تجري وتسيل منه الوديان.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: من العلو؛ لأن كل ما علا فهو سماء، والماء ينزل من السحاب الذي يتكون بين السماء والأرض كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

ومن الحكمة في كونه ينزل من السماء لأجل أن يشمل ويعم كل شيء؛ التلال وقمم الجبال والسهول والوهاد، وغير ذلك.

﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾، أي: ماءً نافعًا كثيراً خيره. والبركة: كثرة الخير.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ النبات هو ما يخرج من الأرض بعد نزول الماء عليها، أي: أخرجنا بهذا الماء المبارك .

﴿جَنَّٰتٍ﴾ «جنات»: جمع جنة بفتح الجيم، وهي الحدائق والبساتين المشتملة على أنواع الأشجار التي فيها مختلف الثمار، وسميت جنات؛ لأنها تجن وتستر من بداخلها بسبب أشجارها الكثيرة الملتفة.

ومن هنا سميت دار السلام ودار المتقين بالجنة؛ لأنها تجن وتستر من فيها لكثرة ما

فيها من أنواع الأشجار والخضرة والحبرة والنعيم نسأل الله تعالى من فضله وكرمه، مع البون الشاسع والفرق الواسع بين بساتين الدنيا وجنان الآخرة.

﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾، أي: وحب الزرع الذي يزرع ثم يحصد ويؤكل منه ويدخر من البر والشعير والذرة والأرز والدخن وغير ذلك.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ النخل: هي الأشجار ذات السيقان الطويلة وذات الثمر الذي يعد من أفضل الثمار ومن أهمها وأنفعها والذي يعد قوتًا كاملاً.

وخصها بالذكر لفضلها وشرفها، فهي أشرف الأشجار، شبه بها المؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤، ٢٥].

قال ﷺ: «شجرة تشبه أو كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا، ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، النخلة»(١).

وفي رواية: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن، هي النخلة»(٢).

ولهذا جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر»(٣).

وعن عروة بن الزبير عنها رضي الله عنها قالت: «إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت الأسودان: التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا»(٤).

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ طوالاً شاهقات يعجب منظرها الرائي.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم ٤٦٩٨، ومسلم في صفات المنافقين ٢٨١١، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجها البخاري في العلم- قول المحدث: حدثنا ٦١، ومسلم ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.

(٤) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٤.

قال ابن القيم[1]: «وأفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل».

﴿لَهَا طَلْعٌ﴾ الطلع: هو ثمرها الذي يخرج منها.

﴿نَّضِيدٌ﴾ فعيل بمعنى مفعول، أي: منضود، نضد بعضه على بعض.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾: حال، أو مفعول لأجله. والرزق: العطاء، أي: عطاءً منه عز وجل للعباد كلهم لمعاشهم، مؤمنهم وكافرهم، بل وناطقهم وبهيمهم، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ «ميتا» صفة لـ«بلدة»؛ لأنها مؤنثة اللفظ، مذكرة المعنى فصح أن توصف بمذكر «ميتا» أي: بلداً ميتا، أي: أحيينا بهذا الماء المبارك بلدة ميتة، أرضها وما فيها من الحيوانات تكاد تهلك من الجدب والقحط، فأصبحت تهتز خضراء، كما قال عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾، أي: فكما خلق الله عز وجل هذه المخلوقات العظيمة السموات والأرض والجبال وأنزل الماء من السماء وأحيا به الأرض بعد موتها كذلك يحيي الله الموتى، فتكون الإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لما تقدم من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى هنا.

وكثيرًا ما يستدل عز وجل بقدرته على خلق السموات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها على قدرته عز وجل التامة على البعث كما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر الآية ٥٧].

وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/ ١٩٥.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت:٣٩].

ويحتمل أن المعنى: مثل هذا الإخراج من الأرض للفواكه والثمار والأقوات والحبوب وإحياء الأرض بعد موتها خروجكم من الأرض إذا غيبتم فيها، فتكون الإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لما تقدم في الآيات من قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ إلى هنا.

الفوائد والأحكام:

١- التوبيخ والتقريع للكفار الذين كذبوا بالحق وأنكروا البعث، والإنكار عليهم في عدم نظرهم في آيات الله- تعالى- الكونية ودلائل قدرته على البعث ونعمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

٢- وجوب التأمل والتبصر في آيات الله الكونية، في السماء وشدة بنائها وتزيينها وحبكها، وفي الأرض وبسطها وتثبيتها بالرواسي، وإخراج النبات منها، وتذكر نعم الله- عز وجل- وعظم حقه على العباد، وكمال خلقه، وتمام قدرته على البعث.

٣- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله- عز وجل- وأنه إنما يتأمل في آيات الله ويتبصر بها ويتذكر من وفقه الله- عز وجل- لعبوديته- عز وجل- والإنابة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

٤- التذكير بنعمة الله- عز وجل- على العباد، وعظيم قدرته في إنزال المطر وإنبات الجنات وأصناف الحبوب والنخيل رزقاً للعباد وإحياءً للأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

٥- الاستدلال بخلق السموات والأرض وإنبات النبات وإحياء الأرض بعد موتها على قدرة الله- عز وجل- التامة على البعث بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ وإنكارهم البعث، ثم ذكر في هذه الآيات تكذيب الأمم قبلهم وما حل بهم من وعيد الله لهم وعقوباته، وأن من أعظم الدلائل على قدرته عز وجل التامة على البعث خلقهم الأول، فالذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى.

وفي هذا كله تهديد للمشركين، وتسلية للنبي ﷺ ببيان أن التكذيب هو ديدن كثير من الأقوام مع أنبيائهم.

كما أن فيه تقرير النبوة والمعاد، قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٢، ٥٣].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، أي: كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح نبي الله عليه السلام، والذي هو أول رسل الله، وأحد أولي العزم.

فقد دعاهم عليه السلام بشتى الطرق والأساليب، وتحبب إليهم بشتى الوسائل، فلم ينجع ذلك فيهم، فبين لهم ما أعده الله لمن أجاب رسل الله من الخير والثواب في الدنيا والآخرة، وما توعد به المكذبين لرسله من العقوبات في الدنيا والآخرة قال عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:٥- ١٨] فكذبوه فأهلكهم الله بالغرق.

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾، أي: وكذب أصحاب الرس. والرس: الماء الكثير، وقيل الماء القليل، وقيل: البئر غير المطوية.

﴿وَثَمُودُ﴾، أي: وكذبت ثمود، وهم قوم صالح عليه السلام، فقد كذبوا نبيهم

صالحًا عليه السلام فأهلكهم الله بالصيحة الطاغية والصاعقة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم.

ومساكنهم هي المعروفة بمدائن صالح في العلا شمال الجزيرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

﴿وَعَادٌ﴾، أي: وكذبت عاد، وهم قوم هود عليه السلام كذبوا هودًا عليه السلام فأهلكهم الله- عز وجل- بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية ومساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦- ٨].

وقد سمى الله عقوبة كل منهما صاعقة قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾، أي: وكذب فرعون، وهو فرعون مصر الذي ادعى الربوبية والألوهية، فأرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام فكذب هو وقومه فأهلكه الله بالغرق.

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾، أي: وكذب إخوان لوط، وهم قوم لوط عليه السلام كذبوا لوطًا عليه السلام، فقلب الله ديارهم عليهم وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود.

ومساكنهم قرب نهر الأردن بنواحي الشام، ويقال: هي المعروفة الآن بالبحر الميت.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾، أي: وكذب أصحاب الأيكة، وهم قوم نبي الله شعيب عليه

السلام.

والأيكة هي: الغيضة والواحة الخضراء الملتفة بالأشجار.

حذرهم شعيب عليه السلام من نقص المكيال والميزان ودعاهم إلى الله عز وجل لكنهم كفروا وعاندوا فاهلكهم الله قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٨٩].

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾أي: وكذب قوم تبع، وتبع: أحد ملوك اليمن، وكان من أشدهم وأعظمهم ملكًا، وقومه سبأ، وكانوا كلما ملك فيهم رجل سموه تبعًا، كما يقال كسرى لكل من ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرًا.

أي: وقوم تبع كذبوا رسولهم الذي أرسل إليهم.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: كل من هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم.

وفي هذا دلالة على عدم الاغترار بما عليه الأكثرون كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣].

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، أي: فحق عليهم وعيد الله بالعذاب الدنيوي- مع ما ينتظرهم من العذاب الأخروي يوم القيامة، قال عز وجل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وفي ذكر تكذيب هؤلاء الأقوام وما حق عليهم من وعيد الله وعقابه تهديد وتخويف وتحذير للمكذبين من أمة محمد ﷺ، وتسلية له ﷺ تجاه تكذيب قومه؛ لأن المصائب إذا عمت خفت، فليس هو فقط الذي كذبه قومه، بل كل الأنبياء قبله كذبهم أقوامهم.

وفيه دروس تربوية للدعاة والمصلحين والموجهين والمربين والآباء، فهؤلاء رسل الله وأنبياؤه كذبهم أقوامهم، ولم يستطيعوا هدايتهم، بل لم يستطيعوا هداية أخص الأقربين إليهم، فلم يستطع نوح- عليه السلام- هداية ابنه ولا هداية امرأته، ولم يستطع إبراهيم- عليه السلام- هداية أبيه، ولم يستطع لوط هداية امرأته، كما لم يستطع

محمد ﷺ هداية عمه.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لم نعي بالخلق الأول. والعي: العجز عن الشيء، يقال: عيي فلان بهذا الأمر، أي: عجز عنه، ويقال: أعياه كذا، أي: أعجزه.

والمعنى: أفعجزنا عن ابتداء الخلق الأول، أي: لم يعجزنا ذلك، أولم نعجز عن ذلك مع أنه أعظم وأشد.

والمراد بـ(الخلق الأول). خلق الناس من العدم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بل للإضراب، ﴿فِى لَبْسٍ﴾، أي: في شك واضطراب، ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: من إرجاعهم وبعثهم أحياء بعد الموت، وبعد كونهم ترابًا.

أي: بل هم مُقِرُّون بأننا لم يعجزنا الخلق الأول، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، لكنهم في شك من الخلق الثاني.

وهذا عجب من حالهم كيف يقرون بالخلق الأول ثم ينكرون البعث مع أن من قدر على الخلق الأول فهو على الخلق الثاني أقدر من باب أولى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨، ٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى:«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئاً أحد»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٧٤.

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته، وكمال حكمته فإن شُبَه المنكرين كلها تعود إلى ثلاثة أنواع: أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص. الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك. الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه... قال: فجاءت براهين المعاد في القرآن مبينة على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٨، ٧٩]. وقال ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٥، ٨٦]، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ [ق:٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته، كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة:٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦].

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

الثالث: كمال حكمته، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، وقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]».

قال ابن القيم[٢]: «ولهذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٣- ١٩٤، ١٩٦- ١٩٧.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٩٤.

كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص».

الفوائد والأحكام:

١- ذكر تكذيب قوم نوح ومن بعدهم من الأمم لأنبيائهم، وتحقق وعيد الله لهم بالعقوبات التي أنزلها فيهم في الدنيا، وما ينتظرهم من ذلك في الآخرة- وفي ذلك تحذير وتخويف للمكذبين، وتسلية للرسول ﷺ- لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

٢-إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه، وإثبات إرساله عز وجل الرسل للأقوام المذكورين، وهم أصحاب الرس، وثمود ورسولهم صالح عليه السلام، وعاد ورسولهم هود عليه السلام، وفرعون وقد أرسل الله إليه موسى وهارون، وإخوان لوط ورسولهم لوط عليه السلام، وأصحاب الأيكة ورسولهم شعيب عليه السلام. وقوم تبع.

٣- اجتماع كثير من الأمم على تكذيب الرسل؛ ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه الأكثرون.

٤- الرد على المكذبين بالبعث المنكرين له، وبيان قدرة الله- عز وجل- التامة على ذلك؛ لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

دلّل عز وجل فيما سبق بالخلق الأول على قدرته على الخلق الثاني- على سبيل الإجمال- ثم أتبع ذلك بشيء من التفصيل في هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

الواو: للاستئناف. واللام: للقسم. و(قد): للتحقيق، أي: والله لقد ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ وقد أقسم عز وجل على كثير من الأخبار في القرآن الكريم- مع أنه أصدق القائلين، وقوله حق، وخبره صدق؛ لأن من عادة العرب في مخاطباتهم تأكيد الخبر بالقسم وقد قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

و«ما» في قوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ موصولة؛ أي: ونعلم الذي توسوس به نفسه من الوساوس والخواطر والمكنونات والمضمرات، خيرها وشرها.

وإذا كان عز وجل يعلم ما توسوس به نفس الإنسان من الخواطر ونحوها فعلمه بما عدا ذلك من جميع أحواله وأموره الظاهرة من باب أولى- لكنه عز وجل لا يؤاخذ بحديث النفس، ما لم يتكلم الإنسان أو يعمل، قال ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٦٩، ومسلم في الإيمان- باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر =

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، أي: بعلمنا وملائكتنا. وحبل الوريد: هو حبل العنق وهو: عرق بين الحلقوم والودجين إذا قطع مات الإنسان، يضرب به المثل في القرب.

وقيل المرادبه الودجان. قال ابن القيم(١):«وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا. وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء».

قال ابن تيمية(٢) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة:٨٥]: «فالمراد قربه إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة».

وقال أيضاً(٣): «هذا مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨]، فإن جبريل عليه السلام هو الذي قصه عليه بأمر الله، فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه..».

وقال ابن كثير(٤): «يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع- تعالى الله وتقدس- ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] يعني: ملائكته.

وكما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فالملائكة نزلت بالذكر-

---

=

بالقلب إذا لم تستقر ١٢٧، وأبو داود في الطلاق- باب الوسوسة في الطلاق ٢٢٠٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٣، والترمذي في الطلاق- ما جاء فيمن يحدث نفسه في طلاق امرأته ١١٨٣، وابن ماجه في الطلاق- من طلق في نفسه ولم يتكلم به ٢٠٤٠، وأحمد ٢/ ٢٥٥، ٣٩٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٨.

(٢) في «شرح حديث النزول» ص١٢١، وانظر (مجموع الفتاوى) ٥/ ٢٣٢- ٢٣٦، ٦/ ١٩- ٢٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٨- ١٨٩.

(٤) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٦.

وهو القرآن- بإذن الله عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لَمَّة في الإنسان كما أن للشيطان لَمَّة[١]. وكذلك «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[٢] كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

وقد قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»[٣]: «فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: «هو قرب ذوات الملائكة، وقرب علم الله منه».

وقال السعدي[٤] في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] قال: «بعلمنا وملائكتنا».

وهذا كله مما يوجب على العبد مراقبة خالقه المطلع عليه ظاهرًا وباطنًا، القريب إليه، بعلمه وإحاطته وقدرته، وبملائكته الموكلين به، في جميع أحواله.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾، إذ: ظرف متعلق بـ «أقرب»، أو مفعول لـ «اذكر» مقدرًا.

«يتلقى»: فعل الشرط. «المتلقيان»: هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان وأقواله.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، أي: عن يمين الإنسان وعن شماله.

﴿قَعِيدٌ﴾، أي: مترصد، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات.

---

(١) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لَمَّة بابن آدم، وللملك لَمَّة، فأما لَمَّة الشيطان، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من عند الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾» أخرجه الترمذي في تفسير سورة البقرة:٢٩٨. وقال (حديث حسن غريب).

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف ٢٣٨، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبو داود في الأدب، ٤٩٩٤، وابن ماجه في الصيام- باب في المعتكف يزوره أهله في المسجد ١٧٧٩، وأحمد ٦/ ٣٣٧، من حديث صفية رضي الله عنها.

(٣) ٥/ ٢٣٦- لكن ابن تيمية- رحمه الله- ضعف القول بأن المراد بالقرب في الآيتين القرب إليه بالعلم والقدرة والرؤية. انظر: «شرح حديث النزول» ص١٢١.

(٤) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٧، وانظر ٧/ ١٥١.

قال الأحنف بن قيس: «صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، وإن أصاب العبد خطيئة، قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها»(١).

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ «ما» نافية، و«من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و«قول»: نكرة في سياق النفي تعم كل قول، أي: ما يلفظ الإنسان أيَّ كلمة خير أو شر، أو غير ذلك.

﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾، أي: عنده ﴿رَقِيبٌ﴾، أي: ملك يراقب ما يصدر منه من كلمة، لا ينفك عنه.

﴿عَتِيدٌ﴾، أي: حاضر، لا يمكن أن يغيب، ولا يفوته شيء، مستعد متهيئ لكتابة ما يصدر من الإنسان من قول، وكذلك ما يصدر عنه من فعل.

قال ابن القيم(٢): «ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعًا وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهاياتها».

وهذا مما يوجب على الإنسان الاحتراز لدينه، ومحاسبة نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤].

فكل ما يتلفظ به الإنسان من الكلام يتلقاه الملكان ويكتبانه أيا كان هذا الكلام سواء كان مما فيه ثواب وعقاب، أو لا؛ لقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد ذُكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: «يكتب الملك كل شيء حتى الأنين» فلم يئن رحمه الله حتى مات(٣).

وهذا هو ظاهر الآية، واختاره جمع من المحققين كابن تيمية وابن كثير وغيرهما.

---

(١) ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٧٧.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٩٧.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير»٧/ ٣٧٧..

وقال بعض المفسرين من السلف ومن بعدهم: إنما يكتبان ما فيه ثواب وعقاب. قال ابن رجب[١]: «وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات، وهم متفقون على أن المجازاة على ما فيه ثواب وعقاب، وما سوى ذلك: فيمحى إن كتب».

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[٢].

وعن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها له رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[٣].

وعن معاذ بن جبل- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ أخذ بلسانه وقال: «كفّ عليك هذا، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[٤].

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، هذا وما بعده إلى قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ تفصيل لحال الاحتضار وما بعده من البعث والحساب والجزاء.

وقوله: ﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، أي: سكراته وشدته وآلامه، وغمراته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله وتغطيه.

---

(١) (جامع العلوم والحكم) ١/ ٣٣٦ وانظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٢٤، (تفسير ابن أبي حاتم) ١٠/ ٣٣٠٨، (مجموع الفتاوى) ٧/ ٤٩، (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٧٦- ٣٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٨.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٦٩، والترمذي في الزهد- ما جاء في قلة الكلام ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن- كف اللسان في الفتنة ٣٩٦٩. وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

(٤) أخرجه الترمذي في الإيمان- ما جاء في حرمة الصلاة ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣- وقال الترمذي: «حسن صحيح»

عن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات»(١).

قال ابن تيمية(٢): «أي: جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت، فإن هذا مشهور لم ينازع فيه، ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال:جاءت بالحق».

وقال ابن القيم(٣): «وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه، والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى».

وقال ابن كثير(٤):«أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه».

وقيل إن المراد بالحق هو الموت والفناء الذي كتبه الله على الخلق(٥) قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] فالموت حق ويقين، والجنة حق والنار حق.

ولا مانع من حمل الحق في الآية على الأمرين فالموت حق والوعد والوعيد حق. لكن ما بعد الموت أطم وأعظم.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ الإشارة إلى الموت و«ما»: موصولة، والخطاب للإنسان عمومًا، أي: ذلك الذي كنت أيها الإنسان منه تحيد، أي: تهرب وتفر، قد حل بك ونزل بساحتك، ويحتمل أن «ما» نافية، أي: ذلك ما لا يمكنك الفرار منه.

قال عز وجل: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨]، وقال تعالى: ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ ﴾ [النساء:٧٨].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٤٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦، وابن ماجه في الجنائز- ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٠، وأحمد ٦/ ٦٤، ٧٠.

(٢) في (مجموع الفتاوى) ٤/ ٢٦٥.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٧.

(٤) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٧.

(٥) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٢٧- ٤٢٨.

قال ابن كثير[١]:«أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص».

قال الشاعر[٢]:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾.

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، أي: نفخ إسرافيل- بأمر الله عز وجل- بالصور وهو: «القَرْن» لبعث الخلق بعد موتهم ورد الأرواح إلى أجسادها للقيامة الكبرى، وهي النفخة الثانية المسماة بالرادفة كما قال عز وجل: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦،٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له. قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل»[٣].

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾، أي: يوم القيامة الذي توعد الله به المكذبين لمجازاتهم على أعمالهم بالعذاب الأليم، ووعد به المتقين بالنعيم والثواب العظيم. وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له. وخصه بالوعيد- هنا- لأن السياق من أول السورة مع المكذبين.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾، أي: وجاءت كل نفس من الإنس والجن معها سائق وهو ملك يسوقها إلى المحشر، ﴿وَشَهِيدٞ﴾، وهو ملك يشهد عليها بأعمالها.

وقيل المراد بالشهيد: العمل، وقيل المراد به: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه بما عمل.

والذي يدل عليه ظاهر سياق الآية هو القول الأول.

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٨.

(٢) البيت لحاتم الطائي انظر (ديوانه) ص ٥٠، وانظر «النهاية»، «اللسان» مادة «حشرج».

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٤٣.

قال الفرزدق[١]:

إذا جاءني يوم القيامة قائد ... عنيف وسوَّاق يسوق الفرزدقا

وأيضًا فقد دلت النصوص من القرآن الكريم على أن الإنسان يشهد على نفسه وتشهد عليه أيضًا جوارحه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٦، ٧].

وهذا على أظهر وأشهر القولين في مرجع الضمير (إنه) وأن المراد به أن الإنسان يشهد على نفسه بذلك.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

ويشهد المؤمنون بعضهم على بعض كما في الحديث: أنه مر بالنبي ﷺ جنازة فأثنوا على صاحبها خيرًا- الحديث وفي آخره قال ﷺ: «أنتم شهداء الله في أرضه»[٢].

فيشهد على الإنسان الملك، وتشهد عليه نفسه وجوارحه والمؤمنون، وتشهد الأمة المحمدية على الأمم السابقة، ويشهد محمد ﷺ على أمته كما قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

ويشهد على الخلق العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، الرقيب عليهم، وهو خير الشاهدين.

قال ابن القيم[٣]: «ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه وهذا غير شهادة جوارحه

---

(١) انظر: «الكامل في اللغة والأدب» ١/ ١٠٣، «الأغاني» ١٠/ ٣٤٩، «ربيع الأبرار» ٥/ ١٥١.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٦٧، ومسلم في الجنائز ٩٤٩، والنسائي في الجنائز ١٩٣٢، والترمذي في الجنائز ١٠٥٨، وابن ماجه في الجنائز ١٤٩١، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٧، ١٩٨.

وشهادة الأرض التي كان عليها له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين».

وإذا كان الإنسان قد وكل به كل هؤلاء الشهود فيجب عليه تقوى الله والاحتراز من الذنوب والمعاصي.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

هكذا يقال للمكذب المعرض توبيخًا له ولومًا وتعنيفًا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه وشد الذهن.

اللام لام القسم، و« قد» للتحقيق. أي: والله لقد كنت في غفلة من هذا.

والخطاب للإنسان عمومًا، وقيل المراد به الكافر.

وظاهر الآية أن المراد به عموم الإنسان: أي: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من هذا- يعني من هذا اليوم، وذلك لأن الآخرة بالنسبة للدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام، وبقدر ما يكون إعراض الإنسان عن الحق تكون غفلته.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، أي: أزلنا ما على بصرك من غطاء وغشاوة، وما على قلبك من الختم والران والغفلة.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، أي: فبصرك اليوم حاد قوي؛ لأنه في ذلك اليوم تظهر للناس الحقائق بعد ذهاب ما على القلوب والأبصار من الغشاوة والغفلة، ويكون كل إنسان في ذلك مستبصرًا حتى الكفار في ذلك الوقت يؤمنون، لكن لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، وقال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧].

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد الخبر في القرآن الكريم بالقسم، كما هي عادة العرب الإقسام لتأكيد الخبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾.

٢- إثبات خلقه- عز وجل- للإنسان وعلمه بما تنطوي عليه نفسه وقربه إليه بعلمه

وإحاطته وقدرته، وبملائكته، وذلك من أعظم الدلائل على قدرته- عز وجل- على بعثه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

٣- سعة علم الله- عز وجل- ودقيق خبرته؛ لأنه إذا كان يعلم ما توسوس به النفوس فعلمه بما يظهر من باب أولى.

٤- إثبات وجود الملكين الكاتبين لجميع أقوال الإنسان وأفعاله، أحدهما عن اليمين لكتابة الحسنات والثاني عن الشمال لكتابة السيئات، وكتابتهما كل ما يصدر منه من قول أو فعل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

٥- وجوب مراقبة الله- عز وجل- وطاعته، والبعد عن معصيته، فكل شيء محصىً ومكتوب قولاً كان أو فعلاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

٦- أن الموت حق على كل مخلوق لا محيد له عنه، وبه يظهر الحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

٧- إثبات النفخ في الصور؛ لحياة الناس وقيامهم من قبورهم للحساب يوم القيامة، وهي النفخة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- مجيء كل نفس في ذلك اليوم معها ملك يسوقها إلى أرض المحشر، وملك يشهد على أعمالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

٩- غفلة الإنسان عن الآخرة حتى ينكشف عنه الغطاء بالموت ومعاينة أهوالها فتظهر له الحقائق، وتزول عنه الغشاوة ويندم حين لا ينفع الندم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾، أي: قرين هذا المكذب المعرض الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، ووكل بحفظه وحفظ أعماله وأقواله يشهد عليه يوم القيامة بذلك.

وقال بعضهم: المراد به السائق. واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد[1].

﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾، أي: يقول الملك لَمَّا يُحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، وهذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي، بلا زيادة ولا نقصان.

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ الخطاب: للسائق والشهيد، أو للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا.

قال ابن كثير[2]: «والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد ما عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير».

و﴿ جَهَنَّمَ ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها- أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ «كفار» على وزن «فعّال»: صيغة مبالغة، أي: أنه قد جمع أنواع الكفر، وبلغ من الكفر غايته.

---

(١) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٣٦.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٨٠.

والكفر معناه: الجحود، أي: كُلَّ جحود لربه؛ لربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ودينه، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

فالكفر ضد الإيمان، ومنه كفر النعم.

﴿عَنِيدٍ﴾ على وزن «فعيل»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: أنه كثير العناد شديده، لا يقبل الحق بحال، بأي أسلوب عرض عليه.

والعناد: دفع الحق ورده ومعارضته بالباطل وعدم قبوله عن علم ومعرفة، لا عن جهل.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ «مناع» على وزن «فعّال»؛ للمبالغة، يدل على منعه لكل خير، وبلوغه في المنع غايته. والمراد بالخير المال، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، أي: لحب المال.

ويحتمل أن المراد ما هو أعم من ذلك، وأن المراد: منع الإحسان القولي، والإحسان الفعلي، والإحسان إلى نفسه بالطاعات وإلى غيره بوجوه الإحسان.

قال ابن القيم(١): «وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه، ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق».

﴿مُّعْتَدٍ﴾، أي: ظلوم غشوم معتد على الناس بيده ولسانه، فخيره ممنوع عنهم وشره واصل إليهم، معتد على حدود الله، متجاوز الحد في نفقاته.

﴿مُّرِيبٍ﴾، أي: ذو شك وريب في أمره، وفي وعد الله ووعيده، مشكك لغيره في ذلك، آت لكل ريبة، مخيف لمن نظر في أمره.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: أشرك مع الله غيره، فلم يخلص العبادة لله، بل عبد معه إلهًا آخر من الأصنام والأوثان، أو انشغل عن طاعة الله تعالى بهوى نفسه أو جمع الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٢.

ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم...»(١).

فوصفه الله عز وجل بست صفات: كفّار، عنيد، منّاع للخير، معتد، مريب، مشرك.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾: أيها الملكان القرينان ﴿فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، أي: الشديد كمًّا وكيفًا وهو عذاب النار.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهًا آخر، ومن قتل نفسًا بغير نفس، فينطوي عليهم، فيعذبهم في غمرات جهنم»(٢).

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ وهو الشيطان الذي وكل به، متبرئًا منه:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، أي: يا ربنا، ما أطغيت هذا الكفَّار العنيد، المنَّاع للخير، المعتد المريب، الذي جعل معك إلهًا آخر، وألقي في جهنم والعذاب الشديد.

والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

والمعنى: ليس أنا الذي جعلته طاغيًا متجاوزًا الحد.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: ولكن كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معاندًا للحق، كما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢].

وهكذا يتبرأ قرين السوء من قرينه والمتبوعون من أتباعهم كما يتبرأ الأتباع من

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣ / ٤٠.

متبوعيهم. قال عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧- ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

وقيل: المراد بـ «قرينه» الملك الذي يكتب عمله فيدعي الإنسان أنه زاد عليه فيما كتبه عليه، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهله حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ يقول الله عز وجل للإنسان وقرينه: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، أي: عندي.

وذلك أن الإنسان وقرينه من الشياطين يختصمان بين يدي الحق سبحانه، ويلقي كل منهما التبعة على الآخر، فيقول الإنسان: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي عن منهج الحق فيقول الرب عز وجل لهما ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، أي: عندي فلا فائدة ولا منفعة في ذلك ولا ثمرة.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ الواو: للحال، أي: والحال أني قد قدمت إليكم بالوعيد لمن خالف أمري، وأقمت عليكم الحجة بما أرسلت من الرسل، وبما أنزلت من الكتب، كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وبذلك قامت عليكم الحجة، وزال العذر؛ لأن من أنذر فقد أعذر.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ «ما» نافية، أي: إن قولي لا يمكن أن يخلف، وخبري لا يمكن أن يتخلف، كما قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:٦٤].

والمعنى: أن وعيدي للكافرين بالنار لا يبدل ولا يغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

كما أن وعدي للمؤمنين بالجنة لا يبدل ولا يغير، قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ ﴾ [الأعراف:٤٤].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وأنت النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكن عليَّ ملؤها»(١).

ويحتمل أن المعنى: ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس عليَّ كما يغير عند الملوك والحكام والقضاة، فيكون المراد بالقول في قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قول المختصمين.

أي: ما يكذّب عندي لعلمي بالغيب، ويؤيد هذا أنه قال:

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾؛ أي: عندي، ولم يقل: ما يبدل قولي.

وينبغي حمل الآية على المعنيين معًا؛ لأن منهج محققي أهل العلم أنه إذا كانت الآية تحتمل أكثر من معنى وجب حمل الآية عليها كلها.

قال ابن القيم(٢) بعد أن ذكر القولين: «فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ من تمام قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ في المعنى، أي: ما قلته ووعدت به لابد من فعله. ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه، ولا جور. وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين: أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه، وترويج الباطل عليه. والثاني: أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده».

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ الواو: عاطفة و«ما»: نافية؛ أي: لست بذي ظلم، أو لست

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٠.

أظلم أحداً، وهي نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أيّ ظلم منه للعبيد، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران:١٨٢، الأنفال:٥١]، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الآية:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤].

واللام في قوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ ﴾ للاستغراق في جميع العبيد، فلا يظلم عز وجل أحداً منهم، مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم؛ لأن المراد بالعبودية هنا العبودية العامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

فلا يظلم عز وجل أحدًا من العبيد، ولا يعذب أحدًا بذنب غيره، أو بغير ذنب، ولا يمنع أحدًا أجر ما عمله من عمل صالح، ولا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

ولا يظلم عز وجل ظلمًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا قليلاً ولا كثيراً كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس:٤٤].

بل إنه عز وجل حرم الظلم على نفسه كما حرمه على العباد. قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أن كل إنسان قرن به من الملائكة من يحفظه ويحفظ أعماله ويشهد عليه ويحضره وأعماله لموقف الحساب بلا تأخير؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

٢- الأمر للملكين الموكلين بالإنسان بإلقاء كل كفَّار في النار والعذاب الشديد؛ لشدة كفره وعناده ومنعه الخير واعتدائه وشكه وشركه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٣- الجمع لأهل النار من المكذبين والكفار بين العذاب الحسي للأبدان؛ والعذاب المعنوي المنصب على القلوب.

٤- بيان صفات أهل النار المستوجبين دخولها للتحذير منها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

٥- تبرؤ الشيطان من أتباعه وقرين السوء من قرينه، وتخاصمهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا﴾.

٧- أن الله- عز وجل- أقام الحجة على الخلق جميعاً، وحذرهم وأنذرهم، فلا ينفعهم التخاصم لديه يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾.

٨- أن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء هما أعظم أسباب الوقوع في الطغيان.

٩- أن ما حكم الله- عز وجل- به وقضى من تعذيب الكافرين في النار لا يبدل ولا يغير؛ كما أنه- عز وجل- لا يلبس عليه بالقول؛ لأنه لا تخفى عليه خافية؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

١٠- تمام وكمال عدل الله عز وجل ونفي الظلم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم: «يوم يقول» بالياء وقرأ الباقون: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بالنون.

أي: يوم القيامة نقول لجهنم وهي النار التي أعدها الله عز وجل لتعذيب المكذبين والعصاة. وسميت بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ استفهام لا يقصد منه الاستعلام فالله عز وجل لا تخفى عليه خافية، وإنما يقصد منه التخويف والتهديد، والتحذير والوعيد، والإشارة إلى عظمة جهنم ومدى سعتها بحيث تتسع لجميع المجرمين والعصاة، فما دام عددهم لم يكتمل فيها فهي لم تمتلئ ولهذا تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم بها إذا امتلأت، ومتى تمتلئ وقد وعدها عز وجل بملئها قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أن الله عز وجل قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا آخر»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ق ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٦١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ق ٤٨٤٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٨، والترمذي في =

وفي رواية[١]: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا آخر، فيسكنهم في فضول الجنة».

فهي بقولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين والعصاة غضبًا لربها وغيظًا على الكافرين.

وقيل: معنى قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وهل بقي فيَّ مكان يزاد فيه، أي: قد امتلأت. وهذا المعنى لا يصح والحديث السابق يرده. والصحيح القول الأول وهو أظهر من حيث السياق، وأقوى في الوعيد والتهديد والزجر والتخويف.

وهو قول عامة المفسرين من السلف وغيرهم، واختاره جمع من المحققين، منهم الطبري[٢]، وابن تيمية[٣]، وابن القيم، وابن كثير[٤]، وغيرهم.

قال ابن تيمية[٥]: «والصحيح أنها تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، على سبيل الطلب، أي: هل من زيادة تزاد فيّ، والمزيد ما يزاد فيها من الجن والإنس».

وقال ابن القيم[٦]: «وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي: ليس فيّ من مزيد. والحديث الصحيح يرد هذا التأويل».

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

التفسير ٣٢٧٢.

(١) أخرجها مسلم في الجنة وصفة نعيمها- باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٨، وأحمد ٣/ ٢٣٤.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ٤٤٣- ٤٤٩.

(٣)انظر (مجموع الفتاوى) ١٦/ ٤٦، ١٨/ ١٤١ (منهاج السنة) ٥/ ١٠٠.

(٤) انظر: (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٨١.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٥٢٦.

(٦) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٠.

بعد ما ذكر عز وجل حال النار وأهلها أتبع ذلك بذكر حال الجنة وأهلها على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المسلم في طريقه إلى الله عز وجل في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، فلا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من رحمة الله. وأن يكون الخوف والرجاء له كجناحي الطائر لا يغلب أحدهما على الآخر.

قوله ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ الواو: استئنافية (أزلفت) أدنيت وقربت، والجنة في الأصل: البستان، وسمي البستان جنة؛ لأنه يجن، أي: يستر من بداخله بكثرة أشجاره قال تعالى: ﴿۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق:٩، ١٠].

والمراد بالجنة هنا الدار التي أعدها الله لأوليائه في الآخرة، والتي لا يقدر قدر ما فيها من ألوان الخضرة والحبرة والنعيم إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: للذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه آت لا محالة وكل آت قريب.

ويحتمل أن المعنى: مكانًا غير بعيد. أي: أدنيت الجنة وقربت مكانًا قريبًا غير بعيد تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحبرة والسرور.

ومن عظيم كرامة المتقين عند الله أن تقرب الجنة لهم لا أنهم يقربون إليها.

وهذا يدل على أن من إكرام الضيف أن يقرب الطعام إليه، لا أن يوضع الطعام ويؤمر الضيف بالقرب إليه.

ولا مانع من حمل الآية على الأمرين، قرب الزمان، وقرب المكان.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ الإشارة للجنة وما فيها من النعيم، يقال لهم هذا على وجه التهنئة لهم والتكريم والتعظيم لذلك الموعود به و«ما»: موصولة، أي: هذا الذي توعدون، أو مصدرية، أي: هذا وعدنا.

والوعد غالبًا في الخير، والوعيد في الشر، قال الشاعر[١]:

وإني وإن أوعدتـــــه أو وعدتـــــه لمخلـف إيعـادي ومنجـز موعـدي

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾، أي: لكل رجاع تائب إلى الله عز وجل، مقلع عن المعاصي، نادم على فعلها، عازم على عدم العودة إليها؛ إخلاصًا لله تعالى، وخوفًا منه.

وهذا يدل على أن الإنسان لا يكاد يسلم من الوقوع في الذنب، وأنه بعد التوبة الصادقة أفضل منه قبل المعصية.

والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة. قال ابن القيم[٢]:«أي: رجاع إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره».

﴿حَفِيظٍ﴾، أي: يحفظ الله في أوامره ونواهيه فلا يخالف أمر الله ولا يرتكب نهيه، كما قال ﷺ لابن عباس: «احفظ الله يحفظك»[٣]. وقال تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤].

فيحفظ العهود والعقود التي بينه وبين الله والتي بينه وبين الخلق، فلا ينقض عهده ولا ينكثه.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، «من»: موصولة بدل من قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾؛ أي: الذي خشي الرحمن بالغيب.

والخشية بمعنى الخوف، بل هي أشد وأخص من الخوف؛ لأن من شرطها- كما يقول بعض أهل العلم -: عظم المخشي وعلم الخاشي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

و «الرحمن»: اسم من أسماء الله، بل هو الاسم الثاني من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء:١١٠]

---

(١) البيت لعامر بن الطفيل. انظر: «الصحاح» للجوهري، مادة: «وعد».

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وقال (حديث حسن صحيح) وأحمد ٤/ ٢٨٦، ٢٨٨.

ويؤيد هذا قوله ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبدالرحمن»(١).

وهو على وزن (فعلان) صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة رحمته عز وجل وعظمتها وكثرتها، ويؤخذ منه إثبات صفة الرحمة الذاتية لله عز وجل القائمة به، كما قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وإثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: وهو غيب لم يره سبحانه. والغيب ما غاب عن الحواس. ولهذا كان الإحسان أعلى درجات الإيمان وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

والمعنى: من خشي الله وخافه في سره حيث لا يراه، وهذا من أخص صفات المؤمنين المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] أي: بكل ما أخبر الله به من الأمور الغيبية السابقة واللاحقة، ومن ذلك الإيمان بأركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذا من أعظم ما يحمل المرء على تقوى الله ومراقبته والاحتياط لدينه والورع بأداء حقوق الله وحقوق الخلق والبعد عما نهى الله عنه.

قال ابن القيم(٣): «قوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤. وأخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.

بالغيب إلا بعد هذا كله».

وخشي الرحمن بالغيب أيضًا: في حال غيبته عن أعين الناس، فهو يراقب ربه ويخشاه في الغيب والشهادة، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(١).

قال الشاعر:

وإذا خلـــوت بريبـــة في ظلمـــة ... والـــنفس داعيـــة إلى العصـــيان
فاستحيي مـن نظـر الإلـه وقـل لهـا ... إن الـذي خلـق الظـلام يـراني(٢)

وقد كان الإمام أحمد رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين(٣):

إذا مـا خلـوت الـدهر يومًـا فـلا تقـل ... خلـوت ولكـن قـل عـليّ رقيـب
ولا تحســـبن الله يغفـــل ســـاعة ... ولا أن مـا يُخفـى لديـه يغيـب(٤)

﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾، أي: وجاء إلى الله بأن مات ولقي الله بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه راجع عن المعاصي مقبل على طاعة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢، آل عمران:١٠٢].

قال ابن القيم(٥): «وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه».

﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ أي يقال لهم أمر إكرام: ادخلوا الجنة: ﴿بِسَلَٰمٖ﴾ الباء للمصاحبة، أي: دخولاً مصحوباً بسلام من عذاب الله، ومن الآلام والأحزان والمخاوف، والأكدار

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٦٥٩، ومسلم في الزكاة- باب إخفاء الصدقة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيتان للقحطاني. انظر: «نونية القحطاني» ص٢٥.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٢٢٩، ٨/ ٣٥.

(٤) البيتان لأبي العتاهية. انظر «ديوانه» ص ٣٤.

(٥) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.

والمنغصات، كما قال تعالى حكاية لقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

وبسلام من الله عليهم ومن الملائكة، ومن بعضهم على بعض. كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥، ٢٦]. وفي هذا من النعيم المعنوي ما لا يدرك كنهه، إضافة إلى النعيم الحسي نسأل الله تعالى من فضله.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ الإشارة ليوم القيامة.

أي: يوم الخلود في الجنة، فلا يموتون أبدًا، ولا يظعنون أبدًا، ولا يبغون عنها حولا كما جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣][1].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ «لهم»، أي: للمتقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، أي: الذي يختارون ويريدون ويشتهون في الجنة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، وقال عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، أي: وعندنا زيادة على ذلك المذكور من ألوان النعيم لأهل الجنة.

كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

وقد فسر ﷺ «الحسنى بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم»(١).

وهكذا فسر أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ بأن الرب عز وجل يظهر لهم في كل جمعة(٢).

ولا مانع من حمل الآية على المزيد من ألوان النعيم من زيارة الرب عز وجل وتجليه لهم سبحانه ومن الحور العين وغير ذلك من النعيم كما قال عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾. [الملك:١٢].

وقال ﷺ «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(٣).

نسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يجعلنا ممن تزلف لهم الجنة غير بعيد، ومن أهل الخلود فيها والمزيد، ووالدينا وجميع المسلمين.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الكلام لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾.

٢- شدة ظلمة النار، وبعد قعرها، وتناهي حرارتها، ولهذا سميت جهنم.

٣- سؤال الله- عز وجل- النار وهو أعلم بها ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ على سبيل التخويف والوعيد والتهديد للمجرمين.

٤- إثبات القول لجهنم؛ والله أعلم بكيفية ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾.

٥- سعة جهنم، وشدة تلهفها إلى المزيد من المجرمين، وغضبها لغضب رب

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣١٠- الأثر ١٨٦٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤ ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

٦- تقريب الجنة للمتقين تكريماً لهم، والترحيب بهم، وتهنئتهم بنيل ما يوعدون، والثناء عليهم بالتوبة وحفظ حقوق الله وخشيته والإنابة إليه، وبشارتهم بالسلامة والخلود في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾.

٧- الجمع لأهل الجنة بين نعيم البدن الحسي، ونعيم القلب المعنوي.

٨- إثبات وجود النار وإعدادها للمجرمين، وإثبات وجود الجنة وإعدادها للمتقين.

٩- إثبات اسم الله- عز وجل- «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له- عز وجل- رحمة ذاتية، ورحمة فعلية، عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾.

١٠- الوعد لأهل الجنة بأن لهم فيها ما يشاؤون، ووعد الله- عز وجل- لهم بالمزيد من عنده، وأعظم ذلك النظر إليه- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

١١- إثبات المشيئة والإرادة للإنسان.

١٢- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

١٣- التحذير مما يوجب دخول النار والخلود فيها من الكفر ومخالفة أمر الله تعالى، والترغيب بما يكون سببًا لدخول الجنة من تقوى الله تعالى والتوبة إليه، وحفظ حدوده، وخشيته بالغيب، والإنابة إليه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

أكدّ عز وجل في هذه الآيات وعيد المكذبين بذكر إهلاك المكذبين قبلهم تذكيراً وتحذيراً، وبياناً لكمال قدرته، وتسلية لنبيه ﷺ.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ الواو استئنافية و«كم» خبرية بمعنى: كثير. أي: وكثير من القرون أهلكنا قبلهم؛ أي: أمتنا وأفنينا بإنزال العقوبات فيهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [طه:١٢٨].

والهلاك نوعان: هلاك حسي بالموت والفناء، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر:٣٤].

والنوع الثاني: هلاك معنوي بالكفر والمعاصي، وهو أشد بل هو الهلاك الحقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن سلمة بن صخر رضي الله عنه لما وقع على امرأته في نهار رمضان وهو صائم جاء فزعًا مرعوبًا يقول: «يا رسول الله هلكت وأهلكت»(١).

وهؤلاء جمعوا بين الهالكين؛ الهلاك المعنوي بالتكذيب والكفر والمعاصي، والهلاك الحسي حيث أخذوا بالعذاب وأنواع العقوبات.

﴿قَبْلَهُم﴾، أي: قبل كفار مكة المنكرين للحق والبعث.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وأبو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه ١٦٧١.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾ القرن في الأصل: هو المدة التي يعيش فيه جيل وأمة من الناس وتقدر بمائة سنة. والمراد به هنا الجيل والأمة أي: كم أهلكنا من أمة.

قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(١).

والمراد بقوله: «قرني»: القرن الذي عاش فيه ﷺ وأصحابه، ثم قرن التابعين، ثم قرن تابعي التابعين.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة، صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام، فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»(٢).

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: هذه القرون الكثيرة، الذين أهلكناهم.

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: أشد قوة من كفار مكة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر:٦- ١٤].

وقال تعالى عن قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص:٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:٨].

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾. التنقيب: البحث عن الشيء وطلبه وابتغاؤه، أي: فضربوا في

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٢، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٧، والترمذي في الفتن ٢٢٥١.

الأرض وساروا فيها طولاً وعرضاً وهنا وهناك يبحثون عن الرزق ويطلبونه أو يبحثون عن النجاة من الهلاك ويطلبونها.

قال امرؤ القيس(١):

لقد نَقّبْتُ في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ الاستفهام معناه النفي، والمحيص: المفر والمهرب.

والمعنى: هل من مفر أو مهرب كان لهم من قضاء الله وقدره وعقابه وهل نفعهم أو دفع عنهم ما عندهم من قوة، وما كان منهم من تطواف في البلاد وعمران لها وطلب للمفر والمهرب من الهلاك أي: أن ذلك لم ينفعهم ولم يدفع عنهم الهلاك وعقاب الله لما كذبوا رسله، فكذلك أنتم يا كفار مكة أيضًا لا مفر لكم من قضاء الله وعقابه ولا محيد لكم، ولا مناص ولا محيص. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ:٥١]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢].

ولهذا قيل: «بشر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر، ولو بعد حين»(٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ الإشارة لإهلاك كثير من القرون مع ما هم عليه من شدة وبطش وقوة، وما كانوا عليه من تنقيب في البلاد.

والذكرى: العظة، والعبرة، أي: إن في إهلاك تلك القرون تذكرة وموعظة وعبرة، والسعيد من وُعظ بغيره.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، أي: لمن كان له لبُ وعقل واع، يعي ويعقل به، وهو القلب

---

(١) انظر (ديوانه) ص ٧٣ طبعة بيروت والرواية فيه (وقد طوفت).

(٢) انظر: «كشف الخفاء» ١/ ٢٨٦، «المقاصد الحسنة» ص٢٣٨.

والعقل الذي ينتفع به صاحبه، والذي هو مناط المدح، لا القلب والعقل الذي هو مناط التكليف فقط، ولا ينتفع به صاحبه، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥] ، أي: لذي عقل. وقال تعالى عن الكفار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦].

﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ «أو» بمعنى الواو، أي: وألقى السمع.

وإلقاء السمع هو الإصغاء أي: ألقى سمعه، وأصغى واستمع الذكرى.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ، أي: حاضر بجسمه وعقله، فسمعه بأذنيه، ووعاه وعقله وفهمه بعقله وقلبه وفطنته، وكان لذلك أثره على جوارحه.

فاجتمع عنده القلب الذي هو مناط التكليف، فكان ذا قلب وعقل، وأنصت وألقى سمعه بشهود قلبه وعقله الذي يستفيد به، والذي هو مناط المدح والذم؛ لأن وجود القلب والعقل ليس بكاف، ما لم يكن القلب والعقل شاهدًا حاضرًا منتفعًا مستفيدًا يظهر أثر ذلك على الجوارح.

ولهذا نجد القرآن الكريم يثبت العقل للمؤمنين المتقين لانتفاعهم به، وينفيه عن الكفار المكذبين- كما في الآيات السابقة وغيرها- لعدم انتفاعهم به، وهذا مما يوجب على الإنسان أن يحضر قلبه وعقله عند قراءة أو سماع الآيات القرآنية ويتدبر فيها، كما قال عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

فبالتدبر في آيات الله الشرعية والتأمل والتفكر في آياته الكونية يحصل الانتفاع والفائدة، وبدونه لا يحصل شيء من ذلك، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه فيما ينبغي أن يكون عليه الداعي: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن

الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[١].

وقال ابن القيم[٢] في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: «فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوَّة المسموعة، والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يحضره ويشهد لما يلقى إليه، فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه، وههنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه، ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر.

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية».

وقال أيضا[٣]:

«وجاء العطف بـ «أو»- والله أعلم- دون الواو للإشارة إلى أن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه؛ لأن قلبه واع ذكي وهذه حال أكمل الخلق، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٧٩ وقال: «حديث غريب».

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٣.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩١، ١٩٢، ٢٠٦، ٢٠٩.

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦]، وقال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥].

فهؤلاء يدعون بالحكمة، تَرَقَّوا من علم اليقين إلى عين اليقين، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان.

والثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله.

وهذه طريقة أكثر المستجيبين، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، وهم في مقام الإيمان ولم يصلوا إلى مقام الإحسان، عندهم علم اليقين، ولم يصلوا إلى عين اليقين.

فمن كان ذا قلب واع، وأصغى بسمعه وأماله كله نحو المخاطب، وأحضر قلبه وذهنه عند المتكلم انتفع بالذكرى، فإن فقد واحدًا من هذه الثلاثة لم ينتفع».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد خلقنا وأوجدنا السموات السبع والأرضين السبع، وما بينهما من سائر المخلوقات.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أي: في مدة ستة أيام من مثل أيام الدنيا على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأن الله خاطب البشر بما يعرفون.

وهو عز وجل: قادر على خلقها في لمح البصر أو أقل كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وبقوله كن كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

لكنه عز وجل جعل لخلق الأشياء أسباباً ومقدمات تتكامل شيئاً فشيئاً حتى تتم كما جعل عز وجل خلق الإنسان أطواراً، كما قال نوح عليه السلام لقومه- فيما حكاه الله عنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣، ١٤].

وقد قيل: إن من الحكمة في ذلك أن يعلم عباده الأناة في الأمور، وأن المهم فيها الإتقان لا الاستعجال.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ عن أبي بكر- رضي الله عنه- قال: «جاء اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات؛ يعني من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالثة آدم، قالوا: صدقت إن أتممت. فعرف النبي ﷺ ما يريدون، فأنزل الله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾».

وقال قتادة: «قالت اليهود- عليهم لعائن الله- خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾»(١).

والمعنى: وما أصابنا من لغوب، وهو الإعياء والنصب والتعب.

وفي هذا تقرير كمال قدرته عز وجل، والرد على اليهود في زعمهم الباطل، وتقرير المعاد وأن من قدر على خلق السموات والأرض وما بينهما قادر على بعث الناس بعد الموت بطريق الأولى والأحرى، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾ [النازعات:٢٧].

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي: اصبر يا محمد على ما يقوله المكذبون من قومك من الذم لك، من قولهم: ساحر شاعر كاهن مجنون، ونحو ذلك، ومن التكذيب لما جئت به من الحق، وإنكار البعث.

و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: اصبر على الذي يقولون، أو على قولهم وهذا كما

---

(١) أخرجها الطبري في (جامع البيان) ٢١/ ٤٦٥- ٤٦٧.

قال في الآية الأخرى ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥].

قال ابن القيم[١]: «أمر نبيه بالتأسي به سبحانه بالصبر على ما يقوله أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود أنه استراح. ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه».

وفي الحديث: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون لله ندًا، ويجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم»[٢].

وفي أمره ﷺ بالصبر على المعاندين تثبيت لقلبه وترويض له، فإن الصبر نصف الإيمان، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد[٣]، وهو يتضمن أمرين، عدم التضجر مما يقوله المكذبون من قومه، والمضي قدماً في سبيل الدعوة وعدم المبالاة بما يقولون.

وهكذا ينبغي أن يعي الدعاة والمصلحون هذا المعنى، فإن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى الصبر والمصابرة والمرابطة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

ونيل الإمامة يحتاج إلى صبر وجهد وتضحية قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

ثم أمره عز وجل بما يعينه على الصبر على قولهم وهو الإقبال على الله- عز وجل- وتسبيحه وعبادته، فقال:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ التسبيح: معناه تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين. و«الحمد»: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

ومعنى الآية: سبح ربك ونزهه متلبسًا بحمده، أي: قارنا بين تسبيحه وحمده، كما

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢، ٢١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٤، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) رُويَ هذا عن علي رضي الله عنه. انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

في دعاء الركوع والسجود: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»(١).

وكما في الأذكار بعد الصلوات: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر»(٢).

ومن تسبيح الله عز وجل بالمعنى العام وحمده عبادته بأنواع العبادة كلها.

ومن ذلك: صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل غروبها.

عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها- يعني صلاة العصر والفجر- ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[طه:١٣٠]»(٣).

وقال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»(٤).

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وحمزة وخلف: «وإدبار السجود» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بفتحها.

ومعنى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: صل له، ويدخل فيه صلاة المغرب والعشاء والتهجد، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

وأطلق على الصلاة التسبيح؛ لأن التسبيح من أهم ما يقال فيها.

وأيضًا فإن التسبيح يطلق على ما هو أعم من ذلك وهو تنزيهه سبحانه عن

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨١٧، ومسلم في الصلاة٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٨٩.

(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد- فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٦٣٣، وأبو داود في السنة- باب في الرؤية ٤٧٢٩، والترمذي في أبواب صفة الجنة- ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية ١٧٧، وأحمد ٤/ ٣٦٥، ٣٦٦.

(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٥، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

النقائص والعيوب، والعبودية والانقياد له عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

وقيام الليل من أفضل الأعمال وقد أثنى الله عز وجل على أهل قيام الليل في آيات عدة قال تعالى في مدح المتقين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦، ١٧].

وقال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣] .

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

وقال ﷺ لابن عمر: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يقوم من الليل» فكان ابن عمر بعد هذا لا ينام من الليل إلا قليلاً»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»(٢).

وقد قام ﷺ حتى تفطرت قدماه(٣).

وسئلت عائشة رضي الله عنها كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: «ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا، فلا

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير ٦٥١٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٤٥٢٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩، من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٢، ومسلم في الصيام ١١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦ من حديث المغيرة بن شعبة- رضي الله عنه- ، ومن حديث عائشة- رضي الله عنها ٤٨٣٧.

تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا»(١).

ولم يترك ﷺ قيام الليل لا حضرًا ولا سفرًا، وكان إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة(٢).

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أدبار الشيء ما يأتي بعده، أي: وسبحه أدبار السجود، أي: بعده.

واختلف في المراد بذلك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «التسبيح بعد الصلاة»(٣) فحمل السجود على الصلاة.

ويؤيد هذا ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»(٤).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بـ «أدبار السجود»: الوتر(٥).

وروي عن جمع من الصحابة والتابعين أن المراد بـ «أدبار السجود»: الركعتان بعد

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٤١، والنسائي في قيام الليل ١٦٩٧، والترمذي في الصلاة ٤٣٩.

(٢) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٣٢٤.

(٣) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢١/ ٤٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان- باب الذكر بعد الصلاة ٨٤٣، ومسلم في المساجد- باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٥، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٤.

(٥) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢.

المغرب[١].

وهذان القولان فيهما نظر؛ لأن الوتر وصلاة الليل كلها تدخل تحت قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾.

ولأن القول بأن المراد به الركعتان بعد المغرب تخصيص بلا دليل.

والذي يدل عليه ظاهر الآية هو القول الأول، وأن المراد بقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾: التسبيح والذكر بعد الصلوات الخمس، ويشمل ذلك- والله أعلم- الرواتب بعد الصلوات- مع الأذكار، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء:١٠٣].

وقد جاءت السنة النبوية ببيان هذه الأذكار المشروعة عقب الصلوات الخمس. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون. وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»[٢].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ: إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام» قال الوليد- أحد الرواة عن الأوزاعي، فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله»[٣].

وعن المغيرة بن شعبة أنه أملى في كتاب إلى معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا

---

(١) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٦٩- ٤٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٩٧.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٣، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨.

الجد منك الجد»[١].

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون». وقال: كان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة»[٢].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «إذا لزمت مضجعك فسبحي الله ثلاثًا وثلاثين، وكبري ثلاثًا وثلاثين، واحمدي أربعًا وثلاثين، فذلك مائة، فهو خير لك من الخادم. وإذا صليت الصبح فقولي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. عشر مرات، بعد صلاة الصبح، وعشر مرات بعد صلاة المغرب» الحديث[٣].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٤].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة»[٥].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٥، والنسائي في السهو ١٣٤١.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٩٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٦، والنسائي في السهو ١٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٢٧.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٣٠٤.

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٣، والنسائي في السهو ١٣٣٦، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٣، وقال (حديث غريب) وأحمد ٤/ ١٥٥.

(٦) أخرجه النسائي، وصححه الألباني في (تخريج المشكاة) ٩٧٤.

إلى غير ذلك من الأذكار الخاصة والعامة. قال تعالى:﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

وقد أثنى الله عز وجل على الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات عمومًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّـٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّـٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(٢).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أحب الكلام إلى الله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(٣).

وقال ﷺ: «الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر»(٤).

وقد قال الله- عز وجل-: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٦٤].

وقال ﷺ: «أفضل الكلام أو خير الكلام سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٣٧٥ وابن ماجه في الأدب ٣٧٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٩٠٦.

(٣) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٧١، من حديث عثمان رضي الله عنه، ومن حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ٤/ ٢٦٨.

(٥) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الأيمان والنذور- باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم- قال: قال النبي ﷺ: «أفضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» (فتح الباري) ١١/ ٥٦٦.

وقال ﷺ: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»(١).

ولما كان ذكر الله عز وجل وشكره وتسبيحه وحمده أكبر معين على ثبات القلب وطمأنينته ورباطة الجأش، وانشراح الصدر، أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك بعد ما أمره بالصبر على ما يقوله المكذبون من قومه فقال عز وجل. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

فانتبه أخي الكريم لهذا المعنى قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- تخويف المكذبين بإهلاك كثير من القرون قبلهم مع قوتهم وشدة بطشهم وضربهم في الأرض، فلم ينفعهم ذلك، ولم يفلتوا من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

٢- أن في التأمل فيما أوقع الله في المكذبين من الأمم السابقة من العقوبات- مع شدة بطشهم- أعظم الموعظة لمن استمع بحضور قلب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

٣- يجب إحضار القلب عند قراءة القرآن وسماع مواعظه، والتدبر في ذلك لتحصل الذكرى والمنفعة.

٤- إثبات كمال قدرة الله- عز وجل- في خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وتقرير المعاد ونفي اللغوب عنه، والرد على اليهود في زعمهم الباطل لعنهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

٥- تقوية قلب الرسول ﷺ وعزيمته بأمره عز وجل له بالصبر على ما يقول المكذبون من ذمه وتكذيبه فيما جاء به. وأمره له بتسبيحه وحمده؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بخطابه عز وجل، وإضافة اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٧- وجوب تسبيح الله- عز وجل- بأداء الصلوات المفروضة، واستحباب الإكثار من النوافل وقيام الليل والأذكار العامة، والذكر بعد الصلوات، وأن ذلك أعظم معين على الصبر على أذى الأعداء؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

٨- أن التخلية قبل التحلية، فالتسبيح بتنزيه الله تعالى عن النقص ومماثلة المخلوقين، مقدّم على إثبات الكمال بالحمد والتعظيم بالعبادة.

٩- فضل هذين الوقتين: ما قبل طلوع الشمس، وما قبل غروبها.

١٠- فضل قيام الليل، وفضل التسبيح والذكر بعد الصلوات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

أكد عز وجل في الآيات السابقة وعيد المكذبين بذكر ما حل بمن كان قبلهم من العقوبات الدنيوية ثم أتبع ذلك بذكر ما ينتظرهم من العقوبات الأخروية تخويفاً وتحذيراً لهم، وتسلية للنبي ﷺ. آمراً له بالاستمرار بالتذكير بالقرآن لمن يخاف وعيد الله وعذابه.

قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾، أي: واستمع يا محمد، يوم ينادي المنادي: وهو إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور يوم القيامة للبعث، وهي النفخة الثانية.

وفي قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ إشارة إلى قرب الساعة؛ لأنها آتية وكل آت قريب.

وقد قال ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين. وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها»(١).

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ لأنه يُسمِع الخلق كلَّهم؛ فيَسْمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ الصيحة: الصوت الشديد المرتفع، وهي النفخة الثانية في الصور وهي الرادفة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦، ٧].

فالراجفة: النفخة الأولى في الصور؛ ليموت كل حي من المخلوقات إلا من شاء الله، والرادفة: النفخة الثانية للبعث بعد الموت، وعود الأرواح إلى أجسادها.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: الصيحة المحققة الوقوع، والتي تأتي بالحق الذي وعدوا به وهو البعث الذي كان أكثرهم فيه يمترون.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ «ذلك»، أي: يوم نداء المنادي بالبعث هو يوم الخروج من القبور والأجداث كما قال عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٥، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ:١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ يقول عز وجل عن نفسه بضمير العظمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾، أي: بيدنا الإحياء والإماتة؛ أي: إنه عز وجل هو الذي يحيي ويميت، فهو الذي بدأ الخلق وهو الذي يعيده سبحانه وتعالى، وهو الذي ينفخ الحياة في الأجسام، وهو الذي يميتها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٧- ٩]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [النحل:٧٠].

﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وإلينا وحدنا مصير الخلائق ومرجعهم ومردهم فنحاسبهم على أعمالهم، ونجازي كلاً منهم بما عمل، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

فمهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة فإن الله له بالمرصاد، ومرده ومرجعه إليه، ولن يفوته، ولن يعجزه هربًا، فالطريق إليه وحده، والطرق إلى غيره مسدودة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾، أي: يوم تشقق الأرض عن أجسادهم للخروج من الأجداث يوم القيامة، كما تتشقق عن الحب والنبات.

قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل- باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٢٢٧٨.

قال ابن كثير[١]: «وذلك أن الله تعالى ينزل مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور».

﴿سِرَاعًا﴾، أي: فيقومون مسرعين إلى موقف الحساب استجابة لأمر الله عز وجل قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [سورة القمر:٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢].

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ الحشر: هو الجمع للحساب أي: إخراجهم من القبور وجمعهم للحساب أمر يسير علينا؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يقول الله عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ ومسليًا له ومطمئنًا له ومؤيدًا، ومتوعداً المكذبين: نحن أعلم بما يقول لك المشركون المعاندون من التكذيب والمعاندة، وما يقولون فيك من المزاعم الباطلة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧- ٩٩].

فقد كذبه- بأبي هو وأمي- كثير من قومه، بل الكثير من كبارهم وأهل الرأي فيهم، بل من أقاربه وأعمامه، كأبي جهل وأبي لهب، ورمي ﷺ بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وما ثناه ذلك ﷺ عن دعوته، بل صبر وصابر وكان يقول ﷺ:

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٨٨.

«رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١].

قال ابن القيم[٢]: «أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء».

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾، أي: وما أنت عليهم بجبار تجبرهم على الهدى وتلزمهم به وإنما مهمتك البلاغ فقط، كما قال عز وجل: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]،وقال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [المائدة:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال عز وجل: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾. [القصص:٥٦].

فمهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي البلاغ، وليس عليهم هداية الخلق وإجبارهم على الدخول في دين الله، فإن هداية القلوب بيد علام الغيوب.

ولهذا لم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه، ولا هداية زوجته، ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع لوط عليه السلام هداية زوجته، ولم يستطع سيد الخلق محمد ﷺ هداية عمه أبي طالب.

وينبغي أن يأخذ المصلحون والدعاة إلى الله تعالى من هذا دروسًا وعبرًا في طريق دعوتهم إلى الله.

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أي: فعظ بالقرآن بتلاوته على الناس؛ ليتذكروا ويتعظوا بما فيه من الوعد والوعيد والزجر والتهديد، ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ «من»: موصولة بمعنى

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢.

الذي، أي: فذكر بالقرآن الذي يخاف وعيدي بالعذاب، أي: ويرجو وعدي بالثواب، وهم المؤمنون؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكرى، كما قال عز وجل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، وقال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وإنما خص عز وجل بالأمر بالتذكير من يخاف وعيده؛ لأنه هو الذي ينتفع بالتذكير، أما من لا يؤمن بلقاء الله، ولا يخاف وعيده، ولا يرجو وعده فلا ينتفع بالتذكير.

ومهمة الرسل عليهم السلام هي التذكير بالوعيد والتخويف والإنذار من عذاب الله، والتبشير بوعد الله بالنعيم المقيم، قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى قرب الساعة والنفخ في الصور؛ لخروج الناس من قبورهم وقيامهم لرب العالمين، وتحقق ذلك ووجوب الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

٢- قدرة الله عز وجل التامة على إحياء الخلق وإماتتهم وبعثهم وردهم إليه سبحانه واختصاصه بذلك، وثناؤه عز وجل على نفسه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

٣- إثبات البعث، وتشقق الأرض يوم القيامة عمَّن فيها من الموتى وخروجهم منها مسرعين إلى موقف الحشر والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾.

٤- إثبات الحشر وجمع الخلائق يوم القيامة، ويسر ذلك على الله تعالى؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء ولا يتعسر عليه أمر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

٥- تسلية النبي ﷺ وتطمينه والوعيد للمكذبين له بإحاطة علم الله بما يقولون ومجازاتهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

٦- أن مهمة الرسول ﷺ التذكير والدعوة إلى الله- عز وجل- وتبليغ الرسالة، وليس عليه هداية الخلق وإجبارهم على اتباع الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.

وفي هذا درس للمربين من الوالدين والموجهين وغيرهم، بأن عليهم التربية والتوجيه، والنتائج أمرها إلى الله تعالى.

٧- إنما يتذكر بالقرآن من يخاف وعيد الله ويرجو وعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

* * *

تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلذَّارِيَات

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الذاريات»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بالقسَم بالذاريات وما بعدها على أن البعث والجزاء حق: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۝١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝١٤﴾.

٢- بيان ما أعده الله للمتقين من الجنات والنعيم، والثناء عليهم وامتداحهم بالإحسان وفضائل الأعمال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩﴾.

٣- التذكير بعدد من آياته ونعمه، وتأكيد أن البعث والجزاء حق: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾.

٤- ذكر حديث ضيف إبراهيم من الملائكة عليه وعليهم السلام: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠﴾.

٥- إهلاك قوم لوط بسبب إجرامهم وإسرافهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٣٧﴾.

٦- التنبيه على آيات الله عز وجل في إهلاك الأقوام المكذبين بأنواع العقوبات، تحذيرًا للمشركين: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٧- التنبيه على آيات الله تعالى في الكون الدالة على تمام قدرته ووجوب عبادته وحده لا شريك له: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

٨- تسلية الرسول ﷺ وتأييده وتقوية قلبه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

٩- بيان الحكمة من خلق الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

١٠- التهديد والوعيد للظالمين الكافرين بعذاب الدنيا والآخرة: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الذاريات» مقسم به وهي: الرياح. أقسم الله عز وجل بها لكثرة منافعها للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك، تثير السحاب وتنشره وتلقحه وتسوقه وتبشر بالمطر وتقم الأرض وتسوق السفن إلى غير ذلك، تأتي بأمر الله رحمة، وتأتي بأمره عذاباً.

وسميت الرياح بالذاريات؛ لأنها تذرو المطر والتراب والنبات إذا يبس، أي: تنشر ذلك وتفرقه قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥].

«ذروا» مصدر، أي: نشرًا وتفريقًا، تارة بشدة وقوة، وتارة بلين ولطف، وتارة بين ذلك.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«الحاملات» وما بعدها: معطوف على «الذاريات» داخل ضمن المقسم به.

و«الحاملات»: السحاب، «وقرًا»، أي: ثقلاً من الماء الكثير الذي ينفع الله به العباد والبلاد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢].

قال ابن القيم(١): «وهي روايا الأرض يسوقها الله سبحانه على متون السحاب بالرياح».

قال زيد بن عمرو بن نفيل(٢):

وأسلمتُ نفسي لمن أسلَمَتْ ... له المزن تحمل عذبًا زلالا

و«الجاريات»: السفن التي تجري في البحار، وتمخر عبابها بقدرة الله عز وجل،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٣.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٢٣١.

تحمل الناس والأرزاق وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى:٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج:٦٥].

وبهذا قال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالجاريات النجوم، التي تسير وتجري، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥،١٦].

واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «وهو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة»(١).

﴿يُسْرًا﴾، أي: جريًا بيسر وسهولة، مسخرة مذللة منقادة.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾: الملائكة تقسم ما أمرها الله عز وجل بتقسيمه، كما قال عز وجل: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]، أي: الملائكة تدبر ما أمرها الله عز وجل بتدبيره.

فجبريل يقسم بأمر الله الوحي ، ويقسم العذاب وأنواع العقوبات على من خالف الرسل، وميكائيل يقسم بأمر الله القطر والبرد والثلج والنبات، وملك الموت يقسم بأمر الله المنايا بين الخلق، وإسرافيل يقسم بأمر الله الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهكذا غيرهم من الملائكة كل منهم قد جعله الله على تقسيم وتدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة لا يتعداه ولا ينقص منه.

فأقسم عز وجل بالذاريات، وهي الرياح، وبالحاملات، وهي السحاب، وبالجاريات، وهي السفن على قول عامة المفسرين، وبالمقسمات، وهي الملائكة.

قال ابن القيم رحمه الله(٢): «وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة؛ لمكان العبرة والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته، ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٣، ٢١٤.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٤- ٢١٥.

وشدة الحاجة إليها، فللمطر خمسة رياح: ريح، ينشر السحاب، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه. وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح، وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاءً تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذابًا تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يغطيها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيها، وتارة لاقحة، وتارة جنوبًا، وتارة دبوراً، وتارة صبًا، وتارة شمالا، وتارة حارة، وتارة باردة.

وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك.

يحبسها الله سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الآذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجرز، وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق الله... إلى أن قال: «والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته...».

قال: «ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو في غاية الخفة ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض حامل لأرزاق العباد والحيوان فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه...

إلى أن قال: فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه، وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد، ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد.

وسل الرياح من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بُشرًا بين يدي رحمته...

وسل الجاريات يسرًا من السفن من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن

حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٢- ٣٤].

وسل الجاريات يسرًا من الكواكب والشمس والقمر من الذي خلقها وأحسن خلقها، ورفع مكانها وزين بها قبة العالم...

إلى أن قال: وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته وحكمته، ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله.

فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر فهي هداية في طريق العلم بالخالق سبحانه وقدرته وعلمه، وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا».

ثم قال: «وأما دلالة «المقسمات أمرا» وهم الملائكة فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام بخدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم».

قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾.

جملة جواب القسم، فأقسم عز وجل بالرياح والسحاب والسفن والكواكب والملائكة على أن ما يوعد به الخلق لصادق وإن الدين لواقع.

﴿إِنَّمَا﴾، «إن»: حرف توكيد ونصب و«ما» موصولة أو مصدرية، والتقدير: إن الذي توعدونه أو إن وعدكم لصادق. واللام في قوله «لصادق» وفي قوله «لواقع»

للتوكيد.

والمعنى: إنما توعدون من أمر القيامة والبعث والثواب والعقاب لوعد صادق.

كما قال عز وجل: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس:٥٣].

و «الدين» هو الجزاء على الأعمال فيجازى كلا بما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

فوعده عز وجل صدق ومجازاته العباد واقعة لا محالة.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- على أن البعث والمعاد حق وصدق، وأن الحساب والجزاء واقع لا محالة- تأكيداً لذلك وتعظيماً له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾.

٢- في إقسام الله- عز وجل- بهذه المخلوقات العظيمة تنبيه على كمال قدرته، وعظيم نعمه. فأقسم عز وجل بالرياح والسحاب، والسفن أو النجوم، والملائكة لما في خلقها من العظمة ولما لها من الفوائد والمنافع التي لا تحصى.

٣- أن لله- عز وجل- أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما في ذلك من الدلالة على عظمته عز وجل.

٤- إثبات وجود الملائكة؛ وأنهم مكلفون بأعمال مختلفة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

أقسم عز وجل بالآيات السابقة على أن ما وعد الله به حق وصدق، وأن الجزاء على الأعمال كائن وواقع لا محالة، ثم أقسم في هذه الآيات بالسماء على اختلافهم في ذلك.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«السماء»: مقسم به مجرور، والمراد أجرام السموات السبع التي هي من أعظم المخلوقات.

وإقسامه عز وجل بها وبغيرها من المخلوقات؛ ليدل على عظمته هو فهو الخالق العظيم لذلك كله.

﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾، أي: صاحبة الحُبُك، والحَبْك: إجادة عمل الشيء وإتقان صنعه، يقال: ثوب محبوك إذا أجيد نسجه، وحبل محبوك: إذا كان شديد الفتل.

والمعنى: والسماء ذات الصنع المستوي الحسن البديع، والخلق القوي الشديد، والبنيان المتقن الرفيع، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٣- ٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: «ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء»(١).

وقال ابن كثير(٢) بعد أن ذكر عدة أقوال عن السلف في معنى الحبك: «وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، هو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما- فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات، كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]».

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ هذا هو المقسم عليه. والخطاب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٤٨٨- ٤٨٩.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٢.

للمشركين من أهل مكة، واللام في قوله: ﴿لَفِي﴾: للتوكيد.

والمراد بالقول المختلف: أقوالهم في القرآن الكريم، وفي النبي ﷺ، وفي البعث، المختلفة المتضاربة، والتي مبناها على التخمين والتخرص والحيرة بسبب تكذيبهم بالحق، فإنهم لما كذبوا بالحق التبس الأمر عليهم، فاختلفت أقوالهم ومذاهبهم وطرائقهم وآراؤهم فلم يستقر لهم رأي، ولم يثبتوا على حال، كما قال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ:١-٣].

فقالوا عن القرآن سحر، ومن قول البشر، وأساطير الأولين، ونحو ذلك، وقالوا عن الرسول ﷺ: ساحر، أو شاعر، أو كاهن، أو مجنون. وأنكروا البعث، فهم فيه بين مكذب ومشكك.

قال ابن القيم(١): «وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا بسبب تكذيبهم بالحق»

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾؛ أي: يصرف عن الإيمان بالحق الذي جاء من عند الله تعالى: القرآن الكريم، والرسول، والبعث والجزاء على الأعمال وغير ذلك.

﴿مَنْ أُفِكَ﴾ من صرف ممن سبق في علم الله أنه من أهل الضلال، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

ويحتمل أن تكون «عن» هنا فيها معنى السببية وضمير الهاء عائد إلى القول المختلف، فيكون المعنى: يصرف بسببه، أي: بسبب هذا الاختلاف في القول من صرف وقضي عليه بالخذلان.

وهذا وذاك مما يوجب على العبد الإقبال على الله، وطلب مرضاته والتقرب إليه بطاعته، فهذا هو السبب الوحيد للتوفيق، وليحذر الإنسان كل الحذر من المعاصي التي تبعده عن الله، وتكون سببًا لصرفه عن الحق والقضاء عليه بالخذلان. قال تعالى:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٠، ٢٣٣.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٥- ١٠].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة سوف ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة سوف ييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل:٥]»(١).

﴿قُتِلَ﴾، أي: لعن وأهلك، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] أي: لعن وأهلك.

﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذّابون المرتابون المخمِّنون الذين اختلفت أقوالهم فيما جاءهم من الحق من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ الغمرة: الغفلة والجهالة، أي: الذين هم في غفلة وجهالة، قد غمرت قلوبهم فغطتها وغشيتها، كغمرة الماء وغمرة الموت قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون:٦٣] أي: في غفلة وجهالة وشك وشرك.

﴿سَاهُونَ﴾، أي: غافلون، والسهو: الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه.

﴿يَسْأَلُونَ﴾، أي: يسألون استبعادًا للوقوع، وجحدًا وشكًا وعنادًا وتكذيبًا، كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:١٨].

﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾، أي: متى و﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾، أي: يوم الجزاء على الأعمال.

أي: متى يوم الدين الذي نجازى فيه بأعمالنا، يقولون هذا استبعادًا وتكذيبًا، كما

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨، من حديث علي رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار:٩].

وسُمي يوم القيامة بيوم الدين؛ لأن المرء فيه يدان ويجازى بما عمل من خير وشر كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

ثم أخبر تعالى أن ذلك: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

أي: يوم هم على النار يوقفون ويعرضون، وفيها يعذبون ويحرقون، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج:١٠] أي: أحرقوهم بالنار.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾، أي: يقال لهم هذا إهانة وتوبيخًا لهم وتقريعًا، والذوق هو أحد الحواس الخمس.

والمعنى: تجرعوا وكابدوا وأحسوا بالعذاب في النار واحتراقكم فيها كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

قال ابن القيم[1]: «وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها».

وقريب من هذا -والله أعلم- قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] فأطلق على المجازاة على السيئة سيئة من باب المشاكلة، وأن الأولى سبب الثانية.

﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا إشارة إلى تعذيبهم في النار، أي: هذا الجزاء والتعذيب في النار الذي كنتم تستعجلونه بقولكم وسؤالكم ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢١.

وهذا على سبيل التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير لهم.

وهذا من العذاب المعنوي الذي لا يقل عن العذاب الحسي. نسأل الله السلامة والعافية.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالسماء العظيمة الخلق الرفيعة البناء، المتقنة الصنع للدلالة على عظمته وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾، وله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

٢- اختلاف المشركين في صدق رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي والإخبار بالبعث على أقوال كلها باطلة متناقصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

٣- لا يصرف عن الحق إلا من قضي عليه بالخذلان، فلا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

٤- أن الاختلاف ورد الحق سبب للخذلان.

٥- لعن الله عز وجل وإهلاكه لأهل التخرص والغفلة والجهل المنكرين للبعث والمعاد والجزاء على الأعمال، وطردهم من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾.

٦- الوعيد للمكذبين بالبعث والجزاء بالعذاب الحسي بالنار والعذاب المعنوي للقلوب بالتوبيخ والتقريع؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٧- أن الفتنة تطلق على العذاب، وعلى سببه؛ وهو الكفر واستعجال العذاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

ذكر عز وجل ما أعده من العذاب في النار للمكذبين، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده للمتقين على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء كما قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«المتقين»: الذين اتقوا الله، واتقوا عقابه بفعل ما أمرهم الله به، واجتناب ما نهاهم عنه.

فهذه حقيقة تقوى الله.

والتقوى في الأصل: مأخوذة من الوقاية، وهي أن يجعل الإنسان بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي البرد بالملابس ويتقي الحر بالبعد عن الشمس، ويتقي الشوك بلبس النعلين ونحو ذلك، ويتقي عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال ابن المعتز(١).

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصا

(١) انظر: «ديوانه» ٢/ ٣٧٦- تحقيق محمد بديع شريف.

وأصلها «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية فقيل: «تقوى».

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جَنَّة وهي المنازل التي أعدها الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، فيها من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقدر قدره إلا الكريم العظيم. كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وأصل الجنة: البستان، سُمي جنة؛ لأنه يجنّ ويستر من بداخله بأشجاره وثماره الكثيرة الملتفة. والجيم والنون بمعنى الستر، ومنه سُمي الجن «جنًا»؛ لأنهم مستترون، وسُمي القلب «جنانا»؛ لأنه مستتر، وهكذا.

﴿وَعُيُونٍ﴾: جمع عين، وهي ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري.

والمراد: عيون الجنة التي تنبع من أرضها وتجرى في وسطها، ومنها التسنيم والسلسبيل، كما قال عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦].

فالمتقون في جنات يسكنونها ويتمتعون بما فيها من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك من ألوان النعيم، وفي عيون يشربون منها ويتمتعون برؤيتها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ آخذين: حال من «المتقين» أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم، كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الطور:١٨].

والأخذ: هو تناول الشيء باليد وغيرها.

و«ما»: موصولة تفيد العموم بمعنى «الذي»، أي: آخذين الذي أعطاهم ربهم من ألوان النعيم وأنواع الكرامة، والخير والثواب، والأجر العظيم، والسرور والغبطة.

قال ابن القيم[1]: «وفي ذلك دليل على أمور، منها: قبولهم له، ومنها: رضاهم به، ومنها: وصولهم إليه بلا مانع وعائق، ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٢.

فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك».

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ الإشارة في قوله ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ إلى ما قبل مجازاتهم ، أي: إلى حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا في حياتهم الدنيا محسنين، أي: بسبب إحسانهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠].

أي: إنهم كانوا في الدنيا محسنين في عبادة الله تعالى، ومحسنين إلى عباد الله، فالإحسان في عبادة الله تعالى بالإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢].

وقال ﷺ وقد سئل عن الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة من الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب وسائر الناس، وذلك بنوعي الإحسان: القولي والفعلي، من حسن الخلق وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى وغير ذلك.

قال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(٢).

---

(١) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها- أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة- وجوب الوفاء ببيعة الأول فالأول ١٨٤٤، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان
وإن أساء مسيء فليكن لك في ... عروض زلته صفح وغفران[1]

وما أسعد من وفقه الله- عز وجل- إلى الجمع بين الإحسانين: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله قولا وفعلا.

والقرآن الكريم كله، بل التشريع كله في الكتاب والسنة دائر بين الأمر بالإحسانين والنهي عن ضدهما، وبيان حال المحسنين ومآلهم، وحال المسيئين ومآلهم.

ولا يطلب من العبد في هذه الحياة إلا أن يكون محسنًا؛ محسنًا في عبادة الله ومحسنًا إلى عباد الله.

فكن أخي الكريم جامعًا بين الإحسانين وكن في هذه الحياة دائرًا بينهما وأحسن؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥].

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

هذا تفصيل لما وصفهم الله به من الإحسان في الآية السابقة.

قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، «قليلا»: ظرف منصوب بيهجعون، أوصفة للمصدر أي: كانوا يهجعون هجوعًا قليلا، و«ما»: صلة للتأكيد.

والمعنى: كانوا يهجعون قليلا من الليل، أو يهجعون في طائفة قليلة من الليل.

ويجوز كون «ما»: مصدرية، والمعنى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم.

ويجوز أن تكون «ما»: موصولة، والمعنى: كانوا قليلا ما يهجعونه، أي: الذي يهجعونه.

وقيل «ما»: نافيه، والتقدير: كانوا قليلا من الليل ما يهجعونه، بمعنى أن لهم وقتًا قليلا من الليل يقومونه ولا ينامونه أي: أنهم يقومون من الليل شيئًا يسيرًا فقيل: يصلون بين المغرب والعشاء، وقيل: لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

وحمل الآية على هذا فيه نظر؛ لأن القيام التام المحمود الذي يستحق أهله الثناء

---

(١) البيتان لأبي الفتح البستي. انظر «حياة الحيوان الكبري» ١/ ٢٥٠، «مجاني الأدب» ٤/ ٩٤.

عليهم هو ما كان مثل قيامه ﷺ، ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه- كما سيأتي بيانه.

وقيل المعنى: أنهم ما يهجعون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير منه، بمعنى أنهم يقومون الليل كله. وهذا ضعيف؛ لأن الله عز وجل لم يأمر بقيام الليل كله، وإنما أمر رسوله ﷺ بقيام نصف الليل، أو النقص منه، أو الزيادة عليه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:١- ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩] «ومن» للتبعيض، ولم يقل: فتهجد الليل كله، بل لا يشرع قيام الليل كله.

ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كان يقوم الليل كله قال له ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا»(١).

وأنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه رضي الله عنهم الذين قالوا: نقوم ولا ننام(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا»(٣).

وهذا كله يدل على ضعف قول من حمل معنى الآية: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على قيام الليل كله وقد رد ابن القيم هذا من عدة أوجه(٤).

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قومًا، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٤، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩١.

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم- حق الأهل في الصوم ١٩٧٧، ومسلم في الصيام- النهي عن صيام الدهر ١١٥٩ وأبو داود في الصوم ٢٤٤٨، والنسائي في قيام الليل ١٦٣٠، والترمذي في الصوم ٧٧٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٧١٢

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٢- ٢٢٤.

ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم، فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ»(١).

وفي الآية دلالة على فضل قيام الليل، وأنه من أعظم الإحسان؛ لأن الله وصف المتقين بأنهم محسنون، ثم ذكر من أول صفاتهم قيام الليل فدل على أنه من أفضل وأعظم الإحسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، نسأل الله التوفيق.

وقد قام ﷺ حتى تفطرت قدماه(٢)، وكان لا يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة(٣)، وكان لا يترك قيام الليل لا حضرًا ولا سفرًا، وإذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة(٤).

وقال ﷺ لابن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل» فكان ابن عمر بعد هذا ما ينام من الليل إلا قليلا(٥).

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل»(٦).

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(٧).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ومن حديث عائشة رضي الله عنها ٤٨٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٤١، والنسائي في قيام الليل ١٦٩٧، والترمذي في الصلاة ٤٩٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٣٢٤.

(٥) أخرجه البخاري في التعبير ٦٥١٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٤٥٢٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩، من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٢، ومسلم في الصيام ١١٥٩، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٤.

وجاء عن بعضهم أن أهل قيام الليل يسبقون إلى الجنة[١].

وقال بعض السلف: «كابدنا قيام الليل عشرين سنة، وتنعمنا به عشرين سنة»[٢].

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا[٣]

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار[٤]

فاحرص أخي بارك الله فيك أن يكون لك حظ مع هؤلاء المتقين المحسنين من قيام الليل ما أمكنك ولو بالتشبه بهم كما قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح[٥]

قال عز وجل في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[٦].

وعلى الأقل فلا تغلب على الوتر بثلاث ركعات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»[٧].

---

(١) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب ص٤١، «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» ٢/ ٥٠٠.

(٢) انظر: «قوت القلوب» ١/ ٧١، «لطائف المعارف» ص٤٣.

(٣) البيتان لابن هاني انظر (ديوانه) ص ١٤٠.

(٤) انظر: «الأمثال المولدة» ص٣٢٤، «التمثيل والمحاضرة» ص٣٤٥، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤، «زهر الأكم في الأمثال والحكم» ٣/ ٧٧.

(٥) انظر: نفح الأزهار ص٩، صيد الأفكار ١/ ٤. وهذا البيت يروى لأبي الفتوح يحيى بن حبش الحكيم السهروردي، المتوفى سنة ٥٨٧هـ، ويروى لعبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣هـ.

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٨١، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٢١، وأبو داود في الصلاة ١٤٣٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٧٧ والترمذي في الصوم ٧٦٠.

وفي الآية رد على الذين يتبتلون فيقومون ولا ينامون قال ﷺ لما بلغه عن عثمان ابن مظعون رضي الله عنه أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء، فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقًا، وإن لضيفك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، فصم وأفطر، وصل ونم»(١).

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل»؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «لا حلّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر، فليرقد»(٢).

قوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، ما قبل طلوع الفجر، وهو وقت إجابة الدعاء كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»(٤).

وهكذا قال أكثر المفسرين في قول يعقوب عليه السلام ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] أنه أخّرهم إلى وقت السحر لأنه وقت إجابة الدعاء.

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٢٦٨، من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٤، وأبو داود في الصلاة ١٣١٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٧١.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٤٥ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦، وأخرجه أحمد ١/ ٣٨٨ بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٥٧.

قال الناظم[١]:

فســوّفهم فيهــا وأوعــدهم بهــا لوقت إجابات الدعا ساعة السحر

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يطلبون من الله عز وجل المغفرة لذنوبهم.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة[٢].

والمعنى: أنهم يختمون صلاتهم بالليل بالاستغفار بالأسحار والتوبة، فباتوا لربهم سجدًا وقيامًا، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك، فانتقلوا من عبادة إلى عبادة، ومن ذل وخضوع لله عز وجل، إلى ذل وخضوع واعتراف بالتقصير وخوف من الذنوب وذلك بالاستغفار والتوبة ولم يُدِلُّوا على الله بعبادتهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، بخلاف من جمع بين الإساءة والأمن من مكر الله- والعياذ بالله- كما هو حال كثير من الناس. والله المستعان.

والاستغفار من أفضل الأعمال وبه تحط الذنوب والأوزار، وهو لا يحتاج إلى كلفة وتعب مع أنه عظيم المقدار وهو ختام الأعمال والأعمار.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[٣].

وأمر الله رسوله ﷺ أن يختم عمره بالاستغفار في قوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١- ٣].

وفي هذا أمر لكل مسلم أن يختم عمره بالاستغفار.

كما أمر الله- عز وجل- المؤمنين أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار في

---

(١) يحيى الصرصري في قصيدته المسماة «القصيدة الصرصرية» ص٤٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة:١٩٩].

وشرع للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة لما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»(١).

قال ابن القيم(٢): «فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار».

﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾.

بعدما وصف الله عز وجل المتقين المحسنين بالصلاة والاستغفار.

وهذا إحسان فيما بينهم وبين الله- عز وجل- ثنى بوصفهم بالزكاة والصدقة والبر والصلة، وفي هذا إحسان إلى عباد الله، فقال:

﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾، أي: نصيب واجب مقدر مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم.

وفي سورة المعارج: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [الآية:٢٤]، قيل: قوله في الذاريات: ﴿حَقٌّ﴾، أي: حق عام، وفي المعارج: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾، أي: معين؛ وهو الزكاة.

والسائل: هو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق، كما جاء في الحديث: «للسائل حق وإن جاء على فرس»(٣).

والمحروم: المتعفف الذي لا يسأل الناس كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه».

وفي بعض الروايات: «إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤوا إن شئتم يعني قوله:

---

(١) أخرجه النسائي في الطهارة ١٤٨، والترمذي في الطهارة ٥٥، وابن ماجه في الطهارة ٤٧٠.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٥.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٠١ وأبو داود في الزكاة- باب حق السائل ١٦٦٥، من حديث علي وابنه الحسين رضي الله عنهما.

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾» [البقرة:٢٧٣][(١)].

فالمحروم الذي لا يسأل الناس وليس له سهم في بيت المال ولم تتيسر له أسباب الكسب، وهو المحارف الذي قُتِّر عليه رزقه، وتعسرت في وجهه سبل الرزق.

وسمي بـ«المحروم»؛ لأنه حرم الرزق كونًا وقدرًا كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر:١٦]، أي: ضيق عليه رزقه.

قال ابن القيم[(٢)]: «ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ضد: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٥، ٦] .

وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل. وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجِدَة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء، وأجود الأجودين، فلم يجمع له بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع إعطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين»[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ إضافة إلى كونه ثناءً على المحسنين ببذل الزكاة والصدقة والنفقات ترغيب وحث على هذا العمل لما فيه من الإحسان إلى عباد الله، وأن هذا العمل من صفات المحسنين الذين جمعوا بين الإحسانين الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله.

وفي قوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ما يدل على مشروعية الإنفاق من جميع ما يتموله الإنسان من أي أصناف المال كان، لكن الزكاة إنما تجب في الأموال الزكوية، كما دلت

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٣٩، ومسلم في الزكاة- باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه ١٠٣٩، وأبو داود في الزكاة ١٦٣١، والنسائي في الزكاة ٢٥٧١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٥.

(٣) كما يقال للبخيل «محروم» لأنه حُرم قدرًا وكونًا بحرمانه لنفسه بخلا، وما أمر شرعًا بذلك بل نهي شرعًاعن البخل.

على ذلك السنة، وهي: النقدان وعروض التجارة، والسائمة من بهيمة الأنعام، والخارج من الأرض من الحبوب ونحوها.

وفي مقابلة السائل بالمحروم ما يدل على جواز السؤال عند الحاجة.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

في هاتين الآيتين الكريمتين تذكير الخلق بآيات الله الكونية في الأرض وفي الأنفس الدالة على كماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة دون من سواه، وتمام قدرته، وأن ما جاء به الرسول ﷺ والمرسلون قبله من الوحي والوعد والوعيد وتقرير المعاد كل ذلك حق من عند الله عز وجل.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهو ما أنزله من الوحي على أنبيائه ورسله، وآيات كونية في الكون والأنفس وسائر المخلوقات.

والمراد بالآيات هنا الآيات الكونية أي: تأملوا وتفكروا وانظروا واعتبروا بهذه الآيات العظيمة في الأرض وفي الأنفس الدالة على وجود الخالق وعظمته وتمام قدرته، وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٦-٨].

قال الشاعر:

فوا عجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد(١)

والموقنون: هم أهل الإيمان واليقين، واليقين أعلى درجات الإيمان، وهو التصديق الجازم.

وإنما خص الموقنين بالذكر؛ لأنهم هم الذين يتفكرون ويتأملون في آيات الله

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

ويتعظون ويعتبرون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣] بخلاف من لا يقين عنده ولا إيمان فلا ينتفع بالآيات كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

وآيات الله في الأرض أنواع كثيرة لا تحصى منها: خلقها وما فيه من العظمة، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ﴾ [الشورى:٢٩]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

ومنها: تعددها كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

ومنها: تثبيتها بالجبال لئلا تميد بأهلها، كما قال عز وجل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء:٣١].

ومنها: سعتها، كما قال عز وجل: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر:١٩، ق:٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد:٣].

ومنها: كونها مسطحة مع أنها في الحقيقة كروية الشكل. قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠].

ومنها: كونها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه:٥٣]، [الزخرف:١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ:٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩- ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس:٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦، الأعراف:٢٤].

ومنها: كونها ذلولاً، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

ومنها: إنشاء الخلق وإنباتهم منها، وإعادتهم فيها وإخراجهم منها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، وقال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧، ١٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات:٢٥، ٢٦].

ومنها: ما أودعه الله ودحاه فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٠- ٣٢].

ومنها: إسكان الماء فيها لمصالح الإنسان والحيوان والنبات كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨].

ومنها: إحياؤها بعد موتها وما أخرجه الله منها من النبات والجنات والماء والمرعى، كما قال عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس:٣٣- ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن

﴿كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق:٩- ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان:١٠].

ومن آياتها: أنها تسبح لله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤].

إلى غير ذلك من آيات الله- عز وجل- في الأرض، والتي لا تحصى كثرة ولا نوعًا، من ذلك ما يحصل لها يوم القيامة من الارتجاج والارتجاف والدك والزلزلة والبروز والتبديل وغير ذلك.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أنواعًا كثيرة من آيات الأرض منها: «بروز هذا الجانب فيها عن الماء مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغمورًا به.

قال:

فيا لك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مُريدُ الحق كنَّ هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنةٌ ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا»

إلى آخر ما قال رحمه الله في كلام طويل يحسن الوقوف عليه(١).

قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾، أي: وفي أنفسكم آيات، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام معناه

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٠.

الأمر، وفيه أيضًا معنى التوبيخ والتقريع، أي: لم لا تبصرون، أي: تبصروا وتفكروا في أنفسكم، وما فيها من دقيق الخلقة وبديع الصنع، وعظيم التدبير، وما ركبت منه من الأعضاء والعظام والأعصاب والعروق واللحم والدم والحواس، من السمع والبصر والعقول وغير ذلك. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام:٤٦].

وأيضًا تبصروا وتفكروا فيما بين الناس من الاختلاف العظيم في ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم وما جبلوا عليه، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو في المكان الذي هو محتاج إليه فيه.

قال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»(١).

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾، الرزق: العطاء، والمراد به عطاء الدنيا؛ من المطر الذي هو رحمة من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]، وكذا الرزق المقدر لهم بقدر الله الكوني النازل من السماء من الأموال والأولاد والصحة وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

وقيل: إن الرزق يشمل عطاء الآخرة، والذي هو أعظم عطاء، وهو نعيم الجنة التي هي رحمة الله تعالى، كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي»(٢).

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن القيم[١] بعد ما ذكر أن الرزق فسر بالمطر، وفسر بالجنة، وفسر برزق الدنيا والآخرة قال: «ولا ريب أن المطر من الرحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة، فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو».

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: والذي توعدون من أمر الساعة والقيامة والجنة وما فيها من الخير والنعيم والثواب، والنار وما فيها من الشر والعذاب والعقاب وغير ذلك.

قال ابن القيم[٢]: «كون الجنة والخير في السماء لا إشكال فيه، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين، فإذا نظرت إلى أسباب الخير والشر، وأسباب دخول الجنة والنار وافتراق الناس، وانقسامهم إلى شقي وسعيد، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره، النازل من السماء، وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة وفي اللوح المحفوظ قبل العمل وبعده، فالأمر كله من السماء».

وقال أيضًا[٣] بعدما ذكر قول مجاهد في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: «الجنة والنار» قال: وهذا يحتاج إلى تفسير فإن النار في أسفل السافلين ليست في السماء.

ومعنى هذا ما قاله في رواية ابن أبي نجيح عنه، وقاله أبو صالح عن ابن عباس «الخير والشر كلاهما يأتي من السماء»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾.

قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الفاء: عاطفة، والواو للقسم، والمقسم به: رب السماء، فأقسم عز وجل بنفسه. والمراد بالسماء والأرض: السموات السبع، والأرضون السبع وهكذا إذا ذكرا معًا فالغالب أن يراد بذلك أجرام السموات والأرض قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٤.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٤.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧.

(٤) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ٥٢٢.

ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [الطلاق:١٢].

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ ومرجع الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى ما وعدوا به من القيامة والبعث والجزاء على الأعمال واللام للتوكيد.

أي: إنه كائن لا محالة وحق وصدق لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلا في الأحكام.

﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ مثل: شبه، و(ما) مصدرية، أي: مثل نطقكم، والنطق: الكلام.

أي: لحق ثابت، وصدق واقع مثل كونكم تنطقون وتتكلمون، فكما لا يخالج الإنسان أدنى شك في نطقه، فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد والنبوة والمعاد والجزاء على الأعمال حق ثابت وواقع لا شك فيه، كما يقال: هذا حق مثل الشمس.

قال الشاعر:

وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل[1]

وما أحسن قول المتنبي في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي، وكان أحد الوشاة قد هجاه في قصيدة ونسبها للمتنبي؛ فكتب إليه أبو الطيب قصيدة منها قوله:

وهبني قلت هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء[2]

قال ابن القيم[3]:«وههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه، وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه، وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معاينًا مشاهدًا بالبصائر، وإن لم يعاين بالأبصار، ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له، ولا تأخذ له أهبة، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم، إلا الفرد بعد الفرد، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين

---

(١) البيت للمتنبي. انظر «ديوانه» ص٢٢٠ .

(٢) انظر «ديوان المتنبي» ص ٩ دار إحياء التراث العربي- بيروت.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٥- ٢٣٦.

يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قد ملكهم الحس، وقل نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني، التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل.

والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته، وتحصى عليه أنفاسه، ومطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل:

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المحلين تنزل؟»

وصدق ابن القيم- رحمه الله- في نظرته لواقع الناس، وهذا مصداق قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾ [ص:٢٤].

وأَمَر الله عز وجل آدم لما استخرج ذريته أن يأمر من كل ألف بواحد للجنة والبقية إلى النار(١).

وقال ﷺ: «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»(٢).

وقد قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٣).

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى(٤)

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

٢- عظم ما أعده الله للمتقين في الجنات والعيون من جزيل العطاء والنعيم؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان٢٢٢، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٤- ثناء الله- عز وجل- على المتقين، الذين جمعوا بين تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والإحسان في عبادته وإلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

٥- الترغيب في الإحسان في عبادة الله وإلى عباد الله، وفي قيام الليل والاستغفار بالأسحار؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٦- وجوب إخراج زكاة الأموال وإعطائها لمستحقيها، واستحباب الصدقة والإحسان إلى المحتاجين من سائل ومتعفف؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

٧- الإشارة إلى جواز السؤال عند الحاجة.

٨- الحث على التأمل في آيات الله- عز وجل- في الكون؛ في الأرض، وفي الأنفس، ودلالتها على عظيم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٩- إنما يتأمل في آيات الله في الأرض وفي غيرها ويتفكر فيها أهل اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

١٠- أن رزق الخلائق كلهم من السماء من عند الله- عز وجل- بالمطر، وبقدر الله النازل من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾.

١١- أن الجنة في السماء، وأن كل ما يوعد به الخلق من خير أو شر بقضاء الله- عز وجل- النازل من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

١٢- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وإقسامه- عز وجل- بنفسه، وهو رب السماء والأرض للخلائق على أن ذلك حق كنطقهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

ذكر الله عز وجل قصة ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة «هود» و«الحجر» وفي هذه السورة.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ «هل» للاستفهام، ومعناه التشويق، أو التقرير، أي: ألم يأتك.

وقيل: «هل» هنا بمعنى «قد» التي تقتضي التحقيق والتوكيد، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، أي: قد أتى على الإنسان.

وإنما صدر الكلام بالاستفهام للعناية والاهتمام والتشويق، والتقرير، وتنبيه المخاطب للتدبر والتفكر فيما سيخاطب به، لما له من الأهمية، أو لما فيه من الموعظة أو العجب ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه:٩] وقوله: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص:٢١]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

كما أن في تصدير الخطاب له ﷺ بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾: التنبيه على أن إتيان هذا إليه ﷺ علم من أعلام نبوته، أي: إن هذا من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا لك؟ أي: إنه لم يأتك إلا من قبلنا.

كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود:٤٩].

﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: خبر وقصة ونبأ ضيوف نبي الله ورسوله إبراهيم عليه السلام من الملائكة.

وإبراهيم هو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء عليهم السلام، فكل من جاء بعده من الأنبياء من ذريته، أَوَّلهم بِكْره إسماعيل بن إبراهيم من سريته هاجر، وهو أبو العرب،

ومن ذريته نبينا محمد ﷺ. ومنهم إسحاق بن إبراهيم من زوجته سارة. وهو أبو بني إسرائيل.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي ذوي الكرامة عند الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

ويحتمل المكرمين عند إبراهيم عليه السلام. ولا تنافي بين القولين، فضيوفه عليه السلام مكرمون عند الله، ومكرمون عنده، وهذا وذاك يدل على فضله عليه السلام.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ إذ: ظرف بمعنى حين، أي: حين دخلوا عليه. ولم يذكر استئذانهم وطرقهم للأبواب، مما يدل على كرم إبراهيم عليه السلام، وأن أبواب بيته مفتوحة للضيفان، وليس عليها حراس ولا حجاب.

قال ابن القيم(١): «قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ فلم يذكر استئذانهم، ففي هذا دليل على أنه عليه السلام كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قِراهم، فبقي منزله مضيفة مطروقًا لمن ورده، ولا يحتاج إلى استئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم».

﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾، أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمنا عليك سلامًا.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾، أي: سلام عليكم. ورده عليهم أبلغ وأكمل وأحسن وأفضل من سلامهم عليه، فقوله: «سَلامٌ» بالرفع، والتقدير: سلام عليكم، أي: سلام دائم أو ثابت لأن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت والدوام واللزوم، بينما سلامهم عليه بقولهم: «سَلامًا»، أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمنا عليك سلامًا: جملة فعلية. والجملة الفعلية تقتضي التجدد والحدوث فقط ولا تدل على الثبوت والدوام واللزوم كالجملة الاسمية.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ قال ابن كثير(٢): «وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة».

وذكر ابن القيم أن مما يدل على كرم إبراهيم عليه السلام أنه حذف المبتدأ من

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٧.

قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام. وكان رسولنا محمد ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول «ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا[١]».

وقال: «منكرون» بالبناء للمفعول وحذف الفاعل، ولم يقل إني أنكركم.

قال ابن القيم[٢]: «وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة».

وهو الذي أنكرهم، كما قال في سورة هود: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ [الآية:٧٠].

وعدم مواجهة المخاطبين بما يكرهون تعبير جاء به القرآن والسنة، ينبغي للمسلم الأخذ به في مخاطباته، وفرق بين قول القائل:

فأقسم أن لو التقينا وأنتُمُ ... لكان لكم يوم من الشر مظلم[٣]

وبين أن يقول:

فأقسم أن لو التقينا وأنتُمُ ... لكان لكم يوم من الخير نيِّر

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، أي: ذهب وانسل مسرعًا خفية بحيث لا يكاد يُشعر به، وهذا من كرم الضيافة أن يذهب المُضيف خفية بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي، فلا يشعر الضيف إلا وقد جاءه رب المنزل بالطعام، بخلاف من ينادي بالإتيان بالطعام وضيفه يسمع أو يستشير الضيف فيما يأتي به من الطعام، مما يجعل الضيف يستحي ويخجل ويحتشم، وربما تعذر عن الأكل، وأبدى أنه لا حاجة له في الطعام حياءً. وقد قالوا: «من شاور ما أعطى».

---

(١) أخرج البخاري في الأيمان والنذور- عن أبي حميد الساعدي- رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ يقول: «فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم وهذا أهدي إلي.....» ٦٦٣٦.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما قال: «قام النبي ﷺ خطيباً فقال: «بلغني أن أقواماً يقولون كذا وكذا....» أخرجه البخاري في الشركة ٢٥٠٦.

وعن أنس- رضي الله عنه في قصة الذين أرادوا التبتل أنه ﷺ قال «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٨، ٢٤٢.

(٣) البيت لامرئ القيس. انظر: «خزانة الأدب» للبغدادي ١٠/ ٨٠.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ يدل على أنه مستعد متهيء للضيفان فلم يحتج إلى الذهاب إلى السوق، أو إلى الجيران أو غيرهم؛ ليشتري أو يستقرض ونحو ذلك.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ يدل على خدمته عليه السلام لضيوفه بنفسه فلم يأمر من يأتي بالطعام من خادم أو غيره، وهذا أبلغ في الإكرام.

والعجل: هو ولد البقر، والذي يعد لحمه من ألذ وأنفع اللحوم.

ومن كرمه عليه السلام أنه جاءهم بالعجل كاملا لا ببعضه.

واختار لهم العجل السمين الذي هو من خيار ماله، كثير اللحم والشحم، ولذيذ الطعم، ولم يبُق هذا له ويختار لهم الهزيل.

وفي سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [الآية:٦٩] أي: مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة بالنار.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، أي: أدنى لهم هذا العجل المشوي هو بنفسه ولم يأمر من يقدمه لهم من خادم أو غيره، ولم يأمرهم أن يقوموا ويقربوا إليه، وهذا كرم منه وتلطف مع ضيوفه، وهذا لاشك أبلغ في الإكرام.

ونرى المدنية الحديثة عكست الأمر إيثارًا للراحة ونحو ذلك، بل ربما يعد من العيب عند البعض أن يقدم الطعام للضيف في مكان جلوسه، فهذا مجلس للقهوة، وللطعام مكان خاص، بل ربما ترك الضيف يخدم نفسه كما يفعله المنخدعون بالمدنية الزائفة، ويقولون للضيف: اخدم نفسك بنفسك.

﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ عَرْض حسن، وتلطف بالقول؛ ليأكلوا ولم يقل لهم: «كلوا» تلطفًا معهم في القول، ولم يكن ضيوفه يحتاجون إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم لهم الطعام أكلوا، ولما امتنع هؤلاء الضيوف من الأكل؛ لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون؛ لأنهم من صمد ليس لهم أجواف، قال لهم: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

واستدل بالآية على مشروعية إكرام الضيف وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل[1]، وعلى ذلك دلت السنة.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣٩٧.

قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(١).

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، أي: لما لم يأكلوا أوجس في نفسه منهم خيفة، كما قال عز وجل في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الآية:٧٠]، أي: أحس وأضمر في نفسه منهم تخوفًا، كما هي عادة العرب إذا نزل بهم ضيف وأبى أن يمالح، أي: أبى أن يأكل من طعامهم خافوا أنه إنما جاء لشرٍ، فإذا أكل من طعامهم اطمأنوا إليه وأمنوا من أن يغدر بهم.

قال ابن القيم(٢): «لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به».

لكن عندما يضعف وازع الدين، ويتجرد البعض من الشيم والعادات والتقاليد والأخلاق الكريمة الطيبة فإنه قد يأكل من طعام القوم ويغدر بهم وهذا في منتهى الخسة والدناءة.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾، أي: قال ضيوفه من الملائكة لما عرفوا ما وقع في نفسه من الخوف لما امتنعوا من الأكل ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ البشارة: الإخبار بما يسر ويُفرح مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان عندما يسمع بخبر سار تنبسط بشرته، ويظهر ذلك على وجهه.

والغلام: هو المولود الذكر، ﴿عَلِيمٍ﴾ أي: يكون ذا علم بما يمنحه الله من النبوة. والمراد به إسحاق عليه السلام، كما صرح به في بشارة زوج إبراهيم عليه السلام سارة عليها السلام؛ لأن هذا الولد منها فكل منهما مبشر به، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١].

كما بُشر إبراهيم عليه السلام قبل ذلك بإسماعيل عليه السلام من سريته هاجر؛ استجابة لدعائه عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٨، ومسلم في الإيمان ٤٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٣.

﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٠، ١٠١].

قال ابن القيم[١]: «وهذا الغلام إسحاق، لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنى لي بالولد وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر، وكان بكره وأول ولده».

وقد استدل ابن القيم[٢] بهذه الآيات على عظيم كرم إبراهيم عليه السلام من خمسة عشر وجهاً ثم قال: «فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفًا وفخرًا».

وقال ابن كثير[٣]: «وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أولاً، فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتيّ سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ على سبيل العرض والتلطف».

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾: سارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾، أي: في صرخة عظيمة ورنة شديدة وهي قولها: يا ويلتي.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: ضربت وجهها ندبة عند سماع هذا الخبر. ولطمته تعجبًا، كما تتعجب النساء من الأمر الغريب.

قال ابن القيم[٤]: «فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار».

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، أي: كيف ألد وأنا الآن عجوز، وقد كنت قبل ذلك في شبابي

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧- ٢٣٩.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٧- ٣٩٨.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

وفي صباي عقيمًا.

فذكرت لتعجبها من الولادة سببين: الأول أنها عجوز، أي: كبيرة السن، بلغت سن الإياس فلا تحبل، والسبب الثاني أنها كانت قبل ذلك عقيما.

ومن حسن الأدب اقتصرت في خطابها على ما تدعو الحاجة إليه بقولها: «عجوز عقيم» مع حذف المبتدأ فلم تقل: أنا عجوز عقيم.

وقال في سورة هود: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [الآيتان:٧٢، ٧٣].

فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾، أي: قالت لها الملائكة: كذلك قال ربك، بأنه سيولد لكما غلام عليم.

وفي هذا إثبات صفة القول لله عز وجل.

وفي إضافة «رب» إلى ضميرها في قوله: ﴿رَبُّكِ﴾: تشريف وتكريم لها وعناية بها؛ لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «الحكيم»، و«العليم» اسمان من أسماء الله عز وجل، كل منهما على وزن «فعيل»، «الحكيم»: مأخوذ من الحكم بأقسامه الثلاثة: الكوني والشرعي والجزائي، ومن الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية، يدل على أنه عز وجل ذو الحكم التام النافذ، والحكمة البالغة.

و«العليم»: مأخوذ من العلم وهو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

يدل على أنه عز وجل ذو العلم الواسع كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] فهو عز وجل ذو الحكم والحكمة والعلم فيما خلق وفيما أمر وشرع.

وقدّم في هذه الآية «الحكيم» على «العليم» مع أن الغالب في القرآن العكس، وذلك- والله أعلم- للتأمل في حكمة الله- عز وجل- في عدم ولادة سارة في شبابها، ومن ثم ولادتها بعد أن صارت عجوزاً واعتقدت أنها عقيم.

قال ابن القيم[1]: «والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء على أحسن وجوهها، وتتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالاستفهام للعناية والتنبيه والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بتوجيه الخطاب له؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾.

٣- تحقيق وإثبات مجيء ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة وهم جبريل وإسرافيل وميكائيل على صورة شباب حسان من بني آدم، وما جرى بينهم وبين إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾. وفي هذا علم من أعلام نبوة نبينا ﷺ.

٤- عظم منزلة هؤلاء الملائكة، وأنهم مكرمون عند الله- عز وجل- ، ومكرمون عند نبيه إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

٥- مشروعية السلام ورده، وأن رد إبراهيم أبلغ وأكمل من سلام الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

٦- كرم إبراهيم عليه السلام وأن منزله كان موئلاً للضيفان بلا استئذان؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾.

٧- جواز أن يبين صاحب المنزل للضيف أنه لم يعرفه تدرجاً معه في الكلام وإيناساً له؛ لقوله تعالى: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

٨- شدة كرم إبراهيم عليه السلام، وخدمته لضيوفه بنفسه، وتلطفه معهم في القول؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

٩- وجوب إكرام الضيف، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

ضيفه»[١].

١٠-أن من كرم الضيافة مبادرة الضيف بما يستحقه من الضيافة، والتلطف معه في الحديث، وتقريب أجود الطعام له، وخدمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾.

١١- طمأنة ضيوف إبراهيم عليه السلام له وبيان أنهم ملائكة من عند الله، وبشارتهم له بإسحاق نبيا من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

١٢- ينبغي للضيف طمأنة المضيف بالأكل مما يقدم له إزالة للوحشة، ولئلا يظن أنه إنما جاء لشر.

١٣- تعجب امرأة إبراهيم عليه السلام «سارة» من كونها تلد وهي عجوز كبيرة، وقد كانت في صباها عقيما؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾.

١٤- ضعف عقل المرأة إذ سارعت إلى الندبة ولطم وجهها؛ لقوله تعالى: ﴿فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾.

١٥- إثبات القول لله عز وجل. وإثبات ربوبيته الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾.

١٦- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما «الحكيم» و«العليم» وإثبات صفة الحكم التام والحكمة البالغة والعلم الواسع له- عز وجل- ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

١٧- إثبات كمال قدرة الله- عز وجل- على إيجاد مولود على خلاف الأسباب المعتادة.

١٨- في اقتران اسميه عز وجل «الحكيم» و«العليم» كمال إلى كمال.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: قال إبراهيم عليه السلام لضيوفه من الملائكة- بعد أن طمأنوه وبشروه بغلام عليم- وعرف أنهم ملائكة مرسلون من عند الله قال لهم: فما خطبكم أيها المرسلون أي: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم من أجله؟

وكان من أدبه عليه وعلى نبينا وجميع المرسلين الصلاة والسلام، أنه لم يلاطف ضيوفه ويبادرهم بالسؤال عن شأنهم، وسبب مجيئهم، بل بادرهم بالحفاوة والإكرام، ليأنسوا وتنشرح صدورهم، وهكذا ينبغي أن يفعل مع الضيف.

﴿قَالُوا﴾، مبينين له الهدف الذي جاؤوا من أجله:

﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾، يعنون قوم لوط عليه السلام الذين عصوا نبي الله لوطًا عليه السلام، وارتكبوا الجريمة العظمى والفاحشة الكبرى: اللواط قال عز وجل حكاية عن قول لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥، ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨٠، ٨١].

ولم يصرحوا بالمرسِل لهم- وهو الله عز وجل- تأدبًا مع الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم مرسلون بالعذاب، وهذا كما في قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

وقوله ﷺ «والشر ليس إليك»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و«مجرمين»: جمع مجرم، وهو مرتكب الجرائم، ووصفوا بذلك لارتكابهم الجريمة العظمى والفاحشة الكبرى، وهي إتيان الذكران من العالمين، والتي هي أشد وأعظم من الزنا؛ لأن إتيان الذكر الذكر لا يجوز بأي حال من الأحوال، أما إتيان الذكر الأنثى فيجوز في بعض الأحوال وهي حال كون المرأة زوجة للرجل أو سرية له.

كما أن اللواط يصعب التحرز منه؛ لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر بخلاف وجوده مع الأنثى.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن نرسل عليهم حجارة من طين، وهي حجارة السجيل، وهو الطين الذي أوقد عليه حتى تحجر، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود:٨٢].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ معلمة، أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه.

قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أخرجنا ونجينا من العذاب والعقوبة من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين المصدقين، وهم لوط وأهل بيته ما عدا امرأته.

وذلك بأن أمرناهم أمراً قدرياً بالخروج فخرجوا ونجوا بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود:٨١]، وقال عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ينجي أولياءه المؤمنين وحزبه المفلحين وينتقم من أعدائه وأعدائهم المكذبين، ويجعل العاقبة للمتقين،

والخزي والندامة والحسرة على الكافرين.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: فما وجدنا في هذه القرية سوى بيت واحد من المسلمين، وهم بيت لوط عليه السلام، وهم المؤمنون، وهم المخرجون الناجون من العقوبة والعذاب.

أطلق عليهم مؤمنين ومسلمين لاجتماع هذين الوصفين فيهم: الإيمان وهو صلاح الباطن، والإسلام وهو صلاح الظاهر.

قال ابن كثير[1]: «احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال».

فقيل للمخرجين منهم الناجين من العذاب مؤمنين مسلمين لاجتماع الوصفين فيهم لأن كل مؤمن مسلم.

وقيل للموجودين منهم مسلمين؛ لأن المسلم لا يلزم أن يكون مؤمنًا ولهذا سماهم مسلمين؛ لأن منهم امرأة لوط وهي مسلمة ظاهراً لكنها غير مؤمنة.

قال ابن القيم[2] في كلامه على قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال: «ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في القوم الموجودين، لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٩.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٦.

فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا وليست من المؤمنين الناجين».

قال: «وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثنى الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟ وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون».

ويؤخذ من قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ عدم الاغترار بما عليه الكثير من الناس فهذا نبي الله لوط عليه السلام لم يؤمن من قومه إلا أهل بيته فقط ما عدا امرأته وقد قال ﷺ فيما أراه الله: «ورأيت النبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد» الحديث(١).

وذلك لحكمة بالغة قال عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

فالعبرة بالكيف، لا بالكم، وبَعْثُ النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد إلى الجنة كما جاء في الحديث(٢).

قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٣).

وقال ابن دريد(٤):

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد...» الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «ديوانه» ص١٣٢.

والنـــاس ألـــف مـــنهم كواحـــد وواحـــد كـــالألف إن أمـــر عنـــى

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ الضمير «فيها، للعقوبة التي أوقعها الله في قوم لوط، أو لقريتهم ﴿ءَايَةً﴾ عبرة وعظة، وعلامة على كمال قدرته عز وجل، وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه، وعلى صدق رسله، وعقوباته للمكذبين. ومكان قريتهم لا زال موجوداً وهو البحيرة المسماة «البحر الميت» ولهذا قال تعالى مخاطباً هذه الأمة: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧، ١٣٨].

﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهم المؤمنون المتقون الذي يرجون رحمة الله ويخافون عذابه؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وأما من لا إيمان عنده فلا تنفعه الآيات والنذر، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٠].

قال ابن كثير[1]: «أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة[2] ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين: ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾».

كما قال عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣، ١٧٤].

وقوله ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾، أي: المؤلم الموجع حسا ومعنى، فهو «فعيل» بمعنى «مفعل».

فعاقب الله عز وجل قوم لوط بعقوبة لم يعاقب بمثلها أحدًا من العالمين لعظم

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٩.

(٢) وهي المعروفة بالبحر الميت- قرب نهر الأردن.

جرمهم وهو إتيان الذكران من العالمين، بأن جعل أعلى قريتهم سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما جعل عز وجل عقوبة من يفعل مثل فعلهم من هذه الأمة القتل قال ﷺ «من وجد تموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

فيقتلان مطلقًا سواء كانا محصنين أو غير محصنين بخلاف الحكم في الزنا، وذلك لأن إتيان الذكر للذكر شذوذ وخروج عن الفطرة السوية وهو لا يحل بحال من الأحوال، أما إتيان الذكر للأنثي فهو يحل إذا كانت زوجة أو مملوكة له، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥- ٧، المعارج:٢٩- ٣١] ومع أن الله عز وجل أباح للرجل أن يتمتع من زوجته ومملوكته بما شاء من جسدها إلا أنه حرم أن يأتيها من دبرها، وسمي هذا العمل اللوطية الصغرى وهي إتيان المرأة في دبرها كما جاء في الحديث «أن إتيان المرأة في دبرها اللوطية الصغرى»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- جواز سؤال الضيف عن مقصده وحاجته؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الآيات.

٢- شدة إسراف قوم لوط، وعظم جرمهم، وهو فعل اللواط مع تكذيبهم للوط عليه السلام، ولهذا كانت عقوبتهم أعظم العقوبات حيث أرسل الله عليهم حجارة من طين، وجعل عالي ديارهم سافلها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٣ لِنُرْسِلَ

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٥- وصححه ووافقه الذهبي. قال ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٤٠-٤١: «وإسناده صحيح».

وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ابن ماجه ٢٥٦٢، والحاكم ٤/ ٣٥٥ وسنده ضعيف، لكنه يصلح في الشواهد.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٨٢، ٢١٠ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه وقد ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤/ ٢٩٨ وقال«رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح» وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» ٣/ ٢٠٠، وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح».

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

٣- تزامن عهد إبراهيم مع عهد لوط عليهما السلام.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

٥- إنجاء الله- عز وجل- من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين قبل نزول العذاب عليهم وهم لوط وأهله عدا امرأته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

٦- سنة الله- عز وجل- في إنجاء أوليائه وحزبه المفلحين، وإهلاك المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٧- فضيلة الإيمان وأنه سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

٨- أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.

٩- قلة السالكين لطريق الحق، وكثرة السالكين لطرق الباطل، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

١٠- في قصة إهلاك قوم لوط، وما أوقع الله بهم وبقريتهم من العقوبة دلالة على عظيم قدرة الله- عز وجل- وعظة وعبرة لمن بعدهم، ممن يخافون عذاب الله، وأليم عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

١١-وجوب أخذ العظة والعبرة مما حصل بقوم لوط، والحذر كل الحذر من سلوكهم المشين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وما بعده إلى قوله ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة في قصة إهلاك قوم لوط ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾، أي: وتركنا فيها عبرة وعظة ودلالة على قدرة الله تعالى وشدة عقابه ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾وكذا في قصة موسى عليه السلام إذ أرسله الله إلى فرعون بسلطان مبين، وأَخْذِه لما تولى بجنوده وإغراقهم في اليم، وكذا في قصص إهلاك المكذبين من الأمم قبلهم، عاد وثمود وقوم نوح عبرة وعظة ودلالة، وكذا في بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج عبرة وعلامة ودلالة على كمال قدرته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه.

قوله: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ الواو: عاطفة- هنا- وكذا فيما بعده.

وقد تكون استئنافية، ويكون قوله ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ وما بعده متعلقاً بفعل محذوف دل عليه المذكور، أي: تركنا في ذلك آية.

ومعنى قوله: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾، أي: وفي نبي الله موسى بن عمران عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وثالث أولي العزم بعد محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، آية وعبرة وعظة.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين»، أي: حين أرسلناه إلى فرعون. وفرعون هو ملك مصر آنذاك الذي تعالى على الله وادعى الربوبية والألوهية لنفسه. وصار اسم فرعون بعد ذلك علمًا على كل من حكم مصر من الكفار.

﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة ظاهرة ودليل بيِّنٍ قاطع، وهي الآيات التي أعطاها الله عز وجل لنبيه موسى عليه السلام، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١]، منها العصا واليد، كما قال عز وجل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٠- ١٢].

ومنها: ما ذكره الله عز وجل في سورة الأعراف في قوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الآية:١٣٣].

ومنها: السنون ونقص الثمرات وانفلاق البحر، وغير ذلك من الآيات كانفجار العيون من الحجر وغير ذلك(١).

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾، أي: أعرض عما جاء به موسى من الحق استكبارًا وعنادًا.

(بركنه) أي: بما يركن إليه من جموع وجنود متعززًا ومغترًا بهم ومغررًا لهم.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾، أي: وقال فرعون عن موسى عليه السلام أنت إما ساحر تلبس على الناس بسحرك؛ لأن الله أعطاه من الآيات ما يفوق عمل السحرة المنتشر في عهده كانقلاب العصا حية، وإدخال يده في جيبه وخروجها بيضاء من غير سوء.

﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾، مختل العقل؛ لأنه قال: إن الله هو الرب الخالق، والإله المعبود، لا فرعون.

وهذه طريقة المكذبين للرسل يرمون من دعاهم إلى الله من الرسل وغيرهم بأقبح التهم؛ ليصدوا الناس عن اتِّباعهم.

---

(١) الطوفان: الغرق أو المطر، وقيل غير ذلك. والقمّل: السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل: دواب سود صغار، وقيل غير ذلك، والدم الرعاف، أو انقلاب مياههم دمًا، وقيل غير ذلك، والجراد هو المعروف، وكذا الضفادع، ملأت بيوتهم وآنيتهم وأطعمتهم. انظر: «جامع البيان» ١٥/ ١١٤، «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٨- ٤٦٣، ٥/ ١٢٢- ١٢٣.

وهكذا قيل لسيد الخلق نبينا محمد ﷺ ساحر وشاعر ومجنون وكاهن، وما ثناه ذلك عن دعوته صلوات الله وسلامه عليه.

وينبغي أن يستلهم الدعاة إلى الله والمصلحون والمربون من هذا أعظم الدروس فإن طريق الدعوة وطريق الجنة شاق ليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وقال تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١- ٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات»(١).

قال الشاعر:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾، أي: طرحناهم وألقيناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾، أي: في البحر، وهو البحر الأحمر الفاصل بين آسيا وأفريقيا، أغرقهم الله فيه.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعول»، أي: وهو ملوم؛ أي: آتٍ بما يلام عليه من الكفر والجحود والفجور والعناد، ودعوى الربوبية والألوهية.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾.

قوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾، أي: وفي عاد عبرة وعظة وعلامة ودلالة على قدرة الله عز وجل وكماله، في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد إرم الذين قال الله عنهم في سورة الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [٦- ٨].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩.

ومساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى حين، أي: حين أرسلنا عليهم الريح العقيم، وهي الريح المفسدة المهلكة المدمرة التي لا تنتج شيئا، العاتية شديدة البرودة، وشديدة الهبوب، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦- ٨].

وهي الريح الغربية «الدبور» كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «نُصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور»(١).

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، أي: ما تترك من شيء أتت عليه مما أراد الله إهلاكه إلا جعلته كالرميم، وهو الهشيم الهالك البالي.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾.

قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وفي ثمود عبرة وعظة ودلالة وعلامة.

وثمود هم قوم صالح عليه السلام، مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في العلا، وهي المعروفة بمدائن صالح.

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: حين قيل لهم، والقائل لهم هو الله عز وجل على لسان رسولهم صالح عليه السلام، وذكر بالبناء للمفعول؛ لأنه عز وجل معلوم؛ ولأن الشر لا ينسب إليه مباشرة، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»(٢).

﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: تمتعوا في الحياة. والتمتع: استعمال المتاع من مأكل

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٦٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٦٤، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومشرب وغير ذلك.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى مجيء وقت نزول نقمة الله عليهم، والتي بها حلول آجالهم، وهو ثلاثة أيام كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥].

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العتو: العصيان والتمرد والعناد والاستكبار ومجاوزة الحد.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ وهي صيحة شديدة صعقوا بسببها، فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧]، وقال تعالى متوعدًا كفار قريش: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٨٠- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١].

وهي الرجفة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨].

﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، أي: وهم ينظرون في وضح النهار، وكانوا خُوِّفوا بالعذاب وينتظرونه.

قال ابن كثير(١): «وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكرَةَ النهار».

فسمى الله عذابهم بالصاعقة والصيحة والرجفة، كما سمى عذاب عاد بالريح

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٠.

بالصاعقة والصيحة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ [المؤمنون:٤١]. والمراد بهم عاد، وقيل ثمود.

وسمى عذاب قوم لوط عليه السلام بالصيحة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٣- ٧٤].

وسمى عذاب قوم شعيب عليه السلام بالصيحة والرجفة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٤، ٩٥]، وقال تعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١، العنكبوت:٣٧].

وقال تعالى عن السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى من قومه ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

فالصاعقة والصيحة والرجفة تطلق على جنس العذاب أيا كان؛ ولهذا قال عن المنافقين ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾، أي: فما استطاعوا أن يقوموا، أي: ما استطاع القاعد منهم أن يقوم من مكانه لما وقع عليهم العذاب.

﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾، أي: وما كانوا قادرين على الانتصار؛ لدفع ما حل بهم من العقوبة، لا بأنفسهم ولا بانتصارهم بغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ الواو عاطفة، أي: وقوم نوح من قبل هؤلاء أهلكناهم بالغرق بالطوفان. وفي إهلاكهم عبرة وعظة وعلامة وآية ودلالة على قدرة الله عز وجل، وكماله، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، أي: خارجين عن طاعة الله عز وجل بالكفر والمعاصي.

والفسق في الأصل: الخروج للفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من

جحرها للإفساد.

ويؤخذ من إهلاك الله عز وجل لقوم لوط ولفرعون وقومه وعاد وثمود وقوم نوح وغيرهم من المكذبين سنة الله الكونية في إهلاك المكذبين لرسله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وأن في قصة إرساله عليه السلام إلى فرعون- وما جرى بينهما دلالة على قدرة الله- عز وجل- وعظة وعبرة لمن يعتبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الآيات.

٢- تأييد الله- عز وجل- لموسى عليه السلام بالحجج والآيات العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

٣- تولي فرعون بجنوده، وإعراضه عن الحق، ومكابرته- مع ما جاء به موسى من الآيات البينات- ورميه له بالسحر والجنون؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

٤- عقوبة الله- عز وجل- لفرعون وجنوده بإغراقهم في اليم، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للنار والحرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

٥- إتيان فرعون بأعظم ما يلام عليه من الكفر والفجور والعناد، إذ لا كفر أعظم من دعواه الربوبية والألوهية.

٦- إهلاك الله- عز وجل- لعاد بالريح العقيم «الدبور» المفسدة المدمّرة لكل شيء أتت عليه مما أراد الله إهلاكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

٧- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

٨- إهلاك الله- عز وجل- لثمود لما تمردوا وعتوا عن أمر الله- عز وجل- بالصاعقة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم، فلم يستطيعوا الفرار ولا الانتصار؛ لقوله

تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

٩- إهلاك قوم نوح- عليه السلام- بالغرق بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

١٠- وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالمكذبين من العقوبات، فإن في إهلاك هؤلاء الأقوام؛ عاد وثمود وقوم نوح عظة وعبرة للمعتبرين، ودلالة على كمال قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: في هذا كله عبرة وآية وعلامة ودلالة على عظيم قدرة الله عز وجل واستحقاقه للعبادة دون ما سواه، وكماله في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ المراد بالسماء السموات السبع، ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾، أي: خلقناها ورفعناها وجعلناها سقفًا رفيعًا، كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢].

﴿بِأَيْيْدٍ﴾، أي: بقوة.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ يقول: «بقوة»[1]، كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢].

وهكذا فسره جمع من السلف وعليه عامة المفسرين.

وتفسير «الأيد» هنا بالقوة، كما قال تعالى في الثناء على إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥]، أي: أصحاب القوة في تنفيذ الحق، والقوة في الطاعة والعبادة والدعوة إلى الله تعالى، وأولي البصائر والفقه في الدين.

وليس فيه منافاة لإثبات اليدين لله عز وجل كما دل على ذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أي: وإنا في بنائنا لها لموسعون لها، جعلناها واسعة الأرجاء رفيعة البناء، وبغير عمد؛ لأن العمد قد تقلل من سعتها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان:١٠].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٥٤٥، وابن أبي حاتم «في تفسيره»، ١٠/ ٣٣١٣، الأثر ١٨٦٦٦.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾، الواو عاطفة، و«الأرض» معطوفة على السماء، أي: بسطناها وجعلناها فراشًا وذلولا للمخلوقات ومهدناها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه:٥٣]، [الزخرف:١٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ:٦].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾: ثناء من الله عز وجل وامتداح لنفسه- وهو سبحانه أهل الثناء والمجد- في مهده الأرض وفرشها وتذليلها وتوسعتها، فلم يجعلها صعبة قاسية لا يمكن الانتفاع بها، ولا لينة رخوة لا يمكن الاستقرار والعيش عليها، بل جعلها وسطاً مناسبة على أكمل الحالات؛ لمصالح جميع المخلوقات فوقها.

والمهد بمعنى: البسط والفرش والتوطئة.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: ومن جميع المخلوقات خلقنا وأوجدنا زوجين، أي: صنفين ونوعين متقابلين، ليلتئم الحال بين الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات وتصلح الحياة، فأرض وسماء، وليل ونهار، وشمس وقمر وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وحياة وموت وسعادة وشقاء وجنة ونار، وذكر وأنثى وحلو ومر، وحر وبرد إلى غير ذلك من أنواع المخلوقات، من الحيوانات والنباتات والجمادات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أوجدنا هذه المخلوقات أزواجاً؛ لأجل أن تذكروا، أي: من أجل أن تتعظوا وتتفكروا في عظمة الخالق ووحدانيته عز وجل لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

قوله:﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمر من الله عز وجل للناس جميعًا بالفرار إليه سبحانه. والفرار هو الهروب من شيء إلى شيء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فروا منه إليه واعملوا بطاعته».

وقال سهل بن عبد الله: «فروا مما سوى الله إلى الله».

وقال بعضهم: «اهربوا من عذاب الله إلى رحمته وثوابه بالإيمان والطاعة»(١).

قال ابن القيم(٢): «وهو نوعان فرار السعداء، وفرار الأشقياء، ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه. قال: وأما الفرار منه إليه ففرار أوليائه».

والمعنى: توجهوا إلى الله في عبادتكم، والجؤوا إليه واستعينوا به في جميع أموركم كما قال عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٤] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وفي الحديث: «لا ملجأ ولا منجى منك إلاَّ إليك»(٣).

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾، أي: قل لهم يا محمد إني لكم أيها الناس من الله نذير، أي: مخوف ومحذر من عذاب الله.

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن النذارة والتخويف لمن كذب وخالف أمر الله بما جئتكم به من الدلائل والحجج القاطعة والبراهين الساطعة من عند الله عز وجل بما أوحاه الله إليَّ في القرآن والسنة النبوية وغير ذلك من الآيات والمعجزات كما قال ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان، فالنجاء، النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة منهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني، فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»(٤).

ومهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وسيدهم رسولنا ونبينا محمد ﷺ هي

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٧، وانظر: «جامع البيان» ٢١/ ٥٤٩.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٠، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٩٤، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٧٦، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٣، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

البشارة والإنذار كما قال عز وجل: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥].

واكتفى في هذا الموضع بذكر الإنذار فقط لأن الكلام- والله أعلم- مع المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام ومنهم كفار قريش المخاطبون بهذه الآيات وما بعدها.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أمر الله عز وجل في الآية السابقة بالفرار إليه سبحانه وذلك باللجوء إليه والاعتماد عليه والتوجه إليه وعبادته وتوحيده، ثم أتبع ذلك بالنهي عن أن يجعل مع الله إلهاً آخر.

وأكد الطلبين: الأمر باللجوء والتوجه إليه وعبادته، والنهي عن الإشراك به بقوله: ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ إقامة للحجة على الخلق، وأنه مرسل من عند الله عز وجل بالنذارة والتخويف لهم من عقاب الله إن أشركوا مع الله غيره، وهو بين النذارة بما جاء به من عند الله من الآيات والحجج والمعجزات.

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ جعل بمعنى صير، أي: لا تصيروا مع الله إلهًا آخر، أي: شريكًا له في العبادة، أو الطاعة، أو المحبة من المناصب والرياسات وحب الظهور، والأولاد والأزواج، والهوى والدنيا، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال ﷺ: «**تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- التنبيه على كمال قدرة الله- عز وجل- وتمام قوته، وعظيم نعمه، وثنائه على نفسه، في بناء السماء بقوة وتوسيعها، وفرش الأرض ومهدها، وخلق الزوجين من كل شيء؛ لأجل أن يتذكر الخلق ويعتبروا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- عظمة خلق السموات والأرض، وبناء السماء، وجعلها سقفًا للمخلوقات، وبسط الأرض ومهدها للقرار عليها.

٣- وجوب الفرار إلى الله- عز وجل- بعبادته وحده لا شريك له واللجوء إليه والاستعانة به في جميع الأمور وسائر الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

٤- وجوب الحذر من الشرك قليله وكثيره، كبيره وصغيره، جليه وخفيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

٥- تأكيد بيان ووضوح ما جاء به ﷺ من الإنذار بالآيات العظيمة والحجج والمعجزات.

٦- أن مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار للمكذبين والبشارة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

بيّن عز وجل في الآيات السابقة أن في إهلاك المكذبين عظة وعبرة، كما أن في ذلك وفي خلق السموات والأرض والأزواج دلالة على عظيم قدرة الله عز وجل مما يوجب إخلاص العبادة له وحده، ثم أتبع ذلك بتسلية النبي ﷺ ببيان أن ما حصل من قومه من التكذيب له ورميه بالسحر والجنون هو ديدن المكذبين للرسل قبله آمراً له بالإعراض عنهم ومذكراً للمؤمنين، ومبيناً أنه عز وجل إنما خلق الخلق ليعبدوه، وأنه الغني عن خلقه، ومتوعداً المكذبين له ﷺ بالعذاب في الدنيا والآخرة كسابقيهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ هذا فيه تسلية للنبي ﷺ، وبيان أن ما حصل له من التكذيب والرمي بالسحر والجنون من قومه حصل لغيره من الأنبياء قبله من أممهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل ما حصل لك من قومك، فمرجع الإشارة إلى ما حصل له من قومه، من رميهم له بالسحر أو الجنون.

﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾، أي: ما أتى الذين من قبل قومك من الأمم من رسول من عند الله.

﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾، أي: إلاَّ قالوا عن رسولهم: هو ساحر، أو مجنون.

والساحر: هو الذي يعمل السحر ويعقد العقد بالخفاء وينفث فيها، ويؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ «أو» مانعة خلو، أي: لا يخلو حاله إما أن يكون ساحرًا، أو يكون مجنوناً وليست مانعة اجتماع، أي: قد يجتمع فيه الوصفان، كما يقال: جالس الحسن أو ابن سيرين أي: لا يخلو حالك من مجالسة أحدهما، ولا يمتنع أن تجالسها معًا، ومانعة الاجتماع مثل قولهم: تزوج هندًا أو أختها، أي: إما هذه وإما هذه، أما أن تتزوجهما معًا فلا.

والمجنون: مختل العقل.

وإنما رموه ﷺ بالسحر لقوة تأثير ما جاء به من الوحي وبلاغته.

ورموه بالجنون لدعوته إلى توحيد الله وتقرير البعث ومخالفة ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال المبين.

وهم في هذا يتخبطون هدفهم: تنفير الناس منه ﷺ، وإلا ففرق بين الساحر والمجنون، والشاعر والكاهن.

وهكذا قال فرعون لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٣٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤]، وقال تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أوَصّى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ «بل» للإضراب الإبطالي، و«طاغون»: جمع طاغٍ، والطغيان هو الزيادة ومجاوزة الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

ومنه سُمي الطاغوت: وهو ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله.

أي: والحقيقة والواقع أنهم لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل جمعهم على ذلك توافقهم على الطغيان.

قال ابن كثير[1]: «أي: لكنهم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠١.

متقدمهم».

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أمر من الله عز وجل لرسوله ﷺ بالإعراض عنهم، وأنه لا لوم عليه ولا تبعة في كفرهم وطغيانهم بعد أن بلغهم رسالة ربه وأدى الأمانة، ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده، وهذا فيه تسلية ثانية له ﷺ ببيان أنه لا يُلام على إعراضه عنهم وعدم إيمانهم.

وذلك أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤، العنكبوت:١٨] إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

أما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب، كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وفي هذا وذاك تسلية للدعاة إلى الله عز وجل والمصلحين والمرشدين والموجهين من الآباء والأمهات وغيرهم فليس عليهم إلاَّ النصح والإرشاد والتوجيه وأما هداية القلوب فبيد الله عز وجل.

كما أن في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ تهديداً ووعيداً وتخويفاً وتحذيراً للمكذبين.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا فيه أيضًا تسلية وطمأنة له ﷺ وأمر له بالتذكير والوعظ والاستمرار على ذلك، وإعلام له بأن دعوته ﷺ وجهاده في الأمة وتذكيره لن يخيب، بل سيكون له أعظم النتيجة والأثر وينتفع بذلك المؤمنون، وإن أعرض عنه الطغاة المعرضون؛ لأجل أن يستمر في تذكيره ودعوته، ولا يبالي بالطغاة المعاندين.

وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله والمصلحين والموجهين من الآباء والأمهات وغيرهم أن لا يستبطئوا النتائج ويستعجلوا في جني الثمار، فإن من تعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه، فها هو نبي الله نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا ومع

ذلك ما آمن معه إلاَّ قليل، ولكن لابد لكل مجتهد من نصيب، ولابد بإذن الله عز وجل من الثمرة والنتيجة، وأقل الأحوال براءة الذمة.

والذكرى: هي الموعظة بذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، وبيان آيات الله الشرعية والكونية الدالة على عظمته عز وجل وقدرته واستحقاقه العبادة دون من سواه.

﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ينتفع بها المؤمنون المصدقون بوعد الله ووعيده دون من سواهم، فلا ينتفع بالذكرى إلاَّ المؤمنون كما قال عز وجل:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩- ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الواو: استئنافية و«ما» نافية.

«خلقت» أي: أوجدت، و«الجن والإنس »هما الثقلان، الإنس ذرية آدم عليه السلام، والجن ذرية إبليس لعنه الله.

خلق الله الإنس من الطين، وخلق الجن من مارج من نار.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤- ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٦- ٢٧].

وفي الحديث: «خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما ذكر لكم»[1] يعني من التراب والطين.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٩٦، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ «إلاَّ»: أداة حصر واللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: لام التعليل، أي: إنما خلقتهم لأجل عبادتي، لا لغير ذلك.

قال ابن تيمية[١]: «﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: إلاَّ لآمرهم بعبادتي».

وقال ابن كثير[٢]: «أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم».

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع لله عز وجل، يقال بعير معبد، أي: مذلل بالركوب عليه، وطريق معبد، أي: ذللته الأقدام.

وهي في الشرع : اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[٣].

وتطلق العبادة على فعل التعبد، وتطلق على نفس العبادة كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك.

والعبادة تشمل فعل الواجبات والمستحبات والمباحات مع النية الحسنة، وترك المحرمات والمكروهات، فالموفقون عاداتهم عبادات يؤجرون على أكلهم وشربهم ونومهم ونزهتهم وراحتهم، والمخذولون عباداتهم عادات، وفتش نفسك، وفَرْقٌ بين موفق يأكل ليعيش ويتعبد لله، وبين مخذول يعيش ليأكل أشبه حالاً بالبهيمة.

فالهدف الذي أوجد الخلق من أجله هو عبادة الله عز وجل وتوحيده، وهو الأمانة التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

وكثير من الناس لا يفهم هذه الحقيقة وإن ادعى أنه يفهمها، وكيف فهمها من يعيش ليأكل، لا يأكل ليعيش.

---

(١) في «مجموع الفتاوى» ٨/ ٣٩- ٥٧، ١٨٦.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٠١.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوي» ١٠/ ١٤٩، ١٥٣.

وإنَّ كل ما يحصل من تقصير وبرود في القيام بحقوق الله وحقوق الخلق، وضعف في المنافسة والمسارعة إلى الخير هو بسبب عدم فهم هذه الحقيقة تماماً.

فوأسفا على أعمار وأوقات وصحة وفراغ تضيع سدى، وتذهب بلا فائدة ولا عمل- والله المستعان.

ولقد أحس القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[1]

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح[2]

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ «ما»: نافية في الموضعين، و«من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، والرزق: العطاء.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾، أي: وما أريد منهم أن يطعموني فهو عز وجل الغني ليس بحاجة أن يطعموه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ (الرزاق): اسم من أسماء الله- عز وجل- على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة رزقه وكثرته باعتبار كثرة المرزوقين وباعتبار كثرة رزقه لكل فرد منهم. فالرزاق: هو المعطي العطاء الجزيل لجميع خلقه أموالاً وأولاداً وصحة وأمناً وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

وفي الحديث «لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»[3].

أي: أنه عز وجل إنما أراد شرعًا بخلقه أن يعبدوه، ولم يرد منهم كونًا أن ينفعوه.

﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ «ذو» بمعنى: صاحب، أي: صاحب القوة.

---

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لأمية العجم» ص١٢٤.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٥، والنسائي في السهو ١٣٤١، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

﴿ٱلْمَتِينُ﴾: اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» أي: الشديد القوة العزيز، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩].

فهو عز وجل لم يخلق الخلق إلاَّ لعبادته فقط لم يخلقهم ليتقوى بهم من ضعف أو يستكثر بهم من قلة، فهو سبحانه القوي المتين، ولا ليرزقوه ويطعموه، فهو- عز وجل- الرزاق المطعم للخلق كلهم، وهو سبحانه الغني عن الطعام والشراب، الغني عما سواه، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما قدر له»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلاَّ تفعل ملأت يديك شغلا، ولم أسد فقرك»(٢).

قال ابن القيم(٣): «فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا؛ ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح، كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]».

وقال أيضًا: «فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ويثنى عليه، ويذكر بأوصافه العُلى وأسمائه الحسنى».

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٥.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٨، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٧ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٧، ٢٤٨.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ الظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الكفر والإشراك بالله، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

والمراد بـ«الذين ظلموا»: كفار مكة وغيرهم ممن جحدوا رسالته ﷺ وما جاء به من عند الله عز وجل.

﴿ذَنُوبًا﴾ الذنوب: النصيب، أي: نصيبًا من العذاب.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾، أي: مثل نصيب أصحابهم في الظلم والتكذيب من الظالمين والمكذبين من الأمم قبلهم، كما قال عز وجل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر:٥١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]»(١).

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، أي: فلا يستعجلون بطلب العذاب والعقوبة فهو واقع بهم لا محالة، كما في قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:١٦].

وقد جاءهم نصيبهم من العذاب الدنيوي في بدر الكبرى التي قتل فيها سبعون من صناديدهم، وفي الغزوات بعدها التي تتابعت عليهم فيها الهزائم وأظهر الله الهدى

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

ودين الحق على الدين كله، وينتظرهم العذاب الأخروي يوم القيامة كما قال عز وجل:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ «ويل»: كلمة تهديد ووعيد وعذاب، ويقال: هو اسم واد في جهنم.

﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: للذين جحدوا ربوبية الله وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته، أو شيئًا من ذلك، ولم يؤمنوا.

﴿مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، أي: يوم القيامة الذي يوعدون بالبعث فيه والعذاب الأليم في النار لكفرهم وعنادهم واستكبارهم وصدهم عن دين الله عز وجل.

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن ديدن المكذبين وعادتهم رمي رسل الله عليهم السلام بالسحر والجنون وكأن بعضهم أوصى بعضًا بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾.

٢- تسلية النبي ﷺ وتقوية عزيمته تجاه تكذيب قومه له، ورميهم إياه بالسحر والجنون.

٣- الإنكار والتوبيخ للمكذبين، وأن الذي حملهم على التكذيب ورمي الرسل عليهم السلام بهذه المقالات هو الطغيان؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

٤- لا لوم عليه ﷺ بالإعراض عنهم بعد إقامة الحجة عليهم، وليس عليه هداهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

٥- أمره ﷺ بالاستمرار بالتذكير وطمأنته على تحقق المنفعة بإذنه- عز وجل-؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٦- البشارة لمن قام بالتذكير والدعوة إلى الله تعالى بأن جهده لن يضيع سدى، ولن يعدم الفائدة.

٧- أن الذين يستفيدون من الذكرى وتنفعهم هم المؤمنون دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي هذا امتداح لهم وثناء عليهم.

٨- أن الهدف من خلق الإنس والجن هو أن يعبدوا الله- عز وجل- ؛ لقوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾.

٩- استغناء الله- عز وجل- التام عن الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾.

١٠- إثبات الإرادة والمشيئة لله تعالى.

١١- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما «الرزاق» و«المتين»، وإثبات صفة القوة له عز وجل، وأنه سبحانه الرزاق المطعم للخلق، ذو القوة الشديدة والعزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾.

١٢- الوعيد والتهديد للظالمين المكذبين للرسول ﷺ بما ينتظرهم من العذاب الدنيوي في بدر الكبرى وغيرها، والعذاب الأخروي في النار يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

١٣- كما اجتمع المكذبون للرسل على رميهم بالسحر والجنون ونحو ذلك وتكذيبهم جمع الله بينهم بالعقوبات المختلفة في الدنيا، والعذاب في الآخرة بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾.

١٤- نهيهم عن الاستعجال بالعذاب، تأكيدًا لقربه وتحققه.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلطُّورِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الطور» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾، قال: **كاد قلبي أن يطير**»[(١)].

وعنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه»[(٢)].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «فطفت ورسول الله ﷺ إلى جنب البيت، يقرأ بـ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾»[(٣)].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالقسم بالطور وما عطف عليه، على أن البعث والجزاء وعذاب المكذبين واقع حقيقة: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

٢- ذكر بعض أهوال القيامة والوعيد للمكذبين بدفعهم إلى جهنم وتقريعهم: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٤، وابن ماجه على إقامة الصلاة ٨٣٢، وأخرجه مختصر مسلم في الصلاة ٤٦٣، وأبو داود في الصلاة ٨١١، والنسائي في الافتتاح ٩٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٥٠، ومسلم في الصلاة- القراءة في الصبح ٤٦٣، وأبو داود في الصلاة ٨١١، والنسائي في الافتتاح ٩٨٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦٤، ومسلم في الحج ٨٢٧ وأبو داود في المناسك ١٨٨٢ والنسائي في مناسك الحج ٢٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٢٩٦١.

خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٣- وعد المتقين بالجنات والنعيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

٤- تقوية قلب النبي ﷺ وتسليته وتقريع المكذبين له وتوبيخهم وتهديدهم بعذاب الدنيا ويوم القيامة: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٥- أمره عز وجل له ﷺ بالصبر لحكم ربه، وتسبيحه في جميع الأوقات، وإظهار عنايته عز وجل به وحفظه له: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَالطُّورِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والطور: مقسم به مجرور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، بين فلسطين ومصر، قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وهو طور سيناء، وطور سينين، كما قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:١، ٢].

وهو الجبل الذي رفعه الله عز وجل على بني إسرائيل لتخويفهم من عقاب الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:٩٣].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الآية:١٧١].

وهذا ما عليه جمهور المفسرين من أن المراد بالطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

قال ابن القيم(١): «فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١.

عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرّفه ههنا باللام، وعرّفه في موضع آخر بالإضافة، فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾».

وقال ابن كثير(١): «فالطور هو الجبل الذي تكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورًا، إنما يقال له جبل».

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ الواو: عاطفة، وقوله: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ وما بعده إلى قوله ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾، داخل ضمن المقسم به.

والمراد بالكتاب في قوله: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾: القرآن الكريم، وقيل: المراد به التوراة لاقترانه بذكر «الطور».

وقيل: المراد به عموم الكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى.

وقيل: المراد به اللوح المحفوظ ورد هذا ابن القيم. قال: «وهذا غلط، فإنه ليس برق».

وقيل المراد به: الكتاب الذي يتضمن أعمال بني آدم، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣].

قال ابن القيم(٢): «فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله وأقسم الله به لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده وهداية خلقه، ثم قيل هو التوراة التي أنزل الله على موسى، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال: هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح وقيل: هو القرآن، ولعل هذا أرجح الأقوال؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة، فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا يكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب، ويكون ذلك متضمنًا للنبوتين المعظمتين، نبوة موسى ونبوة محمد، وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون».

﴿مَّسۡطُورٖ﴾، أي: مكتوب مفروغ من كتابته، سطر بعد سطرًا وهذا يضعف أن

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١- ٢٥٢.

يكون المراد به كتب الأعمال التي بأيدي الملائكة.

﴿فِي رَقٍّ﴾ الرق: الصحف البيضاء، كما قال عز وجل: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١٣- ١٥].

وأصل «الرق»: الجلد الرقيق الذي يكتب فيه، ومن هنا سميت خرازة الجلود: كتابة. قال الشاعر ملغزًا:

وكاتبون وما خطت أناملهم حرفًا وما قرؤوا ما خط في الكتب(١)

﴿مَّنشُورٍ﴾، أي: منشور في الصحف، معروض مفتوح لمن يقرؤه، لم يمنع أحد من قراءته والاطلاع عليه بشرط الطهارة المعنوية من الشرك والطهارة الحسية من الأحداث.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: هو البيت الذي في السماء السابعة حذاء الكعبة، المسمى بالضُّراح، وهو سيد البيوت.

﴿ٱلْمَعْمُورِ﴾: صفة للبيت، أي: الذي تعمره الملائكة بالعبادة يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم، والذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء.

كما جاء في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما في قصة الإسراء، والذي جاء فيه: «فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»(٢).

قال ابن كثير(٣): «يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل- عليه السلام- مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في

---

(١) انظر: «مقامات الحريري» ص٤٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ذكر الملائكة ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان- باب الإسراء ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦، وأحمد ٣/ ١٤٨- ١٤٩.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٣- ٤٠٤.

السماء الدنيا يقال له: بيت العزة».

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور: البيت الحرام قال ابن القيم(١): «ولا ريب أن كلاً منهما معمور: فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع السجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت».

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ السقف في الأصل: ما يسقف به البناء قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٢٦].

والمراد بالسقف المرفوع: السماء؛ لأنها سقف الأرض، وهي كالقبة عليها، وسقف العالم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢].

ويحتمل أن المراد به العرش؛ لأنه سقف لجميع المخلوقات.

قال ابن كثير(٢): «وله اتجاه، وهو يراد مع غيره، كما قاله الجمهور».

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ البحر في الأصل: هو الشق. والمراد به الماء الكثير كمياه البحار والأنهار والغدران، وسمي بذلك؛ لعمقه واتساعه وكونه في شق من الأرض.

والمراد بالبحر بحر الأرض الذي نشاهده، وقيل المراد به: البحر الذي فوق السموات وعليه العرش.

﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ المؤجج والموقد والمملوء نارًا يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير:٦] أي: أوقدت فصارت نارًا تتأجج.

وقيل ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾: المملوء ماءً.

وقيل المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها، مع أنه يغطي أكثر من ثلاثة أرباع الأرض.

وقيل المراد بالمسجور: المرسل، وقيل: اليابس الذي نضب ماؤه، وقيل غير ذلك.

قال ابن القيم(٣): «وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد، وهذا هو المعروف في

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٢.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٥.

اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦].

قال علي وابن عباس: «أوقدت فصارت نارًا»(١).

ومن قال: يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال ملئت، فإنها تملأ نارًا وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا، فكل واحد من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني».

وفي كون البحر مملوءً بالماء، محيطًا بالأرض مع أنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، بل إن مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض؛ لأن كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات في ذلك؛ دلالة على وجود الخالق وكمال قدرته، فهو الذي أمسك الماء بقدرته أن يفيض على الأرض فيغرقها، وفي هذا أعظم الرد على أصول الملاحدة والدهرية الذين ينكرون الصانع وينسبون الأمر إلى الطبيعة(٢).

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: جواب القسم، أي: لواقع على الكافرين.

فأقسم عز وجل بخمسة أشياء من أعظم مظاهر آياته وقدرته وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته على أن عذابه واقع على الكافرين والمكذبين.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾، أي: ما له من أحد يدفعه ويمنعه قبل أن يقع، ولا يدفعه ويرفعه إذا وقع، بخلاف عذاب المؤمن العاصي فقد يدفع قبل وقوعه أو بعد وقوعه، إما بعفو الله- عز وجل- أو بشفاعة صالح المؤمنين، وغير ذلك.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾، أي: أن وقوع العذاب بالمكذبين يوم القيامة الذي من علاماته وأهواله أن تمور السماء فيه مورًا، أي: تتحرك وتدور وتموج وتضطرب وتتكفأ قال الجوهري في الصحاح(٣): «مار الشيء يمور مورًا: تَرَهْيَأَ، أي: تحرك وجاء وذهب،

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٣٨ .

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١- ٢٥٥.

(٣) مادة «مور»، وانظر «لسان العرب» مادة «مور».

كما تتكفأ النخلة العَيْدانة».

قال الأعشى[(١)]:

كـأن مشـيتها مـن بيـت جارتهـا مـور السـحابة لا ريـث ولا عجـل

قال ابن القيم[(٢)]: «والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب. والتحقيق: أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء؛ ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال فقال: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣] من مكان إلى مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ وتموج وتذهب وتجيء».

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]، وتنسف نسفًا وتصير هباء، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

قال ابن القيم[(٣)]: «ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل وأعمالهم لعب...»

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل: كلمة وعيد وتهديد، ويقال: اسم واد في جهنم والمعنى: فويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾، أي: يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزوًا ولعبا فأعمالهم وأقوالهم وأعمارهم كلها لعب ولهو لا جد فيها، بل هي وبال عليهم، كما

---

(١) انظر «ديوانه» ص١٤٤ طبعة بيروت وفيه «مر السحابة» ولا شاهد فيه والبيت في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٣١، و«جامع البيان» ٢٧/ ١٣، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٦.

قال الله تعالى فيما حكاه عنهم أنهم يقولون: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر:٤٥]، وكما قال تعالى عن المنافقين أنهم قالوا ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:٥١].

وإذا كان هذا الوصف للمكذبين، فما حال مجالس المؤمنين المصدقين، وماذا فيها من الخوض فيما لا يعني من القيل والقال والغيبة والنميمة وضياع الأعمار، ولا شك أن من كانت هذه حاله فله نصيب من الوصف المذكور في الآية. وما أكثر هذا الصنف.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾، أي: يساقون ويدفعون في أقفيتهم وأكتافهم.

﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهي الدار التي أعدها الله لتعذيب الكفرة والعصاة، وسميت جهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿دَعًّا﴾، أي: دفعًا بعد دفع بشدة وعنف.

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: يقال لهم هذا على وجه التقريع والتوبيخ لهم، وقد يكون القائل هو الله عز وجل، أو ملائكته وزبانية النار.

وفي توجيه الخطاب لهم مباشرة بهذا التقريع والتوبيخ ما لا يخفى من العذاب المعنوي الذي لا يقل شدة ووقعًا على قلوبهم من العذاب الحسي.

قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم هذا عندما يعاينون النار ويوقفون عليها.

أي: هذه النار التي كنتم بها في الدنيا تكذبون، وتقولون لا حقيقة لها بتكذيبكم للرسل والوحي من عند الله عز وجل فها هي النار، وليس الخبر كالعيان؛ ولهذا قال الله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[الأنعام:٢٧].

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أهذه النار التي دفعتم إليها، وأدخلتم فيها، مجرد سحر وتخييل، كما كنتم في الدنيا ترمون رسل الله عز وجل ، وإنذارهم لكم، وما جاؤوا به من الوحي بالسحر. كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢].

وهكذا قال فرعون وقومه للحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص:٣٦].

وهكذا قال النصارى لعيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠].

وهكذا قال المكذبون من سائر الأمم لرسلهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام كسابقه: للتقريع والتوبيخ، أي: أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرون النار، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق. والحقيقة أن هذه المزاعم قد زالت، والغشاوة قد انقشعت كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] أي: حاد جدًا.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أمر إهانة وتحقير، أي: ادخلوها وانغمروا فيها، وقاسوا حرها وتقلبوا فيها لتصيبكم من جميع جهاتكم وجوانبكم.

﴿فَٱصْبِرُوٓاْ﴾، أي: فاصبروا على حرها ولهيبها وحميمها وزقومها وألوان عذابها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ «أو»: عاطفة.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: سواء عليكم أصبرتم على عذابها أو لم تصبروا، فلا الصبر- مع استحالته- يخفف عنكم عذابها، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة، فعذابها ملازم لكم، لا محيد لكم عنها، ولا خلاص لكم منها.

كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وقال عزل وجل ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥﴾ [الزخرف:٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ «إنما»: كافة ومكفوفة[1]، تفيد الحصر، أي: ما تجزون إلا ما كنتم تعملون و«ما»: موصولة أو مصدرية، والتقدير: إنما تجزون الذي كنتم تعملون، أو إنما تجزون عملكم. فدفعهم إلى النار وغمرهم فيها جزاء كفرهم.

فالله عز وجل لا يظلم أحدًا، بل يجازي كلا بما عمل إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

وينبغي للإنسان أن يتأمل فيما ذكر الله عز وجل من أهوال يوم القيامة وما توعد الله عز وجل به المكذبين من العذاب والتقريع والتوبيخ فيحذر من سلوك طريقهم فإن السعيد من وعظ بغيره.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالطور وما بعده على وقوع العذاب على الكافرين فلا مانع يمنعه، ولا رافع يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، كالطور والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور، وغير ذلك.

---

(١) أي: دخلت «ما» على «إن» فكفتها عن العمل.

٣- تعظيم الله- عز وجل- للطور وهو مكان نبوة موسى عليه السلام التي هي من أعظم النبوات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾.

٤- تعظيم الله- عز وجل- للقرآن الكريم الذي هو أعظم كتبه- عز وجل- ، أنزله على أفضل رسله محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾.

٥- إثبات البيت المعمور وعظمته في السماء السابعة حذاء الكعبة، والذي تعمره الملائكة بالعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾.

٦- الإشارة لعظم قدرة الله- عز وجل- في رفع السماء وبنائها، وفي خلق البحر وملئه بالماء ثم بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾.

٨- شدة أهوال القيامة ففيه تموج السماء وتضطرب تمهيداً لذوبانها وتبديلها، وتسير الجبال تمهيداً لنسفها وكونها كثيباً مهيلا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾.

٩- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين الخائضين في الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

١٠- أنه يجمع للمكذبين بين العذاب الحسي بدفعهم بشدة إلى النار والعذاب المعنوي بتقريعهم وتوبيخهم على تكذيبهم بها في الدنيا، وزعمهم أنها جاءت به الرسل سحر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّٗا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾.

١١- إثبات وجود النار، وأنها أعدت للمكذبين والكافرين.

١٢- تبكيت المكذبين وتعنيفهم بشدة، وتحديهم بقوة، وبيان أن هذا العذاب جزاء عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على وقوع العذاب على المكذبين، وذكر أنهم يوم القيامة يدفعون إليها دفعًا، ويغمرون فيها جزاء تكذيبيهم وخوضهم بالباطل، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده سبحانه للمتقين جزاء تقواهم وعملهم الصالح على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله ولا يأمن مكر الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»(١).

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: «إن» حرف توكيد ونصب، ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:جمع متقٍ، وهم الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فجعلوا بذلك بينهم وبين عذاب الله وقاية.

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله عز وجل لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، من البساتين العظيمة والمساكن الطيبة والمنازل الرفيعة والغرف المبنية العالية.

وسميت «جنات»؛ لأنها تجن، أي: تستر من بداخلها لكثرة أشجارها والتفافها، ونكِّرت للتعظيم.

﴿وَنَعِيمٍ﴾، أي: ونعيم عظيم. والنعيم: ما يتنعمون به ويتلذذون من نعيم البدن ونعيم القلب؛ من أنواع المآكل والمشارب والمناكح والملابس والمراكب والحبرة والسرور وغير ذلك. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هذا وما بعده تفصيل للنعيم الذي أعده الله للمتقين في الجنات.

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم فاكهين بما آتاهم ربهم من أصناف الملاذ وأنواع النعيم، والتفكه: التلذذ بالشيء، والإعجاب به، والسرور وطيب النفس والبال والمرح والفرح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٥، ٥٦] والتفكه من أعظم النعيم المعنوي، وهو نعيم القلب.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي آتاهم ربهم.

وأسند الإيتاء إليه عز وجل باسم الربوبية تذكيرًا بأن النعم الدنيوية والأخروية كلها منه سبحانه، وأنه المربي المنعم كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: نجاهم من عذاب الجحيم، وهي النار التي أعدت للكافرين والعصاة، وسميت بالجحيم؛ لعظمها وشدة توقدها وتأججها وبعد قعرها، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧].

وهذه نعمة مستقلة، فجمع الله لهم بين حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، وذلك غاية الفوز والفلاح.

وفي الإظهار في مقام الإضمار في قوله ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وإضافة «رب» إلى ضميرهم في الموضعين امتنان من الله عز وجل عليهم، وإشارة لعنايته بهم وتكريمه وحفظه لهم.

قال ابن القيم(١): «والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقًا..».

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، أي: يقال لهم هذا تكريمًا لهم، وقد يكون القائل لهم هذا هو الله

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٧

عز وجل أو ملائكته، وأطلقه كأن كل قائل يقول لهم هذا ويهنئهم به.

وإنما أتى الأمر بالأكل والشرب دون سائر أنواع التمتع؛ لأن الأكل والشرب من أهم وأخص أنواع التمتع، ومما لا غنى للإنسان عنهما، وهما كسوة الباطن، بخلاف ما عداهما من أنواع التمتع.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾، أي: طيبًا لذيذًا مستساغًا حال الأكل، ونافعًا مفيدًا محمود العاقبة بعد الأكل، مع الأمن من انقطاع هذا النعيم، وهذه الأوصاف الثلاثة لا تتحقق إلا في طعام وشراب أهل الجنة. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء سببية و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم.

وهذا يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس عوضًا عن دخول الجنة كما تقوله المعتزلة، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يُدْخِل أحدًا عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»(١).

وكما في قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله له رمانة كل يوم ينزل ويأكل منها، ولما قال الله- عز وجل-: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: بل بعملي. فقال الله- عز وجل-: ردوا عبدي فحاسبوه، فوجدوا أن أعماله كلها خلال خمسمائة سنة لا تكافئ نعمة البصر، فقال الله- عز وجل-: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب أدخلني الجنة برحمتك»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة ٤/ ٢٥٠، من حديث جابر- رضي الله عنه- وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

قال ابن كثير[١]: «وقوله ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: هذا بذلك تفضلا منه وإحسانًا».

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ الاتكاء: الجلوس.

والسرر: جمع سرير، وهو موضع الجلوس والاضطجاع والاتكاء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «السرر في الحجال»[٢].

قال تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ [الزخرف:٣٤].

وعن الهيثم بن مالك الطائي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه، ولا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه، ولذت عينه»[٣].

﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾، أي: وجوه بعضها إلى بعض كما قال عز وجل: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧، الصافات:٤٤]، وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الواقعة:١٥، ١٦]، ومعنى ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾، أي: منسوجة بالذهب بإحكام، وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية:١٣].

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ كقوله تعالى في سورة الدخان ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الآية:٥٤]، والمعنى: قرناهم، وأنكحناهم إياهن.

والحور: النساء الجميلات اللاتي يحار الطرف في جمالهن وحسنهن، وبياض وجوههن وأجسادهن.

و«العين» حسان الأعين، اللاتي جمعن بين سعة العيون، مع شدة سواد العين وشدة بياضها، قال ابن كثير[٤]: «وهي النجلاء العيناء»، كما قال عز وجل: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٢، ٢٣]، وقال عز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٨، ٢٦٢، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٠٧.

(٤) في «تفسيره» ٧/ ١١.

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٨، ٤٩]، وقال عز وجل: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠]

قال ابن القيم[1]: «فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن».

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب، فبعد ما ذكر ما أعد للمكذبين من العذاب الأليم، ذكر ما أعد للمتقين من الجنات والنعيم.

٢- عظم ما أعد الله عز وجل- للمتقين من الجنات والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾.

٣- تفكه المتقين وتلذذهم بما آتاهم ربهم من ألوان النعيم، ووقايتهم من عذاب الجحيم، فحصلوا على المطلوب، ونجوا من المرهوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُمْ﴾.

٥- تهنئة أهل الجنة بما أعد الله لهم من الأكل والشرب جمعاً لهم بين النعيم الحسي والنعيم المعنوي، الذي لا يقل عن النعيم الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٦- أن طعام أهل الجنة أبلغ ما يكون طيباً ولذة وطعماً ونفعاً وحسن عاقبة بلا انقطاع، لقوله تعالى: ﴿هَنِيئًا﴾.

٧- أن تقوى الله تعالى بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، والإيمان والعمل الصالح؛ سبب لدخول الجنة والتنعم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- أن من نعيم أهل الجنة جلوسهم على السرر المصفوفة يقابل بعضهم بعضا، ولا يتدابرون، وتزويجهم بالحور العين؛ لقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

* * *

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٩.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

هذه الآيات في تفصيل أنواع النعيم الذي أعده الله للمتقين في الجنات.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ قرأ أبو عمرو: «وأَتْبَعْناهم» بفتح الهمزة، وسكون التاء والعين وبنون وألف، «ذرياتِهم» بكسر التاء وألف قبلها.

وقرأ الباقون: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ بوصل الهمزة وفتح التاء وتشديدها وفتح العين وتاء ساكنة، ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ بضم التاء دون ألف، غير أن ابن عامر ويعقوب قرأا: «ذرياتُهم»، بضم التاء وألف قبلها.

أي: والذين آمنوا من الوالدين واتبعتهم ذريتهم من أولادهم وأحفادهم بإيمان، أي: فاجتمعوا على الإيمان، لا على النسب والحسب والحرية أو الرق، بل على الإيمان.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، بالإفراد. وقرأ الباقون بكسر التاء وألف بعدها: «ذرياتِهم».

أي: أتبعناهم ذريتهم، فجمعنا بينهم في المنزلة في الجنة، وإن لم تبلغ الذرية مبلغ الآباء في العمل؛ لتقرّ أعين الوالدين بأولادهم وأحفادهم، وليحصل للجميع لذة الاجتماع بعد الفرقة.

وهذا من فضل الله عز وجل وكرمه وامتنانه وإحسانه إلى عباده، وهو من أفضل ألوان النعيم، فإن في اجتماع الوالدين بذريتهم، أولادهم وأحفادهم كمال الأنس والسرور. نسأل الله تعالى من فضله.

ولا سرور مع الفرقة، ولهذا فإن الموت قد فضح الدنيا فلم يدع لذي لب فيها فرحًا

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ قرأ ابن كثير بكسر اللام من «ألِتناهم».

وقرأ الباقون بفتحها.

أي: وما نقصناهم من عملهم من شيء، فلم نحط من درجة الوالدين مقابل رفع

ذريتهم معهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ هذه الآية»[١].

وقال ابن كثير[٢] في كلامه على الآية: «يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يُلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم؛ لتقرّ أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع الله بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

وقد اختلف المفسرون هل هذا الإلحاق يراد به الذرية الصغار، أو الكبار الذين عملوا، أو أنه يشمل الصغار والكبار على أقوال ثلاثة، واختار ابن القيم أنه يختص بالصغار قال: «واختصاص الذرية ههنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم هذا في الصغار، فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته»[٣].

قال ابن كثير[٤] بعد كلامه على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ قال: «هذا فضله تعالى على الأبناء؛ ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء؛ ببركة دعاء الأبناء....» ثم ذكر ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٥٧٩، ٥٨٠، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٣٦- ٣٨. الآثار ٨٤٧- ٨٤٩، والطحاوي في «مشكل الآثار» ٢/ ١٤. وإسناده صحيح.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧- ٤٠٨.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٦٥- ٢٦٦.

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠٩. قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩ «إسناده صحيح».
وأخرجه ابن ماجه في الأدب- بر الوالدين ٣٦٦٠.

عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)].

ودل على الأمرين جميعًا- شفاعة الآباء بالذرية، والذرية بالآباء- قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [غافر:٨]

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾:

قال ابن كثير[(٢)]: «لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد».

ومعنى قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾، أي: كل إنسان مرتهن بعمله، هذا في مقام العدل فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ [فاطر:١٨] فلا يؤخذ أحد بجريرة غيره حتى أولاد الكفار لا يلحقون بالعذاب تبعًا لآبائهم ما لم يعملوا أعمال الآباء.

ففي مقام الفضل منه عز وجل والإحسان إلى عباده يشفع بعضهم في بعض، ويزيد في أجور من شاء منهم ويضاعفها لهم أضعافًا كثيرة بلا حد ولا عد ولا حساب تفضلا منه عز وجل وكرمًا وامتنانًا، كما أنه قد يعفو عمن يشاء من أهل المعاصي مما هو دون الشرك كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

أما في مقام العدل فإنه يجازي كلاً بما عمل، فلا يؤاخذ أحدًا بجرم غيره من الناس أبًا كان أو ابنًا أو غيره، ويجازي المسيء على قدر إساءته، ولا يظلم أحدًا من خلقه

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية- ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩.

سبحانه كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨٢، الأنفال:٥١، الحج:١٠].

وفي قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [الآيات:٣٨- ٤٢].

ما يشير إلى الأمرين جميعًا: مقام العدل، ومقام الفضل، ففي مقام العدل كل نفس مرتهنة بعملها تجازى به من غير زيادة أو نقصان، وفي مقام الفضل يزيد سبحانه من شاء من خلقه ويضاعف لهم أكثر مما عملوه، فلم يجازوا بأعمالهم فقط، بل ضوعف لهم الأجر، وجوزوا بأكثر منها، ولهذا قال: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: فلا يجازون بعملهم فقط، بل يزاد لهم الأجر على عملهم، ويضاعف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وليس في الآية ما ينفي أنهم يجازون بما كسبوا؛ لأن كل إنسان مرتهن ومجازى بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

وإنما فيها الإشارة لما سبق وهو أن أصحاب اليمين لا يكون جزاؤهم بقدر أعمالهم فقط بل يضاعف الله لهم الأجور بفضله ومنِّه وكرمه.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾، أي: أعطيناهم عطاءً مستمر الأمد إلى الأبد وزودناهم بفاكهة، وهي جنس ما يتفكه به ويحصل به التلذذ والتنعم والسرور وطيب النفس والبال والمرح والفرح من أنواع ما يتفكه به، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص:٥١]، وقال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف:٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان:٥٥].

وقال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:١٩]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ

لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الصافات:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات:٤٢].

وقال تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن:١١]، وقال تعالى في وصف جنتي المقربين﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، وقال تعالى في وصف جنتي أصحاب اليمين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور:١٨].

وهذا يدل على أنهم يتفكهون بكل ما آتاهم ربهم من أنواع النعيم، وذلك أن كل مأكول أهل الجنة مما يتفكه به؛ لأنهم لا يجوعون أبدًا.

﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، معطوف على«فاكهة»؛ أي: وأمددناهم بلحم، أي: بجنس اللحم، أي: بأنواع اللحوم.

﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: مما يستطاب ويستلذ وتشتهيه نفوسهم.

وقدم الفاكهة على اللحم، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢٠، ٢١]. مما يدل على أن الفاكهة تؤكل قبل اللحم، وأن ذلك هو الأنفع للجسم، وهذا خلاف ما عليه كثير من الناس اليوم.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، أي: يتعاطون فيها كأسًا، وهي كأس الخمر على سبيل الأنس والانشراح والمداعبة.

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾، أي: لا يحصل بسبب شر بها لغو، وهو الكلام اللغو من الهذيان والباطل؛ لأن خمر الجنة لا يحصل بسببها ذهاب العقل كخمر الدنيا كما قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٦، ٤٧].

وقال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩].

فهي بيضاء حسنة المنظر لذيذة الطعم، لا تغتال العقول فتذهبها، ولا يحصل بسببها نزيف بسبب الصداع وألم البطن، بخلاف خمر الدنيا، فإن من شربها حصل له الصداع والنزيف، ووقع منه اللغو والهذيان والباطل لإذهابها للعقول.

﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، أي: لا يأثم شاربها، ولا يقع بسبب شربها في الإثم، بخلاف خمر الدنيا فإن من شربها أثم لما فيها من المضار والمفاسد العظيمة، ووقع فيما يؤثم من الموبقات والجرائم بسبب ذهاب العقل.

قال ابن القيم[1]: «فنفى باللغو: التخاصم والهجر والفحش في المقال والعربدة، ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر».

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ويدور عليهم لقضاء حوائجهم ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾، أي: خدم وحشم لهم أعطاهم الله إياهم في الجنة.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، أي:كأنهم في جمالهم وبياضهم وجمال أبدانهم وحسن هيئاتهم، ولباسهم ونظافتهم ونضارتهم «لؤلؤ»: وهو من أحسن أنواع الجواهر «مكنون»، أي: مصون في أصدافه، لم تدنسه الأيدي، ولم يتغير، ولم يتبدل بسبب الاستعمال أو عوامل البيئة، فهم مع انتصابهم لخدمتهم لم تُذهب الخدمة منهم تلك المحاسن.

وهؤلاء الغلمان باقون على هيئاتهم، كما قال عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩].

ومع الفرق الشاسع والبون الواسع بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة، ترى الفرق بين من سخر الله له أولاده وأهله وأصلحهم فكانوا في طاعته وقضاء حوائجه يرسل أحد أبنائه لشراء حاجة من السوق، فيذهب ويأتي بها، ويرسل الآخر بهدية إلى أحد الأقارب، ويرسل الثالث بمهمة ثالثة وهكذا فما أعظم غبطة هذا الوالد وما ألذ حياته وما أطيب عيشه، بخلاف من سلط عليه أهله وأولاده فخرجوا عن طاعته فهو يخدم نفسه بنفسه، ولا يجد من أهله وولده من يقوم بجانبه ويعينه على قضاء حوائجه فلا تسأل عن حاله ونكد عيشه.

وقد يكون هذا قد أتي من قبل نفسه بسبب تقصيره في حق الله تعالى وفي حق أهله وولده، وقد يكون ذلك ابتلاء من الله له؛ لتكفير سيئاته ورفعة درجاته.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٦٠

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ من تمام نعمة الله عليهم والتحدث بها وسرورهم أنهم يقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ويتوجه بعضهم إلى بعض في الحديث والتساؤل عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، أي: يقول بعضهم لبعض: إنا كنا قبل، أي: في الدار الدنيا في محل الأمن بين أهلنا خائفين من الله عز وجل، ومن عذابه وعقابه كما قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج:٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، أي: تفضل عز وجل علينا فأجارنا مما كنا نخاف، ووقانا عذاب السموم وهي النار الحامية.

فهؤلاء كانوا خائفين مع إحسانهم، فأبدلهم الله بذلك أمنا في دار المقامة لا خوف بعده. نسأل الله تعالى من فضله.

بخلاف من جمعوا بين الإساءة والأمن والسرور، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:١٣].

قال الحسن: «لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك الأمن خير من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف»(١).

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ قرأ نافع المدني والكسائي: «أنا كنا» بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا.

﴿نَدْعُوهُ﴾، أي: نعبده ونتضرع إليه رغبة ورهبة، والدعاء هو العبادة، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

---

(١) أخرجه في الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد ١/ ١٠٢، وفي «الوجل والتوثق بالعمل» لابن أبي الدنيا ص٢٨، وذكره في «حلية الأولياء» ٢/ ١٥٠.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: «الدعاء هو العبادة» وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿دَاخِرِينَ﴾[1].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: هو البر الرحيم بعباده؛ لهذا استجاب لنا، وأعطانا سؤلنا. و«البر» و«الرحيم»: اسمان من أسماء الله عز وجل.

و«البر» معناه: ذو البر، وسعة الإحسان والجود والكرم، الذي من صفته عز وجل البر بعباده المتقين.

كما يدل«الرحيم» على إثبات صفة الرحمة لله عز وجل صفة ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

وصفة فعلية له يوصلها إلى من شاء من عباده، كما قال عز وجل:﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

كما يدل على إثبات صفة الرحمة العامة له عز وجل لجميع المخلوقات، والرحمة الخاصة لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ ما يفيد أنهم جمعوا بين الخوف والرجاء، فحصلوا على المطلوب وهو دخول الجنة، ونجوا من المرهوب وهو دخول النار، وهذا مما ينبغي أن يسير عليه المؤمن في طريقه إلى الله، بأن يكون بين الخوف والرجاء وأن يكونا له كجناحي الطائر ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»[2].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك**»؟ قال: والله يا رسول الله، إني لأرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٢٩٦٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٢٨ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.

«لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف»(١).

وفي قولهم: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ وقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ دلالة على أن دخولهم الجنة ووقايتهم من النار إنما هو بفضل الله عز وجل وبره ورحمته بعباده كما قال ﷺ: **«لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**(٢).

فبسبب خوفهم في الدنيا منه عز وجل ومن عقابه، وبسبب عبادتهم له أدخلهم عز وجل الجنات وآمنهم من المخاوف ووقاهم من النار، وذلك كله برحمته وبره سبحانه وتعالى.

الفوائد والأحكام:

١- عظم فضل الله- عز وجل- وكرمه في إلحاق الذرية بآبائهم من المؤمنين في الآخرة وإن كانوا دونهم في العمل، من غير نقص في درجة الآباء لتقرَّ أعين الآباء، ويحصل للجميع لذة الاجتماع والسرور؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾.

٢- فضل الإيمان، وأنه سبب لاجتماع الوالدين بأولادهم في الجنة.

٣- أن من تمام النعمة اجتماع الوالدين بأولادهم وأحفادهم.

٤- أن كل إنسان مرتهن بعمله، وسيجازى عليه، وهذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله يزيد من يشاء ويعفو عن من يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾.

٥- عظم ما أعده الله- عز وجل- لأهل الجنة من ألوان النعيم، ففاكهة، ولحم مما يشتهون، وكأس، وغلمان حسان عليهم يطوفون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾.

٦- الإشارة إلى أن الأحسن تقديم الفاكهة على اللحم في الأكل.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز ٩٨٣، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت والاستعداد له ٤٢٦١.

(٢) سبق تخريجه.

٧- سلامة خمر الجنة من اللغو والتأثيم مما يحصل في خمر الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

٨- المؤانسة بين أهل الجنة وإقبال بعضهم على بعض وتساؤلهم فيما بينهم متذكرين نعمة الله عليهم وحالهم في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

٩- اغتباط أهل الجنة وسرورهم أن وفقهم الله في الدنيا إلى خوفه وعبادته ودعائه ببره ورحمته، فأبدل الله خوفهم أمناً ووقاهم في الآخرة عذاب النار وسمومها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٠- وجوب الجمع بين خوف الله عز وجل وعبادته ودعائه، ورجائه، وأن ذلك هو السبب بإذن الله- للوقاية من الجحيم، ودخول جنات النعيم. والحذر من الجمع بين الأمن والإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾.

١١- أن الأمن الحقيقي في الدنيا والآخرة للمؤمنين الذين خافوا الله واتقوه كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

١٢- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما «البر» و«الرحيم» وإثبات صفة البر والرحمة له- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل ما أعده للمكذبين من العذاب الأليم وما أعده للمتقين من النعيم المقيم أمر الرسول ﷺ بالثبات على التذكير، وعدم الالتفات لما يرميه به المكذبون من قولهم: كاهن أو مجنون أو شاعر، وقولهم: إنه تقول القرآن من عند نفسه، والرد عليهم في هذه المزاعم الباطلة، التي حملهم عليها الطغيان وعدم الإيمان.

قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر،والتقدير: إن وصفك الكافرون بالكهانة والجنون، فذكرهم بالله وبما أنزله عليك من الوحي والذكر العظيم، واستمر في تذكيرهم.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ الفاء: تعليلية، «وما»: نافية، أي: ولا تبال بما يقول عنك المكذبون من قولهم: كاهن أو مجنون، فما أنت بحمد الله بما أنعم به عليك ربك من النبوة بكاهن ولا مجنون.

كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، أي: بإنعامه عليك بالنبوة.

والباء في قوله: «بكاهن»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

قال ابن كثير[1]: «والكاهن الذي يأتيه الرَّئِيُّ من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء».

والمجنون: هو المعتوه، فاقد العقل، الذي يتخبطه الشيطان من المس.

أي: لست بإنعام الله عليك بالنعمة الكبرى نعمة النبوة والرسالة بكاهن ولا مجنون، وكيف تكون بهذه النعمة كاهنًا ومجنونًا؟! فدع عنك أقاويلهم الباطلة وافتراءاتهم الكاذبة، واستمر على تذكير الناس بالله، ولا تبال بهذه القواطع.

وينبغي أن يستلهم هذا المعنى الدعاة إلى الله والمربون والموجهون، فلا يثني

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١١.

عزائمهم نعيق الناعقين ولا تشكيك المبطلين.

فهذه عادة المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩- ٣٢].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أم في هذه الآية والآيات بعدها إلى قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ هي: «أم» المنقطعة التي بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري والتوبيخي، والتقدير: بل أيقولون عنك يا محمد شاعر.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾، أي: ننتظر به، ونصبر عليه حتى يحل به.

﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾، أي: قوارع الدهر وفجائعه، و﴿ٱلۡمَنُونِ﴾: الموت، أي: حتى يأتيه الموت فنستريح منه، ومن شأنه.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿تَرَبَّصُواْ﴾: أمر تهديد وتحدٍ للمكذبين، أي: انتظروا.

﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: انتظروا فإني معكم من المنتظرين لمن تكون العاقبة والنصر في الدنيا والآخرة، فالعاقبة للمتقين.

وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يدل على مكانة الشاعر عندهم، وأثر الشعر فيهم، وهذا هو الواقع، فلقد كان الشعر في أول الإسلام من أعظم وسائل الدعوة.

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ الاستفهام كسابقه للتوبيخ: والإنكار أي: بل أتأمرهم عقولهم بهذا، أي: بما يقولونه عنك من المزاعم الباطلة.

﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾، أي: بل هم قوم طاغون متجاوزن للحد في الكفر والعناد فهذا هو الذي حملهم على تلك المقالات، التي لا يقولها عاقل وهم يعلمون أنها محض افتراء وكذب وزور.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾، أي: بل أيقولون تقوله يعنون القرآن، أي: افتراه من عند نفسه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس:٣٨، هود:١٣، ٣٥، السجدة:٣، الأحقاف:٨].

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «بل»: للإضراب، و«لا»: نافية أي: بل الذي حملهم على هذه المقالة الكفر وعدم الإيمان، مع أنهم في حقيقة أنفسهم يعلمون أنه لا يمكن أن يأتي بمثله البشر.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن صدقوا في دعواهم وقولهم: «تقوله» ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾.

وهذه الآية كقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس:٣٨]، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

الفوائد والأحكام:

١- تقوية قلب النبي ﷺ وأمره بالاستمرار بالتذكير وعدم المبالاة بالمكذبين، ودفاع الله- عز وجل- عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾.

٢- امتنان الله- عز وجل- على نبيه ﷺ بنعمة النبوة، وإبطال مزاعم المشركين ورميهم له ﷺ بالكهانة والجنون والشعر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾.

٤- شدة عداوة المشركين للنبي ﷺ، ورميهم له بأسوأ الألقاب، وانتظارهم موته. وهكذا شأن المكذبين للرسل عليهم السلام، وفي هذا درس للدعاة إلى الله والمصلحين، أن لا يفتّ في عضدهم مثل هذا.

٥- أن الموت غاية كل مخلوق، وأن النصر والعاقبة للمتقين، والخسران والبوار للمكذبين.

٦- الإنكار على المشركين فيما يقولون عن النبي ﷺ من المزاعم الباطلة، وأنه تقوَّل القرآن من عند نفسه، وبيان أن الذي حملهم على هذا هو الطغيان، وعدم الإيمان فهذا لا يقوله عاقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٧- تحدي المشركين المكذبين للقرآن الزاعمين أنه سحرأ وشعرأ وكهانة أو أن الرسول ﷺ اختلقه من عند نفسه أن يأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في زعمهم- وهيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قال ابن كثير[1]: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية».

قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ «أم» في هذين الموضعين وما بعدهما هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، وهمزة الاستفهام الذي بمعنى النفي والإنكار والتوبيخ والوعيد، أي: «بل» أُوجِدوا من غير خالق، «بل» أهم أَوجَدوا أنفسهم.

وكلا الأمرين مستحيل، فمستحيل وجودهم بدون خالق، ومستحيل أن يخلق المرء نفسه.

وإذا بطل الأمران تعين أن يكون لهم خالق خلقهم وفاطر فطرهم، وهو الله وحده المستحق للعبادة دون ما سواه.

قال ابن كثير[1]: «﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾، أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا».

وقال ابن القيم[2]: «تأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق، وأفصح عبارة بقوله تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خُلقوا من غير خالق خلقهم، فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق... ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾، وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا وخالقًا لنفسه، وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفاطراً فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلهًا غيره، وهو وحده الخالق لهم».

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١٢.

(٢) في «الصواعق المرسلة» ٢/ ٤٩٣.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: «بل» أهم خلقوا السموات والأرض هذه المخلوقات العظيمة، والجواب كذلك بـ«لا»، فإنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، فكيف يشركون بمن خلقهم وخلقها سبحانه لا شريك له.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (بل): للإضراب الانتقالي، و«لا»: نافية أي: إنما حملهم على ذلك عدم تصديقهم ويقينهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾، أي: «بل» أبيدهم مفاتيح خزائن ربك، خزائن السموات والأرض.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾، أي: «بل» أهم المصيطرون، الذين لهم السيطرة والغلبة والسلطان والملك والتدبير كلا! بل كل ذلك لله عز وجل، فلماذا يشركون معه غيره.

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كاد قلبي أن يطير»(١).

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾، أي: «بل» ألهم مرقاة ومصعد إلى الملأ الأعلى ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: بواسطته خبر السماء، فالفعل: «يستمعون» مضمن معنى «يصعدون»؛ ولهذا قال فيه، ولم يقل يستمعون منه.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة بينة واضحة ظاهرة على أن ما هم عليه حق، وأنى لهم ذلك، بل ما هم عليه عين الضلال والباطل.

أي: إن ادعوا أن لهم سلمًا يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان بين على ذلك.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾، أي: «بل» أله سبحانه البنات ولكم البنون-كما تزعمون فتجعلون لله الإناث اللاتي تكرهون، ولكم ما تشتهون، وهم الذكور.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطور ٤٨٥٤، ومسلم في الصلاة ٤٦٣، وأبو داود في الصلاة ٨١١، والنسائي في الافتتاح٩٨٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٢.

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧]، يعني الذكور، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل:٦٢]، أي: الإناث، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥].

والله عز وجل منزه عن الشريك وعن الصاحبة والولد، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وقد أنكر الله عز وجل على العرب كراهتهم للأنثى فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨- ٥٩].

وبيّن عز وجل رفعة منزلة المرأة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال ﷺ: «**إنما النساء شقائق الرجال**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٣٦، والترمذي في الطهارة ١١٣، وابن ماجه في الطهارة ٦١٢، وأحمد ٦/ ٢٥٦، ٣٧٧ من حديث عائشة رضي الله عنها.

ويكفي النساء فخرًا أن منهن فاطمة بنت محمد ﷺ، ومنهن أمهات المؤمنين، أزواجه ﷺ، ومنهن مريم ابنة عمران، التي أحصنت فرجها وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، ومنهن آسية بنت مزاحم امرأة فرعون التي اختارت الجار قبل الدار فقالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١].

ومنهن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ذات النطاقين، ومنهن أم سليم رضي الله عنها، وغيرهن كثير، ولقد كان جل الأنبياء عليهم السلام آباء بنات، منهم نبينا محمد ﷺ، فالذي عاش من أولاده ﷺ هن البنات.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ وهكذا جاء في [سورة القلم:٤٦] أي: «بل» أتسألهم أجرًا على إبلاغك إياهم رسالة الله ودعوتك لهم.

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الفاء عاطفة لربط السبب بالمسبب أي: فهم يتبرمون من ثقل الغرامة ومشقتها عليهم، ويتعللون بذلك في مخالفتهم لك.

أي: لست تسألهم على إبلاغك إياهم ودعوتك لهم أجرًا، لا مما يثقلهم ولا ما دونه، ولو كان أدنى شيء، وأقل القليل، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠] بل إنه ﷺ يبذل المال الكثير ليؤلف القلوب جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فذهب إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»(١).

وليس في الآية دليل ظاهر لمن قال بعدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن.

وقد قال ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»(٢).

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: «بل» أعندهم علم ما غاب عن الحواس من

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢ـ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الطب- الشرط في الرقية بقطيع من الغنم ٥٧٣٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخبار السموات والأرض والأخبار السابقة واللاحقة ونحو ذلك فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون.

والمعنى ليس عندهم علم الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

وبهذا يرد على من يتلاعبون بعقائد الناس وعقولهم من المنجمين والرمَّالين والسحرة والكهنة والمنجمين وغيرهم من أدعياء علم الغيب وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:١٤]، ولقد أحسن القائل:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع(١)

وقال الآخر:

أطلاب النجوم أحلتمونا ... على علم أرق من الهباء

كنوز الأرض لم تصلوا إليها ... فكيف وصلتمو علم السماء(٢)

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾، أي: «بل» أيريدون في تكذيبهم الحق ورميهم النبي ﷺ بالكهانة والجنون والشعر، وأنه تقوّل القرآن من عند نفسه كيدًا للحق ولرسول الحق. والكيد هو المكر بخفية، كما قال تعالى عنه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾، أي: أن عاقبه كيدهم ومكرهم ووباله على أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥، ١٦]، وقال عز وجل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣].

---

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه» ٣/ ص٥٧.

(٢) هذا البيتان ينسبان لعلي رضي الله عنه. انظر: «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» ١/ ١٩١. والشطر الأول من البيت الأول: أيا علما النجوم.

وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ ولم يقل: «أم يريدون كيداً فهم المكيدون» للنص على أنهم كفار، وأنهم المكيدون، وأن كل كافر فهو المكيد.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، أي «بل» ألهم إله؛ أي: معبود غير الله، والاستفهام: للإنكار الشديد والنفي الأكيد أن يكون مع الله شريك في العبادة.

أي: ليس لهم معبود غير الله فكيف أشركوا معه غيره من الأصنام والأنداد وغير ذلك.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل عما يدعيه المشركون من الشركاء من الأصنام والأنداد التي يعبدونها مع الله.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله والاستدلال على وجوب توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية الذي يقرون به؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ الآيات.

٢- أن المخلوق يدل على وجود الخالق، ولا أحد يخلق نفسه فثبت أن لا خالق إلا الله، خلق الناس والسموات والأرض وجميع المخلوقات، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٣- أن خزائن السموات والأرض وتدبير الكون كله وتصريفه بيد الله- عز وجل-: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾.

٥- تحدي المشركين وبيان عدم يقينهم، وضعفهم وفقرهم وانقطاع حجتهم، والحيلولة بينهم وبين خبر السماء؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

٦- الإنكار على المشركين في نسبة الولد إلى الله- عز وجل- ، وجعل البنات له وتخصيص أنفسهم بالبنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾.

٧- أن الرسول ﷺ لم يسال الناس أجراً على تبليغه الرسالة فيدعي المشركون

المكذبون ثقل الغرامة عليهم، وليس عندهم علم الغيب فيكتبون لأنفسهم ما يريدون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾

٨- إرادة الكفار الكيد للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق، وبيان أنهم هم المكيدون، وأن وبال ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾.

٩- الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله، ونفي ما ادعوه من الآلهة سواه، وتنزيه نفسه عز وجل عن الشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ الواو: استئنافية و«الكسف»: القطعة من الشيء. أي: وإن يروا قطعة من السماء ساقطة عليهم لتعذيبهم.

﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، أي: يقولوا هذا سحاب متراكم بعضه على بعض، أي: أنه شيء عادي؛ لأنهم يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، كما قال تعالى عن عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٤، ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤، ١٥].

فكما أنكروا الآيات الشرعية في القرآن الكريم، وزعموا أن النبي ﷺ تقوّله من عند نفسه أنكروا أيضًا الآيات والنذر الكونية المحسوسة؛ لإغراقهم في الضلال وتماديهم في الكفر.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾.

في هذه الآية والآيات بعدها وعيد شديد للمكذبين وتهديد لهم بما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وتسلية للنبي ﷺ.

قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إذا بلغوا هذا الحد من الكفر والعناد فذرهم، أي: اترك هؤلاء المكذبين المعاندين.

﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة. قرأ عاصم وابن عامر: ﴿يُصْعَقُونَ﴾ بضم الياء، وقرأ الباقون «يَصعقون» بفتحها.

أي: يموتون ويهلكون ويعذبون، حينذاك يعرفون أنهم على الباطل وأن محمداً ﷺ على الحق، ويندمون ولات ساعة مندم.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، أي: في ذلك اليوم لا يدفع عنهم ولا ينفعهم

مكرهم في الدنيا شيئا، أي: أيَّ شيء، حتى ولو كان شيئًا قليلاً؛ لأن «شيئًا»: نكرة في سياق النفي تعم القليل والكثير.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: ولا أحد ينصرهم، فليس عندهم ما يدفع عنهم أو ينفعهم من ذات أنفسهم، ولا من جهة خارجة عنهم، وبهذا يتحقق خسرانهم وهلاكهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الواو: استئنافية و«إن»: حرف توكيد ونصب، والمراد بالذين ظلموا المشركون.

والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئا.

وهو: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، أو على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الشرك بالله، كما ذكر الله عز وجل عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: لم يلبسوا إيمانهم بشرك.

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله عز وجل هو أوضح الحقوق وأبينها، فمن صرفه لغير الله فقد وقع في أعظم الظلم وأشده وأظلمه.

﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: قبل ذلك، أي: لهم عذاب في الدنيا وعذاب في البرزخ قبل عذاب الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]

وعذاب الدنيا كما أنه قبل عذاب الآخرة هو أيضًا دون عذاب الآخرة في الشدة؛ لأن عذاب الدنيا مهما كان وآلامها ومصائبها تنتهي ولا يقاس ذلك بعذاب الآخرة وآلامها ومصائبها كما قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]

والمراد بالعذاب الدنيوي قتلهم وقتالهم على أيدي المؤمنين، ومن ذلك ما يبتليهم

الله به من المصائب والآلام الحسية، وكذا المعنوية من الحيرة والتذبذب والخوف والقلق وضيق الصدر بسبب فقدان الإيمان، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر:٢٢].

فإن ما يعانيه فاقد الإيمان من ضيق الصدر أضعاف أضعاف جميع المصائب الحسية لو انصبت عليه.

ولهذا جمع الله للكفار والمكذبين في الآخرة بين العذابين العذاب الحسي والعذاب المعنوي.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون علمًا ينفعهم ويدلهم على ما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة، ولا يعلمون حقيقة ما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، ولا يعلمون أن ما يصيبهم من ذلك هو من العذاب بسبب ذنوبهم.

قال ابن كثير[1]: «أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جَلَّى عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، كما روي في الحديث: «إن المنافق إذا مرض ثم عوفي كان كالبعير عقله أهله، ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه»[2].

فالمؤمن إذا أصابته مصيبة تذكر واتعظ ورجع وأناب إلى الله عز وجل وعرف أن ما أصابه بسبب ذنوبه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

أما الكافر والمنافق فإنه إذا أصابه ما أصابه يقول كما قال قائلهم: أسقط وأقوم وأنا أبو فلان.

ولما قيل لأحدهم وهو مريض: «طهور إن شاء الله»، رد قائلا: أتقول هذا يا أبا فلان-

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز ٣٠٨٩ من حديث عامر الرّام رضي الله عنه.

يعني- ماذا عملت أنا حتى يكون ما أصابني طهورًا. نسأل الله الهداية والسلامة.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الواو: استئنافية، والصبر: حبس النفس عما لا ينبغي فعله، ولا قوله، أي: واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بإيجابه عليك تبليغ الرسالة، والقيام بأمره، واصبر لحكم ربك الكوني بما يقدره عليك من أذى قومك وغير ذلك مما يصيبك. وقد صبر ﷺ على تبليغ الرسالة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وصبر على ما لاقى من أذى قومه في سبيل ذلك فقد وضع سلا الجزور على ظهره وهو ساجد(١)، وأغرى به أهل الطائف سفهاءهم يسبونه ويرمونه بالحجارة(٢) وشج وجهه وكسرت رباعيته يوم أحد(٣)، وهو ﷺ صابر محتسب يقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(٤).

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الفاء تعليلية، أي: لأنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا وحفظنا، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

ولهذا قال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار يوم الهجرة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

ولما قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ وهما في الغار: والله يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا أجابه ﷺ بقوله: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٠، ومسلم في الجهاد ١٧٩٤، والنسائي في الطهارة ٣٠٧؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد ١٧٩٥؛ من حديث عائشة رضي الله عنها. وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٦٠، ٦١.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٩١، والترمذي في التفسير ٣٠٠٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٧؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٣، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨١، والترمذي ٣٠٩٦، وأحمد ١/ ٤، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

وإذا كان ﷺ مأمورًا بالصبر على ما يلاقيه في سبيل تبليغ رسالة ربه، فللدعاة والمصلحين والمربين فيه أعظم الأسوة في وجوب الصبر عليهم في طريق دعوتهم إلى الله كي تؤتي الدعوة ثمارها بإذن الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرن بين تسبيحه عز وجل وحمده بقولك: «سبحانك ربنا وبحمدك».

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ قال بعض أهل العلم: حين تقوم إلى الصلاة فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»(١).

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبّر ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدّك، ولا إله غيرك» ثم يقول: «الله أكبر كبيرًا، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»(٢).

وهكذا روى الأوزاعي عن عبدة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهر بهؤلاء الكلمات يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك»(٣).

قال الإمام أحمد رحمه الله: «فأنا أذهب إلى ما رُويَ عن عمر، ولو أن رجلاً استفتح

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢١/ ٦٠٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٧٥، والنسائي في الافتتاح- نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة والقراءة ٨٩٩، والترمذي في الصلاة- ما يقول عند افتتاح الصلاة ٢٤٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة- افتتاح الصلاة ٨٠٤، وأحمد ٣/ ٥٠، ٦٩.

وأخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها أبو داود ٧٧٦، والترمذي ٢٤٣، وابن ماجه ٨٠٦، والدار قطني ١/ ١١٢، والحاكم ١/ ٢٣٥. ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة- حجة من قال لا يجهر بالبسملة ٣٩٩ وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» ١/ ١١١ من حديث عمرو بن ميمون قال: صلى بنا عمر بذي الحليفة فقال: «الله أكبر سبحانك اللهم وبحمدك....».

ببعض ما رُويَ عن النبي ﷺ كان حسنًا».

وذكر ابن القيم في «زاد المعاد»[١] عدة أوجه لسبب اختيار الإمام أحمد لهذا.

وقال بعض المفسرين ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، أي: حين تقوم من نومك[٢].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من تَعَارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا- استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»[٣].

وفي حديث أنس في قصة الأنصاري الذي بشره الرسول ﷺ بالجنة: أنه إذا تعارّ وانقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر[٤].

وقال بعض أهل العلم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من مجلسك تقول سبحانك اللهم وبحمدك[٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»[٦].

وحيث لا دليل على المراد بالآية فلا مانع من حملها على كل ما ذكر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ الواو: عاطفة، والفاء زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، أي: ومن الليل ووقته فسبح ربك بتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن

---

(١) ١/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢١/ ٦٠٥-٦٠٦.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٦٠، والترمذي في الدعوات- ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل ٣٤١٤، وابن ماجه في الدعاء- ما يدعو به إذا انتبه من الليل ٣٨٧٨، وأحمد ٥/ ٣١٣.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ١٦٦ بتمامه وفيه قصة لعبد الله بن عمرو مع الأنصاري المذكور رضي الله عنهما.

(٥) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤١٤.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب- كفارة المجلس ٤٨٥٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٣، وقال: «حديث حسن صحيح».

مماثلة المخلوقين، وبذكره وعبادته والصلاة له كما قال عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩][١].

﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ الواو عاطفة، و«إدبار النجوم»: جنوحها للمغيب.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بقوله: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ «الركعتان قبل الفجر»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد منه تعاهدًا على ركعتي الفجر»[٣].

وقد يحمل على السحر آخر الليل لفضله فيكون قوله ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ من عطف الخاص على العام قال تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧].

وقال تعالى: في صفات المتقين ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] .

وهو الوقت الذي نجّى الله فيه آل لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر:٣٤].

وهو وقت النزول الإلهي في الثلث الأخير من الليل كما في الحديث: «ينزل ربنا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير»[٤].

ويحتمل أن يكون المراد بـ «إدبار النجوم» ما هو أعم من ذلك فيشمل وقت السحر الذي هو آخر وقت النزول الإلهي وهو وقت إجابة الدعاء، ووقت الوتر، كما يشمل ذلك ما بعد طلوع الفجر وهي سنة الفجر، وصلاة الفجر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠].

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣١٧، الأثر ١٨٦٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٦٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٢٤، وأبو داود في الصلاة ١٢٥٤.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٤٥، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الصلاة ٤٤٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وما فيها»[١].

الفوائد والأحكام:

١- إغراق المشركين بالكفر حتى إنهم أنكروا الآيات والنذر الكونية المحسوسة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

٢- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب قومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

٣- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين بما ينتظرهم من العذاب الآجل يوم القيامة، مما لا يستطيعون له دفعاً لا بأنفسهم ولا بغيرهم.

٤- أن الله- عز وجل- يمهل ولا يهمل.

٥- الوعيد للظالمين المكذبين بما ينتظرهم من العذاب العاجل في الدنيا، وفي البرزخ قبل العذاب الأكبر يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٦- جهل الظالمين المكذبين بحقيقة ما ينفعهم، وبما ينتظرهم من العذاب العاجل والآجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٧- تقوية قلب النبي ﷺ بأمره بالصبر لحكم الله الشرعي والكوني ووعد الله- عز وجل- له بحفظه وكلاءته ورعايته بعينه التي لا تنام؛ لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

وهذا الأمر والوعد له ﷺ ولمن سلك طريقه واتبع سنته من أمته.

٨- إثبات العينين لله عز وجل، والجمع يطلق ويراد به المثنى.

٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وعنايته به، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

١٠- مشروعية تسبيح الله وحمده عند القيام إلى الصلاة، وعند القيام من المجلس،

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٢٥، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار١٧٥٩، والترمذي في الصلاة ٤١٦.

وعند القيام من النوم ومشروعية قيام الليل، وتأكيد ركعتي سنة الفجر- حيث أمر الله عز وجل نبيه بهذا؛ وهو أمر له ﷺ ولأمته، وذلك من أعظم العون على الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّجْمِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة النجم»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾.

ويقال لها: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾؛ فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنه قرأ على النبي ﷺ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾[1].

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾؛ قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلف[2]».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[3]».

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالقسم بالنجم على هدايته ﷺ، وأن ما جاء به وحي من عند الله تعالى وحق: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

٢- اتصال سند القرآن وأن الله عز وجل أوحاه إلى عبده محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام ذي الصفات العظيمة: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ١٠٧٢، ومسلم في المساجد ٥٧٧، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٤، والنسائي في الافتتاح ٩٦٠، والترمذي في السفر ٥٧٦.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة النجم ٤٨٦٣، ومسلم في المساجد ٥٧٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٦، والنسائي في الافتتاح ٩٥٩، وأحمد ١/ ٣٨٨، ٤٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة ١٠٧١؛ والترمذي في السفر ٥٧٥.

ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

٣- رؤيته ﷺ لجبريل مرة أخرى عند سورة المنتهى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

٤- الإنكار على المشركين عبادتهم من دون الله آلهة بلا دليل ولا برهان ونسبتهم البنات لله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

٥- تسليته ﷺ فلا يأس على من ضل وأساء من قومه، فأمْر الخلق كلهم إلى الله يجازي كلا بعمله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

٦- الإنكار على من تولى وأعرض عن الحق وبخل بما آتاه الله وقطع عمل الخير والمعروف: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

٧- التهديد بقرب القيامة، والتحذير من العجب والضحك من القرآن، وعدم البكاء والخشوع عند سماعه، ومن الغفلة عنه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

روي في سبب نزول هذه الآيات وما بعدها أن المشركين زعموا أن رسول الله ﷺ فيما جاءهم به من الحق ضال وغاو، مختلق ينطق عن هواه فأنزل الله هذه الآيات[1].

قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ الواو حرف قسم وجر، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ مقسَم به مجرور والمقسِم هو الله عز وجل، وله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بما خلق يدل على عظمته عز وجل، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله.

قال ابن كثير[2]:«قال الشعبي وغيره: «الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق». رواه ابن أبي حاتم».

﴿وَالنَّجْمِ﴾: اسم جنس يراد به جميع النجوم.

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾، أي: إذا سقط وغرب مع الفجر وقبله، وعندما ترمى به الشياطين.

وقيل: المراد بـ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، أي: القرآن إذا نزل، وسمي القرآن بـ «النجم»؛ لأنه نزل منجمًا، أي: مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

والأظهر: القول الأول، وهو دال على عظمة القرآن وصدق ما جاء به الرسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة:٨٠].

واختار ابن القيم رحمه الله أن المراد بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت عند استراق السمع.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٣.

(٢) «في تفسيره» ٧/ ٤١٧.

قال ابن القيم[1]: «وهو أظهر الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له، على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصدًا بين يدي الوحي وحرسًا له، وعلى هذا: فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه».

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: جواب القسم، و(ما) نافية، والضلال: التيه عن الطريق الحق جهلاً وبغير علم، وضده الهدى، فهو ﷺ لم يضل عن طريق الحق، بل هو هاد مهدي، وهذا دليل على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحق المبين ﷺ.

وقال عز وجل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ ولم يقل ما ضل رسول الله، أو ما ضل محمد ونحو ذلك تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم، وليشهدهم على أنفسهم، فهو صاحبهم وهم أعلم الناس به، وبحاله وأقواله وأعماله، ولم يعرفوه بكذب ولا ضلال ولاغي، ومقتضى ذلك أن يصدقوه لا أن يكذبوه لو صدقوا مع أنفسهم، ولكن الهوى يُعمي ويُصم كما قال عز وجل: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩].

والغواية: ترك الحق والعدول عنه عمدًا وعناداً عن علم، وضده الرشاد.

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فأقسم عز وجل بالنجم إذا هوى بأنه ﷺ ما ضل وماتاه عن الطريق الحق والمسلك الصحيح عن جهل، وما غوى وترك الطريق الحق والمسلك الصحيح عن عمد وعن علم، بل هو ﷺ على الطريق الحق والمسلك الصحيح وعلى الهدى والرشاد، على الهدى في علمه، وعلى الرشاد في عمله، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩] أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح.

---

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٢٧٤- ٢٧٥.

قال ابن القيم[١]: «ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلباً، وأبعدهم عن حقيقة الإنسانية، ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه، غاوٍ في قصده وعمله، وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل.

الثاني: مهتد في علمه غاوٍ في قصده وعمله وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به.

الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر.

الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عددًا فهم الأكثر ون عند الله قدرًا،وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه».

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾، أي: وما ينطق ﷺ فيما أتى به من الشرع عن هوى نفسه.

قال ابن القيم[٢]: «ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال».

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ «إن» حرف نفي، بمعنى «ما»، ومرجع الضمير «هو» إلى مصدر الفعل «ينطق» أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، ويشمل هذا نطقه بالقرآن والسنة، وأن كليهما وحي يوحى، وقيل: الضمير يعود إلى القرآن.

والأول أولى، قال الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣].

والحكمة: السنة عند جمهور المفسرين، فالقرآن والسنة كل منهما من وحي الله عز وجل، ومما أنزله على رسوله ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٥- ٢٧٦، ٢٩٨.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٦.

الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ- بشر، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ- فقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لا أقول إلا حقًا» فقال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقًا»(٢).

وعن يعلي بن أمية رضي الله عنه أنه كان يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتني أرى نبي الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي فلما كان ﷺ بالجعرانة وعلى النبي ﷺ ثوب قد أظل به عليه، معه ناس من أصحابه، فيهم عمر، إذ جاءه رجل عليه جبة صوف متضمخ بطيب فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد ما تضمخ بطيب؟. فنظر إليه النبي ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاءه الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية تعال، فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه يغط ساعة، ثم سُرِّيَ عنه فقال: «أين السائل آنفًا؟ فجيء به، فقال: انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك»(٣).

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله، فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل». قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا، فزنى بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم- باب في كتاب العلم ٣٦٤٦، وأحمد ٢/ ١٦٢، ١٩٢، والدارمي في المقدمة ٤٨٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٤٠، والترمذي في أبواب البر- ما جاء في المزاح ١٩٩٠؛ ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالحسن.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨٥، ومسلم في الحج- ما يباح لبسه للمحرم بحج أو عمرة ١١٨٠، وأبو داود في المناسك ١٨١٩، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٦٨، والترمذي في الحج ٨٣٥، وابن ماجه في الديات ٢٦٥٦.

بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»(١).

وفي حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه»(٢).

وجاء بالفعل «يوحى» بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن الوحي بالمعنى الشرعي إنما هو من عند الله تعالى وحده، فالموحي معلوم، أي: إن هو إلا وحي من عند الله، أو يوحيه الله عز وجل.

والوحي: هو الإعلام الخفي السريع، ومنه الحديث: «**الوحا الوحا**»، أي: الإسراع الإسراع(٣).

وشرعا: هو كلام الله عز وجل المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وطرقه كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى:٥١].

أي إلهامًا كما قال ﷺ: «**إن روح القدس نفخ في روعي**» الحديث(٤).

أو من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤].

أو يرسل رسولاً من الملائكة كما أرسل جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالنجم حال سقوطه على أن النبي ﷺ ما ضل وما غوى

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود- الاعتراف بالزنا ٢٧٢٥، ومسلم في الحدود- حد الزنا ١٦٩٨، وأبو داود في الحدود ٤٤٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٤١٠، والترمذي في الحدود ٢٥٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة- باب لزوم السنة ٤٦٠٤، والترمذي في العلم ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ١٢.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩٥.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٧٩ رقم (٣٤٣٣٢)، والحاكم ٢/ ٥ (٢١٣٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

بل هو على الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

٢- أن لله- عز وجل- أن يقسم بما شاء من مخلوقاته إظهاراً لعظمته وكمال قدرته.

٣- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه محمد ﷺ وإثبات أنه على الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

٤- إشعار المكذبين بأنهم في قرارة أنفسهم يعرفون صدق النبي ﷺ تأكيداً لإقامة الحجة عليهم من أنفسهم لقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ ولم يقل محمد أو رسول الله.

٥- إثبات وتأكيد رسالته ﷺوصدقه، وأنه لا ينطق- فيما جاء به من الكتاب والسنة- عن هوى نفسه، بل كل ذلك وحي من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

لما ذكر عز وجل أن ما جاء به الرسول ﷺ من الشرع ليس عن هواه وإنما هو وحي يوحيه الله عز وجل إليه ذكر عز وجل طريق وصول هذا الوحي إليه ﷺ وأنه حق وصدق.

قوله ﴿عَلَّمَهُۥ﴾، أي: علم النبي ﷺ هذا الوحي ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، أي: ملَكَ شديد القوى، وهو: جبريل عليه السلام، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩- ٢١].

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو جلالة ومنظر جميل وصورة حسنة، وقوة وشدة.

وفي الحديث: «**لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي**»[1]، أي: ولا لذي قوة سوي الخلقة والجسم، ذي قدرة على العمل.

قال ابن القيم[2]: «والمرة: المنظر البهي الجميل، فأعطاه كمال القوة في باطنه، وجمال المنظر في ظاهره».

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستوى: جبريل عليه السلام، أي: فَعَلا، أو كمل.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه عليه السلام في أفق السماء الأعلى، قال المفسرون: وهو الأفق الذي يأتي منه الصبح.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة- من يعطى من الصدقة، وحد الغنى ١٦٣٤، والترمذي في الزكاة ٦٥٢؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
وأخرجه النسائي في الزكاة- باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها ٢٥٩٧، وابن ماجه في الزكاة- من سأل عن ظهر غنى ١٨٣٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد ٤/ ٦٢، ٥/ ٣٧٥ عن رجل من بني هلال.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٩، ٢٩٠.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته[١] إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سأل النبي ﷺ جبريل بأن يراه في صورته، فقال: ادع ربك فدعا ربه عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبي ﷺ صعق فأتاه، فنعشه [أي:رفعه] ومسح البزاق عن شدقه»[٣].

وقد ذكر ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ هو محمد ﷺ أي: استوى هو وجبريل عليه السلام بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء ووجه ذلك من جهة اللغة[٤].

وقد رد ابن كثير هذا القول، فقال[٥]: «وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط إليه جبريل- عليه السلام- وتدلى إليه، فاقترب منه، وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر «سورة اقرأ» ثم فتر الوحي فترة، ذهب النبي- ﷺ- فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء: يا محمد أنت رسول الله حقًا، وأنا جبريل فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ في الأبطح في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق،

---

(١) أما رؤيته على غير صورته فهي التي كان يراه عليها عند مجيئه بالوحي على صورة الرجال، ومن ذلك مجيئه على صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣١٨- الأثر ١٨٦٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٢٢.

(٤) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ١١.

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٢٠.

فاقترب منه وأوحى إليه عن الله- عز وجل- ما أمره به».

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ «دنا»: قرب، «فتدلى» زاد في القرب. والمراد: بذلك جبريل- عليه السلام- قرب من النبي ﷺ، وازداد في القرب منه ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ قالت: «إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وأنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق»(١).

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، أي: فكان جبريل لشدة قربه من النبي ﷺ على قدر قوسين ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾، أي: أو أقرب من ذلك.

قال في «اللسان»(٢): «وقاب الرجل إذا قرب، وقاب قوس، أي: قدر قوس، والقاب ما بين المقبض والسِّيَة، ولكل قوس قابان».

و(أو) هنا ليست للشك، وإنما هي لتحقيق قدر المسافة وقربها، وأنها إن لم تنقص عن قدر القوسين لم تزد عليهما، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات:١٤٧]، والمعنى: أنهم إن لم يزيدوا على مائة ألف لم ينقصوا عنها.

وقيل: أو بمعنى «بل»، أي: بل أدنى، والأول أحسن.

واختلف في المراد بذلك ومقداره: فقيل المراد بذلك: بُعْد ما بين وتر القوس إلى كبدها، وقيل: كان بينهما ذراعان، وقال بعضهم: القاب نصف الإصبع.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾، أي: فأوحى الله عز وجل إلى عبده محمد ﷺ.

﴿مَا أَوْحَىٰ﴾، «ما» موصولة، تدل على الإبهام؛ لقصد التعظيم والتفخيم، كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، أي: أمر عظيم فوق الصفة.

أي: فأوحى عز وجل إلى عبده محمد ﷺ الذي أوحاه، بواسطة جبريل عليه السلام، أو فأوحى جبريل عليه السلام إلى عبد الله محمد ﷺ الذي أوحاه.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٥، ومسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨، وأحمد ٦/ ٢٣٦، ٢٤١.

(٢) مادة «قوب».

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾: قرأ أبو جعفر بتشديد الذال «كَذَّب»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿كَذَبَ﴾. و«ما» نافية، والمراد بـ«الفؤاد» فؤاد النبي ﷺ وقلبه.

﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ «ما» مصدرية، أي: ما كذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته، أو موصولة، أي: ما كذب فؤاده الذي رأته عيناه. فلم يكذب فؤاده وقلبه ما رأته وأبصرته عيناه، ولم يوهمه فؤاده أنه رأى ولم ير، بل صدَّق فؤاده ما رأته عيناه، وصَدَقه فؤاده فلم ير إلا ما رآه حقيقة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل له ستمائة جناح»[(١)].

وفي رواية: «عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض»[(٢)].

وقال البخاري[(٣)]: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رفرفًا أخضر قد سدّ الأفق».

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزة: «أفتَمرونه» بفتح التاء بغير الألف، وقرأ الباقون ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ بضم التاء وألف.

والاستفهام للإنكار والتعجب. والمماراة: المجادلة والمحاجة بالباطل والمكابرة؛ جحدًا منهم وعنادًا، ودفعًا للحق، كما قال عز وجل: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦].

وعُدي الفعل «أفتمارونه» بـ «على» دون «في»؛ لأنه ضمن معنى المغالبة.

وعبر بالمضارع: «يرى» دون الماضي إشارة إلى استحضار هذا المرئي، وأنه حين أَخبَر به كأنه يراه عيانا.

و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: أتجادلونه على رؤيته، أو على الذي يراه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٢، ومسلم في الإيمان ١٧٤، والترمذي في التفسير ٣٢٧٧.

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٥.

(٣) في تفسير سورة النجم- باب: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾. انظر «فتح الباري» ٨/ ٦١١.

أي: والله لقد رآه: والضمير «الهاء» يعود إلى جبريل عليه السلام.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، أي: مرة أخرى.

والمعنى: والله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية مرة أخرى.

فقد رآه مرة دون السماء بالأفق الأعلى، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ وهذه الرؤية وهو في الأرض، في مكة، في أجياد.

والمرة الثانية فوق السماء ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: «رأى جبريل عليه السلام»(٢).

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الطويل في قصة الإسراء: «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى».

هكذا جاء في رواية البخاري(٣) من طريق شريك بن عبد الله عن أنس رضي الله عنه.

وقد أخرجه مسلم(٤) من طريق ثابت البناني ولم يذكر هذه الزيادة، وأشار إلى رواية شريك بن عبد الله قال مسلم عن شريك: «وقدم فيه شيئًا وأخر، وزاد ونقص».

وهكذا تعقب جمع من أهل العلم هذه الزيادة من شريك بالتضعيف منهم البيهقي

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٦٠ قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٢٧: «وهذا إسناد جيد قوي».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان- إثبات رؤية الله تعالى ١٧٥.

(٣) في كتاب التوحيد باب قوله (وكلم الله موسى تكليمًا) ٧٥١٧.

(٤) في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ ١٦٢.

وابن حزم والخطابي وعبد الحق وابن كثير وغيرهم، قال الخطابي: «إن الذي وقع في هذه الرواية من نسبة التدلي للجبار عز وجل مخالف لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير من تقدم منهم ومن تأخر».

وقال عبد الحق في الجمع بين الصحيحين: «زاد فيه شريك زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى الإسراء جماعة من الحفاظ فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ».

وقال ابن حزم: «فيه ألفاظ معجمة، والآفة من شريك»[(١)].

وقال ابن كثير[(٢)] بعد ذكر مقالة مسلم: «وقدم فيه شيئًا وأخر، وزاد ونقص»: «وهو كما قال مسلم رحمه الله فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظه، ولم يضبطه». ثم نقل كلام البيهقي في ذكر تفرد شريك بهذه الزيادة.

والصحيح أن الذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى هو جبريل عليه السلام دنا من النبي ﷺ، إذ أن قرب الله عز وجل ودنوه لا يجوز أن يمثل بشيء.

وأيضًا فإنه لو صحت هذه الزيادة وحمل قوله: «ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» على أن المراد به الرب عز وجل قرب من النبي ﷺ فليس فيه دلالة على إثبات رؤية النبي ﷺ لربه، كما أنه لا يلزم عليه تمثيل صفاته عز وجل بغيره، وإنما هذا من باب بيان قرب المسافة؛ كما في قوله عز وجل: «ومن تقرب إلي شبرًا تقربت منه ذراعًا».[(٣)]

وقد ذهب جماعة إلى أن المراد أن محمدًا ﷺ رأى ربه، منهم من قال رآه بفؤاده، ومنهم من قال: رآه بعينه.

والصحيح أن المراد بالآية أنه رأى جبريل على صورته مرتين كما ثبت في تفسير الآية عن جمع من الصحابة؛ منهم عائشة وابن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم، ولا مخالف

---

(١) انظر «فتح الباري» ١٣/ ٤٨٤- ٤٨٥.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٥- ٦ وانظر ٧/ ٤٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة ٢٦٧٥، من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضا في التوحيد ٧٤٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وانظر: «فتح الباري» الموضع السابق.

لهم من الصحابة رضي الله عنهم[١]. وقد بين ابن القيم هذا من ستة عشر وجهًا[٢].

والصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة أن الرسول ﷺ ما رأى ربه، وأن رؤيته عز وجل في الدنيا غير ممكنة، كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقلت: «هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قفّ له شعري فقلت: رويدًا، ثم قرأت ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فقالت: أين يُذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدًا رأى ربه، أو كتم شيئًا مما أُمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤]، فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد، وله ستمائة جناح قد سد الأفق»[٣].

وعن مسروق قال: كنت متكئًا عند عائشة رضي الله عنها فقالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض». فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]؟

أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]؟

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٥/ ٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩١- ٢٩٣.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النجم، ٢٣٣٢، وأحمد ٦/ ٤٩- ٥٠.

قالت: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل:٦٥]. ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٢٧]».

وفي بعض الروايات عن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها: «هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله لقد قفّ شعري مما قلت».(١)

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال ﷺ: «نور أنّى أراه» وفي رواية «رأيت نورًا»(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».(٣)

وقال ﷺ في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «لن تروا ربكم حتى تموتوا»(٤).

قال ابن القيم(٥): «وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة... قال الدارمي: «وأجمع المسلمون على ذلك مع قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٤، ومسلم في الإيمان- باب إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان- باب قوله ﷺ: «نور أنّى أراه» ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢، وأحمد ٥/ ١٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤٤، ومسلم في الإيمان ١٧٩، وابن ماجه في الطهارة ٣١٨.

(٤) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٣٥، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد ٥/ ٣٢٤.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٨٥- ٢٨٦.

يعني أبصار أهل الدنيا».

وأما ما رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة أحسبه يعني في النوم فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو قال نحري- فعلمت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات. قال: وما الكفارات والدرجات؟ قلت المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء على المكارة. من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون. قال: والدرجات: بذل الطعام، وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام»(١).

فهذا الحديث وما في معناه يدل على أنه إنما رآه رؤية منام، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف من إطلاقهم الرؤية، أو قولهم: رآه بقلبه- والله أعلم- كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: «رآه بفؤاده مرتين»(٢).

قال ابن القيم(٣): «وأما قول ابن عباس: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين فالظاهر أن مستنده هذه الآية وقد تبين أن المرئي فيها جبريل، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس».

وأما ما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبي قتل يوم أحد، وترك عيالاً ودينًا، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٣٣، ٣٢٣٤، وقال: «حديث حسن غريب»، وأحمد ١/ ٣٦٨، ورُوي من حديث أبي ذر ومعاذ- رضي الله عنهما- ، وفيه: «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة» وأخرجه الطبراني في الكبير ٩٣٨. وقال الهيثمي: «فيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين عن أبيه، ولم أر من ترجم له».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان- باب قول الله- عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى) ١٧٦.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٢٨٥- ٢٨٨.

الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا، فقال: يا عبدي تمنّ عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني، فأقتل فيك ثانية، قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون» قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾»(١).

فهذا- إن صح- إنما هو بعد الموت، وهذا من خصائص والد جابر رضي الله عنهما. وأما في القيامة فلا يحجب عن رؤيته عز وجل ومخاطبته إلا من مات على الكفر.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ سدرة المنتهى في السماء السابعة، وسميت بذلك؛ لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾، أي: الجنة التي يأوي ويصير إليها الرسل وأتباعهم من الشهداء والصالحين، ويخلدون فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠، ٤١] يقال: أوى إلى كذا، أي: صار إليه، واستقر فيه.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين».

و«السدرة»: هي سدرة المنتهى و«ما»: موصولة بمعنى الذي، تفيد العموم.

ومعنى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾، أي: يلتف حولها ويغطيها، أي: حين يلتف حول السدرة ويغطيها الذي يغطيها من الملائكة والنور والألوان وغير ذلك، كما دلت على ذلك الأحاديث.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسري برسول الله ﷺ- انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾. قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٠١٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٠، وقال الترمذي: (حديث حسن غريب).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان- باب ذكر سدرة المنتهى ١٧٣، والترمذي في التفسير ٣٢٧٦، وأحمد ١/ ٤٢٢.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ (ما) نافية، أي: ما ذهب وما مال يمينًا ولا شمالاً. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما جاوز ما أمر به. والطغيان: الزيادة، وتجاوز الشيء حده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]. أي: لما زاد الماء عن حده.

قال ابن القيم[(١)]: «وزيغ البصر: التفاته جانبًا، وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي».

فهذا من كمال أدبه ﷺ، فما مال بصره يمينًا ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به.

وهذا من كمال الأدب، ومن كمال إقبال الناظر على المنظور أن يقصر بصره عليه، وأن لا يصرفه عنه يمنة ولا يسرة، ولا يتجاوزه.

قال ابن كثير[(٢)]: «وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو ... رأى غيره ما قد رآه لتاها»

وهذا يدل على كمال أدبه ﷺ مع ربه، مما فاق به سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وبه صار أفضل أولي العزم، فإن من عادة النفوس إذا تم لها مقام أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه، ولهذا نرى موسى عليه السلام لما أقيم مقام التكليم طلب الرؤية فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

أما نبينا ﷺ فإنه من كمال أدبه وخلقه لم يلتفت ببصره، ولا بقلبه إلى غير المقام الذي أقيم فيه، ولهذا كان ﷺ سيد الأولين والآخرين.

ولهذا جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «أن موسى عليه السلام لما مر به النبي ﷺ ليلة الإسراء وجاوزه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»[(٣)].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٨٩، ٢٩٦.

(٢) في تفسيره ٧/ ٤٢٩.

(٣) أخرجه البخاري: في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨- وانظر: =

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه:٢٣].

واللام في قوله «لقد» لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد رأى من آيات ربه الكبرى.

و«الكبرى»: اسم تفضيل؛ لأن آيات الله إما كبيرة وإما كبرى، وليس فيها صغرى.

أي: رأى وشاهد ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾؛ أي: من آيات ربه الكبيرة العظيمة، وهي العلامات الدالة على كماله عز وجل، في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وكمال قدرته وعظمته، والمراد بالآيات هنا الآيات الكونية.

قال ابن كثير[1]: «وبهتين الآيتين- يعني: قوله ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وقوله في سورة طه ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [الآية:٢٣]، استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس».

الفوائد والأحكام:

١- وصول القرآن إلى النبي ﷺ بأقوى إسناد وأصحه وآمنه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٢- قوة جبريل عليه السلام، وعظم خلقه، وجمال منظره؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾.

٣- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل على هيئته التي خلق عليها وذلك بالأفق الأعلى وقربه من النبي ﷺ قدر قوسين أو أدنى؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾.

٤- أن الله- عز وجل- أوحى القرآن إلى عبده محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، أي: أوحاه إلى جبريل وبلغه جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

=

«بدائع التفسير» ٤/ ٢٩٧؛ ٢٩٨، «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٤.

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٠.

٥- تشريف النبي ﷺ بعبوديته لربه لقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

٦- تعظيم الله- عز وجل- لوحيه وكتابه الكريم.

٧- إثبات صدق النبي ﷺ فيما رآه من الآيات العظيمة، ونفي كذبه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

٨- الإنكار على المشركين في مجادلتهم الرسول ﷺ بالباطل عناداً منهم وجحداً لما رآه من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

٩- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته التي خلق عليها مرة أخرى عند سدرة المنتهى في السماء السابعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

١٠- إثبات سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى والتي ينتهي إليها ما يعرج إلى السماء وما ينزل منها، وعظمة ما يغشاها؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

١١- ثبات بصر النبي ﷺ على رؤية ما أمر برؤيته من غير زيغ يميناً أو شمالاً، ولا امتداد لرؤية غير ما أمر به؛ لقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

١٢- رؤيته ﷺ حين أسري به من آيات ربه الكبرى الدالة على كماله- عز وجل- وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

١٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

أكد عز وجل في الآيات السابقة صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من الوحي، وأنه من عند الله حقًا، وصل إلى النبي ﷺ من أسلم طريق وآمنه وأقربه وأصحه،.

ثم أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وتقريعهم في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم الأبنية عليها وتعظيمها من دون الله، وعدولهم عما جاءهم من الحق والهدى من عند الله عز وجل على لسان الرسول ﷺ إلى ما لم ينزل الله به من سلطان اتباعًا للظن والهوى.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ والتقريع والتحقير؛ أي: أخبروني.

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾: صنمان كان المشركون يعبدونهما.

قال ابن كثير[1]: «وكانت اللات: صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة ابن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف»

وقد اشتقوا اسمها «اللات» من اسم الله. وقيل: إن «اللات» اسم رجل كان يلت السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

والعزى: شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف، كانت قريش وبنو كنانة يعظمونها، وقد اشتقوا اسمها من اسم الله «العزيز».

ومن شدة تعظيم قريش لها قول أبي سفيان يوم أحد مفتخراً: «لنا العزى، ولا

---

(١) في تفسيره ٧/ ٤٣٠، وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٨٥.

عزى لكم».

فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[١].

وقد بعث النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها[٢].

ومن شدة تعظيمهم لها أنه بعد قطعها وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان تجد في تعبيرات بعض الناس وبخاصة العامة كلمات يقولونها من غير قصد تناقلها الناس بعضهم عن بعض، كقولهم: «واعزتا لك»، يقصدون بها التحسر أو التخويف، وقولهم: «واعزي لك»، يقصدون بها التخويف، وقولهم: «واعزاه»، يقصدون بها التحسر والندب والتأوه، وقول بعضهم لبعض: «جاءك أبو العزَّين» يخوفون بهذا، ونحو ذلك من التعبيرات التي قد توجد في بعض الجهات مما هو في الأصل مشتق من هذه التسمية.

وهذه الألفاظ- وإن كانت لا يقصد بها شيء- ولله الحمد؛ لأن الشرك قد اجتث من جذوره في هذه البلاد بفضل الله عز وجل، ثم بفضل دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب ومؤازرة محمد بن سعود له رحمهما الله وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء- إلا أن الأولى البعد عن هذه الألفاظ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق»[٣].

قال ابن كثير[٤] بعد سياقه هذا الحديث: «وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية».

ثم ساق ابن كثير عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا نذكر بعض

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٦٢، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣١.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم ٤٨٦٠، ومسلم في الأيمان ١٦٤٧، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٤٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٧٧٥، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٤٥ وابن ماجه في الكفارات ٢٠٩٦.

(٤) في تفسيره ٧/ ٤٣١.

الأمر، وأنا حديث عهد بالجاهلية، فحلفت باللات والعزى فقال لي أصحاب رسول الله ﷺ: بئس ما قلت، ائت رسول الله ﷺ فإنا لا نراك إلا قد كفرت فأتيته، فأخبرته، فقال لي: «قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، وانفث عن شمالك ثلاثًا، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»(١).

﴿وَمَنَوٰةَ﴾، أي: «ومناة» التي كانت تعبد وتعظم من دون الله، وكانت على ساحل البحر بالمُشَلَّل- عند قُدَيد بين مكة والمدينة تعظمها خزاعة والأوس والخزرج ومن دان دينهم من أهل يثرب يُهلِّون منها للحج إلى الكعبة.

بعث إليها رسول الله ﷺ أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه فهدمها، ويقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٢).

﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، أي: بعد الاثنتين قبلها، أي: بعد اللات والعزى أي: التي تعبد كما تعبد اللات والعزى، وفي قوله: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾إشارة- والله أعلم- إلى تأخرها في الرتبة عن اللات والعزى عند المشركين. فهذه الأصنام الثلاثة أشهر معبودات العرب التي كانوا يعظمونها في جاهليتهم؛ ولهذا خصها بالذكر.

وهناك معبودات أخرى كثيرة يعظمونها ويهدون لها كما يهدون للكعبة، ويطوفون حولها وينحرون عندها.

ومعنى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، أي: أخبروني عن هذه المعبودات والآلهة التي تعبدونها من دون الله، مما لا ينفع ولا يضر، ومما لا حجة ولا سلطان لكم في عبادته؟ ولماذا تعبدونها من دون الله؟ وكيف تعبدون ما لا يملك لكم نفعًا ولا ضرًا، وما تضركم عبادته؟ فأين دليلكم، وأين عقولكم؟.

وليست عبادة غير الله مقصورة على هذه المعبودات اللات والعزى ومناة بل كل ما عظم من دون الله من الأعيان أو الأشخاص الأحياء أو الأموات، أو المناصب، أو

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور- الحلف باللات والعزى ٣٧٧٦، وابن ماجه في الكفارات ٣٠٩٧.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٨٥- ٨٦، «صحيح البخاري» مع الفتح ٦/ ١٧٦- ١٧٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣١- ٤٣٢.

الرياضة، أو الدرهم والدينار وغير ذلك فكل ذلك مما عبد من دون الله قال ﷺ «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار»(١) وذلك لأن غاية التعظيم والمحبة والطاعة ينبغي أن تكون لله عز وجل وحده.

فمن أشرك مع الله غيره، أو قدم تعظيم غيره عليه فقد عبد غير الله.

وقد خلق الله الخلق لعبادته، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فلم يخلقهم ليعبدوا غيره، ويعظموا سواه، ولم يخلقهم لحاجته إليهم، فهو الغني عما سواه، كما قال عز وجل: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٧، ٥٨].

فلينتبه العاقل اللبيب لهذا، وليعلم أن الشرك في آخر هذه الأمة أعظم من شرك الجاهلية الأولى، وأن الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»(٢).

وقد يقع الإنسان في الشرك وهو لا يعلم، فعليه أن يقول كما قال النبي ﷺ: «اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»(٣).

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع للمشركين على نسبتهم الولد لله عز وجل وهو منزه عنه، وتخصيصهم أنفسهم بالذكور، وزعمهم أن له الإناث، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور:٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» ١/ ٦٦.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات:١٤٩- ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف:١٦].

وذلك أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم:٢٧].

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، أي: جائرة باطلة.

قال ابن كثير[1]: «أي: أتجعلون له ولدًا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت «قسمة ضيزى» أي: جورًا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا».

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما» في الموضعين، و«إلا» أداة حصر في الموضعين أيضا. أي: ما هذه المعبودات والآلهة التي جعلتموها شريكة لله «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» وغيرها إلا مجرد أسماء سميتموها أيها المشركون، أنتم وآباؤكم من قبلكم.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: ما أنزل الله بها من حجة ولا دليل ولا برهان.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: ما يتبعون هم وآباؤهم فيما سلكوه من عبادة غير الله إلا الظن والوهم الذي لا دليل عليه، ولا يقين معه ولا حقيقة له، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[2].

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في النكاح ١٤١٣ وفي البر والصلة ٢٥٦٣، وأبو داود في =

قال ابن كثير[١]: «﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم».

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ الواو: عاطفة، وما موصولة أي: والذي تهواه وتميل إليه نفوسهم من الباطل، من الشهوات، وحب الرياسة، وتعظيم آبائهم الأقدمين وغير ذلك.

والهوى مُرْدٍ ومهلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد:١٤].

وقد قيل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... عَلَى هواه عقلُه فقد نجا[٢]

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الواو: حالية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، وهو الحق البين الواضح في كتابه- عز وجل- وعلى لسان رسوله ﷺ، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، الفتح:٢٨] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

لكنهم مع هذا ما انقادوا لما جاءهم من ربهم من الحق والهدى، بل اتبعوا الظن وما تهواه أنفسهم.

قال ابن القيم[٣]: «فالظن: الشبهة، وما تهوى الأنفس: الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا وهذا».

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي:

=

النكاح ٢٠٨٠، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩- ٣٢٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨، وابن ماجه في النكاح ١٧٦٧.

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٣.

(٢) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

(٣) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٢٩٩.

«بل» أللإنسان ما تمنى، ومعناه الإنكار والنفي، و«ما» موصولة، أي: ليس يحصل الإنسان كل ما تمنى، ولا كل من ود شيئًا وأحبه حصل له، وليس كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، قال عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب من أمنيته»(١).

بمعنى: أن عليه أن يتمنى الخير ويعمل على تحقيقه، ولا يعتمد على التمني فإن مجرد التمني لا يحقق شيئاً، كما أن عليه أن يحذر من تمني الشر.

وكم من مدع أمرًا لم يحققه، قال الحسن: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»(٢).

وقد أحسن القائل:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... ألجود يفقر والإقدام قتّال(٣)

وقال الآخر:

وكل يدعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا(٤)

وقال الآخر:

إذا تمنيت مالاً بتَّ مغتبطًا ... إن المنى روس أموال المفاليسِ(٥)

ولهذا قيل في المثل: «إن المنى رأس أموال المفاليس»(٦).

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾، أي: إنما الأمر كله لله، فهو مالك الآخرة والأولى.

والأولى هي الدنيا؛ لأنها قبل الآخرة زمنًا. وقدّم الآخرة؛ لظهور كمال وتمام ملكه

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٧، ٣٨٧.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٤.

(٣) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص٥٣١.

(٤) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

(٥) انظر: «الحيوان» ٥/ ١٠٦.

(٦) انظر: «مجمع الأمثال» ١/ ٢١٥، «الأمثال المولدة» ص١٠٢.

فيها أكثر من الدنيا، ومراعاة للفواصل.

فهو عز وجل مالك الدارين وخالقهما والمتصرف فيهما، والذي ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، فلا يمكن مع هذا أن يكون للإنسان ما تمنى مع أن الملك والخلق والأمر كله لله، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤].

ولو عرف الإنسان هذا الأمر حقيقة المعرفة، وقدر الله حق قدره ما خالف أمره ولا ارتكب نهيه.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الواو: استئنافية، و«كم» هنا خبرية بمعنى: «كثير»، أي: وكثير من الملائكة في السموات.

﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، أي: لا تنفع شفاعتهم شيئًا، فلا تجلب خيرًا، ولا تدفع ضرًّا. و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النفي، أي: لا تغني شفاعتهم أيَّ شيء.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ إلا: أداة استثناء، «من بعد» جار ومجرور متعلق بنعت هو المستثنى المقدر، أي: إلا شفاعة من بعد أن يأذن الله.

وقوله: ﴿أَن يَأْذَنَ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة، أي: إلا من بعد إذن الله لمن يشاء من عباده بالشفاعة، ورضاه عن المشفوع له، وهذان هما شرطا الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

وإذا كان الملائكة وهم العباد المكرمون عند الله عز وجل، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا تغني شفاعتهم شيئًا، لا نفعًا ولا دفعًا إلا بعد إذن الله عز وجل للشافع ورضاه عن المشفوع له، فكيف يقال أو يظن أن للإنسان ما تمنى، أو أن هذه المعبودات تشفع لعابديها من دون الله، إذ لو كان ذلك لأحد من الخلق لكان من أولى الخلق بذلك الملائكة الكرام البررة، وفي هذا تيئيس للمشركين من أن يحصل لهم ما

تمنوا أو أن تشفع لهم معبوداتهم.

ولا يعني هذا أن الملائكة أفضل من الأنبياء والرسل، بل ولا أفضل من المؤمنين كما هو الصحيح من أقوال أهل العلم ومذهب أهل السنة والجماعة.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين وتوبيخهم وتقريعهم في عبادتهم الأصنام والأوثان من دون الله، ونسبتهم الإناث لله- تعالى الله وتقدس؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

٢- عظم جهل المشركين وإغراقهم في الضلال حيث عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، وعظم افترائهم وجورهم حيث نسبوا لله الولد بل خصوه بالإناث واستأثروا بالذكور تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا.

٣- أن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى من أشهر وأكبر معبودات المشركين العرب؛ لهذا خصت بالذكر.

٤- وجوب توخي العدل والحذر من الجور في القسمة، وفي كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

٥- النعي على المشركين وآبائهم في تسميتهم هذه المعبودات، وجعلها آلهة وما أنزل الله بها من سلطان، وإنما بمجرد اتباع الظن وهوى الأنفس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

٦- أن الله- عز وجل- قد أقام الحجة على الخلق، وأبان طريق الهدى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فلا عذر لمن تنكب الجادة وسلك طريق الردى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾.

٨- ليس الإيمان بالتمني، ولا من زعم أنه مهتد يكون كذلك، ولا من تمنى شيئاً حصل له؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾.

٩- أن لله ملك الآخرة والدنيا، فالخلق خلقه والأمر أمره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ

ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾.

١٠-إثبات الدار الآخرة.

١١- إثبات وجود الملائكة، وكثرتهم في السموات، وعظم مكانتهم عند الله- عز وجل- وإن لم تبلغ مكانة الرسل، بل ولا مكانة صالح المؤمنين على الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾.

١٢- لا أحد يشفع عند الله لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

أنكر الله عز وجل في الآيات السابقة على المشركين نسبتهم الولد لله عز وجل، وزعمهم أن لهم الذكور وله الإناث، ثم أتبع ذلك بالإنكار عليهم في تسميتهم الملائكة بالإناث، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، والرد عليهم- تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، أي: إن الذين لا يصدقون بالدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وهم الكفار.

وسميت الدار الآخرة بهذا الاسم؛ لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد الدار الدنيا، وهي آخر الدور وآخر مراحل الإنسان وهي الدار التي فيها الحياة الحقيقية كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الملائكة: جمع ملك، وهم خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء:٢٦- ٢٧].

﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾، أي: يسمونهم بالإناث، فيقولون: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك قال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات:١٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف:١٦].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ الواو حالية، و«ما» نافية، «به»: أي: بالمذكور، وهو تسميتهم الملائكة إناثًا.

﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: والحال أنهم ليس لهم بما قالوه من هذه التسمية من علم يُصدِّق ما قالوه، لا قليل ولا كثير، فليس لديهم أي علم وإن قل- بما قالوه، بل هو محض كذب وافتراء.

قال ابن كثير(١): «أي: ليس لهم علم صحيح يُصدِّق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع».

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ «إن» نافية، أي: ما يتبعون فيما قالوه إلا الظن والوهم الكاذب.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يجدي شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق فالحق ثابت وأحق أن يتبع، والظن باطل زائل، ولهذا ذمه الله عز وجل ونهى عنه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢]،

وقال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»(٢).

وفي الحديث: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يخرج من ذلك إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»(٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ، ووعيد للمكذبين بما جاءهم به من عند الله عز وجل.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨، وأحمد ٢/ ٢٤٥، ٢٨٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الأصبهاني في الإيمان عن الحسن البصري مرسلاً انظر: الجامع الصغير ٣٤٦٦، وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٥٧ من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد، وسوء الظن، فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

قوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كانوا يتبعون الظن وقد جاءهم من ربهم الهدى فأعرض عنهم أي: فأعرض عن الذي تولى وأَعرَضَ عن ذكرنا القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤]، وقال تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

والمعنى: فأعرض عمن تولى وأعرض عن القرآن الكريم، وعن تذكيرنا-بعد إقامة الحجة عليه، واتركه واهجره ولا تباله، ولا يثن من عزمك وتصميمك، ولا تبتئس به واستمر في طريق دعوتك.

وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة إلى الله والموجهون إلى الخير، بحيث لا يثني عزائمهم أو يفت في عضدهم تولي المعرضين.

وفي هذا من الإشارة للوعيد ما فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٤، ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٢].

قوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾، أي: ولم يطلب إلا الحياة الدنيا، وسميت بالدنيا؛ لأنها قبل الآخرة زمنًا، ولدناءة رتبتها وحقارتها، كما وصفها الله عز وجل في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد:٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٥، الحديد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ

أَتْقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

وقال تعالى فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر:٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٧، النحل:١١٧].

وكما وصفها رسوله المصطفى الكريم فقال ﷺ فيما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»(١).

وقال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام، وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(٤).

فيالله ما أعظم بركة عمر من وفقه الله ونظر للدنيا هذه النظرة كما وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وما أقل بركة عمر من غفل عن هذه النظرة فعاش ساهياً لاهياً حتى أتاه الموت وهو على غرة.

ويا لله ما أسعد حياة من عرف حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، فلم يأس على ما فاته من الدنيا، ولم يبطره ما حصل له منها، وصدق الله العظيم ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد- فضل رباط يوم في سبيل الله ٢٨٩٢، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٨- وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٠، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧،وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد:٢٣].

وما أسعد من عرف حقيقة الآخرة فاستعد لها بحزم وعزم وتصميم وقلب منشرح ومعنوية مرتفعة، أداءً لما أوجب الله وانتهاءً عما نهى الله عنه وسرته حسنته وساءته سيئته.

ويا لله ما أحسن حال من عرف حقيقة الدارين، ما أحرصه وأسرعه لأداء الواجبات والبعد عن المنهيات، وما أسرعه إلى العفو عمن ظلمه والصفح عمن أساء إليه، والمسارعة في أعمال البر والخير، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾، أي: غاية علمهم، ونهاية ما وصلوا إليه من العلم إرادة الحياة الدنيا وطلبها والسعي إليها، فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم- نسأل الله العافية- فيا للصفقة الخاسرة لمن آثر ما يفنى على ما يبقى.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٧١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٦٥.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٢ وقال: «حديث حسن غريب» وقال في «تحفه الأحوذي»: «أخرجه =

فالتولي عن ذكر الله وإرادة الحياة الدنيا وحدها خروج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وعن الهدف الذي خلق الله الخلق من أجله وهو عبادته وحده، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦- ٥٨].

وفي قوله ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ إشارة إلى قلة علمهم وضآلته، وإلى نظرهم القاصر الذي لا يتجاوز ما تحت أقدامهم، حيث قدموا العاجل الفاني على الآجل الباقي، ولو كان عندهم علم وبُعْد نظر، وحظ من التوفيق، ما آثروا الفاني على الباقي.

فليتأمل هذا من يلهثون وراء جمع المال من أي طريق كان، ولو كان ذلك بالمعاملات الربوية، والشركات المختلطة، والأسهم المشتبهة، حتى صار أكبر همهم متابعة الأسهم ارتفاعاً وانخفاضاً في ليلهم ونهارهم، ويقظتهم ومنامهم.

وانشغلوا بذلك عن أمور دينهم، وعن أهليهم وأولادهم وأعمالهم، وأصيب كثير منهم بسبب ذلك بأنواع من الأمراض النفسية وارتفاع ضغط الدم أو انخفاضه والسكري وغير ذلك.

وأقول لهؤلاء وأمثالهم: تذكروا قوله ﷺ: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(١).

وعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن حمى الله محارمه»(٢).

=

النسائي والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري».

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤.

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، أي: إن ربك- يا محمد- خالقك ومالكك ومتوليك ومدبر أمرك.

﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ «أعلم»: على وزن «أفعل»: صيغة تفضيل، أي: إن مرد العلم كله إليه عز وجل، وهو العليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:٦٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

و«من» في الموضعين موصولة، أي: إن ربك هو أعلم بالذي ضل وتاه عن سبيله سبيل الحق، وتركه، وهو سبحانه أعلم بالذي اهتدى إلى الحق.

وفي هذا كله- كما سبق- تسلية للنبي ﷺ، وتقوية له، ووعيد للضالين، ووعد للمهتدين.

وهكذا ينبغي أن يستلهم هذه الدروس الدعاة إلى الله من الآباء والمربين والموجهين وسائر الدعاة إلى الخير والحق، فلا يملوا، أو يقفوا في وسط الطريق.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين المكذبين بالآخرة في تسميتهم الملائكة بنات الله بلا علم وإنما بمجرد الظن الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾.

٢- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء.

٣- أن الظن لا يجدي ولا يغني من الحق شيئاً، ولا يثبت أمام الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

٤- لا حرج في الإعراض عمن تولى عن ذكر الله، وكان مراده فقط الحياة الدنيا،

بعد إقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

٥- ذم المكذبين المعرضين عن ذكر الله بقصر مرادهم على الحياة الدنيا، فهي غاية همهم ومبلغ علمهم، فنظرتهم مادية، وحياتهم بهيمية؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾.

٦- إثبات وتأكيد علم الله- عز وجل- الواسع بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى إليه، وفي هذا وعد للمهتدين ووعيد للضالين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة وصف الرب أو اسمه إلى ضميره ﷺ ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

٨- تسلية الرسول ﷺ ووعيد المكذبين، وفي هذا درس للدعاة إلى الله- عز وجل- فلا يثني عزائمهم إعراض المعرضين ونعيق الجاهلين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الواو: استئنافية، واللام حرف جر، ولفظ الجلالة مجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ لإفادة التخصيص والحصر.

و«ما» موصولة تفيد العموم، أي: كل ما في السموات وما في الأرض لله وحده دون سواه، فهو- عز وجل- خالق ذلك كله، ومالكه، والمتصرف فيه، مما يوجب الإيمان به والانقياد لشرعه والرضا بقضائه وقدره.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ اللام للتعليل؛ أي: لأجل أن يجزي ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ﴾، أي: الذين عملوا الأعمال السيئة، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره؛ لأن المعاصي كلها لها أثرها السيء على العباد والبلاد، كما قال عز وجل: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

﴿بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ (ما) موصولة أو مصدرية، أي: بالذي عملوه، أو بعملهم.

وفي قوله: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ دون أن يقول: ليجزي الذين أساؤوا بالإساءة، أو بالعذاب أو بالنار- إشارة إلى تمام عدله عز وجل، وأن الجزاء من جنس العمل وبقدره؛ أي: بما عملوا من غير زيادة ولا نقصان، كما قال عز وجل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧- ٨].

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾، أي: ويجزى الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى قولاً وعملاً واعتقادًا، وإخلاصا لله تعالى، ومتابعة لشرعه، وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم؛ قولًا وعملًا وبذلًا للندى، وكفًّا للأذى.

﴿بِٱلْحُسْنَى ﴾ «الحسنى»: صيغة تفضيل على وزن «فُعلى»: تأنيث «أحسن» أي: التي لا أحس منها ولا أفضل ولا أكمل.

والمراد بـ«الحسنى»: الجنة، كما قال عز وجل: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

[يونس:٢٦]. قال ﷺ: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله»(١). وقال بعضهم: «الحسنى»: المثوبة الحسنى، أي: المثوبة الحسنة.

والمعنى واحد فالمثوبة الحسنى: يراد بها الجنة وما فيها من ألوان النعيم. وهذه الآية كقوله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

وقال عز وجل: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ولم يقل: «بما عملوا» إشارة لفضله عز وجل؛ لأن الحسنى «فعلى» من الإحسان.

فهو سبحانه يجزى الحسنة بعشر أمثالها، بل يضاعفها إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة، ويزيد من فضله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور:٣٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال الله عز وجل: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»(٢).

وفي هذا إشارة إلى عظيم فضل الصوم حيث أضافه عز وجل إليه، وأضاف جزاءه إليه أيضًا إضافة تقتضي أن للصوم وجزائه مزية وخصوصية، وإلا فإن جزاء الأعمال كلها إليه عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية:٢٢].

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ هذا تفسير ووصف للمحسنين وقوله: ﴿يَجْتَنِبُونَ ﴾، أي: يبتعدون عن كبائر الإثم ويتركونها جانباً ولا يرتكبونها. والمراد بـ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ كبائر الذنوب والموبقات.

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: معطوف على ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ من عطف الخاص على العام لأن الفواحش من أعظم الكبائر، وهي ما فحش من الأعمال والأقوال في الشرع وعرف

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم١٩٠٤، ومسلم في الصيام ١١٥١، وأبو داود في الصوم ٢٣٦٣، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٣٨.

المسلمين، كالزنا واللواط، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف:٨٠- ٨١].

وقد اختلف أهل العلم في تحديد الكبيرة على أقوال عدة، أظهرها: أن الكبيرة ما رتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، من غضب أو لعنة أو نار أو عذاب ونحو ذلك. وهي كثيرة غير محصورة بعدد معين على الصحيح، فهي محدودة لا معدودة(١).

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا يا رسول الله وما هن؟، قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»(٤).

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن اللمم ليست من كبائر الذنوب والفواحش، بل المراد باللمم صغائر الذنوب التي قد يلم بها الإنسان، ولا يسلم منها غالبًا.

قال ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جمًّا، وأي عبد لك لا ألمًّا»(٥).

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء:٣١].

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١٩.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ٦/ ٦٥١.

(٥) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النجم ٣٢٨٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: «حسن صحيح غريب».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(١).

قال ابن كثير(٢): «اللمم صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال».

وليس المعنى أنهم لا يجتنبون اللمم ويتعمدونه، فقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها»(٣).

والمعنى: أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ولكن قد يقع منهم اللمم، وصغائر الذنوب مما لا يسلم منه أحد غالبًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له؛ أي: إن ربك واسع المغفرة لمن وقع في شيء من هذه الصغائر، إذا اجتنب الكبائر والفواحش، كما قال عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان- زنا الجوارح دون الفرج ٦٢٤٣، ومسلم في القدر- باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا ٢٦٥٧، وأبو داود في النكاح ٢١٥٢، وأحمد ٢/ ٢٧٦.

(٢) في تفسيره ٧/ ٤٣٥.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢، والطبراني في الكبير ١٠/ ٢٦١ .

وأخرجه أحمد أيضًا ٥/ ٣٣١، والطبراني في الكبير من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٩٠: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة»، وقال ابن حجر في «فتح الباري» ١١/ ٣٣٧: «إسناده حسن».

وأخرجه أحمد أيضا ٦/ ٧٠، ١٥١ من حديث عائشة رضي الله عنها، وكذا ابن ماجه في الزهد- باب ذكر الذنوب ٤٢٤٣.

إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما لم تغش الكبائر»[١].

وقيل المراد باللمم الذي يلم بالذنب مرة واحدة ثم يدعه ويتوب منه. والأظهر القول الأول، وهو قول الجمهور؛ لأن الذنوب الكبائر والفواحش وما دونها كلها وإن تكررت تقبل التوبة منها إذا كانت التوبة نصوحا حتى الشرك بالله.

قال ابن القيم[٢]: «والصحيح قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم».

وقد حكي عن أبي إسحاق الاسفراييني قوله: الذنوب كلها كبائر وليس فيها صغائر قال ابن القيم بعد أن ذكر هذا القول[٣]: «فليس مراده أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء من الحرام، وإنما المراد أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصيَ بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى- إلى أن قال: ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر».

على أنه قد يتناول اللمم الصغائر، ومن ألم بالكبيرة، ثم لم يعد إليها فيتناول اللمم هذا وهذا؛ لأن من ارتكب الكبيرة مرة واحدة، ولم يصر عليها، ولم يعد إليها فهو حري بالمغفرة، ولهذا اعتبر بعض المفسرين اللمم أن يلم بالذنب مرة ثم لا يعود إليه، وذلك أن الذنوب وفي مقدمتها الكبائر إنما تتغلظ وتعظم في حق من تكررت منه أو أصر عليها.

قال ابن القيم[٤] بعد أن ذكر نحو هذا:

«فأول ذنب إن لم يكن هذا اللمم فهو من جنسه ونظيره فالقولان متفقان غير مختلفين».

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة.

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل الوضوء والصلاة عقبه ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦.

(٢) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٣٠٢.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٠- ٣٠٢.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٣.

كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يدني يوم القيامة المؤمن حتى يضع عليه كنفه- أي: ستره ورحمته- ويقرره بذنوبه فيقول: يا فلان أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي رب نعم. فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

فهو عز وجل واسع المغفرة، أي: أن مغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها.

كما قال عز وجل: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

ولما قال رجل: والله لا يغفر لفلان متعاظماً ذنوبه. قال الله عز وجل: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان فإني قد غفرت له وأحبطت عملك»(٢).

بل إنه عز وجل من فضله وجوده وكرمه يبدل سيئات من تاب إليه حسنات كما قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان:٦٨- ٧١].

ومغفرته عز وجل أثر من آثار رحمته فهو عز وجل أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين، وخير الغافرين، لا يهلك عليه عز وجل إلا هالك.

فكيف لا يُطمع بفضله وكرمه، بل كيف يُعصى أمره، ويُفرط في جنبه، وهو عز وجل يغفر الذنوب جميعًا، بل يبدلها حسنات.

وإن من ضعف البصيرة ومن الحيرة والخذلان أن يغفل الكثيرون عن هذه المعاني في صفاته عز وجل مما يجعلهم لا يقدرون الله حق قدره، ويقعون في معصيته،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢١، من حديث جندب رضي الله عنه.

ويقصرون في طاعته، ويحرمون أنفسهم واسع مغفرته.

ولئلا تجانب الحق والصواب، قف أخي الكريم وتأمل عظمة الخالق وفضله وجوده وكرمه، وانظر كيف يتعامل الخلق الضعاف مع بعضهم.

ترى الكثير من الناس إذا حصل له من أخيه هفوة يعظم عليه العفو عنها، وإن عفا عنها رأيته يمن بذلك ويكرر ذكره.

فتعالى وتقدس الكريم الجواد- سبحانه الذي يغفر الذنوب جميعاً، ويعفو عن السيئات، بل ويبدلها حسنات، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

وبالمقابل ترى من أحسن إليه أحد الخلق بشيء من الإحسان يكرر ذلك ويقول: يا أبا فلان والله ما أنسى فضلك ومعروفك حتى أوارى في قبري.

فيا للعجب أليس الإحسان والفضل والمعروف كله من الله عز وجل، وإنما المخلوق قد يكون سببًا في حصول شيء من ذلك، والمحسن والمتفضل وصاحب المعروف كله هو الله عز وجل فتأمل أخي هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١].

ولكن ينبغي أن يعلم العبد أن الله عز وجل-وإن كان واسع المغفرة ورحمته تسبق غضبه- إلا أنه شديد العقاب.

وإنك لترى النصوص من الكتاب والسنة تذود الناس وتحاصرهم بين هذين الأمرين المغفرة والعقاب لكي تستقيم حال المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء ولهذا قال ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»(١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

أي: هو سبحانه وتعالى أعلم بكم، وبأحوالكم جميعًا، وأطوار خلقكم حين أوجدكم وخلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم من التراب، وحين كنتم أجنة في بطون أمهاتكم.

كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المصدوق، قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله، وشقي أو سعيد**»(١).

والأجنة: جمع جنين وسمي الطفل في بطن أمه جنينًا؛ لاستتاره في الظلمات الثلاث، كما قال عز وجل: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر:٦] ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة.

وهذه المادة «جنّ» معناها: استتر، ومنه سمي العقل: «جناناً»؛ لاستتاره، وسمي الجن «جنًا»؛ لاستتارهم، ويقال: جن الليل، إذا غطى الكون بظلامه، وسمي «المجن» مجنًّا؛ لأنه يستتر به من ضرب السهام ونحو ذلك.

والمعنى: أنه عز وجل أعلم بهم وبما قد يُمْكنهم اجتنابه، وبما قد يُلمُّون به مما لا يكاد يُسلم منه غالبًا؛ لأنه سبحانه العليم بحقيقة أحوالهم وأطوارهم، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ولهذا قال هنا:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾، أي: فلا تزكوا أنفسكم بزعم طهارتها، وسلامتها من اللمم، ومدحها بما ليس فيها، والمَن بعملها والمراءاة والسمعة في ذلك، وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه(٢)

وأيضاً لا يزك بعضكم بعضًا ويمدح بعضكم بعضاً بما ليس فيه.

وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

فالنهي في الآية عن تزكية النفس، وعن تزكية الغير، لما يترتب على تزكية النفس من بطلان العمل وحبوطه؛ لأن معنى العبادة، بل لبها هو الخضوع والذل والافتقار إلى الله، والانكسار بين يديه؛ رجاء رحمته، وخوف عقابه، والمزكي لنفسه بمقام المعجب بعمله، المدلّ على الله فيه، والله عز وجل غني عن مثل هذا العمل.

---

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٤، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) البيت ليزيد المهلبي. انظر: «التمثيل والمحاضرة» ص٩٣، «زهر الآداب» ١/ ٥٥، «نهاية الأرب» ٣/ ٩٤.

وقد قال ﷺ يومًا لأصحابه: «لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

وتزكية النفس إضافة إلى ما سبق صفة مذمومة ممقوتة عند الناس ذوي الفطر السليمة، لا يقبلونها بل يكرهون صاحبها، ولهذا تجدهم ينفرون من المجالس التي يكون فيها من هذه صفته. يتصدر أحدهم المجلس، ويقول: أنا فعلت كذا، وأنا قلت كذا، وأنا، وأنا.

والناس في هذا بين مستقل ومستكثر، وقل من يسلم من ذلك؛ لأن النفوس جبلت على حب الظهور، والانتصار للنفس، ولو كان ذلك بالباطل، إلا من رحم الله فوفقه لمعرفة قدر نفسه، ومنتهى ضعفه، والاستكانة لربه.

ففتش أخي في جوانب نفسك واحذر من غلوائها وكبريائها وتعاظمها، وألزمها طريق الاستقامة بالذل والخضوع والانكسار بين يدي الله عسى أن تسلم من شرها وما إخالك سالمًا.

أما تزكية الآخرين فقد نهى الله عنها لما قد يتسبب عنها من اغترار المزكَّى بعمله، فيكون ذلك سببًا لهلاكه ولهذا جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ويلك قطعت عنق صاحبك- مرارًا- إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه، لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا- والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا- أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»(٢).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦٢، ومسلم في الزهد- النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه الفتنة على الممدوح ٣٠٠٠، وأبو داود في الأدب- كراهية التمادح ٤٨٠٥، وابن ماجه في الأدب- باب المدح ٣٧٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد- النهي عن المدح ٣٠٠٢، وأبو داود في الأدب- كراهية التمادح ٤٨٠٤، وابن ماجه في الأدب ٣٧٤٢، وأحمد ٦/ ٥.

وتعظم حرمة المدح كلما كان في الوجه، وفيه مبالغة وخيفت منه الفتنة على الممدوح.

ويهون الأمر ويسهل إذا كان من باب الثناء العام وبحق، لأجل شكره، والدعاء له، أو تشجيعه على الخير، ونحو ذلك، فقد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، أو ويحبه الناس عليه؟ قال: «ذلك عاجل بشرى المؤمن»(١).

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾، أي: هو سبحانه أعلم بالذي اتقاه منكم من غيره؛ لأن التقوى محلها القلب، وهو العليم بذات الصدور، فهو عز وجل الذي يزكي من يشاء ويعلم المتقي من غيره، قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الآية:٤٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

وفي حديث زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها أنها سُميت (برة) فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات سعة ملك الله تعالى، وأن له ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٢- أن الله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وليجزي المحسن بالحسنى والمسيء بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، وبقدره، هذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله- عز وجل- يزيد ويضاعف لمن يشاء بفضله.

٤- الوعيد لمن أساؤوا بالعقوبة، والوعد لمن أحسنوا بالجنة والمثوبة؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في الأدب- استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير برة إلى زينب وجويرية ٢١٤٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٥٣.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

٥- الثناء على الذين يجتنبون كبائر الذنوب والفواحش، وأن هذا من الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾.

٦- عفو الله عز وجل عن صغائر الذنوب ومغفرته لها إذا اجتنبت الكبائر والفواحش؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

٧- التحذير من الإساءة، وارتكاب الكبائر والفواحش، والترغيب في الإحسان.

٨-إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾.

٩- إثبات وتأكيد سعة مغفرة الله- عز وجل- وعلمه الواسع بأحوال الخلق وأطوارهم وقدراتهم، وأن الإنسان لا يسلم غالباً من الوقوع في بعض الصغائر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾.

١٠- النهي عن تزكية النفوس بإطرائها، ومدحها فإن الله- عز وجل- أعلم بمن اتقى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

١١- أن تزكية النفس حقيقة إنما تكون بتقوى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

١٢- علم الله عز وجل بأعمال العباد، وبمن اتقى، مما يدل على عدم مشروعية النطق بالنية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

رُويَ عن مجاهد وابن زيد أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان اتبع رسول الله ﷺ فعيَّره بعض المشركين وقال: لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار؟ قال إني خشيت عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئًا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه، فأنزل الله تعالى هذه الآيات(١).

قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ الاستفهام للإنكار المشرب بالتعجب ممن هذه حاله، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

والمعنى: انظر إلى من هذه حاله منكرًا عليه ومتعجبًا منه حامدًا لربك على ما من به عليك من الهداية.

فالواجب على من هداه الله ووفقه أن ينكر على العصاة، وأن يناصحهم ويبين لهم الحق ويأمرهم بالرجوع إليه، وأن يحمد الله عز وجل على ما منّ به عليه من الهداية، وأن لا يتعاظم أو يتعالى بعمله، فقد يهديهم الله ويضله.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى صاحب بلاء، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، إلا عوفي من ذلك البلاء كائنًا ما كان ما عاش»(٢).

ولما قال رجل: «والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: «من ذا الذي يتألى عليّ ألا أغفر لفلان، إني قد غفرت له وأحبطت عملك»(٣).

وقد قيل:

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٧٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣١، وقال «حديث غريب» ورُويَ أنه يقول ذلك في نفسه ولا يسمع صاحب البلاء.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢١؛ من حديث جندب رضي الله عنه.

اِحــذر لســانك أن تقــول فتبــتلى إن الــبلاء موكــل بــالمنطق[١]

ومعنى ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾، أي: الذي أعرض عن الحق وتركه بقلبه وجوارحه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾، أي: أعطى قليلاً من الطاعة والإنفاق.

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾، أي: ترك وقطع ومنع الخير، يقال: أكدى الرجل، أي: قلّ خيره.

قالت الخنساء في أخيها صخر:

فتــى الفتيــان مــا بلغــوا مــداه ولا يَكــدي إذا بلغــت كــداها[٢]

أي: لا يقطع عطاءه، ولا يمسك عنه إذا قطع غيره وأمسك.

والكدية في الأصل: الأرض المرتفعة الصلبة الغليظة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أطاع قليلاً ثم قطعه»[٣].

﴿أَعِندَهُۥ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي.

﴿عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: علم ما غاب عن الحواس، مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

والمعنى: أعند هذا الذي تولى وأعرض عن الحق وقطع عمل الخير والمعروف والإنفاق علم ما غاب عن الحواس فهو يرى أن توليه وإعراضه وتركه عمل الخير والإنفاق خير له وأصلح، أو أنه سينفد ما عنده ويفتقر لو أنفق، أو أن أحدًا سيتحمل عنه عذاب الله عز وجل، أو أنه سيجازى بسعي غيره، أي: ليس الأمر كذلك وإنما حمله على التولي والإعراض الكبر والعناد، ومنعه من الإنفاق الشح والبخل.

وقد قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»[٤] وفي رواية «ما نقص مال من صدقة، بل

---

(١) البيت ينسب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر: «العقد الفريد» ٣/ ١٦. ولصالح بن عبدالقدوس. انظر «ديوانه» ص ١٤٧.

(٢) انظر «ديوان الخنساء» ص٩٦ شرح وتحقيق عبد السلام الجوفي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تزده بل تزده»[١].

وقال ﷺ: «أنفق يا ابن آدم ينفق عليك»[٢].

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار، والتقدير: بل ألم ينبأ بما في صحف موسى، أي: ألم يخبر، والنبأ الخبر العظيم.

﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي في صحف موسى، وهي التوراة، وقيل غيرها

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾، أي: وبما في صحف إبراهيم الخليل عليه السلام التي أنزلها الله تعالى عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٨، ١٩].

وإبراهيم أقدم زمناً من موسى عليهما الصلاة والسلام، وأفضل منه، فهو ثاني أولي العزم من الرسل بعد محمد ﷺ، وموسى ثالثهم، وإنما قدم موسى في هذه الآيات- والله أعلم- مراعاة للفواصل، ولمناسبة ختم الآيتين بالثناء على إبراهيم بقوله:

﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾، أي: الذي تمم وبلغ جميع ما أمر به، ووفى في طاعة الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]. ووفى بامتثال أمر الله عز وجل له بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام.

ولهذا وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل:١٢٠- ١٢٣].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذه الآية وما بعدها مما أوحاه الله عز وجل في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

---

(١) أخرجه البزار والطبراني في المعجم الكبير، وأبو يعلى انظر: الكنز الثمين لعبد الله بن الصديق حديث ١٢٣٩، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٢، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾، أي: ألا تحمل، وجاء التعبير بقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ من باب المشاكلة لما بعده- والله أعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠]، وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

والمعنى: أن لا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة.

﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي: ذنب نفس أخرى، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨].

فمن تمام وكمال عدله عز وجل أن لا يؤخذ ويعاقب أحد بجريرة غيره، حتى مع الكفار؛ ولهذا قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾ [المائدة:٦]، أي: ولا يحملنكم بغض قوم بسبب صدهم لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء على غيرهم.

وهذا يدل على سفه قول الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾ [العنكبوت:١٢]

﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، أي: وأن مما جاء في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام أنه ليس للإنسان إلا ما سعى.

و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: إلا سعيه أو إلا الذي سعاه.

فليس يحصل للإنسان إلا ثواب سعيه وعمله في هذه الحياة، كما قال عز وجل: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران:٣٠].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة- باب تحريم الظلم ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ومن سعي الإنسان وعمله ما كان هو سببًا فيه، فإن ثوابه يصل إليه ولهذا قال ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(١).

فهذه الأعمال الثلاثة كلها من عمل الإنسان وكسبه، ولهذا قال ﷺ في الولد: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»(٢).

و من ذلك الدعوة إلى الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، ونحو ذلك.

قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»(٣).

وهكذا كل ما كان الإنسان سبباً فيه فهو داخل ضمن سعيه ويصله ثوابه، فدعاء المؤمنين له يصل إليه ثوابه؛ لأنه بإيمانه سعى في هذه الأخوة بينه وبينهم وانتظم في عدادهم فشمله دعاؤهم، وكذا دعاء من أحسن إليهم بقوله أو فعله أو ماله أو جاهه أو غير ذلك فإنه يصل إليه ثوابه؛ لأنه بإحسانه إليهم تسبب لنفسه بهذا الدعاء، فصار من سعيه.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه- أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة وأن عمرًا سأل النبي ﷺ عن ذلك؟ فقال: «أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية- ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع- ٤٤٤٩، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، وابن ماجه في التجارات- ٢١٣٧، وأحمد ٦/ ٣١، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وقال الترمذي «حسن صحيح».

(٣) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة- لزوم السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤، وأحمد ٢/ ٣٨٠، ٣٩٧- ٥٠٤- ٥٠٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ١٨٢ وقال في «مجمع الزوائد» ٤/ ١٩٢: «رواه أحمد،، وفيه الحجاج بن أرطأة وهو مدلس».

فلو أتى بالسبب وهو الإيمان والتوحيد لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب الصوم والصدقة عنه.

وهكذا كل ما دل الدليل على وصول ثوابه للغير كالصدقة والصوم والحج ونحو ذلك، مما هو مخصص لعموم الآية.

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال: يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها(١) فماتت ولم توص، أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه؛ فجعل الفضل بن عباس ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه العباس إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده بالحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء»(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال يا رسول الله إن أمي توفيت وعليها صيام، قال: «فصم عنها»(٥).

---

(١) افتلتت: ماتت فجأة.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز- موت الفجأة ٨٨٣١، ومسلم في الزكاة- وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه ١٠٠٤. وابن ماجه في الوصايا- من مات ولم يوص هل يتصدق عنه ٢٧١٧. وأخرجه أبو داود في الوصايا- ما جاء فيمن مات من غير وصية يتصدق عنه ٢٨٨١ بنحوه إلا أنه قال: «إن امرأة قالت: يا رسول الله».

(٣) أخرجه البخاري في الحج- وجوب الحج وفضله ١٥١٣، ومسلم في الحج- العاجز لزمانة أو لهرم ونحوه أو للموت ١٣٣٤، وأبو داود في المناسك ١٨٠٩، والنسائي في المناسك ٢٦٣٥، والترمذي في الحج ٩٢٨، وابن ماجه في المناسك ٢٩٠٧.

(٤) أخرجه البخاري في الحج ١٨٥٢، والنسائي في المناسك ٢٦٣٣، والبيهقي في النيابة في الحج- الحج عن المعضوب والميت، وفيه: «أن الحج حج الفريضة» ٥/ ١٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٥٣، ومسلم في الصيام ١١٤٨.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما-: أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها نذر قال: «فاقضه عنها»(١).

قال ابن القيم(٢): «فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: «آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان بهما.

فالأولى: تقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره، والثانية تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه، فالأولى تؤمّن العبد من أخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية: تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب.

فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

قال: فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكم:

أحدها: أن هدى العبد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره.

الثاني: أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه على نفسه لا على غيره.

الثالث: أن أحداً لا يؤخذ بجريرة غيره.

الرابع: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله.

فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة، وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته».

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، أي: سوف يرى في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [الزلزلة:٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦١، ومسلم في النذور ٣٣٠٧.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٧- ٣٠٨.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، أي: ثم بعد عرض عمله ورؤيته له يجازى عليه الجزاء الأوفى أي: الأوفر والأكمل بحيث لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

وهذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل، فإن الله عز وجل قد يزيد في حسنات العبد ويعفو عن سيئاته مما هو دون الشرك، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على من تولى عن الحق، وأعطى قليلاً ثم منع والتعجيب من حاله والتحذير من مسلكه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾.

٢- اختصاص الله- عز وجل- بعلم الغيب دون جميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾.

٣- إثبات صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، وتوافقها مع القرآن الكريم في هذه الوصايا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

٤- ثناء الله- عز وجل- على نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام بإتمامه وإكماله ما أمر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

٥- أن ذنب كل نفس عليها لا يحمله غيرها، وليس للإنسان إلا جزاء سعيه؛

لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

٦- أن كل إنسان سيُرى عمله ويظهر، ويجزى عليه يوم القيامة الجزاء الأوفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ هذا وما بعده معطوف على ما قبله، داخل ضمن ما جاء في صحف إبراهيم وموسى، أي: وأن إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق منتهى جميع الأمور والأحكام في الدنيا والآخرة، ومصير جميع الخلق، ومرجع جميع الأشياء، كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨، النور:٤٢، فاطر:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد:٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

فإليه عز وجل المنتهى والمعاد والمصير والمرجع والمآب، وهو عز وجل لجميع الخلق بالمرصاد، وهذا مما يوجب تقوى الله عز وجل، ومراقبته في السر والعلن إذ إن مصير جميع الخلائق ومرجعهم إليه، وطريقهم عليه، فيجازيهم بأعمالهم، وفي هذا وعد للمحسنين، ووعيد للمسيئين.

قال ابن القيم[1]: «قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾: متضمن لكنز عظيم، وهو

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٠.

أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:٢١]. واجتمع ما يراد له في قوله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى».

فكل حركات الإنسان وسكناته ينبغي أن تكون في ذات الله ولله.

كما أن الأفكار والعقول تقف عنده- كما قال عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟، فإذا وجد أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته»(١).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ضمير الفصل «هو» للتوكيد، وهو كذلك في الجمل الآتية أي: وأنه هو لا غيره خلق المتضادات، وأوجد المختلفات، وأضحك وأبكى، أي: خلق في عباده الضحك وسببه وهو السرور والبكاء وسببَه وهو الحزن. وقدم الضحك- والله أعلم- لأنه يدل على السرور وضده البكاء، ولهذا أخره.

وفي الآية تقرير لجواز الضحك والبكاء عند وجود سببهما، وقد كان النبي ﷺ ضحكه التبسم(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة إبليس وجنوده ٣٢٧٦، ومسلم في الإيمان- بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ١٣٤، وأبو داود في السنة ٤٧٢١.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٤٢ من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء- رضي الله عنه- قال: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً» وقال الترمذي «حديث صحيح غريب».

ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرض على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾»[1].

وفي حديث أسامة بن زيد- رضي الله عنه- أن ابنة للنبي ﷺ أرسلت إليه أن ابنا لها قبض فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه صلوات الله وسلامه عليه، فقال له سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وقال ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، أي: أوجد الموت والحياة، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك:٢].

والموت: عبارة عن خروج الروح من البدن، ومفارقتها له، والحياة سر من أسرار الله- عز وجل- في خلقه، كلهم عاجزون عن معرفة كنهها، لا يعرف منها إلا أن الحي يأكل ويشرب ويتحرك وينمو، فإذا مات انقطع ذلك كله، وقدم الموت لأنه هو الأصل، فإن الله- عز وجل- أوجد الإنسان من العدم.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، أي: قد أتى عليه حين من الدهر لا ذكر له.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١١، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٠٣، ومسلم في الفضائل ٢٣١٥، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ لم يؤكد هذه الجملة بالضمير «هو» لأن الخلق كلهم مفطورون على الإقرار بالخالق، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، والمعنى: أنه أوجد الصنفين الذكر والأنثى من بني آدم، وسائر الحيوانات، وفاوت بين الذكر والأنثى، في الخُلُق والخلقة والقدرات والأحكام وغير ذلك، وقدّم الذكر على الأنثى لأن جنس الذكر أفضل من حيث العموم.

﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ النطفة الماء القليل، وهي المني، كما قال عز وجل: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة:٣٦- ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق:٥- ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات:٢٠].

﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾، أي: إذا تراق وتصب في الأرحام.

﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾، أي: وأن عليه- عز وجل- إعادة الخلق مرة أخرى بعد موتهم، وذلك يوم القيامة، أوجب ذلك على نفسه لمجازاتهم والمقاصة بينهم، ولئلا تكون الحياة عبثاً.

وذلك أهون عليه من خلقهم أول مرة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾، أي: أغنى الخلق وملّكهم المال، ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾، أي: جعل لهم من الأموال ما يتخذونه قنية، أي: يدخرونه عندهم يتمتعون به في الحال وفي المستقبل. حتى إن النملة لتدخر قوت الشتاء في أيام الصيف، وصدق الله العظيم ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦] فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتكفل بأرزاق الخلق وكفى.

وقيل: معنى «أقنى» أفقر، فيكون بمقابلة «أغنى».

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾، أي: رب الكوكب المعروف المسمى بالشعرى.

قال السعدي[1]: «وهو النجم المعروف العبور، المسماة بالمرزم».

وقد كانت طائفة من العرب يعبدونه، فكيف يعبدون المربوب من دون الرب، أو يشركونه مع الرب الخالق سبحانه، وخص «الشعرى» بالذكر مع أنهم يعبدون غيرها من الكواكب لاشتهار أمرها.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: أهلك عاداً الأولى وهم عاد إرم، قوم هود- عليه السلام- منازلهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن، قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر:٦- ٨].

وسميت «عاداً الأولى»؛ لتقدمها في الزمن على «عاد الثانية» وهم ثمود قوم صالح عليه السلام.

وقد أهلكهم الله عز وجل بالريح الباردة الشديدة كما قال عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٦- ٨].

﴿وَثَمُودَا۟﴾ : هم قوم صالح- عليه السلام- مساكنهم شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة الآن بـ «مدائن صالح».

﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾، أي: فما أبقى منهم أحدًا أبدًا. بل أهلكهم ودمرهم بالصيحة والصاعقة الشديدة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٢٠.

مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر:٨٠- ٨٣].

وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات:٤٣- ٤٤].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، أي: وقوم نوح- عليه السلام- أهلكهم الله ولم يبق منهم أحداً من قبل هؤلاء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ «هم»: ضمير الفصل للتوكيد، و«أظلم» و«أطغى» كل منهما اسم تفضيل، أي: إنهم كانوا هم أشد ظلماً وطغياناً.

والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: ولم تنتقص منه شيئًا. وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، أي: لما علا الماء وارتفع وزاد عن حده.

والمعنى: إنهم كانوا أشد ظلماً وطغياناً من عاد وثمود، حيث أشركوا مع الله غيره، وتجاوزوا حدود الله في أمره ونهيه، وعصوا وتمردوا مع طول المدة التي مكثها نوح عليه السلام في دعوتهم وتنويع أساليب الدعوة لهم، وهي ألف سنة إلا خمسين عاما كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

وقد عدد لهم ونوع في طرق الدعوة وأساليبها، ورغبهم ورهبهم كما حكى الله ذلك عنه في سورة نوح، وغيرها، ومع ذلك كله لم ينجع ذلك فيهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم

مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:٥- ١٢].

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ يعود إلى قوم نوح ومن ذكر قبلهم في الآيات وهما عاد وثمود وعليه يكون المعنى: أن هؤلاء الأقوام أظلم وأطغى من قريش، فيكون فيه تسلية النبي ﷺ.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وهي: قرى قوم لوط- عليه السلام- ، ومكانها غور الأردن، وهي المسماة بالبحر الميت. ومعنى «المؤتفكة»، أي: المنقلبة؛ لأن الله قلبها، وجعل عاليها سافلها.

﴿أَهْوَىٰ﴾، أي: أسقطها عليهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود:٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر:٧٤].

﴿فَغَشَّاهَا﴾، أي: فغطاها، ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ «ما» موصولة بمعنى «الذي» للتهويل والتعظيم، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨].

أي: غشيها وغطاها من العذاب الأليم والعقاب الوخيم ما لا يمكن وصفه من الحجارة التي أرسلها الله- عز وجل- عليهم وأمطرهم بها، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣، النمل:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، «بأي» اسم استفهام- للتوبيخ.

﴿آلَاءِ رَبِّكَ﴾، أي: نعم ربك. كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في مواضع عدة في سورة الرحمن؛ ولهذا كانت الجن تقول كلما سمعت هذه الآية من النبي ﷺ: «ولا بشيء من نعمك ربنا

نكذب فلك الحمد»[١].

والخطاب في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ لعموم الإنسان، أي: بأي نعم ربك أيها الإنسان وخالقك ومالك أمرك ومدبرك.

﴿تَتَمَارَىٰ﴾، أي: تتشكك. فهو الذي خلق المتضادات كالضحك والبكاء، والموت والحياة، والذكر والأنثى من الإنسان والحيوان، وعليه بعث الخلق بعد موتهم وهو الذي أغنى الخلق بالمال والرزق ووفر لهم من ذلك ما يتخذونه قنية يدخرونه، وهو رب الشعرى التي يعبدونها من دون الله، وهو الذي أهلك المكذبين من الأمم السابقة عاد وثمود وقوم لوط.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ، وأن المرجع والمصير والمنتهى إلى الله- عز وجل- فيجازي كلاً بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

٢- عظمة قدرة الله- عز وجل- في خلقه، وفي إيجاده المتضادات الضحك والبكاء، والموت والحياة والذكر والأنثى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾.

٣- جواز الضحك والبكاء عند وجود سببهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

٤- أن أصل خلق الإنسان من نطفة وهي المني؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

٥- قدرة الله- عز وجل- التامة على إعادة الخلق وبعثهم نشأة أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

٦- أن الله- عز وجل- هو المعطي المغني للخلق بالمال والرزق يتخذونه غنية

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة «الرحمن».

وقنية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق بما في ذلك الشعرى، وفي هذا رد على من يعبدونها من دون الرب سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾.

٨- الوعيد والتهديد للمكذبين وتخويفهم بذكر إهلاك الله- عز وجل- للمكذبين قبلهم عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وما حل بهم من العقوبات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأخذه الشديد للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

٩- إثبات كمال قدرة الله- عز وجل- وتمام نعمه على الخلق- بما لا يدع مجالاً للشك في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ إلى النبي محمد ﷺ. والإنذار: الإعلام بتخويف، والنذير: هو المنذر المحذر مما يعاين أو يعلم من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم[1]، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

وقيل المراد بالنذير القرآن الكريم، ولا مانع من حمله على الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

فعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم»[2].

ومعنى «النذير العريان» أي: الذي أعجله شدة ما يعاين من الشر، عن أن يلبس على جسده شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً.

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم،

---

(١) كما قال لقيط الإيادي منذراً ومحذراً قومه غزو كسرى من قصيدة بعنوان «صرخة غيور»:

أبلغ إياداً وخلّ في سراتهمُ ... أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
يا قومِ لا تأمنوا إن كنتمُ غُيراً ... على نسائكمُ كسرى وما جمعا
هذا كتابي إليكمْ والنذير معاً ... لمن رأى رأيه منكمْ ومن سمعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دَخَل ... فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

انظر: «ديوانه» ص٤، «الذخائر والعبقريات» ٢/ ٢٢٢، «موسوعة الشعر الإسلامي» ١/ ٥٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- الانتهاء من المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل- شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم ٢٢٨٣.

ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه، السبابة والوسطى»(١).

وعن سهل بن سعد- رضي الله- عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام»(٢).

وفي رواية: «مثلي ومثل الساعة كفرسي رهان. ومثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يُسبق، ألاح بثوبه: أُتيتم أُتيتم، ثم يقول رسول الله ﷺ: أنا ذلك»(٣).

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، أي: من جنسهم، أي: ما هو إلا نذير كغيره من النذر السابقين، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾، أي: قربت القيامة، وسميت القيامة بالآزفة؛ لقرب وقوعها وتحققه، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١].

ومعنى «أزف» قرب، كما يقال: أزف الرحيل، أي: قرب الرحيل. فالقيامة آتية وكل آت قريب.

فما أقرب الآتي وأبعد ما مضى وهذا غراب البين في الدار ينعب(٤)

فعمر الإنسان في هذه الدنيا قصير، ومن مات قامت قيامته، وما بقي من الدنيا بالنسبة لما مضى منها وبالنسبة للآخرة قصير.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، أي: ليس لها من دون الله نفس تكشف متى وقوعها، أو تمنعه، أو تزيلها إذا وقعت، سوى الله- عز وجل، أي: لا يدفع وقوعها ولا يزيله ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٥٦، والنسائي في العيدين ١٥٧٨، وابن ماجه في المقدمة ٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٦، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٠.

(٣) أخرجها أحمد ٥/ ٣٣١، من حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٤٤ وقال: «وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان».

(٤) البيت للشاعر محمد بن عثيمين. انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» ١/ ١٤٨، «ديوان الشعر على مر العصور» ٨/ ٩١.

يمنعه من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات:٤٤]، أي: إلى ربك منتهى علم وقوعها، وأمر وقوعها.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والتقريع والتوبيخ للمشركين في تعجبهم تعجب إنكار واستبعاد من أن يكون القرآن صحيحاً وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، كما قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وقال تعالى عنهم: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق:٢].

ويحتمل أن يكون المراد تعجبهم من بلاغته وفصاحته كما هو الواقع الحاصل منهم، ومع ذلك كذبوا وأعرضوا استكباراً وعناداً.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾، أي: وتضحكون منه استهزاء وسخرية منه ومن أتباعه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩].

﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، أي: ولا تبكون عند سماعه، وسماع قوارعه ووعده ووعيده، كما هو حال المؤمنين الموقنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [الإسراء:١٠٧- ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾ [مريم:٥٨]، وقال عنهم أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣].

ونفي بكائهم بعد قوله ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ يدل على أنهم قد بلغوا من الضحك من القرآن والسخرية والاستهزاء به، وقساوة القلوب الغاية في ذلك.

وهذا بخلاف من رزقه الله قوة الإيمان واليقين وأنار بصيرته فإنه إذا سمع آيات الله ووعده ووعيده، ورحمته، وعذابه لا يملك نفسه عن البكاء.

لكن ينبغي خفض الصوت ما استطاع، وقد كان- ﷺ- يسمع لجوفه عند القراءة أزيز كأزيز المرجل.

أما رفع الصوت بالبكاء أو التباكي وافتعال البكاء فلا يجوز وخاصة في الصلاة كما

يفعله كثير من الناس في القنوت وعند ختم القرآن، بينما لا تتحرك مشاعرهم عند سماع القرآن وما فيه من الوعد والوعيد.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾، أي: ساهون لاهون غافلون معرضون مستكبرون أشرون بطرون، منشغلون بما لا فائدة فيه من الغناء ونحوه. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ﴾ [فصلت:٢٦].

وهذه حال كثير من الناس هم في لهو وسهو وغفلة إلا من رحم ربك.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:٥١].

وقد أحسن القائل:

والنـاس في غفلـة عـما يـراد بهـم ... كـأنهم غـنم في حـوش جـزار

﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩﴾

بعد ما أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن تكذيباً له، وضحكهم سخرية واستهزاءً به، وما هم عليه من الاستكبار والإعراض والغفلة والأشر والبطر والانشغال بما يضرهم ولا ينفعهم أمرهم بالسجود له وحده وعبادته والخضوع والإخلاص له إعذاراً وإنذاراً.

قوله: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن أردتم الخلاص من العذاب فاسجدوا لله واعبدوا.

والسجود في اللغة: الخضوع والتذلل لله- عز وجل- ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة، ويطلق على الصلاة كلها لأنه من أهم أركانها وهو المراد هنا والله أعلم لأنه يشمل ما قبله.

﴿وَٱعْبُدُواْ﴾ الواو عاطفة، أي: واعبدوه بأنواع العبادات كلها، وهذا من عطف العام على الخاص؛ لأن السجود من العبادة، بل من أعظمها؛ ولهذا خصه بالذكر من بين أنواع العبادة كلها لمزيته وفضله.

وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فإنه قَمِنٌ[١] أن يستجاب لكم»[٢].

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع لله- عز وجل- وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وبر الوالدين والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوكل على الله وخوفه ورجائه وتعظيمه والذبح والنذر له والإخلاص له في سائر العبادات.

ويشرع سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ وهي من السجدات المجمع عليها.

وسجود التلاوة يقال فيه ما يقال في سجود الصلاة ومثلها سجود الشكر فيقال فيه: «سبحان ربي الأعلى» مرة أو مرتين أو ثلاثاً، وهو أفضل ويقال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[٣].

وفي الآيات إشارة إلى أن الحياة جد وليست بهزل، فلم يخلق الإنسان لأجل اللهو والغفلة ونحو ذلك، ولن يترك سدى، بل خلق لأمر عظيم وهو الخضوع لله عز وجل والسجود له، وعبادته، ومجازاته على ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[٤]

---

(١) أي: حريٌّ.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٥٤، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) البيت للطغرائي. انظر: «لامية العجم» ص١٢٤.

وقال الآخر:

اَلأمـــر جـــد وهْـــو غـــير مـــزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صـاح[1]

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالته ﷺ، وأنه نذير كغيره من النذر قبله، كما أن القرآن نذير كغيره من الكتب قبله؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾.

٢- التحذير من القيامة وأهوالها، وإثبات قربها ووجوب الاستعداد لها، واستئثار الله بها وبعلمها، فلا أحد يستطيع معرفة متى وقوعها ولا منعه أو رفعه إلا الله- عز وجل- ؛ لقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

٣- الإنكار على المشركين في تعجبهم من القرآن الكريم وضحكهم منه سخرية واستهزاء وعدم بكائهم عند سماعه، وسهوهم وغفلتهم وانشغالهم بما لا ينفع، وتكذيبهم له وإعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٤- الترغيب في البكاء عند سماع القرآن خشية لله- عز وجل- دون تكلف أو رفع صوت.

٥- وجوب السجود لله- عز وجل- وعبادته والخضوع له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾.

٦- مشروعية السجود للتلاوة عند قراءة هذه الآية: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾.

* * *

(١) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْقَمَر

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة القمر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

وتسمى «سورة اقتربت الساعة» و«سورة اقتربت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزل على رسول الله ﷺ بمكة- وإني لجارية ألعب- قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾»[1].

جـ- فضلها:

عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيد بـ«ق» و«اقتربت»»[2].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالتهديد باقتراب الساعة، وانشقاق القمر علامة على ذلك، والوعيد للمكذبين للحق وللبعث يوم القيامة، وتسليته ﷺ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

٢- تهديد المشركين المكذبين له ﷺ، بما حل من العقوبات العاجلة في المكذبين للرسل قبلهم: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ...﴾ إلى قوله تعالى- بعد أن ذكر تكذيب كل هذه الأمم، وتعذيبهم، مخاطبًا كفار مكة-: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾.

٣- الامتنان على العباد بتيسير القرآن للذكر وتأكيد ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة القمر ٤٨٧٦.

(٢) سبق تخريجه.

٤- إثبات أنه عز وجل خلق كل شيء بقدر، وسرعة نفوذ أمره، وإحصائه كل شيء: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

٥- وعد المتقين بعظيم الثواب، وعلو المنزلة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

سبب النـزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما».

وفي رواية: «فانشق القمر بمكة، فنزلت ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يقول: ذهب»(١).

قوله ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، أي: قربت الساعة، قربا شديداً، و«اقتربت» أبلغ من (قربت) لأن زيادة المبنى- تدل غالبًا- على زيادة المعنى.

والساعة هي القيامة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾» [الحج:١].

وسميت القيامة بالساعة- والله أعلم-؛ لقربها وتحقق وقوعها، وتوقيته وتحديده، كما سميت بالآزفة، والحاقة ونحو ذلك.

والمعنى: اقتربت القيامة، وأزفت وازداد قربها، وانقضاء هذه الحياة الدنيا، وقدوم الخلق على ربهم للحساب، كما قال عز وجل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار- انشقاق القمر ٣٦٣٧، ومسلم في صفات المنافقين- انشقاق القمر ٢٨٠٢، والترمذي في التفسير ٣٢٨٦، وأحمد ٣/ ١٦٥.

تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠].

وهكذا تواترت نصوص الكتاب والسنة على اقتراب القيامة، وتحديد وقت وقوعها، وقصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة، وتحقق وقوع القيامة، وأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ- خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شف[١] يسير، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه »، وما نرى من الشمس إلا يسيرًا»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان[٣] بعد العصر، فقال: «أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»[٤].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو كهتين، وقرن بين السبابة والوسطى»[٥].

وعن وهب السُّوَائي رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها».

وجمع الأعمش- يعنى أحد رواة الحديث- بين السبابة والوسطى»[٦].

وعن أنس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة

---

(١) الشف: بقية الشيء، أي: لم يبق من الشمس إلا جزء يسير لم يغب، أي: لم يبق من النهار إلا جزء يسير. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «شف».

(٢) أخرجه أبو بكر البزار- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٤٥.

(٣) قعيقعان: جبل بمكة.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ١٥٥- ١١٦.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق- قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة كهتين» ٥٣٠١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة- قرب الساعة ٢٩٥٠، وأحمد ٥/ ٣٨٨.

(٦) أخرجه أحمد ٤/ ٣٠٩.

كهاتين»[١].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[٢].

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصَرْم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصُبابة الإناء يتصابُّها[٣] صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، والله لتُملأَنَّ، أفعجبتم، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قَرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيراً، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى يكون آخر عاقبتها ملكًا، فَسَتَخْبَرون وتجربون الأمراء بعدنا»[٤].

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، أي: انفلق قطعتين، حتى رأوا جبل حراء بينهما واحدة دون الجبل، والأخرى من خلفه؛ فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، أي: فلقة على الصفا وفلقة على المروة، وذلك آية من آيات الله عز وجل، وعلامة على قرب القيامة، ومعجزة للنبي ﷺ، كما جاء في سبب النزول، وكما دلت عليه الأحاديث المتضافرة.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب- ما جاء في أسمائه ﷺ ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠.

(٣) بِصَرْم أي: بانقطاع. حذاء: مسرعة. صبابة: بقية قليلة. يتصابها: يشربها.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٦٧، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٥٦، وأحمد ٤/ ١٧٤، وانظر ٥/ ٦١.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ»[١].

و في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه»[٢].

و عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ قال: «وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين: فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ «اللهم اشهد»[٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وفي رواية: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ «اللهم اشهد».

وفي رواية قال ابن مسعود رضي الله عنه: «حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر»[٤].

وفي رواية عنه: «فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة[٥]. انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار[٦] فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السُّفَّار، فقالوا ذلك»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٣٨، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٣.

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٩- ١١٠.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٣٦، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- انشقاق القمر ٢٨٠١، والترمذي في تفسير سورة القمر ٣٢٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار- انشقاق القمر ٣٦٣٦، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٠، ٢٨٠١، والترمذي في التفسير ٣٢٨٥، وأحمد ١/ ٣٧٧، ٤١٣.

(٥) يعنون بذلك الرسول ﷺ، وقد كان المشركون ينسبون النبي ﷺ لأبي كبشة، وهو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان وعبد الشعرى، فلما خالفهم النبي ﷺ في عبادة الأوثان وعبد الله وحده شبهوه بأبي كبشة، وقيل إن أبا كبشة جد النبي ﷺ لأمه فأرادوا أنه نزع في الشبه إليه.

(٦) أي: المسافرون.

(٧) أخرجها الترمذي في التفسير ٣٢٨٩.

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال: كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السُّفَّار، قال: وقدموا من كل جهة، فقالوا رأيناه»(١).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم»(٢).

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن، فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: «ألا إن الله يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ ألا، وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا إن اليوم مضمار وغدًا السباق، ألا إن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة(٤) واللزام(٥): ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾[الفرقان:٧٧]»(٦).

قال ابن كثير(٧): «وقوله ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء

---

(١) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٥- ١٠٧.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٨١- ٨٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٨.

(٤) وهي أخذهم وقتل صناديدهم يوم بدر قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان:١٦].

(٥) فسر اللزام بيوم بدر. انظر «النهاية» مادة «لزم».

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٢، وفي التفسير ٤٣٩٥، ومسلم في صفة القيامة ٥٠٠٦، ٥٠٠٨، والترمذي في التفسير ٣١٧٧

(٧) في «تفسيره» ٧/ ٤٤٧.

أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات».

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾، أي: وإن ير المشركون آية، أي: علامة ودلالة وحجة وبرهانًا على صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به من عند الله عز وجل. و«آية»: نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: أيَّ آية.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهي القرآن الكريم، وآيات كونية وهي ما بثه الله عز وجل وخلقه في هذا الكون من المخلوقات، ومن ذلك انشقاق القمر، ومن ذلك تسبيح الحصى في يده ﷺ، وحنين الجذع إليه ﷺ، وغير ذلك.

والمراد بالآية هنا ما يشمل الآيات الشرعية والكونية؛ لأنهم قالوا عن القرآن إنه سحر، وقالوا عن انشقاق القمر إنه سحر أيضًا.

﴿يُعْرِضُوا﴾، أي: يعرضوا عن التأمل فيها، وعن الطاعة والانقياد، أي: يتولوا بقلوبهم وأبدانهم.

﴿وَيَقُولُوا﴾ بألسنتهم ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، أي: هذا الذي جاءنا به ﴿سِحْرٌ﴾ سحرنا به، وهو مجرد تخييل لا حقيقة له ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾، أي: ذاهب زائل، باطل مضمحل، لا دوام له، وقيل: شديد محكم.

وقيل إنهم لما رأوا القمر فلقتين، أخذوا يسألون كل من قدم عليهم، فكانوا يخبرونهم بأنهم رأوا ذلك- كما جاء في الآثار السابقة، فقالوا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، أي: إن محمداً سحرنا كما سحر غيرنا.

وقد يحمل قولهم ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ على أن ما جاءهم به الرسول ﷺ منذ أنزل عليه الوحي وكل ما جاء به بعد ذلك من الآيات والحجج والبراهين الشرعية والكونية كل ذلك استمرار لما جاء به من السحر أي: إن كل ما جاء به من هذا الباب، أي: من باب السحر.

كما قال الوليد بن المغيرة فيما ذكر الله عز وجل عنه عن القرآن: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤].

وهكذا قال فرعون لموسى- عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ

يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٥٧].

وهكذا دأب المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

فهم لا يقفون عند التكذيب فقط ويكتفون به، بل إنهم يعملون جاهدين لرد الحق وإبطاله بتلفيق التهم والأكاذيب بالحق وبمن جاء به.

وهكذا كل من رد الحق حتى ولو كان دون الكفر، فإن الغالب في الخلق الظلم والغشم وعدم الإنصاف إلا من رحم الله.

ولهذا فإن كثيرًا من الناس حتى في الخصومات ومسائل الخلاف لا يرضى أن يكون الحق مع غيره، وربما جادل بالباطل لا لشيء إلا لتكون الغلبة له، وربما نال من خصمه ومخالفه لأجل ذلك.

﴿وَكَذَّبُواْ﴾، أي: كذبوا بالحق الذي جاءهم من عند الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، أي: واتبعوا ما تهواه نفوسهم من الأقوال والأفعال والآراء المردية الصادة عن الحق، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، أي: وكل أمر من الأمور كائن وواقع بأهله من خير أو شر، فكل يجني ثمرة ما زرع، ويجازى بما عمل، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، في الدنيا والآخرة، وسينتهي الخير بأهله إلى السعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، وسينتهي الشر بأهله إلى الشقاء في الدنيا والآخرة ودخول النار.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ

وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل:٥- ١٠].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(١).

وسيبلغ كل أمر غايته ومنتهاه، وسيصير كل ذلك إلى الله والدار الآخرة كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم و«قد»: للتحقيق، والأنباء: جمع نبأ، والنبأ: هو الخبر العظيم، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ:١- ٢]، أي: والله لقد جاءهم في كتاب الله عز وجل، وعلى لسان رسوله ﷺ من الأخبار العظيمة السابقة واللاحقة.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي فيه أعظم زاجر وواعظ ورادع لهم عن الشرك والتكذيب، وعن التمادي في الاستكبار والعناد، ورد الحق، وذلك مما قصه الله عليهم من أخبار المكذبين للرسل، وما حل بهم من المثلات والعقوبات والنكال والعذاب العاجل في الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

فماذا كانت عاقبة المكذبين كعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم لوط، وقارون وهامان وفرعون وقومه، كانت عاقبتهم الهلاك والخسار والبوار ومصيرهم إلى النار وبئس القرار، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

كما جاءهم من الأخبار في كتب الله عز وجل وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، والترمذي في الدعوات ٣٥١٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٨٠، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

والسلام بيان ما ينتظرهم من العذاب الآجل الذي أعده الله لهم في نار جهنم.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٦٩، ٧٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾، أي: أن لله عز وجل الحكمة البالغة التامة الواضحة في هدايته من كان أهلاً للهداية، وإضلاله من كان أهلاً للضلال.

أو أن الآيات التي جاءتهم حكمة (بالغة)، أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها لمن وفقه الله، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣].

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ «ما»: نافية، أي: فما تنفع فيهم النذر وقد كتب الله عليهم الضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

وقد تكون «ما»: استفهامية للإنكار، فيكون المعنى: أي شيء تغني النذر من كتب الله عليهم الضلال والشقاء.

ومعنى «تغني»: تنفع وتدفع، و«النذر»: جمع نذير، وهو المخوّف المحذِّر من عذاب الله عز وجل، أي؛ النذر المخوفة من عذاب الله- عز وجل، من الرسل عليهم السلام، وما جاؤوا به من أخبار المكذبين وما حل بهم من العقوبات في الدنيا، وما ينتظرهم من الوعيد والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩].

وسواء كانت «ما»: نافية أو استفهامية فالمراد أن هؤلاء الكفار لا تنفع فيهم النذر وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي

ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة:٦- ٧].

قال ابن كثير[(١)]: «يعني أي شيء تغني النذر من كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠١ ﴾ [يونس:١٠١]».

فتأمل أخي الكريم وفقك الله هذا المعنى، فلله عز وجل الحكمة البالغة التامة في هدايته من هدى وإضلاله من ضل، ولا يغب هذا المعنى عن ذهنك فتقلق وتذهب نفسك حسرات، وتصاب بخيبة أمل وتنحط معنويتك بسبب ضلال من ضل ممن تدعوهم وتود هدايتهم. فقد قال الله- عز وجل- للهادي البشير والسراج المنير أعظم وأفضل داع إلى الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ ۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٥].

كما قال تعالى له ولغيره: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦].

وأَمَر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥١.

وتسعين[١].

وقال ﷺ: «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»[٢].

وقد قيل:

والنـــاس ألـــف مـــنهمُ كواحـــد ... وواحـــد كـــالألف إن أمـــر عنـــى[٣]

فلله الحكمة البالغة في ذلك كله، ولهذا لم يستطع محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد ولد آدم هداية عمه أبي طالب مع الأيادي البيضاء التي قدمها للرسول ﷺ، وحرصه ﷺ على هدايته.

ولم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه وفلذة كبده، ولا هداية زوجته.

ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع لوط عليه السلام هداية زوجته.

فلا تعجب بعد هذا أن يكون أكثر الخلق أبغض الناس إليه من ينصحه ويدعوه إلى الله عز وجل كما قال نبي الله صالح عليه السلام لقومه فيما حكى الله عنه: ﴿رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩].

وانظر كثرة أعداء الرسل عليهم السلام وقلة أتباعهم فما ذاك إلا لأنهم قدموا لأممهم وأقوامهم محض النصح، وهكذا كثرة أعداء الدعاة إلى الله من أتباع الرسل.

مما يجعل كثيرًا من ضعاف الإيمان يتخلى عن دعوة ومناصحة من يحتاجون إلى ذلك حتى من أقاربه وجيرانه وإخوانه وزملائه ومن يجالسهم أو يلتقي بهم في العمل، أو في السوق ونحو ذلك؛ خوفًا من عداوتهم له.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال ٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الفاء: للسببية، والخطاب للنبي ﷺ، والتقدير: فإن استمروا في الإعراض، ودعوى أن ما جاءهم من الآيات سحر مستمر، وفي التكذيب واتباع أهوائهم فتول عنهم، أي: أعرض عنهم وانتظر عقاب الله عز جل لهم و.

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ «يوم» متعلق بيخرجون.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عنهم؛ مخوفًا لهم بعقاب الله لهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ الآية.

ومعنى قوله ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، أي: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور النفخة الثانية الرادفة.

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾، أي: إلى شيء منكر فظيع عظيم يشيب من هوله الوليد، وهو القيامة وأهوالها العظام الجسام.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦، ٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١، ٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾ [النازعات:٣٤- ٣٦].

وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس:٣٣- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة:١]، وقال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:١- ٥].

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: خاشعة ذليلة خائفة أبصارهم من شدة الهول والفزع.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، أي: من القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾، أي: كأنهم بعد خروجهم، في ذهولهم وتفرقهم.

﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، أي: متفرق متكاثر في الأرض هنا وهناك لا يدري أين وجهه يذهب يميناً وشمالاً، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤].

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، أي: مسرعين إلى إجابة الداعي مادي أعناقهم خاضعي رؤوسهم من شدة الهول والفزع بلا تأخر ولا تخلف؛ استجابة لأمر الله عز وجل الكوني كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ:١٨].

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: يقول الكافرون، الذين جحدوا ربوبية الله عز وجل وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته، وجحدوا نعمه: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: هذا يوم ذو عسر، أي: شديد عسره. والعسر: هو المشقة والتعب، وضده اليسر.

والمعنى: أنه صعب شديد، لا يُسر فيه بوجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٨- ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

وبالمقابل فهذا اليوم يسير على من يسره الله عليهم، وهم المؤمنون، وذلك بقدر إيمانهم ويقينهم، فهم آمنون وغيرهم خائفون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

الفوائد والأحكام:

١- قرب القيامة وأهوالها وظهور بعض علاماتها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

٢- إثبات انشقاق القمر، وذلك آية من آيات الله- عز وجل- الدالة على صدق نبينا محمد ﷺ، وعلامة على قرب القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

٣- إعراض المشركين عن آيات الله- عز وجل- الكونية والشرعية، واعتبارها من السحر، وتكذيبهم الحق واتباع أهوائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

٤- الوعيد والتهديد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

٥- أن لكل أمر نهاية وغاية وعاقبة.

٦- إقامة الحجة على المشركين بما جاءهم من أخبار المكذبين قبلهم من العقوبات العاجلة، وما ينتظرهم من العذاب الآجل، وفي ذلك أعظم زاجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

٧- حكمة الله- عز وجل- التامة في هدايته من كان أهلا للهداية وإضلاله من كان أهلاً للضلالة والغواية؛ لقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

٨- من يضلل الله فلا هادي له.

٩- تسلية النبي ﷺ والوعيد للمكذبين بما ينتظرهم من العذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾.

١٠- إثبات النفخ في الصور والبعث، وشدة أهوال يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾.

١١- عظم ذل المشركين والمكذبين يوم القيامة وشدة حيرتهم وذهولهم، وسرعتهم إلى إجابة الداعي، وشدة عسر ذلك اليوم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالإعراض عن المشركين المكذبين وذكر ما أعد لهم من العذاب الشديد يوم القيامة، تسلية له ﷺ، ووعيداً وتهديداً لهم، ثم ذكر الله عز وجل في هذه الآيات وما بعدها تكذيب عدد من الأقوام لأنبيائهم، وما حل بهم من العقوبات العاجلة في الدنيا، وتأييد الله عز وجل لأنبيائه، وإنجاءه لهم ونصرهم على المكذبين من أقوامهم؛ قوم نوح عليه السلام ومن بعدهم، والغرض من ذلك- أيضاً- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه ﷺ تجاه تكذيب قومه ووعده بأن العاقبة له، فالعاقبة للمتقين، وتخويف وتحذير المكذبين من قومه.

ويتكرر في القرآن الكريم في عدد من السور ذكر قصص الرسل وأقوامهم، وذكر إنجاء الله عز وجل للمؤمنين منهم، وإهلاكه للمكذبين؛ لأن القرآن العظيم مثاني، تثنّى فيه القصص والمواعظ، والأوامر والنواهي، والأحكام، لأجل ترسيخ منهج الحق وغرسه في النفوس فليس القرآن مجرد كتاب أخبار وقصص روائية بل هو كتاب منهج حياة وسلوك أمة.

قوله: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، أي: كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح أول رسل الله عز وجل إلى أهل الأرض، فليس بجديد تكذيب قومك لك، وليس ببدع، فهذا دأب المكذبين وديدنهم مع رسلهم من لدن نوح- عليه السلام- ومع جميع الأنبياء.

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ الفاء: عاطفة، أي: فكذبوا عبدنا نوحاً- عليه السلام.

والعبودية هي التذلل والخضوع لله بالطاعة، والمراد بها هنا عبودية خاصة الخاصة وهي عبودية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تليها عبودية الخاصة، وهي عبودية سائر المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٦٣].

ثم العبودية العامة، وهي عبودية جميع الخلق بمعنى انقيادهم لأمر الله الكوني، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

وأطلق على نوح- عليه السلام- وصف العبودية وهو من أفضل رسل الله وأحد أولي العزم من الرسل؛ لأن العبودية لله أفضل وصف يتصف به البشر، وقد وصف الله بها أفضل الرسل وسيد الخلق نبينا محمداً ﷺ في أعلى المقامات وأفضلها وأقربها من الله عز وجل، وهو مقام العبادة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن:١٩]، وفي مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء:١].

ولم يقل: وأنه لما قام رسول الله أو نبيه، أو سبحان الذي أسرى برسوله أو بنبيه.

﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ﴾، كما قالوا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [المؤمنون:٢٥].

أي: اتهموه بأنه معتوه فاقد العقل، قلبًا للحقائق وزعمًا منهم أن ما هم عليه من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه السلام جهل وضلال لا يصدر إلا من المجانين. والعكس هو الصحيح.

﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾، أي: وزجر بمعنى: نُهر وتُوعِّد، و«ازدجر» أبلغ من «زجر»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى- غالبًا- أي: زجر زجرًا شديداً بليغًا.

والمعنى: مع كونه مجنونًا- زُجر وتُوعِّد، فاستطار جنونًا. والمجنون إذا زُجر ونُهر أو ضُرب أو اعتدى عليه استطار جنونه وزاد شره، كما يقال «مجنون وضرب بعصا» فالمجنون أحسن حاله أن يترك، وأن يهادى، ولا يستثار.

ويدل على هذا القول قول مجاهد: «ازدجر» أي: «استطير جنونًا»(١).

ويحتمل أن المراد بالآية أن قومه زجروه ونهروه عن تبليغ رسالة ربه، وتوعدوه، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦].

وهكذا دأب المكذبين للرسل يرمونهم بالجنون، كما ذكر الله عز وجل عن فرعون أنه قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء:٢٧].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٢١.

وهكذا قال المشركون لمحمد ﷺ سيد الرسل وأفضلهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان:١٤].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

كما يهددون ويتوعدون رسلهم بالإخراج والرجم ونحو ذلك كما قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨].

وقال آزر لإبراهيم- عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦]، وقال قوم لوط للوط عليه السلام: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧].

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾، أي: فتوجه نوح عليه السلام إلى ربه عز وجل بالدعاء قائلاً:

﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ المغلوب: المقهور الضعيف العاجز عن المقاومة. أي: رب إني ضعيف عاجز عن مقاومة قومي؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل ،كما قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

﴿فَانتَصِرْ﴾، أي: فانتصر أنت يا رب لدينك منهم وقال في الآية الأخرى ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

فلجأ عليه السلام إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وإلى من هو نعم المولى ونعم النصير، فاستجاب عز وجل دعاءه.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بتشديد التاء «فَفَتَّحنا» وقرأ الباقون بتخفيفها، أي: ففتحنا أبواب السماء بالمطر.

ومعنى ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾، أي: منصب ومتتابع بكثرة وغزارة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وفتحت أبواب السماء بالماء من غيرسحاب ذلك اليوم فالتقى الماءان»(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٠- الأثر ١٨٧٠٥.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾، أي: شققنا الأرض كلها عيونًا ينبع منها الماء، حتى التنور الذي توقد فيه النار، كما قال عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠].

أي: حتى إذا جاء أمرنا الكوني بإغراقهم، وفار التنور، أي: نبع بالماء.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، أي: فالتقى الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض على أمر كوني وقدري، قدره الله عز وجل وقضاه أزلاً، وجعل له حدًا ينتهي إليه حتى غطى الماء رؤوس الجبال من غير زيادة ولا نقصان.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ذات بمعنى: صاحبة، والألواح: هي الأخشاب، والدسر: المسامير وما تربط به الأخشاب.

أي: وحملنا نوحًا عليه السلام ومن أراد الله- عز وجل- إنجاءهم معه على سفينة من الخشب والمسامير، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون:٢٧].

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: تجرى هذه السفينة وسط لجج البحار بأمرنا وبمرأى منا وتحت عنايتنا وحفظنا وكلاءتنا وحراستنا. كما قال عز وجل: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢].

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، أي: مجازاة وعقوبة لقوم نوح على كفرهم بالله وتكذيبهم، وانتصاراً لنوح عليه السلام الذي كفر به قومه، وإجابة لدعائه وقوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس:٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَٰقِينَ﴾ [الشعراء:١١٩، ١٢٠].

وهكذا سنن الله عز وجل الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول: أن العاقبة للتقوى وللمتقين، وأن العدوان والخسران والعقاب على الكافرين.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾، أي: والله لقد تركناها آية، أي: أبقيناها آية، وضمير الهاء يعود إلى العقوبة التي عاقب الله بها قوم نوح وهي إغراقهم بالطوفان، وإنجاء الله عز وجل نوحاً ومن معه في السفينة، ففي ذلك آية عظيمة، أي: علامة دالة على كمال قدرة الله عز وجل وفيها عظة وعبرة قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان:٣٧]، أي: دلالة على قدرة الله عز وجل التامة وعظمته ووحدانيته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة دون من سواه.

كما أن في ذلك أعظم عبرة وعظة لمن يتعظ ويعتبر، فيحذر من تكذيب الرسل والكفر بالله؛ لئلا يحل به ما حل بالمكذبين والكافرين من قوم نوح وغيرهم.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ جنس السفن، وأن كونها تجرى على ظهر الماء وتمخر عباب البحر من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١، ١٢].

ولا مانع من حمل الآية على الأمرين، ففي إهلاك قوم نوح وإنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة آية، وفي جريان السفن على ظهر الماء آية.

وعلى ذلك كله دل القرآن الكريم. فسبحان الخالق البصير العليم الخبير.

وقد قيل: إن المراد بقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أن الله عز وجل أبقى سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة.

وهذا بعيد من وجوه: منها عدم الدليل الواضح عليه، ومنها طول المدة، إضافة إلى أن عموم الآية ومعناها يأباه فإن الله تركها آية لمن جاء بعد نوح وقومه إلى قيام الساعة هذا ما يدل عليه ظاهر الآية وعمومها فكيف يخص ذلك بأول هذه الأمة؟.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قرأت على النبي ﷺ «فهل من مُدَّكر» فقال النبي ﷺ: «فهل من مُدّكر»(١).

الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والتقدير: إذا كانت قصة إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة وإغراق المكذبين له آية فهل من مدكر.

و«هل»: للاستفهام، وفيه معنى التشويق والحث والأمر، و«مدكر» بمعنى: متعظ معتبر متذكر.

والمعنى: فهل من متذكر ومعتبر ومتعظ بهذه الآية العظيمة في إهلاك الكفرة والمكذبين من قوم نوح بالغرق، وإنقاذ نوح عليه السلام ومن معه في السفينة.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ الفاء: استئنافية و«كيف»: أداة استفهام للتعظيم والتفخيم والتعجب، والتقرير.

﴿وَنُذُرِ﴾ أي: وإنذاري الذي لا يبقى لأحد عليّ بعده حجة.

أي ما أعظم عذابي وعقوبتي لقوم نوح الذين كفروا وكذبوا نوحًا عليه السلام ولغيرهم من المكذبين في الدنيا والآخرة، مما فيه أعظم رادع وزاجر عن فعلهم، وما أعظم إنذاري للمكذبين وتحذيري لهم على ألسنة الرسل بما لا يبقى بعده لأحد حجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: والله لقد يسرنا القرآن للذكر، أي: سهلنا حفظ ألفاظه وفهم معانيه وتطبيق أحكامه، أي: جعلنا ذلك كله سهلاً هينًا ميسرًا لمن أراد أن يتذكر ويتدبر، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء:٤١]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة (اقتربت الساعة) ٤٨٧٤، ومسلم في صلاة المسافرين ٨٢٣، وأبو داود في الحروف والقراءات ٣٩٩٤، والترمذي في القراءات ٢٩٣٧، وأحمد ١/ ٣٩٥.

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان:٥٨]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وكان ﷺ يتعجل جبريل بالقرآن مخافة أن يفوته منه شيء فقال الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦- ١٩].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر»(١).

فمن فضل الله على هذه الأمة أن اختار لها أفضل الرسل محمداً ﷺ وأنزل عليها أفضل الكتب القرآن الكريم، وجعل لفظه ومعناه وأحكامه سهلة ميسرة، ووضع عن هذه الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من كان قبلهم فلله الحمد والمنة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ والكلام فيه كما سبق.

والمعنى: فهل بعد هذا التيسير والتسهيل للقرآن الكريم من متذكر ومتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه، وما فيه من العلم النافع والحث على العمل الصالح، وعلى امتثال ما فيه من الأوامر.

وهل من متعظ ومنزجر بما فيه من التحذير والنواهي.

وهذا هو معنى وحقيقة تذكر القرآن وتدبره، أما حفظ ألفاظه فقط دون تدبر لمعانيه وأحكامه وتأدب بآدابه فإنه حجة على من حفظه، وربما كان طريقاً للغرور والرياء والسمعة، ولهذا قال ﷺ: «إن أكثر منافقي أمتي قراؤها»(٢) ورُوي عن ابن

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١٩، ومسلم في صلاة المسافرين- بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ٨١٨، وأبو داود في الصلاة- الوتر- أنزل القرآن على سبعة أحرف ١٤٧٥، والنسائي في الافتتاح- جامع ما جاء في القرآن ٩٣٦، والترمذي في القراءات ٢٩٤٣.

وأخرجه أحمد أيضا من حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه ٥/ ١١٤، وسليمان بن صرد- رضي الله عنه ٥/ ١٢٤ وأبي ابن كعب- رضي الله عنه ٥/ ١٢٧- ١٢٨، ١٣٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٥ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- ومن حديث عقبة بن =

عباس- رضي الله عنهما أنه لما كثر القراء في زمانه من أحداث الأسنان لم يعجبه ذلك بل كرهه، وخاف عاقبة ذلك، وقد وقع ما خاف منه رضي الله عنه- حيث خرج جملة من هؤلاء القراء مع الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، وعلى صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم.

وهذا مصداق قوله ﷺ: «يقرأ أناس من أمتي القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه، ووعيد وتهديد المكذبين من قومه بذكر تكذيب قوم نوح ومن بعدهم من الأمم لأنبيائهم وما حل بهم من العقوبات، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ الآيات.

٢- أن العبودية لله- عز وجل- أشرف ما يوصف به البشر، ولهذا وصف الله بها نبيه «نوحاً» عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾.

٣- شدة ما لاقى نوح- عليه السلام- من قومه من التكذيب والرمي بالجنون المستطير، والزجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾.

٤- أن من تحقيق العبودية لله عز وجل وأسباب النصر على الأعداء- اللجوء إلى الله- عز وجل- بدعائه وطلب النصر منه، وإقرار الإنسان بضعفه وحاجته إلى الله- عز وجل، كما فعل نوح- عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنوح- عليه السلام وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾.

٦- استجابة الله- عز وجل- لدعاء نوح- عليه السلام- ونصره له وإغراق قومه وإنجاؤه ومن معه على السفينة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا

=

عامر- رضي الله عنه ٤/ ١٥١، ١٥٥.

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبوداود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

٧- عظم قدرة الله- عز وجل- وعنايته التامة بأوليائه، وشدة انتقامه ممن كفر به؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

٨- إثبات العينين لله تعلى كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾، والجمع يطلق على المثنى، كما يطلق المثنى على الجمع.

٩- في إغراق قوم نوح وإنجائه ومن معه على السفينة آية عظيمة دالة على قدرة الله- عز وجل- وعظة وعبرة لمن يعتبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

١٠- شدة عذاب الله- عز وجل- وعقابه للمكذبين من قوم نوح عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾.

١١- إقامة الحجة على الخلق وإنذارهم والإعذار منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُذُرِ﴾.

١٢- امتنان الله- عز وجل- على العباد بتيسير القرآن للذكر وحضه وحثه على التذكر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أخبر عز وجل عن تكذيب وكفر قوم نوح عليه السلام في الآيات السابقة وما جازاهم الله به من إغراقهم بالطوفان وإنجاء نوح عليه السلام ومن كان معه في السفينة، وما في ذلك من الدلالة العظيمة على قدرة الله- عز وجل- التامة، والعظة والعبرة لمن يتذكر ويعتبر- ثم أتبع ذلك بالإخبار عما أوقعه عز وجل من العقوبات والنكال بالمكذبين بعد قوم نوح منهم عاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون تحذيراً وتخويفاً للمكذبين من هذه الأمة وتسلية للرسول ﷺ تجاه تكذيب قومه له.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ عاد: هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد إرم.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر:٦-٨] وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم:٥٠].

ومساكنهم؛ بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن، كما قال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، والأحقاف: الجبال من الرمل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، أي: فكيف كان عذابي وعقوبتي لهم، أي: ما أشد ذلك وما أعظمه، وكيف كان إنذاري لهم، أي: ما أعظم إنذاري وتحذيري لهم على لسان نبيهم هود عليه السلام، مما لا تبقى معه لهم حجة.

وقد كرر هذا هنا وفيما بعد؛ لتوكيد الوعيد والتهديد للمكذبين والكافرين، وتوكيد شدة عذاب الله عز وجل، وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله، ولتوكيد إقامة الحجة على الخلق بحيث لا يبقى لأحد منهم حجة ولا عذر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: على عاد بسبب تكذيبهم؛ عقوبة لهم لإهلاكهم وتعذيبهم.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، أي: ريحًا باردة، شديدة البرودة، شديدة الصوت، وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها بل هي ضرر محض. قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١، ٤٢].

وهي الدبور. قال ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»(١).

والصبا: الريح الشرقية، والدبور: الريح الغربية.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾، أي: في يوم شؤم وشقاء.

﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾، أي: دائم عليهم نحسه وشؤمه، حيث استمر عليهم نحسه وشؤمه من ذلك اليوم، وطيلة الأيام الحسوم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦- ٨].

قيل ابتدأت يوم الأربعاء وانتهت يوم الأربعاء، وذلك مستمر موصول بعذاب البرزخ، وعذاب الآخرة في النار أبد الآباد.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥- ١٦].

﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾، أي: تقتلع الناس وترفعهم من أماكنهم، ثم تلقيهم على الأرض هلكى هامدين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾، أي: كأنهم أصول وجذوع نخل بلا رؤوس.

﴿مُّنقَعِرٍ﴾ منقلع من قعره ومغرسه، كم.ا قال عز وجل: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧].

قال ابن كثير(٢): «وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس».

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في الاستسقاء ٩٠٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف:٢٤، ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الكلام فيه كما سبق، وكرر هنا وفيما بعد للامتنان والحث على التذكر والتدبر للقرآن، ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب عاد نبيهم هوداً عليه السلام وعقوبة الله لهم بإهلاكهم بالريح الصرصر التي فصلت رؤوسهم عن أبدانهم. وفي هذا تخويف للمكذبين، وتسلية للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

٢- شدة عقوبة الله- عز وجل- لعاد وإنذاره لهم ولغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

٣- قدرة الله- عز وجل- التامة حيث أهلك عاداً بألطف الأشياء وأخفها وهي الريح، وقد كانوا أقوى الخلق وأعتاهم.

٤- أن الله- عز وجل- قد يجعل الشؤم والنحس في بعض الأعيان والأيام.

٥- تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين، وإنذارهم والإعذار منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

٦- توكيد نعمة الله- عز وجل- على العباد بتيسير القرآن للذكر حثاً وحضاً على التذكر والاتعاظ به وإيضاحًا للمحجة، وإقامة الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل قصة ثمود وتكذيبهم بالنذر بعد ذكره قصة تكذيب عاد؛ لأن ثمود بعد عاد في الزمن، وكل منهما في جزيرة العرب فـ«عاد» في جنوبها، وثمود في شمالها وبينهما والله أعلم ارتباط من وجوه عدة؛ ولهذا كانت «ثمود» تسمى عادًا الثانية، أو الأخرى، كما تسمى «عاد»: «عاداً الأولى». والهدف من ذكر هذه القصص كما سبق التحذير والتخويف للمكذبين وتسلية الرسول ﷺ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾، أي: كذبت قبيلة ثمود بالنذر المرسلة إليهم من الله عز وجل، فكذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، وما جاءهم به من النذر والآيات من عند الله عز وجل. وكانت مساكنهم في العلا شمال الجزيرة، وهي المعروفة الآن بمدائن صالح.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ احتقاراً منهم لصالح عليه السلام.

﴿أَبَشَرًا﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار والنفي والاحتقار.

﴿مِّنَّا﴾، أي: لا من غيرنا، ولم يتميز عنا بشيء.

وهكذا يزدري الكثيرون من كان منهم ويتكبرون عليه ويتنقصونه ولو كان خيِّرًا، بل ويُعجبون بمن ليس منهم، وإن كان دونه على حد قولهم: «من عرفك صغيرًا حقرك كبيرًا» وقد قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(١).

﴿وَٰحِدًا﴾، أي: شخصًا واحدًا، ليس معه شخص ثانٍ، أو جماعة تؤيده.

﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، أي: نسلك طريقه ونأخذ بقوله ونصدقه، أي: إننا لا يمكن أن نتبع بشرًا منا واحداً، ولا يعقل أن يكون ذلك، وهذا اعتراض منهم- كغيرهم من المكذبين- على الله

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

عز وجل، يردون به دعوة الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [إبراهيم:١٠، ١١].

وهكذا قالت قريش لمحمد ﷺ ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٣٦].

وصدق الله العظيم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ولهذا قال تعالى لإفحام المشركين: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام:٨، ٩].

أي: لو أرسلنا ملكاً لجعلناه على صورة رجل من البشر يخالطهم ويتكلم بلسانهم؛ ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه، وعلى هذا فلابد من كون الرسل من البشر.

وأيضا فإنه لو أرسل إليهم أكثر من واحد لم ينجع ذلك فيهم كما قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس:١٣- ١٥]

﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ إن اتبعناه، ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لفي بُعد وتيه عن الحق والهدى، ﴿وَسُعُرٍ﴾: جمع سعير، أي: وفي نار مسعورة مشتعلة متوقدة.

وقيل: «سعر»، أي: جنون، وقيل عناء وعذاب.

فعكسوا ما قاله لهم صالح من أنهم إن اتبعوه اهتدوا ونجوا من السعير فقالوا: إنا إذًا إن اتبعناك لفي ضلال وسعر- وذلك؛ لشدة عنادهم ومكابرتهم.

قال ابن كثير[1]: «يقولون لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا».

﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾، الاستفهام أيضًا للتعجب والإنكار والنفي والاحتقار.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

أي: يقولون أيضًا؛ تعجبًا منهم وحسدًا وإنكارًا واحتقاراً:

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، أي: كيف يخص بإلقاء الذكر عليه من بيننا، وأي مزية وأي فضل له علينا حتى يخص بذلك من بيننا، وهذا حسد منهم واعتراض على حكم الله عز وجل واحتقار لصالح عليه السلام.

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: لم يلق عليه الذكر من دوننا خاصة، لكنه كذاب في دعواه و﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مبالغة على وزن «فعّال»، أي: إنه كثير الكذب، وليس له صفة إلا الكذب.

﴿أَشِرٌ﴾، أي: بطر متكبر متعالٍ متعاظم، متجاوز الحد في الكذب.

وهكذا حملهم الحسد والكبر على أن ردوا دعوة صالح عليه السلام، وكذبوه.

كما حمل الحسد اليهود على إنكار رسالة محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم النبيين قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

ولا عجب في هذا فقد كان الحسد والكبر من أسباب إخراج إبليس من الجنة ولعنه وطرده، قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف:١٢- ١٣].

وقد أحسن القائل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغياً إنه لدميم
وترى اللبيب محسداً لم يجترم ... شتم الرجال وعرضه مشتوم

وكـذاك مـن عظمـت عليـه نعمـة حسـاده سـيف عليـه صروم[١]

فتأمل أخي الكريم كيف حمل الكبر والحسد هؤلاء الأقوام على رد الحق وتكذيبه. ففتش في جوانب نفسك واحذر من أن يحول الكبر والحسد بينك وبين قبول الحق.

فاقبل الحق ممن جاء به أياً كان وكن ذا قلب سليم مخلص العبادة لله، سليم على عباد الله، واعلم أن الناس لو ملكوا الدنيا كلها ما ضرك ذلك، ولو افتقروا ما نفعك ذلك، ولو دخلوا بأجمعهم الجنة ما ضرك ذلك، ولو دخلوا النار ما نفعك ذلك. فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك تعش بإذن الله- سعيدًا، وتمت حميدًا.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ السين: للاستقبال والتحقيق والتقريب. والغد: اليوم الذي بعد يومك، ويحمل على ما يستقبل من الأيام مطلقًا، إشارة إلى تحقق مجيئه، وأن كل آت قريب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤].

قال الشاعر:

فـإن يـك صـدر هـذا اليـوم ولى فـإن غـداً لنـاظره قريـب[٢]

والمراد بـ«غداً» يوم وقوع العذاب الدنيوي عليهم وإهلاكهم بالصيحة والصاعقة. ولهذا قال: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾.

ويحتمل أن المراد بـ«غداً» يوم القيامة وتعذيبهم بالنار. كما قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٢٧].

ولا مانع من حمل الآية على هذا وهذا.

﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾، أي: من هو الكذاب الأشر، أهو صالح عليه السلام أو أنهم هم الكذّابون الأفّاكون الأشرون. وفي الآية تهديد لهم شديد ووعيد أكيد.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾، أي: التي سألوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾، أي: امتحانًا وابتلاءً لهم.

كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

---

(١) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي.انظر «ديوانه» ص٥٤.

(٢) البيت لهدبة بن خشرم. انظر: «أمالي القالي» ١/ ٧٢، «خزانة الأدب» ٩/ ٣٣١.

ومن الفتنه والابتلاء تيسير أسباب المعصية.

قال الطبري[١]: «إنا باعثو الناقة التي سألتها ثمود صالحًا من الهضبة التي سألوه بعثتها لهم منها، آية لهم، وحجة لصالح على حقيقة نبوته وصدق قوله».

وقال ابن كثير[٢]: «أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء، طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به».

﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ أمْر من الله عز وجل لنبيه ورسوله صالح عليه السلام.

أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، وما يعملون، وهل تكون هذه الآية التي سألوها سببًا لهدايتهم، أو تكون سببًا لضلالهم وعذابهم وهو ما حصل فعلاً.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أي: واصبر على أذاهم، وازدد صبرًا؛ لأن «اصطبر» أبلغ وآكد من «اصبر»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والمعنى: اصبر على ما تلقاه منهم من الأذى فعلاً كان أو قولاً، ومن التعنت والمكابرة والعناد والتحدي بطلب الآيات والمعجزات كسؤالهم الناقة، واعلم أن الغلبة والنصر لله ورسله، وأن العاقبة للمتقين كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾، الأمر لصالح عليه السلام، أي: أخبرهم: أن الماء مشترك ومقسوم بينهم وبين الناقة، فيوم لها ويوم لهم، كما قال عز وجل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وهذا من الابتلاء لهم أن حُرِّم عليهم الماء يوم ورد الناقة، مع أنهم في يوم وردها يشربون من لبنها، لكنهم ملّوا هذه القسمة.

﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾، أي: كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في نوبته، ويُحْظَر على من ليست نوبته، فيوم شربهم يحضرون ويشربون من الماء، ويوم شرب الناقة ووردها تحضره الناقة وتشرب.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ١٤١.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

وقال مجاهد: «إذا غابت يعني الناقة حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن»(١).

فعلى هذا فهم في يوم وردها لا يشربون من الماء، وإنما يشربون من لبنها.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ الفاء: عاطفة أي: فنادى القوم صاحبهم واسمه: قُدار ابن سالف، كما ذكر المفسرون، وكان أشقى ثمود، كما قال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس:١٢].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ الفاء في الموضعين: عاطفة، والمعنى: بذل نفسه ووافق بسرعة وتناول السيف وانقاد لما أمروه به وتقدم فعقر الناقة.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. أي: فعاقبتهم، فما أعظم عذابي وعقوبتي لهم على كفرهم، وتكذيبهم لرسولي، مما فيه أعظم رادع لهم، وزجر وتخويف لغيرهم، وكيف كان إنذاري لهم أي: ما أشده وأوضحه وأبينه بما لا حجة لهم بعده.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، أي: إنا أرسلنا عليهم جميعًا لما تمالؤوا على عقر الناقة فعقروها صيحة واحدة قطعت قلوبهم في أجوافهم. فماتوا عن آخرهم في اليوم الرابع من عقرها. وهي الرجفة والصاعقة.

﴿فَكَانُوا﴾، أي: فكانوا بعد هذه الصيحة.

﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، الهشيم: هو اليابس الهامد المتفتت من الزرع والنبات، وشجر الحظيرة، تنسفه الريح، وتفرقه يمينًا وشمالاً، وهنا وهناك قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥].

و «المحتظر»: صانع الحظيرة لمواشيه من الشجر.

والمعنى: أنهم هلكوا وما توا وبادوا عن آخرهم فلم يبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا، كما يخمد ويهمد يابس الزرع والنبات والشجر.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧، ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا وَالَّذِينَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٣.

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٦، ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت:١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس:١١- ١٥].

وهكذا كان طلب ثمود وسؤالهم الناقة فتنة وابتلاءً لهم، كما كان طلب النصارى وسؤالهم المائدة فتنة وابتلاءً لهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقام رجل فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أما إني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته»(٢).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠، وأحمد ١/ ١٧٦، ١٧٩.

(٣) أخرجه الدارقطني ٤/ ٢٩٧- ٢٩٨، وصححه ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٢٥٢.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ توكيد وتذكير وتشويق وحث على تذكر القرآن وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب ثمود نبيهم صالحاً عليه السلام وما جاءهم به من النذر من عذاب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾.

٢- احتقار ثمود لنبيهم صالح عليه السلام وازدراؤهم له لا لشيء إلا لأنه بشر واحد منهم، ولذلك لم يتبعوه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

٣- حسد ثمود لنبيهم صالح عليه السلام حيث خص بالرسالة دونهم وتكذيبهم له بسبب ذلك؛ لقولهم: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

٤- وجوب الحذر من الكبر والحسد فإنهما من أعظم أسباب رد الحق.

٥- الوعيد والتهديد لثمود بالعذاب العاجل والآجل؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾.

٦- إرسال الله- عز وجل- الناقة لثمود إجابة لسؤالهم إياها وتصديقاً لصالح عليه السلام وفتنة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾.

٧- أمر الله- عز وجل- لنبيه صالح عليه السلام بالانتظار بقومه والصبر على أذاهم، وإمهالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾.

٨- أن مما ابتلى الله- عز وجل- به ثمود حين أرسل الناقة فتنة لهم أن جعل الماء قسمة بينهم وبينها لها شرب ولهم شرب يوم معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾.

٩- جرأة ثمود وإقدامهم على عقر الناقة ومخالفة أمر الله وارتكاب نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.

١٠- شدة عذاب الله- عز وجل- لثمود حيث أرسل عليهم صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم بعد إقامة الحجة عليهم والإعذار منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾.

١١ - تأكيد نعمة الله - عز وجل - على العباد بتيسير القرآن للذكر حضاً على تذكره والاتعاظ به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

بعد ما أخبر الله عز وجل عن تكذيب قوم نوح، وعاد وثمود وتعذيبهم وإنجاء الله عز وجل لأنبيائه ونصره لهم أخبر عن تكذيب قوم لوط وعقوبته لهم وإنجائه لوطاً- عليه السلام، ومن آمن معه من أهله وقومه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾، أي: كذبت قوم لوط رسول الله إليهم لوطاً- عليه السلام، وما جاءهم به من النذر من عند الله عز وجل فكذبوه وخالفوه وكفروا بما جاءهم به، وارتكبوا الفاحشة العظمى إتيان الذكران، كما قال عز وجل عنهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨٠، ٨١]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥، ١٦٦].

فلم يسبقهم أحد إلى فعل هذه الفاحشة التي هي أعظم الفواحش، ولهذا ذكرها الله عز وجل معرفة بـ «ال» (الفاحشة) بينما ذكر الزنا بأنه فاحشة قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وإنما كان اللواط أشد فحشًا وجرمًا من الزنا؛ لأن إتيان الذكر للذكر لا يحل بحال من الأحوال، بخلاف إتيان الذكر للأنثى فهو يحل بطريق الزواج الشرعي وطريق الملك، كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥- ٧، المعارج:٢٩- ٣١].

وأيضًا: فإن اللواط قد يصعب التحرز منه؛ لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر، بخلاف ما إذا وجد رجل وامرأة، فإن ذلك يستنكر ما لم تكن من محارمه.

وقد رُويَ أن عبد الملك بن مروان رحمه الله قال: «لولا أن الله ذكر اللواط في

القرآن ما صدقت أن ذكرًا يعلو ذكرًا».

ولهذا كله جعل الله عز وجل عقوبة اللواط: القتل، سواء كان الفاعل والمفعول به محصنين أم لا، قال ﷺ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

وعاقب الله عز وجل قوم لوط على هذه الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين بعقوبة لم يعاقب بها أحدًا من العالمين، وهي أشد العقوبات فجعل عالي قريتهم سافلها وأمطرها بحجارة من سجيل منضود.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾، أي: أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، فجعل عالي قريتهم سافلها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤].

قال ابن كثير(٢): «﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾، وهي الحجارة».

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ «إلا» أداة استثناء، و«آل لوط» هم لوط وبناته.

وقال ابن القيم(٣): «المراد به أتباعه المؤمنون به، من أقاربه وغيرهم».

﴿نَّجَّيۡنَٰهُم﴾ من العذاب والعقوبة، ﴿بِسَحَرٖ﴾ أي: وقت السحر آخر الليل، وقبيل انصداع الفجر، وهو أفضل أوقات الدعاء، ووقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، كما صح الحديث بذلك(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦،- وقال: «حديث حسن» وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٥- وصححه ووافقه الذهبي. وقال ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٤٠، ٤١ «وإسناده صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٥.

(٤) كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له». أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٩٤، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو =

قال ابن كثير[1]: «أي: خرجوا من آخر الليل، فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء».

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: نعمة من عند الله عز وجل ومنة منه على لوط وأهله في إنجائهم من العذاب، وإهلاك عدوهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾، أي: مثل ذلك الإنجاء والنعمة نجزي من شكر نعمة الله بطاعته عز وجل، وطاعة رسله فننجيه من العذاب وننصره ونجعل العاقبة له، ونهلك عدوه.

وفي قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ دون أن يقول: لشكرهم تنبيه على أن هذه سنة الله عز وجل مع أوليائه الشاكرين أن ينجيهم ويحفظهم ويؤيدهم بنصره ويمكنهم ويجعل العاقبة لهم، كما قال عز وجل: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم أي: والله لقد أنذرهم، أي: خوفهم نبي الله لوط عليه السلام وحذرهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾، أي: أخذتنا الشديدة بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾: الفاء: عاطفة أي: فكذبوا وشككوا فيما أنذرهم به، ولم يصغوا إليه ولم يصدقوه.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾، أي: والله لقد راودوه عن ضيفه أي: حاولوا معه

=

داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الصلاة ٤٤٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦.

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥.

وطلبوا منه أن يمكنهم من فعل الفاحشة بأضيافه من الملائكة.

قال ابن كثير[(١)]: «وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، جاؤوا إليه في صورة شباب مرد حسان محنة من الله بهم، فأضافهم لوط، وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط- عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ يعني نساءهم ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١]، ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾، أي: ليس لنا فيهن إرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩]. فلما اشتد الحال، وأبوا إلا الدخول خرج عليهم جبريل- عليه السلام- فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم، يقال: إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطًا عليه السلام إلى الصباح».

﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ أعميناهم.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أمر إهانة، أي: فتجرعوا وأحسوا، وقاسوا شدة عذابي للمكذبين، وعقوبة تكذيبهم لنذري.

﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم﴾، أي: والله لقد صحبهم ﴿بُكۡرَةً﴾، أي: أول النهار.

﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، أي: مستقر وواقع بهم لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه، لا يرحل عنهم متصل فيه عذاب الدنيا بعذاب الآخرة. وهو ما ذكره الله عز وجل من جعل عالي قريتهم أسفلها وإتباعها بالحجارة- كما تقدم، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٣، ٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ الكلام فيه كما سبق، وكرر؛ لتأكيد التهديد والوعيد.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ كرر؛ للامتنان والحث على تذكر القرآن

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥- ٤٥٦.

وتدبره- كما تقدم بيانه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، «النذر»: جمع نذير، و«آل فرعون» هم أهله وقومه، و«فرعون»: ملك مصر الذي في عهد موسى عليه السلام، وهو أشد الفراعنة طغيانًا وكفرًا، وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية والربوبية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وقال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

و«فرعون» علم على كل من ملك مصر من الكفرة.

والمعنى: والله لقد جاء فرعون وقومه النذر من عند الله عز وجل فأرسل الله إليهم نبيه موسى عليه السلام كليم الرحمن، وأخاه هارون، وأيدهما بالنذر والمعجزات والآيات العظيمة الشرعية والكونية.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾، أي: كذبوا وكفروا بآيات الله كلها الشرعية والكونية، الدالة على صدق رسالة موسى عليه السلام، ورموه بالسحر والجنون.

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأخذناهم بالعذاب والعقوبة، وذلك بإغراق فرعون وجنوده، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات:٤٠].

فأهلكه الله وجنوده بمثل ما يفتخر به وهو الماء، كما في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١].

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾، أي: أخذ قوي قاهر غالب له العزة بأقسامها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: له القدرة التامة على كل شيء، كما قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط- عليه السلام- ، وتكذيب قومه له، ولما جاءهم به من النذر من عند الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾.

٢- إهلاك الله- عز وجل- لقوم لوط بإرسال الحاصب والحجارة عليهم وجعل عالي قريتهم سافلها، بعد إنجاء لوط وآله وإخراجهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

٣- الإشارة لفضل وقت السحر؛ لأنه وقت النزول الإلهي.

٤- نعمة الله- عز وجل- على لوط وآله في إنجائهم من العذاب مجازاة لهم على شكرهم لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

٥- وعد الله- عز وجل- لجميع الشاكرين بالإنعام عليهم وإنجائهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

٦- إنذار لوط عليه السلام لقومه وتحذيره من أخذ الله لهم وعقابه وتشكيكهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾.

٧- طمس أعين قوم لوط عن ضيوفه لما راودوه عنهم؛ دفاعاً عنه عليه السلام وحفظاً له ولضيوفه، وعقوبة لقومه المجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

٨- وقوع العذاب بالمكذبين من قوم لوط أول النهار واتصاله بعذاب البرزخ وعذاب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

٩- شدة عذاب الله- عز وجل- للمكذبين من قوم لوط وإنذاره لهم ولغيرهم.

١٠- تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

١١- تأكيد تيسير القرآن للذكر امتنانًا على العباد، وحضًّا على التذكرة والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

١٢- إقامة الحجة على فرعون وقومه بإرسال الرسل والنذر إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾.

١٣- تكذيب آل فرعون بآيات الله كلها الكونية والشرعية، وأخذهم وإهلاكهم بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾.

١٤- عزة الله- عز وجل- التامة وقدرته العظيمة في الانتقام من المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

١٥-التحذير من التكذيب بآيات الله تعالى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

بعدما أخبر الله- عز وجل- عن عذابه وعقوباته للمكذبين من الأمم السابقة؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وإنجائه عز وجل لرسله وأنبيائه وأتباعهم وجَّه الخطاب للمشركين والكفار من هذه الأمة من أهل مكة وغيرهم؛ تحذيرًا وتخويفًا لهم ووعيدًا وتهديدًا بأنه سيحل بهم مثل ما حل بالمكذبين والكافرين قبلهم.

قوله ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ الاستفهام في المواضع الثلاثة: للإنكار والنفي، والخطاب لكفار مكة وغيرهم من كفار هذه الأمة.

﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾، أي: خير من أولئكم الأقوام الذين عذبهم الله لما كذبوا رسله وكفروا به؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون.

والجواب: ليس كفاركم خيراً من أولئكم الأقوام، بل أنتم وإياهم سواء في الكفر والتكذيب لرسل الله بل قد تكونون شرًّا منهم؛ لأنكم كذبتم أفضل الرسل وسيد الخلق محمداً ﷺ، والذي جاء بأفضل الكتب وأعظم المعجزات القرآن الكريم.

﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ «أم» في الموضعين هي المنقطعة، بمعنى «بل» التي هي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام، أي: بل ألكم براءة في الزبر من عذاب الله وعقابه، والزبر: هي كتب الله عز وجل التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام.

والجواب: ليس لكم براءة في كتب الله المنزلة على رسله أن لا ينالكم عذاب الله وعقابه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، أي: بل أيقولون نحن جميع منتصر.

فهم يعلمون أنهم ليسوا خيرًا ممن كان قبلهم من المكذبين، وأنه ليس لهم براءة من العذاب في كتب الله، بل حقيقة أمرهم واعتقادهم ولسان حالهم ومقالهم أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، أي: نحن جماعة مجتمع أمرنا ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نغلب.

أي: أننا بجمعنا الكثير ممتنعون، لا نغلب، وسينتصر بعضنا لبعض ويدفع بعضنا عن بعض من أرادنا بسوء، وهذا اغترار منهم بكثرتهم وقد قال الله عز وجل للمؤمنين

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥].

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾، أي: سيغلب هذا الجمع الذي يفتخرون به، ويعتقدون أنهم سينتصرون به.

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، أي: ويولون موقع المعركة أدبارهم فارين هاربين منهزمين على أعقابهم بعد قتل صناديدهم وكبرائهم، وهذا عذابهم الدنيوي، وقد وقع ذلك في يوم بدر، وفيما بعده من معارك الإسلام الفاصلة.

عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: «أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ- يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ[1]».

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، والساعة: القيامة؛ لأنها آتية لا محالة، ومحددة الوقوع في ساعة من الزمن لا تتأخر عنها ولا تتقدم، أي: بل القيامة موعدهم للعذاب.

﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾أي: والقيامة أعظم داهية ﴿وَأَمَرُّ﴾، أي: أشد مرارة.

أي: أن عذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده- وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك، وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾»[2].

فعذاب الدنيا مهما كان لا يقارن بعذاب الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١- الأثر ١٨٧١٣. وليس فيه ذكر عمر، وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة «اقتربت الساعة» ٤٨٧٧.

ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية:٢٣- ٢٤].

وعذاب الدنيا مهما عظم، ومهما طال ينتهي بالموت، أما عذاب الآخرة فهو أعظم وأشد وأكبر ولا نهاية له، بل هو عذاب أبدي سرمدي، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، أي: دائم، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، أي: لا ينقطع عنهم فترة يرتاحون فيها، وهم فيه آيسون من الخروج منه.

وإذا كان عذاب الدنيا وأذاها لا يقارن بعذاب الآخرة بحال من الأحوال، فيجب أن يحذر مرضى القلوب وضعاف الإيمان، ممن يؤثرون السلامة، بل السلبية، فيتخلون عن القيام بأمر الله والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مع أخص الناس بهم وأقربهم إليهم من أهل وأولاد وأقارب وجيران وإخوان، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

الفوائد والأحكام:

١- التحذير والتخويف والوعيد والتهديد للمكذبين من هذه الأمة أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ﴾.

٢- أن المكذبين من هذه الأمة ليسوا خيراً من المكذبين من قبلهم، بل هم في الكفر والتكذيب سواء، بل قد يكونون شراً ممّن قبلهم؛ لأنهم كذبوا أفضل رسل الله محمداً ﷺ وخير كتبه القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾.

٣- ليس لدى المكذبين للرسول ﷺ براءة أن لا ينالهم عذاب الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾.

٤- اغترار المكذبين بكثرتهم وجمعهم وانتصار بعضهم لبعض، فلم يغنهم ذلك؛ بل هزموا شر هزيمة في بدر، وولوا الأدبار؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

٥- الوعيد والتهديد للمكذبين بالعذاب الآجل يوم القيامة والذي هو أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

توعد الله عز وجل في الآيات السابقة المشركين بالهزيمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ثم أتبع ذلك بشيء من التفصيل في عذابهم، ثم أتبع ذلك ببيان عظم ثواب المتقين ورفعة مقعدهم عند الله، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ «المجرمين» الذين ارتكبوا الجرائم، من الكفر بالله وما دون ذلك من المعاصي والذنوب.

﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ الضلال: التيه والبعد عن قصد السبيل وطريق الحق، والضال: من لم يعرف الطريق الموصل إلى الغاية والنجاة، حسيًا كان هذا الطريق أو معنويًّا.

فهذا حال المجرمين في الدنيا، فهم تائهون ضائعون عن طريق الحق يتخبطون في ظلمات الجهل والكفر.

﴿وَسُعُرٍ﴾: جمع سعير، وهي النار المستعرة المشتعلة الموقدة وهذا مآل المجرمين في الآخرة أنهم يُزَجُّون في النار المستعرة. فحيث تاهوا عن طريق الحق في الدنيا تاهوا عن طريق الجنة في الآخرة فصار مصيرهم إلى النار المستعرة، إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، كما قيل:

ألموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
ألدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار(١)

وقيل: ﴿وَسُعُرٍ﴾، أي: وجنون ونصب وعناء.

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

قال الطبري[١]: «﴿وَسُعُرٍ﴾ يقول في احتراق من شدة العناء والنصب في الباطل».

وقال ابن كثير[٢]: «﴿وَسُعُرٍ﴾ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق».

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾، أي: ذلك اليوم يوم القيامة الذي يسحبون فيه في النار أي: تسحبهم الملائكة على وجوههم؛ إهانة لهم وتشديدًا في عذابهم؛ لأن أشد شيء في الإهانة أن تقع على موضع الكرامة من الإنسان وهو الوجه، وهو أشد شيء في العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٢٤]

﴿ذُوقُوا﴾، أي: يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا وتبكيتًا وتعنيفًا: ﴿ذُوقُوا﴾، أي: ذوقوا وتجرعوا ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾، أي: مس النار وإصابتها وآلامها و﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء النار أعاذنا الله منها.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على القلوب، التي هي أصل مواضع الكفر والفساد منهم، فيجمع لهم بين العذاب الحسي، وهو عذاب النار، وسحبهم على وجوههم فيها ونحو ذلك، وبين العذاب المعنوي بالتوبيخ والتقريع لهم والتبكيت والتعنيف والإهانة والتحقير، ونحو ذلك.

والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي إن لم يكن أشد- كما يقول أهل العلم؛ ولهذا لو أن شخصين ارتكبا جرمًا فأحضرهما السلطان، فضرب أحدهما خمسين جلدة وأطلق سراحه، ثم أجلس الثاني عنده وأخذ يعاتبه ويوبخه، ويلحظه بعينيه بين فترة وأخرى، ويقول له: أنت أخطأت، وأنت أسأت، وأنت فعلت كذا وكذا؟ فيا ترى ما حال هذا الثاني؟ وماذا يدور في نفسه؟ لاشك أنه يتمنى أن لو ضُرب مائة جلدة وأطلق سراحه مع صاحبه.

ولهذا استحب الفقهاء أن يختن الطفل في الشهور الأولى من ولادته؛ لأن الطفل في

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ١٥٩.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٧.

هذه المرحلة إنما يشعر فقط بالألم الحسي، فإذا سكن الألم نام؛ ولهذا يشفى سريعًا بإذن الله عز وجل. بخلاف الكبير فإن عنده مع الألم الحسي الألم المعنوي، وهو الخوف من بطء الشفاء، بأي سبب من الأسباب، والتفكير في ذلك، ولهذا يتأخر شفاؤه غالبًا.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾»(١).

قوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ يتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة، وهو العظيم سبحانه وتعالى مبينًا عز وجل أن كل شيء خلقه سبحانه وتعالى وأوجده ﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بتقدير سابق في الأزل، وحال كونه مقدرًا.

فكل شيء في هذا الكون العظيم هو من خلق الله عز وجل وإيجاده، وتقديره الأزلي، وهو مقدر مقنن من عند الله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٢، ٣].

أي: الذي خلق كل مخلوق وسوى خلقته على أحسن حال، والذي قدر مقادير كل شيء، وهدى كل مخلوق لما قدر له.

عن زرارة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ قال: «نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله»(٢).

وهذا إن صح لا ينافي ما سبق أنها نزلت بسبب إنكار المشركين للقدر، فتكون الآية نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال: «أتيت ابن عباس، وهو ينزع من زمزم، وقد

---

(١) أخرجه مسلم في القدر- باب كل شيء بقدر ٢٦٥٦، والترمذي في تفسير سورة القدر ٢١٥٧، وابن ماجه في المقدمة- باب في القدر ٨٣، وأحمد ٢/ ٤٤٤، ٤٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١- الأثر ١٨٧١٤.

ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلِّمَ في القدر. فقال: أوفعلوها؟ قلت: نعم قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحدًا منهم فقأت عينيه بأصبعي هتين»(١).

وفي رواية: «قيل لابن عباس: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه- وهو يومئذ قد عَميَ- قالوا: وما تصنع به يا ابن عباس؟ قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضّن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج، تصطك أليتاهن مشركات؛ هذا أول شرك هذه الأمة، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرًا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرًا»(٢).

قال ابن كثير(٣) في كلامه على هذه الآية ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾: «ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية، وبما شاكلها من الآيات، وبما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عهد الصحابة».

والأحاديث في إثبات القدر، وذم نفاته كثيرة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة، الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١- الأثر ١٨٧١٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٣٠.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٧.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٨٦، وأبو داود في السنة ٤٦٩٢.

(٥) أخرجه مسلم في القدر- حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: «ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، جفت الأقلام وطويت الصحف»(٣).

وعن الوليد بن عبادة قال: دخلت على عبادة وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه، قال: يا بني إنك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك يا بني: إني سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار»(٤).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت،

---

(١) أخرجه مسلم في القدر- كل شيء بقدر ٢٦٥٥، وأحمد ٢/ ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم في القدر- الأمر بالقوة وترك العجز ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة- باب في القدر ٧٩.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٧، والترمذي في أبواب القدر ٢١٥٥، وفي التفسير ٣٣١٩ وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»[١].

قال ابن القيم[٢]: «والمخاصمون في القدر نوعان: أحدهما من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨][٣]، والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق[٤].

والطائفتان خصماء لله قال عوف: «من كذب بالقدرِ فقد كذب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارًا، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى».

وقال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله».

قال ابن القيم: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها، وسلف القدرية ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق السلف على تكفيرهم. وفي تفسير على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] قال: الذين يقولون: إن الله على كل شيء قدير»[٥].

فالقدر سر الله في خلقه، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فلا يمكن أن يحصل في الكون حركة ولا سكون إلا بتقدير الله- عز وجل- لذلك أزلاً كما دلت على ذلك هذه الآيات والأحاديث ومن نصوص الكتاب والسنة.

فعن علي رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل ينكت به الأرض فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب القدر ٢١٤٥، وابن ماجه في المقدمة- باب في القدر ٨١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٦.

(٣) وهؤلاء هم الجبرية.

(٤) وهؤلاء هم القدرية.

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٣٢- وفيه «الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير».

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل]»(١).

وقد حكى الشاعر هذا المعنى بقوله:

ولو كانت الأخلاق تحوي وراثة ... ولو كانت الآراء لا تتشعب
لأصبح كل الناس قد ضمهم هوى ... كما كان كل الناس قد ضمهم أب
ولكنها الأقدار كل ميسر ... لما هو مخلوق له ومقرب(٢)

فمن طلب الخير وبحث عنه وُفق إليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل:٥- ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران:٣١].

فاتبع الرسول الله ﷺ، وكن من المتقين المحسنين المقسطين الصابرين المتوكلين التوابين المتطهرين يحبك الله.

قال عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»(٣).

ومن أحبه الله عز وجل وفقه وهداه إلى كل خير، وحفظه ووقاه من كل شر فادخل أخي الكريم على ربك بكليتك وسلم أمرك له واعبده وتوكل عليه يكفك كل شيء.

ولا يجوز الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية، كأن يترك الإنسان فعل الواجب، أو يرتكب المنهي ثم يحتج بالقدر.

وقد رُوي أن سارقًا سرق في خلافة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه، فأمر عمر رضي الله عنه بقطع يده فقال السارق: أنا سرقت بقضاء الله وقدره، فقال عمر رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٣٣٤٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٨.

(٢) الأبيات للقاضي منصور الهروي. انظر: «بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح» ٤/ ٦٩٢، «الإيضاح في علوم البلاغة» ص٣٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عنه: «وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره»(١).

وأما ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدر عليّ قبل أن أخلق. فقال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى مرتين»(٢).

قال ابن تيمية: «فآدم إنما حج موسى؛ لأن موسى لامه على ما فعل؛ لأجل ما حصل له من المصيبة بسبب أكله من الشجرة، لم يكن لومه له؛ لأجل حق الله في الذنب، فإن آدم كان قد تاب، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]... إلى أن قال: إنما كان القدر حجة لآدم على موسى؛ لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه»(٣).

وقال ابن القيم: «إن الاحتجاج بالقدر بعد فعل الذنب والتوبة منه سائغ لا إشكال فيه. أما الاحتجاج بالقدر حال فعل الذنب وقبل التوبة منه فلا يجوز»(٤).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ الواو: عاطفة، و﴿مَا﴾ نافية، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر؛ أي: ما أمرنا إذا أردنا شيئًا إلا واحدة، أي: إلا أن نأمر به مرة واحدة، أو بكلمة واحدة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۖ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر:٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأنعام:٧٣].

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» ٣/ ٢٣٤، «ميزان الاعتدال» ١/ ٦٢٢

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ٨/ ١٠٨.

(٤) انظر: «شفاء العليل» ص ١٣- ١٩.

﴿كَلَمْحِ بِٱلْبَصَرِ﴾، أي: أن سرعة أمرنا ونفوذه كلمحة بصر، كما قال عز وجل في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية:٧٧].

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِ بِٱلْبَصَرِ﴾: «وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، أي: إنما أمرنا بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد ثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجودًا كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين».

وفي الآية إشارة إلى قدرة الله عز وجل التامة على البعث وقرب ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: والله لقد أهلكنا أشياعكم، أي: أهلكنا بالعذاب وأنواع العقوبات، أمثالكم وأشباهكم في الكفر، وأسلافكم من المكذبين للرسل.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أي: فهل من متذكر ومتعظ ومعتبر بما حصل لأولئك الأقوام من العذاب والعقوبات، والاستفهام بمعنى الأمر، أي: اتعظوا واعتبروا بما حصل لهم واحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ:٥٤].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾، أي: كل شيء فعلوه، وكذا كل قول قالوه هم ومن سبقهم أيًّا كان مكتوب عليهم.

﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾، أي: في اللوح المحفوظ قبل أن يعملوه، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة بعد أن عملوه للجزاء عليه.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾، أي: كل صغير وكبير من الأفعال والأقوال وغير ذلك مسطور مكتوب في تلك الصحف قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف:٤٩].

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦١.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»(٢).

قال الشاعر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى
كن مثل ماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى(٣)

وقال الآخر:

لا تحقرن من الذنوب صغيرها ... إن الصغير غدًا يعود كبيرا(٤)
إن الصغير ولو تقادم عهده ... عند الإله مسطرٌ تسطيرا

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

بعدما ذكر الله عز وجل ما أعده للمكذبين الضالين من العذاب الحسي والمعنوي في السعير والنار ذكر ما أعده للمتقين في الجنات من النعيم الحسي والمعنوي.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ إخبار من الله عز وجل ووعد منه لا يتخلف أن المتقين الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب نواهيه في جنات، أي: في جنات عدن التي أعدها عز وجل لأوليائه، وسميت جنات لكثرة ما فيها من الأشجار، وأنواع الثمار، فهي تجن، أي: تستر من بداخلها، لكثرة أشجارها وثمارها الملتفة.

﴿وَنَهَرٍ﴾، أي: أنهار؛ لأن أنهار الجنة متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١، وابن ماجه في الزهد- ذكر الذنوب ٤٢٤٣.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٣٤، الأثر ٥٢١٦.
(٣) الأبيات لابن المعتز. انظر «ديوانه» ٢/ ٣٧٦- تحقيق محمد بديع شريف- دار المعارف بمصر.
(٤) انظر: «تاريخ دمشق» ٢١/ ٣٠٠، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٨٦.

مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

والمعنى: أنهم يتنعمون بداخل هذه الجنات بألوان النعيم ويشربون من هذه الأنهار ويتمتعون برؤيتها، وغير ذلك.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾، أي: في مكان ومجلس ومقام ﴿صِدْقٍ﴾، ليس فيه كذب لا في الخبر عنه، ولا في وصفه بل كله حق، مقام رِضًى وكرامة وسرور، كما قال عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢].

لا يسمعون فيه إلا ما يسرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٦] وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ:٣٥].

قال ابن القيم[(١)]: «فسمى جنته مقعد مصدق؛ لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة، وحملة صادقة، ومنه الكلام الصدق، لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل، والصدِّيق الذي يصدق قوله بالعمل، ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة، ومنه قدم صدق، ولسان صدق[(٢)]، ومدخل صدق، ومخرج صدق[(٣)]، وذلك كله للحق الثابت الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته».

وقال ابن كثير[(٤)]: «وقوله ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾، أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه».

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، أي: عند المليك العظيم المالك لكل شيء الخالق لكل شيء

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٧.

(٢) كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام، أنه قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء:٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم:٥٠].

(٣) كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:٩٣].

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٢.

المدبر له، المقتدر على إعطاء أهل الجنة كل ما يريدون، وتحقيق كل ما يطلبون وعلى كل شيء سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وفي الآية ما يدل على أن المتقين ضيوف عنده عز وجل، وهو المليك العظيم ملك الملوك، الخالق المدبر، المقتدر على كل شيء، الكريم الجواد، من له خزائن السموات والأرض، فأكرم بها من ضيافة. نسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرة عباده المتقين ووالدينا وذريتنا وأزواجنا وجميع المسلمين، إنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(١).

فيجمع لهم بين النعيم الحسي من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وأزواج وغير ذلك، وبين النعيم المعنوي، نعيم القلب وأعظم ذلك كله النظر إلى وجهه الكريم كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] وفسر النبي ﷺ «الحسنى» بالجنة، الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم(٢)- نسأل الله تعالى من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- ذم المجرمين ووعيدهم في ضلال وتيه عن الحق في دنياهم ومآلهم إلى النار في أخراهم يسحبون فيها على وجوههم ويجمع لهم فيها بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

٢- إثبات قدر الله السابق، وأن الله- عز وجل- قدر مقادير كل شيء وهدى كل مخلوق لما قدر له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة- فضل الحاكم العادل في حكمه ٥٣٧٩، وأحمد ٢/ ١٦٠.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، من حديث أبي موسى، ومن حديث كعب بن عجرة، ومن حديث أبي بن كعب رضي الله عنهم. وانظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٩٩.

٣- كمال قدرة الله- عز وجل- وإرادته، فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

٤- الإشارة إلى قدرة الله- عز وجل- على البعث وقرب ذلك.

٥- التهديد والوعيد للمكذبين بتذكيرهم بإهلاك أمثالهم من المكذبين قبلهم ليتعظوا ولكن هيهات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

٦- أن كل شيء من أفعال وأقوال الخلق وغير ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن يعملوه، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة بعد أن عملوه للجزاء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

٧- التحذير من الذنوب كبيرها وصغيرها.

٨- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب.

٩- الإشارة إلى عظم ما أعده الله- عز وجل- للمتقين من النعيم الحسي والمعنوي في الجنات والأنهار ومقعد الصدق جوار المليك المقتدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

١٠- الترغيب في تقوى الله عز وجل.

١١- إثبات عظمة الله- عز وجل- وملكه التام، وقدرته العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلرَّحْمَٰن

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الرحمن»؛ لافتتاحها بهذا الاسم العظيم «الرحمن» الذي هو ثاني أسماء الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، وقال ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»(١).

ويقال لها: «عروس القرآن».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها... »(٢).

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: «سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»(٣).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى، وبيان سابغ نعمته على العباد، ومظاهر قدرته: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾.

٢- فناء الخلائق كلهم، وتفرده عز وجل بالبقاء، وتدبير أمور الكون: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩﴾.

٣- تهديد المكذبين من الثقلين والمجرمين: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرحمن ٣٢٩١.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣٤٩.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

٤- عظم ما أعد الله لمن خاف القيام بين يدي ربه من الجنان، وألوان النعيم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الرحمن: اسم من أسماء الله عز وجل، بل هو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل وأفضله قال عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»(١).

و«الرَّحْمَنُ» على وزن «فعلان» يدل على سعة رحمته عز وجل، وهو أبلغ من «الرحيم»؛ ولهذا قُدّم عليه في البسملة وفي الفاتحة، وفي قوله: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣، الحشر:٢٢].

وبين «الرحمن» و«الرحيم» عموم وخصوص فـ«الرحمن» أخص من جهة إطلاقه فلا يطلق إلا على الله عز وجل، و«الرحيم» يطلق على غير الله، كما قال عز وجل في صفة الرسول ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

و«الرحمن» و«الرحيم» إذا انفرد كل منهما عن الآخر دلَّ كل منهما على إثبات صفة الرحمة لله عز وجل صفة ذاتية ثابتة له سبحانه، وعلى إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها عز وجل إلى من شاء من خلقه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ

---

(١) أخرجه مسلم في البِرّ والصِّلة والآداب ٢١٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، ٢٨٣٤، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨.

مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

كما يدل كل منهما في حال انفراده على إثبات صفة الرحمة العامة لله عز وجل لجميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، في الدنيا والآخرة.

وعلى إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة.

فرحمة الله لغير المؤمنين من الكفار والبهائم في الدنيا ما هم فيه من النعم، وفي الآخرة العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجمّاء من الشاة القرناء(١).

ورحمة الله الخاصة بالمؤمنين في الدنيا هدايتهم للطريق المستقيم، وفي الآخرة إدخالهم الجنة دار النعيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

أما إذا اجتمع «الرحمن» و«الرحيم» كما في البسملة والفاتحة وغير ذلك فإن «الرحمن» يدل على إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله عز وجل، و«الرحيم» يدل على إثبات صفة الرحمة الفعلية لله عز وجل.

كما يدل «الرحمن» في حال اجتماعهما على إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق المؤمن والكافر، والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة، ويدل: «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقد افتتح الله عز وجل هذه السورة باسمه «الرحمن»؛ لأن كل ما ذكر الله عز وجل فيها هو من نعم الله عز وجل، التي هي من آثار رحمته سبحانه وتعالى، بل كل ما خلق الله من النعم، وكل ما دفع من النقم هو من آثار رحمته عز وجل.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: علَّم سبحانه العباد القرآن، ألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وكيفية العمل به، كما قال عز وجل للرسول ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠.

جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦- ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧، ٢٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨].

وصدَّر عز وجل نعمه على الخلق بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأن تعليم القرآن أعظم نعمة أنعم الله بها على الخلق، إذ بسبب ذلك يعرف الإنسان الحق ويتبعه بإذن الله عز وجل فيكون ممن أنعم الله عليهم النعمة الكبرى، وهي أعظم رحمة رحم الله عز وجل بها الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فَعِلْمُ كتاب الله- عز وجل- هو أجل العلوم وأعظمها وأشملها، بل هو أصل العلوم كلها، وبه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

ومع أن نعمة الخلق سابقة على نعمة تعليم القرآن، فإن نعمة تعليم القرآن لا يعادلها نعمة، بل هي أعظم وأكبر النعم، وهي النعمة الحقة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء:٦٩]، وقال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

فالنعمة الكبرى والمنة العظمى على العبد أن يوفق لمعرفة الحق والعمل به؛ للعلم النافع والعمل الصالح للهدى ودين الحق الذي أرسل الله به رسوله، فلا يضيره ما فقد من النعم سوى ذلك، ومن فقد هذه النعمة فلا ينفعه سواها من النعم ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها فانتبه لهذا، وفقك الله.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: أوجد الإنسان وأنشأه من العدم، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]. أي: قد أتى عليه ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، بل كان عدمًا، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٦٧].

وأصل الخلق التقدير، ثم الإيجاد والإنشاء والمراد بـ (الإنسان): جنس الإنسان، وذلك بخلق آدم وإيجاده من التراب والطين قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون:١٢].

فمن أكبر نعم الله على الإنسان أن الله خلقه وأوجده من العدم، وجعل صورته على أحسن صورة كما قال عز وجل: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦- ٨].

وقدَّم عز وجل ذكر الإنسان، وخصه بالذكر هنا مع أنه عز وجل خلق جميع المخلوقات تذكيرًا له بنعم الله عز وجل عليه؛ لأنه هو المكلَّف.

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، أي: علمه الإفصاح والإبانة عما في نفسه وقلبه بواسطة النطق باللسان، أو الكتابة باليد والبنان، وأيضا علمه تَبيُّن وفهم ما يقال له بما أعطاه الله من سمع وعقل وفهم، بخلاف سائر الحيوانات فإنها لا تفصح ولا تبين عما في نفسها؛ ولهذا سميت بهيمة كما قيل:

بهيمـــــة مســـــكينُ تشـــــكو ولا تُبـــــينُ
لســـــانها مقطـــــوع ولا لهـــــا دمـــــوع[1]

ولا شك بأن نعمة النطق من أعظم نعم الله عز وجل على الإنسان، ويعرف ذلك حقيقة المعرفة الأبكم الذي فقد هذه النعمة، فتراه يعمل كل وسيلة للتعبير عما في نفسه ولكن هيهات، وكما قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى» فلله الحمد والمنة على هذه النعمة وعلى سائر النعم.

وقيل المراد بـ (البيان) في الآية: بيان الخير والشر، أي: بيان طريق الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

وقد حسَّن ابن كثير[2] القول الأول وقواه، وقال: «لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج

(١) الأبيات لأحمد شوقي. انظر: «ديوانه» ص٧٧١.
(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٤.

الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها».

وأيضًا فإنه لا تنافي بين القولين؛ لأن تعليم القرآن والإبانة بنطقه فيه بيان الخير والشر.

قال ابن القيم[1] في كلام له على قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ قال: «دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه صار إنسانًا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه، ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثاً كل منها يسمى بيانًا، أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات. الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه لغيره. الثالث: البيان الرسمي الخطي، الذي يرسم به تلك الألفاظ، فيتبين للناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ. فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]. ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة:١٨]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة:٧]».

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، أي: أن من نعم الله عز وجل على الخلق أن خلق سبحانه الشمس والقمر وجعلهما يجريان متعاقبين ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾، أي: بحساب دقيق متقن مقدر مقنن لا يختلف ولا يضطرب، كما قال عز وجل: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦]، وقال عز وجل: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢١- ٣٢٢.

وإن المتأمل في بروج الشمس والقمر، وفي مطالعهما وفي مغاربهما وما هي عليه من الدقة العجيبة المتناهية التي تُحِّير العقول والألباب يرجع من ذلك بالاعتراف والإقرار بعظمة الخالق سبحانه وتعالى وعظيم فضله ونعمه على العباد؛ لما في ذلك من قيام مصالحهم، في أبدانهم ومواشيهم، وزروعهم وحروثهم، ومعرفتهم عدد السنين والحساب، وغير ذلك من المنافع التي لا تُحصى.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ الواو: عاطفة، و«النجم»: جنس النجوم التي في السماء. و«الشجر»: ما قام على ساق من النباتات كالنخيل وغيرها، وقد يشمل سائر النباتات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:١٨].

فذكر النجوم التي هي الكواكب، وعطف عليها الشجر وهذا يقوي أن المراد بالنجم في قوله: «والنجم» الذي في السماء.

وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالنجم: «ما انبسط على وجه الأرض من النبات»[1]، فيكون على هذا المراد بالنجم: ما انبسط على وجه الأرض من النبات مما ليس له ساق، والمراد بالشجر: ما له ساق وبه قال جمع من المفسرين.

والمراد بسجود النجم والشجر: ما يشمل انقيادهما لله عز وجل فيما خُلقا له من مصالح عباده وغير ذلك، ودلالتهما على وجوده وقدرته التامة، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وسجودهما سجوداً حقيقياً، وتسبيحهما بحمده وإن كنا لا نعقل كيفية ذلك، كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور:٤١]، فكل المخلوقات تسجد لله- عز وجل- وتسبحه وتعبده؛ إنسها وجنها، ناطقها وبهيمها، حتى الجمادات عدا كثير من الناس، كما قال عز وجل:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٧٤.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب فلم يسجد لله سجود طاعة وإيمان.

فيا سبحان الله، جميع المخلوقات تسجد لخالقها حتى البهيم منها والجماد- مع أنها لم تكلف ولا عقل لها ولا إدراك ما عدا كثير من الناس، مع ما مَنَّ الله به عليهم من العقل والإدراك والتفضيل على سائر المخلوقات.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، أي: جعلها سقف المخلوقات الأرضية، كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢].

فهي مرفوعة بغير عمد، وقيل: بعمد لا تُرى. وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات:٢٧]، أي: رفعها.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ الميزان في الأصل: أداة الوزن والعدل الحسي، كما قال أبو طالب(١):

بميزان عدل لا يُخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل

ومعنى قوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، أي: أقام العدل وأوجبه بين العباد في الأقوال والأفعال وبسطه وأنزله، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥].

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، أي: لئلا تطغوا في الميزان، والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد، أي: لئلا تزيدوا وتتجاوزوا الحق والعدل في الوزن.

---

(١) في قصيدته اللامية المشهورة والتي أخبر فيها أشراف قومه وغيرهم أنه غير مُسلِّم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبدًا، حتى يهلك دونه والتي مطلعها:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

انظر: «ديوانه» ص١٢٨، «جامع البيان» ٦/ ٣٧٧- ٣٧٨، «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩١- ٢٩٩.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: أقيموا الوزن بالعدل، أي: اجعلوا الوزن بينكم قائمًا بالعدل بلا اعوجاج في ذلك حسب مقدرتكم وإمكانكم في الأمور الحسية والمعنوية، في الأقوال والأفعال فيما لكم وفيما عليكم.

فهو عز وجل وضع العدل وأنزله، وبه خلق السموات والأرض، وأقام عليه أمر الدنيا والآخرة، وأمر به وأوجب على الناس القيام به، وأُسُّ ذلك، وأصله التوحيد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء:١٨٢]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة:٨].

﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾، أي: ولا تنقصوا الوزن وتبخسوا الميزان، فتجوروا وتظلموا، بل زنوا بالحق والقسط والعدل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥].

وما أصعب العدل والإنصاف من النفس إلا على من وفقه الله عز وجل.

وكم من حقوق ضاعت؛ بسبب الظلم والخروج عن العدل، وبسبب المداهنة في قول الحق والشهادة به، وكم من مدعٍ للدين والتقوى والورع ممن يُهمهم بقوله بلسانه: يا الله التوبة، ولكنه لا ينصف الناس من نفسه، ولا يرضى بالعدل ولا يقبله على نفسه، ولا على أقاربه وذويه ومن تربطه بهم علاقات مادية أو غيرها.

وليس الدين بالتحلي، ولا بالتمني، ولا بالهمهمة، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال.

كما قال الحسن البصري- رحمه الله-: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما

وقر في القلب وصدقه العمل»[١].

ولقد وصل الحال بالكثيرين أن يعتبروا التحايل على الحقوق وترك العدل والإنصاف مهارة وحنكة ودهاء، فإذا ما رأوا إنسانًا يقول الحق وينصف الناس من نفسه انتقدوه ورموه بالمسكنة وخفة العقل.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، أي: أنزلها بالنسبة للسماء، ومهدها وفرشها وبسطها وذللها، وأرساها بالجبال الراسيات؛ لأجل الأنام، وهم الخلائق؛ ليعيشوا عليها ويستخرجوا من خيراتها ويسلكوا سبلها، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨].

وهذا من أعظم نعم الله عز وجل على الخلق أن جعل الأرض بهذه المثابة موطأة سهلة للجلوس والبناء والسير عليها وحرثها وزراعتها واستخراج خيراتها ومعادنها.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، أي: في الأرض فاكهة، أي: جنس الفاكهة على اختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها وطعومها وروائحها من العنب والتين والرمان والبرتقال والتفاح وغير ذلك.

والفاكهة: هي كل ما يتفكه به الناس. والتفكه: الإعجاب بالشيء والسرور والتلذذ به، وطيب النفس والبال، وما ينشأ عنه من المرح ونعيم القلب.

﴿وَٱلنَّخْلُ﴾، أي: وفيها شجر النخل التي ثمرها من أطيب وأنفع الثمار، وخصه بالذكر مع أنه مما يتفكه به؛ لكثرة فوائده ونفعه، رطبًا ويابسًا.

ولهذا قال ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن النخلة»[٢].

﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ «الأكمام»: جمع «كِمْ»، والمراد بها: أوعية الطلع، وهو ما يسمى بـ«الكفر»، يخرج الطلع أول ما يخرج بداخل هذا الوعاء، ثم ينشق هذا الوعاء عن الطلع

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٤.

(٢) سبق تخريجه.

ويلقح، ثم يأخذ بالنمو شيئًا فشيئًا، فيكون بسرًا، ثم رطبًا، ثم تمرًا يابسًا.

وقيل: المراد «بالأكمام»: الليف الذي على عنق النخلة. وحمله بعضهم على ذلك كله.

والتمر غذاء كامل فيه كل ما يحتاجه الجسم، وقد كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة، لا يوقد في بيته نار، فسئلت عائشة رضي الله عنها: ما طعامكم؟ فقالت: «الأسودان التمر والماء»(١).

وعنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أوجاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثا»(٢).

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الحب: جنس الحبوب، من القمح والشعير والذرة والأرز والدخن ونحو ذلك.

وقرن الحب بالنخل؛ لأن كلاًّ من ثمر النخل والحبوب بأنواعها من أهم الأغذية وكل منها غذاء كامل بنفسه.

وقدَّم النخل- والله أعلم-؛ لكثرة منافعه، ولأن ثمره يؤكل مباشرة بلا كلفة، بخلاف الحب فيحتاج بعد استوائه وحصاده إلى دياس وتطييب وطحن وعجن وخبز ونحو ذلك.

والعصف: التبن الذي يتحصل من ورق الزرع وقشره وسيقانه بعد يبسه وحصاده، وبعد أن تطأه البهائم وتدوسه بأقدامها حتى ينعصف فيصير قطعاً صغيرة، أو بعد أن يعصف بالآلات الحديثة.

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿والريحانِ﴾ بالجر عطفًا على «العصف» وقرأ الباقون بالضم.

و«الريحان» النبات ذو الرائحة الطيبة الزكية، وقيل: هو خضر الزرع، وقيل: هو

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٧٢، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨١٥، وابن ماجه في الأطعمة ٢٣٢٧.

الرزق والطعام.

والذي يظهر من السياق- والله أعلم- أن المراد بـ (الريحان): هو النبت ذو الرائحة الطيبة، كما قال الحسن: «وهو ريحانكم هذا»(١).

ولما ذكر عز وجل جملة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الجن والإنس قررهما تعالى بنعمه فقال:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، «بأي»: استفهام معناه التحدي، «آلاء» أي: نعم قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم:٥٥].

وقد دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الجن مكلفون كالإنس، كقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وعلى هذا أجمع أهل العلم(٢)، لكن قال بعض أهل العلم: لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بكل ما كلف به الإنس بالنسبة لفروع الشريعة.

﴿تُكَذِّبَانِ﴾ التكذيب: اعتقاد أن الشيء المذكور أو المقول خلاف الواقع، والتكذيب بالنعم بمعنى كفرها وعدم شكرها، ونسبتها إلى غير مسديها.

والمعنى: فبأي نعمة من نعم ربكما أيها الثقلان تكذبان، أي: لا تستطيعان التكذيب بنعمة من نعمه عز وجل عليكما، بنفي كونها من عنده سبحانه وتعالى.

أي: أن نعمه عز وجل ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، ولا تستطيعون إنكارها ولا جحودها وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

وعن عروة بن عامر- رضي الله عنه- قال: «ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ، فقال:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٨٧.

(٢) وقد عقد البخاري في كتاب بدء الخلق من صحيحه باباً في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم. انظر «فتح الباري» ٦/ ٣٩٥، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٢، ٣٢٩- ٣٣٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٧٧.

«أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»(٢).

وكان ابن عباس- رضي الله عنهما- يقول: «لا. بأيها يارب»(٣) أي: لا نكذب بشيء منها.

قال ابن كثير(٤): «فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد».

وقال السعدي(٥): «وهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يقر بها ويشكر ويحمد الله عليها».

ويذكِّر عز وجل في هذه السورة العظيمة بالعديد من نعمه الخاصة والعامة على الثقلين في الدنيا والآخرة، مردفاً ذلك بالتحدي بعدم إمكانية التكذيب بشيء من هذه النعم بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وذلك تذكير للجن والإنس بنعمه عز وجل وامتنان بها عليهما، وحث لهما على شكره- عز وجل- على هذه النعم بنسبتها إليه وحده واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على فعل أوامره وترك نواهيه، وتكريمها وعدم إهانتها.

وفي هذا التذكير من الله عز وجل للثقلين بنعمه ووجوب شكرها أعظم الفائدة لمن

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ٣٩١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرحمن ٣٢٩١، وقال: «حديث غريب»، وأخرج الطبري نحوه في «جامع البيان» ٢٢/ ١٩٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٨٩- ١٩١.

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٦.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٤٨.

أنار الله بصيرته ووفقه في دينه وهدى قلبه فعظَّم ربه، وقدَّر نعمه، فرجع بالإكبار والتعظيم لربه- عز وجل- ولنعمه مردداً عند كل آية من هذه الآيات قوله: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

وقد قال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات اسم الله عز وجل «الرحمن» وما تضمنه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية لله عز وجل والرحمة العامة والرحمة الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

٢- أن كل ما يتمتع به الخلق من النعم هو من آثار رحمة الله عز وجل.

٣- أن أعظم نعمة أنعم الله بها على الخلق، وأجلّ رحمة رحمهم بها: إنزال القرآن وتعليمه؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٤- أن من أعظم نعم الله على الإنسان خلقه وتعليمه البيان والإفصاح عما في نفسه، وبيان طريق الحق له؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾.

٥- تمام قدرة الله- عز وجل- وعظيم نعمه على عباده في إيجاد الشمس والقمر، وجريانهما بحساب دقيق، وخلق النجوم والأشجار، ورفع السماء، وانقياد هذه المخلوقات لأمر الله- عز وجل- وما فيها من مصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.

٦- وجوب توحيد الله تعالى، والعدل في جميع الأقوال والأعمال، والوزن بالقسط، وتحريم الزيادة في ذلك والنقصان؛ لأن الله عز وجل أمر به وأقام عليه أمر السموات والأرض وأمر الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

٧- نعمة الله- عز وجل- على الخلق ببسط الأرض لهم وإخراج خيراتها لهم، التي من أفضلها الفواكه والنخل والحبوب والريحان وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر ٢٧٣٤، والترمذي في الأطعمة ١٨١٦ من حديث أنس رضي الله عنه.

وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾.

٨- تقرير الثقلين الإنس والجن بنعم الله- عز وجل- العظيمة عليهما التي لا يُستطاع عدها ولا إحصاؤها، ولا يستطيعان تكذيبها وإنكارها؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٩- أن الجن مخاطبون بالقرآن، وواجب عليهم شكر نعم الله تعالى كالإنس؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله العامة للثقلين؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

أي: أن من نعمه عز وجل على الثقلين إيجادهما وإنشاؤهما من العدم.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾، أي: من طين مبلول قد أحكم بله وأتقن حتى جف فصار له صلصلة وصوت.

﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾، أي: يشبه صوت الفخار وهو الطين المشوي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، أي: من لهب صاف لا دخان فيه. وفرقٌ ما بين عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع، وبين عنصر الجان، وهو النار التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»(١).

ونعمة الخلق من أفضل وأعظم النعم، ولهذا قال مقررًا لها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي: فلا يمكن التكذيب بنعمة الخلق، وأن الخالق هو الله عز وجل وحده، ولا بغيرها من النعم قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:٣٥].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: خالق ومالك ومدبر المشرقين والمغربين.

وهما مشرقا الشمس ومغرباها في الشتاء والصيف، ففي الشتاء تشرق الشمس من

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد- باب في أحاديث متفرقة ٢٩٩٦، وأحمد ٦/ ١٦٨.

أقصى الجنوب وفي الصيف من أقصى الشمال.

وأيضا مشرقا القمر والنجوم ومغرباهما.

قال ابن القيم[1]: «وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها أو مغربيهما، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء. فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً ويقابلهما مغرباها».

وجمع المشارق في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] باعتبار اختلاف مشارق الشمس ومغاربها وتنقلها كل يوم في هذه البروج وهي متعددة؛ لأنها تشرق كل يوم وتغرب من غير المكان الذي أشرقت وغربت منه بالأمس.

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل:٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ [البقرة:١١٥] والمراد هنا: جهة وأفق المشرق والمغرب.

وجاء في هذه السورة- سورة الرحمن- بالتثنية: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾؛ لأن سياق هذه السورة سياق المثاني المزدوجات في كثير من آياتها كما في قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥...﴾ إلى أن قال: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ﴾ إلى غير ذلك من ذكر الشيء وما يقابله في كثير من آيات هذه السورة إلى آخرها.

واختلاف المشارق والمغارب من أعظم نعم الله عز وجل وأكبرها لما يترتب على ذلك من اختلاف الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال، وما في ذلك من مصالح الخلق الجن والإنس والحيوان والنبات وغير ذلك ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤.

تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، أي: أجراهما وأرسلهما في مجاريهما، وهما العذب الحلو كمياه الآبار والأنهار والعيون. والملح المر كمياه البحار والمحيطات، قال عز وجل: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:١٢].

﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، أي: يلتقي أحدهما بالآخر، وقيل يتجاوران.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾، كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الآية:٥٣].

والبرزخ: الحاجز، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل:٦١]، وهو ما يفصل بين الشيئين، ومنه البرزخ بين الدنيا والآخرة.

والمعنى: بين هذين البحرين العذب والملح حاجز من اليابس من الأرض، أو حاجز من قدرة الله عز وجل غير مرئي للبشر، كما يوجد في بعض المواضع اختلاط العذب والملح في مجرى واحد، ولا يمتزج أحدهما بالآخر.

وقد ذكر الشنقيطي رحمه الله أن هذا محقق الوقوع في بعض البلاد، ومن المواضع التي هو واقع فيها محل اختلاط نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجانب مدينة سانلويس، فقد ذكر الشنقيطي أنه زار هذه المدينة سنة ١٣٦٦هـ وأن أحد المرافقين الثقات أخبره أنه جاء إلى محل اختلاطهما، وأنه جلس يغرف بإحدى يديه عذباً فراتاً، وبالأخرى ملحاً أجاجاً، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر(١).

﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾، أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولا يطغى عليه، فيزيل صفته المقصودة منه مع التقائهما، بل يبقى كل منهما على صفته وخاصيته ومنافعه.

فالعذب منه يشرب الناس ويسقون أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً

---

(١) انظر «أضواء البيان» ٦/ ٣٣٨- ٣٣٩.

للسفن والمراكب.

فمع كثرة الماء في الأرض، وكون نسبة اليابس إلى الماء أقل من الربع، ومع كثرة المياه المالحة، وهي مياه البحار والمحيطات لا يطغى الماء على اليابس، ولا يطغى الملح على العذب، ولا يختلط العذب بالملح بما جعله الله عز وجل بينهما من هذا الحاجز، سواء كان من اليابس من الأرض، أو من قدرة الله عز وجل، والكل من قدرة الله عز وجل؛ولهذا فإننا نشاهد اختلاف مياه الآبار مع استوائها في العمق وتقاربها بحيث لا يبعد بعضها عن بعض إلا بضعة أمتار وبعضها عذب، وبعضها ملح، فسبحان العليم القدير.

وفي إيجاد هذين البحرين العذب والملح، وتسخيرهما لجريان الفلك، وما يستخرج منهما من المياه والحيوان والحلية والمعادن وغير ذلك من المنافع، وعدم اختلاط أحدهما بالآخر، مع التقائهما، ليبقى كل منهما على خاصيته ومنافعه، كل ذلك فيه دلالة على عظم قدرة الله عز وجل، ومن أعظم نعمه عز وجل على الثقلين ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: «يُخْرَج» بضم الياء وفتح الراء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الراء: ﴿يَخْرُجُ﴾.

﴿مِنْهُمَا﴾، أي: من البحرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ﴾ [فاطر:١٢].

وظاهر قوله ﴿مِنْهُمَا﴾ بالتثنية، وقوله في آية سورة فاطر: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ﴾ يدل على أن اللؤلؤ والمرجان والحلية تستخرج من البحرين العذب والمالح.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الحلية إنما تستخرج من المالح دون العذب.

قال ابن كثير[1]: «وقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي من مجموعهما، فإذا

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٨.

وجد ذلك لأحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام:١٣٠]، والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق».

وهذا التعبير- وإن كان موجوداً في القرآن الكريم وفي لغة العرب- فإن الأولى حمل التثنية في الآيتين على ظاهرها وبخاصة إذا تحقق استخراج الحلية من العذب كما ذكر بعض أهل العلم.

قال الشنقيطي(١): «اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا﴾، أي: من مجموعهما الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لاشك في بطلانه لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ [الآية:١٢]، فالتنوين في قوله ﴿وَمِن كُلٖ﴾ تنوين عوض، أي: من كل من العذب والملح ﴿تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان وهذا مما لا نزاع فيه»(٢).

وبهذا نعلم أن الجمهور رحمهم الله حملوا الآية على المعنى الذي اختاروه، لما ثبت عندهم واشتهر وعرف من أن الحلية إنما تستخرج من الملح دون العذب، فقالوا بما علموا، وحملوا الآية على تقدير وارد في القرآن وفي لغة العرب، لكن إن ثبت استخراج

---

(١) في «أضواء البيان» ٧/ ٧٤٨، وانظر ٢/ ٢١١.

(٢) وقد علق ابن الشنقيطي على كلام والده هذا بما يؤيده بما نقله عن دائرة المعارف المصرية في عددها ٧٣ صفحة ٥٣٧ ما نصه: «وأنواع المحار كلها قد تنتج اللؤلؤ، ولكنه يوجد غالباً في أنواع معينة منها، فلقد عثر مثلاً على لآلئ رائعة الجمال في محار المياه العذبة الذي يعيش في بريطانيا، وخاصة أنهار «ويلز»، و«اسكتلندا» وأشهر لؤلؤة منها عثر عليها في نهر «كونواي» في القرن السابع عشر، أهداها أحد نبلاء الإنجليز إلى الملكة «كاترين» زوجة «شارل الثاني». وما زالت محفوظة ضمن مجوهرات التاج البريطاني في برج لندن، ولا يزال الأهالي يقتنون المحار عند مصب هذا النهر..».
انظر «أضواء البيان» ٧/ ٧٤٨- ٧٤٩ الحاشية.

الحلية من العذب فإن الأولى حمل التثنية في الآيتين على ظاهرها.

وقد قيل: إن «من» في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ للسببية، أي: يخرج بسببهما اللؤلؤ والمرجان، وذلك أن الماء العذب كاللقاح للماء الملح في إخراج اللؤلؤ، كما يتولد الولد من الذكر والأنثى؛ ولهذا يوجد اللؤلؤ حيث مصبات الأنهار في البحار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف في البحر أفواهها، فما وقع فيها من قطر فهو اللؤلؤ»[1].

واللؤلؤ: الدر، والمرجان: الخرز الأحمر، وقال بعضهم: المرجان: صغار الدر، واللؤلؤ: كباره.

قال ابن كثير[2]: «ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض امتن الله بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾، أي: وله عز وجل وحده السفن الجارية.

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ قرأ حمزة «المنشِآت» بكسر الشين، وقرأ الباقون بفتحها.

والمنشآت: جمع منشأة، وهي المرفوعات الشرع، التي أنشأها صانعوها وأصحابها لركوب البحر، والتي تنشأ وتجري في البحر وتمخر عبابه مقبلة ومدبرة، منتقلة في البحر من جانب إلى آخر ومن ساحل إلى آخر.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ الأعلام: جمع علم، وهو الجبل، فالأعلام الجبال، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار[3]

والمعنى: أن هذه السفن في كبرها وعظمتها كالجبال، وقيل كالقصور.

وهذا أمر يشاهده الناظر من بعد إلى هذه السفن الكبيرة، وهي تجري في البحر

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٠٨- ٢٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٤ الأثران ١٨٧٣٣، ١٨٧٣٤، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩: «إسناده صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

(٣) انظر «ديوان الخنساء» ص٤٠.

مقبلة أو مبحرة، أو راسية.

وفي جريان هذه السفن على ظهر البحر مع عظمها وكبرها، وما تحمله من الناس والحيوان والبضائع، مما فيه صلاح أحوال الناس ومعاشهم من النعم العظيمة ما لا يخفى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم:٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان:٣١].

ولهذا قال هنا: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- تمام قدرة الله- عز وجل- في خلق الإنس والجن مع اختلاف عنصريهما، وتقريرهما بنعمة الله عليهما في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢- إكرام الله- عز وجل- للإنس بجعل عنصر خلقهم وأصله من الطين والتراب الذي يفضل مارج النار الذي خلق منه الجن؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- للمشرقين والمغربين والإشارة لقدرة الله- عز وجل- ونعمه فيهما لما في اختلافهما من المنافع، وتقرير الثقلين بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

٤- قدرة الله- عز وجل- العظيمة في إيجاد البحرين العذب والمالح وتسخيرهما ومنع اختلاطهما، وما فيهما من المنافع وتقرير الثقلين بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

٥- نعمة الله- عز وجل- في إخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار حلية للناس يلبسونها؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

٦- عظم قدرة الله- عز وجل- وتمام نعمته في جعل السفن الكبيرة تجري على ظهر الماء وما في ذلك من المنافع التي لا تحصى، وتقرير الثقلين بذلك؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة للثقلين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ «من» اسم موصول، والضمير في «عليها»، يعود إلى الأرض، وقد سبق ذكرها في قوله ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾.

قال ابن القيم[1]: «ولم يقل «فيها» لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين».

والمعنى: كل الذي على الأرض وعلى وجه هذه البسيطة.

﴿فَانٍ﴾، أي: هالك ميت ذاهب زائل من الإنس والجن، وسائر الدواب والمخلوقات، حتى السموات والأرض والجبال، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

قال ابن كثير[2]: «يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات إلا من شاء الله».

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، وقال تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]. وفي الحديث: «أتاني جبريل فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه»[3]. قال لبيد[4]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه الطبراني في «المعجم الأوسط»٤٢٧٨، والحاكم في «المستدرك» ٧٩٢١ -وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه الطيالسي في «مسنده» عن جابر رضي الله عنه١٨٦٢، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٠٢ عن علي رضي الله عنه. وصححه السيوطي، انظر «الجامع الصغير» ٨٩.

(٤) انظر «ديوانه» ص ٢٥٦.

وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد[١]

وقال الآخر:

تعز فلا شيء على الأرض باقيا ... ولا وزر مما قضى الله واقيا[٢]

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، أي: ويبقى وجه ربك يا محمد ورب جميع المخاطبين ورب جميع المخلوقات سبحانه وتعالى، وهو الحي الذي لا يموت، كما قال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٤، آل عمران:٢].

وفي الدعاء: «ياذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»[٣].

وفي الآية دليل على إثبات الوجه لله عز وجل كما يليق بجلاله وكماله، وعلى أن البقاء له عز وجل وحده، فالمراد ببقاء وجهه عز وجل بقاؤه سبحانه بذاته وجميع صفاته، وإنما يعبر بالوجه لشرفه.

قال الشعبي: «إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾»[٤].

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ «ذو» بمعنى: صاحب، و«الجلال» العظمة والكبرياء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء»[٥].

وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي»[٦].

---

(١) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» ص٣٤٧.

(٢) البيت بلا نسبة في «أوضح المسالك» ١/ ٢٨٩، «شرح الأشموني» ١/ ٢٤٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٩٥، والنسائي في السهو ١٣٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٤، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٥٨ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٦٩.

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٨.

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، =

قال ابن تيمية[١]: «فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء، وهو أعلى من الإزار».

﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾: الفضل التام، والجود الواسع، والعطاء الجزيل، الخاص بأوليائه، والعام لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠]. وهو عز وجل يُكرم ويجود ويتفضل، ويُكرَم بتعظيمه وطاعته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦] أي: أهل أن يُتقى وأهل أن يغفر.

قال ابن كثير[٢]: «وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨]، وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٩]».

وفي تساوي أهل الأرض وغيرهم من المخلوقات بالفناء واختصاصه عز وجل بالبقاء والعظمة والكبرياء والجود وواسع العطاء نِعَمٌ من وجوه عدة، منها: المساواة بين الخلق بحيث لا يفلت أحد منهم من هذا الفناء، ولا يتميز أحد عن أحد في هذا، وهذا غاية العدل.

ومنها أن موت الكثيرين وفناءهم راحة لهم من شقاء الحياة وما فيها من المظالم وبخاصة المؤمنين وفي الأثر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٣].

ومنها: أن في فناء أهل الأرض ومصيرهم إلى الله والدار الآخرة نعمة عظيمة

=

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١) في «مجموع الفتاوى» ٥/ ٥٦.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ليحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل ويجازي كلاً بما عمل كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧، ٨]. حتى إنه في ذلك اليوم ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء(١).

وهذا من أعظم النعم أن ترد الحقوق إلى أصحابها، ويقتص للمظلومين من الظالمين، ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولهذا قال هنا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يسأل الله عز وجل من في السموات والأرض من المخلوقات سؤال عبادة وتذلل، وسؤال حاجة وافتقار، وغير ذلك مما يدل على غناه عز وجل عن خلقه وحاجة كل الخلق وافتقارهم إليه سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

و«من» في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: موصولة بمعنى «الذي» تفيد العموم، أي: يسأله عز وجل كل الذي في السموات والأرض من الملائكة، كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

ومن الإنس والجن حتى الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

ومن الحيوانات وسائر المخلوقات بلسان الحال، أو بلسان المقال، أو بهما جميعاً، كل حسب حاله وحسب ما أعطاه الله عز وجل من القدرة على السؤال وألهمه.

كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، وقال عز وجل في التسبيح: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

---

(١) سبق تخريجه.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. الشأن: الأمر، أي: أنه عز وجل في تدبير ملكه العظيم كل يوم هو في شأن وأمر.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ قال: «من شأنه: أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»(١).

فهو سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن، ولا يشغله سبحانه شأن عن شأن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويشفي مريضاً، ويغيث ملهوفاً ويفك أسيراً، ويطعم جائعاً، ويسقي ظمآن، ويهدي ضالاً، ويرحم ميتاً ويرد غائباً ويقبل تائباً، وينصر مظلوماً ويقهر ظالماً يعز من يشاء، ويذل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦، ٢٧].

قال ابن القيم(٢): «يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويكشف غماً، وينصر مظلوماً، ويأخذ ظالماً ويفك عانياً، ويغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشفي مريضاً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويعطي سائلاً، ويذهب بدولة ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصى كتابه، وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه، وسبق

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ٢٠٢.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٥، الأثر ١٨٧٣٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢١٤ من حديث عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٧٠ من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم، ونسب حديث أبي الدرداء لابن عساكر من طرق متعددة. وقد ذكره البخاري في تفسير سورة الرحمن معلقاً بصيغة الجزم عن أبي الدرداء ورواه البزار مختصراً من حديث ابن عمر. انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٧١، «فتح الباري» ٨/ ٦٢٠.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤- ٣٢٧.

به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده، تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان، والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك».

وقال أيضاً: «يغفر ذنباً ويفرج هماً، ويكشف كرباً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويعلم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفك عانياً، ويشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي مُبتلى، ويقبل تائباً، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن روعة، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويمينه ملأى، لا تغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ماذا أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه».

وتكفله- عز وجل- بحاجة جميع المخلوقات وإجابة أسئلتهم وقيامه على شؤونهم من أعظم النعم التي يستحق عليها الشكر والحمد، ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- فناء كل من على وجه الأرض والبسيطة وجميع المخلوقات وبقاء الرب- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

٢- إثبات الوجه والذات لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وإثبات ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بإضافة وصف الرب أو اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

٣- اتصاف الله- عز وجل- بالعظمة والكبرياء والإكرام والجود الواسع والفضل التام؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

٤- في المساواة بين الخلائق بالفناء وتفرده عز وجل بالبقاء والعظمة والكبرياء والإكرام والجود وواسع العطاء نعمة على الثقلين لهذا قررهما فيها، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨﴾.

٥- توجه جميع الخلق بالسؤال إلى الله- عز وجل- وتكفله بحوائجهم لا يشغله شأن عن شأن، وتقرير الثقلين بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة للثقلين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء «سيفرغ لكم».

وقرأ الباقون بالنون: ﴿سَنَفْرُغُ﴾.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ قال: «وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل، وهو فارغ»[1].

وقال البخاري[2]: «سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: «لأتفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لآخذنك على غرتك».

﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾: أي: يا أيها الثقلان.

و«الثقلان»: هما الجن والإنس، كما صرح بهما في قوله بعد ذلك: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في عذاب القبر «فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الإنس والجن»[3].

وهما المخاطبان في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والمعنى: سنقصد لحسابكم أيها الثقلان، أي: أن حسابكما قد اقترب وسيجازى كل منكما بما عمل.

وهذا من أكبر النعم أن يجزى كل بما عمل، وينتصف للمظلوم من الظالم وترد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان»٢٢/ ٢١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٥- الأثر ١٨٧٣٨.

(٢) في صحيحه في تفسير سورة الرحمن انظر «فتح الباري» ٨/ ٦٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز- الميت يسمع خفق النعال، وفي ما جاء في عذاب القبر ١٣٣٨، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٧٠، وأبو داود في الجنائز ٣٢٣١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥١، وأحمد ٣/ ٤.

الحقوق إلى أهلها.

ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويؤخذ من الآية أن الجن مأمورون منهيون محاسبون على أعمالهم.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ «يا»: حرف نداء، و«المعشر»: الجماعة والقوم والرهط و«الجن» هم نسل إبليس لعنه الله، والإنس: هم نسل آدم عليه السلام.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، أي: إن كان باستطاعتكم وقدرتكم وإمكانكم.

﴿أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النفوذ من الشيء بمعنى اختراقه والخروج منه، و﴿أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جوانبهما.

والمعنى: يا معشر الجن والإنس إن كان باستطاعتكم الخروج من أقطار السموات والأرض فراراً وهروباً من عذاب الله تعالى يوم القيامة فتعجزوه فلا يقدر على عذابكم ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾، أي: فافعلوا، وهيهات لكم ذلك.

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ وأنى لكم ذلك فما فوق سلطان الله سلطان.

وسياق الآيات ولحاقها يؤيد هذا القول وهو تحديهم أن يهربوا أو يفروا من عذاب الله في الآخرة، فقوله قبله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، أي: سنفرغ لحسابكم في الآخرة.

وقوله بعده: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ فهذا في الآخرة.

وعموم الخطاب في قوله ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ يدل على أن هذا إنما يكون إذا جمعهم الله بصعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

ويحتمل أن المعنى: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل حكمه وسلطانه ومملكته يعني في الدنيا فافعلوا وهيهات لكم ذلك فالخلق خلقه والملك ملكه والأمر أمره.

أو أن المعنى: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فافعلوا وهيهات لكم ذلك فهو مدرككم كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

أو أن المعنى: إن استطعتم أن تنفذوا بعلمكم أقطار السموات والأرض فتعلموا

ما فيهما فافعلوا وهيهات لكم ذلك.

والمعنى الأول أظهر وعليه يدل سياق الآيات وعليه أكثر المفسرين.

لكن من المعلوم أن المعاني الأخرى كلها ليست باستطاعتهم فهم لا يستطيعون الخروج والهروب عن ملك الله وسلطانه وحكمه الكوني والجزائي في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الموت.

كما لا يستطيعون الاطلاع على ما في السموات والأرض لقصور علمهم.

﴿فَٱنفُذُواْ﴾، أي: إن استطعتم ذلك، وليس ذلك بمقدوركم؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ «لا» نافية، أي: لا يمكن أن تنفذوا ﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا بسلطان وقوة تمكنكم من ذلك، وأنى لكم ذلك، فالسلطان والقهر والملك والحكم لله تعالى وحده.

قال ابن كثير[1]: «أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ إلا بأمر الله».

وقال السعدي[2]: «أي: لا تخرجون منه إلا بقوة، وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً».

والمعنى: أنه لا مفر لهم ولا خلاص من عذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة:٧- ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [يونس:٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقال

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٢.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٢.

تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق:٣٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

فلا مفر ولا محيد ولا محيص من قدر الله وحكمه وجزائه، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فالخلق خلقه، والملك ملكه، والتدبير كله بيده، ومرد الخلق كلهم إليه. وكما قيل:

أيـــن المفـــر والإلـــه الطالـــب والأشرم المغلـوب لـيس الغالـب[1]

وفي انقياد جميع الخلق لقدره عز وجل وحكمه الكوني والجزائي وهو سبحانه الحكم العدل نعمة من الله عز وجل على الخلق ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ أيها الثقلان، الإنس والجن.

﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾، قرأ ابن كثير «شِواظ» بكسر الشين، وقرأ الباقون بضمها: ﴿شُوَاظٌ﴾. والشواظ: لهب النار الذي يتقطع منها لا دخان فيه.

﴿وَنُحَاسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر السين«ونحاسٍ»؛ عطفا على ﴿نَّارٍ﴾. وقرأ الباقون بضمها ﴿وَنُحَاسٌ﴾؛ عطفاً على ﴿شُوَاظٌ﴾.

والنحاس: الصفر المذاب، أو الدخان الذي لا لهب فيه. قال النابغة الجعدي[2]:

يضـــيء كضـــوء سراج السليـــ ـــط لم يجعـــل الله فيـــه نحاســـا

أي: لم يجعل الله فيه دخانا[3].

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، أي: فلا تستطيعان الانتصار بأنفسكما، ولا بغيركما.

قال ابن كثير[4]: «والمعنى: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا».

---

(١) البيت لنفيل بن حبيب. انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٠٦.

(٢) انظر: «ديوانه»ص٨١، «جمهرة أشعار العرب»ص٢٨، «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس»ص٣٥٤، «خزانة الأدب»٥/ ٢٣٧.

(٣) انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٢٤٤، «لسان العرب» مادة «نحس».

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٣.

وفي هذا الوعيد بإرسال شواظ من نار ونحاس على من هو أهل لذلك من الثقلين، وهم المكذبون الظالمون إحقاق للحق وإبطال للباطل وانتصار للمظلومين من الظالمين، كما أن في ذلك ما يحمل على سلوك الطريق المستقيم لمن وفقه الله والبعد عن طريق أهل الجحيم، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الثقلين، ولهذا قال بعده ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتحذير للإنس والجن من قرب حسابهما ومجازاة كل منهما بما عمل وتقريرهما بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

٢- أن الجن مأمورون منهيون محاسبون على أعمالهم كالإنس؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾.

٣- تحدي الثقلين الجن والإنس أن يهربوا من عذاب الله وقضائه وحكمه الكوني، وضعفهما، وانقياد جميع الخلق لحكمه، وهو الحَكَم العدل؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾.

٤- الوعيد والتهديد للمكذبين من الثقلين، بإرسال لهب النار والرصاص المذاب عليهما مما لا يستطيعان له دفعاً لا بأنفسهما ولا بغيرهما، وفي ذلك إحقاق للحق، وحمل على سلوك الطريق المستقيم، وهذا من نعمة الله على الخلق لهذا قررهما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

٥- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة للثقلين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ الفاء استئنافية، و«إذا» ظرفية بمعنى «حين».

والمراد بالسماء سقف هذا الكون الأرضي الذي كان محفوظاً من ذي قبل كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢].

ومعنى انشقاق السماء: انفطارها وتصدعها يوم القيامة بعد أن كانت محبوكة سليمة، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧]، وقال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣]، أي: من شقوق أو صدوع في السموات.

لكن دوام الحال من المحال، فالسموات وهي من أعظم المخلوقات يعتريها من أمر الله- عز وجل- ومن أهوال القيامة ما يعتريها، فتتشقق وتتصدع وتتفطر، قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١].

﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ الفاء عاطفة. أي: فكانت تشبه الوردة في الحمرة.

﴿كَالدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت في الذوبان، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨]، والمهل: دردي الزيت، أو الفضة المذابة.

قال ابن كثير[1]: «أي: تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٣، ٤٧٤.

القيامة والسماء تطش عليهم»[١].

وإذا كانت السماء وهي من أعظم المخلوقات يعتريها ما يعتريها من أهوال القيامة كغيرها من سائر المخلوقات فإن في هذا ظهور نعمة الله- عز وجل- من وجوه:

منها تساوي جميع المخلوقات أمام قدرة الله عز وجل وعدم بقاء شيء منها على حال، وأن دوام الحال من المحال، لأي مخلوق كان.

كما أن في تذكير الله عز وجل للثقلين بهذا نعمة من الله عز وجل عليهم، ولهذا قال بعده ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيوم وقوع تلك العلامات والأهوال وهو يوم القيامة.

﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾، أي: لا يسأل عن ذنوبه، فالمراد بذنبه جنس الذنوب، وفي إضافة الذنب إلى الإنس والجن دليل على أن الجن مكلفون كالإنس.

والمعنى: ففي ذلك اليوم، وهو يوم القيامة لا يسأل أحد من الخلق من الإنس أو الجن سؤال استخبار واستعلام عن ذنوبه، وما ارتكبه من الآثام؛ لعدم الحاجة إلى ذلك؛ لأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، وكل ذلك عنده مسطر مكتوب، كما قال عز وجل: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٤].

فعلى هذا المعنى وفي هذه الحال لا يُسأل أحد عن ذنبه، كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات:٣٥- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس:٦٥]، وقال

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٦٦- ٢٦٧.

تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

لكنهم يسألون في حال أخرى، وبمعنى آخر، وهو تقريرهم بذنوبهم، كما قال عز وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

فالسؤال المنفي سؤال الاستفهام والاستخبار، والسؤال المثبت هو سؤال التقرير والتبكيت، فهذا في حال وذاك في حال، كما أن المجرمين لهم علامات تعرفهم بها ملائكة العذاب فلا تحتاج إلى السؤال عنهم، كما قال بعد هذا ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

وفي إحاطة علم الله عز وجل بأعمال الخلق وكتابتها وتسطيرها وعدم الحاجة إلى سؤالهم عن أعمالهم تمهيد لإحقاق الحق والعدل بينهم وإعطاء كل ذي حق حقه ومجازاة كل منهم بما عمل، إذ لو وكل ذلك إلى سؤالهم وما يجيبون به لكانوا بين مكذِّبٍ أو ناسٍ أو متناسٍ، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] .

ولكون هذا من نعمة الله عز وجل أتبعه بقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ﴾، أي: بعلاماتهم القبيحة السيئة كاسوداد الوجوه وظلمتها وزرقة العيون.

وذلك أن للمعاصي والذنوب والجرائم آثارها وعلاماتها السيئة على الوجوه والأبدان، كما أن للطاعات آثارها وهو بياض الأبدان والوجوه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران ١٠٦].

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾، أي: فيؤخذ منهم بالنواصي والأقدام.

والنواصي: جمع ناصية، وهي شعر مقدمة الرأس، أي: يجمع للواحد منهم بين ناصيته وقدميه، فتربط ناصيته بقدميه، ويلقى في النار.

وأَخْذ المجرم ومجازاته بما عمل من إحقاق الحق والعدل، والتذكير بذلك للخلق

من نعم الله عز وجل ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يقل: «التي يكذبون بها»؛ لوصفهم بوصف الإجرام، وبيان أنه سبب دخولهم جهنم، وليشمل هذا الوعيد كل مجرم.

أي: يقال للمجرمين حين يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويلقون في النار تقريعاً وتوبيخاً لهم، وتبكيتاً وتصغيراً وتحقيراً: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أمثالكم، أي: يكذبون بوجودها، ها أنتم تصطلون بنارها، أو تشاهدونها عيانا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر:٧] . وفي الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[(١)].

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يطوفون: أي: يدورون بين عذابها وعذاب ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾، أي: تارة يعذبون في جهنم وتارة يسقون من الحميم كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿حَمِيمٍ﴾، أي: ماء حار، ﴿ءَانٍ﴾، أي: قد بلغ الغاية في الحرارة، فلا يُستطاع، ولا يطاق من شدة حرارته، كما قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥]، أي: شديدة الحرارة، وهو شراب كالنحاس المذاب يُقَطِّع الأمعاء والأحشاء.

قال ابن كثير[(٢)]: «ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتناً بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

الفوائد والأحكام:

١- أن من أهوال القيامة انشقاق السماء وذوبانها وتبدلها وتغير حالها، وفي هذه دلالة على تساوي جميع المخلوقات أمام قدرة الله- عز وجل- في تبدلها وتغيرها، وفي هذا وفي التذكير به نعمة من الله على الثقلين لهذا قررهما فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٥- ٤٧٦.

ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

٢- علم الله- عز وجل- الواسع وخبرته التامة بأعمال الثقلين، فلا أحد منهم يسأل عن ذنبه لأن كل ذلك معلوم لله مسطر مكتوب، وفي هذا تمهيد لإحقاق الحق والعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وهذه نعمة من الله تستوجب الشكر؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣- أن للمجرمين علامات سيئة وهي سواد الوجوه وظلمتها وزرقة العيون، بها تعرفهم الملائكة فتأخذ بنواصيهم وأقدامهم وتلقيهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

٤- الوعيد والتهديد للمجرمين بجهنم التي كانوا يكذبون بها يدورون بين حر لظاها وبين حميم آن. وفي هذا وما قبله إحقاق للحق وتحذير للخلق فهو من نعم الله لهذا قررهم به؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

٥- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة للثقلين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الواو استئنافية، و«من» موصولة بمعنى الذي تفيد العموم أي: وللذي خاف من الإنس والجن قيامه بين يدي ربه جنتان، أي: لكل واحد منهم جنتان، وليس معناه لمجموع الخائفين جنتان.

قال ابن القيم[1]: «فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر والثانية جزاء اجتناب المحارم».

والمعنى: وللذي خاف القيام بين يدي ربه، خالقه ومالكه ومدبر أمره، فاتقاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، واستقام على أمره وطاعته حتى لقى ربه، وهم المقربون، ومنهم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي قيل إن الآية نزلت فيه[2].

وهذه الآية كقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠- ٤١]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٥١].

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

وقيل: إن قوله: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، معناه: خاف مقام الله واطلاعه عليه، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٩.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٥- ٢٤٩.

﴿جَنَّتَانِ﴾ مثنى «جنة» والجنة: مأخوذة من الاجتنان، وهو الستر؛ لأنها تجن أي: تستر من بداخلها بما فيها من الأشجار الملتفة المختلفة، والقصور وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف:٣٢].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(١).

وروى حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رضي الله عنه- قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه- في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ قال: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي ذر»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان- إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠، والترمذي في صفة الجنة- ما جاء في صفة غرف الجنة ٢٦٤٨، وابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، والبيهقي في «البعث والنشور» ص ٢٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٤/ ٢٩٦، ٢٩٧، والنسائي في «السنن الكبرى» ١١٥٦٠، ١١٥٦١والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٧- ٢٣٨ وروي موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه ابن المبارك في «الزهد» «٩٢٤» والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، وابن حبان في «الثقات» ٤/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠، وقال «حديث حسن غريب».

قال ابن كثير[١]: «وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا».

وفي مجازاة الله عز وجل لمن خاف مقام ربه بالجنتين تفضل من الله عز وجل وإنعام على عباده، إذ أن عمل العبد ليس عوضاً لدخول الجنة، وإنما هو مجرد سبب فقط، ودخولها إنما هو برحمة أرحم الراحمين وفضله، كما قال ﷺ: «لن يُدخل أحدَكم عملُهُ الجنة. قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[٢] ولهذا قال بعد هذه الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: نعت ووصف للجنتين، فضمير التثنية في قوله ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ يعود إلى الجنتين، أي: صاحبتا أفنان.

والأفنان: هي الأغصان ذات الألوان النضرة الجميلة الحسنة، وذات الثمار المتنوعة والمختلفة اللذيذة، وذات الأوصاف الجميلة والمزايا الحسنة والسعة وغير ذلك؛ ولهذا قال بعد هذه الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقال السعدي[٣]: «﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة، نعيم الظاهر والباطن، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة».

﴿فِيهِمَا﴾، أي: في هاتين الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، أي: سارحتان يشربون منهما ويتمتعون برؤيتهما، وتسقيان ما في هتين الجنتين من الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان والثمار قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] وهاتان العينان «إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى: «سلسبيل».

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٥.

قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان:١٨].

وهذا من فضل الله عز وجل ونعمه؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا﴾، أي: في هاتين الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ الفاكهة: ما يتفكه به ويستطاب أكله ويبعث على السرور والانبساط.

وكل ما في الجنة يؤكل على صفة التفكه لا بسبب الجوع.

﴿زَوْجَانِ﴾، أي: صنفان، والمعنى فيهما من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان من حلو وحامض وأبيض وأحمر وغير ذلك.

وقيل: معروف وغريب، كل صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظلة»(١).

واشتمال هتين الجنتين على صنفين من جميع أنواع الفواكه نعمة من الله على ساكنيهما، ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ متكئين: حال. والمراد: أهل الجنتين. والاتكاء: الاضطجاع، أو الجلوس على صفة التربع، وجلوس التمكن والاستقرار والراحة.

﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ الفرش: جمع فراش، وهو ما يفرش للجلوس أو الاضطجاع عليه.

﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ البطائن: جمع بطانة، وهي داخل الفراش مما يلي الأرض سُميت بذلك لملاصقتها للفراش وعدم ظهورها، ومنه سُميت بطانة الحاكم لملاصقتهم له في مجالسه، وتفرده بالأمر ظاهرًا دونهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨].

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٧٨، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ١٤٧. ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

أي: لا تتخذوا المنافقين خاصة لكم تفضون إليهم بأسراركم.

والإستبرق: هو غليظ الديباج، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ أي: إذا كانت بطائن هذه الفرش ودواخلها من إستبرق فكيف بظهائرها، أو فما بالك بظهائرها التي يباشرون؟! فهي أفضل بكثير وأعلى وأحسن من بطائنها- كما هي العادة؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة والجلوس عليها.

وفي هذا دلالة على نعومة هذه الفرش وحسنها وجمالها وعظمتها، وعلى علوها، وأن لها سمكاً وحشواً بين البطانة والظهارة، وأنه لا يعلم وصفها وحسنها وظهائرها على وجه الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ الجنى: ما يجنى من الأشجار من الثمار.

﴿دَانٍ﴾: قريب إليهم، أي: أن ثمر الجنتين قريب إليهم يتناولونه كيف شاؤوا قائمين أو قاعدين أو مضطجعين، أو على أي حال كانوا، ومتى شاؤوا فلا يحتاج تناوله إلى كلفة منهم، ولا ينقطع عنهم في وقت من الأوقات- كما هو الحال في ثمار شجر الدنيا، قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤].

قال ابن كثير[1]: «أي: لا تمتنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها».

وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين بعدهما، إذ لم يذكر هذا فيهما.

وفي كون أهل هتين الجنتين متكئين على هذه الفرش الوثيرة الناعمة مع قرب ثمار الجنة إليهم فضل من الله عز وجل عليهم ونعمة؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾، أي: في تلك الجنتين وما حوتاه من القصور والغرف والخيام، أو في تلك الفرش المذكورة في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أي: نساء قاصرات الطرف، قصرن طرفهن على أزواجهن،

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٩.

وغضضن الطرف عن غيرهم، والطرف: البصر والنظر، فهن لكمال محبتهن لأزواجهن وإعجابهن بهم لا يرين أحدًا أحسن ولا أجمل منهم فلا ينظرن لغيرهم ولا يبغين بهم بديلاً وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات:٤٨]، وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص:٥٢].

قال ابن كثير[١]: «وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك».

وبالمقابل فإن أزواجهن قصروا طرفهم عليهن؛ لكمال محبتهم لهن وإعجابهم بهن لا يرون أحدًا أحسن ولا أجمل منهن ولا يريدون غيرهن.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قرأ الكسائي هنا وفي الموضع بعده «لم يطمُثهن» بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾، أي: لم يطأهن ولم يجامعهن ولم يغشهن ولم يفتض بكارتهن قبلهم أحد من الإنس ولا من الجن، بل هن أبكار لم تفتض بكارتهن بعد.

قال ابن القيم[٢]: «وهذا- والله أعلم- معناه: أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم».

ويحتمل أن هذه النساء من الحور العين اللاتي أنشئن في الجنة، أو من نساء الدنيا اللاتي متن أبكاراً، أو اللاتي أنشئن خلقًا آخر أبكاراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة:٣٥- ٣٧].

قال ابن القيم[٣]: «ظاهر القرآن أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وإنما هن من الحور العين، أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن، والآية تدل على ذلك».

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٩.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣١.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٦.

قال أرطأة بن المنذر: «سُئل حمزة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن الجنيات وللإنس الإنسيات، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾»(١).

وفي كون أزواج أهل هتين الجنتين قاصرات طرفهن على أزواجهن، لا ينظرن ولا يطمحن لغيرهم، وكونهن أبكارًا نعمة من الله عليهم، ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾، أي: كأن هذه النساء قاصرات الطرف في حسنهن وبياضهن وجمالهن.

﴿ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وهما من أفضل أنواع الجواهر أي: كأنهن في صفاء ألوانهن الياقوت في صفائه. وكأنهن في بياض أجسامهن المرجان في بياضه، فهن في غاية الجمال، بيض مشربات بالحمرة مع صفاء تام وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين بعدهما.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكًا ثم استصفيته لرأيته من ورائه»(٢).

وروي هذا موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه قال الترمذي: «وهو أصح».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوأ كوكب دُريّ في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب».

وفي رواية: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة- ما جاء في صفة نساء أهل الجنة ٢٥٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة، وأنها مخلوقة ٣٢٤٥، ومسلم في الجنة، وصفة =

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم، أو موضع قيده- يعني: سوطه- من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا، ولطاب ما بينهما، ولنصيفها[1] على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[2].

وفي كون أزواج أهل هتين الجنتين على هذا الوصف من الحسن والبياض والجمال نعمة من الله عليهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ «هل»: حرف استفهام، فيه معنى النفي، أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا العمل، بالإحسان في عبادة الله عز وجل، إخلاصًا لله ومتابعة للرسول ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم.

﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ أي: إلا الإحسان إليه بالثواب الجزيل والأجر العظيم، ورؤية الرب الجليل في الجنة، كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، ثم قال: «هل تدرون ما قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»[3].

وذكر «الإحسان» في الموضعين بالتعريف يدل على أنهم من أهل الإحسان المطلق الكامل، وأن جزاءهم بالإحسان الكامل، وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين بعدهما.

وفرق ما بين الإحسانين أن الإحسان من جهة العبد واجب، أما الإحسان من الله

= نعيمها- أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣، وأحمد ٢/ ٣٤٥.

(١) أي: خمارها.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٧، وأحمد ٣/ ١٤١.

(٣) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٢٧٦.

عز وجل على العبد، فهو تفضل منه سبحانه وتعالى أوجبه سبحانه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، والإحسان أثر من آثار رحمته عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

قال ابن كثير[1]:«ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيام بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، ورقابته عز وجل على العباد والحث على الخوف منه عز وجل، ومن القيام بين يديه، وعلى مراقبته بذكر ما أعده للخائفين من الثواب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة لمن خاف مقامه؛ لقوله تعالى: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

٣- أن الله- عز وجل- أعد لكل من خاف مقام ربه جنتين فيهما من ألوان وأنواع النعيم أفضلها وأكملها فضلاً منه عز وجل وامتنانا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

٤- عظم ما أعده الله- عز وجل- لمن خاف مقامه؛ فأفنان نضرة وثمار يانعة، وعيون جارية، وفواكه مختلفة متنوعة، وفرش للجلوس وثيرة ناعمة جميلة، وثمار دانية، ونساء قصرن طرفهن عليهم لم تفتض بكارتهن، كأنهن الياقوت صفاء، والمرجان بياضاً- مع الثناء عليهم وتكريمهم معنوياً بوصفهم بالإحسان- وهذا وذاك من أعظم نعم الله عليهم ولهذا قرر الثقلين بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٠.

تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

٥- العدل في حساب الخلائق ومجازاتهم، وأن الجزاء من جنس العمل؛ فليس لمن أحسن إلا الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

٦- وجوب الإحسان في عبادة الله بإخلاص العمل لله ومتابعة الرسول ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة للثقلين؛ لقوله تعالى: ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾».

قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، أي: ومن دون الجنتين المذكورتين في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ والآيات بعدها في وصف نعيمها.

ومعنى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾، أي: أقل منهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة والدرجة ونوع النعيم، كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(١).

وفي رواية عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه- قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه- في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ جنتان من ذهب للمقربين، أو قال: للسابقين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»(١).

قال ابن القيم(٢): «ولما كان الخائفون على نوعين: مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين».

وفي جعل أهل هذه الجنان ونعيمهم على مرتبتين ودرجتين في الفضيلة والمنزلة ونوع النعيم فضل من الله ونعمة حيث لم يساو الأعلى بمن هو دونه، ولم يحرم الأدنى؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٩.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾، أي: سوداوان من شدة الخضرة والري.

وفي كون هتين الجنتين على هذا الوصف من شدة الخضرة نعمة من الله على أهل هتين الجنتين؛ لذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

لكن يظهر الفرق واضحًا بينهما وبين الجنتين السابقتين اللتين وصفهما بقوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، وهي الأغصان النضرة والثمار اللذيذة والسعة والحسن والجمال.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، أي: في هتين الجنتين عينان فوارتان فيّاضتان بالماء لا تنقطعان، لكنهما لا تجريان كالأوليين قال ابن عباس: «فياضتان»[1].

والجري أقوى من النضخ. ووجود هتين العينين الفياضتين بالماء بلا انقطاع في هتين الجنتين نعمة من الله؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا﴾، أي: في هتين الجنتين ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

قال ابن كثير[2]: «فاكهة: نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فُسِّر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما».

وقال السعدي[3]: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ من جميع أصناف الفاكهة، وأخصها النخل والرمان اللذان فيهما من المنافع ما فيهما».

وشتان ما بين فاكهة الجنة ونخلها ورمانها مما لا يعلم حقيقة صفته إلا الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] وبين ما في الدنيا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط»[4].

ويلحظ فرق ما بين الجنتين بمقارنة هذا بقوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، فهذا يعم جميع أنواع الفاكهة وأن فيهما من كل نوع منها على كثرتها وتنوعها صنفان بخلاف

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٥٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٧، الأثر ١٨٧٥٤.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢، وانظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٢٦٠- ٢٦١.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٨.

(٤) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة- رقم ١٢٤، وانظر مجموع الفتاوى، ٥/ ٢٥٧، ١١/ ٤٨٢.

قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ فإن هذا وإن حمل على جميع أنواع الفواكه، كما قال السعدي- وليس ببعيد- لكنه لا يدل على أن من كل نوع صنفين كما دل على ذلك قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ- فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم فيها فاكهة ونخل ورمان» قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: «نعم، وأضعاف» قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: «لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما في بطونهم من أذى»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم ومنها حللهم، وكَرَبها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب»(٣).

ووجود الفاكهة والنخل والرمان بهتين الجنتين من نعم الله عز وجل على أهلهما؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾، أي: في الجنتين، وعبَّر بضمير الجمع وهما اثنتان؛ لأن أقل الجمع اثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨]، وقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤].

وأيضًا فإن هتين الجنتين بما فيهما من ألوان الأشجار والثمار والغرف والمنازل المختلفة بمثابة جنان.

﴿خَيْرَٰتٌ﴾: جمع «خيرة»، مخففة من «خيّرة» بالتشديد أي: نساء خيرات الصفات والأخلاق والشيم.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٨، الأثر ١٨٧٥٨.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢

﴿حِسَانٌ﴾ أي: جميلات الوجوه والأبدان، جمع الله لهن بين جمال الخَلق والخُلق، وجمال الظاهر والباطن، ورُويَ أن الحور العين يغنين:

نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام[1]

وقيل: المراد بـ«خيرات» أي: خيرات كثيرة حسان في الجنة، أي: فيهن من أنواع الخير الشيء الكثير الحسن، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

ومع أن هذا المعنى صحيح، وهو أيضًا أعم من الأول، لكن الأظهر والذي يدل عليه السياق وبخاصة ما بعد هذا وهو قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ يرجح أن المراد بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾: النساء الصالحات حسان الأخلاق والوجوه والأبدان، وذلك من نعم الله عز وجل على أهل هذه الجنان؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ حور: جمع حوراء. والحَوَر: سعة العين مع شدة بياضها وسوادها، وهو غاية جمالها، أي: نساء بيض واسعات الأعين.

﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾، أي: مخدرات مخفرات ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ الخيام: جمع خيمة، والخيمة في الأصل بيت من بيوت العرب مستدير يبنى من عيدان الشجر.

والمراد بالخيام، في الآية خيام اللؤلؤ، فهن مصونات مكنونات في هذه الخيام، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٨، ٤٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

عليهم المؤمنون، جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ قال: خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك، لا مراحات ولا طماحات، ولا بخرات، ولا ذفرات، حور عين كأنهن بيض مكنون»(٣).

ورُويَ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة فيها سبعون بابًا من در»(٤).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء»(٥).

ويظهر فرق ما بين الجنتين الأوليين وهتين الجنتين في هذا، فهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ بينما قال هنا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ فمن قصرن طرفهن على أزواجهن باختيارهن لا ينظرن لغيرهم ولا يبتغين بهم بدلاً أفضل وأكمل ممن قُصِرن بغيرهن وإن كن جميعًا فاضلات.

ومن نعم الله عز وجل على أهل هتين الجنتين ما لهم فيهما من هذه النساء الجميلات

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٨، الأثر ١٨٧٥٩، مختصرًا.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٨، الأثر ١٨٧٦٣، والطبرى مختصرًا، في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٦٢، ٢٦٨.

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٣.

(٥) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة- ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة ٢٥٦٢.

المصونات المخدرات؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ الطمث: الجماع أي: لم يجامعهن ولم يطأهن قبلهم أحد من الإنس أو الجن فيزيل بكارتهن.

قال الطبري[1]: «لم يمسسهن إنس قبلهم بنكاح فيدميهن ولا جان».

وهذا الوصف تشترك فيه نساء أهل هتين الجنتين، مع نساء أهل الجنتين قبلهما لكنه زاد في وصف نساء الجنتين الأوليين بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ولما كان من نعم الله على أهل هتين الجنتين أن أزواجهم أبكار قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: حال، أي: مضطجعين، أو جالسين على هيئة التربع والاتكاء.

﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرفرف: المحابس»[2].

وهي جمع محبس وهو ما يبسط على وجه الفرش العالية للاضطجاع والجلوس عليه براحة، أو غير ذلك من الوسائد والمساند وغيرها مما يتخذ للجلوس والاضطجاع.

﴿خُضْرٍ﴾، أي: لونها أخضر، وهو أنسب ما يكون من الألوان للنظر، وأبهجها للقلب.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري في الأصل: الجيد القوي من كل شيء حتى من الناس، كما في قوله ﷺ: «أُريت كأني أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين، فنزع نزعاً ضعيفاً، والله تبارك وتعالى يغفر له، ثم جاء عمر فاستقى، فاستحالت غرباً، فلم أرعبقريا من الناس يفري فريه، حتى روي الناس، وضربوا العطن»[3].

ومعنى «يفري فريه» أي: ينزع مثل نزعه من قوته رضي الله عنه.

والمراد بقوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: البسط والزرابي الجياد المخملة، والديباج الرقيق، وغير ذلك مما يرتفق به ويتكأ عليه.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٣٣، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل عمر بن الخطاب- رضي الله عنه ٢٣٩٣، والترمذي في الرؤيا ٢٢٨٩، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما

وقال السعدى[١]: «العبقرية نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا؛ ولهذا وصفها بالحسن الشامل؛ لحسن الصفة والمنظر، ونعومة الملمس».

قال ابن كثير[٢]: «وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى».

وقد استنبط ابن القيم من الآيات تفضيل الجنتين الأوليين على الجنتين الأخريين من عشرة أوجه[٣] قال في التاسع منها: «أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين وجعلهما جزاء لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين، ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين».

وقال ابن كثير[٤] بعد كلامه المتقدم: «وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هتين الأخريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين».

أقول: اللهم اجعل ابن كثير منهم واجزه عن الإسلام والمسلمين وعن خدمة كتابك خير الجزاء، واجعلنا منهم ووالدينا ووالديهم وأقاربنا وجيراننا وعلماءنا وجميع إخواننا المسلمين. اللهم آمين.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، ﴿تَبَٰرَكَ﴾، أي: تعالى وتعاظم، وكثر خيره وإحسانه وإنعامه.

قال ابن كثير: «أي: هو أهل أن يجل فلا يُعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى».

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٩.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٧- ٣٣٩.

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قرأ ابن عامر: «ذو الجلال»بالواو بعد الذال، وقرأ الباقون بالياء: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾.

و«ذي»: بمعنى صاحب. والجلال: العظمة والكبرياء. والإكرام: الفضل التام. أي: الذي يجب أن يُجلَّ ويُعظَّم ويُكرَم والذي يُكرِم، عبادَه.

عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألظّوا[1] بـ"يا ذا الجلال والإكرام"»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[3].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[4]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أجلوا الله يغفر لكم»[5].

الفوائد والأحكام:

١- أن من دون الجنتين الموصوفتين في الآيات السابقة جنتان أعدهما الله لمن كان دون أصحاب تلك الجنتين فالأوليان للسابقين المقربين وهتان لأصحاب اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

٢- أن الخائفين ينقسمون إلى قسمين سابقون مقربون وأصحاب يمين.

---

(١) ألظّوا: أي: الزموا، يقال: ألظ بفلان، أي: لزمه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٧٧، والحاكم في مستدركه ١/ ٤٩٨- ٤٩٩ وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ في الدعوات ٣٥٢٤، وقال: «هذا حديث غريب، وقد رُويَ هذا الحديث عن أنس من غير هذا الوجه».

(٣) أخرجه مسلم في المساجد- استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٢، وأبو داود في الوتر- ما يقول الرجل إذا سلّم ١٥١٢، والنسائي في السهو- الذكر بعد الاستغفار ١٣٣٨، والترمذي في الصلاة- ما يقول الرجل إذا سلّم ٢٩٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة- ما يقال بعد التسليم ٩٢٤.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب- في تنزيل الناس منازلهم ٤٨٤٣.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٩.

٣- فضل الله- عز وجل- وعدله حيث لم يساو الأعلى بمن هو دونه ولم يحرم الأدنى وهذا من نعم الله- عز وجل- ، ولهذا قرر بها الثقلين.

٤- عظم ما أعده الله- عز وجل- لأصحاب هتين الجنتين- وإن كانتا دون الأوليين- فخضرة شديدة، وعينان فياضتان بالماء، وفاكهة ونخل ورمان، وخيرات حسان، وحور مقصورات في الخيام لم يفتض بكارتهن قبلهم إنس ولا جان، وبسط للجلوس والاتكاء رقاق حسان. وهذا من أعظم النعم والنعيم، ولهذا قرر الثقلين به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾.

٥- ثناء الله- عز وجل- على نفسه بالعلو والعظمة وكثرة الخير والإحسان والإنعام. وإثبات ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة وصفه أو اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

٦- امتنان الله عز وجل على الثقلين بربوبيته العامة لهم، ونعمه الكثيرة عليهم وفضله العظيم وتذكيرهم بذلك في ثنايا ذكر هذه النعم في آيات هذه السورة بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولهذا يشرع أن يقال بعد هذه الآية: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»(١).

وصدق الله العظيم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

وقد كررت هذه الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في هذه السورة إحدى وثلاثين

---

(١) سبق تخريجه.

مرة، ثمان منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وعظيم نعمه وبدائع صنعه.

ثم سبع عقب آيات فيها الوعيد للمكذبين والتحدي لهم وتخويفهم بالأهوال والعذاب.

ثم ثماني آيات في وصف الجنتين الأوليين، وثمان أخرى في وصف الجنتين دون الأوليين.

٧- تفاوت درجات نعيم أهل الجنة وصفات ما هم فيه من الجنان فلكل واحد من المقربين جنتان وصفهما وما فيهما من ألوان النعيم في غاية التمام والكمال والحسن والجمال والفضل والإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

ولكل واحد من أصحاب اليمين جنتان فيهما من ألوان النعيم كذلك لكنهما دون الأوليين في ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

ومن أعظم النعيم أن أهل الجنة على تفاوت منازلهم واختلاف درجاتهم كل منهم في غاية الرضا والراحة والسرور والطمأنينة، لا يرى أن أحدًا أحسن حالاً منه، ولا أعلى نعيمًا مما هو فيه، وذلك أن الله عز وجل بفضله وكرمه أذهب عن أهلها الحزن.

كما قال عز وجل: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

ولهذا جاء الامتنان على أهل الجنتين الأوليين، واللتين دونهما جميعًا بتكرار قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع كل منهما ثماني مرات توكيدًا وتذكيرًا.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْوَاقِعَة

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الواقعة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت! قال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**»(١).

ب- مكان نزلوها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر الواقعة، ونحوها من السور»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتحقيق وقوع القيامة، وشدة أهوالها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

٢- ذكر انقسام الناس في ذلك اليوم إلى ثلاثة أقسام: السابقون المقربون وأصحاب اليمين، وذكر ما أعد لكل منهما من أنواع النعيم، وأصحاب الشمال وذكر ما أعد لهم من أصناف العذاب الأليم: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة ٣٢٩٧- وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٠٤.

٣- بيان عظمة الله تعالى ومظاهر تمام قدرته في خلق بني آدم من العدم وتقدير الموت بينهم، وفي إخراج الزرع وإنزال الماء من السماء، وفي إيجاد النار التي يورون: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

٤- تعظيم القرآن الكريم: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٥- ثم ختمت السورة بإيجاز ما أعد لكل صنف من الأصناف المذكورة أول السورة من النزل: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إذا: ظرف متعلق بقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ وقيل: بغير ذلك.

والواقعة: اسم من أسماء القيامة، كالحاقة والقارعة ونحو ذلك، أي: إذا قامت القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٥] أي: قامت القيامة، وقال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١، ٢].

وحُذف جواب الشرط ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب، أي: إذا قامت القيامة يحصل من الأهوال العظيمة والأحوال الفظيعة ما لا يخطر على البال، وانقسم الناس إلى أصناف ثلاثة حسب أعمالهم وجزائهم.

وسميت القيامة بالواقعة لتحقق كونها ووقوعها ومجيئها.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أي: ليس لوقعتها كذب، بل لابد أن تكون وأن تقع لا محالة، إذا أراد الله كونها، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى:٢٩].

وعند وقوعها لا صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، ولا مانع يمنعها، كما قال عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى:٤٧]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج:١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:٧٣].

وليس لها نفس تكذب في وقوعها آنذاك؛ لأنه ليس الخبر كالعيان كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧]، وقال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

﴿خَافِضَةٌ﴾، أي: خافضة واضعة لأقوام: خفضاً حسياً بخفض منازلهم في أسفل سافلين، وفي سجين في دركات الجحيم كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ [التين:٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧﴾ [المطففين:٧].

وخفضًا معنويًا يذهب بعزهم ويذلهم، كما قال عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ [النساء:٥١].

وفي الحديث: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»(١).

﴿رَّافِعَةٌ﴾، أي: رافعة لأقوام؛ رفعًا حسياً برفع منازلهم في أعلى عليين، وفي الفردوس الأعلى في جنات النعيم، كما قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين:١٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١١].

ورفعًا معنويًا فيه عزهم وكرامتهم ورفع قدرهم وشأنهم، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

ففي وقوع القيامة خفض لأعداء الله حسًا ومعنى، ورفعة لأولياء الله عز وجل حسًا ومعنى، وذلك أن النعيم حسي ومعنوي، كما أن العذاب حسي ومعنوي.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦﴾.

هذه الآيات في ذكر بعض ما يحدث في القيامة من الأهوال.

قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾، أي: إذا حركت واضطربت تحريكاً واضطرابًا شديدًا، وزلزلت زلزالاً عظيمًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج:١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل:١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٢، وأحمد ٢/ ١٧٩، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده- رضي الله عنه وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة:١]، أي: حركت تحريكها الشديد.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾، أي: فتّتت الجبال تفتيتًا، بأن صارت وتحولت إلى أكوام من الرمل بعد أن كانت صخرًا صلدًا، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل:١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ الهباء: ما لا يمسك منه شيء مما يتطاير في الجو وتذروه الرياح من الغبار والأتربة وشرر النار ويابس الشجر، وغير ذلك، ومنه ما يرى في شعاع الشمس عندما يدخل في الكوة.

(منبثاً) أي: متفرقاً منتشراً، بسبب خفته وضآلته وضحالته، كما قال عز وجل: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة:٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج:٩]، وقال عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النحل:٨٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور:٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير:٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات:١٠].

وإذا كانت الجبال وهي هذه المخلوقات العظيمة يعتريها ما يعتريها من التغيّر والتبدل والخفة والحركة والتسيير والنسف والتفتت فكيف بابن آدم المخلوق الضعيف الذي يريد دوام الحال، ودوام الحال من المحال.

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾، أي: وكنتم عندما تقع الواقعة وتقوم القيامة أصنافًا ثلاثة:

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾، أي: أصحاب اليمين الذين يؤخذ بهم ذات اليمين، ويكونون عن ميمنة العرش أي: عن يمين العرش، ويأخذون كتبهم بأيمانهم، كما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة:١٩]، وقال عز

وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٧، ٨].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تعظيم لحالهم وشأنهم، أي: ما أعظم حال وشأن أصحاب الميمنة.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، أي: أصحاب الشؤم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال، ويكونون عن يسار العرش، ويأخذون كتبهم بشمائلهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾ [الحاقة:٢٥، ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق:١٠-١٢].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تحقير لحالهم وشأنهم، وتهويل لعقابهم وعذابهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، أي: والمسارعون المبادرون إلى فعل الواجبات وترك المنهيات، وفعل أنواع الخيرات وإلى مرضاة الله عز وجل ومغفرته وجنته.

﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تأكيد، أي: والسابقون السابقون حقًا، أو والسابقون هم السابقون حقا، أوهم هم لا من عداهم.

وفي هذا التعبير ما لا يخفى من الثناء عليهم، والإشارة والتنبيه لاتصافهم بأفضل الصفات، وما لهم عند الله من عظيم المنازل وأعلى الدرجات.

وأيضا السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحات والخيرات هم السابقون في الآخرة إلى المغفرة والجنات، كما قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقال عز وجل: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد:٢١]، وقال عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ

ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين:٢٦].

وقد ذكر الله عز وجل في آخر هذه السورة حالة هؤلاء الأصناف الثلاثة، عند احتضارهم، كما ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر:٣٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ قال: «هي التي في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الآية:٣٢]»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»(٢).

قال ابن كثير(٣) في كلامه على الآية ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾: «أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة.

وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار- عياذًا بالله من صنيعهم- وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين».

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وتحقق وقوعها وشدة أهوالها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٩- الأثر ١٨٧٧٢.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٦٧، ٦٩.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٩.

٢- لا أحد يكذب بالقيامة بعد وقوعها لأنه ليس الخبر كالعيان؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

٣- انخفاض منازل أقوام في ذلك اليوم إلى دركات الجحيم وهم الكفرة والمكذبون، وارتفاع منازل أقوام إلى أعلى عليين وهم المؤمنون المتقون؛ لقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

٤- اضطراب الأرض وارتجاجها وتفتت الجبال وكونها هباء متفرقاً يتطاير في الهواء لشدة أهوال القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

٥- انقسام الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٦- عظم شأن أصحاب اليمين، وعظم حقارة أصحاب الشمال.

٧- علو مكانة السابقين والثناء عليهم، وأنهم هم السابقون حقاً.

٨- الحث على المسابقة والمسارعة في طاعة الله تعالى، وأن أهل السبق في الدنيا هم أهل السبق في الآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، الإشارة للسابقين، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنبيهًا على فضلهم وعلو مكانتهم، أي: المقربون من الله عز وجل، منهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء. وذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم؛ لأن قربهم من الله- عز وجل- أفضل من كل شيء، ولهذا قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون- رحمها الله-: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] فاختارت الجار قبل الدار.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بقوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: المقربون عند الله وبين يديه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في الفردوس الأعلى من الجنة الذي فوقه عرش الرحمن.

والجنات: جمع جنة، وهي لغة البساتين، كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:٣٢].

والمراد بـ«جنات النعيم» تلك المنازل الرفيعة، والدور العالية ذات الأشجار الملتفة الكثيرة والثمار اليانعة القريبة مما لا يُقدِّر قدر صفته إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

وعن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم اقترأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾»[١].

و«النعيم»: ما فيها من ألوان التنعم، والنعم الحسية والمعنوية ونعيم البدن والقلب، ولهذا أضافها إليه فقال: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

فهؤلاء السابقون في الدنيا إلى الخيرات السابقون في الآخرة لدخول الجنات المقربون عند رب الأرض والسموات.

﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: جماعة كثيرة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: من صدر هذه الأمة، كما قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»[٢].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾، أي: من آخر هذه الأمة.

فالمعنى على هذا: أن السابقين المقربين كثير منهم من أول هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة على متأخريها، كما قال ﷺ «لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[٣].

وعن الزبير بن عدي قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم عام أو يوم إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم عز وجل سمعته من نبيكم ﷺ»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٩، وابن ماجه في الأحكام- كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ٢٣٦٢، وأحمد ١/ ٣٧٨، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة- قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً» ٣٦٧٣، ومسلم في فضائل الصحابة- تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٢٥٤١، وأبو داود في السنة- النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ ٤٦٥٨، والترمذي في المناقب- من سب أصحاب النبي ﷺ ٣٨٦١، وأحمد ٣/ ١١، ٥٤ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

وقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، والمراد بالآخرين هذه الأمة، فيكون المعنى على هذا أن السابقين المقربين كثير منهم من الأمم الماضية، وقليل منهم من هذه الأمة وذلك باعتبار مجموع المقربين من الأمم السابقة إلى المقربين من هذه الأمة، وليس المعنى أن المقربين من كل أمة من الأمم السابقة أكثر من المقربين من هذه الأمة.

وهذا المعنى خلاف ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم اختلفوا فيه، فهدانا الله فيه، فالناس لنافيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد»(١).

وفي حديث الإسراء: «أن موسى عليه السلام بكى فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلامًا يبعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»(٢).

فالظاهر الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة هو القول الأول وهو أن المعنى: جماعة كثيرة من المقربين من صدر هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ شق ذلك على المسلمين فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فقال النبي ﷺ: «**إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة، وتقاسمونهم النصف الثاني**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٩١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٠- الأثر ١٨٧٧٥، وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٩٢.

وفي حديث أبي سعيد- رضي الله عنه- قال ﷺ: «وإني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»(١).

وفي حديث بريدة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»(٢).

قال ابن كثير(٣) بعدما ذكر اختيار ابن جرير للقول بأن المراد بالأولين الأمم الماضية وبالآخرين هذه الأمة: «وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، فيكون المراد بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، أي: من هذه الأمة».

وقال ابن كثير أيضًا(٤): «ولاشك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها».

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره**»(٥).

ثم قال: «فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم، ولهذا قال عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ٢٥٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٨٩- وقال الترمذي «حديث حسن».

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٢.

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٣.

(٥) أخرجه أحمد ٤/ ٣١٩. وأخرجه الترمذي في الأمثال ٢٨٦٩، من حديث أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره». وقال الترمذي: «حسن غريب من هذا الوجه».

خالفهم إلى قيام الساعة» وفي لفظ: «حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[١].

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظيم قدر نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر «أن في هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب»[٢].

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ السرر: جمع سرير، وهو موضع الاتكاء والجلوس والاضطجاع ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾، أي: منسوجة بالذهب مصفوف بعضها إلى جانب بعض، ليس بعضها خلف بعض ولا بعيدًا من بعض.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي: جالسين عليها معتمدين على أيديهم وظهورهم، جلوس المتكئ المرتاح المنبسط المطمئن المستقر.

﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾، أي: يقابل بعضهم بعضًا بقلوبهم ووجوههم، لسعة المكان ولسلامة قلوبهم وصفاء مودتهم وحسن أدبهم، ليس أحد منهم وراء الآخر، ولا أحد منهم يدير قفاه إلى الآخر، بل يقبل بعضهم على بعض بوجهه وكليته والاستماع إلى كلامه، وهذا مما يزيد في الأنس والسرور والمحبة نسأل الله عز وجل من فضله؛ لأن الله عز وجل أذهب عن أهل الجنة الغل. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧].

وهكذا ينبغي أن يتأدب بهذا الأدب المؤمنون بعضهم مع بعض ماداموا في دار العمل.

ولك أخي الكريم أن تتصور مدى كراهة من يدير قفاه إلى إخوانه غير مكترث بالآداب الشرعية والأحكام المرعية، مما يولد الكراهية والغل والحقد والضغينة في نفوس الآخرين.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام- قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي» ٧٣١١، ومسلم في الإمارة ١٩٢١، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦، من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-

ولهذا نهى ﷺ عن التدابر فقال ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»(١).

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: يدور عليهم لقضاء حوائجهم.

﴿وِلْدَانٌ﴾: جمع ولد، أو جمع وليد، وهم صغار الأسنان، قال تعالى: ﴿اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء:٧٥] وهم في غاية الحسن والبهاء، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور:٢٤].

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾، أي: باقون على هيئتهم لا يكبرون ولا يشيبون ولا يتغيرون.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: يطوف عليهم هؤلاء الولدان ﴿بِأَكْوَابٍ﴾: جمع كوب، وهي: الكيزان والأقداح التي لا عرى لها ولا خراطيم.

﴿وَأَبَارِيقَ﴾: جمع إبريق، وهي ما لها عُرى وخراطيم.

﴿وَكَأْسٍ﴾ الكأس: هو القدح والمراد به، كأس الخمر.

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، أي: من خمر معين، والمعين: هو الذي لا ينضب، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك:٣٠].

والمعنى: وكأس من عين جارية من خمر لا تنضب أبدًا، في غاية اللذة والنشوة والطرب، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد:١٥].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بكسر الزاي، وقرأ الباقون بفتحها: «يُنزَفون»، أي: لا يحصل لهم صداع في رؤوسهم عند شربها، ولا نزيف في بطونهم، ولا في عقولهم يجعلهم يهذون بما لا يدرون، ويقولون ويفعلون ما لا يعقلون، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

والقيء، والبول، فذكر الله عز وجل خمر الجنة، ونزهها عن هذه الخصال»[١].

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾: معطوف على ما قبله أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يتخيرون من أنواع الفواكه والثمار؛ للذتها وطيب طعمها ومذاقها، وزكاء رائحتها وحسن منظرها وغير ذلك.

قال ابن كثير[٢]: «وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها- ثم استدل بحديث عكراش بن ذؤيب، وفيه: أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، قال: «فانطلقنا إلى منزل أم سلمة، فقال: هل من طعام؟ قال: فأتينا بجفنة كثيرة الثريد والوذر[٣]، فجعل يأكل منها، فأقبلت بيدي في جوانبها، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمني، فقال: يا عكراش كل من موضع واحد، فإنه طعام واحد، ثم أتينا بطبق فيه تمر- أو رطب، فجعلت آكل من بين يدَيّ، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق، وقال: يا عكراش، كل من حيث شئت، فإنه غير لون واحد...»[٤].

فإذا كان الطعام متنوعًا ومختلفًا فللإنسان أن يمد يده إلى ما شاء منه، أما إذا كان الطعام واحدًا فينبغي أن يأكل مما يليه كما جاء في حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»[٥].

على أن الآية: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ قد تحمل أيضًا على أن المراد بها مما يتخيرون من أنواع الأشجار وصنوف الثمار فيقطفونها من شجرها.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾: معطوف على قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ مما يدل على

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره» ٧/ ٤٩٥- ٤٩٦.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٦.

(٣) الوذر: قطع من اللحم لا عظم فيها، واحدها وذرة. انظر «لسان العرب» مادة «وذر».

(٤) أخرجه الترمذي في الأطعمة- ما جاء في التسمية على الطعام ١٨٤٨، وابن ماجه في الأطعمة- الأكل مما يليك ٣٢٧٤، وقال الترمذي «غريب».

(٥) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٧٦، ومسلم في الأشربة ٢٠٢٢، وأبو داود في الأطعمة ٣٧٧٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٦٧.

أن اللحم يؤكل بعد الفاكهة- خلاف ما عليه حال كثير من الناس اليوم.

وقد دل الطب على أن تقديم الفاكهة أفضل وأنفع للجسم. وقد قيل:

وقَـــدِّمَنْ فاكهـــة في الأكـــل قبـــل الطعـــام لحصـــول النفـــع

والمعنى: ولحم طير من الذي تشتهيه نفوسهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة. فقال: «أَكَلَتُها أنعم منها قالها ثلاثًا- وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكرت عند النبي ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: «هل بلغك ما طوبى؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: طوبى شجرة في الجنة، ما يعلم طولها إلا الله، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفًا، ورقها الحلل يقع عليها الطير كأمثال البخت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هناك لطيرًا ناعمًا؟ قال: أنعم منه من يأكله، وأنت منهم إن شاء الله»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله- يعني في الجنة- أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ: أكلتها أحسن منها»(٣).

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي: بالجر،(وحورٍ عينٍ) وقرأ الباقون بالرفع ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾.

فمن قرأ بالجر عطفه على ما قبله، أي: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾، أي: ويطوفون عليهم بحور عين.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٢١.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي في كتابه «صفة الجنة» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٩٧.

(٣) اخرجه الترمذي في صفة الجنة- ما جاء في صفة طير الجنة ٢٥٤٢، وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

ويحتمل أن يكون «وحور» على قراءة الجر مجروراً على المجاورة والإتباع لما قبله، كما في قوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦] على قراءة جر «وأرجلِكم».

وكما في قوله ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ [الإنسان:٢١] على قراءة جر «خضرٍ».

والأظهر القول الأول إذ لا إشكال في عطفها على ما قبلها، وكون الحور العين مما يطوف به عليهم خدمهم في الجنة، ولا حاجة للإعراب على الإتباع والمجاورة.

وعلى قراءة الرفع يكون قوله: ﴿وَحُورٌ﴾: مرفوع على الابتداء، أو على أنه خبر والتقدير: وحور عين لهم، أو ولهم حور عين.

ومعنى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، أي: ونساء جميلات واسعات الأعين مع شدة سواد العين وشدة بياضها وحسنها.

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ﴾، أي: كأشباه اللؤلؤ، أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب الذي هو من أحسن الجواهر وأطيبها وأنفسها.

﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾، أي: المصون، في أصدافه في بياضه وصفائه، الذي لم تمسه الأيدى، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:٤٩]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨]، وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢].

﴿جَزَآءًۢ﴾، أي: مجازاة لهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (ما) موصولة، أو مصدرية أي: مجازاة لهم بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم.

أي: هذا الجزاء العظيم والثواب الجزيل الذي أعده الله للسابقين المقربين مجازاة لهم بسبب عملهم الذي كانوا فيه من السابقين المبادرين المسارعين إلى الخير والمتنافسين فيه.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، أي: لا يسمعون في تلك الجنات جنات النعيم لغوًا من القول، أي: لا يسمعون كلامًا لاغيًا ساقطًا غثاءً خاليًا من المعنى، عديم الفائدة، حقيرًا وضيعًا كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ:٣٥].

وقال عز وجل: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الغاشية:١١] أي: لا تسمع فيها كلمة لاغية.

﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾، أي: ولا يسمعون فيها كلامًا قبيحًا محرمًا، يوجب الإثم على قائله،

وسامعه، من كلمات الشرك والكفر والزندقة، والغيبة والنميمة والباطل والكذب وغير ذلك، كما قال عز وجل في سورة النبأ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ:٣٥].

وقال تعالى في خمر الجنة: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور:٢٣].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ إلا: أداة استثناء، بمعنى «لكن» فالاستثناء منقطع أي: لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما، لكنهم يسمعون فيها السلام.

والمعنى: أنهم لا يسمعون إلا السلام الذي هو ضد اللغو والتأثيم، فنفى سماعهم اللغو والتأثيم، وأثبت لهم سماع ضده وهو السلام.

وقوله ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾، أي: لا يسمعون إلا السلام المتكرر، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم:٦٢] أي: لا يسمعون إلا قول السلام من ربهم ومن الملائكة، ومن بعضهم على بعض- نسأل الله تعالى من فضله.

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣].

وقال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس:١٠]، وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم:٢٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان:٧٥].

وهذا من النعيم المعنوي الذي لا يقل عن النعيم الحسي مما يشرح الصدور ويؤنس القلوب.

الفوائد والأحكام:

١- أن السابقين هم المقربون عند الله تعالى في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

٢- أن السابقين المقربين أكثرهم من صدر هذه الأمة وقليل منهم من آخرها؛

لقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾.

٣- علو مرتبة السابقين المقربين عند الله، وعظم ما أعده الله- عز وجل- لهم من النعيم، كيفية وكمية فسرر مصفوفة منسوجة بالذهب، ومجالس متقابلة، وغلمان مخلدون يدورون عليهم بشرابهم وطعامهم وحوائجهم، وأقداح وأباريق، وكأس خمر من معين لا ينضب، لا صداع فيه ولا نزيف، وفواكه مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون ونساء حسان جميلات، كاللؤلؤ المصون بياضاً وصفاء؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾. وقوله: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

٤- بيان أن ما أعده الله للسابقين المقربين من الفضل العظيم والثواب الجسيم بسبب سبقهم بالخيرات والأعمال الصالحة، وفي هذا ترغيب للمنافسة والمسابقة في ذلك. وأن العمل سبب لدخول الجنة والنعيم، وليس بعوض عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

٥-أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

٦- أن من أعظم نعيم السابقين المعنوي سلامة قلوبهم من الغل والحقد والحسد، وتنزيه أسماعهم في الجنة من سماع اللغو والتأثيم، وسماعهم السلام من ربهم ومن الملائكة ومن بعضهم لبعض؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣١﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٢﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٤﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٥﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٦﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٧﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال ومآل السابقين المقربين وفصّل ما أعده لهم من ألوان وأنواع النعيم، ثم عطف عليهم بذكر حال ومآل أصحاب اليمين وتفصيل ما أعده لهم من ألوان وأنواع النعيم.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ أصحاب اليمين: هم مَنْ منزلتهم دون المقربين.

قال ابن كثير[1]: «يكونون على يمين العرش، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين، وهم الأبرار».

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ تعظيم لشأنهم، وحالهم ومآلهم.

﴿فِى سِدْرٍ﴾ السدر: هو شجر النبق ظله بارد ومنشط.

﴿مَّخْضُودٍ﴾: موقر منضود بالثمر من أسفله إلى أعلاه قد قطع ونزع شوكه، بخلاف سدر الدنيا فهو كثير الشوك قليل الثمر.

عن سليم بن عامر- رضي الله عنه- قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ- يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يومًا فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما هي»؟ قال: السدر، فإن له شوكًا مؤذيًا فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله يقول: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر»[2].

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٩، ٨/ ٣.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «زيادات الزهد» ص ٧٤- ٧٥، والحاكم ٢/ ٤٧٦، من حديث سليم بن عامر عن أبي أمامة وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «البعث والنشور» ص ١٨٧.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[١].

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح شجر عظيم كثير الشوك معروف، ويطلق الطلح عند أهل اليمن على شجر الموز.

وهو المراد بالطلح في الآية عند كثير من المفسرين من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وأبو هريرة ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري[٢].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل»[٣].

قال ابن القيم[٤]: بعد أن ذكر قول أكثر المفسرين أنه الموز، وما قيل من أنه شجر ذو شوك نضيد مكان كل شوكة ثمرة، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض فهو مثل الموز. «وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص، والله أعلم».

وُروي عن علي رضي الله عنه قال: «هذا الحرف «طلح منضود» قال: طلع منضود»[٥].

وهكذا قال الجوهري في الصحاح[٦]: «والطلح: لغة في الطلع».

قال ابن كثير[٧]: «فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه مخضود، وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره والله أعلم».

وقوله: «منضود» أي: متراكم الثمر مصفوفه، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق:١٠] أي: منضود متراكم بعضه فوق بعض.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: ظل ممتد دائم ليس فيه شمس ولا حر، كما قال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء:٥٧]، وقال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣١٠- ٣١١، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٣٠.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٤٨.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤.

(٦) مادة «طلح» وانظر «لسان العرب» نفس المادة.

(٧) في «تفسيره» ٨/ ٤.

[الرعد:٣٥]، وقال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس:٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات:٤١]، وقال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»(١).

وفي رواية «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة، هي شجرة الخلد»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»(٣).

وعن أبي سعيد وسهل بن سعد رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها».(٤)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «الجنة سَجْسَج(٥)، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»(٦).

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾، أي: وماء مصبوب يجري في غير أخدود. كما قال ابن القيم رحمه الله في صفة أنهار الجنة(٧):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣٢٥٣، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ٢٨٢٦، والترمذي في فضائل الجهاد ٢٥٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٥، وأحمد ٢/ ٤٥٢، ٤٨٢.

(٢) أخرجها احمد ٢/ ٤٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥١.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق- صفة الجنه والنار ٦٥٥٣، ومسلم في صفة الجنه- إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ٢٨٥٢.

(٥) أي : ظلها معتدل لا حر ولا برد.

(٦) ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٨/ ٧.

(٧) في النونية ص ٢٢٩.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾، أي: وعندهم فاكهة كثيرة من أنواع الفواكه المختلفة والمتنوعة في الطعوم والألوان كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥] أي: يشبه بعضها بعضًا في الشكل مع اختلاف الطعم.

وقال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «انتهيت إلى السدرة- يعنى سدرة المنتهى- فإذا نبقها مثل الجرار، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتًا وزمردًا»(١).

وفي رواية: «فإذا نبقها كأنه قلال هجر»(٢) وفي رواية «وإذا ثمرها كالقلال»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ- والناس معه، فذكر الصلاة وفيه: قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت. قال: «إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»(٤).

وعن جابر رضي الله عنه قال: بينا نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عُرِضَتْ علي الجنة، وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه شيئًا»(٥).

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، أي: لا تنقطع عنهم في وقت من الأوقات كما هو الحال

---

(١) أخرجه أحمد٣/ ١٢٨، ١٦٤.

(٢) أخرجها البخاري في بدء الخلق- باب ذكر الملائكة ٣٢٠٧، وأحمد ٤/ ٢٠٧، ٢٠٨، من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٣) أخرجها مسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ١٦٢، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٧٤٨، ومسلم في الكسوف ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣.

(٥) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٢- ٣٥٣، ٥/ ١٣٧، وأبو يعلى فيما ذكر ابن كثير انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧.

في ثمار الدنيا منها ما ينقطع في الصيف ومنها ما ينقطع في الشتاء.

﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، أي: لا تمنع عنهم أبدًا، ولا يحال بينهم وبين تناولها، بل هي سهلة المأخذ، قريبة المنال.

والمعنى: لا هي تنقطع، ولا مانع يمنعها عنهم، بل هي دائمة مستمرة، كما قال عز وجل: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥].

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، أي: وفرش مرتفعة عالية عن الأرض على الأسرة، ومرتفعة في سمكها مما يجعلها وطيئة لينة ناعمة.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، أي: نساء أهل الجنة، وعاد الضمير في قوله: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ على غير مذكور؛ لأنه سبق ما يدل عليهن وهي الفرش.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، أي: أنه عز وجل أنشأهن، أي: أوجدهن وخلقهن ﴿إِنشَآءً﴾، أي: خلقًا جديدًا.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾، أي: في النشأة الآخرة جعلناهن أبكارًا بعد أن كن ثيبات.

وقد يراد بذلك الحور العين فهن أبكار، أو الأبكار من نساء الدنيا اللاتي لم يتزوجن في الدنيا.

والبكر هي التي لم تفتض بكارتها بعد، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ [الرحمن:٥٦، ٧٤]. ونساء الجنة مهما جامعها زوجها عادت بكراً.

عن الحسن- رحمه الله- قال: أتت عجوز، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز» فولت تبكي، قال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل، وأخرجه البيهقي في «البعث والنشور» ٣٤٦، والبغوي في «معالم التنزيل» ٧/ ١٩ من طريق الترمذي. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩.

وقد أخرجه من حديث عائشة بمعناه- البيهقي في البعث والنشور ص٢١٦، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ٢/ ١٠٧، وفي «صفة الجنة» ٣/ ٢٣١، ونسبه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٤١٩، للطبراني في الأوسط.

﴿عُرُبًا﴾ قرأ حمزة وعاصم في رواية شعبة: «عُرْبًا» بتسكين الراء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿عُرُبًا﴾.

و(عربًا): جمع عروب، وهن المطيعات لأزواجهن المتعشقات لهم، والمتحببات إليهم بحسن العشرة، وحسن التبعل من اللطافة والرشاقة والظرافة والحلاوة والملاحة والتجمل والتغنج والتكسر والدلال والأدب وحسن الكلام ورقة الخطاب فجمع الله لهن بين حسن الصورة وحسن العشرة، بين حسن الخَلق، وحسن الخُلُق.

﴿أَتْرَابًا﴾ أي: مستويات متماثلات في السن، وهو ثلاث وثلاثون سنة، وفي الحسن، متواخيات بينهن مؤتلفات، لا تباغض بينهن ولا تحاسد.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال: «حور: بيض، عين: ضخام العيون، شُفْر[1] الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ قال: «صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف، الذي لم تمسسه الأيدي» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال: «خيرات الأخلاق، حسان الوجوه». قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾. قال: «رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر، وهو الغِرْقِئُ» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ قال: «هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمصًا شمطًا، خلقهن الله بعد الكبر، فجعلهن عذارى عربًا متعشقات متحببات، أترابًا: على ميلاد واحد». قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة» قلت: يا رسول الله، وبم ذاك؟ قال:«بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل، ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي، مجامرهن الدر، وأمشاطهن الذهب، يقلن نحن الخالدات، فلا نموت أبدًا، ونحن الناعمات، فلا نبأس أبدًا، ونحن المقيمات، فلا نظعن أبدًا، ألا ونحن الراضيات فلا

(١) الشفر: جفن العين الذي ينبت عليه الشعر، انظر: «لسان العرب» مادة «شفر».

نسخط أبدًا، طوبى لمن كنا له وكان لنا». قلت: يا رسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، من يكون زوجها؟ قال: «يا أم سلمة إنها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خلقًا، فتقول: يا رب، إن هذا كان أحسن خلقًا معي فزوجنيه، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أنطأ في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده دَحْماً دَحْمًا، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا»(٢).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارًا»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء. قلت: يا رسول الله، ويطيق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ قال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء»(٥).

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ «لأصحاب»: جار ومجرور، و«اليمين»: مضاف إليه، وهو متعلق بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ فكأنه قيل: لمن؟ فقال: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

أو متعلق بمحذوف تقديره: خلقنا أو أعددنا، أو ادخرنا ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ما ذكر من النعيم النفسي والبدني، من قوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

والأظهر الأول؛ لقرب المتعلق، ولأن أصحاب اليمين أيضًا ذكروا أول الآيات في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ الآيات.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ٩١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة الجنة- ما جاء في صفة جماع أهل الجنة ٢٥٣٦ وقال: «صحيح غريب».

(٥) أخرجه الطبراني- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١، وقال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: «هذا الحديث عندي على شرط الصحيح».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الأُلوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»(١).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا بيضًا جعادًا مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرع»(٢).

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أي: جماعة كثيرة من أصحاب اليمين من أول هذه الأمة، وجماعة كثيرة من أصحاب اليمين من آخر هذه الأمة، أو جماعة كثيرة من أول كل أمة، وجماعة كثيرة من آخر كل أمة.

وقيل جماعة كثيرة من الأمم السابقة، وجماعة كثيرة من هذه الأمة.

وفي حديث عمران بن حصين- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبرنا. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة. قال: فكبرنا، قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. قال: فكبرنا. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ومسلم في الهبات ١٦٢٥، وفي الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٥، ٣٤٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٤٥ قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٩٩: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن».

(٣) أخرجه الطبرى في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٣١- ٣٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٢- ٣٣٣٣، الأثر ١٨٧٩٤. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٤: «وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها».

وأخرجه أحمد ٢/ ١٣٩١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٠- الأثر ١٨٧٧٥ مختصرًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فعنده يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج:٢].

قالوا: يا رسول اله وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا، فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»(١).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ فقبض بيده قبضتين، فقال:«هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- عظم شأن أصحاب اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾.

١- عظم ما أعده الله من النعيم لأصحاب اليمين فسدر مخضود شوكه، وطلح منضود ثمره، وظل ممتد، وماء مصبوب يجري بغير أخدود، وفواكه كثيرة متنوعة مختلفة الطعوم، لا تنقطع ولا تمنع عنهم، وفرش سميكة مرتفعة، عليها نساء أبكار متحببات إلى أزواجهن متماثلات في سن ثلاث وثلاثين؛ لقوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ وأخرجه مسلم أيضًا من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ٢٢١.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣٩.

لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

٣- قدرة الله تعالى ونعمته في إنشاء نساء أهل الجنة وجعلهن أبكاراً حتى ولو كن من الثيبات في الدنيا، وجعلهن متحببات لأزواجهن متعشقات لهم على سن واحدة.

٤- أن أصحاب اليمين منهم جماعة كثيرة من صدر هذه الأمة وجماعة كثيرة من آخرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة السابقين المقربين، وأصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم باليمين، وتفصيل حالهم ومآلهم، وما أعد لهم من النعيم المقيم.

ثم عطف عليهم بذكر الصنف الثالث، وهم أصحاب الشمال الذي يؤتون كتبهم بالشمال، وفصل حالهم ومآلهم وما أعد لهم من العذاب المقيم في الجحيم.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ أصحاب الشمال: هم الذين يُعطون كتبهم بشمائلهم بعد أن تلوى خلف ظهورهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة:٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق:١٠-١٢].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: أيُّ شيء هم أصحاب الشمال، تحقيرًا لشأنهم، وإشارة وتنبيها لسوء حالهم ومآلهم، وما أعد لهم من صنوف العذاب في نار الجحيم، ثم فصّل ذلك بقوله: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

قوله ﴿فِى سَمُومٍ﴾، أي: في ريح شديدة الحرارة، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ ماء بالغ غاية الحرارة.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، أي: ظل الدخان الأسود، كما قال عز وجل: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات:٣٠، ٣١].

﴿لَّا بَارِدٍ﴾ لا: نافية، وجملة ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ صفة لـ«ظل»؛ لإثبات شدة حرارته؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ لإثبات كمال حياته عز وجل.

ومعنى ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ أي: ليس بارداً يقيهم الحر ويستريحون فيه، كما هو الشأن في الظل، بل هو ظل حار محض خالص الحرارة.

﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا حسن المنظر ينعمون به، فليس فيه شيء من الخير البتة، بل هو شر خالص محض، ظل دخان كريه منظره، قبيح مظهره، حار داخله ومخبره، لا نفع فيه، ولا دفع من أذى الحر، ولا غيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في هذه الآيات الأسباب التي أدت بهؤلاء إلى كونهم من أصحاب الشمال، وفي صنوف هذا العذاب.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، أي: من الأسباب التي أدت بهم إلى هذه الحال والمآل السيئ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾، أي: في دار الدنيا التي هي محل العمل.

﴿مُتْرَفِينَ﴾، المترف: هو المتنعم المائل إلى الترف والنعيم، ودَعة العيش وحظوظ النفس وشهواتها.

فالمترفون: هم المتنعمون المقبلون على الترف ولذات أنفسهم وأهوائهم الذين نظرتهم إلى الحياة نظرة بهيمية مادية فقط، تاركين الهدف الذي خلقوا من أجله وهو عبادة الله عز وجل وراءهم ظهريًا، وأنّى لمن كانت هذه نظرته إلى الحياة السعادة، فما أتعس عيشه، وما أعظم خسارته.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾، الإصرار على الشيء: الاستمرار والتصميم عليه من غير توبة، ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾أي: على الذنب العظيم، وهو الشرك أعظم الذنوب. قال تعالى فيما حكاه عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، أي: بشرك.

وإنما كان الشرك أعظم الذنوب؛ لأن حق الله عز وجل هو أعظم الحقوق وأبينها وهو عبادته عز وجل وحده، فمن أشرك معه غيره فقد صرف حقه عز وجل لغيره.

فمعنى الآية ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: وكانوا يصممون ويستمرون على الشرك ولا ينوون التوبة والرجوع عنه.

﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ مستبعدين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال، بل مكذبين بذلك ومنكرين له.

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾، أي: أئذا متنا وصارت أجسامنا في القبور ترابًا وعظامًا رميمة بالية.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، أي: كيف نبعث، أو كيف يقال إنكم ستبعثون وقد صرنا إلى هذه الحال.

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الذين ماتوا قبلنا كيف يبعثون وقد صارت أجسادهم ترابًا وعظامًا رميمية بالية.

والاستفهام للإنكار، أي: لا يمكن أن نبعث ولا آباؤنا.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

هذا رد من الله عز وجل عليهم في استبعادهم وتكذيبهم للبعث وإنكارهم له.

﴿قُلْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم وغيرهم، ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ منكم ومن غيركم.

﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ اللام للتوكيد، أي: لمجموعون إلى وقت يوم محدد معلوم عند الله لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، وهو يوم القيامة.

كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود:١٠٣، ١٠٤]،.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ:٣٠]

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ [المرسلات:١١- ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ

ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات:٤٢- ٤٤].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل حقارة أصحاب الشمال، وما هم فيه من العذاب الشديد من السموم والحميم والظل الحار، وسبب كونهم من أصحاب الشمال واستحقاقهم العذاب، وهو ترفهم وشركهم وإنكارهم للبعث، ورد عليهم في ذلك.

ذكر ما أعد لهم من النزل من الزقوم والماء الحار وبئس النزل.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا﴾ وجه الخطاب إليهم مباشرة بعد أن كان الكلام قبله مع الغائب بقصد تشديد الوعيد والتهديد لهم، أي: ثم اعلموا أنكم أيها.

﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ التائهون عن طريق الحق والصواب، البعيدون عنه كل البعد.

﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ للرسل وللبعث والحساب ﴿لَـَٔاكِلُونَ﴾ اللام للتوكيد.

﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ هو شجر يخرج في أصل الجحيم من أقبح الأشجار وأخبثها وأنتنها ريحًا، وأبشعها منظرًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات:٦٤- ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان:٤٣- ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الصافات:٦٢، ٦٣].

وسمي الزقوم؛ لأن الآكل منه يتزقمه تزقماً لخبثه وشدة بلعه، كما قال تعالى:

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٧].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ وذلك لشدة جوعهم واضطرارهم إليه، وإلزام الملائكة لهم بذلك.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾، أي: فشاربون على هذا المأكل والمطعم الأثيم من الماء الحار شديد الحرارة.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قرأ عاصم ونافع وأبو جعفر وحمزة بضم الشين﴿شُرْبَ﴾، وقرأ الباقون بفتحها «شَرْبَ».والهيم: الإبل العطاش التي أصابها الهيام فلا تكاد تروى من شدة العطش والهيام، أي: أنهم؛ لشدة عطشهم لا يكادون يروون.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: هذا العذاب وهو طعام الأثيم وهذا الشراب الحميم الحار هو ما أعد لنزولهم ولضيافتهم ولمجازاتهم يوم الدين، وهذا ما قدموه واختاروه لأنفسهم من الضيافة.

والنزل: ما يعد للضيف عند نزوله.

فبئس النزل نزلهم ريح سموم شديدة الحرارة، وظل حار من دخان النار الأسود، وطعام من الزقوم، وشراب من الحميم في غاية الحرارة- نسأل الله السلامة والعافية- وشتان بين هؤلاء وبين من قال الله فيهم:﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:٣١]، وقال تعالى:﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء:١٠٢]، وقال تعالى:﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨].

نسأل الله تعالى من فضله.

الفوائد والأحكام:

١- تحقير شأن أصحاب الشمال، وسوء حالهم ومآلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

٢- شدة عذاب أصحاب الشمال في النار؛ فريح سموم، وماء حميم في غاية

الحرارة، وظل من دخان النار الأسود لا برودة فيه، ولا خير فيه البتة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

٣- أن سبب تعذيب أصحاب الشمال بما ذكر من ألوان العذاب ترفهم في الدنيا وإصرارهم على الشرك العظيم وإنكارهم البعث، مما يوجب الحذر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٤- إثبات البعث والمعاد وأن الأولين والآخرين مجموعون إلى وقت يوم معلوم، وهو يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

٥- تهديد الضالين المكذبين ووعيدهم بخبث وقبح ما أعد لهم من النزل والضيافة، فمأكلهم الزقوم وشرابهم الحميم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

٦- مجازاة كل بما عمل يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق قول المكذبين بالبعث والحساب: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ورد عليهم بعد ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم أتبع ذلك بذكر الأدلة على أحقية البعث والمعاد وقدرته عز وجل التامة على ذلك بذكر الخلق الأول والنشأة الأولى.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، أي: نحن أوجدناكم وابتدأنا خلقكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا كما قال عز وجل: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٩]، وقال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١].

أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا بل كان عدمًا محضًا، ثم أوجده الله وخلقه، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٦٧].

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ الفاء عاطفة، و« لولا» للتحضيض، أي: فهلا تصدقون بالبعث، وأن من قدر على إيجادكم من العدم قادر على إعادتكم وبعثكم بعد الموت من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم:٢٧].

ومعنى قوله: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، أي: صدقوا.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، و(ما) موصولة، أي: أفرأيتم الذي تمنون، أي: أخبروني عنه، والمني: هو الماء المهين الذي يصب ويقذف في الأرحام.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات:٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق:٥-١٠].

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أأنتم تخلقون وتوجدون هذا المني وتجعلونه ينتقل من طور إلى طور حتى يكون إنسانًا سويًا، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:٣٥].

والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين تخلقونه.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعني « بل»، أي: بل نحن الخالقون حقيقة، لا أنتم، والاستفهام للتقرير.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون:١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس:٣٤].

﴿نَّحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الدال: «قَدَرنا».

وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿قَدَّرْنَا﴾.

وتكلم عز وجل بضمير الجمع والعظمة: «نحن»؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

والمعنى: نحن كتبنا عليكم الموت، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:٨٥، الأنبياء:٣٥، العنكبوت:٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فلّ من جمع وأفنى من دول(١)

وقال الآخر:

---

(١) البيت لابن الوردي من لاميته. انظر: «نفحة اليمن» ص١٥٤، «مجاني الأدب ٤/ ٩٢، «نفح الأزهار» ص٥٢.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد[١]

وقال الآخر:

تعزّ فلا شيء على الأرض باقيا ولا وزر مما قضى الله واقيا[٢]

وأيضًا: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾، أي: صرفناه بينكم، فمنكم من يموت في بطن أمه، ومنكم من يموت طفلاً صغيرًا، ومنكم من يموت شابًا، ومنكم من يموت كهلاً، ومنكم من يموت شيخًا كبيرًا، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج:٥].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: وما نحن بعاجزين ومغلوبين.

﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾، أي: على أن نبدل أشباهكم وخلقكم بأن نخلقكم على غير هذه الصور التي أنتم عليها.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصور والصفات والأشكال والأحوال، فلم نعجز عن خلقكم ابتداء على هذه الصور، ولم نعجز عن إماتتكم، ولن نعجز عن تبديل صوركم وأمثالكم، وإنشائكم فيما لا تعلمون من الصور والصفات والأشكال والأحوال.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم:٤٥-٤٧].

---

(١) البيت ينسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «الإمتاع والمؤانسة» ص٣٤٧.

(٢) انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٨٩، «شرح الأشموني» ١/ ٢٤٧.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ الواو استئنافية، واللام للقسم، وقد للتحقيق، أي: والله لقد علمتم النشأة الأولى أي: عرفتموها، وعلمتم وعرفتم أن الله أنشأكم النشأة الأولى من العدم، بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و(لولا) للتحضيض، أي: فهلا تتذكرون وتتعظون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة- وهي البداءة- قادر على النشأة الأخرى، وهي إعادتكم وبعثكم بعد الموت من باب أولى وأحرى.

كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٧٧-٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق:١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ القيامة: ٣٦- ٤٠].

قال ابن القيم[1]: «وهذا في القرآن كثير جدًّا يقرن بين النشأتين؛ مذكرًا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى».

الفوائد والأحكام:

١- أن الله- عز وجل- هو الخالق العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾.

٢- وجوب التصديق بالبعث وبما جاء به الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

٣- الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

٤- قدرة الله- عز وجل- التامة على إيجاد أصل خلق الإنسان وأطوار خلقه حتى

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥٦.

استوائه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

٥- تقدير الله- عز وجل- الموت وكتابته على الخلق كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

٦- أن الله- عز وجل- قادر على تبديل الخلق بغيرهم، وعلى إنشائهم على ما شاء من الصور؛ لأنه لا يعجزه شيء، وفي هذا تهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٧- الحث على التذكر والاتعاظ والاستدلال بالنشأة الأولى على البعث والنشأة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة في معرض الرد على منكري البعث الدليل الأول على أحقية وقوع البعث، وهو الخلق الأول والنشأة الأولى بخلق آدم من التراب وتناسل ذريته من ماء الرجل والمرأة، ثم إماتتهم وإفنائهم، وهذا أقوى الأدلة وأظهرها على أن البعث بعد الموت حق؛ لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى وأحرى.

ثم أتبع عز وجل ذلك بذكر الدليل الثاني وهو إحياء النبات، ثم الدليل الثالث وهو إنزال المطر، ثم الدليل الرابع وهو إشعال النار وإيجادها(١).

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، ومثله الاستفهام في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾. وفي قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾.

و«ما»موصولة أي: أخبروني عن الحب والنبات الذي تحرثون، أي: تحرثون الأرض وتشقونها وتبذرونه وتلقونه فيها.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ الاستفهام للنفي، ومثله الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾، وفي قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾، أي: أأنتم تنبتونه وتوجدون فيه الحياة النباتية، والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين تزرعونه.

---

(١) ومن أعظم الأدلة التي يذكرها الله عز وجل على أحقية البعث خلق السموات والأرض قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء:٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْىِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ «أم» في هذا الموضع والموضعين بعده هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، والاستفهام للتقرير، أي: بل نحن الزارعون الذين أوجدنا فيه الحياة والنمو، فنبت ونما وأثمر..

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولن زرعتُ، ولكن قل حرثت» قال أبو هريرة: «ألم تسمع إلى قول الله:﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾»(١).

قال الشاعر:

انظـــر لتلـــك الشـــجره ... ذات الغصـــون النضـــره
كيـــف نمـــت مـــن حبـــة ... وكيـــف صـــارت شـــجرة
ذاك هـــو الله الـــذي ... أنعمـــه منهمـــره
ذو حكمـــة بالغـــة ... وقـــدرة مقتـــدره(٢)

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ «لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: امتناع الجواب لامتناع الشرط، أي: امتناع كون هذا الحرث حطامًا؛ لأن الله لم يشأ ذلك.

واقترن جواب «لو» باللام؛ لأن هذا هو الأكثر في جوابها إذا كان مثبتًا أن يقترن باللام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ [محمد:٣٠].

وقد لا يقترن كما في قوله تعالى:﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾.

أما إذا كان جوابها منفيًا بـ«ما» فالأكثر، بل الأفصح ألا يقترن جوابها باللام تقول: لو جاء زيد ما كلمتك، وقد يقترن باللام أحيانًا فتقول لو جاء زيد لما كلمتك، ومنه قول الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٤٨، والبزار في «مسنده» ١٢٨٩، وابن حبان في صحيحه ٥٧٢٣، والطبراني في الأوسط ٨٠٢٤، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٦٧، والبيهقي في «شعب الإيمان». ٥٢١٧، ٥٢١٨.

(٢) الأبيات لمعروف الرصافي. انظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» ٣٣٩/ ٦٥ .

ولـــو نعطـــى الخيـــار لمـــا افترقنـــا ولكـــن لا خيـــار مـــع الليـــالي[1]

ومعنى قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، أي: لو نشاء لجعلنا هذا الحرث حطامًا، أي: هشيما يابسًا متكسرًا بعد إخراجه زرعاً وتعلق النفوس به، وهذا أشد حسرة من إهلاكه قبل نباته.

وفي هذا إشارة إلى قدرة الله عز وجل التامة على جعل هذا الحرث حطامًا، كما أن فيه تخويفًا للمخاطبين بعقوبتهم بإهلاك حروثهم.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، أي: فتظلون بعد ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ التفكه في الأصل من الأضداد فهو يأتي بمعنى التنعم، ومنه سميت الفاكهة، ويأتي بمعنى الحزن والندم والعجب وتنويع المقال، أي: فتظلون بعد كون حرثكم حطامًا تفكهون في المقالة، أي: تنوعون الكلام فيما حصل لحرثكم وسبب ذلك وتعجبون من سوء حاله ومصيره، وتتلاومون وتندمون قائلين تارة: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، أي: حملنا غرامة هذا الحرث وقيمته، وقيل: لملقون في الشر، أو مولع بنا، أو معذبون ومهلكون.

وتارة تقولون ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالى، أي: بل حرمنا الرزق وثمرة هذا الحرث.

فبسبب هلاك حرثهم تحملوا غرامة ذلك، وحرموا من ثمرة ذلك الحرث

وهذا كما ذكر الله عز وجل عن أصحاب الجنة من بني إسرائيل في سورة القلم أنهم قالوا لما رأوها قد احترقت: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم:٢٦، ٢٧].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾، أي: أخبروني عن الماء الذي تشربون منه أنتم ومواشيكم وحروثكم.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ﴾ أي: أأنتم أنزلتم هذا الماء العذب ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: من السحاب.

والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين أنزلتموه من المزن.

---

(١) انظر «أوضح المسالك» ٤/ ٢٣١، «شرح شواهد المغني» ٢/ ٦٦٥ «مغنى اللبيب» ١/ ٢٧١، والبيت فيها بلا نسبة.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ أي: بل نحن المنزلون، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان:٤٨، ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق:٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٢٤].

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: لو نشاء جعلناه مرًا ملحًا زعاقًا، لا يصلح للشرب، لا للإنسان، ولا للحيوان، ولا للحروث والزروع.

ولم يقل «لو نشاء لم ننزله» ونحو ذلك؛ لأن وجوده مع كونهم لا يستطيعون الانتفاع به أشد حسرة.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة و«لولا» بمعنى «هلا»: للتحضيض، أي: فهلا تشكرون الله عز وجل على ما أنعم به عليكم من هذا الماء العذب الزلال وغيره من النعم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: أخبروني عن النار التي تقدحونها من الزناد وتشعلونها، أي: تقدحون الزناد لاستخراجها.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ أي: لستم أنتم الذين ﴿أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾، أي: بل نحن المنشئون لشجرتها ومادتها.

قال ابن كثير[1]: «وللعرب شجرتان، إحداهما: المرخ، والأخرى: العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر تناثر بينهما شرر النار».

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ «جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين الأول الضمير «ها» والثاني «تذكرة»، وهو من الجعل الكوني.

ومعنى «تذكرة» أي: مذكرة بالنار الكبرى في الآخرة؛ لأنها جزء منها.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٨.

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية فقال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ولو لا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها، وإنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها»(٢).

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: يتمتعون بها فيطبخون عليها طعامهم، ويستدفئون بها من البرد ويستضيئون بنورها في منازلهم ومقامهم ويوقدونها على مرتفع ليهتدي بها الضال.

كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

إلى غير ذلك من منافعها.

و«المقوين»: المسافرين، وسمى المسافرون بهذا الاسم؛ لأن القَواء هو القفر الخالي البعيد من العمران، ومنه قولهم: «أقوت الدار إذا رحل أهلها» وقول عنترة بن شداد(٣).

حُيِّيت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

والمراد بالآية عموم المتمتعين بالنار من المقيمين والمسافرين، وإنما خص المسافرون بالذكر- والله أعلم؛ لأن المقيمين قد يشعل أحدهم النار من جمر نار سابقة، أو من نار جاره، ونحو ذلك، ولهذا قال ﷺ: «الناس شركاء في ثلاث: في الماء والنار والكلأ»(٤).

واشتراك الناس في النار إنما يتحقق غالبًا في حال الإقامة.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وعذابها ٣٢٦٥، ومسلم في صفة الجنة والنار- باب في شدة حر نار جهنم ٢٨٤٣، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٨٩، وأحمد ٢/ ٢٤٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٣١٨.

(٣) انظر: «ديوانه» ص١٨٥.

(٤) أخرجه أبو داود في البيوع- باب في منع الماء ٣٤٧٣، وابن ماجه في الرهون- المسلمون شركاء في ثلاث ٢٤٧٣، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود ٣٤٧٧، وأحمد ٥/ ٣٦٤، من حديث رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ.

وهذا كله نعمة من الله عز وجل، لكن تظهر نعمة الله عز وجل أكثر على المسافر الذي لا يجد أحدًا يأخذ من ناره في كونه يستطيع أن يحمل في متاعه بلا مشقة زندًا أوعودين من هتين الشجرتين يوري منهما النار عند الحاجة، ولعل هذا من حكمة تخصيص المسافرين بالتمتع بها في الآية.

وقال ابن القيم[1]: «وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده- والله أعلم بمراده من كلامه- أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين، ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر».

أقول: رحمك الله يا ابن القيم وجزاك الله خيرًا على هذا الاستنباط، فالخلق كلهم مسافرون، والنار متعة لهم في هذه الدار الفانية.

وقال ابن كثير[2] بعد أن ذكر القول بأن المراد بالمقوين: المسافرون والحاضرون، قال: «وهذا التفسير أعم من غيره فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه، وبين ثيابه فإذا احتاج إلى ذلك أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره، فاطبخ واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون، وإن كان ذلك عامًا في حق الناس كلهم».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، التسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين. والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صاحب العظمة التامة الذي لا أعظم منه ولا أكبر، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات.

والمعنى: قل سبحان ربي العظيم، منزهًا ربك العظيم عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، ومعلنًا أن كل كمال فالله أولى به، وأن له عز وجل القدرة التامة

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠.

على البعث والمعاد، كما أوجد الخلق من العدم وبعث فيهم الحياة، وأحيا الحرث والنبات، وأنزل الماء من السحاب وأوجد مادة النار مع ما في هذه المخلوقات العظيمة وغيرها من الاختلاف والتضاد، فسبحان الرب الخالق العظيم.

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن الله- عز وجل- هو الزارع المنبت للنبات المحيي للأرض بعد موتها وفي ذلك امتنان على عباده، ودليل على قدرته التامة على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢- بيان قدرة الله التامة على جعل الزرع هشيماً يابساً متكسراً قبل استوائه وفي هذا تخويف للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

٣- ضعف الخلق وضعف حولهم وقوتهم أمام قدرة الله- عز وجل- وحوله.

٤- أن نظرة كثير من الخلق للمصائب في حروثهم وزروعهم وغيرها نظرة مادية فقط؛ يحزنون على ما أصابهم ويتعجبون، ويقرون بالغرامة والحرمان، لكنهم لا يتفكرون في سبب ذلك وهو المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٥- امتنان الله- عز وجل- على الخلق بإنزال الماء من السحاب لشرب الناس ودوابهم وحروثهم ولو شاء لجعله- بقدرته مراً مالحاً لا يصلح لا للإنسان ولا للحيوان، ولا للنبات وفي هذا تقرير لنعمته- عز وجل- عليهم بذلك ليشكروه وتخويف لهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٦- قدرة الله- عز وجل- التامة ونعمته على الخلق بإيجاد عنصر النار يتمتعون بها وتذكرهم بنار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

٧- وجوب التسبيح باسم الرب العظيم- وبخاصة في الصلاة، وإثبات اسم الله العظيم، وربوبيته عز وجل الخاصة لنبيه ﷺ ولأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل الدلائل الكونية على أحقية البعث والمعاد من الخلق الأول وإحياء الحرث وإنزال الماء من السحاب وإيجاده مادة النار في الشجر ذكر الدليل الشرعي على ذلك، وهو القرآن الكريم، وأقسم على أنه تنزيل من عنده عز وجل.

قوله: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ الفاء استئنافية، و«لا» يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي، للتنبيه وتوكيد النفي، كقول عائشة رضي الله عنها: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط»، كما جاء في بعض روايات حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما(١).

وهكذا ههنا تقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، أي: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم، أو ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد فقال: أقسم.

وقيل إن «لا»: صلة، والتقدير: أقسم بمواقع النجوم.

وعلى هذه التقديرات فقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قسم من الله عز وجل بمواقع النجوم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها دليل على عظمته هو، فكأنه يقول: أقسم بما خلقت.

وقيل معنى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ نفي للقسم، أي: لا يحتاج الأمر إلى قسم، لكن هذا يرده قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ففي هذا إثبات للقسم.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «بموقع» على الإفراد، وقرأ الباقون بالجمع: ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾.

وقوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ هذا هو المقسم به، والنجوم: هي النجوم والأفلاك التي

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧١٣، وأبو داود في المناسك ١٧٥٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٧٧١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥.

في السماء، ومواقعها: منازلها، ومشارقها ومغاربها، وانكدارها وانتثارها وسقوطها.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم:١]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق:١-٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التكوير:١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الذاريات:٤٩].

وإنما أقسم الله عز وجل بالنجوم ومواقعها لما فيها من الآيات العظيمة الدالة على ربوبية الله- عز وجل- وانفراده بالخلق والإبداع، مما يوجب صرف العبادة له وحده. ويحتمل أن المراد بـ«النجوم»: نجوم تنزيل القرآن الكريم، أي: مواضع وأوقات نزوله المتفرقة خلال ثلاث وعشرين سنة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعترض بهذه الجملة بين القسم وجوابه، كما اعترض بين الصفة والموصوف في هذه الجملة بقوله: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، وذلك كله بغرض التوكيد وتعظيم المقسم به والمقسم عليه.

والضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يرجع إلى القسم في قوله ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

قوله ﴿لَقَسَمٌ﴾ اللام للتوكيد، ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ هذا هو جواب القسم، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى ما أنزل الله- عز وجل- على رسوله ﷺ من وحيه عز وجل وكلامه القرآن العظيم.

وذكره بضمير الغائب: «الهاء» ولم يقل إن هذا القرآن الكريم تعظيمًا وتفخيمًا لشأن القرآن الكريم، وإشارة إلى رفعة مكانته وعلو منزلته، كأنه قال: إنه القرآن الذي من شأنه كذا وكذا، ويشتمل على كذا وكذا ويهدي ويدل إلى كذا.. إلخ.

وعود الضمير على أمر لم يتقدم ذكره، وإنما لشهرته ووضوح المعنى عليه وارد في

القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص:٣٢]، أي: الشمس ولم يسبق لها ذكر.

والقرآن: هو كلام الله عز وجل المنزل على رسوله ﷺ المتعبد بتلاوته والعمل به المعجز بأقصر سورة منه.

ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: عظيم كثير الخير جمّ النفع؛ لما اشتمل عليه من بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والعلم والحكمة، والهداية لكل خير، لمن تدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وهو أيضًا كريم على الله عز وجل كرمه عز وجل وعظمه لأنه كلامه.

وهو كريم في ثوابه: الحرف منه بحسنة والحسنة بعشر أمثالها كما قال ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف، لكن ألف حرف ولام حرف، وميم حرف»(١).

ووجه الارتباط بين المقسم به والمقسم عليه واضح على القول بأن المراد بمواقع النجوم: مواقع نزول القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة فلعظمة القرآن وما فيه من الهداية والخير الكثير جاء تنجيمه طوال هذه الفترة.

أما على القول بأن المراد بالنجوم الأفلاك فوجه المناسبة بينهما ما ذكره ابن القيم(٢) بقوله: «المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه، وهو القرآن الكريم من وجوه: أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن. والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٠، والدارمي في فضائل القرآن ٣٣٠٨، ٣٣١٥، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥٩.

القرآنية، ومواقعها عند النزول».

﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾، أي: في كتاب مصون، معظم موقر، محفوظ بحفظ الله عز وجل كما قال عز وجل عن القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

واختلف في المراد بالكتاب المكنون في الآية، فذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالكتاب المكنون: اللوح المحفوظ، واختاره ابن تيمية وقال: «هو اللوح المحفوظ لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة»(١).

وقيل المراد به المصحف لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث أو من الشرك.

وقيل المراد به الصحف التي بأيدي الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس:١٣-١٦].

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ (لا) نافية أي:لا يمس هذا الكتاب المكنون إلا المطهرون، وهم الملائكة، الذين طهرهم الله من الأرجاس والأنجاس الحسية والمعنوية كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

واكتفى بذكر الصفة، وهي «المطهرون» عن ذكر الموصوف، وهم الملائكة إشارة إلى كمال طهارتهم وسلامتهم من النجاسات كلها.

وقد اختار ابن القيم القول بأن المراد بالكتاب المكنون: الصحف التي بأيدي الملائكة، وقال(٢): «ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، فهذا يدل على أنه في أيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح في معنى الآية».

وقد رجح ابن القيم(٣) هذا القول من عشرة وجوه، منها: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٠، ٢١١].

ومنها: أن السورة مكية والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير

---

(١) انظر: «شرح العمدة» ص٣٨١- ٣٨٥، «مجموع الفتاوي» ٢١/ ٢٦٥- ٢٦٧.

(٢) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» ص١٤٠- ١٤٣.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٣- ٣٦٥، ٣٧٦- ٣٧٧.

التوحيد والمعادو النبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية.

ومنها: أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع المصحف في خلافة أبي بكر. وهذا- وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي- فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه.

الوجه الرابع، وهو قوله: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ والمكنون: المصون المستور عن الأعين، الذي لا تناله أيدي البشر.

ومنها: أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ كقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١، ٢٢] يوضحه:

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، بالرفع فهذا خبر لفظًا ومعنى، ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره، إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، ولم يقل «إلا المتطهرون»، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: «إلا المتطهرون»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

وفي الحديث: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»[(١)].

فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

وقال السعدي[(٢)]: «﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب

---

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة- ما بعد الوضوء ٥٥، من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه، وقال «في إسناده اضطراب».

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٧٥- ٢٧٦.

المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله، وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته، وأن المراد بذلك، أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه».

أما من قال: إن المراد بالكتاب في الآية المصحف الذي بأيدينا فقالوا: إن قوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وإن كان جملة خبرية، فمعناه الطلب والنهي، أي: لا ينبغي أن يمس المصحف إلا المطهرون.

ومما استدل به على وجوب الطهارة لمس المصحف، ويعد من أقوى الأدلة ما جاء في كتاب الرسول ﷺ لعمرو بن حزم لما بعثه إلى اليمن: «وأن لا يمس القرآن إلا طاهرًا»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري، قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر».

قال ابن كثير: «وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاصي، وفي إسناد كل منها نظر».

قال ابن عبد البر في «الاستذكار»[(٣)]: «وكتاب عمرو بن حزم هذا تلقاه العلماء

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ- الأمر بالوضوء لمن مس القرآن «تنوير الحوالك» ١/ ١٥٧، «الموطأ» ١/ ١٩٩، وعبد الرزاق في «المصنف» ١/ ٣٤١، وأبو داود في «مراسيله»١٢١ والحاكم في المستدرك ١/ ٣٩٥، وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٨٩٣. قال الإمام أحمد: «أرجو أن يكون صحيحًا» وقال: «لا أشك أن النبي ﷺ كتبه» انظر: «تلخيص الحبير» ١/ ١٤١، «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٥- ٣٦٦، «إرواء الغليل» ١/ ١٥٨.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢.

(٣) ٨/ ١١.

بالقبول والعمل، وهو عندهم أشهر وأظهر من الإسناد الواحد المتصل، وأجمع فقهاء الأمصار، الذين تدور عليهم الفتوى وعلى أصحابهم بأن المصحف لا يمسه إلا طاهر».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»(١).

فمس المصحف لا يجوز إلا لمن كان طاهرًا طهارة معنوية من الشرك والكفر بأن يكون مسلمًا، وطهارة حسية من النجاسات والحدث الأكبر والأصغر، وهو قول الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، وجمهور أهل العلم.

بل قد استدل بعض أهل العلم بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وإن كان المراد به الصحف التي في السماء، استدل به على عدم جواز مس المصحف الذي بأيدينا إلا على طهارة.

قال ابن القيم(٢): «وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر، والحديث مشتق من هذه الآية» يعني حديث «وأن لا يمس القرآن إلا طاهرًا».

وقال ابن تيمية(٣) أيضًا: «مذاهب الأئمة الأربعة أنه لا يمس القرآن إلا طاهر».

وهكذا قال ابن القيم(٤): «الآية دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر».

وأما قراءة القرآن من غير المصحف، فلا يمنع منها إلا الجنب لما رُوي: «أنه ﷺ لم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ٢٩٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٦٩، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٩.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٥، ٣٧٧.

(٣) في «الفتاوى الكبرى» ١/ ٥٦.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٥.

يكن يمنعه شيء من قراءة القرآن إلا الجنابة»[١].

فللحائض قراءة القرآن من غير المصحف، وبخاصة إذا احتاجت إلى ذلك كأن تخاف ضياع حفظها ونحو ذلك، كما أن لها عند الحاجة أن تقرأ بالمصحف وتمسكه من وراء حائل كأن تكون تدرس القرآن الكريم ونحو ذلك.

قال ابن القيم في كلامه على الآية ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾: «ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه[٢] في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به».

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: إن هذا القرآن الكريم منزل من رب العالمين، فهو كلام الله عز وجل منزل غير مخلوق، وليس بسحر ولا شعر، ولا كهانة، ولا تقوله الرسول ﷺ، كما يقول المبطلون، بل هو الحق الذي لا ريب فيه.

ورب العالمين: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ومن ربوبيته لهم ألا يتركهم هملاً بل أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب بالأمر والنهي؛ ليثيب المطيع منهم ويعاقب العاصي.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

والمراد بـ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ القرآن الكريم.

ومعنى ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ أي: متهاونون مكذبون، أو تريدون المداهنة والمداراة والملاينة في ذلك مع أنكم مكذبون له وغير مصدقين به.

قال الطبرى[٣]: «أفبهذا القرآن أنتم تلينون القول للمكذبين به، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر».

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٢٩، والنسائي في الطهارة ٢٦٥، والترمذي في الطهارة ١٤٦، وابن ماجه في الطهارة ٥٩٤، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) في كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ فتح الباري ١٣/ ٥١٧.

(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٦٧.

وقال ابن القيم[١]: «والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به».

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ :«أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر» قالوا: هذه رحمة، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فنزلت هذه الآية ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ »[٢].

و«تجعلون» هنا من جعل بمعنى: «صيّر» تنصب مفعولين الأول: قوله (رزقكم) والثاني: المصدر المؤول من قوله ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: وتجعلون رزقكم تكذيبكم أي: حظكم منه التكذيب به.

و(الرزق) هو العطاء من المطر وغيره.

والمعنى هنا: وتجعلون سبب رزقكم أنكم تكذبون أي: تنسبون الرزق من المطر وغيره إلى غير الله مسبب الأسباب سبحانه، وذلك بنسبتكم المطر إلى الأنواء، وقولكم: «مطرنا بنوء كذا وكذا».

أو تجعلون شكركم لله على هذا الرزق أنكم تكذبون فتنسبون النعمة والرزق من المطر وغيره إلى غير مسديها وهو الله عز وجل، فتُكذِّبون بدل الشكر.

وقد رُويَ عن علي رضي الله عنه أنه قرأها: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»[٣].

فهم نسبوا النعمة إلى غير مسديها، فنسوا مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، وبدل أن يشكروا هذه النعمة كفروها.

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ- صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٧٣، والواحدي في «أسباب النزول» ٢٧٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧١.

تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب.

وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الغيث، فيقولون: بكوكب كذا وكذا»(٢).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما مُطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين، ثم قال ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فيقول قائل: مطرنا بنجم كذا وكذا»(٣).

ورُويَ عن الحسن قال في معنى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: «بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب به»(٣).

أي: وتجعلون حظكم ونصيبكم من كتاب الله أنكم تكذبون به.

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن الرزق نوعان: رزق به حياة القلوب، وهو الإيمان، ورزق به حياة الأبدان، وهو الطعام والشراب.

ولا شك أن نصيب كثير من الخلق مما جاءت به الرسل من الدعوة إلى الإيمان هو التكذيب كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

كما أن كثيرًا من الناس ينسبون الرزق إلى الأسباب المادية فقط وينسون مسبب الأسباب، ومسدي هذه الأرزاق، وهو الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٦، ومسلم في الإيمان- باب كفر من قال: مطرنا بالنوء ٧١، وأبو داود في الطب- باب في النجوم ٣٩٠٦، والنسائي في الاستسقاء- كراهية الاستمطار بالنجوم ١٥٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٧٢، والنسائي في الاستسقاء ١٥٢٤.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧٢.

فالأولون إذا أصابهم المطر قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا بدل أن يقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، والآخرون اليوم ينسبون المطر إلى المنخفضات الجوية.

وهكذا إذا حصل لكثير منهم شيء من الخير، من مال أو تيسير عمل، أو شفاء من مرض ونحو ذلك ينسب هذا الفضل والخير للأسباب المادية فقط.

و لا شك أن هذا من كفر النعم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

ولهذا ترى كثيراً من الناس عندما تكون له حاجة، كأن يتعسر عليه سبب الرزق والعمل، أو يصاب بمرض ونحو ذلك تراه يتجه رأسًا للأسباب المادية، ويغفل عن التوجه إلى مسبب الأسباب وهو الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

فالجأ أخي الكريم في كل حاجاتك الدينية والدنيوية إلى من بيده الخير والفضل كله، وإلى مسدي جميع النعم ودافع النقم، وموجد الأسباب ومسبباتها، واسأله من فضله، وافعل الأسباب، وأبشر بالخير إن شاء الله.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بمواقع النجوم على عظمة القرآن، وأنه قرآن كريم فيه الهداية والخير كل الخير؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٢- تعظيم الله- عز وجل- لمواقع غروب الكواكب وسقوطها ومواضع تنزلات القرآن وأوقاته لأنه- عز وجل- أقسم بها- وفي ذلك تعظيم لنفسه- عز وجل- ؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

٣- عظم هذا القسم والمقسم به؛ لأنه قسم من العظيم سبحانه وتعالى بآياته الكونية ومواضع وأوقات تنزلات آياته الشرعية على عظمة وحيه القرآن الكريم وكثرة خيره ونفعه ورفعة مكانته وعلو منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٤- أن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله- عز وجل- باللوح المحفوظ وبالصحف

التي بأيدي الملائكة، كما أن المصحف محفوظ بحفظه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾.

٥- أن هذا الكتاب المكنون لا يمسه في الملأ الأعلى إلا المطهرون وهم الملائكة الذين طهرهم الله حسياً ومعنوياً؛ لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾.

٦- أن المصحف لا يجوز أن يمسه إلا من كان مسلماً متطهراً من الحدث الأكبر والأصغر.

٧- أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٨- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه وربوبيته العامة لهم جميعاً.

٩- الإنكار على المشركين والمكذبين للقرآن الكريم في تكذيبهم بالقرآن ومداهنتهم به؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾.

١٠- إثبات أن المطر والرزق من الله عز وجل والإنكار على المشركين وغيرهم ممن ينسبون الرزق إلى غير الله ويكفرون بنعم الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في أول السورة انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: السابقون المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال وأحوالهم وما أعده لكل منهم من الجزاء، ثم ختم السورة بذكر احتضار كل منهم وأحوالهم في ذلك.

قوله ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ الفاء: استئنافية و«لولا»: حرف تحضيض، أي: فهلا إذا بلغت الحلقوم.

والمراد: إذا بلغت الروح الحلقوم، أي: صاعدة حال الانقطاع من الدنيا والإقبال على الآخرة، وذلك ساعة الاحتضار، والحلقوم: مجرى النفس، وذكر دون «المريء» مجرى الطعام؛ لأن بانقطاع النفس يموت الإنسان. كما قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة:٢٦- ٣٠].

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ الواو: حالية، أي: وأنتم في هذه الحال تنظرون إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت، ولا تملكون من الأمر شيئاً.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، أي: إنه عز وجل أقرب إلى هذا المحتضر بملائكته وجنده.

وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ خطاب لأهل المحتضر، فهو عز وجل أقرب إليه بملائكته من أهله الذين هم أمامه وعن يمينه وشماله، قال تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١].

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، أي: ولكن لا ترون ملائكتنا.

قال الطبري[١]: «يقول: رسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرونهم».

وقال ابن تيمية[٢]: «فالمراد قربه إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة».

وقال ابن القيم[٣]: «ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم»

وقال ابن كثير[٤]: «ونحن أقرب إليه منكم بملائكتنا ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ترونهم».

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ الفاء: استئنافية و«لولا» كسابقتها حرف تحضيض.

وقال السعدي[٥]: «﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بعلمنا وملائكتنا».

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير محاسبين ومجزيين بأعمالكم كما تزعمون، والدين: هو الجزاء على الأعمال ولهذا سمي يوم القيامة يوم الدين، قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ [الانفطار:٩]، أي: بالجزاء على الأعمال، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار:١٥-١٩].

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ هذا هو جواب «لولا» الأولى والثانية. أي: ترجعون وتردون هذه الروح التي بلغت الحلقوم وخرجت أو كادت أن تخرج إلى مقرها من الجسد ﴿إِن كُنتُمْ

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧٣.

(٢) في «شرح حديث النزول» ص١٢١

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧١.

(٤) في «تفسيره». ٨/ ٢٥.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٧٨

صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم في إنكار البعث، وأنكم لن تبعثوا، ولن تدانوا بأعمالكم.

وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وفي هذا إلزام لهم بالإقرار والاعتراف بالعجز عن رد الروح إلى جسدها، وبالتالي إلزام لهم بالإقرار والاعتراف بأنهم مدينون بأعمالهم مربوبون مملوكون لرب قدير متصرف فيهم قاهر آمر ناهٍ، وهذا يوجب عليهم القيام بحقه سبحانه وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يشركوا معه أحدًا في عبادته، فليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد وهذا هو الحاصل منهم.

قال ابن القيم(١): «فتضمنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا، واستدلالاً على أصول الإيمان من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء، وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته وتقرير عبودية الخلق».

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل.

أي: «فأما» إن كان المحتضر من المقربين الذين وصفهم الله في أول السورة بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الآيتان: ١٠، ١١].

قال ابن كثير(٢): «وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات» أي: فضول المباحات.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فلهم « روح وريحان وجنة نعيم» تبشرهم بذلك ملائكة الرحمة تقول عند قبض روح المؤمن: «أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان»(٣).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٦٢. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قرأ يعقوب: « فرُوح»بضم الراء، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿فَرَوْحٌ﴾، أي: ففرح وسرور وابتهاج ورحمة، وراحة ومستراح في الجنة من الدنيا وعنائها ونكدها وكبدها ونصبها؛ لأن الدنيا كما جاء في الحديث: «سجن المؤمن وجنة الكافر»(١).

ولهذا تقول النفس الصالحة إذا حملها الرجال على أعناقهم: «قدموني قدموني»(٢).

ومرت برسول الله ﷺ جنازة فقال: «مستريح ومستراح منه» فقالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»(٤).

﴿وَرَيْحَانٌ﴾: رزق وعطاء ورخاء من المأكل والمشرب والملبس والفرش والأزواج وغير ذلك، ومنه ريحان عَرْف الجنة وطيبها الذي يوجد من مسيرة ألف عام.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: ومسكنهم جنة فيها جميع ألوان النعيم، وأصنافه مع السلامة من جميع المنغصات.

وقد يكون هذا من عطف العام على الخاص. فجمع الله لهم بين «الروح» وهو النعيم المعنوي نعيم القلب، وبين «الريحان» وهو الرزق والعطاء، وهو النعيم الحسي نعيم البدن والمسكن الواسع الفسيح الذي فيه ألوان النعيم وهي الجنة.

قال ابن القيم(٥): «فالروح: الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣١٤، والنسائي في الجنائز ١٩٠٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٢، ومسلم في الجنائز ٩٥٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٠، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز ١٤١٥، ومسلم في الجنائز ٩٤٤، وأبو داود في الجنائز ٣١٨١، والنسائي في الجنائز ١٩١٠، والترمذي في الجنائز ١٠١٥، وابن ماجه في الجنائز ١٤٧٧.

(٥) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٣.

جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها. والريحان: الرزق، وهو الأكل والشرب. والجنة: المسكن الجامع لذلك كله، فيعطون هذه الثلاث في البرزخ، وفي المعاد الثاني».

وقال ابن كثير[١] بعدما ذكر هذه الأقوال في معنى قوله ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾: «وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك؛ من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾».

عن أم هانئ رضي الله عنها: أنها سألت رسول الله ﷺ أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضًا، فقال رسول الله ﷺ «تكون النَسَم[٢] طيرًا يعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها»[٣].

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»[٤].

وعن عبد الله بن مُرَّة عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩] قال:

«أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شئ نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[٥].

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عمن سمع النبي ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله أحب

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٦.

(٢) النسم: الروح.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٤٢٤- ٤٢٥.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٤٥٥.

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٠١.

الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: فأكب الناس يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: إنا نكره الموت. قال: ليس ذاك، ولكنه إذا حُضِر ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل، والله عز وجل للقائه أحب ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله والله للقائه أكره»(١).

ويشهد لهذا حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» فقلت: يا نبي الله، أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت فقال «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه»(٢).

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الواو: استئنافية، أي: وأما إن كان المحتضر ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الذين قال الله عنهم في أول السورة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

قال السعدي(٣): «وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم بعض التقصير في بعض الحقوق التى لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم»

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: فلك السلامة من عذاب الله ومن الشرور والآفات.

قال ابن القيم(٤): «ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٥٩- ٢٦٠

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة ٢٦٨.

وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه البخاري في الرقاق ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر- من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٢٦٨٣، والنسائي في الجنائز ١٨٣٦، ١٨٣٧، والترمذي في الجنائز ١٠٦٦.

وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٦٨٥، ومن حديث أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه ٢٦٨٦.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٠.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٣.

السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين».

وقال أيضًا[1]: «فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصافات:١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصافات:٧٩].

ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس، وأقسامهم عند القيامة الصغرى، حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالمًا غانمًا، وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنُزل من حميم وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقام مقام تحية وإنما هو مقام إخبار ذكر ما يحصل له من السلامة».

وقال ابن كثير[2]: «﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي: تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة أنت من أصحاب اليمين».

وقيل: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ أي: فمسلم لك أنك من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين للحق، الضالين عن الهدى،وعن الطريق المستقيم، وهم أصحاب الشمال الذين قال الله عنهم في أول السورة: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة:٤١].

﴿فَنُزُلٞ﴾، أي: فلهم نزل، أي: قِرى وضيافة، والنزل في الأصل: ما يعد للضيف لتكريمه، ولكن هؤلاء ليس لهم إلا الإهانة. وفي هذا شيء من التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدخان:٤٩]، وقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ [النساء:١٣٨].

﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾، أي: من شراب في غاية الحرارة، كما قال تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ [الحج:٢٠].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، أي: وإدخاله في مستقره وسط الجحيم تصلاه وتغمره من جميع جهاته.

والجحيم: اسم من أسماء النار سميت به، لشدة تأججها وتوقدها وحرها.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، أي: إن هذا الخبر وهو بعث الناس ومجازاة كل منهم بما عمل.

﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لهو الحق المتيقن الذي لا مرية فيه كأنه رأي عين، ولا محيد عنه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والباء للمصاحبة، أي: فسبح الله تسبيحاً مصحوباً باسمه. وقيل: إن الباء صلة. والمعنى: فسبح باسم ربك العظيم قائلاً: سبحان ربي العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]

عن عقبة بن عامر الجهني قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: رسول الله ﷺ: اجعلوها في سجودكم»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- أن الله- عز وجل- أقرب إلى المحتضر من أهله بعلمه وإحاطته وقدرته وملائكته ونفوذ مشيئته فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

٢- رهبة الموت، وأنه لا مفر منه، وتحدي الخلق وبخاصة المشركين المكذبين

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٥، وأبو داود في الصلاة- ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة- التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٦، ومسلم في الذكر- فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب- فضل التسبيح ٣٨٠٦.

بالبعث بإرجاع الروح إلى البدن إن كانوا صادقين في زعمهم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٣- عظم ما أعده الله- عز وجل- من التكريم لمن كان من المقربين من الرزق والريحان، والنعيم الحسي والمعنوي والمسكن الفسيح؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

٤- البشارة لأصحاب اليمين بسلامتهم من العذاب، ومن الشرور والآفات. لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾.

٥- خبث وسوء ما أعد للمكذبين الضالين من النزل فشراب من الحميم، وتصلية جحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

٦- أن بعث الناس ومجازاة كل منهم بما عمل حق يقيني وصدق لا مرية فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

٧- مشروعية تسبيح الله- عز وجل- ووجوب ذلك في الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ ولأتباعه، وإثبات اسمه «العظيم» وإثبات العظمة التامة له- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْحَدِيدِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الحديد»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ... ﴿٢٥﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

جمهور المفسرين على أن «سورة الحديد» مدنية، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك وقيل: مكية. والأظهر- والله أعلم- أن فيها آيات مكية، وأكثرها مدني.

جـ- فضلها:

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «**إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية**»(١).

قال ابن كثير(٢): «والآية المشار إليها في الحديث هي- والله أعلم- قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، ووصفه بصفات الكمال، وبيان اختصاصه بملك السموات والأرض، وتمام قدرته وعلمه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

٢- الأمر بالإيمان بالله ورسوله والانفاق مما استخلفوا فيه، والامتنان على العباد بإنزال القرآن، والترغيب في الإنفاق في سبيل الله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٣- وعد المؤمنين بالنور التام يوم القيامة، وبشارتهم بالجنات والفوز العظيم،

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، ما يقال عند النوم ٥٠٥٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٠٦، وأحمد ٤/ ١٢٨. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠.

ووعيد المنافقين بسوء الحال والتفريع والمصير إلى النار: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

٤- عتاب الله تعالى للمؤمنين، واستبطاء خشوع قلوبهم لذكر الله وآياته، وتحذيرهم من قسوة القلوب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٥- بشارته عز وجل للمؤمنين بأن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء القلوب: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٦- تأكيد الترغيب في الإنفاق والإيمان بالله ورسله، والتحذير من الكفر والتكذيب: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

٧- بيان حقارة الدنيا وعظم مكانة الآخرة: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- الدعوة إلى المسابقة إلى مغفرة الله وجنته: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

٩- إثبات القدر وأن الله قدر مقادير كل شيء قبل برء الخليقة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

١٠- التحذير من الاختيال والفخر والبخل والتولي عن الحق: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

١١- الامتنان بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان الحكمة من ذلك: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

٢١- التذكير برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٢- ذكر إتباعهما بالرسل وبعيسى بن مريم: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١٣- حث المؤمنين على تقوى الله والإيمان برسوله ووعدهم بمضاعفة أجرهم، رغم أنوف أهل الكتاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾ التسبيح هو: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:١٨].

وعن مماثلة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. وتمجيده وتعظيمه، وأن كل كمال فهو أولى به.

وهو التعبد لله والصلاة له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق:٤٠، الطور:٤٩] أي: صل له، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠] أي: صل صلاة الفجر وصلاة العصر، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه:١٣٠]، أي: صل له في هذه الأوقات.

وهو الانقياد لله- عز وجل- والدلالة على وجوده، وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتسبيحه أيضاً بتسبيح لا نفقهه، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

فجميع ما في السموات والأرض وكل شيء يسبحه عز وجل بلسان الحال والمقال إلا الكافر، فإنه يسبح الله بلسان الحال فقط، لا بلسان المقال، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج:١٨].

قال الطبري[١] «يعنى تعالى ذكره بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أن كل ما دونه من خلقه يسبحه؛ تعظيماً له وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته».

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «العزيز»: اسم من أسماء الله عز وجل مشتق من العزة يدل على أن له عز وجل كمال العزة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة، يقال: عزَّ يَعَزُّ بفتح العين إذا قوي وصلب، وعَزَّ يَعِزُّ بكسر العين إذا امتنع، وعَزَّ يَعُزُّ بضمها إذا قهر وغلب.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات:١٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

فهو عز وجل عزيز الامتناع فلا يمكن أن ينال جنابه سوء أو مكروه من الخلق، ولو اجتمعوا على ذلك، وهو ممتنع عن كل عيب ونقص.

وهو عزيز القهر والغلبة، الغالب، الذي خضع له كل شيء، الذي لا يدافع، ولا يمانع، ولا يغالب ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر:٤]، فلا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب.

وهو عزيز القوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١].

قال ابن القيم[٢]:

---

(١) في «جامع البيان ٢٢/ ٣٨٤

(٢) في النونية، ص ١٤٧.

وهـو العزيـز فلـن يـرام جنابـه أنـى يـرام جنـاب ذي السـلطان
وهـو العزيـز القـاهر الغـلاب لم يغلبـه شيء هـذه صـفتان
وهـو العزيـز بقـوة هـي وصـفه فـالعز حينئـذ ثـلاث معـان
وهـي التـي كملـت لـه سـبحانه مـن كـل وجـه عـادم النقصـان

ولهذا لا ينبغي أن تُلتمس العزة وتُطلب إلا منه سبحانه، فمن التجأ إليه وتعلق به واعتصم بحبله أعزه، ومن طلب العزة من غيره أذله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]. اللهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» مشتق من الحكم والحكمة يدل على أن له عز وجل الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي في الآخرة، وأن له الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، وهي الغاية من أحكامه كلها بأنواعها الثلاثة.

والحكمة الصورية، وهى الحكمة من مجيء كل حكم من أحكامه بأنواعها الثلاثة على صورة معينة، كالحكمة من مجيء الصلوات الخمس على هذه الصورة، الفجر ركعتان، والمغرب ثلاث ركعات، والحكمة من مجيئها على هيئة القيام والركوع والسجود والجلوس. وبقية الصلوات أربع ركعات، والحكمة من مجيء أنصبة الزكاة على هذه الكيفية، وهكذا بقية الأحكام الشرعية.

والحكمة من مجيء كسوف الشمس على كيفية معينة ككسوف نصفها أو كلها، وحصول الزلازل في مكان بعينه وعلى صورة ودرجة معينة، وكذا غير ذلك من الأحكام الكونية كسقوط طائرة، وانقلاب قطار، واصطدام سيارتين، وكون ذلك على صور وهيئات معينة، إلى غير ذلك من الأحكام الكونية وحِكَمها.

وكذا الحكمة الصورية من مجيء مجازاة المطيعين لله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكذا مجازاة العاصين السيئة بمثلها وغير ذلك من أحكام الله تعالى الجزائية في الآخرة.

فهو عز وجل حاكم له الحكم التام النافذ حكماً كونياً وحكماً شرعياً وحكماً جزائياً.

وهو محكم متقن له الحكمة التامة البالغة في خلقه وأمره وشرعه، حكمة غائية وحكمة صورية.

وبالتأمل في هذا يدرك الموفق أن هذا الخلق وهذا الكون يسير بنظام دقيق متقن منضبط؛ لأنه من صنع الحكيم العليم.

ويدرك أيضا أن وراء ذلك حكمة وهدفاً وغاية أعظم وأهم، وهي عبادته سبحانه وتعالى والذل والخضوع له سبحانه.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «له»: جار ومجرور خبر مقدم و«ملك» مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر؛ لإفادة الحصر، أي: أن ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن لله وحده بلا شريك. يتصرف فيه كيف يشاء، كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٦، ٢٧].

﴿يُحْىِۦ﴾ أي: يوجد الحياة في الإنسان والحيوان والنبات،﴿وَيُمِيتُ﴾ أي: يسلب الحياة من جميع الأحياء، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

والحياة والموت سر الله في خلقه، لم يعرف الخلق كنه ذلك وحقيقته، إلا أن الحي يأكل ويشرب ويتحرك وينمو ويتنفس، فإذا مات انقطعت هذه الأشياء، فسبحان الخالق البصير.

فهو عز وجل الذي يوجد الحياة ويسلبها، وهذا من تمام ملكه، وخصه بالذكر؛ لأن الإحياء والإماتة من أعظم الدلائل على قدرته عز وجل وكماله في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى قدرته على البعث.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: فلا يخرج شيء عن قدرته أياً كان صغيراً كان أو كبيراً قليلاً كان أو كثيراً، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

و«قدير» على وزن «فعيل» يدل على سعة قدرته وعظمتها وأنه لا يقف أمام قدرته شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، أي: هو سبحانه الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء.

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول ليس قبلك شيء، وأنت الآخر ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء، وأنت الباطن ليس دونك شيء اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»(١).

فهو عز وجل الأول السابق على جميع الموجودات بلا بداية، والآخر بعد فنائها بلا نهاية، والظاهر فوق كل شيء، والباطن ليس دونه شيء، المطلع على كل شيء سبحانه وتعالى. فاشتمل الأول والآخر على عموم الزمان، واشتمل الظاهر والباطن على عموم المكان. قال ابن القيم(٢):

هو أول هو آخر هو ظاهر ... هو باطن هي أربع بوزان

ما قبله شيء كذا ما بعده ... شيء تعالى الله ذو السلطان

عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله ما أتكلم به قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال- وضحك- قال: ما نجا من ذلك أحد قال: حتى أنزل الله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء- ما يقول عند النوم، وأخذ المضجع ٣٧١٣، وأحمد ٢/ ٤٠٤ وقد رُويَ أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣١.

(٢) في «النونية» ص ١٤٦.

يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، قال: فقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

قال ابن القيم في كلامه على هذه الآية(٢): «فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو الرب الخلاق، ولابد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه، وكل شيء قائم به، موجود بذاته، وكل شيء موجود به، قديم لا أول له، وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه، باق لذاته، وبقاء كل شيء به، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء».

الفوائد والأحكام:

١- أن كل ما في السموات والأرض يسبح الله- عز وجل- ؛ لقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢- إثبات اسم الله «العزيز»، وما يدل عليه من إثبات صفة العزة له- عز وجل، عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٣- إثبات اسم الله «الحكيم»، وما يدل عليه من إثبات الحكم التام لله عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٤- أن لله- عز وجل- ملك السموات والأرض وبيده الحياة والموت، وهو على كل شيء قدير؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥- إثبات أسماء الله عز وجل. «الأول، والآخر، والظاهر، والباطن» وأنه-

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- رد الوسوسة ٥١١٠.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٣- ٣٨٤.

عز وجل- هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

٦- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بكل شيء علماً؛ لقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كقوله في سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية:٥٤].

أي: هو الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، السموات السبع وما فيهن، والأرضين السبع وما فيهن، وقدم ذكر السموات؛ لأنها أشرف من الأرض وأعلى.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا؛ لأن الله خاطب العرب بما يعرفون، وأول هذه الأيام يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة.

وهو- عز وجل- قادر على خلقها في لمحة بصر أو أقل من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر:٥٠].

ومما قيل من الحكمة في خلقها في ستة أيام: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض فرتب عز وجل بعضها على بعض حتى أكملها.

وفيه أيضا تعليم عباده التؤدة والتأني في الأمور وأن الأهم إحكام الشيء وإتقانه لا الفراغ منه.

وقيل ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كل يوم منها كألف سنة.

والظاهر المتبادر للذهن القول بأنها من أيام الدنيا.

وهذه الأيام الستة هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، قال ابن كثير[1]: «فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٢. وانظر ١/ ٩٩.

السابع ومنه سمي السبت، وهو القطع».

قال ابن كثير: «وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد- ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر والليل»(١).

قال ابن كثير- بعد ذكر هذا الحديث من رواية أحمد قال: «فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج- وهو ابن محمد الأعور- عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، والله أعلم».

وقد خلق الله عز وجل الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيام، وخلق السموات في يومين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت:٩-١٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات:٢٧-٣٣].

وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٩

عليّ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله (طائعين) فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فكأنه كان ثم مضى.

فقال ابن عباس: «﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

إلى أن قال: وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض. ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السموات في يومين». الحديث[1].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ «ثم»: للعطف، أي: بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش.

والعرش في اللغة: عبارة عن سرير الملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل:٢٣]، وهو أكبر المخلوقات فعن أبي ذر- رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[2].

---

(١) ذكره البخاري معلقاً في تفسيره سورة «حم السجدة» انظر فتح الباري» ٨/ ٥٥٥- ٥٥٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ٥٣٩، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ١١ «أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع وقد رُويَ عنه من طريق أخرى موصولاً» وانظر «فتح المجيد» ص ٦١٦.

وقد قال الله عز وجل في الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ومعنى «استوى»، أي: علا وارتفع[(١)].

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا[(٢)]

والمعنى: استوى على العرشِ استواء يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، كما قال مالك رحمه الله: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[(٣)].

وقال ابن كثير[(٤)]: «وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها، كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

بل الأمر كما قال الأئمة- منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر».

وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٤٠٣، «جامع البيان» ١٦/ ١٣٨، «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي رقم ٦٦٢، «الرد على الجهمية» للدارمي ص ٢٣، «خلق أفعال العباد» للبخاري ص٨، «الرسالة الحموية» لابن تيمية ص٤١.

(٢) انظر «الرد على الجهيمة» ص٢٧، «شرح الطحاوية» تحقيق أحمد شاكر ص ٢٥٦، «سير أعلام النبلاء» ١/ ٢٣٨.

(٣) انظر «الأسماء والصفات» للبيهقي ص ٥١٦. «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٣٧٣.

(٤) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٢.

عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى».

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

بعد ما أخبر عز وجل بسعة وعظم خلقه، وأنه خلق السموات والأرض، واستوائه بعد ذلك على عرشه، أخبر بسعة علمه فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾

كقوله في سورة سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[الآية:٢].

و «ما» في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والمواضع الثلاثة بعدها: موصولة و«يلج» بمعنى: يدخل أي: يعلم سبحانه الذي يدخل في الأرض؛ كنهه وكمه وكيفه من حب وقطر وحيوان وغير ذلك.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي: ويعلم الذي يخرج منها من زروع ونبات وثمار ومياه، وحيوان وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾، [الأنعام:٥٩]، وقال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[طه:٥٥].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: ويعلم الذي ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والبرد والثلوج والصواعق، والأقدار والأحكام، والملائكة وغير ذلك.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، أي: ويعلم الذي يصعد إليها، وجاء التعبير بـ «فيها»؛ لأن الفعل «يعرج» ضمن معنى «يدخل» أي: ويعلم الذي يصعد إليها ويدخل فيها من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج:٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة:٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

وقال ﷺ «يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل»(١).

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، أي: وهو سبحانه معكم أيها الخلق جميعكم في أي مكان كنتم من بر أو بحر أو جو، في ظاهر الأرض أو في باطنها.

وهذه هي المعية العامة التي بمعنى العلم والإحاطة، فهو سبحانه مع الخلق كلهم في علمه وإحاطته بهم في أي مكان كانوا، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

ولهذا قال في نهاية الآية هنا: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقال ﷺ في دعاء السفر: «اللهم أنت الصاحب في السفر»(٢)

وهناك القسم الثاني من أقسام المعية، وهي المعية الخاصة، وهي معية الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين بالعون والتوفيق، والنصر والتأييد، والحفظ والتسديد، كما في قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

والعجب ممن لم يستفيدوا من مثل هذه النصوص إلا الابتداع والقول بالحلول والاتحاد، بدلاً من التأمل في سعة علم الله عز وجل وإحاطته بكل شيء مما يوجب مراقبته والخوف منه، والثقة بوعده ونصره وعونه وتأييده وصدق الله العظيم ﴿فَإِنَّهَا لَا

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤٤، ومسلم في الإيمان ١٧٩، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣١٨، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الحج- ما يقول إذا ركب ١٣٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٧، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملونه بصير، أو: والله بعملكم بصير، أي: أنه ومطلع وشهيد ورقيب على أعمالكم عليم بها كلها دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، سرها وعلانيتها، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود:٥].

وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد:١٠].

وقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»(١).

وسأل جبريل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين(٣):

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب(٤)

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

﴿لَهُۥ﴾، أي: له وحده بلا شريك ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وفي الآية الثانية من السورة قال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ فبين في هذه الآية أن من تمام ملكه أن بيده الإحياء والإماتة وأن قدرته

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- إثبات رؤية الله- سبحانه وتعالى ١٧٩، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان: ٢٦١٠ وأخرجه البخاري في الإيمان ٤٨، ومسلم في الإيمان ١٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٠٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٥، وانظر ٦/ ٢٢٩.

(٤) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤.

نافذة في كل شيء.

وبيّن في قوله هنا ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أن مرجع الأمور كلها الدينية والدنيوية والأخروية ومصيرها إليه في الحال والمآل، من الأحكام والجزاء الأعمال والعمال وغير ذلك، وهذا من تمام ملكه فمنه البداية، كما أفادت الآية الأولى، وإليه النهاية والمرجع والمصير والمآب وإلى حكمه في الدنيا والآخرة كما أفادت هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[الشورى:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد:٣٦].

وإذا كان عز وجل إليه مرجع الأمور ومصير الخلائق فسيحكم فيهم بحكمه العدل، ويجازي كلاً منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن اتقى الله ووعيد لمن عصاه، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

فأفادت الآيتان أن له عز وجل ملك الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل:١٣].

وهو المحمود على ذلك كله، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [القصص:٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ:١].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، أي: يدخل الليل في النهار تدريجياً فيطول الليل ويقصر النهار، ويدخل النهار في الليل تدريجياً فيطول النهار ويقصر الليل، وتارة يجعلهما متساويين معتدلين، وذلك لمصالح العباد.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج:٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان:٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر:١٣]

قال ابن كثير[1]: «أي: هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته، كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره، لما يريده بخلقه».

وفي ذلك مراعاة مصالح الخلق ومواشيهم وحروثهم وأمور دينهم ودنياهم، فإن في تعاقب الليل والنهار طولاً وقصراً واعتدالاً وفى تعاقب الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال مصالح عظيمة للخلق، إذ لو كان الحال على وتيرة واحدة من حيث الطول والقصر ومن حيث الحر والبرد والاعتدال لفاتت كثير من المصالح، ولحصل عند الإنسان الملل والسأم فإن كل طويل مملول.

ولهذا امتن الله عز وجل على عباده في أكثر من آية في هذا التقليب والتصريف للأيام والليالى والفصول.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٧]. وقال تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور:٤٤].

و﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ ﴾ أي: ذو العلم الواسع.

﴿ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦]، وقال عز وجل: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت:١٠].

والمعنى: وهو سبحانه وتعالى محيط علماً بالقلوب التي في الصدور وما تنطوي عليه من دقائق المضمرات وخفيات الأسرار من المعتقدات وغيرها.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣٦.

وهذا مما يوجبعلى العبد مراقبة الله- عز وجل- في سره وعلانيته، في أقواله وأفعاله، والتفتيش في خبايا نفسه، وعما ينطوي عليه قلبه، مبتعداً عن الرياء والسمعة والشرك ومحبطات الأعمال، وعن الغل والحقد والحسد والعداوة والبغضاء، متأملاً قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨].

أي: سليم مخلص العبادة لله عز وجل، وسليم على عباد الله.

الفوائد والأحكام:

١- التنبيه إلى تمام قدرة الله- عز وجل- في خلق السموات والأرض هذه المخلوقات العظيمة في ستة أيام، ولو شاء لخلقها بلمحة بصر؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٢- إثبات استواء الله- عز وجل- على العرش، وأنه- عز وجل- عالٍ على خلقه بائن منهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

٣- إثبات العرش، الذي هو أكبر المخلوقات.

٤- علم الله- عز وجل- الواسع المحيط بكل شيء مما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد إليها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

٥- معية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق بإحاطته وعلمه ونفوذ قدره ومشيئته فيهم أينما كانوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

٦- إثبات اطلاعه- عز وجل- وعلمه بجميع أعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٧- أن لله- عز وجل- ملك السموات والأرض، وإليه مرد الأمور ومصير جميع الخلائق وسيجازي كلاً بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

٨- قدرة الله- عز وجل- التامة، ونعمته العظيمة على الخلق في تعاقب الليل والنهار طولاً وقصراً واعتدالاً وفي تعاقب الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال؛ لقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

٩- علم الله- عز وجل- بما تنطوي عليه القلوب من الاعتقادات والمضمرات، وإذا كان كذلك فعلمه بما يظهر من باب أولى وأحرى مما يوجب مراقبة الله- تعالى في السر والعلن، فهو العليم الخبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة تسبيح جميع المخلوقات له، وعزته وحكمه وحكمته، وسعة ملكه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه بكل شيء، واستواءه على عرشه ومعيته لخلقه، وبصره بما يعملون، ومرد الأمور إليه، وإدخاله الليل في النهار والعكس وعلمه بما تنطوي عليه القلوب، وكل ذلك يدل على كمال عظمته، ثم أتبع ذلك بالأمر بالإيمان به وبرسوله والإنفاق في سبيله.

قوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين بالإيمان به وبرسوله.

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء:١٣٦].

وليس هذا من تحصيل الحاصل، كما قد يفهمه من قصر علمه ومعرفته، وذلك أن المؤمن في حاجة في كل لحظة وفي كل حال إلى الإيمان وتجديده والثبات والاستمرار عليه والزيادة منه وتكميله؛ ولهذا يقول المؤمن وهو قائم يصلي بين يدي الله عز وجل في كل ركعة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة:٦]. أي: وفقنا له وثبتنا عليه وزدنا هداية.

والإيمان في اللغة: التصديق، كما قال تعالى عن إخوة يوسف أنهم قالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف:١٧]، أي: بمصدق، وقال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١].

وهو في الشرع: قول باللسان واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهو معنى

شهادة أن لا إله إلا الله.

والإيمان بالرسول: هو طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، وهذا يدل على أن الإيمان قول واعتقاد، وعمل؛ لأن الإنفاق مما استخلفوا فيه عمل، وإنما خص ذلك- والله أعلم-؛ لما للإنفاق والعبادات المالية من النفع العام والإحسان المتعدي إلى الخلق، وأحب الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس، ولأن المال شريك الحياة، فبذله من أعظم الشواهد والعلامات على قوة الإيمان.

وقوله: ﴿مِمَّا﴾ أي: من الذي و«من» للتبعيض أي: بعض الذي جعلكم مستخلفين فيه. وقد تكون للبيان فيجوز للإنسان أن ينفق أكثر ماله أو كله حسب الحاجة والمصلحة وحال المنفِق فقد تصدق أبو بكر الصديق بكل ماله، وتصدق عمر بنصف ماله رضي الله عنهما(١).

﴿جَعَلَكُم﴾ بمعنى: صيركم، تنصب مفعولين الأول: كاف الخطاب، والثاني قوله ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

والأمر بالإنفاق هنا يشمل النفقات الواجبة والمستحبة.

والمعنى: وانفقوا من المال الذي جعلكم الله مستخلفين فيه، أي: خلفتم فيه من قبلكم، وسيخلفكم فيه من بعدكم، وهو بمنزلة الأمانة، أو العارية في أيديكم.

فالمال مال الله منّ به علينا واستخلفنا فيه، ومنّ علينا بشرعه لنا الإنفاق منه ليثيبنا على ذلك بالأجر الكبير المضاعف.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر:١]. قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فذاهب وتاركه للناس»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وقوله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك. أو يعصي الله فيه، فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان».

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

أَمَر الله عز وجل في أول هذه الآية بالإيمان به وبرسوله والإنفاق مما جعلهم مستخلفين فيه، ثم رغبهم في الإيمان والإنفاق بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾، أي: فالذين آمنوا منكم بالله ورسوله وأنفقوا مما استخلفهم الله فيه.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: لهم جزاء وثواب كبير وعظيم من حيث كنهه وكيفيته وكميته، وهو ما أعده الله من السعادة في الدنيا والآخرة والنعيم. المقيم في جنات النعيم والخلف العظيم للمنفقين. قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن:١٧].

وسمى عز وجل ثواب إيمانهم وإنفاقهم أجراً تحقيقا للوفاء لهم بذلك؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد، وقد أوجب سبحانه على نفسه إثابة المطيعين ورحمة عباده المؤمنين، قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦].

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٥٢٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢، وأحمد ٤/ ٢٤.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٦

فسمى عز وجل ثوابهم أجراً؛ لأنه سبحانه تكفل به وأوجبه على نفسه تفضلاً منه وكرما، فكان أشبه بأجر الأجير الذي قال فيه الرسول ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»(١).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الواو: استئنافية و«ما»: اسم استفهام يفيد التحضيض في محل رفع مبتدأ، «لكم» متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، و«لا»: نافية.

أي: أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله؟

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ الواو: للحال، أي: والحال أن الرسول بين أظهركم يدعوكم لتؤمنوا بربكم، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، أي: أنه لا عذر لكم إن لم تؤمنوا بالله.

عن أبي جمعة الأنصاري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ آمنا بك واتبعناك. قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين، يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم أجراً منكم مرتين»(٢).

قال ابن كثير(٣) بعد سياقه لهذا الحديث: «مدحهم على ذلك، وذكر أنهم أعظم من هذه الحيثية لا مطلقاً».

ومع أن أول من يدخل في الخطاب في الآية الصحابة الذين كان الرسول ﷺ بين أظهرهم إلا أن غيرهم من المؤمنين مخاطبون فيها، فهم وإن لم يكن الرسول ﷺ بين أظهرهم فسنته باقية بين أظهرهم إلى قيام الساعة فيها دعوتهم إلى الإيمان بالله.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء: «أُخِذ» و«ميثاقُكم»

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٣ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن مردويه، ورُويَ نحوه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ومن حديث عمر، ومن حديث أنس، انظر تفسير ابن كثير ١/ ٦٤.

(٣) في «تفسيره» ١/ ٦٤.

بالرفع، وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء: ﴿أَخَذَ﴾ ونصب ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾.

والواو: للحال، و«قد»: حرف تحقيق والميثاق: هو العهد المؤكد، أي: والحال أن الله قد أخذ ميثاقكم، أي: عهدكم، بدخولكم في الإيمان.

أو والحال أن الرسول ﷺ قد أخذ ميثاقكم، وذلك بمبايعتهم له على السمع والطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

وعلى هذا المعنى فإن كل من دخل في دين الله وآمن به وبرسوله ﷺ سواء كان ذلك بالمبايعة له ﷺ في حياته أو بالدخول في دينه، سواء كان ذلك في حياته، أو بعد وفاته ﷺ، فهذا عهد وميثاق منه بالإيمان بالله ورسوله ﷺ، يوجب عليه القيام بحق هذا الإيمان.

وقد ذهب بعض المفسرين منهم مجاهد إلى أن المراد بالميثاق في قوله ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ هو الذي أخذه الله على بني آدم لما أخرجهم من صلب أبيهم آدم. كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣](٢).

والصحيح القول الأول.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن»: شرطية «كنتم»: فعل الشرط، أي: إن كنتم صادقين في

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٨، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الحدود ٢٨٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٠.

إيمانكم، فآمنوا بالله ورسوله، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، أي: إن من شرط صحة وصدق إيمانكم: الإيمان بالله ورسوله، وتجديد ذلك والثبات والاستمرار عليه والزيادة منه، والإنفاق مما استخلفتم فيه من المال والرزق، والوفاء بالميثاق الذي أخذتموه على أنفسكم لله ورسوله، فكل ذلك من شرط صحة الإيمان.

فعلامة صدق الإيمان وصحته وقوته وكماله: الإقبال على الله عز وجل بفعل كل ما يقوي الإيمان ويجدده ويثبته، من ترك للمنهيات وفعل للمأمورات، ومن ذلك الإنفاق من المال في وجوه البر والخير، الواجب منها والمندوب.

والإنفاق من أعظم العلامات على الإيمان، وهو محزّ عظيم، فإن من الناس من تظهر عليه آثار الصلاح والتقى والزهد، وتراه يهمهم ويحوقل، فتحسبه من أعظم الزهاد والأتقياء ولكن إذا سبرت أحواله في الإنفاق والتعامل بالدرهم والدينار تمنيت أنك لم تطلع على حاله في هذا الجانب.

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين سأل عن رجل فقال: «من يعرف فلاناً فقام رجل فقال: أنا أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال له عمر رضي الله عنه: «هل عاملته بالدينار والدرهم ؟ قال: لا. قال: هل سافرت معه؟ قال: لا. قال: هل جاورته؟ قال: لا. فقال عمر رضي الله عنه: إذاً أنت لا تعرفه»[1]. رضي الله عنك يا عمر لقد عرفت المحزّ حقاً.

وقد قيل:

والـــدعاوى إن لم يقيمـــوا عليهـــا ... بيّنـــات أربابهـــا أدعيـــاء

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾، أي: هو وحده عز وجل الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آيات بيّنات.

وهذا من لطفه عز وجل بكم لم يكتف بمجرد دعوة الرسول والذي هو أشرف الخلق، بل أيده بالمعجزة الكبرى وهي الآيات البينات، وفي هذا تنبيه لعظيم فضله عليهم، وتنويه بأعظم نعمة أنعم بها عليهم.

---

(١) انظر: «السنن الصغرى» للبيهقي ٤/ ١٣٤، «سبعة مجالس من أمالي أبي طاهر المخلص» ص٦٥.

والآيات جمع «آية»، وهي العلامات، وهي تنقسم إلى قسمين آيات شرعية، وهي آيات القرآن الكريم وآيات كونية، وهى كل آياته المنتشرة في الكون وفي خلقه.

والمراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية، آيات القرآن الكريم، المشتملة على الهدى والنور، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥].

وسميت الآيات الشرعية بالآيات لما فيها من الإعجاز في ألفاظها ومعانيها، وأخبارها، ولما فيها من التشريع الصالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، ولما فيها من الدلالة على صدق من جاء بها، وأنها من عند الله، وعلى استحقاقه العبادة دون من سواه، وكماله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: بينات واضحات مفصلات؛ لأن الله عز وجل بينهن وفصلهن، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة:١١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٧-١٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام:٩٧]، وفي الآية: (٩٨) ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ وفي الآية: (١٢٦) ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: آيات بينات مفصلات فيهن بيان للواجب وغيره، وللحلال والحرام، ولكل ما تحتاجه الأمة في أمور دينها ودنياها وأخراها، كما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس:٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤].

﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يخرجكم من ظلمات

الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والإيمان والهدى.

وضمير الفاعل في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ يعود إلى الله عز وجل وقد يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأنه سبب الإخراج، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

وجمع الظلمات ووحد النور؛ لأن سبل الشر كثيرة متفرقة وسبيل الخير واحد كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

ويا لها من ظلمات ومسالك وعرة ومفاوز ومهالك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٤٠]، وقال عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢].

فما أعظمها من منة، وما أكبرها من نعمة على من نوَّر الله قلبه وشرح صدره؛ ولهذا قال ﷺ لحارثة رضي الله عنه: «كيف أصبحت يا حارثة؟»، قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول؛ فإن لكل قول حقيقة»، قال: أصبحت كأني أنظر إلى عرش الرحمن بارزًا، وإلى أهل الجنة في الجنة ينعمون، وإلى أهل النار في النار يتعاوون، قال: «عبد نوَّر الله قلبه، فالزم»(١).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ الواو: عاطفة، والخطاب للمؤمنين، أي: وإن الله بكم أيها المؤمنون لذو رأفة واسعة، والرأفة: أخص من الرحمة، ﴿رَّحِيمٌ﴾، أ]: ذو رحمة واسعة خاصة بكم، كما أنه ذو رأفة ورحمة عامة بجميع خلقه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧، آل عمران:٣٠].

ومن عظيم رأفته عز وجل ورحمته بالخلق إنزال القرآن الكريم وما فيه من الآيات

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

البينات على رسوله محمد ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كقوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، الواو: استئنافية، و«ما» اسم استفهام فيه معنى التحضيض.

﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ «ألا»: «أن» حرف مصدري، و«لا» نافية، أي: وما لكم لا تنفقون في سبيل الله، أي: أيّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله؟، أي: أنفقوا.

وقوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله في الجهاد وقتال الكفار.

والجهاد بالمال من أعظم أنواع الجهاد؛ وذلك لأن المجاهد بنفسه لا يستطيع الجهاد إلا بوجود المال ليتزود به في جهاده، ويحصل به على المركب الذي يركبه والسلاح الذي يقاتل به وغير ذلك.

ولهذا قدم الله عز وجل الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في أكثر المواضع في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٢٠]، وقال تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [الصف:١١]، وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٤١].

إلى غير ذلك من الآيات.

ولهذا قال ﷺ: «من جهز غازياً فقد غزا»(١).

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الواو: حالية أي: أيّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والحال أنه ليس لكم شيء، بل لله عز وجل ملك السموات والأرض، فهو سبحانه المالك الوارث لذلك كله خلقاً وابتداءً وتصرفاً وانتهاءً.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٤٣، ومسلم في الإمارة ١٨٩٥، وأبو داود في الجهاد ٢٥٠٩، والنسائي في الجهاد ٣١٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٢٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٩، من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠].

وفي قوله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بعد قوله ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إشارة وتنبيه إلى أن للمنفق في سبيل الله الخلف العظيم العاجل من الله عز وجل مع الأجر الكريم الآجل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ:٣٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»(١).

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك»(٢).

وقال ﷺ لأسماء رضي الله عنها: «أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي، فيوعي الله عليك»(٣).

وقال ﷺ: «ما من يوم، يصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»(٤).

فعلى المؤمن أن ينفق مما استخلفه الله فيه من المال، ويثق بالخلف من الله عز وجل، ويتوكل على الله ويعتمد عليه، ويكون أوثق بما عند الله مما في يده قال عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

كما أن في الآية إشارة وتنبيهاً إلى أن المال كله لله عز وجل، وما في أيدي الناس إنما

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة ٢٥٩١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٩، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٥١، والترمذي في البر والصلة ١٩٦٠ من حديث أسماء رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٤٢، ومسلم في الزكاة ١٠١٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هو مجرد عارية ووديعة في أيديهم، سترد إلى الله عز وجل، كما سيردون هم بأنفسهم إليه عز وجل، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [التوبة:١٠٥].

وقد قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوماً أن ترد الودائع[1]

وقال الآخر:

المال كالماء إن تحبس سواقيه ... يأسن وإن يجر يعذب منه سلسال

فالله أعطاك فابذل من عطيته ... فالمال عارية والعمر رحال

وقال الآخر:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض بالمال

أحتال للمال إن أودى فأجمعه ... ولست للعرض إن أودى بمحتال[2]

فما أحرى من كان المال عارية ووديعة عنده ألا يبخل بشيء منه، وألا يمنع حقاً من حقوق صاحب هذا المال ومالكه وهو الله عز وجل، الذي له ملك السموات والأرض.

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾، أي: لا يستوى منكم أيها المؤمنون من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل، ومن لم ينفق ولم يقاتل قبل هذا الفتح.

وذلك أنه قبل الفتح كانت الحاجة إلى الإنفاق والقتال شديدة؛ وذلك لضعف المسلمين وقلتهم، أما بعد فتح مكة فقد قويت شوكة الإسلام، وكثر المسلمون، ودخل الناس في دين الله أفواجا، كما قال عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ

---

(١) البيت للبيد. انظر: «ديوانه ص٨٨».

(٢) البيتان لحسان بن ثابت رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٩٢، «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي ٢/ ٢٥٣، «التذكرة الحمدونية» ٢/ ٩٨، «خزانة الأدب ٩ ١/ ٤٢٣».

كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [النصر:١-٣].

فالإنفاق قبل الفتح الحاجة إليه أشد وأعظم، وكذا القتال قبل الفتح، ولهذا يتحمل المنفق والمقاتل في هذه الحال أشد مما يتحمله من أنفق من بعد الفتح وقاتل؛ وذلك لكثرة المنفقين والمقاتلين، وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف درهم»(١).

والجمهور على أن المراد بالفتح «فتح مكة» كما تقدم، واختاره الواحدي وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم(٢).

وقد ذهب الشعبي وغيره إلى أن المراد بالفتح هنا: «صلح الحديبية»(٣).

واختاره الطبري والنحاس، والكيا الهراسي، وابن تيمية، والسعدي وغيرهم(٤).

وذكر ابن كثير(٥) أنه قد يُستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه في المشاجرة التي جرت بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما حيث قال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد- أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»(٦).

وكان إسلام خالد بن الوليد بين صلح الحديبية وفتح مكة. وكان سبب المشاجرة بينهما أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة فجعلوا يقولون: «صبأنا، صبأنا» فلم يحسنوا أن يقولوا: «أسلمنا» فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك(٧).

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة- باب جهد المقل ٢٥٢٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٢- ٣٩٣، «الوسيط» ٤/ ٣٤٥، «زاد المسير» ٧/ ٣٠١.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٣- ٣٩٤.

(٤) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٥، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٨، «أحكام القرآن» للهراسي ٤/ ٤٠١، «مجموع الفتاوى» ١١/ ٥٦، ٢٢٢، ٣٥/ ٦٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٧.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ٣٧- ٣٨.

(٦) أخرجه أحمد ٣/ ٢٦٦.

(٧) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٩، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠٥، من حديث ابن عمر رضي الله =

كما ذكر ابن كثير في معرض ذكر ما قد يستدل به لهذا القول ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم» فقلنا من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: «لا، ولكن أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً» فقلنا هم خير منا يا رسول الله؟ قال: «لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه، ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه، إلا أن هذا فضل ما بيننا وبين الناس، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾»(١).

ومما يؤيد أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية وأنه هو المراد بقوله في سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح:١]- على القول الصحيح-: ما حصل بعد هذا الصلح من دخول الناس في دين الله أفواجاً فكان أعظم عز ونصر للإسلام والمسلمين.

﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ الإشارة لقوله: ﴿مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾، أي: إلى الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، أي: أولئك الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا أعظم درجة عند الله في الجنة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا؛ وذلك لأن الحاجة إلى الإنفاق والقتال قبل الفتح كانت أشد منها بعد الفتح كما سبق

=

عنهما- وليس فيه ذكر عبد الرحمن بن عوف وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٤- ٣٩٥ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٦- الأثر ١٨٨١٦.

قال ابن كثير بعد سياقه من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم: «وهذا الحديث غريب بهذا السياق. والذي في الصحيحين من رواية جماعة عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد- ذكر الخوارج- تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» الحديث أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٠، ومسلم في الزكاة- باب ذكر الخوارج ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨.

ثم ذكر ابن كثير رواية ابن جرير، لهذا الحديث من وجه آخر ليس فيه ذكر الحديبية- وعلى هذا فلا دلالة فيه على أن المراد بالفتح صلح الحديبية. قال ابن كثير: «فإن كان ذاك محفوظاً- يعنى الرواية الأولى- فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده» انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨- ٣٩.

بيانه، والأجر على قدر الإيمان والإخلاص والمشقة، ولهذا قال ﷺ لأصحابه: «يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر، للعامل فيه أجر خمسين منكم»(١).

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الواو: عاطفة. قرأ ابن عامر برفع اللام، «وكلٌّ» على الابتداء، وقرأ الباقون بنصبها، مفعول به أول لـ«وعد» و«الحسنى» مفعول به ثانٍ.

أي: وكلا من الفريقين المنفق والمقاتل قبل الفتح، والمنفق والمقاتل بعد الفتح، وعدهم الله الحسنى أي: المثوبة الحسنة والجنة، كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:٣١].

وفي قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ احتراز؛ لأنه لما بين أنه لا يستوى المنفق والمقاتل قبل الفتح مع المنفق والمقاتل بعده، وأن المنفقين والمقاتلين قبل الفتح أعظم درجة احترز فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لئلا يظن أنه ليس للمنفق والمقاتل بعد الفتح أجر.

كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء:٩٥].

وكما في قوله ﷺ «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»(٢).

ومن فضله عز وجل العظيم الواسع أنه لما ضاعف الأجر لمن كان عمله أفضل لم يحرم من كان عمله دونه، ولهذا قسّم عز وجل أهل الجنة إلى سابقين مقربين، وإلى أهل يمين دونهم، وجعل ثوابهم على درجتين، فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم ذكر صفاتهما في أعلى الصفات، ثم قال ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن:٦٢] وذكر صفاتهما دون اللتين قبلهما

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤١، والترمذي في التفسير ٣٠٥٨، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٤، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في القدر- الأمر بالقوة وترك العجز ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، وأحمد ٢/ ٣٦٦-٣٦٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملونه خبير، أو والله بعملكم خبير، أي: مطلع وعليم بأعمالكم؛ بواطنها ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى وأحرى.

وفي هذا وعد للمنفقين المتقين، ووعيد للممسكين المخالفين.

ومن عظيم خبرته عز وجل أن علم مدى الفرق بين من أنفق وقاتل قبل الفتح ومن أنفق وقاتل بعده، ومدى ما تحمّله كل منهما من المشقة، ومدى الحاجة إلى الإنفاق والقتال في الحالين، ولهذا فاوت عز وجل بين ثواب كل منهما.

قال ابن كثير[1]: «ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء فإنه أنفق ماله كله، ابتغاء وجه الله عز وجل، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها».

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾.

توكيد وحث على الإنفاق والذي من أعظم وجوهه الإنفاق في الجهاد في سبيل الله؛ لأن الجهاد متوقف على الإنفاق وبذل المال وهذه الآية كقوله في البقرة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقوله: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [المزمل:٢٠].

قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾.

«من» اسم استفهام، وهو متضمن للطلب بألطف أنواع الخطاب، وهو أبلغ من الطلب بصيغة الأمر.

﴿ذَا﴾ اسم إشارة، و﴿ٱلَّذِي﴾ اسم موصول يعم كل مقرض في أي وجه من وجوه القرض.

﴿يُقۡرِضُ﴾ أي: يسلف. والقرض في اللغة: القطع. وفي الاصطلاح: دفع مال لمن ينتفع به ويرد بدله.

والمراد به هنا ما يعطيه الإنسان ليجازيه الله- تعالى- عليه أي: من ذا الذي يقرض

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣٩.

الله بالإنفاق في سبيله في وجوه البر كلها، من الزكوات والصدقات، والإنفاق على الأهل والأولاد، وعلى المحتاجين من الأقارب واليتامى، والمساكين وغيرهم، وفي الجهاد في سبيل الله، وبناء المساجد، وتعليم القرآن، وغير ذلك من مصالح المسلمين.

قال ابن كثير[1]: «فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية».

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾، أي: قرضا طيبا جميلا، وهو ما وافق الشرع، بكونه من طيب ماله، وبطيب نفس منه، ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وهذا بينه وبين الله عز وجل، وبلا منٍّ على المقرَض ولا أذية له، وأن يكون القرض وإنفاقه في محله، ولمن يستحقه من أهل الحاجة وفي مصالح المسلمين، لا فيما يغضب الله.

كما قال عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٢-٢٦٤].

وسُمي الإنفاق قرضاً حسناً لله عز وجل- مع أن المال ماله، والملك ملكه، والخلق عبيده- حثاً عليه وترغيباً فيه ولتكفله عز وجل بمضاعفة أجره، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة:١٠٤]

قال ابن القيم[2]: «وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً، وذلك يجمع أموراً ثلاثة: أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه. الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله. الثالث: ألا يمن به ولا يؤذي.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٤٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٤- ٣٨٥.

فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفِق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ».

فإن كان القرض لهدف مادي دنيوي- كما هو حال الكثيرين، أو من رديء المال، أو لم تطب فيه النفس، وإنما مجاملة فقط فليس هذا من القرض الحسن الذي رتب الله عليه المضاعفة والأجر.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾، أي: فيضاعفه له خلفاً في الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ:٣٩].

ويضاعفه له في المجازاة، بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة:٢٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة:٢٦٥].

﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، أي: وله ثواب ثابت عظيم، كثير خيره، وهو الجنة، وما فيها من ألوان النعيم- نسأل الله عز وجل من فضله- كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن:١٧].

وسُمي ثواب المقرض أجراً مع أن الله لا يجب عليه شيء لخلقه؛ لأن الله عز وجل تكفل بهذا الأجر، وأوجبه على نفسه، تفضلاً منه وكرماً، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني أقرضت ربي حائطي- وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها- قال فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك فقال: اخرجي، فقد أقرضته ربي- عز وجل- وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح. ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح[1] في الجنة لأبي الدحداح».

وفي لفظ «رب نخلة مدلاة، عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة»[2].

قال ابن القيم رحمه الله[3] في كلامه على هذه الآية: «فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليء وفيّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن عين ماله يعود إليه ولابد طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها، وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية. فإنه سماه قرضاً وأخبر أنه هو المقترض، لا قرض حاجة، ولكن قرض

---

(١) العذق الرداح: هو العذق العظيم الثقيل.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٨- ٣٣٣٩- الأثر ١٨٨٢٨، وأخرجه مسلم مختصراً من حديث جابر بن سمرة- رضي الله عنه- في الجنائز ٩٦٥.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٤.

إحسان إلى المقرِض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح فهو الذي أعطاه ماله، واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض، وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم».

وقد ذُكر أن رجلاً جاء إلى العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله فسأله أيهما أفضل الصدقة- حال الحياة- أو الوصية؟ فقال له: أيهما أفضل أن يكون أمامك سراج واحد، أو أن يكون خلفك سراجان.

فقال الرجل: بل الأفضل أن يكون أمامي سراج واحد. فقال إذن فتصدق وأنت حي.

ومراد العلامة السعدي رحمه الله في هذا المثل إيضاح الفرق الواسع والبون الشاسع في الفضل بين الصدقة والوصية، وأن الصدقة حال الحياة والصحة أفضل، كما أن السراج الذي أمام الإنسان أقوى نوراً وأنفع للإنسان من سراجين خلفه أو أكثر.

وذُكر أيضا أن سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد- رحمه الله- جاءه رجل فسأله أيهما أفضل الوقف والصدقة أو الوصية. فقال له رحمه الله: أيهما أفضل إذا أردت أن تسافر أن تحمل زادك معك، أو تقول لأولادك اتبعوني بالزاد؟ قال: بل الأفضل أن أحمله معي. فقال: إذن فالوقف والصدقة في الحياة أفضل.

ومراد سماحة الشيخ عبد الله رحمه الله إيضاح أفضلية الوقف والصدقة حال حياة الإنسان على الوصية، وأن مقدم الصدقة والوقف يطمئن ويثق من أخذ صدقته مجراها حال حياته بخلاف الوصية فما يدري هل تنفذ أو لا تنفذ؟.

وفي تمثيل الشيخين رحمهما الله إشارة إلى قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي: الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب الإيمان بالله ورسوله وتجديده والثبات عليه والزيادة منه وتكمليه؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٢- أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالرسول ﷺ، كما أن الإيمان بالرسول يستلزم الإيمان بالله؛ ولهذا جاز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله تعالى بالواو التي تقتضي التشريك؛ لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله تعالى، كما أن طاعته ﷺ من طاعة الله تعالى.

٣- مشروعية الإنفاق وإخراج ما في المال من حقوق واجبة أو مستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

٤- أن الإنسان مستخلف في المال انتقل إليه من غيره بفضل الله. وسينقل عنه إلى غيره والكل مال لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

٥- وعد الله- عز وجل- للمؤمنين المنفقين بالأجر الكبير والجزاء العظيم والتزامه لهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٦- التحضيض على الإيمان بالله وتجديده وتكميله والثبات عليه، والامتنان عليهم، وقيام الحجة عليهم بوجود الرسول ﷺ بين أظهرهم، يدعوهم إلى الإيمان بالله، وأخذه الميثاق عليهم، وأن ذلك شرط لصحة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٧- أن الإيمان بالله عهد وعقد بين المؤمنين وربهم يوجب عليهم القيام بحقوق هذا الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٨- امتنان الله- عز وجل- على العباد بإنزال القرآن الكريم على محمد ﷺ، وهو النعمة الكبرى؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٩- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾.

١٠- أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

١١- أن العبودية لله أفضل وأشرف ما يوصف به البشر ولهذا وصف الله- عز وجل- بها نبيه محمداً ﷺ في حال إنزال الآيات عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

١٢- بيان آيات القرآن الكريم، وتبيينها لما تحتاجه الأمة في دينها ودنياها؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

١٣- أن الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب: إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والإيمان والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

١٤- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى، وأحكامه الشرعية والكونية.

١٥- أن طرق الباطل متعددة متشعبة وطريق الحق واحد، ولهذا جمع الظلمات وأفرد النور.

١٦- إثبات صفتي الرأفة والرحمة الواسعتين لله- عز وجل- وأن من رأفته ورحمته عز وجل بالعباد: أن أرسل محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾..

١٧- الحض على الإنفاق في سبيل الله، ما دام المال في اليد؛ لأنه عارية سترد إلى الله- عز وجل- وعنده الخلف العاجل والآجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٨- أن لله- عز وجل- ملك وميراث السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٩- أن من أنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة ممّن أنفق وقاتل بعد الفتح؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾.

٢٠- أن الأجر والثواب على قدر الإيمان والإخلاص والمشقة.

٢١- وعد الله- عز وجل- لكل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو بعده بالمثوبة الحسنة والجنة، وإن كانا لا يستويان، فمن أنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة؛ لقوله تعالى:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٢٢- إثبات علم الله- عز وجل- وخبرته التامة بأعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

٢٣- تأكيد الحث والتحضيض على الإنفاق في سبيل الله وتسميته قرضا لله- ترغيباً فيه والوعد عليه بالمضاعفة والأجر الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

٢٤- في تسمية الإنفاق قرضاً لله- عز وجل- وتسمية جزائه أجراً إشارة لتكفل الله- عز وجل- وضمانه رد هذا القرض ومضاعفته والمجازاة عليه بالثواب العظيم.

٢٥- ينبغي أن يكون الإنفاق في سبيل الله خالصاً لله، ومن مال طيب، وبطيب نفس، وبلا منٍّ على المنفَق عليه ولا أذية له.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للمؤمنين المنفقين من الأجر الكريم، ثم ذكر مالهم في عرصات القيامة من النور والبشرى بالجنات والفوز العظيم.

ثم قارن ذلك بحال المنافقين وما ينتظرهم في تلك العرصات من الظلمات والتبكيت والنار وبئس المصير.

قوله ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾.

كما قال تعالى في سورة التحريم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الآية:٨].

﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان منصوب على الظرفية، أو مفعول لفعل محذوف، تقديره: اذكر.

﴿تَرَى﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ عطف عز وجل «المؤمنات» على «المؤمنين»، وأفردهن بالذكر، ولم يغلب الذكور على الإناث- كما هو الأكثر في القرآن الكريم- إشارة إلى مكانة المرأة المؤمنة، وما أعده الله لها، وأنها تجازى على عملها الصالح كما يجازى الرجل، كما قال عز وجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾. [آل عمران:١٩٥].

فتضاعف الحسنات دون السيئات للرجال والنساء، ولكل منهم ثواب عمله، كما قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢]، وقال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، أي: يسير نورهم أمامهم يقتدون به ويضيء لهم الطريق، وعن أيمانهم، تكريماً لهم في عرصات القيامة، وعلى الصراط حسب قوة إيمانهم، وعلى قدر أعمالهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: «على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة»(١).

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾، أي: يقال لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، والبشرى والبشارة: الإعلام برجاء، والخبر السار مأخوذ من البشرة؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر اتسعت وامتدت بشرته، وظهرت عليه آثار السرور، وبالعكس إذا حزن فإن بشرته تنقبض وتظهر عليه آثار الحزن، ويسودّ وجهه.

﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: أنهم يُبشرون في ذلك اليوم بجنات تجري من تحتها الأنهار.

أي: يبشرهم ربهم كما قال عز وجل: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة:٢١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشوري:٢٣].

ويبشرهم النبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف:٢، ٣].

وتلك والله أعظم البشارة وأغلاها وأحلاها على القلوب، وألذها على النفوس.

وفي قوله: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾، ولم يقل: «بشراكم اليوم بجنات» مع حذف الفاعل ما يدل على قرب حصول المبشر به، بل ما يدل على حصول البشارة والمبشر به في آن واحد.

و«جنات» جمع جنة، والجنة في الأصل: البستان، وسمى البستان جنة لأنه يجن من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٨.

بداخله، أي: يستره لكثرة أشجاره والتفافها. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ [ق:٩، ١٠].

والمراد بالجنات في قوله ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ ما أعده الله لأوليائه المؤمنين وحزبه المفلحين في دار كرامته في جنات عدن، من البساتين والقصور والمساكن والغرف، وما فيها من ألوان النعيم.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار بلا أخدود، قال ابن القيم رحمه الله(١):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

وأنهارها أنواع، كما قال الله عز وجل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

فيشربون من هذه الأنهار ويتمتعون برؤية جريانها تحت تلك الجنان، وغير ذلك.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ «خالدين» حال، أي: حال كونهم خالدين فيها، أي: مقيمين في هذه الجنات إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩، البينة:٨].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ﴾ الإشارة إلى ما للمؤمنين من النور في تلك العرصات، ودخول الجنات، والخلود فيها، والتمتع بما فيها من الخيرات والأنهار وألوان النعيم- نسأل الله تعالى من فضله.

وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له، وتنويهاً بشأنه.

و«الفوز» هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب، النجاة من النار ودخول الجنة دار الأبرار، ويا له من فوز، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨].

﴿الْعَظِيمُ﴾، أي: الذي لا فوز أعظم منه، وإذا كان الله وصف هذا الفوز بأنه عظيم،

---

(١) انظر: «النونية» ص ٢٢٩.

فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ الآيات.

لما ذكر أن المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وبأيمانهم، أتبع ذلك بذكر حال المنافقين والمنافقات، وهم يتخبطون في الظلمات، ويطلبون الاقتباس من نور المؤمنين وهيهات أن يحصل لهم ذلك.

قوله ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، «يوم» بدل من «يوم» في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

و﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وسُمي المنافق منافقاً أخذاً من نافقاء اليربوع؛ وذلك لأن اليربوع- وهو دابة صغيرة أكبر من الفأرة- يحفر في الأرض جحراً، ويجعل له باباً، ويجعل في آخره نافقاء، أي: مخرجاً: للطوارئ، لكنه لا يجعله ظاهراً بل يترك فوقه قشرة رقيقة من الأرض، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج.

وهكذا حال المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، يأتي إلى المؤمنين بوجه وإلى الكفار بوجه آخر، كما قال الله عز وجل عن المنافقين. ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤].

وذَكَر المنافقات هنا مع المنافقين، ولم يغلب الذكور على الإناث كما هو الغالب في القرآن الكريم؛ لمزيد البسط والإيضاح، وأن كلًّا من الذكور والإناث يجازى بعمله.

﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرأ حمزة بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الظاء: «أَنظِرونا» بمعنى: أمهلونا، وقرأ الباقون بوصل الهمزة، وضم الظاء: ﴿ٱنظُرُونَا﴾، أي: انتظرونا.

﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، أي: نستضيء به

﴿قِيلَ﴾، أي: يقال لهم: تبكيتا وتوبيخاً وتقريعاً ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾، أي: خلفكم ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، أي: اطلبوا نوراً، وهذا القول لا يقل وقعه على قلوبهم عن العذاب الحسي؛ لما فيه من الإهانة لهم والتقريع والتوبيخ والتبكيت

والمعنى: أنه عندما يرى المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين

أيديهم وبأيمانهم يطلبون منهم الانتظار لهم؛ ليستضيئوا من نورهم، فيقال لهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾، أي: ارجعوا من حيث جئتم فاطلبوا لأنفسكم نوراً.

وفيه إشارة إلى أن محل أخذ النور إنما هو في الحياة الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، وهيهات ذلك.

وأبهم القائل لهم ذلك إشارة إلى افتضاح أمرهم وحيرتهم بين الخلق، فكأن كلا يقول لهم هذا القول.

وفي هذا توبيخ وتقريع وتبكيت لهم، ومخادعة لهم واستهزاء بهم كما كانوا في الدنيا يخادعون ويستهزئون، قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة:٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة:١٤، ١٥].

وأنى لهم النور ولم يسلكوا طريقه في الدنيا، كما قال تعالى عن أعمالهم وحالهم ومآلهم ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

ولا أشد ظلمة من ظهور النور ثم انطفائه، ولا أشد حسرة من وجود بصيص أمل في النجاة ثم انقطاعه.

قال ابن القيم(١): «وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج، ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه».

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾، أي: فضرب بين المنافقين وبين المؤمنين، وحيل بينهم ﴿بِسُورٖ﴾، أي: حاجز بين الجنة والنار، ﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾، فلم يمكنهم اللحاق بالمؤمنين والاقتباس من نورهم، ولا الرجوع والتماس النور، بل بقوا في الظلمات وهو المذكور

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٥.

في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف:٤٦].

﴿بَاطِنُهُۥ﴾، أي: باطن هذا السور من جهة المؤمنين ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ وهي الجنة وما فيها من النعيم، كما قال تعالى في الحديث القدسي للجنة: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»(١).

﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾، أي: وظاهر هذا السور من جهة المنافقين الكافرين ﴿مِن قِبَلِهِ﴾، أي: من جهته ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وهو النار وما فيها من الجحيم، كما قال تعالى في الحديث القدسي للنار: «إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي»(١).

قال ابن كثير(٢): «المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة».

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، أي: ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه التقرير والتعجب.

أي: ألم نكن معكم في دار الدنيا نصلي ونزكي ونصوم ونحج ونجاهد؟

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ «بلى» حرف جواب لإثبات الإيجاب، أي: قال المؤمنون: بلى، لقد كنتم معنا في دار الدنيا في الظاهر، وذلك أن المنافقين يعيشون بين ظهراني المؤمنين؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام ويبطنون الكفر؛ ولهذا كانوا أشد خطراً على المسلمين، وأشد جرماً، وأشد عقوبة من جميع طوائف الكفر.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾، الواو: عاطفة، و«لكن» حرف استدراك، ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: أوقعتموها في الفتنة بالكفر والنفاق والمعاصي واتباع الشهوات والملذات.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، أي: انتظرتم واستمررتم على الكفر والنفاق، وأخّرتم التوبة،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٤٤.

وانتظرتم الشر بالحق وأهله.

﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾، أي: شككتم بما جاءكم من الحق، وبمن جاء كم به، وهو الرسول ﷺ، وبالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال.

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾، أي: وخدعتكم الأماني الباطلة من حب الدنيا والشهوات والملذات، وتمني حظوظ الدنيا الفانية، وتمني أنكم ستكونون أحسن الناس، وأنه سيغفر لكم، وغير ذلك من الأماني الخادعة الباطلة، التي لا يصحبها صدق وعمل، فيما ينفع المرء في دينه ودنياه، والتي هي مدعاة للكسل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء:٣٢].

وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»(٢).

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: حتى جاءكم الموت، وأنتم على هذه الحال، كما قال عز وجل: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر:١، ٢].

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، أي: خدعكم بالله وعظمته وعظيم حقه عليكم، وعظيم عقابه. «الغرور» أي: الخدوع وهو الشيطان.

قال قتادة: «كانوا على خدعة من الشيطان، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار»(٣).

ولهذا تجد الكفرة من المنافقين وغيرهم في موقف آخر يقرون بسبب ما آلوا إليه،

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٢) ذكره الترمذي في الموضع السابق.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٠٦.

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر:٣٨-٤٨].

ولا تنافي بين قول المؤمنين لهم هنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، وبين سؤالهم لهم في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر:٤٢]؛ لأن السؤال هنا ليس لقصد الاستعلام والاستفهام الحقيقي، وإنما لقصد التقريع والتوبيخ لهم والتبكيت.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «لا تؤخذ» بالتاء، وقرأ الباقون بالياء: ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾.

أي: فاليوم، أي: يوم القيامة.

﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾، أي: لا يقبل منكم فدية.

والفدية: مال أو عرض يدفع نظير ومقابل الخلاص، كما قال تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران:٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الرعد:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الزمر:٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج:١١-١٤].

﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: ولا يؤخذ فدية من الذين كفروا، فلا فدية تقبل من المنافقين ولا من الذين كفروا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨].

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾، أي: مصيركم الذي ستنتهون وتصيرون إليه وتستقرون فيه النار، فهي منزلكم الذي لا مصير ولا منزل لكم سواه.

﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾، أي: هي التي تتولاكم وتضمكم إليها وهي أَولى المنازل بكم،

تتولاكم بحرها وعذابها، كما توليتموها بعملكم عمل أهلها، بنفاقكم وكفركم.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ [القارعة:٨- ١١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ «بئس» بمعنى: قبح وساء، وهي من أفعال الذم والمخصوص بالذم محذوف تقديره: وبئس المصير هي، أي: النار. أو وبئس المصير مصير من صار إلى النار. و«المصير»: المرجع والمآل والمنقلب.

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم شأن المؤمنين والمؤمنات وحالهم وقالهم والتنويه بما لهم في عرصات القيامة من النور والبشارة بالجنات وما فيها من الأنهار، والخلود فيها والفوز العظيم والترغيب في الإيمان والإغراء به؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٢- عظم مكانة المرأة في الإسلام وما أعده الله لها، وأنها تجازى على عملها الصالح كما يجازى الرجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٣- أن الجزاء من جنس العمل فكما استنار المؤمنون في الدنيا بنور الله وهديه منحهم النور والهدى في عرصات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٤- تخبط المنافقين في الظلمات في عرصات القيامة وطلبهم الاقتباس من نور المؤمنين ولكن هيهات، فكما تخبطوا في دينهم وتذبذبوا وشكوا جوزوا بالتخبط في الظلمات في تلك العرصات؛ جزاءً وفاقاً؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

٥- الاستهزاء والسخرية بالمنافقين في ذلك اليوم كما استهزؤوا وسخروا بالإيمان وأهله في الدنيا، وهذا من عذابهم المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

٦- الفصل بين المنافقين وبين المؤمنين بحاجز بين الجنة والنار بحيث لا يمكنهم

اللحاق بالمؤمنين، فيه الرحمة من جهة المؤمنين والعذاب من جهة المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

٧- نداء المنافقين للمؤمنين للدخول معهم كما كانوا معهم في الدنيا في الظاهر وتوبيخ المؤمنين لهم بأنهم فتنوا أنفسهم بالكفر باطنا وانتظروا الشر بالمؤمنين وشكوا وغرتهم الأماني الباطلة والشيطان الرجيم، وهذا عذاب معنوي لهم، ويوجب العبد عن صفاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

٨- الوعيد الشديد للمنافقين والكافرين بالنار، وأنه لا سبيل لهم للخلاص من النار لا بفدية ولا بغيرها، هي مولاهم ومصيرهم وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

لما ذكر عز وجل حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، وذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لله عز وجل والخضوع لعظمته، عاتب المؤمنين على عدم المبادرة إلى ذلك، فقال: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين»(٢).

قوله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والعتاب، أي: ألم يحن بعد.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: ألم يأت الوقت الذي فيه تخشع قلوبهم.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: أما آن خشوع قلوبهم.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قرأ نافع وحفص عن عاصم بالتخفيف: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾، وقرأ الباقون بالتشديد: «وما نَزَّل».

ومعنى ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: أن تلين وترق وتخضع قلوبهم لذكر الله والمراد عموم ذكر الله عز وجل؛ ولهذا عطف عليه قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، من عطف الخاص على العام، أي: والذي نزل من الحق، وهو القرآن الكريم، وهو أشرف الذكر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٨- الأثر ١٨٨٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير- باب قول الله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا) الآية الحديث ٣٠٢٧.

قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٦].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٣٨].

وهذا في ذكر الله عموماً كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة:١٩].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

وإذا كان هذا العتاب لصحابة رسول الله ﷺ وهم أبر الناس قلوباً وأصدقهم ألسناً وأقواهم إيماناً وأعظمهم تقوى، وأشدهم إخلاصاً واتباعاً، وأكثرهم ذكراً وعبادة وخشوعاً ومجاهدة، فكيف بحال من بعدهم بأربعة عشر قرناً، ومن هو أقل منهم بذلك كله. اللهم غفراً.

وهذا مما يوجب على المسلم أن يتأمل حاله، ويتدبر في أمره، فأين نحن من حال المعاتبين بهذا الخطاب، على العبد أن يراجع نفسه وحاله من الخشوع لذكر الله وآياته ومدى خضوعه وانقياده لأحكام الله تعالى، ولا يغتر، فإن الناقد بصير والحساب عسير إلا على من يسره الله عليه.

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين واستبطأ خضوع قلوبهم للإيمان في أول هذه الآية ثم نهاهم في آخرها عن التشبه بأهل الكتاب بقسوة قلوبهم وفسقهم.

قوله ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ الواو: عاطفة، و«لا» نافية، والفعل (يكونوا) منصوب عطفًا على «تخشع»، أي: ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وألا يكونوا.

أو «لا» ناهية، والفعل مجزوم بها، أي: ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم، وهم اليهود والنصارى.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾، أي: فطال عليهم الأجل والزمان، وبَعُد العهد بينهم وبين عهد الرسالات وامتد بهم الوقت.

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: غلظت قلوبهم واشتدت فلم تلن لذكر الله، وما أنزله عليهم في كتبه فهي غلف لا تقبل موعظة، ولا يؤثر فيها وعد ولا وعيد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة:٥].

وكان من غلظة قلوبهم وشدة قسوتها أن كذبوا بآيات الله ونبذوها وراء ظهورهم، وحرَّفوها وبدَّلوها واشتروا بها ثمناً قليلاً، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة:١٠١] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ

ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية:٣٤].

وهذا مما يدل على أن القلوب تحتاج دائماً إلى مراقبة وتذكير بما أنزل الله عز وجل؛ لأنها تغفل وتقسو وتصدأ، وأعظم ما يلينها ويزيل صدأها ذكر الله عز وجل.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الفسق: هو الخروج عن طاعة الله وما حده، أي: وكثير منهم خارجون عن طاعة الله تعالى، مخالفون لأمره، مرتكبون لنهيه، فقلوبهم قاسية، وأعمالهم باطلة.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين في الآية السابقة واستبطأ خشوع قلوبهم لذكر الله ووحيه ونهاهم عن مشابهة أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وخرج كثير منهم عن طاعة الله. ثم أتبع عز وجل هذا العتاب وهذا النهي بما يبشر بالخير، وبما يشبه الفأل الحسن، وبما يُذهب القنوط واليأس عن القلوب، وأن الله عز وجل القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على تليين القلوب بعد قسوتها.

ويا له من تشبيه عجيب، فما أشبه القلب القاسي بالأرض الميتة، وما أهون تليين القلب القاسي على من قدر على إحياء الأرض بعد موتها.

قال ابن كثير[1] رحمه الله: «فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن، والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن شاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعَّال وهو الحكم العدل في

(١) في «تفسيره» ٨/ ٤٧.

جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال».

قوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ الأمر للمؤمنين المخاطبين بقوله: ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ولجميع الناس.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وذلك بإنزال المطر عليها، كما قال عز وجل: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣﴾ [يس:٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت:٣٩].

وكما أن في الآية إشارة إلى أن الله يلين القلوب بعد قسوتها ففيها دلالة أيضا على أن الله يحيي الخلق بعد موتهم ويبعثهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فصلت:٣٩].

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ «قد» للتحقيق، «بينا» وضحنا وفصلنا، و«الآيات» جمع آية، والآية: العلامة الدالة على وجود الله عز وجل ووحدانيته وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته

وتنقسم الآيات إلى قسمين: آيات شرعية، وهي آيات القرآن الكريم، وقد بينها الله عز وجل أعظم بيان قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:٨٢].

والقسم الثاني: آيات كونية منتشرة في هذا الكون، فكل مخلوق في هذا الكون هو آية يدل بخلقه ووجوده وأحواله، على وجود الخالق العظيم، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس:٣٧-٤٠].

وقد أحسن القائل:

فـوا عجبـاً كيـف يُعصـى الإلـ ـه أم كيـف يجحـده الجاحـد
وفي كـل شيء لـه آيـة تـدل عـلى أنـه واحـد[١]

وقال الآخر:

تأمـل سـطور الكائنـات فإنهـا مـن الملـك الأعـلى إليـك رسـائل
وقـد خـط فيهـا لـو تأملـت خطهـا «ألا كـل شيء مـا خـلا الله باطـل»[٢]

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: لأجل أن تعقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه، وتستعملوا عقولكم فيما خلقتم له وفيما يفيدكم في أمر دينكم ودنياكم.

فإن العقل الحقيقي هو الذي يهدي صاحبه إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة ويستنير بنور الله عز وجل، وهذا العقل هو مناط المدح والذم.

أما العقل الذي هو مناط التكليف فهو ما يميز به العاقل من المجنون المعتوه، وهذا العقل وإن كان موجوداً عند الكثيرين فإنه لم ينفعهم لأنهم لم يستفيدوا منه في معرفة الحق والعمل به؛ ولهذا قال الله عز وجل عن الكفار: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

بل قالوا عن أنفسهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك:١٠، ١١].

فبين الله عز وجل الآيات الشرعية والآيات الكونية ووضحها وفصلها أتم تفصيل؛ لأجل أن يتأملها الناس بعقولهم، ويهتدوا بها إلى معرفة الخالق العظيم، وإلى معرفة الحق، ولهذا أرسل عز وجل الرسل، وأنزل الكتب، وبذلك أقام الحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وفي الآية دلالة على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرع الله.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٠٤.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم ٤/ ١٦٤.

الفوائد والأحكام:

١- عتاب الله- عز وجل- للمؤمنين واستبطاؤه خشوع قلوبهم لذكره وما نزل من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٢- إثبات علو الله- عز وجل- بذاته وصفاته، وأن القرآن الكريم منزل من عنده- عز وجل- ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٣- نهي المؤمنين وتحذيرهم أن يكونوا مثل اليهود والنصارى في قسوة قلوبهم وفسق كثير منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

٤- ذم أهل الكتاب بقسوة قلوبهم، وفسق كثير منهم.

٥- في عتاب الله- عز وجل- للصحابة ونهيهم عن مشابهة أهل الكتاب بقسوة القلوب والفسق عتاب ونهي لكل من جاء بعدهم من باب أولى، مما يوجب تعاهد القلوب بذكر الله.

٦- أن أول الأمة خير من آخرها، وأنه كلما بعد عهد الرسالة كلما كثر الشر وقل الخير.

٧- عدم الاغترار بما عليه الكثرة من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

٨- بعث الأمل والرجاء بتليين قلوب المؤمنين؛ لأن الله- عز وجل- القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على تليين القلوب بعد قساوتها، وبعث الأجساد بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٩- ضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب الأمور المعنوية.

١٠- تبيين الله- عز وجل- للآيات الشرعية والكونية للناس ليعقلوا عن الله- عز وجل- أمره ونهيه، وينقادوا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١١- أن العاقل حقاً من هداه عقله إلى الاستنارة بنور الله عز وجل، فسعد في دنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

أمر الله عز وجل فيما سبق من السورة بالإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في سبيله، وحض على ذلك ووعد عليه بالأجر العظيم، وفي هتين الآيتين شيء من تفصيل ذلك الأجر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد وتشديد الدال في: «المصَدِّقين والمصَدِّقات»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتشديد الصاد والدال، أي: المكثرين من الصدقات.

وأصل المصَّدِّقين والمصَّدِّقات المتصدقين والمتصدقات، فأدغمت التاء في الصاد، أي: إن المتصدقين والمتصدقاتبأموالهم على ذوي الحاجة من اليتامي والفقراء والمساكين، وفي غير ذلك من وجوه البر كبناء المساجد وتعليم كتاب الله والجهاد في سبيله وغير ذلك.

وقدم عز وجل المتصدقين والمتصدقات في الذكر على الصديقين والشهداء- والله أعلم- لظهور أثر الصدقة والبر والإحسان وتعديه إلى الخلق.

﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الواو: عاطفة، وعطف هذه الجملة على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾؛ ترغيبًا في الصدقة، وأنها إقراض لله عز وجل، تكفل سبحانه وتعالى بوفائه والإثابة عليه، ومضاعفة أجره، فقال عز وجل: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

والآية تشمل القرض بمعناه الخاص، وما هو أعم منه، وهو الصدقة والنفقة عموماً في سبيل الله.

وقد جعل الله عز وجل الصدقة كالقرض الذي يجب على المقترض رده، وهو سبحانه الغني عن خلقه، ولا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب سبحانه وتعالى على نفسه الرحمة وإثابة المطيع تفضلاً منه وكرماً، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ

نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

ومعنى ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾، أي: جميلاً طيباً، وذلك بكون الصدقة من مالٍ طيب، وبطيب نفس، وبنية خالصة ابتغاء وجه الله عز وجل، لا يريدون بذلك جزاء ولا شكوراً ممن تصدقوا عليه، ولا يتبعها مَنٌّ ولا أذى.

﴿يُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾، أي: يضاعف الله لهم هذا القرض وثوابه فيجازيهم على ذلك الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَلَهُۥٓ﴾، أي: ولهم على هذه الصدقة والقرض ﴿أَجْرٌ﴾، أي: جزاء وثواب ﴿كَرِيمٌ﴾، وسُمي جزاؤهم أجراً إشارة إلى أن الله عز وجل قد تكفل به لهم.

ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾، أي: حسن طيب كثير خيره كمية، وعظيم خيره كيفية، وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم.

ففي هذه الآية أثنى الله عز وجل على المتصدقين والمتصدقات، وسمى عز وجل الصدقة إقراضاً له، وهو الغني الحميد سبحانه وتعالى؛ ترغيباً في الصدقة، ووعد على ذلك بالمضاعفة والأجر الكريم؛ حضًّا على المتاجرة الرابحة مع الله عز وجل، والتي لا تتطرق إليها الخسارة بحال، بل أرباحها مضمونة ومضاعفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ينزل الله إلى السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، أو يسألني فأعطيه، ثم يقول: من يقرض غير معدم ولا ظلوم».

وفي رواية: «ثم يبسط يديه تبارك وتعالى، يقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم»(١).

فيا خسارة من حرم المتاجرة مع الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨].

ومن العجيب أن كثيراً من الناس- ولله المثل الأعلى- يتبارون في المتاجرة مع

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- الترغيب في الدعاء والذكر ٧٥٨.

الغني من الخلق، ولو طلب منهم قرضاً لتسابقوا إلى إقراضه، ولسان حال كل منهم يقول: كم تريد يا أبا فلان، وكل منهم يريد أن يكون هو السابق إلى إقراضه.

بينما إذا طُلب منهم التصدق والإنفاق في سبيل الله، وهو إقراض للغني الحميد، أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، ومن بيده خزائن السموات والأرض- رأيت الكثير منهم يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ورأيت منهم برودا وتباطؤاً، في المسابقة في هذا المضمار فأين المتأمل المنصف والعاقل اللبيب فشتان ما بين المتاجرتين

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[1]

فتأمل هذا يا أخي بارك الله فيك، وتفهم الحكمة من تسميته عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله عز وجل قرضاً، يعظم في نفسك من تقرض، ويهن عليك ما تقرض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾، أي: والذين صدقوا بالله ورسله بقلوبهم وألسنتهم وانقادوا بجوارحهم إلى ما جاءهم عن الله عز وجل، وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾» الإشارة للذين آمنوا بالله ورسله، وصفهم الله بأنهم هم الصديقون، وأكد اتصافهم بهذا الوصف بضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

و «الصِّدِّيقون» جمع صدِّيق على وزن «فِعِّيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: الذين بلغوا منزلة عظيمة ودرجة رفيعة في تصديق ما جاءهم عن الله عز وجل وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام وفي الإيمان بذلك، وفي الصدق بأقوالهم وأفعالهم.

فجمعوا بين صدق النية وصدق القول والعمل، بين العلم النافع والعمل الصالح واليقين الصادق.

قال الحسن: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل»[2].

---

(١) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٤.

ومن هؤلاء الصديقين مريم عليها السلام، كما قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥].

ومنهم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الواو: استئنافية، فهذا ابتداء كلام فيكون الكلام مكوناً من جملتين الأولى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ والجملة الثانية ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

وقيل: الكلام جملة واحدة، فقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ مبتدأ، وخبره ما بعده إلى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

والراجح: أن الكلام جملتان، ويرجح هذا أنه ليس كل مؤمن صديق يكون شهيداً؛ لأن الشهيد من قتل في سبيل الله، اللهم إلا أن يراد بـ«الشهداء» في الآية الذين يشهدون على الناس يوم القيامة- كما قال بعضهم- وهذا مرجوح.

والراجح أن المراد بـ (الشهداء) الذين قتلوا في سبيل الله، فقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ وخبره قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

وعلى اعتبار أن الكلام جملة واحدة فالصديقون صنف، والشهداء صنف آخر، فذكر الله عز وجل هنا صنفين من أصناف السعداء الأربعة المذكورين في سورة النساء قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]. فالصديقون، والشهداء صنفان.

قال ابن القيم(١): «ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء؛ ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين هنا، وفي سورة النساء، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»(٢).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٥- ٣٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٧٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥١، والترمذي في المناقب ٣٦٩٧ من حديث =

ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضي الله عنه».

وقال ابن كثير(١): «ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد» ثم استدل بما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(٢).

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أي: في جواره في جنات النعيم، وقدم قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، على قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ لأن جواره عز وجل ورؤيته أعظم النعيم كما قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] أي: لهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾، وهي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، وهي النظر إلى وجهه الكريم سبحانه.

ومثل هذا في تقديم قربه عز وجل وجواره قول آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] فاختارت الجار قبل الدار رضي الله عنها.

وأضاف العندية إلى الرب سبحانه إشارة إلى عظم مالهم عنده من الكرامة؛ لأن معنى الرب الخالق المالك المدبر، المربي للخلق بسائر نعمه سبحانه وتعالى، فكأنه يقول: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فلا تسأل عن حالهم، ثم فصل شيئاً من ذلك فقال:

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، أي: لهم ثوابهم ونورهم المتميز عن غيرهم كماً وكيفاً ونوعاً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

=

أنس رضي الله عنه.

(١) في «تفسيره» ٨/ ٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٦، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٣٠.

[آل عمران:١٦٩-١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧٤].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد:٤-٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعة، فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل فيك، فنقتل، كما قتلنا أول مرة فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، وفي رواية: «لما يرى من الكرامة»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»(٣).

قال ابن كثير(٤): «وهم في ذلك- يعني الشهداء- يتفاوتون بحسب ما كانوا في

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ١٨٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٠١.

(٢) أخرجه البخارى في الجهاد ٢٧٩٥، ومسلم في الإمارة، ١٨٧٧، والنسائي في الجهاد ٣١٦٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٦١.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٤٩.

الدار الدنيا من الأعمال. ثم ذكر ما رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل، فذلك الذي ينظر الناس إليه هكذا**»، ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ، أو قلنسوة عمر «**والثاني: مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب**[1] **فقتله، فذاك في الدرجة الثانية، والثالث: رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً حتى لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الثالثة، والرابع: رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الرابعة**»[2].

قال ابن القيم[3]: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فهؤلاء، أصحاب الأجر والثواب، ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فهؤلاء أصحاب المرتبة والمنزلة والقرب فالعمّال عملوا على الأجور والعارفون عملوا على المراتب والمنزلة والزلفى عند الله، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء».

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، ذكر الله عز وجل المؤمنين ومراتبهم وهم المتصدقون، والصديقون، والشهداء، وما أعده لهم من عظيم الأجر والثواب، ثم أتبع ذلك بذكر الكافرين المكذبين وما أعد لهم من العذاب الأليم والجحيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الرجاء والخوف والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عطف التكذيب على الكفر وهو منه، من عطف الخاص على العام؛ إشارة لشدة كفرهم.

---

(١) أي: لا يعرف راميه.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٣، والترمذي في فضائل الجهاد- ما جاء في فضل الشهداء عند الله ١٦٤٤، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٧- ٣٨٨.

والمعنى: والذين جحدوا آياتنا وكذبوا بها وأنكروها، من الآيات الشرعية المنزلة من عند الله عز وجل والتي فيها الأوامر والنواهي والأحكام والأخبار والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك.

ومن الآيات الكونية المنتشرة في الكون الدالة على وجود الله وعظمته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأنه المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: ساكنوها وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه.

وشتان بين من هو في أعلى عليين في جنات النعيم- نسأل الله تعالى من فضله- وبين من هو في أسفل سافلين في دركات الجحيم، نسأل الله العافية والسلامة.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله- عز وجل- للمتصدقين والمتصدقات المقرضين الله قرضاً حسنا بالمضاعفة والأجر الكريم والجزاء الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾.

٢- في تسمية الصدقة والإنفاق في سبيل الله قرضاً لله- عز وجل- ترغيب في ذلك.

٣- ينبغي أن تكون الصدقة والقرض خالصاً لله- عز وجل- ، من مال طيب، وبنفس طيبة، بلا من ولا أذى.

٤- أن من لازم الإيمان بالله: الإيمان برسله، كما أن من لازم الإيمان بالرسل الإيمان بالله- عز وجل؛ لهذا عطف الإيمان برسله على الإيمان به عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾.

٥- الثناء على الذين آمنوا بالله ورسله وأنهم هم الصديقون الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح واليقين الصادق، وأنهم أفضل من الشهداء؛ ولهذا قدمهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

٦- فضل الشهداء وقربهم عند ربهم في الجنة وما لهم عنده من الأجر العظيم والنور التام وربوبيته- عز وجل- الخاصة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾.

٧- الوعيد والتهديد للكفرة المكذبين بآيات الله بدخول النار وملازمة الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

٨- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

لما بين عز وجل في الآيتين السابقتين ما أعده للمتصدقين وللمؤمنين الصديقين وللشهداء عنده في الجنة من الأجر العظيم، وأن الكفرة المكذبين هم أصحاب الجحيم، أتبع ذلك ببيان حقارة الدنيا وأنها متاع غرور، والتأكيد على الاستعداد للآخرة للنجاة من عذابها الشديد، والفوز بمغفرة الله- عز وجل- ورضوانه.

قوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ الأمر في قوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ ﴾ يحتمل أن يكون للمؤمنين، وأن يكون لعموم الناس، أي: اعلموا أيها المؤمنون، أو أيها الناس.

﴿أَنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، وهي أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا مجرد لعب ولهو وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، أي: ما هي إلا هذا الشيء لا غيره.

و«الحياة الدنيا» هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا؛ لأنها قبل الآخرة في الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة؛ قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

وقال ﷺ: «ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»(١).

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾.

حصر الله عز وجل الدنيا بهذه الأوصاف، وهي كونها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد، وهذا هو سبب دناءتها وحقارتها.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي «صحيح غريب».

قوله ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لعب بالأبدان والجوارح، ولهو وغفلة بالقلوب، وهذا أشد. وكل ذلك مما لا فائدة فيه تعود على الإنسان.

﴿وَزِينَةٌ﴾، أي: تَزيُّن في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك، تأخذ بالعيون وتعجب النفوس بزينتها الظاهرة؛ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالأحساب والأنساب والعلم والجاه والمناصب وغير ذلك

قال ابن القيم[1]: «فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان، واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس، مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر، فيذهب ضائعاً في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى».

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، أي: مكاثرة بينكم في الأموال والأولاد ومباهاة بالعدد والعُدد، فيتعالى البعض على الآخرين بكثرة ماله، ويسعى جاهداً حثيثاً بأن يكون الأكثر مالاً حتى ولو سلك طرقاً ملتوية وغير مشروعة في جمع المال.

كما يتعالى البعض على الآخرين بكثرة أولاده، ويسعى بأن يكون الأكثر أولاداً.

قال الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»[2].

وإذا كان المولى عز وجل نعى الدنيا وبين حقارتها وهوانها؛ لأنها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد فإن على العاقل اللبيب والحصيف الأريب

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٨.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٧/ ١٨٨ (٣٥٢٣)، والإمام أحمد في «الزهد» ص١٧٦ (١٢١٥)، وابن أبي الدنيا في «الزهد» ص٢٢٩.

أن يعبرها ولا يعمرها عمارة مقيم، وأن يستعد للسفر الطويل، وأن يجعلها مطية للآخرة بالعلم النافع والعمل الصالح، والإخلاص لله عز وجل ومتابعة رسوله ﷺ، جاعلاً نصب عينيه الهدف الذي خلق من أجله، والذي خلقت الدنيا والكون كله من أجله وهو عبادة الله عز وجل، وأن يعلم أن سوق المتاجرة والمرابحة مع الله عز وجل إنما هو في الدنيا فهي فرصة العمر، لياليها وأيامها خزائن للأعمال الصالحة، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني(١).

وإنما وصف الله عز وجل الدنيا بهذه الصفات الذميمة- مع أنها محل للأعمال الصالحة لمن وفقه الله عز وجل لأن هذا واقع كثير من الناس.

فكم من أناس همهم في هذه الحياة اللعب واللهو والغفلات وتزجية الأوقات في الأسفار والنزه والملاهي والمقاهي ومجالس القيل والقال، والتفنن في المأكولات والمشروبات وما هذه حال من عرف ما خلق لأجله، ولا حال من عرف الهدف من الحياة.

وكم من أناس همهم في هذه الحياة التزين بالمساكن، والمراكب والملابس وغير ذلك متناسين هادم اللذات وما أمامهم من الأهوال والعقبات.

وكم من أناس همهم التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصب والجاه وغير ذلك متناسين أن أكرم الخلق عند الله أتقاهم لله.

وكم من أناس همهم التكاثر بالأموال يلهثون وراء جمع المال، وربما لجأ بعضهم بسبب الحرص على ذلك إلى الكسب من الطرق المحرمة، ومنع حقوق الله في المال. فهؤلاء يصدق عليهم قوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»(٢).

وكم من أناس همهم أن يكونوا أكثر من غيرهم أولاداً وقبيلاً يتزوج الواحد منهم العديد من الزوجات ويطلق هذه ويتزوج هذه، بقصد أن يكون من أكثر الناس أولاداً.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فما أشقى من قصر طرفه عند هذه النظرة الضيقة القاصرة وفاتته المعاني السامية للنكاح، وتعدد الزوجات، فربما صار هؤلاء الأولاد والزوجات وبالاً عليه في دينه ودنياه.

ولا شك أن هناك أناساً ممن وفقهم الله عز وجل عرفوا قدر هذه الحياة وشغلوها بما يقربهم إلى الله عز وجل، وبما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

فأخذوا من اللهو المباح ما لا يشغلهم عما خلقوا له، وتوسطوا في المأكل والمشرب والملبس والمركب وعلموا أن الفخر بتقوى الله عز وجل، وطلبوا المال من الطرق الحلال لإعفاف أنفسهم وأهليهم من مذلة السؤال، مع أداء ما لله عليهم من حقوق هذا المال، ولم يشغلهم عن طاعة الله تعالى، قال ﷺ لعمرو بن العاص- رضي الله عنه- : «نعم المال الصالح للمرء الصالح»(١).

وقال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل(٢)

وهناك من تزوجوا، بل وعددوا الزوجات وأكثروا الأولاد إعفافاً لأنفسهم وزوجاتهم، وتكثيراً لسواد الأمة مع العناية بحقوق زوجاتهم وأولادهم وتوجيههم وتربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة لينفعوا أنفسهم ووالديهم وأمتهم.

ومثل هؤلاء- وهم قليل- أنعم وأكرم بتعدادهم الزوجات وتكثيرهم الأولاد، وهم الذين استجابوا لقوله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»(٣).

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ الكاف للتشبيه، أي: إنما الحياة الدنيا وعمر الإنسان فيها كمثل غيث، والغيث: هو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢.

(٢) البيت لأبي دلامة الأسدي. انظر: «ديوانه» ص٧٧.

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح ٢٠٥٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٧، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، وأخرجه أحمد ٣/ ١٥٨، ٢٤٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وابن حبان في صحيحه ١٢٢٨، والبيهقي في سننه ٧/ ٨١. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «هذه الأحاديث، وإن كان الكثير منها ضعيفاً، فمجموعها يدل على أن لما يحصل به المقصود من الترغيب أصلاً، لكن في حق من يتأتى منه النسل».

ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى:٢٨].

﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾، أي: أعجب الزراع وراقهم نباته.

وسمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، أخذاً من معنى الكفر لغة: وهو الستر والتغطية.

ويحتمل أن المراد الكفار بالله؛ لأنهم هم الذين يُعجبون بالدنيا؛ لأن قلوبهم متعلقة بها.

قال ابن كثير[1]: «أي كذلك تُعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص الناس عليها وأميل الناس إليها».

ويقوي هذا أن لفظ «الكفار» إنما يطلق في القرآن على الكفار بالله.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾، أي: يصل ذلك الزرع إلى غايته ومنتهاه وييبس، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: بعد ما كان خضراً نضراً تراه مصفراً وذلك علامة موته ويبسه.

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾، أي: يابساً متحطماً متكسراً فتاتاً تذوره الرياح يمنة ويسرة.

وهكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأطراف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه، وتضعف بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤]».

ثم ينتهي به الأمر إلى الفناء والموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥، الأنبياء:٣٥]. وقد أحسن القائل:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم[2]

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠.

(٢) انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٤٢.

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

لما بين أن الحياة الدنيا إنما هي مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، وأنها في سرعة زوالها واضمحلالها كالنبات الذي سقاه الغيث فنما واخضر وأعجب الزراع ثم استوى واصفر، ثم يبس وتحطم وتكسر وذرته الرياح هنا وهناك، وفي هذا دلالة واضحة على هوان الدنيا وحقارتها. أتبع ذلك ببيان قيمة الآخرة، وأنها هي الدار حقاً، ممّا يوجب العمل للآخرة، وعدم الاغترار بالدنيا.

وبين في هذه الآية أن الناس في تلك الدار: إما متقلب في العذاب الشديد نسأل الله السلامة، أو منعم بالمغفرة والرضوان نسأل الله تعالى من فضله وكرمه.

وهذا على طريقة القرآن في جمعه بين الترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء.

قوله ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: وفي الدار الآخرة للكفار والعصاة في مواقف القيامة وعرصاتها، وفي النار.

وسميت الآخرة لأنها متأخرة من حيث الزمن عن الدنيا وإلا فهي الدار حقاً وهي الحيوان، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: عذاب للكفار والعصاة، شديد حسي تعذب به الأبدان، ومعنوي تعذب به القلوب من التبكيت والتوبيخ والتقريع.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾، أي: للمؤمنين.

وأضاف المغفرة والرضوان إلى الله عز وجل بينما لم يضف العذاب الشديد إليه. وإن كان الكل بتقديره عز وجل على معنى قوله ﷺ «والشر ليس إليك»[1].

﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾، أي: ورضاه عز وجل عنهم، كما قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩، المجادلة:٢٢، البينة:٨].

---

(١) سبق تخريجه.

ورضوان الله غاية مطلب أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ هذا كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

الواو: استئنافية، و«ما» نافية «إلا» أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا هذا الشيء فقط، وهو متاع الغرور، أي: ما هي إلا مجرد متاع يغتر به أصحاب العقول الضعيفة الذين غرهم بالله الغرور، فتعجبهم الدنيا ويركنون إليها مع أنها ظل زائل، لا قيمة لها قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣، فاطر:٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء:٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر:٣٩].

قال ابن كثير[(١)]: «أي: هي متاع فانٍ غارّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة للدار الآخرة».

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[(٢)].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠.

(٢) سبق تخريجه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده في الجنة، خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً؟ فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» الحديث(٣). وقد قيل:

وإيـــاك والـــدنيا الدنيـــة إنهـــا ... هـــي الســـحر في تخييلـــه وافترائـــه
متـــاع غـــرور لا يـــدوم سرورهـــا ... وأضـــغاث حلـــم خـــادع ببهائـــه
فمـــن أكرمـــت يومـــاً أهانـــت لـــه غـــداً ... ومـــن أضـــحكت قـــد آذنـــت ببكائـــه
ألا إنهـــا للمـــرء مـــن أكـــبر العـــدا ... ويحســـبها المغـــرور مـــن أصـــدقائه
وكـــم في كتـــاب الله مـــن ذكـــر ذمهـــا ... وكـــم ذمهـــا الأخيـــار مـــن أصـــفيائه
فـــدعها فـــإن الزهـــد فيهـــا محـــتم ... وإن لم يقـــم جـــل الـــورى بأدائـــه
ومـــن لم يـــدعها زاهـــداً في حياتـــه ... ســـتزهد فيـــه النـــاس بعـــد فنائـــه
وتســـكنه بعـــد الشـــواهق حفـــرة ... تضـــيق بـــه بعـــد اتســـاع فضـــائه

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٢٩٩، وابن ماجه في الزهد ٤٠٩٩. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

وينساه أهلوه المفدى لديهم ... وتكسوه ثوب الرخص بعد غلائه
وينتهب الورّاث أمواله التي ... على جمعها قاسى عظيم شقائه[(١)]

وقال الآخر:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع
كم واثق في العمر أفنيته ... وجامع بددت ما يجمع[(٢)]

وقال الآخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركم مني ابتسام ... فقولي مضحك والفعل مبكِي[(٣)]

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغررك ما فيها ... من الزخارف واحذر من دواهيها
واجنب سلوكك فيها كل شائنة ... إن كنت حراً فإن النذل يدنوها

وقال الآخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض ... على الماء خانته فروج الأصابع[(٤)]

الفوائد والأحكام:

١- حقارة الحياة الدنيا، وأنها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾.

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة للشاعر ابن مشرّف انظر «ديوانه» ص٣٧.

(٢) البيتان لأبي الفرج الشاوي. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي ص٥٣، ونسب لغيره. انظر: «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» ٤/ ١٩٨، «المجموع اللفيف» ص٤٦٤، «غذاء الألباب» ٢/ ٥٥٠.

(٣) البيتان لأبي الفرج الشاوي. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي ص٥٣.

(٤) هذا البيت نسبه بعضهم لأبي نواس، وأكثرهم لم ينسبوه لأحد. انظر: «العقد الفريد» ٣/ ٤٧، «التمثيل والمحاضرة» ص٢٥٧، «نهاية الأرب» ١/ ٢٨٠.

٢- أن مثل الحياة الدنيا في سرعة فنائها، وعمر الإنسان فيها كالنبات يسقيه الغيث فينمو ويخضر ويعجب الزارع، ثم يستوي ويصفر ويبس ويتحطم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾.

٣- عظم مكانة الآخرة؛ لأن فيها مجازاة الخلق بأعمالهم إما بالمغفرة والرضوان نسأل الله تعالى من فضله، وإما بالعذاب الشديد- نسأل الله تعالى- السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

٤- تأكيد حقارة الدنيا وأنها متاع غرور يجب الحذر من الاغترار بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

بعدما بين الله- عز وجل- حقارة الدنيا ومكانة الآخرة أتبع ذلك بالأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله- عز وجل- وجنته وفضله.

قوله ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

المسابقة شدة العدو والسير، والمعنى: بادروا وسارعوا إلى مغفرة من ربكم.

كما قال عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال عز وجل: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨، المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة:١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين:٢٦].

وقد أحسن القائل:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم[1]

أي: سابقوا إلى فعل أسباب المغفرة؛ من التوبة النصوح والاستغفار، والبعد عما نهى الله عنه، والمبادرة والمسارعة إلى فعل الخيرات والأعمال الصالحات، والمنافسة فيها.

كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الحج:٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[2].

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر

---

(١) البيت للمتنبي. انظر: «شرح ديوان المتنبي» للعكبري ١/ ١٦٦.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رضي الله عنه في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه- أي: ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، يا رب. فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

ومنه سُمي «المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

وأضاف- عز وجل- المغفرة إليه باسم الربوبية الذي معناه المالك الخالق المدبر المربي للخلق المنعم عليهم بسائر النعم الدينية والدنيوية والأخروية.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، أي: وسارعوا إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض. والجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، لا يقدر عظم نعيمها إلا العظيم سبحانه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله: «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم» ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(٢).

وقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله عز وجل: في سورة آل عمران: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الآية:١٣٣].

وإذا كان عرضها السموات والأرض فما بالك بطولها، وما مدى مقدار سعتها مما يدل على سعة منازل أهلها نسأل الله العظيم من فضله.

وقد روي أن أحد الزنادقة جاء إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال له: الله يقول: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أو ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فأين تكون النار، فأجابه أبو حنيفة على الفور: «تكون النار إن شاء الله في عينك»

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

وذلك أن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، ولهذا فالمعذب في قبره يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين وفي رواية إلا الإنس والجن[1] مع أن صوت الإنسان لو جمعت له أعظم مكبرات الصوت لا يسمع إلا من مسافة قريبة محدودة.

وكذلك المعذب في النار قال الله عنه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى:١٣] مع أن النار تذيب الجبال، فسبحان الخالق البصير العليم القدير الحكيم الخبير.

﴿أُعِدَّتْ﴾، أي: هيئت وجهزت، فهي الآن مخلوقة موجودة فيها ألوان النعيم، وهي في السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف:٤٠].

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، أي: للذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وصدقوا رسله وما جاؤوا به من عند الله، وبأنهم رسل الله حقاً، وانقادوا بجوارحهم لما جاءهم عن الله عز وجل وعلى ألسنة رسله، وهم المتقون، كما قال عز وجل في الآية الثانية: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهم الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ترجع إلى ما أعده الله عز وجل لمن آمن بالله ورسله من المغفرة والجنة التي عرضها السماء والأرض.

ويحتمل أن يعود إلى هذا وإلى سببه وهو الإيمان بالله ورسله، أي: التوفيق للإيمان بالله ورسله، وما أعده الله للمؤمنين بالله ورسله.

وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً لشأنه.

﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ الفضل: بمعنى الزيادة، أي: أن هذا كله تفضل من الله عز وجل وزيادة منه، إذ لا يجب عليه عز وجل شيء لخلقه أصلاً، وإنما هذا فضل منه عز

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٦، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وأخرجه من حديث أنس رضي الله عنه البخاري في الجنائز- الميت يسمع خفق النعال، وفي ما جاء في عذاب القبر ١٣٣٨، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٧٠، وأبو داود في الجنائز ٣١ ٣٢، والنسائي في الجنائز ٢٠٥١، وأحمد ٣/ ٤.

وجل عليهم.

خلقهم ورزقهم ووفق من شاء منهم فهداهم للإيمان وجازاهم على ذلك بالمغفرة والجنة، والتزم لهم بذلك كرماً منه سبحانه فقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يعطي هذا الفضل الذي يشاء من عباده تكرماً منه وامتنانا عليهم، وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؟! فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»(١).

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ «ذو» بمعنى صاحب، أي: والله صاحب الفضل العظيم، الذي لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو سبحانه كما أثنى على نفسه.

فهو سبحانه العظيم الذي لا أعظم منه، والكبير الذي لا أكبر منه، الذي منه الفضل كله، وبيده الخير كله، ومنه النعم كلها، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

ومن الغريب والعجيب أن نرى بعض الناس إذا أسدى إليه أحد الخلق معروفاً

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- الذكر بعد الصلاة ٨٤٣، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة- استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٥، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٤.

ولو قليلاً تراه يذكره ولا ينساه بلسان حاله ومقاله، وربما قال له: يا فلان والله ما أنسى معروفك حتى أوارى في قبري، وربما تمنى أن يكون لصاحبه حاجة إليه فيرد هذا المعروف، وهذا لا شك من رد الجميل وقد قال ﷺ فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بكم فأجيروه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»(١).

لكن ينبغي أن يعلم أن صاحب المعروف الأول، بل صاحب المعروف كله هو الله عز وجل حتى ما حصل على يد بعض المخلوقين هو من الله عز وجل، ومن هنا كان الواجب الأعظم على الخلق شكر الخالق سبحانه وتعالى بطاعته وأداء حقوقه والبعد عن نواهيه، ولا شك أن من طاعته عز وجل شكر صاحب المعروف من الناس وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(٢).

وبالمقارنة بين هذه الآية والآيات في سورة آل عمران نجد أن الله عز وجل قال هنا ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:٢١] وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [الآيات:١٣٣- ١٣٦].

ففي هذه الآيات في سورة آل عمران شيء من التفسير لقوله في سورة الحديد ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية، والتفصيل لأعمال وصفات هؤلاء المؤمنين وجزائهم، فمن أعمالهم وصفاتهم تقوى الله لقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٤٤٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة ١٩٥٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و«المتقون»: الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فاتقوا الله بقلوبهم وألسنتهم وسمعهم وأبصارهم وفروجهم وأيديهم وأرجلهم وجميع جوارحهم.

ومن أعمالهم وصفاتهم الإنفاق في السراء والضراء لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وفرق ما بين الإنفاقين، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

وبعض الناس يهون عليه الإنفاق في السراء لكنه يمسك في الضراء.

وإنما تعظم النفقة وتظهر الرحمة بأعظم صورها في حالة الضراء والحاجة.

«وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(١)، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(٢).

ومن صفاتهم كظم الغيظ لقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، أي: الذين إذا غضبوا حبسوا الغضب وأمسكوا زمام النفس عن قول أو فعل ما لا يجوز.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(٣).

وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمرّ عَيناه، وتنتفخ أوداجه فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل للرجل، فقال: لست بمجنون»(٤).

---

(١) أخرجه البخارى في الجنائز ١٢٠٤، ومسلم في الجنائز ١٥٣١، وأبو داود في الجنائز ٢٧١٨، والنسائي في الجنائز ١٨٤٥ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٢٩٠، والترمذي في البر والصلة ١٨٤٧ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦١١٤، ومسلم في البر والصلة ٢٦٠٩.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨٢، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦١٠، وأبو داود في الأدب ٤٧٨١.

ومما يعين على كظم الغيظ، وإذهاب حدة الغضب الوضوء والجلوس إن كان قائماً والاضطجاع إن كان جالساً. فكم أدى الغضب إلى إزهاق أرواح، وطلاق وتشتيت أُسر، وعداوة وبغضاء. وكم عض صاحبه على أصبع الندم ولكن هيهات، وكم أودع أناس السجون وسيقوا إلى القصاص بسببه، وكم أصيب أناس بارتفاع ضغط الدم والسكري والجلطات بسببه.

ومن صفاتهم العفو عن الناس لقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: يعفون عمَّن أساء إليهم وعمَّالهم من حقوق لدى غيرهم من قريب وبعيد ومؤمن وكافر.

فترقّوا من كظم الغيظ، وحبس الغضب إلى العفو عمن أساء إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى:٣٧] فما أجمل هذا، نسأل الله تعالى التوفيق.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا»(١).

وفي الأثر: «العلم بالتعلم والحلم بالتحلم»(٢).

قال الشافعي(٣):

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩.

(٢) أخرج البخاري معلقاً، قال: قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم» كتاب العلم- باب العلم قبل القول والعمل. انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩.

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم»، أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٢٦٦٣، وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ١٧٤.

وقد روي موقوفًا على أبي الدرداء رضي الله عنه، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ١٠٢٥٤، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» ٩٠٣

(٣) انظر «ديوانه» ص٣٧.

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من هم العداوات

وقال الآخر:

لا يحمل الحقد من تعلوبه الرتب ... ولا ينال الرضا من طبعه الغضب[١]

ونعوذ بالله من الخذلان والحرمان، ومن نزغات الشيطان؛ فبون شاسع وفرق واسع، بين إنسان عفو متسامح، وبين إنسان حرج دائماً، فالأول سعيد مطمئن، والثاني قلق مضطرب. هذا في الحياة، أما في الآخرة وعند لقاء الله عز وجل فلا تسأل عن الفرق بينهما، وهل يقدر الفرق بين من يرد ليتقاضى من الخلق المساكين، وبين من يرد على الجواد الكريم:

شتان بين الحالتين فإن ترد ... جمعاً فما الضدان يجتمعان[٢]

فما أحسن العفو، وما أجمل الخلق الطيب عموماً، فهو أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، وأقرب الناس مجلساً من النبي ﷺ أحاسنهم أخلاقاً، كما جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»[٣].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً»[٤].

فالخلق الطيب الحسن معين لا ينضب، وليس فيه كلفة ولا غرامة، ولا تعب ولا مشقة، والموفق من وفقه الله عز وجل.

ومن صفاتهم الإحسان لوصف الله لهم بذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادة الله عز وجل، إخلاصاً لله عز وجل، ومتابعة للرسول ﷺ. وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة.

---

(١) البيت لعنترة بن شداد، انظر ديوانه ص٨٤.

(٢) البيت لابن القيم انظر: «النونية» ص ١١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤١٦٦، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٤١، وقال: «حديث حسن غريب».

وكفى المحسنين أن الله عز وجل يحبهم دون من سواهم.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعد قوله ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ إشارة إلى أنهم- نسأل الله التوفيق- ترقوا في مدارج الكمال فانتقلوا من كظم الغيظ إلى العفو عمن ظلمهم ثم إلى الإحسان إليه، وتلك أعظم المنازل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥].

ومن صفاتهم أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الفاحشة: ما يستفحش في الشرع وعرف المسلمين كالزنا ونحوه.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بفعل شيء من المعاصي، التي هي أعظم الظلم للنفس توردها موارد الهلاك والبوار. والنفس وديعة عند الإنسان يجب عليه أن ينأى بها عن كل ما فيه ضررها في دينها ودنياها.

﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنهم بعد ملابستهم شيئاً مما ذكر يتذكرون عظمة الله عز وجل، ويرجعون إلى ذكره عز وجل وسؤاله المغفرة لما وقع منهم من الذنوب، مبادرين بالتوبة من ذلك من غير إصرار على المعصية، وهم يعلمون أنها معصية ويعلمون سوء عاقبتها وشؤمها مما يجعلهم محلاً للمغفرة والتوبة.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»(١).

ثم ختم الآيات بوعدهم بتحقيق ما سارعوا إليه من المغفرة والجنة تأكيداً لذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١.

وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾.

أي: أولئك المسارعون إلى المغفرة والجنة، جزاؤهم تحقيق المغفرة لهم من ربهم، ودخولهم جنات تجرى من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿وَنِعْمَ﴾، أي: ونعم هذا الجزاء من الله لهم بالمغفرة والخلود في الجنة ﴿أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ بطاعة الله- عز وجل- وهم الموصوفون بهذه الصفات في الآية، وهم الذين آمنوا بالله ورسله كما ذكرهم في سورة الحديد.

فتأمل أخي الكريم- وفقك الله- أوصاف المسارعين المسابقين وما أعد الله لهم من المغفرة والجنة، وخذ من المسارعة والمسابقة ومن صفات المسارعين والمسابقين أعظم نصيب لتنال ما وعدهم الله به ما دامت الفرصة متاحة والسوق رابحة وخذ نصيبك من ربك؛ إذ لا عذر لمتخلف، فإن الله قد فتح أبوابه للطالبين وخزائنه ملأى ويده سحاء الليل والنهار. فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[1].

قال الشاعر:

من فاته الزرع في وقت البذار فما ... تراه يحصد إلا الهم والندما[2]

وقال الآخر:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

---

(١) كما جاء في حديث شداد بن أوس- رضي الله عنه- أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠- وقال الترمذي «حديث حسن».

(٢) انظر: «لطائف المعارف» ص١٩٦.

فلـــم يتـــأخر مـــن أراد تقـــدما ولم يتقـــدم مـــن أراد تـــأخرا[١]

واعلم أخي أن الأمر جد، وقد أحسن القائل:

قـــد رشـحوك لأمـر لـو فطـنت لـــه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[٢]

وقال الآخر:

الأمـــر جـــد وهـــو غـــير مـــزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح[٣]

وقال الآخر:

ســـوف تـــرى إذا انجـــلى الغبـــار أفـــرس تحتـــك أم حمـــار[٤]

إذا حضر واجب لله وحق من حقوقه من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج أو بر والدين أو صلة رحم، أو أمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، فانهض على قدمك الطولى مسرعاً مسابقاً منافساً وافرح بذلك واستبشر.

وقل بلسان حالك ومقالك إذا سمعت حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح: نادى منادي العظيم نادى منادي المنعم، وقل: هيا يا أولادي ويا أهلي إلى إجابة داعي الله، هيا إلى إجابة داعي المنعم العظيم، هيا إلى الصلاة، واحذر من البرود والتبلد في هذا.

واحذر كل الحذر من القواطع، التي تحول بينك وبين ذلك، أو تؤخرك عنه، من مشاغل الدنيا من بيع أو شراء، أو شرب قهوة، أو إصلاح حاجة، أو تكليم شخص في جلسة أو في طريق، مقابلة أو مهاتفة.

وإذا حضر حق الله فلا تلتفت إلى غيره، واعلم أن الظبي أشد وأسرع من الكلب، ولكنه إذا أحّس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه وهكذا فإن الشيطان يدرك الإنسان إذا التفت إلى هذه القواطع.

---

(١) البيتان لابن هانئ. انظر: «ديوانه» ص ١٤٠.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٣) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٤) انظر: «الأمثال المولدة» ص٣٢٤، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤.

الفوائد والأحكام:

١- الأمر والترغيب في المسابقة إلى مغفرة الله- عز وجل- وجنته بالمسابقة والمسارعة والمنافسة بالأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢- رحمة الله- عز وجل- بالعباد وشفقته عليهم حيث حثهم ورغبهم في المسابقة إلى مغفرته وجنته.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- لخلقه، ربوبية خاصة، وعامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

٤- عظم سعة الجنة ومساكنها وغرفها وبساتينها؛ لأنه إذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فما بالك في طولها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٥- وعد الله- عز وجل- للذين آمنوا بالله ورسله بهذه الجنة الواسعة، وأنها موجودة الآن مهيأة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٦- تلازم الإيمان بالله والإيمان بالرسل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٧- الإشارة لعظم فضل الله- عز وجل- على الذين آمنوا به وبرسله بمغفرته لهم وإدخالهم فسيح جناته وما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾.

٨- إثبات المشيئة لله- عز وجل- ، وأنه عز وجل- يؤتي الفضل من يشاء بفضله ويمنعه عمّن يشاء بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

٩- أن الله- عز وجل- صاحب الفضل العظيم والخير العميم على جميع خلقه وهو الجواد الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

١٠- الترغيب في الإيمان بالله ورسله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات يبين الله عز وجل أن جميع ما يحصل في هذا الكون من مصائب، إنما هو بقدر الله السابق قبل خلق الخليقة.

قوله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ «ما» نافية أي: ما أصاب من مصيبة في الأرض من قحط وجدب وزلازل وبراكين وغير ذلك.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من مرض وجراح وقتل وموت وفقر وغير ذلك.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، أي: إلا مقدر مكتوب عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير كل شيء.

قال السعدي[1]: «وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتب في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها».

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، أي: من قبل أن نخلق الخليقة، ونبرأ النسمة، ومن قبل خلق السموات والأرض، ومن قبل خلق هذا الكون، كما في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[2].

قال الحسن البصري: «كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة»[3].

وقال ابن كثير[4]: «وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في القدر- باب حجاج آدم وموسى ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦، وأحمد ٢/ ١٦٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤١٩.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٥٢.

السابق، قبحهم الله».

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الإشارة ترجع إلى معنى ومضمون قوله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

أي: أن علمه عز وجل بالأشياء قبل كونها وتقديره وكتابته لمقادير كل شيء، مما يحصل في الأرض وفي الأنفس، وفي هذا الكون كله من أحداث ومصائب وغير ذلك، وحدوث ذلك كما قدره الله، كل ذلك يسير سهل على الله عز وجل؛ لأن الخلق خلقه والأمر أمره، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وكل ما في هذا الكون جار بتقديره عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

اللام للتعليل، والمصدر المؤول «كيلا تأسوا» في محل جر باللام متعلق بفعل محذوف تقديره: قدرنا مقادير كل شيء، وأخبرناكم بذلك وبيناه لكم: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ و«لا» في المواضع الثلاثة: نافية.

﴿تَأْسَوْا۟﴾ الأسى بمعنى: الأسف والحزن على أمر فات ومضى، ولهذا قال هنا:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، أي: مما فات ومضى ولا يمكن استدراكه، من أمور الدنيا من مال أو ولد أو صحة، أو منصب أو جاه، أو غير ذلك.

وذلك لأن الله يختار لعبده ما يختار، وما اختاره الله لعبده خير مما يختاره العبد لنفسه.

وفي الحديث: «من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه ومن عبادي من لا يصلح له إلا الصحة فلو أسقمته لأفسدت عليه دينه»(١).

---

(١) رواه الطبراني وغيره- فيما ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٣٣٣. وضعفه ابن رجب، =

وهذا مما يوجب على العبد الرضا والقناعة بما آتاه الله فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»(١).

وقد قيل: «القناعة كنز لا يفنى».

والله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وقد يمنعها عمن يحب وعمن لا يحب.

ويبتلي بالسراء كما يبتلي بالضراء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٥، ١٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٢).

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(٣)

﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو بقصر الهمزة: «أتاكم» بلا مد، بمعنى: جاءكم.

وقرأ الباقون: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ بالمد، بمعنى: أعطاكم، وهما متلازمتان، أي: ولا تفرحوا بالذي جاءكم والذي أعطاكم الله من نعم الدنيا فرح بطر واختيال وتكبر وافتخار على من دونكم، كأنكم حصلتم على ذلك بحولكم وقوتكم وسعيكم أو باستحقاقكم

وذكره القرطبي عند تفسير قوله تعالى في سورة الشوري: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧] ١٦/ ٢٨، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية في «تفسيره» ٧/ ١٩٤ وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في تعليقه على تفسير ابن كثير في هذا الموضع: «هذا من الآثار التي لا يعلم لها سند، ومعناه صحيح».

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٧٤٦، والترمذي في الزهد ٢٢٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١.

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧٧.

لذلك، كما ذكر الله عن قارون قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص:٧٦- ٨١].

أما الفرح الطبيعي الذي ليس فيه أشر ولا بطر ولا تكبر ولا اختيال مع الاعتراف بنعمة الله وشكره فلا بأس به.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ليس أحد إلا يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أصابه خير، فجعله شكراً»(١)

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ المختال: المتكبر في مشيته وهيئته، والفخور: المفتخر المتعالي على الناس بقوله: أنا كذا، وأنا كذا، كما قال أحدهم:

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل(٢)

وإذا كان الله عز وجل لا يحب من هذه صفته فهو يبغضه ويحب من كان متواضعاً في مشيته وهيئته ومقاله.

قال ابن كثير(٣) في كلامه على الآية: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾-: «أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا للكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٢١.

(٢) البيت لأبي العلاء المعري. انظر: «ديوانه» ص٣١٨، «غذاء الألباب» ٢/ ٢٧٠.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٥٢.

ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدر شيء لكان، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾».

وقال ابن القيم[١]:«ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها، وعلى الصبر على مراراتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة، وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هانت عليه وخف حملها، وأنزلها منزلة الحر والبرد».

فحمداً لك اللهم على أن جعلت للمسلم هذا السياج، فلا يأسى ويقنط ويحزن عند المصيبة على ما فاته، ولا يبطر ويتكبر ويغتر عند النعمة وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[٢]، فلك الحمد ربنا. اللهم ثبتناعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال ابن القيم[٣]: «وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته ولابد، قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه، ولم يفرحوا بالحاصل لعلمهم أن المصيبة مقدرة على كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه».

وإن المتأمل في أحوال الناس يجد أنه ينطبق على الكثير منهم قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول[٤]

فاجعل أخي الكريم وفقني الله وإياك وجميع المسلمين من الإيمان بالله عز وجل وقدره والرضا بما قدره الله سياجاً منيعًا ووقاية تقيك بإذن الله عز وجل من هذه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٩- ٣٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٩.

(٤) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» ص١٢٦٨ (بترقيم الشاملة).

الوساوس والخواطر السيئة وحصن قلبك من هذه الواردات بالاستقامة على طاعة الله وتعظيمه عز وجل وتعظيم أمره وذكره وشكره والاعتصام به وحده تجد بإذن الله عز وجل حلاوة الإيمان، وتشعر بالسعادة وانشراح الصدر، وتستغن بذلك بإذن الله عن كل فائت وتشكر الله عند كل نعمة.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ كقوله في سورة النساء: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [الآية:٣٧].

والبخل في الأصل: منع الحقوق الواجبة في المال، وهو ضد الكرم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [آل عمران:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨].

والمراد بالبخل في الآية هنا- والله أعلم- ما يشمل منع الحقوق الواجبة مطلقا في المال وغيره، كقوله ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:٨- ١٠].

وكما جاء في الحديث: «أبخل الناس الذي يبخل بالسلام»(١).

وقال ﷺ: «البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٤٠ حديث ٥٥٩١، والبهيقي في الشعب ٦/ ٤٢٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠/ ٣٤٩- حديث ٤٤٩٨ موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه. وصحح الحافظ ابن حجر سند الموقوف عند شرحه حديث ٥٥٤١ في «فتح الباري»، وأخرجه أحمد ٣/ ٣٢٨ من حديث جابر رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن لفلان في حائطي عذقاً، وإنه قد آذاني وشق عليَّ مكان عذقه، فأرسل إليه النبي ﷺ، فقال: «بعني عذقك الذي في حائط فلان»، قال: لا. قال: «فهبه لي» قال: لا. قال: «فبعنيه بعذق في الجنة» قال: لا. فقال النبي ﷺ «ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام».

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٣٤٦؛ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

فهم يبخلون بإخراج الحق وقوله وفعله من مال وجاه وعلم وعمل، ويأمرون الناس بالبخل بذلك، يفعلون المنكر، ويأمرون الناس بفعله.

فجمعوا بين خصلتين ذميمتين البخل في أداء الحقوق، وأمر الناس بذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون:٣]؛ لأنه إذا كان لا يحث على طعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المسكين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، أي: ومن يعرض عن أمر الله وطاعته وعن الإنفاق في سبيله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بغير «هو».

وقرأ الباقون بإثباتها.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ كقول موسى عليه السلام ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم:٨] وكقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤﴾ [الحج:٦٤] وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر:١٥]، وقال تعالى: ﴿يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨].

والغني: اسم من أسماء الله عز وجل، أي: ذو الغنى المطلق التام عن جميع خلقه، من جميع الوجوه.

أي: ومن يعرض عن أمر الله وطاعته وعن الإنفاق في سبيله فإن الله هو الغني الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السموات والأرض وخزائن السموات والأرض كلها بيده، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر:٢١].

فخزائنه عز وجل ملأى، لا تغيضها كثرة الإنفاق، وليس بحاجة إلى خلقه، لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال عز وجل: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو

أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»(١).

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، مشتق من الحمد على وزن «فعيل» يدل على أن له عز وجل الحمد كله، وهو وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم. قال عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص:٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ:١].

فهو عز وجل الغني المحمود على غناه لواسع عطائه وجوده فله عز وجل الحمد على غناه، وعلى خلق السموات والأرض، وعلى ملك السموات والأرض، وعلى إنزال الكتاب وله الحمد في الدنيا والآخرة، وهو المحمود على كل حال سبحانه. وهو عز وجل الحميد لمن يستحق الحمد.

وهو الشكور سبحانه كما قال عز وجل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ [فاطر:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن:١٧].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات قدر الله- عز وجل- السابق، وأن ما يقع من مصائب في الأرض والأنفس، وما يجري في الكون من حركة أو سكون كل ذلك بتقدير سابق في الأزل قبل خلق الخليقة؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

٢- قدرة الله- عز وجل- التامة حيث قدر مقادير كل شيء وجاءت وفق ما قدر، وذلك عليه يسير لأنه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٣- أن الله- عز وجل- قدر مقادير كل شيء وأخبرنا بذلك لئلا يحزن الإنسان على ما فاته ولا يفرح فرح بطر واختيال بما أعطي، وليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

٤- سمو مبادئ الدين الإسلامي وحفظه أتباعه من الأسى والفرح المفرطين حفاظاً على الاعتدال النفسي؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

٥- نفي محبة الله لمن كان مختالاً فخوراً وإثبات محبته لمن كان مؤمناً متواضعاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

٦- ذم البخل وأهله الذين يمنعون الحقوق الواجبة عليهم في المال وغيره ويحضون الناس على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

٧- التعريض بذم من تولى عن طاعة الله والإنفاق في سبيله والوعيد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

٨- إثبات اسم الله- عز وجل- «الغني» وأنه عز وجل غني عمن أعرض عن عبادته وطاعته وعن جميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

٩- إثبات اسم الله- عز وجل- «الحميد» وصفة الحمد والكمال له عز وجل وأنه المحمود في كل حال وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾.

١٠- في اقتران اسمه عز وجل «الغني» و«الحميد» زيادة كماله عز وجل إلى كمال؛ لأن «الغني» ذو الغنى التام، المحمود على غناه لجوده وكرمه وعظيم فضله وواسع إحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه الغني الحميد عمن تولى وأعرض، وعن جميع خلقه، ثم ذكر في هذه الآية أنه عز وجل أقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتاب والميزان.

قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ اللام: للقسم و«قد» حرف تحقيق أي: والله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وفي إضافة الرسل إلى نفسه- عز وجل- بقوله: ﴿رُسُلَنَا﴾ تشريف وتكريم لهم.

والإرسال بعث الشخص برسالة إلى آخرين، و﴿رُسُلَنَا﴾ جمع رسول.

والرسول من عند الله عز وجل هو من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه.

وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً، ذكر في القرآن الكريم منهم خمسة وعشرون رسولا، منهم ثمانية عشر رسولاً ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٣- ٨٦].

ومنهم إدريس وذو الكفل عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء:٨٥] وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم:٥٦].

ومنهم هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٥٠].

ومنهم صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [هود:٦١]

ومنهم شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [هود:٨٤].

ومنهم وأولهم آدم عليه السلام.

ومنهم آخرهم وخاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

قال الناظم:

فـي تلـك حجتنـا منهـم ثمانيـة ... مـن بعـد عشـر ويبقـى سـبعة وهمـو

إدريـس هـود شـعيب صـالح وكـذا ... ذو الكفـل آدم بالمختـار قـد ختمـوا[1]

عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير. قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً ثم قال: يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث، ونوح، وخنوخ، وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، وأربعة من العرب: هود، وصالح وشعيب، ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك»[2].

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾، أي: بالآيات الكونية الواضحات، والمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات.

كما قال تعالى فيما حكاه عن موسى وفرعون ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ

(١) البيتان للحجوري. «جوهرة التوحيد» ص١٨٥.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢/ ٤٢٢- ٤٢٦- من رواية ابن مردويه، ومن رواية الآجري، وأخرجه أحمد ٥/ ٢٦٥- ٢٦٦- بنحوه من حديث طويل عن أبي أمامة- رضي الله عنه- ، وفيه: عدد الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً. والحديث ضعيف عامة أهل العلم من حديث أبي ذر وحديث أبي أمامة رضي عنهما.

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف:١٠٥-١٠٨].

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كقوله في سورة الشورى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧].

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ يدل على علو الله عز وجل على خلقه؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل. كما يدل على أن كتب الله عز وجل كلها منزلة وغير مخلوقة.

و «ال»- في «الكتاب» للجنس، أي: جنس الكتب، والكتاب مصدر على وزن «فعال» بمعنى «مفعول» أي: مكتوب. والمراد بذلك الكتب السماوية وما فيها من البينات والآيات الشرعية.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: والعدل والحق، كقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن:٧].

أي: وأنزلنا معهم العدل والحق الذي أمر الله به، كما قال عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، والذي قامت به السموات والأرض؛ العدل في الأقوال والأفعال والمنهج والسلوك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الانعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

قال ابن كثير[1]: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو العدل قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:١٧]، وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]».

وقال السعدي[2]: «﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال. والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي، وفي معاملات الخلق،

---

(١) في: «تفسيره» ٨/ ٥٣.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠١.

وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك».

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ اللام للتعليل، أي: أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، أي: بالحق والعدل في الأقوال والأفعال والمنهج والسلوك وذلك مضمون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣].

القسط والعدل في حق الله، كما قال ﷺ لمعاذ: «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قال الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن لا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»(١).

قال ابن القيم(٢): «ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات».

والقسط في حق العباد كما قال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(٣).

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾. أي: وأوجدنا الحديد وأودعنا مادته في الأرض.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ البأس: الشدة والقوة، قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح:١٦]، أي: أولي شدة وقوة. وقال تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧] أي:

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد- ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد ٧٣٧٣، ومسلم في الإيمان- الدليل على أن من مات على الإيمان دخل الجنة قطعاً ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٠.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة- وجوب الوفاء ببيعة الأول فالأول ١٨٤٤، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٨، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦ـ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وحين الشدة.

فالحديد فيه شدة وقوة شديدة حيث يصنع منه السلاح بشتى أشكاله وأنواعه كالسيوف والبنادق والسنان والنصال والدروع، وغير ذلك من وسائل الحرب، وأدوات القتال، كالطائرات والسفن الحربية والمدرعات وحاملات الجنود، والصواريخ والقنابل وغير ذلك.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، أي: وفيه منافع للناس دينية إذا استغل لنصرة الحق وردع من خالفه وعانده وضاده قال ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم»(١).

أما إذا استغل الحديد وما فيه من البأس الشديد ضد الحق فإنه من أعظم وسائل الهدم والتخريب، وما شقيت الإنسانية إلا حين استغل الحديد وما فيه من البأس لتدمير الإنسانية فصنعت منه الأسلحة الفتاكة التي تقضي على الأخضر واليابس وتهلك الحرث والنسل وتدع الديار بلاقع في غيبة من دين السلام والرحمة دين الإسلام الحنيف، بل وفي غيبة من الضمير الإنساني فأصبحت الدول تتبارى وتفتخر بامتلاك وسائل التدمير- والله المستعان.

وفيه منافع دنيوية كثيرة للناس، فمنه القدور التي يطبخون بها والأواني التي يشربون بها والأدوات التي يستعملونها في منازلهم وحراثاتهم من الفأس والقدوم والمنشار والإزميل وغيرهاوآلات التبريد والتدفئة والآلات التي يركبونها ويسافرون عليها وينقلون عليها بضائعهم جواً وبراً وبحراً من الطائرات والسيارات والبواخر وغير ذلك.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ الواو: عاطفة واللام: للتعليل والجملة متعلقة بـ «أنزلنا» أو بما قبله، و«من» موصولة بمعنى الذي، أي: وليعلم الله الذي ينصره

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠، ٩٢، وذكره البخاري مختصرًا في الجهاد والسير- باب ما قيل في الرماح قال: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري». انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٨.

ورسله بالغيب، علم ظهور يترتب عليه الثواب والعقاب، أما علم كونه فهو معلوم له- عز وجل- قبل خلق السموات والأرض، وعطف «رسله» على ضميره- عز وجل- وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً لهم.

وقوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿يَنصُرُهُۥ﴾.

أي: أنه عز وجل أرسل الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ليعلم الذي ينصره ورسله بالغيب، أي: الذي نيته في عمله وقتاله وحمله للسلاح إرادة نصرة دين الله ورسله- حتى وإن غاب عن أعين الناس- ممّن لم يكن كذلك، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فسأله عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليرى مكانه؛ أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

فهو عز وجل لا تخفى عليه خافية، والسر عنده علانية، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود:١٢٣].

وأيضاً: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: وإن لم يره، كما قال تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [المائدة:٩٤] وفي الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

ذكر الله عز وجل أنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه عز وجل يعلم من ينصره ورسله بالغيب، ثم ختم الآية ببيان أنه عز وجل قوي عزيز، أي: ذو القوة الشديدة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨١٠، وفي التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، ١٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- ، وأخرجه مسلم ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وذو العزة التامة.

فلا قوة فوق قوته، ولا عزة فوق عزته، وإنما شرع الجهاد لنصرة دينه؛ للابتلاء، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

فالحديد وما فيه من بأس شديد وقوة ليس بشيء عند قوته وعزته عز وجل، فإن سُخر هذا الحديد لنصرة الله ورسله فصاحبه هو المنصور بقوة الله عز وجل وعزته، وإن سُخر هذا الحديد للحرب على الله ورسله فصاحبه المهزوم المغلوب بقوة القوي العزيز سبحانه.

ومن حمل السلاح وقاتل بنية صالحة لتكون كلمة الله هي العليا فهو المنصور بقوة القوي العزيز سبحانه، ومن حمل السلاح وقاتل لغير ذلك فالله غني عنه وعن قتاله لأنه عز وجل القوى العزيز.

وحيث قرن عز وجل بين وصفيه «قوي»، و«عزيز»، فالأولى أن يحمل معنى «عزيز» هنا على المعنيين الأوليين، وهما: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة.

ويحمل «قوي» على معنى القوة والشدة؛ لئلا يقال بالترادف أو التكرار.

فله عز وجل القوة والعزة بكمالهما، ومن قوته وعزته أنه أنزل الحديد الذي فيه البأس الشديد، وأنه قادر على الانتصار من أعدائه، لكنه يبتلي أولياءه بأعدائه ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن عز وجل بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته، وبهما يقوم القسط والعدل، ففي الكتاب القوة المعنوية والحجة والبرهان، وفي الحديد القوة المادية قوة السيف والسنان.

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على الناس بإرسال الرسل بالآيات البينات الكونية، وإنزال الكتب والآيات الشرعية والعدل والإقسام على ذلك وتأكيده والامتنان به على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٢- تشريف الله- عز وجل- رسله بإضافتهم إلى نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾، وقوله: ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾.

٣- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، والإنزال إنما يكون من علو إلى أسفل ، فله عز وجل علوّ الذات وعلوّ الصفات.

٤- أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل- وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة، وكذا غيره من كتب الله- عز جل.

٥- وجوب القيام بالعدل والقسط في الأقوال والأعمال والأحكام؛ لأن الله- عز وجل- أنزله وأمر به وأقام عليه الدين وأمر السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٦- قدرة الله- عز وجل- التامة ونعمته على الخلق في إيجاد مادة الحديد في الأرض لما فيه من قوة في الحرب، ومنافع للناس لا تحصى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

٧ لابد لإقامة الدين والعدل والقسط من قوة معنوية من الإيمان والحجة والبرهان، وقوة مادية من الحديد والسيف والسنان.

٨- الإشارة إلى أن الحديد قد يكون مصدر قلق وخوف وتخريب وإفساد إذا لم يحسن استخدامه؛ لما فيه من البأس الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

٩- علم الله- عز وجل- بمن ينصره ورسله بالغيب وإن لم يره، وإن غاب عن أعين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

١٠- إثبات أنه عز وجل ذو القوة الشديد المتين، وذو العزة والقهر والغلبة والامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان، ثم ذكر هنا أن ممن أرسلهم نوحاً وإبراهيم وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب وأنه قفى على آثارهم برسله، وقفى على آثار رسله بعيسى بن مريم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم.

و«نوح» هو أول الرسل وهو نوح بن لامَكَ بن متُّوشلخَ بن خنوخَ- وهو إدريس[1].

و«إبراهيم» هو خليل الرحمن أبو الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وهو إبراهيمُ بنُ تارخَ بن ناحورَ بن ساروغَ- ينتهي نسبه إلى سام بن نوح- عليهما السلام[2].

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الواو: عاطفة، و«جعلنا» بمعنى: «صيرنا» ،فتنصب مفعولين، الأول: «النبوة»، والثاني: «في ذريتهما»، و«الكتاب» معطوف على النبوة، و«ال» في «الكتاب» للجنس، أي: جنس الكتب السماوية، أي: جعلنا كوناً وشرعاً في ذريتهما الأنبياء والكتب السماوية، فكل من جاء بعد نوح من الأنبياء والرسل هم من ذرية نوح عليه السلام، بما فيهم إبراهيم عليه السلام، وكل من

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» ١/ ٢٣٧. وإدريس المذكور في نسب نوح عليه السلام، ليس بنبي؛ كما بين ذلك أهل العلم، وعلى هذا فأول الرسل نوح عليه السلام.

(٢) انظر «البداية والنهاية» ١/ ٣٢٤

جاء بعد إبراهيم من الأنبياء والرسل فهم من ذريته وآخرهم وخاتمهم نبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]».

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾، أي: فمن ذريتهما وقومهما وممن أرسلنا إليهم الرسل وأنزلنا عليهم الكتب من هو مهتدٍ إلى الصراط المستقيم، عرف الحق واتبعه.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، أي: وكثير منهم خارجون عن طاعة الله عز وجل.

فالكثرة الكاثرة من الخلق ليسوا على الحق، بل خارجون عن الحق وعن طاعة الله عز وجل؛ لهذا يجب عدم الاغترار بما عليه الأكثرون، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم:٤٢].

وقد أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحد إلى الجنة(١).

وقد قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٢).

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنا(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٣٧٢، ومسلم في الإيمان ٣٢٧، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البيت لابن دريد ضمن مقصورته. انظر: «ديوانه» ص١٣٢، «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص٧٤.

فالعبرة بالكيف، لا بالكم، وإن أكثر أهل النار الإمَّعة الذي يقول: رأيت الناس يقولون شيئاً فقلته.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾، الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ يعود إلى نوح وإبراهيم والأنبياء من ذريتهما عليهم السلام أو يعود على نوح وإبراهيم، وجمع الضمير العائد إليهما؛ لأن أقل الجمع اثنان، ومثل هذا قوله تعالى بعد أن ذكر حكم داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء:٧٨].

والمعنى: ثم أتبعناهم برسلنا وجعلناهم يقفون آثارهم مأخوذ من القفا، أي: يأتون بعدهم.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، أي: وقفينا على رسل بني إسرائيل بعيسى بن مريم وجعلناه يقفوهم ويتبعهم ويأتي بعدهم، ويكون آخرهم.

وهو الذي بشر بمحمد ﷺ بعده، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

قال السعدي[1] «خص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام».

ونسب عيسى عليه السلام لأمه؛ لأنه ليس له أب، وإنما نفخ الله عز وجل فيها من روحه، ولبيان كمال قدرة الله عز وجل حيث خلقه من أنثى بلا ذكر، ولهذا نجد في القرآن الكريم التصريح باسم عيسى منسوباً إلى أمه، بينما لم ينسب غيره من الأنبياء ولا لآبائهم.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، أي: وأعطيناه الإنجيل، وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى بن مريم وأوحاه إليه.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٣.

﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، أي: رقة وخشية ولينا وشفقة، والرأفة أرق وألطف وأخص من الرحمة، كما قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة:٨٢].

قال السعدي: «ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام».

أما الآن فلا ينبغي أن نخدع بأخلاقهم، فإنهم وإن ظهر منهم شيء من اللين وحسن الخلق، فهو كما يقال أخلاق تجارية، يريدون بذلك الدعوة للنصرانية وتحبيبها للناس ببذل الخُلُق والمال وغير ذلك، وحملاتهم وحروبهم الصليبية وتمالؤهم مع اليهود ضد الإسلام والمسلمين منذ القدم إلى يومنا هذا تبين حقيقة عداوتهم للإسلام والمسلمين.

ومما يؤسف له أنه في حين نجد من بعض النصارى اللين والخلق الحسن- ولو تصنعاً وتكلفاً- لكسب قلوب الناس نجد من كثير من المسلمين الغلظة والجفاء والفظاظة مما ينفر الآخرين، بل وصل الحال ببعض المنتسبين إلى الإسلام إلى الخروج عن حكم الإسلام بالتكفير والتفجير واستحلال دماء المعصومين من المسلمين وغيرهم وأموالهم فشوهوا صورة الإسلام. وليس أحد أولى من المسلمين باللين والرحمة وحسن الخلق قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقال تعالى له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ «رهبانية» منصوب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره «ابتدعوها» أي: استحدثوها من تلقاء أنفسهم، وهي الانقطاع للعبادة والانفراد في الأديرة والسياحة في الأرض، والمبالغة في التقشف.

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: ما فرضناها وما أوجبناها عليهم، وما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إنما كتبنا وفرضنا عليهم وشرعنا لهم أن يبتغوا بأعمالهم رضوان الله عز وجل، لا أن يشددوا على أنفسهم بما لم يشرعه الله عز وجل.

ويحتمل أن معنى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أنهم إنما ابتدعوا هذه الرهبانية التي لم يفرضها الله عليهم ولم يشرعها لهم قاصدين بذلك ابتغاء رضوان الله، وكم من مريد للحق لم يصبه، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[١].

وقد قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «إن الشيطان قد يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل».

وعلى هذا يكون قوله ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ منصوباً على الاستثناء المنقطع، وصوب هذا ابن القيم وقال[٣]:«أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودل على هذا قوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله».

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، ولم يعطوه حقه من الرعاية والاهتمام والعناية.

وهكذا فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

قال ابن القيم[٤]: «ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع فيها كالتزامها بالنذر، وهو إجماع- أو كالإجماع- في أحد النسكين. قالوا الالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية

---

(١) انظر: «التفسير القيم» ص ٦١٣.

(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» ١/ ٢٨٦ (٢١٠).

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩١- ٣٩٢.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٢.

ما التزمه بالنذر وفاءً، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.. والقصد أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها».

وقال ابن كثير[١]: «وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل».

ويؤخذ من هذا تحريم الابتداع في الدين، وأن الزيادة في الدين كالنقص منه، بل أشد، وحرمة التشديد على النفس، بما لم يأمر به الله، وأن النصارى في هذا سلكوا مسلك اليهود، الذين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ووضعت عليهم الآصار والأغلال، كما في قصة القتيل في سورة البقرة، وكما في تحريمهم الحلال، وغير ذلك.

وقد سلك أناس من هذه الأمة مسلك التشديد على أنفسهم مصداقاً لقوله ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[٢] يعني هم اليهود والنصارى.

حتى إن هذا الأمر وجد في عهد النبوة- وما بالعهد من قدم- فحرم أناس على أنفسهم النوم والإفطار وتزوج النساءِ فجاء إليهم النبي ﷺ: فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٣٢٠، ومسلم في العلم ٢٦٦٩، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧، من حديث أنس رضي الله عنه.

الدلجة»[١].

وقال ﷺ: «هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة، فإما ذكرت للنبي ﷺ، وإما أرسل إليّ، فأتيته فقال لي: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟» فقلت: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير. قال: «فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام» قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً. قال: فصم صوم داود نبي الله ﷺ، فإنه كان أعبد الناس» قال: قلت، يا نبي الله وما صوم داود؟ قال: «كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. قال: واقرأ القرآن في كل شهر» قال: قلت، يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك: قال: «فاقرأه في كل عشرين» قال: قلت، يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال: «فاقرأه في كل عشر» قال: قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، قال: فشدّدت فشدّد عليَّ. قال: وقال لي النبي ﷺ: «إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر» قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ»[٣].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة»[٤].

فالدين الإسلامي دين ودنيا، عبادة وعمل، لا رهبانية فيه ولا تصوف، ولا مكان فيه للتنطع والتكلف.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٩، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٢) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٠، وأبو داود في السنة ٤٦٠٨، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣١، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وأبو داود في الصلاة ١٣٨٩، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٣٠، والترمذي في الصوم ٧٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧١٢.

(٤) انظر: «إحياء علوم الدين» ٢/ ٦٢.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني: فقال: «سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض»(١).

﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾، أي: من أتباع عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى، وهم الحواريون.

﴿أَجۡرَهُمۡ﴾، أي: ثواب عملهم على إيمانهم واتِّباعهم لعيسى بن مريم عليه السلام، وما فيهم من الرأفة والرحمة.

وآتينا الذين آمنوا منهم أيضًا بمحمد ﷺ ممن أدركوا بعثته ﷺ أجرهم على ذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾ [آل عمران:١٩٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»(٢).

﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، أي: خارجون عن طاعة الله عز وجل مكذبون بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام. وهذا يدل على شؤم الابتداع في الدين، وأنه سبب للخروج عن الطاعة والضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها» للتنبيه، و«الذين» صفة لـ «أي» أو بدل و«آمنوا» صلة الموصول، أي: يا

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١١، ومسلم في الإيمان ١٥٤، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٣، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ٢٩٥٦.

أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بجوارحكم، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وأصل «تقوى»: «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية، وهي مأخوذة من الوقاية، ومن ذلك أخذ الوقاية من البرد ومن الحر ومن الشوك، وأهمها وأعظمها ورأسها أخذ الوقاية من عذاب الله عز وجل.

قال الشاعر:

خل الذنوب كبيرها ... وصغيرها ذاك التقى
كن مثل ماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى[1]

﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، أي: وصدقوا برسوله محمد ﷺ وذلك بشهادة أن محمداً رسول الله وطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فأمر أولاً بتقوى الله بشهادة أن لا إله إلا الله وأداء مقتضياتها بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، ثم عطف على ذلك الأمر بالإيمان بالرسول ﷺ وذلك بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وأداء مقتضاها.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الكفل النصيب، أي: يعطكم نصيبين من رحمته، ويضاعف أجركم.

وقد حمل بعض أهل العلم الآية على مؤمني أهل الكتاب، منهم ابن عباس رضي الله عنهما[2]، واختار هذا ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين[3].

---

(١) الأبيات لابن المعتز. انظر: «ديوانه» ٢/ ٣٧٦.

(٢) أخرجه النسائي في آداب القضاة- تأويل قول الله عز وجل: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هو الكافرون) ٨/ ٢٣١- ٢٣٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٥

(٣) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٥- ٤٤١ «الوسيط» ٤/ ٢٥٦، «زاد المسير» ٧/ ٣١٢، «الجامع لأحكام =

ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الآيات:٥٢- ٥٤]

وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران» الحديث(١).

وقال بعض أهل العلم إن الآية في المؤمنين من هذه الأمة.

قال سعيد بن جبير رحمه الله: «لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾» أي: ضعفين، وزادهم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ففضلهم بالنور والمغفرة»(٢).

وهكذا رُويَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الآية في المؤمنين من هذه الأمة(٣).

قال ابن كثير(٤): «وهذه ا لآية كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال أيضاً: «ومما يؤيد هذا القول- حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت

القرآن» ١٧/ ١٧٢.

(١) سبق ذكر الحديث بتمامه وتخريجه قريباً.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٨.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٥٨.

اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ ألا فعملت النصارى. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء»(١).

ومثل هذا ما جاء في حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك، فاستأجر آخرين، فقال: أكملوا بقية يومكم، ولكم الذي شرطت، فعملوا حتى حين صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا فاستأجر قوماً، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين»(٢).

ولا شك أن ظاهر الآية أنها في المؤمنين من هذه الأمة وعلى هذا يدل قوله في الآية بعدها ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

ومن آمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ وما بعثه الله به من الوحي فهو داخل ضمن مؤمني هذه الأمة فعمله مضاعف لكونه من مؤمني هذه الأمة، ولكونه آمن برسوله وآمن بمحمد ﷺ كما دل على ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

أما ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وما في معناه(٣) فالمراد باليهود والنصارى فيه من مات منهم على دينه قبل أن ينسخ أو قبل بعثة محمد ﷺ إذ لا خلاف في أن من أدرك منهم الإسلام ودخل فيه فهو من المؤمنين من هذه الأمة، بل إن من أهل الكتاب من كان له قدم راسخ في الإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره. وعلى هذا فيدخل تحت الأمر في الآية من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ المراد هنا من رحمته المخلوقة التي منها الجنة والمطر كما قال عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة- الإجارة إلى نصف النهار، ٢٢٦٩، والترمذي في الأمثال ٢٨٧١، وأحمد ٢/٦، ١١.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٨.

(٣) كحديث أبي موسى المذكور بعده.

في الحديث القدسي: «وأنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»(١).

وقال تعالى عن المطر: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ [الروم:٥٠].

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا﴾، أي: ويجعل لكم نوراً معنوياً وحسياً ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ مشياً معنويّاً وحسيّاً في الدنيا والآخرة في الحياة، وبعد الممات في البرزخ وفي عرصات القيامة نوراً في قلوبهم وعلماً وهدى يهتدون به إلى معرفة الحق والعمل به، وإلى ما فيه خير دينهم ودنياهم وآخرتهم، ويسلمون به من الجهل والشك والحيرة والتذبذب.

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٤٠]، وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

نور يقوى عند من وفقه الله حتى يكون كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»(٢).

فما بالك بمن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله وأعطاه ما سأل وأعاذه مما استعاذ منه، هل يضيره شيء هل يخاف من أحد؟! كلا والله- نسأل الله التوفيق.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: «فما حقيقته إيمانك؟ فإن لكل قول حقيقة» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أرى عرش الرحمن بارزاً، وكأني أرى أهل الجنة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في الجنة يُنعمون، وأهل النار فيها يتعاوون. فقال النبي ﷺ: «عبد نور الله قلبه فالزم»[١].

وقد أحسن القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء[٢]

وأيضاً ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ بعد الممات، يكون معكم في قبوركم في البرزخ يؤنسكم فيها وتهتدون به في الإجابة على أسئلة الملكين.

ونوراً بعد البعث من القبور في عرصات القيامة ومواقفها الشديدة عند الصراط والميزان وعند تطاير الصحف وغير ذلك من المواقف التي يشيب من هولها الوليد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد:١٢].

وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٨].

قال ابن القيم[٣]: وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه».

وشتان بين من يمشي بنور الله وبين من يتخبط في الظلمات في الدارين قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: ويغفر لكم ذنوبكم بأن يتجاوز عن عقوبتها، ويسترها عن

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠/ ٢٠٢، وعبد بن حميد في مسنده ١/ ١٦٥، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ١٧٠. وأخرجه عبد الرازق في «المصنف» وفي «التفسير» وابن المبارك في الزهد، وابن منده، والبهيقي في الشعب، وغيرهم انظر «الإصابة» ١/ ٥٩٧ ترجمة الحارث بن مالك الأنصاري.

(٢) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٢.

الخلق؛ لأن معنى المغفرة ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]

ورحمته عز وجل قسمان رحمة هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

ورحمته الفعلية قسمان رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣، الحج:٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

ولمغفرته عز وجل ورحمته الواسعتين وعد من اتقاه وآمن برسوله بمضاعفة الأجر والثواب وإعطائهم نوراً يمشون به في الدنيا والآخرة.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن اتقى الله وآمن برسوله وأن الله يعطيهم كفلين من رحمته ويجعل لهم نوراً يمشون به ويغفر لهم؛ لأجل أن:

﴿يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا يقدرون على حجز شيء من فضل الله ورده ممن أعطاه الله إياه، ولا على إعطائه لمن منعه الله عنه، كما قال عز وجل عنهم ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١١، ١١٢].

قال السعدي[١]: «فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله محمد ﷺ المتقين لله أن لهم كفلين من رحمته، ونوراً ومغفرة، رغماً على أنوف أهل الكتاب».

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الآية تقوي قول من قال إن الوعد بقوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ للمؤمنين من هذه الأمة. فإن في الآية هنا ما يشعر بالتوبيخ لأهل الكتاب مما يفهم منه أنهم كانوا يفتخرون على المؤمنين قبل نزول الآية بأنهم يؤتون أجرهم مرتين دون المؤمنين من هذه الأمة.

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، أي: وأن الفضل والزيادة والعطاء والخير كله بيد الله عز وجل يعطيه من يشاء من عباده بفضله، ويمنعه عمن يشاء بعدله.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: والله صاحب الزيادة والإنعام العظيم وهو الجواد الكريم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام وأنهما من أفضل الرسل، وجعل النبوة والكتاب في ذريتهما، والامتنان عليهما وعلى الخلق بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- أن من ذرية نوح وإبراهيم وقومهما وأقوام الرسل بعدهما، من هو مهتد، وكثير منهم فاسقون؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

٣- لا ينبغي الاغترار بما عليه الأكثرون، فأكثر الخلق خارجون عن طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

٤- تتابع الرسل عليهم السلام بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾.

٥- ختم رسل بني إسرائيل والرسل قبل محمد ﷺ بعيسى بن مريم عليه السلام وكتابه الإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾.

---

(١) في: «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٦.

٦- رقة قلوب الحواريين أتباع عيسى عليه السلام ولينها؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

٧- ابتداع أتباع عيسى الرهبانية وإلزامهم أنفسهم بما لم يفرضه الله عليهم طلباً منهم لرضوان الله، ومع ذلك لم يقوموا بما التزموا به حق القيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

٨- أن من أحدث في دين الله وابتدع وشدد على نفسه فمصيره الانقطاع والترك، بل والخروج عن الحق والضلال، وفي الاتباع الخير والبركة واليسر.

٩- أن الله- عز وجل- لم يكتب على النصارى ولا غيرهم إلا ما يطيقون مما يبتغى به وجه الله- عز وجل- ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.

١٠- إيتاء الله- عز وجل- الذين آمنوا من أتباع عيسى عليه السلام أجرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾.

١١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾.

١٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم وحث على الاتصاف بهذا الوصف وترغيب في امتثال ما ذكر بعده وأن امتثاله من مقتضيات الإيمان وعدمه يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

١٣- وجوب تقوى الله والإيمان برسوله محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

١٤- وعد الله- عز وجل- لمن اتقوه وآمنوا برسوله بإعطائهم نصيبين من رحمته ومضاعفة أجورهم ومنحهم نوراً معنوياً وحسيا يمشون به في الدنيا والآخرة ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾.

١٥- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ الرحمة الذاتية والفعلية، الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٦- فضل الله- عز وجل- على المتقين المؤمنين من هذه الأمة بمضاعفة أجورهم ومنحهم النور ومغفرة ذنوبهم، رغم أنوف الحاسدين من أهل الكتاب؛ لقوله تعالى:

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٧- أن الفضل كله بيد الله يعطيه من يشاء وهو سبحانه ذو الفضل العظيم والجود والخير العميم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

١٨- إثبات اليد لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسـير سورة ق ٥
المقدمة ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١...﴾ الآيات [١-٥]..... ١١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦...﴾ الآيات [٦-١١]..... ٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢...﴾ الآيات [١٢-١٥]..... ٢٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ...﴾ الآيات [١٦-٢٢]..... ٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝٢٣...﴾ الآيات [٢٣-٢٩]..... ٤٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠...﴾ الآيات [٣٠-٣٥]..... ٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا...﴾ الآيات [٣٦-٤٠]..... ٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١...﴾ الآيات [٤١-٤٥]..... ٧٥
تفسـير سورة الذاريات..... ٨١
المقدمة ٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١...﴾ الآيات [١-٦]..... ٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧...﴾ الآيات [٧-١٤]..... ٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥...﴾ الآيات [١٥-٢٣]..... ٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤...﴾ الآيات [٢٤-٣٠]..... ١١٥

تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ...﴾ الآيات [٣١-٣٧]..... ١٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ...﴾ الآيات [٣٨-٤٦]..... ١٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ...﴾ الآيات [٤٧-٥١]..... ١٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ...﴾ الآيات [٥٢-٦٠]..... ١٤٤
تفسير سورة الطور..... ١٥٥
المقدمة..... ١٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ ...﴾ الآيات [١-١٦]..... ١٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ...﴾ الآيات [١٧-٢٠]..... ١٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ الآيات [٢١-٢٨]..... ١٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ...﴾ الآيات [٢٩-٣٤]..... ١٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ...﴾ الآيات [٣٥-٤٣]..... ١٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ...﴾ الآيات [٤٤-٤٧]..... ١٩٥
تفسير سورة النجم..... ٢٠٥
المقدمة..... ٢٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ...﴾ الآيات [١-٤]..... ٢٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ...﴾ الآيات [٥-١٨]..... ٢١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ...﴾ الآيات [١٩-٢٦]..... ٢٢٨

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات [٢٧-٣٠]..... ٢٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيتين [٣١، ٣٢] ٢٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾...﴾ الآيات [٣٣-٤١] ٢٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾...﴾ الآيات [٤٢-٥٥] ٢٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾...﴾ الآيات [٥٦-٦٢] ٢٧٥
تفسير سورة القمر ٢٨١
المقدمة ٢٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٨] ٢٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾...﴾ الآيات [٩-١٧] ٢٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾...﴾ الآيات [١٨-٢٢] ٣٠٨
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾...﴾ الآيات [٢٣-٣٢]..... ٣١١
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾...﴾ الآيات [٣٣-٤٢] ٣٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾...﴾ الآيات [٤٣-٤٦]..... ٣٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾...﴾ الآيات [٤٧-٥٥]..... ٣٣٠
تفسير سورة الرحمن ٣٤٣
المقدمة ٣٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-١٣] ٣٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾...﴾ الآيات [١٤-٢٥]..... ٣٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾...﴾ الآيات [٢٦-٣٠]..... ٣٦٩

تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾...﴾ الآيات [٣١-٣٦] ٣٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾...﴾ الآيات [٣٧-٤٥] ٣٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾...﴾ الآيات [٤٦-١٦] ٣٨٦
تفسير سورة الواقعة ٤٠٧
المقدمة ٤٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-١٠] ٤١١
تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾...﴾ الآيات [١١-٢٦] ٤١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾...﴾ الآيات [٢٧-٤٠] .. ٤٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾...﴾ الآيات [٤١-٥٦] ... ٤٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾...﴾ الآيات [٥٧-٦٢] ٤٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾...﴾ الآيات [٦٣-٧٤] ٤٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾...﴾ الآيات [٧٥-٨٢] ٤٥٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾...﴾ الآيات [٨٣-٩٦] ٤٦٨
تفسير سورة الحديد ٤٧٧
المقدمة ٤٧٩
تفسير قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٣] ٤٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ...﴾ الآيات [٤-٦] ٤٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ...﴾ الآيات [٧-١١] ٥٠٠

تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم...﴾ الآيات [١٢-١٥] ٥٢٢

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ...﴾ الآيتين [١٦، ١٧] ٥٣٢

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾...﴾ الآيتين [١٨، ١٩] ٥٣٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ الآية [٢٠] ٥٤٨

تفسير قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ...﴾ الآية [٢١] ٥٥٨

تفسير قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ...﴾ الآيات [٢٢-٢٤] ٥٧٠

تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ...﴾ الآية [٢٥] ٥٧٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآيات [٢٦-٢٩] ٥٨٧

فهرس الموضوعات ٦٠٥

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثاني والعشرون

تفسير سورة المجادلة إلى سورة التحريم

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٢٢

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

(ح) دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٤٨٠ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

الباركود الدولي: 9786038274958

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُجَادَلَة

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المجادلة»؛ لأنها افتتحت بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ۝١﴾، وبذكر قصة المرأة المجادلة.

و «المجادلة» بكسر الدال وفتحها، والمجادلة بالكسر يراد بها المرأة، والمجادلة بالفتح يراد بها القصة.

وتسمى: «سورة قد سمع»، و«سورة الظهار».

ويقال: إن مما تميزت به هذه السورة: أنها لم تخلُ آية منها من لفظ الجلالة.

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بذكر سماعه عز وجل قول المجادلة في زوجها، وشكواها، وبيانه عز وجل حكم الظهار: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

٢- التهديد والوعيد للذين يحادون الله ورسوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦﴾.

٣- بيان سعة علم الله عز وجل، وإحاطته بالنجوى، وبأعمال العباد، وبكل شيء، والنهي عن التناجي بالإثم والعدوان ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

٤- ذكر بعض آداب المجالس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

٥- الأمر بتقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ ثم نسخ ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٦- ذم المنافقين في توليهم اليهود، ونفاقهم، وتوعدهم بالعذاب الشديد في النار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٨- قطع المودة بين المؤمنين وبين المحادين لله ورسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

سبب النـزول:

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية»(١).

وفي رواية عنها أنها قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وزوجها أوس بن الصامت»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري- معلقًا- في كتاب التوحيد- باب (وكان الله سميعًا بصيرًا) «فتح الباري» ١٣/ ٣٧٢، وأخرجه موصولًا النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٨، وأحمد ٦/ ٤٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤-٤٥٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

وعن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: «فيَّ- والله- وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليّ يومًا فراجعته بشيء فغضب فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثوبًا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾». قالت: فقال رسول الله ﷺ «مريه فليعتق رقبه». قالت: فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متتابعين» فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام قال: «فليطعم ستين مسكينًا، وسقًا من تمر» قالت: قلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ «فإنا سنعينه بعَرَقٍ[1] من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بِعَرَقٍ آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا» قالت: ففعلت»[2].

---

(١) العَرَق: بفتح العين والراء: الزنبيل أو المكتل المنسوج من الخوص انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «عرق».

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق- باب في الظهار ٢٢١٤، وأحمد ٦/ ٤١٠-٤١١، والواحدي في «أسباب =

قال ابن كثير[١]: «هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر، فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام».

ثم ذكر حديث سلمة بن صخر رضي الله عنه- من رواية الإمام أحمد[٢].

وفيه: أنه ظاهر من زوجته لما دخل رمضان حتى ينسلخ خوفًا أن يقع عليها في نهار رمضان فوقع عليها ذات ليلة فأخبر النبي ﷺ بذلك وأمره بالتكفير عن ذلك بما ذكر الله عز وجل في هذه السورة.

وأيضًا فإن الثابت في الصحيحين وغيرهما في قصة سلمة بن صخر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه- قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله هلكت قال: «مالك»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها»؟ قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا. قال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا»؟ قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ فبينا نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيه تمر- والعَرَق: المكتل- قال: «أين السائل»؟. فقال: أنا. قال: «خذ هذا فتصدق به». فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها- يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أطعمه أهلك»[٣].

=

النزول» ص ٢٧٤.

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٢.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٧، وأبو داود في الطلاق- باب في الظهار ٢٢١٣، والترمذي في التفسير ٣٢٩٩، وابن ماجه في الطلاق- باب الظهار ٢٠٦٢. وقال الترمذي: «حديث حسن، محمد بن يسار- يعني راوي الحديث عن سلمة بن صخر- قال: لم يسمع عندي من سلمة بن صخر».

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وأبو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي

=

فهذا هو الثابت المتفق عليه في قصة سلمة بن صخر، وهو أنه جامع في نهار رمضان، وليس فيه شيء عن سبب نزول الآيات في الظهار- وإن كان قد أعطي حكم المجامع في نهار رمضان حكم المظاهر من زوجته.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

«قد» حرف تحقيق، تفيد تحقيق سماعه عز وجل قولها وشكواها، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾، أي: تحاجك وتخاصمك، وهي خولة[1] بنت ثعلبة، أو بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنها.

﴿فِي زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت- رضي الله عنه، كما جاء في سبب النزول.

وقد رُويَ: «أن امرأة لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها، ودنا منها، وأصغى لها، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه العجوز؟! قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها»[2].

والمعنى: قد سمع الله قول خولة بنت ثعلبة التي جاءتك تحاجك وتخاصمك في شأن زوجها، وما حصل منه معها.

والمراد: أنها جاءت تطلب حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها، كما قالت في

=

في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٧١.

(١) يقال: خولة، ويقال خويلة: انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢- عن ابن زيد.

قصة سبب النزول: «والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه».

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: وترفع إلى الله ضراعتها وفاقتها وحالها وحال صبيتها، وتسأله الفرج، كما في قولها: «يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك»(١).

وفي رواية أنها قالت: «أشكو إلى الله فاقتي»(٢).

ورُوي أنها قالت: «إن لي صبية صغارًا إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا»(٣).

فجادلت الرسول الله ﷺ وحاجَّته وخاصمته ليبين لها حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها.

وشكت إلى الله عز وجل وحده الذي إليه الشكوى فلم تشك حالها إلى النبي ﷺ لعلمها أنه ﷺ بشر، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وشكت حالها إلى الله عز وجل مع فعل السبب وهو البحث عن مخرج لها ولزوجها مما حصل منه، وذلك بمجيئها إلى رسول الله ﷺ لبيان الحكم في ذلك، ولهذا سارعت- رضي الله عنها- إلى مساعدة زوجها بعرق من تمر للتكفير عما حصل منه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطلاق- باب الظهار ٢٠٦٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والحاكم ٢/ ٤٨١، ومعنى «نثرت له بطني»، أي: أنها ولدت له أولادًا كثيرين، وهي شابة.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٧- عن أبي العالية.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٦.

فجمعت بين التوكل على الله برفع الشكوى إلى المولى عز وجل الذي يكشف الضر ويرفع البلوى، وبين بذل الأسباب، كما هو مقتضى الإيمان بالله عز وجل أن يعتمد المسلم على الله عز وجل، ويأخذ بالأسباب، كما قال عز وجل: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

وقال ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»(١).

فهو عز وجل رب العباد ومولاهم ومليكهم، وإليه المشتكى كما قيل:

.... **لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه**(٢)

ولقد كان من أعظم أسباب ضعف الأمة على مستوى الأفراد والجماعات والدول ضعف الاعتماد على الله، والتقصير في الأخذ بالأسباب، أو الاعتماد عليها فقط، فكم نشكو أحوالنا إلى الناس، وكم نقصر في الأخذ بالأسباب الكونية، وكم نعتمد في طلب جلب النفع ودفع الضر على الأسباب المادية فقط.

فإذا كان للإنسان حاجة كأن يريد تحقيق أمر من الأمور، أو أصابته مصيبة من فقر أو مرض أو تسلط عدو، ونحو ذلك أنزل حاجته ومصيبته بالآخرين، مع الغفلة عن مسبب الأسباب وهو الله عز وجل الذي بيده حقًا جلب النفع ودفع الضر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا شطر بيت من «القصيدة الذهبية، في الحجة المكية، والزورة المحمدية» لمجد الدين جمال الإسلام محمد بن أبي بكر بن رشد البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢هـ، ص٤٩، رقم (١١٩). وقد نسبت هذه القصيدة خطأ للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني المتوفى سنة ١١٨٢هـ، وألحقت بمنسكه في وصف الحج وأحكامه. والبيت بتمامه:

إليّ فإني ربهم ومليكهم ... لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه

١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل، أو غنى عاجل»(١).

ولقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم(٢)

وقال المتنبي(٣):

لا تشكونّ لمخلوق فتورثه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب فيما قد يعرض للإنسان في حياته من أمور يحتاج فيها إلى ذلك، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها، ومن هذا قول الشافعي(٤) رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ولهذا قال الآخر:

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٤٥، والترمذي في الزهد ٢٣٢٦، وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) البيت ينسب لزين العابدين. انظر: «الكشكول» ١/ ٥٧. وينسب له وللشافعي. انظر: «عيون الأخبار» ٢/ ٢٨٤. وذكر في «بصائر ذوي التمييز» بلا نسبة ٣/ ٣٨١.

(٣) انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٦٢.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٧٩.

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع[١]

وكلنا يعرف قصة سلمان الفارسي مع أخيه أبي الدرداء رضي الله عنهما وزوجته رضي الله عنها كما في حديث أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل. قال: فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: دخلت عليّ خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية، وكانت عند عثمان بن مظعون، قالت: فرأى رسول الله ﷺ- بذاذة هيئتها، فقال لي: يا عائشة ما أبذ هيئة خويلة. قالت: فقلت يا رسول الله امرأة لا زوج لها، يصوم النهار ويقوم الليل، فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها. قالت: فبعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون، فجاءه. فقال: يا عثمان أرغبت عن سنتي؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب. قال: فإني أنام وأصلي، وأصوم، وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل ونم»[٣].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم

---

(١) البيت لابن نباتة المصري. انظر: «ديوانه» ص٣١٥، ونسب أيضًا لبشار بن برد. انظر: «نهاية الأرب» ٣/ ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٦٨.

المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال: يا أبا أمامة ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني»(١).

والإنسان في هذه الحياة معرض لأنواع من المصائب والابتلاء في نفسه وأهله وولده وماله وغير ذلك، وقد تحيط به ظروف نفسية أو مرضية أو مالية أو اجتماعية ونحو ذلك يضيق بها ذرعًا وربما لو أحسن التعامل معها بتوفيق الله ثم بمشورة من يثق به من إخوانه لوجد بإذن الله عز وجل وعونه منها مخرجًا بدلًا من أن ينغلق المرء على نفسه وتحيط به الوساوس والهموم، وتحتوشه الشياطين، فمن ألمت به ملمة فلا بأس بعد اللجوء إلى الله عز وجل وسؤاله المخرج منها أن يستعين بمن يثق بهم من إخوانه من أهل الخبرة والتجربة والرأي السديد والنصح، وقد يكون الكثير منهم مر عليه مثل هذه المشكلة أو على غيره ممن يعرفهم وعرف أحوال الناس في هذا فيهوِّن على أخيه مصابه ويقوي ثقته بربه، وأن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا مما هو فيه، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]، ويوجهه إلى فعل السبب المناسب بعد التوكل على الله عز وجل.

ولقد أحسن من قال:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم(٢)

ولقد ابتليت في أول عملي في التدريس- وقبل أن أجرب الناس- بزميل حصل منه

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٥٥.

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» ٤/ ١٧٣.

بعض الأذى لي- عفا الله عني وعنه- فضقت ذرعًا بذلك، لأني لا أرى سببًا لذلك، وفكرت في الانتقال من ذلك العمل لأجل ذلك، فشرحت لأحد الإخوة من ذوي التجربة السبب الذي دعاني للتفكير في موضوع النقل، فقال لي هوِّن عليك هذا من تنافس الأقران فعرفت من حينها أن هذا الأمر- وإن كان لا يجوز- قد مر على غيري، وعرفت أن كل ذي نعمة محسود، فصبرت على ذلك وحمدت العاقبة بفضل الله وتوفيقه.

وذكر أحد الثقات أن أحد الإخوة تنكرت له زوجته بعد عشرة طيبة طويلة فشق ذلك عليه، واستشار أحد الإخوة المحبين من ذوي الخبرة والتجربة، فقال له هذا الأخ الخبير المجرب كيف أنت معها في أمر النساء «يعني الجماع»؟ فقال: لقد ركبتني ديون وهموم حتى أصبحت لا أهنأ بنوم، فكيف بأمر النساء، أي: ليس لي فيه عهد منذ زمن طويل، فقال له هذا الأخ المجرب: هذا هو السبب فيما حصل من زوجتك، فعاد الزوج معها في هذا الأمر بما تيسر له من أسباب فعادت العشرة الطيبة بينهما، وكما قيل:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له من ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب(١)

وهذا أمر جبلت عليه المرأة، وكذا الرجل هو الآخر يريد منها مثل ما تريد منه، فكل منهما مطالب بأداء حق الآخر، وكل فتور من أحدهما في حق الآخر، بل وفي الظهور أمامه بالمظهر الحسن، والرائحة الطيبة، والتلطف في كلام كل منهما للآخر هو سبب لبرود العلاقة بينهما.

عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، أن امرأة أتت عمر بن الخطاب بزوجٍ لها أشعث أغبر أصفر، فقالت له: يا أمير المؤمنين! لا أنا ولا هذا خلصني منه!. فنظر عمر إليه

---

(١) الأبيات لعلقمة بن عبدة الفحل الجاهلي، انظر: «غذاء الألباب» ١/ ٣٢٥، «المفضليات» ص٣٩٠ (١١٩)، «نهاية الأرب» ٣/ ٦٦.

فعرف ما كرهت منه، فأشار إلى رجلٍ وقال: اذهب به إلى الحمام فحممه وخذ من شعره، وقلم أظفاره وألبسه حلةً معافريةً، ثم ائتني به. فذهب به الرجل ففعل ذلك به ثم أتى به. فأومأ إليه عمر: أن خذ بيدها، فأخذ بيدها، فإذا هي لا تعرفه، فقالت: يا عبد الله، سبحان الله، أبين يدي أمير المؤمنين تفعل مثل هذا؟. فلما عرفتْه مضتْ[١].

ولهذا قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي، لأن الله تعالى ذكره قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[٢].

والأخبار في مثل هذا كثيرة مستفيضة، فكم من إنسان انغلق أمامه- بحسب تصوره- باب الرزق، أو الزواج أو زوال ما يعانيه من مشكلات مرضية أو نفسية أو اجتماعية، أو غير ذلك، فزال ذلك بتوفيق الله عز وجل وتيسيره بعد استشارة من يثق بهم من إخوانه من أهل النصح والمعرفة والتجربة.

وبالمقابل فكم من زوجين افترقا، وكم من والد وأولاده وإخوة وأقارب وجيران وأصحاب ساءت علاقاتهم وتنغصت حياتهم وتفاقم الخلاف بينهم وربما وصل الأمر بينهم إلى الهجران والتقاطع بسبب اختلاف لا يكاد يذكر وما أكثر هذا.

والسبب في هذا كله أن كثيرًا من المسلمين- وإن ولدوا في الإسلام وشبوا فيه وربما شابوا لم يربوا على ما جاء في القرآن الكريم من التوجيهات الإلهية، ولا على ما جاء في السنة المطهرة من التعاليم النبوية تجاه مشاكل الحياة وكيفية التعامل معها، فأصبح كل صاحب يريد الكمال من صاحبه والكمال في البشر نادر عزيز.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، أي: والله يسمع ما جرى بينكما من حوار وضمير المثنى يعود إلى النبي ﷺ وإلى خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها.

---

(١) انظر: «أدب النساء» لعبد الملك بن حبيب، ص١٦٧ (٤٨).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ١٢٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢/ ٤١٧.

وفي هذا إثبات سماع الله عز وجل- لكلامهما معًا، كما أن في أول الآية إثبات سماع الله لكلامها هي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾، «إن» حرف توكيد ونصب، أي: إنه عز وجل ذو السمع الواسع؛ يسمع الدعاء ويجيبه، ويسمع النجوى، ويكشف البلوى، ويسمع جميع الأقوال والأصوات، السر والجهر عنده سواء؛ كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك:١٣]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٧].

قال ابن القيم(١) في كلامه عن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: «فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح، لا يحتمل التأويل بوجه، في إثبات صفة السمع للرب- تعالى حقيقية، وأنه بنفسه سمع».

وقال أيضًا في «النونية» (٢):

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: ذو البصر المحيط بكل شيء، يبصر ويرى جميع المخلوقات، لا تخفى

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٥.

(٢) ص١٤٦.

عليه خافية منها، ولا من أعمال الخلق وأحوالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه:٤٦].

فهو عز وجل- يسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال ابن القيم(١):

وهو البصير يرى دبيب النملة السـ ـسوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ويرى بياض عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذاك تقلب الأجفان

فهو- سبحانه وتعالى- يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويبصر ويرى جميع الكائنات والمخلوقات.

قال الشاعر:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها والمخ من بين العظام النُّحَّل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول(٢)

قال السعدي(٣) في كلامه على الآية: «وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها».

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل

---

(١) في «النونية»، ص١٤٦.

(٢) الأبيات تنسب للزمخشري. انظر: «الكشاف» ١/ ١١٦، «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ص٤٦٤، «ربيع الأبرار» ١/ ١٠، «المستطرف» ص٣٥٢، «الكشكول» ٢/ ٢٩١.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٨.

رفع مبتدأ، و«يظاهرون» صلة الموصول، وخبره: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾.

قرأ عاصم: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وألف بينهما في الموضعين، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها وتخفيف الهاء وفتحها: «يَظّاهرون».

وقرأ الباقون كذلك إلا أنه بتشديد الهاء من غير ألف قبلها: «يَظّهّرون».

ومعنى ﴿يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، أي: يقول أحدهم لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: كما أنه يحرم عليَّ أن أركب ظهر أمي، وأن أطأها فكذلك أنت أيتها الزوجة يحرم عليّ أن أركبك وأن أطأك.

وسُمي ظهارًا اشتقاقًا من الظهر، وقد كان هذا في الجاهلية يعد طلاقًا يحرم المرأة مطلقًا.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها «خويلة» بنت ثعلبة فظاهر منها، فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرمتِ عليّ، وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقي إلى رسول الله ﷺ فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ما شطة تمشط رأسه- فقال: «يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء» فأنزل الله على رسوله ﷺ فقال: «يا خويلة أبشري» قالت: خيرًا فقرأ عليها: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري قال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾، قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره! قال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: «فدعا بشطر وسق»-

ثلاثين صاعًا، والوسق: ستون صاعًا- فقال: «ليطعم ستين مسكينًا وليراجعك»(١).

وفي رواية عن مجاهد عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، فلما ظاهر منها حسبت أن يكون ذلك طلاقًا فأتت رسول الله ﷺ- فقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني، إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه، وقدمت صحبته، وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها»؟ قال: لا، والله يا رسول الله ما أقدر عليها. قال: فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله»(٢).

والخطاب في قوله: ﴿مِنكُم﴾ للمؤمنين أمة الإجابة.

والمراد بـ﴿نِّسَآئِهِم﴾ زوجاتهم.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، «ما» نافية عاملة عمل «ليس»، و«هن» اسمها مبني على الفتح في محل رفع، و«أمهات» خبرها منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم، وضمير «هم» مضاف إليه، أي: ليست أزواجهم أمهاتهم، ولا يمكن أن تكون أزواجهم أمهاتهم بمجرد هذا القول ونحوه، فنفى ما أثبتوه، وهذا تكذيب لهم.

والأمهات: جمع أم، أو جمع أمهة، وهي التي ولدت، ويدخل فيها الجدات وإن علون، من أي جهة كن، كما تدخل فيها الأمهات من الرضاع لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٨-٤٤٩. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤: «إسناد جيد قوي، وسياق غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٥. وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

ولقوله ﷺ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»(١).

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، «إن»حرف نفي بمعنى «ما»، أي: ما أمهاتهم.

﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: ما أمهاتهم حقيقة إلا اللائي ولدنهم، أو إنما أمهاتهم حقيقة اللائي ولدنهم.

فأبطل الله عز وجل أن تكون الزوجة أمًّا بمجرد الظهار، وبيَّن أن أم الشخص حقيقة هي التي ولدته، ثم بين نكارة هذا القول وكذبه وشده حرمته فقال:

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ الواو عاطفة، و«إن» حرف توكيد ونصب والضمير «هم» اسمها مبني على السكون في محل نصب، وجملة ﴿لَيَقُولُونَ﴾ خبرها في محل رفع، واللام فيه للتوكيد.

﴿مُنكَرًا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: ليقولون قولًا منكرًا، أو مفعول ليقولون.

والمنكر: ما أنكره الشرع، وعُرْفُ المسلمين قولًا كان أو فعلًا.

وقدّم وصف القول بكونه منكرًا على الموصوف وهو القول إشارة إلى عظم نكارته وشدتها.

﴿وَزُورًا﴾، أي: وكذبا باطلًا، مزوّرا مخالفًا للحق، والزور من أكبر الكبائر.

ولهذا قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قال: ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور، قال الصحابة- رضي لله عنهم- فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٤٥، ومسلم في الرضاع ١٤٤٧، والنسائي في النكاح ٣٣٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٩٣٨- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠١- من =

فبين الله- عز وجل- أن الظهار كذب في ثلاثة مواضع الأول: في قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ فنفى ما أثبتوه، وهذا حقيقة التكذيب.

الثاني: في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والمنكر ما خالف الشرع والحق.

الثالث: في قوله: ﴿وَزُورًا﴾ والزور الكذب.

وإذا كان الظهار منكرًا من القول وزورًا وكذبًا، فهو محرم غاية التحريم ومرتكبه آثم إثما عظيمًا.

قال ابن القيم[1]: «الظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكرًا وجهة كونه زورًا أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً، فهو خبرٌ زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت».

وقال أيضًا[2] بعد ما ذكر الاختلاف في قول المظاهر: أنت عليَّ كظهر أمي، هل هو إنشاء أو إخبار قال: «وفصل الخطاب أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إنشاءً وإخبارًا، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه، ولهذا جعله الله منكرًا من القول وزورًا، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار».

وإنما كان الظهار قولًا منكرًا، فاحشًا شرعًا وعرفًا، وزورًا وكذبًا وباطلًا ومحرمًا غاية التحريم؛ لأن الزوجة لا تكون أمًّا بمجرد الظهار، ولا تطلق بمجرد الظهار، ولا تحرم على زوجها بمجرد ذلك.

=

حديث أبي بكرة- رضي الله عنه.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٩.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١٨-٤١٩.

ولأن أمر التحليل والتحريم إلى الله عز وجل ولا يجوز للمسلم أن يحرم على نفسه شيئًا مما أباحه الله له، ولو حرم ذلك لم يكن حرامًا.

فقد قال عز وجل لنبيه ﷺ لما حرم على نفسه ﷺ العسل أو مارية القبطية(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [التحريم: ١، ٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾، الواو: عاطفة، و«إن» حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، و«عفو» خبرها، واللام للتوكيد، أي: وإن الله عز وجل لذو العفو الواسع، أي: ذو التجاوز عن ذنوب التائبين من عباده، فيمحوها، ولا يعاقبهم عليها.

قال ابن القيم(٢):

وهو العفو بعفوه وسع الورى ... لولاه غار الأرض بالسكان

بل إنه عز وجل يبدل سيئات التائبين حسنات، إذا صدقت توبتهم، كما قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان:٧٠].

وعفوه عز وجل عفو كامل مع القدرة على العقوبة، بخلاف عفو المخلوق فقد يكون عن ضعف وعدم قدرة ولهذا قرن الله- عز وجل- عفوه بالقدرة، فقال عز وجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

﴿غَفُورٌ﴾ خبر ثان لـ«إن»، أي: ذو المغفرة الواسعة للتائبين من عباده، وهي: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة- كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما-

---

(١) كما جاء في سبب نزول الآيات. انظر مطلع سورة التحريم.

(٢) في «النونية» ص ١٤٨.

في المناجاة[١]. ومنه سمي «المغفر» البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره وتقيه السهام.

وحيث اجتمع في هذه الآية وصف العفوِ والمغفرةِ، فالأولى «العفو» على التجاوز، وحمل «المغفرة» على الستر.

أو يحمل «العفو» على العفو عن ترك الواجب، و«الغفور» عن ارتكاب المحرم؛ لأن التأسيس أولى من التوكيد.

فهو عز وجل يتجاوز عن ذنوب التائبين من عباده، ويسترها عن الخلق.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشعار بأن المظاهر قد عرَّض نفسه للإثم والعقوبة، لولا عفو الله- عز وجل- ومغفرته.

وبيان أن الله- عز وجل- عفوٌّ غفور لمن تاب إليه من هذا القول المنكر والزور وغيره، وعما خرج عن سبق اللسان من غير قصد ونحو ذلك.

قال ابن كثير[٢]: «﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، أي: عما كان منكم في حال الجاهلية وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم كما روى أبو داود أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول لامرأته: يا أختي فقال: «أختك هي»؟

قال ابن كثير: فهذا إنكار، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك، لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة، وما أشبه ذلك».

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

بعد أن نفى الله- عز وجل- أن تكون الزوجات المظاهَر منهن أمهات لمن ظاهروا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٦٥.

منهن، وبيَّن أن أمهاتهم حقيقة هن اللاتي ولدنهم، وأن الظهار منكر من القول وزور وباطل بيَّن ما يلزم على الظهار من الكفارة لمن أراد العود إلى جماع زوجته.

قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾، أي: ثم يعودون ويرجعون للذي قالوه، أي: يعودون لجماع زوجاتهم، أو يعزمون على ذلك، وهذا يدل على أن الظهار لا يحرم الزوجة على زوجها، ولا يكون طلاقًا، إنما يحرم جماعها حتى يكفِّر.

عن سعيد بن جبير- رضي الله عنه قال: «كان الإيلاء والظهار طلاق الجاهلية، فوقَّت الله الإيلاء في أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة»(١).

وقيل: ثم يعودون إلى الظهار بعد تحريمه.

والصحيح القول الأول، وعليه جمهور السلف وأهل العلم، فالكفارة لا تجب بنفس الظهار، وإنما تجب بالعود إلى الجماع، والعزم عليه.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ خبر المبتدأ: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، ودخلت عليه الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط، أي: فعليهم تحرير رقبة.

وتحرير الرقبة: تخليصها من الرق، بحيث تكون منافع الشخص الرقيق مملوكة له بعد أن كانت مملوكة لسيده، قال تعالى عن مريم عليها السلام أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي: مخلصًا لعبادة الله، ولخدمة بيت المقدس.

والمراد بالرقبة: النفس المملوكة، ذكرًا كانت أو أنثى، ويشترط أن تكون الرقبة في كفارة الظهار مؤمنة؛ لقوله تعالى في كفارة القتل: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

ولحديث معاوية بن الحكم السلمي- رضي الله عنه- لما جاء إلى النبي ﷺ بتلك الجارية السوداء فسألها ﷺ- «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤.

رسول الله. قال ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»(١).

كما يشترط في الرقبة أن تكون سليمة من العيوب التي تجعلها معدومة المنافع؛ لأن التحرير معناه تمليك الرقيق منافع نفسه.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المس: يطلق في القرآن الكريم على الجماع، كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، أي: من قبل الجماع.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رجلًا قال: «يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفِّر فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله»؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل»(٢).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: إني تظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفِّر فقال رسول الله ﷺ «ألم يقل الله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾؟» قال: أعجبتني، قال: «أمسك حتى تكفِّر»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، والنسائي في السهو ١٢١٨، وأحمد ٥/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٢٢١، والنسائي في الطلاق ٣٤٥٧، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٩ وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٣) أخرجه البزار وقال: «لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا» هكذا ذكره ابن كثير عنه في «تفسيره» ٨/ ٦٦.

﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما سبق من أحكام الظهار، والتشديد فيه والميم للجماعة.

والموعظة: هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، والحث على فعل الطاعات، والزجر عن المعاصي.

وقد دلت الآيات على تحريم الظهار، بل على شدة تحريمه من وجوه خمسة:

الأول: وصفه بالمنكر.

والثاني: وصفه بالزور.

والثالث: إيجاب الكفارة فيه.

والرابع: الوعظ من الوقوع فيه.

والخامس: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وهذا إنما يكون عن الذنب.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم خبير.

و﴿خَبِيرٌ﴾ على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل، أي: على سعة اطلاعه وعلمه بأعمالهم.

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان- عز وجل- مطلعًا على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن اتقى الله وامتثل أمره، ووعيد لمن عصى الله وخالف أمره؛ لأن مقتضى خبرته بأعمال عباده أن يحاسبهم ويجازيهم عليها، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم ربك أحدًا.

كما أن فيه إشارة إلى خبرته عز وجل التامة بأحوال العباد وما يصلحهم، ولهذا شرع لهم ما شرع من الأحكام التي فيها صلاحهم في الحال والمآل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الفاء: استئنافية، و«من» اسم شرط جازم، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يجد» فعل الشرط، أي: فمن لم يجد الرقبة، أو قيمتها.

﴿فَصِيَامُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، والجملة في محل جزم جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿شَهْرَيْنِ﴾ مثنى «شهر»، والسنة اثنا عشر شهرًا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦].

والشهر ثلاثون يومًا، أو تسعة وعشرون يومًا، كما قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما- أنه سمع رجلًا يقول: الليلة ليلة النصف فقال له: ما يدريك أن الليلة النصف سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهر هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر مرتين، وهكذا في الثالثة، وأشار بأصابعه كلها، وحَبَس، أو خَنَسَ إبهامه»(١).

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا»(٢).

﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾، أي: متصلين، لم يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق، وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو فصل بينهما بصيام رمضان- فهذا كله لا يقطع التتابع.

فإن ابتدأ الصيام من أول الشهر كفاه إكمال شهرين حسب رؤية هلال كل واحد منهما، سواء كمل كل منهما، أو كان كل منهما تسعة وعشرين يومًا، أو كمل أحدهما

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٨، ومسلم في الصيام ١٠٨٠، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩، والنسائي في الصيام ٢١٤٠

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١٠٨٤.

ونقص الآخر.

فالمعتبر كمال الشهرين دخولًا وخروجًا ولا يلزم كون ذلك ستين يومًا.

وإن ابتدأ الصيام في أثناء الشهر لزمه إكمال ستين يومًا.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، أي: من قبل الجماع.

وكرر هذا لتوكيد وجوب التكفير عن الظهار قبل العودة إلى جماع الزوجة المظاهر منها ودواعيه من المباشرة ونحو ذلك، وذلك أدعى لإخراج الكفارة، بل وإلى المبادرة في إخراجها.

فإن عجز عن العتق وانتقل إلى الصيام حرم عليه وطؤها طيلة الشهرين، فإن وطئها فيهما انقطع التتابع، وقيل: لا ينقطع. والصحيح الأول.

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينًا﴾، أي: فمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام؛ لقوله ﷺ لكعب بن عجرة في كفارة فدية الأذى: «هل عندك نسك؟» قال: ما أقدر عليه، فأمره أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، لكل مسكينين صاع»(١).

واستحسن بعض أهل العلم أن يكون مع الطعام إدام، ولو غداهم أو عشاهم كفى.

والمسكين: هو الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئًا، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله. نسأل الله العافية.

ولا بد من استيفاء عدد «ستين مسكينًا» فإن لم يجد الستين أطعم من وجد بقدر إطعام ستين مسكينًا.

ولم يقل هنا ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ كما ذكره مع العتق والصيام، اكتفاء بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨١٤، ومسلم في الحج ١٢٠١، وأبو داود في المناسك ١٨٥٦، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٥١، والترمذي في الحج ٩٥٣، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٩ من حديث كعب بن عجرة- رضي الله عنه.

وعلى هذا فلا يجوز الجماع قبل التكفير مطلقًا.

وقيل: إذا كان التكفير بالإطعام جاز الجماع قبله؛ لأنه لم يقل مع الإطعام: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. والصحيح الأول.

واختلف أهل العلم فيما إذا عجز عن الكفارة، هل تسقط عنه، أو لا؟ على قولين:

فمن أهل العلم من قال: لا تسقط بالعجز عنها، بل تبقى في ذمته، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ أعان أوس بن الصامت بعَرَق من تمر، وأعانته زوجته بمثله حتى كفّر.

كما استدلوا بأن النبي ﷺ أعطى سلمة بن صخر لما جامع في نهار رمضان وعجز عن الكفارة عرَقًا من التمر من الصدقة، فلو كانت الكفارة تسقط بالعجز عنها لما تصدق عليهما ليخرجاها من الصدقة.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الكفارة تسقط بالعجز عنها، كما تسقط الواجبات بالعجز عنها وعن أبدالها، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ لما أمر سلمة بن صخر- رضي الله عنه- بالتصدق- بعَرَق التمر، قال له: «أعلى أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي » فقال له النبي ﷺ «أطعمه أهلك»(١).

قالوا: فهذا يدل على سقوطها بالعجز، ولو لم تسقط عنه لما أمره بإطعامها لأهله؛ لأن الرجل لا يكون مصرفًا لكفارته، كما لا يكون مصرفًا لزكاته.

وأجاب بعض أهل العلم عن هذا بأنه إذا عجز عن الكفارة وكفر عنه غيره جاز أن يأكل منها هو وأهله لقصة سلمة بن صخر وغيره.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن سقوط الكفارة بالعجز خاص بكفارة الجماع في نهار رمضان لقصة سلمة بن صخر رضي الله عنه أما غيرها من الكفارات فلا تسقط

---

(١) سبق تخريجه.

بالعجز واختاره أبو البركات ابن تيمية رحمه الله(١).

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإشارة لما شرع الله عز وجل من أحكام الظهار في الآيات السابقة، وما شرع فيها من الكفارة، واللام في قوله: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ﴾ لام التعليل، أي: لأجل أن تؤمنوا بالله ورسوله.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وضده الكفر.

والإيمان بالرسول ﷺ شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله- عز وجل- بقوله: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم؛ لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه ذلك؛ لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت» بقوله ﷺ: «أجعلتني والله عدلًا، بل ما شاء الله وحده»(٢).

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر الله- عز وجل- من أحكام الظهار في الآيات السابقة، وإلى غير ذلك مما أنزل الله عز وجل من أحكام.

و«حدود» جمع حد، والحد: هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض وهي مراسيمها التي تفصل بعضها عن بعض.

وحدود الله تنقسم إلى قسمين: حدود أوامر وواجبات يجب فعلها، فلا يجوز تركها ولا تعديها، كما قال عز وجل: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والقسم الثاني: حدود نواهٍ ومحرمات يجب تركها وعدم الاقتراب منها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

والمشار إليه في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ القسمان، ففيه النهي عن الظهار، والأمر بالكفارة قبل المسيس.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، «للكافرين» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«عذاب» مبتدأ مؤخر، و«أليم» صفة له.

وفي تقديم الخبر إفادة قصر العذاب الأليم على الكافرين وحصره فيهم؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

و«الكافرين»: الذين كفروا بالله فجحدوا وجوده وربوبيته وألوهيته، وأسماءه وصفاته وشرعه، أو شيئًا من ذلك، أو استكبروا عن الانقياد لذلك أو أعرضوا عنه، أو شكوا فيه. والكفر: ضد الإيمان.

و«العذاب» هو النكال والعقوبة.

و«أليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على شدة ألم عذابهم، وهو «فعيل» بمعنى «مفعل» أي مؤلم موجع حسًا ومعنى مؤلم حسًا للأجساد، ومؤلم معنى للقلوب.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات صفة السمع الواسع لله- عز وجل- وأنه سبحانه سمع قول المجادلة في زوجها وتحاورهما هي والرسول ﷺ ويسمع- عز وجل- جميع الأصوات والأقوال ويجيب الدعوات؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٢- وجوب التحاكم إلى الله ورسوله، وأن المشتكى إلى الله- عز وجل- في جميع الأحوال فهو الذي ترفع إليه الشكوى ويكشف الضر ويرفع البلوى.

٣- ينبغي لمن أشكل عليه شيء من أمر دينه أن يسأل أهل العلم.

٤- جواز مخاطبة المرأة للرجال في حدود الحاجة والمعروف، وأن كلامها ليس بعورة.

٥- إثبات أنه- عز وجل- ذو البصر التام المحيط بكل شيء، ورؤيته واطلاعه على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾.

٦- أن الظهار من الزوجات لا يحرمهن ولا يجعلهن بحكم أمهات الأزواج وإنما أمهاتهم اللاتي ولدنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾.

٧- أن الظهار منكر شديد من القول وزور من أكبر الكبائر، ومحرم غاية التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورًا﴾.

٨- إثبات صفة العفو التام والمغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾.

٩- تحريم جماع الزوجة المظاهر منها قبل إخراج الكفارة، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد الرقبة أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع الصيام أطعم ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾.

١٠- يشترط في تحرير الرقبة أن تكون الرقبة سليمة من العيوب المؤثرة على منافعها، لأن معنى تحريرها تمليكها منافعها، كما يشترط أن تكون مؤمنة قياسًا على كفارة قتل الخطأ.

١١- حرص الإسلام على تحرير الرقيق وتخليصه من الرق، لهذا أوجب تحرير رقبة في كفارة الظهار، كما أوجبها في كفارة القتل، والجماع في نهار رمضان، وخيّر بينها وبين الإطعام والكسوة في كفارة اليمين.

١٢- وعظ الله- عز وجل- للمؤمنين بما أنزل من إبطال الظهار وتحريمه وتغليظ كفارته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

١٣- إثبات سعة علمه- عز وجل- وخبرته واطلاعه على أعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١٤- أن من لم يجد الرقبة أو لم يجد قيمتها فعليه صيام شهرين متصلين لا يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو تخللها صيام شهر رمضان فلا يقطع التتابع.

١٥- إذا لم يستطع المظاهر صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾. واختلف أهل العلم فيما إذا عجز عن الإطعام: فقال بعضهم: تسقط، وقال بعضهم: تبقى في ذمته. والأول أظهر؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

١٦- عناية الإسلام بالمساكين وحرصه على سد حاجتهم، لهذا أوجب في كفارة الظهار إطعام ستين مسكينًا على من لم يستطع التحرير والصيام.

١٧- يسر الإسلام وسماحة أحكامه حيث تدرج بمن لم يستطع التحرير إلى الصيام، وبمن لم يستطعهما إلى الإطعام.

١٨- أن الله- عز وجل- شرع أحكام الظهار، وما يترتب عليه من الكفارة وغير ذلك لأجل الإيمان به ورسوله واتباع شرعه والوقوف عند حدوده فعلًا للواجبات واجتنابا للمنهيات؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

١٩- جواز عطف وصف الرسول ﷺ على لفظ الجلالة بالواو التي تقتضي التشريك في باب الإيمان والطاعة بخلاف باب المشيئة.

٢٠- أن ما شرعه الله عز وجل من أحكام الظهار وغيرها، هي حدود الله تعالى،

أي: أوامره التي يجب امتثالها، ولا يجوز تعديها، ونواهيه التي يجب تركها، ولا يجوز قربها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد للكافرين بالعذاب الأليم؛ عذاب حسي للأبدان، وعذاب معنوي للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

في هذه الآية والتي بعدها وعيد شديد وتهديد أكيد لمن حادّ الله ورسوله وكفر بآياته.

والمحادة: المشاقة والمخالفة والمعاندة، مأخوذة من الحد؛ لأن المشاق والمخالف المعاند يأخذ حدًا غير حد الآخر ويكون بالحد المقابل والمخالف.

فمعنى ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي: يشاقون ويخالفون ويعاندون الله ورسوله، وذلك بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه عز وجل «الله» بالواو؛ لأن محادة الرسول ﷺ من محادة الله عز وجل، كما أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

﴿كُبِتُوا۟﴾ خبر «إن» في محل رفع، أي: أهينوا وأذلوا وأخزوا وأغيظوا وأهلكوا.

﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الكاف بمعنى «مثل»، وهي صفة لمصدر محذوف.

أي: كبتًا مثل كبت الذين من قبلهم، أي: كما أهين وأذل وأهلك الذين من قبلهم من أشباههم من المحادين لله ورسله.

وفي هذا توكيد لقوله: ﴿كُبِتُوا۟﴾ وبيان أن هذه سنة الله- عز وجل- في المحادين له ولرسله، وإشارة إلى كمال قدرته عز وجل على ذلك.

فالذي أهان وأذل المحادين السابقين هو أقدر على إهانة المحادين اللاحقين من باب أولى، كما قال عز وجل في البعث ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ

عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]،

وهذه الآية كقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فقد أكد الله- عز وجل- هذا الوعيد والتهديد للمحادين له ولرسوله بمؤكدات ثلاثة الأول: «إن»، والثاني: كون الجملة اسمية- وهذان لفظيان، والثالث: قوله: ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا مؤكد معنوي.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ توعد الله عز وجل المحادين له ولرسوله ﷺ بالكبت والإهانة والإذلال، ثم بين في قوله: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ بأنه عز وجل قد أقام الحجة عليهم بإنزال الآيات، فلا حجة ولا عذر لهم في محادة الله ورسوله، والمخالفة والاستكبار والعناد.

والواو في قوله: ﴿وَقَدْ﴾ حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات.

﴿آيَاتٍ﴾ جمع آية، والآية في اللغة: العلامة والدلالة.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، والمراد بها هنا الآيات الشرعية وهي القرآن الكريم.

﴿بَيِّنَاتٍ﴾ صفة لـ﴿آيَاتٍ﴾، أي: آيات واضحات مفصلات، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ﴾ سبق الكلام عليه.

وقوله: ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة لـ«عذاب» ومعنى «مهين»، أي: يهينهم ويخزيهم ويذلهم

لاستكبارهم عن الإيمان بالله واتباع شرعه والانقياد والخضوع له، وهوان أمر الله عليهم، فجوزوا بالعذاب المهين لهوانهم على الله، والجزاء من جنس العمل.

فيجمع للكافرين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي:

العذاب الحسي، كما قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما يقاسونه من آلام العذاب في أجسامهم بإدخالهم النار وإصلائهم فيها، كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

والعذاب المعنوي القلبي النفسي ما يلاقونه من الهوان والخزي والذل وتحطم المعنويات، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٤- ٧].

فهي تحطم كل شيء فيها تحطيمًا حسيًا، وتحطم القلوب تحطيمًا معنويًا، وتطلع عليها فتذلها وتهينها وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، «يوم» ظرف زمان منصوب، متعلق بـ «مهين».

أي: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فكأنه قيل متى ذلك، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

وذلك يوم القيامة يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، كما قال عز وجل: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم، وما أعظم هذا الخبر، الذي يترتب عليه الشقاء الأبدي في نار جهنم- نسأل الله السلامة.

و «ما» موصولة أو مصدرية، أي:، فيخبرهم بالذي عملوه، أو بعملهم من خير وشر قولًا كان أو فعلًا.

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، أي: عده وكتبه، وضبطه وحفظه عليهم، وأحاط به كمًا وكيفا، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَنَسُوهُ ۚ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهم قد نسوا ما عملوه في غمرة اللهو والسهو والغفلة، أشبه بحال من يستدين فما درى حتى أثقلته الديون وعجز عن الوفاء.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قدم المتعلِّق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المتعلَّق به وهو قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾؛ لتأكيد شهادته عز وجل على كل شيء.

أي: والله على كل شيء من الأشياء كبيرًا كان أو صغيرًا خفيًا كان أو جليًا، دقيقًا كان أو جليلًا.

(شهيد)، أي: مطلع شاهد رقيب حاضر، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء ولا ينسى شيئًا كما قال عز وجل: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ

مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ توكيد لقوله قبله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، أي: فينبئهم بأعمالهم التي أحصاها عليهم؛ لأنه عز وجل على كل شيء شهيد مطلع رقيب.

ثم أكد عز وجل اطلاعه وشهادته على كل شيء بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ الآية.

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للتقرير، أي: قد رأيت، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والرؤية هنا رؤية علمية أي: ألم تعلم بما أوحى الله إليك.

﴿تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، «ما» موصولة، تفيد العموم، أي: أن الله يعلم كل الذي في السموات والذي في الأرض، وكرر «ما» في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون أن يقول: «يعلم ما في السموات والأرض»؛ لتأكيد شمول علمه عز وجل كل ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَا يَكُونُ﴾، «ما» نافية. قرأ أبو جعفر بالتاء على التأنيث: «ما تكون»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿مَا يَكُونُ﴾.

﴿مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: السر والتناجي بينهم، أي: ما يكون من سر وتناج بين ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾، ولم يقل: «من نجوى اثنين»؛ لقوله: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ نفس المتناجين، فتكون ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف، تقديره: أناسٍ نجوى، و«إلا» في المواضع الثلاثة للحصر.

﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ قرأ يعقوب «أكثرُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب ﴿أَكۡثَرَ﴾، أي: ولا أقل من ذلك العدد وهما الاثنان، ولا أكثر منه، أي: سبعة فما فوق

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمه وإحاطته، ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، أي: في أي مكان كانوا، فهو معهم؛ يرى مكانهم، ويعلم أحوالهم، ويسمع سرهم ونجواهم، كما قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨].

وأيضا فإن رسله الكرام الكاتبين يكتبون عليهم ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن كثير(١): «حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء».

وهذا مما يوجب على العباد مراقبة الله- عز وجل- في السر والعلن؛ لأنه- عز وجل- معهم بعلمه وسمعه وبصره، يرى مكانهم، ويبصر أفعالهم، ويسمع أقوالهم، والمصيبة أن أهل الضلال والابتداع لم يأخذوا من هذا إلا القول بالحلول والاتحاد. تعالى الله عن ذلك.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، «ثم» عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: ثم يخبرهم الله بالذي عملوه، أو بعملهم، من المناجاة بينهم وغير ذلك يوم القيامة، ويحاسبهم ويجازيهم على ذلك.

وسُمى يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

ولقيام الأشهاد فيه من الرسل والمؤمنين وغيرهم، كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الروح والملائكة فيه صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٧.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] ولقيام الحساب، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ولقيام العدل الحقيقي في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: إن الله عز وجل محيط علمًا بجميع الأشياء كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وقد أكد عز وجل شمول علمه وإحاطته بكل شيء في هذه الآية بثلاثة مؤكدات هي: «إن»، وتقديم المتعلقين، وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾، وكون الجملة اسمية.

و﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

كما قال موسى عليه السلام- لما سئل عن القرون الأولى-: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

أي: لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف علم المخلوق الضعيف.

وقد افتتح الله- عز وجل- هذه الآية بالعلم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ ثم ختمها بالعلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا توكيد سعة علم الله عز وجل وشموله وعمومه.

الفوائد والأحكام:

١- إذلال الله- عز وجل- وإهانته للمحادين له ولرسوله المخالفين لشرعه، كما

أذل وأهان المكذبين قبلهم، سنة الله في المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢- أن المحادة لله محادة لرسوله، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله- عز وجل . وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

٣- إقامة الله- عز وجل- الحجة على الخلق بما أنزل من الآيات الشرعية البينة الواضحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٤- إثبات علو الله على خلقه، فله- عز وجل- علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾.

٥- إثبات أن القرآن منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

٦- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالعذاب الذي يهينهم ويذلهم يوم القيامة، عذاب حسي ينصب على الأجساد، وعذاب معنوي ينصب على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٧- إثبات المعاد، وبعث الله للخلائق جميعًا يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٨- إخبار الله- عز وجل- الكافرين، يوم القيامة بأعمالهم ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

٩- إحصاء الله- عز وجل- لجميع أعمال العباد وضبطه لها وإن نسوها؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

١٠- إثبات شهادة الله- عز وجل- واطلاعه على كل شيء، مما يوجب مراقبته- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

١١- إثبات علم الله- عز وجل- الواسع وإحاطته بما في السموات وما في الأرض، وبمناجاة الخلائق، وأنه عز وجل مع الخلق كلهم معية عامة بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره أينما كانوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾.

١٢- إثبات القيامة، وإخبار الخلائق بأعمالهم ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها، والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٣- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل، وشمول علمه لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

رُويَ عن مجاهد[١] وغيره أن هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ نزلت في اليهود نُهوا عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إليها.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- «أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سام عليك فنزلت» يعني الآية[٢].

وقال الواحدي:[٣] «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين؛ وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك، حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقرير، أي: قد رأيت، وفيه معنى التعجب. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٦٩- ٤٧٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣.

(٣) في «أسباب النزول» ص٢٧٥.

والمعنى: ألم تشاهد وتنظر إلى الذين نهوا عن النجوى، أي: إلى الذين نهاهم الله ورسوله عن النجوى، وتعلم حالهم، من اليهود والمنافقين وغيرهم.

وقال: «نهوا» ولم يقل: «نهاهم الله، أو نهاهم الله ورسوله»؛ لتعظيم هذا النهي فكأن كلًا نهاهم عن ذلك.

و«النجوى» هي المسارَّة بين اثنين فأكثر، وهي مصدر بمنزلة المناجاة، قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩].

وقال ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث»(١).

أي: لا يتسار اثنان دون الثالث.

وتطلق النجوى على جماعة المتناجين، فتكون مصدرا بمعنى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: وإذ هم جماعة نجوى، أو متناجون.

وكقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: ما يكون من متناجين ثلاثة إلا وهو رابعهم.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، أي: ثم يعودون ويرجعون للذي نهوا عنه وهو النجوى.

﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾ الواو: عاطفة قرأ حمزة: «ويَنْتَجُون» بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم من غير ألف.

وقرأ الباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعدهما ألف وفتح الجيم: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾.

أي: ويتحدثون إما سرًا فيما بينهم، وإما جهرًا، حسب الأحوال والمناسبات والظروف.

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾، أي: بالذنب، وما يوجب تأثمهم بأنفسهم.

---

(١) سيأتي تخريجه.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، أي: والعدوان على الآخرين والإضرار بهم والتعدي عليهم.

﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه.

و«ال» في ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

ومعصية الرسول ﷺ من الإثم والعدوان، كما أن الإثم والعدوان من معصية الرسول ﷺ.

وفي هذا التفصيل بيان أنهم أضروا بأنفسهم حيث أوقعوها في الإثم، وأضروا بالآخرين واعتدوا عليهم، وعصوا الرسول ﷺ وخالفوا أمره في ذلك كله، ولم ينتهوا عما نهوا عنه بل أصروا على ذلك.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها- قالت: دخل على رسول الله ﷺ- يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة: وعليكم السام. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا تريني قلت: وعليكم»؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾. وفي رواية أنها قالت: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٣٥، وفي الأدب ٦٠٢٤، ومسلم في السلام- النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ٢١٦٥، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، وابن ماجه في الأدب ٣٦٩٨، وأحمد ٦/ ٣٧، ٢٢٩، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٥.

يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾»(١).

أي: وإذا جاءك- يا محمدُ- اليهودُ، أو هم والمنافقون، حيوك وسلموا عليك بالذي لم يحيِّك به الله.

فهم عليهم غضب الله إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ حيّوه بما لم يحيه به الله. فبدل أن يحيوه بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يحيونه بقولهم: السام عليك، أو السام عليكم. ويقصدون بالسام الموت، فهم يدعون عليه ﷺ بالموت. بدل أن يدعوا له بالبقاء والسلامة الذي هو المعنى الحقيقي للتحية في الإسلام.

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾، أي: معتقدين هذا القول في قلوبهم، وداخل أنفسهم.

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، «لولا» حرف تحضيض، والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي نقول، أو بقولنا

أي: لو كان هذا نبيًا حقًّا؛ لعذبنا الله، أي: لعاجلنا الله بالعذاب والعقوبة في الدنيا ﴿بِمَا نَقُولُ﴾، أي: بسبب الذي نقوله له من التحية بما لم يحيه به الله، بقولنا: السام عليك، بدل السلام عليكم؛ لأن الله يعلم ما نسره، فرد الله عليهم بقوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وفي فحوى هذا الرد من الله عز وجل عليهم إرغام أنوفهم من جهتين:

الأولى: الإشارة إلى حقيقة نبوته ﷺ؛ لأن الله- عز وجل- تولى الدفاع عنه.

والثانية: الوعيد والتهديد لهم، وأن الله يمهل ولا يهمل، فالعذاب ينتظرهم يوم القيامة، وهو أكبر وأشد وأبقى من عذاب الدنيا.

ومعنى ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفيهم جهنم، فهي مردهم ومآلهم وفيها أعظم العذاب

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٠. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «إسناده جيد» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٩: «إسناد حسن ولم يخرجوه».

لهم وأشده.

و«جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يغمرون فيها ويقاسون حرها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، «بئس» بمعنى: ساء وقبح، و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع والمآل والمنقلب.

والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فبئس المصير النار.

والمعنى: تكفيهم جهنم عذابًا يدخلون فيها، ويغمرون في دركاتها ويقاسون حرها، فبئس المرجع والمآل النار.

ثم حذر الله- عز وجل- المؤمنين ونهاهم عن مسلك اليهود والمنافقين ومن شابههم فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام عنه، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(١).

﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾، أي: إذا حصل بينكم مناجاة أو أردتم التناجي بينكم سرًا، أو جهرًا.

﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ﴾، أي: فلا تتناجوا بالإثم وهو الذنب الذي يؤثمكم بأنفسكم.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ على غيركم.

﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه.

---

(١) سبق تخريجه.

قال ابن كثير[١]: «كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب، ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين».

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾، أي: وتحدثوا فيما بينكم سواء كان ذلك سرًا أو جهرًا بالبر والتقوى.

و «البر»: كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «**البر حُسن الخلق**»[٢]، «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب»[٣].

والتقوى أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

والمراد بالبر في هذه الآية فعل ما أمر الله به من الواجبات والمستحبات من أنواع الطاعات، والمراد بالتقوى: ترك واجتناب ما نهى الله عنه من أنواع المعاصي.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «البر ما أُمرتَ به، والتقوى: ما نُهيتَ عنه»[٤].

وذلك لأن البر والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، كالإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، ونحو ذلك.

فإذا جاءت كلمة «البر» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩- من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان»٨/ ٥٢- ٥٣. وانظر «جامع العلوم والحكم» صـ ٣٠٦.

وكذلك إذا جاءت كلمة «التقوى» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ٨].

ويؤيد التداخل بين البر والتقوى قول الله عز وجل في سورة البقرة ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [الآية: ١٨٩].

فنهى الله- عز وجل- المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وحرم ذلك عليهم، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: واتقوا الله في جميع أموركم من المناجاة وغيرها بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، أي: الذي إليه حشركم وجمعكم، فيحاسبكم على أعمالكم وأقوالكم ويجازيكم عليها.

وفي الأمر بتقوى الله- عز وجل- مع قرن ذلك بتذكير العباد بأنهم إليه يحشرون ما يوجب المسارعة إلى تقوى الله- عز وجل- حيث إليه المرد والمحشر والمصير، وإليه مآل جميع الخلائق، وعليه حسابهم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾

نهى الله عز وجل في الآية السابقة المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، ثم بين عز وجل أن النجوى المنهي عنها من الشيطان؛ ليحزن الذين آمنوا، وبيَّن أن ذلك ليس بضارهم شيئًا إلا بإذن الله عز وجل، وأمرهم بالتوكل عليه سبحانه.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، والمراد بـ«النجوى»: المسارة.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: من عمله وتسويله ووساوسه وهمزاته وتزيينه ذلك للمتناجين من المنافقين واليهود وغيرهم.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يحزن الذين آمنوا، أو لكي يحزن الذين آمنوا، أي: يصيبهم بالحزن ويسوءهم حيث يتوهم من يرى المتناجين أنهم يقصدونه بسوء، ففيها أذية للآخرين لحزنهم بذلك، وحملهم على سوء الظن بالمتناجين، ووضع المتناجين أنفسهم موضع الريبة والاتهام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه**» وفي رواية «**دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه**»(١).

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾، أي: وليس بضارهم التناجي شيئًا.

و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: وليس بضارهم أيَّ شيء، أيًّا كان، ومهما قلَّ.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، «إلا» أداة استثناء.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان ٦٢٨٨، ومسلم في السلام ٢١٨٣، وأبو داود في الأدب ٤٨٥١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧٦

أي: وليس بضارهم التناجي بين المنافقين وغيرهم ﴿شَيْـًٔا﴾ مهما كان إلا بإذن الله- عز وجل- وتقديره الكوني، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وهذا مما يقوي قلب المؤمن وثقته بربه- عز وجل-، ولهذا قال بعده:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والتوكل على الله: هو صدق الاعتماد على الله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر- مع تمام الثقة بالله، وسكون القلب إليه وحده دون غيره.

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لبيان أن التوكل والاعتماد يجب أن يكون على الله وحده دون سواه.

فتأمل أخي الكريم سمو مبادئ الإسلام ورفعتها واحذر من مسلك النجوى والمسارة في الكلام أمام الآخرين، واعلم أنه من عمل الشيطان لما يسببه ذلك من إدخال الحزن في قلوبهم، ووقوعهم في إساءة الظن فيك، ووضعك نفسك موضع الشك والريبة والاتهام، وفي الأثر «رحم الله امرأً كف الغيبة عن نفسه»، أي: فلم يضعها موضع الاتهام.

فما أحلى وأحرى أن يبتعد المرء عن كل ما من شأنه أن يجعله موضع الريبة والشك، وهذا من حق نفسه وواجبها عليه، قال المتنبي(١):

يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

وإن رأيت أخي الكريم من يسلك هذا المسلك فذكره بأن هذا من عمل الشيطان، ولا يحزنك ذلك في نفسك، واعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك، وفوِّض أمرك إلى الله واعتمد عليه يكفك من كل سوء.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٦٠.

الفوائد والأحكام:

١- النهي عن النجوى والمسارة بين اثنين أو بين فريقين دون الثالث مما يجعل الثالث يسيء الظن بالمتناجين، ويظن أنه المقصود بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

٢- التعجب من حال الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون إليها من اليهود والمنافقين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

٣- تناجي اليهود والمنافقين وغيرهم من الكفار بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ؛ كيدًا منهم للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

٤- مخادعة المنافقين واليهود- لعنهم الله- للرسول ﷺ وتحيتهم له بما لم يحيه به الله، بل بالدعاء عليه بالموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

٥- انخداع اليهود- المغضوب عليهم والمنافقين- بعدم معاجلتهم بالعقوبة بسبب تحيتهم للرسول ﷺ بالدعاء عليه في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾.

٦- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه ﷺ، والوعيد الشديد لليهود والمنافقين بأن في جهنم كفاية لهم في العذاب وبئس المصير لهم، وأن الله عز وجل يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٧- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٨- نداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تكريمًا وتشريفًا لهم، وحضًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٩- نهي المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١٠- وجوب تقوى الله- عز وجل- والحذر من التشبه باليهود والمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١١- إثبات المعاد وحشر العباد إلى الله والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

١٢- التحذير من النجوى وأنها من عمل الشيطان وتزيينه؛ لأجل أن يحزن الذين آمنوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٣- ينبغي للمؤمنين عدم الاكتراث بالمتناجين من المنافقين واليهود وغيرهم، فإنه لن يصيبهم إلا ما أذن الله به كونا وقدره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- وجوب الاعتماد على الله والثقة به والتوكل عليه، وأن ذلك من شرط الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

رُوي عن قتادة وابن زيد ومقاتل وغيرهم أن الصحابة رضي الله عنهم- إذا كانوا عند رسول الله ﷺ ضنوا بمجالسهم عنده ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض(١).

قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، «قيل» فعل الشرط.

﴿تَفَسَّحُواْ﴾، أي: توسعوا.

﴿فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ قرأ عاصم: ﴿فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ على الجمع، وقرأ الباقون: «في المجلس» على الإفراد.

﴿فَٱفْسَحُواْ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء لأنه جملة طلبية ، أي: فتوسعوا.

والمعنى: إذا قيل لكم توسعوا في المجالس فتوسعوا فيها ليجد القادم مكانًا للجلوس، وهو شامل لمجلس الرسول ﷺ وغيره من مجالس العلم والقتال وغيرها.

وهو أدب رفيع من آداب الإسلام، يؤلف بين القلوب، ويجلب المحبة، ويحقق معنى الأخوة.

ولك أن تتصور مدى غبطة من فسح له إخوانه للجلوس بينهم ومدى محبته لهم يود أن يفتح لهم صدره.

وفي المقابل لك أن تتصور من جاء ليجلس فقوبل بالأنانية وحب الذات ولم يفسح له، ما مدى كراهته لهم.

---

(١) أخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٧٧- ٤٧٨، وأخرجه عن مقاتل ابن أبي حاتم مطولًا في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣- ٣٣٤٤.

وفي قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ بهذه الصيغة دلالة على أنه ينبغي امتثال ما جاء في الآية من الأمر بالتفسح أيًا كان القائل، فلا يلزم أن يكون القائل ذا مكانة، بل يجب التفسح لكل من طلب ذلك، ولكل من يريد الجلوس، ما أمكن ذلك.

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: يوسع الله لكم، وهذا يدل على أن الجزاء من جنس العمل، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ولم يقل: «يفسح الله لكم في المجالس» ليشمل هذا الوعد من الله- عز وجل- الفسحة والتوسعة في كل شيء من أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأولادهم وأهليهم وأرزاقهم وأموالهم وصدورهم، وفي منازلهم في الجنة؛ وفي كل شيء، فلله الفضل والمنة- يعطي الجزيل على القليل.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: افسحوا»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في السلام- تحريم إقامة المسلم من موضعه المباح الذي سبق إليه ٢١٧٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٣٨، ٤٣٨، ٥٢٣.

(٣) أخرجه الشافعي في «الأم» ١/ ١٨١،، وفي مسنده انظر: مسند الشافعي على الأم ٦/ ١٠٣.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٥، والترمذي في الأدب ٢٧٥٢.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم بضم الشين في الموضعين. وقرأ الباقون بكسرها.

والنشوز في اللغة: الارتفاع، ومنه يقال للأرض المرتفعة: نشز، ونشاز، ومنه يقال للمرأة المرتفعة على زوجها المتعالية عليه: «ناشز» وكذلك يقال للرجل إذا تعالى وارتفع على زوجته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨].

والمعنى: وإذا قيل ارتفعوا وانهضوا من مجالسكم فارتفعوا وانهضوا منها سواء كان النهوض لقتال عدو، أو لصلاة، أو لأي عمل خيري، أو لانتهاء المجلس، أو ليجلس من جاءت نوبته في المجلس إذ قد يكون المجلس صغيرًا، والمصلحة تستدعي جلوس القادمين ونهوض الجالسين وارتفاعهم فيكون الجلوس فيه بالتناوب ليحصل كل على نوبته ويأخذ حاجته، بل إن هذا التناوب ينبغي أن يكون في المسجد إذا كان صغيرًا لا يتسع أن يصلي فيه الناس جماعة واحدة، بحيث يصلي فيه جماعة، ثم يخرجون ثم يصلي من بعدهم وهكذا.

وليس معنى ذلك أن يقام الإنسان من مجلسه ويجلس فيه، فهذا لا يجوز قال ﷺ: «لا يقيمن الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»(١). بل قال ﷺ: «إذا قام أحدكم من المجلس ثم رجع إليه فهو أحق به»(٢).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه(٣).

قال ابن كثير(٤): «وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ- كان يجلس حيث انتهى به المجلس. ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة-

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في السلام- إذا قام من مجلسه ثم عاد ٢١٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٣.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٧٢- ٧٣.

رضي الله عنهم- يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه- غالبًا- عثمان وعلي، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك.

كما في حديث أبي مسعود- رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم- ثلاثًا، وإياكم وهيشات الأسواق»(١).

وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله- صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة».

أما القيام للقادم فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من أجازه محتجًا بقوله ﷺ للمسلمين لما أقبل سعد بن معاذ- رضي الله عنه في قصة حكمه في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم»(٢).

ومن أهل العلم من قال لا يجوز ذلك لقوله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»(٣).

ومن أهل العلم من فصَّل في ذلك فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ- رضي الله عنه- فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكمًا في بني قريظة، فرآه مقبلًا أمر المسلمين بالقيام له، ليكون أنفذ لحكمه- والله أعلم.

قالوا: وأما اتخاذ ذلك ديدنًا فإنه من شعار العجم.

وقد جاء في السنن: «أنه لم يكن شخص أحب إليهم- يعني الصحابة- رضي الله

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- تسوية الصفوف وإقامتها ٤٣٢، وأبو داود في الصلاة ٦٧٤، والترمذي في الصلاة ٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٢٢٩، والترمذي في الأدب ٢٧٥٥- من حديث معاوية رضي الله عنه.

عنهم- من رسول الله ﷺ- وكانوا إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهيته لذلك»(١).

ويظهر- والله أعلم- أن المنع من ذلك إذا اتخذ ذلك عادة على سبيل التعظيم.

أما إذا كان القيام لأجل الترحيب بالقادم والسلام عليه ومصافحته ومعانقته، فلا إشكال في هذا؛ لأن هذا مما يدخل المحبة والسرور والألفة بين المسلمين، وهذا أمر مطلوب شرعًا، إذ لا يجوز البرود والتبلد حينما يلتقي المسلمون بعضهم ببعض، بل ينبغي إشعار كل منهما الآخر بحرارة اللقاء وبخالص الود والمحبة، وقطع الطريق أمام منافذ الشيطان الذي يسعى جاهدًا لبث أسباب الفرقة والجفاء بين المسلمين، ولهذا شرع الإسلام السلام تحية الإسلام، وشرع المصافحة، وأمر بالهدية، والإحسان ونحو ذلك كل ذلك لترسيخ مبادئ الأخوة الإيمانية بين المسلمين.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾. كسرت العين من الفعل «يرفع» لالتقاء الساكنين.

أي: يرفع الله ويعلي مكانة الذين آمنوا منكم وأهل العلم درجات، أي: منازل ومراتب حسب قوة إيمانهم، وحسب علمهم وعملهم بما علموا.

والمناسبة واضحة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفسح في المجالس والارتفاع منها وآداب المجالس من وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يقول أحدهم للآخر: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

وهي رياض الجنة، كما قال ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلق الذِّكْر**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٥٤- من حديث أنس- رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وقال ﷺ: «ما جلس قوم قط في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا أنزل الله عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»(١).

ومر ثلاثة نفر بمجلس النبي ﷺ فوجد أحدهم فرجة فجلس، وجلس أحدهم خلف المجلس، وأعرض الثالث: فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخبر النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»(٢).

الوجه الثاني- من أوجه المناسبة بين أول الآية وآخرها-: أن التأدب بآداب المجالس من التفسح والارتفاع عند الحاجة، وغير ذلك إنما هو من صفات أهل الإيمان والعلم الذين وفقهم الله للعلم النافع والعمل الصالح، والذين يعلمون فضل هذه الآداب، وأنهم يؤجرون عليها.

الوجه الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانتهم بحيث تطيب أنفس الجالسين بالتفسح لهم وتقديمهم لإيمانهم وعلمهم وقد قال ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»(٣).

لكن لا ينبغي أن يقام من سبق من مجلسه ليجلس فيه غيره.

قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، أي: يرفع الله الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم، وانقادوا بجوارحهم ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، وأبو داود وفي الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٦٦، ومسلم في السلام ٢١٧٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧٢٤- من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٢- من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمعنى: أن الله عز وجل يعلي منازلهم، ويرفع قدرهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنة، فهم أكرم الناس وأعزهم عند الله عز وجل- وعند خلقه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ دلالة على أن المؤمن في حاجة دائمًا وفي كل حال إلى الإيمان؛ توفيقًا من الله له، وزيادة منه، وثباتًا عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وكما في قول المؤمنين المصلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: ويرفع الله الذين جمعوا بين الإيمان والعلم، فيعلي منازلهم، ويرفع قدرهم، ويعلي شأنهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنات.

﴿دَرَجَٰتٍ﴾، أي: منازل ومراتب، ونكرت للتعظيم والتفخيم، أي: منازل ومراتب عظيمة لا يقدر قدرها ولا يعلمها إلا الله عز وجل الذي منحها لهم.

قال ابن القيم(١): «واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٠.

العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجبًا».

عن ابن عباس رضي الله عنهما- أنه قال: «تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات»(١).

فيرفع الله عز وجل الذين آمنوا منازل ومراتب عالية، ويرفع الذين جمعوا بين الإيمان والعلم منازل ومراتب أعلى من ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ﷺ: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله له به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٢).

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال: وما ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.

(٢) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ٨١٧، وابن ماجه في المقدمة ٢١٨، وأحمد =

وعن مطرف بن عبد الله قال: «إنك لتلقى الرجلين: أحدهما أكثر صومًا وصلاة وصدقة، والآخر أفضل منه بونًا بعيدًا. قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: هو أشدهما ورعًا لله عن محارمه»(١).

قال علي رضي الله عنه(٢):

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهُمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلًا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الآخر:

العلم مبلغُ قومٍ ذروة الشرف ... وصاحب العلم محفوظ من التلف
يا صاحب العلم مهلًا لا تدنسه ... بالموبقات فما للعلم من خلف
العلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف(٣)

وقال الشافعي(٤) رحمه الله:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لاعلم عنده ... صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالمًا ... كبير إذا ردت إليه المحافل

وقال الشافعي أيضًا(٥):

=
١/ ٣٥.

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٤٠.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٧.

(٣) الأبيات تنسب للطغرائي. انظر: «جواهر الأدب» ٢/ ٤٤٩، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣٤.

(٤) انظر «ديوانه» ص٩٩.

(٥) انظر «ديوانه» ص١٠٥.

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يُعظِّم أمره القوم الكرام
ويتَّبعونه في كل حال ... كراعي الضأن تتبعه السَّوام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عرف الحلال ولا الحرام

وقال أيضًا(١):

اصبر على مر الجفا من معلم ... فإن رسوخ العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة ... تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبر عليه أربعًا لو فاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

قال ابن تيمية(٢) في كلامه على قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾: «خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد الله بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم: «بالعلم».

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم،

---

(١) انظر «ديوانه» ص٣٨. وفيه: «فإن رسوب العلم»، وهي بمعنى: «ثبوت العلم»، والأقرب أنها: «رسوخ العلم»، فهذا أظهر.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ٥- ٧.

وأرفع قدرًا في قلوب الأمة، فهذا كرز بن وبرة، وكهمس، وابن طارق، يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع، وكذلك ترى كثيرًا ممن يلبس الصوف ويهجر الشهوات، ويتقشف، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب، وأحلى عند النفوس.. وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال- مترقيًا في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف- هذا في باب معرفة الأسماء والصفات.

وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكير في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه، ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل بـ «أأنذرتهم» وضم الميم من «عليهم» ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات

المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق، حتى يجعل القرآن تبعًا لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره، وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات، وما يجب لله وينزه عنه، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة، وهؤلاء أغلظ الناس حجابًا عن فهم كتاب الله تعالى».

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: والله- عز وجل- بعملكم، أو بالذي تعملونه ذو خبرة تامة واطلاع وعلم، لا تخفى عليه خافية وسيجازي كلًا بعمله.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان لتكريمهم وتشريفهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- الحث على التفسح والتوسع في المجالس، ويتأكد أو يجب إذا طلب ذلك من الجالسين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، فمن تفسحوا وتوسعوا ليجلس إخوانهم القادمون فسح الله لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأرزاقهم وصدروهم ومنازلهم في الجنة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

٤- الحث على الارتفاع والقيام من المجالس إذا طلب ذلك، ويتأكد ذلك أو يجب حسب الحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

٥- سمو آداب الإسلام وحرصه على ما يؤلف القلوب ويحفظها من الضغائن والأنانية.

٦- علو منازل المؤمنين وأهل العلم، ورفعة درجاتهم وقدرهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

٧- فضل العلم وعظم مكانة أهله، وعلو مراتبهم وقدرهم على غيرهم في الدنيا والآخرة.

٨- إثبات سعة خبرة الله تعالى واطلاعه وعلمه بأعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وفي هذا وعد للمحسنين ووعيد للمسيئين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

توقيرًا واحترامًا وتعظيمًا للرسول ﷺ وتخفيفا عليه، وحفاظًا على وقته وتوفيرًا له الذي هو للأمة كلها أمر الله عز وجل بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾: «وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: إذا أراد أحدكم أن يناجي الرسول ﷺ، أي: يسارَّه فيما بينه وبينه.

﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾، أي: فادفعوا أمام وقبيل نجواكم صدقة تتصدقون بها على المساكين والفقراء، فمعنى بين يدي الشيء: أمامه وقُبيله وقدامه.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ الإشارة للمصدر المأخوذ من قوله: ﴿فَقَدِّمُواْ﴾، أي: تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ من عدمه.

ومعنى ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾، أي: أن فيه الخير لكم في الدنيا والآخرة، والطهارة والتزكية لقلوبكم وأعمالكم من الإثم، ومن ذلك أن تكون المناجاة عند الحاجة.

قال ابن كثير(٢): «أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام».

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٧٥.

عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ قال لي النبي ﷺ: «ما ترى؟ دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «نصف دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «ما ترى»؟ قلت: شعيرة. فقال النبي ﷺ: «إنك زهيد» قال علي: فبي خفف عن هذه الأمة»(١).

قال الترمذي: «قوله: شعيرة» يعني وزن شعيرة من ذهب».

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾، أي: فإن لم تجدوا ما تتصدقون به وعجزتم عن ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة: رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ رحمة عامة، ورحمة خاصة.

والمعنى: فإن الله غفور رحيم لمن لم يجد الصدقة فيغفر له ويتجاوز عنه برحمته بحيث يجوز له مناجاة الرسول بدون الصدقة؛ لأن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾، الهمزة للاستفهام التقريري، أي: أخفتم وخشيتم الفاقة والفقر من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة، وثقل عليكم ذلك، وخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ.

﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ الفاء: استئنافية، أي: فإذ لم تفعلوا ما أمركم الله به من تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ- وامتنعتم من المناجاة خوف الصدقة، أو ناجيتموه ولم تقدموا الصدقة.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المجادلة ٣٣٠٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢- ٤٨٤-، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٤، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص ٤٧٨. وقال الترمذي: «حسن غريب».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه- عليه السلام- فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فوسع الله عليهم»(١).

وعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «آية في كتاب الله- عز وجل- لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ الآية»(٢).

وعن مجاهد قال: «نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي ابن أبي طالب، قدم دينارًا صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ، فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة»(٣).

وعن سلمة بن كُهيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ قال: «أول من عمل بها علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ثم نسخت»(٤).

﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة من الله- عز وجل- على عباده معناها: توفيقهم للتوبة، وقبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] وقال تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٣.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢- ٤٨٣.

(٤) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٣.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومعنى قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: وتاب الله عليكم في عدم تقديمكم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ- وإشفاقكم من ذلك فتاب عليكم وعفا عنكم ونسخ ذلك ورفعه عنكم.

فنسخ الله عز وجل وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لمّا أشفقوا منها، ولم يفعلوها برفع وجوب ذلك، فأباح لهم مناجاته ﷺ بدون تقديم الصدقة توبة من الله عز وجل- عليهم.

وتعد هذه الواقعة من أوضح وقائع النسخ في القرآن الكريم وأصحها.والنسخ فيها إلى غير بدل.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فأقيموا الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لتكون صلاة تامة كاملة، وهذا هو السر في التعبير بالأمر بإقامة الصلاة، دون أن يقول: «صلوا».

والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختمة بالتسليم، والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس وغيرها من النوافل.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وأعطوا الزكاة وادفعوها لمستحقيها.

وقدم الصلاة؛ لأنها عمود الإسلام وأعظم العبادات البدنية بعد الشهادتين، وعطف عليها الزكاة؛ لأنها أعظم العبادات المالية، وهما القرينتان في القرآن الكريم في نحو اثنين وثمانين موضعًا، فخصهما بالذكر؛ لعظم مكانتهما في الإسلام.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فأمر أولًا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم عطف عليهما بالأمر بطاعة الله ورسوله؛ وذلك لبيان عظم منزلة الصلاة والزكاة، وهما من طاعة الله ورسوله.

والطاعة: فعل المأمور واجتناب المحظور، أي: أطيعوا الله ورسوله في فعل ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل- بالواو التي تقتضي التشريك، لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، كما قال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله بعد توبة الله عليهم في إحجامهم عن تقديم الصدقة بين يدي المناجاة: إشعار بوجوب الإكثار من العمل الصالح بعد التوبة عليهم شكرًا لله على هذا التخفيف، وأن المطلوب من العبد الاستمرار على طاعة الله عز وجل حتى يلقى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: ذو الخبرة الواسعة والاطلاع والعلم.

و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بالذي تعملون، أو بعملكم، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله، ووعيد لمن خالف ذلك؛ لأن مقتضى خبرته عز وجل أن يحاسب الخلائق، ويجازي كلًا بعمله.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وتشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف به، وعلى امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- إيجاب تقديم الصدقة قبيل مناجاة الرسول ﷺ ومسارته، تخفيفًا عليه ﷺ وحفاظًا على وقته ومشاغله في الدعوة وفي الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

نَجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾.

وهكذا ينبغي تقدير أوقات ذوي المسؤوليات الكبيرة في الأمة.

٣- في إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ خير للمؤمنين وتزكية لقلوبهم وأعمالهم بحيث تكون مناجاتهم عند الحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

٤- أن إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ على الواجد أما من لم يجد فلا شيء عليه ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥- إثبات صفة المغفرة وصفة الرحمة الواسعتين، لله عز وجل؛ ولهذا رحم وغفر لمن لم يجد الصدقة وأباح له مناجاة الرسول ﷺ بدونها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦- إشفاق المؤمنين وخشيتهم من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة وثقلها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

٧- توبة الله- عز وجل- على المؤمنين ومغفرته ورحمته لهم ونسخ وجوب تقديم الصدقة عليهم بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، لما شق عليهم ذلك، ولم يناجوه خشية تقديم الصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾.

٨- وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله؛ ففي ذلك تكفير السيئات، ورفعة الدرجات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٩- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين الطاعات لهذا خصهما بالذكر.

١٠- إثبات سعة خبرته عز وجل واطلاعه، وعلمه الواسع، وإحاطته بأعمال العباد، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه» فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان»؟ نفر دعاهم بأسمائهم- قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وفي رواية له: «فنزلت هذه الآية التي في المجادلة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

هذه الآيات في فضح المنافقين والإنكار عليهم في موالاتهم اليهود والمشركين في الباطن، وهم في حقيقة الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين.

قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ يعني المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٦٧، ٢٤٠، ٣٥٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٩ والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٧، والحاكم ٢/ ٤٨٢- وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقال ابن كثير في «تفسيره»٨/ ٧٨: «إسناد جيد ولم يخرجوه».

﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهود، فهم المغضوب عليهم، كما قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ومعنى: ﴿تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، أي: جعلوهم أولياء يوالونهم ويمالئونهم في الباطن.

قال الطبري(١): «ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى القوم الذين تولوا قومًا غضب الله عليهم، وهم المنافقون، تولوا اليهود وناصحوهم».

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾، أي: أن هؤلاء المنافقين في الحقيقة ليسوا منكم أيها المؤمنون.

﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾، أي: ولا من اليهود والمشركين، بل كانوا- كما قال الله عنهم-: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَيَحْلِفُونَ﴾، أي: ويحلف هؤلاء المنافقون، ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾، أي: كذبًا، وعلى أمور كاذبة.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٧.

قال ابن كثير(١): «يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولاسيما في مثل حالهم اللعين، عياذًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقًا، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك».

وهذا ديدن المنافقين الحلف وهم كاذبون، كما قال عز وجل في سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أي: هيأ وجهز وأرصد لهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أي: عذابًا شديدًا من حيث كيفه وكمه ونوعه؛ حسيًّا ومعنويًّا، لا يعلم مدى شدته إلا من وصفه بهذا، وهو الله عز وجل شديد العقاب، وذلك بسبب نفاقهم وموالاتهم للكافرين.

عذابًا عاجلًا في الدنيا من القلق والحيرة والتذبذب والشقاء النفسي، كما قال عز

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٧.

وجل: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فهم دائمًا في خوف وقلق بسبب نفاقهم وكونهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، مع ما يصيبهم من المصائب في الأنفس والأموال وغير ذلك.

وأعد لهم عذابا شديدًا في الآخرة في النار فهم أشد أهل النار عذابًا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، و«ساء» بمعنى قبح، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: ساء عملهم، أو ساء الذي كانوا يعملون.

والمعنى: أن الله عز وجل- أعد لهم عذابًا شديدًا؛ لسوء أعمالهم وقبحها، أو بسبب سوء أعمالهم وقبحها؛ من النفاق وموالاة اليهود والمشركين، ومعاداتهم المؤمنين وغشهم لهم، فليس هناك عمل وضيع أسوأ من عمل المنافقين وصنيعهم. عياذًا بالله من ذلك.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا كقوله في سورة المنافقين: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ٢].

أي: جعلوا حلفهم وقاية وسترًا لأنفسهم وأموالهم وذراريهم،فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا الأيمان المغلظة الكاذبة أنهم مع المؤمنين، وكلما افتضح شيء من أمرهم اتقوا بالأيمان الكاذبة.

كما قال عز وجل عنهم: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: أعرضوا عن سبيل الله وطريقه وهو الإيمان بالله ظاهرًا وباطنًا، واكتفوا بدعوى الإيمان ظاهرًا، وتوكيد ذلك بالأيمان الكاذبة.

وصدوا غيرهم عن سبيل الله حيث اغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم، فصدقهم وقلدهم واطمأن إليهم فصدوه عن الحق.

﴿فَلَهُمْ﴾، أي: فلهم بسبب جعلهم الأيمان الكاذبة وقاية لهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم.

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: يهينهم ويذلهم، فهو عذاب شديد للأجسام، وعذاب مهين للقلوب، بالذل والهوان والتبكيت والتوبيخ، كما قال عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى مخاطبًا أهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فالعذابان الحسي والمعنوي متلازمان، والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾، أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولو كثرت فيفتدوا بها، ولا أولادهم وإن كثروا لينتصروا بهم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: من عذاب الله- عز وجل- وعقابه شيئًا إذا نزل بهم.

و«شيئًا» نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله أيَّ شيء مهما قل أو صغر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك المنافقون الذين يتولون اليهود ويحلفون الأيمان الكاذبة ويصدون بها عن سبيل الله. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم ولمصيرهم.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، أي: أهل النار وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: هم في النار مقيمون فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، ولهذا أكد خلودهم فيها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وذلك لكفرهم، ولأن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها وأهلها، كما دل الكتاب والسنة على ذلك.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، «يوم» ظرف زمان بمعنى «حين» متعلق بفعل مقدر، أي: اذكر يوم، أي: يوم القيامة حين يبعثهم الله جميعًا، أي: يخرجهم من قبورهم جميعًا، بعد أن يعيد الحياة فيهم، ويحشرهم جميعًا في موقف الحساب.

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾، أي: فيحلفون ويقسمون له أنهم على الحق والإيمان والاستقامة.

﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، أي: كما كانوا في الدنيا يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم معكم، وتُجْرون عليهم الأحكام الظاهرة.

فحيث اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم في الدنيا ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم صار هذا سجية لهم وديدنا وعادة حتى بعد بعثهم بعد الموت أمام من لا تخفى عليه خافية.

قال ابن كثير[1]: «لأن من عاش على شيء مات وبعث عليه».

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، أي: يظنون أنهم بهذا الحلف له عز وجل على شيء من الأمر، وأن هذا الحلف سينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، كما كانوا في الدنيا يتخذون الأيمان وقاية لهم، ولا شك أن هذا من عمى البصائر، وإلا فكيف يحلفون للخالق سبحانه العليم بذات الصدور، الذي يعلم السر وأخفى، وهم كاذبون ويظنون أن ذلك ينفعهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، «ألا» أداة تنبيه، أي: ألا إنهم هم الكاذبون في حسبانهم وظنهم أنهم على شيء، وهم الكاذبون في أيمانهم.

وقد أكد كذبهم في حسبانهم وأيمانهم بعدة مؤكدات وهي: «ألا» التي هي للتنبيه و«إنّ»، وضمير الفصل «هم»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين

أي: ألا إنهم هم الكاذبون، أي: الذين بلغوا الغاية في الكذب.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٨.

وحال هؤلاء، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استحوذ: غلب وسيطر واستولى على قلوبهم وأعمالهم.

والشيطان: إبليس لعنه الله وجنوده، مشتق من «شطن» بمعنى بعد عن رحمة الله وعن كل خير. وكل متمرد عات خارج عن طاعة الله تعالى فهو شيطان، من الجن والإنس والحيوان قال تعالى: ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ «الكلب الأسود شيطان»(١).

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾، أي: جعلهم بسبب استحواذه عليهم ينسون ذكر لله- عز وجل- الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة من الإيمان بالله عز وجل- حقًا إخلاصًا له عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام، وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ودعاء الله إلى غير ذلك.

عن أبي الدرداء- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»(٢).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: أنصاره وأتباعه وجنده وأعوانه على الشر.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، «ألا» أداة تنبيه، و«الخاسرون» جمع خاسر،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٥١٠، وأبو داود في الصلاة ٧٠٢، والنسائي في القبلة ٧٥٠، والترمذي في الصلاة ٣٣٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٥٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- التشديد في ترك الجماعة ٥٤٧، والنسائي في الإمامة ٨٤٧.

والخسر، والخسران: ضياع رأس المال مع الربح.

وقد أكد عز وجل خسرانهم في هذه الجملة بعدة مؤكدات وهي «ألا» التي للتنبيه، و«إنّ»، وضمير الفصل «هم»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

أي: المغبونون في صفقتهم، الذين بلغوا الغاية في الخسران، فخسروا أغلى ما لديهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، خسروا الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المنافقين والتعجيب منهم في موالاتهم اليهود المغضوب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

٢- ذم اليهود بغضب الله عليهم.

٣- تذبذب المنافقين فليسوا من المؤمنين ولا من اليهود، وحلفهم على الكذب وهم يعلمون كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٤- اتخاذ المنافقين أيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥- الوعيد الشديد للمنافقين بالعذاب الشديد، عذابًا حسيًا في الدرك الأسفل من النار وملازمتها والخلود فيها، وعذابًا معنويًا يهينهم ويذلهم لسوء عملهم وشدة كفرهم، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم ولن تدفع عنهم من عذاب الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

٦- بعث الله- عز وجل- الناس جميعًا من قبورهم للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٧- عمى بصائر المنافقين، وأن من مات على شيء بعث عليه، فحيث كانوا في

الدنيا يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية لهم ولأموالهم صار ذلك سجية لهم، ففي عرصات القيامة يحلفون لله، كما كانوا يحلفون في الدنيا ظنًا منهم أن ذلك ينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، وتأكيد كذبهم في حلفهم وحسبانهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

٨- غلبة الشيطان على المنافقين وإنساؤه لهم ذكر الله وكونهم من أنصاره وجنده الخاسرين المغبونين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٩- ذم الشيطان وحزبه، والتحذير منهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال المنافقين في موالاتهم اليهود والمشركين واتخاذهم الأيمان وقاية لهم، وغلبة الشيطان عليهم، وما أعد لهم من العذاب الشديد المهين، وما ينتهون إليه من الخسران المبين، ثم أتبع ذلك بالوعيد بالإذلال لجميع الكافرين المحادين لله ورسوله من المنافقين واليهود والمشركين وغيرهم، وفي هذا توكيد لوعيدهم في أول السورة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي: إن الذين يكونون في حد وجانب وشق مناوئ ومضاد ومخالف لله ورسوله ويشاقون ويعادون الله ورسوله.

قال ابن كثير[1]: «يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك المحادون لله ورسوله ﴿فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾، أي: في عداد المهانين الأشقياء المغلوبين المبعدين، الذين قضي عليهم بالذل والهوان في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في أول السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الآية: ٥].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾، أي: قضى الله- عز وجل- وحكم وكتب في كتابه الأول في الأزل في اللوح المحفوظ،فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول:

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٩.

«أول ما خلق الله القلم فقال اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد»(١).

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ اللام لام القسم، أي: لتكونن الغلبة لي أنا ورسلي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال ﷺ: «وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري»(٢).

قال الحسن: «أبى الله إلا أن تكون الذلة والصغار على من خالف أمره».

قال ابن كثير(٣): «أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع، ولا يبدل، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين... وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة».

وقال ابن القيم(٤): «وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ عقيب قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾- دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالبًا- وذلك- إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة».

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «أن» بفتح الهمزة.

وقرأ الباقون بكسرها، وهذا كالتعليل لما قبله، أي: إن الله كتب الغلبة له ولرسله؛ لأنه القوي العزيز.

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٥٥. وقال «حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، ما قيل في الرماح بلفظ: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري» انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٨. وأخرجه أحمد عن ابن عمر موصولًا ٢/ ٥٠، ٩٢.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٧٩.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١٩.

وقوله: ﴿قَوِيٌّ﴾، أي: ذو القوة التامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

﴿عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة بجميع معانيها، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

فله- عز وجل- العزة بمعانيها الثلاثة: عزة الامتناع فهو- عز وجل- ممتنع عن كل نقص وعيب، ومن ذلك يقال للأرض الصلبة «عزاز» لقوتها وامتناعها ممن أراد حفرها إلا بمشقة.

والثاني: عزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

الثالث: عزة القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

قال ابن القيم(١):

وهو العزيز فلا يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

ويحسن في مثل هذا الموضع أن يحمل العزيز على عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، لذكر اسمه- عز وجل- «القوي» قبله.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

(١) انظر «النونية» ص ١٤٧.

وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل موالاة المنافقين لليهود، وما أعد لهم من العذاب الشديد والمهين والخسران المبين، وأنه عز وجل قضى بالذل والهوان على الذين يحادونه ورسوله، وكتب الغلبة له ولرسله- عليهم الصلاة والسلام- أتبع ذلك ببيان أنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله من اليهود والمشركين وغيرهم، ولا يتصور وجود هذا، لأن الإنسان إما مواد لله ورسوله ومعاد لمن حاد الله ورسوله، وهذا هو المؤمن، وإما مواد لمن حاد الله ورسوله معاد لله رسوله والمؤمنين وهذا هو الكافر والمنافق.

رُوي عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال:«أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر ابن عبد الله بن الجراح حين قَتَل أباه يوم بدر».

وقيل: نزل قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، ونزل قوله: ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في الصديق همَّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمن، ونزل قوله: ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ونزل ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضا، وفي حمزة بن الحارث وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة(١).

قال ابن كثير(٢): «قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» صـ ٢٧٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكنني من فلان- قريب لعمر- فأقتله، وتمكن عليًا من عقيل، وتمكن فلانًا من فلان؛ ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين.. القصة بكمالها».

قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

«لا» نافية والقوم: الجماعة من الناس رجالًا ونساء.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: يصدقون بوجود الله عز وجل وربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته، وينقادون لشرعه ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: ويؤمنون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة وهو آخر مراحل الإنسان الأربع فمرحلة في بطن أمه، ثم مرحلة في الدنيا، ثم مرحلة في البرزخ، ثم مرحلة يوم القيامة.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عز وجل، لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم حافز على العمل، لأن في هذا اليوم يكون الحساب والجزاء على الأعمال وفيه الأهوال العظام.

﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المودة: المحبة، أي: يحبون من حاد الله ورسوله، أي: من عادى الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ورسوله من اليهود والمشركين.

والمعنى: لا يمكن أن يوجد ولا يتصور اجتماع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله، فهذان أمران متناقضان متنافيان، فالجمع بينهما ضرب من المستحيل، كما قال ابن القيم[1] في كلامه على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الآية: ٤]، قال: «فأنت تجد في هذه اللفظة أن القلب ليس

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٩.

له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى لربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره».

فلا يمكن أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر- حقًا- ومع ذلك يوادون من حاد الله ورسوله لأن موادة من حاد الله ورسوله تنفي صدق الإيمان بالله واليوم الآخر.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

فالإيمان بالله واليوم الآخر يمنع صاحبه من موادة الكافرين؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر محبة الله ورسوله والمؤمنين، وبغض من حاد الله ورسوله من المنافقين واليهود والكافرين ونحوهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

---

(١) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: ولو كان أولئك المحادون لله ورسوله ﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنهم لا يوادونهم لمحادتهم الله ورسوله وكفرهم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآباء هم الأب القريب والأجداد وإن علوا من أي جهة كانوا، والأبناء: هم أبناء الرجل وأبناء أولاده وإن نزلوا، والإخوان: إخوة الرجل أشقاء أو لأب أو لأم، و«العشيرة»: القبيلة من العصبة من الأعمام وأبنائهم وأبناء أبناءهم، وإن نزلوا، ونحوهم.

وهذا محك عظيم فكم من مدع الإيمان بالله واليوم الآخر، وكم من مدع محبة الله- عز وجل- ورسوله- لكنه إذا جاء شأن القرابة والعشيرة ترك العدل والإنصاف محاباة للقريب وانتصارًا له، حتى ولو كان ظالمًا عاصيًا محادًا لله ورسوله. وقد قال ﷺ «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» قيل: يا رسول الله أنصره مظلومًا فكيف إذا كان ظالمًا؟ قال: «تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»(١).

فالواجب على المؤمن حقًا بغض من حاد الله ورسوله ومعاداتهم، ولو كانوا أقرب الأقربين إليه، ومحبة الله ورسوله والمؤمنين وموالاتهم.

وهذه حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر، وهنا يجد المرء حلاوة الإيمان، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٢٥، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦، ومسلم في الإيمان ٤٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣- من حديث أنس رضي الله عنه.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد أحد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»(١).

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾.

الإشارة (أولئك) للذين آمنوا بالله واليوم الآخر، الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان من أقرب الناس إليهم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تعظيما ورفعة لشأنهم.

﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾، أي: أدخله في قلوبهم وثبته فيها.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾، أي: وأمدهم وقواهم بروح منه، أي: بوحيه ونوره ومدده.

قال الطبري(٢): «وقواهم ببرهان منه ونور وهدى».

وقال السعدي(٣): «وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعرفته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني»،

فاستمروا على الإيمان باطنا، وظهرت آثاره على جوارحهم وأعمالهم الظاهرة؛ لأن الله

---

(١) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٤٧٩.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٤.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٢.

أمدهم بروح منه، فهم يسيرون في هذه الحياة على نور من الله عز وجل، قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولهذا كان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا واجعل لي نورًا»(١).

فمن وفقه الله عز وجل وجعل الإيمان في قلبه وثبته عليه وأمده وقواه بروح منه، ونوَّر بصيرته فهو محفوظ بحفظ الله عز وجل، من موادة من حاد الله ورسوله ومن أنواع الشرور كلها- بإذن الله عز وجل.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وصف الله- عز وجل- الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بأنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله، وأنه عز وجل جعل الإيمان في قلوبهم وثبته فيها وأمدهم وقواهم بروح منه فسعدوا في حياتهم بالاستقامة على طاعة الله- عز وجل-، ثم ذكر ما أعد لهم في الآخرة في الجنة من ألوان النعيم.

قوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله- عز وجل- لسكنى أوليائه المتقين وحزبه المفلحين في دار كرامته دار السلام، التي فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجملة صفة لجنات، أي: تجري من تحت أشجار هذه الجنات ومساكنها وغرفها الأنهار، يشربون منها ويصرِّفونها حيث شاؤوا ويتمتعون برؤيتها، وهي كما قال الله عز وجل: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها، بإجماع المسلمين.

﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ لإيمانهم وعملهم الصالح، فوفقهم للحق والثبات عليه، وأثابهم على ذلك بالجنات وما فيها من النعيم.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما هيأ لهم من أسباب الهداية والتوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

قال ابن كثير(٢): «وفي قوله: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم».

كما قال ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «من التمس رضا الله بسخط الناس

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»[١].

ورضى الله عنهم من أعظم النعيم المعنوي الذي تقر به عيونهم، فهم ضيوف على أكرم الأكرمين وقد رضي عز وجل عنهم ورضوا عنه، فأعظم بها من كرامة.

والرضا من المضيف من أعظم ما تقربه عين الضيف ويسعد به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ أشار إليهم مرة ثانية بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيمًا ورفعة لشأنهم، وتوكيدًا لذلك.

﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾، أي: أهل عبوديته الخاصة وأنصاره، وأهل كرامته وإفضاله.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾، «ألا» أداة تنبيه، أي: ألا إن حزب الله وعباده المؤمنين ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب؛ الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب.

وقد أكد فلاحهم في الآية بـ «ألا» أداة التنبيه، و«إن» المؤكدة، وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، أي: أولئك المفلحون الفلاح العظيم الذي لا يشبهه فلاح.

وفي هذا تنويه بما أعد الله لهم من الفوز والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة.

في مقابل ما أعده لحزب الشيطان من الكفار والمنافقين من العذاب الشديد المهين والخسران المبين.

الفوائد والأحكام:

١- أن محادة الله- عز وجل- محادة لرسوله ﷺ، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

٢- قضاء الله وحكمه على المحادين له ولرسله بالذلة والهوان والشقاء في الدنيا

---

(١) سيأتي تخريجه.

والآخرة، وقضاؤه بالغلبة والعزة له ولرسله وأتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾.

٣- إثبات صفة القوة والقهر والغلبة والامتناع له تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

٤- قطع المودة بين المؤمنين والكافرين، وأنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر وموادة من حاد الله ورسوله، مهما كان هذا المحاد من الآباء أو الأبناء أو الإخوان أو العشيرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾.

٥- الثناء على الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولم يوادوا من حاد الله ورسوله، مهما كانت قرابته، والامتنان عليهم بأن الله ثبت الإيمان في قلوبهم، وأمدهم بوحيه ونوره ومعرفته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾.

٦- الوعد من الله- عز وجل- بالثواب العظيم للمؤمنين به واليوم الآخر بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها مع رضا الله عنهم ورضاهم عنه وكونهم حزبه المفلحين دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾.

٧- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٨- أن حزب الله هم المفلحون.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ الْحَشْرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الحشر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الآية:٢].

وتسمى: «سورة بني النضير»؛ لأن قصة بني النضير ذكرت فيها.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: «سورة الحشر». قال: «نزلت في بني النضير»(١).

وفي رواية عنه أن ابن عباس قال له: «قل: سورة بني النضير»(٢).

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والثناء عليه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

٢- ذكر غزوة بني النضير، وإخراجهم من ديارهم لأرض المحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠٣١.

(٢) أخرجها البخاري في المغازي ٤٠٢٩.

٣- بيان الفيء، وحكمه، وكيف يصرف: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

٤- ثناء الله عز وجل على المهاجرين، وعلى الأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

٥- ذم المنافقين بموالاتهم اليهود، ووعودهم الكاذبة لهم بالنصر، وجبنهم: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٦- شدة جبن اليهود ورهبتهم من المؤمنين أشد من رهبتهم من الله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٧- تمثيل حال اليهود بحال المكذبين للرسل قبلهم ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم.

٨- تمثيل حال المنافقين في موالاتهم لليهود ووعدهم لهم بالنصر مع كذبهم

وهزيمة الفريقين بحال الشيطان في تسويله للإنسان الكفر، ومن ثم البراءة منه، ومصيرهما معًا إلى النار .

٩- الحث على تقوى الله والعمل للآخرة، والتحذير من النار، والترغيب في الجنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- تقرير عظمة القرآن الكريم، وشدة أثره: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

١١- تقرير عظمته عز وجل، وما له من الأسماء الحسنى، والصفات العلا والجلال والكمال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

سبق الكلام عليه مفصلًا في مطلع سورة الحديد وهو إخبار من الله عز وجل أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبحه ويعظمه ويعبده ويصلي له ويوحده وينقاد له وينزهه عما لا يليق بجلاله، ويدل على وجوده وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له في مواضع كثيرة من القرآن وفي مطلع خمس سور، تسمى المسبحات وهي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن؛ لتأكيد ذلك والدلالة على عظمته سبحانه وتعالى وخضوع جميع المخلوقات لأمره، وتعظيمها له سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: هو الله وحده الذي أخرج الذين كفروا به وجحدوا شريعته وما جاء به نبيه محمد ﷺ.

﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم يهود بني النضير، إحدى قبائل اليهود الثلاث التي كانت في المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، عاهدهم النبي ﷺ كلهم، لما قدم المدينة، فنقضوا العهد. وأول من نقض العهد منهم: بنو قينقاع، وذلك في السنة الثانية من الهجرة

في شوال بعد وقعة بدر، فغزاهم الرسول ﷺ، وحاصرهم في حصونهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم الله ورسوله، ثم منّ عليهم، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وهلك أكثرهم.

ثم تلاهم بنو النضير، فنقضوا العهد، فغزاهم رسول الله ﷺ بعد بدر بستة أشهر، وقبل أحد- كما روي عن عائشة- رضي الله عنها[١] وعروة بن الزبير[٢].

وقيل كانت غزوة بني النضير بعد وقعة أحد. وقد أنزل الله فيهم سورة الحشر.

ثم تبعهم بنو قريظة، فنقضوا العهد لما خرج الرسول ﷺ لغزوة الخندق «غزوة الأحزاب»، فحاصرهم النبي ﷺ بعد غزوة الأحزاب، وحكّم فيهم سعد بن معاذ- رضي الله عنه- فحكم فيهم بحكم الله- عز وجل- أن يقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال له النبي ﷺ «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» وقد ذكر الله قصتهم في سورة الأحزاب.

وكان من أمر بني النضير في نقضهم العهد غدرهم بالنبي ﷺ حيث هموا بقتله بإلقاء صخرة عليه، لما جاء يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر فجاءه الوحي من ربه، فخرج من بينهم، ثم بعث إليهم، أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم كذا، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه[٣].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) ذكره البخاري عن الزهري عن عروة في المغازي- حديث بني النضير- انظر «فتح الباري» ٧/ ٣٢٩، وأخرجه ابن أبي حاتم مسندًا في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٩، «البداية والنهاية» ٥/ ٢٠، ٥٣٣.

(٣) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٤٧- ٥٠، ١٩٠- ١٩٤، ٢٣٣- ٢٤٨، «دلائل النبوة» للبيهقي ٣/ ٣٥٤، «زاد المعاد» ٥/ ٦٥، ١٢٧، «البداية والنهاية» ٥/ ٣١٨، ٣٣٥- ٣٣٦، ٥٣٣، ٦/ ٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٤- ٣٢٥.

﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾، أي: من دورهم ومنازلهم وحصونهم في ناحية المدينة، بعد حصارهم ست ليال، وقيل غير ذلك.

﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾، أي: لأول محشرهم إلى أرض المحشَر والمنْشَر الشام.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «من شك في أن أول المحشر ههنا- يعني الشام- فليتل هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[(١)].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة- يعني السلاح- فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي.

وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام»[(٢)].

قال الطبري[(٣)]: «وذلك خروجهم من منازلهم ودورهم حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويخلوا له دورهم وسائر أموالهم، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك، فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٤٥- الأثر ١٨٨٥٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٨٣ وصححه، وأقره الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٢/ ٤٤٤.

(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٦- ٤٩٧.

وقال السعدي[١]: «وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم، على يد رسوله محمد ﷺ إلى خيبر، ودلت الآية على أن لهم حشرًا وجلاءً غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر- رضي الله عنه- أخرج بقيتهم منها».

وهناك حشر آخر وهو حشرهم وجميع الخلق يوم القيامة في أرض الشام كما جاء في الحديث: «تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»[٢].

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾، «ما» نافية، ومعنى ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾، أي: ما حسبتم وما توقعتم أيها المسلمون أن يخرجوا من ديارهم؛ لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها وشدة بأسهم، وكثرة عددهم وعدتهم، ونحو ذلك.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وحسبوا- لجهلهم وغرورهم وإعجابهم بحصونهم- أنها ستمنعهم من الله إذا أراد بهم أمرًا من الإخراج أو القتل أو غير ذلك.

قال الزمخشري[٣]: «وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسمًا لـ«أن» وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم».

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾، أي: جاءهم الله- عز وجل- وأمره من حيث لم يظنوا، ولم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم ١/ ٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤١، ٤٠٥٥ من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري- رضي الله عنه.

(٣) في «الكشاف» ٤/ ٧٩.

كما قال عز وجل: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، أي: ألقى في قلوبهم الخوف والهلع والهزيمة من داخلهم وهذا- فيما يظهر- تفسير لقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ إذ كانوا يفتخرون بقوتهم ومنعتهم وحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يخطر لهم على بال، أي من باب وطريق لم يظنوا أنهم سيؤتون منه، فألقى الله في قلوبهم الرعب والخوف، وكان من أسباب ذلك قتل كعب بن الأشرف سيدهم، فانهزموا من داخلهم، بعد أن نزل بهم رسول الله ﷺ في أصحابه وحاصرهم. وفي الحديث قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»(١).

قال السعدي(٢): «﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة، ولا شدة. فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله كان وبالًا عليه، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم..»

ولهذا سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ففعل، فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ قرأ أبو عمرو: «يُخَرِّبون بيوتهم» بفتح الخاء وتشديد الراء، وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء.

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٨.

أي: يهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيديهم أنفسهم، حيث كان الواحد منهم يهدم بيته بيده بنفسه؛ ليحمل ما يمكنه من المنقولات، من أخشاب وغيرها، حتى عتبات الأبواب على ظهر بعيره، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وتركوا ديارهم وأموالهم وأسلحتهم لرسول الله ﷺ، فحازها رسول الله ﷺ، وكان فيها خمسون درعًا، وخمسمائة بيضة، وثلثمائة وأربعون سيفًا.

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ويهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيدي المؤمنين.

وذلك لإجبار المؤمنين لهم على ذلك حيث حاصروهم، وعاهدهم الرسول ﷺ على الكف عن دمائهم مقابل خروجهم، ولهم ما تمكنوا من حمله من أثاث وغيره ما عدا السلاح.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾، أي: خذوا العبرة والعظة يا أصحاب البصائر والعقول المستنيرة من حال هؤلاء اليهود الذين حل بهم من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم فأخذوا يخربون ويهدمون بيوتهم بأنفسهم ويخرجون من ديارهم بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

ووجه الخطاب بالاعتبار لأولي الأبصار والعقول السليمة؛ لأنهم هم الذين تهديهم بصائرهم وعقولهم، إلى التأمل والنظر والبحث عن الحق والسماع له واتباعه.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الواو: استئنافية و«لولا» شرطية غير جازمة وهي: حرف امتناع لوجود، «كتب»، أي: قدّر، «عليهم الجلاء»، أي: النفي والخروج من ديارهم وأموالهم، أي: ولولا أن قدر الله عليهم الجلاء واقتضته حكمته.

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جواب «لولا»، واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لعذبهم في الدنيا عذابًا آخر بالقتل والسبي ونحو ذلك كما فعل بإخوانهم بني قريظة بعد ذلك لما نقضوا العهد.

أي: لولا أن الله- عز وجل- قدر عليهم الجلاء والنفي والإخراج من ديارهم

وأموالهم- وهو بلا شك عذاب لهم وعقوبة- لعذبهم في الدنيا عذابًا أشد من ذلك بالقتل والسبي ونحو ذلك.

ففي الآية إشارة إلى استحقاقهم عذابًا أشد من الجلاء، لكن الله عز وجل قدر عليهم واختار لهم ما هو أخف وهو الجلاء.

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، أي: ولهم مع عذاب الدنيا سواء أُجْلُوا أو قتلوا عذاب النار، وهو العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما سبق من إخراج أهل الكتاب من ديارهم إلى أرض المحشر الشام، وقذف الرعب في قلوبهم، وحملهم على تخريب بيوتهم، وما أُعد لهم في الآخرة من عذاب النار.

﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، أي: بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، أي: عادوا الله ورسوله، وخالفوا أمر الله ورسوله.

والمشاقة: أن يتخذ المشاق شقًا وجانبًا غير شق الآخر وجانبه.

والمعنى: أنهم خالفوا وعصوا وحادوا الله ورسوله، وكذبوا ما جاءهم من الحق على ألسنة رسل الله، ومنهم خاتمهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه- عز وجل- بالواو التي تقتضي

التشريك في الحكم؛ لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله عز وجل.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

لما كان المقام مقام ذكر العقاب، لم يقل: ومن يشاق الله ورسوله- وإن كان المعنى هكذا- لأن أمر الثواب والعقاب إلى الله وحده، أي: ومن يخالف الله- عز وجل- ويعص أمره ويرتكب نهيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاقه وخالف أمره وارتكب نهيه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة- فأنزل الله- عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»(١).

وفي رواية عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- حديث بني النضير ٤٠٣١، ومسلم في الجهاد- جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ١٧٤٦، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٥، والترمذي في السير ١٥٥٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٤٤، وأحمد ٢/ ٨٠٧.

وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة»(١).

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت- رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لُؤيّ(٢) حريق بالبويرة مُسْتطير

قال: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيع وحرّق في نواحيها السعير

ستعلم أينا منها بنُزْهٍ(٣) وتعلم أي أرضينا تضير»(٤)

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: «يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضًا وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل لنا فيما تركنا من وزر، فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾»(٥).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: «رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا، أو علينا وزر فيما تركنا؟ فأنزل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٢٨ ومسلم في الجهاد والسير ١٧٤٦، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٣٠٠٥.

(٢) السراة الرؤساء، وبنو لؤي: هم قريش، فهم الذين أغروا بني النضير بنقض العهد ووعدوهم أن ينصروهم.

(٣) النزه: البعد. وهذا إنما قاله أبو سفيان قبل إسلامه- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٣٢ وانظر «ديوان حسان» ص١١٠، و«سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٧٢.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٠٣، وقال: «حديث حسن غريب».

الله- عز وجل-: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾»(١).

وعن يزيد بن رُومان قال: «لما نزل رسول الله- ﷺ بهم- يعني بني النضير- تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾»(٢).

قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، «ما» اسم شرط جازم في محل نصب لـ«قطعتم» و«قطعتم» فعل شرط، واللينة: النخلة، واللين: النخل والتمر.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾، أي: فلم تقطعوها.

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: كل ذلك القطع أو تركه بإذن الله، أي: بأمره الكوني والشرعي، كما أحل عز وجل لنبيه ﷺ القتال بمكة ساعة من نهار.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: وليذل الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ورسوله من اليهود وأوليائهم من المنافقين وغيرهم.

وفي هذا إشارة إلى أن في قطع النخل إذلالًا للفاسقين، وكان من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم.

ولقد سجل هذا النصر للمسلمين في إجلاء بني النضير، وقتل كعب بن الأشرف عدد من شعراء المسلمين- قال كعب بن مالك- رضي الله عنه:

لقد خزيت بغدرتها الحبور(٣) كذاك الدهر ذو صرف يدور

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٨٦ وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥١١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٠، وانظر ٥١١.

(٣) الحبور: جمع حبر، أراد بها علماء اليهود.

وذلك أنهم كفروا برب ... عظيم أمره أمر كبير
وقد أوتوا معًا فهمًا وعلمًا ... وجاءهُمُ من الله النذير
نذير صادق أدى كتابًا ... وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير
فقال: بلى لقد أديت حقًا ... يصدقني به الفَهِم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد ... ومن يكفر به يجز الكفور
فلما أَشربوا غدرًا وكفرًا ... وجدّبهم عن الحق النفور
أرى الله النبي برأي صدق ... وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم ... وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم كعب صريعًا ... فذلت بعد مصرعه النضير

إلى أن قال:

فذاقوا غب أمرهم وبالًا ... لكل ثلاثة منهم بعير[(١)]
وأجلوا عامدين لقينقاع ... وغودر منهُمُ نخل ودور[(٢)]

الفوائد والأحكام:

١- أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبح الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «العزيز» و«الحكيم» وأنه ذو العزة

---

(١) أي: يتعاقبون عليه في خروجهم.

(٢) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ١٩٩- ٢٠٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٧- ٨٨، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٤١.

التامة، وذو الحكم النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣- قدرة الله عز وجل- وقوته وشدة بأسه، وعظيم نعمته على المؤمنين في إخراجه يهود بني النضير من المدينة إلى أرض المحشر الشام مع استبعاد المؤمنين خروجهم، واغترار بني النضير بقوتهم ومنعة حصونهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾.

٤- الإشارة إلى أن أرض المحشر هي الشام.

٥- لا عاصم من أمر الله، وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا دافع له ولا مانع، وما لهم من دونه من وال.

٦- هزيمة الله- عز وجل- لبني النضير من داخل أنفسهم مما لم يخطر ببالهم، وإلقاؤه الرعب في قلوبهم، مما جعلهم يخربون بيوتهم ويخرجون من ديارهم بعد حصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧- وجوب أخذ العبرة والعظة مما حل ببني النضير مما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم ومن ثم تخريبهم بيوتهم وإخراجهم صاغرين- بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

٨- أنه إنما يتذكر ويعتبر أصحاب العقول والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

٩- أن ما أحله الله ببني النضير من الجلاء هو ما كتبه الله عليهم وهو أخف العقوبتين، أي: أخف من القتل والسبي ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ﴾.

١٠- الوعيد الشديد لليهود بعذاب النار في الآخرة لكفرهم وصدهم عن سبيل

الله ونقضهم العهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾.

١١- إثبات الدار الآخرة.

١٢- ذم يهود بني النضير بمشاقة الله والرسول ومخالفتهم أمر الله ورسوله وأن ما حلّ بهم من الجلاء والوعيد في النار هو بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

١٣- إثبات الحكمة في أفعال الله، وإثبات الأسباب.

١٤- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله في باب المخالفة والطاعة بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله وطاعته طاعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

١٥- شدة عقاب الله- عز وجل- وانتقامه ممن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

١٦- أن ما حصل من المؤمنين من قطع لبعض نخيل بني النضير وترك لبعضها هو بإذن الله وأمره الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٧- إثبات الإذن لله تعالى بقسميه الكوني والشرعي.

١٨- أن إذن الله- عز وجل- للمؤمنين بقطع نخيل بني النضير هو لإذلالهم وإلقاء الرعب في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

١٩- بلوغ يهود بني النضير غاية الفسق والخروج عن طاعة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وكتب عليهم الجلاء منها، بيانًا لقدرة الله- عز وجل- وقوته وامتنانا على عباده المؤمنين ثم ذكر منته على رسوله ﷺ بما أرجع إليه من أموال بني النضير من غير قتال، وحكم هذه الأموال، ثم ذكر حكم أموال الفيء عمومًا.

قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ الواو عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم، أي: وما رده الله على رسوله منهم، أي: من أموال بني النضير.

و«أفاء» بمعنى: رد وأرجع، ومنه سمي الفيء وهو ظل الزوال، من فاء أي: رجع.

والفيء: ما أُخذ من أموال الكفار بحق من غير قتال.

والمعنى: وما رده الله وأرجعه على رسوله من أموال بني النضير.

وفي هذا إشارة إلى أن المال لا يستحقه إلا الرسل وأتباعهم المؤمنون فقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: وما رده ممن لا يستحقه إلى من يستحقه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«ما» نافية، والإيجاف: الإسراع، والركاب: الإبل.

أي: فما أسرعتم عليه من خيل ولا إبل ولا سيرتموها ولا قاتلتم ولا بارزتم للحصول عليه، أي: لم تتعبوا بتحصيله، لا بأنفسكم ولا بخيلكم وإبلكم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، كما سلط رسوله محمدًا ﷺ على بني النضير فحاصرهم، وأوقع الله في قلوبهم الرعب، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، فصارت أموالهم فيئًا رده الله إلى رسوله ﷺ يضعها كيف يشاء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله على الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل»(١).

وقد روي أن رسول الله ﷺ قسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئًا إلا رجلين، هما: سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشة، ذكرا فقرا فأعطاهما(٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أيًّا كان ذلك الشيء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا؛ ولهذا قدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء، ومن قدرته عز وجل أن أنزل الذين كفروا من أهل الكتاب من حصونهم وأخرجهم وأجلاهم من ديارهم، بلا قتال، بل بهزيمتهم من داخلهم، بإلقاء الرعب والخوف في قلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٠٤، ومسلم في الجهاد ١٧٥٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٦٥، والنسائي في قسم الفيء ٤١٤٠، والترمذي في الجهاد ١٧١٩، وأحمد ١/ ٢٥، ٤٨. وانظر «زاد المعاد» ٥/ ١٢٨.

(٢) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٠- ١٩٢، «سنن أبي داود»،- كتاب الخراج ٢٩٧١ «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠- ٥٠٢، ٥١٣، ٥١٨- ٥٢٠، ٥٢٦، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٩٦ «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٣- ٨٤، ٩٠، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٣٧.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: ما رد الله على رسوله من أموال أهل القرى التي تفتح بدون قتال.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: فسهم منه لله- عز وجل، وسهم منه للرسول ﷺ يضعه مع سهم الله- عز وجل- في مصالح المسلمين، وسهم منه «لذي القربى»، أي: لقرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، يسوى بين ذكورهم وإناثهم، وسهم منه لليتامى، وهم الذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(١).

وسهم منه للمساكين، وهم من لا يجدون كفايتهم، أو لا يجدون شيئا، سموا مساكين من السكون، وهو عدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنهم وأذلهم، وسهم منه لابن السبيل، وهو المسافر المنقطع في سفره، ولو كان غنيا في بلده، سمي بابن السبيل؛ لملازمته السبيل وهو الطريق للسفر.

وهذه المصارف المذكورة للفيء في هذه الآية هي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله- عز وجل-: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

وهذه هي المصارف الخاصة للفيء، وهم أهل الخمس، ومصارفه العامة هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم إلى يوم الدين، لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وبهذا عمل ﷺ وخلفاؤه الراشدون.

قال ابن القيم(٢): «ومن تأمل النصوص وعمل رسول الله ﷺ- وخلفائه وجده

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤٢٣- ٤٢٥، «زاد المعاد» ٥/ ٨٤- ٨٧.

يدل على قول أهل المدينة- يعني هذا القول- فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء، وعينهم اهتمامًا بشأنهم وتقديمًا لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها، لا يشركهم فيها سواهم نص على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم، فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدمًا للأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظًا ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية، ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديه وسيرته، وهو فصل الخطاب ومحض الصواب».

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ قرأ أبو جعفر: «تكون» بالتأنيث، و«دولةٌ» بالرفع، وقرأ الباقون: ﴿يَكُونَ﴾ بالتذكير ونصب ﴿دُولَةًۢ﴾.

﴿كَيْ﴾ حرف مصدري ونصب، و«لا» حرف نفي، أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء؛ لئلا يكون متداولًا بين الأغنياء فقط يستأثرون به دون الفقراء.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم في الموضعين، والفاء في الموضعين رابطة لجواب الشرط.

والمعنى: وما أعطاكم الرسول من الفيء وغيره ﴿فَخُذُوهُ﴾، وما أمركم به من الأوامر فافعلوه، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، أي: وما نهاكم عنه من الفيء وغيره من النواهي فانتهوا عنه واتركوه.

قال ابن كثير(١): «أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٢.

يأمر بخير وإنما ينهى عن شر».

و«ما» في الموضعين تفيد العموم في المأمورات والمنهيات، ويدخل فيها كل ما أمر به الشرع، وكل ما نهى عنه.

فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ قاعدة أصولية وأصل عام يشمل جميع أصول الدين وفروعه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ يجب الأخذ به واتباعه، سواء كان مما جاء في القرآن الكريم، أو مما جاء في السنة النبوية، لا فرق في ذلك، فكل ذلك وحي من عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن، المغيرات خلق الله- عز وجل- قال: فبلغ امرأة في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه، فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لَعَن رسولُ الله ﷺ وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾؟ قالت: بلى. قال: فإن النبي ﷺ نهى عنه»(١).

وعن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدُّبَّاء والحنتم والمزفت والنقير، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٦، ومسلم في اللباس- تحريم فعل الواصلة ٢١٢٥، وأبو داود في الترجل ٤١٦٩، والنسائي في الزينة ٥٠٩٩، والترمذي في الأدب ٢٧٨٢، وابن ماجه في النكاح ١٩٨٩، وأحمد ١/ ٤٣٣- ٤٣٤.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في الأشربة ٥٦٤٣. وأخرجه من غير ذكر الآية البخاري في الإيمان ٥٣، ومسلم في الأشربة ١٩٩٧، وأبو داود في الأشربة ٣٦٩٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣١، =

وفعل الأوامر مقيد بالاستطاعة، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما ترك النواهي فهو بمقدور كل أحد، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»(١).

لكن الضرورات في الإسلام تقدر بقدرها، فمن ألجأته الضرورة، أو أكره على فعل أو قول منهي عنه فهو معذور، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره أو ارتكب نهيه، فعقابه شديد من حيث كمه وكيفه ونوعه ووقته.

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن أموال بني النضير التي ردها الله- عز وجل- على رسوله بلا قتال هي له ﷺ خاصة يضعها كيف يشاء، والإشارة إلى أن الغنم على قدر الغرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

٢- تسليط الله رسله على من يشاء، وإثبات المشيئة له- عز وجل- وإثبات قوته وقدرته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

=

والترمذي في الأشربة ١٨٦٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام- الاقتداء برسول الله ﷺ ٧٢٨٨، ومسلم في الفضائل- توقيره ﷺ ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، وابن ماجه في المقدمة ١.

٣- بيان مصرف الفيء الذي يأخذه المسلمون من الكفار بغير قتال، وأنه يجعل ستة أسهم سهم لله وسهم للرسول ﷺ يوضعان في مصالح المسلمين وسهم لقرابة الرسول ﷺ، بني هاشم وبني المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل، وهي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١]؛ لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٤- أن الله عز وجل جعل الفيء في هذه المصارف الستة لئلا يبقى متداولًا بين الأغنياء يستأثرون به دون الفقراء؛ لقوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

٥- إثبات الحكمة في أحكام الله وأفعاله الشرعية الكونية.

٦- عناية الإسلام بقرابة النبي ﷺ واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومصالح المسلمين.

٧- وجوب مراعاة حقوق اليتامى والمساكين وابن السبيل وذوي الحاجات في المجتمع الإسلامي، وأن الإسلام وسط بين الشيوعية والرأسمالية.

٨- وجوب الأخذ بما جاء به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه، وتقوى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ﴾.

٩- شدة عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآية السابقة مصارف الفيء الخاصة، ثم أتبع ذلك بذكر مصارفه العامة، وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين- مردفًا ذلك بالثناء عليهم حسب فضلهم ومنزلتهم، المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾، «للفقراء» بدل من قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [٧] وما عطف عليه، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ما أفاء الله على رسوله للفقراء المهاجرين- إلى آخر ما عطف عليه، أو معطوف على ما قبله مع حذف حرف العطف والتقدير: وللفقراء المهاجرين. وقيل غير ذلك.

أي: أن مصارف الفيء العامة هم الفقراء المهاجرون، والذين تبوؤوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم.

والفقير مأخوذ من الأرض القفر، أي: الأرض التي لا نبات فيها ولا شجر، أو من انفصام فقار الظهر، المؤدي إلى الهلكة.

والفقير والمسكين إذا انفرد كل منهما شمل الآخر وصارا صنفًا واحدًا أما إذا ذكرا جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فهما صنفان. وقد اختلف أهل العلم أيهما أحسن حالًا المسكين أو الفقير.

وقد يستدل بهذه الآية على ما ذهب إليه أكثر أهل العلم من أن الفقير أسوأ حالًا لأنه لا يملك شيئًا؛ ولهذا سمى الله المهاجرين فقراء؛ لأنهم لا شيء عندهم البتة هاجروا

وتركوا ديارهم وأموالهم.

وقد استعاذ ﷺ من الفقر، فقال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر**»(١).

بينما سأل ﷺ المسكنة، فقال: «**اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين**»(٢).

و﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ جمع مهاجر، مأخوذ من الهجرة، وهي في اللغة: الترك، وفي الشرع: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والمراد: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، يوم أن كانت مكة- شرفها الله- دار كفر، فلما فتحها ﷺ وصارت دار إسلام فلا هجرة منها قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»(٣)، أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها.

والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(٤).

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾، أي: الذين أخرجهم كفار مكة من ديارهم وأموالهم، وذلك بالتضيق عليهم وأذيتهم لهم في أبدانهم وعدم تمكينهم من أداء شعائر دينهم، واضطرارهم إلى الخروج من مكة وترك ديارهم وأموالهم وأهليهم وعشائرهم،

---

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧- من حديث أبي بكرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٢، من حديث أنس رضي الله عنه. وقال هذا حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٢٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٨٣، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في الجهاد ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣- من حديث معاوية- رضي الله عنه.

حتى إن الواحد منهم يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ويتخذ الحفرة دثارًا له في الشتاء من شدة الحاجة.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يطلبون.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: زيادة في دينهم ودنياهم وأجرًا في آخرتهم.

كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي: سعة في دينه ودنياه.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾، أي: ورضوان الله- عز وجل- عنهم.

فهجرتهم خالصة لله عز وجل؛ طلبًا للزيادة والفضل منه- سبحانه وتعالى، وطلبًا لرضاه.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الواو: عاطفة، والجملة في محل نصب معطوفة على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أي: فخروجهم وهجرتهم؛ لابتغاء الفضل والرضوان من الله- عز وجل- ولأجل نصرة دين الله ورسوله.

فنصرة الله- عز وجل- بنصرة دينه، ونصرة رسوله ﷺ بنصرته نفسه ودينه في حياته، ونصرة سنته ودينه بعد وفاته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، أي: الصادقون في إيمانهم ظاهرًا وباطنًا، وفي هجرتهم، الذين صدَّقوا إيمانهم وأقوالهم بفعالهم، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، طلبًا للفضل من الله والرضوان، ونصرة الله ورسوله، كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله».

بخلاف من قال فيهم: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٤، ومسلم في الإمارة ١٩٠٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٠١، والنسائي في =

والهجرة في سبيل الله، وترك المحبوبات والمألوفات؛ من الديار والأهل والأولاد والأموال والعشيرة ونحو ذلك من أعظم الدلائل على صدق الإيمان.

عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفًا على الحَزْوَرَة(١)، فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(٢).

قال أبو تمام(٣):

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه دومًا لأول منزل

وقال الآخر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا علي كرام(٤)

ولهذا لما أراد بعض الصحابة- رضوان الله عليهم- الهجرة منعهم أولادهم فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤](٥).

فليس من السهل على النفوس ترك هذه المحبوبات والمألوفات إلا على من تركها إيثارًا لما هو أحب إليه منها، وهو طلب مرضاة الله عز وجل، وما عنده من الثواب العظيم في جنات النعيم.

=

الطهارة ٧٥، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٧- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) الحَزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٣) انظر: «ديوانه» ص٤٥٧.

(٤) انظر: «البلاغة الواضحة» ص٨٧.

(٥) انظر سبب نزول هذه الآية في الكلام عليها في تفسير سورة التغابن.

وهذا يدل على فضل المهاجرين الأولين، وقدمهم في السبق في الإيمان- رضي الله عنهم وأرضاهم- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير[١]: «وهؤلاء هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ﴾.

أثنى الله- عز وجل- على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار- رضي الله عنهم وأرضاهم- مبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم وسلامة صدورهم، وإيثارهم- مع حاجتهم- لإخوانهم المهاجرين، وأن لهم نصيبًا من الفيء.

عن يزيد بن الأصم- رضي الله عنه-: «أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين، قال: «ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم». قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾»[٢].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الواو: استئنافية[٣]، أي: والذين سكنوا دار الهجرة المدينة من قبل المهاجرين، وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٨٠.

(٣) وقيل عاطفة، فيكون قوله: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان﴾ معطوفًا على قوله: ﴿للمهاجرين﴾ انظر «الكشاف» ٤/ ٨٢.

وذلك أن الأنصار أسلم منهم من أسلم قبل الهجرة، وقدم منهم من قدم في العقبة الأولى والعقبة الثانية، وبايعوا النبي ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، أي: يحبون محبة صادقة في الله ولله من هاجر إليهم من إخوانهم المهاجرين.

قال ابن كثير(١): «أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم».

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾، أي: ولا يحسون في صدورهم لسلامتها ﴿حَاجَةً﴾ من حسد أو ضغينة أو حرج على إخوانهم المهاجرين.

﴿مِمَّا أُوتُوا﴾، أي: مما أعطاهم الله من الفضل والشرف، والتقديم في الذكر، والرتبة والمنزلة الرفيعة.

وفي هذا دلالة على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم في الذكر، وذكر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقيل: ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ من الفيء وغيره، يعني أن نفوسهم لا تتبع ما أعطي إخوانهم المهاجرون من الفيء وغيره.

والسلامة من الحسد وأمراض القلوب مقام رفيع ومطلب عزيز لا يرتقي إليه إلا من وفقه الله ورزقه الله قلبًا سليما، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.

تعلق نعليه بيده الشمال. فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت[1] أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق»[2].

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

سبب النـزول:

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف

---

(١) أي: نازعت.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٦٦، والطبراني بإسناد حسن. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٦: «ورواه النسائي في اليوم والليلة عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر، به. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري، عن رجل، عن أنس فالله أعلم. وانظر «العلل» للدارقطني (٤/ ٢٦/ ب) و«مرويات الإمام الزهري المعللة» للدكتور عبد الله دمغو ٣/ ١٣١١ حديث ٧٩، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١١٨- ١١٩.

هذا الليلة، رحمه الله،؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «**لقد عجب الله- عز وجل- أو ضحك من صنيعكما البارحة**» وأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة- رضي الله عنه»(١).

قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾، أي: ويقدمون. والإيثار أن يقدم الإنسان غيره على نفسه بمحاب النفس من المال والطعام والشراب والمتاع ونحو ذلك، مع حاجته إلى ذلك أو ضرورته إليه، وهو أكمل أنواع الجود والكرم، وهو ضد الأثرة والجشع والطمع والشح والأنانيّة.

﴿خَصَاصَةٌ﴾: حاجة وفاقة وفقر.

والمعنى: أنهم رضي الله عنهم يقدمون على أنفسهم المحتاجين من إخوانهم المهاجرين ولو كان بهم حاجة وفاقة، فيبدؤون بحاجة غيرهم قبل حاجتهم.

وقد قال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»(٢).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلًا في كثير لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٩، ومسلم في الأشربة- إكرام الضيف ٢٠٥٤، والترمذي في تفسير سورة الحشر ٣٣١٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر- فضل التطوع في البيت ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة- جهد المقل ٢٥٢٦، وأحمد ٣/ ٤١١- ٤١٢ من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه. وأخرجه أيضا ٢/ ٣٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومن حديث أبي ذر- رضي الله عنه- ٥/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥.

عليهم، ودعوتم الله لهم»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا». فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا»(٣).

والإيثار منزلة عظيمة ودرجة رفيعة من أعلى مراتب الكرم، إن لم تكن أعلاها، ولقد ضرب الأنصار رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ في هذا أروع الأمثال.

قال ابن كثير(٤) في كلامه على قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: «وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله»(٥).

وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٠٠- ٢٠١، ٢٠٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، قول النبي ﷺ للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» ٣٧٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في المزارعة- إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره وتشركني في الثمرة ٢٣٢٥.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٦- ٩٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥ والدارمي في الزكاة ١٦٦٠- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

فكفى الأنصار رضي الله عنهم شرفًا وفخرًا آووا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وأحبوهم، وواسوهم بكل ما يملكون مع سلامة صدورهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الواو: اعتراضية، و«من» شرطية، و«يوق» فعل الشرط وجوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ومعنى ﴿يُوقَ﴾ يكف، ويسلم من شح نفسه، وهو من رزق الإيثار.

والشح يقال بضم الشين وكسرها وفتحها، وهو أشد من البخل، وقيل: هو البخل مع حرص. قال المتنبي(١):

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال الزمخشري(٢): «الشح بالضم والكسر: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال:

يمارس نفسًا بين جنبيه كزة ... إذا هم بالمعروف قالت له مهلًا(٣)

وقد أضيف إلى النفس؛ لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع بنفسه».

والشح أعم من البخل؛ لأن البخل يطلق- غالبًا- على منع المال فقط، وضرره غالبًا على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] وقد

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٦.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٨٢.

(٣) انظر: «غرر الخصائص الواضحة» ص٣٦١، «الكشاف» ٤/ ٥٠٥، «أساس البلاغة» ص٥٤٣.

يطلق البخل على منع غير المال، وفي الحديث: «أبخل الناس من بخل بالسلام»(١).

أما الشح فهو يتعلق بمنع الحق الواجب من المال، وبغير ذلك من أوجه الخير والإحسان، والمعروف، بل ويحمل على الاعتداء على حقوق الناس وأموالهم.

قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

وفي قصة هند زوجة أبي سفيان أنها قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»(٢).

وعن الأسود بن هلال قال: «جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أخرج من يدي شيئا، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل»(٣).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»(٤).

وعن أبي الهياج الأسدي قال: «كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلًا يقول: «اللهم قني شح نفسي» لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: «إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦/ ٤٠، والبيهقي في «شعب الإيمان»، ٦/ ٤٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢١١، ومسلم في الأقضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٩- ٥٣٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٦- ٣٣٤٧.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠- ٥٣٢.

ولم أزن، ولم أفعل» وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه»(١).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأكد الفلاح لمن وقي شح نفسه بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا**»(٤).

ومن هذه الأحاديث والآثار يتبين أن الشح أشد وأعظم من البخل؛ لأن الشح يحمل على منع الواجب وتركه، وعلى ارتكاب المحرم والظلم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٧٨، وأحمد ٣/ ٣٢٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة- صلة الرحم ١٦٩٨، وأحمد ٢/ ١٥٩- ١٦٠.

(٤) أخرجه النسائي في الجهاد- فضل من عمل في سبيل الله على قدمه ٣١١٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٤، وأحمد ٣/ ٢٥٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٤١، ٥٠٥.

والشحيح يقصر في أداء الواجب، ويمنع الحق الذي عليه، ولا يتنازل عن شيء من حقه، ولو كان عند أقرب الناس إليه كوالده وولده وزوجه.

يُحرِّج الآخرين، ولا يُحلل أحدا عن مظلمة، بل قد يشح بالدعاء لغيره من المسلمين، حاله وهو غير جاهل كحال ذلك الأعرابي الجاهل الذي قال: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «**لقد حجرت واسعًا**»(١).

وما أشبه من هذه حاله بالحاسد الذي يكره الخير للغير.

فمن وقي شح نفسه سمحت نفسه بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، والبعد عما نهى الله عنه، وعن ظلم الخلق، وسمحت نفسه ببذل المال والخير والمعروف والخُلُق الطيب في سبيل الله، وذاق طعم الحياة، وسعد في دينه ودنياه وأخراه- نسأل الله التوفيق.

وليس من الشح المذموم الشح بالوقت أن يضيع ويذهب سدى، بل هو من الشح المحمود، لأن الوقت أغلى ما أعطي للإنسان، وقد أقسم الله به في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

قال ابن القيم(٢): «فإن الفلاح كل الفلاح في الشح به، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس على الأرض عيانًا مفلسًا، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها، والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٣٨٠، والترمذي في الطهارة ١٤٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٥٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٥.

سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أثنى الله عز وجل على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار، ثم ثلث بالثناء على من جاء بعدهم من التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]. مبينًا أن لهم نصيبهم من الفيء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾، أي: والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار أي: بعد الصحابة رضي الله عنهم وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة. «يقولون» خبر للاسم الموصول «الذين».

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾، أي: اغفر لنا ذنوبنا. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، أي: واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة أجمعين.

وكذا كل من سبق بالإيمان فمن جاء بعده من إخوانه المؤمنين إلى قيام الساعة يدعون له بالمغفرة فيدعو المتأخر منهم للمتقدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولهذا قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

وهذا يدل على فضل السابق على اللاحق من حيث العموم ولهذا قال ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعدهم قوم يشهدون ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»(١).

وعن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ»(٢).

وفي حديث حذيفة- رضي الله عنه- قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»(٣).

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ولا تجعل في قلوبنا حقدًا وبغضًا وحسدًا للذين آمنوا ممن سبقونا، ولا ممن هم بين أيدينا ومعنا، أي: لا تجعل في قلوبنا غلًا لأحد من أهل الإيمان.

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا استجب دعاءنا، ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إنك ذو الرأفة

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٢١ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٩.

العظيمة، والرحمة الواسعة.

والرأفة أشد من الرحمة وأخص منها.

وسلامة القلوب من الضغينة والحقد والحسد أمر عزيز المنال، وبعيد المرام إلا على من وفقه الله ورزقه قلبًا سليمًا؛ ولهذا امتن الله عز وجل على أهل الجنة بنزع الغل من قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

فكم من مصلٍ قائمٍ صائمٍ، قلبه يغلي حقدًا وحسدًا على كثير من إخوانه المسلمين، وكم من إنسان يستطيع صيام النهار، وقيام الليل، وبذل المال، لكنه لا يستطيع علاج قلبه من هذا المرض.

فمن كان في قلبه غل وحقد وحسد وضغينة على إخوانه المسلمين فنصيبه من هذا الثناء من الله في الآية الكريمة يقل ويضعف بقدر ما عنده من هذا المرض العضال- إن كان له نصيب- نسأل الله السلامة والعافية. إذ الواجب أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١).

ففتش نفسك أخي الكريم فإنه قل من يسلم من هذا الداء، فإن وجدت عندها شيئًا من هذا فألزمها تقوى الله، وأعلمها بأن فضل الله واسع، قد شمل البر والفاجر وإن الجنة وعدت ملأها، وإن النار وعدت ملأها. وإن الناس لو كانوا كلهم في الجنة ما ضرك ذلك، ولو كانوا كلهم في النار ما نفعك ذلك، فعالج قلبك وأحب للمسلمين ما تحب لنفسك وادع لهم، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٣، ومسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦- من حديث أنس- رضي الله عنه.

ولا شك أن في مقدمة من لا يستحقون الوصف المذكور في الآية أولئك الذين يقعون في صحابة رسول الله ﷺ ويسبونهم ويبغضونهم وهم الرافضة، ومن سلك مسلكهم الذين جعلوا سب الصحابة وتنقصهم ديدنًا لهم- عليهم من الله ما يستحقون- إذ كيف يبيحون لأنفسهم الكلام فيمن شهد الله لهم بالسبق، ورضي عنهم، وهم خير القرون، ولكن كما قال الله- عز وجل-: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية»(١).

وعنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»(٢).

قال ابن كثير(٣): «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾».

وهكذا روي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٧.

(٢) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٣٢١.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٩٩.

(٤) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٨٤- ٨٧، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٤.

وعن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الآية، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي، وهو بِسَرْوِ حِمْيَرَ[1] نصيبه منها، لم يعرق جبينه»[2].

وفي رواية عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: «كان عمر يحلف على أيمان ثلاث: يقول: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدًا مملوكًا، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقَسْمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال، وهو يرعى مكانه»[3].

قال السعدي[4]: «فهؤلاء الأصناف الثلاثة- يعني المذكورين في الآيات: المهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان- هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون

---

(١) قال في «النهاية» مادة «سرى» السَّرْو: ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادي في الأصل. والسَّرْو أيضًا: محلة حِمْير.

(٢) أخرجه: الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٦، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٣٥٢. وأخرج أبو داود في الخراج- صفايا الرسول ﷺ من الأموال- آخره بنحوه- عن الزهري قال: قال عمر رضي الله عنه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾... إلخ. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٩: «وفيه انقطاع».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٣٧.

للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح المسلمين».

ويؤخذ من الآيات، الثناء من الله عز وجل على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأنهم في الأفضلية هكذا: المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان. فالمهاجرون ضحوا بديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله- عز وجل- والرضوان، ونصرة لله ورسوله، فأثبتوا صدق إيمانهم وأقوالهم بفعالهم رضي الله عنهم.

والأنصار الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، أحبوا إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأموالهم، ولم يجدوا في صدورهم أدنى حاجة من حسد على إخوانهم المهاجرين على ما آتاهم الله من الفضل والرضوان والمنزلة الرفيعة، وآثروهم على أنفسهم بالمال والطعام وغير ذلك، وسلموا من شح النفوس فأفلحوا وفازوا.

والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار واتبعوهم بإحسان يدعون الله بالمغفرة للذين سبقوهم بالإيمان من المهاجرين والأنصار وغيرهم وأن يرزقهم سلامة القلوب على إخوانهم المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أحق المسلمين بأن يعطوا من مال الفيء الفقراء المهاجرين رضي الله عنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾.

٢- الثناء على المهاجرين الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله والرضوان ونصرة لله ورسوله، وأنهم هم الصادقون في إيمانهم وهجرتهم. وتفضيلهم عليالأنصار؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

٣- جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها؛ لأن الله أضاف الديار إليهم إضافة

تمليك، وقد منع من هذا بعض أهل العلم والأظهر- والله أعلم- جواز ذلك.

٤- الثناء على الأنصار الذين سكنوا دار الهجرة «المدينة» قبل المهاجرين وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين وسلامة قلوبهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم مع فاقتهم وفقرهم وشدة حاجتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

٥- أن للأنصار- رضي الله عنهم- نصيبًا في الفيء.

٦- أن من وقي شح نفسه فهو المفلح حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٧- في الثناء على المهاجرين بهجرتهم طلبًا للفضل من الله ورضوانه ونصرة له ولرسوله وأنهم هم الصادقون ترغيب في الهجرة في سبيل الله وبيان لفضلها بل ووجوبها إذا لم يستطع المسلم إظهار شعائر دينه. كما أن في الثناء على الأنصار ترغيبًا في السبق إلى الإيمان وسلامة القلوب من الحسد والضغائن، وفي الإيثار، والبعد عن الشح.

٨- الثناء على التابعين الذين يدعون ربهم بالمغفرة لهم ولإخوانهم السابقين بالإيمان وأن لا يجعل في قلوبهم غلًا للذين آمنوا، وبيان أن لهم نصيبًا في الفيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٩- مشروعية دعاء المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان، ودعاء بعضهم لبعض.

١٠- فضل المؤمنين السابقين على من جاؤوا بعدهم.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

١٢- وجوب سلامة القلوب بين المؤمنين، من الغل والحقد والحسد وسؤال الله

السلامة من ذلك.

١٣- إثبات صفة الرأفة التامة والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٤- ينبغي أن يكون المؤمن نقي السريرة يحب الخير لإخوانه، بعيدًا عن الأنانية وحب الذات، وسوء الظن والحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وغير ذلك من سَفْسَاف[1] الأخلاق؛ ليسعد بتوفيق الله في دينه ودنياه وأخراه.

* * *

(١) السَّفْسَاف: الرديء من كل شيء، والأمر الحقير.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل إخراجه بني النضير من ديارهم، وذكر حكم أموالهم التي ردت إلى المسلمين بدون قتال ثم ذكر موقف المنافقين ووعدهم ليهود بني النضير بمناصرتهم وربْط مصيرهم بمصيرهم، وتكذيب الله لهم في ذلك مبينًا رهبة اليهود وجبنهم، وأن مثل المنافقين في وعدهم لليهود بمناصرتهم كمثل الشيطان حين زينَّ للإنسان الكفر ثم تبرأ منه.

قوله: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ الآية.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قوله: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾، «يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم»(١).

وعن يزيد بن رومان: «أن رهطًا من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٥. وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٢.

فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وكانوا قد تحصنوا في الحصون من رسول الله ﷺ حين نزل بهم»(١).

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التعجب، أي: انظر لهؤلاء المنافقين وتعجب من قولهم وحالهم.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾، أي: إلى المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر كعبد الله ابن أبي وأمثاله.

وسُمي من يظهر الإيمان ويبطن الكفر بالمنافق أخذًا من نافقاء الجربوع التي يجعلها في نهاية جحره عليها قشرة رقيقة من الأرض فإذا دهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج، والمنافق له وجهان يأتي المؤمنين بوجه ويأتي غيرهم بوجه آخر، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وقال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم بالكفر يهود بني النضير وسموا إخوانهم؛ لأن الكفر يجمعهم.

فالمنافقون وإن كانوا بين ظهراني المؤمنين ويحسبون منهم في الظاهر فهم أشد كفرًا وعذابًا من جميع طوائف الكفار؛ لأنهم غصة في حلوق المؤمنين ويصعب التحرز منهم وينطلي أمرهم على الكثيرين، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. بخلاف الكافر الظاهر البين؛ ولهذا قال تعالى في عذابهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ موطئة للقسم، أي: والله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠، وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩١.

لئن أخرجتم من المدينة وأجليتم منها.

﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، اللام واقعة في جواب القسم، أي: إن مصيرنا مرتبط بمصيركم حتى في الخروج معكم إن أخرجتم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾، أي: لا نطيع في التخلي عنكم وعدم نصرتكم وعن كون مصيرنا مصيركم، ولا في الكلام فيكم أحدًا أبدًا أيًا كان، حتى ولو كان من المؤمنين الذين نحن معهم في الظاهر، أي: لا نطيع فيكم قول عاذل أو مخوف.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ الواو عاطفة، واللام واقعة في جواب القسم، أي: والله إن قوتلتم لننصرنكم، أي: وإن قاتلكم محمد ومن معه لننصرنكم معشر بني النضير عليهم بالقتال معكم.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: والله يشهد إنهم في دعواهم الخروج معهم إن أخرجوا وارتباط مصيرهم بمصيرهم وعدم التخلي عنهم لقول أحد أبدا ومناصرتهم إن قوتلوا لكاذبون.

فكل هذا كذب منهم شهد الله بكذبهم فيه، وليس هناك قول أكذب من قول شهد الله بكذبه وهو خير الشاهدين، كما في قوله تعالى عنهم في مطلع سورة المنافقين ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

قال ابن كثير(١): «والله يشهد إنهم لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا قولًا ومن نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه».

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ في الموضعين موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجوا لا يخرجون معهم لتمسكهم بالتراب والطين ونظرتهم المادية.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾، أي: والله لئن قوتلوا لا ينصرونهم لجبنهم وخوفهم.

وهذا قسم من الله عز وجل يؤكد كذبهم في دعوى الخروج معهم إن أخرجوا وعدم نصرتهم لهم إن قوتلوا بعد شهادته- عز وجل- بكذبهم وفي هذا دليل على صدق نبوته ﷺ. وهذا الذي حصل فإن عبد الله بن أبي رأس المنافقين أرسل إلى بني النضير- بعدما قاموا يتجهزون للخروج- أن لا تخرجوا فإن معي ألفين، يدخلون معكم حصونكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة، وحلفاؤكم غطفان فطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه- يحمل اللواء، فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي، وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على أن يخرجوا من المدينة- كما سبق بيانه(١).

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم. والتقدير: والله لئن نصروهم ليولن الأدبار.

والمعنى: ولو فرض أنهم أرادوا نصرهم وقاتلوا معهم مع أن هذا لا يمكن أن يقع منهم لأن الله شهد على كذبهم في ذلك وأقسم على عدم نصرتهم لهم. وأمر شهد الله بكذبه وأقسم على عدم وقوعه لا يمكن أن يكون ولكن الآية على سبيل الفرض والتنزل معهم، أي: لو فرض أنهم نصروهم.

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم. والجملة جواب القسم في قوله: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾، أي: ليولن المعركة أدبارهم وظهورهم فارين هاربين خوفًا من الموت، كما هي حالهم إذا خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ والمؤمنين يرجعون من

---

(١) انظر الكلام على قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [الآية ٢].

عرض الطريق ويبطئون ويثبطون ويفرون من الزحف، كما قال تعالى عنهم في سورة النساء: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٧٢].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الآية: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقوله هنا ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ يحتمل أيضا أن يراد به الطائفتان معًا المنافقون واليهود بمعنى أن يكون نصر المنافقين لبني النضير سببًا في هزيمتهم جميعًا وفرارهم من المعركة مولين الأدبار.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: ثم تكون النتيجة عدم نصرهم فتكون مناصرة المنافقين لهم سببا لهزيمتهم وعدم نصرهم وفرارهم من المعركة، وتولية الأدبار.

وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان في وعودهم سواء لإخوانهم الكافرين، أو للمؤمنين يكذبون، ويثبطون ويبطئون، ويفرون إن حضروا المعركة، يريدون المشاركة في الغنم دون الغرم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

﴿لَأَنتُمْ﴾ اللام لام الابتداء، أي: لأنتم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾، أي: خوفًا ﴿فِي صُدُورِهِم﴾، أي: في صدور المنافقين واليهود ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: أنهم يخافون منكم أيها المؤمنون أكثر من خوفهم من الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

وماذا يؤمَّل في قوم يخافون من الناس أشد من خوفهم من الله، وما أكثر من هذه حاله من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للمعنى المأخوذ من الجملة السابقة، أي: خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم.

﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا علم عندهم ولا معرفة ولا فقه في الدين. وإلا كيف يخافون من المخلوق الضعيف أشد من خوفهم من الخالق العظيم سبحانه.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «جدار» على الإفراد، وقرأ الباقون: ﴿جُدُرٍ﴾ على الجمع.

أي: لا يقاتلكم اليهود ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين، أي: إذا كنتم مجتمعين جيشًا واحدًا.

﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، أي: إلا وهم في قرى محصنة، أي: في داخل الحصون لا يبرزون لكم.

﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾، أي: أو من خلف حيطان وأسوار، فاعتمادهم في القتال على حصونهم وأسوارهم، ولا شجاعة لديهم، وفي هذا أعظم الذم لهم.

قال ابن كثير(١): «يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة».

ويحتمل أن تكون ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير الواو، أي: لا يقاتلكم اليهود حتى في حال اجتماعهم ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، أي: عداوتهم بينهم شديدة. والبأس: العداوة والتقاتل، قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فاليهود أعداء فيما بينهم وهم نحل وطوائف متنافرة متناحرة، وهم والمنافقون أعداء أيضا، وإن أظهروا المودة فيما بينهم.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ الخطاب في قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ للرسول ﷺ ولكل من يصلح له ممن يشاهد ظواهر اليهود والمنافقين، أي: تظنهم أيها الناظر إليهم أنهم مجتمعون على رأي واحد وقلب واحد.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن قلوبهم ﴿شَتَّىٰ﴾، أي: متفرقة جدا، وليسو على قلب رجل واحد ولا على رأي واحد.

قال ابن كثير(١): «أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لجبن المنافقين واليهود وعداوتهم فيما بينهم وتفرق قلوبهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، أي: بسبب أنهم قوم لا يعقلون، أي: لم يستفيدوا من عقولهم بمعرفة الحق والعمل به، ولهذا صاروا كمن لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ الكاف: للتشبيه، و«مثل» صفة وشبه، أي: مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد، وما حل بهم من الجلاء والنهاية المؤلمة، ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾، وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل هذا أو كمثل

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

كفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، أي: ذاقوا ونالوا وتجرعوا عقوبة كفرهم وبغيهم، هذا في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع حسًا ومعنى، وهو عذاب النار.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الكاف: للتشبيه، والمثل: الشبه. والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله- عز وجل- من الإنس والجن والحيوان. قال تبارك وتعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

والمراد بالشيطان هنا: إبليس وأعوانه.

والمعنى: مثل المنافقين في وعدهم لليهود بالخروج معهم ونصرهم، وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان حين قال للإنسان اكفر، فأمره بالكفر بالله وإنكاره وجحد شريعته وزين له ذلك.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾، أي: فلما كفر الإنسان قال الشيطان إني بريء منك، أي: تبرأ من الإنسان بعد أن أوقعه في الكفر وزينه له، وهذا فعله مع عامة الناس، كما قال الله عنه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- باب قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة- ما يقطع الصلاة ٧٠٢ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال ابن كثير[١] في كلامه على الآية ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ الآية. «يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ثم لما حقت الحقائق وجدّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في ذلك كمثل الشيطان إذ سول للإنسان- والعياذ بالله- الكفر، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾».

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب- قال: فنزل الراهب ففجر بها، فحملت فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.. فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان، فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل»[٢].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٢، وأخرجه بمعناه عن علي رضي الله عنه ٢٢/ ٥٤١. وقد ذكرهما ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠١- ١٠٢- نقلًا عن الطبري وقال بعد ذكر قصة ابن مسعود =

والله أعلم بصحة هذه القصة وما جاء في معناها. والآية أعم من ذلك كله، فالشيطان لا يترك أحدًا من الإنس، بل ولا من الجن إلا زين له الكفر، فإن عجز عنه نقله إلى البدعة، فإن عجز عنه نقله إلى ترك الواجب، فإن عجز عنه نقله إلى فعل المحرم، فإن عجز عنه شغله بالمفضول عن الفاضل، فإن عجز عنه شغله بالمباحات، فإن عجز وأيس منه سلط عليه من يؤذيه من شياطين الجن والإنس، لكن ذلك لا يضره، حيث سلم له دينه، بل هو زيادة أجر له.

والشيطان في هذه المقالة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كاذب غير صادق إذ لو كان يخاف الله حقًا ما خالف أمره، واستكبر عن طاعته قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد أقسم أنه سيعمل جاهدًا في إغواء بني آدم، كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾، أي: فكانت نهاية الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الفاعل له، ومصيرهما أنهما في النار خالدين فيها وكذلك عاقبة ونهاية المنافقين واليهود الهزيمة والبوار في الدنيا، وفي الآخرة نهايتهم إلى النار وبئس القرار.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: الخلود في النار جزاء وعقوبة الظالمين، الذين وضعوا العبادة في غير موضعها فعبدوا غير الله، وهذا جزاء كل ظالم.

والظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله عز وجل كما قال لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

=

رضي الله عنه «وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص. والله أعلم».

الفوائد والأحكام:

١- وعد المنافقين وحلفهم لإخوانهم الكفرة من أهل الكتاب بوحدة مصيرهم وأنهم إن أخرجوا ليخرجون معهم وإن قوتلوا لينصرونهم، وتكذيب الله عز وجل- لهم والتعجيب من حالهم ومقالهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

٢- إثبات أخوة المنافقين للكفرة من أهل الكتاب لأن الكفر يجمعهم، بل المنافقون أشد كفرًا من جميع الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أن من صفات المنافقين الحلف الكاذب وإخلاف الوعود والجبن والفرار من الزحف؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

٤- هزيمة أهل الكتاب وعدم نصرهم لمحاربتهم الله ورسوله واعتمادهم على المنافقين ووعدهم الكاذبة لهم بنصرهم.

٥- خوف المنافقين واليهود من المؤمنين أشد من خوفهم من الله لعدم علمهم وفقههم في الدين وعدم معرفتهم بعظمة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٦- أن من خاف من الناس أشد من خوفه من الله، فهو غير فقيه؛ لقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

٧- شدة جبن اليهود وعدم قدرتهم على مبارزة المؤمنين ومقاتلتهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾.

٨- شدة عداوة اليهود فيما بينهم وشدة العداوة بينهم وبين المنافقين، يظنهم الناظر إليهم مجتمعين وقلوبهم متفرقة متعادية متنافرة؛ لأنهم لم يعقلوا ما ينفعهم في دينهم وآخرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

٩- لا ينبغي الاغترار بالمظاهر وإنما المعوّل عليه ما في المخبر.

١٠- أن من لم ينتفع بعقله بمعرفة ربه وما يجب له، فهو غير عاقل؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

١١- أن مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد وما حل بهم من الجلاء والعقوبة والنهاية المؤلمة كمثل الذين من قبلهم قريبًا، وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل هذا، وكفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، وما أعد لهم جميعًا من العذاب الأليم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٢- الجمع للكفار بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بالنار.

١٣- أن مثل المنافقين في وعدهم اليهود بالخروج معهم ونصرهم وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان في أمره الإنسان بالكفر وتبريه منه زعمًا منه أنه يخاف الله- وهو كاذب؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٥- أن مصير الشيطان والإنسان المتبع له على الكفر الخلود في النار، وهو مصير المنافقين واليهود مجازاة لهم على ظلمهم وهو مصير كل ظالم وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٦- خلود أهل النار فيها، وأن عذابها لا ينقطع.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

عن جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لِما رأى بهم من الفاقة قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الآية: ١٨].

تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة. فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

صدَّر- عز وجل- خطابه للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم ٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.

بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الأوامر واجتناب ما بعده من النواهي يعد من مقتضيات الإيمان.

كما قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»(١).

وقد اجتمع في هذه الآيات أمر، بل عدة أوامر تأمر بخير، ونهي عن شر.

وتقوى الله- عز وجل- امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، «الغد» في الأصل اليوم الذي بعد يومك.

والأيام ثلاثة: يوم أمس، وقد مضى، واليوم الحاضر، ويوم غد لا يدري الإنسان أيدركه أم لا.

والمراد بـ«غد» يوم القيامة، وسمي بـ«غد»؛ لتحقق وقرب وقوعه؛ لأنه آت، وكل آت قريب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

قال قتادة: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد وغد يوم القيامة»(٢).

والمعنى: ولتنظر ولتتأمل كل نفس الذي قدمته ليوم القيامة من الأعمال، وهل يصلح أن تلقى الله- عز وجل- به يوم العرض الأكبر على الله أو لا يصلح: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦- ٥٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٠٢، الأثر ٥٠٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٧.

وقبل أن يقول الإنسان: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

قال ابن القيم(١): «فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨]»(٢).

فوا أسفا على أعمار وأوقات تتصرم وتنقضي باللهو والغفلات، والانشغال بجمع حطام الدنيا الفاني، والاستمتاع بالملذات، دون الاستعداد لذلك اليوم وما فيه من الغبن والندامة والحسرات.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيد للأمر الأول بتقوى الله، يدل على أهمية تقوى الله وعظم شأنها فهي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وبها الفلاح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾، أي: ذو خبرة واسعة واطلاع وعلم، فهو مطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها. واطلاعه عز وجل على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، «ما» موصولة أو مصدرية، أي: خبير بالذي تعملون، أو بعملكم أي: ذو خبرة وعلم بأعمالكم خيرها وشرها ولا يخفى عليه منها شيء.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦.

(٢) انظر «الحلية» لأبي نعيم ١/ ٥٢.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالفه؛ لأن مقتضى كونه- عز وجل- مطلعًا على أعمال العباد أن يحاسبهم، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون، كالذين نسوا الله وذكره والعمل بطاعته من أهل الكفر والمعاصي.

﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: فأنساهم العمل الصالح لأنفسهم مجازاة لهم على نسيانهم له عز وجل ولذكره وطاعته، والجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

قال ابن القيم(١): «فلما نسوا ربهم نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

فعاقب من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه.

قال: ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم. وأما إنساؤه نفسه، فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، بنسيه ذلك جميعه، فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضا: فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦- ٤٢٧.

إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة، فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وحياتها الأبدية في النعيم المقيم».

ويؤخذ من مفهوم الآية الأمر بذكر الله عز وجل وعدم نسيانه، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال ابن القيم(١) بعد ما ذكر ما يترتب على نسيان العبد نفسه من كون أمره فرطًا وضياع مصالحه وتعرضه للهلاك والخيبة والخسران قال: «ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطبًا به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم. فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لابد منه، وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه، ونسيه في العذاب يوم القيامة».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لشأنهم.

﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، أي: هم الخارجون عن طاعة الله- عز وجل- المخالفون

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٨- ٤٢٩.

لأمره المرتكبون لنهيه.

وأكد الفسق فيهم بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرّفة الطرفين، مع ضمير الفصل «هم».

وبقدر ما يغفل الإنسان عن ذكر الله- عز وجل- يكون نصيبه من هذا الوصف المشين.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، «لا» نافية أي: لا يستوي أصحاب النار وساكنوها وملازموها، وهم الكافرون والفاسقون، وأصحاب الجنة، وهم ساكنوها وملازموها من المؤمنين المتقين، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء عند الله وفي حكمه، وفيما أعده لكل منهم، وفي حال كل منهم من حيث السعادة والشقاوة والربح والخسران ولهذا قال:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أي: هم الفائزون حقًّا بالأجر والثواب والناجون من العقوبة والعذاب. وأكد الفوز فيهم بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين مع ضمير الفصل «هم».

فتأمل- أخي الكريم- في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فمن الذي نفى التساوي بين هؤلاء وهؤلاء؟ هو العليم الحكيم العلي العظيم سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ١٨- ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ [غافر: ٥٨].

فشتان ما بين الفريقين:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾.

«لو» شرطية غير عاملة، وهي: حرف امتناع لامتناع، أي: امتنع رؤيتك خشوع الجبل خشوع عبادة وتكليف وتصدعه من خشية الله؛ لعدم إنزال القرآن عليه.

وإلا فجميع المخلوقات من الجمادات والحيوانات ناطقها وبهيمها كلها خاضعة منقادة لله- عز وجل- مسبحة بحمده، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فيدل قوله: ﴿أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ على علو الله عز وجل على خلقه، كما يدل على أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق- كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافًا للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وقد امتحن بسبب هذا القول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله وغيره من العلماء فصبر رحمه الله وتصدى لهذه الفتنة وفنَّدها.

ولهذا قال علي بن المديني: «أعز الله الإسلام برجلين أبو بكر يوم الردة، وابن حنبل يوم المحنة»(٢).

---

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية انظر ص١١.

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» ٥/ ٢٧٨، و«تاريخ بغداد» ٦/ ٩٠.

أي: يوم المحنة بالقول بخلق القرآن.

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ جواب الشرط «لو»، واللام رابطة لجواب الشرط، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿خَٰشِعًا﴾، أي: ذليلًا خاضعًا ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾، أي: متشققًا.

﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، أي: من الخوف الشديد من الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والخشية: أشد الخوف، فهي أخص منه؛ ولهذا قالوا: الخشية لا تكون إلا مع عظم المخشي، وعلم الخاشي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والمراد: بيان أن الجبل على ما هو عليه من الشدة والصلابة والقساوة وعظم الخلقة لو أنزل القرآن عليه وسمعه وفهم ما فيه من دلائل عظمة الله- عز وجل- والأحكام العظيمة، والمواعظ البليغة، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب والثواب والعقاب وغير ذلك؛ لخشع وتصدع من خشية الله وخوفه، فكيف لا تخشع ولا تلين ولا تتصدع قلوب كثير من الناس، وقد أنزل القرآن عليهم وسمعوه وفهموه فصارت قلوب كثير من الناس أقسى من الجبال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: لكان هذا القرآن.

ولهذا أبت السموات والأرض والجبال مع عظمها حمل الأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فسبحان من جعل الجبال لو أنزل عليها القرآن تخشع وتخضع وتلين وهي من

الحجارة مع شدتها وصلابتها[١] بينما تقسو قلوب كثير من الناس فلا تتأثر بالقرآن ولا تخضع، ولا تلين، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الإشارة للأمثال التي يضربها الله عز وجل في القرآن كما في قوله تعالى قبل هذا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢١].

والأمثال: جمع «مَثَل»، وهو تشبيه شيء أو أمر معنوي بشيء أو أمر حسي؛ لإيضاح الأمر المعنوي وتقريبه في الأذهان.

وهذا كثير في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى في تشبيه الإيمان في قلب المؤمن: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتفكروا.

---

(١) ومن هذا حنين الجذع إليه ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه» أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٨٣، وأخرجه بمعناه من حديث جابر رضي الله عنه ٣٥٨٤، ٣٥٨٥.

والتفكر: استعمال الفكر والعقل الذي منحه الله للإنسان وميزه به عن الحيوان، والتأمل في آيات الله- عز وجل- الكونية والشرعية، وفيما فيه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تكريمًا وتشريفًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من أمر، والكف عما بعده من نهي وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- وجوب تقوى الله، والاستعداد ليوم القيامة، وتأكيد وجوب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾.

٣- الإشارة إلى قرب القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾.

٤- إثبات كمال خبرة الله- عز وجل- وعلمه بأعمال العباد، وفي هذا وعد ووعيد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

٥- تحذير المؤمنين ونهيهم أن يكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم والعمل لخلاصها وسعادتها وهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، فمن نسي الله أنساه اللهُ نفسه.

٧- إثبات الفرق الشاسع والبون الواسع بين أصحاب النار، وأصحاب الجنة فهؤلاء هم الفائزون بالنعيم والخير العميم، وأولئك في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

٨- إثبات وجود الجنة والنار، وأنه لا ثمة في الآخرة غيرهما.

٩- إثبات علو الله عز وجل على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا﴾.

١٠- أن القرآن الكريم منزل من عند الله- عز وجل- غير مخلوق- كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

١١- إثبات عظمة القرآن، وشدة تأثيره؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

١٢- قساوة قلوب الفاسقين الكافرين التي لم تلن ولم تخشع لذكر الله- عز وجل- وكلامه، وأنها أشد قسوة من الجبال التي لو أنزل عليها هذا القرآن لخشعت وتصدعت من خشية الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

١٣- وجوب الخشوع لله- عز وجل- والذل والخضوع له والخوف منه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

١٤- الامتنان بضرب الأمثال للناس؛ لأجل أن يتفكروا في آيات الله- عز وجل- ويتعظوا بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

هذا ثناء من الله عز وجل على نفسه، بذكر عدد من أسمائه وصفاته، وأعظم ما في القرآن ثناء الله عز وجل على نفسه.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الغيبة تعظيمًا لنفسه لأنه هو العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى:٤].

﴿ٱللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، وهو علم على ذات الرب- عز وجل- وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز وجل تابعة له، وقد يأتي تابعًا كما في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. فـ«الله» تابع للاسم الذي قبله، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب بدلًا، أو عطف بيان.

﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: الذي لا معبود بحق سواه، ولا رب غيره، فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نفي للعبادة عما سواه، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثبات العبادة له وحده عز وجل.

وهذا معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» نفي وإثبات، نفي العبادة عما سواه سبحانه، وإثبات العبادة له وحده. فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: السر وما غاب عن الخلق، والشهادة: العلانية وما يشاهده الخلق.

قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقدّم الغيب على الشهادة في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ إشارة أن الغيب والشهادة عنده سواء، كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، «الرحمن» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل: الأول على وزن «فعلان». والثاني على وزن «فعيل». و«فعلان» أبلغ من «فعيل»؛ ولهذا قدم «الرحمن» على «الرحيم» هنا، وفي البسملة والفاتحة.

ويدل كل من «الرحمن» و«الرحيم» في حال انفراد كل منهما عن الآخر على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة له- عز وجل- ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق ورحمة خاصة بالمؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥] والناس عام للمؤمنين وغيرهم.

قال ابن كثير(١) في كلامه على قوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: «والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما».

وفي حال اجتماع «الرحمن» مع «الرحيم»، كما في هذه الآية وفي البسملة والفاتحة يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله- عز وجل- ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها- سبحانه- إلى من شاء من خلقه.

كما يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق، ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين- كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و«الرحمن» لا يسمى به غير الله، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١].

أما «الرحيم» فيجوز أن يسمى ويوصف به غير الله، كما قال تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق، وتوطئة وتمهيد لما بعده.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾، أي: مالك الكون كله المتصرف فيه، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ﴾ [طه: ١١٤، المؤمنون: ١١٦]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المطهر، المعظم الممجد، كما قال عز وجل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»(١).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ كما في الحديث: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»(٢).

فهو السلام: الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومنه عز وجل السلام، فهو عز وجل المسلم عباده من الآفات والشرور، والذي يَسْلَمُ خلقه من أن يظلمهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأحمد ٢/ ٣٧٦.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨- من حديث ثوبان- رضي الله عنه.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس- رضي الله عنهما-: «أمَّن خلقه من أن يظلمهم[١]». واختاره الطبري[٢].

وقال ابن زيد: «صدَّق عباده المؤمنين في إيمانهم به»[٣].

وقال السعدي[٤]: «المصدق لأنبيائه ورسله بما جاؤوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات».

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «المهيمن: الشهيد»[٥].

فيكون كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣].

وقيل: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الأمين، وقيل: المصدق، وقيل: الرقيب والحفيظ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التامة، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠].

فهو- عز وجل- صاحب العزة التامة، بأنواعها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر وقهر خلقه على ما يشاء، وأذعن له سائر الخلق، والذي يجبر الكسير والمصاب ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ذو الكبرياء والعظمة كما قال تعالى في الحديث القدسي: «العظمة

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٤٥.

(٥) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٣.

إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منها عذبته»[١].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تنزه الله- عز وجل- وتقدس وتعالى عما يشركون معه من الشركاء.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾، أي: الذي خلق الخلق. وأصل الخلق: الإبداع والتقدير، فالخالق: المبدع المقدر لما يوجده.

قال ابن تيمية[٢]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها».

وقال حافظ الحكمي[٣]: «الخالق: المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره».

﴿ٱلْبَارِئُ﴾، أي: الذي برأ الخلق.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الممثل والمشكل للصور على ما يريد.

قال الزمخشري[٤]: «﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾: المقدر لما يوجده، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: الممثل».

وقال القرطبي[٥]: «البارئ»: المنشئ المخترع، و«المصور» مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة، فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما، ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٦٠.

(٣) في «معارج القبول» ١/ ١٣١.

(٤) في «الكشاف» ٤/ ٨٥.

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٤٨.

عن غيره بسمتها».

فخلق، أي: قدر، ثم برأ، أي: أنشأ واخترع، ثم صور، أي: جعل التخطيط والشكل المناسب.

قال ابن كثير[١]: «الخلق: التقدير، والبراء: هو الفري، وهو: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدّر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري[٢]

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: ما قدّرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدّر الجلاّد ثم فَرَى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده».

وقوله: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، أي: الذي إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٨]؛ ولهذا قال «المصور» أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها».

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: له عز وجل- الأسماء الحسنى من كل وجه ألفاظها ومعانيها ودلالاتها وآثارها وحقائقها وغير ذلك، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[٣].

وفي رواية زيادة: «هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٦.

(٢) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر «ديوانه» ص٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤١٠، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٦، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الشهيد، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]: «تعيينها ليس من كلام الرسول ﷺ باتفاق أهل العلم بحديثه».

وقال ابن كثير[(٣)]: «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».

ثم قال ابن كثير: «ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة

---

(١) أخرجها الترمذي في الدعوات ٣٥٠٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦١، واللفظ للترمذي، وقال: «هذا حديث غريب.. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث».

(٢) في «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٨٢.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٥١٦- ٥١٧.

والتسعين بدليل ما رواه أحمد... عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ- أنه قال: «ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أعلمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»(١).

قال ابن كثير: «وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم- فالله أعلم».

وقد ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في كتابه «القواعد المثلى» أنه جمع تسعة وتسعين اسمًا مما ظهر له من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. قال:

«فمن كتاب الله: الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، البارئ، البر، البصير، التواب، الجبار، الحافظ الحسيب، الحفيظ، الحفي، الحق، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، القيوم، الخبير، الخالق، الخلاق، الرؤوف، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القوي، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصور، المقتدر، المقيت،

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، والحاكم ١/ ٥٠٩- ٥١٠، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٣٦ وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان».

الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الولي، الوهاب.

ومن سنة رسول الله ﷺ: الجميل، الجواد، الحكم، الحيي، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر».

قال الشيخ: هذا ما اخترناه بالتتبع واحد وثمانون اسمًا في كتاب الله تعالى وثمانية عشر اسمًا في سنة رسول الله ﷺ وإن كان عندنا تردد في إدخال «الحفي» لأنه إنما ورد مقيدًا في قوله- تعالى- عن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وكذلك «المحسن» لأننا لم نطلع على رواته في الطبراني، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

قال: ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافًا مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام»(١).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يسبح له جميع الذي في السموات والأرض، من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنبات والجماد، وسائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: وهو عز وجل ذو العزة التامة، والحكم النافذ والحكمة البالغة.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ مشتق من العزة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ مشتق من الحكم ومن الحكمة، فله عز وجل الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

---

(١) انظر «القواعد المثلى» ص١٥- ١٦.

عن معقل بن يسار- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه بذكر أسمائه الحسنى الدالة على صفاته العليا؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٢- إثبات اسمه- عز وجل- الأعظم «الله»، وأنه عز وجل المعبود الذي لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾.

٣- علم الله الواسع المحيط بكل شيء مما يُسر ويظهر، ومما غاب عن الخلق ومما يشاهد؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٤- أن علمه عز وجل بالغيب كعلمه بالشهادة؛ لهذا قدم العلم بالغيب على الشهادة.

٥- إثبات اسميه عز وجل «الرحمن» و«الرحيم» وما يدلان عليه من صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٦- أن «الرحمن» أبلغ وأخص من «الرحيم» لهذا قدم عليه.

٧- تأكيد ألوهيته عز وجل- وأنه لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- إثبات اسميه- عز وجل- «الملك» و«القدوس» وسعة ملكه وتمام تصرفه

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦، والترمذي في «فضائل القرآن» ٢٩٢٢. وقال الترمذي: «حديث غريب».

وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾.

٩- إثبات اسميه- عز وجل- «السلام» و«المؤمن» وما يدلان عليه من الصفة، فهو السلام الذي لا يعتريه نقص ولا عيب والمسلم عباده من الآفات والمؤمن الذي لا يظلم أحد عنده، المصدق لأنبيائه ورسله وعباده في إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾.

١٠- إثبات أسمائه- عز وجل- «المهيمن» و«العزيز» و«الجبار» و«المتكبر»، وما يؤخذ منها من إثبات هيمنته عز وجل وشهادته على الخلق ورقابته عليهم وحفظه لهم، وأنه عز وجل ذو العزة التامة بأنواعها عزة القوة، وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع، والجبار الذي أذعن له سائر الخلق والذي يجبر المصاب، ذو الكبرياء والعظمة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾.

١١- تنزيه الله- عز وجل- لنفسه عن الشريك، وأمره العباد بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٢- إثبات أسمائه عز وجل: «الخالق» و«البارئ» و«المصور»، وما يؤخذ منها من إثبات صفة الخلق والتقدير والبرء والتصوير؛ له عز وجل، لجميع المخلوقات على أحسن الخلق وأجمل الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

١٣- إثبات أن لله- عز وجل- الأسماء الحسنى كلها بلا حصر، الدالة على الصفات العليا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

١٤- تسبيح جميع ما في السموات والأرض لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٥- تأكيد تسميته عز وجل- بالعزيز وتأكيد عزته وقوته وقهره وامتناعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

١٦- إثبات اسم الله «الحكيم» وما يؤخذ منه من إثبات صفة الحكم التام له عز

وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والشرعي والجزائي والحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٧- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الحكيم»، كمالٌ إلى كمال.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُمْتَحِنَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الممتحنة» لقوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الآية:١٠].

و«الممتَحِـنة» تقرأ بفتح الحاء وكسرها، فالفتح على أنها صفة للمرأة التي نزلت فيها، والكسر على أنها صفة للسورة.

وتسمى: «سورة الامتحان»، و«سورة المودة».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بنهي المؤمنين عن موالاة الكافرين وتهييجهم على عداوتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

٢- الدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معه في براءتهم من قومهم الكفار: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

٣- وعد الله تعالى بأن يجعل بين المؤمنين وبين أرحامهم الذين أوجب عليهم معاداتهم «مودة» بأن يدخل هؤلاء في الإسلام: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

٤- نفيه عز وجل أن ينهى المؤمنين عن بر الكفار الذين لم يقاتلوهم في الدين والإقساط إليهم، وإنما نهاهم عن الذين قاتلوهم في الدين، وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم أن يتولوهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾.

٥- بيان حكم النساء إذا أتين إلى المؤمنين مهاجرات وتركن أزواجهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

٦- بيان الحكم إذا ذهبت إحدى زوجات المؤمنين إلى الكفار: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١﴾.

٧- أمر النبي ﷺ بمبايعة النساء إذا أتين مؤمنات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾.

٨- ختمت السورة بمثل ما بدئت به وهو النهي عن موالاة الكفار؛ تأكيدًا لذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

سبب النـزول:

لما نقض أهل مكة العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ أمر النبي ﷺ بالتجهز لغزوهم، وسأل الله- عز وجل- أن يعمي عليهم خبره، لكن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كتب إليهم كتابًا يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم؛ ليتخذ بذلك عندهم يدًا يحمون بها قرابته، فأنزل الله هذه السورة(١).

فعن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ(٢) فإن بها ظعينة(٣) معها كتاب فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى(٤) بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب، قلنا لتُخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها(٥) فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٩، «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٣٩، «البداية والنهاية» ٦/ ٥١٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٠٨.

(٢) روضة خاخ على اثني عشر ميلا من المدينة.

(٣) أي: امرأة.

(٤) أي: تتسابق.

(٥) أي: من ذوائبها المضفورة.

أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ونزلت فيه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾»[1].

وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير ابن العوام، وكلنا فارس. وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأنخناها فالتمسنا، فلم نر كتابًا، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها[2] وهي محتجزة بكساء فأخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله أردت أن تكون لي يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال: «صدق لا تقولوا له إلا خيرًا» فقال عمر: إنه قد خان

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- فضل من شهد بدرًا ٤٢٧٤، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة ٢٤٩٤، وأبو داود في الجهاد ٢٦٥٠، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٥، وأحمد ١/ ٧٩- ٨٠.

(٢) الحجزة: معقد الإزار.

الله ورسوله والمؤمنين، فدعني، فلأضرب عنقه، فقال: «أليس من أهل بدر؟، فقال: لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم». فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»(١).

وفي رواية: «فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الآية»(٢).

وفي رواية: «فأنزل الله- عز وجل- في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إلى آخر القصة»(٣).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، «لا» ناهية، والنهي هنا يفيد التحريم، أي: لا تجعلوا ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهم الكفار، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أي: أولياء لكم وأنصارًا.

ويؤخذ من الآية أن الكفار كما هم أعداء الله- عز وجل- هم أيضًا أعداء للمؤمنين فلا يمكن لمن كان عدوًا لله- عز وجل- أن يكون وليا حقًا للمؤمنين صادقًا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي- فضل من شهد بدرًا ٣٩٨٣.

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٠- ٥٦١.

(٣) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ٣٩٨- ٣٩٩، «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٢- ٥٦٣.

في موالاته لهم- وإن زعم ذلك- فعدو الله عدو لأولياء الله، وولي الله ولي لأولياء الله.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وفي هذه الآيات أشد التهديد والوعيد، وأعظم الزجر عن موالاة الكافرين.

وعن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- يقول: «ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالًا: واحدًا، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر. قال: فضرب لنا مثلًا منها وترك سائرها، قال: «إن قومًا كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة»(١).

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أي: توادونهم، وتفعلون معهم وتقولون لهم ما يوحي بمودتكم لهم، وهذا كقوله بعد: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الواو: للحال، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنهم قد كفروا بالذي جاءكم من الحق من عند الله على لسان رسوله ﷺ من القرآن والسنة، أي: جحدوه وأنكروه، ولم يؤمنوا به.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الجملة مستأنفة، كالتفسير لكفرهم، أو حال من كفروا.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠٧.

أي: أنهم أخرجوا الرسول ﷺ وإياكم أيها المؤمنون، فاضطروكم إلى الخروج والهجرة من مكة إلى المدينة، وما زالوا يخرجون من آمن؛ ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

ولم يقل: أخرجوا الرسول وإياكم، إشارة إلى استمرارهم على أذية من آمن واضطراره إلى الخروج والهجرة.

﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أي: بسبب إيمانكم بالله ربكم، أي: لا سبب لإخراجكم سوى إيمانكم بالله ربكم، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨، ٩]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن كثير[(١)]: «وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده».

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾، ﴿جِهَٰدًا﴾ مفعول لأجله.

أي: إن كنتم خرجتم وهاجرتم؛ لأجل الجهاد في سبيلي. والجهاد: بذل الجهد والطاقة والوسع في قتال الكفار، وفي طاعة الله عز وجل.

﴿فِى سَبِيلِى﴾، أي: لإعلاء كلمتي ونصر ديني، كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله- عز وجل-»[(٢)].

﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾، أي: طلبًا لمرضاتي عنكم.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١١٢.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣- من حديث أبي موسى- رضي الله عنه.

والمعنى: إن كنتم خرجتم من مكة؛ لأجل الجهاد في سبيلي، وطلبًا لرضائي، صادقين في ذلك، فلا تتخذوهم أولياء.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أي: فكيف تسرون إليهم بالمودة؟ أو فلم تسرون إليهم بالمودة.

﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ الواو: حالية و«ما» في الموضعين موصولة، أو مصدرية، أي: والحال أني أنا أعلم بالذي أخفيتم والذي أعلنتم، أو بإخفائكم وإعلانكم، أي: أعلم بالذي تسرون به وتضمرونه، والذي تجهرون به وتعلنونه.

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

ومن علمه- عز وجل- بما أُخفي وما أُعلن- علمه بما فعل حاطب- رضي الله عنه.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية و«يفعله» فعل الشرط، أي: ومن يفعله منكم أيها المؤمنون.

والضمير في قوله: ﴿يَفْعَلْهُ﴾ يعود إلى المفهوم من النهي السابق من اتخاذ الكافرين أولياء والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ جواب الشرط، وقرن بالفاء لاتصاله بـ«قد».

أي: فقد تاه وبعد عن وسط الطريق، أي: عن الطريق العدل، والطريق السوي، وأخطأ طريق الحق والصواب، قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾، أي: إن قدروا عليكم وتمكنوا منكم وظفروا بكم.

﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾، أي: يظهرون لكم عداوتهم الشديدة.

﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾، أي: ويمدوا إليكم أيديهم بالبطش، وألسنتهم بالقول.

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾، أي: بما يسوؤكم ويؤذيكم وينال منكم من الفعل السيء والقول السيء، أي: فلو أتيحت لهم فرصة لما ادخروا وسعًا في أذيتكم بالفعل والقول.

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، «لو» مصدرية، أي: تمنوا وأحبوا كفركم، أو أن تكفروا، فهم لا يحبون أن يحصل المؤمنون على أي خير.

ويؤخذ من الآية أن الشيطان وجنده وأعوانه من شياطين الإنس والجن لا يرضيهم ولا يقنعهم ولا يكفيهم إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى في أتباع الشهوات: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾، أي: لن تغني عنكم ولن تدفع عنكم ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾، أي: قراباتكم عمومًا ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ خصوصًا- فهو من عطف الخاص على العام.

والأرحام: جمع رحم، وهي في الأصل موضع تكوّن الجنين، والمراد بهم هنا القرابة، وسُمي القرابة أرحامًا؛ لأنهم خرجوا من رحم واحد، أو لأنهم يتراحمون فيما

بينهم.

والأولاد: جمع ولد، يشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، وهم ذريته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ عاصم ويعقوب بفتح الياء وكسر الصاد مخففة: ﴿يَفْصِلُ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة: «يُفَصِّلُ».

وقرأ الباقون بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد مخففة: «يُفْصَلُ».

وسمي يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

ولقيام الأشهاد فيه لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الروح والملائكة فيه صفًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨].

ولقيام الحساب والعدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومعنى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، أي: يمايز ويفرِّق بينكم، فلا أحد ينفع أو يغني عن أحد، ولا أحد ينتصر أو يدفع عن أحد عذاب الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ففي ذلك اليوم لا أحد ينفع أحدًا، ولا أحد ينتصر لأحد، بخلاف ما كان عليه الحال في الدنيا، حيث يقول قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بدون سلاح(١)

وقد يحتمل أن معنى قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، أي: يحكم بينكم بإعطاء كل منكم حقه من الآخر، ولو كان أقرب الناس إليه كأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

ويؤخذ من ذلك أنه لا يجوز أن يواد الإنسان أو يوالي الكفار لأجل كونهم من قرابته، أو أولاده، فإنهم لا ينفعونه يوم القيامة، بل تعود عليه موالاتهم بالضرر يوم القيامة.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»(٢).

ولو كان أحد يملك لقرابته في ذلك اليوم نفعًا أو دفعًا لكان أولى الناس بذلك سيد الخلق نبينا محمد ﷺ فأمه وأبوه في النار.

فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما مضى دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار»(٣).

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه- انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣.

وقد أخرجه الترمذي في الزهد ٣٤١٤ عنها بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان- بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ٢٠٣. وأبو داود في السنة- باب في =

ولم يستطع ﷺ هداية عمه أبي طالب الذي كانت له الأيادي البيضاء في الدفاع عنه ﷺ.

ولما توفي أبو طالب عم النبي ﷺ على الشرك، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣](١).

وروي أنه قال: «لا أزال أستغفر لك ربي حتى يردني» فاستغفر له بعدما مات. فقال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا قد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد ﷺ يستغفر لعمه، فاستغفروا للمشركين حتى نزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١]».

ورُوِيَ: «أنه ﷺ استأذن ربه في الاستغفار لأمه، فلم يأذن له فيه، ونزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ حتى ختم الآية ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤](٢).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم.

﴿بَصِيرٞ﴾، أي: مطلع عليه، ذو علم وبصر به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر- ففي هذا وعد لمن اتقى الله وأطاعه، ووعيد

=

ذراري المشركين ٤٧١٨، وأحمد ٣/ ١١٩.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٧٥، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥- من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص١٧٨، «لباب النقول» ص١٢٦، ١٢٧، «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٥٨- ١٦١، ٨/ ١١٣.

لمن خالف أمره وعصاه.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من الطلب، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- نهي المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم الكفار ومودتهم، وتأكيد ذلك، وتهييج المؤمنين على عداوتهم؛ لكفرهم بما جاءهم من الحق، وإخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة بلا ذنب، إلا أنهم آمنوا بربهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٣- أن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين ومن عادى المؤمنين فهو عدو لله.

٤- تقرير أن ما جاء المؤمنين من عند الله- عز وجل- هو الحق، وتقرير صدق رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٥- إخراج المشركين للرسول ﷺ والمؤمنين من مكة بسبب إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتشريفهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

٧- أن على المؤمنين الصادقين في هجرتهم وجهادهم وفي إيمانهم البعد عن موالاة وموادة الكافرين، فإن موالاتهم تنافي الإخلاص لله في هذه الأعمال ولا تجتمع معها؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

٨- علم الله عز وجل المحيط بما يخفيه العباد في قلوبهم وما يعلنونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

٩- أن من والى الكافرين ووادهم، فقد ضل عن الطريق المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٠- تربص الكافرين الدوائر بالمؤمنين، وظهور شدة عداوتهم لهم لو تمكنوا منهم وتطاولهم عليهم بأيديهم وألسنتهم بالسوء ومودتهم لو يكفرون؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

١١- لا أحد من الأقارب والأولاد وغيرهم ينفع أو يغني عن أحد يوم القيامة أو ينتصر له ويدفع عنه عذاب الله، بل يفصل عز وجل بينهم، يوم القيامة، ويأخذ لكل منهم حقه من الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾.

١٢- لا يجوز موالاة وموادة الكفار لقرابتهم.

١٣- علم الله- عز وجل- واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد، فيجازي كلًا بما عمل، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن اتخاذ الكافرين أولياء، بعد ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة- رضي الله عنه- من الكتابة لهم، والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها، وذكر عز وجل ما يهيج على عداوتهم من كفرهم، وإخراجهم للرسول ﷺ والمؤمنين، وتربصهم بالمؤمنين، وغير ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يقتدى به في هذا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام والذين معه من المؤمنين في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم، وإظهار العداوة لهم حتى يؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، «قد» حرف تحقيق، والخطاب للمؤمنين. والأسوة: القدوة، أي: قد كانت لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة طيبة، ومثل يحتذى في الخير والأمور الحسنة؛ لأن القدوة نوعان: قدوة حسنة طيبة، وقدوة سيئة خبيثة.

﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، أي: في نبي الله إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام والذين معه من الأنبياء والمؤمنين في براءتهم من قومهم الكافرين وعدم موالاتهم ومحبتهم لهم.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾، «إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: حين قالوا لقومهم المشركين.

﴿إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ﴾ برآء: جمع «بريء»، يقال في جمعه: برآء، وأبرياء، وبريئون، جمع مذكر سالم، أي: إنا تبرأنا منكم فلسنا منكم ولستم منا.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: وتبرأنا من عبادتكم، ومن الذي تعبدونه من دون الله من المعبودات، فلا نعبد شيئًا منها، بل نعبد الله وحده.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، أي: أنكرناكم، وأنكرنا دينكم وطريقتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾، أي: وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء لكم، ووجب علينا إظهار ذلك لكم ﴿أَبَدًا﴾ من الآن وعلى الدوام ما دمتم على الكفر.

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ حتى للغاية، أي: إلى غاية أن تؤمنوا بالله وحده لا شريك له، بالإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وتعبدوه وحده.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، «إلا» أداة استثناء، و«قول» مستثنى منصوب من قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أي: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فليس لكم فيه أسوة، أو لا تتأسوا به في ذلك.

قال الطبري[1]: «إلا في قول إبراهيم لأبيه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه».

كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه[2] حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه»[3].

وفي هذا دلالة على فضل نبينا محمد ﷺ على إبراهيم وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام- لأن الله أمرنا بالاقتداء به ﷺ مطلقًا، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٧.

(٢) كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٣٠، ٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥.

وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

بينما استثنى بعض فعل إبراهيم، لما أمرنا بالاقتداء به- عليه السلام.

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ الواو: حاليه و«ما» نافية أي: والحال أني لا أملك لك من الله من شيء.

و«من» في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى و«شيء» نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، أي: وما أملك لك من الله أي شيء، مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، لا هداية ولا غير ذلك، ولا أقدر على شيء من ذلك، وإنما المالك لذلك كله والقادر عليه هو الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فأين من هذا الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء، يطلبون منهم جلب النفع ودفع الضر، وإبراهيم خليل الرحمن يعلنها صريحة لأبيه وأقرب الناس إليه: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

كما قال عز وجل لنبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١].

نسألك اللهم الهداية للحق والثبات عليه إلى أن نلقاك.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من تتمة كلام إبراهيم عليه السلام والذين معه بعد أن أعلنوا البراءة من قومهم ومن معبوداتهم وإظهروا العداوة والبغضاء لهم ما داموا على الشرك.

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، خالقنا ومالكنا، والمتصرف فينا.

﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: عليك اعتمدنا، وإليك فوضنا أمورنا في جلب النفع لنا ودفع الضر عنا مع تمام الثقة بك والبراءة من حولنا وقوتنا.

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، أي: وإليك تبنا ورجعنا.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وإليك وحدك المرجع والمآل والمنقلب والمعاد في الدار الآخرة وفي جميع الأمور.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾، أي: يا ربنا لا تصيرنا، ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والفتنة: الابتلاء والامتحان، وتكون في الخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: يا ربنا لا تصيرنا فتنة للذين كفروا، بأن تسلطهم علينا بالقتل والأذى، أو بأن نواليهم ونوادهم، فيكونوا سببًا في فتنتنا عن ديننا، أو بظهورهم علينا فيظنوا أنهم على حق ونكون فتنة لهم.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾، أي: واغفر لنا يا ربنا، بستر ذنوبنا عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها- كما جاء في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وقوله- عز وجل-: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، «العزيز» و«الحكيم» من أسماء الله- عز وجل- كل منهما على وزن «فعيل»، يدل «العزيز» على أن له عز وجل العزة بأنواعها الثلاثة: عزة القهر، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

ويدل «الحكيم» على أن له- عز وجل- الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وأن له الحكمة، بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد أكد عز وجل كمال عزته وحكمه وحكمته- إضافة إلى كون هذين الاسمين جاءا على صيغة المبالغة بـ «أن» المؤكدة، وبكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «أنت».

وناسب ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مع أنه يلي قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾- والله أعلم- ليناسب قوله قبل ذلك: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

هذا تأكيد لما سبق في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآية.

واللام في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ﴾ للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فتكرار هذه الجملة تأكيد، وتصديرها بالقسم تأكيد آخر.

وقال هنا: «كان» وفي الآية الأولى «كانت»، وذلك- والله أعلم- للتنصيص في الآية الأولى على أن لهم بإبراهيم والذين معه أسوة حسنة في البراءة من الكافرين.

وأما قوله في الآية الثانية ﴿كَانَ﴾ ففيه إشارة إلى أن لهم فيهم أسوة عامة في طاعة الله تعالى وترك معصيته.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾، «لمن» جار ومجرور بدل من قوله: «لكم».

و«مَن» اسم موصول، أي: للذي يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أي: لا تخافون لله عظمة.

﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، أي: ويرجو الثواب في اليوم الآخر، ويخاف العقاب.

واليوم الآخر: يوم القيامة؛ لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ تأكيد وتهييج أيضا لأخذ القدوة من

إبراهيم والذين معه في البراءة من الكافرين، وأن من كان يرجو الله واليوم الآخر لا بد أن يكون كذلك.

وقرن- عز وجل- بين رجائه واليوم الآخر- كما يقرن عز وجل كثيرًا بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن اليوم الآخر يوم الحساب والجزاء على الأعمال وهو من أعظم ما يحمل الإنسان على العمل ومحاسبة النفس.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، أي: ومن يعرض عن طاعة الله- عز وجل- وأمره ونهيه بقلبه وجوارحه، وقوله وفعله، وذلك بموالاة الكافرين وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، «الغني»، و«الحميد» كل منهما من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل «الغني» على كمال وسعة غناه، وأنه غني عن خلقه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ يدل على أنه- عز وجل- المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده، كما قال عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

وقد قرن عز وجل بين اسميه «الغني» و«الحميد» في مواضع عدة من القرآن الكريم. إشارة إلى أنه عز وجل المحمود في غناه؛ لكرمه العميم وجوده العظيم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤، الممتحنة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

الفوائد والأحكام:

١- ينبغي أن يكون للمؤمنين قدوة حسنة في إبراهيم عليه السلام والذين معه من المؤمنين في إخلاصهم العبادة لله- عز وجل- وبراءتهم من قومهم المشركين ومن معبوداتهم وكفرهم بهم وإظهار عداوتهم وبغضهم لهم أبدًا حتى يؤمنوا بالله ويوحدوه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٢- لا يُتأسى ولا يُقتدى بإبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه وهو مشرك؛ لأن الاستغفار للمشركين لا يجوز، وإنما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه عن وعد له بذلك، فلما تبين له عداوته لله واستمراره على الشرك، تبرأ منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

٣- أن الهداية بيد الله فهو يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله ولهذا قال إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لأبيه: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لأوليائه المؤمنين- وتشريفهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا﴾.

٥- وجوب إخلاص العبادة لله وحده والتوكل عليه والإنابة إليه أسوة بإبراهيم عليه السلام والذين معه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾.

٦- أن المصير والمرجع والمآب والمآل إلى الله- عز وجل- فيجازي كلًا بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

٧- مشروعية سؤال الله- عز وجل- السلامة من فتنة الذين كفروا في الدين أو القتل أو غير ذلك، وسؤاله المغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾.

٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة، والحكم النافذ، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٩- تأكيد وجوب أخذ القدوة من إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم لمن كان يرجو الله والثواب يوم القيامة، وذلك تعظيمًا لخطر الشرك، وتحذيرًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾.

١٠- التهديد لمن تولى وأعرض عن طاعة الله وخالف أمره ووالى أعداءه، وبيان غنى الله- عز وجل- عنه، وأنه سبحانه الغني عن خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

١١- إثبات اسمين من أسمائه- عز وجل- وهما «الغني» و«الحميد» وأنه سبحانه الغني عن جميع الخلق المغني لهم، المحمود في كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله،

المستحق للحمد وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

١٢- في اقتران اسميه عز وجل «الغني» و«الحميد»، كمال إلى كمال، وأنه سبحانه المحمود في غناه.

١٣- أن الغنى إذا لم يصاحبه جود وكرم وبذل منه يحمد عليه صاحبه فلا قيمة له، بل هو نقمة ووبال على صاحبه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين وموادتهم- مطلقا- وحيث إن ترك موالاة الكافرين إذا كانوا من الأقربين أمر ليس بالسهل على النفوس لم يُقَنِّط عز وجل المؤمنين، بل فتح لهم باب الرجاء في إيمان هؤلاء الكافرين فتعود المودة بينهم وبينهم، فقال عز وجل: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ثم بين عز وجل من لم يتناولهم النهي ممن يجوز الإقساط إليهم وبرهم من الكافرين ومن لا تجوز موالاتهم مطلقا في الآيتين بعد ذلك.

قال ابن القيم(١): «لما نهى الله سبحانه في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء، وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله- سبحانه- أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة».

قوله: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾، «عسى» للترجي بالنسبة للمخلوق- كما قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب(٢)

وقال الآخر:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٣.

(٢) البيت لهدبة بن خشرم، وهو في «ديوانه» ص٥٤.

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر[١]

فيكون المراد بالرجاء هنا ما يقوم في قلوب المخاطبين: أي: يرجى أن الله يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة. أو ترجون أن الله يجعل بينكم وبينهم مودة ويحتمل أن هذا وعد من الله عز وجل أن يجعل بينهم وبين هؤلاء الكفار مودة بأن يسلم هؤلاء الكفار. وتكون «عسى» هنا بمعنى الوعد من الله عز وجل بذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عسى من الله واجبة»[٢].

والمعنى: عسى الله أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين كفار مكة الذين نهيتم عن موالاتهم وموادتهم وأمرتم بعداوتهم مودة، وذلك بأن يسلموا، وهكذا حصل فآمن كثير من أهل مكة يوم الفتح وقبله وبعده، منهم أبو سفيان وغيره.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة على كل شيء، ومن ذلك تقليب القلوب، بإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ومن ذلك قدرته عز وجل على التأليف بين القلوب المتنافرة والمتناحرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولهذا قال ﷺ: «ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي»[٣]. وقد أحسن القائل:

---

(١) البيت لمحمد بن إسماعيل، كما في حاشية «شذور الذهب» ص ٣٥١.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه ٩/ ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة- إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، =

وقــد يجمــع الله الشــتيتين بعــدما يظنــان كــل الظــن أن لا تلاقيــا[١]

ولهذا فإن من الحكمة، بل من المأمور به شرعًا: ألا يفرط الإنسان بالعداوة ولا بالمحبة، وفي الحديث: «أحبب حبيبك هونًا ما، فعسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، فعسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[٢].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة، ومن مغفرته عز وجل ورحمته أن يغفر لمن تاب من المؤمنين ويرحمهم، وأن يهدي من يشاء من كفار مكة وغيرهم للإيمان، ويغفر لهم ما قد سلف، كما قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾، «لا» نافية، أي: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم لأجل دينكم وبسببه.

﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، أي: ولم يضطروكم إلى الخروج من دياركم لأجل دينكم أيضا.

﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾، أي: تحسنوا إليهم وتصلوهم.

﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: تعدلوا إليهم ومعهم. من «أقسط» الرباعي، بمعنى: عدل وأنصف.

و«أن» والفعل بعدها في قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾

=

وأحمد ٤/ ٤٢- من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم- رضي الله عنه.

(١) البيت لقيس بن الملوح «مجنون ليلى» انظر «ديوانه» ص٣١٥.

(٢) أخرجه الترمذي في البر- الاقتصاد في الحب والبغض ١٩٩٧- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب. وصحح وقفه على علي رضي الله عنه».

والتقدير: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم في الدين من الكفار ولم يخرجوكم من دياركم ولا عن الإقساط إليهم، كالنساء والضعفة وغيرهم، أي: لا ينهاكم الله عن الإحسان إليهم وصلتهم.

قال تعالى في الوالدين المشركين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت، وهي راغبة(١)، أفأصلها؟ قال: «**نعم صلي أمك**»(٢).

وفي رواية «قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾»(٣).

وأيضا لا ينهاكم الله عن العدل معهم وفيهم، بل ذلك واجب عليكم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل واجب مع كل أحد. والإحسان مشروع لكل ذي كبد رطبة حتى للكلاب فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال**

---

(١) أي مشركة.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة- الهدية للمشركين ٢٦٢٠، ومسلم في الزكاة- فضل النفقة والصدقة على الأقربين ١٠٠٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٦٨، وأحمد ٦/ ٣٤٤، ٣٤٧.

(٣) أخرجها البخاري في الأدب- صلة الوالد المشرك ٥٦٣٣.

الرجل: **لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له**»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»(١).

ويؤخذ من الآية الرد على الغلاة من الخوارج وغيرهم الذين يستبيحون دماء وأموال مخالفيهم من المسلمين. وقد قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»(٢).

ويؤخذ من الآية سماحة الدين الإسلامي في معاملة الآخرين.

ولهذا لما قيل له ﷺ: ادع على المشركين؟ قال: «**إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**»(٣).

ولما استأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين- جبلين بمكة- قال: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(٤).

ودعا ﷺ لقومه وهم يوقعون به وبأصحابه صنوف الأذى فقال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(٥).

ولهذا اعتذر نوح عليه السلام عن الشفاعة بسبب أنه دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦](٦).

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٦، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠.

(٢) أخرجه النسائي في مناسك الحج ٣٠٥٧- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٩٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والبر ١٧٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٣٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٦) سبق تخريجه.

ولما دخل ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا أمَّن أهلها وقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(١).

مع ما لقيه منهم ﷺ من المحادة والعناد والأذى.

وزار ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه لما مرض، وقعد عند رأسه، وقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(٢).

وجلس الخليفة الراشد علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- يتحاكم مع اليهودي الذي وجد درعه عنده إلى القاضي شريح ولم يكن لدى علي- رضي الله عنه- بينة، فقيل له يحلف اليهودي ويأخذ الدرع، فقال: هو وذاك فلما رأى اليهودي أن خليفة المسلمين تحاكم معه إلى القضاء اعترف بأن الدرع لعلي- رضي الله عنه- وأعلن إسلامه(٣).

وذُبحت شاة لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»(٤).

وكان لعبد الله بن المبارك جار يهودي، فأراد أن يبيع داره، فقيل له: بكم تبيع؟ قال: بألفين. فقيل له: هي لا تساوي إلا ألفًا. قال: صدقتم، ولكن ألف للدار، وألف لجوار عبد الله بن المبارك. فأخبر ابن المبارك، فدعاه وسأله، قال: عليّ دين. فأعطاه ثمن الدار، وقال: لا تبعها(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في «سننه» ٩/ ١١٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر «السيرة النبوية» ٤/ ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٥- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٣) انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص١٨٤- ١٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص٥٨ (١٢٨)، وأبو داود في الأدب ٥١٥٢، والترمذي في البر والصلة ١٩٤٣، وقال: «حديث حسن غريب».

(٥) انظر: «تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر أحداث الزمان» ٥/ ٢٧٢، «موسوعة =

وبهذا الخلق وهذا العدل والسماحة فتح المؤمنون من سلف هذه الأمة قلوب الناس للإسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، أي: إن الله يحب المقسطين الذين يعدلون فيما لهم وعليهم، وفي حكمهم بين الناس، كما قال ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

في هذه الآية تصريح بما فهم من الآية قبلها وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية، وتأكيد للنهي في قوله في مطلع السورة: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وحصر للنهي فيها في النهي عن موالاة الذين قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما ينهاكم الله إلا عن الذين قاتلوكم من أجل دينكم.

﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ المظاهرة: المعاونة، أي: عاونوا وساعدوا على إخراجكم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤]، أي: وإن تعاونا عليه.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾، أي: عن توليهم، أو عن موالاتهم ومناصرتهم، وعن أن تكونوا لهم أولياء ونصراء.

=

الأخلاق والزهد والرقائق» ١/ ٣٨٣.

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، «يتولهم» فعل الشرط.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جواب الشرط، واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

والإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للذين يتولون الكافرين من المؤمنين، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لأمرهم.

ويحتمل أن يراد بالإشارة نفس الكفار، ويحتمل أن يراد بها الطائفتين معًا الكفار ومن يتولاهم من المؤمنين فالكفار ظالمون، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ومن والاهم فهو منهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والظلم: النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئا، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهؤلاء المذكورون، وضعوا الولاية في غير موضعها وخالفوا أمر الله.

وأظلم الظلم الشرك بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله- عز وجل- أوضح الحقوق وأبينها؛ خلق ورزق وأنعم علينا بسائر النعم، فمن صرف حق الله وهو العبادة لغير الله فهو من أظلم الظالمين.

الفوائد والأحكام:

١- ترجية الله عز وجل للمؤمنين ووعده لهم بأن يجعل بينهم وبين من عادوهم من أهل مكة بسبب كفرهم مودة، وذلك بأن يؤمن هؤلاء الكفار أو بعضهم فتعود الموالاة بينهم، وهكذا حصل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

٢- تأكيد عدم جواز موالاة ومودة الكافرين.

٣- إثبات قدرة الله- عز وجل- التامة على كل شيء، ومن ذلك تقليب القلوب وإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

٤- إثبات مغفرة الله- عز وجل- ورحمته، الواسعتين؛ ولهذا هدى كثيرًا من المشركين إلى الإسلام بمغفرته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥- وجوب الإقساط والعدل مع الكفار غير المحاربين ممن لم يقاتلوا المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم، وجواز الإحسان إليهم وبرهم بل ذلك مما يؤجر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

فلمن أقام منهم في بلاد المسلمين حرية المعتقد وسلامة دور العبادة، وحرية ممارسة عباداتهم، لكن يمنعون من إظهار طقوس عباداتهم، ومن شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك في الأسواق.

ويجب العدل معهم، ورفع الظلم عنهم، وحسن معاملتهم، ولا مانع من برهم والإحسان إليهم.

٦- الاحتراز من أن يفهم من النهي عن موالاة الكافرين عدم البر والإقساط لمن لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم.

٧- إثبات المحبة لله- عز وجل- وأنه يحب المقسطين العادلين، ونفي محبته عن الظالمين الجائرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٨- تأكيد وحصر النهي في الموالاة في النهي عن موالاة المقاتلين للمؤمنين في الدين المخرجين لهم من ديارهم المظاهرين على إخراجهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾.

٩- التحذير من موالاة الكافرين الظالمين للمؤمنين في قتالهم لهم وإخراجهم من ديارهم وأن من والاهم فهو ظالم مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٞ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

سبب النزول:

عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة- رضي الله عنهما قالا: «لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو يوم الحديبية على قضية المدة، وكان فيما اشترط سهيل بن عمرو أنه قال: لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فرد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلمًا، وجاءت المؤمنات مهاجرات: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ونسوة أخر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾»(١).

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾، أي: إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات. والهجرة هي: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي واجبة إذا كان الإنسان لا يستطيع إظهار شعائر دينه في بلاد الكفر.

ومما يؤسف له أنه قد انعكس الحال فأصبح المسلم في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيع أن يظهر شعائر دينه، بينما يستطيع ذلك في كثير من بلاد الكفر- والله المستعان.

والهجرة من مكة كانت واجبة قبل فتحها، أما بعده فقد صارت دار إسلام. قال

---

(١) أخرجه مطولًا- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم- البخاري في الجهاد- المصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣١، ٢٧٣٢، وابن إسحاق في السيرة انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٢١، والبيهقي في الجزية ٩/ ٢١٨، وأخرجه مختصرًا أبو داود في الجهاد ٢٧٦٥، ٢٧٦٦، وأحمد ٤/ ٣٢.

ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[١]، أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها؛ لأنها صارت دار إسلام، ولله الحمد والمنة.

﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، أي: اختبروهن، وذلك بسؤالهن عن سبب خروجهن، وهجرتهن وتحليفهن إن احتيج إلى ذلك؛ ليتبين صدق إيمانهن؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

فعن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: «كان يمتحنهن: بالله ما خرجت- من بغض زوج؟ وبالله ما خرجت- رغبة عن أرض إلى أرض؟ وبالله ما خرجت- التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت- إلا حبًا لله ورسوله»[٢].

ورُويَ أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ له عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣].

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾، أي: فإن علمتموهن صادقات في إيمانهن، وفي هجرتهن، خرجن حبًا لله ورسوله، وفرارًا بدينهن- حسب ما يظهر لكم- إذ لا يطلع على البواطن إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]. فليس لنا إلا الظاهر، وأمر السرائر إلى من يعلم السر وأخفى.

وفي الحديث «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٥- ٥٧٦.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١٨.

(٤) سبق تخريجه.

لكن قد يستدل بما يظهر من الأقوال والأفعال على ما في الباطن.

ولهذا قال الحافظ ابن كثير في كلامه على الآية: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ قال(١): «وفيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينًا».

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أي: فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار.

وإذا كانت المتزوجة لا ترد إلى زوجها فمن باب أولى أن لا ترد غير المتزوجة.

فهذه الآية مخصصة لما جاء في صلح الحديبية من الشرط: «على أن لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا».

ولهذا لما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط- رضي الله عنها- مهاجرة بعد هذا الصلح وبعد نزول هذه الآية لم يرجعها رسول الله ﷺ، وكذا غيرها من النساء اللاتي هاجرن في تلك المدة.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، أي: لا هن يحللن لهم وقد آمنَّ وهم كفار.

﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، أي: ولا هم يحلون لهن وهم كفار وهن مؤمنات. فلا تحل مؤمنة لكافر، ولا يحل كافر لمؤمنة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١].

فحرم الله عز وجل بهذه الآية المؤمنات على المشركين، وكان جائزًا في أول الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. وكانت زينب- ابنة النبي ﷺ- تحت أبي العاص بن الربيع، وكان مشركًا، فأمره الرسول ﷺ بعد نزول هذه الآية أن يبعث بها إليه، فأقامت في المدينة بعد وقعة بدر إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع فردها إليه رسول الله ﷺ.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١١٨.

أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها»؟ فقالوا: نعم. وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يُخلي سبيل زينب إليه. وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيا بها»(١).

فلما قدم أبو العاص مكة، وفَى له بذلك وصدَقه فيما وعده، فبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة- رضي الله عنه- فأقامت في المدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع زمن الحديبية(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول، ولم يحدث شيئًا».

وفي رواية: «وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين»، وفي رواية «بسنتين، ولم يحدث شهادة ولا صداقًا»(٣).

وعن الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد»(٤).

قال الخطابي(٥): «قال محمد بن إسماعيل: حديث ابن عباس أصح في هذا الباب من حديث عمرو بن شعيب».

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٩٢، وأحمد ٦/ ٢٧٦.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ١/ ٣٣٠- ٣٣٤، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٣٧ «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٨- ١١٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق- إلى متى ترد إليه امرأته إذا أسلم بعدها ٢٢٤٠، والترمذي في النكاح- ما جاء في الزوجين يسلم أحدهما ١١٤٣، وابن ماجه في الطلاق- الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر ٢٠٠٩، وأحمد ١/ ٢٦١. وصححه، وقال الترمذي: «ليس بإسناده بأس».

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٧- ٢٠٨- وضعفه، وأخرجه ابن ماجه في النكاح ٢٠١٠.

(٥) انظر «سنن أبي داود» ٢/ ٦٧٦.

وقال الإمام أحمد بعد روايته لحديث عمرو بن شعيب: «هذا حديث ضعيف، أو واهٍ، ولم يسمعه الحجاج من عمرو بن شعيب، إنما سمعه من محمد بن عبيد العزرمي، والعزرمي حديثه لا يساوي شيئًا. والحديث الصحيح الذي روي أن النبي ﷺ أقرهما على النكاح الأول».

وقد اختلف أهل العلم في بقاء حكم النكاح إذا أسلم أحد الزوجين دون الآخر. فذهب جمهور أهل العلم إلى أن النكاح ينفسخ، منهم من قال بمجرد إسلام أحدهما. وهو رواية عن أحمد، وبه قال أبو حنيفة إن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب. ومنهم من قال لا ينفسخ النكاح إلا بانقضاء العدة، منهم مالك والشافعي وأحمد في رواية عنه. وبه قال أبو حنيفة إذا كان الزوجان في دار الإسلام أو في دار الحرب(١).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النكاح لا ينفسخ بمجرد إسلام أحد الزوجين، سواء فرقت بينهما الهجرة أو لم تفرق. واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم مستدلين بحديث ابن عباس في رده ﷺ ابنته زينب على أبي العاص، وقد أسلمت قبله بسنين، وما في معناه من الآثار.

قال ابن تيمية: «وأما القول بأنه بمجرد إسلام أحد الزوجين المشركين تحصل الفرقة، قبل الدخول أو بعده فهذا في غاية الضعف، فإنه خلاف المعلوم المتواتر من شريعة الإسلام، فإنه قد علم أن المسلمين الذين دخلوا في الإسلام كان يسبق بعضهم

---

(١) انظر «المدونة» ٢/ ٢٩٨، ٣٠٢- ٣٠٣، «الأم» ٤/ ١٩٣، ٢٧٠- ٢٧١، ٥/ ٤٤- ٤٥ «أحكام القرآن» للشافعي ٢/ ٦٩، «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله ص٣٣٠- ٣٣١، رواية النيسابوري ١/ ٢١٧ «الإشراف على مذاهب العلماء» ٤/ ٢١٠، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١١٤ «المحلى» ٧/ ٣١٤، «المسائل الفقهية» ٢/ ١٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٧٨٧، «زاد المسير» ٨/ ٢٤٤، «المغني» ٦/ ٦١٤- ٦١٦، «فتح القدير» لابن الهمام ٣/ ٤٢٢، «تبيين الحقائق» ٢/ ١٧٥، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٤٠، «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٣٥- ٢٥١، «حاشية ابن عابدين» ٣/ ١٩١- ١٩٢، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٤- ٤٣٦.

بعضا بالتكلم بالشهادتين، فتارة يسلم الرجل وتبقى المرأة مدة ثم تسلم، كما أسلم كثير من نساء قريش وغيرهم قبل الرجال...»[١].

وقال ابن القيم[٢]: «فإنه لا يعرف أن رسول الله ﷺ جدد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه وقد رد النبي ﷺ ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وهو إنما أسلم زمن الحديبية، وهي أسلمت من أول البعثة، فبين إسلامهما أكثر من ثماني عشرة سنة.

وأما قوله في الحديث: «كان بين إسلامها وإسلامه ست سنين» فوهم إنما أراد بين هجرتها وإسلامه.

قال: وأما مراعاة زمن العدة فلا دليل عليه من نص ولا إجماع، ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ يسأل المرأة هل انقضت عدتها أم لا، ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة، لم تكن فرقة رجعية، بل بائنة، فلا أثر للعدة في بقاء النكاح، وإنما أثرها في منع نكاحها للغير، فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة، ولكن الذي دل عليه حكمه ﷺ أن النكاح موقوف، فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها، فلها أن تنكح من شاءت، وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح».

واستدل ابن القيم على هذا أيضًا بما رُويَ عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال في الزوجين الكافرين يسلم أحدهما: «هو أملك ببضعها ما دامت في دار هجرتها» وفي رواية: «هو أحق بها ما لم يخرج من مصرها».

قال ابن القيم: «ولو لا إقراره ﷺ الزوجين على نكاحهما، وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية، وزمن الفتح لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام من غير

---

(١) انظر «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٥١.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦- ١٤٠.

اعتبار عدة؛ لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

وأن الإسلام سبب الفرقة، وكل ما كان سبب الفرقة تعقبه الفرقة كالرضاع والخلع والطلاق- وبعد أن ذكر من قال به من السلف وغيرهم، وأنه إحدى الروايتين عن أحمد قال: «ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لم يحكم بتعجيل الفرقة».

ثم استدل ابن القيم بإسلام امرأة صفوان بن أمية قبل إسلامه بنحو شهر ولم يفرق النبي ﷺ بينهما[1]، وبإسلام أم حكيم قبل زوجها عكرمة بن أبي جهل، وإسلام أبي سفيان قبل امرأته هند، وإسلام حكيم بن حزام قبل امرأته وغيرهم- رضي الله عنهم- ولم يفرق النبي ﷺ بين أحد منهم وزوجته. كما استدل بإسلام نصرانية قبل زوجها في عهد عمر- رضي الله عنه- ولم يفرق بينهما[2].

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ الضمير يعود إلى أزواجهن من الكفار، و«ما» موصولة، أي: وأعطوهم الذي أنفقوه، وغرموه من المهور، وذلك للعهد الذي بينهم وبين المسلمين فلا يجمع لهم بين فسخ أزواجهم منهم وتغريمهم ما دفعوا لهن من المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: لا حرج ولا إثم عليكم.

﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: ولا حرج عليكم في نكاحهن والنكاح في اللغة: الضم والجمع، وفي الشرع: عقد الزوجية الصحيح. ويطلق على العقد، وعلى الوطء. والمراد به هنا: العقد، أي: ولا حرج ولا إثم عليكم في الزواج بهن.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: إذا أعطيتموهن مهورهن، فهن كغيرهن من النساء، لا

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣- ٥٤٤.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٧- ١٤٠ وانظر أيضًا ١٣٤- ١٣٥.

يجوز الاستهانة بمهورهن وحقوقهن.

وسُمي المهر أجرًا؛ لتأكيد وجوبه لأنه في مقابلة الانتفاع بالبضع.

وجواز نكاحهن مشروط بانقضاء عدتهن، وتوفر بقية شروط النكاح من الولي والشاهدين وغير ذلك.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتشديد السين: «ولا تُمَسِّكُوا»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ﴾.

و ﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾: جمع كافرة.

والمعنى: لا تتزوجوا الكافرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وأيضًا لا تبقوا على نكاح من كان عندكم منهن بل فارقوهن.

وقد جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما في صلح الحديبية: «أنه لما أنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ امرأتين فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى صفوان ابن أمية»(١).

كما طلق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص(٢).

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وخلف: «وَسَلُوا»، وقرأ الباقون: ﴿وَسْـَٔلُواْ﴾.

أي: واطلبوا الذي أنفقتموه من المهور على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن

---

(١) سبق تخريجه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٣- ٥٨٤. «السيرة النبوية» ٢/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٤- ٥٨٥.

ذهبن، وليطلبوا هم الذي أنفقوه على أزواجهم اللاتي هاجرن إليكم أيها المسلمون، فلهم حق المطالبة في ذلك ويجب عليكم إعطاؤهم ذلك؛ لقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

فالسؤال مشروع في حق هؤلاء وهؤلاء لما أنفقوه على أزواجهم، لكن الأمر بإيتاء ذلك خص به المؤمنون في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾؛ لأنهم هم الذين يمتثلون أوامر الله عز وجل.

قال السعدي(١): «وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر».

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ الإشارة لما سبق في الآية من عدم رد النساء المهاجرات إلى أزواجهن إذا علمنا إيمانهن ووجوب إعطائهم ما غرموه عليهن من المهور، وجواز نكاحهن بشروطه وتحريم الكافرات على المؤمنين، وجواز مطالبة الذين ذهبت أزواجهم من الفريقين للفريق الآخر بما أنفقوا عليهن.

وأشار إلى هذه الأحكام بإشارة البعيد تعظيمًا لها، وتأكيدًا لوجوب امتثالها.

وحكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حكم كوني، وحكم شرعي، وحكم جزائي.

والمراد بـ«حكم الله» في هذه الآية الحكم الشرعي.

ومن الحكم الكوني قول ولد يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠]. والحكم الجزائي في الآخرة.

والمعنى: هذه الأحكام الشرعية في الآية هي حكم الله- عز وجل- الذي حكم به ويحكم به بينكم وبين الكفار، مما يتعلق بهذا الصلح صلح الحديبية مما سبق نزول الآية ووقت نزولها، وفيما يستقبل، ولهذا جاء التعبير بالمضارع ﴿يَحْكُمُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع، والحكم النافذ والحكمة البالغة، ومن علمه عز وجل وحكمه وحكمته شرع هذه الأحكام العظيمة بين خلقه.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٥٩.

قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾.

سبب النـزول:

عن عائشة- رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن، وبلغنا أنه لما أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين، قريبة بنت أبي أمية، وابنة جرول الخزاعي، فتزوج قريبة معاوية، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ والعَقَبُ ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحدًا من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها»(١).

قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾، أي: وإن ذهبت بعض زوجاتكم إلى الكفار، ولم يردوا إليكم ما أنفقتموه عليهن.

﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾، أي: أصبتم غنيمة في قتالكم الكفار الذين لا عهد بينكم وبينهم.

﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾، أي: أعطوا الذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين دون عوض من الكفار، أي: أعطوهم من الغنيمة مثل الذي أنفقوا من المهور عليهن.

و«عاقبتم» على هذا تكون من المعاقبة للكفار المقاتلين بقتلهم وسلب أموالهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو الأظهر.

وذهب بعض أهل العلم منهم عائشة- رضي الله عنها والزهري إلى أن المعنى: أن

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد ٢٥٨٢.

يرد المؤمنون إلى من ذهبت زوجته من المؤمنين من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلًا إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن(١).

قال ابن كثير(٢) بعد ما ذكر القولين: «وهذا- يعني القول بأنه يعطى من الغنيمة- لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو أولى- يعني قول الزهري- وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وحضًا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أوامر واجتناب ما بعده من نواه يعد من مقتضيات الإيمان وعدم ذلك يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- أمر الله- عز وجل- للمؤمنين بامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكد من إيمانهن حسب الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

٣- عدم جواز إرجاع المؤمنات المهاجرات إلى الكفار بعد معرفة إيمانهن؛ لأنهن لا يحللن لهم ولا هم يحلون لهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ﴾.

٤- وجوب إيتاء الأزواج الكفار ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن، وفي هذا

---

(١) سبق تخريجه عن عائشة- رضي الله عنها، وأخرجه عن الزهري الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٠. وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣٢٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٢١.

يظهر مدى عدل الإسلام وإنصافه حتى مع غير المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

٥- لا حرج ولا إثم في نكاح المؤمنات المهاجرات بعد انقضاء عدتهن من أزواجهن الكفار بعد إعطائهن مهورهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

٦- تحريم إمساك المؤمنين بعصم الكوافر، وتزوج الكافرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

٧- أن للأزواج من المؤمنين مطالبة الكفار بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي ذهبن للكفار، كما أن للأزواج الكفار مطالبة المؤمنين بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن؛ لقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

٨- أن هذه الأحكام المذكورة في الآيات من أحكام الله الشرعية التي حكم الله بها بين عباده؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل والحكم التام النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١٠- يجب إعطاء من فاتتهم زوجاتهم إلى الكفار من الغنيمة إذا لم يعطهم الكفار عوضًا عما أنفقوه عليهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

١١- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها» للتنبيه.

و«النبي» هو نبينا محمد ﷺ و«ال» فيه للعهد الذهني، أي النبي المعهود المعروف.

و«النبي» مشتق من النبأ؛ لأنه مُنْبَأ، أي: مُخْبَر من الله- عز وجل-، ومُنبِئٌ، أي: مُخْبِر لقومه. ومشتق أيضًا من النبوة، وهو المكان المرتفع؛ لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وتصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء يدل على التنبيه والعناية والاهتمام. وقد خص الله- عز وجل- نبينا محمدًا ﷺ بندائه بوصف النبوة تشريفًا وتكريمًا له ﷺ وتذكيرًا له بنعمة الله- عز وجل- عليه بالنبوة والرسالة.

بينما ينادي الله- عز وجل- سائر الأنبياء بأسمائهم يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى بن مريم، ونحو ذلك.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله، وبما جاء عن الله ورسوله.

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، أي: يعاهدنك على هذه الأمور المذكورة، وهذه الشروط.

والمبايعة للرسول ﷺ مبايعة لله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وذلك أن المجازي على الوفاء بهذا العهد والعقد هو الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ

فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وإنما أضيفت المبايعة للرسول ﷺ؛ لأنه هو المباشر لأخذ البيعة منهم، وإلا فمبايعته ﷺ ومعاهدته على الدخول في الإيمان، أو على الجهاد وغير ذلك هي مبايعة ومعاهدة لله عز وجل.

عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

كما أن دخول الإنسان في الإيمان عهد بينه وبين ربه يوجب عليه القيام بحقوقه- عز وجل- وجزاؤه على الله- عز وجل- قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]، وقال عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾، أي: على أن لا يشركن بالله شيئًا من الشرك، أو شيئًا من الأشياء.

والشرك: هو اتخاذ شريك مع الله وصرف شيء من حقوق الله لغيره، وتسويته بالله كما ذكر الله عن المشركين أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٩، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٦٦.

نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

و«شيئا» نكرة في سياق النفي، فتعم كل شرك صغيرًا كان أو كبيرا، خفيًّا كان أو جليًّا، وتعم كل شيء أشرك به مع الله، أيًّا كان ذلك الشيء، ومهما كان صغيرًا أو كبيرًا قليلًا أو كثيرًا.

أي: يبايعنك ويعاهدنك على ألا يشركن بالله شيئًا من الأشياء، ولا شيئًا من الشرك أيًا كان ومهما كان، بل يخلصن العبادة لله وحده.

وبدأ بأخذ العهد عليهن بالبراءة من الشرك؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، ولا يقبل معه أي عمل، ولا يغفر لمن مات مصرًا عليه.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ السرقة: أخذ الشيء خفية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨]، أي: إلا من استمع خفية، ومنه قولهم: سارقه النظر- إذا نظر إليه بخفية.

والسرقة في الشرع: أخذ مبلغ مخصوص من المال المحترم من مالكه أو نائبه، خفية من حرز معلوم، من غير حق ولا شبهة.

ولهذا فإن للزوجة أن تأخذ من مال زوجها إن كان مقصرًا في نفقتها قدر كفايتها؛ لأن لها حقًا في مال زوجها. وفي حديث هند بنت عتبة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل عليّ من جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»(١).

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، أي: ولا يطأهن غير أزواجهن؛ لأن الله عز وجل حرم على المؤمنين

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام- القضاء على الغائب ٧١٨٠، ومسلم في الأقضية- قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

الزنا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي ﷺ فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية. قالت: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا: قالت: فنعم إذًا، فبايعها بالآية»(١).

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾، أي: ولا يقتلن أولادهن من بنين وبنات سواء بعد ولادتهم خشية الفقر أو العار أو غير ذلك- كما كان يفعله أهل الجاهلية قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١].

أو بقتلهم وهم أجنة في بطونهن بأن تلقي الواحدة منهن نفسها من مكان مرتفع أو تتعمد حمل شيء يقتل ونحو ذلك؛ لأجل إسقاط حملها، أو بإجراء عملية لإجهاض حملها سواء كان ذلك مخافة الفقر أو العار، أو لإراحة نفسها منه، أو لغير ذلك من الأغراض الفاسدة المحرمة. فهذا كله من قتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ البهتان في الأصل: الكذب، وسمي الكذب بهتانًا؛ لأنه يبهت ويحير من رُمي به، كما أنه يبهت الكذاب نفسه في النهاية.

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾، أي: يختلقنه كذبا.

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، أي: يحملنه بين أيديهن في بطونهن، ويلدنه بين أرجلهن مع فروجهن. والبطن والفرج كل منهما بين اليدين والرجلين.

والمراد: ولا يأتين بحمل يلدنه وينسبنه كذبًا إلى أزواجهن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولا يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه الله على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة»(١).

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، أي: ولا يعصينك في فعل معروف تأمرهن به. والمعروف: ما أمر به الشرع وتعارف الناس على حسنه، ومن ذلك ترك النياحة على الميت- كما سيأتي في الحديث في مبايعته ﷺ. وكما قال ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»(٢).

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾، أي: فعاهدهن على الإسلام، وما أعده الله لمن أسلم منهن من الحياة السعيدة، والجزاء الحسن في الجنة. كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»(٣).

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾، أي: اطلب لهن المغفرة من الله لما قد يحصل منهن من سهو وخطأ وتقصير- مما لا يسلم منه البشر غالبًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق- إذا شك في الولد ٢٢٦٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز- ليس منا من ضرب الخدود ١٢٩٧، ومسلم في الإيمان- تحريم ضرب الخدود ١٠٣، والنسائي في الجنائز ١٨٦٠، والترمذي في الجنائز ٩٩٩، وابن ماجه في الجنائز ١٥٨٤- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٢- من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إن الله عز وجل ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة لمن شاء من عباده، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وهكذا بايع رسول الله ﷺ المؤمنات، كما أمره الله عز وجل.

عن عروة بن الزبير أن عائشة- رضي الله عنها- أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك»، كلامًا، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»(١).

وعن أميمة بنت رقيقة، قالت: «أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» ولم يصافح منا امرأة»(٢).

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئًا، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩١، ومسلم في الإمارة ١٨٦٦، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في السير- ما جاء في بيعة النساء ١٥٩٧، وابن ماجه في الجهاد- بيعة النساء ٢٨٧٤، وأحمد ٦/ ٣٥٦. وقال الترمذي «حديث حسن صحيح» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٢٢ عن إسناد أحمد «هذا إسناد صحيح».

تنوحي، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى»(١).

وفي رواية عن أميمة أنها دخلت على رسول الله ﷺ في نسوة، فقلن: «يا رسول الله ابسط يدك نصافحك. فقال: «إني لا أصافح النساء، ولكن سآخذ عليكن» فأخذ علينا حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: «فيما أطقتن واستطعتن» فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا»(٢).

وعن سلمى بنت قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار، قالت: «جئت رسول الله ﷺ فبايعته في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف- قال: «ولا تغشُشن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله ﷺ ما غش أزواجنا؟ فسألته، فقال: «تأخذ ماله، فتحابي به غيره»(٣).

وعن عائشة بنت قدامة بن مظعون، قالت: «أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبي ﷺ يبايع النسوة، ويقول: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئًا، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف» قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قلن نعم فيما استطعتن» فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني قولي أيْ بنية: نعم، فيما استطعت، فكنت أقول كما يقلن»(٤).

وعن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٩٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨- ٥٩٩.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣٧٩- ٣٨٠، ٦/ ٤٢٢- ٤٢٣، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٤٩ ترجمة سلمى بنت قيس.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٥، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٩٤ ترجمة عائشة بنت قدامة.

ونهانا عن النياحة فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان- أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى»(١).

وكان ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد(٢)، تأكيدًا لذلك.

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بين يديه، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله- قال: «فتصدقن» قال: فبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال»(٣).

وعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم»- وقرأ الآية التي أخذت على النساء: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩٢، ومسلم في الجنائز- التشديد في النياحة ٩٣٦، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٧، والنسائي في البيعة ٤١٧٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨- ٦٠١.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٧٩، ومسلم في العيدين ٨٨٥، وأبو داود في الصلاة ١١٤١، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٧٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢١٣، ومسلم في الحدود- الحدود كفارات لأهلها ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩.

وفي رواية لابن إسحاق عن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلًا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. وقال «فإن وفيتم فلكم الجنة»(١).

قال القرطبي(٢): «قال المهدوي: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفًا وتكريمًا له، وتذكيرًا له بنعمة الله- عز وجل- عليه بالنبوة وإشارة لفضله ﷺ على سائر الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٣- مشروعية مبايعة النساء المؤمنات على الشروط المذكورة في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ﴾.

٤- أمر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بالاستغفار للمؤمنات بعد مبايعتهن لما قد يحصل منهن من تقصير، وترغيبًا لهن وتثبيتًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥١- الأثر ١٨٨٧١.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٦.

٥- في الشروط المذكورة في مبايعة المؤمنات في هذه الآية دلالة على شمول البيعة لفعل كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى الله عنه، لأن الله أخذ عليهن فيها الإيمان بالله وحده لا شريك له، واجتناب السرقة والزنا وقتل أولادهن، وألا يأتين بولد من الزنا ينسبنه كذبا لأزواجهن، وألا يعصين الرسول ﷺ فيما يأمرهن به من معروف وهذا شامل لكل ما جاء به الدين.

٦- أن الشرك أعظم الذنوب؛ لهذا جعل البعد عنه أول الشروط في البيعة، وأن الزنا والسرقة وقتل الولد والإتيان بولد من الزنا ونسبته للزوج- هذه من أكبر الكبائر لهذا خصها بالذكر.

٧- أن الطاعة بالمعروف؛ لقوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

٨- إثبات صفة المغفرة التامة لله عز وجل، والرحمة الواسعة له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٩- في تقديم الله تعالى المغفرة على الرحمة، دلالة على أن التخلية قبل التحلية، وأن تمام النعمة إنما يحصل بزوال المرهوب، وحصول المرغوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾.

ختم الله- عز وجل- هذه السورة بما بدأها به وهو نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين؛ تأكيدًا لذلك، وتحريضًا للمؤمنين على عداوة الكافرين.

قوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾، أي: لا تتخذوهم أولياء توادونهم وتناصرونهم وتركنون إليهم.

﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: اليهود، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾. قال رسول الله ﷺ: «المغضوب عليهم اليهود»(١).

والغضب- وإن كان من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، لكن كل من كفر وجحد شريعة الله فله نصيب من غضب الله عز وجل بقدر منزلته وهكذا كل عاص لله- عز وجل- له نصيب من ذلك بقدر معصيته.

﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد تحقق يأسهم من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله- عز وجل- فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«ما» مصدرية، أو موصولة، والتقدير يأسًا كيأس الكفار، أي مثل يأس الكفار، أو كاليأس الذي يئسه الكفار.

أي: كما يئس الكفار الذين ماتوا على الكفر، ودفنوا في القبور من ثواب الآخرة، ومن كل خير، بعدما عاينوا في القبور أعمالهم السيئة ومصيرهم السيء، إذ ليس بعد الموت من

---

(١) كما في حديث عدي بن حاتم- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «المغضوب عليهم» اليهود، و«الضالين» النصارى». أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٢٩٥٣، ٢٩٥٤، وأحمد ٤/ ٣٧٨-٣٧٩. وإسناده صحيح.

مستعتب، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة للأبرار، والنار للكفار، وبئس القرار.

ويحتمل أن المعنى: كما يئس الكفار الأحياء من بعث أصحاب القبور؛ لأنهم ينكرون البعث بعد الموت.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين. وفي ذلك إيذان بكفرهم وشدة يأسهم من الآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وترك المنهي عنه بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- نهي المؤمنين عن موالاة المغضوب عليهم وهم اليهود؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

٣- تأكيد حرمة موالاة غير المؤمنين، فقد بدئت السورة بالنهي عن موالاة المشركين، وختمت بالنهي عن موالاة اليهود المغضوب عليهم.

٤- غضب الله- عز وجل- على اليهود؛ لتركهم الحق بعد معرفته؛ لقوله تعالى: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

٥- شدة يأس اليهود من ثواب الآخرة فلاحظ لهم فيها ولا نصيب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

٦- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء، والثواب والعقاب.

٧- يأس الكفار الذين ماتوا على الكفر ودفنوا في القبور، من ثواب الآخرة، بعدما عاينوا في القبور مصيرهم السيئ.

٨- ياس الكفار الأحياء، من أصحاب القبور؛ لأنهم ينكرون البعث بعد الموت ويكذبون به.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلصَّفِّ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الصف»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾.

وتسمى: «سورة الحواريين»، و«سورة عيسى».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عما لا يليق به والثناء عليه، ونهي المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون، وبيان مقت الله تعالى لذلك، وبغضه له، والترغيب في القتال في سبيل الله.

٢- التذكير بموسى عليه السلام، وإنكاره على قومه أذيتهم له، وإزاغة قلوبهم، وإضلالهم بسبب زيغهم عن الحق وفسقهم.

٣- التذكير بعيسى عليه السلام وتصديقه لما بين يديه من التوراة، وبشارته بالنبي ﷺ، وتكذيب بني إسرائيل لما جاءهم به من البينات.

٤- التحذير من افتراء الكذب على الله، وأنه لا أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعي إلى الإسلام: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾.

٥- سعى المكذبين والكفار لإطفاء نور الله، وأنى لهم ذلك، وامتنانه عز وجل بإرساله رسول بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على جميع الأديان ولذكره المشركون ذلك.

٦- الترغيب والإغراء بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

٧- الحث على نصرة دين الله، كما قال عيسى عليه السلام للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ الآية؛ فنصرهم الله وأيدهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

سبب النـزول:

عن عبد الله بن سلام، قال: «قعدنا نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملنا به، فأنزل الله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا﴾، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها»(١).

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد وسورة الحشر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: لوددنا أن الله- عز وجل- دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٢، والترمذي في تفسير سورة الصف ٣٣٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٣، والحاكم ٢/ ٦٩، ٢٢٩، ٤٨٧، وقال: «صحيح على شرط الشيخين».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٠٦- ٦٠٧.

﴿لِمَ﴾، اللام حرف جر، و«ما» استفهامية حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ و«ما» موصولة، أو نكرة موصوفة بمعنى شيء، أي: لم تقولون الذي لا تفعلونه، أو لم تقولون شيئًا لا تفعلونه.

وهذا إنكار من الله عز وجل على من يقول من المؤمنين قولًا لا يتبعه بالفعل، أو يعد وعدًا ولا يفي به.

قال القرطبي(١): «قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذبًا، وأما في المستقبل فيكون خلفًا وكلاهما مذموم».

وفي قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ تعريض بأن العافية لا يعد لها شيء، وأن السلامة غنيمة وأن الأولى أن لا يسأل الإنسان أو يتمنى أمرًا قد لا يفي بفعله، أو يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا تأكيد للإنكار عليهم و«كبر» بمعنى «عظم»، و«مقتًا» منصوب على التمييز والتفسير، كقول القائل: كبر قولًا هذا القول، ومعنى ﴿مَقْتًا﴾، أي: بغضًا.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: في حكم الله.

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٨٠.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «كبر».

﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: كبر مقتا عند الله قولكم الذي لا تفعلونه.

والمعنى: عظم بغضًا في حكم الله قولكم قولًا لا تفعلونه ولا تفون به.

والمقت: البغض الشديد، ولهذا قال عز وجل عن نكاح زوجات الآباء ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا، وأنا صبي، قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: تمرًا. فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة»(١).

ويكفي في شناعة القول بلا فعل، والوعد بلا وفاء أنه مبغض عند الله، ومن أخص صفات المنافقين، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٣).

فالقول بلا فعل، والوعد بلا وفاء أمر محرم لا يجوز، وليس من صفات المؤمنين بل من

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الكذب ٤٩٩١، وأحمد ٣/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان- علامة المنافق ٣٤، ومسلم في الإيمان- بيان خصال المنافق ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

صفات المنافقين إذ الواجب الوفاء بالعهد والوعد، وإتباع القول بالفعل، وأن لا يقول الإنسان ما لا يفعل، فإن الله عز وجل أنكر على المؤمنين القول بلا فعل أشد الإنكار.

قال القرطبي(١): «وهذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملًا فيه طاعة أن يفي بها».

وفي حديث أبي موسى- رضي الله عنه-: «وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أني حفظت منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾.

هذا ظاهر العلاقة في سبب النزول حيث سألوا عن أحب الأعمال إلى الله، فهو أشبه بالجواب على سؤالهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، أي: الذين يقاتلون لإعلاء كلمة الله عز وجل. كما في حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٣).

﴿صَفّٗا﴾، أي: مصطفين في مواجهة العدو.

﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، أي: كأنهم في اصطفافهم للقتال تجاه العدو ﴿بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، أي: مثبت ملتصق بعضه ببعض، أي: ليس بينهم في صفوفهم ثغرات أو منافذ يدخل منها العدو، وقلوبهم مجتمعة على الحق ليس بينهم اختلاف.

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

ويؤخذ من هذا فضل الجهاد والمجاهدين، وأن الجهاد من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وأن من أحب عباده إليه الذين يقاتلون في سبيله راصين صفوفهم كالبنيان المرصوص. قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(١).

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا اصطفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»(٣).

وعنه- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو ضامن علي أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله- عز وجل- بلسان المقال أو الحال

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٩، ومسلم الإيمان ٨٣، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٢٤، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٨٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦.

أو بهما جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٢- إثب-ات اسمين من أسماء الله- عز وجل-، وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وله الحكم التام النافذ بأقسامه: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٣- في اقتران هذين الاسمين: «العزيز» و«الحكيم» في حقه عز وجل، كمال إلى كمال.

٤- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهمية الخطاب ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف والانتهاء عما نُهي عنه بعد هذا النداء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٥- الإنكار والتوبيخ لمن يقول من المؤمنين قولًا لا يتبعه بالفعل وتأكيد حرمة ذلك وشدة بغض الله له؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

٦- وجوب إتباع القول بالعمل، والحذر من صفات المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

٦- محبة الله- عز وجل- للمجاهدين في سبيله، متراصة صفوفهم كالبنيان المرصوص، مجتمعة قلوبهم على الحق. وفي هذا إثبات المحبة لله- عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وتحريض المؤمنين وحثهم على القتال في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين، وأنكر عليهم أن يقولوا ما لا يفعلون، ثم أتبع ذلك بذكر شيء مما جرى لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والمخالفة، تسلية للرسول ﷺ تجاه تكذيب قومه وأذاهم له، وترغيبًا له بالصبر.

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: لما قسم النبي ﷺ قسمة حنين قال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فتغير وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا فصبر»(١).

كما أن في ذلك تحذيرًا للمكذبين من قومه ﷺ والسعيد من وعظ بغيره.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: واذكر حين قال نبي الله وكليمه موسى بن عمران- عليه السلام- لقومه بني إسرائيل.

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام. والقوم هم الجماعة من الناس. ﴿لِمَ﴾ اللام حرف جر، و«ما» للاستفهام حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تُؤْذُونَنِى﴾.

والأذى: ما يتأذى به الإنسان من قول أو فعل. ومن ذلك قولهم عنه عليه السلام بأنه آدر، أي: منتفخ الخصيتين(٢)؛ ولهذا قال تعالى محذرًا المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٥، ومسلم في الزكاة ١٠٦٢.

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٤، ومسلم في الفضائل ٣٣٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢١، وأحمد ٢/ ٥١٤- ٥١٥.

تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ومن أذاهم له عليه السلام الصد عن دينه والمخالفة له ولدعوته؛ ولهذا قال:

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنكم قد تعلمون أني رسول الله إليكم علمًا يقينيًا، حقًا وصدقًا.

أي: تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الآيات الشرعية والكونية من عند الله- عز وجل- الدالة على صدق رسالتي إليكم. ولهذا استحق اليهود غضب الله؛ لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

والرسول: هو من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي إضافة «رسول» إلى الله- عز وجل- تعظيم لشأن الرسول «موسى عليه السلام» فإن الرسول يعظم بعظم المرسِل له.

وفي قوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ تذكير لقومه بني إسرائيل بعناية الله بهدايتهم، والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

وفي قوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ نوع من التلطف معهم، واستعطاف قلوبهم، ولكن ذلك لم ينجع فيهم؛ لقساوة قلوبهم.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾، أي: فلما عدلوا ومالوا عن اتباع الحق. والزيغ: الميل والعدول عن الحق مع معرفته والعلم به.

﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، أي: أمالها وصدها عن الحق والهدى، وجعلها محلا للشك والشرك والنفاق والحيرة والخذلان، ترى المنكر معروفًا والمعروف منكرًا.

وذلك أن الجزاء من جنس العمل، والسيئة تجر للسيئة بعدها كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]،.

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨- ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فالسيئات والمعاصي يجر بعضها بعضًا، وبعضها إلى بعض أسرع من السيل إلى منحدره، مما يوجب البعد عنها والحذر منها.

وخص القلوب بالزيغ؛ لأنها محل الصلاح والفساد من الجسد كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهذه عامة للفاسقين وغيرهم؛ لأن الله أرشد إلى الحق، ودل عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبما وهب البشر من الأفئدة والأبصار والأسماع التي بها تقوم عليهم الحجة.

والقسم الثاني: هداية التوفيق والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل وهي المنفية عن الفاسقين في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

و«الفاسقين» جمع فاسق، والفسق: هو الخروج عن طاعة الله، وعن الصلاح إلى الفساد. ولهذا تسمى الفواسق الخمس بالفواسق؛ لأنها تخرج وتسعى للإفساد.

فجمع الله- عز وجل- لمن آذوا رسوله موسى عليه السلام وزاغوا عن الحق عقوبتين الأولى: إزاغة وإمالة قلوبهم عن الحق، والثانية: عدم هدايتهم له.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وهاتان العقوبتان لكل من زاغ ومال عن الحق من أمة محمد ﷺ من باب أولى- لوضوح الحق الذي جاء به ﷺ وفضل دينه على سائر الأديان، وفضله ﷺ على سائر الرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ذكر الله- عز وجل- ما جرى لموسى- عليه السلام- مع قومه، ثم أتبع ذلك بذكر ما جرى لعيسى- عليه السلام- مع قومه.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، أي: واذكر حين قال عيسى بن مريم عليه السلام لقومه ﴿أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل.

ويذكر عيسى بن مريم- غالبًا- في القرآن الكريم منسوبًا لأمه، بينما يذكر بقية الأنبياء بلا نسبة ولا لآبائهم، وذلك للتذكير بعظيم قدرة الله- تعالى- في خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وذلك آية من آيات الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وهو معدود في القرآن من ذرية إبراهيم عليه السلام وإن كان ابن بنته؛ لأنه لا أب له، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآيات: ٨٣- ٨٥].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

و«بنو إسرائيل» هم بنو يعقوب عليه السلام وذريته، وإسرائيل: هو يعقوب عليه السلام.

﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ إخبار وإعلام من عيسى- عليه السلام- لبني إسرائيل أنه مرسل من عند الله إليهم.

وفي قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة «رسول» إلى الله- عز وجل- تعظيم لشأن عيسى عليه السلام. وفي قوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ توكيد لعناية الله بهدايتهم والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، «مصدقًا» حال، أي: حال كوني ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، أي: لما سبقني من التوراة، التي بشّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت به.

فرسالة عيسى عليه السلام تصديق لما جاء في التوراة من البشارة به، وتصديق لها بأنها حق، وهو وكتابه الإنجيل متمم للتوراة ولرسالة موسى عليهما السلام.

وهكذا جميع الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وحال كوني «مبشرًا برسولٍ»، ونكر «رسول» للتعظيم.

والمبشِّر: المخبر بما يَسُر، والبشارة: الخبر السار. سميت بذلك أخذًا من البشرة، لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر استنارت بشرته، وظهر ذلك على أسارير وجهه.

﴿يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، اسمه أحمد ومحمد قال ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»(١).

وعن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه- قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر، ونبي التوبة، ونبي

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل- باب في أسمائه ﷺ ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

الرحمة»[١]. وفي رواية: «ونبي الملحمة»[٢].

و«أحمد» و«محمد» كل منهما مأخوذ من الحمد، ولم يسم بـ«أحمد» أحد قبله ﷺ، بخلاف «محمد» فقد سمي به قبله.

ويؤخذ من قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، والشهادة له بالرسالة وأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وبعده محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتمهم.

عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[٣].

وعن العرباض بن سارية- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»[٤].

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: قلت: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت له قصور الشام»[٥].

والمراد بدعوة إبراهيم حين قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٥٥، وأحمد ٤/ ٣٩٥. وأخرجه أحمد أيضًا ٥/ ٤٠٥ من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجها أحمد ٤/ ٤٠٤- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن إسحاق، انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ١٦٦- قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦: «هذا إسناد جيد».

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٧، والطبري في ««جامع البيان» ٢٢/ ٦١٣.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٢.

وهكذا شهد النجاشي برسالته ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قصة هجرتهم إلى الحبشة حيث قال النجاشي: «أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم..»(١).

وكما بشر عيسى عليه السلام في الإنجيل بمحمد ﷺ فقد بشر به موسى عليه السلام في التوراة، وأخذ الله العهد على النبيين بالإيمان به قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس- رضي الله عنهما- «ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه»(٢).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾، أي: فلما جاءهم الرسول المبشَّر به محمد ﷺ، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات من الأدلة الكونية والشرعية.

﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال الكافرون من قومه من المشركين ومن أهل الكتاب:

﴿هَٰذَا﴾، أي: ما جاء به من الوحي ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: سحر بين ظاهر في نفسه أنه سحر، ومبين أمر الذي جاء به أنه ساحر.

والسحر: عقد تعقد وينفث فيها، تؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني- كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٤٦١.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦.

وهكذا دأب المكذبين للحق، ولدعاته من الرسل وأتباعهم عندما تعيى بهم الحيل أمام الحق الواضح الصريح، ولا يستطيعون له دفعًا فإنهم يلجؤون إلى مثل هذه التهم الباطلة من الرمي بالسحر ونحو ذلك.

فلينتبه لهذا الدعاة والمصلحون والموجهون، وليأخذوا منه العظة والعبرة فإن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى تحمل وصبر ومرابطة قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»(١).

ولقد أحسن القائل:

ودرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود(٢)

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه وترغيبه في الصبر على أذى قومه بذكر ما حصل لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والتكذيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ الآية.

٢- تحذير المكذبين له ﷺ من سلوك طريق اليهود والنصارى في تكذيبهم لأنبيائهم وأذيتهم لهم.

٣- أن اليهود عرفوا الحق وتركوه، ولهذا استحقوا غضب الله عليهم؛ لتمام قيام الحجة عليهم؛ لهذا أنكر عليهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٤- تلطف موسى عليه السلام مع قومه في الخطاب ولكن ذلك لم ينجع فيهم

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٢) هذا البيت لوليد الأعظمي. انظر: «ديوانه: الزوابع» ص٦٩.

لقساوة قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٥- إثبات رسالة موسى عليه السلام وتشريفه وجميع الرسل بإضافتهم إلى الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٦- أن المعصية والسيئة تجر إلى ما هو أعظم وأكبر منها، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

٧- عدم توفيق الله للفاسقين الخارجين عن طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٨- التحذير من الزيغ والفسق؛ لأن ذلك سبب لزيغ القلوب والضلال.

٩- إثبات رسالة عيسى عليه السلام وأنه جاء مكملًا، ومصدقًا لرسالة موسى عليه السلام وللتوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

١٠- بشارة عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ببعثة محمد ﷺ ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي﴾.

١٠- أن من أسمائه ﷺ «أحمد»؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

١١- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ، ولما جاءهم به من الآيات البينات الشرعية والكونية، ووصفهم لما جاءهم به بأنه سحر مبين. وهكذا دأب المكذبين للحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الواو: استئنافية. و«أظلم» على وزن «أفعل» التفضيل، أي: لا أحد أشد ظلمًا.

﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، «من» موصولة، أي: من الذي اختلق على الله الكذب فجعل له الأنداد والشركاء، والصاحبة والولد، وكذب رسله، ورماهم بالسحر، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

قال الطبري(١): «ومن أشد ظلمًا وعُدوانًا ممن اختلق على الله الكذب، وهو قول قائلهم للنبي ﷺ: هو ساحر وما جاء به سحر»

و«أفعل» التفضيل هنا على بابه؛ لأن أظلم الظلم وأشده الشرك بالله عز وجل؛ لأن حقه عز وجل أوضح الحقوق وأبينها وأعظمها فمن صرفه لغير الله أو أشرك معه غيره فليس هناك من هو أظلم منه، ولهذا قال لقمان فيما حكى الله عنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئا.

وهو أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو قسمان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالتعدي عليهم، وهو

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

داخل في ظلم النفس.

﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الواو: للحال، أي: في الحال التي يدعى فيها ﴿إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، أي: إلى الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، أي: وقد أقيمت عليه الحجة بدعوته إلى الإسلام بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات فلا حجة له ولا عذر.

يُدعى إلى أصل الخير ورأسه وأعظمه الإيمان، فيختار أصل الشر ورأسه وأعظمه الشرك، أمره عجيب وحاله مريب ومنقلبه كئيب.

إذ الواجب البحث عن الحق وطريقه، لو لم يدع إليه، فكيف يتركه وقد دعي إليه، ويختار طريق الباطل هذا في غاية الظلم والسفه والجهل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكلام فيه كما سبق في الكلام على قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: إن الله عز وجل لا يوفق القوم الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالاعتداء على حقوقهم.

وهذا مجازاة لهم حجب الله هدايته عن قلوبهم بسبب ظلمهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿يُرِيدُونَ﴾ أي يقصدون ويحاولون بظلمهم.

﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ اللام للتعليل وهي بمعنى «أن»، كما في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الآية: ٣٢].

أي: يريدون ليطفئوا ويخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ونور الله: هو نور وحيه، ونور القرآن، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

ومنه النور الذي يلقيه في قلوب عباده المؤمنين، كما قال عز وجل في سورة النور ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، أي: بافترائهم الكذب على الله والباطل بقولهم بأفواههم، بجعل الأنداد والشركاء له والصاحبة والولد، وردهم الحق، وقولهم لما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ وغير ذلك.

وإنما خص الأفواه بالذكر- مع أنهم لم ولن يدخروا وسيلة لرد الحق بقول أو بفعل إلا عملوها- إشارة لضعفهم ووهنهم، فهم في هذا أشد ضعفًا ووهنًا ممن يريدون إطفاء نور الشمس بالنفخ بأفواههم.

قال ابن كثير(١): «أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذاك مستحيل».

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿مُتِمُّ﴾ بغير تنوين و﴿نُورِهِۦ﴾ بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب: «مُتِمٌّ نُورَهُ».

أي: والله مكمل نوره ومظهره على الأديان كلها كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أي: ولو كره الكافرون إتمام نوره وإكماله.

والكافرون: جمع كافر، وهو من جحد وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته، وشريعته، أو شيئًا من ذلك، واستكبر عن الانقياد لشرعه، أو أعرض عنه، أو شك فيه.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٨.

قال الطبري[(١)]: «والله معلنٌ الحق، ومظهر دينه، وناصر محمدًا ﷺ على من عاداه، فذلك إتمام نوره وعني بالنور في هذا الموضع الإسلام».

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ هذا كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الآية: ٣٣]. وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٢٨].

أي: هو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، أي: بعث رسوله محمدًا ﷺ أفضل الرسل وخاتمهم، ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: بالوحي والعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: والدين الحق، وهو العمل الصالح.

وهما رأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع، وعمل صالح- نسأل الله التوفيق، ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قل اللهم إني أسألك الهدى والسداد»[(٢)].

فالهدى: العلم النافع، والسداد: العمل الصالح.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجعله ظاهرًا عاليا.

﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، «الدين» اسم جنس، أي ليجعله ظاهرًا عاليًا على الأديان كلها السماوية والأرضية مهيمنًا عليها ناسخًا لها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٥، وأبو داود في الخاتم ٤٢٢٥، والنسائي في الزينة ٥٢١٠- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، أي: ولو كره المشركون ذلك، أي: ولو كره المشركون ظهور الإسلام على الأديان كلها من الشرك وغيره.

فهذا الدين هو الظاهر على الأديان كلها، وأتباعه هم الظاهرون على غيرهم الغالبون لمن سواهم ما إن تمسكوا به، فإن تخلوا عنه واكتفوا بالانتساب إليه فقط، فلا غلبة لهم ولا ظهور، وواقع المسلمين اليوم أكبر شاهد على هذا.

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك سيكون تامًا. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، فأشرك مع الله غيره وكذب رسله ورماهم وما جاؤوا به من الحق بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾.

٢- عدم توفيق الله للظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بالشرك والمعاصي- بعد إقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣- إرادة المكذبين الظالمين إطفاء نور الله «نور الحق» بافترائهم الكذب بأفواههم وأقوالهم الباطلة وأنى لهم ذلك، وتكفله عز وجل بإتمام نوره ولو كره الكافرون ذلك، ورغم أنوفهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/٦١٦، والحاكم ٤/٤٤٦، ٤٤٩.

٤- الإشارة لعظمة الحق وظهوره وثباته، وأن مثل من يريد إطفاء نوره وإبطاله كمن يحاول عبثًا إطفاء نور الشمس.

٥- الامتنان على العباد بإرساله- عز وجل- محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح وإظهاره على جميع الأديان، ولو كره المشركون ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

جاء في سبب نزول هذه السورة أن الصحابة سألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل فذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما يدل على أن من أهم ذلك الإيمان به والجهاد في سبيله، فذلك التجارة الرابحة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾

«هل» حرف استفهام، وفيه معنى التشويق والترغيب.

و«التجارة» تطلق على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩].

كما تطلق التجارة على جزاء الأعمال والمتاجرة مع الله- عز وجل- بالإيمان والأعمال الصالحة للفوز بالجنة والنجاة من النار.

وهي المرادة بالتجارة هنا في قوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾؟ وهي التجارة حقًا.

ولهذا أتبعها بقوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وفسرها بقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾.

كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ

وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ونكرت تجارة هنا للتعظيم.

قال ﷺ: «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله(٢):

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

﴿تُنجِيكُم﴾، أي: تكون سببًا في نجاتكم وسلامتكم.

﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو عذاب النار؛ لأن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، وليس بعوض عن دخول الجنة كما يقوله المعتزلة.

ودخول الجنة والنجاة من النار إنما هو برحمة أرحم الراحمين، ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب»(٣).

و﴿أَلِيمٍ﴾ على وزن «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: موجع حسًا ومعنى، وهو عذاب

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في «النونية» ص٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

النار، العذاب الأكبر والأشد مع ما يسبقه من العذاب الدنيوي، بالأنفس والأموال وفقدان السعادة لمن خالف أمر الله.

وقدم قوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على تفسير وبيان التجارة؛ تشويقًا للتجارة وقدم النجاة من النار على دخول الجنات؛ لأن التخلية قبل التحلية، وإشارة إلى أن من نجا من النار دخل الجنة؛ إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قال أبو العتاهية(١):

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار

قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ لما تشوقت النفوس وتطلعت إلى معرفة ما هي هذه التجارة، التي فيها النجاة من العذاب الأليم وذلك بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فسرها وبيّنها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية.

فالتجارة الرابحة حقًا: هي التجارة مع الله- عز وجل- بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس.

وفي قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعد ندائهم باسم الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، دليل

---

(١) انظر: «ديوانه» ص١٤١.

على حاجة الإنسان إلى الإيمان كل لحظة، والزيادة منه والثبات عليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله في هدايته للإيمان وتثبيته عليه وزيادته منه.

ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

ومعنى الإيمان بالرسول ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو في قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تشريف وتكريم له ﷺ، وأن من لازم الإيمان: الإيمان بالله ورسوله. فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله- عز وجل- فليس بمؤمن، فالإيمان بالله والرسول متلازمان.

كما أن فيه جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم في باب الإيمان والطاعة، لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله.

فالإيمان بالله ورسوله درجة عظيمة ومنزلة رفيعة، به الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة- نسأل الله التوفيق والثبات على الإيمان حتى الممات.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة والوسع.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله تعالى، ووفق شرعه، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: وتبذلون جهدكم وطاقتكم ووسعكم في قتال الكفار؛ لإعلاء كلمة الله.

﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قدم الجهاد بالأموال هنا وفي جميع المواضع في القرآن عدا قوله في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [الآية: ١١١]. وذلك لأهمية الجهاد بالمال، فالجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالجهاد بالمال والعدة والعتاد والسلاح والزاد والمراكب وغير ذلك.

وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وإن كانت خبرًا فمعناها الطلب والأمر، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

ولهذا جاء جوابه مجزومًا في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾.

وقد قرأها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «آمنوا بالله ورسوله»(١).

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة للإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، والذي هو التجارة الرابحة مع الله عز وجل.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: خير لكم خيرية مطلقة من تجارة الدنيا، ومن الدنيا بحذافيرها، وغير ذلك. فالخير كل الخير بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله.

و«خير» وإن كان اسم تفضيل، فإنه لا يدل على أن في عدم الإيمان وترك الجهاد شيئًا مفضولًا من الخير؛ لأن اسم التفضيل قد يستعمل في المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة بل هو شر محض، كما في قوله عز وجل: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

فلا يؤخذ من هذا أن أهل النار عندهم شيء من خير المستقر وحسن المقيل إذ لا خير في النار البتة، ولا حسن فيها، بل كل ما فيها شر وسوء.

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ١٥٤، «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٧.

وقد سئل ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «**إيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟، قال: «**حج مبرور**»(١).

وعن عبد الله بن حبشي الخثعمي- رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة»(٢).

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم، تعلمون به ما ينفعكم، وتهتدون به لما فيه خيركم وسعادتكم في دينكم ودنياكم، أي: اعلموا أن في المتاجرة مع الله في الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم الخير كل الخير لكم.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هذا هو جواب الأمر المفهوم من جملة الخبر ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيله بأموالكم وأنفسكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وهو وما عطف عليه تفسير للخيرية في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة أن الله عز وجل يقرر عبده المؤمن بذنوبه، فيقول عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(٣).

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ جنات: جمع جنة، والجنة في الأصل: البستان، وسمي البستان جنة؛ لأنه يجن- أي: يستر- من بداخله بأشجاره الملتفة وثماره الكثيرة.

والمراد بقوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾: ما أعده الله عز وجل لأوليائه في دار كرامته مما لا تقاس به جنات الدنيا وبساتينها، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٢٦، والدارمي في الصلاة ١٤٢٤.

(٣) سبق تخريجه.

جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١).

ونكر «جنات» تعظيمًا لشأنها، أي: جنات وأيّ جنات، جنات ونعم الجنات.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات»؛ لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال.

والمعنى: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠] يشربون منها ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها، ويصرفونها كيف شاؤوا بلا جداول ولا أخدود.

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافتاها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر»(٢).

قال ابن القيم(٣):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

وهي أنواع- كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [الآية: ١٥].

وتتفجر من الفردوس، كما قال ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٢٩٦.

(٣) في «النونية» ص٢٢٩.

الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(١).

﴿وَمَسَٰكِنَ﴾، أي: ويدخلكم مساكن ومنازل ﴿طَيِّبَةً﴾، أي: طيبة السكن، يطيب فيها حال الساكن ويرتاح ويسر، ويطمئن ويأمن، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، «عدن» بمعنى إقامة دائمة أبدية، أي: في جنات إقامة أبدية لا يتحولون عنها كما قال عز وجل في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الآية: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة لما سبق من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنات والمساكن الطيبة في جنات عدن.

و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الفلاح والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية الذي لا يقدر كنه عظمته إلا من وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير- درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٢/ ٣٣٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي جعل قوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية مكتنفين لتفسير التجارة إشارة إلى أن التجارة هي مجموع الأمرين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وما أعد الله لهم من الجزاء عليه من النجاة من النار والمغفرة ودخول الجنات.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ الواو: عاطفة و«أخرى» مفعول به لفعل محذوف تقديره «يؤتكم» مجزوم عطفًا على «يغفر»، أي: ويؤتكم نعمة وزيادة وثمرة أخرى عاجلة في الدنيا تحبونها.

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم على عدوكم.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، أي: وفتح من الله قريب لكم لبلاد الكفر كمكة وغيرها من المدن والأمصار.

وذلك إذا آمنتم بالله ورسوله وجاهدتم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا نصر الله- عز وجل- النبي ﷺ والمؤمنين على أعدائهم، وفتح لهم مكة وغيرها من البلاد وفاءً بما وعدهم، وهو الذي لا يخلف الميعاد سبحانه وتعالى.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق بيان معنى البشارة واشتقاقها.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: وأخبر المؤمنين بالخبر السار لهم في دنياهم وآخرتهم وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ومغفرة الذنوب ودخول الجنات والفوز العظيم والنصر على الأعداء والفتح القريب.

ويؤخذ من هذا التعبير القرآني المحبب للنفوس ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه ينبغي أن

نكون مبشرين، كما قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»(١).

وهذا التعبير القرآني العظيم والتوجيه النبوي الكريم يذكرني بكلمة أحب أن أسجلها لسماحة الشيخ الوالد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تلك العبارة الرقيقة التي تدخل إلى شغاف القلوب عندما يسأله سائل كثيرًا ما يختم إجابته له بقوله: «وأبشر بالخير» فرحمك الله يا شيخنا وبشرك بكل خير، وجزاك عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فقد كنت مثالًا يحتذى في الدعوة إلى الله، وفي فعل الخير، وقوله وفي تحبيب الناس إليه، وفي محبته لهم.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ لتنبيههم لأهميته، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من الأوامر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- الحض والترغيب على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وأن في ذلك: التجارةَ الرابحة والنجاة من عذاب أليم؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾.

٣- أن في الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس: الخير كل الخير؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

٤- أن المفاضلة والخيرية لا تعني عدم الوجوب، فالإيمان بالله ورسله والثبات على ذلك من أوجب الواجبات، وكذا الجهاد في سبيله يجب في كثير من الحالات.

وفي هذا رد على الذين يستدلون على عدم وجوب صلاة الجماعة بقوله ﷺ: «**صلاة**

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣- من حديث أبي موسى- رضي الله عنه.

الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»(١).

وفي لفظ: «بخمس وعشرين درجة»(٢).

٥- أن الإيمان بالله ورسوله متلازمان وأنهما شرطان لقبول الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٦- أن الجهاد المشروع في الإسلام هو ما كان في سبيل الله، أي لإعلاء كلمة الله ووفق ما شرع الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٧- أهمية الجهاد بالمال ولهذا قدم على الجهاد بالنفس وكل منهما مهم في وقته وعند الحاجة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

٨- عظم ما أعده الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله من مغفرة الذنوب، ودخول الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار والمساكين الطيبة مع الإقامة الأبدية فيها، وذلك الفوز العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

٩- وعد الله- عز وجل- للمؤمنين المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم بالنصر على أعدائهم وفتح بلاد الكفر، وهكذا حصل بفضل الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

١٠- البشارة المطلقة للمؤمنين بالسعادة والنصر والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. فلله الحمد؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٤٥، ومسلم في المساجد ٦٥٠- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٦٤٦، وأبو داود في الصلاة ٦٥٠- من حديث أبي سعيد الخدري ضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

رغب عز وجل في الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين بمناصرة دين الله؛ كما فعل الحواريون من أتباع عيسى عليه السلام.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ النداء للمؤمنين من هذه الأمة.

﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، بغير تنوين، مضافًا إلى لفظ الجلالة. وقرأ الباقون بالتنوين ولام الجر: «أنصارًا لله».

أي: كونوا أنصار دينه؛ بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله بالسيف والسنان والحجة والبرهان؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾، «الحواريون»: جمع حواري، والحواري: صفي الرجل وخاصته.

والمراد: أتباع عيسى وأنصاره وأعوانه.

﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، «من» للاستفهام، وفيه معنى التحضيض أي: من أنصاري وأعواني منكم يا قوم في دعوتي وطريقي إلى الله.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾، أي: قال الحواريون، وهم أصفياء عيسى وأتباعه:

﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أي: أنصار دينه.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا في الاستجابة لله ولرسوله ﷺ ونصرة دينه، كالحواريين في الاستجابة لعيسى عليه السلام ونصرته فيما جاء به من عند الله.

وليس في هذا ما يستلزم، بل ولا ما يدل على فضل الحواريين على صحابة رسول

الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة.

إذ لا أفضل من صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ: «إن لكل نبي حواري، وأنا حواريِّي الزبير بن العوام»(١).

قال ابن كثير(٢): «وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشًا منعوني أن أبلغ رسالة ربي»(٣) حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علمًا عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

﴿فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: فصدقت طائفة وجماعة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ورسالته وانقادوا له.

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾، أي: وجحدت طائفة وجماعة رسالته وهم اليهود.

قال ابن كثير(٤): «اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم- وهم اليهود- عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقًا وشيعًا، فمن قائل: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٤٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤١٥- من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩ وانظر ٢/ ٤٠١.

ثلاثة: الآب، والابن، وروح القدس، ومن قائل: إنه الله»(١).

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾، أي: نصرنا الذين آمنوا مع عيسى من الحواريين وقويناهم على من عاداهم من اليهود وفرق النصارى الكافرة.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، أي: فأصبحوا ظاهرين على عدوهم بتأييد الله ونصره لهم لأنهم على الحق.

ولهذا فإن من تأييد الله لهم- كما قال بعض المفسرين- بعثة محمد ﷺ.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما أراد الله- عز وجل- أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلًا من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشر مرة، بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنًا، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب قال: أنا. قال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم، اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن

---

(١) يعنون بالأب: «الله»، وبالابن: «المسيح ابن مريم»، وبروح القدس: «جبريل»، وهذه عقيدة التثليث عندهم- تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾، في إظهار محمد دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾»(١).

قال ابن كثير(٢) بعد سياقه عن ابن عباس: «فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح- عيسى ابن مريم- عليه السلام- كما وردت الأحاديث الصحاح والله أعلم».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء من أمر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢- تحضيض المؤمنين على الاستجابة للرسول ﷺ ونصرة دين الله، كما فعل الحواريون أتباع عيسى عليه السلام، وأخذ القدوة من المؤمنين قبلهم.؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

٣- التذكير بقدرة الله عز وجل في خلق عيسى بن مريم عليه السلام من أنثى بلا ذكر.

٤- الثناء على الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام- بنصرتهم دين الله.

٥- تأييد الله- عز وجل- وتقويته ونصره للمؤمنين من أتباع عيسى- عليه السلام- على أعدائهم الكافرين وإظهاره لهم.

وهكذا فإنه عز وجل ينصر أولياءه في كل زمان ومكان والعاقبة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه الطبري «جامع البيان» ٢٢/ ٦٢٢- ٦٢٣.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٠.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الجمعة» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الآية:٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كنا جلوسا عند النبي ﷺ، إذ نزلت عليه سورة الجمعة»(١).

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- فضلها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان]، وأن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والثناء عليه.

٢- الامتنان على هذه الأمة ببعثة محمد ﷺ فيهم، وإنزال القرآن الكريم عليه فضلًا منه وكرمًا.

٣- ذم اليهود؛ لعدم عملهم بالتوراة التي أنزلها الله عليهم، وتكذيب زعمهم أنهم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٦، والترمذي في المناقب ٣٩٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة- ما يقرأ في صلاة الجمعة ٨٧٩، والنسائي في الجمعة ١٤٢١.
وأخرجه- دون ذكر صلاة الجمعة وما يقرأ فيها- أبو داود في الصلاة ١٠٧٤، والترمذي في الجمعة ٥٢٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢١.

أولياء الله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾.

٤- الأمر بالمبادرة إلى صلاة الجمعة إذا نودي إليها، والسعي إلى ذكر الله وترك البيع، والترغيب بالانتشار بعد الصلاة في الأرض وطلب الرزق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد، وفي آخر سورة الحشر.

﴿الْمَلِكِ﴾، أي: الملك للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما، الخالق لذلك كله المتصرف فيه بأمره وحكمه.

والمِلك أعم من المالك، وأبلغ، لأن كل مِلك مالك وليس كل مالك ملكًا.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المعظم المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

في هذه الآية إجابة دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام حين دعا لأهل مكة بقوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، أي: هو الله سبحانه ﴿الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وفي هذا تذكير بعظمته عز وجل، وعظيم نعمته عليهم.

و«بعث» بمعنى أرسل، و«الأميين» جمع أمي، وهو من لا يقرأ ولا يكتب.

والمراد بهم العرب، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال ﷺ لما قال له جبريل: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ»(١).

وقال ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا»(٢).

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد الخلق، فهو عربي من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي.

وهو أمي أيضًا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتخصيص الأميين، وهم العرب بالذكر؛ لتذكيرهم بعظيم نعمة الله عليهم، فالمنة عليهم أبلغ وآكد، كما أن المسؤولية عليهم في تبليغ الدعوة أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ لأنه بلسانهم، كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وإلا فهو مبعوث فيهم وفي غيرهم، وذكر لهم ولغيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: لأنذركم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩١٣، ومسلم في الصيام- وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال ١٠٨٠، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

به وأنذر به كل من بلغه القرآن.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي: يقرأ عليهم آيات الله- عز وجل- القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: ويطهرهم بما يتلو عليهم من آيات الله- عز وجل- وما فيها من المعاني والأحكام والآداب والمواعظ التي فيها طهارة النفوس والقلوب والأبدان.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: ويعملهم القرآن والسنة، وما فيهما من الأحكام والحكم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٩٦] أي: القرآن والسنة.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الواو: حالية، واللام للتوكيد، أي: والحال أنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

والمعنى: وإن كانوا من قبل بعثته ﷺ لفي بُعد وتيه عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بين واضح في نفسه، ﴿مُّبِينٍ﴾ أمر من كان عليه أنه ضائع تائه.

وأيُّ ضلال أبين من الشرك بالله عز وجل.

قال ابن كثير[1]: «فبعثه الله- سبحانه وتعالى ولله الحمد والمنة- على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه... وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم- عليه السلام- فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها، وأولوها، فبعث الله محمدًا- صلوات الله وسلامه عليه- بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم... وجمع له تعالى- ولله الحمد والمنة- جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٢.

الله وسلامه عليه إلى يوم القيامة».

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، أي: وآخرين ممن بعث فيهم الرسول ﷺ وأنزل فيهم القرآن ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾ لم يحن وقت لحوقهم بهم، أي: أنهم يأتون بعدهم ويدخل فيهم من يأتي بعدهم من العرب والعجم إلى يوم القيامة، وهذا يدل على عموم رسالته ﷺ. فالمعنى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾ في الزمن، أي: أنهم يأتون بعدهم، أو: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ في الفضل. والآية تحتمل الأمرين معًا.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم، حتى سئل ثلاثًا، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال- أو رجل من هؤلاء»(١).

وعن سهل بن سعد الساعدي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالًا ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ يعني بقية من بقي من أمة محمد ﷺ»(٢).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الإشارة إلى ما أعطاه الله- عز وجل- لمحمد ﷺ وخصه به من الرسالة والنبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته فيهم وإنزال القرآن الكريم عليه؛ ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

فأكرم بهذا، وأنعم به من فضل، يعرفه تمام المعرفة، ويقدره حق قدره من وفقه الله،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة- فضل فارس ٢٥٤٦، والترمذي ٣٢٦١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٥- الأثر ١٨٨٩١.

وذاق حلاوة الإيمان، وتأمل في أحوال من لا يدينون بالإسلام، وما هم عليه من الاضطراب والقلق والتذبذب؛ كما قال عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وفي المثل الذي ضربه ﷺ لليهود والنصارى وهذه الأمة، قال اليهود والنصارى: نحن أكثر عملًا وأقل عطاءً، فقال عز وجل: «هل ظلمتكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء»(١).

والفضل: الزيادة منه- عز وجل- بلا استحقاق من المتفضل عليه.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يعطيه الذي يشاء من عباده، فتفضل على محمد ﷺ بالرسالة، وتفضل على أمته ببعثته فيهم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: والله صاحب الزيادة والإفضال والإنعام والجود العظيم، لا راد لفضله ولا مانع لعطائه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم ما لا نحتاج معه إلى أحد سواك.

الفوائد والأحكام:

١- تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- إثبات أسماء الله- عز وجل: «الملك»، «القدوس»، «العزيز»، «الحكيم» وما تدل عليه من كمال ملكه وتدبيره وتصرفه، وتمام عظمته، وعزته التامة، ونفوذ أحكامه الكونية وكمال أحكامه الشرعية والجزائية، وحكمته البالغة التامة في شرعه وقدره وأمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣- نعمة الله- عز وجل- على العرب وامتنانه عليهم وعلى العالم أجمع ببعثه محمد ﷺ فيهم، وإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾.

٤- إثبات رسالته ﷺ، وإنزال القرآن عليه.

٥- أن العرب كانوا قبل الإسلام أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، وهكذا كان النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

٦- أن من نعمة الله- عز وجل- وفضله على العرب خاصة جعل النبي منهم وبلسانهم يتلو عليهم القرآن ويطهرهم معنويًا من الشرك والمعاصي وحسيًا من النجاسات والأحداث ويعلمهم القرآن والسنة؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٧- أن المسؤولية في تبليغ الرسالة على العرب أعظم وآكد، لأن الرسول ﷺ منهم والقرآن بلغتهم.

٨- أن القرآن والسنة كل منهما من وحي الله- وهما مصدرا التشريع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٩- ضلال العرب البين الواضح وبعدهم عن الحق قبل بعثة محمد ﷺ فيهم ونزول القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٠- عموم رسالة النبي محمد ﷺ لجميع الناس السابق منهم واللاحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾.

١١- تأكيد عزته- عز وجل- وكمال حكمه وتمام حكمته وأن من كمال عزته وحكمه وحكمته أن بعث محمدًا ﷺ رسولًا إلى الناس كافة، وأنزل عليه القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٢- الإشارة لعظم فضل الله- عز وجل- على محمد ﷺ في تخصيصه بهذه الرسالة العظيمة وعلى العرب في اختياره منهم، وعلى الأمة المحمدية كلها ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٣- إثبات المشيئة لله- عز وجل- وعظيم فضله وإفضاله وإنعامه على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل فضله على الأمة المحمدية ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه، أتبع ذلك بذم اليهود الذين أنزل الله عليهم التوراة فلم يعملوا بها وكذبوا بآيات الله.

وذلك بيانًا لما هم عليه من سيء الصفات، وتحذيرًا للأمة المحمدية من مسالكهم السيئة.

قوله: ﴿مَثَلُ﴾، أي: شبه ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ يعني اليهود الذين أنزلت عليهم التوراة وكلفوا علمها والعمل بما فيها.

والتوراة: هي الكتاب الذي أنزله- عز وجل- على نبيه وكليمه موسى بن عمران- عليه السلام- كتبها الله عز وجل بيده، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث: «قال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده»(١).

وفي الحديث الآخر: «أن الله غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، والترمذي في القدر ٢١٣٥، وابن ماجه في المقدمة ٨٠، وأحمد ٢/ ٢٦٨، ٣٩٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٧/ ٢٨ (٣٣٩٥٧)، وابن المبارك في «الزهد والرقائق» ونعيم بن =

أنزلها الله عز وجل جملة واحدة على موسى عليه السلام مكتوبة بألواح، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، أي: ثم لم يعملوا بها، بل خالفوها وحرفوها وبدلوها، وكذبوا بمحمد ﷺ وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه وتصديقه.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾، أي: مثلهم في عدم العمل بالتوراة وعدم الانتفاع بها والاستفادة منها، كمثل وشبه الحمار الحيوان المعروف الذي يضرب به المثل في البلادة.

﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ الأسفار: جمع «سِفْر» وهي كتب العلم الكبار، أي: يحمل كتبًا على ظهره، لكنه لا يدري ماذا عليه، وماذا فيها، ولا تلحقه فضيلة بسبب حملها، ولا ينتفع بها ولا يستفيد منها بوجه، ولو حملت عليه كتب الدنيا كلها، وإنما حظه منها النصب والتعب والثقل. كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول(١)

قال الزمخشري(٢): «شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم أنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفارًا، أي: كتبًا كبارًا من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل».

=

حماد في «الزهد» ١/ ٥١٢، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» ٧/ ٣٠٦ (٢٣٢)، والآجري في «الشريعة» ٣/ ١١٨ (٧٥٧).

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» ٢/ ٢٣٢، «نفحة اليمن» ص١٢٦، «جواهر الأدب» ١/ ١٣١.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٩٦.

وقال ابن كثير[١]: «أي كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملًا حسيًا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظًا ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالًا من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]».

ولهذا ذمهم الله في مواضع كثيرة من كتابه وتوعدهم، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»[٢].

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بئس: فعل ذم، أي: قبح وساء شبه اليهود الذين كذبوا بآيات الله. فقد شبهوا في هذا المثل بالحمار أبلد الحيوانات، حال كونه يحمل كتبًا في العلم لا يستفيد منها؛ لعدم فهمه، وفقدانه ما أعطاهم الله من فهم.

والمراد بآيات الله ما يشمل الآيات الشرعية التي أنزلت في التوراة، والآيات الكونية، ومنها الآيات التسع التي أيد الله بها موسى، كالعصا والحية والطوفان وغيرها.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٣٠. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ١٨٤: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، وفيه مجالد ابن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية».

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: والله لا يوفق القوم الظالمين ولا يقبل أعمالهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم.

وقد سبق الكلام على هذه الآية مفصلًا في سورة الصف.

وفي قوله: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن هذا المثل كما هو مثل لليهود هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وكان من الظالمين من اليهود وغيرهم.

قال ابن القيم[1]: «قاس من حمّله- سبحانه- كتابه، ليؤمن به، ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله، إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها فحظه منها حملها على ظهره، ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته».

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾، أي: نادهم منبهًا لهم بهذا الوصف، ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾، أي: الذين رجعوا وتابوا من الكفر والشرك وعبادة العجل، واتبعوا دين «يهودا»، أحد أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولاد يعقوب عليه السلام.

﴿إِن زَعَمۡتُمۡ﴾، أي: إن ادعيتم. والزعم يطلق غالبًا على زعم الأمر الباطل.

﴿أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: أحبابه، والذين يوالونه ويوادونه ويواليهم ويحبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ١٨]،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٤٨- ٤٤٩.

وكما قال قائلهم: نحن شعب الله المختار.

فهم يزعمون أنهم أولى الناس بالله وأنهم هم الذين على الهدى، وأن محمدًا ﷺ وأصحابه وغيرهم على ضلالة.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾، أي: فاطلبوا الموت أو ادعوا على أنفسكم بالموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أولياء الله وأحباؤه، لتنالوا أجر ولايتكم؛ لأن المحب يحب القرب من حبيبه، ولتستريحوا من كرب الدنيا وهمومها وغمومها بالموت، ولتنتقلوا سريعًا إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه.

قال ابن كثير(١): «أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمدًا وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمونه».

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ الواو: عاطفة و«لا» نافية، أي: ولا يمكن أن يتمنوه أبدًا.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: ولا يتمنونه أبدا بسبب الذي قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي والظلم والفجور.

أو بسبب تقديم أيديهم؛ ذلك لأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا خيرًا، بل لم يقدموا إلا الكفر والمعاصي، وليس أمامهم بعد الموت إلا النار، كما قال تعالى لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال أبو جهل- لعنه الله-: إن رأيت محمدًا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٤.

الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ رجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا»(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، «عليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام الواسع بالظالمين وأعمالهم وأحوالهم لا تخفى عليه منهم خافية وسيحاسبهم ويجازيهم عليها، وهو عز وجل عليم بالظالمين وغيرهم وبجميع خلقه وسيجازي كلا بعمله، وإنما خص الظالمين هنا تهديدًا لهم ووعيدًا؛ لأن السياق معهم، بل مع أظلم الظالمين، وهم اليهود المغضوب عليهم.

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ﴾، أي: الذي تهربون منه وتخافونه أيها اليهود.

﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ لا محالة، فلا بد أن تموتوا. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال زهير(٢):

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها(٣)

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة العلق ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة اقرأ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٢٩.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ١٥.

(٤) البيت للشاعر محمد بن عثيمين، من قصيدة قالها في رثاء الشيخ عبد الله العجيري سنة ١٣٥٢هـ وهي =

وقال الآخر:

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار(١)

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ثم بعد الموت تبعثون وترجعون إلى عالم السر والعلانية، وهو الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

وقدّم عز وجل الغيب على الشهادة؛ لتأكيد كمال علمه، وأن السر عنده كالشهادة، كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون، أو فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم ويجازيكم على ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تشبيه اليهود في كونهم حملة التوراة ولم يعملوا بها بأقبح مثل وأحقره وهو مثل الحمار يحمل كتبًا في العلم ولا ينتفع بها وبئس المثل مثلهم لتكذيبهم بآيات الله ومثل ذلك من سلك طريقهم في معرفة الحق وعدم العمل به؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾.

٢- عدم توفيق الله وهدايته للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣- تحدي اليهود بتمني الموت إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس، لأن من كان وليًا لله حقًا يحب لقاءه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٤- نفي الله- عز وجل- تمني اليهود الموت أبدًا؛ لعلمهم أنهم لم يقدموا لما أمامهم سوى الكفر والمعاصي، وما يستوجبون به النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ

=

مطبوعةمع ديوان ابن مشرف في ملحق في آخره ص١٨٧، طبع مكتبة الفلاح- الأحساء- الهفوف.

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص١٤١.

أَيْدِيهِمْ﴾.

٥- تهديد الله- عز وجل- للظالمين من اليهود وغيرهم بعلم الله عز وجل بما هم عليه من الظلم، وأنه سيجازيهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦- أنه لا مفر ولا محيد من الموت، ولابد لجميع الخلق من لقائه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

٧- إثبات البعث والمعاد بعد الموت وإخبار العباد بأعمالهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- علم الله- عز وجل- الواسع المحيط بالشاهد والغائب والسر والعلانية والوعيد للظالمين والوعد للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾.

قوله: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾، أي: إذا أذن لصلاة الجمعة.

ويوم الجمعة: هو سابع أيام الأسبوع، وهو أفضلها.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله شيئًا إلا أعطاه الله إياه»(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد»(٢).

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: امضوا واقصدوا وسيروا إلى ذكر الله- أي: إلى صلاة الجمعة وخطبتها- وفي التعبير بقوله: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي المبادرة بعد النداء بالذهاب إليها والاهتمام بها والتفرغ لها، والإقبال بالقلب على السعي إليها.

وليس المراد بذلك الركض والمشي السريع إليها.

قال ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم

---

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة ٤٩١- بنحوه، وأخرجه مختصرًا البخاري في الجمعة- الساعة التي في يوم الجمعة ٩٣٥، ومسلم في الجمعة- الساعة التي في يوم الجمعة ٨٥٤، وأبو داود في الصلاة ١٠٤٦، والنسائي في الجمعة ١٤٣٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة- هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

فأتموا»[١].

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾، أي: واتركوا البيع والأمر للوجوب، وهو أمر للبائع والمشتري، لأن البيع يطلق على الأمرين ولهذا قال ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[٢].

والمراد بالنداء في الآية النداء الثاني الذي بين يدي خروج النبي ﷺ وجلوسه على المنبر، وكذا الأئمة من بعده.

لأن النداء الأول إنما أمر به الخليفة الراشد- عثمان بن عفان- رضي الله عنه- ليجتمع الناس لما كثروا، كما في حديث السائب بن يزيد- رضي الله عنه- قال: «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن، وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء[٣]»[٤].

وقد قال ﷺ «عليكُم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[٥].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى مصدر الأمر السابق في قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار ٦٣٦، ومسلم في المساجد- استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٥٧٢، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري أيضًا ٦٣٥، ومسلم ٦٠٣- من حديث أبي قتادة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٧٩، ومسلم في البيوع ١٥٣٢، وأبو داود في البيوع ٣٤٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٧، والترمذي في البيوع ١٢٤٦ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٣) الزوراء: هي دار بالمدينة قرب المسجد فكان يؤذن عليها.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة- الأذان يوم الجمعة ٩١٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٨٧، والنسائي في الجمعة ١٣٩٢، والترمذي في الجمعة ٥١٦.

(٥) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢- من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾، أي: السعي إلى ذكر الله وترك البيع خير لكم، خيرية مطلقة من كل وجه في الدنيا والآخرة، إذ لا مقارنة بين إجابة أمر الله وطاعته، وما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، وبين الانشغال بالدنيا الفانية، وما فيه الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي علم تهتدون به إلى ما ينفعكم.

ومن أهم أسباب الحصول على هذا الخير الموعود به التبكير إلى الجمعة ما أمكن ذلك والغسل والسواك والطيب ولبس أحسن ثيابه، والقرب والدنو من الإمام للأحاديث الكثيرة الواردة في فضل ذلك.

فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل غسل الجمعة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»(١).

وعن أوس بن أوس الثقفي- رضي الله عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها»(٢).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة فضل الجمعة ٨٨١، ومسلم في الجمعة- الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٥٠، وأبو داود في الطهارة ٣٥١، والنسائي في الجمعة ١٣٨٨، والترمذي في الجمعة ٤٩٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة- الغسل يوم الجمعة ٣٤٥، والنسائي في الجمعة- فضل غسل يوم الجمعة ١٣٨١، والترمذي في الجمعة- فضل الغسل يوم الجمعة ٤٩٤ وابن ماجه في إقامة الصلاة- الغسل يوم الجمعة ١٠٨٧، وأحمد ٤/ ١٠٤. وقال الترمذي: «حديث حسن».

فليغتسل»[١].

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»[٢].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم، وهو يوم الجمعة»[٣].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب غسل الجمعة.

والجمهور على أنه مستحب. وكلمة «واجب» لا تعني الواجب بمعنى الفرض، كما هو عند الأصوليين والفقهاء، ولما في ذلك من المشقة.

كما يستحب لها السواك والطيب، وأن يلبس لها أحسن ثيابه ففي بعض روايات حديث أبي سعيد- رضي الله عنه: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله»[٤].

وعن أبي أيوب الأنصاري- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله- إن كان عنده- ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع- إن بدا له- ولم يؤذ أحدًا ثم أنصت إذا خرج إمامه

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة- فضل الغسل يوم الجمعة ٨٧٧، والنسائي في الجمعة ١٣٧٦، والترمذي في الجمعة ٤٩٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٥٨، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، وأبو داود في الطهارة ٣٤١، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٩.

(٣) أخرجه النسائي في الجمعة- إيجاب الغسل يوم الجمعة ١٣٧٨، وأحمد ٣/ ٣٠٤.
وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده». أخرجه البخاري ٨٩٨، ومسلم في الجمعة- الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٤٩.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٨٠، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥.

حتى يصلي- كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»[١].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»[٢].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ- خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار[٣]، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته»[٤].

كما يستحب القرب والدنو من الإمام- كما في حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، وغيره.

والعجيب أن كثيرًا من الناس إذا جاهد النفس والشيطان، وجاء قبل خروج الإمام إلى الصلاة، ولو بوقت يسير، أدركه الشيطان في اللحظات الأخيرة بحيث تجده إذا دخل المسجد بدل أن يتجه إلى روضة المسجد خلف الإمام ويمينه تجده يبحث عن مكان يستند فيه على سارية من سواري المسجد أو على حائط من حيطانه ولو كان في مؤخرة المسجد، أو يقبع في زاوية من زواياه، أو يتجه إلى جهة اليسار مع خلو جهة اليمين، أو يتجه إلى نهاية الصف مع خلو وسطه، أو إلى مؤخرة الصفوف مع فراغ أولها، ونحو ذلك، ولا شك أن هذا من تقديم الأدنى على ما هو خير، ومن انتهاز الشيطان الفرصة لحرمان الإنسان من الأجر أو تقليله ما أمكن. وقد قال عز وجل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- اللبس للجمعة ١٠٧٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة- الزينة يوم الجمعة ١٠٩٥.

(٣) ثياب النمار: ثياب يلبسها الأعراب.

(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة- الزينة يوم الجمعة ١٠٩٦.

فالمؤمن إذا دخل المسجد ضيف على أكرم الأكرمين وأجود الأجودين في بيت من بيوت الله- عز وجل- ينبغي أن يحرص على أن يكون في الصف الأول، خلف الإمام، إن أمكنه ذلك، وإن لم يمكنه ذلك فعن يمين الإمام، فإن لم يمكن فعن يساره، فإن لم يجد مكانًا في الصف الأول ففي الصف الثاني على نحو ما تقدم، وإلا ففي الصف الثالث وهكذا.

وإن من العجيب والغريب عدم مراعاة كثير من الناس لهذه المعاني، وزهدهم في القرب من الله وابتغاء مرضاته ومحابه، لأن هذه المعاني من تعظيم الله عز وجل وتعظيم الصلاة ومن كمال الصلاة، وتمام أجرها. ولاشك أن هذا من الجفاء وينقص من أجورهم بقدر جفوتهم وجفائهم.

ولله المثل الأعلى- لو أن إنسانًا استضاف مجموعة من الناس، فلما دخلوا عليه جلسوا عند الباب، أو في مؤخرة المجلس، وأبوا القرب إلى مقدمة المجلس، لعُدَّ هذا من الجفاء في دنيا الناس فكيف لا يعد جافيًا من يجلس في مؤخرة المسجد وفي الصفوف المتأخرة، وأطراف الصفوف تاركًا المنافسة والمسارعة والمسابقة إلى فضل الله، وزيادة الأجر في روضة المسجد وأوائل الصفوف وميامنها وقد قال ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»(١).

وفي المقابل تجد بعضًا من الناس يأتي متأخرًا فيتخطى رقاب الناس وهم جلوس أثناء الخطبة وقبلها، ويخترق الصفوف بسرعة عند إقامة الصلاة مفرقًا بين الناس؛ ليصل إلى ما أمكنه من الصفوف الأُوَل، غير مراع آداب الصلاة والمساجد، وشعور إخوانه المصلين، يريد- بزعمه- فضل الصفوف الأول، فيرتكب منهيًا بأذاه للمصلين وقد قال ﷺ وهو يخطب للذي جاء متأخرًا وأخذ يتخطى رقاب الناس: «اجلس فقد

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦١٥، ومسلم في الصلاة ٤٣٧، والنسائي في المواقيت ٥٤٠، والترمذي في الصلاة ٢٢٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

آذيت وآنيت»[١].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾، أي: فإذا انتهت الصلاة وفرغ منها.

﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تفرقوا فيها.

﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، أي: اطلبوا من فضل الله، وفضل الله: ما عنده عز وجل من الزيادة والإفضال، والمراد به هنا فضل الرزق الدنيوي بالبيع والشراء ونحو ذلك.

فأمرهم عز وجل أولًا: بالسعي للاجتماع لذكر الله: الخطبة والصلاة، وترك البيع، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالتفرق في الأرض وطلب الرزق من الله.

وفي الأمر بطلب الرزق- مع أنه أمر جبل عليه الإنسان- إشارة إلى أن التحريم للبيع في وقت الصلاة لا يمثل حرجًا، فصلوا ثم انتشروا وبيعوا واشتروا.

وإشارة إلى أن الشرع إذا منع من شيء أباح أشياء، وأن الأصل في الأشياء الحل.

قال ابن كثير[٢]: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، فنهاهم أولًا عن البيع بعد النداء، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض، والابتغاء من فضله على سبيل الإباحة والرخصة؛ لأن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة والرخصة، والله عز وجل يحب أن تؤتى رخصه كما جاء في الحديث»[٣].

وكان طائفة من السلف يعمد إلى البيع والشراء في هذا الوقت اتباعًا لأمر الله عز وجل وطلبا لبركة هذا الوقت.

عن عراك بن مالك- رضي الله عنه- أنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ١١١٥- من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٠٨- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته».

المسجد، فقال: «اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»(١).

وروي عن بعض السلف أنه قال: «من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾»(٢).

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: واذكروا الله ذكرًا كثيرًا بتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره وغير ذلك، حال انتشاركم في الأرض وابتغائكم الرزق من الله وحال بيعكم وشرائكم، وفي جميع أحوالكم وتقلباتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

أي: إنكم وإن كنتم خرجتم من ذكر الله عز وجل في خطبة الجمعة وصلاتها فاستمروا على ذكر الله، ولا تنقطعوا عن ذكر الله حتى في حال طلبكم الرزق، ولا تشغلكم الدنيا عن ذكر الله- عز وجل.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقًا من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة، ومحي عنه ألف ألف سيئة»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٦.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات- ما يقول إذا دخل السوق ٣٤٢٨، وابن ماجه في التجارات والأسواق ودخولها ٢٢٣٥، وأحمد ١/ ٤٧- من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

سبب النـزول:

عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «قدمت عير المدينة ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلًا، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾»(١).

وفي رواية عن جابر- رضي الله عنه- قال: «بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم، حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي نارًا» ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾. وقال: كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما»(٢).

وعن جابر- رضي الله عنه- أنهم كانوا إذا نكحوا تضرب الجواري بالمزامير، فيشتد الناس إليهم ويدعون رسول الله ﷺ قائمًا، فنزلت هذه الآية»(٣).

وقد قيل: إن هذه القصة وقعت لما كان الرسول ﷺ يقدم الصلاة على الخطبة.

روى ذلك أبو داود في مراسيله(٤).

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾.

الواو: استئنافية. والضمير «الواو» يرجع إلى الصحابة الذين كانوا أمامه ﷺ وهو

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٩، ومسلم في الجمعة قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ ٨٦٣، والترمذي في التفسير ٣٣١١، وأحمد ٣/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو يعلى فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٥٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٤٨- بإسناد صحيح، وأخرجه أبو عوانة في صحيحه فيما ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٣/ ٧٦.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٠.

يخطب، وفي الآية شيء من المعاتبة لهم- رضي الله عنهم.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء ونحو ذلك.

والمراد بها هنا: العير التي قدمت المدينة تحمل البضائع.

﴿أَوْ لَهْوًا﴾ قيل: إنهم كانوا يستقبلون التجارة بالطبل والتصفيق، وقيل مع هذه التجارة طبل.

﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾، أي: خرجوا إليها. والضمير يعود إلى التجارة، لأنها هي المقصودة بالخروج، واللهو تبع لها. والمعنى انفضوا إلى ذلك.

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾، أي: وتركوك قائمًا تخطب، أو قائمًا في الخطبة.

أما خروج الصحابة رضي الله عنهم وهو يخطب، فقد يكون في بداية الأمر قبل استقرار الأحكام، وربما اعتقدوا أن هذا كغيره من المجالس، وخاصة أنه قيل: إن ذلك لما كانت الخطبة بعد الصلاة، أو يكون ذلك؛ لشدة حاجتهم، أو غير ذلك.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أي: قل لهم يا محمد الذي عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو والتجارة.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أي: أنه عز وجل هو الرازق والرزاق وحده، والرزق كله بيده، فاعبدوه، واطلبوا الرزق منه في وقته، وتوكلوا عليه، كما قال عز وجل: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وليس معنى ذلك أن هناك رازقًا غير الله، بل هو الرازق والرزاق وحده، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وإنما قد يكون بعض المخلوقين سببًا للرزق فقط. أما الرازق والرزاق حقًا فهو الله عز وجل مسبب الأسباب، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

[المؤمنون: ١٤]. فالخالق حقًّا هو الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الفوائد والأحكام:

١- تنبيه المؤمنين بأهمية الخطاب الموجه إليهم بتصديره بالنداء، وتشريفهم وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان حثًا على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعد هذا النداء من أمر ونهي؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- مشروعية النداء لصلاة الجمعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾.

٣- وجوب السعي إلى صلاة الجمعة وخطبتها بعد النداء الثاني لها وترك البيع بعد ذلك وأن في ذلك الخير كل الخير لمن لديه علم ينتفع به؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٤- تحريم البيع بعد النداء الثاني يوم الجمعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾.

قال ابن كثير[1]: «ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة».

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى صحة البيع، وإن كان البيع في هذا الوقت محرمًا بالإجماع.

٥- إن الصلاة أعظم ذكر الله تعالى.

٦- مشروعية الانتشار والتفرق في الأرض بعد قضاء صلاة الجمعة وطلب الرزق من الله وذكر الله بتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وغير ذلك في جميع الأوقات، والوعد بالمجازاة على ذلك بالفلاح والسعادة في الدارين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٧- العتاب اللطيف للمؤمنين الذين خرجوا وتركوا الرسول ﷺ قائمًا يخطب لما رأوا التجارة واللهو؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾.

٨- أن المشروع في الخطبة أن يكون الخطيب قائمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾، وفي الحديث: «كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس»(١).

٩- أن ما عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو ومن التجارة، ومن الدنيا بحذافيرها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾.

١٠- أن الأرزاق كلها بيد الله- عز وجل- وهو خير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الجمعة- ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة ٨٦٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٩٤، والنسائي في الجمعة ١٤١٨ من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلْمُنَافِقُونَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المنافقون»؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [الآية: ١]، ولذكر أحوالهم القبيحة وصفاتهم السيئة فيها.

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- فضلها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين(١).

د- موضوعاتها:

١- تحدثت آيات السورة- فيما عدا ربعها الأخير- عن كذب المنافقين وكشفت نواياهم ودسائسهم الخبيثة، وأحوالهم وأعمالهم السيئة، وحذرت منهم وذمتهم غاية الذم وتوعدتهم.

٢- تحذير المؤمنين من الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله، وأمرهم بالإنفاق من رزق الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

سبب النـزول:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في سفر، أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته. فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله. فاجتهد يمينه: ما فعل. فقالوا: كذب زيد رسول الله. فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله عز وجل تصديقي في: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم. وقوله: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالًا أجمل شيء»(١).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فكسع(٢) رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة» وقال عبد الله بن أبي ابن سلول: وقد فعلوها؟! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٣. ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٧٧٢، والترمذي في تفسير سورة المنافقون ٣٣١٢، وأحمد ٤/ ٣٦٨- ٣٦٩، ٣٧٣.

(٢) أي: ضربه.

قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك. فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»(١).

وروى ابن إسحاق في قصة بني المصطلق في غزوة المريسيع- قال: «فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري، وكان أجيرًا لعمر بن الخطاب، وسنان بن وَبْر. قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين- وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا. والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه، وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو- غُلَيِّمٌ- وعنده عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- فأخبره الخبر، فقال عمر- رضي الله عنه-: يا رسول الله، مر عبّاد بن بشر فليضرب عنقه. فقال ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس- يا عمر-: أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن ناد يا عمر في الرحيل».

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم- وكان عند قومه بمكان- فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم، ولم يثبت ما قال الرجل.

وراح رسول الله ﷺ مهجرًا في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٣، ومسلم في البر- نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ٢٥٨٤، والترمذي في التفسير ٣٣١٥، وأحمد ٢/ ٣٩٢- ٣٩٣.

الأذل». قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكًا.

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا، وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين»(١).

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ﴾، «إذا» ظرفية شرطية. والخطاب في «جاءك» للنبي ﷺ.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ جمع منافق، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، سموا بذلك أخذًا من نافقاء «اليربوع»، وهو دويبة صغيرة أكبر من الفأرة، يتخذ جحرًا في الأرض، ويجعل في آخره النافقاء ليس بينها وبين سطح الأرض سوى قشرة رقيقة جدًا، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج.

فأخذ النفاق والمنافقون من هذا المعنى. وذلك أن المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وإذا لقي المؤمنين قال: إنه مؤمن، وإذا لقي غير المؤمنين من المنافقين وغيرهم قال: أنا معكم، وقولي للمؤمنين أنا مؤمن مجرد استهزاء بهم، فيتخلص بهذا من ملامة هؤلاء وهؤلاء قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

كما قال تعالى عنهم هنا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أي: قالوا قولًا ظاهرًا بألسنتهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٠٣- ٣٠٥، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٤٥- ١٥٥.

لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على وجه الكذب والنفاق منهم، زاعمين مواطأة قلوبهم لما نطقت به ألسنتهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، أي: فلا حاجة إلى شهادتهم هذه الشهادة الظاهرة ووسط هذه الجملة بين قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ وبين الرد عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ للدلالة على عدم الحاجة لشهادتهم، وأن قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ في حد ذاته حق وصدق، وإن كانوا لا يعتقدون ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾؛ لأنهم لا يعتقدون صحة ما يقولون، بل يُكذِّبون برسالته وبما جاء به من عند الله ولا يشهدون أن محمدًا رسول الله كما أنهم لا يشهدون: أن لا إله إلا الله على الحقيقة.

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ مع أن هذا أمر معلوم للرسول ﷺ ذكر- والله أعلم- من باب المقابلة لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فرد الله عليهم بأمرين: علمه عز وجل بأن محمدًا ﷺ رسوله، وشهادته عز وجل بكذب المنافقين في زعمهم أنهم يشهدون أنه رسول الله.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، أي: جعلوا ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، وهي: جمع يمين، أي: حلفهم ﴿جُنَّةٗ﴾، أي: سترًا ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم؛ لتسلم من القتل والسلب والاستحلال، كما حصل من عبد الله بن أبي وغيره؛ لأن من دخل في الإيمان عُصم دمه وماله وعرضه، فهم كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

و«جنة» من الاجتنان، وهو الاستتار، ومنه سمي «الجنان»- وهو القلب- لأنه مستتر، وسمي «الجن»؛ لأنهم مستترون، وسمي «المجن»؛ لأنه يستتر به، وتتقى به السهام، ويقال: جَن الليل، أي: ستر الكون بظلامه وهكذا.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: فأعرضوا بأنفسهم عن سبيل الله، أي: عن طريقه ومنهجه ودينه، وصدوا غيرهم، فاغتر بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم، فصدقهم فيما يقولون واقتدى بهم فيما يفعلون، مع ما هم عليه من خبث القول والعمل، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: إنهم ساء وقبح الذي كانوا يعملون، أو عملهم، من الكفر والشهادة بالكذب، والاتقاء بالأيمان الكاذبة، والصد عن سبيل الله، فمن قلدهم فيما يقولون ويفعلون صدوه عن الإيمان بالله وطريقه؛ لأنهم لا يعملون إلا سيئًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإشارة لما حصل منهم من أعمال سيئة، أي: إنهم إنما حصل لهم ما حصل من النفاق والشهادة بالكذب واتخاذ الأيمان وقاية وسوء العمل، بسبب تذبذبهم، وأنهم آمنوا وصدقوا ظاهرًا بألسنتهم وجوارحهم الظاهرة، وكفروا وجحدوا باطنًا في قلوبهم، أو أنهم نطقوا بالشهادة وقاموا بالأعمال الظاهرة ثم كفروا بأن ظهر منهم من الأقوال والأفعال ما يدل على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] أي: وظهر كفرهم بعد إسلامهم، وكقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

وأيضًا آمنوا، أي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم كفروا، أي: نطقوا بالكفر عند شياطينهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. وقيل آمنوا ثم ارتدوا.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: فختم على قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم بعد إيمانهم.

﴿فَهُمْ﴾، أي: فهم بسبب ذلك الطبع على قلوبهم.

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا فقه لديهم، ولا علم ولا فهم ولا معرفة يهتدون بها إلى

طريق الحق والخير.

قال ابن كثير[١]: «أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي».

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾، الواو: عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له أي: وإذا شاهدتهم يا نبي الله، وإذا شاهدتهم أيها المشاهد.

﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، أي: تعجبك أجسامهم؛ لطولها وضخامتها، واستواء خلقها، وجمالها ونضارتها وحسن أشكالها وصورها.

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، أي: وإن يتكلموا تصغ أنت ومن يسمعهم لكلامهم لبلاغتهم وفصاحة ألسنتهم، ظانّا صدقهم؛ لأنهم ذوو فصاحة ولسن، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

﴿كَأَنَّهُمْ﴾، أي: كأنهم في أجسامهم التي تعجب الناظر لها ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾. «خشب» جمع خشبة، وهي ما يقتطع من سيقان بعض الأشجار الكبيرة كأشجار الأثل وغيرها.

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾، أي: مسندة على جدار أو على شجر أو غير ذلك، أو إلى شيء يسندها، لأنه لا يمكن أن تعتمد على نفسها، وهي في هذه الحال لا ينتفع بها بل هي ثقل على ما أسندت إليه، فهم كذلك مع كون أجسامهم تعجب الناظر إليها بشكلها ونضارتها لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم، ولا نفع فيهم ولا شفع، أشبه بالأخشاب المسندة على الجدران، وخضراء الدمن، والطبول الجوفاء، صور بلا حقائق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان عبد الله بن أبي وسيمًا جسيمًا صحيحًا صبيحًا ذلق اللسان، فإذا قال: سمع النبي ﷺ مقالته»[٢].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٥١.

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٢٤ - ١٢٥.

قال الطبري[١]: «لا خير عندهم، ولا فقه لهم، ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول».

وقال ابن كثير[٢]: «فهم جهامات وصور بلا معاني». كما قيل: الطول طول النخلة، والعقل عقل الصخلة[٣]، وكما قال حسان رضي الله عنه[٤]:

لا بأس في القوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يظنون كل هيعة، وكل واقعة كائنة أنها نازلة بهم، وأنهم المقصودون بها، لريبهم ونفاقهم وخبثهم وسوء ظنهم وضعف يقينهم وجبنهم وخورهم وشدة خوفهم، كما يقال: «كاد المريب أن يقول: خذوني»[٥]، فإذا صاح صائح، أو نادى مناد في العسكر أو في المدينة أو هنا أو هناك لأي أمر ظنوه إيقاعًا بهم، وخافوا من افتضاح نفاقهم، أو أن ينزل بهم ما يبيح دماءهم وأموالهم، فهم دائمًا في خوف وقلق، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

ففقدوا الأمن والطمأنينة، وأحاطت بهم المخاوف من كل جانب بسبب نفاقهم وعدم إيمانهم، وصدق الله العظيم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم اللعنة، وطعامهم نُهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هُجْرًا،

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٣.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٥٢.

(٣) انظر: «الأمثال العامية في نجد» لمحمد بن ناصر العبودي ٢/ ٧٨١.

(٤) انظر: «ديوانه» ص١٢٩.

(٥) انظر: «التمثيل والمحاضرة» ص٤٤، «المستطرف» ص٣٨.

ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا، مستكبرين، لا يألفون، ولا يؤلفون، خُشُبٌ بالليل، صُخُبٌ أو سُخُبٌ بالنهار»(١).

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، أي: هم العدو الحقيقي، العدو المطلق، الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين؛ لأن العدو البارز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي وهو العدو المبين؛ كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، أي: كن منهم على حذر ويقظة، واحتراز واحتياط، ولا تغتر بظاهرهم وزعمهم الإيمان والأخوة للمؤمنين، فهم أشد عداوة للرسول ﷺ وللمؤمنين من جميع الكفار، وضررهم على المؤمنين أشد من الكفار الظاهرين؛ لأن الكفار الظاهرين يُعرفون ويُحترز منهم، أما المنافقون فهم بين ظهراني المؤمنين، ويصعب الاحتراز منهم.

ولشدة عداوتهم وخطرهم على المؤمنين كان عذابهم أشد من جميع الكفار كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ولهذا يقدم ذكرهم في باب الوعيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

قال ابن القيم(٢): «هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٣: قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ٢٢٣: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح». ومعنى «هجرًا»، أي: إعراضًا وتركا، و«دبْرًا»، أي: في آخرها وآخر وقتها. خشب بالليل: أي: كأنهم خشب ملقاة على الأرض، وهو كناية عن أنهم لا يُصلون في الليل، صُخُبٌ أو سُخُب بالنهار: أي: يكثر صخبهم وصياحهم بالنهار على الدنيا شحًا وحرصًا.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٣.

يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم، وهم في الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة، أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل، صباحًا ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكن مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين».

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: أهلكهم ولعنهم الله وأخزاهم كيف يُصرفون عن الحق وإلى أي وجه يُصرفون عن الحق مع البيان وقيام البرهان، وهذا حكم من الله عليهم بالهلكة، وتعليم لعباده وأمر لهم أن يدعوا عليهم بذلك.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله- عز وجل- لرسوله ﷺ وتكريمه له بخطابه تعالى له، وعنايته به ودفاعه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآيات.

٢- شهادة المنافقين ظاهرًا بأنه ﷺ رسول الله، وشهادة الله تعالى إنهم لكاذبون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٣- إثبات علم الله- عز وجل- أن محمدًا رسوله، وإثبات رسالته ﷺ، فلا حاجة لشهادة المنافقين الكاذبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

٤- فضح سرائر المنافقين وشهادة الله- عز وجل- وهو خير الشاهدين- بكذبهم في زعمهم أنهم يشهدون أن محمدًا رسول الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

٥- تستر المنافقين بأيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله

بأنفسهم ولغيرهم، وبئس الصنيع صنيعهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٦- تذبذب المنافقين بإظهارهم الإيمان وقيامهم بالأعمال الظاهرة وكفرهم وجحودهم في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾.

٧- معاقبتهم بسبب نفاقهم وتذبذبهم بالختم على قلوبهم فلا يفقهون ولا يعلمون ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

٨- حسن مظهر المنافقين وكلامهم، مما يعجب المشاهد، ويبهر السامع، مع سوء مخبرهم، فهم أشبه بالخشب المسندة والطبول المجوفة؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾.

٩- قلق المنافقين وشدة خوفهم وريبتهم، وظنهم أن كل صيحة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾.

١٠- أن المنافقين هم العدو الحقيقي للرسول ﷺ وللمؤمنين، وللإسلام؛ لأنهم بين ظهراني المؤمنين فهم أشد وأخطر من الكفار الظاهرين فيجب الحذر كل الحذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾.

١١- لعن المنافقين وإهلاكهم؛ لعظيم خطرهم، وشرهم، والتعجب من انصرافهم عن الحق مع البيان وقيام البرهان؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الواو: عاطفة و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، و«قيل» فعل الشرط.

وقوله: ﴿قِيلَ﴾ بالبناء للمجهول، ولم يقل: وإذا قال الله لهم، أو قال لهم رسوله، أو قال لهم المؤمنون؛ ليشمل أي قائل لهم.

﴿لَهُمْ﴾، أي: للمنافقين، وعلى رأسهم زعيمهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين.

﴿تَعَالَوْا﴾، أي: هلموا وأقبلوا.

﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الجملة جواب شرط مقدر، أي إن تقبلوا يستغفر لكم رسول الله، أي: يطلب لكم رسول الله من الله مغفرة ذنوبكم، بسترها عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها.

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ جواب شرط «إذا». قرأ نافع وروح بتخفيف الواو الأولى: «لَوَوْا»، وقرأ الباقون بتشديدها.

وقراءة التخفيف على أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة، وقراءة الباقين تدل على تكرارهم ذلك.

ومعنى ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾، أي: أمالوا رؤوسهم وأعناقهم، وهزوا رؤوسهم؛ استهزاء برسول الله ﷺ، وإشارة فعلية تدل على إبائهم واستكبارهم.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾، أي: وشاهدتهم يعرضون بأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونهم مستكبرين، أي: أن صدودهم وإعراضهم عما قيل لهم إنما سببه استكبارهم وأنفتهم واحتقارهم لما قيل لهم ولمن قاله، حتى قال عبدالله بن أبي: «ما بقي إلا أن أسجد لمحمد»(١).

وهكذا يحمل الكبر صاحبه- عياذًا بالله- على رد الحق والصد والإعراض عنه- كما قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢)، أي: رد الحق وازدراء الناس وتنقصهم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، أي: سواء على هؤلاء المنافقين الذين لووا رؤوسهم؛ استكبارًا وعنادًا واستهزاء سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم، أم لم تسأله ذلك.

﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أي: لن يستر ذنوبهم ويتجاوز عن عقوبتهم عليها، بل سيفضحهم بها، ويعاقبهم عليها، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: إن الله لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته عز وجل.

فالهداية المنفية عنهم هي الهداية الخاصة بالله- عز وجل- هداية التوفيق والقبول، لا الهداية العامة فقد دلهم الله عز وجل وأرشدهم، هم وغيرهم بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ إلى ما فيه خيرهم، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهذا من إرشادهم، لكنهم كما ذكر الله عنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله- عز وجل- حرموا هداية التوفيق من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٨.

الله عز وجل، كما قال عز وجل عن الكفار: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥، ١٥٦].

﴿هُمُ﴾، أي: المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لإخوانهم من المنافقين وغيرهم:

﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، يعني: من المهاجرين رضي الله عنهم الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم ابتغاء وجه الله.

﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾، أي: حتى يخرجوا من المدينة، ويتفرقوا عن رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن أبي- لعنه الله-: «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله»، وقال لقومه: «هكذا صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها»(١).

وكأنهم بهذا القول من أكرم الناس، وهم أبخلهم، وكأنهم المتكفلون بنفقة المؤمنين، ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، «لله» جار ومجرور خبر مقدم؛ لإفادة القصر والحصر، أي: إن خزائن ملك السموات والأرض وما فيهما من الأموال والأرزاق وغير ذلك له وحده دون سواه، فيؤتي الرزق من يشاء ويمنعه من يشاء، وييسر أسبابه لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، وهو المتكفل بأرزاق جميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ

(١) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول السورة.

مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ورزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره، ولو كان أحد يستطيع أن يمنع رزق أحد لمات جُلُّ الناس جوعًا، ولما عاش العصفور مع الصقر.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا فقه عندهم على الحقيقة؛ إذ كيف يقولون هذه المقالة، التي فحواها أن نفقة من عند رسول الله ﷺ عليهم، وأن خزائن الأرزاق في أيديهم وتحت مشيئتهم.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ كما قال كبيرهم عبد الله بن أبي: «والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»(١).

أي: يقولون مقسمين: لئن رجعنا وعدنا، يعني: من السفر، وكان ذلك في غزوة المريسيع.

﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، يعني: المدينة النبوية مدينة رسول الله ﷺ.

﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن.

﴿ٱلْأَعَزُّ﴾، أي: الفريق الذي هو أعز، و«أعز» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: الفريق الذي بلغ أعلى درجات العز، يعنون به أنفسهم. وهم أذل وأخس وأحقر خلق الله وأهونهم على الله، وعلى خلقه في الدنيا والآخرة، فحياتهم في الدنيا حياة مادية بهيمية كحياة الحمار، مع الشقاء والتذبذب وفقدان السعادة، ومصيرهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار.

﴿مِنْهَا﴾، أي: من المدينة.

﴿ٱلْأَذَلَّ﴾، أي: الفريق الذي هو أذل، و«أذل» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي:

---

(١) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول السورة.

الفريق الذي بلغ أدنى درجات الذل ويقصدون بذلك- أخزاهم الله- الرسول ﷺ وأصحابه. وكما يقال: اعكس تصب، فإن الذي بلغ غاية الذل والمهانة والحقارة هو عبد الله بن أبي وأشياعه من المنافقين، وهل هناك أذل وأحقر ممن كفر بالله، بل وأظهر الإيمان خوفًا من الخلق، فأذله الله.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾، أي: ولله- عز وجل- وحده العزة التامة بجميع معانيها وأنواعها:

عزة الامتناع، فهو- عز وجل- ممتنع عن كل عيب ونقص، وعن أن ينال بسوء.

وعزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وعزة القوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

فهو- عز وجل- ذو العزة التامة- كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وهو عز وجل صاحب العزة، كما قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وكل عزة مستمدة من عزته عز وجل؛ ولهذا قال هنا:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعزة الرسول ﷺ والمؤمنين من عزة الله عز وجل، لأن العز كل العز بطاعة الله- عز وجل- قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

كما أن الذل كل الذل بمعصية الله عز وجل؛ ولهذا لا أذل بعد إبليس من المنافقين، لأنهم بلغوا من المعصية والكفر بالله منتهاه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ولكن المنافقين لا يعلمون حقيقة أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فنفى عنهم الفقه أولًا، ثم نفى عنهم العلم ثانيًا، وهو تدرج في الذم لهم من سيءٍ إلى أسوأ منه، فالذي لا يعقل هو الذي لا يستطيع الفهم والإدراك والاستنباط بعقله، وأسوأ منه الذي لا يعلم فهو مع كونه لا يستطيع الإدراك بعقله لا يستطيع أيضا أن يعلم ويعرف ما أدركه غيره واستنبطه، وهذا غاية الغباء والجهل.

وأسوأ من هذا الذي لا يشعر فلا يدرك ولا يحس ولا بما تدركه الحواس الظاهرة فهو معدوم الإحساس، كما وصفهم بهذا في سورة البقرة في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

وقد روي: «أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وقف على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله، والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن»(١).

وروى ابن إسحاق وغيره: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار فقال

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٦٢- ٦٦٣، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.

رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»(١).

ومما ينبغي أن يعلم خطر النفاق، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يشعر، مما يوجب الحذر والخشية منه، وقد قال عبد الله بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحذيفة رضي الله عنه: «يا حذيفة نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم- يعني من المنافقين- ؟ قال: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا»(٣).

وقال الحسن: «ما أمن النفاق إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- تكبر المنافقين وليهم رؤوسهم، وصدودهم وأنفتهم من المجيء إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم وعن قبول الحق والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

٢- تيئيس المنافقين من مغفرة الله لهم سواء استغفر لهم الرسول ﷺ أو لم يستغفر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

٣- عدم توفيق الله للمنافقين ولغيرهم من الفاسقين الخارجين عن طاعة الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٢٩٢- ٢٩٣، «جامع البيان» ٢٢/ ٦٩٩- ٦٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.

(٢) انظر «فتح الباري» ١/ ١٠٩، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١٠٧.

(٣) انظر ترجمة حذيفة في: «تاريخ دمشق»، «كنز العمال» ١٣/ ٣٤٤، «مدارج السالكين» ١/ ٣٩٩.

(٤) انظر «صفة المنافقين» للفريابي ص ٦٠-٦١، و«فتح الباري» ١/ ١٠٩.

٤- محاولة المنافقين الإضرار بالمؤمنين اقتصاديًا بمنع الانفاق عليهم ليضطروهم للخروج من المدينة، وكأنهم المتكفلون بأرزاق العباد؛ لقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾.

٥- بيان أن خزائن السموات والأرض كلها لله والأرزاق كلها بيده يرزق من يشاء ويحرم من يشاء لكن المنافقين لا يفقهون هذه الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

٦- فضح عبد الله بن أبي في مقالته السيئة المشينة: «ليخرجن الأعز منها الأذل» وتبنيه مع أتباعه من المنافقين إخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من المدينة، وإذلال الله- عز وجل له، وتخييب أمله، وإبطال كيده؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

٧- إثبات أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الذل لمن خالف أمر الله ورسوله من المنافقين وغيرهم، ولكن المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- أن العز كل العز في طاعة الله تعالى ورسوله، وأن الذل كل الذل في معصية الله ورسوله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق من السورة أحوال المنافقين ومواقفهم ومقالاتهم المخزية ثم ختم الله عز وجل السورة بنهي المؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله قبل حلول الأجل وانقطاع العمل.

وفي هذا تحذير من مسلك المنافقين وصفاتهم الذميمة، وهي الانشغال بالأموال والأولاد، ومنع الإنفاق من رزق الله، لأنهم ينظرون للحياة نظرة مادية فقط.

قوله: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، أي: لا تشغلكم أموالكم، والأموال: كل ما يتمول من دراهم وعقار وأثاث وغير ذلك.

﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾، أي: ولا تشغلكم أولادكم. والأولاد يشمل أولاد الإنسان وأولاد بنيه، وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ عام في جميع أنواع ذكر الله من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والثناء على الله عز وجل، والتهليل والتكبير، ودعاء الله واستغفاره والتضرع إليه، وسائر أعمال البر والخير كلها من الواجبات والمستحبات، من أذكار القلب واللسان والجوارح، والأذكار القولية والفعلية وغيرها. لأن بالذكر حياة القلوب، فهو لها كالماء للزرع، وكالماء للسمك لا حياة له إلا به.

قال ابن القيم(١): «المقصود: أن دوام الذكر لما كان سببًا لدوام المحبة وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال كان كثرة ذكره من أنفع ما

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٣- ٤٥٥.

للعبد، وكان عدوه حقًا هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته».

وقدم الأموال على الأولاد- والله أعلم- لأنها تشغل أكثر إذا كثرت عند الإنسان- والناس يختلفون في هذا- لكن المنشغلين بالأموال أكثر من المنشغلين بالأولاد.

ولأن الأموال كثيرًا ما تشغل عن ذكر الله وعن الأولاد أيضًا، أي: عن تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم، فكم من والد انشغل عن أولاده بسبب أمواله وأعماله.

وأيضًا فإن الانشغال بالأولاد قد ينتهي بكبر الأولاد، لكن الانشغال بالمال يزداد مع كثرته وازدياد الحرص عليه مع الكبر وحتى القبر.

فالمال فتنة وأي فتنة؛ لأن زيادته تكون غالبًا على حساب نقصان الدين، ونقصان نصيب الإنسان من ربه، هذا إذا كان من طرق حلال فكيف إذا كان من طرق محرمة أو مشتبهة مما يجعل الإنسان قلقًا طول حياته. وما خلقنا لهذا، اللهم غفرًا.

قال أبو الفتح البستي(١):

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له ... فإن معناه في التحقيق فقدان
يا عامرًا لخراب الدار مجتهدًا ... بالله هل لخراب العمر عمران
ويا حريصًا على الأموال يجمعها ... أُنسيت أن سرور المال أحزان
زع الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران

وخص الأموال والأولاد في قوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنهما من أعظم ما يلهي عن ذكر الله. كما قال عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠، ١١٦]،

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٥.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقد يلتهي الإنسان بغير الأموال والأولاد من حب الرياسة والشهرة والمناصب والرياضة وغير ذلك مما ينتظمه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أي: ألهاكم التكاثر في الأموال والأولاد وغير ذلك.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الواو: استئنافية، و«من» شرطية و«يفعل» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وارتبط الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

والإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يلته وينشغل بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: فأولئك الذين يلتهون بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ و«الخاسرون» جمع خاسر والخسر والخسران: ضد الربح.

وقد أكد الجملة هنا بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: فأولئك هم الخاسرون حقًا، الذين غُبنوا نصيبهم من الله عز وجل ورحمته وفضله، والذين بلغوا الغاية العظمى في الخسارة، وهي الخسارة في الدين التي لا تشبهها خسارة فخسروا السعادة في الدنيا والآخرة، وخسروا الجنة، والنعيم المقيم في الآخرة؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فالخسارة العظمى، والمصيبة الكبرى، والكسر الذي لا ينجبر أن يصاب الإنسان

في دينه نسأل الله السلامة. وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران[١]

وأي خسارة كخسارة من ألهته الأموال والأولاد عن عبادة الله التي خلق من أجلها، وعن ذكره الذي أمر عز وجل بالإكثار منه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب: ٤١].

والذي به يذكر الله العبد، كما قال عز وجل: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والذي هو سبب الفلاح والمغفرة، والأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥، الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والذي يحوز صاحبه قصب السبق قال ﷺ: «سبق المفردون» قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟، قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»[٢].

والذي هو خير الأعمال وأزكاها- كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله تعالى»[٣].

﴿وَأَنفِقُواْ﴾، أي: وأنفقوا أيها المؤمنون في سبل الخير كلها من النفقات الواجبة والمستحبة، من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وفي الحج، والصدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وفي أعمال البر والخير، من بناء المساجد، وتعليم كتاب الله

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء- الحث على ذكر الله تعالى ٢٦٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات- فضل الذكر ٣٣٧٧، وابن ماجه في الآداب- فضل الذكر ٣٧٩٠، والحاكم ١/ ٤٩٦ وصححه ووافقه الذهبي.

تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وغير ذلك من العلوم النافعة، وفي بناء المدارس ومراكز الخدمات الصحية والاجتماعية، وفتح الطرق وتعبيدها، وحفر الآبار، وغير ذلك من وجوه البر والخير وما أكثرها.

﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، «من» للتبعيض و«ما» موصولة، أو مصدرية أي: من الذي زرقناكم، أو من رزقنا إياكم- والرزق هو العطاء، أي: مما أعطيناكم من الأموال.

وفي هذا حث لهم على الإنفاق والبذل والعطاء والسخاء في ذلك؛ لأن الرزق من الله- عز وجل- والمال ماله- عز وجل- وهو عارية بيد الإنسان فلِمَ البخل به ومنعه وهو عز وجل الرزاق الذي يخلف على من أنفق، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وفي الحديث: «اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفا»(١)

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: من قبل حضور الموت، بحضور علاماته وأماراته، وحلول سكراته، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

والموت: هو عبارة عن خروج الروح من البدن ومفارقتها له.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾، أي: هلا أجلتني فيكون استفهامًا، وقيل: «لا» صلة، فيكون الكلام بمعنى التمني.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ جواب «لولا»، أي: إلى زمان قريب، أي: قليل.

والمعنى: فيقول يا رب هلا أجلتني وأخرت موتي إلى أجل ووقت قريب، أي: هلا زدت في عمري شيئًا يسيرًا، لأستدرك ما فات.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أصله (فأتصدق) أدغمت التاء في الصاد، أي: فأتصدق من مالي.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿وأكونَ﴾ بالواو ونصب النون.

وقرأ الباقون بجزم النون من غير واو.

والمعنى: فأتصدق وأنفق من مالي، وأعمل أعمالًا صالحة، واستعتب واستدرك ما ضاع من عمري بلا عمل، في هذه المدة اليسيرة. وهيهات، ولات ساعة مندم، ما بعد حضور الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، كما قال عز وجل عن الكفار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فكل مفرط يود إعطاءه مهلة ليتدارك ما فات ويستعتب من الخطأ والتقصير حتى أهل النار يودون الرجوع إلى الدنيا مع أنهم لو رجعوا لعادوا لما نهوا عنه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وحتى الذين يتمنون عند الموت المهلة لو أعطيت لهم ما أجابوا الدعوة ولا اتبعوا الرسل ولا أنفقوا ولا عملوا صالحًا؛ لأن الله لو علم فيهم صدقًا فيما يقولون لوفقهم إلى التدارك قبل حضور الموت.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾، أي: ولن يؤجل الله نفسًا وينظرها إذا حضر أجلها، لأن الآجال محدودة، والأنفاس معدودة، كما قال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا

تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

وهذا لا ينافي ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»(٢).

وكذا ما جاء في معنى هذين الحديثين؛ لأنه ليس معنى ذلك أن يزاد في العمر أو ينقص منه، بعد ما كتب وقدر ولكن معنى ذلك أن الله كتب أن هذا يبسط له في رزقه ويطول عمره بسبب صلته لرحمه، وأنه أيضًا يبارك الله لمن فعل ذلك في رزقه وعمره، وفي عقبه وذريته كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر، فقال: «إن الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزقه الله ذرية صالحة، يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره»(٣)

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿بما يعملون﴾ بالياء.

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله خبير بالذي تعملون، أو بعملكم.

و«الخبير» المطلع على بواطن الأمور، فهو أخص من العليم، وإذا كان مطلعًا على البواطن فاطلاعه على الظواهر من باب أولى. فهو عز وجل عليم بأعمال العباد باطنها

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٠.

وظاهرها خفيها وجليها دقيقها وجليلها، لا تخفى منها عليه خافية، وسيجازي كلًا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه لهم والعناية بخطابهم والاهتمام به؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفًا وتكريمًا لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، ووجوب امتثال ما بعد هذا النداء من أمر واجتناب ما بعده من نهي؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٣- التحذير من الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وما يقرب إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

٤- أن الخاسرين حقًا من انشغلوا عن ذكر الله- عز وجل- وطاعته بالأموال والأولاد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

٥- الأمر بالإنفاق في سبيل الله بإخراج النفقات الواجبة من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، وبالنفقات المستحبة والصدقات المندوبة في وجوه البر كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.

٦- الحث والترغيب في المبادرة إلى الإنفاق في سبيل الله ووجوه البر قبل حضور الموت وعلاماته؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

٧- تذكير الإنسان بأن ما عنده من مال هو من رزق الله وأن المال مال الله- عز وجل- وهو وديعة عند الإنسان فلا ينبغي أن يبخل بالإنفاق منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.

٨- سؤال كل مفرط بالإنفاق والعمل الصالح وتمنيه عند حضور الموت لو أمهل إلى أجل قريب ليستعتب ويتدارك ما فات بالصدقة والعمل الصالح ولكن هيهات

ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ﴾.

١٠- أن لكل أجل كتابًا، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾.

١١- سعة خبرة الله- عز وجل- وعلمه واطلاعه على أعمال العباد، ومجازاته كلًا منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّغَابُنِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة التغابن»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [الآية:٩].

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية، وقيل: أولها مكي، وآخرها مدني.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى وتعظيمه والثناء عليه، باختصاصه بالملك والحمد، وقدرته على كل شيء.

٢- بيان مظاهر تمام قدرته عز وجل في خلق بني آدم، وخلق السماوات والأرض، وعلمه ما فيها، وبما يُسر ويُعلن، وبذات الصدور.

٣- التذكير بأخبار المكذبين من قبل للرسل، وما لقوا من العقوبات في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم؛ لكفرهم وتوليهم.

٤- الرد على منكري البعث، وتأكيد أنه حق وصدق: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

٥- الأمر بالإيمان بالله ورسوله والقرآن الكريم: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

٦- التحذير من يوم القيامة وما فيه من التغابن، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يُدخلون جنات النعيم وذلك الفوز العظيم، والذين كفروا وكذبوا بآيات الله في النار خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير.

٧- إثبات القدر، وأن ما يقع من المصائب كل ذلك بقضاء الله وقدره وإذنه الكوني: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٨- الأمر بطاعته عز وجل وطاعة رسوله، وأن مهمته البلاغ المبين، وإثبات وحدانيته ووجوب التوكل عليه.

٩- التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

١٠- الأمر بتقوى الله حسب الاستطاعة والسمع والطاعة، والإنفاق في سبيله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ سبق الكلام على هذا.

وقد ختم الله- عز وجل- السور المسبحات بهذه السورة، وهن خمس سور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

وأشبهها بمطلع هذه السورة سورة الجمعة ففيها قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وفي سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي سورة الحشر والصف ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ قدّم الخبر وهو الجار والمجرور للدلالة على اختصاصه عز وجل وحده دون غيره بالملك حقيقة.

لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص والحصر، أي: له وحده- عز وجل- الملك، أي: ملك السموات والأرض وما بينهما؛ الخلق خلقه والأمر أمره، وهو مالك الملك وحده، له ملك الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

ويظهر ويتبين كمال ملكه وتمامه يوم القيامة يوم تخضع الأملاك والملوك وما ملكوا له عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]»(١).

لا شريك له في ذلك كله، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قدم الخبر وهو الجار والمجرور لإفادة الحصر والاختصاص، أي: وله عز وجل وحده الحمد التام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١، غافر: ٦٥].

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فله- عز وجل- الحمد في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠].

وله الحمد في السموات والأرض وفي جميع الأوقات كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨].

وله حمد جميع ما في السموات والأرض من جميع المخلوقات.

﴿وَهُوَ﴾، أي: وهو سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: على كل شيء من الأشياء، صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، خفيًّا كان أو جليًّا، أو أيًا كان هذا الشيء.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو القدرة التامة، فلا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٣٨.

لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، على الخبر: ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، أي: هو الذي أوجدكم وأنشأكم من العدم وعلى غير مثال سابق، وحده دون سواه. وأصل الخلق: التقدير، ثم التنفيذ والإيجاد.

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قدم الكافر على المؤمن- والله أعلم- لأن الكفار هم الكثرة الكاثرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]. وذلك- والله أعلم- إشارة وتنبيه على وجوب الحذر من مسلكهم.

أي: فمنكم أيها الناس كافر قدرًا وكونا. والكفر هو جحود وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، ضد الإيمان.

﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، أي: ومنكم أيها الناس ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ قدرًا وشرعًا، والإيمان يشمل الإيمان بالله، بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به مما جاء في الكتاب والسنة.

وفي الآية دلالة على أن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء قبل خلق الخلق، ومن ذلك الكفر والإيمان، كما جاء في الحديث «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦- من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنه.

بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

وليس في تقدير الكفر على الكافرين، والإيمان للمؤمنين حجة لمن كفر أو عصى؛ لأن الله عز وجل أقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، والإنسان لا يعلم ما قدر له، فمن بحث عن الهدى والإيمان وتحراه وفق له، ومن أعرض عن ذلك وبحث عن الكفر والشر يسر له كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: والله بالذي تعملون أو بعملكم.

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن آمن ووعيد لمن كفر.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: أوجد السموات والأرض بالحق والعدل والحكمة فقامت السموات والأرض، وقام الكون كله على الحق والعدل والحكمة والغاية المقصودة له عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، أي: صور أشكالكم وخالف بينها.

﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ جعلها أحسن المخلوقات صورة، وأجملها وأبهاها منظرًا، فلم يجعلها على صور قبيحة سيئة كصورة القرد أو الحمار، أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً

---

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٤، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وإليه وحده- عز وجل- المرجع والمآل والمآب في الدنيا والآخرة- كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم جميع الذي في السموات والأرض من الكائنات والمخلوقات، فعلمه محيط بكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: ويعلم الذي تسرون وتخفون والذي تعلنون وتظهرون، أو يعلم إسراركم وإعلانكم، أي: إخفاءكم وإظهاركم.

وقدم عز وجل علمه بما يسرون على علمه بما يعلنون؛ تأكيدًا لشمول علمه وعدم خفاء شيء عليه سبحانه، وأن السر عنده كالعلانية، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: والله عليم بصاحبة الصدور، وهي القلوب التي في الصدور قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

أي إنه- عز وجل- ذو علم تام بالقلوب وما تنطوي عليه من المكنونات والأسرار.

كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وقد أكد عز وجل في هذه الآية كمال علمه وشموله لكل شيء متدرجًا من العام

إلى الخاص إلى ما هو أخص منه فذكر أولا علمه بما في السموات والأرض، ثم عطف عليه علمه بما يسرون وما يعلنون، ثم عطف عليه علمه بذات الصدور، فبدأ بذكر علمه العام، ثم عطف عليه بذكر علمه الخاص، ثم عطف عليه بذكر علمه بأخص الخاص وهو العلم بذات الصدور.

وفي هذا بيان لإحاطة علمه- عز وجل- بكل شيء، ووجوب مراقبته في السر والعلن.

الفوائد والأحكام:

١- تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- اختصاص الله- عز وجل- بالملك وحده دون غيره فله عز وجل الملك والأمر والتدبير؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

٣- أن الحمد التام لله عز وجل هو المستحق له وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

٤- إثبات كمال قدرة الله- عز وجل- وأنه سبحانه ذو القدرة التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥- امتنان الله- عز وجل- على الخلق وبيان تمام قدرته في خلقهم ونفوذ قدره الكوني فيهم فمنهم كافر ومنهم مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

٦- إثبات إحاطة علمه- عز وجل- واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد، ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٧- خلق الله عز وجل السموات والأرض بالحق، وإقامته هذا الكون على العدل؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٨- امتنان الله- عز وجل- على بني آدم بجعل صورهم أحسن الصور وأبهاها منظرًا، وأعدلها خلقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

٩- أن المرجع والمصير والمآب إلى الله- عز وجل- منه البداية وإليه النهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٠- سعة علم الله- عز وجل- وإحاطته بما في السموات والأرض وبما يخفي الخلائق وبما يعلنون وبما تنطوي عليه القلوب والضمائر، ومقتضى هذا محاسبة الخلائق ومجازاتهم بأعمالهم، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾.

في هاتين الآيتين تهديد وتحذير للمكذبين الكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين قبلهم وعقوباتهم وعذابهم.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: ألم يأتكم خبر الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله من قبلكم من الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم. والخطاب لعموم الناس الذين بعث فيهم نبينا محمد ﷺ. والنبأ: الخبر الهام كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، أي: فتجرعوا ومسهم عقوبة كفرهم وتكذيبهم الوخيمة وما حل بهم من العذاب والنكال والخزي الدنيوي؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ولهم مع هذا العقاب الدنيوي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة بالنار، و«أليم» «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: مؤلم موجع حسيًا للأبدان، ومؤلم موجع معنويًا ونفسيًا للقلوب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ﴾، أي: ذلك العقاب الدنيوي الذي حل بالذين كفروا من قبلهم والعذاب الأخروي الذي توعدوا به بسبب أنه:

﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالحجج والبراهين والدلائل القاطعات؛ لإقامة الحجة عليهم.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الاستفهام للإنكار، والاستكبار، أي: فقالوا استكبارًا

وإنكارًا أن يكون المرسل إليهم، ومن يدلهم على طريق الهداية بشرًا مثلهم، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، أي: كيف يهدينا ويرشدنا بشر، ليس لهم فضل علينا، ولماذا خُصوا بذلك دوننا، كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

وهذا منهم على سبيل العناد والاستكبار، وإلا فكون الرسول بشرًا من جنسهم هو الأقرب لهدايتهم، وبه إقامة الحجة عليهم؛ إذ لو كان ملَكًا لادعوا أنه ليس منهم، بل للزم أن يكون على هيئة رجل؛ ليفهموا منه خطابه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

فمقتضى الحال أن يكون الرسول منهم إقامة للحجة عليهم، ولهذا قال الرسل لأقوامهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى ممتنًا على العباد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿فَكَفَرُواْ﴾ جحدوا وكذّبوا بما جاءتهم به رسلهم من البينات.

﴿وَتَوَلَّواْ﴾ أعرضوا عن الحق بقلوبهم وتولوا بأبدانهم.

﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾، أي: أظهر غناه عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله لأنه عز وجل لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»(١).

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾، أي: غني عن جميع خلقه، له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه،

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الذي غناه من لوازم ذاته سبحانه الذي له ملك السموات والأرض وخزائنهما بيده.

﴿حَمِيدٌ﴾ في أقواله وأفعاله وأوصافه، محمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وجوده وكرمه وإنعامه عليهم.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد والتحذير للمكذبين والكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين الكافرين من الأمم قبلهم وعقوبات الله لهم وما أعد لهم من العذاب الأليم في الآخرة والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢- أن الكبر والعناد من أعظم أسباب رد عوة الرسل والكفر بما جاؤوا به من الآيات البينات والتولي عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾.

٣- غنى الله- عز وجل- عن من تولى وأعرض عن طاعته؛ لأنه- عز وجل- لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾.

٤- إثبات صفة الغنى الكامل لله عز وجل، وأنه- عز وجل- الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه المحمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وكرمه وجوده وإنعامه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾، «زعم»، أي: ادعى وأكثر ما يستعمل الزعم بالادعاء الكاذب. قال ابن عمر رضي الله عنهما: «زعم: كنية الكذب»(١).

وفي الحديث: «بئس مطية الرجل زعموا»(٢).

أي: زعم وادعى الذين كفروا وجحدوا ما جاءتهم به رسل الله من المشركين والملحدين وغيرهم، أنهم لن يبعثوا من قبورهم أحياءً بعد موتهم، كما قال عز وجل عنهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ كقوله تعالى في سورة يونس ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [الآية: ٣٠].

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن الكريم أمر الله بها رسوله ﷺ أن يقسم على أن البعث حق.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾، أي: قل لهم يا محمد مقسمًا لهم بربك.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في قول الرجل: «زعموا» ٤٩٧٢، وأحمد ٤/ ١١٩، ٥/ ٤٠١ من حديث أبي مسعود الأنصاري وحذيفة رضي الله عنهما.

﴿بَلَىٰ﴾، أي: نعم.

والواو في قوله: ﴿وَرَبِّي﴾ واو القسم، والمقسم به هو «الرب» عز وجل والياء للمتكلم.

﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم أحياء بعد موتكم.

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، «ثم» حرف عطف، ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ معطوف على ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ فاللام فيه للقسم، أي: ثم والله ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، أي: لتخبرن بالذي عملتم أو بعملكم من خير وشر، وتحاسبون وتجازون على ذلك.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الإشارة تعود إلى مصدر الفعلين ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، أي: بعثكم وإخباركم بأعمالكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: هين سهل؛ لأن الله لا يعجزه شيء، ولا عسير عليه سبحانه وتعالى.

فالذي خلق وأوجد من العدم قادر على إعادة الخلق من باب أولى، بل ذلك عليه أهون، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والجملة في محل جزم جواب الشرط المقدر، أي: إن كان الأمر كذلك في أن البعث والإنباء بالأعمال حق ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾.

والخطاب للمشركين المكذبين بالبعث، والأمر للوجوب، فيجب الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ والنور الذي أنزله الله، وهو القرآن الكريم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والإيمان بالرسول: شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن الكريم كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

والإيمان بما أنزل الله: الاعتقاد بأنه كلام الله، وتصديق أخباره، والعمل بأحكامه والاتعاظ بوعده ووعيده وزواجره.

فمن آمن بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله عز وجل سار في هذه الحياة على هدى ونور من الله في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته، وسلم من الحيرة والقلق والتذبذب، وأحس بطعم الإيمان وطعم الحياة على منهج الله- عز وجل- وسعد في دنياه وأخراه.

هدوء وطمأنينة، حزم في أداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وفي البعد عن المنهيات، شكر في حال السراء، وصبر في حال الضراء، كما قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١).

وصدق الله العظيم حيث يقول في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(٢).

فما بالك يا أخي بمن كان الله له بهذه المثابة هذا منتهى العز وغاية السعادة والشرف والسؤدد والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة. نسأل الله الهداية والتوفيق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: والله بعملكم أو بالذي تعملون ﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩، والدارمي في الرقاق ٢٧٧٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خبرة واطلاع على عملكم، باطنه وظاهره، دقيقه وجليله، خفيه وجليه، لا تخفى عليه منه خافية وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

وقدّم هنا المتعلق ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لتأكيد علمه عز وجل بجميع أعمالهم ما بطن منها وما ظهر.

وفي الأمر بالإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله، وتأكيد علمه عز وجل بأعمالهم توكيد لما سبق في الآية قبله من تقرير البعث والحساب.

أي: فانقطعت حجة منكري البعث فلم يبق من سبيل للنجاة إلا الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ قرأ يعقوب: «نجمعكم» بالنون، وقرأ الباقون بالياء.

وهذا من تأكيد البعث والحساب، فأمر عز وجل رسوله ﷺ بأن يقسم للذين كفروا بأن البعث والحساب حق، ثم أمر عز وجل بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزله لأهمية ذلك؛ لأنه السبب للنجاة في ذلك اليوم، ثم أكد أحقية البعث فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر، ويوم الجمع هو يوم القيامة، وسمي يوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه الخلائق كلهم أولهم وآخرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ

ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة الطويل: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمعهم الداعي وينفذهم البصر»(١).

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ليوم الجمع يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، أي: اليوم الذي يظهر فيه التغابن الحقيقي بين الخلق.

و«التغابن» تفاعل من «الغبن» بمعنى النقص والخسارة وفي الحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(٢).

فالغبن الحقيقي بين الناس يظهر في ذلك اليوم تمام الظهور، فمن مستظل تحت ظل الرحمن، ومن ملجم بالعرق إلجاما، ومن معطى كتابه بيمينه، ومن معطى كتابه بشماله، ومن مار على الصراط كالبرق أو الريح أو كأجاود الخيل، ومن حاب عليه حبوًا، ومن مكردس في النار. ومن شارب من الكوثر والتسنيم، ومن شارب من الماء الحميم.

يظهر الغبن الحقيقي عندما يُخلَّد أناس في الجنان والنعيم، ويُخلَّد آخرون في النيران والجحيم، يظهر الغبن عندما يرى المؤمن مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرًا، ويرى الكافر مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء: ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان- باب أدنى أهل الجنة منزلة ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، والترمذي في الزهد ٢٣٠٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فيكون عليهم حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكرًا»، أخرجه أحمد ٢/ ٥١٢، ٥٤١.

وفي حديث علي رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا =

يظهر الغبن عندما يأخذ أناس حسنات أناس آخرين ويضعون عليهم من سيئاتهم بسبب المظالم، ويظهر الغبن عندما يرفع أقوام إلى أعلى عليين، ويرد أناس إلى أسفل سافلين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

فليس الغبن والخسارة خسارة مال، أو أهل، أو ولد، أو جاه أو منصب، أو صحة أو حياة، بل الغبن أعظم وأشد من ذلك، بل هو غبن لا يتصور.

فكم من شخص لا يذوق غمضًا إذا غبن في صفقة، أو خسر في تجارة، أو نزلت قيمة الأسهم، لكنه لسوء حظه وعدم توفيقه تفوته صلاة الجماعة أو بعضها فلا يتأثر لذلك، بل الأمر عنده سواء، أدركها أو لم يدركها، وهكذا غيرها من الواجبات والحقوق؛ لأنه لا يحسب للغبن الحقيقي في «يومِ التغابُن» أيَّ حساب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

في هاتين الآيتين تفسير الغبن وتصويره في أعظم صورة إذ لا غبن أعظم على الكافرين من إدخالهم النار وتخليدهم في العذاب، بينما يدخل المؤمنون الجنة ويخلدون في النعيم.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

ومعنى ﴿يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، أي: يؤمن بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وآياته وشرعه.

=

وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار...» الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٥، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨.

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية ص١١.

﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، أي: ويعمل عملًا صالحًا، وحذف الموصوف، واكتفى بذكر الصفة «صالحًا»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

ويكون العمل صالحًا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥] أي: أخلص لله، وهو متبع ما جاء به الرسول ﷺ.

فإن كان العمل فيه شرك لغير الله فهو باطل، قال تعالى في الحديث القدسي: «من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(١).

وإن كان العمل على غير ما جاء به الرسول ﷺ فهو مردود قال ﷺ «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢).

وفي رواية «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٣).

﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته ويتجاوز عن عقوبته عليها و«سيئات» جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، وسميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، كما تسوء غيره في الحال إما مباشرة إن كانت متعدية، وإما بآثارها السيئة إن كانت غير متعدية قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

وذكر تكفير سيئاته أولًا، ثم عطف عليه إدخاله الجنة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

و«جنات» جمع جنة، فللمؤمن أكثر من جنة، كما قال عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية ١٧١٨ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، وذكر صفاتهما، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] وذكر صفاتهما.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب(١)، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»(٢).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ صفة لـ«جنات»، أي: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار المختلفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، «خالدين» حال، وجمع باعتبار معنى «من»، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا هم يفنون، ولا يخرجون منها، ولا هي تفنى. وهذا باتفاق المسلمين- نسأل الله من فضله.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ الإشارة لتكفير سيئات من آمن بالله وعمل صالحًا، وإدخاله الجنات، وخلوده الأبدي فيها، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

و«الفوز» هو الفلاح والنجاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمًا وكيفًا، والذي لا يقدر قدر عظمته إلا الذي وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾، أي: جحدوا وأنكروا آياتنا الكونية والشرعية وكذبوا بها.

---

(١) أي: سهم طائش لا يدرى من أين أتى.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٠٩، والترمذي في التفسير ٣١٧٤.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أهلها وساكنوها وملازموها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

إلى غير ذلك من الآيات فالنار لا تفنى، ولا يفنى عذابها ولا أهلها على الصحيح من أقوال أهل العلم وهو قول الجمهور.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: وبئس المرجع والمنقلب النار.

وإذا كان الله عز وجل وصف هذا المصير بهذا الوصف فلا يعلم مدى بؤس وقبح هذاالمصير إلا من وصفه بذلك وهو العليم الخبير.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب الكفار بالبعث والمعاد، وزعمهم أنهم لن يبعثوا؛ لقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾.

٢- أمر الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بالإقسام لهم بربه على أحقية بعثهم وإخبارهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وأن ذلك على الله يسير؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾.

٤- وجوب الإيمان بالله ورسوله والقرآن وما فيه من الهدى والنور؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾.

٥- جواز عطف اسم الرسول ﷺ على اسم الله تعالى بالواو التي تقتضي التشريك في باب الإيمان؛ لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله.

٦- إثبات سعة علم الله- عز وجل- وخبرته واطلاعه على جميع أعمال العباد والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

٧- تأكيد البعث وجمع الخلائق للحساب والجزاء، وذلك يوم الجمع يوم التغابن يوم يظهر حقيقة الربح والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

٨- أن الغبن الحقيقي إنما يكون يوم القيامة، يوم نصب الموازين، وتطاير الصحف، فآخذ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذ ذات الشمال إلى النار.

٩- أن من شرط صحة الإيمان العمل الصالح الذي يتوفر فيه الإخلاص لله ومتابعة الرسول ﷺ، وفي هذا رد على المرجئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾.

١٠- وعد الله- عز وجل- الذي لا يخلف الميعاد لمن آمن بالله وعمل صالحًا بتكفير سيئاته، وإدخاله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا؛ ترغيبًا وحثًّا على الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

١١- عظم ما أعد الله- عز وجل- لعباده المؤمنين من الثواب والفوز العظيم مما لا يقدر قدره إلا العظيم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكفرة المكذبين بآيات الله بالنار، وملازمتهم لها، وخلودهم فيها، وبئس المصير النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

١٣- خلود أهل النار فيها خلودًا أبديًّا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾، «ما» نافية، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، «إلا» أداة حصر، ومعنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بأمره وإرادته وقدره وقضائه الكوني؛ لأن الإذن ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني.

والإذن الكوني لا بد من وقوعه وهو بمعنى الإرادة الكونية، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله.

والإذن الشرعي لا يلزم وقوعه، وهو بمعنى الإرادة الشرعية، ولا بد أن يكون محبوبًا لله عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: ما لم يشرعه الله.

وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الآية: ٢٢].

فكل ما يقع ويحصل من المصائب في الأرض من جدب وقحط وغرق وحرق وتلف محاصيل وغير ذلك، وكل ما يقع من المصائب في الأنفس من أمراض وموت وغير ذلك، كل ذلك وغيره بإذن الله وأمره وقدره الكوني.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ الواو: عاطفة و«من» شرطية و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»(١).

أي: ومن يؤمن بالله عز وجل وقضائه وقدره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما

---

(١) أخرجه عبد الرازق في «تفسيره» ٢/ ٢٩٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢.

أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم.

﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، أي: يوفق قلبه للصبر واليقين والتسليم لأمره، والرضا بقضائه وقدره، والاحتساب، ويعينه على تحمل ما أصابه ويعوضه خيرًا في دينه ودنياه وآخرته.

و يهد قلبه أيضًا لزيادة الإيمان والاطمئنان ويوفقه للثبات أمام المصائب والفتن، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء قضى لك به»(١).

فمن آمن بالله عز وجل وقضائه وقدره خيره وشره انشرح صدره، وسعد واطمأن في حال السراء والضراء.

كما قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(٢).

وهذه الدرجة لا يصل إليها إلا من صدق في إيمانه بالله عز وجل، ظاهرًا وباطنًا، فعلًا للمأمورات واجتنابًا للمحظورات، وعلم أن ما يجري في الكون من حركة أو سكون، من مصائب وغيرها إنما ذلك بقدر الله عز وجل، وسأل الله عز وجل على الدوام الهداية والتوفيق للشكر عند السراء، والصبر والتسليم والرضا عند الضراء، وسأل الله الثبات على الحق واللطف في قضائه وقدره، وحسن الختام، فإن الإنسان قد يضعف عندما تنتابه بعض المصائب والمشكلات وقد يضيق بها ذرعًا ويعز عليه الصبر

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٨- ٣١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩ من حديث صهيب رضي الله عنه.

ما لم يتداركه الله بعونه وعنايته وتوفيقه فلا ينبغي أن يغتر أحد بنفسه، أو يثق بعمله، وإنما يثق برحمة أرحم الراحمين، ولطفه سبحانه وتعالى.

فاشدد يديك بحبل الله معتصمًا ... فإنه الركن إن خانتك أركان

من يتق الله يحمد في عواقبه ... ويكفه شر من عزوا ومن هانوا(١)

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: أنه عز وجل ذو علم تام بكل شيء أيا كان من المصائب، وأحوال القلوب وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الطاعة: الامتثال بفعل أوامر الله عز وجل وترك نواهيه.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، «ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمدًا ﷺ وطاعته بفعل ما أمر به ﷺ وترك ما نهى عنه.

وأعاد الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ ولم يقل: «وأطيعوا الله والرسول» إشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالا بمعنى أن طاعته تجب فيما أمر به مما لم يأت في القرآن الكريم.

وفي هذا رد على الذين يدعون إلى الأخذ بالقرآن وحده واطراح السنة مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ كما جاء في حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه: «رب رجل جالس على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا إنما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»(٢).

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: فإن أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ والتولي يكون بالإعراض بالقلب والبدن.

﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط و«إنما» أداة حصر، وهي

---

(١) البيتان لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٧٢.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة- باب لزوم السنة ٤٦٠٤، ٤٦٠٥، والترمذي في العلم ٢٦٦٣، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة ١٢، ١٣، وأحمد ٤/ ١٣٠، ١٣٤، وابن حبان في «موارد الظمآن» ٩٧، والحاكم في المستدرك، ١/ ١٠٨.

كافة ومكفوفة، والبلاغ: الوصول إلى الغاية، يقال: بلغ إلى كذا، بمعنى وصل إليه وفي قصة الثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»(١).

والمعنى: وما على رسولنا إلا تبليغ رسالة الله عز وجل إلى الناس والحصر هنا إضافي، أي: ليس عليه فيما يتعلق بهم إلا تبليغهم الرسالة أما هدايتهم فأمرها إلى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، لكن عليه ﷺ الطاعة والامتثال بنفسه.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾ اسم فاعل، من أبان الشيء، بمعنى أظهره وأوضحه، أي: البلاغ المظهر الموضح لما دعا إليه وبلغه، ومن لازم ذلك أن يكون بينًا في نفسه، فهو بيِّن بنفسه مبيِّن لغيره.

أي: فاعلموا أنما مهمة الرسول ﷺ محصورة ومقصورة في تبليغ الرسالة والدعوة والبلاغ البين الواضح، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، فبلغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ في هذا إثبات الألوهية والعبودية لله عز وجل وحده، ونفيها عما عداه، كما في كلمة وشهادة التوحيد: «لا إله إلا الله»، أي: لا معبود بحق إلا الله.

قال ابن كثير(٢): «خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه».

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٦٤.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ اللام في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأمر، وهو للوجوب، وأكد ذلك بتقديم المتعلق، وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمورهم.

والتوكل على الله: التفويض والاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به عز وجل.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أي: المؤمنون الإيمان المطلق، كاملو الإيمان، فكلما قوي إيمان العبد وكمل كان توكله أقوى وأكمل، وكلما ضعف إيمانه ضعف توكله، فضعف الإيمان سبب لضعف التوكل، وضعف التوكل دليل على ضعف الإيمان.

ولهذا يجمع الله عز وجل بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان وما في معناه، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات قدر الله السابق، وأن ما يقع في الكون من مصائب هو بأمر الله- عز وجل- وتقديره؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

٢- أن من آمن بالله- عز وجل- وقضائه وقدره هدى قلبه وشرح صدره للتسليم والرضا بقضاء الله فاطمأن وسعد في حياته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾.

٣- علم الله- عز وجل- بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

٤- وجوب طاعة الله ورسوله، وإثبات رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

٥- أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالًا بحيث تجب طاعته فيما أمر به أو نهى عنه وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم، وفي هذا رد على من يرون الاكتفاء بالقرآن؛ لقوله

تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

٦- التحذير من التولي عن طاعة الله ورسوله، وبيان أن مهمة الرسول ﷺ هي تبليغ الرسالة للناس بلاغًا بينًا، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وهداية القلوب بيد علام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٧- إثبات وحدانية الله- عز وجل- وتفرده بالألوهية واستحقاق العبودية؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- وجوب التوكل والاعتماد على الله- عز وجل- وأن ذلك شرط لصحة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، «إن»: للتوكيد و«من»: للتبعيض، أي: إن بعض أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم.

ويفهم من هذا أن بعض الأزواج والأولاد ليسوا بأعداء، بل منهم من يكون عونًا على الخير وطاعة الله تعالى.

والأزواج: جمع زوج، وهو يطلق على المرأة وزوجها في لغة القرآن الكريم اللغة الفصحى، فيقال: زوج فلانة، وزوج فلان.

والمراد هنا الزوجات، أي: إن بعض زوجاتكم وأولادكم ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التغابن ٣٣٧٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٨، والحاكم ٢/ ٤٩٠. وقال الترمذي: «حسن صحيح» وقال الحاكم «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي

كما قد يكون بعض الأزواج أعداءً لزوجاتهم أيضًا.

والعدو من يريد لك الشر، أو يحملك عليه، أو يكون سببا في منع الخير عنك عن قصد منه أو عن غير قصد فبعض الأزواج أعداء لأزواجهم، وبعض الأولاد أعداء لوالديهم، وذلك من وجوه عدة من أهمها:

أنهم قد يلتهون بهم عن طاعة الله عز وجل والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ومنها أنهم قد يحملونهم على معصية الله ويثبطونهم عن طاعة الله تعالى فقد يتساهل الأزواج والوالدان في ترك بعض الواجبات كترك الهجرة والجهاد وغير ذلك، أو في ارتكاب بعض المنهيات مجاراة لأزواجهم وأولادهم ونزولًا عند رغباتهم فتحملهم العاطفة، أو طلب رضاهم على تقديم محبتهم ورضاهم على محبة الله ورضاه.

وقد يقصر الأزواج أو الوالدان في توجيه أزواجهم وأولادهم وفي حملهم على أداء الواجبات والبعد عن المنهيات، ونحو ذلك فيأثمون بسبب ذلك.

قال ابن القيم(١): «ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر... وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده».

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، أي: كونوا منهم على حذر. والحذر: الاحتراز والحيطة من الشيء المخيف.

والمعنى: فاحذروهم على دينكم، أو فاحذروهم أن يضروكم في دينكم، أو أن

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٩- ٤٦٠.

توافقوهم على رغباتهم فيما لا يرضي الله.

قال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: «يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه»(١).

أقول- والله المستعان- كم حمل الأزواج والأولاد أزواجهم ووالديهم- كما قال مجاهد رحمه الله- على قطيعة الرحم مع الإخوة والأخوات وغيرهم من الأقارب، بل ومع الآباء والأمهات، وكم حملوهم على المعصية، بإدخال آلات اللهو والفساد في البيوت، والسفر إلى بلاد الكفر والإباحية، وأماكن الفساد وغير ذلك؛ إرضاء لهم.

وكم تهاون الأزواج والوالدان في حمل أزواجهم وأولادهم على الحق وقصرهم وأطرهم عليه، من أداء الواجبات وترك المنهيات، ومن شكر النعم وعدم الإسراف فيها وغير ذلك مجاملة مع أزواجهم وأولادهم، وإرضاء لهم.

﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟﴾ العفو: التجاوز عما حصل من الذنب والخطأ، والصفح: تناسي ذلك الذنب والخطأ، وترك اللوم والتثريب عليه، وهو أعلى من العفو، كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، لكن حيث قرنت بالعفو والصفح هنا فمعناها: الستر.

والمعنى: وإن تتجاوزوا أيها المؤمنون عما حصل من أزواجكم وأولادكم مما فيه ضرر عليكم في دينكم من حملكم على ترك الهجرة أو الجهاد ونحو ذلك وتتركوا اللوم والتثريب على ذلك، وتستروه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جواب الشرط: «إن»، والفاء: رابطة لجواب الشرط.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٥- ١٦.

أي: فإن الله عز وجل ذو الستر لذنوب عباده والتجاوز عن عقوبتهم عليها، والرحمة الواسعة بهم وبغيرهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، «إنما» أداة حصر، أي: ما أموالكم وأولادكم إلا فتنة، أي: ابتلاء واختبار لكم.

عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين- رضي الله عنهما- عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»(١).

والفتنة والابتلاء تكون في الخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ما منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن»(٢).

فالأموال والأولاد قد تكون شرًا وضررًا على الإنسان في دينه ودنياه وآخرته، وقد تكون خيرًا.

فالأموال قد تشغل الإنسان وتلهيه عن دينه وطاعة ربه، وهذا كثير في أصحاب الأموال، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

فكم فُرّط في الصلاة والزكاة وغيرهما من الواجبات بسبب الانشغال بالأموال

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث ١١٠٩، والنسائي في الجمعة- نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ١٤١٣، والترمذي في المناقب- مناقب الحسن والحسين ٣٧٧٤، وابن ماجه في اللباس- لبس الأحمر للرجال ٣٦٠٠، وأحمد ٥/ ٣٥. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ١١٥- ١١٦.

وحبها.

وكم صلى الإنسان صلاة لا يدري ماذا قال فيها بسبب ذلك.

وكم انتهكت المحرمات من الربا والغش والرشوة وأكلت أموال الناس بالباطل من أجل الأموال وحبها.

وكم نسي كثير من الناس حقوق الله وحقوق خلقه، ونسوا الموت والحساب والجنة والنار بسببها.

قال ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»(١).

وكم انحرف الأولاد بسبب تقصير والديهم في تربيتهم، قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه ، أو يمجسانه»(٢).

قال ابن القيم(٣): «وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة؛ بإهماله وترك تأديبه، وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء».

وكم حمل الأولاد والديهم على التساهل في فعل الواجبات وارتكاب المنهيات كما سبق ذكره.

وفي حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الأولاد: «فإن فيهم قرة عين وأجرا إذا قبضوا وإنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في «تحفة المودود بأحكام المولود» ص٢٤٢.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٢١١.

وعن أبي يعلى العامري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم لمجبنة مبخلة محزنة»(١).

قال الزجاج(٢) في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: «وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى».

وينبغي أن يتأمل هذا من ابتلي بالفقر والعقم فلا يأسى على ما فاته، ويرضى بما قدّر الله له، ويعلم أن الخيرة فيما اختاره الله، ويحسن الظن بربه ويجزم بأن ما اختاره الله له هو عين الخيرة، فكم من أناس كان سبب شقائهم في الدنيا والآخرة وهلاكهم أموالهم وعلى أيدي أولادهم.

وقد يكون المال مطية للخير إذا وفق صاحبه لاكتسابه من حلال، وصرفه في حلال، وأداء حقوق الله عز وجل فيه، والإنفاق منه في سبل الخير، وكما قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»(٣).

كما قد يكون الأولاد عونا على الخير إذا أصلحهم الله وهداهم فيكونون عونًا لوالديهم على أمر الدين والدنيا.

إلا أن الغالب والمشاهد- وكما هو الظاهر من النصوص- أن الأموال والأولاد كثيرًا ما يلحق أهليهم الضرر منهم، إلا من رحم الله.

مما يوجب على المرء الاحتراز من أخطار المال وضرره وتبعاته بحيث يجعل المال في يده لا في قلبه وأن يعرف من أين يكتسبه وفيم ينفقه ويؤدي حقوق الله- عز وجل- فيه

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٦٦٦. وصححه البوصيري، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ١١/ ١٤٠، ٢٠١٤٣، والبزار ٢/ ٣٧٨. والحاكم ٢/ ١٦٤ وصححه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٥٥ «رجاله ثقات». ومعنى مجبنة، مبخلة، محزنة؛ أي: أنهم يحملون والديهم على الجبن والبخل والحزن.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢- من حديث عمرو بن العاص- رضي الله عنه.

ويبذل منه هاء وهاء في سبل الخير.

وأن يعمل على توجيه أولاده وتربيتهم التربية الصالحة منذ نعومة أظفارهم مع المتابعة في ذلك حتى يبلغوا ويرشدوا مع الدعاء لهم دائمًا.

وأن يحترز من أن تحمله مجاملتهم أو طلب رضاهم في الوقوع فيما لا يرضي الله، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس كما جاء في الحديث(١).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، أي: والله عنده ثواب عظيم في الدنيا والآخرة فلا ينبغي أن يكون المال والولد سببا لمعصية الله، فإن الله عز وجل عنده ثواب عظيم وفضل كبير لمن أطاعه واتقى الله في ماله وولده في الدنيا والآخرة وأعظم ذلك الجنة، وما فيها من ألوان النعيم.

فلا ينبغي للمسلم أن يحمله المال على معصية الله عز وجل فإن سلوك الطرق المشروعة في كسب المال وإنفاقه في وجوهه وأداء الحقوق الواجبة فيه والمستحبة سبب لنمائه، والبركة فيه والزيادة من الله عز وجل في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة.

كما لا ينبغي للمسلم أن تحمله المجاملة مع أولاده والتماس رضاهم فيما يسخط الله، أملا في نفعهم أو دفع شرهم والسلامة من أذاهم، فإن في توجيههم إلى الحق وحملهم عليه والصبر على مجاهدتهم من الثواب العظيم وحسن العاقبة له ولهم في الدنيا والآخرة، وصلاح أحوالهم ما يتضاءل أمامه ذلك المأمول العاجل على حساب رضى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣ وأخرجه الترمذي في الزهد ٢٤١٤ بلفظ «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، أي: فاتقوا الله بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه بقدر جهدكم وطاقتكم واستطاعتكم، كما قال عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»(١).

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أنه لن يدخل أحَدَكم عملهُ الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»(٣).

فالحمد لله الذي جعل التكليف قدر الوسع والطاقة والاستطاعة فلم يكلف الإنسان ما لا يستطيع، ووضع عن هذه الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن قواعد الشريعة الإسلامية: أن المشقة تجلب التيسير، وأن الضرورات تبيح

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٢٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢٠٢، ومسلم في الإمارة ١٨٦٧، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٤٠، والنسائي في البيعة ٤١٨٧، والترمذي في السير ١٥٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٦٤، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٨- من حديث عائشة رضي الله عنها وفي رواية عنها «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧.

المحظورات، وأن الضرر ممنوع، كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢]، وفي الحديث: «لا ضرر ولا ضرار»(١).

وليس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ما ينافي كون التكليف حسب الوسع والطاقة؛ لأن معنى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، أي: قدر استطاعتكم فهو مقيد ومفسر بالآيات والأحاديث التي فيها الأمر بالتقوى قدر الاستطاعة، وليس منسوخًا بها؛ لأن الله لا يأمر بما لا يستطاع.

بل نهى الشرع الحكيم عن الانقطاع للعبادة والتبتل ونحو ذلك، وجعل ذلك ليس من الدين في شيء ولهذا رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون والنفر الذين معه التبتل وترك الزواج والانقطاع للعبادة بقيام الليل وصيام النهار.

وقال ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢).

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾، أي: واسمعوا لأمر الله ورسوله بآذانكم وقلوبكم.

﴿وَأَطِيعُواْ﴾، أي: انقادوا لذلك بجوارحكم ظاهرًا وباطنًا، كما قال الله عز وجل عن المؤمنين: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقد عاب الله عز وجل على الذين يسمعون ولا يطيعون، قال تعالى عن اليهود: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٠ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

أي: لا يسمعون سماع انتفاع كما قال الله عز وجل ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَأَنفِقُوا۟﴾، أي: أنفقوا النفقات الواجبة والمستحبة من الزكوات والنفقة على الأهل والأولاد وعلى المحتاجين من الأقارب وغيرهم، وفي طرق الخير المختلفة.

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾، أي: خيرًا تدخرونه لأنفسكم تجدون أثره الطيب على أنفسكم وأموالكم في حياتكم، وتجدون ثوابه عند الله عز وجل أوفر ما يكون بعد مماتكم كما قال تعالى بعد هذا: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشح: الحرص الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب مما في يده والتطلع والحرص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح به، وبخل بإخراجه.

فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»(١).

ومعنى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: ومن يكف بخل نفسه الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب فأولئك هم المفلحون الفائزون، الذين بلغوا غاية الفوز والفلاح والظفر والنجاح، فازوا بالمطلوب ونجوا من المرهوب.

وقد تقدم الكلام على هذه الآية بأوسع من هذا في سورة الحشر.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة- باب في الشح ١٦٩٨، والحاكم ١/ ٤١٥ وصححه ووافقه الذهبي- من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما.

قال ابن القيم[١]: «فالإيثار ضد الشح، فإن المؤْثِر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود، كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل، قال عبد الله بن المبارك: «سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل».

والشح أعم من كونه بالمال، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ يقول: هوى نفسه حيث يتبع هواه ولم يقبل الإيمان»[٢].

وترتيب الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار على الوقاية من الشح يدل على عموم الشح وأنه ما حمل الإنسان على التقصير في الواجب أو تركه، أو على ارتكاب المنهي.

فمن وقي شح نفسه كان ذا نفس سمحة مطمئنة، وصدر منشرح لشرع الله عز وجل منقاد لفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك الإنفاق في وجوه البر، وحب الخير للغير.

ومن لم يوق شح نفسه كان ذا نفس قلقة، وصدر ضيق حرج، غير منقاد لفعل أوامر الله وترك نواهيه إلا بمشقة وكره.

يريد الاستئثار بكل شيء لنفسه لا يحب الخير لغيره. يشح بالنفقات الواجبة فضلا عن المستحبة، بل يشح بالسلام والدعاء والعفو والتسامح وبشاشة الوجه حتى مع أهله ووالديه وأولاده وإخوانه وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وسائر من لهم به علاقة، لا يحب الخير إلا لنفسه، نظرته إلى الناس والحياة نظرة سوداوية، فهو دائمًا في هم وقلق وحرج، وما علم أن الأمر أيسر من ذلك، يقدم سوء الظن دائمًا وكأنه سوف يؤكل،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٠.

يحتاط لنفسه احتياطات لا حاجة لها بسبب أوهامه وتخوفاته كما قال المتنبي(١):

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته ... وأصبح في شك من الليل مظلم

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: إن تقرضوا الله في الإنفاق في سبل الخير كلها استجابة لأمره لكم في قوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ وغير ذلك.

﴿قَرْضًا﴾، أي: انفاقًا وبذلًا وتصدقًا في وجوه البر.

﴿حَسَنًا﴾، أي: خالصًا لوجه الله عز وجل، ومن كسب طيب وبنفس طيبة، لا منّ فيه ولا أذى للمتصدَّق عليه، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣].

وسمى الله عز وجل الإنفاق في الخير والصدقة قرضًا ترغيبًا فيه، وإشارة إلى أن الله عز وجل تكفل بجزائه وأجره.

وإذا كان عدم رد القرض يكون بسبب ظلم المقترض أو إعدامه، فإن الله عز وجل يقول عن نفسه في الحديث القدسي: «من يقرض غير عديم ولا ظلوم»(٢).

﴿يُضَٰعِفَهُۥ لَكُمْ﴾، أي: يزده لكم، وضعف الشيء: كثره مرتين.

والله عز وجل يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤٥٩).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٥٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه؟، ثم يقول: من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، أي: يستر ذنوبكم عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة عليها؛ لأن معنى المغفرة: الستر والتجاوز، ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وتذكيره بها ثم يقول عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الكثير على القليل، ويجزي من أحسن بالحسنى والزيادة، كما قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال الطبري(٢): «والله ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله».

﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

قال ابن القيم(٣):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: عالم السر والعلانية والخفاء والجهر.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ذو العزة التامة؛ عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وذو الحكم التام؛ الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة، الحكمة الغائية والحكمة الصورية. وقد سبق الكلام على هذا مفصلا في آخر سورة الحشر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢١.

(٣) انظر «النونية» ص١٤٨.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لهم وعناية واهتمامًا بخطابهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان، تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف.

٣- أن من الأزواج والأولاد من يكونون أعداء لأزواجهم ووالديهم يحملونهم على معصية الله- عز وجل- ومخالفته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾.

٤- وجوب الحذر من أن تكون محبة الأزواج والأولاد وطلب رضاهم وتلبية رغباتهم سببًا في التقصير في طاعة الله ورسوله أو في ارتكاب معصية الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

٥- الترغيب في التجاوز وترك التثريب وستر ما حصل وما يحصل من الأزواج والأولاد من خطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦- إثبات أنه عز وجل ذو المغفرة التامة والرحمة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٧- التحذير من فتنة الأموال والأولاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

٨- أن ما عند الله- عز وجل- من الأجر العظيم في الدنيا والآخرة أهم وأعظم من الأزواج والأولاد والأموال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٩- وجوب تقوى الله- عز وجل- قدر الاستطاعة والسمع والطاعة لأمره ونهيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾.

١٠- مشروعية الإنفاق وجوبًا بأداء الزكاة والنفقات الواجبة واستحبابًا في غير

ذلك من وجوه البر، والترغيب في ذلك؛ فهو خير يدخره المرء لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾.

١١- التحذير من شح النفس الذي يحمل على منع الحق وترك الواجب وارتكاب المحرم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٢- أن من وفقهم الله- عز وجل- فوقاهم من الشح هم المفلحون حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٣- الترغيب في الصدقة والإنفاق في طرق الخير بتسمية ذلك قرضًا لله عز وجل ووعده عز وجل بمضاعفته لهم، ومغفرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

١٤- ينبغي أن يكون التصدق والإنفاق خالصًا لله عز وجل، من مال طيب، وبنفس طيبة، بلا منّ ولا أذى؛ لقوله تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.

١٥- إثبات صفة الشكر له عز وجل للمخلصين له المنفقين في سبيله بمجازاتهم بأحسن الجزاء، وإثبات صفة الحلم له عز وجل وعدم معاجلته من عصاه بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

١٦- علم الله- عز وجل- بالسر والعلانية والغيب والشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

١٧- إثبات اسمين من أسماء الله- عز وجل- وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة والحكم النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلطَّلَاقِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الطلاق»؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ... ﴿١﴾﴾، واشتمالها على جملة من أحكام الطلاق.

وتسمى: «سورة النساء القصرى»، كما في حديث أبيّ بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما[1].

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- تحدثت السورة عن أحكام الطلاق والعدة والرجعة والسكن والنفقة والرضاع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

٢- الترغيب بتقوى الله والتوكل عليه، وضمانه عز وجل مخرج ورزق من اتقاه، وكفايته من توكل عليه.

٣- التذكير بما حل بكثير من القرى بسبب عتوها عن أمر ربها ورسله من الحساب الشديد والعذاب النُّكر والخسران في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

٤- وجوب تقوى الله، والامتنان على المؤمنين بإنزال القرآن على الرسول ﷺ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾.

---

(١) سيأتي تخريجهما.

٥- بيان عظمته عز وجل وتمام قدرته وعلمه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى في الأصل مفعول به، معناه: «أدعوك» و«ها» للتنبيه.

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ «ال» فيه: للعهد، أي: النبي المعهود في الأذهان محمد ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن.

و«النبي»: مشتق من النبأ، وهو الخبر، ومن النبوة وهي المكان المرتفع؛ لأن النبي منْبَأ ومُخْبَر من عند الله عز وجل، ومنْبِئ ومُخْبِر لقومه بما نبئ به.

ولأن الأنبياء ذوو مكانة عالية رفيعة عند الله عز وجل.

والمراد بالنبي هنا النبي الرسول، أي: الذي أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي ندائه ﷺ بوصف النبوة، وتخصيصه بذلك من بين الأنبياء تشريف وتكريم له ﷺ وإشارة إلى فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام حيث ينادون في القرآن الكريم بأسمائهم لا بوصف النبوة.

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، «إذا» ظرفية شرطية، و«طلقتم» فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

وقد خاطب الله عز وجل النبي ﷺ أولًا، تشريفًا وتكريمًا له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾،

ثم خاطب أمته تبعًا فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

وهذا يدل على أن الخطاب له ﷺ خطاب لأمته ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك.

ومعنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، أي: إذا أردتم طلاقهن، والطلاق: حل عقد الزوجية. وهو جائز في الإسلام، وقد تدعو إليه الحاجة والضرورة عندما يصعب الوفاق بين الزوجين وتصبح الحياة بينهما جحيمًا لا يطاق، ويكون بقاء الزوجية بينهما سببًا لمعصية كل منهما ربه في حق الآخر، ففي الطلاق في مثل هذه الحال مخرج وفرج، وفضل الله واسع، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أي: فطلقوهن مستقبلات لعدتهن بأن يكون طلاق المرأة في طهر لم يجامعها فيه، لا في حال حيضها، ولا في طهر جامعها فيه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»(١).

وفي بعض الروايات قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ»(٢).

وأيضا فلا يطلقها ثلاثًا أو يتبع الطلقة الطلقة؛ لأن ما بعد الطلقة الأولى من الطلقات لم تكن في استقبال عدتها، بل هي في نفس العدة؛ لأن العدة ابتدأت منذ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق- ٥٢٥١، ومسلم في الطلاق- تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ١٤٧١، وأبو داود في الطلاق- طلاق السنة ٢١٧٩، والنسائي في الطلاق- ما يفعل إذا طلق تطليقة وهي حائض ٣٣٩٠، والترمذي في الطلاق- ما جاء في طلاق السنة ١١٨٥، ١١٨٦، وأحمد ٢/ ٢٦، ٤٣.

(٢) جاء هذا في رواية مسلم.

الطلقة الأولى.

قال ابن القيم[١]: «ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث: إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر؛ لأنه غير مطلق للعدة، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى، فلا تكون الثانية للعدة».

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

قال: «لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة»[٢].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: «الطهر من غير جماع»[٣].

وهكذا قال جمهور العلماء من السلف ومن بعدهم.

وعن عكرمة: «﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ العدة: الطهر، والقرء: الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبينًا حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حبلى هي أم لا»[٤].

قال ابن كثير[٥]: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملًا قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٩.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٥/ ١، ٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢، ٢٣، والبيهقي في «سننه» ٧/ ٣٢٥.

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.

المدخول بها».

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾، أي: احفظوها واضبطوها واعرفوا بدايتها، ونهايتها بالأقراء، وهي الحيض أو الأطهار، أو بالأشهر، أو بوضع الحمل.

وذلك لما يترتب على إحصائها وضبطها من حق لله عز وجل، وحق للزوج المطلق؛ ليتمكن من مراجعتها إذا أرادها، وغير ذلك، وحق لها في النفقة وغيرها، ولئلا تطول العدة على المرأة، وغير ذلك، وحق لمن يتزوجها بعد؛ لئلا تختلط المياه، وغير ذلك.

والأمر في قوله: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ متوجه للزوجين.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، ومن ذلك أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن، وإحصاء العدة وضبطها.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، أي: لا تخرجوا أيها الأزواج المطلقات ما دمن في العدة من بيوتهن؛ لأن لهن عليكم حق السكنى، ولا يجوز لهن أن يخرجن ما دمن في العدة؛ لأن من حقكم عليهن بقاءهن حتى انتهاء عدتهن.

فإخراجهن قبل انتهاء العدة اعتداء على حقهن في السكن حتى انتهاء العدة وخروجهن بأنفسهن فيه إضاعة حق الزوج، وفي هذا وذاك اعتداء على حرمات الله عز وجل.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، «إلا» أداة استثناء، أي: لا تخرجوهن أنتم من بيوتهن ولا يخرجن هن منها إلا في حال إتيانهن بفاحشة مبينة.

والفاحشة: ما يستفحش شرعًا وفي عرف المسلمين كالزنا والنشوز وبذاءة اللسان وأذية الزوج وأهله في القول والفعل ونحو ذلك.

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾، أي: بينة واضحة.

ففي هذه الحال يجوز إخراجها من بيت الزوج وإن كانت في العدة؛ لأنها هي التي تسببت في إخراج نفسها، بإتيانها الفاحشة.

وهذا في المعتدة الرجعية. وأما البائن فليس لها سكنى واجبة؛ لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة ﴿تلك﴾ إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة، المتضمنة أوامر ونواهي وأشار إليها بإشارة البعيد إشارة لعظمها وأهميتها، أي: أن هذه الأحكام والشرائع هي حدود الله التي حدها وأوجب العمل بها.

والحد في الأصل: الفاصل بين شيئين، وسميت حدودًا؛ لأنه لا يجوز تجاوزها ولا تعديها كما أن الحدود الأرضية بين الجيران والمالكين تمنع من تجاوز أحدهم وتعديه إلى أرض الآخر.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، أي: من يتجاوز أحكام الله وشرائعه تركًا لما أمر الله به، أو ارتكابًا لما نهى الله عنه.

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعدي حدود الله، بمخالفة أمره أو ارتكاب نهيه، حيث نقص نفسه حظها، وبخسها حقها؛ لأن النفس وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه سعادتها ونجاتها في الدنيا والآخرة، لا أن يوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة، ولا ظلم أعظم للنفس من حملها على تعدي حدود الله، ومعصيته بمخالفة أمره ونهيه، وتعريضها لعذاب النار.

﴿لَا تَدْرِى﴾، أي: لا تدري أيها المطلق ولا تعلم.

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، «لعل» للترجي، أي: ترجون أن يحدث الله بعد ذلك الذي حصل من الطلاق أمرًا، فتتبدل الأحوال، ويذهب ما في الأنفس، ويندم الزوج على طلاق زوجته، وقد تتبعها نفسه حيث يراها أمامه فيراجعها بجماع أو غيره.

ومن أعظم أسباب حصول هذا بقاؤها في بيت زوجها، وعدم إخراجها، فهو أقرب وأرجى لصلاح الحال، أما لو خرجت بعد الطلاق مباشرة فهذا أعظم للشقة والخلاف وتنافر القلوب وتباعدها.

وهكذا فسر أكثر السلف ومن بعدهم قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ بالرجعة.

فجعل الله عز وجل السكنى للمطلقة إذا كانت رجعية، رجاء أن يحدث الله أمرًا وهو رجعتها.

فأما إن كانت المطلقة مبتوتة لا رجعية، أو متوفى عنها فليس لها نفقة ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائبًا عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا شيء. فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة ولا سكنى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك»(١).

وفي بعض رواياته: أن رسول الله ﷺ قال لها: «انظري يا ابنة آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة، فلا نفقة ولا سكنى، اخرجي فانزلي على فلانة»، ثم قال: «إنه يُتَحدث إليها انزلي على ابن أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك...»(٢).

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم أنه لا نفقة ولا سكنى للمبتوتة ولا للمتوفى عنها، لكن المتوفى عنها زوجها تعتد في البيت الذي توفي وهي فيه إن كان لها، وكذا إن أجاز الورثة ذلك إذا لم يكن لها فإن طلبوا خروجها خرجت(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق- المطلقة ثلاثا ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق- نفقة المبتوتة ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٣٦، وأحمد ٦/ ٣٧٣، ٤١٢.

(٢) جاء هذا في رواية لأحمد والنسائي في الطلاق- باب الرخصة في ذلك وصحح إسناده ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٥٢٦.

(٣) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٦٨٧- ٦٨٨.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: فإذا قاربن، أي: المطلقات انتهاء عدتهن وشارفن على ذلك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بمراجعتهن والعزم على إبقائهن في عصمتكم.

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما هو معروف بين الزوجين المسلمَين من حسن الصحبة وأداء الحقوق والعشرة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ومن ذلك الصفح ونسيان أخطاء الماضي وفتح صفحة جديدة من الحياة بين الزوجين.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بتسريحهن بإحسان بعد انقضاء عدتهن من غير مغاضبة ولا مضارة، ولا أذى لا بفعل ولا بقول، مع أداء ما لهن من حقوق عليكم كما قال عز وجل: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وكما قال عز وجل لنبيه ﷺ في أمره بتخيير نسائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقدم عز وجل الأمر بالإمساك؛ لأنه- والله أعلم- أحب إليه، ولأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله؛ لما في الطلاق من تشتت شمل الأسرة، والآثار السيئة المترتبة على ذلك غالبًا.

﴿وَأَشْهِدُواْ﴾، أي: وأشهدوا على الطلاق والرجعة.

والأصل في الأمر الوجوب، فالإشهاد واجب، وقيل مستحب، وقيل واجب على الرجعة ومستحب على الطلاق.

﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: صاحبي عدل منكم أيها المسلمون أي: شاهدين عدلين منكم، فلا يكفي شهادة رجل واحد، ولا بد من كون الشاهدين «عدلين»، ولا بد من كونهما من المسلمين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين، كما قال الله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة، فإن

راجعها فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك بنفسها، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره»(١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها، فقال: «طلقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد»(٢).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، أي: أقيموا الشهادة خالصة لله عز وجل، إذا استشهدتم وأدوها كما تحملتم من غير زيادة ولا نقصان.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارة لما أمر الله عز وجل به في الآية من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن بمعروف، أو مفارقتهن بمعروف مع الإشهاد على ذلك وأداء الشهادة خالصة لوجه الله عز وجل، أو لكل ما سبق.

﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ الموعظة هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨] أي: نعم الذي يعظكم به.

﴿مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، أي: الذي كان منكم يؤمن بالله، أي: يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أي: ويؤمن باليوم الآخر يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء.

وسمي اليوم الآخر؛ لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة. وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم دافع وباعث على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

أي: أن هذه الأحكام والمواعظ إنما يتعظ بها ويستفيد منها وينتفع بها من كان يؤمن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق- الرجعة ٢٠٢٥.

بالله وبشرعه، ويرجو ثوابه ويخاف عقابه في الدار الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠- ١٢].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾، أي: ومن يتق الله بفعل أوامره وترك نواهيه، في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك.

﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، أي: يجعل له كونا وقدرًا مخرجًا وفرجًا في الدنيا والآخرة من كل كرب، ومن أي ضائقة تصيبه وتلم به، مالية، أو اجتماعية، أو نفسية أو غير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة»(١).

فعلى الزوجين كما على غيرهما تقوى الله عز وجل ليوفقهم ويأخذ بأيديهم لما هو أصلح لهم وأسعد في دينهم ودنياهم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾»(٢).

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الرزق هو العطاء، أي: يعطيه العطاء الكثير.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي: ييسر له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم، ومن حيث لا يخطر بباله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣، ٨/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٨.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم» قال: فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست، ثم قال: «يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟» قلت: إلى السعة والدعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: «كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟» قال: قلت: إلى السعة والدعة، إلى الشام والأرض المقدسة، قال: «وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟» قال: قلت: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، قال: «أو خير من ذلك؟» قلت: أو خير من ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن كان عبدًا حبشيًا»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»(٢).

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»(٤).

وقد قال بعضهم: «ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٨- ١٧٩.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، وابن ماجه في الفتن- باب العقوبات ٤٠٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٤، وأحمد ١/ ٣٠، ٥٢، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢٤٨.

(٥) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٨.

وفي المقابل فإن من لم يتق الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه في أمر الطلاق والرجعة وغير ذلك من أموره فإنه يصير إلى ضيق وشدة لا مخرج له منها، وتتعسر عليه أبواب الرزق.

وهذا أمر مشاهد، فمثلا من لم يراع السنة في الطلاق بل أوقعه على الوجه المحرم كالثلاث مثلًا فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها؛ كما قال الفرزدق- لما تعجل وطلق امرأته «نوار» ثلاثًا- قال(١):

نـــدمت ندامـــة الكســـعي لمـــا ... غـــدت منـــى مطلقـــة نـــوار

وكانـــت جنتـــي فخرجـــت منهـــا ... كـــآدم حـــين لـــج بـــه الضـــرار

وكنـــت كفـــاقئٍ عينيـــه عمـــدًا ... فأصـــبح مـــا يضـــيء لـــه النهـــار

وهكذا من لم يتق الله في جميع أموره تراه ينتقل من ضائقة إلى أخرى، وتتعسر عليه أسباب الرزق والحياة، وتنغلق أمامه الأبواب؛ ولهذا جاء في الأثر «بشّر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر، ولو بعد حين»(٢)، وهذا أمر يشهد له الواقع.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يعتمد على الله ويفوض جميع أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر، مع فعل الأسباب.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي: فهو كافيه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: «يا غلام إني معلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٢٥٧-٢٥٨، وانظر: «تهذيب اللغة» ١/ ١٩٦، و«الكامل في اللغة والأدب» ١/ ١٠٣.
(٢) انظر: «المقاصد الحسنة» ص٢٣٨، «كشف الخفاء» ١/ ٢٨٦.

إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس كان قمنًا أن لا تسد حاجته، ومن أنزلها بالله عز وجل أتاه الله برزق عاجل، أو موت عاجل»(٣).

قال ابن القيم(٤): «وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يُخيِّب أمل آمل، ولا يُضيع عمل عامل، فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به».

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾، جمعٌ بين الأمر بفعل الأسباب والتوكل على الله، ومن جمع بين ذلك جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٦٣٥. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٢.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٨.

يحتسب، وكفاه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه.

ومن فرط في أحد الأمرين كأن يتوكل على الله ويترك فعل الأسباب أو يفعل الأسباب ويعتمد عليها فهذا ليس على شيء.

قال ابن القيم(١): «فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها لا إضاعتها».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ قرأ حفص عن عاصم: ﴿بَٰلِغُ﴾ بغير تنوين، و﴿أَمۡرِهِۦ﴾ بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب: «بالغٌ أمرَه».

والمعنى: أن الله منفذ أمره وقضائه وحكمه الكوني في خلقه فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾، أي: قد جعل الله كونا ﴿لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، أي: لكل شيء تقديرًا وتوقيتًا، تقديرًا من حيث كنهه وكمه وكيفه، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وتوقيتًا من حيث وقته وزمنه، لا يتقدم ولا يتأخر عنه.

أي: قد جعل الله لكل شيء تقديرًا علميًا، وهو تقديره عز وجل لمقادير الخلائق في علمه وكتابه قبل تكوينها، ثم كونها على ذلك القدر الذي علمه وكتبه، كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للنبي ﷺ للعناية والاهتمام، ونداؤه بوصف النبوة فيه إثبات لنبوته ﷺ وتشريف له وتكريم، وإشارة لفضله على سائر الأنبياء عليه وعليهم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٩- ٤٧٠.

الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٢- أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب للأمة ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

٣- إباحة الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

ومع أن الطلاق جائز فهو أمر يبغضه الله كما في الحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»(١).

وهذا الحديث وإن كان فيه كلام لأهل العلم من حيث سنده فإن معناه صحيح يؤيده الحديث في بعث الشيطان سراياه للإفساد، كما في حديث جابر رضي الله عنه وغيره أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يبعث الشيطان سراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا. قال: ثم يجيء أحدهم، فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه، ويقول: نِعْم أنت»(٢).

٤- يجب أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن بأن يكون طلاقهن في طهر لم يجامعن فيه، لا في حال حيضهن، ولا في طهر حَصَل جماعهن فيه، ولا يطلقن ثلاثًا، ولا يردف المطلق الطلقة بأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

٥- وجوب إحصاء العدة وضبطها لما يترتب على ذلك من حق لله- عز وجل، وحق للزوج المطلق، وحق للمطلقة، وحق لمن يتزوجها بعد، ولئلا تطول العدة على المرأة، ولكي يتمكن المطلق من رجعتها إذا أرادها، ولئلا تختلط المياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾.

٦- وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، في أحكام الطلاق والعدة

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢١٧٨، وابن ماجه في الطلاق ٢٠١٨ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد ضعفه كثير من أهل العلم، وحسنه بعضهم.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٣.

وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٧- التذكير بعظمة الله تعالى وعبوديته وربوبيته، وعظيم نعمه، والتحذير من مخالفته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

٩- لا يجوز إخراج المطلقات الرجعيات من بيوتهن، ولا يجوز لهن أن يخرجن ما دمن في العدة، حفاظًا على حقوقهن وحقوق أزواجهن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، وفي هذا دلالة على وجوب السكنى للرجعيات.

١٠- إذا أتت المرأة بفاحشة بينة من زنا أو نشوز أوبذاءة لسان جاز للزوج إخراجها من بيته وهي في عدة طلاقها الرجعي؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، ويفهم من هذا أنه لا يجوز إخراجهن بمجرد دعوى الزوج إتيانها بفاحشة بلا بينة.

١١- أن ما أمر الله به من أوامر وما نهى الله عنه من نواه في أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك كل ذلك من حدود الله التي يجب الوقوف عندها ولا يجوز تجاوزها ولا تعديها ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

١٢- أن من الحكمة في تحريم إخراج المطلقة الرجعية من بيتها، وإيجاب السكنى لها رجاء أن يكون ذلك سببًا في صلاح الحال ومراجعتها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

١٣- أن الإنسان لا يدري ولا يعلم ما تؤول إليه عواقب الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

١٤- قدرة الله- عز وجل- التامة على تغيير الأحوال وتبديلها إلى ما هو أصلح فينبغي التعلق به ورجاؤه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

١٥- إذا قاربت المعتدة الرجعية انقضاء عدتها وجب إما مراجعتها بالمعروف، وإما مفارقتها بالمعروف من غير مضارة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

١٦- مشروعية إشهاد رجلين عدلين من المسلمين على الطلاق وعلى الرجعة وهو على الرجعة آكد وأوجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

١٧- وجوب إقامة الشهادة خالصة لله، وأدائها كما تحملها الشاهد من غير زيادة ولا نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾.

١٨- أن ما أمر الله به من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن أو مفارقتهن بالمعروف والإشهاد على ذلك وإقامة الشهادة لله وغير ذلك مما يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

١٩- وجوب الإيمان بالله، وإثبات اليوم الآخر، ووجوب الإيمان به.

٢٠- أن من اتقى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب ولا يخطر بباله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

٢١- وجوب التوكل على الله مع فعل الأسباب، وأن من توكل على الله كفاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

٢٢- أن الله منفذ أمره وقضاءه الكوني في خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾.

٢٣- تقدير الله- عز وجل- مقادير كل شيء وعلمه بها وكتابته لها قبل كونها ثم تكوينها وإيجادها وفق ذلك التقدير؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾.

ذكر الله عز وجل في سورة البقرة أن المطلقات يعتددن ثلاثة قروء، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والمراد بالقروء: الحِيَض، وقيل: الأطهار.

وقال عز وجل في مطلع هذه السورة: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، أي: مستقبلات لعدتهن، بأن تطلق المرأة في طهر لم تجامع فيه، لا في طهر جامعها فيه، ولا في حال الحيض.

وهذا إنما ينطبق على ذوات الأقراء، أي: اللاتي يحضن، ثم أتبع ذلك بذكر عدة الآيسات واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال في هذه الآية، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾.

سبب النـزول:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «قلت لرسول الله ﷺ إن ناسًا من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عِدَدٌ لم يُذكرْنَ في القرآن: الصغار، والكبار، اللائي قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل،

قال: فأنزلت التي في النساء القصرى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾»[1].

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، أي: اللائي كبرن وبلغن سن الإياس من المحيض من نسائكم.

وقد اختلف في حد الإياس فقيل: خمسون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: لا حد له ويعرف بيأس أقاربها.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق فيه النساء، والمراد بالآية: أن يأس كل امرأة من نفسها، قد ينقطع حيضها وتأيس منه ولها أربعون ونحوها، وغيرها لا تأيس منه وإن كان لها خمسون[2]

﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾، أي: إن شككتم في حكم عدتهن، وبماذا يعتددن.

ويؤيد هذا ما جاء في سبب نزول الآية. وهو الأظهر في المعنى، والأصح.

وقال بعض المفسرين: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾، أي: إن رأين دمًا وشككن في كونه حيضًا أو استحاضة وارتبتم فيه، رُويَ هذا عن مجاهد والزهري وابن زيد[3].

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ الجملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فعدتهن إذا طلقن ثلاثة أشهر.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ لصغرهن ونحو ذلك فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر وحذف هذا لدلالة المذكور عليه.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾، أي: وصاحبات الأحمال، أي: الحوامل ﴿أَجَلُهُنَّ﴾، أي: نهاية

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

(٢) انظر «الاختيارات الفقهية» ص٢٨، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧٥- ٤٨٢.

(٣) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٩- ٥٠.

عدتهن من طلاق أو وفاة.

﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع خبر قوله: ﴿أَجَلُهُنَّ﴾، والجملة خبرٌ لقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾.

أي: نهاية عدتهن وضع حملهن كله، واحدًا، أو توأمين أو أكثر، حيًّا كان أو ميتًا، تام الخلقة، أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ، سواء طالت مدة الحمل أو قصرت، زادت على أربعة أشهر وعشر، أو نقصت، حتى ولو وضعت بعد الطلاق أو الموت بلحظة انتهت عدتها.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول ﷺ: لا أدري أمشتركة أم مبهمة قال رسول الله ﷺ: «أية آية» ؟ قال: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، المتوفى عنها والمطلقة؟ قال: «نعم»(١).

وعن سبيعة الأسلمية رضي الله عنها: «أنها كانت تحت سعد بن خولة- وكان ممن شهد بدرًا وتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»(٢).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «قتل زوج سبيعة الأسلمية، وهي حبلى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٣٩٩١، ومسلم في الطلاق- انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها أو غيرها بوضع الحمل ١٤٨٤ وأبو داود في الطلاق- عدة الحامل ٢٣٠٦، والنسائي في الطلاق- عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥١٨، وابن ماجه في الطلاق- الحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حلت للأزواج ٢٠٢٧، ٢٠٢٨.

فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ. وكان أبو السنابل فيمن خطبها»(١).

وعن المسور بن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه: «أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح فأذن لها أن تُنكح فنُكحت»(٢).

فانتهاء عدة المطلقة بائنًا كانت أو رجعية والمتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملًا بمجرد وضع الحمل، ولو كان ذلك عقب الطلاق أو الوفاة بلحظات لقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، ولقصة سبيعة الأسلمية رضي الله عنها، وغيرها وبهذا قال جمهور السلف وأهل العلم بعدهم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من شاء لاعنته ما نزلت: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت، يريد بآية المتوفى عنها زوجها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]»(٣).

وعنه قال: «أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩٠٩، وفي الطلاق ٥٣١٨ ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١ والترمذي في الطلاق ١١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٢٠، والنسائي في الطلاق ٣٥٠٦، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٩، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٣٠٧، والنسائي في الطلاق- عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢٢، وابن ماجه في الطلاق- الحامل المتوفى عنها ٢٠٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩١٠، والنسائي في الطلاق- عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢١.

يعني بسورة النساء القصرى سورة الطلاق، ويعني بالطولى سورة البقرة.

وقد قيل إن الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ خاصة بالمطلقات، أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر كما في آية البقرة.

وقيل تعتد المتوفى عنها زوجها وهي حامل آخر الأجلين فإن كان أطولهما وضع الحمل كأن تكون توفى عنها زوجها وهي في أول الحمل اعتدت بوضع الحمل وإن كان أطولهما أربعة أشهر وعشرًا اعتدت به بمعنى أنها لا تقل عدتها عن أربعة أشهر وعشر، وقد تزيد إلى تسعة أشهر، أو إلى أكثر من ذلك حتى تضع حملها وهذا لأجل العمل بالآيتين آية البقرة، وآية سورة الطلاق.

رُويَ هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما.

فعن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد موت زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي يعني: أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريبًا إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها»(٢).

والصحيح القول الأول كما دلت عليه الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والأحاديث في قصة سبيعة وغير ذلك وهو قول الجمهور من الصحابة والفقهاء بعدهم.

وقد استدل له ابن القيم بعموم الآية: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾،

---

(١) أخرجه عن علي رضي الله عنه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٠٩، ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٤، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

من ثلاث جهات:

عموم الخبر عنه؛ وهو أولات الأحمال، فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عموم الأجل فإنه أضافه إليهن، واسم الجمع إذا أضيف إلى معرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان؛ إذ التقدير: وأولات الأحمال أجلهن وضع حملهن، وإذا كان المبتدأ والخبر معرفتين اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول(١).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ تأكيد وحض على تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فقد قال قبل هذا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾، أي: يجعل له فرجًا من كل كرب ومن كل ضائقة بعد حصولها.

وقال ههنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، أي: ييسر له أموره من حيث البداية، فيسلم بإذن الله عز وجل من الكروب والضائقات.

والمراد بالجعل في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ الجعل الكوني القدري.

والضمير في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله، أي: يجعل الله له من أمره الكوني يسرا.

ويحتمل عود الضمير إلى من اتقى الله، أي: ومن يتق الله يسهل له أمره والمعنى على التقديرين واحد وهو: ومن يتق الله ييسر ويسهل له أمور دينه ودنياه، فمهما توجه لأمر من الأمور كان الله معه يسدده ويعينه وييسر أموره ويحفظه، كما قال ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» الحديث(٢).

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧١.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١]:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما ذكر في الآية السابقة من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغيرها، أو لما ذكر فيها وفيما قبلها، أو لكل ما شرعه الله من أحكام وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: أمر الله وحكمه الشرعي.

﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾، أي: أنزله إليكم بما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ من القرآن الكريم المنزل من عند الله عز وجل، ومن السنة النبوية التي هي من وحي الله عز وجل قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] أي: القرآن والسنة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ هذا تأكيد ثالث لتقوى الله عز وجل وحضٌ عليها، رتب عليه الجزاء الأخروي وهو تكفير السيئات والأجر العظيم.

ومعنى ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته، ويسترها عن الخلق ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، سميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل وقد تسوء غيره.

﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾، أي: ويجعل أجره وثوابه عظيما، كمًا وكيفًا عنده- عز وجل- بإدخاله الجنات وما فيها من النعيم ورؤية الرب الرحيم.

وقدم تكفير السيئات على ذكر عظم الأجر لأن التخلية قبل التحلية.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن

---

(١) انظر: «الفرج بعد الشدة» ١/ ١٧٧.

إخراج المعتدات من بيوتهن، وأنه لا ينبغي أن يخرجن، وفي هذا بيان وجوب السكنى لهن. ثم أكد ذلك في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ الآية، وبين قدر إسكانهن، وأنه من حيث يسكنون ومن وجدهم.

والأمر في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ لمن يطلقون زوجاتهم طلاقًا رجعيًا، أي: أسكنوا زوجاتكم اللاتي طلقتموهن طلاقًا رجعيًا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾.

«من» تبعيضية أي: من بعض سكنكم وعندكم، وفي بيوتكم اللاتي تسكنونها.

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له، أي: من قدر سعتكم وطاقتكم.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾، أي: ولا تضاروهن عند إسكانكم لهن بالقول أو بالفعل؛ لأجل التضييق عليهن ليخرجن من بيوتكم قبل تمام عدتهن، أو ليفتدين أنفسهن منكم بما لهن، وقيل بأن يطلقها فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها مضارة لها.

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾، أي: وإن كن- يعني: المطلقات- صاحبات حمل، أي: حوامل.

﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الأمر للوجوب، فتجب النفقة على المطلقة الحامل لها وللحمل حتى تضع، وإن طالت مدة الحمل وهذا بالإجماع إذا كان الطلاق رجعيًا.

واختلف أهل العلم بالنسبة للمطلقة البائن:

فذهب كثير من السلف، منهم ابن عباس وعمر وابن مسعود رضي الله عنهم[1]، وكثير من الفقهاء: إلى وجوب النفقة عليها؛ لأجل الحمل، وحملوا الآية على البائن؛ قالوا: لأن الرجعية نفقتها واجبة مطلقا سواء كانت حاملًا أو حائلًا.

وقال بعض أهل العلم: لا نفقة لها وإن كانت حاملًا؛ لأن السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية؛ لأن الحمل تطول

---

(١) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٢، ٦٣.

مدته غالبًا؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

وظاهر الآية وجوب النفقة عليها لأجل الحمل.

قال الطبري[١]: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملًا؛ لأن الله جلّ ثناؤه جعل النفقة بقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم، إذ هن وغيرهن في ذلك سواء، وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن إلا أن تكون حاملًا» ثم استدل بحديث فاطمة بنت قيس. وقد سبق.

واختلف أهل العلم هل النفقة لها بواسطة الحمل أو للحمل وحده على قولين.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾، أي: فإن أرضعن لكم المولود بعد انقضاء عدتهن وبينونتهن منكم، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، أي: اعطوهن أجور إرضاعهن لأولادكم وذلك أجرة المثل، أو ما يتفقان عليه وهن أحق بإرضاعهم من غيرهن ما لم تزد أجرة إرضاعهن عن أجرة المثل.

وفي هذا دلالة على أنه لا يجب عليهن إرضاعهم، وقد بن بانقضاء عدتهن.

قال ابن كثير[٢]: «أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بِنَّ بانقضاء عدتهن ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللَّبَأ وهو باكورة اللبن، الذي لا قوام للولد غالبًا إلا به، فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة».

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٤.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٧٩.

﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم﴾ الائتمار: التشاور والتفاهم والاتفاق، أي: تشاوروا وتوافقوا فيما بينكم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: بما هو معروف شرعًا وعرفًا في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع أموركم، من غير مضارة، كما قال عز وجل: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾، أي: وإن تعسر الأمر بينكم في إرضاع الولد وأجرة ذلك بأن امتنعت أمه من إرضاعه مطلقا، أو طلبت أجرة لم يوافق عليها الزوج، أو بذل الزوج أجرة لم توافق عليها هي، ونحو ذلك.

والتعاسر: تفاعل من العسر، أي: عَسُر على كل منكما قبول رأي الآخر في مقدار أجرة الرضاع، ونحو ذلك.

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾، أي: يطلب له مرضعة أخرى غير أمه لكن إن رضيت الأم بالأجرة التي استؤجرت بها الأجنبية فهي أحق به.

وإن لم يقبل إلا ثدي أمه تعين عليها إرضاعه، ولها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾، أي: لينفق صاحب السعة والغنى أي: الذي وسع الله عليه في رزقه.

﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، أي: بقدر وسعه وغناه، بحيث يوسع على من ينفق عليهم.

ومن ذلك التوسيع في النفقة على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملًا وعلى المولود، سواء كان المنفق هو أبوه، أو وليه من بعده، ومن ذلك التوسيع على المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت أم المولود.

ويؤخذ من هذه الآية وجوب نفقة الولد على الأب دون الأم.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾، أي: ومن ضيق عليه رزقه.

﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، أي: فلينفق من الذي آتاه الله، أي: بقدر الذي آتاه الله من الرزق.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة نفر، كان لأحدهم عشرة دنانير، فتصدق منها بدينار. وكان لآخر عشر أواق فتصدق منها بأوقية. وكان لآخر مائة أوقية، فتصدق منها بعشر أواق. فقال رسول الله ﷺ: «هم في الأجر سواء كل تصدق بعشر ماله. قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾»(١).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾، أي: لا يُحمِّل الله نفسًا إلا قدر الذي آتاها من الوسع والطاقة، وبما هو من مقدورها، فجعل عز وجل كلا بحسبه وخفف عن المعسر.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الآية: ٢٨٦].

فحمدًا لك اللهم على جعل التكليف وفق الوسع والطاقة.

رُويَ: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن أبي عبيدة رضي الله عنه فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام. فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها، إذا هو أخذها. فما لبث أن لبس اللين من الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه الله تأول هذه الآية ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾»(٢).

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أمر الله عز وجل من قدر عليه رزقه بالإنفاق بقدر ما آتاه الله، ثم وعد عز وجل بأنه سيجعل بعد عسر يسرا وذلك تسلية لمن لم يقدر إلا على القليل، وحثًّا وتشجيعًا له لئلا يشح بهذا القليل.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾، أي: سيجعل الله كونًا وقدرًا ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾، أي: بعد ضيق وشدة

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٠، وقال ابن كثير «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٩- ٧٠.

وفقر ﴿يُسْرًا﴾ سعة ورخاء وغنى.

وهذا وعد منه عز وجل وهو الذي لا يخلف الميعاد بأنه سيجعل ويقدر بعد الضيق والشدة سعة ورخاء وفرجًا ومخرجًا، فالعسر يعقبه بإذن الله عز وجل اليسر.

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ جالسًا وحياله جحر، فقال: «**لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦]»(١).

بل إنه عز وجل يتبع **العسر** بيسرين؛ لأنه عز وجل ذكر **العسر** معرفًا في الموضعين، فدل على أن الثاني هو الأول، وذكر اليسر منكرًا فدل على أن الثاني غير الأول.

ولهذا رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لن يغلب عسر يسرين»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأته امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا. فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئًا، قال: فرجع الزوج قال: أصبتم بعدي شيئًا؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- أن عدة المطلقات الآيسات من المحيض واللاتي لم يحضن ثلاثة أشهر، وأولات الأحمال نهاية عدتهن وضع حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن؛ لقوله

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ وروي موقوفًا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه. انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٥٣.

(٢) أخرجه مالك في الجهاد- الترغيب في الجهاد، انظر «تنوير الحوالك» ١/ ٢٩٦.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ عن الحسن البصري.
وأخرجه عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ مرسلًا، عبد الرزاق في «تفسيره» ٢/ ٣٨٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٣، وأخرجه بأطول من هذا ٢/ ٤٢١.

تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾.

٢- الترغيب في تقوى الله، والوعد لمن اتقى الله بتيسير أموره في الدنيا وتكفير سيئاته وتعظيم أجره في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾.

٣- أن ما ذكر من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغير ذلك من أحكام جاءت في القرآن الكريم كل ذلك مما أمر الله به شرعًا وأنزله في كتابه؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ ﴾.

٤- وجوب إسكان المطلقات طلاقًا رجعيًا من حيث يسكن أزواجهن ومن وجدهم، وتحريم مضارتهن للتضييق عليهن؛ ليخرجن قبل تمام العدة أو ليفتدين أنفسهن من أزواجهن بمالهن، أو بتطليقهن ثم مراجعتهن إذا قاربن انتهاء العدة مضارة لهن؛ لقوله تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾.

٥- وجوب النفقة للمطلقة الحامل لها وللحمل إذا كان الطلاق رجعيًا ووجوب النفقة عليها لأجل الحمل إذا كان الطلاق بائنًا، وقيل لا تجب لها النفقة في هذه الحال وظاهر الآية وجوب النفقة لها لأجل الحمل حتى تضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

٦- يجب إعطاء المطلقات البائنات أجرة المثل إذا هن أرضعن أولاد من طلقوهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ﴾.

٧- وجوب الائتمار والتشاور والتوافق بالمعروف في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾.

٨- إذا تعاسر الزوجان في إرضاع الولد وفي أجرة ذلك ترضعه امرأة أخرى غير

أمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

٩- أن نفقة الولد على الأب دون الأم.

١٠- الترغيب لمن وسع الله عليه في الغنى أن يوسع في النفقة على المنفق عليهم من الأهل والأولاد، ومن ذلك التوسيع في الإنفاق على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملًا وعلى المولود وعلى المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت الأم: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

١١- لا حرج على من ضيق عليه رزقه أن ينفق بقدر ما آتاه الله؛ لقوله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

١٢- أن التكليف على قدر الوسع والطاقة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

١٣- وعد الله- عز وجل- بأنه سيجعل بعد عسر يسرًا وهو الذي لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، بل إن كل عسر معه من الله يسران؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

أمر الله عز وجل من مطلع السورة إلى هنا بامتثال جملة من أحكام الطلاق والعدة والرجعة وسكنى المعتدة والنفقة عليها وعلى حملها ورضاعه.

ثم أخبر عما حل بمن خالف أمر الله ورسله من الأمم السالفة من العذاب والعقوبات الدنيوية وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة؛ تأكيدًا لوجوب امتثال ما أمر الله به ورسوله من أحكام، وتحذيرًا من المخالفة لأوامر الله- عز وجل ورسوله.

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾، أي: وكثير من القرى.

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: عصت وتمردت وتجبرت وطغت واستكبرت عن أمر ربها الشرعي ورسله، أي: عن أوامر الله الشرعية وأوامر رسله.

والقرية: مأخوذة من القري، وهو مكان التجمع، ومنه سمي القرو وهو مكان تجمع الماء، وسمي القرآن: لأنه مجموع حروف وكلمات وآيات وسور.

والمراد بالقرية: مكان اجتماع طائفة من الناس، يقال لها مدينة ويقال لها قرية، فهي المصر الجامع، قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣].

والمراد: وكثير من أهل القرى.

قال الطبري(١): «وكم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وعن أمر رسل

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٠.

ربهم فتمادوا في طغيانهم وعتوهم، ولجوا في كفرهم».

وفي إضافة ضمير «قرية» إلى اسم «الرب» عز وجل في قوله: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ تأكيد لوجوب طاعة الله عز وجل وعدم مخالفته، وتذكير بنعمة ربوبيته فهو عز وجل الخالق المالك المدبر سبحانه وتعالى.

﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، أي: حاسبناها على تمردها وعتوها حسابا صعبًا عسيرًا، وناقشناها نقاشًا دقيقًا استقصينا فيه عليهم، ولم نتجاوز فيه عن شيء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

وقد قال ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»(١).

ولهذا قال بعده: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾، أي: وعذبناها في الدنيا عذابًا منكرا فظيعًا، بأنواع العذاب والعقوبات، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

﴿فَذَاقَتْ﴾، أي: فأحست وتجرعت ومسها.

﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، أي: غب وعاقبة وعقوبة أمرها؛ لما خالفت أمر الله ورسوله.

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾. [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، أي: وكان نهاية أمرها خسرًا، أي: غبنًا ونقصًا، وخسرانًا لا ربح فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أي: هيأ الله لهم في الآخرة عذابًا شديدًا وهو عذاب النار، العذاب الأشد والأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، والترمذي في الرقائق ٢٤٢٦- من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

والمعنى: أن الله عز وجل عذب أولئك الذين تمردوا عن أمره عذابًا منكرًا وعقوبة عاجلة تجرعوها في الدنيا مع ما أعد الله لهم من العذاب الشديد في الآخرة، وكانت نهاية أمرهم الخسار والبوار في الدنيا والآخرة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه يا أصحاب العقول والبصائر السليمة، التي تفقه، وتهدي أصحابها إلى ما ينفعها وإلى ما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخراها. وفيه تحذير لهم من مسلك ومصير من تمردوا على أوامر الله ممن لديهم العقول التي هي مناط التكليف، لكنها لم تنفعهم، كما قال عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، «الذين» اسم موصول مبني في محل نصب عطف بيان على «أولي» أو بدل منه، أي: الذين صدقوا وانقادوا ظاهرًا وباطنًا.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد أنزل الله إليكم ذكرا، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ هذا كالتفسير لقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

قال بعضهم: ﴿رَّسُولًا﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر، وقال بعضهم: ﴿رَّسُولًا﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره: أرسل رسولا، والمراد بقوله: ﴿رَّسُولًا﴾ هو محمد ﷺ، ونكره لأنه معهود ومعروف.

﴿يَتْلُوا۟﴾ يقرأ ويقص.

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية وهي آيات الذكر، القرآن الكريم، المنزل من عند الله؛ لأن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من إعجاز في لفظه ومعناه وأحكامه وأخباره وصلاحيته لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، وما دل عليه من صدق من جاء به كل ذلك علامة على أنه من عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ حال، أي: يتلو عليكم آيات الله حال كونها مبينات.

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياء وتشديدها؛ اسم فاعل، أي: أنهن مبينات للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام.

وقرأ الباقون: «مبيَّنات» بفتح الياء مع التشديد؛ اسم مفعول، بمعنى: أوضحهن الله عز وجل وبينهن.

﴿لِّيُخْرِجَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يخرج الرسول ﷺ بما يتلو من الآيات البينات ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله ورسوله ﷺ وبالآيات المنزلة عليه من عند الله عز وجل.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم. وحذف الموصوف دون الصفة للدلالة على أن المهم كون العمل صالحًا، أي: وعملوا الأعمال الصالحات التي يتوفر فيها: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من ظلمات الكفر والشك والجهل إلى نور الإيمان واليقين والعلم، نور القرآن الذي به الهداية وحياة القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وجمع الظلمات ووحد النور؛ لأن طرق الباطل كثيرة متشعبة، وطريق الحق واحد كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

ذكر الله عز وجل قبل هذا عذابه الدنيوي لمن عصى وتمرد عن أمر الله ورسله، وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة، ثم ذكر ما أعده لمن آمن وعمل صالحًا من الجنات وما فيها من الأنهار والرزق الحسن.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، و«يعمل صالحًا» معطوف عليه، و«يدخله جنات» جواب الشرط.

فمن آمن بالله ورسوله، وكل ما أوجب الله الإيمان به، وعمل عملًا صالحًا خالصًا لله عز وجل ووفق شرعه استحق هذا الجزاء وهو دخول الجنات.

والجنات: ما أعده الله عز وجل لإقامة أوليائه فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ «جنات»، أي: أن أنهارها المختلفة تجري من تحت أشجارها وقصورها ومساكنها وغرفها، كما قال عز وجل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهي كما وصفها الله عز وجل بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها.

وجمع «خالدين» نظرًا لمعنى «من» في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، «قد» للتحقيق، أي: قد أحسن الله لمن آمن بالله وعمل صالحًا، وأفرد الضمير مراعاة للفظ «من»، ﴿رِزْقًا﴾، أي: عطاءً، وأيُّ رزق وأيُّ عطاء أحسن من دخول الجنات والخلود فيها والتمتع بما فيها من ألوان النعيم ورؤية العزيز الحكيم؟! نسأل الله عز وجل من فضله.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

ذكر الله عز وجل في هذه السورة جملة من الأحكام آمرًا بها، وحذر من مخالفة أمر الله ورسوله بذكر ما حل بمن عصى وخالف من الأمم الماضية من العذاب الدنيوي وما أعد لهم من العذاب الأخروي، ممتنًا على عباده المؤمنين بإرسال الرسول الكريم وإنزال الآيات الشرعية، وما أعد لهم من الجنات والرزق، ثم أتبع ذلك بذكر عظم آياته الكونية، وكمال قدرته وسلطانه العظيم وعلمه المحيط بكل شيء.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، أي: الذي أوجد وأنشأ سبع سموات، كما قال

عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، أي: وخلق من الأرض مثلهن أي: سبع أرضين، كما قال ﷺ: «من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين يوم القيامة»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خلق الله سبع سموات غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة منهن خمسمائة عام، وفوق السموات السبع الماء، والله جل ثناؤه فوق الماء لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع بين كل أرضين خمسمائة عام وغلظ كل أرض خمسمائة عام»(٣).

﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، أي: يتنزل أمر الله الكوني بينهن، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. [الأعراف: ٥٤].

أي: أن الله عز وجل خلقهن وأوجدهن، وأمره وتدبيره نافذ فيهن وفيما بينهن؛ لأنه عز وجل هو الرب الخالق المالك المدبر.

﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ اللام للتعليل، أي: أنه عز وجل خلق سبع سموات وسبع أرضين وأنفذ أمره فيهن وفيما بينهن لأجل أن تعلموا عموم قدرته وعظمتها، وسعة علمه وإحاطته بكل شيء. وهاتان الصفتان لب

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- إثم من ظلم شيئا من الأرض ٢٤٥٣، ومسلم في البيوع- تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها ١٦١٢- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٥٤.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٨، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١، وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠.

التوحيد: كمال القدرة، وكمال العلم.

والخطاب للمؤمنين؛ لقوله قبل هذا: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ هاتان الجملتان كل منهما في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾، أي: لتعلموا قدرة الله على كل شيء، وإحاطة علمه بكل شيء.

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء أي: على كل شيء من الأشياء صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، خفيًا أو جليًا، دقيقًا أو جليلًا، أيا كان نوعه وكيفه وكمه.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة عظيمة تامة نافذة، فلا يعجزه شيء سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ معطوفة على الجملة قبلها، وقدم قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لتأكيد شمول علمه وإحاطته بكل شيء، أي: لتعلموا كمال علم الله عز وجل، وإحاطة علمه بكل شيء وسعته كل شيء، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ففي خلقه عز وجل السموات السبع والأرضين السبع، وتدبيرهن وما بينهن دليل على عظيم قدرته عز وجل وشمولها لكل شيء، وعلى إحاطة علمه وسعته لكل شيء وأن الذي يخلق، ويستحق اسم الخالق حقا هو سبحانه، إذ من لازم ذلك تمام القدرة على كل شيء، وتمام العلم وسعته لكل شيء، وليس هذا لأحد سواه سبحانه وتعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

الفوائد والأحكام:

١- التحذير من مخالفة وتكذيب أمر الله- عز وجل- ورسوله ﷺ بذكر ما حل بالمكذبين لأمر الله ورسله من الأمم السابقة من العقوبات الدنيوية وما ينتظرهم من

العقوبات الأخروية؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهَا﴾.

٣- أنه ما من قرية إلا خلا فيها نذير.

٤- أن أكثر الأمم درجوا على الكفر وتكذيب الرسل، فلا عبرة بما عليه أكثر الخلق.

٥- مرارة وشدة مخالفة أمر الله ورسله، والتهديد والوعيد لمن فعل ذلك، فحساب شديد، وعذاب منكر، وتجرع لعقوبة المخالفة، وعاقبة خيبة وخسران، وعذاب شديد في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٦- أن النار موجودة معدة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٧- وجوب تقوى الله- عز وجل- بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٨- تميز وفضل أصحاب العقول التي تدلهم عقولهم على معرفة الله عز وجل ومعرفة الحق والعمل به لهذا خصهم بالأمر بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٩- التعريض بذم من لم يستفيدوا من عقولهم بل هم أشباه البهائم كما ذكر الله عز وجل.

١٠- الامتنان من الله- عز وجل- على المؤمنين بإنزال القرآن العظيم وبعثة الرسول الكريم ﷺ والترغيب والإغراء بتذكر القرآن واتباع الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

١١- إثبات علو الله- عز وجل- على خلقه علوًا مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق؛ علو الذات وعلو الصفات، وعلو القدر وعلو القهر.

١٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، ذكر وعظة لأولي

الألباب ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

١٣- إثبات رسالة محمد ﷺ وتشريفه وتكريمه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- إقامة الحجة على الخلق بتبيين الآيات وتفصيلها؛ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾.

١٥- أن الهدف من إرسال الرسل ومنهم محمد ﷺ ومن إنزال الكتب ومنها القرآن الكريم هو إخراج الناس وبخاصة الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

١٦- أن الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل الصالحات بالجوارح.

١٧- لابد لقبول العمل من كونه صالحًا، أي: خالصًا لله- عز وجل- وعلى سنة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

١٨- أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة ومتشعبة؛ لإفراد النور، وجمع الظلمات.

١٩- عظم ما أعد الله- عز وجل- لمن آمن بالله وعمل صالحًا من الجنات وما فيها من النعيم والأنهار والخلود الأبدي فيها والرزق الحسن؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

٢٠- بيان كمال قدرة الله- عز وجل- وقوته وسعة علمه وإحاطته بكل شيء في خلق السموات السبع والأرضين السبع، ونفوذ أمره الكوني فيهن، وفيما بينهن وأنه عز وجل وحده الخالق المالك المدبر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

٢١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الكونية والشرعية، وأنه عز وجل خلق السموات السبع، وخلق الأرضين السبع؛ لنعلم عموم قدرته على كل شيء، وإحاطته بكل شيء علمًا؛ فنعظمه ونعبده وحده لا شريك له.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّحْرِيمِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة التحريم» بهذا الاسم؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾.

وتسمى: «سورة لم تحرّم»، و«سورة النبي ﷺ».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [الآية:١]، بشأن تحريمه ﷺ شيئًا مما أحله الله طلبًا لمرضاة أزواجه.

٢- مشروعية التحلل من اليمين بالكفارة إذا كان غيرها خيرًا منها: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [الآية:٢].

٣- ذكر ما دار بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه، وعتاب الله لهن، وتخويفهن من طلاقهن: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [الآية:٥].

٤- أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار.

٥- لا قبول لاعتذار الكفار يوم القيامة.

٦- الحث على التوبة النصوح، والترغيب فيها بذكر ما أعد الله للتائبين.

٧- الأمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، ووعيدهم بجهنم وبئس المصير.

٨- ضرب مثلين أحدهما للذين كفروا، والآخر للذين آمنوا.

٩- امتداح مريم بنت عمران عليها السلام والثناء عليها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من المرأتان اللتان قال الله فيهما: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدته حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليّ شيئًا فريا، ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرمها عليّ فلا أقربها؟» قالت: بلى. فحرمها، وقال: «لا تذكري ذلك لأحد» فذكرته لعائشة فأظهره الله عز وجل عليه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن النبي ﷺ كفر يمينه، وأصاب جاريته»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحدًا، وإن أم إبراهيم عليّ حرام» فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟، قال: «فوالله لا أقربها». قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٨، ٩٥، ٩٦، وقد أخرج أوله من حديث مطول البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣- ٤٩١٦، ومسلم في الطلاق- في الإيلاء ١٤٧٩، والترمذي في تفسير سورة التحريم ٣٣٧٤، وأحمد ١/ ٣٣- ٣٤.

(٢) أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٦ وقال ابن كثير: «وهذا إسناد =

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواصيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير(٢)؟، إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما النبي ﷺ، فقالت ذلك له، فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ لقوله: «بل شربت عسلًا، ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدًا»(٣).

وفي رواية عن عائشة أيضًا: أن التي أسقته العسل هي حفصة، وأن اللاتي تواطأن على تلك المقالة هن عائشة وسودة وصفية(٤).

قال ابن كثير(٥) بعد سياق هذه الرواية والتي قبلها: «والغرض أن هذا السياق فيه

=

صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج».

(١) أخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٥٩ والحاكم ٢/ ٤٩٣ وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٢) المغافير: شيء شبيه بالصمغ يكون في شجر الرمث فيه حلاوة. انظر مادة «غفر» في «الصحاح» للجوهري، «لسان العرب» وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٦٧، ومسلم في الطلاق- وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٤، وأبو داود في الأشربة ٣٧١٤، والنسائي في الطلاق ٣٤٢١.

(٤) أخرجها أيضًا البخاري في الطلاق- باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ٥٢٦٨، ومسلم في الموضع السابق.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٨٩.

أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خالته عائشة رضي الله عنها، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم، وقد يقال: إنهما واقعتان ولا بُعْدَ في ذلك إلا أن كونهما سبب نزول الآية فيه نظر. ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان حديث ابن عباس: «لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾»(١).

وقد رجح بعض المفسرين في سبب النزول قصة مارية؛ لأن الغيرة هي التي تحمل النساء على مثل هذه المواقف وبهذا قال جمع من مفسري السلف(٢).

ورجح بعضهم قصة شرب العسل منهم ابن العربي والقرطبي(٣).

وهكذا قال ابن كثير(٤): «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل» ثم ذكر ما رواه البخاري وغيره.

ولا شك أن قصة مارية أقوى من حيث المعنى إلا أن الأولى اعتبار القصتين في سبب النزول، نظرًا لصحة إسناد كل منهما.

قال الطبري(٥): «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه رسول الله ﷺ على نفسه شيئًا كان الله قد أحله له، فجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون غير ذلك، غير أنه أي ذلك كان، فإنه تحريم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٨٣- ٨٨.

(٣) انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٤/ ١٨٤٤- ١٨٤٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٧٩.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ١٨٧.

(٥) في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٩.

شيء كان له حلالًا فعاتبه الله تعالى ذكره على تحريمه على نفسه ما كان قد أحله، وبيّن تحلة يمينه».

وقال ابن حجر[١]: «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معًا».

وقال الشوكاني[٢]: «فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها» للتنبيه و«النبي» صفة لأي، أو بدل منها. و«ال» فيه للعهد الذهني، أي: النبي المعهود المعلوم المعروف، محمد ﷺ.

والنبي مشتق من النبأ وهو الخبر؛ لأنه مُخْبَر من عند الله، ومُخْبِر لقومه، ومشتق من النبوة وهو المكان المرتفع؛ لعظم ورفعة منزلة الأنبياء عليهم السلام.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الاستفهام للتنبيه والعتاب أي: لماذا تحرم الذي أحله الله لك من العسل، أو مارية القبطية، أو غير ذلك.

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾، أي: تطلب وتريد رضا أزواجك عائشة وحفصة، أو غيرهما، كما جاء في سبب النزول.

وهذا يقوي أن الذي حرمه على نفسه هو مارية القبطية، وأيًا كان الذي حرم على نفسه ﷺ- فإن في هذا دليلًا على عدم عصمته ﷺ عن الصغائر وكذا سائر الأنبياء- عليهم السلام- من باب أولى لكنهم يوفقون للتوبة منها والرجوع عنها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، وذو الرحمة العامة والخاصة، ومن

---

(١) في «فتح الباري» ١٠/ ٢٨٣.

(٢) في «فتح القدير» ٥/ ٢٥٢.

مغفرته عز وجل ورحمته أن غفر لرسوله ﷺ ما حصل منه من تحريم الحلال على نفسه ورحمه ورحم أمته بفرض الكفارة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، «قد» للتحقيق، و«فرض» بمعنى أوجب، أي: قد أوجب الله لكم تحليل أيمانكم، أو التحلل من أيمانكم والخروج من تبعتها بالكفارة، وهذا إذا كانت على تحريم الحلال ونحو ذلك كتحليل الحرام فيجب التكفير عنها والحنث.

أما ما عدا ذلك فيجب الوفاء بها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:٨٩].

قال ابن عباس: «﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني أن النبي ﷺ حرم جاريته، فقال الله جل ثناؤه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فكفر يمينه، فصير الحرام يمينًا»(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «في الحرام يمين تكفر وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]»(٢).

ففرض الله عز وجل وأوجب على من حلف على تحريم الحلال أن يتحلل من يمينه بالكفارة أيا كان هذا الحلال الذي حلف على تحريمه سواء جاريته أو طعامًا أو شرابًا،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٧.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١١، ومسلم في الطلاق- وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٢٠، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٧٣.

أو ملبسًا، أو أي شيء من المباحات، وهذا هو ظاهر قوله عز وجل: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وقال ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»(١).

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يحنث في يمينه قط حتى أنزل الله كفارة اليمين، وقال: «لا أحلف على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»(٤).

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾، أي: والله متولي أموركم، وناصركم ومعينكم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، «العليم» و«الحكيم» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العلم الواسع والحكم التام والحكمة البالغة.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾، أي: واذكر حين أسر النبي إلى بعض أزواجه، وهي حفصة رضي الله عنها في قول أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم ﴿حَدِيثًا﴾ هو قوله لحفصة- رضي الله عنها- كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سبب النزول

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥١٨، ومسلم في الأيمان ١٦٤٩، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٣٤٦، وابن ماجه في الكفارات ٢١٠٧ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٢٢، ومسلم في الأيمان ١٦٥٢، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٧٨، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٤.

(٣) أخرجه مسلم في الأيمان ١٦٥٠، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٢١.

في شأن مارية «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها، قالت: بلى فحرمها. وقال: لا تذكري ذلك لأحد»(١).

أو هو قوله ﷺ: «بل شربت عسلًا ولن أعود، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدا» كما جاء هذا في حديث عائشة رضي الله عنها في سبب النزول.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، أي: فلما أخبرت حفصة بما أسر به النبي ﷺ إليها عائشة رضي الله عنهما.

﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أي: وأطلعه الله عز وجل على أن حفصة أخبرت عائشة.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ قرأ الكسائي: «عَرَفَ» بتخفيف الراء، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿عَرَّفَ﴾.

أي: عرّف حفصة بعض ما أفشت من حديثه ﷺ، ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، أي: تركه فلم يعرفها به، ولم يعرض له، كرمًا منه ﷺ وحلمًا.

وهكذا ينبغي لمن يعاتب أخًا له ألا يكثر عليه وأن يعرض عن كثير مما حصل منه، فليس كل شيء يذكر، فالعافية جلها أو كلها بالتغافل.

عن عثمان بن أبي زائدة قال: «العافية عشرة أجزاء، تسعة منها بالتغافل»، وقال الإمام أحمد: «العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل»(٢).

قال الشاعر:

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكنَّ سيد قومه المتغابي(٣)

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾، أي: فلما أخبرها به، أي أخبر حفصة بعلمه أنها أخبرت بما أسر به

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٨، ٩٥، ٩٦.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ١/ ٥٧٥ (٨٠٢٨)، وأبو الطاهر السلفي في« السادس والعشرون من المشيخة السلفية البغدادية» ص١٦، وابن الفراء في التوكل» ص٦٥، وانظر: «الآداب الشرعية» ٢/ ١٧، «تهذيب الكمال» ١٩/ ٣٦٩.

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٢٠، «زهر الآداب» ١/ ١١٧.

إليها وأفشت سره لعائشة رضي الله عنهما.

﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ﴾، أي: قالت حفصة رضي الله عنها من أخبرك.

﴿هَٰذَا﴾، أي: هذا الخبر وهو أني أفشيت ما أسررتَ به إليَّ، والذي لم يخرج منا، وكأنها ظنت أن عائشة رضي الله عنها أخبرته بذلك.

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، «العليم» ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء، و«الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وعلى هذا فهو مطلع على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

لكن في حال اجتماع هذين الاسمين معًا يحمل «العليم» على العلم بالظواهر والجلائل والجليات، ويحمل «الخبير» على العلم بالبواطن والدقائق والخفيات.

والمعنى: قال أخبرني العليم الخبير بكل شيء، المطلع على الظواهر والبواطن، والذي يعلم السر وأخفى، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

هذا عتاب من الله عز وجل لحفصة وعائشة رضي الله عنهما وعرض للتوبة عليهما، وتذكير لهما بأنهما حصل منهما ما لا ينبغي.

قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، التوبة معناها: الرجوع والإنابة إلى الله- عز وجل- بشروطها، أي: إن ترجعا إلى الله وتنيبا إليه.

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، أي: فقد مالت قلوبكما إلى ما فيه مشقة عليه ﷺ، مما كان سببًا في تحريمه على نفسه ما يحبه.

وجمع القلوب مع أنهما قلبان للتخفيف وكراهة الجمع بين تثنيتين متواليتين وهذا كقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، أي: وإن تتظاهرا عليه، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أي: وإن تتعاونا عليه بما يشق عليه ﷺ ويستمر هذا منكن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾؟ قال: «عائشة وحفصة»(١).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾، أي: متوليه وناصره ومعينه.

﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جبريل: هو ملك الوحي عليه السلام.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: ومن صلح من المؤمنين، أو: والمؤمنون الصالحون، الذين جمعوا بين الإيمان وإصلاح العمل، بالإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، أي: ظهير له، أي: أعوان له ﷺ.

والمعنى: فإن الله هو متوليه وناصره ومعينه، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة أولياؤه وأنصاره وأعوانه- بعد الله- عز وجل، وفي هذا أعظم تشريف وتكريم له ﷺ، ودفاع عنه، وحفظ له، كما أن فيه من التحذير لحفصة وعائشة رضي الله عنهما ما لا يخفى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم» وذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، وفي استئذانه على رسول الله ﷺ ثم قال: «فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت،- وأحمد

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥، ومسلم في الطلاق- باب في الإيلاء ١٤٧٩- وقد سبق تخريجه في سبب النزول.

الله- بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣] فكنت استنبطت ذلك الأمر»(١).

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٍ مُّؤۡمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾

ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ الآية أنه متول رسوله ﷺ وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين أيضًا أنصاره وأعوانه. وفي هذا من التخويف لأزواجه ما لا يخفى، ثم خوفهن بأمر يشق على النساء كثيرًا وهو الطلاق فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾.

سبب النـزول:

عن أنس رضي الله عنه، قال: قال عمر رضي الله عنه: «اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت هذه الآية»(٢)

وعنه رضي الله عنه قال عمر رضي الله عنه: «وافقت الله في ثلاث، أووافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق- باب الإيلاء ١٤٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٩٩- ١٠٠.

الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن، قلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾»[1].

وفي حديث ابن عباس المذكور آنفًا: «قال عمر: فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنين معك... ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾».

«عسى» من الله واجبة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]، أي: وعد محقق منه عز وجل.

وفي إضافة «رب» إلى ضميره ﷺ في قوله: ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ إضافة إلى تشريفه ﷺ وتكريمه إشارة أيضا إلى أنه ﷺ يلوذ بملاذ عظيم، ويأوي إلى ركن شديد هو ربه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، أي: إن حصل منه تطليق وفراق لكن. وهذا فيه تخويف لهن كما سبق.

﴿أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ الإبدال والتبديل جعل شيء مكان شيء.

والمعنى: أن يرزقه بدلكن ومكانكن ويعوضه عنكن أزواجًا خيرًا وأفضل منكن مطلقا دينًا ودنيا. وهذا لو طلقهن، لكنه لم يطلقهن فبقين هن أمهات المؤمنين وأفضل

---

(١) أخرجه البخاري في «تفسير سورة البقرة- قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ ٤٤٨٣.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨. وانظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ٢/ ٨٩٣- ٨٩٤.

نساء الأمة رضي الله عنهن.

قال السعدي[١]: «وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ﷺ ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله عز وجل من هذه الأزواج الفاضلات».

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، أي: مستسلمات منقادات ظاهرًا بجوارحهن بفعل الأعمال الظاهرة.

﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾، أي: مصدقات منقادات باطنًا بقلوبهن، أي: أنهن منقادات ظاهرًا وباطنًا.

ويؤخذ من ذكر «مسلمات»، «مؤمنات»، ومن تقديم «مسلمات» على «مؤمنات» أن الإيمان غير الإسلام، وأن الإسلام أعم، وأن الإيمان أخص، وقد سبق الكلام على هذا في سورة الحجرات، وفي سورة الذاريات.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ القنوت دوام الطاعة، أي: مطيعات مديمات لطاعة الله عز وجل، وطاعة أزواجهن.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾، أي: راجعات إلى الله ومنيبات إليه.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾، أي: مخلصات العبودية لله عز وجل متذللات خاضعات له سبحانه، قائمات بما يحب سبحانه.

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، أي: صائمات. بهذا فسرها جمهور السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وقال بعضهم: معنى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، أي: مهاجرات.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢١.

والأول أقرب.

﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارٗا﴾ الثيب: التي سبق أن تزوجت، والبكر: التي لم تتزوج بعد، أي: لم تفتض بكارتها.

وقد وسط الواو بين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾، ﴿وَأَبۡكَارٗا﴾ دون بقية الصفات؛ لأنهما صفتان متنافيتان، لا يمكن اجتماعهما بخلاف بقية الصفات فقد تجتمع.

وقدم الثيبات على الأبكار- والله أعلم- لأن الثيبات عندهن من التجربة في أمور الحياة والرزانة ما ليس عند الأبكار.

وناهيك بموقف خديجة رضي الله عنها لما جاء ﷺ في ابتداء الوحي فزعًا يقول: «لقد خشيت على نفسي» فقالت رضي الله عنها: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..»(١).

وموقف أم سلمة رضي الله عنها وحكمتها يوم الحديبية، لما قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فلم يقم أحد منهم، فشق عليه ذلك. فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. ففعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا»(٢).

ولم يعطف هذه الصفات بعضها على بعض بالواو لأجل التنصيص على ثبوت جميع هذه الصفات لكل واحدة منهن. ولو عطفت بالواو لاحتمل أن بعضهن يتصف بكذا وبعضهن يتصف بكذا، ولهذا لما أريد هذا المعنى في الثيبات والأبكار وسط الواو بينهن لتنافي هتين الصفتين وعدم اجتماعهما أما بقية الصفات فيمكن اجتماعها في الواحدة منهن.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٣، ومسلم في الإيمان ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣١- من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

قال السعدي[1]: «فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين».

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

٢- نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفًا وتكريمًا له.

٣- معاتبة الله- عز وجل- لنبيه ﷺ في تحريمه ما أحل الله له سواء جاريته أو العسل أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

٤- أنه ﷺ ليس معصومًا عن الوقوع في الصغائر، وكذلك سائر الأنبياء من باب أولى لكنهم يرجعون عنها ويتوبون.

٥- لا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات كما لا يجوز تحليل ما حرم الله من الخبائث؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

٦- الحذر من إرضاء الأزواج، أو الأولاد أو غيرهم فيما يسخط الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

٧- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- وصفة الرحمة الواسعة له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨- وجوب التحلل من الأيمان والتكفير عنها إذا كانت على تحريم حلال أو تحليل حرام، ووجوب التكفير عنها مطلقًا إذا حصل الحنث فيها؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

٩- إثبات ولاية الله- عز وجل- للمؤمنين ونصره وتأييده وحفظه وتسديده لهم؛

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٢.

لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

١٠- إثبات اسم «العليم» و«الحكيم» من أسمائه عز وجل وأنه عز وجل ذو العلم الواسع والحكم النافذ والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١١- إسراره ﷺ إلى بعض أزواجه حديثًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾.

١٢- إطلاع الله- عز وجل- لنبيه ﷺ على شيء مما غاب عنه تأييدًا له ﷺ ومن ذلك إظهاره له على إفشاء إحدى زوجاته ما أسر به إليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

١٣- كرم خلقه ﷺ إذ لم يعاتب من أفشت سره ﷺ إلا على بعض ما حصل منها وأعرض عن بعض؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

١٤- فضل التغافل عن بعض ما يقع بين المعاشر وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

١٥- إثبات اسم الله- عز وجل- «الخبير» وما يدل عليه من سعة خبرته عز وجل واطلاعه على بواطن الأمور وخفاياها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾.

١٦- عتاب الله- عز وجل- لحفصة وعائشة- رضي الله عنهما- وحثهما على التوبة مما حصل منهما من ميل قلوبهما إلى ما فيه مشقة عليه ﷺ، وتحذير هما من التعاون عليه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ الآية.

١٧- دفاع الله- عز وجل- عن نبيه ﷺ وتوليه إياه بولايته الخاصة، وتولي جبريل والملائكة وصالح المؤمنين، له ﷺ، ونصرتهم إياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

١٨- إثبات ولاية الله تعالى لرسوله وللمؤمنين، وولاية جبريل والملائكة لهم، وولايتهم فيما بينهم.

١٩- إثبات وجود جبريل والملائكة، ووجوب الإيمان بهم.

٢٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ لقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾، وتشريفه ﷺ وتكريمه بها، وبإضافة اسم الرب تعالى أو وصفه إلى ضميره ﷺ.

٢١- التهديد لأزواج النبي ﷺ بطلاقه لهن واستبدالهن بأزواج خير منهن فيهن أجمل الصفات وأكملها؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية، و«عسى» من الله واجبة، وفيها وعد من الله تعالى بإبداله- لو طلقهن- خيرًا منهن، لكنه ﷺ لم يطلقهن.

٢٢- إباحة الطلاق، وأنه جائز له ﷺ أن يطلق من شاء من أزواجه أو يطلقهن كلهن.

٢٣- أن الإسلام أعم من الإيمان فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾.

٢٤- الترغيب لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من نساء المسلمين بل وللمسلمين عامة بالاتصاف بالصفات المذكورة: الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة- وهي الصيام- لقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾.

٢٥- في تقديم الثيبات على الأبكار في الآية إشارة لمكانتهن؛ لما لهن من التجربة والرزانة- والله أعلم- لقوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، أي: اجعلوا لأنفسكم وأهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وقاية من النار بتقوى الله عز وجل بأنفسكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبتعليم أهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وإرشادهم، واختيار الطريقة الحكيمة في التعامل معهم وتوجيههم، وحملهم على تقوى الله عز وجل كما قال ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»(١).

وقدّم الأنفس لأن أول ما يجب أن يبدأ به المرء نفسه، فهي أمانة عنده يجب أن يحملها على ما فيه صلاحها واستقامتها وسلامتها ونجاتها؛ ولهذا جاء في النفقة قوله ﷺ «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- متى يؤمر الغلام بالصلاة ٤٩٥، والترمذي في المواقيت- متى يؤمر الصبي بالصلاة ٤٠٥، وأحمد ٣/ ٤٠٤ من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأخرجه أبو داود أيضًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٩٧، من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسم قال: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء فلذي قرابتك... الخ»، والنسائي في البيوع ٤٦٥٢.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «أفضل الصدقة ما ترك غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول..» أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٥، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦ والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤.

وقرن الأهل بالأنفس إشارة إلى عظم مسؤولية الإنسان عن أهله، كما قال ﷺ: «فالرجل راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها» الحديث(١).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»(٢).

وقوله: ﴿نَارًا﴾ بالتنكير، أي: نارًا شديدة عظيمة ليست كناركم المعروفة.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ وقودها: ما توقد به أي: أنها توقد بالناس، أي: بجثث بني آدم، وبالحجارة، وليست توقد بالحطب والخشب كنار الدنيا.

والمراد بالحجارة حجارة الكبريت شديدة الاشتعال، وشديدة الحرارة، شديدة النتن، ومن ذلك الأصنام التي تعبد من دون الله من الأحجار وغيرها كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٢٤].

﴿عَلَيْهَا﴾، أي: قد أوكل على هذه النار ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ وهم خزنة النار وزبانيتها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

ومن هؤلاء الملائكة: «مالك» خازن النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٩٣، ومسلم في الإمارة ١٨٢٩، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٢٨، والترمذي في الجهاد ١٧٠٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٥١، ومسلم في الإيمان ١٤٢.

﴿غِلَاظٌ﴾، أي: غلاظ القلوب والأكباد والطباع، قد نزعت الرحمة من قلوبهم بالكافرين.

﴿شِدَادٌ﴾ أقوياء الأجسام، تركيبهم في غاية الشدة والضخامة والمنظر المزعج.

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، «لا» نافية، ومعصية الله مخالفته بترك أمره أو ارتكاب نهيه.

﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾، «ما» مصدرية، والمصدر المؤول في محل نصب بدل من لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، أي: لا يعصون أمر الله.

ويجوز أن تكون «ما» موصولة ، أي: لا يعصون الله الذي أمرهم به.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها؛ فالمراد هنا: إثبات كمال طاعتهم لله عز وجل ومبادرتهم لتنفيذ أمره، وكمال قدرتهم على ذلك، وهو ما صرح به في قوله:

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: ويفعلون كل الذي يأمرهم الله عز وجل به، من غير توان ولا عجز.

وقوله: ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ دون أن يقول: ما يأمرهم الله به. لأنه معلوم أنه عز وجل هو الذي يأمرهم، ولقوله قبله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: ياأيها الذين جحدوا وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، أو شيئًا من ذلك.

وصدر الخطاب بالنداء للعناية والاهتمام، والتنبيه لهم. ونودوا بوصف الكفر إهانة وتحقيرًا لهم، ولبيان أن هذا الوصف وهو الكفر هو الذي أوقعهم فيما هم فيه من العذاب والمصير السيء.

﴿لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾، «لا» ناهية، والاعتذار: تقديم العذر، وطلب المعذرة والمسامحة، والمراد باليوم يوم القيامة المعلوم المعهود الثقيل الشديد.

والمعنى: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم. وقد يكون النهي هنا بمعنى النفي: أي: لا عذر لكم يوم القيامة.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، «إنما» أداة حصر و«ما» موصولة، أو مصدرية، والمعنى: لا تجزون وتحاسبون وتعاقبون إلا بعملكم أو بالذي كنتم تعملون.

وقال ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دون أن يقول: بما كنتم تعملون، فكأن الجزاء هو نفس العمل للإشارة والتنبيه إلى أن الجزاء من جنس العمل تمامًا، وأن الإنسان كما يدين يدان كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي: موافقًا لأعمالهم.

والمعنى: لا تعتذروا فلن يقبل منكم، أو لا عذر لكم، ولن تظلموا إنما تجازون بالذي كنتم تعملون من غير زيادة ولا نقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ارجعوا إلى الله، وأنيبوا إليه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم النون: «نُصوحا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿نَّصُوحًا﴾.

و«توبة» مصدر، و«نصوحا» صفة لها، أي: رجعة وأوبة وإنابة صادقة، هي محض الصدق والنصح والإخلاص، لا غش فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٢].

قال ابن القيم[1]: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٦- ٤٨٧.

انتظار، بل يجمع عليها كل إراداته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده.

لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بما يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه.

فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة».

أي: توبة صادقة يتوفر فيها شروط التوبة الخمسة، الأول: الإخلاص لله تعالى، فلا تكون خوفًا أو رجاء من غيره ونحو ذلك.

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية ومن ذلك رد حقوق الآدميين إليهم، فإنه لا يعتبر مقلعًا عن المعصية من لم تزل حقوق الآدميين في ذمته.

الشرط الثالث: الندم على فعل المعصية، وقد قال ﷺ: «الندم توبة»(١).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن التوبة النصوح، فقال: «الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبدًا»(٢).

الشرط الرابع: العزم على عدم العودة إليها مرة ثانية، قال عمر بن الخطاب رضي

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٧٦، وابن ماجه في الزهد- ذكر التوبة ٤٢٥٢، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.

الله عنه: «التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه»(١).

وروي نحوه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه(٢).

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقتها المناسب، قبل بلوغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٣).

وأن تكون التوبة قبل غلق بابها بطلوع الشمس من مغربها، وفي الحديث «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(٤).

وقال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(٥).

وتقبل التوبة من الذنب، من العبد وإن كان مقيما على غيره، على الصحيح من أقوال أهل العلم خلافًا للمعتزلة الذين يقولون: لا يعتبر تائبًا من أقام على ذنب؛ لأن من تاب من ذنب يقال له: تائب مطلق توبة.

ومن عَدْل الله عز وجل أن يجازيه على توبته من ذلك الذنب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٦ - ١٠٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٧.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٣، وأحمد ٢/ ١٣٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٩، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣ من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

[الزلزلة: ٧، ٨].

لكن لا يستحق الوصف بالتوبة المطلقة إلا من تاب من جميع الذنوب فهذا هو التائب التوبة المطلقة؛ وهي التوبة النصوح.

وليس من لازم قبول التوبة ولا من شرط صحتها أن لا يقع الإنسان في الذنب مرة أخرى، فمن توفرت فيه شروط التوبة السابقة فتوبته صحيحة، وهي مقبولة بإذن الله عز وجل، فإن عاد للذنب فعليه أن يتوب مرة أخرى، وهكذا ما لم يضمر في نفسه أنه سيعود إلى الذنب فهذا لا تصح توبته لأنه لم يعزم على عدم العودة إلى الذنب، بل أضمر أنه سيعود إليه أو عزم على ذلك فلا معنى لتوبته.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، «عسى» للترجي إذا كانت من المخلوق كما قيل:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب(١)

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر(٢)

وهي من الله واجبة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(٣).

والمعنى: أنها وعد من الله سيتحقق لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد ولهذا أضافها إلى اسم الرب؛ لأنه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: أن يمحو عنكم سيئاتكم ويزيلها، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها

---

(١) البيت لهدبة بن خشرم وهو في «ديوانه» ص٥٤.

(٢) البيت لمحمد بن إسماعيل كما في «حاشية شذور الذهب» ص٣٥١.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨.

في الحال والمآل، كما قد تسوء غيره بأثرها المباشر إذا كانت متعدية، أو بأثرها العام على البلاد والعباد إذا كانت غير متعدية.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: ويدخلكم جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار المختلفة من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل.

فمن تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحًا صادقة، فإن الله عز وجل يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، بل ويبدل سيئاته حسنات كما قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، ﴿يَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾، أي: لا يذل ولا يهين ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾، «ال» للعهد الذهني، أي: النبي المعهود، محمدًا ﷺ، وقد رُويَ أنه ﷺ قال في صلاته يوم الفتح «اللهم لا تخزني يوم القيامة»(١).

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، وامتن الله عز وجل على نبيه صالح عليه السلام والذين آمنوا معه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

والمعنى: يوم القيامة لا يذل الله النبي والذين آمنوا معه، ولا يهينهم، بل يعزهم ويكرمهم غاية الإكرام وأكمله؛ لأنهم أكرم الخلق عنده، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصفة هنا منفية، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ صفة منفية جيء بها لإثبات كمال ضدها، وهي الحياة.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٣٤، من حديث يحيى بن حسان عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف النبي ﷺ عام الفتح، فسمعته يقول: «اللهم لا تخزني يوم القيامة».

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: نور النبي ﷺ والمؤمنين معه يسير أمامهم يستضيؤن به، وعن أيمانهم لفضل اليمين- في عرصات القيامة على قدر أعمالهم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يقولون: يا ربنا، خالقنا ومالكنا ومدبر أمورنا ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، أي: اجعل نورنا تامًا كاملًا مستمرًا معنا، وذلك عندما يرون نور المنافقين قد انطفأ.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾، أي: استر ذنوبنا عن الخلق وتجاوز عن عقوبتنا عليها.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: إنك ذو قدرة تامة على كل شيء، لا يعجزك شيء مهما كان.

وقدم المتعلق، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لتأكيد عموم قدرته ونفوذها في كل شيء.

عن أبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل: يا رسول كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم بين أيديهم»[1].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لعظم الأمر وأهميته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من أوامر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٩.

٣- وجوب السعي في تخليص الأنفس والأهل من الأزواج والأولاد والوالدين والأقارب وغيرهم من النار بحملهم على طاعة الله تعالى وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

٤- شدة النار وعظمها وأن وقودها الكفرة من الناس وحجارة الكبريت التي هي في غاية الحرارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

٥- غلظة زبانية جهنم وشدتهم وعدم معصيتهم لله، وفعلهم ما يؤمرون به من تعذيب الكفرة المجرمين والعصاة وغير ذلك وفي هذا أشد التحذير منهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

٦- الإيمان بوجود الملائكة وطاعتهم المطلقة لله عز وجل بلا معصية، وفضيلتهم، لكن الرسل عليهم السلام وصالح المؤمنين، أفضل منهم[1].

٧- الوعيد والتهديد للكافرين وأنه لا يقبل منهم الاعتذار يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان وما ربك بظلام للعبيد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

٩- وجوب التوبة إلى الله توبة صادقة نصوحا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾.

١٠- وعد الله- عز وجل- الذي لا يتخلف لمن تابوا وأنابوا إليه بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

١١- إكرام الله عز وجل لنبيه ﷺ والذين آمنوا معه غاية الإكرام يوم القيامة؛

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٣٠٠.

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

١٢- كما استنار النبي ﷺ والمؤمنون بنور الله بالإيمان والعمل الصالح في الدنيا كان ذلك لهم نورًا في عرصات القيامة يسعى أمامهم وعن أيمانهم مغتبطين به يسألون الله إتمام نورهم ومغفرته؛ لقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾.

١٣- فضل اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتكريمهم بها؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾.

١٥- إثبات قدرة الله- عز وجل- التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ سبق الكلام عليه في مطلع السورة.

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أي: ابذل الجهد في قتال الكفار الذين أظهروا الكفر بالله ورسوله، بالسيف والسنان، وجاهد المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر بالحجة والبرهان ودحض شبههم وفضح نفاقهم.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: شدد الغلظة عليهم، ولا تلن معهم، وهو أمر له ﷺ وللمؤمنين كما قال تعالى في وصفهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾، أي: ومأوى الكافرين والمنافقين، الذي يأوون إليه ومصيرهم الذي يصيرون إليه في الآخرة.

﴿جَهَنَّمُ﴾، أي: النار، وسميت بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وبئس المرجع والمآل جهنم، وبئس المصير مصيرهم.

ولا يُقدر شدة قبح هذا المصير وسوئه، إلا الذي وصفه بهذا الوصف، وهو العليم الخبير.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ضرب المثل: هو تقريب الأمر والشيء المعنوي المعقول بتشبيهه بالشيء المحسوس لزيادة الإيضاح والبيان، والمثل: الشبه.

قال السعدي(١): «هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن، وقربه منه، لا يفيده شيئا، وأن اتصال المؤمن بالكافر، لا يضره، مع قيامه بالواجب عليه، فكأن في ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئا مع الإساءة».

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: في عدم انتفاعهم من صلتهم بالمؤمنين ومعاشرتهم لهم وقربهم منهم.

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾، أي: امرأة نبي الله ورسوله «نوح» عليه السلام، الذي هو أول رسل الله عز وجل، وأحد أولي العزم من الرسل.

﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾، أي: وامرأة نبي الله عز وجل ورسوله لوط عليه السلام.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾، أي: في عصمتهما والمراد بالعبودية هنا العبودية الخاصة، ولم يقل تحت نبيين أو رسولين، وإنما وصفهما بالعبودية لأن العبودية لله هي أشرف ما يتصف به البشر.

ولهذا وصف الله بها أفضل رسله محمدًا صلى الله عليه في أعلى المقامات وهو مقام العبادة فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقام الإسراء، والقرب

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٥.

منه عز وجل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

﴿صَٰلِحَيْنِ﴾، أي: مخلصين العبادة لله عز وجل، متبعين ما جاء عنه سبحانه وتعالى.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بعدم اتباعهما، وكفرهما بالله.

وليس المراد بالخيانة فعل الفاحشة فإن نساء الأنبياء عليهم السلام معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: «ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه»(١).

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا﴾، أي: فلم يغن نوح ولوط عليهما السلام مع مكانتهما عند الله وكونهما من رسله عن زوجتيهما.

﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: فلم يستطيعا هدايتهما، ولم يدفعا أو يمنعا عنهما عذاب الله؛ لأنهما كفرتا بالله ﴿وَقِيلَ﴾، أي: وقيل لهما، أي: للزوجتين ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، أي: مع جملة الداخلين فيها، وفي عدادهم.

قال ابن القيم(٢): «قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهما».

وقال أيضًا(٣): «فتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١١- ١١٢.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٠.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٧- ٤٨٨.

صهر أو سبب من أسباب الاتصال، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين، قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٣٣]».

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا المثل في مقابلة المثل الأول: فضرب الله أولًا مثلًا للذين كفروا لا تنفعهم صلتهم بالمؤمنين الصالحين وقربهم منهم، ثم ضرب مثلًا للذين آمنوا، لا تضرهم صلتهم وقرابتهم للكافرين مع قيامهم بالواجب عليهم تجاههم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال قتادة: «كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعدهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها؛ لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه»(١).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥- ١١٦.

وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى عليه السلام وهو الذي ادعى الربوبية وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، كما ادعى الألوهية فقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] أهلكه الله ومن معه بالغرق، وامرأته هي: آسية بنت مزاحم- رضي الله عنها.

﴿إِذۡ قَالَتۡ﴾، أي: حين قالت: ﴿رَبِّ﴾، أي: يارب ابن لي، ونادته سبحانه باسم الربوبية الذي معناه: الخالق المالك المدبر، ليكون أنجع في طلبها، فكأنها تقول: يا من له الخلق والملك والتدبير.

﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ وقدمت ﴿عِندَكَ﴾ على ﴿بَيۡتٗا﴾ فاختارت الجار قبل الدار- رضي الله عنها- ويؤخذ من هذا الإغراء والترغيب في طلب جواره عز وجل بالإيمان والعمل الصالح والدعاء الصادق.

كما يؤخذ منه درس لاختيار الجار حتى في هذه الدار، وهذا أمر يغفل عنه الكثيرون، يأخذون في الحسبان عرض الشوارع المحيطة بالأرض وكونها جنوبية أو شرقية، لا غربية ولا شمالية وينسون اختيار الجار، وهو أهم من ذلك.

لأن الجار إما أن يكون تقيا محسنًا فتسعد به وإما أن يكون جار سوء فينغص عليك عيشك، إما بكونه لا يصلي، أو بفسقه، أو بكونه يلتقط على جاره الزلات، ويتتبع العورات، ولا تؤمن بوائقه، أو غير ذلك.

فالأول كأبي حمزة السكري؛ أراد جاره أن يبيع داره لحاجة أو دين، فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدار، وألفين جوار أبي حمزة. فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجه إليه بأربعة آلاف، وقال: «خذ هذه، ولا تبع دارك»(١).

ولسنا نطالب الجيران بكل هذا ولا ببعضه، إنما نطالبهم بحسن الجوار، والألفة

---

(١) أخرجه في «تاريخ الإسلام» ١٠/ ٥٤٥، «تاريخ بغداد» ٤/ ٤٣٢، وانظر: «سير أعلام النبلاء» ٧/ ٣٨٧.

والسلام، والصلاة مع جماعة المسجد، والتعاون على البر والتقوى.

وأما النوع الثاني من الجيران وهو جار السوء المؤذي لجيرانه بقوله وفعله، والذي لايسلم جيرانه من تبعاته لتخلفه عن الصلاة وارتكابه المنهيات وتتبعه الزلات والعورات، ونحو ذلك فهو الذي أمر النبي ﷺ بالاستعاذة منه فقال: «تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام»(١).

وهذا ينطبق عليه قول القائل:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا ... وصوَّت إنسان فكدت أطير(٢)

فالكلاب أحسن جوارًا منه؛ لأنها قد تحرس المنزل، وتأكل بقايا الطعام أما الجار الذي هذه صفته وبخاصة إذا كان لا يصلي أو يظهر فسقه فإنه أشبه بالنار المحرقة يخشى أن تلتهم بيت الجار.

فانتبه أخي الكريم لهذا وارغب في جوار الله عز وجل بالعمل الصالح مع دعاء الله وسؤاله واختر من الجيران في الدنيا من يكون عونًا لك على أمر دينك ودنياك، أو من تسلم من شره على الأقل، ولا إخالك سالمًا.

قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، أي: خلصني وأنقذني من فرعون وتعذيبه ومن عمله السيء وكفره وهي في هذا تعلن براءتها منه ومن عمله.

عن سلمان رضي الله عنه قال: «كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة»(٣).

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: وخلصني وانقذني من فرعون وقومه

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة، ٥٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيت للأحيمر السعدي. انظر: «الحماسة الصغرى» ص٣٤، «الحيوان» ١/ ٢٥١، «حماسة الخالديين» ص٤٥، «اللآلي في شرح أمالي القالي» ١/ ١٩٥.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥.

الظالمين، الذين ارتكبوا أعظم الظلم وهو الكفر والشرك بالله والظلم لمن آمن من عباد الله كآسية رضي الله عنها.

فالتجأت رضي الله عنها إلى من إليه الملتجأ، كما كان دعاء أنبياء الله عز وجل والمؤمنين، قال نوح عليه السلام: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وقال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]، وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وقال قوم موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦].

قال ابن القيم[1]: «ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئًا في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتي عامة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به، وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، وهما رسولا رب العالمين».

قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

كقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٩١].

ومعنى ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي: التي حفظت فرجها من الحرام وصانته بالعفاف.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي: فنفخنا في فرجها روحًا ﴿مِن رُّوحِنَا﴾، أي: من روحنا التي ننفخها في المخلوقات، فتدب فيها الحياة، كما قال تعالى عن آدم: ﴿فَإِذَا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٨.

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة: ٩].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في خلق الإنسان: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح»(١).

فأرسل الله عز وجل جبريل عليه السلام والذي هو الروح كما قال عز وجل: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ [النبأ: ٣٨] والمراد بالروح في هذه الآيات جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٧- ١٩].

فنفخ عليه السلام بفيه بفرجها فخُلق عيسى عليه السلام بأمر الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

أي: أن الله عز وجل خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب بقوله: «كن»، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال الطبري(٢): «يقول: فنفخنا فيه، في جيب درعها، وذلك فرجها، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من جبريل، وهو الروح».

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- خلق آدم ٣٣٢٢، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٨، وابن ماجه في المقدمة ٧٦، وأحمد ١/ ٣٨٢، ٤٣٠.

(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٦.

وقال ابن كثير(١): «أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام».

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم بضم الكاف والتاء من غير ألف: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ على الجمع، وقرأ الباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها: «وكتابه» على الإفراد.

أي: وصدقت بكلمات ربها الشرعية والقدرية، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾، أي: وكتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله.

قال الطبري(٢): «وآمنت بعيسى، وهو كلمة الله ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ التوراة والإنجيل».

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، أي: من المطيعين الصديقين، المداومين على طاعة الله عز وجل بخشية وخشوع كما قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون»(٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كمل من الرجال

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٠.

(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٧.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣.

كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(١).

وفي ختم هذه السورة بهذه الأمثال الثلاثة ما يناسب ما بدئت به السورة، وهو ذكر أزواج النبي ﷺ، وما حصل منهن، كما جاء في سبب النزول، ففي ضرب المثل الأول تحذيرهن من التظاهر عليه ﷺ، وتخويفهن وغيرهن من معصية الله ورسوله، وتذكيرهن وغيرهن بأنه لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله عز وجل.

وفي ضرب المثل الثاني: حث لأزواج النبي ﷺ وغيرهن على التمسك بطاعة الله ورسوله.

وفي ضرب المثل بمريم: إشارة إلى أنه لم يضرها قذف أعداء الله اليهود ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه، وهي الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين.

فلا يضر في الرجل الصالح والمرأة الصالحة، قدح الفجار والفساق فيهما.

وفي هذا تسلية لعائشة رضي الله عنها أم المؤمنين، إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك.

فتضمنت هذه الأمثال الثلاثة التخويف والتحذير لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من معصية الله ورسوله، والحث لهن ولغيرهن على الطاعة، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن أو من غيرهن.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤه بوصف النبوة تشريفًا له وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء- باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ٣٤١١، ومسلم في الفضائل- فضائل خديجة أم المؤمنين ٢٤٣١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٧، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٤، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠.

٢- وجوب مجاهدة الكافرين الصادين عن دين الله بالسيف والسنان، ومجاهدة المنافقين بالحجة والدليل والبرهان والغلظة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ﴾.

٣- أن مآل الكافرين والمنافقين ومأواهم ومصيرهم نار جهنم وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وفي هذا تحذير من مسالكهم.

٤- ضرب الأمثال للناس في القرآن؛ لتقريب المعاني، وهداية الخلق، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

٥- أن اتصال الكافرين بالمؤمنين وقربهم منهم لا ينفعهم ولا يدفع عنهم عذاب الله ولهذا لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

٦- شرف العبودية لله عز وجل لهذا وصف الله بها نبيه نوحًا ولوطًا عليهما السلام، كما وصف بها غيرهما من رسله وبخاصة سيد الرسل محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٧- خيانة امرأة نوح عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ورميه بالجنون مع قومها ولهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٨- خيانة امرأة لوط عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ودلالة قومه على ضيوفه لهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٩- أن اتصال المؤمنين بالكافرين وقرابتهم لهم لا تضرهم إذا قاموا بالواجب عليهم تجاههم؛ لهذا لم يضر امرأة فرعون كونها تحت فرعون، لما آمنت بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى

عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾.

١٠- ثناء الله- عز وجل- على آسية امرأة فرعون في إيمانها وطلبها جوار ربها والنجاة من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١١- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي﴾، وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾.

١٢- فضيلة آسية رضي الله عنها، وتوفيق الله لها في دعائها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ولم تقل: «بيتًا عندك»، بل اختارت الجار قبل الدار، فقالت: ﴿عِندَكَ بَيْتًا﴾. ويؤخذ من هذا الإغراء في طلب جواره عز وجل والمنافسة في ذلك، بالإيمان والعمل الصالح والدعاء الصادق، كما يؤخذ منه أهمية اختيار الجار حتى في هذه الدار.

١٣- ثناء الله- عز وجل- على مريم ابنة عمران عليها السلام بإحصانها لفرجها وحفظها له وتصديقها بكلمات ربها الشرعية والقدرية وكتبه ومداومتها على الطاعة ولهذا طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

١٤- قدرة الله تعالى التامة في إيجاد عيسى بن مريم عليه السلام من أنثى بلا ذكر، حيث أرسل الله عز وجل «الروح الأمين» جبريل عليه السلام، إلى مريم عليها السلام، فنفخ فيها من روحه بأمره عز وجل، فحملت بعيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة المجادلة ٥

المقدمة ٧

أ- اسم السورة: ٧

ب- مكان نزولها: ٧

جـ- موضوعاتها: ٧

تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ...﴾ الآيات [١-٤] ٩

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ الآيات [٥-٧] ٣٩

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ...﴾ الآيات [٨-١٠] ٤٨

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ ...﴾ الآية [١١] ٥٩

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ...﴾ الآيتين [١٢، ١٣] ٧٢

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ...﴾ الآيات [١٤-١٩] ... ٧٨

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ...﴾ الآيات [٢٠-٢٢] ٨٧

تفسير سورة الحشر ٩٩

المقدمة ١٠١

أ- اسم السورة: ١٠١

ب- مكان نزولها: ١٠١

جـ- موضوعاتها: ١٠١

تفسير قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيات [١-٥] ١٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ...﴾ الآيتين [٦، ٧] ١١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ...﴾ الآيات [٨-١٠] ١٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ الآيات [١١-١٧] ١٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ...﴾ الآيات [١٨-٢١] ١٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾ الآيات [٢٢-٢٤] ١٦٩
تفسير سورة الممتحنة ١٨١
المقدمة ١٨٣
أ- اسم السورة: ١٨٣
ب- مكان نزولها: ١٨٣
جـ- موضوعاتها: ١٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾ الآيات [١-٣] ١٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ...﴾ الآيات [٤-٦] ١٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ...﴾ الآيات [٧-٩] ٢٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ...﴾ الآيتين [١٠، ١١] ٢١٥

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ...﴾ الآية [١٢] ٢٢٧

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية [١٣] ٢٣٧

تفسير سورة الصف ٢٣٩

المقدمة ٢٤١

أ- اسم السورة: ٢٤١

ب- مكان نزولها: ٢٤١

جـ- موضوعاتها: ٢٤١

تفسير قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيات [١-٤] ... ٢٤٣

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ...﴾ الآيتين [٥، ٦] ٢٤٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ...﴾ الآيات [٧-٩] ٢٥٨

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾ الآيات [١٠-١٣] ٢٦٤

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ...﴾ الآية [١٤] ٢٧٥

تفسير سورة الجمعة ٢٧٩

المقدمة ٢٨١

أ- اسم السورة: ٢٨١

ب- مكان نزولها: ٢٨١

جـ- فضلها: ٢٨١

د- موضوعاتها: ٢٨١

تفسير قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيات [١-٤] ٢٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...﴾ الآيات [٥-٨] ٢٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ...﴾ الآيات [٩-١١] ٢٩٨
تفسير سورة المنافقون ٣١١
المقدمة ٣١٣
أ- اسم السورة: ٣١٣
ب- مكان نزولها: ٣١٣
جـ- فضلها: ٣١٣
د- موضوعاتها: ٣١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ...﴾ الآيات [١-٤] ٣١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ...﴾ الآيات [٥-٨] ٣٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ الآيات [٩-١١] ٣٣٢
تفسير سورة التغابن ٣٤١
المقدمة ٣٤٣
أ- اسم السورة: ٣٤٣
ب- مكان نزولها: ٣٤٣
جـ- موضوعاتها: ٣٤٣

تفسير قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...﴾ الآيات [١-٤] ٣٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ...﴾ الآيتين [٥، ٦] ٣٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ...﴾ الآيات [٧-١٠] ٣٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ...﴾ الآيات [١١-١٣] ... ٣٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ...﴾ الآيات [١٤-١٨] ٣٧١
تفسير سورة الطلاق ٣٨٧
المقدمة ٣٨٩
أ- اسم السورة: ٣٨٩
ب- مكان نزولها: ٣٨٩
جـ- موضوعاتها: ٣٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...﴾ الآيات [١-٣] ٣٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ...﴾ الآيات [٤-٧] ٤٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ...﴾ الآيات [٨-١٢] ٤٢١
تفسير سورة التحريم ٤٣٣
المقدمة ٤٣٥
أ- اسم السورة: ٤٣٥
ب- مكان نزولها: ٤٣٥

جـ- موضوعاتها: ٤٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ...﴾ الآيات [١-٥]..... ٤٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ...﴾ الآيات [٦-٨] .. ٤٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...﴾ الآيات [٩-١٢]..... ٤٦٣
فهرس الموضوعات ٤٧٥

* * *

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثالث والعشرون

تفسير سورة الملك إلى سورة المرسلات

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٢٣

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم .- الدمام، ١٤٤١هـ
٣٨١ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُلْك

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الملك»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية:١].

وتسمى: «سورة تبارك الذي بيده الملك»، كما جاء في حديث أبي هريرة، وأنس، وابن عباس، وجابر رضى الله عنهم.

وتسمى: «سورة تبارك الملك»، و«المانعة»، و«المنجية»، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما. كما تسمى: «الواقية».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له؛ وهي سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»(١).

وعن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «**سورةٌ في القرآن، خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة؛ وهي سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»(٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبرٌ، فإذا فيه إنسانٌ يقرأ سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبرٌ، فإذا فيه إنسانٌ يقرأ سورة «تبارك؛ الملك» حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «**هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داوود في الصلاة ١٤٠٠، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٩١، وابن ماجة في الأدب ٣٧٨٦، وأحمد ٢/ ٢٩٩، ٣٢١، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه الطبراني والحافظ المقدسي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٠١.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٩٠ - وقال: «حديث غريب».

وعن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾(١).

د- موضوعاتها:

١- تحدثت السورة عن عظمة الله تعالى، واختصاصه بالملك، وعن مظاهر تمام قدرته في خلق الموت والحياة؛ ابتلاءً للعباد أيهم أحسن عملًا، وفي خلق السماوات السبع الطباق، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح، وغير ذلك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

٢- وعيد الذين كفروا بربهم بعذاب جهنم وبئس المصير، وسوء حالهم فيها، وتقريعهم واعترافهم بتكذيبهم النذر وندمهم حيث لا ينفع الندم: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾.

٣- وعد الذين يخشون ربهم بالغيب بالمغفرة والأجر الكبير.

٤- إحاطة علم الله بالسر والجهر، وما في الصدور، وبجميع خلقه.

٥- الامتنان على العباد وبجعل الأرض لهم ذلولًا يمشون في مناكبها ويأكلون من رزقه وإليه مردهم.

٦- تحذير المكذبين من بطش الله وعقابه وتهديدهم بما حل بالمكذبين من قبلهم: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨﴾.

٧- تقرير مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى في إمساك الطير بين السماء والأرض.

٨- الإنكار على المشركين غرورهم وعتوهم وعنادهم، واستعجالهم العذاب، وعدم تأملهم في مظاهر قدرة الله تعالى، وفي نعمه تعالى عليهم ﴿في رزقهم وفي خلقهم

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٩٢.

وغير ذلك، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾.

قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، ﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعاظم وتعالى وكثر خيره وإنعامه وعم إحسانه، وهذا ثناء وتمجيد من الله عز وجل لنفسه الكريمة؛ لأنه سبحانه أهل الثناء والمجد والتعظيم؛ ولهذا كان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع: «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»(٢).

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، أي: الذي من عظمته عز وجل أن بيده الملك كله، علويه وسفليه؛ السموات والأرض ومن فيهن، وما بينهن؛ مالكه وخالقه والمتصرف فيه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: وهو- سبحانه- ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أيًا كان هذا الشيء

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، خفيًا أو جليًا، دقيقًا أو جليلًا، أو غير ذلك.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة نافذة؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقدم المتعلق وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لتأكيد كمال قدرته، عز وجل وشمولها لكل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

وقد أثنى عز وجل على نفسه هنا بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مقرونًا بذكر كمال ملكه وقدرته وعظيم آياته في الكون من خلق الموت والحياة وابتلاء الناس أيهم أحسن عملًا وخلق السموات وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَتَبَٰرَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

وأثنى على نفسه عز وجل بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ مقرونًا بذكر انفراده بالخلق والأمر وربوبيته للعالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].

ومقرونًا بذكر أطوار خلق الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وأثنى على نفسه- سبحانه- بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مقرونًا بذكر امتنانه بإنزال القرآن الكريم وملكه السموات والأرض: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢].

وأثنى على نفسه بذلك مقرونًا بوعده عز وجل لنبيه ﷺ بعظم الثواب، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ١٠].

ومقرونًا باسمه عز وجل وربوبيته لنبيه ﷺ، ووصفه عز وجل بالعظمة والإكرام في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ هذا وما بعده إلى قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ تفصيل واستدلال على كمال ملكه عز وجل، وتمام قدرته على كل شيء.

بدأه عز وجل بذكر خلق الموت والحياة والحكمة من ذلك، ثم بذكر خلق السموات السبع الطباق بلا تفاوت ولا فطور وتزيين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين.

ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، أي: الذي قدر الموت والحياة أزلًا وأوجدهما في الحيوان والنبات، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤].

فأوجد عز وجل عنصر الحياة بنفخ الروح في البدن، وعنصر الموت بمفارقة الروح للبدن، والتي لا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأوجد الخلائق من العدم وأحياهم بعد أن كانوا أمواتًا ثم يميتهم ثم يحييهم، كما قال عز وجل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

فسمى ما قبل الخلق- وهو العدم- موتًا- ولهذا قدم ذكر الموت على الحياة في

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ لأن الموت سابق للحياة.

فسبحان من أوجد الإنسان في هذه الحياة، فجعله بها يؤمل الآمال العريضة؛ من أجل أن يعمر هذا الكون بأمر الله عز وجل حتى إن الساعة لتقوم ورجل يحمل فسيلة نخل ليغرسها(١)، فالله أكبر.

وسبحان من فضح الدنيا بالموت فلم يدع لذي لب بها فرحًا، أذل الجبابرة، وقصر الأقاصرة، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الخلائق إذ في إحيائهم نعمة من الله- عز وجل- عليهم؛ ليعملوا صالحًا يسعدوا به في دنياهم وأخراهم، وفي إماتتهم جميعًا عدل بينهم ليبعثهم جميعًا ويجازيهم بأعمالهم وينتصر لمظلومهم من ظالمه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، ويختبركم ويمتحنكم، والخطاب للناس عامة.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

---

(١) قال ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل»، أخرجه أحمد ٣/ ١٨٤، ١٩١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال أبو تمام[١]:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

أي: إن الله عز وجل أحياكم وأوجدكم لأجل أن يبلوكم ويختبركم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أيكم أصلح عبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال الفضيل بن عياض: «﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أخلصه وأصوبه؛ فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة»[٢].

قال ابن كثير[٣]: «أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملًا، بل أحسن عملًا، ولا يكون العمل حسنًا، حتى يكون خالصًا لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين بطل وحبط».

فالمهم في العمل أن يكون خالصًا لله عز وجل، صوابًا على سنة رسول الله ﷺ.

ولهذا قال أبو بكر المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه»[٤].

فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ ولهذا قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[٥].

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[٦].

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥)، «الإخلاص والنية» لابن أبي الدنيا (ص٥٠).

(٣) في «تفسيره» ٤/ ٢٤١ وانظر ٢/ ٣٧٤.

(٤) ذكره في «المقاصد الحسنة» ص٣٦٩ حديث ٩٧٠، وانظر «التفسير الكبير» ١١/ ٩.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) كما في حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي- رضي الله عنه- أن النبي ﷺ سئل أي الصدقة أفضل؟ قال: =

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم»(١).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، أي: وهو- سبحانه- العزيز، ذو العزة التامة: عزة الامتناع، وعزة القوة، وعزة القهر والغلبة.

وهو- سبحانه- «الغفور» ذو المغفرة الواسعة، وهي: ستر ذنوب عباده عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليها، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦].

ومن المهم هنا أن نلمح المعنى العظيم، وهو كمال الصفة باقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الغفور» فله العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وله كمال الاتصاف بهتين الصفتين مقترنتين بكون مغفرته مع عزة، وعزته مع مغفرة، فهو كمال إلى كمال.

وهذا بخلاف المخلوق الضعيف- ولله المثل الأعلى- فإن اعتز فقد تحمله عزته على عدم الستر والتجاوز، بل قد يغتر بها فتحمله على الظلم والغشم، وإن غفر وستر وتجاوز فقد يكون بسبب ضعفه لا عن عزة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، أي: أوجد سبع سموات.

﴿طِبَاقًا﴾، أي: كل واحدة فوق الأخرى، طبقة فوق طبقة، وكل سماء مقببة على الأخرى، وكل واحدة منهن أوسع من التي تحتها سعة عظيمة فأصغرهن السماء الدنيا، وأعظمهن وأوسعهن السماء السابعة، وليس معنى ذلك أن كل واحدة منهن ملتصقة بالأخرى.

وقد دل على هذا حديث الإسراء كما في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره:

=

«جهد المقل» أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٦.

(١) أخرجه النسائي في الزكاة- باب جهد المقل ٢٥٢٧، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٩٩) (٢٤٤٣)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ١٣٥) (٣٣٤٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٣٠٥) (٧٧٧٩).

«أنه يعرج به ﷺ من سماء إلى سماء حتى انتهى إلى السماء السابعة»(١).

وفي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟، قلنا الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»(٣).

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، «ما» نافية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ما تشاهد أيها الناظر والمتأمل في خلق الرحمن من تفاوت.

ولم يقل: ما ترى فيهن من تفاوت؛ تعظيمًا لخالقهن وتنبيهًا على سبب سلامتهن من التفاوت وهو كونهن خلق الرحمن سبحانه وتعالى.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو ثاني اسم من أسماء الله- عز وجل- كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وكما قال عز وجل في الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الآيتان: ٢، ٣].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقال عز وجل في البسملة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٤٩، ١٦٣، ومسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٢٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٣.

(٣) أخرجه ابن مهدي فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٧٣٥. وأخرجه بمعناه الدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١ وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٨.

﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «تفوُّت» بضم الواو مشددة من غير ألف.

وقرأ الباقون: ﴿تَفَٰوُتٖ﴾ بالألف والتخفيف.

و«مِن» في قوله: ﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما ترى وتشاهد أيها الناظر المتأمل في خلق الرحمن أيَّ تفاوت مهما قل.

والتفاوت: الاختلاف والتنافر والخلل والنقص والعيب والاضطراب وعدم التناسب.

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، أي: انظر إلى السماء ببصرك وتأمل فيها جيدا هل ترى وتشاهد فيها.

﴿مِن فُطُورٖ﴾، أي: من شقوق وصدوع وفتوق أو خلل ونقص وعيب، و«من» كسابقتها زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى.

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾، أي: مرتين؛ مرة بعد أخرى.

﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾، أي: يرجع إليك البصر ذليلًا صاغرًا.

﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه حسيرًا، أي: وهو كليل منقطع نظره من الإعياء من كثرة التكرار وعدم وجود النقص.

والمعنى: فارجع البصر وكرره مرة بعد أخرى، فمهما كررت سيرجع إليك البصر ذليلًا صاغرًا وهو كليل منقطع من الإعياء من كثرة التكرار عاجزًا أن يرى فطورًا وشقوقًا أو عيبًا وخللًا في خلق السموات.

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيتين السابقتين إحكام خلقه السموات السبع الطباق وكماله، وخلوَّه من التفاوت والنقص، ثم أتبع ذلك ببيان أنه زين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين، وهذه الآية كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ [فصلت: ١٢].

قوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام للقسم، و«قد»

للتحقيق، أي: والله لقد زينّا السماء الدنيا، أي: جمّلناها.

و«السماء الدنيا» هي التي تلي الأرض والتي نشاهدها.

و«المصابيح» هي الكواكب النيرة التي تنير الكون، الثابتة والسيارة، كالشمس والقمر والنجوم.

قال السعدي[1]: «﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾، أي: ولقد جملنا ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفًا مظلمًا لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينة وجمالًا ونورًا وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السموات السبع، فإن السموات شفافة وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها».

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وجعلناها جعلًا كونيا ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: يرجم بها الشياطين عند محاولتهم استراق السمع من السماء.

و«الشياطين» جمع شيطان، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله- عز وجل.

قال ابن كثير[2]: «عاد الضمير في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها».

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: وأعددنا وهيأنا وجهزنا ﴿لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: عذاب النار المستعرة المتوقدة المشتعلة فـ «السعير» «فعيل» بمعنى «مفعول»، فهي «سعير» بمعنى مسعورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وهي نزلهم وضيافتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقال تعالى:

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٣٠- ٤٣١.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٤.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦].

والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ للشياطين.

أي: جعلنا المصابيح رجومًا للشياطين خزيًا وعذابًا لهم في الدنيا، وأعددنا وهيأنا لهم في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٦- ١٠].

وعن قتادة قال: «إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»(١).

الفوائد والأحكام:

١- بركة المولى عز وجل وعلوه وكثرة خيره، واختصاصه بالملك وقدرته التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢- إثبات اليد لله- عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته.

٣- الاستدلال على كمال ملكه، وتمام قدرته عز وجل بخلق الموت والحياة، وخلق السموات السبع وإحكام خلقها، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

٤- أن كسوف الشمس وخسوف القمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده؛ لأن الله لو شاء ما حصل ذلك.

٥- أن الحكمة من إيجاد الموت والحياة، وخلق الخلق من العدم وإماتتهم ومن ثم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢٣.

بعثهم هي ابتلاؤهم وامتحانهم أيهم أخلص عملا وأصوبه؛ ليجازوا على أعمالهم.

٦- الحث والترغيب في المنافسة في تحسين العمل إخلاصًا لله عز وجل ومتابعة للرسول ﷺ لقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٧- إثبات أن من أسماء الله عز وجل: «العزيز»، و«الغفور»، و«الرحمن»، وما يؤخذ من ذلك من إثبات صفة العزة التامة، والمغفرة الواسعة والرحمة العامة والخاصة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

٨- عظم خلق السموات السبع الطباق، وإحكامها وحبكها بلا فطور ولا شقوق، وتمام خلقه عز وجل وشدته، بلا اختلاف ولا تفاوت؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ الآيات.

٩- تزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين، كما أنها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

١٠- الوعيد الشديد للشياطين بعذاب السعير في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

١١- أن النار موجودة الآن مهيأة لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه أعتد للشياطين عذاب السعير، ثم ذكر ما أعتده لأتباعهم الذين كفروا بربهم من عذاب جهنم الحسي والمعنوي وأن مآل الفريقين المتبوع والتابع عذاب جهنم وعذاب السعير.

قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الواو: استئنافية. والكفر في اللغة: الستر والتغطية.

ومعنى ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، أي: جحدوا وجود الله، وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئًا من ذلك، ولم يؤمنوا.

وتقديم الخبر وهو قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يفيد تخصيصهم بالعذاب وحصره فيهم.

و«جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها.

والجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفار يتخبطون في الدنيا بظلمات الكفر والشك والجهل كان عذابهم جهنم التي هذا وصفها.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي: وساء وقبح المنقلب والمآل والمأوى والمرجع جهنم.

ولا يستطيع أحد أن يقدر عظم سوئها وقبحها- إلا من وصفها بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا سيقوا ودفعوا إليها وأدخلوا فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك: ٨].

وعبر عن سوقهم إليها وإدخالهم فيها بإلقائهم فيها؛ تحقيرًا وإهانة لهم، فهم يلقون فيها كما يلقى الحجر في اليم لا يؤبه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩].

ولأنهم أيضًا يساقون إليها سوقًا بشدة، ويدفعون إليها دفعا بعنف، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١].

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾، أي: صوتًا عاليًا فظيعًا قال في اللسان[1]: «الشهيق أقبح الأصوات».

والشهيق في الأصل ما يسمع من صوت الهواء الداخل إلى الرئة، ويقابله الزفير صوت الهواء الخارج من الرئة. قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود: ١٠٦].

وفي الأثر: «أن الرجل يجر إلى النار فتشهق إليه كما تشهق البغلة إلى الشعير»[2].

وسماعهم شهيقها من مقدمات عذابهم، فهي في شغف إليهم، بل وتناديهم، كما قال عز وجل: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ [المعارج: ١٧].

وهذا من عذاب الأسماع التي صمت عن الحق، واستمعت للباطل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها تفور، أي: تغلي وتتقلب من شدة حرارتها يقال: فار القدر أو فار الماء في القدر إذا غلى وأخذ يتقلب من شدة الحرارة.

كما يقال فار القدر أو الإناء إذا امتلأ ماءً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:

---

(١) مادة «شهق».

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن يحيى فيما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٢٤٨.

٤٠، المؤمنون: ٢٧].

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تكاد: تقارب. و«كاد» كغيرها من الأفعال على الصحيح نفيها نفي، وإثباتها إثبات، فقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾، أي: تقارب.

﴿تَمَيَّزُ﴾ أصلها تتميز فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أي: تتفرق وتتقطع، وينفصل بعضها عن بعض، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أي: من شدة الغيظ والحنق عليهم، لشدة غضب الجبار عليهم.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ﴾، أي: كلما ألقي وأدخل ﴿فِيهَا﴾، أي: في جهنم ﴿فَوْجٌ﴾، أي: جماعة كثيرة منهم ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾؛ إنكارًا عليهم وتوبيخًا وتبكيتًا لهم وتعذيبًا لقلوبهم. و«خزنتها»: هم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾، أي: ألم يأتكم ويبعث إليكم ﴿نَذِيرٌ﴾ مخوِّف ومحذِّر ينذركم ويحذركم جهنم وعذابها، وهم رسل الله عز وجل وأنبياؤه كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على قلوبهم؛ لأن العذاب نوعان: عذاب جسمي حسي يؤلم الأبدان، وهو إصلاؤها بالنار، وعذاب معنوي يؤلم القلوب، وهو التوبيخ والتقريع لهم.

والاستفهام هنا للتقرير؛ ولهذا اعترفوا وأجابوا بقولهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ وأقروا بما قابلوا به نذر الله عز وجل ورسله فقالوا: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ وذلك لافتضاحهم بظهور الحقائق ومعاينتها، فليس المقام مقام إنكار، وليس الخبر كالعيان(١).

والمعنى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ أنذرنا وحذرنا عذاب جهنم.

---

(١) كما جاء في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة» أخرجه أحمد ١/ ٢١٥.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير.

﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، أي: نفينا وأنكرنا أن يكون الله نزل أي شيء من الكتب، وقلنا للنذر الذين جاؤونا مكذبين لهم:

﴿إِنْ أَنتُمْ﴾، «إن» نافية، أي: ما أنتم أيها النذر.

﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، أي: إلا في بُعْد وتَيه عن الحق كبير.

فجمعوا بين أمور ثلاثة، كل واحد منها أسوأ مما قبله: أولًا: كذبوا رسولهم. ثانيًا نفوا أن يكون الله نزل شيئًا من الوحي على الرسل لهداية الخلق، وبهذا كذبوا جميع الرسل والكتب، ثالثًا: رموا الرسل الهداة المهتدين المبعوثين لهداية الخلق بالضلال الكبير.

وهذه عادة المكذبين للرسل يرمونهم بأبشع الصفات؛ لينفروا الناس منهم ومن دعوتهم، وفي هذا درس عظيم للدعاة إلى الله والمصلحين والمربين؛ ليعلموا أن طريق الجنة شاق، وليس مفروشًا بالورود والرياحين، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الروم: ٢، ٣].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»(١).

وقد أحسن القائل:

ودرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) البيت لوليد الأعظمي انظر «ديوانه الزوابع» ص٦٩.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ندموا على تكذيبهم نذر الله وما نزله عليهم، وودوا وتمنوا أنهم سمعوا وتعقلوا ما جاءتهم به النذر فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾، أي: سماع انتفاع لما جاءت به النذر، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عقُل انتفاع بذلك، فنفوا عن أنفسهم أعظم طرق الهداية، وهما: السمع والعقل؛ لعدم انتفاعهم بهما.

﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: ما كنا في عداد أصحاب السعير وساكنيها وملازميها فندموا حين لا ينفع الندم، ولات ساعة مندم.

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦ـ٥٨].

قال ابن كثير[1]: «وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾، أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم».

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: فاعترفوا على أنفسهم بذنبهم بتكذيبهم نذر الله وما نزل عليهم، ورميهم إياهم بالضلال الكبير، وأنهم ما سمعوا ما جاءتهم به النذر ولا تعقلوه.

﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا حكم من الله عز وجل عليهم بالبعد والهلاك، أي: فبعدًا وهلاكًا لأصحاب السعير وساكنيها وملازميها، فما أشقاهم وأرداهم وأي بعد وهلاك كبعد وهلاك من حكم الله عليهم بذلك فما لهم من سلامة ولا قرب.

وفي هذا الاعتراف من المكذبين دلالة على عدله عز وجل في خلقه وأنه لا يعذب أحدًا من الخلق إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٥.

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذه الآية كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

وقد روى أبو البختري الطائي، عمن سمع رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»(١).

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد الشديد للذين كفروا بربهم بعذاب جهنم وأنها بئس المآل والمنقلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾.

٣- فظاعة جهنم وقبح صوتها وشدة غليانها وغيظها على من يلقى فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

٤- تبكيت وتوبيخ وتقريع خزنة النار لمن يلقون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب، لا يقل عن العذاب الحسي.

٥- إقرار المكذبين واعترافهم في ذلك اليوم بما جاءهم من النذر، وأنهم كذبوهم وكذبوا ما جاؤوا به من الوحي من عند الله ورموهم بالضلال الكبير، لكن هذا الإقرار لا ينفعهم في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

٦- شدة مكابرة المكذبين للرسل واجترائهم على رميهم بأقبح الصفات تنفيرًا للناس عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٠، وانظر أيضًا ٥/ ٢٩٣.

٧- شدة حسرة المكذبين للرسل وندمهم واعترافهم بذنبهم، وأنهم لم يستفيدوا من سمعهم ولا من عقولهم بل كانت وبالًا عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾.

٨- حكم الله- عز وجل- على المكذبين بالبعد والهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للشياطين وأتباعهم الكافرين من عذاب جهنم والسعير وحالهم فيها ومقالهم واعترافهم على أنفسهم وندمهم حيث لا ينفع الندم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لمن خشي ربه بالغيب من المغفرة والأجر الكبير وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم أتبع ذلك بما يدل على كمال علمه وعدله عز وجل بين الخلائق وسعة علمه- سبحانه- بخلقه وأحوالهم وأقوالهم؛ ممتنًا عليهم بتذليل الأرض وتسخير خيراتها لهم، ومنبهًا أن إليه مردهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، وقال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [ق: ٣٣- ٣٤].

والخشية: أشد الخوف؛ لأنها أخص منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولهذا قال بعض أهل العلم: من شرط الخشية عظم المخشي، وعلم الخاشي استدلالًا بهذه الآية.

﴿رَبَّهُم﴾، أي: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

وأضاف اسم الرب إلى ضميرهم؛ تكريمًا وتشريفًا لهم؛ لأن الربوبية قسمان: ربوبية خاصة، وربوبية عامة، والمراد بها هنا الربوبية الخاصة، ربوبية التكريم والتشريف والهداية والتوفيق والحفظ.

والمعنى: أنهم يخشون ربهم ويخافونه، فيمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: وهو سبحانه غيب لم يروه، كما قال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾

[ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٩٤].

والغيب ما غاب عن الحواس، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وسأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»(٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»(٣).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا، والله ما رأوك، قال: فكيف لو رأوني...»الحديث(٤).

وأيضًا: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله»- إلى أن قال: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٠٦٨.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٨٩، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٠، وأحمد ٢/ ٢٥١.

بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» الحديث(١).

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وقوله: ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر، قُدم؛ لإفادة الحصر والتخصيص، أي: لهم خاصة مغفرة وأجر عظيم دون غيرهم.

و«المغفرة»: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، أي لهم مغفرة لذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب عظيم في جنات النعيم. وإذا كان المولى العظيم وصف أجرهم بأنه عظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه.

وسمى عز وجل ثوابهم أجرًا مع أنه لا يجب عليه- سبحانه- شيء لخلقه؛ تكرمًا منه- سبحانه- وامتنانًا عليهم؛ لأنه هو الذي تكفل به وأوجبه على نفسه، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن القيم(٢):

ما للعباد عليه حق واجب	هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع	إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا	فبفضله والفضل للمنان

فجمع لهم عز وجل بين مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها، وبذلك يزول المرهوب، وبين إثابتهم بالأجر العظيم وبذلك يحصل المطلوب.

وقدم مغفرة الذنوب؛ لأن التخلية قبل التحلية.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١.

(٢) في «النونية» ص١٤٩- ١٥٠.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

في ذكر هذا بعد ذكره عذاب من كفروا بربهم، وثواب الذين يخشون ربهم بالغيب إشارة إلى أن هذا الجزاء عن علم تام منه عز وجل بخلقه وأحوالهم وأقوالهم.

قوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، أي: إن شئتم فأسروا قولكم، وإن شئتم فاجهروا به، فالسر والعلانية عنده- سبحانه- سواء، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى: ٧].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام بصاحبة الصدور، وهي القلوب، أي: بما تخفيه وتنطوي عليه القلوب من المكنونات والخواطر، والاعتقادات والإرادات والحب والبغض، مما لم تنطق به الألسن لا سرًا ولا جهرًا.

وإذا كان عالمًا بما في القلوب فعلمه بما عدا ذلك من الأقوال والأفعال الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، «ألا»: استفهام إنكار على من أنكروا علمه، عز وجل.

و«من» موصولة في محل رفع فاعل، والتقدير: ألا يعلم الخالق الذي خلق الخلق وأتقنه وأحسنه مخلوقه ومصنوعه، وقد تكون «من» في محل نصب مفعول، أي: ألا يعلم الرب مخلوقه.

وفي هذا أبلغ التقرير لكمال علمه عز وجل بالدليل العقلي، وفيه أعظم الإفحام لمنكري علمه عز وجل، فحيث كانوا يقرون بأنه خالقهم وخالق صدورهم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع لا بد أن يعلم مصنوعه.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الواو: حالية، و«اللطيف الخبير» اسمان من أسمائه- عز وجل- كل منهما على وزن «فعيل».

يدل «اللطيف» على دقة لطفه وإحسانه- عز وجل، ويدل «الخبير» على دقة خبرته وسعة علمه سبحانه.

فـ«اللطيف» الذي يدرك الدقيق، و«الخبير» الذي يدرك الخفي، أي: المحيط علمًا بالدقائق والخفيات والسرائر والمضمرات.

قال ابن تيمية(١): «قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ دلت على علمه بالأشياء من وجوه تضمنت البراهين المذكورة لأهل النظر العقلي:

أحدها: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها.

الثاني: أنه مستلزم للإرادة والمشيئة فيلزم تصور المراد، وهذه الطريقة المشهورة عند أهل الكلام.

الثالث: أنها صادرة عنه وهو سببها التام والعلم بالأصل يوجب العلم بالفرع، فعلمه بنفسه يستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

الرابع: أنه «لطيف» يدرك الدقيق «خبير» يدرك الخفي. وهذا هو المقتضي للعلم بالأشياء فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام».

وقال ابن القيم(٢): «الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأمور وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحتويه الضمائر وتخفيه الصدور».

وقد أحسن القائل(٣):

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا ... خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٣.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٤. وانظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

(٣) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

في هذا امتنان من الله عز وجل على عباده، أي: هو سبحانه الذي امتن عليكم بأن جعل الأرض كونًا وقدرًا مذللة منقادة للسير عليها والبناء عليها وحفرها وشقها واستخراج الماء منها واستخراج خيراتها؛ ولهذا قال:

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، أي: سيروا وسافروا حيث شئتم في طرقها وفجاجها وأرجائها ونواحيها وأطرافها في جبالها وأوديتها وسهولها.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، أي: وكلوا مما أودعه فيها، وأخرجه لكم منها من رزقه وعطائه مما يستخرج منها من الحبوب والثمار والفواكه وغير ذلك.

والتعبير بالأكل؛ لأنه الأهم فهو كسوة الباطن- لا يستطيع الإنسان الحياة بدونه وسائر الانتفاعات من الأرض وخيراتها- تبع لذلك.

قال ابن كثير[1] في الكلام على هذه الآية: «ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار؛ فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات».

وفي قوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي الجمع بين السعي وفعل الأسباب مع الاعتماد والتوكل على الله عز وجل، كما قال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا»[2].

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، أي: وإليه وحده عز وجل نشر الخلائق من قبورهم، وعليه حسابهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد- ما جاء في الزهادة في الدنيا ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد- التوكل واليقين ٤١٦٤، وأحمد ١/ ٣٠، ٥٢، وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

وفي ذكر هذا بعد الامتنان بتذليل الأرض لهم يمشون عليها ويبنون ويسكنون ويأكلون من خيراتها تنبيه وتذكير إلى أن هذه الدار ليست دار بقاء، وأن الناس فيها غير مستوطنين ولا مقيمين بل هم عابرو سبيل يتزودون فيها للدار الباقية دار القرار، فهي دار عبور ومرور، لا دار استقرار وحبور، والجاهل المغبون من ركن إليها، والكيس الفطن العاقل الحازم اللبيب من لم يطمئن إليها.

كما رُويَ في الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»(١).

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بما أعده الله من المغفرة والأجر الكبير لمن يخشونه ويخافونه وهو غيب لم يروه، وإن غابوا عن أعين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لأهل خشيته، وتكريمهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾.

٣- أن التخلية قبل التحلية؛ لأن بالتخلية زوال المرهوب بمغفرة الذنوب، وبالتحلية حصول المطلوب بالأجر الكبير كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤- امتنان الله عز وجل على عباده المؤمنين بتسمية ثوابهم أجرًا، وإيجابه عز وجل على نفسه ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

٥- علم الله عز وجل واطلاعه التام على ما أسر به الخلق أو جهروا به وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. وفي هذا ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠- من حديث شداد بن أوس- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن».

٦- تأكيد علمه عز وجل بالخلق، وأنه أعلم بهم وأدرى؛ لأنه خالقهم وهم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٧- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «اللطيف» و«الخبير»، وما يؤخذ منهما من إثبات تمام لطفه عز وجل بإدراك أسرار الأمور، وإحسانه، وكمال خبرته وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٨- نعمة الله عز وجل العظيمة على الخلق بتذليل الأرض لهم للسير عليها واستخراج خيراتها والأكل من رزقه الواسع فيها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

٩- إن الرزق كله من الله تعالى؛ لأن الله أضافه إليه.

١٠- إثبات نشر الخلائق وبعثهم من قبورهم، ورجوعهم إلى الله تعالى وحسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

١١- الإشارة إلى أن الدنيا مزرعة للآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

لما ذكّر عز وجل الخلق بنعمته عليهم بتذليل الأرض لهم خوّف المكذبين وهددهم وتوعدهم بسلب هذه الصفة عنها بخسفها بهم وجعلها تمور، ثم خوفهم بإرسال الريح الحاصب عليهم، وبما حل بالمكذبين من قبلهم، ووجههم إلى رؤية عظيم قدرة الله عز وجل في الطير حال كونهن صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه: التهديد والوعيد، والخطاب للكفار المكذبين.

﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، «مَن» للعالِم، وهي: اسم موصول بمعنى «الذي»، أي: ءأمنتم الذي في السماء، أي: الذي في العلو وهو الله عز وجل، الذي هو عال على خلقه بائن منهم مستو على عرشه، كما في حديث الجارية، قال ﷺ: «أين الله؟ قالت في السماء»(١).

﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: يُغَوِّر بكم الأرض، ويغيبكم فيها.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، أي: تموج وترتج وتتكفأ وتذهب وتجيء وتضطرب وتتزلزل، فلا يمكن العيش والحياة عليها، بعد أن كانت ذلولًا ثابتة مستقرة مهيأة للاستقرار والحياة.

وفيما يقع ويشاهد من الزلازل المهلكة المدمرة التي تحصد أرواح مئات الآلاف من الناس وتقضي على الأخضر واليابس وتذر الديار بلاقع أعظم عبرة لمن يعتبر.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي: بل ءأمنتم الذي في السماء، وهو الله- عز وجل.

﴿أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾، أي: أن يرسل عليكم ريحًا شديدة ترميكم بالحصباء

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

وهي الحجارة فتهلككم.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾، أي: فستعلمون بعد حلول العقوبة فيكم من خسف الأرض بكم أو إرسال الريح الحاصب عليكم.

﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾، أي: كيف كان إنذاري لكم وعقوبة تكذيبكم للنذر، ومخالفتكم لهم، وكيف حل بكم ما أنذَرْتكم به الرسل والكتب.

وفي هتين الآيتين تخويف وتحذير من الأمن من مكر الله وعقوبته في الدنيا لمن كفر به وخالف أمره بخسف الأرض بهم، أو بإرسال الريح الحاصب عليهم، وغير ذلك، وتنبيه لهم على قدرته التامة على ذلك.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩].

لكنه عز وجل يمهل ولا يهمل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، و«قد»: للتحقيق، أي: والله لقد كذب الذين من قبلهم، أي: من قبل قومك يا محمد من الأمم السابقة،

كذبوا نذر الله ورسله وأنبياءه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم، أي: ما أشد إنكاري عليهم وعقابي لهم بالإهلاك، أي: أن ذلك كان عظيمًا شديدًا فليأخذ قومك مما حل بأولئك الأقوام العظة والعبرة، فإن السعيد من وعظ بغيره.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾.

بعد ما خوفهم عذاب الله عز وجل وعقابه أنكر عليهم ووبخهم على عدم النظر والتأمل في عظيم آيات الله عز وجل وقدرته في جعل الطير تطير فوقهم صافات ويقبضن وإمساكها في الجو.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، أي: أعموا ولم يروا، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أولم ينظروا إلى الطير فوقهم في السماء.

﴿صَافَّاتٍ﴾، أي: حال كونهن باسطات ناشرات لأجنحتهن في الجو والهواء حال الطيران، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، أي: ويضممن أجنحتهن إلى جنوبهن حال الطيران، وعند وقوعهن.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾، «ما»: نافية، أي: ما يمسكهن في الجو والهواء عن السقوط.

﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ سبحانه وتعالى برحمته ولطفه وقدرته بما سخر لهن من الهواء، وبما جعل لهن من الأجنحة والزعانف، والخلقة المناسبة لذلك.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، أي: إنه عز وجل ذو بصر وخبرة وعلمٍ في كل شيء من مخلوقاته، خلقًا لها وملكًا وتدبيرًا وغير ذلك.

وقدم المتعلق، وهو قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ لتأكيد شمول بصره وخبرته وعلمه بكل شيء أيًا كان ذلك الشيء.

والمراد: أولم ينظروا إلى الطير حال طيرانها، وعند وقوعها، فيتأملوا في عظيم قدرة الله عز وجل وبصره في مخلوقاته، حيث جعل الطير تطير على هذه الكيفية، وأمسكها في الجو والهواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ

لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات علو الله على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَءَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢- تخويف الكافرين والمكذبين بالعقوبات الكونية الدنيوية من خسف الأرض بهم أو إرسال الريح الحاصب عليهم، والوعيد والتهديد لهم بذلك، وتذكيرهم بما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠]

٣- التذكير بنعمة الله- عز وجل- بجعل الأرض مستقرة، وبعظيم قدرة الله عز وجل في إمساك الطير حال طيرانها بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٤- إثبات اسم الله- عز وجل- «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له- عز وجل- وإثبات أنه- عز وجل- بكل شيء بصير، وعلى كل شيء مطلع وبه خبير؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

بعدما أنكر عز وجل على المكذبين، وخوَّفهم عقابه الدنيوي وأن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم منكرًا عليهم عدم التأمل والنظر في عظيم قدرة الله عز وجل في الطير تطير في الجو فوقهم، أتبع ذلك بإنكار ما يعتقدونه في معبوداتهم ويبتغونه منها من النصر والرزق غرورًا منهم وعتوًّا.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، أي: من هذا الذي هو جند لكم وعون لكم أيها الكافرون يملك نصركم ويقدر عليه.

﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: غير الرحمن، أهي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله، كما تعتقدون ذلك؟ فليس الأمر كما تعتقدون، ولن يحصل لكم ما تؤملون.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، «إن» نافية بمعنى «ما». أي ما الكافرون إلا في غرور من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤].

فهم في غرور من الشيطان حيث زين لهم عبادة غير الله، واعتقادهم فيها النصر، وهي لا تملك نصر أنفسها فكيف تنصر غيرها- كما قال عز وجل-: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا

يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف: ١٩٧].

فلا ولي لهم من دون الرحمن ولا ناصر، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، التوبة: ١١٦، العنكبوت: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ الاستفهام كسابقه: للإنكار، أي: من هذا الذي يرزقكم غير الله إن أمسك الله رزقه وقطعه عنكم، أهي معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله. والجواب: لا أحد يرزقكم سوى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿بَل﴾، «بل» للإضراب، ﴿لَّجُّوا۟﴾، أي: استمروا وتمادوا في طغيانهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥].

﴿فِى عُتُوٍّ﴾ في قسوة، وعدم لين للحق، وعناد واستكبار، ومخالفة لأمر الله ونهيه، كما قال تعالى: ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ [الطلاق: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَنُفُورٍ﴾، أي: وشرود وبعد عن الحق بقلوبهم وأبدانهم، لا يستمعون إليه ولا يفقهونه، ولا يتبعونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ

لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم نَّذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وكما قال نوح عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٥- ٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ذكر الله عز وجل فيما تقدم ما أعده لمن خشيه من المغفرة والثواب، وما أعده لمن كفر به من العقوبة والعذاب، ثم ضرب مثلًا فيه بيان الفرق الواسع والبون الشاسع بين حال المؤمن والكافر فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ الهمزة: للاستفهام، أي: أفمن يسير منكسًا على وجهه واقعًا عليه، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله ﴿أَهْدَىٰ﴾، أي: أشد استقامة على الطريق.

﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: أمّن يسير سويًا منتصبًا على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله، لا شك أن هذا أهدى.

كما قال تعالى في سورة الفرقان في وصف نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية: ٣٥].

وهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافر والمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤].

فمثَّل الله عز وجل الكافر بمن يمشي مكبًا على وجهه؛ لأنه ليس على هدى، بل يتخبط في ظلمات الكفر والشك والجهل؛ مخالفًا لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

كما قال تعالى في سورة النور: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ إلى قوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّّ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾ [الآيتين: ٣٩، ٤٠].

ومثَّل عز وجل المؤمن بمن يمشي مستوي القامة منتصبًا على رجليه على فطرة الله لأنه يمشي على طريق معتدل وهدى ونور من الله وعلى صراطه المستقيم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩- ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

أي: ضرب الله مثلًا لمن يشرك مع الله غيره ويعبد أكثر من معبود، ومن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا، برجل مشترك بين عدة شركاء مختلفون حوله، ورجلًا خالصًا لرجل واحد.

فشتان بين من يمشي مكبًّا على وجهه منكوس الفطرة يشرك مع الله غيره، وبين من يمشي سويًا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها يؤمن بربه ويوحده، فما بينهما أبعد مما بين الثرى والثريا، وما بين المشرق والمغرب.

شـــتان بـــين الحـــالتين فـــإن تـــرد جمعًـــا فـــما الضـــدان يجتمعـــان[١]

قال ابن كثير[٢]: «وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه، أي: من يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾، أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ على طريق واضح بيّن، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة فالمؤمن يحشر سويًا على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم».

كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟، قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[٣].

وليس في قوله: ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ ما يدل على أن من يمشي مكبًا على وجهه وهو الكافر عنده شيء من الهداية؛ لأن اسم التفضيل قد يستعمل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. إذ ليس في النار شيء من الخيرية أو حسن المقيل البتة، فهي شر محض.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾، الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالبعث من قومك، هو الذي ابتدأ خلقكم وأوجدكم من العدم.

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص ١١.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان ٤٧٦٠، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٨٠٦، وأحمد ٣/ ١٦٧.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، أي: كمل خلقكم بهذه الجوارح السمع والأبصار، والأفئدة، وهي العقول.

وخص هذه الجوارح بالذكر لفضلها فالسمع والأبصار أدوات وطرق وصول الحق إلى القلوب، والقلوب هي محل الإدراك ومناط التكليف وعليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: قليلًا الذي تشكرون، أو قليلًا شكركم، أي: قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

والآية خبر، وفيها معنى الأمر، أي: اشكروا.

والشكر: باستعمال هذه الجوارح وغيرها من نعم الله التي لا تحصى في طاعة الله عز وجل، بفعل أوامره وترك نواهيه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قل لهم يا محمد هو الله الذي بثكم ونشركم وفرقكم في أقطار الأرض وأرجائها على اختلاف صوركم وأشكالكم وألوانكم ولغاتكم.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أي: إليه تجمعون يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

قال ابن كثير[١]: «أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم».

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار؛ إنكارًا للبعث واستبعادًا لوقوعه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، أي: متى وقوع هذا الذي تعدنا به من البعث والحشر والجمع بعد التفرق والموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا وتخبروننا به، وجمعوا الضمير باعتبار الخبر عن الله ورسوله ﷺ، أو بضميمة المؤمنين إليهم، أو أن دأب المكذبين قول هذا لرسلهم.

﴿قُلْ﴾، أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إنما علم وقت الحشر وقيام الساعة عند الله عز وجل، لا يعلمه غيره.

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٤].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ الواو: عاطفة و«إنما»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أنذركم وقوع ذلك الوعد، وأخبركم أنه واقع لا محالة، وأحذركم عذاب الله.

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن واضح، ومبين ما أمرت بإبانته لكم من النذارة والتحذير والتخويف من عذاب الله وقد أنذرتكم وبلغتكم، وقد أعذر من أنذر.

والحصر هنا إضافي، أي: ما أنا بالنسبة لأمر الحشر والبعث إلا نذير أنذركم بتحتم وقوعه، ولا أدري متى وقوعه.

لكنه ﷺ مع ذلك بشير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

ومكلف بالعمل كغيره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٨.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾، أي: فلما رأوا ما وعدوا به من العذاب في الآخرة، وقيل عذاب يوم بدر ﴿زُلْفَةً﴾، أي: قريبًا.

﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: ظهر على وجوه الذين كفروا بالله وأنكروا البعث والحشر الاستياء والكآبة والحزن وخابت ظنونهم، وأيقنوا بالخيبة والخسران المبين والمصير إلى النار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ قرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة: «تدْعون».

وقرأ الباقون بفتحها مشددة: ﴿تَدَّعُونَ﴾.

أي: وقيل لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هَٰذَا﴾، أي: البعث والحشر والحساب والعذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾، أي: الذي كنتم في دار الدنيا تستعجلون وقوعه، وتطلبونه، إنكارًا له واستبعادًا لوقوعه، قد رأيتموه عيانًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧].

وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»[1] وهذا ما كانوا يستعجلونه كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، أي: عجل لنا نصيبنا من الحساب. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والأحكام:

١- تسفيه عقول المشركين والإنكار عليهم في عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم نصرا ولا رزقًا وغرورهم ومكابرتهم في ذلك وعتوهم ونفورهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

٢- إثبات اسم الله عز وجل «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له- عز وجل، وأنه سبحانه هو الرب الذي بيده النصر ومنه الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٣- أن الذي بيده النصر والرزق هو الله تعالى وحده.

٤- شتان بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، فالكافر الفاجر كمن يمشي مكبًا على وجهه، والمؤمن البر كمن يمشي سويًا معتدلًا على طريق مستقيم، فالمؤمن أهدى وأقوم سبيلا، والكافر أعوج وأضل سبيلا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٥- أن اسم التفضيل قد يستعمل بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

٦- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية فيما يدعو إليه وفيما ينفر منه لقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ولك أخي الكريم أن تتخيل حالة كل من هذين الصنفين، والبون الشاسع بينهما.

٧- امتنان الله على الناس بإنشائهم، وجعل السمع والأبصار والأفئدة لهم وتذكيرهم بذلك، وبتمام قدرة الله تعالى ونعمته عليهم؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٨- قلة شكر الناس للنعم وقلة الشاكر منهم، لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٩- تذكير الخلق بقدرته تعالى على بعثهم، فهو الذي نشرهم وفرقهم في الأرض، وإليه حشرهم وجمعهم وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:

٢٥، ٢٦].

١٠- استبعاد الكافرين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ تكذيبًا لذلك، وإنكارًا له، وتكذيبًا له ﷺ ولما جاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١١- أن علم المعاد وبعث العباد عند الله عز وجل لا يعلمه سواه، ومهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٢- تغير وجوه الكفار ومساءتها واسودادها عند معاينة العذاب قريبًا منهم وتبكيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٣- تقريعهم وتعذيب قلوبهم معنويًّا بأن يقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، أي: هذا العذاب الذي كنتم تستعجلونه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قُلْ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين من قومك الذين يتربصون بهلاكك، كما قال الله عز وجل عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠].

﴿أَرَءَيْتُمْ ﴾، أي: أخبروني، ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ ﴾، أي: إن عذبني الله ومن معي من المؤمنين فأهلكنا كما تتمنون، ﴿أَوْ رَحِمَنَا ﴾ فأثابنا ونعّمنا.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، أي: فمن يجيركم من عذاب الله أيها الكافرون، فأنتم معذبون لا محالة ولا مجير لكم من عذاب الله، سواءً أهلكنا الله أو رحمنا، فاعملوا على خلاص أنفسكم بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

ولم يقل: فمن يجيركم من عذاب أليم- والله أعلم- للتنصيص على كفرهم، وربط العقوبة بالعذاب بسببها وهو الكفر، وليشمل هذا الوعيد كل كافر.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾، أي: قل هو الرحمن صدقنا به ربًا ومعبودًا وانقدنا له ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾، أي: وعليه- وحده- اعتمدنا وفوضنا جميع أمورنا مع تمام الثقة به سبحانه.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين الإيمان به، وعبادته وبين التوكل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

والتوكل داخل في الإيمان ومن جملة لوازمه، لكنه خص بالذكر من بين سائر الأعمال؛ لعظم مكانته من الإيمان، وكون الأعمال صحتها وكمالها متوقفين عليه. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قرأ الكسائي بالغيب: «فسيعلمون» وقرأ الباقون

بالخطاب: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾.

أي: فستعلمون من هو في بعد وتيه عن الحق، أهو نحن أم أنتم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة أهي لنا، أم لكم؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: أخبروني إن أصبح ماؤكم غائرًا ذاهبًا في الأرض، لا تستطيعون الوصول إليه بأي وسيلة.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾، أي: فمن الذي يأتيكم ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾، أي: بماء نابع سائح جار ظاهر على وجه الأرض، تراه العيون، لا ينضب، تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم، أي: لا أحد يستطيع أن يأتيكم بذلك إلا الله عز وجل.

وفي هذا تخويف لهم من سلب نعمة الماء شريان الحياة ومادتها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

وتذكير لهم بإنعامه وإفضاله عليهم بها، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

الفوائد والأحكام:

١- تربص الكافرين هلاك الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾.

٢- التهديد للكافرين، وأنه لا مجير لهم من العذاب الأليم في النار يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٣- التنزل مع الكفار والمكذبين لتقريرهم ليتبين لهم أنهم ليسوا على شيء لقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ وإلا فلا شك أنه ﷺ يعلم أنه ومن معه من المرحومين بإذن الله- عز وجل.

٤- أن عذاب الكافرين المكذبين مؤلم موجع حسًا للأجساد، ومؤلم موجع معنى للقلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٥- إثبات اسم الله «الرحمن»؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل.

٦- وجوب الإيمان بالله والتوكل عليه، وأن الإيمان الحق لا يقوم إلا على هاتين الدعامتين؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن الله عز وجل بينهما في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

٧- وعيد الكفار المكذبين بأنهم سيعلمون حقًا أنهم هم الذين كانوا في ضلال مبين، وليس ذلك هو الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، كما زعموا، وذلك بوقوع العذاب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٨- امتنان الله عز وجل على الناس بالماء الذي يشربون، وتخويفهم من سلبه منهم وتغويره عنهم فلا أحد غيره - سبحانه - يستطيع أن يأتيهم بماء معين لا ينضب.

وبهذا جمع الله لهم بين التخويف بالعقاب الدنيوي والعذاب الأخروي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْقَلَمِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة القلم»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالقلم، بقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة ن»؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾؛ لبيان إعجاز القرآن والتحدي به.

٢- الإقسام بالقلم والكتابة؛ بيانًا لفضل العلم.

٣- امتداحه ﷺ والثناء عليه والشهادة له بما هو عليه والخلق العظيم، ووعده بالأجر غير الممنون، ونفي ما اتهمه به المشركون من الجنون والفتون، ووعيد المكذبين وذمهم، والتحذير من مهادنتهم وطاعتهم: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

٤- أن ما يتقلب به المشركون من النعمة هو ابتلاء واستدراج لهم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الآية: ١٧].

٥- ذكر قصة أصحاب الجنة، وإهلاكها بسبب ظلمهم وطغيانها بمنع المساكين حقهم فيها: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾.

٦- وعد المتقين بجنات النعيم، وبيان أنه لا يستوي المسلمون والمجرمون، والرد على من زعم ذلك من الكفار والمكذبين، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٧- حثه عز وجل النبي على الصبر لحكم ربه وما يلقاه من الأذى، ونهيه أن يكون كيونس عليه السلام في الاستعجال، وما ابتلاه الله به بسبب ذلك: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

٨- شدة عداوة الكفار للنبي ﷺ ولما جاء به من الذكر واتهامه بالجنون، والرد عليهم: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، «ن»: أحد حروف الهجاء، وأحد الحروف المقطعة التي تكون أوائل السور نحو «ص» و«ق».

وقد سبق الكلام على هذه الحروف، وذكر أقوال أهل العلم في معناها والمراد بها في مطلع «سورة البقرة».

وبيان أن أظهر الأقوال في معناها أنها ذكرت في مطلع بعض السور للتحدي والإعجاز، وأن العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، والذين نزل القرآن بلغتهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور مثله، بل بسورة من مثله، مع أنه بهذه الحروف التي ينطقون بها.

قال ابن القيم[1]: «الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسمًا به، وإما مخبرًا عنه ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها... وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته».

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: للقسم، و«القلم» مقسم به. والقلم: هو أداة الكتابة المعروفة، فبه كتب القدر، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت

---

(١) انظر: بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩.

رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب ما أكتب؟، قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»(١).

وبه يكتب الملائكة أعمال بني آدم، وبه يكتب الذكر، وبه يكتب العلم.

قال الشاعر:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيِّد صيودك بالحبال الواثقه

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقه(٢)

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: عاطفة و«ما» موصولة، أي: والذي يكتبون، وقد تكون «ما» مصدرية، أي: وسطرهم، أي: كتبهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٣-٥].

فأقسم عز وجل بأداة الكتابة وهو القلم، وبالذي يكتبون، وهو العلم.

قال ابن تيمية(٣): «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون: فإن القلم يكون به الكتاب الساطر للكلام المتضمن للأمر والنهي والإرادة والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه. أحدهما: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه، فإخباره عنه أحكم وأصدق.

الثاني: أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوبًا، فليس كل معلوم مقولًا، ولا كل مقول مكتوبًا، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتابة دون الكلام فقط، أو

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة- باب في القدر ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥، وأحمد ٥/ ٣١٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤٥.

(٢) انظر: «أنس المسجون وراحة المحزون» ص٣٣-٣٤.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٤- ١٥.

دون العلم فقط».

ويؤخذ من افتتاح السورة بقوله: ﴿نٓ﴾، ومن الإقسام بالقلم، وبالمكتوب فضل العلم وأهله.

وقد أكد القرآن الكريم هذا في مواضع عدة، بل إن أول آية وأول سورة نزلت من القرآن الكريم على النبي ﷺ بالأمر بذلك، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

قال البخاري «فبدأ بالعلم قبل القول والعمل»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وامتن عز وجل على عباده بالعلم بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ـ ٤].

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٢).

وقد سجل هذا معروف الرصافي بقوله(٣):

هل العلم في الإسلام إلا فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلم

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نوَّم

---

(١) انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩ـ كتاب العلم- باب العلم قبل القول والعمل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤- من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص١٨٩.

وحلت له الأيام عند قيامه ... حباها وأبدت منظر المتبسم
فأشرق نور العلم من حجراته ... على وجه عصر بالجهالة مظلم
ودك حصون الجاهلية بالهدى ... وقوَّض أطناب الضلال المخيم
وأنشط بالعلم العزائم وابتنى ... لأهليه مجدًا ليس بالمتهدِّم
وأطلق أذهان الورى من قيودها ... فطارت بأفكارٍ على المجد حُوَّم
وفك إِسار القوم حتى تحفزوا ... نهوضًا إلى العلياء من كل مَجثم

وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا مالًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٢).

وعن معاوية- رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»(٣).

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٧١، ومسلم في الزكاة ١٠٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٢١.

بها ويعلمها»(١).

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٢).

وقال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»(٣).

وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»(٤).

قال الشافعي(٥): «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم».

وبالعلم ارتفع كلب الصيد على غيره من الكلاب فجاز اقتناؤه وحل صيده.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**من اقتنى كلبًا إلا كلب صيد أو ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان**»(٦).

ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١- من حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه.

(٥) انظر: «المجموع» ١/ ٢٠، «نشر طي التعريف» ص١٦٢، «الأخلاق الزكية» ص٣٧. وليس فيها: «ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم».

(٦) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٤٨٠، ومسلم في المساقاة ١٥٧٤..

يحسنه»[١].

وقال علي رضي الله عنه[٢]:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلًا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الشاعر:

العلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف
العلم مبلغ قوم ذروة الشرف ... وصاحب العلم محفوظ من التلف
يا صاحب العلم مهلًا لا تدنسه ... في الموبقات فما للعلم من خلف[٣]

وقال الآخر:

فصاحة حسان وخط ابن مقلة ... وحكمة لقمان وزهد بن أدهم
لو اجتمعت في المرء والمرء جاهل ... ينادى عليه لا يسام بدرهم[٤]

وقال الشافعي[٥]:

ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبر عليه أربعًا لوفاته
وذات الفتى- والله- بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وقال الآخر:

إذا ما مات ذو علم وتقوى ... فقد ثلمت من الإسلام ثلمه
وموت العابد القوام ليلًا ... يناجي ربه في كل ظلمه

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ٧٤.
(٢) انظر: «ديوان علي بن أبي طالب رضي الله عنه» ص٧، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣١.
(٣) الأبيات تنسب للطغرائي. انظر: «جواهر الأدب» ٢/ ٤٤٩، «مجاني الأدب» ٣/ ١٣٤.
(٤) انظر: «نفحة اليمن» ص١٢٥، «جواهر الأدب» ٢/ ٤٨٩.
(٥) انظر: «ديوانه» ص٣٨.

وموت فتى كثير الجود مَحْلٌ ... فإن بقاءه خصب ونعمه
وموت الفارس الضرغام هدم ... فكم شهدت له بالنصر عزمه
وموت الحاكم العدل المولّى ... بحكم الأرض منقصه ونقمه
فحسبك خمسة يُبكى عليهم ... وباقي الناس تخفيف ورحمه
وباقي الناس همج رعاع ... وفي إيجادهم لله حكمه[1]

وقال الشافعي[2]:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وإرشاد أستاذ وطول زمان

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

هذا هو المقسم عليه، وهو نفي الجنون عنه ﷺ، وإثبات الأجر غير الممنون له، وأنه على خلق عظيم.

قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾، «ما»: نافية عاملة عمل ليس، والباء: للسببية، أي: لست يا محمد بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة.

﴿بِمَجۡنُونٖ﴾، أي: بمعتوه فاقد العقل، كما يقوله الجهلة المكذبون المعاندون من قومك، كما هي عادة المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فأقسم عز وجل على تبرئة نبيه ورسوله ﷺ عما يقوله المشركون، من أنه مجنون.

وفي توسيط قوله: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ بين اسم «ما» وخبرها إشارة إلى عظيم نعمة الله عليه ﷺ، وأنه بهذه النبوة والرسالة منعم عليه مصطفى من بين العالمين، وتأكيد لنفي

---

(١) الأبيات للشيخ عبدالعزيز الديرني. انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٨/ ٢٠١، «رياض الرياحين في حكايات الصالحين» ص٢٢٢، «أبراج الزجاج في سيرة الحجاج» ص٢٠.

(٢) انظر: «ديوانه» ص١٣٨. وفيه: «وصحبة أستاذ...».

ما رموه به من الجنون، إذ كيف تجعل النعمة العظيمة سببًا للجنون، وكيف تجعل النعمة نقمة، فهم أولى بوصف الجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ نكَّر «أجرًا»؛ للتعظيم، أي: وإن لك لأجرًا عظيمًا وثوابًا جزيلًا غير منقطع، على تبليغك رسالة ربك، وأدائك الأمانة، ونصحك للأمة، وجهادك في الله حق جهاده، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٦]، أي: غير مقطوع.

وأيضًا: غير ممنون به عليك كما يمن الخلق بإتباعهم ما يُعطون بالمن والأذى من تكبرهم على من يعطونه واحتقارهم له ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذا قسم منه عز وجل، وهو أصدق القائلين، وشهادة منه عز وجل، وهو خير الشاهدين لرسوله ﷺ أنه على خلق عظيم، فأعظم به من قسم وأكرم بها من شهادة.

والمعنى: وإنك لعلى دين عظيم؛ لأنه ﷺ تخلق بأخلاق القرآن، وتأدب بآدابه امتثالًا لأوامره، واجتنابًا لنواهيه حتى صار ذلك له سجية وطبعًا مع ما جبله الله عليه من كريم السجايا وعظيم الصفات، أدبًا وحياء، وشجاعة وكرمًا، صفحًا وحلمًا، شفقة ورحمة، صدقًا ومحبة.

ولهذا لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»(١).

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي «أف» قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟، وكان

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين- جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في التطوع- صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ٨٦٠١، وأحمد ٦/ ٥٣، ١١١، ١١٦، ١٨٨، ٢١٦.

ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا مسست خزًا ولا حريرًا، ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»(١).

فكان له ﷺ من كل خصلة من مكارم الأخلاق أعلاها وأكملها وأجلها في حق ربه، وفي تعامله مع أهله وأزواجه وأصحابه وسائر الناس.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل»(٣).

وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(٤).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»(٥).

وعن أبي مسعود البدري- رضي الله عنه- قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٥، وأخرجه مختصرًا البخاري في الوصايا ٢٧٦٨، ومسلم في الفضائل- كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا ٢٣٠٩، وأحمد ٣/ ١٠٧، ٢٠٠، ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب- صفة النبي- ﷺ ٣٥٤٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٣٧، والترمذي في اللباس ١٧٢٤.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٣٢.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٣٨١- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما فيما رواه أبو ذر- رضي الله عنه عن أخيه حين بعثه إلى النبي ﷺ فرجع فقال له: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق» أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٦١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٤.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٥، والترمذي في المناقب ٣٨٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٩.

ترعد فرائصه، فقال له: «هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»(١) وهذا تواضع منه ﷺ.

فلنا به ﷺ الأسوة والقدوة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان ﷺ مع ما وهبه الله من خلق كريم يسأل ربه بقوله: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت»(٢).

وأوصى ﷺ سلمان رضي الله عنه أن يقول: «اللهم إني أسألك صحة في إيمان وإيمانًا في حسن خلق»(٣).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق»(٤).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»(٥).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أخيركم أحسنكم خلقًا» وفي رواية: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا»(٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا»(٧).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١- من حديث طويل- عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢، وقال: «حديث حسن صحيح» وأحمد ٦/ ٤٥١- ٤٥٢.

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٨ وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٢٩، ٦٠٣٥، ومسلم في الفضائل ٢٣٢١، والترمذي في البر والصلة ١٩٧٥، وأحمد ٢/ ١٨٥.

(٧) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٦٢، والدارمي في الرقاق ٢٧٩٢، وأحمد ٢/ ٢٥٠.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه، قال: جاءت الأعراب فسألوا رسول الله ﷺ وقالوا: ما خير ما أعطي الناس يا رسول الله؟، قال: «خلق حسن» وفي رواية عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «أحسنهم خلقًا»(١).

وعن عمرو بن عبسة- رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وقلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»(٤).

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»(٥).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(٦).

وعن أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨٥.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة- ما جاء في معاشرة النساء ١٩٨٧، وقال «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٨.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩، ٤٥١.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٠٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٣، وابن ماجه في المقدمة ٥١.

(٧) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠.

وقد أحسن القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا(١)

وقال الآخر:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم(٢)

فما أجمل الخلق الحسن وأفضله، ويا فوز من منحه الله ذلك، فوفقه للإحسان والندى، قولًا وفعلًا وبذلًا، وكف الأذى، والصبر عليه، وطلاقة الوجه وبشاشته وابتسامته، وغير ذلك.

وينبغي أن يعلم أن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم. وقد أحسن القائل:

ببذل وحلم ساد في قومه الفتى ... وكونك إياه عليك يسير(٣)

وقد رُويَ: «أن رجلًا وعظ المأمون وأغلظ عليه في القول، فقال له المأمون: إن الله قد بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: ٤٤]»(٤).

وروي في العفو وحسن الخلق: «أن الحسن البصري قال له رجل: إن فلانًا قد اغتابك، فأرسل إليه طبقًا من الرطب، وقال: بلغني أنك أهديت إلي من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافئك بها على التمام»(٥).

وعن قتادة، قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟! كان إذا أصبح قال: «اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك»(٦).

---

(١) البيت لأحمد شوقي. انظر: «صيد الأفكار» ١/ ٤٨٨، «شعر شوقي في ميزان النقد» ص٨٥.

(٢) انظر: «الشوقيات» لأحمد شوقي ص٢٦١.

(٣) البيت من شواهد ابن عقيل في باب «كان وأخواتها» ولم ينسب لقائل. انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٣٩، «شرح ابن عقيل» ص١٣٨، «شرح الشواهد الشعرية» ١/ ٤٠٤.

(٤) انظر: «تاريخ الطبري» ٨/ ٣٥٨، «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» ٨/ ٣٢٨، «مرآة الزمان» ١٣/ ١٨٣.

(٥) انظر: «تنبيه الغافلين» للسمرقندي ص١٦٤، «الرسالة القشيرية» ١٧/ ٢٩٢، «إحياء علوم الدين» ٣/ ١٥٤، «نزهة المجالس» ١/ ١٥١.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٨٦، وعبد الرزاق في «التفسير» ١/ ٤١٣ (١٣٤). وأخرجه عن الحسن في «المصنف» ٩/ ٧٧ (١٦٤٠٨).

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له وناله منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه. فقال: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في الجنة»(٢).

فتأمل أخي الكريم وأختي الكريمة في خُلُقه ﷺ، ولنا فيه أسوة، وتأمل فيما ذكرت لك من النصوص العظيمة والله الله بالخلق الطيب الحسن تبلغ به بإذن الله أعلى الدرجات، وتسعد به في دنياك وأخراك، ويحبك الله ويحبك الناس، وتدرك من الخير والفضل من الله- عز وجل- بلاكد ولا تعب- ما لا يدركه غيرك بالصيام والقيام وبذل المال وغير ذلك، وإياك والكبر والغلظة والفضاضة والجفاء والحقد والحسد وسوء الظن وسوء الخلق فإنها من أسباب الشقاء في الدنيا والأخرة.

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، أي: فسترى وتعلم يا محمد، وسيرى ويعلم المكذبون لك الزاعمون أنك مجنون، من المفتون منكم عن الحق الضال عنه أأنت أم هم، وفي هذا وعد له ﷺ ولأتباعه، ووعيد للمكذبين له.

وأدخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ معنى العلم والإخبار.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ: ٢٤].

قال ابن القيم(٣): «و«ستبصر» مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدي بالباء، كما

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤٠.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٥١١.

تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: إن ربك يا محمد هو أعلم بالذي تاه وبعد عن طريقه عز وجل- الطريق المستقيم- وهم المكذبون لك وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو أعلم بالمهتدين من العباد، ومنهم أنت وأصحابك وأتباعك، وفيه وعد لهم، كما أن في هذا بيان لحكمته عز وجل في هداية من يصلح للهداية دون غيره قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: ١١٦، ١١٧].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

والمعنى: إن ربك هو أعلم بأنهم هم وأتباعهم الضالون عن سبيله، وهو أعلم بأنك وأصحابك وأتباعك أنتم المهتدون.

الفوائد والأحكام:

١- تحدي العرب بالقرآن وقد نزل بلغتهم؛ لقوله تعالى: ﴿نٓ﴾.

٢- إقسام المولى عز وجل بالقلم والكتابة على أنه ﷺ ليس بما أنعم الله به عليه بمجنون، وأن له أجرًا غير ممنون، وأنه على خلق عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

٣- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٤- تعظيم العلم؛ لأن الله أقسم بالقلم وما يسطر به من العلم.

٥- إثبات رسالة النبي ﷺ ونعمة الله عليه بالنبوة، ونفي ما رماه به المكذبون من الجنون؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾.

٦- عظم اجتراء المكذبين للرسل وللدعاة إلى الله برميهم لهم بأقبح الأوصاف كالجنون والسحر والكهانة ونحو ذلك.

٧- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه له بذلك وتكريمه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٨- وعد الله عز وجل لنبيه ﷺ بالأجر العظيم غير المقطوع وغير الممنون به عليه، كما يمن الخلق بما يُعطون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾.

٩- ثناء الله عز وجل على رسوله ﷺ وشهادته له بالخلق العظيم، فأعظم بها من شهادة من خير الشاهدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

١٠- وعد الرسول ﷺ والمؤمنين معه ووعيد المكذبين له بظهور حقيقة كل منهم وطمأنة الرسول ﷺ، وأن العاقبة له وللمتقين لقوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾.

١١- علم الله عز وجل التام بالضالين عن سبيله وبالمهتدين إليه، وفي هذا أيضًا وعد للمهتدين ووعيد للضالين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على نفى ما رمى به المكذبون رسوله ﷺ من الجنون، وعلى وعده ﷺ بالأجر غير المنقطع، والشهادة له بالخلق العظيم، والوعد له والوعيد لهم بأن الله سيبين لكل منهم حقيقة حاله، فهو عز وجل الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، ثم حذر النبي ﷺ من طاعتهم والتنازل معهم فيما يطلبون من المداهنة، ومن الاغترار بحلفهم الكاذب.

قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلا تطع يا محمد المكذبين من قومك وغيرهم فيما يطلبون منك من المداهنة وغير ذلك مما فيه مخالفة الشرع وهم غالبًا لا يأمرون بخير.

وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين في مواضع عدة من كتابه، كما قال تعالى في مطلع سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

ونهيه ﷺ عن طاعة المكذبين والكافرين والمنافقين نهي له ولأمته، وليس في نهيه ﷺ عن طاعة المكذبين دلالة أو إشارة إلى أنه قد يطيعهم.

وقد ذكر ابن تيمية[1] رحمه الله أن قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ الآيات تتضمن أصلين:

«أحدهما: أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين، فكان فيه فوائد:

منها: أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى فلا يطاع المكذب

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٥- ١٦.

والحلاف ولا يعمل بمثل عملها.. فإن النهي عن قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به لوجوه، منها: أن ذلك أبلغ في الإكرام والاحترام فإن قوله: (لا تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز) ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبسًا بهذه الأخلاق لما فيه من تشريفه وبراءته.

ومنها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم فليأخذ حذره، فإنه محتاج إلى مخالطتهم؛ لأجل دعوتهم إلى الله تعالى.

ومنها: أنهم يُبدون مصالح فيما يأمرون به، فلا تطع من كان هكذا، ولو أبداها، فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسدًا لم يقبل الأمر، فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلًا لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسدًا لم يردها، وهذا معنى بليغ.

والأصل الثاني أنه ذكر قسمين، المكذبين، وذوي الأخلاق الفاسدة، وذلك لوجوه:

أحدها: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح، فضده التكذيب والعمل الفاسد.

والثاني: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، منهيون عن قبول ضده وهو التكذيب بالحق والترك للصبر».

﴿وَدُّواْ﴾، أي: أحب المكذبون وتمنوا.

﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، أي: لو ترخص لهم وتلين- على حساب دينك- فيلينون، وذلك بأن تطيعهم في بعض ما يأمرونك به، أو تتنازل عن شيء من دينك، فيطيعونك في بعض ما لا يعارض أهواءهم.

أي: أحبوا ملاينته لهم بالتنازل عن بعض ما هو عليه من الحق وقبول بعض ما هم عليه من الباطل، كما قال بعضهم: «اعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة».

ولهذا امتن الله عز وجل على نبيه ﷺ بتثبيته له أمام هذه الدعوات، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وما نداءات القائلين بالتقارب بين الأديان، والتقريب بين أهل السنة والرافضة،

كما ينادي بذلك بعض المفتونين والمخدوعين، ممن لا يميزون بين الحق والباطل إلا من هذا المنبع الآسن، فإن الإيمان لا يجتمع مع الكفر، وإن السنة لا تجتمع مع البدعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾.

نهى عز وجل عن طاعة المكذبين عمومًا، ثم أكد النهي، وخص من بينهم الموصوفين بهذه الصفات القبيحة في الآيات.

قوله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾، أي: ولا تطع كل إنسان حلاف. و«حلاف»: على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حلاف في أقواله، كثير الحلف والأيمان الفاجرة الكاذبة؛ مما يدل على اجترائه على الله والاستهانة بأسمائه وصفاته.

ولهذا قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»(١).

﴿مَّهِينٍ﴾ في أفعاله، حقير ضعيف الرأي والتدبير. و«مهين» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على أنه بلغ الغاية في المهانة والحقارة، وذلك أن كثرة الحلف تدل غالبًا على ضعف الحالف وكذبه وتستره بالأيمان الكثيرة الكاذبة، كما ذكر الله عز وجل عن المنافقين ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢].

ولا أذل ولا أحقر ولا أهون ممن عصى الله وخالفه، وآثر شهوات نفسه.

﴿هَمَّازٍ﴾ على وزن «فعّال»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: كثير الهمز، وهو الاغتياب والعيب للناس والاستهزاء بهم بقوله ولسانه، وقد يكون بالفعل والإشارة(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني بسند صحيح فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر «فتح المجيد» ص٤١٦- ٤١٨.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قال ابن تيمية[١]: «فالهمز أقوى من اللمز وأشد، سواء كان همز صوت أو همز حركة، والهماز المبالغ في العيب نوعًا وقدرًا».

وقد عظم الإسلام أمر الغيبة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[٢].

﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾، أي: كثير المشي بالنميمة، والنميمة: نقل الحديث بين الناس للإفساد والتحريش بينهم.

قال ابن تيمية[٣]: «والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا، فهو عيب الضعيف العاجز، فذكر العياب بالقوة، والعياب بالضعف، والعياب في مشهد، والعياب في مغيب».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[٤].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤ـ من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء- من الكبائر أن لا يستتر من بوله ٢١٦، ومسلم في الطهارة- الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٩٢، وأبو داود في الطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣٤٧.

وفي بعض الروايات «لا يدخل الجنة نمام»[١].

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رُؤوا ذكر الله عز وجل»[٢].

ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت[٣]»[٤].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، «مناع»: كحلاف، و«مشاء» على وزن «فعال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: أنه بلغ الغاية في منع الخير، فلا يمكن أن يعمل أو يقول أو يقدم خيرًا، بل يمنع ما عليه من حقوق من الأعمال والنفقات الواجبة والزكوات والكفارات ولا يبذل شيئًا مما لديه.

﴿مُّعْتَدٍ﴾، أي: معتد على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، متجاوز العدل إلى الظلم، والحق إلى الباطل في حقوق الخلق.

﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم لمنعه الحقوق الواجبة لله وارتكابه المحرمات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن تيمية[٥]: «وأما ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُّعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، فإن الظلم نوعان: ترك الواجب، وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي».

وقال السعدي[٦]: «﴿مُّعْتَدٍ﴾ على الخلق بظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب- ما يكره من النميمة ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان- بيان غلظ تحريم النميمة ١٠٥، وأبو داود في الأدب- باب القتات ٤٨٧١، والترمذي في أبواب البر- ما جاء في النمام ٢٠٢٦، وأحمد ٥/ ٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩١.

(٢) أي: أنهم يذكّرون بالله عز وجل بكثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة خوفهم وخشيتهم وتقاهم وورعهم.

(٣) أي: الذين يطلبون للبريء المشقة، بحيث يرمونه بما ليس فيه.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزهد- من لا يؤبه به ٤١١٩، وأحمد ٦/ ٤٥٩.

وأخرجه أحمد أيضًا: ٤/ ٢٢٧- من حديث عبدالرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ.

(٥) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٦) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٤٦- ٤٤٧.

﴿أَثِيمٍ﴾، أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله».

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العتل: هو الفظّ الغليظ الجافي، شرس الخُلُق، الذي لا ينقاد للحق.

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر، وفي رواية «كل جواظ جعظري[١] مستكبر» وفي رواية: «كل جَّواظ زنيم متكبِّر»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع»[٣].

وقد وردت عدة أحاديث مرسلة وعدة آثار عن السلف أن العتل أيضًا هو الشديد الخلق صحيح الجسم الأكول الشروب الظلوم للناس[٤]. وهو بمعنى ما سبق.

﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيم: ولد الزنا، الملحق بالقوم الملصق بهم وليس منهم، اللئيم المريب، المشهور بالشر والظلم من شدة تجبره وغلظته.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ قال: «الدعيّ، الفاحش اللئيم»[٥].

قال الشاعر:

زنيم تداعاه الرجال زيادة ... كما زيد في عرض الأديم الأكارع[٦]

---

(١) الجواظ: الجموع المنوع، وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل القصير البطين. الجعظري: الفظ الغليظ، وقيل هو الذي ينتفخ بما ليس عنده، وفيه قصر. انظر: «لسان العرب»: مادة «جعظر» ومادة «جوظ».

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٥، وابن ماجه في الزهد ٤١١٦، وأحمد ٤/ ٣٠٦.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٩، ٢١٤.

(٤) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٦١- ١٦٤، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٦٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٥.

(٦) البيت ذكره ابن فارس في مقاييس اللغة، وابن منظور في «اللسان» مادة «زنم» ونسبه إلى الخطيم التميمي الجاهلي.

وقال حسان رضي الله عنه[١] في ذم بعض المشركين:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال الآخر:

زنيم ليس يعرف من أبوه بغيّ الأم ذو حسب لئيم[٢]

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «عتل بعد ذلك زنيم» قال: رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة»[٣][٤].

قال ابن كثير[٥] بعد أن ذكر قول ابن عباس السابق: «ومعنى هذا أنه كان مشهورًا بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها».

وقال أيضًا[٦] بعد سياق كثير من الأقوال: «والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به بين الناس، وغالبًا يكون دعيًا ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه، ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث «لا يدخل الجنة ولد زنا»[٧] وفي الحديث الآخر «ولد الزنا شر الثلاثة»[٨].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «هو أشر الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه يعني ولد الزنا»[٩].

قال ابن تيمية[١٠]: «ويشبه- والله أعلم- أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد، وهو في الأقوال وما يتبعها من الأفعال، والمناع المعتدي الأثيم العتل

---

(١) انظر «ديوانه» ص١١٨.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٦٤.

(٣) زنمة الشاة: شيء يقطع من أذن الشاة، ويترك معلقًا بها. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «زنم».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٧.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ٢١٩.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ٢٢١.

(٧) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٣- من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه أبو داود في العتق- عتق ولد الزنا ٣٩٦٣، وأحمد ٢/ ٣١١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) أخرجه أحمد ٦/ ١٠٩.

(١٠) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

الزنيم من جنس واحد، وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال، فالأول الغالب على جانب الأعراض، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك».

فجمع الله عز وجل في وصف هذا الذي نهى نبيه ﷺ عن طاعته أقبح الصفات، فهو كثير الحلف، حقير مغتاب للناس، ساع بنقل الكلام بينهم بقصد الإفساد والتحريش بينهم، مناع لما عليه من حقوق لا يعمل ولا يقدم شيئًا من الخير، متجاوز الحلال إلى الحرام، والعدل والحق إلى الظلم والباطل، كثير الإثم، تارك للواجبات، مرتكب للمحرمات فظ غليظ جاف جموع منوع، زنيم ملحق ملصق في قوم وليس منهم.

فهذه تسع صفات تدل على إغراقه في الشر وبعده عن كل خير، وأنه وصل إلى الغاية العظمى في ذلك؛ لأن الذي وصفه بهذه الصفات ونعته بها هو العليم الخبير سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، فبعدًا لمن هذه صفاته وسحقًا.

وإذا سبرت أحوال المسلمين وجدت كثيرًا منهم لا يخلو من بعض هذه الصفات، مما يوجب علينا جميعًا محاسبة النفس في استعمال ما منحنا الله عز وجل من الجوارح الظاهرة والباطنة في طاعة الله، وفيما خلقت له، والبعد بها عما يسخط الله، ومحاسبة النفس في أداء الحقوق، وبذل الخير، والبعد عن الحرام والظلم والإثم، والغلظة والفظاظة والله المستعان.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: «أأن كان» بهمزتين على الاستفهام للتوبيخ والتقريع.

وقرأ الباقون: ﴿أَن كَانَ﴾ بهمزة واحدة على الخبر، أي: بسبب أن كان ذا مال وبنين. أي: بسبب إنعامنا عليه بالمال والبنين.

وقوله: ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾، أي: صاحب مال وبنين. فاغتر بماله وبنيه قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والمعنى: مقابل إنعامنا عليه بالمال والبنين اتصف بهذه الصفات المذمومة السابقة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾، أي: إذا قرئت عليه آياتنا الشرعية القرآن الكريم قال عنها.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: كذب بها وكفر، وقال: هي مما سطره الأولون من

الحكايات والخرافات التي لا تكاد تَصْدُق.

كما قال تعالى عنه في سورة المدثر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١١- ٢٦].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، أي: سنذله غاية الإذلال، وسنجعل له وسمًا يعرف به، حتى يتبين أمره ويفتضح، والوسم: ما يوضع على الشيء من علامة تميزه عن غيره، ومنه وسم بهيمة الأنعام: الإبل والبقر، والضأن والمعز بعلامة يعرفها بها صاحبها وغيره.

﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، أي: على الأنف؛ لأنه أبين وأرفع الوجه.

والمعنى: سنجعل فيه علامة سيئة على أنفه يشهّر به فيها، ونسوِّد وجهه ونبين أمره بيانًا واضحًا ونفضحه على رؤوس الخلائق كما قال تعالى في المنافقين ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٠]».

قال ابن تيمية(١): «قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضًا، فإن الله جعل للصالحين سيما، وجعل للفاجرين سيما، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]».

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين كالوليد بن المغيرة أو غيره فإنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفات؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين، وهو نهي له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢- تمني المكذبين ومحبتهم ملاينة الرسول ﷺ لهم وملاينتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

٣- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ- وهو نهي له ولأمته- عن طاعة كل من كان كثير الحلف حقيرًا ضعيف الرأي، ينتقص الناس بقوله وفعله، ويمشي بينهم بالنميمة، مناعًا للخير، معتديًا على الخلق، تاركًا للواجبات، مرتكبًا للمحرمات، كثير الإثم، فظًا غليظًا، جافيًا كثير الشر، مغترًا بماله وبنيه، رادًّا للحق، زنيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

٤- وجوب الحذر من الاتصاف بالصفات الذميمة المذكورة في الآية.

٥- ينبغي عدم الاغترار بالمال والبنين لقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

٦- الوعيد للموصوف بتلك الصفات الذميمة سواء كان هو الوليد بن المغيرة أو غيره بوضع وسم وعلامة على أنفه تشهيرًا به بين الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمدًا ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾».

قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

وضمير الغيبة في قوله: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين للرسول ﷺ من قومه.

والابتلاء: الامتحان، و يكون بالخير والشر، كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[2]

أي: امتحناهم فيما أنعمنا عليهم من الخير من بعثة محمد ﷺ وبما أوجبنا عليهم من التكاليف ليثابوا عليها كما امتحناهم بما أغدقنا عليهم من النعم وبما أمددناهم به من الأموال والأولاد والإمهال استدراجًا لهم.

﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾، أي: كما امتحنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: أصحاب البستان. وسمي البستان جنة؛ لأنه يُجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة الكثيرة وثماره، كما قال تعالى:

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣].

وأصحاب الجنة هؤلاء هم نفر من بني إسرائيل امتحنهم الله عز وجل بأن ملكهم هذه الجنة التي ورثوها عن والدهم.

قال الإمام أحمد: «هذه مدينة ضروان قد مررت بها، وهي قريبة من عبد الرزاق، رأيتها سوداء حمراء، أثر النار تبين منها، ليس فيها أثر ولا زرع ولا خضرة»(١).

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، «إذ» ظرف بمعنى: «حين»، أي: حين حلفوا.

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والصرم: الجذاذ والقطع، أي: ليقطعنها ويجذّن ثمرها.

﴿مُصْبِحِينَ﴾: حال، أي: حال كونهم مصبحين، أي: داخلين في **الصباح- وذلك** اغترارًا منهم.

قال ابن كثير(٢): «أي: حلفوا فيما بينهم ليجُذُّنّ ثمرها ليلا لئلا؛ يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء».

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل، والحصاد في الليل»(٣).

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ حصة المساكين، أو، ولا يستثنون في حلفهم، أي: لم يقولوا: إن شاء الله؛ ولهذا حنّثهم الله في أيمانهم، فأهلكها، قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾، أي: فنزل بها بلاء محيط، وطرقها طارق ليلًا من أمر الله تعالى وعذابه.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: أصابتها آفة سماوية فأحرقتها حال كونهم نائمين.

فالمصائب والبليات والرزايا أكثر ما تصيب الناس وهم على غرة غافلون.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ٣/ ١٠٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٣.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

وقد قيل:

يا راقد الليل مسرورًا بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لا تفرحن بليل طاب أوله ... فرب آخر ليل أجج النارا(١)

وقال الآخر:

هي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكًا لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب ... يُرمى بأفجع حتفٍ من بهن رُمي(٢)

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾، أي: فأصبحت كالليل الأسود البهيم من شدة الاحتراق، أو كالهشيم اليابس وبقية الثمر المصروم، والزرع المحصود.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقًا قد كان هيء له» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ قد حُرموا خير جنتهم»(٣).

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾، أي: فتنادوا وقت الصباح، أي: نادى بعضهم بعضًا، قائلين:

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾، أي: هيا اذهبوا إلى حرثكم، قال مجاهد: «كان حرثهم

---

(١) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي. انظر: «ديوانه» ص٥٦.

(٢) الأبيات لأبي عبد الله الغفيلي. انظر: «نفح الطيب» ٤/ ٥٢٩.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٣ ونسبه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

عنبًا»(١).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾، أي: إن كنتم عازمين على الصرام والجذاذ، ولم يعلموا ما طاف بجنتهم وما حل بها من العذاب.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾، أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم، ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ الواو: حالية. والمخافتة: المسارة بالكلام، أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم لجذاذها حال كونهم يتناجون سرًا فيما بينهم- خوفًا أن يسمعهم أحد- بمنع حق الله تعالى فيها، قائلًا بعضهم لبعض:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾، أي: ينبغي أن لا يدخلن جنتكم اليوم، أي: يوم صرمها.

﴿عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، أي: فقير محتاج يطلب منكم الصدقة والإحسان إليه منها، أو يلتقط ما يتساقط من ثمرها.

ومن شدة حرصهم وبخلهم مخافتتهم بهذا الكلام؛ خوفًا أن يسمعهم المساكين أو من يخبرهم.

﴿وَغَدَوْا۟﴾ ساروا غدوة إلى حرثهم قبل انتشار الناس، حتى لا يراهم أحد.

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾، أي: على إمساك ومنع لحق الله وحق المساكين وانفراد عنهم.

﴿قَٰدِرِينَ﴾ جازمين بقدرتهم على ذلك، حسب زعمهم واعتقادهم.

فظنوا أنهم بما أضمروه من جذاذها ليلا ومنع المساكين من دخولها قادرون على الحفاظ عليها وحيازتها، فأحاط بها من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال بسبب سوء نيتهم، بل وتصميمهم وعزمهم على منع حق الله تعالى فيها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي: فلما وصلوا إليها، وشاهدوها على الوصف الذي ذكر الله ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ قد تبدلت خضرتها ونضارتها بالسواد.

﴿قَالُوٓا۟﴾ من شدة الحيرة والانزعاج والذهول: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي: تائهون عنها أخطأنا طريقها، فليست هذه بجنتنا، وذلك لِما شاهدوا من البون الشاسع بين حالتها

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٤ ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

بالأمس وحالها اليوم.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قالوا: هذا بعد أن تيقنوا أن هذه هي جنتهم استحالت هكذا، أي: بل هذه هي، حرمنا خيرها وثمرتها عقوبة لنا على سوء قصدنا.

وفي الحديث «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(١).

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، أي: أعدلهم وخيرهم وأصوبهم رأيا وأحسنهم طريقة.

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام ومعناه التوبيخ: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، «لولا» للتحضيض، أي: ألم أقل لكم هلا تسبحون.

ومعنى ﴿تُسَبِّحُونَ﴾، أي: تنزهون الله عما لا يليق به بقولكم: «سبحان ربنا، سبحان الله»، ومن ذلك أيضًا أن تستثنوا في يمينكم فتقولوا: والله لنصرمنها مصبحين إن شاء الله، فهذا من تعظيم الله عز وجل وتنزيهه أن يقع ما لا يريده.

أو هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم بأداء حق الله تعالى فيه، ومنه حق المساكين لأن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ سبحوا الرب ونزهوه وندموا حيث لا ينفع الندم، وبعد أن وقع على جنتهم العذاب الذي لا يرفع.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: أقروا بظلمهم، أي: إنا كنا ظالمين لأنفسنا بترك تسبيح الله والاستثناء في اليمين، وبسوء نياتنا في حرمان المساكين، وظالمين للمساكين بمنع حقهم

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾، أي: أخذ بعضهم يلوم بعضًا على ما حصل منهم، قائلًا بعضهم لبعض تخويفًا:

﴿يَا وَيْلَنَا﴾ الويل: كلمة تهديد ووعيد، أي: يا شدة عذابنا، أو ما أشد عذابنا، فلام بعضهم بعضًا على فعلهم، وتوقعوا عقوبة أشد مما وقع بهم وأعظم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠٢٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، أي: إنا كنا متجاوزين الحق والعدل إلى الباطل والظلم.

فأقروا واعترفوا بذنبهم وخطئهم، وأن ما أصابهم بسبب طغيانهم واعتدائهم وبغيهم، وظلمهم للمساكين.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾، «عسى» للترجي، أي: نرجو ربنا خالقنا ومالكنا والمتصرف فينا أن يبدلنا ويعوضنا خيرًا من جنتنا التي صارت كالصريم.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾، أي: إنا راغبون في التقرب إلى ربنا، وطاعته وترك مخالفته تائبون إليه، وراغبون فيما عنده من الخير الدنيوي والأخروي، وبأن يعوضنا عن جنتنا خيرًا منها في الدنيا، ويثيبنا على خسارتنا فيها وما فاتنا من ثمرتها.

ويحتمل أنهم أرادوا خيرًا منها في الآخرة، ويحتمل الأمران.

قال السعدي(١): «فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا ورغب إليه ورجاه أعطاه سُؤْله»،

ولعل من أسباب توفيق الله لهم إلى التوبة صلاح أبيهم الذي كان يأكل ثلث الثمرة ويتصدق بثلثها ويرد فيها ثلثًا، فإن صلاح الآباء قد ينفع الأولاد.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ الكاف: صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي أهلك الله به حرثهم يعذب من عصى الله وخالف أمره ولم يشكره، ومنع حق الله فيما آتاه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال ابن تيمية(٢): «وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلخ فيه بيان حال البخلاء، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال، إما إغراقًا، وإما إحراقًا، وإما نهبًا، وإما

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥١.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٨.

مصادرة، وإما في شهوات الغي، وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء، الذين يمنعون الحق، وليس لهم إقدام في صنايع المعروف، وهو قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وهو أحد نوعي الظلم، كما أخبروا به عن نفوسهم في قوله: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾، وكما قال ﷺ: «مطل الغني ظلم»(١). فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر يذهب فيه أضعاف أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة».

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الواو: عاطفة، و«اللام» لام الابتداء والتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، مهما كان عذاب الدنيا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، «لو» شرطية، أي: لو كانوا يعلمون علمًا ينفعهم أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فيعملون على اتقائه والخلاص منه، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون.

وفي هذا وعيد للمكذبين للرسول ﷺ من قومه، الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم في بعثته ﷺ فيهم، ووعيد لكل من كفر بالله، أو بنعمه، ولم يؤد شكرها وحق الله فيها.

وقد ذكر المفسرون- رحمهم الله- أن أصحاب هذه الجنة كانوا من أهل الكتاب،

---

(١) أخرجه البخاري في الحوالات ٢٢٨٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٣٤٥، والنسائي في البيوع ٤٦٨٨، والترمذي في البيوع ١٣٠٨، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكانوا ورثوها من أبيهم، وكان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان يقسم ما يخرج منها أثلاثًا، يأكل منها ثلثًا، ويتصدق بثلث، ويرد فيها ثلثا، فلما مات وورثها عنه بنوه فخالفوا هذه السيرة الحسنة، وعزموا على منع المساكين من دخولها وأكل حقهم فيها، وحيازة ثمرها كله لهم، واتهموا أباهم بالحمق وسوء التصرف، فعوقبوا بنقيض قصدهم، فأحاط بها كلها من أمر الله ما أحاط بها، فخسروا رأس المال والربح والصدقة، ولم يبق لهم شيء.

وهكذا عاقبة من منع حق الله الذي شرعه في المال من حق الفقراء والمساكين وغيرهم من الصدقات والنفقات وغير ذلك؛ لأن حق الله الذي جعله في المال قليل من كثير، فمن منعه وشح به فقد عرض نفسه لمحق البركة وتلف القليل والكثير، مع العذاب الأخروي.

ولهذا جاء في الأثر: «ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة»(١).

والشواهد على هذا من الواقع كثيرة فإن من أخذ المال من طرق حلال، وأنفقه في الحلال، وأدى حق الله فيه للفقراء والمساكين وغيرهم بارك الله له في ماله وسعد به في دنياه وأخراه، بخلاف من منع حق الله في ماله، فإن ذلك يكون سببًا لمحق بركته، بل سببًا لتسلط الآفات السماوية والأرضية عليه، وتسلط أهل السطو والسرقات عليه.

فالحقوق الواجبة في المال من الزكاة والنفقات والصدقات وغيرها إذا أخرجت من المال زكته وزادته نماءً وبركة، وإن تركت فيه كانت سببًا لمحق بركته وتلفه، مع العقوبة الشديدة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١/ ٢٤- من حديث عبادة بن الصامت- رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» ٦/ ٥٢٥.

القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار..»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ابتلاء الله للكفار والمكذبين بما آتاهم من الأموال والأولاد مما حملهم على التكذيب والكفر والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾.

٢- أن الابتلاء يكون بالخير والشر.

٣- أن كفر النعم وعدم شكرها سبب لزوالها، وهكذا حصل لأصحاب الجنة المذكورة لما عزموا على منع حق المساكين فيها، وأقسموا على ذلك أهلك الله حرثهم، وقد حفظها الله عز وجل لأبيهم في حياته لشكره وأدائه حق الله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات.

٤- وجوب الحذر من فتنة المال مما يحمل على منع حق الله فيه وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.

٥- مشروعية الاستثناء باليمين حتى لا يقع الحالف في الحنث فيأثم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.

٦- عظم عقوبات الله تعالى وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾.

٧- وجوب الاعتماد على الله وحوله وقوته، والبراءة من اعتماد الإنسان على حوله وقوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بها؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن المصائب والرزايا أكثر ما تقع على الناس في ساعة الغفلة والاغترار؛ لقوله

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٥٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

١٠- حرمان الإنسان الرزق بسبب الذنب يصيبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

١١- الحذر من سوء النية والقصد وخطورة ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

١٢- في قصص المبتلين وعقوبات العاصين عظة وعبرة لمن يعتبر.

١٣- توفيق الله عز وجل لأصحاب الجنة بعد هلاك جنتهم إلى الندم وتسبيح الله عز وجل والاعتراف بظلمهم وإقبال بعض على بعض يتلاومون والإقرار بطغيانهم وسؤالهم الله عز وجل أن يبدلهم خيرًا منها ورغبتهم إليه سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

١٤- وجوب التوبة إلى الله عز وجل، وإثبات ربوبية الله الخاصة لمن تاب وأناب إليه؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

١٥- الوعيد والتهديد بالعذاب الدنيوي والأخروي لكل من كفر نعم الله من أهل مكة وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

١٦- أن عذاب الآخرة لمن كفر نعم الله وعصاه ولم يشكره أشد من عذاب الدنيا وعقوباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

١٧- الحض والحث على العلم الذي ينفع صاحبه في الآخرة وهو العلم بالله عز وجل وما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

نهى الله عز وجل عن طاعة المكذبين وبين أنه ابتلاهم بما أنعم به عليهم من النعم وأعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، كما ابتلى أصحاب البستان الذين منعوا حق الله فيه، فأحاط به من أمر الله ما أحاط به، عقوبة عاجلة وعذابًا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لمن عصى الله وكفر نعمه، ولم يؤد حق الله فيها، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من جنات النعيم التي لا تفنى ولا تعتريها الآفات، وأنهم لا يستوون مع المجرمين المكذبين والرد على من زعم ذلك، أو طمع فيه، وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك أداء ما عليهم من حقوق وواجبات بدنية أو مالية.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أضاف اسم الرب أو وصفه إلى الضمير العائد إلى المتقين تشريفًا وتكريمًا لهم، وإشارة لضمان ذلك لهم؛ لأن الرب هو الخالق المالك المتصرف.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي:المنازل التي أعدها الله لهم، وسماها ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لما فيها من ألوان النعيم والنعم، ولما فيها من البساتين والأشجار والثمار، ولما فيها من أنواع التنعم، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتقريع، والنفي.

أي: أفنساوي بين المسلمين والمجرمين في الجزاء الدنيوي والأخروي، أي: لا يمكن أن نساوي بينهم؛ لأن حكمة الله عز وجل تأبى ذلك، وكذا عدله سبحانه،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ - من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

فللمسلمين النعيم والثواب، وللمجرمين العذاب والعقاب.

والمراد بالجعل هنا الجعل الشرعي الجزائي و«المسلمين» هم الذين استسلموا لله عز وجل وانقادوا له بجوارحهم الظاهرة والباطنة وهم المتقون.

و«المجرمين» هم الذين ارتكبوا الجرائم وخالفوا أمر الله ونهيه، وكذبوا رسله.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، «ما»: استفهامية، أي: كيف تحكمون بهذا الحكم، وتظنونه، فشتان بين من اتقى الله واستسلم له، وانقاد ظاهرًا وباطنًا، وبين من عصى الله وخالف أمره وارتكب نهيه في الجزاء الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام التي للتوبيخ والتقريع، أي: بل، ألكم كتاب منزل من عند الله فيه تقرؤون، فأخذتم منه هذا الحكم الجائر.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، أي: إن لكم في هذا الكتاب للذي تختارون لأنفسكم وتشتهونه.

والجواب: ليس لكم ولا عندكم كتاب أخذتم منه ذلك، فليس لكم ما تخيرون.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، «أم» كالتي قبلها، ومثلها التي بعدها، أي: بل، ألكم علينا ﴿أَيْمَانٌ﴾، أي: عهود ومواثيق ﴿بَالِغَةٌ﴾، أي: مؤكدة مستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تضمن وتتكفل ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، أي: للذي تحكمون به لأنفسكم وتختارونه وتريدونه لها.

أي: ليس لكم علينا عهود ومواثيق بذلك، فليس لكم ما تحكمون.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾، «الزعيم»: الكفيل الضامن، أي: سلهم يا محمد أيهم المتكفل الضامن أن المسلمين كالمجرمين في الجزاء، وأن للمجرمين ما يتخيرون وما يحكمون حتى يتبين ضعف هذا الادعاء وهذا الظن، إذ لا أحد يتكفل لهم بهذا ويضمنه لهم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: بل، ألهم شركاء من الأصنام والأنداد أشركوهم مع الله، فتكفلوا لهم بذلك وضمنوه لهم.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾، أي: فليأتوا بهؤلاء الشركاء ويحضروهم؛ ليعطوهم ما تكفلوا به لهم.

﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾، أي: إن كانوا صادقين في زعمهم ودعواهم أن لهم ما يتخيرون وما يحكمون به لأنفسهم، أو إن كان هؤلاء الشركاء صادقين.

وكل ما ذكر منتف عنهم فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله، ولا لهم شركاء يستطيعون تحقيق ذلك لهم فدعواهم فاسدة وحكمهم باطل.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله للمتقين وبشارتهم بما أُعد لهم عند ربهم من جنات النعيم وفي هذا ترغيب بتقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة للمؤمنين وتشريفهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٣- شتان بين المسلمين وبين المجرمين فيما أعد الله لكل منهم فالمسلمون لهم السعادة وجنات النعيم، والمجرمون لهم الشقاء وعذاب الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾.

٤- كمال عدل الله عز وجل، وقيام أحكامه الكونية والشرعية والجزائية على العدل بأكمل صوره وأسمى معانيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الإخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

٥- خطأ المكذبين والمجرمين وضعف رأيهم وبطلان معتقدهم في التسوية بين المسلمين والمجرمين، وأن لهم ما يتخيرون وما يحكمون، فليس لهم ما يحكمون وما يتخيرون، ولا حجة لهم على ذلك ولا دليل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٦- تحدي المكذبين بأن يأتوا بمن يضمن لهم ما ادعوه وحكموا به لأنفسهم من زعيم أو شريك، وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

٧- خذلان الشركاء يوم القيامة وبراءتهم ممن أشركوهم مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لما ذكر الله عز وجل أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، وأنه لا يمكن أن يَجعل المسلمين كالمجرمين في الجزاء، بل لكل جزاؤه، فللمسلمين الثواب، وللمجرمين العقاب، أتبع ذلك ببيان متى يكون ذلك فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآيات.

قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، «يوم» ظرف زمان متعلق بما قبله، أي أن جزاء المتقين بجنات النعيم، وجزاء غيرهم بما يستحقون يكون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا»(١).

وهذا الحديث أولى ما تفسر به الآية فيكون معناها: يوم يكشف الله عز وجل عن ساقه.

ويؤخذ منها ومن الحديث إثبات الساق لله عز وجل وكشفه ذلك اليوم، كما يليق بجلال الله وعظمته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ولا ينافي هذا ما جاء عن بعض السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، أي: يوم يكشف عن ساق الجد، أي: يوم الكرب الشديد، والهول الفظيع، والأمر الشديد(٢)، كما يقال: كشفت الحرب عن ساقيها قال حاتم الطائي(٣):

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٩، ومسلم في الإيمان ١٨٢.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٣/ ١٨٦- ١٩٦.

(٣) انظر: «ديوانه» ص ٥٠.

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

فالآية تحمل على هذا وهذا ولا تنافي بينهما، وكل ما ذكر يحصل يوم القيامة وأشد منه.

وقد مال ابن تيمية وابن القيم(١)- رحمهما الله- إلى أن ظاهر القرآن لايدل على إثبات صفة الساق لله- عز وجل؛ لأن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله ولم يقل: عن ساقه، وإنما الذي يدل على ذلك حديث أبي سعيد.

والذي يظهر- والله أعلم- من سياق الآية والحديث أن الحديث شرح وتفسير للآيه، وبهذا تجتمع الآيه مع الحديث، في الدلالة على هذه الصفة.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: ويطلب من المجرمين تبكيتًا لهم أن يسجدوا كالمؤمنين فلا يقدرون عليه ولا يستطيعون الانحناء- لتصلب ظهورهم-.

كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وذلك؛ لأنهم امتنعوا عن السجود لله عز وجل وتوحيده في الدنيا يوم أن كان ذلك باستطاعتهم وينفعهم فعوقبوا بهذا، والجزاء من جنس العمل.

والسجود في الأصل يطلق على الانقياد والخضوع مطلقًا، ويطلق على الصلاة كلها كما في قوله: ﴿أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: إذا صلت الطائفة الأولى فليكونوا من ورائكم يحرسون.

ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة كما هو المشهور وهو المراد في الآية هنا.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: ذليلة منكسرة خاضعة أبصار المكذبين والمجرمين يوم القيامة.

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾، أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾، أي: ذل وخوف وهوان وصغار.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ الواو: حالية و«قد»: للتحقيق.

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ الواو أيضًا: حالية، أي: والحال أنهم قد كانوا يطلب منهم السجود حال كونهم سالمي الأعضاء فلا يسجدون، فعوقبوا بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٩٤، «الصواعق المرسلة» ١/ ٢٥٢.

قال ابن كثير[١]: «ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون».

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و«من» موصولة، والمراد بالحديث: القرآن، أي: فدعني يا محمد واتركني والذي يكذب بهذا القرآن، ولا تستعجل له، فأمره إليّ في حياته وبعد مماته، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن كذب بالقرآن، وتقوية لقلب النبي ﷺ، وتسلية له، ودفاع عنه.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ هذا مما توعدهم الله به في قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾؛ وذلك باستدراجهم والكيد لهم؛ ليتمادوا في غيهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومعنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: نأخذهم شيئًا فشيئًا من حيث لا يعلمون، وذلك بتمتيعهم في الدنيا بالأموال والأولاد والأرزاق والأعمال والأعمار ليتمادوا في طغيانهم، ثم نأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، أي: أمهلهم وأنظرهم وأمدهم؛ لكي يتمادوا في غيهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ الكيد: المكر بخفية، أي: إن مكري الخفي.

﴿مَتِينٌ﴾، أي: عظيم لمن كذب رسلي وكتبي، فكيف بمن كذب أفضل رسلي محمدًا ﷺ وأعظم كتبي القرآن الكريم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمعنى: أني أمهلهم وأنظرهم، بل وأمدهم لكي يتمادوا في غيهم، ولا أهملهم، بل

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٥-٢٢٦.

أكيد لهم في الخفاء، وأمكر بهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر.

كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، «أم» هي المنقطعة، أي: بل أتسألهم أجرًا يعني على تبليغك الرسالة لهم؟

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾، أي: فهم من هذا الغرم وهو الأجر الذي طلب منهم.

﴿مُّثْقَلُونَ﴾، أي: أثقلهم هذا الغرم وعجزوا عن حمله، وحال ذلك بينهم وبين الاستجابة لدعوتك. والجواب: أنك لم تسألهم على ذلك أجرًا، فلماذا لا يستجيبون؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، أي: بل أعندهم الغيب، أي: أعندهم علم ما غاب عن الحواس من الغيبيات الموجودة، والسابقة واللاحقة من أحوال وأمور الدنيا والآخرة وعلم اللوح المحفوظ؟

﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون، وأنهم على كفرهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان، وأنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله.

والجواب: أنه ليس عندهم علم الغيب فيكتبوا لأنفسهم ما يريدون، بل الغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: ٦٥].

وإذا لم يكن عندهم علم الغيب، فلماذا يكذِّبون رسل الله وكتبه، وهو عالم الغيب

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

والشهادة وهو العليم الخبير.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الساق لله عز وجل على ما يليق بجلاله، كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه المتفق على صحته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

٢- شدة أهوال يوم القيامة وكربه.

٣- عقوبة المجرمين الكافرين بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة؛ لأنهم لم يسجدوا لله في الدنيا مع قدرتهم على ذلك، وفي هذا فضيحة وتوبيخ لهم، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

٤- انكسار وذل أبصار المجرمين يوم القيامة وهوانهم وصغارهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

٥- الوعيد والتهديد للمكذبين بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

٦- استدراج المكذبين وإمهالهم ثم أخذهم بشدة على غفلة منهم وغِرّة؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

٧- أن الله عز وجل يكيد لمن كاد لدينه ولأوليائه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

٨- انقطاع حجج المكذبين وأعذارهم، فلم يسألهم النبي ﷺ أجرًا مقابل تصديقهم به وبما جاء به فيحتجون بثقل هذه الغرامة، ولم يكن لديهم علم الغيب فيكتبون لأنفسهم ما يريدون ويختارون لها ما يشتهون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في الآيات السابقة أن يترك أمر المكذبين إليه سبحانه فقال: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الآيات وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه، ثم أمره بالصبر لحكم الله، ومن ذلك الصبر على أذاهم.

قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الأمر والخطاب للنبي ﷺ، والصبر في اللغة: الحبس، أي: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

وحكم الرب ينقسم إلى أقسام ثلاثة: حكم كوني، وحكم شرعي، وحكم جزائي.

أي: فاصبر لحكم ربك الشرعي في تبليغ رسالته وعبادته، واصبر لحكمه الكوني فيما ينالك من أذى قومك وغير ذلك.

قال ابن تيمية(١): «وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية، والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضبًا لربه لأجل الأمر السماوي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض والغضب والأذى فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم».

وقال السعدي(٢): «﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: لِما حكم به شرعًا وقدرًا، والحكم القدري يُصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد لأمره».

وأضاف عز وجل حكمه إلى اسمه عز وجل «الرب» الذي معناه الخالق المالك المدبر إشارة إلى أن الأمر له في ذلك كله.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٩.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥٤.

﴿وَلَا تَكُن﴾، أي: ولا تكن في الاستعجال والمغاضبة وقلة الصبر.

﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متّى عليه الصلاة والسلام- حين غضب على قومه، ولم يصبر، وذهب متجها إلى البحر، وركبه وما جرى له في ذلك حيث اقترع أهل السفينة لما ثقلت بهم واشتدت بهم الأمواج أيهم يُلقى لئلا يغرقوا، فوقعت القرعة عليه أكثر من مرة ابتلاءً من الله له، فألقوه فالتقمه الحوت وهو مليم.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، أي: إذ نادى ربه ودعاه، ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مكظومًا.

ومعنى ﴿مَكْظُومٌ﴾، أي: مغموم مكروب، قد امتلأ همًا وحزنًا، في بطن الحوت، وغمرات اليم بعد ما التقمه الحوت وغاص به في لجج البحر.

قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾»(١).

والمراد: لا تكن مثله في الاستعجال والمغاضبة، وليس النهي عن كونه مثله في مناداة ربه، فإن الله أثنى عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه بسببه فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، «لولا»: شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: لولا أن أدركه نعمة من ربه، ولطف منه عز وجل، فرحمه وتاب عليه.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: تعظيم لهذه النعمة؛ لأنها من «ربه»؛ خالقه ومالكه ومدبره.

وفي إضافة «الرب» أو وصفه إلى ضميره تشريف وتكريم ليونس- عليه السلام.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، وأحمد ١/ ١٧٠.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾، أي: لطرح في الأرض الفضاء الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مذمومًا غير ممدوح، مليمًا بذنب، لكن الله عز وجل تداركه بنعمته ولطف به برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى؛ ولهذا قال:

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحمًا، ولا تكسر عظمًا، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبَّح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة؟ قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين» فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يارب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لايارب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مجابة؟ قال: نعم، قالوا: يارب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء»(٢).

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: استخلصه ربه واصطفاه واختاره ونقاه من كل كدر.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٦٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦٤ في تفسير سورة الأنبياء.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بتوفيقه وتقديره الشرعي والكوني.

﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المرسلين المخلصين العبادة له- سبحانه- وفق شرعه وأمره ونهيه الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فصارت حاله خيرًا وأحسن من حاله الأولى.

كما صارت حال آدم وزوجه عليهما السلام بعد توبتهما أفضل من حالهما قبل الذنب والأكل من الشجرة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»(١).

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الواو: استئنافية، أي: ويقارب الذين كفروا بالله وكذبوا رسله.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «ليَزلقونك» بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾.

أي:لينفذونك بأبصارهم، أي ليصيبونك بأعينهم ويصرعونك من شدة نظرهم إليك وحسدهم وحنقهم وغيظهم، لولا حفظ الله لك وحمايته إياك منهم.

وهذا غاية ما يقدرون عليه من الأذى له ﷺ، والله حافظه وناصره، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾، أي: حين سمعوا القرآن منك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية دليل على أن العين حق، لكن إصابتها وتأثيرها بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث من طرق متعددة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٧، وأبو داود في السنة ٤٦٦٩، وأحمد ١/ ٣٩٠.

القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسلوا»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»[٢].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام»[٤].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم»، قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[٥].

وعنه رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك»[٦].

وعن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف قال: «مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنيف وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لُبِطَ به[٧] فأُتي به النبي ﷺ فقيل

---

(١) أخرجه مسلم في السلام- باب الطب والمرض ٢١٨٨، والترمذي في الطب ٢٠٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الطب- باب العين حق ٥٧٤٠، ومسلم في الباب السابق ٢١٨٧، وابن ماجه في الطب، باب العين ٣٥٠٧، وأحمد ٢/ ٣١٨- ٣١٩، ٤٨٧.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الطب ما جاء أن العين حق والغسل لها ٢٠٦١، وأحمد ٢/ ٢٨٩، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء- ما جاء في الرقية من العين ٣٣٧١، وأبو داود في السنة ٤٧٣٧، والترمذي في أبواب الطب ٢٠٦٠، وابن ماجه في الطب ٣٥٢٥.

(٥) أخرجه مسلم في السلام- الطب والمرض والرقى ٢١٨٦، والترمذي في الجنائز- ما جاء في التعوذ للمريض ٩٧٢، وابن ماجه في الطب- من استرقى من العين ٣٥٢٣، وأحمد ٣/ ٢٨، ٥٦، ٥٨، ٧٥.

(٦) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢١٣٥، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٧) أي: صرع وسقط إلى الأرض.

له أدرك سهلًا صريعًا، قال: «من تتهمون به»؟ قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامرًا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين»(٢).

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق»(٣).

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: يا رسول إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا حسد، والعين حق»(٥).

فهذه الأحاديث كلها تدل مع الآية على أن العين حق، وأنها قد تقتل وقد تمرض، وغير ذلك، وكل ذلك بإرادة الله عز وجل.

كما يدل بعض هذه الأحاديث على مشروعية التعوذ وتعويذ الأولاد من العين، والرقية والاسترقاء منها، وأنه ينبغي إذا رأى الإنسان ما يعجبه أن يدعو له بالبركة.

وإذا كانت الإصابة بالعين حقًا بإرادة الله عز وجل فليس معنى ذلك أن نستسلم للأوهام والوساوس، ولما يقوله السحرة والمشعوذون والدجالون ومردة الجان من الأكاذيب في هذا، بل يجب على المسلم الاعتماد على الله عز وجل والتعوذ والتحصن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب- باب العين ٣٥٠٩، وأحمد ٣/ ٤٤٧، ٤٨٦، ٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الطب- رقية العين ٥٧٣٨ ومسلم في السلام، استحباب الرقية من العين ٢١٩٣، وابن ماجه في الطب ٣٥١٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٨.

(٤) أخرجه الترمذي في الطب- ما جاء في الرقية من العين ٢١٣٦، ٢١٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥١٠، وأحمد ٦/ ٤٣٨، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

بالأدعية والأوراد الشرعية، فإنها حصن حصين به يحفظ الله الإنسان من العين والسحر والجن وسائر الشرور قبل الإصابة بها وبعدها فإن شياطين الإنس والجن جعلوا من الإصابة بهذه الأمور مركبًا لهم لتشكيك المسلمين في عقائدهم، ونقلهم من بر الأمان بالاعتماد على الله عز وجل والثقة به واللجوء إليه في حال السراء والضراء والتعلق به وحده سبحانه إلى حياة الأوهام والوساوس والمخاوف والقلق، ليروجوا أباطيلهم ودجلهم وكذبهم، ليأكلوا بذلك أموال الناس بالباطل، فإذا جاءهم المريض، أو من ليس عنده إلا وساوس وأوهام سارعوا إلى إدخاله في دوامة لا يخرج منها مدة حياته. فحكموا- قطعًا- بأنه مسحور، أو مصاب بالعين، أو فيه مس من الجنون رجمًا بالغيب، فمن راجعهم لا يسلم من أحد الأمور الثلاثة حتى ولو كان جاء ليختبرهم وهو سليم معافى، حتى اتهم أناس بالسحر والعين وهم من ذلك براء، وحصلت بسبب ذلك عداوات وفرقة بين الأقارب والأزواج والإخوة والجيران، ومن بينهم تعامل وتعارف. وكل هذا من تلبيس الشيطان ووساوسه وأوهامه؛ ليفسد على الناس دينهم وعقائدهم، بل ودنياهم، ويؤجج ذلك ويروج له أكلة أموال الناس بالباطل من شياطين الإنس من السحرة والمشعوذين والدجالين ومرضى القلوب من بعض القراء هداهم الله، وكذا بعض مفسري الأحلام، ممن يريدون الشهرة، ولو على حساب دينهم- نسأل الله السلامة والعافية، وأن يكفي المسلمين شرورهم.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: ويقولون: إن محمدًا لمجنون، أي: مصاب بالجنون وفقدان العقل، معتوه؛ لأنه جاءهم بالقرآن من عند الله عز وجل، وهذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى القولي له ﷺ تارة يقولون مجنون، وتارة شاعر، وتارة ساحر، وتارة كاهن.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا رد عليهم، أي: ليس محمد ﷺ بمجنون كما تزعمون، وما القرآن الذي جاءكم به إلا ذكر من عند الله عز وجل للعالمين.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكوير: ٢٧].

أي: يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

الفوائد والأحكام:

١- تقوية الله عز وجل لقلب نبيه ﷺ وطمأنته له بأمره بالصبر، وإثبات ربوبيته الخاصة له وعونه له، وتشريفه بإضافة وصف الرب أو اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

٢- أن الصبر أكبر معين على القيام بالرسالة، والدعوة إلى الله، وتحمل الأذى في سبيل ذلك.

٣- نهي الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ أن يكون في المغاضبة والاستعجال مثل يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

٤- أن ما حصل ليونس عليه السلام من الابتلاء من إلقائه في البحر والتقام الحوت له بسبب مغاضبته لقومه واستعجاله، وعدم صبره.

٥- أنه لا ملجأ في الشدائد إلا إلى الله عز وجل لهذا نادى يونس عليه السلام ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٦- أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين عن الصغائر، لكنهم لا يقرون عليها بل سرعان ما ينبهون عليها ويحدثون منها توبة؛ ولهذا هنا لم يصرح بما حصل من يونس عليه السلام، بينما صرح في ندائه ربه وتوبته إليه.

٧- نعمة الله العظمى على يونس عليه السلام حيث تداركه بنعمته وتاب عليه واستخلصه وجعله من الصالحين، فصارت حاله خيرًا وأحسن من حاله الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

٨- فضل نبينا محمد ﷺ على يونس عليه السلام وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام.

٩- شدة عداوة الذين كفروا للنبي ﷺ ولما جاء به، وحسدهم له ومحاولتهم إصابته بأبصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

١٠- أن العين حق تصيب بإذن الله عز وجل. وذكر الله عز وجل والتعوذ به كما أمر وقاية منها بإذنه عز وجل قبل وقوعها وعلاج لها بعد وقوعها.

١١- أن ديدن المكذبين للرسل والدعاة إلى الله رميهم بأبشع الصفات تنفيرًا

للناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

١٢- الرد على المكذبين في رميهم الرسول ﷺ بالجنون، وإثبات أن ما جاء به من القرآن إنما هو ذكر للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْحَاقَّةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الحاقة» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: خرجت يومًا بمكة أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، أي قلت في خاطري، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾، قلت: كاهن، فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾، إلى آخر السورة؛ فوقع الإسلام في قلبي كل موقع(١).

ويُقال لها: «سورة السلسلة»؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾.

ويُقال لها: «الواعية» أخذًا من قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- تحدثت السورة عن أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى قسمين: آخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٧.

هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

٢- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين من قومه بذكر تكذيب عاد وثمود بالقيامة، وإهلاك عاد بالريح، وإهلاك ثمود بالصيحة الطاغية، وذكر تكذيب فرعون وقوم لوط وعصيانهم رسل ربهم، وأخذهم بشدة وإهلاكهم، ونجاة نوح ومن معه على السفينة لما طغى الماء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

٣- تأكيد أن القرآن الكريم حق وصدق، وليس بقول شاعر ولا كاهن كما زعم المكذبون، بل تنزيل من رب العالمين، وتذكرة للمتقين، وحسرة على الكافرين وحق اليقين: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿الْحَاقَّةُ﴾ القيامة، وسميت بذلك؛ لأنها محققة الوقوع، فهي واقعة لا محالة، ولأنها تظهر فيها الحقائق، ويتحقق فيها الوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾، «ما» استفهامية. وهذا تعظيم لأمرها وتفخيم لشأنها، أي: ماهي الحاقه، أمرها عظيم، وشأنها كبير.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ تعظيم لأمرها بعد تعظيم، وتفخيم له بعد تفخيم.

والواو: عاطفة و«ما»: استفهامية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: وما أعلمك ما هي الحاقة، إن أمرها عظيم، وشأنها جسيم، وخطرها كبير، وشرها مستطير، كما قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١- ٣]، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ [الانفطار: ١٥-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات: ٣٤- ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ

﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٣- ٤٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ﴾ الآيات.

عظم الله عز وجل أمر القيامة وشأنها ثم ذكر بعض الأمم المكذبين بها وما حل بهم من العقوبات الدنيوية قبل القيامة تمهيدًا لتفصيل أهوال القيامة.

و«ثمود»: هم قوم نبي الله صالح عليه السلام مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة بمدائن صالح.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد الأولى، وهم عاد إرم.

كما قال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الآيات: ٦- ٨] مساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾، أي: بالقيامة، وسميت بذلك؛ لأنها تقرع القلوب، وتفزع الناس وتزعجهم بأهوالها، كما قال عز وجل: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١- ٣].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل.

﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، أي: بالصيحة العالية الشديدة العظيمة الفظيعة التي تجاوزت الحد، التي قطعت قلوبهم في أجوافهم.

وقال بعض المفسرين: المراد بالطاغية: الطغيان والمعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشمس: ١١]، أي: بسبب طغيانها.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين فبسبب طغيانهم أهلكوا بالطاغية، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ﴾، «الريح»: تستعمل غالبًا فيما يضر ويهلك، و«الرياح» بضد ذلك تستعمل غالبًا في الخير وفيما ينفع.

وفي الحديث في دعاء هبوب الريح: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا، اللهم

اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»(١).

وقد تستعمل «الريح» في الخير وفيما ينفع، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿صَرۡصَرٍ﴾: شديدة البرد، شديدة الصوت.

﴿عَاتِيَةٖ﴾: شديدة العصف والهبوب، عتت على «عاد» وزادت عن الحد.

وفي الحديث قال ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»(٢).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: سلطها عليهم.

﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾، أي: متتابعات كاملات بلا زيادة ولا نقصان مشؤومات نحسات كما قال عز وجل في سورة فصلت: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ [الآية: ١٦].

﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾، أي: مصروعين هالكين موتى.

﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ﴾ كأنهم جذوع وسيقان نخل قطعت رؤوسها.

﴿خَاوِيَةٖ﴾ ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض، فهم أجساد بلا رؤوس، كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: ٢٠]

قال ابن كثير(٣): «أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض، فيخر ميتًا على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان»

﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ الفاء: عاطفة، و«هل»: حرف استفهام يفيد النفي.

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ص٨١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأبويعلى الموصلي في «مسنده» ٤/ ٣٤١ (٢٤٥٦)، والطبراني في «الكبير» ١١/ ٢١٣ (١١٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٦.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: فهل تشاهد يا محمد ويا أيها الناظر لهم من باقية، أي: أنك لا ترى ولا تشاهد لهم من بقية، بل كلهم هلكوا وبادوا عن آخرهم. وهذه آثار الذنوب والمعاصي، فإنها تذر الديار بلاقع.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾، فرعون: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام والذي ادعى الربوبية والألوهية، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب والكسائي بكسر القاف وفتح الباء: «ومَن قِبَله»، أي: أتباعه وجنوده من كفار القبط.

وقرأ الباقون: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ بفتح القاف وسكون الباء، أي: ومن قبله من الأمم المكذبين للرسل.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: قرى قوم لوط التي أسقطها الله عز وجل، وجعل عاليها سافلها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]. والمراد بالمؤتفكات أهلها.

﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾، أي: بالفعلة والأعمال الخاطئة، من الكفر وتكذيب رسل الله وكتبه والخطايا والمعاصي، ومنها إتيان الذكران من العالمين.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، أي: فعصوا رسول ربهم إليهم، و«رسول»: اسم جنس، أي: رسل ربهم، والضمير الواو في «عصوا»، وضمير «هم» في قوله «ربهم» يعودان إلى فرعون ومن قبله والمؤتفكات، أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم. كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: ١٤].

ومن كذب رسوله كمن كذب جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١].

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، أي: فأخذهم الله جميعًا أخذة زائدة في شدتها وعظمتها على الحد والمقدار، مهلكة.

يقال: ربا، أي: زاد، ومنه سمي الربا، وهو الزيادة.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾، أي: لما زاد الماء على الحد، وارتفع على الأرض، وغمر السهل والجبل، وعمّ أهل الأرض الطوفان والغرق، إلا من كان مع نوح عليه السلام في السفينة.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: في سفينة نوح عليه السلام الجارية على وجه الماء بقدرة الله عز وجل، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا من سواكم من أهل الأرض، فالناس بعد هذا كلهم من سلالة نوح عليه السلام وممن نجوا معه في السفينة.

فامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم في الجارية وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، اللام: للتعليل، والضمير «ها» يعود إلى نعمة الله عز وجل ومنته في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه، أي: لنجعلها لكم عبرة وعظة تتذكرون بها نعمة الله تعالى عليكم وعلى أجدادكم؛ لأن النعمة على السابق نعمة على اللاحق.

ويحتمل عود الضمير على السفينة وكونها تجري على الماء، أي: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أي: الجارية، والمراد جنسها.

قال ابن كثير[1]: «عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار».

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢،١٣]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١، ٤٢].

وقيل: الضمير يعود إلى نفس سفينة نوح عليه السلام بقيت حتى أدركها أول هذه الأمة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، أي: وتسمعها وتحفظها وتعقلها أذن سامعة حافظة عاقلة،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل.

قال ابن كثير[١]: «أي: من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام فيمن فهم، ووعى».

والمعنى: ويعقلها أولو الألباب ويأخذون العبرة منها وفي هذا تعريض بأهل الإعراض والغفلة والبلادة وعدم الفطنة؛ لعدم وعيهم وتفكرهم في آيات الله الكونية والشرعية، وعدم انتفاعهم بها.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وتحقق وقوعها وظهور الحقائق فيها لهذا سميت الحاقة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾.

٢- شدة أهوال القيامة وأحوالها، وعظم أمرها وخطرها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

٣- تكذيب ثمود وعاد بالقيامة وما حل بهم من العقوبات العاجلة، فثمود أهلكوا بالصيحة الشديدة وعاد أهلكوا بالريح الصرصر العاتية؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾.

٤- ارتكاب فرعون ومن قبله وقوم لوط للأفعال الخاطئة ومعصيتهم لرسل ربهم وأخذهم بشدة وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾.

٥- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾.

٦- شدة عذاب الله وعقابه وأخذه للظالمين والمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾.

٧- التحذير من مسالك المكذبين للبعث المخالفين للرسل كثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات، ومن أفعالهم الخاطئة بذكر ما حل بهم من العقوبات الشديدة

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

والهلاك المدمر.

٨- سوء عاقبة الكفر والذنوب والمعاصي وأن عاقبتها الهلاك والدمار وترك الديار بلاقع.

٩- امتنان الله عز وجل على العباد وتذكيرهم بنعمة الله- عز وجل- على آبائهم بإنجائهم من الغرق بسفينة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾.

١٠- في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة، وتسيير السفن على البحار نعمة من الله- عز وجل، ودلالة على عظم قدرته- عز وجل، وعبرة وعظة لمن يعتبر ويتعظ؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة عقوباته للمكذبين، وإنجاءه للرسل وأتباعهم في الدنيا، وهذا من الجزاء الدنيوي الدال على عظيم قدرته سبحانه وتعالى، ثم أتبع ذلك بما هو أشد وأعظم، وهو القيامة ومقدماتها وأهوالها وأحوالها والجزاء الأخروي للفريقين.

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة بأمر الله عز وجل، وهي النفخة الثانية، إذا تكاملت الأجساد نابتة فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩].

وتسبقها النفخة الأولى لصعق وموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، كما قال عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وأكدها بقوله: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، أي: مرة واحدة بلا تكرار؛ لأن أمر الله عز وجل نافذ لا يخالف ولا يمانع، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾: رفعت من مكانها بأمر الله عز وجل.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: فدقتا وسويّتا. قال الطبري[1]: «زلزلتا زلزلة واحدة».

وقال ابن كثير[1]: «أي: فمدت مد الأديم العكاظي، وتبدلت الأرض غير الأرض».

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢٤.

وقال السعدي(٢): «أي فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت عليها فكان الجميع قاعًا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا».

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، أي: فيوم ذاك وحينه قامت القيامة، وسميت القيامة بالواقعة لتحقق وقوعها، وقربه لأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾، أي: تفطرت وتصدعت. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١].

﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، أي: ضعيفة متداعية بعد أن كانت محبوكة قوية متماسكة، لا فطور فيها ولا شقوق، وبعد أن كانت يضرب فيها المثل في قوة الخلق وكبره وشدته.

كما قال عز وجل: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ الملك: اسم جنس، أي الملائكة الكرام.

﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾، أي: على جوانب السماء وأطرافها وأركانها خاضعين لربهم مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، أي: ويحمل عرش ربك يا محمد ورب كل مخلوق.

والعرش هو أكبر المخلوقات وأضافه إليه عز وجل؛ لأنه سبحانه استوى عليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٦١.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: ويحمل عرش ربك فوق الخلائق يوم القيامة ثمانية من الملائكة في غاية القوة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، بُعْدما بين شحمة أذنه وعنقه مخْفِقُ الطير سبع مئة عام»(١).

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»(٢).

وقيل المراد بالعرش الذي يوضع في الأرض لفصل القضاء، كما قيل: إن المراد بقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ثمانية صفوف من الملائكة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾، أي: في ذلك اليوم تعرضون على الله للحساب والجزاء.

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير: «لا يخفى».

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ على التأنيث.

أي: لا تخفى عليه عز وجل منكم خافية من أقوالكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة، وغير ذلك؛ لأنه عز وجل عالم الغيب والشهادة يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٣٩، وقال: «وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة- باب الجهمية ٤٧٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد- ذكر البعث ٤٢٧٧، وأحمد ٤/ ٤١٤.

وأخرجه الترمذي في أبواب القيامة- ما جاء في العرض ٢٤٢٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولا من أبي موسى».

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٣٠- من حديث أبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما- موقوفًا عليهما.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات النفخ في الصور ورد الأرواح إلى أجسادها وبعث الناس للحساب والجزاء وقيام القيامة الكبرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.

٢- عظم أهوال يوم القيامة ففيها تحمل الأرض والجبال وتدك دكة واحدة وتنشق السماء وتتصدع وتتداعى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾.

٣- سرعة نفوذ أمر الله- عز وجل- وعظم قدرته.

٤- انتشار الملائكة على أرجاء السماء، وحمل ثمانية منهم عرش الرحمن فوق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

٥- إثبات العرش لله عز وجل واستوائه عز وجل عليه فوق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٧- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطابه تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٨- عرض الخلائق على الله عز وجل في ذلك اليوم، وعرض أعمالهم لا يخفى منهم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٠.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة النفخ في الصور والقيامة وبعض أهوالها وأحوالها، وعرض الخلائق على الله عز وجل، ثم أتبع ذلك بتفصيل حساب من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وماذا يقول كل منهما، وماذا يقال له، وحال كل منهما ومآله وجزائه.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: أداة تفصيل، و«من»: موصولة.

أي: فأما الذي أعطي كتاب عمله بيده اليمنى، وهو المؤمن، تمييزًا وتكريمًا له ورفعة.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

أي: فيقول لكل من لقيه من شدة فرحه واغتباطه واستبشاره وسروره:

﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾، أي: خذوا وهاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، والهاء في «كتابيه» في الموضعين للسكت، وكذا في «حسابيه» في الموضعين، وفي «ماليه»، و«سلطانيه».

فهو لمّا شاهد وقرأ في كتابه من الحسنات العظيمة الماحية للسيئات مما يبشر بالمغفرة والثواب العظيم ينادي فرحًا مسرورًا، هاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧- ٩].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى: «إن الله

يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾»(١).

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾، أي: إني علمت وتيقنت في حياتي في الدنيا أن البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال حق، وأني ملاق ومقابل حسابي وجزائي في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: ٤٦].

أي: فاستعد- بتوفيق الله وفضله- بالعمل بما يكون سببًا للنجاة في ذلك اليوم.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾، أي: في عيشة مرضية يرضاها لنفسه، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠﴾ [الغاشية: ٨- ١٠].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾، أي: في جنة رفيعة المحل والمنازل والقصور والدور، نعيمها في أعلى وأرفع درجات النعيم؛ كيفا وكمًا ونوعًا وأبدية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»(٢).

﴿قُطُوفُهَا﴾ قطوفها: ما يقطف من ثمارها ﴿دَانِيَةٞ﴾، أي: قريبة المنال، يتناولها من يريدها على أي حال كان واقفًا أو جالسًا أو مضجعًا أو غير ذلك، لا يحول دونها شوك أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾، أي: يقال لهم هذا القول؛ تكريمًا لهم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

وامتنانًا عليهم وتفضلًا، أي: كلوا من كل طعام لذيذ، واشربوا من كل شراب شهي. وخص الأكل والشرب من بين ألوان وأنواع النعيم؛ لأهميتهما فهما كسوة الباطن.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ حال، أي: حال كون الأكل والشرب هنيئًا، والهنيء هو اللذيذ الطعم المستطاب أكله وشربه من غير مكدر ولا منغص.

﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ الباء: سببية، و«ما»: موصولة، أي بسبب الذي أسلفتم، وقدمتم من الأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة وإحسان في عبادة الله وإلى عباد الله، وفعل لأوامر الله وترك لنواهيه.

﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾، أي: في الأيام الماضية الفائتة في الدنيا التي جعلها الله مزرعة للآخرة.

فالأعمال الصالحة سبب لهذا النعيم، وليست عوضًا عنه، خلافًا للمعتزلة. وقد قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ الآيات.

بعدما ذكر الله مقال من يؤتى كتابه بيمينه ومآله، وما يقال له أتبع ذلك بذكر مقال من يؤتى كتابه بشماله ومآله، جمعًا بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقى الله.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، أي: وأما الذي أوتي كتاب عمله بيده الشمال بعد أن تلوى وراء ظهره تمييزًا له وإذلالًا وخزيًا له وفضيحة وعارًا، قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ١٠- ١٢].

﴿فَيَقُولُ﴾ من شدة الهم والغم والحزن: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾، أي: أتمنى أني لم أعط كتابي، وذلك لما يرى من السيئات الكثيرة والقبائح الفظيعة والبشارة له بدخول النار.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار- لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾، أي: ويا ليتني لم أدر ما هو حسابي، أي: لم أبعث ولم أحاسب.

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾، أي: يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية، أي: فلم أحي بعدها.

وقيل: إنه تمنى أن يموت مع أنه لم يكن شيء في الدنيا أكره إليه من الموت.

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾، «ما»: نافية، أي: ما نفعني مالي، ولا دفع عني شيئًا من عذاب الله تعالى لأني لم أقدم منه شيئًا للآخرة.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾، أي: ذهب واضمحل ما كان لي من الحجة والتسلط والقوة، من الجنود والمنعة والعدد والعدة والجاه العريض وغير ذلك.

أي: أن مالي وسلطاني ما نفعاني وما دفعا عني عذاب الله تعالى.

﴿خُذُوهُ﴾ أمر من الله عز وجل للزبانية الغلاظ الشداد بأن يأخذوا من أوتي كتابه بشماله ويمسكوا به بشدة وعنف وبلا رحمة في المحشر.

﴿فَغُلُّوهُ﴾، أي: فقيدوه بالأغلال والأوثاق في عنقه ويديه وقدميه وناصيته.

كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

وقد ذكر المفسرون أنه إذا قال الله للزبانية ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، وقيل غير ذلك.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ﴾ الجحيم: النار العظيمة شديدة التوقد والاشتعال والحرارة والظلمة بعيدة القعر.

﴿صَلُّوهُ﴾: أدخلوه واغمروه فيها، وقلبوه على جمرها ولهبها.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿ذَرْعُهَا﴾، أي: طولها بالذراع ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، «الذراع»: من المرفق إلى نهاية الأصابع بذراع الرجل المعتدل، وقيل بذراع الملك.

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾، أي: فانظموه فيها، وذلك بأن تدخل السلسلة من دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها في نار جهنم.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رُضَاضَة

مثل هذه، وأشار إلى مثل جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها»(١).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾، أي: إنما عذب بما ذكر بسبب أنه كان ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: لا يصدق بالله العظيم الذي له غاية العظمة، بل يكفر بالله وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ولا ينقاد لأمره ونهيه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي: ولا يحث أهله وغيرهم على إطعام المسكين من ماله وغيره.

والمسكين هو الفقير المحتاج، الذي أسكنه الفقر وأذله.

وإذا كان لا يحث على إطعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المساكين، فلا إحسان لديه في عبادة الله، ولا إلى عباد الله، لهذا عذب بما ذكر.

فهو لا يقوم بحق الله بعبادته وطاعته، ولا يؤدي حقوق خلقه في ما استخلفه الله فيه من المال؛ لأن الدين الإسلامي قائم على دعامتين هما: الإحسان في عبادة الله، إخلاصًا له، ومتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان بالقول والفعل وبذل المال والجاه وغير ذلك.

ولهذا أمر الله بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وقرن بينهما في نحو اثنين وثمانين موضعًا لأن في الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

بل إن القرآن كله والسنة النبوية كلها الأمر فيهما دائر بين الأمر بالإحسانين: الإحسان في عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى عباد الله، وقد قبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فما زال يكررها حتى ما يفيض بها لسانه»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة جهنم- صفة طعام أهل النار ٢٥٨٨، وأحمد ٢/ ١٩٧ وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز- ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وأخرجه أحمد أيضًا ١/ ٧٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و٣/ ١١٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة ﴿هَٰهُنَا﴾، أي: في الآخرة.

﴿حَمِيمٌ﴾، أي: قريب، أو صديق مشفق يشفع له ويدفع عنه عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

والناس في الدنيا يتناصرون بينهم، ويدافع بعضهم عن بعض، ولكن في ذلك اليوم لا أحد ينتصر لأحد، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾، أي: وليس له في ذلك اليوم طعام إلا من غسالة صديد وقيح ودم أهل النار، وهو شر طعام أهل النار في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم. وقيل: المراد بالغسلين شجرة الزقوم.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾، أي: لا يأكل هذا الغسلين إلا أهل الخطايا المتعمدة من الكفر وسائر المعاصي والذنوب، الذين أخطؤوا الطريق المستقيم، وسلكوا طريق الجحيم.

والخاطئون: جمع خاطئ، وهو من تعمد الخطأ.

فالخاطئون من تعمدوا الكفر والمعاصي والذنوب بخلاف المخطئ فهو من وقع في الخطأ سهوًا ومن غير قصد.

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: مؤمن آخذ كتابه بيمينه وكافر آخذ كتابه بشماله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الآيات، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ الآيات.

٢- فضل اليمين على الشمال.

٣- فرح واستبشار من أوتي كتابه بيمينه وعرضه لكتابه على من لقيه، وذكر السبب الذي أوصله إلى ذلك وهو إيمانه بالبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

٤- عظم ما أعد الله لمن أوتي كتابه بيمينه من الثواب والأجر العظيم فعيشته

راضية، ومسكنه جنة عالية، ثمارها دانية، مع النعيم المعنوي بالتهنئة لهم على ما قدموا في الأيام الماضية، لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

٥- وجوب الإيمان بالبعث والاستعداد بالعمل الصالح.

٦- حزن واستياء من أوتي كتابه بشماله وهو الكافر، وتمنيه أنه لم يؤت كتابه ولم يدر ما حسابه، وأنه لم يبعث بعد الموتة الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾.

٧- اعتراف من أوتي كتابه بشماله بأنه لم ينفعه ماله الذي كان يجمعه، ولا دفع عنه عذاب الله سلطانه وقوته في الدنيا، وهما اللذان كانا من أسباب تجبره وتكبره ورده الحق؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.

٨- شدة عذاب من أوتي كتابه بشماله، والجمع له في النار بين العذاب المعنوي والعذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ ففي هذا الأمر والقول عذاب معنوي، وفي إيقاعه عليه عذاب حسي.

٩- أن سبب تعذيب المعذبين هو عدم إيمانهم بالله العظيم، وعدم أداء حقوق المساكين من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

١٠- وجوب الإيمان بالله؛ إحسانًا في عبادته وإخلاصًا له، والإحسان إلى خلقه وبهذا ينجو الإنسان من العذاب ويظفر بالثواب.

١١- ليس لمن أدخل النار قريب أو صديق ينفعه أو يدفع عنه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾.

١٢- ليس للمعذب في النار طعام سوى غسالة وصديد أهل النار مما لا يأكله إلا من ارتكبوا الخطايا والآثام من الكفر وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة القيامة وأهوالها، وانقسام الناس فيها إلى قسمين من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وجزاء كل منهما، ثم أتبع ذلك بالإقسام على أن القرآن حق والرد على المكذبين.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ الفاء: للاستئناف، و«لا»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى، والقسم هو الحلف.

والمعنى: فأقسم بالذي ترون وتشاهدون أيها الخلق من الأشياء والذي لا ترونه ولا تشاهدونه منها، أي: أقسم بالأشياء كلها ويدخل في ذلك نفسه المقدسة.

وهذا أعم قسم في القرآن الكريم، فإنه يعم العالم العلوي والسفلي، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، من الملائكة والجن والإنس والعرش والكرسي وكل شيء، وكل ذلك من آيات الله ودلائل قدرته وربوبيته وصدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله وكلامه وتنزيله، وليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، وأنه حق من عند الله، كما أن هذه الأشياء كلها حق ما يرى منها وما لا يرى.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾: هذا هو جواب القسم، والضمير في «إنه» يعود إلى القرآن الكريم، واللام: للتوكيد، أي: إن القرآن ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: محمدًا ﷺ؛ لأنه هو المبلغ عن الله عز وجل؛ لهذا أضافه إليه.

كما أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي جبريل عليه السلام؛ لأنه الواسطة الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل إلى النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ [الآيات: ١٩- ٢١].

وأضافه إلى الرسول بلفظ القول بينما أضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ

يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ لأنه عز وجل هو المتكلم به، ولأن الرسول مأمور بأن يقول لمن أرسل إليهم ما أمره الله به، كما قال عز وجل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال ابن القيم[(١)]: «وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسِل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولًا، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير».

وقوله: ﴿كَرِيمٍ﴾، أي: كريم الصفات والسجايا والأخلاق صلوات الله وسلامه عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهو كريم ﷺ بتبليغ رسالة ربه إلى الناس وبيان ما أنزل إليه من الوحي أتم بيان وأكمله، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤].

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»[(٢)].

وهو ﷺ كريم جواد بالمال جاءه رجل فسأله فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه قائلًا: «يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة».

وفي رواية «وما يخاف الفقر»[(٣)].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، وما أعطي أحد عطاءً خيرًا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٨.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢- من حديث أنس- رضي الله عنه.

وأوسع من الصبر»(١).

ولقد أحسن القائل:

هـو البحـر مـن أي النـواحي أتيتـه ... فلجتـه المعـروف والجـود سـاحله
تعـوّد بسـط الكـف حتـى لَـوَ أنَّـهُ ... ثناهـا لقـبض لم تجبـه أناملـه
ولـو لم يكـن في كفـه غـير روحـه ... لجـاد بهـا فليتـق الله سـائله(٢)

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، «ما»: نافية، أي: وما هو- يعني القرآن الكريم بقول شاعر كما تزعمون، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: ٣٠].

وقال الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ فتوعده الله عز وجل بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ [المدثر: ٢٦، ٢٧].

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وهشام بالياء: «مَّا يُؤْمِنُونَ» وكذا في قوله: «ما يذكّرون»، وقرأ الباقون في الموضعين بالخطاب، أي: قليلًا إيمانكم.

والمراد: أنه لا إيمان عندكم، أي: فالذي حملكم على قولكم: إنه شاعر، هو عدم إيمانكم.

وهم وإن كانوا يقرون بتوحيد الله، وأن الله عز وجل هو الرب الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

لكن هذا لم يُدخلهم في الإيمان؛ لأنهم كذبوا بتوحيد الألوهية وبالرسالات والكتب السماوية، وبهذا ينتقض إقرارهم بتوحيد الربوبية؛ لأن من لازمه الإقرار بتوحيد الألوهية.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٣.

(٢) الأبيات للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص٢٣٢، «ديوان المعاني» ١/ ٢٥، «نهاية الأرب» ٣/ ١٨٤.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، أي: وليس القرآن ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ والكاهن: هو من يدعي علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: قليلًا تذكركم واتعاظكم.

والذي حملكم على رميه بالكهانة هو عدم تذكركم، فلو آمنوا وتذكروا لعلموا أنه رسول الله حقًا وصدقًا.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أن هذا القرآن العظيم منزل من رب العالمين؛ خالقهم ومالكهم ومدبرهم.

والعالمين: جمع «عالَم»؛ عالَم الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد وغير ذلك من العوالم.

فهو كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس من كلام البشر، كما زعم المشركون أن الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه، وليس مخلوقًا كما يقول المعتزلة.

تكلم الله عز وجل به حقيقة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ولا يحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملًا بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين حق قدره ونسبه إلى ما لا يليق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

بعد ما بين الله عز وجل أن القرآن الكريم تنزيل منه عز وجل، جاء به من عنده المبلغ عنه رسوله ﷺ، ونفى أن يكون قول شاعر وكاهن كما زعم المشركون أتبع ذلك ببيان أنه لا يمكن أن يكون الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه كما يزعمون أيضًا.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ الواو: استئنافية، و«لو» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: ولو كذب وافترى علينا، واختلق من عند نفسه ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾، أي: بعض الأكاذيب والافتراءات والاختلاقات، أي: بأن يكون افترى القرآن من عند نفسه، كما يزعم المشركون، أو زاد فيه أو نقص أو غيَّر وبدّل في الرسالة ونسب ذلك إلينا.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾، أي: لعاجلناه بالعقوبة، وأخذناه بيمينه، وبقدرة وقوة شديدة.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، «الوتين:» نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى، وهلك الإنسان، وقيل نخاع الظهر.

فلو قدر أن الرسول ﷺ تقول على الله- وحاشاه من ذلك- لعاجله الله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ لأن حكمته تقتضي أن لا يمهل من كذَّب وتقوَّل عليه وبخاصة في أمر النبوة، فكيف ينصره ويؤيده بالمعجزات، فنصره له وتأييده بالمعجزات والآيات البينات وتمكينه له أعظم شهادة منه على صدق رسالته.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ الفاء: عاطفة، و «ما» نافية تعمل عمل ليس، و(أحدٍ) في محل رفع اسمها، و «حاجزين» خبرها منصوب بالياء.

أي: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أيًّا كان ﴿عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ يحجزون عنه عذابنا إذا استحق ذلك، ولا أحد منكم يمتنع منا إذا أردنا إهلاكه، لا بنفسه ولا بغيره.

وليس بيننا وبين أحد من الخلق نسب ولا حسب، وإنما المعول في ذلك تقوى الله وطاعته.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ولكنه ﷺ لم يتقول شيئًا من عند نفسه، ولم ينطق بشيء مما جاء به عن الهوى، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولهذا كان يقول ﷺ: «من يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي»(١).

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: القرآن الكريم، ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: لتذكير وموعظة للمتقين، يتذكرون به عظمة الله عز وجل، وأسماءه وصفاته وأفعاله وثوابه وعقابه ووعده ووعيده، وأمره ونهيه وما أعده لأوليائه من الجنان والنعيم، وما أعده لأعدائه من النار والجحيم، يتذكرون به أمور دينهم ودنياهم وأخراهم.

و«المتقين»: الذين يتقون الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه.

وخص المتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به ويتذكرون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾، أي: وإنا لنعلم- أنه مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم أيها الناس من يكذب بالقرآن، وهم لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله (وإنا) وفي قوله (لقطعنا) لأنه العظيم سبحانه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: التكذيب بالقرآن والرسالة.

﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: أسى وندامة على الذين كذبوا وكفروا يوم القيامة، حيث لا ينفع الأسى والندم ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧].

ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى القرآن.

قال ابن كثير(٢): «ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٢٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠١ من حديث جابر رضي الله عنه وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]». ويقوي هذا قوله بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

وقال ابن القيم(١): «إن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق وصدّق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة».

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: وإن القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، و«اللام»: للتوكيد و«حق اليقين»: أعلى مراتب العلم. أي: وإنه للحق المتيقن، الذي لا مرية فيه.

أي: وإن القرآن للحق المتيقن، والخبر الصدق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة: ٢].

وأيضا هو حق اليقين لما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية والبراهين القطعية.

قال السعدي(٢): «فأعلى مراتب العلم: اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. و«اليقين» مراتبه ثلاث، كل واحدة أعلى مما قبلها، أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: بقولك: سبحان ربي العظيم. والذي معناه تنزيه الرب عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين وعما لا يليق بجلاله.

و«العظيم» من أسماء الله- عز وجل على وزن «فعيل» يدل على إثبات صفة العظمة له- عز وجل، أي: الذي لا أعظم منه، وله الكبرياء والعظمة. فَعَظِّمه بعبادته والخضوع له وتقواه حق تقاته، وذِكْر أوصاف جلاله ونعوت كماله.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٦٨.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»(١).

رُويَ بسند فيه انقطاع عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٢﴾، قال: فوقع الإسلام من قلبي كل موقع»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بما يُرى وبما لا يُرى- وهو أعظم قسم في القرآن- على تعظيم القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين، نزّله الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ، وليس بقول شاعر ولا كاهن، وذم الذين لا يؤمنون ولا يتذكرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾.

٢- أن لله- عز وجل- أن يقسم بجميع مخلوقاته، وبما شاء منها.

٣- إثبات علو الله عز وجل على خلقه علو الذات وعلو الصفات، وربوبيته العامة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٤- أن القرآن كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة ومن سلك مسلكهم الضال.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة – ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة – التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧- ١٨. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٤٥.

٥- ثناء الله- عز وجل- على رسوله ﷺ والرد على من يزعمون أنه تقوَّل القرآن من عند نفسه، وبيان عدم استطاعة الرسول ﷺ، لا هو ولا غيره التقول على الله والكذب عليه، ولو تقول عليه متقول لأهلكه؛ لأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٦- لا أحد يستطيع أن يمتنع من الله- عز وجل وعذابه، لقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

٧- أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة وعبرة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٨- علم الله عز وجل بأن من الناس من يكذب بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ، والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾.

٩- أن التكذيب بالقرآن حسرة وندامة على الكافرين، لإعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٠- أن القرآن الكريم هو الحق المتيقن، والخبر الصدق الذي لا شك فيه ولا مرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

١١- مشروعية تسبيح الله عز وجل بتعظيمه وعبادته، وتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ ولأوليائه عز وجل، وتشريفه ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

١٣- إثبات اسم الله- عز وجل «العظيم» وصفة العظمة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ ولهذا تكلم- عز وجل- عن نفسه بضمير العظمة «نا» في هذه الآيات..

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمَعَارِجِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المعارج»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾.

وتسمى: «سورة سأل سائل»، و «سورة الواقع»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر سؤال المشركين عما توعدوا به من العذاب، متى يكون؟ استعجالًا له وتكذيبًا له، والرد عليهم وتهديدهم بشدة أهوال ذلك اليوم، وسوء حالتهم آنذاك، والمصير إلى جهنم ولظاها: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾.

٢- بيان ضعف الإنسان وهلعه وجزعه عند حصول الشر ومنعه عند حصول الخير، وأنه لا يسلم من هذا الوصف إلا المصلين المتصفين بالصفات المذكورة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾.

٣- تهديد الكفار ووعيدهم: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ

عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر «سال» بألف دون همز.

وقرأ الباقون بألف وهمز.

ومعنى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾: دعا داع، واستفتح مستفتح، تكذيبًا واستبعادًا وتعجيزًا ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ الباء تدل على تضمين الفعل «سأل» معنى فعل آخر نحو: «استعجل» أو «أجيب» ونحو ذلك.

وهذا أولى من القول بتضمين الحرف معنى حرف آخر- وإن كان الجميع واردًا في القرآن الكريم؛ لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر أكثر ورودًا في القرآن الكريم فينبغي الحمل عليه، فهو أولى، فيكون التقدير هنا: سأل سائل فأجيب بعذاب واقع، أو استعجل سائل بعذاب واقع، أي: كان لا محالة.

﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلق «بواقع»، أي: كائن للكافرين لا محالة لاستحقاقهم ذلك بكفرهم وتمردهم، فمنه ما قد يعجل لهم في الدنيا، ومنه ما يدخر لهم في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ الآيات نزلت

في النضر بن الحارث بن كلدة»(١).

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾، أي: ليس لهذا العذاب دافع يدفعه، ولا راد يرده ويمنعه عنهم قبل نزوله، ولا يرفعه عنهم بعد نزوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: هذا العذاب واقع بهم من الله عز وجل فهو الذي يوقعه بهم فلا يستطيعون له دفعًا ولا منعًا.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، أي: صاحب السموات والعلو والجلال والعظمة والدرجات، والفواضل والنعم.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ قرأ الكسائي: «يعرج» بالياء على التذكير.

وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: ﴿تَعْرُجُ﴾.

أي: تصعد الملائكة والروح إليه عز وجل.

والملائكة: خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور يعبدون الله، ويأتمرون بأمره، ولا يعصونه كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠].

والروح: جبريل عليه السلام، ملك الوحي، كما قال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

فيكون عطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام.

ويؤيد هذا ويقويه قوله عز وجل في سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: تصعد الملائكة، وجبريل عليهم السلام إليه عز وجل بما وكل إليهم من الأمر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.

ويحتمل أن يكون «الروح»: اسم جنس لأرواح بني آدم؛ لأن الروح إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، فأما روح المؤمن فما يزال يُصعد بها من سماء إلى سماء حتى تصل إلى السماء السابعة بقربه عز وجل، وأما روح الكافر فتغلق دونها أبواب السماء فتعاد إلى الأرض.

كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون- يعني بها- على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟»..إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟» إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له..» الحديث(١).

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾؛ قال: «لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم، قال: يعني يوم القيامة»(٢).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة»(٣).

وهكذا دلت السنة على هذا المعنى كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧، ٢٩٥- ٢٩٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٩، وقال: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣.

رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» الحديث(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: «﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

قال: «منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات ﴿مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، و﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]. يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام﴾»(٣).

قال السعدي(٤) في كلامه على قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: «ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر الله لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حدلها وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى- إلى أن قال: «هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا لأن السياق الأول يدل عليه، ويحتمل أن هذا في يوم القيامة لكن الله تعالى يخففه على المؤمن».

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، أي: اصبر يا محمد على طاعة الله- عز وجل، وعلى دعوة قومك،

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة- باب في حقوق المال ١٦٥٨، والنسائي في الزكاة- التغليظ في حبس الزكاة ٢٤٤٨، وأحمد ٢/ ٢٦٢، ٤٨٩- ٤٩٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، وابن حبان ٧٣٣٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣، وأبو يعلى ١٣٩٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٧٠- ٤٧١.

وعلى أقدار الله المؤلمة، ومن ذلك أذى قومك وتكذيبهم لك واستعجالهم العذاب.

﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾، «صبرا»: مصدر مؤكد، و«جميلًا» صفة له.

والمعنى: صبرًا لا جزع فيه ولا قلق، ولا ملل ولا تَضَجُّر، ولا شكوى فيه لغير الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، «إنهم» يعني المشركين والمكذبين للنبي ﷺ.

﴿يَرَوْنَهُ﴾، أي: يرون العذاب، وقيام الساعة، ﴿بَعِيدًا﴾، أي: مستحيل الوقوع وينكرونه.

ولهذا استعجلوا وقوعه، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، أي: أنه عز وجل يرى قيام الساعة ووقوع العذاب قريبًا؛ لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، كما أخبر به عز وجل فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١].

وكذلك المؤمنون يعتقدون قرب ذلك؛ لأن الله أخبر بذلك فهو آت، وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان قصير، وكذلك عمر الدنيا كلها قصير بما في ذلك حياة البرزخ بالنسبة للآخرة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩﴾، أي: أن قيام الساعة ووقوع العذاب الذي يستعجلونه، والذي هو قريب يكون ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾.

و«المهل» دردي وعكر الزيت المغلي، أو الرصاص المذاب والفضة المذابة و«العهن» الصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

فمن علامات قيام الساعة، ووقوع العذاب كون السماء المحبوكة الشديدة العظيمة

الخلقة تذوب، فتكون كالزيت المغلي في الذوبان والحمرة، أو كالرصاص المذاب.

وكون الجبال الشامخات الراسيات كالصوف المنفوش في الخفة.

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠].

وإذا كانت السماء والجبال مع عظمة خلقهما يعتريهما ما يعتريهما من التبدل والتغير، فكيف بالإنسان المخلوق الضعيف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قرأ أبو جعفر بضم الياء: «ولا يُسأل»، أي: ولا يُطلب بعضهم من بعض، فلا يقال للحميم أين حميمك.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾، أي: ويوم لا يسأل قريب قريبه عن حاله؛ لانشغال كل بنفسه.

والحميم: القريب المشفق، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [غافر: ١٨].

فالناس في الدنيا وبخاصة الأقارب يتناصرون فينصر بعضهم بعضا، وربما بالباطل لكن في ذلك اليوم هيهات لا أحد ينصر أحدا.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أي: يُبَصَّر الأقارب بعضهم بعضا ويُعَرَّف بعضهم بعضا، ولا ينفع أحد أحدًا، بل يفر بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾، أي: يحب ويتمنى من اكتسب الجرائم من الكفر والذنوب والمعاصي،

وحق عليه العذاب.

﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾، أي: لو يتخلص وينجو ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾، أي: من عذاب ذلك اليوم يوم القيامة.

﴿بِبَنِيهِ﴾، أي: بأبنائه، وخص الأبناء دون البنات، لأنهم يعدون للدفع والمنع في الدنيا غالبًا أما في الآخرة فهم والبنات سواء لا يملكون شيئًا من ذلك.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته التي قد تكون أحب الناس إليه، ولا يرضى في الدنيا أن تنظر إليها العيون، ويقدم نفسه فداءً لها، وحفاظًا عليها في ذلك اليوم يوم القيامة يود لو قدمها فداء لنفسه.

﴿وَأَخِيهِ﴾ الأخ من اشترك معك في أصليك «أبيك وأمك» وهو الشقيق، أوفي أحدها وهو الأخ لأب، أو الأخ لأم.

والأخ من أهم من يعد في الدنيا للمناصرة وفي الحديث «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»(١).

وإن كان الحديث عامًا في أخوة الإسلام لكن يدخل فيه دخولًا أوليًا من جمع بين الأخوتين أخوة الإسلام وأخوة النسب.

ويقول شاعرهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح(٢)

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾، أي: وعشيرته الأقربين، ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾، أي: التي تضمه في النسب وتنصره وتدافع عنه في الشدة ويأوي إليها.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويود لو يفتدي من العذاب بكل الذين في الأرض جميعًا ولو كان أغلى ما لديه، وأحب شيء إليه.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾، أي: ثم يخلصه ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم، أو ثم يخلصه الله عز وجل مقابل ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥، من حديث أنس، رضي الله عنه.

(٢) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩.

قال ابن كثير[١]: «أي: لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه».

﴿كَلَّآ﴾: للردع والزجر والنفي، أي: ليس له ما يود.

﴿إِنَّهَا﴾، أي: النار، ﴿لَظَىٰ﴾: اسم من أسماء النار، سميت به، لشده لظاها واشتعالها وحرارتها.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بالرفع: «نزاعةٌ».

أي: تنزع الشوى، وهو جلدة الرأس، أو ما دون العظم من اللحم، أو مكارم وجهه، وأطرافه، فهي تنزع اللحم حتى تصل إلى العظم، بل حتى تنفد إلى القلب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

والمعنى: ﴿كَلَّآ﴾، ليس له ما يود، وليس له إلا النار الموصوفة بما ذكر.

﴿تَدْعُواْ﴾، أي: تنادي النار إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾، أي: الذي أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: أعرض عنه بجوارحه فلم يستعملها في طاعة الله، بل استعملها في معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك: ٧].

قال ابن كثير[٢]: «تدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب».

﴿وَجَمَعَ﴾، أي: وجمع المال بعضه على بعض، وربما من أي طريق كان.

﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾، أي: جعله في أوعية وصناديق وأوكاه بالأقفال، ومنع حق الله فيه من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

فجمع بين الإدبار والتكذيب بقلبه، والتولي عن العمل بجواحه والانكباب على الدنيا وجعلها أكبر همه.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقال: «لا توعي فيوعي الله عليك، ارضخي ما استطعت»(١).

وكان عبد الله بن عكيم- رضي الله عنه- لا يربط كيسه، ويقول: «سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾»(٢).

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «يا ابن آدم، سمعت وعيدًا، ثم أوعيت الدنيا»(٣).

ومن هنا ينبغي أن يحذر الإنسان من فتنة المال والدنيا، فكم زلت بسبب ذلك من أقدام. وقد حذر منها المصطفى ﷺ فقال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(٤). وهذا هو واقع كثير من أصحاب الأموال.

الفوائد والأحكام:

١- سؤال الكافرين العذاب واستعجالهم به استبعادًا لوقوعه وتكذيبًا به وهو واقع من الله بهم لا محالة ولا دافع يدفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢- علو الله وعظمته وجلاله وإفضاله وإنعامه لقوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

٣- إثبات وجود الملائكة، وفضل جبريل من بينهم، وعروجهم إلى الله عز وجل؛

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة- الصدقة فيما استطاع ١٤٣٤، ومسلم في الزكاة- الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء ١٠٢٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٦٥.

(٣) ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧- من حديث عمرو بن عوف- رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

٤- إثبات يوم القيامة وطوله؛ لقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

٥- أمر النبي ﷺ بالصبر الجميل على طاعة الله تعالى وعلى أقداره المؤلمة ومن ذلك الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، وهو أمر له ولكل من سلك طريقه من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

٦- استبعاد المشركين للعذاب، وللبعث والحساب، بل وإنكارهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾.

٧- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه لقوله (ونراه) وهو العظيم سبحانه.

٨- قرب قيام الساعة وعذاب المكذبين؛ لأن ذلك آت لا محالة وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان بل عمر الدنيا ليس بشيء بالنسبة للآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾.

٩- شدة أهوال يوم القيامة وكرباته وانشغال كل قريب عن قريبه مع إبصار بعضهم بعضا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

١٠- تمني المجرم أن يفتدي من عذاب ذلك اليوم بأعز الناس عليه وأقربهم إليه، وغيرهم، وبكل شيء، ولكن هيهات ليس له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

١١- شدة النار ولظاها وعذابها، ومناداتها على أصحابها، ممن أدبر وتولى عن الإيمان وكان همه جمع الحطام وكنزه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

١٢- التحذير من الإدبار والتولي والإعراض عن الحق، والتهالك في جمع حطام الدنيا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض أهوال يوم القيامة وحال المجرمين فيها، وتمنيهم التخلص من عذاب ذلك اليوم، وأن لظى مرصدة تدعو كل من أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه، وأعرض عنه بجوارحه، وجعل همه الدنيا ثم أتبع ذلك ببيان ضعف الإنسان عموما فهو جزوع إن أصابه الشر، ومنوع إن أصابه الخير، إلا المؤمنين المصلين الذين ذكر الله صفاتهم في هذه الآيات، فهم عند المصيبة يصبرون، وعند الخير لا يمنعون.

قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾، أي: أوجد حال كونه هلوعًا.

وقد فسر عز وجل قوله: ﴿هَلُوعًا﴾ بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

أي: إذا أصابه الشر والضر من فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من أهل أو ولد أو مال وغير ذلك ﴿جَزُوعًا﴾، أي: كثير الجزع والضجر والأسى، وربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الخدود وشق الجيوب، وربما أدى به ذلك إلى ما هو أشد من ذلك. نسأل الله الثبات والسلامة والعافية.

قال ابن كثير(١): «أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير».

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾، أي: وإذا حصل له الخير، بأن أنعم الله عليه بالمال ونحو ذلك

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

﴿مَنُوعًا﴾: شديد الحرص كثير المنع والإمساك، يمنع حق الله في ذلك.

فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «شر ما في رجل: شح هالع، وجبن خالع»(١).

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، أي: إلا المؤمنين المصلين الموصوفين بما ذكر بعد من الصفات فهم مستثنون مما ذكر؛ لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند الضراء ويشكرون عند السراء، لأنهم يأوون إلى ركن شديد، وحصن منيع، وهو إيمانهم بالله عز وجل، وتوكلهم عليه، ومن توكل على الله كفاه.

قال ابن كثير(٢): «أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه».

وقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ولم يقل: إلا المؤمنين؛ لأن الصلاة عمود الإسلام، وأفضل العبادات وأعظمها، ولا يقيمها ويحافظ عليها إلا من كان مؤمنا.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، أي: الذين هم على صلاتهم مواظبون يؤدونها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

فهذه هي الصلاة التي تنفع صاحبها، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا يجزع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير، وما عداها فلا، وكم من مصل، لكنه لا يتذوق هذه المعاني لخلل في صلاته، والله المستعان.

لهذا أكد هذا المعنى في آخر صفاتهم في هذه الآيات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [الآيتان: ١، ٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دُووِمَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- باب في الجرأة والجبن ٢٥١١، وأحمد ٢/ ٣٢٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٤.

عليه، وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾، أي: في أموالهم حق محدد، ونصيب مقرر، مقدر من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ السائل: الذي يسأل الناس، أي: يبتدئ بالسؤال، وله حق.

كما جاء في الحديث: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»(٢).

«والمحروم»: الذي لا يسأل مع فقره وحاجته، ولا يفطن له فيتصدق عليه، فهو محروم من العطاء لتعففه عن السؤال.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: والذين يصدقون ويوقنون بيوم القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، وإدانة كل بما عمل؛ ولهذا استعدوا له بالأعمال الصالحة. والتصديق بيوم الدين يستلزم التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾، أي: خائفون وجلون، كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

وفي هذا أبلغ الرد على غلاة الصوفية الذين يقول قائلهم: لا أعبده خوفًا من ناره ولا رجاء في جنته، وإنما أعبده محبة له.

فالمؤمن الحق يعبد الله محبة له وخوفًا من عذابه ورجاءً في ثوابه.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾، أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر، ولا يأمنه أحد ممن عقل عن الله عز وجل أمره، إلا بأمان من الله عز وجل.

ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا،

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ١٧٦، ١٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة- حق السائل ١٦٦٥، وأحمد ١/ ٢٠١ من حديث علي بن أبي طالب وحسين بن علي رضي الله عنهما.

ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا»(١).

وفي خبر الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله عز وجل له رمانة ينزل كل يوم يأخذ منها، فلما قال الله عز وجل لملائكته: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي»، قال: لا يا رب، بل بعملي فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر، فقال الله عز وجل: «أدخلوا عبدي النار بعدلي»، فقال: لا، يارب: «أدخلني الجنة برحمتك فأدخل الجنة»(٢).

فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس بعوض عنه، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى، فالعبد المؤمن في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، لا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من روح الله.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾، أي: حافظون لها عن الحرام من الزنا واللواط، وإتيان الزوجات في أدبارهن وفي الحيض والنفاس، وإتيان البهائم والاستمناء باليد، والسحاق بين النساء، ومن كشف الفروج والنظر إليها وغير ذلك.

ومن لازم ذلك غض الأبصار عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، من نظر الرجال إلى النساء والمردان، ومن نظر النساء إلى الرجال ونحو ذلك من الوسائل الداعية إلى فعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، «إلا»: أداة استثناء.

أي: إلا على ما أباح الله لهم من أزواجهم أو ما ملكته أيمانهم من الإماء.

فالأزواج أباح الله لهم ذلك بعقد النكاح بينهم، وما ملكته أيمانهم أباحهن الله لهم بملك اليمين.

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾، أي: فإنهم لا لوم عليهم في ذلك؛ لأن الله أباح الأزواج بعضهم لبعض بعقد النكاح بينهم، وأباح ملك اليمين من الإماء بعقد الملك.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢٥٠- من حديث جابر- رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾، أي: فمن طلب غير ذلك، والإشارة لقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

أي: فمن طلب إشباع الشهوة في غير ما أباح الله، وهو ما بين الزوجين، وبين السيد وأمته.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، أي: فأولئك المبتغون وراء ذلك هم العادون على حدود الله، المجاوزون الحلال إلى الحرام، كالزنا واللواط ونكاح المتعة ونحو ذلك.

وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، وأكد عظم اعتدائهم وجرمهم وتجاوزهم لحدود الله بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ الأمانات: جمع أمانة وهي تشمل كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين ربه من التكاليف الشرعية وغيرها، ومما بينه وبين الخلق من الأموال والأعمال والأسرار وغير ذلك.

أي: والذين يرعون الأمانات، فيؤدون الأمانات إلى أهلها؛ امتثالًا لقول الله عز وجل ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

ولتعظيم الله عز وجل لها كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولأمره ﷺ بأدائها قال ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»(١).

ويرعون العهود، وهي المواثيق والعقود التي بينهم وبين الله عز وجل، والتي بينهم وبين الخلق، فيؤدون حقوق الله امتثالًا؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، والدارمي في البيوع ٢٥٩٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

فمن أخص صفات المؤمنين رعاية الأمانات والعهود، كما قال تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرعد: ٢٠].

كما أن الخيانة ونقض العهود من أخص صفات الكافرين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(١).

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ قرأ يعقوب وحفص عن عاصم بألف بعد الدال على الجمع: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾، وقرأ الباقون بغير ألف على الأفراد «بشهادتهم».

أي: يؤدون ما تحملوا من الشهادات على وجهها وبتمامها، من غير كتمان ولا زيادة ولا نقصان، على أنفسهم وعلى القريب والبعيد، وعلى العدو والصديق، لهم وعليهم، امتثالًا لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان- بيان خصال المنافق ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٤، ومسلم في الإيمان ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بأدائها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

وقد خص الله عز وجل هذه الصفات لفضلها، وافتتحها بذكر الصلاة واختتمها بذكر الصلاة في هذه السورة وفي سورة «المؤمنون» وذلك؛ لفضل الصلاة وعظم منزلتها في الإسلام، فهي عمود الإسلام، والركن الثاني من أركانه، قال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟، قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟، قال: «الجهاد في سبيل الله»(٢).

وفي الآية الأولى منهما وصف المؤمنين بالديمومة على الصلاة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ وفي الآية الأخيرة منهما وصفهم بالمحافظة عليها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فوصفهم أولًا بالديمومة على الصلاة، ووصفهم ثانيًا بالمحافظة عليها، كما وصفهم في سورة المؤمنون أولًا بالخشوع فيها، ووصفهم ثانيًا بالمحافظة عليها وفي هذا ما لا يخفى من تأكيد عنايتهم بها.

وقد جمع الله للموصوفين بما ذكر سبع صفات عظيمة وهي: المداومة والمحافظة على الصلاة، وأداء حق المال من الزكاة والنفقات والصدقات، والتصديق بيوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، والإشفاق من عذاب ربهم، وحفظ فروجهم عن الحرام، ورعاية الأمانات والعهود، وإقامة الشهادات بالحق.

وقد ذكر عز وجل هذه الصفات بأوسع من هذا في مطلع سورة المؤمنون فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها- المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- فضل الصلاة لوقتها ٥٢٧، ومسلم في الإيمان- كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات.

﴿فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لهم.

ونكّر «جنات»؛ تعظيمًا لها، وهي جنات الفردوس التي أعدها الله عز وجل لنزل أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، كما قال تعالى في نهاية هذه الصفات في سورة المؤمنون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [الآيتان: ١٠، ١١].

ولهذا جاء في الحديث: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(١).

﴿مُّكْرَمُونَ﴾، أي: لهم فيها أنواع الكرامة، والنعيم الحسي والمعنوي، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصافات: ٤١، ٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- ضعف الإنسان أمام نوازع الشر والخير، فلا قوة له أمام ذلك إلا بالإيمان والقيام بمقتضاه، وأهم ذلك الصلاة، وغيرها من الصفات المذكورة. ففي ذلك الحصانة التامة بإذن- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات.

٢- أن الصلاة والمداومة عليها وحفظها مع الصفات المذكورة أكبر معين بتوفيق الله- عز وجل- على الثبات أمام تقلبات الحياة، والصبر عند الضراء وعدم الجزع، والشكر عند السراء، والبذل وعدم المنع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الآيات.

٣- بيان صفات المؤمنين كاملي الإيمان، وهي: المداومة على الصلاة، وإيتاء الزكاة،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والتصديق بيوم القيامة، والخوف من عذاب الله، وحفظ فروجهم إلا فيما أباح الله لهم، وحفظ أماناتهم وعهودهم ورعايتها، وقيامهم بالشهادة وأداؤها على الوجه المطلوب وحفظ صلاتهم بإقامتها كما شرعها الله عز وجل- فأكرم بها وأنعم من أوصاف عظيمة وصفات كريمة بها السعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٤- وجوب المداومة على الصلاة والمحافظة عليها بإقامتها تامة كما شرعها الله، وإيتاء الزكاة وغيرها من النفقات الواجبة لمستحقيها، والترغيب في صلاة النوافل والصدقات.

٥- وجوب الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الجزاء على الأعمال، والخوف من عذاب الله عز وجل.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة، للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِم﴾.

٧- وجوب حفظ الفروج عن الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾.

٨- إباحة وطء الأزواج وملك اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

٩- وجوب حفظ الأمانات والعهود ورعايتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

١٠- وجوب القيام بالشهادات وأدائها بتمامها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾.

١١- عظم ما أعد الله عز وجل للموصوفين بهذه الصفات عنده من الجنات، والكرامة فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ذكر الله عز وجل صفات المؤمنين المصلين وما أعد لهم من الكرامة في الجنات، ثم أنكر على الكفار وتوعدهم وهددهم.

قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ الفاء: استئنافية، و«ما»: اسم استفهام للإنكار عليهم والتعجب من حالهم ﴿قِبَلَكَ﴾، أي: أمامك وحولك وعن يمينك وعن شمالك.

﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: مسرعين مادي أعناقهم، اغترارًا منهم بأنفسهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾: جماعات متفرقين.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق، فقال: «ما لي أراكم عزين؟»(١).

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، أي: أيطمع كل واحد منهم.

﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: أيطمع كل واحد منهم في إدخاله جنة يتنعم فيها.

﴿كَلَّآ﴾: ردع وزجر لهم، فليس لهم ما يطمعون به من دخول الجنة، بل ليس لهم إلا النار وبئس القرار.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أوجدناهم من الذي يعلمون ولا تخفى عليهم مهانته وحقارته وضعفه، وهو المني، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأحمد ٥/ ٩٣، ١٠١.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْىِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧- ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ٥- ١٠]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة: ٥٧].

فاحتج عليهم بخلقه لهم على وجوب توحيده ومعرفته.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا»: صلة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: أقسم برب المشارق والمغارب.

وجمعت المشارق والمغارب مراعاة للجمع قبلهما كما في قوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، وقوله: ﴿عِزِينَ﴾.

والمراد: مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف، ومشارق ومغارب سائر الكواكب(١).

وفي إقسامه عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب تعظيم لنفسه عز وجل، وتنبيه على عظم وسعة خلقه وملكه وتدبيره.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب على قدرته على تبديل خير منهم.

أي: خيرًا من هؤلاء الكفار بأن نذهب بهم ونأتي بقوم يؤمنون ولا يكفرون، ويطيعون ولا يعصون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الآية: ١٧].

بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨].

ويحتمل أن المعنى: إنا لقادرون على أن نبدل خيرًا منهم يوم القيامة بأن نعيدهم بأبدان خير من هذه الأبدان.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين، ولن يفوتنا ذلك، أو يمتنع منا إذا أردناه، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٣، ٤].

قال ابن القيم(١): «وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب فيفوت عليه».

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: فدع يا محمد هؤلاء الكافرين واتركهم.

﴿يَخُوضُواْ﴾ بالباطل بأقوالهم.

﴿وَيَلْعَبُواْ﴾، أي: يضيعوا أعمارهم باللهو واللعب بأبدانهم وأفعالهم والتمتع بالدنيا بلا عمل صالح ينفعهم غدًا.

قال ابن القيم(٢): «فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تَكلّمٌ بالحق، ولا عملٌ بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين».

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾، أي: حتى غاية ملاقاتهم يوم القيامة، الذي وعدهم الله بمجيئه ومجازاتهم فيه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وعند ذلك سيعلمون سوء عاقبة أمرهم، وسيجازون على أعمالهم، ويندمون حيث لا ينفع الندم، وفي هذا تهديد شديد

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٥/ ٢٩.

لهم ووعيد أكيد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ هذا وما بعده وصف لحالهم في ذلك اليوم. و«الأجداث»: القبور.

﴿سِرَاعًا﴾، أي: مسرعين إلى الداعي، أي: يوم يبعثون ويقومون من القبور مسرعين إلى أرض المحشر والحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦].

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿نُصُبٍ﴾ بضم النون والصاد، وقرأ الباقون: «نَصْب» بفتح النون وإسكان الصاد.

أي: كأنهم في سرعة نهوضهم من قبورهم وسرعتهم إلى أرض المحشر ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾، و«النصب»: الصنم، أو العلم والغاية.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون والإيفاض: الاستباق والإسراع، أي: كأنهم في سرعتهم إلى أرض المحشر يسرعون إلى أصنام، أو إلى أعلام وغايات يستبقون إليها أيهم يستلمها أولًا.

وفي الآية الثانية قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨].

أي: كلهم يؤم صوت الداعي، ويتبعه لا يعوج عنه.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: ذليلة أبصارهم منكسرة خاضعة.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، أي: تغشاهم ذلة ومهانة شديدة مقابل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الله تعالى في الدنيا؛ لأن العز كل العز بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل في معصية

الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

فجمع لهم بين ذل الظاهر بخشوع أبصارهم، وذل الباطن بما يغشاهم من الذل كما قال تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾، أي: يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا وتفخيمًا لأمره، أي: ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾، أي: الذي كان المشركون يوعدون بمجيئه وهم به يكذبون وقد رأوه عيانًا، وهذه حالهم فيه.

الفوائد والأحكام:

١- التعجب من حال المشركين والكفار والإنكار عليهم في إسراعهم قبل الرسول ﷺ جماعات عن اليمين وعن الشمال غرورًا منهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

٢- مدى سفه الكفار وعظم جهلهم حيث يطمعون بدخول الجنة والنعيم بلا عمل منهم سوى التكذيب بالحق ورده، والإنكار عليهم في ذلك وردعهم وزجرهم، وتذكيرهم بأصل خلقهم وضعفه وحقارته ومهانته؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٣- أن حكمة الله عز وجل في إيجاد البشر تقتضي إثابة المطيع وعقوبة العاصي.

٤- إقسام الله عز وجل بنفسه وهو رب المشارق والمغارب على قدرته على تبديل الكفار المكذبين بخير منهم، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

٥- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بترك الكفار في خوضهم ولعبهم وتضييع أعمارهم حتى يوافوا يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، وتسلية له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

٦- إثبات البعث وخروج الكفار مسرعين من قبورهم، ذليلة أبصارهم، تغشاهم

ذلة وهوان، يتسابقون إلى المحشر يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾.

٧- الإشارة إلى شدة يوم القيامة وأهواله، وأنه اليوم الذي تُوعِّد به الكفار والمشركون؛ لقوله تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ نُوْحٍ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة نوح»؛ لافتتاحها بذكر رسالة نوح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾، ولاشتمالها على دعوته.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- تحدثت هذه السورة عن إرساله عز وجل نوحًا إلى قومه وإنذاره لهم، وأمْره إياهم بعبادة الله تعالى، وتقواه، واستغفاره، وطاعته، ووعدهم بالمغفرة والإمهال إلى أجل مسمى.

٢- شكواه عليه السلام إلى ربه عدم استجابتهم له مع تنويعه لهم أساليب الدعوة، وترغيبهم بكثرة الأمطار والأموال والجنات والأنهار.

٣- أمره لهم بالتأمل في مظاهر قدرة الله تعالى، في خلق السموات والقمر والشمس، وفي إنباتهم من الأرض، وإعادتهم فيها ثم إخراجهم، وجعلها لهم بساطًا؛ ليسلكوا منها سبلًا فجاجًا.

٤- شكواه عليه السلام إلى ربه عز وجل مرة ثانية عصيانهم له، واتباعهم من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، ومكرهم مكرًا كبارًا، وتواصيهم بالتمسك بمعبوداتهم من دون الله التي أضلت كثيرًا من الخلق.

٥- دعاء نوح عليه السلام عليهم بزيادة الضلال، وإغراقهم، وإدخالهم النار بسبب خطيئاتهم؛ فلا ناصر لهم من دون الله. ودعاؤه عليه السلام عليهم بالهلاك عن آخرهم، ودعاؤه بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات، وأن لا يزد الظالمين إلا تبارًا.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

هذه السورة سورة عظيمة تمثل منهج الدعوة إلى الله عز وجل كما هي طريقة نوح عليه السلام في دعوته لقومه من حيث تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله عز وجل وشكوى الحال إليه سبحانه.

وقد أفرد عز وجل قصة نوح عليه السلام وحدها؛ لطول لبثه فيهم وتكرار دعوته إلى التوحيد والتحذير من الشرك.

قوله: ﴿إِنَّآ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى، له كمال العظمة والكبرياء.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، أي: بعثناه ليؤدي رسالتنا إليهم.

والرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

ونوح: هو أول رسول أرسله الله عز وجل إلى أهل الأرض بعد آدم، وآدم نبي وليس برسول.

وهو نوح بن لامَكَ، وهو أحد أولي العزم الخمسة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، «أن»: حرف مصدري ونصب، أي: بأن أنذر قومك، أو: لأجل أن تنذر قومك.

والإنذار هو: الإعلام مع التخويف والتحذير، أي: أن أعلم قومك وخوفهم وحذرهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: من قبل أن يحل بهم عذاب مؤلم موجع لهم حسًا ومعنى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ صدر خطابه عليه السلام لهم بالنداء تنبيهًا لهم وتعظيمًا للأمر، وخاطبهم بقول: «يا قوم» استعطافًا لقلوبهم. والقوم: هم الجماعة الكثيرة من الناس رجالًا ونساء.

﴿لَكُمْ﴾، أي: لكم خاصة، لا لغيركم، كما قال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»(١).

﴿نَذِيرٌ﴾، أي: منذر ومحذر ومخوف ﴿مُّبِينٌ﴾ بين النذارة واضح البرهان، أي: بيّن في نفسه أنه نذير، ومبين ما أرسل للإنذار والتخويف منه كما قال ﷺ: «إني أنا النذير العريان»(٢).

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: بأن اعبدوا الله وحده بالخضوع والتذلل له، وإخلاصه بالعبادة.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بفعل أوامره وترك نواهيه، والتي من أعظمها الشرك ووسائله.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾، أي: امتثلوا أمري بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه.

﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ هذا من البشارة التي جاء بها نوح عليه السلام مع الإنذار، كما هي طريقة جميع الرسل عليهم السلام، كما قال الله عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأمره الله عز وجل في مطلع السورة بالإنذار لقومه، وصرح لهم عليه السلام بأنه لهم نذير مبين، ولم يأت التصريح بالبشارة والله أعلم- وإنما دل عليها مضمون الآيات

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

لما هم عليه من شدة الكفر والتكذيب والعناد، كما هو ظاهر من الآيات.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن ويقرره بذنوبه، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى.

والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم كلها وهو مقتضى الأدلة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: ويؤجلكم إلى أجل ووقت محدد وهو مقدار بقائكم في الدنيا، وذلك بدفع العذاب الدنيوي العاجل عنكم، والمباركة في أعماركم؛ لأن الطاعة والبر وصلة الرحم تزيد في العمر قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال، منسأة في الأثر»(٢).

وقال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»(٣).

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾، أي: وقته الذي وقته لموتكم، أو لوقوع العذاب عليكم.

﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، أي: إذا حضر لا يمكن تأخيره وتأجيله، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه. وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة العلم النافع لأنبتم إلى ربكم، ولما كفرتم وكذبتم بالحق، أي: اعلموا ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب».

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

٢- أن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي الإنذار من العقوبات والعذاب لمن عصاهم، والبشارة لمن أطاعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الآيات.

٣- أن الهدف من إرسال الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله عز وجل وتقواه وطاعته والتحذير من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

٤- وعد نوح عليه السلام لقومه وبشارته لهم- إن أطاعوه- بمغفرة الله عز وجل لذنوبهم وتأخيرهم إلى أجل مسمى بتأخير العذاب الدنيوي عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٥- أن للاستقامة على عبادة الله تعالى وتقواه وطاعته، أثرها العظيم في البركة في العمر، والتأخير إلى أجل مسمى.

٦- أن أجل الله بالموت أو بإيقاع العذاب على المكذبين إذا جاء لا يمكن دفعه ولا تأجيله، ولا منعه، وما قدره الله كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

٧- أن الكفار لا علم عندهم يهتدون به إلى ما ينفعهم وينجيهم من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

توجه نوح عليه السلام في الآيات السابقة بالنداء إلى قومه ينذرهم ويأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته ويعدهم على ذلك بالمغفرة من الله عز وجل، وتأخيره العذاب عنهم ويحذرهم من تعجيله لهم في الدنيا.

ثم توجه بالنداء إلى ربه عز وجل يشكو إليه ما لقي من قومه من البعد والفرار، والاستكبار والمكر الكبّار، وعبادة الأصنام والضلال والإضلال، وذكر صبره عليه السلام عليهم تلك المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عامًا فإليه عز وجل المشتكى في جميع الأحوال.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾، أي: قال نوح يا رب إني دعوت قومي إلى عبادتك وتقواك، وطاعتي.

﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، أي: في الليل والنهار، أي: في جميع الأحوال والأوقات.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾، أي: إلا بعدًا عن الحق والإيمان، ونفورًا منه، وإعراضًا عنه.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ «كلما»: ظرف، واللام للتعليل ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، أي: سدوا آذانهم بأصابعهم؛ لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه؛ استكبارًا وعنادًا، كما قال الله عز وجل عن كفار مكة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾

[فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾، أي: غطوا رؤوسهم بثيابهم، لئلا يسمعوا، أو تنكروا له لئلا يعرفهم مبالغة في إظهار الكراهة له ولدعوته.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾، أي: استمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر والعناد وتشددوا في ذلك.

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ «استكبارا»: مصدر مؤكد، أي: استكبروا استكبارًا عظيمًا، أي: استنكفوا وتكبروا عن قبول الحق واتباعه والانقياد له.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

بعدما بين دعوته لهم في جميع الأوقات في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بين أنه دعاهم في جميع الأحوال.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، أي: ظاهرًا بمسمع منهم كلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾، أي: دعوتهم علانية وصرخت وصحت بهم.

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، أي: ودعوتهم خفية فيما بيني وبينهم، وأسررت لهم في ذلك غاية الإسرار.

فدعاهم عليه السلام ليلًا ونهارًا وجهرًا وعلنًا وسرًا، مجتمعين وفرادى، ونوّع في أسلوب الدعوة؛ لعل ذلك ينجح معهم وينجع فيهم، ولكن هيهات.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي: اطلبوا من ربكم مغفرة ذنوبكم، وتوبوا وارجعوا إليه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أي: ذا مغفرة عظيمة، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، إذا صدق العبد في التوبة والرجوع إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

هذا رزق وفضل من الله عز وجل عاجل لهم في الدنيا، مع مغفرة ذنوبهم والثواب الآجل في الآخرة، إذا استغفروا الله وتابوا إليه.

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، أي: يرسل السماء عليكم بالمطر غزيرًا متتابعًا، وينزل عليكم من بركات السماء ورزقها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: «أي: متواصلة الأمطار؛ ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية، وهكذا رُويَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء[2]، التي يستنزل بها المطر، وقرأ الآية التي في سورة «هود» حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]».

﴿وَيُمْدِدْكُم﴾، أي: ويعطكم ويزدكم من فضله وخزائنه التي لا تنفد.

﴿بِأَمْوَٰلٍ﴾ وهي كل ما يتمول ويملك من أنواع الأموال من الذهب والفضة والدراهم والدنانير، والعقار والأثاث والمتاع وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩- ٢٦٠.

(٢) «المجاديح» هي وسائل استخراج الماء كالدلاء ونحوها، فيكون معنى قول عمر رضي الله عنه أنه بذل أهم أسباب استنزال المطر والغيث من الله عز وجل وهو استغفاره سبحانه وتعالى.

﴿وَبَنِينَ﴾، أي: ويمددكم ببنين، وهم الذكور من الأولاد، وخصهم بالذكر؛ لأن الذكور أفضل من الإناث وأحب إليهم، كما قالت امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فوعدهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه بالإمداد بالأموال والبنين، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال عز وجل متوعدًا للوليد بن المغيرة ومذكرًا له: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر: ١١- ١٣].

وكثرة الأموال خير إذا استعين بها على طاعة الله تعالى.

ولهذا قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(١).

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾، أي: ويجعل لكم بساتين كثيرة الأشجار والزروع والثمار تأكلون من ثمارها وتطعمون مواشيكم من نباتها.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾، أي: ويجعل لكم أنهارًا تجري وسط هذه الجنات تشربون منها، وتغتسلون فيها وتسقون منها زروعكم وحروثكم ومواشيكم، وتتمتعون برؤيتها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

وهكذا أمر الله محمدًا ﷺ أن يقول لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، وقال هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨- من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

صالح لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [هود: ٦١].

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾.

أمرهم عليه السلام بالاستغفار ورغبهم بالمغفرة من الله- عز وجل- وإنزال المطر وإمدادهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار، ثم وبخهم وأنكر عليهم عدم الخوف من الله عز وجل، فقال: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ الآيات.

قوله: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾، «ما»: اسم استفهام معناه الإنكار عليهم.

﴿وَقَارٗا﴾، أي: عظمة وتقديرًا، أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة، ولا تخافون بأسه ونقمته ولا تقدرونه حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ الواو: حالية، و«قد»: للتحقيق، أي: والحال أنه قد خلقكم أطوارًا، فموجب خلقه لكم وإنعامه عليكم بسائر النعم أن تعبدوه وتعظموه.

ومعنى قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾، أي: والحال أنه عز وجل خلقكم خلقًا من بعد خلق، وطورًا من بعد طور، فطورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، ثم عظامًا، ثم كسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر، ثم اكتمال حمله في بطن أمه، ثم ولادته، ثم فترة الرضاع، ثم سن الطفولة، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة ثم الهرم، ثم الرد إلى أرذل العمر.

وفي تذكير الخلق في ابتداء خلقهم وأطواره تنبيه على قدرته التامة على بعثهم وإعادتهم بعد موتهم.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري.

أي: ألم تعلموا كيف أوجد الله سبع سموات.

﴿طِبَاقًا﴾: بعضها فوق بعض، كل سماء مقبية على الأخرى، وأوسع منها، سمك كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة والتي تليها مسيرة خمس مئة عام، كما جاء في الحديث(١).

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، أي: وجعل القمر في هذه السموات السبع نورًا، مستفادًا من نور الشمس.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، أي: وجعل الشمس فيهن، وفي هذا الكون مصباحًا مضيئًا، وسميت الشمس سراجًا؛ لحرارتها، ولأنها أشد إضاءة من القمر.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

قال ابن كثير(٢): «أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلًا منهما أنموذجًا على حدة؛ ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسرّ؛ ليدل على مضي الشهور والأعوام».

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، «نباتا»: مصدر مؤكد، أي: أنبتكم من الأرض نباتًا بخلق أبيكم آدم وإيجاده من التراب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ إذا متم ودفنتم فيها.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، «إخراجا»: مفعول مطلق منصوب، أي: ويخرجكم منها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٠.

إخراجًا، ببعثكم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، أي: مبسوطة مسطحة، ممهدة مستقرة مثبتة بالجبال الراسيات، صالحة مهيأة للانتفاع بها والاستقرار والحياة والبناء عليها، والحرث والزرع فيها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، اللام: للتعليل، أي: جعلها لكم بساطًا؛ لأجل أن تسلكوا منها طرقًا واسعة مختلفة أين شئتم من أرجائها، ولولا أنه بسطها ما أمكنكم ذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

وهذا يوجب التأمل في كمال قدرته عز وجل في إيجاد هذه المخلوقات العظيمة.

ولهذا أنكر عليهم نوح عليه السلام في هذه الآيات لم لا يعظمون الله ويخافونه؟ مذكرًا ومنبهًا لهم على عظيم قدرة الله عز وجل، وعظيم نعمه عليهم في خلقهم، وخلق السموات السبع الطباق، وإنارتهن بالقمر، وجعل الشمس سراجًا، وخلقهم من الأرض، وإعادتهم فيها، وإخراجهم منها، وبسط الأرض لهم؛ ليستطيعوا العيش والاستقرار عليها، ويسيروا في جوانبها، ويستخرجوا من خيراتها، مما يوجب عليهم أن يعظموه عز وجل، ويعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئًا.

الفوائد والأحكام:

١- بذل نوح عليه السلام غاية جهده في دعوة قومه في جميع الأوقات ليلًا ونهارًا وبشتى الأساليب؛ جهارًا وإعلانًا وإسرارا، وصبره على أذاهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. فينبغي للدعاة أن يستلهموا الدروس من هذا، في تنويع أساليب الدعوة

والصبر على الأذى في سبيلها.

٢- شدة عناد قوم نوح عليه السلام وفرارهم منه ومن دعوته وإصرارهم على الباطل، واستكبارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾.

٣- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه نوح عليه السلام- وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، وقوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

٤- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله- عز وجل- لذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

٥- وجوب استغفار الله تعالى والتوبة والإنابة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

٦- أن الاستغفار والتوبة سبب لمغفرة الذنوب وسعة الرزق من المطر والمال والبنين والجنات والأنهار، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾.

٧- لا حرج في أن يقصد المسلم في استغفاره ودعائه صلاح أمر دينه ودنياه وآخرته.

٨- جمع نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب بالوعد لهم بالمغفرة في الآخرة، والترغيب لهم في الرزق في الدنيا بالمطر وبالأموال والبنين والبساتين والأنهار.

٩- إنكار نوح عليه السلام على قومه عدم تعظيمهم لله وعدم خوفهم منه، وقد خلقهم سبحانه وتعالى طورًا بعد طور وأحسن خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾.

١٠- توجيه نوح- عليه السلام لقومه للنظر والتأمل في عظمة قدرة الله عز وجل في خلق سبع السموات الطباق وجعل القمر فيهن نورًا والشمس سراجًا، وفي إنباتهم من الأرض ثم إعادتهم فيها ثم بعثهم وإخراجهم منها، مما يوجب عليهم تعظيم الله- عز وجل وعبادته وحده لا شريك له. وكل إنسان مدعو إلى هذا التأمل؛ لقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾.

١١- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث حيث خلق السموات والشمس والقمر، وأنبت الخلائق من الأرض.

١٢- تذكير نوح عليه السلام لقومه بنعمة الله عليهم بجعل الأرض بساطًا مستوية ليسلكوا طرقها وفجاجها ويستخرجوا من خيراتها. وفي هذا نعمة علينا وعلى كل مخلوق يدب على وجه الأرض، فلله الحمد على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

دعا نوح عليه السلام قومه وأنذرهم، وشكا إلى الله ما لقي منهم مبينًا أنه نوّع لهم في أساليب الدعوة ورغبهم ورهبهم، وخوفهم بالله، وبين لهم عظيم قدرته وعظيم نعمه عليهم في خلقهم وخلق السموات والأرض.

ثم شكا إلى الله عز وجل ثانية تماديهم في العصيان واتباعهم من لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا الخسار، وما حصل منهم من المكر الكبار، وعبادة الأصنام، وإغراقهم في الضلال والخطايا، مما سبب إغراقهم وإدخالهم النار ثم دعا عليه السلام عليهم بالهلاك عن آخرهم، وسأل الله عز وجل المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات ودعا على الظالمين بالتبار والخسار.

قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ شكا نوح عليه السلام إلى ربه ثانية ما لقي من قومه قائلًا ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾، أي: خالفوني وكذبوني بعد الإنذار والإعذار بتنويع أساليب الدعوة لهم والترغيب والترهيب، وتخويفهم وتذكيرهم بعظمتك وقدرتك وعظيم نعمك عليهم.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وعاصم بفتح الواو واللام: ﴿وَوَلَدُهُ﴾، وقرأ الباقون بضم الواو وإسكان اللام: «ووُلْده».

أي: واتبعوا وأطاعوا وقلدوا الملأ والأشراف الذين مُتِّعوا بالأموال والأولاد واغتروا بالدنيا وركنوا إليها وغفلوا عن أمر الله تعالى، فصارت أموالهم وأولادهم خسارة ونقصانًا عليهم واستدراجًا لهم، وسببًا لطغيانهم وضلالهم وبعدهم عن طريق الحق، ومن تبعهم فهو مثلهم في الخسار والبوار.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾، «مكرا»: مصدر، و«كبارا»: صفة له.

والمكر: هو الكيد بخفية في التمرد ومخالفة الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

والمعنى: ومكروا مكرًا كبيرًا عظيمًا بليغًا، فتمادوا في المخالفة والغي والعصيان والتمرد والضلال.

﴿وَقَالُواْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض، أو قال لهم أصحاب الأموال والأولاد داعين إلى الشرك مزينينه لهم::

﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: لا تتركنّ معبوداتكم عمومًا وما عليه آباؤكم.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، أي: ولا تتركنّ خصوصًا: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

فنهوهم أولًا عن ترك عبادة آلهتهم عمومًا، ثم نهوهم ثانيًا عن ترك عبادة هذه الآلهة الخمسة خصوصًا؛ لأنها أعظم وأهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله.

قرأ نافع وأبو جعفر بضم الواو: «وُدًا» وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَدًّا﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف في الجرف عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسّخ العلم عبدت»(١).

وعن محمد بن قيس قال: «إن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ ٤٩٢٠.

آدم، وكان لهم، أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم»(١).

قال ابن القيم(٢): «قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل».

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، أي: وقد أضلوا بدعوتهم إلى عبادة هذه الآلهة وعبادتهم إياها كثيرًا من الخلق، وأبعدوهم عن عبادة الله وحده، فضل عن الحق بسبب عبادتها خلق كثير، وهو أول شرك حصل في بني آدم واستمر وانتشر بعد ذلك.

ولهذا دعا إبراهيم الخليل عليه السلام قائلًا ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ هذا دعاء منه عليه السلام على الظالمين من قومه، الذين ظلموا بعبادتهم غير الله وإشراكهم مع الله غيره.

وأظلم الظلم الشرك كما قال لقمان لابنه فيما حكاه الله عنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

والمعنى: ولا تزد الظالمين إلا بعدًا وتيهًا عن الحق، أي: زدهم بعدًا وتيهًا عن الحق.

وذلك بسبب ظلمهم وشركهم، فإن المعصية تجر إلى المعصية بعدها، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ قرأ أبو عمرو: «مما خطاياهم» بالألف بغير همز،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٠٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٨.

وقرأ الباقون: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بالهمز والتاء.

أي: من كثرة ذنوبهم وكفرهم ومخالفتهم رسولهم، وبسبب ذلك أغرقوا بالطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾، أي: فنقلوا من الغرق إلى الحرق، ومن عمق البحار إلى عذاب النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق، كما قال عز وجل عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾، أي: فلم يجدوا لهم أنصارًا وأعوانًا ينقذونهم من عذاب الله ويدفعونه عنهم، لا من العذاب الدنيوي، ولا من العذاب الأخروي.

كما قال عز وجل: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٥٦﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، أي: لا تترك على الأرض من الكافرين أحدًا يسكن الدار ويدور ويتحرك، بل أهلكهم واستأصلهم عن آخرهم.

وقد استجاب الله دعاءه، فأهلك بالغرق جميع من على وجه الأرض إلا من ركب معه في السفينة، حتى ولده لصلبه كان ضمن المغرقين، كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: ٤٣].

وقد قيل: إن دعوته عليهم بعد ما أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم امرأة كلما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها

رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم هذه المرأة»(١).

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: ٨٨].

قال ابن كثير(٢): «وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق قومه بتكذيبهم لما جاء به».

وهنا نجد الفرق بين موقف نوح عليه السلام حين عصاه قومه وخالفوه وآذوه، وبين موقف محمد ﷺ إذ أخذ يردد حين آذاه قومه قائلًا: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(٣).

ولما قال له ملك الجبال: دعني أطبق عليهم الأخشبين يعني جبلي مكة، قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا»(٤).

وبهذا وغيره فاق ﷺ وساد جميع الرسل وكان له الحوض المورود والشفاعة الكبرى والمقام المحمود، حين يعتذر عن الشفاعة جميع الأنبياء، من أولي العزم وغيرهم حتى إن نوحًا عليه السلام يعتذر بقوله «إني استعجلت فدعوت على قومي اذهبوا إلى غيري».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، فقال: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة»(٥).

وليت من يعتدون في الدعاء وكذا من يدعون بما لم تجربه سنن الله الكونية ونحو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٦، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤. «هذا حديث غريب ورجاله ثقات».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ١٤٠٢٥- من حديث عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٩٩.

ذلك من الأدعية التي لم ترد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ، بل ولا عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، مما فيه مبالغة واعتداء في الدعاء أقول: ليتهم يلحظون هذا الأدب النبوي الكريم في الدعاء فإنه أحرى لقبول دعائهم.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾، أي: إنك إن تتركهم فلا تهلكهم يضلوا عبادك المؤمنين الموجود منهم ومن سيوجد، أي: إنهم خطر وضرر على المؤمنين في دينهم في الحال والاستقبال.

﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، أي: ولا يلدوا ولا ينسلوا إلا فاجرًا بعمله مرتكبًا للفجور والفواحش والذنوب ﴿كَفَّارًا﴾ بقلبه.

و«كفار» على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: عظيم الكفر بربه وبنعمه، أي: إن بقاءهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

قال ابن كثير[1]: «أي فاجرًا في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا».

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

دعا نوح عليه السلام على الكافرين من قومه بالهلاك ثم دعا بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات، وبالخسران على الظالمين.

قوله: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾، أي: ولمن دخل مسجدي ومصلاي أو منزلي ﴿مُؤْمِنًا﴾، أي: حال كونه مؤمنًا، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي»[2].

وخص هؤلاء المذكورين؛ لتأكيد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء فقال:

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا يشمل

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- من يؤمر أن يجالس ٤٨٣٢، والترمذي في الزهد- ما جاء في صحبة المؤمن ٢٣٩٥.

الأحياء منهم والأموات.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾، أي: إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا في الدنيا والآخرة.

الفوائد والأحكام:

١- شكوى نوح عليه السلام حاله إلى ربه عز وجل لما عصاه قومه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ الآيات.

٢- أن شكوى الحال إنما تكون إلى الله- عز وجل- وحده، فهو الذي يسمع الشكوى، ويكشف الضر والبلوى.

٣- الحذر من فتنة المال والأولاد والاغترار بها، والحذر من تقليد واتباع من اغتروا بذلك فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٤- عظم كفر قوم نوح وكبر مكرهم وشدة تعلقهم بمعبوداتهم الباطلة وإضلالهم بهذه المعبودات كثيرًا من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

٥- الحذر من الشرك وأسبابه فإن هذه الأوثان كانت في الأصل أسماء لرجال صالحين، صوروا للتأسي بهم في العبادة، ثم لما طال الزمن أوحى الشيطان إلى الناس فعبدوهم.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾.

٧- جواز الدعاء على الظالمين والكافرين الضالين المضلين بزيادة الضلال والتبار والخسار والهلاك؛ لقول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، وقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

٨- إغراق قوم نوح عليه السلام، وإدخالهم النار بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وليس لهم من دون الله من أنصار؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

٩- الإشارة إلى أن النار موجودة الآن معدة لأهلها تعذب بها أرواحهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

١٠- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لربهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾.

١١- يجب الحذر من دعاة الضلال من أهل الكفر والشرك ونحوهم.

١٢- دعاء نوح عليه السلام لوالديه ولمن دخل بيته مؤمنًا ولجميع المؤمنين والمؤمنات؛ لقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

١٣- مشروعية الدعاء للوالدين وغيرهم من الأقارب المؤمنين، ولعامة المؤمنين والمؤمنات.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ الْجِنِّ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الجن»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الآية: ١]، ولما اشتملت عليه السورة من ثنائهم على القرآن، وإيمانهم به، وذكر بعض أحوالهم، وبراءتهم من الشرك، وغير ذلك.

وتسمى: «سورة قل أوحي»، و«سورة قل أوحي إليَّ».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر وحي الله عز وجل إليه ﷺ بأنه استمع إليه نفر من الجن، وإعجابهم بالقرآن، وأنه يهدي إلى الرشد، وإيمانهم به وبراءتهم من الإشراك بالله، وتمجيدهم لله تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد، وذكر ما كانوا عليه هم والإنس من الكذب على الله وإنكار البعث وغير ذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

٢- حفظ السماء بعد نزول القرآن بالحرس والشهب من استراق السمع: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

٣- تسليمهم لأمر الله تعالى، وبيان أن منهم الصالحون، ودون ذلك، واختلاف طرائقهم، وأن منهم المسلمون ومنهم القاسطون، واعترافهم بضعفهم وعجزهم أمام قدرة الله تعالى، وتأكيدهم إيمانهم بربهم وعظيم رجائهم به، وخوفهم من وعيده: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

٤- أن النعمة قد تكون فتنة واستدراجًا: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً

غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

٥- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة من الشرك: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

٦- بيان أنه ﷺ لا يملك من الأمر شيئًا لا لنفسه، ولا لغيره، ولا يعلم الغيب، وليس إليه إلا تبليغ رسالة ربه، والإنذار والتهديد لمن يعصى الله ورسوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

٧- اختصاصه عز وجل بعلم الغيب، وأنه قد يطلع من ارتضاه من الرسل على شيء من ذلك لمصلحة الرسالة والدعوة: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا- والله- الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم. قالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن»(١).

وقد سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ذكر

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان- الجهر بقراءة صلاة الفجر ٧٧٣، ومسلم في الصلاة- الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٤٩، والترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٣، وأحمد ١/ ٢٥٢، ٢٧٤.

حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قراءته ﷺ على الجن(١).

قوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد للناس ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، أي: أوحى الله إليّ.

﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، أي: أنه استمع جماعة من الجن إلى قراءتي القرآن.

﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما سمعوه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، أي: سمعنا قرآنا عجيبًا بديعًا، بليغًا ليس من كلام الإنس والجن، يعجب سامعه من فصاحته وبلاغته في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، أي: يدل إلى الرشد. و«الرشد» في الأصل؛ الاهتداء إلى طرق الخير عامة، والمراد به في الآية: الاهتداء إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

كما قالوا فيما ذكر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ولهذا وصف الله المؤمنين في سورة الحجرات بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾.

﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾، أي: صدقنا به، وانقدنا له واتبعناه.

وهذا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، أي: ولن نشرك بربنا أحدًا من الشركاء والمعبودات، بل سنعبده وحده ونخلص العبادة له وحده لا شريك له.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٥٠، والترمذي في الطهارة ٣٢٥٨، وأحمد ١/ ٤٣٦.

وفي قولهم: ﴿بِرَبِّنَآ﴾ إقرار منهم بربوبيته لهم وأنه الخالق المالك المدبر لهم ويلزم من هذا أن يفردوه بالعبادة وحده، فجمعوا بين الإيمان بالله وترك الشرك، بين الإيمان والتقوى، بين الإخلاص والمتابعة.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بفتح الهمزة في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾، وكذا ما بعده إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ اثنتا عشرة همزة، ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾.

وقرأ الباقون بكسرها في الجميع(١).

أي: وأنه تعاظم وارتفع جلال ربنا وقدره وسلطانه وعظمته وغناه وآلاؤه ونعمه على خلقه، وتعالى بذاته وصفاته وأسمائه فله علو الذات والصفات وعلو القدر وعلو القهر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠، سبأ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً﴾، «ما» نافية، أي: ما جعل لنفسه صاحبة، والصاحبة: الزوجة.

﴿وَلَا وَلَدًا﴾ الولد: جنس الأولاد من الذكور والإناث، أي: تعالى وتنزه سبحانه عن الصاحبة والولد؛ لأن اتخاذ الصاحبة والولد ينافي كمال العظمة والغنى، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وفي هذا وما بعده ما يفيد أنهم آمنوا عن معرفة منهم بعظمة الله عز وجل، وعن فهم للإيمان، وما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا، ومن الثواب العظيم في الآخرة وليس إيمان العادة والإلف والتقليد، الذي قد يضعف أو يزول أمام الشبهات والشهوات.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ السفيه: من لا يحسن التصرف. والسفه يكون في الدين، ويكون في المال، ويكون في الولاية.

---

(١) انظر: «النشر» ٢/ ٣٩١

والمراد به هنا السفه في الدين، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى في وصف اليهود ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤].

وأول من يدخل في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ إبليس وأتباعه وأعوانه.

﴿شَطَطًا﴾، أي: قولًا جائرًا عن الصواب، مفرطًا في الكذب، وباطلًا كبيرًا، وزورًا عظيما، من الإشراك بالله، ونسبة الصاحبة والولد له.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قرأ يعقوب بفتح القاف والواو مشدة: «تَقَوّلَ» وقرأ الباقون بضم القاف وإسكان الواو مخففة ﴿نَقُولَ﴾.

أي: حسبنا أنهم لا يقدمون ولا يتجرؤون على الكذب على الله بالإشراك به ونسبة الولد والصاحبة إليه اغترارًا منا بما عليه السادة والرؤساء من الإنس والجن، وإحسانًا منا الظن بهم، فلما سمعنا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك القول، وفي هذا نوع من الاعتذار عما حصل منهم من تقليد هؤلاء الرؤساء بما هم عليه من الباطل.

وبدؤوا بذكر الإنس؛ لأنهم أول من خوطب بالقرآن، وأول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن.

وأيضًا لئلا يعتقد إخوانهم من الجن أنهم ظاهروا الإنس عليهم.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: يستعيذون بهم ويستنجدون تعظيمًا لهم وخوفًا منهم، حيث كان الواحد منهم إذا نزل واديًا قال «أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه»(١).

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: فزاد الجنُّ الإنس خوفًا وذلًا ورعبًا وإرهابًا وفزعًا، وزاد

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٢١١.

الإنسُ الجنَّ طغيانًا وإثمًا فازدادت جرأة الجن وتعاظمهم عليهم وتخويفهم لهم، لما رأوا استعاذتهم بهم وخوفهم منهم؛ ليبقى الإنس على تعظيمهم والخوف منهم والتعوذ بهم.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، أي: وأنهم، أي الجن ظنوا وحسبوا كما ظننتم وحسبتم أيها الإنس ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، أي: أن لن يبعث الله بعد هذه المدة أحدًا من الرسل، أي: أن لن يبعث الله رسولًا.

ويحتمل أن المعنى: وأنهم ظنوا كما ظن الإنس أن لا بعث ولا حساب فأقدموا على الشرك والطغيان.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، أي: التمسنا السماء وطلبنا خبرها، كما كنا نفعل من ذي قبل.

﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، أي: فوجدناها قد ملئت بالحرس الشديد، والشهب، التي يرمى بها من استرق السمع، فلم نستطع الوصول إليها، ولا الدنو منها، وذلك حفظًا لها وحفظًا لكتابه العزيز القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾، أي: وأنا كنا قبل ذلك، ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾، أي: من السماء.

﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، أي: للاستماع، أي لاسترق السمع بحيث يستمعون الكلمة الواحدة من خبر السماء، فيلقونها على ألسنة الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، أي: فمن يرم ويحاول الاستماع لخبر السماء الآن بعد نزول القرآن يجد له شهابًا من النجم مرصدًا معدًا له لا يخطئه بل يصيبه فيحرقه ويهلكه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوا حقًا وما زادوا باطلًا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده، فإذا

بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض»(١).

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ﴾، أي: وأنا لا ندري ولا نعلم ما هذا الأمر الذي حدث وحفظت من أجله السماء بالحرس الشديد والشهب.

﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الهمزة: للاستفهام، أي: أهو شر أريد بالذين في الأرض وساكنيها.

﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾، «أم»: عاطفة، ويجوز كونها بمعنى: «بل» والجملة بعدها استئنافية، أي: بل أراد بهم ربهم.

﴿رَشَدًا﴾، أي: خيرًا وصلاحًا ونجاحًا وفلاحًا فعرفوا بفطنتهم أن هذا ينذر بحدوث أمر عظيم، وحدث كبير خيرًا كان أو شرًا.

وفي ضمن ذلك إشارة إلى أن هذا ابتلاء فيه الرشاد والخير لأقوام، وفيه الشر والهلاك لأقوام.

وقد أسندوا الشر إلى ما لم يسم فاعله، وأسندوا إرادة الرشد إلى الله عز وجل تأدبًا في العبارة، كما في قول المؤمنين في الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فنسبوا الإنعام إليه، والغضب لما لم يسم فاعله، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(٢).

ويؤخذ من الآيات عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وبالقرآن الذي أوحاه إليه فمن أجل ذلك حرست السماء بالحرس الشديد والشهب.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٤، وأحمد ١/ ٢٧٤ وقال الترمذي «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ ووحي الله- عز وجل- إليه، وأن رسالته عامة للثقلين الإنس والجن، وإثبات وجود الجن، وإعجابهم بالقرآن، وإقرارهم بهدايته، وإيمانهم به وبراءتهم من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

٢- إثبات أنه ﷺ لا يعلم الغيب، فلا علم له إلا بما أوحاه الله إليه.

٣- في أمره ﷺ بالإخبار باستماع نفر من الجن إلى قراءته وإعجابهم بالقرآن وهدايته- وتأثرهم وإيمانهم به إثارة لمشاعر الإنس ألا يكون الجن خيرًا منهم في هذا وحث لهم على المنافسة.

٤- عظمة القرآن وهدايته إلى الرشد والحق، وإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، لهذا تأثر الجن وأعجبوا به لما سمعوه وآمنوا به وأعلنوا تعظيم الله عز وجل والبراءة من الشرك ومن الكذب على الله.

٥- أن الإيمان ينافي الشرك ولا يجتمع معه؛ لقوله تعالى: ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾.

٦- تعظيم الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، وإثبات ربوبيته - عز وجل- الخاصة- للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾.

٧- اجتراء سفهاء الجن والإنس على نسبة الصاحبة والولد لله والإشراك به والكذب عليه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

٨- التحذير من الاستعاذة بغير الله من الجن أو غيرهم وأن في الاستعاذة بغير الله زيادة ذل وخوف للمستعيذ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

٩- تقرير وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والرد على منكريه من الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

١٠- حراسة السماء وحفظها بالشهب بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم حفظًا من الله عز وجل لكتابه العظيم ولنبيه ﷺ وتعظيمًا لمبعثه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

١١- إقرار الجن واعترافهم بأنهم لا يعلمون الغيب، ولا يدرون ما الحكمة فيما حصل من حراسة السماء، وفي هذا أبلغ الرد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والمنجمين والدجالين الذين يعتمدون على الجن فيما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

١٢- أدب الجن في كلامهم وخطابهم إذ نسبوا الشر لما لم يسم فاعله، ونسبوا الرشد إلى الرب سبحانه فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ وهكذا ينبغي التأدب في مثل هذا كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك».

١٣- إثبات ربوبية العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُمْ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الصالحون: جمع صالح، والصالح من صلح عمله بأن جمع بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: ومنا من هم دون الصالحين، أي: مقتصدون، وقيل: ومنا غير ذلك، أي: فساق وفجار وكفار.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان لقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

والطرائق: جمع طريقة، والقدد: جمع قدة، وهي الضروب والأجناس المختلفة، أي: كنا أصنافًا مختلفة، وملًا ونحلًا شتى، ذوي مذاهب متفرقة، وآراء وأهواء متباينة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وأنا تيقنا أننا لن نعجز الله في الأرض ولن نفوته إذا طلبنا، ولن نستطيع الخروج من حكمه وقدرته.

﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾، أي: ولن نعجزه هاربين، ولو أمعنا في الهرب فهو علينا قادر وحكمه فينا نافذ سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: وأنا لما سمعنا الهدى، أي: القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، كما في قولهم قبل هذا: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الآية:٢]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: صدقنا به بقلوبنا وألسنتنا، وانقدنا بجوارحنا، وهم بهذا يفتخرون، وحق لهم ذلك، فإن الإيمان بالله والانقياد لأمره أعظم شرف وأعلى درجة يصل إليها البشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾، أي: فمن يؤمن بربوبيته- عز وجل- وألوهيته وأسمائه

وصفاته، وينقد لشرعه.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص، والرهق: الزيادة، أي: فلا يخاف نقصًا في حسناته وثوابه، ولا زيادة في سيئاته وعقابه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وإذا سلم المؤمن من البخس والرهق، ومن الظلم والهضم حصل له الخير.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾، أي: المنقادون بجوارحهم لأمر الله وشرعه الخاضعون له بالطاعة.

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، «القاسطون» جمع «قاسط»، من «قسط» الثلاثي بمعنى جار وظلم، أي: ومنا الجائرون العادلون عن طريق الحق، وعن الصراط المستقيم.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾، أي: فالذي أسلم، أو فالذين أسلموا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشاروا إليهم بإشارة الجمع باعتبار معنى «من»، وأشاروا إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لشأنهم.

﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾، أي: طلبوا وتوخوا وأصابوا طريق الرشاد والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وبحثوا عنه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥- ١٠].

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾، أي: للنار وقودًا تسعر وتوقد بهم جزاء ظلمهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦].

وسميت النار بـ«جهنم»؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

قال ابن القيم(١): «قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم، فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار، فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]».

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، أي: وأن لو استمروا على الطريق والنهج والمسلك المذكور نهج القاسطين ومسلكهم مسلك الظلم والجور.

﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، أي: لأسقيناهم ماءً كثيرًا، يكون سببًا لسعة رزقهم ورغدهم.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نختبرهم ونبتليهم في سعة الرزق استدراجًا لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ويؤيد هذا المعنى من السياق قبله قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فأقرب ما تفسر به الطريقة مسلك هؤلاء، وقوله بعده ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

ويحتمل أن معنى الآية ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المثلى طريقة الإسلام الملة الحنيفية وثبتوا واستمروا عليها.

﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ كثيرًا غزيرًا يكون سببًا لسعة رزقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٤٥.

وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، أي: لنختبرهم ونبتليهم فيما أعطيناهم أيشكرون فيستمرون على الاستقامة والطاعة أم تبطرهم النعمة فيرتدون ويكفرون.

ويقوي هذا القول حمل الاستقامة على المعنى الظاهر والمتبادر منها، وهو الاستقامة على الإسلام وطاعة الله تعالى.

لكن يضعفه قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ لأن الله عز وجل وعد المؤمنين المستقيمين على أمره وطاعته بتوسيع الرزق لا ليفتنهم، كما في الآيتين المذكورتين بل إكرامًا لهم.

وكما هو مقتضى دلالة عموم نصوص الكتاب والسنة، وإن كان كثرة المال والرزق قد تكون في الأصل فتنة، لكن لغير من وفقهم الله للاستقامة على دينه وطاعته، فإن الله يدرأ عنهم أسباب الفتنة ويحفظهم كما حفظوه، ما لم يغتروا بأنفسهم وهذا ينافي استقامتهم على طاعة الله تعالى.

فالسياق السابق واللاحق وقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ كل هذا يقوي الاحتمال الأول؛ ولهذا قال ابن كثير[1] بعد ذكره: «وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾».

﴿وَمَن يُعْرِضْ﴾، أي: ومن يعرض بقلبه ويتول ببدنه.

﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾، أي: عما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: «نسلكه» بالنون.

ومعنى «يسلكه»: يدخله، كما قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، أي: ما أدخلكم فيها، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢].

ومعنى الآية: يدخله عذابًا شاقًا يعلوه ويغلبه، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٠.

[المدثر: ١٧]، أي: سأكلفه مشقة من العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الفوائد والأحكام:

١- أن الجن مذاهب مختلفة وملل شتى، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ومنهم المسلمون، ومنهم القاسطون الجائرون الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

٢- إثبات أن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وبهذا أيقن هؤلاء النفر من الجن بتوفيق الله لهم لما سمعوا القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

٣- اعتزاز هؤلاء النفر من الجن بإيمانهم بالقرآن وما فيه من الهدى لما سمعوه وفرحهم واستبشارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

٤- ما أسعد من آمن بربه واستقام على شرعه يوفى أجره كاملًا من غير نقص من حسناته ولا زيادة في سيئاته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

٥- الوعد والبشارة والتهنئة لمن أسلموا بإصابتهم طريق الرشد والخير والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾.

٦- الوعيد للقاسطين الظالمين بكونهم لجهنم وقودًا وحطبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

٧- أن الاستقامة على دين الله وطاعته سبب لنزول الأمطار والبركات والخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

٨- أن إنزال المطر وإغداق النعم قد يكون ابتلاءً وامتحاناً واستدراجاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

٩- الوعيد والتهديد بالعذاب الشديد لمن يعرض عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لعباده المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ﴾، ولقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾.

١١- الوعيد والتهديد لمن يعرض عن ذكر ربه بإدخاله في العذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

١٢- أن الجن مكلفون مجزيون بأعمالهم كالإنس.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الواو: عاطفة. و«المساجد» مواضع الصلاة والسجود لله وعبادته.

﴿لِلَّهِ﴾، أي: لعبادته خاصة.

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: فلا تدعوا مع الله أحدا من الخلق، لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، أي: اعبدوه في هذه المساجد وحده ولا تشركوا معه أحدًا.

وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الإشراك بالله في كنائسهم وبِيَعهم.

وقيل المراد بالمساجد أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين والركبتين وأطراف القدمين»(١).

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة: «وإنه»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾.

أي: وأنه لما قام عبد الله ورسوله محمد ﷺ يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ويدعو إلى الله.

وأطلق عليه وصف العبودية، فقال «عبد الله» في مقام الدعاء والعبادة وهو من أعظم المقامات ولم يقل: وأنه لما قام رسول الله أو نبيه يدعوه؛ لأن العبودية لله أشرف

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨١٢، ومسلم في الصلاة- أعضاء السجود ٤٩٠، وأبو داود في الصلاة ٨٨٩، والنسائي في التطبيق ١٠٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٣.

الأوصاف التي يوصف بها البشر من الرسل والأنبياء وغيرهم.

ولهذا وصفه بها في مقام الإسراء والقرب منه عز وجل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل برسوله ولا بنبيه.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ اللبد: الشيء الكثير المتراكم والمتلبد بعضه على بعض، أي: كاد الإنس والجن يتلبدون على النبي ﷺ، أي: يجتمعون على عداوته، ورد دعوته. ويقويه قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

قال ابن كثير[١]: «وهو الأظهر لقوله بعده ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾، أي: قال[٢] لهم الرسول حين آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه؛ ليبطلوا ما جاء به من الحق، واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾، أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾».

ويحتمل أن يكون معنى ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كادوا يتراكمون عليه ﷺ حرصًا على اتباعه واستماع دعائه ﷺ وقراءته.

وقيل: إن الجن لما رأوا النبي ﷺ يصلي بأصحابه وائتمامهم به في ركوعه وسجوده وقيامه وجلوسه عجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كاد أصحابه من شدة متابعتهم له في صلاته أن يتلبدوا عليه.

﴿قُلْ﴾ قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة: ﴿قُلْ﴾ بغير ألف على الأمر، وقرأ الباقون: «قال» بالألف على الخبر.

أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين تلبدوا عليك مبينًا لهم منهجك وطريقتك وحقيقة ما تدعو إليه:

﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾، «إنما» أداة حصر، ﴿أَدْعُواْ رَبِّى﴾، أي: أعبده وأسأله وأدعو إليه وحده.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٢.

(٢) على قراءة الجمهور.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾، أي: بربي ﴿أَحَدًا﴾ من الشركاء، أو من الخلق، وهو تأكيد لعبادته له وحده.

وهذا إعلان منه ﷺ لمن اجتمعوا على عداواته أن هذا منهجه وطريقه وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإعلان منه لمن استمعوا إليه من الجن ولغيرهم أن هذا سبيله وطريق دعوته.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، أي: إني عبد ليس لي من التصرف شيء، فلا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا غواية ولا رشدًا، بل مُلك ذلك وأمره كله لله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، أي: لن يمنعني من الله أحد إن أنا عصيته، أي: فلا يستطيع أحد نصرتي ودفع عذاب الله عني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣].

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، أي: ولن أجد من دون الله عز وجل ملجأ أركن إليه ولا نصيرًا؛ لأنه لا ملجأ ولا منجا منه تعالى إلا إليه، كما قال نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وإذا كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق وسيد ولد آدم لا يملك ضرًا ولا رشدًا، ولا مجير له من الله، ولا ملجأ له من دون الله ولا نصير فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، وفي هذا رد على من يغلون به ﷺ وعلى من يغلون بالأولياء وأصحاب القبور ويطلبون منهم المدد وقضاء الحاجات.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، «إلا»: أداة استثناء، والمعنى: إلا إبلاغ أمر الله ورسالاته إلى الناس، أي: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته إليهم.

وهذا مستثنى من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، أي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، أي: إلا تبليغ أمر الله ورسالاته فأنا أملكه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ويحتمل أن يكون الاستثناء من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾، أي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فذلك وسيلتي إلى الله عز وجل للنجاة والخلاص من عذابه، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فالإيمان والعمل الصالح هما سبب النجاة والخلاص بتوفيق الله عز وجل وهما الوسيلة التي يتوسل بها العبد إلى ربه عز وجل ومن هذا توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فنأى بي طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، وكرهت أن أوقظهما فلبثت والقدح في يدي والصبية يتضاغون تحت قدمي، حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئًا لكنهم لا

يستطيعون الخروج...» الحديث[١].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله بالكفر والتكذيب.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾، أي: فإن الله أعد له مجازاة له، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا مفر له عنها ولا محيد، وسميت نار جهنم؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، «خالدين»: حال، وجمعت باعتبار معنى «من».

وحيث رتب الله على المعصية هنا الخلود في جهنم فإن المراد بالمعصية الكفر المخرج من الملة؛ لأنه لا يخلد في النار إلا من مات على الكفر.

وهذه الآية هي الآية الثالثة في القرآن التي فيها التصريح بأبدية خلود أهل النار فيها، مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الآيتان: ١٦٨، ١٦٩].

وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥].

وقد اختلف أهل العلم في تأبيد النار وتأبيد المعذبين فيها الذين ماتوا على الكفر على قولين الصحيح منهما كما هو صريح هذه الآيات أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها وهو قول جمهور أهل العلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: حتى إذا رأى من عصوا الله ورسوله من الجن والإنس الذي يوعدون يوم القيامة من الأهوال والعذاب بالنار، وشاهدوه عيانًا وجزموا أنه واقع بهم.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾، أي: فسيعلمون حقيقة العلم يومئذ من الذي هو أضعف ناصرًا، وأقل عددًا، أهم، أم المؤمنون، وأنهم هم الأضعف

---

(١) أخرجه البخاري في الإجاره ٢٢٧٢، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٤٣.

ناصرًا، فلا أحد في ذلك ينصرهم، ولا هم ينتصرون بأنفسهم، وأنهم هم الأقلون عددًا بالنسبة لأولياء الله المفلحين وجنده الأكثرين، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح: ٧].

فحيث كانوا في الدنيا ينتقصون المؤمنين بضعف أنصارهم وقلة عددهم، ويفتخرون عليهم بقوة أنصارهم وكثرة عددهم جازاهم الله بنقيض ذلك فأبان لهم ضعفهم وضعف أنصارهم وقلة عددهم.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب إخلاص العبادة لله- عز وجل- بلا شريك، وأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله عز وجل وحده، فلا يدعى معه فيها غيره، ولا يمنع أحد من ذكر الله عز وجل فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

٢- تشريفه ﷺ بالعبودية الخاصة لله- عز وجل، وهي أشرف ما يوصف به البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾.

٣- اجتماع الكفرة والمكذبين من الجن والإنس على عداوة الرسول ﷺ والكيد له ولدعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

٤- إعلان الرسول ﷺ إخلاص العبادة لربه عز وجل والبراءة من الشرك، ومن الحول والقوة، وأنه لا يملك للخلق ضرًا ولا نفعًا وأنه لا مجير له من الله إن خالف أمره ولا ملجأ له من دونه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

٥- إثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة- له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعُو رَبِّي﴾.

٦- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ رسالة ربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾.

٧- الوعيد الشديد لمن يعصي الله ورسوله، ويكفر بالخلود في نار جهنم خلودًا أبديًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

٨- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب المخلدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفرة والمكذبون يفتخرون في الدنيا بقوتهم وقوة أنصارهم وكثرة عددهم فيوم القيامة حين يرون العذاب يعلمون أنهم هم الأضعفون الأقلون، فلا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله عز وجل وفي هذا أبلغ الوعيد والتهديد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾، «إن» نافية، أي: ما أدري.

﴿أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ الهمزة: للاستفهام، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أقريب الذي توعدون، أو أقريب وعدكم.

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾، «أم»: حرف عطف. «أمدا»، أي: مدة وغاية طويلة.

والمعنى: قل يا محمد للناس: لا أدري أقريب الذي توعدون من البعث وقيام الساعة والحساب ومجازاتكم على أعمالكم، أم يجعل له ربي مدة وغاية طويلة.

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان وعن الساعة وأماراتها وفيها قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «وأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»(١).

وفي حديث أنس- رضي الله عنه: «أن أعرابيًا نادى النبي ﷺ بصوت جهوري، فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟»، قال: أما إني لم أعد لها كثرة صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال: «فأنت مع من

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث»(١).

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرها نصف يوم» قيل لسعد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: «خمسمائة سنة»(٣).

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: عالم ما غاب عن الحواس من المخلوقات والأمور والأحوال السابقة واللاحقة وغير ذلك، لا يعلم ذلك غيره، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النحل: ٧٧].

وعلمه عز وجل بالشهادة من باب أولى.

﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، أي: فلا يُطْلع على غيبه أحدا من خلقه.

وفي هذا رد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والرمالين والمنجمين وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: ١٤].

قال لبيد(٤):

لعمرك ما تدري الضوارب ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٨٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٣٩، والترمذي في الزهد ٢٣٨٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٥٠.

(٤) انظر: «ديوانه» ص٥٧.

وقال الآخر:

أيا علما النجوم أحلتمونا ... على علم أرق من الهباء
كنوز الأرض لم تصلوا إليها ... فكيف وصلتمُ علم السماء(١)

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، «إلا» للاستثناء، و«من» موصولة.

والمراد بالرسول في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾: جنس الرسل، فيعم الرسل من الملائكة والبشر.

والمعنى: إلا الذين رضي عنهم من رسله وارتضاهم لرسالاته، فإنه عز وجل يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييدًا لهم.

ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾، أي: يجعل من أمامه ومن ورائه حرسًا وحفظة من الملائكة يحفظون ما أوحاه الله إليه من الشياطين حتى يبلغه على حقيقته من غير زيادة ولا نقصان، كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن كثير(٢): «أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله».

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: أنه عز وجل يحفظ رسله بالملائكة ليتمكنوا من تبليغ رسالاته عز وجل للناس ليظهر في علمه عز وجل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ

---

(١) البيتان ينسبان لعلي رضي الله عنه، وليسا في ديوانه. انظر: «غذاء الألباب» ١/ ١٩١، ونسبا لابن عبد البر. انظر: «الوافي بالوفيات» ٢٩/ ١٠٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٣.

ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

فعلى هذا يكون المعنى: ليظهر في علمه عز وجل أن الرسل بلغوا رسالات ربهم بما أطلعهم عليه بحكمته ووحيه من بعض المغيبات؛ تأييدًا لهم مع أنه عز وجل قدر الأشياء وعلمها قبل كونها؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يعود إلى الرسول أي ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغت عن الله رسالاته، وأن جبريل والملائكة حفظوها وبلغوها إليه ﷺ.

وقيل ليعلم الناس أن الرسل عليهم السلام بلغوا عن الله رسالاته، ويدل على هذا قراءة يعقوب: «ليُعلم» بضم الياء، أي: ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: أحاط بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، فقدره وعلم به علمًا تامًا قبل كونه وبعده.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، أي: علم عدد الأشياء كلها وضبطها ضبطًا كاملًا، فلم يخف عليه منها شيء.

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله لرسوله ﷺ برد علم الساعة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال إليه عز وجل؛ لأنه ﷺ لا علم له بها لا هو ولا غيره من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾.

٢- إثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصةله ﷺ - تشريفًا وتكريمًا له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّىٓ﴾.

٣- لا يعلم الغيب إلا الله وحده، فلا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وفي هذا رد على السحرة والكهنة والرمالين والمنجمين وأدعياء علم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

٤- أن الله عز وجل قد يطلع بعض من ارتضى من رسله على شيء من الغيب بطريق الوحي تأييدًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾.

٥- حفظ الله عز وجل لرسله ولوحيه إليهم؛ ليبلغوه كما أوحاه الله إليهم، وليظهر في علمه عز وجل أنهم أبلغوا رسالاته إلى الناس؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

٦- إحاطة علم الله عز وجل بالخلق، وما عندهم سواء أسروه أو أعلنوه، تقديرًا له وعلمًا به قبل كونه وبعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾.

٧- إحصاء الله عز وجل كل شيء عددًا وضبطه له ضبطًا تامًّا كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُزَّمِّلِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المزمل»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية، وقيل: آخرها مدني.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بنداء النبي ﷺ بوصف «المزمل» وأمره بقيام الليل تهيأً واستعدادًا لما سيلقى عليه من القرآن العظيم، وأمره بذكر الله والتبتل إليه، و التوكل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ إلى قوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾.

٢- أمْره ﷺ بالصبر على قول المشركين وتركهم، وتوعده عز وجل لهم وتهديدهم: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

٣- نسخ وجوب قيام الليل والتخفيف على الأمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

عن جابر رضي الله عنه قال: «اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسمًا تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر. فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»(١).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«ها» للتنبيه، و«المزمل» صفة لـ«أي»، أو بدل.

و«المزمل» أصلها: «المتزمل» ثم أدغمت التاء في الزاي؛ لقربها منها، أي: المتلفف بثيابه المتدثر بها، وذلك حصل منه ﷺ أول ما ابتدأه الله عز وجل بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام، فجاء ﷺ إلى أهله ترعد فرائصه، وهو يقول: «زملوني زملوني» ولهذا ناداه الله عز وجل في مطلع هذه السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، أي: قم للصلاة فيه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا قليلًا منه للنوم والراحة.

﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾: بدل كل من «الليل» والضمير يعود إلى الليل، أي: نصف الليل.

﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، «أو»: عاطفة في الموضعين، تفيد التخيير، والضمير في قوله «منه» يعود إلى «نصفه»، أي: أو انقص من نصفه قليلًا في حدود ما بين النصف إلى الثلث.

---

(١) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٧٥ وقال البزار: معلى بن عبد الرحمن- يعني أحد رواة الحديث-: قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، فاحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها».

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ الضمير في «عليه» يعود أيضًا إلى «نصفه»، أي: أو زد على نصفه قليلًا، في حدود ما بين النصف إلى الثلثين.

يدل على هذا قوله في آخر السورة: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: ٢٠].

فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل إلا قليلًا، ثم بين مقدار وقت القيام من الليل وحدده بنصف الليل، أو أنقص منه قليلًا، أو أَزيد عليه قليلًا، فخيره بين حالات ثلاث: قيام نصف الليل كاملًا، أو النقصان منه قليلًا، أو الزيادة عليه قليلًا.

وهذا فيه تيسير عليه ﷺ؛ ولهذا قال عز وجل في آخر السورة: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾.

وفي الحديث: «استقيموا ولن تحصوا»(١).

وقد أوجب الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى المؤمنين في مطلع هذه السورة قيام الليل، وبين مقداره، كما دل على وجوبه عليه ﷺ قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الآية: ٧٩]، ثم نسخ الله عز وجل وجوب ذلك في آخر السورة.

عن سعد بن هشام قال: انطلقنا إلى عائشة رضي الله عنها فاستأذنا عليها، فقلت: أنبئيني بقيام رسول الله ﷺ فقالت: «ألست تقرأ هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: إن الله تعالى افترض القيام في أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ على النبي ﷺ وعلى أصحابه حولًا، حتى انتفخت أقدامهم، فأمسك الله تعالى خاتمتها اثني عشر شهرًا، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا، بعد أن كان فريضة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، والدارمي في الطهارة ٦٥٥ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها- جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في الصلاة- صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٦/ ٥٤.

سنة»(١).

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، أي: واقرأ القرآن بتمهل وترسل، وتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه، وهكذا كان يقرأ ﷺ.

عن حفصة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مدًا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمد «بسم الله»، ويمد بـ«الرحمن»، ويمد بـ«الرحيم»(٣).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطعٌ قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾»(٤).

وأَمْره ﷺ بترتيل القرآن أمر له ولأمته، وهكذا جاءت الأحاديث في استحباب الترتيل، والأمر بتحسين الصوت بالقرآن والتغني به وفضل ذلك.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا أصواتكم بالقرآن»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- أبواب قيام الليل- باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه ١٣٠٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩، ٣٦٢، والبيهقي في سننه في الصلاة- قيام الليل ٢/ ٥٠٠، والحاكم في تفسير سورة المزمل ٢/ ٥٠٥. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٣٣، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٥٨، والترمذي في الصلاة ٣٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- مد القراءة ٥٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٦٥، والنسائي في الافتتاح ١٠١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٥٣.

(٤) أخرجه الترمذي في القراءات- ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ ٢٩٢٧، وأحمد ٦/ ٣٠٢، والبغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الوتر- استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٨، والنسائي في الافتتاح- باب تزيين القرآن بالصوت ١٠١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة- باب في حسن الصوت بالقرآن ١٣٤٢، وأحمد ٤/ ٢٨٣، ٢٨٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن، يجهر به»(١).

وفي رواية «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»(٢).

وأعجبه ﷺ صوت أبي موسى رضي الله عنه في قراءته القرآن، وامتدحه فقال: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود». فقال أبو موسى رضي الله عنه: «لو كنت علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(٤).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا تنثروه نثر الدّقل(٥)، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»(٦).

وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: قرأت المُفَصَّل الليلة في ركعة فقال: هذًّا كهذِّ الشعر. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المُفَصّل، سورتين في كل ركعة»(٧).

والأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به، ولأجل تدبر معانيه

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ ٧٥٢٧.

(٢) أخرجها مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن- حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين- استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الوتر- استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٤، وأحمد ٢/ ١٩٢.

(٥) الدقل: رديء التمر ويابسه. انظر «النهاية» مادة «دقل».

(٦) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

(٧) أخرجه البخاري في الأذان- الجمع بين السورتين في ركعة ٧٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٥، والترمذي في الجمعة ٦٠٢.

وهو الأهم؛ ولهذا قال بعد ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾.

وليس من الترتيل المأموربه الاهتمام باللفظ وتحسين الصوت به دون التدبر لمعاني القرآن وأحكامه- كما هو حال كثير ممن يقرؤون القرآن- فذلك لا يجدي شيئًا وقد قال ﷺ «يقرأ القرآن أناس من أمتي لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه. وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم)، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو وكسر الهاء وضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان، وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم، وكذلك تأويل القرآن على قول من قلّد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعًا لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره».

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾، أي: سنلقي عليك بإيحائنا إليك إما بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإما وحيًا منه عز وجل، أو بتكليمه من وراء حجاب كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى: ٥١].

﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ هو الوحي إليه بالقرآن الكريم، عظيم المعاني جليل الأوصاف.

وهو ثقيل أشد ما يكون نزوله على النبي ﷺ؛ لعظمته فعن زيد بن ثابت رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨- من حديث أبي سعيد الخدرى- رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٦.

عنه قال: «فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُرّي عنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني، فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصِلَ، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: «إن كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بجرانها(٤)»(٥).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿ثَقِيلًا﴾، أي: ثقيلًا العمل به على المكلفين، واختار الطبري أنه ثقيل من الوجهين(٦).

لكن ينبغي أن يعلم أن العمل بالقرآن خفيف على من وفقه الله عز وجل؛ لأن الله عز وجل وضع ببعثة النبي ﷺ وبما أوحى إليه من القرآن والسنة الآصار والأغلال عن هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣، وأخرجه مسلم مختصرًا في الفضائل ٢٣٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

(٤) الجران: باطن العنق، والمعنى: أنها تثبت في مكانها، ولا تستطيع الحركة ولا السير.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١١٨.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٦.

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

بل إن الموفق حقًا يجد في تطبيق أحكام القرآن والسنة الراحة واللذة والسرور والطمأنينة وقوة المعنوية والنشاط؛ ولهذا قال ﷺ لبلال: «أرحنا يا بلال بالصلاة»(١).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾، أي: القيام والعبادة فيه، في جميع أوقاته وساعاته وآنائه، أي: الليل كله، وبخاصة ما كان منه بعد النوم والراحة واستعادة الجسم والفكر نشاطه وحيويته، وتطلق أيضًا ناشئة الليل على الفعل الذي ينشأ فيه، أي: على القيام نفسه؛ لأنه ينشأ في الليل.

﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر «وِطاءً» بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها، وقرأ الباقون: (وَطْئًا) بفتح الواو وإسكان الطاء من غير مد.

أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: إن قيام الليل والصلاة والقراءة فيه أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: يوافق فيها القلب اللسان، بحيث يتدبر القارئ ما يقرأ، وهو المقصود الأهم من القراءة.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي: أقوم قولًا، وأصوب وأثبت قراءة.

قال ابن كثير(٢): «والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش».

﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، أي: فراغًا طويلًا وتقلبًا وتصرفا في قضاء حوائجك وذلك كافٍ، فتفرغ في الليل للقيام والصلاة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٨٦، وأحمد ٥/ ٣٧١- عن عبدالله بن محمد بن الحنفية عن صهر لهم من الأنصار.

وأخرجه أحمد أيضا ٥/ ٣٦٤- عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: «يا بلال أرحنا بالصلاة».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٨.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ بأنواع الذكر بالقلب واللسان، وبالعبادات القولية والفعلية، البدنية والمالية وغير ذلك.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾، أي: انقطع إليه انقطاعًا وأنب إليه وتعلق به بقلبك وأخلص له العمل، وتفرغ لعبادته، إذا انتهيت من قضاء حوائجك وأشغالك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ويؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ أن التبتل والانقطاع إلى الله عز وجل وإلى عبادته إنما يكون بعد قضاء الإنسان الحوائج والمشاغل، وإعطاء الجسم الراحة الكافية، لا كما أراد الذين نهاهم النبي ﷺ عن التبتل، لأنهم أرادوا الانقطاع للعبادة وتحريم ما أحل الله لهم، والمشقة على أنفسهم، وترك مشاغلهم وحوائجهم.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «ربِّ» بكسر الباء، وقرأ الباقون برفعها: ﴿رَّبُّ﴾.

أي: رب مشرق الشمس والكواكب ومغربها؛ خالقه ومالكه ومدبره والمتصرف فيه.

والمشرق والمغرب: اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، أي: فاجعله وكيلا تتوكل وتعتمد عليه؛ وتفوض إليه جميع أمور دينك ودنياك مع تمام الثقة به سبحانه وتعالى.

وكثيرًا ما يقرن الله عز وجل بين الأمر بعبادته والتوكل عليه؛ لأنه لا يستقيم أحدهما بدون الآخر، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وعلى أمته وهذا في أول الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

٣- مشروعية ترتيل القرآن الكريم وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ ولهذا فالسنة ألا يختم القرآن في أقل من سبع، أو ثلاث(١).

٤- أن القرآن الكريم ثقيل على النبي ﷺ حال نزوله، وهو أيضًا ثقيل في أحكامه إلا على من وفقه الله وخففها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

٥- أن ساعات الليل هي أشد صفاء للذهن وحضورًا للقلب يواطئ فيها القلب اللسان، ويجمع فيها القارئ بين القراءة والتدبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

٦- نعمة الله عز وجل على الخلق في خلق الليل والنهار، وجعل النهار وقتًا لطلب الرزق وقضاء الحاجات وجعل الليل وقتًا للراحة والنوم وقيام ما تيسر منه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

٧- في مراعاة سنن الله الكونية وجعل النهار وقتا لطلب الرزق والعمل، والليل للنوم والراحة وقيام ما تيسر- انتظام أمور الحياة الدينية والدنيوية وصلاحها وفي عكس ذلك قلب للموازين واضطراب أمور الحياة وفسادها، كما هو حال الكثيرين اليوم.

٨- الأمر بذكر الله عز وجل بالقلب واللسان والجوارح بأنواع الذكر القولية والفعلية، والانقطاع إليه عز وجل بالعبادة بعد الفراغ من المشاغل والحوائج التي لابد منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

٩- إثبات عظمة الله عز وجل، وربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ، وربوبيته العامة للمشارق والمغارب وغير ذلك، وانفراده عز وجل بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل والاعتماد عليه وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

* * *

(١) سبق تخريج الأحاديث في هذا.

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل، وترتيل القرآن وتدبره، وذكر الله عز وجل والانقطاع إليه بالعبادة والتوكل عليه، مما يعطيه الزاد الروحي والمعنوي على تحمل أعباء الرسالة، وما يلاقيه في سبيلها، ثم أمره بعد ذلك بالصبر على أذى المكذبين وهجرهم، وتوعدهم عز وجل بالعذاب.

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة تفيد العموم، أي: اصبر على جميع الذي يقولون، مما يخالف ما جئت به ويؤذيك؛ من الإشراك مع الله غيره ونحو ذلك، ومن رميك بالسحر والشعر والكهانة والجنون، والافتراء والكذب ونحو ذلك. وقد تكون «ما» مصدرية، أي: اصبر على قولهم.

﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، أي: واتركهم تركًا حسنًا لا جزع فيه، ولا قلق، ولا أذى. فالهجر: الترك، والجميل: الحسن الذي لا أذى فيه، كما أن الصبر الجميل: الذي لا شكوى فيه لغير الله ولا جزع ولا قلق. والصفح الجميل: الذي لا عتاب فيه، والسراح الجميل: الذي لا مغاضبة فيه ولا أذى ولا عتاب.

قال الطبري(١): «والهجر الجميل هو الهجر في ذات الله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]».

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: ودعني واتركني والمكذبين، فأنا أتولى عقابهم وعذابهم،

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨٠.

ولا تشغل نفسك بهم، وهذا وعيد شديد، وتهديد أكيد للمكذبين للرسول ﷺ.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾: أرباب وأصحاب التنعم والترف وغضارة العيش، وأصحاب الأموال والغنى الذين أطغتهم النعمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾.

﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾، أي: أمهلهم وأنظرهم قليلًا من الوقت، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا ۝١٧﴾ [الطارق: ١٧].

فالله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلًا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾ [لقمان: ٢٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢﴾ الآية، قالت: لم يكن إلا يسيرًا حتى كانت وقعة بدر»(١).

ويؤخذ من الآية: التحذير من الانشغال بالنعم والأموال، وأنها قد تحمل الإنسان على البطر والأشر والكبر ورد الحق والصد عن سبيل الله، كما قال نوح عليه السلام ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١﴾ [نوح: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ﴾، أي: إن عندنا جاهزًا معدًا ﴿أَنكَالٗا﴾: قيودًا شديدة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨١.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَجَحِيمًا﴾، أي: ونارًا مستعرة ملتهبة مضطرمة حامية شديدة الحر، بعيدة القعر.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، أي: ذا نشوب في الحلق فلا ينساغ، ولا يدخل، ولا يخرج لما فيه من الشوك، ولمرارته، وبشاعته، وكراهة طعمه، ونتن ريحه، وخبثه.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: عذابًا مؤلمًا، موجعًا، حسيًا للأبدان، ومعنويًا للقلوب.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، «يوم» ظرف للوعيد الذي تُوعدوا به، أي: يكون ذلك النكال والجحيم والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، أي: يوم وحين تهتز الأرض والجبال وتضطرب وتتزلزل، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤].

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب، ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، أي: تحولت وصارت كثبانًا وأكوامًا من الرمل.

﴿مَّهِيلًا﴾ رخوًا لينًا ينتثر بعضه على بعض، بعد أن كانت حجارة صلبة صماء ثابتة.

فالأرض والجبال على عظمتها في ذلك اليوم يعتريها من أمر الله ما يعتريها، فتتبدل وتتغير، وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي الذي لا يموت سبحانه، فليعتبر أولو الألباب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ الخطاب لأهل مكة وغيرهم من الأمة امتنانًا عليهم والمراد بالرسول محمد ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾، أي: شاهدًا عليكم بأعمالكم، كما قال عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ، قلت: أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟!، قال إني أحب أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت من أول سورة النساء حتى وصلت إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك، فنظرت إليه، فإذا عيناه

تذرفان»(١).

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ وهو موسى بن عمران عليه وعلى نبينا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام، وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى، وهو أشد الفراعنة كفرًا.

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾، «ال» في «الرسول» للعهد الذكري، أي: الرسول المذكور آنفًا الذي أرسل إلى فرعون، وهو موسى عليه السلام.

و«ال» تأتي للعهد الذكرى، كما في هذه الآية، وتأتي للعهد الذهني، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وتأتي للعهد الحضوري، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣].

أي: خالف فرعون موسى عليه السلام فيما جاء به من عند الله من وجوب عبادة الله وحده، بل ادعى الألوهية والربوبية فقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾، أي: فأخذناه أخذًا شديدًا بليغًا ثقيلًا، وعاقبناه عقابًا أليما، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وفي ضمن هذا الخبر من الله عز وجل تحذير للمشركين من أهل مكة وغيرهم ممن كذّب محمدًا ﷺ وهو أفضل الرسل أن يحل بهم ما حل بفرعون من الأخذ الشديد والنكال العظيم، حين كذب موسى عليه السلام، بل بعذاب أشد من ذلك كيف؟ وقد كذبوا أفضل الرسل وسيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ الاستفهام فيه معنى التعجب، و«يوما» مفعول لـ «تتقون»، أي: فكيف تجعلون لكم وقاية إن كفرتم من عذاب يوم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٨٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٠، وأبو داود في العلم ٣٦٦٨، والترمذي في التفسير ٣٠٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٤.

يجعل الولدان الصغار شيبًا، يعني يوم القيامة.

وقيل: «يومًا» معمول لـ«كفرتم»، أي: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، أي: كذبتم به، وأنكرتم البعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفيه «الإيمان: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١).

ونكّر «يومًا»: للتعظيم والتفخيم؛ لشدة أهواله، أي: يومًا عظيمًا ثقيلًا، هوله شديد، وشره مستطير، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى في مدح الرجال المسبحين بالغدو والآصال ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧]، وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠].

وقال تعالى في وصف المكذبين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧].

ومعنى قوله: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، أي: يشيب من شدة أهواله الولدان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، قال: «ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: من كم يارب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وينجو واحد» فاشتد ذلك على المسلمين، وعرف ذلك رسول الله ﷺ، ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في سننه – باب القدر ٤٦٩٥، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في الإيمان ٦٤.

«إن بني آدم كثير، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنه لا يموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم»(١).

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، أي: السماء منشق بسبب شدة أهوال ذلك اليوم، أو السماء منشق في ذلك اليوم؛ لشدة أهواله.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾، أي: كان وعد هذا اليوم واقعًا متحققًا لا محالة ولا بد، ويمكن أن يعود الضمير إلى الله عز وجل، وهو وإن لم يذكر قريبًا إلا أنه معلوم، والمعنى عليه صحيح، أي: كان وعد الله بمجيء يوم القيامة واقعًا لا محالة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾، أي: إن هذه السورة وهذه الآيات في ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، أي: تذكير وموعظة وعبرة لمن يتذكر ويتعظ ويعتبر وينزجر، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا موصلًا إليه باتباع رسوله ﷺ، ووحيه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وذلك ممن شاء الله هدايته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٣٠].

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٨٣، وقال ابن كثير: «حديث غريب».

الفوائد والأحكام:

١- تقوية الله عز وجل لقلب النبي ﷺ بأمره بالصبر على أذى المشركين وهجرهم هجرًا جميلًا، لا جزع فيه ولا قلق، وترك أمرهم إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين للرسول ﷺ وبيان عظم ما أعد لهم من الأنكال والجحيم والطعام ذي الغصة والعذاب الأليم، في يوم شديدة أهواله، فيه ترجف الأرض والجبال وتتحول الجبال كثيبًا مهيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

٣- أن التنعم والترف من أسباب الطغيان ورد الحق وتكذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾.

٤- أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾.

٥- إثبات القيامة وأهوالها والحساب والجزاء.

٦- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ، وشهادته على أمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾.

٧- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون ومعصية فرعون ومكابرته وأخذه أخذًا شديدًا وإغراقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

٨- تخويف الكافرين والمكذبين وتحذيرهم من عذاب يوم عظيم يشيب من هوله الولدان وتنفطر به السماء وهو آت لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾.

٩- إثبات أن هذه السورة وهذه الآيات تذكير وموعظة للناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾.

١٠- إثبات المشيئة للإنسان فإن شاء سلك الطريق المؤدي إلى ربه طريق السعادة والنجاة، وإن شاء سلك غيره من السبل المؤدية إلى الهلاك وفي هذا الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

١١- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أمرَ الله عز وجل نبيه ﷺ في مطلع السورة بقيام الليل وأوجبه عليه وعلى المؤمنين ثم نسخ وجوب ذلك تخفيفًا عليه ﷺ وعلى أمته في هذه الآية، بعد أن قام رسول الله ﷺ وأصحابه حولًا كاملًا، كما جاء ذلك في حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما(١).

وهذه الواقعة تعد من أصح وقائع النسخ في القرآن الكريم عند جمهور المفسرين والأصوليين والفقهاء(٢).

قوله: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بفتح الفاء والثاء وضم الهاءين.

وقرأ الباقون بكسرهما: «ونصفِهِ»، «وثُلُثِهِ».

ومعنى ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، أي: أقل من ثلثي الليل، وهو ما بين النصف والثلثين ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾، أي: وتقوم تارة نصف الليل، وتارة ثلثه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، أي: ويقوم هذا القيام جماعة من الذين معك من المؤمنين.

وهذه التقديرات الثلاثة هي التي أمر الله عز وجل بها نبيه ﷺ في قوله في مطلع السورة ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، أي: نصف الليل، أو انقص منه قليلًا في حدود ما بين النصف إلى الثلث، أو زد على النصف في حدود ما بين النصف إلى الثلثين.

قال ابن كثير(٣) في كلامه على قوله: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ

---

(١) سبق تخريجهما في الكلام على مطلع السورة.

(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٢٩.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٨٤.

وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، «أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم».

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: والله يقدر طول الليل والنهار وقصرهما واعتدالهما، فتارة يطول الليل وينقص النهار، وتارة يطول النهار وينقص الليل، وتارة يعتدلان.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ الضمير في «تحصوه» يعود إلى ما أمر الله به من قيام الليل إلا قليلًا نصفه أو النقص منه قليلًا أو الزيادة عليه.

والمعنى: علم الله عز وجل أن لن تستطيعوا إحصاء وضبط هذا الوقت والمواظبة عليه من غير زيادة ولا نقصان، نظرًا لاختلاف تقدير الليل والنهار، أي: لن تستطيعوا تقديره، ولن تطيقوا قيامه على التمام.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة في اللغة: الرجوع، أي: فرجع بكم وخفف عنكم بنسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: فقوموا ما تيسر من قيام الليل، واتركوا ما تعسّر وشق عليكم، وعبر عن قيام الليل وصلاة ما تيسر منه بقراءة ما تيسر من القرآن؛ لأن قراءة القرآن من أعظم أركان الصلاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: ولا تجهر بقراءتك ولا تخافت بها.

ولهذا ليس في قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ دليل لمن قال إنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة؛ لأن المقصود بذلك ما هو أعم من القرآن وهو قيام الليل والصلاة فيه، مع الأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب قراءة الفاتحة.

عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولًا حتى

انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا، من بعد فريضة، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك، ثم يتوضأ، ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ويستغفر، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو، ثم يسلم تسليمًا يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان»(١).

وعنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيرًا يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا، فخرج كالمغضب، وكان بهم رحيما، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فقال: «أيها الناس اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا، فشق ذلك

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ٤٠، ٦١ والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩- ٣٦٠.

(٣) سبق تخريجه.

على المؤمنين، ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فوسع الله- ولله الحمد- ولم يضيق»(١).

فنسخ الله عز وجل بهذه الآية وجوب قيام الليل الذي أوجبه على المؤمنين في أول هذه السورة، وصار قيام الليل- ولله الحمد- سنة وليس بواجب كما في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفهم ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليّ غيرها؟، قال: «لا، إلا أن تطوع» الحديث(٢).

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

في هذا بيان الحكمة والعلة والسبب في نسخ حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب وهو هذه الأعذار.

وفي هذا دليل على أن أحكام الله عز وجل معللة ولحكم عظيمة.

قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، أي: علم الله عز وجل أنه سيكون منكم أيها المؤمنون من اعتلت صحتهم بسبب المرض فيشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، فليصلوا ما تيسر لهم وسهل عليهم، قيامًا أو قعودًا أو على جنوبهم إن شق عليهم القيام، ولهم أجر القائم، فإن لم يستطيعوا فلهم أجر ما كانوا يعملون في الصحة.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يسافرون في الأرض والضرب في الأرض هو السير والسفر فيها.

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يطلبون من رزق الله الواسع؛ ليستغنوا عن الخلق فخفف الله عنهم، وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٠- ٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان- الزكاة في الإسلام ٤٦، ومسلم في الإيمان- بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨.

الرزق، والاستغناء عن الخلق.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: يقاتلون الكفار؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، كما قال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

أي: فيمنعهم ويشغلهم ذلك عن قيام الليل.

ولم يكن القتال شرع بعد؛ لأن السورة كلها مكية، والقتال إنما شرع بالمدينة، وهذا من أعظم دلائل وأعلام نبوته ﷺ.

فهذه الأعذار الثلاثة: المرض، والسفر لطلب الرزق، والقتال في سبيل الله من أسباب تخفيف حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب، بل إن الله عز وجل خفف عنهم في الصلاة المفروضة فأباح لهم القصر والجمع، بل أباح للمريض والخائف أن يصلي حسب حاله.

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وكرر- والله أعلم- للامتنان على المؤمنين بالتخفيف عنهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب قيام قليل من الليل، وبخاصة على أهل القرآن لقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

وعن علي رضي الله عنه قال: الوتر ليس بحتم كصلاتكم المكتوبة، ولكن سنّ رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يوتر فليس منا»(٣).

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوتر حق، فمن لم

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣- من حديث أبي موسى- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة استحباب الوتر ١٤١٦، والنسائي في قيام الليل- الأمر بالوتر ١٦٧٥، والترمذي في الصلاة ٤٥٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة- ما جاء في الوتر ١١٦٩، وأحمد ١/ ١١٠، ١٤٣، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة- باب فيمن لم يوتر ١٤١٩، وأحمد ٥/ ٣٥٧.

يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا»[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»[٢].

فقيل: معناه نام عن المكتوبة، وقيل: نام عن قيام الليل.

والراجح الذي عليه جمهور أهل العلم أن قيام الليل مستحب وليس بواجب لقوله ﷺ للرجل الذي سأله لما بين له وجوب الصلوات الخمس، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع»[٣].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لما خفف الله عن المؤمنين ونسخ وجوب قيام الليل إلى الاستحباب أتبع ذلك بالأمر بإقامة الصلوات المفروضة الواجبة وإيتاء الزكاة المفروضة، وفي هذا إشارة ودلالة على وجوب الاهتمام والعناية بالفرائض والواجبات وأنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة.

ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أقيموها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مخصوصة مبتدأة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس المفروضة، أي: وأقيموا الصلاة الواجبة.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: أعطوا الزكاة في أموالكم لمستحقيها، والزكاة في اللغة: النماء والزيادة وفي الشرع: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص، وهو الحول.

وسميت الزكاة بهذا الاسم، لأنها تزكي المال وتزيده نماء، وتزكي نفس صاحب المال من البخل والشح، وتزكي نفس الفقير المعطى منها، فيسلم من الحقد والضغينة على

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٠، ومسلم في صلاة المساوين وقصرها ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٣) سبق تخريجه.

الأغنياء، ويسلم من البحث عن المال بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك.

ولهذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»(١).

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد نسخ وجوب قيام الليل إشارة وتنبيه إلى تعظيم أمر الواجبات وبالأخص الصلاة والزكاة؛ ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ما افترضته عليه»(٢).

ولما سأل الأعرابي النبي ﷺ، وقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال له ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» فقال هل عليّ غيرها، قال: «لا إلا أن تطوع»، قال: والذي بعثك بالحق نبيًا لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فلما ولى قال ﷺ: «أفلح إن صدق» وفي رواية «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»(٣).

وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الزكاة فرضت بمكة لكن مقادير أنصبتها والمخرج منها لم يبين إلا بالمدينة.

والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم، وهما أعظم العبادات بعد الشهادتين فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وهي عمود الإسلام،

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨- من حديث طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه.

والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أمر الله عز وجل بقيام الليل استحبابًا، وبإقامة الصلاة وجوبًا، وأتبع ذلك بالأمر بإعطاء الزكاة وجوبًا، والقرض الحسن والصدقة استحبابًا فجمع في هذه الآيات بين الأمر بالصلاة الواجبة والمستحبة، وبين الصدقة الواجبة والمستحبة وهذا يقوي ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن قيام الليل مستحب وليس بواجب.

وقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾، أي: تصدقوا وأنفقوا في سبيله يثبكم على ذلك.

والقرض في الأصل: ما يعطيه الإنسان؛ ليقضاه من غير زيادة ولا مرابحة.

والله عز وجل غني عن خلقه ليس بحاجة أن يقرضوه بل كل ما هم فيه من النعم منه، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وإنما سمى الله عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله قرضًا ترغيبًا في ذلك وبيانًا لتكفله عز وجل التام بجزاء ذلك والإثابة عليه كما يلتزم المقترض برد القرض، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[التوبة: ١٠٤].

بل إنه عز وجل يضاعف ثواب ذلك أضعافًا كثيرة، كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ احتسابًا لله عز وجل، وبطيب نفس، وعدم منٍّ على المُقْرَض، ولا أذى له، ومن كسب حلال.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

بعدما أمر الله عز وجل بقيام الليل، وبإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والقرض الحسن رغب وحث على فعل الخير عمومًا، وهذه الجملة معترضة بين قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾.

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم﴾ الواو: اعتراضية، و«ما»: شرطية، أي: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم﴾ بين يديكم وأمامكم ليوم القيامة.

﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾، أي: من صدقات ونفقات في سبيل الله ومن الطاعات وأنواع البر.

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾، أي: تجدوا ثوابه عند الله مدخرًا لكم، وخيرًا مما قدمتموه في الدنيا، وخيرًا مما أبقيتموه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»(١).

﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، أي: وأعظم ثوابًا مما قدمتموه، حيث يجازي سبحانه وتعالى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة

قال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»(٢).

قال السعدي(٣) رحمه الله بعد كلامه على هذه الآية: «فواأسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها، فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه واستغفره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وهو عز وجل ذو رحمة واسعة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وفي الأمر بالاستغفار بعد الأمر بقيام الليل والصلاة والزكاة والقرض الحسن والحث على فعل الخير عمومًا إشارة إلى أن الإنسان مهما اجتهد فلا يسلم من تقصير،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٠٦-٥٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٦، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٢، والنسائي في الوصايا ٣٦١٢.

ولا يخلو عمله من نقص، وقد شُرع الاستغفار في نهاية الأعمال كالصلاة والحج وغيرهما، وفي نهاية الأعمار؛ لأنه يُرقِّع ما حصل فيها من نقص لا يكاد يسلم منه أحد.

الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله- عز وجل- لنبيه ﷺ بخطابه، وربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢- نسخ وجوب قيام الليل؛ لعلمه عز وجل وهو الذي يقدر الليل والنهار أن الرسول ﷺ ومن معه وأمته لا يستطيعون القيام به ولا إحصاءه وضبطه كما فرضه الله في أول السورة لاختلاف تقدير الليل والنهار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣- مراعاة التشريع الإسلامي أحوال المكلفين وقدراتهم.

٤- حكمة الله تعالى في تقدير الليل والنهار.

٥- استحباب قيام ما تيسر من الليل وقراءة ما تيسر من القرآن فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾. والسنة في هذا أن ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه(١).

٦- أن أعظم ما في قيام الليل قراءة القرآن؛ لهذا أطلق قراءة ما تيسر من القرآن على القيام.

٧- أن من الحكمة في نسخ وجوب قيام الليل وجعله مندوبًا بقدر ما تيسر: مراعاة حال المرضى، والمسافرين في الأرض؛ لابتغاء الرزق من الله، والمقاتلين في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٨- أهمية طلب الرزق لتقديمه في الذكر على القتال في سبيل الله.

٩- تأكيد نسخ وجوب قيام الليل وبقائه على الاستحباب لقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا

---

(١) كما ثبت عن النبي ﷺ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. وقد سبق تخريجه.

تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

١٠- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعظم مكانتهما في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١١- تعظيم أمر الواجبات في الإسلام. والترغيب في النوافل.

١٢- الحث على الصدقة والإنفاق والترغيب في ذلك بتسميته قرضًا وأن يكون ذلك خالصًا لوجه الله عز وجل وبطيب نفس وبلا من ولا أذى، ومن كسب حلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل، وأن ما قدمه المرء لنفسه اليوم من خير يجد ثوابه عند الله عز وجل مضاعفًا أضعافًا كثيرة، وخيرًا منه، وفي هذا ترغيب في التطوع في سائر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

١٤- تكلفه- عز وجل- بمضاعفة جزاء من قدم خيرًا لنفسه لقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾؛ ولهذا سماه: «أجرًا»، كما سمى الصدقة والإنفاق في سبيل الله «قرضًا». وفي هذا كله ترغيب في القرض، وتقديم الخير.

١٥- وجوب الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه على الدوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٦- إثبات صفة المغفرة التامة والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُدَّثِّرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المدثر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية. وهي ثاني سورة نزلت بعد «سورة العلق».

جـ- موضوعاتها:

١-افتتحت السورة بندائه ﷺ بوصف المدثر، وأمره بالإنذار، وعبادة الله تعالى، وغير ذلك من الوصايا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

٢- وعيد الكافرين بيوم القيامة وشدته وعسره عليهم: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

٣- تسلية النبي ﷺ، وتهديد الوليد بن المغيرة بسقر وشدتها، وذمه؛ لشدة عناده لآيات الله، ووصفه لها بالسحر، وأنها قول البشر: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾.

٤- بيان أنه عز وجل ما جعل أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعل عدتهم إلا فتنة للذين كفروا؛ ليستيقن أهل الكتاب صدق ما جاء في كتبهم وصدق القرآن، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾.

٥- التذكير بالنار وصفاتها والتحذير منها، وبيان الناجين منها، وصفات أهلها: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

٦- بيان أن القرآن تذكرة وعظمة لمن شاء أن يتذكر ويتعظ: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

سبب النـزول:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: «أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، زملوني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى: ﴿فَٱهْجُرْ﴾» قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمي الوحي وتتابع»(١).

وفي رواية عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتًا» وذكر نحوه(٢).

فقوله ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقوله في الرواية الثانية: «ثم فتر الوحي عني فترة» يتفق مع ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي من أن أول سورة أنزلت هي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾(٣).

وهو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف.

وقد ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه القول بأن أول سورة نزلت سورة المدثر فعن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٥٤، ومسلم في الإيمان- بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦١، والترمذي في التفسير ٣٣٢٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠١.

(٢) أخرجها أحمد ٣/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وسيأتي ذكر الحديث بلفظه في تفسير سورة العلق.

القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني. وصبوا عليَّ ماء باردًا، قال: فدثَّروني وصبوا علي ماء باردًا قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾»(١).

وهذا محمول على أنه أول ما أنزل عليه في شأن الرسالة؛ ولهذا يقول أهل العلم: نُبِّئ بـ«اقرأ»، وأرسل بـ«المدثر».

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ صدّر عز وجل هذه السورة بالنداء تنبيهًا وتعظيمًا.

و«المدثر» المتلفف بثيابه، المتغطي بها كالمزمل، والمراد به النبي ﷺ.

﴿قُمۡ﴾، أي: قم وانهض بنشاط وشمر عن ساعد الجد وعن ساق العزم.

﴿فَأَنذِرۡ﴾، أي: فخوف وحذر الناس من عذاب الله عز وجل، آمرًا وداعيًا لهم إلى فعل وقول ما ينجيهم من عذاب الله، والبعد عما يعرضهم لعقاب الله.

وبهذا حصل الإرسال له ﷺ فنبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾، أي: فعظمه وكبره بقولك: الله أكبر وعبادته، وادع الناس إلى تعظيمه وعبادته وتكبيره.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾، أي: طهر بدنك وثيابك من الأحداث والنجاسات الحسية بالماء، وطهر بدنك وقلبك وخلقك من الذنوب والمعاصي والآثام والنجاسات المعنوية بالإيمان والتوبة والعمل الصالح، وحِل الملبس والمأكل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٢٢، ومسلم في الإيمان ١٦١، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠٢-٤٠٣.

«لا تلبسها على معصية ولا غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر ... لبستُ ولا من غدرة أتقنع»[١]

وقال الآخر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل[٢]

أي: فكل خلق يتخلق به جميل.

وقال الآخر:

أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ ... فسُلي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[٣]

أي: فاستخرجي قلبي من قلبك.

وقال الآخر:

رموها بأثواب خفاف ولا ترى ... لها شبهًا إلا النعام المنَفَّرا[٤]

أي: رموها يعني الرِّكاب بأبدانهم.

وقال الآخر:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[٥]

يعني بـ «ثيابه»: نفسه.

قال ابن القيم[٦]: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح العمل والأخلاق».

---

(١) ذكره الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠٥، وصاحب «اللسان» في مادة «طهر».

(٢) البيت لدكين بن رجاء. انظر «الشعر والشعراء». ٢/ ٦١٢.

(٣) هذان البيتان من معلقة امرئ القيس انظر «ديوانه» ص٣٧ طبعة بيروت.

(٤) البيت ينسب للشماخ. انظر: «تهذيب اللغة» ١٥/ ١٥٤، وهو في «ديوان ليلى الأخيلية» ص٧٠.

(٥) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» ص٨٢، والبيت فيه: «بالرمح الطويل». وانظر: «مجاني الأدب» ٦/ ١٩٩، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤.

(٦) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٥٥، ٥٧، ٥٨.

وذكر أقوال السلف في المراد بقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فمن قائل: المراد بثيابك قلبك أو أخلاقك، ومن قائل: ثيابك طهرها من النجاسة الحسية والمعنوية بكونها من مكسب حلال، وغير ذلك من الأقوال ثم قال: «الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا، فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك».

ويدل على هذا العموم- والله أعلم- جمع «ثيابك» فلو أريد البدن وحده، أو القلب وحده، أو غير ذلك لقال: «وثوبك فطهر».

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب وحفص بضم الراء: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾.

وقرأ الباقون بكسرها: «والرِّجز».

والرجز: الأصنام والأوثان والشرك والمعاصي.

﴿فَٱهْجُرْ﴾، أي: فاتركها وادع إلى تركها.

ولا يلزم من هذا تلبسه ﷺ بشيء من ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، أي: ولا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من معروف.

﴿تَسْتَكْثِرُ﴾، أي: تستكثر ما أسديت إليهم، وترى لك الفضل عليهم، أو تطلب منهم أكثر مما أسديت إليهم.

أي: أنه ينبغي أن يسدي الإنسان المعروف أيًا كان لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا لأجل أن يرد عليه أكثر من ذلك.

قال السعدي(١): «بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك وَانْس عندهم إحسانك واطلب أجرك من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء».

وأيضًا: ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره، أي: ولا تدل على ربك بعمل عملته؛ ولهذا قال ﷺ: «لن يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٠٩.

ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[١].

وفي قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله له تلك الرمانة ينزل كل يوم من صومعته فيأخذ منها لما قال الله عز وجل: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: لا يا رب، بل بعملي. فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر الذي أعطاه الله إياه. فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب، أدخلني الجنة برحمتك فأدخله الجنة برحمته سبحانه[٢].

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعامًا، فلما أكلوا، قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم سحر يؤثر، فأجمع أمرهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه، وتدثر، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾»[٣].

ومعنى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، أي: اصبر ابتغاء وجه ربك على طاعة الله عز وجل وتبليغ الرسالة، وعلى ما تلاقي من أذى في سبيل ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وفي هذا شد لأزره ﷺ وتقوية لقلبه كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢ وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في شفاء العليل ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٨٨.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾، أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور والقرن بأمر الله عز وجل لقيام الناس من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟، قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»(١).

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ ﴾، أي: يوم ينفخ في الصور.

﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، أي: يوم شديد عظيم ثقيل لكثرة أهواله وشدتها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، أي: على الكافرين خاصة غير سهل، وفي هذا تخصيص لعسره بأنه على الكافرين خاصة، وتأكيد لشدة عسره؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها فوصف هذا اليوم بالعسر، ثم نفى عنه اليسر على الكافرين خاصة كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

وذلك؛ لأنهم قد يئسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ويفهم من قوله: ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾: أنه يسير على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٤٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١٨- ٤١٩.

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قيل لرسول الله ﷺ«يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»(١)

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٢- إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ فقد نبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

٣- وجوب الدعوة إلى الله- عز وجل- وتكبيره، وتعظيمه وإخلاص العبادة له والبراءة من الشرك والطهارة من النجاسات المعنوية والحسية في القلب والبدن واللباس، عليه ﷺ وعلى أتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾.

٤- لا يجوز أن يمن الإنسان بعمله أو يدل على ربه، كما لا يجوز أن يمن بما أعطى؛ طلبًا للاستكثار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾.

٥- وجوب الصبر ابتغاء وجه الله على طاعته عز وجل، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ومن ذلك ما يلاقيه ﷺ في سبيل دعوته إلى ربه، وكذا الدعاة إلى الله عز وجل من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة- له ﷺ تشريفًا له وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾.

٧- إثبات البعث والنفخ في الصور، وشدة أهوال يوم القيامة وكرباته وما فيه من العسر الذي لا يسر معه على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾.

٨- يسر يوم القيامة وخفته على المؤمنين لمفهوم قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالصبر على أذى المشركين والكافرين وتوعدهم بالقيامة وما فيها من الشدة والعسر عليهم، ثم خص بالوعيد والتهديد في هذه الآيات أحد صناديدهم فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات.

سبب النـزول:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما خرج على قريش، قال: يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهَذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصْبُوَنَّ قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالًا وولدًا؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه.

فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله، لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله: ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾»(١).

وقال قتادة: «زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو ولا يعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٩- ٤٣٠، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ١/ ٢٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٠.

وعن عكرمة: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لم؟، قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قِبلَه. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يعلم قومك أنك منكر لما يقول، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله لا يشبه الذي يقول شيئًا من ذلك، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيدا حتى بلغ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾»(١).

قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، أي: دعني واتركني والذي أوجدته وأخرجته من بطن أمه وحيدًا فريدًا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا عشيرة.

والمعنى: اترك أمره وعقابه وعذابه إلي، فأنا أكفيكه، فلا تباله.

والمراد بذلك الوليد بن المغيرة، كما دل على ذلك سبب النزول. وقد توعده الله عز وجل وعيدًا شديدًا، وهدده تهديدًا أكيدًا، وذمه ذمًا لم يذم به غيره؛ لشدة عناده واستكباره عن قول الحق.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾، أي: مالًا كثيرًا واسعًا.

﴿وَبَنِينَ﴾، أي: وجعلت له أولادًا ذكورًا.

﴿شُهُودًا﴾: حضورًا عنده على الدوام لا يفارقونه، يقومون بخدمته وحاجاته ويستنصر بهم، ويفتخر بهم، ويأنس بوجودهم بجانبه، ويتمتع ويتملى بهم ويتزين، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. قيل: كان أولاده ثلاثة عشر، وقيل كانوا عشرة، وقيل غير ذلك.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾، أي: مكنته من الدنيا، ويسرت له أسباب الحياة والعيش

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٩، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٥٠٧، وقال: «صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١ / ٥٥٦.

وهيأتها له.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾، أي: ثم هو يطمع أن أزيده على ما جعلته له من المال الممدود والبنين الشهود، والتمهيد، والعيش الرغيد، أي: يطمع في الزيادة على ذلك في الدنيا، ويطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر، أي: ردع له وزجر ونفي أن يزاد على ما عنده، أي: ليس الأمر كما يطمع، ثم علل لذلك بقوله:

﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾، أي: كلا لن أزيده؛ لأنه كان لآياتنا، أي: للقرآن الكريم وما جاء فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات ﴿عَنِيدًا﴾، أي: شديد المعاندة والجحود لآياتنا بعد أن عرفها.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾، أي: سأُكلفه وأُحمله عذابًا شاقًا نفسيًا وبدنيًا، حسيًا ومعنويًا، في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالكافر في دنياه وآخرته في مشقة وعذاب نفسي وبدني وأشد ذلك عذاب النار كما قال عز وجل: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ الآيات.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ويل: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل من نار يصعّد فيه الكافر سبعين خريفًا، ويهوي فيه كذلك أبدًا»(١).

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾، أي: إنما أرهقناه صعودًا؛ لأنه ﴿فَكَّرَ﴾، أي: تروّى في نفسه وتأمل ماذا يقول في القرآن، وبماذا يصفه.

﴿وَقَدَّرَ﴾، أي: وقدّر ما فكّر فيه؛ ليقول قولًا يبطل به القرآن، أو قدر ما يقول في القرآن.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٣، وقال الترمذي: «حديث غريب».

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، أي: لعن أشد اللعن وأهلك كيف قدر القول فيه، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وذلك؛ لأنه قدّر أمرًا ليس في طوره، وتسوّر على ما لا يناله هو وأمثاله، وتكلف ما لا علم له به.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تأكيد لما قبله، أي: ثم لعن وأهلك.

و«كيف»: اسم استفهام: للإنكار، أي: ثم لعن كيف قدر هذا التقدير الباطل، أو ثم لعن في أيِّ تقدير أو على أيِّ تقدير قدره.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، أي: تأمل وأعاد التفكر والتروي فيما يقول في القرآن.

وهذه الآية أقصر آية في القرآن الكريم.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه، وقبض ما بين عينه.

﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في العبوس وكلح وجهه، نفرة من الحق وكراهة وبغضًا له.

قال الشاعر:

وقد رابني منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتي وبسورها(١)

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾، أي: رجع على عقبه ودبره، وتولى ببدنه.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾، أي: تعاظم بقلبه عن الانقياد للقرآن. وهذا حصيلة ما قاده إليه تفكيره وتقديره السيء، وسوء قصده، ونظره القاصر، وكراهته للحق وبغضه له أن تولى عن الحق واستكبر عن الانقياد له وتقوّل فيه الأقاويل.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، «إن»: نافية بمعنى «ما» في الموضعين، أي: ما هذا إلا سحر يؤثر.

أي: ينقله السحرة بعضهم عن بعض، ونقله محمد عن غيره ممن كان قبله من السحرة، وحكاه عنهم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، أي: ما هذا إلا قول البشر، وليس هذا بكلام الله.

---

(١) البيت لتوبة بن الحُمَير. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٥، «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٨، «الأمالي» ١/ ٨٨.

فتبًّا لمن تجرأ على وصف كلام الله عز وجل أعظم كلام وأبلغه، بالسحر، وشبهه بكلام البشر، وسحقًا له وبعدًا، فما أعظم خسارته، وما أشد عذابه؛ ولهذا اتوعده الله تعالى بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾: وعيد وتهديد له، أي: سأدخله سقر، أي: النار، وأغمره فيها من جميع جهاته ليقاسي شدة حرها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾: تعظيم وتهويل لشأنها وتفخيم لأمرها، أي: وما أعلمك ما سقر حرها شديد وقعرها بعيد، وخطرها جسيم، وهولها عظيم.

ثم بين عز وجل شيئًا من وصفها فقال:

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾، أي: لا تبقي ولا تترك شيئًا من بدن المعذب، ولا مما يلقى فيها إلا أكلته وأحرقته ولا تبقي من الشدة شيئًا إلا بلغته، قد بلغت من الشدة غايتها، ومن الأبدان جميعها.

والمعذبون فيها مخلدون لا يموتون ولا يحيون، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١١- ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، أي: تلوح وتلفح وتحرق بشر وجلود المعذبين فيها بلهبها ولظاها وشدة حرها وقرِّها.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، أي: عليها من الزبانية الغلاظ الشداد الموكلين بتعذيب أهل النار ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

قال ابن كثير[1]: «أي: من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خُلُقهم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غُلب أصحابك اليوم، فقال: «بأي شيء»؟، قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أفغلب قوم سُئلوا عما لا يدرون فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا. قال رسول الله، عليّ بأعداء الله،

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٢.

لكن سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة»، فأرسل إليهم فدعاهم قالوا: يا أبا القاسم، كم عدة خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا» وطبق كفيه، ثم طبق كفيه، مرتين، وعقد واحدة»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه المكذبين والمعاندين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، وأن يترك أمرهم إلى الله- عز وجل.

٢- تهديد الوليد بن المغيرة ومن على شاكلته ممن أنعم الله عليهم بالمال والبنين ومهد لهم في الحياة فطغوا وتجبروا بالعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾.

٣- أن المال والبنين والجاه من أسباب الطغيان والفتنة في الدين، كما قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٤- زجر هذا المعاند وتيئيسه من الزيادة، وأن الكفر والذنوب والمعاصي أعظم سبب لزوال النعم وحلول النقم.

٥- بيان ما أعده الله لهذا المعاند لآياته من العذاب الشاق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾.

٦- جرأة الوليد بن المغيرة على الله عز وجل وتكلفه فيما يصف به القرآن وتمحله في ذلك وتقعره في تفكيره وتقديره وشدة إدباره عن الحق واستكباره حتى زعم أن القرآن ما هو إلا سحر يؤثر، ومن كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

٧- الوعيد للوليد بن المغيرة بإصلائه النار وغمره فيها، ولعنه وإهلاكه؛ لقوله

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٧، وأحمد ٣/ ٣٦١، وأخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٩٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٤، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

٨- تعظيم هول سقر وهي النار، وبيان شدة عذابها، وأن عدة خزنتها تسعة عشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: وما جعلنا خزنة النار القائمين على تعذيب أهلها إلا ملائكة، ليسوا بشرًا ضعافًا يغلبون، بل هم ملائكة غلاظ القلوب، شداد الخلقة، لا يغالبون، كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: وما جعلنا عددهم تسعة عشر وأخبرنا بذلك ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: إلا لامتحان وابتلاء الذين كفروا. حتى تجرأ أبو جهل فقال: «يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم»؟(١).

وقال أبو الأشدين- كلدة بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر»(٢).

وعلى هذا فيكون المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا ابتلاءً وامتحانًا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لنعلم من يُصَدِّق ممن يُكَذِّب. ويدل على هذا قوله بعد ذلك: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾.

ويحتمل أن المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا لعذاب الذين كفروا وعقابهم في النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يُعذَّبون.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اللام: للتعليل، و«يستقين» أبلغ من «يتيقن»، أي:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٦- ٤٣٧.

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي ١/ ٢٠٠، «تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩٤. وانظر تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٨٤.

لأجل أن يستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى الموجودين أيام بعثته ﷺ أنها جاء به ﷺ حق من عند الله- عز وجل؛ لموافقته ما جاء في كتبهم التوراة والإنجيل في عدة خزنة جهنم، وأنهم تسعة عشر.

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، أي: ولأجل أن يزداد الذين آمنوا إيمانًا، وذلك من وجهين:

الأول: بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ، وموافقتها لما جاء به الأنبياء قبله.

والثاني: من كونهم يسارعون في تصديق ما جاء عن الله ورسوله، ويتلقون ذلك بالتسليم والقبول.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ولأجل أن لا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في أن عدة أصحاب النار من الملائكة تسعة عشر.

وهذه الجملة على هذا المعنى مقررة ومؤكدة للجملة قبلها؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها. وقد يكون نفي الريب محمولًا على نفي الريب عن عموم ما أخبر به الرسول ﷺ فيكون المعنى، أي: ولا يقع في قلوبهم ريب ولاشك في أن ما جاء به الرسول ﷺ حق وصدق.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: ولأجل أن يكون ذلك سببا في زيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، وهم المنافقون.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون المكذبون، ليقولوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلًا، أي: بهذا المثل.

فأخبر عز وجل أن الحكمة التي جعل لأجلها عدة خزنة النار تسعة عشر: فتنة للذين كفروا وابتلاءً واختبارًا لهم، وليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ولزيادة إيمان المؤمنين، ولانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، ولزيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين.

قال ابن القيم(١): «وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة،

---

(١) في «بدائع التفسير» ٥/ ٥٩.

وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به».

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ الكاف: حرف تشبيه، بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، والإشارة لما سبق في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾.

أي: مثل هذا الابتلاء والإضلال والهداية ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

أي: يضل الله من يشاء بعدله، ويهدي ويوفق من يشاء بفضله.

قال ابن كثير[1]: «أي :من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة».

وليس في هذا ما يتعلق به من يفعل المعاصي ويحتج بالقدر؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا قدر له.

وقد بين الله- عز وجل- طريق الحق وأمر باتباعه، وبين طرق الباطل ونهى عن اتباعها. وقد قال ﷺ «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠]»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: وما يعلم عدد جنود ربك يا محمد وكثرتهم وشدة خُلْقهم، وغلظة خُلُقهم من الملائكة وغيرهم إلا هو سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل:

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أي: إذا كان عز وجل أخبر أن على النار تسعة عشر من الملائكة فيجب تصديق خبره من غير شك ولاريب، وأيضًا فإن جنوده- عز وجل- لا يحصون عددًا وكثرة- كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح: ٧].

وقال ﷺ- في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة-: «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط(٢) ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات(٣) تجأرون إلى الله- عز وجل» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعضد(٤)»(٥).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر، ولاكف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئًا»(٦).

﴿وَمَا هِيَ﴾، أي: النار.

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَا هِيَ﴾، أي: هذه الآيات في وصف النار ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، أي: تذكير ووعظ لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨- من حديث مالك بن صعصعة- رضي الله عنه.

(٢) تئط، أي: قد أثقلها ما عليها من الملائكة.

(٣) الصعدات: الطرق

(٤) أي: تقطع.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٣، والترمذي في الزهد ٢٣١٢، وابن ماجه في الزهد- باب الحزن والبكاء ٤١٩٠.

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١٦٠، وذكره ابن كثير في تفسيره ٨/ ٢٩٥.

﴿كَلَّا﴾: حقًا، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية.

﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«القمر» مقسم به مجرور.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾: معطوف على ما قبله. قرأ نافع ويعقوب وحمزة وخلف وحفص: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ بإسكان الذال من غير ألف بعدها، و﴿أَدْبَرَ﴾ بهمزة مفتوحة مع إسكان الدال بعدها.

وقرأ الباقون: «والليل إذا دبر» بألف بعد الذال، و﴿دبر﴾ بفتح الدال من غير همزة قبلها. ومعنى ﴿أَدْبَرَ﴾: ولى وذهب.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾، أي: أشرق وأضاء وانكشف.

فأقسم عز وجل بالقمر: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾؛ لما فيها من الآيات العظيمة الباهرة، الدالة على كمال ربوبيته وعلمه وحكمته، وعنايته بخلقه.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾: جملة جواب القسم، ﴿إِنَّهَا﴾، أي: النار لإحدى العظائم الكبار، والدواهي العظام.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ نذيرًا: حال، أي: تخويفًا وتحذيرًا للبشر، وهم بنو آدم، وهي أيضًا نذير للجن؛ لأنهم مكلفون.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾، أي: لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدم إلى الأمام، فيعمل لما خلق له، فيخاف ويحذر، ويؤمن بالله ويعمل صالحًا، ويستعد لما أمامه بطاعة الله.

﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عما خلق له فلا يخاف ولا يحذر، بل يتولى ويعرض ويرتكب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا معنى المسارعة والمسابقة والمنافسة واستباق الخيرات الذي أمر الله- عز وجل- به في أكثر من آية. وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وفي الحديث: «فإنه لايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله- عز وجل»(١).

وقال الشاعر(٢):

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا

الفوائد والأحكام:

١- بيان أن أصحاب النار التسعة عشر الموكلين عليها إنما هم ملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

وفي هذا تعظيم لشأنهم؛ وإشارة لشدتهم وغلظتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٢- امتحان الذين كفروا من المشركين والمنافقين وغيرهم وابتلاؤهم في جعل عدة أصحاب النار تسعة عشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ الآية؛ ليتمادوا في تكذيبهم وغرورهم وجرأتهم على الله عز وجل؛ ولهذا قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

٣- في ذكر عدة أصحاب النار في القرآن الكريم وأنهم تسعة عشر استيقان لأهل الكتاب لموافقة القرآن لما جاء في كتبهم وعدم شكهم وارتيابهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤- زيادة إيمان المؤمنين بذكر عدة أصحاب النار وعدم شكهم في ذلك لأنهم يسلمون بكل ما جاء من عند الله وعلى لسان رسوله ﷺ، ولموافقة ذلك لما جاء في كتب أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥- إثبات زيادة الإيمان ونقصانه.

٦- إثبات المشيئة لله- عز وجل، وتقديره الهداية والضلال، وأنه عز وجل يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٩، ٣٤- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

(٢) البيتان لابن هانئ،انظر «ديوانه» ص١٤٠.

٧- أن جنود الله كثرة كاثرة، لا يعلم كثرتهم وشدتهم وقوتهم إلا هو سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة- له ﷺ وخطابه له تشريفًا وتكريمًا له؛ لقوله تعالى: ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾.

٩- تذكير البشر بذكر النار وصفاتها السيئة المخيفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

١٠- إقسام الله - عز وجل - بالقمر والليل إذا تولى وذهب والصبح إذا أقبل وأسفر على أن النار إحدى الفظائع العظام التي يخوف الله بها البشر. ولله أن يقسم بما شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾.

١١- أن الغاية من الإنذار إقامة الحجة على الخلق، والإعذار منهم؛ ليتقدم منهم من شاء أن يتقدم بالإيمان والعمل الصالح، وليتأخر منهم من شاء أن يتأخر بالكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٢- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ وفي هذا رد على الجبرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي: كل نفس بالذي كسبت، أو بكسبها من خير أو شر، ﴿رَهِينَةٌ﴾، أي: مرتهنة، عند الله- عز وجل- موقفة.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين، وهذا يشمل أصحاب اليمين والسابقين المقربين؛ لأن كل سابق مقرب هو من أصحاب اليمين، لا العكس.

أي: إلا أصحاب اليمين فلا يرتهنون بما كسبوا، بل هم طلقاء، فرحون.

وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات: ٣٩- ٤١].

وليس معناه أنهم لا يجازون بأعمالهم، بل كل عامل يجازى بعمله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، أي: في بساتين في دار النعيم التي أعدها الله لهم، فيها تمام الراحة والطمأنية وكمال المطلوب، لهذا أخذوا يتساءلون عن حال من فاته هذا النعيم ﴿يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يسأل بعضهم بعضًا عن الكفار أرباب الجرائم والذنوب والمعاصي ما حالهم؛ وأين هم؛ فيقول بعضهم لبعض:

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، أي: عليهم، قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٤، ٥٥].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾، «ما»: للاستفهام، أي: سائلين لهم: ما الذي أدخلكم في

سقر؟ أي: في النار، و ما الذنب الذي استحققتموها بسببه؟ و لماذا لم تعملوا للنجاة منها؟ وفي هذا ما فيه من التوبيخ والتبكيت لهم، وإثارة الأسى والحزن في قلوبهم.

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾، أي: قالوا: لأننا لم نكن من المصلين، أي لم نكن نصلي.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾، أي: ولم نكن نزكي ونتصدق على المسكين المحتاج الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله.

فذكروا أول سبب لدخولهم سقر وهو ترك الصلاة، التي هي عمود الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأهم العبادات البدنية وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وتركها كفر.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ- يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب- عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله، على ذلك»(١).

وعن عبد الله بن شقيق قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»(٢).

وثنَّوا بترك إطعام المسكين، أي: بترك الزكاة. وهي أهم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم.

فلا إخلاص عندهم في حق المعبود، ولا إحسان منهم للعبيد، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤، ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٥، والترمذي في الصلاة ٤١٣، وابن ماجه في إقامه الصلاة ١٤٢٥ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان- ما جاء في ترك الصلاة ٢٦٢٢.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾، أي: وكنا نتكلم في الباطل، وفيما لا نعلم، مع المتكلمين في ذلك، ونرد به الحق، من رمي الرسول بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وأن ما جاء به سحر أو شعر وغير ذلك.

ومن هنا ينبغي للمسلم الحذر من الخوض في الباطل من القيل والقال والغيبة والنميمة وتلقف الإشاعات، ونحو ذلك.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي:نكذب بيوم القيامة يوم الحساب والجزاء وإدانة الناس بأعمالهم، ونزعم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا جنة ولانار.

فجمعوا بين ترك الصلاة، وعدم الإخلاص للمعبود، وبين منع الزكاة وعدم الإحسان إلى العبيد، و الخوض بالباطل، والتكذيب بيوم الدين، يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ اليقين: الموت، كما قال عز وجل: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

أي: استمرت حالنا على تلك الفعال والأقوال السيئة من ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين، ومن الخوض بالباطل، والتكذيب بيوم القيامة.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾، أي: حتى جاءنا الموت ونحن على هذه الحال.

عن أم العلاء- امرأة من الأنصار- رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون، وقد مات قال «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير»(١).

وفي هذه الآية رد على غلاة الصوفية الذين يفسرون اليقين في قوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ أن المراد به حتى تصل إلى درجة يرتفع عنك فيها التكليف. والصحيح أن المراد به الموت كما هو في هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، أي: فما تقبل فيهم شفاعة الشافعين، وقد ماتوا على الكفر، وهذا على الفرض والتقدير لو وجد من يشفع لهم مع أنه لا أحد يشفع لهم، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز- الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ١٢٤٣، وأحمد ٦/ ٤٣٦.

وقالوا فيما حكى الله عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الروم: ١٣].

وقال تعالى عن الشفعاء من الملائكة وغيرهم: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والمجرمون أعمالهم لا يرضاها الله- عز وجل، فلا شافع لهم، ولو شفع لهم شافع لم يقبل الله- عز وجل- شفاعته فيهم: لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له. كما قال عز وجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ الفاء: استئنافية و «ما»: اسم استفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم.

أي: فما لهؤلاء الكفرة المجرمين عن التذكرة والموعظة، أي عن القرآن.

﴿مُعْرِضِينَ﴾، أي: معرضين عنها بقلوبهم، متولين عنها بأبدانهم، صادين غافلين عنها.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في إعراضهم ونفورهم الشديد عن التذكرة والموعظة.

﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح الفاء: «مستنفَرة».

وقرأ الباقون بكسرها: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾.

وحمر: جمع حمار، يجمع على «حمر» وعلى «حمير» وعلى «أحمرة».

والمراد بها حمر الوحش لوصفها بقوله: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾، أي: نافرة نفورًا شديدًا، ومستنفر بعضها بعضًا.

﴿فَرَّتْ﴾، أي: هربت ونفرت وجفلت، ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾، أي: من مجموعة من

الأسود تريد أكلها، أو من مجموعة من الرماة يريدون صيدها.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء الكفرة المجرمين أن يعطى وينزل عليه من السماء كتابًا منشورًا خاصًا به، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك- كما أنزل على النبي ﷺ.

كما قال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد كَذَبوا كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر ونفي، أي: ليس لهم ما طلبوا، وما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ولو أوتوا صحفًا منشرة ما آمنوا.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي: بل لا يخافون ولا يخشون الآخرة، وما فيها من العذاب والأهوال والنكال، ولو خافوها ما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾، ﴿كَلَّآ﴾: ردع لهم وزجر؛ لإعراضهم عن القرآن، ونفي لزعمهم أن القرآن سحر يؤثر، ومن قول البشر.

أو بمعنى: حقًا، أي: حقًا إن القرآن العظيم تذكير وموعظة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، أي: فمن شاء من الناس تذكر واتعظ بمواعظ القرآن.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قرأ نافع المدني بالخطاب: «وما تذكرون».

وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: وما يتعظون إلا من شاء الله أن يتعظ منهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩]

فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله- عز وجل؛ لأن مشيئة الله عز وجل تامة نافذة عامة لا يخرج عنها أحد فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي: هو سبحانه وتعالى- أهل أن يتقى ويُخاف ويُخشى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأن يعبد وحده؛ لأنه الإله العظيم الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، أي: وأهل أن يغفر ذنوب من تاب إليه وأناب، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

عن أنس- رضي الله عنه- قال: قرأ رسول الله ﷺ- هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهل أن أغفر له»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أن كل نفس مرتهنة يوم القيامة بعملها ومحبوسة في العذاب بسببه إلا أصحاب اليمين، فلا يرتهنون ولا يحبسون بل هم طلقاء في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

٢- تساؤل أهل الجنة فيما بينهم عن المجرمين وسؤالهم إياهم - تبكيتًا وتوبيخًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ ؟

٣- أن من أعظم الجرائم ومن أكبر موجبات دخول النار ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والخوض في الباطل، والتكذيب باليوم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٤٢، ٢٤٣، والترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٨، وابن ماجه في الزهد- ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٩ وقال الترمذي «حسن غريب»

ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

٤- أن الموت سبيل كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

٥- التحذير من ترك الصلاة ومنع الزكاة، والخوض بالباطل، وإنكار البعث والجزاء.

٦- نفي الشفعاء للمجرمين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

٧- شدة إعراض المشركين ونفورهم عن التذكير بالقرآن ومواعظه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

٨- شدة عناد المجرمين، وتكبرهم وتجبرهم وتعنتهم، وطلب كل منهم أن ينزل عليه كتاب خاص به، وتكذيبهم بالآخرة، وعدم خوفهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

٩- إثبات وتحقيق أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾.

١٠- إثبات المشيئة للعبد لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ وفي هذا رد على الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله.

١١- الحث على التذكر والاتعاظ بالقرآن الكريم.

١٢- إثبات المشيئة لله عز وجل، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وفي هذا رد على القدرية الذين يرون عدم دخول أفعال العباد تحت مشيئة الله تعالى.

١٣- إثبات عظمة المولى عز وجل، وفضله، فهو سبحانه أهل أن يتقى ويخاف فيطاع، وأهل للفضل والتجاوز عن عباده ومغفرة ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْقِيَامَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة القيامة» بهذا الاسم؛ لإقسام الله عز وجل بالقيامة في مطلعها بقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾.

وتسمى: «سورة لا أقسم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- أقسم الله تعالى في مطلعها على تمام قدرته على بعث الناس من قبورهم: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾.

٢- التخويف من أهوال يوم القيامة: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾.

٣- نهيه ﷺ أن يحرك بالقرآن لسانه؛ ليعجل به، وتكفله عز وجل بجمعه وقرآنه وبيانه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾.

٤- التحذير من محبة الدنيا وترك الآخرة: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ «لا»: في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لنفي المقسم عليه.

قال ابن قتيبة(١): «فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما نقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول».

وقال ابن كثير(٢): «المقسم عليه متى كان منتفيًا جاز الإتيان بـ«لا» قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد،والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد».

وقال السعدي(٣): «ليست «لا» ههنا نافية ولازائدة، وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح».

فأقسم عز وجل بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن البعث وإحياء الموتى حق.

ويوم القيامة- هو يوم بعث الناس من قبورهم، وسُمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] ولقيام الروح والملائكة فيه صفًا لا يتكلمون كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا

(١) في «تأويل مشكل إعراب القرآن» ص٢٤٦.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٠.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢١.

لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨]، ولقيام العدل الحقيقي فيه، والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١].

والنفس اللوامة: أي التي من طبيعتها أنها تلوم صاحبها على الخير والشر، وكل نفس لوامة، فالنفس الخيرة: تلوم صاحبها على فوات الخير أو عدم الاستزادة منه، وتلومه على فعل الشر أو قوله، وتندم على ما فات من خير أو ما وقع من الشر، لو فعلت كذا، أو لو لم أفعل كذا، وبضدها النفس الخبيثة. قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق، فحج آدم موسى»(١).

قال ابن القيم(٢): «وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك. وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء، وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها بالخير والشر ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه، فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر، مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة».

ولم يذكر جواب القسم، إما لدلالة السياق عليه والعلم به، فقوله بعده: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ يدل على أن المقسم عليه كون البعث وإحياء الأبدان حق.

قال ابن القيم(٣): «ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩ ومسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٢- ٧٣، ٨٤- ٨٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٣، ٧٤.

به وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا».

وقال أيضًا: «فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء».

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، أي: أيظن الإنسان أن لن نقدر على بعثه وجمع عظامه بعد تفتتها وتفرقها وصيرورتها رميمًا، كما قال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

رُويَ أن عمر بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: «حدثني عن يوم القيامة، متى يكون، وكيف حالها وأمرها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك، فقال: لو عاينت ذلك لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»(١).

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، أي: بلى قادرين على ما هو أدق وأعظم وأدل على كمال قدرتنا، وهو تسوية أطراف أصابعه كما كانت- مع ما فيها من دقة البصمات واختلافها بحيث لا تتشابه بصمات شخص ببصمات شخص آخر- وكذا سائر أطرافه وعظامه. وذلك مستلزم لجمع عظامه وجميع أجزاء بدنه،وأن قدرته- عز وجل على ذلك من باب أولى وأحرى.

وقال بعض المفسرين: المعنى: بلى قادرين على أن نسوي في الدنيا أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار بعد أن كانت متفرقة، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا. وإذا كان عز وجل قادرًا على تسوية وجمع أصابع يدي الإنسان ورجليه في الدنيا بعد أن كانت متفرقة، فهو قادر على جمع عظامه في الآخرة بعد تفرقها بالموت والبلى.

قال ابن القيم(٢): «وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده،

---

(١) انظر «أسباب النزول للواحدي» ص ٢٩٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٤.

ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني- أنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد، وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت».

وقال ابن كثير[1]: «والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من قوله: ﴿نَّجۡمَعَ﴾، أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه- وهي أطراف أصابعه- مستوية».

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، المراد بالإنسان هنا الكافر. والفجور: الكفر والمعاصي والكذب المتعمد والعناد.

أي: بل يريد الكافر أن يمضي قدمًا في التكذيب والكفر والمعاصي ويدوم على فجوره لا ينزع عنه ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده والاستمرار على ذلك.

ويحتمل أن المعنى: بل يريد الإنسان لِيُكَذِّب بما أمامه من البعث والقيامة؛ ولهذا قال بعده ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: يسأل متى يوم القيامة مستبعدًا ومكذبًا بوقوعه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُلۡ لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ [الذاريات: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾.

---

(١) في تفسيره» ٨/ ٣٠١.

أقسم عز وجل بالقيامة وأنها حق ثم ذكر بعض أهوالها.

قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «برَق» بفتح الراء.

وقرأ الباقون: ﴿بَرِقَ﴾ بكسرها.

أي: فإذا كانت القيامة برق البصر، أي: شخص فلا يطرف، وحار وانبهر وذل وخشع لما يشاهد من أهوال القيامة، التي كان يكذب بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾، أي: ذهب ضوؤه ونوره وسلطانه.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ جمع بينهما في تكويرهما، وذهاب ضوئهما.

يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البلى ومزقها فصارت رميمًا، ولم يجتمعا قبل ذلك قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

فيخسف القمر، وتكور الشمس، ويقذفان في النار، ليرى العباد أنهما مخلوقان مسخران، وليرى الذين عبدوهما من دون الله أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾، أي: يقول الكافر إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة «أين المفر»؟، أي: أين المهرب والخلاص والفكاك؛ يريد أن يهرب ويتخلص من الهول والعذاب، ولكن هيهات.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر وتهديد، ﴿لَا وَزَرَ﴾: لا ملجأ ولا منجى ولا ملتجأ لأحد دون الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، أي: إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق مصير الخلائق ومنتهاهم ومرجعهم ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ ۝٨﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم مهم، و «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: يُخبر الإنسانُ في ذلك اليوم، يوم القيامة، بجميع الذي قدمه من أعمال ونحوها، وبجميع الذي أخره من أعمال ونحوها فلم يعملها، صغيرها وكبيرها خيرها وشرها، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، «بل» للإضراب، أي: هو بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة، حسيب على نفسه شهيد عليها، يشهد عليه سمعه وبصره وجلده ولسانه ويده ورجله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٤].

وكما جاء في حديث تقرير العبد بذنوبه «أتذكر ذنب كذا وكذا، فيقول: نعم يارب»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، فقال: «أتدون مم أضحك؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب: ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ شاهدًا إلا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلي بينه وبين الكلام. فيقول: بُعدًا لكنَّ وسحقًا! فعنكنَّ كنت أناضل!»(١).

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، أي: ولو ألقى المعاذير وقدمها عن نفسه فهو بصير بها، عالم بأعماله، مهما جادل واعتذر أو أنكر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٧].

وكل هذه المعاذير لا تقبل، ومهما اعتذر الإنسان عن نفسه أو أنكر وجادل عنها فهو عالم بأعماله؛ ولهذا يقرر بأعماله فيقر بها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٤] فيقرؤه ولا يستطيع أن ينكر منه شيئًا كما قال المجرمون ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

فالإنسان بصير على نفسه عالم بخفاياها وعيوبها.

ولكنه قد يغفل عن نفسه ويتبصر بعيوب الآخرين، فيكون حاله كما قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «عجبت من الرجل يفر من القدر، وهو مواقعه، ويرى القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الأدب المفرد» ص٣٠٥، «القضاء والقدر» للبيهقي ص٣٠٩.

وقد أحسن القائل:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ... ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى
ولو كان ذا عقل لما عاب غيره ... وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى(١)

وأيضًا فإن الإنسان بما أعطاه الله من عقل وبصر وحنكة يحتال في تدبير أموره وأحواله ما استطاع كما يقال: «الأحدب يعرف كيف ينام» بل إن الحيوانات عندها شيء من التدبير لأحوالها حسب ما أعطاها الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠]، أي: هداه لما خلق له، ومن هنا ترى النمل يدخر قوت الشتاء في الصيف، وتغدو الطيور أول النهار خماصا في طلب العيش، وتروح آخر النهار إلى أوكارها مليئة البطون.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل - بيوم القيامة والنفس اللوامة - على أن البعث وإحياء الموتى حق؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، ولله - عز وجل - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

٢- في إقسامه - عز وجل - بالقيامة تعظيم لشأنها وأمرها، وفي إقسامه بالنفس اللوامة توجيه إلى التأمل في طبيعتها وكثرة تلونها وتلومها، ومن ثم حملها على ما فيه صلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

٣- استبعاد المكذبين للقرآن بعث الأجساد وإنكارهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

٤- إثبات قدرة الله - عز وجل - على بعث الأجساد وجمع أجزائها جميعًا مهما دقت، ومن ذلك أطراف الأصابع والبصمات؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

٥- رغبة الكافر بالاستمرار على الكفر والفجور وتكذيبه بيوم القيامة وسؤاله عنه استبعادًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

٦- شخوص البصر وحيرته وانبهاره من شدة أهوال يوم القيامة، ومنها خسف

---

(١) انظر: «نفح الأزهار» ص٦٠، «السحر الحلال» ص٨٢.

القمر وجمع الشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

٧- طلب الكافر المكذب المفر والمهرب في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، ولكن هيهات لا مفر ولا محيد ولا ملجأ ولا منجى في ذلك اليوم من الله إلا إليه، إليه المستقر والمعاد وهو لجميع الخلق بالمرصاد.

٨- إثبات الربوبية الخاصة والعامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾.

٩- إخبار الإنسان في ذلك اليوم بما قدم من أعمال صالحة، وما أخر منها فلم يعمله، وما قدم من أعمال سيئة، ومجازاته على ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

١٠- أن الإنسان بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأفعاله، حسيب على نفسه شهيد عليها، مهما التمس لها الأعذار وجادل عنها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه فأنزل الله- عز وجل-: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ- كما قرأه»(١)

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾»(٢).

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، «لا» ناهية، والخطاب للنبي ﷺ، والضمير في «به» في الموضعين يعود إلى القرآن الكريم،وهو غير مذكور- فيما تقدم من السورة، لكنه معلوم.

والمعنى: لا تحرك بالقرآن لسانك؛ لأجل الاستعجال به، وأنصت واستمع لما يلقى إليك منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤].

وقد كان ﷺ إشفاقًا منه وحرصًا- يبادر إلى أخذه من الملك ويسابقه في قراءته، ويحرك لسانه وشفتيه؛ ليحفظه خشية أن يضيع منه شيء، أو يفوته، فنهاه الله- عز

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥، ومسلم في الصلاة- الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٧.

وجل- عن ذلك وتكفل له بجمعه فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، أي: إن علينا جمعه في صدرك وحفظه فيه، وتيسير قراءته وتلاوته عليك كما أُنزل- كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، أي: إذا قرأه عليك جبريل عن الله عز وجل، وأكمل قراءته: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، أي: فاقرأه بعده كما أقرأك، فأُمر ﷺ بالمتابعة، ونُهي عن العجلة والموافقة.

والمتابعة مجيء الشيء بعد الشيء، والموافقة: مجيء الشيء مع الشيء.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، أي: ثم بعد جمعه في صدرك وتلاوتك له كما أنزل، فإن علينا تفسيره وبيان معانيه، وما فيه من الأحكام والحكم والآداب والأخلاق وغير ذلك.

وبهذا تكفل الله- عز وجل- لرسوله ﷺ بتيسير تدبر القرآن له، حفظًا وتلاوة لألفاظه، وفهمًا لمعانيه، وتطبيقًا لأحكامه؛ ولهذا بين ﷺ لأمته هذا القرآن أتم بيان بأقواله وأعماله وتقريراته.

كما أمر عز وجل الأمة بتدبره، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

ويؤخذ من هذا التأني والتثبت في طلب العلم، وأنه ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويستمع إلى معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه ولا يقاطعه أو يبادره قبل فراغه.

كما يؤخذ منه أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم بالخطاب في: ﴿تُحِبُّونَ﴾، و ﴿وَتَذَرُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيب فيهما.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما تزعمون أن لا بعث ولا حساب.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، «بل»: للإضراب، أي: بل تحبون الدنيا العاجلة الفانية فتعملون لها وتتنافسون فيها؛ لأن لذاتها ونعيمها عاجل، والإنسان مولع بحب العاجل وإيثاره على الآجل.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، أي: وتتركون العمل للآخرة الباقية والمسارعة والمسابقة إليها والمنافسة فيها؛ لأنها متأخرة وآجلة، فحملكم حب الدنيا العاجلة الفانية على الفجور والتكذيب، وشغلكم عن الاستعداد للآخرة،كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأساس كل بلية وسبب كل رزية، فما حصل من كفر وتكذيب فبسببها، وما حصل من ذنوب ومعاصٍ فبسببها، وما حصل من عداوة وبغضاء حتى بين الأقارب فبسببها؛ ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(١).

وقد ذم الله- عز وجل- الدنيا وبين حقارتها ودناءة منزلتها، كما امتدح الآخرة وبين عظم منزلتها بما فيه الكفاية لأولي العقول والبصائر لكن حب الدنيا يعمي ويصم:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٦- من حديث عمرو بن عوف- رضي الله عنه.

كـــم واثـــق بـــالعمر أفنيتـــه وجـــامع بـــددت مـــا يجمـــع[١]

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

بين عز وجل في الآيتين السابقتين أن مما حمل على الفجور والتكذيب إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما يدعو لإيثار الآخرة على الدنيا بذكر الفرق بين حال المنعمين وحال المعذبين في ذلك اليوم.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، «ناضرة»: من النضارة والحسن والبهاء، أي: وجوه يومئذ حسنة بهية مشرقة متهللة مسرورة عليها رونق ونور لما هي فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية: ٨، ٩].

وقال ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على هيئة البدر»[٢].

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، «ناظرة»: من النظر، أي تنظر إلى ربها وتراه عيانًا، كما قال- ﷺ: «إنكم سترون ربكم عيانًا»[٣].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة- رضي الله عنهما- أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونها سحاب»؟ قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم كذلك»[٤].

وعن جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: «نظر رسول الله ﷺ- إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على

---

(١) البيتان لجحظة. انظر: «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للتنوخي ٤/ ١٩٨، «المجموع اللفيف» ص٤٦٤، «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» ٢/ ٥٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٢٣٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٣٥- من حديث جرير بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧٤، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٢.

صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»(١).

وعن أبي موسى- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(٢).

وعن صهيب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾»(٣).

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يتجلى للمؤمن يضحك يعني في عرصات القيامة»(٤).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ-: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»(٥).

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الصريحة في الدلالة على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة. وعليه يدل مفهوم قوله تعالى في الكفار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال ابن كثير(٦): «وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله- عز وجل- في الدار الآخرة في

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٣٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان- إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٨، ومسلم في الإيمان ١٩١.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١٣، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٣٠.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٦.

الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها».

وبعد أن ذكر بعض هذه الأحاديث قال: «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام».

وقال السعدي في الكلام على الآية[1]: «أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء».

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾، أي: ووجوه في ذلك اليوم «باسرة»، أي: عابسة كالحة كاشرة مسودة حزينة خاشعة ذليلة، وهي وجوه الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٤٠- ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٢- ٤].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، أي: تستيقن أن يفعل بها داهية وأمر عظيم مهلك يقصم فقار الظهر ويقطعها، أي: تستيقن أن مصيرها ومآلها إلى عذاب النار وبئس المصير.

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله- عز وجل- لنبيه ﷺ عن تحريك لسانه استعجالًا بالقرآن وحرصًا منه ﷺ وخوفًا من فوات شيء منه، وتكفل الله - عز وجل - له بجمعه وقراءته وبيانه له؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

٢- ينبغي أن يقرأ المتعلم للقرآن بعد نهاية قراءة معلمه، وينبغي التثبت والتأني في طلب العلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾.

٣- بيان الله- عز وجل- لنبيه- ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢٦- ٥٢٧.

٤- التنديد بمن يحبون الدنيا العاجلة الفانية، فينشغلون بها عن الآخرة الباقية والتهديد والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

٥- تحقير الدنيا، ورفعة شأن الآخرة.

٦- نضارة وحسن وجوه أهل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾.

٧- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله عز وجل الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

٩- بسور وجوه الكفار ومساءتها من شدة الهول والعذاب، وتوقع ما هو أدهى وأعظم وأشد؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة انقسام الناس في الآخرة إلى مسرور منعم، ومحزون معذب، ثم ذكر ما يسبق ذلك من حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال والفزع، ثم توعد عز وجل من خالف أمره وكذب وتولى، ثم ختم السورة بما بدأها به وهو إثبات البعث والمعاد والقيامة.

قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، «كلا»: للردع والزجر والتهديد، أي: سيعلمون سوء عاقبة أمرهم في تلك الحال ويندمون حين لا ينفع الندم.

ويحتمل كونها بمعنى: حقًا، أي: حقًا عندما يحصل ما ذكر وتقبض الروح فإن المساق إلى الله.

أي: كلا إذا انتزعت الروح من الجسد وبلغت التراقي.

والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين النحر والعاتق «وهي قريبة من الحلقوم؛ ولهذا قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الآيات: ٨٣- ٨٧].

وعن بسر بن جحاش أن رسول الله ﷺ- بصق يومًا في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم أنَّى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنَّى أوان الصدقة»(١).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، أي: مَن راقٍ يرقي، ومَن طبيب شاف يداوي. مِن رقى يرقي كرمى يرمي، ومصدره: «رقية».

قال السعدي(١): «أي: مَن يرقيه، من الرقية؛ لأنهم انقطعت عنهم الأسباب العادية فتعلقوا بالأسباب الإلهية».

وقيل مَن يرقى بروحه من الملائكة؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ مِن رقي يرقى كشقي يشقى، ومصدره «رُقِيّ» فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. والأظهر القول الأول.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾، أي: وأيقن وجزم أن الذي نزل به هو الفراق للأهل والولد والمال، وللدنيا كلها والانتقال للآخرة.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾، أي: التوت والتصقت واجتمعت ساقا الميت إحداهما بالأخرى بعد موته ولفه في الكفن.

والتفت عليه شدة الدنيا وشدة الآخرة في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، وعظم الأمر وصعب الكرب.

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، أي: إلى ربك يا محمد ورب كل مخلوق ذلك اليوم السوق والمرجع والمآل والمآب، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

وفي حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه- في قبض روح العبد المؤمن قوله ﷺ: «فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢٧.

السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض..» الحديث[١].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾.

إخبار من الله- عز وجل- ووصف لحال الكافر في الدنيا.

قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾، أي: فلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما يجب الإيمان به من المغيبات، وبما جاء به الرسول ﷺ من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾، أي: ولا صلى الصلوات المفروضة وغيرها، وخص الصلاة من بين الواجبات؛ لعظم مكانتها في الإسلام فهي الصلة بين العبد وبين ربه، وأعظم العبادات البدنية وأهمها، وهي عمود الإسلام.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: ولكن كذّب بقلبه ما جاء من الحق عن الله ورسوله، وما أخبر به الكتاب والسنة من المغيبات.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أعرض بجوارحه عن الصلاة وغيرها مما جاء من الحق فلم يعمل به.

قال ابن كثير[٢]: «كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه، متوليًا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا».

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾، أي: يتبختر ويختال في هيئته ومشيته أشرًا وبطرًا، فكهًا مسرورًا، غير وجل ولا خائف مما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ١٣- ١٥].

بل إن هؤلاء الكفرة المكذبين من كبرهم وغرورهم يطمعون أن يكونوا أحسن من غيرهم في الآخرة، كما قال قائلهم فيما ذكر الله عنهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٧.

لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠].

وكما قال صاحب الجنة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم: ٧٧- ٧٩].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «إذا مشت أمتي المطيطياء، وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم سُلِّط شرارها على خيارها»(١).

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: زجر وتهديد شديد، ووعيد أكيد لمن جمع بين تكذيب الحق بقلبه والإعراض عنه بجوارحه، وبين الاختيال والأشر والبطر والسرور بما هو عليه من الشر.

قال ابن كثير(٢): «أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]، وكقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]».

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تأكيد للتهديد ووعيد على إثر وعيد.

وقد قيل إن هذه الآيات نزلت في أبي جهل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أيظن الإنسان- يعني الكافر- أن يترك مهملًا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيثاب أو يعاقب، فهذا ينافي حكمة الله- عز وجل- في خلقه له، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٦١، وابن المبارك في «الزهد» ١٨٧ وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٣٠٨.

قال ابن القيم(١): «ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب، فإن الله سبحانه- أنكر على من حسب أنه يترك سدى فلا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب، ولا يعاقب، ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه، ونفي منكر على من حكم به وظنه».

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: بلى، لقد كان الإنسان هكذا.

و«النطفة» هي الماء القليل، أي: لقد كان الإنسان «نطفة» أي ماءً قليلًا مهينًا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾، أي: من ماء الرجل.

﴿يُمْنَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء على التذكير، وقرأ الباقون: «تمنى» بالتاء على التأنيث.

ومعنى ﴿يمنى﴾، أي: يصب ويراق في أرحام النساء، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥- ٧].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، أي: ثم كان علقة من الدم تعلق في جدار الرحم، ﴿فَخَلَقَ﴾، أي: فخلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظامًا ثم كسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر.

﴿فَسَوَّىٰ﴾، أي: فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه على أحسن حال، تام الأعضاء، معتدل القامة، ناطقًا سمعيًا بصيرًا.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٨٣.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦- ٨].

وفي حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ- قال: «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»(١).

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾، أي: الصنفين والجنسين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: أليس الذي خلق الإنسان ونقله في هذه الأطوار المختلفة قادرًا على إحياء الموتى وبعثهم.

والاستفهام كسابقه: للتقرير.

والجواب عن الاستفهامين بأن يقال: «بلى» أو «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» أو بلى إنه على كل شيء قدير.

أي: فالقادر على خلق الإنسان بعد أن كان عدمًا من هذه النطفة مرورًا بمراحل الخلق بعدها حتى صار خلقًا سويًا قادر من باب أولى وأحرى على أن يحيي الموتى بعد موتهم، وهذا أهون عليه كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

قال ابن القيم(٢): «فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، وكمال قدرته وحكمته، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا، ويتركها سدى بعد كمال خلقها».

وعن موسى بن أبي عائشة قال: «كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ؟ قال: سبحانك، فبلى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٠.

من رسول الله ﷺ»(١).

وروي عن أبي هريرة- رضي الله عنه قال:: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ؟ فليقل: بلى ومن قرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله»(٢).

وعن قتادة قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى»(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ؟ فقال: «سبحانك، فبلى»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بساعة الاحتضار والفراق والرجوع إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾.

٢- إذا نزل الموت ضاق الفضاء، وبطلت الحيل، ولم تجد الأسباب.

٣- جواز الرقية وطلب الاستشفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

٥- الردع والزجر والوعيد والتهديد للكافر الذي لم يصدق بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ ولم يصل لله، بل كذب بقلبه وتولى ببدنه وجوارحه، ومشى بين الناس

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- باب الدعاء في الصلاة ٨٨٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٩. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٠٩. «: تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- مقدار الركوع والسجود ٨٨٧، والترمذي في تفسير سورة التين ٣٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٢٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٩.

مختالًا متكبرًا معجبًا بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾.

٦- أن الصلاة أعظم العبادات في الإسلام، وتركها كفر لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

٧- الحذر من عدم التصديق بما جاء عن الله وترك الصلاة والتكذيب والتولي والكبر والاختيال والإعجاب؛ لأنها صفات الكفار.

٨- إثبات البعث والحساب والجزاء، وبيان أن اعتقاد الكافر أنه متروك هملًا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيجازى بعمله ينافي حكمة الله عز وجل في خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾.

٩- تقرير الإنسان وتذكيره بنعمة الله - عز وجل - عليه في إيجاده ونقله في أطوار خلقه وضعفه إلى أن صار بشرًا سويًا سميعًا بصيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

١٠- إثبات قدرة الله - عز وجل - التامة على البعث وإحياء الموتى؛ لأن الذي خلق الخلق من العدم قادر على إعادة خلقهم من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلإِنْسَانِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الإنسان»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

وتسمى: «سورة هل أتى على الإنسان»، كما تسمى أيضًا: «سورة الدهر»، و«سورة الأبرار»، و«سورة الأمشاج».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾[1].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بذكر نعمة الله تعالى على الإنسان في إيجاده بعد العدم، وفي كيفية إيجاده وإمداده بالحواس، وهدايته السبيل ببيان طريق الخير وطريق الشر: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

٢- التهديد والوعيد للكافرين: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

٣- بيان عظم ما أعد الله للأبرار من ألوان النعيم وامتداحهم والثناء عليهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة - ما يقرأ في يوم الجمعة ٨٩١، وسلم في الجمعة ٨٨٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢٣.

نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

٤- الامتنان على النبي ﷺ بتنزيل القرآن عليه، وتسليته وتقوية قلبه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

٥- تخويف الكافرين يوم القيامة وأهواله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

٦- إثبات الاختيار للإنسان وأن مشيئته تبعًا لمشيئة الله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

«هل»: حرف استفهام للتقرير بمعنى «قد»، أي: قد أتى على الإنسان وقت طويل من الدهر لا وجود له ولا ذكر، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧].

قال ابن كثير(١): «أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئا يُذْكر لحقارته وضعفه».

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: أوجدناه من نطفة، وهي المني، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿أَمْشَاجٍ﴾، أي: أخلاط من عناصر مختلفة، من ماء الرجل وماء المرأة، ثم ينتقل من طور، إلى طور ومن حال، إلى حال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، أي: نختبره بالتكاليف، أيعمل بما خلق له أم لا، كما قال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، أي: كمّلنا خلقته وحواسه، ومنها السمع والبصر، والتي هي من أهم ما أنعم الله به على الإنسان بعد العقل- لأنهما طريقا المعرفة إليه، فبالسمع يسمع الإنسان الآيات الشرعية، وبالبصر ينظر في آيات الله الشرعية والكونية.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣١٠.

وقد يكون السمع والبصر نقمة على الإنسان إذا استعملهما في سماع الباطل والنظر إليه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، أي: دللناه على طريق الحق وأرشدناه إليه بما أنزلنا من الوحي في القرآن الكريم، وعلى لسان النبي الكريم ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾، «إما»: أداة تفصيل، أي: إما شاكرًا لله- عز وجل- نعمه العظيمة عليه، بخلقه وإيجاده من العدم، ومنحه السمع والبصر، ودلالته وإرشاده إلى طريق الحق، وذلك بسلوك طريقه المستقيم، والإقرار والاعتراف بنعمه عليه واستعمالها في طاعته- عز وجل.

﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بربه جحودًا لنعمه، مستعملًا لها في معصيته، معرضًا عن الحق بقلبه متوليًا عنه ببدنه.

عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكرًا، وإما كفورًا»(١)

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

وكقوله- ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(٢).

وقد تضمنت هذه الآيات الثلاث أول أحوال الإنسان ووسطها ومنتهاها.

فقد كان عدمًا، ثم خلقه الله وأوجده وأتم خلقه، ثم بين له طريق الخير وطريق الشر في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، فانقسم الناس إلى شاكر لنعم الله قائم

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل الوضوء ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه.

بحقوقه، وإلى كفور بربه وبنعمه، ثم أتبع ذلك بذكر حال الفريقين في الآخرة وجزائهم.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله - عز وجل - على الإنسان في إيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئًا مذكورا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

٢- أن الإنسان خلق من ضعف، من نطفة وأخلاط من ماء الرجل والمرأة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار إنسانًا سويًا سميعًا بصيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

٣- أن الله - عز وجل - خلق الإنسان وأوجده للابتلاء والامتحان، لينظر أيشكر أم يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾.

٤- أن نعمة السمع والبصر من أعظم النعم فعلى الإنسان أن يستعملها فيما ينفعه في دينه ودنياه.

٥- لا عذر للإنسان ولا حجة له، فقد بين الله عز وجل له طريق الخير وأمره بسلوكه وبين له طرق الشر وحذره منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾.

٦- أن العبد فاعل مريد بمشيئة الله تعالى، لا يستقل بفعله، وليس مُجبَرًا على أفعاله فله أن يختار طريق الشكر، وله أن يختار طريق الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾، وفي هذا رد على القدرية والجبرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أنه أوجد الإنسان وهداه وأرشده إلى طريق الحق وهو إما شاكر لربه ونعمه عليه سالك طريق الحق، وإما كفور بربه ونعمه معرض عن الحق، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لكل فريق، وأنه أعد للكافرين السلاسل والأغلال والسعير والعذاب الأليم، وأعد للأبرار أصناف النعيم من نضارة الوجوه وسرور القلوب والمساكن والملابس والحلي والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم المقيم والملك الكبير. ونبه بما ذكر من نعيم الأبرار بعظم نعيم من فوقهم في المنزلة، وهم المقربون، والذين ذكر الله من نعيمهم أنهم يشربون من عين الكافور، كما قال تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: إنا أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا للكافرين بالله المكذبين لرسله الجاحدين لشرعه.

﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ جمع سلسلة، ممنوع من الصرف لأنه على صيغة منتهى الجموع، أي: سلاسل يُسلكون بها ويسحبون في الجحيم.

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾، يغلون ويقيدون بها ويوثقون، وتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم،

ونواصيهم إلى أقدامهم، كما قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]

قوله تعالى: ﴿وَسَعِيرًا ﴾، أي: ونارًا مستعرة ملتهبة تسعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله- عز وجل- ما أعده للكافرين من السلاسل والأغلال والسعير ذكر ما أعده للأبرار من أنواع النعيم ممتدحًا لهم على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، ليجمع العبد بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ الأبرار: جمع «بَرّ»، وفي معناه: «بار»، ويجمع على «بررة».

و«البَرُّ» و«البار» مأخوذ من «البِرّ» وهو في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير، الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وهو الذي تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب، كما قال ﷺ: «البر ما سكنت

إليه النفس، واطمأن إليه القلب»(١).

ومنه حسن الخلق، كما قال ﷺ: «البر حسن الخلق»(٢).

والمراد بالأبرار في الآية من فعلوا الواجبات وتركوا المنهيات، ومن ذلك الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى مع الإخلاص لله تعالى في ذلك، والخوف من عذابه ومن أهوال يوم القيامة، والصبر في ذات الله كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ والمراد بهم أصحاب اليمين(٣).

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾، أي: من كأس الخمر اللذيذ الذي لا يُنزفون بسببه ولا يُصدعون.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ مزاجها: ما تمزج به، أي: كأس خمر ممزوجة بالكافور ليبرده ويكسر حدته.

والكافور: نبت بارد طيب الرائحة- وفرقٌ ما بين كافور الدنيا وكافور الجنة قال ابن عباس- رضي الله عنهما- «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»(٤).

ولهذا تنتفي عما في الجنة جميع الآفات التي تصيب ما يماثلها في الدنيا في الاسم، كما قال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٨] فقوله: ﴿مَّخْضُودٍ﴾، أي: قد خضد وقطع شوكه وهو آفة السدر في الدنيا يؤذي من يريد قطعه.

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥]، أي: مطهرة من الحيض والنفاس والبول والغائط وغير ذلك من الأدناس، التي في نساء الدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد، ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣ من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩- من حديث النواس بن سمعان- رضي الله عنه

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى: في سورة الواقعة ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ [الآية: ٢٧].

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/ ٢٥٧، ١١/ ٤٨٢، «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨.

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أي: دار السلامة من الآفات التي في دار الدنيا.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، «عينًا»: منصوب بدل من «كافورا»، أي: ذلك الكأس اللذيذ ممزوج بكافور من معين لا ينضب ولا ينقطع،وهي عين الكافور.

ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشربون ويروَوْنَ؛ ولهذا قال: «بها»، ولم يقل: «منها»؛ لأن الفعل: «يشرب» ضمن معنى «يَرْوَى» ومن هذا قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضرٍ لهن نئيج[1]

والمراد بالعبودية في قوله: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ العبودية الخاصة، وأضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم، والمراد بهم المقربون، وهم خاصة الخاصة، كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧ ٢٨].

قال ابن تيمية[2]: «وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم، ويشربه المقربون صرفًا خالصًا، كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا مع ما في ذلك من مقابلته للسعير».

وقال ابن كثير[3]: «أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج، ويروون بها».

أي: فالأبرار وهم أصحاب اليمين يشربون من كأس ممزوجة بالكافور.

والمقربون يشربون صرفًا من عين الكافور.

كما يشرب الأبرار من خمر ممزوج بالتسنيم، ويشرب المقربون صرفًا من عين التسنيم كما قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/ ٥١، ٥٢.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٣١٢.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٥- ٢٨].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾، أي: يصرفون جداولها ويقدرون ينابيعها ويجرونها حيث شاؤوا، وأين شاؤوا من بساتينهم ودورهم وقصورهم ورياض الجنة وغير ذلك، بدون كلفة، ومن غير أخاديد.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، أي: من صفات الأبرار: الوفاء بالنذر.

والنذر: ما أوجبه الإنسان على نفسه من التزامات وعهود. والوفاء به واجب.

قال ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»(١).

وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم فهم يقومون بالواجبات والفروض الأصلية التي أوجبها الله عليهم من باب أولى وأحرى.

قال ابن تيمية(٢): «وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجب على نفسه التزامه، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله بأضعف الواجبين الذي التزمه هو، فهو بأن يوفي بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى».

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾، «يومًا» مفعول به منصوب لـ «يخافون»، وهو يوم القيامة.

ولا يصح أن يعرب ظرفًا؛ لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ونكّر «يومًا»: للتعظيم والتفخيم والتهويل، كما في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور- النذر في الطاعة والنذر فيما لا يملك وفي معصية الله ٦٦٩٦، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٩، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٦، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٢٦، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٦- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، أي: كان شر هذا اليوم وهوله وكربه وعذابه قاسيًا ممتدًا طويلًا منتشرًا غاية الانتشار، عامًا لجميع الناس إلا من رحم الله، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤].

لأن الناس في هوله وكربه على قدر أعمالهم فمنهم من يبلغ العرق إلى ساقيه ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا- كما جاء في الحديث(١).

وهم في مرورهم على الصراط كذلك على قدر أعمالهم منهم من يمر كالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبوًا- كما جاء في الحديث(٢).

﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي: في حال محبتهم له، إما لحاجتهم إليه أو لغير ذلك، وذلك منهم تقديمًا لمحبة الله- عز وجل على محبة أنفسهم، وإيثارًا لغيرهم من المحتاجين على أنفسهم، وإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق الله وحقوق العباد أبذل قال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ﷺ:«خير الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٣، وأحمد ٣/ ٢٥، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٨، ومسلم في الزكاة- بيان أفضل الصدقة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ١٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنه- مرض فاشتهى عنبًا- أول ما جاء العنب- فأرسلت صفية- يعني امرأته- فاشترت عنقودًا بدرهم فاتبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل به قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفية إلى السائل. فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به»(١).

﴿مِسْكِينًا﴾ وهو الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله، مأخوذ من المسكنة، وهي الذل والانكسار، وسكون الحركة؛ لأن الفقر- عياذًا بالله منه- يذل صاحبه.

إن جلس فبمؤخرة المجلس، يؤثر السكوت دائمًا؛ لأنه إن تكلم لم يُسمع، وإن سُمع لم يصدق، لا وزن له ولا قيمة عند كثير من الناس الذين يَزِنُون الناس بالدرهم والدينار.

﴿وَيَتِيمًا﴾ وهو الذي فقد أباه وهو دون البلوغ، ولا شيء له، ذكرًا كان أو أنثى، مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد فإذا بلغ زال عنه اليتم، لقوله- ﷺ- «لايتم بعد احتلام»(٢).

﴿وَأَسِيرًا﴾ وهو: المأسور المحبوس المسجون، سواء كان من المسلمين أو من غيرهم. وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال بعض المفسرين: المراد بالأسير: الرقيق.

والظاهر أن الأسير هو المأسور المحبوس حرًا كان أو عبدًا مسلمًا كان أو كافرًا.

فهو يشمل الرقيق وغيره، بل إن الرقيق أيضًا يدخل ضمن المساكين والأيتام.

وفي كونهم يخصون بالإطعام هذه الأصناف الثلاثة المحتاجة دليل على أنهم لا يريدون بذلك مكافأة- كما يفعل بعض من يعاوضون بإطعامهم وإنفاقهم، بل

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

ويعاوضون بإنصافهم وقولهم كلمة الحق أو سكوتهم عن الباطل- ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، أي: قائلين لهم بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: «أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب»(١).

وما قاله مجاهد وسعيد بن جبير جيد من حيث المعنى؛ لأن حمل الآية على أنهم قالوه بلسان المقال فيه بعد من وجهين: الأول: أنه لا يُستحسن أن يقال للمتصدق عليه هذا المقال.

والثاني: أنه لا يستحسن أن يقول المتصدق أنا أطعم لوجه الله؛ لأن الله أعلم بنيته وسريرته.

و «إنما» أداة حصر. والمعنى: ما نطعمكم إلا ابتغاء وجه الله، وطلب مرضاته، ورجاء ثوابه.

وقوله: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، أي: لله- عز جل- ويعبر بالوجه لشرفه.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾، أي: لا نطلب منكم مجازاتنا بالمال على إطعامنا لكم.

﴿وَلَا شُكُورًا﴾، «شكورا»: مصدر كالقعود، أي: ولا نريد منكم أن تشكرونا بالثناء علينا عند الناس بالقول واللسان مقابل ذلك.

فتضمن فعلهم: تقديم محبة الله على محبة نفوسهم، والإخلاص، والإحسان.

وأركان الشكر في الأصل ثلاثة: الاعتراف بنعمة المنعم، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على رضاه.

وحيث جمع هنا بين الجزاء والشكور حسن حمل الجزاء على المجازاة بالمال، وحمل الشكر على الثناء بالقول.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن في جميع صدقاته وأعماله مخلصًا العمل لله لا يطلب على شيء من ذلك مجازاة من الناس أو شكرًا منهم.

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤٦.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، أي: شديد الجهمة والشر، تعبس فيه وجوه الكفار والعصاة وتكلح. والعبوس: قبض ما بين العينين.

قال ابن تيمية(١): «ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾: [الآية: ١٠] فصدقهم قبل قولهم، إذ يقول تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الآية: ٧]».

﴿قَمْطَرِيرًا﴾: شديد العبوس، شديدًا هوله، عظيمًا بلاؤه، طويلًا أمده.

قال الشاعر:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا ... عليكم إذا ما كان يوم قماطر(٢)

فحملهم خوفهم من الله وعذابه في هذا اليوم الشديد على القيام بما يكون سببًا لنجاتهم في هذا اليوم من فعل الطاعات والكف عن المعاصي.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾، أي: حفظهم الله وحماهم وكفاهم شر ذلك اليوم وأذاه وعذابه، وسهل عليهم شدائده وكرباته، وأمنهم مما يخافون.

كما قال عز وجل: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بين قوله في الجملة السابقة: ﴿فَوَقَاهُمُ﴾ وقوله هنا: ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾، جناس بليغ.

وقدم قوله: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ على قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وما بعدها من الآيات في ذكر نعيمهم؛ لأن التخلية قبل التحلية.

ومعنى قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، أي: وأكرمهم وأعطاهم ومنحهم نضارة وحسنًا وبهاء وبهجة في وجوههم، وسرورًا وفرحًا واستبشارًا في قلوبهم، كما قال تعالى:

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٣.

(٢) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ٢١٦، «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤٧، «لسان العرب» مادة «قمطر».

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

فجمع الله لهم بين نعيم الظاهر والباطن، وبين النعيم الحسي والمعنوي. نسأل الله تعالى من فضله.

قال ابن تيمية(١): «وقاهم شر ما يخافونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه».

وقال أيضًا: «فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ فالنضرة جمال وجوههم، والسرور جمال قلوبهم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤]».

وسرور القلب هو سبب نضارة الوجه واستنارته، ونضارة الوجه واستنارته هي علامة سرور القلب، لهذا قدمها لأنها هي العلامة الظاهرة على السرور.

قال كعب بن مالك- رضي الله عنه-: «سلمت على رسول الله ﷺ- وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ- مسرورًا تبرق أسارير وجهه»(٣).

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ الباء: سببية، و «ما» مصدرية.

والصبر في اللغة: الحبس والمنع. وهو: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

أي: وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله- عز وجل- وعن معاصيه، وعلى أقداره المؤلمة.

---

(١) انظر» دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة- حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢، وأحمد ٣/ ٤٥٦- ٤٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب- صفة النبي ﷺ ٣٥٥٥، ومسلم في الرضاع- العمل بإلحاق القائف الولد ١٤٥٩، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٩٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٩.

﴿جَنَّةً﴾، أي: بستانًا ودارًا فسيحة ومنزلًا رحبًا، فيها ألوان النعيم والعيش الرغيد، وغير ذلك مما أعده الله لأوليائه. والمراد بقوله «جنة» جنس الجنات.

﴿وَحَرِيرًا﴾، أي: ولباسًا من حرير، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

قال السعدي(١): «ولعل الله إنما خص الحرير؛ لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه».

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيتين السابقتين وقايته للأبرار شر يوم القيامة ومنحهم النضارة والسرور وإثابتهم بسبب صبرهم بالجنة والحرير. ثم أخذ في تفصيل أحوالهم في الجنة وما أعد لهم فيها من ألوان النعيم.

قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، أي: متكئين في الجنة. والاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرفاهية، كالتمرفق، وهو الجلوس مع الاتكاء على المرفق، وكالتربع في الجلوس، والاضطجاع.

وفي الحديث قوله ﷺ: «أما أنا فلا آكل متكئًا»(٢).

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرر.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٣٤.

(٢)أخرجه البخاري- في الأطعمة- الأكل متكئًا ٥٣٩٨، وأبو داود في الأطعمة- ما جاء في الأكل متكئًا ٣٧٦٩، والترمذي في الأطعمة- ما جاء في كراهة الأكل متكئًا ١٨٣٠، وابن ماجه في الأطعمة- الأكل متكئًا ٣٢٦٢، وأحمد ٤/ ٣٠٨، ٣٠٩- من حديث أبي جحيفة- رضي الله عنه.

فجلوسهم على هذه الأسرة جلوس المطمئن المنبسط المسرور المرتاح.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾، أي: لا يرون في الجنة شمسًا يزعجهم ويؤذيهم حرها.

﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الزمهرير: البرد، أي: ولا يرون فيها بردًا يؤلمهم.

فجوها في غاية الاعتدال في ظل ظليل، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾، أي: وقريبة منهم ظلال أشجارها، وقريبة إليهم أغصانها.

﴿وَذُلِّلَتْ﴾، أي: جعلت مذللة منقادة ﴿قُطُوفُهَا﴾: ما يقطف ويلتقط من جناها وثمارها، أي: جعلت ثمارها مذللة منقادة لهم.

﴿تَذْلِيلًا﴾، أي: غاية التذليل والانقياد، متى اشتهوها تدلت عليهم من أغصانها، يأخذونها على أي حال كانوا، قائمين أو جالسين أو مضطجعين، لا يردهم عنها بُعد ولا شوك، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِءَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: ويطوف عليهم الولدان والخدم بأوان من فضة فيها طعامهم، كما قال تعالى في الآية التاسعة عشرة من هذه السورة ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقال: تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصافات: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أيضًا من فضة فيها شرابهم.

والأكواب: هي الكيزان والجرار والأقداح التي لا عرى لها ولا خراطيم.

﴿كَانَتْ﴾، أي: كانت هذه الأكواب، ﴿قَوَارِيرَا۠﴾: جمع قارورة. والقارورة تكون من الزجاج، أي: إن هذه الأكواب التي يشربون بها في بياض الفضة وصفاء قوارير الزجاج، شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها.

رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما- قال: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة»(١).

قال ابن القيم(٢): «فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفة الزجاج وشفافته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾».

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، أي: قدروها بأنفسهم فجاءت كما قدروها، أو قدرها لهم من يطوف عليهم من الولدان والخدم.

والتقدير: جعل الشيء بقدر مخصوص فجاءت هذه الأكواب مقدرة، من حيث ما فيها من شراب بكونه قُدِّر لهم من غير زيادة ولانقصان، ومن حيث حجمها بكونها بقدر الكف، ومن حيث لذتها فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

قال ابن القيم(٣): «فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه، ولوزاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي».

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾، أي: الأبرار، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، أو في هذه الأكواب.

﴿كَأْسًا﴾، أي: كأس خمر.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾، أي: ما تمزج به وتخلط ﴿زَنجَبِيلًا﴾ وهو نبت عظيم الفائدة طيب الطعم والرائحة.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾، ﴿عَيْنًا﴾: بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾، أي:عينًا في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾؛ لسلاسة سيلانها وانقيادها، وسلاستها في الحلق، ولذتها وحسنها.

فالأبرار يسقون كأس الخمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨- ٩٩.

والمقربون يشربون من عين السلسبيل صرفًا بلا مزج[١].

قال ابن تيمية[٢]- بعد كلامه على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾-: «وأخبر سبحانه أن لهم شرابًا آخر ممزوجًا من الزنجبيل؛ لما فيه من طيب الرائحة ولذة الطعم والحرارة التي توجب تغير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف؛ ولهذا وصفه سبحانه بكونه شرابًا طهورًا- أي:مطهرًا لبطونهم».

وقال ابن كثير[٣]: «فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار؛ ليعتدل الأمر. وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفًا».

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: ويدور على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ جمع وليد وهو الصغير، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾، أي: باقون على سن الصغر، لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون؛ لأن الصغير هو الأنسب والأصلح للخدمة.

وهم أيضًا في غاية الحسن: مقرَّطون مسوَّرون. قال الشاعر:

ومخلّداتٌ باللجين كأنما ... أعجازهُنَّ رواكد الكُثْبانِ[٤]

وهؤلاء الولدان غلمان أنشأهم الله في الجنة، كما أنشأ الحور العين، وقيل هم أولاد المسلمين الذين يموتون قبل البلوغ والتكليف، وقيل: هم أطفال المشركين.

والأظهر القول الأول فهم غلمان ينشئهم الله لهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾ [الطور: ٢٤].

قال ابن القيم[٥]: «وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم، ولا يجعلهم غلمانًا لهم».

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٥٦١.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٣١٧.

(٤) البيت ذكره ابن قتيبة في «غريب القرآن» ٤٤٧. وانظر «اللسان» مادة «خلد».

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٠٢.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾، أي: إذا رأيت هؤلاء الولدان في انتشارهم في الخدمة وكثرتهم وحسن خلقتهم وبياض أجسامهم ونضارة وجوههم، ونظافة ثيابهم، وجمال حليهم ظننتهم لؤلؤًا مفرقًا غير منظوم في حسن خلقته وجماله وبياضه وبهائه.

قال ابن القيم(١): «وفي كونه منثورًا فائدتان: إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

والثانية: أن اللؤلؤ إذاكان منثورًا ولاسيما على بساط من ذهب وحرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد».

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ- و لكل من يصلح له.

و ﴿ثَمَّ﴾: ظرف مكان، أي: وإذا رأيت هناك في الجنة، أي: رمقت ما عليه أهل الجنة من النعيم الكامل؛ من سعة دورها وقصورها ورياضها وكثرة أنهارها وخضرة بساتينها، وتنوع مأكولاتها ومشروباتها، وما فيها من الحور العين والخيرات الحسان، والغلمان والولدان، والفوز برضى الرحمن، والتمتع بخطابه والنظر إليه في تلك الجنان.

﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، أي: شاهدت نعيمًا عظيمًا وملكًا كبيرًا أعده الله لهم.

وإذا كان الله- عز جل- عظم هذا النعيم، ووصف هذا الملك بكونه كبيرا- فلا أحد يقدر عظمة ذلك وكبره، ولا يدرك وصفه وكنهه إلا العظيم سبحانه وتعالى.

فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه قال: قال النبي- ﷺ: «يقال لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا فيها: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا..»(٢)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه»(٣).

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧١، ومسلم في الإيمان ١٨٦، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٣.

وإذا كان هذا هو ملك أدنى أهل الجنة فما بالك بملك من هو أعلى منه، فهو بلا شك أوسع وأعظم. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة بإسكان الياء وكسر الهاء: عاليْهِم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء: ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾.

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «خضرٍ» بالخفض: صفة لـ﴿سُندُسٍ﴾ على إرادة الجنس.

وقرأ الباقون بالرفع: ﴿خُضۡرٞ﴾: صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾ وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ [الكهف: ٣١].

وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾، أي: عالي أبدانهم يجلل ظواهرهم ويجملها.

﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ السندس: هو رقيق الحرير والديباج ورفيعه، ويكون مما يلي أبدانهم كالقمصان ونحوها؛ لنعومته.

كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

﴿خضرٌ﴾، أي: لونها أخضر، وهو من أحسن الألوان وأجملها.

﴿وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم: ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿ثِيَابُ﴾ وقرأ الباقون بالخفض: «وإستبرقٍ» عطفًا على ﴿سُندُسٍ﴾.

والإستبرق: غليظ الحرير والديباج، مما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر.

قال ابن القيم[1]: «وتأمل ما دلت عليه لفظة «عاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا يجمل ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال».

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾، أي: ألبسوا في أيديهم أساور من فضة ذكورهم وإناثهم وهؤلاء هم الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: ٢٣].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٦.

وفي الحديث: «في الجنة جنتان آنيتهما وما فيهما من ذهب للمقربين وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما لأصحاب اليمين»(١).

قال ابن تيمية(٢): «فإن قيل: فلم اقتصر من آنيتهم وحليهم على الفضة دون الذهب؟ ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما.

قيل سياق هذه الآيات إنما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصلًا دون تفصيل جزاء المقربين، فإنه سبحانه إنما أشار إليه إشارة تنبه على ما سكت عنه وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم، فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل. وذلك- والله أعلم- لأنهم أعم من المقربين وأكثر منهم؛ ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين. وأيضًا: فإن في ذكر جزاء الأبرار تنبيهًا على أن جزاء المقربين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأيضًا: فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر، وأهل الشكر نوعان أبرار أهل يمين، ومقربون سابقون، وكل مقرب سابق فهو من الأبرار ولا ينعكس فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

وأيضًا: فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط».

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، أي: وسقاهم ربهم شرابًا يطهر بواطنهم ويزينهم.

وأسند الفعل إلى الرب، وأضافه إلى ضميرهم تكريمًا وتشريفًا لهم.

فجمل عز وجل ظواهرهم بالحرير والحلي، وجمل بواطنهم بالشراب الطهور الذي يطهرها من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق السيئة والأدناس الحسية والمعنوية، ويتحول إلى ريح كريح المسك يخرج من أبدانهم.

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٤.

عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- أنه قال: «إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم»(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾، أي: يقال لهم هذا تكريمًا وتهنئة لهم وإنعامًا معنويًا عليهم. والإشارة في قوله «إن هذا» إلى ما أعطاهم الله من الجنة وألوان النعيم فيها مما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ وغير ذلك مما هم فيه من النعيم.

أي: إن هذا النعيم الذي أعطيتموه كان لكم مجازاة وإثابة على ما أسلفتموه من الأعمال الصالحة، فهي سبب الثواب العظيم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾، أي: وكان سعيكم في الدنيا، أي: عملكم.

﴿مَّشْكُورًا﴾، أي: كان عملكم عملًا صالحًا تشكرون عليه، ويجازيكم الشكور سبحانه على العمل القليل منكم بالأجر العظيم والثواب الجسيم والنعيم المقيم.

فجمع الله- عز وجل- لهؤلاء الأبرار بين ألوان النعيم الحسي، والنعيم المعنوي بالتهنئة لهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩] وقول الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

ويقول أهل العلم: إن النعيم المعنوي لا يقل عن النعيم الحسي.

قال ابن القيم(٢) «فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣١٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٠٢.

شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور».

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالسلاسل والأغلال والسعير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

٢- الوعد والبشارة للأبرار بما أعد الله لهم من ألوان النعيم ومن ذلك كأس الخمر الممزوجة بالكافور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

٣- إثبات عبودية المقربين الخاصة لله- عز وجل- وأنهم يشربون من عين الكافور صرفًا ويفجرونها تفجيرا؛ لقوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾﴾.

٤- امتداح الله - عز وجل - للأبرار بذكر صفاتهم من الوفاء بالنذر وخوف يوم القيامة وشدائده وأهواله، وإطعام الطعام مع محبتهم له، للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى؛ إخلاصًا لله - عز وجل، لا لطلب المجازاة منهم ولا الشكور. والترغيب في هذه الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾﴾.

٥- إثبات صفة الوجه لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾، والمراد بوجه الله تعالى: ذاته عز وجل، ويعبر عن الذات بالوجه لشرفه.

٦- وقاية الله - عز وجل - للأبرار شر يوم القيامة، ومنحهم النضارة في وجوههم والسرور في قلوبهم ومجازاتهم بصبرهم جنة يسكنونها وحريرًا يلبسونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾﴾.

٧- اكتمال سرور الأبرار وانبساطهم في مجالسهم في أجمل الأجواء وأعدلها، في جنان ظلالها دانية، وثمارها مذللة، يطاف عليهم فيها بطعامهم وشرابهم بآنية وأكواب مقدرة من فضة، ويسقون فيها كأس خمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل؛ لقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا

كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

٨- دوران الولدان المخلدين والخدم الذين هم كاللؤلؤ المنثور في الحسن والجمال على أهل الجنة بطعامهم وشرابهم وحوائجهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾.

٩- عظم نعيم الأبرار في الجنة وكبر ملكهم وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

١٠- جمال مظهر الأبرار في الجنة، ومخبرهم ولباسهم وحليتهم الظاهرة والباطنة فلباسهم الحرير وحليتهم أساور من فضة وشرابهم الطهور؛ لقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

١١- الجمع للأبرار بين النعيم الحسي من السكن في الجنان وما فيها من ألوان النعيم من المآكل والمشارب واللباس والحلي وغير ذلك وبين النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة لهم بما أعد الله لهم، وأن هذا جزاء لهم على سعيهم وعملهم المشكور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للأبرار، وشكره لهم، وهو الشكور سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾.

بعد ما ذكر الله- عز وجل- ما أعده للمكذبين من السلاسل والأغلال والسعير، وما أعده للأبرار من ألوان النعيم امتن على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم، الذي من تمسك به فاز بالنعيم المقيم، ومن أعرض عنه صار إلى العذاب الأليم.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه سبحانه ذو العظمة والكبرياء.

﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾، أي: مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ﴾، أي: فاصبر لحكم ربك وقضائه الكوني وما قدره من تكذيب قومك وأذيتهم لك وغير ذلك، واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بتكليفك بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الله- عز وجل- وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وفي عطف قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ إشارة إلى أن القرآن الكريم والتأمل بما فيه من الدروس والمواعظ والعبر من أعظم ما يعين على الصبر.

كما أن فيه إشارة إلى أنه سوف يناله أذى بسبب إبلاغ هذا القرآن ونشره بين الناس فليستعد لذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا﴾ الآثم: الفاجر، كثير الإثم بجوارحه الظاهرة.

﴿أَوْ كَفُورًا﴾، «أو»: عاطفة، والكفور: هو الجحود بقلبه، أي: لا تطع هذا ولا هذا، أي: لا تطعهما، ولا تطع واحدًا منهما في مخالفة أمر الله ومعصيته.

قال ابن تيمية(١): «ولما كان صبره عليه لا يتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من كل آثم أو كفور، نهاه عن طاعة هذا وهذا، وأتى بحرف: «أو»، دون «الواو»؛ ليدل على أنه منهي عن طاعة أيهما كان: إما هذا وإما هذا. فكأنه قيل له: لا تطع أحدهما، وهو أعم في النهي من كونه منهيًا عن طاعتهما، فإنه لو قيل له: لا تطعهما، أو لا تطع آثمًا وكفورا لم يكن صريحًا في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده».

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، أي: اذكر اسم ربك ورب كل مخلوق، وخصه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مع أنه عز وجل رب كل مخلوق وذلك- والله أعلم- تذكيرًا له بنعمة الله عليه بربوبيته له الربوبية الخاصة، بل خاصة الخاصة باصطفائه للنبوة والرسالة، وتفضيله على الأنبياء وسائر الخلق.

أي: واذكر اسم ربك بإقامة الصلاة المفروضة وأداء النوافل والذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير؛ لأن ذكر الله أعظم معين على الصبر.

﴿بُكْرَةً﴾: أول النهار، ﴿وَأَصِيلًا﴾: آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، وهما ينتظمان صلاة الفجر وصلاة العصر.

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩] وهما البردان.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»(١)، أي: صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»(٢).

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»(٣).

يعني صلاة الفجر وصلاة العصر.

بل إن هذين الوقتين ينتظمان جميع أوقات الصلوات الخمس، فبكرة صلاة الصبح، وأصيلًا بقية الصلوات.

وأيضًا: فإن قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قد يحمل على جميع الأوقات، أي: اذكر اسم ربك في جميع الأوقات، كما قال تعالى عن أهل الجنة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم: ٦٢] ورزق أهل الجنة لا ينقطع على الدوام.

وفي الأمر بذكر اسمه عز وجل بكرة وأصيلًا بعد الأمر بالصبر تنبيه على أن ذكر الله عز وجل وطاعته أكبر معين على الصبر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾، أي: ومن أوقات الليل وآنائه فاسجد لربك وسبحه، أي: أكثر له من السجود والتسبيح، أي: أكثر من الصلاة له كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

وخص السجود والتسبيح بالذكر مع أن المراد الصلاة كلها؛ لأن السجود والتسبيح من أهم أركان وواجبات الصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣- من حديث جرير بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١- من حديث عمارة بن رؤيبة عن أبيه- رضي الله عنه.

﴿لَيْلًا طَوِيلًا﴾ هذا مقيد مبين في سورة المزمل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١- ٤]. وقوله: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: إن هؤلاء المكذبين ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، أي: يحبون الدنيا العاجلة الفانية، ويعملون لها.

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾، أي: ويتركون أمامهم، كما في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ [الآية: ٧٩]، أي: أمامهم.

﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، أي: يومًا سيصيرون إليه، ثقيلًا عظيمًا، شديد هوله مستطير شره عسير على الكافرين، غير يسير، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

لكنه خفيف يسير على المؤمنين، كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»(١).

قال الشاعر:

فيا لك من يوم على كل مبطل ... فظيع وأهوال القيامة تعضل
تكون به الأطواد كالعهن أو تكن ... كثيبًا مهيلًا أهْيلًا يتهلهل
به ملة الإسلام تقبل وحدها ... وما غيرها من أي دين فيبطل
به يسألون الناس ماذا عملتمُ ... وماذا أجبتم من دعا وهْو مرسل
حساب الذي ينقاد عرض مخفف ... ومن ليس منقادًا حساب مثقل(٢)

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه.

(٢) الأبيات من قصيدة طويلة بعنوان «القول الأسنى في نظم الأسماء الحسنى» للشيخ حسين بن علي بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب ص٤٤.

وفي هذه الآية: ذم لمن أحبوا الدنيا العاجلة الفانية فانشغلوا بها عن العمل للدار الباقية تقديمًا لداعي الحس على داعي العقل، والناس في هذا بين مقل ومستكثر فينبغي الحذر من ذلك.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾، أي: نحن أوجدناهم من العدم.

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾، أي: قوينا وأحكمنا خلقهم، وحسناه وسويناه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢].

قال ابن تيمية: «ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه وإتقانه، بما شد من أسرهم وهو ائتلاف الأعضاء والمفاصل والأوصال و ما بينها من الرباطات وشد بعضها ببعض، وحقيقته القوة، فلا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط، ومنه الإسار وهو الحبل الذي يشد به الأسير»(١).

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾، أي: إذا شئنا بدلنا أشباههم وصورهم، أو ذهبنا بهم وأتينا بقوم آخرين غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠، فاطر: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ ببعثهم يوم القيامة خلقًا جديدًا بأعيانهم وأمثالهم، أي: أن الذي خلقهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم بعد الموت وبعثهم.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾، أي: إن هذه السورة تذكرة وموعظة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا ومسلكًا

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

موصلًا إليه فتذكر واتعظ واتبع هدى الله الذي أنزله وصراطه المستقيم المؤدي إليه.

كما قال- عز وجل ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾[عبس: ١١، ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالغيب: «وما يشاءون» وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾.

والمعنى: أن مشيئة الخلق تابعة لمشيئة الله- عز وجل- ومشيئته نافذة فيهم، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، أي: فلا يستطيع أحد أن يهدي نفسه، ولا يجلب لها نفعًا أو يدفع عنها ضرًا إلا أن يشاء الله ذلك.

والمراد بالمشيئة الإرادة الكونية، فإنه لا يقع في الكون أيّ حركة أو سكون إلا بمشيئته عز وجل وإرادته الكونية.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾، أي: إن الله كان ذا العلم الواسع فيما خلق وقدر وشرع وفي غير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال موسى عليه السلام- لما سئل القرون الأولى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

﴿حَكِيمًا﴾، أي: ذا الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي،

والحكم الجزائي وذا الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ومن علمه عز وجل الواسع علمه بمن يستحق الهداية فييسر له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عنها؛ لما له في ذلك من الحكم التام والحكمة البالغة.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: يوفق من يشاء فيدخله في رحمته- الخاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فيدخلهم في رحمته بالإيمان ويسكنهم برحمته فسيح الجنان.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾: منصوب بإضمار فعل يفسره «أعد» ويقدر بـ«أوعد» ونحوه؛ لأن «أعد» لا يتعدى باللام.

والظالمين: جمع ظالم. والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

وهو أيضًا وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وأظلم الظلم الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

أي: والظالمين الذين اختاروا الكفر على الإيمان، والضلال على الهدى.

﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾، أي: هيأ وجهز لهم، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: عذابًا مؤلمًا موجعًا حسًا ومعنىً.

أي: أنه- عز وجل- لم يوفقهم للهداية، بل قدر عليهم الضلال والكفر، وأعد لهم عذاب النار. كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

فيهدي من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بعدله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله - عز وجل - على الرسول ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه وتشريفه بذلك وبخطابه عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

٢- إثبات علو الله - عز وجل - على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾؛ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٣- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل وكلامه غير مخلوق. والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- نزول القرآن الكريم منجمًا في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث.

٥- أمر الله- عز وجل- نبيه ﷺ بالصبر لحكمه الشرعي بتكليفه بالرسالة والقيام بأمره ونهيه، والصبر لحكمه القدري، وعلى أذى قومه وما يلاقيه من أذى في سبيل الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا تثبيت له ﷺ وتقويةٌ لقلبه.

ولأتباعه في الدعوة إلى الله أسوة به في هذا.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٧- نهي الله- عز وجل- لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين أهل الإثم والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾، وهو نهي له ﷺ وللمؤمنين.

٨- أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ بذكره بصلاة الفرائض والنوافل وأنواع الذكر في أول النهار وآخره وفي جميع الأوقات وبقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٩- ذم الذين انشغلوا بالدنيا العاجلة الفانية عن الاستعداد ليوم القيامة الثقيل وما فيه من الأهوال العظام والفضائح الجسام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

١٠- تذكير المكذبين والناس عامة بنعمة الله - تعالى - عليهم بخلقهم وتقويتهم؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾.

١١- إثبات قدرة الله - عز وجل - على تبديلهم بغيرهم أو إنشائهم خلقًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

لأن القادر على البداءة قادر على الإعادة من باب أولى وأحرى.

١٢- أن هذه السورة تذكير وموعظة فيها بيان طريق الحق، والأمر باتباعه، وبيان طريق الشر، والنهي عن سلوكه، وبيان ما أعده الله من الجزاء لأتباع كل من الطريقين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾.

وهكذا كل سور القرآن الكريم وآياته فيها الوعظ والتذكير بهذا.

١٣- أن الإنسان ليس مجبورًا على فعله بل له اختيار ومشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الخلق مجبرون على أفعالهم.

١٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩﴾.

١٥- إثبات المشيئة التامة النافذة لله - عز وجل-، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾.

وفي هذا رد على المعتزلة القدرية القائلين بأن الخلق يخلقون أفعالهم، وأنهم قد يشاؤون ما لا يشاؤه الله؛ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

١٦- إثبات العلم التام الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾.

١٧- إثبات الحكم التام النافذ لله عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات الحكمة البالغة له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

١٨- في اتصافه عز وجل بالعلم الواسع، والحكمة والحكم التامين اجتماع كمال إلى كمال وبلوغه عز وجل غاية الكمال.

١٩- الوعد للمؤمنين بإدخالهم رحمته وجنته، والوعيد للظالمين بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمُرْسَلَاتِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المرسلات»؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾.

وتسمى: «سورة والمرسلات عرفًا»، كما جاء في حديث ابن عباس عن أم الفضل رضي الله عنهما، وفي بعض روايات حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما: «أن أم الفضل- رضي الله عنها سمعته يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فقالت: يابني ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»(٢).

د- موضوعاتها:

١- أقسم الله عز وجل في هذه السورة بالمرسلات وما عطف عليها على أن البعث والحساب حق: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

٢- ذكر أهوال يوم القيامة وما فيه من التقريع والتهديد للمكذبين: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٣٠، وفي بدء الخلق ٣٣١٧، ومسلم في السلام ٢٢٣٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- القراءة في المغرب ٧٦٣، ومسلم في الصلاة- القراءة في الصبح ٤٦٢، وأحمد ٦/ ٣٣٨.

ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٣- وعد المتقين بما أعد لهم من الكرامة والنعيم الحسي والمعنوي: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، «والمرسلات»: مقسم به مجرور، وكذا ما عطف عليه وهي: العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات.

والمراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

فالمرسلات عرفًا هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿عُرْفًا﴾، أي: يتبع بعضها بعضًا، شيئًا فشيئًا.

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢].

ووصفت الرياح بكونها عاصفات؛ لأنها تهب وتعصف، يقال: عصفت الريح إذا هبت بتصويت.

وعَطْفُ العاصفات بفاء التعقيب على المرسلات يدل على أنهما نوع واحد.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾: هي الرياح تنشر السحاب في آفاق السماء- كما يشاء الله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]،

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقد قال بعض المفسرين: المراد بالمرسلات: الملائكة.

والأظهر أن المراد بها الرياح، ويؤيده عطف العاصفات والناشرات عليها.

وكذا قيل المراد بالناشرات: الملائكة تنشر كتب بني آدم، أو تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وغير ذلك.

وقيل: المراد بالناشرات الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها.

والأظهر والله أعلم أن المراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾.

المراد بالفارقات: الملائكة تنزل بأمر الله على الرسل، الذي به التفريق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿فَرْقًا﴾، أي: تفريقًا واضحًا، لا لبس فيه، يميز الحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام، كما قال عز وجل في وصف الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: بأمر الله الذي أنزله ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيل المراد بالفارقات: الرياح تفرق السحاب ههنا وههنا، لكن عطف: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ عليه بفاء التعقيب يضعفه بل يأباه.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾: الملائكة تلقي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام الذكر وهو الوحي الذي أوحاه الله إليهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ منصوبان على المفعول له، و «أو» عاطفة، أي: لأجل الإعذار والإنذار.

ومعنى ﴿عُذْرًا﴾، أي: إقامة للحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومعنى ﴿نُذْرًا﴾، أي: تخويفًا وتحذيرًا للخلق من عذاب الله، كما قال عز وجل: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

فالله عز وجل أرسل الرسل، وأنزل الكتب للإعذار وإقامة الحجة على الخلق، ولإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله عز وجل وتبشير من آمن منهم بما أعده الله للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه فأقسم الله- عز وجل- بهذه الخمس وهي: المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات على أن ما يوعدون من البعث والحساب والجزاء لواقع، أي: كائن لا محالة متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

أي: أقسم عز وجل بالرياح التي فيها حياة الأرض والنبات والأبدان وبالملائكة التي تنزل بأمر الله بالتفريق بين الحق والباطل وتلقي الذكر الذي به حياة القلوب على أن البعث حق.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أقسم الله عز وجل على أن البعث والقيامة حق ثم ذكر بعض أهوالها في هذه الآية وما بعدها.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، أي: ذُهب بها ومحي نورها وضوؤها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

والمعنى: فإذا النجوم ذهب ضوؤها وحصلت هذه الأهوال والعلامات المذكورة وقع ما يوعدون.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾، أي: وإذا السماء المحبوكة الخلق التي لا فطور فيها شقت وفطرت، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان:٢٥]، وقال

تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦].

هكذا تكون حال السماء من عظيم هول ذلك اليوم، وقد كانت محبوكة محفوظة لا فطور فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، أي: وإذا الجبال قلعت من أماكنها وألقيت واستوت مع الأرض، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، أي: ظاهرة لا جبال فيها.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾، أي: جعل لهم وقت مؤجل لجمعهم وحان ذلك الوقت كما قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ الاستفهام: للتعظيم والتفخيم والتهويل، أي: لأي يوم أجل جمعها، ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: ليوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الرسل وأممهم وبين الحق والباطل وبين العباد في حقوقهم، ويحاسب كلًا منهم منفصلًا منفردًا كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾: توكيد وتعظيم وتفخيم وتهويل لأمره، أي: وما أعلمك ما يوم الفصل هو يوم ثقيل عظيم عسير إلا على من يسره الله- تعالى- عليه.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة تهديد ووعيد وهلاك ويقال: إنه واد في جهنم.

عن معاوية بن حيدة عن أبيه- رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له»(١).

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: في ذلك اليوم يوم الفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل وما جاؤوا به من الحق، أي: ويل لهم من عذاب الله ذلك اليوم، ويا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم.

وقد ذكر عز وجل هذا الوعيد والتهديد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات في هذه السورة، بعدما أقسم على البعث والمعاد بالرياح والملائكة، وذكر بعض أهوال يوم القيامة وعظمها واستدل عليه بالخلق الأول ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وفي ذلك أبين دليل وأظهره على صحة ما أقسم عليه ولهذا كان المكذب به في غاية الجحود والعناد والكفر فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالرياح والملائكة على أن البعث والجزاء على الأعمال حق، ولله- عز وجل- أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/ ٥- ٦، ٧.

فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

٢- كثرة فوائد الرياح، وعظمها، وفضل الملائكة وعظم أعمالهم.

٣- إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٤- التحذير من عذاب الله- عز وجل، ومن القيامة وأهوالها الشديدة ومنها انطماس النجوم وانفراج السماء ونسف الجبال؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

٥- تحديد وقت لجمع الرسل وأممهم للفصل بينهم أجل ليوم الفصل العظيم الشديد يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾.

٦- الوعيد والتهديد للمكذبين في ذلك اليوم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

توعد الله المكذبين بالعذاب الأخروي يوم القيامة، ثم توعدهم بالعذاب الدنيوي بأن يوقع بهم ما أوقع بالمكذبين المجرمين قبلهم من الإهلاك في الدنيا.

قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام ومعناه: التقرير، أي: أما أهلكنا الأولين من المكذبين للرسل من الأمم الماضية بأنواع العقوبات في الدنيا.

كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ من أشباههم من المكذبين بعدهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مثل هذا الإهلاك نفعل بالمجرمين، أي: نعاقبهم من الأولين والآخرين.

فبين عز وجل أن سنته السابقة واللاحقة إهلاك المجرمين ليعتبر اللاحق بالسابق.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة بالنار.

وقد يحمل على الوعيد بالعذاب الدنيوي بالإهلاك والعذاب الأخروي بالنار.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أما أوجدناكم أيها الآدميون من ماء حقير ضعيف، وهو المني، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

وعن بسر بن جحاش القرشي أن النبي ﷺ قال: «يقول الله- عز وجل: أنى تعجزني ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه»(١).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾، أي: فجعلنا هذا الماء ﴿فِي قَرَارٍ﴾، أي: في مكان استقرار تام، وهو الرحم به يستقر وينمو.

﴿مَّكِينٍ﴾ متمكن في الرحم، حفيظ لما أودع فيه، في جو معتدل بعيد عن الحر والبرد، وعن المؤثرات.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: إلى وقت مقدر معلوم ومدة معينة تسعة أشهر أو أكثر أو أقل، والغالب تسعة أشهر، وقد يولد لعارض لستة أشهر ويعيش، وقد يولد لأكثر من ذلك. وقد رُويَ أن الضحاك بن مزاحم ولد وله سنتان بعدما خرجت أسنانه.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر والكسائي بتشديد الدال: «فقدَّرنا».

وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿فَقَدَرْنَا﴾.

أي: فقدرنا على ذلك الخلق، وعلى تقديره وغيره.

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾: امتداح من الله عز وجل- لنفسه- وهو أهل المدح والثناء والمجد سبحانه، أي: فنعم القادرون نحن على خلق ذلك، وعلى خلق غيره وتقديره، وعلى إعادة الخلق بعد فنائه.

وفي هذه الآيات من قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تذكير للخلق بأصل خلقهم وامتنان عليهم، وبيان قدرته عز وجل على إعادة خلقهم بعد فنائهم؛ ولهذا جاء بعده الوعيد بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أما جعلنا الأرض كفاتا، أي: كنًّا ووعاءً للخلق.

﴿أَحْيَآءً﴾، أي: حال حياتكم على ظهرها في الدور والقصور.

﴿وَأَمْوَٰتًا﴾، أي: بعد مماتكم في بطنها في القبور، فهم في حال حياتهم على ظهرها، وبعد مماتهم في بطنها.

فهي مسخرة لهم ومذللة حال حياتهم يسيرون عليها ويعمرونها ويسكنون فوقها ويزرعونها ويستخرجون من خيراتها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

وهي ستر لهم بعد موتهم تدفن وتوارى في باطنها أجسادهم عن السباع والوحوش، ولئلا تتأذى بها البلاد والعباد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾، أي: وجعلنا في الأرض جبالًا ثابتات عاليات كبيرة عظيمة الارتفاع، هي لها بمثابة الأوتاد لئلا تميد بأهلها وتضطرب، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾، أي: ماءً عذبًا زلالًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وقال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [فاطر: ١٢].

وفيما ذكر الله عز وجل من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾: امتنان على الخلق بتسخير الأرض لهم وجعلها وعاء لهم في حياتهم وبعد مماتهم، وترسيتها بالجبال، ليتمكنوا من العيش عليها، وفي إنزال المطر وسقيهم منه.

وفي ذلك تذكير بعظيم قدرته- عز وجل- وتذكير لهم بوجوب شكره ولهذا قال بعده: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: ويل ذلك اليوم للمكذبين لرسل الله وكتبه الجاحدين لنعمه المنكرين لقدرته.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للمجرمين المكذبين من المتأخرين بإهلاكهم كالمجرمين الأولين، وتقرير أن مصير الجميع الهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٢- تذكير الإنسان بأصل خلقه ونعمة الله عليه في ذلك، وأنه خلق من ضعف وحقارة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار بشرًا سويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾.

٣- عظم قدرة الله عز وجل، وعنايته بالإنسان وأطوار خلقه، وظهور أثر عنايته به وقدرته- عز وجل- في تقدير قراره في الرحم في بطن أمه إلى قدر معلوم.

٤- إثبات قدرة الله عز وجل، التامة على الخلق الأول، وعلى الخلق الثاني من باب أولى وأحرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

٥- تذكير الخلق بنعمه عز وجل- عليهم وبدلائل قدرته حيث جعل الأرض لهم وعاءً حال حياتهم على ظهرها، وفي بطنها بعد مماتهم، وأرساها بالجبال، وسقاهم ماءً فراتًا عذبًا زلالًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾.

٦- تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ذكر الله عز وجل فيما سبق من الآيات بعض علامات القيامة وتوعد المكذبين بالعذاب في ذلك اليوم ثم فصل ما توعدهم به من العذاب في هذه الآيات.

قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: يقال لهم، أي: للمكذبين بالبعث والجزاء على الأعمال والجنة والنار ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، أي: اذهبوا مسرعين إلى الذي كنتم به في الدنيا تكذبون، أي: انطلقوا إلى النار.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، أي: امضوا واذهبوا مسرعين إلى ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، وهو ظل لهب ودخان النار إذا ارتفع وصعد، فمن شدته وقوته ينشعب ويتمايز إلى ثلاث شعب، أي: ثلاث قطع من النار، وهو الذي قال الله فيه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤٣].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، أي: أن هذا الظل وهو ظل لهب النار والدخان ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يظل من الحر ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: ولا يدفع ولا يقي من لهب النار لمن هو فيه.

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ إنها، أي: النار، تقذف بشرر عظيم يتطاير من لهبها ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾، أي: كالبناء والقصور العظيمة.

وقيل المراد بالقصر: الغليظ العظيم من الخشب كأصول الخشب والنخل.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قرأ رويس عن يعقوب: «جُمالات» بضم الجيم وألف بعد اللام؛ على الجمع.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بكسر الجيم بغير ألف بعد اللام على الإفراد.

وقرأ الباقون: «جِمالاتٌ» بكسر الجيم وألف بعد اللام؛ على الجمع.

أي: كأنه الجمال السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، مما يدل على شدة ظلمة النار ولهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء.

وقال بعضهم المراد بقوله: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: حبال السفن.

ولما ذكر عظم النار وشدة أهوالها أتبع ذلك بالوعيد والتهديد فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، أي: لا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: ٨٥].

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، أي: ولا يؤذن لهم بالاعتذار، فيعتذرون؛ لأنه لا عذر لهم في الحقيقة، بل قد قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولو اعتذروا لم ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[غافر: ٥٢].

ولا ينافي هذا ما جاء في بعض الآيات أنهم يتكلمون، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٢- ٦٤].

إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك أن عرصات القيامة حالات ومواقف ففي حالات ومواقف لا ينطقون، وفي حالات ومواقف أخرى يتكلمون، وهكذا.

وبعد أن نفى نطقهم ذلك اليوم وعدم الإذن لهم ليعتذروا أكد الوعيد والتهديد لهم فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، أي: يوم الفصل بين العباد، ففريق في الجنة، وفريق في السعير، والفصل بينهم في المظالم بإنصاف المظلوم من الظالم، حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء كما جاء في الحديث(١) ومحاسبة كل منهم منفصلًا منفردًا

﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ الخطاب للمكذبين من هذه الأمة.

﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ المكذبين من الأمم السابقة، يجمعهم الله عز وجل يوم جمع الخلائق كلها في صعيد واحد.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ الكيد: هو الحيلة والمكر بخفية، أي: إن كان لكم حيلة وطريق للتخلص من قبضتي وعذابي فافعلوا، وأنى لهم ذلك.

كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣].

فقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ مجرد تحدٍ وتهديد لهم؛ ولهذا أكد التهديد بعده بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وإلا فهو- عز وجل- لا يكيده أحد بل يكيد الكائدين- كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه- عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٢٥٧- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- تبكيت المكذبين وتعذيبهم في النار حسيًّا ومعنويًّا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

٢- عظم عذاب النار وحر ظلها وشدة لهبها وكبر شررها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٣- تأكيد وعيد المكذبين وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٤- إلجام أفواه أهل النار فلا ينطقون وعدم الإذن لهم في الاعتذار فيعتذرون؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

٥- جمع المكذبين من هذه الأمة وممن قبلهم وتحديهم بأن يخلصوا أنفسهم من عذاب الله وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للمكذبين من ألوان العذاب، ثم ذكر ما أعده للمتقين من ألوان النعيم- على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه الي الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: في ظلال الجنة وعيونها، التي ظلها ظليل، وعيونها التسنيم والسلسبيل.

قال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وهذا بخلاف الذي أعد للمكذبين والذي وصفه الله بقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ وبقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

وبخلاف من قال الله فيهم: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ٤، ٥].

﴿وَفَوَٰكِهَ﴾، أي: وفواكه كثيرة مختلفة متنوعة.

﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: من الذي يشتهون، فما طلبوا وجدوا، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٠].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾، أي: يقال لهم تكريمًا لهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ والهنيء: اللذيذ

الطعم، محمود العاقبة، من غير منغص ولا مكدر، فليس فيه آفة من الآفات، ولا ينقطع ولا يزول.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم الصالح؛ لأن العمل سبب لدخول الجنة وليس بعوض عن دخول الجنة، وإنما دخولها برحمة أرحم الراحمين- كما قال ﷺ «لن يُدْخِل أحدَكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إنا كذلك، أي: كهذا الجزاء والتكريم العظيم نجزي الذين أحسنوا العمل، فجمعوا بين الإخلاص لله- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، وأحسنوا في عبادة الله- عز وجل، وأحسنوا إلى عباد الله.

وفي قوله- عز وجل لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تكريم لهم ونعيم معنوي يخالط شَغاف قلوبهم، لا يقل عماهم فيه من النعيم الحسي- نسأل الله- تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: تأكيد لوعيد المكذبين.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين وتهديد لهم ووعيد، أي: كلوا وتمتعوا مدة قليلة وهي بقية أعماركم في هذه الدنيا الفانية، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي:إنكم مرتكبون للجرائم من الكفر وأنواع الجرائم،أي: فليس

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

لكم إلا هذا المتاع القليل الحقير في الدنيا، ثم مصيركم إلى النار؛ ولهذا قال بعده ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، أي: إذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين صلوا مع المسلمين، وأدوا أعظم العبادات وأشرفها وهي الصلاة، أبوا وامتنعوا كفرًا وعنادًا واستكبارًا؛ ولهذا توعدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إذا لم يؤمنوا بالقرآن- كلام الله- عز وجل- فبأي كلام بعده يؤمنون. أي: أنهم لن يؤمنوا كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

رُوِيَ عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه قال: «إذا قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ فقرأ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل»(١).

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

٢- بيان ما أعده الله- عز وجل- للمتقين المحسنين من ألوان وأنواع النعيم الحسي من الظلال والعيون والفواكه والمآكل والمشارب، ومن النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة والترحيب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٢٥.

كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

٣- الترغيب بتقوى الله- عز وجل- والإحسان في عبادته وإلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

٤- توبيخ المجرمين وتهديدهم ووعيدهم، فهم وإن أكلوا ومتعوا قليلًا فمردهم إلى العذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

٥- امتناع المكذبين المجرمين من الصلاة والركوع والسجود لله- عز وجل وهذا من أعظم أسباب عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

٦-أن القرآن الكريم هو أفضل كتب الله- عز وجل- وأبلغها أثرًا في الدعوة إلى الإيمان، وأن من لم يؤمن بالقرآن فلا سبيل له إلى الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الملك ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ- فضلها: ٧
د- موضوعاتها: ٨
تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ...﴾ الآيات [١-٥] ١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ...﴾ الآيات [٦-١١] ٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ...﴾ الآيات [١٢-١٥] ٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ...﴾ الآيات [١٦-١٩] ٣٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ...﴾ الآيات [٢٠-٢٧] ٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ...﴾ الآيات [٢٨-٣٠] ٥٠
تفسير سورة القلم ٥٣
المقدمة ٥٥
أ- اسم السورة: ٥٥
ب- مكان نزولها: ٥٥
جـ- موضوعاتها: ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ...﴾ الآيات [١-٧] ٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ...﴾ الآيات [٩-١٦] ٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ...﴾ الآيات [١٧-٣٣] ٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ...﴾ الآيات [٣٤-٤١] ٩٢

تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ...﴾ الآيات [٤٢-٤٧] ٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ...﴾ الآيات [٤٨-٥٢] ١٠١
تفسير سورة الحاقة ١١١
المقدمة ١١٣
أ- اسم السورة: ١١٣
ب- مكان نزولها: ١١٣
جـ- موضوعاتها: ١١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢...﴾ الآيات [١-١٢] ١١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣...﴾ الآيات [١٣-١٨] ١٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ...﴾ الآيات [١٩-٣٧] ١٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨...﴾ الآيات [٣٨-٥٢] ١٣٣
تفسير سورة المعارج ١٤٣
المقدمة ١٤٥
أ- اسم السورة: ١٤٥
ب- مكان نزولها: ١٤٥
جـ- موضوعاتها: ١٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١...﴾ الآيات [١-١٨] ١٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩...﴾ الآيات [١٩-٣٥] ١٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦...﴾ الآيات [٣٦-٤٤] ١٦٦
تفسير سورة نوح ١٧٣
المقدمة ١٧٥
أ- اسم السورة: ١٧٥
ب- مكان نزولها: ١٧٥
جـ- موضوعاتها: ١٧٥

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ ...﴾ الآيات [١-٤] ١٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ ...﴾ الآيات [٥-٢٠]..... ١٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١ ...﴾ الآيات [٢١-٢٨]..... ١٨٩
تفسير سورة الجن..... ١٩٧
المقدمة..... ١٩٩
أ- اسم السورة:..... ١٩٩
ب- مكان نزولها:..... ١٩٩
جـ- موضوعاتها:..... ١٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ...﴾ الآيات [١-١٠]..... ٢٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ...﴾ الآيات [١١-١٧]..... ٢٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ۝١٨ ...﴾ الآيات [١٨-٢٤]. ٢١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ۝٢٥ ...﴾ الآيات [٢٥-٢٨]..... ٢٢٢
تفسير سورة المزمل..... ٢٢٧
المقدمة..... ٢٢٩
أ- اسم السورة:..... ٢٢٩
ب- مكان نزولها:..... ٢٢٩
جـ- موضوعاتها:..... ٢٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ ...﴾ الآيات [١-٩]..... ٢٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ ...﴾ الآيات [١٠-١٩] ٢٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ ...﴾ الآية [٢٠]..... ٢٤٧
تفسير سورة المدثر..... ٢٥٩
المقدمة..... ٢٦١

أ- اسم السورة: ٢٦١
ب- مكان نزولها: ٢٦١
جـ- موضوعاتها: ٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ...﴾ الآيات [١-١٠] ٢٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ ...﴾ الآيات [١١-٣٠] ٢٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ...﴾ الآيات [٣١-٣٧] ٢٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ ...﴾ الآيات [٣٨-٥٦] ٢٨٤
تفسير سورة القيامة ٢٩١
المقدمة ٢٩٣
أ- اسم السورة: ٢٩٣
ب- مكان نزولها: ٢٩٣
جـ- موضوعاتها: ٢٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ ...﴾ الآيات [١-١٥] ٢٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ ...﴾ الآيات [١٦-٢٥] ٣٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ ...﴾ الآيات [٢٦-٤٠] ٣١٠
تفسير سورة الإنسان ٣١٩
المقدمة ٣٢١
أ- اسم السورة: ٣٢١
ب- مكان نزولها: ٣٢١
جـ- فضلها: ٣٢١
د- موضوعاتها: ٣٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ...﴾ الآيات [١-٣] ٣٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ...﴾ الآيات [٤-٢٢] ٣٢٦

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾...﴾ الآيات [٢٣-٣١]..... ٣٤٦
تفسير سورة المرسلات..... ٣٥٥
المقدمة..... ٣٥٧
أ- اسم السورة:..... ٣٥٧
ب- مكان نزولها:..... ٣٥٧
جـ- فضلها:..... ٣٥٧
د- موضوعاتها:..... ٣٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-١٥]..... ٣٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾...﴾ الآيات [١٦-٢٨]..... ٣٦٥
تفسير قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾...﴾ الآيات ٢٩-٤٠]..... ٣٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾...﴾ الآيات [٤١-٥٠] ٣٧٣
فهرس الموضوعات..... ٣٧٧

* * *

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146

9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الرابع والعشرون

تفسير سورة النبأ إلى سورة الناس

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٢٤

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٦٣٠ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

البار كود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّبَأ

المقدمة

أ- اسم السورة:

هذه السورة أول أوساط المفصل. وسميت «سورة النبأ»؛ لافتتاحها بقوله تعالى في مطلعها: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾.

وتسمى: «سورة عم يتساءلون»، و«سورة عم»، كما تسمى: «سورة التساؤل».

و «سورة المعصرات».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- ذِكر تساؤل المشركين عن النبأ العظيم الذي جاءهم به ﷺ من بعثته ﷺ ونزول القرآن عليه وتقرير أن البعث والحساب حق، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

٢- ذكر مظاهر تمام قدرة الله تعالى ونعمته وقدرته على البعث: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

٣- تهديد الطاغين بجهنم وطول لبثهم فيها، وشدة عذابهم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾.

٤- إن الجزاء من جنس العمل: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾.

٥- بيان ما أعد الله للمتقين من المفاز والنعيم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾.

٦- تقرير عموم ربوبيته عز وجل، وسعة ملكه ورحمته، وقوة سلطانه وعظمته:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

٧- قيام جبريل والملائكة عليهم السلام بين يدي الله صفوفًا لا يتكلمون إلا بإذنه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

٨- تأكيد مجيء يوم القيامة، والتحذير والإنذار من عذاب قريب، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

أرسل الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ وأنزل عليه الكتاب بالحق للدعوة إلى عبادة الله عز وجل، وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال فكذبه المشركون إنكارًا لما جاء به واستبعادًا للبعث بعد الموت، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم في ذلك، وفي هذا نزل قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عن أي شيء يتساءل المشركون، أي: يسأل بعضهم بعضًا. وهذا استفهام أجاب عنه بقوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: هم يتساءلون عن النبأ العظيم. والنبأ: الخبر الهام.

والمراد به ما دعاهم إليه النبي ﷺ من الإقرار بنبوته، والتصديق بما جاء به من عند الله- عزوجل، والإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بين مصدق به ومكذب، ومؤمن به وكافر.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ «كلا» للردع والزجر، ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: تهديد ووعيد، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين للرسول ﷺ وبالقرآن والمعاد، وأنهم سيعلمون علم اليقين سوء عاقبة كفرهم وتكذيبهم حين ينزل بهم عذاب الله العاجل في الدنيا، أو الآجل في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا

يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

قال أبو العتاهية(١):

ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غدًا عند الإله من الملوم

سينقطع التروح عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الغموم

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ هذا وما بعده إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ استدلال على كمال قدرته عز وجل وعظم آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسموات والشمس والسحاب والنبات وغير ذلك الدال على كمال قدرته عز وجل على البعث، وعلى كل شيء، وتذكير للعباد بنعمه؛ ليشكروه عليها.

قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: قد جعلنا الأرض مهادًا.

و«جعل» هنا بمعنى «صير» تنصب مفعولين، الأول: «الأرض»، والثاني: «مهادًا».

و«الجعل» ينقسم إلى قسمين جعل شرعي، وجعل كوني، وهو المراد هنا.

ومعنى ﴿مِهَٰدًا﴾، أي: ممهدة مفروشة مبسوطة للخلائق مذللة لهم مستقرة ثابتة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣، الزخرف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، أي: وجعلنا الجبال أوتادًا ثبتنا بها الأرض، وأرسيناها، حتى لا تضطرب وتميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٣٩٨.

١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر: ١٩، ق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧].

وقد ذكر أهل العلم أن هذه الجبال التي نشاهدها ثلثاها في عمق الأرض وثلثها فقط فوق الأرض.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: أصنافًا ذكورًا وإناثًا، ليحصل التزاوج بين الذكر والأنثى، ويسكن كل منهما إلى الآخر ويأنس به ويستمتع، ويحصل بذلك التناسل وعمارة الكون.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: قاطعًا للتعب، تحصل به الراحة للجسم من عناء السعي في النهار في طلب المعاش، فإذا تعب الإنسان ثم نام استيقظ وقد زال عنه التعب ورجع إلى حيويته ونشاطه واستقبل يومه بجد كأنه ولد لتوِّه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣].

والنوم أخو الموت، وهو الموتة الصغرى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾، أي: ساترًا للكون ومغطيًا له بظلامه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، أي: يغشى الكون والخليقة بظلامه فيسكن فيه الناس.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، أي: وقتًا للمعيشة والسعي والتكسب والحركة والعمل،

وذلك بطلوع الشمس فيه وإشراقه وإضاءته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن دلائل كمال قدرة الله عز وجل وعظيم نعمه جعل الليل وقتًا للنوم، وجعل النهار وقتًا لطلب المعاش، كما قال تعالى مذكرًا بذلك ومخوفًا من زواله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾، أي: سبع سموات، كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿شِدَادًا﴾، أي: قويةً محبوكة محكمة رفيعة البناء واسعة الأرجاء، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وسمى سبحانه وتعالى خلق السموات بناءً، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤]؛ لأنها سقف الكون، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، أي: وجعلنا سراجًا منيرًا وهي الشمس.

﴿وَهَّاجًا﴾، أي: يتوهج ضوؤها فتعم الكون بمنافعها بدفئها وحرارتها وضوئها وغير ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟

فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ المعصرات: السحاب ينعصر منها المطر ويخرج من خلالها، ولا ينصب انصبابًا بقوة فيضر ما ينزل عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩].

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾، أي: منصبًا بكثرة وغزارة وتتابع، قال ﷺ: «أفضل الحج العج والثج»(١)، والثج: إراقة وصب دماء الهدي.

وعن حمنة بنت جحش رضي الله عنها في حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنعت لك الكرسف» يعني أن تحتشي بالقطن، قالت: يا رسول الله، هو أكثر من ذلك إنما أثج ثجًا(٢)، أي: صبًا متتابعًا كثيرًا.

ومع إنزاله عز وجل هذا الماء بكثرة وغزارة فهو مقدر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الزخرف: ١١].

ولهذا سمي ميكائيل بهذا الاسم لأنه يكيل القطر.

وكل ما في باطن الأرض من المياه هو من ماء المطر كما قال تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، أي: نحن الذين خزناه في الأرض، وقال تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الحج ٨٢٧، وابن ماجه في المناسك ٢٩٢٤ من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٨٧، والترمذي في أبواب الطهارة ١٢٨، وابن ماجه في الطهارة ٦٢٧، وأحمد ٦/ ٤٣٩.

فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نخرج بهذا الماء ﴿حَبًّا﴾، أي: أنواع الحبوب من البر والشعير والذرة وغيرها مما يأكله الناس والأنعام ويدخر، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَنَبَاتًا﴾، أي: خضرًا مما يأكله الناس والأنعام رطبًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: بساتين وحدائق ملتفة بأنواع الأشجار مختلفة الثمار في طعومها وروائحها وأشكالها وألوانها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٢٦- ٣١].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ولما جاء به من الوحي والإخبار بالبعث واختلافهم في ذلك وتساؤلهم عنه إنكارًا له واستبعادًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

٢- تعظيم أمر مبعثه ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل وتقرير أمر البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٣- الزجر والردع والوعيد والتهديد للمكذبين له ﷺ ولما جاء به من الوحي

والإخبار بالمعاد وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

٤- إثبات عظمة الله عز وجل، وقدرته الباهرة بذكر آياته في الكون، في الأرض والجبال والأنفس والليل والنهار والسماء والشمس والسحاب والنبات والاستدلال بذلك على قدرته عز وجل على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

٥- تقرير نعم الله عز وجل العظيمة على العباد بجعل الأرض ممهدة مبسوطة لهم وترسيتها بالجبال، وجعل الناس وسائر الحيوانات أزواجًا؛ ليأنس بعضهم ببعض، وجعل النوم راحة للأبدان، والليل وقتًا للسكون والراحة، والنهار وقتًا للمعاش، وخلق السموات السبع الشداد، وإنارة الكون بالشمس المتوهجة، وإنزال المطر من السحاب، وإخراج الحب والنبات وأنواع الجنات، إلى غير ذلك من النعم العظيمة، وكل واحدة من هذه النعم تستوجب الوقوف عندها والتأمل فيها وشكرها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

زجر الله عز وجل في الآيات السابقة المكذبين بالبعث وتوعدهم وهددهم، وبين لهم بعض نعمه عليهم وعلى سائر الخلق ودلائل قدرته على بعثهم، ثم أتبع ذلك بتأكيد مجيء هذا اليوم الذي فيه يبعثون ويحاسبون، وتفصيل بعض أحواله وأهواله.

قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم الفصل: يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأن فيه الفصل بين العباد، بين الرسل وأممهم، وبين الناس فيما بينهم، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإعطاء كل ذي حق حقه حتى إنه ليقتص في ذلك اليوم للشاة الجلحاء من الشاة القرناء(١).

وأخيرًا يفصل فيه بين أهل السعادة وأهل الشقاء، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾، أي: له وقت محدد لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨، ص: ٨٠، ٨١].

وفي هذا كله تأكيد مجيئه وأنه آت لا محالة بوقته الذي حدده الله له وفي هذا رد على منكري البعث والمعاد مطلقًا، وعلى من دعا منهم بالعذاب واستعجله، كما قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، أي: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور وهو «القرن» بأمر الله عز وجل النفخة الثانية، لقيام الناس من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء.

وهما نفختان الأولى نفخة الفزع والصعق والموت. والثانية: نفخة البعث والقيام للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن «القرن»، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينظر متى يؤمر»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين: أربعون»، قالوا: أربعون يومًا؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهرًا؟، قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟، قال: «أبيت»، قال: «ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقلُ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»(٢).

وقوله: ﴿فَتَأْتُونَ﴾، أي: فتحيون، فتأتون لموقف القيامة والحساب والعرض.

﴿أَفْوَاجًا﴾: جمع فوج، والفوج: الجماعة من الناس، أي: فتأتون جماعات جماعات كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة- ما جاء في شأن الصور ٢٤٣١ وقال: «حديث حسن». وأخرجه أحمد ٣/ ٧، ٤/ ٣٧٤ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «تفسير سورة عم يتساءلون» ٤٨١٤، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٥، وأخرجه مختصرًا أبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وَفُتِحَتِ﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الباقون: «فتِّحت»، أي: شققت السماء وفطرت، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾، أي: طرقًا ومسالك لنزول الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾، أي: وسيرت الجبال العظيمة العالية بعد أن كانت راسية ثابتة لا تتحرك، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩، القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ السراب: ما يخيل للناظر أنه ماء، وليس بشيء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

والمعنى: أن الجبال تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل: ١٤].

فتسيير الجبال وكونها في الخفة كالعهن المنفوش وفي السرعة كمر السحاب ينتهي بذهابها واضمحلالها، وقد جمع هذين المعنيين، وهما التسيير وذهابها بالكلية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

فانتهى تسييرها إلى اضمحلالها وذهابها بالكلية وكونها قاعًا صفصفا لا ترى فيها

عوجًا ولا أمتا، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: ظاهرة لا يحجبها شيء.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ «جهنم»: اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها، ومعنى ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، أي: مرصدة معدة مهيأة.

﴿للطاغين﴾، أي: للمتجاوزين حدود الله، بترك ما أمر الله به وارتكاب ما نهى الله عنه، المتجاوزين الإيمان إلى الكفر، والعبادة التي خلقوا من أجلها إلى الشرك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]

﴿مآبا﴾، أي: مرجعًا ومصيرًا ومأوى ومنقلبًا ومنزلًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ [ص: ٥٥، ٥٦].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ قرأ حمزة: «لبثين» بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ بالألف، أي: مقيمين فيها.

﴿أحقابًا﴾: جمع «حِقَب» والحِقَبُ: جمع «حِقْبَة» والحقبة: الدهر، والمدة الطويلة، وقيل: ثمانون سنة.

والمعنى: مقيمين في جهنم دهورًا ومددًا طويلة لا تنتهي ولا تنقطع؛ لأن المراد بالطاغين: الكفارُ المكذبون. والصحيح من أقوال أهل العلم وهو ما دل عليه القرآن الكريم في أكثر من آية أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب أهلها.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾، أي: لا يجدون في جهنم بردًا تبرد به ظواهر أبدانهم.

﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يذهب ظمأهم، وتبرد به أجوافهم

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، كقوله في سورة ص: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الآية: ٥٧].

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿وَغَسَّاقًا﴾ بتشديد السين، وقرأ الباقون

بتخفيفها: «وَغَسَاقا».

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن يذوقون حميمًا وغساقًا.

والحميم: هو الماء الحار الذي بلغ الغاية في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٠، يونس: ٤].

والغساق: هو صديد أهل النار وعرقهم، في غاية النتن والكراهة، أو سائل من الزمهرير في جهنم في غاية البرودة والنتن والكراهة، قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الحاقة: ٣٦].

﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾، أي: هذا العذاب الذي صاروا إليه عقوبة لهم وفق أعمالهم السيئة، لأن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾.

لما ذكر ما أعد للطاغين المكذبين من عذاب جهنم وما لهم فيها من أنواع العذاب وفق أعمالهم السيئة ذكر الأعمال التي هي سبب تعذيبهم في هتين الآيتين ليتبين وجه الموافقة بين عذابهم وأعمالهم.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤملون ولا يعتقدون أن هناك معادًا وحسابًا، ولا يخافون المجازاة على كفرهم وطغيانهم؛ لأنهم يكذبون بالبعث بعد الموت وينكرونه، وهذا انحراف في العقيدة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٠].

ولهذا قال عز وجل للمؤمنين: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: وكذبوا بآياتنا الشرعية التي أنزلناها على رسلنا وأعظمها القرآن الكريم المنزل على أفضل الرسل محمد ﷺ وهذا انحراف في القول والعمل.

﴿كِذَّابًا﴾ مصدر من غير الفعل، أي: تكذيبًا عظيمًا.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ من أعمالهم وأقوالهم وغيرها.

﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾، أي: ضبطناه وعددناه عدًا دقيقًا ﴿كِتَٰبًا﴾، أي: كتابة، فعلمنا أعمالهم وأقوالهم كلها وغيرها وضبطناها عددًا وكتابة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

﴿فَذُوقُواْ﴾ وجّه الخطاب إليهم بعد أن كان بضمير الغيبة؛ لتأكيد توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم وإهانتهم، ومواجهتهم بذلك، أي: فذوقوا عذاب جهنم وحميمها وغساقها.

﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾، أي: فلن نزيدكم إلا عذابًا فوق عذابكم، كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، فهم في زيادة من العذاب مع أنهم يطمعون بالتخفيف كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩].

وقوله: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وما فيه من توبيخ وتقريع وتبكيت عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي.

ولهذا رُويَ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: «لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبدًا»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة وأن له وقتًا محددًا لا يتقدم عنه ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾.

٢- الفصل بين الخلائق يوم القيامة.

٣- إثبات النفخ في الصور؛ لحياة الخلق وبعثهم وقدومهم على الله عز وجل للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾.

٤- شدة أهوال يوم القيامة من النفخ في الصور، وفتح السماء وانشقاقها وانفطارها، وتسيير الجبال واضمحلالها وأعظم ذلك وأشده جهنم المرصدة المعدة الآن مآبًا للطاغين لا خروج لهم منها لا يذوقون فيها إلا الحميم والغساق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

٥- التحذير من الكفر والطغيان، والوعيد الشديد والتهديد الأكيد بجهنم والخلود فيها وشدة عذابها للطاغين المكذبين بالآيات والمعاد، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ الآيات.

٦- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ولا يظلم ربك أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٦.

٧- إحصاء الله عز وجل لجميع أعمال العباد وكتابتها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾.

٨- الجمع للمكذبين بين العذاب المعنوي للقلوب، والعذاب الحسي للأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل ما أعده للطاغين المكذبين من العذاب المعنوي والحسي أتبع ذلك بذكر ما أعده للمتقين من النعيم المعنوي والحسي؛ لأن القرآن الكريم مثاني، فيه الجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ ليجمع الإنسان في سيره إلى الله عز وجل في هذه الحياة بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ «إن»: حرف توكيد ونصب، و«المتقين» الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

﴿مَفَازًا﴾، أي: فوزًا، ونُكِّر: للتعظيم، أي: مفازًا عظيمًا.

والمفاز والفوز: النجاح والفلاح والسلامة من المرهوب والظفر بالمطلوب، النجاة من النار والفوز بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١].

وقال تعالى عن الكافرين: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أي: فلا تحسبنهم بمنجاة من العذاب. ففي المفاز والفوز نجاة من

العذاب، وحصول الثواب، كما قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾.

هذا تفسير لقوله: ﴿مَفَازًا﴾ وتفصيل لما أعد الله للمتقين من أنواع النعيم.

﴿حَدَآئِقَ﴾، أي: بساتين أشجارها عظيمة وكثيرة متنوعة من النخيل والرمان وغيرها كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨].

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ جمع عنب، وخص الأعناب بالذكر؛ لمزيتها وفضل ثمرها من بين الأشجار.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾: جمع كاعب، أي: ونساء كواعب من الحور العين، أي: نواهد، ثديهن كالرمان مستديرة، بقدر قبضة اليد، ولم يتدلين إلى أسفل.

﴿أَتْرَابًا﴾، أي: على سن واحدة سن ثلاث وثلاثين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٧].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، أي: وكأس خمر مملوءة صافية متتابعة.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾، أي: لا يسمعون في الجنة ﴿لَغْوًا﴾، أي: كلامًا لاغيًا باطلًا، لا فائدة فيه.

﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الذال، وقرأ الباقون بتشديدها.

أي: لا يسمعون فيها تكذيبًا وإثمًا، فلا يَكْذبون، ولا يُكَذِّب بعضُهم بعضًا ولا يُكْذَب عليهم.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢].

ولهذا سماها الله عز وجل دار السلام، فقال تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أي: دار السلامة من الآفات ومن كل عيب ونقص.

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ إلى كأس الخمر، فيكون المعنى: لا يسمعون بسببها ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ كما في قوله تعالى في سورة الطور ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٦]، أي: لا تغتال العقول

فتذهبها.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا المفاز الذي جعله الله للمتقين وما فيه من ألوان النعيم مجازاة وإثابة لهم على تقواهم.

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، أي: عطاء كثيرًا وافيًا كافيًا محاسبة لهم على أعمالهم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء: ٦].

وأيضًا: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾، أي: محسوبًا مقدرًا، كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨].

وينبغي أن يُلحظ الفرق بين قوله في مجازاة الطاغين ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ وبين قوله هنا ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ ففي مجازاة الطاغين يكون الجزاء موافقًا لأعمالهم عدلًا منه عز وجل، وفي مجازاة المتقين يكون الجزاء مضاعفًا لهم، وأوفى وأفضل من أعمالهم فضلًا منه عز وجل.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم ويعقوب: ﴿رَّبِّ﴾ بخفض الباء، وقرأ الباقون برفعها.

أي: خالق ومالك ومدبر السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم بخفض النون، وقرأ الباقون برفعها، وهو صفة لرب على القراءتين فيهما، أي: الذي اسمه الرحمن، وصفته الرحمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

و«الرحمن» على وزن «فعلان» يدل على اتصافه عز وجل بالرحمة الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة خاصة بأوليائه المؤمنين ورحمة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ناطقهم وبهيمهم، بها شمل سبحانه جميع خلقه بنعمه وإحسانه وأمدهم بفضله، كما قال عز وجل: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، أي: لعظمته وجلاله لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الفوائد والأحكام:

١- أن القرآن الكريم مثاني يجمع فيه بين الترغيب والترهيب؛ لذكره عز وجل ما أعد للمتقين بعد ذكر ما أعد للمكذبين.

٢- وعد الله عز وجل المتقين بالفوز العظيم، بالنجاة من النار، ودخول الجنة والتمتع بما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾.

٣- فضيلة التقوى والترغيب فيها.

٤- الجمع لأهل الجنة بين حصول النعيم من البساتين والحدائق والأعناب والكواعب والخمر وغير ذلك، وبين السلامة من الأذى والمنغصات والمكدرات من اللغو والكذب ونحو ذلك.

٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ الآيات فقدَّم المفاز وهو النجاة على ذكر أنواع النعيم.

٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ، وإثبات ربوبيته عز وجل الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٧- عظم جزاء المتقين عند ربهم وأن الله عز وجل هو الذي تفضل به عليهم بسبب تقواهم لقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

٨- أن الأعمال إنما هي سبب للفوز بالجنة والنجاة من النار وليست عوضًا عن ذلك.

٩- أن كل عطاء فهو من الله عز وجل، وهو مقدر محسوب لقوله تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١١- إثبات اسم الله عز وجل: «الرحمن» وما يدل عليه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

١٢- إثبات العظمة والجلال لله عز وجل، وأنه لا يقدر أحد على مخاطبته إلا بإذنه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

١٣- في تقديم قوله: «الرحمن» على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ما يشير إلى أن رحمته عز وجل سبقت غضبه، كما جاء في الحديث[1]، وأنه عز وجل إلى العفو أقرب منه إلى الانتقام.

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الروح: هو جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

وخص جبريل بالذكر من بين الملائكة؛ لقربه من الله وعظم منزلته وشرفه؛ لأنه الموكل بالوحي، وعطف الملائكة عليه من باب عطف العام على الخاص، كما عطفه عليهم في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] من باب عطف الخاص على العام.

ويحتمل أن المراد بالروح بنو آدم؛ لأن الله أوجد فيهم الأرواح.

والأول أظهر، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، فالملائكة وبنو آدم كلهم سيقومون صفًا بين يديه عز وجل لا يتكلمون.

﴿صَفًّا﴾، أي: صفًا واحدًا، أو مصطفين صفوفًا.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، أي: لا أحد يتكلم منهم؛ تعظيمًا لله عز وجل، وهيبة منه، كقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ «إلا»: للاستثناء، أي: إلا من أذن له الرحمن سبحانه بالكلام فإنه يتكلم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: وقال قولًا صوابًا، أي: حقًا. قال ﷺ: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم»(١).

وقال بعض المفسرين ومن ذلك قول: لا إله إ لا الله، ومن ذلك الشفاعة لمن أذن الله له أن يشفع حسب ما أذن فيه تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٦، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: المحقق الوقوع، الكائن لا محالة، اليوم الحقيقي الذي يظهر فيه الحق تمام الظهور، ويقوم فيه العدل، والذي يستحق ويجب أن يستعد له تمام الاستعداد.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، أي: فمن شاء جعل إلى ربه مرجعًا ومنقلبًا وطريقًا يؤدي به إلى مرضاة الله عز وجل، وذلك بسلوك طريق الحق والهدى، المؤدي إلى الله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

وقال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وفي الآية إثبات المشيئة للعبد؛ لكنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

والمراد بالمآب هنا: المآب الخاص، مآب أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين.

وإلا فإن الناس كلهم آيبون وراجعون إلى الله عز وجل ومصيرهم إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٤٣].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، أي: حذرناكم وخوفناكم بما أنزلنا من الكتب وعلى ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وهو عذاب يوم القيامة؛ لأنه آت وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان في هذه الحياة قصير، ومن مات قامت قيامته، ولأن عمر الدنيا كلها لا يساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يوم نشر الدواوين وتطاير الصحف، فآخذ كتابه

بيمينه وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، فيرى كل امرئ الذي قدمته يداه، أي: جميع أعماله من خير أو شر، مما بطشته يداه، أو مشت إليه رجلاه أو تكلم به لسانه، أو انطوى عليه جنانه، وكل ما عملته جوارحه الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فقدم أخي المسلم خيرًا تجده غدًا، واحذر من ضد ذلك قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(١).

وهذا ما عناه لبيد بقوله(٢):

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبني وآخر رافع

وقال الآخر:

فلم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا(٣)

وقال الآخر:

قدم لنفسك توبة مرجوّة ... قبل المات وقبل حبس الألسن(٤)

بادر بها غَلَقَ النفوس فإنها ... ذخر وغنم للمنيب المحسن

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٥٦.

(٣) هذان البيتان لابن هاني انظر «ديوانه» ص١٤٠.

(٤) البيت لمحمود الوراق. انظر: «ديوانه» ص١٩٣.

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[١]

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح[٢]

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار[٣]

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، أي: يتمنى الكافر ويود حين ينظر إلى أعماله السيئة، ويرى عذاب الله تعالى وأهوال ذلك اليوم أنه كان في الدنيا ترابًا لم يخلق ولم يوجد، أو أنه لم يبعث.

وذلك حين يقضى بين البهائم، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء[٤]، ثم يقال لها: كوني ترابًا. فحينئذ يود الكافر أن لو كان ترابًا مثلها، ولكن هيهات ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى وهيبته وجلاله، وقيام الروح والملائكة بين يديه صفًا لا يتكلمون؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾.

٢- فضل جبريل عليه السلام على سائر الملائكة.

٣- خضوع جميع الخلائق لله عز وجل يوم القيامة، وقيامهم بين يديه صفوفًا؛ لقوله تعالى: ﴿...يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾.

٤- عدم قدرة أحد في ذلك اليوم على الكلام- هيبة من الله عز وجل وتعظيمًا له

---

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٣) انظر: «الأمثال المولدة» ص٣٢٤، «التمثيل والمحاضرة» ص٣٤٥، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤، «زهر الأكم» ٣/ ٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وإجلالا- إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

٥- إثبات وجود الملائكة عليهم السلام.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٧- أن يوم القيامة محقق الوقوع، كائن لا محالة، به يظهر الحق تمام الظهور، وهو اليوم الذي يستحق بل يجب أن يستعد له تمام الاستعداد؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

٨- إثبات المشيئة للعبد، وأنه ليس مجبورًا على فعله كما تقوله المبتدعة الجبرية لقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لمن تاب وأناب إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

١٠- الترغيب في سلوك الطريق المؤدي إلى مرضاة الله عز وجل.

١١- أن المرجع والمآب إلى الله عز وجل.

١٢- إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم وإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

١٣- قرب القيامة وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

١٤- رؤية الإنسان يوم القيامة لكل ما قدم من خير أو شر، قليلًا كان أو كثيرًا ومحاسبته ومجازاته على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

١٥- تمني الكافر في ذلك اليوم عندما يرى العذاب والأهوال كونه ترابًا؛ لقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾؛ ليسلم من ذلك وهيهات أن يحصل له ذلك.

١٦- الترغيب في عمل الخير، والتحذير من عمل الشر.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّازِعَاتِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة النازعات» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾.

وتسمى: «سورة الساهرة»، و «سورة الطامة».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- إثبات وتأكيد البعث والقيامة، وشدة أهوالها: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

٢- ذكر حديث موسى إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى، وأرسله إلى فرعون، وتكذيبه له وإهلاكه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾.

٣- ذكر دلائل قدرته على البعث ومظاهر نعمته: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾.

٤- تذكّر الإنسان سعيه في ذلك اليوم العظيم، وإبراز النار يراها الناس في ذلك الموقف العظيم، ومأوى من طغى وآثر الحياة الدنيا إلى الجحيم، ومأوى من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى إلى جنات النعيم: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾.

٥- ذكر سؤال الناس له ﷺ عن الساعة وبيان أن علمها إلى الله تعالى، وما مهمته

ﷺ إلا إنذار من يخشاها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ الواو حرف قسم وجر، و«النازعات» وما عطف عليها مقسم به، أي: أُقسم بالنازعات.

﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾: الملائكة تنزع أرواح بني آدم من أجسادهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿غَرْقًا﴾، أي: نزعًا بشدة وعنف وهذا بالنسبة لأرواح الكفار؛ لأنها إذا دعتها الملائكة للخروج تفرقت في الجسد فتُغرق الملائكة في نزعها بشدة وعنف وتُنتزع من الجسد كما يُنتزع السَّفُّود [(١)] من الصوف المبلول، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول»[(٢)].

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ الواو: عاطفة، والناشطات: الملائكة، تنشط أرواح المؤمنين، أي: تسلها برفق ولين ويسر وسهولة وسرعة وخفة، فتخرج روح المؤمن تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه.

وسميت الملائكة الناشطات أخذًا من الأنشوطة، وهي العقدة والربط الذي ينفك

---

(١) السَّفُّود: بالتشديد حديدة ذات شعب معقفة معروفة يشوى بها اللحم.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦.

بسرعة وسهولة، بمجرد سل أحد طرفيه.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾: الملائكة تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء، والأفلاك في السماء، كما قال تعالى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وتسبح بأمر الله عز وجل، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ الفاء: عاطفة، أي: الملائكة تسبق وتسرع إلى فعل ما أمرت به، لا تبطئ عنه، ولا تتأخر، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، أي: الملائكة تدبر ما أمرها الله بتدبيره من أمور الخلق، فجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وميكائيل موكل بالمطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأرواح، ورضوان موكل بالجنة، ومالك موكل بالنار، ومنهم حملة العرش، وخزنة النار والموكلون بحفظ العباد وكتابة أعمالهم وغير ذلك.

فأقسم عز وجل بالملائكة في أوصافها الخمسة، وهي نزعها لأرواح الكفار، ونشطها لأرواح المؤمنين، وكونها تسبح بالهواء وتسرع بأمر الله وتسبق إلى فعل ما أمرت به، وتدبر ما أمرها الله بتدبيره، وفي هذا تعظيم لها ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

وحذف جواب القسم لتعظيمه وتفخيمه وتهويله. والتقدير: والله لتبعثن. وعلى هذا يدل قوله: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وما بعده.

قال ابن القيم (١): «وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ﷺ، وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمقسم به دون أن يراد مقسمًا عليه بعينه، وهذا يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظًا...»

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ «يوم»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: لتبعثن ونحو ذلك والراجفة: النفخة الأولى في الصور نفخة الصعق؛ ليموت كل مخلوق إلا من شاء الله.

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، أي: تتبعها النفخة الثانية في الصور المرادفة لها؛ لبعث الناس

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٢٠.

وقيامهم من قبورهم، وبينهما أربعون عامًا، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»(١).

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ وهي قلوب الكفار والعصاة. ومعنى ﴿واجفة﴾ أي: خائفة قلقة مضطربة منزعجة.

﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾، أي: أبصارها ذليلة حقيرة لما تشاهده من الأهوال، ولما تترقبه من العذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وأضاف الأبصار إلى القلوب؛ لأن القلوب هي لب الأبدان عليها مدار الصلاح والفساد، وعليها مدار النعيم والعذاب. وقيل أضيفت إليها للملابسة.

﴿يَقُولُونَ﴾، أي: يقول المشركون المنكرون للبعث والمعاد والحساب.

﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والاستبعاد والتعجب والاستغراب، أي: أئنا لمعادون ومرجوعون، أي: لا يمكن أن نرد.

﴿فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾، أي: في الحياة بعد الموت، أي: أئنا لمبعوثون بعد الموت.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ الاستفهام كسابقه، أي: أئذا متنا وكنا عظامًا.

﴿نَّخِرَةً﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ناخرة» بالألف.

وقرأ الباقون: ﴿نَّخِرَةً﴾ بغير ألف.

والمعنى على القراءتين، أي: بالية متفتتة، نخرتها الرمال والرياح، أي: فكيف نرد إلى الحياة بعد ذلك كقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء:

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٧، وأحمد ٥/ ١٣٦ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

٤٩، ٩٨]، وقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥- ٣٧]، وقولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦].

وقال بعض المفسرين: المراد بالحافرة النار، وهذا لا ينافي القول الأول، لأنهم يردون إلى النار بعد إحيائهم وبعثهم.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ﴾، أي: قال المشركون المكذبون المنكرون للبعث تلك، أي: الرجعة للحياة بعد الموت إن كانت حقًا ﴿إِذًا﴾، أي: حينها ﴿كَرَّةٌ﴾، أي:رجعة. ﴿خَاسِرَةٌ﴾، أي: سنخسر فيها غاية الخسران، وهم بهذه الشهادة على أنفسهم بالخسران يؤكدون تكذيبهم وإنكارهم للمعاد، وكأنهم يقولون تماديًا منهم بالإنكار والاستبعاد إنْ بُعِثْنا بعد الموت فنحن نقبل أن نخسر الصفقة ذلك اليوم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي: فإنما هي أمر من الله عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة هي نفخة البعث، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحاقة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ الساهرة: وجه الأرض وظاهرها، أي: فإذا هم قيام في المحشر على ظهر الأرض، بعد أن كانوا في باطنها، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الصافات: ١٩].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالملائكة بأوصافهم وأعمالهم المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لأن؛ إقسامه بها يدل على عظمته هو؛ لأنه يقسم بما خلق.

٢- إثبات وجود الملائكة.

٣- فضل الملائكة وعظم منزلتهم عند الله عز وجل وعظم أعمالهم وما أعطاهم الله عز وجل من القوة والخفة والسرعة والقدرة على تدبير ما يأمرهم الله عز وجل به.

٤- إثبات البعث والمعاد؛ لأن الله عز وجل أقسم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾.

٥- إثبات النفختين، وتتابعهما؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾.

وهما من أعظم أهوال القيامة، النفخة الأولى؛ ليموت من في السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا من شاء الله، والنفخة الثانية؛ لإحياء الخلق وبعثهم وقيامهم بين يدي الله عز وجل.

٦- انزعاج قلوب الكفار العصاة يوم القيامة، وشدة خوفهم وقلقهم واضطرابهم وذل أبصارهم وحقارتها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾.

٧- إنكار المشركين واستبعادهم للبعث والمعاد بعد الموت وللنار وعذابها؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾.

٨- اعتراف المشركين والمكذبين وإقرارهم بالصفقة الخاسرة يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾.

٩- عظم قدرة الله تعالى، وأن بعث الخلائق وإعادتهم أمر يسير على الله عز وجل، فبأمره عز وجل مرة واحدة لإسرافيل لينفخ في الصور نفخة واحدة فإذا الخلائق قيام بين يديه عز وجل ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على إثبات القيامة ردًا على المكذبين بالبعث المنكرين للمعاد، وذكر ما ينتظرهم فيها من الأهوال والعقوبات الآجلة في ذلك اليوم.

ثم أتبع ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وتكذيبه له وعصيانه وسعيه ضد الحق، بل وادعائه الربوبية، وما حل به من العقوبة العاجلة والآجلة؛ تسلية للنبي ﷺ، وتخويفًا لقومه، وليتعظ بذلك من يخشى الله.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يتأتى خطابه.

أي: هل جاءك خبر موسى، أو هل سمعت بخبره.

وفي هذا الخطاب تشويق للمخاطب والسامع للتأمل في هذه القصة.

وموسى هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل، أنزلت عليه التوراة أفضل الكتب المنزلة بعد القرآن الكريم.

وقد ذكر الله عز وجل حديث موسى وقصته في القرآن الكريم أكثر من غيره وأشمل وأوسع؛ لأنه نبي اليهود وهم كثيرون في المدينة وحولها، وهم من أشد الأمم تكذيبًا وعنادًا.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: حين ناداه ربه عز وجل نداءً سمعه موسى عليه السلام، وكلمه سبحانه تكليمًا بلا واسطة، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿بِٱلْوَادِ﴾ الوادي: مجرى السيل بين الجبال والتلال والآكام.

﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: المطهر المعظم.

﴿طُوًى﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم هنا وفي سورة طه: ﴿طُوًى﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين في الموضعين، وهو: اسم للوادي الذي نادى الله فيه نبيه

موسى عليه السلام وأوحى إليه فيه.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أرسله إلى فرعون بقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، أي: امض إلى فرعون، وهو ملك مصر آنذاك، ثم صار فرعون علمًا على كل من ملك مصر كافرًا.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: إنه تجاوز الحد في الكفر والتجبر والتكبر والتمرد والعتو حتى وصل به الأمر إلى أن ادعى الربوبية والألوهية، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير ويعقوب بتشديد الزاي: «تَزَّكى»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿تَزَكَّىٰ﴾.

قوله: ﴿فَقُلْ﴾، أي: فقل له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ استفهام للتشويق وتعبير لطيف لاستمالته إلى الحق، وليس هناك ألطف من هذا وألين منه، فلم يقل له: لم لا تزكى؟ ولم يأمره بذلك، فيقول: تزك، بل تلطف معه في التعبير، وألان له في القول، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

ومعنى قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: هل لك إلى أن تتطهر من الشرك والكفر بالتوحيد والإيمان.

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾، أي: أدلك وأرشدك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى خالقك ومالكك ومدبرك والمنعم عليك بسائر النعم فتقر له بالربوبية والألوهية وحده.

﴿فَتَخْشَىٰ﴾، أي: فتخاف الله عز وجل وعقابه العاجل والآجل.

فأخرج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر تلطفًا في الخطاب وتليينًا له، وعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق، وهو التزكي الذي معناه النماء والطهارة والبركة والزيادة، وأسند التزكي وأضافه إلى المخاطب بينما أضاف الهداية والدلالة إلى نفسه فكأنه يقول: أنا أدلك وأسير بين يديك، وأنت تزكي نفسك وتخشى ربك الذي خلقك، ورباك بنعمه العظيمة. وفي هذا استعطاف له وتذكير له بنعم الله عليه(١).

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٢١، ١٢٣.

وينبغي للدعاة إلى الله- عز وجل- والمربين والمصلحين والوالدين في تربية أولادهم وغيرهم استلهام الدروس من هذه التوجيهات الإلهية العظيمة لتتحقق بإذن الله- عز وجل- الفائدة المرجوة. فقد قال الله تعالى لسيد الرسل وأفضل الخلق: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، أي: فأرى موسى عليه السلام فرعون وأظهر له العلامة الكبرى، والحجة العظمى، والدليل الواضح على صدق ما جاء به من عند الله عز وجل، ومن ذلك أن يلقي عصاه في الأرض فتنقلب حية تسعى، ثم يأخذها فتعود إلى حالتها الأولى، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء آية من آيات الله من غير عيب من برص أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ١٧- ٢٣].

وقد يراد بالآية الكبرى جنس الآيات التي جاء بها موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦].

وإنما كانت هتان الآيتان من أعظم الآيات التي أرسل الله بها موسى عليه السلام وهما العصا واليد، لأن السحر كان منتشرًا شائعًا آنذاك، فأعطاه الله عز وجل آيات يبطل بها كيد السحرة الذين تصدوا لموسى عليه السلام ودعوته.

﴿فَكَذَّبَ﴾، أي: فكذب فرعون وجحد وكفر بقلبه بما جاء به موسى عليه السلام، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

﴿وَعَصَىٰ﴾، أي: أبى أن ينقاد بجوارحه، فكذب الخبر، وعصى الأمر، وخالف أمر الله وارتكب نهيه، كما قال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦].

وهو مع هذا يعلم أن ما جاء به موسى عليه السلام هو من عند الله، كما قال موسى عليه السلام فيما ذكر الله عنه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾، أي: ثم لم يكتف بالتكذيب والعصيان، بل أدبر وتولى يسعى لرد الحق ومضادته بالباطل، فرمى موسى بالسحر، وقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١].

وجمع السحرة لإبطال الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠].

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، أي: فجمع قومه، فنادى بهم بصوت مرتفع:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ادعى أنه الرب الذي هو الأعلى، الذي لا أحد فوقه؛ لأن «الأعلى»: اسم تفضيل من العلو، أي: الذي لا أحد أعلى منه.

كما ادعى الألوهية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨]، وقال أيضًا: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وبهذا صار فرعون وأتباعه كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، أي: فعاقبه الله تعالى عقوبة الآخرة في النار وعقوبة الدنيا في الغرق، ونكّل به فصار نكالًا لغيره، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لأخذه عز وجل لفرعون وتنكيله به بعقوبة الدنيا والآخرة ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لعظة وزجرًا ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، أي: لمن يخاف الله عز وجل، فيتعظ وينزجر

بها، بخلاف من لا يخشى الله فلا تؤثر فيه المواعظ والزواجر.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ بذكر حديث موسى عليه السلام حين أرسله الله عز وجل إلى فرعون وما جرى بينهما وتكذيب فرعون، وأخذ الله عز وجل وعقوبته له؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، وفي ذلك تهديد وتخويف وتحذير للمكذبين من قومه ﷺ.

٢- إثبات الكلام لله عز وجل على ما يليق بجلاله وأنه عز وجل نادى موسى عليه السلام وكلمه تكليما. وشرفه بذلك، وبربوبيته الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٤- شرف بعض الأمكنة على بعض بتشريف الله لها بجعلها أماكن لرسالاته ونزول وحيه وعبادته، ولهذا شرَّف الله عز وجل وادي «طوى» وطهَّره؛ لأنه عزَّ وجَل نادى فيه نبيه موسى عليه السلام وأرسله.

٥- تجاوز فرعون وتماديه بالكفر والطغيان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

٦- أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بالتلطف مع فرعون وتليين القول له لاستمالته للحق لعله يتطهر ويخشى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

٧- يجب على الدعاة إلى الله عز وجل التلطف مع من يدعون؛ لأن الله أمر بهذا موسى في دعوته لفرعون الذي بلغ الغاية في الطغيان، فغيره من باب أولى وأحرى، وكما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

٨- إثبات هداية الدلالة والإرشاد، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام هداة إلى الله، أي: مرشدون إليه وإلى طريقه المستقيم، وكذا من سلك طريقهم في الدعوة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

٩- أن الرسل عليهم السلام جاؤوا بالدعوة إلى التزكي والتطهر من الذنوب والمعاصي، وإلى خشية الله عز وجل.

١٠- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

١١- إقامة موسى عليه السلام الحجة الواضحة والبرهان القاطع على صدق ما جاء به، وأنه رسول من عند الله بما أظهره لفرعون من الآيات الكبرى الدالة على ذلك من انقلاب العصا حية واليد وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

١٢- تمادي فرعون بالكفر والطغيان وتكذيبه لموسى عليه السلام وعصيانه له وإدباره وسعيه في الصد عن الحق ومكابرته، وادعائه الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤)﴾.

١٣- أخذ الله عز وجل لفرعون وعقوبته له في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار والحرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾.

١٤- إثبات الدار الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال.

١٥- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما أحل الله بفرعون من العقوبة والحذر من أخذ الله عز وجل وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل خبر موسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون وتكذيبه له وعصيانه، وسعيه لمضادة الحق بالباطل وادعاءه الربوبية، وأخذ الله عز وجل له بالعقوبة العاجلة والآجلة وفي ذلك تخويف للمكذبين بالبعث أتبع ذلك بالاستدلال على قدرته عز وجل على بعث الناس بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار، والامتنان عليهم بذلك.

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع، والخطاب لعامة الناس ويدخل فيه المشركون المنكرون للبعث دخولًا أوليًا.

والمعنى: ءأنتم أيها الناس أشد وأعظم خلقًا.

﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ «أم»: عاطفة، والسماء معطوف على الضمير «أنتم»، أي: أم السماء أشد خلقًا في كيفية خلقها وعظمتها وسعتها، وفي هذا تقرير أمر البعث والمعاد، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧١].

﴿بَنَىٰهَا﴾ فسره بقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: رفع سقفها وجرمها وبناءها، وجعلها سقف المخلوقات كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: فجعلها مستوية البناء، محبوكة الخلق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾

[الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، أي: وأظلم ليلها وجعله أسود حالكًا.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، أي: وأظهر نهارها وأناره وجعله مشرقًا مضيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: ١٢].

فمن أعظم نعم الله عز وجل أن جعل الليل مظلمًا؛ ليسكن الناس فيه ويناموا ويستريحوا بعد عناء النهار، ومن رحمته أن جعل النهار مشرقًا منيرًا؛ ليتصرف فيه الناس لطلب معاشهم. قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

ولهذا فإن من أعظم أسباب ضياع الأعمار والأعمال والنقص والخلل في أمور الدين والدنيا مخالفة فطرة الله، وسهر الليل أو جعله وقتا للعمل، وجعل النهار وقتا للنوم.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ الإشارة بقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى خلق السماء وبنائها وتسويتها فذلك واقع قبل دحو الأرض، فخلق عز وجل الأرض ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩- ١٢].

وبهذا جمع ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف بين الآيات في هذا (١).

وقوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فسره بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: أخرج منها الماء والمرعى وأرساها بالجبال وأودع فيها ما أودع من الخيرات من المعادن

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٥٤- ١٥٥.

وغير ذلك وبسطها.

ومعنى قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: ثبتها في أماكنها، وأرسى الأرض بها؛ لئلا تميد بأهلها، كما قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ متاعًا: مفعول لأجله، والمتاع: ما يتمتع به في الحياة وفي السفر، ثم ينتهي، والحياة كلها سفر.

أي: دحا الأرض وأخرج منها ماءها ومرعاها وأرساها بالجبال لأجل أن تتمتعوا بما أخرج منها من الماء والمرعى، وتستقروا وتعيشوا على ظهرها أنتم وأنعامكم.

الفوائد والأحكام:

١- الاستدلال على قدرة الله عز وجل على بعث الناس بعد موتهم بخلق السماء والأرض والجبال والليل والنهار وإخراج الماء والنبات، وأن الذي قدر على هذا فهو سبحانه على بعثهم أقدر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

٢- أن دحو الأرض بعد خلق السماء، أي: أن الله عز وجل خلق الأرض ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض؛ لقوله تعالى: لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ وقوله تعالى في سورة فصلت: لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآيات: ٩-١٢].

٣- الامتنان على العباد ببناء السماء فوقهم، وإظلام ليلها وإظهار نهارها، وبما أودع لهم في الأرض من الخيرات، وما أخرجه لهم منها من الماء والمرعى، وبإرسائها بالجبال ليعيشوا على ظهرها، ويتمتعوا بخيراتها هم وأنعامهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على أن القيامة حق، ثم ختمها بذكر بعض أهوالها وأحوال الناس فيها، وأن منتهى علمها إلى الله عز وجل.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا»: ظرفية شرطية، أي: فإذا أتت ووقعت.

﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ هي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تَطُمُّ وتزيد على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾، أي: يوم مجيئها ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: يتذكر الإنسان سعيه، أو الذي سعاه، أي: عمله وما قدمه من خير أو شر، عندما يقرأ كتابه، ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فيا لها من ذكرى ليست كالذكريات، ذكرى يشيب لهولها الوليد قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، فما أعظم الحسرات آنذاك.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾، أي: وأظهرت الجحيم، وهي النار، سميت بذلك لعظمها وشدة توقدها وحرها وبعد قعرها، وظلمتها.

﴿لِمَن يَرَىٰ﴾، أي: لكل من يشاهد وينظر، فرآها الناس عيانًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقد قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة» (١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك»(١).

فيا ترى ما حال الناس في ذلك الموقف، اللهم ارحمنا برحمتك الواسعة. والله لو شب حريق كبير في جانب من البلد لصعق كثير من الناس، وأصيب كثير منهم بالحيرة والذهول والدهشة وهرع الكثير منهم فارين هاربين لا يلوون على أحد، ولو كان أقرب الناس إليهم وأعزهم لديهم، ولربما دهس بعضهم بعضًا من شدة الهروب والتدافع.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ «أما» في الموضعين: أداة تفصيل، و«من» في الموضعين: موصولة، أي: فأما الذي طغى.

ومعنى ﴿طَغَىٰ﴾: تجاوز حدود الله في التكذيب والكفر والتمرد والعتو والعناد.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: قدّم الحياة الدنيا الفانية على أمر دينه وما خلق له وعلى الآخرة الباقية، كما قال تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢].

فإيثار الحياة الدنيا والانشغال بها سبب للطغيان، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»(٢).

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾، أي: فإن الجحيم وهي النار.

﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الذي يأوي ويرجع إليه وينتهي ويصير إليه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

فمن آثر الحياة الدنيا الفانية الحقيرة فإن الجحيم مأواه؛ ولهذا جاء في الدعاء: «ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا»(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي: وأما الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: خاف قيامه غدًا بين يدي ربه عز وجل فاستعد لذلك المقام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١].

وخاف من نظر الله- عز وجل- إليه واطلاعه عليه فراقبه وخشيه واتقاه، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يُخفى لديه يغيب(٢)

وقال القحطاني:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى العصيان

فاستَحْيِ من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني(٣)

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾، أي: ونهى النفس الأمارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: عن اتباع هواها وما تشتهيه من الشهوات المحرمات والشبهات، وألجمها بلجام التقوى، فإن الهوى مُرْدٍ، ومُهْلِك، والنفس غالبًا أمارة بالسوء، كما ذكر الله عز وجل عن امرأة العزيز أنها قالت: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، أي: فإن الجنة دار المتقين هي مأواه ومصيره ومنقلبه ومستقره، كما قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يسألك الناس ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: عن

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي «حسن غريب».

(٢) هذان البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص٣٤.

(٣) انظر: «النونية» للقحطاني ص٢٥.

القيامة.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بالمضارع، ولم يقل: سألوك، وذلك لكثرة هذا السؤال وتكرره منهم في الماضي والحاضر واستمرار وروده منهم، وذلك لعظمتها وشدة أهوالها، ولهذا جاء ذكر السؤال عنها في هذه السورة وسورة الأعراف وهما مكيتان، وفي سورة الأحزاب وهي مدنية.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الآية: ١٨٧]، وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية: ٦٣].

وسميت القيامة- والله أعلم- بالساعة؛ لتحقق وقوعها وقربه، وتحديده في علم الله- عز وجل- كما سميت بالواقعة والحاقة وغير ذلك.

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، أي: متى وقوعها ومجيئها.

فمنهم من يسأل عنها سؤال استعجال واستبعاد وإنكار لها، وهم المشركون المنكرون للبعث، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وهؤلاء أكثر الخلق.

ومنهم من يسأل عنها؛ ليستعد لها بالعمل الصالح، كالذي قال لرسول الله ﷺ متى الساعة؟. قال له: «ماذا أعددت لها؟»، قال: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «المرء مع من أحب»(١).

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾، أي: ليس عندك علمها، ولا فائدة لك بمعرفة ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾، أي: إلى ربك وحده منتهى علمها؛ متى وقوعها، وكيف وقوعها، لا إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٦٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٤١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥].

ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»(١).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ قرأ أبو جعفر بتنوين: «منذر». وقرأ الباقون بغير تنوين.

و«إِنَّمَآ»: أداة حصر، والحصر هنا إضافي؛ لأن الرسول ﷺ منذر ومبشر، ومأمور مكلف كغيره.

والمعنى: إنما أنت في موضوع الساعة مجرد منذر من يخشاها ليس لديك علم وقوعها، وكيف وقوعها، ولا فائدة لك ولا للأمة ولا مصلحة لكم بمعرفة ذلك، بل المصلحة في إخفائها عن الخلق.

ومعنى «منذر»، أي: مخوف ومحذر.

﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ «من»: موصولة، أي: الذي يخشاها ويخافها؛ لما فيها من الأهوال والعذاب والنكال.

وهو ﷺ منذر لجميع الناس من يخشى الساعة ومن لا يخشاها، وإنما حصر إنذاره ﷺ فيمن يخشاها، لأن الذي يخشاها هو المنتفع بالإنذار المستفيد منه دون من لا يخشاها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وأيضًا فهو ﷺ منذر ومبشر لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]. وهو أيضًا: مكلف بالعبادة كغيره كما سبق.

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا﴾، أي: كأن هؤلاء السائلين عن الساعة المنكرين لها يوم يشاهدونها وأهوالها وشدائدها.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الحياة الدنيا.

﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ العشية: آخر النهار من الظهر إلى غروب الشمس والضحى: أول النهار من طلوع الشمس إلى منتصف النهار، وقد تحمل العشية على الليل كله، والضحى على النهار كله، كما قال تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١، ٢].

فما أقصر الدنيا بالنسبة للآخرة، وما أقصر ما مضى بالنسبة لما بقي، وما أقصر عمر الإنسان فيها، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

ولو سألت معمرًا في سن التسعين أو المئة أو ما فوق ذلك عما مضى من عمره لقال لك كأني لم أعش إلا هذه اللحظة.

والإنسان بين ثلاثة أيام: يوم مضى بما فيه، ويوم مستقبل بما فيه لا يدري الإنسان أيدركه أو لا يدركه، ويوم حاضر ينبغي أن يستغله الإنسان بما ينفعه في دينه ودنياه.

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال يوم القيامة وفظاعتها، وأنها أطم وأشد وأدهى من أيّ شدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

٢- تذكر الإنسان يوم القيامة ما قدمه من عمل خيرًا كان أو شرًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾.

٣- إظهار الجحيم وإبرازها ليراها الخلائق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾.

٤- أن مأوى الناس ومآلهم يوم القيامة حسب أعمالهم فمن طغى وآثر الحياة الدنيا فمأواه الجحيم، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فمأواه جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

٥- التحذير من الطغيان وتجاوز الحد وإيثار الدنيا على الآخرة، والترغيب في

مراقبة الله عز وجل، وخوف الوقوف بين يديه، ونهي النفس عن الهوى.

٦- كثرة سؤال الناس للنبي ﷺ عن الساعة متى قيامها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾

٧- تفرده عز وجل بعلم الساعة متى وقوعها وكيف يكون؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ.

٩- أن النبي ﷺ لا يعلم متى الساعة، وإنما هو منذر ومحذر منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

١٠- أنه لا ينتفع بالإنذار والتخويف من الساعة إلا من يخشاها.

١٠- قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة، وقصر عمر الإنسان فيها؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ عَبَسَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة عبس»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة الصاخة» و «سورة السَفَرة» و «سورة الأعمى».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بعتاب لطيف له ﷺ، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

٢- امتداح الله لما أنزله من الآيات في هذه السورة وغيرها، وامتداح حملتها من الملائكة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

٣- لعن الإنسان الذي كفر بالله وجحد نعمته؛ فنسي أصل خلقه وحقارته وضعفه، وتذكيره بكمال قدرة الله تعالى؛ وتمام نعمته عليه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

٤- التذكير بأهوال القيامة وأحوال الناس فيها: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

سبب النـزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه «في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبيّ بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى فيما أقول بأسًا؟، فيقول: لا، ففي هذا أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أنزل الله قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ في ابن أم مكتوم»(٣).

قوله: ﴿عَبَسَ﴾، أي: قطب جبينه، وما بين عينيه.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض. والمراد بهذا النبي ﷺ وجاء الكلام بضمير الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ تلطفًا معه ﷺ في العتاب.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي في «تفسير سورة «عبس» ٣٣٣١، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٠٢ وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٩٩.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ هو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وهو رجل أعمى جاء إلى النبي ﷺ يستقرئه ويطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، وكان ﷺ منشغلًا في دعوة من يطمع في إسلامهم من أشراف وعظماء قريش؛ ليُسْلم بإسلامهم خلق كثير فعبس وجهه ﷺ وأعرض عنه طمعًا في إسلام أولئك فعاتبه الله عز وجل على ذلك.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: اسم استفهام، والخطاب للنبي ﷺ، ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، «يزكى»، أصلها: «يتزكى»، فأدغمت التاء بالزاي للتخفيف، أي: وما يعلمك يا محمد لعل هذا الرجل الأعمى يتطهر وتزكو نفسه.

قال بعض المفسرين: كلما جاء في القرآن: «وما يدريك» فإنه لا يُدريه، أي: لا يعقبه بما يبينه ويوضحه، كما في قوله هنا: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، وكما في قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧]. وإذا جاء: «وما أدراك» فإنه يُدريه، أي: يعقبه بما يوضحه ويبينه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ثم قال: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾﴾ الآيات [القدر: ٢-٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ ثم قال: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ١٠، ١١].

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ قرأ عاصم: ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها، أي: أو لعله يتعظ فتنفعه الموعظة.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ «أما» حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«من»: موصولة في الموضعين، أي: وأما الذي استغنى بماله وقوته وجاهه، فأعرض عن الموعظة، ورأى أنه في غنى عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٨-١٠].

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بتشديد الصاد «تصَّدى»، وقرأ الباقون بتخفيفها.

أي: فأنت تتعرض له وتُقبل عليه، وتطلب إقباله طمعًا في هدايته وإسلامه.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أي: وما عليك ألا يتطهر هذا المستغني، أي: لست ملزمًا بهدايته، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ﴾، أي: وأما الذي جاءك مقبلًا.

﴿يسعى﴾ في طلب التطهر والموعظة.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو يخاف الله عز وجل بقلبه.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، أي: تتشاغل عنه بغيره.

وفي هذا وما قبله إشارة إلى حرص هذا الرجل الأعمى على التزكي والتذكر وأنه أرجى بالتزكي والتذكر من أولئك الأشراف الذين يرون أنهم في غنى عن ذلك.

ولقد كان لهذا الرجل الأعمى شأن عظيم في الإسلام، فهو الذي أنزل الله فيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]، لما جاء يشتكي إلى رسول الله ﷺ ضرارته، وأنه لا يستطيع الجهاد(١)، وهو مؤذن رسول الله ﷺ، وروى عنه عدة من الأحاديث رضي الله عنه.

وفي هذه الآيات ما يبين بجلاء قيام هذا الدين الإسلامي على العدل في جميع أحكامه، ومن ذلك المساواة في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، الغني والفقير، والشريف والوضيع، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والكبار والصغار.

فلا يجوز تحت أي مبرر كان ترك المساواة في هذا، فمع أنه ﷺ إنما تشاغل عن هذا الأعمى بمن يرى أن في إسلامه أثرًا في إسلام غيره لمكانته في قومه، وأيضًا فإن هذا الأعمى قد آمن وإنما يريد زيادة الاسترشاد، لكن الله عز وجل عاتبه على ما حصل منه تأكيدًا لوجوب المساواة بين الناس في دعوتهم إلى الله عز وجل.

ولقد حاول المكذبون وأعداء الرسل التمييز بين طبقات الناس في الدعوة إلى الله فقال قوم نوح عليه السلام له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣، وأحمد ٥/ ١٨٤، ١٩١- من حديث زيد بن ثابت- رضي الله عنه- وأخرجه البخاري أيضا ٢٨٣١، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨ وغيرهما من حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه.

هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، فقال لهم نوح عليه السلام ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

وهكذا قال المشركون للنبي محمد ﷺ اطرد هؤلاء المستضعفين ونتبعك فقال الله تعالى له: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وفي الآية دليل على القاعدة المشهورة أنه «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة».

وفي هذا أعظم الدلالة على أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، والرد على من يزعمون أن الرسول ﷺ افتراه من عند نفسه إذ كيف يعاتب المرء نفسه.

وفيه أن الرسول ﷺ ليس بمعصوم لا هو ولا غيره من الرسل من الوقوع في الصغائر، لكنهم لا يُقَرُّون عليها، ولا يؤخرون التوبة، بل سرعان ما يحدثون توبة منها بتوفيق الله لهم، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها. وهم معصومون فيما يخبرون به عن الله، وفي تبليغ رسالاته بإجماع الأمة(١).

﴿كَلَّآ﴾ أي: حقًا ﴿إِنَّهَا﴾، أي هذه الموعظة، أو هذه السورة، أو آيات القرآن الكريم ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، أي: موعظة يتعظ بها ويعتبر من وفقه الله، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٨].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، أي: فمن شاء ذكر الله عز وجل، وذكر مواعظ القرآن بقلبه ولسانه، وجوارحه الظاهرة والباطنة، فاتعظ بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

---

(١) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٤/ ٣١٩، ١٠/ ٢٨٩، ٢٩٦.

سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، أي: آيات القرآن الكريم ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ وصحف وصحائف: جمع صحيفة. ﴿مكرمة﴾، أي: معظمة عند الله عز وجل.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ عالية القدر والمنزلة عند الله عز وجل.

﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ من الدنس والزيادة والنقص والتحريف والتبديل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة. وسفرة: جمع سفير، يقال في جمعه: سفرة، وسفراء. وسمي الملائكة سفرة؛ لأنهم كتبة يكتبون الوحي والأعمال ونحو ذلك.

والسِّفر بالكسر الكتاب، والجمع أسفار، ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، أي: كتبًا في العلم لا ينتفع بها.

وسمي الملائكة سفرة أيضًا من السفارة وهي الوساطة، لأنهم وسطاء بين الله وبين رسله وخلقه، فجبريل عليه السلام هو السفير والواسطة بين الله عز وجل وبين رسله في تبليغ وحيه عز وجل إليهم.

والكتبة الذين يكتبون أعمال بني آدم سفراء بين الله وبين خلقه في ذلك، وكذلك الحفظة للإنسان والموكلون بتدبير أوامر الله في خلقه وغيرهم كل هؤلاء سفراء بين الله وبين خلقه.

والسفير هو الواسطة بين الناس. وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وكنت السفير بينهما»(١).

قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي ... وما أمشي بغش إن مشيت(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح- تحريم نكاح المحرم ١٤١١.

(٢) البيت لموسى بن جابر اليمامي. انظر: «البصائر والذخائر» ٢/ ١٩٢.

﴿كِرَامٍ﴾ في أخلاقهم، أي: ذوي أخلاق كريمة، وصفات شريفة، خَلْقًا، وخُلُقًا مكرمين عند الله عز وجل، ومكرمين عند خلقه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤]، أي: حديث ضيوفه المكرمين من الملائكة.

﴿بَرَرَةٍ﴾ في قلوبهم وأعمالهم، أي: بارين مطيعين لله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

وهكذا ينبغي لحامل القرآن وقارئه أن يتدبره فيتخلق بأخلاقه، ويتأدب بآدابه ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»(١).

الفوائد والأحكام:

١- معاتبة الله عز وجل لنبيه ﷺ في عبوسه وإعراضه عن هذا الرجل الأعمى وإقباله على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

٢- أنه ﷺ ليس معصومًا من الوقوع في الصغائر وغيره من الرسل من باب أولى لكنهم لا يُقَرُّون عليها وسرعان ما يتوبون منها بتوفيق الله لهم.

٣- إثبات صدق رسالته ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى.

٤- وجوب التسوية في الدعوة إلى الله بين سائر طبقات الناس، والعناية بدعوة وتعليم من جاء مقبلًا يريد التذكر والتطهر، وعدم الانشغال عنه بدعوة المعرضين.

٥- أن هداية القلوب وتزكيتها بيد الله عز وجل، فقد يتزكّى ويتذكر ويهتدي من لا يظن به ذلك، وقد لا يتزكى، ولا يتذكر، ولا يهتدي من طُمع في هدايته.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة عبس ٤٩٣٧، ومسلم في الصلاة- فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع به ٧٩٨، وأبو داود في الوتر- ثواب قراءة القرآن ١٤٥٤، والترمذي في فضائل القرآن- فضل قارئ القرآن ٢٩٠٤، وابن ماجه في الأدب- ثواب القرآن ٣٧٧٩، وأحمد ٦/ ٤٨، ٩٤.

٦- ثناء الله- عز وجل- على الأعمى عبد الله بن أم مكتوم- رضي الله عنه- حيث جاء مقبلًا على الله طالبًا الهداية والتذكرة يرجو ثواب الله ويخشى عقابه، وذم المعرض عن ذلك المستغني عن التذكرة وعن ربه.

٧- بلوغ القرآن الغاية في التذكير إقامة للحجة على الخلق لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

٨- إثبات المشيئة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾. وفي هذا رد على الجبرية.

٩- عظم منزلة القرآن الكريم وعلو مكانته ورفعته عند الله عز وجل وحفظه من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير؛ لقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

١٠- فضل الملائكة وكرامتهم عند الله عز وجل وطاعتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

بعد ما بين عز وجل أن آيات القرآن الكريم تذكرة وعظة لمن يتعظ أتبع ذلك بلعن الإنسان الذي كفر بذلك وأنكر البعث، وطرده عن رحمة الله وإهلاكه، وتوبيخه وتذكيره بأصل خلقه وضعفه وحقارته ومراحل حياته، وقدرته عز وجل التامة على ذلك للاستدلال بذلك على قدرته التامة على بعثه بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: لعن وطرد عن رحمة الله، وأهلك الإنسان الكافر المكذب بالبعث، المنكر له.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ «ما»: استفهامية، أي: ما الذي حمله على الكفر.

ويجوز أن تكون «ما»: للتعجب، أي: ما أعظم كفره وما أشده، كذّب الرسول ﷺ والقرآن الكريم، وأنكر البعث والمعاد والحساب والجزاء مع قيام الحجة ووضوح الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الاستفهام: للتقرير. وكلمة «شيء»: نكرة في سياق الاستفهام تفيد التحقير والتقليل، أي: من شيء حقير مهين ضعيف خلقه وأوجده.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ النطفة: الماء القليل، أي: من ماء قليل، وهو المني، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: فقدَّرَ خلقه أطوارًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى آخر أطواره.

وقدَّر أجله ورزقه وعمله، وهل هو وشقي أو سعيد، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»(١).

وقدَّره أيضًا بأن سوى خلقه وأتمَّه وأكمله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم الطريق للخروج من بطن أمه يسره وسهله، وكذا الطريق لمعرفة الخير والشر يسره وبينه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:١٠]، أي: بينا له طريق الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾، أي: ثم بعد أن أحياه عز وجل ما شاء من العمر أماته بقبض روحه وإخراجها من البدن.

﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعله ذا قبر، أي: جعل له قبرًا يواري جسده؛ سترًا وإكرامًا له وتشريفًا واحترامًا.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، أي: ثم متى شاء عز وجل بعثه وأحياه بعد موته للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم بك أحيا وأموت وإذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

النشور»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يُركَّب»(٢).

فاستدل عز وجل بقدرته على خلق الإنسان من نطفة على قدرته على بعثه من باب أولى وأحرى كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الحج: ٥].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ «كلا»: للردع والزجر، أي: كلا لمّا يقض الإنسان، أي: لم يؤد الذي أمره الله عز وجل به من الفرائض والواجبات.

أو ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ﴾ الله ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾، أي: ما أمر به، أي: الذي أمر به كونًا وقدرًا، أي: أنه لم يأت ولم يحن وقت أمره بنشر الخلائق وبعثهم وحسابهم، بل له موعد منتظر.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾.

استدل عز وجل بالآيات السابقة على قدرته التامة على البعث بخلق الإنسان من النطفة، ثم استدل على ذلك بإحياء الأرض بعد موتها في هذه الآيات وفي هذا وذاك امتنان على الإنسان، وتذكير له بنعم الله عز وجل عليه.

قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، أي: فلينظر الإنسان إلى طعامه نظر تفكر، ويتأمل فيه، من أين هو، وما هي أسبابه ومراحله؛ وليعلم أن من وراء ذلك خالقًا عظيمًا، ومدبرًا حكيمًا، ومنعمًا كريمًا، وأن لذلك أسبابًا ومراحل قدرها وأوجدها العليم الخبير،

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٩٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٩، والترمذي في الدعوات٣٤١٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٤، ومسلم في الفتن- ما بين النفختين ٢٩٥٥ وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦، وأحمد ٢/ ٣١٥.

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها: «إنا».

أي: أنا أنزلنا الماء من السماء والسحاب على الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: ثم شققنا الأرض للنبات ﴿شَقّٗا﴾ كثيرًا فنبت ونما وظهر على وجه الأرض.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾، أي: فأنبتنا في الأرض أنواع الحبوب، كالبر والأرز والذرة والشعير وغير ذلك.

﴿وَعِنَبٗا﴾ يأكلونه طريًا وجافًا، وهو من أفضل وأنفع الفواكه، ولهذا خصه بالذكر من بين الفواكه.

كما امتن الله عز وجل به على أهل الجنة فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا﴾ [النبأ: ٣١- ٣٢].

مع الفرق الشاسع والبون الواسع بين عنب الجنة وعنب الدنيا.

﴿وَقَضۡبٗا﴾ القضب: هو العلف الذي تأكله الدواب من القت وغيره.

﴿وَزَيۡتُونٗا﴾ الزيتون من أفضل الأشجار وأكثرها بركة يؤكل ثمرها، ويتخذ زيتها أُدْمًا، ويدهن ويستشفى به، ويستصبح به، وغير ذلك، أقسم الله تعالى به في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾ ﴾ [التين: ١]، وامتدح شجرته بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَنَخۡلٗا﴾ يؤكل ثمرها بسرًا ورطبًا وتمرًا، وهي من أفضل وأبرك الأشجار، وثمرها من أفضل الثمار، إن لم يكن أفضلها، ويعد غذاء كاملًا، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا

طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق: ١٠].

وقال ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن- النخلة»(١)

وفي حديث عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة رضي الله عنها لما أخبرته أنه يمر الشهران ما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال عروة: فقلت: يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أو جاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثًا»(٣).

ولفضل النخل وثمرها ذكرها الله عز وجل من أشجار الجنة فقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨] مع الاختلاف الكبير بين نخل الجنة ونخل الدنيا.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، أي: وبساتين ذات أشجار طويلة كبيرة، كثيرة متنوعة

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ الفاكهة: كل ما يتفكه به من أنواع الثمار ويؤكل طريًا رطبًا.

أي: وأنبتنا لكم فيها الأشجار المختلفة ذات الفواكه والثمار المتنوعة.

﴿وَأَبًّا﴾ الأبّ: الكلأ والعشب الذي ترعاه البهائم والأنعام.

وقد رُوِيَ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: «أي: سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم»(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦١، ومسلم في صفات المنافقين ٢٨١١- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٧٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٥.

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨١٥، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التيمي، قال: سئل أبو بكر- إلى آخره- ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٨، وقال: «وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق».

لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف»(١).

وقد امتن الله عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم بإنزال الماء وإخراج النبات والزروع والفواكه والثمار، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد: ٤]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، أي: متعة ومعاشًا لكم ولأنعامكم تتمتعون بها في هذه الدار الفانية، وفي إخراج طعام الإنسان من الأرض دليل على إخراجه منها بعد موته، ولهذا أتبعه بقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ الآيات.

الفوائد والأحكام:

١- حكم الله عز وجل الكوني على الإنسان الكافر بالإهلاك والطرد من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾، وجواز الدعاء عليه بذلك.

٢- الإنكار على الإنسان الكافر وتوبيخه، والتعجب من إعراضه وكفره وإنكاره البعث مع وضوح الحجة وبيان المحجة، وتمام قدرة الله وإنعامه عليه في أطوار خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٣- تذكير الإنسان بضعفه، وبتمام قدرة الله ومنته تعالى عليه في تقدير أطوار خلقه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٢٠ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٨: «إسناده صحيح».

في بطن أمه، ثم تيسير ولادته، ثم موته ودفنه سترًا له، ثم بعثه ونشره إذا شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾؛ ليستدل بذلك على عظيم قدرة الله عز وجل، وقدرته التامة على بعثه، ويعرف نعمة الله عز وجل عليه فينقاد لأمره، فيشكر ولا يكفر.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإثبات المعاد، وأن نشر الخلائق وبعثهم وحشرهم له موعد ووقت قضاه الله لم يأت بعد، وإذا جاء لا يؤخر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

٥- زجر الإنسان الكافر وردعه في عدم امتثاله لما أمره الله عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

٦- يجب على الإنسان النظر والتأمل في طعامه، وأسبابه، ومراحل تكوينه من صب الماء من السماء، وشق الأرض وإنبات النبات من الحبوب والعنب والقضب والزيتون والنخل والفاكهة والأب والتي أخرجها الله متعة للناس ولأنعامهم للامتنان عليهم بذلك وليعرفوا تمام قدرة الله تعالى، وعظم نعم الله عليهم فيشكروها بطاعته- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

٧- الإشارة لحقارة الدنيا وفنائها، وأنها مجرد متاع ثم تنقضي وتزول؛ لقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة من دلائل قدرته على البعث قدرته على خلق الإنسان وعلى إحياء الأرض بعد موتها، ثم ختم عز وجل السورة بذكر أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم يوم القيامة كما ختم سورة النازعات قبلها بنحو من هذا.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، كقوله في سورة النازعات ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ و«الصاخة»: القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تصخ الآذان بصيحتها وأهوالها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾، أي: يوم مجيء الصاخة والقيامة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾، أي: يهرب الإنسان من عظم الخطب وشدة الكرب من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه، مع رؤيته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١].

﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ الأخ من شارك الإنسان في أصليه أو في أحدهما، فقد يكون شقيقًا، وقد يكون أخًا لأب، وقد يكون أخًا لأم.

وليس الأخ بأقرب، ولا بأحق ممن ذكروا بعده، ولا بأحب منهم غالبًا لكنه قُدم عليهم- والله أعلم- لأن الإخْوة غالبًا يعتد بعضهم ببعض للنصرة في الدنيا، وبخاصة الإخوة من جهة العصبة والنسب، كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بدون سلاح(١)

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾، أي: ويفر ويهرب من أمه الحنون العطوف، حلوة اللبن، ومن أبيه الذي كان يحوطه ويرعاه، وقد كانا سبب وجوده في هذه الحياة، وأعظم الناس حقًا

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص٢٩، «الأغاني» ٢٠/ ١٧١، ١٧٣. وينسب له ولابن هرمة. انظر: «فصل المقال» ص٢٦٩، وينسب لقيس بن عاصم. انظر: «حماسة البحتري» ص٢٤٥. ويذكر كثيرًا بلا نسبة. انظر: «أوضح المسالك» ٤/ ٤٧٩، «تلخيص الشواهد» ص٦٢، وغير ذلك.

عليه، قرن الله عز وجل حقهما بحقه في آيات عدة، وقدم عز وجل الأم هنا لعظم حقها كما قالﷺ للرجل الذي سأله: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال في الرابعة: ثم من؟، قال: «أبوك»(١).

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته، أي: ويهرب من زوجته الحبيبة رفيقة عمره، وسكنه الذي يسكن إليه في الدنيا، والتي يحفظها ويصونها، ولا يسمح لأعين الآخرين أن تنظر إليها في الدنيا.

﴿وَبَنِيهِ﴾ جمع ابن، أي: ويهرب الإنسان من أبنائه الذين هم فلذة كبده وثمرة فؤاده يتزين بهم في الدنيا ويعتز ويفتخر، وهم أقرب الناس وأحبهم إليه.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أي: لكل إنسان من هؤلاء يوم القيامة أمر يشغله عن غيره، أي: كل منهم منشغل بطلب الخلاص لنفسه، لا يلوي على شيء سواها، ويخاف أيضًا من حقوق الآخرين عليه، وأن يروا ما ينزل به؛ ولهذا ولغيره فهو يفر من أقرب الأقربين إليه وأحبهم وأغلاهم لديه.

ولهذا لما قال ﷺ: «إنكم تحشرون حفاة عراة غرلًا» قالت عائشة رضي الله عنها: واسوأتاه الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟، قال ﷺ: «الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ونوح وغيرهما من الأنبياء كل منهم يقول: «نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري» حتى تنتهي إلى محمد ﷺ فيشفع لهم إلى ربه عز وجل(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٤٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- الحشر ٦٥٢٧، ومسلم في صفة الجنة- فناء الدنيا ٢٨٥٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

غرلًا، فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أو ما أشغله عن النظر»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا»، فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ وفي رواية أنها قالت يا رسول الله: واسوأتاه الرجال والنساء، قال يا عائشة: «الأمر أعظم من ذلك ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ »(٢).

وعن عكرمة قال: «يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أي: بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا أتخوف مثل الذي تخاف، قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أيّ والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ »(٣).

فما أصعب هذا الموقف، وما أشده، وما أعظمه إذ كيف يهرب الإنسان من أعز الناس عليه وأقربهم وأحبهم إليه؛ أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه؟ وكيف تذهل فيه المرضعة عما أرضعت كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]. إنها شدائد القيامة وكرباتها وأهوالها العظام- اللهم ارحمنا برحمتك والطف بنا يا لطيف.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة «عبس» ٣٣٣٢، وقال «حديث حسن صحيح»، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٠.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز- باب البعث ٢٠٨٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٠، وروي من حديث سودة بمعناه، أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٢٥.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٤٩.

تبرأ الشركاء والأنصار، وفر الأقارب والأصهار، وانقطع الرجاء إلا من الواحد القهار، وانشغل كل بنفسه عن غيره يبغي لها النجاة من النار. اللهم إنا نسألك الثبات والنجاة.

وقد أحسن القائل:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها ... لنفسي من نفسي عن الناس شاغل(١)

وقال الآخر:

ومن بعد ذا حشر ونشر وموقف ... ويوم به يكسى المذلة مذنب

إذا فر كل من أبيه وأمه ... كذا الأم لم تنظر إليه ولا الأب(٢)

وإذا كان الإنسان سينشغل بنفسه عن أعز الناس لديه وأقربهم وأحبهم إليه في ذلك اليوم، فيا ليت الكثيرين- اليوم- ممن يرى الواحد منهم القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه يتذكرون هذا فينشغلون في هذه الحياة بعيوبهم عن عيوب الآخرين ويا ليت من يتناصرون بينهم من أقارب وغيرهم بالباطل يتذكرون هذا الموقف العصيب فيرتدعون.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾، أي: في ذلك اليوم العظيم ينقسم الناس إلى فريقين: فريق وجوههم ﴿مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهم المؤمنون- نسأل الله تعالى من فضله.

ومعنى ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾، أي: مشرقة مضيئة مستنيرة، كما جاء في الحديث: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر»(٣).

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾، أي: ظاهر عليها السرور والبشر، الدال على سرور القلب وابتهاجه، مستبشرة بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) البيت للربيع بن خيثمة. انظر: «ربيع الأبرار» ٢/ ٣٢٢، «المستطرف» ص٩٥، «مجاني الأدب» ٢/ ١١٨.

(٢) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص١٨٨-١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[فصلت: ٣٠].

﴿وَوُجُوهٌ﴾، أي: وفريق وجوههم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، أي: عليها غبار.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: تغشاها وتعلوها ظلمة شديدة وسواد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾، أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ الذين كفروا بالله بقلوبهم فأنكروا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وآياته وشرعه ورسالاته.

﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ الذين ارتكبوا الفجور بجوارحهم وأعمالهم الظاهرة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٧].

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة وصيحتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

٢- انشغال كل إنسان في ذلك اليوم بخلاص نفسه، وفراره من أقرب الناس إليه، أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

٣- يجب استحضار هذا المشهد، وأنه في ذلك اليوم لا ينفع أحد أحدًا.

٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين حسب أعمالهم فريق وجوههم مسفرة مستنيرة ضاحكة مسرورة مستبشرة بما أعد لها من النعيم والكرامة، وهم المؤمنون، وفريق وجوههم يعلوها الغبار، وتغشاها الظلمة والسواد، وهم الكفرة الفجرة؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

٥- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب من الكفر والفجور.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّكْوِيرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة التكوير» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾.

وتسمى «سورة إذا الشمس كورت»، و«سورةكورت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]»(١).

عن عمرو بن حريث قال: «صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾»(٢).

د- موضوعاتها

١- ذكر علامات القيامة وأهوالها والوعيد بالنار والوعد بالجنة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

إلى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

٢- إثبات وتأكيد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى نزل به جبريل على النبي ﷺ، ذكر للعالمين: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (إذا الشمس كورت) ٣٣٣٣، وأحمد ٢/ ٢٧، ٣٦ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة- القراءة في الصبح ٤٧٥، وأبو داود في الصلاة ٨١٧، والنسائي في الافتتاح- القراءة في الصبح بإذا الشمس كورت ٩٥١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨١٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ «إذا»: ظرفية شرطية غير جازمة. وتكوير الشيء بمعنى لفه، أي: إذا الشمس لفت وذهب بنورها ورمي بها في النار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»(١).

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة»(٢).

وفي ذلك إغاظة للذين عبدوها من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾، أي: انتثرت وتساقطت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، أي: جعلت تسير تمهيدًا لدكها ونسفها، كما قال تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة الشمس والقمر بحسبان ٣٢٠٠.

(٢) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٥٢.

دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ العشار: النوق الحوامل في الشهر العاشر، واحدها عُشَراء، وهي خيار الإبل، وأنفس الأموال آنذاك.

﴿عُطِّلَتْ﴾، أي: تخلى عنها أهلها وأهملوها بلا راع ولا حلب وسُيِّبت، وهي من أنفس الأموال، وذلك لظهور علامات القيامة ومقدماتها، وانعقاد أسبابها.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ الوحوش: جمع وحش، وهو الحيوان المتوحش الذي ينفر من الناس بخلاف الحيوان الإنسي والأهلي، والمراد بالوحوش هنا- والله أعلم- جميع الحيوانات والبهائم، وإنما خصت الوحوش بالذكر؛ لأنها إذا حشرت مع توحشها فغيرها من باب أولى.

﴿حُشِرَتْ﴾، أي: جمعت في أرض المحشر. والحشر: الجمع، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٩].

فتجمع الوحوش والبهائم ليقتص لبعضها من بعض، كما في الحديث، «حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقال لها كوني ترابًا»(١).

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «سُجِرت» بتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿سُجِّرَتْ﴾، أي: وإذا البحار العظيمة التي تمثل نحو ثلاثة أرباع الأرض أو أكثر أشعلت وأوقدت فصارت نارًا تتأجج، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور: ٦]، أي: المؤجج نارًا.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، أي: جمع كل شكل إلى نظيره ومثيله وشكله، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

فجمع أهل الخير إلى بعضهم، وجمع أهل الشر إلى بعضهم.

---

(١) سبق تخريجه.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ فقال: «يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس»(١).

وقيل: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾، أي: زوجت الأرواح بالأجساد، أي: ردت كل روح إلى جسدها.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ الموءودة: هي البنت تدفن وتدس في الأرض وهي حية بعد ولادتها كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فإذا ولد لأحدهم أنثى ساءه ذلك كراهة منهم للبنات، مخافة العار والفقر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾ [الزخرف: ١٧، ١٨].

فيوم القيامة تسأل الموءودة هذا السؤال ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد التاء: «قتِّلت»، وقرأ الباقون بتخفيفها، أي: بسبب أي ذنب «قتِلت»، وهذا السؤال لتوبيخ قاتلها، وجوابه: أنها قتلت بلا ذنب.

ومن الوأد إسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه، أي: بعد مضي مائة وعشرين يومًا عليه، من غير ضرورة، وقد عد ﷺ العزل من ذلك.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي»(٢).

وعن سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الوائدة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٤.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح- جواز الغيلة، وهي: وطء المرضع وكراهة العزل ١٤٤٢، وأبو داود في الطب- باب في الغيل ٣٨٨٢، والنسائي في النكاح- باب الغيلة ٣٣٢٦، والترمذي في أبواب الطب- ما جاء في الغيلة ٢٠٧٢، وابن ماجه في النكاح- باب الغيل ٢٠١١، وأحمد ٦/ ٤٣٤.

والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها»(١).

وعن حسناء ابنة معاوية بن الصريمة عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الموءودة هي المدفونة فمن زعم أنها في النار فقد كذب، بل هي في الجنة».

وفي رواية عنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾، قال ابن عباس: هي المدفونة»(٣).

ولو صح قول من قال الموءودة في النار فيما إذا كان أبوها غير مسلم، فإنه لا يصح أن يقال: إنها في النار إذا كان أبوها مسلمًا، لأنه لا إشكال أن أطفال المسلمين معهم في الجنة، وفي أولاد المشركين الخلاف هل هم في الجنة أو في النار مع آبائهم، أو يمتحنون في عرصات القيامة وهذا هو الأظهر، وفيه جمع بين الأقوال.

ورُويَ عن خليفة بن حصين، قال: «قدم قيس بن عاصم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية، أو ثلاث عشرة، قال: «أعتق عددهن نسمًا» فأعتق عددهن نسمًا»(٤).

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب وعاصم بتخفيف الشين، وقرأ الباقون بتشديدها: «نشِّرت» والصحف جمع صحيفة، وهي ما تكتب فيها الأعمال.

ومعنى ﴿نُشِرَتْ﴾، أي: أعطي كل إنسان صحيفته وكتاب أعماله بيمينه أو بشماله- مفتوحًا- يوم نشر الدواوين وتطاير الصحف، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٥٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٣- ٣٤٠٤، ٣٤٠٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٧.

عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

أي: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٧، ١٢].

وهذا مما يوجب على المسلم الإقلاع عن الذنوب والمعاصي، ومحاسبة النفس محاسبة دقيقة كمحاسبة الشريك الشحيح لشريكه، بل أشد، والحرص على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، أي: كشفت وأزيلت عن مكانها وطويت، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان وحفص بتشديد العين ﴿سُعِّرَتْ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «سعِرت»

و﴿ٱلْجَحِيمُ﴾: اسم من أسماء النار سميت به؛ لشدة لهبها وحرها ولظاها ﴿سُعِّرَتْ﴾، أي: أشعلت وأوقدت.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، أي: قربت لأهلها وأدنيت إكرامًا لهم.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو جواب «إذا» في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ وما بعده. و«ما»: موصولة، أي: إذا وقعت هذه الأهوال وتبدلت الأحوال عند ذلك علمت كل نفس الذي أحضرته.

أي: الذي قدمته من عمل، من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]،

وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- عظم أهوال يوم القيامة وشدتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ الآيات.

٢- تبدل الأحوال في ذلك اليوم وتغيرها فالشمس تكور، والنجوم تتساقط، والجبال تسير، والبحار تؤجج نارًا، والسماء تزال عن مكانها إلى غير ذلك.

وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي القيوم سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾﴾.

٣- انشغال الناس عند ظهور علامات القيامة وأهوالها عن أنفس أموالهم.

٤- بلاغة القرآن الكريم في مخاطبة الناس بما يعرفون؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ وقد كانت حين نزول القرآن الكريم هي أنفس الأموال عند العرب.

٥- جمع الوحوش والبهائم يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض ثم يقال لها: كوني ترابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾

٦- جمع كل شكل إلى نظيره وقرينه في ذلك اليوم الأخيار مع الأخيار والأشرار مع الأشرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾

٧- سؤال الموءودة عن سبب قتلها وبأي ذنب؛ توبيخًا وتقريعًا لقاتلها وانتصارًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾﴾.

٨- تطاير الصحف ونشرها بين الخلائق، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾.

٩- تسعير الجحيم وإيقادها؛ لتعذيب الكافرين والعصاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾.

١٠- تقريب الجنة لأهلها المتقين تكريمًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾.

١١- أن من كرم الضيافة أن يؤتى بالطعام إلى الضيوف، ويوضع بين أيديهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، لا أن يهيأ ثم يقومون إليه، أو يترك كل منهم يخدم نفسه بنفسه، كما يفعله أدعياء المدنية الزائفة.

١٢- علم كل نفس بما قدمته من خير أو شر بعد معاينتها لهذه الأهوال، واطلاعها على صحيفة أعمالها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ الفاء: استئنافية. و«لا» للتنبيه وتأكيد القسم.

والتقدير: أقسم بالخنس. ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه عز وجل بها يدل على عظمته هو- سبحانه وتعالى- وهذا بخلاف المخلوق فلا يقسم إلا بالله تعالى.

وخبر الله عز وجل صدق، وقوله حق، بلا قسم، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢].

وإنما جاء القسم في القرآن الكريم جريًا على أسلوب العرب في تأكيدهم الكلام بالقسم، وكذلك الحال بالنسبة لخبر الرسول ﷺ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه «أخبرنا رسول الله ﷺ؛ وهو الصادق المصدوق»(١).

و«الخنس»: النجوم تخنس، أي: تختفي بالنهار، بعد ظهورها بالليل.

ومنه سمي الشيطان بالخناس؛ لأنه يخنس ويختفي عند ذكر الله عز وجل.

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- حين لقي النبي ﷺ وهو جنب قال: «فانخنست»(٢) أي: اختفيت.

﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: جمع جارية، يقال في جمعها: جوار، وجاريات، أي: أنها تجري، أي: تسير، وليست بثابتة، ومن هنا سميت الكواكب السيارة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل ٢٨٣، وأبو داود في الطهارة ٢٣١، والترمذي في الطهارة ١٢١.

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾: الغُيَّب، أي: اللاتي يغبن بالليل، فهن يظهرن فيه، ثم يغبن فأقسم عز وجل بالنجوم في أحوالها كلها، من طلوعها وجريانها وغروبها واختفائها.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾، أي: إذا أدبر وولى وذهب، ولهذا قال بعده:

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي: إذا أقبل وانفلق وأضاء وأسفر، عقب إدبار الليل، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ٢].

قال الشاعر:

حتى إذا الصبح له تنفسا ... وانجاب عنها ليلها وعسعسا[1]

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾، أي: إذا أقبل بظلامه، فيكون، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١، ٢]، والأول أظهر، وأعظم في الدلالة والعبرة.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالنجوم والليل إذا أقبل أو أدبر، والصبح إذا انفلق وأضاء على أن القرآن قول رسول كريم.

والضمير في «إنه» يعود إلى القرآن الكريم، وإن لم يسبق له ذكر في السورة لأنه معلوم معهود.

فأقسم عز وجل بهذه الآيات العظيمة، وما فيها من الدلائل التامة على عظيم قدرة الله عز و جل ونعمه الجسيمة على أمر عظيم، وهو أن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

أي: لتبليغ رسول كريم- وهو جبريل عليه السلام- كما قال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فأضافه عز وجل إلى جبريل عليه السلام؛ لأنه هو الواسطة بين الله عز وجل وبين الرسول ﷺ، كما أضافه إلى النبي ﷺ في قوله في سورة الحاقة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الآيتان: ٤٠، ٤١]؛ لأنه ﷺ هو المبلغ عن الله عز وجل.

---

(١) البيت لعلقمة بن قرط. انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٢٨٧- ٢٨٨، «جامع البيان» ٢٤/ ١٦٢.

فهو كلام الله عز وجل سمعه جبريل من الله عز وجل، وسمعه محمد ﷺ من جبريل، وكل من جبريل ومحمد ﷺ مبلغ عن الله عز وجل، ورسول من عنده.

وقسمه عز وجل في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٣٨- ٤١] أعظم من قسمه في قوله هنا ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ﴾ الآيات؛ لأن المقسم به في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أعم فهو يعم الإقسام بكل شيء.

وقوله: ﴿رسول﴾، أي: ملك مرسل من عند الله عز وجل؛ لتبليغ القرآن الكريم للرسول ﷺ، وهو جبريل عليه السلام ونكّره؛ تعظيمًا له عليه السلام.

﴿كَرِيمٍ﴾: شريف حسن الأخلاق والصفات، جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير أجرى الله على يديه نقل رسالاته عز وجل إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، والتي فيها خير الدنيا والآخرة وهو أفضل الملائكة، وأعظمهم وأشرفهم عند الله عز وجل.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، أي: ذي قوة وشدة في خلقه، وفي بطشه وفعله، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥، ٦].

فجبريل- عليه السلام- بما منحه الله- عز وجل من قوة وشدة لا تستطيع الشياطين الدنو منه، ولا التعرض لما يحمله من وحي الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

وهو بما منحه الله من قوة يوالي الرسول ﷺ ويناصره على من عاداه، وينفِّذ بقوته ما أمره الله به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط عليهم فجعل عاليها سافلها فهلكوا بأمر الله عز وجل.

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي عند الله عز و جل صاحب العرش العظيم، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥، ١٦].

وذو العرش صاحب العرش سبحانه وتعالى الذي استوى على العرش، كما قال

تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

﴿مَكِينٍ﴾، أي: له عند الله عز وجل مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ووجاهة، وهو أقرب الملائكة إلى الله عز وجل.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ «ثم»: بمعنى «هناك، أي: مطاع أمره، مسموع قوله في الملأ الأعلى؛ لوجاهته وشرفه بين الملائكة.

﴿أَمِينٍ﴾، أي: ذو أمانة عظيمة على ما اؤتمن عليه من الوحي.

فوصف عز وجل جبريل عليه السلام بخمس صفات عظيمة، وهي كونه: كريمًا، قويًا، ذا مكانة عند الله تعالى، مطاعًا في السموات، أمينًا.

وكل هذه الصفات تتضمن تزكية سند القرآن الكريم، وأنه أجل وأرفع الأسانيد، وأصحها وأعلاها، سمعه جبريل عليه السلام من رب العالمين، وسمعه محمد ﷺ من جبريل عليه السلام.

وفيه تشريف وتعظيم للقرآن الكريم، كما أن فيه مدحًا وتشريفًا لجبريل عليه السلام.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على جملة جواب القسم، فهي من جملة المقسم عليه، والخطاب لأهل مكة، أي: وما صاحبكم يعنى محمدًا ﷺ ﴿بِمَجۡنُونٍ﴾، أي: بمختل العقل، كما تزعمون، وهم- وإن تفوهوا بهذا وزعموه- فهم يعلمون أنه ليس بمجنون، وأنهم كاذبون؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ أي: الذي تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته وكمال عقله، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ٢].

وفي هذا رد على المشركين في زعمهم الباطل، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان: ١٤].

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام للقسم، أي: والله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على الصورة التي خلقه الله تعالى عليها، له ستمائة جناح.

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾، أي: بالأفق البين الظاهر العالي، أفق السماء الشرقي وهي الرؤية

الأولى التي كانت بالأبطح، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٥- ١٠].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء: «بظنين»، أي: وما محمد على ما أنزل إليه من الوحي بمتهم بالكذب، بل هو صادق أمين، كما كان ﷺ يلقب بين قومه بالأمين وعلى هذا فالرسول الملكي أمين والرسول البشري أمين.

وقرأ الباقون بالضاد: ﴿بِضَنِينٍ﴾، أي: وما محمد بما أنزل إليه من الوحي ببخيل، يقال: ضنّ، أي: بخل- كما قال الشاعر:

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا عليَّ كرام(١)

أي: وإن بخلوا. وقال الآخر:

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل ... وضنت علينا والضنين من البخل(٢)

أي: وبخلت علينا.

والمعنى: وما محمد ﷺ على الوحي ببخيل، بل بذله ﷺ ونشره، وبلغه لكل أحد وأشهد على ذلك أمته، وربه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: ما هو مما توحيه شياطين الجن إلى شياطين الإنس من الكهنة ونحوهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢].

والشيطان: كل متمرد، عات، خارج عن طاعة الله عز وجل من الإنس والجن والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١٢].

---

(١) انظر: «البلاغة الواضحة» ص٨٧.

(٢) البيت للبعيث. انظر «لسان العرب» مادة: «ضنن».

وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»(١).

و«رجيم»: «فعيل» بمعنى: «مفعول، أي: مرجوم حسًا ومعنى، بالرمي بالشهب وإخراجه من الجنة، وبلعنه وطرده عن رحمة الله عز وجل.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، أي: أيّ طريق تسلكون، أبين من هذه الطريق التي بينت لكم؟ كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ [يونس: ٣٢].

وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بالقرآن وزعمكم أنه ليس بكلام الله، ورميكم الرسول ﷺ بالجنون، وإعراضكم عن طاعة الله تعالى مع وضوح الحق.

كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: «ويحكم أين يُذهب بعقولكم، والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل، أي: من إله»(٢).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»؛ لأنها جاءت بعدها «إلا».

أي: ما هو يعني القرآن الكريمَ إلا تذكير وموعظة للعالمين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾ [يوسف: ١٠٤].

يذكرهم بربهم وأسمائه وصفاته وأفعاله، ووجوب عبادته ويذكرهم بمبدئهم ومعادهم، وما فيه سعادتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وإنما يُخص بالتذكرة به المتقون والمؤمنون ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الحاقة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾ [هود: ١٢٠]؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به، ولهذا قال بعد هذا:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ «من»: موصولة، أي: للذي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٦٢.

شاء منكم الاستقامة على الطريق المستقيم، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩].

فلا سبيل للاستقامة على هذا الطريق إلا باتباع القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ٩٩- ١٠١].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ «ما»: نافية، أي: وما تشاءون من شيء من استقامة أو غيرها إلا أن يشاء الله ذلك. فلا يمكن أن يشاء الخلق إلا ما شاءه الله وأراده.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم. و«العالمين»: كل ما سوى الله عز وجل من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد، وغير ذلك، فما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالنجوم في أحوالها الثلاث حال اختفائها، وحال جريانها وحال غيبتها وبالليل في حال إقباله وإدباره وبالصبح في حال بروزه وظهوره على أن القرآن الكريم قول رسول كريم بلغه عن الله عز وجل، وهو جبريل عليه السلام؛ بلغه للنبي محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

٢- شرف جبريل عليه السلام، وفضله من بين الملائكة حيث خصه الله عز وجل بتبليغ وحيه إلى رسله، وامتدحه عز وجل بالكرم والقوة ورفعة منزلته عنده، وطاعته في الملأ الأعلى، وأمانته على وحي الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

٣- تعظيم القرآن الكريم، وإثبات قوة سنده حيث إن الواسطة بين الله عز وجل

وبين النبي ﷺ هو جبريل عليه السلام الأمين، الموصوف بما ذكر.

٤- تعظيم الله عز وجل، وإثبات عرشه العظيم، واستوائه عز وجل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾.

٥- الرد على المشركين في رميهم النبي ﷺ بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.

٦- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام بالأفق الظاهر الأعلى على صورته التي خلقه الله عليها، وله ستمائة جناح؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾.

٧- إثبات كرمه ﷺ في تبليغ الوحي وأمانته عليه، ونفي كونه بخيلًا به أو متهمًا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

٨- إثبات أن القرآن الكريم كلام الله عز وجل، وليس بقول شيطان رجيم، كما زعم المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

٩- إثبات وجود الشياطين، من الإنس والجن.

١٠- انقطاع حجة المكذبين للقرآن الكريم، إذ لا طريق أبين وأوضح من طريق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

١١- أن القرآن الكريم ذكر وموعظة للعالمين كلهم من الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٢- أن من يتذكر بالقرآن ويتعظ به هو من شاء الاستقامة وسلك طريق الحق وتحرى الرشد، وهم المؤمنون المتقون، دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

١٣- إثبات المشيئة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وأنه ليس مجبورًا على أفعاله كما يقول الجبرية.

١٤- أن الدين الإسلامي وسط بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط؛ لقوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾.

١٥- إثبات مشيئة الله- عز وجل- وإرادته الكونية، وإثبات ربوبيته العامة لجميع العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٦- أن مشيئة الخلق ليست مستقلة لوحدها، بل هي تابعة لمشيئة الله عز وجل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يستقل بمشيئته ويخلق فعله- تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلانْفِطَارِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الانفطار» لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾، وتسمى: «سورة إذا السماء انفطرت»، وتسمى: «سورة انفطرت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه قال قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ «أفتان يا معاذ؟! أفتان يا معاذ؟! أين كنت عن «سبح اسم ربك الأعلى»، و«الضحى»، و«إذا السماء انفطرت»[(١)].

وسبق في حديث ابن عمر قوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين، فليقرأ: «إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت» و«إذا السماء انشقت»[(٢)].

د- موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة، ومعرفة كل نفس آنذاك ما قدمت وما أخرت: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

٢- توبيخ الإنسان: ما الذي غره بربه الكريم الذي خلقه وسواه، حتى كفر به وكذبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

٣- وعد الأبرار وبشارتهم بما لهم من النعيم، ووعيد الفجار وتهديدهم بما أعد لهم

---

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح- القراءة في العشاء الأخرة: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ ٩٩٧.

(٢) سبق تخريجه.

من الجحيم والعذاب المقيم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

٤- تعظيم يوم القيامة، وبيان تفرده عز وجل فيه بالملك والأمر: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، ﴿انفَطَرَتْ﴾، أي: انشقت كقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة:١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩].

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾، أي: تساقطت، كقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٢].

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، أي: فجر بعضها على بعض، فاختلط مالحها بعذبها وصارت بحرًا واحدًا.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، أي: قلب ترابها وأخرج ما فيها من الموتى، فقاموا لله عز وجل.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، أي: إذا وقعت هذه الأهوال والأحوال والعلامات الأربع آنذاك علمت كل نفس الذي قدمته من الأعمال الصالحة، والذي أخرته منها فلم تعمله، أو علمت الذي قدمته من خير أو شر، والذي أخرته من خير أوشر، وذلك بعد العرض وتطاير الصحف.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب،

و«ها» للتنبيه. والمراد بالإنسان الكافر أو جنس الإنسان؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول كفار.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ «ما» استفهامية، و«غرك»، أي: خدعك، أي: أيّ شيء خدعك يا أيها الإنسان بربك، خالقك ومالكك ومدبرك.

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾: كثير الخير والنوال، وعظيم النعم والأفضال، فكذبت خبره، وأنكرت البعث، وعصيته وخالفت أمره، وارتكبت نهيه. كما رُويَ في الأثر: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم ما غرك بي؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين»(١).

قال جمع من المفسرين: غرّه والله جهله، وشيطانه، ونفسه الأمارة بالسوء، وهواه ودنياه.

وقال بعضهم: غره كرم الله وحلمه وستره وإمهاله؛ لقوله: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾(٢).

والآية تحتمل المعنيين، أي: كيف عصيت ربك وخالفت أمره، وأنكرت نعمه وأفضاله عليك.

فقوله: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ مع دلالته على عظيم فضل الله على الإنسان، بربوبيته وخيره المسدى إليه- فيه أيضًا تذكير وتنبيه إلى أن الواجب على الإنسان مقابلة نعم الله عليه بالشكر لا بالكفر.

وفي الآية: تهديد ووعيد وتحذير للإنسان أن يغره الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى والدنيا.

قال الشاعر:

إني بليت بأربع لم يَخْلُفُوا ... إلا الشدائد شقوتي وعنائي(٣)

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

فعلى الإنسان أن لا يغتر بستر الله وكرمه وإمهاله، فإن الله عز وجل يمهل ولا

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٦٤.

(٢) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٤٠٨.

(٣) انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني ١/ ٤٠.

يهمل، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾، أي: الذي أوجدك وأنشأك من العدم.

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ جعلك مستوي الخلقة متناسب الأعضاء، كما قال تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

﴿فَعَدَلَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتخفيف الدال: ﴿فَعَدَلَكَ﴾.

وقرأ الباقون: ﴿فعَدَّلك﴾ بتشديدها. أي: جعلك معتدل الخلق منتصب القامة في أحسن الهيئات والأشكال.

عن جبير بن نفير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: ابن آدم، أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة»(١).

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾، أي: في أي صورة من الصور، وأي شكل من الأشكال.

﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، أي: كيفما شاء عز وجل ركب صورتك وشكلك، وقد سوّى خلقتك وعدّل قامتك وحسّن صورتك، بفضله وكرمه عليك، فاشكره ولا تكفره ولو شاء لجعل صورتك قبيحة كصورة قرد أو خنزير أو كلب أو حمار، أو غير ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلامًا أسود؟ قال: «هل لك من أبل»؟ قال: نعم، قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر قال: «فهل فيها من أورق؟»، قال: نعم، قال: «فأنى أتاها ذلك؟»، قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: «هذا عسى أن يكون نزعه عرق»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا- النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق- إذا عرّض بنفي الولد ٥٣٠٥، ومسلم في اللعان ١٥٠٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٠، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٨، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٨، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٢.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ قرأ أبو جعفر بالياء: «يكذبون» وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، والوعيد والتهديد، و«بَلْ»: للإضراب الانتقالي، أي: مع هذا الخلق، والإعداد والإمداد ﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾، أي: بما جاء به الرسول ﷺ من الوحي والرسالة، كما قال المكذبون للرسل ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٥].

وتكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأعمال، كما قالوا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال إن عليكم لحافظين من الملائكة يحفظونكم ويحصون أعمالكم.

وأكد الجملة بـ «إن»، واللام، وحذف الموصوف الملائكة واكتفى بالصفة إشارة لشدة حفظهم وضبطهم لأعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

﴿كِرَامًا﴾، أي: ذوي أخلاق كريمة وصفات حميدة، وعندهم من الكرم والأمانة والصفات الحميدة ما يجعلهم يقومون بما وكلوا به أتم قيام، دون زيادة أو نقصان.

كرامًا عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كرام بررة﴾ [عبس: ١٦].

﴿كَاتِبِينَ﴾، أي: يكتبون جميع أعمالكم وأقوالكم، فاحذروا واستحيوا منهم، وأكرموهم فلا تقابلوهم بالقبائح، وأجلُّوهم من أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، فالملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: يعلمون الذي تفعلون، أو يعلمون فعلكم.

أي: يعلمون فعلكم بالمشاهدة، وأقوالكم بالسماع، وجميع أحوالكم بما أعلمهم الله عز وجل وأقدرهم عليه حتى أعمال القلوب؛ ولهذا قال ﷺ: «فمن هم بحسنة فلم

يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»(١).

الفوائد والأحكام:

١- عظم أهوال يوم القيامة وتبدل الأحوال فيها وتغيرها، فالسماء المحبوكة تنفطر، والكواكب تنتثر وتتساقط، والبحار يفجر بعضها على بعض، والقبور يخرج ما فيها من الأموات؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾.

٢- إثبات البعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

٣- علم كل نفس في ذلك اليوم بما قدمته من الأعمال وما أخرته، فلم تعمله، ودقة الحساب ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

٤- الحث والترغيب في عمل الخير، والتحذير من عمل الشر والسوء.

٥- توبيخ الإنسان على جهله واغتراره بربه وكرمه وإمهاله، وتفريطه في حقه عز وجل وتحذيره من غرور الشيطان والنفس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾.

٦- تذكير الإنسان بربوبية الله- عز وجل- له، وكرمه- عز وجل- وتمام قدرته، وعظيم نعمه عليه، خلقه فسواه وعدل صورته فجعله في أحسن خلقة وأجمل صورة، مما يوجب عليه شكر نعمة الله عليه وعبادته والانقياد له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

٧- الردع والزجر والتهديد والوعيد للمكذبين بالدين والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- من هم بحسنة أو بسيئة ٦٤٩١، ومسلم في الإيمان- إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١٣١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٨- إثبات وجود الحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة، وكتابتهم لأعمال العباد، ووجوب الإيمان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾

٩- علم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين بأفعال العباد الظاهرة والباطنة، وكتابتهم لها بأمانة، دون زيادة أو نقصان؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

بين عز وجل في الآيات السابقة أنه أوكل على الخلق ملائكة حافظين كرامًا كاتبين يعلمون أفعال العباد ويكتبونها لمحاسبتهم ومجازاتهم عليها، ثم أتبع ذلك بذكر أن مآل الأبرار إلى النعيم وأن مآل الفجار إلى الجحيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الأبرار: جمع «بَرّ» والبَرّ: كثير الطاعة، كثير الخير والإحسان، محسن في عبادة الله، ومحسن إلى عباد الله.

والبِّر: حسن الخلق، وما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، كما قال ﷺ(١) وهو كلمة جامعة لخصال الخير كلها، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من الإيمان بالله وبجميع أركان الإيمان الستة، وبكل ما يجب الإيمان به، وأنواع القربات والطاعات من الإنفاق على المحتاجين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وتقوى الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى في وصف الملائكة: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍۭ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦]، أي: كرام مطيعين. وجماع ذلك تقوى الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومنه سمي بر الوالدين، وهو طاعتهم والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنما سماهم الله الأبرار،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

لأنهم بروا الآباء والأبناء»(١).

والمراد بالأبرار أصحاب اليمين، وهم المقتصدون، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد يراد بالأبرار هنا ما يشمل المقربين، السابقين إلى الخيرات بإذن الله، وذلك لأن الله ذكرهم في مقابل الفجار أصحاب الجحيم.

﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، والنعيم: ما يتنعم ويلتذ به، أي: إنهم في نعيم معنوي، وهو نعيم القلب، ونعيم حسي، وهو نعيم البدن، في جنات النعيم.

وهم أيضًا في نعيم معنوي وقلبي في حياتهم الدنيا لطمأنينتهم ورضاهم بقضاء الله وقدره، وذكرهم له، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(٢).

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الفجار: جمع فاجر، وهم أهل الكفر والفجور، ضد الأبرار.

﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد. والجحيم هي النار سميت بذلك؛ لشدة توقدها ولظاها وحرها، فهم فيها في عذاب معنوي للقلب وعذاب حسي للبدن.

كما أنهم في الدنيا في شقاء معنوي للقلب، وشقاء حسي للبدن.

قال ابن القيم(٣): «لا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأيُّ لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تبارك وتعالى، ومحبته، والعمل على موافقته، وهل العيش في الحقيقة إلا عيش

---

(١) أخرجه ابن عساكر فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٦٦.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٩٩- من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٤٩-١٥٠.

القلب السليم..».

وقال في موضع آخر: «وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب، وأيُّ عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة، وكل من تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب».

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يدخلونها ويغمرون فيها ويقاسون حرها من كل جهة ومن كل جانب.

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، أي: يوم القيامة، وسمي يوم الدين؛ لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم، أي: يجازون بها ويحاسبون عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، أي: وما هم عن الجحيم بغائبين، أي: أنهم مقيمون فيها إقامة أبدية لا يخرجون عنها أبدًا ولو ساعة، كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ «ما»: للاستفهام في الموضعين، وهو للتعظيم والتفخيم، أي: وما أعلمك.

﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، أي: ما هو يوم الدين، أي: هو يوم عظيم، لا كالأيام، يوم طويل، ثقيل عبوس قمطرير، عسير، شره مستطير، يشيب من هوله الوليد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [المطففين: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٧].

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تأكيد لعظمة ذلك اليوم، أي: ثم ما أعلمك ما هو يوم الدين؟

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وإيضاح له، أي: يوم الدين، هو ذلك اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق: ١- ٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١- ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ١- ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ ثم فسره بقوله:

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ [القارعة: ٩- ١١].

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ ﴾ [الهمزة: ٤- ٧].

ولهذا قال المفسرون إذا قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فإنه يدريه بمعنى: يفسر ذلك له، وإذا قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فإنه لا يدريه، أي: لا يفسر ذلك له، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [عبس: ٣].

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب برفع الميم: «يومُ»، وقرأ الباقون بنصبها.

«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: يوم لا تملك نفس لنفس أيَّ شيء، مهما كان صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، من جلب نفع أو دفع ضر أو غير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

فالناس في الدنيا يتناصرون ويدافع بعضهم عن بعض لكن في الآخرة هيهات ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمّ وخصّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٥٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٤٤، والترمذي في التفسير ٣١٨٥، وأحمد ٢/ ٣٦٠.

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، أي: والأمر في ذلك اليوم كله لله عز وجل وحده بلا منازع، كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

قال قتادة رحمه الله: «﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ والأمر- والله- اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد»(١).

وإن المسلم لتأخذه الدهشة أن يمر كثير من المسلمين على هذه الآية ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ ولا يستوقفه معناها، وهل كان الأمر في يوم من الأيام لغيره سبحانه؟ كلا، بل له الأمر اليوم وقبله وبعده، وفي ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وإنما معنى ذلك أنه يظهر للناس جميعًا تمام الظهور في ذلك اليوم كمال ملكه عز وجل، حيث يخضع جميع الخلق لأمره وحكمه، الملوك وما ملكوا بلا منازع، بخلاف الحال في الدنيا فإن الكثير من الناس من الملوك والمملوكين يتقلبون في ملك الله، ويتمتعون بنعمه ويبارزونه بالمعاصي فهذا كله ينتهي وينقطع كما قال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟، أين المتكبرون؟»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨، وابن ماجه في المقدمة ١٩٨، وأخرجه البخاري مختصرًا في التوحيد ٧٤١٣.

الفوائد والأحكام:

١- أن مآل الأبرار إلى النعيم في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

٢- أن مآل الفجار إلى الجحيم والعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

٣- إصلاء الفجار بالنار وغمرهم فيها يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

٤- خلود الفجار والكفار في النار، وعدم خروجهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

٥- عظم يوم القيامة وشدة أهواله، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

٦- يوم القيامة لا يملك أحد لأحد شيئًا، لا نصرًا ولا دفعًا، ولا منعًا ولا نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

٧- ظهور انفراده عز وجل بالملك والأمر تمام الظهور يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ المُطَفِّفِيْنَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المطففين»؛ لأن الله توعدهم في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [الآيات: ١-٥].

وتسمى: «سورة ويل للمطففين»، و«سورة التطفيف».

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقال بعضهم: مكية، وقيل بعضها مدني، وبعضها مكي.

جـ-موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بوعيد المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون حقهم وإذا كالوا لغيرهم نقصوهم حقهم، وتهديدهم بيوم القيامة العظيم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾.

٢- بيان وتأكيد أن الفجار في سجين؛ لتكذيبهم بيوم الدين، وبآيات الله، ووعيدهم باصطلاء الجحيم وتقريعهم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

٣- بيان أن مال الأبرار إلى عليين يتمتعون فيها بألوان النعيم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾.

٤- ذكر ما كان من المجرمين والكفار في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء والتندر بهم، ووصفهم بالضلال. والوعيد لهم بمجازاتهم يوم القيامة بمثل

فعلهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»(١).

ولهذا روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أنه سئل من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلًا؟ أهل مكة أو المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾»(٢).

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رجل: «يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾»(٣).

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ «ويل»: كلمة زجر وتهديد ووعيد وخسار وهلاك.

و﴿المطففين﴾: جمع مطفف، والتطفيف: البخس والنقص في المكيال والميزان، ولهذا فسره بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾، أي: إذا اكتالوا لأنفسهم وتقاضوا من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، أي: يأخذون حقهم تامًا وافيًا.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾، أي: وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم.

﴿يُخْسِرُونَ﴾، أي: يبخسون الكيل والوزن وينقصونه ويعطون الناس حقهم ناقصًا، فجمعوا بين الشح في طلب حقهم كاملًا بلا مسامحة، والبخل بمنع ما يجب عليهم من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات- التوفي في الكيل والوزن ٢٢٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٠٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ١٨٥- ١٨٦.

إتمام الكيل والوزن لغيرهم.

وهذا الوعيد والتهديد يوجب على الإنسان العدل فيما له وما عليه في الكيل والوزن وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٩].

وذكر الله عز وجل عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال لهم: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

وإنما توعد الله عز وجل المطففين بهذا الوعيد الشديد لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحّة، ولا بد من أدائها إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولهذا قال ﷺ لأصحابه «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بأعمال مثل الجبال، ثم يأتي وقد شتم هذا، ولطم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»(١).

وإذا كان هذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن يطففون الكيل والوزن الحسي، فيأخذون حقهم وافيًا، ويبخسون الناس حقهم في ذلك، فإن بخس الناس حقوقهم في الأمور المعنوية قد يكون أشد من ذلك وأعظم كاحتقار الناس وتنقصهم والتكبر عليهم، وعدم الإنصاف من النفس، وعدم قول الحق عليها بل ولا قبوله.

فالحذر الحذر من بخس حقوق الآخرين حسية كانت أو معنوية من الوالدين والأولاد والأزواج والإخوة وغيرهم من الأقارب والجيران وسائر الناس.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

فكم من زوج يقصِّر في حق زوجه ويطالبه بحقه كاملًا، وكم من قريب يبخس حق قريبه ويطالبه بحقه كاملًا، وقد أحسن القائل:

ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي الـ ـمهذب في الدنيا ولست المهذبا(١)

وكم من إنسان يدعي الدين والتقى والزهد والورع، ويهمهم بالتوبة ويوجه الناس ويدعوهم لكنه لا ينصف من نفسه، ولا يقول الحق عليها، بل ولا يقبله، يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه، يكيل بمكيالين، ينتقد الآخرين ولا يقبل أن ينتقد، بل لا يقبل أن يُنصح.

ولا شك أن هذا ونحوه يدل على مرض القلب وفساده، فإن المسلم الحق من أنصف من نفسه، وقال الحق وقبله له وعليه وشغلته عيوبه عن عيوب غيره، واعترف بضعفه، واتهم نفسه بالتقصير، وقبل النصح، بل وشكر عليه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فما أصعب الإنصاف من النفس، وما أشده على النفوس، فكم من إنسان يستطيع قيام الليل، وصيام النهار، والقيام بكثير من الطاعات وأعمال البر لكنه يقف دون مرتبة الإنصاف من نفسه، وإن ادعى ذلك، فهو كما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا(٢)

عن المعرور بن سويد رضي الله عنه قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلًا فعيّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ:

---

(١) البيت لابن الرومي. انظر: «الخصائص الواضحة» ص٥٤٦، «زهر الأكم» ١/ ٣٠١.

(٢) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٧١.

«يا أبا ذر أعيرّته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»(١).

وفي هذا أروع الأمثلة في الإنصاف فرضي الله عنك يا أبا ذر.

وقد أعجبني موقف لأحد الإخوة رحمه الله جاء يخطب لأحد أبنائه ابنة خال له رحمه الله فقال له خاله يا أبا محمد هل تشير بولدك، يعني هل تنصحني أن أزوجه ابنتي فقال له رحمه الله تعالى: لا والله يا خال ما أشير به، يعني لا أنصحك بتزويجه، وكان رحمه الله لاحظ على ابنه أمرًا لا يُؤَثِّر على تزويجه. اللهم اغفر له وارحمه جاء يخطب لولده وأشار على والد البنت ألا يزوجه لما استشاره، ما أصعب هذا وأشده على النفوس. اللهم وفقنا للإنصاف من أنفسنا وقول الحق، وقبوله وإن كان علينا.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ «ألا» الهمزة: للاستفهام الإنكاري، و«لا»: نافية، أي: ألا يتيقن أولئك المطففون، والظن يأتي في القرآن كثيرًا بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يتيقنون ذلك.

﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، أي: أنهم مخرجون من قبورهم أحياء بعد موتهم.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: ليوم القيامة الذي فيه يحاسبون ويجازون على أعمالهم وهو يوم عظيم، ثقيل عسير عبوس قمطرير شره مستطير، قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

ولهذا نكّر «يوم»، ووصفه بأنه عظيم، ولا يقدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: يوم يقوم الناس من قبورهم ويقفون بين يدي الله عز وجل حفاة عراة غرلًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٠، ومسلم في الأيمان ١٦٦١، وأبو داود في الأدب ٥١٥٧.

[الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].

ومن هنا سمي يوم القيامة بهذا الاسم؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدي الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: خاف القيام بين يديه عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ولقيام الحساب والجزاء فيه والعدل الحقيقي كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقيام الأشهاد كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

ولقيام الروح فيه والملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»(١).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل»، قال سليم- أحد رواة الحديث- ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشرًا،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ٤٩٣٨، ومسلم في الجنة- صفة القيامة ٢٨٦٢، والترمذي في القيامة ٢٤٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٨، وأحمد ٢/ ١٣، ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٦٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢١، وأحمد ٦/ ٣-٤.

وأخرجه أحمد ٥/ ٢٥٤ بنحوه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، ومن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ٤/ ١٥٧.

ويحمد عشرًا، ويسبح عشرًا، ويستغفر عشرًا، ويقول: «اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة»(١).

ولهذا خوف الله عز وجل المطففين بهذا اليوم العظيم؛ لأن الإيمان به وبما فيه من الأهوال والحساب والثواب والعقاب من أعظم ما يحمل على العمل وقد رُوي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»، أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض وتهالكوا في المعاصي والشرور.

الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للمطففين الذين يأخذون حقهم وافيًا من الناس ويبخسون حقوق الناس، والإنكار عليهم، وتذكيرهم بالبعث والمعاد والقيام بين يدي الله في ذلك اليوم العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

٢- وجوب الإيمان بالبعث والمعاد والقيام بين يدي رب العباد يوم القيامة وأن ذلك من أعظم الأسباب التي تحمل على تقوى الله ومراقبته وأداء الحقوق، ولهذا خوّف الله المطففين بهذا اليوم العظيم.

٣- وجوب مراقبة الله عز وجل وإيفاء الكيل والوزن، والعدل في التعامل مع الخلق.

٤- لا يجوز أن يكيل الإنسان بمكيالين يأخذ حقه من الناس وافيًا وينتقص حقوق الناس، ويجب الإنصاف من النفس وإعطاء كل ذي حق حقه ماديًا كان أو معنويًا.

٥- عظمة يوم القيامة وشدة أهواله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ٧٦٦، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦١٧.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ في هذا الموضع، وفي الموضعين بعده: للردع والزجر والوعيد والتهديد.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ «كتاب» بمعنى مكتوب، و«الفجار» جمع فاجر، وهم الكفرة أصحاب الفجور المكذبون بالبعث.

﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾، اللام: للتوكيد و«سجين» مأخوذ من السَّجن وهو الحبسُ والتضييق، أي: إن مصيرهم ومأواهم إلى مكان ضيق ضنك مظلم موحش، في أسفل النار في الأرض السفلى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وفي حديث البراء رضي الله عنه في قبض روح الكافر «اكتبوا كتابه في سجين»(١).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما سجين؛ سفوله شديد، وضيقه عظيم، وسجنه مقيم، وعذابه أليم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ توكيد لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى سجين.

ومعنى ﴿مَّرْقُومٌ﴾، أي: مكتوب مختوم مفروغ منه لا يغير ولا يبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص منه، وذلك أن هذا من الكتابة والقضاء الكوني الذي لا بد أن يقع قطعًا.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ «ويل»: كلمة زجر وتهديد ووعيد وهلاك ودمار وخسار

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة- المسألة في القبر ٤٦٥٣، وأحمد ٤/ ٢٨٧، والحاكم ١/ ٣٧- وقال «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

والمعنى: ما أشد عذاب المكذبين في ذلك اليوم، ويقال أيضًا: إنه واد في جهنم.

عن معاوية بن حيدة عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب؛ ليضحك الناس، ويل له، ويل له»(١).

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: تفسير وبيان ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، أي: الذين يكذبون بيوم القيامة الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، ويعتقدون استحالة وقوعه، ولا يصدقون به.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾، أي: وما يكذب بيوم الدين وينكر وقوعه.

﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ «إلا»: للحصر، أي: إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام في أقواله وأفعاله ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم، أي: كثير الذنوب.

وقيل: ﴿معتد﴾ في أفعاله ﴿أثيم﴾ في أقواله.

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾، أي: إذا تقرأ عليه ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، أي: آياتنا الشرعية، القرآن الكريم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال عن آيات الله إذا سمعها هذه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ «الأساطير» جمع أسطورة، أي: خرافاتهم وحكاياتهم التي تذكر للتسلي، ولا حقيقة لها، ولا أصل، أي: هذا مجموع مما سطره الأولون في كتبهم من أخبار وخرافات وغير ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨].

وهكذا كل من لم يصل نور الإيمان إلى قلبه.

﴿كَلَّاۖ﴾، أي: كلا، ليس الأمر كما زعموا: أن لا بعث ولا حساب، ولا كما ادعوا

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/ ٥- ٦، ٧.

أن القرآن أساطير الأولين، فالبعث حق وصدق، والقرآن كلام رب العالمين سبحانه وتعالى.

﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي.

﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، أي: غلب عليها، وغشيها وغطاها، وحجبها وأعماها عن الحق. والرين: هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: كسبهم، أو الذي كانوا يكسبون من الذنوب المتراكم بعضها على بعض، أي: حال بين قلوبهم وبين معرفة الحق والاهتداء إليه ما عملوه من الذنوب والمعاصي المتراكمة فصارت هذه الذنوب حجابًا بينهم وبين قلوبهم، وبينهم وبين ربهم وخالقهم.

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في قوله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»(١).

فالمعصية سبب للمعصية بعدها، والمعاصي سبب لانطماس القلوب، وعمى البصائر وحيرتها؛ ولهذا تجد كثيرًا من الناس، بل كثيرًا من المسلمين يتخبطون في كثير من أمورهم وأحوالهم، ولا يوفقون فيها للحق والصواب بسبب الذنوب والمعاصي. وما تعيشه الأمة اليوم من أحداث وتفرق وخلافات أدت إلى اختلاف القلوب كل ذلك سببه الذنوب والمعاصي وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المطففين ٣٣٣٤، وابن ماجه في الزهد- ذكر الذنوب ٤٢٤٤، وأحمد ٢/ ٢٩٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٠٠، وقال الترمذي «حديث صحيح».

فلا طريق لمعرفة الحق والاهتداء إليه والخروج من الحيرة والتذبذب أمام كل القضايا والمشكلات، إلا بالرجوع إلى الله عز وجل وسؤاله الرشد والهداية، كما قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: ما تفرقون به بين الحق والباطل والخير والشر، في أمور الدين والدنيا، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة(٢).

وكان ﷺ يدعو ويقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(٣).

وكان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن أمامي نورًا، ومن خلفي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، واجعل لي نورًا»(٤).

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ ﴾، أي: عن رؤية ربهم في الآخرة.

﴿ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾، أي: لممنوعون عقوبة لهم.

ومفهوم هذا أن المؤمنين يرون ربهم في ذلك اليوم، وأنهم يتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، لأن رؤيتهم له عز وجل أعظم نعيمهم وأعلاه.

ولهذا قال ﷺ في الدعاء: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣١٩، وأحمد ٥/ ٣٨٨- من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»(١).

وقد قال عز وجل: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفسر ﷺ الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم(٢).

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعلى هذا دلت السنة وأجمع الصحابة والأئمة. قال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب»(٣).

وفي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»(٤).

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: لداخلوها ومغمورون فيها ومقاسون حرها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾، أي: ثم يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتبكيت والتحقير والتصغير:

﴿هَٰذَا﴾، أي: حرمانكم من رؤية الرب الغفار، وإصلاؤكم الجحيم والنار.

﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ فتقولون: لا بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب.

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على القلوب، والذي لا يقل عن العذاب الحسي.

الفوائد والأحكام:

١- أن كتاب الفجار ومصيرهم ومأواهم في مكان ضيق ضنك في أسفل النار في الأرض السفلى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٠٥- من حديث عمار بن ياسر- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد- قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ٧٤٤٠، ومسلم في الإيمان ١٨٢، ١٨٣، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

٢- تأكيد شدة سوء هذا المكان سفولًا وضيقًا وظلمة ووحشة، وتحتم مصير الفجار إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾.

٣- الوعيد والتهديد للمكذبين بالحق وبالبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٤- إثبات البعث وأنه لا يكذب به إلا كل متجاوز الحق إلى الباطل والحلال، إلى الحرام كثير الإثم والذنوب، مكذب للقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٥- ذم الفجار والمكذبين، وبيان أن الذنوب والمعاصي تغشى القلوب وتعميها عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٦- حرمان الفجار من رؤية ربهم عز وجل في الآخرة، وحجبهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّهِمْ﴾.

٨- إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة لقوله في الفجار؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ ومفهوم هذا أن المؤمنين يرونه.

وعلى هذا دل الكتاب والسنة، وعليه أجمع الصحابة وسلف هذه الأمة.

٩- إدخال الفجار الجحيم وإصلاؤهم وغمرهم فيها وإحاطتها بهم من كل جهة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾.

١٠- الجمع للفجار بين العذاب الحسي في الجحيم، والعذاب المعنوي المنصب على القلوب من التقريع والتوبيخ والتبكيت والتحقير؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة مآل الفجار المكذبين بالبعث والحساب، وتوعدهم بالويل والهلاك والدمار، والحرمان من رؤية الجبار، وإصلائهم بالجحيم والنار ثم أتبع ذلك بذكر مآل الأبرار وما أعد الله لهم في أعالي الجنان من النعيم. على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ هذا مقابل قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، و«كلا»: حقًا.

«كِتَٰبَ» أي: مكتوب.

و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾: جمع بر، وهم المؤمنون المتبعون لأوامر الله والمجتنبون لنواهيه كثيرو الخير والإحسان وضدهم الكفار الفجار.

﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿عِلِّيِّينَ﴾: مأخوذ من العلو والارتفاع، أي: إن مصيرهم و مآلهم في مكان عال مرتفع، وهو أعلى الجنة في السماء السابعة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾: تعظيم وتفخيم لأمره، أي: وما أعلمك ما عليون منزل رفيع ومكان وسيع، ومجلس كريم، فيه ألوان النعيم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾: توكيد لقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، أي: توكيد لما كتب لهم من المصير إلى عليين.

﴿مَّرْقُومٌ﴾، أي: مكتوب، لا يتغير ولا يتبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص منه.

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: يحضره المقربون عند الله عز وجل من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين تنويهًا بهذا الكتاب وإشهارًا له، وتعظيمًا لشأن الأبرار وإشادة بذكرهم.

«والمقربون»: جمع «مقرب»، وهم الذين تقربوا إلى الله عز وجل بالإيمان والأعمال الصالحة، فقربهم إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ

ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي: اطلبوا إليه القربة والزلفى عنده.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ هذا بيان لما كتب لهم في عليين.

و«النعيم» كل ما تتنعم وتسر به القلوب وكل ما تلتذ به وترتاح له النفوس، من المآكل والمشارب والأزواج والمساكن والبساتين وغير ذلك من ألوان النعيم المعنوي نعيم القلب والنعيم الحسي نعيم البدن.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ هذا إلى قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ تفصيل للنعيم المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

و﴿الأرائك﴾ جمع أريكة، وهي السرر المزينة المزخرفة الرفيعة عليها الفرش الناعمة الحسنة البهية، وضع عليها مثل الظل.

﴿ينظرون﴾، أي: ينظرون إلى ما أعطاهم الله من النعيم والملك الكبير، والذي أعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين»(١).

وهذا في مقابل ما أعده الله للفجار من العذاب الأليم، والحرمان من رؤية الرب الرحيم.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء: «تُعرَف» ورفع «نضرةُ».

وقرأ الباقون بفتح التاء وكسر الراء: ﴿تَعْرِفُ﴾، ونصب ﴿نَضْرَةَ﴾.

أي: تعرف وترى في وجوههم إذا نظرت إليها نضارة التنعم وحسنه وبهاءه وبريقه، وبهجة الفرح والسرور لأن أثر ذلك يبدو واضحًا على الوجوه.

وفي الحديث: «أنه ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٣، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢- من حديث =

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾، أي: يسقون من شراب الرحيق، وهو الخمر، الذي يطوف به عليهم الولدان المخلدون كما قال عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٧- ١٩].

﴿مَّخْتُومٍ﴾، أي: مختوم عليه عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قرأ الكسائي: «خاتمه»، وقرأ الباقون: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، أي: آخر شربة منه، برائحة المسك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أيما مؤمن سقى مؤمنًا شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمنًا ثوبًا على عري كساه الله من خُضْر الجنة»(١).

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

قوله: ﴿وفي ذلك﴾ الإشارة إلى ما أعده الله عز وجل للأبرار من ألوان النعيم السابقة وغيرها.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ التنافس والمنافسة: المسابقة يقال نافسته، أي: سابقته سباقًا بلغ بي النفس.

أي: وفي الحصول على هذا النعيم والعيش الكريم والخير العميم فليتسابق المتسابقون بأعمال البر من فعل الطاعات والقربات والخيرات والأعمال الصالحات والبعد عن المنهيات.

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾، أي: ما يمزج به ويخلط هذا الرحيق الذي يسقى منه الأبرار.

﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾، أي: من شراب من عين تسمى: ﴿تَسْنِيمٍ﴾، تنبع من الفردوس في أعلى الجنة، وهو أفضل شراب أهل الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس،

=

كعب بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٣- ١٤.

فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»(١).

ولهذا فسر ذلك بقوله:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: هذا التسنيم. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ «عينا» مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني، أو أمدح، أو يسقون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفًا وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا»(٢).

ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشربون منها ويرتوون، ولهذا قال ﴿بِهَا﴾ ولم يقل «منها» فضمن «يشرب» معنى «يروى» فعدي بالباء، كما في قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضر لهن نئيج(٣)

و﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: جمع مقرّب، وهم المقربون عند الله عز وجل وهم السابقون المذكورون في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

وهم السابقون بالخيرات كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمعنى: أن هذه العين المسماة ﴿تَسْنِيمٍ﴾، والتي نبعها وشرابها أفضل وأعلى شراب أهل الجنة يشرب منها صرفًا بلا خلط المقربون ويرتوون منها بينما تمزج مزجًا للأبرار وهم أصحاب اليمين بالرحيق، كما في قوله هنا ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾ [المطففين: ٢٥- ٢٧].

وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾؛ فهذا خليط من الخمر والكافور للأبرار، ثم قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الآيتان: ٥، ٦]، أي: عين الكافور يشرب منها المقربون خالصة صرفًا،

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد- كان عرش الرحمن على الماء ٧٤٢٣.

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ١٢.

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/ ٥١، ٥٢.

بلا مزج ويرتوون.

والجزاء من جنس العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بغيرها مزج لهم شرابهم.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢- أن كتاب الأبرار ومصيرهم ومأواهم إلى عليين؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

٣- تعظيم منزلة الأبرار وعلو مكانتهم في الجنة وتأكيد ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾.

٤- تشريف الأبرار وتكريمهم بشهود المقربين كتابهم المرقوم؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٥- عظم ما أعده الله للأبرار من النعيم، فهم على الأسرة ينظرون إلى ما أعد لهم من الملك العظيم، مع بهجة القلوب ونضارة الوجوه، شرابهم الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾

٦- أن هذا النعيم العظيم الذي أعده الله للأبرار هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون ويتسابق إليه المتسابقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

٧- أن المقربين يشربون صرفًا من عين التسنيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٨- أن الجزاء على قدر الإيمان والعمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

بعد ما ذكر الله عز وجل مآل الفجار، وما أُعد لهم من أنواع العذاب، وذكر مآل الأبرار وما أعده لهم من ألوان النعيم، ذكر ما كان يلقاه المؤمنون من المجرمين الفجار في الدنيا من الضحك والاستهزاء بهم ورميهم بالضلال فجعل الله العاقبة للمتقين وجوزي الكفار بما كانوا يفعلون.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾، أي: الذين ارتكبوا الجرائم والموبقات.

﴿كَانُوا۟﴾، أي: في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾، أي: يضحكون من المؤمنين استهزاء وسخرية بهم بسبب إيمانهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾، أي: إذا مر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين يغمز بعضهم بعضا بالإشارة باليد، أو بالعين أو بغير ذلك تنقصًا للمؤمنين واحتقارًا لهم وسخرية منهم.

ويحتمل أن المعنى: وإذا مر الذين آمنوا بهؤلاء المجرمين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾، أي: يغمز المجرمون بعضهم بعضًا.

والمعنى متقارب، وهو أن هؤلاء المجرمين إذا رأوا المؤمنين يتغامزون احتقارًا لهم وسخرية منهم.

وقريب من هذا قول المنافقين في غزوة تبوك فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وغيره: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء- يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦]»(١).

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ٥٤٣.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾، أي: إذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من أزواج وأولاد وغيرهم.

﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وحفص: ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: «فاكهين» بالألف.

أي: رجعوا حال كونهم متفكهين متلذذين بتنقصهم للمؤمنين واحتقارهم لهم، واستهزائهم بهم وسخريتهم منهم، ومن هنا قيل للغيبة: فاكهة المجالس.

ومتفكهين بنعم الله عليهم التي لا تحصى، لكنهم لم يشكروها، بل كفروها واشتغلوا بالاستهزاء بالمؤمنين واحتقارهم، فجمعوا بين الكفر بالله وبنعمه وأذية عباده المؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: وإذا رأى هؤلاء المجرمون الذين آمنوا قالوا: إن هؤلاء القوم.

﴿لَضَآلُّونَ﴾، أي: لتائهون عن الحق والصواب، وليسوا على هدى.

وهذا دأب المكذبين في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وإذا كان هذا يقال للرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- فمن دونهم سيرمى بالضلال ونحو ذلك من باب أولى. فانتبه أخي المسلم لهذا، ولا يفت في عضدك ما دمت على الحق.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، أي: وما بعث هؤلاء المجرمون على المؤمنين ﴿حافظين﴾ يرقبونهم ويحفظون أعمالهم ويحصونها ويحكمون عليهم، فلم اشتغلوا بهم وأهملوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١].

ولهذا فإن من ضعف العقل وانطماس البصيرة انشغال المرء بعيوب غيره عن عيوب نفسه، أن يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه، وكما قيل:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ... ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى

ولـو كـان ذا عقـل لمـا عـاب غـيره وفيـه عيـوب لـو رآهـا بهـا اكتفـى

وقد استفحل هذا الأمر حتى أصبح كثير من الناس يفرط فيما يعنيه وما يجب عليه من العمل في إصلاح نفسه وأهله وأقاربه وجيرانه وما يقدر عليه، وما سيسأل عنه غدًا، وينشغل بما لا يعنيه من الكلام في الآخرين ونقدهم وذمهم، ممن لا يطلب منه إلا الدعاء لهم- واسأل وسائل الاتصال عما يدور فيها- وهذا من أعظم المصائب، وأشد البليات وأكبرها، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وكما قيل:

يقضـى عـلى المـرء في أيـام محنتـه حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن(١)

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ الجزاء من جنس العمل وكما يدين المرء يدان فكما ضحك المجرمون والكفار من المؤمنين في الدنيا فإن المؤمنين يضحكون منهم يوم القيامة جزاء وفاقًا.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ الأرائك: جمع أريكة، أي: على الأسرة والفرش الحسنة الناعمة ينظرون إلى ما أعد الله لهم من النعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم.

وأيضًا ينظرون إلى هؤلاء المجرمين وهم في النار يعذبون.

فتبين بهذا أن الذين آمنوا هم المهتدون حقًا، لا الضالون، كما زعم المجرمون.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ «هل»: للاستفهام التقريري، أي: هل جوزي الكفار.

﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: الذي كانوا يفعلون، أو فعلهم.

والجواب: نعم جوزي الكفار على فعلهم أوفر الجزاء وأتمه وأكمله حتى إنه قوبل ضحكهم من المؤمنين في الدنيا بضحك المؤمنين منهم في الآخرة، والجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحدا.

---

(١) انظر: «نفح الأزهار» ص٦٠.

الفوائد والأحكام:

١- شدة عداوة الكفار والمجرمين وأذيتهم للمؤمنين وضحكهم منهم في الدنيا واستهزاؤهم بهم، وتنقصهم واحتقارهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٢- تفكه هؤلاء المجرمين عند رجوعهم إلى أهلهم باستهزائهم بالمؤمنين وباحتقارهم لهم، وتفكههم بنعم الله عز وجل وكفرهم به وبنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾.

٣- وجوب الحذر من الاستهزاء أو السخرية بأحد من المؤمنين، أو بشيء من الدين أو كفر النعم فهذا دأب الكفار والمجرمين والمنافقين.

٤- جرأة المجرمين والكفرة والمنافقين على رمي المؤمنين بالضلال، واتهامهم لهم بأشد الاتهامات تنفيرًا للناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

٥- الرد على المجرمين في حكمهم على المؤمنين بالضلال، وانشغالهم بهم، وبما لا يعنيهم عن أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾.

٦- الحذر من انشغال المرء عما يعنيه بما لا يعنيه، وعن عيوب نفسه بعيوب الآخرين، كما هو حال كثير من الناس.

٧- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، فكما ضحك المجرمون من المؤمنين في الدنيا، وتفكهوا في ذلك، ضحك منهم المؤمنون في الآخرة وهم على الأسرة ينظرون إلى ما هم فيه من النعيم، وإلى أولئك المجرمين يعذبون؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٨- مجازاة الكفار بفعلهم، عدلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلانْشِقَاقِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الانشقاق»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة إذا السماء انشقت»، و«سورة انشقت» اختصارًا.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

سبق في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ: «إذا الشمس كورت»، و«إذا السماء انفطرت»، و«إذا السماء انشقت»(١).

د- موضوعاتها:

١ - ذكر علامات القيامة وأهوالها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

٢ - إثبات القيامة ولقاء اله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾

٣- ذكر انقسام الناس إلى فريقين فريق يعطى كتابه بيمينه، ويحاسب حسابًا يسيرًا، وفريق يعطى كتابه من وراء ظهره، يدعو ثبورًا ويصلى سعيرًا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

٤ - تقلب أحوال الناس وانتقالهم من حال إلى حال ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٥- الإنكار على المكذبين والكفار عدم إيمانهم، وتكذيبهم وكفرهم وتهديدهم ووعيدهم بعذاب أليم، ووعد المؤمنون بالأجر العظيم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

أي: إذا السماء انفطرت وتصدعت وانفتحت وانفرجت وذلك يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ [المرسلات: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أي: استمعت لربها- خالقها ومالكها والمتصرف فيها.

ومنه الحديث: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن»(١)، أي: ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن.

ومنه قول الشاعر(٢):

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٢٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نسب هذا البيت إلى قعنب بن أم صاحب. انظر «الحماسة» لأبي تمام ٢/ ١٧٠، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة ٣/ ٨٤، و«لسان العرب» مادة «أذن».

أي: سمعوا.

فالمعنى: استمعت لربها وأطاعت أمره لها بالانشقاق، كما أطاعته في ابتداء خلقه لها قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: وحق لها، ووجب عليها أن تسمع وتطيع لأمره، لأن هذا من أمره الكوني وهو نافذ لا محالة، لأنه عز وجل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ ۖ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، أي: دك ما عليها من جبال وبناء وغير ذلك ووسعت، ومدت كما يمد الأديم وبسطت.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، أي: وألقت ما في باطنها من الأموات وتخلت عنهم، وذلك بعد النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وأيضًا ألقت ما فيها من الكنوز وتخلت عن ذلك كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل، فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق، فيقول في هذا قطعت يدي. ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئًا»(١).

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾: توكيد لاستماعها لربها وطاعتها له.

وجواب «إذا» في قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وما بعده محذوف، وهو مفهوم من السياق وتقديره: حوسب الإنسان وجوزي ورأى ما قدم من خير أو شر.

وعلى هذا يدل قوله بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الآيات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: نداء وخطاب للإنسان جنس الإنسان، من مؤمن، وكافر.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- الترغيب في الصدقة ١٠١٣، والترمذي في الفتن ٢٢٠٨.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الكدح: السعي والعمل.

قال الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح[1]

ومعنى الآية: إنك عامل وساعٍ إلى ربك، أي: حتى تصل إلى ربك وتنتهي إليه.

كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿كدحًا﴾: مصدر مؤكد، أي: عملًا وسعيًا حثيثًا بجد ومشقة، إما خيرًا، وإما شرًا، وشتان بين الكادحين.

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[2].

قال لبيد[3]:

وما الناس إلا عاملان فعامل يُتبِّر ما يبني وآخر رافع

﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي فملاق ربك عن قريب وسيجازيك بما عملت قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

وكل آت قريب.

والعمر مهما طال في هذه الحياة فهو قصير، قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣].

والحياة البرزخية مهما طالت أسرع وأقرب من ذلك؛ ولهذا قال الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقال أصحاب الكهف: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، وقد لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا.

فما أسرع ملاقاة الإنسان لربه، وما أقرب ذلك.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما

---

(١) البيت لابن مقبل. انظر: «ديوانه» ص٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص٥٦.

شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»(١).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»(٢).

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

بعد ما بين عز وجل أن كل إنسان كادح في هذه الحياة، وساع إلى ربه، فملاقيه فيجازيه بعمله ذكر انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، وتفصيل حال كل منهما في ذلك اليوم.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل و«من»: اسم شرط جازم، أي: فأما من أعطي كتاب عمله بيده اليمنى تكريمًا له، وهو المؤمن.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط.

أي: فسوف يحاسب حسابًا سهلًا خفيفًا، أي: عرضًا بلا مناقشة كما جاء في عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي- فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة- الصدقة قبل الرد ١٤١٣، ومسلم في الزكاة- الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢، ٤/ ٢٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ٤٩٣٩، ومسلم في كتاب الجنة- إثبات الحساب ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في تفسير سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ٢٤٢٦، وأحمد ٦/ ٤٧.

وعنها رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا» فلما انصرف قلت: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟، قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه(٢)، ويقرره بذنوبه فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول أي ربي. فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(٣).

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، أي: ويرجع من موقف الحساب إلى أهله في الجنة من الحور العين، وممن من الله عليهم من أهله في الدنيا بدخول الجنة من الأزواج والأولاد والوالدين وغيرهم بعد الفراق بينهم في الدنيا.

﴿مَسْرُورًا﴾، أي: قد سر، واستنار وجهه وظهرت عليه آثار سرور قلبه وفرحه واغتباطه بإعطائه كتابه بيمينه، وما فيه من الأجر والفضل من الله عز وجل، وبتيسير حسابه وتخفيفه، فيا حسن منقلبه ومرجعه.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما من أعطي كتاب عمله.

﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾، أي: بشماله بعد أن تلوى وراء ظهره، وهو الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وإنما أعطي كتابه بشماله إهانة له واحتقارًا وإذلالًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤٨، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٧٩: «صحيح على شرط مسلم»، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٣٦- ٢٣٩.

(٢) أي: ستره ورحمته.

(٣) سبق تخريجه.

عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولويت يده وراء ظهره؛ لأنه نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره، ولم يرفع به رأسًا والجزاء من جنس العمل.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾، أي: فسوف ينادي بالثبور والهلاك والخسار: واثبوراه واهلاكاه واخساراه، كما قال تعالى عنه في سورة الحاقة: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الآيات: ٢٥- ٢٧].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾.

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام: «وَيُصَلَّى»، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مستعرة متوقدة، وهي «فعيل» بمعنى «مفعول، أي: مسعورة.

والمعنى: ويدخل النار المستعرة ويغمر ويُقَلّب فيها ويقاسي حرها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، أي: إنه كان في الدنيا في أهله؛ زوجه وأولاده وأقاربه فرحًا مغتبطًا بما هو عليه من الباطل، وذلك لموت قلبه، وعدم تفكيره في العواقب، وعدم خوفه مما أمامه.

وشتان بين هذا السرور الفاني الذي يعقبه الحزن والندم الدائم، وبين السرور في جنات النعيم؛ ولهذا قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١).

وليس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ ما يدل على حظر أن يكون المسلم في أهله مسرورًا، أو أنه ينبغي أن يكون محزونًا، أو أن لا يسر بشيء أبدًا، بل إن المسلم هو الأولى بالسرور والسعادة حقًا في الدنيا والآخرة.

لكن سرور الدنيا وسعادتها مشوب بالكدر، لهذا ينبغي أن لا يطمئن إليها المسلم،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأن يكون منها على وجل.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾، أي: إنه اعتقد أنه لن يرجع إلى ربه، فهو لا يؤمن بالبعث، ولا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا.

والظن يستعمل كثيرًا في القرآن بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يعتقدون أنهم ملاقو ربهم.

والحَوْرُ: الرجوع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور»(١).

قال لبيد(٢):

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

والمعنى: إنه ظن أن لن يرجع إلى الله، ولن يبعث بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب؛ لإيجاب المنفي، أي: بلى سيرجع إلى ربه، ويقف بين يديه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١٦].

﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾، أي: إن ربه عز وجل كان به بصيرًا في الدنيا، خبيرًا بأعماله، محصيًا لها، بصيرًا به في الآخرة، سيحاسبه ويجازيه عليها، ولا يمكن أن يتركه سدى بلا تكليف ولا مجازاة.

الفوائد والأحكام:

١- انشقاق السماء يوم القيامة واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾.

٢- مد الأرض، وإلقاؤها ما في باطنها من الأموات والكنوز، وتخليها عن ذلك واستماعها لأمر الله لها بذلك وطاعتها له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٣٤٣، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٩٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٨- من حديث عبد الله بن سرجس- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٥٦.

وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

٣- أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة لا محيد عنه، ولا مفر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: وحق لها ووجب عليها أن تسمع وتطيع.

٤- سعي الإنسان سعيًا حثيثًا، وكدحه حتى يلقى ربه فيجازيه بعمله خيرًا كان أو شرًا، ولا محيد له عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

٥- إثبات لقاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾.

٦- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى سعيد، يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حسابًا يسيرًا ويرجع إلى أهله في الجنة فرحًا مسرورًا، وإلى شقي يعطى كتابه بشماله من وراء ظهره، يدعو على نفسه بالويل والثبور ويصلى السعير، لاغتباطه وسروره بين أهله في الدنيا بما هو عليه من الباطل وإنكاره البعث والمعاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

٧- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

٨- أن الله بصير بالعباد في دنياهم وأخراهم، مطلع على أعمالهم، عليم بها، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض علامات وأهوال القيامة، من انشقاق السماء، ومد الأرض، وإخراجها ما في باطنها من الأموات، وأن الإنسان ساعٍ إلى ربه فملاقيه، فآخذ كتابه بيمينه مخفف حسابه، وآخذ كتابه بشماله مثقل حسابه.

ثم أتبع ذلك بالقسم في هذه الآيات على تأكيد ما سبق، وأن الإنسان سينقل من حال إلى حال حتى يصل إلى مأواه الأخير إما الجنة، أو النار.

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا»: للتنبيه وتأكيد القسم.

والمعنى: أقسم بالشفق، والشفق: هو الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق»(١).

وقال بعض المفسرين: المراد بالشفق النهار كله، لقوله بعده: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وقال بعضهم: المراد به الشمس؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾.

والأشهر والأظهر القول الأول.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به. و«ما»: موصولة، أي: والذي وسق، أي: والذي ضم وحوى وجمع من نجم ودواب ووحوش وهوام وظلمة وغير ذلك.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، أي: إذا اجتمع نوره، وتم وكمل، واستوى واستدار، وذلك ليالي الإبدار.

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦١٢، وأبو داود في الصلاة ٣٩٦، والنسائي في المواقيت ٥٢٢، وأحمد ٢/ ٢١٠، ٢٢٣.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا هو جواب القسم، واللام واقعة في جواب القسم.

فأقسم عز وجل بثلاثة أشياء متعلقة بالليل، وهي: الشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا كمل: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف: «لتَركبَن» بفتح الباء، خطابًا للمفرد، أي: لتركبن أيها الإنسان، أي: لتنقلَن من حال إلى حال.

وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء خطابًا للجمع، أي: لتركبُن أيها الناس حالًا بعد حال، أي: لتنقلُن من حال إلى حال.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾: حالًا بعد حال»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»(٢).

وعن سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلًا بمثل»(٣).

فقد كان الإنسان عدمًا لا ذكر له، ثم خلقه الله عز وجل، وانتقل في بطن أمه من حال إلى حال ومن طور إلى طور، ثم ولد، وانتقل من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب ثم إلى الهرم و الشيخوخة.

وهو في ذلك بين رخاء وشدة، وغنى وفقر، وصحة وسقم، وعز وذل، وسرور وحزن، إلى غير ذلك من الأحوال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهو في ذلك كله معرض لما هو أشد وأعظم، وهل يوفق للإيمان والاستقامة على

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٠

(٢) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠، وأخرجه أيضًا من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه ٥/ ٢١٨، والترمذي في الفتن ٢١٨٠، وقال: «حديث حسن صحيح».

طاعة الله، فيسعد في دينه ودنياه وأخراه، أو يخذل، فيختار الكفر على الإيمان، فيشقى في دينه ودنياه وأخراه. وما دام المرء حيًا فهو عرضة للفتنة، فعلى المؤمن أن يلزم الدعاء بقوله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١).

كما أن الإنسان متنقل في حياته ينتقل من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار إلى أن يموت فينتهي إلى مصيره ومأواه في دار القرار، فإما إلى الجنة دار المقربين والأبرار وإما إلى النار مثوى الكافرين والفجار.

عن ابن شماسة المهري قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكى طويلًا، وحوّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أمَا بشّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟، قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أجد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه، فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله» وما كان أحد أحب من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها..» الحديث(٢).

ولما كان المقسم به والمقسم عليه في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ فيه أعظم الأدلة على ربوبيته عز وجل ووحدانيته وكماله وصدق رسله، وعلى المعاد، عقبه بقوله:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٢١.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: للاستفهام الإنكاري، أي: فما الذي يمنعهم من الإيمان؛ أو أي شيء يمنعهم من الإيمان مع وضوح البرهان، وتحقق انتقالهم من حال إلى حال إلى أن ينتهوا إلى دار القرار، قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٩].

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾، أي: وما الذي يمنعهم إذا تلي عليهم القرآن أن يخضعوا له وينقادوا لأوامره ويصلوا، ويسجدوا على الأعضاء السبعة عند سجداته تعظيمًا له، وشكرًا لله عز وجل.

وقد ثبت أن النبي ﷺ سجد في هذه السورة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾» (١).

وعن أبي رافع رضي الله عنه قال: «صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له. قال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»(٢).

وقد استدل بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة بعض أهل العلم.

والصحيح أنه سنة مؤكدة، وليس بواجب لما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ سورة النمل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد، فقال رضي الله عنه: «إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٧، والنسائي في الافتتاح السجود في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ٩٦٣، والترمذي في الجمعة ٥٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٠٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٧٦٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٧٨، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٨، والنسائي في الافتتاح ٩٦١.

(٣) أخرجه البخاري في سجود القرآن- من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ١٠٧٧- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكر عليه أحد. وقد قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»(١).

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا يكذبون بالحق ولا يصدقون به؛ جحودًا وعنادًا، فهذا هو سبب عدم إيمانهم وعدم سجودهم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ «أعلم»: أفعل تفضيل، أي: أنه عز وجل أعلم من كل أحد.

﴿بِمَا يُوعُونَ﴾، أي: بما يجمعون ويضمرون، و هو- عز وجل- أعلم بهم من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

والمعنى: والله أعلم بالذي يجمعون ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من أعمال باطلة، وأموال هي زادهم إلى النار.

قال عبيد بن الأبرص(٢):

الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

أي: أخبث ما جمعت من زاد.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الخطاب والأمر للرسول ﷺ، ولكل من يصلح خطابه، أي: فبشرهم أيها المبشر، وأخبرهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨].

والبشارة في الأصل تستعمل فيما يسر، أخذًا من انبساط البشرة واتساعها عند ورود الخبر السار لها، واستعملت هنا في البشارة بالعذاب الأليم على سبيل التهكم والاستهزاء.

﴿أليم﴾: «فعيل» بمعنى: «مفعل»، أي: مؤلم حسًا ومعنى.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «إلا»: أداة استثناء؛ بمعنى «لكن»، فالاستثناء: منقطع، أي:

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢- من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) انظر «ديوانه» ص٤٩، «لسان العرب» مادة «وعى».

لكن ﴿الذين آمنوا﴾.

والإيمان في اللغة: التصديق كما قال إخوة يوسف ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: لن نصدق بهذا القرآن ولا بالذي سبقه من الكتب السماوية.

والمعنى: إلا الذين آمنوا، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للأرحام وأداء لحق الجار، وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك.

وحذف الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن المهم في العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل، وفق سنة رسوله ﷺ.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ «لهم» جار ومجرور خبر مقدم، و«أجر» مبتدأ مؤخر، أي: لهم خاصة دون غيرهم. ونكّر «أجر»: للتعظيم، أي: ثواب عظيم.

وسمي الثواب أجرًا، تشبيهًا له بأجرة الأجير، لأن الله عز وجل بكرمه وفضله وامتنانه تكفل بهذا الثواب وأوجبه على نفسه.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، ولا ممنوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وغير ممنون به عليهم، كمنة الخلق بعضهم على بعض، وإلا فإن لله عز وجل المنة والفضل والإنعام على جميع خلقه بنعمة الربوبية العامة وله المنة والفضل والإنعام على أوليائه المتقين وحزبه المفلحين بنعمة الربوبية الخاصة، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالشفق، والليل وما جمع، والقمر إذا اكتمل- على انتقال الناس من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا

وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾.

٢- أن دوام الحال من المحال، والبقاء للحي القيوم- سبحانه وتعالى ؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

٣- لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو وعظمة مخلوقاته.

٤- الإنكار على الكافرين في عدم إيمانهم، وعدم خضوعهم وسجودهم عند تلاوة القرآن مع ما فيه من المواعظ والأحكام، وتحقق انتقالهم من حال إلى حال إلى أن يلقوا ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾.

٥- تكذيب الكفار للرسول ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾.

٦- سعة علم الله عز وجل، وعلمه بما يجمع الكفار ويضمرون في صدورهم من الكيد للحق والعداوة له ولأهله، وما يجمعون من الأعمال الباطلة والأموال المحرمة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

٧- البشارة للكفرة المكذبين بالعذاب الأليم حسًا ومعنىً تهكمًا بهم وسخرية منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٨- البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالثواب العظيم غير المقطوع، ولا الممنوع؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

٩- لابد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولابد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلبُرُوجِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة البروج»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة والسماء ذات البروج».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة: «والسماء ذات البروج»، «والسماء والطارق»(١).

وعنه رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء»(٢).

ومعنى قوله «بالسموات» أي بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر: «والسماء ذات البروج»، و«السماء والطارق» ونحوهما(٣).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالقسم بالسماء ذات البروج وما عطف عليه بلعن أصحاب الأخدود الذين عذبوا المؤمنين بالنار وفتنوهم، ووعيدهم بعذاب جهنم وعذاب الحريق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

٢- وعد المؤمنين بالجنات والأجر الكبير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٧.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح والقراءة في الركعتين الأولتين من صلاة العصر ٩٣٦، وأحمد ٥/ ١٠٣.

جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

٣- إثبات شدة بطشه عز وجل، وكمال قدرته وتمام تدبيره: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

٤- التذكير بفرعون وثمود، وإهلاكهم، وتهديد المكذبين وتمجيد القرآن: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور.

﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، أي: صاحبة البروج.

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان: ٦١].

والبروج: جمع برج، مأخوذ من الظهور والعلو والارتفاع، وهي النجوم والكواكب العظام، أو منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمان وعشرون منزلة، ويستسر ليلتين.

وهذه البروج الاثنا عشر هي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾: يوم القيامة، الموعود وقوعه وبعث الناس فيه، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَشَاهِدٍ﴾: يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: يوم عرفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: اليوم الموعود: يوم القيامة واليوم المشهود: يوم عرفة، و«الشاهد»: يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل منه»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٣٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٢، ٢٦٥، وقال الترمذي: =

وقد رواه بعض الأئمة موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة»(١).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة، وإن المشهود يوم عرفة، ويوم الجمعة ذخره الله لنا(٢)»(٣).

فاليوم الموعود يوم القيامة بلا خلاف، وأكثر المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة.

وقيل: الشاهد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩، ١٦٦، الفتح:٢٨].

وقيل: الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

وكذا أمته شهود، والملائكة والجوارح شهود أيضًا.

وقيل: الشاهد يوم عرفة، وقيل: الشاهد يوم الذبح، وقيل الشاهد الإنسان.

كما قيل: المشهود يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: المشهود يوم الجمعة لما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود، تشهده الملائكة»(٤).

قال ابن القيم(٥): «وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني، وما عداه من المعاني ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه

=

«حديث حسن غريب».

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٨- ٢٩٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٢- ٢٦٤.

(٢) أي: خصنا به وهدانا إليه دون من قبلنا.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٦٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ١٦٣٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٠.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٦٩.

التخصيص».

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: هذا هو جواب القسم والمقسم عليه عند أكثر المفسرين فأقسم عز وجل بالسماء ذات البروج، وبشاهد ومشهود على أنه ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.

وقال ابن القيم(١): «والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾».

ومعنى ﴿قُتِلَ﴾، أي: لعن أشد اللعن، وطرد وأبعد عن رحمة الله، أشد الطرد والإبعاد وأُهلك.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، الأخدود: مفرد، وجمعه أخاديد، وهي الحفر المستطيلة في الأرض.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ «النار» بدل اشتمال من الأخدود.

﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، أي: صاحبة الوقود، وهو الحطب الكثير المتأجج نارًا.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين، أي: حين هم على جوانب هذه النار جلوس على الأسرة يتفرجون ويتفكهون.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: وهم على الذي يفعلونه بالمؤمنين، أو على فعلهم بالمؤمنين من فتنتهم لهم في دينهم وطرحهم في النار وتعذيبهم.

﴿شُهُودٌ﴾، أي: يشاهدون وينظرون مغتبطين بهذا الإجرام في حق المؤمنين، مما يدل على قسوة قلوبهم، ونزع الرحمة منها وجبروتهم، يقحمون المؤمنين في النار ويرونها تلتهمهم، ولا تتحرك مشاعر الرحمة في قلوبهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: وما وجدوا عليهم في شيء إلا من أجل أنهم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٧١.

آمنوا بالله، وكان هذا يوجب إكرامهم ومحبتهم لا أذيتهم وقتلهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على اتصافه عز وجل بالعزة التامة بأنواعها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، فهو عز وجل قوي قاهر غالب ممتنع أن يُنال بسوء.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: اسم من أسماء الله عز وجل، أيضًا على وزن «فعيل» يدل على اتصافه عز وجل بالحمد فهو عز و جل حميد ومحمود في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، له الحمد على ذلك كله، له الحمد في السموات والأرض وعلى الدوام كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٨].

وله الحمد في الأولى والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠].

وله عز وجل الحمد على كل حال، ولهذا قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما «الحمد لله على كل حال»(١).

وهو عز وجل حميد يَحمد من يستحق الحمد من عباده بثنائه عليهم ورضاه عنهم، قال ﷺ: «إن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»(٢).

ولهذا فإن معنى صلاة الله- عز وجل- على أنبيائه ورسله وأوليائه هو الثناء عليهم في الملأ الأعلى.

وفي اقتران هذين الاسمين في ختام هذه الآية بعد لعن أصحاب الأخدود: إشارة

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٣٨، وقال: «حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الأدب- فضل الحامدين ٣٨٠٣، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء ١/ ٤٤٩، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٣٤، والترمذي في الأطعمة ١٨١٦- من حديث أنس رضي الله عنه.

إلى أنه عز وجل ذو العزة التامة لا يضام من لاذ بجنابه، فلو شاء لانتصر للمؤمنين.

الحميد على ما قدر على هؤلاء المؤمنين، ولو شاء لم يقدر ذلك عليهم، لكن له في ذلك كله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهو المحمود على كل حال.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: صفة ثالثة له عز وجل.

وقدم الخبر «له»؛ لإفادة التخصيص، أي: الذي له وحده ملك السموات والأرض فهو وحده المالك للسموات والأرض، وما فيهما وما بينهما.

والخلق كلهم وما يملكون ملك لله عز وجل، وملكهم لما يملكون ملك نسبي قاصر، لا يجوز لهم التصرف فيه إلا فيما أباحه الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: على كل شيء مطلع، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك ما يفعله هؤلاء الكفار بالمؤمنين من فتنتهم لهم في دينهم وإحراقهم في النار، وسيجازيهم بعملهم.

وقدم متعلق الخبر، وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على الخبر «شهيد»؛ لتأكيد عموم اطلاعه على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١].

وقد اختلف المفسرون في المراد بأصحاب الأخدود، ومن أصح ما ورد في ذلك ما جاء في حديث صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في قصة الملك والساحر والراهب والغلام، وفي آخره قوله ﷺ: «ثم قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنه إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن

تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»(١).

وفي رواية فقال في آخره: «يقول الله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ »(٢).

وجاء في بعض الآثار: أن الملك الذي خد هذا الأخدود هو ذو نواس ملك نجران، وأن الذين وقع عليهم التعذيب هم نصارى نجران وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقيل: إنهم أهل فارس، وقيل غير ذلك(٣).

والأهم من هذا كله أخذ العبرة، واستلهام الدروس من هذه القصة، وذلك من وجهين:

الأول: جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم الوحشية بالمؤمنين من تحريق وقتل وغير ذلك، وخلو قلوب كثير منهم من الرحمة، بل ومن الإنسانية مع ما يزعمونه من الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، وما المقابر الجماعية والقتل الجماعي والوحشي في مذابح صبرا وشاتيلا، وفي البوسنة والهرسك وغيرها، وما التعذيب الوحشي في سجن غوانتنامو، وفي سجن أبو غريب وغير ذلك إلا نتاجًا وصورًا لما عليه أعداء الإسلام من الوحشية والهمجية، فأين مناداتهم بالحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، والإنسانية؟! وصدق الله العظيم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ [التوبة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة: ٢].

ولهذا ينبغي ألا يغتر بهم فهم وإن أظهروا الصداقة، فهم في الحقيقة الباطنة أعداء وذئاب، ولو لبسوا جلود الضأن، وكما قيل:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق- قصة أصحاب الأخدود والصاحب والراهب والغلام ٣٠٠٥، والترمذي في تفسير سورة نوح ٣٣٤٠، وأحمد ٦/ ١٦- ١٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٣- ٢٧٥.

(٢) جاء هذا في رواية الترمذي.

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» ١ / ٣٤- ٣٧، «جامع البيان» ٢٤/ ٢٧٠- ٢٧٦.

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب[١]

وقال الآخر:

لا تأمنن عدوًا لان جانبه خشونة الصل عقبى ذلك اللين[٢]

والوجه الثاني مما يستلهم من هذه القصة:

صبر هؤلاء المؤمنين على هذا الابتلاء العظيم، وتقديم أرواحهم للنار فداءً لدينهم إذ لا بقاء لشيء بعد الدين، وفي هذا أعظم الدروس والعبر للمؤمنين بعدهم وبخاصة الدعاة إلى الله عز وجل والموجهين والمربين وأهل الحسبة وغيرهم؛ ليعلموا أن طريق الجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، وإنما هو طريق شاق محفوف بالمكاره كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[٣].

وقد أحسن القائل:

فدرب الصاعدين كما علمتم به الأشواك تكثر لا الورود

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: فتنوهم في محاولتهم صدهم عن دينهم كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، أي: الفتنة في الدين والصد عنه وأيضًا فتنوا المؤمنين والمؤمنات بإحراقهم في النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يعذبون.

---

(١) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» ص١١.

(٢) البيت للشريف الرضي. انظر: «جواهر البلاغة» ص١٨٢، «البلاغة الواضحة» ص١٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾، أي: ثم لم يرجعوا إلى الله عز وجل ويقلعوا عما هم عليه من الكفر ويندموا على ما سلف منهم، ويعزموا على عدم العودة إليه.

فعرض الجواد الكريم التوبة عليهم مع ما ارتكبوه من الكفر به، والظلم والقتل لعباده المؤمنين ولو تابوا لغفر لهم ولم يعذبهم، وقد قال عز وجل لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون وقد ادعى الربوبية والألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: خبر «إن، أي: فلهم مجازاة لهم على فعلهم بالمؤمنين ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وجهنم: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ فالجزاء من جنس العمل، أي: فلهم عذاب الإحراق في النار كما أحرقوا المؤمنين في نار الأخدود.

فانتصر عز وجل وهو الحكيم العليم- للمؤمنين بمجازاة أصحاب الأخدود بإحراقهم وتعذيبهم بنار جهنم وهو القوي العزيز.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء صاحبة البروج، واليوم الموعود وشاهد ومشهود على لعن وإهلاك أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في دينهم وحرقوهم بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته الكونية وآياته وأحكامه الشرعية.

٣- التنبيه على عظمة الله- عز وجل- وتمام قدرته في خلق السموات وما فيها من البروج، وعظمة يوم القيامة وشدة أهواله، وعظمة شاهد ومشهود.

٤- أن لله عز وجل في تسليط هؤلاء الكفار على المؤمنين حكمًا، منها استدراج هؤلاء الكفار من حيث لا يعلمون، ومنها رفعة درجات المؤمنين، ولتكون عبرة وعظة لمن بعدهم، إذ لا بد من الابتلاء والامتحان.

٥- جرأة المجرمين والكفار على ارتكاب أبشع الجرائم في حق المؤمنين من تحريق وقتل بأبشع الصور، وخلو قلوبهم من الرحمة في الوقت الذي يزعمون فيه احترامهم لحقوق الإنسان والحرية والإنسانية.

٦- أن هؤلاء الكفار فتنوا المؤمنين لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وهكذا أعداء الرسل وأعداء أتباعهم في كل زمان ومكان يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

٧- إثبات اسم الله «العزيز»، وصفة العزة التامة لله عز وجل: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾.

٨- إثبات اسم الله «الحميد»، وأن له عز وجل الحمد كله، وهو المحمود في كل حال وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾.

٩- إثبات أن الله عز وجل له ملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٠- إثبات اطلاع الله عز وجل على كل شيء، ومن ذلك فتنة هؤلاء الكفار للمؤمنين وفي هذا تبشير وتحذير، ووعد ووعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

١١- كرم الله عز وجل وواسع حلمه وعفوه ورحمته وتوبته، حيث عرض التوبة على هؤلاء الكفرة المجرمين مع كفرهم به وفتنتهم لأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾.

١٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لهؤلاء الكفرة المجرمين إن لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل فكما أحرق هؤلاء الكفرة المجرمون أولياء الله المؤمنين بالنار جازاهم الله بعذاب جهنم وعذاب الحريق.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾.

بعد ما بين عز وجل ما أعده للكفرة المجرمين قتلة المؤمنين من عذاب جهنم وعذاب الحريق أتبع ذلك ببيان ما أعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والفوز الكبير، على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم أتبع ذلك ببيان قدرته عز وجل التامة على تنفيذ هذا الوعد، وذلك الوعيد فقال: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم الظاهرة.

وحذف الموصوف وهو: «الأعمال» واكتفى بالصفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن المهم أن يكون العمل صالحًا، يتوفر فيه شرطا صلاح العمل، وهما: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿لَهُمۡ﴾، أي: لهم خاصة عند الله عز وجل ﴿جَنَّٰتٞ﴾ وهي ما أعده الله عز وجل لنزول أوليائه من البساتين ذات الأشجار الكثيرة، والثمار المتنوعة، والمساكن العالية، والغرف الرفيعة وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق- ما جاء في صفة الجنة ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب صفة الجنة ٢٨٢٤- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

فقط»[١].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ «جنات، أي: تجري من تحت أشجارها، ومساكنها وغرفها الأنهار، كما قال عز وجل: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨] والأنهار: جمع نهر، وهي كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [الآية: ١٥].

وهي تجري بغير أخدود. قال ابن القيم[٢]:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الإشارة لما أعده الله عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجنات والأنهار.

و«الفوز»: النجاح والفلاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أعظم منه، ويكفي أن العلي الكبير وصف هذا الفوز بالكبير، فلا يقدر قدر كبره، إلا العلي الكبير سبحانه وتعالى.

ولم يرد وصف الفوز بالكبير إلا في هذا، ولعل في هذا إشارة لعظم ما لقيه أصحاب الأخدود وشدة صبرهم وعظيم ما لهم عند الله.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾، أي: إن انتقام ربك يا محمد وأخذه للكفرة المجرمين والطغاة الظالمين.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، أي: ذو شدة، أي: عظمة وقوة، من حيث كمه وكيفه؛ لأنه عز وجل القوي العزيز، ذو القوة المتين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١/ ٤١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ٦٦.

(٢) في «النونية» ص٢٢٩.

أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: إنه عز وجل من تمام عزته وقوته وكمال قدرته ﴿هُوَ يُبْدِئُ﴾، أي: يخلق ابتداء ﴿وَيُعِيدُ﴾، أي: يبعث بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وهو عز وجل الذي يُبدئ كل شيء ويعيد كل شيء، له الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو سبحانه الذي يبدئ ويعيد، يقلب الليل والنهار، ويداول الأيام، ويبدل الأحوال؛ من عز إلى ذل ومن ذل إلى عز، ومن صحة إلى مرض ومن مرض إلى صحة ومن شدة إلى رخاء ومن رخاء إلى شدة وهكذا؛ ولهذا لا يجوز الأمن من مكر الله، ولا القنوط من رحمته، وكما قيل:

ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يبدل الله من حال إلى حال(١)

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ لمن تاب وآمن وعمل الصالحات، وهذه الآية بعد قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، كقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨].

فأخذه للظالمين بعدله أخذ عزيز مقتدر، ومغفرته للتائبين- بفضله- مغفرة متودد إلى عباده يحبهم ويحبونه.

و«الغفور» و«الودود» من أسماء الله عز وجل كل منهما على وزن «فعول» فـ«الغفور»: مشتق من المغفرة، وهي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة.

أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب التائبين من عباده.

و«الودود»: مشتق من المودة، وهي: خالص المحبة، فهو عز وجل ودود، محب ومحبوب، يحب أولياءه المؤمنين ويحبونه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ

---

(١) البيت لمسفر بن مهلهل الينبعي. انظر: «السحر الحلال في الحكم والأمثال» ص٨٩.

ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالودود المحب لأوليائه، المتحبب إليهم بنعمه الحبيب إليهم، الذي محبته لهم ومحبتهم له أقوى من كل محبة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال عن شعيب عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: ٩٠].

وفي اقتران اسم «الودود» بالرحيم وبالغفور معنى لطيف، وهو أنه عز وجل يرحم عبده، ويغفر له، إذا تاب إليه ويحبه مع ذلك، ولو كان ممن أسرف على نفسه بخلاف المخلوق فإن الإنسان قد يرحم ويعفو عمن أساء إليه ولكن لا يحبه.

وهو عز وجل يحب الأقوال والأعمال الصالحة، قال ﷺ: «أحب الكلام إلى الله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(١).

وقال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»(٢).

وهو عز وجل يحب الأماكن الفاضلة، قال ﷺ عن مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(٣).

وقال ﷺ: «أحب البلاد إلى الله مساجدها»(٤).

وفي الحديث: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم»(٥).

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي: صاحب العرش. وفي إضافته العرش إلى نفسه دلالة على عظمة

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧- من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب- فضل مكة ٣٩٢٥- من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري- رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد- فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد ٦٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١١/ ٨٤- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

العرش، فهو سقف المخلوقات وأكبرها وأوسعها.

وفي ذلك دلالة على قربه منه سبحانه غاية القرب واختصاصه به غاية الاختصاص واستوائه عز وجل عليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بخفض الدال: «المجيدِ» على أنه صفة للعرش، وقرأ الباقون برفع الدال: ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ على أنه صفة للرب عز وجل، كما قال تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾ [هود: ٧٣].

فعلى هذه القراءة يكون معنى «المجيد»، أي: الممجَّد المعظَّم ذو العلو والعظمة والكبرياء.

كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي»(١).

ذو الصفات الكثيرة التي لا تحصى الكاملة الواسعة، وذو الخير الكثير الدائم، المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم.

وعلى قراءة خفض الدال يكون «المجيد» صفة للعرش، والعرش عظيم كبير، بل هو أكبر المخلوقات، وسع السموات والأرض والكرسي.

وفي الحديث في دعاء الكرب: «لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»(٢).

ورُويَ عن أبي ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»(٣).

وقد قال الله تعالى عن الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وإذا كان العرش مجيدًا فخالقه عز وجل- أحق بالمجد- كما دلت عليه قراءة الرفع، وغيرها.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٤٥، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٣٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٥، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٣- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ٥٣٩. وهو منقطع. وانظر: «فتح المجيد» ص٦١٦.

وخص العرش بالذكر من بين المخلوقات؛ لعظمته، ولاستوائه عز وجل عليه، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه عز وجل.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: يفعل بإرادته كل ما يريد، ومهما أراد من شيء فعله، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا يُسأل عما يفعل.

الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قيل لأبي بكر رضي الله عنه وهو في مرض الموت: «ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب، قالوا: ماذا قال لك؟قال: قال لي: إني فعّال لما أريد»(١).

ويؤخذ من الآية أنه يفعل بإرادته عز وجل، وأنه إذا أراد شيئًا فعله فلا يعجزه شيء وأن إرادته وفعله متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعّال لما يريد إلا الله وحده، وفعله عز وجل كله لحكمة علمناها أو لم نعلمها.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾، أي: هل جاءك يا محمد خبر الجنود ممن عصوا الله وكذبوا رسله، وماذا أحل بهم من العقوبات والبأس الشديد، وفي هذا وما بعده تسلية له ﷺ على تكذيب قومه وتقوية لعزيمته، وفيه تحذير وتهديد للمكذبين من أمته.

فهذا وما بعده تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ «فرعون»: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام فكابر وعاند وادعى الربوبية والألوهية، وأهلكه الله وجنوده بالغرق، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للحرق بالنار، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَثَمُودَ﴾ هم قوم نبي الله صالح عليه السلام، مساكنهم شمال الجزيرة في العلا، المعروفة الآن بمدائن صالح. كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة فأهلكهم الله

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص٩٣، (٥٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٣٤، وانظر: «الجامع الكبير» للسيوطي ١٤/ ١٦٢ (١/ ٢٤٢).

بالصيحة والصاعقة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل الذين كفروا وجحدوا ربوبية الله وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه.

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾، أي: في تكذيب للرسول ﷺ، ولما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾، أي: أنه عز وجل محيط بهم من كل جانب، لا يعجزونه ولا يفوتونه، محيط بهم بعلمه وقدره وقدرته وسلطانه وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿بَلْ هُوَ﴾، أي: بل ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله من الوحي العظيم المعلوم.

﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾، أي: قرآن عظيم كريم، رفيع المنزلة واسع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم، معجز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه، ووعده ووعيده وغير ذلك لأنه كلام الحميد المجيد.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ قرأ نافع برفع الظاء: «محفوظٌ»، وقرأ الباقون بخفضها.

أي: في لوح كتب الله عز وجل فيه كل شيء قضاه وقدره.

﴿محفوظ﴾ عند الله عز وجل في الملأ الأعلى من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل والتغيير، وتطاول الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وهو محفوظ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل والتغيير بعد إنزاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢- أن الإيمان قول وعمل واعتقاد لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان بلا عمل.

٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل وعلى سنة رسوله ﷺ.

٤- عظم ما أعده الله عز وجل من الثواب للمؤمنين، من الجنات والأنهار والفوز الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

٥- شدة بطشه عز وجل وأخذه للمكذبين الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة له ﷺ ولأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ﴾.

٧- قدرته عز وجل التامة على إبداء الخلق وإعادته، وعلى تبديل الأحوال وإعادتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

٨- إثبات اسم الله «الغفور» وما يدل عليه من إثبات صفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾.

٩- إثبات اسم الله «الودود» وما يدل عليه من إثبات صفة المودة والمحبة له عز وجل وأنه يُحِب ويُحَب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾.

١٠- إثبات استوائه عز وجل على العرش، وعظمته وكبريائه، وكمال صفاته، وكثرة خيره وإفضاله وإنعامه؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾

١١- إثبات عظمة العرش وسعته وأنه أكبر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾.

١٢- إثبات صفة الفعل والإرادة لله عز وجل وأنه يفعل بإرادته، ومهما أراد شيئًا فعله، وفعله لحكمة علمناها أو لم نعلمها؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

١٣- التذكير بقصص المكذبين، فرعون وثمود، وما أحل الله بهم من العقوبات لما عصوا رسله وخالفوا أمره- تسلية للنبي ﷺ- وتحذيرًا للمكذبين من أمته؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

١٤- مكابرة الكفرة في تكذيب الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾.

١٥- سعة علم الله تعالى وإحاطته، والوعيد والتهديد للكفرة المكذبين بأن الله محيط بهم، ولن يفلتوا من قبضته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٞ﴾.

١٦- عظمة القرآن وسعة معانيه وإعجازه، وحفظ الله عز وجل له في اللوح المحفوظ، وبعد إنزاله على محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلطَّارِقِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الطارق» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة السماء والطارق»، و«سورة والسماء والطارق» بالواو.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»(١).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»(١).

د- موضوعاتها:

١- إثبات وتأكيد وجود الحفظة على بني آدم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

٢- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

٣- إثبات وتأكيد أن القرآن حق وقول فصل ليس بالهزل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾

٤- التهديد والوعيد للكافرين: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«السماء» مقسم به مجرور.

﴿وَالطَّارِقِ﴾ معطوف على السماء.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تعظيم وتفخيم له، أي: وما أعلمك ما الطارق، ثم فسره بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ وسمي النجم طارقًا؛ لأنه لا يرى إلا بالليل، ومن يأتي بالليل يسمى طارقًا.

ومنه الحديث: «أنه ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلًا»(١). وقوله في الدعاء: «إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»(٢).

قال الشاعر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب ... عليك سلام هل لما فات مطلب

ومعنى ﴿الثاقب﴾ المضيء، الذي يثقب الظلام بنوره.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا هو جواب القسم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم: ﴿لَّمَّا﴾ وقرأ الباقون بتخفيفها: «لَمَا». وإنْ بمعنى «ما» النافية و«لَمَّا» بمعنى «إلا، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

فأقسم عز وجل بالسماء، وبالطارق، وهو النجم المضيء: أنَّ كل نفس من بني آدم عليها حافظ من الملائكة موكل بحفظها من أمر الله- عز وجل- كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ويحفظ أعمالها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، ١٨٠١، ومسلم في الإمارة- كراهية الطروق وهو الدخول ليلًا لمن ورد من سفر ٧١٥، والترمذي في الاستئذان والآداب ٢٧١٢- من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤١٩- من حديث عبد الله بن خنبش- رضي الله عنه.

[الانفطار: ١٠- ١٢].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ الفاء للتفريع، أي: فلينظر الإنسان نظر تأمل وتفكر واعتبار.

﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، أي: من أي شيء خلق؛ ليعرف أصل خلقه وضعفه، وليعلم عظيم قدرة الله عز وجل، ويعترف بالمعاد؛ لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على إعادته من باب أولى.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو مني الرجل الذي يندفق بلذة وقوة وهو دافق ومدفوق. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٩].

﴿يَخْرُجُ﴾، أي: يخرج هذا الماء، ﴿مِن بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ وهي عظام ظهر الرجل، ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ وهي: عظام صدر المرأة.

ويحتمل أن المراد بالترائب ترائب الرجل، أي: عظام صدره، لأنه قال ﴿مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ولم يقل: يخرج من الصلب والترائب، وهذا كقوله: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦].

ولأن الله أخبر أنه خلقه من نطفة. والنطفة: ماء الرجل، وهو الذي يوصف بالدفق.

وقيل المراد بالصلب: ظهر كل من الزوجين، والترائب أطرافهما.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾، أي: إنه عز وجل على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته وفنائه ﴿لَقَادِرٌ﴾، أي: لذو قدرة تامة على ذلك؛ لأن من قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿يَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، الذي فيه ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، أي: تمتحن وتختبر القلوب التي عليها مدار الصلاح والفساد، وعلى ما فيها يرتب الثواب والعقاب، فيظهر ما فيها من الأسرار والمكنونات، ويصبح السر علانية، كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩ ، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يرفع لكل غادر لواء يوم

القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»(١).

﴿فَمَا لَهُۥ﴾، أي: فما للإنسان في ذلك اليوم الذي أعيد فيه خلقًا جديدًا، وظهر ما كان يسره ويخفيه فصار علانية ﴿مِن قُوَّةٍ﴾، أي: فما له من قوة في نفسه يستطيع بها إنكار ما ظهر من قبح سريرته، ويدفع بها عنه عذاب الله.

﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، أي: وما له من ناصر ولا معين من خارج نفسه، يدفع عنه ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء، والطارق أن كل نفس عليها حافظ من الملائكة يحفظها ويحفظ أعمالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

٢- يجب على الإنسان أن ينظر ويتأمل في أصل خلقه؛ ليرى ضعفه، وعظيم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

٣- أن أصل خلق الإنسان من ماء، وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾.

٤- إثبات البعث؛ لأن الذي قدر على الخلق الأول هو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

٥- امتحان القلوب يوم القيامة، وإظهار ما انطوت عليه من المكنونات؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

٦- الوعيد لمن كذب أمر الله عز وجل يوم القيامة، وأنه لا يستطيع دفع عذاب الله عنه لا بنفسه ولا بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٣٥، وأبو داود في الجهاد ٢٧٥٦، والترمذي في السير ١٥٨١.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، والسماء مقسم به مجرور والمراد بها العلو.

﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾، أي: صاحبة الرجع، وهو المطر، وسمي المطر بالرجع؛ لأنه يرجع ويتكرر، والمطر سبب الرزق، وأيضًا: هي ذات الرجع بأقدار الله وأوامره، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ معطوف على ما قبله فهو من جملة المقسم به، ومعنى ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، أي: صاحبة الصدع، والصدع: هو الشق للنبات.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر لكنه معلوم معهود.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، اللام للتوكيد، أي: لقول حق، وحكم عدل، يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، أي: وما هو باللعب واللغو والعبث، الذي لا جد فيه ولا ثمرة له ولا فائدة منه.

وفي الحديث: «وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أذله الله»(١).

فهو جد وأيّ جد، فيه البشارة والوعد الصادق، وفيه النذارة والوعيد الشديد والتهديد الأكيد. قال الشاعر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٢)

وقال الآخر:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(٣)

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن- ما جاء في فضل القرآن ٢٩٠٦ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

(٣) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة فإن الله عز وجل أقسم بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات وفي هذا إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها والمقسم عليه القرآن الكريم الذي به حياة القلوب بعد موتها.

﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: الكفار والمكذبون ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ الكيد: هو المكر والتدبير بخفية، أي: يمكرون مكرًا عظيمًا لصد الناس عن اتباع الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله عز وجل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، أي: وأكيد لهم كيدًا، أي: أمكر بهم مكرًا أشد وأعظم من مكرهم مقابلة ومجازاة لهم على مكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكيده عز وجل لهم استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

والله عز وجل لا يوصف بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء ونحو ذلك إلا على سبيل المقابلة والمجازاة في حق الكائدين والماكرين والمخادعين والمستهزئين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أنظرهم ولا تستعجل لهم الانتقام والعذاب.

﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾، أي: أنظرهم قليلًا وسترى ما يحل بهم من العقوبات العاجلة والآجلة والعذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: ١١]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]،

وقال تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

والرب تعالى هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول ﷺ على جهة التهديد والوعيد لهم، أو على معنى انتظر بهم قليلًا، وفي هذا تسلية له ﷺ وتهديد للمشركين من قومه.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالسماء ذات المطر وبالأرض ذات الشق للنبات أن القرآن الكريم قول فصل وحق، جد ليس بالهزل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم ووجوب اتباعه.

٣- أن الكفار لا يألون جهدًا في الكيد للحق وأهله، ولكن الله محيط بهم يكيد لهم ويمكر بهم وهو خير الماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.

٤- تقوية قلب النبي ﷺ تجاه أذى الكافرين وتطاولهم على الحق، وأنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، وهو عز وجل لهم بالمرصاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

٥- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين وأن العذاب لهم على الأبواب.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْأَعْلَىٰ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الأعلى»؛ لذكر اسم الله «الأعلى»، والأمر بتسبيحه في مطلعها بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

وتسمى: «سورة سبح اسم رب الأعلى»، و«سورة سبح».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن البراء عن عازب رضي الله عنه قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء. فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، في سور مثلها»(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: «صلى معاذ بن جبل الأنصاري لأصحابه العشاء، فطول عليهم، فانصرف رجل فصلى. فقال النبي ﷺ: «يا معاذ أفتان أنت؟!» ثلاثًا، «اقرأ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ونحوها»، وفي رواية: «اقرأ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ونحو هذا»(٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «سبح اسم ربك الأعلى» ٤٩٤١.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٠٦، ومسلم في الصلاة- القراءة في العشاء ٤٦٥، وأبو داود في الصلاة ٧٩٠، والنسائي في الافتتاح ٩٨٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٦.

الجمعة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿وَقُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾(٢).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ونحوها، وفي الصبح بأطول من ذلك»(٣).

د- موضوعاتها:

١- الأمر بتسبيح الله وبيان مظاهر قدرته: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

٢- وعده عز وجل له ﷺ بإقرائه القرآن وطمأنته بعدم نسيانه، وتيسيره لليسرى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

٣- الحث على التذكير والتذكر، والوعيد لمن أعرض عن الذكر: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

٤- الحث على التزكي، وذكر الله والصلاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾.

٥- التزهيد في الدنيا وتحقيرها، والترغيب في الآخرة وتعظيم شأنها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة ١١٢٢، والنسائي في الجمعة ١٤٢٤، والترمذي في الجمعة ٥٣٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٨١، وأحمد ٤/ ٢٧١.

(٢) أخرجه النسائي في قيام الليل ١٧٠٢، والترمذي في الصلاة ٤٦٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٧٢.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٨٦، ٨٨..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: قل: سبحان ربي الأعلى.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»(١).

ومعنى تسبيحه عز وجل تنزيهه بالقلب واللسان عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وذكره عز وجل وعبادته ودعاؤه.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»(٢).

وهذا يدل على وجوب التسبيح في الركوع والسجود.

والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿الْأَعْلَى﴾ على وزن «أفعل» لا مثل «الأكرم»، أي: الذي هو أعلى وأجل من كل شيء، وفوق كل شيء.

ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان: أعل هبل، أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «ألا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة- الدعاء في الصلاة ٨٨٣، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣١٠ موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة- التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

تجيبونه؟»، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل»(١).

فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [النحل: ٦٠، الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وله عز وجل علو القدر، قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

وله عز وجل علو القهر كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: ٤].

قال ابن تيمية(٢): «فتبين أن اسمه «الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو، ولا رب سواه».

قال ابن القيم(٣):

فهو العلي بذاته سبحانه ... إذ يستحيل خلاف ذا ببيان

وهو العلي فكل أنواع العلو ... له فثابتة بلا نكران

ولهذا ناسب أن يقول المسلم وهو معفر وجهه بالسجود لله عز وجل «سبحان ربي الأعلى»؛ إعلانًا منه بأن لله عز وجل العلو المطلق سبحانه وتعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: الذي أوجد جميع المخلوقات.

﴿فَسَوَّىٰ﴾، أي: فسوى بين خلقه في الإحكام والإتقان، وسوى خلقه بأن جعله على أحسن خلقة وأتمها؛ الإنسان والحيوان والسموات والأراضين، وسائر المخلوقات.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٦٢ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٥٩.

(٣) انظر «النونية» ص١٤٦.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي: «قَدَر» بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿قَدَّرَ﴾، أي: والذي قدَّر مقادير كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

﴿فَهَدَىٰ﴾، أي: فهدى كل مخلوق وأرشده لما خلق له وقُدِّر.

وهذه هي الهداية الكونية العامة، قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠].

ومن ذلك بيان طريق الخير والشر للإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»(٢).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: ماذا أكتب؟، فقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»(٣).

وفي هذا إثبات قدر الله السابق للخلق، وأنه قدر المقادير وكتبها وعلم بها قبل

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥- وقال «حديث غريب».

كونها، وهدى كل مخلوق لما قدر له، وفيه إشارة إلى أنه خلق كل مخلوق لحكمة وغاية مقصودة، فلا تتم مصلحته إلا بهدايته لتلك الغاية، من الحيوانات والنباتات والجمادات وسائر المخلوقات.

فسبحان ربنا الأعلى الذي خلق فسوى خلقه في أحسن صورة وأتمها، والذي قدَّر المقادير وهدى كل مخلوق لما قُدِّر له.

سبحان من هدى النحل يصنع العسل المصفى.

سبحان من هدى النمل لا يحفر جحره إلا في مرتفع من الأرض خشية السيول، ويدخر في الصيف قوته للشتاء؛ لأنه لا يخرج في الشتاء.

سبحان من هداه يقرض أطراف الحبوب حتى لا تنبت إذا جاءها الماء، ويخرجها من الجحر وينشرها لئلا تتعفن فإذا يبست أدخلها؛ ولهذا يقال: إن أذكى ما يكون من الحيوان النمل، ينظر للمستقبل.

سبحان من هدى البعير، يضل صاحبه في وسط الصحراء فيهديه إلى الطريق، وإلى مواضع الماء، وسبحان من هداه أن يتحاشى في سيره وطء أي كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، أي: والذي أخرج النبات من الأرض، مما ترعاه البهائم وغيرها، فكسا به الأرض وجملها، كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

وقد أحسن القائل:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك(١)

---

(١) الأبيات لأبي نواس. انظر: «اللطائف والظرائف» ص٢٠٥، «توضيح المقاصد شرح الشافية الكافية» =

والعطف في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ من عطف الصفات.

والعطف يقتضي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه، وأن بينهما مغايرة، إما في الذات، وإما في الصفات، فهو عز وجل موصوف بكل صفة من هذه الصفات ممدوح بها مثنى عليه بها، وكل صفة منها مستوجبة لذلك.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾، أي: فجعل هذا المرعى هشيمًا يابسًا متكسرًا بعد أن كان غضًا رطبًا، بهيجًا نضرًا.

﴿أَحْوَىٰ﴾، أي: أسود بعد أن كان أخضر، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠]، أي: كالليل الأسود البهيم.

وهذا مثل للحياة الدنيا وزوالها، وللعمر وفنائه، وللكافر المغتر بالدنيا وسوء عاقبته ومآله.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: سنقرئك يا محمد القرآن فلا تنساه، وهذا وعد منه تعالى وتطمين للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا ما شاء الله أن ينسيك إياه وينسخه، قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩].

وأيضًا: إلا ما شاء الله أن يقع منك من النسيان فتذكر بعد ذلك كغيرك من البشر ولهذا نسي في صلاته ﷺ وقال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»(١).

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، أي: يعلم الذي يظهره الخلق ويعلنونه والذي يضمرونه ويسرونه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة.

أي: يعلم جهرهم وإعلانهم، وإخفاءهم وإسرارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ

=

١/ ١٨، «أحسن ما سمعت» ص١٠.

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٠١، ومسلم في المساجد ٥٧٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٢٠، والنسائي في السهو ١٢٤٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٠٣ - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي: نوفقك للطريقة اليسرى في جميع أمورك ونسهل عليك، ونجعل شريعتك سهلة سمحة، لا حرج فيها، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥- ٧].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾»(١).

﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: عظ الناس وذكرهم بالله وآياته وأيامه ونعمه وشرعه، والخطاب للنبي ﷺ، والأمة أسوة به في ذلك.

﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ قال بعض المفسرين: «إن» شرطية، أي: إن نفعت الذكرى فذكِّر، وإن لم تنفع فلا تذكِّر.

وقال بعضهم: المعنى ذكر بكل حال، فإن الذكرى سوف تنفع.

والأظهر أن معنى الآية ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي: حيث نفعت الموعظة.

بأن تكون الموعظة نافعة مفيدة واقعة موقعها، من غير إطالة فيها تجلب الملل، ولا إكثار منها يَحدث السأم، وقد كان ﷺ يتخول أصحابه في الموعظة.

فعن أبي وائل قال: كان عبد الله- يعني ابن مسعود- يذكِّر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخوّلنا مخافة السآمة علينا»(٢).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٧٠، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢١، والترمذي في الأدب ٢٨٥٥.

والعبرة بالموعظة بالكيف لا بالكم، وخير الكلام ما قل ودل، وقصير غير مخل، خير من طويل ممل.

وبأن تكون الموعظة مناسبة لمستوى عقول وأفهام المخاطبين بها، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(٢).

وبأن تكون في الوقت والحال المناسبين بحيث تكون الأنفس متهيئة مقبلة فإن للنفوس إقبالًا وإدبارًا، فلا تكون في وقت حاجة الناس إلى الراحة والنوم، ولهذا كره النبي ﷺ الحديث بعد العشاء الآخرة(٣).

ولا في وقت شدة ألم وغضب، ولا في وقت شدة جوع أو ظمأ، ولا في حر أو برد مزعجين.

ولا في وقت الناس منشغلون فيه بالسلام على بعضهم البعض كما يحصل في بعض المناسبات يتكلم بعضهم ويقرأ القرآن، والناس يتوافدون ويسلم بعضهم على بعض بعد طول غيبة مع كثرة الصخب واللغط، فإذا سلم الناس بعضهم على بعض وانتظم المجلس فلا بأس بذلك بعد إذن صاحب المنزل بذلك.

ولهذا فإن الأولى عدم الموعظة بعد خطبة وصلاة الجمعة لعدة أمور:

أولًا: أن هذا مخالف لقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فقد أمر الله عز وجل بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض والتفرق فيها لابتغاء الرزق من الله.

ثانيًا: أن في هذا مخالفة لهديه ﷺ في كونه يتخول أصحابه في الموعظة مخافة السآمة

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة- النهي عن الحديث بكل ما سمع ٥.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٦٨، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٤٧، وأبو داود في الصلاة ٣٩٨، والنسائي ٤٩٥- من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها».

والملل عليهم.

ثالثًا: أن في الموعظة في هذا الوقت حبسًا للناس وإحراجًا لهم، ففيهم ذو الحاجة والحاقن- وبخاصة من جاؤوا في الساعات الأولى.

رابعًا: أن الموعظة بعد خطبة الجمعة قد تنسي موضوع وخطبة الجمعة ومضمونها وهو في الغالب أهم.

ويفهم من قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أنه إذا لم تنفع الذكرى ولم تجد شيئًا ولم تكن واقعة موقعها فلا ينبغي التذكير في هذه الحال.

فإذا كان المخاطب بالموعظة في حال غير مناسبة للتذكير فالأولى، بل ينبغي عدم تذكيره في هذه الحال لأنه قد يؤدي التذكير في غير وقته المناسب إلى مفسدة تفوق المصلحة المرجوة من ذلك، ولهذا قيل: «ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر»(١).

ومع وجوب مراعاة أن تكون الذكرى مناسبة في الوقت والحال ونحو ذلك إلا أنه لا يجوز أن يجعل من هذا ذريعة للتساهل في التذكير أو تركه، بحجة أن الذكرى قد لا تنفع فقد قال الله عز وجل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

قال السعدي(٢): «﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود، أو بعضه، ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن مأمورًا بها، بل هي منهي عنها».

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾، أي: سيتعظ وينتفع بالذكرى ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾، أي: الذي يخاف الله وقيامه بين يديه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥].

والخشية أخص من الخوف، لأنها تدل على عظم المخشي وعلم الخاشي، كما قال

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ١٢٦.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦١٢- ٦١٣.

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾، أي: ويترك الموعظة جانبًا ويعرض عنها بقلبه وبدنه ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: اسم تفضيل، أي: الذي بلغ الغاية في الشقاء، وكتب عليه ذلك، وهو الكافر، الذي لا ينتفع بالذكرى، فهذا لا سبيل إلى إسعاده.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد»(١).

ومن هنا ينبغي للإنسان أن يوطِّن نفسه في مواضع التذكير، فإنه لا يعدم فائدة وأجرًا على ذلك، وقد ضعفت أنفس كثير من الناس حتى أصبح لا يستطيع الانتظار لسماع حديثين أو ثلاثة يقرأهما الإمام بعد الصلاة، وربما وقف في الشارع طويلًا يتكلم مع الآخرين- دون أن يحسب لهذا الوقت حسابًا، ولا شك أن النفس تحتاج إلى ترويض وتوطين لفعل الخير وسماعه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقد أحسن القائل:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم(٢)

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

أي: الذي يدخل النار الكبرى ويغمر فيها ويقاسي حرها، وهي نار الآخرة، وسميت الكبرى؛ لأنها ضوعفت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا كما قال ﷺ: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨ والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) البيت للبوصيري. انظر: «البلاغة الواضحة» ص٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٣، والترمذي في =

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، أي: ثم لا يموت في النار، فيستريح من العذاب.

﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، أي: ولا يحيا حياة طيبة، بل هي حياة شقاء وعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبُثّوا على أنهار الجنة، ثم قيل يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان في البادية»(١).

وهذا الحديث يدل على أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أهل النار الذين هم أهلها، وهم الكفرة المخلدون فيها.

الفوائد والأحكام:

١- وجوب تسبيح الرب سبحانه وتعالى لأمر الله عز وجل نبيه بذلك وهو أمر له ﷺ ولأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ.

٣- إثبات اسم الله «الأعلى»، وصفة العلو المطلق له عز وجل؛ علو الذات وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر؛ لقوله تعالى: ﴿الْأَعْلَى﴾.

٤- كمال عظمة الله عز وجل وقدرته، فهو الذي خلق الخلق فسواه، وقدر مقادير الخلق، وهدى كل مخلوق لما قدر له، وأخرج النبات، ثم جعله أسود يابسًا؛ لقوله تعالى:

=

صفة جهنم ٢٥٨٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١٨٥، وأحمد ٣/ ٥، ١١، ٢٠.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

٥- الرد على القدرية القائلين بأن الله لم يقدر أفعال العباد.

٦- الإشارة إلى أن الحياة الدنيا متاع قليل، وإلى قصر عمر الإنسان فيها، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

٧- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بأن يقرئه القرآن فلا ينسى، إلا ما شاء الله أن ينسيه إياه مما ينسخه ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٨- إثبات المشيئة والإرادة لله- عز وجل- وأنه- عز وجل- قد ينسي نبيه ما شاء وينسخ ما شاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٩- علم الله عز وجل بما يجهر به الخلق وما يخفونه، وما يُظهر وما يُسر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

١٠- وعد الله عز وجل لرسوله ﷺ بتيسيره لليسرى في شريعته وفي أمور دينه ودنياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

١١- أمر الله عز وجل لرسوله بالتذكير حيث تنفع الذكرى، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

١٢- ينبغي أن يكون التذكير في الوقت المناسب والحال المناسب.

١٣- إنما يتذكر وينتفع بالموعظة من يخشى الله عز وجل، ويصرف عنها الأشقى الذي هو من أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾.

١٤- إثبات وجود النار الكبرى، نار الآخرة وأن نار الدنيا صغرى بالنسبة لنار الآخرة، فهي النار الكبرى العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

١٥- أن المعذب في النار لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة، بل هو في شقاء أبدي وعذاب سرمدي- نسأل الله السلامة والعافية- لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ «قد»: حرف تحقيق «أفلح»: فاز ونجح ونجا من المرهوب وظفر بالمطلوب؛ زحزح عن النار وأدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: الذي تطهر، أي: طهر نفسه ظاهرًا وباطنًا من الشرك والمعاصي، وطهرها بالعمل الصالح ومن ذلك أداء زكاة المال وزكاة الفطر، وغير ذلك.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بأنواع الذكر من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

﴿فَصَلَّىٰ﴾، أي: فصلى الصلوات الخمس في أوقاتها، وغيرها من الصلوات، كصلاة العيد وغيرها.

وفي عطف قوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ دلالة على عظم منزلة الصلاة بين أنواع الذكر؛ لأن الصلاة من ذكر الله، فهذا من عطف الخاص على العام.

وقد حمل بعض المفسرين قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ على أداء زكاة الفطر، وقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على أداء صلاة العيد، والآية أعم من هذا، فهي تشمل هذا وغيره.

وفي تقديم قوله: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ على قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ إشارة إلى أن صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد. كما أن في ذلك إشارة إلى عظم حقوق الخلق؛ لأن في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾: حثًا على الإحسان إلى عباد الله.

كما أن في قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾: حثًا على الإحسان في عبادة الله عز وجل.

وفي ذلك أيضًا إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي.

قرأ أبو عمرو بالياء: «يؤثرون»، وقرأ الباقون بالتاء: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾.

أي: تقدمون الحياة الدنيا، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة وسميت هذه الحياة «الدنيا»؛ لقربها، فهي قبل الآخرة؛ ولهذا سميت الأولى، كما قال

تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤].

ولأنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة.

والمعنى: بل تقدمون الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، فتعملون للدنيا وتتركون العمل للآخرة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، وقال: «آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا؛ لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزُويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل»(١).

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: والدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى منها كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فالدنيا لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»(٣).

وذلك أن الدنيا دار كبد ونكد ونصب، دار الهموم والأحزان والمصائب، والآخرة لمن وفقه الله دار النعيم والثواب والسرور والحبور.

والآخرة أبقى من الدنيا؛ لأن الدنيا تفنى وتزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠- من حديث سهل بن سعد- رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث صحيح غريب».

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٧١.

كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

رُوِيَ عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: هل عندنا مما في صحف إبراهيم؟، فقال ﷺ: «نعم»، وقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾»(٢).

ويحتمل رجوعه إلى قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ ويحتمل رجوعه إلى كل آيات السورة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى»(٣).

والصحف: جمع صحيفة، و«الأولى» بمعنى الصحف السابقة المتقدمة.

وصحف إبراهيم: هي ما أنزله الله عز وجل على نبيه وخليله إبراهيم- عليه السلام- سماها الله «صحفًا» هنا وفي قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧].

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٤١٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ١/ ١٦٦- ١٦٩ من حديث طويل وقد ذكر الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» قطعة منه في باب الترهيب من الظلم وفي باب الترغيب في الصمت، وقال في آخره: رواه أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: «صحيح الإسناد».

(٣) أخرجه النسائي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٠٥.

ولم يرد تسميتها باسم كتاب معين كالقرآن والزبور والتوراة والإنجيل.

وصحف موسى هي التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران عليه السلام، كما قال الله عز وجل عن القرآن: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٣ - ١٦].

ويؤخذ من هذا التوافق بين القرآن الكريم وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من الكتب السماوية وبخاصة في أصول الشرائع حيث اشتمل القرآن على كل ما في هذه الكتب من أصول الشرائع والدعوة إلى الخير والتحذير من الشر وبهذا صار مهيمنًا عليها، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

الفوائد والأحكام:

١- تحقيق فلاح من زكى نفسه وماله، وذكر اسم ربه وصلى له، وفوزه بالمطلوب ونجاته من المرهوب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة- لمن تطهر وذكر اسم ربه وصلى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾.

٣- إيثار كثير من الناس وتقديمهم للحياة الدنيا الحقيرة الفانية على الآخرة العظيمة الباقية؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

٤- إثبات اليوم الآخر والدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٥- الترغيب في الاستعداد للآخرة التي هي خير وأبقى، وهي الحياة الحقيقية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٦- توافق الكتب السماوية في أصول الشرائع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

٧- إثبات صحف إبراهيم وموسى؛ لقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، واشتمالها على ما جاء في هذه السورة أو بعضه.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْغَاشِيَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الغاشية» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها:﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة هل أتاك حديث الغاشية»، و«سورة هل أتاك».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، و:﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأ بهما»[(١)]وفي رواية عن الضحاك بن قيس أنه سأل النعمان بن بشير رضي الله عنه: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾[(٢)].

د- موضوعاتها:

١- بيان حال الكفار والمؤمنين يوم القيامة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ إلى قوله:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

٢- توبيخ الكفار لعدم نظرهم في دلائل عظيم قدرة الله تعالى في خلقه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم ٨٧٨، وأبو داود في الصلاة ١١٢٣، والنسائي في الجمعة ١٤٢٣، وابن ماجة في إقامة الصلاة ١١٩.

٣- تسليته ﷺ وتقوية قلبه، وبيان أن مهمته التذكير، وليس إليه هداية القلوب، والوعيد للكافرين: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، الاستفهام: للتنبيه والتعظيم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب. وهذا كقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ [النازعات: ١٥]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ [البروج: ١٧، ١٨].

أي: هل جاءك نبأ وخبر الغاشية، وهي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تغشى الناس بأهوالها، وتذهلهم بشدتها.

ولهذا ذكر بعد هذا أحوال الناس فيها وانقسامهم إلى فريقين، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾، أي: وجوه في ذلك اليوم ذليلة من الخزي والفضيحة، وهي وجوه الكفار والمكذبين، فهم في ذلك اليوم أشد ما يكونون ذلًا وخوفًا كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، أي: عاملة في ذلك اليوم عملًا يكون فيه النصب والتعب من جر السلاسل والأغلال الثقيلة والخوض في العذاب في نار جهنم.

وقيل: قد عملت في الدنيا عملًا كثيرًا، نصبت وتعبت فيه لكنه لم ينفعها، لأنه عمل غير صالح، ليس خالصًا لله ولا على سنة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

عن أبي عمران الجوني قال: «مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ فذاك الذي أبكاني»(١).

وهذا المعنى وإن كان صحيحًا إلا أن دلالة السياق على المعنى الأول أظهر، لأن السياق في أهوال وأحوال القيامة.

وهذا المعنى الذي أشار إليه عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- موجود في بعض المنتسبين إلى الإسلام، كمن يزكي ويصوم ويحج، ويعمل بعض الطاعات لكنه يقع في الرياء والشرك، أو لا يصلي ونحو ذلك، فهذا عمله يذهب هباء منثورًا.

كما أنه قد يفوت على كثير من المسلمين أجر كثير من الأعمال التي يقومون بها في خدمة الأمة والقيام بمسؤولياتها كالتدريس والأعمال الوظيفية في الوظائف الشرعية وغيرها بسبب غياب النية والاحتساب مما يسبب أيضا مع فوات الأجر التبرم من العمل والإحباط وانحطاط المعنويات وانتظار التقاعد المبكر، وما علموا أن العمل في خدمة الأمة ومصالحها جهاد يؤجرون عليه إذا هم أخلصوا النية وأحسنوا العمل.

فوا أسفا على أعمار وأعمال تضيع سدى بسبب غياب النية والاحتساب فهذا موظف يشكو من الدوام، وهذا مدرس يشكو من النصاب، وهذا إمام ومؤذن يشكو من الارتباط وهكذا وكل هذا بسبب غياب حسن النية والاحتساب.

روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «يا أيها الناس، احتسبوا أعمالكم، فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر احتسابه»(٢).

وقال معاذ رضي الله عنه: «فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»(٣).

فيا أخي الكريم لتربح جميع عمرك أحسن العمل واستحضر النية الصالحة في عملك وفي جلوسك مع أهلك وأولادك وإخوانك، وفي أكلك وشربك ونزهتك

---

(١) أخرجه أبو بكر البرقاني- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٠٦- ٤٠٧.

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، «لسان العرب»، مادة «حسب».

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٤١- من حديث أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه.

وبيعك وشرائك ونومك وجميع أحوالك في أمور دينك ودنياك، ولا تكن من الغافلين. واعلم أن الموفقين عاداتهم عبادات، وأن المخذولين عباداتهم عادات. وانظر أين أنت من هؤلاء وهؤلاء.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم بضم التاء: «تُصْلى»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تَصْلَىٰ﴾، أي: تدخل نارًا شديدة الحرارة تغمرها من كل جانب، وتُقلَّب فيها.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، أي: تسقى من عين بالغة الغاية في الحرارة.

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد: ١٥].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾، أي: ليس لهم في النار طعام يأكلونه.

﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، أي: إلا طعامًا من ضريع، وهو شجر في النار خبيث، شديد المرارة، منتن الرائحة، كثير الشوك، ينشب في الحلق، كما قال تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾، أي: لا يحصل به سمن الجسم، ولا يدفع الجوع، ولا ينفع الجسم لا ظاهرًا ولا باطنًا، فمسكنهم النار الحامية، وشرابهم المهل والحميم، وطعامهم الضريع والزقوم، فبئس الحال و المآل.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ذكر في الآيات السابقة حال ومصير وعذاب الأشقياء وهم الكفار المكذبون ثم أتبع ذلك بذكر حال ومصير ونعيم السعداء، وهم المؤمنون، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿نَّاعِمَةٌ﴾، أي: تظهر عليها آثار الترف والنعمة، ونضارة النعيم، وبهجة القلوب وسرورها، وهي وجوه المؤمنين.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، أي: لعملها الذي قدمته في الدنيا.

﴿رَاضِيَةٌ﴾؛ لأنه كان سبب دخولها الجنة وتنعمها فيها، وسعادتها في دنياها وأخراها.

﴿فِي جَنَّةٍ﴾ الجنة: دار النعيم التي أعدها الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين ﴿عَالِيَةٍ﴾، أي: رفيعة المنزلة، فوق السموات في أعلى عليين وسقفها عرش الرحمن، قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠] وهي عالية أيضًا، أي: عظيمة القدر.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء المضمومة: «لا يُسمع»، و«لاغيةٌ» بالرفع، وقرأ نافع بالتاء المضمومة: «تُسمع»، وقرأ الباقون بالتاء المفتوحة: ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ ونصب: ﴿لَاغِيَةً﴾، أي: لا تسمع في الجنة كلمة ساقطة، أو لا معنى لها.

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، ﴿عَيْنٌ﴾: اسم جنس، أي: فيها عيون جاريات، أي: سارحات، تجري بغير أخدود، يفجرونها، ويشربون منها، ويصرفونها كيف شاؤوا كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

منها: عين التسنيم، والكافور والسلسبيل، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٨].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ﴾ [محمد: ١٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال، أو من تحت جبال المسك»(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٤٠٨.

وهذه العيون والأنهار تجري في غير أخدود.

قال ابن القيم[١]:

أنهارهـــا في غـــير أخـــدود جـــرت ســـبحان ممســـكها عـــن الفيضـــان

﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾، السرر: جمع سرير، وهي موضع الجلوس والاضطجاع.

﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾، أي: عالية مرتفعة السمك، كثيرة الفرش، ناعمة الملمس، عليها الحور العين، فهي مرفوعة مرتفعة حسًا ومعنى.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾: أقداح معدة للشراب.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ نمارق: جمع نِمرقة- بكسر النون، أي: وسائد ومرافق يتكأ عليها ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، أي: مصفوف بعضها إلى بعض، فجمعت بين لذة الاتكاء إليها وجمال الصف، وحسن الترتيب.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾، أي: وبسط جميلة فاخرة.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مفرقة مبسوطة في المجالس ههنا، وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة في مقام أبدًا في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية»، قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: «قولوا إن شاء الله»، ثم ذكر الجهاد وحض عليه»[٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات القيامة وأنها تغشى الناس بأهوالها وشدائدها؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾.

٢- تشريف الله- عز وجل- لنبيه ﷺ في خطابه له، وتنبيهه وأمته لعظيم يوم

---

(١) انظر «النونية» ص٢٢٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٣٣٢.

القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾.

٣- انقسام الناس في ذلك اليوم العصيب إلى فريقين: فريق وجوههم ذليلة مصيرهم النار الحامية وما فيها من ألوان العذاب، وفريق وجوههم ناعمة مصيرهم الجنة وما فيها من أصناف النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ إلى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ الآيات.

٤- ذلّ المعذبين وعملهم ونصبهم بجر السلاسل والخوض في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

٥- عمل الكفار وأهل البدع أعمالًا كثيرة ونصبهم فيها، لكنها لا تنفعهم، بل تكون هباءً منثورًا.

٦- الجمع للمعذبين بين اصطلاء النار الحامية، وشراب الحميم، وطعام الضريع المنتن المر الذي ينشب بالحلق، ولا يسمن ولا يغني من جوع؛ لقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

٧- نعومة وجوه أهل الجنة؛ لعظم ما هم فيه من النعيم المعنوي والحسي؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾.

٨- رضى المنعمين في الجنة عن سعيهم، وما أعد لهم، وهذا من أعظم النعيم المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

٩- علو الجنة ومنازلها ورفعة سررها وفرشها؛ لقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

١٠- سلامة أهل الجنة من المنغصات والمكدرات، ومن سماع اللغو لقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾.

١١- عظم ما أعد لأهل الجنة من ألوان النعيم، فعيون جارية، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ووسائد مصفوفة، وبسط مفرقة مبسوطة في المجالس؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

بعد ما ذكر عز وجل انقسام الناس يوم القيامة إلى أشقياء وسعداء، وذكر حال ومآل كل منهم وما أعد له من الجزاء، أتبع ذلك بالأمر بالتأمل والنظر في عظيم مخلوقاته، الدالة على كمال قدرته وعظمته، واستحقاقه للعبادة وحده وقدرته على بعث الناس وحسابهم.

قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع للمكذبين بالبعث المنكرين للمعاد.

أي: أعموا فلا ينظرون نظر تأمل وتفكر ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ هذه المخلوقات العجيبة التي بين أيديهم يركبونها ويحلبونها ويأكلون لحمها، وينتفعون بأوبارها وجلودها وغير ذلك من منافعها.

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، أي: كيف خلقت على هذه الكيفية العظيمة من كبر الأجسام وقوتها، وتركيبها الغريب العجيب، ولين انقيادها، وشدة صبرها وتحملها، وكثرة منافعها، تحمل الركاب والأثقال، ويستخرج بها الماء من الآبار، وتشرب ألبانها، التي تعد من أنفع وأحسن الأغذية للجسم كما يستشفى بألبانها وأبوالها من الحمى ومن كثير من الأمراض المستعصية والجلدية وغيرها، وتؤكل لحومها، التي هي أنفع اللحوم وأجودها؛ وأصحها؛ لأنها لا تتغذى بالنجاسات ولا تأكلها مطلقًا ولو ماتت جوعًا. وينتفع بوبرها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها العظيمة وفوائدها الكثيرة؛ ولهذا خصها بالذكر من بين سائر بهيمة الأنعام، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٧].

فتحمل الأثقال العظيمة، بل من قوة هذه الإبل أن الأثقال تحمل عليها وهي

باركة، ثم تقوم بحملها، وهذا من عناية الله عز وجل بالإنسان، حيث لا يمكنه الحمل عليها وهي قائمة لارتفاعها، فأعطاها الله عز وجل هذه القوة وأقدرها على القيام بحملها، كما أقدرها على قطع المسافات الطويلة، وتحمل شدة الحر والظمأ وشدة البرد وظروف الحياة الصحراوية القاسية على اختلاف فصول السنة، ويقال أنها تصبر عن الماء وتتحمل العطش نحو عشرة أيام في شدة الحر.

وتدل صاحبها إذا تاه عن الطريق، كما تدله إلى مورد الماء، وتفي لصاحبها إذا أحسن إليها، وتنتقم منه ولو بعد حين إذا أساء إليها، وتتحاشى في سيرها وطء أيّ كائن حي مهما صغر حتى النملة فيما قيل.

وقد ذكر أن رجلًا كان يسير خلف جمله في الصحراء في آخر الليل وكان مجموعة من اللصوص «الحنشل» نائمين في وسط الطريق لعل أحدًا يأتي فيأخذوا ما معه، فأبصرهم الجمل وتنحى عنهم جانبًا، أما صاحبه فاستمر في طريقه حتى وقع عليهم، فقاموا وأخذوا جمله وما معه.

ويقال: إنها إذا فقدت فصيلها بين الإبل رجعت إلى آخر مكان درّت فيه على ولدها وأرضعته فيه ولا تكاد تخطئ ذلك غالبًا، وهو كذلك إذا كان يستطيع المشي، يبحث عنها في آخر مكان رضعها فيه. وتحزن وتصاب بحالة نفسية عندما يؤخذ وليدها، أو يذبح أمامها جمل آخر، وتحس بمصدر الخطر على أهلها إذا أقبل وجهته فتسرع في السير إن كانت في مسير، وتشنف آذانها وتمد عنقها وتضطرب وتنهض إذا كانت باركة إنذارًا لأهلها بالخطر.

وأهل الإبل يعرفون من عجائب أحوالها الشيء الكثير.

لكن مما يستغرب من الإبل مع ماذكر عنها عدم ابتعادها عن السيارات في الطرقات العامة بينماكثير من الحيوانات تبتعد عنها. فقد يكون هذا بسبب غرورها وكبريائها واعتدادها بقوتها أو غير ذلك.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾: معطوف على الإبل، أي: و ينظرون إلى السماء كيف رفعها الله عز وجل فوقهم بلا عمد، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

[الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: ٧].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، أي: وينظرون إلى الجبال كيف نصبت، أي: كيف جعلت منصوبة قائمة أمام أعينهم راسخة راسية في الأرض لئلا تميد بأهلها في وسط الماء المحيط بها من كل جانب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، مع ما أودع الله فيها من المنافع من المعادن وغيرها.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن ما نشاهده من الجبال فوق سطح الأرض هو مقدار ثلثها فقط، وثلثاها راسخة في الأرض.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي: وينظرون إلى الأرض كيف سطحت، أي: كيف بسطت ومدت ومهدت وفرشت، فجعلت مسطحة يسهل العيش والبناء عليها وزراعتها والاستفادة من خيراتها مع أنها في الأصل كروية الشكل، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

فوجه الله عز وجل العرب إلى النظر والتأمل في آيات الله الكونية التي بين أيديهم ويشاهدونها: الإبل التي يركبونها، ويحملون عليها أثقالهم، ويحلبونها ويأكلون لحومها، وينتفعون بأوبارها وجلودها إلى غير ذلك من منافعها، وإلى السماء التي فوقهم، وإلى الجبال المنصوبة أمام أعينهم، وإلى الأرض التي يعيشون عليها ويسيرون، وينتفعون بخيراتها، وهذا أدعى لقبولهم، وأقوى في قيام الحجة عليهم.

وكان شريح القاضي رحمه الله يقول لأصحابه: «اخرجوا بنا ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت»(١).

وهذا بخلاف ما لو وجهت أنظارهم لما لم يكن مشاهدًا لهم ولا معلومًا مما جد من المخترعات والمصنوعات من السيارات والطائرات وانتقال الأصوات بواسطة الآلات،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٠٨-٤٠٩.

وغير ذلك مما هو داخل تحت قوله عز وجل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨].

وعن أبي تميمة عن رجل من قومه أتى النبي ﷺ أو قال شهدت النبي ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم» قال: إلام تدعو؟، قال: «أدعو إلى الله عز وجل وحده، من إذا كان بك ضر دعوته كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام سنة دعوته أنبت لك، ومن إذا كنت في أرض قفر، فأضللت فدعوته رد عليك..»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟، قال: «صدق»، قال: فمن خلق السماء؟، قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟، قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟، قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟، قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا؟، قال: «صدق»، قال: ثم ولى، فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة»(٢).

﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: ذكر الناس يا محمد، أي: عظهم بما أنزل الله إليك من الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، ﴿إنما﴾: أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٦٥.

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في العلم- ما جاء في العلم ٦٣، وأخرجه موصولًا مسلم في الإيمان- في بيان الإيمان بالله وشرائع الدين ١٢، والنسائي في الصيام- وجوب الصيام ٢٠٩١، والترمذي في أبواب الزكاة- ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ٦١٩.

عما عداه، أي: ما أنت إلا مذكر فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقد ذكّر ﷺ وبلّغ البلاغ المبين حتى أتاه من ربه اليقين، وكان يردد ﷺ وهو يجود بنفسه «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»(١).

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، أي: لست يا محمد على الناس بمتسلط جبار تكرههم على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾»(٢).

فمهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومنهم محمد ﷺ، سيدهم وأفضلهم هي التذكير وتبليغ الدعوة فقط، وهكذا مهمة الدعاة إلى الله والمصلحين والمربين، أما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب.

وفي هذا تسلية له ﷺ وهي تسلية للدعاة والمصلحين من أمته؛ لأنه إذا كان ﷺ تمرد عليه من تمرد من قومه بل من قرابته، وقال الله عز وجل له: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ مع أنه مرسل من عند الله عز وجل مؤيد بالوحي، فتمرد كثير من الناس على الدعاة من بعده من باب أولى وأحرى.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن من أعرض عن اتباع الحق

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١، والبغوي في «معالم التنزيل» ١/ ٤٢٦- من حديث أم سلمة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان- الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧.

والعمل به ببدنه وجوارحه، ﴿وَكَفَرَ﴾، أي: وجحده بقلبه ولسانه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١- ٣٢].

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ وهو عذاب الآخرة في النار، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، و من يأبى؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكلم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله»(٢).

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في هذا وعد لمن آمن، ووعيد لمن كفر، كما أن فيه تسلية للرسول ﷺ تجاه من تولى وكفر من قومه.

قرأ أبو جعفر بتشديد «الياء»: «إيَّابهم»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿إِيَابَهُمْ﴾.

أي: إلينا رجوعهم ومآبهم ومصيرهم، وعلينا طريقهم ونحن لهم بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾، أي: ثم إن علينا محاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

لكن المؤمنين يحاسبون حسابًا يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدني الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه، فيقول أتذكر ذنب كذا وكذا؟، فيقول: نعم ربي، فيقول الله عز

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٨٠.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٥٨.

وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

وأما الكافرون فيحاسبون حسابًا عسيرًا كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٢٥- ٣٢].

فتحصى عليهم أعمالهم ويناقشون عنها أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد، ويقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «من نوقش الحساب هلك »، وفي رواية: «عذب»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- الحث على النظر والتأمل في آيات الله ومخلوقاته العظيمة، والإنكار على من يغفل عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾.

٢- عظم آيات الله عز وجل وتمام قدرته في خلق الإبل ورفع السماء، ونصب الجبال وسطح الأرض.

٣- مخاطبة الناس بما يعرفون فقد وجه الله العرب للنظر فيما بين أيديهم من المخلوقات إقامة للحجة عليهم ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

٤- أن مهمة الرسول ﷺ والواجب عليه، وعلى أتباعه التذكير، وهداية الناس بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾.

٥- أن الرسول ﷺ ليس بمسلط على الناس يلزمهم الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٤٩٣٩، وفي الرقاق ٦٥٣٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٧٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٦- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

٦- الوعيد لمن تولى وكفر بالعذاب الأكبر يوم القيامة عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

٧- أن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله عز وجل وعليه حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْفَجْرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفجر»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه: «صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذًا، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه، فطوّل عليَّ فانصرفت، وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ و ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾»(١).

د- موضوعاتها:

١- إقسام الله عز وجل بالفجر وما عطف عليه تعظيمًا لذلك: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

٢- التذكير بما حل من العقوبات بعاد وثمود وفرعون بسبب استكبارهم وكفرهم وطغيانهم وفسادهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

٣- بيان طبيعة الإنسان إنسان حاله ومقاله عندما بالسراء والنعمة، وعندما يبتلي بضد ذلك: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾.

---

(١) أخرجه النسائي بهذا اللفظ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤١٢. وقد سبق تخريجه في تفسير سورة الأعلى، وليس فيه: «والفجر».

٤- الحث على إكرام اليتيم وإطعام المسكين، وعدم الافتتان بأكل التراث وحب المال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

٥- التهديد بأهوال القيامة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾.

٦- تذكر الإنسان عمله، وندم المفرط على تفريطه، ومجازاة كل بما عمل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾.

الواو: حرف قسم وجر، و«الفجر» وما عطف عليه وهو قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ كل ذلك مقسم به مجرور، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما فيها من الدلالة على عظمته هو، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم إلا بالله.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ هو الصبح والنور الساطع الذي يكون متصلًا بالأفق الشرقي ويمتد شمالًا وجنوبًا، قبل طلوع الشمس بساعة ونصف إلى ساعة وربع تقريبًا حسب اختلاف الفصول، وهو الفجر الصادق الذي لا ظلمة بعده، بل يتلوه طلوع الشمس، وهو وقت عظيم؛ لأنه وقت إقبال ضوء النهار وإدبار ظلمة الليل، ووقت صلاة الفجر، التي قال الله عنها: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]، وهو وقت إمساك الصائم عن المفطرات.

وعُرِّف «الفجر» باللام؛ لأنه معروف لكل أحد.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: عشر ذي الحجة، والمراد أيامها، أقسم الله عز وجل بها؛ لعظيم فضلها، قال ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟، قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين- فضل العمل في أيام التشريق ٩٦٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٣٨، والترمذي في الصوم ٧٥٧، وابن ماجه ١٧٢٧ - من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

وقيل: إن المراد بهذه الليالي العشر الاواخر من رمضان، لقوله: «وليال»، ولم يقل «وأيام» فأقسم الله عز وجل بهذه الليالي؛ لشرفها وفضلها؛ لأن فيها ليلة القدر، وكان الرسول ﷺ يقومها ويعتكف فيها ويرغب في ذلك.

﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ يوم النحر ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو: ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ بفتحها ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ يوم عرفة.

عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»(١).

وقال بعض المفسرين: الشفع الخلق كله، والوتر: الخالق سبحانه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»(٢).

وقال بعضهم: الشفع والوتر: المخلوقات منها شفع ووتر، وكذلك العبادات كلها منها ما هو شفع، ومنها ما هو وتر، أي: في عددها فالصلاة منها ما هو شفع كالثنائية والرباعية، ومنها ما هو وتر كالثلاثية.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر»(٣).

قال ابن القيم(٤): «هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال، فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفات وتر، وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل فإن الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٤٨. قال ابن كثير في «تفسيره»: «إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة».

(٢) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٤٣٧، والترمذي في تفسير سورة الفجر٣٣٤٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٣٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٢٣.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٠٦- ٢٠٧.

وتر، والوتر يوتر الشفع فتكون كلها وترًا، وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع.. إلى أن قال: وذكرت أقوال أخر هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين: أحدها أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات، والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق».

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، أي: والليل إذا سار ومضى وذهب وأدبر.

والسُّرى: السير في الليل، وفي المثل: «عند الصباح يحمد القوم السُّرى»

ويحتمل أن المعنى: والليل إذا أقبل بظلامه فيكون عز وجل أقسم بالليل إذا أقبل بظلامه وبالفجر إذا أقبل بضيائه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

فأقسم عز وجل بالليل في سريه إقبالًا وإدبارًا؛ لما فيه من الآيات العظيمة، والأوقات الفاضلة من أوقات الصلوات والنزول الإلهي، وغير ذلك.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾، «هل»: حرف استفهام، للتحقيق والتقرير.

﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للقسم السابق، وما أقسم به.

﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾، أي: لصاحب عقل ولب وحِجًا وبصيرة.

وسُمي العقل حجرًا؛ لأنه يحجر على صاحبه ويمنعه عما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

والمعنى: في هذا القسم الذي أقسم الله به في هذه الآيات أعظم الإقناع والكفاية لمن كان ذا عقل ولب وألقى السمع وهو شهيد.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، أي: ألم تعلم كيف فعل ربك بهم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح خطابهُ.

و«عاد إرم» هم أولاد عاد بن إرم ينتهي نسبهم إلى نوح عليه السلام، وهم عاد الأولى أرسل الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام ومنازلهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾: عطف بيان، أي: صاحبة العماد، نسبة إلى الأعمدة الشديدة الطويلة التي ترفع بها بيوت الشعر والخيام التي يسكنونها.

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في جميع البلاد، من

حيث كبر وطول أجسامهم وعظم خلقهم وقوة تركيبهم، وشدة قوتهم وبطشهم، حتى إنه رُويَ أن الواحد منهم يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الحي فيهلكهم؛ ولهذا ذكّرهم نبي الله هود عليه السلام بهذه النعمة التي خصهم الله بها من بين أهل بلادهم وزمانهم؛ ليشكروا الله تعالى على ذلك فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩].

لكنهم لم يزدادوا بهذه النعمة إلا استكبارًا في الأرض، وعتوًا وتجبرًا، وتكذيبًا لـ«هود» عليه السلام، وجحودًا لآيات الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ١٥﴾ [فصلت: ١٩].

وحيث كانوا يفتخرون ويتعاظمون بقوتهم أهلكهم بألطف الأشياء وهي الريح العقيم وجعلهم عبرة لمن بعدهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ [فصلت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿وَثَمُودَ﴾: هم قوم نبي الله صالح عليه السلام.

﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾، أي: الذين قطعوا الصخر ونحتوها وخرقوها؛ لما أعطاهم الله من قوة، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر: ٨٢].

ومنه قوله في الحديث: «مجتابي النمار»[1]، أي: مقطعو النمار[2] ومخرقوها.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧- من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) النمار: هي الأزر والشمال المخططة من صوف.

﴿بِٱلْوَادِ﴾، أي: بواد القرى، وادي الحجر شمال الجزيرة.

وقد كذبوا صالحًا عليه السلام، وعصوا أمر الله عز وجل، وعقروا الناقة التي أرسلها الله عز وجل لهم آية إجابة لطلبهم، وقد أهلكهم الله عز وجل بالصيحة والصاعقة والرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أعماق أجوافهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٠- ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥].

ومساكنهم معروفة الآن وهي المسماة الآن «مدائن صالح» في العلا شمال الجزيرة، وقد مر عليها النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنّع رأسه، وقال ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»(١).

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: ملك مصر، الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وهو أعظم الفراعنة جرأة على الله عز وجل حيث ادعى الربوبية والألوهية فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] واستذل بني إسرائيل يُقتِّل أبناءهم ويستحيي نساءهم.

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾، أي: صاحب الأوتاد، والأوتاد: جمع وتد، أي: صاحب الأوتاد التي يعذب بها الناس يوتدهم ويعلقهم بها.

ومنهم امرأته آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، فقد رُوي أنه ضرب لها أربعة

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ٤٧٠٢، ومسلم في الزهد- النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيًا ٢٩٨٠، من حديث عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما.

أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿ذي الأوتاد﴾، أي: ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأرض بالأوتاد.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ «الذين» اسم موصول يعم من ذكر قبل، وهم عاد إرم، وثمود وفرعون.

ومعنى ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾، أي: تجاوزوا الحد، فخالفوا أمر الله وعتوا وتجبروا.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾، أي: أكثروا فيها الفساد المعنوي بالكفر والمعاصي وإضلال وأذية العباد، المؤذن بفساد وخراب البلاد، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾، أي: أنزل عليهم ربك يا محمد.

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾، أي: رجزًا من العذاب والعقاب العاجل في الدنيا أهلكهم به، كل منهم بقدر جرمه وذنبه.

ونكّر «سوط عذاب»، إما؛ لتعظيمه، وإما لتقليله، وأنه بيسير من عذابه أهلكهم واستأصلهم جميعًا، مع جبروتهم وطغيانهم.

فأهلك عادًا بالريح العقيم، وأهلك ثمود بالصيحة والصاعقة والرجفة، وأهلك فرعون وقومه بالغرق، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ بعد ما ذكر الله عز وجل ما أنزله من العذاب على عاد وثمود وفرعون أتبع ذلك بأنه عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: إن ربك يا محمد ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ لجميع خلقه يسمع أقوالهم، ويرى أعمالهم، وطريقهم كلهم عليه، ومردهم وإيابهم إليه وحسابهم عليه، فلا يمكن أن يفلت منهم أحد، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦] فالطريق

عليه والمرجع إليه، والطريق إلى غيره مسدودة وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد للمكذبين.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالفجر، وعشر ذي الحجة، والشفع والوتر والليل إذا يسر تعظيمًا لنفسه عز وجل وشرعه وقدرته، وتنبيهًا إلى فضل هذه الأوقات خصوصًا، وإلى أهمية الوقت عمومًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

٢- أن في إقسامه عز وجل بما ذكر ما يشفي ويكفي لمن كان ذا لب وعقل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

٣- التذكير بما فعل الله عز وجل بعاد إرم وثمود وفرعون مع قوتهم وجبروتهم حيث عذبهم أهلكهم بسبب طغيانهم وفسادهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ تجاه تكذيب قومه، وتخويف وتحذير لهم.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

٥- أن الله عز وجل بالمرصاد لجميع الخلق، فمرورهم عليه، ومصيرهم إليه، وحسابهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

٦- التذكير بوجوب مراقبة الله تعالى، والتحذير من الغفلة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما» حرف شرط وتفصيل، ﴿الإنسان﴾ جنس الإنسان.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: إذا ما امتحنه ربه، واختبره. والابتلاء: الامتحان، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فيبتلى الإنسان بالشر أيصبر أم يجزع ويفجر، ويبتلى بالخير أيشكر أم يكفر.

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(١)

﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالأموال والأولاد والصحة وغير ذلك، أي: أكرمه مطلق إكرام، لا الإكرام المطلق. ونعمه مطلق إنعام، لا الإنعام المطلق.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾، أي: فبدل أن يشكر نعمة الله عليه ويعترف له بها يظن أن هذا الإكرام والتنعيم الدنيوي إكرام من الله عز وجل له فيغتر بذلك، وأنه إنما أوتي ذلك؛ لأنه أهل له، وما علم أن ذلك قد يكون استدراجًا له، كما قال تعالى عن قارون أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر بتشديد الدال: «فقدّر»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿فَقَدَرَ﴾، أي: وأما إ ذا ما امتحنه، فضيق عليه رزقه وعطاءه

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ معترضًا على قضاء الله وقدره، وظانًا أن ما حصل له من تضييق رزقه إهانة من الله عز وجل له، فأعجب بنفسه عند الإكرام، ولم يشكر نعمة الله عليه، وجزع عند تضييق رزقه، واعترض على ربه. وهذا حال الإنسان من حيث العموم

---

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص٥٧٧.

ظلوم جهول.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر، أي: ليس الأمر كما زعم واعتقد، فليس في الابتلاء بتوسيع الرزق أو تضييقه دلالة على إكرام الله عز وجل للإنسان أو إهانة، أو محبة منه له أو عدمها، بل هذا مقتضى حكمة الله عز وجل وعدله؛ لأن الله عز وجل يبتلي بالنعم، كما يبتلي بالمصائب والنقم، ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ويمنعها عمّن يحب وعمّن لا يحب. ويبتلي عبده بنعمة قد تجلب له نقمة وبنقمة قد تجلب له نعمة.

وإنما الشأن كل الشأن في توفيق الله للعبد لتقواه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعلى من ابتلي بالمال والغنى أن يشكر ولا يغتر بذلك وعلى من ابتلي بالضيق والفقر أن يصبر، ولا يجزع، والعاقبة للمتقين.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه»(١).

وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»(٢).

وقال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه»(٣).

فالحمد لله الذي لم يجعل إعطاء الدنيا دليلًا على الكرامة عنده، بل جعل الأكرم من الخلق أتقاهم له عز وجل، لينال ذلك من وفقه الله من الفقراء والأغنياء، والأصحاء والمرضى، بل جعل الابتلاء بالفقر والمرض والمصائب من دلائل محبته، وأسباب القرب إليه.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٣، والدارمي في الرقاق ٢٧٨٣، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ويقوى هذا المعنى ويتأكد عند المؤمن حقًا، ويضعف عند ضعف الإيمان، وينعدم عند عدم الإيمان، فالمؤمن إذا أكرمه الله ونعمه اعترف بفضل الله عليه وشكره، ولم يزعم أن هذا باستحقاقه لذلك، بل يخاف أن يكون ذلك استدراجًا له، وعندما يبتلى بالفقر وضيق الحال يصبر، ويخاف أن يكون ذلك بشؤم ذنوبه، ويعلم أن ما عند الله خير له.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ «بل»: للاضراب الانتقالي، أي: بل إنكم إذا أكرمكم الله ونعمكم ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

قرأ أبو عمرو ويعقوب، بالياء في قوله: « بل لا يكرمون» وقوله: «ولا يحاضون» وقوله: «ويأكلون»، «ويحبون»، وقرأ الباقون بالتاء.

و«اليتيم»: من مات أبوه قبل بلوغه، من ذكر أو أنثى؛ لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(١). وسمي يتيمًا من الانفراد، لانفراده عن أبيه أو عن أبويه.

والمراد بإكرام اليتيم: الإنفاق عليه وتوجيهه والدفاع عنه وعن حقوقه، وتعويضه ما فقد من عطف أبيه أو من عطف أبويه.

وفي الآية ترغيب وحث على إكرام اليتيم وأداء حقوقه وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»(٢).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب- حق اليتيم ٣٦٧٩.

الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئًا»(١).

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، أي: ولا يحث بعضكم بعضًا على إطعام المسكين. و«المسكين» هو المحتاج الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئًا، وهو الفقير، وسمي بـ«المسكين» أخذًا من السكون واللصوق في الأرض وعدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله نسأل الله العافية.

ومن لا يحض غيره على إطعام المسكين، فهو من باب أولى وأحرى لا يطعم المسكين.

ولعل من الحكمة في قوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ ولم يقل: ولا تطعمون المسكين أن كل إنسان يستطيع الحث على إطعام المسكين، لكن قد يكون هناك الكثير من الناس لا يقدرون على إطعام المسكين بأنفسهم لفقرهم، فاشترك الجميع في أجر الإطعام الحاث عليه والمطعم من ماله.

وفيه أيضًا أنه ينبغي للمجتمع المسلم التواصي بهذا، وأن يحض بعضهم بعضًا عليه، وأن يكون من يتولى تدبير الطعام من زوجة أو ولد، أو خادم أو غيرهم قد أعطي الإذن في هذا.

﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾، أي: وتأكلون الميراث ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾، أي: من أي جهة حصل من حلال أو حرام، أي: أكلا يَلُمُّ ويلف كل شيء من حلال أو حرام، من ميراث الشخص أو ميراث غيره.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، أي: وتحبون المال حبًا كثيرًا عظيمًا شديدًا.

قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأي عبد لك لا ألمّا(٢)

الفوائد والأحكام:

١- جهل الإنسان في ظنه أن ابتلاء ربه له بالنعمة إكرام له، وأن ابتلاءه له بتضييق رزقه إهانة له، والحقيقة غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨.

(٢) البيت لأبي خراش الهذلي. انظر «لسان العرب» مادة «جمم».

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾.

٢- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

٣- ليس الإكرام للإنسان بتوسيع رزقه، وليست الإهانة له بتضييقه، وإنما حقيقة الإكرام للإنسان بتوفيقه لتقوى الله عز وجل، والإهانة في خذلانه وعدم توفيقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وقد قال عز وجل ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

٤- أن الله يبتلي بالغنى كما يبتلي بالفقر من يحب ومن لا يحب.

٥- أن الابتلاء بالنعم أشد وأعظم من الابتلاء بالنقم؛ لهذا قدم قوله: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾على قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، إذا قليل من الخلق من يشكر النعمة ولا يكفرها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

٦- الزجر والوعيد لمن لا يكرمون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين، ويأكلون التراث من حل أو حرام ويتهالكون على حب المال؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾﴾.

٧- وجوب إكرام اليتيم وإطعام المسكين، والإحسان إليهما والعطف عليهما.

٨- عناية الدين الإسلامي باليتامى والمساكين.

٩- التحذير من أكل الميراث وجمع المال من أي طريق كان ولو كان حرامًا، ومن التهالك في حب المال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾: للردع والزجر للكافرين المكذبين.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، أي: إذا هدم ما عليها من بناء وسويت جبالها مع سهولها وبسطت، قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق: ٣]، أي مدت كما يمد الأديم، وزيد في سعتها.

وقال تعالى عن الجبال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، أي: وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد وهو مجيء يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:٢١٠].

﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ «الملك»: جنس الملائكة، أي: وجاء الملائكة بين يدي الله عز وجل صفوفًا صفوفًا، وصفًا بعد صف.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: وأُتي في ذلك اليوم ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ وهي: النار سميت بهذا الاسم؛ لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: في ذلك اليوم عندما يرى جهنم، وتبدو الحقيقة

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة- باب في شدة حر جهنم وقعرها، وما تأخذه من المعذبين ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم- ما جاء في صفة النار ٢٥٧٣.

عيانًا، يتذكر الإنسان حاله في الدنيا وتفريطه في عمل الخير والاستزادة منه، كما في قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾، أي: وأين له الذكرى وقد فات أوانها وذهب زمانها.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي: يقول متمنيًا نادمًا على تفريطه في جنب الله ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ عملًا صالحًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿لِحَيَاتِي﴾ الآخرة الباقية الدائمة، والتي هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب»(١).

وعن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله لحقره ذلك اليوم، ولود أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب»(٢).

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ قرأ يعقوب والكسائي: «لا يعذَّب» بفتح الذال مع تشديدها، «ولا يوثَق وثاقه أحد» بفتح الثاء.

أي: ففي ذلك اليوم لا يعذَّب مثل عذاب هذا المكذب أحد، ولا يوثق ويقيَّد مثل تقييده أحد، فهو أشق الناس عذابًا، وأشدهم وثاقًا وتقييدًا لكفره وتكذيبه.

وقرأ الباقون: ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾ بكسر الذال مع تشديدها، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بكسر الثاء.

أي: ففي ذلك اليوم لا يعذب عذاب الله أحد، ولا يوثِق وثاقه أحد، بل عذابه أشق، ووثاقه وتقييده أشد، لمن كفر به وكذب رسله وشرعه.

وفي هذا أشد التهديد والوعيد للكفرة والمجرمين والعصاة.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٨٥ ورواه عتبة بن عبد عن رسول الله ﷺ ٤/ ١٨٥.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ بعد ما ذكر شدة عذابه عز وجل ووثاقه لمن كفر به وكذب رسله، أتبع ذلك بذكر ما أعده للنفس المؤمنة من الرضا والكرامة في الجنة فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ الآيات، أي: يا أيتها النفس المؤمنة الآمنة الساكنة الثابتة التي رضيت بقضاء الله وقدره، واطمأنت إلى ذكره، وأيقنت بوعده وثوابه، وأمنت من عذابه، كما قال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل اللهم إني أسألك نفسًا بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»(١).

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، أي: يقال لها عند الاحتضار، ويوم القيامة: ارجعي وعودي إلى ربك وجواره وجنته، وما فيها من ألوان النعيم، الذي أعلاه النظر إلى وجهه الكريم، كما قال مؤمن آل فرعون فيما ذكر الله عز وجل عنه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ويجوز أن يكون المراد بـ «ربك»: صاحبك، أي: ارجعي وعودي أيتها النفس المطمئنة إلى صاحبك، أي: إلى بدنك.

﴿رَاضِيَةٗ﴾ حال، أي: حال كونك راضية مرضية، أي: راضية في نفسك عن ربك وعما أعد لك من النعيم، ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾، أي: قد رضي الله عنك بسبب إيمانك وعملك الصالح.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل قوله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان

---

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبيها فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٢٣.

في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب، فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا...»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح، وريحان، ورب غير غضبان..»(٢).

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾، أي: في عدادهم، وفي جملتهم، كما قال ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى»(٣).

وفي إضافتهم إليه عز وجل تشريف وتكريم لهم؛ لأنهم أهل العبودية الخاصة.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، أي: وادخلي جنتي التي أعددتها لعبادي الصالحين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي إضافتها إليه عز وجل تشريف وتعظيم لها.

وهذا النداء وهذا الخطاب الذي يبهج القلوب ويشرح الصدور، يقال لها عند لقاء الله عز وجل يوم احتضارها، وعند لقاء الله عز وجل يوم قيام الناس لرب العالمين.

كما تبشرهم الملائكة بذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز ١٨٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

وفي ندائه عز وجل للنفس المطمئنة، ووصفها بهذا الوصف، وأمرها بالرجوع إليه عز وجل، وإضافة ضميرها إلى اسمه عز وجل «الرب»، وجعلها ضمن أهل ربوبيته الخاصة بأوليائه، وإرضائها والرضا عنها، وأمرها بالدخول ضمن أهل عبوديته الخاصة، وفي جنته كل هذا تشريف وتكريم لها نسأل الله- تعالى- من فضله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال يا رسول الله، ما أحسن هذا فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»(١).

ولا شك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل تحت هذه الآية من الأمة، لأنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ.

وفي الأثر: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- التهديد والوعيد بالقيامة وأهوالها من اندكاك الأرض، ومجيء الرب عز وجل والملائكة، والإتيان بجهنم على أهل الموقف؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

٢- إثبات مجيء الرب عز وجل يوم القيامة للفصل بين عباده، وإثبات وجود الملائكة ومجيئهم بين يدي الله تعالى ذلك اليوم صفوفًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ، ولكل نفس مؤمنة مطمئنة؛

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٢٩- ٣٤٣٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» ١/ ١٥٢ (١٣٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» ٢/ ٥٧٦ (١٢٢٤)، والآجري في «الشريعة» ٤/ ١٨٤٤ (١٣٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٣٢٥.

لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾.

٤- تذكر الإنسان في ذلك اليوم عندما يشاهد أهوال القيامة لكن لا تنفعه الذكرى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٥- ندم الكافر على تفريطه، وتمنيه أنه آمن وقدم عملًا صالحًا في الدنيا لحياته الأخرى؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، ولكن هيهات.

٦- تعذيبه عز وجل في ذلك اليوم للكفرة المجرمين عذابًا لا يعذبه أحد وإيثاقه لهم وثاقًا لا يوثقه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾، وفي هذا من الوعيد والتهديد للكافرين ما فيه الكفاية.

٧- البشارة والتهنئة للنفس المؤمنة المطمئنة برجوعها إلى ربها راضية مرضية، ودخولها ضمن عباد الله المخلصين المكرمين، وفي جنته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، وهذا غاية التكريم.

٨- إثبات البعث والرجوع إلى الله تعالى ولقائه.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأهل عبوديته الخاصة.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلْبَلَدِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة البلد»؛ لإقسامه تعالى في مطلعها به في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾.

وتسمى: «سورة لا أقسم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- تشريف مكة البلد الحرام

٢- بيان مكابدة الإنسان لمصائب الدنيا وشدائدها.

٣- تعداد بعض نعم الله على الإنسان في خلقه، وبيان الحق له.

٤- الترغيب في الإيمان ومكارم الأخلاق، من فك الرقاب وإطعام الطعام والصبر والرحمة.

٥- تهديد الكافرين بآيات الله.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، «لا»: للاستفتاح والتنبيه، وتوكيد القسم، وليست نافية، والمعنى: أقسم بهذا البلد، والمراد بـ«البلد» مكة أم القرى، أقسم الله عز وجل بها لشرفها وعظمها، فهي أحب أرض الله إلى الله عز وجل، كما قال ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(١).

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ الواو: حالية، والخطاب للنبي ﷺ.

والتقدير: أقسم بهذا البلد حال كونك يا محمد ﴿حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، أي: يحل لك أن تقاتل فيه، وذلك ساعة من نهار، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»(٢).

ويحتمل أن المعنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، أي: حال كونك حالًا فيه، أي: ساكنًا محلًا غير محرم؛ لأن حلول النبي ﷺ بهذا البلد يزيده شرفًا إلى شرفه ولأن أمن هذا البلد إنما تظهر به النعمة حال الحل من الإحرام، والحرمة هنا للمكان، وفي حال الإحرام للفعل، وأيضًا: فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب- فضل مكة ٣٩٢٥- من حديث عبد الله بن عدي الزهري- رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب صحيح»

(٢) أخرجه البخاري في الحج جزاء الصيد ١٨٣٤، ومسلم في الحج- تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢، والترمذي في السير ١٥٩٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٣.

﴿وَوَالِدٍ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأقسم بالوالد، وهو آدم. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾، أي: والذي ولد وهم ذريته، فأقسم عز وجل بأصل المكان ومرجعه وهي مكة: «أم القرى».

وبأصل السكان ومرجعهم، وهو آدم عليه السلام.

وقيل: المراد كل والد من بني آدم وما ولد، أو كل والد من الحيوانات مطلقًا وما ولد.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾: هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالبلد الحرام حال كون النبي ﷺ حلًا فيه، وأقسم عز وجل بالوالد وما ولد على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد.

واللام في قوله: ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في وجوب القسم، و«قد»: للتحقيق والتوكيد فأكّد عز وجل هذه الجملة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، و«قد».

ومعنى قوله: ﴿في كبد﴾، أي: منتصبًا مستويًا مستقيمًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤].

وهذا مما يوجب عليه شكر هذه النعمة العظيمة، لا أن يتجبر وتبطره النعمة.

ويحتمل أن المعنى: في نصب، في جميع أطوار حياته يكابد متاعب الدنيا ومصائبها، وأشد ذلك مجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا، والمجاهدة في الصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة إلى أن يدخل الجنة إن كان من المقبولين، وإلا استمر على ذلك بل ازداد شقاء إلى شقاء إن كان من أصحاب الجحيم.

وكلا المعنيين صحيح، ولا مانع من حمل الآية عليهما معًا.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أيظن الإنسان.

﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي: أنه قد يغتر بعنفوان شبابه وكبريائه وقوته فيظن هذا الظن وأنه متروك سدى، فيقول أنا أعمل ما شئت بنفسي ومالي، كما قال تعالى عن عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فصلت: ١٥]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد الباء: «لبَّدا»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿لُّبَدًا﴾.

أي: أنفقت وأفنيت مالًا كثيرًا يُلبّد بعضه على بعض، فهو يفتخر في إفنائه المال الكثير في شهواته وفي غير وجهه، ولو أنفقه في وجهه لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل إبقاءً له، كما قال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» وفي رواية «فأبقيت»(١).

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ وهذا أيضًا إنكار عليه، أي: أيظن الإنسان أن الله عز وجل لم يطلع عليه فيما أهلك من ماله، وفي جميع أحواله فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، وفي هذا وعيد وتهديد لمن يغتر بقوته وماله.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: ألم نصيِّر له عينين يبصر بهما الأشياء، وهما من أعظم نعم الله عز وجل عليه ينظر بهما في آيات الله الشرعية والكونية ويبصر بهما الطريق، وينظر بهما إلى ما يريد، وهما الحبيبتان، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «ما لعبدي المؤمن جزاء إذا أخذت حبيبتيه فصبر إلا الجنة»(٢).

﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به ويتكلم، ويعبر به عما في نفسه، ويفصح به عما في ضميره، فتميز بذلك عن سائر الحيوانات، وعمن ابتلي بالبكم فأصبح لا يستطيع الإفصاح عما في نفسه إلا بلغة الإشارات القاصرة.

﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما في الكلام وأكل الطعام، وهما جمال لوجهه وفمه.

وخص هذه الأعضاء الثلاثة: العينين، واللسان، والشفتين؛ لأنها أكثر الأعضاء حركة وأكثرها كسبًا للأعمال.

إما للإنسان بالتأمل في آيات الله الكونية والشرعية، وفي ذكره وشكره والدعوة

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢ من حديث مطرف عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى- فضل من ذهب بصره ٥٦٥٣، والترمذي في الزهد- ما جاء في ذهاب البصر ٢٤٠٠، وأحمد ٣/ ٢٨٣- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وأخرجه أحمد أيضًا ٢/ ٢٦٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليه، وتعليم العلم ونحو ذلك، وإما على الإنسان بالنظر إلى ما حرم الله، وفي الكلام في الباطل والزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي: ودللناه وبينا له طريق الخير والشر، والهدى والضلال والرشد والغي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

فذكَّر عز وجل الإنسان وقرره بأعظم نعم الله عليه؛ ليستدل بها على عظيم فضل الله عز وجل عليه، وعلى إثبات الخالق، وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده ووعيده كما قال عز وجل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

وليشكر الله عليها ويقوم بحقوقه.

لا أن يكفر به ويستعين بنعمه على معاصيه، كما هو واقع كثير من الناس وصدق الله العظيم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالبلد الحرام مكة حال كونه ﷺ حلًا بها، وبالوالد وما ولد على أنه خلق الإنسان في كبد؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

٢- تعظيم الله عز وجل للبلد الحرام، وتشريفه لرسوله محمد ﷺ، وتكريمه للإنسان.

٣- نعمة الله عز وجل وفضله على الإنسان حيث سوى خلقه وجعله معتدل الخلقة، متناسب الأعضاء.

٤- أن الله عز وجل خلق الإنسان في كبد في هذه الحياة يعاني متاعب الدنيا ومصائبها، وشدائد الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

٥- خطأ الإنسان وجهله في ظنه أن الله لن يقدر عليه، ولن يراه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

٦- أن ما أنفقه الإنسان من المال في غير مرضاة الله عز وجل فهو خسارة

وسيحاسب عليه.

٧- تقرير تمام قدرة الله تعالى، وواسع بصره واطلاعه على كل شيء.

٨- تقرير الإنسان بنعم الله عز وجل عليه من العينين واللسان والشفتين، وهدايته النجدين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

٩- إقامة الحجة على الإنسان ببيان طريق الخير وطريق الشر له بإرسال الرسل وإنزال الكتب إعذارًا وإنذارًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أقسم الله عز وجل بالبلد الحرام، وبآدم وولده على أنه عز وجل خلق الإنسان في كبد مستوي الخلق يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وبين أنه قادر عليه ومطلع عليه، وذكَّره بما أنعم به عليه من العينين واللسان والشفتين وبيان طريق الخير والشر له.

وهذا كله يشير إلى الأمانة التي حملها الإنسان، وعظم الهدف الذي خلق من أجله، ولهذا قال بعده ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾.

قوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ الفاء عاطفة، و«لا»: نافية، أي: فلا هو اقتحم العقبة، كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١].

ويحتمل أن تكون «فلا» للتحضيض، أي: فهلا اقتحم العقبة.

ومعنى ﴿اقْتَحَمَ﴾، أي: تجاوز. والاقتحام: التجاوز بمشقة.

﴿الْعَقَبَةَ﴾ «العقبة» في الأصل: الطريق الوعر في الجبل، وتطلق على الأمر الشديد الصعب الشاق.

وهي هنا مَثَلٌ ضربه الله عز وجل لمجاهدة النفس والشيطان في فعل الطاعات والبعد عن المنهيات.

وقيل: المراد بالعقبة الصراط الذي يضرب على متن جهنم.

وفي الحديث: «إن العقبة كؤود لا يجوزها المثقلون»(١).

فهذه العقبة شديدة حسية كانت أو معنوية، لا يجتازها إلا المُضْمِرون المُخِفُّون المشمرون، ويهلك دونها المنقطعون، وهم أكثر الخلق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ «ما»: اسم استفهام، والجملة اعتراضية بين العقبة وتفسيرها،

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٤/ ٦١٨، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

والمراد بها تعظيم أمر العقبة وتفخيم شأنها، والتشويق لها، أي: وما أعلمك ما العقبة.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

هذا بيان لقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾، أي: بيان لكيفية اقتحام العقبة، وبماذا تقتحم.

قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «فكَ» بالفتح و﴿رَقَبَةٍ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون برفع ﴿فَكُّ﴾ وخفض ﴿رَقَبَةٍ﴾.

أي: عتق رقبة وتحريرها وتخليصها من الرق، أو من القتل، أو الأسر.

وفي تقديمها في الذكر تعظيم لعتق الرقاب، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إربٍ منها إربًا منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج»(١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: علمني عملًا يدخلني الجنة، فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة»، فقال يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟، قال: «لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها. والمنحة الوكوف(٢) والفيء على ذي الرحم الظالم، قال: فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير»(٣).

وعن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نورًا يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له كعدل رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق

---

(١) أخرجه البخاري في الكفارات- قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ٦٧١٥، ومسلم في العتق- فضل العتق ١٥٠٩، والترمذي في النذور- ثواب من أعتق رقبة ١٥٤١، وأحمد ٢/ ٤٢٢.

(٢) أي: المنيحة كثيرة اللبن.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٩.

الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار، ومن أنفق زوجين في سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أي باب شاء منها»(١).

وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار»(٢).

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أو أَطْعَمتم»، وقرأ الباقون: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾.

﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، أي: في يوم ذي مجاعة شديدة، والسغب: الجوع الشديد.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ اليتيم: من فقد أباه دون البلوغ؛ لقوله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(٣).

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي: ذا قرابة لمن أطعمه؛ لأن الصدقة على القريب أفضل، كما قال ﷺ: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»(٤).

والمعنى: أو أطعم في يوم ذي مجاعة شديدة يتيمًا من أقاربه، جمع بين الصفتين اليتم والقرابة.

﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾، أي: أو أطعم ﴿مسكينًا﴾، و«المسكين» هو الفقير المحتاج الذي لا شيء عنده.

﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، أي: لاصقًا بالتراب، يلتحف الثرى والتراب من شدة الفقر والحاجة،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١١٣، ٣٨٤، ٣٨٦، وأبو داود في العتق- أي الرقاب أفضل ٣٩٦٥، ٣٩٦٦، والنسائي في الجهاد ٣١٤٣، ٣١٤٤، ٣١٤٥. وابن ماجه في الجهاد ٢٨١٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٢٢، وقال ابن كثير عن أسانيد هذا الحديث عند أحمد «وهذه أسانيد جيدة قوية» «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٢٩.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٧، ١٥٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه النسائي في الزكاة- الصدقة على الأقارب ٢٥٨٢، والترمذي في الزكاة- الصدقة على ذي القرابة ٦٥٣، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٤، وأحمد ٤/ ٢١٤- من حديث سلمان بن عامر الضبي- رضي الله عنه. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٣٠ «وهذا إسناد صحيح».

ومن هنا سمي المسكين مسكينًا للصوقه إلى الأرض وسكونه فهو ساكن لا يتحرك، كالملقى على الأرض، ساكتٌ لا يتكلم؛ لأنه إن تكلم لم يسمع، وإن سُمع لم يصدق، أذله الفقر- الذي يذل أعناق الرجال، قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»(١).

وقد عظم الله عز وجل حق اليتيم والمسكين، لأن اليتيم فقد من ينفق عليه ويعوله ويدافع عنه وعن حقوقه، ولأن المسكين أذله الفقر والمسكنة.

ويعظم حق اليتيم والمسكين ويزداد عندما تطغى الأنانية والشح وتضعف الرحمة أو تنعدم عند كثير من الناس فيضيع اليتيم والمسكين في خضم الحياة، وبين الفواتح والخواتم والله المستعان.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «ثم»: عاطفة، وهي للتراخي في الفضل والرتبة، فالإيمان مؤخر في اللفظ مقدم في الفضيلة والرتبة.

وفي تقديم فك الرقبة وإطعام الجائع يتيمًا ذا قرابة أو مسكينًا ذا فاقة شديدة على الإيمان دليل على عظم هذه الأعمال.

أي: ثم هو مع هذا الإحسان العظيم إلى عباد الله بعتق الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين في وقت المجاعة من الذين آمنوا، أي: من الذين صدقوا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، فجمعوا بين الإحسان إلى عباد الله، والإحسان في عبادة الله عز وجل، وبين العمل والإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر.

والصبر: من صبر إذا حبس ومنع، وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عما حرم الله، من لطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك، وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

---

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

والصبر منزلة عظيمة فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، وقال ﷺ: «وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»(١).

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، أي: وأوصى بعضهم بعضًا بالرحمة للخلق التي هي من أنبل وأعظم الصفات، وأحبها إلى الله عز وجل، قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شُجْنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله»(٢).

وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»(٤).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، أي: أصحاب اليمين، أي: المتصفون بهذه الصفات، والذين جمعوا بين الإحسان في عبادة الله عز وجل، والإحسان إلى عباد الله، هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقد أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تعظيمًا لشأنهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد ما ذكر صفات المؤمنين ومآلهم، أتبع ذلك بذكر الكافرين ومآلهم.

أي: والذين كفروا بآياتنا الكونية والشرعية وجحدوها وكذبوا بها.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٦٩، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٤- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الرحمة ٤٩٤١، والترمذي في البر- ما جاء في رحمة الناس ١٩٢٤- من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٧، ومسلم في الفضائل ٢٣١٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٨، والترمذي في البر والصلة ١٩١١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الرحمة ٤٩٤٣، والترمذي في البر والصلة ١٩١٩ وقال: «حديث غريب».

﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، أي: هم أصحاب الشؤم، وأصحاب الشمال، الذين يعطون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.

وقد أكد هذا الوصف فيهم بثلاث مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: مطبقة مغلقة الأبواب، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، كما قال تعالى في سورة الهمزة: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الآيتان: ٨، ٩].

الفوائد والأحكام:

١- عظم الأمانة التي حملها الإنسان، وأن أمامه عقبة كؤودًا لا يجتازها إلا المشمرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾.

٢- حضّ الإنسان وحثه على اجتياز العقبة بعتق الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين، مع الإيمان والتواصي بالصبر والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

٣- أن الصدقة على اليتيم القريب صدقة وصلة، وأنه كلما اشتدت الحاجة كانت الصدقة أفضل.

٤- رعاية الإسلام لليتامى والمساكين؛ لقوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.

٥- أن الإيمان شرط لقبول الأعمال من العتق والإطعام وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

٦- الإشارة إلى عظم عتق الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، لتقديمهما على شرط الإيمان.

٧- الترغيب في الصبر والرحمة، والتواصي بهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

٨- أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح فهو من أصحاب اليمين؛ لقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾.

٩- سوء حال ومآل الذين كفروا بآيات الله عز وجل فهم أصحاب الشؤم السالكون ذات الشمال إلى النار المؤصدة المطبقة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلشَّمْسِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الشمس» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

وتسمى: «سورة والشمس وضحاها».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «اقرأ» بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[1].

د- موضوعاتها:

١- ذكر دلائل تمام قدرة الله تعالى في آياته الكونية وعظمته.

١- تأكيد فلاح من زكى نفسه بالإيمان والعمل الصالح، والترغيب في ذلك. وخيبة من أهانها بالكفر والمعاصي، والتحذير من ذلك.

٢- ذكر تكذيب ثمود لرسولهم صالح عليه السلام بسبب طغيانهم، وعقرهم الناقة، ومن ثم إهلاكهم.

* * *

(١) سبق تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الشمس»: مقسم به مجرور ﴿وَضُحَاهَا﴾: معطوف على الشمس، والمراد به ضوؤها، وهو النهار كله، كما في قوله تعالى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢].

وإنما أضاف الضحى إليها؛ لأن الشمس هي سبب النهار، وهي آية النهار المبصرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ الواو: عاطفة هنا وفي المواضع بعدها إلى قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وكل هذا داخل في جملة المقسم به.

أي: وأقسم بالقمر إذا تلا الشمس، أي: إذا تبعها في المنازل والنور.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾، أي: وأقسم بالنهار حين يجلي الشمس ويظهرها، وإن كان ظهورها هو سبب النهار.

أو حين يجلي ظلمة الليل ويزيلها، أو يجلي الأرض والخليقة ويبينها ويظهرها ويضيئها بنوره، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ٢].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، أي: والليل حين يغشى الشمس ويسترها وإن كان مغيبها هو سبب الليل. أو حين يغطي الأرض والخليقة ويسترها بظلامه.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾، أي: والسماء، والذي بناها، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢].

فأقسم عز وجل بالسماء، وبنفسه الكريمة. وتكون «ما» هنا موصولة، بمعنى

«من» التي تطلق على العالم.

وقيل: إن «ما»: مصدرية، أي: والسماء وبنيانها العظيم.

وهكذا في قوله: ﴿وَمَا﴾، ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾.

ومعنى ﴿بَنَىٰهَا﴾: خلقها ورفعها وجعلها سقفًا محفوظًا، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ ثم فسر ذلك فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾، أي: والأرض، والذي طحاها، أي: بسطها وفرشها ومهدها، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

وهتان الآيتان كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٦، ٧].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، أي: ونفس والذي سواها، وهو الله عز وجل، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ عام في كل نفس، أو خاص بنفس الإنسان المكلف بدليل ما بعده.

ومعنى ﴿سَوَّىٰهَا﴾: خلقها وجعلها مستوية الخلق، مستقيمة على الفطرة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٦- ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»(١).

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٨، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجل: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»(١).

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، أي: جعلها محلًا للفجور والتقوى، وبيّن لها الفجور ونهاها عنه وحذرها منه، وأرشدها إلى التقوى وأمرها بها ورغبها فيها، وهداها ويسرها لما قدره لها كما جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟، فقال: «لا، بل شيء قُضي عليهم، ومضى عليهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾»(٢).

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أ هل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ الآية»(٣).

وفي هذه الآية رد على القدرية الذين ينفون تقدير الله وخلقه لأفعال العباد.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم الله عز وجل بالشمس وضوئها والقمر إذا تبعها، والنهار إذا جلى الظلمة، والليل إذا غطى البسيطة بظلامه، وبالسماء والذي بناها، وبالأرض والذي بسطها ومهدها، والنفس والذي سواها على أنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

﴿قَدْ﴾: للتحقيق في الموضعين وحذفت منه اللام؛ لطول الكلام وقوله: ﴿أَفْلَحَ﴾: فاز وأنجح وسعد ونجا من المرهوب، وحصل على المطلوب، وزحزح عن النار، وأدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾، أي: الذي زكا نفسه، أي: طهرها بالإيمان والعمل الصالح من

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥- من حديث طويل.

(٢) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٠، وأحمد ٤/ ٤٣٨، والطبري في «جامع البيان»٢٤/ ٤٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي- رضي الله عنه.

الشرك والمعاصي والرذائل والأحداث، وسائر النجاسات الحسية والمعنوية- كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

وفي هاتين الآيتين إثبات فعل العبد وكسبه، وتعليق فوزه وعدمه على ذلك، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها﴾»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»(٣).

وعن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم، إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(٤).

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾، أي: وقد خسر من أخفاها وأخملها، وأرداها، وأوبقها بالمعاصي وأهانها ودنسها، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٣٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٣٦.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٠٩.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر- التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨، وأحمد ٤/ ٣٧١.

فشتان بين من طهر نفسه وأكرمها بطاعة الله تعالى، والبعد عن معصيته، ووضعها موضعها اللائق بها، فأفلح وسعد في دنياه وأخراه، وبين من أخملها وأخفاها، وأهانها وأذلها، فظلمها وبخسها حقها، وقد كرمها الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

قال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(١).

وقد حكى هذا المعنى لبيد بقوله:

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يُتَبِّر ما يبني وآخر رافع(٢)

قال ابن القيم(٣): «والفاجر أبدًا خفي المكان زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر نفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام، لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبَوَّأت بَيْتَك في مَعْلَمٍ ... رحيبِ المباءةِ والمسرحِ
كفيتَ العفاةَ طلابَ القِرى ... ونبحَ الكلابِ لِمُسْتَنْبِحِ»(٤)

وقد أحسن القائل:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا(٥)

وقال الآخر:

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣- من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان لبيد» ص٥٦.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٤) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ٢/ ١٤٦، «الحيوان» ٥/ ٧٤.

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» ص٣٢٠، «الدر الفريد» ٢/ ٣٦٧.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبًا في الناس أعلى المراتب[١]

وقال الآخر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم[٢]

وقال الآخر:

ومن يتهيب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر[٣]

فانتبه أخي الكريم لهذه المعاني وضع نفسك موضعها اللائق بها، واحملها على ما فيه سعادتها في دينها ودنياها، وخذ نصيبك من ربك، ولا تأت يوم القيامة من المفلسين.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بعدد من آياته الكونية، بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، وبالنفس الإنسانية، وبنفسه عز وجل للدلالة على عظمته، وكمال قدرته، والتأمل في آياته وشكره على نعمه وآلائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

٢- إقسام الله عز وجل على فلاح من زكى نفسه بطاعة الله وخيبة من أخفاها ودنسها بمعصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

٣- الترغيب في تزكية النفس وتطهيرها بالإيمان والعمل الصالح، والتحذير من تدنيسها وإهانتها بالمعاصي.

٤- إثبات القدر وأن الله خالق أفعال العباد، والرد على القدرية، وإثبات فعل العبد، والرد على الجبرية لقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

* * *

(١) البيت لعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٥.

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

(٣) البيت لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص٧٠. والبيت فيه: «ومن لا يحب صعود الجبال».

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على فلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها ثم أتبع ذلك بذكر قصة تكذيب ثمود وطغيانهم وعقرهم الناقة، وردهم الحق بعد ما عرفوه، وعقوبة الله عز وجل لهم. وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين من هذه الأمة.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾، أي: كذبت قبيلة ثمود نبيهم صالحًا عليه السلام فيما جاءهم به من الحق من عند الله عز وجل.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾، أي: بسبب طغيانها ومجاوزتها الحد في الكفر وتجبرها وتكبرها. والطغيان: مجاوزة الحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

فحملهم الطغيان ومجاوزه الحد في الكفر والمعاصي على التكذيب بالحق بقلوبهم، لأن من عقوبة المعصية المعصية بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ تفسير لتكذيبهم وطغيانهم، أي: إذ انطلق مسرعًا لعقر الناقة ﴿أَشْقَىٰهَا﴾، أي: أشقى ثمود، أي: أعظمها شقاء، وهو أحيمر ثمود، واسمه: قدار بن سالف، وكان رجلًا شريرًا صعب المرام.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس»؟، قال: بلى، قال: «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا- يعني قرنه- حتى تبتل منه هذه، يعني لحيته»(١).

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ يعني: قدار بن سالف، وكان رجلًا شديدًا عزيزًا منيعًا فيهم.

عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٣٨.

الذي عقرها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾: «انبعث لها رجل عارم[١]، عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة»[٢].

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام، ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: ذروا ناقة الله، أو لا تمسوا ناقة الله بسوء، وهي الناقة التي طلبوها آية لهم فأخرجها الله لهم من صخرة صماء، وجعلها آية وحجة عليهم قال تعالى عن صالح عليه السلام أنه قال لهم ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال أيضًا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: ٦٤].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾: شربها، أي: ولا تعتدوا على شربها يوم وردها. قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ [القمر: ٢٨].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوا رسول الله صالحًا عليه السلام فيما جاءهم به، وما حذرهم منه من الاعتداء على الناقة وشربها، وما توعدهم عليه من العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: عقروا الناقة، أي: قتلوها، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ [الشعراء: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ

---

(١) أي: صعب على من يرومه، كثير الشر.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ٤٩٤٢، ومسلم في صفة الجنة ونعيمها- النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٥، والترمذي في تفسير سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ٣٣٤٣، وأحمد ٤/ ١٧.

صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: أطبق عليهم ربهم العذاب بسبب ذنبهم.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: جعلهم في العقوبة سواء؛ لأنهم اتفقوا وأجمعوا على عقر الناقة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالفاء: «فلا يخاف».

وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾.

أي: ولا يخاف عز وجل عاقبتها وتبعتها، أي: لا يخاف تبعة إهلاكه لهم، وإطباقه العذاب عليهم، وجعلهم في العقوبة سواء؛ لأنه عز وجل لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

فالخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب ثمود رسول الله إليهم صالحًا عليه السلام بسبب طغيانهم وإقدامهم على عقر الناقة التي طلبوها، وجعلها الله لهم آية، بعد تحذيره- عليه الصلاة والسلام لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

٢- أن الطغيان سبب للتكذيب والكفر، وأن المعصية تجر إلى المعصية بعدها.

٣- إهلاك الله عز وجل لثمود، وإطباق العذاب عليهم على السواء بسبب ذنبهم؛

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

لقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

٥- أن الله عز وجل لا يخاف عاقبة ما أوقعه بهم من العذاب؛ لأنه القوي العزيز، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱللَّيْلِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الليل»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالليل بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة والليل إذا يغشى».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

تقدم في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «اقرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾»(١).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أو في العصر نحو ذلك، وفي الفجر أطول من ذلك»(٢).

د- موضوعاتها:

١- تأكيد اختلاف سعي الناس؛ فساع في فكاك نفسه، وساع في إيباقها.

٢- الوعد لمن أعطى واتقى وصدق بالحسنى بتيسيره لليسرى، والوعيد لمن بخل واستغنى وكذب بالحسنى بتيسيره للعسرى.

٣- تهديد من كذب وتولى بالنار، وبشارة من اتقى، وزكى ماله بالنجاة منها، وبرضى الله تعالى.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٠١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الليل» مقسم به.

﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، أي: حين يغطي الأرض والخليقة بظلامه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ الواو: عاطفة في هذا الموضع والذي بعده، أي: وأقسم بالنهار إذا ظهر وبان، وأشرق وأضاء البسيطة بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ «ما»: موصولة، أي: وأقسم بالذي خلق الذكر والأنثى، من الإنس والجن وسائر الحيوانات والنباتات، وهو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال بعضهم: إن «ما»: مصدرية، والمعنى: وخَلْقُ الذكر والأنثى.

عن إبراهيم النخعي، قال: قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم فقال: «أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قالوا: كلنا، قال: أيكم أحفظ؟، فأشاروا إلى علقمة، فقال: كيف سمعته يقرأ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ؟ قال علقمة: ﴿وَٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾، قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ والله لا أتابعهم»(١).

وفي لفظ عن إبراهيم عن علقمة: أنه قدم الشام، فدخل مسجد دمشق، فصلى فيه ركعتين، وقال: «اللهم ارزقني جليسًا صالحًا، قال: فجلس إلى أبي الدرداء، فقال له أبو

---

(١) أخرجه البخاري- تفسير سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ٤٩٤٤، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٤، والترمذي في القراءات ٢٩٣٩.

الدرداء: ممن أنت؟، قال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾؟ قال علقمة: ﴿وَٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾. فقال أبو الدرداء: لقد سمعتها من رسول الله ﷺ فما زال هؤلاء حتى شككوني، ثم قال: ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر، الذي لا يعلمه أحد غيره[1]، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي ﷺ، صاحب الوساد: ابن مسعود، وصاحب السر: حذيفة، والذي أجير من الشيطان: عمار»[2].

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾: جواب القسم.

والسعي: هو العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه حسب الإمكان.

﴿لَشَتَّىٰ﴾، أي: لمختلف متفرق.

فأقسم عز وجل بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا بان وظهر وأضاء البسيطة بنوره، وبنفسه عز وجل، وهو الذي خلق الذكر والأنثى- أقسم على أن سعي العباد وأعمالهم واهتماماتهم وجهودهم مختلفة، متنوعة متفرقة، فعامل خيرًا، وعامل شرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[3].

فشتان بين من يعمل لخلاص نفسه ونجاتها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وبين من يعمل لهلاكها وشقائها في الدنيا والآخرة.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان[4]

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾.

---

(١) الوساد: المخدة، وفي رواية للبخاري: «صاحب السواك، أو صاحب السرار». وصاحب السر: أي صاحب سر رسول الله ﷺ، وهو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقد أسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٩.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البيت لابن القيم ضمن القصيدة «النونية» ص١١.

رُويَ أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان يعتق الأرقاء من المساكين ابتغاء وجه الله تعالى(١).

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، و«من»: موصولة في الموضعين.

أي: فأما الذي أعطى، أي: أخرج ما أمر به من النفقات الواجبة والمستحبة كالزكاة والإنفاق على الأهل والأولاد، وسائر الصدقات، وقام بفعل المأمورات من الواجبات، كالصلاة والصيام والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام وغيرها، ومن المستحبات كنوافل العبادات وغيرها.

﴿وَاتَّقَىٰ﴾، أي: واتقى الله بالبعد عن المنهيات.

وفي تقديم قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ إشارة إلى أهمية أداء حقوق الخلق، وأهمية النفع المتعدي إلى الخلق، وأهمية فعل المأمورات من الواجبات والمستحبات.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، أي: صدق بلا إله إلا الله، وبما يستوجبه الإيمان بها من الإيمان بجميع أصول الدين وفروعه، كما جاءت في الكتاب والسنة.

وصدق بالمثوبة الحسنى على ذلك من الله عز وجل بالخلف في الدنيا وبالجنة في الآخرة، قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

رُويَ عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى، قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم»(٢).

وهذه هي المراتب الثلاث التي يدور عليها الدين: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والسين للتحقيق، أي: فسنيسره لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، ونوفقه لعمل الخير ونهيء له أسبابه، لأن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق:

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ١٦٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٩٤٥.

٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأما الذي بخل بما آتاه الله من المال، فمنع حق الله فيه، ولم يقم بما أمره الله بالقيام به.

﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾، أي: واستغنى بنفسه وماله عن ربه ورحمته وتقواه.

وقابل قوله: ﴿اتقى﴾ بقوله: ﴿استغنى﴾؛ تبشيعًا لحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه، وأنه بهذا المسلك فعل فعل المستغني عن ربه، مع أن كل مخلوق لا غنى له عن ربه طرفة عين.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: وكذب بلا إله إلا الله، وبالمثوبة الحسنى والمجازاة على العمل في الدنيا والآخرة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، أي: فسنيسره في أموره كلها للعسرى، ونهيء له الشر وأسبابه، لأن من جزاء السيئة السيئة بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولا يُغتر بما عليه الكفار من النعم الظاهرة فهم في شقاء وضيق نفسي قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وهو أيضًا استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكّس[1]، فجعل ينكت بمخصرته،

---

(١) المخصرة: ما أخذه الإنسان بيده من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكئ عليه وقوله «فنكّس» أي: خفض رأسه وطأطأه على هيئة المهموم.

ثم قال: «ما منكم من أحد، وما من نفس منفوسة[١] إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة»، قال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟، فقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾»[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلاالثقلين: اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا»، وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾»[٣].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ «ما» استفهامية، أي: وأي شيء يغني عنه ماله إذا بخل به.

﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾، أي: إذا هلك وألقي في النار.

والجواب: لا ينفعه هذا المال، ولا يدفع عنه شيئًا.

ويحتمل أن تكون «ما» نافية، أي: وما ينفعه ماله، ولا يدفع عنه، إذا هلك وألقي في النار.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا تجلى وظهر، وبنفسه الشريفة، وهو الذي خلق الذكر والأنثى، أن سعي الناس مختلف، فساع في

---

(١) منفوسة، أي: مخلوقة ومولودة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر- ما جاء في الشقاء والسعادة ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة- باب القدر ٧٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٩- ٤٧١.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٦٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤١.

خلاص نفسه وفكاكها، وساع في إهلاكها وإيباقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأن يقسم بنفسه لما في ذلك كله من الدلالة على كمال عظمته وتمام قدرته.

٣- الترغيب في التأمل في آيات الله عز وجل الكونية، الليل والنهار، وفي خلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات، وشكره عز وجل على هذه النعم.

٤- شتان بين من يسعى في فكاك نفسه وإعتاقها، وبين من يسعى في هلاكها وإيباقها.

٥- البشارة لمن أعطى من ماله وقام بفعل ما أمر به، واتقى بترك ما نهي عنه، وصدق بالمثوبة الحسنى على ذلك بتوفيقه للخير، وتيسير أموره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾.

٦- وجوب دفع الإنسان ما عليه من حقوق مالية وغيرها كالزكاة والنفقة على الأهل، واستحباب السخاء والبذل مما أعطاه الله من مال وغيره، ووجوب تقوى الله وتصديق شرعه، والثقة بوعده.

٧- أن الأعمال الصالحة يأخذ بعضها برقاب بعض، والحسنة سبب للحسنة بعدها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٨- التحذير من البخل بما على الإنسان من حقوق في نفسه وماله، والاستغناء عما عند الله عز وجل والتكذيب بشرعه وجزائه، والوعيد لمن فعل ذلك بتيسيره للعسرى والشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾.

٩- أن الأعمال السيئة يجر بعضها بعضًا، والسيئة سبب للسيئة بعدها.

١٠- أن المال لا ينفع صاحبه ولا يدفع عنه إذا بخل به واستغنى به عن ربه عز وجل ولا ينقذه من عذاب النار إذا هلك وتردى فيها مما يوجب الحذر من التهالك في جمعه ونسيان حقوق الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أقسم عز وجل في مطلع السورة أن سعي الناس مختلف، وبيَّن انقسامهم إلى فريقين وحال ومآل كل منهما، ثم أتبع ذلك بأنه سبحانه قد أقام الحجة على الخلق وبيَّن لهم طريق الهدى، وأن الدنيا والآخرة ملك له، وحذر من النار، وبين صفة من يصلاها ومن يجنبها.

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، أي: إن علينا إرشادهم وبيان طريق الهدى لهم وطريق الضلال، وبيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

وأيضًا فإن طريق الهدى عليه عز وجل، وموصل إليه، كما قال عز وجل ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

وقد بين عز وجل للناس الهدى أتم بيان، وأقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأكمل الدين، وأتم النعمة ببعثة محمد ﷺ، فلم يلحق بربه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك(١).

قال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا»(٢).

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «لقد علَّمَنا نبينا ﷺ حتى الخراءة»(٣).

أي: علمنا حتى آداب الخلاء وقضاء الحاجة.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٤- من حديث العرباض بن سارية- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة- الاستطابة ٢٦٢.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، أي: وإن لنا ملك الآخرة والدنيا والتصرف فيهما.

كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، فالخلق خلقه والملك ملكه والأمر أمره كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقدم الآخرة مع أنها متأخرة من حيث الزمن؛ لأهميتها، فهي الدار الحقيقية.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقدمها أيضًا: لأن فيها يظهر تمام ملك الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، أي: فحذرتكم وخوفتكم نارًا تتوهج وتستعر وتشتعل، وهي نار الآخرة.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار»، حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه»(١).

وعنه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»(٢).

وفي رواية: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا»(٣).

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾، أي: لا يدخلها ويغمر فيها ويقاسي حرها.

﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾، أي: إلا الذي كتب عليه الشقاء، وبلغ فيه غايته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: تفسير للأشقى، أي: الذي كذب بقلبه ما أخبر الله به ورسوله

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق- صفة الجنة والنار ٦٥٦١، ومسلم في الإيمان- أهون أهل النار عذابًا ٢١٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٤، وأحمد ٤/ ٢٧٤.

(٣) أخرجها مسلم في الإيمان- أهون أهل النار عذابًا ٢١٣، وأخرجها البخاري مختصرة في الرقاق ٦٥٦٢.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ بجوارحه عن العمل بما أمر الله به ورسوله، فخالف الأمر وارتكب النهي، وكفر ظاهرًا وباطنًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي»، قيل: ومن الشقي؟، قال: «الذي لا يعمل بطاعة الله ولا يترك لله معصية»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قال ابن كثير(٣): «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها».

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾، أي: وسيبعد عنها جانبًا، ويزحزح عنها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، أي: التقي، وكلما كان الإنسان لله أتقى كان عن النار أبعد.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ تفسير لقوله: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، أي: الذي يعطي ماله، أي: يخرج وينفق ماله ويصرفه في سبيل الله وطاعته.

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾، أي: يتطهر: ليطهر نفسه وماله، فتزكو نفسه وتطهر من الشح والبخل ونحو ذلك ويزكو ماله وينمو ويزيد ويسلم من الآفات بإذن الله عز وجل.

قال السعدي(٤): «فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما فإنه غير مشروع، بل تكون عطية مردودة عند كثير من العلماء، لأنه يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب».

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام- الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٧٢٨٠، وأحمد ٢/ ٣٦١.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٤٤٤.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦٣٩.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾، أي: وليس لأحد ممن يعطيهم هذا المزكي لنفسه وماله.

﴿عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، أي: ليس إعطاؤه لهم مكافأة لهم على سابق نعمة منهم إليه أو منة منهم عليه.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. «إلا»: أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن ابتغاء وجه ربه، أي: إلا إخلاصًا لله عز وجل وتحقيقًا لرضاه وطلبًا لرؤية وجهه الكريم في جنات النعيم.

﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: الأعلى على جميع خلقه، الذي استوى على عرشه سبحانه وتعالى، الذي له العلو المطلق: علو الذات وعلو الصفات، وعلو القهر، وعلو القدر.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ الواو: استئنافية واللام: موطئة للقسم، أي: والله لسوف يرضى بنيله ما كان يرجو من رؤية الله عز وجل والنعيم المقيم، والنجاة من نار الجحيم.

وسياق الآيات يدل على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما ذكر هذا كثير من المفسرين، بل ذكر بعضهم الإجماع عليه، فإنها اشتملت على صفات عظيمة هي من صفات خواص المؤمنين، بل من صفات خواص الصديقين، ورتب عليها وعد بالرضى من المولى العظيم، ولا شك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من يدخل في عمومها، فلقد كانت له رضي الله عنه الأيادي البيضاء الكريمة والمواقف العظيمة النبيلة في بذل نفسه وماله في سبيل الله، والدفاع عن رسول الله ﷺ.

فقد كان صاحبه في الهجرة. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافيه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٦١ وقال «حديث حسن غريب».

وفي رواية، قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر، فبكى أبو بكر، وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨]»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أَمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر»(٣).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر، فسلم، وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ، فأقبلت إليك، فقال: يغفر الله لك، يا أبا بكر، ثلاثًا، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: ثَمَّ أبو بكر؟، فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم فجعل وجه النبي ﷺ يتمعّر حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي مرتين، فما أوذي بعدها»(٤).

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته، فقلت: «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، فقلت من الرجال؟ فقال: أبوها، قلت: ثم من؟، قال: ثم عمر بن الخطاب، فعد رجالًا»(٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٩٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٢، والترمذي في المناقب ٣٦٦٠.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦١.

(٥) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٦٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٤، والترمذي في المناقب ٣٨٨٥.

وقد أعتق أبو بكر رضي الله عنه من ماله كثيرًا من الأرقاء والمستضعفين من المسلمين من أيدي المشركين وتعذيبهم، منهم بلال بن رباح وسلمان الفارسي رضي الله عنهما وغيرهما.

وكانت له أياد بيضاء على كثير من الناس حتى على بعض سادات العرب، ولهذا قال عروة بن مسعود الثقفي يوم صلح الحديبية لما قال له أبو بكر رضي الله عنه: «امصص ببظر اللات أنحن نفرّ وندعه؟ يعني رسول الله ﷺ. فقال له عروة: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان».

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟، قال رسول الله ﷺ: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن أطعم اليوم مسكينًا؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط- الشروط في الجهاد ٢٧٣١، ٢٧٣٢- من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٦، ومسلم في الزكاة ١٠٢٧، والنسائي في الزكاة ٢٤٣٩، والترمذي في المناقب ٣٦٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٢٨.

ذلك عندي مالًا، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟»، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله، لا أسبقه إلى شيء أبدًا»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»(٢).

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، و أبو عبيدة بن الجراح في الجنة»(٣).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟، كأنها تقول الموت. قال ﷺ: «إن لم تجديني فائتي أبا بكر»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فأذن، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» الحديث(٥).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر»(٦).

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٥.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٩، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨٦، والترمذي في المناقب ٣٦٧٦.

(٥) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٤، ومسلم في الصلاة ٤١٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٢، وابن ماجه في إقامة السنة ١٢٣٢.

(٦) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده. انظر: «المنتخب من مسند عبد بن حميد» ص١٠١ (١٢)، وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» ١/ ٥٢ (١٣٥) من حديث عبد الله بن عتيك رضي الله عنه، وله شواهد عند الطبراني من حديث جابر وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما. انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص٤٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»، فقال: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»(١).

وعن عمر رضي الله عنه قال: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجح بهم إيمان أبي بكر»(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ١٢]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾(٣) [القصص: ٢٦]».

وقال بكر بن عبد الله المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم الاثنين. قال: فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحب الأيام والليالي إلي أقربها من رسول الله ﷺ» (٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٥، ومسلم في الإيمان ٢٠، وأبو داود في الزكاة ١٥٥٦، والنسائي في الزكاة ٢٤٤٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٧.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح، وروي مرفوعًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما من طرق لا يخلو شيء منها من مقال، انظر «المقاصد الحسنة» ص٣٤٩ حديث ٩٠٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٦، وأخرجه ابن سعد والحاكم فيما ذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص٨٤.

(٤) انظر «المقاصد الحسنة» ص٣٦٩ حديث ٩٧٠.

(٥) أخرجه أحمد ١/ ٨.

الفوائد والأحكام:

١- تكفل الله عز وجل ببيان الهدى والرشاد إقامة للحجة على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

٢- أن لله عز وجل ملك الآخرة والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾.

٣- التحذير والإنذار من نار شديدة اللظى واللهب، لا يدخلها إلا الأشقى المكذب بالحق المعرض عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

٤- وعد الله عز وجل الذي لا يخلف الميعاد بإبعاد الأتقى عن النار الذي ينفق ماله ليطهر نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى لا مجازاة لأحد على نعمة، ووعده تعالى بأن يرضيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

٥- الترغيب في الإنفاق ابتغاء وجه الله والإخلاص لله في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾.

٦- إثبات الوجه لله عز وجل. وإثبات ربوبيته- عز وجل- الخاصة لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجْهِ رَبِّهِ﴾.

٧- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلضُّحَىٰ

المقدمة

أ- اسم السورة:

هذه السورة أول قصار المفصل. وسميت: «سورة الضحى»؛ لإقسامه عز وجل في مطلعها بالضحى بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

عن جابر رضي الله عنه قال قام معاذ فصلى بالناس فطوّل فقال النبي ﷺ: «اقرأ: و﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ونحو هذا»(١).

د- موضوعاتها:

١- تأكيد عناية الله تعالى به ﷺ، وبشارته بما له في الآخرة، وبما سيعطيه الله عز وجل، وامتنانه عليه بما أعطاه.

٢- التذكير بحق اليتيم والمسكين، والتحدث بنعمة الله تعالى.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

سبب النـزول:

عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة[1]، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾»[2].

وفي رواية عن جندب، قال: «أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: وُدِّع محمد، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾»[3].

قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ الواو: للقسم، و«الضحى»: مقسم به، وهو صدر النهار أو النهار كله لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

أي: والضحى إذا أشرق وأضاء الأرض بنوره، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾ [الشمس: ١]، وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: إذا غشى وغطى الأرض والخليقة بظلامه وسكن وادْلَهَمّ، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: ٤]، يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة الريح والأصوات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾:

---

(١) قيل: إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿والضحى﴾ ٤٩٥٠، ومسلم في الجهاد- ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٧، وأحمد ٤/ ٣١٢- ٣١٣.

(٣) أخرجها البخاري في الجمعة ١١٢٥، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٧، والترمذي في التفسير ٣٣٤٥.

هذا هو جواب القسم.

فأقسم الله عز وجل بالضحى وضيائه، والليل وظلامه، وهما من المتضادات الدالة على عظيم قدرة الله عز وجل، أقسم على أنه عز وجل ما ودع نبيه ﷺ وما قلاه، وأن الآخرة خير له من الدنيا وأن الله سيعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾، أي: ما تركك ربك، وما أهملك منذ اعتنى بك ورباك.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، أي: وما قلاك ربك، وما أبغضك منذ أحبك.

وهذا في معرض الرد على قول المشركين لما أبطأ عنه ﷺ جبريل عليه السلام قالوا: «ودعه ربه وقلاه»، فنفى عز وجل أن يكون ترك نبيه ﷺ وأبغضه.

ومفهوم هذا أنه عز وجل معتنٍ به ﷺ، محبٌّ له، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أقسم عز وجل على نفي ما ادعاه المشركون من تركه عز وجل لنبيه ﷺ وبغضه له، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعده له من الكرامة في الآخرة، وما سيمتنّ به عليه من النعم في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾، الواو: عاطفة في الموضعين، واللام: للقسم في الموضعين، أي: والله للآخرة خير لك ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: من الدنيا. وسميت الآخرة بهذا الاسم لأنها متأخرة في الزمن بعد الدنيا، وإلا فهي الدار الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا لما زار أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أم أيمن رضي الله عنها بكت، فقالا لها: «ما يبكيك؟، ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٥٤ وأخرجه ابن ماجه مختصرًا في الجنائز ١٦٣٥ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كما سميت الدنيا بهذا الاسم؛ لأنها متقدمة على الآخرة من حيث الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة، وقد تمثل ﷺ هذه الحقيقة المسَلَّمة في سيرته العطرة، فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأشدهم طلبًا للآخرة.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثّر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا؟، فقال رسول الله ﷺ: «مالي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(٢).

ولهذا لما خيَّر الله عز وجل نبيه ﷺ بين أن يؤتيه زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده اختار ما عند الله عز وجل(٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٤٨٣، وابن ماجه في الزهد- مثل الدنيا ٤١٠٩، وأحمد ١/ ٣٩١، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، وأخرجه مختصرًا الترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار- هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ٣٩٠٤، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل أبي بكر الصديق ٢٣٨٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠.

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤١١٢، وقال الترمذي: «حسن غريب».

الكافر»(١).

فالدنيا لا تساوي شيئًا بالنسبة للآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

والآخرة خير من الدنيا له ﷺ خاصة وللمؤمنين عامة كما قال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، أي: ووالله لسوف يعطيك ربك فترضى. و«سوف»: لتحقيق الشيء في المستقبل.

فهذا وعد له ﷺ من ربه عز وجل بأن يعطيه من الخير في الدنيا والآخرة حتى يرضى.

وقد أعطاه عز وجل من الخير العاجل: التمكين لدينه، والتأييد له ونصره على أعدائه، وظهور الحق، وزهوق الباطل، ودخول الناس في دين الله أفواجًا إلى غير ذلك.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامة»(٢).

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٤٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٣٨، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢.

وأعطاه الله عز وجل من الخير الآجل ما لا يخطر على بال من الشفاعة الكبرى والمقام المحمود والحوض المورود، وجنات الخلود وشهادته هو وأمته على الأمم وغير ذلك.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزًا كنزًا، فسر بذلك، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾»(٢).

وقال ﷺ لأصحابه: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، قالوا: فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبرنا، قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

وعد الله عز وجل في الآية السابقة نبيه ﷺ بأنه سوف يعطيه فيرضى، ثم ذَكَّره عز وجل بما أسبغ عليه من عظيم النعم؛ ليشكره عليها ويحدث بها ويتيقن أن ما عند الله له في الآخرة خير من الدنيا، وأن ربه سوف يعطيه حتى يرضى.

قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه التقرير، أي: ألم تكن يتيمًا فآواك، وذلك أن أباه توفي وهو في بطن أمه، وتوفيت أمه آمنة بنت وهب، وعمره ست سنوات، فاجتمع عليه ﷺ مع اليتم بفقد الأب فقد الأم.

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، أي: فآواك، بأن سخر الله لك من يؤيك ويكفلك وينصرك حيث كفله جده عبد المطلب إلى أن توفي وعمره ﷺ ثمان سنوات، ثم كفله عمه أبو طالب، فأحاطه بعظيم عنايته ورعايته في صغره، ولما ابتعثه الله على رأس الأربعين سنة من عمره ناصره

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٨٨- قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٤٨: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أشد المناصرة، ووقف سدًا منيعًا دون أذى قومه أن يصل إليه، فلم يستطيعوا النيل منه ﷺ حتى توفي أبو طالب قبيل الهجرة.

وفي هذا يقول أبو طالب[١]:

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهمُ ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أظنةً ... يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل

إلى أن قال:

كذبتم وبيت الله[٢] نُبْزى[٣] محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

إلى أن قال:

لعمري لقد كلفت وجدًا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالًا لأهلها ... وزينًا لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أيّ مُؤمَّل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهًا ليس عنه بغافل
فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تَجرَّ على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدًا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذّب ... لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة ... تُقصّرِ عنه سَورة المتطاول

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٤٩.

(٢) هذا قسم بالبيت والقسم بغير الله لا يجوز ولكن ليس بعد الشرك ذنب فأبو طالب مشرك كافر.

(٣) أي: نسلبه ونغلب عليه.

حَـدِبتُ بنفسـي دونـه وحَمَيتـه ... ودافعـت عنـه بالـذّرى والكلاكـل
فأيـده رب العبـاد بنصـره ... وأظهـر دينًـا حقّـه غـيرُ باطـل
رجـال كـرام غـير ميـلٍ نَماهُـم ... إلى الخـير آبـاءٌ كـرام المحاصـل
فـإن تـك كعـب مـن لـؤيّ صُـقَيْبة[1] ... فـلا بـد يومًـا مـرَّة مِـن تزايُـل[2]

فسبحان من سخّر أبا طالب- وهو مشرك- يحوط النبي ﷺ ويدافع ويذود عنه، وينافح من أجله وصدق ﷺ إذ يقول: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[3].

ولما توفي عمه أبو طالب استطال عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة إلى المدينة، فرحب به الأنصار رضي الله عنهم وآووه هو وأصحابه المهاجرين.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩].

واستقبلوه فرحين مستبشرين يرددون[4]:

طلـع البـدر علينـا ... مـن ثنيـات الـوداع
وجـب الشـكر علينـا ... مـا دعـا لله داع
أيهـا المبعـوث فينـا ... جئـت بـالأمر المطـاع
جئـت شرفـت المدينـة ... مرحبًـا يـا خـير داع

فأحاطه الله عز وجل بعنايته منذ كان في بطن أمه، وبعد ولادته، وسخر له من يؤويه، وأيده بمن يناصره ويدافع عنه بعد مبعثه ﷺ حتى ظهر دينه على الأديان كلها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأصبح كل واحد من المؤمنين- وهم ولله

---

(١) يعني: قريبة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩١- ٢٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد ٣٠٦٢، ومسلم في الإيمان ١١١، وأحمد ٢/ ٣٠٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي ٢/ ٥٠٦، «الفوائد المنتقاة الحسان» للخلعي ٢/ ٣٣٦ (١٠٢٠).

الحمد لا يحصون كثرة- يفديه بنفسه وأهله وماله وكل هذا من إيواء الله عز وجل ونصره له ﷺ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾، أي: وكنت ضالًا عن هذا الدين والشرع القويم، أي: لم تهد إليه بعد ﴿فَهَدَىٰ﴾، أي: فهداك الله إليه بما أنزل عليك من الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وليس معنى كونه ﴿ضَآلًّا﴾ أنه على دين قومه الشرك، بل كان ﷺ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، وكان يتعبد في غار حراء ابتعادًا عما عليه قومه من الشرك.

ومثل هذا قوله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة»(١).

أي: أنهم لم يهتدوا إلى هذا اليوم فهدانا الله إليه.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أي: وكنت فقيرًا ذا عيال فأغناك الله، بما أعطاك من مال خديجة رضي الله عنها، وبما أفاء عليك من الغنائم، ولهذا قال ﷺ: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي»(٢).

وأعظم من ذلك وأهم ما رزقه الله عز وجل من غنى النفس والقناعة، التي هي كنز لا يفنى.

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٥٦، والنسائي في الجمعة ١٣٦٨ من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما وذكره البخاري معلقًا في الجهاد- ما قيل في الرماح.

فجمع الله- عز وجل- له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر- مع ما كان عليه ﷺ من ضيق الحال، وقلة ذات اليد، وقد عرضت عليه الدنيا، فلم يلتفت إليها، وآثر ﷺ أن ينام على الحصير.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا»، أو نحو هذا: «فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإن شبعت شكرتك وحمدتك»(١).

وكان يمر على بيوته ﷺ الهلالان والثلاثة لا يوقد فيها نار، فقيل لعائشة رضي الله عنها فما طعامكم حينئذ؟، قالت: «الأسودان التمر والماء»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر، أو خبز بر ثلاث ليال تباعًا»(٣).

وشكا إليه أزواجه ﷺ ضيق الحال وطالبنه بزيادة النفقة، فأمره الله عز وجل أن يخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها ومفارقتهن، وبين الله ورسوله والدار الآخرة والبقاء في عصمته ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وخرج ﷺ ذات يوم هائمًا على وجهه من شدة الجوع، فلقيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فسألهما «ما الذي أخرجكما في هذه الساعة؟»، فقالا: يا رسول الله أخرجنا الجوع، فقال ﷺ: «وأنا والله الذي أخرجني الجوع» الحديث(٤).

واستضافه ﷺ رجل، فدخل على أزواجه ﷺ فسألهن هل عندكن من شيء فقلن: لا، فخرج إلى أصحابه يسألهم: «من يضيف ضيف رسول الله ﷺ وله الجنة؟»، فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أنا. وفيه وفي زوجته نزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ » [الحشر: ٩]»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٧ وقال «حديث حسن» وأحمد ٥/ ٢٥٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٧٠.

(٤) سيأتي تخريجه في تفسير سورة التكاثر.

(٥) سبق تخريجه.

واستمر به الحال ﷺ هكذا إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، فتوفي ﷺ بأبي هو وأمي، ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير(١).

ولو أراد ﷺ الدنيا لأتته من كل حدب وصوب، ولكنه ﷺ آثر ما يبقى على ما يفنى، وعرف حقارة الدنيا، وأنها متاع غرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

فهي متاع حائل، وظل زائل؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٢).

ويقول ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»(٣).

ويقول ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه»(٤).

وكان من أشد ما خاف ﷺ على أمته انفتاح الدنيا عليهم، قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»(٥).

فإنه من حكمة الله تعالى أن يدرأ الدنيا عمن يحب، ويحوطه عنها، وذلك لأنها مزلة قدم، فكم من أناس غرقوا في وحلها فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم، حيث انشغلوا بها عن طاعة الله عز وجل وعن الاستعداد لما أمامهم، وخرجت بهم من الحلال إلى الحرام فصار الحلال ما حل بأيديهم، ولو كان من طريق المعاملات المحرمة، قال ﷺ: «لو أن ابن آدم أعطي واديًا من ذهب لابتغى ثانيًا، ولو أعطي ثانيًا لابتغى ثالثًا، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩١٦- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٨٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٨- من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧- من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

يملأ جوف ا بن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[١].

وكانت نفقة الإمام أحمد رحمه الله في الشهر سبعة عشر درهمًا. وكان يقول: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل[٢].

وقال ابنه عبد الله: «بقيت حذاء أبي في رجله ثمان عشرة سنة كلما خرمت خصفها بيده».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

لما ذكر عز وجل ما امتن به على نبيه ﷺ من النعم الدينية والدنيوية أتبع ذلك بالأمر بأداء حقوق هذه النعم.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم، وهذا خطاب له ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته، أي: فأما اليتيم فلا تذله وتهنه وتعتد عليه وعلى ماله وحقوقه، بل أحسن إليه وتلطف به ودافع عنه وعن حقوقه، وخص اليتيم لصغره وضعفه فهو عرضة لكل طامع، ممن لا يخافون الله، ولهذا عظم الله عز وجل حق اليتيم في كتابه الكريم، وعظمه رسوله المصطفى الكريم في سنته المطهرة.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أي: وكما كنت ضالًا فهداك الله فلا تنهر السائل المسترشد الطالب للعلم والهدى ولا تزجره وترده، بل عامله باللطف واللين، وأرشده إلى الحق وبينه له.

وأيضًا فكما كنت عائلًا فأغناك الله فلا تنهر المسكين ذا الحاجة إذا جاء يطلب العون والمساعدة، بل ساعده ما أمكن أو اعتذر منه بلطف، قال ﷺ: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٨ من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وأخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٣ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الورع» لأحمد، رواية المروزي ص٨٠ (٢٤٥)، «أخبار الشيوخ وأخلاقهم» ص١٢١ (١٧٨)، «البداية والنهاية» ١٤/ ٤١٢.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ- في كتاب الجامع- مرسلًا من حديث زيد بن أسلم ١٨٧٦.

وقال ﷺ: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»(١).

ولهذا كان ﷺ لا يرد سائلًا، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويعطي حتى ينفد ما عنده، وكان ﷺ كما وصفه القائل:

تعود بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله

تراه إذا ما جئته متهللًا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله(٢)

وكان ﷺ أسوة في التواضع للوفود وطالبي الحاجات والسائلين والمسترشدين، فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه، فقال له ﷺ: «هوِّن عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»(٣).

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ «نعمة»: مفرد مضاف، فتعم كل نعم الله عليه من إيوائه بعد اليتم، وهدايته من الضلالة، وإغنائه من العيلة، وغير ذلك، ولكن أعظم هذه النعم وأهمها نعمة النبوة والرسالة.

والمعنى: وأما بنعمة ربك عليك بالنبوة فحدث وبلغ الناس.

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها ونهارها سواء، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

وأيضًا: فحدث بنعمة الله عليك بإيوائك بعد أن كنت يتيمًا، وتذكر ذلك فلا تنهر اليتيم، وحدث بنعمة الله عليك بالغنى بعد أن كنت فقيرًا فلا تنهر السائل، وتحدث

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة- حق السائل ١٦٦٧، والنسائي في الزكاة- تفسير المسكين- رد السائل ٢٥٦٥، والترمذي في الزكاة- ما جاء في حق السائل ٦٦٥، وأحمد ٥/ ٣٨١- من حديث بجيد الأنصاري عن جدته رضي الله عنها.

(٢) الأبيات للمتنبي. انظر: «ديوانه» ص٢٣٢، «ديوان المعاني» ١/ ٢٥، «نهاية الأرب» ٣/ ١٨٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

بسائر نعم الله عليك بذكرها وشكرها.

ولهذا كان ﷺ أشكر الناس لربه، قام ﷺ الليل حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: لم تفعل ذلك يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(١).

وكان ﷺ يقول في الدعاء: «اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها علينا»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أُبلي بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»(٤).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»(٥).

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالضحى، والليل إذا سجا؛ لما فيهما من دلائل قدرته وعظمته، وتنبيهًا على أهمية الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

٢- عناية الله عز وجل بنبيه ﷺ وتثبيته له وطمأنته في الإقسام له على أنه ما ودعه

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣٠، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤١٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة- التشهد ٩٦٨- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- شكر المعروف ٤٨١١، والترمذي في البر- الشكر لمن أحسن إليك ١٩٥٤، وقال: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب- شكر المعروف ٤٨١٤.

(٥) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٨٢٠- وقال «حديث حسن». ورُويَ بمعناه من حديث أبي الأحوص عن أبيه رضي الله عنه- أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٦٣، والنسائي ٤٨١٩.

وما قلاه ردًا على ما زعمه المشركون المرجفون؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾.

٤- أن ما عند الله عز وجل في الآخرة خير له ﷺ من الدنيا وما فيها، وكذلك لأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

٥- وعد الله عز وجل الذي لا يتخلف أنه سيعطي نبيه ﷺ من الخير في نفسه وأمته في الدنيا والآخرة حتى يرضى، وقد أعطاه من ذلك الكثير، وما ادخره له عنده عز وجل أجل وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

٦- امتنان الله عز وجل على نبيه ﷺ بإيوائه له بعد اليتم، وهدايته له بعد الضلال، وإغنائه له بعد العيلة تذكيرًا له بذلك، وتدليلًا على أنه سيعطيه من الخير العاجل والآجل حتى يرضى؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

وفي هذا امتنان عليه وعلى أمته؛ ولهذا قال ﷺ: «ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»(١).

٧- النهي له ﷺ عن قهر اليتيم وإذلاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإيوائه بعد اليتم وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٨- النهي له ﷺ عن نهر السائل وزجره؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وفي هذا تذكير له ﷺ بنعمة الله عز وجل عليه بإغنائه بعد العيلة، وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٩- تعظيم الإسلام لحق اليتيم والمسكين؛ نظرًا لشدة حاجتهما إلى العناية والرعاية، ولا عجب فهو دين التكافل الاجتماعي.

١٠- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بالتحدث بنعمة الله عليه بالنبوة وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وقد حدث ﷺ وبلغ البلاغ المبين وقام شكرًا لله حتى

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة ١٠٦١- من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

تفطرت قدماه، وأخبر بها من الله به عليه من سائر النعم.

١١- ينبغي للمؤمن أن يشكر نعم الله عز وجل عليه، ويتحدث بها، ويظهر أثرها اعترافًا لله عز وجل بها.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلانْشِرَاحِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الشرح»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

وتسمى: «سورة الإنشراح»، و«سورة ألم نشرح لك».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- تعداد نعم الله تعالى على رسوله ﷺ، وحثه على شكرها.

٢- بيان أن مع كل عسر يسرين.

٣- الترغيب في الإكثار من العبادة بعد الفراغ من الشغل.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، أي: أما شرحنا لك صدرك، والاستفهام إذا دخل على النفي كان معناه التقرير، أي: قد شرحنا لك صدرك.

والمعنى: شرحنا لك صدرك للإسلام ونورناه بنور الإيمان والنبوة، فأصبح واسعًا رحبًا في تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله تعالى، وامتثال أوامر الله- عز وجل- واجتناب نواهيه، والصبر على ذلك، وعلى أقدار الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

كما شرح الله صدره وشقه حسيًا كما في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم، أو قال في الحجر مضطجعًا إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة قال: فأتى فَقَدَّ، أو فشق ما بين هذه إلى هذه» يعني من ثغرة نحره إلى شعرته، قال: «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيمانًا وحكمة فغسل قلبي ثم حشي، ثم أعيد» الحديث(١).

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في سماعه ﷺ وهو ابن عشر سنين وأشهر بكلام فوق رأسه، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو قال: نعم، إلى أن قال ﷺ: «فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦.

والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد، واسلم، فرجعت بها أغدو، رقة على الصغير، ورحمة للكبير»(١).

ولهذا كان ﷺ كما وصفه الله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، أي: طرحنا وأنزلنا عنك ذنبك وغفرنا لك.

كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وكان ﷺ يقوم الليل حتى تفطرت قدماه فقالت له عائشة رضي الله عنها لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(٢).

وهو ﷺ وسائر الأنبياء معصومون عن الوقوع في الكبائر، وعن الوقوع في الخطأ فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، لكنهم غير معصومين عن الصغائر، لكن لا يُقَرُّون عليها وسريعًا ما يتوبون منها(٣).

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، أي: الذي أثقل ظهرك وآلمه، فامتن الله عز وجل على رسوله ﷺ بهذا، لأن ثقل الظهر يمنع من قطع مسافة السفر، فكيف بالسفر الطويل، فالأوزار تمنع القلب من السير إلى الله عز وجل، وتمنع الجوارح من النهوض في طاعته.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، أي: أعلينا لك ذكرك، فجعلنا ذكرك عاليًا بين الأنبياء وبين سائر الناس من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، فهو أفضل الأنبياء وسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟، قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٣٩.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٤/ ٣١٩.

ذكرتَ معي»[١].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت: يارب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته، جعلت إبراهيم خليلًا، وموسى كليمًا، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي؟، قال: أوليس أعطيتك أفضل من ذلك كله، أني لا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهرًا، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزًا من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٢].

فذكره ﷺ مرتبط بذكر الله عز وجل في الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله، وهما الركن الأول من أركان الإسلام، وهما متلازمتان لا تصح إحداهما دون الأخرى، فمن شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمدًا رسول الله لم ينفعه ذلك وكذا العكس.

ولهذا قُرن بينهما في الأذان وهو من أعظم شعائر الإسلام.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه[٣]:

أغَرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله من نور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقُرن بينهما بالتشهد في الصلاة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٥.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٥٢.

(٣) انظر «ديوان حسان» ص٣٣٨ تحقيق أ.د سيد حسنين، د/ حسن العيد- القاهرة ١٩٤٧ م.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٩٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

ورفع ذكره بأن أوجب تقديم محبته وطاعته على محبة كل مخلوق وطاعته، وجعل اتباعه شرطًا في صحة كل عبادة.

وكما شرح عز وجل صدر رسوله ﷺ ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فإن لأتباعه المؤمنين حظًا من ذلك بقدر صدق متابعتهم له ﷺ فهم أشرح الناس صدورًا، وأوضعهم أوزارًا، وأرفعهم ذكرًا.

وأبعد الناس عن الله عز وجل أضيقهم صدورًا، وأثقلهم أوزارًا، لأنهم يبحثون عن سعة الصدر والسعادة في ارتكاب الذنوب والأوزار، وهم أخمل الناس ذكرًا وأقلهم قدرًا.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ هذه هي النعمة الرابعة التي أنعم الله بها على نبيه محمد ﷺ وهي له ولأمته، وهو جعله مع العسر يسرًا، وفي هذا بشارة له ﷺ أن ما هو فيه من عسر وضيق من قومه سيعقبه اليسر بإذن الله عز وجل وهكذا حصل له ﷺ.

والعسر: الضيق والشدة، واليسر: السعة والفرج، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ جالسًا وحياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾»(١).

وقال ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسر»(٢).

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾: توكيد لما قبله، وفيه دلالة على أنه لن يغلب عسر يسرين، أي: إن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل، كما روي عن الحسن مرسلًا قال: «خرج النبي ﷺ يومًا مسرورًا فرحًا وهو يضحك، وهو يقول: «لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦، والبزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٥٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال «حسن صحيح».

عسر يسرين، إن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا »[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لن يغلب عسر يسرين»[٢].

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن العسر لما ذكر معرفًا في الموضعين بأل التي للعهد دل ذلك على أن الثاني هو الأول فهو مفرد، وإن اليسر لما ذكر منكرًا في الموضعين دل على أن الثاني غير الأول فهما اثنان فكل عسر معه من الله يسران ولن يغلب عسر يسرين.

وهذا وعد من الله عز وجل لا يتخلف؛ لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد، وخبره أصدق الأخبار.

ولهذا فإن من قواعد الشريعة أن المشقة تجلب التيسير فعندما يشق على الإنسان الوضوء يتيمم، وعندما تشق عليه الصلاة قائمًا يصلي قاعدًا، وعندما يشق عليه الصوم يفطر، ويقضي، أو يطعم، وهكذا.

وهذا من فضل الله عز وجل ورحمته أن جعل العسر يعقبه يسران، وجعل الكرب يعقبه الفرج، وجعل النصر مع الصبر، ولقد أحسن القائل:

ولـرب نازلـة يضـيق بهـا الفتـى ... ذرعًـا وعنـد الله منهـا المخـرج

ضـاقت فلـما اسـتحكمت حلقاتهـا ... فرجـت وكـان يظنهـا لا تفـرج[٣]

وقال الآخر:

وكـل الحادثـات إذا تناهـت ... فموصـول بهـا الفـرج القريـب[٤]

وقال أبو العتاهية[٥]:

اصـبر لكـل مصـيبة وتجلـد ... واعلـم بـأن المـرء غـير مخلـد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥- ٤٩٦.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ. انظر: «تنوير الحوالك» للسيوطي ١/ ٢٩٦.

(٣) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي. انظر: «الفرج بعد الشدة» للتنوخي ٥/ ١٥

(٤) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» ص١٢.

(٥) انظر: «ديوانه» ص١١٠.

واصبر كما صبر الكرام فإنها نوب تنوب الآن تفرج من غد

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾، أي: فإذا فرغت من مشاغلك في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا وارتاح بالك.

﴿فَانْصَبْ﴾، أي: فانصب في العبادة وقيام الليل.

وذلك أن حضور القلب إنما يكون بعد الفراغ من مشاغل الدنيا؛ ولهذا قال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء»(٢).

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قدم المتعلق؛ لإفادة الحصر، أي: ارغب إلى ربك لا إلى غيره، أي أقبل على ربك، وأخلص له النية وتقرب إليه وثق به تمام الثقة في جميع أمورك.

وقيل: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب في الدعاء وارغب إلى ربك بسؤال مطالبك، واستدل على هذا بمشروعية الدعاء والذكر بعد الصلوات المكتوبة.

وهذا المعنى وإن كان صحيحًا فإن حمل الآية عليه فيه بعد، والأظهر القول الأول.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على رسوله ﷺ بشرح صدره بالنبوة والإيمان والإسلام وهذه أعظم منة وأكبر نعمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

٢- فضل الله عز وجل عليه ﷺ بوضع وزره ومغفرة ذنبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾.

٣- أن الأوزار والذنوب ثقل وعناء في الدنيا والآخرة تستلزم التوبة وطلب المغفرة من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد- كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال ٥٦٠، وأبو داود في الطهارة- أيصلي الرجل وهو حاقن ٨٩، وأحمد ٦/ ٤٣، ٥٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٤٦٥، ومسلم في المساجد- كراهة الصلاة بحضرة الطعام ٥٥٨، وابن ماجه في الإقامة- إذا حضرت الصلاة ووضع العشاء ٩٣٥.

٤- إعلاء الله عز وجل شأن نبيه محمد ﷺ ورفع ذكره بين الأنبياء والخلائق في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

٥- تكفل الله عز وجل ووعده بأن مع كل عسر يسرين من الله عز وجل، وأنه لن يغلب عسر يسرين فلله الحمد والفضل والمنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

٦- أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ إذا فرغ من مشاغله في أمور الأمة والدعوة، وأمور الدنيا، وارتاح باله بالعبادة وقيام الليل والرغبة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾.

وللأمة فيه ﷺ الأسوة في هذا الأمر، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي: ابتغوا إليه القربة وارغبوا إليه بالأعمال الصالحة.

٧- تشريفه ﷺ بربوبية الله- عز وجل- الخاصة له وتكريمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

٨- عجبًا لمن يشتكي كثرة الفراغ والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾، فحياة المسلم بين انشغال في أمر دنياه مما لا بد منه، وبين اشتغال بعبادة الله تعالى بالذكر والصلاة وقراءة القرآن، وغير ذلك من أنواع البر والإحسان.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتِّينِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة التين»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، وتسمى: «سورة والتين والزيتون».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ في العشاء، وما سمعت أحداً أحسن صوتًا منه أو قراءة منه»(١).

د- موضوعاتها:

١- تعظيم وتشريف الأماكن التي بعث الله بها أنبياءه موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وأنزل عليهم فيها كتبه.

٢- تأكيد منّته عز وجل على الإنسان حيث خلقه في أحسن تقويم.

٣- رجوع الإنسان بالكفر إلى أسفل سافلين.

٤- وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأجر غير المقطوع.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الآذان- القراءة في العشاء ٧٦٩، ومسلم في الصلاة- القراءة في العشاء ٤٦٤، وأبو داود في الصلاة ١٢٢١، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٠، والترمذي في الصلاة ٣١٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٥، وأحمد ٤/ ٢٩٨، ٣٠٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ الواو: للقسم و«التين والزيتون» مقسم بهما وهما الشجرتان المعروفتان اللتان هما من أفضل الأشجار وأكثرها فوائد، وأعظمها منافع، وأطيبها ثمرة، مَنْبِتُهما أرض بيت المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا، وهي الأرض التي بارك الله فيها، وبعث فيها كثيرًا من أنبيائه عليهم السلام.

فأقسم الله عز وجل بهذا الشجر ذي الثمر الطيب والفوائد الكثيرة والمنافع العظيمة، ومنابته المباركة أرض بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وأضيف «طور» وهو الجبل، إلى «سينين» وهي البقعة، يقال: سينين، ويقال: سيناء.

﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾: وهو مكة، وإشار إليه بإشارة القريب لقربه، أقسم الله به لأنه أشرف البقاع، وأحبها إلى الله، البلد الحرام الذي يأمن من دخله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال ﷺ: «إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»(١).

فأقسم عز وجل بهذه الأماكن الثلاثة العظيمة، التي بعث الله بها أنبيائه ورسله،

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٧٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أصحاب الشرائع العظام، والأمم العظيمة: عيسى بن مريم، وموسى، ومحمد- عليهم الصلاة والسلام؛ تعظيمًا لهذه الرسالات العظيمة، وتشريفًا لهذه الأماكن، وبدأ بالأشرف، ثم الأشرف منه، ثم الأشرف منهما.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: جواب القسم.

فأقسم عز وجل بالمواضع الثلاثة على خلقه الإنسان في أحسن تقويم، واللام في قوله: ﴿لقد﴾: واقعة في جواب القسم، و«قد»: للتحقيق.

أي: والله لقد أوجدنا الإنسان في أحسن صورة، وأجمل هيئة، منتصب القائمة، متناسب الأعضاء، سوي الخلقة، وميزناه بالعقل، ولهذا خصصناه بالتكليف.

كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هذا من جملة جواب القسم، فأقسم عز وجل على بداية الإنسان ونهايته، أي: ثم أرجعناه بعد هذا الحسن والخلقة السوية والتمييز بالعقل إن لم يؤمن بالله ويعمل صالحًا إلى ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، أي: إلى الدرك الأسفل من النار في الأرض السفلى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ [المطففين: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ «إلا»: أداة استثناء. فاستثنى عز وجل من الرد إلى أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهم في أعلى عليين، كما قال تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ يدل على أن المراد بذلك رده إلى أسفل سافلين في النار بسبب كفره، لا أن المراد رده إلى الهرم كما قال بعضهم.

قال ابن تيمية(١): «فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين، وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد، بل على الأمور الغائبة، التي تؤكَّد بالأقسام، فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب. وفي نفس المقسم به- وهو إرسال هؤلاء الرسل- تحقيق للمقسم عليه وهو الثواب والعقاب بعد الموت».

ومعنى الآية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم واكتفى بالصفة وهو كون الأعمال صالحات، لأن المهم في العمل وشرط قبوله أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل وفق سنة نبيه محمد ﷺ.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾، أي: فلهم عند الله عز وجل ثواب عظيم وجزاء كبير، وسمى عز وجل ثوابهم أجرًا، لأنه سبحانه تكفل به والتزم به لهم تفضلًا وكرمًا.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، وغير ممنون به عليهم كما يمن المخلوق بما أَعطى، لأن الله عز وجل أكرم الأكرمين يعطي العطاء الجزيل بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٨].

وله سبحانه وتعالى المنة الكبرى والنعمة العظمى على جميع خلقه، ومنته على عبده فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥].

والمراد بهذا الأجر نعيم الجنة والخلود الأبدي فيها، نسأل الله تعالى من فضله.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٥٦.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ لم يقل: «فمن»؛ لأن «ما» يراد به الصفات دون الأعيان، أي: فما المكذب لك بعد بالدين، أي: بالجزاء على الأعمال بعد الإخبار به وذكر دلائله، أي: لا يكذبك به إلا جاهل ظالم لنفسه.

وعلى هذا فالخطاب في قوله: ﴿فما يكذبك﴾ للنبي ﷺ.

ويحتمل أن الخطاب للإنسان المكذب بالدين وتكون «ما» للاستفهام الإنكاري، أو للتعجب والتحقير لمن شأنه هكذا.

أي: فما الذي يحملك يا ابن آدم على التكذيب بالجزاء على الأعمال في الدنيا والبرزخ والمعاد، وقد عرفت أن الله هو الذي خلقك من العدم، وجعل خلقك في أحسن تقويم، وهو قادر على إعادتك وبعثك من باب أولى.

وسمي الجزاء على الأعمال بـ «الدين» لأن المرء فيه يجازى ويدان بما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ولهذا يقال كما تدين تدان، أي: كما تعمل تجازى

وسمى الله عز وجل نفسه «الديّان، أي: المجازي لعباده بما عملوا كما في الحديث «أنا الملك أنا الديان»(١).

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، أي: بلى سبحانه هو أحكم الحاكمين. و«أحكم» اسم تفضيل.

أي: هو- سبحانه- أحكم وأعدل الحاكمين في أحكامه الشرعية والكونية والجزائية، له كمال الحكم في أحكامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله كمال الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية وحكمته عز وجل تقتضي أن لا يترك الخلق سدى، بلا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم: ﴿وَٱلتِّينِ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٥- من حديث جابر رضي الله عنه عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ. وذكره البخاري بقوله: «ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان» كتاب التوحيد- باب ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالمواضع الثلاثة المباركة التي بعث الله بها محمدًا وموسى وعيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام؛ تعظيمًا لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.

٢- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما في ذلك من الدلالة على عظمته وقدرته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٣- الامتنان بتأمين البلد الحرام، ووجوب تأمين من دخله، فلا يعتدى عليه، ما لم يعتد أو يرتكب جرمًا، فإن الحرم لا يجير محدثًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.

٤- إقسامه عز وجل أنه خلق الإنسان في أحسن صورة وأعدل خلقة امتنانًا عليه بهذه النعمة العظيمة، وتذكيرًا له بها ليشكر الله عليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

٥- أن من تنكب الجادة وخرج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وكفر بالله فمرده النار أسفل سافلين، ولا كرامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

٦- أن الله عز وجل قدر الكفر كونًا، وإن لم يرضه شرعًا، لقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٨- لا بد لصحة العمل وقبوله من كونه صالحًا يتوفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

٩- أن الله عز وجل أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات أجرًا عظيمًا في الجنة غير

---

(١) سبق تخريجه.

مقطوع عنهم، ولا ممنون به عليهم منة الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

١٠- إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والإنكار على من يكذب به لقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾.

١١- تقرير أن الله عز وجل أحكم وأعدل الحاكمين، له كمال الحكم بأنواعه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله تمام الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾.

١٢- أن ما قضاه الله وحكم به من بعث الرسل، وإنزال الكتب وخلق الإنسان وجعله محلًا للتكليف، وتقدير الكفر والإيمان، والبعث والحساب والجزاء هو الحكم العدل، والحكمة التامة.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْعَلَقِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة العلق»؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.
وتسمى: «سورة اقرأ»، و«سورة اقرأ باسم ربك».

ب- مكان نزولها:

مكية- وهي أول سورة نزلت من القرآن.

جـ-موضوعاتها:

١- بيان فضل القراءة والكتابة والعلم.
٢- بيان أن من طبيعة الإنسان الطغيان إذا استغنى.
٣- الإنكار على أبي جهل وتهديده لوقوفه في وجه الدعوة وأذيته للنبي ﷺ.
٤- تثبيت النبي ﷺ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو: التعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ[1]، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني زملوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع» الحديث[2].

فهذه السورة العظيمة هي أول سورة نزلت، وهذه الآيات المباركات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أول ما بدئ به من أمر النبوة والوحي إلى رسول الله ﷺ، وهي تباشير النعمة المهداة والرحمة المسداة للعالمين، بإنزال القرآن الكريم ومبعث سيد المرسلين نبينا محمد عليه أزكى الصلاة والتسليم.

قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرأ ما ينزل وما يتلى عليك من القرآن مبتدئًا ومستعينًا ومتبركًا ومتيمنًا باسم ربك، خالقك ومالكك ومدبرك، ولم يقل باسم الله، لأن المقام مقام خلق وتصرف وتدبير، ولإشعاره ﷺ بربوبية الله عز وجل له، الربوبية الخاصة.

---

(١) قوله: «ما أنا بقارئ، أي: إنني لست من ذوي القراءة.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان- بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦٠، والترمذي في المناقب ٣٦٣٢، وأحمد ٦/ ٢٣٢- ٢٣٣.

فأول آية نزلت من القرآن تأمر بالقراءة؛ تعظيمًا للعلم وبيانًا لشرفه وفضله، وإشارة إلى أن هذا الدين دين القراءة والعلم، كما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١).

كما تأمر أيضًا بالتسمية في ابتداء القراءة وهي مشروعة في ابتداء السورة، لأنها آية مستقلة من القرآن تنزل مع كل سورة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: الذي خلق الخلق وأوجده ولم يذكر مفعول «خلق»؛ ليعم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

وهذا تذكير بعظمته عز وجل إذ لا خالق غيره، ولا رب سواه.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ تخصيص بعد تعميم؛ لشرف الإنسان من بين سائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

كرمه الله عز وجل بالعقل والعلم والمعرفة وخصه بالتكليف والجزاء.

و﴿عَلَقٍ﴾ جمع: علقة، وجُمع؛ لأن المراد بالإنسان في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الجنس، أي: جنس الإنسان، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

ومعنى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، أي: أوجد الإنسان وأنشأه من علقة تعلق في جدار الرحم، فهو ينتقل في أطوار خلقه من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى أن يصير بشرًا سويًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: ٣٧- ٣٩].

﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيد للأمر الأول، أو تأسيس؛ لأن الأمر الأول قرن بما يتعلق بالربوبية والخلق والقدر، والثاني قرن بما يتعلق بالعلم والشرع.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، «الأكرم»: اسم تفضيل، أي: الذي هو أكرم الأكرمين.

والكرم كثرة الخير، والخير كله منه عز وجل كما قال ﷺ: «والخير كله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤- من حديث أنس- رضي الله عنه.

بيديك»(١).

ومن كرمه العظيم وجوده العميم أن أنزل القرآن الكريم، وبعث محمدًا ﷺ نعمة على العباد، ورحمة للعالمين، وعلم الإنسان، وشرفه بالعلم على سائر المخلوقات، من الملائكة وغيرهم.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، أي: علّم الكتابة بالقلم؛ لأن العلم يكون في الأذهان، ويكون في اللسان، ويكون بالكتابة، وهي أعظم وسيلة لحفظ العلم والحقوق والوصايا وضبط الشهادات، وتقييد ونقل مذاهب السلف وأخبارهم للخلف.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟، فأمسكت عن الكتاب. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»(٢).

وقد أحسن القائل:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيِّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقة(٣)

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، فعلمه القرآن والحكمة والكتابة بالقلم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ٢- ٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤٦.

(٣) البيتان ينسبان للشافعي، ولم أجدهما في ديوانه. وانظر: «أنس المسجون وراحة المحزون» ص٣٣.

الفوائد والأحكام:

١- أن أول القرآن نزولًا على النبي ﷺ قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

٢- وجوب القراءة والتعلم، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾.

٣- مشروعية البسملة عند قراءة بداية كل سورة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ﴾.

٥- تعظيم اسم الله عز وجل، وأنه سبحانه هو الخالق العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾.

٦- بيان أصل خلق الإنسان وضعفه وأنه خلق من علقة.

٧- إثبات أنه عز وجل هو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾.

٨- فضل الله عز وجل على الإنسان، خلقه وشرفه على سائر المخلوقات، وعلمه الكتابة بالقلم، وعلمه ما لم يكن يعلم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

٩- الترغيب في تعلم الكتابة بالقلم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

سبب النـزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته قال: فما فَجِئَهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. قال: فقيل له مالك؟، فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا» قال: فأنزل الله عز وجل- لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة»(١).

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ «كلا»: كلمة ردع وزجر، وقيل: بمعنى حقًا.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان، وبخاصة الكافر.

﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ اللام: للتوكيد، أي: يتجاوز الحد في الفرح والأشر والبطر، ويتجاوز الحلال إلى الحرام والحق إلى الباطل، والإيمان إلى الكفر.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، أي: أن رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، فيظن أنه في غنى عن الله عز وجل ورحمته كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الليل: ٨].

وهذا إنما يكون من الإنسان الكافر؛ لأن من اعتقد بأنه في غنى عن الله عز وجل وعن رحمته فهو كافر، وإن ادعى الإيمان، لكن كثيرًا من ضعاف الإيمان قد يغتر بالمال والغنى، وهذا أمر مشاهد مما يوجب الحذر من ذلك.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «منهومان لا يشبعان: صاحب العلم،

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار- قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ٢٧٩٧، وأحمد ٢/ ٣٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٣٨.

وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]»(١).

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ويحتمل كونه للإنسان عمومًا، أو لمن طغى واستغنى بماله، أي: إن إلى ربك المرجع والمآل والمصير فيجازي كلًا بما عمل.

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ هذه الآية إلى آخر السورة نزلت في أبي جهل لعنه الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة»(٢).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟، وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟، أما والله، إني لأكثر هذا الوادي ناديًا، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته»(٣).

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الاستفهام: للتعجب. والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يصلح له.

والناهي هنا هو أبو جهل- لعنه الله- كما دل عليه سبب النزول، أي: أخبرني عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ٣٣٤٩، وأحمد ١/ ٣٢٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٣٧، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

حال هذا الرجل، وتعجب من حاله.

وقوله: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ المراد به نبينا محمد ﷺ، فأبو جهل ينهى الرسول ﷺ عن الصلاة عند الكعبة، وأطلق عز وجل عليه ﷺ اسم العبودية، لأنها أفضل ما يوصف به البشر. وصفه الله عز وجل بها في أعلى المقامات حال قربه منه في الصلاة والقراءة والدعاء فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، وحال قربه منه ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

ولو كان هناك وصف أفضل من وصف العبودية لوصفه به في هذين المقامين.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الاستفهام: للإنكار، والخطاب لأبي جهل- لعنه الله-، أي: أخبرني إن كان هذا الذي تنهاه عن الصلاة وهو محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: على الحق والسداد والرشاد في فعله.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ «أو» عاطفة بمعنى الواو، أي: وأمر بالتقوى بقوله، أي: و أمر بتقوى الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهو ﷺ كذلك في فعله وقوله، فِلمَ تنهاه وتتوعده على ذلك.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، أي: أرأيت يا محمد.

﴿إِن كَذَّبَ﴾ هذا الناهي، أي: إن كذب بالحق بقلبه، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾، أي: أعرض عن الحق ببدنه، أي: استمر على التكذيب والتولي.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، والتهديد والوعيد، أي: ألم يعلم هذا الناهي عن الصلاة المكذب بالحق المتولي عنه أن الله عز وجل مطلع عليه وعلى غيره يرى أفعاله، ويسمع كلامه وسيجازيه بما عمل.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ «كلا»: كلمة زجر وتهديد ووعيد، واللام: موطئة للقسم، أي: كلا لئن لم يرجع أبو جهل عما هو عليه من التكذيب بالحق والإعراض والصد عنه.

﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن لم ينته ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدةً، والناصية: مقدمة شعر الرأس، أي:لنقبضن على ناصيته ونأخذه ونجذبه بها بشدة وقوة وعنف.

و«ال» في «الناصية»: للعهد الذهني، أي: ناصيته المعهودة، كأنه اشتهر بها وقد أُخذ وجر بناصيته في الدنيا يوم بدر، ويؤخذ بناصيته ويجر بها في الآخرة في النار، وتوسم بالسواد، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ «ناصية»: بدل من ناصية الأولى.

﴿كَٰذِبَةٍ﴾: في مقالها ﴿خَاطِئَةٍ﴾ متعمدة الخطأ في فعالها، يقال: خاطئ، ومخطئ، فالخاطئ من ارتكب الذنب عمدًا، والمخطئ من ارتكبه جهلًا ونسيانًا فهذا معذور والأول مأزور غير معذور.

فهذا الناهي كاذبة أقواله، خاطئة أفعاله، وليس بعد الكفر والتكذيب بالحق ذنب.

قيل: وصفت الناصية بأنها كاذبة خاطئة؛ لأنها محل العقل المفكر المدبر للإنسان.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، واللام: لام الأمر، وفيها معنى التحدي ﴿نَادِيَهُۥ﴾، أي: أهل ناديه، والنادي في الأصل المجلس الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون للتخاطب والتشاور والاستئناس، وكان أبو جهل معظمًا في قريش، وله ناد يجتمع إليه الناس فيه، من قومه وعشيرته، وكان يفتخر فيهم.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الزبانية: جمع: زبنية، مأخوذ من «الزبن» وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، وخزنة جهنم الغلاظ الشداد، أي: سندعوهم إلى أخذه، وحينها يعلم غروره بافتخاره بكثرة أهل ناديه وعشيرته، وأنهم لن يجدوا عنه شيئًا.

﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر لأبي جهل ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، أي: لا تطعه يا محمد فيما ينهاك عنه من الصلاة والعبادة عند الكعبة، وأينما كنت، واثبت على ما أنت عليه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ [القلم: ٨].

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾، أي: صل واقترب إلى ربك بالعبادة والركوع والسجود، واستمر على ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] أي اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة.

وعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه من أفضل حالاتها، ومن أعظم أركانها، قال ﷺ:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء»(١).

ويشرع السجود عند تلاوة هذه الآية، لما روي أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾(٢).

الفوائد والأحكام:

١- الردع والزجر والتهديد والوعيد لمن أطغاه الغنى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾.

٢- أن من طبيعة الإنسان أن يطغيه الغنى ويبطره؛ لقوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، إلا من رحم الله فثبته وحفظه، ولهذا يجب أن يكون المسلم من هذا على حذر.

٣- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ ولأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾، وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٤- إثبات المعاد وأن المرجع والمصير إلى الله عز وجل.

٥- التعجب من حال أبي جهل- لعنه الله- والإنكار عليه في نهيه للنبي ﷺ عن الصلاة، وفي تكذيبه بالحق وإعراضه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

٦- إثبات وتقرير أنه ﷺ على الهدى في عبادته لله عز وجل وصلاته وفيما يأمر به من تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾.

٧- تقرير رؤية الله عز وجل لأبي جهل وأذاه لرسول الله ﷺ، واطّلاعه التام على جميع الخلق وأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؟

٨- الزجر والتهديد لأبي جهل، إن لم ينته عما هو عليه من الأذى لرسول الله ﷺ والصد عن الحق بأخذه بناصيته الكاذبة الخاطئة، وتأكيد زجره وتهديده؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

٩- جهل أبي جهل بعظمة الله عز وجل وقوته وقدرته؛ ولهذا تحداه الله عز وجل بدعوة أهل ناديه؛ ليدافعوا عنه ويمنعوه من زبانية جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

١٠- إثبات خزنة جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

١١- نهيه عز وجل له ﷺ عن طاعة أبي جهل، وأمره عز وجل له ﷺ بالصلاة والسجود والتقرب إليه والاستمرار على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

١٢- الاستعانة بالصلاة والسجود، والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

١٣- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآيات.

* * *

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلْقَدْرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة القدر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.

وتسمى «سورة ليلة القدر».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- تعظيم القرآن.

٢- بيان فضل ليلة القدر، وشرفها وبركتها، والترغيب في إحيائها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه هو العظيم سبحانه وتعالى.

وضمير الهاء في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، ولم يسبق له ذكر في السورة، لكنه معلوم، أي: أنزلنا القرآن العظيم المعلوم المعروف المعهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الليلة: ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر. و«القدر»: هو الشرف والعظمة.

والمعنى: في الليلة العظيمة ذات القدر والشرف العظيم، والتي تقدر فيها الأعمال وهي الليلة المباركة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٣، ٤].

وهي في شهر رمضان المبارك، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومعنى إنزال القرآن فيها بدء نزوله فيها، ثم تتابع نزوله بعد ذلك على رسول الله ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة.

وقيل: معنى إنزاله فيها: أنه أنزل فيها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

والصحيح الأول.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾: تعظيم لأمرها، وتفخيم لشأنها، أي: وما أعلمك ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هي ليلة عظيمة القدر، رفيعة الشرف، كثيرة الخير والبركة.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ هذا وما بعده تفسير لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

أي: أن العمل الصالح في هذه الليلة فيها خير وأفضل من العمل في ألف شهر خالية منها، أي: خير من العمل بما مقداره ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، ليس فيها هذه الليلة، وهذا كما قال ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل»(١).

وقال ﷺ «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان، قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»(٣).

ولهذا قال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»(٤).

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، أي: تتنزل الملائكة إلى الأرض شيئًا فشيئًا، والملائكة: جمع مَلَكَ.

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عليه السلام، عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام؛ لمكانته بينهم؛ لأنه الأمين على الوحي، كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الليلة العظيمة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أي: بأمره عز وجل الكوني، وذلك لكثرة بركتها وخيرها، وتنزل الرحمة فيها، قال ﷺ: «وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»(٥).

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي: بكل أمر مما يأمرهم الله تعالى به، ومن أجل كل أمر قضاه الله

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٦٢، ٦٥- من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨١، والنسائي في الجهاد ٣١١٨، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٦ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٨٩٨، ١٨٩٩، ومسلم في الصيام ١٠٧٩، والنسائي في الصيام ٢٠٩٧، والترمذي في الصوم ٢٨٢، وأحمد ٢/ ٢٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠١، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٦٠، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٢، والنسائي في الصيام ٢٢٠٢، والترمذي في الصوم ٦٨٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سيأتي تخريجه.

وقدره في تلك السنة من الآجال والأرزاق وغير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤].

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ قرأ الكسائي وخلف بكسر اللام: «مطلِع».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مَطْلَعِ﴾، أي: هي سلام، أي: ما يقدر فيها إلا السلامة والخير، ويكثر فيها سلام الملائكة على المؤمنين، والسلامة من الذنوب ومغفرة الآثام.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، أي: وقتها إلى مطلع الفجر الثاني.

وقد أخفى الله عز وجل هذه الليلة؛ ليجتهد الناس في العبادة تحريًا لها، وهي في رمضان، وفي العشر الأواخر منه على الصحيح، وهي في أوتار العشر آكد، وأكدها ليلة سبع وعشرين(١).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل، فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر، في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في ماء وطين» وكان سقف المسجد جريدًا من النخل، وما نرى في السماء شيئًا، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه» وفي رواية: «في صبح إحدى وعشرين»(٢).

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: «أُريت ليلة القدر ثم أُنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين، قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا رسول الله ﷺ فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، قال: وكان

---

(١) هناك أقوال أخرى ضعيفة لا دليل عليها، فقيل إنها في السنة كلها، وقيل في رمضان كله، وقيل أول ليلة منه، وقيل ليلة سبع عشرة، وقيل ليلة تسع عشرة وقيل غير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٦٦، ومسلم في الصيام- فضل ليلة القدر ١١٦٧، وأبو داود في الصلاة ٨٩٤.

عبد الله بن أنيس يقول: ثلاث وعشرين»[١].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»[٢].

وعن بلال رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة القدر ليلة أربع وعشرين»[٣].

وعن واثلة بن الأسقع- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[٤].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»[٥].

وقد فسره أكثر أهل العلم بليالي الأوتار، وهو الأظهر، وحمله بعضهم على الأشفاع.

وقوله «في تاسعة تبقى» في حال نقصان الشهر تكون ليلة تاسعة تبقى ليلة إحدى وعشرين، وفي حال تمامه تكون ليلة اثنتين وعشرين.

وقوله: «في سابعة تبقى» تحتمل ليلة ثلاث وعشرين وذلك في حال نقصان الشهر، وتحتمل ليلة أربع وعشرين في حال تمامه.

وقوله: «في خامسة تبقى» تحتمل ليلة خمس وعشرين في حال نقصان الشهر، وتحتمل ليلة ست وعشرين في حال تمام الشهر.

---

(١) أخرجه مسلم في الباب السابق ١١٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي انظر «منحة المعبود» ١/ ٢٠١ قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٨: «إسناده رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ١٢ قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٨ «ابن لهيعة ضعيف. وقد خالفه ما رواه البخاري عن بلال: «أنها أول السبع من العشر الأواخر» قال ابن كثير: فهذا الموقوف أصح».

(٤) أخرجه أحمد ٤/ ١٠٧.

(٥) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢١، وأبو داود في الصلاة ١٣٨١.

وعن زر قال: سألت أبي بن كعب رضي الله عنه، فقلت: «إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، فقال: رحمه الله، أراد أن لا يتكل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: بأي شيء تقول ذلك، يا أبا المنذر؟، قال بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها»(١).

قال ابن كثير(٢): «وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم، عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم أو: إني لأظن، أي ليلة القدر هي، فقال عمر: أي ليلة هي؟ قال: سابعة تمضي- أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟، قال ابن عباس، فقلت: خلق الله سبع سموات، وسبع أرضين، وسبع أيام، وإن الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له، وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ [عبس: ٢٧- ٣١]»(٣).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٦٢، والترمذي في الصوم ٧٩٢، وأحمد ٥/ ١٣٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٦٩ قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي، وغريب جدًا، والله أعلم».

(٤) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠٢٣.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو آخر ليلة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»(٢).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر»(٣).

لهذه الأحاديث وغيرها بلغت الأقوال في تحديدها إلى عشرة أقوال عدد ليالي العشر حال تمام الشهر ولا إشكال في أنها في العشر الأواخر من رمضان لاتفاق الأحاديث الصحيحة على ذلك، وأوتارها آكد، وآكدها ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وسبع وعشرين، وآكد هذه الثلاث ليلة سبع وعشرين.

ومع صحة الأحاديث في تحديدها في أكثر من ليلة فالأولى التماسها وتحريها في جميع ليالي هذه العشر، إضافة إلى أن من أهل العلم من قال: إن ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر.

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»(٤).

وهكذا جاء في حديث عبادة المتقدم: «التمسوها في العشر الأواخر».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ «أرى رؤياكم قد

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٩ وأبو داود الطيالسي، انظر «منحة المعبود» ١/ ٢٠٠، قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٧٠: «تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به».

(٣) أخرجه الترمذي في الصوم- ما جاء في ليلة القدر ٧٩٤، قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٧، ومسلم في الصيام- فضل ليلة القدر ١١٦٩، والترمذي في الصوم ٧٩٢.

تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر»[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟، قال: «بل هي في رمضان»، قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت[٢]؟، أم هي إلى يوم القيامة؟، قال: «بل هي إلى يوم القيامة»، قلت: في أي رمضان هي؟، قال: «التمسوها في العشر الأول، والعشر الأواخر»، ثم حدّث رسول الله ﷺ وحدّث، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟، قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها، ثم حدّث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله، أقسمت عليك، بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟، فغضب عليّ غضبًا لم يغضب مثله منذ صحبته، وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها»[٣].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يجتهد في هذه الليالي العشر ما لا يجتهد في غيرها.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[٤].

وفي رواية عنها: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره»[٥].

وعنها رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من

---

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠١٥، ومسلم في الباب السابق ١١٦٥.

(٢) أخذ من هذا بعض أهل العلم أن ليلة القدر كانت في الأمم الماضية وجمهور أهل العلم، بل حكي عليه الإجماع أنها من خصائص هذه الأمة، وروي في هذا أن النبي ﷺ أُري أعمال أمته، فكأنه تقاصر أعمارهم ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمل، فأعطاه الله ليلة القدر، خيرًا من ألف شهر»، انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٦٦.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٧١.

(٤) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٤، ومسلم في الاعتكاف- الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان ١١٧٤، وأبو داود في الصلاة ١٣٧٦، والترمذي في الصوم ٧٩٦، وابن ماجه في الصيام ١٧٦٨، وأحمد ٦/ ٦٦.

(٥) أخرجها مسلم في الموضع السابق ١١٧٥، والترمذي في الموضع السابق ٧٩٦.

رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان»(٢).

وينبغي الحرص على تحري هذه الليلة وقيامها والإكثار فيها من الصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء، والاستغفار والصدقة والبر والصلة وغير ذلك من أعمال الخير.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٢- إثبات العلو لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، لأن الإنزال يكون من أعلى.

٣- تعظيم القرآن الكريم وأنه معلوم معهود لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٤- أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ وهذا ما عليه سلف الأمة وأهل السنة، خلافًا للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٥- أن ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر، في شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، وقوله في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الآية: ١٨٥].

٦- فضل ليلة القدر، وعظم شأنها ومكانتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم- الاعتكاف في العشر الأواخر ٢٠٢٦، ومسلم في الاعتكاف- اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ١١٧٢، وأبو داود في الصوم ٢٤٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الباب السابق ٢٠٢٥، ومسلم في الباب السابق ١١٧١، وأبو داود في الصوم ٢٤٦٥، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٣.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥١٣، وابن ماجه في الدعاء- الدعاء بالعفو والعافية ٣٨٥٠، وأحمد ٦/ ١٨٢.

٧- الترغيب في قيام هذه الليلة والإكثار من الأعمال الصالحة فيها.

٨- تنزل الملائكة والروح في هذه الليلة بإذن ربهم وأمره، وكثرتهم في الأرض، وفضل جبريل عليه السلام وشرفه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للملائكة عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾.

١٠- أن هذه الليلة سلام، يقدر فيها الخير والسلامة من الشرور، ومغفرة الذنوب والآثام، وكثرة السلام على المؤمنين من الملائكة ومن بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

١١- أن ليلة القدر تبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.

١٢- فضل الله عز وجل على هذه الأمة بإعطائهم هذه الليلة المباركة العظيمة التي تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، أي عبادة ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر خالية من هذه الليلة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والمحروم من حرم خير هذه الليلة.

❊ ❊ ❊

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْبَيِّنَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة البينة»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

وتسمى: «سورة لم يكن الذين كفروا» و«سورة لم يكن»، و«سورة المنفكين»، و«سورة الانفكاك»، و«سورة القيمة»، و«سورة البرية»، و«سورة أهل الكتاب».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

جـ-فضلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾»، قال: وسماني لك؟ قال: «**نعم**» **فبكى**[1].

وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: «**لما نزلت**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيًّا. فقال النبي ﷺ لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة»**. قال أبي: وقد ذكرتُ ثم يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» قال: فبكى أبي»[2].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «**إن رسول الله ﷺ قال لي: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: فقرأ**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾» **الحديث**[3].

والمراد بقوله: «اقرأ عليك، أي: قراءة تبليغ وإسماع وتلقين لأبي بن كعب رضي الله عنه- كما دلت عليه الأحاديث السابقة. وليس المراد به أن النبي ﷺ يقرأ ليصحح له أبي بن كعب قراءته- كما قيل. وقالوا هذا من باب تواضعه ﷺ.

د- موضوعاتها:

١- توبيخ أهل الكتاب والمشركين على إصرارهم على كفرهم.

٢- بيان أن تفرق أهل الكتاب واختلافهم لم يكن عن جهل بل من بعد ما جاءتهم

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٠٩، ومسلم في فضائل الصحابة- فضائل أبي بن كعب ٧٩٩، والترمذي في المناقب، فضل أبي بن كعب ٣٧٩٢، وأحمد ٣/ ١٣٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٩.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٩٣، واحمده/ ١٢٣، ١٣١، ١٣٢- وقال الترمذي: «حديث حسن».

البينة بغيًا بينهم وعناداً.

٣- بيان أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده مخلصين الدين ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين الملة القيمة.

٤- بيان أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين هم شر البرية. وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية، ووعدهم بجنات عدن خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: لم يكن الذين كفروا، أي: جحدوا ربوبية الله- عز وجل- وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، وما أمر الله بالإيمان به، أو شيئًا من ذلك، أو استكبروا عن الانقياد له، أو أعرضوا عنه، أو شكوا فيه.

﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ «من»: بيانية فيها بيان لاسم الموصول «الذين»، فكل من أهل الكتاب والمشركين كفار؛ لأنهم كذبوا الرسول ﷺ وما جاءهم به من عند الله، بل إن أهل الكتاب كذبوا رسلهم الذين بشروا به ﷺ.

و﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ هم عبدة الأوثان والأصنام.

وكل من أهل الكتاب وعبدة الأوثان والأصنام مشركون؛ لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وإنما أفرد أهل الكتاب بالذكر عن المشركين؛ لأنهم أوتوا الكتاب، فإذا ذكر المشركون بالإفراد دخل معهم أهل الكتاب وعبدة الأوثان عمومًا؛ لأن الكل مشركون، وإذا قرن بينهما بالذكر فالمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى خاصة، والمراد

بالمشركين عبدة الأوثان والأصنام.

﴿مُنفَكِّينَ﴾، أي: تاركين ما هم عليه من الكفر والشرك، منتهين عن غيهم وضلالهم، ولم يكونوا أيضًا متفرقين في أمر النبي ﷺ، أو لم يكونوا متروكين على ما هم عليه بلا نذر، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، أي: إلا بعد مجيء البينة، أو حتى إقامة الحجة عليهم بإيتائهم البينة التي فيها بيان الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾: بدل من البينة وتفسير لها، فالبينة: رسول مرسل من عند الله عز وجل وهو محمد ﷺ.

وفي تنكير «رسول» تعظيم له ﷺ، فهو ﷺ أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو سيد ولد آدم ولا فخر، من غير غلو ولا إطراء.

﴿يَتْلُواْ﴾، أي: يقرأ: ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣، ١٤].

وصحف: جمع صحيفة، وهي الورق والألواح التي فيها القرآن الكريم.

ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾، أي: مطهرة من الزيادة والنقص والتبديل والتغيير والباطل.

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾، أي: في هذه الصحف المطهرة مكتوبات وأحكام.

﴿قَيِّمَةٌ﴾ فأخبارها صادقة وأحكامها مستقيمة عادلة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى

هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ كان المؤمل في أهل الكتاب أن يتركوا ما هم عليه من الكفر والشرك بعد إتيان البينة إليهم ببعثة محمد ﷺ، ونزول القرآن الكريم، لكن أهل الكتاب لما جاءتهم البينة تفرقوا فآمن بعض منهم وكفر أكثرهم حسدًا منهم وبغيًا.

وكانوا يقولون للمشركين من عبدة الأصنام قبل مبعثه ﷺ: لا ننفك عما نحن عليه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، فلما بعث الله محمدًا ﷺ من العرب كفروا به وتفرقوا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وفي الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟، قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن- افتراق الأمة ٣٩٩١- ٣٩٩٣، وأحمد ٢/ ٣٣٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد أيضًا: من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه ٣/ ١٢٠، ١٤٥.

ونص على أهل الكتاب بالتفرق دون المشركين؛ لأن أهل الكتاب عندهم علم به لوجوده في كتبهم فتفرقهم عن عناد واستكبار وحسد فالحجة عليهم أقوم وتفرقهم وتكذيبهم أعظم.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾، أي: وما أمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل، وما أمروا هم وجميع الناس في القرآن الكريم ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: إلا بعبادة الله عز وجل.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: حال كونهم في عبادتهم لله مخلصين له العبادة وحده ﴿حُنَفَآءَ﴾، أي: على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، أي: مائلين عن الشرك، معتدلين على التوحيد والإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣].

وهذا ما دعا إليه الرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع، وفي الشرع: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وتشمل فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وكذا فعل المباحات من الأكل والشرب والنوم والترويح عن النفس ونحو ذلك بقصد المحافظة على صحة البدن، والتقوي بذلك على طاعة الله تعالى. ولهذا قال أهل العلم: الموفقون عاداتهم عبادات، والمخذولون عباداتهم عادات.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

أي: ويقيموا الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

والصلاة في اللغة: الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾

[التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الشرع: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: ويعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم والتي هي حق الله عز وجل في المال.

والزكاة: في اللغة النماء والزيادة، سميت بذلك؛ لأنها تزكي المال وتزيده، وتزكي نفس الغني من رذيلة البخل والشح، وتزكي نفس الفقير من الحقد والحسد لإخوانه الأغنياء، وتحميه بإذن الله عز وجل عن البحث عن المال من طرق الحرام كالسرقة ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والزكاة في الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، في زمن مخصوص، لطائفة مخصوصة.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ الإشارة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن الكريم والأمر بعبادة الله، والإخلاص له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

والمعنى: وذلك دين الملة الحنيفية المستقيمة ملة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

ودين الأمة المعتدلة الوسط أمة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

بعد ما ذكر كفر أهل الكتاب والمشركين وتفرق أهل الكتاب بعد بيان الحق لهم في كتاب الله تعالى، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ ذم الفريقين، وبين أن مصيرهم ومآلهم نار جهنم، وسميت نار جهنم لجهمتها وظلمتها وسوادها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية؛ لأن الصحيح الذي دل عليه القرآن

الكريم أن النار لا تفنى، ولا يفنى أهلها، ولا ينتهي عذابهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع بالهمز: «البريئة»، وقرأ الباقون بلا همز: ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: أولئك هم شر الخليقة التي ذرأها وبرأها الباري سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

الفوائد والأحكام:

١- إخبار القرآن الكريم بأن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين لم يكونوا منفكين ومنتهين عما هم عليه من الكفر والشرك والضلال، أي: لا يزالون على غيهم وضلالهم حتى تأتيهم البينة؛ لقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

٢- أن أهل الكتاب كفار، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به، بل لم يؤمنوا برسلهم الذين بشروا به ﷺ كما أنهم مشركون.

٣- أن ببعثته ﷺ ظهر الحق، وبان الصبح لذي عينين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢﴾.

٤- عظم منزلة الرسول ﷺ، وما جاء به من الوحي والشرع القويم؛ لقوله: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾.

٥- أن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى بعث النبي ﷺ فآمن بعضهم وكفر أكثرهم حسدًا منهم وبغيًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

٦- لم يؤمر أهل الكتاب في التوراة والإنجيل ولا في القرآن هم وغيرهم من الناس إلا بعبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة- فأصول الشرائع كلها متفقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٧- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل وحده بلا شريك وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن ذلك هو الدين القيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

٨- عظم منزلة التوحيد، وأنه أساس الإيمان، وعظم منزلة الصلاة فهي أهم

العبادات البدنية، وعظم منزلة الزكاة فهي أهم العبادات المالية.

٩- الوعيد الشديد للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وأن مآلهم نار جهنم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

١٠- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب أهلها.

١١- ذم الكفرة من أهل الكتاب والمشركين وأنهم شر الخليقة وكفى بهذا ذما؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

بعد ما ذم عز وجل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وبين أن مصيرهم نار جهنم امتدح الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين ما أعد لهم من عظيم الجزاء في جنات عدن.

وهم طبقات أربع كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

وحذف الموصوف، وهو الأعمال، واكتفى بالصفة، وهي: «الصالحات»؛ لأن المهم في العمل كونه «صالحًا»، يتوفر فيه: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، أي: أولئك هم خير الخليقة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيمًا لهم ورفعة لشأنهم، وقد أكد خيريّتهم بعدة مؤكدات: إن، وكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، وضمير الفصل «هم».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية»؟، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة[1] استوى عليه، ألا أخبركم بالذي يليه»؟، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية»؟ قالوا: بلى، قال: «الذي يَسأل بالله فلا يُعطى به»[2].

---

(١) هيعة: أي صوت مفزع ومخيف.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٩٦.

وقد استَدل بهذه الآية من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك، واقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾»(١).

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، أي: ثوابهم وأجرهم عند ربهم يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ إشارة لتكفله عز وجل لهم بذلك، وعظمة جزائهم؛ لأنه من الرب العظيم الخالق المالك المدبر الجواد الكريم سبحانه وتعالى.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، أي: جنات إقامة أبدية، والجنات: هي المساكن العظيمة والمنازل العالية، التي أعدها الله لأوليائه المتقين، والتي تجن وتستر من فيها لكثرة بساتينها، وأشجارها وثمارها وغرفها.

﴿عَدۡنٖ﴾ العدن: الإقامة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن نعيم أهل الجنة أن كلًا منهم لا يريد التحول عن مكانه وعما هو عليه؛ لأنه لا يرى أن أحدًا أكمل منه، ولا أن هناك مكانًا أو نعيمًا أفضل مما هو فيه، لأن الله عز وجل أذهب عنهم الحزن، وأذهب عن قلوبهم الغل، فلا يظعنون منها ولا يرتحلون، ولا يطلبون غاية فوقها.

كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقد ضمن الله عز وجل لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ۝٤٨﴾ [الحجر: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٦].

وهذا بخلاف حال أهل الدنيا، فإن الإنسان لا يكاد يكمل بناء بيته إلا ويرى أنه لو وضع كذا مكان كذا لكان أولى وهكذا، ولا يكاد يستقر في منزل، إلا ويرى أنه لو انتقل إلى أحسن منه، سواء رأى ذلك من تلقاء نفسه، أو زهده فيه أولاده وأهله، أو الجار، أو أهل الحي أو غير ذلك؛ لأن الله كتب النقص على الدنيا وأهلها فاقنع فيها بما تيسر، واستعد لما أمامك.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٥٤.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسير من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩].

وهي كما ذكر الله عز وجل ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

يشربون منها ويتمتعون برؤيتها ويصرفونها حيث شاؤوا بلا أخدود، قال ابن القيم(١):

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

من تحتهم تجري كما شاؤوا مفـ ... ـعجرة وما للنهر من نقصان

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، لا يموتون ولا يمرضون ولا ييأسون، ولا يحزنون، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إيمانهم، وأعمالهم الصالحة؛ ولهذا جازاهم خير الجزاء وأعلى ذلك وأعظمه رضاه عنهم ورؤيتهم لوجهه الكريم.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أثنى به عليهم من الخيرية بين البرية، وبما أعده لهم من الجزاء العظيم في جنات النعيم، فلا تسأل عن حالهم- وقد نزلوا ضيوفًا على أكرم الأكرمين.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟

---

(١) انظر «النونية» ص٢٢٩.

فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحل لكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ الإشارة للثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم الذي أعده الله لهم، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له، أي: ذلك الثناء العظيم، والجزاء بجنات النعيم للذي خاف ربه مع هيبة وإجلال وتعظيم له، فاتقاه وآمن وعمل صالحًا.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فانتبه أخي لهذا، وخذ نصيبك من ربك.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب.

٢- إثبات أن الإيمان قول وعمل واعتقاد والرد على أهل الإرجاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣- أن من شرط قبول العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله عز وجل، تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٤- ثناء الله عز وجل وامتداحه للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم خير الخليقة؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وكفى بهذا شرفًا وفخرًا لهم.

٥- عظم ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات عنده في جنات عدن من الأنهار وألوان النعيم مع الخلود الأبدي فيها، ورضى الله عنهم ورضاهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة للمؤمنين أهل خشيته- عز وجل؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٩، ومسلم في الإيمان ١٨٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

٧- الترغيب في خشية الله عز وجل، وأن هذا الأجر العظيم لكل من خشي ربه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلزَّلْزَلَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الزلزلة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

وتسمى: «سورة إذا زلزلت»، «وسورة إذا زلزلت الأرض»، و«سورة زلزلت».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رجلًا قال: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فاقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى فرغ منها. قال الرجل: والذي بعثك لا أزيد عليها أبدًا، ثم أدبر. فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل، أفلح الرويجل»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به. قال: «أليست معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟». قال: بلى. قال: «ثلث القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؟». قال: بلى. قال: «ربع القرآن»(٢).

د- موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة وشدة الكرب ذلك اليوم.

٢- مجازاة كل بما عمل خيراً كان أو شراً، قليلًا كان أو كثيرًا.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣٩٩، وأحمد ٢/ ١٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن- ما جاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٥. وقال: «حديث حسن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾، «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا حركت الأرض واضطربت وارتجفت وارتجت.

﴿زِلْزَالَهَا﴾، أي: تحريكها واضطرابها الشديد العظيم، فاندك ما عليها من بناء وجبال حتى صارت قاعًا صفصفا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، أي: أخرجت الأرض ما فيها من الموتى ودفائن الكنوز والأموال، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع، فيقول: في هذا قَطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي، ثم يدعونه، فلا يأخذون منه شيئًا»(١).

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ﴾، أي: الكافر المنكر للبعث مستنكرًا مستغربًا، أو جنس الإنسان

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة- الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ١٠١٣، والترمذي في الفتن ٢٢٠٨.

يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

﴿مَا لَهَا﴾، أي: ما الذي حدث لها تزلزلت واضطربت بعد ما كانت ساكنة مستقرة ثابتة، وأخرجت ما في باطنها بعدما كان مستورا، كما قال تعالى عن منكري البعث: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، أي: في ذلك اليوم تخبر الأرض بما عمل الناس على ظهرها من خير أو شر، وتشهد عليهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها»(١).

وعن ربيعة الجرشي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أو شرًا إلا وهي مخبرة به»(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة سمعته من رسول الله ﷺ»(٣).

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: بأن ربك يا محمد أمرها بأن تتزلزل، وتخرج أثقالها، وتخبر بما عمل عليها من خير أو شر.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: يصدرون ويرجعون من موقف الحساب.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٩، وأحمد ٢/ ٣٧٤، وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤٨١.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان- رفع الصوت بالنداء ٦٠٩، والنسائي في الأذان ٦٤٤، وابن ماجه في الأذان والسنة فيه ٧٢٣.

﴿أَشْتَاتًا﴾ حال، أي: مختلفين ومتفرقين تفرقًا، لا لقاء بعده، فسعيد سالك ذات اليمين إلى الجنة نسأل الله تعالى من فضله، وشقي سالك ذات الشمال إلى النار نسأل الله تعالى السلامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤].

﴿لِّيُرَوْا﴾، أي: ليريهم الله أعمالهم، فيشاهدوها؛ ليجازوا عليها.

وذلك بأن يعطى كل منهم كتاب عمله، فمنهم من يعطى كتابه بيمينه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله بعد أن تلوى وراء ظهره، فيقرأ كل منهم كتابه، فيرى أعماله، ويحاسب عليها، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن يعمل زنة ذرة من خير، والذرة هي النملة الصغيرة، أو ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

﴿يره﴾: جواب الشرط، أي: ير عمله وثوابه فيجازى بما عمل من خير، مهما قل أو كثر.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، أي: ير عمله وعقابه، فيجازى بما عمل من شر، مهما قل أو كثر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذا لعمر الله منتهى العدل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر..» الحديث- وفيه: «وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر،

فقال: «ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾»(١).

وعن صعصعة بن معاوية رضي الله عنه عم الفرزدق: «أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها»(٢).

وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عمّن يشاء ممن عملوا الشر إذا كان ذلك دون الشرك بالله.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ترغيب في عمل الخير وإن كان قليلًا، ولهذا قال ﷺ فيما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»(٣).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسِن شاة»(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٦٠، ومسلم في الزكاة- إثم مانع الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخيل ٣٥٦٣، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٨.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة- اتقوا النار ولو بشق تمرة ١٤١٧، ومسلم في الزكاة ١٠١٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٢.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٦، والترمذي في الأطعمة ١٦٣٣.

(٥) أخرجه البخاري في الهبة ٢٥٦٦، ومسلم في الزكاة- الحث على الصدقة ولو بالقليل ١٠٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٣٠.

(٦) أخرجه أحمد ٦/ ٧٩.

كما أن في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ تحذيرًا من عمل الشر وإن كان قليلًا.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفّاه يوم القيامة»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة، ففيها تتزلزل الأرض وتضطرب وتخرج أثقالها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

٢- استنكار الإنسان واستغرابه ما حصل للأرض من التزلزل بعد الثبات والاستقرار، وإخراج أثقالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾، يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

٣- إخبار الأرض آنذاك بأن الله أوحى لها بالتزلزل وإخراج ما فيها، والإخبار بما

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد- ذكر الذنوب ٤٢٤٣، وأحمد ٦/ ١٥١، والدارمي في الرقاق ٢٧٢٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢- ٤٠٣.

(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٦٤.

عمل عليها من خير أو شر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

٥- صدور الناس من موقف الحساب متفرقين ليروا أعمالهم وجزاءها فسالك ذات اليمين، وسالك ذات الشمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

٦- محاسبة الخلائق بالعدل الحقيقي والوزن الدقيق على أعمالهم، من غير زيادة ولا نقصان وهذا في مقام العدل، وأما في مقام الفضل، فإن الله يضاعف لمن يشاء ممن عملوا الخير، ويعفو عن من يشاء ممن عملوا الشر، إذا كان ذلك دون الشرك.

٧- إثبات الوزن لأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

٨- وجوب محاسبة النفس محاسبة دقيقة في أداء حقوق الله، وحقوق الخلق وفي القيام فيما يتولى الإنسان من مصالح الأمة؛ لأن الحساب دقيق والناقد بصير.

٩- الحرص على فعل الخير مهما قل والبعد عن الشر مهما قل.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلعَادِيَاتِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة العاديات» بهذا الاسم؛ لإقسامه عز وجل بها في مطلع هذه السورة بقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- فضل الجهاد في سبيل الله، ومكانة الخيل في الإسلام وأهميتها في الجهاد.
٢- كفر الإنسان بربه وجحوده لنعمه إلا من هداه الله.
٣- الترغيب بالإخلاص والعمل الصالح.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«العاديات»: مقسم به، والمراد بها الخيل تعدو في سبيل الله، والعدو: الجري السريع الشديد.

وقيل: المراد بالعاديات الإبل.

﴿ضَبْحًا﴾: منصوب على المصدرية، أي: يضبحن ضبحًا، أو على الحال، أي: ضابحات.

والضبح: صوت نفس الفرس في صدرها يسمع حين تعدو بشدة وقوة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حكاه «أحْ، أحْ»[1]، قال عنترة:

والخيل تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحًا

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، أي: الخيل توري النار عند قرع حوافرها على الأرض الصخرية حين تعدو في سبيل الله لصلابة حوافرها.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾، أي: الخيل تغير على الأعداء وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلًا، فلما أصبح ولم يسمع أذانًا ركب...»[2].

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾، أي: حرَّكن وهيجن في وقت إغارتهن وفي معترك الخيول ووسط

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- ما يحقن الأذان من الدماء ٦١٠.

المعركة.

﴿نَقْعًا﴾، أي: غبارًا من شدة العدو والكر والفر.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾، أي: توسطن جميعهن بمن عليهن أرض المعركة وجموع الأعداء.

وفي إقسامه عز وجل بالخيل وهي تعدو في سبيل الله، وتضبح أصواتها، وتوري النار بقدح حوافرها، وتغير على الأعداء وقت الصباح فتثير الغبار وتتوسط الجموع، في هذا كله دلالة على أهمية الجهاد في سبيل الله، وعظم مكانته في الإسلام، وعلى أن الخيل من أعظم وسائل الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طِيَلَها(٢) في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين(٣) كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورئاءً ونواءً(٤)، فهي على ذلك وزر». فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٣، والنسائي في الخيل ٣٥٧٥، والترمذي في الجهاد ١٦٩٤، وابن ماجه في التجارات ٢٣٠٥ من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه.

(٢) الطِيَل: رباط الفرس، أي: جعل رباطها طويلًا بحيث تدور وترعى فيما حولها.

(٣) قال في «النهاية» مادة «سنن»: «استن شرفًا أو شرفين»: استن الفرس يستن إستنانًا، أي: عدا لمرحه ونشاطه شوطًا أو شوطين، ولا راكب عليه».

(٤) أي: مناوأة ومعاداة.

(٥) أخرجه البخاري في المساقاة ٢٣٧١، ومسلم في الزكاة ٩٨٧، والنسائي في الخيل ٣٥٦٣، والترمذي في =

والناظر في أحوال الناس اليوم يرى أن كثيرًا ممن يقتنون الخيول يقتنونها للرياء والمفاخرة.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ هذا هو المقسم عليه.

فأقسم الله عز وجل بالخيل حين تعدو وتغير في سبيل الله على ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ اللام للتوكيد، أي: لجحود كفور، والمراد بالإنسان جنس الإنسان من حيث هو.

ومعنى الآية يحتمل الجحود والكفر المخرج من الملة، ويحتمل كفر النعم، التي قل من يشكرها، كما قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: وإن الله عز وجل ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾، أي: على ما يحصل من الإنسان من الكفر والجحود لنعم الله.

﴿لَشَهِيدٌ﴾، أي: شاهد مطلع؛ لأنه عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ [يونس: ٤٦].

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ إلى الإنسان، أي: وإن الإنسان على كفره وجحوده لشهيد يشهد على نفسه بلسان حاله، لظهور ذلك عليه في أقواله وأفعاله وعلى جوارحه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ هذا يقوي أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يعود إلى الإنسان.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: لحب المال، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ

=

فضائل الجهاد ١٦٣٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٨.

عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: إن ترك مالًا.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، أي: شديد المحبة للمال، حريص عليه، بخيل به ممسك له. قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويعتلي عقيلة مال الفاحش المتشدد(١)

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ الهمزة: للاستفهام، ومعناه التحضيض.

أي: أفلا يعلم الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾، أي: بعث الذي في القبور من الأموات وأخرج ونشر للحساب والجزاء.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، أي: مُيِّز وجمع الذي في الصدور من الأسرار والمكنونات، وأبرز وأظهر، خيرًا كان أو شرًا، فصار السر علانية والباطن ظاهرًا.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩].

فصار الجسم بارزًا على الأرض والسر باديًا على الوجه كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [القلم: ١٦].

فياخيبة قلوب حصيلتها الكفر والتكذيب والنفاق، وواأسفا على قلوب مليئة بالضغائن والأحقاد، وسوء الظن والحسد للعباد.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ اللام للتوكيد، والخبير: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها، وخفياتها، وهو عز وجل مطلع من باب أولى على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها.

وفي إضافة اسم «الرب»- عز وجل- إلى ضميرهم في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ إشارة إلى كمال وتمام خبرته عز وجل بهم؛ لأنه ربهم؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم.

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤].

وهو سبحانه وتعالى خبير بالعباد في جميع الأوقات والأماكن والأحوال في الدنيا والآخرة، لا تخفى عليه منهم خافية، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وإنما قال عز وجل في الآية ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ فخص خبره بهم في ذلك اليوم- مع أنه خبير بهم في كل وقت؛ لظهور تمام وكمال خبرته عز وجل في ذلك اليوم عندما تعرض على الخلق أعمالهم، كمثاقيل الذر؛ لمجازاتهم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وعد ووعيد، وعد لمن آمن وعمل صالحًا، ووعيد لمن كفر بالله وجحد نعمه.

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله- عز وجل- بالخيل حال عدوها في سبيل الله، وضبحها وقدح حوافرها، وإغارتها صباحًا، وإثارتها للغبار وسط المعركة- ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

٢- عظم مكانة الجهاد في الإسلام، وفضل الخيل وأهميتها في الجهاد.

٣- استحباب الإغارة على الأعداء في الجهاد صباحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾.

٥- جحود الإنسان وكفره بربه وبنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

٦- وجوب الإيمان بالله، والاعتراف بنعمه- عز وجل- وشكرها والحذر من جحودها وكفرها.

٧- أن الإنسان شهيد بلسان مقاله أو حاله على كفره بربه وجحوده لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، والله مطلع عليه وهو خير الشاهدين.

٨- أن الإنسان مجبول على حب المال، فينبغي الحذر من الانسياق وراءه ونسيان الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

٩- إثبات البعث والحساب وإخراج ما في القبور من الأموات والكنوز، وما في الصدور من المكنونات؛ لقوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

١٠- وجوب العمل على إصلاح القلوب، وسلامة الصدور، قبل أن تفتضح بإظهار ما فيها من الفساد، وسوء الاعتقاد، والضغائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

١١- ظهور كمال علم الله عز وجل ودقيق خبرته للخلائق إذا أخرج ما في القبور من الأموات والدفائن، وجمع وأظهر ما في الصدور من المعتقدات والمكنونات والضغائن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْقَارِعَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة القارعة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- ذكر أهوال القيامة وشدتها.

٢- وعد من ثقلت موازينه بالعيشة الراضية، ووعيد من خفت موازينه بالنار الحامية.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾.

قوله: ﴿الْقَارِعَةُ﴾، أي: القيامة، وسميت القيامة بالقارعة؛ لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وتفزع الناس وتزعجهم بشدائدها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل: ٨٧].

﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ «ما» للاستفهام، ومعناه: التعظيم والتفخيم لأمرها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾: تعظيم لأمرها بعد تعظيم، أي: وما أعلمك ما القارعة، أمرها عظيم، وهولها جسيم، وعذابها شديد، وخبرها أكيد.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ هذا وما بعده تفسير للقارعة، فيه بيان شيء من أهوالها وأحوالها، أي: يوم يكون الناس من شدة الهول والفزع والتفرق والانتشار والحيرة والذهول.

﴿كَالْفَرَاشِ﴾ الفراش: جمع فراشة، وهي الحيوانات الصغيرة الطائرة، التي يموج بعضها في بعض، لا تدري أين تذهب، وتتهافت في الليل على الأنوار والمصابيح وعلى النار؛ لضعف إدراكها. وسميت بالفراش؛ لافتراشها وانتشارها.

﴿الْمَبْثُوثِ﴾: المتفرق المنتشر، والذي يتطاير هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧].

فتأمل أخي المسلم حال الناس في ذلك الموقف الرهيب، وحيرتهم وذهولهم، وهم أهل العقول والأذهان وتأمل حالك بينهم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾، أي: وتكون الجبال الصم الصلاب الراسيات كالصوف المنفوش المبعثر الذي لخفته وتمزقه تطير به أدنى ريح، فالجبال في

ذلك اليوم في سرعة سيرها وخفتها وتفتتها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ الآيات.

بعد أن ذكر عز وجل بعض أهوال القيامة، وحال الناس فيها، ذكر انقسام الناس فيها إلى قسمين حسب أعمالهم:

قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الفاء: استئنافية، و«أما»: حرف شرط وتفصيل و«من» موصولة.

أي: فأما الذي ثقلت موازين أعماله الصالحة ورجحت حسناته على سيئاته.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، أي: في عيشة كريمة في الجنة يرضاها لنفسه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ فرجحت سيئاته على حسناته، بأن طاشت موازين أعماله الصالحة، فرجحت سيئاته على حسناته أو لم تكن له حسنات أصلًا كالكافر.

﴿فَأُمُّهُۥ﴾، أي: فمرجعه ومصيره ومأواه الذي يأوي إليه لا مأوى له سواه.

﴿هَاوِيَةٌ﴾، أي: نار عمقها شديد، وقعرها بعيد، يهوي المعذب فيها على أم رأسه في دركاتها لا يكاد يدرك قعرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا»؟، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهى إلى قعرها»(١).

وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٤.

المشرق والمغرب»[١].

وفي رواية: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى أن تبلغ ما بلغت يهوي بها سبعين خريفًا في النار»[٢].

وعن الأشعث بن عبد الله الأعمى، قال: «إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: رَوِّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا، قال: ويسألونه، ما فعل فلان؟، فيقول: مات، أوما جاءكم؟، فيقولون: ذهبوا به إلى أمه الهاوية»[٣].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾: تعظيم لأمرها وهولها وخطرها، أي: وما أعلمك ما هي والهاء: للسكت.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾، أي: هي نار شديدة الحرارة لقوة لهبها وسعيرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ناركم التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟، فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرها»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فائذن لي بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها»[٥].

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال القيامة، وأنها تقرع القلوب بأهوالها، وأن أمرها عظيم وخطبها

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣١٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٠، وأحمد ٢/ ٢٩٧، ٣٣٤، ٣٥٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي «حسن غريب».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق- صفة النار وأنها مخلوقة ٣٢٦٥، ومسلم في الجنة- شدة حر نار جهنم ٢٨٤٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٨٩، وأحمد ٢/ ٢٤٤، ٤٦٧.

(٥) أخرجه البخاري في الباب السابق ٣٢٦٠، ومسلم في المساجد ٦١٧، وأبو داود في الصلاة ٤٠٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٢، وابن ماجه في الصلاة ٦٧٨.

جسيم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.

٢- اضطراب الناس في ذلك اليوم وتفرقهم وحيرتهم لما يشاهدون من أهوال القيامة، وخوفًا من عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

٣- تغير أحوال الجبال الراسيات مع عظمتها من أهوال ذلك اليوم، وكونها في الخفة كالصوف المنفوش تمهيدًا لدكها ونسفها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: فريق ثقلت موازين حسناتهم فهم في عيشة راضية في الجنة، وفريق خفت موازين حسناتهم فمآلهم النار الحامية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

٥- إثبات وزن الأعمال، والعدل بين الناس في حسابهم ومجازاتهم على قدر أعمالهم.

٦- الترغيب في الاستزادة من الحسنات، والترهيب من كثرة السيئات.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلتَّكَاثُرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة التكاثر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.
وتسمى: «سورة ألهاكم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- التحذير من التكاثر بالأموال والأولاد وغير ذلك من أمور الدنيا والتهديد والوعيد لمن التهى بذلك عن العمل الصالح.

٢- تأكيد رؤية النار يوم القيامة، والمساءلة والحساب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

قال ابن القيم(١): «أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها».

قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف من جميع الناس فكل من ألهاه التكاثر من المسلمين وغيرهم فهو داخل تحت هذا الخطاب.

أي: شغلكم وأذهلكم التكاثر عن طاعة الله عز وجل وعبادته، وعن المقصود من خلقكم، وهو عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

والتكاثر: تفاعل من الكثرة، أي: ألهاكم مكاثرة بعضكم لبعض، أي: طلب كل واحد منكم أن يكون أكثر من الآخر بالمال والولد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وحذف متعلق التكاثر؛ ليشمل كل ما يُتكاثر به سوى طاعة الله تعالى من الأموال والأولاد والأنصار والجنود والعدد والعدة والعتاد وغير ذلك، كما قال تعالى عن صاحب الجنة أنه قال لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

قال ابن القيم(١): «فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومنافسة إليها».

وإذا كانت المكاثرة فيما يتقرب به إلى الله تعالى كالعلم ونحوه لأجل المكاثرة نفسها

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٠٧- ٣٠٨.

والرياء والسمعة والمفاخرة فإن هذا أشد خطرًا وأعظم ضررًا.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، أي: إلى غاية أن متم ودفنتم في المقابر، وكلما شاب الإنسان ازداد حبه للمال والمكاثرة به.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يزوره، فقال: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فقال: قلت: طهور؟، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال: «فنعم إذًا»(١).

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾» يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يشيب ابن آدم وتبقى معه اثنتان: حب الدنيا، وطول الأمل»(٤).

وفي حديث أنس «ويبقى معه اثنتان حب المال، وطول العمر»(٥).

وفي رواية: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»(٦).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٧٠، وأحمد ٣/ ٢٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ ٣٣٥٤، وأحمد ٤/ ٢٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٥٩، وأحمد ٢/ ٣٦٨، ٤١٢.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٤٧، والترمذي في الزهد ٢٣٣٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٤.

(٦) أخرجها أحمد ٣/ ١١٥.

عمله»(١).

وعن أنس بن مالك عن أبي بن كعب رضي الله عنهما قال: «كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن «لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» حتى نزلت هذه السورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها»(٢).

وعن ميمون بن مهران قال: «كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فلبث هنيهة، فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله، أي: من جنة أو نار».

ورُويَ أن بعض الأعراب سمع رجلًا يتلو هذه الآية ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال: «بُعث القوم ورب الكعبة، أي: أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره»(٣).

فالمكث في القبور وإن طال هو مجرد زيارة، والمصير والمآل إلى دار القرار، إما في الجنة، وإما في النار.

وبهذا يعلم خطأ ما يكتب في الصحف والجرائد والمجلات وغيرها عن المتوفى من قولهم «انتقل إلى مثواه الأخير» فإن المكث في القبور مجرد زيارة وإنما المثوى الأخير في الآخرة إما في الجنة وإما في النار.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ردع وزجر ووعيد وتهديد، وإنذار وتخويف، أي: كلا سوف تعلمون في المستقبل.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: توكيد للردع والوعيد، كقوله تعالى في سورة النبأ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [الآيتان: ٤، ٥].

أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم، وأن التكاثر لا ينفعكم.

وقيل: ليس هذا من التأكيد، بل العلم الأول في القبر، والثاني في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٤، ومسلم في الزهد ٢٩٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٥٩٩.

(٣) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٤٥٩- ٣٥٦٠.

وقيل: العلم الأول عند المعاينة والثاني عند البعث.

وقيل: العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر.

واستدل ابن القيم لصحة هذا القول من عدة أوجه قال(١): «أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العِلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين، زمانًا وخطرًا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علمًا يقينًا هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده، من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى، وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى، وتراخي الثانية عنها».

والآية محتملة كل ما ذكر والله أعلم.

﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر والتهديد.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، أي: لو تعلمون علم اليقين في الحال.

أي: العلم اليقيني الذي يحملكم على العمل، ولا يتخلف موجبه غالبًا، فلو علمتم ذلك علمًا يقينيًا لما ألهاكم شيء عن موجبه، وهو تقديم طاعة الله تعالى على كل شيء، ومن هذا قول حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر(٢):

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٠٩- ٣١٢.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٦٦٤، «السيرة النبوية» لابن كثير ٢/ ٤٥٤، «البداية والنهاية» ٣/ ٣٦٠.

سرنـا وسـاروا إلى بـدر لحـتفهم لـو يعلمـون يقـين العلـم مـا سـاروا

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ اللام واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لترون الجحيم قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء: «لترُون»، وقرأ الباقون بفتحها.

وهذا تفسير للوعيد المتقدم في قوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وأبهم المتوعد به أولًا وكرره، ثم أظهره هنا تفخيمًا وتعظيمًا للأمر، وتغليظًا في التهديد والوعيد، وزيادة في التهويل.

واللام في قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾: لام قسم محذوف، لتوكيد الوعيد، والتقدير: والله لترون الجحيم، أي: لتشاهدنها بأبصاركم.

قال ابن تيمية[1]: «والخبر محذوف، أي: لكان الأمر فوق الوصف، ولعلمتم أمرًا عظيمًا، ولألهاكم عن إلهكم، فإن الالتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

ومثل قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[2]».

وحذف جواب «لو» كثير في القرآن تعظيمًا وتفخيمًا، فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ، إذ المخبر ليس كالمعاين».

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، أي: نفس اليقين، معاينة بعيونكم، ومشاهدة بأبصاركم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها...» الحديث[3].

فعلم اليقين يدل عليه الدليل الصحيح المتواتر، وعين اليقين: الرؤية بالعين، وليس

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٢١، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٩، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٧٣.

الخبر كالمعاينة- كما قال ﷺ[١].

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهو- عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- عنده العلم اليقيني بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى.

لكنه أراد زيادة اليقين والاطمئنان القلبي باجتماع عين اليقين إلى علم اليقين.

ولهذا قال نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[٢].

يعني أن إبراهيم عليه السلام لم يشك ولو شك لكنا أولى بالشك منه.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ ثم: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، والتقدير: ثم والله لتسألن.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، بعد زيارتكم المقابر، والخطاب لجميع الناس، فالمؤمن يسأل سؤال تذكير، والكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع.

﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: عن كل ما أنعم الله به عليكم، مما تتنعمون به في هذه الدنيا من اللذات ورغد وطيب العيش ولينه، من المآكل والمشارب والمساكن والمراكب والفرش والملابس، ومن الأمن في الأوطان والصحة في الأبدان.

كما قال ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٣].

يُسألون عن كل ما هم فيه من النعيم، من أين اكتسبوه، وفيم صرفوه وبذلوه، وهل شكروا الله تعالى عليه، واستعانوا به على طاعته أم جحدوه وكفروه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع، يا رسول

---

(١) أخرجه أحمد ١ / ٢١٥، ٢٧١- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٢، ومسلم في الإيمان ١٥١- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١- من حديث سلمة بن عبد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه وقال الترمذي «حسن غريب».

الله، قال: «والذي نفسي بيده، لا أخرجني إلا الذي أخرجكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟، قالت: ذهب يستعذب لنا ماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أجد اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(٣).

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه، قال: «لما نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء؟، قال أما إنه سيكون»(٤).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه نحوه، وقال: «إنما هو الأسودان، وسيوفنا على عواتقنا، فقال: «إن ذلك سيكون»(٥).

أي: إن النعيم سيكون ويحدث لكم، أو إن السؤال يقع على ذلك، وإن كان تمرًا

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٣٨ وابن ماجه في الذبائح ٣١٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٦. وأخرج الترمذي أيضًا نحوه من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠، وأحمد ١/ ٢٥٨، ٣٤٤.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٦ وقال «حديث غريب».

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٥٧.

وماءً، فإنه من النعيم.

فتأمل أخي الكريم هذه النصوص واعلم أن الله عز وجل لم يكلفنا شططا، بل أمرنا بالتوسط في فقاتنا؛ وفي جميع أحوالنا، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة»(١).

واعلم أيضًا: أن الدنيا والآخرة أشبه بالضرتين فمن مال إلى إحداهما أضر بالأخرى لا محالة وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(٢).

والمراد بالهلاك في قوله ﷺ: «فتهلككم» الهلاك الحقيقي، وهو نسيان لقاء الله تعالى والدار الآخرة، وهو الخسارة الكبرى، والمصيبة العظمى، وذلك؛ لعظم فتنة المال، فهو سبب للإخلال بالواجبات، والتي من أعظمها الصلاة فيحمل على الانشغال عنها وتأخيرها ونسيانها، وعدم حضور القلب، فيها كما يحمل صاحبه على التكبر والطغيان كما قال عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقد يحمل صاحبه على الجرأة على التعامل المحرم، ومنع الواجب، إضافة إلى ما يسببه من صدمات وأمراض نفسية وبدنية وفقدان للسعادة، فإن صاحب المال في تعب في النهار، وقلق وتفكير في الليل. فالانهماك في طلب المال والدنيا سبب للتقصير في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في اللباس ٣٦٠٥، وأحمد ٢/ ١٨١- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه، وذكره البخاري معلقًا في اللباس- باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ انظر «فتح الباري» ١٠/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٥٨، ومسلم في الزهد ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

حقوق الخالق وفي حقوق الخلق، والشقاء في الدنيا والآخرة.

واعلم أن للتكاثر صورًا كثيرة منها بل من أعظمها وأظهرها:

أن يسعى الإنسان جاهدًا؛ ليكون أكثر من غيره وأفضل في ماله وولده ومنصبه وجاهه ومسكنه ومركبه وغير ذلك من أمور الدنيا مباهاة ومفاخرة، ومنافسة في زخرف الدنيا وحطامها الفاني.

ومنها: أن يكون هم الإنسان وشغله الشاغل وتفكيره في يقظته ومنامه زيادة رصيده في البنك، فتراه يلهث طول يومه لتحقيق ذلك بشتى الوسائل، وربما وقع في المتشابه أو المحرم من أجل ذلك، ومن تأمل أحوال الناس رأى هذا عيانًا.

ومنها: أن يكون همّ الإنسان التمتع بأكبر قدر من متع الدنيا ولذائذها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك- كأنه خلق لهذا- فتجده يسعى جاهدًا في اختيار أنواع الأكلات، والتفنن في أشكال الطبخات والمشويات ونحو ذلك. نظرية من يعيش ليأكل، لا من يأكل ليعيش.

وقد قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه»(١).

قال أبو الفتح البستي(٢):

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... لتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وتجد من هذا همه ومبلغ علمه يسعى جاهدًا في تشييد المباني وزخرفتها في هذا العمر الزهيد، وكأنه سيخلد في الدنيا، أو سيعمر فيها عمر نوح عليه السلام.

وتجده يسعى دائمًا لتأمين الكماليات، ومتابعة الموديلات والموضات في السيارات والملابس والأثاث وغير ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٩- من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٣٦.

وقد نام ﷺ على حصير فأثر في جنبه صلوات الله وسلامه عليه، فقال له أصحابه رضي الله عنهم: لو اتخذنا لك وطاءً فقال ﷺ: «ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

وتجد أيضًا من كان هذا همه مشغوفًا بالأسفار والتنقلات وتزجية أوقات العمر هنا وهناك، بل ربما سافر إلى بلاد الكفار، ترويحًا عن النفس كما يقولون، وبحثًا عن السعادة كما يزعمون.

فإهدار للأموال، وتضييع للأعمار، وتعرض للأخطار، واقتراف للأوزار- نسأل الله تعالى إصلاح الأحوال.

فكن أخي الكريم من الدنيا على وجل، واعبرها ولا تعمرها عمارة المقيم، وتوازن في جميع أمورك وأحوالك، واحرص على حفظ وقتك، وساعات عمرك، واستعد لما أمامك، واعلم أن السعادة كل السعادة في طاعة الله تعالى، ولا تنس نصيبك من الدنيا، قال الله عز وجل ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

واعلم بارك الله فيك أنك لا تلام على كفاف، كما قال ﷺ(٢).

فخذ نصيبك من الدنيا زادًا وبلغة، وكن خائفًا من فتنتها أشد من خوفك من الفقر، عسى أن تسلم من فتنتها وما إخالك سالما.

واحرص على شكر نعم الله عز وجل باستعمالها في طاعته ومرضاته والاعتراف له بها ظاهرًا وباطنًا، وعدم الإسراف والمباهاة والمفاخرة فيها، فإن الفضل لله عز وجل ولا يجوز تقليد الآخرين، ومجاراتهم في البذخ والإسراف في الولائم، بل ولا في الحياة اليومية إرضاءً للسفهاء، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس كما جاء في الحديث(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٣٦ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

والعجيب أن بعض الناس إذا قدّم الطعام لضيوفه قال لهم معتذرًا: هذا ليس حقكم، أو ليس قدركم، ونحو ذلك، بمعنى: أن حقكم علينا أكبر من هذا، وهذا لا يجوز لما فيه من ازدراء النعمة وانتقاصها، بل ينبغي أن يقدم لهم ما تيسر، ويحمد الله على ذلك.

واحذر أخي الكريم من إهانة النعم، واقتصد فيها، واعلم أن هناك الملايين من المسلمين يموتون جوعًا، وهم في أمس الحاجة إلى الطعام وغيره من متطلبات الحياة، فتصدق عليهم بما زاد عندك، وخذ نفسك وأهلك بالمحاسبة، ومعرفة قدر نعم الله عليك، واعلم أن الفخر كل الفخر، والكرم كل الكرم بتقوى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

واحرص على الحفاظ على ما يتبقى من فضول الطعام وغيره واحترامه بإعطائه المحتاجين أو الجهات الخيرية التي توصله إليهم، فإن كان باقي الطعام لا يصلح للإنسان أكله فليعط للحيوانات والطيور، فإن لم يمكن ذلك، فليوضع في مكان نظيف تأكله السباع والهوام وغيرها.

ولنحذر جميعًا من وضعه في صناديق الزبالة مع القذر والأذى، فإن ذلك سبب للعقوبة العاجلة والآجلة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالنعم صيد والشكر قيد، والنعم إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت فرّت، قال علي رضي الله عنه(١):

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بتقوى الإله ... فإن الإله سريع النقم

الفوائد والأحكام:

١- التحذير من التكاثر والمباهاة والمفاخرة بالأموال والأولاد وغير ذلك، والانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى، وعن الاستعداد للدار الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

---

(١) انظر «ديوانه» ص١٧٥- ١٧٦ جمع نعيم زرزوره. وقد نسبا لأبي العتاهية. انظر: «الدر الفريد» ٢/ ٣٩٥.

٢- أن من حصلت عنده الكثرة من غير مكاثرة ولم تشغله عن طاعة الله تعالى، بل استعان بها على ذلك فليس داخلًا في الذم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ثم رتب عليه ما رتب من الوعيد.

وقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم من أكثر الناس مالًا، وما ضرهم ذلك لما جعلوا المال مطية للآخرة، فقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة: ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، حتى قال النبي ﷺ فيه: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم»(١).

وقد قال ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»(٢).

٣- الإشارة إلى حقارة الدنيا وما فيها من الملذات على اختلاف أشكالها، وأن الاشتغال بالمكاثرة بذلك من اللهو واللعب، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

٤- الإشارة إلى أن الاقتصاد والتوسط في الأمور والأحوال الدنيوية هو الأصل وهو الأولى؛ لأن الخروج عن ذلك قد يؤدي بالإنسان إلى ما لا ينبغي من المكاثرة ونحو ذلك.

٥- أن المكاثرة بما يعود على الإنسان بالنفع في دينه وآخرته ليست من التكاثر المذموم بل من المسابقة والمسارعة إلى الخيرات والمنافسة فيها، كما قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد تسابق أبو بكر الصديق والفاروق- رضي الله عنهما لما دعا النبي ﷺ إلى الصدقة، فجاء عمر بنصف ماله وظن أنه يسبق أبا بكر، وإذا أبو بكر قد جاء بكل

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٠١- من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢.

ماله- رضي الله عنهما، فقال عمر: «والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا»(١).

٦- إعجاز القرآن الغيبي حيث أخبر بهذا الخطاب العام للناس بأنه ألهاهم التكاثر وهذا هو الواقع فعلًا في السابق واللاحق، إلا من رحم الله، وفي هذا الإشارة إلى عدم الاغترار بما عليه كثير من الناس من التكاثر وغيره، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

٧- إثبات القبر وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾.

٨- إثبات البعث بعد الموت والقيامة، وما فيها من الأهوال، ورؤية النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ فهذا يدل على أن الإقامة في البرزخ وفي المقابر زيارة فقط ثم يبعث الناس ويردون إلى الدار الآخرة دار القرار.

٩- الزجر والردع والوعيد الشديد، والتهديد الأكيد بالجحيم لمن ألهاه التكاثر عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾.

١٠- العلم اليقيني برؤية النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

١١- أن من ألهاه التكاثر عن طاعة الله وما خلق له فعلمه اليقيني برؤية النار ضعيف إذ لو اكتمل عنده علم اليقين برؤيتها ما ألهاه التكاثر عما خلق له؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾.

١٢- اجتماع عين اليقين إلى علم اليقين في رؤية النار في الآخرة، فعلم اليقين بأن رؤيتها حاصلة بل وورودها دل عليه القرآن والسنة، وفي عرصات القيامة ترى عيانًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾.

١٣- إثبات الحساب، والسؤال عن النعم التي أنعم الله بها على العبد في الدنيا،

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥، والدارمي في الزكاة ١٦٦٠- من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه.

وهل شكرها أو كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

١٤- وجوب أخذ النعم من طرق حلال، وصرفها في وجوهها في الطرق الحلال.

١٥- وجوب شكر نعم الله تعالى في استعمالها في طاعته والبعد عن معصيته، وأداء حق الله فيها، واحترامها وعدم إهانتها، وعدم الإسراف فيها، وكفرها.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْعَصْرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة العصر»؛ لإقسامه عز وجل به في مطلعها بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-فضلها:

قال ابن كثير[١]: «ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ، وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وماهي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: «يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر».

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب»[٢].

وقال الشافعي رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»[٣].

د- موضوعاتها:

١- بيان وتأكيد خسارة كل إنسان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

* * *

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٤٩٩.

(٢) قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر: «والوبر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان».

(٣) انظر «مفتاح دار السعادة» ص٦١، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٩٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، الواو: حرف قسم وجر، و﴿وَالْعَصْرِ﴾: مقسم به. والعصر: هو الزمان والدهر، وهو الأيام والليالي، كما قيل:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما (١)

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: جواب القسم. والمراد بالإنسان: جنس الإنسان.

والخسر: ضد الربح، أي: إن الإنسان جنس الإنسان من حيث هو لفي خسران ونقصان وهلاك.

قال ابن القيم(٢): «الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه، ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به».

وإقسامه عز وجل بالزمن بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ وكذا في مواضع عدة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ١- ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:١-٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١- ٢].

كل ذلك للدلالة على أهمية الوقت؛ لأنه عمر الإنسان، ووقت العمل الصالح الذي به النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهو الذي سيحاسَب عنه العبد، ويسأل عنه يوم القيامة، كما قال ﷺ: «لا تزول

---

(١) البيت لحميد بن ثور الهلالي وهو في ديوانه ص ٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٩.

قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»(١).

وهو مما أقام الله به الحجة على الخلق، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وفي الحديث: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة»(٢).

وهو أغلى وأنفس ما أعطاه الله للعبد وأمره بحفظه.

قال الشاعر:

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع(٣)

وقال الآخر:

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان(٤)

وهو عمر الإنسان الذي بذهابه ذهاب المرء كما قيل:

يسر المرء ما ذهب الليالي ... وكان ذهابهن له ذهابا(٥)

وكما قيل:

المرء يفرح بالأيام يقطعها ... وكل يوم يُدَنِّيه إلى الأجل(٦)

وإقسامه عز وجل بالعصر على أن الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بالصفات المذكورة يعد إشارة إلى أن الخسارة الحقيقية هي الخسارة في الدين، فهي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا يجبر.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٧- من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال: «حديث حسن صحيح». وأخرجه أيضًا: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٤١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت للوزير الصاحبي يحيى بن هبيرة. انظر (الذيل لطبقات الحنابلة) ٤/ ٢٣٦.

(٤) البيت للشاعر أحمد شوقي، وهو ضمن قصيدته في رثاء مصطفى كامل باشا، وهو في ديوانه «الشوقيات» ٣/ ١٥٨.

(٥) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/ ١٠٥، «شرح الشواهد الشعرية» ١/ ١٠٢.

(٦) انظر: «البصائر والذخائر» ٥/ ١٠٢، «زهر الآداب» ١/ ٣٦٧.

كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالمصيبة العظمى والخسار الذي لا خسار بعده أن يصاب الإنسان في دينه، فيموت على الكفر أو على المعاصي، كما قال تعالى عن أبي لهب ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي خسرت يداه وخسر فعلًا. نسأل الله السلامة.

فليست المصيبة- أن يصاب الإنسان بالخسارة في ماله أو في نفسه أو في أهله أو ولده، أو قريبه أو صديقه سواء بمرض أو موت أو غير ذلك، وهذا- وإن كان كله يسمى مصيبة- لكن المصيبة العظمى هي المصيبة في الدين وكما قيل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران(١)

وهي التهلكة والهلاك. فإن الأنصار رضي الله عنهم لما أعز الله الإسلام قال بعضهم لبعض: لو رجعنا لإصلاح أموالنا ومزارعنا، كأنهم أرادوا ترك الجهاد، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥](٢).

وقال ﷺ: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»(٣).

وقد فهم هذا المعنى سلف هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم من ذوي البصيرة في الدين، فنأوا بأنفسهم عن المعاصي، وها هو سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه يأتي فزعًا مرعوبًا إلى رسول الله ﷺ قائلًا: «يا رسول الله هلكت وأهلكت». قال له رسول الله: «ما أهلكك؟» قال: يا رسول وقعت على امرأتي وأنا صائم..» الحديث(٤).

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» ص٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد- قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، ٢٥١٢، والترمذي في التفسير ٢٩٧٢، وابن ماجه ٤٧١١، والحاكم ٢/ ٨٤، ٢٧٥- من حديث أبي أيوب. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر ١٩٣٦، ومسلم في الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ١١١١، وأبوداود في الصوم =

فقد أحسّ رضي الله عنه بعظم المعصية وسوء عاقبتها وجاء تائبًا يسأل عن المخرج منها.

قولـه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «إلا»: أداة استثناء فاستثنى عز وجل من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، وحذف الموصوف، وهي: «الأعمال»، واكتفى بالصفة وهي: «الصالحات»؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا.

والعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

يدل على هذين الشرطين أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فمما يدل على وجوب الإخلاص لله تعالى من الكتاب قولـه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

ومن السنة قولـه تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(١).

ومما يدل على وجوب متابعة الرسول ﷺ من الكتاب، قولـه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

ومن السنة قولـه ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢).

ويجمع الدلالة على الشرطين قولـه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينًا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع الرسول ﷺ.

=

٢٣٩٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبوداود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، قال ابن القيم(١): «إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٣٢]. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾، «الحق»: هو الأمر الثابت الذي لا يسوغ انكاره مما جاء في الكتاب والسنة، أي: أوصى بعضهم بعضًا بلزوم الحق والتمسك به؛ قولًا وفعلًا واعتقادًا، فعلًا للطاعات، وتركًا للمنهيات.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر.والصبر في اللغة: الحبس والمنع. وهو: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله. وأقسامه ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

وأعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله. ثم الصبر على أقدار الله.

قال ابن القيم(٢): «والصبر نوعان: نوع على المقدور كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضًا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار.

قال النبي ﷺ في حق ابنته «مرها فلتصبر ولتحتسب»(٣)، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور، وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خفّ واستخف، فالمؤمن الصابر رزين؛ لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الريح بالشيء الخفيف، والله

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٣٠- ٣٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

المستعان».

وقال ابن القيم أيضًا[١] بعد ما ذكر قول الشافعي: «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم». قال: «وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله، إحداها: معرفة الحق، الثانية: عمله به، الثالثة: تعليمه من لا يحسنه، الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق، ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذه نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملًا في نفسه مكملًا لغيره، وكماله بإصلاح قُوَّتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هاديًا إلى كل خير».

الفوائد والأحكام:

١- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ وذلك لأن إقسامه عز وجل بما خلق يدل على عظمته هو، فكأنه عز وجل يقول: أقسم بما خلقت. أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله؛ لأن القسم تعظيم للمقسم به، ولا يجوز ذلك إلا لله. قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[٢]. وقال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»[٣].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه أبوداود في الأيمان والنذور ٣٢٥١، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٥- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان ٦/ ٢٧٨، والحاكم ١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧ ووافقه الذهبي، وانظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٧٩، ومسلم في الإيمان ١٦٤٦ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، =

٢- الإشارة إلى ما في العصر وهو الوقت من العبرة والآية، فإن مرور الليالي والأيام والشهور والأعوام وجريان الأفلاك وتعاقب الفصول من أعظم الآيات الكونية، كما أن في ذلك دلالة على أهمية العصر وهو الوقت في حياة الإنسان؛ لأن الله عز وجل أقسم به للدلالة والتنبيه على أهميته ووجوب الحفاظ عليه واستغلاله، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ١٢].

٣- أن كل إنسان خاسر إلا من اتصف بالصفات الأربع المذكورة في السورة لأن الله أقسم بالعصر، إن الإنسان لفي خسر، واستثنى من ذلك من اتصف بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

٤- أن حقيقة الخسران أن يصاب الإنسان في دينه لأن الصفات الأربع المذكورة كلها مما يتعلق بالدين.

٥- أن حقيقة الربح والفوز أن يسلم للإنسان دينه؛ فكل خسارة أو مصيبة دون ذلك تهون؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الفتنة في الدين.

٦- وجوب الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٧- لابد من الإيمان بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٨- أن من شرط قبول العمل أن يكون صالحًا، أي: يتوفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

٩- وجوب التواصي بلزوم الحق والأخذ به، والتعاون والتناصح في ذلك؛ لقوله

=

وأخرجه مسلم ١٦٤٨ من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾.

١٠- أنه لا يكفي مجرد الإيمان والعمل الصالح بالنفس فقط دون وصية الآخرين به وحثهم عليه، والتناصح في ذلك والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

١١- وجوب الصبر، والتواصي به؛ صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، لقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

١٢- أن من لازم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق: التواصي بالصبر. فلا يتم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق إلا بالتواصي بالصبر بأنواعه الثلاثة.

فلا يستقيم دين الإنسان إلا بالصبر. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»[١].

وهو نصف الإيمان[٢]؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال ﷺ: «ما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[٣].

قال ابن القيم[٤] «فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما. كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وآثاره ودفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل إلى سبيل الرشاد».

١٣- أن الرابحين حقًا من جمعوا بين الصفات الأربع المذكورة، وهي الإيمان

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٢) أخرج أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «شعب الإيمان»: «أن الصبر نصف الإيمان» انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٥١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٠، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٧.

والعمل الصالح والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فكل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات.

قال ابن القيم(١): «وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان، وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًا تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمره غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين».

وقفة تأمل:

أخي المسلم: قف عند كل آية من آيات هذه السورة العظيمة بل عند كل كلمة منها، بل عند كل حرف وتأمل فيها.

تأمل وتفكر، لماذا أقسم المولى عز وجل بالعصر؟ وما هو العصر؟ وما حقيقة الخسارة؟ وما حقيقة الربح؟

واعلم أن الله عز وجل أقسم بالعصر تنبيها وتذكيرًا وإشارة ودلالة على أهمية العصر وعظيم قيمته ووجوب حفظه، والعصر هو الزمن، وهو عمر الإنسان، الذي لا يقدر بثمن عند من عرف أن الأمر جد، ليس بالهزل كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(٢)

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٣)

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٢٩.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٣) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

وعند من عرف قدر الحياة، وأنها ميدان التنافس والتسابق والمسارعة للأعمال الصالحة التي فيها السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ونعمت المسابقة والمسارعة والمنافسة والله المستعان.

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدماً ... ولم يتقدم من أراد تأخرا (١)

أخي في الله لا يغرك ما عليه كثير من الناس من المنافسة على أمور الدنيا الفانية، والزهد فيما دعاهم الله إليه من المنافسة والمسارعة والمسابقة فيما فيه سعادة الدارين من الأعمال الصالحة، وتأمل قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾ [ص: ٢٤].

قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٢).

فخذ أخي في الله نفسك بالجد والمنافسة والمسابقة والمسارعة في الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا، واعلم أن الغبطة حقًا في العمل الصالح، الذي هو صمام الأمان

---

(١) هذان البيتان لابن هانئ، انظر «ديوانه» ص١٤٠.

(٢) سبق تخريجه.

وسر السعادة في الدنيا والآخرة، فاجعل منافستك في ذلك.

قال بعض السلف: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»(١).

كن سباقًا إلى المساجد، وإلى أداء الواجبات؛ من حقوق الله وحقوق الخلق، كن ورعًا مبتعدًا عن محارم الله. وإذا رأيت من ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة.

واعلم وفقك الله أن الغبن في هذا ليس باليسير، بل لا يكاد يوصف، وفرق ما بين الثرى والثريا. وكما قيل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرسٌ تحتك أم حمار(٢)

واعلم أن الخسارة في هذا لا تشبهها خسارة، فالخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، والكسر الذي لا يمكن جبره أن يصاب الإنسان في دينه فيخسر دنياه وآخرته ونفسه وأهله وولده وماله وكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

واعلم أن الربح في هذا لا يقدر ولا يحد، بل هو سعادة الدنيا والآخرة- نسأل الله تعالى من فضله التوفيق للإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فهذا غاية الربح، وهذا تمام النعمة الذي عناه الله عز وجل بقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وبقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وهو طريق الذين أنعم الله عليهم النعمة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وهو الهداية المنشودة لعباد الله بقولهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فقف أخي- بارك الله فيك- على مفترق هذين الطريقين وتأمل ببصيرة وحضور

---

(١) انظر: «المصنف» لابن أبي شيبة ٧/ ١٨٨ (٣٥٢٠٣)، «الزهد» لأحمد ص١٧٦ (١٢١٥)، «الزهد» لابن أبي الدنيا ص٢٢٩.

(٢) انظر: «الأمثال المولدة» ص٣٢٤، «مجمع الأمثال» ١/ ٣٤٤.

قلب، وقارن وقلّب الفكر والنظر عسى أن يظهر لك ويتبين البون الشاسع والفرق الواسع فتجتنب طريق أهل الخسران، وتلزم طريق أهل الربح والسعادة والإنعام وما أراك تعدل به طريقا وفقك الله.

واعلم- أخي الكريم- أن الربح والسعادة مطلب لكل أحد، فكل يسعى بحثًا عن ذلك، لكن المؤسف حقًا- كم هم الذين عرفوا طريق السعادة حقًا- سؤال يطرح نفسه؟ وجوابه باختصار:

أن السواد الأعظم من الناس جهلوا طريق السعادة، بل طلبوها في غير مظانها فصدق فيهم قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس(١)

ففئام من الناس حسبوا الربح والسعادة بالسعي لتحقيق شهوات النفس، وإرخاء العنان لها في ذلك، ولو كان بما حرم الله، كالفجور وشرب الخمور والغناء والمجون ونحو ذلك، وأين لهؤلاء الربح والسعادة، وقد طلبوهما بما يحقق الخسران والشقاوة.

وفئام من الناس حسبوا الربح والسعادة في الانهماك بالمباحات فهم يلهثون وراء جمع المال، وتنويع المآكل والمشارب، واختيار الملابس الأنيقة، والفرش الوثيرة، والمساكن المزخرفة، والمراكب الفاخرة والموضات والموديلات والمخترعات والأسفار والتنقلات بين الدول والبلدان بحثًا عن الأجواء اللطيفة المعتدلة، والحدائق الغناء والمناظر الجميلة والآثار القديمة والملاعب والملاهي- وهؤلاء أيضًا أخطؤوا طريق السعادة وحرموا منها، فلم يذوقوا لها طعما.

وأقول لأولئك وهؤلاء ولنفسي ولكل من يطلب الربح والسعادة حقًا: أبى الله أن يكون الربح والسعادة إلا بالإيمان والعمل الصالح تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

قال بعض السلف: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألذّ ما فيها». قيل:

---

(١) البيت لأبي العتاهية وهو في ديوانه ص١٩٤.

وما ألذّ ما فيها؟ قال: معرفة الله والأنس به»(١).

نعم والله إننا مساكين، فما أكثر الذين خرجوا ويخرجون من الدنيا وما ذاقوا هذه اللذة.

وقال الحسن رحمه الله: «تفقدوا حلاوة الإيمان في ثلاث: في الصلاة، وذكر الله، وقراءة القرآن، فإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٣): «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة».

فليت شعري من ذاق منا تلك اللذّة، لذة الإيمان، ومن دخل منا تلك الجنة جنة التنعم بتلقي أوامر الديان، وخدمته، والتلذذ بمناجاته وعبادته، والتوكل عليه، فهذا غاية الربح ومنتهى السعادة، نسأل الله الكريم من فضله.

فَتَذَوَّق أخي لذة الإيمان، وتنعم بجنة الدنيا بالانقياد للملك الديان وأسلم وجهك لـه، وسلِّم أمرك إليه، كما قال عز وجل ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣] فإن أخذت بهذا فأبشر فأنت ولدت الآن.

هنا تجد في نفسك محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الخير وأهله، ومحبة المسارعة لأداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وأعمال البر كلها، والورع عن المحرمات.

هنا تجد في الله عوضًا عن كل ما فاتك من الدنيا، ولا تأسى على شيء منها، وإنما تحزن على فوات نصيبك من ربك.

هنا تجد قلبك معلقًا بالمساجد، تجد أحلى صوت تسمعه: الله أكبر.

هنا تجد أسعد اللحظات في عمرك وقوفك مصليًا تناجي ملك الملوك، أكرم

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» ٨/ ١٦٨، «تاريخ دمشق» لابن عساكر ٥٦/ ٤٢٠-٤٢١، «سير أعلام النبلاء» ٥/ ٣٦٣، «مدارج السالكين» ١/ ٤٥٢، «الجواب الكافي» ص٧٧.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» ٦/ ١٧١، «شعب الإيمان» ٩/ ٣٨٥ (٦٨٣٤)، «الرسالة القشيرية» ٢/ ٣٧٨، «مدارج السالكين» ٢/ ٣٦٩.

(٣) انظر «الوابل الصيب» ١/ ٦٩.

الأكرمين وأرحم الراحمين، المولى العزيز الرحيم.

هنا تجد القناعة في نفسك، تجدك لا تحس بالفراغ النفسي لامتلاء قلبك بحب الله وما يقربك إليه.

إن طلب الناس السعادة في المساكن والمراكب والمنتزهات وأنواع الشهوات والملذات طلبتها في مناجاة الله، وتدبر كلامه والقيام بطاعته وأمره، وهذا قمة السعادة.

هنا تجد الأمن، تجد الطمأنينة، تجد الرضى بما قسم الله لك، تجد البركة في العمر ولو كان قصيرًا، تجد البركة في الرزق وإن كان مضيقًا، تجد تيسير الله لأمورك، وتسخيره الخلق لك، بلا درهم منك لهم ولا دينار، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أراد السعادة الأبدية فليزم عتبة العبودية»(١).

وختامًا: فإن من لم يجد السعادة بتلقي أوامر الله وتنفيذها، والحذر من نواهيه والبعد عنها وإسلام الوجه لله، وتسليم الأمر له والتوكل عليه فلن يجد للسعادة طعمًا ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها.

* * *

(١) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ٤٢٩.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْهُمَزَةِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الهمزة»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

ويقال لها: «سورة ويل لكل همزة»، و «سورة الحطمة».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- الوعيد لكل همزة لمزة.

٢- التهديد لمن انشغل بجمع المال وتعداده بالنار التي تحطم كل ما يلقى فيها، وتحطم القلوب والمعنويات.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

روي أن هذه السورة نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل في أُبي بن خلف، وقيل في الوليد بن المغيرة- والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

﴿وَيْلٌ﴾ دعاء وزجر وتهديد ووعيد بالوبال وسوء الحال وشدة العذاب والهلكة والخسارة والخزي، وقيل: هو اسم واد في جهنم.

قال الشاعر:

إذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضي الأرض داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل ... لقاضي الأرض من قاضي السماء(١)

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزة: كثير الهمز، واللمزة: كثير اللمز، وفي هذا ما يفيد أن الهمز واللمز صارا صفتين ملازمتين له.

والهمز يكون بالفعل بالسخرية من الناس، بالإشارة باليد أو بالعين أو اللسان أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

واللمز يكون بالقول باللسان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقيل العكس: الهمز يكون بالقول، واللمز يكون بالفعل، ويكونان في الحضور، وقد يكونان في الغيبة، قال الشاعر:

---

(١) هذان البيتان ينسبان للبلهول. انظر: «عقلاء المجانين» لابن حبيب النيسابوري ص٧١. وذكرا بلا نسبة. انظر: «الجليس الصالح الكافي» ص٧١٢، «ربيع الأبرار» ٤/ ٣١٣، «المستطرف» ص١٠٩.

تـــدلي بـــودي إذا لاقيتنـــي كـــذبا وإن أُغيَّـــبْ فأنـــت الهـــامز اللمـــزة[١]

قال ابن تيمية[٢]: «الهمز أشد؛ لأن الهمز الدفع بشدة.. ومنه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ومنه قول النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه، ونفخه، ونفثه» فالهمز مثل الطعن لفظًا ومعنى، واللمز الكذب والعيب».

والمعنى: الهلاك والخسار والعذاب والخزي والبوار لكل من يهمز الناس ويلمزهم بقوله وفعله وإشارته ويطعن فيهم، ويعيبهم، ويأكل لحومهم، وينتقصهم ويزدريهم في حال غيبتهم أو حضورهم.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وروح بتشديد الميم: «جمّع» على التكثير، وقرأ الباقون: ﴿جَمَعَ﴾ بدون تشديد.

أي: جمع المال بعضه على بعض، وركب من أجله كل صعب، واستباح كل محظور، من المعاملات الربوبية المحرمة وغيرها، وبالغ في جمعه حتى حمله ذلك على منع الحقوق الواجبة فيه والمستحبة، كما قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢].

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾، أي: بالغ في تعداده وانشغل به تكاثرًا وتفاخرًا واغتباطًا به، وخوفًا من نقصانه، وطمعًا في زيادته، كما قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[٣].

فحمله حب المال على الحرص على جمعه وتعداده، والبخل به، كما حمله الكبر وحب الشرف على انتقاص غيره بالهمز واللمز.

عن حكيم بن حزام- رضي الله عنه- قال: «سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني. ثم قال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا

---

(١) البيت لزياد الأعجم انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٣١١، «جامع البيان» ٢٤/ ٦١٦.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٦، ومسلم في الزكاة ١٠٤٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا فكان أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما- يدعوان حكيمًا إلى العطاء، فيأبى أن يقبله» الحديث (١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه المال أمن الحلال أم من الحرام»(٢).

وقد قال ﷺ: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...» الحديث(٣).

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ في هذا تهكم به، وسخرية منه، وتعجب منه، وإنكار عليه، أي: يظن أن ماله يبقيه حيًا لا يموت أو يزيد في عمره، ويخلد ذكره، فكان ماله سببًا في طول أمله في الحياة الدنيا، وغفلته عن الآخرة، وما درى أنه بالجمع للمال، وتعداده، ومنع الحقوق فيه، وبهذا الظن يقصف أيام عمره ويقضي على بركته، ويخمل ذكره ولهذا قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»(٤).

وفي هذا إشارة إلى أن سبب البركة في العمر، هو العمل الصالح، وأن يكسب المال من حلال ويؤدي حق الله فيه، ولا يشتغل به عن طاعة الله تعالى، وأن يكون كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»(٥).

فما أبرك عمر من كان هذا شعوره وما أقصر عمر من كان ساهيًا لاهيًا حتى فاجأه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٧٢، ومسلم- مختصرًا في الزكاة ١٠٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٧١ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الموت، مهما طال عمره في هذه الحياة.

﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع له ووعيد وتهديد، ونفي لما توهمه من أن ماله سيخلده، وقد أحسن القائل:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع
كم واثق في العمر أفنيته ... وجامع بددت ما يجمع[1]

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والتقدير: والله لينبذن في الحطمة.

أي: ليلقين ويطرحن فيها، والنبذ: الإلقاء على سبيل الإهانة. فلم ينفعه ماله الذي كان يجمعه ويعدده، ويظن أنه سيخلده، بل صار زاده إلى النار، كما قال ﷺ لكعب بن عجرة- رضي الله عنه: «إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»[2].

و ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، أي: يدفعون إليها بشدة.

وسميت النار الحطمة؛ لأنها تحطم كل ما يلقى فيها حسًا ومعنى.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ تفخيم وتهويل وتعظيم لشأنها، و«ما»: استفهامية، أي: وما أعلمك ما الحطمة.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: تفسير لـ «الحطمة».

﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ أضافها عز وجل إليه؛ لزيادة التخويف، أي: نار الله العظيمة التي خلقها وأعدها؛ لتعذيب الكفرة والعصاة، عدلًا منه عز وجل، وما ظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾، أي: المستعرة المشتعلة، التي وقودها الناس والحجارة.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، أي: التي من شدة حرها وعذابها تشرف على القلوب، أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب، التي عليها مدار صلاح الأعمال وفسادها، والتي هي

---

(١) البيتان لجحظة البرمكي. انظر: «نشوار المحاضرة» ٤/ ٩٨، «المجموع اللفيف» ص٤٦٤، ٤٦٥، «غذاء الألباب» ٢/ ٥٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الجمعة ٦١٤- وقال: «حديث حسن غريب».

محل الألم المعنوي، فيجمع للمعذبين فيها بين الألم الحسي للأبدان، والألم المعنوي للقلوب، والألم المعنوي لا يقل عن الألم الحسي، من تحطيم المعنويات والإهانة والتبكيت والتقريع والتوبيخ والتيئيس من الخروج ونحو ذلك.

﴿إِنَّهَا﴾، أي: الحطمة، ﴿عَلَيْهِم﴾، أي: على كل من ألقي ونبذ فيها، من كل همزة لمزة جمّاع للمال معدد له، يظن أنه سيخلده، من الكفرة والعصاة.

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة مغلقة الأبواب.

قال الشاعر:

تحن إلى أجبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء موصدة(١)

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «في عُمُد» بضم العين والميم، وقرأ الباقون بفتحهما.

وهي على القراءتين جمع عمود، ومعنى ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ طويلة ممدودة.

والمعنى: أن هذه العمد ممدودة من خلف الأبواب؛ لزيادة الإيصاد وإحكامه عليهم.

وفي هذا إشارة إلى يأسهم من الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾.

٢- الوعيد والتهديد للهمزة اللمزة الذي من صفته همز الناس ولمزهم والطعن فيهم واغتيابهم وتنقصهم بقوله وفعله وإشاراته وحركاته والاغترار بما جمعه من مال، والانشغال به عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري ٤/ ٧٩٦، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ٢٠/ ٧٢.

٣- التنديد بالمغترين بالمال المنشغلين بجمعه وتعداده عن طاعة الله تعالى، المانعين لحق الله فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾.

٤- وجوب الحذر من فتنة المال، والانشغال به عن طاعة الله تعالى وعبادته وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»(١).

٥- شدة خطر التكالب على جمع المال ومنع حق الله فيه، والانشغال بعده وإحصائه وأنه سبب لنسيان الآخرة، وطول الأمل.

٦- استحالة الخلود في هذه الدار؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾.

٧- الزجر والردع لمن كانت هذه صفته همزة لمزة جماعًا للمال معددًا له ظانًا أن هذا المال سيخلده، وبيان أن مصيره أن يلقى ويطرح في النار؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾.

٨- شدة عذاب النار وأنها تحطم كل ما يلقى فيها، وتحطم المعذبين فيها حسيًا ومعنويًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾.

٩- تأكيد عظم هول النار وشدة خطرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾.

١٠- أن النار مسعرة موقدة مهيأة لتعذيب الكفرة والعصاة؛ لقوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾.

١١- أن عذاب النار كما يؤلم الأجساد حسيًا يشرف على القلوب ويؤلمها معنويًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾.

١٢- أن النار تطبق وتغلق على من فيها، وتحكم عليهم أبوابها، بوضع العمد من خلفها، تيئيسًا لأهلها من الخروج منها أبد الآباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾.

* * *

(١) سبق تخريجه.

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلْفِيلِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفيل»، لقوله تعالى في أولها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، وذكر ما آل إليه أمر أصحاب الفيل من بطلان كيدهم وهلاكهم.

وتسمى: «سورة ألم تر».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- ذكر قصة أصحاب الفيل وإهلاكهم وجعل كيدهم في تضليل.

٢- تذكير أهل الحرم بنعمة الله عليهم، والبشارة له ﷺ بنصرة الله تعالى له وللمؤمنين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

قال ابن كثير(١): «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء».

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الاستفهام في الموضعين: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: ألم تشاهد وتُخبر وتسمع.

والمعنى: أنك قد رأيت آثار فعل الله بهم وسمعت الأخبار بذلك، وفي هذا امتنان من الله عز وجل عليه ﷺ وعلى أمته، بحفظ بيته وحمايته، وتخويف للمجرمين المكذبين.

قال القرطبي(٢): «كانت قصة أصحاب الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ، وإن كانت قبله وقبل التحدي؛ لأنها كانت توكيدًا لأمره وتمهيدًا لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس، وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس».

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠٢.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ١٩٥.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ أي: ألم يصيِّر وكيدهم، أي: مكرهم وتدبيرهم السيء، في السر والعلن؛ لصد الناس عن الحرم وسعيهم لهدم الكعبة.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾، أي: في ضياع وبطلان وخيبة وخسران وضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أبابيل، أي: جماعات يتبع بعضها بعضًا، وهي طيور سود بحرية أمثال الخطاطيف، كل طيرٍ يحمل ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ السجيل: الشديد الصلب، وهي حجارة من طين محرّق حتى تحجر، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، كما قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصف: ورق الزرع الذي لم يقضب، أي: «التبن»، أو ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار دريناً وألقته الرياح هنا وهناك.

قال ابن كثير[1]: «المعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرا، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، وكما جرى لملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات».

وخلاصة قصة أصحاب الفيل:

أن أبرهة الأشرم ملك اليمن آنذاك أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة يقول له: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يبن قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب «القلَّيس»؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها، كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته، فكرهت

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٠٩.

العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلًا، فأحدث فيها وكر راجعًا، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجرًا حجرا.

وقيل إن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا، وكان يومًا فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك وسار في جيش عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلًا عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: «محمود» وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك ويقال: معه ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلًا، وقيل: غير ذلك؛ لأجل أن يهدم الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة، فلما سمع العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًا، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله من هدمه وخرابه، فأجابوا وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه فقاتلوه فهزمهم أبرهة، وأسر «نفيل بن حبيب» فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه «اللات» فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغال» فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة حناطة الحميري، وأمره بأن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم، إلا أن تصدوه عن البيت، فدل على عبد المطلب بن هاشم، وبلغه عن أبرهة ما قال فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه فذهب معه، فلما رآه أبرهة

أجلَّه، وكان عبد المطلب رجلًا جميلًا حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه قل له ما حاجتك؟، فقال للترجمان إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!، فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًا يمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك.

ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رءوس الجبال تخوفًا عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع حِلالك
لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحالُهم غدْوًا مِحالك

وذُكر أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئًا بغير حق فينتقم الله منه، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: «ابرك محمود أو ارجع راشدًا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام» ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين، وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه- أي: أدموه- ليقوم فأبى فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل

على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أيـــن المفـــر والإلـــه الطالـــب والأشرم المغلـــوب لـــيس الغالـــب

ويقول من أبيات عدة:

حمـــدت الله إذ أبصـــرت طـــيرًا وخِفْـــتُ حجـــارة تلقـــى علينـــا

فكـــل القـــوم يســـأل عـــن نفيـــل كـــأن عـــليّ للحبشـــان دينـــا

فمنهم من هلك مكانه، ومنهم من هرب، وجعل يتساقط عضوًا عضوًا، وغنم أهل مكة ما معهم من ذهب وأموال وغير ذلك(١).

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى أمته بحفظ بيته العتيق وحمايته.

٢- تسلية الرسول ﷺ عما يلاقيه من تكذيب قومه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

٣- التخويف والتحذير للمكذبين والمجرمين.

٤- إثبات ربوبية الله- عز وجل- الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٥- وجوب التأمل والاعتبار في آيات الله الكونية، وعقوباته لأعدائه المجترئين على حرماته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

٦- شدة أخذ الله وانتقامه وأليم عقابه في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

٧- شدة اجتراء بعض الخلق على حرمات الله ومحادة الله تعالى والإفساد في الأرض فهذا أبرهة أراد هدم بيت الله الحرام فأبطل الله كيده، وقبله فرعون كابر بما هو أشد من

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٠٣- ٥٠٧. وانظر «جامع البيان» ٢٤/ ٦٣٥- ٦٤٣ «تاريخ الأمم والملوك» ٢/ ١٣٦- ١٣٨، «سيرة ابن هشام» ١/ ٥١- ٥٥.

ذلك فادعى الربوبية والألوهية- تعالى الله عما يقول ويفعل الظالمون علوًا كبيرًا.

٨- أن كيد الكافرين والفاسقين وأهل المحادة لله عز وجل ومدبري السوء والشر في ضلال وبطلان وبوار وخسران.

٩- قدرة الله تعالى التامة، وعظيم سلطانه وتسخيره ما شاء من المخلوقات لنصرة الحق والدفاع عن حرماته عز وجل فامتناع الفيل من التوجه نحو مكة بقدرة العزيز الحكيم، وبقدرته عز وجل العظيمة سلط عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بهذه الحجارة التي كان بها هلاكهم.

١٠- عظم حرمة الكعبة والبيت الحرام قبل الإسلام وبعده، فما قصه الله علينا في هذه السورة من إهلاك أصحاب الفيل دليل على عظمة هذا البيت وحماية الله له، ودفاعه عنه منذ أن بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولا تزال حرمة هذا البيت إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وقال ﷺ: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللقطة ٢٤٣٤، ومسلم في الحج- تحريم مكة وصيدها ١٣٥٥، وأبو داود في المناسك ٢٠١٧، وابن ماجه في الديات ٢٦٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ قُرَيْشٍ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة قريش»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ وذكر اعتيادهم هاتين الرحلتين.

وتسمى: «سورة لإيلاف قريش».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- الامتنان على قريش وأهل الحرم بتأمينهم في سفرهم ومقامهم، وإطعامهم.

٢- التذكير بعظم نعمة الأمن وعدم الخوف، ونعمة الشبع وعدم الجوع.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ «إيلاف»: مصدر يقال: آلف الشيء يؤالفه إيلافًا. ويقال ألف المكان يألفه إلفًا وإلافًا؛ إذا اعتاده وألفه، وزالت الكلفة عنه، والنفرة منه.

قرأ ابن عامر: «لإلف قريش» وقد جمعها من قال:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف[1]

وقرأ أبو جعفر: «ليلاف قريش»، وقرأ الباقون: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾.

والجار والمجرور ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش فاللام: لام التعجب.

أي: اعجبوا لإيلاف قريش، ونعمتي عليهم في ذلك، يؤيد هذا إجماع المسلمين على أن سورتي الفيل وقريش كل منهما سورة مستقلة عن الأخرى.

وقيل تقديره: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فكأن السورة على هذا متعلقة بسورة «الفيل» فسورة الفيل وما جاء فيها تعليل لهذه السورة وما جاء فيها، وهما في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه سورة واحدة بلا فصل.

أي: أهلكنا أصحاب الفيل؛ لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشام؛ لأجل التجارة والمكاسب.

والأظهر المعنى الأول، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

وقيل: متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

وقريش: ولد النضر بن كنانة، وهم قبائل شتى، وسموا قريشًا بتصغير القرش بدابة في البحر عظيمة، تعبث بالسفن، ولا تطاق إلا بالنار.

---

(١) انظر «الكشاف» ٤/ ٢٣٥، «لسان العرب» مادة «ألف».

وقيل: سموا بذلك من القرش وهو الكسب؛ لأنهم كانوا يضربون في الأرض طلبًا للكسب، قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١).

ومعنى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾: لأجل إيلاف قريش، أي: إلفهم واعتيادهم هتين الرحلتين لقوله بعد هذا: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ فقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ بدل من قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، ومفسر له و«رحلة»: مفعول به منصوب: «لإيلافهم»، وفيه تفخيم لأمر الإيلاف، وتذكير بعظيم النعمة فيه.

أي: لإيلافهم وإلفهم واعتيادهم رحلة الشتاء إلى اليمن لدفء جوها في الشتاء ورحلة الصيف إلى الشام لبرودة جوها في الصيف، وذلك في تجاراتهم وتنقلاتهم فهم آمنون في سفرهم ومقامهم لحرمة الحرم وأهله.

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾، أي: شكرًا لله عز وجل على هذه النعمة العظيمة عليهم، وتأمينهم في مقامهم وأسفارهم بحرمة الحرم يجب أن يعبدوه وحده كما ذكر الله عز وجل عن نبيه ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع والتواضع، يقال: طريق معبد، أي: مذلل.

وهي في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وتشمل فعل الواجب والمندوب، والمباح مع حسن النية والقصد، وكذا ترك المحظور والمكروه.

و«الرب» هو: الخالق المالك المدبر، فرب البيت بمعنى: خالقه ومالكه والمتصرف فيه.

ورب كذا أيضًا بمعنى صاحبه، كما قال عز وجل: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، أي: صاحب العزة.

والبيت: المراد: به الكعبة والبيت الحرام، والبيت في الأصل: ما يقوم على أركان،

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٢٧٦، والترمذي في المناقب ٣٦٠٥ من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وأشار إليه بإشارة القريب «هذا» للتعظيم.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ الذي: صفة لـ«رب» في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ وهي صفة كاشفة؛ لأن إطعامهم من جوع من معاني ربوبيته، ومن تدبيره وتصريفه لهم، والمعنى: أنه منّ عليهم بالرزق والمطاعم.

والجوع: هو المخمصة، وخلو البطن من الطعام، يعقبه الموت، وقد استعاذ منه النبي ﷺ بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع»(١).

فالجائع لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أنه عز وجل منّ عليهم بنعمة الأمن وعدم الخوف في مقامهم وأسفارهم بسبب حرمة الحرم، فهم في الحرم آمنون لحرمة الحرم، وإذا خرجوا في أسفارهم أمنوا؛ لأنهم أهل الحرم، والأمن سبب للرزق. فمّن الله عز وجل عليهم بإطعامهم من الجوع وقاية لهم من الهلاك في أمر باطن، وأمّنهم من الخوف وقاية لهم من الهلاك بأمر ظاهر.

وذلك بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وفي تنكير «جوع» و«خوف» إشارة إلى شدة ما كانت عليه قريش من الجوع والخوف، وأعظم بهما من مصيبتين لا تقل إحداهما عن الأخرى؛ لأن الجائع والخائف كل منهما لا يستطيع العمل لدينه ولا لدنياه، والخوف سبب للجوع، والجوع سبب للموت، لهذا امتن الله عز وجل على قريش بهتين النعمتين العظيمتين اللتين هما سبب الاستقرار والحياة، والعمل الديني والعمل الدنيوي، وهما الرزق والمطاعم للأبدان، والأمن على الدماء والأعراض والأموال في الأسفار والأوطان، كما قال عز وجل:

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٤٧، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٦٨، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ [المائدة: ٩٧]، فبذلك تقوم أمور دينهم ودنياهم، وكما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وعنه ﷺ قال: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(١).

ولا يعرف قدر هتين النعمتين إلا من فقدهما.

ويفهم من قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ أن من لم يقيد هتين النعمتين بعبادة الله عز وجل وشكره عليهما فإنه عرضة لزوالهما، إذ بالشكر تدوم النعم وبالكفر تزول وتحل النقم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بنعم الله عز وجل ولفت الأنظار إلى النظر والتفكر في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ للقيام بما يجب تجاهه.

٢- أن من نعم الله تعالى وأفضاله على قريش أن يسر لهم الرزق وأسبابه بأمنهم في مقامهم وفي أسفارهم.

٣- انقسام السَّنة إلى شتاء وصيف لقوله: ﴿ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ يقال: طلوع الثريا أول الصيف وستة أشهر بعده صيف، وبعد الستة الشتاء.

٤- جواز التنقل والاختيار في التجارات والأعمال والحاجات حيث الجو المناسب

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١ من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

برودة ودفئًا؛ لأن الله امتن على قريش بإيلافهم هاتين الرحلتين وأقرهم على ذلك.

٥- وجوب شكر نعمة الربوبية، نعمة الخلق والزرق والأمن وغير ذلك، بالعبودية لله تعالى وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

٦- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، أي: وحده دون سواه.

٧- شرف البيت وفضله، والامتنان على قريش به؛ لأن الله خصه هنا بالربوبية فقال: ﴿رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ مع أنه عز وجل رب كل شيء، لكن ربوبيته عز وجل للبيت من الربوبية الخاصة.

٨- أن المستحق للعبادة هو الرب الخالق المالك المدبر مطعم عباده من الجوع، ومؤمنهم من الخوف، دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿(٣) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

٩- أن كل ما يتمتع به الخلق من الرزق والأمن وغير ذلك من النعم التي لا تحصى كل ذلك من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

١٠- عظم نعمة الرزق والإطعام من الجوع، ونعمة الأمن؛ ولهذا خصهما سبحانه وتعالى بالذكر وامتن عليهم بذلك فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمة الرزق والإطعام والأمن في الأوطان، وعلى سائر نعمك الظاهرة والباطنة.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمَاعُونِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الماعون»؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

وتسمى: «سورة أرأيت»، و «سورة الدين»، و «سورة التكذيب»، و«سورة اليتيم».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- التعجيب من حال المشركين في تكذيبهم البعث، ومنعهم حقوق اليتامى والمساكين.

٢- الوعيد لمن يسهون عن الصلاة، ويؤخرونها عن وقتها، الذين يراؤون في أعمالهم ويمنعون الحقوق الواجبة عليهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: هل عرفت، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، أي: الذي ينكر البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، كما قال عز وجل ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩].

ولهذا سُمي يوم القيامة: «يوم الدين»، كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ لأن الناس فيه يدانون ويجازون بأعمالهم.

ثم بين صفة هذا المكذب بالدين، فقال:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي: فذلك الذي يدفع اليتيم بعنف وشدة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يرحمه، ولا يحسن إليه ولا يعطف عليه، قد نزعت الرحمة من قلبه والعياذ بالله.

و«اليتيم» هو من مات أبوه، وهو دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»(١). فهو بحاجة إلى من ينفق عليه ويدافع عنه ويربيه، ويرعى حقوقه، وبخاصة عندما يطغى الظلم والأنانية، ولهذا عظم الشرع حق اليتيم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٩].

وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «أكل مال اليتيم»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، وفرج بينهما»(١).

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي: ولا يحث غيره، ولا يبعث أهله على طعام المسكين كقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

وإذا كان لا يحث على طعام المسكين، فمن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، لأن الإطعام والإنفاق أثقل على النفوس، وقد قال قائل المشركين فيما حكى الله عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

والمسكين: هو من لا يجد شيئًا أو من لا يجد كفايته، مأخوذ من السكون وهو اللصوق بالأرض وعدم الحركة؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، وبخاصة عندما يقاس الناس بالدرهم والدنيار، فهو إن تكلم لم يسمع كلامه، وإن سُمع لم يُصدق، كالمريض بين الأصحاء وما به من مرض، حاله بين الناس كما قال الشاعر:

إذا قل مال المرء قل صحابه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان حازمًا ... أقدامه خير له أم وراؤه

وإن غاب لم يشتق إليه خليله ... وإن مات لم يسرر صديقًا بقاؤه(٢)

وقد عظم الإسلام حق المساكين والفقراء، وجعل لهم نصيبًا من الزكاة، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [الآية: ٦٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠٤، وأبو داود في الأدب ٥١٥٠، والترمذي في البر والصلة ١٩١٨- من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الأبيات لأبي حيّان التوحيدي، انظر «ديوانه» ص٢٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٣، ومسلم في الزهد ٢٩٨٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٦٩، وابن ماجه في التجارات ٢١٤٠.

فوصف عز وجل المكذب بالدين بأنه: ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾؛ لأن أداء الحقوق وإنفاق المال في سبيل الله محزّ عظيم، به يعرف الصادق من الكاذب، وقوة الإيمان وضعفه فكم من إنسان يهمهم في المساجد ويحوقل، ولكنه لا ينصف من نفسه ويعتدي على الآخرين ويأكل حقوقهم، ويمنع ما في المال من حقوق واجبة أو مستحبة، والدين إنما هو: إحسان في عبادة الله عز وجل، وإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم ونفعهم.

وقد قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(٢).

﴿فَوَيْلٌ﴾ ويل: بمعنى: هلاك وحسرة وزجر ووعيد وتهديد وعذاب، ويقال أيضا: هو اسم واد في جهنم(٣).

﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾، أي: الذين يصلون.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «عن صلاتهم» ولم يقل «في صلاتهم»؛ لأن السهو في الصلاة ليس أمرًا اختياريًا، ومما لا يمكن التحرز منه تمامًا، وقد وقع منه ﷺ فغيره من باب أولى.

ولهذا رُويَ عن أنس وعطاء بن دينار رضي الله عنهما أنهما قالا: «الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: «في صلاتهم»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٤- وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) جاء في الأثر أن جهنم تستعيذ منه في اليوم أربعمائة مرة أعد للمرائين، أخرجه الطبراني في الصغير ٢/ ١٤٧، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥١٥.

(٤) ذكره عن أنس الزمخشري في «الكشاف» ٤/ ٢٣٦، وذكره عن عطاء بن دينار ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥١٤، وأخرج بعضه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٦٤ عن عطاء.

ومعنى ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي: عن صلاتهم غافلون، غير مبالين بها، إما بتركها أحيانًا كفعل المنافقين يصلون أمام الناس ويتركونها إذا خلوا، كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا»(١).

وإما بتأخيرها عن وقتها المحدد لها شرعًا، أو بالتهاون بأدائها بشروطها وأركانها وواجباتها على الوجه المأمور به، وعدم الخشوع وحضور القلب لما يتلى فيها، أو تأخيرها إلى أن يضيق وقتها، أو إلى وقت الضرورة، ونحو ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾، أي: يقصدون الرياء في أعمالهم، فيعملون العمل ويحسِّنونه؛ ليراهم الناس فيثنوا عليهم، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

وفي الحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من سمّع الناس بعمله سمّع الله به وحقره وصغره»(٢).

والرياء أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء؛ ولهذا قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال الرياء»(٣).

وقال ﷺ في الدعاء: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٤٩، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٢٢، وأبو داود في الصلاة ٤١٣، والنسائي في المواقيت ٥٠٩، والترمذي في الصلاة ١٦٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٢.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

ونستغفرك لما لا نعلم»[١].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، أي: ويمنعون العارية المعتادة بين الناس بخلًا منهم، كالقدر والفأس، والدلو والميزان والإبرة والكتاب وغير ذلك من الأمتعة التي يتعاطاها الناس، بل ويمنعون الحق الواجب كالزكاة.

قال عكرمة: «رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والإبرة»[٢].

وقال محمد بن كعب: «الماعون: المعروف»[٢].

وقال الحسن: «هو المنافق الذي يمنع زكاة ماله، فإن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها»[٣].

قال ابن كثير[٤]: «أي: لا أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى».

الفوائد والأحكام:

١- تقرير وإثبات البعث والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾.

٢- أن الإيمان بالبعث والجزاء على الأعمال من أعظم ما يحمل الإنسان على الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباده؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ إلى آخر السورة.

ولهذا يقرن الله عز وجل بين الإيمان به سبحانه والإيمان باليوم الآخر؛ لأن اليوم الآخر من أعظم ما يحمل على الامتثال حيث فيه الجزاء على الأعمال.

ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣- من حديث أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٢٤٦٩.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٧.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٥١٦.

لرأيت من الناس غير ما ترى».

٣- أن من صفات المكذب بالدين أنه يدفع اليتيم ويظلمه ولا يؤدي حقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾.

٤- أن من صفات المكذب بالدين أنه لا يحض على طعام المسكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

٥- الحث على العناية باليتيم وأداء حقوقه، وإطعام المسكين والإحسان إليه؛ لأن ذلك من صفات المصدقين بوعد الله.

٦- حفظ الدين الإسلامي لحقوق اليتامى والمساكين والضعفاء، وتعظيمه لخطر الاعتداء على حقوقهم؛ ضمانًا لها ودفاعًا عنها؛ ولهذا رتب على الاعتداء عليها أعظم الوعيد.

٧- الوعيد الشديد للذين يتهاونون بالصلاة، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾.

٨- الحث على أداء الصلاة في وقتها، على الوجه الأكمل، وكذا سائر العبادات لأن ذلك من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله.

٩- وجوب الإخلاص لله، والحذر من الرياء لأنه من صفات المكذبين بالدين والمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

١٠- التحذير من منع الحقوق الواجبة والمستحبة كالزكاة والصدقة والعارية، وأن ذلك من صفات المكذبين بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

١١- الحث على فعل المعروف والإحسان بعد أداء الواجب؛ لأن هذا من صفات المؤمنين المصدقين بوعد الله، وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولئن أمشي في حاجة أخي أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد- يعني مسجد المدينة- شهرًا»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٨٤.

١٢- أن المطلوب من المسلم أمران هما: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. فقد بدأت السورة بذكر الإحسان إلى عباد الله كاليتيم والمسكين ثم ذكرت الإحسان في عبادة الله والإخلاص فيها، وبخاصة الصلاة التي هي عمود الدين وحذرت من الرياء، ثم ختمت السورة بالحث على الإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان من أداء الزكاة والعارية.. الخ، وكأن السورة تشير إلى أن أهل الإحسان إلى عباد الله هم أهل الإحسان في عبادة الله في الصلاة وغيرها وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(١).

فتأمل أخي المسلم هذين المحورين الذين تركزت عليهما معاني هذه السورة واعلم أن القرآن كله بل التشريع كله بما فيه الكتاب والسنة يدور عليهما واغتنم أيام عمرك دائرًا بين الإحسان في عبادة الله عز وجل؛ إخلاصًا له سبحانه وتعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة ١٩٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلْكَوْثَرِ

المقدمة

هذه السورة أقصر سورة في القرآن- تليها سورتا العصر، والنصر، فكل منها ثلاث آيات.

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكوثر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾.

وتسمى: «سورة النحر»، و«سورة إنا أعطيناك الكوثر».

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- وعد النبي ﷺ وبشارته بماله عند الله من الخير الكثير، والحوض المورود، وغير ذلك.

٢- ذم من عاداه ﷺ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

عن يزيد بن رومان قال: «كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر، لا عقب له، إذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُنبْتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحج، وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه قال: فنزلت إن شانئك هو الأبتر»(٢).

قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الجمع والعظمة؛ لأنه سبحانه وتعالى هو العظيم؛ لما له من صفات الكمال والجلال في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: آتيناك، ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: الخير الكثير.

أي: إنا أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه النهر والحوض الذي ترد عليه أمته ﷺ، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسمًا قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟، قال: أنزلت علي آنفًا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه

---

(١) أخرجه ابن إسحاق- انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٣٩٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٠٠، والبزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٢٥ قال ابن كثير «إسناده صحيح».

أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: الكوثر»(٢).

وجاء في بعض روايات حديث أنس رضي الله عنه: «ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد نجوم السماء»(٤).

وجاء في وصفه: طوله شهر وعرضه شهر، وأن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا.

وعن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: «هو الخير الذي أعطاه الله إياه»، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال: «النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه»(٥).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكوثر: نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل»(٦).

ومن الكوثر، وهو الخير الكثير: اصطفاؤه ﷺ للرسالة، ورفع ذكره، وشرح صدره، قال عز وجل: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الانشراح: ١ - ٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، ٤٠٠، والنسائي في الافتتاح ٩٠٤، وأحمد ٣/ ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٤، ومسلم في الإيمان ١٦٢، وأبو داود ٤٧٤٨، وأحمد ٣/ ٢٤٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٨٥- ٦٨٩.

(٣) أخرجها أحمد ٣/ ٢٢٠- ٢٢١، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٨٨- ٦٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٥.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الكوثر ٤٩٦٦.

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٦٧٩- ٦٨٠ وإسناده صحيح.

ومنه ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأعطيت الشفاعة، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»(١).

وقدم الضمير «نا» من ﴿إِنَّآ﴾ وبنى عليه الفعل؛ للدلالة على أن هذا العطاء منه عز وجل خاصة، وأكد ذلك بحرف التوكيد «إن».

وحذف موصوف الكوثر على طريق الاتساع والتعميم ليعم كل خير.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فشكرًا لربك على ما أعطاك من الخير الكثير في الدنيا والآخرة صل له الصلوات الخمس المكتوبة وصلاة العيد وصلاة النوافل وغيرها، ﴿وَٱنْحَرْ﴾، أي: وانحر هديك وأضحيتك له وباسمه عز وجل بعد صلاة العيد. والنحر يكون للإبل، والذبح لغيرها.

أي: أخلص لله تعالى في صلاتك ونحرك، ولا تبال بمن يتعبد لغير الله فيسجد لغير الله وينحر لغير الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكان ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له»(٢).

وقد جعل الله عز وجل قرة عينه ﷺ وراحة بدنه في الصلاة(٣).

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «أنه ﷺ أهدى في حجة الوداع مائة بدنة نحر منها

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم- باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ٣٣٥، ومسلم في- المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وأبو داود في الضحايا ٢٨٠٠، وأحمد ٤/ ٣٠٣- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» أخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٣٩.

ثلاثًا وستين بيده الشريفة»[١].

وفي قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن لا تتأسف على شيء من الدنيا، واترك الالتفات إلى الناس، ولا تبال بما ينالك منهم وعليك بالاعتصام بالله، والصلاة والنسك له، وفيها التعريض بحال الأبتر الشاني الذي صلاته ونسكه لغير الله.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾: استئناف فيه تعليل للأمر بالإقبال على الصلاة لربه والنحر له وعبادته وحده وعدم المبالاة بشانئه.

ومعنى ﴿شَانِئَكَ﴾، أي: مبغضك يا محمد. والشَنَآن: هو البغض الشديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨].

﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ مقطوع الأثر والذكر.

والمعنى: إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق هو مقطوع النسل والأثر والذكر، المقطوع عن كل خير، فلا تباله.

وفي هذا تثبيت لقلبه ﷺ وتقوية له، وقد أكد عز وجل هذا له بعدة مؤكدات: «إن»، وضمير الفصل «هو»، وتعريف الخبر، وكونه على وزن «أفعل» التفضيل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات العظمة لله عز وجل لقوله عن نفسه ﴿إِنَّآ﴾ بضمير الجميع والعظمة.

٢- عظم ما أعطاه الله لرسوله ﷺ وأكرمه به وما وعده به من الخير الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾.

٣- إثبات الحوض المورود الذي أعطيه ﷺ في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ وقد فسره ﷺ بالحوض المورود في الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٦، ومسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٧٨٧، والترمذي في الحج ٨١٧.

٤- أن العطاء والمنع من الله عز وجل فهو المعطي والمانع، رب جميع الخلق؛ خالقهم ومالكهم ومدبرهم ورازقهم، فيجب التوجه بالسؤال إليه لا إلى غيره، كما قال عز وجل: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

٥- إثبات وإظهار كبريائه عز وجل وعلو شأنه وعز سلطانه يؤخد هذا من الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، ولم يقل «فصل لي».

٦- تشريفه ﷺ بخطاب الله- عز وجل له، وربوبيته الخاصة له وتكريمه، والامتنان عليه بذلك.

٧- وجوب الإخلاص لله تعالى في جميع العبادات البدنية والمالية من الصلاة والنسك وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

٨- عدم جواز الأضحية قبل صلاة العيد لقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

وعن البراء ابن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، من فعله فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء.

فقام أبو بردة بن نيّار، وقد ذبح، فقال: إن عندي جذعة، فقال: اذبحها، ولن تجزي عن أحد بعدك، فمن ذبح بعد الصلاة تم نسكه، وأصاب سنة المسلمين»(١).

٩- أن الأبتر مقطوع الأثر والذكر، المقطوع من كل خير هو من أبغض رسول الله ﷺ وما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

١٠- دفاع الله عز وجل عن رسوله ﷺ وعنايته به وبأوليائه عز وجل، كما قال عز وجل ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

١١- أن العاقبة للتقوى، وأن الفوز والفلاح لأولياء الله عز وجل، وأن الخيبة والخسران والبوار لأعداء الله وأعداء رسله.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي ٥٥٤٥، ومسلم في الأضاحي ١٩٦١، وأبو داود في الضحايا ٢٨٠٠، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٦٣.

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلْكَافِرُوْنَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الكافرون»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وتسمى: «المقشقشة»، كما تسمى سورة الإخلاص بذلك.

قيل: لأنهما تقشقشا من الشرك، أي: تبرئان منه. كما تسمى «سورة براءة» بالمقشقشة؛ لأنها تبرئ من النفاق.

وتسمى: «سورة الكافرون» أيضًا: «سورة العبادة»، و «سورة الدين».

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قرأ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر**»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «**أن الرسول ﷺ يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب**»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يقول: «نعم السورتان هما تقرئونهما في الركعتين قبل الفجر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾**».

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٢١٨، وأبو داود في المناسك ١٩٠٥، والنسائي في مناسك الحج ٩٦٣، والترمذي في الحج ٨٦٩، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٢٦، والنسائي في الافتتاح ٩٤٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٤٨.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٩٢، والترمذي في الصلاة- تخفيف ركعتي الفجر ٤١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة- فيما يقرأ في الركعتين قبل الفجر ١١٤٩، وأحمد ٢/ ٢٤، ٩٤، ٩٩- وقال الترمذي: «حديث حسن».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعة واحدة**»(١).

وعن فروة بن نوفل رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني شيئًا أقوله إذا أويت إلى فراشي. قال: «**اقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فإنها براءة من الشرك**»(٢). وتقدم في مقدمة سورة الزلزلة حديث أنس رضي الله عنه «أن سورة الكافرون تعدل ربع القرآن».

د- موضوعاتها:

- إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والبراءة من الشرك وأهله.

* * *

(١) أخرجه النسائي في قيام الليل ١٧٠٢، ١٧٠٣، والترمذي في الصلاة ٤٦٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١١٧٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٠٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

رُويَ أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة فأنزل الله هذه السورة، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [ن: ٩].

قوله: ﴿قُلْ﴾ الأمر للنبي ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ «يا»: حرف نداء، و «أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى منصوب على أنه مفعول به، و«الكافرون»: صفة لأي، أو بدل منها.

والكافرون: جمع كافر، والكفر في اللغة: الستر والتغطية والجحود، ومنه سُميَ الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

ومنه سميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسُمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون بظلامه، وسُمي وعاء طلع النخل كفرًا؛ لأنه يستر الطلع بداخله.

فالكافرون: من جحدوا شريعة الله، وأنكروا وجود الله، أو ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسماءه وصفاته، أو شيئًا مما أوجب الله الإيمان به، وهو ضد الإيمان.

والكافرون هنا مخصوص بمن سيموتون على الكفر، ممن علم الله أنهم لا يؤمنون كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأمية بن خلف، والأسود بن عبد المطلب وكعب ابن الأشرف، وأبي جهل وغيرهم.

ولهذا قال ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل «يا أيها الذين كفروا» للدلالة على هذا المعنى، وأن الكفر وصف ملازم لهم، مما يوجب البراءة والمجانبة لهم دائمًا.

ويحتمل أن المراد عموم الكافرين، أي جنس الكفار وهو ظاهر اللفظ.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا: نافية و«ما»: موصولة، أي: لا أعبد الآن الذي تعبدونه

من الأصنام والأوثان والأنداد، من الأحجار والأشجار وأصحاب القبور وغير ذلك، وأتبرأ من ذلك ظاهرًا وباطنًا.

وعبر بـ «ما»؛ لأن معبوداتهم منها العالِم وغير العالِم.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، الواو عاطفة، و«لا»: نافية كسابقتها، والخطاب للكافرين.

و«ما» موصولة، وجاء التعبير بها هنا، وهي لغير العالم، لأن المقصود الصفة، وهو كونه عز وجل الموصوف بأنه المعبود الحق، كما أن «ما» و«من» يتعاقبان، فتأتي إحداهما مكان الأخرى.

والمعنى: ولا أنتم عابدون الآن الذي أعبد، وهو الله وحده لا شريك له.

وجاء النفي بـ «لا» في هذين الموضعين، وفي الموضعين بعدهما دون «لن»؛ لأن النفي بـ «لا» أبلغ منه بـ «لن» وأدل على دوام النفي وطوله.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: ولا أنا عابد في المستقبل الذي تعبدونه من الآلهة، ولا يجوز ذلك شرعًا، ولا يمكن أن يكون مني ذلك؛ لعصمته ﷺ.

فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ نفي للفعل؛ لأنها جملة فعلية، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلًا لذلك، ومعناه: نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي. وفي ذلك نفي للموافقة في المعبود، ونفي للموافقة في العبادة.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، أي: ولا أنتم في المستقبل عابدون الذي أعبد، وهو الله عز وجل، بل ستزدادون بعدًا عن الحق، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

فالخلاصة أن النفي في الجملتين الأوليين نفي للعبادة في الماضي، وفي الجملتين الأخيرتين نفي للعبادة في المستقبل مع ما في ذلك من تأكيد النفي في الحالين، لكن نفي عبادته ﷺ معبوداتهم أبلغ في التأكيد؛ لأنه جاء مرة بالفعل، ومرة باسم الفاعل، بينما جاء نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل فقط.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾، وهو: الكفر والشرك، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهو: الإيمان والتوحيد.

وفي هذا إعلان البراءة والانفصال التام عن كل ما هم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن

كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وحذفت الياء من قوله: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ مراعاة للفواصل- والله أعلم- كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قل﴾ وفي هذا الرد على طائفتين من طوائف أهل الضلال: الطائفة الأولى من يزعم من المشركين وغيرهم بأن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتدأ به، والطائفة الثانية طائفة الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٢- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٣- جواز مخاطبة الكافرين وندائهم بما هم عليه من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٤- تثبيت الله عز وجل لنبيه ﷺ على ما هو عليه من عبادة الله عز وجل وحده، في الحاضر والمستقبل لقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: في الحاضر، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: في المستقبل وفي هذا تيئيس للكافرين من تنازله ﷺ لهم عن شيء مما جاء به، وبيان لعصمة الله عز وجل له عن ذلك.

٥- استمرار هؤلاء الكفار الذين وجه لهم النداء في هذه السورة على الكفر، وأنهم لا يمكن أن يؤمنوا، فكما لم يؤمنوا في الماضي، فلن يؤمنوا في الحاضر، ولا في المستقبل، لقوله في الموضعين ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

٦- إثبات تقدير الله مقادير كل شيء في الأزل، كما قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل

الشقاوة»(١).

فمن كتب الله له الهداية فلا سبيل لإضلاله، ومن كتب عليه الضلالة فلا سبيل لهدايته.

ومن تقدير الله سبحانه ثباته ﷺ على عبادة الله وحده وعدم عبادته ما يعبده الكافرون، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر وعدم عبادتهم لمعبوده ﷺ وهو الله وحده لا شريك له.

٧- إثبات علم الله الأزلي المحيط بكل شيء ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ومن ذلك إخباره عز وجل بثباته ﷺ على الإيمان والإخلاص، واستمرار هؤلاء الكفار على الكفر والشرك.

٨- إثبات إعجاز القرآن الكريم فيما أخبر به من أخبار وقعت كما أخبر.

٩- إثبات نبوته ﷺ، وأن ما جاء به من عند الله حق لما اشتمل عليه من أخبار وقعت كما أخبر.

١٠- وجوب البراءة المحضة من الشرك وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ وإثبات العبادة لله وحده لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ فالأول نفي عبادة غير الله، والثاني إثبات العبادة لله عز وجل وحده، فتضمنت السورة النفي والإثبات، وهو معنى كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله»، ومعنى قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا سميت هذه السورة مع ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورتي الإخلاص، وكان النبي ﷺ يقرن بينهما في سنة الفجر وسنة المغرب، وركعتي الطواف وفي الوتر.

١١- الإشارة إلى ما كان عليه ﷺ من الثبات على عبادة الله وحده والبراءة من الشرك، وأن ذلك هو المقصود الأول من السورة؛ لهذا قدم قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وهو براءته من مبعوداتهم، على ذكر براءتهم من مبعوده، والذي هو المقصد الثاني من السورة، والذي هو أيضًا مكمل ومحقق لبراءته ﷺ من معبوداتهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦ وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي رضي الله عنه.

١٢- تقرير المفاصلة والمباعدة بين أهل الإيمان والتوحيد، وأهل الكفر والشرك، وعدم الالتقاء بين الفريقين؛ لقوله تعالى:﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وفي هذا رد على من يريدون التوفيق بين الأديان الباطلة والمنسوخة وبين الإسلام، وبين المعتقدات الباطلة وبين معتقد أهل السنة والجماعة، فشتان بين الحق والباطل.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان (١)

١٣- التهكم بالكفار فيما اختاروه لأنفسهم من نصيب الكفر والشرك بدل عبادة الله وحده، يدل على هذا تقديم قسمهم ونصيبهم في قوله:﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فهم أشبه بمن اقتسم مع شريكه سمًا وعسلًا فرضي لنفسه بالسم ولشريكه بالعسل.

* * *

(١) هذا البيت من القصيدة النونية لابن القيم انظر ص١١.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّصْرِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة النصر» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

وتسمى: «سورة إذا جاء نصر الله والفتح»، و«سورة الفتح»، و«سورة التوديع».

ب- مكان نزولها:

مدنية.

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾. قال: صدقت»(١).

جـ- فضلها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «سورة النصر تعدل ربع القرآن»(٢).

د- موضوعاتها:

١- الوعد والبشارة بنصر الله وفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا.

٢- الامتنان عليه ﷺ بالنصر والفتح وحثه على التسبيح والاستغفار والاستعداد للقاء الله تعالى.

٣- الإيذان بقرب وفاته ﷺ، وحثه على لزوم التسبيح بحمد الله، واستغفاره.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: « إنه قد نُعِيَتْ إليّ نفسي » فبكت ثم ضحكت، وقالت:

---

(١) أخرجه النسائي فيما ذكر ابن حجر في «فتح الباري» ٨/ ٧٣٤، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣١.

وقد أخرج البخاري في التفسير ٤٦٥٤ عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «أن آخر سورة نزلت براءة» والمراد به- والله أعلم-: بعضها، وأن آخر سورة نزلت كاملة هي النصر. انظر: «فتح الباري» ٨/ ٣١٦، ٧٣٤.

(٢) سبق تخريجه في تفسير «سورة الزلزلة».

أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: « اصبري فإنك أول أهلي لحاقًا بي» فضحكت»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصوءا فرحلت. ثم قام فخطب الناس... فذكر خطبته المشهورة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال إنه ممن علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أعلم منها إلا ما تقول»(٣).

قال ابن كثير(٤): «فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره؛ يعني: ونصلي له، ونستغفره معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح

---

(١) أخرجه البيهقي- فيما ذكر ابن كثير في « تفسيره » ٨/ ٥٢٩. وأخرجه أحمد ١/ ٢١٧، ٣٤٤، ٣٥٦ مختصرًا دون ذكر فاطمة، وإسناده صحيح. وأخرج ابن أبي حاتم في « تفسيره » ١٠/ ٣٤٧٢- الأثر ١٩٥٢١ من حديث أم حبيبة رضي الله عنها قصة بكاء فاطمة.. الخ.

(٢) أخرجه البيهقي في الحج- باب خطبة الإمام بمنى أوسط أيام التشريق ٥/ ١٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في تفسيره سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ٤٩٦٩، ٤٩٧٠، والترمذي في التفسير ٣٣٦٢، والطبري في «جامع البيان» ٣٠/ ٢١٥- ٢١٦

(٤) في « تفسيره » ٨/ ٥٣٢.

مكة ثماني ركعات. وفي سنن أبي داود: « أنه ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين »(١).

وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم فتح المدائن.

قال ابن كثير: وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله عنهما من أن هذه السورة نُعي فيها إلى رسول الله ﷺ نفسه الكريمة: واعلم أنك إذا فتحت مكة- وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجًا فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا، فالآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾».

وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ: «إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله» فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: بل نفديك، أو فديناك بآبائنا وأمهاتنا وأموالنا»(٢).

وهكذا روي عن جميع المفسرين من التابعين ومن بعدهم أنها في الإخبار بدنو أجله ﷺ والاستعداد للقاء ربه(٣).

ولهذا روي: «أنها لما نزلت بكى عمر والعباس رضي الله عنهما. فقيل لهما: إن هذا يوم فرح. فقالا: بل فيه نعي النبي ﷺ»(٤).

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٥٧، ومسلم في الحيض ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة١٢٩٠، ١٢٩١، والنسائي في الطهارة ٢٢٥، والترمذي في الصلاة ٤٧٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٢٣ عن أم هانئ: «أنه ﷺ عام الفتح قام فصلى ثمان ركعات... قالت: وذاك ضحى».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٥٩، ٣٦٦٠ من حديث ابن أبي المُعَلّى عن أبيه رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب»، ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح». وانظر «الكشاف» ٤/ ٢٤٠.

(٣) انظر « جامع البيان » ٣٠/ ٢١٥- ٢١٦.

(٤) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، «إذا»: ظرفية شرطية غير عاملة قال الزمخشري(١): «منصوب بسبح وهو لما يستقبل. قال: والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة».

ويحتمل كونها للماضي، بمعنى: إذ قد جاء، وعليه تكون متعلقة بمقدر، كـ «كمل الأمر» أو «أتم النعمة على العباد» أو نحو ذلك، لا بـ«سبح».

و « جاء » فعل ماضٍ مبني على الفتح، وهو فعل الشرط.

﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾: عونه لك على الأعداء من كفار قريش وغيرهم.

﴿وَالْفَتْحُ﴾: فتح مكة. وعطفه على قوله: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ وهو من نصر الله من عطف الخاص على العام؛ تنويهًا بشأنه.

و «ال» فيه للعهد الذهني، أي: الفتح العظيم المعروف المعهود في أذهانكم.

قال ابن كثير(٢): «والمراد بالفتح هـهنا فتح مكة قولًا واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه، فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا».

وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، وحين دخلها ﷺ وقف على باب الكعبة ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده »(٣).

﴿ وَرَأَيْتَ ﴾الخطاب للنبي ﷺ، ﴿النَّاسَ﴾: البشر، بنو آدم من العرب وغيرهم.

---

(١) في « الكشاف » ٤/ ٢٣٩.

(٢) في « تفسيره » ٨/ ٥٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في العمرة ١٧٩٧، ومسلم في الحج ١٣٤٤- من حديث ابن عمر مطولًا.

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، على اعتبار أن «رأيت»، بصرية، أو هي مفعول ثان على اعتبار «رأيت» علمية.

ومعنى ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: يسلمون، فيدخلون في دين الله «الإسلام» الذي لا يقبل الله من أحد سواه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فوج، والفوج: الجماعة، أي جماعات، جماعات.

عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلوم[١] بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم، فهو نبي»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن. قيل يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال قوم رقيقة قلوبهم، ليِّنة طباعهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية»[٣]. وفي رواية زيادة «سخية قلوبهم، عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[٥].

قال ابن كثير[٦]: «فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض

---

(١) تتلوم، أي: تنتظر. انظر «لسان العرب» مادة «لوم».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٠٢، والنسائي في الأذان ٦٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠/ ٢١٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٣١.

(٤) ذكرها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٠.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٥٧٥، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبوداود في المناسك ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ٥٣٣.

سنتان حتى استو سقت [١] جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم فقيل لـه: ما يبكيك؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا، وسيخرجون من دين الله أفواجًا»[٢].

والمعنى: إذا أتم الله لك النصر على الأعداء، وفتح مكة، ودخل الناس في دين الله جماعات جماعات فسبح بحمد ربك الخ.

ويؤيد هذا ظاهر السياق، وإجراء «إذا» على معناها للاستقبال ويكون في هذا البشارة بحصول ذلك، وذلك علم من أعلام نبوته ﷺ، ويكون نزول السورة قبل فتح مكة.

ويحتمل أن المعنى: قد جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا. ويؤيد هذا ما جاء في أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع، وفتح مكة قبل ذلك بسنتين تقريبًا، ويكون في ذلك الامتنان عليه ﷺ بما تم من النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

﴿ فَسَبِّحْ ﴾هذا أمر، والأمر في الأصل للوجوب.

والتسبيح: هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين.

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: متلبسًا بحمد ربك، أي: حامدًا لـه مثنيًا عليه واصفًا له بالكمال مع المحبة والتعظيم قارنًا جامعًا بين تسبيحه عز وجل وحمده، بقولك: «سبحان الله وبحمده»، «سبحانك ربنا وبحمدك» ونحو ذلك.

وبما هو أعم من ذلك، بذكره وشكره عز وجل، وعبادته والصلاة لـه وغير ذلك؛ ولهذا لما فتح ﷺ الكعبة صلى ثماني ركعات.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، أي: سله واطلب منه المغفرة.

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما جاء في حديث ابن

---

(١) أي: امتلأت إيمانًا، انظر: «لسان العرب» مادة «وسق».

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٤٣.

عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه- أي ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، إلى قوله: فيقول الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

وقَرَن عز وجل التسبيح والتحميد باسم الرب وصفة الربوبية تذكيرًا بنعمه عز وجل، وهو أنه هو المربي بنعمه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

كان: مسلوبة الزمان، أي: كان ومازال سبحانه وتعالى.

﴿تَوَّابًا﴾، أي: ذا التوبة الواسعة الكثيرة العظيمة، فهو كثير التوفيق لعباده للتوبة، كثير القبول لتوبة من تاب منهم، يتوب على الكثيرين مرات وكرات.

وتوبة الله على العبد: تنقسم قسمين:

القسم الأول: توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب، كما قال عز وجل عن الثلاثة الذين خلفوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبوله توبة عبده إذا تاب، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلا يقول: فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»(٢).

وعنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن »(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣، وأحمد ٢/ ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ٤٩٦٧، ومسلم في الصلاة ٤٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ٤٩٦٨، ومسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأبوداود في الصلاة- الدعاء في الركوع والسجود ٨٧٧، والنسائي في =

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابًا، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾»(١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت يا رسول الله، إنك تكثر من «سبحان الله وبحمده»، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: «إني أمرت بها، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال: نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة»(٣).

الفوائد والأحكام:

١- البشارة بنصر الله لرسوله ﷺ وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾. بعد أن كانوا من أعدائه. وقد وقع هذا المبشر به.

٢- تحقيق نصر الله عز وجل للرسول ﷺ والمسلمين وتمكينهم من فتح مكة

=

التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة- التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٩، وأحمد ٦/ ٤٣، ٤٩، ١٩٠. ومعنى «يتأول القرآن، أي: يرى أن ذلك معنى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وعملا بمقتضاه.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٤، وأحمد ٦/ ٣٥.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٣٠/ / ٢١٦.

(٣) سبق تخريجه.

وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال بعضهم: المعنى: قد جاء نصر الله والفتح.

٣- دخول الناس في دين الله أفواجًا بعد نصر الله لرسوله ﷺ والمسلمين وفتح مكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

بخلاف ما كان عليه الأمر قبل الفتح؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد: ١٠].

٤- امتنان الله- عز وجل- على رسوله ﷺ والمؤمنين بنصره لهم، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وأن ذلك من نعم الله تعالى عليهم الموجبة لشكره، ولهذا قال بعده ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٥- أن النصر بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٦- وجوب تنزيه الله عز وجل عن النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، مقرونًا ذلك بحمده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٧- أن لله عز وجل الكمال المطلق من جميع الوجوه، والحمد المطلق، فهو المنزه عن جميع النقائص والعيوب وعن مماثلة المخلوقين، وهو المحمود في جميع الأحوال وعلى كل حال.

٨- التذكير بنعم الله على العباد التي لا تحصى، من نعمة النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، فَقَرْنُ الحمد بوصف ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ فيه تذكير بنعمه- عز وجل- عليه وعلى أمته.

٩- تشريفه ﷺ وتكريمه بربوبية الله- عز وجل- الخاصة له وخطابه عز وجل له،

وإضافة وصف الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

١٠- وجوب الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وهو أمر لـه ﷺ ولأمته.

ولهذا كان ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مائة مرة، أو أكثر من مائة مرة»(١).

وكان يقول ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢).

وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اغفر خطئي وعمدي، وجدِّي وهزلي، وإسرافي في أمري، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»(٣).

وليس في أمره عز وجل لنبيه ﷺ بالاستغفار ما يلزم منه وقوع الذنب منه ﷺ مع أنه ﷺ وكذا غيره من الأنبياء معصومون من الخطأ في تبليغ ما أرسلوا به، ومن الوقوع في الكبائر، أما الصغائر فقد تقع منهم على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لكنهم لا يُقَرُّون عليها، بل سرعان ما يتوبون منها(٤).

١١- وجوب شكر الله على نعمة النصر على الأعداء والفتح للمسلمين وعلى كل نعمة من نعمه عز وجل بتسبيحه وتحميده واستغفاره والتوبة إليه.

١٢- مشروعية سجدة الشكر، وقول «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥، وأحمد ٤/ ٢١١، ٢٦٠- من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

وأخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٩٨، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٩ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» ٤/ ٣١٩، ١٠/ ٢٩٣- ٣١٣، ١٥/ ١٥٠، «الرسل والرسالات» للأشقر ص١٠٧- ١١١.

في الركوع والسجود؛ لقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»(١).

١٣- الإشارة إلى أن النصر يستمر للدين، ويزداد عند شكر الله بالتسبيح بحمده واستغفاره، كما قال عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولم يزل نصر الله لدينه في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ومن بعدهم لما كانت الأمة شاكرة لله عز وجل، مسبحة بحمده مستغفرة، قائمة بأمره متمسكة بحبله، ولما حدث في الأمة ما حدث من المخالفة لأمر الله أصابها ما أصابها من الضعف والاختلاف والتفرق، ووعد الله بالنصر ثابت لا يتخلف. كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

١٤- الإشارة إلى قرب دنو أجله ﷺ، وحثه ﷺ على ختام عمره بالتسبيح بحمد الله واستغفاره، ليستعد ويتهيأ للقاء ربه.

١٥- فضل التسبيح والتحميد والاستغفار؛ لأن الله أمر بذلك في ختام الأعمار، كما في هذه السورة، وأمر به في ختام الأعمال، كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك.

١٦- وجوب الاستعداد للقاء الله عز وجل، والانتقال من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: لهي الحياة الحقيقية.

فيجب على كل إنسان الاستعداد لهذا اللقاء العظيم، ولذلك الانتقال، وأن يزداد في الاستعداد لذلك كلما تقدم به العمر، فيكثر من التسبيح بحمد الله واستغفاره، فإن التسبيح والتحميد والاستغفار ختام الأعمال وختام الأعمار، ولنا في نبينا ﷺ خير أسوة فقد أمره الله عز وجل بذلك بعد أن أتم له النصر والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتقدم به العمر صلوات الله وسلامه عليه، فكان يكثر من تسبيح الله عز وجل وحمده واستغفاره وذكره استجابة لأمر الله عز وجل له في هذه السورة، وفي قوله:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الانشراح: ٧، ٨]. فكان أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١).

١٧- إثبات صفة التوبة لله عز وجل، وأنه سبحانه ذو التوبة الواسعة العظيمة، يتوب على من يشاء من عباده؛ بتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

فائـــدة: بم يكون الاستعداد للقاء الله؟

يكون الاستعداد للقاء الله عز وجل بأمور عدة من أهمها ما يلي:

الأمر الأول:تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهي رأس الأمر كله، ومن أعظم ما يعين على ذلك ما يلي:

أولًا: التفكر في عظمة الله عز وجل، وما لـه من صفات الكمال والجلال، مما جاء في الكتاب والسنة، ودلت عليه الآيات الكونية. قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ثانيًا: التفكر في نعم الله عز وجل على العباد، التي لا تحصى، وثمرة شكرها وآثار كفرها، كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال عز وجل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثالثًا: التفكر في حقارة الدنيا، ودنو منزلتها، وكيف وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

---

(١) سبق تخريجه.

ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(٣).

ويالله ما مدى بركة عمر من وفقه الله لهذا التصور، ثم أعطاه من العمر ما أعطاه.

ويا لله ما أقل بركة عمر معمر غاب عنه هذا التصور، وعاش غافلًا لاهيًا حتى فاجأه الأجل.

ولقد أحسن القائل(٤):

فما نحن في دار المنى غير أننا ... شغفنا بدنيا تضمحل وتذهب

فحثوا مطايا الارتحال وشمروا ... إلى الله والدار التي ليس تخرب

رابعًا: التفكر في عظمة الآخرة وعلو مكانتها ورفعة منزلتها، وأنها دار القرار ودار الحياة الحقيقية، إما نعيم أبدي، نسأل الله من فضله، أو عذاب سرمدي، نسأل الله السلامة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

خامسًا: أن يتفكر الإنسان في ضعفه، فهو من أضعف المخلوقات، إن لم يكن

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩ قال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

(٤) البيتان للشاعر ابن عثيمين. انظر: «ديوانه» ص٤٩٨.

أضعفها، وعمره بالنسبة لأعمار من سبق من الأمم لا يساوي شيئًا. قال ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»(١).

فيستمد قوته من القوي المتين سبحانه، ويستمد بركة العمر من الحي القيوم الذي لا يموت.

سادسًا: أن يكون فراق هذه الدنيا، والرحيل منها دائمًا منه على بال، وأن يكثر من ذكر هاذم اللذات «الموت».

كما قال ﷺ «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»(٢).

فمن وفقه الله عز وجل للتفكر في هذه الأشياء كان ذلك- بإذن الله عز وجل- من أكبر العون له على تقوى الله.

فمن عظم الله عز وجل وقدره دعاه ذلك إلى الفرار إليه واللجوء إليه ومحبته وخوفه ورجائه، ومن تفكر في نعمه عز وجل على العباد دعاه ذلك إلى شكره، ومن تفكر في حقارة الدنيا دعاه ذلك إلى عدم الاغترار بها، ومن تفكر في عظمة الآخرة دعاه ذلك إلى الإقبال عليها والتزود لها، ومن تفكر في ضعفه دعاه ذلك إلى استمداد القوة من القوي المتين، ومن تفكر في قصر عمره دعاه ذلك إلى الحرص على استغلاله بالخير والعمل الصالح، ومن تذكر الموت والرحيل من هذه الدار دعاه ذلك إلى المبادرة بالعمل الصالح أيام الحياة، والاستعداد للدار الآخرة.

الأمر الثاني: مما يستعد به للقاء الله والدار الآخرة:

أداء ما عليه من حقوق لله تعالى، أو للخلق، والخروج منها كلها وبخاصة حقوق الخلق من الدماء والأعراض والأموال وغير ذلك، فإن حقوق الخلق مبنية على المشاحة، فأمك وأبوك وولدك كل منهم سيطالبك بحقه إن كان له حق عندك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٠٧، والنسائي في الجنائز ١٨٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٨- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

بل إن العاقل اللبيب يحرص كل الحرص على عدم تحمل أي حق للخلق من الديون وغيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ لأن الإنسان لا يدري متى يفجأه الأجل، ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه، كما جاء في الحديث(١).

ومن صدق الثقة بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه أن يعفو الإنسان عما له من حقوق عند الآخرين، من دم أو عرض أو مال ونحو ذلك ما أمكنه ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فاحرص أخي المسلم بارك الله فيك على أن تقدم على ربك وليس لأحد من الخلق عليك حق ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وتأمل خطورة الأمر، وتذكر قول الناصح الأمين ﷺ لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»(٢).

واحرص أخي المسلم على مسامحة إخوانك المسلمين والعفو عن هفواتهم، واعلم أنك كما تدين تدان، فإن كنت تحب أن يعفو الله عن ذنوبك وهفواتك فاعف عن الآخرين، وكن من الذين قال الله فيهم: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٤٣]. نسأل الله

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز ١٠٧٨، ١٠٧٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٤١٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤١٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الكريم من فضله.

واحذر أن يكون في نفسك حقد أو عداوة أو ضغينة أو حسد لأحد من المسلمين، حتى وإن أساء إليك، واعلم أنه قل من يسلم من ذلك، واعلم أن هذا مركب صعب وعقبة كؤود وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

واعلم أخي المسلم أنك لن تهدأ، ولن تنام قرير العين ولن تذق طعم السعادة حتى تجعل العفو والتسامح ديدنك، وما إخالك ترضى بالدون، وأنت تجد ما هو أعظم وأوفى منه، فإن من كان شعاره العفو والتسامح فأجره على العفو الكريم، بلا حد ولا عد ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فعالج قلبك، والعاقبة للمتقين ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، عسى أن تلقى الله وقد تخلصت مما عليك من الحقوق فلا أحد يطالبك بشيء، وعفوت عما لك من الحقوق فيكافئك عن ذلك صاحب العفو والفضل والإحسان بكرمه وجوده- وما أراك تعدل بهذا شيئًا.

وتأمل وفقك الله مدى الفرق الشاسع والبون الواسع بين من يأتي غدًا يطلب حقوقه عند الآخرين من أقاربه وجيرانه وإخوانه وغيرهم فيقتطع له من أعمالهم بقدر حقه ولو كان مثقال ذرة، وبين من يقال له بلسان الحال أو المقال: أنت سامحت أصحاب الحقوق التي لك والله- عز وجل- أولى منك بالمسامحة، فخذ ما شئت من الأجر والفضل بلا حد ولا عد- شتان بين هذا وهذا، وبين الثرى والثريا.

الأمر الثالث مما ينبغي أن يستعد به للقاء الله تعالى:

كتابة وصيته، وما عليه من حقوق، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له

شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[١].

والوصية واجبة بالاتفاق إذا كان الإنسان عليه أو له حقوق يجب بيانها وكتابتها، كأن يكون عليه ديون للناس، أو له عليهم ديون، ليؤدَّى ما عليه من حقوق من تركته، ولأن الحقوق التي له على الناس تعد من تركته.

وجمهور العلماء على أنها مستحبة إذا لم يكن عليه حقوق يجب بيانها فيستحب أن يوصي بشيء من ماله للفقراء والمساكين من غير الوارثين. قالوا: لأن وجوب الوصية منسوخ بآيات المواريث.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها واجبة قالوا: لأن آيات المواريث إنما هي مخصصة لآية الوصية خصصتها في الأقربين غير الوارثين. فالميراث للوالدين والأقربين الوارثين، والوصية لغير الوارثين.

ومما ينبغي أن يعلم من أحكام الوصية أمران، وهما من الأهمية بمكان:

الأول: مقدارها.

اعلم أخي المسلم- بارك الله فيك- أن الوصية جائزة في الثلث وما دونه لقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «الثلث والثلث كثير»[٢].

ويستحب أن تكون الوصية دون الثلث، لقوله ﷺ لسعد: «والثلث كثير».

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع لكان أفضل؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير، أو كبير»[٣].

وقال ابن عباس أيضًا: «الذي يوصي بالخمس أفضل من الذي يوصي بالربع،

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٣٨، ومسلم في الوصية ١٦٢٧، وأبوداود في الوصايا ٢١١٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٥، والترمذي في الجنائز ٩٧٤، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨، وأبوداود في الوصايا ٢٨٦٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٢٦، والترمذي في الوصايا ٢١١٦ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٣، ومسلم في الوصية ١٦٢٩.

والذي يوصي بالربع أفضل من الذي يوصي بالثلث»[١].

وقد أوصى أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- بالخمس وقال: «رضيت لنفسي بما رضي الله به لنفسه ورسوله»[٢] يعني في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقال علي رضي الله عنه: «لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إليَّ من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك شيئًا»[٣] فالأفضل أن تكون الوصية في الخمس، وعليه أكثر السلف، واستحب بعضهم إذا كان المال كثيرًا والورثة أغنياء أو قلة أن يزيد من الخمس إلى الربع لأنه أنفع للفقراء والمساكين[٤].

والعجيب أن كثيرًا من الناس يعتقدون أن الوصية لابد أن تكون في الثلث، وكأنها لا تجوز بأقل منه، وذلك أمر مشتهر بين عامة الناس من المنتسبين إلى العلم والعوام، ينقله الخلف عن وصايا السلف.

الأمر الثاني: مصرفها:

اعلم أخي- بارك الله فيك- أن الوصية ينبغي أن توجه للأفضل من أعمال البر، وأن تكون مطلقة في وجوه البر كلها يُقدّم الأهم فالأهم، ويترك ذلك للناظر على الوصية.

والعجيب في هذا الأمر: أن كثيرًا من الوصايا في السابق مقيدة في جهات- هي بلا

---

(١) أخرجه البيهقي في الوصايا ٦/ ٢٧٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في الوصايا «المصنف» ٩/ ٦٦، الأثران ١٦٣٦٣- ١٦٣٦٤، وابن أبي شيبة في الوصايا «المصنف» ١١/ ٢٠٠- الأثر ١٠٩٦٥، والبيهقي في الوصايا «سنن البيهقي» ٦/ ٢٧٠.

(٣) أخرجه عن علي عبد الرزاق في الوصايا ٩/ ٦٦ وابن أبي شيبة في الوصايا ١١/ ٢٠٢، والبيهقي في الوصايا ٦/ ٢٧٠.

(٤) انظر: «المصنف» لعبد الرزاق ٩/ ٦٦، ٦٧، «المصنف» لابن أبي شيبة ١١/ ٢٠٠- ٢٠٣، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٧٠، «أحكام القرآن» للهراسي ١/ ٣٧٠، «الكشاف» ١/ ٢٥٠، «المحرر الوجيز» ٤/ ٩٣، «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٩٢، «العذب الفائض» ٢/ ١٨٢.

شك من البر- لكن نفعها وفضلها أقل، كأن تكون مقيدة في حجة أو أُضحية أو عشاء في رمضان، وهذه وإن كانت من وجوه البر فهناك ما هو أولى منها وأهم كبناء المساجد وتعليم القرآن الكريم والسنة المطهرة ومساعدة الفقراء والمساكين وحفر الآبار وفتح الطرق، وبناء المستشفيات والمراكز لغسيل الكلى وعلاج الأورام وغيرها، ودور الرعاية الاجتماعية وغير ذلك مما يحتاجه المسلمون في مصالحهم العامة والخاصة.

كما أن مما يستحب أن يوصي به أهله ومن خلفه تقوى الله والصلاة، وحقوق من تحت أيديهم، فعن علي- رضي الله عنه- قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(١).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ- حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»(٢).

وفي حديث أم سلمة- رضي الله عنها: «فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه»(٣).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أنه ﷺ أخذ يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»(٤)، وعنها: أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى»(٥).

هذا وقد استحب بعض أهل العلم أن يكتب في صدر الوصية ما رواه محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: «كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به فلان، إنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وأن الجنة حق، وأن النار حق ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٥٦، وابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الوصايا ٢٦٩٧، وأحمد ٣/ ١١٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الجنائز ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦، وابن ماجه في الجنائز ١٦١٩، وأحمد ٦/ ٢٣١.

﴿يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] وأوصى من تركه من أهله أن يتقوا الله، ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]»(١).

وإنني أقول بهذه المناسبة يجب على طلبة العلم والمحاضرين والخطباء تنبيه الناس إلى هذه الأحكام وأمثالها التي تخفى على الكثيرين وهي من مهمات أمور الدين. وفق الله الجميع لكل خير.

وأخيرًا، وعودًا على بدء أقول: إن من الاستعداد للقاء الله والدار الآخرة- مع ما سبق ذكره- أن يكون الإنسان كلما تقدم به العمر أكثر تنظيمًا لأحواله وتفرغًا لعبادة ربه، فإن الله عز وجل في هذه السورة العظيمة سورة النصر آذن رسوله ﷺ بقرب وفاته، وبانتهاء مهمته في هذه الحياة، وأمره بالتوجه إلى الله والتفرغ لتسبيح الله وحمده واستغفاره، كما قال تعالى في سورة الانشراح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ولن يتيسر ذلك للإنسان إلا إذا اكتفى من التعلق بالدنيا بما تدعو الحاجة إليه، وهو نصيبه من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

وأنت أخي المسلم أحد رجلين: إما منّعم موسع عليه في رزقه، وإما مبتلى مضيّق عليه في ذلك- كما ذكر الله عز وجل(٢)، فإن كنت ممن ابتلي بضيق الحال، وقلة ذات اليد، وتحتاج إلى الكد والعمل الساعات الطويلة للسعي في طلب الرزق، لإعفاف نفسك وأهل بيتك، مما لا تستطيع معه التفرغ للعبادة فالزم أداء الفرائض واجتناب النواهي مع القيام بما قدرت عليه من النوافل، وأبشر بالخير فإنك مثاب مأجور على

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» الوصايا- كيف تكتب الوصية ٩/ ٥٣، وابن أبي شيبة في «المصنف» الوصايا ١١/ ٢٣٢، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٢٢٧.

(٢) في قوله تعالى ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وإما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ [الفجر: ١٥- ١٦].

طلب الرزق لإعفاف نفسك بإذن الله عز وجل فإن السعي لطلب الرزق من طاعة الله تعالى وعبادته. فإن الإنسان يؤجر حتى على ما يجعل في في امرأته[١].

وإن كنت ممن نعمّه الله ووسع له في رزقه فاحذر أن تبطرك النعمة وتلهيك الدنيا عن طاعة الله عز وجل، وفرغ نفسك بعض الوقت لعبادة ربك والاستزادة من نوافل العبادة، واحرص على ذلك كلما تقدم بك العمر، وخذ أكبر نصيب من ربك، واحفظ دينك، وقدم مالك وقاية لدينك، فإن كان لك أموال تشغلك إدارتها، من تجارة، أو زراعة، أو صناعة، أو غير ذلك فشجع أولادك على مساعدتك، بل وعلى النيابة عنك لتتفرغ لما هو أهم وهو عبادة ربك، ولا تبخل على أولادك في هذا ولوشاطرتهم بعض مالك، فالمال إن بخلت به عنهم شغلك عن طاعة الله حتى آخر لحظة من عمرك، ثم تركته وانتقل بعدك إليهم، بل لا تبخل بمالك على من تقيمه يدير أعمالك وإن لم يكن من أولادك مادام أنه يكفيك إدارة تلك الأموال لتتفرغ لعبادة ربك بقلب حاضر خاشع منيب.

واعلم أن الدنيا بما فيها لا قيمة لها إذا أضعت نصيبك من ربك.

وختامًا أقول: أخي المسلم تذكر أن المفازة بعيدة، وأن السفر طويل، وأن العقبة كؤود، فأعدَّ للأمر عدته.

بكى أبو هريرة رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، ثم قال رضي الله عنه: «والله ما أبكي على دنياكم هذه، وإنما أبكي على طول سفري وقلة زادي»[٢].

وبكى بعض السلف عند وفاته، فقيل لـه: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي إذا صلى المصلون ولست فيهم، وإذا صام الصائمون ولست فيهم وإذا ذكر الذاكرون ولست فيهم»[٣].

وإن مما يثير العجب أن الواحد منا إذا أراد سفرًا من الأسفار كالسفر للحج أو

---

(١) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لـه: «وإنك لن تنفق نفقه تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك» أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٢، ومسلم في الوصية ١٦٢٨.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ٢/ ٤٠.

(٣) انظر: «شعب الإيمان» ٥/ ٤٢٠ (٣٦٥٠)، «المحتضرين» لابن أبي الدنيا ص١٤٦ (١٩٢)، «التبصرة» لابن الجوزي ١/ ٢١٧، «لطائف المعارف» لابن رجب ص٣٠١.

العمرة أو غير ذلك يعد للأمر عدته ويتجهز لذلك بإعداد الزاد والمزاد والراحلة واختيار الرفقة، ويتفقد السيارة ومحركاتها وعجلاتها ونحو ذلك.

بل إن بعض الناس إذا هم بسفر من الأسفار ظل طول ليله يدخل ويخرج، يرقب الصباح، ولم تذق عينه غمضًا اهتمامًا وتحفزًا لهذا السفر- فأين هذا السفر من السفر للقاء الله والدار الآخرة.

اللهم ألهمنا رشدنا ووفقنا للاستعداد لما أمامنا، ووفقنا للإخلاص والسداد في القول والعمل، ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أقل من ذلك.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْمَسَدِ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة المسد» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ٥].

وتسمى: «سورة تبت»، و «سورة أبي لهب»، و «سورة اللهب».

ب- مكان نزولها:

مكية

جـ- موضوعاتها:

١- الحكم على أبي لهب بالتباب والخسران، وتوعده وامرأته بالنار الملتهبة.

٢- تحذير المكذبين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

سبب النـزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تبًا لك، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

وفي رواية: «فقام ينفض يديه، وهو يقول: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»(١).

قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قرأ ابن كثير: «أبي لهْب» بإسكان الهاء، وقرأ الباقون بفتحها.

﴿تَبَّتْ﴾، أي: خسِرت وخابت وهلكت، والتباب: هو الهلاك والخيبة والخسران، يقال في المثل: «أشابة أم تابة، أي: هالكة من الهرم والتعجيز.

وأبو لهب: هو أحد أعمام النبي ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتبة، وإنما سمي بـ «أبي لهب» لإشراق وجهه ووضاءته، وكان شديد البغض والعداوة والكراهة للنبي ﷺ، شديد التنقص له ﷺ، والازدراء به، وبدينه، كثير الأذية له ﷺ، لا دين يردعه، ولا حمية للقرابة تمنعه.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير- تفسير سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ ٤٩٧١- ٤٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٢٠٨، والترمذي في التفسير ٣٣٦٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧١٥- ٧١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٣.

عن أبي ربيعة الديلي رضي الله عنه قال: «رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذا غديرتين[١]، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب»[٢].

ومعنى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: هلك وخاب وخسر وشقي هو بنفسه، وضل عمله وسعيه، وإنما خص التباب باليدين؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤].

ولا يقال في مثل هذا مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل، بل واضح من السياق أن المراد بذلك الشخص نفسه.

وليس في ذكر «أبي لهب» بكنيته تكريم له، كما يقال: إن الأصل في الكنية التكريم، وإنما ذكر بكنيته- والله أعلم- ليشتهر أمره، لأنه مشهور بكنيته، ولأن اسمه «عبد العزى» معبد لغير الله وليوافق نسبه وكنيته ما آل إليه، فهو أبو لهب وسيصلى نارًا ذات لهب.

﴿وَتَبَّ﴾، أي: تحقق هلاكه وخيبته وخسرانه فعلًا، فلم يربح، وهذا إخبار من الله عز وجل بمصيره ونهايته، وأنها التباب والهلاك والخيبة والخسران قال ابن كثير[٣]: «الأول: دعاء عليه، والثاني: خبر عنه».

وقد وقع هذا كما أخبر الله عز وجل، حيث مات أبو لهب على الكفر والشرك فخسر دينه ودنياه.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾، ﴿مَآ﴾: نافية، أي: ما دفع عنه العذاب ماله الذي كان يجمعه عنده ويحتمل أن تكون «ما»: استفهامية ويكون المعنى: أيّ شيء أغنى عنه ماله

---

(١) الغديرتان: هما الذؤابتان من الشعر.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١- ٣٤٢ وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٣٥١، ٤٢٣.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٥٣٤ والدعاء عليه يحتمل أن يراد به تعليم الله عباده الدعاء عليه، وأمرهم بذلك، ويحتمل أن يراد به ذمه في الملأ الأعلى، كما أن الصلاة على النبي ﷺ من الله معناها: الثناء عليه في الملأ الأعلى.

الذي كان يجمعه.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الواو عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والذي كسب، أو وكسبه.

أي: وما كسب من العمل الذي يظنه على شيء، ومن الجاه ومن الولد وغير ذلك؛ لأن الولد من الكسب، كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم»(١).

وقد روي عنه أنه كان يقول: «إن كان ما يقول ابن أخي حقًا فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾(٢).

والمعنى: أنه لم ينفعه ماله الذي جمعه، ولا ما كسبه من عمل أو ولد وغير ذلك، والذي كان سبب طغيانه، ولم يدفع عنه عذاب الله، والتباب والخسران في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن قوم نوح ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾، أي: سيدخلها ويقاسي حرها ولفحها، ويغمر فيها، وتحيط به من كل جانب. والسين للاستقبال، وتفيد الوعيد، أي: هو كائن لا محالة، وإن تراخى وقته إليها، ونكرت «نارًا» للتهويل والتعظيم.

﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ذات: صفة لـ «نارًا» منصوبة، أي: ذات توقد واشتعال، وشرر ولهيب، وإحراق شديد.

فلم ينفع أبا لهب قربه من النبي ﷺ، لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله وقد أحسن القائل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا ترك التقوى اتكالًا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب(٣)

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع- الرجل يأكل من مال ولده ٣٥٣٠، وابن ماجه في التجارات- ما للرجل من مال ولده ٢٢٩٢، وأحمد ٢/ ١٧٩، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ٤/ ١٥٨- من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقد سبق تخريجه من حديث عائشة ١/ ٢٨٣.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٥ من رواية ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البيتان ينسبان لعلي رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٤١٤.

ولما سأل ﷺ ربه أن يدعو لأمه أنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

ولما شق عليه ﷺ وعز عليه أن يموت عمه أبو طالب على الكفر مع الأيادي البيضاء التي قدمها للنبي ﷺ في الدفاع والذود عنه طيلة حياة أبي طالب أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم(١)

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، الواو عاطفة، «وامرأته»: معطوف على الضمير المستتر في قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾.

فالتقدير سيصلى هو وامرأته نارًا ذات لهب، ويحتمل كون الواو استئنافية وامرأته: مبتدأ، وخبره جملة ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ﴾.

﴿حَمَّالَةَ﴾ قرأها عاصم بالنصب، مفعول به لفعل محذوف تقديره «أذم»، وقيل: حال من «وامرأته»، وقرأها الباقون بالرفع: ﴿حَمَّالَةَ﴾ صفة لـ «امرأة».

و﴿حَمَّالَةَ﴾ مضاف، و ﴿ٱلْحَطَبِ﴾ مضاف إليه.

وهي أم جميل العوراء، واسمها أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان، وكانت شديدة الأذى لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ.

وكانت تحمل الشوك من الحسك والسعدان وغير ذلك وتلقيه في طريق النبي ﷺ أذية له وكرهًا، وكانت تمشي بالنميمة.

يقال: فلان يحطب على فلان، إذا ورّش عليه ووشى به، قال الشاعر:

---

(١) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

من البيض لم تُصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب(١)

يعني: لم تمش بين الحي بالنميمة، وجعل الحطب رطبًا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر.

فهي بأذيتها للرسول ﷺ وسعيها بالفساد والنميمة، ومساعدتها لزوجها على الباطل والكفر والجحود والفساد تجمع على ظهرها الأوزار كما تجمع الحطب في النار لتحرق نفسها وزوجها.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ «في جيدها» جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و«حبل» مبتدأ مؤخر «من مسد» جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لـ «حبل» التقدير: كائن من مسد.

و«جيدها»: عنقها ورقبتها.

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، أي: مما يفتل فتلًا قويًا من الحبال من الليف، أو الخوص، أو الجلود وغير ذلك.

قال الجوهري(٢) : «المسد: الليف، والمسد أيضًا: حبل من ليف أو خوص، قد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومَسَدت الحبل أمسُده مسدًا: إذا أجدت فتله».

والمعنى: في عنقها حبل مفتول فتلًا قويًا من النار يطوق به.

وقد رُويَ أنها كانت لها قلادة فاخرة، فقالت لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلًا في جيدها من مسد النار(٣).

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أقبلت العوراء، أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مذمماً أبينا... ودينه قلينا... وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر، قال: يا

---

(١) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/ ٤٣٤، «شرح نهج البلاغة» ٥/ ٢٢.

(٢) في «الصحاح» مادة «مسد».

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٣٦.

رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت، وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها»(١).

الفوائد والأحكام:

١- ذم أبي لهب وخيبته وخسرانه؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ وهذا دعاء عليه، وذم له.

٢- حكم الله تعالى الكوني بهلاك أبي لهب وخسرانه، وإبطال كيده الذي يكيد به للرسول ﷺ ولدينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ﴾.

٣- أن ما حكم الله به كونًا نافذ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ﴾ وهذا من الله إخبار بأن أبا لهب تب وخسر فعلًا، وهذا موجب أن يموت أبو لهب على الكفر والشرك وقد وقع ذلك.

٤- أن المال والكسب من الولد وغيره لا يغني عن صاحبه شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، ولا يدفع عنه أو يمنعه عذاب الله إذا لم يتخذ العبد له وقاية من عذاب الله بالإيمان بالله والعمل الصالح.

٥- أن المال والولد ونحو ذلك قد يكون سببًا للفتنة، ورد الحق، والتكبر عن الانقياد له، والغرور بذلك، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى عن الوليد ابن المغيرة: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: ١١-

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٢- الأثر ١٩٥٢٢. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٦ وقال: «وقد روى الحافظ أبو بكر البزار معناه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال البزار: «لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر رضي الله عنه».

١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالى عن صاحب الجنتين أنه قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

٦- الوعيد لأبي لهب وامرأته حمالة الحطب في إصلائهما النار ذات اللهب والشرر والتوقد والاشتعال الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

٧- أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، وأنه لا ينفع الإنسان غدًا إلا ما قدم من الإيمان والعمل الصالح، فلا ينفع الإنسان شرف نسبه، ولا قرابته، مع الكفر والشرك والمعاصي، فأبو لهب عم النبي ﷺ لم ينفعه ذلك لما كفر وعاند وجحد الحق وسعى في إبطاله، بل سيصلى نارًا ذات لهب.

٨- صحة أنكحة الكفار فيما بينهم لقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ وهكذا أسلم الكثير من الصحابة، ولم يأمرهم النبي ﷺ بتجديد أنكحتهم، وكان ﷺ يدعوهم لآبائهم.

٩- أن مما تعذب به امرأة أبي لهب حمالة الحطب أن يجعل في عنقها حبل من مسد النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

١٠- التحذير من أذية الرسول ﷺ والمؤمنين وقد ذكر المفسرون أن امرأة أبي لهب كانت تؤذي رسول الله ﷺ وتعين زوجها على أذيته والكيد له وللإسلام والمسلمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

١١- التحذير من السعي بين الناس بالنميمة، وقد ذكر أهل التفسير أن امرأة أبي لهب كانت تمشي بالنميمة بين الناس.

والنميمة من أكبر الكبائر. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٠٩، ومسلم في الطهارة ٤٣٩، وأبو داود في الطهارة ١٩، والنسائي في =

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام»[١].

قال الفضيل بن عياض: «ثلاث تهد العمل الصالح، وتفطر الصائم، وتنقض الوضوء[٢]: الغيبة والنميمة والكذب»[٣].

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: «إياكم والنميمة فإنها محرقة، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر»[٣].

قال بعضهم:

إن النميمة نار ويك محرقة ... ففر عنها وجانب من تعاطاها[٤]

١٢- في هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

١٣- في هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح، وبرهان ساطع على ثبوت نبوة نبينا محمد ﷺ.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل فحيث دعا أبو لهب على النبي ﷺ بالتباب حكم الله عز وجل- عليه بذلك، وكما كان هو وامرأته يؤذيان النبي ﷺ كان لهما العذاب والأذى في نار جهنم.

* * *

=

الجنائز ٢٠٤١، والترمذي في الطهارة ٦٥ وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣٤١.

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان ١٠٥، وأبو داود في الأدب ٤٨٧١، والترمذي في الصلة ٢٠٢٦.

(٢) كونها تهد العمل الصالح ظاهر فأعمال النمام تذهب لغيره، وأما كونها تفطر الصائم وتنقض الوضوء فمعناه أنها تنقص الأجر.

(٣) انظر: «صيد الأفكار» ١/ ٥٠٢.

(٤) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٣٩.

تَفْسِيرُ سُوْرَةِ ٱلإِخْلَاصِ

المقدمة(١)

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الإخلاص»؛ لإخلاصها التوحيد بأقسامه الثلاثة لله تعالى وحده.

وتسمى: «سورة قل هو الله أحد»، و«سورة الصمد»، و«سورة التوحيد» و«سورة الأساس»، و«المقشقشة». وغير ذلك.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

سورة الإخلاص سورة عظيمة من أعظم سور القرآن الكريم لما اشتملت عليه من الدلالة على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ ولهذا سميت سورة الإخلاص.

وقد وردت أحاديث عدة في فضلها، وفضل قراءتها في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والقيام منه، وللاستشفاء بها، وفي أنها تعدل ثلث القرآن، إلى غير ذلك. منها ما يلي:

١- ما ورد في فضل قراءتها، وفضل حبها وحب قراءتها:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه، لأي شي يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه»(٢).

---

(١) قد أفردت هذه السورةمع سورتي المعوذتين برسالة سميتها «الحرز الأمين في تدبر سورة الإخلاص والمعوذتين» وقد ضمنت جلها في هذا التفسير، مع ما فيها من الإطناب والاستطراد لأمور تربوية وتوجيهية وفوائد أرجو من الله العلي القدير أن ينفع بها وأن يعفو عني.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين - فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، =

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرا سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك على لزوم هذه في كل ركعة»؟ قال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة»(٢).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة، فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب»(٣).

٢- ما ورد في أنها تعدل ثلث القرآن:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

=

٨١٣، والنسائي في الافتتاح - الفضل في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٩٩٣.

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الأذان ٧٧٤، والترمذي في فضائل القرآن - ما جاء في سورة الإخلاص ٢٩٠١، وقال: «حديث غريب»،وأخرجه أحمد ٣/ ١٤١ مختصراً عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة».

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن - ماجاء في سورة الإخلاص ٢٨٩٧، ومالك في الموطا - كتاب القرآن - ما جاء في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حديث ٤٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٧ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤٤: «تفرد به أحمد» وأخرجه الدارمي في مسنده من حديث سعيد بن المسيب بأطول من هذا، ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤٤ وقال: «مرسل جيد».

أَحَدٌ ﴾يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»(١).

وفي رواية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ ثلث القرآن»(٢).

وفي رواية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده لتعدل نصف القرآن، أو ثلثه»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج النبي ﷺ، فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثم دخل. فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: إني قلت سأقرأ عليكم

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان - باب كيف كان يمين النبي ﷺ، ٦٦٤٣، وفي فضائل القرآن - فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ٥٠١٣، ٥٠١٤، وفي التوحيد ٧٣٧٤، وأخرجه أبوداود في الصلاة ١٤٦١، والنسائي في الافتتاح ٩٩٥. وروى نحوه من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه أحمد ٤/ ١٢٢، وابن ماجه في الآداب - ثواب القرآن ٣٧٨٩.

(٢) أخرجها البخاري في فضائل القرآن - باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ٥٠١٥ وقد أخرج مسلم في صلاة المسافرين - فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ٨١١، وأحمد ١/ ٤٧٧ - من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه. وكذلك روى نحوه من حديث أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أحمد ٥/ ٤١٨-٤١٩، والترمذي في فضائل القرآن - فضل سورة الإخلاص ٢٨٩٦.

ومن حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: قال رسول الله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن» أخرجه أحمد ٦/ ٤٠٣-٤٠٤.

وهكذا روي عن نفر من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن» رواه النسائي في اليوم والليلة. انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٤٢.

(٣) أخرجها البخاري في فضائل القرآن ٥٠١٤، وأحمد ٣/ ١٥، ورُوِيَ معنى هذا من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أخرجه أحمد ٢/ ١٧٣.

ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن»[١].

وذلك لأن فيها إثبات التوحيد بأقسامه الثلاثة، والقرآن: توحيد وقصص وأحكام[٢].

٣- ما ورد في فضل قراءتها مع المعوذتين في الصباح والمساء.

عن معاذ بن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «قل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»[٣].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن؟ قال يا عقبة: «أخرس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[٤] قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ؛ فابتدأني فأخذ بيدي فقال يا عقبة بن عامر: «ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قال: قلت بلى، جعلني الله فداك. قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثم قال: يا عقبة، «لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن»، قال: فما نسيتهن منذ قال: «لا تنسهن» وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبة: ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٨١٢، والترمذي في فضائل القرآن - ماجاء في سورة الإخلاص ٢٩٠٠، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٧.

وروي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن» رواه أحمد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤١.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٢٠٧-٢٠٨.

وروي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ بثلث القرآن» رواه أحمد فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٤١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٥٠٨٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٢٨، ٥٤٢٩، والترمذي في الدعوات ٣٥٧٥، وأحمد ٥/ ٣١٢.

(٤) في هذا التوجيه الكريم: التحذير من فضول الكلام، وفضول مخالطة الأنام، والحث على صدق الإنابة والتوبة من الآثام. والله المستعان.

فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك [١]»[٢].

٤- ما ورد في قراءتها مع المعوذتين عند النوم:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثم يمسح ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»[٣].

وسبق ذكر قراءتها مع سورة الكافرون في ركعتي الطواف، وفي الركعتين قبل الفجر، والركعتين قبل المغرب، وقراءتها مع سبح والكافرون في الوتر[٤].

٥- ما جاء أن فيها اسم الله الأعظم:

عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو، يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. قال: «والذي نفسي بيده لقد سأله

---

(١) هذه الصفات الثلاث لا تتوفر إلا لمن وفقه الله للتذرع بالصبر كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت:٣٥].

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨-١٥٩، وأخرجه الترمذي مختصراً - وليس فيه ذكر خيريّة هذه السور - في الزهد - ما جاء في حفظ اللسان ٢٤٠٦، وقال: «حديث حسن».

وهذا الحديث إن صح لا يعارض ما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي سعيد بن المعلى وغيره من أن سورة الفاتحة هي أفضل وأعظم سورة في القرآن، وتكون خيرية هذه السور الثلاث بين سور القرآن ما عدا سورة الفاتحة التي هي أفضل سورة في القرآن بدلالة الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن - باب المعوذات ٥٠١٧، وأبوداود في الأدب ما يقال عند النوم ٥٠٥٦، والترمذي في أبواب الدعوات - ما يقرأ من القرآن عند النوم ٣٤٠٢، وابن ماجه في الدعاء، ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ٣٨٧٥.

(٤) راجع مقدمة سورة الأعلى وسورة الكافرون.

باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»[١].

د- موضوعاتها:

- إثبات الوحدانية لله تعالى في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته فلا شريك له في ذلك ولا مثيل.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الوتر - باب الدعاء ١٤٩٣، والترمذي في أبواب الدعوات - جامع الدعوات ٣٤٧٥، وابن ماجه في الدعاء - باب اسم الله الأعظم ٣٨٥٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

سبب نزول هذه السورة:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، الذي بعثك فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه شيء ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء»(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٥/ ١٣٣- ١٣٤، والترمذي في التفسير- تفسير سورة الإخلاص ٣٤٢٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٢٧ وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٤- الأثر ١٩٥٣٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٧٢٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٨. وقال «إسناده مقارب» وقال ابن كثير أيضًا- بعدما ذكر رواية ابن جرير له قال: «وقد أرسله غير واحد من السلف».
وقد روي من طريق أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك» فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٥٣٨ وقال: «قال الطبراني: رواه الفريابي وغيره عن أبي وائل مرسلًا».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٧٤- الأثر ١٩٥٣٤، وفي رواية عن يوسف بن عبدالله بن سلام أن عبد الله بن سلام قال: «يا رسول الله انعت لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة، فأسلم عبد الله بن سلام» أخرجها ابن أبي حاتم- الأثر ١٩٥٣٣.

ومحصل هذه الروايات بمجموعها أن المشركين من أهل مكة ومن أهل الكتاب سألوا النبي ﷺ أن ينسب ويصف لهم ربه فأنزل الله هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

﴿قُلْ﴾: أمر للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الأمر والخطاب من أفراد أمته، أي: قل قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، «هو»: ضمير الشأن مبتدأ، وخبره «الله أحد».

والجملة من المبتدأ وخبره في محل نصب مقول القول، وكذا ما بعدها.

ولفظ الجلالة «الله» معناه المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، وذلًا وخضوعًا، وخوفًا ورجاءً.

وقال ﴿أَحَدٌ﴾ ولم يقل: الأحد؛ لأنه ليس في الموجودات ما يسمى «أحدًا» في الإثبات مفردًا غير مضاف سواه سبحانه وتعالى، بخلاف النفي وما في معناه كالاستفهام، فإنه يقال: هل عندك أحد، وما جاءني أحد.

ومعنى (أحد)، أي الواحد، الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ ولهذا قال بعده ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

قال ابن كثير[1]: «يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه، ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله- عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله».

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل رفع خبر ثان لـ «هو».

وأدخل «ال» على ﴿ٱلصَّمَدُ﴾؛ لأن المستحق لوصف الصمدية على الكمال والتمام هو الله وحده لا شريك له، بخلاف المخلوق فهو وإن سمي صمدًا من بعض الوجوه فلا يقال له ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: بالصمدية المطلقة، وإنما يقال له «صمد» بمطلق الصمدية.

و«الصمد» المقصود في جميع الحوائج، المستغني عن كل ما سواه، والذي كل ما

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٥٤٧.

سواه محتاج ومفتقر إليه، الذي تصمد وتتجه إليه الخلائق، وتقصده في طلب قضاء حوائجهم ومسائلهم الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

و«الصمد»: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والذي بلغ من كل وصف مما يوصف به غاية كماله ونهايته، سؤددًا وشرفًا وعظمة وحلمًا وعلمًا وحكمة وحكما، الحي القيوم الذي لا زوال لـه، والذي لم يلد ولم يولد.

و«الصمد»: الذي لا جوف لـه، وقيل غير ذلك.

قال ابن تيمية[1] بعدما ذكر الأقوال في معنى «الصمد» قال: «قلت الاشتقاق يشهد للقولين جميعًا، قول من قال: إن الصمد الذي لا جوف لـه، وقول من قال: إنه السيد، وهو على الأول أدل، فإن الأول أصل الثاني».

وقال ابن كثير[2] بعد سياق كثير من الأقوال في معنى «الصمد»: «وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» لـه بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسيره «الصمد»: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف لـه، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾، أي: لم يكن لـه ولد، كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٣٥٦- ٣٦٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٤٧- ٥٤٨.

ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾، أي: لم يتولد من غيره، فيكون محدثًا، بل هو القائم بذاته، القيوم أزلًا وأبدا.

لأن «الولد»: ما تولد من شيء أو شيئين كآدم خلق وتولد من التراب، وحواء خلقت وتولدت من آدم، وعيسى تولد من مريم، أنثى بلا ذكر، وسائر الخلق تولدوا من ذكر وأنثى.

وعلى هذا فالولد محدث مخلوق بعد أن لم يكن، كما قال عز وجل: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٧].

وما كان محدثًا مخلوقًا فهو يفنى، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

والله عز وجل هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾، أي: ولم يكن له مكافئًا، ولا مماثلًا، ولا شبيهًا، ولا نظيرًا، كما قال عز وجل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال السعدي[1]: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله تبارك وتعالى، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات».

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٦٨٦.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن الرسول ﷺ اختلق القرآن، وأن هذا النظم كلامه ابتدأ به. كما أن في هذا الرد على الغلاة الذين يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية فهو ﷺ عبد لا يعبد ونبي ورسول لا يكذب.

٢- إثبات العبادة لله تعالى وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، لأن معنى لفظ الجلالة (الله): المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

٣- إثبات الوحدانية لله عز وجل، وأنه الواحد الأحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، بل كل هذه السورة دليل على إثبات توحيد الأسماء والصفات لـه عز وجل.

٤- إثبات ربوبيته عز وجل، وحاجة الخلائق كلهم إليه عز وجل، وغناه سبحانه وتعالى عمن سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، أي: الذي تصمد إليه الخلائق وتتجه إليه وتقصده بطلب قضاء الحوائج، إذ الخير كله بيديه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

٥- نفي الولد والمجانس والقريب المداني لـه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما قال عز وجل ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

٦- الرد على أهل الشرك من أهل الكتاب وغيرهم في نسبتهم الولد إلى الله عز وجل، وقول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وزعم المشركين أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته[1]. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم»[3].

٧- إثبات أنه عز وجل الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴾؛ لأن ما تولد من غيره محدث، ونهايته إلى الفناء والله عز وجل منزه عن ذلك كله، قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

٨- تنزيه الله عز وجل عن المكافئ والشبيه والمثيل والنظير؛ لقوله تعالى:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾فلا مكافئ له ولا شبيه، ولا مثيل، ولا نظير، بل هو الواحد الأحد، في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

٩- وجوب الإقرار والاعتراف ظاهرًا وباطنًا، بنطق اللسان وتصديق القلب، وانقياد الجوارح بألوهية الله عز وجل ووحدانيته وصمديته وربوبيته، وتنزهه عن الولد والوالد والمكافئ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾إلى آخر السورة.

* * *

---

(١) كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨].

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٧٤، ٤٩٧٥، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة، ٢٨٠٤.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْفَلَق

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الفلق»؛ لقوله عز وجل في أولها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

وتسمى: «سورة قل أعوذ برب الفلق»، وتسمى مع سورة الناس بـ «المعوذتين» عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات**».

وفي رواية بـ «المعوذتين» في دبر كل صلاة»(١).

وذكر أنهما تسميان: «المقشقشتين»، فيكون اسم «المقشقشة» مشتركًا بين عدة سور: الإخلاص، والكافرون، والفلق، والناس، وبراءة.

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

جـ- فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها: «**أن النبي ﷺ كان يقرأ بهما- يعني المعوذتين- وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، وما بلغت يداه من جسده**»(٢).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله: «سورة هود»، و «سورة يوسف». فقال: «لن تقرأ شيئًا أبلغ عند الله من: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٣).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٣، والنسائي في السهو ١٣٣٦، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٣، وأحمد ٤/ ١٥٥، وقال الترمذي «حديث غريب».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ٩٥٣.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٨١٤، والنسائي في الافتتاح ٩٥٣، والترمذي في تفسير المعوذتين =

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأقرني:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ، فقرأ بهما، ثم مرّ بي، فقال: «كيف رأيت يا عقيب، اقرأ بهما كل ما نمت وكلما قمت»(١).

وعن ابن عابس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له يا ابن عابس: «**ألا أدلك، أو قال: ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟**» قال: بلى، يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هاتين السورتين»(٢).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذن الجان، وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ونزل ما سواهما**»(٣).

د- موضوعاتها:

- الإرشاد إلى كيفية الاستعاذة من الشر وأهله.

* * *

=

٣٣٦٨، وأحمد ٤/ ١٤٤، ١٤٦.

(١) أخرجه أبو داود في الوتر ١٤٦٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٠٢٤، ٥٠٢٥.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٣٢.

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢٠٥٨، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

سبب النـزول:

روي عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، أن هذه السورة مع سورة الناس نزلتا في سحر اليهود للنبي ﷺ(١).

وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذ من الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما(٢).

قال ابن القيم(٣): «فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيون التي أصلها كلها الوسوسة».

وقال أيضًا(٤): «والمقصود: الكلام على هتين السورتين، وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة، بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرًا خاصًا في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

﴿قُلْ﴾ الأمر فيه للرسول ﷺ ولكل فرد من أفراد أمته ممن يصلح له الخطاب، فلا يدخل فيه المجنون والصغير ونحوهما؛ لقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة؛ النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ»(٥).

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٧، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٥٧.

(٢) كما سبق في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) انظر: «التفسير القيم» ص ٦٠٠.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص ٥٣٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢- من =

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «**سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين؟ فقال: قيل لي، فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ**»(١).

وجملة ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وما بعدها إلى نهاية السورة في محل نصب مقول القول.

ومعنى ﴿أَعُوذُ﴾: أعتصم وألتجئ وأستجير وأتحصن وأتحرز وألوذ وهذا هو الركن الأول من أركان الاستعاذة، وهو التعوذ.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، «برب» جار ومجرور متعلق بقوله: «أعوذ» وهذا هو الركن الثاني من أركان الاستعاذة، وهو: المستعاذ به، وهو: «رب الفلق». والباء: للاستعانة.

و «الرب» في اللغة: مأخوذ من التربية والتنمية للشيء، والقيام عليه وإصلاحه.

قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣]، أي: اللاتي تربونهن في حجوركم. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: القيوم على كل شي سبحانه.

والرب: هو الخالق المالك المدبر، فرب الفلق خالقه ومالكه ومدبره.

ويأتي «الرب» بمعنى المعبود، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٤٩]، أي: آلهة.

ويأتي بمعنى «الصاحب»، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، فالمعنى هنا: صاحب العزة.

و«الرب» بالتعريف لا يطلق إلا على الله.

و«رب كذا» بالإضافة يطلق على الله وعلى غيره، فيقال: رب الدار، ورب الناقة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠].

وربوبية الله عز وجل لخلقه تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة لجميع خلقه بمعنى: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

=

حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الناس ٤٩٧٦، ٤٩٧٧.

وربوبية خاصة بأوليائه بتوفيقه لهم للطريق المستقيم في الدنيا، وفي الآخرة إلى الجنة، كما في قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

و«الفلق»: الخلق، والشق، وكل ما انشق عن شيء فهو فلق، فالصبح والحب فلق، قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

أي الذي خلق وشق الحب والنوى، فأخرج منه النبتة فأخرج من الحبة السنابل الكثيرة المشتملة على مئات الحبات، كما قال عز وجل: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وأخرج من النواة النخلة، بل العدد من النخيل المثمرة، كما قال عز وجل: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وخلق وشق الصبح وضياءه من ظلام الليل الدامس البهيم، وفي الحديث: «أنه ﷺ ما رأى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(١).

وكل ما انفلق وانشق عن غيره من نبات، وحيوان وغير ذلك فهو فلق.

قال ابن تيمية رحمه الله(٢): «وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق استعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النهاري- يعني الصبح- استعيذ من شر غاسق إذا وقب».

وقال ابن القيم رحمه الله (٣): «واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فَلَق «فَعَل» بمعنى «مفعول» كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله عز وجل ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٣، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وأحمد ٦/ ١٥٣، ٢٣٢- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٤٩٦.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٢.

الصبح المتصدع عن الظلمة «فَلَقًا وفَرَقًا» يقال: هو أبيض من فَرَق الصبح وفَلَقه.. يفرق ظلام الليل بالإصباح.. ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه: «فلقًا»».

قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

في هذه الآيات: الركن الثالث من أركان الاستعاذة، وهو:«المستعاذ منه»، وهو أمور أربعة. الأول منها: ذكره الله عز وجل بقوله:

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ فهذا هو المستعاذ منه الأول في هذه السورة. وقوله﴿ مِن شَرِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ«أعوذ»، و «ما»: موصولة، وهي تفيد العموم، لكنه عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي، أي: أعوذ برب الفلق من شر جميع المخلوقات التي فيها شر، سواء من شرور الدنيا أو الآخرة؛ من شر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام، وشر النار، وشر النفس، كما قال ﷺ «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»(١)، وغير ذلك.

وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، وإن كان مماليس فيه شر، بل هو خير محض كالجنة والملائكة، وكذا الأنبياء، فإنهم خير محض، بل الخير كله حصل على أيديهم.

فدخل تحت قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ الاستعاذة من كل شر، في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسيًا كان أو جنيًا أو هامة أو دابة أو ريحًا أو صاعقة، أو أي نوع كان من أنواع البلاء والشرور.

وقد رُويَ أنه ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: «يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد»(٢).

قال ﷺ: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١١٨، والنسائي في الجمعة ١٤٠٤، والترمذي في النكاح ١١٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٢- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٠٣- من حديث ابن عمر رضي الله عنها.

شيء حتى يرتحل منه»(١).

وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»(٢).

والشر: هو الآلام الحسية والمعنوية، الجسدية والنفسية، وما يسببها من الكفر والشرك والمعاصي، فما من ألم نفسي أو معنوي، جسدي أو نفسي، إلا سببه الكفر والمعاصي، قال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن القيم رحمه الله(٣): «الشر يقال على شيئين على الألم، وعلى ما يفضي إليه، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع لذة، لكنها شرور؛ لأنها أسباب للآلام ومفضية إليها، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح، والإحراق في النار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها ولابد، ما لم يمنع من السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه... وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته، فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥٤٧- من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤١٩- من حديث عبد الرحمن بن خَنْبَش رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٤٤- ٥٤٨.

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال الله نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عاقبة عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم(١)

فما حفظت نعمة لله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره لـه.

وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسران ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد والهرب، ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: «عذاب القبر، وعذاب النار» فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال» وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب... فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابه.وهذا من آكد أدعية الصلاة...».

---

(١)هذا البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر «ديوانه» ص١٧٥، ١٧٦- جمع نعيم زرزورة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وقال ابن القيم أيضًا [(١)]: «والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود، يطلب رفعه، والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود، فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم، فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم».

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ هذا هو المستعاذ منه الثاني في هذه السورة، وهو والمستعاذ منه الثالث، والرابع كلها داخلة ضمن المستعاذ منه الأول، وهو قوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾من باب التخصيص بعد التعميم؛ لعظم ضرر هذه الأشياء الثلاثة وشدة خفائها.

والغاسق هو الليل وظلمته، يقال غسق الليل وأغسق الليل إذا أظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ ﴾، أي: إذا أقبل ودخل في كل شيء، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»[(٢)].

فالقمر غاسق إذا وقب، أي: إذا غاب، والليل غاسق إذا دخل بظلمته كل شيء.

وقيل المراد بغسق الليل: برودته.

قال ابن القيم[(٣)]: «ولا تنافي بين القولين فإن الليل بارد ومظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه».

والأظهر من القولين، القول الأول أن المراد بالغاسق الليل إذا أقبل ودخل بظلامه، ومنه القمر إذا وقب.

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في «التفسير» ٣٣٦٦. وقال «حديث حسن صحيح».

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٨، «بدائع التفسير» ٥/ ٣٩٧.

قال ابن القيم[١]: «والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق، الذي هو الصبح والنور، من شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة».

وإنما أمر الله بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الليل إذا أقبل بظلمته ودخل في كل شيء، لأن الليل هو محل الظلام وفيه تتسلط وتنتشر شياطين الإنس والجن والهوام وغيرها من الأرواح الشريرة والخبيثة المؤذية والمفسدة.

ولهذا قال ﷺ: «إذا أقبل الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمّر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئًا»[٢].

وفي رواية: «فإن الله عز وجل يبث في ليله من خلقه ما يشاء»[٣].

فالشياطين من الإنس والجن والحيوانات تتسلط في الليل؛ لأنه محل الظلام ما لا تتسلط بالنهار؛ لأن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل القلوب المظلمة بالكفر والمعاصي، الخالية من ذكر الله ونوره.

قال ابن تيمية[٤] بعدما ذكر القولين في معنى «غاسق» قال: «فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن مالا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش، وغير ذلك، فالشر دائمًا مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما

---

(١) في الموضعين السابقين.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨٠، ومسلم في الأشربة ٢٠١٢، وأبوداود في الأشربة ٣٧٣٣، والترمذي في الأطعمة ١٨١٢، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧١- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجها أحمد ٣/ ٣٠٦، ٣٥٥.

(٤) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٤٩٧.

لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته. وأبو معشر البلخي لـه «مصحف القمر» يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه».

وقال ابن القيم(١): «روي أن سائلًا سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: «في ظلماء حندس» وسئل النبي ﷺ: «كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار»فاستدل بهذا على نبوته، وأن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان.

ولهذا كان سلطان السحر إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم، كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص، وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها.

فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور، الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات الكفر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]».

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾: هذا هو المستعاذ منه الثالث في هذه السورة، وهو: شر النفاثات.

و«النفاثات»: جمع نفاثة، وهن السواحر اللاتي يرقين وينفثن في العقد، أي اللاتي يعقدن عقدًا وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر.

والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التَّفْل، وهو مرتبة بينهما.

والعقد: عقد الخيوط التي يعقدنها وينفثن فيها.

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٠- ٥٦٢.

قال ﷺ: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه»(١).

والمراد بالنفاثات: الأنفس الخبيثة السواحر، فيشمل جميع الأنفس السواحر الخبيثة، من الذكور والإناث.

وقيل المراد النساء السواحر، وخص النساء بالذكر؛ لأن السحر فيهن أكثر لضعف عقولهن ودينهن.

قال ابن القيم(٢): «والجواب المحقق أن النفاثات هنا: هن الأرواح والأنفس النفاثات، لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح ا لشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، ولهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير، والله أعلم».

وقال أيضًا (٣): «والنفث: فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي».

وقال الزمخشري (٤): «وعرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة، ونكر غاسق لأنه ليس كل غاسق فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود، وهو الحسد في الخيرات».

والسحر من صفات اليهود، فهم أسحر الناس، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) أخرجه النسائي في تحريم الدم ٤٠٧٩- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٤.

(٣) انظر« التفسير القيم» ص٥٦٣.

(٤) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٤.

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾هذا هو المستعاذ منه الرابع والأخير في هذه السورة، وهو شر الحاسد إذا حسد.

والحاسد: هو الذي يكره الخير للغير، أو يتمنى زوال النعمة عنهم. وربما سعى بمنع ذلك أوزواله عنهم بما يستطيع من الأسباب بفعله بيده، أو بقوله بلسانه أو بغير ذلك.

وهكذا ذكر ابن القيم[١] للحسد المذموم مرتبتين: الأولى: تمني زوال النعمة عن الغير، والثانية تمني استصحاب عدم النعمة، قال: «فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله، من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس».

وإبليس أول الحاسدين، حسد أبانا آدم عليه السلام على شرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدًا وكبرًا. وعلى هذا فالحسد يكون من شياطين الجن وشياطين الإنس، وهذا النوع من الحسد من كبائر الذنوب، وهو المراد بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وفي الحديث: «**إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»، أو قال «**العشب**»[٢].

وإنما حرم الحسد وعُد من كبائر الذنوب؛ لما فيه من الاعتراض على قضاء الله وقدره في قسمته الأرزاق بين عباده، كما قيل:

جلّ من قسّم الحظوظ فهذا ... يتغنى وذاك يبكي الديارا[٣]

وأيضًا لما فيه من أذية المحسود بلا ذنب منه ولا جرم. وغير ذلك.

ويدخل في الحاسد: العائن الذي يؤذي المحسود بنفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولسانه، كما قال عز وجل عن المشركين: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص٢٥٢.

قال ابن كثير[١]: «أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رقية جبريل للنبي ﷺ قوله: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك»[٢].

فقد أعاذ جبريل عليه السلام النبي ﷺ من شر عين كل حاسد.

وقال ﷺ: «العين حق، لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»[٣].

فالعائن حاسد، لكنه حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا- والله أعلم- إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن، لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولابد، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن.

وقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، أي: إذا أظهر حسده وحققه وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة.

وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»[٤]. لأنه إذا لم يظهر الحسد، ولم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر منه يعود على المحسود.

قال ابن القيم [٥]: «ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك. ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٦، وأخرجه أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها ٢١٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في السلام ٢١٨٨- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.وأخرجه أيضًا بلفظ «العين حق» ٢١٨٧، وكذا البخاري في الطب ٥٧٤٠- كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحافظ عبد الرحمن الأصفهاني في «الإيمان» عن الحسن البصري مرسلًا، وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «التفسير» ٧/ ٣٧٥ من حديث حارثة بن النعمان بلفظ «إذا حسدت فاستغفر الله».

(٥) انظر «التفسير القيم» ص٥٧٣- ٥٧٤.

غافل عن المحسود لاهٍ عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قبله إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قلبه، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله، ويتحصن به، ويكن لـه أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله، والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولابد، فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾: بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل».

وقال أيضًا [١]: «ومعلوم أن عينه- أي الحاسد- لا تؤثر بمجردها، إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة، وانسمّت واحتدت، فصارت نفسًا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد...».

قال القرطبي [٢]: «والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون، ولقد أحسن من قال:

قـل للحسـود إذا تـنفَّس طعنـة ... يـا ظالمًـا وكأنـه مظلـوم»

فضرر الحسد إنما يعود على الحاسد؛ لاغتمامه بسرور غيره.

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: «لم أر ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد»[٣].

وهو من أكبر الكبائر، ومحبط للأعمال.

وفي الحديث: «**إياكم والحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب**»[٤].

وقال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء**»[٥].

---

(١) انظر: «التفسير القيم» ص٥٧٥.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/ ٢٥٩.

(٣) انظر: «الكشاف» ٤/ ٢٤٤.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٠- من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

قال الرازي: «ختم الله مجامع الشرور الإنسانية بالحسد، كما ختم مجامع الخبائث الشيطانية بالوسوسة»(١).

وقال الحسين بن الفضل البجلي: «إن الله جمع الشرور في هذه الآية، وختمها بالحسد؛ ليعلم أنه أخس الطبائع»(٢).

فهو مع الكبر الذي حمل إبليس على ترك السجود لآدم والكفر والخروج من ملكوت السموات والأرض وطرده وإبعاده وتخليده في النار، كما قال عز وجل عنه أنه قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، و قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ص ٧٦].

وهو الذي حمل أحد ابني آدم على قتل أخيه لما تقبل الله قربانه دونه، كما قال عز وجل ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وهو من صفات اليهود، فهو الذي حملهم على رد رسالة الحق، رسالة نبينا محمد ﷺ، كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٥].

وهو مما حمل ثمود على تكذيب نبيهم صالح، ورد دعوته، كما قال الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

وهو مما حمل كفار قريش على تكذيب الرسول ﷺ، ورد دعوته، كما قال الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والحسد داء عضال، ومرض عام ومنتشر، لا يكاد يسلم منه أحد، إلا من عصمه

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» ١/ ٢٢٦.

(٢) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي ١٠/ ٢٤٠.

الله، وقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه»(١).

وقيل للحسن البصري رحمه الله: «أيحسد المؤمن قال: ما أنساك إخوة يوسف»(١).

قال ابن القيم رحمه الله(٢): «وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله،.. لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك، وهو لا يطيعها، ولا يأتمر بها بل يعصيها طاعة لله وخوفًا، وحياء منه، وإجلالًا له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضًا لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاه، من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمني زوال النعمة».

وقال أيضًا (٣): «فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعمة ومواليها كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه.. قال تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]».

وقال ابن القيم أيضًا(٤): «فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شرورًا أربعة يستعاذ منها: شرًا عامًا، وهو شر ما خلق، وشر الغاسق إذا وقب، فهذان نوعان، ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضًا؛ لأنهما من شر النفس الشريرة، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده وهو الساحر.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد؛ لأنه نائبه

---

(١) انظر: «أمراض القلوب» لابن تيمية ص٢١، «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٣٦.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٣.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٥.

(٤) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٢- ٥٨٣.

وخليفته؛ لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده».

الفوائد والأحكام:

١- حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله واللجوء إليه، وأنه قد تصيبه العوارض التي أُمر في هذه السورة بالاستعاذة من شرها، وأنه ﷺ لا يملك جلب الخير لنفسه، ولا دفع الضر عنها، وكذا غيره من الخلق من باب أولى لا يملكون شيئًا من ذلك، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة، وهذا أمر لـه ﷺ ولأفراد أمته.

وفي هذا رد على الذين يغلون بالنبي ﷺ، ويصرفون لـه شيئًا من أنواع العبادة، مما لا يجوز صرفه إلا لله، ومما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يطلبون منه ﷺ كشف الكروب، ودفع الخطوب، ونحو ذلك.

ولهذا لما سأل أبي بن كعب رسول الله ﷺ عن قولـه عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؟ قال: «**قيل لي، فقلت**»(١).

٢- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، كما قال عز وجل: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

وفي هذا رد على من يقول من المشركين ومن سلك طريقهم: إن هذا القرآن العربي وهذا النظم كلام الرسول ابتدأ به.

٣- إثبات الربوبية العامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فهو الذي فلق وخلق جميع الخلق وهو مالكهم ومدبرهم.

٤- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من جميع شرور الخلق، لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

٥- إثبات كمال قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. قال شيخ الإسلام

---

(١) سبق تخريجه.

ابن تيمية[١]: «وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده، كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع».

٦- أن المستعاذ به هو الله وحده ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فهو الذي يعيذ ويعصم من استعاذ به من جميع الشرور، بخلاف من سواه فلا قدرة لهم على ذلك، بل لا يزيدون من استعاذ بهم إلا خوفًا ورهقًا كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

٧- أن عامة المخلوقات قد لا تخلو من الشر؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

و «ما» ههنا: موصولة تفيد العموم، لكنه عموم تقييدي لا إطلاقي، أي: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ مما فيه شر، كشياطين الإنس والجن والنار والهوام وغير ذلك.

ولا يدخل في هذا ما هو خير محض من المخلوقات كالجنة والملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٨- أن الشر ليس إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فالشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى الخالق سبحانه، فالشر في مخلوقاته، وفي مفعولاته، لا في فعله عز وجل، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله[٣]: «فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق، والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة، لا شر فيها أصلًا. وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة،

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٦/ ٤٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبوداود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١- من حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٠- ٥٥٢.

وإنما يكون شرًا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا ننكر أن يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هناك أمران ينبغي أن يكونا منك على بال، أحدهما: أن ما هو شر ومتضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولًا منفصلًا لا يكون وصفًا لـه، ولا فعلًا من أفعاله.

الثاني: أن كونه شرًا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى، خلقًا وتكوينًا ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها».

ثم مثّل ابن القيم رحمه الله- بقطع يد السارق فهو شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس، لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرًا وحكمًا، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عمومًا بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه، والمحبة لـه.

ومثّل أيضًا بقتل الصائل عليهم في دمائهم وحرماتهم... إلى أن قال: «وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه، ومن قام به، كقولـه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وتارة بحذف فاعله، كقوله حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد» إلى غير ذلك من الأمثلة التي ذكرها رحمه الله(١).

٩- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من الليل إذا أقبل بظلامه، ودخل في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام، لأنه داخل تحت عموم قولـه تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وإنما خص هذا بعد العموم؛ لأن الليل وظلمته محل سلطان الأنفس والأرواح الشريرة والخبيثة ووقت انتشارها للسعي

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٥٥.

بالفساد، من شياطين الإنس والجن والهوام، وغير ذلك.

١٠- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر السواحر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾. وهذا أيضًا كسابقه من عطف الخاص على العام، فإنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وإنما خص شر السواحر- كما خص قبله شر الغاسق؛ لعظيم خطر السحر، وشدة شر السواحر.

١١- إثبات حقيقة السحر وتأثيره بإذن الله الكوني؛ لقوله تعالى:﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾، ولقوله عز وجل: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وعن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا. قال: فجاءه جبريل، فقال: إن رجلًا من اليهود سحرك عقد لك عقدًا في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه فاستخرجها، فجاء بها، فحللها قال: فقام رسول الله ﷺ؛ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط حتى مات»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن- قال سفيان بن عيينة: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا- فقال: «يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي. فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٦٧، والنسائي في التحريم- باب سحرة أهل الكتاب ٣٨٠٢.

قال مطبوب. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق حليف ليهود، وكان منافقًا. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال: في جَفِّ طَلْع ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء(١)، وكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج فقلت: أفلا- أي: تَنَشَّرت؟ قال: أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا »(٢).

قال ابن القيم(٣): «وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته».

وليس في هذه الأحاديث الثابتة في أنه ﷺ سحر تصديق لقول المشركين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧، الفرقان: ٨]، وكما قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وكذا قال قوم شعيب لـه﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

لأن الذي أصابه- كما دلت عليه هذه الأحاديث- مرض من الأمراض يصيب غيره، ولا يمنع من اتباعه ﷺ وهذا بخلاف ما زعمه المشركون، وكذا ما قاله قوم صالح وقوم شعيب لهما، فإنهم يقصدون بأن هؤلاء الرسل سحروا فزالت عقولهم حتى أصبحوا لا يدري الواحد منهم ما يقول كالمجانين.

كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤].

---

(١) المشاقة: المشاطة، وهي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط.
والجف: قشر الطلع. راعوفة البئر: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون ناتئة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها. وبئر ذروان: بئر ببني زريق بالمدينة.
والنقاعة: ما أنقع فيه الشيء، وهو هنا الماء الذي أنقع فيه الحناء، انظر «النهاية» «لسان العرب» مادة «مشق» ومادة «جفف» ومادة «رعف» ومادة «نقع»، «التفسير القيم» ص٥٦٤.
(٢) أخرجه البخاري في الطب- باب هل يستخرج السحر ٥٧٦٥، وأحمد ٦/ ٩٦.
(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٦٦، ٥٧٠.

وهم يقصدون بذلك تحذير سفهائهم من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد أنكر تأثير السحر، وأن له حقيقة طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة، لا في مرض، ولا قتل، ولا حلّ ولا عقد، وقولهم هذا لا مستند له إلا تحكيم عقولهم القاصرة، وهو باطل بدلالة الكتاب والسنة وخلاف ما عليه عامة علماء الأمة، بل وخلاف ما يدل عليه الواقع.

قال ابن القيم[١] بعد ما ذكر هذا القول: «وهذا خلاف ما تواتر به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث، وما يعرفه عامة العقلاء... ».

١٢- أن السحر من أعظم الذنوب، بل هو من أكبر الكبائر، لأن الله أمر بالاستعاذة من السواحر، بعد الأمر بالاستعاذة من جميع شرور الخلق، مما يدل على خطره وعظيم جرمه، وشدة ضرره وشره.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منهن «السحر» [٢].

ولهذا كانت عقوبة الساحر القتل حدًا، كما في الحديث: «حد الساحر ضربة بالسيف»[٣].

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٧١- ٥٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبوداود في الوصايا ٢٨٧٤، والنسائي في الوصايا ٣٦٧١.

(٣) أخرجه الترمذي في الحدود ١٤٦٠، من حديث جندب رضي الله عنه، وقال الصحيح أنه موقوف. ورواه أيضًا الدارقطني والبيهقي والحاكم، وقال: «صحيح غريب» وضعفه البخاري. وقال الذهبي في الكبائر إنه من قول جندب.

وقال بعضهم يتقوى بكثرة طرقه، فقد خرجه جمع منهم البغوي الكبير والصغير، والطبراني والبزار، ومن لا يحصى كثرة.

واختلفوا في جندب المذكور، فقال بعضهم: هو جندب بن عبد الله البجلي. وقال بعضهم: إنه جندب الخير الأزدي.

ورواه بعضهم من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «يضرب ضربة فيكون أمة وحده». انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٣٩٠- ٣٩٢.

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال كتب لنا عمر: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر»(١).

وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها.

قال الإمام أحمد: «صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ قتل الساحر».

يعني: عمر وحفصة وجندب بن عبد الله رضي الله عنهم (٢).

١٣- مشروعية الاستعاذة برب الفلق من شر الحاسد إذا حسد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وخصه بالذكر مع أنه داخل تحت قوله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ كشر الغاسق إذا وقب وشر النفاثات في العقد كل ذلك من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها وتوكيدًا على عظم خطر وضرر هذه المخصوصات.

١٤- تحريم الحسد؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به عز وجل من شر الحاسد بعد أمره عز وجل بالاستعاذة به من شر جميع الخلق؛ لشدة شره وضرره، وعظيم جرمه، مما يوجب الحذر منه؛ قال ابن سيرين: «ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا، وهي حقيرة في الجنة؟! وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟!»(٣).

١٥- أن الحسد إنما يؤثر، إذا أظهره الحاسد وحققه، وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود بقوله، أو فعله، أو إتباعه لنفسه ما عند المحسود من نعمة.

وفي الحديث: «إذا حسدت فلا تبغ»(٤). وذلك؛ لأن الحسد لا يكاد يخلو منه أحد.

ويكثر الحسد بين الأقران الذي يزاولون أعمالًا وحرفًا متشابهة كأصحاب المحلات التجارية والبيع والشراء، وأصحاب الأعمال المهنية، وأرباب الأعمال

---

(١) ذكره في «تيسير العزيز الحميد» ص ٣٩٢، وقال: «إسناده حسن».

(٢) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٣٩٢- ٣٩٤.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين٩ ٣/ ١٨٩.

(٤) سبق تخريجه، وفي الحديث أيضًا: «إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٩- من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

الوظيفية والمناصب الذين يحصل بينهم التنافس، وكذا كثير من طلاب العلم، بل والعلماء إلا من عصمه الله من ذلك، ولهذا يجب الاحتراس والحذر كل الحذر من ذلك، وتعاهد القلب وإصلاحه والنأي به عن هذا المرض الخطير والداء الوبيل فإن القلوب عليها مدار صلاح الأعمال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]. وقال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

١٦- أنه لا واقي ولا كافي ولا حافظ ولا معيذ من جميع شرور الخلق ومن شر الغاسق والسحر والحسد وغير ذلك إلا الله وحده؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه من جميع هذه الشرور، وقد قال عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك» الحديث(٢).

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن من قال حين يخرج من بيته: «بسم الله آمنت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أجابه الملك بقوله: كفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»(٣).

فائدتـــان:

الفائدة الأولى: أسباب تحريم الحسد:

وإنما حرم الله الحسد، ونهى عنه، وأمر بالاستعاذة من شر الحاسد لأسباب عدة، منها ما يلي:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبوداود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وقال «حسن صحيح» وأحمد ٤/ ٢٨٦، ٢٨٨، من حديث حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال: «هذا إسناد مشهور، ورواته ثقات». وقال ابن رجب: «إسناد حسن لا بأس به» وقد شرحه بطوله ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» وفي رسالته «نور الاقتباس في وصية الرسول ﷺ لابن عباس».

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٢٦.

أولًا: أن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره وحكمته في تقسيمه الأرزاق بين عباده.

ثانيًا: أنه سبب لرد الحق، وعدم قبوله، كما ذكر الله عز وجل عن أهل الكتاب، قال عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال أبو حاتم: «على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها، فإن أهون خصال الحسد ترك الرضا بالقضاء، وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم، والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه»(١).

ثالثًا: أنه من نواقض عرى الإيمان الموجبة لمحبة الخير لأخيه المسلم، وقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

رابعًا: أن فيه اعتداءً على المحسود بغير جرم منه، إلا أن الله أعطاه من فضله، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

خامسًا: أنه لا يعود على الحاسد إلا بالهم والكمد والأسى. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لله در الحسد ما أعْدَلَه بدأ بصاحبه فقتله»(٣).

وقال أبو الليث السمرقندي: «يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود: أولاها: غم لا ينقطع، الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها، الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق»(٤).

وقال الشاعر:

---

(١) انظر: «روضة العقلاء» ص١٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر: «شرح نهج البلاغة» ١/ ٣١٦.

(٤) انظر: «المستطرف» ص٢٢١.

دع الحسود وما يلقاه من كمدِهْ يكفيك منه لهيب النار في كبدِهْ[١]

سادسًا: أن الحاسد مبغض ممقوت عند الله وعند الناس؛ لأنه عدو نعمة الله، وعدو عباد الله.

قال ابن القيم[٢]: «فالحاسد عدو نعمة الله وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبدًا، ولا يواسى، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدًا، إلا قهرًا يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها فهم يبغضونه وهو يبغضهم».

سابعًا: أن الحاسد بدل أن يسعى ويعمل ينشغل بمتابعة ما عند الآخرين، وما أعطاهم الله من فضله، والواجب عليه أن يبذل السبب في السعي والعمل، ويسأل الله من فضله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

ثامنًا: أن الحسد سبب لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس؛ لأنه يحمل الحاسد على الاعتداء على المحسود، ومنع حقه، وجحد فضله، مما يوغر الصدور، ويشعل نار العداوة بين الناس.

قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «كل الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها»[٣].

تاسعًا: أنه كبيرة من كبائر الذنوب، ومن صفات إبليس لعنه الله، فهو الذي حسد آدم لشرفه، وأبى أن يسجد له حسدًا وكبرًا، وهو من صفات اليهود المغضوب عليهم.

عاشرًا: أنه مرض قلبي من أخطر أمراض القلوب، ومحبط للأعمال، قال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[٤]. وفي الحديث: «**إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار**

---

(١) انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٢٨٥، «جواهر الأدب» ٢/ ٤٨٦.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٤.

(٣) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» ٥/ ٣٠.

(٤) سبق تخريجه.

الحطب» أو قال: «العشب»[١].

الفائدة الثانية: الأسباب التي بها يندفع شر الحاسد بإذن الله عز وجل:

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب ذكرها ابن القيم رحمه الله[٢]: أُلخصها فيما يلي:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به عز وجل واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك»[٣].

فمن حفظ الله حفظه ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ وممن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وألا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه، وهولا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٥٨٥- ٥٩٤.

(٣) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

السبب الرابع: التوكل على الله، فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل على الله من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه، أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل لـه ربه مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر لـه، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية، ومن أقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض لـه، ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه، لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، هكذا الأرواح سواء.

السبب السادس: الإقبال على الله، والإخلاص لـه، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه محل خواطر نفسه وأمانيها. قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وقال عن يوسف الصديق، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من

ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء: قوله ﷺ: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»(١).

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ لـه، ونال منه، فقال لـه: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال لـه ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.

وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها.

فليس للعبد إذا بُغي عليه، وأُوذي، وتسلط عليه خصومه شيء أنفع من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها، وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة، وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولابد، فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة لـه، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين، ودفع الحسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملًا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت لـه فيه العاقبة الحميدة، فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جنة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها، فما حرس العبد

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٣.

نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفر المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذىً وشرًا وبغيًا وحسدًا ازددت له إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

وكان ﷺ يسلت الدم عنه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(١).

فجمع في هذه الكلمات الأربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه، أحدها: عفوه عنهم، والثاني: استغفاره لهم، والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون، والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال: «رب اغفر لقومي».

وكما تحب أن يعفو الله عن تقصيرك وإساءتك فاعف أنت عمن قصّر في حقك، وآذاك، وأساء إليك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباد الله يفعل الله معك.

وفي هذا نزل في شأن الصديق رضي الله عنه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وفي الحديث: «وليأت للناس الذي يحب أن يؤتى إليه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وأحمد ١/ ٣٨٠، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فمن تصور هذا وشغل به فكره هان عليه الإحسان لمن أساء إليه، مع ما يحصل لـه من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال ﷺ للذي شكا إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، قال: «لا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»(٢).

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعًا، ولا خبزًا.

هذا مع أنه لابد لـه من عدوه وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد إليه ويذل لـه.. وإما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

وقال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(٣).

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به عن غيره والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وبحسب إيمان العبد يكون دفع الله عنه، فإن كمل إيمانه دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج لـه، وإن كان مرة ومرة فالله لـه مرة ومرة.

---

(١) أخرجه من حديث طويل مسلم في الإمارة ١٨٤٤، وأبوداود في الفتن والملاحم ٤٢٤٨، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

كما قال بعض السلف: «من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله لـه مرة ومرة».

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين.

قال بعض السلف: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه كل شيء».

قال ابن القيم[1] رحمه الله بعد أن ذكر هذه الأسباب: «هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس لـه أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وألا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئًا غير الله سُلِّط عليه، ومن رجا شيئًا سوى الله خذل من جهته، وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا».

* * *

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٤.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّاس

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الناس» بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وتسمى: «سورة قل أعوذ برب الناس»، وتسمى مع «سورة الفلق»: «المعوذتين» وتسمى «المقشقشة» كما سميت سورة الفلق بذلك، وغيرهن السور، كما سبق بيانه.

ب- مكان نزولها:

مدنية، وقيل: مكية.

جـ- فضلها:

سبق ذكر الأحاديث في فضلها مع سورة الفلق من حديث عائشة وعقبة بن عامر وعابس الجهني وأبي سعيد رضي الله عنهم.

د- موضوعاتها:

- الاستعاذة بالله عز وجل رب الناس وملكهم وإلههم من شر شياطين الجن والإنس ووساوسهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ الأمر للنبي ﷺ، وهو أمر له، ولأمته، بل لكل فرد من أفراد أمته.

وهكذا كل أمر أو خطاب في القرآن الكريم له ﷺ فهو له ولأمته، ما لم يدل دليل على خصوصيته ﷺ بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] فلا يصح لامرأة أن تهب نفسها لغيره ﷺ.

وجملة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وما بعدها في محل نصب مقول القول. وقوله ﴿أَعُوذُ﴾ هذا هو الركن الأول من أركان الاستعاذة، وهو «التعوذ». أي: أعتصم وألتجئ وأستجير.

﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هذا هو الركن الثاني من أركان الاستعاذة، وهو المستعاذ به. وهو: «رب الناس».

﴿بِرَبِّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ «أعوذ» والباء للاستعانة.

و«الرب» هو: الخالق المالك المدبر، فرب الناس خالقهم ومالكهم ومدبرهم بنعمه الظاهرة والباطنة.

والناس: أصله: «أُناس»، ثم زيدت فيه الألف واللام. قال الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا(١)

وهو على هذا مشتق من «أنس» فالناس كالإنسان كل منهما مشتق من الأنس؛ لأنهم يأنس بعضهم ببعض، أو هو مشتق من «النوس»، وهو الحركة المتتابعة، وسمي البشر ناسًا؛ لأنهم ينوسون، أي: يتحركون حركة ظاهرة وباطنة، وصحح هذا ابن القيم(٢).

---

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر: «اشتقاق أسماء الله الحسنى» ص٣٢، «الكشاف» ١/ ٦.

(٢) انظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٤.

أو أنهما مشتقان من الإيناس: وهو الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: رآها وشاهدها. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي: أبصرتموه ورأيتموه.

فسمي البشر «ناسًا» من هذا المعنى، لأنهم يُرَون ويُشاهدون، بخلاف الجن، فهم مستترون لا يشاهدون. وسمي الإنسان: إنسانًا، لأنه يُؤنس، أي: يُرى بالعين.

وقيل إنهما مشتقان من النسيان، كما قال أحدهم:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقد رد هذا ابن القيم، وقال: «لو كان الإنسان مشتقا من النسيان لقيل: «نسيان» ولم يُقل: إنسان»[(١)].

قال الزمخشري[(٢)]: «وإنما أضاف الرب هنا إلى الناس خاصة؛ لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم».

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان على قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وكرر المضاف إليه، وأظهره في الموضعين؛ لأن عطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: مالكهم ومدبرهم الذي يأمرهم وينهاهم، وكل ملك مالك، وليس كل مالك ملكًا.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: معبودهم الذي يتوجهون إليه في جميع عباداتهم، إذ لا معبود لهم بحق سواه.

قال ابن القيم[(٣)]: «وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب وأخر الألوهية لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده، واتخذه دون غيره إلهًا، فمن لم

---

(١) انظر «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٦٤.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٢٤٥.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٨.

يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله لـه سواه، ولكن المشرك ترك إلهه الحق، واتخذ إلهًا غيره باطلًا، ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بألوهيته».

فالمستعاذ به هو: رب الناس، ومالكهم ومعبودهم. وكرر الاسم الظاهر «الناس» دون الضمير، فلم يقل: «رب الناس وملكهم وإلههم» تقوية للمعنى، وهو أنهم إنما يستعيذون بمن لـه هذه الصفات العظيمة، وهو كونه: رب الناس، ومالكهم وإلههم، والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

وتتضمن هذه الصفات الثلاث جميع قواعد الإيمان، ومعاني أسماء الله الحسنى. فالرب هو القادر الخالق الباري... وأما الملك فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كيف يشاء.. وأما الإله فهو المعبود الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، ولهذا يدخل في هذا الاسم «الله» جميع الأسماء الحسنى، فهو جامع لجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

قال ابن القيم(١): «وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه».

وقصر- عز وجل هنا ربوبيته وملكه وألوهيته على الناس- مع أنه عز وجل رب جميع الخلق ومليكهم وإلههم؛ لأن الناس هم المكلفون وتكريمًا وتشريفًا لهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ هذا هو الركن الثالث من أركان الاستعاذة وهو

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٥٩٧.

المستعاذ منه، وهو: ﴿شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، و «شر»: مفرد مضاف إلى «الوسواس» وهو معرف بـ«ال»، فيفيد الاستعاذة من جميع شرور الوسواس.

والوسواس: هو الشيطان. وأصل الوسوسة هي الحركة والصوت الخفي.

قال الأعشى (١):

تسمع للحلي وَسْواسًا إذا انْصَرفت ... كما استعان بريح عِشْرقٌ زَجِل

فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي، لا يسمعه إلا من أُلقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

والمراد بالوسواس هنا: الشيطان، وهو ذات لا مصدر، وقيل: مصدر. وأصله: الشيطان الوسواس، فحذف الموصوف هنا وأقيم الوصف مكانه، لغلبة هذا الوصف على الشيطان، فصار كالعلم عليه، وجرى مجرى الاسم، فحسن حذف الموصوف، كما يقال: المسلم والكافر، ونحو ذلك.

قال ابن كثير (٢): «وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهدًا في الخبال، والمعصوم من عصمه الله. قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه قالوا:وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»(٣).

وَوُصف الشيطان وسُمي بالوسواس لدقة وخفاء مداخله ومجاريه من الإنسان.

كما قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»(٤).

والوسواس: من جنس حديث النفس قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ

---

(١) انظر «ديوانه» ص١٠٥ شرح وتعليق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٥٨.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٤، وأحمد ١/ ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٦٠، والدارمي في الرقاق ٢٦١٨، من حديث سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتكاف ٢٠٣٨، وفي الأدب ٦٢١٩، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبوداود في الصوم ٢٤٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٩، من حديث صفية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ.
وأخرجه مسلم أيضًا ٢١٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، أي: ما تحدث به نفسه.

وقال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»(١).

وهو نوعان: خبر إما عن ماض يُذكِّره به، وإما عن مستقبل يُحدِّثه بفعله أو يُخوِّفه وقوعه، ونحو ذلك من الأماني والمواعيد الكاذبة. والنوع الثاني: إنشاء وهو إما أمر أو نهي أو إباحة.

﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾ هذه الصفة الثانية للشيطان. و«الخناس»: صفة مشبهة أو صيغة مبالغة على وزن «فعّال» من خنس يخنس، إذا توارى واختفى بعد ظهوره.

كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، وهي النجوم تخنس وتختفي بالنهار وتظهر وتبدو في الليل.

ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جنب فانخنست منه»(٢)، أي: اختفيت.

وهو أيضًا مأخوذ من معنى: الرجوع والتأخر، كما في الحديث: «إذا نُودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النداء أقبل، فإذا ثُوِّب بها أدبر، فإذا قُضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر- حتى لا يدري أثلاثًا صلى أم أربعًا»(٣).

وهكذا حال الشيطان مع العبد، فإن غفل العبد عن الذكر أقبل عليه الشيطان بخيله ورجله وجثم على قلبه، وبذر فيه أنواع الوساوس، من تزيين الأعمال السيئة وغير ذلك. وإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ بالله من الشيطان انخنس الشيطان وتوارى

---

(١) أخرجه البخاري في العتق ٢٥٢٨، ومسلم في الإيمان ١٣٧، وأبوداود في الطلاق ٢٢٠٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٣، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٨٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الغسل ٢٣٨، ومسلم في الحيض ٣٧١، وأبوداود في الطهارة ٢٣١، والنسائي في الطهارة ٢٦٩، والترمذي في الطهارة ١٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٦٠٨، ومسلم في الصلاة ٣٨٩، وأبوداود في الصلاة ٥١٦، والنسائي في الأذان ٦٧٠، والترمذي في الصلاة ٣٩٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢١٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتصاغر واختفى وتراجع وتأخر وفي الحديث: «ما رُئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رئي يوم بدر..» الحديث(١).

ولهذا جاء بصيغة المبالغة «خنّاس»؛ لبيان شدة هروبه، وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن هذا دأبه وعادته دائمًا وأبدًا إذا ذكر الله هرب وخنس، وإذا غفل العبد عاوده بالوسوسة.

ولهذا جاء في الحديث: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»(٢).

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾هذه صفة ثالثة للشيطان فوصفه أولًا بالوسوسة، ثم وصفه ثانيًا بالخنّاس، ثم وصفه ثالثًا بكونه يوسوس في صدور الناس.

والصدور: جمع صدر، وهو ساحة القلب وبيته، فتجتمع فيه هذه الوساوس والواردات، ثم تلج إلى القلب، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وشرور الشيطان كثيرة لا تحصى، وأعظم صفاته وأشدها شرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا الوسوسة؛ لهذا وصفه الله عز وجل بها، وهي أصل كل شر يقع في الأرض من ترك للواجبات، أو تقصير بها، أو انتهاك للمحرمات، ومن ظلم للنفس والغير، وغير ذلك.

قال ابن القيم(٣): «ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة، التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله حتى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له، ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ- في الحج ٩٦٢، من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٠٥، ٣٨٢- من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٦٠٩- ٦١٠.

عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم- إلى أن قال: فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه الله بها؛ لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا».

وقال أيضًا: «ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه، يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته».

قوله ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ من الجنة: جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالًا، والتقدير: كائنًا من الجنة والناس.

و«الناس» معطوف على «الجنة» وهو بيان للذي يوسوس، أي أن الذي يوسوس في صدور الناس نوعان: شياطين جن، وشياطين إنس، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تُحدِّث في العنان[١] بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، قلت: أو للإنس شياطين؟ قال: نعم شر من شياطين الجن»[٣].

ومن وسوسة شياطين الإنس: وسوسة نفس الإنسان له، كما قال عز وجل:

---

(١) العنان: الغمام. انظر «النهاية في غريب الحديث» ولسان العرب، مادة «عنن».

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢١٠، ومسلم في السلام ٢٢٢٨.

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٥٠٧، وأحمد ٥/ ١٧٩، ٢٦٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وعنه ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به، أو تعمل به»(١).

وقيل: إن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للناس الموسوَس في صدورهم. والمعنى: الذي يوسوس في صدور الناس، الذين هم من الجنة والناس. فالموسوس في صدروهم على هذا قسمان: جن وإنس. فالوسواس وهو الشيطان يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

والأظهر القول الأول وقد ضعف ابن القيم رحمه الله القول الثاني من وجوه عدة(٢): الأول: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري فيه مجراه من الإنسي.

الثاني: أنه على هذا فاسد من جهة اللفظ أيضًا، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فكيف يبين الناس بالناس.

الثالث: أنه قسّم الناس إلى قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلق عليها اسم الناس بوجه، لا أصلًا، ولا اشتقاقًا، ولا استعمالًا، ولفظها يأبى ذلك، فإن الجنة إنما سموا جنًا من الاجتنان، وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر.

الفوائد والأحكام:

١- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وفي هذا الرد على من يزعم من أهل الكفر والضلال أن هذا القرآن من نظمه ﷺ ابتدأ به.

٢- حاجة الرسول ﷺ كغيره من البشر إلى الاعتصام بالله، واللجوء إليه، وأنه ﷺ كغيره من البشر قد يصيبه ما يصيبهم من الوساوس، وأنه لا يملك لنفسه دفع ضر أو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٦١٥.

جلب خير، وإنما المالك لذلك كله هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ وفي هذا الرد على من يرفعونه ﷺ إلى مقام الربوبية، فهو ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب.

٣- إثبات الربوبية العامة لله عز وجل فهو رب جميع الناس مؤمنهم وكافرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فهو خالقهم ومالكهم.

٤- إثبات الملك العام لله عز وجل، فهو ملك الناس، ومدبرهم له الأمر والنهي بقسميها الشرعي والكوني؛ لقوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

٥- إثبات الألوهية العامة لله عز وجل، فهو إله الناس ومعبودهم الحق، ولو عبد بعضهم غيره، فليس لهم في الحقيقة معبود سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾.

قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

٦- مشروعية الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم من شر الشيطان ووساوسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾.

٧- عظم خطر الشيطان ووساوسه فهو أصل الشر كله، وأصل كل كفر وفسوق وعصيان؛ لأن الله أمر بالاستعاذة به سبحانه، والاعتصام بجنابه من الوسواس.

٨- أن من طبيعة الشيطان أنه يوسوس عند الغفلة عن ذكر الله ويخنس ويختفي ويتراجع ويتأخر ويتصاغر عند ذكر الله عز وجل؛ لأن الله وصفه بقوله: ﴿الْخَنَّاسِ﴾، فيجب التحصن منه بذكر الله على الدوام.

٩- أن الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس على نوعين شياطين جن وشياطين إنس؛ لقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

كما قال عز وجل ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

١٠- شدة شر الشيطان وكيده ووساوسه؛ لهذا أفرد الله عز وجل سورة كاملة

للاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يعصم منه إلا اللجوء إلى الله تعالى، ولأنه لا يرضيه إلا إهلاك بني آدم.

فائدة: وسوسة الشيطان للإنسان على أنواع ومراتب:

فمن وسوسته تزيين الكفر والشرك:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ومن وسوسته تزيين المعاصي:

قال تعالى عن الأبوين عليهما السلام: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠- ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد جعل الله للشيطان سلطانًا على قلوب أهل الكفر والنفاق، كما جعل له نفوذًا على أهل الغفلة والمعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

ومن وسوسته:

ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته»(١).

وفي رواية أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»(٢).

ومن وسوسته أيضًا:

أن يشغل القلب بحديثه ووساوسه فيوقعه في نسيان ما أراد فعله أو قوله من أمر ديني أو دنيوي، كما قال تعالى حكاية عن صاحب موسى عليه السلام أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] وتقدم في الحديث: «أنه يخطر بين المصلى وبين قلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعًا»(٣).

ومن وسوسته:

أنه يوهم الإنسان ويخوفه من الأمور المستقبلة، ويحمله على التشاؤم دائمًا، ويجعل الحياة مظلمة في عينيه فتنتابه المخاوف على المستقبل، والمخاوف من الأعداء، ومن العين، ومن المرض، ومن الموت، ونحو ذلك، وكل ذلك من الشيطان أخزاه الله.

وعلاج ذلك قوة الإيمان بالله والتوكل عليه واطراح هذه الوساوس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٦، ومسلم في الإيمان ١٣٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٤٠.

(٣) سبق تخريجه.

ومن وسوسته:

أن يوحي إلى أعوانه من شياطين الإنس بأن يقول أحدهم أو يفعل ما فيه ضرر على العبد المسلم، فكم دبر الشيطان من مكيدة للمؤمنين على أيدي أعوانه من شياطين الإنس بسفك دم، أو انتهاك عرض، أو شتم وسب، أو مقالة سوء، أو نجوى، يريد بها الشيطان إلحاق الضرر والأذى والحزن بالمؤمنين ونحو ذلك، كما قال عز وجل ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

وخلاصة القول:

أن وسوسة الشيطان على أنواع لا تكاد تحصى كثرة، وهي سبب لكل بلية ولكل معصية تقع في الأرض، من ترك للواجبات أو انتهاك للمحرمات وهي على مراتب(١):

مراتب وسوسة الشيطان للإنسان:

يأتي الشيطان أولًا إلى الإنسان فيدعوه إلى الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، ليكون من جنده ومن أعوانه على الشر.

فإن أيس منه، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه دعاه إلى المرتبة الثانية من الشر، والتي هي باب من الكفر والشرك، وهي البدعة، وحببها إليه لعظم ضررها في الدين، وكون ضررها متعديًا، وشدة تمسك صاحبها بها لا يكاد يتوب عنها، كما دلت على ذلك الآثار، وكما هو حال أهل البدع.

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة، وكان ممن وفق إلى السنة ومعاداة أهل البدع والضلال دعاه إلى المرتبة الثالثة من الشر وهي الوقوع في الكبائر على اختلاف أنواعها.

فإن عجز عنه دعاه إلى المرتبة الرابعة، وهي الوقوع في الصغائر والاستهانة بها، وهي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها وفي الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»(٢).

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص٦١٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا»[(١)].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[(٢)].

فإن عجز عن إيقاعه في هذه المرتبة دعاه إلى المرتبة الخامسة وهي الانشغال بالمباحات من المآكل والمشارب وتزجية الأوقات بالنزه في المصايف والاستراحات والسياحة هنا وهناك إيثارًا للشهوات ورغبات النفس، وبهذا ضاعت كثير من أعمار الخلق.

بل أدى ذلك بالكثيرين إلى التقصير في الواجبات، والتفريط في حق الله وحقوق الخلق، كالوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران، وحقوق الأمة؛ بل والتفريط في حق النفس، وعدم أخذها بالحزم في أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات، والنظر في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ الذي هو الغذاء الروحي للنفس، والذي لا حياة للقلوب إلا به.

ولعمر الله لقد خرج الناس بهذه المباحات عن الحد حتى ضاعت أعمار وأعمال وأموال، ونسي كثير من الناس أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الحياة ميدان مسارعة، ومسابقة ومنافسة للفوز بتلك الدار، وأن الأيام والليالي خزائن للأعمال.

فكم من حقوق لله- عز وجل- ضيعت وفرطت فيها كالصلاة وغيرها بسبب الركض وراء هذه المباحات.

وكم من حقوق للخلق وللأمة أهدرت بسبب ذلك.

فكم من والد مقعد على أحر من الجمر يتمنى أن يرى أولاده معه على مائدة طعام؛ غداء أو عشاء أو إفطار، أو أن يكون بجانبه أحد أولاده لتهيئة القهوة له أو لضيوفه ولكن هيهات، الأولاد كلهم مشغولون بلا شغل في الفلوات والخلوات والاستراحات والذهاب يمينًا وشمالًا وهنا وهناك والمحصلة صفر- والله المستعان.

وكم من زوجة تنتظر زوجها بفارغ الصبر إلى ساعة متأخرة من الليل ولو حرك

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٤٣، من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٣٤، الأثر ٥٢١٦.

الهواء أحد الأبواب أو مرّ بها قط وهي غافلة طار عقلها خوفًا وفزعًا وزوجها مشغول خارج البيت بلا شغل، ولو جاء وهي نائمة لأوسعها سبًا وشتمًا، إن لم يضربها أو يهددها بالضرب والطلاق.

وكم من أولاد- هم فلذات الأكباد- ليس لهم نصيب من جلوس والدهم بينهم وتربيته لهم وحنانه عليهم، بل ربما ليس لهم نصيب من رؤيته إلا النزر القليل يأتي إلى البيت وهم نائمون ويخرج في الصباح إلى العمل، وإذا جاء من العمل تناول غداءه على وجه السرعة ثم انطلق خارج البيت إلى هَوِيٍّ من الليل وهكذا.

وكم من أقارب وجيران وأخوات وإخوان أضحت حقوقهم في خضم النسيان بسبب ما ذكر.

وكم من مسؤوليات عامة أو خاصة ضُيعت وفرط فيها بسبب هذه الأحوال.

وكم من شخص صار قلبه خواء مظلمًا خربًا لخلوه من الغذاء الروحي؛ من الذكر وقراءة القرآن والسنة وتدبر ما فيهما من المعاني والأحكام بسبب انغماسه في هذه الأوحال وانشغاله بها. وصدق الله العظيم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فإن عجز الشيطان عن شغل العبد بالمباحات دعاه إلى المرتبة السادسة، وهي الاشتغال بالمفضول عما هو أفضل منه، ليفوت عليه ثواب العمل الفاضل، ويزيح عنه الفضيلة ويقلل من فضله وثوابه، فيظن أن هذا الداعي من الله لاعتقاده أن هذا خير، وأن الشيطان لا يأمر بخير، فيقول: هذا الداعي من الله.

قال ابن القيم[1]: «ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل..».

---

(١) انظر «التفسير القيم» ص ٦١٢- ٦١٣.

وأدهى من ذلك وأشد منه أن يترك الشخص العمل الذي يتقاضى عليه أجرًا كالأذان والإمامة أو العمل الوظيفي في مصالح المسلمين بحجة أنه ذاهب لفعل طاعة كالعمرة، أو حضور درس أو محاضرة، أو الخروج للدعوة، أو للصلاة على جنازه واتباعها ونحو ذلك، لأن هذا لا يعد من الاشتغال بالمفضول فحسب- بل إن هذا من الاشتغال بالسنة عن الواجب، وياليت كثيرًا ممن يتساهلون في مثل هذا يدركون ذلك.

كيف يعتقد من كان يتولى أمرًا من أمور المسلمين، من أذان، أو إمامة أو أي مسؤولية من مسؤوليات الأمة أنه يسوغ له ترك مسؤوليته بحجة الذهاب لأداء العمرة ونحو ذلك، وهل سيحصل له من الأجر على ذلك مثل أجر من احتسب وتحمَّل مسؤوليته، كلا، بل إنه إلى التأثم أقرب، ولم يرد في كتاب ولا سنة جواز ذلك فضلًا عن أن يؤجر فاعله، ولم يقل بهذا أحد من علماء الأمة سلفًا وخلفًا، وإنما هذا من مداخل الشيطان ووساوسه، وتقديم هوى النفس على حكم الله.

وإني لأدعو المسلمين عمومًا وأرباب مسؤوليات الأمة خصوصًا، من الأئمة والمؤذنين وعامة الموظفين والآباء والمربين وغيرهم إلى التنبه إلى هذا، فنحن أمة إسلامية ديننا الإسلامي دين الجد والعمل لا محل للفراغ في حياتنا، وقت المسلم بين المسجد والبيت والعمل، وساعة للترفيه المباح والراحة عند الملل، فكل فرد منا على مسؤولية من مسؤوليات الأمة.

فهذا مؤذن، وهذا إمام، وهذا والد، وهذا مدرس، وهذا موظف. وكل منا على ثغر من ثغور الإسلام، كما قال بعض السلف: «ليعلم كل منكم أنه على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله»(١).

وإن من أكبر مصائب الأمة أن لا تدري أين مكمن الداء فيها، فتضل في حيرة من أمرها، أو ربما تظن الداء دواء لجراحاتها.

فما أكثر الذين يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وكأنهم يدَّعون لأنفسهم الكمال- فإذا تأملت في واقعهم، وسبرت أحوالهم وجدت أن كثيرًا منهم من أكبر

---

(١) انظر: «السنة» للمروزي ١٣-١٤.

أسباب ضعف الامة، بل هم العبء الأثقل على كاهل الأمة، شأنهم التلاوم والقيل والقال، والتنصل من مسؤوليات الأمة، وانتقاد الولاة والعلماء والدعاة والمصلحين والعاملين، وتبادل الرسائل في ذلك- في وسائل الاتصال- مع تفريطهم في حقوق الله، وفي حقوق الخلق، من الوالدين والأولاد، والأزواج والأقارب والجيران، وفي حقوق عامة المسلمين ومسؤوليات الأمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالأمة ليست بحاجة إلى الدعاوي الفارغة والحماس الأجوف، بل هي أحوج ما تكون إلى رجال لهم رصيد من الصدق مع الله وتقواه بأداء حقوقه وحقوق الخلق، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن لم يجاهد النفس والشيطان فلن يستطيع مجاهدة الأعداء، ومن خان حي على الصلاة خان حي على الكفاح، ومن لم يقم أركان الإسلام وأهم واجباته فلن يقيم ما دون ذلك، ومن ترك الواجب لم ينتفع بالقيام بما دونه إن قام به.

ومجمل القول أن الأمة تحتاج إلى الرجل الراحلة الذي يتحمل مسؤولياته، ويملأ ويسد مكانه في الأمة، بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، في البيت والمسجد والعمل الوظيفي والشارع فهذا هو الجندي المجاهد، وما أقل هذا في الأمة، وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»(١).

فالحاكم والأمير والوزير والقاضي والإمام والمؤذن والمدرس والموظف والتاجر والعامل وغيرهم ممن ائتمنوا على مسؤوليات الأمة كل منهم مثاب مأجور إذا قام بالعمل على الوجه الأكمل، مع حسن النية في أداء الواجب وخدمة الأمة.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يتشبثون بفعل بعض النوافل والأعمال التطوعية مع تفريطهم في أهم الواجبات في حقوق الله وحقوق الأمة، ولا تقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام فقال له النبي ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال ٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا. قال يا رسول الله هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع. فقال الأعرابي: والذي بعثك بالحق لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فلما ولى قال ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا».

وفي رواية: «أفلح إن صدق» (١).

وإنني أنادي الغيورين من أبناء الأمة رجالًا ونساءً من الآباء والأمهات والمربين والموجهين والمدرسين والخطباء والدعاة والواعظين إلى العودة بالأمة إلى المنهج الصحيح، فإن به الضمان بإذن الله عز وجل لسعادة الأمة في دنياها وأخراها- والله المستعان.

فائـــدة فيما يعتصم به الإنسان من الشيطان:

ذكر ابن القيم رحمه الله(٢) قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه، وذلك عشرة أسباب، ألخصها فيما يلي:

١- **الحرز الأول**: الاستعاذة بالله من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وعن سليمان بن صرد- رضي الله عنه- قال: «استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ، فقال: «إني لست بمجنون»(٣).

٢- **الحرز الثاني**: قراءة المعوذتين. فقد كان النبي ﷺ يتعوذ بهما في كل ليلة، وقال ﷺ: «ما تعوذ متعوذ بمثلهما»(٤). وأمر عقبة بن عامر أن يقرأ بهما دبر كل صلاة(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبوداود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر «التفسير القيم» ص٦٢٠- ٦٣١، «بدائع التفسير» ٥/ ٤٦٤- وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب- باب الحذر من الغضب- ٦١٥٥، ومسلم في البر- باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٢٦١٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٦٣، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

وقال ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي، وثلاثًا حين يصبح كفته من كل شيء»(١).

وقد تقدم ذكر كلام ابن القيم في أن حاجة الإنسان إلى التعوذ «بهـتين السورتين أشد من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس واللباس فتأمل هذا.

٣- **الحرز الثالث**: قراءة آية الكرسي، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ- فذكر الحديث إلى أن قال: فقال رسول الله ﷺ: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح..»(٢).

٤- **الحرز الرابع**: قراءة سورة البقرة. كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» (٣).

٥- **الحرز الخامس**: قراءة خاتمة سورة البقرة، كما في حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»(٤).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»(٥).

٦- **الحرز السادس**: قراءة أول سورة: «حم المؤمن» إلى قولـه: «إليه المصير» مع آية الكرسي؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: حم المؤمن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٨٠، وأبوداود في المناسك ٢٠٤٢، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٠٨، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٧، ٨٠٨.

(٥) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٨٢، والدارمي في فضائل القرآن ٣٢٥٣.

إلى: «إليه المصير»، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح»(١).

٧- **الحرز السابع**: قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، لـه الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة؛ لحديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، لـه الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت لـه عدل عشر رقاب، وكتب لـه مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت لـه حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي. ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»(٢).

٨- **الحرز الثامن**: كثرة ذكر الله عز وجل، وهو من أنفع الحروز وبه طمأنينة القلب، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٩- **الحرز التاسع**: الوضوء والصلاة. قال ابن القيم: «وهذا من أعظم ما يُتحرز به، ولاسيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم.. والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله. وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه»(٣).

١٠- **الحرز العاشر**: الإمساك عن فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الأنام، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة.

ويا صعوبة التخلص منها إلا على من وفقه الله. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

وفي الأثر: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٨٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٩٣، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩١، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٨، وابن ماجه في الأدب ٣٧٩٨.

(٣) انظر «التفسير القيم» ص٦٢٤.

(٤) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني ١٠/ ١٧٣ (١٠٣٦٢)، «المستدرك» ٤/ ٣٤٩ (٧٨٧٥).

وقد قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر[(١)]

والإمساك عن فضول الطعام:

فإن تتبع أطايب المأكولات وأنواعها سبب للغفلة عن ذكر الله وكون الإنسان بهيميًا همه بطنه، كما أن الإكثار من الأكل سبب للتخمة والكسل وثقل الجسم عن العمل.

وفي الحديث:«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[(٢)].

والإمساك عن فضول الكلام:

فإن الإكثار من الكلام فيما لا يعني سبب للوقوع فيما لا ينبغي، ولهذا أمر الإسلام بحفظ اللسان، قال تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه قال: فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به أو فيما نقول بألسنتنا؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[(٣)].

والإمساك عن فضول مخالطة الأنام:

فإن فضول مخالطة الأنام من أعظم أسباب الشرور والآثام، فيجب أن تكون مخالطة العبد للناس على قدر الحاجة.

والناس في هذا أربعة أقسام:

القسم الأول: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة- وهم العلماء بالله وأمره، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» ص١٣٤، «روضة المحبين» ص١٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٨٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٤٩، من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه.وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دام الشخص صحيحًا فلا حاجة له في مخالطتهم، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، فتكون مخالطتهم بقدر الحاجة.

القسم الثالث: من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه، فمنهم من تكون مخالطته ضررًا عليك في دينك ودنياك فهم كمرض الموت المخوف، ومنهم من تكون مخالطته كوجع الضرس يشتد فإذا فارقك سكن الألم، ومنهم من تكون مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض، الذي لا تستفيد منه ولا يستفيد منك، لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها منزلتها، فمخالطة هذا النوع- وهم كل مخالف- حمى الروح، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف، حتى يجعل الله له من أمره فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله بمنزلة أكل السم، كأهل البدع والضلال الصادون عن سنة رسول الله ﷺ.

فالحزم كل الحزم البعد عنهم، والحذر منهم، والتماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم.

وكما قيل:

لقد زادني حبًا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل (١)

فائدة: في الفرق بين الموسوس والساحر والحاسد:

أمر الله عز وجل في سورة الناس بالاستعاذة من شر الوسواس، وأمر في سورة الفلق بالاستعاذة من شر الساحر والحاسد.

فأفرد الاستعاذة من شر الوسواس في سورة الناس، لأن الوسواس وإن كان بسبب من شياطين الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ إلا أنه إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له وقبوله منه،

---

(١) البيت للطرماح وهو في «ديوانه» ص٣٤٦، تحقيق عزة حسن، دمشق ١٩٦٨م.

ولهذا يعاقب العبد على تماديه مع الوساوس؛ لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه.

وقرن عز وجل بين الاستعاذة من الساحر والحاسد؛ لأن شر كل منهما خارج عن إرادة المسحور والمحسود، فلا يعاقبان على ما يحصل لهما، بل يؤجران إذا صبرا على ذلك.

وكل من السحر والحسد من شرور شياطين الإنس والجن، كالوسواس، إلا أن الحسد أخص بشياطين الإنس؛ لأنه يدل على شر النفس وطبعها، ليس هو شيئًا اكتسب من غيرها، وإن كان كغيره من المعاصي من تزيين الشيطان وتسويله، لكن لو لم تكن النفس خبيثة شريرة ومحلًا لذلك لما حصل الحسد.

أما السحر فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، كالاستعانة بالأرواح الشيطانية، والتقرب إلى الشيطان وعبادته من دون الله، والسجود له، ونحو ذلك.

فائدة أخيـــرة:

لعلك- أخي المسلم- بعد تدبرك في كلام أهل العلم على هذه السور الثلاث سورة الإخلاص والمعوذتين اتضح لك ما فيها من الوقاية والحفظ والشفاء بإذن الله عز وجل لأمراض القلوب والأبدان، وخرجت بشخصية المسلم الحق، الذي يجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله، ولا يخاف بعد ذلك إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يعتمد إلا على الله، ولا يستعيذ إلا بالله. فهذا غاية العزة والسعادة والسؤدد والكرامة، وكما قيل:

ســأعيش رغــم الــداء والأعــداء كالنســـر فـــوق القمــة الشــماء
النــور في جنبــي وبــين جوانحــي فعــلام أخشــى الســير في الظلــماء(١)

* * *

تم الفراغ منه في يوم الخميس ٣/ ٣ من عام ١٤٤١ من هجرة المصطفى ﷺ.

والحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة النبأ ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
جـ-موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١...﴾ الآيات [١-١٦] ٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧...﴾ الآيات [١٧-٣٠] ١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١...﴾ الآيات [٣١-٣٧] ٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا...﴾ الآيات [٣٨-٤٠] ٢٩
تفسير سورة النازعات ٣٥
المقدمة ٣٧
أ- اسم السورة: ٣٧
ب- مكان نزولها: ٣٧
جـ-موضوعاتها: ٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١...﴾ الآيات [١-١٤] ٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥...﴾ الآيات [١٥-٢٦] ٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧...﴾ الآيات [٢٧-٣٣] ٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤...﴾ الآيات [٣٤-٤٦] ٥٣
تفسير سورة عبس ٦١
المقدمة ٦٣
أ- اسم السورة: ٦٣

ب- مكان نزولها: ٦٣
جـ- موضوعاتها: ٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١...﴾ الآيات [١-١٦] ٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧...﴾ الآيات [١٧-٣٢] ٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣...﴾ الآيات [٣٣-٤٢] ٧٨
تفسير سورة التكوير ٨٣
المقدمة ٨٥
أ- اسم السورة: ٨٥
ب- مكان نزولها: ٨٥
جـ-فضلها: ٨٥
د- موضوعاتها ٨٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١...﴾ الآيات [١-١٤] ٨٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥...﴾ الآيات [١٥-٢٩] ٩٣
تفسير سورة الانفطار ١٠٣
المقدمة ١٠٥
أ- اسم السورة: ١٠٥
ب- مكان نزولها: ١٠٥
جـ-فضلها: ١٠٥
د- موضوعاتها: ١٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١...﴾ الآيات [١-١٢] ١٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣...﴾ الآيات [١٣-١٩] ١١٣
تفسير سورة المطففين ١٢١
المقدمة ١٢٣

أ- اسم السورة: ١٢٣
ب- مكان نزولها: ١٢٣
جـ-موضوعاتها: ١٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ...﴾ الآيات [١-٦] ١٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ ...﴾ الآيات [٧-١٧] ١٣١
تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ ...﴾ الآيات [١٨-٢٨] ١٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ ...﴾ الآيات [٢٩-٣٦] ١٤٢
تفسير سورة الانشقاق ١٤٧
المقدمة ١٤٩
أ- اسم السورة: ١٤٩
ب- مكان نزولها: ١٤٩
جـ-فضلها: ١٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ...﴾ الآيات [١-١٥] ١٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ ...﴾ الآيات [١٦-٢٥] ١٥٩
تفسير سورة البروج ١٦٧
المقدمة ١٦٩
أ- اسم السورة: ١٦٩
ب- مكان نزولها: ١٦٩
جـ-فضلها: ١٦٩
د- موضوعاتها: ١٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ...﴾ الآيات [١-١٠] ١٧١

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ...﴾ الآيات [١١-٢٢] ١٨٠
تفسير سورة الطارق ١٨٩
المقدمة ١٩١
أ- اسم السورة: ١٩١
ب- مكان نزولها: ١٩١
جـ-فضلها: ١٩١
د- موضوعاتها: ١٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١...﴾ الآيات [١-١٠] ١٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١...﴾ الآيات [١١-١٧] ١٩٥
تفسير سورة الأعلى ١٩٩
المقدمة ٢٠١
أ- اسم السورة: ٢٠١
ب- مكان نزولها: ٢٠١
جـ-فضلها: ٢٠١
تفسير قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١...﴾ الآيات [١-١٣] ٢٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤...﴾ الآيات [١٤-١٩] ٢١٤
تفسير سورة الغاشية ٢١٩
المقدمة ٢٢١
أ- اسم السورة: ٢٢١
ب- مكان نزولها: ٢٢١
جـ-فضلها: ٢٢١
د- موضوعاتها: ٢٢١

تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١...﴾ الآيات [١-١٦]..... ٢٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧...﴾ الآيات [١٧-٢٦] . ٢٢٩
تفسير سورة الفجر ٢٣٧
المقدمة ٢٣٩
أ- اسم السورة: ٢٣٩
ب- مكان نزولها: ٢٣٩
جـ-فضلها: ٢٣٩
د- موضوعاتها: ٢٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١...﴾ الآيات [١-١٤] ٢٤١
تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ...﴾ الآيات [١٥-٢٠] ... ٢٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١...﴾ الآيات [٢١-٣٠] ٢٥٣
تفسير سورة البلد ٢٥٩
المقدمة ٢٦١
أ- اسم السورة: ٢٦١
ب- مكان نزولها: ٢٦١
جـ-موضوعاتها: ٢٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١...﴾ الآيات [١-١٠] ٢٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١...﴾ الآيات [١١-٢٠] ٢٦٧
تفسير سورة الشمس ٢٧٥
المقدمة ٢٧٧
أ- اسم السورة: ٢٧٧
ب- مكان نزولها: ٢٧٧
جـ-فضلها: ٢٧٧

د- موضوعاتها: ٢٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١...﴾ الآيات [١-١٠] ٢٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١...﴾ الآيات [١١-١٥] ٢٨٤
تفسير سورة الليل ٢٨٩
المقدمة ٢٩١
أ- اسم السورة: ٢٩١
ب- مكان نزولها: ٢٩١
جـ-فضلها: ٢٩١
د- موضوعاتها: ٢٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١...﴾ الآيات [١-١١] ٢٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢...﴾ الآيات [١٢-٢١] ٢٩٨
تفسير سورة الضحى ٣٠٧
المقدمة ٣٠٩
أ- اسم السورة: ٣٠٩
ب- مكان نزولها: ٣٠٩
جـ-فضلها: ٣٠٩
د- موضوعاتها: ٣٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١...﴾ الآيات [١-١١] ٣١٠
تفسير سورة الانشراح ٣٢٥
المقدمة ٣٢٧
أ- اسم السورة: ٣٢٧
ب- مكان نزولها: ٣٢٧
جـ- موضوعاتها: ٣٢٧

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١...﴾ الآيات [١-٨] ٣٢٨
تفسير سورة التين ٣٣٥
المقدمة ٣٣٧
أ- اسم السورة: ٣٣٧
ب- مكان نزولها: ٣٣٧
جـ- فضلها: ٣٣٧
د- موضوعاتها: ٣٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١...﴾ الآيات [١-٨] ٣٣٨
تفسير سورة العلق ٣٤٥
المقدمة ٣٤٧
أ- اسم السورة: ٣٤٧
ب- مكان نزولها: ٣٤٧
جـ-موضوعاتها: ٣٤٧
تفسير قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١...﴾ الآيات [١-٥] ٣٤٨
تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦...﴾ الآيات [٦-١٩] ٣٥٢
تفسير سورة القدر ٣٥٩
المقدمة ٣٦١
أ- اسم السورة: ٣٦١
ب- مكان نزولها: ٣٦١
جـ-موضوعاتها: ٣٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١...﴾ الآيات [١-٥] ٣٦٢
تفسير سورة البينة ٣٧١
المقدمة ٣٧٣

أ- اسم السورة: ٣٧٣
ب- مكان نزولها: ٣٧٣
جـ-فضلها: ٣٧٣
د- موضوعاتها: ٣٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٦] ٣٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾...﴾ الآيتين [٧، ٨] ٣٨٢
تفسير سورة الزلزلة ٣٨٧
المقدمة ٣٨٩
أ- اسم السورة: ٣٨٩
ب- مكان نزولها: ٣٨٩
جـ- فضلها: ٣٨٩
د- موضوعاتها: ٣٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٨] ٣٩٠
تفسير سورة العاديات ٣٩٧
المقدمة ٣٩٩
أ- اسم السورة: ٣٩٩
ب- مكان نزولها: ٣٩٩
جـ-موضوعاتها: ٣٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-١١] ٤٠٠
تفسير سورة القارعة ٤٠٧
المقدمة ٤٠٩

أ- اسم السورة: ٤٠٩
ب- مكان نزولها: ٤٠٩
جـ-موضوعاتها: ٤٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١...﴾ الآيات [١-١١]..... ٤١٠
تفسير سورة التكاثر ٤١٥
المقدمة ٤١٧
أ- اسم السورة: ٤١٧
ب- مكان نزولها: ٤١٧
جـ-موضوعاتها: ٤١٧
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١...﴾ الآيات [١-٨] ٤١٨
تفسير سورة العصر ٤٣٣
المقدمة ٤٣٥
أ- اسم السورة: ٤٣٥
ب- مكان نزولها: ٤٣٥
جـ-فضلها: ٤٣٥
د- موضوعاتها: ٤٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١...﴾ الآيات [١-٣]..... ٤٣٦
تفسير سورة الهمزة ٤٥١
المقدمة ٤٥٣
أ- اسم السورة: ٤٥٣
ب- مكان نزولها: ٤٥٣
جـ-موضوعاتها: ٤٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١...﴾ الآيات [١-٩]..... ٤٥٤
تفسير سورة الفيل ٤٦١

المقدمة ٤٦٣
أ- اسم السورة: ٤٦٣
ب- مكان نزولها: ٤٦٣
جـ-موضوعاتها: ٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١...﴾ الآيات [١-٥] ٤٦٤
تفسير سورة قريش ٤٧١
المقدمة ٤٧٣
أ- اسم السورة: ٤٧٣
ب- مكان نزولها: ٤٧٣
جـ- موضوعاتها: ٤٧٣
تفسير قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١...﴾ الآيات [١-٤] ٤٧٤
تفسير سورة الماعون ٤٧٩
المقدمة ٤٨١
أ- اسم السورة: ٤٨١
ب- مكان نزولها: ٤٨١
جـ- موضوعاتها: ٤٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١...﴾ الآيات [١-٧] ٤٨٢
تفسير سورة الكوثر ٤٨٩
المقدمة ٤٩١
أ- اسم السورة: ٤٩١
ب- مكان نزولها: ٤٩١
جـ- موضوعاتها: ٤٩١
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١...﴾ الآيات [١-٣] ٤٩٢
تفسير سورة الكافرون ٤٩٧

المقدمة ٤٩٩
أ- اسم السورة: ٤٩٩
ب- مكان نزولها: ٤٩٩
جـ- فضلها: ٤٩٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١...﴾ الآيات [١-٦] ٥٠١
تفسير سورة النصر ٥٠٧
المقدمة ٥٠٩
أ- اسم السورة: ٥٠٩
ب- مكان نزولها: ٥٠٩
جـ- فضلها: ٥٠٩
د- موضوعاتها: ٥٠٩
تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١...﴾ الآيات [١-٣] ٥١٢
تفسير سورة المسد ٥٣١
المقدمة ٥٣٣
أ- اسم السورة: ٥٣٣
ب- مكان نزولها: ٥٣٣
جـ- موضوعاتها: ٥٣٣
تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١...﴾ الآيات [١-٥] ٥٣٤
تفسير سورة الإخلاص ٥٤٣
المقدمة ٥٤٥
أ- اسم السورة: ٥٤٥
ب- مكان نزولها: ٥٤٥
جـ- فضلها: ٥٤٥
د- موضوعاتها: ٥٥٠

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١...﴾ الآيات [١-٤] ٥٥١
تفسير سورة الفلق ٥٥٧
المقدمة ٥٥٩
أ- اسم السورة: ٥٥٩
ب- مكان نزولها: ٥٥٩
جـ- فضلها: ٥٥٩
د- موضوعاتها: ٥٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١...﴾ الآيات [١-٥] ٥٦١
تفسير سورة الناس ٥٩٣
المقدمة ٥٩٥
أ- اسم السورة: ٥٩٥
ب- مكان نزولها: ٥٩٥
جـ- فضلها: ٥٩٥
د- موضوعاتها: ٥٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١...﴾ الآيات [١-٦] ٥٩٦
فهرس الموضوعات ٦١٩

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146

9 786038 274958

عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الخامس والعشرون

الفهارس

فهرس الأحاديث والآثار - فهرس الأشعار - فهرس الموضوعات

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

٢٥

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٣٢٨ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

فهرس الأحاديث والآثار(١)

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أأصلي فأتوضأ	ابن عباس	٧/ ١٦٧
أبا هر، الحق أهل الصفة، فادعهم	أبو هريرة	١٥/ ١٥٤
أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئًا	عمرو بن شعيب	٢٢/ ٢٣٣
ابتلينا بالضراء فصبرنا		١١/ ١٨٥
أبخل الناس الذي يبخل بالسلام	أبو هريرة	٥/ ١٢٩
أبدأ بما بدأ الله به	جابر بن عبد الله	٢/ ٥٧٥
ابدأ بمن تعول	حكيم بن حزام	٣/ ٢٣٧
ابدأ بنفسك ثم بمن تعول	جابر	٢٢/ ٤٥٢
ابدأ بنفسك فتصدق عليها	جابر بن عبد الله	٣/ ٢٧١
ابدأن بميامنها	أم عطية	٧/ ١٨٩
ابدؤوا بما بدأ الله به	جابر بن عبد الله	٢/ ٥٧٥
ابسط يمينك فلأبايعك	عمرو بن العاص	١٠/ ١١٩
أبشر بالذي يسرك	البراء بن عازب	١٣/ ٤٥٩
أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك	ابن عباس	١/ ١٤٤
أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل	ابن عباس	١٠/ ٤٥
أبشروا وأمِّلوا ما يسركم	عمرو بن عوف	١٣/ ٣٩١
أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان	أبو هريرة	٢١/ ٤٧٠
أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: وُدِّع محمد	جندب	٢٤/ ٣١٠

(١) اكتفينا في فهرس الأحاديث والآثار- غالبًا- بذكر الموضع الأول الذي خُرج فيه الحديث أو الأثر.

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ	ابن عمر	١٤/ ٣٥٠
أبعد القلوب من الله القلب القاسي		٧/ ٢٣٥
أبغض الحلال عند الله الطلاق	ابن عمر	٦/ ٤٩٤
أبغض الرجال الألد الخصم	عائشة	٣/ ٢٠٢
أبغض الناس إلى الله- عز وجل- ثلاثة	ابن عباس	٧/ ٤٢١
أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء	أنس بن مالك	٤/ ٥٣٧
أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء	ابن عباس	١٠/ ٢٠٦
أبكي؛ لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي	أنس بن مالك	٥/ ٤٨٤
ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد	أبو موسى الأشعري	٢/ ٥٥٨
أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة	عبد الرحمن بن عوف	٤/ ١٠٤
الأبواب المفتحة محارم الله	النواس بن سمعان	١/ ١٩٨
أبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يدخل عليهن أحد بتلك الرضاعة	عائشة، أم سلمة	٥/ ٣٤٤
أتاني آت من ربي فأخبرني أن من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة	أبو ذر	٦/ ٢٤٤
أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، فَابْتَعَثَانِي	سمرة بن جندب	١٠/ ٤٦٧
أتاني جبريل فبشّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا ... دخل الجنّة	أبو ذر	٨/ ٤٢٠
أتاني جبريل فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات	عمر	١٧/ ٤٥٠
أتاني جبريل فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت	علي	٢١/ ٣٦٩
أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٣٣٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث	قتادة	٩/ ٣٦
أتبع السيئة الحسنة تمحها	أبو ذر	٦/ ٢٤٣
اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله	عقبة بن عامر	٢٤/ ٥٥٩
أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟، كأنها تقول الموت	جبير بن مطعم	٢٤/ ٣٠٤
أتجعلون عليها التغليظ	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٤١٠
أتحبه لأمك؟	أبو أمامة	١٣/ ٩٢
أتدرون أين تذهب هذه الشّمس؟	أبو ذر الغفاري	٨/ ٤٤٨
أتدرون ما الغيبة؟	أبو هريرة	٦/ ٤٠٦
أتدرون ما: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾؟ قلنا: لا..	ابن عباس	١٨/ ٢١٦
أتدرون ماذا قال ربكم؟..	زيد بن خالد الجهني	١٥/ ٤٢٨
أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل يوم القيامة؟	عائشة	٢١/ ٤١٥
أتدرون من المفلس؟	أبو هريرة	٦/ ٤٢٨
أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك [في قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾]	الإمام أحمد	١٧/ ٢٦١
أتدري ما حق الله على العباد؟	معاذ بن جبل	٢/ ٢٢٤
أتردين عليه حديقته؟	ابن عباس	٣/ ٣٢٨
أترون هذه طارحة ولدها في النار؟	عمر بن الخطاب	٢/ ٥١١
أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم؟	أبو هريرة	٣/ ٥٩٣
أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟	عائشة	٣/ ٣٣١
أتشفع في حد من حدود الله!	أسامة بن زيد	٦/ ٣٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أتعجبون من دقّة ساقيه؟!	ابن مسعود	٩/ ٢٦
أتعجبون من غيرة سعد	المغيرة بن شعبة	٥/ ٢٤٨
أتعرف الحيرة؟ قال: لم أعرفها..	عدي بن حاتم	١٥/ ٣٠٦
اتفل على يسارك ثلاثًا	عثمان بن أبي العاص	١/ ٤٨
اتق الله حيثما كنت	أبو ذر	٢٣/ ٦٧
اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه	ابن عمر	٢/ ١٧٠
اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب	معاذ بن جبل	٣/ ٥٥٢
أتقدر على رقبة تعتقها		٢٢/ ٢٣
أتقرؤون خلفي؟	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	١/ ٢٦١- ٢٦٢
أتقرؤون في صلاتكم والإمام يقرأ؟	أنس بن مالك	١/ ٢٦١
اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم	جابر بن عبد الله	٦/ ٥٠٤
اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة	جابر بن عبد الله	١٤/ ١٠٥
اتقوا الله في النساء	جابر بن عبد الله	٣/ ٣١٨
اتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان	أبو حرة الرقاشي	٣/ ٣١٩
اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم	النعمان بن بشير	٧/ ٢١٤
اتقوا النار ولو بشق تمرة	عدي بن حاتم	٢/ ٣٨١
أتقولون: هذا أضلّ أم بعيره؟!	جندب بن عبد الله البجلي	٩/ ٣١٤
أتلومني على أمر قدره الله عليّ	أبو هريرة	٢٣/ ٢٩٥
أتى النبي ﷺ رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه، فقال له ﷺ: «هوِّن عليك فإني لست بملك..	أبو مسعود	٢٤/ ٣٢١
أتى النبي ﷺ سباطة قوم فبال قائمًا	حذيفة	٧/ ١٩١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله	أبو هريرة	٢٢/ ١٣١
أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: إني تظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفِّر	ابن عباس	٢٢/ ٢٩
أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن أشياء،	ابن عباس	٣/ ٢٩٤
آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح	أنس	١٩/ ١١٨
أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر	أنس بن مالك	١٤/ ٣٤١
أُتي رسول الله ﷺ بماعز بن مالك	جابر بن سمرة	١٥/ ٢٩
أتيت ابن عباس، وهو ينزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه	عطاء بن أبي رباح	٢١/ ٣٣٣
أتيت النبي ﷺ في دَين كان على أبي، فدققت الباب	جابر بن عبدالله	١٥/ ١٤٥
أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل	أنس بن مالك	١٣/ ١٩
أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه	أميمة بنت رقيقة	٢٢/ ٢٣٢
أتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتاني	سبيعة الأسلمية	٣/ ٣٦٧
أتيت عثمان بن عفان بوضوء، فتوضأ	حمران	٧/ ١٦٢
أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج	الزبير بن عدي	٢٢/ ١٣٨
اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان	أنس	٢١/ ٥٤٢
آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٢١٥
أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر	أبو هريرة	٦/ ٥٤٢
اثنتان في الناس هما بهم كفر	أبو هريرة	٢/ ٤٤
اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت	أبو مالك الأشعري	٢٠/ ٣٥٨
اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت	أبو هريرة	٢٠/ ٣٤٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أثنى علي عبدي	أبو هريرة	١/ ٨٦
أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة	أنس بن مالك	٢/ ٥٠٢
أجب عني	أبو هريرة	١/ ٣٥
اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي..	عبدالله بن مسعود	١٩/ ٢٨٥
اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه	عمر بن الخطاب	٢٢/ ٤٤٥
اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسمًا..	جابر	٢٣/ ٢٣٠
اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده	ابن عباس	٤/ ٢٥١
اجتنبوا السبع الموبقات	أبو هريرة	٥/ ١١٧
أجتهد رأي ولا آلو	معاذ	٤/ ٤٣١
أجعلتني لله عدلًا	ابن عباس	٤/ ١٤٩
أجعلتني لله نداً؟	ابن عباس	٢/ ٦٠٦
اجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك	ابن مسعود	٥/ ٥٥٣
اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم	ابن عمر	١/ ٥٨
اجعلوها في ركوعكم[لما نزل قوله تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾]	عقبة بن عامر	٣/ ٣٩٢
اجلس فقد آذيت وآنيت	جابر بن عبد الله	٢٢/ ٣٠٤
أجلوا الله يغفر لكم	أبو الدرداء	٢١/ ٤٠٣
اجمعوا إليَّ من كان هاهنا من يهود	أبو هريرة	٢/ ٢٦٢
اجمعوا من وجد حطبًا فليأت به	سعد بن جنادة	١٣/ ٢٩٦
أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن	ابن عمر	١٢/ ٨١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أحب البلاد إلى الله مساجدها	أبو هريرة	٢٤/ ١٨٣
أحب الصلاة إلى الله صلاة داود	عبدالله بن عمرو	١٨/ ٣٧٥
أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله	سمرة بن جندب	١٤/ ٢٩٥
أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس	ابن عمر	٢٤/ ١٨٣
أحب عبادي إليَّ أعجلهم فطراً	أبو هريرة	٣/ ١٠٧
أحبب حبيبك هونًا ما	علي بن أبي طالب	٢٢/ ٢٠٨
احبس أصلها وسبل الثمرة	ابن عمر	٤/ ٣٢٢
أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه	ابن عباس	٧/ ٩٢
احتجبا منه	أم سلمة	١٥/ ١٦٢
احتطب وبع	أنس بن مالك	٥/ ٤٥٥
احثوا في وجوه المداحين التراب	المقداد بن الأسود	١/ ٢١٠
احرص على ما ينفعك	أبو هريرة	٢/ ١٧١
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك	عمر	٢١/ ٩٧
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك	أبو هريرة	٢١/ ٥٨٤
أحسنت لا يفضض الله فاك		٤/ ٦٠٠
أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا		٦/ ١٣٤
أحسنهم خلقاً [أفضل المؤمنين]	ابن عمر	٣/ ٦٣
احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن	أبو هريرة	٢٤/ ٥٤٨
احفظ الله يحفظك	ابن عباس	٢/ ١٤٢
احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك	بهز بن حكيم	١٥/ ١٥٩
أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج	عقبة بن عامر	٣/ ٣٧٩
أحل عليكم رضواني	أبو سعيد الخدري	٤/ ٨٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أحلت لنا ميتتان ودمان	ابن عمر	٣/ ٣٢
أحلت لي ساعة من نهار [مكة]	ابن عباس	١١/ ٨١
احلق رأسك، وأطعم ستة مساكين	كعب بن عجرة	٣/ ٩٥
احلق واخرج إليهم	أم سلمة	٥/ ٨٤
أحي والداك؟	عبد الله بن عمرو	١٣/ ٧٢
أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس	عائشة	١٩/ ٣٤٣
أحيوا ما خلقتم	عائشة	٤/ ٢١١
أخبرني بعمل يدخلني الجنة؟	معاذ بن جبل	٢/ ١٧٣
أخبروني بشجرة تشبه المسلم	ابن عمر	١٢/ ١٧٠
اختر منهن أربعًا، وفارق سائرهن	ابن عمر	٥/ ٧٢
اختصمت الجنة والنار	أبو هريرة	١١/ ٣٣١
أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا..	عائشة	٢٤/ ٥٦٧
أخذ النبي ﷺ قبضة من التراب يوم بدر فرمى بها في وجوه المشركين	ابن عباس	١٥/ ٤٠
أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل	ابن عمر	٢٤/ ٥٢١
آخر آية نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾	البراء بن عازب	١٠/ ٢٣٣
آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح	عبد الله بن عمرو	٧/ ٧
اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان	ربعي	٦/ ١٧٢
أخرج بعث النار من ذريتك	أبو سعيد الخدري	٣/ ٤٠٩
اخرجوا باسم الله	ابن عباس	٣/ ١٢٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اخرجوا بنا ننظر إلى الإبل كيف خلقت..	شريح القاضي	٢٣١/٢٤
اخرجوا في طلب الرزق	عمر بن الخطاب	١١٠/٥
أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن	ابن عباس	٣٦٨/١٤
اخرجي أيّتها النّفس الخبيثة	أبو هريرة	١٠١/٩
اخرجي راضية مرضيًّا عنك إلى روح وريحان	أبو هريرة	١٠٢/١١
اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها [النار] أبدًا	أبو هريرة	٢٦٢/٢
أخشى أن تبسط عليكم الدنيا	عمرو بن عوف	٧٣/٤
أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بملك الأملاك	أبو هريرة	١٧٦/١
أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر	محمود بن لبيد	٤٤/٢
آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء	أبو جحيفة	١٦/٢٢
أدِ الأمانة إلى من ائتمنك	أبو هريرة	٥٧٦/٣
أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ	أنس	١٢١/١٩
أدخلوا عبدي الجنة برحمتي	جابر	٣٦٢/١٥
أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ	عبدالله بن أبي مليكة	٢١٧/١٧
ادرؤوا الحدود ما استطعتم	عائشة	٣٠/١٥
ادع الله أن يسقينا		٢٠٢/٢
ادع الله لي ألا أتكشف	ابن عباس	١٧٠/٢
أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك	أبو تميمة الهجيمي	٢١٩/١٦
ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة	أبو هريرة	٦٣/٢١
ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة	عبدالله بن عمرو	٣٢٠/١٩
ادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين	الحارث الأشعري	٤٣٠/١٤
أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم	أبو سعيد	٤٠٠/٢١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إذ أمسيت فلا تنتظر الصباح	ابن عمر	٢/ ٥٦٢
إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا، فقل: يا أخي، اعف عنه	الفضيل بن عياض	١٩/ ٤٠١
إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثر نعمة الله عليك	أبو مالك الجشمي	١/ ١٥٩
إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه	أبو هريرة	١٠/ ٢٢٣
إذا أتيت وكيلي بخيبر فضع يدك على ترقوته	جابر بن عبد الله	٢/ ٣٢٠
إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة	أبو هريرة	٢٢/ ٢٩٩
إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون	أبو هريرة	١٥/ ٤٤٦
إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران	عمرو بن العاص	٦/ ٤٢
إذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم	عثمان بن عفان	١٥/ ٩٣
إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك	أبو هريرة	١٠/ ٣٣٣
إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي	النواس بن سمعان	١٨/ ٥٠
إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا	أنس	١٥/ ٨٠
إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها	أبو عزة	١٧/ ١٥٥
إذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون	معاذ بن جبل	١٤/ ٥١٤
إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك	عدي بن حاتم	١/ ١١٩
إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف	أبو موسى الأشعري	١٥/ ١٤٤
إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها	ابن عمر	١٥/ ٢٣٧
إذا استجنح الليل فكفوا صبيانكم	جابر بن عبد الله	١/ ١٢٢
إذا استيقظ الرجل من الليل، وأيقظ امرأته..	أبو سعيد	
إذا اشتدت الأرض، قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني	ابن عباس	٢/ ٥٩٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
آدم		
إذا أقبل الليل من ههنا... وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم	عمر بن الخطاب	٣/ ١٠٧
إذا أقبلت حيضتك، فدعي الصلاة	عائشة	٣/ ٣١٤
إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء.	عائشة	٢٤/ ٣٣٣
إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل	عائشة	٧/ ١٥٣
إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار	أبو بكرة	٣/ ٤٤٥
إذا آلى الرجل من امرأته، لم يقع عليه طلاق	ابن عمر	٣/ ٣١٠
إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم	أبو هريرة	٣/ ٦٠٢
إذا أمروا سمعوا وأطاعوا	عبد الله بن عمرو	١٢/ ٦٣
إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح	ابن عمر	٥/ ٢٧٣
إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف في البحر أفواهها	ابن عباس	٢١/ ٣٦٦
إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا	أبو هريرة	١/ ٣١٢
إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم	المقداد	٦/ ١٦٦
إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم	أبو هريرة	١٥/ ٣٥٣
إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره	أبو هريرة	١٩/ ٧٦
إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي	أبو هريرة	١/ ٥٨
إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها		١/ ٢٠٩
إذا تبايعتم بالعينة... وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً	ابن عمر	٣/ ١٣٨
إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع	أبو هريرة	٤/ ٤٨٠
إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان	جابر بنعبد الله	٢٤/ ٦٠١
إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة..	عبدالله بن مسعود	١٨/ ٥١
إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب من	أبو هريرة	٢١/ ٢٣٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أمنيته		
إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء	أبو هريرة	٧/ ١٧٠
إذا توضأ أحدكم فليستنشق بمنخريه من الماء	أبو هريرة	٧/ ١٧٠
إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة	أبو هريرة	٤/ ٦٩٢
إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل	ابن عمر	٢٢/ ٣٠١
إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه	أبو هريرة	٥/ ٥٤٦
إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه	أبو هريرة	١٥/ ١٨٦
إذا جلس بين شعبها الأربع	عائشة	٥/ ٥٧٦
إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل	أبو هريرة	٧/ ١٥٣
إذا جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى منادٍ: ألا من كان له مظلمة	ابن مسعود	١٤/ ٥٢٢
إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر	عبد الله بن عمرو	٢٣/ ١٦٢
إذا حسدت فلا تبغ	أبو هريرة	٢٤/ ٥٧٢
إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء	أبو هريرة	٢٤/ ٢٥٦
إذا حلف أحدكم، فلا يقل: ما شاء الله وشئت	ابن عباس	٤/ ١٤٩
إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك	عبد الرحمن بن سمرة	٣/ ٣٠٢
إذا حللت فآذنيني	فاطمة بنت قيس	٣/ ٣٦٩
إذا خرج الرجل من بيته، فقال: بسم الله توكلت على الله	أنس بن مالك	١/ ١٢٠
إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم	أبو سعيد الخدري	٥/ ٥١٢
إذا خرصتم فخذوا ودعوا الثّلث	سهل بن أبي حثمة	٨/ ٣٩٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إذا خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك	أبو ذر	٧/ ٣٠٣
إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى منها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل	جابر	١٧/ ٤٧٢
إذا خلص المؤمنون من النّار؛ حبسوا بقنطرةٍ بين الجنّة والنّار	أبو سعيد الخدري	٩/ ١٠٥
إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين	أبو قتادة	٥/ ٥٩٥
إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبي ﷺ	أبو هريرة	١/ ٤٩
إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله ... لا مبيت لكم	جابر بن عبد الله	١/ ١٢٠
إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟	صهيب الرومي	٤/ ٨٠
إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو غيره	ابن عمر	١٧/ ٤٢٩
إذا دعا أحدكم، فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت	أبو هريرة	٢/ ٥٧٧
إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت	أبو هريرة	٥/ ٥٠٣
إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب	أبو هريرة	١٠/ ٤٦٨
إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره	جابر بن عبد الله	١/ ٤٨
إذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه، فلينفث عن يساره ثلاثًا	أبو قتادة	١/ ٤٨
إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله	عائشة	٤/ ٣٩
إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة	الحسن البصري	٤/ ٤٩٢
إذا رأيت الله يعطي العبد من الدّنيا على معاصيه ما يحبّ؛ فإنما هو استدراجٌ	عقبة بن عامر	٨/ ١١٨
إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك	أبو هريرة	١٥/ ٢٣٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره	أم سلمة	١٤/ ٣٢٤
إذا زنت الأمة فاجلدوها	أبو هريرة، زيد بن خالد	٥/ ٤١٩
إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد	أبو هريرة	٥/ ٤١٩
إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها..	أبو هريرة	١٥/ ٣٣
إذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة	عبد الله بن عمرو	٣/ ٩١
إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة	أبو هريرة	٤/ ٤٨٠
إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام	ابن عباس	٨/ ٩
إذا سلم عليكم اليهود ... فقل: وعليك	ابن عمر	٦/ ١٨٠
إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم	عائشة	٦/ ١٧٨
إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك	ابن مسعود	٢/ ٣٥١
إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ	عمرو بن العاص	٣/ ٤٤٣
إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله	أبو هريرة	١/ ٤٩
إذا سمعتم نُباح الكلاب ونهيق الحمر بالليل فتعوذوا بالله	جابر بن عبد الله	١/ ٤٩
إذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان	أبو هريرة	١/ ٤٩
إذا صلّت المرأة خمسها... قيل لها: ادخلي الجنة	عبد الرحمن بن عوف	٣/ ٣٢١
إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه		٤/ ٧٠٣
إذا صليتم فأقيموا صفوفكم	أبو موسى الأشعري	١/ ٣١٢
إذا ضرب أحدكم فليتقِ الوجه	أبو هريرة	١٥/ ١٧
إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة	أبو هريرة	٦/ ٣١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إذا ظننت فلا تحقق	أبو هريرة	١٥/٨٦
إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمَّهم الله بعذاب	أم سلمة	١٠/٧٩
إذا غابت يعني الناقة حضروا الماء	مجاهد	٢١/٣١٦
إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس	أبو ذر	٤/٤٨٤
إذا فزع أحدكم من النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	١/٥٠
إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء	علي بن أبي طالب	١٥/٣٤٥
إذا قال الإمام: ﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقولوا: آمين	أبو هريرة	١/٣١٢
إذا قام أحدكم من المجلس ثم رجع إليه فهو أحق به	أبو هريرة	٢٢/٦١
إذا قام أحدكم يصلي، فإنه يستره إذا كان بين يديه مثل آخرة الرحل	أبو ذر الغفاري	١/٢٩
إذا قبض ملك الموت الروح، لم يدعوها في يده طرفة عين		٦/٣٠٣
إذا قتلتم فأحسنوا القتلة	شداد بن أوس	٥/٥٣٩
إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي	أبو هريرة	١٤/٢٨٩
إذا قرأت: ﴿كل من عليها فان﴾ فلا تسكت..	الشعبي	٢١/٣٧٠
إذا قرأتم الحمد، فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم	أبو هريرة	١/٨٠
إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله	أبو هريرة	١٢/٢٣٨
إذا قعد المؤمن في قبره أُتِيَ ثم شهد أن لا إله إلا الله..	البراء بن عازب	١٦/٣٤٩
إذا قلت: باسم الله تصاغر	أسامة بن عمير	١/١٢٢
إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه	ابن عمر	١٥/١٩٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصقن قبل وجهه		٢/ ٣٩٨
إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين	أبو هريرة	٦/ ٤٥٤
إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط	أبو هريرة	٦/ ٥٠٦
إذا كان لإحداكن مكاتب، وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه	أم سلمة	١٥/ ١٦٩
إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث	أبو هريرة	٧/ ٣٠٤
إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه حيث كان وجهه	جابر بن عبد الله	٣/ ٣٨٨
إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث	ابن عمر	٦/ ٤٣٤
إذا كبّر فكبروا	أبو موسى الأشعري	١/ ٢٧٣
إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه	عبد الله بن عمر	٢٢/ ٥٥
إذا لزمت مضجعك فسبحي الله ثلاثًا وثلاثين، وكبري ثلاثًا وثلاثين، واحمدي أربعًا وثلاثين	أم سلمة	٢١/ ٧١
إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه	أبو هريرة	٦/ ١٦٥
إذا لقيت عدوك فادعهم إلى ثلاث خصال	بريدة بن الحصيب	١٠/ ٣٢٠
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث	أبو هريرة	٣/ ٤٦٠
إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين	الأشعث بن عبد الله الأعمى	٢٤/ ٤١٢
إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟	أبو موسى الأشعري	٢/ ٥٥٨
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا	أبو هريرة	٢٢/ ٦٣
إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا	أبو موسى الأشعري	٦/ ٢٧٧
إذا مشت أمتي المطيطياء	ابن عمر	٢٣/ ٣١٣
إذا مشى تكفأ تكفؤًا	علي	١٥/ ٤٤٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضُرَاطٌ	أبو هريرة	١/ ٤٨
إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة	جابر بن عبد الله	٧/ ٨٩
إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾	ابن عباس	٢١/ ٤٨٧
إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة	أبو هريرة	٦/ ٣١
إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى	طلق بن حبيب	٥/ ٢٣
إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم	عبد الرحمن بن عوف	٦/ ٤٩٤
إذا ولدت الأمة بعلها	أبو هريرة	١٥/ ١٦٦
إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا	أبو هريرة	٧/ ١١٤
أذاتُ زوج أنت؟	الحصين بن محصن	٥/ ٥٠٣
أذن له أن يتخذ أنفًا من ذهب	عرفجة بن أسعد	٤/ ٤٨
أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش	جابر	٢٣/ ١٢٤
أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش	جابر بن عبد الله	٢٣/ ١٢٤
أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي	أبو هريرة	٤/ ٤٨٩
اذهب أنت ومالك لأبيك	جابر	١٥/ ٣٤١
اذهب فاطرحه في القَبَض	سعد بن أبي وقاص	١٠/ ١٣
اذهب فأنت أميرهم	أبو هريرة	٢/ ٨
اذهب فخذ سيفك	سعد بن أبي وقاص	١٠/ ١٣
اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٣٥
اذهب معه فافعل ما يريد	الحسن	٦/ ١٩٢
اذهب والتمس ولو خاتمًا من حديد	سهل بن سعد	٥/ ٣٨١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اذهبوا به إلى صديقات خديجة	عائشة	٥/ ٢٩٠
اذهبوا فأنتم الطلقاء	أبو هريرة	٢٠/ ٥٠
اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه	أبو سعيد الخدري	٥/ ٥٥٨
أراه كان ساحراً	جندب الأزدي	٢/ ٣٤٧
أرأيت إن قاتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر	أبو هريرة	٤/ ٦٩٧
أرأيت إن كانت أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرًا من بني تميمٍ	أبو بكرة	٨/ ١٣٧
أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تصبحكم، ألستم مُصدِّقيّ؟	ابن عباس	١١/ ١٧١
أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات	أبو هريرة	٥/ ٤٦١
أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟	أبو ذر	٢/ ٨١
أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد	ابن عمر	٢١/ ٦٠
أربع أفضل الكلام، لا يضرك بأيهن بدأت	سمرة بن جندب	١٤/ ٢٩٥
أربع خصال، واحدة منهن لي..	أنس بن مالك	١٩/ ٢٢٢
أربع من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الطعن في الأنساب	أبو مالك الأشعري	١٢/ ٢١١
أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً	عبد الله بن عمرو	٣/ ١٩٦
اربعوا على أنفسكم..	أبو موسى	١٥/ ٢٣٠
ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف	مالك بن صعصعة	٥/ ٤٣٣
ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ، وله ما أعطى	أسامة بن زيد	١٠/ ١٤٧
ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما	عبد الله بن عمرو	١٣/ ٧٢
ارجع فأحسن وضوءك	عمر بن الخطاب	٧/ ١٧٨
ارجع فصل فإنك لم تصل	أبو هريرة	٥/ ٢٧٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل	كلدة بن حنبل	٦/ ١٧٢
ارجع فقُل: السلام عليكم. أأدخل؟!	كلدة بن حنبل	٤/ ٢٨٧
ارجع فلن أستعين بمشرك	عائشة	٤/ ١٣٨
ارجعو، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار	أبو سعيد الخدري	٥/ ٥٥٨
ارجعي إلى بيتك	عدي بن ثابت	٥/ ٣١٠
أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة	أبو هريرة	٢/ ٨٧
أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله	عائشة	٨/ ١٥١
أرحم أمتي بأمتي أبو بكر	أنس بن مالك	٢٤/ ٣٠٤
ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء	عبدالله بن عمرو	١٦/ ٢٩٦
أرحنا يا بلال بالصلاة	عبد الله بن محمد بن الحنفية	٢٣/ ٢٣٦
الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة	أبو هريرة	٢٤/ ١٥٢
أرضعيه	عائشة	٥/ ٣٤٢
أرضعيه تحرمي عليه	عائشة	١٧/ ٢٢٨
أرضى لنفسي بما رضيه الله لنفسه	أبو بكر الصديق	٥/ ١٨٥
ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته	أبو بكر الصديق	١٩/ ٣٨٤
اركب باسم الله	جابر بن عبد الله	١/ ١١٩
اركبها بالمعروف	جابر بن عبد الله	١٤/ ٣٣٨
اركبها ويحك	أبو هريرة	١٤/ ٣٣٨
اركبوها سالمة	معاذ بن جبل	١٤/ ٢٨٧
اركع حتى تطمئن راكعاً	أبو هريرة	٣/ ٤٨٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ارم فداك أبي وأمي	علي بن أبي طالب	١٠/ ١٨١
ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا	سلمة بن الأكوع	٥/ ٢٠٤
الأرواح جنود مجندة	أبو هريرة	١٣/ ٢٤٨
أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل	عبد الله	٤/ ٦٢٧
أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش	مسروق	٢١/ ٤٧٢
أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر	عبد الله بن عمر	٢٤/ ٣٦٧
أرى قد أتينا ما نهانا الله عنه؛ نهانا الله فقال: ﴿ولا تجسسوا﴾ فقد تجسسنا		٢٠/ ٣٦٨
أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء	ابن عباس	٣/ ٤٧٤
أُريت كأني أنزع بدلو بكرة على قليب	عبد الله بن عمر	٢١/ ٤٠١
أُريت ليلة القدر ثم أُنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين	عبد الله بن أنيس	٢٤/ ٣٦٥
أريد أن تطهرني	جابر بن عبد الله	٥/ ٢٤٧
أسألك الرضا بعد القضاء	عمار بن ياسر	٣/ ٤٣٧
أسألك النظر إلى وجهك	عمار بن ياسر	٢/ ١٩٦
أسألك بكلّ اسمٍ هو لك، سمّيت به نفسك	ابن مسعود	٩/ ٣٦٢
أسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدًا		١٣/ ٢٣٢
إسباغ الوضوء على المكاره... فذلكم الرباط	أبو هريرة	٤/ ٧١٦
استأخرن، فإنه ليس لكنَّ أن تَحْقُقْنَ الطريق	أبو أسيد الأنصاري	١٥/ ١٧٤
أستأذن على أخواتي أيتام في حجري، معي في بيت واحد؟	عطاء بن أبي رباح	١٥/ ١٤٧
أَستأذِن على أمي؟ قال: «نعم»	عطاء بن يسار	١٥/ ٣٣١
استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي	أبو هريرة	١٣/ ٦٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه	سليمان بن صرد	٢٤/ ٦١٢
استطير جنونًا [معنى قوله: «ازدجر»]	مجاهد	٢١/ ٣٠٠
استعن بالله ولا تعجز	أبو هريرة	٢/ ١٧١
استعيذوا بالله، فإن العين حق	عائشة	٢٣/ ١٠٦
أستغفر الله	ثوبان	٣/ ١٧٦
استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت	عثمان بن عفان	١٠/ ٤٣٧
استقيموا ولن تحصوا	ثوبان	١٤/ ٤٤٧
استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً	جابر بن عبد الله	٢/ ٤٣٠
الاستمتاع عندنا يومئذٍ التزوج	سبرة	٥/ ٣٦٩
استمتعوا من هذه النساء	سبرة	٥/ ٣٦٩
استمر به الحال ﷺ هكذا إلى أن لحق بالرفيق الأعلى،	عائشة	٢٤/ ٣١٩
الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول	مالك بن أنس	٩/ ١٣٠
الاستواء معلوم	مالك بن أنس	١١/ ١٥
استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج	أبو هريرة	٥/ ٢٧
استوعبت هذه الآية المسلمين عامة [﴿إنما الصدقات للفقراء...﴾]	مالك بن أوس	٢٢/ ١٤١
الاستئذان ثلاثًا	أبو موسى الأشعري	٦/ ١٧٢
أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم	أبو هريرة	٢٠/ ١٠٥
اسعوا	حبيبة بنت أبي تجراة	٢/ ٥٧٥
اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك	عبد الله بن الزبير	٤/ ٥٩١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اسقه عسلا	أبو سعيد الخدري	١٢/ ٤٠٣
اسكن أُحد	أنس بن مالك	١/ ٢٠٠
اسكن حراء	أبو هريرة	١/ ٢٠٠
الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله	عمر بن الخطاب	١٧/ ٣٢٨
الإسلام علانية، والإيمان في القلب	أنس	٢٠/ ٣٤٨
أسلم تَسلم، يؤتك الله أجرك مرتين	ابن عباس	٤/ ٢٥١
أسلم وإن كنت كارهًا	أنس بن مالك	١٠/ ٣٥٥
اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي	أنس بن مالك	٦/ ٥٦
اشتر بأحدهما طعامًا وبالآخر قدومًا	أنس بن مالك	٥/ ٤٨٨
اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا	أبو هريرة	١٦/ ١٢٥
اشتريت بريرة فاشترط أهلها ولاءها	عائشة	٥/ ٣٧٥
اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا	أبو هريرة	٢٤/ ٤١٢
اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة..	جندب بن سفيان	٢٤/ ٣١٠
أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل	سعد بن أبي وقاص	٣/ ٢٣٤
اشفعوا تؤجروا	أبو موسى الأشعري	٦/ ١٥٦
أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٣٣٠
أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٢٥٥
أشهد أني رسول الله	جابر بن عبد الله	٣/ ٥٩٥
أشهد على رسول الله ﷺ إن كان ليصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يصومه	عائشة	٣/ ١٠٦
اشهدوا	ابن مسعود	٨/ ٣١
أشيروا علي أيها الناس	مسور بن مخرمة	١٦/ ١٧٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أشيروا عليَّ أيها الناس	ابن عباس	١٠/ ٢٩
أشيروا عليَّ أيها الناس في رجل بلغني أذاه في أهلي	عائشة	٤/ ٥٩٢
أصابنا من الليل طش من مطر	علي بن أبي طالب	١٠/ ٤٦
أصبت السنة وأجزأتك صلاتك	أبو سعيد الخدري	٥/ ٦٠٣
أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا	أبو بكر الصديق	١١/ ٤٠٠
أصبت جرابًا من شحم يوم خيبر	عبدالله بن مغفل	٧/ ١٢٨
أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر	ابن عباس	٢١/ ٤٦٤
أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر	زيد بن خالد الجهني	١١/ ٤٦
أصبحت والسراء والضراء مطيتان على بابي	عمر بن عبد العزيز	١١/ ١٨٥
أصبحنا على فطرة الإسلام		١٤/ ٤٢٩
أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل	أبو هريرة	٤/ ٢٤٩
اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ	جابر بن عبد الله	٧/ ٦٢٩
إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة	أبو الدرداء	٢٠/ ٣٥٤
اصنعوا كل شيء إلا النكاح	أنس بن مالك	٣/ ٢٨٩
اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثّر في جنبه..	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٣١٢
أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا	أبو هريرة	٢٤/ ٣١٧
أطاع قليلاً ثم قطعه	ابن عباس	٢١/ ٢٥٨
أطال طيلها في مرج أو روضة	أبو هريرة	٤/ ٧٤
أطت السماء وحق لها أن تئط	أبو ذر	٣/ ٣٠٢
أطعم أنس بن مالك لما كبر عاماً أو عامين	أنس بن مالك	٣/ ٩٥
أطعمه لأهلك	أبو هريرة	٣/ ٦١٨
أطفال المشركين في الجنة	ابن عباس	٢٤/ ٨٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أطفئ مصباحك واذكر اسم الله	جابر بن عبد الله	١/ ١٢٢
اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء	عمران بن حصين	٥/ ٣٠
أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح	أبو بكر	١٥/ ١٩٠
أظلمتك كتبتي الحافظون؟	عبد الله بن عمرو	١٤/ ١٨٧
أعتق النسمة، وفك الرقبة	البراء بن عازب	١٠/ ٣٨٨
أعتق صفية وجعل عتقها صداقها	أنس بن مالك	٥/ ٦٧
أعتقها فإنها مؤمنة	معاوية بن الحكم السلمي	٣/ ٢٨٣
أعتقيها، فإن الولاء لمن أعطى الورق	عائشة	٥/ ٣٧٦
اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٣٦٤
أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت	أبو هريرة	٤/ ٧٨
أعذر الله إلى امرئ، أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة	أبو هريرة	١٨/ ١٦١
أعزَّ اللهُ الإسلامَ برجلين ليس لهما ثالث..	علي بن المديني	١٥/ ٢٧
أعز الله هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث	علي بن المديني	٣/ ٩٧
أعط ابنتي سعد الثلثين	جابر بن عبد الله	٤/ ١٥٤
أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه	عبد الله بن عمر	٣/ ٣٦١
أعطوا السائل ولو جاء على فرس	زيد بن أسلم	٢٤/ ٣٢٠
أعطى البنت النصف	ابن مسعود	٥/ ١٧٧
أعطيت جوامع الكلم	أبو هريرة	١٨/ ٣٧٦
أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي	جابر بن عبد الله	٣/ ٤٤٠
أعطيت خواتيم سورة البقرة	أبو ذر	٣/ ٥٩٤
أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك	أبو هريرة	٣/ ٤٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام	أبو مسعود البدري	٥/ ٥٠٧
أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم	معاذ بن جبل	١٠/ ٣٨٣
أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين	أبو هريرة	١٨/ ١٦١
اعمل ما شئت فقد غفرت لك	أبو هريرة	٤/ ٤٨٩
اعملوا فكل ميسر لما خلق له	علي	٢١/ ٩٢
أعوذ بالله ... من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه	أبو سعيد الخدري	١/ ١٧
أعوذ بالله السميع العليم	أبو سعيد الخدري	١/ ١٦
أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم ... من الشيطان الرجيم	عبد الله بن عمرو	١/ ١٩
أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأُحاذر	عثمان بن أبي العاص	١/ ٤٩
أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه	أبو هريرة	١/ ٥٠
أعوذ بك من فتنة الفقر	عائشة	٥/ ١٢٦
أعوذ بك منك	عائشة	١٠/ ٥٠٤
أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق	عبد الرحمن بن خَنْبَش	٢٤/ ٥٦٥
أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق	خولة بنت حكيم	١/ ٤٩
أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق	عبد الرحمن بن حبش	١/ ٢٢
أعوذ بوجهك	جابر بن عبد الله	٨/ ١٧٠
اغزوا باسم الله في سبيل الله	بريدة بن الحصيب	١٠/ ٢٢٠
اغزوا في سبيل الله		٣/ ١٢٥
اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه	ابن عباس	٥/ ١٨٨
أغلق بابك واذكر اسم الله	جابر بن عبد الله	١/ ١٢٢
أفتان يا معاذ؟!	جابر	٢٤/ ١٠٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة	أبو هريرة	١/ ٢٠٨
افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة	أنس ابن مالك	٢٤/ ٣٧٣
أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرّس في عمر	عبدالله بن مسعود	١٦/ ٢٩٢
أفرس الناس ثلاثة: العزيز	ابن مسعود	١١/ ٣٦٨
أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تر	ابن عمر	١٣/ ٩٨
الإفضاء هو الجماع، ولكن الله حيي كريم يُكَنّي عما يشاء	ابن عباس	٥/ ٣٠١
أفضل الحج العج والثج	أبو بكر	٢٤/ ١٣
أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح	أبو هريرة	٣/ ٤١
أفضل الصدقة جهد المقل	عبد الله بن حبشي	٣/ ٢٣٦
أفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل	أبو هريرة	١٩/ ٤٣
أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة	زيد بن ثابت	١/ ٥٨
أفضل الكلام أربع: سبحان الله	أبو هريرة	١٧/ ٣٤٣
أفضل الكلام أو خير الكلام سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر		٢١/ ٧٢
أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد..	ابن عباس	١٧/ ٣٠٤
أفظننت أنك ملاقي؟	أبو هريرة	٢/ ١٧٤
افعل ولا حرج	عبد الله بن عمرو	٣/ ١٥٢
أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟	جابر بن عبد الله	٤/ ٦٣٥
أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟!	عائشة	١٦/ ١٢٤
أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم..	أبو هريرة	٢١/ ٦٩
أفلا أكون عبدًا شكورًا	المغيرة بن شعبة	١/ ١٥٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أفلا أكون عبدًا شكورًا	عائشة	٢٤/ ٣٢٢
أفلا شققت عن قلبه	أسامة بن زيد	٦/ ٢٦٤
أفلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة	أنس بن مالك	٣/ ١٨٢
أفلا كنتم آذنتموني به دُلوني على قبره	أبو هريرة	١٥/ ٢٢٨
أفلا نصدقه في خبر الأرض	أبو بكر	٢/ ٥٠١
أفلح إن صدق	طلحة بن عبيد الله	١٢/ ٤٤١
أفلح وأبيه إن صدق	طلحة بن عبيد الله	١٢/ ٤٤١
أفلها أجر إن تصدقت عنها؟		٥/ ٢٥٨
أفي شك يا ابن الخطاب؟	ابن عمر	٧/ ٤٥٥
أفيُكشَف عنهم العذاب يوم القيامة؟ والبطشة الكبرى: يوم بدر	ابن مسعود	٢٠/ ٩٨
أقال لا إله إلا الله وقتلته؟!	أسامة بن زيد	٦/ ٢٦٤
أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلي ركعتين	نافع	٦/ ٣٥٥
أقام أصحاب رسول الله ﷺ برامُهْرمز ... يقصرون الصلاة	أنس بن مالك	٦/ ٣٥٥
أقام رسول الله ﷺ بمكة ... خمسة عشر يومًا يقصر الصلاة	ابن عباس	٦/ ٣٥٨
أقبل أبوبكر- رضي الله عنه- ... من مسكنه بالسنح	عائشة	٤/ ٥٣٦
أقبل أبوبكر- رضي الله عنه- يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس	جابر بن عبدالله	١٧/ ٢٨٧
اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة	ابن عباس	٣/ ٣٢٨
أقبل الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٥٦٨
أقبل وأدبر، واتق الدبر والحيضة	ابن عباس	٣/ ٢٩٤
أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ	عائشة	١٧/ ٣٠٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ﴿ قل هو الله أحد ﴾...	أبو هريرة	٥٤٦/٢٤
اقبلوا البشرى يا بني تميم	عمران بن حصين	١٧٩/١١
اقتتلت امرأتان من هذيل	أبو هريرة	٢١٨/٦
اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر	حذيفة بن اليمان	٤٣٠/٢
اقتلوا كل ساحر وساحرة	عمر بن الخطاب	٣٤٦/٢
اقتلوه [ابن خطل]	أنس بن مالك	٣٥٣/٤
اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة	عقبة بن عامر	٥٩٤/٣
اقرأ القرآن في كل شهر	عبد الله بن عمرو	٢٥٨/٢
اقرأ خلف الإمام فيما يخافت به	أبو هريرة	٢٨٧/١
اقرأ عليَّ القرآن	ابن مسعود	٥٠٢/٢
اقرأ عليَّ، قلت: أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟	عبد الله بن مسعود	٢٤٢/٢٣
اقرأ فلان؛ فإنها السكينة نزلت للقرآن	البراء بن عازب	٢١٧/١٣
اقرأ ما تيسر معك من القرآن	أبو هريرة	٣٤٧/١
اقرأ: ﴿الحَمدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ حتى تختمها	عبد الله بن جابر	١٤٥/١
اقرأه في كل سبع ليال	عبد الله بن عمرو	٢٥٨/٢
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد	أبو هريرة	٣٩٥/٢
أقربهم [الشيطان]عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة	جابر بن عبد الله	٣٣٥/٢
أقرؤنا أُبي	عمر بن الخطاب	٣٦٢/٢
اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران	أبو أمامة	٨/٢
اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه	أبو أمامة	٨/٢
اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة	أبو أمامة	٨/٢
اقسم جلودها وجلالها	علي بن أبي طالب	٣١٨/١٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اقسموا، واضربوا لي بسهم	أبو سعيد الخدري	١/ ١٣٥
أقصرت الصلاة أم نسيت	أبو هريرة	٦/ ٣١٥
أقضي فيها بما قضى النبي	هزيل بن شراحيل	٦/ ٦٤٧
اقطعوا في ربع دينار	عائشة	٧/ ٣٥٥
اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك	أبو ذر	٧/ ٣٠٣
أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها	قبيصة بن مخارق	١٠/ ٣٨٨
أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة	الحسن البصري	٦/ ٣٥٥
أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصرها سعد	عبد الرحمن بن المسور	٦/ ٣٥٥
أقيموا صفوفكم	أبو موسى الأشعري	١/ ٢٧٣
أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟	أبو الخطاب قتادة	٦/ ١٧٣
أكبر الكبائر الإشراك بالله	أنس بن مالك	٦/ ٢٣٧
اكتب بسم الله الرحمن الرحيم	المسور بن مخرمة، مروان بن الحكم	١/ ٧٥
اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق	عبد الله بن عمرو	٢١/ ٢١٢
اكتب كلّ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة	عبادة بن الصامت	٨/ ١٠٦
اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم...	المسور بن مخرمة	١٥/ ٤٣٨
اكتبوا كتابه في سجين	البراء	٢٤/ ١٣١
أكثرهم للموت ذِكْراً [أكيس المؤمنين]	ابن عمر	٣/ ٦٣
أكثروا ذكر هاذم اللذات- يعني الموت	أبو هريرة	٣/ ٦٣
أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة	أبو الدرداء	٢٤/ ١٧٢
أكثروا من ذكر هادم اللذات	أبو هريرة	٦/ ٣١٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أكرمهم عند الله أتقاهم	أبو هريرة	١١/ ٣٤٦
اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة	أبو أمامة الباهلي	١٥/ ١٥٨
أكل طعامكم الأبرارُ، وصلت عليكم الملائكة	ثابت بن أنس	١٥/ ١٤٣
أكل ولدك نحلت مثله؟	النعمان بن بشير	٧/ ٢١٤
أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا	أبو هريرة	٢٣/ ٦٦
ألا أحدثك بأشقى الناس»؟، قال: بلى	عمار بن ياسر	٢٤/ ٢٨٤
ألا أحدثكم، إن أخذتم أدركتم من سبقكم	أبو هريرة	١٧/ ٣٧٨
ألا أخبرك بخير سورة في القرآن؟	عبد الله بن جابر	١/ ١٤٥
ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة	عمر بن الخطاب	٤/ ٧١
ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة	أبو الدرداء	٣/ ٣٠٣
ألا أخبركم بخير النفر الثلاثة..	أبو واقد الليثي	٢٢/ ٦٤
ألا أخبركم بخياركم؟	أسماء بن يزيد	٢٣/ ٧٦
ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم؟	معاذ بن جبل	١٧/ ٣٤٠
ألا أخبركم بخير البرية؟	أبو هريرة	٢٤/ ٣٨٢
ألا أخبركم بخير الشهداء	زيد بن خالد	٣/ ٥٦٨
ألا أخذوا إهابها فدبغوه فانتفعوا به	ابن عباس	٧/ ٧٦
ألا أدلك، أو قال: ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟»	ابن عابس الجهني	٢٤/ ٥٦٠
ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟	عقبة بن عامر	٢٤/ ٥٦٠
ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله	أبو موسى الأشعري	٣/ ٨٩
إلا الدَّين، سارني به جبريل آنفًا	أبو هريرة	٤/ ٦٩٧
ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ	ابن مسعود	٦/ ٤٥٨
ألا إن الخمر قد حرمت	أنس بن مالك	٧/ ٦٢٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ألا إن الدنيا ملعونة	أبو هريرة	٦/ ٢٥٩
ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم	أبو هريرة	٢٠/ ٢٦٧
ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد	علي بن أبي طالب	١١/ ١٨٥
ألا إن العسيلة الجماع	عائشة	٣/ ٣٣١
ألا إن القوة الرمي	عقبة بن عامر	١٠/ ١٨١
ألا إن الله يقول: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا، وإن الساعة قد اقتربت	أبو عبد الرحمن السلمي	٢١/ ٢٨٩
ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم	ابن عمر	٥/ ٤٥
ألا إن سبحان الله، والحمد لله ... هن الباقيات الصالحات	النعمان بن بشير	١٤/ ٢٩٥
ألا إن سلعة الله غالية	أبو هريرة	١٠/ ٤٨٧
ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله	النعمان بن بشير	١/ ١٥٨
ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله	أبو بكرة	٥/ ٤٤٨
ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم؟	أبو الدرداء	١٧/ ٣٧٨
ألا إنما حرم رسول الله، مثل ما حرم الله	المقدام بن معديكرب	٤/ ١٥٣
ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه	المقدام بن معديكرب	١٥/ ٢٩٩
ألا تبايعون رسول الله؟	عوف بن مالك	٣/ ٥٣٣
ألا تجلس؟	عثمان بن مظعون	١٢/ ٤٤٠
ألا تجيبونه؟	البراء بن عازب	٣/ ٦٠٨
ألا ترضين أن أحرمها علي فلا أقربها	ابن عباس	٢٢/ ٤٣٦
ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟	أبو هريرة	٥/ ٤٣
ألا تستحيون؟ ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون	أبو الدرداء	١٦/ ٨٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما لا تسكنون؟		
ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ قال: إني لست بمجنون	سليمان بن صرد	١٥/ ١٢٠
ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟	جابر بن سمرة	١٨/ ٢٦٧
ألا تصليان؟	علي بن أبي طالب	١٣/ ٣٠٧
ألا تضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي	عمر بن الخطاب	٥/ ١٠٢
ألا تكفيك آية الصيف	عمر بن الخطاب	٢/ ١٤٥
ألا رجل يحملني إلى قومه	جابر بن عبد الله	٤/ ٢١٥
إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن	عبد الله بن خنبش	٢٤/ ١٩٢
ألا فلا تتخذوا القبور مساجد	جندب بن جنادة	١٣/ ٢٥٤
ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض	أبو بكرة	١/ ٢٠٩
ألا كلكلم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله	أبو أمامة	٢٤/ ٢٣٤
ألا لا تغلوا بصداق النساء	عمر بن الخطاب	٥/ ٣٠٥
ألا لا يحج بعد العام مشرك	أبو هريرة	٢/ ٣٩٥
ألا مشمر للجنة	أسامة بن زيد	١٠/ ٢٥
ألَا من قتل نفسًا معاهدًا ... فقد أخفر بذمّة الله	أبو هريرة	٨/ ٤٢٤
إلا نعيم الجنة	عثمان بن مظعون	٦/ ٢٦٠
ألا هل بلّغت؟	أبو بكرة	٢/ ٥٠٢
ألا وإن الغضب جمرة توقد في ابن آدم	أبو سعيد الخدري	١/ ٢٠٣
ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب	النعمان بن بشير	٢٠/ ٣٤٨
التمس ولو خاتمًا من حديد	سهل بن سعد	١٥/ ١٩١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
التمسوا الغنى في النكاح	عبدالله بن مسعود	١٥/ ١٩١
التمسوها في العشر الأواخر من رمضان	عبد الله بن عباس	٢٤/ ٣٦٥
ألحقوا الفرائض بأهلها	ابن عباس	٣/ ٢٣٧
ألست من الرّكوسية؟	عدي بن حاتم	١٠/ ٣٢٧
ألظّوا بـ"يا ذا الجلال والإكرام"	ربيعة بن عامر	٢١/ ٤٠٣
ألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر	جابر بن عبد الله	٧/ ٧٤
ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي	عبد الله بن زيد	٣/ ١٧٤
ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟	أبو هريرة	٥/ ٥٥٥
ألم أكرمك ؟	أبو هريرة	٢/ ١٧٤
ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟	أبو هريرة	٥/ ٥٥٥
ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾	عقبة بن عامر	٢٤/ ٥٥٩
ألم تَرَيْ أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم	عائشة	٢/ ٤٤٣
ألم تسمعوا ما قال العبد الصّالح: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾؟	ابن مسعود	٨/ ٢١١
ألم تعلم أن الله قال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾	ابن عباس	٧/ ٥٢٣
ألم يقل الله: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾	أبو سعيد بن المعلى	١/ ١٣١
إلى أقربهما منك بابًا	عائشة	٥/ ٥٣٥
آلى النبي ﷺ من نسائه شهراً	عائشة	٣/ ٣٠٨
إلى مكة [في قوله تعالى «﴿لرادك إلى معاد﴾]	ابن عباس	١٦/ ٣٨١
أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا..	أنس بن مالك	٢٣/ ٤٤
أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟	أبو سعيد الخدري	٣/ ٢٩٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به؟	لقيط ابن عامر	٢٧١/١٤
أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟	عدي بن حاتم	٤٦٨/٣
أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه..	عدي بن حاتم	٣١١/١٥
إليك عني، فو الله قد آذاني ريح حمارك	أنس بن مالك	٣٥٣/٢٠
أم القرآن، هي السبع المثاني	أبو هريرة	١٣٢/١
أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه	فاطمة بنت قيس	٣١٤/٦
أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك	عبد الله بن عمر	٢٦١/٢١
أما الركوع فعظموا فيه الرب	ابن عباس	١٦٢/٢
أمَا إن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله	ابن عباس	١٢٠/١
أما إن ملكًا بينكما يذب عنك	النعمان بن مقرن	٤٤٧/١٥
أما أنا فلا آكل متكئًا	أبو جحيفة	٣٣٦/٢٣
أما إنك لو أعطيتها أخوالكِ كان أعظم لأجرك	ميمونة بنت الحارث	١٣٨/٥
أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة	عبد الله بن عامر	٢٤٥/٢٢
أما إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته	جرير بن عبد الله	٦٧/٢١
أما إنه كذبك وسيعود	أبو هريرة	٥٩/٩
أما إنه لا يجني عليك		٥٢٦/٢
أما إنه من أهل النار	أبو هريرة	٢٠١/١
أما إنها آخر سورة نزلت [المائدة]	عائشة	٧/٧
أما إنهم سيغلبون [في قوله تعالى ﴿الم * غلبت الروم* في أدنى الأرض﴾]	ابن عباس	١٥/١٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أما أهل النار ... فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون	أبو سعيد الخدري	١٤/ ٧١
أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصَرْم	عتبة بن غزوان	٢١/ ٢٨٧
أما بعد، أيها الناس! فإن الله بعث محمدًا بالحق..	عمر	١٥/ ٣٢
أما بعد، فإنه بلغني أن نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك	عمر	١٥/ ١٦٨
أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٣٥
أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة	عمر بن الخطاب	٤/ ٧١٧
أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرًا	عائشة	١٥/ ٨٣
أما صاحبكم فقد غامر	أبو الدرداء	٢٤/ ٣٠٢
أما صدقتك فقد قبلت		٣/ ٥٢٤
أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه	أم العلاء	١/ ٢٢٤
أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله	عمرو بن العاص	١٠/ ١١٩
أما علمت أن الله أحيا أباك	جابر بن عبد الله	٤/ ٦٣٥
أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه؟	أبو هريرة	١٢/ ١٩
أما عند الغنيمة فأشح قوم..	قتادة	١٧/ ٢٦٤
أما غسان فقد لحقوا بالشام	الشعبي	١٨/ ٣٩
أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه	فاطمة بنت قيس	٢٠/ ٣٧٣
أما هو فقد جاءه اليقين [لما دخل ﷺ على عثمان بن مظعون، وقد مات]	أم العلاء	٢٣/ ٢٨٦
أما والله إن كنت لأعْرِفها لكم. قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد	حذيفة	١٥/ ٢٨٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له	عمر بن أبي سلمة	١٩/ ٣٦
أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له	أنس بن مالك	١٧/ ٢١٤
أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك	سعيد بن المثيب	٢٢/ ١٩٤
أما والله ما قالوه بألسنتهم..	مجاهد وسعيد بن جبير	٢٣/ ٣٣٣
أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار	أبو هريرة	٥/ ٦٢٠
الإمام ضامن	أبو هريرة	٦/ ٣٦٩
الأمانة: الفرائض... [في قوله تعالى ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾]	ابن عباس	١٧/ ٥٠٦
أمُتهوكون فيها يا ابن الخطاب	جابر بن عبد الله	٤/ ٣٠٠
أمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة	ابن عباس	١٠/ ٣٧
أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه	ابن عباس	١٥/ ١٩٠
أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته	أبو سعيد الخدري	٢١/ ٥٨٨
أَمَر الله عز وجل آدم لما استخرج ذريته أن يأمر من كل ألف بواحد للجنة	أبو سعيد الخدري	٢١/ ١١٣
أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا [في قوله تعالى «﴿قم الليل إلا قليلا...﴾]	ابن عباس	٢٣/ ٢٥٠
أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن..	ابن عباس	١٥/ ١٧٩
أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت	ابن عباس	١٤/ ٣٢٠
أمر النبي ﷺ بقتل من أنبت من بني قريظة	عطية القرظي	١٥/ ٣٢١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في(الدور)	عائشة	١٥/ ٢٢٨
أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقنو	جابر بن عبد الله	٨/ ٣٨٥
أمرت أن أسجد على سبعة أعظم	ابن عباس	٢٣/ ٢١٥
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله	ابن عمر	٢/ ١٦١
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله	أبو هريرة	١٨/ ٢٨٤
أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٢٣٣
أمرت بقتل جارية لها سحرتها	حفصة أم المؤمنين	٢/ ٣٤٦
أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة	أبو هريرة	١٧/ ٢٥٩
أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة	ابن مسعود	١٠/ ٢٦٢
أمررت بأرض من أرضك مجدبة؟	لقيط ابن عامر	١٤/ ٢٧٢
آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع	ابن عباس	١٠/ ١٣٠
أُمِرنا أن نسجد على سبعة أعظم	ابن عباس	٤/ ١٨٩
أُمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب	أبو سعيد الخدري	١/ ١٣٤
أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب	المقداد بن الأسود	٦/ ١٧
أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في ديارنا	سمرة	١٥/ ٢٢٨
أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت اليوم أسبق أبا بكر	عمر بن الخطاب	٢٤/ ٣٠٤
أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب	المقداد بن الأسود	٢١/ ٢٥٤
أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن	علي بن أبي طالب	١٤/ ٣٣٧
أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة	جابر بن عبد الله	٣/ ١٥٠
أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة في	البراء بن عازب	١٧/ ٢٥٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
مكان الخندق		
أمرنا رسول الله ﷺ بسبع... إفشاء السلام	البراء بن عازب	٦/ ١٦٥
أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات	عقبة بن عامر	٢٤/ ٥٥٩
أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة	عقبة بن عامر	٢١/ ٧١
أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم..	عائشة	٢٢/ ١٤٠
أمسك عليك بعض مالك	كعب بن مالك	٤/ ٣٢٩
أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك	عقبة بن عامر	١٥/ ٤٣
امشي خلفي وانعتي لي الطريق	ابن عباس	١٦/ ٢٩٢
امصص ببظر اللات أنحن نفرّ وندعه؟	مروان بن الحكم	٢٤/ ٣٠٣
امض لما أمرك الله	ابن عباس	١٠/ ٢٩
أمعك سورة البقرة	أبو هريرة	٢/ ٨
أمعك ماء؟	المغيرة بن شعبة	٧/ ١٧٣
أمك، ثم أمك	أبو هريرة	٣/ ٢٤٠
آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت	البراء بن عازب	١٧/ ٣٨١
أمّني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين	ابن عباس	٦/ ٣٣٢
أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً..	جابر بن عبدالله	١٥/ ١٤٧
إن أبا بكر لما حضرته الوفاة، قال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم الاثنين	عائشة	٢٤/ ٣٠٥
إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني ما يكفيني	عائشة	٢٢/ ١٣٤
إن أباك قد رام أمرًا فبلغه	عدي بن حاتم	٥/ ٥٥٦
إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق	ابن عباس	١/ ٥٠
إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه	ابن عمر	١٣/ ٧٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن إبراهيم حرم مكة	جابر بن عبد الله	٢/ ٤٣٣
إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها	عبد الله بن زيد بن عاصم	٢/ ٤٣٣
إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات	أبو هريرة	١٤/ ١٩٩
إن إبراهيم مات في الثدي	عقبة بن عامر	٥/ ٣٤١
إن أبعد الناس من الله القلب القاسي	عبد الله بن عمر	٤/ ٥٨٩
أن ابن عمر رضي الله عنه مرض فاشتهى عنبًا..	نافع	٢٣/ ٣٣٢
إن ابني هذا سيد	أبو بكرة	٤/ ١٧٦
إن أبي وأباك في النار	أنس بن مالك	٢٢/ ١٩٤
أن إتيان المرأة في دبرها اللوطية الصغرى	عبد الله بن عمرو	٢١/ ١٢٩
إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾	ابن مسعود	١٢/ ٤٤٠
إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن	ابن عمر	٢١/ ٣٤٧
إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل	عائشة	٤/ ٩٢
إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود	عبدالله بن عمرو	١٨/ ٢٨
إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا	جابر	٢٣/ ٦٦
إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي	ابن عمر	١٩/ ٢٠٠
إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة	ابن مسعود	٢/ ١٠٧
إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج	عقبة بن عامر	١٦/ ٣٠٠
إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله	أبو هريرة	٢١/ ١٩١
إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله	ابن عباس	٢/ ١٥٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن أخًا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه	عمران بن حصين	٤/ ٧١١
إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر	زر بن حبيش	٢٤/ ٣٦٦
إن آخر المناسك الطواف بالبيت	ابن عباس	١٤/ ٣٢٠
إن أخّر هذا الغلام فلن يدركه الهرم حتّى تقوم السّاعة	أنس بن مالك	٩/ ٣٧١
إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة	ابن عمر	٢٣/ ٣٤٠
إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه سنة	ابن عمر	٢٣/ ٣٠٧
إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين	ابن عباس	٢٢/ ٣٩٨
إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر	ابن مسعود	٢/ ٥٤٧
إن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج	أبو هريرة	٥/ ٣٦٩
إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له	صهيب	١٩/ ٤١٤
أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به	...	٢٤/ ٦٠٦
إن أصدق الحديث كتاب الله	جابر بن عبد الله	٦/ ٤٦٣
إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه	عائشة	٢١/ ٢٦١
إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم.	عمرو بن شعيب	٢٤/ ٥٣٦
إن أطيب ما أكلتم من كسبكم	عائشة	١٥/ ٣٤١
أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك...	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٥٥١
أن أعرابيًا نادى النبي ﷺ بصوت جهوري، فقال: يا محمد، متى الساعة؟	أنس	٢٣/ ٢٢٣
إن أقوامًا بالمدينة خلفنا ... حبسهم العذر	أنس بن مالك	٦/ ٢٧٢
إن أكثر منافقي أمتي قراؤها	عبد الله بن عمرو	٢١/ ٣٠٥
إن أكل فلا تأكل	عدي بن حاتم	٧/ ١٠٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم	جبير بن نفير	٢٠/ ٣٧٠
إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب	أبو هريرة	١٢/ ١٧٠
إنَّ البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان		٢/ ٧
أن التي أسقته العسل هي حفصة	عائشة	٢٢/ ٤٣٧
إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة	أبو هريرة	٧/ ٥٤٩
إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات	النعمان بن بشير	٢١/ ٢٤٣
إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن	النعمان بن بشير	٣/ ١١٠
إن الحمد لله نستعينه ونستغفره	عبد الله بن مسعود	١/ ٥٣
إن الدعاء هو العبادة..	النعمان بن بشير	١٩/ ٢٢١
إن الدنيا حلوة خضرة	أبو سعيد الخدري	٤/ ٧١
إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها	ابو سعيد الخدري	١٧/ ٣٠٨
إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا	ملحة	١١/ ٣٢٦
إن الدين يسر	أبو هريرة	١٠/ ٥٢٦
إن الذي أمشاه على رجليه، قادر أن يمشيه على وجهه..	أنس	١٥/ ٤١٠
إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته	أبو موسى	١٨/ ٨٩
إن الرب عز وجل يظهر لهم في كل جمعة	أنس بن مالك	٢١/ ٥٧
إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى أن تبلغ ما بلغت يهوي بها سبعين خريفًا في النار	أبو هريرة	٢٤/ ٤١٢
إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.	أبو هريرة	٢٤/ ٤١٢
إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت	بلال بن الحارث	٢١/ ٣٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات	أبو هريرة	٢٠/ ٣٣٤
إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ	أبو هريرة	١٥/ ٤٢
إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه		٤/ ٦٩٢
إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء	أبو هريرة	٢١/ ٤٣٤
إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة- فيما يبدو للناس-	سهل بن سعد الساعدي	٤/ ٣٧٤
إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة... فيعمل بعمل أهل النار	ابن مسعود	٤/ ٣٧٤
إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته		٢/ ٣٨٠
إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته	عمار بن ياسر	١٧/ ٣١٣
أن الرجل يجر إلى النار فتشهق إليه		٢٣/ ٢٢
إن الرحم لتقطع	ابن عباس	١٠/ ١٩٢
إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي	أنس بن مالك	١٧/ ٣٧٤
أن الرسول ﷺ يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر	ابن عمر	٢٤/ ٤٩٩
إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة	عائشة	٥/ ٣٣٢
إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه	عائشة	١٧/ ١٢٧
إن الرقى والتمائم والتولة شرك	ابن مسعود	١١/ ٤٨٨
إن الزمان قد استدار، كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض	أبو بكرة	٣/ ١٣٣
إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال	ابن عباس	١٣/ ٤٧٠
إن الشمس تطلع بين قرني شيطان	عمرو بن عبسة	١٩/ ٣٠٨
إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله	عائشة	١٣/ ١٣٩
إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله	المغيرة بن شعبة	١٨/ ٢٢٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم	أبو سعيد الخدري	٥/ ٢٦٣
إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب	جابر بن عبد الله	٧/ ٦٧
إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقه	سبرة بن أبي فاكه	٩/ ٣٦
إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	أنس بن مالك، صفية	١/ ٥٢
إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه	حذيفة بن اليمان	١/ ١٢٠
إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس	جابر بن عبد الله	٢/ ٣٣٥
إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة	أبو هريرة	١/ ٥٧
إن الصبر نصف الإيمان، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد	علي	٢١/ ٦٦
أن الصحابة رضي الله عنهم- إذا كانوا عند رسول الله ﷺ ضنوا بمجالسهم عنده	قتادة	٢٢/ ٥٩
إن الصدق يهدي إلى البر	ابن مسعود	٣/ ٤٦
إن الصدقة على المسكين صدقة	سلمان بن عامر	٣/ ٤١
إن الطيرة والعيافة والطرق من الجبت	قبيصة	٦/ ١١
إن الظن أكذب الحديث	أبو هريرة	٢/ ٢٥٨
إن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض	أبو الدرداء	٢/ ٥٨٣
إنّ العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللّعنة إلى السّماء	أبو الدرداء	٩/ ١٠١
إن العبد إذا هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة	ابن عباس	٦/ ٣١١
إن العبد الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد	قتادة بن ربعي	١٧/ ٦٧
إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ...	البراء بن عازب	٢/ ١١٥
إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً..	أبو هريرة	١٥/ ١٣٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه	ثوبان	٢٢/ ٤٠٠
إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٢٤٢
إن العقبة كؤود	أبو الدرداء	٨/ ١٨٣
إن العقبة كؤود لا يجوزها المثقلون	أبو الدرداء	٢٤/ ٢٦٧
إن العين تدمع	أنس بن مالك	٢/ ٥٦٠
إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله	أنس	١٩/ ٣٠٥
إن القلوب بين أُصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء	أنس بن مالك	٤/ ٤٣
إن الله ﷻ لا ينام	أبو موسى الأشعري	٣/ ٤٥٤
إن الله أحدث في الصلاة أن لا تكلموا إلا بذكر الله	ابن مسعود	٣/ ٣٨٣
إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم	أنس بن مالك	٢/ ٥٥٩
إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه	ابن عباس	٧/ ٧٤
إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن	ابن عباس	٢١/ ٥٣٢
إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل	واثلة بن الأسقع	٢٤/ ٤٧٥
إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل	واثلة بن الأسقع	٨/ ٣٣٩
إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين	أبو هريرة	٧/ ٢٠٨
إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا﴾»	أنس بن مالك	٢٤/ ٣٦٩
إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا	ابن مسعود	٧/ ٤٧٥
إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه	جعفر بن أبي طالب، المغيرة بن شعبة	١٠/ ٥٢٦
إن الله بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكان فيما أنزل	عمر بن الخطاب	٥/ ٢٥٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
آية الرجم		
إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم	أبو هريرة	٥/ ٥٥٤
إن الله تبارك وتعالى إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال	قتادة	١٦/ ٢٢٣
إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك	أبو سعيد الخدري	٢٠/ ٣٠٤
إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها	أبو هريرة	٧/ ٥٩٢
إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان	أبو ذر الغفاري	٦/ ٢١٣
إن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلًا	جندب بن عبد الله	٦/ ٤٧٧
إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة	ابن عباس	٢١/ ٢٤٩
إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي في الصدقات حتى حكم فيها هو	زيد بن الحارث الصدائي	١٠/ ٣٨٣
إن الله تعالى يستحيي أن يبسط العبد إليه يديه ... فيردهما خائبتين	سلمان الفارسي	٣/ ٩٠
إن الله تعالى يستحيي أن يبسط العبد إليه يديه ... فيردهما صفرا	سلمان الفارسي	٣/ ٩٠
إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أكرمك	أبو هريرة	٩/ ١٢٠
إن الله جعل الليل سكنًا إلا لصهيب	صهيب الرومي	٨/ ٢٥٢
إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين	أبو هريرة	٢٤/ ٤٦٩
إن الله حدّ حدوداً فلا تعتدوها	أبو ثعلبة الخشني	٣/ ٣٣٠
إن الله حرم بيع الخمر	جابر بن عبد الله	٧/ ٧٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء	أوس بن أوس	٢١/ ١٧
إن الله حرم على النار من قال لا إله الله	عتبان بن مالك	٥/ ٤٦١
إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات	المغيرة بن شعبة	٧/ ٧٠٨
إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض	أبو موسى الأشعري	١٤/ ٤٥١
إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض	أبو موسى	١٧/ ٣٥
إنّ الله خلق للجنّة أهلًا	عائشة	٩/ ٣٥٦
إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله	عائشة	٤/ ٣٨٩
إنّ الله زوى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها	ثوبان	٨/ ١٧١
إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا	أبو هريرة	١٥/ ١٣٣
إن الله عز وجل إذا أحب عبدًا نادى جبريل إني أحب فلانًا فأحبه	أبو هريرة	٤/ ٥٣٥
إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة	عبدالله بن عمرو	١٥/ ٢١٣
إنّ الله عز وجل خلق مئة رحمةٍ	جندب بن عبد الله البجلي	٩/ ٣١٤
إن الله عز وجل قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي	أبو هريرة	٢١/ ٥٠
إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية	أبو هريرة	١/ ٢١٧
إن الله عز وجل قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء	أوس بن أوس	٤/ ٥٣٦
إن الله- عز وجل- يدني المؤمن يوم القيامة	ابن عمر	١٧/ ٣٤٦
أن الله غرس جنة عدن بيده		٢٢/ ٢٩٠
إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها	أبو ثعلبة الخشني	٢/ ٣٦٧
إن الله قد أوقع له أجره على قدر نيته	جابر بن عتيك	٦/ ٢٧٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن الله قد حرم ذلك [المتعة] إلى يوم القيامة	سبرة بن معبد	٥/٣٨٨
إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا	أبو هريرة	٢٠/٣٢٩
إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة	عمرو بن العاص	٢١/٥٧٠
إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم	ابن مسعود	١٣/٨٩
إن الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء	جابر بن عبد الله	٥/٣٨٩
إن الله كتب الإحسان على كل شيء	شداد بن أوس	٧/٨٧
إن الله كتب الحسنات والسيئات	ابن عباس	٢/٥٧٧
إن الله كتب عليكم الحج فحجوا	ابن عباس	٣/٤٣٢
إن الله كتب عليكم السعي	حبيبة بنت أبي تجراة	٢/٥٧٥
إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام	النعمان بن بشير	٢٤/٦١٣
إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة	عبد الله بن عمرو	٢١/٣٣٣
إن الله كره لكم ثلاثًا، قيل وقال ...	المغيرة بن شعبة	٢/٢٤١
إن الله لا يحب الفاحش	عبد الله بن عمرو	٢/٢٧٥
إن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل	عبد الله بن عمرو	٣/٩١
إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة	أنس بن مالك	٥/٥٥٩
إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنةً يعطى بها في الدنيا	أنس	١٥/٢٥١
إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة	عمر بن الخطاب	١٠/٧٩
إن الله لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا	ابن عباس	١٧/٣٨٤
إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ	ابن مسعود	١١/٣٢٢
إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام	أبو موسى	١٦/١٤٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم	أبو هريرة	٨/ ١٣٨
إن الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها	أبو الدرداء	٢٢/ ٣٣٨
إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم		٧/ ٦٣٩
إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها	أنس بن مالك	١/ ١٦٣
إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة	أبو هريرة	٢١/ ١٧٥
إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته	ابن عباس	٢١/ ١٧٥
إن الله ليعجب من الشاب ليست له صبوة	عقبة بن عامر	٦/ ٢٦٦
إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	أبو موسى الأشعري	٢/ ٦٣
إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	سهل بن سعد	٢/ ٤٣٦
إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	أبو هريرة	١٥/ ٣١٨
إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر	أبو هريرة	٦/ ٣٩
إن الله هو الحَكَم		٢/ ١٢٢
إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن	علي	٢٣/ ٢٥١
إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة	أنس بن مالك	٦/ ٣٥١
إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف	عائشة	١٧/ ٤٤٧
إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا	الحارث الأشعري	١٢/ ٤١٦
إن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار	أبو موسى الأشعري	٢/ ٥٨٥
إن الله يتجلى للمؤمن يضحك	جابر	٢٣/ ٣٠٧
إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه	عائشة	١٨/ ٣٠
إن الله يحب أن تؤتى رخصه	عمر بن الخطاب	٥/ ٤٤٠
إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده	عبد الله بن عمرو	١/ ١٥٩
إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة	عقبة بن عامر	١٠/ ١٨١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن الله يدني المؤمن يوم القيامة فيضع عليه كنفه ويستره	ابن عمر	١٥/ ٤٩
إن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده	أنس	٢٤/ ١٧٤
إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا	أبو هريرة	٤/ ٣٧٦
إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين	أبو الطفيل	٢٢/ ٦٦
إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن	عثمان بن عفان	١٣/ ١٧٤
إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن	عمر	١٥/ ٣٥
إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب	ابن مسعود	٣/ ١٩١
إن الله يعطي كل مؤمن ومنافق نورًا	جابر بن عبد الله	٢/ ٧١
إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر	ابن مسعود	٢/ ٥٨٥
إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر	ابن عمر	٢٢/ ٤٥٧
إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت	أبو ذر	١٨/ ٢٥٤
إن الله يلوم على العجز	عوف بن مالك	١٩/ ٣٩٩
إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها..	عبدالله بن مسعود	٢١/ ٣٩٢
إن المساجد أحب البقاع إلى الله		٢/ ٣٩٥
إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة	ابن مسعود	٣/ ٥٣٦
إن المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله	البراء بن عازب	١٢/ ١٧٢
إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما		١٠/ ١٩٢
إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل ﴿ قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفوًا أحد ﴾.	أبي بن كعب	٢٤/ ٥٥١
أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، يقولون: لبيك	ابن عباس	١٠/ ١٠٥
إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة	أبو هريرة	٦/ ٤٢٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن المقسطين عند الله على منابر من نور	عبد الله بن عمرو	٦/ ٣٣
إن الملائكة تتحدث في العنان- والعنان الغمام-	عائشة	١٦/ ١٢٨
إن الملائكة تُحدِّث في العنان بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة	عائشة	٢٤/ ٦٠٢
إن المنافق إذا مرض ثم عوفي كان كالبعير عقله أهله..	عامر الرّام	٢١/ ١٩٧
أن المنافق أو المرتاب عندما يسأل في قبره يقول: لا أدري	عائشة	٢٠/ ٣٣
أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه	ابن عباس	٢٢/ ٤٨
إن المؤمن إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء	أبو هريرة	٥/ ٢٧٤
أن المؤمن إذا دعا لأخيه بظهر الغيب تلقاها ملك	أبو الدرداء	٦/ ٩٠
إن المؤمن لا ينجس	أبو هريرة	١٠/ ٣١٢
إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم	عائشة	٢٣/ ٦٧
إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر	أبو هريرة	١٣/ ١٥٣
إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد	سهل بن سعد الساعدي	٢٠/ ٣٥٧
إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه..	عبدالرحمن بن كعب	١٦/ ١٣٠
إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه	أبو بكر الصديق	٧/ ٧١٦
إن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٥١٤
إن الناس شَكُّوا في موت فرعون	ابن عباس	١١/ ١٣٧
أن الناس في هوله وكربه على قدر أعمالهم	أبو سعيد	٢٣/ ٣٣١
إن الناس يصعقون يوم القيامة	أبو هريرة	١٩/ ١١١
أن النبي ﷺ خير زوجاته	عائشة	٥/ ٥١٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أن النبي ﷺ ضرب وغرب	ابن عمر	٥/ ٢٥٠
أن النبي ﷺ أمر بقتل الكلاب	أبو رافع	٧/ ٩٧
أن النبي ﷺ بعث رجلاً في سرية، وكان يقرأ لأصحابه فيصلاتهم	عائشة	٢٤/ ٥٤٥
أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وكنت السفير بينهما	أبو رافع	٢٤/ ٦٨
أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش	ابن عباس	٢٤/ ٥٣٤
أن النبي ﷺ دعاه وهو يصلي فلم يجبه [أي: أبو سعيد بن المعلى]	أبو سعيد بن المعلى	١٥/ ٣٥٧
أن النبي ﷺ رأى رجلًا يصلي وفي ظهر قدمه لمعة ... فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة		٧/ ١٨٦
أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس	ابن عباس	٢١/ ٢٠٧
أن النبي ﷺ صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد	ابن عمر	٧/ ١٦٥
أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً	البراء بن عازب	٢/ ٤٩٢
أن النبي ﷺ قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ	عائشة	٧/ ١٩٢
أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه	عائشة	٧/ ١٨٨
أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه	عائشة	٢٤/ ٥٤٩
أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر	أنس بن مالك	٢٤/ ٤٠٠
أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره	ابن عباس	٢٢/ ٧٨
أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الم *تنزيل﴾، و﴿تبارك	جابر بن عبد الله	١٧/ ١٦٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الذي بيده الملك ﴾		
أن النبي ﷺ كان يتوضأ ثم يقبل بعض نسائه	عائشة	٥/ ٦٠٠
أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر: ﴿والسماء ذات البروج﴾	جابر بن سمرة	٢٤/ ١٦٣
أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر: بـ﴿ق والقرآن المجيد ﴾	جابر بن سمرة	٢١/ ٨
أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الم * تنزيل﴾ السجدة...	ابن عباس	٢٢/ ٢٨١
أن النبي ﷺ لم يجهر بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	أنس بن مالك	١/ ١١٠
أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليب	عائشة	١/ ٥٦
أن النبي ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط ... فسلم عليهم	أسامة بن زيد	٦/ ١٧٥
إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب..	ابن عباس	١٦/ ١٦١
أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر- رضي الله عنهما- كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله	أنس بن مالك	١/ ١٠٩
أن النبي ﷺ: أمر بقتلى أُحد أن يردوا إلى مصارعهم	جابر بن عبد الله	٤/ ٥٧٧
إن النساء شقائق الرجال	عائشة	٤/ ٧٢
أن النصر مع الصبر	ابن عباس	٢/ ١٧١
إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم	عبد الله بن مسعود	١٥/ ١٦٠
إن النكاح رق	أسماء بنت أبي بكر	٥/ ٢٩٥
إن الولد مبخلة مجبنة	يعلى العامري	٤/ ٨٧
أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن	عكرمة	٢٣/ ٢٧١
إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعامًا	ابن عباس	٢٣/ ٢٦٧
أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك	عبد الله بن عمر	٢٢/ ٥١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أن اليهود والنصارى بعدما يشتد عطشهم في الآخرة..	أبو سعيد الخدري	٢٥١/١٥
إن أمتك لا تستطيع ذلك	مالك بن صعصعة	٤٣٣/٥
أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي	سهل بن سعد	٤٧١/١٧
أن امرأة سرقت على عهد النبي ﷺ فقطعت يدها اليمنى	عبد الله بن عمرو	٣٤٥/٧
أن امرأة لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه		١٢/٢٢
أن امرأة يقال لها: أم مهزول كانت تُسافِح..[فنزلت الآية ﴿والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾]	عبد الله بن عمر	٢٢/١٥
إن أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر	أبو سعيد الخدري	٣٠٢/٢٤
إن أنفقه لم يبارك له فيه		٣٧٩/٧
إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارًا	أبو سعيد	٤٣٤/٢١
إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تتراءون الكوكب في السماء	سهل بن سعد	٤٢/١٩
إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم	أبو سعيد الخدري	٤٩٠/٤
أن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد	جابر بن عبد الله	٢٤/١١
أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين	أنس بن مالك	٢٨٥/٢١
إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار	النعمان بن بشير	٩٨/٩
إن أوّل الآيات خروجًا طلوع الشّمس من مغربها	ابن عمر	٤٤٦/٨
إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد	أبو هريرة	٣٣/١٩
إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر	أبو هريرة	٣٩٢/٢١
إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه	عقبة بن عامر	٢٣٧/١٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء	أبو سعيد الخدري	٤/ ٧١
إن أول ما خلق الله القلم	عبادة بن الصامت	٢٣/ ٥٨
إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب	الوليد بن عبادة	٢١/ ٣٣٤
إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله	ابن مسعود	٧/ ٥٥٧
إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي	البراء بن عازب	١٤/ ٣٢٤
إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة	أبو هريرة	٢٣/ ٢٨٥
إن أول من سيب السوائب ... أبو خزاعة عمرو بن عامر،	ابن مسعود	٧/ ٧١١
إن أولادكم من أطيب كسبكم	جابر بن عبد الله	٥/ ٩٣
إن أولادكم من كسبكم	البراء بن عازب	٣/ ٣٥٤
إن بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا ... إلا شركوكم فيه	أنس بن مالك	٦/ ٢٧٢
إن بالمدينة نفرًا من الجن قد أسلموا	أبو سعيد الخدري	١/ ٣٣
إن بني آدم كثير، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم..	ابن عباس	٢٣/ ٢٤٤
إن بيِّتم فليكن شعاركم: «حم»، لا ينصرون	المهلب بن أبي صفرة	١٩/ ١٣١
إن بين الرجل وبين الشرك ... ترك الصلاة	جابر بن عبد الله	٢/ ١٦١
إن تبت قبلت شهادتك، أو تب تقبل شهادتك	عمر	١٥/ ٤٨
أن تجعل لله ندًا وقد خلقك [أعظم الذنب]	ابن مسعود	٢/ ٨٤
أن تجعل لله نداً، وقد خلقك	ابن عباس	٢/ ٦٠٦
إن تركها فاكتبوها له حسنة	أبو هريرة	٣/ ٦١١
أن تزاني حليلة جارك [أكبر الذنوب]		٥/ ٣٢٣
أن تطعم الطعام [أي الإسلام خير]	عبد الله بن عمرو	٦/ ١٧٠
أن تطعمها إذا طعمت		٣/ ٣١٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك	أبو هريرة	١٧/ ٣٣٥
أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [الإحسان]	عمر بن الخطاب	١/ ١٨٦
أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً [البيعة]	عوف بن مالك	٣/ ٥٣٣
أن تعطيه وأنت صحيح شحيح	ابن مسعود	٣/ ٤١
أن تعلَّموا سورة النساء والأحزاب والنور	عمر بن الخطاب	١٧/ ٢٠٧
إن تغفر اللهم تغفر جمًّا، وأي عبد لك لا ألمَّا	ابن عباس	٢١/ ٢٤٨
أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٠٨
أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها وظهرها..	عبيد الله بن عبدالله بن عمر	١٥/ ٢٠
أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية،	عبدالله بن عباس	١٥/ ١٩٧
أن جعفر بن أبي طالب قرأ صدر هذه السورة [مريم]على النجاشي	أم سلمة	١٣/ ٣٧٩
إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين..	أنس بن مالك	١٧/ ٤٦٢
إن خير هذه الأمة أكثرها نساء	ابن عباس	٥/ ٧١
إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام	أبو بكرة	١٥/ ٥١
إن ذل البدعة على أكتافهم	الحسن البصري	٩/ ٣٠٤
إن رأيتمونا تخطفتنا الطير فلا تبرحوا مكانكم	البراء بن عازب	٤/ ٥٥١
إن ربكم حيي كريم	سلمان الفارسي	٢/ ١١٠
إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم..	عياض بن حمار	١٧/ ٤٩
إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله	أبو هريرة	١/ ٢٠٣
أن رجالًا من المنافقين ... كان إذ خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو	أبو سعيد الخدري	٤/ ٦٧٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
تخلفوا عنه		
أن رجلًا أقام سلعة في السوق، فحلف بالله، لقد أعطي بها ما لم يعط	عبد الله بن أبي أوفى	٤/ ٢٧٨
أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامس	ابن عباس	١٥/ ٣٨
إن رجلًا حضره الموت..	حذيفة	١٨/ ٢٥٢
أن رجلًا خرج من مكة مهاجرًا إلى الله ورسوله فمات في الطريق	ابن عباس	٦/ ٢٩٩
أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟	أنس	١٧/ ٤٨٥
أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن سبأ، ما هو؟	ابن عباس	١٨/ ٣٤
أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٥٤٧
أن رجلًا قال: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فاقرأه: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ٣٨٩
أن رجلًا كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عذق وكان يمسكها عليه	عائشة	٥/ ٥٣
أن رجلًا لاعن امرأته على عهد رسول الله ﷺ ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما..	ابن عمر	١٥/ ٦٨
إن رحمتي سبقت غضبي	أبو هريرة	١/ ٧١
إن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية	علي بن أبي طالب	٥/ ١٦٤
أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، قال: فانطلقنا	عكراش بن ذؤيب	٢١/ ٤٢٣
أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد ابن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله»	ثابت بن أنس	١٥/ ١٤٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أن رسول الله ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير	أنس بن مالك	٧/ ١٢٨
أن رسول الله ﷺ أقام بمكة عام الفتح تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة	ابن عباس	٦/ ٣٥٤
أن رسول الله ﷺ أقام في تبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة	ابن عباس	٦/ ٣٥٤
أن رسول الله ﷺ أقبل من نحو بئر جمل	الحارث بن الصمة	٥/ ٦٠٧
أن رسول الله ﷺ أقبل من نحو بئر جمل	أبو الجهيم	٧/ ٢٠١
أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن	عمرو بن العاص	١٤/ ٤٣٥
أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب	جابر بن عبد الله	٧/ ١٠٩
أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين	عائشة	٢٣/ ١٠٦
أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه..	بسر بن جحاش	٢٣/ ٣١٠
أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلًا، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين	ابن عباس	١٧/ ٢٢
أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة	ابن عمر	٢١/ ٥١١
أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل..	سهل بن سعد	١٧/ ٣٩١
أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وأصحاب اليمين﴾، ﴿وأصحاب الشمال﴾ فقبض بيده قبضتين	معاذ بن جبل	٢١/ ٤٣٦
أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته..	ابن عباس	١٨/ ٣٠٠
أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخيّر أزواجه	عائشة	١٧/ ٢٩٢
أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع	عمر بن الخطاب	٢٢/ ١١١
أن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت	ابن عمر	٢٠/ ٣١٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه	ابن عباس	٣٤٩/١٧
أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يزوره، فقال: «لا بأس طهور إن شاء الله»	أنس بن مالك	٤١٩/٢٤
أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه وكن متمتعات	أبو هريرة	١٥٦/٣
أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع	ابن عباس	٢١٨/٢٢
أن رسول الله ﷺ سئل عن العزل..	عائشة	٨٨/٢٤
أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان	أنس بن مالك	٥٩٢/٤
أن رسول الله ﷺ صلى الصبح فقرأ فيها الروم،	عبد الملك بن عمير	٧/١٧
أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه بطائفة ركعتين	جابر بن عبد الله	٣٧٣/٦
أن رسول الله ﷺ صلى بذي قرد وصف الناس خلفه	ابن عباس	٣٧٤/٦
أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن	أبو سعيد الخدري	٣٣٥/١٤
أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين	أنس بن مالك	٣٣٥/١٤
أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين	أبو رافع	٣٣٦/١٤
إن رسول الله ﷺ غزا خيبر	أنس بن مالك	٣٢٥/١٥
أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿واليوم الموعود* وشاهد ومشهود﴾ قال: اليوم الموعود: يوم القيامة	أبو هريرة	١٧١/٢٤
إن رسول الله ﷺ قال لي: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن	أبي بن كعب	٣٧٣/٢٤
أن رسول الله ﷺ قرأ بـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، و بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ في ركعتي الطواف	جابر بن عبد الله	٤٩٩/٢٤
أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر	أبو هريرة	٤٩٩/٢٤
أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا	أبو هريرة	٤٤/٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الأمانات إلى أهلها ﴾		
أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ ... فقال: وإن رغم أنف أبي ذر	أبو الدرداء	٢١/ ٣٨٧
أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار	عبادة بن الصامت	٨/ ٣١٨
أن رسول الله ﷺ قطع في مجن قيمته ثلاثة دراهم	ابن عمر	٧/ ٣٥٣
أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء	ابن عباس	٤/ ٦٨٥
أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ:﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى..»	ابن عباس	٢٤/ ٢٠٣
أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا		١٠/ ٤٨٠
أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا..	عائشة	١٧/ ٤١١
أن رسول الله ﷺ كان يسر بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	أنس بن مالك	١/ ١١٠
إن رسول الله ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس	أنس بن مالك	٢/ ٥١٧
أن رسول الله ﷺ كان يعالج من القرآن شدة	ابن عباس	١٤/ ١٠٨
أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل: يكبر عشرًا، ويحمد عشرًا	عائشة	٢٤/ ١٣٠
أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ونحوها	جابر بن سمرة	٢٤/ ٢٠٢
أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة:«والسماء ذات البروج»، «والسماء والطارق»	أبو هريرة	٢٤/ ١٦٣
أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[الأعلى: ١]، و:﴿هل أتاك حديث	النعمان بن بشير	٢٤/ ٢٢١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الغاشية﴾		
أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة:﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾	النعمان بن بشير	٢٠٢/٢٤
أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات	عائشة	٢٣٢/٢٢
أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن	عائشة	٢٢٤/٢٢
أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها..	أنس	٤٣٧/٢٢
أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته	ابن مسعود	٢١٦/٢١
أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس	ابن عباس	٤٩٢/٢
أن رسول الله ﷺ نزلت عليه سورة الأنعام بمكة ليلًا	ابن عباس	٥٢٢/٧
أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو	ابن عمر	٤٦٢/٢١
أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل	علي بن أبي طالب	٨٣/٢٣
أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب	أبو مسعود	١٩٨/١٥
أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى	جابر بن عبد الله	٣٥٠/١٤
أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشًا إلى أوطاس	أبو سعيد الخدري	٣٦٢/٥
أن رسول الله ﷺقال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟	أنس بن مالك	٣٨٩/٢٤
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سكتتان	سمرة بن جندب	٣٠٠/١
أن رهطًا من بني عوف بن الخزرج..	يزيد بن رومان	١٤٦/٢٢
إن روح القدس لا يزال يؤيدك	عائشة	٣٥/١
إن روح القدس نفث في روعي	أبو أمامة	٤١٦/١٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن روح القدس نفخ في روعي	ابن مسعود	٢١/ ٢١٣
أن سارقًا سرق في زمن عثمان- رضي الله عنه- أترجة	عمرة بنت عبد الرحمن	٧/ ٣٥٣
أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل	المسور بن مخرمة	٢٢/ ٤١٠
إن سورة من القرآن ثلاثون آية	أبو هريرة	٢٣/ ٧
إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له	أبو هريرة	١/ ٨٥
إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى	أبو أمامة	١٠/ ٤٩٠
أن سيرين أراد أن يكاتبه	أنس بن مالك	١٥/ ٢٠٦
إن شئت تنحيت، فكنت قريباً	أبو ذر	١٠/ ٣٣٢
إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها	ابن عمر	٤/ ٣٢٢
إن شئت صبرت ولك الجنة	ابن عباس	٢/ ١٧٠
إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني	عبيد بن عدي بن الخيار	٣/ ٥٣٢
إن صاحبكم قد غلّ في سبيل الله	زيد بن خالد الجهني	٤/ ٦٠٧
إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة	أنس	٢١/ ٤٢٤
إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله...	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٥١١
إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة	ابن عمر	١٢/ ٩١
إن عظم الجزاء مع عظم البلاء	أنس بن مالك	٢/ ٥٥٩
إن عفريتًا من الجن تفلت عليَّ البارحة ليقطع عليَّ الصلاة	أبو هريرة	٩/ ٥٨
أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن أبي عبيدة	...	٢٢/ ٤١٧
إن فساد ذات البين هي الحالقة	أبو الدرداء	٣/ ٣٠٣
إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء ... إلى الجنة بأربعين خريفا	عبد الله بن عمرو	٥/ ١٢٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن فقه هؤلاء قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم	ابن عباس	٢٠/ ٣٩١
إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالًا..	سهل بن سعد	٢٢/ ٢٨٦
إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر	حكيم بن معاوية	٢٠/ ٢٤١
إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام	أبو سعيد الخدري	٦/ ٢٥
إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة	أبو هريرة	٢١/ ٤٣٠
إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها	أبو هريرة	٦/ ٢٥
إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها	أنس	٢١/ ٤٣٠
إن في الجنة مائة درجة	أبو هريرة	٢٢/ ٢٤٧
إن في الصلاة شغلاً	ابن مسعود	٣/ ٣٨٣
إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه	جابر بن عبد الله	٢١/ ١٠٢
إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب	عمران بن حصين	١٨/ ٣١٢
أن في هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب	ابن عباس	٢١/ ٤٢١
إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية	العرباض بن سارية	٢١/ ٤٧٩
إن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله	المقداد بن عمرو	٦/ ٢٥٥
إن قتلك فأنت في الجنة	قهيد بن مطرف الغفاري	٧/ ٣٠٣
إن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي	جابر بن عبد الله	٤/ ٢١٥
إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله عز وجل	عائشة	١٠/ ٧٧
إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن	عبدالله بن عمرو	١٧/ ٣٠٦
أن قوله تعالى: ﴿سأل سائل﴾ الآيات نزلت في النضر بن	ابن عباس	٢٣/ ١٤٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الحارث بن كلدة		
إن كان خوف أشد من ذلك فصل راكباً	ابن عمر	٣/ ٣٨٨
إن كان سَمى لها صداقًا، فليس لها إلا النصف	علي بن أبي طلحة	١٧/ ٣٩١
إن كان صادقاً فليحي نفسه	جندب الأزدي	٢/ ٣٤٧
إن كان ليأتي عليَّ السَّنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فأتهيب منه	البراء بن عازب	٢/ ٣٦٧
إن كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته	عائشة	٢٣/ ٢٣٥
إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل	أنس بن النضر	٤/ ٥١٩
إن كان محمد قد قُتل فقد بلغ	أبو نجيح	٤/ ٥١٨
إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين	عائشة	٢١/ ٢٤
إن كنا نتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ	زيد بن أرقم	٣/ ٣٨٣
إن كنت تشبع أهلك فأشبع المساكين	ابن عباس	٧/ ٥٩٥
إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ	أبو هريرة	٥/ ٥٤٨
إن لأهلك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا	عائشة	٣/ ١٠٢
إن لربك عليك حقًّا	سلمان الفارسي	١٢/ ٤٤١
إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا	عبدالله بن عمر	١٦/ ٣٦٧
إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا	عائشة	٧/ ٧٥٥
إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة	عبد الله بن مسعود	٢١/ ٤٠٠
إن لكل نبي حواريًّا	جابر بن عبد الله	٤/ ٢١٥
إن للشيطان للمَّة بابن آدم	ابن مسعود	٣/ ٥١٧
إن للشيطان لَّمة بابن آدم، وللملك لَّمة	ابن مسعود	٢١/ ٣٥
إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد		٣/ ٨٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن للمنافقين علامات يعرفون بها..	أبو هريرة	٢٢/ ٣٢١
إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة	أبو موسى الأشعري	١٠/ ٤١٥
إن لله تسعة وتسعين اسمًا	أبو هريرة	١/ ٦٧
إنّ لله عز وجل مئة رحمةٍ	سلمان الفارسي	٩/ ٣١٤
إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر	أبو هريرة	٢/ ٣٥
إن لم تزد على أم القرآن أجزأت	أبو هريرة	١/ ١٣٦
إن لنساء قريش لفضلاً- وإني- والله- ما رأيت أفضل من نساء الأنصار	عائشة	١٥/ ١٦٥
إن لنفسك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا	عبد الله بن عمرو	٢١/ ٩٩
إن له مرضعاً في الجنة	البراء بن عازب	٣/ ٣٥٤
إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش	رافع بن خديج	٧/ ٨٦
إن لو تفتح عمل الشيطان	أبو هريرة	٤/ ٥٨٥
إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد،..	جبير بن مطعم	١٧/ ٣٧٤
إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد	جبير بن مطعم	٢٢/ ٢٥٣
إن لي فيهم نسبًا	عائشة	١/ ٣٤
إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة	أبو هريرة	١٩/ ١٢٠
إن ماله ما قدم	ابن مسعود	٢/ ٣٨٢
أن معاذ بن جبل قضى في بنت وأخت	الأسود بن يزيد	٦/ ٦٤٧
إن مكة حرمها الله	أبو شريح العدوي	٢/ ٤٣٤
إنّ ممّا أتخوّف على أمّتي رجل قرأ القرآن	حذيفة بن اليمان	٩/ ٣٥٢
إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم	أبو موسى الأشعري	١٣/ ٣٨٤
إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم		٢/ ٢٧٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أخلاقًا		
إن من أخيركم أحسنكم خلقًا	عبد الله بن عمرو	٢٣/ ٦٦
إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته ... ثم ينشر سرها	أبو سعيد الخدري	٥/ ٣٠٨
إن من أشراط الساعة ... لا يُسَلِّم عليه إلا للمعرفة	ابن مسعود	٦/ ١٧٠
إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة	ابن مسعود	٦/ ١٧٠
إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر	أبو سعيد الخدري	١٩/ ١٧٧
إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرماً رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته	سعد بن أبي وقاص	٢/ ٣٦٧
إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا فحرمت من أجل مسألته	أنس	٢٠/ ٣٤٧
إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه	عبد الله بن عمرو	٨/ ٢٨٩
إن من البيان لسحرا	ابن عمر	٢/ ٣٣٠
إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن، هي النخلة	ابن عمر	٢١/ ٢٤
إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن- النخلة	ابن عمر	٢٤/ ٧٥
إن من الصدقة أن تعين صانعاً	أبو ذر	٣/ ٥٦٤
إن من شر الناس منزلة ... رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته	سعد بن أبي وقاص	٦/ ٤٨٦
إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي للمرأة وتفضي إليه..	أبو سعيد	١٧/ ٥٠٦
إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبره		٧/ ٤٢٧
إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفْرَق رأسه		٣/ ٢٢٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أن موسى عليه السلام بكى فقيل: ما يبكيك؟	مالك بن صعصعة	٢١/ ٤١٩
إن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل	أبي بن كعب	١٣/ ٣١٨
إن موسى- عليه السلام- كان رجلًا حييًّا ستِّيرًا	أبو هريرة	١٧/ ٤٩٥
أن موسى عليه السلام لما مر به النبي ﷺ ليلة الإسراء وجاوزه بكى..	أنس بن مالك	٢١/ ٢٢٥
إن مولى القوم منهم	أبو رافع	٥/ ٤٧٠
إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم..	أبو هريرة	٢١/ ٤٥٣
إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ولو لا أنها أطفئت بالماء مرتين..	أنس بن مالك	٢١/ ٤٥٣
أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكَثِّرون سواد المشركين	ابن عباس	٦/ ٢٨٤
أن ناسًا من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثًا	أبو سعيد الخدري	٤/ ٦٧٨
إن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا	عبدالله بن عباس	١٥/ ٤٥٠
إن ناسًا من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة..	أبي بن كعب	٢٢/ ٤٠٨
الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم	سليمان بن صرد	١٧/ ٢٧٩
أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر	أنس بن مالك	١٥/ ٢٠٥
إن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها		٢/ ٣٥٦
إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة	ابن عباس	٧/ ٣٤
إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض	ابن عباس	٢٤/ ٢٦٢
إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض	ابن عباس	٢/ ٤٣٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم	عبد الرحمن بن عوف	٣/ ٤١٤
إن هذا السيف ليس لك ولا لي	سعد بن أبي وقاص	١٠/ ١٣
إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر	عمر بن الخطاب	٢١/ ٣٠٥
إن هذا المال حلو خضر	معاوية	٦/ ١٧
إن هذا الوجع أو السقم رجز		١/ ٢٠٧، ٢٠٨
إن هذه الأقدام بعضها من بعض	عائشة	١٣/ ١٠٨
إن هذه الأيام أيام أكل وشرب	نبيشة الهذلي	٣/ ١٨٤
أن هذه الآية ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ نزلت في اليهود	مجاهد	٢٢/ ٤٨
إن هذه الآية: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة	أنس	١٧/ ٣٥٤
إن هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم فضيعوها	أبو بصرة الغفاري	٣/ ٣٨٦
إن هذه من غنائمكم	عبادة بن الصامت	١٠/ ١٢٨
إن وجدته غريقًا في الماء فلا تأكل	عدي بن حاتم	٧/ ١٠٥
إن وسادك إذًا لعريض	عدي بن حاتم	٣/ ١٠٥
إن يشأ الله ينسك القرآن	قتادة	١٩/ ٣٧٩
أن يطاع فلا يعصى	ابن مسعود	٤/ ٣٧٢
إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتّى تقوم عليكم ساعتكم	عائشة	٩/ ٣٧٢
إن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين	محمد بن قيس	٢٣/ ١٩١
أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما	ابن عباس	٢/ ٤٧٧
إن يهود قوم بهت	أنس بن مالك	٤/ ٢٧٦
أن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ	عبد الله بن عباس	٢/ ٢٩٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت	قَتيلة	١٥/ ٢٨٤
أن يهوديًّا رضّ رأس جارية بين حجرين، فاعترف	أنس بن مالك	٣/ ٥٧
أنا أغنى الشركاء عن الشرك	أبو هريرة	١٩/ ٣٠٨
أنا أكرم من وفى بذمته	عبد الرحمن بن البيلماني	٧/ ٤٢٩
أنا التي نزل تزويجي من السماء	عائشة	١٥/ ٨١
أنا الرحمن	عبد الرحمن بن عوف	١/ ٧٠
أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم	أبو هريرة	٢/ ٥٩٢
أنا الملك أنا الديان	جابر	٢٤/ ٣٤١
أنا الملك أين الجبارون	ابن عمر	١/ ١٧٧
أنا الملك أين ملوك الأرض	أبو هريرة	١/ ١٧٧
أنا النّبيّ لا كذبْ	البراء بن عازب	١٠/ ٣٠٨
أنا النذير العريان	أبو موسى الأشعري	٨/ ٢٣٦
إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب	ابن عمر	٢/ ٢٥٦
أنا أَمَنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون	أبو موسى الأشعري	٢٠/ ٥٠
إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٣١٤
أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة	أبو ذر وأبي الدرداء	٢٢/ ٤٦٠
أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم	أبو هريرة	٤/ ٢٢٥
أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم	أبو هريرة	٥/ ٤٧١
أنا أولى بكل مؤمن من نفسه	جابر بن عبدالله	١٧/ ٢٣٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أنا بريء من أي مسلم يقيم بين أظهر المشركين	جرير بن عبد الله	٦/ ٣٠٥
إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون	أنس بن مالك	٢/ ٥٦٠
أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه	أبو هريرة	١٨/ ٣٨٧
أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه	عروة بن الزبير	١٠/ ١٥١
أنا زعيم ببيت في ربض الجنة..	أنس	٢٣/ ٦٧
أنا سترتها عليك في الدنيا	ابن عمر	٣/ ٢٦
أنا سيد ولد آدم ولا فخر	أبو سعيد	١٦/ ١٦٠
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة	أبو سعيد الخدري	٢/ ٣٢٥
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة	أبو هريرة	٢/ ٣٢٥
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر	أبو سعيد الخدري	١٧/ ٢١٣
أنا عند ظن عبدي بي	أبو هريرة	٣/ ٨٩
أنا فئة كل مسلم		١٠/ ٥٤
إنا قوم أعزنا الله بالإسلام	عمر بن الخطاب	١٨/ ١١٨
إنا لا نأكله إنا حرم	زيد بن أرقم	٧/ ٦٨٤
إنَّا لا ندخل بيتًا فيه صور ولا كلب	ابن عمر	١/ ٥٦
إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به	علي بن أبي طالب	٨/ ٩١
إنا لا نولي أمرنا من طلبه	أبو موسى الأشعري	٦/ ٤٠
إنا لا نولي هذا من سأله وحرص عليه	أبو موسى	١٨/ ٤٠٢
إنَّا لم نردُّه عليك إلا أنَّا حرم	الصعب جثامة	٧/ ٣٠٤
أنا لها فيسجد تحت العرش	أبو هريرة	٢/ ١٨٢
أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر	أبو موسى الأشعري	٢٢/ ٢٥٤
أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية	عائشة بنت قدامة	٢٢/ ٢٣٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أنا مع عبدي حين يذكرني	أبو هريرة	٢/ ٥٤٤
أنا ممن استثناه الله	ابن عباس	١٣/ ٢٥٥
أنا ممن يعلم تأويله	ابن عباس	٤/ ٤١
أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم مشرفين على الخلائق	جابر بن عبد الله	٢/ ٥٠٣
إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع	ابن عمر	٣/ ١٧٣
إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملًا عملنا به	ابن عمر	٦/ ٣١٧
أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا	سهل بن سعد	٣/ ٢٣٧
أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء	ابن عباس	١١/ ١٧٣
انبعث لها رجل عارم	عبد الله بن زمعة	٢٤/ ٢٨٥
انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ	عبد الله بن زمعة	٩/ ١٧٤
الأنبياء إخوة من علات	أبو هريرة	٤/ ٢٢٥
الأنبياء أولاد علات	أبو هريرة	٥/ ٤٢٨
أنت أبصر	أبو هريرة	٣/ ٢٧١
أنت أخونا ومولانا	البراء بن عازب	١٧/ ٢٣٢
أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء	أبو هريرة	١٥/ ٣٥٤
أنت أول الرسل إلى أهل الأرض	أبو هريرة	٦/ ٦٠٣
أنت بما تقول؟	جابر بن عبد الله	٢/ ٥٠٤
أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي	علي بن أبي طالب	١/ ٢١٢
أنت رحمتي أرحم بك من أشاء	أبو هريرة	١٩/ ٣٢
أنت رحمتي أرحم بك مَن أشاء [الجنة]	أبو هريرة	١/ ٧٢
أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي	أبو هريرة	١٧/ ٨٠
أنت زيد بن حارثة بن شراحيل	ابن عمر	١٧/ ٢٣١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أنت على الإسلام حتى تموت	قيس بن عباد	٣/ ٤٦٩
أنت مع من أحببت	أنس بن مالك	١٢/ ١٨٩
أنت موسى الذي كلمه الله	أبو هريرة	٢/ ١٩٢
أنت ومالك لأبيك	جابر بن عبد الله	٥/ ٩٣
أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله	أنس	٢١/ ٥٩٢
أنتم بنو آدم، وآدم من تراب	أبو هريرة	١/ ٢١٧
أنتم توفون سبعين أمة	معاوية بن حيدة	٢/ ١٧٩
أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٤/ ٤١١
أنتم شهداء الله في الأرض	أنس بن مالك	٢/ ٥٠٢
أنتم والساعة كهاتين	أنس بن مالك	٢١/ ٢٨٧
انتهيت إلى السدرة- يعنى سدرة المنتهى- فإذا نبقها مثل الجرار	أنس	٢١/ ٤٣١
انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿ألهاكم التكاثر﴾» يقول ابن آدم: مالي مالي	عبد الله بن الشخير	٢٤/ ٤١٩
انتهينا ربنا انتهينا ربنا	بريدة بن الحصيب	٧/ ٦١٨
انثروه في المسجد		١٠/ ٢١١
أنذرتكم النار	النعمان بن بشير	٢٤/ ٢٩٩
انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك	يعلي بن أمية	٢١/ ٢١٢
أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي...: ﴿غير أولي الضرر﴾	زيد بن ثابت	٢٣/ ٢٣٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أنزل الله قوله: ﴿عبس وتولى* أن جاءه الأعمى﴾ في ابن أم مكتوم	ابن عمر	٢٤/ ٦٤
أنزل على رسول الله ﷺ بمكة- وإني لجارية ألعب- قوله تعالى: ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أولى وأمر﴾	عائشة	٢١/ ٢٨٣
أنزل علي آنفًا سورة	أنس بن مالك	١/ ٨٤
أنزلت ﴿عبس وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى	عائشة	٢٤/ ٦٤
أنزلت براءتي من السماء في القرآن	عائشة	٤/ ٦٣٣
أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان	واثلة بن الأسقع	٢٤/ ٣٦٥
أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته	عبد الله بن عمرو	٧/ ٨
أنزلت فيَّ أربع آيات	سعد بن أبي وقاص	٥/ ٥٧١
أنزلت في المرأة تكون عند الرجل، فتطول صحبتها فيريد طلاقها	عائشة	٦/ ٤٩٠
أنزلت في سودة لما أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ	عائشة	٦/ ٤٩٠
أنزلوا الناس منازلهم	عائشة	٢٢/ ٦٤
انزلوا على حكم سعد بن معاذ	عائشة	١٧/ ٢٨٣
أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا	ابن عباس	٢١/ ٣٢٧
انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين	ابن مسعود	٢١/ ٢٨٩
انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين	ابن مسعود	٨/ ٣١
انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين	جبير بن مطعم	٢١/ ٢٨٩
انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ	ابن عباس	٢١/ ٢٨٨
انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً	أنس بن مالك	٣/ ٥٨٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا	جابر بن عبد الله	٢٠/ ٣٥٤
انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا	أنس	١٦/ ٢٨٤
أنطأ في الجنة؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده..	أبو هريرة	٢١/ ٤٣٤
انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها	أنس بن مالك	٢/ ٥٦٤
انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم..	عبد الله بن عمر	٢٣/ ٢١٩
انطلق فحج مع امرأتك	ابن عباس	٤/ ٣٥٤
انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ..	مطرف	١٧/ ٤٩٠
انطلقنا إلى عائشة رضي الله عنها فاستأذنا عليها	سعد بن هشام	٢٣/ ٢٣١
انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما	المغيرة بن شعبة	٥/ ٧٠
انظر فإنك لست بخير من أحمر، ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله	أبو ذر	٢٠/ ٣٧٨
انظروا لمن هو دونكم	أبو هريرة	٤/ ٦٢١
انظري أين أنت منه	الحصين بن محصن	٥/ ٥٠٣
أنعت لك الكرسف...	حمنة بنت جحش	٢٤/ ١٣
أَنفِق يا ابن آدم ينفق عليك	أبو هريرة	١٥/ ٢٤٤
أنفقه على نفسك	أبو هريرة	٣/ ٢٧١
أنفقي، ولا تحصي فيحصى الله عليك	أبو نملة الأنصاري	٢/ ٣٧
أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك..	أسماء	٢١/ ٥٠٩
إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم	معاوية بن أبي سفيان	٢٠/ ٣٦٩
إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة	سعد بن أبي وقاص	٣/ ٧٠
إنك إن صبرت جرت عليك المقادير	علي بن أبي طالب	٢/ ٥٦٧
إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب	ابن عباس	٢/ ٤٩٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك	أنس بن مالك	٤/ ٣٩٤
أنك لا تلام على كفاف.	أبو أمامه	٢٤/ ٤٢٧
إنك لتلقى الرجلين: أحدهما أكثر صومًا وصلاة وصدقة	مطرف بن عبد الله	٢٢/ ٦٧
إنك لم تدع لنا شيئًا	سلمان الفارسي	٦/ ١٦٣
إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها	سعد بن أبي وقاص	٣/ ٥٣٦
أنكتها؟	جابر بن عبد الله	٥/ ٢٤٧
أنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان	ابن عمر	٣/ ١٢٥
إنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض	عبدالله بن مسعود	١٦/ ٢١٤
إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحاكم	ابن عباس	٥/ ٣٦٠
إنكم تحشرون حفاة عراة غرلًا	عائشة	٢٤/ ٧٩
إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض	أم سلمة	٣/ ١١٦
إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت	قتيلة	١٧/ ٢١٦
إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدًا	عمر بن الخطاب	٧/ ٦٨
إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم	أبو سفيان	١٠/ ١٤٩
إنكم ستحرصون على الإمارة،	أبو هريرة	١٨/ ٤٠٢
إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها	ابن مسعود	٦/ ٤١
إنكم سترون ربكم عيانًا	جرير بن عبد الله	٢٣/ ٣٠٦
إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس	أبو سعيد وأبو هريرة	٢٤/ ١٣٥
إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر	جرير بن عبد الله	٤/ ٤٣٩
إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً	أبو موسى الأشعري	٣/ ٨٩
إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم	أبو هريرة	٢/ ٢٧٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنما الأعمال بالنيات	عمر بن الخطاب	١/ ١٥٨
إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا	أبو كبشة الأنماري	٦/ ٢٧٨
إنما الرضاعة رضاعة الصغير	عمر بن الخطاب	٥/ ٣٤٤
إنما الرضاعة من المجاعة	عائشة	٥/ ٣٤١
إنما الصبر عند الصدمة الأولى	أنس بن مالك	٢/ ٥٥١
إنما الطاعة بالمعروف	علي بن أبي طالب	٣/ ٤٦٨
إنما الماء من الماء	أبو سعيد الخدري	٥/ ٥٧٦
إنما المسكين الذي يتعفف	أبو هريرة	٢١/ ١٠٤
إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة	ابن عمر	٧/ ٤٥٠
إنما النساء شقائق الرجال	عائشة	٢١/ ١٩٠
إنما الولاء لمن أعتق	عائشة	٥/ ٣٧٦
إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٢٠٧
إنما أنا شافع	ابن عباس	٦/ ١٥٥
إنما أنا عبده		٢/ ٨٦
إنما أنا لكم بمنزلة الوالد	أبو هريرة	١٧/ ٢٤١
إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم	أبو هريرة	٢/ ٢٤١
إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق	أبو هريرة	٢/ ٤٤٨
إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك	عياض بن حمار	١٥/ ٣٩٤
إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد	جبير بن مطعم	١٠/ ١٢٩
إنما جعل الاستئذان من أجل البصر	سهل بن سعد	١٥/ ١٤٦
إنما جعل الإمام ليؤتم به	أبو هريرة	١/ ٢٧٣
إنما جعل الطواف بالبيت... لإقامة ذكر الله	عائشة	٣/ ١٨٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش	كعب بن مالك	١٠/ ١٣٥
إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال..	قتادة	٢٣/ ١٩
إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل	عائشة	٢١/ ٢١٧
إنما ذلك العرض	عائشة	٤/ ١٠٨
إنما سماهم الله الأبرار، لأنهم بروا الآباء والأبناء	ابن عمر	٢٤/ ١١٤
إنما سمل رسول الله ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سملوا أعين الرعاء	أنس بن مالك	٧/ ٣١٢
إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة	عبد الله بن الزبير	١٤/ ٣٢١
إنما عليك نبي وصديق وشهيدان	أنس بن مالك	١/ ٢٠٠
إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً	ابن عمر	١٤/ ٣٩
إنما كان الذي أوتيته وحيًا	أبو هريرة	٢/ ٨٧
إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله	سلمان الفارسي	١٠/ ١٧٥
إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً	أبو موسى الأشعري	٢١/ ١٤١
إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار	عائشة	٥/ ٧
إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة	عبدالرحمن بن كعب	٢١/ ٤٧٢
إنما نغدو من أجل السلام	عبد الله بن عمرو	٦/ ١٧١
إنما نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به	ابن مسعود	٢٠/ ٣٧٠
إنما هو الأسودان، وسيوفنا على عواتقنا	أبو هريرة	٢٤/ ٤٢٤
إنما هو وَلْقُ القول	عائشة	١٥/ ٩٢
إنما هي أربعة أشهر وعشر	أم سلمة	٣/ ٣٦٥
إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم	أبو سعيد الخدري	١٨/ ٣٨٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنما يرحم الله من عباده الرحماء	أسامة	١٥/ ١٢٣
إنما يكفيك هكذا	عمار بن ياسر	٥/ ٥٨٥
إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة	عمر بن الخطاب	١٠/ ٤٠٤
إنه [الصوم] لي وأنا أجزي به	أبو هريرة	٣/ ٢٣٠
أنه ﷺ لما فتح مكة صل ثماني ركعات ضحى في بيت أم هانئ	أم هانئ	٦/ ٥٩٥
أنه ﷺ أخذ يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات	عائشة	٢٤/ ٥٢٧
أنه ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر	كعب بن مالك	٢٤/ ١٣٨
أنه ﷺ أهدى في حجة الوداع مائة بدنة	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٤٩٥
أنه ﷺ رأى سوادًا قد سد الأفق، فقال: من هذا؟	ابن عباس	١٩/ ٣١٦
أنه ﷺ سأل ربه أن لا يهلك أمته بسَنَةٍ بِعَامَّةٍ	ثوبان	٣/ ٢٥٥
أنه ﷺ سئل أي المساجد بُني أول؟		٤/ ٣٥٠
أنه ﷺ قضى بالشاهد واليمين	ابن عباس	٣/ ٥٨٢
أنه ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله	عمر بن الخطاب	١٠/ ١٢٨
أنه ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين	أم هانئ	٢٤/ ٥١٠
أنه ﷺ لم يكن يمنعه شيء من قراءة القرآن إلا الجنابة	علي بن أبي طالب	٢١/ ٤٦٣
أنه ﷺ ما رأى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.	عائشة	٢٤/ ٥٦٣
أنه ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلًا	جابر	٢٤/ ١٩٢
أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾.	صعصعة بن معاوية	٢٤/ ٣٩٣
أنه إذا تعارّ وانقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر	أنس	٢١/ ٢٠٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنه أشد عليهم من رشق بالنبل [الهجاء]	عائشة	١/ ٣٤
أنه أول من غير دين إسماعيل [عمرو بن لحي]	أبو هريرة	٧/ ٧١١
أنه جلد أمةً له في الزنا	ابن عمر	١٥/ ٣٤
أنه حكاه «أحْ، أحْ»	ابن عباس	٢٤/ ٤٠٠
أنه سأل النعمان بن بشير رضي الله عنه: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة	الضحاك بن قيس	٢٤/ ٢٢١
أنه سلم على النبي ﷺ وهو يبول فلم يرد عليه	المهاجر بن قنفذ	٦/ ١٧٧
إنه سيكون بعدي اختلاف	علي بن أبي طالب	١٠/ ١٨٧
إنّه سيكون قومٌ يعتدون في الدّعاء	سعد بن أبي وقاص	٩/ ١٣٥
أنه سئل من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلًا؟	عبد الله بن عمر	٢٤/ ١٢٥
إنه سيلحد فيه رجل من قريش	عبد الله بن عمرو	١٤/ ٣٠١
أنه صلى الله عليه وسلم كان يرد بكفه [رد السلام في الصلاة]	ابن عمر	٦/ ١٨١
أنه صلى مع النبي ﷺ الصبح، فقرأ في أول ركعة: ﴿والنخل باسقات﴾	قطبة بن مالك	٢١/ ٨
أنه صنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم	أنس بن مالك	٣/ ٩٥
إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني	عمر بن الخطاب	٤/ ٤٦٥
أنه قرأ على النبي ﷺ ﴿والنجم إذا هوى﴾	زيد بن ثابت	٢١/ ٢٠٧
أنه كاتب عبدًا له يكنى أبا أمية، فجاء بنجمه حين حل	عمر	١٥/ ١٩٦
أنه كان يسير على جمل له قد أعيا، فمر النبي ﷺ فضربه فدعا له	جابر بن عبد الله	٤/ ٥٦١
أنه لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب	أبو هريرة	١/ ١٣٤
إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل	ابن عمر	١٥/ ٢٩٦
إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفسٍ منه		٥/ ٩٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أنه لا يدفع السيئة بالسيئة	عبدالله بن عمرو	١٩/ ٣٠١
إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به	كعب بن عجرة	٢٤/ ٤٥٧
إنه لا يربو لحم نبت من سحت، إلا كانت النار أولى به	كعب بن عجرة	٣/ ٥٤٣
إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه	جبير بن مطعم	٥/ ٤٢
إنه لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تتوسلوا إلى الله بصالح أعمالكم	عبد الله بن عمرو	٤/ ٧٠٤
إنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له	سعد بن أبي وقاص	١٤/ ٢٣٢
إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين	عائشة	٤/ ٣١٩
أنه لم يكن شخص أحب إليهم- يعني الصحابة- رضي الله عنهم- من رسول الله ﷺ	أنس	٢٢/ ٦٣
إنه لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقّاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم	...	١٦/ ٩٦
إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة	أبو هريرة	١٣/ ٣٦٦
إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه	ابن عباس	٢٠/ ١٠٥
إنه ليس الّذي تعنون	ابن مسعود	٨/ ٢١١
إنه ليس بدواء	طارق بن سويد	٣/ ٢٧٩
إنه ليس بذاك، ألا تسمعوا إلى قول لقمان: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾؟	عبدالله بن مسعود	١٧/ ١١٥
إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك	أنس	١٥/ ١٦٩
إنّه ليس من عبدٍ إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله	عائشة	٨/ ٢٩٧
إنه ليسير على من يسره الله عليه	معاذ بن جبل	٢/ ١٧٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنه ليغان على قلبي	الأغر المزني	١٠/٥٠٦
إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء	أبو هريرة	٧/٦٩٧
إنه ليمر عليه الهلال ثم الهلال ... ما أوقدت في أبياته نار	عائشة	٩/٣٧٣
إنه من أعطي حظه من الرفق..	عائشة	٢٢/٣٣٨
إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة	عمر بن الخطاب	٧/٦٣٣
إنه يستجاب لنا فيهم	عائشة	٢/٣٥٢
أنه يعرج به ﷺ من سماء إلى سماء..	أنس بن مالك	٢٣/١٦
أنه يمر الشهران ما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار...	عروة بن الزبير	٢٤/٧٥
إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق	أبو سعيد الخدري	١٢/١٤٧
إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة	أبو ذر	٦/٣١
أنها أوساخ الناس [الصدقة]	عبد المطلب بن ربيعة	٧/٣٠٤
إنّها تجري حتّى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش	أبو ذر الغفاري	٨/٤٤٨
إنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة	زيد بن ثابت	٦/١٨٦
إنها رجس	ابن مسعود	١٧/٣١٥
إنها ركس	ابن مسعود	٦/١٨٧
إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم	سعد بن أبي وقاص	٧/٣٠٣
إنها طيبة	زيد بن ثابت	٦/١٨٦
أنها كانت تحت سعد بن خولة- وكان ممن شهد بدرًا	سبيعة الأسلمية	٢٢/٤٠٩
أنها كانت تُعيّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ	عائشة	١٧/٤٠٣
إنّها لن تقوم [الساعة] حتّى تروا قبلها عشر آياتٍ	حذيفة بن أسيد	٨/٤٤٦
إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات	حذيفة بن أسيد الغفاري	٢٠/٩٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إنها ليست بنجس [الهرة]	أبو قتادة	١٤/ ٣٠٨
إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات	أبو قتادة	١٥/ ٣٢٨
إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين	أبو هريرة	٢٤/ ٣٦٧
أنها نزلت في أُبيّ بن خلف.. [في قوله تعالى ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾]	مجاهد	
إنها نزلت في يوم عيد يوم جمعة ويوم عرفة	ابن عباس	٧/ ٦٩
إنها يتيمة، واليتيمة أولى بأمرها	ابن عمر	٥/ ٦٤
أنهار الجنة تفجر من تحت تلال	أبو هريرة	٢٤/ ٢٢٦
أنهلك وفينا الصالحون؟	عائشة	٧/ ٧١٨
أنهم كانوا إذا نكحوا تضرب الجواري بالمزامير	جابر	٢٢/ ٣٠٦
إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم	المغيرة بن شعبة	٦/ ٥٨٠
أنهم كانوا يقترؤن من رسول الله ﷺ عشر آيات..	أبو عبدالرحمن السلمي	١٨/ ١٤٥
إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام	جبير بن مطعم	١٠/ ١٢٩
إنهم- يعني اليهود- لا يحسدوننا على شيء، كما يحسدونا على يوم الجمعة	عائشة	٢/ ٤٩٦
إنهما [البقرة وآل عمران]يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان	أبو أمامة	٢/ ٨
أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدُّبَّاء والحنتم والمزفت والنقير	سعيد بن جبير	٢٢/ ١٢١
إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير	ابن عباس	٣/ ٢٦٢
إنهن من العتاق الأُول	ابن مسعود	١٣/ ٧
أنى يستجاب لذلك؟ [مأكله حرام]	أبو هريرة	٣/ ٥٤٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني	أبو هريرة	٣/ ١٠٧
إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي	ابن عباس	٢٢/ ١٩
إني أحب أن أسمعه من غيري	ابن مسعود	٢/ ٥٠٣
إني أُحَرِّج حق الضعيفين	أبو هريرة	١٣/ ٩٥
إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة	أبو هريرة	٢/ ١٨٢
إنّي أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم	ابن عمر	٩/ ١٧٤
إني أدلكم على من هو أعز نصرًا، وأحصن جندًا: الله	عمر بن الخطاب	٤/ ٤٦٥
إني أراك تحب الغنم والبادية	عبد الله بن عبد الرحمن	٢٤/ ٣٩١
إني أرى أن تجعلها في الأقربين	أبو طلحة	٨/ ٣٧١
إني أرى ما لا ترون	أبو ذر	٢٣/ ٢٨٠
إني أسلمت وتحتي أختان؟	فيروز	٥/ ٣٥٦
إني أطيق أكثر من ذلك	عبد الله بن عمرو	٢/ ٢٥٨
إني أعتقتك وجعلت عتقك صداقك		٥/ ٦٨
إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم	أنس بن مالك	١٠/ ٣٨٧
إني آمر جاريتي تستأذن عليَّ	ابن عباس	١٥/ ٣٣٢
إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا	ابن عباس	٦/ ١٢٥
إني أنا النذير العريان	أبو موسى	٢٣/ ١٧٧
إني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر	عائشة	٣/ ١٠٢
إني أنساك كما نسيتني	أبو هريرة	٢/ ١٧٤
إني أوصيكم بتقوى الله	أبو بكر الصديق	١٤/ ٢٣٤
إنّي حرّمت الجنّة على الكافرين	أبو هريرة	٨/ ١٩٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا	أبو ذر	١٦/ ١٣٣
إني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها	أبو سعيد الخدري	٢/ ٤٣٣
إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة	عبد الله بن زيد بن عاصم	٢/ ٤٣٣
إني خلقت عبادي حنفاء كلهم		٣/ ٩
إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا	ابن عباس	١٢/ ٩٢
إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة	عمر بن الخطاب	١/ ٢٠١
إني سألت ربي- عز وجل- الشفاعة لأمتي فأعطانيه	أبو ذر	٧/ ٧٦٩
إني سألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي	عبد الله بن سلام	٢/ ٣١٦
إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟	أبو هريرة	٢/ ٢٦٢
إني على ما أشاء قادر	ابن مسعود	٤/ ١٣٧
إني عند الله لخاتم النبيين		٢/ ٤٤٩
إني عند الله لخاتم النبيين	العرباض بن سارية	١٧/ ٣٧٤
إني قد أخرجت عبادًا من عبادي، لا يدان لأحد بقتالهم	النواس بن سمعان	١٤/ ٢٤٢
إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق	عمر بن عبد العزيز	١٢/ ٤٤١
إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون	ابن مسعود	٢/ ٥٤٧
إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء	سبرة بن معبد	٥/ ٣٨٨
إنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهدًا منّي	أنس بن مالك	٩/ ٣٤٩
إني لا أشهد على جور	النعمان بن بشير	٧/ ٢١٤
إني لا أقول إلا حقًا	أبو هريرة	٢١/ ٢١٢
إني لآخذة بزمام العضباء ... إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها	أسماء بنت يزيد	٧/ ٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرًا والحديبية	حفصة	١٣/ ٤٥٢
إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ... من الذين قال الله فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾	علي بن أبي طالب	٩/ ١١٤
إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة	أبو هريرة	٢١/ ٤١٩
إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة	عمران بن حصين	٢١/ ٤٣٥
إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٣١٤
إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها	سعد بن أبي وقاص	٢٣/ ٢٢٣
إني لأسفار ساعة من النهار فأقصر	ابن عمر	٦/ ٣٤٥
إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار	أبو ذر	١٥/ ٤٥٣
إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبْعَث	جابر بن سمرة	١٥/ ٢٦٢
إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد	سليمان بن صرد	٢١/ ٥٦٣
إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه	سعد بن أبي وقاص	١٠/ ٣٨٦
إني لأعلم حين أنزلت	عمر بن الخطاب	٧/ ٦٨
إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد	سليمان بن صرد	١/ ١٥
إني لبدت رأسي وقلدت هديي	حفصة	٣/ ١٥٢
إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية	عائشة	٢/ ٤٥٦
إني لم أبعث لعانا	أبو هريرة	٢٢/ ٢١٠
إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة	ابن مسعود	٣/ ٣٨٣
إني لم أؤمر بهذا	كعب بن مالك	١٤/ ٣٦٦
إني مبتليك، ومبتلٍ بك	عياض بن حمار	١٠/ ٥٧
إني وأدت اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية..	خليفة بن حصين	٢٤/ ٨٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين..	أبو موسى	٢٢/ ٤٤١
إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا	جابر بن عبد الله	١٤/ ٣٤٢
اهجهم- أو هاجهم- وجبريل معك	البراء بن عازب	١٦/ ١٣٠
اهجهم وجبريل معك	البراء بن عازب	١/ ٣٥
اهجوا قريشًا	عائشة	١/ ٣٤
اهدأ فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد	أبو هريرة	١/ ٢٠٠
اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك	عائشة	٢/ ٣١٩
أهدى النبي ﷺ مرة غنماً	عائشة	٣/ ١٥٠
أهرقها	أنس بن مالك	٧/ ٦٣٩
أهل الثناء والمجد	ابن عباس	١٧/ ١٤٣
أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد	أبو سعيد الخدري	٣/ ٤١٥
أهل الجنة عشرون ومائة صف..	بريدة	٢١/ ٤٢٠
أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومئة صف	ابن مسعود	١٣/ ٢٩٣
الأهلة مواقيت للناس	ابن عمر	٣/ ١١٩
أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا	ابن مسعود	٨/ ١٣٢
أوَأَمْلِكُ لك أن نَزع الله من قلبك الرحمة	عائشة	٤/ ٥٩٠
أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير الخمس	عبدالله بن مسعود	١٧/ ١٥٧
أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس..	ابن عمر	١٧/ ١٥٦
أوتينا علمًا كثيرًا، أوتينا التوراة	ابن عباس	١٣/ ١٨٢
أوثق عرى الإيمان الحب في الله	ابن عباس	٧/ ٢٢٠
أوجعها وائت جاريتك	عمر بن الخطاب	٥/ ٣٤٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام	أبو هريرة	٢١/ ١٠١
أوصى أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- بالخمس	أبو بكر الصديق	٥/ ١٨٥
أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك	معاذ بن جبل	٢١/ ٧١
أوف بنذرك	عمر	٧/ ٦١٤
أوفوا ببيعة الأول فالأول	أبو هريرة	٦/ ٥٩
أوقدت فصارت نارًا	علي	٢١/ ١٦٣
أول الخصمين يوم القيامة: جاران	عقبة بن عامر	١٩/ ٦٢
أول آية نزلت في القتال	ابن عباس	١٤/ ٢٥٩
أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر	أبو هريرة	٢١/ ٤٣٥
أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر	أبو هريرة	١٩/ ١١٧
أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿والنجم﴾؛	ابن مسعود	٢١/ ٢٠٧
أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قبل أم إسماعيل- عليهما السلام-	ابن عباس	٢/ ٥٧٢
أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم	عائشة	٢٤/ ٣٤٨
أول ما خلق الله القلم فقال اكتب. فقال: ما أكتب؟	عبادة بن الصامت	٢٢/ ٨٨
أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت	ابن عباس	٢٢/ ٢٣
أول من عمل بها علي بن أبي طالب- رضي الله عنه	سلمة بن كُهيل	٢٢/ ٧٤
أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم	البراء عن عازب	٢٤/ ٢٠١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أول من يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد	أبو هريرة	٥/ ٥٥٥
أَوْلَاهُمَا بالله	أبو أمامة	٦/ ١٦٦
أوليس قد ابتعته منك؟	عمارة بن خزيمة	٣/ ٥٧٢
أولئك العصاة، أولئك العصاة	جابر بن عبد الله	٣/ ٩٣
أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا	عمر بن الخطاب	١١/ ١٩٢
أومخرجيَّ هم؟	عائشة	٤/ ٦٩٦
أي الإيمان أفضل؟	عمرو بن عبسة	٢٣/ ٦٧
أي الربا أربى عند الله؟	عائشة	١٧/ ٤٥٧
أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وتصديق به	عبادة بن الصامت	٢٢/ ٣٦٦
أي المجاهدين أعظم أجرًا يا رسول الله؟ قال: «أكثرهم لله ذكرًا»	سهل بن معاذ بن أنس	١٧/ ٣٤٠
أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٤/ ٣٦٣
أي المؤمنين أفضل؟	ابن عمر	٣/ ٦٣
أي المؤمنين أكيس؟	ابن عمر	٣/ ٦٣
أي الناس أحب إليك؟قال: عائشة	عمرو بن العاص	٢٤/ ٣٠٢
أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟	عمر	٢١/ ٣٢٧
أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم	أبو بكر الصديق	٢٤/ ٧٥
أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله	المسيب	١٦/ ٣٣٨
أي مسجد وضع في الأرض أول؟	أبو ذر	١٣/ ١٨
أي: شيطانًا [في قوله تعالى ﴿وألقينا على كرسيه جسدًا﴾]	ابن عباس	١٨/ ٣٩٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أي: يوم الفصل بين العباد [في قوله تعالى ﴿هذا يوم الفصل﴾]	أبو هريرة	٣٧١/٢٣
إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة	جابر بن سليم	٥٤٠/٥
إياكم والجلوس في الطرقات	أبو سعيد الخدري	١٥٨/١٥
إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.	أبو هريرة	٥٧١/٢٤
إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات	أبو هريرة	٢٠/٦
إياكم والدخول على النساء	عقبة بن عامر	١٧٢/١٥
إياكم والرأي	ابن عباس	٣٩٢/٦
إياكم والشح	عبد الله بن عمرو	٥٦٣/٥
إياكم والظن	أبو هريرة	٢٥٨/٢
إياكم والغلو في الدين	ابن عباس	٥٥٣/٧
إياكم وسوء ذات البين	أبو هريرة	٣٠٣/٣
إياكم ومحقرات الذنوب	ابن مسعود	٢٦٦/٢
أيام التشريق أيام طعم وذكر لله	أبو هريرة	١٨٤/٣
الأيام المعدودات: أيام التشريق	ابن عباس	١٨٤/٣
آيبون تائبون عابدون	أنس بن مالك	٧٠/١٣
آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب ...	أبو هريرة	٨٤/٤
آية في كتاب الله- عز وجل- لم يعمل بها أحد قبلي	علي بن أبي طالب	٧٤/٢٢
ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر	أبو ثعلبة الخشني	٧١٥/٧
ائتني بأبيك		٧٣/١٣
أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله	البراء بن عازب	١٠١/١١
ائتها على كل حال إذا كان في الفرج	ابن عباس	٢٩٤/٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ائتوا نوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله	أنس بن مالك	٤/ ١٥٧
ائتوني بأعلم رجلين منكم	جابر بن عبد الله	٥/ ٢٤٥
ائذني له فإنه عمك	عائشة	٥/ ٣٣٥
أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلثالقرآن في ليلة فشق ذلك عليهم	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٥٤٧
أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟	قتادة	٢٣/ ٦٨
أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟	سعيد بن جبير	٤/ ٦٨٤
أيكم قرأ؟	عمران بن حصين	١/ ٢٧٨
أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله	ابن مسعود	٢/ ٣٨٢
أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟	ابن مسعود	٤/ ٣٢٨
أيّكم يبايعني على ثلاثٍ؟	عبادة بن الصامت	٨/ ٤١٨
أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟	جابر بن عبد الله	١٢/ ٧٣
أيكم يملك إربه، كما كان النبي ﷺ يملك إربه	عائشة	٣/ ٢٩٧
أيلعب بكتاب الله، وأنا بين أظهركم	محمود بن لبيد	٣/ ٣٤١
أيلعب في كتاب الله تعالى وأنا بين أظهركم	محمود بن لبيد	١٧/ ٢٩١
الأيم أحق بنفسها من وليها	ابن عباس	١٥/ ١٨٥
أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم	أبو هريرة	٢٢/ ٢٣١
أيما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها، فنكاحها باطل	عائشة	٥/ ٤١٤
أيما امرأة سألت زوجها الطلاق ... فحرام عليها رائحة الجنة	ثوبان	٣/ ٣٢٩
أيما امرأة نكحت بغير إذن مواليها فنكاحها باطل	عائشة	٥/ ٣٧٠
أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة	عمر بن الخطاب	٢/ ٥٠٤
الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته	عمر بن الخطاب، أبو هريرة	٢/ ٣٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الإيمان بضع وسبعون شعبة	أبو هريرة	٥/ ٢٨٥
إيمان لا شك فيه [لما سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟]	عبد الله بن حبشي	٢٢/ ٢٦٩
الإيمان: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله..	عمر بن الخطاب	٢٣/ ٢٤٣
أين الله؟[لما جاء إلى النبي ﷺ بتلك الجارية السوداء فسألها]	معاوية بن الحكم السلمي	٣/ ٢٨٣
أين المتكبرون	ابن عمر	١/ ١٧٧
أين بنو عمي؟	أبو هريرة	٤/ ٤٧٠
أين كنت؟	أبو هريرة	٨/ ١٢٩
أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب		٢/ ٣٥٦
أيها الناس، اتهموا أنفسكم؛ فإنا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا	سهل بن حنيف	٢٠/ ٢٧٨
أيها الناس، اربعوا على أنفسكم	أبو موسى الأشعري	٣/ ٨٩
أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام	عبد الله بن سلام	٢١/ ١٠٠
أيها الناس، أقيموا الحد على أرقائكم	علي بن أبي طالب	٥/ ٤٢٠
أيها الناس، أقيموا الحدود على أرقائكم	علي	١٥/ ٣٤
أيها الناس، اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون	عائشة	٢٣/ ٢٤٩
أيها الناس، السكينة السكينة	جابر بن عبد الله	٣/ ١٧٢
أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا		٣/ ١٧
أيها الناس، إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه	ابن عمر	٢١/ ٢٨٦
أيها الناس، ما إكثاركم في صُدُق النساء	عمر بن الخطاب	٥/ ٣٠٥
أيّهم تعدّ لرغبك ورهبك؟	عمران بن حصين	٩/ ٣٤٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أيؤذيك هوام رأسك؟	كعب بن عجرة	٣/ ١٥٣
بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فذكر ذلك للنبي ﷺ	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٥٤٧
بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة	جندب بن عبد الله	٥/ ٤٥٧
بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها	أبو هريرة	١٦/ ٢٤٢
بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم	أبو هريرة	٣/ ٢٥٤
بارك الله لك في أهلك	إبراهيم بن سعد	١٧/ ٣١٦
باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٥٧٢
باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده		١٤/ ٥١٦
باسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد	عائشة	١٤/ ٣٥١
باسم الله آمنت بالله، توكلت على الله	أنس بن مالك	٢٤/ ٥٨٣
باسم الله والسلام على رسول الله	فاطمة بن رسول الله	١/ ١١٨
باسم الله والله أكبر	جابر بن عبد الله	١٤/ ٣٤٢
باسم الله وضعت جنبي	أبو الأزهر الأنماري	١/ ١٢١
باسم الله وعلى سنة رسول الله	ابن عمر	١/ ١٢٢
الباقيات الصالحات: سبحان الله...	عثمان بن عفان	١٣/ ٢٩١
بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة	سلمة بن الأكوع	٢٠/ ٢٨٩
بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة	جرير بن عبد الله	٣/ ٣٩٤
بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة	عبادة بن الصامت	٢/ ١٠٥
بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا..	أم عطية	٢٢/ ٢٣٤
بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا	عبادة بن الصامت	٥/ ٦٣٢
بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا	عبادة بن الصامت	١٥/ ٩٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم	أبو هريرة	٢٠/ ٣٦٠
بحسبك أن تقول: اللّهمّ إنّي أسألك الجنّة	سعد بن أبي وقاص	٩/ ١٣٥
بخٍ بخٍ ذاك مال رابح	أبو طلحة	٣/ ٤٢
بخمس وعشرين درجة	أبو سعيد الخدري	٢٢/ ٢٧٤
البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي	الحسين بن علي	٥/ ٥٥١
البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ	علي بن أبي طالب	١٧/ ٤٤٩
بدأ الإسلام غريبًا	ابن مسعود	٧/ ٧٠
بديع السموات والأرض [في قوله تعالى ﴿فاطر السموات والأرض﴾]	ابن عباس	١٨/ ١٠٣
البر حسن الخلق	النواس بن سمعان	٣/ ٣٩
البر ما أُمرتَ به، والتقوى: ما نُهيتَ عنه	ابن عباس	٢٢/ ٥٣
البر ما سكنت إليه النفس	أبو ثعلبة الخشني	٣/ ٣٩
بروا آباءكم تبركم أبناؤكم		٥/ ١٤٨
بريء من الشح من أدى الزكاة	أنس بن مالك	٢٢/ ١٣٤
بزق النبي ﷺ في كفه، ثم وضع أصبعه السبابة..	بسر بن جحاش القرشي	١٨/ ٢٥٠
بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم	ابن عباس	١/ ١١٧
البسوا من ثيابكم البياض	ابن عباس	٩/ ٧٢
بشر الكنازين برضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم	أبو ذر	١٠/ ٣٣٦
بشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة	أبي بن كعب	٤/ ٤٣٧
بشرا ولا تنفرا	أبو موسى الأشعري	٢/ ٩٩
بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب	عبد الله بن أبي أوفى	١٢/ ٢٦٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
بشروا، ولا تنفروا	أبو موسى	١٧/ ٣٨٢
بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة	علي بن أبي طالب	١٠/ ٣٨٧
بعثت إلى الناس كافة	جابر بن عبد الله	٥/ ٣٨
بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود	ابن عباس	١٥/ ٣٧٤
بعثت إلى كل أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ	ابن عباس	١٨/ ٥٥
بُعِثت إلى كل أحمر وأسود	جابر بن عبد الله	٤/ ١٠٩
بعثت أنا والساعة كهاتين	أنس بن مالك	١٣/ ١٢٤
بعثت أنا والساعة كهاتين	سهل بن سعد	٢٠/ ٢٤٤
بعثت أنا والساعة كهاتين. وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها	أبو هريرة	٢١/ ٧٥
بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه، السبابة والوسطى	جابر بن عبد الله	٢١/ ٢٧٦
بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو كهتين، وقرن بين السبابة والوسطى	سهل بن سعد	٢١/ ٢٨٦
بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة	علي بن أبي طالب	١٠/ ٢٥١
بعثت بالحنيفية السمحة	عائشة	٣/ ٦٠٦
بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له	...	٢١/ ٥٨٣
بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا	أبو هريرة	٨/ ٣٣٩
بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه... فأمرني أن أضرب عنقه	البراء بن عازب	٥/ ٣٢٨
بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد..	علي بن أبي طالب	٢٢/ ١٨٥
بعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني	أبو سعيد الخدري	٤/ ٤٨٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
بقوة؛ [تفسير قوله: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾]	ابن عباس	٢١/ ١٣٩
بقي كلها غير كتفها	عائشة	١٣/ ٤٥٨
البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام	عبادة بن الصامت	٥/ ٢٣٩
بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله	عائشة	٢٢/ ٢١٠
بل أنتم العكَّارون	ابن عمر	١٠/ ٥٤
بل باب التوبة والرحمة	ابن عباس	١٣/ ١٣٧
بل شربت عسلًا، ولن أعود له	عائشة	٢٢/ ٤٣٧
بل عارية مضمونة	صفوان بن أمية	٤/ ١٣٨
بل على ملة عبد المطلب	المسيب بن حزن	١٩/ ٧٠
بل غضبًا لله ولرسوله	أبو هريرة	٤/ ٤٧٠
بل للناس كافة	ابن مسعود	١١/ ٣٢١
بم تحكم؟	معاذ بن جبل	٦/ ٥٢
بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله	معاذ	٢٠/ ٣٢٨
بنعم الله تبارك وتعالى	أبي بن كعب	١٢/ ١٢٩
بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا	أنس	١٧/ ٤٢٦
بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله		٢/ ٣٧
بورك لأمّتي في بكورها	صخر الغامدي	٨/ ١٦٤
البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتًا	عبيد بن عمير عن أبيه	٤/ ٣٤١
بيت لا تمر فيه جياع أهله	عائشة	٢٤/ ٧٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
بئس ما أخذ قوم لأنفسهم.. [في معنى قوله ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾]	الحسن	٢١/ ٤٦٥
بئس ما قلت يا ابن أختي	عائشة	٢/ ٥٧١
بئس مطية الرجل زعموا	أبو مسعود الأنصاري	٦/ ١٥٢
البيعان بالخيار ما لم يتفرقا	حكيم بن حزام	٢٢/ ٢٩٩
بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام	عبد الله بن مسعود	٢٣/ ١٦
بين النفختين أربعون	أبو هريرة	١٩/ ١١٢
بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلًا يقول: أحد الثلاثة		١٣/ ١٧
بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور	جابر بن عبدالله	١٨/ ٢٣٣
بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا	أبو هريرة	٢٢/ ٢١٠
بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسمًا قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟	أنس بن مالك	٢٤/ ٤٩٣
بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة	جابر	٢٢/ ٣٠٦
البينة أو حد في ظهرك	ابن عباس	١٥/ ٥٩
البينة على المدعي	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٤/ ١٥١
بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين	أبو هريرة	١٤/ ٢١٦
بينما أنا في الحطيم، أو قال في الحجر مضطجعًا إذ أتاني آت	أنس بن مالك	٢٤/ ٣٢٨
بينما أيوب يغتسل عريانًا، خر عليه جراد من ذهب	أبو هريرة	١٨/ ٤٠٦
بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه	ابن عباس	١/ ١٤٣
بينما رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بردين أخضرين يختال	أبو سعيد الخدري	١٦/ ٣٧١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
فيهما		
بينما رجل يجر إزاره خيلاء خسف به	ابن عمر	٣٧١/١٦
بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مُرَجِّل جمته، إذ خسف الله به	أبو هريرة	٥٤٩/٥
بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجِّل جمته	أبو هريرة	٣٧١/١٦
بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل	أبو هريرة	١١/٢٢
بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب	عمر بن الخطاب	٣٨٦/٢٠
بينما نحن عند رسول الله ﷺ أقبل ابن أم مكتوم	أم سلمة	٤٦٧/١٧
بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿والمرسلات﴾	عبد الله بن مسعود	٣٥٧/٢٣
تأولت ما تأول عثمان	عروة بن الزبير	٣٣٨/٦
التائب من الذنب كمن لا ذنب له	ابن مسعود	٢٥٥/٥
تأيَّمت حفصة بنت عمر من خنيس- يعني: ابن حذافة	عمر	١٨٦/١٥
تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء	عائشة	٣٩٩/٢
تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا	عبادة بن الصامت	٢٣٤/٢٢
تبلغ الحلية من المؤمن كما يبلغ الوضوء	أبو هريرة	٢٩٣/١٤
تتمنى مال فلان ومال فلان	الحسن البصري	٤٨٥/٥
تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر	أبو هريرة	١٧١/١٣
تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان.	عائشة	٣٦٧/٢٤
تحشرون حفاة عراة غرلًا	ابن عباس	٨٠/٢٤
تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم	ربيعة الجرشي	٣٩١/٢٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
تحوز المرأة ثلاثة مواريث	واثلة بن الأسقع	٦/ ٦٤٨
التحيات لله والصلوات والطيبات	عبدالله بن مسعود	١٥/ ٣٤٧
تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر	حذيفة بن أسيد الغفاري	٢٢/ ١٠٧
تداووا، ولا تداووا بحرام		٧/ ٦٣٩
تدرون ما هذا؟	أبو هريرة	٦/ ٢٣٤
تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل	المقداد بن الأسود	٢٤/ ١٢٩
تراءى الناس الهلال، فرأيته فأخبرت النبي، ﷺ فصامه وأمر الناس بصيامه	ابن عمر	٢٠/ ٣٤٦
تردون عليّ غرًّا محجلين من أثر الوضوء	أبو هريرة	٤/ ٣٩٢
ترك العمل لأجل الناس رياء	الفضيل بن عياض	٥/ ٥٣٠
تركت فيكم ما لن تضلوا بعده	جابر بن عبد الله	٧/ ٥٣٢
تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها	العرباض بن سارية	٧/ ٥٣٢
تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم	أبو ذر الغفاري	٧/ ٥٣٢
تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة [الصراط]	ابن مسعود	٨/ ٤٣١
تريدون أن أشقق لكم الأمور	أنس بن مالك	٣/ ١٨٢
تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله	ابن عباس	١٠/ ٤٦
تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل	سهل بن سعد	٣/ ٤٠٣
تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة	محمد بن كعب	١٧/ ٤٠٢
تزوجوا الودود الولود	معقل بن يسار	٤/ ٧١
تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة	معقل بن يسار	٢١/ ٥٥١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
تسألوني عن السّاعة، وإنّما علمها عند الله	جابر بن عبد الله	٩/ ٣٧١
التسبيح بعد الصلاة	ابن عباس	٢١/ ٦٩
التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء	أبو هريرة	١٧/ ٣٠٩
تسمع وتطيع وإن كان عبدًا حبشيًّا	أبو ذر	٢٢/ ٤٠٠
تشاورت قريش ليلة بمكة	ابن عباس	١٠/ ١٠٠
تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة	طلحة بن عبيد الله	٢/ ٥٧٦
تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار	أبو هريرة	١٣/ ١٧١
تصدق رجل من ديناره	جرير بن عبد الله	٥/ ٤٠
تصدقن، فإن أكثركن حطب جهنم	جابر بن عبد الله	٥/ ٣٠
تصدقوا عليه	أبو سعيد الخدري	١٠/ ٣٨٩
تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا	ابن عباس	١٣/ ٣٨
تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه	ابن مسعود	١٠/ ١٠٨
تعافوا الحدود فيما بينكم..	عبد الله بن عمرو	١٥/ ١٩
تعبد الله لا تشرك به شيئًا	معاذ بن جبل	٢/ ١٧٣
تعبد الله ولا تشرك به شيئًا	أبو أيوب الأنصاري	١٣/ ٨١
تعجبون من منزلة الملائكة من الله	أبو هريرة	٢٤/ ٣٨٣
تُعْدَلُ شهادة الزور بالشرك	ابن مسعود	١٤/ ٣٣٢
تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية	عبد الله بن مسعود	٢٠/ ٢٨٠
تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً	حذيفة	٣/ ٢٥٤
تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة	ابن عباس	١٧/ ٥٦
تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش	أبو هريرة	٢١/ ١٤٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
تَعِس عبد الدينار	أبو هريرة	١٥/ ٣١١
تعلموا سورة البقرة	عمر بن الخطاب	٢/ ٨
تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور	حارثة بن مضرب	١٥/ ٧
تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم	أبو هريرة	٢٠/ ٣٧٧
تعهد المدينة كيلا ترتد أعرابيًّا		١٠/ ٤٥٧
تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن	أبو ذر	٢٤/ ٦٠٢
تعوذ بالله منه	عثمان بن أبي العاص	١/ ٤٨
تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام	أبو هريرة	٢٢/ ٤٦٨
التفسير على أربعة أنحاء	ابن عباس	٤/ ٤١
تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم	ابن عباس	٢٢/ ٦٦
تفكر ساعة خير من قيام ليلة		٤/ ٧٠١
تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر..	عبدالله بن عمر	١٥/ ٣٠٩
تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدا	عائشة	٧/ ٣٢٣
التقوى هٰهنا، ويشير إلى صدره	أبو هريرة	٣/ ٥٧٦
التقوى: أن تعمل بطاعة الله	ابن عباس	١٧/ ٢١٣
التقى آدم موسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس	أبو هريرة	١٤/ ٣٩
تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة	أبو هريرة	٢٤/ ٣٩٠
تكثرن الشكاية	أبو هريرة	٧/ ٣٩٦
تكفل الله لمن خرج في سبيله ... فهو علي ضامن أن أدخله الجنة	أبو هريرة	٦/ ١٠٦
تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا	ابن عباس	١٤/ ١٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
تكلم أربعة في المهد وهم صغار	ابن عباس	١١/ ٣٧٨
تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته	أبو هريرة	١٠/ ٤٢٨
تكون النَّسَم طيرًا يعلق بالشجر	أم هانئ	٢١/ ٤٧٢
تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟	حذيفة بن اليمان	٣/ ٥٥١
تلك الروضة الإسلام	قيس بن عباد	٣/ ٤٦٩
تلك صلاة المنافق	أنس بن مالك	٦/ ٥٤٣
تلك عاجل بشرى المؤمن	أبو ذر	١٩/ ٣٩
تلك عبادتهم	عدي بن حاتم	٣/ ٤٦٨
تلك محض الإيمان	ابن مسعود	٣/ ٦١١
تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى	ابن عمر	٣/ ١٥٦
تمتعنا مع رسول الله ﷺ	جابر بن عبد الله	٥/ ٣٨٨
تنكح المرأة لأربع	جابر بن عبد الله	٣/ ٢٨٤
تنكح المرأة لأربع	أبو هريرة	١٧/ ٤٢٤
تهادوا تحابوا		٧/ ٩٣
تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وحر الصدر	أبو هريرة	١٦/ ١٧٩
التهلكة أن يذنب الرجل الذنب...	البراء بن عازب	٣/ ١٣٩
التهلكة عذاب الله	ابن عباس	٣/ ١٣٨
التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه	عمر بن الخطاب	٢٢/ ٤٥٧
التوبة هي الفاضحة	ابن عباس	١٠/ ٢٣٣
توبوا إلى الله واستغفروه	أبو هريرة	٣/ ٢٩٢
توضأ النبي ﷺ من مزادة مشركة	أبو هريرة	١٠/ ٣١٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي	عائشة	٣/ ٥٨٦
تُوفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله..	عائشة	١٥/ ٢٤٤
التي وهبت نفسها للنبي ﷺ: خولة بنت حكيم	عائشة	١٧/ ٤٠٢
التيمم ضربتان	جابر بن عبد الله	٧/ ١٩٨
ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد		٧/ ٥١٣
ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم..	معاذ	١٥/ ٤٢
ثكلته أمه! رجل قتل رجلًا متعمدًا	ابن عباس	٦/ ٢٤٦
ثلاثٌ إذا خرجن ﴿لا ينفع نفسًا غيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾	أبو هريرة	٨/ ٤٤٨
ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد	أبو هريرة	٣/ ٣٤٠
ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن	أبو هريرة	١٣/ ٧٩
ثلاثٌ لا يمنعن: الماء	أبو هريرة	٩/ ١٨٤
ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة	أبو هريرة	٥/ ٤٨٠
ثلاث لازمات لأمتي الطيرة والحسد وسوء الظن	حارثة بن النعمان	٥/ ٤٨٠
ثلاث ليال يمكثهن المهاجر بمكة بعد الصدر	العلاء الحضرمي	٦/ ٣٥٦
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان	ابن عباس	٢/ ٤٧٧
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان	أنس	١٦/ ٤٠
ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر	أبو هريرة	١٥/ ١٨٢
ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف	أبو هريرة	١٠/ ٣٨٨
ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر	أبو هريرة	٣/ ٨٧
ثلاثة لا يدخلون الجنة، أو حرم عليهم الجنة	عبد الله بن عمر	١٥/ ٣٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ...: شيخ زان	أبو هريرة	٦/ ٢٦٧
ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم	أبو ذر	٣/ ٥٠٩
ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة... أشيمط زان	سلمان	٧/ ٦١٣
ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ		٧/ ٥١٢
ثلاثة نفر، كان لأحدهم عشرة دنانير	أبو مالك الأشعري	٢٢/ ٤١٧
ثلاثة يضحك الله إليهم..	أبو سعيد الخدري	٢٢/ ٢٤٧
ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين	أبو موسى	٤/ ٤٠٣
ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير [الرسل]	أبو ذر	٣/ ٢٢٠
الثلث والثلث كثير	سعد بن أبي وقاص	٢٤/ ٥٢٥
ثم فتر الوحي عني فترة	جابر بن عبدالله	٢٣/ ٢٦٣
ثم قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني	صهيب	٢٤/ ١٧٦
ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٤٧٠
ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي	أبو هريرة	١٨/ ٥٤
ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل	أبو هريرة	١٨/ ١١٧
الثيِّب أحق بنفسها من وليها	ابن عباس	٣/ ٣٥٢
جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبيّ بن خلف، فأعرض عنه	أنس بن مالك	٢٤/ ٦٤
جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام فقال له النبي	طلحة بن عبيد الله	٢٤/ ٦١٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله		
جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: علمني عملًا يدخلني الجنة	البراء بن عازب	٢٤/ ٢٦٨
جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل..	ابن عباس	١٨/ ٢٥٠
جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ- فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟	عمر بن الخطاب	٢١/ ٣٩٨
جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفتني	أبو سلمة	٢٢/ ٤١١
جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ..	عبدالله بن بسر	١٧/ ٣٤٢
جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غُلب أصحابك اليوم	جابر بن عبد الله	٢٣/ ٢٧٥
جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن	الأسود بن هلال	٢٢/ ١٣٤
جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين آخذًا كل واحد بيده حتى دخل	واثلة بن الأسقع	١٧/ ٣١٦
جاء عمي من الرضاعة فاستأذن عليَّ فأبيت أن آذن له	عائشة	١٥/ ١٦٧
جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر..	أبو هريرة	٢١/ ٣٣٢
جاءت اليهود إلى النبي ﷺ، منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك..	ابن عباس	٢٤/ ٥٥١
جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها..	أنس بن مالك	١٧/ ٤٠١
جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي ﷺ	عائشة	٢٢/ ٢٣٠
جاءت فاطمة- رضي الله عنها- فرفعته عن ظهره [أي: سلا الجزور]	ابن مسعود	١٥/ ٣٠٨
جاءت مستترة بكم درعها، أو بكم قميصه	عمر بن الخطاب	١٦/ ٢٩٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الجار أحق بصقبه	أبو هريرة	٥/ ٥٣٦
جاورت بحراء، فلما قضيت جواري	جابر بن عبدالله	٢٣/ ٢٦٤
الجبت: السحر	عمر بن الخطاب	٦/ ١١
جبريل عدونا من الملائكة	عبد الله بن سلام	٢/ ٣١٦
جُرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته	سهل بن سعد	٤/ ٥٦١
الجرس مزامير الشيطان	أبو هريرة	١/ ٥٥
جعل ﷺ شهادته تعدل شهادة رجلين [خزيمة بن ثابت]	خزيمة بن ثابت	٢/ ٥٠١
جعل ﷺ لسلمة بن صخر صدقة بني زريق		١٠/ ٣٩١
جعل الله الرحمة مائة جزء	أبو هريرة	١/ ٧٠
جعل الله النبي والمؤمنين بالخيار	ابن عباس	١٠/ ٢٠٨
جعلت لنا الأرض كلها مسجدًا	حذيفة بن اليمان	٥/ ٦٠٤
جلد رسول الله ﷺ أربعين، وأبوبكر أربعين،	علي بن أبي طالب	٧/ ٦٥٢
جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ	علي	١٥/ ٣٢
جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء	أبو هريرة	١٨/ ٣٩٩
جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما	أبو موسى	٢٣/ ٣٠٧
جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين	أبو موسى الأشعري	٢٠/ ٧٣
جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما	عبد الله بن قيس	٤/ ٧٩
جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما	أبو موسى الأشعري	٢٠/ ٧٣
جهاد لا قتال فيه [الحج]	عائشة	٣/ ١٤٧
جهد مقل، أوسر إلى فقير [أفضل الصدقة]	أبو ذر	٦/ ٤٤٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
جئت رسول الله ﷺ فبايعته في نسوة من الأنصار	سلمى بنت قيس	٢٢/ ٢٣٣
الجيران ثلاثة: جار له حق واحد	جابر بن عبد الله	٥/ ٥٤٥
جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد	ربعي بن عامر	٢/ ٨٦
حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير	ابن عمر	٢٢/ ١١٢
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا	عمر بن الخطاب	١/ ١٧٣
حالًا بعد حال، في قوله [﴿لتركبن طبقًا عن طبق﴾]	ابن عباس	٢٤/ ١٦٠
حِب رسول الله ﷺ [أسامة بن زيد]	عائشة	٣/ ٤٥٠
حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب	أنس بن مالك	٤/ ٧١
حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء	عائشة	٥/ ٥٧١
حبسهم المرض	جابر بن عبد الله	١٠/ ٤٤٨
حبي له- يعني: النبي ﷺ- وبغضي لكم لا يمنعني من أن أعدل فيكم	عبد الله بن رواحة	٧/ ٢٢١
حتى إنه ليقتص في ذلك اليوم للشاة الجلحاء من الشاة القرناء	أبو هريرة	٢٤/ ١٦
حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتك	عائشة	١٧/ ٣٨٧
حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها	ابن عباس	١٥/ ١٤١
حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا	أبي بن كعب	١٥/ ١٤١
حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر	ابن مسعود	٢١/ ٢٨٨
حتى غاب ذلك منك فيها، كما يغيب المرود في المكحلة	أبو هريرة	١٥/ ٤٤
حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه	أبو هريرة	١٥/ ١٦٩
حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أن فلاناً قد أصابته جائحة	قبيصة بن مخارق	٢٠/ ٣٤٦
حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه [في قوله:	ابن عمر	٢٤/ ١٢٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾]		
الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة	أبو هريرة	٣/ ١٦٧
الحج عرفة	عبد الرحمن بن يعمر	٣/ ١٦٦
حجابه النور	أبو موسى الأشعري	٤/ ٥٨٢
حجوا الآن غير مشركين بالله	ابن عباس	١٤/ ٣٣٣
حجي واشترطي أنَّ محلي حيث حبستني	عائشة	٣/ ١٤٩
حد الساحر ضربة بالسيف	جندب الأزدي	٢/ ٣٤٧
حدثوا الناس بما يعرفون	علي بن أبي طالب	١٢/ ٣٢١
حديث البطاقة	عبد الله بن عمرو	٩/ ٢٦
حرثك، ائت حرثك أنى شئت	بهز بن حكيم	٣/ ٢٩٤
حرِّز عبادي إلى الطور	النواس بن سمعان	١٤/ ٢٤٢
حرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز	أبو هريرة	٢٢/ ١٤
حرمت الخمر ثلاث مرات	أبو هريرة	٧/ ٦٥١
حسبُك من نساء العالمين مريم ابنة عمران	أنس بن مالك	٤/ ١٩٢
«حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم- عليه السلام- حين ألقي في النار	ابن عباس	٤/ ٦٣٣
الحسنة بعشر أمثالها	ابن مسعود	٢/ ٢٩
الحسنى الجنة	أبي بن كعب	٢٤/ ٢٩٤
الحسنى بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم	صهيب	٢١/ ٥٧
حضرت عند رسول الله ﷺ، فمضت السُّنَّة في المتلاعنين أن يفرّق بينهما..	سهل بن سعد	١٥/ ٦٨
حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكى طويلًا	شماسة المهري	٢٤/ ١٦١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات	أنس بن مالك	٣/ ٢٣٣
حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكتتين	سمرة بن جندب	١/ ٣٠٠
حفظا بصلاح أبيهما	ابن عباس	١٣/ ٣٣٦
حق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا	معاذ بن جبل	٢/ ٢٢٤
حق الله على العباد أن يعبدوه	معاذ بن جبل	٢/ ٢٢٤
حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله	علي بن أبي طالب	٦/ ٤٦
حقها حلبها يوم وردها	أبو هريرة	٥/ ٥٤٧
حلفت أم سعد ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه	سعد بن أبي وقاص	١٦/ ٤٠٠
الحمد الله الذي أحيانا بعدما أماتنا	حذيفة بن اليمان	٤/ ٢٢٢
الحمد لله الّذي أطعمنا، وسقانا	أنس بن مالك	٨/ ٥١
الحمد لله الذي أنقذه من النار		٢/ ١٦٥
الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات		١/ ١٦٢
الحمد لله الذي جعلك في ميزاني	عمر بن عبد العزيز	٢/ ٥٦٧
الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة	ابن عباس	١/ ٥٦
الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس	علي بن أبي طالب	٩/ ٥٤
الحمد لله الذي صدق وعده	ابن عمر	٦/ ٢١٤
الحمد لله الذي هداك إلى الفطرة	أبو هريرة	١٣/ ٢٢
الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات	عائشة	٢/ ٣٩٩
الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله	معاذ بن جبل	٦/ ٥٢
الحمد لله الّذي يُطعِم ولا يُطعَم	أبو هريرة	٨/ ٥١
الحمد لله تملأ الميزان	أبو مالك الأشعري	١/ ١٦٣
الحمد لله رب العالمين: أم القرآن	أبو هريرة	١/ ١٣٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الحمد لله على كل حال	ابن عمر	٢٤/ ١٧٤
الحمد لله غير مودّعٍ	أبو هريرة	٨/ ٥١
حمدني عبدي	أبو هريرة	١/ ٨٦
حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه	أسلم أبو عمران	٣/ ١٣٥
الحمو الموت	عقبة بن عامر	٥/ ٣٤٥
الحنيفية السمحة [أحب الأديان للنبي]	ابن عباس	٨/ ٤٥٨
الخال وارث من لا وارث له	المقدام الكندي	١٠/ ٢٢٩
الخال وارث من لا وارث له	عمر بن الخطاب	١٧/ ٢٤٦
الخالة بمنزلة الأم	البراء بن عازب	٢/ ٤٦٢
خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين	أنس بن مالك	٩/ ٣٨٦
خذ من كل حالم دينارا	ابن عمر	٥/ ١٠١
خذ هذا فأفرغه على نفسك	عمران بن حصين	٧/ ١٨٨
خذ هذه، ولا تبع دارك		٢٢/ ٤٦٧
خذها، فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب	زيد بن خالد	٥/ ٤٥٤
خذوا عثكالًا فيه مئة شمراخ، ثم اضربوه ضربة واحدة	سعد بن عبادة	١٨/ ٤١٤
خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا	عبادة بن الصامت	٥/ ٢٣٩
خذوا ما حل ودعوا ما حرم		٢/ ٣٥٦
خذوها يا بني طلحة بأمانة الله	ابن عباس	٦/ ٢٨
خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة	شيبة بن عثمان بن أبي طلحة	٦/ ٢٨
خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف	عائشة	٥/ ٢٩٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه «مرْط مُرَحَّل» من شعر أسود	عائشة	١٧/ ٣١٧
خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟»	أبو هريرة	٢٤/ ٤٢٤
خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق..	المسور بن مخرمة	٢٠/ ٣٠٨
خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن	جابر بن عبد الله	٢١/ ٣٤٥
خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين	عبادة بن الصامت	٢٤/ ٣٦٦
خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق	ابن عباس	٦/ ٢٩٩
خرج علينا النبي ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات	بريدة	١٨/ ٨٦
خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا كالمودع، فقال: «أنا محمد النبي الأمي..	عبدالله بن عمرو	١٧/ ٣٧٤
خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم	عمر بن الخطاب	٢٣/ ١٤٠
خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها	عائشة	١٧/ ٤٧١
خرجت يومًا بمكة أتعرض رسول الله ﷺ	عمر بن الخطاب	٢٣/ ١١٣
خرجنا مع النبي ﷺ في سفر، أصاب الناس فيه شدة	زيد بن أرقم	٢٢/ ٣١٤
خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره... انقطع عقد لي	عائشة	٧/ ١٤٢
خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، في يوم حار	أبو الدرداء	٣/ ٩٣
خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين	ابن عمر	٦/ ٣٣٩
خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ	ابن عباس	٦/ ٤٩٠
خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط	ابن عباس	٢٢/ ٤٧١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا	ابن مسعود	١/ ٢٣٢
خطب النبي ﷺ لجليبيب امرأة من الأنصار من أبيها..	أنس	١٧/ ٣٥٢
خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه بعذري	أم هانئ	١٧/ ٣٩٨
خفف على داود عليه السلام القرآن	أبو هريرة	١٢/ ٨٣
الخلاف شر	ابن عباس	٤/ ٥٤٩
خلطتم عليَّ القرآن	عبد الله بن مسعود	١/ ٢٧٩
خلق آدم مما وصف لكم	عائشة	٢/ ١١٤
خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء	ابن عباس	١٩/ ٢٧٢
خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد	أبو هريرة	٢١/ ٤٩٠
خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم	أبو هريرة	٢٠/ ٢٥٣
خلق الله الملائكة من نور	عائشة	٦/ ٢٨٥
خلق الله سبع سموات غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٤٢٧
خلق الله عز وجل آدم على صورته	أبو هريرة	٦/ ١٦٣
خلق الله عزّ وجلّ التّربة يوم السّبت	أبو هريرة	٩/ ١٢٩
خلق الله عز وجل ألف أمّةٍ	عمر بن الخطاب	٨/ ١٠٦
خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ...	قتادة	٨/ ٢٦٠
خلقت المرأة من الرجل	ابن عباس	٥/ ٢٧
خلقت الملائكة من نور	عائشة	٢/ ١١٤
خمر إناءك واذكر اسم الله	جابر بن عبد الله	١/ ١٢٢
خمروا آنيتكم	جابر بن عبد الله	٣/ ٢٦٨
خمس صلوات في اليوم والليلة	طلحة بن عبيد الله	١٢/ ٤٤١
خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم	ابن عمر	٢/ ١٠٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية..	عائشة	١٥/ ٤٥
خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللِّزَام	ابن مسعود	٢٠/ ٩٨
خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى..	بريدة	١٧/ ١٥٦
خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا	أبو هريرة	١١/ ٣٤٦
خيّر ﷺ بين أن يكون رسولًا ملكًا	أبو هريرة	١٥/ ٣٨٨
خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه	عبد الله بن عمرو	٥/ ٥٣٧
خير التابعين رجل يقال له أويس	عمر بن الخطاب	٥/ ٤٨٩
خير الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح	أبو هريرة	٥/ ٢٧٩
خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول	أبو هريرة	١٥/ ١١٦
خير القرون قرني	عمران بن حصين	١٣/ ٤٨
خير الناس قرني	ابن مسعود	٣/ ٥٦٩
خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم	ابن مسعود	٢١/ ٦٠
خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل	أبو هريرة	٤/ ٤٠١
خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك	أبو هريرة	٥/ ٤٩٩
خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم	عمران بن حصين	٢٢/ ١٣٨
خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه	أبو هريرة	٢٤/ ٢٥٠
الخير كله بيديك	علي بن أبي طالب	٤/ ١٣٠
الخير كله بيديك والشر ليس إليك	على بن أبي طالب	١/ ٢٣٥
خير نساء ركبن الإبل نساء قريش	أبو هريرة	٤/ ١٩٣
خير نسائها مريم ابنة عمران	علي بن أبي طالب	٤/ ١٩٢
خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة	أبو هريرة	٢٢/ ٢٩٨
خيركم خيركم لأهله	عائشة	٥/ ٢٨٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
خيركم قرني ثمّ الّذين يلونهم	عمران بن حصين	٩/ ٣٤٣
خيركم من طال عمره وحسن عمله	عبد الله بن بسر	١١/ ٤٨٠
خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدَّها علينا شيئًا	عائشة	١٧/ ٢٩٤
خيرهما الذي يبدأ بالسلام	أبو أيوب الأنصاري	٦/ ١٦٥
الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن	ابن مسعود	١٠/ ١٨٢
الخيل لثلاثة لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر	أبو هريرة	٤/ ٧٤
الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة	عروة بن الجعد	٤/ ٧٤
الدال على الخير كفاعله	ابن مسعود	٦/ ٤٤٥
الدال على الخير كفاعله	أبو مسعود الأنصاري	٧/ ٤٢
دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء	الزبير بن العوام	٥/ ٤٣٦
دباغه طهوره	ابن عباس	٧/ ٧٦
دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصبًا	ابن مسعود	٧/ ٦٣
دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن	ابن عباس	٢٣/ ٢٧٠
دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية	أبو هريرة	٢٢/ ٤١٨
دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد	أبو سعيد الخدري	٢٢/ ١٧
دخل رسول الله ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل»؟	أنس بن مالك	٢١/ ١٠٢
دخل على رسول الله ﷺ- يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم	عائشة	٢٢/ ٥٠
دخل عليّ رسول الله ﷺ- مسرورًا تبرق أسارير وجهه	عائشة	٢٣/ ٣٣٥
دخلت عليّ خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص	عائشة	٢٢/ ١٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
السلمية		
دخلنا على عائشة- رضي الله عنها- وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرًا يشبب بأبيات له	مسروق	١٥/ ٨٣
درمكة بيضاء، مسك خالص	أبو سعيد الخدري	١٩/ ١٢٢
درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم، أشد من ست وثلاثين زنية	عبد الله بن حنظلة	٣/ ٥٤٤
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	الحسن بن علي	٢/ ١٥٩
دعا النبي ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين	أنس	٢٢/ ١٣٢
دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمّ وخصّ	أبو هريرة	٢٤/ ١١٧
دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر	ابن عباس	٢٤/ ٣٦٦
الدعاء هو العبادة	النعمان بن بشير	٦/ ٤٥٣
دعاة على أبواب جهنم..	حذيفة	١٦/ ٦٨
دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق	عمر بن الخطاب	١٠/ ٩١
دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير	عمران بن حصين	١٧/ ٤٣١
دعه فإن له أصحابًا يُحَقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم	أبو سعيد الخدري	٤/ ٥٩١
دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه	جابر بن عبد الله	١٠/ ١٨٥
دعه، فلا خير فيكم إن لم تقولوها لنا	عمر بن الخطاب	٣/ ١٩٨
دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده..	أنس	٢١/ ٥١١
دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى	خالد بن معدان	٢٢/ ٢٥٤
دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى	أبو أمامة	٢٢/ ٢٥٤
دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت	سعد بن أبي وقاص	١٤/ ٢٣٢
دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة	أم الدرداء	٢٠/ ٣٥٦
دعوه، فإن لصاحب الحق مقالًا	أبو هريرة	٥/ ١٩٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثِناه	سلمة بن الأكوع	٢٠/ ٣٠٨
دفع النبي ﷺ المفتاح إليَّ وإلى عثمان	شيبة بن عثمان بن أبي طلحة	٦/ ٢٨
دم عفراء أحب إلي من دم سوداوين	أبو هريرة	١٤/ ٣٣٦
الدنيا دار من لا دار له	عائشة	١٣/ ٦٠
الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر	أبو هريرة	٢/ ٣١١
الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة	أبو هريرة	٥/ ٤٩٩
الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة	ابن عمر	٣/ ٢٨٤
الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة	عائشة	٥/ ٦٣٠
دياركم تكتب آثاركم	جابر بن عبدالله	١٨/ ١٩٠
دية الكافر نصف دية المسلم	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٦/ ٢٢٥
دية المجوسي ثمانمائة درهم	عقبة بن عامر	٦/ ٢٢٦
دية شبه العمد ... مائة من الإبل	عبد الله بن عمرو	٦/ ٢٢٢
دَين الله أحق أن يقضى	ابن عباس	١/ ١٧٥
الدين النصيحة	تميم الداري	٤/ ٦٠٣
دينار أنفقته في سبيل الله	أبو هريرة	٣/ ٤٢
ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء	ابن عباس	٢١/ ٩٠
ذاك شيطان يقال له خِنْزَب	عثمان بن أبي العاص	١/ ٤٧
ذاك صريح الإيمان	أبو هريرة	٣/ ٦١١
ذاك عدو اليهود من الملائكة	عبد الله بن سلام	٢/ ٣١٦
ذاك محض الإيمان	أبو هريرة	٥/ ١٥٠
ذاك هو الله	الأقرع بن حابس	٢٠/ ٣٣٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ذكاة الأديم دباغه	سلمة بن المحبق	٧/ ٧٦
ذكاة الجنين ذكاة أمه		٧/ ٨٥
ذكر ﷺ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء	أبو هريرة	٣/ ٥٤٣
ذُكر لنا أن رجلًا أتى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، قحط المطر..	قتادة	١٩/ ٣٨٧
ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل..	عروة بن عامر	٢١/ ٣٥٨
ذكرت عند النبي ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: هل بلغك ما طوبى؟	ابن عمر	٢١/ ٤٢٤
ذكرك أخاك بما يكره	أبو هريرة	٦/ ٤٠٦
ذلك سعي الناس بينهما [الصفا والمروة]	ابن عباس	٢/ ٥٧٣
ذلك عاجل بشرى المؤمن	أبو ذر	٢١/ ٢٥٥
ذلك فضلي أوتيه من أشاء	ابن عمر	٣/ ٢٢٤
ذمة المسلمين واحدة	علي بن أبي طالب	٦/ ٢٠٧
ذهب أهل الدثور بالأجور	أبو ذر	٥/ ١١١
ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم	أبو هريرة	٢١/ ٦٩
الذهب بالذهب ... مثلا بمثل	أبو سعيد الخدري	٣/ ٥٣٨
الذهب بالذهب ... يدا بيد	عبادة بن الصامت	٣/ ٥٣٨
ذو العزة التي لا ترام	ابن عباس	٤/ ٤٥٩
ذو العظمة والكبرياء [في معنى قوله: ﴿ذو الجلال والإكرام﴾]	ابن عباس	٢١/ ٣٧٠
الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم	أنس بن مالك	١٣/ ١٩٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الذي لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا	ابن مسعود	١٤/ ٣٧٤
الذي يأكل ... في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم	أم سلمة	٣/ ٣٥
الّذي يعود في هبته كالكلب يعود في قيئه	ابن عباس	٩/ ٣٥٤
الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به	عائشة	٢٤/ ٦٩
الذي يوصي بالخمس أفضل من الذي يوصي بالربع	ابن عباس	٢٤/ ٥٢٦
الذين يقولون: إن الله على كل شيء قدير [في قوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾]	ابن عباس	٢١/ ٣٣٥
الراحمون يرحمهم الرحمن	عبد الله بن عمرو	١٣/ ٦٨
رأس الأمر الإسلام	معاذ بن جبل	٣/ ٣٩٤
رأس الحكمة مخافة الله	ابن مسعود	٣/ ٥١٩
رأس الماعون زكاة المال	عكرمة	٢٤/ ٤٨٦
رآه بفؤاده مرتين	ابن عباس	٢١/ ٢٢٣
رأى جبريل عليه السلام؛ [في معنى قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾]	أبو هريرة	٢١/ ٢١٩
رأى رسول الله ﷺ جبريل له ستمئة جناح	عبد الله بن مسعود	١٨/ ١٠٤
رأى رفرفًا أخضر قد سدّ الأفق	ابن مسعود	٢١/ ٢١٨
رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت	علي بن أبي طالب	١/ ١١٩
رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»	أبو ربيعة الديلي	٢٤/ ٥٣٥
رأيت النبي ﷺ يسترني، وأنا أنظر إلى الحبشة	عائشة	١٥/ ١٦٢
رأيت النبي ﷺ، وأكلت معه خبزًا ولحمًا	عبد الله بن سرجس	٢٠/ ٢٤٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
رأيت جبريل له ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت	ابن مسعود	٢١/ ٢١٩
رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن نافع	أنس بن مالك	١٤/ ١٣٠
رأيت رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون	عطاء بن يسار	٥/ ٥٩٤
رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه	سعد بن أبي وقاص	٤/ ٤٥٧
رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي..	عروة بن الزبير	١٩/ ١٧٧
رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ٣٠٢
رأيت عمر صلى بذي الحليفة ركعتين	أبو السمط	٦/ ٣٤٥
رأيت عمرو بن عامر بن لحي يجر قصبه في النار	أبو هريرة	٣/ ٤٧٤
رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلي أرض بها نخل	أبو موسى الأشعري	١٧/ ٢٥٩
رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران	ابن عباس	١٧/ ١٩٥
رأيت نورًا	أبو ذر	٢١/ ٢٢٢
رأيت يوم أُحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض	سعد بن أبي وقاص	٤/ ٥٦٠
رب أشعث أغبر ذي طمرين ... لو أقسم على الله لأبره	أنس بن مالك	٥/ ١٢٧
رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها	عائشة	٢٤/ ٢٨١
رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون	عبدالله بن مسعود	١٧/ ٤٩٧
ربّ اغفر لي وتب عليّ	ابن عمر	٩/ ٣٩٦
رب رجل جالس على أريكته	المقدام بن معد	٢٢/ ٣٦٧
رب رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن	المقدام بن معدي	٤/ ١٥٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
	كرب	
رب نخلة مدلاة، عروقها در وياقوت..	عبد الله بن مسعود	٢١/ ٥١٧
الربا سبعون حوباً	أبو هريرة	٣/ ٥٤٣
الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل	ابن مسعود	٣/ ٥٤٣
رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها	سهل بن سعد	٤/ ٧١٥
رباط يوم في سبيل الله خير من ألف ليلة..	عثمان بن عفان	٢٤/ ٣٦٣
رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه	عثمان بن عفان	٤/ ٧١٥
رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه	سلمان الفارسي	٤/ ٧١٥
ربط ﷺ على بطنه الحجر من شدة الجوع	جابر بن عبدالله	١٧/ ٢٥٨
ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة	عبد الله بن السائب	٣/ ١٨٢
ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض	أبو سعيد	٢٣/ ١٠
رجل تعلم العلم وعلَّمه [أول من تسعر عليهم النار]	أبو هريرة	٤/ ٢٨٧
الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها	عائشة	٦/ ٤٩٠
رجل كانت عنده أمة، فأدبها	أبو موسى الأشعري	٣/ ٢٨٣
رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري	أبو هريرة	١٧/ ٣٦٨
الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال	ابن عباس	٣/ ١١٧
رحم الله المحلقين	ابن عمر	٣/ ١٤٩
رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى	جابر	١٦/ ٢٩٣
رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى	أبو هريرة	١٣/ ٤٣٨
رحمة الله على موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر	عبدالله بن مسعود	١٧/ ٤٩٦
رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر لرأى من صاحبه العجب	أبي بن كعب	١٣/ ٣٣٢
رحمها الله، إن كانت لَعاقلة في إسلامها وشركها	قتادة	١٦/ ١٧٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
رخص رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثًا، ثم نهى عنها	سلمة بن الأكوع	٥/ ٣٨٨
رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم	جابر	٢٢/ ١١٣
رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل	سعد بن أبي وقاص	١٥/ ٢٠٤
ردفت رسول الله ﷺ يومًا	الشريد بن سويد	١٨/ ٢٤٠
ردوا السائل ولو بظلف محرق		٣/ ٤٩
الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر	ابن عباس	٨/ ٣٥٦
رسول الرجل إلى الرجل إذنه	أبو هريرة	١٥/ ١٥٣
رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء	أبو هريرة	٢٤/ ١٦٣
رضيت لنفسي بما رضي الله به لنفسه ورسوله	أبو بكر	٢٤/ ٥٢٦
رغم أنف ... من أدرك أبويه عند الكبر... فلم يدخل الجنة	أبو هريرة	٥/ ٥٤٣
رغم أنف رجل ذكرت عنده، فلم يصلِّ عليَّ	أبو هريرة	١٧/ ٤٤٩
الرفرف: المحابس [في قوله تعالى ﴿على رفرف﴾]	ابن عباس	٢١/ ٤٠١
رفع القلم عن ثلاث	عائشة	٤/ ٢٥٣
رفع القلم عن ثلاثة	علي بن أبي طالب	٢/ ١٦٦
الرفيقَ الأعلى	عائشة	١٦/ ٥٧
ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها	عائشة	٢١/ ٢٠١
الركعتان قبل الفجر	ابن عباس	٢١/ ٢٠١
ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة	ابن عباس	٤/ ٧٠١
ركعتين سنة رسول الله ﷺ	ابن عمر	٦/ ٣٣٩
رماه أهل الطائف بالحجارة حتى أدموا عقبيه	عائشة	١٥/ ٣٠٨
رميت بما رميت به، وأنا غافلة	عائشة	١٥/ ١٢٥
الروح ملك	ابن عباس	١٣/ ١٨٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
رؤيا الأنبياء وحي	عبيد بن عمير	١٠/ ١٣٨
رؤيا الأنبياء وحي	ابن عباس	١٨/ ٣١٦
الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله	أبو هريرة	١١/ ٣٥٠
الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر	أبو رزين	١١/ ٣٥٠
الرؤيا من الله	أبو قتادة	١/ ٤٨
الرؤية بالعين، وليس الخبر كالمعاينة	ابن عباس	٢٤/ ٤٢٣
زادك الله حرصًا ولا تعد	أبو بكرة	١/ ٢٦٤
زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا، فقال: «السلام عليكم ورحمة الله»	قيس بن سعد	١٥/ ١٤٤
زعم: كنية الكذب	ابن عمر	٢٢/ ٣٥٥
زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل	قتادة	٢٣/ ٢٧٠
زملوني زملوني	عائشة	٥/ ٥٠١
زنمة مثل زنمة الشاة [في معنى قوله: «عتل بعد ذلك زنيم»]	ابن عباس	٢٣/ ٧٨
زوجتكها بما معك من القرآن	سهل بن سعد	١٦/ ٢٩٨
زوجك وولدك أحق من تصدقت عليهم		٣/ ٢٤٠
زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات	أنس	١٧/ ٣٦٠
زينوا أصواتكم بالقرآن	البراء بن عازب	٢٣/ ٢٣٢
سابقت رسول الله ﷺ مرتين	عائشة	١١/ ٣٧٠
ساحران تظاهرا؛ يعنون: موسى وهارون	...	١٦/ ٣٢٨
الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله	أبو هريرة	٣/ ٤٣
الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله	أبو هريرة	٢٤/ ٤٨٣
سأل ﷺ أصحابه عن الشجرة التي تشبه المسلم، فقال لهم:	عبدالله بن عمر	١٦/ ٩٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
«هي النخلة»		
سأل النبي ﷺ جبريل بأن يراه في صورته	ابن عباس	٢١٦/٢١
سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء»	عائشة	١٢٨/١٦
سأل أنسًا المكاتبة، وكان كثير المال	...	١٨٩/١٥
سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ: متى الساعة؟	أبو هريرة	٣٢٣/١٩
سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر	عبادة بن الصامت	٣٦٧/٢٤
سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس	عائشة	٢٣٥/٢٣
سأل موسى عليه السلام ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟	المغيرة بن شعبة	١٨٥/١٧
سألت ابن عباس- يعني: عن سجدة «ص»- من أين سجدت؟	قتادة	٣٨٨/١٨
سألت ابن عباس: أيَّ الأجلين قضى موسى؟	سعيد بن جبير	٣٠٢/١٦
سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزِّبون القرآن؟	أوس بن حذيفة	٧/٢١
سألت ربّي ثلاثًا: سألته ألّا يهلك أمّتي بالغرق	سعد بن أبي وقاص	١٧١/٨
سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين؟	أبي بن كعب	٥٦٢/٢٤
سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ ..	أبو ذر	٢١٢/١٨
سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة	جرير بن عبدالله	١٥٧/١٥
سألت رسول الله ﷺ قلت: أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟	أبو ذر	٣٦٨/٢٤
سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب عند الله أكبر؟	عبدالله بن مسعود	٤٥١/١٥
سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني	حكيم بن حزام	٤٥٦/٢٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك أوصيك بتقوى الله	أبو سعيد الخدري	٢١/ ٥٩٤
سام: أبو العرب، وحام: أبو الحبش، ويافث: أبو الروم	سمرة	١٨/ ٣٠٣
سباب المسلم فسوق	ابن مسعود	٢/ ٤٤
سباب المسلم فسوق وقتاله كفر	عبد الله بن مسعود	٢٠/ ٣٥٨
سبحان الله، ماذا أُنْزِلَ الليلة من الفتنة؟	أم سلمة	٢/ ٣٣٠
سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله	النعمان بن بشير	١٧/ ٣٤٣
سبحانك اللهم ربنا وبحمدك	عائشة	١٥/ ٤٣٦
سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك	عمرو بن ميمون	٢١/ ١٩٩
سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك	أبو سعيد الخدري	١/ ١٧
سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك	عائشة	١/ ١٦٣
سبحانك وبلى [في قوله تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾]	قتادة	٢٣/ ٣١٦
سبحانك، فبلى [في قوله تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾]	ابن عباس	٢٣/ ٣١٦
سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله	أبو هريرة	٢/ ١٦٩
سبق المفردون	أبو هريرة	٢٢/ ٣٣٥
سبق درهم مائة ألف درهم		٣/ ٢٣٦
سبقت غضبي	أبو هريرة	١٩/ ١٣٩
ستر ما بين الجن وعورات بني آدم ... أن يقول: باسم الله	علي بن أبي طالب	١/ ١٢١
ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة	أبو هريرة	١/ ٢٠٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
سجد داود توبة، ونحن نسجدها شكرًا	ابن عباس	١٨/ ٣٨٧
سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة	أبو الدرداء	٩/ ٣٩٧
سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إذا السماء انشقت﴾و﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾»	أبو هريرة	٢٤/ ١٦٢
سجن المؤمن وجنة الكافر	أبو هريرة	٢١/ ٤٧١
سحر النبي ﷺ من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا	زيد بن أرقم	٢٤/ ٥٧٩
سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق	عائشة	٢/ ٣٣٠
سددوا وقاربوا وأبشروا	عائشة	٢٢/ ٣٧٨
السفر قطعة من العذاب	أبو هريرة	١٠/ ٣٧٥
سقطت قلادة لي بالبيداء	عائشة	٧/ ١٤٢
سكتتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم	سمرة بن جندب	١/ ٣٠٠
سكِّنوا ولا تنفروا	أنس بن مالك	٣/ ٨٥
السكينة، عليكم السكينة	ابن عباس	١٥/ ٤٤٦
السلام على من اتبع الهدى	أبو سفيان	٦/ ١٧٤
السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته	عبدالله بن مسعود	١٧/ ٤٤٨
سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور	كعب بن مالك	٢٣/ ٣٣٥
سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟	ابن عباس	٤/ ٣١٢
سمع الله لمن حمده	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٣٠
سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته	أسماء	١٥/ ٩٢
سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿ فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها	أبو هريرة	٢٤/ ٢٨١
سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿والتين والزيتون ﴾ في العشاء	البراء بن عازب	٢٤/ ٣٣٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور	جبير بن مطعم	٢١/ ١٥٧
سمعت رسول الله ﷺ إذا قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: آمين	علي بن أبي طالب	١/ ٣١٣
سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ.. والمشركون يستمعون: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾	أسماء بنت أبي بكر	٢١/ ٣٤٥
سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا»	عائشة	٢٤/ ١٥٥
سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان	عمر بن الخطاب	١٥/ ٣٦٧
سموا أنتم وكلوا	عائشة	٧/ ٨١
سموا عليه أنتم وكلوه	عائشة	٧/ ١٠١
سن رسول الله ﷺ الطواف بهما [الصفا والمروة]	عائشة	٢/ ٥٧١
سنة أبيكم إبراهيم	زيد بن أرقم	١٤/ ٣٤٢
السنة في الصلاة على الجنازة أن يقرأ في التكبيرة الأولى بأم القرآن	أبو أمامة	١/ ٣١٠
السوران حدود الله	النواس بن سمعان	١/ ١٩٨
سورة الأنفال سورة بدر	ابن عباس	١٠/ ٧
سورةٌ في القرآن، خاصمت عن صاحبها..	أنس	٢٣/ ٧
سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي	شداد بن أوس	٣/ ١٧٦
سيروا هذا جَمْدان، سبق المفردون	أبو هريرة	١٧/ ٣٤٠
سيكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور	عبد الله بن مغفل	٧/ ٥٨٤
سئل ابن عباس: كيف تفقد سليمان الهدهد بين الطير؟	عكرمة	١٦/ ١٦٤
سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟	أبو هريرة	٢٢/ ٢٤٧
سُئل حمزة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟	ارطأة بن المنذر	٢١/ ٣٩٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
سُئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله	أنس	٢١/ ٤٢٤
سئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ فقال: «يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة....	النعمان بن بشير	٢٤/ ٨٨
سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه	عبدالله بن مسعود	٢٣/ ٢٥٢
شاهت الوجوه	ابن عباس	١٠/ ١٠٠
الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة	أبو هريرة	٢٤/ ١٧٢
شج في وجهه، وكسرت رباعيته يوم أحد	أنس	١٥/ ٣٠٨
شجرة تشبه أو كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا، ﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾، النخلة	ابن عمر	٢١/ ٢٤
شر الكسب مهر البغي، وثمن الكلب	رافع بن خديج	١٥/ ٢٠٠
شر ما في رجل: شح هالع	أبو هريرة	٢٣/ ١٥٨
شرقوا أو غربوا	أبو أيوب الأنصاري	٢/ ٥١٩
شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر	علي بن أبي طالب	٣/ ٣٨٥
الشفاء في ثلاثة: شربة عسل	ابن عباس	١٢/ ٤٠٣
شكا إليه ابن أم مكتوم ضرارته		٦/ ٢٦٩
شكو إلى الله فاقتي		٢٢/ ١٣
شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا..	الزبير بن عدي	٢١/ ٤١٨
الشمس والقمر مكوران يوم القيامة	أبو هريرة	٢٤/ ٨٦
الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة	أبو هريرة	٢٤/ ٨٦
الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله	جابر بن عتيك	٦/ ٨٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
شهد ﷺ لعدد من الصحابة رضي الله عنهم بالجنة	عبد الرحمن بن عوف	٢٠/ ١٧٨
شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة	جابر بن عبد الله	٢/ ٥٠٤
الشهداء أربعة..	عمر	٢١/ ٥٤٥
الشهداء خمسة: المطعون...	أبو هريرة	٦/ ٨٢
شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ	ابن عباس	٢٢/ ٢٣٤
شهدت النبي ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم»	أبو تميمة	٢٤/ ٢٣٢
شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة	جابر بن عبدالله	١٧/ ٤٧٠
الشهر هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر مرتين	ابن عمر	٢٢/ ٣١
الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين	عبد الله بن عمرو	٦/ ٢٤٨
شيبتني هود وأخواتها	سهل بن سعد	١١/ ١٦٥
شيّبتني هودٌ والواقعة	ابن عباس	١١/ ١٦٥
الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة..	زر بن حبيش	١٧/ ٢٠٧
الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	صفية	١٧/ ٣٠٦
صاحب الوساد: ابن مسعود، وصاحب السر: حذيفة	أبو الدرداء	٢٤/ ٢٩٣
صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد	ابن عباس	٢٣/ ١٩٠
صبح ناس من أصحاب النبي ﷺ غداة أحد الخمر، فقتلوا من يومهم جميعًا	جابر بن عبد الله	٧/ ٦٣٠
الصبر ضياء	أبو مالك الأشعري	١/ ١٦٣
الصبر نصف الإيمان	ابن مسعود	١٢/ ٦٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة		٣/ ٤٦
صدق الله ورسوله: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾	بريدة	٢٢/ ٣٧٤
صدق سلمان	أبو جحيفة	١٦/ ٣٦٧
صدَّق عباده المؤمنين في إيمانهم به	ابن زيد	٢٢/ ١٧٢
صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده	ابن عمر	١٧/ ٢٧٩
الصدقة برهان	أبو مالك الأشعري	١/ ١٦٣
صدقة تصدق الله بها عليكم	عمر بن الخطاب	٦/ ٣١٦
الصدقة على المسكين صدقة	سلمان بن عامر	١٥/ ١١٥
صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة	ابن عباس	١٠/ ٣٧
صدقناه في خبر السماء	أبو بكر	٢/ ٥٠١
صديد أهل النار [طينة الخبال]	أسماء بنت السكن	١٢/ ١٤٨
صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه»	ابن عباس	١٨/ ٨٥
صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون- عليه السلام [في قوله: ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾]	ابن عباس	١٧/ ٤٩٥
الصعيد الطيب طهور المسلم	أبو ذر	٥/ ٥٨٤
صل ركعتين، وإن أقمت عشر سنين	ابن عباس	٦/ ٣٥٥
صل قائمًا	عمران بن حصين	٤/ ٦٨٨
صلاة الأوابين عندما ترمض الفصال	زيد بن الأرقم	١٣/ ٧١
صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة	ابن عمر	٢٢/ ٢٧٤
صلاة الجمعة ركعتان	عمر بن الخطاب	٦/ ٣٣٩
الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم	أم سلمة	٢٤/ ٢٣٣
الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم	علي بن أبي طالب	٣/ ٣٩٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
صلاة الليل [أفضل الصلاة]	أبو هريرة	١٣/ ١٧١
صلاة الوسطى صلاة العصر	سمرة بن جندب	٣/ ٣٨٥
الصلاة أول ما فرضت ركعتين	عائشة	٦/ ٣٣٨
الصلاة على وقتها [أفضل العمل]	ابن مسعود	٣/ ٣٨٥
الصلاة عليهما والاستغفار لهما [الوالِدان]	مالك بن ربيعة الساعدي	٢/ ٣٧٩
الصلاة عليهما، والاستغفار لهما [الأبوان]	مالك بن ربيعة الساعدي	٢/ ٣٦
صلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فيما سواه	جابر بن عبد الله	٧/ ٢٧٤
صلاة في مسجد قباء كعمرة	أسيد بن ظهير	١٠/ ٤٨٠
صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه	جابر بن عبد الله	٤/ ٣٥٠
الصلاة نور	أبو مالك الأشعري	١/ ١٦٣
الصلاة وما ملكت أيمانكم	أم سلمة	٢٣/ ١٣٠
الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالًا	عمرو بن عوف المزني	٦/ ٥٠٢
صلوا على صاحبكم	زيد بن خالد الجهني	٤/ ٦٠٧
صلوا كما رأيتموني أصلي	مالك بن الحويرث	١٤/ ٣١٢
الصلوات الخمس مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر	أبو هريرة	٣/ ٣٩٧
الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن	أبو هريرة	٢١/ ٢٥٠
صلى النبي ﷺ في بيته سبحة الضحى	أم هانئ	١٩/ ٢١٢
صلى بالذين معه ركعة		٦/ ٣٢٤
صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشيّ	أبو هريرة	٤/ ١٨١
صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح «سورة	عبد الله بن السائب	١٤/ ٤٣٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
المؤمنين»		
صلى بنا رسول الله ﷺ- صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل	زيد بن خالد الجهني	٢١/ ٤٦٥
صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر- يعني فرقتين-	أبو عياش الزرقي	٦/ ٣٢٠
صلى بنا رسول الله ﷺ فلم يسمعنا قراءة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	أنس بن مالك	١/ ١١٠
صلى بنا عثمان بن عفان- رضي الله عنه- بمنى أربع ركعات	عبد الله بن زيد	٦/ ٣٤٠
صلى رسول الله ﷺ بمكة إلى بيت المقدس	ابن عباس	٢/ ٥١٧
صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة	ابن عمر	٦/ ٣٧٣
صلى معاذ بن جبل الأنصاري لأصحابه العشاء، فطول عليهم	جابر	٢٤/ ٢٠١
صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطوّل..	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٢٣٩
صليت خلف ابن عباس- رضي الله عنهما- على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب	طلحة بن عبد الله	١/ ٣١٠
صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ:﴿فلا أقسم بالخنس* الجوار الكنس* والليل إذا عسعس* والصبح إذا تنفس﴾	عمرو بن حريث	٢٤/ ٨٥
صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان ... لا يذكرون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	أنس بن مالك	١/ ١٠٩
صليت خلف رسول الله ﷺ ... فلم أسمع أحدًا منهم يجهر بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	أنس بن مالك	١/ ١١٠
صليت خلف رسول الله فلما كبَّر رفع يديه أسفل أذنيه	وائل بن حجر	١/ ٣١٣
صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ:﴿ إذا السماء انشقت ﴾	أبو رافع	٢٤/ ١٦٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
فسجد		
صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة	حذيفة	٥/ ٩
صليت مع النبي ﷺ ركعتين	ابن عمر	٦/ ٣٤٠
صليت مع رسول الله ﷺ ... فلم أسمع أحدًا منهم يقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	أنس بن مالك	١/ ١١٠
صليت مع رسول الله ﷺ ... فلم يجهروا بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	أنس بن مالك	١/ ١١٠
صليت مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر بمنى ... ركعتين	حارثة بن وهب الخزاعي	٦/ ٣٤٠
صليت وراء أبي هريرة، فقرأ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾	نعيم بن المجمر	١/ ١٠٣
صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون ركعتين	ابن عباس	٦/ ٣٤٠
صم ثلاثة أيام	كعب بن عجرة	٣/ ١٥٢
صماماً واحداً	أم سلمة	٣/ ٢٩٣
الصمت حكمة وقليل فاعله	أنس	١٧/ ٥٠١
صنع رجل من الأنصار طعامًا فدعانا قال: فشربنا الخمر، حتى انتشينا	سعد بن أبي وقاص	٧/ ٦١٧
الصواعق عند اقتراب الساعة	أبو سعيد الخدري	١٢/ ٤٢
الصوم نصف الصبر	رجل من بني سليم	١٧/ ٣٣٦
صوموا كما أمركم الله	بشير بن الخصاصية	٣/ ١٠٧
صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته	ابن عمر	٣/ ١١٩
صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله	أبو قتادة	١٤/ ٣١٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه	جابر بن عبد الله	٧/ ٦٨٦
ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا	النواس بن سمعان	١/ ١٩٨
ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالًا	حذيفة بن اليمان	٢٢/ ١٨٨
ضع يدك على الذي يألم من جسدك	عثمان بن أبي العاص	١/ ٤٩
ضعه من حيث أخذته	سعد بن أبي وقاص	١٠/ ١٣
ضعوا عنهم من مكاتبتهم	ابن عباس	١٥/ ١٩٦
ضعوا هذه الآية في مكان كذا وكذا		١/ ١٥٤
طاشت السّجلّات، وثقلت البطاقة	عبد الله بن عمرو	٩/ ٢٦
طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده	ابن عمر	٢٠/ ٣٧٨
طعام طعم	أبو ذر	٤/ ٣٤٠
طعامه كل ما فيه [البحر]	أبو بكر الصديق	٧/ ٦٦٧
طعامه مالحه	ابن عباس	٧/ ٦٦٧
طعامه: ما لفظه ميتًا	أبو هريرة	٧/ ٥٦
طلب العلم فريضة على كل مسلم	أنس بن مالك	٢٣/ ٥٩
طلحة ممن قضى نحبه	معاوية بن أبي سفيان	١٧/ ٢٧٧
طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق	ابن عباس	٢٠/ ٩٩
طلق أيتهما شئت	فيروز	٥/ ٣٥٦
طلقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة	عمران بن حصين	٢٢/ ٣٩٨
الطهر من غير جماع	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٣٩٣
طهرني يا رسول الله	سليمان بن بريدة	١٥/ ١٩
الطهور شطر الإيمان	أبو مالك الأشعري	١/ ١٦٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
طوبى شجرة في الجنة	أبو سعيد الخدري	١٢/ ٧٦
طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله	أبو هريرة	٤/ ٧١٦
طوبى لمن هدي إلى الإسلام	فضالة بن عبيد	١٢/ ٤٥٧٠
الظلم ظلمات يوم القيامة	ابن عمر	١٦/ ١٣٣
ظننت أن بعضكم خالجنيها	عمران بن حصين	١/ ٢٧٨
ظنونًا مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا وأصحابه سيستأصلون	الحسن	١٧/ ٢٥٧
عاد ﷺ غلامًا يهوديًا كان يخدمه	أنس بن مالك	٥/ ٥٤٥
العافية عشرة أجزاء	عثمان بن أبي زائدة	٢٢/ ٤٤٢
عائشة وحفصة [﴿وإن تظاهرا عليه﴾]؟	عمر بن الخطاب	٢٢/ ٤٣٦، ٤٤٤
العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	٢٠/ ١٠٥
عبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم	أبو كبشة الأنماري	٣/ ٦١٢
عبد نور الله قلبه فالزم	الحارث بن مالك	٢١/ ٥٩٩
عجب ربنا من قنوط عباده	أبو رزين	٣/ ٢٩
عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير	صهيب	٢/ ١٤٢
عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له	صهيب الرومي	٢/ ٥٤٥
عجبت من قضاء الله للمؤمن	سعد بن أبي وقاص	١٨/ ٤٠
عجل هذا	فضيل بن عبادة	٤/ ٧٠٣
العجماء جرحها جبار	أبو هريرة	١٤/ ٢٢٣
عدة الأمة حيضتان	عمر بن الخطاب	٣/ ٣١٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا..	أبو أمامة	١٧/ ٣٧٥
عرج بي إلى السماء الثالثة	أنس بن مالك	١١/ ٣٨٦
عرشه على الماء	عبد الله بن عمرو	٩/ ٣٥٦
عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزًا كنزًا	عبد الله بن عباس	٢٤/ ٣١٤
عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا	أبو أمامة	١٥/ ٣٨٧
عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته حفصة رضي الله عنها لما تأيمت على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما	عبدالله بن عمر	١٦/ ٢٩٨
عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات	مجاهد	٤/ ٤٢
عرضت على النبي ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة	ابن عمر	٥/ ١٠٢
عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة	عطية القرظي	١٧/ ٢٨١
عرضت على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة	ابن عمر	١٥/ ٣٢١
عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرجل والرجلان	أبو هريرة	٧/ ٥٣٠
عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط	ابن عباس	١٨/ ١٠٧
عرضت علي الجنة والنار آنفًا	أنس بن مالك	٢/ ٨٩
عرضت عليه ﷺ الأمم، فرأى النبي ومعه الرهط	ابن عباس	١٨/ ٣٠١
عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة	عطية القرظي	٥/ ١٠٢
عرف الحق لأهله	الأسود بن سريع	٤/ ٤٩٥
العز إزاره، والكبرياء رداؤه	أبو سعيد	١٩/ ٢٧٥
العزة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته	أبو سعيد	١٧/ ٣٩٤
عسى من الله واجبة	ابن عباس	٣/ ٢٤٤
عشر [لمن قال: السلام عليكم]	عمران بن حصين	٦/ ١٧٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
العظمة إزاري والكبرياء ردائي	أبو هريرة	٣٧٠/٢١
عفا ﷺ عن المرأة التي سمت له الذراع يوم خيبر	جابر بن عبدالله	٤٠٦/١٩
عفا ﷺ عن غَوْرَث بن الحارث الذي اخترط سيفه	جابر	٤٠٦/١٩
عفا ﷺ عن لبيد بن الأعظم الذي سحره	عائشة	٤٠٦/١٩
عُفي لأُمتي عن الخطأ والنسيان	أبو ذر	٢٠٠/١٥
عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل	عمرو بن العاص	٤٤٧/١٦
العلم بالتعلم والحلم بالتحلم	...	٥٦٤/٢١
علِّموا رجالكم سُورة المائدة	مجاهد	٧/١٥
علِّموا نساءكم سورة النور	أبو عطية	٧/١٥
على الصراط [الناس]	عائشة	٢٠٩/١٢
على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره	عبد الله بن مسعود	٤٦٨/٣
على اليد ما أخذت حتى تؤديه	سمرة بن جندب	٥٧٦/٣
على جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله	جابر بن عبد الله	٧١/٢
على رِسلكما؛ إنها صفية	صفية	٤١٨/١١
على شيء قد فرغ منه يا عمر	عمر بن الخطاب	٣١٠/١١
على قدر أعمالهم يمرون على الصراط.. [في قوله تعالى ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾]	عبدالله بن مسعود	٥٢٣/٢١
على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم	جابر	٣٠١/٢٢
على كم تزوجتها؟	أبو هريرة	٣٠٤/٥
عليك بالصعيد فإنه يكفيك	عمران بن حصين	٦٠٥/٥
عليك وعلى أبيك السلام		١٧٨/٦
عليكم الإذن على أمهاتكم	عبد الله بن مسعود	١٤٧/١٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم	ابن مسعود	١٥/ ٣٣١
عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان	جابر بن عبد الله	٧/ ١٠٩
عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن	ابن مسعود	١٢/ ٤٠٤
عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر	عبدالله بن مسعود	١٧/ ٣٣٠
عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين	العرباض بن سارية	٢/ ٤٣٠
عليكم بما تطيقون	عائشة	٥/ ٤٣٢
عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض	ابن مسعود	٢١/ ٢١٨
عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة	قتادة	٦/ ٣٨٨
العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة	بريدة بن الحصيب	٢/ ١٦١
العوراء البين عورها [ما يتقى من الضحايا]	البراء بن عازب	٣/ ١٥٠
العين حق	أبو هريرة	١١/ ٤٣٧
العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين	ابن عباس	٢٣/ ١٠٥
عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله ...	ابن عباس	٤/ ٧١٦
غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد	عبد الله بن أبي أوفى	٣/ ٣٢
غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم	أبو سعيد الخدري	٢٢/ ٣٠١
غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد	أبو طلحة	٤/ ٥٦٥
الغضب على الغضب	عبد الله بن عباس	٢/ ٢٩٨
غط فخذك فإن فخذ الرجل من عورته	ابن عباس	١٥/ ٣٢٦
غط فخذك فإنها من العورة	جرهد الأسلمي	١٥/ ٣٢٥
غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟		٦/ ٤٦٩
الغناء، وأشباهه، أو ونحوه	ابن عباس	١٧/ ١٠٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
فاجتمعوا على طعامكم	وحشي بن حرب	١٥/ ٣٤٥
فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي	معاذ	٢٤/ ٢٢٤
فإذا الملك الذي جاءني بحراء	عائشة	٢٣/ ٢٦٣
فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس	أبو هريرة	٢٠/ ٢٤١
فإذا نبقها كأنه قلال هجر	أنس	٢١/ ٤٣١
فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك [في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة]	مالك بن صعصعة	٢٣/ ٢٨٠
فاطمة بضعة مني	عائشة	١٧/ ٣٠٣
فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا	جابر بن عبدالله	١٧/ ٢٨٧
فأعني على نفسك بكثرة السجود	ربيعة بن كعب	٤/ ٤١٩
فاقضه عنها [جوابًا: لسؤال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها نذر؟]	ابن عباس	٢١/ ٢٦٣
فالرجل راع ومسؤول عن رعيته	ابن عمر	٢٢/ ٤٥٣
فإن الله عز وجل يبث في ليله من خلقه ما يشاء	جابر بن عبد الله	٢٤/ ٥٦٨
فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم	عبدالله بن مسعود	١٥/ ٢٠٠
فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا	معاذ	١٥/ ٣١٠
فإن سألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله	بريدة بن الحصيب	٦/ ٤١٦
فإن فعلتم- أي: أكرهتموهن- (فإن الله) لهن (غفور رحيم)	ابن عباس	١٥/ ٢٠٠
فإن فيهم قرة عين وأجرا إذا قبضوا	الأشعث بن قيس	٢٢/ ٣٧٥
فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الآخر	كعب بن مالك	٧/ ٥٢٢
فأنزل الله هذه الآية [قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾]	أنس	١٧/ ٢٧٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم	أبو هريرة	٤/ ٣٥٦
فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم	ابن عباس	١٧/ ٢٣١
فإنه لايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله- عز وجل	أبو سعيد الخدري	٢٣/ ٢٨٢
فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته	ابن عباس	١٨/ ٥١
فإني أتوب في اليوم مائة مرة	ابن عمر	٢٠/ ٣٦٥
فأوحي إلى أنكم تفتنون في قبوركم	أسماء بنت أبي بكر	١٩/ ٢٠٥
فأيكم يملك إربه، كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه	عائشة	١٥/ ١٧٠
فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء	جابر بن عبدالله	٢٣/ ٢٦٣
فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا	أبو هريرة	١٣/ ٣٥٥
فتح أول الخلق بـ﴿الحمد لله﴾	قتادة	١٩/ ١٢٣
الفتنة الشرك	أحمد بن حنبل	٣/ ١٣٠
فحج آدم موسى مرتين	أبو هريرة	٢١/ ٣٣٧
فخمرت وجهي بجلبابي	عائشة	١٧/ ٤٣٣
فخمرت وجهي وكان قد رآني قبل الحجاب	عائشة	١٧/ ٤٦٧
فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري	أنس بن مالك	١٣/ ٢١
فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً	ابن عباس	٣/ ٣٨٩
فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور	أنس بن مالك	٢١/ ١٦١
فسر النبي ﷺ «الحسنى» بالجنة	أبو موسى	٢١/ ٣٤١
فسر قوله: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ بالوجه والكفين [ابن عباس]	ابن عباس	١٧/ ٤٧٢
الفشل: الجبن	ابن عباس	٤/ ٥٤٨
فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر	عمرو بن العاص	٣/ ١٠٦
فصلوا أيها الناس في بيوتكم	زيد بن ثابت	١٧/ ٣٢١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
فصم عنها [جوابًا: لسؤال: يا رسول الله إن أمي توفيت وعليها صيام؟]	ابن عباس	٢١/ ٢٦٢
فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب	أبو الدرداء	٧/ ١١٠
فُضِّلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم	أبو هريرة	١٧/ ٣٧٣
فُضِّلنا على الناس بثلاث	حذيفة	١٨/ ٢٦٧
فطفت ورسول الله ﷺ إلى جنب البيت	أم سلمة	٢١/ ١٥٧
فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة	ابن مسعود	٢١/ ٢٨٨
الفقر والغنى مطيتان	ابن مسعود	١١/ ١٨٥
فقرأ أبو عبيدة: ﴿نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾	أبو موسى	١٦/ ١٤٨
فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به أو فيما نقول بألسنتنا؟	معاذ بن جبل	٢٤/ ٦١٥
فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٣٥
فلا أدري أجوزي بصعقة الصور أم أفاق قبلي	أبو سعيد الخدري	١٦/ ٢٤٧
فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك	أبو هريرة	٧/ ٥٢١
فلا تكلني إلى نفسي، طرفة عين	أبو بكرة	١٦/ ١٨٣
فلان الراعي [أبوه]	أبو هريرة	٥/ ٣٥٥
فلم يلحق بربه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك	العرباض بن سارية	٢٤/ ٢٩٨
فلو لم يكن بنو تغلب من النصارى إلا بتوليهم إياهم لأكلت ذبائحهم	ابن عباس	٧/ ١٣٠
فما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر	عائشة	١٩/ ٢٠٥
فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه.	أم سلمة	٢٤/ ٥٢٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية- حتى يستفهمه	ابن الزبير	٢٠/ ٣٣٣
فمن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله	ابن عمر	٢٠/ ٣٦٩
فمن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه	أبو هريرة	٢٠/ ٣٧٧
فمن رأى شيئًا يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثًا	أبو قتادة	١٩/ ٣٠٢
فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة	ابن عباس	٢٤/ ١١١
فمن وفَّى فأجره على الله	عبادة بن الصامت	٨/ ٤١٨
فهذا يوم القيامة [في معنى قوله تعالى ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾]	ابن عباس	٢٣/ ١٤٩
فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره [في قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة﴾]	أبي بن كعب	١٥/ ٢١٤
فهؤلاء رجال أسلموا من مكة	ابن عباس	٢٢/ ٣٧١
فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع..	أبو هريرة	٢٤/ ٣٢٩
فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر ... لخضناه معك	سعد بن معاذ	٧/ ٢٩٠
فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم	عمرو بن عوف	٢١/ ٢٤٣
فوالله، ما الفقر أخشى عليكم	عمرو بن عوف	١٨/ ١١٤
في أصحابي اثنا عشر منافقًا...	حذيفة	٢٠/ ٢٦٣
في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب	ابن عباس	٨/ ٤١٨
في الجنة ثمانية أبواب	سهل بن سعد	١٩/ ١١٩
في الحرام يمين تكفر	ابن عباس	٢٢/ ٤٤٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
في بضع أحدكم صدقة	أبو ذر	٢/ ٨١
في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر	أبو بكرة	٢٤/ ٣٦٧
في كل صلاة يقرأ	أبو هريرة	١/ ١٣٦
في كل كبد رطبة أجر	أبو هريرة	١٤/ ٢٥٢
فيَّ- والله- وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة	خولة بنت ثعلبة	٢٢/ ١٠
فيأتيه أحدهم فيقول: ما زلت بفلان، حتى شرب الخمر..	جابر	١٧/ ٣٥٧
فياضتان [في تفسير قوله تعالى ﴿فيهما عينا نضاختان ﴾]	ابن عباس	٢١/ ٣٩٧
فيبقى شرار الناس في خفة الطير..	عبدالله بن عمر	١٦/ ٢٤٧
فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين	أنس	٢١/ ٣٧٦
فيقول: يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك	أبو هريرة	١٨/ ٢٣٧
فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه	بلال بن الحارث	١٥/ ٤٢
فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾؟	عمر بن الخطاب	٣/ ٥٠٥
فيها ما لا عين رأت	أبو هريرة	٢/ ٩٢
فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت	سهل بن سعد السعدي	٢١/ ٤١٨
قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه	جابر بن عبد الله	٧/ ٧٤
قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله	ابن عمر	١٠/ ١٢٢
قاتلنا حتى لم تكن فتنة	ابن عمر	٣/ ١٣٠
قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدًا	ابن عباس	٧/ ٦٥
قاتلوا من كفر بالله		٣/ ١٢٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
قال الله عز وجل: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة	أبو هريرة	٣/ ٣٦١
قال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه	أبو هريرة	٢٢/ ٢٩٠
قال آدم: يا رب، أرأيت إن تبت واستغفرت؟	قتادة	٩/ ٤٨
قال العباس: فيَّ نزلت: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾	ابن عباس	١٠/ ٢١١
قال الله ﷻ: أنفق أنفق عليك	أبو هريرة	٢/ ٣٧
قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر	أبو هريرة	٢٠/ ٣٣٦
قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك	أبو هريرة	١/ ١٨٣
قال الله تبارك وتعالى: أنا الله، وأنا الرحم	عبد الرحمن بن عوف	٢٠/ ٢٥٨
قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين	أبو هريرة	١/ ٨٥
قال الله عز وجل: ابن آدم، أنى تعجزني...	جبير بن نفير	٢٤/ ١٠٩
قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى [لما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾]	أنس	٢٣/ ٢٨٩
قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك	أبو هريرة	٢١/ ٥٠٩
قال الله- عز وجل: تجوّزوا عنه [من ينظر المعسر]	حذيفة بن اليمان	٣/ ٥٥١
قال الله عز وجل: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك	أبو هريرة	١٧/ ٤٥٢
قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت	أبو هريرة	١٧/ ٢٩٢
قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك	ابن عباس	٢/ ٤٠٠
قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني	أبو هريرة	١٧/ ٤١
قال الله: نعم	أبو هريرة	٣/ ٦٠٤
قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم	أنس بن مالك	٢٢/ ١٣٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان: أعل هبل، أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟»	البراء بن عازب	٢٤/ ٢٠٤
قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت	جابر	٢٤/ ١٥٤
قال ذلك أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم	قتادة	١٧/ ٢٥٩
قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها	قتادة	١٥/ ١٤٩
قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته..	أبو هريرة	٢٣/ ٢٥٣
قال لرسول الله ﷺ: هل عندنا مما في صحف إبراهيم؟، فقال ﷺ: «نعم»	أبو ذر	٢٤/ ٢١٦
قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل	أبو هريرة	٢٢/ ١٣٢
قالت اليهود- عليهم لعائن الله- خلق الله السموات والأرض في ستة أيام	قتادة	٢١/ ٦٥
قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك	ابن عباس	٨/ ٢٨٨
قام ﷺ حتى تفطرت قدماه	عائشة	٢١/ ٦٨
قام النبي ﷺ وقام ناس معه فكبر وكبروا معه	ابن عباس	٦/ ٣٧٤
قام رسول الله ﷺ يومًا يصلي، فخطر خطرة	ابن عباس	١٧/ ٢٢٤
قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا بماء يدعى خُمًّا- بين مكة والمدينة	زيد بن أرقم	١٧/ ٣١٧
قتل زوج سبيعة الأسلمية، وهي حبلى	أم سلمة	٢٢/ ٤١٠
قد اتخذ الله- عز وجل- صاحبكم خليلًا	ابن مسعود	٦/ ٤٧٧
قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين	عمر بن الخطاب	٤/ ٤٤١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ	أم هانئ	٤/ ٤٠٩
قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن	عائشة	١٧/ ٣١١
قد أردت منك أهون من ذلك	أنس بن مالك	٤/ ٣٢٠
قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا	عبد الله بن عمرو	١٢/ ٤٥٦
قد أنزل الله القرآن فيكَ وفي صاحبتِكَ	سهل بن سعد	١٥/ ٦٠
قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر	ابن مسعود	٤/ ٥٩١
قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك	أبو هريرة	٢٤/ ٣٦٣
قد زوجتكها بما معك من القرآن	سهل بن سعد	٥/ ٩٤
قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه	عمر بن الخطاب	٧/ ٦٨
قد علمت أنه رجل كبير	عائشة	٥/ ٣٤٢
قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء	أبو هريرة	٤/ ٤٨٩
قد فعلت [في قوله تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾]	ابن عباس	١٧/ ٢٣٣
قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه	ابن عباس	٢١/ ٢٨٨
قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم فقال: «أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟	إبراهيم النخعي	٢٤/ ٢٩٢
قدم رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت سبعاً	ابن عمر	٢/ ٤٣٠
قدم على النبي ﷺ نفر من عُكْلٍ فأسلموا ... فارتدوا وقتلوا رعاتها	أنس بن مالك	٧/ ٣١٢
قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُنْبَتر من قومه؟	ابن عباس	٢٤/ ٤٩٢
قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا	ابن عباس	٢٤/ ١٢٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام	الحارث بن أبي ضرار	٢٠/ ٣٤٢
قدمت عير المدينة ورسول الله ﷺ يخطب	جابر بن عبد الله	٢٢/ ٣٠٦
قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مئة	سلمة بن الأكوع	٢٠/ ٢٨٨
قدموني قدموني	أبو سعيد الخدري	٢١/ ٤٧١
قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة «سورة الفتح» فرجّع فيها	عبد الله بن مغفل	٢٠/ ٢٧٥
قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟»	أبو هريرة	٢٤/ ٣٩١
قرأ سورة النمل فلما وصل آية السجدة	عمر بن الخطاب	٢٤/ ١٦٢
قرأ عمر بن الخطاب:﴿عبس وتولى﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وفاكهة وأبًّا﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟	أنس بن مالك	٢٤/ ٧٦
قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف	عائشة	٩/ ٧
قرأت على النبي ﷺ «فهل من مُذَّكر»	ابن مسعود	٢١/ ٣٠٤
القرآن حجة لك أو عليك	أبو مالك الأشعري	١/ ١٦٣
قرصت نبيًّا من الأنبياء نملة..	أبو هريرة	١٦/ ١٦١
قرن ينفخ فيه [الصور]	عبد الله بن عمرو	٨/ ١٩٠
القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة	سليمان بن بريدة	١٤/ ٢١٦
قضى أن دية المرأة على عاقلتها	أبو هريرة	٦/ ٢١٨
قضى أن دية جنينها غرة	أبو هريرة	٦/ ٢١٨
قضى رسول الله ﷺ أن ميراثها لزوجها	أبو هريرة	٦/ ٢١٨
قضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار	محيصة	١٤/ ٢١٢
قطع رسول الله ﷺ يد رجل في مجن قيمته دينار	ابن عباس	٧/ ٣٥٤
قطع سارقًا في مجن قيمته ثلاثة دراهم	ابن عمر	٧/ ٣٥٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
قعدنا نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا	عبد الله بن سلام	٢٢/ ٢٤٣
قل: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء	معاذ بن عبد الله بن خبيب	٢٤/ ٥٤٨
قل: السلام عليكم، أأدخل؟	ربعي	٦/ ١٧٢
قل: اللهم إني أسألك الهدى والسداد	علي بن أبي طالب	٢٢/ ٢٦١
قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا	أبو بكر الصديق	٤/ ٤٤
قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة	أبو هريرة	١/ ٥٠
قل: آمنت بالله ثم استقم	سفيان بن عبد الله الثقفي	٣/ ٣٩٨
قل: آمنت بالله، ثم استقم	سفيان بن عبدالله الثقفي	١٩/ ٢٦٣
قل: باسم الله ثلاثا	عثمان بن أبي العاص	١/ ٤٩
قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر	عبد الله بن أبي أوفى	١/ ٢٦٢
قل: سورة بني النضير	سعيد بن جبير	٢٢/ ١٠١
قل: قدر الله وما شاء فعل	أبو هريرة	٤/ ٥٨٥
قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير	سعد بن أبي وقاص	٢١/ ٢٣٠
قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة	أبو هريرة	١٦/ ٣٣٨
قل: ما شاء الله وحده	ابن عباس	٤/ ١٤٩
قلب ابن آدم على أُصبعين من أصابع الجبار- عز وجل-	عبد الله بن عمرو	٤/ ٤٤
قلت لابن عباس: «سورة الحشر». قال: «نزلت..	سعيد بن جبير	٢٢/ ١٠١
قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذْكَر في القرآن كما يُذْكَر الرجال؟	أم سلمة	١٧/ ٣٢٧
قلت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟	عائشة	٢٤/ ٣٦٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها	قتادة	٢٠/ ٢٥
قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك [اللهم فاطر السموات والأرض...]	أبو هريرة	١/ ٥٠
القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض	عبد الله بن عمرو	٣/ ٩١
قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات..	حذيفة	١٨/ ٢٥٤
قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة	عوف بن مالك	١٨/ ٢٥٥
قولك حق ووعدك حق	ابن عباس	٨/ ١٩٠
قوله: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ قال: خيام اللؤلؤ	ابن عباس	٢١/ ٤٠٠
قولوا عبد الله ورسوله		٢/ ٨٦
قولوا: الله أعلى وأجل	البراء بن عازب	٤/ ٥٥١
قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم	البراء بن عازب	٣/ ٦٠٨
قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم	أبو موسى الأشعري	٢٤/ ٤٨٦
قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا	ربيعة بن عباد الديلي	١٨/ ٣٦٥
القوم ألف	علي بن أبي طالب	٤/ ٦٢
القوم ما بين التسعمائة إلى الألف	عروة بن الزبير	٤/ ٦٣
قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض	أنس بن مالك	٦/ ١٥٤
قوموا إلى سيدكم	أبو سعيد الخدري	٢٢/ ٦٢
قوموا فانحروا واحلقوا	المسور بن مخرمة، مروان بن الحكم	٣/ ١٤٩
قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن	عمرو بن سعيد	١٥/ ١٤٣
قيل لأبي بكر رضي الله عنه وهو في مرض الموت: «ألا ندعو	...	٢٤/ ١٨٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لك الطبيب؟		
قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا	أبو هريرة	٢/ ٢٠٧
قيل لي أنت منهم	ابن مسعود	٧/ ٦٣٠
قيل لي، فقلت [المعوذتان]	أبي بن كعب	٨/ ٣٩٥
كاد قلبي أن يطير	جبير بن مطعم	٢١/ ١٨٩
كافل اليتيم أنا وهو كهاتين في الجنة	أبو هريرة	٦/ ٤٨٨
كان ﷺ أتقى الناس لربه، وأخشاهم لله	عمر بن أبي سلمة	١٨/ ١٤٤
كان ﷺ إذا خطب كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم	جابر	١٧/ ٣٨٢
كان ﷺ لا يرد سائلاً	سهل بن سعد	٣/ ٤٨
كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة، لا يوقد في بيته نار	عائشة	٢١/ ٣٥٦
كان ﷺ يوم بدر يصلي في العريش		٢/ ١٧٢
كان أبغض الحديث إليه- تعني: الشعر..	عائشة	١٨/ ٢٤٠
كان أبو برزة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود	ابن عباس	٦/ ٦٥
كان أبوبكر أمير الشاكرين	علي بن أبي طالب	٤/ ٥٢١
كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ، فزجره عقبة بن أبي معيط	ابن عباس	١٥/ ٤٠٤
كان أحدهم يقامر بأهله وماله	ابن عباس	٧/ ٦٢٠
كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة	علي بن أبي طالب	٢٤/ ٥٢٧
كان إذا دخل المسجد قال: أعوذ بالله العظيم	عبد الله بن عمرو	١/ ١٩
كان إذا عمل عملًا أثبته	عائشة	٩/ ٣٧٣
كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاث مئة	عبد الله بن أبي أوفى	٢٠/ ٢٨٩
كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن	البراء بن عازب	٣/ ١٠٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يفطر لم يأكل إلى مثلها		
كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة	عبد الله بن شقيق	١٠/ ٢٦١
كان أكثر دعاء النبي ﷺ: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة	أنس بن مالك	٣/ ١٨١
كان الجن يستمعون الوحي	ابن عباس	٢٣/ ٢٠٦
كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي حرمت عليه	ابن عباس	٢٢/ ٢٢
كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض حفرة..	خباب بن الأرت	١٦/ ٣٩٥
كان الرجل يجامع زوجته فيستحيي	ابن عباس	١١/ ١٧٣
كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات مع رسول الله ﷺ	عائشة	١٧/ ٤٦٦
كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر، لا عقب له	يزيد بن رومان	٢٤/ ٤٩٢
كان الفضل رديف النبي ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم	ابن عباس	١٧/ ٤٦٩
كان الله ولم يكن شيء غيره	عمران بن حصين	١٤/ ٢٥٠
كان المسلمون يوعبون في النفير مع رسول الله ﷺ	عائشة	١٥/ ٣٣٩
كان المن ينزل عليهم على الأشجار	ابن عباس	٢/ ١٩٨
كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري	ابن عباس	١٠/ ٢١٩
كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم	ابن عباس	١٥/ ٣٢٦
كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير	أبي بن كعب	١/ ١٤٧
كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر	حذيفة	٢٢/ ١٣٨
كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه، وهي حائض،	ميمونة بنت الحارث	٣/ ٢٩٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
أمرها فاتزرت		
كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم بك أحيا وأموت	حذيفة	٢٤/ ٧٣
كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة	حذيفة	٢٤/ ١٣٤
كان النبي ﷺ إذا خرج ثلاثة أميال صلى ركعتين	أنس بن مالك	٦/ ٣٤٥
كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء	ابن عباس	٢/ ٥١٦
كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها	أبو سعيد	١٧/ ٤٠٠
كان النبي ﷺ جالسًا وحياله جحر	أنس	٢٢/ ٤١٨
كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم	ابن عباس	١/ ٨٥
كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل	عائشة	١٩/ ٧
كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين	أسامة بن زيد	٢/ ٣٧٧
كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين	ابن عباس	١/ ٥٠
كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم	عائشة	١٥/ ١٧٠
كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ﴿الم * تنزيل﴾ السجدة..	أبو هريرة	٢٣/ ٣٢١
كان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر بفاتحة الكتاب	أبو قتادة	١/ ١٣٤
كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾	ابن عباس	٢٤/ ٥٠٠
كان النبي ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر: «﴿الم* تنزيل﴾..	أبو هريرة	١٧/ ١٦٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كان النبي ﷺ يقطع قراءته تقطيعًا	أم سلمة	١/ ١٠٥
كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك ربنا	عائشة	٤/ ٦١٢
كان النّبيّ يبعث إلى قومه	جابر بن عبد الله	٩/ ٣١٨
كان النداء يوم الجمعة..	السائب بن يزيد	٢٢/ ٢٩٩
كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب	ابن عباس	٥/ ٣١٠
كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون	ابن عباس	٣/ ١٦٨
كان أول ما نسخ الله- عز وجل- من القرآن القبلة	ابن عباس	٢/ ٤٩٢
كان حُيَيٌّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً	ابن عباس	٢/ ٣٧٤
كان خلق رسول الله ﷺ القرآن	عائشة	١٤/ ٤٤٤
كان خُلُقُه القرآن	عائشة	٢٠/ ٣٠٠
كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض	سهل بن سعد	٣/ ١٠٤
كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك	ابن عباس	٤/ ٣١٢
كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ﴿قل هو الله أحد﴾	أنس بن مالك	٢٤/ ٥٤٦
كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ ؟ قال: سبحانك، فبلى	موسى بن أبي عائشة	٢٣/ ٣١٦
كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا	أنس بن مالك	٩/ ٣٨٦
كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا	البراء بن عازب	٢٣/ ٦٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه	عبد الله بن بسر	١٥/ ١٤٦
كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفرًا أقرع بين نسائه	عائشة	١٥/ ٧٧
كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر تمثل فيه بيت طرفة..	عائشة	١٨/ ٢٣٩
كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا	ثوبان	٢١/ ١٠٣
كان رسول الله ﷺ إذا تلكم بكلمة أعادها ثلاثًا	أنس بن مالك	٦/ ١٦٧
كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى	حذيفة بن اليمان	٢/ ١٧٢
كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله	عائشة	٢٤/ ٣٦٨
كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام..	أبي بن كعب	٢٤/ ٤١
كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «سمع الله لمن حمده..	أبو سعيد	١٨/ ١٠٥
كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه	كعب بن مالك	٢/ ٩٠
كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام..	عائشة	٢١/ ٤٠٣
كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كَبَّر	أبو سعيد الخدري	١/ ١٧
كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿ونفس وما سواها* فألهمها فجورها وتقواها﴾ وقف..	ابن عباس	٢٤/ ٢٨١
كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة	ابن عباس	٢٣/ ٣٠٣
كان رسول الله ﷺ إذا نهض من الركعة الثانية استفتح القراءة بالحمد	أبو هريرة	١/ ٤٣
كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا	عائشة	٢٤/ ٥٨٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يأتيهن..		
كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده	أم سلمة	٢٤/ ٥١٦
كان رسول الله ﷺ قبل نزول هذه السورة وسورة الناس يتعوذن الجان	أبو سعيد	٢٤/ ٥٦٠
كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه	عائشة	١٥/ ٣٢٥
كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف	عبدالله بن عمر	١٨/ ٢٦٣
كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير	جابر بن عبد الله	١٢/ ٢٧٢
كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس	أبو سعيد	٢٣/ ١٠٥
كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري	عائشة	٣/ ٢٩٠
كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره.	عائشة	٢٤/ ٣٦٨
كان رسول الله ﷺ يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم	أنس بن مالك	١/ ١٠٦
كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾	علي بن أبي طالب	٢٤/ ٢٠١
كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله	عائشة	٢/ ٣٣٠
كان رسول الله ﷺ يدني إليَّ رأسه، وهو معتكف	عائشة	٣/ ١٠٨
كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟	ابن عباس	٢٤/ ٣٥٣
كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر	عائشة	١٣/ ٧
كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدة	ابن عباس	٢٣/ ٣٠٣
كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى	عائشة	٢٤/ ٣٦٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
توفاه الله عز وجل		
كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان.	ابن عمر	٢٤/ ٣٦٩
كان رسول الله ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان	عائشة	٣/ ١٠٩
كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين	ابن عباس	٢٣/ ١٠٥
كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير	عائشة	١/ ٨٨
كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتلها	حفصة	٢٣/ ٢٣٢
كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر: ﴿والليل إذا يغشى ﴾	جابر بن سمرة	٢٤/ ٢٩١
كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر الواقعة	جابر بن سمرة	٢١/ ٤٠٩
كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾	ابن عباس	٢٤/ ٢٠٢
كان رسول الله ﷺ يقطعٌ قراءته آية آية	أم سلمة	٢٣/ ٢٣٢
كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»	عائشة	٢٤/ ٥١٥
كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول «سبحان الله وبحمده	عائشة	٢٤/ ٥١٦
كان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة مكتوبة	عبد الله بن الزبير	٦/ ٣٧٩
كان رسول الله ﷺ: إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا	ثوبان	٢١/ ٧٠
كان رسول الله يأمرنا إذا كنا سفرًا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة	صفوان بن عسال	٧/ ١٤٥
كان زكريا نجارًا	أبو هريرة	١٣/ ٣٨٣
كان صداق النبي ﷺ لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشًا	عائشة	٥/ ٣٠٥
كان عبد الله إذا جاء من حاجة	عبدالله بن مسعود	١٥/ ٣٣٢
كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح..	زينب	١٥/ ١٤٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم	أبو عبيدة	١٥/ ١٤٧
كان عبد الله- يعني ابن مسعود- يذكِّر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم	أبو وائل	٢٤/ ٢٠٩
كان عثمان بن مظعون وأناس من المسلمين حرموا عليهم النساء	أبو مالك	٧/ ٥٨١
كان عمر يحلف على أيمان ثلاث	مالك بن أوس	٢٢/ ١٤١
كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه	ابن عباس	٢٤/ ٥١٠
كان عمله ديمة	عائشة	٩/ ٣٧٣
كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعدهم	قتادة	٢٢/ ٤٦٦
كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا	أبو سعيد الخدري	٦/ ٢٤٦
كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن	عائشة	٥/ ٣٣٨
كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرِّمن	عائشة	٢/ ٣٦٩
كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً	ابن عباس	٧/ ٧٠٠
كان كعب يسلم عليه	كعب بن مالك	٦/ ١٨٢
كان لا يربط كيسه ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وجمع فأوعى﴾	عبد الله بن عكيم	٢٣/ ١٥٥
كان لا يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة	عائشة	٢١/ ١٠٠
كان لا ينتقم لنفسه	عائشة	٩/ ٣٠٨
كان لعبد الله بن أبي ابن سلول جارية يقال لها مسيكة	جابر بن عبدالله	١٥/ ١٩٧
كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: لوددنا أن الله- عز وجل- دلنا على أحب الأعمال إليه	عبد الله بن عباس	٢٢/ ٢٤٣
كان ناس يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وتزودوا فإن خير	ابن عباس	٣/ ١٦٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
الزاد التقوى﴾		
كان نبينا ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤًا؛ كأنما انحط من صبب	علي	١٧/ ١٢٤
كان هارون أكبر من موسى	ابن عباس	١٤/ ٣٢
كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه	عائشة	٤/ ٧٠٠
كان يرد إشارة [رد السلام في الصلاة]	ابن عمر	٦/ ١٨١
كان يرقع الثوب	عائشة	٥/ ٢٩٤
كان يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة	أبو هريرة	٩/ ٣٩٦
كان يسير العنق	أسامة بن زيد	٣/ ١٧٢
كان يشير بيده [رد السلام في الصلاة]	ابن عمر	٦/ ١٨١
كان يعجبه إذا فرغ من القراءة أن يسكت	قتادة	١/ ٣٠٠
كان يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره	عائشة	٧/ ١٨٥
كان يغسل ذراعه حتى يشرع في العضد	أبو هريرة	٧/ ١٧١
كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾	ابن عباس	٢/ ٤٧١
كان يقرأ في صلاة الظهر في الركعتين ... قدر ثلاثين آية	أبو سعيد الخدري	١/ ٣١٥
كان يقطع قراءته آية آية	أم سلمة	١/ ٧٩
كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير	الزبير بن العوام	٢١/ ٧١
كان يكبر ويجهر بدعاء الاستفتاح	عمر بن الخطاب	١/ ٣٠٣
كان يكون عليَّ الصوم من رمضان، فلا أقضي إلا في شعبان	عائشة	٣/ ٩٥
كان يكون في مهنة أهله	عائشة	٥/ ٢٩٤
كان يمتحنهن: بالله ما خرجت- من بغض زوج؟	أبو نصر الأسدي	٢٢/ ٢١٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حِفْشاً	زينب بنت أم سلمة	٣/٣٦٦
كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول	جابر بن عبد الله	٣/٢٩٣
كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة	عبد الله بن مسعود	٢٢/١٥٣
كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس	سلمان	٢٢/٤٦٨
كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله	عمر بن الخطاب	٢٢/١١٨
كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء	أبو هريرة	٦/٥٩
كانت تعلف فرسه، وتسقي، وتخرز الدلو	أسماء بنت أبي بكر	٥/٥٢٠
كانت رؤيا الأنبياء وحيًا	ابن عباس	١١/٣٤٦
كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث..	الشعبي	١٧/٣٦٠
كانت عامة وصية رسول الله ﷺ- حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم	أنس بن مالك	٢٤/٥٢٧
كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود	عائشة	٢٢/١٠٦
كانت قريش ومن يدينون دينها، يقفون بالمزدلفة	عائشة	٣/١٧٥
كانت للنبي ﷺ خطبتان	جابر بن سمرة	٢٢/٣٠٩
كانت مدًّا [قراءة النبي صلى الله عليه وسلم]	أنس بن مالك	١/٧٩
كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾..	أنس	٢٣/٢٣٢
كأنما تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة أو جبل	أبو حدرد	٥/٣٠٤
كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل	أبو هريرة	٥/٣٠٤
كانوا إذا أحرموا- ومعهم أزودتهم- رموا بها	ابن عمر	٣/١٦٩
كانوا إذا أدخلوا الطعام جعلوه حزمًا	ابن عباس	٨/٣٧٢
كانوا خمس عشرة مئة الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية	جابر بن عبد الله	٢٠/٢٨٨
كانوا على خدعة من الشيطان	قتادة	٢١/٥٢٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كانوا يسلمون على العجوز	سهل بن سعد	٦/ ١٧٣
كانوا يطوفون بالبيت عراة	ابن عباس	٩/ ٧٢
كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم	ابن عباس	١٥/ ٣٥٦
كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به فلان..	أنس بن مالك	٢٤/ ٥٢٨
كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج	ابن عباس	٢١/ ٣٣٣
الكبائر ما ذكر الله من أول سورة النساء إلى الثلاثين منها	ابن مسعود	٥/ ٤٤٩
الكبائر: كل ذنب ختمه الله بنار	ابن عباس	٥/ ٤٤٨
الكبر بطر الحق وغمط الناس	ابن مسعود	٢/ ١٣١
كبر كبر [قاله ﷺ لمحيصة بن سهل لما ذهب يتكلم قبل أخيه حويّصة]	سهل بن أبي حثمة	٢٠/ ٣٣٠
الكبرياء ردائي	أبو هريرة	٢/ ٢٧٢
كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السّموات والأرض	عبد الله بن عمرو	٩/ ٣٥٦
كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟	مجاهد	٢٠/ ٣٣٥
كتب إلينا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أن تعلموا سورة النساء	حارثة بن مضرب	٥/ ٩
كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة	أبو هريرة	١٥/ ١٥٩
كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى	ابن عباس	٣/ ٥٣
كتب عليكم السعي		٢/ ٥٧٥
كتب لك التوراة بيده	أبو هريرة	٢/ ٢٥٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض	عمرو بن العاص	١١/ ١٨٠
كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء	أبو هريرة	٥/ ٥٥٥
كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك	أبو هريرة	٢١/ ٣٠
الكرسي موضع القدمين	ابن عباس	٣/ ٤٥٨
الكرسي موضع القدمين، وله أطيط كأطيط الرحل	أبو موسى الأشعري	٣/ ٤٥٨
كره النبي ﷺ الحديث بعد العشاء الآخرة	أبو برزة الأسلمي	٢٤/ ٢٠٩
الكريم ابن الكريم ... يوسف بن يعقوب	ابن عمر	١١/ ٣٤٦
الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم	ابن عمر	١٦/ ٤٢٢
كفّ عليك هذا	معاذ بن جبل	١٣/ ١٣٠
كفى بالله شهيداً	أبو هريرة	٣/ ٥٧٢
كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوتهم	عبد الله بن عمرو	٥/ ٥٣٩
كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع	حفص بن عاصم	١٥/ ٩٢
كفى بالمرء إثمًا أن يضيع مَن يقوت	عبد الله بن عمرو	٧/ ٦٠٧
كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع	أبو هريرة	٦/ ١٥٢
كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا	أنس بن مالك	٩/ ٣٤٩
كُل ... لقد أكلت برقية حق	عم خارجة بن الصلت	١/ ١٣٥
كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون	أنس بن مالك	٤/ ٤٩٤
كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب	أبو هريرة	٢١/ ١٧
كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يُركَّب	أبو هريرة	٢٤/ ٧٣
كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها	أبو مالك الأشعري	١/ ١٦٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كل أمتي معافى إلا المجاهرين	أبو هريرة	٥/ ٢٥٧
كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى	أبو هريرة	١٥/ ١٢٠
كل أمر ذي بال، لا يفتح بذكر الله- عز وجل- فهو أبتر	أبو هريرة	١/ ١٢٣
كلّ أهل الجنّة يرى مقعده من النّار	أبو هريرة	٩/ ١٠٦
كل أهل النار يرى مقعده من الجنة	أبو هريرة	١٩/ ٩٥
كلّ أهل النّار يرى منزله من الجنّة	أبو سعيد الخدري	٩/ ١٠٦
كل أيام التشريق ذبح	جبير بن مطعم	٣/ ١٧٤
كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا	ابن عباس	٦/ ٢٤٢
كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم	أبو هريرة	٦/ ٤٣٦
كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل	عاءشة	٥/ ٩٢
كل شيء إلا الفرج	عائشة	٣/ ٢٩٠
كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس	ابن عمر	٢١/ ٣٣٤
كل صاحب بدعة ذليل	سفيانم بن عيينة	٩/ ٣٠٤
كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب، فهي خداج	عائشة	١/ ١٣٨
كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	١/ ١٣٥
كل عرفات موقف	جبير بن مطعم	٣/ ١٧٤
كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف	أبو هريرة	١٥/ ٢٤٣
كل عمل ابن آدم يضاعف له	أبو هريرة	٣/ ٢٣٠
كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس	أبو موسى	١٥/ ١٧٣
كل غلام رهين بعقيقته	سمرة بن جندب	٤/ ١٧٠
كل فجاج مكة منحر	جبير بن مطعم	٣/ ١٧٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كل كلام ابن آدم عليه لا له	أم حبيبة	٦/ ٤٣٦
كل كلام لا يفتح بذكر الله- عز وجل- فهو أبتر	أبو هريرة	١/ ١٢٣
كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به	جابر	١٥/ ٢٠٠
كل ما شئت والبس ما شئت	ابن عباس	٩/ ٧٣
كل مال نحلته عبدي حلال		٣/ ٩
كل مسكر خمر		٣/ ٢٦٨
كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة	الحسن البصري	٢١/ ٥٧٠
كل من مال يتيمك، غير مسرف	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٥/ ١١٧
كل مولود يولد على الفطرة	جابر بن عبد الله	٢/ ٣٠٢
كلا والله لا يخزيك الله أبدًا	عائشة	٥/ ٥٠١
الكلب الأسود شيطان	أبو ذر الغفاري	١/ ٢٩
كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب	حذيفة	٢٠/ ٣٧٨
كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته	ابن عمر	١٧/ ٢٦٢
كلكم عبيد الله	أبو هريرة	٣/ ٢٨٣
الكلمة الطيبة صدقة	أبو هريرة	٢/ ٢٧٥
كلمتان خفيفتان على اللّسان ... سبحان الله العظيم	أبو هريرة	٩/ ٢٦
كلوا الزيت وادّهنوا به	مالك بن ربيعة	١٤/ ٤٦٠
كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة.	عمرو بن شعيب	٢٤/ ٤٢٥
كلوا وأطعموا وادخروا		١٤/ ٣١٨
كلوا وشربوا والبسوا وتصدقوا	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٥/ ٥٣٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوج؟	عمر بن الخطاب	٣/ ٣١٠
كم من مريد للحق لم يصبه	ابن مسعود	٢١/ ٥٩١
كم ينحرون من الجزور؟	علي بن أبي طالب	٤/ ٦٢
كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته	جرير بن عبد الله	٢٤/ ١٣٥
كما ينفي الكير خبث الحديد	أبو هريرة	١٢/ ٥٢
الكمأة من المن	سعيد بن زيد	٢/ ١٩٨
كمل من الرجال كثير	أبو موسى الأشعري	٤/ ١٦٥
كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل	ابن عمر	١٠/ ٣٥٠
كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن	عائشة	١٧/ ٤٧١
كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة	عبد الله بن عمر	٢٢/ ٣٧٨
كنا إذا كنا مع رسول الله ﷺ فتفرق بيننا الشجر	أنس بن مالك	٦/ ١٦٦
كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت	البراء بن عازب	٣/ ٤٢٦
كنا جلوسا عند النبي ﷺ، إذ نزلت عليه سورة الجمعة	أبو هريرة	٢٢/ ٢٨١
كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل	أنس بن مالك	٢٢/ ١٣٠
كنا خمس عشرة مئة	جابر بن عبد الله	٢٠/ ٢٨٨
كنا عند النبي ﷺ فجاء من الغائط وأتى بطعام فقيل له: ألا تتوضأ؟	ابن عباس	٧/ ١٦٧
كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه	أنس	١٥/ ١٢٩
كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك، فقال: هل تدرون مم أضحك؟	أنس بن مالك	١٩/ ٢٩١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء	سعد بن أبي وقاص	٨/ ١٣١
كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا»؟	أبو هريرة	٢٤/ ٤١١
كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر	أبو عياش الزرقي	٦/ ٣٢٠
كنا مع طلحة بن عبدالله فأهدي لنا طير	عبد الرحمن بن عثمان	٧/ ٦٨٤
كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه	زيد بن أرقم	٣/ ٣٨٣
كنا نرفع للنبي ﷺ نصيبه من اللبن	المقداد	٦/ ١٦٦
كنا نرى ذلك من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام، أمسكنا عنهما	أنس بن مالك	٢/ ٥٧٢
كنا نسلم على النبي ﷺ وهو يصلي	ابن مسعود	٣/ ٣٨٣
كنا نسمن الأضحية بالمدينة	أبو أمامة بن سهل بن حنيف	١٤/ ٣٣٥
كنا نطبخ البرمة من اللحم على عهد رسول الله ﷺ ... فنأكل ولا ننكره	عائشة	٧/ ٥٧
كنا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام في الركعتين ... بفاتحة الكتاب	جابر بن عبد الله	١/ ١٣٤
كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله	أنس بن مالك	٢٤/ ٢٣٢
كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة	جابر بن عبد الله	٢٠/ ٢٨٨
كنت أداين الناس، فآمر فتياني أن ينظروا المعسر	حذيفة بن اليمان	٣/ ٥٥١
كنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني	أبي بن كعب	١/ ١٤٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ	عائشة	٣/ ٢٩٠
كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة	عبد الله بن عمرو	٢١/ ٥٩٣
كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلًا يقول: اللهم قني شح نفسي	أبو الهياج الأسدي	٢٢/ ١٣٥
كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن من النبي ﷺ	عائشة	١٧/ ٤٠٣
كنت اغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه واحد	عائشة	١٥/ ١٦٥
كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ٣٥٠
كنت أنا وأمي ممن عذر الله	ابن عباس	٦/ ١٠٨
كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد	عائشة	٣/ ٢٩٠
كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ، ورجلاي في قبلته	عائشة	٥/ ٦٠١
كنت رجلًا قينًا	خباب بن الأرت	١٣/ ٤٦١
كنت سألتني السيف، وليس هو لي	سعد بن أبي وقاص	١٠/ ١٣
كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة	عمر بن أبي سلمة	٢١/ ٤٢٣
كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة، فقلت: ندخل؟	خالد بن إياس	١٥/ ١٤٣
كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحد	أبو طلحة	٤/ ٥٦٥
كنت فيمن حضر العقبة الأولى	عبادة بن الصامت	٢٢/ ٢٣٥
كنت قينًا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفًا	خباب بن الأرت	١٣/ ٤٦١
الكوثر: نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة	سعيد بن جبير	٢٤/ ٤٩٣
كوني ترابًا	أبو هريرة	٤/ ١٤١
الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت..	شداد بن أوس	٢١/ ٥٢٩
كيف أنت يا فلان؟	أنس بن مالك	٤/ ٣٧٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كيف أنعم وصاحب الصّور قد التقم الصّور	أبو سعيد الخدري	٨/ ١٩٠
كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن	ابن عباس	٢٣/ ٢٦٨
كيف تجد قلبك؟	محمد بن عمار	١٢/ ٤٧٦
كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟	جابر بن عبد الله	٥/ ٢٤٥
كيف تجدك؟	أنس	١٩/ ٣٢٠
كيف لك برجل قد هُدي وكُفي وَوُقي؟	أنس بن مالك	١/ ١٢٠
كيف يأتيك الوحي	عائشة	٦/ ٦٠٢
كيف يفلح قوم شجوا نبيهم	أنس بن مالك	٤/ ٤٤٨
لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك	عمر بن الخطاب	٣/ ٣١٠
لا أحد أحب إليه العذر من الله	المغيرة بن شعبة	٦/ ٦٠٨
لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل	أبو موسى الأشعري	١٧/ ٤٥٢
لا أحد أصبر من الله على أذى يسمعه	عبد الله بن قيس	٢/ ٣٧٧
لا أحد أغير من الله	ابن مسعود	٨/ ٤٢٣
لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك	عائشة	١٧/ ١٤٤
لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير	أبو موسى الأشعري	٣/ ٣٠٢
لا أحلف على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها..	عائشة	٢٢/ ٤٤١
لا أُعفي رجلاً قتل بعد أخذ الدية	سمرة بن جندب	٣/ ٥٤
لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً	أسامة بن زيد	١٠/ ١٢٢
لا أقول «الم» حرف	ابن مسعود	٢/ ٢٩
لا أقول: إنّ أحدًا أفضل من يونس بن متّى	أبو هريرة	٩/ ٢٨٥
لا آكُلُ متكئًا	أبو جحيفة	١١/ ٣٨٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء	أبو هريرة	٦٠٦/٤
لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم	ابن عباس	١٨٤/٢٤
لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده	ابن عمر	٥١٢/٢٤
لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك	المغيرة بن شعبة	١٠٥/١٨
لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد	عبد الله بن الزبير	٣٧٩/٦
لا إله إلا الله وحده، أعز جنده	أبو هريرة	٢٧٩/١٧
لا إله إلا الله، إن للموت سكرات	عائشة	٦٦٣/٤
لا إله إلا الله، بذلك بعثت	ابن عباس	٥٦/٨
لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب	زينب بنت جحش	٥٦٢/٧
لا أؤمنه في حل ولا حرم	سعيد بن جبير	٢٣٢/٦
لا إيمان لمن لا أمانة له	أنس بن مالك	٣٦/٦
لا بأس طهور إن شاء الله	ابن عباس	٤٤٤/١٧
لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك	أبو هريرة	٣٠١/١٥
لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب	علي بن أبي طالب	١٢٩/٧
لا تأَمَّرنَّ على اثنين	أبو ذر	١١٨/٥
لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها	عبدالله بن مسعود	١٦٩/١٥
لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا	أنس بن مالك	٤٧٩/٥
لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام	أبو هريرة	١٧٤/٦
لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم	البراء بن عازب	٥٥١/٤
لا تبكيه... مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع	جابر بن عبد الله	٦٣٥/٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين	أبو هريرة	٢٠/ ٣٢٨
لا تتمنوا لقاء العدو	عبد الله بن أبي أوفى	٣/ ٤٣٣
لا تتمنوا لقاء العدو	عبد الله بن عمرو	١٠/ ١٤٤
لا تجزئ صلاة لا يقرأ الرجل فيها بفاتحة الكتاب	عبادة بن الصامت	١/ ٢٥٨
لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن	أبو هريرة	١/ ١٣٦
لا تجعلوا بيوتكم قبورًا	أبو هريرة	١/ ٥٧
لا تجعلوا بيوتكم مقابر		٢/ ٧
لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا	أبو هريرة	٢٠/ ٣٧١
لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث	أم عطية	٣/ ٣٦٦
لا تحرم ... الإملاجة ولا الإملاجتان	أم الفضل	٥/ ٣٣٧
لا تحرم المصة ولا المصتان	عائشة	٥/ ٣٣٧
لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة	أبو هريرة	٣/ ٢٣٩
لا تحقرن من المعروف شيئًا	أبو ذر	٧/ ٥٧٥
لا تحل الصدقة لغني	ابن عمر	٣/ ٥٣٢
لا تحلفوا بآبائكم	ابن عمر و عبد الرحمن بن سمرة	٢٤/ ٤٤١
لا تحلق الشعر، وإنما تحلق الدين	الزبير بن العوام	٧/ ٦٤٠
لا تخبري أحدًا، وإن أم إبراهيم عليّ حرام	ابن عمر	٢٢/ ٤٣٦
لا تختلفوا فتختلف قلوبكم	أبو مسعود	٤/ ٣٧٦
لا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا	ابن عباس	٧/ ٢٩٧
لا تخيروني على موسى	أبو هريرة	٣/ ٤٤٧
لا تخيّروني من بين الأنبياء	أبو سعيد الخدري	٩/ ٢٨٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة تماثيل	أبو طلحة	١/ ٥٦
لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا	أبو هريرة	٦/ ١٨٣
لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين	ابن عمر	٤/ ٥١١
لا تدعن أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك	معاذ بن جبل	٣/ ٨٦
لا تدعوا على أنفسكم	جابر بن عبد الله	١١/ ٢٤
لا تذبحوا إلا مسنة	جابر بن عبد الله	٣/ ١٥٠
لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها	عائشة	٢٢/ ١٤٠
لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود		٢/ ٢٣٠
لا ترجعوا بعدي كفارًا	جرير	٢/ ٤٤
لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ	عمر بن الخطاب	١٠/ ٢٩٠
لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم	ابن عمر	٣/ ٥٣٣
لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار	أبو ذر	٣/ ١٠٦
لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟	أنس بن مالك	٢١/ ٥١
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق	ثوبان	٣/ ٢٥٥
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق	المغيرة بن شعبة	٢١/ ٤٢١
لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم	زينب بنت أبي سلمة	٢١/ ٢٥٥
لا تزوج المرأة المرأة	أبو هريرة	٣/ ٣٥١
لا تزوجوا النساء لحسنهن	عبد الله بن عمرو	٧/ ٦٩٥
لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس	ابن مسعود	٢٤/ ٤٢٤
لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع	أبو برزة الأسلمي	٢٤/ ٤٣٧
لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم	ابن عباس	٤/ ٣٥٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها	عبدالرحمن بن سمرة	١٨/ ٤٠٢
لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالحٍ	جابر بن عبد الله	٩/ ١٧٤
لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء	جابر بن عبد الله	٤/ ٣٠٥
لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم	هزيل بن شراحيل	٦/ ٦٤٧
لا تُسَبِّخِي عنه	عائشة	٦/ ٥٥٩
لا تسبوا أصحابي	أبو سعيد الخدري	٢/ ٤٦٨
لا تسبوا أصحابي	أبو هريرة	٢٠/ ٣١٧
لا تسبوا الأموات	عائشة	٢/ ٤٦٨
لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر	أبو قتادة	٢٠/ ١٥٥
لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد	أبو هريرة	١٣/ ١٨
لا تشربوا في آنية الذهب والفضة	حذيفة	٢٠/ ٤٠
لا تصاحبنا ناقة ملعونة	عمران بن حصين	١٥/ ٦٨
لا تصحب إلا مؤمنًا	أبو سعيد	٢٣/ ١٩٤
لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم		٢/ ٤٧٢
لا تضربوا إماء الله	عبد الله بن أبي ذباب	٥/ ٥١٨
لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل	أبو أمامة	٢٠/ ٦٥
لا تضركم الدنيا إذا شكرتموها	أبو قلابة الجرمي	١٢/ ١٣٤
لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم	عمر	١/ ١٨٥
لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم	ابن عباس	١٥/ ٣٧٤
لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا	عمر بن الخطاب	٦/ ٢٦٤
لا تظهر الشّماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك		٩/ ٣٠٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه، أو فيرحمه الله ويبتليك	واثلة بن الأسقع	١٨/ ١٧٥
لا تعجل	عائشة	١/ ٣٤
لا تُعَجِّلوا النفوس أن تزهق		١٤/ ٣٥١
لا تغدروا، ولا تَغُلُّوا، ولا تُمَثِّلوا	ابن عباس	٣/ ١٢٥
لا تغضب		٤/ ٤٨٣
لا تفاضلوا بين الأنبياء	أبو سعيد الخدري	٣/ ٤٤٧
لا تفعلوا [القراءة والإمام يقرأ]	أنس بن مالك	١/ ٢٦١
لا تفعلوا إلا بأم القرآن	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	١/ ٢٦١- ٢٦٢
لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب	عبادة بن الصامت	١/ ٢٦٠
لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول	ابن عمر	٧/ ١٤٤
لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها	جرير	٧/ ٣٠٦
لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها	عبدالله بن مسعود	١٦/ ٤٠٥
لا تقتله	المقداد بن عمرو	٦/ ٢٥٥
لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير	ابن عباس	٣/ ١٢٥
لا تقطع اليد إلا في ربع دينار	ابن مسعود	٧/ ٣٥٤
لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدًا	عائشة	٧/ ٣٥٢
لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن	عائشة	٧/ ٣٥٢
لا تقل تعس الشيطان	أسامة بن عمير	١/ ١٢٢
لا تقل رأيت ولم تر	قتادة	١٣/ ٩٧
لا تقل عليك السلام	أبو جري الهجيمي	٦/ ١٦٨
لا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا	أبو هريرة	٤/ ٥٨٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا تقولن زرعتُ، ولكن قل حرثت	أبو هريرة	٢١/ ٤٥٠
لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة	ابن عباس	٢٠/ ٣٢٨
لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها..	حذيفة بن أسيد	١٦/ ٢٤٢
لا تقوم السّاعة حتى تطلع الشّمس من مغربها	أبو هريرة	٨/ ٤٤٨
لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد	أنس	١٥/ ٢٣١
لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنَّا..	حذيفة	١٥/ ٩٣
لا تمنعوا النساء أن يخرجن إلى المساجد	ابن عمر	١٥/ ٢٣٧
لا تمنعوا إماء الله مساجد الله	ابن عمر	٣/ ٢٨٣
لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب	عبد الله بن عكيم	٧/ ٧٧
لا تنثروه نثر الدّقل، ولا تهذوه هذّ الشعر	عبد الله بن مسعود	٢٣/ ٢٣٣
لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة	معاوية	٢/ ٥٨٥
لا تنكح الأيم حتى تستأمر	أبو هريرة	٣/ ٣٥١
لا تنكحوا اليتامى حتى تستأمروهن	ابن عمر	٥/ ٦٤
لا توارث بين أهل ملتين شتىٰ	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٧/ ٤٦٧
لا تواصلوا	أبو هريرة	٣/ ١٠٧
لا تواصلوا	أبو سعيد الخدري	٣/ ١٠٨
لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم	عمر بن الخطاب	٢/ ٢٤٣
لا تؤذوا المؤمنين ولا تعيروهم	ثوبان	١٥/ ١٠٦
لا توطأ حامل حتى تضع	أبو سعيد الخدري	٥/ ٣٧٤
لا توعي فيوعى الله عليك	أبو نملة الأنصاري	٢/ ٣٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا توعي فيوعي الله عليك	أسماء بنت أبي بكر	٢٣/ ١٥٥
لا تُوعي فيُوعي الله عليك	أبو هريرة	١٥/ ٢٤٤
لا حسد إلا في اثنتين	أبو هريرة	٣/ ٥١٩
لا حسد إلا في اثنتين	عبد الله بن مسعود	٢٣/ ٦١
لا حصر إلا حصر العدو	ابن عباس	٣/ ١٤٨
لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة	المسور بن مخرمة	١٦/ ٤٥٢
لا حلف في الإسلام	ابن عباس	٥/ ٤٩١
لا حليم إلا ذو عزة	أبو سعيد الخدري	٧/ ٧٠٤
لا رضاع إلا ما شدّ العظم وأنبت اللحم	ابن مسعود	٥/ ٣٤٢
لا رضاع إلا ما كان في الحولين	ابن عباس	٥/ ٣٤١
لا سبق إلا في نصل	أبو هريرة	٧/ ٦٣٦
لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار	ابن عباس	٦/ ٣٣٥
لا شيء في الهام، والعين حق	أبو هريرة	٢٣/ ١٠٥
لا صداق دون عشرة دراهم	جابر بن عبد الله	٥/ ٣٨٣
لا صغيرة مع الإصرار	ابن عباس	٣/ ١١
لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب	أبو هريرة	١/ ١٣٤
لا صلاة بحضرة طعام	عائشة	٢٤/ ٣٣٣
لا صلاة لمن لا وضوء له	أبو هريرة	١/ ١١٧، ١١٨
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	عبادة بن الصامت	١/ ١٣٤
لا ضرر ولا ضرار	ابن عباس	٣/ ٣٥٦
لا ضرر ولا ضرار	عبادة بن الصامت	٢٢/ ٣٧٩
لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق	عمران بن حصين	١٧/ ١١٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا طلاق قبل النكاح	المسور بن مخرمة	٣٨٨/١٧
لا طلاق ولا عتاق في إغلاق	عائشة	٥٩١/٥
لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة	عبد الله بن عمرو	١٠٦/٢٣
لا فضل لعربي على عجمي ... إلا بالتقوى		٥٣/٩
لا قطع في ثمر معلق	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٣٥٧/٧
لا قطع في ثمر ولا كثر	رافع بن خديج	٣٥٧/٧
لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار	ابن عباس	٢٤٨/٢١
لا كرب على أبيك بعد اليوم	أنس بن مالك	٥٦٠/٢
لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت	المغيرة بن شعبة	١٤٩/٢١
لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعب أردفتم	ابن عباس	٦٢٩/٤
لا ملجأ ولا منجى منك إلاَّ إليك	البراء بن عازب	١٤١/٢١
لا نذر لابن آدم فيما لا يملك	عمرو بن شعيب	٣٨٨/١٧
لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر	ابن عمر	٣٤٨/١٤
لا نكاح إلا بولي	أبو موسى الأشعري	٢٨٧/٣
لا هجرة بعد الفتح	ابن عباس	٢٤٢/٣
لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط	عائشة	٤٥٦/٢١
لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له	...	٢٢٩/١٥
لا يا ابنة أبي بكر، يا ابنة الصديق	عائشة	٤٨٧/١٤
لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم	أنس بن مالك	١٦٠/٢٤
لا يأتيكم عامٌ إلّا الّذي بعده شرٌّ منه	أنس بن مالك	٣٤٣/٩
لا يبقى على وجه الأرض بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا أدخله الله	المقداد بن الأسود	٣٢٧/١٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
كلمة الإسلام		
لا يبلغني أحد عن أحد شيئًا	ابن مسعود	٧/ ٧٠٢
لا يتم بعد احتلام	علي بن أبي طالب	٢/ ٢٧٤
لا يتمنى الرجل، فيقول: ليت أن لي مال فلان وأهله	ابن عباس	٥/ ٤٦٤
لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به	أنس بن مالك	١١/ ٤٧٥
لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم	أبو هريرة	٢٢/ ١٣٥
لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو	أنس بن مالك	٤/ ٣٧٥
لا يجزي بالسيئة السيئة	عبد الله بن عمرو	١/ ١٨٥
لا يجزي ولد والده	أبو هريرة	٥/ ١٢٢
لا يجلد أحدكم امرأته	عبد الله بن زمعة	٥/ ٥١٨
لا يجوع أهل بيت عندهم التمر	عائشة	٢١/ ٢٤
لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج	ابن عباس	٣/ ١٦٥
لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء	ابن عباس	٣/ ٣٥٩
لا يحقرن أحدكم نفسه	أبو سعيد الخدري	١٧/ ٣٦٩
لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرًا لله فيه مقال فلا يقول فيه	أبو ذر الغفاري	٧/ ٤٧٦
لا يحل بيع دور مكة	عبد الله بن عمرو	١٤/ ٣٠٥
لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني	عبد الله بن مسعود	٣/ ٥٧
لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح	جابر بن عبد الله	٢/ ٤٣٣
لا يحل لامرأة أن تسافر ثلاثة أيام إلا ومعها ذو محرم	أبو سعيد الخدري	٦/ ٣٤٩
لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث	أم حبيبة	٣/ ٣٦٥
لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من	رويفع بن ثابت	٥/ ٣٧٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
السبي		
لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما	عبد الله بن عمر	٢٢/ ٦٠
لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال	أبو أيوب الأنصاري	٥/ ٥٠٤
لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس	عمرو بن عبسة	١٠/ ١٢٨
لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه	عمرو بن يثربي	١٥/ ٢٠٧
لا يخبرني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر	ابن مسعود	٢٠/ ٣٧٠
لا يخلون رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان	...	١٧/ ٣٠٦
لا يدخل الجنة ديوث	عمار بن ياسر	١٥/ ٣٧
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	عبدالله بن مسعود	١٩/ ١٩١
لا يدخل الجنة نمام	حذيفة بن اليمان	٥/ ٤٤٩
لا يدخل الجنة ولد زنا	عبد الله بن عمرو	٢٣/ ٧٨
لا يدخل النار إلا شقي	أبو هريرة	٢٤/ ٣٠٠
لا يدخل هذا عليك	أم سلمة	١٥/ ١٧١
لا يذهب اللّيل والنّهار حتّى تعبد اللّات والعزّى	عائشة	١٠/ ٣٢٧
لا يرث المسلم الكافر	أسامة بن زيد	٦/ ٢٢٣
لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا	ابن عمر	٦/ ٢٣٦
لا يزال لسانك رطبا بذكر الله	عبد الله بن بسر	٦/ ٣٢٩
لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله	عائشة	٤/ ٧٠٠
لا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك	أبو هريرة	٢٤/ ٥٩٠
لا يزال من أمّتي أمّةٌ قائمةٌ بأمر الله	معاوية بن أبي سفيان	٩/ ٣٦٤
لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم	أبو هريرة	٣/ ٩١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	أبو هريرة	١/ ٥٧
لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر	ابن عباس	٦/ ٢٧٢
لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء	ابن عباس	٢/ ٩٤
لا يُشيرن أحدكم على أخيه بالسلاح		١٣/ ١٣٠
لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة	ابن عمر	٦/ ٣٦٧
لا يضر هذا السحر إلا مَن دخل فيه	الحسن البصري	٢/ ٣٣٧
لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه	ابن عباس	٢٢/ ٣٩٣
لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال	سمرة بن جندب	٣/ ١٠٥
لا يفرك مؤمن مؤمنة	أبو هريرة	٥/ ٢٨
لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة	أبو بكرة	١٦/ ١٧٠
لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ	أبو هريرة	٧/ ١٤٤
لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد	أبو هريرة	١٥/ ١٧٣
لا يقتل والد	عمر بن الخطاب، ابن عباس	٧/ ٤٣٥
لا يقربن الصلاة سكران	أبو ميسرة	٥/ ٥٧٠
لا يقل أحدكم عبدي وأمتي	أبو هريرة	١٥/ ١٨٧
لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي	أبو هريرة	٥/ ٤٠٠
لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٣٧٤
لا يقولنّ أحدكم: خبُثت نفسي	عائشة	١٣/ ١٢٩
لا يقولن أحدكم: قضيت بما أراني الله	عمر	٦/ ٣٩٢
لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه	ابن عمر	٢٢/ ٦٠
لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه	أبو هريرة	٢٢/ ٦٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة	جابر	٢٢/ ٦٠
لا يمنعنكم أذان بلال عن سحوركم	عائشة	٣/ ١٠٥
لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد يلج النار إلا تحلة القسم	أبو هريرة	١٣/ ٤٥٢
لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن	جابر بن عبد الله	٤/ ٣٧٤
لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب	عمر بن الخطاب	٣/ ٣٠٢
لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج، إلا في شهور الحج	ابن عباس	٣/ ١٦٥
لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى	عبد الله بن عباس	٢٣/ ١٠٤
لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل	ابو سعيد الخدري	١٥/ ٣٢٥
لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي..	عائشة	١٩/ ١٩٦
لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله	أبو هريرة	٧/ ١٣٩
لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده..	أنس بن مالك	١٧/ ٢٣٨
لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه	أنس بن مالك	٥/ ٢٩٨
لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به		٣/ ٦١٦
لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده	صهيب الرومي	٤/ ١٥٣
لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع..	علي بن أبي طالب	٢١/ ٣٣٥
لا يدخل الجنة منان	عبد الله بن عمرو	٣/ ٥٠٩
لا، إلا بأن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب	رجل	١/ ٢٦١
لا، إنما ذلك عرق، وليس بحيض	عائشة	٣/ ٣١٤
لا، إنه لم يقل يومًا قط: اللهم اغفر لي يوم الدين	عائشة	١٥/ ٢٥١
لا، بل أستأني بهم	ابن عباس	١٣/ ١٣٦
لا، يا ابنة الصديق	عائشة	٢/ ٤٤٣
لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين	حذيفة بن اليمان	٤/ ٢٤١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه	أبو هريرة	٣٠١/٢٤
لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت	عبد الله بن عمرو	٣٤٧/٢٠
لأطوفن الليلة على تسعين امرأة	أبو هريرة	٢٦١/١٣
لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن	أبو سعيد بن المعلى	١٣١/١
لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة	أبو هريرة	٢٦٢/١٠
لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغيره صادقًا	ابن مسعود	٦٢٨/٥
لأن أستيقن أن الله تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها	أبو الدرداء	٢٩٤/٧
لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله،... أحب إلي مما طلعت عليه الشمس	أبو هريرة	٢٩٥/١٤
لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوصي بالربع	علي بن أبي طالب	٥٢٦/٢٤
لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك الأمن..	الحسن	١٨٠/٢١
لأن يَرُبَّني بنو عمي أحب إليَّ من أن يَرُبَّني غيرهم	ابن عباس	١٦٤/١
لأن يمتلئ جوف الرجل قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا	أبو هريرة	١٢٩/١٦
لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم	سهل بن سعد	٧٥/٤
لبنة ذهب ولبنة فضة [بناء الجنة]	أبو هريرة	٤١٥/١٠
لتأخذوا عني مناسككم	جابر بن عبد الله	٥٧٩/٢
لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر	ابن مسعود	٥٥٧/٧
لتتبعن سنن من كان قبلكم	أبو سعيد الخدري	٢٠٨/١
لتعلم يهود أنّ في ديننا فسحةً	عائشة	٤٥٨/٨
لتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه	أبو هريرة	٨٥/٨
لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة	أبو هريرة	٧٣/١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لجميع أمتي كلهم	ابن مسعود	١١/ ٣٢٠
لحدٌّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا	أبو هريرة	١٥/ ١٩
لحق ناس من المسلمين رجلًا في غنيمة له	ابن عباس	٦/ ٢٥٤
لَرَوْحَةٌ في سبيل الله، أو غَدْوَةٌ، خير من الدنيا وما فيها	أنس بن مالك	٢/ ٣٤٢
لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم	عبد الله بن عمرو	٦/ ٢٣٧
لشهادتنا أحق من شهادتهما	ابن عباس	٧/ ٧٢١
لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم	علي بن أبي طالب	١٠/ ٩١
لعل رجلًا يقول ما يفعل بأهله		٥/ ٤٩٩
لعلك ترجين النكاح	أبو السنابل بن بعكك	٣/ ٣٦٦
لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت	أبو هريرة	١٥/ ٢٨
لعلكم تقرؤون خلف إمامكم؟	عبادة بن الصامت	١/ ٢٥٩
لعلكم تقرؤون والإمام يقرأ؟		١/ ٢٦١
لعله نزعه عرق	أبو هريرة	٤/ ٣٤
لعن الله الراشي والمرتشي	النعمان بن بشير	٣/ ١١٧
لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده	أبو هريرة	٧/ ٣٥٥
لعن الله الواشمات والمستوشمات	ابن مسعود	٤/ ٤٨
لعن الله اليهود والنصارى	عائشة	٦/ ٢٥٠
لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فباعوها	ابن عباس	٨/ ٤٠١
لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم، فجملوها	عمر بن الخطاب	٨/ ٤٠١
لعن الله من آوى محدثا	علي بن أبي طالب	٦/ ٢٥٠
لعن الله مَن قتل بِذَحْلٍ في الجاهلية	أبو شريح الخزاعي	٧/ ٣٣١
لعن الله من لعن والديه	علي بن أبي طالب	١٣/ ٦٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لعن الله من لعن والديه	عبد الله بن عمرو	٢٠/ ٣٦١
لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله	ابن مسعود	٣/ ٥٣٩
لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له		٣/ ٣٣١
لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد	ابن عباس	٧/ ٤٨٦
لعنت الخمر على عشرة وجوه	ابن عباس	٧/ ٦٣٩
لعنوا في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم	ابن عباس	٧/ ٥٥٥
لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها	أنس	٢١/ ٣٩٣
لقد أعطاني الله- عز وجل- خصلتين	العباس بن عبد المطلب	١٠/ ٢١١
لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني	صفوان بن أمية	١٠/ ٣٨٦
لقد أنزل الله هذه الآية التي حرم فيها الخمر، وما بالمدينة شراب إلا من تمر	أنس بن مالك	٧/ ٦٣٣
لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا	أنس	٢٠/ ٢٧٥
لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس	زيد بن أسلم	٢٠/ ٢٧٩
لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس	عمر بن الخطاب	٧/ ٥٢٢
لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود	أبو مسى الأشعري	١٠/ ٣٣٠
لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر	أسيد بن حضير	٧/ ١٤٢
لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم	بريدة	٥/ ٢٥٥
لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له	بريدة	٥/ ٢٥٥
لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم	عمران بن حصين	٥/ ٢٥٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا	أبو ذر	٢٤/ ٢٩٨
لقد حظرت رحمةً واسعةً	جندب بن عبد الله البجلي	٩/ ٣١٤
لقد حكمت فيهم بحكم الله	أبو سعيد الخدري	١٠/ ١٧٣
لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة	سعد بن معاذ	١٥/ ٢٨٥
لقد خشيت على نفسي	عائشة	١١/ ١٢٩
لقد خضت أكثر من مائة معركة وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسهم	خالد بن الوليد	٦/ ١٣٢
لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقُرٌّ	حذيفة بن اليمان	١٧/ ١٥٣
لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا	الزبير بن العوام	٤/ ٥٦٨
لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه	معقل بن يسار	٢٠/ ٢٨٩
لقد سأل الله باسمه الأعظم	أنس بن مالك	١/ ٢٢٧
لقد سألت عن عظيم	معاذ بن جبل	٢/ ١٧٣
لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد	زيد بن أرقم	٢٠/ ٣٣٨
لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن	عبد الله بن أبي ذباب	٥/ ٥١٨
لقد عذت بعظيم	عائشة	١٢/ ٤٦٣
لقد علَّمَنا نبينا ﷺ حتى الخراءة	سلمان الفارسي	٢٤/ ٢٩٨
لقد قرأت هذه الآية زماناً، وما أرانا من أهلها	الزبير بن العوام	١٠/ ٨٠
لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم	جابر بن عبد الله	٢١/ ٣٥٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته	عائشة	٢٠/ ٣٧٢
لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد	خباب بن الأرت	٤/ ٥٤٠
لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل	ابن مسعود	١٣/ ١١٤
لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة	عائشة	٨/ ١٥١
لقد نزلت وما نرى أحداً منا يقع بها	الزبير بن العوام	١٠/ ٨٠
لقي النبي ﷺ وهو جنب قال: «فانخنست»	أبو هريرة	٢٤/ ٩٣
لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك	المعرور بن سويد	٢٤/ ١٢٧
لقيت خالي ومعه الراية فقلت: أين تريد؟	البراء بن عازب	٥/ ٣٢٨
لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده،فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن؟	عقبة بن عامر	٢٤/ ٥٤٨
لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ	عطاء بن يسار	١٧/ ٣٨٢
لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جنب فانخنست منه	أبو هريرة	٢٤/ ٦٠٠
لك الأجر مرتين		٥/ ٦٠٣
لك بمثل	أبو الدرداء	٦/ ٩٠
لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة	أبو مسعود الأنصاري	٣/ ٤٩٤
لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة، الذين يقولون: لا قدر	ابن عمر	٢١/ ٣٣٣
لكل شيء قيمة وقيمة المرء ما يحسنه	علي بن أبي طالب	٧/ ١١٠
لكل غادر لواء يوم القيامة	ابن مسعود	٨/ ٣٤٠
لكل نبي دعوة مستجابة	أبو هريرة	٢/ ١٨٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لكم سيًا ليست لأحد من الأمم	أبو هريرة	٤/ ٣٩٢
لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه	ابن مسعود	٧/ ٨١
لكم هجرتان	أبو بردة	١٢/ ٤٨٣
لكن صاحبكم خليل الله	ابن مسعود	٣/ ٤٥٠
للسائل حق وإن جاء على فرس	الحسين بن علي	٣/ ٤٩
للملك لَمَّة	ابن مسعود	٣/ ٥١٧
للمملوك طعامه وكسوته	أبو هريرة	٥/ ٥٣٩
لله أرحم بعباده من هذه بولدها	عمر بن الخطاب	٢/ ٥١١
لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دويَّة	ابن مسعود	٥/ ٤٣٦
لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة	أنس بن مالك	١٩/ ٣٨٠
لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم بضالته إذا وجدها	أنس بن مالك، أبو هريرة	٥/ ٢٧١
لله عز وجل مئة رحمةٍ	أبو سعيد الخدري	٩/ ٣١٤
لم أبعث لعانًا	أبو هريرة	١٤/ ٢٥١
لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار؟	مجاهد	٢١/ ٢٥٧
لم تقطع يد سارق في عهد رسول الله ﷺ في أدنى من ثمن المجن	عائشة	٧/ ٣٥٢
لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت	الزبير بن العوام	١٠/ ٨٠
لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي	عائشة	٨/ ٣٠٣
لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل ... غير طلحة بن عبيدالله وسعد	أبو عثمان النهدي	٤/ ٥٦٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة	ابن عباس	١١/ ٣٥٠
لم يُرخص في أيام التشريق أن يُصمن	عائشة وابن عمر	٣/ ١٥٧
لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه	عمر بن الخطاب	٦/ ١٥٣
لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات	أبو هريرة	١٨/ ٣١٢
لم يكن إلا يسيرًا حتى كانت وقعة بدر [في قوله تعالى: ﴿ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا* إن لدينا أنكالا وجحيما﴾]	عائشة	٢٣/ ٢٤٠
لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد منه تعاهدًا على ركعتي الفجر	عائشة	٢١/ ٢٠١
لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا		٢/ ٢٧٥
لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام	جابر بن عبد الله	٣/ ١٣٣
لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له	ابن عباس	١٧/ ٤٠٣
لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره	ابن عباس	١٩/ ١٧٧
لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين	ابن عباس	٢٠/ ٨١
لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليب إلا نقضه	عائشة	١/ ٥٦
لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم	أم سلمة	١٧/ ٤٢٢
لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه:﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابًا﴾	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ٢٢
لم، لا أخذتم مسكها؟	ابن عباس	٨/ ٤٠٥
لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت	أبو هريرة	٢٣/ ١٠٣
لما أراد الله- عز وجل- أن يرفع عيسى إلى السماء	ابن عباس	٢٢/ ٢٧٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لما أُسري برسول الله ﷺ- انتهي به إلى سدرة المنتهى	ابن مسعود	٢١/ ٢٢٤
لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر	ابن عباس	٦/ ٦٢٥
لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى	ابن عباس	٢٢/ ٤٤٥
لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين..	ابن جبير	٢١/ ٥٩٦
لما أمر بإخراج النساء إلى مصلى العيد..	أم عطية	١٧/ ٤٦٧
لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر... ﴾	أنس	٢٠/ ٢٧٩
لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: اذهب فاذكرها عليّ..	أنس	١٧/ ٣٦٠
لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا	أنس	١٧/ ٤٢٥
لما توفي أبو سلمة استرجعت	أم سلمة	٢/ ٥٥٨
لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس..	أبو هريرة	٢٤/ ٣٠٥
لما جاء يشتكي إلى رسول الله ﷺ ضرارته، وأنه لا يستطيع الجهاد	زيد بن ثابت	٢٤/ ٦٦
لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء	ابن عمر	٢٢/ ٣٠٤
لما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة	مالك بن صعصعة	٤/ ١٧١
لما خلق الله القلم قال: اكتب	عبادة بن الصامت	٨/ ١٠٦
لما خيَّر الله عز وجل نبيه ﷺ بين أن يؤتيه زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده اختار ما عند الله عز وجل	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٣١٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح..	ابن مسعود	١٨/ ٨٨
لما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ [ماعز]	أبو هريرة	٤/ ١٠٤
لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف	أنس بن مالك	٢٤/ ٤٩٣
لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٧٢
لما فتحت قبرص، فُرِّق بين أهلها	جبير بن نفير	٦/ ٥١٢
لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت: يارب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته	أنس بن مالك	٢٤/ ٣٣٠
لما قال له جبريل: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ	عائشة	٢٢/ ٢٨٤
لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة..	أبي بن كعب	١٥/ ٣٠٣
لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا..	الزبير بن العوام	١٧/ ٢٤٣
لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس..	عائشة	١٧/ ٣٩٦
لما قضى الله الخلق، كتب في كتاب	أبو هريرة	١/ ٧٠
لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو يوم الحديبية	مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة	٢٢/ ٢١٥
لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة	عمرو بن سلمة	٢٤/ ٥١٣
لما نزل رسول الله- ﷺ بهم- يعني بني النضير	يزيد بن رومان	٢٢/ ١١٣
لما نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربون النساء	البراء بن عازب	٣/ ١٠٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لما نزل عذري قام النبي ﷺ على المنبر، فذكر ذاك، وتلا القرآن	عائشة	١٥/ ٧٧
لما نزلت أول ﴿يا أيها المزمل﴾ كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان	ابن عباس	٢٣/ ٢٣١
لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم	عقبة بن عامر الجهني	٢١/ ٤٧٥
لما نزلت هذه الآية بمكة: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر... ﴾ قال المشركون: وما يغني عنا الإسلام، وقد عدلنا بالله	ابن عباس	١٥/ ٤٥٠
لما نزلت هذه الآية: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾، قال الزبير:فأي نعيم نسأل عنه؟	عبدالله بن الزبير	١٩/ ٦٢
لما نزلت هذه الآية: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ﴾ عمدت إلى عقالين	عدي بن حاتم	٣/ ١٠٥
لما نزلت هذه الآية: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي	عائشة	١٥/ ١٦٤
لما نزلت هذه الآية: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان	أم سلمة	١٧/ ٤٦٤
لما نزلت هذه الآية: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة..	أم سلمة	١٧/ ٤٦١
لما نزلت: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على المسلمين		١٧/ ١١٦
لما نزلت: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى	ابن عباس	٢٤/ ٢١٦
لما نزلت: ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ إلى آخرها	مالك بن عمرو	٢٤/ ٣٧٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيًّا		
لما نزلت: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة..	ابن عباس	٢٤/ ٥١٠
لما نزلت: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما قاعد، فبكى حين أنزلت	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ٣٩٤
لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم؟	عبدالله بن مسعود	١٧/ ١١٦
لما نزلت: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ شق ذلك على المسلمين	ابن عباس	١٠/ ٢٠١
لما نزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ أقبلت العوراء، أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:		
لما نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾، قال الزبير: أتكرر علينا الخصومة؟	عبدالله بن الزبير	١٩/ ٦٢
لما نزلت: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نسأل عنه	الزبير بن العوام	٢٤/ ٤٢٤
لما نزلت: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»،...	عقبة بن عامر	٢٤/ ٢٠٣
لما نسخنا الصحف في المصاحف، فقدت آية من سورة الأحزاب	زيد بن ثابت	١٧/ ٢٧٦
لن تروا ربكم حتى تموتوا	عبادة بن الصامت	٢١/ ٢٢٢
لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة	أبو هريرة	٣/ ٢٥٩
لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم	أبو ثعلبة	٢٣/ ٢٢٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لن يغلب عسر يسرين	عمر بن الخطاب	٦/ ٢٠٨
لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة	أبو بكرة	٣/ ٣٢٠
لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها	عمارة بن رؤيبة	١٤/ ١٢٦
لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم	أبو البختري الطائي	٢٣/ ٢٦
الله أرحم بعباده، من هذه بولدها	عمر بن الخطاب	١/ ١٢٥
الله أعلم بما كانوا عاملين [أولاد المشركين]	أبو هريرة	١٣/ ٥٣
الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام		٤/ ٤٦٦
الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله والفتح	ابن عباس	٢٤/ ٥١٣
الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحان الذي سخر لنا هذا	عمر بن الخطاب	١١/ ٢٣٥
الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم	أبو طلحة	١٨/ ٣٥٤
الله أكبر، خربت خيبر	أنس	١٨/ ٣٥٣
الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي	عبدالله بن مغفل	١٧/ ٤٥٤
له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين [من أنظر معسرا]	بريدة بن الحصيب	٣/ ٥٥١
الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه	أبو هريرة	٧/ ٥٣
الله لو كان موسى حيًّا لما وسعه إلا اتباعي	ابن عمر	٧/ ٤٥٥
الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب	ابن عمر	١٥/ ٦٠
الله يمنعني منك	جابر بن عبد الله	٦/ ٣٧٣
لها الصداق كاملاً	عبد الله بن مسعود	٣/ ٣٦٧
لها مثل صداق نسائها	ابن مسعود	٥/ ٣٨٠
اللهم آت نفسي تقواها	زيد بن أرقم	٦/ ١٧
اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك	عراك بن مالك	٢٢/ ٣٠٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها	أم سلمة	٢/ ٥٥٧
اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة	قيس بن سعد	١٥/ ١٤٤
اللهم اجعل عملي كله صالحًا	عمر بن الخطاب	٥/ ٥٢٩
اللهم اجعل في قلبي نورًا	ابن عباس	٨/ ٣٢٨
اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٣٢٢
اللهم اجعلنا شاكرين لنعمك	ابن مسعود	٢/ ٥٥٦
اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين	عمر بن الخطاب	٢١/ ٤٦٠
اللهم اجعله صيِّبًا نافعًا	عائشة	٢٠/ ٢٠٤
اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا	ابن عباس	٢٣/ ١١٧
اللهم اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا	ابن عباس	١٨/ ١١٦
اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف	أبو هريرة	٩/ ٢٦٢
اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها	بسر بن أرطاة	٢/ ٣٩٧
اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا	أبو سعيد الخدري	٥/ ١٢٦
اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا.	أبو هريرة	٢٢/ ١٣٦
اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين	أبو هريرة	١٩/ ٢٩٩
اللهم أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت	بريدة	١/ ٢٢٧
اللهم أسلمت نفسي إليك..	البراء بن عازب	١٧/ ٣٤٥
اللهم اشهد	أبو بكرة	٢/ ٥٠٢
اللهم اشهد [في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾]	ابن عمر	٢١/ ٢٨٨
اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك	ابن عمر	١٠/ ٤٩٨
اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم	أبو هريرة	١/ ٤٩
اللهم أعني على ذكرك	معاذ بن جبل	٣/ ٨٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك،	عائشة	٥/ ٦٠١
اللهم اغفر خطئي وعمدي، وجدِّي وهزلي	أبو موسى	٢٤/ ٥١٨
اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون	ابن مسعود	١٠/ ٤٩٨
اللهم اغفر للمحلقين	أبو هريرة	٢٠/ ٣١٣
اللهم اغفر لي خطئي وجهلي، وإسرافي في أمري		٢٠/ ٢٤٥
اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي	أبو موسى الأشعري	٦/ ١٤٣
اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسئ شيطاني	أبو الأزهر الأنماري	١/ ١٢١
اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك	فاطمة بن رسول الله	١/ ١١٨
اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك	فاطمة بن رسول الله	١/ ١١٩
اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت	علي	٢٠/ ٢٤٥
اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى	عائشة	٢٤/ ٥٢٧
اللهم افتح لي أبواب رحمتك	أبو هريرة	١/ ٤٩
اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك	ابن عمر	٢١/ ٢٤٢
اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأَحِنْه الغداة	عبد الله بن ثعلبة	١٠/ ٥٩
اللهم اكتب بها عندك أجرًا	ابن عباس	٤٢٤/ ١٤
اللهم الرفيق الأعلى	عائشة	٦/ ٨٣
اللهم العن فلانًا وفلانًا	ابن عمر	٤/ ٢٤٦
اللهم العنه، اللهم أخزه	أبو هريرة	٦/ ٥٥٩
اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة	عمر بن الخطاب	٤/ ٤٤٣
اللهم أمتي أمتي	عبد الله بن عمرو	١٢/ ١٩٠
اللّهمّ أمض لأصحابي هجرتهم	سعد بن أبي وقاص	٨/ ١٨٥
اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرماً	أبو سعيد الخدري	٢/ ٤٣٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اللهم إن العيش عيش الآخرة	أنس بن مالك	١/ ٣٦
اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد	علي بن أبي طالب	١٠/ ٤٦
اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى	أنس بن مالك	٢٠/ ٢٩٠
اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح	أبي بن كعب	١٧/ ٨١
اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه	أبو موسى	١٥/ ٣١٢
اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم	أبو موسى	١٩/ ١٧٦
اللهم أنت السلام ومنك السلام	ثوبان	٦/ ٣٧٨
اللهم أنت الصاحب في السفر	ابن عمر	١٣/ ١٦
اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك	شداد بن أوس	٣/ ١٧٦
اللهم أنج الوليد بن الوليد	أبو هريرة	٦/ ١٠٨
اللهم أنجز لي ما وعدتني	ابن عباس	١٠/ ٣٧
اللهم انفعني بما علمتني	أبو هريرة	١٤/ ١٠٨
اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار	أبو هريرة	٣/ ٥٧٢
اللهم إنه كانت لي ابنة عم، وكانت من أحب الناس إلي	ابن عمر	٢/ ١٧٠
اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد	الأسود بن سريع	٤/ ٤٩٥
اللهم إني أحرم ما بين لابتيها	جابر بن عبد الله	٢/ ٤٣٣
اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد	شداد بن أوس	٣/ ٤٣٧
اللّهمّ إنّي أسألك العافية في الدّنيا والآخرة	ابن عمر	٩/ ٣٧
اللّهمّ إنّي أسألك العفو والعافية	ابن عباس	٩/ ٣٧
اللهم إني أسألك بأن لك الحمد	أنس بن مالك	١/ ٢٢٧
اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت..	سليمان بن بريدة	٢٤/ ٥٥٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به	عائشة	٢٠/ ٢٠٤
اللهم إني أسألك صحة في إيمان	أبو هريرة	٢٣/ ٦٦
اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك	جابر بن عبد الله	٧/ ٨٩
اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المسلمين	أنس بن النضر	٤/ ٥١٩
اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل	أنس بن مالك	١٢/ ٤٠٤
اللهم إني أعوذ بك من الجوع	أبو هريرة	٥/ ١٢٦
اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور	عبد الله بن سرجس	٢٤/ ١٥٧
اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث	أنس بن مالك	١/ ٤٩
اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه	عبد الله بن مسعود	١/ ١٨
اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر	أبو بكرة	١٥/ ١١٧
اللهم إني أعوذ بك من الهدم	أبو اليسر	١٤/ ٥١٦
اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه	عائشة	٢٠/ ٢٠٤
اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك	ابن عباس	١٠/ ٣٧
اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً	عبد الله بن عمرو	٣/ ١٧٧
اللّهمّ إنّي عبدك، ابن عبدك، ناصيتي بيدك	ابن مسعود	٩/ ٣٦٢
اللهم اهد دوسًا، وأت بهم	أبو هريرة	١٠/ ٤٩٨
اللهم اهدني فيمن هديت	الحسن بن علي	١/ ٢٣٠
اللهم أيده بروح القدس	أبو هريرة	١/ ٣٥
اللهم بارك لنا في ثمرنا	أبو هريرة	٥/ ١٣٦
اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا	ابن عمر	١٨/ ٣٨
اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب	أبو هريرة	١/ ٢٩٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً	عمر بن الخطاب	٣/ ٢٦٧
اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين،	عبدالله الزرقي	١٦/ ٥٧
اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا	ابن عباس	١/ ١٢٠
اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا	عائشة	٢٤/ ١٥٥
اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا	عبد الله الزرقي	٢٠/ ٣٥٠
اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم	أبو هريرة	٢١/ ٤٨٦
اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض	عائشة	٢/ ٣١٩
اللهم رب هذه الدعوة التامة	جابر بن عبد الله	٥/ ٢١
اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة	أنس بن مالك	٣/ ١٨١
اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين	أبو بكرة	٤/ ٥٩٥
اللهم زدنا ولا تنقصنا	عمر بن الخطاب	١٤/ ٤٣٩
اللهم سَلِّم سَلِّم	أبو هريرة	١١/ ٣٠٩
اللهم صب عليها الخير صبًّا	أبو برزة الأسلمي	١٧/ ٣٥٢
اللهم صل على آل أبي أوفى	عبد الله بن أبي أوفى	٢/ ٣٦
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم	كعب بن عجرة	١١/ ٢٧٦
اللهم صل عليه، اللهم اغفر له	أبو هريرة	٦/ ٣٨١
اللهم غفرًا، كل الناس أفقه من عمر	عمر بن الخطاب	٥/ ٣٠٥
اللهم فاطر السموات والأرض ... أعوذ بك من شر نفسي	أبو هريرة	١/ ٥٠
اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل	ابن عباس	٤/ ٣٩
اللهم قني شح نفسي	عبد الرحمن بن عوف	٦/ ٤٩٤
اللهم لا تخزني يوم القيامة	يحيى بن حسان	٢٢/ ٤٥٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اللهم لا تقتلنا بغضبك	ابن عمر	١٢/ ٤١
اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين	أبو بكرة	١/ ١٨٧
اللّهمّ لا مانع لما أعطيتَ	المغيرة بن شعبة	٨/ ٥٤
اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت	عروة بن عامر	٤/ ١٢٥
اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن	ابن عباس	١٥/ ٢١١
اللهم لك الحمد غير مكفي ربنا ولا مودع	أبو أمامة	١٢/ ١٨٠
اللهم لك الحمد.. [الصدقة]على زانية وعلى غني وعلى سارق		٣/ ٥٢٤
اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت	علي بن أبي طالب	٢١/ ٢٧٩
اللهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا	البراء	١٧/ ٢٥٥
اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه	عائشة	٤/ ٦٠٠
اللهم منزل الكتاب، وهازم الأحزاب	عبدالله بن أبيٍ	١٧/ ٢٧٩
اللهم هالة بنت خويلد	عائشة	٥/ ٢٩٠
اللهم هذا قسمي فيما أملك		٦/ ٤٩٧
اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك	عائشة	١٧/ ٤١٦
اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل وعذاب القبر	زيد بن أرقم	٢٤/ ٢٨١
اللهم، رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين	أبو بكرة	١٥/ ٧١
اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين	أنس بن مالك	٢٣/ ١٠٣
لها أجران [الصدقة على الزوج]	زينب امرأة ابن مسعود	٣/ ٤٢
لو أدرك النبي ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن..	عائشة	١٥/ ٢٣٧
لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي	جابر بن عبد الله	٣/ ١٤٨
لو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه	عبد الله بن مسعود	١٦/ ٧٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر لهم؛ لزدت عليها	عمر بن الخطاب	١٠/ ٤٢٧
لو أمرت نساءك أن يحتجبن	عمر بن الخطاب	٢/ ٤٢٨
لو أن ابن آدم أعطي واديًا من ذهب لابتغى ثانيًا	أبي بن كعب	٢٤/ ٣٢٠
لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة	أبو سعيد الخدري	١٧/ ١٢١
لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء... لخرج عمله للناس	أبو سعيد الخدري	١٠/ ٤٧٠
لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع لكان أفضل	ابن عباس	٢٤/ ٥٢٥
لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة..	أبو هريرة	١٥/ ١٤٦
لو أن امرأة من أهل الجنة اطَّلَعَت إلى أهل الأرض، لأضاءت ما بينهما	أنس بن مالك	٢/ ٣٤٢
لو أن رجلًا أعطى امرأة صداقا ملء يديه طعامًا كانت له حلالا	جابر بن عبد الله	٥/ ٣٨١
لو أن رُضَاضَة مثل هذه	عبد الله بن عمرو	٢٣/ ١٣٠
لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل	أبو هريرة	١٢/ ٤١
لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله لحقره ذلك اليوم	محمد بن أبي عميرة	٢٤/ ٢٥٤
لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها	أسامة بن زيد	٦/ ٣٧
لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان	أنس بن مالك	١٨/ ٣٨٥
لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا	أنس بن مالك	٢٤/ ٤٢٠
لو انحاز إليَّ كنت فئته	عمر بن الخطاب	١٠/ ٥٤
لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير	عمر بن الخطاب	٧/ ٧٢
لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله..	عمر بن الخطاب	٢٢/ ٤٠٠
لو تأخر الهلال لزدتكم	أبو هريرة	٣/ ١٠٧

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا	أنس بن مالك	٢٤/ ٤٢٢
لو تمالأ أهل صنعاء لقتلتهم به	عمر بن الخطاب	٧/ ٤٣٦
لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر	أنس بن مالك	٢٤/ ٣٣١
لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة	علي بن أبي طالب	٦/ ٤٦
لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت	أبو هريرة	١٧/ ٤٢٩
لو راجعته فإنه أبو ولدك	ابن عباس	٦/ ١٥٥
لو رجعنا لإصلاح أموالنا ومزارعنا	...	٢٤/ ٤٣٨
لو رحم الله من قوم نوح أحدًا..	ابن عباس	٢٣/ ١٩٣
لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك	أبو العشراء الدارمي	٧/ ٨٦
لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينك، إنما جعل الإذن من قبل الأبصار	سهل بن سعد	١٥/ ١٤٦
لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا	ابن عباس	٤/ ٢٤١
لو قال إن شاء الله لم يحنث، وكان دركًا لحاجته	أبو هريرة	١٦/ ٢٩٩
لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [ذهب عنه ما يجد]	سليمان بن صرد	١/ ١٥
لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة [في معنى قوله تعالى ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾]	ابن عباس	٢٣/ ١٤٩
لو قلتها لوجبت	ابن عباس	٣/ ٤٣٢
لو كان ﷺ كاتمًا شيئًا ... لكتم هذه الآية: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾	عائشة	٧/ ٥٣٣
لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال- أو رجل من هؤلاء	أبو هريرة	٢٢/ ٢٨٦
لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه	علي بن أبي طالب	٥/ ٢٤٨
لو كان على أمك دين، أكنت قاضيه عنها	ابن عباس	١/ ١٧٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا	ابن عباس	١٩/ ٣٢٥
لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا	أنس بن مالك	٤/ ٨٧
لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا	سهل بن سعد	٢/ ١٣٧
لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة..	سهل بن سعد	١٧/ ٢٨٨
لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه ... لكتم: ﴿وتخفي في نفسك﴾	عائشة	٧/ ٥٢٣
لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها	معاذ بن جبل	١١/ ٤٧٢
لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها	عائشة	٥/ ٥٠٣
لو كنت أنا لأسرعت الإجابة	أبو هريرة	١١/ ٤١٥
لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً	أبو سعيد الخدري	٣/ ٤٥٠
لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً	أبو سعيد الخدري	١٥/ ١٢٤
لو كنت مسبحًا لأتممت	ابن عمر	١٩/ ٢١٢
لو لبثت ما لبث يوسف لأجبت الداعي	أبو هريرة	١١/ ٤١٥
لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي	درة بنت أبي سلمة	٥/ ٣٤٧
لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجح بهم إيمان أبي بكر	عمر	٢٤/ ٣٠٥
لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا ... لشهد العشاء	أبو هريرة	٦/ ١٠٢
لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد	أبو هريرة	١/ ٧١
لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول	أبو هريرة	٢٢/ ٣٠٣
لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا	أبو هريرة	٦/ ٣٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى	عمر بن الخطاب	١/ ١٧٧
لولا الأيمان لكان لي ولها شأن	ابن عباس	١٥/ ٥٩
لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار	أبو هريرة	١٠/ ٢٢٧
لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية	أبو هريرة	٥/ ٤٨٥
لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك		١٠/ ٢٦٥
لولا أنّ الكلاب أمّةٌ من الأمم لأمرت بقتلها	عبد الله بن مغفل	٨/ ١٠٥
لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفر لهم	أبو هريرة	١٩/ ٩٨
لولا أني أخرجت منك ما خرجت [مكة]	عبد الله بن عدي	٢/ ٢٧٧
لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت	عائشة	٢/ ٤٤٣
لون حسن وجلد حسن	أبو هريرة	٤/ ٢٠٤
اللون لون الدم والريح ريح المسك	أبو هريرة	٤/ ٤٤٨
لي الواجد يحل عرضه وعقوبته	أبو هريرة	٦/ ٥٢٤
لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي..	جبير بن مطعم	٢١/ ٢٨٧
ليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه	عبد الله بن عمرو	٥/ ١٤٨
ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار	تميم الداري	٤/ ٤٣٧
ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا	سهل بن سعد	٤/ ٤١٢
ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر	ابن عمر	٢٢/ ٣٩٢
ليَردن عليَّ أقوام أعرفهم ثم يختلجون دوني	أنس بن مالك	٤/ ٣٩٤
ليس أحد أحب إليه العذر من الله	ابن مسعود	٦/ ٦٠٨
ليس أحد أحب إليه المدح من الله		٣/ ٤١٥
ليس أحد إلا يحزن ويفرح	ابن عباس	٢١/ ٥٧٣
ليس الخبر كالعيان	ابن عباس	٤/ ٦٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ليس الخبر كالمعاينة	ابن عباس	٣/ ٤٨٢
ليس الشديد بالصرعة	أبو هريرة	٣/ ٣٨
ليس الغنى عن كثرة العرض	أبو هريرة	٤/ ٤١٥
ليس الفجر المستطيل في الأفق	طلق بن علي	٣/ ١٠٥
ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس	أم كلثوم بنت عقبة	٦/ ٤٤٧
ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان	أبو هريرة	٣/ ٥٢٥
ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان		٣/ ٤٣
ليس الواصل بالمكافئ	عبد الله بن عمرو	١٣/ ٨٣
ليس بفظ ولا غليظ	عبد الله بن عمرو	١/ ١٨٥
ليس بيني وبينه نبي -يعني: عيسى- وإنه نازل	أبو هريرة	٤/ ٢٢٣
ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل	عمر بن عبد العزيز	٥/ ٢٣
ليس عام بأمطر من عام	عبدالله بن مسعود	١٥/ ٤٢٨
ليس على المنتهب، ولا على المختلس، ولا الخائن قطع	جابر بن عبد الله	٧/ ٣٤١
ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه..	ابن عباس	٢٣/ ٣٣٨
ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط	ابن عباس	٢١/ ٣٩٧
ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء فقط	ابن عباس	٢٤/ ١٨١
ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء	ابن عباس	٢/ ٩٤
ليس لأحد أن يدع الطواف بهما [الصفا والمروة]	عائشة	٢/ ٥٧١
ليس لك عليه نفقة ولا سكنى	فاطمة بنت قيس	٢٢/ ٣٩٦
ليس لنا مثل السّوء	ابن عباس	٩/ ٣٥٤
ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يقيء، ثم يعود في قيئه	ابن عباس	٢٠/ ٣٧١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ليس من البر الصيام في السفر	جابر بن عبد الله	٣/ ٩٣
ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٢٣١
ليس منا من لطم الخدود	ابن مسعود	٢/ ٥٥٨
ليس منا من لم يتغن بالقرآن، يجهر به	أبو هريرة	٢٣/ ٢٣٣
ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع	ابن عباس	١٥/ ٢٣
ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾	عبدالله بن مسعود	١٧/ ١١٦
ليست السنة بألا تمطروا	أبو هريرة	١٨/ ١٤٢
ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها [في قوله ﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب﴾]	ابن عباس	١٨/ ٣٨٧
ليسوا بشيء [لما سئل عن الكهان]	عائشة	١٩/ ٢٣٦
ليقل ما شاء الله ثم شئت	ابن عباس	٥/ ٢٢٩
ليلة القدر ليلة أربع وعشرين	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٣٦٥
الليلة أنزلت علي سورة مريم	أبو مريم الغساني	١٣/ ٣٧٩
ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم	أبو مسعود	٢٢/ ٦٢
لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم من فحم جهنم	أبو هريرة	٢٠/ ٣٧٨
ليهنك العلم أبا المنذر	أبي بن كعب	١/ ١٤٦
ما أبقيت لأهلك؟	عمر بن الخطاب	٣/ ٤٦٠
ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع	أنس بن مالك	٢٤/ ٣١١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما أبين من حي فهو كميتة	ابن عمر	٧/ ٧٨
ما أتم الله حج امرئ... لم يطف بين الصفا والمروة	عائشة	٢/ ٥٧٩
ما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ... إلا نزلت عليهم السكينة	أبو هريرة	٤/ ٢٨٨
ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله..	أبو هريرة	١٥/ ٢٢٦
ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة	معاوية بن أبي سفيان	١٠/ ١٠٥
ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم﴾	ثوبان	١٩/ ٩١
ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة	ابن مسعود	٣/ ٥٤٣
ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر	حذيفة	١٥/ ٤٤٩
ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن	أبو هريرة	٢٣/ ٢٣٣
ما أرى ربك إلا يسارع في هواك	عائشة	١٤/ ٤٨٥
ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة	أبو أمامة	٤/ ٧١
ما أسكر كثيره فقليله حرام	جابر بن عبد الله	٧/ ٦٣٣
ما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم	أبو هريرة	١/ ١٣٦
ما أصاب أحداً قط همّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك	ابن مسعود	٣/ ٢٨٣
ما أطيبك من بلد	ابن عباس	١٠/ ٣٥٢
ما أطيبك وأطيب ريحك	ابن عمر	٢٠/ ٣٦٨
ما أعجب رسول الله ﷺ - شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تُقى	عائشة	٢٠/ ٣٧٨
ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأفضل من الصبر	أبو سعيد الخدري	٢/ ١٦٩
ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله	ابن عمر	٢٠/ ٣٧٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
منك		
ما أعقله وما أظرفه، وما أجلده	حذيفة بن اليمان	١٥/ ٢٣٥
ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده	معدي كرب	٥/ ١١٠
ما الذي أهلكك؟	ابن عباس	٣/ ٢٩٤
ما الذي أهلكك؟	أبو هريرة	١٠/ ١٣٦
ما العمل في أيام أفضل منها في هذه [عشر ذي الحجة]	ابن عباس	١٤/ ٣١٦
ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا	عمرو بن عوف	٢٤/ ٥٤
ما ألقى البحر، وجزر عنه فكلوه	جابر بن عبد الله	٧/ ٦٨٢
ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد	أبو ذر الغفاري	٣/ ٤٥٨
ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض.	أبو ذر	٢٤/ ١٨٤
ما المسؤول عنها بأعلم من السائل	أبو هريرة	١٦/ ٢٢٨
ما أمرت بتشييد المساجد	ابن عباس	١٥/ ٢٣١
ما انبسط على وجه الأرض من النبات	ابن عباس	٢١/ ٣٥٢
ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٢٠٩
ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري	عائشة	٢٠/ ١٨٨
ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ﴾.	....	٢٤/ ٤٠١
ما أنزل الله من داء، إلا أنزل له دواء	ابن مسعود	٢/ ٣٣٠
ما أنْصَفْنا أصحابنا	أنس بن مالك	٤/ ٥٦٠
ما أنعم الله على عبد نعمة ... فيقول: ما شاء الله	أنس بن مالك	١٣/ ٢٨٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما أنعم الله علي من نعمة ... أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ	كعب بن مالك	١٠/ ٤٥٢
ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا	رافع بن خديج	١٤/ ٣١٤
ما أهلكك؟	أبو هريرة	٣/ ١٣٨
ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره	أبو الدرداء	٦/ ٥١٢
ما أول أشراط الساعة؟	عبد الله بن سلام	٢/ ٣١٦
ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا	أنس بن مالك	٧/ ٥٤٨
ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا	أبو حميد الساعدي	٢١/ ١١٧
ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي	أبو حميد الساعدي	٤/ ٦٠٧
ما بال دعوى الجاهلية؟	جابر بن عبد الله	٢٢/ ٣١٥
ما بضع السنين عندكم؟ [في قوله تعالى ﴿الم * غلبت الروم... ﴾]	عبدالله بن مسعود	١٧/ ١٥
ما بعث الله من نبي ... إلا كانت له بطانتان	أبو سعيد الخدري	٤/ ٤٣٤
ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم	أبو هريرة	٥/ ١٠٩
ما بقي شيء يقرب من الجنة ... إلا وقد بُين لكم	أم سلمة	١٠/ ٥٢٦
ما بين المشرق والمغرب قبلة	أبو هريرة، ابن عمر	٢/ ٥٣٦
ما بين النفختين: أربعون	ابو هريرة	٢٤/ ١٧
ما تذاكرون؟	حذيفة بن أسيد	٨/ ٤٤٦
ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين	عائشة	٥/ ٢٩٠
ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء		٤/ ٧١
ما ترون في هؤلاء الأسارى؟	ابن عباس	١٠/ ٢٠٦
ما ترى يا ابن الخطاب؟	ابن عباس	١٠/ ٢٠٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما ترى؟ دينار»؟ [لما نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾]	علي بن أبي طالب	٧٣/٢٢
ما تعدون الشهيد فيكم؟	أبو هريرة	٨٢/٦
ما تعدون أهل بدر فيكم؟	رفاعة بن رافع	٤٠/١٠
ما تعوذ متعوذ بمثلهما	عقبة بن عامر	٦١٢/٢٤
ما تقولون في هذا؟	سهل بن سعد	١٢٦/٥
ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله	أبو هريرة	١٠١/١٣
ما جلس قوم قط في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله	أبو هريرة	٦٤/٢٢
ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ... إلا كان عليهم ترة	أبو هريرة	٥٤٤/٢
ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت	جرير بن عبد الله	١٧٣/٦
ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت	جرير بن عبد الله	٦٥/٢٣
ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام	عائشة	٣١٣/١
ما حفظت ﴿ق والقرآن المجيد﴾ إلا من فِي رسول الله ﷺ	أم هشام بنت حارثة	٨/٢١
ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده	ابن عمر	٥٢٥/٢٤
ما حق امرئٍ مسلم، له شيء يوصي به، يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة	ابن عمر	٦٥/٣
ما حملتموني إلا على شيطان	عمر بن الخطاب	٣٠/١
ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله- عز وجل-	ابن عمر	١٣٠/٣
ما حملك على ما صنعت»؟	ابن عباس	٦٥٥/٤
ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما		١١٠/٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما	عائشة	١٠/ ٣٥
ما خير ما أعطي الناس يا رسول الله؟	أسامة بن شريك	٢٣/ ٦٧
ما رأيت الذي هو أبخل منك	جابر بن عبد الله	٥/ ٥٥٢
ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر	أنس بن مالك	٢٤/ ٣٩٤
ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ	ابن عباس	٢/ ٣٦٧
ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة	ابن عباس	٣/ ١٢٢
ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء	ابن عمر	١٠/ ٣٩٩
ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل العاقل من إحداكن	عبدالله بن عمر	١٧/ ٣٠٩
ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن	أبو سعيد الخدري	٣/ ٢٩٠
ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا	عبد الله بن عمر	٢٤/ ١٤٢
ما رُفع إلى رسول الله ﷺ أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو	أنس بن مالك	٧/ ٤٤٠
ما رؤي الشيطان في يوم هو فيه أصغر... منه في يوم عرفة	طلحة بن عبيد بن كرز	١٠/ ١٥٢
ما رُئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة	طلحة بن عبيد الله	٢٤/ ٦٠١
ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا	أبو هريرة	٦/ ٥٦٦
ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات	ابن عباس	١٠/ ٤٩٤
ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه	عائشة	٥/ ٥٣٦
ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه	عبد الله بن عمرو	٢٢/ ٢١١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما زال ربكم يقرب الساعة	قتادة	٢٢/ ١٥٩
ما زالت أكلة خيبر تعاودني	أبو هريرة	٧/ ٥٢٥
ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر	أبو هريرة	٤/ ٥٣٦
ما زنت امرأة نبي قط	الشعبي	١٧/ ٢٩٧
ما زنتا، أما امرأة نوح	ابن عباس	٢٢/ ٤٦٥
ما سافر رسول الله ﷺ سفرًا إلا صلى ركعتين	عمران بن حصين	٦/ ٣٤٠
ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم	ابن عباس	٦/ ٢٥٤
ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام	سعد بن أبي وقاص	٢٠/ ١٨٤
ما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم سليم	أنس بن مالك	٥/ ٣٨٥
ما شاء الله ثم شئت	قتيلة	٢/ ٤٩٦
ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر..	عائشة	٢٤/ ٣١٨
ما صدت بقوسك فذكرت اسم الله فكل	أبو ثعلبة	١/ ١١٩
ما صدت بقوسك فذكرت اسم الله فكل	عدي بن حاتم	٧/ ١٠٥
ما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله فكل	عدي بن حاتم	٧/ ١٠٥
ما صلى رسول الله ﷺ بعد إذ أنزلت عليه سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾إلا يقول: فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»	عائشة	٢٤/ ٥١٥
ما ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسمًا	عبدالله بن الحارث	١٦/ ١٥٨
ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم	عبد الرحمن بن سمرة	٣/ ١٣٦
ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة ولا خادمًا	عائشة	٥/ ٥١٩
ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط	عائشة	٢٣/ ٦٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل	أبو أمامة	٣/ ٢٠٢
ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل	أبو أمامة	٢٠/ ٦٥
ما طلعت الشمس ... على أفضل من أبي بكر		٦/ ٨١
ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر		٢٤/ ٢٥٧
ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما	أبو بكر	٣/ ٨٨
ما عال من اقتصد	ابن مسعود	١٣/ ٨٨
ما عام بأكثر مطرًا من عام	ابن عباس	١٥/ ٤٢٨
ما على أحدكم إن وجد سعة..	عائشة	٢٢/ ٣٠٢
ما على أحدكم لو اشترى ثوبين..	عبد الله بن سلام	٢٢/ ٣٠٢
ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها	عبادة بن الصامت	١٩/ ٢٢٢
ما على عثمان ما عمل بعد هذا	عبد الرحمن بن خباب	١٠/ ٥١١
ما عندنا إلا ما في كتاب الله	علي بن أبي طالب	٦/ ٥١
ما فعلت في الذي أرسلتك؟	جابر بن عبد الله	٦/ ١٨٠
ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر..	جابر	٢٣/ ٢٨٠
ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾	علي بن أبي طالب	٥/ ٦٢٦
ما قتل ربكم، فلا تأكلون	ابن عباس	٨/ ٣٢٣
ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم	ابن عباس	٢٣/ ٢٠١
ما قوام هذا الأمر؟ قال معاذ: ثلاث..	عمر بن الخطاب	١٧/ ٥٠
ما كان الرفق في شيء إلا زانه	عائشة	٤/ ٣٨٩
ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ألم يأن	ابن مسعود	٢١/ ٥٣٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ إلا أربع سنين		
ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بـ«ق» و«اقتربت»	عمر بن الخطاب	٨/٢١
ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً	عبد الله بن الحارث	٢٦٧/٢١
ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، على إحدى عشرة ركعة	عائشة	٦٨/٢١
ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب	جابر بن عبد الله	٤٤٢/٣
ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير	ابن عباس	٨٦/٣
ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟	كعب بن عجرة	١٥٢/٣
ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر	أبو هريرة	٨٢/٦
ما لعبدي المؤمن إذا قبضت صفيه ... ثم احتسبه إلا الجنة	أبو هريرة	١٧٠/٢
ما لعبدي المؤمن جزاء إذا أخذت حبيبتيه فصبر إلا الجنة	أنس بن مالك	٢٦٤/٢٤
ما لفظه ميتًا فهو طعامه	أبو هريرة	٦٦٧/٧
ما لك يا فلان؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟		١٦٧/٢
ما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب	ابن عباس	٦٧٨/٤
ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور	زيد بن ثابت	٧/٩
ما لي أراك متجملة؟	أبو السنابل بن بعكك	٣٦٦/٣
ما لي أراكم عزين؟	جابر بن سمرة	١٦٦/٢٣
ما لي أُنازع القرآن	أبو هريرة	٢٧٦/١
ما لي وللدنيا	ابن مسعود	١٣٧/٢
ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها	ابن مسعود	٥٥٥/٢١
ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء	عائشة	٤٢٢/١٧
ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني	عمرو بن مرة	٤٤٨/١٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما مُطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين	أبو أمامة	٢١/ ٤٦٥
ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه	المقدام بن معدي كرب	٥/ ١٤٧
ما من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة	ابن مسعود	١٠/ ٩٢
ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ... إلا الشهيد	أنس بن مالك	٦/ ١٥٤
ما منَ الأنبِيَاءِ نَبِيٌّ إلَّا أُعْطِيَ ما مِثلهُ آمَنَ علَيهِ البَشَرُ	أبو هريرة	١٩/ ١٦٨
ما من امرئ يخذل امرأً مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته	جابر بن عبد الله	٢٠/ ٣٦٤
ما من أمير يلي من أمر المسلمين شيئًا	معقل بن يسار	٦/ ٤٠
ما من أيام أعظم عند الله... من هذه الأيام العشر	ابن عمر	١٤/ ٣١٦
ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر	ابن عباس	٢٤/ ١٨٣
ما من ثلاثة في قرية ولا بدو	أبو الدرداء	٢٢/ ٨٤
ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد		٤/ ٤٨٣
ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة ... من البغي وقطيعة الرحم	أبو بكرة	٦/ ٥٩٣
ما من راع يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة	معقل بن يسار	٦/ ٤٠
ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة وهو أجذم	عبادة بن الصامت	١٤/ ١٢٢
ما من رجل له مال لا يؤدي حق ماله إلا جعل له طوقًا في عنقه	ابن مسعود	٤/ ٦٤٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ... ثم يصلي ركعتين... إلا غفر الله له	علي بن أبي طالب	٤/ ٤٨٩
ما من رجل يذنب... ثم يستغفر الله إلا غفر الله له	علي بن أبي طالب	٤/ ٤٨٩
ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد ... من حسن الخلق	أبو الدرداء	٩/ ٢٦
ما من صاحب ذهب ... إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار	أبو هريرة	١٠/ ٣٣٦
ما من صاحب كنز	أبو هريرة	٢٣/ ١٥٠
ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)	أم سلمة	٢/ ٥٥٧
ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة	أبو ذر	٥/ ٦٣٣
ما من عبد يسترعيه الله رعية..	معقل بن يسار	٢٢/ ٤٥٣
ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا	أنس بن مالك	٤/ ٦٣٥
ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهي	أنس	٢١/ ٥٤٤
ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي هم أَعَزُّ وأكثر ممن يعمله	جرير	١٠/ ٧٩
ما من مسلم يدعو الله- عز وجل- بدعوة، ليس فيها إثم... إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال	أبو سعيد الخدري	٣/ ٩٠
ما من مسلم يذنب ذنبًا فيتوضأ ... إلا غفر له	أبو بكر الصديق	١١/ ٣٢٢
ما من مسلم يصيبه أذى ... إلا حط الله به عنه من سيئاته	ابن مسعود	٢/ ٥٥٨
ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما	البراء بن عازب	٦/ ١٧٢
ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان	أبو هريرة	١/ ٢١
ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة	أبو هريرة	١٧/ ٢٣٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر	أبو هريرة	٢/ ٨٧
ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة	عائشة	٦/ ٨٣
ما من والٍ يلي رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته..	معقل بن يسار	١٩/ ١٨٩
ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلاالثقلين	أبو الدرداء	٢٤/ ٢٩٦
ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان	أبو هريرة	٣/ ٤١٧
ما من يوم، يصبح العباد فيه	أبو هريرة	٢١/ ٥٠٩
ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان	عدي بن حاتم	٢٤/ ١٥٤
ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة	علي	٢١/ ٣٣٦
ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن		٥/ ٥٥٦
ما منكم من أحد إلا وله منزلان	أبو هريرة	١٤/ ٤٤٨
ما منكم من أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء	عمر بن الخطاب	١٩/ ١٢٠
ما منكم من أحد، وما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار	علي بن أبي طالب	٢٤/ ٢٩٦
ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط	عمرو بن دينار	٩/ ١٨٨
ما نزل بلاء إلا بذنب، وما رُفع إلا بتوبة	ابن عباس	١٠/ ١٦٤
ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر	أبو هريرة	٢٤/ ٣٠٢
ما نقص مال من صدقة	أبو هريرة	٢١/ ٢٥٩
ما نقصت صدقة من مال	أبو هريرة	٢/ ٣٨٠
ما هاتان السكتتان؟	سعيد	١/ ٣٠٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟		٢/ ١١٥
ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟	علي بن أبي طالب	٧/ ٦٣٧
ما هلك مال في بر	عبادة بن الصامت	١٤/ ٤٣٣
ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر	عائشة	٥/ ٥٧١
ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر	أسيد بن حضير	٧/ ١٤٢
ما يبكيك يا بنية؟	ابن عباس	١٠/ ١٠٠
ما يبكيك؟	أنس بن مالك	٤/ ٥٣٧
ما يدريك أن الله أكرمه؟	أم العلاء	١٢/ ٢٩٥
ما يُدريه أنها رقية؟	أبو سعيد الخدري	١/ ١٣٥
ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة ... حتى يلقى الله وما عليه خطيئة	أبو هريرة	٣/ ٢٣٣
ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه	أبو هريرة	٤/ ٥٣٥
ما يزع الله بسلطان أعظم مما يزع بالقرآن	عمر بن الخطاب	٥/ ٥١٧
ما يسرني أن عندي مثل أُحد ذهباً تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار	أبو ذر	١٠/ ٣٣٥
ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب	أبو هريرة	١٥/ ٨١
ما يصيب المسلم من نصب... إلا كفر بها من خطاياه	أبو موسى الأشعري	٦/ ١٣٥
ما يصيب المؤمن من وصب ... إلا كفر به من خطاياه	أبو هريرة	٢/ ٥٥١
ما يصيب عبدًا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب	أبو موسى الأشعري	٦/ ١٣٥
ما يقول عبادي؟	أبو هريرة	٢/ ٣٥
ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم	أبو سعيد	٢٣/ ١٣٥
ما يمنعك يا جبريل أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟	ابن عباس	١٣/ ٤٤٤
ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي	أبو جمعة الأنصاري	٢١/ ٥٠٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى	ابن عباس	١٨/ ٣٣٧
ما ينبغي لنبي إذا لبس لَأْمَته أن يضعها حتى يحكم الله	جابر بن عبد الله	٤/ ٤٤٧
ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرًا فأغناه الله	أبو هريرة	٧/ ٤٨٣
ماء زمزم لما شرب له	جابر بن عبد الله	٤/ ٣٤٠
مات رجل من المنافقين، فلم يصل عليه حذيفة	زيد بن وهب	١٧/ ٢١٧
ماذا أعددت لها؟	أنس بن مالك	١٢/ ١٨٩
ماذا أُنْزِلَ من الخَزَائن؟	أم سلمة	٢/ ٣٣٠
ماذا عهد إليك ربك؟	مالك بن صعصعة	٥/ ٤٣٣
الماعون: المعروف	محمد بن كعب	٢٤/ ٤٨٦
ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل	أنس بن مالك	٢٤/ ٤٩٣
ماؤها [الكمأة] شفاء للعين	سعيد بن زيد	٢/ ١٩٨
المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور	أسماء بنت أبي بكر	٤/ ٦٨٣
متعة الطلاق: أعلاه الخادم	ابن عباس	٣/ ٣٧٦
المتوفى عنها والمطلقة [﴿أجلهن أن يضعن حملهن﴾]	أبي ابن كعب	٢٢/ ٤٠٩
متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل	أبو هريرة	١٧/ ١٥٧
مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد	أبو هريرة	١٣/ ٨٧
مثل الجليس الصالح كحامل المسك	أبو موسى الأشعري	٦/ ٨٤
مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير	جبير بن نفير	١٦/ ٢٧٣
مثل الصلوات الخمس كنهر جار غَمْرٍ عند باب أحدكم	أبو هريرة، وجابر بن عبد الله	٣/ ٣٩٧
مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة	النعمان بن بشير	٤/ ٤١٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا	أبو موسى	٢١/ ٥٩٧
مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين	ابن عمر	٦/ ٥٤٤
مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تُفَيِّئُهُ	عبدالله بن كعب	١٥/ ٢٧١
مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد	النعمان بن بشير	٢/ ١٩٤
مثل أمتي مثل المطر	عمار بن ياسر	٢١/ ٤٢٠
مثل ما بعثني الله به من الهدى والنور كمثل غيث أصاب أرضًا	أبو موسى الأشعري	٥/ ٤٢٧
مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً	أبو موسى الأشعري	٣/ ٢٢٤
مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً	ابن عمر	٢١/ ٥٩٧
مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا فأحسن بناءها إلا موضع لبنة	جابر بن عبدالله	١٧/ ٣٧٣
مثلي ومثل الساعة كفرسي رهان	سهل بن سعد	٢/ ٤١٠
مثلي ومثل الساعة كهاتين	سهل بن سعد	٢١/ ٢٧٦
مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني	أبو موسى الأشعري	٢/ ٤١٠
مجدني عبدي	أبو هريرة	١/ ٨٦
محمد رسول الله، عبدي ورسولي	عبد الله بن عمرو	١/ ١٨٥
مدمن الخمر كعابد وثن	أبو هريرة	٧/ ٦٣٤
المدينة كالكير: تنفي خبثها	جابر بن عبد الله	١٤/ ٢٧٨
مر النبي ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير	ابن عباس	٢٤/ ٥٤٠
مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنيف وهو يغتسل	أبو أمامة	٢٣/ ١٠٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محممًا مجلودًا	البراء بن عازب	٧/ ٣٧٢
مر علينا النبي ﷺ في نسوة فسلم علينا	أسماء بنت يزيد	٦/ ١٧٣
مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف	أبو عمران الجوني	٢٤/ ٢٢٤
مُر لي من مال الله الذي عندك	أنس بن مالك	٤/ ٥٩١
المرء على دين خليله	أبو هريرة	١٥/ ٤١٢
المرء مع من أحب	ابن مسعود	٦/ ٨٠
المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها	ابن عمر	٥/ ٥١٢
المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان	عبدالله بن مسعود	١٥/ ٣٢٤
مرحبًا بابنتي	عائشة	٦/ ١٨٢
مرحباً بالأخ الصالح	أنس بن مالك	٢/ ٤٥٧
مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح	أبو ذر	٦/ ٥٨٣
مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح	مالك بن صعصعة	١٥/ ٣٤٨
مرحبًا يا أم هانئ	أم هانئ	٦/ ١٨٢
مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه فرد إشارة	صهيب الرومي	٦/ ١٨٠
مرض أبو طالب، فأتته قريش، وأتاه رسول الله ﷺ يعوده	ابن عباس	١٨/ ٣٦٢
مره فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر	ابن عمر	٣/ ٣٤١
مرها فلتصبر وتحتسب	أسامة بن زيد	٢/ ١٧٠
مروا أبا بكر فليصل بالناس	عائشة	١١/ ٣٨٣
مروا أبناءكم بالصلاة لسبع	سبرة بن معبد الجهني	٢٢/ ٤٥٢
مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	٥/ ٥١٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
المس: الجماع	ابن عباس	٤/ ١٩٩
المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب [لا يكلمهم الله]	أبو ذر	٣/ ٥٠٩
المستبان ما قالا فعلى البادي منهما ما لم يعتد المظلوم	أبو هريرة	٦/ ٥٦٦
مستريح ومستراح منه	أبو قتادة	٢١/ ٤٧١
المستشار مؤتمن	أبو هريرة	٤/ ٦٠٣
مسح رأسه ثلاثًا	عثمان بن عفان	٧/ ١٧٥
مسح رأسه مرة واحدة	عثمان بن عفان	٧/ ١٧٥
مسكين ... رجل ليس له امرأة		١٢/ ٤١٠
المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٥٦
المسلمون تتكافأ دماؤهم	علي بن أبي طالب	٣/ ٥٧
المسلمون على شروطهم	عمرو بن عوف المزني	٧/ ٢٦
مضت الهجرة لأهلها	مجاشع	٣/ ٢٤٧
مطل الغني ظلم	أبو هريرة	٤/ ٢٨٢
مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين	عائشة	٦/ ٨٣
معاذ الله أن نعبد غير الله	ابن عباس	٤/ ٢٨٣
المعذب في قبره يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين	البراء بن عازب	٢١/ ٥٦٠
معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج	عائشة	٣/ ١٠١
المغضوب عليهم اليهود	عدي بن حاتم	٤/ ٤٠٩
مفاتح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله	ابن عمر	٨/ ١٥٣
مفاتح خمس: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾	ابن عمر	١٧/ ١٥٦
المقسطون على منابر من نور	عبد الله بن عمرو	٥/ ٥٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه	ابن عباس	١٢/ ٣٦
ملعون من أتى امرأة في دبرها	أبو هريرة	٣/ ٢٩٥
من ابتاع عبدًا وله مال		١٢/ ٤٢١
من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله	زيد بن أسلم	٥/ ٢٥٧
من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله	ابن عمر	٥/ ٤١٣
من أُبلي بلاءً فذكره فقد شكره	جابر	٢٤/ ٣٢٢
مَن آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مُثّل له ماله يوم القيامة شجاعًا	أبو هريرة	٤/ ٦٤٨
مَن أتىٰ كاهناً أو عرَّافاً أو ساحراً، فصدقه ...	ابن مسعود	٢/ ٣٣٤
من أحب أن يبسط له في رزقه ... فليصل رحمه		٤/ ٥٢٥
من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله	عبد الله بن عمرو	٤/ ٣٧٤
من أحب أن يقرأ القرآن ... فليقرأه على قراءة ابن أم عبد	عمر بن الخطاب، أبي بن كعب	١٤/ ١٤٨
من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله	ابن عباس	١٩/ ٧٣
من أحب دنياه أضر بآخرته	أبو موسى الأشعري	٢٤/ ٢١٦
من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه	عبادة بن الصامت	٢/ ٣٠٩
من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه	عبدالرحمن بن أبي ليلى	٢١/ ٤٧٣
من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه	عائشة	٢١/ ٤٧٣
من أحب لقاء الله أحب الله لقائه	أبو هريرة	٣/ ٤١٤
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد	عائشة	١/ ١٨٣
من أحرم بالحج أو بالعمرة، فليس له أن يحل حتى يتمهما	ابن عباس	٣/ ١٤٧
من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ... فتلك استهانة	ابن مسعود	٦/ ٥٥٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية	ابن مسعود	١٠/ ١١٩
من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»	أبو هريرة	١٧/ ١٢٨
من أحيا أرضًا ميتة فهي له	سعيد بن زيد	٤/ ٦٨٤
من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه	أبو هريرة	٣/ ٥٧٦
من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه	عائشة	٣/ ٥٩٠
من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه..	ابن عمر	٢٢/ ٤٢٧
من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة	ثابت بن الضحاك	٤/ ٦٨٣
من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه	ابن عمر	٢١/ ٥٦٢
مَن استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولًا	عدي بن عميرة	٤/ ٦٠٧
من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره	عدي بن عميرة	٤/ ٦٠٧
من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون	ابن عباس	١٣/ ٩٩
من أسلف فليسلف في كيل معلوم	ابن عباس	٣/ ٥٦٢
من أصاب حدًّا فعجل له عقوبته ... فالله أعدل من أن يثني على عبده العقوبة في الآخرة	علي بن أبي طالب	٧/ ٣٢٨
من أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارة له	عبادة بن الصامت	٥/ ٤٠٨
من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ١٥
من أصبح آمنًا في سربه... فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها	عبيد الله بن محصن	٧/ ٢٧٢
من أصبح منكم اليوم صائمًا؟، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا	أبو هريرة	٢٤/ ٣٠٣
من أُصيب بقتل أو خَبْلٍ، فإن أراد يختار إحدى ثلاث	أبو شريح الخزاعي	٣/ ٥٤
من أطاعني فقد أطاع الله	أبو هريرة	٦/ ٤٩
من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه فلا دية	أبو هريرة	١٥/ ١٥٣
مَن أظلم ممَّن ذهب يَخلق كخَلْقي	أبو هريرة	٤/ ٢٠٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار	عقبة بن عامر الجهني	٢٤/ ٢٦٩
من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار	أبو هريرة	٧/ ٦٠٩
من اغتسل يوم الجمعة ... ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة	أبو هريرة	١٤/ ٣٤٨
من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله	أيوب الأنصاري	٢٢/ ٣٠٢
من اقتنى كلبًا ... نقص من أجره كل يوم قيراطان	ابن عمر	٧/ ١٠٩
من اقتنى كلبًا إلا كلب صيد أو ماشية..	عمر بن الخطاب	٢٣/ ٦١
من اقتنى كلبًا ليس بكلب صيد ... فإنه ينقص من أجره قيراطان	أبو هريرة	٧/ ١٠٩
من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا	ابن عباس	٢٢/ ٤٠٠
من أَكْذَبَ نفسه أجزتُ شهادته فيما يستقبل	سعيد بن المسيب	١٥/ ٥٣
من التمس رضا الله بسخط الناس	عائشة	٢٢/ ١٩٣
من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه		٤/ ٤٠٩
من الكبائر شتم الرجل والديه	عبد الله بن عمرو	٨/ ٢٨٩
من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله أعطي لواء الغدر يوم القيامة	عمرو بن الحمق	١٠/ ٢٦٥
من أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، فأنا بريء من القاتل	عمرو بن الحمق	١٠/ ٢٦٥
من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله..	ابن عباس	١٧/ ٢٣٤
من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله	كعب بن عمرو	٣/ ٥٥١
من أَنْظَر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة	بريدة بن الحصيب	٣/ ٥٥١
من أنظر معسراً، فله بكل يوم مثلاه صدقة	بريدة بن الحصيب	٣/ ٥٥١
من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله هذا	أبو هريرة	٢٤/ ٣٠٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
خير		
من أنفق زوجين من مال في سبيل الله دعي من أبواب الجنة	أبو هريرة	١٢٠/١٩
من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة	عمران بن حصين	٤٠٣/٢٢
من باع عبدًا له مال فماله للذي باعه	ابن عمر	١٧٣/٥
من بدَّل دينه فاقتلوه	ابن عباس	٣٢٦/٤
مَن بَطَّأَ به عمله لم يُسْرِع به نَسَبُه	أبو هريرة	٥٢٨/٢
من بنى لله بيتًا ولو كمفحص قطاة	جابر بن عبد الله	٣٠٣/٥
من بنى لله بيتاً ولو كمفحص قطاة..	عثمان	٢٢٨/١٥
من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته	عمر بن الخطاب	٢٤٣/٢
من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم	أبو هريرة	١٣٨/٣
من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله	بريدة بن الحصيب	٣٨٦/٣
من تشبه بقوم فهو منهم	ابن عمر	٢٣٤/١
مَنْ تَصَدَّق بِعَدْلِ تمرةٍ مِن كسبٍ طيبٍ ... وإن الله يتقبلها بيمينه	أبو هريرة	٣٨٠/٢
من تَعَارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. استجيب له	عبادة بن الصامت	٢٠٠/٢١
من تعلق تميمة فقد أشرك	عقبة بن عامر	٤٨٨/١١
من تعلق شيئاً وكل إليه	أبو هريرة	٣٣٤/٢
من تعلم الفرائض من غير علم بها من القرآن ما أسرع ما ينساها	ربيعة الرأي	١٩١/٥
من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا	أبو سعيد	٣٦٠/١٩
من تقرب إليَّ شبراً تقربت منه باعاً	أبو هريرة	٨٨/٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار	ابن عباس	٢٢/ ٢٩٢
من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء	عمر	٢١/ ١٠٤
من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه	حمران	٧/ ١٦٢
من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد	أبو ذر الغفاري	٨/ ٤٥٣
من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله	سمرة بن جندب	١٠/ ٢٢٠
من جامع مشركا أو سكن معه فإنه مثله	سمرة بن جندب	٦/ ٣٠٥
من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة	عبد الله بن عمرو	٥/ ٥٥٠
من جعل الهموم همًّا واحدًا هم المعاد، كفاه هم دنياه	ابن مسعود	١٤/ ١٣٠
من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه	أبو هريرة	٢١/ ٢٠٠
من جهز غازياً فقد غزا	زيد بن خالد	٣/ ١٣٦
من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله	ابن عمر	٦/ ١٦١
من حام حول الحمىٰ يُوشك أن يرتع فيه	النعمان بن بشير	١٧/ ٣٠٦
من حج ولم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه	أبو هريرة	٣/ ١٦٧
من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين	سمرة بن جندب، المغيرة بن شعبة	٦/ ١٥٢
من حدثك أن محمدًا كتم شيئًا مما أنزل إليه فقد كذب	عائشة	٧/ ٥٣٢
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه	أبو هريرة	٢/ ١٥٩
من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال	أبو الدرداء	١٣/ ٢١٧
من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك	ابن عمر	١١/ ٤٨٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير	أبو هريرة	١١٩/١٥
من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئٍ مسلم	ابن مسعود	٢٠٩/١
من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأتها	أبو هريرة	٣٠٢/٣
من حلف فاستثنى فإن شاء مضى وإن شاء ترك	ابن عمر	٦٠٢/٧
من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله	أبو هريرة	٢٢٩/٢١
من حلف في قطيعة رحم ... فبره ألا يتم على ذلك	عائشة	٦١٥/٧
من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل	أبو هريرة	٣٨٧/٢١
من خرج عن الطاعة ... فمات مات ميتة الجاهلية	أبو هريرة	٥٨/٦
من خرج من بيته مجاهدًا في سبيل الله	عبد الله بن عتيك	٣٠٢/٦
من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة، لا حجة له	ابن عمر	٥٨/٦
من دخل دار أبي سفيان فهو آمن	أبو سفيان	٣٠٤/١٤
من دخل دين قوم فهو منهم	ابن عباس	٤٥٧/٧
من دخل سوقًا من الأسواق..	عمر بن الخطاب	٣٠٥/٢٢
من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه	أبو هريرة	٤٦٧/٢
من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه	أبو هريرة	٢٦١/٢١
من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان فإني قد غفرت له وأحبطت عملك	جندب	٢٥١/٢١
من ذلك الجزء [الرحمة] يتراحم الخلائق	أبو هريرة	٧٠/١
من رأى شيئًا من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثًا	أبو سعيد الخدري	٣٣/١
من رأى صاحب بلاء، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك	ابن عمر	٢٥٧/٢١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
به..		
من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر	ابن عباس	٦/ ٥٨
من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده	أبو سعيد الخدري	٤/ ٣٨٧
من ربك؟		٢/ ١١٥
من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي	جابر بن عبد الله	٢٢/ ٢٧٦
من رد عن عرض أخيه المسلم رد الله عن وجهه النار يوم القيامة	أبو الدرداء	١٥/ ١٠٤
مَنْ رَدَّتْه الطيرة عن حاجته فقد أشرك	عبد الله بن عمرو	١١/ ٤٨٨
من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية	عائشة	٦/ ٥٧٣
من زعم أنه يعلم- يعني: النبي ﷺ- ما يكون في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية..	عائشة	١٦/ ٢٢٣
من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء	سهل بن حنيف	٦/ ٢٧٨
من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً	أبو هريرة	٣/ ٥٣٣
من سأل بالله فأعطوه	ابن عمر	٥/ ٤١
من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف	أبو سعيد الخدري	٣/ ٥٣٣
من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين.. غفرت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر	أبو هريرة	٢١/ ٧٠
من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن	عمر بن الخطاب	١٩/ ٢٤١
من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن	عامر بن ربيعة	٢٠/ ٣٤٨
من سره أن يبسط له في رزقه	أنس بن مالك	٢٢/ ٣٣٨
من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فليبسر على معسر	أسعد بن زرارة	٣/ ٥٥١
من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله منها	عمر بن الخطاب	٤/ ٤١٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر	محمد بن كعب القرظي	٣/ ٥٥٢
من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات	ابن مسعود	٨/ ٤١٨
من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا	أبو هريرة	١٢/ ٤٤٢
من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين..	عبد الله بن عمر	٢٤/ ٨٥
من سكن البادية جفا	ابن عباس	٧/ ٦٥٨
من سلك طريقًا يطلب/ يلتمس فيه علمًا	أبو الدرداء	١٨/ ١٥٠
من سمّع الناس بعمله سمّع الله به وحقره وصغره	ابن عمر	٢٤/ ٤٨٥
من سمع بالدجال فلينأ عنه	عمران بن حصين	٣/ ٢٥٤
من سمَّع سمَّع الله به	جندب	٦/ ٥٥٠
من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده	جرير بن عبدالله	١٨/ ١٨٩
من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها	جرير بن عبد الله	٢/ ٤٦٧
من سئل عن علم علمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار	أبو هريرة	٢/ ٥٨٣
من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار	أنس بن مالك	٣/ ٥٦٤
من شاء لاعنته ما نزلت: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها: ﴿والذين يتوفون منكم... ﴾	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٤١٠
من شأنه: أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً	أبو الدرداء	٢١/ ٣٧٣
من شرب الخمر فاجلدوه		٧/ ٦٥٢
من شك في أن أول المحشر ههنا- يعني الشام-	ابن عباس	٢٢/ ١٠٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا... فهو المسلم		١٠/ ٢٥٧
من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله	عبادة بن الصامت	١٣/ ٤١٤
من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ	عمار بن ياسر	٢٠/ ٣٢٨
من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه	أبو هريرة	٣/ ٥٠٢
من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوّالٍ؛ فكأنّما صام الدّهر كلّه	أبو أيوب الأنصاري	٨/ ٤٥٢
من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوّالٍ؛ فكأنّما صام الدّهر كلّه	أبو ذر الغفاري	٨/ ٤٥٢
من صلى البردين دخل الجنة	أبو موسى	٣/ ٣٨٦
من صلى الصبح فهو في ذمة الله	جندب بن عبد الله	١/ ٥٥
من صلَّى صلاة لم يقرأ فيها بأُم القرآن فهي خداج	أبو هريرة	١/ ٨٥
من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك	البراء بن عازب	٢٤/ ٤٩٤
من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا	أبو هريرة	١٧/ ٤٤٩
من صنع إليكم معروفًا فكافئوه	ابن عمر	٦/ ١٨٢
من ضار ضار الله به	أبو صرمة	٣/ ٣٤٠
من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين	عائشة	٣/ ٥٨٩
مَن عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب	أبو هريرة	٤/ ٥٤٤
من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر		٥/ ٤٧٦
من عرج أو كسر أو مرض فقد حل	عكرمة بن الحجاج بن عمرو	٣/ ١٤٨
مَن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر	أبو هريرة	٢/ ٣٣٤
من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم	ابن مسعود	٢٠/ ٩٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه	أبو هريرة	١/ ١٨٣
من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد	عائشة	١/ ١٨٤
من عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به	ابن عباس	٢/ ٢٦٥
من غسّل واغتسل يوم الجمعة	أوس بن أوس الثقفي	٢٢/ ٣٠٠
من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله	ابن عمر	٣/ ٣٨٦
من فعل كذا وكذا فله من النفل	ابن عباس	١٠/ ١٤
من فقه الرجل: رفقه في معيشته	أبو الدرداء	١٥/ ٤٤٩
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله	أبو موسى الأشعري	٢/ ٥٤٧
من قال حين يصبح ثلاث مرات..	معقل بن يسار	٢٢/ ١٧٨
من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله		٣/ ٤٦٧
من قال هلك الناس فهو أهلَكُهم	أبو هريرة	١٧/ ٤٧٦
من قال: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء...	عثمان بن عفان	١/ ١٢١
من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... كانت له عدل عشر رقاب	أبو هريرة	١/ ٥٨
من قال: لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾	ابن عباس	١٩/ ٢٢٦
من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.	أبو هريرة	٢٤/ ٣٦٣
مَن قُتِل دون ماله فهو شهيد	عبد الله بن عمرو	١/ ٢٠١
من قتل عبده قتلناه	سمرة بن جندب	٧/ ٤٣٢
من قتل في سبيل الله فهو شهيد	أبو هريرة	٦/ ٨٢
من قتل له قتيل فهو بخير النظرين	أبو هريرة	١٣/ ٩٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة	عبد الله بن عمرو	٦/ ٢٢٤
من قتل نفسه بحديدة عذب بها في نار جهنم	ثابت بن الضحاك	٥/ ٤٥٧
من قذف مملوكًا له بالزنا أُقيم عليه الحد يوم القيامة..	أبو هريرة	١٥/ ٥١
من قرأ (حم المؤمن) إلى: «إليه المصير»	أبو هريرة	٢٤/ ٦١٤
من قرأ «حم المؤمن» إلى ﴿إليه المصير﴾	أبو هريرة	١٩/ ١٣١
من قرأ «يس» في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له	جندب بن عبدالله	١٨/ ١٧٩
من قرأ «يس» في ليلة أصبح مغفورًا له	أبو هريرة	١٨/ ١٧٩
من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه	أبو مسعود الأنصاري	٢٤/ ٦١٣
من قرأ الآيتين من سورة البقرة كفتاه	أبو مسعود لأنصاري	١/ ٥٨
من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، عصم من فتنة الدجال	أبو الدرداء	١٣/ ٢١٧
من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت	أبو أمامة	٢١/ ٧١
من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة	ابن مسعود	٢/ ٢٩
من قرأ سورة النساء فعلم ما يحجب، مما لا يحجب علم الفرائض	ابن عباس	٥/ ٩
من قرأ منكم بالتين والزيتون..	أبو هريرة	٢٣/ ٣١٦
من قرأ:﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة	سهل بن معاذ بن أنس الجهني	٢٤/ ٥٤٦
من قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له بقطعة من النار	أم سلمة	٣/ ١١٦
من قطعها قطعته [الرحم]	عبد الرحمن بن عوف	١/ ٧٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من كان بينه وبين قوم عهد فلا يَحُلن عقدة	سليم بن عامر	١٠/ ١٧٥
من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت	ابن عمر	٥/ ٤٥
من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته	ابن عمر	٣/ ٥٨٠
من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة	عبد الله بن شداد	١/ ٢٧٧
من كان له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة	أبو هريرة	٥/ ٨١
من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات	أبو بكر الصديق	٤/ ٥٣٥
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت	أبو هريرة	٥/ ١٥١
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره	أبو شريح العدوي	٥/ ٥٣٦
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه	أبو شريح العدوي	٧/ ٤٦٩
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه	أبو هريرة	٢١/ ١١٩
من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه	زيد بن ثابت	٦/ ٤٤٩
من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه	أنس بن مالك	٢١/ ١٥٠
من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها	أبو هريرة	٥/ ٢٧٦
من كتم علمًا مما ينفع الله به في أمر الناس... ألجمه الله		٧/ ٥٣٤
من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار	عبد الله بن عمرو	٤/ ٢٩٢
من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق	أنس بن مالك	٤/ ٤٨٤
من كنت مولاه فعلي مولاه		٥/ ٤٧٠
مَن لا يَرحم لا يُرحم	أبو هريرة	٤/ ٥٩٠
من لا يشكر الناس لا يشكر الله	أبو هريرة	٣/ ٤١٥
من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة	عمر بن الخطاب	١٤/ ٢٩٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من لعب النرد فقد عصى الله ورسوله	أبو موسى الأشعري	٧/ ٦٣٦
من لعب النردشير، فكأنما غمس يده في لحم خنزير	بريدة بن الحصيب	٧/ ٦٣٦
من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه	بريدة بن الحصيب	٧/ ٨٠
من لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة	أبو ذر	٥/ ٤٦١
من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر..	ابن عباس	١٦/ ٤٤٩
من لم يأكله [الربا] منهم ناله من غباره	أبو هريرة	٣/ ٥٤١
من لم يتعلم الفرائض والحج والطلاق فبم يفضل أهل البادية؟	ابن مسعود	٥/ ١٧١
من لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج	ابن عمر	٣/ ١٥٧
من لم يدع الله سبحانه غضب الله عليه	أبو هريرة	١٩/ ٢٢٢
من لم يذبح فليذبح باسم الله	جندب بن عبد الله	١/ ٦٥
من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ٢٧١
من لم يسأل الله يغضب عليه	أبو هريرة	١٩/ ٢٢٢
من لم يسجدهما فلا يقرأهما	عقبة بن عامر	١٤/ ٤٣٤
من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم	حذيفة	١٩/ ٣٠٥
من لم يوتر فليس منا	أبو هريرة	٢٣/ ٢٥١
من مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله	عبد الله بن عتيك	٧/ ٥٥
من مات في سبيل الله ... فهو في الجنة	عمر بن الخطاب	١/ ٢٠١
من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة	ابن مسعود	٨/ ٤٢٠
من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق	أبو هريرة	٣/ ٢٤٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم	ابن عباس	٤/ ٢٥١
من ملك ذا رحم محرم عتق عليه	ابن عمر	٥/ ٣١٦
من نذر أن يطيع الله فليطعه	عائشة	٣/ ٥٣٠
من نذر أن يطيع الله فليطعه	عائشة	٢٣/ ٣٣٠
من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ...	خولة بنت حكيم	١/ ٤٩
من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس كان قمنًا أن لا تسد حاجته	ابن مسعود	٢٢/ ٤٠٣
من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها	أنس بن مالك	٣/ ٦٢١
من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه	أبو هريرة	٣/ ٦٢١
من نفس عن غريمه- أو محا عنه- كان في ظل العرش يوم القيامة	أبو قتادة	٣/ ٥٥٢
من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا	أبو هريرة	٦/ ١٦٠
من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة	أبو هريرة	٢٠/ ٣٥٦
من نُوقش الحساب عُذب	عائشة	١٥/ ٣٦٢
من نوقش الحساب يهلك	عائشة	٤/ ١٠٨
من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه	أبو هريرة	١/ ٣١٢
من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به	ابن عباس	٥/ ٢٤٠
من وصلها وصلته [الرحم]	عبد الرحمن بن عوف	١/ ٧٠
من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة	عمرو بن عبسة السلمي	٢٤/ ٢٦٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس	أبو هريرة	١٨٤/١٧
مَن يدعوني فأستجيب له		٨٥/٤
من يذهب في إثرهم	عائشة	٦٢٩/٤
من يرد الله به خيراً يصب منه	أبو هريرة	٥٥٨/٢
من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين	معاوية	١٧/٦
من يردهم عنا وله الجنة	أنس بن مالك	٥٦٠/٤
من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهل بيتي	عائشة	٣١٦/١٧
من يقرض غير عديم ولا ظلوم	أبو هريرة	٤١٢/٣
من يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي	جابر	١٣٨/٢٣
من يهد الله فلا مضل له	ابن عباس	٧٠/٩
من يهد الله فلا مضل له	ابن مسعود	١٥٠/٢٠
منتهى أمره من أسفل الأرضين [في معنى قوله تعالى ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾]	ابن عباس	١٥٠/٢٣
منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه	عبد الله بن مسعود	٥٩٩/٢٤
منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا	عبد الله بن مسعود	٣٥٣/٢٤
منى مناخ من سبق	عائشة	٢٩٩/١٤
المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض	جرير بن عبد الله	٢١٨/١٠
المهاجرون والأنصار والطلقاء من قريش ... بعضهم أولياء بعض	ابن مسعود	٢١٩/١٠
المهيمن: الشهيد	ابن عباس	١٧٢/٢٢
مَوْتُ الفَجْأَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ	عبيد بن خالد	٢١٩/٩
المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة	معاوية	٢٩٩/١٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
مورثة مالاً وفي الحي رفعة	لما ضاع فيها من قروء نسائكا	٣/ ٣١٥
موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها	سهل بن سعد	٢/ ٢٦٠
المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف	أبو هريرة	٥/ ١١٠
مؤمن تقي، وفاجر شقي	أبو هريرة	١/ ٢١٧
مؤمن سقى مؤمنًا شربة على ظمأ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ١٣٩
المؤمن كالجمل الذلول		٧/ ٤٧٥
المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين	أبو هريرة	١١/ ٤٣٤
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا	أبو موسى الأشعري	٥/ ١٢٧
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه	أبو موسى	٢٠/ ٣٥٦
المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم	أبو هريرة	٦/ ٣٧
المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأتي في سبعة أمعاء	ابن عمر	٢٠/ ٢٣٨
مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً [الأنبياء]	أبو ذر	٣/ ٢٢٠
ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم	أبو هريرة	٥/ ٢٢٥
الناس شركاء في ثلاث: في الماء والنار والكلأ	أبو هريرة	٢١/ ٤٥٣
الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة	ابن عمر	٢١/ ١١٣
الناس لآدم وحواء	عقبة بن عامر	٢٠/ ٣٧٩
نأكل ما قتلنا، ولا نأكل ما قتل الله	ابن عباس	٨/ ٣٢٤
نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه	عبدالله بن مسعود	١٧/ ٢٨٩
النائم حتى يستيقظ	عائشة	١٩/ ٨٤
نبدأ بما بدأ الله به	ابن عباس	٢/ ٥٧٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
النبي في الجنة، والشهيد في الجنة	حسناء بنت معاوية	١٧٨/٢٠
نبيكم ﷺ ممن أُمر أن يقتدي بهم	ابن عباس	٢٢٦/٨
النجاء النجاء	أبو موسى الأشعري	٤١٠/٢
نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا	أسماء بنت أبي بكر	٣٢٠/١٢
نحن أحق بالشك من إبراهيم	أبو هريرة	٤٩٠/٣
نحن أحق بموسى منكم		١٨٧/٢
نحن الآخرون السابقون يوم القيامة	أبو هريرة	١٧٩/٢
نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب	ابن عمر	٤٥٧/١٦
نحن معاشر الأنبياء لا نورث	عائشة	١٥٥/٥
نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة	ابن عباس	٣٩٨/٢١
الندم توبة	ابن مسعود	٢٧٧/٥
الندم على الذنب حين يفرط منك	أبي بن كعب	٤٥٦/٢٢
النذر لا يأتي بخير	ابن عمر	٥٢٠/٣
نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل	أنس بن مالك	١٨١/٧
نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار	ابن عباس	٦١٧/٧
نزل تحريم الخمر، وإن بالمدينة يومئذٍ لخمسة أشربة	ابن عمر	٦٣٣/٧
نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ	علي بن أبي طالب	٣٩/١٠
نزلت عليّ سورة الأنعام جملةً واحدةً	ابن عمر	٧/٨
نزلت فيَّ أربع آيات	سعد بن أبي وقاص	١٣/١٠
نزلت في اليهود، وهي علينا واجبة [﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾]	الحسن البصري	٤٢٦/٧
نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان [عن قوله:	زرارة	٣٣٢/٢١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
﴿ذوقوا مس سقر* إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾]		
نزلت في عائشة خاصة	ابن عباس	١٥/ ١٢٥
نزلت في عبد الرحمن بن عوف وكان جريحًا	ابن عباس	٦/ ٣٢٧
نزلت فينا معشر الأنصار[﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾]	البراء بن عازب	٣/ ٥١٣
نزلت هذه السورة: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق	ابن عمر	٢٤/ ٥١٠
نزلت وأبو بكر جالس [في قوله: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة* ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾]	ابن عباس	٢٤/ ٢٥٧
نزول عيسى بن مريم قبل يوم القيامة إمامًا عدلًا، وحكمًا مقسطًا	أبو هريرة	٢٠/ ٦٦
نسمة المؤمن طائر تعلق في أشجار الجنة	كعب بن مالك	٢/ ٥٤٨
نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق		٣/ ٣٦٧
نصبر ولا نعاقب	أبي بن كعب	١٢/ ٥٠٧
نصرت بالرعب مسيرة شهر	جابر بن عبد الله	٤/ ٤١٤
نصرت بالرعب مسيرة شهر يقذفه في قلوب أعدائي	أبو أمامة	٤/ ٥٤٦
نصرت بالصبا	ابن عباس	٢/ ٦٠١
نضر الله امرأً سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع	عبدالله بن مسعود	١٧/ ٢٤٩
نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر	جرير بن عبد الله	٢٣/ ٣٠٧
النظر سهم من سهام إبليس	ابن مسعود	١٧/ ٤٣٤
نعم إذا توضأ للصلاة [نوم الجنب]	عمر بن الخطاب	٥/ ٥٩٤
نعم أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك	ابن عمر	١٩/ ٣٤٣
نعم الرجل عبد الله، لو كان يقوم من الليل	ابن عمر	٢١/ ٦٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
نعم السورتان هما تقرئونهما في الركعتين قبل الفجر	عائشة	٢٤/ ٤٩٩
نعم المال الصالح للمرء الصالح	عمرو بن العاص	٢١/ ٥٥١
نعم أوعك كما يوعك الرجلان منكم	ابن مسعود	٦/ ٣٨٤
نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟	ابن عباس	٢١/ ٢٦٢
نعم دعاة على أبواب جهنم	حذيفة بن اليمان	٣/ ١٢٧
نعم صلي أمك	أسماء بنت أبي بكر	٥/ ٤٣
نعم كان نبيًّا كلّمه الله قِبَلًا	أنس بن مالك	٨/ ٢٩٨
نعم يا أبا الدحداح	عبد الله بن مسعود	٣/ ٤١٠
نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس	ابن عباس	٢٢/ ٣٥٩
نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه	أبو هريرة	٢٤/ ٥٢٣
نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري	أبو هريرة	٢٤/ ٧٩
نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف	عائشة	٢٤/ ٤٩٣
نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا	مجاهد	٢٢/ ٧٤
نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة..	ابن عباس	١٦/ ١٧٢
نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً	جابر بن عبدالله	١٥/ ١٤٧
نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق	عائشة	٣/ ١٨٤
نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية	علي بن أبي طالب	٨/ ٤٠٥
نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن متعة النساء	علي بن أبي طالب	٥/ ٣٨٩
نهى عن أكل لحوم الخيل	خالد بن الوليد	١٢/ ٣٢٠
نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس	ابن عباس	٣/ ٥٦٧
نهى عن الوصال	بشير بن الخصاصية	٣/ ١٠٧
نهى عن قتل جِنَّانِ البيوت	ابن عمر	١٦/ ١٤٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
نهى عن لعن عبد الله بن حمار	عمر بن الخطاب	٦/ ٢٥١
نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن الشيء	أنس بن مالك	٢/ ٣٦٧
نور أنى أراه	عائشة	٢/ ٣٦
نور أنى أراه	أبو ذر	١٥/ ٢١١
هاجرنا مع النبي ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله	خباب بن الأرت	٦/ ١٠٦
هجاهم حسان فشفى واشتفى	عائشة	١/ ٣٥
هُديت وكُفيت وَوُقيت	أنس بن مالك	١/ ١٢٠
هذا الموقف، وكل مزدلفة موقف	علي بن أبي طالب	٣/ ١٧٤
هذا أمين هذه الأمة	حذيفة بن اليمان	٤/ ٢٤١
هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم	ابن عباس	١/ ١٤٣
هذا بيني وبين عبدي	أبو هريرة	١/ ٨٦
هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب	ابن عباس	٤/ ٤٥٦
هذا جبريل يقرأ عليك السلام	عائشة	٦/ ١٦٣
هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا	أبو هريرة	٦/ ٢٣٤
هذا حري إن خطب أن ينكح	سهل بن سعد	٣/ ٤٥٥
هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا	سهل بن سعد	٥/ ١٢٧
هذًّا كهذِّ الشعر	أبو وائل	٢٣/ ٢٣٣
هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة	أبو هريرة	٥/ ٤٣
هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم	ابن عباس	١/ ١٤٣
هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى	عائشة	٢٠/ ٢١١
هذان- يعني: الذهب والحرير- حرام على ذكور أمتي	علي	١٨/ ١٥٢
هذه بتلك	عائشة	١١/ ٣٧٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
هذه ثم ظهور الحصر	أبو واقد الليثي	٤/ ٣٥٤
هذه خديجة جاءت فاقرأ عليها السلام من ربها ومني..	أبو هريرة	١٧/ ٣٠٤
هذه دماء طهر الله سيوفنا منها	عمر بن عبد العزيز	٢/ ٤٦٨
هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء	أسامة بن زيد	٢١/ ٢٦٨
هذه سبيل الله	ابن مسعود	١/ ٢٣٢
هذه صدقة ما أريد بها وجه الله	ابن مسعود	٦/ ٢٦٤
هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها	قتادة	٩/ ٣٦٤
هكذا تجدون حد الزنا في كتابكم؟	البراء بن عازب	٧/ ٣٧٢
هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ	ابن عباس	٧/ ١٧٠
هكذا عنك- أو: هكذا- فإنما الاستئذان من النظر	عثمان بن أبي شيبة	١٥/ ١٤٦
هل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟	أبو سفيان	٨/ ١٣٦
هل أحد من والديك حي؟	عبد الله بن عمرو	١٣/ ٧٢
هل أخذت طريقًا ذا شوك؟	عمر بن الخطاب، أبو هريرة	٥/ ٢٠
هل أنت إلا إصبع دميت	جندب بن سفيان	١٨/ ٢٤٠
هل أنتم إلا عبيد أبي	علي بن أبي طالب	٥/ ٥٧٦
هل أنتم تاركو لي صاحبي؟	أبو الدرداء	٩/ ٣١٨
هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟	مالك بن ربيعة	٢/ ٣٧٩
هل بلغت قومك؟	أبو سعيد الخدري	٢/ ٥٠٣
هل تجد رقبة تعتقها؟	أبو هريرة	٣/ ٦١٨
هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟	عبد الله بن عمرو	١٢/ ٦٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
هل تدرون كم بين السماء والأرض؟	العباس بن عبد المطلب	٢٣/ ١٦
هل تدرون ما قال ربكم»؟ [لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾]	أنس بن مالك	٢١/ ٣٩٣
هل تدرون ماذا قال ربكم؟	زيد بن خالد الجهني	١١/ ٤٦
هل تدرون ممّ أضحك؟	أنس بن مالك	١٣/ ٤٤
هل تدري ما الزنا؟	جابر بن عبد الله	٥/ ٢٤٧
هل تدري ما الفتنة؟	ابن عمر	١٠/ ١٢١
هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟	أنس بن مالك	٣/ ١٨١
هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟	عبد الله بن زيد بن عاصم	
هل رأوني؟	أبو هريرة	٢/ ٣٥
هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله لقد قفّ شعري مما قلت	مسروق	٢١/ ٢٢٢
هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قفّ له شعري فقلت: رويدًا، ثم قرأت ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾	مسروق	٢١/ ٢٢١
هل رضيتم؟	أبو سعيد الخدري	١٠/ ٤١٦
هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟	أبو موسى الأشعري	٣/ ٢٢٤
هل علمت أن الله حرمها؟	ابن عباس	٧/ ٦٣٩
هل عليه دين؟	سلمة بن الأكوع	٥/ ١٨٧
هل عندك نسك؟» قال: ما أقدر عليه	كعب بن عجرة	٢٢/ ٣٢
هل عندكم شيء؟	عائشة	٣/ ١٥٩
هل عندكم من شيء؟	عائشة	٦/ ٤٣٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
هل قرأ معي أحد منكم آنفًا؟	أبو هريرة	١/ ٢٧٦
هل كان أحد أشار إليها أو أعان في قتلها؟	أبو قتادة	٧/ ٦٨٥
هل لك عليه من نعمة تربها	أبو هريرة	١/ ١٦٤
هل لك من إبل؟	أبو هريرة	٤/ ٣٤
هل لك من أم؟	جاهمة السلمي	١٣/ ٧٢
هل لك يا ابن آدم من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت		٨/ ٢٤٧
هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟		١٠/ ٣٦٥
هل يرقد أحدنا وهو جنب؟	عمر بن الخطاب	٥/ ٥٩٤
هل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ [إتيان الدبر]	ابن عمر	٣/ ٢٩٥
هلا أخذتم إهابها فدبغتموه	ابن عباس	٧/ ٦٣٩
هلا استمتعتم بإهابها؟	ابن عباس	٧/ ٧٦
هلا تركتموه لعله أن يتوب	هزال	٥/ ٢٥٥
هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه	يزيد بن نعيم	١٥/ ٣٠
هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً	ابن مسعود	٢١/ ٥٩٣
هلك في شأني من هلك	عائشة	١٠/ ١٣٦
هم الأخسرون ورب الكعبة	أبو ذر	١٠/ ٣٣٨
هم القوم لا يشقى بهم جليسهم	أبو هريرة	٦/ ٨٤
هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم [في قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾]	ابن عباس	١٩/ ١٠٥
هم المؤمنون، كانوا قبل إيمانهم على السيئات	ابن عباس	١٥/ ٤٥٤
هم النصارى [الضالون]	عدي بن حاتم	١/ ٢٠٣
هم اليهود [المغضوب عليهم]	عدي بن حاتم	١/ ٢٠٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله..[في قوله تعالى «﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾]	ابن عباس	١٨/ ١٥٠
هم في الظلمة دون الجسر	ثوبان	١٢/ ٢٠٩
هم من جنسنا ويتكلمون بلغتنا	حذيفة بن اليمان	٣/ ١٢٧
هن لهم حلال، إذا انقضت عدتهن	أبو سعيد الخدري	٥/ ٣٦٢
هن لهن ولمن مر عليهن من غير أهلهن	ابن عباس	٢/ ٥٧٤
هو أشر الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه يعني ولد الزنا	عائشة	٢٣/ ٧٨
هو الاستئذان ثلاثًا من لم يؤذن له فليرجع	قتادة	١٥/ ١٤٥
هو الخير الذي أعطاه الله إياه	سعيد بن جبير	٢٤/ ٤٩٣
هو الرجل تصيبه المصيبة..	علقمة	٢٢/ ٣٦٥
هو الطهور ماؤه الحل ميتته	أبو هريرة	٣/ ٣٢
هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم..		٢٢/ ١٧٥
هو أولى الناس بمحياه ومماته	تميم الداري	٥/ ٤٩٢
هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة	ابن عباس	٢٠/ ٦٣
هو رزق أخرجه الله لكم وأعطوه منه فأكله	جابر بن عبد الله	٧/ ٦٨٢
هو في النار [كركرة]	عبد الله بن عمرو	٤/ ٦٠٧
هو مسجدكم هذا	أبو سعيد الخدري	١٠/ ٤٨١
هو مسجدي هذا	سهل بن سعد	١٠/ ٤٨١
هو نصف الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾	...	٢٤/ ٤٤٣
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم		١١/ ٢٠٢
هوّن عليك، فإني لست بملك	أبو مسعود البدري	٢٣/ ٦٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
هوى نفسه حيث يتبع هواه	ابن عباس	٢٢/ ٣٨١
هي الحنظلة	أنس بن مالك	١٢/ ١٧١
هي الخوف من الجليل [التقوى]	علي بن أبي طالب	٥/ ٢٣
هي السبع المثاني والقرآن العظيم [الفاتحة]	أبو سعيد بن المعلى	١/ ١٣١
هي الشفاعة	أبو هريرة	١٣/ ١٧٢
هي الصلاة بعضها شفع، وبعضها وتر	عمران بن حصين	٢٤/ ٢٤٢
هي المانعة، هي المنجية	ابن عباس	٢٣/ ٧
هي النخلة	أنس بن مالك	١٢/ ١٧١
هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب	أبو هريرة	١/ ١٣٢
هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به	ابن عباس	١٣/ ١٣٩
هي عليهم وعلى الناس عامة [﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾]	الحسن البصري	٧/ ٤٢٦
هي يابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل	ابن عباس	٩/ ٣٨٦
و اغسلني بالماء والثلج والبرد	أبو هريرة	١٥/ ٢٧٠
و«المس» و«اللمس» و«المباشرة»	ابن عباس	١٧/ ٣٨٩
واتق دعوة المظلوم	معاذ	١٩/ ٢٩
واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا	ابن مسعود	٢٠/ ١٨٨
وأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها..	أبو هريرة	٢٣/ ٢٢٢
وإذا ثمرها كالقلال	أنس	٢١/ ٤٣١
وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان	أبو هريرة	١٧/ ١٢٥
وأسألك القصد في الفقر والغنى	عمار بن ياسر	١٧/ ١٢٤
وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك	عمار بن ياسر	٢٤/ ١٣٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
وأشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله	أبو هريرة	١٩/ ٦٣
وأعطيت الشفاعة	جابر بن عبد الله	٢/ ١٨٢
واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء	ابن عباس	١٨/ ١٠٥
وأغرى به أهل الطائف سفهاءهم يسبونه ويرمونه بالحجارة	عائشة	٢١/ ١٩٨
وافراحاه	بلال بن رباح	٢/ ٥٦٧
وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث	ابن عباس	٢٢/ ٤٤٦
وافقت ربي في ثلاثة	عمر بن الخطاب	٢/ ٤٢٨
والأمر- والله- اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد	قتادة	٢٤/ ١١٨
والبِّر: حسن الخلق، وما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب	أبو ثعلبة الخشني	٢٤/ ١١٣
والخير كله بيديك	أبو سعيد الخدري	٢٤/ ٣٥٠
والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن	علي بن أبي طالب	٧/ ٥٣٣
والذي نفس محمدٍ بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم	عبد الله بن ثابت	٣/ ٣٠٥
والذي نفسي بيده إنه لفتح	مجمع بن حارثة	٢٠/ ٢٨٠
والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن [في معنى قوله تعالى ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾]	أبو سعيد	٢٣/ ١٥٠
والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن..	أبو سعيد	٢٣/ ٣٤٩
والّذي نفسي بيده إنّهم لخيرٌ منهم	أبو بكرة	٨/ ١٣٧
والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ	أبو هريرة	١/ ١٠٣
والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله	أبو هريرة	٢١/ ٢١٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلًا بمثل	سهل بن سعد	٢٤/ ١٦٠
والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية	جابر بن عبد الله	٤/ ٣٠٠
والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني	جابر بن عبد الله	٤/ ٣٠٠
والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم	أبو هريرة	٤/ ٤٨٩
والذي نفسي بيده ليهلَّن ابن مريم بفج الروحاء	أبو هريرة	٤/ ٢٢٣
والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم	أبو هريرة	٤/ ٢٢٣
والذي نفسي بيده ما نزل في التوراة ... مثلها	أبي بن كعب	١/ ١٣٣
والذي نفسي بيده وددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل	أبو هريرة	٤/ ٥١٦
والذي نفسي بيده! لأقضين بينكما بكتاب الله	أبو هريرة	١٥/ ٣١
والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يعظمون به حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها	المسور بن مخرمة	٢٠/ ٢٨٠
والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة... ولم يؤمن ... إلا كان من أصحاب النار	أبو هريرة	٢/ ٣٤٣
والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف	حذيفة بن اليمان	٤/ ٣٨٧
والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم	بريدة	١/ ٢٢٧
والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي	عائشة	١٩/ ٣٨٤
والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد	ابن مسعود	١٣/ ٣٦٦
والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه	أنس بن مالك	٢١/ ٢٨٦
والذي نفسي بيده؛ إنه ليخفف على المؤمن..	أبو سعيد الخدري	١٥/ ٤٠٤
والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي	عائشة	٢٠/ ٣٣٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها		
والرجل راعٍ في أهل بيته ومسؤول عن رعيته	ابن عمر	١٧/ ٤٦١
والشر ليس إليك	علي بن أبي طالب	٢١/ ١٢٤
والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همة إلا أنفسهم	أبو طلحة	٤/ ٥٦٥
والفهم الفهم فيما أدلي إليك	عمر بن الخطاب	١٤/ ٢١٤
والقرآن حجة لك أو عليك	أبو مالك الأشعري	٢٠/ ١٥٨
والله إنك لخير أرض الله [مكة]	عبد الله بن عدي	٢/ ٢٧٧
والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله	أبو هريرة	١٦/ ٣١
والله إني لأتقاكم لله	عمر بن أبي سلمة	١١/ ٤٦٦
والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له	أنس بن مالك	٤/ ٣٧٣
والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي	عائشة	١٩/ ٤٦
والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة	أبو هريرة	٢٤/ ٥١٨
والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا	عمر بن الخطاب	٢٤/ ٤٣٠
والله لا يَدخل قلبَ امرئ إيمانٌ حتى يحبكم لله عز وجل ولقرابتي	العباس	١٩/ ٣٨٤
والله لا يلقي الله حبيبه في النار	أنس بن مالك	٧/ ٢٦٠
والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه	أبو هريرة	٥/ ٤٤٩
والله لا يؤمن...» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه	أبو شريح	٢٠/ ٣٨٢
والله لأن يَلِجَّ أحدكم بيمينه في أهله آثَمُ له عند الله من أن يُعطي كفارته	أبو هريرة	٣/ ٣٠٢
والله لولا أنت ما اهتدينا	البراء بن عازب	١٥/ ١١٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
والله ليتمن الله هذا الأمر		٣/ ٢٢٧
والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل﴾	عائشة	١١/ ٣٦٦
والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم	المسورد	٤/ ٧١٨
والله ما الفقر أخشى عليكم	عمرو بن عوف	٤/ ٧٣
والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا	عمرو بن عوف الأنصاري	٢٤/ ٣١٩
والله ما تَدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده	الحسن البصري	١٨/ ٣٩٤
والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها	عمر بن الخطاب	٤/ ٥٣٦
والله ما وَرَّثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء	ابن عباس	٧/ ٥٢٣
والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم	عائشة	١١/ ١٢٩
والله يا أبا طلحة ما مثلك يرد	أنس بن مالك	٥/ ٣٨٥
والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله	عائشة	٣/ ١٠٦
والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة	أبو هريرة	٢٠/ ٢٤٥
والله، لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ من الليل هَوِيًّا	حذيفة بن اليمان	١٧/ ١٥٤
والمهاجر من هجر مانهىٰ الله عنه	عبد الله بن عمرو	٣/ ٢٥٨
وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟	أنس	١٥/ ٣٩٧
وأما المنافق والمرتاب فيقول: لا أدري..	عائشة	١٦/ ٣٥٠
وأَمَر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين	أبو سعيد الخدري	٢١/ ٢٩٥
وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًّا	أبو ذر الغفاري	٧/ ٤٧٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٣٤٨
وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت	بلال بن الحارث	١٥/ ٩٤
وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه	ثوبان	٢٣/ ٨٦
وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة...	البراء بن عازب	٢٤/ ٣٩
وإن الفرج مع الكرب	ابن عباس	٢٤/ ٣٣١
وأن الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا..	عياض بن حمار	١٦/ ٣٧٨
وإن الله ليبغض الفاحش البذيء	أبو الدرداء	١٩/ ١٥٠
وإن غاب عنك يومًا فلم تجد فيه إلا أثر سهمك فكل إن شئت	عدي بن حاتم	٧/ ١٠٥
وأن لا يمس القرآن إلا طاهرًا	عمرو بن حزم	٢١/ ٤٦١
وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي	جبير بن مطعم	٢٠/ ٢٤٤
وإنا إن شاء الله بكم لاحقون	عائشة	١٦/ ٣٣٣
وأنت موسى الذي كلمه الله، وكتب له التوراة بيده	أبو هريرة	١٨/ ٣٣١
وإنك لن تنفق نفقه تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك	سعد بن أبي وقاص	٢٤/ ٥٢٩
وإنما يرحم الله من عباده الرحماء	أسامة بن زيد	٢١/ ٥٦٣
وإني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة	أبو سعيد	٢١/ ٤٢٠
وإني أرى أن تجعلها في الأقربين	أبو طلحة	١٥/ ١١٦
واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت	علي بن أبي طالب	٢٣/ ٦٦
وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي	زيد بن أرقم	١٩/ ٣٨٤
الوائدة والموءودة في النار	سلمة بن يزيد الجعفي	٢٤/ ٨٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
وبَعْثُ النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد إلى الجنة	أبو سعيد الخدري	٢١/ ١٢٧
وتجعلون شكركم أنكم تكذبون	علي	٢١/ ٤٦٤
الوتر حق، فمن لم يوتر فليس منا	بريدة	٢٣/ ٢٥٢
وتعدون الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا	البراء بن عازب	٢٠/ ٢٨٠
وجبت	أبو هريرة	٢/ ٥٠٥
وجبت	أنس بن مالك	٢/ ٥٠٢
وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري	زيد بن ثابت	١٠/ ٥٢٥
وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري	عبادة بن الصامت	٢٢/ ٨٨
وجعل رزقي تحت ظل رمحي	ابن عمر	٢٤/ ٣١٧
وجعلت أمتي خير الأمم	علي بن أبي طالب	٤/ ٤١١
وجهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفًا	علي بن أبي طالب	٨/ ٤٦٠
وجهت وجهي للّذي فطر السّموات والأرض حنيفًا	جابر بن عبد الله	٨/ ٤٦٠
وجهها وكفيها [في قوله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾]	ابن عباس	١٥/ ١٧٨
وجهوا هذه البيوت عن المسجد	عائشة	١٥/ ٢٢٩
ورأيت النبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد	ابن عباس	٢١/ ١٢٧
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها	أبو هريرة	١٧/ ٣٣٦
ورجل تعلم العلم، وقرأ القرآن	أبو هريرة	١٨/ ١٥٥
ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه	أبو هريرة	٢١/ ٥٥
وزرهما سواء	أبو كبشة الأنماري	٣/ ٦١٢
الوَسَط: العدل	أبو سعيد الخدري	٢/ ٤٩٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
وضع سلا الجزور على ظهره وهو ساجد	ابن مسعود	٢١/ ١٩٨
الوضوء غسلتان ومسحتان	ابن عباس	٧/ ١٨١
وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا	أبو كبشة الأنماري	١٨/ ٣٢٧
وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل، وهو فارغ	ابن عباس	٢١/ ٣٧٦
وفتحت أبواب السماء بالماء من غيرسحاب ذلك اليوم فالتقى الماءان	ابن عباس	٢١/ ٣٠١
وفي بضع أحدكم صدقة	أبو ذر	١٥/ ١٨٩
وقت الظهر إذا زالت الشمس	عبد الله بن عمرو	٦/ ٣٨٢
وقت المغرب ما لم يغب الشفق	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ١٥٩
وقد أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته..	أبو سعيد	١٦/ ١٩٥
وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين	...	٢٢/ ٢١٨
وكان النبي ﷺ يُبعث إلى قومه خاصة	جابر بن عبد الله	٤/ ١٠٩
وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة	جابر بن عبد الله	٢٣/ ١٧٧
وكأنما الأرض تطوى له	علي	١٥/ ٤٤٦
وكسرت رباعيته يوم أحد	أنس	٢١/ ١٩٨
وكل الله بالرحم ملكًا، فيقول: أي رب نطفة	أنس بن مالك	١٢/ ٣٢
وكلتا يديه يمين	عبدالله بن عمرو	١٩/ ١٠٥
وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات	أبو موسى	٢٢/ ٢٤٦
وكونوا عباد الله إخوانًا	أنس بن مالك	٢٠/ ٣٥٦
ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا	ابن عمر	٢٤/ ٥٥
ولا تحقرن شيئًا من المعروف	جابر بن سليم	١٧/ ١٢٣
ولا تسألوا الناس شيئاً	عوف بن مالك	٣/ ٥٣٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل	ابو هريرة	٢٤/ ٢٩
ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا	أبو هريرة	٢٤/ ٢٥٤
ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه	أبو هريرة	٢١/ ١٠١
ولا يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه	أنس بن مالك	٣/ ٤٨
ولا ينفع ذا الجد منك الجد	المغيرة بن شعبة	٤/ ٥٦
ولد الزنا شر الثلاثة	أبو هريرة	٢٣/ ٧٨
الولد ثمرة القلوب، وإنهم لمجبنة مبخلة محزنة	أبو يعلى العامري	٢٢/ ٣٧٦
الولد للفراش وللعاهر الحجر	عائشة	١٥/ ٦٦
وُلِدَ لي الليلة غلام	أنس بن مالك	٤/ ١٧٠
ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض	أم سلمة	٢٠/ ٢٦٢
ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة	عتبة بن غزوان	١٩/ ١٢٠
ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل	عبدالله بن مسعود	١٥/ ٢٦٢
ولك في ذلك أجر	قرة المزني	١٥/ ٢٠
ولكل امرئ منهم زوجتان	أبو هريرة	٥/ ٢٦
ولكن يا حنظلة ساعة وساعة	حنظلة	١٦/ ٢٢٥
ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء	ابن عمر	٥/ ٢٦١
ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين	ابن عمر	٦/ ٤٢٥
ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم	عائشة	٢٢/ ٢١٨
ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى	ابن عباس	١٩/ ٩٥
ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء	سهل بن سعد	٢١/ ٥٤٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
وليأت للناس الذي يحب أن يؤتى إليه	عبد الله بن عمرو	٢٤/ ٥٨٩
وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر	أبو سعيد الخدري	١٧/ ٣٣٥
وما انتقم ﷺ لنفسه في شيء قط	عائشة	١٩/ ٣٠١
وما تَقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضته عليه	أبو هريرة	١٥/ ٢٥٨
وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا	أبو هريرة	١٩/ ٤٠٦
وما علمت على أهلي إلا خيرًا	عائشة	١٦/ ١٤٧
وما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية	جابر	٢٠/ ٢٨٠
وما يخاف الفقر	أنس	٢٣/ ١٣٤
وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه	أبو هريرة	١٥/ ٢٢٠
ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟!	أبو هريرة	١٥/ ٣٧٦
ومن تقرب إلي شبرًا تقربت منه ذراعًا	أنس	٢١/ ٢٢٠
ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه	الحسن بن علي	١٥/ ٣٣٤
ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه	أبو هريرة	٥/ ٥٦٤
ومن دعاكم فأجيبوه	ابن عمر	١٧/ ٤٢٩
ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة	جابر بن عبدالله	١٧/ ٤٩١
ومن عجيب هدايتها: أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه	ابن القيم	١٦/ ١٥٧
ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت	أبو هريرة	١٧/ ٥٠١
ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها	عمر بن الخطاب	٢٢/ ١٢٦
وموضع سوط أحدكم في الجنة..	أنس بن مالك	٢٣/ ٢٥٥
وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها	سهل بن سعد	٢١/ ٢٤١

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها	أنس بن مالك	١٥/ ١٩٩
ونبي الملحمة	أبو موسى الأشعري	٢٢/ ٢٥٤
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٥٦٤
وهل تزني الحرة؟	ابن عباس	١٧/ ٤٦٢
وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله	علي بن أبي طالب	٢٤/ ١٩٥
وهو ريحانكم هذا	الحسن	٢١/ ٣٥٧
ويبقى معه اثنتان حب المال، وطول العمر.	أنس بن مالك	٢٤/ ٤١٩
ويحك قطعت عنق صاحبك	أبو بكرة	٦/ ١٧
ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم	ابن عباس	٤/ ٦٥٥
ويحك، لا تفتحه	النواس بن سمعان	١/ ١٩٨
ويفيض المال حتّى لا يقبله أحدٌ	أبو هريرة	٩/ ١١٩
ويل للأعقاب من النار	أبو هريرة	٧/ ١٧٨
ويل للذي يحدث فيكذب	معاوية بن حيدة	٢٣/ ٣٦٣
ويل للعراقيب من النار	أبو هريرة	٧/ ١٧٨
ويل: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا	أبو سعيد	٢٣/ ٢٧٢
ويلك قطعت عنق صاحبك	أبو بكرة	٢١/ ٢٥٤
ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل	أبو سعيد الخدري	٤/ ٥٩١
يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قومًا، فقال: ﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون﴾	عبد الرحمن بن زيد بن أسلم	٢١/ ٩٩
يا أبا القاسم، حدِّثنا عن الروح	ابن مسعود	١٣/ ١٨٢
يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟	أبي بن كعب	١/ ١٤٦
يا أبا جهل بن هشامٍ...هل وجدتّم ما وعد ربّكم حقًّا؟	أنس بن مالك	٩/ ١٠٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا أبا ذر أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية	المعرور بن سويد	٣١٢/١٧
يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة	أبو ذر الغفاري	٤١/٦
يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي	أبو ذر	١١٨/٥
يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة	أبو ذر	٤٠٠/٢٢
يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم [﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾]	أبو ذر	٤٠٠/٢٢
يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟	أبو ذر	٢١٢/١٨
يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا	أبو ذر	٣٠٣/٧
يا أبا ذرٍّ، تعوّذ بالله من شرّ شياطين الإنس والجن	أبو ذر	٣٠٣/٨
يا أبا ذرٍّ، هل تدري فيم تنتطحان؟	أبو ذر	١٠٧/٨
يا أبا شريح: إن الحرم لا يعيذ عاصيًا	عمرو بن سعيد	٣٥٣/٤
يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل	عبد الله بن مسعود	١٢٥/٢٤
يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة	أبو هريرة	٥٥٥/٥
يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعًا وإياي معهم؟	عثمان بن عفان	٣٠٣/٧
يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟	أبو هريرة	٥٨/٩
يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها	عائشة	٥٣/٥
يا ابن أخي، بني الإسلام على خمس	ابن عمر	١٣٠/٣
يا ابن أخي، قل، ولا تحقر بنفسك	عمر بن الخطاب	٥٠٥/٣
يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك	أبو أمامة	٢٧٢/٣
يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين	الحسن البصري	٤٣٢/١٨
يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟	عبيد الله بن عبد الله	٥٠٩/٢٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
	بن عتبة	
يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك	ابن عمر	٢٤/ ٥٦٤
يا أُسَق، لو أسلمت لاستعنا بك	عمر بن الخطاب	٣/ ٤٦٦
يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا	عائشة	١٧/ ٤٦٨
يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر	عبد الله بن عباس	٢/ ٤٤٢
يا أم المؤمنين، أليس هذا لغوًا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء	عائشة	١٥/ ٨٥
يا أم حارثة إنها جنان في الجنة	أنس بن مالك	٤/ ٤٩١
يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة	أم سلمة	٢٣/ ٦٧
يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز	الحسن	٢١/ ٤٣٢
يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة	أم هانئ	١٣/ ١٨
يا أهل الجنة خلود لا موت	أبو هريرة	٢/ ٩٦
يا أهل الجنة خلود ولا موت	أبو سعيد الخدري	١٩/ ١٩٥
يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر	عمر بن الخطاب	٦/ ٣٦٢
يا أهل مكة لا تقصروا في أقل من أربعة برد	ابن عباس	٦/ ٣٤٨
يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابًا	عمر بن الخطاب	١٤/ ٣٠٥
يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا	النواس بن سمعان	١/ ١٩٨
يا أيها الناس أفشوا السلام	عبد الله بن سلام	٦/ ١٦٥
يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا	أبو الدرداء	٦/ ٨١
يا أيها الناس توبوا إلى الله	الأغر المزني	٥/ ٢٧١
يا أيها الناس توبوا إلى الله	ابن عمر	١٥/ ١٨٣

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه	أبو هريرة	٢٤/ ٥١٨
يا أيها الناس توبوا إلى الله، فو الله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة	أبو هريرة	٢٠/ ٣٦٥
يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون	عائشة	٢٣/ ١٥٩
يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا	أبو هريرة	٢١/ ٣١٧
يا أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم بالتصفيق	سهل بن سعد	١٧/ ٣٠٩
يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد	أبو نضرة	١٧/ ٤١
يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله- عز وجل- حفاة	ابن عباس	٧/ ٧٦٨
يا أيها الناس، عليكم بتقواكم	أنس بن مالك	٦/ ٦٣٠
يا أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا	أبو هريرة	٧/ ٧٠٠
يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به	عبدالله بن مسعود	١٨/ ٤٣١
يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها		٢/ ١٧٢
يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم	أنس بن مالك	٦/ ١٧٢
يا بني ذكرتني بقراءتك هذه السورة..	ابن عباس	٢٣/ ٣٥٧
يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله..	أبو هريرة	١٦/ ١٢٥
يا بني عبد مناف، إني نذير	قبيصة بن مخارق	١٦/ ١٢٥
يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل..	ابن عباس	١٦/ ١٢٤
يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار..	أبو هريرة	١٦/ ١٢٥
يا بنية، ما علمك بأمانته وقوته؟	عمر بن الخطاب	١٦/ ٢٩٢
يا جابر، ما لي أراك منكسرًا؟	جابر بن عبد الله	٤/ ٦٣٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا جبير تقرأ المائدة؟	عائشة	٧/٧
يا حصين، كم تعبد اليوم إلهًا؟	عمران بن حصين	٩/٣٤٦
يا ربّ، ألم تجرني من الظّلم؟	أنس بن مالك	٩/٣٤٩
يا رسول الله ابسط يدك نصافحك	أميمة	٢٢/٢٣٣
يا رسول الله أخبرني عن قول الله: ﴿وحور عين﴾ قال: حور: بيض..	أم سلمة	٢١/٤٣٤
يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني		٢٢/١٣
يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلامًا أسود؟	أبو هريرة	٢٤/١٠٩
يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها فماتت ولم توص	عائشة	٢١/٢٦٢
يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها..	أبو هريرة	٢٣/٦٩
يا رسول الله إنا كنا نرى سالمًا ولدًا	عائشة، أم سلمة	٥/٣٤٣
يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا	ابن عباس	٢١/٤٣١
يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عُرِضَتْ علي الجنة..	جابر	٢١/٤٣١
يا رسول الله علمني شيئًا أقوله إذا أويت إلى فراشي	فروة بن نوفل	٢٤/٥٠٠
يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟	عدي بن حاتم، زيد بن مهلهل	٧/٩٧
يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى	عمر بن الخطاب	٢/٤٢٨
يا رسول الله لو علمت أنك تسمعني لحبرته لك تحبيرًا	أبو موسى الأشعري	٧/٥٠٤
يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟	أبو هريرة	٢٤/٧٩
يا رسول الله هلك الكراع		٢/٢٠٨
يا رسول الله هلكت وأهلكت	أبو هريرة	٢١/٥٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا رسول الله! أنكح عناقًا؟ فأمسك رسول الله ﷺ..	عمرو بن شعيب	١٥/ ٢٢
يا رسول الله: تغزو الرجال ولا نغزو	أم سلمة	٥/ ٤٦٣
يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا..	أنس بن مالك	١٧/ ٤٠١
يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال	عقبة بن عامر	٢٤/ ٥٤٩
يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه..	عمران بن حصين	٢٤/ ٢٨٠
يا رسول الله، ألا تستعملني؟	أبو ذر	١٧/ ٥٠٥
يا رسول الله، إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي	عثمان بن أبي العاص	١٩/ ٣٠٢
يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق..	أم سلمة	١٧/ ٤٣١
يا رسول الله، إن الله ليريد منا القرض؟	عبد الله بن مسعود	٣/ ٤١٠
يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده بالحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا	ابن عباس	٢١/ ٢٦٢
يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر	حذيفة	٤/ ٣٨٠
يا رسول الله، أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما قتل الله؟	ابن عباس	٨/ ٣١٦
يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي	عائشة	٦/ ٧٩
يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه	أبو هريرة	١٥/ ٢٨
يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفِّر	ابن عباس	٢٢/ ٢٩
يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني	بريدة	١٥/ ٢٩
يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك...	سهل بن سعد الساعدي	١٧/ ٤٠١
يا رسول الله، إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل	ابن عباس	٦/ ٧٩
يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله ندًّا وهو	عبد الله بن مسعود	١٥/ ٣٥

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
خلقك		
يا رسول الله، أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا»	أبو سعيد الخدري	١٧/ ٣٤١
يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها	عبد الله بن مسعود	٢٣/ ١٦٣
يا رسول الله، أي: الصدقة أعظم أجراً؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح..	أبو هريرة	٢١/ ٥١٨
يا رسول الله، بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيء نقوله؟	أبو سعيد	١٧/ ٢٥٧
يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما هي»؟	سليم بن عامر	٢١/ ٤٢٨
يا رسول الله، فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟	ابن عباس	٧/ ٦٢٨
يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟	كعب بن عجرة	١٧/ ٤٤٨
يا رسول الله، لأنت أحبّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي	عبدالله بن هشام	١٧/ ٢٣٨
يا رسول الله، مالك عن فلان؟	سعد بن أبي وقاص	١٧/ ٣٢٩
يا رسول الله، مُرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت، وإذا أمسيت	أبو بكر الصديق	١/ ٥٠
يا رسول الله، هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟	مالك بن ربيعة	١٧/ ٤٥٠
يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصِلَ	عبد الله بن عمرو	٢٣/ ٢٣٥
يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟	أبو سعيد وأبو هريرة	٢٣/ ٣٠٦
يا رسول الله، هلكت وأهلكت	أبو هريرة	١٠/ ١٣٦
يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار	أبو بكر الصديق	٢٠/ ٣٣٤
يا رسول اله وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا..	عبد الله بن مسعود	٢١/ ٤٣٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا رسول إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟	أسماء بنت عميس	٢٣/ ١٠٦
يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة	سعد بن أبي وقاص	٣/ ١٦
يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار	سعد بن أبي وقاص	٢٠/ ٣٨٤
يا سلمان لا تسجد لي	سلمان الفارسي	١١/ ٤٧٢
يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا	أبو هريرة	٢/ ١٨٠
يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة	عائشة	٢٤/ ٣٩٣
يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب	عائشة	٢٤/ ٣٩٤
يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا	عائشة	٢١/ ٣٣٩
يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟	عائشة	٢٠/ ٢٨١
يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قوم بالريح..	عائشة	٢٠/ ٢٠٤
يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار	أبو ذر	١٥/ ١٨٣
يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني	أبو ذر	٣/ ٤٩٧
يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم	أبو ذر	٢١/ ٢٦٠
يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي	أبو هريرة	٤/ ١١٨
يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا	أبو ذر الغفاري	٢١/ ٤٨
يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ... ما نقص ذلك من ملكي شيئا	أبو ذر	٢/ ١٩٩
يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم..	أبو ذر	١٦/ ١٨٤
يا عباس عم رسول الله ﷺ اشتر نفسك	أبو هريرة	٢/ ١٨٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا عبد الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة	عبد الرحمن بن سمرة	٦/ ٤٠
يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل	عبد الله بن عمرو بن العاص	٢١/ ٦٨
يا عبدالله، طلق امرأتك	ابن عمر	١٣/ ٧٥
يا عثمان، أرغبت عن سنتي؟	عائشة	٣/ ١٠٢
يا عديُّ، أسلم تسلم	عدي بن حاتم	١٠/ ٣٢٧
يا عقبة بن عامر صل من قطعك	عقبة بن عامر	٦/ ٥٦٨
يا علي، لا تتبع النظرة النظرة	سليمان بن بريدة	١٥/ ١٥٧
يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله		٥/ ٤٢٨
يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب	عمرو بن العاص	٥/ ٤٥٨
يا غلام سم الله	عمرو بن سلمة	١/ ١٢٠
يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي	أبو هريرة	٢/ ١٨٠
يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبدالمطلب..	عائشة	١٦/ ١٢٤
يا فلان، ما لي أراك محزونًا؟	سعيد بن جبير	٦/ ٧٨
يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر	أنس	٢١/ ١٩١
يا ليتني فيها جذعًا	عائشة	٤/ ٦٩٦
يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر	أبو هريرة	١١/ ٤٧٥
يا محمد أرضيت بهؤلاء؟	ابن مسعود	٨/ ١٣٢
يا محمد ارفع رأسك	أبو هريرة	٢/ ١٨٢
يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع	أبو هريرة	١٨/ ٤٩
يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم	أبو سعيد	٢٣/ ١٠٥
يا محمد أما ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه	ابن عباس	٨/ ٣٢٤

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين قال النبي ﷺ: «ذاك هو الله عز وجل»	البراء بن عازب	٢٠/ ٣٣٨
يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع..	عبدالله بن مسعود	١٩/ ١٠٦
يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع	عبد الله بن مسعود	٢٢/ ٣٤٦
يا محمد أنشدك الله والرحم	ابن عباس	١٤/ ٥٠٣
يا محمد عش ما شئت فإنك ميت	سهل بن سعد، جابر بن عبد الله	٢/ ٧٥
يا محمد عش ما شئت فإنك ميت	سهل بن سعد	٣/ ٦٢
يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك	ابن عباس	٦/ ٣٣٢
يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟	ابن عباس	٢١/ ٢٢٣
يا مصرف القلوب		٤/ ٤٤
يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟	زيد بن عاصم	٢٠/ ٣٩٢
يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج	ابن مسعود	٣/ ٧٥
يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير	ابن عباس	٢٠/ ٦٣
يا معشر من آمن بلسانه ولمّا يدخل الإيمان في قلبه..	البراء بن عازب	٢٠/ ٣٧٢
يا معشر من آمن بلسانه... لا تؤذوا المسلمين	عمر بن الخطاب	٢/ ٢٤٣
يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا	ابن عباس	٤/ ٥٨
يا معشر يهود، اتقوا الله، وأسلموا	معاذ بن جبل، بشر بن البراء بن معرور	٢/ ٢٩٣
يا معمر، غط فخذيك فإن الفخذين عورة	محمد بن جحش	١٥/ ٣٢٥
يا مقداد، أقتلت رجلًا يقول: لا إله إلا الله؟	ابن عباس	٦/ ٢٥٥
يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك	أنس بن مالك	٤/ ٤٣
يا ميمون، لا تدخل على هؤلاء الأمراء	عمر بن عبد العزيز	٧/ ١٤٠

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يا نبي الله للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل	ابن عباس	٥/ ٤٦٣
يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة	معاذ بن جبل	١٧/ ١٨٣
يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسِن شاة	أبو هريرة	٢٤/ ٣٩٣
يا هذه إن شئت أن تقيمي على ما ترين من الأثرة فأواسيك	ابن عباس	٦/ ٤٩٤
يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها ولم توص		٥/ ٢٥٨
يا سراقة، أتزعم أنك جار لنا؟	ابن عباس	١٠/ ١٥١
يا عمرو، أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله	عمرو بن العاص	٣/ ١٢٩
يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج	عبدالله بن مسعود	١٧/ ٣٣٧
يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟	أبو هريرة	١/ ٤٧
يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر	أبو ثعلبة الخشني	٢١/ ٥١٣
يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه المال أمن الحلال أم من الحرام	أبو هريرة	٢٤/ ٤٥٦
يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا	أبو هريرة	٣/ ٥٤١
ياذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم	أنس	٢١/ ٣٧٠
يبتلى المرء على قدر دينه	سعد بن أبي وقاص	٤/ ٦٧٢
يبعث الشيطان سراياه فيفتنون الناس	جابر	٢٢/ ٤٠٤
يبعث الله ريحًا كريح المسك	عقبة بن عامر	١٨/ ٢٢٨
يبعث الله يأجوج ومأجوج	النواس بن سمعان	١٣/ ٣٥٥
يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا	عائشة	٢٤/ ٨٠
يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم	أنس	٢١/ ٣٨٢
يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد	أنس بن مالك	٨/ ٢٤٦
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل	أبو هريرة	٨/ ١٦٢

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
اليتيمة تستأمر في نفسها	أبو هريرة	٥/ ٦٤
يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟	أنس بن مالك	٧/ ٣٣٦
يجزي عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم	علي بن أبي طالب	٦/ ١٧٧
يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد	أبو هريرة	٢٢/ ٣٥٩
يجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا	أنس بن مالك	٢/ ١٢٠
يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة	عبد الله بن مسعود	٢٣/ ٣١٥
يجيء النبي ومعه الرجلان	أبو سعيد الخدري	٢/ ٥٠٣
يحرم كل ذي ناب من السباع	ابن عباس	٧/ ٢٣
يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب	ابن عباس	٥/ ٣٣٢
يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر	عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده	١٣/ ١٠١
يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء	سهل بن سعد	١٢/ ٢٠٩
يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه	مجاهد	٢٢/ ٣٧٣
يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين	عبدالله بن عمرو	١٩/ ١١٢
يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة..	أبو سعيد الخدري	٢١/ ٤٥
يَخلُص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	أبو سعيد الخدري	٢٠/ ٢٣١
يخلف قوم يشهدون قبل أن يستشهدوا	أبو هريرة	٣/ ٥٦٩
يخوفنا محمد بشجرة الزقوم	أبو جهل	١٣/ ١٤٠
اليد العليا خير من اليد السفلى		٣/ ٤٢
اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول	حكيم بن حزام	١٥/ ١١٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة	أبو هريرة	٤/ ٤٥
يد المعطي العليا		٣/ ٢٣٧
يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول..	طارق المحاربي	١٥/ ١١٦
يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفًا	أبو هريرة	١٩/ ١١٨
يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم	حذيفة بن أسيد	١٤/ ٢٧٠
يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا بيضًا جعادًا مكحلين	معاذ بن جبل	٢١/ ٤٣٥
يدني الله العبد المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه	ابن عمر	٣/ ٢٦
يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمة	ابن عباس	١٧/ ٢٤٣
يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد	أبو هريرة	١١/ ٢٨٠
يرحم الله نساء المهاجرات الأُول..	عائشة	١٧/ ٤٦٥
يرسل إليه ملك، فيكتب رزقه وأجله وعمله	ابن مسعود	٨/ ١٦٠
يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار	أبو موسى	٢١/ ٤٩٤
يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان	ابن عمر	٢٤/ ١٩٤
يرقق بعضها بعضًا [الفتن]	عبد الله بن عمرو	٤/ ٥٦٣
يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين	ابن عباس	٩/ ٢١
يستجاب لأحدكم ما لم يعجل	أبو هريرة	٣/ ٩٠
يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا	أبو موسى	٢٢/ ٢٧٣
يسروا ولا تعسروا	أنس بن مالك	٣/ ٨٤
يسعهم منكم بسط الوجه وحُسن الخُلق	أبو هريرة	٢/ ٢٧٥
يسلم القليل على الكثير	أبو هريرة	٦/ ١٦٩
يشيب ابن آدم وتبقى معه اثنتان	أبو هريرة	٢٤/ ٤١٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يصف الناس يوم القيامة صفوفًا		١٣/ ٢٩٣
يصفد فيه كل شيطان مريد		٦/ ٤٥٤
يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة	أنس بن مالك	٥/ ٤٨١
يطوي الله- عز وجل- السموات يوم القيامة	ابن عمر	١/ ١٧٧
يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات	أبو موسى الأشعري	٢٣/ ١٢٤
يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء	أنس	٢١/ ٤٣٤
يعمد الشيطان إلى أحدكم، فيتهوّل له	أبو هريرة	١١/ ٤٠٠
يعني أن النبي ﷺ حرم جاريته، فقال الله جل ثناؤه: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾	ابن عباس	٢٢/ ٤٤٠
يعني عبد الله بن أبي وأصحابه.. [﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾]	ابن عباس	٢٢/ ١٤٥
يغزو هذا البيت جيش... خسف بأولهم وآخرهم	حفصة	١٤/ ٣٠٢
يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء	أبو هريرة	١/ ٧٣
يقال لآخر أهل النار خروجًا منها	عبد الله بن مسعود	٢٣/ ٣٤٠
يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل	عبد الله بن عمرو	٢٣/ ٢٣٣
يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب	ابن عباس	٣/ ٥٤٩
يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه	أبو هريرة	١/ ١٧٧
يقتضي للشاة الجلحاء من الشاة القرناء	أبو هريرة	١٩/ ١١٤
يقرأ أناس من أمتي القرآن لا يجاوز تراقيهم	أبو سعيد الخدري	٢١/ ٣٠٦
يقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب	أبو قتادة	١/ ٣١٤
يقرب إلى فيه، فيتكرهه	أبو أمامة	١٢/ ١٤٧
يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم [الخوارج]	أبو سعيد الخدري	٢/ ٢٥٨
يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود	أبو ذر الغفاري	١/ ٢٩

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلا حفتهم الملائكة	أبو سعيد الخدري، أبو هريرة	٢/ ٥٤٤
يقول ابن آدم مالي مالي قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت	مطرف عن أبيه	٢٤/ ٢٦٤
يقول ابن آدم: مالي مالي		٨/ ٢٤٧
يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث	أبو هريرة	٢٤/ ٤١٩
يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة	أبو هريرة	١١/ ٣٧٦
يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي..	أبو هريرة	١٧/ ٣٧٩
يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك وواحدة لي	أنس بن مالك	٣/ ٩١
يقول الله تعالى: يا بن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى	أبو هريرة	١٤/ ١٣٠
يقول الله- عز وجل: أنى تعجزني ابن آدم	بسر بن جحاش القرشي	٢٣/ ٣٦٥
يقول الله عز وجل: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم	عياض بن حمار المجاشعي	٢٤/ ٢٨٠
يقول الله له: كذبت	أبو هريرة	٥/ ٥٥٥
يقول الله: ابن آدم، أنىَّ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه	بسر بن جحاش	١٢/ ٣١٧
يقول لمحمد ﷺ: إذا أخبرتك شيئًا فاعلم أنه كما أخبرتك	ابن جريج	١٥/ ٤٣٧
يقول: لمقت الله أهل الضلالة..	قتادة	١٩/ ١٥٠
يقيم المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثًا	العلاء الحضرمي	٦/ ٣٥٦
يُكتَب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر	ابن عباس	٢٠/ ٩١
يكره النّوم قبل العشاء	أبو برزة	٨/ ١٦٤
يكشف ربنا عن ساقه	أبو سعيد الخدري	٢٣/ ٩٦

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة	أبو هريرة	٨/ ١٩٦
يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط	أنس بن مالك	٢١/ ٥٠
يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية [الخوارج]	أبو سعيد الخدري	٢/ ٢٥٨
يمنعني أن الله حرم دم أخي	ابن عمر	٣/ ١٣٠
ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا	أبو سعيد الخدري، أبو هريرة	٤/ ٧٩
ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها	ابن مسعود	٩/ ٣٦٢
ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة	ابن عباس	٢٢/ ٣٩٩
ينزل الله إلى السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر	أبو هريرة	٢١/ ٥٤٠
ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام	ابن عباس	١٤/ ٣٠٣
ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة		٤/ ٨٥
ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا	أبو هريرة	٢١/ ١٠٢
ينزل ربنا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير	أبو هريرة	٢١/ ٢٠١
ينكح العبد امرأتين ويطلق تطليقتين	عمر بن الخطاب	٥/ ٨٠
يهديكم الله ويصلح بالكم	أبو هريرة	٢٠/ ٢٢٨
يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل	أنس بن مالك	٢٤/ ٤١٩
يهود تأمر قريشًا أن تسأل محمدًا مثل ما أوتي موسى	مجاهد	١٦/ ٣٢٧
يؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة	...	١٨/ ١٥٢
يُؤْتَى بِالرَّجُلِ السَّمِينِ ... فَلَا يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ	أبو هريرة	٩/ ٢٦
يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه		٢/ ١٦٧
يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به	النواس بن سمعان	٢/ ٨

الطرف	الراوي/القائل	ج/ص
يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيُذبح بين الجنة النار	أبو سعيد الخدري	١١/ ٣١٢
يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام	عبدالله بن مسعود	١٩/ ٢٠٨
يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة	أنس بن مالك	٤/ ٧١٨
يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام	عبد الله بن مسعود	٢٤/ ٢٥٣
يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر	أبو هريرة	٤/ ٤٠٥
يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار	زهير الثقفي	٢/ ٥٠٤
يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم	أبو سعيد الخدري	٢١/ ٥١٢
يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال	أبو سعيد الخدري	١٣/ ٢٤٨
يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا	أبو هريرة	٦/ ٥٨٥
يوقظ صواحب الحجرات	أم سلمة	٢/ ٣٣٠
يوم التلاق: اسم من أسماء يوم القيامة	ابن عباس	١٩/ ١٥٦
يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله	أبو مسعود البدري	٦/ ٣٩
اليوم الموعود يوم القيامة، وإن الشاهد يوم الجمعة	أبو مالك الأشعري	٢٤/ ١٧٢
يوم بدر: يوم البطشة الكبرى	ابن مسعود	٢٠/ ٩٥
يوم عرفة ويوم النحر، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام	عقبة بن عامر	٣/ ١٨٤

* * *

فهرس الأشعار[1]

البيت		الشاعر	ج/ص
(الهمزة)			
أيا علما النجوم أحلتمونا	على علم أرق من الهباء	علي	٢٣/ ٢٢٤
أطلاب النجوم أحلتمونا	على علم أرق من الهباء	علي	٢١/ ١٩٢
أنا الموت الذي حدثت عنه	فليس لها رب مني نجاء	جرير	٣/ ٦٣
يغطى بالسماحة كل عيب	وكم عيب يغطيه السخاء	الشافعي	٣/ ٤٢٢
كل المصائب قد تمر على الفتى	وتهون غير شماتة الأعداء	ابن الأعرابي	١٨/ ٦٤
إبليس والدنيا ونفسي والهوى	كيف الخلاص وكلهم أعدائي		٣/ ٢٤٣
وارى الهوى تدعو إليه خواطري	في ظلمة الشبهات والآراء		٣/ ٢٤٣
إياك والدنيا الدنية إنها	هي السحر في تخييله وافترائه	ابن مشرف	٦/ ٦٦٦
وأصبح لا يدري وإن كان حازما	أقدامه خير له أم وراؤه	أبو حيان التوحيدي	٥/ ١٢٨
وإياك والآمال فالعمر ينقضي	وأسبابها ممدودة من ورائه	ابن مشرف	١٢/ ٢٣٠
هجوت محمدًا فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء	حسان بن ثابت	١/ ٣٥
لقد أغدو على ثبة كرام	نشاوى واجدين لما نشاء	زهير	٦/ ٩٧
الدين يسر والخلافة بيعة	والأمر شورى والحقوق قضاء	أحمد شوقي	١٩/ ٤٠٦
إذا خان الأمير وكاتباه	وقاضي الأرض داهن في القضاء	البلهول	٢٤/ ٤٥٤
وإن غاب لم يشتق إليه خليله	وإن مات لم يسرر صديقا بقاؤه	أبو حيان التوحيدي	٥/ ١٢٨
ونشربها فتتركنا ملوكاً	وأسداً لا ينهنهنا اللقاء	حسان بن ثابت	٣/ ٢٦٩
فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء	عائشة	١٥/ ٧٧
فمن أكرمت يوماً أهانت له غداً	ومن أضحكت قد آذنت ببكائه	ابن مشرف	٢/ ٥٦٣

(١) اكتفينا في فهرس الأشعار- غالبًا- بذكر الموضع الأول الذي خُرج فيه البيت.

البيت		الشاعر	ج/ص
إذا قام الملائكة انبعثتم	صلاتكم التصدي والمكاء	حسان بن ثابت	١٠/ ١١٠
والزوج والمعتق ذو الولاء	فجملة الذكور هؤلاء	الرحبي	٥/ ٢١٧
إبليس يسلك في طريق مهالكي	والنفس تأمرني بكل بلائي		٣/ ٢٤٣
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهُمُ	على الهدى لمن استهدى أدلاء	علي	٢٢/ ٦٧
إذا قل مال المرء قل بهاؤه	وضاقت عليه أرضه وسماؤه	أبو حيان التوحيدي	٥/ ١٢٨
سأعيش رغم الداء والأعداء	كالنسر فوق القمة الشماء	أبو القاسم الشابي	٣/ ٥٣٧
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له	إياك إياك أن تبتل بالماء		٣/ ١١٠
فإن يكن لهمو من أصلهم نسب	يفاخرون به فالطين والماء	علي بن أبي طالب	٤/ ٧٢
النور في جنبي وبين جوانحي	فعلام أخشى السير في الظلماء	أبو القاسم الشابي	٣/ ٥٣٧
فإنما أمهات الناس أوعية	مستودعات وللآباء أبناء	المأمون بن الرشيد	٣/ ٣٥٥
إذا أثنى عليك المرء يومًا	كفاه من تعرضه الثناء		١/ ٢٢٦
فلذاتها مسمومة ووعودها	سراب فما الظامي يروى من عنائه	ابن مشرف	٩/ ١٢٥
إني بليت بأربع ما سلطت	إلا لأجل شقاوتي وعنائي		٣/ ٢٤٣
متاع غرور ولا يدوم سرورها	وأضغاث حلم خادع ببهائه	ابن مشرف	٢/ ٥٦٢
آذنتنا ببينها أسماء	رب ثاو يحل منه الثواء	الحارث بن حلزة	١٢/ ١٣٢
الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء	علي بن أبي طالب	٤/ ٧٢
وقد يُخلفُ الإنسانُ ظَنَّ عشيرةٍ	وإن راق منه منظر ورُوَاء		٣/ ١٩٥
فاضرب وجوه الغُدَّر الأعداء	حتى يجيبوك إلى السواء		١٠/ ١٧٤
ألا أبلغ أبا سفيان عني	فأنت مجوَّف نخب هواء	حسان	١٦/ ١٣١
وزخارف الدنيا تقول أما ترى	حسني وفخر ملابسي وبهائي		٣/ ٢٤٣
قد مات ناس وما ماتت مآثرهم	ومات قوم وهم في الناس أحياء		١٦/ ٥٨
ليس من مات فاستراح بميت	إنما الميْت ميِّت الأحياء	عدي ابن الرعلاء	٣/ ٢٢
فقم بعلم ولا تطلب له بدلًا	فالناس موتى وأهل العلم أحياء	علي بن أبي طالب	١٤/ ١٦٧
أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياؤك إن شيمتك الحياء		١/ ٢٢٦

البيت		الشاعر	ج/ص
ونـــذيمهم وبهـــم عرفنـــا فضـــله	وبضـــدها تتبـــين الأشـــياء	المتنبي	١٦/ ٤٢
وهبنـــي قلـــت هـــذا الصـــبح ليـــل	أيعمـــى العـــالمون عـــن الضـــياء	المتنبي	١١/ ١٤
والدعـــاوى إن لـــم يقيمـــوا عليـــ	ـــها بينـــات أصحـــابهـــا أدعيـــاء	البوصيري	٢/ ٢٦٢
فكـــم في كتـــاب الله مـــن ذكـــر ذمهـــا	وكـــم ذمهـــا الأخيـــار مـــن أصـــفيائه	ابن مشرف	٢/ ٥٦٣
(الباء)			
وعـــزة عمـــر المـــرء قبـــل مشـــيبه	وقـــد فنيـــت نفـــس تـــولى شـــبابها	الشافعي	١٣/ ٣٨٥
رأيـــت خـــراب العمـــر منـــي فزرتنـــي	ومـــأواك مـــن كـــل الـــديار خرابهـــا	الشافعي	١٣/ ٣٨٥
فـــما تخـــرب الـــدنيا بمـــوت شرارهـــا	ولكـــن بمـــوت الأكـــرمين خرابهـــا	الشافعي	١٣/ ٣٨٧
يـــا حبـــذا الجنـــة واقترابهـــا	طيبـــة وبـــارد شرابهـــا	جعفر بن أبي طالب	٢/ ٣٠٩
أيـــا بومـــة قـــد عششـــت فـــوق هـــامتي	على الـــرغم منـــي حـــين طـــار غرابهـــا	الشافعي	١٣/ ٣٨٥
أأنعـــم عيشًـــا بعـــدما حـــل عـــارضي	طلائـــع شـــيب لـــيس يغنـــي خضـــابها	الشافعي	١٣/ ٣٨٥
إذا اصـــفر لـــون المـــرء وابـــيض شـــعره	تـــنغص مـــن أيامـــه مســـتطابها	الشافعي	١٣/ ٣٨٥
فغـــض الطـــرف إنـــك مـــن نمـــير	فـــلا كعبًـــا بلغـــت ولا كلابَـــا	جرير	١٥/ ١٥٦
خبـــت نـــار نفســـي باشـــتعال مفـــارقي	وأظلـــم لـــيلي إذ أضـــاء شـــهابها	الشافعي	١٣/ ٣٨٥
يســـر المـــرء مـــا ذهـــب الليـــالي	وكـــان ذهابهـــن لـــه ذهـــابا		٢٤/ ٤٣٧
ولكننـــي أخشـــى رقيبـــاً مـــوكلاً	بأنفســـنا لا يفـــتر الـــدهر كاتبـــه		٣/ ٣١٠
ألاعبـــه طـــوراً وطـــوراً كـــأنما	بـــدا قمـــراً في ظلمـــة الليـــل حاجبـــه		٣/ ٣١٠
أفـــادتكم الـــنعماء منـــي ثلاثـــة	يـــدي ولســـاني والضـــمير المحجبـــا		١/ ١٥٨
ومـــن قلـــة الإنصـــاف أنـــك تبتغـــي الـــ	ـــمهذب في الـــدنيا ولســـت المهـــذبا	ابن الرومي	٢٤/ ١٢٧
إذا أنـــت لم تشـــرب مـــرارًا عـــلى القـــذى	ظمئـــت وأي النـــاس تصـــفو مشـــاربه	بشار بن برد	٥/ ٢٩٧
يســـر بـــه مـــن كـــان يلهـــو بقربـــه	لطيـــف الحشـــا لا يحتويـــه أقاربـــه		٣/ ٣١٠
فحـــب الجبـــان الـــنفس أورده التقـــى	وحـــب الشـــجاع الموت أورده الحربـــا	المتنبي	٢/ ٣١١
قـــومٌ إذا عَقَـــدوا عقـــدًا لجـــارهمُ	شَـــدُّوا العِنـــاج وشـــدُّوا فوقـــه الكَرَبـــا	الحطيئة	٧/ ١٨
غـــــداً نلقـــــى الأحبـــــه	محمـــــدا وحزبـــــه	بلال بن رباح	٢/ ٥٦٧

البيت		الشاعر	ج/ص
أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه	حريصا عليها مستهاما بها صبا	المتنبي	٢/ ٣١١
وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي	فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ	ذو الرمة	٨/ ٧٩
تطاول هذا الليل وازورّ جانبه	وأرقني أن لا ضجيع ألاعبه		٣/ ٣١٠
تطاول هذا الليل واسودّ جانبه	وأرقني أن لا خليل ألاعِبُهْ		٣/ ٣١٠
فوالله لولا الله أني أراقبه	لحرك من هذا السرير جوانبه		٣/ ٣١٠
رأيت رجالًا يضربون نساءهم	فَشَلّت يميني حين أَضرب زينبا	القاضي شريح	٥/ ٥١٨
وما كان شكري وافيًا بِنَوَالِكُم	ولكنني حاولت في الجهد مذهبًا		١/ ١٥٨
يكلمني السفيه بكل قبح	وأكره أن أكون له مجيبَا	الشافعي	١٣/ ٤٠٦
يزيد حماقة وأزيد حلمًا	كعود زاده الإحراق طيبا	الشافعي	١٣/ ٤٠٦
وما أدري أَغَيَّرَهم تناءٍ	وطولُ العهد أم مالٌ أصابوا		٢/ ١٨٨
ولقد طعنت أبا عيينة طعنة	جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا	عطية بن عفيف	٧/ ٣٧
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت	فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا	أحمد شوقي	٢٣/ ٦٨
فإن رأيت عارياً	فلا تسل عن ثوبه	بدر الدين الشافعي	٣/ ٤٤
ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم	بهن فلولٌ من قراعِ الكتائبِ	النابغة	٢/ ٣١٧
ومن لا يُغمض عينه عن صديقه	وعن بعض ما فيه يمت وهو عائب	كثير عزة	٥/ ٢٩٦
أثرن عجاجة فخرجن منها	خروج الودق من خلل السحاب	بشر بن أبي حازم	١٥/ ٢٦٩
له ملك ينادي كل يوم	لدوا للموت وابنوا للخراب	علي بن أبي طالب	١٣/ ٣٢٩
ومن طلب العلا من غير كد	سيدركها متى شاب الغراب	الشافعي	١٤/ ٤٨٨
يسر المرء ما ذهب الليالي	وكان ذهابهن له ذهاب		١٩/ ٢٣٩
لقد نَقَّبْتُ في الآفاق حتى	رضيت من الغنيمة بالإياب	امرؤ القيس	٢١/ ٦١
وهي نكاح وولاء ونسب	ما بعدهن للمواريث سبب		٥/ ٢١٣
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه	إليها ولكن كل شيء له سببْ		١٣/ ٤٠٤
وما المرء إلا حيث يجعل نفسه	فكن طالباً في الناس أعلى المراتب	علي بن أبي طالب	٢/ ٤٥٦
وكاتبون وما خطت أناملهم	حرفًا وما قرؤوا ما خط في الكتب		٢١/ ١٦١

البيت		الشاعر	ج/ص
لا تسألن بُنَيَّ آدم حاجة	وسل الذي أبوابه لا تحجب		٥/ ٤٦٨
فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا	فاذهب فما بك والأيامِ من عجب		٥/ ٣٥
ومن يتتبع جاهدًا كل عثرة	يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب	كثير عزة	٥/ ٢٩٦
وَلما رَأَيت الشيب لَاحَ بياضه	بمفرق رَأْسِي قلت للشيب مرْحَبَ	يحيى بن زياد	٤/ ٢٨٣
ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كل ملْك دونها يتذبذب	النابغة الذبياني	١/ ١٥١
وابن الأخ المدلي إليه بالأب	فاسمع مقالا ليس بالمكذب	الرحبي	٥/ ٢١٧
وجدناهمُ كاذباً إِلُّهُمْ	وذو الإلِّ والعهد لا يكذب		١٠/ ٢٦٩
ونبني القصور المشمخرات في الهوى	وفي علمنا أنا نموت وتخرب	ابن عثيمين الشاعر	١٢/ ٢٣٠
فارحل فأرض الله واسعة الفضا	طولًا وعرضا شرقها والمغرب	علي بن أبي طالب	٥/ ٥٥
نؤمل آمالًا ونرجو نتاجها	وعلَّ الردى مما نرجِّيه أقربُ	ابن عثيمين الشاعر	١٢/ ٢٣٠
يلقاك يحلف إنه بك واثق	وإذا توارى عنك فهو العقرب		٣/ ١٩٤
كطود يلاذ بأركانه	عزيز المُراغم والمهرب	النابغة الجعدي	٦/ ٢٩٣
لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه	فلا تترك التقوى اعتمادًا على النسب		٤/ ٣٧٩
كن ابن من شئت واكتسب أدبا	يغنيك محموده عن النسب	أبو العتاهية	٢/ ٤٦٤
إن الغصون إذا قوَّمتَها اعتدلت	ولا تلين إذا قوَّمتَها الخشبُ		١٣/ ٢٣٧
خذي العفو مني تستديمي مودتي	ولا تنطقي في سورتي حين أغضب		٣/ ٢٧١
لا يحمل الحقد من تعلوبه الرتب	ولا ينال الرضا من طبعه الغضب	عنترة	٢١/ ٥٦٥
الله يغضب إن تركت سؤاله	وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب		٥/ ٤٦٨
من البيض لم تُصطد على ظهر لأمة	ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب		٢٤/ ٥٣٨
ألم تر أن الله قال لمريمٍ:	وهزي إليك الجذع يسّاقط الرطبْ		١٣/ ٤٠٤
إن الأفاعي وإن لانت ملامسها	عند التقلب في أنيابها العطب	عنترة بن شداد	٢/ ٣٥٥
ولو كانت الأخلاق تحوي وراثة	ولو كانت الآراء لا تتشعب	منصور الهروي	٢١/ ٣٣٦
إن القلوب إذا تنافر ودها	شبه الزجاجة كسرها يشعب	علي بن أبي طالب	١٠/ ١٩٠
فما أقرب الآتي وأبعد ما مضى	وهذا غراب البين في الدار ينعب	محمد بن عثيمين	٢١/ ٢٧٦

البيت		الشاعر	ج/ص
قال حمار الحكيم توما	لو أنصف الناس كنت أركب	توما الحكيم	٥/ ١٦٨
لأنني جاهل بسيط	وصاحبي جاهل مركب	توما الحكيم	٥/ ١٦٨
هو الموت ما منه ملاذ ومهرب	متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب	ابن عثيمين	٢/ ٧٥
أرب يبول الثعلبان برأسه	لقد هان من بالت عليه الثعالب		١/ ١٦٤
أين المفر والإله الطالب	والأشرم المغلوب ليس الغالب	نفيل بن حبيب	٢١/ ٣٧٩
كأنك لم تُوتَر من الدهر ليلة	إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب	عمر بن الخطاب	١٦/ ١١٨
ألا طرقت من آخر الليل زينب	عليك سلام هل لما فات مطلب		٢٤/ ١٩٢
أنا النبي لا كذب	أنا ابن عبد المطلب		١/ ٣٦
يعطيك من أدنى اللسان حلاوة	ويروغ عنك كما يروغ الثعلب		٣/ ١٩٤
مضوا سلفًا قصد السبيل عليهم	وصرف المنايا بالرجال تقلب	طفيل الغنوي	١/ ١٩٤
وأظلم خلق الله من بات حاسدًا	لمن بات في نعمائه يتقلب	المتنبي	٢/ ٢٩٦
وما سمي الإنسان إلا لنسيه	ولا القلب إلا أنه يتقلب		٢٤/ ٥٩٧
مضوا سلفًا قصد السبيل عليهمُ	وصرف المنايا بالرجال تشقلب	الطفيل الغنوي	١٢/ ٢٥٣
ومن بعد ذاحشر ونشر وموقف	ويوم به يكسى المذلة مذنب	ابن مشرف	٢٤/ ٨١
فما نحن في دار المنى غير أننا	شغفنا بدنيا تضمحل وتذهب	ابن عثيمين	٢٤/ ٥٢١
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	وليس وراء الله للمرء مذهبُ	النابغة الذبياني	١٢/ ٤٤٧
وإذا رأيت الرزق ضاق ببلدة	وخشيت فيها أن يضيق المذهب	علي بن أبي طالب	٥/ ٥٥
فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي	إذا كان يوم ذو كواكب أشهب		٥/ ٤٤٣
فقد رفع الإسلام سلمان فارس	وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب		٤/ ٣٧٩
خفافيش أعشاها النهار بضوئه	فوافقها من ظلمة الليل غيهب	ابن مشرف	١٦/ ٢٣٩
وكل ذي غيبة يؤوب	وغائب الموت لا يؤوب	عبيد بن الأبرص	١٣/ ٧٠
نسب تتابع كابرا عن كابر	كالرمح أنبوبا على أنبوب	البحتري	٥/ ١٩٧
فلا تعد لي بَيني وبين مُغَمَّر	سُقِيتِ روايا المزن حين تصوب	علقمة بن عبدة	٢/ ٧٤
إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا	فما حيلة المضطر إلا ركوبها		٦/ ١٦٩

البيت		الشاعر	ج/ص
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها	كفى المرء نبلا أن تعد معايبه		٢/ ١٦٨
ما الدهر إلا هكذا فاصطبر له	رزية مال أو فراق حبيب		٢/ ٥٦٩
كأنهمُ صابت عليهم سحابة	صواعقها لطَيْرِهنَّ دبيبُ	علقمة بن عبدة	٢/ ٧٤
فإن تسألوني بالنساء فإنني	خبير بأدواء النساء طبيب	علقمة بن عبدة	٢٢/ ١٨
وداع داعا يا من يجيب إلى الندا	فلم يستجبه عند ذاك مجيب	كعب بن الأسود	٤/ ٦٩٤
عسى الكرب الذي أمسيت فيه	يكون وراءه فرج قريب	هدبة بن مشرم	٣/ ٢٤٣
وكل الحادثات إذا تناهت	فموصول بها الفرج القريب	ابن السكيت	٢/ ٥٦٦
فإن تُعجب الدنيا رجالًا فإنها	متاع قليل والزوال قريب	منفعة بن مالك	٦/ ١٣٠
أولئك خُلصاني نَعم وبِطانتي	وهم عيبتي من دون كل قريب	مسكين الدارمي	٤/ ٤٣٠
فإن يك صدر هذا اليوم ولى	فإن غداً لناظره قريب	هدبة بن خشرم	٢١/ ٣١٤
إِنَّ الشَّبَابَ الَّذِي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ	فِيهِ نَلَذُّ وَلَا لَذَّاتِ لِلشِّيبِ	سلامة بن جندل	٩/ ١٣١
ألا ليت الشباب يعود يوما	فأخبره بما فعل المشيب	أبو العتاهية	٢/ ٣٨٧
ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له	من الله في دار الجزاء نصيب	منفعة بن مالك	٦/ ١٣٠
حال المقل ناطق	عما خفى من عيبه	بدر الدين الشافعي	٣/ ٤٤
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما يُخفى لديه يغيب		٥/ ٣٧
وَلَّى حَثِيثًا وَهَذَا الشَّيْبُ يَتْبَعُهُ	لَوْ كَانَ يُدْرِكُهُ رَكْضُ اليَعَاقِيبِ	سلامة بن جندل	٩/ ١٣١
إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل	خلوت ولكن قل عليَّ رقيب		٥/ ٣٧
حليم إذا ما الحلم زين أهله	مع الحلم في عين العداة مهيب	محمد بن كعب الغنوي	٧/ ٤٧٦
إن الفتى من يقول ها أنذا	ليس الفتى من يقول كان أبي	أبو العتاهية	٢/ ٤٦٤
ليس الغبي بسيد في قومه	لكنَّ سيد قومه المتغابي	أبو تمام	٢٢/ ٤٤٢
(التاء)			
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى	ولا ترى نفسها إلا بمرآة	الأرجاني	٤/ ٥٩٣
أرى كل يوم في الجرائد مزلقا	من القبر يدنيني بغير أناة	حافظ إبراهيم	٢/ ٣٠
أيهجرني قومي عفا الله عنهم	إلى لغة لم تتصل بروواة	حافظ إبراهيم	٢/ ٣٠

البيت		الشاعر	ج/ص
	فلا تحرمني نائلا عن جنابة		٥/٥٧٦
أسباب ميراث الورى ثلاثة	كل يفيد ربه الوراثة		٥/٢١٣
وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ	فليتك ثم ليتك ما فهمتا	أبو إسحاق الآلبيري	١٩/٤٤
خرجنا من الدنيا وعن وصل أهلها	فلسنا من الأحيا ولسنا من الموتى		٧/٣١٦
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة	أذود الأذى عنهم وإن مت موتوا	تميم بن جميل	٢/١٤٣
تَصَبَّر على مر الجفا من معلم	فإن رسوخ العلم في نبراته	الشافعي	١٣/٣٢٧
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق	حياء بتلك الأعظم النخرات	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
حفظن ودادي في البلى وحفظته	لهن بقلب دائم الحسرات	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى	لعاب الأفاعي في مسيل فرات	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
شاور سواك إذا نابتك نائبة	يومًا وإن كنت من أهل المشورات	الأرجاني	٤/٥٩٣
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية	وما ضقت عن آي به وعظات	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
رموني بعقم في الشباب وليتني	عقمت فلم أجزع لقول عداتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
فالفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا	كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي	ابن تيمية	١٨/١٣١
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني	ومنكم وإن عز الدواء أساتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
وأسمع للكتاب في مصر ضجة	فاعلم أن الصائحين نعاتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	فهل سألوا الغواص عن صدفاتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
فإما حياة تبعث الميت في البلى	وتنبت في تلك الرموس رفاتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
فلا تكلوني للزمان فإنني	أخاف عليكم أن تحين وفاتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
إلى معشر الكتاب والجمع حافل	بسطت رجائي بعد بسط شكاتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
ولدت ولما لم أجد لعرائسي	رجالا وأكفاءً وأدت بناتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما	يعز عليها أن تلين قناتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي	وناديت قومي فاحتسبت حياتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
أيطربكم من جانب الغرب ناعب	ينادي بوأدي في ربيع حياتي	حافظ إبراهيم	٢/٣٠
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات	حافظ إبراهيم	٢/٣٠

البيت		الشاعر	ج/ص
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة	وكم عز أقوام بعز لغات	حافظ إبراهيم	٢/ ٣٠
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة	مشكلة الألوان مختلفات	حافظ إبراهيم	٢/ ٣٠
ومن فاته التعليم وقت شبابه	فكبر عليه أربعًا لوفاته	الشافعي	٢٣/ ٦٢
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا	فيا ليتكم تأتون بالكلمات	حافظ إبراهيم	٢/ ٣٠
وإما ممات لا قيامة بعده	ممات لعمري لم يقس بممات	حافظ إبراهيم	٢/ ٣٠
علو في الحياة وفي الممات		ابن الأنباري	٤/ ٥١٢
لما عفوت ولم أحقد على أحد	أرحت نفسي من هم العداوات	الشافعي	١٩/ ٤٠١
ومن لم يذق ذل التعلم ساعة	تجرع كأس الجهل طول حياته	الشافعي	١٣/ ٣٢٧
ولكن خلفي صبية إن تركتهم	وأكبادهم من حسرة تتفتت	تميم بن جميل	٢/ ١٤٣
قليل الآلايا حافظ ليمينه	وإن صدرت منه الأليّة برت	كثير عزة	٣/ ٣٠٨
وجرّعتها المكروه حتى تدربت	ولو لم أجرعها إذن لاشمأزتِ	الفيروزابادي	١١/ ٣٦٦
صبرت على بعض الأذى خوف كله	وجاهدت عن نفسي بنفسي فعزّتِ	الفيروزابادي	١١/ ٣٦٦
أرى الموت بين السيف والنطع كامنا	يلاحظني من حيثما أتلفت	تميم بن جميل	٢/ ١٤٣
وما جزعي من أن أموت وإنني	لأعلم أن الموت شيء مؤقت	تميم بن جميل	٢/ ١٤٣
يعز على الأوس بن تغلب موقف	يسل عليَّ السيف فيه وأسكت	تميم بن جميل	٢/ ١٤٣
هنيئا مريئا غير داء مخامر	لعزة من أعراضنا ما استحلت	كثير عزة	٥/ ٩٠
إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى	إلى غير من قال اشتكوا لي فشلت	الفيروزابادي	١١/ ٣٦٦
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة	وسيف المنايا بين عينيه مصلت	تميم بن جميل	٢/ ١٤٣
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي	وأي امرئ عما قضى الله يفلت	تميم بن جميل	٢/ ١٤٣
وقلت لها يا نفس موتي كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّتِ	الفيروزابادي	١١/ ٣٦٦
والأخت من أي الجهات كانت	فهذه عدتهن بانت	الرحبي	٥/ ٢١٨
إذا نطق السفيه فلا تجبه	فخير من إجابته السكوتُ	الشافعي	١٣/ ٤٠٦
ليت وهل ينفع شيئًا ليتُ	ليتَ شبابًا بُوعَ فاشتريتُ	رؤبة بن العجاج	١٥/ ٤٠٤
وما أدع السفارة بين قومي	وما أمشي بغش إن مشيت	موسى بن جابر	٢٤/ ٦٨

البيت		الشاعر	ج/ص
هل أنت إلا إصبع دميت	وفي سبيل الله ما لقيت	جندب بن سفيان	٥/ ٥٢٩
ولرب نازلة يضيق بها الفتى	ذرعاً وعند الله منها المخرج	إبراهيم بن العباس	٢/ ٥٦٦
ولرب نازلة يضيق بها الفتى	ذرعًا وعند الله منها المخرج	علي بن ابي طالب	٢٤/ ٣٣٢
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها	فرجت وكان يظنها لا تفرج	إبراهيم بن العباس	٢/ ٥٦٧
نحن بنو جعدة أصحاب الفلج	نضرب بالسيف ونرجو بالفرج		١٤/ ٣٠٠
وإذا حذرت من الأمور مقدرًا	وفررت منه فنحوه تتوجه	ابن الرومي	١١/ ٤٣١
شربن بماء البحر ثم ترفعت	متى لجج خضر لهن نئيج	أبو ذؤيب الهذلي	٢٤/ ١٤٠
(الحاء)			
إنا أقمنا على عذر نكابده	ومن أقام على عذر كمن راحا	أحمد بن العريف	٦/ ٢٧٣
يا راحلين إلى البيت العتيق لقد	سرتم جسومًا وسرنا نحن أرواحا	أحمد بن العريف	٦/ ٢٧٣
والخيل تكدح حين تضـ	ـبح في حياض الموت ضبحًا	عنترة	٢٤/ ٤٠٠
ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين بطون راح؟!	جرير	١٦/ ٤٨٣
الأمر جِدٌّ وهْو غير مزاحِ	فاعمل لنفسك صالحًا يا صاحِ	نشوان الحميري	١٧/ ٢٤
الأمر جد وهو غير مزاح	فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح	نشوان الحميري	٤/ ٧٠٢
أخاك أخاك إن من لا أخا له	كساعٍ إلى الهيجا بدون سلاح	مسكين الدارمي	١/ ١٨١
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم	إن التشبه بالكرام فلاح	أبو الفتوح	٢١/ ١٠١
وما الدهر إلا تارتان فمنهما	أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح	ابن مقبل	٢٤/ ١٥٣
وبَوَّأت بَيْتَك في مَعْلمٍ	رحيبِ المباءةِ والمسرحِ	..	٢٤/ ٢٨٢
فحسبكم هذا التمايز بيننا	وكل إناء بالذي فيه ينضح	حيص بيص	٤/ ٤٣٢
(الدال)			
كونوا جميعًا يا بنيّ إذا اعترى	خطب ولا تتفرقوا آحادا		٢/ ٢٢٠
تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا	وإذا افترقن تكسرت آحادا		٢/ ٢٢٠
ولو أني حُبيت الخلد فردًا	لما أحببت بالخلد انفرادا	المعري	٥/ ٢٢٣
فلا هطلت علي ولا بأرضي	سحائب ليس تنتظم البلادا	المعري	٥/ ٢٢٣

البيت		الشاعر	ج/ص
إذا لم يكن عون من الله للفتى	فأول ما يجني عليه اجتهاده	علي بن أبي طالب	٤/ ٥١٧
نحن الذين بايعوا محمدا	على الجهاد ما بقينا أبدا		١/ ٣٦
لكنني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرع تقذف الزبدا	عبدالله بن رواحة	١٦/ ٥٨
لكنني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرعٍ تقذف الزبدا	عبد الله بن رواحة	٢/ ٣٠٩
وذا النُصُب المنصوب لا تأتينَّه	ولا تعبد الشيطان واللهَ فاعبدا	الأعشى	٧/ ٦٢
أو طعنة من يدي حران مجهزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا	عبد الله بن رواحة	٢/ ٣٠٩
دع الحسود وما يلقاه من كمدِهْ	يكفيك منه لهيب النار في كبدِهْ		٥/ ٤٧٨
نبيًّا يرى ما لا يرون وذكره	أغار لعمري في البلاد وأنجدا	الأعشى	١/ ٣٦
كم من أخ لي ماجد	بوَّأته بيَديَّ لحدا	عمرو بن معد يكرب	١٤/ ٣٠٦
إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة	فإن فساد الرأي أن تترددا	المنصور	٤/ ٦٠٥
دَعَانِيَ مِنْ نَجْدٍ فَإِنَّ سِنِينَهُ	لَعِبْنَ بِنَا شِيبًا وَشَيَّبْنَنَا مُرْدَا	الصمة القشيري	٩/ ٢٦٢
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي:	أرشدك الله من غاز وقد رشدا	عبد الله بن رواحة	٢/ ٣٠٩
ندمت على ألا تكون كمثله	وأنك لم ترصد لما كان أرصدا	الأعشى	١/ ٣٦
تحن إلى أجبال مكة ناقتي	ومن دونها أبواب صنعاء موصده		٢٤/ ٤٥٨
ومن رأى النفي بلن مؤبدًا	فقوله اردد وخلافه اعضدا	ابن مالك	٦/ ٤٩٧
تباعد مني فُطحُل إذ دعوته	أمينَ فزاد الله ما بيننا بعدا	جبير بن الأضبط	١/ ٣١٣
فإن تسألي عني فيا ربَّ سائل	حفيّ عن الأعشى به حيث أصعدا	الأعشى	٥/ ٥٥٩
ألا أيهذا السائلي أين أصعدت	فإن لها في أهل يثرب موعدا	الأعشى	٥/ ٥٦٠
له صدقات ما تغب ونائل	وليس عطاء اليوم مانعه غدا	الأعشى	١/ ٣٦
إني كذاك إذا ما ساءني بلد	يممت صدر بعيري غيره بلدا		٧/ ٣٤
أريني جوادًا مات هزلًا لعلني	أرى ما ترين أو بخيلًا مخلَّدَا	حاتم الطائي	١٧/ ١٠٩
ذَرِينِي أُطَوِّفْ فِي البِلَادِ لِأَنَّنِي	أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلًا مُخَلَّدَا	دريد بن الصمة	٨/ ٢٩٤
ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها	لكان رسول الله حياً مخلدا		٢/ ٥٦٩
الحمد لله العزيز فردَا	لم يتخذ من وُلد شيء وُلْدَا	رؤبة بن العجاج	١٣/ ٤٦٢

البيت		الشاعر	ج/ص
تُعَيِّرني بالدَّين قومي، وإنما	تَدَيَّنْت في أشياءَ تُكْسِبُهم حَمْدا		١/ ١٧٥
فآليت لا أرثي لها من كلالة	ولا من حفى حتى تلاقي محمدا	الأعشى	١/ ٣٦
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم	تراحي وتلقي من فواضله ندا	الأعشى	١/ ٣٦
ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا	وبت كما بات السليم مسهدا	الأعشى	١/ ٣٦
أجدك لم تسمع وصاة محمد	نبي الإله حيث أوصى وأشهدا	الأعشى	١/ ٣٦
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى	ولاقيت بعد الموت من قد تزودا	الأعشى	١/ ٣٦
	فلسنا بالجبال ولا الحديدا	عقبة بن هبيرة	٥/ ٣٢
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم	ولا سراة إذا جهالهم سادوا	الأفوه الأودي	٣/ ٤١٩
إن يحسدوني فإني غير لائمهم	من كان قبلي أهل الفضل قد حسدوا	بشار بن برد	٥/ ٤٧٨
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة	في ظل ملك ثابت الأوتادِ	الأسود بن يعفر	١٨/ ٣٧٣
الخير يبقى وإن طال الزمان به	والشر أخبث ما أوعيت من زاد	عبيد بن الأبرص	٢٤/ ١٦٣
كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى	وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ		٦/ ٣٠٢
ومن زرع الحبوب وما سقاها	تأوه نادمًا يوم الحصاد	الشافعي	١٤/ ٤٨٨
جريًا إلى الله بغير زاد	إلا التقى وعمل المعاد	عمير بن الحمام	٢/ ٢٠٩
نعم الإله على العباد كثيرة	وأجلهن نجابة الأولاد		١٢/ ٤١١
وَلو نَارًا نَفخْتَ بها أَضاءتْ	وَلَكِن أَنتَ تَنفُخُ في رَمادِ	كثير عزة	٨/ ٩٨
أما الفقير الذي كانت حلوبته	وفق العيال فلم يترك له سبد	الراعي النميري	٥/ ١٠٦
تُباري عِتاقًا ناجيات وأتبعت	وظيفًا وظيفًا فوق مَوْر مُعَبَّد	طرفة بن العبد	١/ ١٨١
إلى أن تحامتني العشيرة كلها	وأفردت إفراد البعير المعبّد	طرفة بن العبد	١/ ١٨١
تَقَطَّعَ فيهِ مُنزِلُ الوَحْيِ عَنهُمُ	وَقَد كان ذا نورٍ يَغورُ وَيُنجِدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
فجودي عليه بالدموع وأعولي	لفقد الذي لا مثله الدهر يُوجد	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
فدام لي ولهم ما بي وما بهمُ	ومات أكثرنا همًّا بما يجد	بشار بن برد	٥/ ٤٧٨
فواعجبًا كيف يعصى الإلـ	ـه أم كيف يجحده الجاحد	أبو العتاهية	١/ ١٦٧
ولم أر أمثال الرجال تفاوتت	لدى المجد حتى عد ألف بواحد	البحتري	١٢/ ٤٩٩

البيت		الشاعر	ج/ص
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره	تنوعت الأسباب والموت واحد	ابن نباتة السعدي	٢/ ٥٦٣
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد	أبو العتاهية	١/ ١٦٧
من لم يصب ممن ترى بمصيبة	هذا سبيل لست فيها بأوحد	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٤
تمنى رجال أن أموت وإن أمت	فتلك سبيل لستُ فيها بأوحدِ	الشافعي	١٤/ ١٧٨
فَبُورِكتَ يا قبرَ الرّسولِ وبورِكتْ	بِلادٌ ثَوَى فيهَا الرّشِيدُ المُسَدَّدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
أرى الموت يعتام الكرام ويعتلي	عقيلة مال الفاحش المتشدد	طرفة بن العبد	٢٤/ ٤٠٣
فقلت لهم ظُنُّوا بألفي مدجَّجٍ	سَراتُهمُ في الفارسيِّ المُسرَّد	دريد بن الصمة	٢/ ١٧٤
وأنت زنيم نيط في آل هاشم	كما نيط خلف الراكب القدح الفرد	حسان	٢٣/ ٧٨
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا	كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ	ابن رشيق القيرواني	٨/ ١٧٠
وكل عداوة ترجىٰ إماتتها	إلا عداوة من عاداك عن حسد		٥/ ٤٧٩
لقد غيّبوا حِلْماً وعِلْماً وَرَحمةً	عشيةَ علوهُ الثرى لا يُوسّدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
وما أنا إلا من غزية إن غوت	غويت وإن ترشد غزية أرشد	دريد بن الصمة	٥/ ٤٤
بلغ المشارق والمغارب يبتغي	أسباب أمر من حكيم مرشد	أمية	١٣/ ٣٤٨
	فصد عن نهج الصراط القاصد		١/ ١٩٣
تفقه فإن الفقه أفضل قائد	إلى البر والتقوى وأعدل قاصد	محمد بن الحسن	١٩/ ٤٤
أوما ترى أن المصائب جمة	وترى المنية للعباد بمرصد	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٤
أعاذل إن الجهل من لذة الفتى	وإن المنايا للنفوس بمرصد	عدي بن زيد	١٠/ ٢٥٤
رأيت المنايا لم يدعن محمدًا	ولا باقيًا إلا له الموت مرصد	سحيم	١٤/ ١٧٨
فَبَيْنَا هُمُ في ذلكَ النّورِ إذْ غَدَا	إلى نُورِهِمْ سَهْمٌ من المَوْتِ مُقصِدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
وَرَاحُوا بحُزْنٍ ليس فيهِمْ نَبيُّهُمْ	وَقَدْ وَهَنَتْ منهُمْ ظهورٌ وأَعْضُدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
وبورِكَ لحدٌ منكَ ضمّنَ طيباً	عليهِ بناءٌ من صفيحٍ مُنضّدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
إذا قل مال المرء لانت قناته	وهان على الأدنى فكيف الأباعد		٥/ ١٢٨
بنونا بنو أبنائنا وبناتنا	بنوهن أبناء الرجال الأباعد	الفرزدق	٤/ ١٧٤
تهيلُ عليهِ الترب أيدٍ وأعينٌ	عليهِ وقدْ غارتْ بذلكَ أَسعُدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥

البيت		الشاعر	ج/ص
ظللتُ بها أبكي الرسولَ فأسعدتْ	عُيون وَمِثْلاها مِنَ الجَفْنِ تُسعدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
وَمَسْجِدُهُ فالموحِشاتُ لِفَقْدِهِ	خلاءٌ لهُ فيهِ مقامٌ ومقعدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ العَمِّ مَا عِشْتُ صَوْلَتِي	وَيَأْمَنُ مِنِّي صَوْلَةَ المُتَوَعِّدِ	عامر بن الطفيل	٩/ ١٠٨
أَعَاذِلُ مَا يُدْرِيكَ أَنَّ مَنِيَّتِي	إِلَى سَاعَةٍ فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الغَدِ	عدي بن زيد العبادي	٨/ ٢٩٤
واصبر كما صبر الكرام فإنها	نَوَبٌ تنوب الآن تُفرج من غدِ	أبو العتاهية	١١/ ٣٦٥
وإني لآتيكم لذكر الذي مضى	من الود واستئناف ما كان في غد	الطرماح	١/ ٣٨
قِفاراً سِوَى مَعْمورَةِ اللَّحْدِ ضَافَها	فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلاطٌ وغَرْقَدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
فما فقد الماضون مثل محمد	ولا مثله حتى القيامة يُفقد	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى	تهيأْ لأخرى مثلِها فكأنْ قَدِ	الشافعي	١٤/ ١٧٨
أَزِفَ الترحّل غير أن ركابنا	لما تزُل برحالنا وكأن قد	النابغة الذبياني	٣/ ٢٢٦
اصبر لكل مصيبة وتجلد	واعلم بأن المرء غير مخلد	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٤
وَإِنَّ ثواب الله كلَّ مخلَّدٍ	جنان من الفردوس فيها يخلد	حسان بن ثابت	١٣/ ٣٦٧
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويفنى المال والولد	عمر بن الخطاب	٢/ ٥٦٢
مِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ	أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ	ابن رشيق القيرواني	٨/ ١٧٠
فبكِّي رسولَ الله يا عينُ حسرةً	ولا أعرِفَنْك الدهرَ دمعك يجمد	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
فما فيه حد في الدنى أو توعد	فسم كبرى على نص أحمد	ابن عبد القوي	٥/ ٤٤٨
وشق له من اسمه ليجلّه	فذو العرش محمود وهذا محمد	حسان بن ثابت	١/ ١٦٢
وهلْ عدلتْ يوماً رزيةُ هالكٍ	رزيةَ يومٍ ماتَ فيهِ محمدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
وإذا أصبت مصيبة تشجي بها	فاجبر مصابك بالنبي محمد	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٤
فأصبحَ محموداً إلى الله راجعاً	يُبَكِّيهِ جفنُ المرسلاتِ ويحمدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
عدوى البليد إلى الجليد سريعة	والجمر يوضع في الرماد فيخمد	أبو بكر الخوارزمي	١٨/ ٢٩٣
عدوى البليد إلى الجليد سريعة	والجمر يوضع في الرماد فيخمد	أبو بكر الخوارزمي	٦/ ٨٤
فرأى مغيب الشمس عند غروبها	في عين ذي خلب وثأط حرمد	أمية	١٣/ ٣٤٨
وما لي لا أبكي لذي النعمة التي	على الناس منها سابغ يُتغمد	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥

البيت		الشاعر	ج/ص
يُبَكُّونَ من تبكي السمواتُ يومَهُ	ومَن قدْ بَكَتْهُ الأرضُ فالناس أَكْمُدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
بطيبةَ رسمٌ للرسولِ ومعهدُ	منيفٌ وقد تعفو الرسومُ وتَهمدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا	فحسبك والضحاك سيف مهند		١٠/ ١٩٨
وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبى أَشَدُّ مَضَاضَةً	عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ	طرفة بن العبد	٨/ ١٧٤
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد	حسان بن ثابت	١/ ١٦٢
أغر عليه للنبوة خاتم	من الله من نور يلوح ويشهد	حسان بن ثابت	٦/ ٤٣٣
وأمستْ بِلادُ الحَرْم وَحشاً بقاعُها	لِغَيْبَةِ ما كانَتْ منَ الوَحْيِ تعهدُ	حسان بن ثابت	٢/ ٥٦٥
لا والد يبقى ولا مولود	فانقطع الأبناء والجدود		٥/ ١٩٦
فدرب الصاعدين كما علمتم	به الأشواك تكثر لا الورود		١٦/ ٣٩٨
فدرب الصاعدين كما علمتم	به الأشواك تكثر لا الورود	وليد الأعظمي	٢/ ٥٩
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا	ويأتيك بالأخبار من لم تزود	طرفة	١٨/ ٢٣٩
وذلك من نبأ جاءني	وخُبِّرتُه عن أبي الأسود	امرؤ القيس	٦/ ١٥١
وإذا أراد الله نشر فضيلة	طويت أتاح لها لسان حسود	أبو تمام	١٥/ ٤٠٨
ولقد سئمت من الحياة وطولها	وسؤال هذا الناس كيف لبيد	لبيد	٣/ ٥٦٩
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا	وعند الله للأتقى مزيد	الحطيئة	١٤/ ١٢
ولست أرى السعادة جمع مال	ولكن التقي هو السعيد	الحطيئة	١٤/ ١٢
لعمرك إن الموت ما أنسأ الفتى	لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْياه باليَدِ	طرفة بن العبد	٢/ ٣٦١
لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا	وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي	كثير عزة	٨/ ٩٨
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه	فكل قرين بالمقارن يقتدي	عدي بن زيد	٦/ ٨٤
إذا ما صنعت الزاد فالتمسْ له	أكيلاً فإني لست آكلَه وحدي	حاتم الطائي	١٥/ ٣٤٤
إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم	ولا تصحب الأردى فتردى مع	عدي بن زيد	٦/ ٨٤
وإني إن أوعدته أو وعدته	لأخلف إيعادي وأنجز موعدي	عامر بن الطفيل	٧/ ٢١٧
تخب إلى النعمان حتى تناله	فدى لك من رب طريفي وتالدي	النابغة الذبياني	١/ ١٦٥
(الذال)			

البيت		الشاعر	ج/ص
شيطاننا المغوي عدو فاعتصم	بالله منه والتجئ وتعوذِ	ابن الجزري	١/ ٥٢
لكل جديد لذة غير أنني	وجدت جديد الموت غير لذيذ	ضابئ بن الحارث	٦/ ٦٦٣
وعدوك الإنسان دارِ وِدَاده	تملكه وادفع بالتي فإذا الذي	ابن الجزري	١/ ٥٢
(الراء)			
يا راقد الليل مسرورًا بأوله	إن الحوادث قد يطرقن أسحارا	محمد بن حازم الباهلي	٢٣/ ٨٤
أتجمع ضعفًا واقتدارًا على الفتى	أليس غريبًا ضعفها واقتدارها	حاجب بن ذبيان	٥/ ٢٨
ولئن ندمت على سكوتك مرّةً	فلتندمنّ على الكلام مرارًا	أبو العتاهية	٨/ ٤٢٧
هي الضلع العوجاء لست تقيمها	ألا إن تقويم الضلوع انكسارها	حاجب بن ذبيان	٥/ ٢٨
أكل امرئ تحسبين امرأً	ونار توقد بالليل نارا	عدي بن زيد	٥/ ٥١٢
جلّ من قسم الحظوظ فهذا	يتغنى وذاك يبكي الديارا	حافظ إبراهيم	٥/ ٤٦٥
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره	ولا يهيضون عظمًا أنت جابره	المتنبي	١/ ٢٧
سقيناهم كأسًا سقونا بمثلها	ولكنهم كانوا على الموت أصبرا	النابغة الجعدي	٤/ ٧١٥
لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله	لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبِرا		١٣/ ٣٣٨
إذا المرء لم يطلب معاشًا لنفسه	شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا	عروة بن الورد	٧/ ٥٧٩
اللهم إن الخير خير الآخرهْ	فاغفر للأنصار والمهاجرهْ		٦/ ٣٦٨
فلم يتأخر من أراد تقدما	ولم يتقدم من أراد تأخرا	ابن هانئ	٢/ ٣٨٢
ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه	فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا	ابن هانئ	٢/ ٣٨٢
ولا خير في جهل إذا لم يكن له	حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا	النابغة الجعدي	٤/ ٥٠
الناس من لو مات من ظمأ	لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا	صفي الدين الحلي	٣/ ٣٣٧
ولا خير في حلم إذا لم تكن له	بوادر تحمي صفوه أن يكدرا	النابغة الجعدي	٤/ ٥٠
يا من ألوذ به فيما أؤمله	ومن أعوذ به ممّا أحاذره	المتنبي	١/ ٢٧
ألا ليتني قطَّعْتُ مني بنانةً	ولاقيْتُهُ في البيت يَقْظانَ حاذِرا		١٠/ ٤٨
فسر في بلاد الله والتمس الغنى	تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا	عروة بن الورد	٧/ ٥٧٩
إذا لم أجد خلًّا تَقِيًّا فوحدتي	ألذُّ وأشهى مِن غويٍّ أعاشرُهْ	الشافعي	١٥/ ٤١٢

البيت		الشاعر	ج/ص
انظـــــر لتلـــــك الشـــــجره	ذات الغصـــــون النضـــــره	معروف الرصافي	٢١/ ٤٥٠
عهـــدتك ترعـــاني بعـــين بصـــيرة	وتبعـــث حراسًـــا عـــليَّ ونـــاظرًا	النابغة الذبياني	١٤/ ٣٢
رموهـــا بـــأثواب خفـــاف ولا تـــرى	لهـــا شبهـــًا إلا النعـــام المنَفَّـــرا	شماخ	٢٣/ ٢٦٥
وصـار عـلى الأدنـين كـلًا وأوشـكت	صـلات ذوي القربـى لـه أن تنكـرا	عروة بن الورد	٧/ ٥٧٩
علـــى رأســـه أم لنـــا نقتـــدي بهـــا	جمـاع أمـور لا نعـاصي لهـا أمـرًا	ذو الرمة	١/ ١٣٧
فلـــما خشـــيت أن يكـــون عطـــاؤه	أداهـم سـوداً أو محدرجـة سـمرًا	الفرزدق	١٠/ ١١٠
أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها	وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا	حاتم الطائي	٢٣/ ٩٧
والوارثـــون مـــن الرجـــال عشـــره	أســـماؤهم معروفـــة مشـــتهره	الرحبي	٥/ ٢١٧
أَخُـوكُمْ وَمَـوْلَى خَـيْرِكُمْ وَحَلِـيفُكُمْ	وَمَنْ قَدْ ثَوَى فِيكُمْ وَعَاشَرَكُمْ دَهْرَا	سحيم بن عبد بني	٩/ ١٨٧
فلا تأمننَّ الحيّ قيسًا فإنهم	بنـو مُحْصَـنَات لم تـدنس حجورهـا	جرير	١٥/ ١٩٩
تـــرد عنـــك القـــدر المقـــدورا	ودائـــرات الـــدهر أن تـــدورا		٧/ ٤٦٠
فأركســـوا في حمـــيم النـــار إنهـــم	كانوا عصاة وقالوا الإفك والزورا	أمية بن أبي الصلت	٦/ ١٨٧
وقـــد رابنـــي منهـــا صـــدود رأيتـــه	وإعراضـها عـن حـاجتي وبسـورها	توبة بن الحمير	٢٣/ ٢٧٣
وليـــل يقـــول المـــرء مـــن ظلماتـــه:	ســواء بصـيرات العيـون وعورهـا	الأعشى	٢/ ٤٥
فـــلا تجـــزعن مـــن ســـنة أنـــت سرتهـــا	فـــأوَّل راض ســـنة مـــن يســـيرها	خالد بن زهير الهذلي	٤/ ٤٩٧
كـــن مثـــل مـــاشٍ فـــوق أر	ض الشـــوك يحـــذر مـــا يـــرى	ابن المعتز	٢/ ٣٤١
لا تحقـــرن مـــن الـــذنوب صـــغيرها	إن الصـــغير غـــدًا يعـــود كبـــيرا		٢١/ ٣٣٩
أَلِـــفَ الصُّـــفونَ فـــلا يـــزال كأنـــه	مـــا يقـــوم عـــلى الـــثلاث كســـيرَا		١٨/ ٣٩٥
فبانـــت وقـــد أســـأرت في الفـــؤا	د صـــدعًا عـــلى نأيهـــا مســـتطيرا	الأعشى	١/ ١٥٢
لا أرى المـــوت يســـبق المـــوت شيء	قهـــر المـــوت ذا الغنـــى والفقـــيرا	عدي بن زيد	٤/ ٢٨٣
أتيـــت رســـول الله إذ جـــاء بالهـــدى	ويتلـــو كتابـــه كـــالمجرة نـــيرا	النابغة الجعدي	٧/ ٢٤٤
سرنـــا وســـاروا إلى بـــدر لحـــتفهم	لـو يعلمـون يقـين العلـم مـا سـاروا	حسان بن ثابت	٢٤/ ٤٢٢
ألـــم تســـأل فتخبـــرك الديـــارُ	عـــن الركـــب المُضـــلل أيـــن ســـاروا		١/ ٢٠٦
فَاسْتُؤْصِـلُوا بِعَـذَابٍ حَـصَّ دَابِـرَهُمْ	فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفًا وَلَا انْتَصَـرُوا	أمية بن أبي الصلت	٨/ ١١٨

البيت		الشاعر	ج/ص
عجبت لفخر الأوس والحين دائر	عليهم غدًا والدهر فيه بصائر	كعب بن مالك	١٦/ ١٣٢
بينا يرى الإنسان فيها مخبرًا	حتى يرى خبرًا من الأخبار	التاجي	١٨/ ٣٩
هما محلان ما للناس غيرهما	فاختر لنفسك ماذا أنت تختار	أبو العتاهية	٣/ ٤٧٢
لا ينكر الله إلا جاهل نَزِقٌ	غِرٌّ بليد سفيه الرأي ختّار	وليد الأعظمي	٤/ ١٢٨
واليوم قد سارعت دربي إلى كفن	يومًا سيلبسه بر وفجار	مصطفى السباعي	٢/ ١٤٤
وأنتم يا أهيل الحي صبيتكم	أمانة عندكم هل يهمل الجار	مصطفى السباعي	٢/ ١٤٤
بالله يا صبيتي لا تهلكوا جزعًا	على أبيكم طريق الموت أقدار	مصطفى السباعي	٢/ ١٤٤
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت	منقادة بأزمة الأقدار	أبو الحسن التهامي	٢/ ٥٦٢
طبعت على كدر وأنت تريدها	صفواً من الأقذاء والأكدار	أبو الحسن التهامي	٢/ ٥٦٢
الموت باب وكل الناس داخله	يا ليت شعري بعد الموت ما الدار	أبو العتاهية	٣/ ٤٧٢
فنفسك لم ولا تلم المطايا	ومت كمدًا فليس لك اعتذار		٧/ ٣٠٢
لله در النائبات فإنها	صدأ اللئام وصيقل الأحرار	أبو الحسن التهامي	٤/ ٥٧٠
دلاهم بغرور ثم أوردهم	إن الخبيث لمن ولاه غرار		٣/ ٥١٧
حكم المنية في البرية جاري	ما هذه الدنيا بدار قرار	أبو الحسن التهامي	٢/ ٥٦٢
والناس في غفلة عما يراد بهم	كأنهم غنم في بيت جزار		٣/ ١٦
تركتم في حمى الرحمن يكلؤكم	من يحمه الله لا تدركه أوزار	مصطفى السباعي	٢/ ١٤٤
قد كنت أرجو زمانًا أن أقودهم	للمكرمات فلا ظلم ولا عار	مصطفى السباعي	٢/ ١٤٤
إني لأرحم حاسديَّ لفرط ما	ضمت صدورهم من الأوغار	علي بن محمد أبو	٥/ ٤٧٨
فاقضوا مآربكم عجالاً إنما	أعماركم سفر من الأسفار	أبو الحسن التهامي	٢/ ٥٦٢
سوف ترى إذا انجلى الغبار	أفرس تحتك أم حمار		٢١/ ١٠١
جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر	وحسن فعل كما يجزى سنمارُ	سليط بن سعد	١١/ ٤٤٥
ومكلف الأيام ضد طباعها	متلمس في الماء جذوة نار	أبو الحسن التهامي	٢/ ٥٦٢
الدار جنة عدن إن عملت بما	يرضي الله وإن فرطت فالنار	أبو العتاهية	٣/ ٤٧٢
وإنما حزني في صبية درجوا	غفل عن الشر لم توقد لهم نار	مصطفى السباعي	٢/ ١٤٣

البيت		الشاعر	ج/ص
مـن ظـاهر الـنِّعم الكـبرى وباطنهـا	هـذا السـحاب بـه مـاءٌ بـه نـار	وليد الأعظمي	١٢٨/٤
وإن صـخراً لتـأتم الهـداة بـه	كأنـه علـم في رأسـه نـار	الخنساء	٣٦٦/٢١
نظـروا صـنيع الله بي فعيـونهم	في جنـة وقلـوبهم في نـار	علي بن محمد أبو	٤٧٨/٥
وإذا رجـوت المسـتحيل فـإنما	تبنـي الرجـاء عـلى شـفير هـار	أبو الحسن التهامي	٥٦٢/٢
وتراكضـوا خيـل الشـباب وبـادروا	إن تسـترد فـإنهن عـوار	أبو الحسن التهامي	٥٦٢/٢
نـدمت ندامـة الكسـعي لمـا	غـدت منـى مطلقـة نـوار	الفرزدق	٤٠١/٢٢
لأستسـهلن الصـعب أو أدرك المنـى	فـما انقـادت الآمـال إلا لصـابر		٧١٤/٤
وإذا نظـرت تريـد معتـبرًا	فـانظر إليـك ففيـك معتـبر		٣٢٩/١٩
إن القلـوب إذا تنافـر ودهـا	مثـل الزجاجـة كسـرها لا يجـبر		٣٧٨/٤
مـا حملـت وأرضـعتني أكثـر	الله ربي ذو الجـلال أكـبر		٧٣/١٣
وتشـعبوا شـعبًا فكـل جزيـرة	فيهـا أمـير المـؤمنين ومنـبر	مساور بن هند بن	٣٧٦/٤
فَتَفَرَّقُـوا شِـيَعًا فَكُـلُّ مَدِينَـةٍ	فِيهَـا أَمِـيرُ الـمُؤْمِنِينَ وَمِنْبَـرُ		٤٥٠/٨
وإنـك لـو رأيـت أبـا عمـير	مـلأت يـديك مـن غـدر وخـتر	عمرو بن معد	١٥١/١٧
ولسـت بـالأكثر مـنهم حصـى	وإنـما العـزة للكـاثر	الأعشى	٢٨/٥
قالـت وفيهـا حيـدة وذعـر	عَـوذي بربـي منكـم وحجـر	الحطيئة	٢٦/١
فسـوّفهم فيهـا وأوعـدهم بهـا	لوقت إجابات الدعا ساعة السحر	يحيى الصرصري	١٠٣/٢١
تمنـى كتـاب الله أول ليلـه	وآخـره لاقـى حمـام المقـادر	حسان بن ثابت	٢٥٧/٢
ألا أيهـذا البـاخع الوَجـدُ نفسـه	لشـيء نَحَتْـه عـن يديـه المقـادرُ	ذو الرمة	٢٢٥/١٣
لعمـرك مـا يغنـي الثـراء عـن الفتـى	إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر	حاتم الطائي	٣٩/٢١
نـال الخلافـة أو كانـت لـه قـدرًا	كـما أتـىٰ ربَّـه موسـى عـلى قـدر	جرير	٢٤٦/٢
ومـن عـاش في الـدنيا فلابـد أن يـرى	مـن العـيش مـا يصـفو ومـا يتكـدر		٥٠٤/٤
كـل الحـوادث مبـداها مـن النظـر	ومعظـم النـار مـن مستصـغر الشـرر		١٥٨/١٥
النـازلين بكـل معـترك	والطيبـون معاقـد الأزر	الخرنق بنت بدر	٤٥/٣
لا يبعـدن قـومي الـذين همـو	سُـم العـداة وآفـة الجـزر	الخرنق بنت بدر	٤٥/٣

البيت		الشاعر	ج/ص
أيـــام كـــان المســـلمون أعـــزة	في ديـنهم والعـود صـلب المكسـر	محمد صادق عرنوس	٤/ ٦٨
فيـــوم علينـــا ويـــوم لنـــا	ويـــوم نُســـاء ويـــوم نُســـر	النمر بن تولب	٤/ ٦١
أيـام كـان الـدين مـلء نفوسـهم	وأتوا على كسرى العظيم وقيصر	محمد صادق عرنوس	٤/ ٦٨
كَـأَنَّ الـمُدَامَ وَصَـوْبَ الغَمَـامِ	وَرِيـحَ الخُزَامَـى وَنَشْـرَ القُطُـرْ	امرؤ القيس	٩/ ١٣٩
لعـب الزمـان بهـا وغيّرهـا	بعـدي سـواقي المـورِ والقطـرِ	زهير	٧/ ١٤٩
أيـادي سَـبَا يـا عَـزُّ مـا كنـتُ بعـدكم	فلـم يَحْـلُ بـالعينين بعـدَكِ منظـرُ	كثير عزة	١٨/ ٤٠
أسـد عـليَّ وفي الحـروب نعامـة	فتخـاء تَفْـرَق مـن صـفير الصـافرِ	عمران بن حطان	١٧/ ٢٧١
ومـن يتهيـب صـعود الجبـال	يبـت أبـد الـدهر بـين الحفـر	أبو القاسم الشابي	٦/ ١٥٩
إني لهـا مطيـة لا تـذعر	إذا الركـاب نفـرت لا تنفـر		١٣/ ٧٣
ومنـا الـذي لاقـى بسـيف محمـد	فحس به الأعداء عرض العساكر		٥/ ٥٤٨
إذا كـان شـكري نعمـة الله نعمـة	عـليَّ لـه في مثلهـا يجـب الشـكر	محمود الوراق	١/ ١٦٣
ولا عائـد ذاك الزمـان الـذي مضـى	تباركـت مـا تقـدر يكـن فلـك الأمـر		١٤/ ٢٣١
عسـى فـرج يـأتي بـه الله إنـه	لـه كـل يـوم في خليقتـه أمـر	محمد بن إسماعيل	٢/ ٥٦٧
يُهِـلُّ بـالفَرْقَـدِ ركبانُهـا	كمـا يُهِـلُّ الراكـبُ المُعْتَـمِر	ابن أحمر	٧/ ٥٨
فكيـف بلـوغ الشـكر إلا بفضـله	وإن طالـت الأيـام واتصـل العمـر	محمود الوراق	٦/ ٢٦٢
عجبـت لأمـر الله والله قـادر	عـلى مـا أراد لـيس لله قـاهر	كعب	١٦/ ١٣٣
وفي الجهـل قبـل المـوت مـوت لأهلـه	فأجسـامهم قبـل القبـور قبـور		٨/ ٣٢١
ألـيس المـوت بيـنهما سـواء	إذا مـاتوا وصـاروا في القبـور		٥/ ١٢٨
لقـد خزيـت بغـدرتها الحبـور	كـذاك الـدهر ذو صرف يـدور	كعب بن مالك	٢٢/ ١١٣
هـن الحرائـر لا ربـات أخمـرة	سـود المحـاجر لا يَقـرَأنَ بالسـور	الراعي النميري	١/ ١٥١
وإن امـرأً لم يحـيَ بـالعلم ميِّـت	فلـيس لـه قبـل النشـور نشـور		٨/ ٣٢١
ويُقضى الأمـر حـين تغيـب تـيم	ولا يسـتأمرون وهـم حضـور	جرير	١٠/ ١٤٦
ففـي شـكر الشـكور لهـا جـزاء	وعنـد الله مـا كفـر الكفـور	ابن عائشة	٣/ ٢٣٩
يـد المعـروف غـنم حيـث كانـت	تحملهـا كفـور أم شـكور	ابن عائشة	٣/ ٢٣٨

البيت		الشاعر	ج/ص
ببذل وحلم ساد في قومه الفتى	وكونك إياه عليك يسير		٢٣/ ٦٨
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا	وصوَّت إنسان فكدت أطير	أحيمر السعدي	٢٢/ ٤٦٨
وهان على سراة بني لُؤيّ	حريق بالبويرة مُسْتطير	حسان بن ثابت	٢٢/ ١١٢
أدام الله ذلك من صنيع	وحرّق في نواحيها السعير	أبو سفيان	٢٢/ ١١٢
يا هاشم الخير إن الله فضلكم	على البرية فضلًا ما له غير	عبدالله بن رواحة	١٦/ ١٣١
لا بأس في القوم من طول ومن عظم	جسم البغال وأحلام العصافير	حسان	٢٢/ ٣٢٠
يحيى بالسلام غني قوم	ويبخل بالسلام على الفقير		٥/ ١٢٨
ذريني للغنى أسعى فإني	رأيت الناس شرهم الفقير	عروة بن الورد	٥/ ١٢٨
فأقسم أن لو التقينا وأنتُمُ	لكان لكم يوم من الخير نيِّر		٢١/ ١١٧
فالعيش نوم والمنية يقظة	والمرء بينهما خيال ساري	أبو الحسن التهامي	٢/ ٥٦٢
ثوب الرياء يشف عما تحته	فإذا اكتسيت به فإنك عاري	التهامي	٣/ ٥٠٠
ولأنت تفري ما خلقت وبعـ	ـض القوم يخلق ثم لا يفري	زهير	٢/ ٨٢
ونقري ما شئت أن تنقري	ونقري ما شئت أن تنقري	طرفة بن العبد	٢/ ٢١٤
(الزاي)			
تدلي بودي إذا لاقيتني كذبا	وإن أُغيَّبْ فأنت الهامز اللمزه	زياد الأعجم	٢٤/ ٤٥٥
(السين)			
إذا ما الضجيع ثنى جيدها	تثنت عليه فكانت لباسا	النابغة الجعدي	٣/ ١٠١
يضيء كضوء سراج السليـ	ـط لم يجعل الله فيه نحاسا	النابغة الجعدي	٢١/ ٣٧٩
حتى إذا الصبح له تنفسا	وانجاب عنها ليلها وعسعسا	علقمة بن قرط	٢٤/ ٩٤
لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه	مثلاً شروداً في الندى والباس	أبو تمام	١٥/ ٢١٨
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه	لا يذهب العرف بين الله والناس	أبو العتاهية	٢/ ٣٨٢
إقدام عمرو في سماحة حاتم	في حلم أحنف في ذكاء إياس	أبو تمام	١٥/ ٢١٨
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها	إن السفينة لا تجري على اليبس	أبو العتاهية	٣/ ٢٥٩
ما يبلغ الأعداء من جاهل	ما يبلغ الجاهل من نفسه	صالح بن عبد	٢/ ٢٠٠

البيت		الشاعر	ج/ص
فلما أداروها أثارت حقودهم	فعاد الذي راموا من الأنس بالعكس	أحمد بن يزيد بن بقي	٧/ ٦٢٤
يذكرني طلوع الشمس صخرا	وأذكره لكل غروب شمس	الخنساء	٢/ ٥٦٩
ألا إنما الدنيا كراحٍ عتيقة	أراد مديروها بها جَلَبَ الأنس	أحمد بن يزيد بن بقي	٧/ ٦٢٤
فقلت للركب إذ عنَّ المسير بنا	يا بعد يَبرينَ من باب الفراديس		١٣/ ٣٦٧
إسمية طلبية وبجامد	وبما ولن وبقد وبالتنفيس		٥/ ٥٥
إذا تمنيت مالاً بتَّ مغتبطًا	إن المنى روس أموال المفاليسِ		٢١/ ٢٣٤
دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي	الحطيئة	٥/ ١٤٧
ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي	الخنساء	٢/ ٥٦٩
فلا والله لا أنساك حتى	أفارق مهجتي ويشق رمسي	الخنساء	٢/ ٥٦٩
فيا لهفي عليه ولهف أمي	أيصبح في الضريح وفيه يمسي	الخنساء	٢/ ٥٦٩
فقد ودعت يوم فراق صخر	أبي حسان لذاتي وأنسي	الخنساء	٢/ ٥٦٩
(الصاد)			
تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم	وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا	الأعشى	٧/ ٧٢
لا تحقرن صغيرة	إن الجبال من الحصى	ابن المعتز	٢/ ٣٤١
ألم تر أن السيف ينقص قدره	إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا	الكميت	٢/ ٩٤
وقال اعلم بأن العلم نور	ونور الله لا يهدى لعاصي	الشافعي	٧/ ٢٥٠
شكوت إلى وكيع سوء حفظي	فأرشدني إلى ترك المعاصي	الشافعي	٧/ ٢٥٠
(الضاد)			
فلرب أمر مسخط	لك في عواقبه الرضا	صفي الدين الحلي	٢/ ٥٦٤
ولربما اتسع المضيق	وربما ضاق الفضا	صفي الدين الحلي	٢/ ٥٦٤
لكل شيء إذا ضيعته عوض	وما من الله إن ضيعت من عوض		٢/ ٢٥٤
	وشذ يا اللهم في قريض	ابن مالك	٤/ ١٢٢
يا رازق النعّاب في عشه	وجابر العظم الكسير المهيض		١٦/ ٤٧٢
إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ	فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي		٩/ ١٩٢

البيت	الشاعر	ج/ص
(الطاء)		
نصيبك مما تجمع الدهر كله رداءان تلوى فيهما وحنوط		١٥/ ١٩٩
(العين)		
رأينا ما يرى البصراء فيها فآلينا عليها أن تباعا	القطامي	٦/ ٦٤٣
أكفرا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا	القطامي	١/ ٦٤
وأكره من بضاعته المعاصي وإن كنا جميعا في البضاعه	الشافعي	٦/ ٨٠
أحب الصالحين ولست منهم لعلى أن أنال بهم شفاعه	الشافعي	٦/ ٨٠
تحب الصالحين وأنت منهم محب القوم يلحق بالجماعه	أحمد بن حنبل	٦/ ٨٠
أرى الموت لا يبقي عزيزًا ولم يدع لعاد ملاذًا في البلاد ومربعا		٦/ ١٣٢
عليكِ مثل الذي صليتِ فاغتمضي نومًا فإن لجنب المرء مضطجعَا	الأعشى	٢/ ٣٦
تقول بنتي وقد قرَّبْتُ مرتحلًا يا رب جنب أبي الأوصابَ والوجعا	الأعشى	٢/ ٣٦
أبلغ إيادًا، وخلّل في سراتهم إني أرى الرأي إن لم يعصَ قد نصعا	لقيط الإيادي	٢/ ٤٥
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل فاستيقظوا إن خيرَ العلم ما نفعا	لقيط الإيادي	٢/ ٤٥
يُبيِّت أهل الحصن والحصن مغلق ويأتي الجبال في شماريخها معا		٦/ ١٣٢
وإنك مهما تعط بطنك سُؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا	حاتم الطائي	٩/ ٧٤
يا قومُ لا تأمنوا إن كنتمُ غُيُرًا على نسائكم كسرى وما جمعا	لقيط الإيادي	٢/ ٤٥
هذا كتابي إليكم والنذير معًا لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا	لقيط الإيادي	٢/ ٤٥
فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليَّ ثم تصدعوا	عبدة الطيب	٢/ ٩٥
ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا		٥/ ٤٨٨
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يومًا أن ترد الودائع	لبيد	١/ ٣٨
فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا العُرْفُ ضَائِعُ	النابغة الذبياني	٦/ ٣٨٧
ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا عمل لديه ضائع		٥/ ٢٧٠
وما للمرء خير في حياة إذا ما عد من سقط المتاع	قطري بن الفجاءة	١٢/ ٤٠٨
طلع البدر علينا من ثنيات الوداع		٢٤/ ٣١٦

البيت		الشاعر	ج/ص
لنـا القَـدَم الأولى إليـك وخَلْفُنـا	لأولنـا في طاعـة الله تـابعُ	حسان بن ثابت	١٣/١١
توهمـت آيـات لهـا فعرفتهـا	لستة أعـوام وذا العـام سـابع	النابغة الذبياني	١٥٣/١
ومـن يـأمن الـدنيا يكـن مثـل قـابض	عـلى المـاء خانتـه فـروج الأصـابع	أبو نواس	٦٦٧/٦
ألـيس ورائـي إن تراخـت منيتـي	لـزوم العصـا تحنـى عليـه الأصـابع	لبيد بن ربيعة	٥٦٣/٢
زعـم الفـرزدق أن سـيقتل مربعًـا	أبشـر بطـول سلامـة يـا مربـع	جرير	٦٦/٦
ينـام بإحـدى مقلتيـه ويتقـي	بأخرى الأعادي فهْـو يقظان هـاجعُ	حميد بن ثور	٢٤٢/١٣
ولا بـد مـن شـكوى إلى ذي مـروءة	يواسـيك أو يسـليك أو يتوجـع		٤٦٥/١١
وإن تصـدع شـمل القـوم بيـنهم	فللمحبـين شـمل غـير منصـدع		٦١٤/٢
وإذا اصـطنعت صـنيعة فاقصـد بهـا	وجـه السذي يـولي الصـنائع أو دع		٣٩/١٤
زنـيم تـداعاه الرجـال زيـادة	كـما زيـد في عـرض الأديـم الأكـارع	الخطيم التميمي	٧٧/٢٣
والوارثـات مـن النسـاء سـبع	لم يعـط أنثـى غـيرهن الشرـع	الرحبي	٢١٨/٥
إن عـذبوا فبعدلـه أو نعمـوا	فبفضـله وهـو الكـريم الواسـع		٢٧٠/٥
تواضـع إذا مـا نلـت في النـاس رفعـة	فـإن رفيـع القـوم مـن يتواضـع		١٠١/١٣
وَتَجَلُّـدِي لِلشَّـامِتِينَ أُرِيهُـمُ	أَنِّي لِرَيْـبِ الـدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَـعُ	أبو ذؤيب الهذلي	٣٠٢/٩
وفينـا رسـول الله يتلـو كتابـه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع	عبد الله بن رواحة	٣٦٢/٤
ومـا المـرء إلا كالشـهاب وضـوئه	يحـور رمـاداً بعـد إذ هـو سـاطع	لبيد بن ربيعة	٥٦٣/٢
وإذا تقطـع حبـل الوصـل بيـنهم	فللمحبـين حبـل غـير منقطـع		٦١٤/٢
ومـا النـاس إلا عـاملان فعامـل	يُتَـبِّرُ مـا يبنـي وآخـر رافـع	لبيد	٤٥٦/٢
ولا تمـش فـوق الأرض إلا تواضـعًا	فكـم تحتهـا قـوم هـمُ منـك أرفـع	الكريزي	١٠١/١٣
لا نسـب اليـوم ولا خلـة	اتسـع الخـرق عـلى الراقـع		٥٢٢/١٤
أرانـا الهـدى بعـد العمـى فقلوبنـا	بـه موقنـات أن مـا قـال واقـع	عبد الله بن رواحة	٣٦٢/٤
مـا طـار طـير فـارتفع	إلا كـما طـار وقـع	الشافعي	٢١٩/١٨
قـد نـادت الـدنيا عـلى نفسـها	لـو كـان في العـالم مـن يسـمع		١٥٣/١٧
بلينـا ومـا تـبلى النجـوم الطوالـع	وتبقـى الـديار بعـدنا والمصـانع	لبيد بن ربيعة	٥٦٣/٢

البيت		الشاعر	ج/ص
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى	ولا زاجرات الطير ما الله صانع	لبيد	٧/ ٨٩
إن الصنيعة لا تكون صنيعة	حتى يصاب بها طريق المصنع		٣/ ٢٣٦
فإني بحمد الله لا ثوب فاجر	لبستُ، ولا عن خزية أتقنَّعُ	غيلان بن سلمة	١٣/ ١٢٥
وإن كنت في عز وحرز ومنعة	فكم مات من قوم همُ منك أمنع	الكريزي	١٣/ ١٠١
تعصي الإله وأنت تظهر حبه	هذا لعمري في القياس بديع	محمود الوراق	٢/ ١٥٣
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه	على طبقات الجو وهو وضيع	موسى بن علي	١٣/ ١٠١
والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه	وأراه أسهل ما عليك يضيع	يحيى بن هبيرة	٢٤/ ٤٣٧
لو كان حبك صادقًا لأطعته	إن المحب لمن يحب مطيع	محمود الوراق	٢/ ١٥٣
(الفاء)			
تواضع تكن كالنجم لاح لناظر	على صفحات الماء وهو رفيع	موسى بن علي	١٣/ ١٠١
قبيح من الإنسان ينسى عيوبه	ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى		٦/ ٤٤
ولو كان ذا فضل لما عاب غيره	وفيه عيوب لو رآها به اكتفى		٦/ ٤٤
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها	صديق صدوق صادق الوعد منصفا	الشافعي	١٥/ ٣٤٢
نعلق في مثل السواري سيوفنا	وما بينها والكعبِ غوط نفائف	مسكين الدارمي	٥/ ٣٤
زعمتم أن إخوتكم قريش	لهم إلف وليس لكم إلاف		٢٤/ ٤٧٤
أسير الخطايا عند بابك واقف	على وجل مما به أنت عارف	ابن الفرضي	١٩/ ٣٢
العلم يرفع بيتًا لا عماد له	والجهل يهدم بيت العز والشرف	الطغرائي	٢٣/ ٦٢
وصية في غير مال عَرِّفِ	بالأمر بعد الموت بالتصرف		٥/ ١٥٥
الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها	متى يمت عالم منها يمت طرف	أحمد بن غزان	١٢/ ١٠٥
ألم تر أن العين للقلب رائد	فما تألف العينانِ فالقلب آلف	مضرس الربعي	١٥/ ١٥٨
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها	وإن أبى عاد في أكنافها التلف	أحمد بن غزان	١٢/ ١٠٥
العلم مبلغُ قومٍ ذروة الشرف	وصاحب العلم محفوظ من التلف	الطغرائي	٢٢/ ٦٧
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب إليَّ من لبس الشفوف	ميسون بنت بحدل	٩/ ٦٤
ولقد صحبت بني الزمان فلم أجد	خلاً وفياً للشدائد أصطفي		١٥/ ٣٤٤

البيت		الشاعر	ج/ص
(القاف)			
بنت وبنت ابن وأم مشفقه	وزوجة وجدة ومعتقه	الرحبي	٥/ ٢١٨
العلم صيد والكتابة قيده	قيِّد صيودك بالحبال الواثقه	الشافعي	٢٣/ ٥٨
أخ كان لي نعم المعين على التقى	أخ كان لي نعم المعين على التقى	محمد بن عثيمين	١٥/ ٣٤٢
خل الذنوب صغيرها	وكبيرها فهو التقى	ابن المعتز	٢/ ٣٤١
هوايَ مع الركب اليمانين مُصْعدٌ	جنيبٌ وجثماني بمكة مُوثَقُ	جعفر بن علبة	٥/ ٥٥٩
إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق	وإن يكن لينا فحذفه استحق	ابن مالك	٦/ ١٣٧
عليك سلام من أديم وباركت	يد الله في ذاك الأديم الممزق	الشماخ	٦/ ١٦٩
احذر لسانك أن تقول فتبتلى	إن البلاء موكل بالمنطق		٣/ ٤٣٣
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم	كلمح سراب في الفلا متألق		١٥/ ٢٥٠
وذات حليل أنكحتها رماحنا	حلال لمن يبني بها لم تطلق	الفرزدق	٥/ ٣٦٥
عَجِلْتُم علينا عَجْلَتَيْنا عليكمُ	وما يشأ الرحمنُ يَعْقِدْ ويُطْلِقِ	سلامة الجعدي	١/ ٧٥
فلا تدفنني في الفلاة فإنني	أخاف إذا ما مت ألا أذوقها		٥/ ٥٠٢
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّفت	له عن عدو في ثياب صديق	أبو نواس	٦/ ٦٦٦
فهن المنايا أي واد سلكته	عليها طريقي أو عليّ طريقها		١/ ١٩٤
يا نفس مالك دون الله من واق	وما على حدثان الدهر من باقي	أمية بن أبي الصلت	٢/ ٣٦٤
عسى وعسى من قبل يوم التفرق	بما نرتجي يوماً من الخير نلتقي	محمد بن إسماعيل	٣/ ٢٤٣
جزى الله الشدائد كل خير	عرفت بها عدوي من صديقي		٦/ ٦٤٥
(الكاف)			
وإذا رأيت الليل يغشي داجياً	فاسأله من يا ليل حاك دجاكا		٢/ ٥٩٨
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحيا	فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا		٢/ ٥٩٨
وكل يدعي وصلًا بليلى	وليلى لا تقر لهم بذاكا		٤/ ١٤٦
والكون مشحون بأسرار إذا	حاولت تفسيراً لها أعياكا		٢/ ٦٠٥
نظرتَ إلى عنوانه فنبذتَه	كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا	أبو الأسود الدؤلي	٢/ ٣٢٦

البيت		الشاعر	ج/ص
ولي وطن آليت ألا أبيعه	ولا أرى غيري له الدهر مالكا	ابن الرومي	٢/ ٢٧٧
فقد ألفته النفس حتى كأنه	لها جسد إن بان غودرهالكا	ابن الرومي	٢/ ٢٧٧
لئن حللت بجو في بني أسد	في دين عمرو وحالت بيننا فدك	زهير بن أبي سلمى	١/ ١٧٤
إلى الملك القرم وابن الهمام	وليث الكتيبة في المعترك		١٧/ ٤٧٧
لأهُمَّ إن المرء يمـ	ـنع رحله فامنع حِلالك		٢٤/ ٤٦٧
عمرت به شرخ الشباب مُنَعَّما	بصُحبة قوم أصبحوا في ظلالك	ابن الرومي	٢/ ٢٧٧
وحبب أوطان الرجال إليهمُ	مآرب قضّاها الشباب هنالك	ابن الرومي	٢/ ٢٧٧
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ	عهود الصبا فيها فحنّوا لذلك	ابن الرومي	٢/ ٢٧٧
تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك	أبو نواس	٢٤/ ٢٠٦
فلا يغرركمُ مني ابتسام	فقولي مضحك والفعل مبكي	أبو الفرج الساوي	٦/ ٦٦٧
هي الدنيا تقول بملء فيها	حذار حذار من بطشي وفتكي	أبو الفرج الساوي	٦/ ٦٦٧
وكم لله من لطف خفي	يدق خفاه عن فهم الذكيِّ	علي بن أبي طالب	١٧/ ٣٢٢
(اللام)			
فلمّا التقينا بيّن السّيف بيننا	لسائلةٍ عنّا حفيٍّ سؤالها	أنيف بن زبان	٦/ ٣٧١
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السنان لمن أراد قتالا	أبو العيناء	٥/ ١٢٨
أما الديار فإنها كديارهم	وأرى رجال الحي غير رجالِه		١٣/ ٢٤٥
إن الغني إذا تكلم كاذبًا	قالوا صدقت وما نطقت محالا	أبو العيناء	٥/ ١٢٨
ويسألونك عن الكلاله	هي انقطاع النسل لا محاله		٥/ ١٩٦
وإن الموت يأخذ كل حي	بلا شك وإن أمشى وعالا	أحيحة بن الحلاج	٥/ ٦١
فيا لك من دار تفرق أهلها	أيادي سبا عنها وطال انتقالها	ذو الرمة	١٨/ ٣٩
أشد الغم عندي في سروري	تحقق عنه صاحبه انتقالا	المتنبي	٢/ ٩٥
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ	لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا	عمرو بن نفيل	٩/ ١٤٠
ولا تعجلنّي هداك المليك	فإن لكل مقام مقالا		١/ ١٩١
إن الدراهم في المواطن كله	تكسو الرجال مهابة وجلالا	أبو العيناء	٥/ ١٢٨

البيت		الشاعر	ج/ص
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ	لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا	عمرو بن نفيل	٩/ ١٤٠
ومن يك ذا فم مر مريض	يجد مرا به الماء الزلالا	المتنبي	١/ ٣٣
وإذا الفقير أصاب قالوا لم تصب	وكذبت يا هذا وقلت ضلالا	أبو العيناء	٥/ ١٢٨
اصبر على حسد الحسو	د فإن صبرك قاتله	ابن المعتز	٥/ ٤٧٨
لله در الحسد ما أعدله	عاد على صاحبه فقتله	علي بن أبي طالب	٥/ ٤٧٨
والله لو لا حنف برجله	ما كان في فتيانكم من مثله		٢/ ٤٧٠
هو البحر من أي الجهات أتيته	فلجته المعروف والجود ساحله	أبو تمام	٧/ ٥٠٩
إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبر	فإن فساد الرأي أن تتعجلا	عيسى بن موسى	٤/ ٦٠٤
ونحسهم بالبيض حتى كأننا	نفلق منهم بالجماجم حنظلا		٥/ ٥٤٨
الابن وابن الابن مهما نزلا	والأب والجد له وإن علا	الرحبي	٥/ ٢١٧
كل امرئٍ مُصَبَّح في أهله	والموت أدنى من شراك نعله	حكيم النهشلي	٤/ ٣٧٣
خرجنا من النقبين لا حي مثلنا	بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا	برج بن مسهر الطائي	١/ ١٥٣
النار تأكل بعضها	إن لم تجد ما تأكله	ابن المعتز	٥/ ٤٧٨
واكسر في الابتدا وفي بدء صلهْ	وحيثُ «إن» ليمينٍ مكملهْ	ابن مالك	٤/ ١٧٥
يمارس نفسًا بين جنبيه كزة	إذا هم بالمعروف قالت له مهلًا	الزمخشري	٢٢/ ١٣٣
وإذا المُعلِّم ساء لحظ بصيرة	جاءت على يده البصائر حولا	أحمد شوقي	٤/ ٢٨٨
وجدنا الصالحين لهم جزاءٌ	وجناتٍ وعينًا سلسبيلا		٧/ ٢١٧
قد تخللت مسلك الروح مني	وبذا سُميَ الخليل خليلاً	بشار بن برد	٣/ ٤٥٠
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما	جعل اللسان على الفؤاد دليلا	الأخطل	٢/ ٤١٨
في فتية من قريش قال قائلهم	ببطن مكة لما أسلموا زولوا	زهير بن كعب	٤/ ٦٩٤
ألا كل ما شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ	وكل نعيمٍ لا محالةَ زائلُ	لبيد	٢/ ١٥٨
تأمل سطور الكائنات فإنها	من الملك الأعلى إليك رسائل		٢١/ ٥٣٧
ولما رأيت القوم لاودّ فيهمُ	وقد قطعوا كل العرى والوسائل	أبو طالب	٢٤/ ٣١٥
إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا	وعاد التصافي بيننا والوسائل		٧/ ٣٣٣

البيت		الشاعر	ج/ص
لقد زادني حباً لنفسي أنني	بغيض إلى كل امرئ غير طائل	الطرماح	٦١٦/٢٤
بميزان عدل لا يُخيس شعيرة	له شاهد من نفسه غير عائل	أبو طالب	٣٥٣/٢١
بميزان قسط لا يغل شعيرة	له شاهد من نفسه غير عائل	أبو طالب	٦١/٥
وإني وإن كنت الأخير زمانه	لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل	أبو العلاء المعري	٥٧٣/٢١
يعطي ذخائر ماله	معتره قبل السؤال		٣٥٢/١٤
أيما شاطنٍ عَصاه عَكاه	ثم يلقى في السجن والأكبال	أمية بن الصلت	٢٨/١
لَوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ	أَلجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ	المتنبي	٤٥٠/١٠
ما بين طرفة عين وانتباهتها	يبدل الله من حال إلى حال		١٨٣/١٦
لا خيل عندك تهديها ولا مال	فليسعد النطق إن لم تسعد الحال	المتنبي	٤٩٧/٣
لا خيل عندك تهديها ولا مال	فليُسعد النُّطق إن لم يُسعد الحال	المتنبي	٢٧٥/٢
وهي به تبرع بالمال	من بعد موت الموص لا في الحال		١٥٥/٥
ومن طلب العلا من غير كد	أضاع العمر في طلب المحال	الشافعي	٤٨٨/١٤
المال كالماء إن تحبس سواقيه	يأسن وإن يجر يعذب منه سلسال		٥١٠/٢١
لم أكن من جناتها علم الله	وإني بحرها اليوم صال	الحارث بن عباد	٧٦٧/٧
إنا إذا احمر الوغى نروي القنا	ونَعِفُّ عند مقاسم الأنفال	عنترة بن شداد	١٥/١٠
أصون عرضي بمالي لا أدنسه	لا بارك الله بعد العرض بالمال	حسان بن ثابت	٣٨/١
كأن بلاد الله وهي عريضة	على الخائف المذعور كِفَّةُ حابِلِ	عبد الله بن العجاج	٤٨٠/٤
فلا منعت دار ولا عز أهلها	من الناس إلا بالقنا والقنابل	الطرماح	٥٠/٤
يُبكى علينا ولا نبكي على أحد	لنحن أغلظ أكبادًا من الإبل	المهلهل بن ربيعة	٥٨٩/٤
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم	عفا الله عن ذنب امرئ لم يقاتل		٣٠٤/٧
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي	بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ	امرؤ القيس	٢٥١/٨
المرء يفرح بالأيام يقطعها	وكل يوم مضى ـ يدني من الأجل		٢٣٩/١٩
بكيت على زيد ولم أدر ما فعل	أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل	حارثة	٢٢٧/١٧
تخاف الردى عيني عليك وإنني	لأعلم أن الموت شيء مؤجل		٧٣/١٣

البيت		الشاعر	ج/ص
يموت الفتى من عثرة بلسانه	وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ	علي بن أبي طالب	١٥/ ٤٣
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا	وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل	أبو دلامة الأسدي	١٠/ ٣٣٤
تسمع للحلي وسواسًا إذا انصرفت	كما استعان بريح عشْرقٌ زُجل	الأعشى	١٥/ ١٧٢
كأن مشيتها من بيت جارتها	مور السحابة لا ريث ولا عجل	الأعشى	٢١/ ١٦٤
إن تقوى ربنا خير نَفَلْ	وبإذن الله ريثي والعَجَلْ	لبيد	١٠/ ١٥
ويرى مناط عروقها في نحرها	والمخ من بين العظام النُّحّل		١٤/ ٤٠٢
فأوليتني حق الجوار ولم تكن	عليّ بمال دون مالك تبخل		١٣/ ٧٣
ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل	وضنت علينا والضنين من البخل	البعيث	٢٤/ ٩٧
إن نصف الناس أعداء لمن	ولي الحكم وهذا إن عدل	ابن الوردي	١٥/ ٢٩١
على مكثريهم رزق من يعتريهم	وعند المقلين السماحة والبذل	زهير	١٤/ ٣٥٢
لما رأى لبد النسور تطايرت	رفع القوادم كالفقير الأعزل	لبيد	١٠/ ٣٨٤
كم منزل في الأرض يألفه الفتى	وحنينه دومًا لأول منزل	أبو تمام	٢٢/ ١٢٧
كدينك من أم الحويرث قبلها	وجارتها أم الرباب بمأسَلِ	امرؤ القيس	١/ ١٧٤
تمنى كتاب الله أول ليله	تمنِّيَ داود الزبور على رسل	حسان بن ثابت	١٤/ ٣٨٧
والصبر مثل اسمه مر مذاقته	لكن عواقبه أحلى من العسل		٤/ ٧١٤
فيا لك من يوم على كل مبطل	فظيع وأهوال القيامة تعضل	حسين بن علي	٢٣/ ٣٤٩
هُمُ وَسَط يرضى الأنام بحكمهم	إذا نزلت إحدى الليالي بمعضل		٢/ ٤٩٩
جعلت جزائي غلظة وفظاظة	كأنك أنت المنعم المتفضل		١٣/ ٧٣
لقد علموا أن ابننا لا مكذب	لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل	أبو طالب	٢/ ٣٥١
ما روضةٌ من رياض الحُسنِ مُعْشِبةٌ	خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ	الأعشى	١٧/ ٢٨
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة	على قدميه حافياً غير ناعل	أبو طالب	٢/ ٤٢٩
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل		١٣/ ٧٣
لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها	لنفسي من نفسي عن الناس شاغل	الربيع بن خيثمة	٢٤/ ٨١
فكف يديه وأغلق بابه	وأيقن أن الله ليس بغافل		٧/ ٣٠٤

البيت		الشاعر	ج/ص
حَصَـــان رزان مـــا تُـــزن بريبـــة	وتُصبح غرثى من لحوم الغوافل	حسان بن ثابت	٥/ ٣٦٣
أخـزى الـذي سـمك السـماء مجاشـعًا	وبنـى بنـاءك في الحضـيض الأسـفل	جرير	١٤/ ١٣
قـد يـدرك المتـأني بعـض حاجتـه	وقـد يكـون مـع المسـتعجل الزلـلُ	عمير بن شييم	١٤/ ٨٦
لعـــل عتبـــك محمـــود عواقبـــه	وربـما صـحَّتِ الأجسـام بالعلـل	المتنبي	١٣/ ٣٤٣
فلـما بلغـت السـن والغايـة التـي	إليهـا مـدى مـا كنـت فيـك أُؤمِّـل		١٣/ ٧٣
الجـد بالجـد والحرمـان بالكسـل	فانصـب تصـب عـن قريـب غايـة	صلاح الدين	٥/ ١١٢
أوحُكِيـتْ بـالقول أوحَلَّـتْ محـلّ	حـال كزرتـه وإني ذو أمـلْ	ابن مالك	٤/ ١٧٥
وإذا أتتـك مـذمتي مـن نـاقص	فهـي الشـهادة لي بـأني كامـل	المتنبي	٢/ ٥٩
وكـل أنـاس سـوف تـدخل بيـنهم	دويهيـة تصـفر منهـا الأنامـل	لبيد	٣/ ٨٢
تعـود بسـط الكـف حتـى لـو انـه	نواهـا لقـبض لم تعطـه أناملـه	أبو تمام	٧/ ٥٠٩
وقـد صـالحوا قومًـا علينـا أشـحة	يعضـون غيظًـا خلفنـا بالأنامـل	أبو طالب	٤/ ٤٣٦
تـوقى البـدور الـنقص وهـي أهلـة	ويـدركها النقصـان وهـي كوامـل	أبو العلاء المعري	٥/ ٢٩٧
وقوفًـا بهـا صـحبي عـليَّ مطِـيَّهم	يقولـون لا تهلـك أسـى، وتَجَمَّـلِ	امرؤ القيس	٧/ ٢٨٤
وَيَـوْمَ عَقَـرْتُ لِلْعَـذَارَى مَطِيَّتِـي		امرؤ القيس	٩/ ١٨٠
لقـد بسـملت ليلـى غـداة لقيتهـا	فيـا حبـذا ذاك الحبيـب المبسـمل	عمرو بن ربيعة	١/ ٦٣
إذا ليلـة ضـامك السـقم لم أبـت	لسـقمك إلا سـاهرًا أتململـ		١٣/ ٧٣
كـأني أنـا المطـروق دونـك بـالأذى	طُرقـت بـه وحـدي وعينـي تهمـل		١٣/ ٧٣
قـد رشـحوك لأمـر لـو فطنـت لـه	فاربـأ بنفسـك أن ترعـى مـع الهمـل	الطعرائي	٤/ ٧٠٢
تعلـم فلـيس المـرء يولـد عالمًـا	ولـيس أخـو علـم كمـن هـو جاهـل	الشافعي	٢٢/ ٦٧
غـذوتك مولـودًا وعلتـك يافعًـا	تُعـلُّ بـما أُسـدي إليـك وتنهـل		١٣/ ٧٣
فـما زالـت الخمـر تغتالنـا	وتـذهب بـالأول الأول		١٨/ ٢٨٨
امـنن عـليَّ بتوبـة تمحـو بهـا	مـا كـان منـي في الزمـان الأول		١٤/ ٤٠٢
إذا كنـت تهـوى العـيش فـاقنع توسـطًا	فعنـد التنـاهي يقصـر المتطـاول	أبو العلاء المعري	١٩/ ٥١
إذا كنـت تبغـي العـز فـابغ توسـطا	فعنـد التنـاهي يقصـر المتطـاول	أبو العلاء المعري	٥/ ٢٩٧

البيت		الشاعر	ج/ص
بيض سوابغ قد شكت لها حلق	كأنها حلق الأكفاء مجدول	كعب بن زهير	٢١٩/١٤
كتب الموت على الخلق فكم	فَلَّ من جمع وأفنى من دول	ابن الوردي	٧٥/٢
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ	عسى نكبات الدهر عنك تزول	علي بن أبي طالب	١٥٩/٦
تعزّ فإن الصبر بالحر أجملُ	وليس على ريب الزمان مُعَوَّلُ	إبراهيم بن كنيف	٣٦٥/١١
وقال كل خليل كنت آمله:	لا ألهينك إني عنك مشغول	كعب بن زهير	٤٥١/٣
يهون علينا أن تصاب جسومنا	وتسلم أعراض لنا وعقول	المتنبي	٥٦/٢٢
إن الرسول لنور يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول	كعب بن زهير	٢٤٣/٧
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته	يوماً على آلة حدباء محمول	زهير بن أبي سلمى	٦٣/٣
كالعيس في البيداء يقتلها الظما	والماء فوق ظهورها محمول	عبدالغني النابلسي	٢٧٣/١٦
الحرب أول ما تكون فُتَيَّةٌ	تبدو بزينتها لكل جهول	عمرو بن معد	١٧٥/١٦
ولا تظنن بنفسك قط خيرًا	فكيف بظالم جان جهول	ابن القيم	٥٧٦/٤
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم	فليس سواءً عالم وجهولُ	السموأل	٢٣٧/٢
كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا	وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ	عمرو بن ربيعة	٤٣٩/١٠
شم العرانين أبطال لبوسهم	من نسج داود في الهيجا سرابيل	كعب بن زهير	٢١٩/١٤
وإن الذي يسعى يحرش زوجتي	كساع إلى أسد الشرى يستبيلها	الفرزدق	٩٥/٢
وآمرة بالبخل قلت لها اقصري	فليس إلى ما تأمرين سبيل		٥٥٢/٥
وظن بنفسك السوآى تجدها	كذاك وخيرها كالمستحيل	ابن القيم	٥٧٦/٤
وقل يا نفس مأوى كل سوء	أيرجى الخير من ميت بخيل	ابن القيم	٥٧٦/٤
أترجو أن تسود ولن تُعنَّى	وكيف يسود ذو الدعة البخيل	الهذلي	١٧٦/٤
وإن امرأً ضنت يداه على امرئ	بنيل يد من غيره لبخيل	أبو تمام	٥٥٢/٥
تسيل على حد الظبات نفوسنا	وليست على غير الظبات تسيل	السموأل	٣٣٨/٢
كانت مواعيد عرقوب لها مَثَلًا	وما مواعيدها إلا الأباطيل	كعب بن زهير	١٠٠/٢
حتى وضعت يميني لا أنازعه	في كف ذي يسرات قيله القيل	كعب بن زهير	٣٠١/٣
يا من يرى مد البعوض جناحها	في ظلمة الليل البهيم الأليل		٤٠٢/١٤

البيت		الشاعر	ج/ص
وما بك من تقى فيها وخير	فتلك مواهب الرب الجليل	ابن القيم	٥٧٦/٤
تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ المَنُونِ لَعَلَّهَا	تُطَلَّقُ يَوْمًا أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَا		٤٥٨/١٠
ولا ترين الناس إلا تجملًا	نبا بك دهر أو جفاك خليل	علي بن أبي طالب	١٥٩/٦
أرى الناس خلان الكريم ولا أرى	بخيلا له في العالمين خليل		٥٥٢/٥
وكيف يصح في الأذهان شيء	إذا احتاج النهار إلى دليل	المتنبي	٢١٤/١
وليس بها ولا منها ولكن	من الرحمن فاشكر للدليل	ابن القيم	٥٧٦/٤
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل	السموأل	١٨١/١
فما أكثر الإخوان حين تعدهم	ولكنهم في النائبات قليل	الشافعي	٣٤٣/١٥
صن النفس واحملها على ما يزينها	تعش سالمًا والقول فيك جميل	علي بن أبي طالب	١٥٩/٦
فلا تظنن بربك ظن سوء	فإن الله أولى بالجميل	ابن القيم	٥٧٥/٤
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه	فكل رداء يرتديه جميل	دكين بن رجاء	٢٦٥/٢٣
وإن سيادة الأقوام فاعلم	لها صعداء مطلبها طويل	الهذلي	١٧٦/٤
جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم	وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو	زهيرزه	١٨٥/١
إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله	قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي		٢٥٣/١٠
ولو نُعطى الخيار لما افترقنا	ولكن لا خيار مع الليالي		٤٠٣/٤
وأعلم أني لم تصبني مصيبة	من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي		٥٦٨/٢
لعمري ما أهويت كفي لريبة	ولا نقلتني نحو فاحشة رجلي		٥٦٧/٢
ولا قادني سمعي ولا بصري لها	ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي		٥٦٧/٢
أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل	وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي	امرئ القيس	٢٦٥/٢٣
(الميم)			
بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها	وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه	المتنبي	١٣٣/٢٢
فأي الناس لم ندرك بوتر	وأي الناس لم نُعلك لجاما	عمرو بن قيس	٣٤٥/١٠
ألسنا الناسئين على معد	شهور الحل نجعلها حراما	عمرو بن قيس	٣٤٥/١٠
لقد علمت مَعَدٌّ أنَّ قومي	كرام الناس أنَّ لهم كراما	عمرو بن قيس	٣٤٥/١٠

البيت		الشاعر	ج/ص
وإني وإن كلَّـت قَلـوصي لـراجمٌ	بهـا وبنفسـي يـا فُطـيْمُ المراجمـا	المرقش الأصغر	١/ ٣٠
	ولكـل قـوم سـنة وإمامهـا	لبيد	١٠/ ٢٧٧
بـأن تغتـزوا قـومي وأقعـد فـيكم	وأجعـل منـي الظـن غيبًـا مرجمـا	عميرة بن طارق	٢/ ١٧٤
خيـل صـيام وخيـل غـير صـائمة	تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما	النابغة الذبياني	٣/ ٧٣
عليـك سـلام الله قـيس بـن عاصـم	ورحمتـه مـا شـاء أن يترحمـا	عبدة بن الطيب	٦/ ١٦٨
تـأخرتُ اسـتبقي الحيـاة فلـم أجـد	لنفسيـ حيـاةً مثـلَ أن أتقـدما		١٠/ ٥٣
مـن فاتـه الـزرع في وقـت البـذار فـما	تـراه يحصـد إلا الهـم والنـدما		٢١/ ٥٦٧
فـما كـان قـيس هلكـه هلـك واحـد	ولكنـه بنيـان قـوم تهـدما	عبدة بن الطيب	٦/ ١٦٨
فـما زلـت ذا عفـو عـن الـذنب لم تـزل	تجـود وتعفـو منـة وتكرمـا	الشافعي	٥/ ٦١١
إن المعلـم والطبيـب كلـيهما	لا ينصـحان إذا همـا لم يكرمـا		١٣/ ٣٢٧
وعـوذي بأفنـاء العشـيرة إنمـا	يعـوذ الذليـل بالعزيـز ليعصمـا	الحصين بن الحمام	١/ ٢٦
تعـاظمني ذنبـي فلـما قرنتـه	بعفـوك ربي كـان عفـوك أعظـما	الشافعي	٥/ ٦١١
ولـو أن أهـل العلـم صـانوه صـانهم	ولـو عظَّمـوه في النفـوس لعظـما	القاضي الجرجاني	٤/ ١٠٥
إن تغفـر اللهـم تغفـر جمـا	وأي عبـد لـك لا ألـمّـا	أبو خراش الهذلي	٢٤/ ٢٥١
ولمـا قسـا قلبـي وضـاقت مـذاهبي	جعلـت الرجـا منـي لعفـوك سـلما	الشافعي	٥/ ٦١١
رَشَـدْتَ وأَنعمـتَ ابـنَ عمـرو وإنـما	تَجَنَّبْـتَ تنـوراً مـن النَّـار مظلـماً		٣/ ١٩٨
	ولـيس جاهـل شيء مثـل مـن علـما	النابغة	٥/ ٥٦٦
يُنبِئْـكَ ذو عرضِـهم عنِّـي وعالِـمُهم	وَلَـيْسَ جَاهِـلُ شَيْءٍ مِثْـلَ مَـنْ عَلِمَـا	النابغة الذبياني	٨/ ٢٦١
ولـن يلبـث العصـران يـوم وليلـة	إذا طلبـا أن يـدركا مـا تـيمما	حميد بثور الهلالي	٢٤/ ٤٣٦
ولكـن أهـانوه فهـانوا ودنَّسـوا	محيـاه بـالأطماع حتـى تجهـما	القاضي الجرجاني	٤/ ١٠٥
وكنـا إذا الجبـار صـعر خـده	أقمنـا لـه مـن ميلـه فتقومـا	عمرو بن حني	١٧/ ١٢٣
إدريـس هـود شـعيب صالـح وكـذا	ذو الكفـل آدم بالمختـار قـد ختمـوا	البيجوري	٣/ ٥٩٩
ولسـت بمـأخوذ بلغـو تقولـه	إذا لم تَعَمَّـدْ عاقـدات العـزائم	الفرزدق	٧/ ٥٩٠
ولكـن دينًـا قـد أردت صـلاحه	أحـاذر أن تقضـي عليـه العمائـم	محمد عبده	١٣/ ٣٨٧

البيت		الشاعر	ج/ص
أتصبر للبلوى رجاء وحسبة	فتؤجر أم تسلو سلو البهائم	أبو تمام	٢/ ١٧١
ولله أبصار ترى الله جهرة	فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم	ابن القيم	٢/ ٩٢
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش	ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم	زهير	٣/ ٥٦٩
رأيت العلم صاحبه كريم	ولو ولدته آباء لئام	الشافعي	٢٢/ ٦٨
كل حلم أتى بغير اقتدار	حجة لاجئٌ إليها اللئام	المتنبي	٦/ ٥٦١
سيملك بعدنا ملكًا عظيمًا	نبي لا يرخص في الحرام	سبأ	١٨/ ٣٤
تمرون الديارَ ولم تعوجوا	كلامكم عليَّ إذن حرام	جرير	٢/ ٥٧٦
بلادي وإن جارت علي عزيزة	وأهلي وإن ضنوا علي كرام		١٤/ ٥٦
وإذا كانت النفوس كبارًا	تعبت في مرادها الأجسام	المتنبي	١٥/ ٤٦٢
لعمرك إن إلَّك من قريش	كإل السقب من رأل النَّعام	حسان بن ثابت	١٠/ ٢٦٩
وإن النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها كلام	نصر بن سيار	١٣/ ١٣١
ومثل «ما» ذا بعد ما استفهام	أو من إذا لم تلغ في الكلام	ابن مالك	٢/ ١٠٢
من يهن يسهل الهوان عليه	ما لجرح بميت إيلام	المتنبي	٣/ ١٣٧
بحثت عن الصديق فلم أجده	على التحقيق يوجد في الأنام	الناشئ الأكبر	١٥/ ٣٤٤
وَمِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي	أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي المَسِيرِ الجَهَامُ	المتنبي	٩/ ١٤٠
ذم المنازل بعد منزلة اللوى	والعيش بعد أولئك الأيام	جرير	١٣/ ٩٨
ولست أبالي أن يقال: محمد	أبل أم اكتظت عليه المآتم	محمد عبده	١٣/ ٣٨٧
فيا رب إن قدرت رجعى قريبة	إلى عالم الأرواح وانفض خاتم	محمد عبده	١٣/ ٣٨٧
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا	رشيدًا يضيء النهج والليل قاتم	محمد عبده	١٣/ ٣٨٧
ألا قل لمن جاروا علينا بحكمهم	رويدًا فقد قارفتم كل مأثم	معروف الرصافي	٤/ ٧٠٨
بها العين والآرام يمشين خلفة	وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم	زهير بن أبي سلمى	٢/ ٥٩٨
حييت من طلل تقادم عهده	أقوى وأقفر بعد أم الهيثم	عنترة	٦/ ١٦٢
هي الليالي وقاك الله صولتها	تصول حتى على الآساد في الأجم	أبو عبد الله العربي	٢/ ٥٦٩
فلا تنكروا هذي الحقيقة إنها	لأبين من هذا الحديث المرجم	معروف الرصافي	٤/ ٧٠٨

البيت		الشاعر	ج/ص
إلى الملك القرم وابن الهما	م وليث الكتيبة في المزدحم		١٠/ ١٨٣
أفسد الناس خلوف خلفوا	قطعوا الإل وأعراق الرحم	تميم بن مقبل	١٠/ ٢٦٩
لا تشكون إلى العباد فإنما	تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم	زين العابدين بن	٢/ ٥٦١
وإذا شكوتَ إلى الأنام فإنما	تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم	الشافعي	١٨/ ٤١٢
فقَسَا ليزدجروا ومَن يكُ حازمًا	فَلْيَقْسُ أحيانًا على من يرحم	أبو تمام	١٥/ ٣٤
لا تشكونّ لمخلوقٍ فتشمته	شكوى الجريح إلى الغربان والرّخم	المتنبي	٩/ ٢٥٧
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فإن الخوافي قوة للقوادم	بشار بن برد	٤/ ٥٩٣
الناس للناس من بدو وحاضرة	بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم	أبو العلاء المعري	٢٠/ ٣٧
ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها	قيل الفوارس: أيك عنتر أقدم	عنترة	١٣/ ١٧٥
يقولون في الإسلام ظلمًا بأنه	يصد ذويه عن طريق التقدم	معروف الرصافي	٤/ ٧٠٧
فإن كان ذا حقًّا فكيف تقدمت	أوائله في عصرها المتقدم	معروف الرصافي	٤/ ٧٠٨
إن لم تكن هناك آخذا بيدي	وإلا فقل يازلة القدم	البوصيري	٦/ ٤٣٠
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى	حتى يراق على جوانبه الدم	المتنبي	١٠/ ٢٠٧
لا تظلمَنَّ إذا ما كنت مقتدراً	فالظلم يرجع عقباه إلى الندم	علي بن أبي طالب	٣/ ٣٤٠
ألا إنما التقوى هي العز والكرم	وتركك للتقوى هو الذل والندم	أبو العتاهية	٥/ ٢٤
على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتي على قدر الكرام المكارم		٤/ ٥٣
فشككت بالرمح الأصم ثيابه	ليس الكريم على القنا بمحرم	عنترة بن شداد	٢٣/ ٢٦٥
إن تستغيثوا بنا إن تُذعروا تجدوا	منا معاقل عز زانها كرم		٣/ ٣٧٤
نكصتم على أعقابكم ثم جئتمُ	تُرَجُّون أنفال الخميس العرمرم	أوس بن حجر	١٠/ ١٥
لا طيب للعيش ما دامت منغَّصة	لذَّاتُهُ بادِّكَارِ الموتِ والهَرَمِ		٢/ ٤٣٦
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	برأي نصيح أو نصيحة حازم	بشار بن برد	٤/ ٥٩٣
واحذف لدى اجتماع شرط وقسم	جواب ما أخرت فهو ملتزم	ابن مالك	٦/ ١٠٠
فإذا بليت بمحنة فاصبر لها	صبر الكريم فإن ذلك أحزم	زين العابدين بن	٢/ ٥٦٠
رويدا كما اهتزت رماح تسفهت	أعاليها مر الرياح النواسم	ذو الرمة	٥/ ٩٧

البيت		الشاعر	ج/ص
ولله بـرد العـيش بـين خيامهـا	وروضاتها والثغر في الروض يبسم	ابن القيم	٢/ ٩٢
ومـن لم يصـانع في أمـور كثـيرة	يضـرس بأنيـاب ويوطـأ بمنسـم	زهير بن أبي سلمى	٥/ ٢٩٧
وحـي عـلى يـوم المزيـد الـذي بـه	زيـارة رب العـرش فـاليوم موسـم	ابن القيم	٢/ ٩٢
ورثـتم قنـاة الملـك غـير كلالـة	عن ابني مناف عبد شمس وهاشم	الفرزدق	٥/ ١٩٧
منـابر مـن نـور هنـاك وفضـة	ومـن خـالص العقيـان لا يتقصـم	ابن القيم	٢/ ٩٢
والـنفس كالطفـل إن تهملـه شـب عـلى	حـب الرضـاع وإن تفطمـه يـنفطم	البوصيري	٢٤/ ٢١١
ولله كـم مـن خـيرة إن تبسـمت	أضـاء لهـا نـور مـن الفجـر أعظـم	ابن القيم	٢/ ٩٢
وقـد يـأمر الشـيطان بـالخير قاصـداً	وصـولاً إلى بـاب مـن الشـر أعظـم		٣/ ١٢
وحـي عـلى واد هنالـك أفـيح	وتربتـه مـن أذفـر المسـك أعظـم	ابن القيم	٢/ ٩٢
وَأَعْلَـمُ عِلْـمَ اليَـوْمِ وَالأَمْـسِ قَبْلَـهُ	وَلَكِنَّنِـي عَـنْ عِلْـمِ مَـا فِي غَـدٍ عَـمِ	زهير	٩/ ١٥٦
فللـه مـا في حشـوها مـن مسـرة	وأصـناف لـذات بهـا يتـنعم	ابن القيم	٢/ ٩٢
قـد يـنعم الله بـالبلوى وإن عظمـت	ويبـتلي الله بعـض القـوم بـالنعم	أبو تمام	٢/ ٥٦٣
إذا كنـت في نعمـة فارعهـا	فـإن المعـاصي تزيـل الـنعم		٣/ ٢٢
كنـا ملوكًـا لنـا في أرضـنا دول	نمنـا بهـا تحـت أفنـان مـن الـنعم	أبو عبد الله العقيلي	٦/ ٦٦٧
صـلاح أمـرك للأخـلاق مرجعـه	فقـوم الـنفس بـالأخلاق تسـتقم	أحمد شوقي	٢٣/ ٦٨
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد	وينكـر الفـم طعـم المـاء مـن سـقم	البوصيري	١/ ٣٢
وحـافظ عليهـا بشـكر الإلـه	فـإن الإلـه سريـع الـنقم		٣/ ٢٢
يـؤخر فيوضـع في كتـاب فيـدخر	ليـوم الحسـاب أو يعجـل فيـنقم	زهير	٢/ ٣١٣
ومـا مـن يـد إلا يـد الله فوقهـا	وَلَا ظَـالِمٍ إِلَّا سَـيُبْلَى بِظَالِـمِ		٨/ ٣٥٤
إذا مـا مـات ذو علـم وتقـوى	فقـد ثلمـت مـن الإسـلام ثلمـه	عبد العزيز الديرني	٢٣/ ٦٢
وإذا بليـت بكربـة فـالبس لهـا	ثـوب السكوت فـإن ذلـك أسـلم	زين العابدين بن	٢/ ٥٦١
ومـن هـاب أسـباب المنايـا ينلنـه	ولـو رام أسـباب السـماء بسـلم	زهير	٦/ ١٣٢
عفـوا تعـف نسـاؤكم في المحـرم	وتجنبـوا مـا لا يليـق بمسـلم	الشافعي	٥/ ١٤٩
وإن كـان ذنـب المسـلم اليـوم جهلـه	فماذا على الإسلام من جهل مسلم	معروف الرصافي	٤/ ٧٠٨

البيت		الشاعر	ج/ص
ولكننا سبي العدو فهل ترى	نعود إلى أوطاننا ونسلم	ابن القيم	٦/ ١٧١
ولله أفراح المحبين عندما	يخاطبهم من فوقهم ويسلم	ابن القيم	٢/ ٩٢
فأقسم أن لو التقينا وأنتُمُ	لكان لكم يوم من الشر مظلم	امرؤ القيس	٢١/ ١١٧
والظلم من شيم النفوس فإن تجد	ذا عفة فلعلةٍ لا يَظلِمُ	المتنبي	١٨/ ٣٨٢
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم	زهير	٤/ ٤٩
إن الزنا دين فإن أقرضته	كان الوفا من أهل بيتك فاعلم	الشافعي	٥/ ١٤٩
وكثبان مسك قد جعلن مقاعدًا	لمن دون أصحاب المنابر تعلم	ابن القيم	٢/ ٩٢
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم	زهير بن أبي سلمى	٢/ ٢٤٣
هل العلم في الإسلام إلا فريضة	وهل أمة سادت بغير التعلم	معروف الرصافي	٤/ ٧٠٨
وحي على السوق الذي فيه يلتقي الـ	محبون ذاك السوق للقوم معلم	ابن القيم	٢/ ٩٢
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم	ليخفى فمهما يكتم الله يعلم	زهير	٢/ ٣١٣
فإن من جودك الدنيا وضرتها	ومن علومك علم اللوح والقلم	البوصيري	٦/ ٤٣٠
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ	وكنت أخشى عليها من أذى الكلم	إسحاق بن خلف	٤/ ٥٨٩
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله	على قومه يستغن عنه ويذمم	زهير بن أبي سلمى	١٣/ ٨٨
يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم	البوصيري	٦/ ٤٣٠
تنام عينك والمظلوم منتبه	يدعو عليك وعين الله لم تنم	علي بن أبي طالب	٣/ ٣٤٠
بذيالك الوادي يهيم صبابة	محب يرى أن الصبابة مغنم	ابن القيم	٢/ ٩٢
يدعون عنتر والرماح كأنها	أشطانُ بئرٍ في لَبَان الأدهم	عنترة بن شداد	١/ ٢٨
فصاحة حسان وخط ابن مقلة	وحكمة لقمان وزهد بن أدهم		٢٣/ ٦٢
أَفِي كُلِّ أَسْوَاقِ العِرَاقِ إِتَاوَةٌ	وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ	زهير بن أبي سلمى	٩/ ٢٠٠
من يزن في بيت بألفي درهم	في بيته يزنى بغير الدرهم	الشافعي	٥/ ١٤٩
من يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجداره	إن كنت يا هذا لبيبًا فافهم	الشافعي	٥/ ١٤٩
إني إذا ما حدث ألمَّا	أقول يا اللهم يا اللهم	أبو خراش الهذلي	٤/ ١٢٢
ولله واديها الذي هو موعد الـ	مزيد لوفد الحب لو كنت منهم	ابن القيم	٢/ ٩٢

البيت		الشاعر	ج/ص
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه	وصدق ما يعتاده من توهم	المتنبي	٣٨٢/٢٢
إذا غامرت في شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم	المتنبي	٥٥٦/٢١
حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه	فالقوم أعداء له وخصوم	أبو الأسود الدؤلي	٤٩٨/٧
قل للحسود إذا تنفَّس طعنة	يا ظالمًا وكأنه مظلوم		٥٧٣/٢٤
لا كان من لسواك فيه بقية	يجد السبيل بها إليه اللُّوم		٤٧٧/٧
تعلم في الحساب إذا التقينا	غدًا عند الإله من الملوم	ابو العتاهيه	١٠/٢٤
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا	بصائر أقوام عن المجد نوم	معروف الرصافي	٧٠٨/٤
زنيم ليس يعرف من أبوه	بغيّ الأم ذو حسب لئيم		٧٨/٢٣
فحي على جنات عدن فإنها	منازلك الأولى وفيها المخيم	ابن القيم	٩٢/٢
ودك حصون الجاهلية بالهدى	وقوض أطناب الضلال المخيم	معروف الرصافي	٧٠٨/٤
اترك محاورة السفيه فإنها	ندم وغب بعد ذاك وخيمُ	أبو الأسود الدؤلي	٤٠٦/١٣
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدًا وأنت من الرشاد عديم	أبو الأسود الدؤلي	١٦٨/٢
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم	أبو الأسود الدؤلي	١٦٠/٢
تصدق بالبنات على رجال	يريد بذاك جنات النعيم	أبو حيان الأندلسي	١٦٨/٥
أمير المؤمنين على صراطٍ	إذا اعوج المواردُ مستقيمِ	جرير	١٩٣/١
ومن رام العلوم بغير شيخ	يضل عن الصراط المستقيم	أبو حيان الأندلسي	١٦٨/٥
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى	كيما يصح به وأنت سقيم	أبو الأسود الدؤلي	١٦٨/٢
وكم من عائب قولًا صحيحًا	وآفته من الفهم السقيم	المتنبي	٤٨٣/٧
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم	أبو الأسود الدؤلي	١٦٨/٢
وتلتبس الأمور عليه حتى	يكون أضل من توما الحكيم	أبو حيان الأندلسي	١٦٨/٥
أُطوِّف بالأباطح كلَّ يوم	مخافَةَ أن يُشرِّد بي حَكِيمُ		١٧٣/١٠
يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم	أبو الأسود الدؤلي	١٦٨/٢
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى	العلم منك وينفع التعليم	أبو الأسود الدؤلي	١٦٨/٢
أبي الإسلام لا أب لي سواه	إذا افتخروا بقيس أو تميم	نهار بن توسعة	٣٧٨/٤

البيت		الشاعر	ج/ص
أقـــول لأم زنبـــاع أقيمـــي	صـدور العـيس شـطر بنـي تمـيم	أبو الزنباع الجذامي	٥١٩/٢
ولا تغـل في شيء مـن الأمـر واقتصـد	كـلا طرفـي قصـد الأمـور ذميـم	أبو سليمان الخطابي	٨٨/١٣
كضرائـر الحسـناء قلـن لوجههـا	حسـدًا وبغيًـا إنـه لـذميم	أبو الأسود الدؤلي	٤٩٨/٧
فـي تلـك حجتنـا منهـم ثمانيـة	من بعد عشر- ويبقى سبعة وهمو	البيجوري	٥٩٩/٣
فأيقظتنـا سـهام للـردى صـبب	يرمى بـأفجع حتف من بهن رمي	أبو عبد الله العقيلي	٦٦٧/٦
وأعلـم علـم اليـوم والأمـس قبلـه	ولكنني عـن علـم مـا في غـدٍ عمـي	زهير	٢٢٤/١٦
بـلادي هواهـا في لسـاني وفي دمـي	يمجـدها قلبـي ويـدعو لهـا فمـي	مصطفى صادق	٣٢/١٦
والمـــوت خـــير للفتـــى	مـــن عيشـــه عـــيش البهيمـــهْ	الحريري	٣١١/٢
(النون)			
والأخ مـــن أي الجهـــات كانـــا	قـــد أنـــزل الله بـــه القرآنـــا	الرحبي	٢١٧/٥
حفّـوا رؤوسـهم لم ينزعـوا تفثًـا	ولم يسـلوا لهـم قمـلًا وصـئبانا	أمية بن الصلت	٣١٩/١٤
فليـت لي بهـم قومًـا إذا ركبـوا	شـنوا الإغـارة فرسـانًا وركبانًـا	قريط بن أنيف	٤٨٥/٤
يجـزون مـن ظُلْـم أهـل الظلـم مغفـرةً	ومـن إسـاءة أهـل السـوء إحسـانًا	قريط بن أنيف	٤٨٥/٤
أيـامَ يَـدْعُونني الشـيطانَ مـن غَـزَلٍ	وهـن يَهْـوَيْنَني إذْ كنـتُ شَـيْطانَا	جرير	٢٩/١
رأيـت الـذنوب تميـت القلـوب	وقـد يـورث الـذل إدمانهـا	عبدالله بن المبارك	١١٩/١٨
لكـن قـومي وإن كـانوا ذوي حسـبٍ	ليسـوا مـن الشـر في شيء وإن هانـا	قريط بن أنيف	٤٨٥/٤
فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم	فقـد وضـحت للسـالكين عيانـا		٨٤/٦
وإيـاك والسـكن بـدار مذلـة	تعـد مسـيئًا بعـدما كنـت محسـنا		٥٧٩/٧
فنفسـك أكرمهـا وإن ضـاق مسـكنٌ	عليـك بهـا دور لنفسـك مسـكنا		٥٧٨/٧
أتـاني هواهـا قبـل أن أعـرف الهـوى	فصـادف قلبًـا خاليًـا فتمكنـا		١٢٩/١١
كـم نعمـة لا يسـتهان بشـكرها	لله في طـي المكـاره كامنـه	علي بن أبي طالب	٥٦٤/٢
نعمـت جـزاء المتقـين الجنـه	فيهـا الأمـاني والمنـى والمنـه		٤٩٢/٤
مهـلًا بنـي عمنـا مهـلًا موالينـا	لا تُظْهِـرُنَّ لنـا مـا كـان مـدفونًا	الفضل بن العباس	٤٧١/٥
إذا أنـت لم تعـرف لنفسـك حقهـا	هوانـاً بهـا كانـت علـى النـاس أهونـا		٤٥٦/٢

البيت		الشاعر	ج/ص
لا تكره المكروه عند حلوله	إن العواقب لم تزل متباينه	علي بن أبي طالب	٢/ ٥٦٣
إن الألى قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا		١/ ٣٥
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتني سمحا بذاك مبينا	أبو طالب	٥/ ٢٨٢
ولقد علمت بأن دين محمد	من خير أديان البرية دينا	أبو طالب	٢/ ٣٥١
فآبوا بالنهاب وبالسبايا	وأبنا بالملوك مصفدينا	عمرو بن كلثوم	١٢/ ٢١٠
فلست مبدِّلاً بالله ربّاً	ولا مستبدلاً بالسَّلم ديناً	امرؤ القيس الكندي	٣/ ٢٠٥
وأيام لنا غرٌّ طوال	عصينا المَلْكَ فيها أن ندينا	عمرو بن كلثوم	١/ ١٧٤
غضبان أنا لا نلد البنينا	والله ما ذلك في أيدينا	امرأة أبي حمزة الضبي	٥/ ٥٠٥
إذا الإيمان ضاع فلا أمان	ولا دنيا لمن لم يحي دينا	محمد إقبال	٦/ ٥٥١
وعدت عشيرتي للسَّلم لما	رأيتهموا تولّوا مدبرينا	امرؤ القيس الكندي	٣/ ٢٠٥
إذا ما الموت جر على أناس	كلا كله أناخ بآخرينا	ذو الأصبع العدواني	٧/ ٤٦٠
شهدت بأن وعد الله حق	وأن النار مثوى الكافرينا	عبدالله بن رواحة	٢١/ ٤٩٢
فلا أرمي البريء بغير ذنب	ولا أقفو الحواصن إن قُفينا	الكميت	١٣/ ٩٧
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا		١/ ٣٥
فقل للشامتين بنا أفيقوا	سيلقى الشامتون كما لقينا	ذو الأصبع العدواني	٧/ ٤٦٠
والله لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا		١/ ٣٥
حمدت الله إذ أبصرت طيرًا	وخِفْتُ حجارة تلقى علينا		٢٤/ ٤٦٨
ألا يجهلنْ أحدٌ علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا	عمرو بن كلثوم	٢/ ٢٣٧
سواء علينا يا جميل بن معمر	إذا مت بأساء الحياة ولينها	بثينة	٢/ ٤٥
ما لأبي حمزة لا يأتينا	يظل في البيت الذي يلينا		٥/ ٥٠٤
ولا نقول إذا يومًا نُعيتَ لنا	إلا بآمين ربَّ الناس آمينا	أبو وجزة	١/ ٣١٤
يا رب لا تسلبنّي حبها أبدًا	ويرحم الله عبدًا قال: آمينا	مجنون ليلى	١/ ٣١٤
كفينا من تغيَّب من نزار	وأَحْنَثْنا أليَّة مُقْسِمينا		٣/ ٣٠٨
وقدَّمت الأديم لراهشيه	وألفى قولها كذبًا ومينا	عدي بن زيد	٥/ ٤٤٦

البيت		الشاعر	ج/ص
ألا ضربت تلك الفتاة هجينها	ألا قضب الرحمن ربي يمينها		١/ ٧٥
إن المنايا يطلعن على الأُناس الآمنينا		ذو جرن الحميري	١/ ٦٨
ولم يبق سوى العدوا	ن دناهم كما دانوا	شهل بن شيبان	١/ ١٧٢
أتى على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكأن الكل ما كانوا	أبو البقاء الروندي	١١/ ٢٦٧
صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به	وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا	قعنب بن أم صاحب	٢/ ٧٠
حصادك يومًا ما زرعت وإنما	يدان الفتى يومًا كما هو دائن		١/ ١٧٢
ما للعباد عليه حق واجب	هو أوجب الأجر العظيم الشأن	ابن القيم	٢/ ٢٢٥
لكنما أخشى انسلاخ القلب من	تحكيم هذا الوحي والقرآن	ابن القيم	١٣/ ٣١١
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما	قد كان والموجود في ذا الآن	ابن القيم	٢/ ٤٤٥
ومخلَّداتٌ باللجين كأنما	أعجازهُنَّ رواكد الكُثْبَانِ		٢٣/ ٣٣٩
احفظ لسانك أيها الإنسان	لا يلدغنك إنه ثعبان		١٣/ ١٣١
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي	بنوا الشقيقة من ذهل بن شيبان		١/ ١٨١
وهو العزيز القاهر الغلاّب لم	يغلبه شيء هذه صفتان	ابن القيم	٢/ ٤٥٠
	والذكر للإنسان عمر ثان	أحمد شوقي	٤/ ٥٢٥
إن الروافض شر من وطئ الحصا	من كل إنس ناطق أو جان	القحطاني	٧/ ٥٧٦
أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ	وأين منهم أكاليل وتيجان	أبو البقاء الروندي	١١/ ٢٦٦
واعلم يقينًا أن ملكك زائل	واعلم بأن كما تدين تدان		١/ ١٧٢
فكأنما آل النبي وصحبه	روح يضم جميعها جسدان	القحطاني	١٠/ ٤٧٣
وكل كسر فإن الله جابره	وما لكسر قناة الدين جبران	أبو الفتح البستي	٢/ ٤١٦
حبرًا أتى من أرض حران فيا	أهلاً بمن قد جاء من حران	ابن القيم	١/ ١٥٨
زيادة المرء في دنياه نقصان	وربحه غير محض الخير خسران	أبو الفتح البستي	٢٢/ ٣٣٣
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته	لتطلب الربح فيما فيه خسران	أبو الفتح البستي	٢٤/ ٤٢٦
لاقاه بالغفران ملء قرابها	سبحانه هو واسع الغفران	ابن القيم	٥/ ٣٢٦
والله ما خوفي الذنوب فإنها	لعلى طريق العفو والغفران	ابن القيم	١٣/ ٣١١

البيت		الشاعر	ج/ص
لـو سـاوت الـدنيا جنـاح بعوضـة	لم يسـق منهـا الـرب ذا الكفـران	ابن القيم	٦/ ١٣٠
سُكرانِ سُكر هـوى وسُكر مُدامـة	ومتـى إفاقـة مـن بـه سُكرانِ		١٢/ ١٧٦
وهـو العـلي فكـل أنـواع العلـو	لـه فثابتـة بـلا نكـران	ابن القيم	٥/ ٥٠٦
لكنهـا والله أحقـر عنـده	مـن ذا الجنـاح القـاصر الطـيران	ابن القيم	٦/ ١٣٠
هـو أول هـو آخـر هـو ظـاهر	هـو بـاطن هـي أربـع بـوزان	ابن القيم	٢١/ ٤٨٦
وأيـن مـا شـاده شـدّاد في إرمٍ	وأيـن مـا ساسـه في الفـرس ساسـان	أبو البقاء الروندي	١١/ ٢٦٧
إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الأُمُـورِ بِحِكْمَـةٍ	وَاللُّطْـفُ عِنْـدَ مَوَاقِـعِ الإِحْسَـانِ	ابن القيم	٨/ ٢٧٧
كـلا ولا عمـل لديـه ضـائع	إن كـان بـالإخلاص والإحسـان	ابن القيم	٢/ ٢٢٥
وغاياتهـا الـلاتي حمـدن وكونهـا	في غايـة الإتقـان والإحسـان	ابن القيم	٢/ ٤٥١
أحسـن إلى النـاس تسـتعبد قلـوبهم	فطالمـا اسـتعبد الإنسـان إحسـان	أبو الفتح البستي	٤/ ٦٠١
وهـل ينفـع الفتيـان حسـن وجـوههم	إذا كانـت الأخـلاق غـير حسـان		٧/ ٦٩٩
جراحـات السـنان لهـا التئـام	ولا يلتـام مـا جـرح اللسـان		١٣/ ١٣١
وصـدوره مـن أجـل غايـات لـه	ولـه عليهـا حمـد كـل لسـان	ابن القيم	٢/ ٤٥١
مـا للعبـاد عليـه حـق واجـب	هـو أوجـب الأمـر العظـيم الشـان	ابن القيم	١٧/ ٧٨
وهـي التـي كملـت لـه سـبحانه	مـن كـل وجـه عـادم النقصـان	ابن القيم	٢/ ٤٥٠
مـن تحـتهم تجـري كـما شـاؤوا مفجـ	ـرة ومـا للنهـر مـن نقصـان	ابن القيم	٢/ ٩٣
حبـوا قرابتـه وسـبوا صـحبه	جـدلان عنـد الله منتقضـان	القحطاني	١٠/ ٤٧٣
أنهارهـا في غـير أخـدود جـرت	سـبحان ممسـكها عـن الفيضـان	ابن القيم	٢/ ٩٣
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب	وأيـن عـاد وشـداد وقحطـان	أبو البقاء الروندي	١١/ ٢٦٧
وهـو العزيـز فلـن يـرام جنابـه	أنـى يـرام جنـاب ذي السـلطان	ابن القيم	٢/ ٤٥٠
لا تعتقـد ديـن الـروافض إنهـم	أهـل المحـال وحزبـة الشـيطان	القحطاني	١٠/ ٤٧٣
كـم في المقـابر مـن قتيـل لسـانه	كانـت تخـاف بقـاءه الشـجعان		١٣/ ١٣١
حـب الكتـاب وحـب ألحـان الغِنـا	في قلـب عبـدٍ لـيس يجتمعـانِ	ابن القيم	١٧/ ١٠٥
شـتان بـين الحـالتين فـإن تـرد	جمعـاً فـما الضـدان يجتمعـان	ابن القيم	٣/ ٢٨٦

البيت		الشاعر	ج/ص
وهـو العزيـز بقـوة هـي وصـفه	فـالعز حينئـذ ثـلاث معـان	ابن القيم	٢/ ٤٥٠
دع مـا جـرى بـين الصـحابة في الـوغى	بسـيوفهم يـوم التقـى الجمعـان	القحطاني	٢/ ٤٦٨
وكـذلك التـواب مـن أوصـافه	والتـوب في أوصـافه نوعـان	ابن القيم	٥/ ٢٤٤
ويـرى خيانـات العيـون بلحظهـا	ويـرى كـذاك تقلـب الأجفـان	ابن القيم	٦/ ٣٥
والحكمـة الأخـرى فحكمـة شرعـه	أيضـاً وفيهـا ذانـك الوصـفان	ابن القيم	٢/ ٤٥١
عصًـا، سَـنَةٌ، بحـرٌ، جـرادٌ، وقُمَّـلٌ	دمٌ، ويـدٌ، بعـد الضـفادع، طوفـانُ	الفيروزابادي	١٣/ ٢٠٠
إحكـام هـذا الخلـق إذ إيجـاده	في غايـة الإحكـام والإتقـان	ابن القيم	٢/ ٤٥١
إحـداهما في خلقـه سـبحانه	نوعـان أيضـاً لـيس يفترقـان	ابن القيم	٢/ ٤٥١
فاشـدد يـديك بحبـل الله معتصـمًا	فإنـه الـركن إن خانتـك أركـان	أبو الفتح البستي	٢٢/ ٣٦٧
وهـو العفـو بعفـوه وسـع الـورى	لـولاه غـار الأرض بالسـكان		٥/ ٥٨٦
وكـذاك أمـر لم يكـن لـو كـا	ن كيـف يكـون ذا إمكـان	ابن القيم	٢/ ٤٤٥
يـا سـلعة الـرحمن لسـت رخيصـة	بـل أنـت غاليـة عـلى الكسـلان	ابن القيم	٤/ ٥٠٩
وهـو السـميع يـرى ويسـمع كـل مـا	في الكـون مـن سر ومـن إعـلان	ابن القيم	٢/ ٤٤٤
وهـو العلـيم أحـاط علـماً بالـذي	في الكـون مـن سر ومـن إعـلان	ابن القيم	٢/ ٤٤٥
وهـو الحكـيم وذاك مـن أوصـافه	نوعـان أيضـاً مـا همـا عـدمان	ابن القيم	٢/ ٤٥٠
سـيمنع منـك السـبق إن كنـت سـابقًا	وتقتـل إن زلـت بـك القـدمـان	بشير بن أبي العبسي	١٢/ ٤٥١
إن البـدار بـرد شيء لم تحـط	علـمًا بـه سـبب إلى الحرمـان	ابن القيم	١٦/ ٢٤٣
ذكـاء وحـرص واجتهـاد وبلغـة	وإرشـاد أسـتاذ وطـول زمـان	الشافعي	١٣/ ٣٣٨
أخـذت يـداه يـدي وسـار فلـم يـرم	حتـى أراني مطلـع الإيـمان	ابن القيم	١/ ١٥٩
لمثـل هـذا يـذوب القلـب مـن كمـدٍ	إن كـان في القلـب إسـلام وإيـمان	أبو البقاء الرندي	١٥/ ٢٣٦
يـا سـلعة الـرحمن لـيس ينالهـا	في الألـف إلا واحـد لا اثنـان		٤/ ٥٠٩
إذن بتوبـة عبـده وقبولهـا	بعـد المتـاب بمنـة المنـان	ابن القيم	٥/ ٢٤٤
إن عـذبوا فبعدلـه أو نعمـوا	فبفضـله والفضـل للمنـان	ابن القيم	٢/ ٢٢٥
حكـم وإحكـام فكـل مـنهما	نوعـان أيضـاً ثابتـا البرهـان	ابن القيم	٢/ ٤٥٠

البيت		الشاعر	ج/ص
والحكمة العليا على نوعين أيـ	ـضا حصلا بقواطع البرهان	ابن القيم	٢/ ٤٥١
وهو الحسيب كفاية وحماية	والحسب كافي العبد كل أوان	ابن القيم	٥/ ١٠٨
دقات قلب المرء قائلة له	إن الحياة دقائق وثوان	أحمد شوقي	٢٤/ ٤٣٧
مدحوا النبي وخونوا أصحابه	ورموهم بالظلم والعدوان	القحطاني	١٠/ ٤٧٣
وهو البصير يرى دبيب النملة السـ	ـوداء تحت الصخر والصوان	ابن القيم	٦/ ٣٥
فالله يجزيه الذي هو أهله	من جنة المأوى مع الرضوان	ابن القيم	١/ ١٥٩
فهو العلي بذاته سبحانه	إذ يستحيل خلاف ذا ببيان	ابن القيم	٥/ ٥٠٦
أخي لن تنال العلم إلا بستة	سأنبيك عن تأويلها ببيان	الشافعي	١٣/ ٣٣٨
خليلي ليس الرأي في صدر واحد	أشيرا عليّ بالذي تريان	ابن الدمينة	٤/ ٥٩٤
والحكم شرعي وكوني ولا	يتلازمان وما هما سيان	ابن القيم	٢/ ٤٥١
وبكل شيء علمه سبحانه	فهو المحيط وليس ذا نسيان	ابن القيم	٢/ ٤٤٥
وإذا خلوت بريبة في ظلمة	والنفس داعية إلى العصيان	القحطاني	٢١/ ٥٥
وهو الغفور فلو أتى بقرابها	من غير شرك بل من العصيان	ابن القيم	٥/ ٣٢٦
وهو الحليم فلا يعاجل عبده	بعقوبة ليتوب من عصيان	ابن القيم	٣/ ٣٠٦
ويرى مجاري القوت في أعضائها	ويرى بياض عروقها بعيان	ابن القيم	٦/ ٣٥
ولكل صوت منه سمع حاضر	فالسر والإعلان مستويان	ابن القيم	٢/ ٤٤٤
وعالم بعلمه لم يعلمن	معذب في قبره من قبل عباد الوثن	ابن رسلان	٤/ ١٠٥
الناس في غفلاتهم	ورحا المنية تطحنُ	أبو العتاهية	١٤/ ١٤٨
لا تنهرن غريباً حال غربته	الدهر ينهره بالذل والمحن		٣/ ٤٣
تيممت قيساً وكم دونه	من الأرض من مهمه ذا شَزَن	الأعشى	٣/ ٥١٥
يُقضى على المرء في أيام محنته	حتى يرى حسنًا ما ليس الحسن	يحيى بن علي	٢/ ١٥٩
بادر بها غلق النفوس فإنها	ذخر وغنم للمنيب المحسن	محمود الوراق	٥/ ٢٦٣
لو كل جارحة مني لها لغة	تثني عليك بما أوليت من حَسَنِ		١٢/ ١٨٠
قدم لنفسك توبة مرجوة	قبل المنات وقبل حبس الألسن	محمود الوراق	٥/ ٢٦٣

البيت		الشاعر	ج/ص
إن الغريب له حق لغربته	على المقيمين في الأوطان والسكن		٣/ ٤٣
كل من لقيت يشكو دهره	ليت شعري هذه الدنيا لمن	المعري	٤/ ٥١٣
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به	إليك أبلغ في الإحسان والمنن		١٢/ ١٨٠
إذا ما أراد الله أمرًا فإنما	يقول له: «كن» قولة فيكون		١٨/ ٢٥٤
بهيمة مسكينُ	تشكو ولا تُبينُ	أحمد شوقي	٢١/ ٣٥٠
فما المعزَّى بباق بعد ميته	ولا المعزِّي وإن عاشا إلى حين	الشافعي	٢/ ٥٦٩
فأخلفن ميعادي وخن أمانتي	وليس لمن خان الأمانة دين	كثير عزة	٦/ ٣٧
إني معزِّيك لا أني على ثقة	من الخلود ولكن سنة الدين	الشافعي	٢/ ٥٦٩
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا	قول الرسول وعالوا في الموازين	عبد الله بن الحارث	٥/ ٦١
لا تأمنن عدوًّا لان جانبه	خشونة الصل عقبى ذلك اللين	الشريف الرضي	٢/ ٣٥٥
لا تأمنن عدوًا لان جانبه	خشونة الصل عقبى ذلك اللين	الشريف الرضي	٢٤/ ١٧٧
إذا ما راية رفعت لمجد	تلقاها عَرَابة باليمين	الشماخ	١٨/ ٣١٢
وإن حلفتْ لا ينقض النأيُ عهدَها	وليس لمخضوب البنان يمين		١٠/ ٢٧٦
نأت بسعاد عنك نوى شطون	فبانت والفؤاد بها رهين	النابغة الذبياني	١/ ٢٧
الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أول وهي المحل الثاني	المتنبي	٣/ ٤٢٣
والسمع منه واسع الأصوات لا	يخفى عليه بعيدها والداني	ابن القيم	٢/ ٤٤٤
ولقد أتاح لي الإله بفضله	من ليس تجزيه يدي ولساني	ابن القيم	١/ ١٥٨
والله لو علموا قبيح سريرتي	لأبي السلام علي من يلقاني	القحطاني	٥/ ٦١١
صديقي من يقاسمني همومي	ويرمي بالعداوة من رماني	أبو العتاهية	١٥/ ٣٤٣
رماني بأمر كنت منه ووالدي	بريئًا ومن أجل الطوي رماني	الأزرق بن طرفة	١٥/ ٤٠
ونشرت لي في العالمين محاسنا	وسترت عن أبصارهم عصياني	القحطاني	٥/ ٦١١
لكن سترت معائبي ومثالبي	وحلمت عن سقطي وعن طغياني	القحطاني	٥/ ٦١١
لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب	عني ولا أنت دياني فتخزوني	ذو الأصبع العدواني	١/ ٦٩
تقول إذا دَرأتُ لها وَضِيني	أهذا دِينُه أبدا ودِيني	المثقب العبدي	١/ ١٧٤

البيت		الشاعر	ج/ص
أألخير الذي أنا أبتغيه	أم الشر الذي هو يبتغيني	المثقب العبدي	٧/ ٣٤
وما أدري وإن يممت أرضًا	أريد الخير أيهما يليني	المثقب العبدي	٧/ ٣٤
(الهاء)			
فتى الفتيان ما بلغوا مداه	ولا يَكدي إذا بلغت كداها	الخنساء	٢١/ ٢٥٨
مشيناها خطى كتبت علينا	ومن كتبت عليه خطى مشاها		٤/ ٥٦٩
إن النميمة نار ويك محرقة	ففر عنها وجانب من تعاطاها		٢٤/ ٥٤١
ومن كانت منيته بأرض	فليس يموت في أرض سواها		٤/ ٥٦٩
يا رافعًا راية الشورى وحارسها	جزاك ربك خيرًا عن محبيها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
لم أنس أمرك للمقداد يحمله	إلى الجماعة إنذارًا وتنبيها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
أما ابن طوق فقد أوفى بذمته	كما وفى بقلاص النجم حاديها	طفيل الغنوي	٧/ ١٨
إن ظل بعد ثلاث رأيهم شعبًا	فجرد السيف واضرب في هواديها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
و ما استبد برأي في حكومته	إن الحكومة تغري مستبديها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به	رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
درى عميد بني الشورى بموضعها	فعاش ما عاش يبنيها ويعليها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها	طعم المنية مرًا عن مراميها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها	و للمنية آلام تعانيها	حافظ إبراهيم	٤/ ٦٠٤
هي الحياة فلا يغررك ما فيها	من الزخارف واحذر من دواهيها		٢١/ ٥٥٦
لكل داء دواء يستطب به	إلا الحماقة أعيت من يداويها		١٧/ ٢١٨
إليّ فإني ربهم ومليكهم	لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه	مجد الدين جمال	٢٢/ ١٤
يا صاحب الهم إن الكرب منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٧
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الكاشف الله	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٧
والله ما لك غير الله من أحد	فحسبك الله في كل لك الله	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٧
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٧
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسن فإن الكافي الله	أبو العتاهية	٢/ ٥٦٧

البيت		الشاعر	ج/ص
والعم وابن العم من أبيه	فاشكر لذي الإيجاز والتنبيه	الرحبي	٥/ ٢١٧
رب أمر تتقيه	جرّ أمراً ترتضيه	ابن المعتز	٣/ ٢٤٤
ومن لا يعرف الشر	من الخير يقعْ فيهِ	أبو فراس الحمداني	٨/ ٣٢٢
خفي المحبوب منه	وبدا المكروه فيه	ابن المعتز	٣/ ٢٤٤
عرفت الشر لا للشـ	ـرّ لكنْ لتوقيهِ	أبو فراس الحمداني	٨/ ٣٢٢
أريد صديقًا أطمئن لديه	ولي ربع قرن ما عثرت عليه		١٥/ ٣٤٣
لله در الغانيات المُدّهِ	سَبَّحن واسترجَعْن من تألُّهي	رؤبة بن العجاج	١/ ٦٨
(الياء)			
بَدَا لِيَ أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى	وَلَا سَابِقًا شَيْئًا إِذَا كَانَ جَائِيَا	زهير	٨/ ٨١
ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه	وإن كنت عن أرض العشيرة نائيًا	رباح بن عدي	١٢/ ٨٣
وقولا له من ينبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رابيا		١٤/ ٤٠٧
فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة	وإلا فإني لا إخالك ناجيًا	الأسود بن سريع	٤/ ٥٧٥
فحلت سواد القلب لا أنا باغيًا	سواها ولا عن حبها متراخيَا	النابغة الجعدي	١٣/ ٢٦٨
عِداي لهم فضل عليَّ ومنة	فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا	أبو حيان الأندلسي	١٥/ ٤٠٨
ومما زادني شرفًا وفخرًا	وكدت بأخمصي أطأ الثريَّا	القاضي عياض	١٨/ ٢٩٠
إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى	تقلب عريانًا وإن كان كاسيا	أبو العتاهية	٥/ ٤٦
ألا لا أرى على الحوادث باقيًا	ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا	زهير بن أبي سلمى	٥/ ٢٢٦
ويخرج منه حبه في رؤوسه	ففي ذاك آيات لمن كان واعيا		١٤/ ٤٠٧
إذا الجود لم يُرزق خلاصاً من الأذى	فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيَا	المتنبي	١٠/ ١١٥
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما	يظنان كل الظن أن لا تلاقيا	قيس	١٥/ ٣٤٤
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما	يظنان كل الظن أن لا تلاقيا	قيس بن الملوح	٢٢/ ٢٠٨
تعز فلا شيء على الأرض باقياً	ولا وزر مما قضى الله واقيا		٢/ ٥٦٢
لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي	إذا هو لم يجعل له الله واقيا	أفيون التغلبي	٢/ ٣٣
أأنت أخي ما لم يكن لي حاجة	فإن وجدت أيقنت أن لا أخا لِيا	عبدالله بن معاوية	١٥/ ٣٤٣

البيت	الشاعر	ج/ص
إذا جاءنا السجان يومًا لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا		٧/ ٣١٦
وقد يَنْبُت المرعى على أَثَرِ الدِّمَنْ وتبقى حزازتُ النفوس كما هيا	زفر بن الحارث	١٠/ ١٩١
(الألف المقصورة)		
أما ترى رأسيَ حاكى لونُه طرة صبح تحت أذيال الدجى	ابن دريد	١٣/ ٣٨٤
وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا	ابن دريد	٣/ ٢٤٣
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جَزْل الغضا	ابن دريد	١٣/ ٣٨٤
والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى	دريد	٣/ ٤٠٩
وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى	ابن دريد	١٣/ ٤٣٠

* * *

فهرس موضوعات الأجزاء

موضوعات الجزء الأول

تفسير الاستعاذة ١٣

تفسير البسملة ٦١

تفسير سورة الفاتحة ١٢٧

موضوعات الجزء الثاني

تفسير سورة البقرة ، الآيات [١-١٦٧] ٥

موضوعات الجزء الثالث

تفسير سورة البقرة ، الآيات [١٦٨-٢٨٦] ٥

موضوعات الجزء الرابع

تفسير سورة آل عمران ٥

موضوعات الجزء الخامس

تفسير سورة النساء، الآيات [١-٤٨] ٥

موضوعات الجزء السادس

تفسير سورة النساء ، الآيات [٤٩-١٧٦] ٥

موضوعات الجزء السابع

تفسير سورة المائدة ٥

موضوعات الجزء الثامن

تفسير سورة الأنعام ٥

موضوعات الجزء التاسع

تفسير سورة الأعراف ٥

موضوعات الجزء العاشر

تفسير سورة الأنفال ٥

تفسير سورة التوبة ٢٣١

موضوعات الجزء الحادي عشر

تفسير سورة يونس ٥

تفسير سورة هود ١٦٣
تفسير سورة يوسف ٣٣٧

موضوعات الجزء الثاني عشر

تفسير سورة الرعد ٥
تفسير سورة إبراهيم ١١٣
تفسير سورة الحجر ٢١٧
تفسير سورة النحل ٣٠١

موضوعات الجزء الثالث عشر

تفسير سورة الإسراء ٥
تفسير سورة الكهف ٢١٥
تفسير سورة مريم ٣٧٧

موضوعات الجزء الرابع عشر

تفسير سورة طه ٥
تفسير سورة الأنبياء ١٣٩
تفسير سورة الحج ٢٥٧
تفسير سورة المؤمنون ٤٣٧

موضوعات الجزء الخامس عشر

تفسير سورة النور ٥
تفسير سورة الفرقان ٣٦٥

موضوعات الجزء السادس عشر

تفسير سورة الشعراء ٥
تفسير سورة النمل ١٣٧
تفسير سورة القصص ٢٥٧
تفسير سورة العنكبوت ٣٨٧

موضوعات الجزء السابع عشر

تفسير سورة الروم ٥

تفسير سورة لقمان ٩٥
تفسير سورة السجدة ١٦٣
تفسير سورة الأحزاب ٢٠٥

موضوعات الجزء الثامن عشر

تفسير سورة سبأ ٥
تفسير سورة فاطر ٩٧
تفسير سورة يس ١٧٧
تفسير سورة الصافات ٢٦١
تفسير سورة ص ٣٥٧

موضوعات الجزء التاسع عشر

تفسير سورة الزمر ٥
تفسير سورة غافر ١٢٩
تفسير سورة فصلت ٢٥٣
تفسير سورة الشورى ٣٣٥

موضوعات الجزء العشرين

تفسير سورة الزخرف ٥
تفسير سورة الدخان ٨٥
تفسير سورة الجاثية ١٢٥
تفسير سورة الأحقاف ١٦٧
تفسير سورة محمد ﷺ ٢٢١
تفسير سورة الفتح ٢٧٣
تفسير سورة الحجرات ٣٢٣

موضوعات الجزء الحادي والعشرين

تفسير سورة ق ٥
تفسير سورة الذاريات ٨١
تفسير سورة الطور ١٥٥

تفسير سورة النجم ٢٠٥
تفسير سورة القمر ٢٨١
تفسير سورة الرحمن ٣٤٣
تفسير سورة الواقعة ٤٠٧
تفسير سورة الحديد ٤٧٧

موضوعات الجزء الثاني والعشرين

تفسير سورة المجادلة ٥
تفسير سورة الحشر ٩٩
تفسير سورة الممتحنة ١٨١
تفسير سورة الصف ٢٣٩
تفسير سورة الجمعة ٢٧٩
تفسير سورة المنافقون ٣١١
تفسير سورة التغابن ٣٤١
تفسير سورة الطلاق ٣٨٧
تفسير سورة التحريم ٤٣٣

موضوعات الجزء الثالث والعشرين

تفسير سورة الملك ٥
تفسير سورة القلم ٥٣
تفسير سورة الحاقة ١١١
تفسير سورة المعارج ١٤٣
تفسير سورة نوح ١٧٣
تفسير سورة الجن ١٩٧
تفسير سورة المزمل ٢٢٧
تفسير سورة المدثر ٢٥٩
تفسير سورة القيامة ٢٩١

تفسير سورة الإنسان ٣١٩
تفسير سورة المرسلات ٣٥٥

موضوعات الجزء الرابع والعشرين

تفسير سورة النبأ ٥
تفسير سورة النازعات ٣٥
تفسير سورة عبس ٦١
تفسير سورة التكوير ٨٣
تفسير سورة الانفطار ١٠٣
تفسير سورة المطففين ١٢١
تفسير سورة الانشقاق ١٤٧
تفسير سورة البروج ١٦٧
تفسير سورة الطارق ١٨٩
تفسير سورة الأعلى ١٩٩
تفسير سورة الغاشية ٢١٩
تفسير سورة الفجر ٢٣٧
تفسير سورة البلد ٢٥٩
تفسير سورة الشمس ٢٧٥
تفسير سورة الليل ٢٨٩
تفسير سورة الضحى ٣٠٧
تفسير سورة الانشراح ٣٢٥
تفسير سورة التين ٣٣٥
تفسير سورة العلق ٣٤٥
تفسير سورة القدر ٣٥٩
تفسير سورة البينة ٣٧١
تفسير سورة الزلزلة ٣٨٧

تفسير سورة العاديات ٣٩٧
تفسير سورة القارعة ٤٠٧
تفسير سورة التكاثر ٤١٥
تفسير سورة العصر ٤٣٣
تفسير سورة الهمزة ٤٥١
تفسير سورة الفيل ٤٦١
تفسير سورة قريش ٤٧١
تفسير سورة الماعون ٤٧٩
تفسير سورة الكوثر ٤٨٩
تفسير سورة الكافرون ٤٩٧
تفسير سورة النصر ٥٠٧
تفسير سورة المسد ٥٣١
تفسير سورة الإخلاص ٥٤٣
تفسير سورة الفلق ٥٥٧
تفسير سورة الناس ٥٩٣

موضوعات الجزء الخامس والعشرين

فهرس الأحاديث والآثار ٥
فهرس الأشعار ٢٧٣
فهرس موضوعات الأجزاء ٣٢٣

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958